نهج البيان في تفسير القرآن

سماحة الشيخ محمد المختار السلامي

مفتي الجمهورية التونسية سابقا

الجزء الأول

[illegible]

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
1436 هـ - 2015م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية، أو أشرطة ممغنطة، أو وسائل ميكانيكية أو الاستنساخ الفوتوغرافي أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من المؤلف.

9 789938 141887

ISBN: 978-9938-14-188-7

I.R.A
مطبعة التسفير الفني
Imprimerie Reliure d'Art

الهاتف: 030 432 74 216+
الفاكس: 248 432 74 216+
البريد الالكتروني
reliure.dart@tunet.tn

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمـــــــة :

إلى الله نرفع آيات الحمد كما علمنا في فاتحة الكتاب ؛ الكتاب الذي أنزله هدى ورحمة وذكرى لأولي الألباب؛ أولي الألباب الذين اهتدوا بهديه واتبعوا رضوانه فتفتحت لهم الأبواب؛ أبواب الأمن والتقوى فسعدوا في حياتهم الدنيا وفازوا يوم الحساب بحسن الثواب. نحمده ونثني عليه تفرد بالعزة والكمال؛ وتقدس في علاه متعاليا عن الشبيه والضد والمثال. توالت علينا نعمه وأياديه، وما بكم من نعمة فمن الله ومن فضله، وأجلها ما شرفنا به من إنزال كلامه إلينا وجعلنا من أهله. كتاب أخرجنا به من الظلمات إلى النور، ومن الحيرة والشك إلى الصراط المستقيم المسطور. قائدنا في الحياة الدنيا وهادينا إلى ما يفوزنا برضوانه سبحانه في يوم البعث والنشور.

ونصلي أفضل صلاة وأزكاها، وأشرفها وأعلاها، مقرونة بالسلام التام الرضي، على أفضل رسول وأكرم نبي، خاتم الرسل الكرام، وداعي الله إلى دار السلام، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، وأزواجه وعترته وحزبه. اللهم ضاعف أرسال فضلك عليه، كما يرضيك ويرضيه، وآته الوسيلة والفضيلة، والدرجة الرفيعة والمقام المحمود كما وعدته . إنك لا تخلف الميعاد.

أما بعد. فقد وجه رب العزة خطابه لمحمد ﷺ بقوله: **(كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب)**[1] هو الفرد الذي تخيره العليم الخبير من بين خلقه ليكون المتلقي للقرآن من جبريل عليه السلام، الأمين على نشره في العالمين، وعلى إبلاغه للناس قاطبة. إبلاغا بحفظ نصه ويشرح لفظه، ويبين معناه، وينبه العقول والأرواح إلى أهدافه العالية، وليقيم لهم ﷺ من سلوكه في الحياة، الصورة

---

[1] سورة ص آية 29

العملية لما تضمنه من هدايـــة وتشـــريع واســـتقامة وفعـــل فـــي الكـــون، وفـــي المجتمـــع الإنساني عامة.

وصفه بأنه مبارك، كثيرة خيراته، تتجاوز بركاتـــه زمـــن نزولـــه إلـــى الأجيـــال البشـــرية المتعاقبة، كيفما اختلفت أجناسهم ولغاتهم وثقافـــاتهم، ومســـتواهم الحضـــاري. هـــو كتـــاب الدهر، الذي يقتبس منه الفرد منهجا يفتح له مسالك الهدايـــة، ويؤمنـــه فـــي حياتـــه الـــدنيا بالرضا والصلاح، ويربط بينـــه وبـــين الخيـــر بـــأمتن الأســـباب، ويحجـــزه عـــن الشـــر والفساد. ويقيم له من دنياه مـــا يســـعده فـــي آخرتـــه، ويفـــوزه برضـــوان ربـــه ووراثـــة جنته، والنعيم المقيم.

كما تقتبس منه المجموعات البشـــرية دســـتورها الـــذي يحكـــم الـــروابط بـــين أعضـــائها، لتكون علاقاتهم علاقات البناء والتعـــاون، لا الهـــدم والبغـــي والتســـلط والاســـتبداد. هـــو دستور يقيم للعدل سلطانه، وللكرامة سيادتها فـــي التصـــور والفعـــل، ســـيادة تنطبـــع بهـــا نفس الحاكم والمحكوم، وولي الأمـــر وكـــل عضـــو مـــن أفـــراد الأمـــة، وتتغـــرس فـــي المجتمع: الأبوان وذريتهما، والـــزوج وزوجـــه، والجـــار وجـــاره، والموظـــف والشـــعب، والعامل وصاحب العمل. مما يجعل كل فرد يشـــمئز مـــن الظلـــم والتعـــالي، ويـــأنف مـــن الرضا بانتهاك أي حق من حقوقه، الرضـــا الـــذي يطـــوع الـــنفس للـــذل والمهانـــة .قـــال تعالى :(**ولله العزة ولرسوله وللمـــؤمنين)**[1] وقـــال ســـبحانه: **(مـــن كـــان يريـــد العـــزة فلله العزة جميعـــا)**[2]. وصـــرحت الآيـــة معلنـــة صـــورة العلاقـــة التـــي تحقـــق للبشـــر استفادتهم من هذا الكتاب، العزيز الذي لا يأتيه الباطـــل مـــن بـــين يديـــه ولا مـــن خلفـــه، كتاب الدهر الذي يتجاوز زمن الوحي إلى الآمـــاد الضـــاربة فـــي مســـتقبل البشـــرية إلـــى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يقول سيد قطب رحمه الله: وإن الإنسان ليقرأ النص القرآنـــي مئـــات المـــرات؛ ثـــم يقـــف الموقف، أو يواجه الحادث، فإذا النص القرآني جديد، يوحي إليه بمـــا لـــم يـــوح مـــن قبـــل قط، ويجيب على السؤال الحائر سورة الأحزاب[3] .

يجب أن تقوم هذه العلاقة على تدبره، **[ليدبروا آياتـــه]** والتعمـــق فـــي مفاهيمـــه الثريـــة البعيدة الأعمـــاق البالغـــة أغـــوار الـــنفس، والمنبئـــة عـــن ســـنن الله فـــي الكـــون وفـــي المجتمعات. تدبر آياته بفهمها الفهم الـــواعي لأغراضـــها وأبعادهـــا، وطريقـــة تطبيقهـــا. التدبر الذي يحرك العقل فينظر في النص نظرة مـــن يجمـــع بـــين آيـــات الكتـــاب فيزيـــده كل مورد غوصا في إدراك الحقيقة القرآنية والهداية الربانيـــة. قـــال تعـــالى: **(ولـــو كـــان**

---

[1] سورة المنافقون آية8

[2] سورة فاطر آية 10

[3] مجلد 6ص13/212

من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا)[1] ويوقظ الروح فيجمع إشعاعها بين الحياة والموت، والدنيا والآخرة. قال تعالى : **(الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي به من يشاء-)**[2]

التدبر انفعال بين التالي وبين النص القرآني، يستبطنه ويعيش معه في قرارة فكره ومشاعره. وتستشف به روحه، وقد يبلغ من مراتب يقظتها ما ينسيه في أعلى درجات التجلي المحيط الذي يعيش فيه، فتستولي الروح على الحواس وتمتص ما لها من نشاط طبيعي .وهو فتح من الله وجهاد من الذات لتنغمس في النص القرآني وتنفعل به.

وشتان بين ما دعت إليه الآية الكريمة من التدبر، وبين التلاوة التي تحرك السامعين بالوزن الذي يصنعه القارئ بما مُرِّنَ عليه، وبما أوتيه من الحبال الصوتية المساعدة، فيهزهم ظانين أنهم يعيشون في الجو الرفيع الذي كتبه الله للمتدبرين، وهيهات. يتلو آية العَذاب كما يتلو آية الرحمة والنعيم، ويتلو آيات القيامة وانفجار الكون، كما يتلو فوز المنعمين بالجنة، ويهدد القرآن وينذر، أو يعد ويبشر، ويطرب السامعون على جميع الأحوال للصوت الشجي، والنغمات المرتبة ترتيبا فنيا مصنوعا. دون أن تخشع قلوبهم وأرواحهم لمضامين الآيات. فما أبعدهم عن قوله تعالى: **(ويدبروا آياته)**. والتدبر الواعي هو التأمل الذي يتمثل للتالي معه سلوكه في الكون، وتصرفه في الحياة، وعلاقته بالخالق وبما خلق. فيتأثر بالقرآن تأثرا يقوم ما اعوج، ويعدل ما جار، ويحمد الاستقامة، وتقوى عزيمته على اتباع طريق الخير .

<u>**وليذكر أولو الألباب**</u> .نزل القرآن ليكون مع أصحاب العقول الذكية في جميع المواقف، يسعدهم بمعرفة الحقيقة في كل شأن من شؤون حياتهم. وإذا عرفوا الحقيقة أعانهم على اتباع الهدى، وقمع بما انبنى عليه، من إحياء للضمير وصقل للروح، دواعي الشهوة ومس طائف الشيطان. يتذكر فإذا هو مبصر يمزق حجاب الغفلة، ونقّادٌ لا يغتر بالبهرج، ولا يُخدَع بلمّاع الزيف المغشوش.

تكرر في القرآن الإشارة بقوله تعالى: **[هذا]** إلى القرآن أربع عشرة مرة كقوله: إن <u>**هذا**</u> القرآن يهدي للتي هي أقوم. تثبيتا وتأكيدا ليكون حاضرا في الذاكرة غير منسي، ولا بعيد عن حياة المؤمن. يصحبه في عبادته، وفي عمله، و في يقظته

---

[1] سورة النساء آية 82

[2] سورة الزمر آية 23

ونومه، وفي جده وراحته. وعندما تشتبه المسالك ، وتعظم الحيرة وينطلق داعي البحث عن المعين والمسدد للرأي.

يقول الأستاذ الإمام الشيخ البشير الإبراهيمي رحمه الله: (ابتعث الله بالقرآن نبيه الأمين محمدا ﷺ لهذا العالم الإنساني كله، حين بلغ رشده الاجتماعي، واستعد للكمال، واستشرف لسائق من وراء العقل يكون سندا له إذا زل، وهاديا له إذا ضل، ومصححا لخطئه إذا أخطأ، ومخرجا له من ظلمات الحيرة إذا التبست عليه مناهج الحياة، ومفسحا له في آماله إذا ضيقت عليه هذه الحياة المحدودة حدود الآمال، ومحررا له من أصناف العبودية الفكرية والبدنية التي تقلب فيها قرونا، مرشدا إياه إلى وسائل الكمال التي كان يطلبها فلا يجدها)[1]

هو كلام رب العزة تستمد منه العقول والضمائر والأرواح ما يتلاءم مع مستواها الفكري والحضاري، وكلما تقدمت البشرية حضاريا وجدت في القرآن المَعِين الذي لا ينضب، تقوم آياته مساعدة لهم كأنها أنزلت لهم، لتحل مشاكلهم وتستجيب لتطلعاتهم، وتهديهم سواء السبيل .قال تعالى : **(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق)**[2] رجع إليه العلماء فدونوا أفهامهم في التآليف التي فاقت الحصر .وما يزال القرآن يفيض من عطائه، ولا يزال الناس في حاجة إلى تجديد النظر، ومواصلة البحث، واستكشاف أسراره .نعم هو كلام رب العزة الذي وسع علمه كل شيء، وإن النظر الإنساني مبني على محدودية علم الناظر، ونقصانه، وقصوره .لنضرب لذلك مثلا ما دونه الإمام محمد فخر الدين الرازي في تفسيره مفاتيح الغيب في المقدمة، إذ يقول: اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة [سورة الفاتحة] يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة .فاستبعد هذا بعض الحساد، وقوم من أهل الجهل والغي والعناد، وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمباني .فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول، قريب الوصول. فنقول وبالله التوفيق: إن قولنا : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لاشك أن المراد منه الاستعاذة بالله من جميع المنهيات والمحظورات، ولا شك أن المنهيات إما أن تكون من باب الاعتقادات، أو من باب أعمال الجوارح. أما الاعتقادات فقد جاء في الخبر المشهور قوله صلى الله عليه وسلم: ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة كلهم في النار إلا فرقة واحدة. وهذا يدل على أن الثنتين والسبعين موصوفون بالعقائد الفاسدة، والمذاهب الباطلة. ثم إن الضلال في كل

[1] آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي ج1ص320

[2] سورة فصلت آية 53

واحدة من أولئك الفرق غير مختص بمسألة واحدة بل هو حاصل في مسائل كثيرة، من المباحث المتعلقة بذات الله تعالى وبصفاته وبأحكامه، وبأفعاله وبأسمائه، وبمسائل الجبر والقدر، والتعديل والتجويز، والثواب والمعاد، والوعد والوعيد، والأسماء والأحكام، والإمامة .فإذا وزعنا عدد الفرق الضالة وهو الاثنان والسبعون على هذه المسائل الكثيرة بلغ العدد الحاصل مبلغا عظيما. وكل ذلك أنواع الضلالات الحاصلة في فرق الأمة .وأيضا فمن المشهور أن فرق الضلالات من الخارجين عن هذه الأمة يقربون من سبعمائة. فإذا ضمت ضلالاتهم إلى أنواع الضلالات الموجودة في فرق الأمة، في جميع المسائل العقلية المتعلقة بالإلهيات ، والمتعلقة بأحكام الذوات والصفات، بلغ المجموع مبلغا عظيما في العدد. ولا شك أن قولنا: أعوذ بالله يتناول الاستعاذة من جميع تلك الأنواع. والاستعاذة من الشيء لا تكون بعد معرفة المستعاذ منه....ويختم بقوله: فثبت بهذا الطريق أن قولنا أعوذ بالله مشتمل على عشرة آلاف مسألة أو أزيد أو أقل من المسائل المهمة المعتبرة[1]. ثم إن شخصية كل من قام بتفسير القرآن، وثقافته وسعة مداركه، والغرض الذي يهدف إليه قد طبع أثره بطابعه الخاص. اعتنى بعضهم بتسجيل ما روي من الأخبار في توضيح معنى النص. وعني آخرون بالمقارنة بين الآثار وترجيح ما اطمأن إلى أنه أولى بحمل النص عليه .وعني بعضهم بإبراز الإعجاز القرآني، وجعله غايته الأولى وعظم قصده، كما فعل الزمخشري ، ومن سار على نهجه . واهتم أبو حيان فيما اهتم به، بالكشف عن الوظائف النحوية وبيان ما يشكل من ناحية الإعراب. وبرز في القرن الأخير من توجهت عنايته إلى هداية القرآن في التأثير على المجتمعات لتقتبس من سنن الله التي أفصح عنها في كتابه ما ينهض بالأمة من وضعها ويدفعها إلى تبوئ مكانتها، مكانة العزة والريادة .وإمامهم في هذا الشيخ محمد عبده رحمة الله عليه.

ويكاد كل المفسرين الذين تروج مؤلفاتهم ويعود المسلمون إليها لِفَهْمِ كتاب الله منجذبين إلى ربط النصوص بالقواعد اللغوية :ما يدخل تحت علم النحو مما يعود إلى الإعراب، ووظيفة الكلمة في الجملة، أو محل الجملة من غيرها، والعطف والتأكيد وبقية التوابع. أو ما يدخل تحت علم البلاغة، كعلم المعاني، ومباحثه من التأكيد وتنزيل المنكر منزلة غير المنكر والعكس، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة، ونحو ذلك. ومباحث البيان كالمجاز المرسل والمجاز العقلي والاستعارة الأصلية والتبعية، والتمثيلية، والمكنية والترشيح ونحو ذلك.

والبديع كالسجع والجناس الكامل والناقص. وما يدخل تحت علم أصول الفقه كقواعد الاستنباط التي حققها علماؤه، كدلالة الألفاظ من الأمر والنهي، والعموم

---

1 ج1ص3/2

والخصـــوص، والإطـــلاق والتقييـــد. ودلالـــة الاقتضـــاء، ومفهـــوم الموافقـــة، ومفهـــوم المخالفة، والقيـــاس بأقســـامه، ومســـالك العلـــة ونحـــو ذلـــك. وبـــدخول المفســـرين فـــي تفاصيل تلك العلوم التي تشـعبت فروعهـــا وارتبطـــت بمصـــطلحات لا يفهمهـــا إلا مـــن درس تلكم العلوم الأصولية واللغويـــة وحـــذقها، بـــدخولهم فـــي تلـــك التفاصـــيل أقـــاموا حاجزا بينهم وبين من لم يتهيأ معرفيا لإدراك تلكـــم المصـــطلحات، فاســـتغلق مـــا كتبـــوه لبعد تلكم المصطلحات وعدم رواجها في لغـــة العصـــر وطرقـــه ومناهجـــه، فعســـر تبعـــا لذلك فهم كلامهم، و إدراك أغراضـــهم. وتوالـــت صـــدمات عـــدم الفهـــم علـــى القـــارئ لكلامهم، فلم يقدر على متابعـــة مـــا حـــرروه مـــن التفســـير. وانصـــرف وهـــو حســـير؛ متبرما لعدم فهمه، يلتهب شوقه لينفـــذ إلـــى إدراك المـــراد مـــن الـــنص القرآنـــي، وتقـــوم تلكم المصطلحات حاجزا منيعا.

ومن ناحية أخرى فإنه إذا نظرنا إلى المجتمعات اليوم، فإنـــا نجـــد أن التعلـــيم قـــد انتشـــر، فغزا الأمية ودحرها. وأن عددا غير قليل مـــن المتعلمـــين يرغبـــون رغبـــة صـــادقة فـــي فهم القرآن وجمع التأنس بتلاوته إلـــى إدراك معانيـــه إدراكـــا ســـليما ينفـــذ إلـــى عقـــولهم فيهديها سواء الســـبيل، وإلـــى مشـــاعرهم فيهـــذبها ويعليهـــا، وإلـــى أرواحهـــم فيوقظهـــا ويجليها بنوره، فتشع علـــى حيـــاتهم طمأنينـــة ورضـــوانا، وســـعادة وســـلاما. لا أقصـــد بتفصيل هـــذه الصـــعوبة التـــوهين مـــن أمـــر العنايـــة بـــالنواحي البلاغيـــة والنحويـــة والقواعد الأصولية. ذلك أن من درس تلكم العلـــوم، يتعمـــق إحساســـه بمعجـــز كـــلام الله، ويدرك حق الإدراك سر تحدي القرآن للبشـــرية أن يـــأتوا بعشـــر ســـور أو بســـورة مـــن نسج القرآن. ويكون فهمه أعمق وكذلك شعوره بكـــون كـــلام الله أعلـــى وأكمـــل. ويتبـــين ما اختص به القرآن ويشرق في مشاعره إشراقا بينـــا كـــاملا، قولـــه تعـــالى : **(قـــل لـــئن اجتمعت الإنس والجن علـــى أن يـــأتوا بمثـــل هـــذا القـــرآن لا يـــأتون بمثلـــه ولوكـــان بعضهم لبعض ظهيرا)**[1] ولتقريب ذلك أنقـــل مـــا روي عـــن أبـــي العبـــاس المبـــرد إمـــام اللغة.

روى ابن خلكان : أن أبا العباس كـــان فـــي مجلـــس بالبصـــرة فغنـــت جاريـــة مـــن وراء ستارة :

وقالوا هذا حبيبك مـــعرض *** فقـــــــالت ألا إعـــراضه أيسر الخطب

فما هي إلا نظرة فابتسامـــة*** فتصطك رجـــلاه ويسقـــط للجـــنـــب

فطرب كل من حضر إلا المبرد. فقال لـــه صـــاحب المجلـــس: كنـــتَ أحـــق بـــالطرب! فقالت له الجارية : دعه يا مولاي، فإنه سمعني أقـــول هـــذا حبيبـــك معـــرض، فظننـــي

---

[1] سورة الإسراء آية 88

لحَنْتُ . ولم يعلم أن ابن مسعود قرأ [وهذا بعلي شيخٌ] قال فطرب المبرد من قولها إلى أن شق ثوبه[1].

هذه القصة توضح أن من حذق علوم العربية: النحو والبلاغة، ودرب ذوقه على البيان العربي، فأدرك أسرار العربية وما تفيض به من جمال ودقة، يجد كل شرح للنص القرآني لا يتعرض لخواص التركيب مستندا إلى القواعد المضبوطة في علوم العربية، يجده شرحا منقوصا بل مشوها للإعجاز الذي وقع التحدي به .

ثم إنه قد طلب مني كثير ممن اتسعت آفاق تفكيرهم، وبلغوا في اختصاصاتهم المتنوعة حدا مرموقا، من المهندسين والأطباء والصيادلة والحقوقيين، وتعلقوا تعلقا كبيرا بالقرآن يتلونه، ويشعرون شعورا مجملا بجلاله ؛ سألوني هل يوجد تفسير يصل بينهم وبين القرآن، يهتم ببيان معانيه، وهديه الراشد، لا يعجزهم متابعته، ويندمجون بواسطته في الجو القرآني لاتباع هديه، وتعميق إيمانهم بطريقته في الدعوة إلى الله، وفتح أبواب الخير، ويقومون سلوكهم على أصوله، وينير أرواحهم ومشاعرهم ما تميز به . ولم أجد فيما أعلم من راعى في تفسيره ذلك؛ وألحوا علي في الطلب لأقوم بهذه المهمة.

وحضرني وأنا أفكر في الأمر، ما ذكره الإمام ابن عرفة في شرح الحديث الذي رواه مسلم بسنده إلى أبي هريرة رضي الله عنهم، أن رسول الله ﷺ قال: (إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة، إلا من صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له. يقول الأبي : وكان شيخنا أبو عبد الله [ابن عرفة] يقول : تدخل التآليف في ذلك إذا اشتملت على فوائد زائدة .وإلا فذلك تخسير للكاغذ. ويعني بالفائدة الزائدة على ما في الكتب السابقة عليه. وأما إذا لم يشمل التأليف إلا على نقل ما في الكتب المتقدمة فهو الذي قال فيه : إنه تخسير للكاغذ[2].

كما حضرني ما ذكره ابن خلدون في فصل (المقاصد التي ينبغي اعتمادها في التآليف وإلغاء ما سواها) لما قال إن الناس حصروا مقاصد التأليف التي ينبغي اعتمادها وإلغاء ما سواها فعدوها سبعة:

أولها : استنباط العلم بحيث يكون المؤلف قد استبان له الموضوع، وعناصره الأساسية ومسائله. فيدون ما حصل في ذهنه ليستفيد منه من يأتي بعده.

ثانيها: أن يتأمل فيما كُتِب في الفن من السابقين، فيجد أن الإفادة منها لا تتأتى لكثير من الناس، فيعمد إلى إيضاحها وتقريبها.

---

[1] وفيّات الأعيان ج4 ص317

[2] إكمال الإكمال ج4 ص346

ثالثها: أن يعثر على خطأ وقع فيه مــن تقدمــه ممــن لــه المقــام العلمــي الرفيــع الــذي يجعل الناس يتابعونه ويثقون بما كتبه، فيعمد إلى تصــويب الخطــأ والتنبيــه عليــه لينتفــع به من سيأتي.

رابعها: أن يهديه تأمله في الموضوع أن مــن ســبقه أغفــل بعــض الأبــواب والمســائل، فيكملها ويكون استيعاب من يأتي بعده للموضوع أتم.

خامسها: أن يلحظ أن مسائل العلم غيــر مرتبــة ترتيبــا منطقيــا، يســهل علــى طالبهــا الظفر بها، فيعمد إلى تنظيمها وترتيبها.

سادسها: أن يجد مسائل العلم مفرقة داخلة في علوم أخــرى، فينتبــه إلــى الجــامع بينهــا، ويقوم بذلك فيضمها ويكملها ويرتبها؛ فتأخذ مكانها في أصناف العلوم.

سابعها: أن يعمد إلى اختصار المطــولات التــي انســاب فيهــا قلــم المــؤلفين الســابقين، فكرروا، وتوسعوا في التعبير. مع الحرص على الاحتفاظ بما هو ضروري [1].

إن ما نقلته عن هذين العالمين الكبيرين جعلني أقــدم رجــلا وأؤخــر أخــرى. وضــاعف تهيبي من أن يسجل قلمي في كتاب الله فهمــا غيــر ســديد يــؤثر فــي غيــري. وهــداني ربي أن أستفتح بالاستخارة السنّيّة فــي يــوم مبــارك يســر لــي فيــه أن أكــون فــي الروضة الشريفة و المنبر النبوي عن يميني. توجهت إلــى علــي ذاتــه أن يخيــر لــي ما فيه خير، فشد عزمــي علــى المضــي فيمــا قصــدته، وشــرعت مســتعينا برعايتــه وتسديده، وجميل عونه، أتأمل كل آية تأملا عميقا، وأنظر فيمــا تبلغــه يــدي مــن أنظــار علماء الأمة رضي الله عنهم، وجازاهم عنا أجمــل الجــزاء. وأقــارن بــين مــدلول الآيــة وبين نظائرها، ثم أسجل ما فهمته، باذلا جهدي ليكــون التعبيــر عمــا اســتقر فــي ذهنــي تعبيرا سهلا، دون أن أصرح بالارتباط بين دلالــة الــنص والقواعــد اللغويــة والأصــولية التي أراعيها. فمثلا، لا أقول إن المخــاطبين بالآيــة منكــرون لمضــمونها إنكــارا شــديدا مما أوجب التأكيد رفعا لإنكارهم، أو هم بسلوكهم منزلــون منزلــة المنكــر فجــاء التأكيــد تبعا لذلك التنزيل، بل أقول في تقديم الآية مثلا: بكل تأكيد. ويســر لــي ســبحانه أنــي مــا كتبت كلمة في هذا الكتاب، طيلة السنوات التي محضــتها لتفســير كلامــه جــل وعــلا، إلا وأنا على وضوء . وكلما توقفت في فهــم الآيــة، ولــم أجــد فيمــا كتــب حولهــا مــا يقنعني توجهت إلى الله بالصلاة ليفتح على بصيرتي، فمــا كتبــت إلا مــا أنــا مقتنــع بــه ظان أنه المقصود .ولله الشكر على ما أسعفني به من الطمأنينــة . ومــا لــم أصــل فيــه إلى رأي راجح مقبول أنبه عليه وأَكِلُهُ إلــى العلــيم الخبيــر. كقولــه تعــالى: **(وإذا وقــع القول عليهم أخرجنا لهم دابة مــن الأرض تكلمهــم)**[2] إنــه بعــد التأمــل ومراجعــة مــا

---

[1] المقدمة ج2ص441/442/443– بتصرف.

[2] سورة النمل آية82

كتبه السابقون لم أجد تصورا مقنعا في تعيين المراد من الدابة، ففوضت الأمر إلى عالم الغيب.

وسيجد الناظر في هذا التفسير أنني فسرت بعض الآيات على وجه ما رأيت أحدا سبقني إليه. فمثلا قوله تعالى في سورة البقرة: **(إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا يحزنون)**[1] يصرح المفسرون بأن الصابئة يعبدون الكواكب .ولم أقبل ذلك. إذ كيف يستقيم أنهم عبدة كواكب ونص الآية : من آمن منهم بالله واليوم الآخر وعمل صالحا. فمنهم قطعا مؤمنون بالله. وهذا ما استحثني لمواصلة البحث حتى ظفرت بما يزيل الإشكال، وعلمت من الدراسات التي عنيت بهذه الطائفة، أنهم يؤمنون بالله ويعتقدون أن شريعتهم أوحى الله بها إلى سيدنا يحي، وينفون نبوة ما عداه من الرسل كما تجد تفصيل ذلك في تفسيري للآية .ولهذا اخترت أن ألحق الفهارس بحول الله، بفهرس خاص بالآيات التي لم أتابع في فهمها غيري من المفسرين السابقين .وهم كما يقول ابن مالك في ابن معطي :

وهو بسبق حائز تفضيلا *** مستوجب ثنائي الجميلا

والله يقضي بهبات وافرة *** لي وله في درجات الآخرة .

واعتمدت في تفسير النص على رواية قالون عن نافع رضي الله عنهما. ولم أتعرض لاختلاف القراء، تيسيرا على القارئ حتى يحصر فهمه في النص على وجه واحد. ولمن يرغب في تتبع القراءات وما يترتب على ذلك من اختلاف في فهم للآية، أن يعود إلى تفسير ابن عطية رحمه الله، فقد عني بذلك وأجاد.

ومنهجي في هذا الكتاب أيضا أني:

1- أعتني أولا، بشرح الألفاظ التي أتوقع أن التالي في حاجة إلى بيانها. وحتى ألبي رغبة المُعْجَلِ الباحث فقط على معنى الكلمات.

2- ثم أقوم بشرح إجمالي للوحدة القرآنية دون تفصيل .ليجد فيها القارئ الأصول التي تدل عليها.

3- أفصل ما تدل عليه الوحدة بطريقة تجعل النص واضحا، ومقسما تقسيما قد يكون بالأرقام ليكون أعون على المتابعة الواعية لظاهر النص القرآني. وأريد أن أنهي هذه المقدمة بما ذكره الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: **(وهذا كتاب أنزلناه مبارك)**. والقرآن مبارك لأنه يدل على الخير العظيم .فالبركة كائنة به، فكأن البركة جعلت في ألفاظه. ولأن الله تعالى قد أودع فيه بركة لقارئه المشتغل به، بركة في الدنيا وفي الآخرة. ولأنه مشتمل على ما في

---

[1] سورة البقرة ،آية 62

العمل به كمال الـنفس وطهارتهـا بالمعـارف النظريـة، ثـم العمليـة. فكانـت البركـة ملازمة لقراءته وفهمه. قـال فخـر الـدين:(قـد جـرت سـنة الله بـأن الباحـث عنـه، [القرآن]المتمسك به يحصل له عزُ الـدنيا، وسـعادة الآخـرة. وأنـا نقلـت أنواعـا مـن العلوم النقلية والعقلية فلم يحصل لي بسبب شيء من العلـوم مـن أنـواع السـعادات فـي الدنيا مثلُ ما حصل لي بسبب خدمة هذا العلم[يعني التفسير])[1]

وختاما أتوجه إلى الرحمن الرحيم، العلي القدير، مبـتهلا ابتهـال المخبتـين، داعيـا فـي ضراعة أن ينفـع بـه المـؤمنين والمؤمنـات، وأن يـرحم والـدي ومـن علمنـي . وأن يكتب لي ولكم حسن الخاتمة .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

---

[1] التحرير والتنوير ج 7ص370

سورة الفاتحة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣﴾
إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٤﴾ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٥﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ
أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

أسماء السورة:

فاتحة الكتاب، أم القرآن السبع المثاني. سميت بفاتحة الكتاب لأنها أول سورة في ترتيب المصحف المحفوظ عن رسول الله ﷺ، فمن يكتب المصحف يفتتح بها ومن يقرأ القرآن كله يفتتح قراءته بها. وهي سورة مكية وهي من أوائل السور نزولا. واختلف في رتبتها بين أن تكون الثالثة تقدمها نزولا اقرأ باسم ربك الذي خلق وسورة المدثر. فتكون هي الثالثة. وذهب بعضهم إلى أنها الخامسة تقدمها أيضا المزمل والقلم.

وسميت أم القرآن لأنه عند التأمل فيها، تجدها تشتمل على الأصول التي عني القرآن ببيانها وتفصيلها، كما سيتبين لك ذلك في تفسير معاني آياتها.

وسميت السبع المثاني لما ورد في صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال (الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني).

البسملة (**بسم الله الرّحمن الرّحيم**).

بسم الله الرّحمن الرّحيم: ثبتت كتابتها في أول سورة الفاتحة، وفي أوائل السور ما عدا سورة براءة. وأجمع فقهاء الأمة على أنها آية من سورة النمل في قوله تعالى **(إنه من سليمان وإنه بسم الله الرّحمن الرّحيم)**

وأداهم اجتهادهم في عدها آية في فواتح السور غير سورة براءة إلى الآراء الثلاثة التالية:

- أنها ليست آية في أوائل السور لا في الفاتحة ولا في غيرها.
- أنها آية في سورة الفاتحة فقط.
- أنها آية في فاتحة كل سورة ما عدا سورة براءة.

تنبيه:

كل واحد من الذين رجحوا رأيا من هذه الآراء الثلاثة على هدى من الله. وهو مأجور. ولذا فعلى المؤمن أن لا يعترض على غيره إذا سمعه يترك قراءة البسملة مع الفاتحة في الصلاة كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك، ولا على من يقرؤها كما هو مذهب الشافعي وأحمد بن حنبل.

بيان معاني الألفاظ:

اسم الله: هو العلم الدال على الذات العلية.

الرّحمن: صفة لله تدل على كمال لطفه بمخلوقاته وإعانتهم وتيسير أمرهم.

الرّحيم: صفة ثانية لله تعالى، تدل على أن رحمته تعم الكائنات جميعا كما قال تعالى: **(ورحمتي وسعت كل شيء)**

بيان المعنى الإجمالي:

أفتتح قراءتي للقرآن مستعينا باسم الله الذي برحمته يسعدني بتلاوة كتابه على الطريقة التي يرضاها، ويفتح قلبي على هدايته، ويُفهِمني مقاصده، وييسر عليّ اتباع أحكامه والتأدب بآدابه، وينفعني به في الدنيا والآخرة.

والبسملة يقرِن المؤمن بها شريف أعماله، ويكتسب منها الأمن الباطني، وتتنزل بها عليه البركات.

والافتتاح بها هو الأدب الذي علمه النبي ﷺ للمؤمنين في مناسبات عدة، منها عند قصد الطهارة، وعند الأكل، وعندما يأوي المؤمن إلى فراشه، وعندما يستيقظ من نومه، وعند الاتصال الجنسي بالزوجة، فقد قال ﷺ: لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتي أهله قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا، فإنه إن يُقَدَّرْ بينهما ولد في ذلك لم يضره الشيطان، وعندما يخرج من بيته، وعندما يعود إليه، وعندما ما يركب، وعندما ينزل، وعندما يشرع في العمل، وعندما يغلق بابه أو يفتحه، وعندما يذكي، وعندما يصطاد...

2-1: الحمد لله رب العالمين الرحمان الرحيم

بيان معاني الألفاظ:

الحمد لله: الكامل في ذاته وصفاته مستحق للحمد، وأهل للثناء عليه بما فيه من كمالات.

رب العالمين: هو الذي أثر لطفه في جميع الكائنات ورباهم من بداية أمرهم حتى بلغوا كمالهم.

يوم الدين: هو يوم الجزاء في الآخرة.

بيان المعنى الإجمالي:

نثني عليك ربنا، ونعبر لك عما استقر فـي عقولنـا وأرواحنـا مـن تعظيمـك وتقديسـك لما اتصفت به من الكمالات، ونشهد أنـك رب كـل كـائن فـي هـذا الوجـود لا شـريك لك. وأنك الموصوف بالرّحمة التي لا تحدها حـدود، وأنـك وحـدك المالـك لكـل أمـور يوم القيامة.

بيان المعنى العام:

1-أثنى الله على نفسه، وفي ذلك تعليم للبشر طريقة ثنـائهم علـى ربهـم، فعلـى القلـوب أن تستشعر دوما عظمة الله وكماله، وأن تتحـرك الألسـنة بـالتعبير عـن ذلكـم الكمـال. وتقصر اللغة عن الثناء على الله بما هو أهله، فعلّمهم ربهـم مـا يقبلـه مـنهم فـي حـدود طاقتهم بأن يقولوا (**الحمد لله رب العالمين**)

اعتنى الله بهم في جميع أطوار خلقهم، ورباهم حتـى بلغـوا كمـالهم، يسـتوي فـي ذلـك عـالَم البشـر وعـالَم الحيـوان وعـالَم النبـات، والأرض ومـا تحويـه، والكواكـب والمجرات، فهو الذي لطف بها في كلياتها وجزئياتها، وفـي حركاتهـا، وفـي كـل طـور من أطوار وجودها .على المؤمن أن يتأدب بهـذا الأدب، وينطلـق لسـانه وقلبـه بالتّوجـه إلى الله بالحمد كلما تأمل في الكون، وكلما باشـر أمـرا مـن أمـور حياتـه التـي أذن الله له في مباشرتها، مستشعرا عناية الله به وتيسيره.

2-وعلى المؤمن أن يعتقد اعتقادا جازما، بأن الله موصوف بالرّحمة الكاملة التي تظهر آثارها في الرّفق واللطف والإحسان والعون والتوفيق والجزاء على ما يصدر من الإنسان من خير. وما كان ليحصل كل ذلك لولا رعايته وعنايته (**الرّحمن**) الذي تصل رحمته إلى جميع المخلوقات (**الرّحيم**) قال تعالى (**ورحمتي وسعت كل شيء**).

3 -مالك يوم الدين:

قرأها النبي ﷺ (**مالك**) بالألف بعد الميم، وقرأها (**ملـك**) بـدون ألـف. وأقـر مـن قرأهـا على الوجهين جميعا.

وصف الله نفسه أولا بأنه رب الكائنات جميعا العاقـل منهـا وغيـر العاقـل، وثانيـا أنـه تولى الجميع برحمته وألطافه، فـلا يخـرج عـن ملكـه شـيء ولا يحـرم مـن رحمتـه كائن. وثالثا أنه من كمال رُبوبيته وألطافـه وإحسـانه أن شـرف الإنسـان بالخلافـة فـي الأرض، ورحمه فلم يهمله بدون هدايتـه التـي بلغهـا إيـاه بواسـطة رسـالاته. إنـه لا يصلح العالم إلا باتباع أوامره واجتناب نواهيه، ولذا نبهه أنـه مّجْـزِيٌّ عـن أعمالـه فـي يوم لا يملك أحد أي أمر من الأمور، تخضع فيـه الكائنـات البشـرية لعدلـه فيلقـى كـل فرد جزاء أعماله الخيرة ثوابا وتكريما، وجـزاء عصـيانه ومخالفتـه شـرع ربـه مهانـة

وعقابا أليما، إذا لم يغفر له ربه ذنوبه. فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره.

4-إياك نعبد وإياك نستعين

بيان معاني الألفاظ:

إياك: أنت لا غيرك.

نعبد: نقوم بما يقتضيه الخضوع.

نستعين: نطلب العون على تحقيق الخير.

بيان المعنى الإجمالي:

نخصك ربنا بالعبادة فلا نعبد غيرك ولا نطلب العون إلا منك.

بيان المعنى العام:

4-لما كان الخلق والعناية بالكائنات، في جميع أطوارها، من فضل الله ورحمته، وأن تَصَرُّفَ الإنسان فيها تكليف وشرف له سيحاسب عليه يوم القيامة: هل كان ملتزما بما شرعه الله أو مفرطا؟ ولا ينجح في حياته هذه ولا يحقّق الفوز يوم القيامة إلا إذا طبق ما شرعه الله له في تصرفاته. وأول ما تُقوِّم به أعمال الإنسان الإخلاص لله، الإخلاص الذي يوجب أن لا يُقَدِّمُ رضا أي كائن على مرضاة ربه. فالمؤمن لا يعبد إلا الله، ولا يُقَدِّمُ على مرضاته ولدا ولا مالا ولا زوجا ولا سلطانا. هذا معنى لا نعبد أحدا إلا أنت. **(إياك نعبد)**

وقدرة الإنسان محدودة لتحقيق سعادته. فالاهتداء لما هو أسلم في العاقبة، وقوة تأثير شهوات النفس والمعوقات المختلفة، تجعل المكلف لا يستطيع بما أوتي من قدرات أن يتغلب عليها، والقادر المتصرف المساعد برحمته وفضله هو الرّب الكريم، فيطلب المؤمن منه أن يعينه، ويبعد عنه المعوقات ويسعده بالألطاف.

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

أهدنا: أعنا بلطفك على الخير معرفة وعملا.

الصراط: الطريق الواسع.

المستقيم: غير المعوج.

أنعمت عليهم: مكنتهم من خيرات الدنيا والآخرة التي لا يصاحبها ولا يعقبها ما يكدرها.

المغضوب عليهم: ضد المرضي عنهم

الضالين: الضالين جمع ضال، والضال مــن عــرف الطريــق الصــحيح ثــم حــاد عنــه حتى نسيه وكذلك من جهله وتلقفه الضياع.

بيان المعنى الإجمالي:

أعنا ربنا واهدنا لاتباع الطريق القويم الــذي يبلــغ بــه ســالكه الغايــة ولا يضــل. هــذا الطريق القويم الذي أكرمت بالهداية إليه الذين تفضــلت بالإنعــام علــيهم، فــلا هــم مــن الذين غضبت عليهم، ولا هم من الذين اختلطت علــيهم الســبل وكتبْــتَ علــيهم الضــلال والضياع والحيرة.

بيان المعنى العام:

5←7: تختتم سورة الفاتحة بإرشاد المؤمنين أن يتوجهوا إلــى ربهــم، وقــد أعلنــوا عــن إخلاصهم فــي العبــادة (**إيــاك نعبــد**) وعــن اعتــرافهم بالحاجــة إلــى عونــه (**وإيــاك نستعين**)، أن يتوجهوا بقلوبهم وأرواحهم وعقــولهم إلــى الله العلــي الأعلــى الــذي بيــده الأمر كله في خضوع وإنابة، أن يلطف بهم فيُبَصــرهم بــالطريق المســتقيم الحــق الــذي لا عوج فيه. المتميز بالوضــوح مــن بدايتــه إلــى غايتــه ونهايتــه. الطريــق الــذي لا يجدون فيه منعطفات ولا مجامع طرق محيــرة، يتحيــر الســالك فيهــا أيهــا الموصــل. هو طريق مستقيم بدايته الإيمان وغايته رضوان الله.

ويتميز هذا الطريق مع استقامته ويسره وسهولته، بأنــه طريــق واضــح يــنعم مــن ســار عليه فــي الحــال والمــآل بالطمأنينــة والرّضــا، لا يتحيَّــر فــي مســاره ولا يقلــق ولا يضطرب منشرح الصدر آمل لا ييأس. وهــو الــذي مهــده وبينــه المصــطفى ﷺ بمــا بلغه من وحي، وبما أقام عليه الحياة الفردية والاجتماعية مــن قــيم هــي الحــق الــذي لا يختلف باختلاف الأزمنة والظــروف، وهــو مــا يتفــق فــي أصــوله مــع رســالات الله المتعاقبة للبشرية. قال تعالى(**قل إنني هداني ربي إلى صــراط مســتقيم دينــا قيمــا ملــة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين**)[1]. هو الطريق الــذي يختلــف عــن الطــرق التــي هلك من اتبعها فحل عليه غضب الله بما يتبعه مــن عذابــه ونقمتــه. مــن الــذين جــاءهم الهدى من الله على لسان رسله فغيروا عــن عمــد وبــدلوا وحرّفــوا الحــق عــن قصــد، وحكَّموا أهواءهم ومصالحهم العاجلة، فرفضــوا منكــرين الحــق الــذي أمــروا باتباعــه. ويشمل المغضوب عليهم اليهود ومن جرى على شاكلتهم من أهل الديانات السابقة.

كما يختلف عن طريق الــذين آتــاهم الله هــداهم فقصــروا فــي فهمــه وحفظــه فــاختلط عليهم الحق الذي جــاءهم بــه رســل الله، فحكمــوا تــأويلاتهم وآراءهــم فضــلوا عــن

---

[1] سورة الأنعام آية 161

الطريق المستقيم المنجي. ومن هؤلاء النصارى الذين كرموا رسولهم حتى جعلوه إلها، وسنوا الرّهبانية، ورفضوا ما خلقه الله للناس وامتن عليهم به من مباهج الحياة واستخلافهم في أرضه. قال تعالى **(ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله فما رعوها حق رعايتها)** .

من مزايا سورة الفاتحة:

أخرج البخاري في صحيحه بسنده إلى أبي سعيد بن المعلى ﷺ عنه أن رسول الله ﷺ قال له (لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد. قال: ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت له: ألم تقل: لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن؟ قال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآنُ العظيم الذي أُوتيتُه)[1]. وأخرج الإمام مسلم في صحيحه الحديث القدسي بسنده إلى أبي هريرة ﷺ عنه والأربعة وأحمد قال: سمعت النبي ﷺ يقول: قال الله عز وجل: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال العبد: **الحمد لله رب العالمين** قال الله ﷻ : حمدني عبدي، وإذا قال: **الرّحمن الرّحيم**، قال الله ﷻ: أثنى علي عبدي، وإذا قال: **مالك يوم الدين**، قال: مجدني عبدي، وقال مرة: فوض إلي عبدي، فإذا قال: **إياك نعبد وإياك نستعين**، قال: هذا بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل. فإذا قال: **اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين**، قال هذا لعبدي ولعبدي ما سأل[2].

---

[1] فتح الباري ج 9 ص223.

[2] فيض القدير ج 4 ص475.

ســـورة البقــرة

هذه أول سورة نزلت على رسول الله ﷺ بعد هجرته إلى المدينة المنورة. وتتابع نزول آياتها سنين عديدة. وسميت سورة البقرة لذكر قصة بقرة بني إسرائيل في أثنائها ولم تذكر في غيرها من سور القرآن. وهي السورة الثانية حسب ترتيب المصحف ورتبتها حسب ترتيب النزول السابعة والثمانون نزلت بعد سورة المطففين وقبل سورة آل عمران

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ (٢) ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ
وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ (٣) وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ
مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ (٤) أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلۡمُفۡلِحُونَ (٥) إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا
يُؤۡمِنُونَ (٦) خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ
عَذَابٌ عَظِيمٞ (٧) وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم
بِمُؤۡمِنِينَ (٨) يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يُخَٰدِعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا
يَشۡعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ
يُكَذِّبُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ (١١)
أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ
ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ
(١٣) وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ
إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ (١٤) ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ (١٥) أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ (١٦) مَثَلُهُمۡ

كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى
ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ
وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ
وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

عشرون آية افتتحت بها السورة، رسمت بدقة ملامح الأنماط البشرية في الحياة، في عهد الرّسالة وفيما يتلوه من أزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

النمط الأول: المؤمنون – النمط الثاني: الكافرون– النمط الثالث: المنافقون

بيان معاني الألفاظ:

الكتاب: القرآن.

لا ريب فيه: لاشك فيه، صحيح على الدوام.

هدى: الهدى: الإرشاد لما هو أصلح في الحاضر والمآل في الدنيا والآخرة.

المتقين: جمع: واحده المتقي، وهو الذي اتخذ لنفسه وقاية من المكروه، فتحصن بذلك ليحقق لنفسه السلامة والنجاح في عاقبته.

الغيب: ما لا تدركه الحواس من الحقائق كالإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر وكل ما أخبر عنه النبي ﷺ مما لا يدرك بحاسة من الحواس.

يقيمون الصلاة: يتكرر منهم أداء الصلاة كاملة.

الآخرة: الحياة بعد الموت.

يوقنون: يعلمونها ويعتقدون بها اعتقادا جازما لا شك فيه.

المفلحون: جمع مفلح: الفائزون بصلاح الدنيا والآخرة.

بيان المعنى الإجمالي:

ذلك الكتاب العظيم الذي عصمه الله من التبديل والتغيير. والحق الذي ورد فيه ثابت على مر الدهور والعصور، لا يلحق الشك نصه ولا ما يدل عليه، يهدي من لم يكن على دين سماوي فصدّق بما جاء به وحصّن نفسه من الخسران فآمن بالله وبرسله وبكل ما أخبر به الرّسول من الأمور التي لا ينفيها العقل ولا يستطيع الوصول إليها بمفرده (**الغيب**) ويواظبون على أداء صلواتهم كاملة ويبذلون أموالهم في سبل الخير مع سماحة نفس. ويهتدي به أيضا أهل الكتاب الذين واصلوا إيمانهم برسلهم فآمنوا

بما أنزل إليك. مع يقينهم بالبعث واليوم الآخر. فهؤلاء الفريقان هم الذين اهتدوا بما بلغه الرّسول من وحي وهم الذين تحقق فوزهم في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام :

1-الٓمٓ.

الحروف المقطعة في أوائل السور

الٓمٓ: تقرأ هكذا_ ألفْ _ لامْ _ ميمْ _

لفتت هذه الطريقة المبتكرة في القرآن أنظار المتأملين في القرآن العظيم، إذ لا يوجد في شعر العرب ولا في نثرهم موضوع مفتتح بحروف لا تتكون منها كلمة، والقرآن نزل بلغة العرب وعلى طريقتهم في التخاطب. وقد تكرر ذلك في فواتح تسع وعشرين سورة، ثلاث منها نزلت في المدينة (البقرة وآل عمران والرّعد) وباقيها نزلت بمكة.

تجد في كتب التفسير محاولات تلتمس وجها لذلك. ومعظمها ذاتي غير موضوعي. وأقربها: أن ذلك لإبراز أن القرآن مركب من هذه الحروف التي يجد كل فرد منكم أنه مُمَكّنٌ منها، ومع ذلك فلن يستطيع البشر مجتمعين ولا مفترقين أن يأتوا بمثله، ولا بسورة تبلغ مستوى أقصر سورة منه. ولعل من ذهب إلى هذا قد استأنس لذلك بأن السور التي افتتحت بهذه الحروف قد ورد ربط تلك الحروف المفتتح بها بالقرآن وتنزيله. لكن هذا حكم أغلبي فأربع من السور المفتتحة بالحروف المقطعة لم يذكر لفظ الكتاب ولا القرآن ولا التنزيل ولا الوحي بعدها (مريم– العنكبوت – الرّوم وظاهر سورة القلم). والطريقة الأسلم والأرجح أن نوقن بأن لهذه الحروف مزايا في افتتاح السور التي بدئت بها، وأن علمها عند الله، وأنه لا يتعلق بها حكم ولا تشريع ولا بيان عقيدة. وكما أن حاسة البصر لا تستطيع أن تدرك كثيرا من المحسوسات مع أنها موجودة تقابل عدسة عينه ولا يراها وتلمس جلده ولا يحس بها، فكذلك العقل البشري رغم واسع آفاقه، وعظيم قدراته، يضعف عن إدراك جميع الأسرار.

1-2: الم ذلك الكتاب....... للمتقين

ورد في سورة الفاتحة اهدنا الصراط المستقيم. والصراط المستقيم تكفل ببيانه الكتاب العظيم الكامل (القرآن) الذي ضمن الله بقاءه على نقائه لا يدخله التحريف ولا الزيادة ولا النقصان ولا يحدث في الوجود ما يزعزع الثقة به. يجد فيه المؤمن

الطريق الآمن الموصل للنجاة في عصر نزوله وفي الأزمنة التالية إلى يوم القيامة. وهذه خاصية للقرآن لا يشاركه فيها كتاب آخر، فنصه لم يدخل فيه أي تغيير يقينا.

هذه صورة الفريق الأول وهو نوعان:

النوع الأول: المسلمون الذين آمنوا بما جاء به النبي ﷺ ولم يكونوا متدينين قبل ذلك بدين سماوي، ممن نفذ القرآن إلى أرواحهم وعقولهم فهداهم إلى الطريق المستقيم، كل فرد منهم قد أبعد القرآنُ عن فكره الضلالات والأوهام، وكشف له ما ينجيه وحذره مما يفسد عليه أمره ويهلكه في حاضره وعاقبة أمره، فحصَّن نفسه بالعقيدة الصحيحة الواضحة، وتبعا لذلك أجرى أفعاله على ما يوافق أوامر ربه وابتعد عن نواهيه وما حرّمه، هؤلاء هم المتقون الذين اهتدوا بهداية القرآن.

3-الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون

ثم عمق القرآن بيان المهتدين.

أولا: إنهم يؤمنون بكل ما جاء به الكتاب الحكيم، وصدّقوا رسول الله في جميع ما أخبر به عن الله مما لا تستطيع حواسهم أن تصل إليه، يؤمنون بما اتصف به المولى سبحانه من صفات الكمال والجلال، ويؤمنون بالملائكة ورسله الذين بعثهم الله متتابعين لهداية الناس، وبالبعث واليوم الآخر، وما أخبر به عن أحوال يوم القيامة، وبكل ما أثبته القرآن، فاطمأنوا بإيمانهم هذا، ووجدوا في ذلك ما يجيبهم عن التساؤلات التي حيرت غيرهم ورمت بهم في الضلال. إنه بالإيمان بالغيب يسمو الإنسان عن مرتبة الحيوان الذي لا يدرك إلا ما يصل إليه بحواسه وينكر ما وراء ذلك؛ فيرتقي إلى الأنس بعالم الكمال والتجرد.

ثانيا: إنهم يحافظون على الصلاة عماد الدين، ويؤدونها على أكمل وجه خاشعين لله، ينعمون بلذة المناجاة والوقوف بين يدي ربهم. إنه بالصلاة تصفو الأرواح ويتعمق الإيمان، وتلين القلوب.

ثالثا: إن إيمانهم أقنعهم بالحقيقة التي يغفل عنها كثير من البشر هذه الحقيقة هي أن ما بأيديهم من مال ومن متاع ومن خيرات هي فضل الله عليهم ورزقه الذي مكنهم منه، وهذا ما يقتلع من النفوس جرثومة الشح والأنانية وشدة الحرص واستبداد الخوف من الفقر، فشعورهم بالتضامن مع المجموعة يُطَوِّعُهُمْ للبذل والإنفاق.

4-و الذين يؤمنون بما أنزل أليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون

النوع الثاني: أهل الكتاب: الذين آمنوا برسالة النبي الذي كانوا يظنون أنهم يقيمون شريعته، كحال اليهود مع سيدنا موسى، والنصارى مع سيدنا عيسى، عليهما

السلام. ثم أضافوا إلى إيمانهم السابق قبول القرآن وما أنزل على سيدنا محمد ﷺ وقوّموا عقائدهم السابقة بحقائق الإسلام. وضبطوا علاقاتهم بالبشر وبخالق البشر، على الأسس التي بينها منهج الدين الحق، **الكل عبيد الله**، فطهروا عقائدهم مما ترسخ فيها من الضلال والزيف، وما علق بها، كعقيدة اليهود والنصارى: أن الله فضلهم على غيرهم، كما حكى القرآن عنهم: **وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه**[1].

5-أولئك على هدى من ربّهم وأولئك هم المفلحون

الفريقان من النوع الأول، من الذين لم يكونوا على دين فانشرحت صدورهم للإسلام، فآمنوا بالغيب وحافظوا على الصلاة، وأنفقوا مستحضرين أن ما ينفقونه هو في الحقيقة رزق الله الذي رزقهم، ومن الذين كانوا ينتسبون إلى رسالة من الرّسالات السماوية، واتقوا ربهم على هذا النحو وجمعوا بين الإيمان برسالة الإسلام وما سبقها من الرّسالات. يبشرهم ربهم بأمرين:

أولا: أن الله حكم لهم بأنه قد تمكنت هداية الله في قلوبهم تمكنا أوضح لهم الطريق، وترسخت صلتهم بهدايته واستقرت في أرواحهم ومشاعرهم.

ثانيا: بشارة اختصوا بها، هي الفوز في الحياة الدنيا وفي الآخرة. وما أعظمها بشارة من عالم الغيب والشهادة. وكما قال ابن أبي إسحق: المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا.

النمط الثاني: الكافرون .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الذين كفروا: المجاهرون برفض ما جاء به رسول الله ﷺ سواء أكان هذا الرّفض بالقول أو بالفعل أو بهما معا.

سواء عليهم آءنذرتهم: لا يختلف حالهم بين إعلامهم بما يحصل لهم من مكروه في المستقبل يخاف الإنسان أن يصيبه، وبين عدم إنذارهم به.

ختم الله على قلوبهم: الختم طبع وتغطية تمنع من الفتح كالختم على الرّسالة والطبع على الباب.

[1] سورة المائدة آية18

غشاوة: ما يّغطى به الشيء حتى لا ينفذ إليه ما يرد عليه من الخارج.

العذاب: الألم الذي يُذهب حلاوة العيش.

بيان المعنى الإجمالي

إن المصممين على الكفر يستوي تحذيرك لهم وعدم تحذيرك فهم لا ينفذ نور الوحي إلى عقولهم، عليها قفل محكم لا يزول. وكذلك أسماعهم لا يصل إليها صوت الوحي، وحجبت أبصارهم حجب غليظة فهم لا يبصرون ما في الكون من دلائل على الحقيقة، وحَكَمَ الله عليهم تبعا لذلك بأنهم سيعذبون عذابا عظيما.

بيان المعنى العام:

6-7: إن الذين كفروا سواء...ولهم عذاب عظيم

النمط الثاني: هم الكافرون الذين صمموا على رفض ما تدعوهم إليه وما تحذرهم منه، بلغ رفضهم وعنادهم أن منعوا عقولهم من التفكر فيما تتلوه عليهم وما تحذرهم منه، فسواء وعظك وعدم وعظك، لا ينفذ لعقولهم المقفلة أي شعاع من نور الوحي. وأصموا آذانهم وأقفلوا أسماعهم فلا تصل إليها كلمات الوحي، وغطوا أبصارهم فهم لا يتأملون في آيات الله في الكون الدالة على كمال علمه وقدرته.

والله قد رزقهم عقولا يتأملون بها وينفذون بها إلى الحقيقة فيدركونها حسب ما تقتضيه قوانين التفكير، ويستعينون بحواسهم من سمع وبصر ليكون ما تدركه الأسماع والأبصار هاديا ودليلا للعقل على المعرفة البعيدة عن الخطأ. فإقفال عقولهم عن التأمل وعدم انتفاعهم بأسماعهم فيما خلقت من أجله، وعنادهم بالتزام الرّفض، هو الذي منعهم من الإيمان ومن الانتفاع بما أودعه الله في كونه من آيات بينات. وقد صرحت الآية الخامسة من سورة فصلت بذلك قال تعالى: (**وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب**).

كفروا بإرادتهم، رفضوا التفكير فيما جاءهم به عن الله بإرادتهم، وانصرفوا عن سماع الوحي بإرادتهم، ولم يعملوا أبصارهم فأغمضوا أعينهم عن مشاهد الخلق والحكمة في كل جزء من أجزاء الكون بإرادتهم. فهم مسؤولون عن ذلك جزاؤهم عذاب عظيم. وما أشد هول هذا العذاب الذي وصفه ذو الجلال بالعظمة (**عذاب عظيم**) فهو فوق ما يتصوره البشر أعاذنا الله من الخزي والعذاب.

النمط الثالث المنافقون:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ
ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا
تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ
وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ
ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ
يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ
بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ
نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾
صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ
يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾
يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ
شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

يخادعون الله: يظهرون من أقوالهم وأفعالهم وجها حسنا وهم يخفون ضد ذلك تضليلا وتمويها.

مرض القلوب: النفاق.

ألا: حرف يؤتى به في أول الكلام لينبه السامع على ما سيسمعه من المتكلم كما يتنبه بالنداء.

المفسدون: جمع مفسد وهو الذي يحول النافع إلى ضار.

السفهاء: جمع سفيه وهو وصف لمن كان ضعيف العقل لا يحسن التدبير.

يمدهم: يمهلهم ويملي لهم ويزيدهم.

الطغيان: مجاوزة الحد والمبالغة في الشر، ومنه الكفر.

يعمهون: يتحيرون لانطماس بصائرهم.

الشيطان: مخلوق مَحَضَ قدراته جميعها للشر، والتلبيس على الناس، وإضلال من يتبعه.

الاستهزاء: السخرية.

الصيب: سحاب تصحبه أمطار.

أصابعهم: أناملهم.

الصواعق: جمع صاعقة، النار التي تقذف بها السحب.

حذر الموت: خوف الموت.

الخطف: الأخذ بسرعة.

أضاء لهم: أنار البرق لهم الطريق.

أظلم عليهم: عمهم بظلامه فأخفى عنهم معالم الطريق.

قاموا: وقفوا عن المشي.

بيان المعنى الإجمالي:

ثلاث عشرة آية توالت لكشف حال المنافقين، هذه الفئة الثالثة الخطيرة في المجتمع. أول صفاتها الكذب فهي تعلن الإيمان وهي كاذبة بشهادة الله، والصفة الثانية هي الخداع، والصفة الثالثة هي الغباء بظنهم أن كذبهم يروج ويكتب لهم السلامة، وغفلوا عن علم الذي لا تخفا ه خافية. وذلك نابع من نفسية فسدت ورضيت بالفساد التي هي عليه، ورابعا أن عقولهم منحرفة مريضة تمكن منها المرض الذي يتفاقم مع الزمن، والوصف الخامس المكابرة الوقحة حتى إذا تقدم إليهم من يُعَرّف مناكرهم ونهاهم عما يقومون به من فساد، قالوا: إنما نحن مصلحون. ويُلْبِسُهُمُ الله بكلمته الفصل: الوصف السادس وهو الفساد. **ألا إنهم المفسدون**. وتكشف الآية عن تلونهم تبعا للظروف، فهم مع المؤمنين يدّعون الإيمان، ومع قادتهم الكفرة يؤكدون ثباتهم على الكفر وأنهم يستهزئون بالمؤمنين. وتكون عاقبة هذا التلون أن الله لا ينبههم، بل يتركهم يجولون جولات قصيرة المدى وهم معجبون بأنفسهم، مع أنه يعلم ما يترصَّدُهُم من دمار وإذلال، فصورتهم صورة من يُستهزَأ به. وهم كمن عقد صفقة خاسرة. ومثلهم القرآن بمثلين:

المثل الأول: أنهم كجماعة سائرة في ليل مظلم فأوقد أحدهم نارا تهديهم للطريق الذي يبلغهم غايتهم. وما إن أضاء نورها حتى انطفأت وأطبق عليهم الظلام الموحش فتحيروا كأنهم فقدوا جميع حواسهم: السمع والبصر والنطق. وهكذا حال المنافقين بعد أن بعث الله نور الإسلام في العالم الذي أشرقت به معالم الحقيقة، فبمجرد ما بلغتهم أنوار كلمات الله أعموا بصائرهم وأبصارهم وأقفلوا أسماعهم وجعلوا بينهم وبينه سدا بعنادهم، فبقوا في ظلامهم تائهين.

والمثل الثاني: جماعة سائرة في ظلام دامس، غشّت السماءَ سحب كثيفة فلا ضوء لكوكب، ولا أثر للنجوم الهادية. والرّعد يزمجر وفرقعته تصم الآذان، قد استولى الخوف من الموت على النفوس، يفرون إلى وضع أصابعهم في آذانهم وإن كانت لا

تغني، ويلمع البرق بين الحين والآخر فيضيء لهم ما حولهم، ولكن ما إن يتحركوا حتى يتوقفوا عن المسير لعودة الظلام والرّعود والأمطار. والله محيط بهم لا ينفلتون من قضائه العدل. ولو شاء الله أن يقتلع أبصارهم وأسماعهم لفعل، فهو القادر الذي لا يعجزه شيء. وهكذا حال المنافقين فهم في وضعهم وقد نزل القرآن في بيئتهم الضالة وخيراته كالمطر المحيي للأرض، وما هم فيه من شرك هو كالظلام الدامس وهُداه أنوار دائمة ولكنهم ما إن ينظروا فيها حتى يغمضوا بصائرهم عنها فتعود بالنسبة إليهم كالبرق الذي يخطف الأبصار ولا يستفيدون منه إلا الخوف والحيرة.

بيان المعنى العام:

النمط الثالث من البشر هم المنافقون. إنه إذا كان أمر النمط الأول واضحا تتحد ظواهرهم وبواطنهم على الإيمان، يستوي في ذلك من لم يكونوا مؤمنين بأي دين ثم نظروا في الدعوة المحمدية فآمنوا وطبقوا، ومن كانوا على دين سماوي وإن كان محرفا، ثم سمعوا ما أنزل على الرّسول ونظروا في آياته فآمنوا بكل ما بلغه عن ربه على أنه نبي ختم الله به رسالاته للعالمين، وأنهم سيجزون عما قدموا من الأعمال يوم القيامة.

والنمط الثاني من البشر: المعاندون الذين رفضوا أن ينظروا في الدعوة المحمدية وفي الآيات البينات التي تؤيد دعوته واختاروا الثبات على الكفر. وأمرهم واضح أيضا. ونظرا لوضوح أمر الفريقين المؤمن والكافر، اقتصر القرآن في بيان ملامح كل فريق منهما، باعتبار أنه لا تعقيد في تركيبهما النفسي، اقتصر على أقل ما يكفي لإبراز حقيقتهما.

أما النمط الثالث: فهو فريق المنافقين، أخطر نمط في البشر في عهد الرّسالة وفي الأزمان التالية؛ فاعتنى القرآن بالكشف عن تركيبهم النفسي المريض، وطرقهم في التعامل فخصص لذلك ثلاث عشرة آية. انطوت بواطنهم على سلسة مترابطة من الفساد والخسة والكفر، وكانت صورتهم الظاهرة وسماتهم المعلنة تغالط المتعاملين معهم، وتطمئنهم تبعا لذلك فلا يَحْذَرُونَهُمْ، ويظهرون كأنهم من جماعة المؤمنين . إنه إذا كان المؤمنون يعرفون القسم الثاني المصرح بكفره الذي كانت له من الجراءة ما واجه به صريح الحق، وأعلن عن دخائل نفسه فإن المنافقين يندسون في المجتمع الإسلامي وهم يكيدون له دون أن يُتفطّن لمكرهم أو يأخذ المؤمنون الحيطة منهم.

9-8: ومن الناس من يقول آمنا... وما يشعرون.

جماعة من البشر متخفية متسترة مندسة في المسلمين، تعلن أنها تؤمن بالله واليوم الآخر، وينبئ عن خداعها وكذبها أنها لم تذكر إيمانها برسول الله ﷺ ، واقتصرت على إعلان إيمانها بالله واليوم الآخر.

ولما كان الإيمان أمرا مستورا في القلوب والعقول صرح الله المطلع الذي لا تخفاه خافية بتكذيبهم فقال: وما هم بمؤمنين. وبرز بهذا، الوصف الأول للمنافقين، وهو (الكذب).

كما دلت الآية على أن الإيمان لا يعتبر إلا إذا كان القلب مطمئنا والعقل متيقنا بالعقيدة التي شرحها رسول الله ﷺ ، من الإيمان بالله وبرسوله وبالغيب حسبما فصّله. وأن الإقرار باللسان إذا لم ينبع من العقل والقلب هو إقرار لا يترتب عليه أي أثر ولا يطمع صاحبه في النجاة. وهم بغبائهم يتوهمون أنهم بإعلانهم الإيمان بما يخالف عقائدهم قد تمكنوا من مغالطة المؤمنين وخداعهم، ويشنع عليهم القرآن بأن محاولتهم خداع المؤمنين هي خداع لله الذي يتولى المؤمنين، ولذلك جمعت الآية بين الله والمؤمنين(**يخادعون الله والذين آمنوا**).

ومعظم المنافقين يظنون أنهم أذكياء وأن قدراتهم في التضليل هي لفرط نباهتهم، وفي الحقيقة هم قد خدعوا أنفسهم لمّا خُيِّلَ لهم أنهم ضمنوا لأنفسهم النجاة بكذبهم. فالله مطلع عليهم ويعلم ما تخفي صدورهم ولا يفلتون من الجزاء الذي يترصدهم، وهم ذاهلون عن المصير الذي سينقلبون إليه. وتقرر تبعا لذلك الصفة الثانية والثالثة للمنافقين: وهي الخداع والغباء.

10-في قلوبهم مرض... ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون.

كلما جاء ذ كر القلب في القرآن فهو لا يدل على القلب المادي الذي يتقبل الدم ثم يضخه في الجسم، ولكن يقصد به العقل والرّوح. فالوصف الرّابع للمنافقين أن قلوبهم مريضة غير سليمة، مريضة بلوثة الفساد الذي رضوا به وأخفوه وتحيلوا على إخفائه ليغروا به غيرهم. ومن سنن الله في الكون أن الفرد إذا تخير طريقة في الحياة وألفها وواظب عليها، ولم يعد إليها بالتهذيب والنقد، أنها تصبح ملكة راسخة فيه، تزداد وتنمو مع الزمن. فالكاذب مثلا إذا تعود على الكذب ينقلب الكذب له عادة راسخة متمكنة منه، وكذلك المخادع والسارق وأمثالهما. يستشري الانحراف كلما عمل صاحبه على إخفائه ومواصلة حياته عليه رضا به. كالمرض البدني إذا أخفاه صاحبه ولم يستعن بالطبيب الخبير ولم يتناول ما يوصف له من الدواء، فإن مرضه يستشري وينتشر في البدن إلى أن يفتك بصاحبه.

ومآلات أهل النفاق ثابتة، منها ما يظهر أثره في الدنيا، ومنها ما هو مدخر ليوم الجزاء. والمنافقون ما أقدموا على نفاقهم وإضرارهم بالمجتمع وبث الفتنة إلا بتكذيبهم بالبعث والجزاء، فحق عليهم العذاب بتكذيبهم.

11-12: وإذا قيل لهم لا تفسدوا... ولكن لا يشعرون.

الصفة الخامسة من صفات المنافقين، التضليل بتبديل الحقائق والمكابرة عند تنبيههم على فسادهم، ونكران الواقع. والقرآن لم يحدد اسم من ذكّروهم ونهوهم، عن الفساد الذي نذروا أنفسهم إليه، ومحضوا له مكرهم وتحركوا في إطاره، من الدس وترويج الأخبار الزائفة، والتشكيك، وبذر الفتنة بين الجماعة، والاستهزاء بالمؤمنين إلى آخر المناكر التي يدبِّرون لها، ويبثونها سموما في المجتمع. قد يكون هؤلاء النّاصحون بعض المؤمنين الذين تربطهم بهم قرابة أو جوار من المطلعين على خفايا أمرهم، والذين ربُّوا التربية الصالحة الإيمانية من النهي عن المنكر. كان جوابهم لهؤلاء الأخيار إمعانا في التضليل: إنما نحن مصلحون. وتغمرهم ضلالاتهم وفقدوا الميزان، فيرتفع صوت الحق من القرآن: ألا إنهم هم المفسدون، وقد أطبق الضلال على عقولهم ومداركهم فأفقدهم الشعور بما هم عليه من فساد. وهو الوصف السادس من صفاتهم الشنيعة.

13-وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن...ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون.

الصفة السابعة والثامنة: الكبر وخفة العقل. يحرص على هدايتهم، من يعرف دخائلهم، فينصحهم بأن ينسجموا مع الجماعة وأن يؤمنوا برسالة النبيﷺ التي وحدت الكلمة وأزالت كوامن التنازع والبغضاء. فيبدو منهم عند ذلك ما ينطوون عليه من كبر وتعال، وهو شأن المنافقين في كل زمان ومكان، يظنون أنهم أعلى من أن ينضموا إلى الجماعة الضعيفة العقل المحدودة المدارك في زعمهم. وينزل الجواب من رب العزة مؤكدا منبها أنهم قد اختصوا بضعف العقل وأفَن الرّأي، وأن عقولهم محجوبة بكبرهم وعنادهم. ولذلك فهم لا يعلمون، فجهلهم من الجهل المركب الذي يجهل صاحبه الحق ويجهل أنه جاهل.

وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

13-16-وإذا لقوا الذين آمنوا... وما كانوا مهتدين.

هذه صورة ثالثة للمنافقين مركبة من ثلاثة أحوال: حالتهم مع مجتمع المؤمنين الذين يعيشون معهم: وحالتهم إذا كانوا في مجامعهم الخاصة مع أمثالهم وقادة إضلالهم: وحالتهم وهم مفضوحون محكوم عليهم من رب العزة.

فالحالة الأولى يبدون فيها وقد صرّفوا الأمور تصريفا محكما، في ظنهم، يحقق لهم تنفيذ مخططاتهم. إذا التقوا بالمؤمنين في المجامع العامة أو الخاصة أوهموهم أنهم متفقون معهم، أنهم مؤمنون صادقون، حتى لا يحذرهم المؤمنون، ولا يأخذوا الحيطة منهم فيتمكنون بذلك من الاطلاع على نقط الضعف ومداخل المكر بهم.

والحالة الثانية: إذا كانوا في مجالسهم الخاصة مع أشياعهم وقادتهم في النفاق، فيؤكدون لهم بأن ما صدر عنهم في مجالس المؤمنين، إنما هو خداع للمؤمنين واستهزاء بعقولهم.

والحالة الثالثة: بعد جولاتهم القصيرة التي ظنوا أنهم خدعوا المؤمنين بها ونجوا من رفض المجتمع لهم وقوّوْا لحمة التناصر بينهم، وأنهم ثابتون على معاداة المؤمنين والاستهزاء بهم. يصرح القرآن بأن الله يمهلهم قليلا حتى إذا ظنوا أنهم قد فازوا في مكرهم تأخذهم يد القدرة إلى مصيرهم وتنفذ فيهم الوعيد. وينادي في ضمائر الناس عامة إعلانا عن خيبتهم بأن المنافقين قد مكنهم الله من الهداية ببعثة النبي ﷺ وما أعطاه من قدرة فائقة في بيان الحق، فكأنهم ملكوا الهداية بذلك، ولكنهم باعوا هذا الهدى واشتروا به الضلالة لقلة رأيهم وسوء نفوسهم، فهم بذلك ممن يبيع عزيز الهدى الذي ينفعه في الدنيا والآخرة ويستبدله بالضلال الذي يخسر به دنياه لأنه يعيش على تلون قبيح وحقد مقيت وخوف من ظهور أمره، ويخسر الآخرة من باب أولى. فكانت تجارتهم هذه خاسرة وفقدوا الهداية التي هي أعز ما يملكه الإنسان.

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ
فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ
ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم
مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

يتواصل تتبع كشف حال المنافقين السيِّء ومكرهم وما ينتظرهم في تسع آيات، من قوله تعالى **(ومن الناس من يقول آمنا)** إلى قوله **(وما كانوا مهتدين)** ويختم القرآن حديثه عنهم في هذا الموقع بجمع صفاتهم وتشبيهها بأوضاع تكشف أمرهم بصفة أوضح، شأن الأمثال. فضرب لهم مثلين:

17-18: مثلهم كمثل الذي استوقد... فهم لا يرجعون.

المثل الأول: قافلة في صحراء مظلمة وليل يحجب كل شيء عن الأبصار، فأوقد أحدهم نارا وأضاء لهيبها ما حوله وأبصر كل واحد ما حوله. وفي لحظة تنطفئ النار، ويذهب النور الذي هتك أستار الظلام، فأطبق عليهم سواد الليل وعادوا متحيرين، غُمِّي عنهم كل ما حولهم. وبالغ في وصف حيرتهم في ذلك الظلام الدامس: كأنهم فقدوا جميع حواسهم، فقدوا سمعهم ونظرهم ونطقهم. وهذه حالة المنافقين، فما أبعدهم عن الرّجوع إلى الحق.

19-20: أو كصيب من السماء... إن الله على كل شيء قدير.

المثل الثاني: وضع يشبه الوضع في المثل السابق. سحاب متراكم يحجب السماء والضياء والنجوم الهادية، ظلام في ظلام، تصحبه زمجرة الرّعود التي تهزهم هزا، تهددهم بالموت، ويحاولون تخفيف وقعها بوضع أصابعهم في آذانهم، ويتخلل طبقات السحب الكثيفة خيوط من البرق تكاد تخطف الأبصار. والجهات مختلطة لا يُدْرَى شمال من جنوب ولا شرق من غرب، حيرة وخوف وأمطار مع الظلام تقيد السائرين، لا يتحركون إلا إذا ومض البرق وميضَه الذي لا يمكنهم مع قوة ضيائه من المضي بعيدا لأن قوة نوره تكاد تخطف أبصارهم، فهم كلما أضاء لهم هموا بالحركة ولكنهم لا يمضون بما انكشف لهم من نور، لأن البرق في سرعته يذهب عاجلا، فلا هم سائرون ولا هم جالسون مطمئنين، بل هم قائمون يهمون بالحركة ولا يستطيعون. وهذا شأن المنافقين مع الأنوار الإيمانية. اختاروا الظلام الذي هم فيه، ورفضوا الإسلام الذي أثر في المجتمع فأصلحه وبث في أرجائه العدل والأمان، لا ينتفعون منه إلا كانتفاع القافلة من ضوء البرق.

وتختم الآية بأن الله لو أراد أن يرتب على هذا البرق والرّعد ذهاب الأسماع والأبصار لفعل، وفيه تهديد للمنافقين بأن إعراضهم عن الحق ومكرهم بالجماعة الإسلامية يعرضهم لانتقام الله منهم وفقدانهم حواسهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

اعبدوا: اخضعوا متقرّبين إليه.

لعلكم: رجاء.

تتقون: يحصل لكم ما يحميكم من عقاب الله.

الند: المساوي المماثل.

بيان المعنى الإجمالي:

يدعو الله جميع الناس، من كان مؤمنا ومن كان يدين بديانة من قبل ثم اهتدى بدين الإسلام، ومن أصر على الكفر ومن نافق من الذين عرّفت الآيات السابقة ملامحهم، ومن غيرهم ممن كانوا في عصر الرّسالة ومن يأتي بعدهم، دعوة عامة لجميع البشر أن يعبدوا الله متيقنين أنه هو الذي جعل الأرض كالفراش لهم، وجعل السماء بناء واقيا لهم. ولا أحد غير الله يتصرف في قليل أو كثير من هذا النظام الذي أقام عليه الكون ويسره للإنسان. فاحذروا أن تجعلوا لله أمثالا تخضعون لهم، والحال أنكم تعلمون أنه لا يستطيع أحد غير الله أن يحفظكم في هذا الكون.

بيان المعنى العام:

21-22: يا أيها الناس اعبدوا... وأنتم تعلمون.

دعا الله الناس جميعهم أن يخضعوا له، ولا يخضعوا لأحد سواه خضوعا ينسيهم ربهم، فبالنسبة للمؤمنين هو نداء لهم أن يواصلوا يقظتهم فلا يغفلون عنها. فكم من مؤمن تراه يتعلق بمخلوق مثله إلى حد أن يرى أن لا مفرج لكربته ولا محقق لآماله ولا معين له على ما يسعى لبلوغه إلا هو، وكم من مؤمن يضعف فيهون ويخضع لشهوة أو رغبة ويستهين بما أمره به رب العالمين كما قال تعالى **أفرأيت من اتخذ إلهه هواه**[1]. وبالنسبة للكافرين رحمة الله تبدو واضحة بهذا النداء، فالله يستحثهم ليعودوا إليه، وليتعلقوا به، وينبههم إلى أن ما يخضعون له عاجز عن التأثير، ويدعو المنافقين إلى أن يقلعوا عن نفاقهم وأن لا يخضعوا لأوهامهم وأهوائهم وأن ينظفوا بواطنهم بإفراد الله بالعبادة.

---

[1] سورة الجاثية آية23

إن تحريك القرآن لجميع البشر يعتمد على تذكيرهم بحقيقة أقرب ما تكون إليهم ولكنهم يغفلون عنها. هذه الحقيقة تتمثل:

أولا: أن الله هو المتفرد بالخلق. فكل من ينتبه ويكشف حجب الغفلة عن عقله، يدرك أنه غير كامل لا في مواهبه العقلية، ولا في تركيبه النفسي، ولا في جسمه، ولا يملك أن يبقى على الحال التي هو عليها. ولا أحد غير الله مكنه مما مكنه ولا أحد غيره يبقي على ما مكنه منه. فكل قلب إذا تُرِكَ لفطرته يحس بالنداء العميق بأن الله وحده هو الخالق الذي بيده الأمر.

ثانيا: إن حياة الإنسان على هذه الأرض تسير في يسر وتوافق بينه وبين محيطه. فمثلا لو زادت جاذبية الأرض لَتَسَمَّرَ الإنسان في مكانه أو لثقل عليه الانتقال ثقلا بالغا يجعله عاجزا عن السعي في هذه الأرض. ولو خفت هذه الجاذبية لما استطاع أن يثبت، بل يكون كالرّيشة التي تتطاير في الهواء. فكما يستقر الإنسان على فراشه ويجد راحته فيه، فكذلك هو على وجه البسيطة يجد أنها تلائمه كما يلائمه فراشه.

ثالثا: هذا الغلاف المحيط بالأرض الذي بُنِيَ بناء محكما يحمي الإنسان والأرض من الأشعة الواردة من الفضاء الأعلى. ويذكُرُ العلماء أن سوء تصرف الإنسان في الكون وما يبثه من عناصر مفسدة تعلو إلى ذلك البناء فتخرقه (الأوزون)، هو ما يهدد البشرية والنبات والحيوان بالفناء.

رابعا: السر الكبير في الارتباط بين الماء والحياة في نزوله من السماء، ثم في سريانه في طبقات الأرض القريبة والبعيدة، ثم في القوانين التي بها تنشأ عنه ثمار الأرض المتنوعة الأشكال والمنافع والطعوم والألوان. ثم في ارتباط حياة الإنسان بذلك سواء في ذلك ما يتناوله منها مباشرة أو ما يتحول عن طريق الحيوان إلى ألبان ولحوم. ينادي القرآن البشر تبعا لذلك أن يتأملوا، بأن يحركوا مداركهم وعقولهم تحريكا يتبعه حتما أن يفردوا الله بالعبادة والتوجه إليه والاعتماد عليه وحده.

عجبا كيف يعميهم ما هم سادرون فيه من غفلات فينصبون قوى وهمية، يطلبون منها عونا أو قضاء أمر، أو يتقربون إليها استدرارا لعطفها عليهم ورضاها عنهم! رغم أن شواهد العقل تنفي نفيا قاطعا أن يكون لله مساو أو شريك يعطي أو يمنع. أليس الشرك بعد التأمل في ذلك بمقتضى الفطرة لا يليق بمن يدعي أن له عقلا؟

وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

الرّيب: الشك.

عَبْدِنا: رسول الله محمد ﷺ .

سورة: مجموع آيات من القرآن تكون وحدة بينها تفتتح بالبسملة.

مثله: مشابه مساو.

شهداء: جمع شهيد يراد منه النصير، وهو في الآية آلهتهم.

بيان المعنى الإجمالي:

إذا كان الإشكال الذي يعترضكم ،هو شككم في أن صاحب الرّسالة محمدا ﷺ مبعوث من عند الله، فتأملوا في الوحي الذي أُيد به تأملوا في القرآن، إنكم قد رزقتم قوة في البيان، وفصاحة وبلاغة تتصرفون بها في مختلف الأغراض، وتأتون بالنسج البديع، وهذا القرآن من جنس الكلام الذي تدّعون أنكم حزتم فيه قدم السبق، وطوّعتموه لمختلف أعراضكم فأتُوا بسورة لها مثل بلاغة القرآن، واستعينوا بآلهتكم التي تدعونها لنصرتكم حسب زعمكم.

بيان المعنى العام:

23- وإن كنتم في ريب... إن كنتم صادقين.

من لطف الله بعباده أنه يساعدهم على الإيمان، فبعد أن لفت أنظارهم إلى خلق أنفسهم وخلق الأرض والسماء، وتنظيم العلاقة بينهما، وبينهما وبين الإنسان. ذلك التنظيم المحكم الذي أحصى كل كبيرة وصغيرة وانتظم الكل، وهو ما لا يستطيع من له أدنى مسكة من عقل أن يرتاب في أن الجميع من خلق الله وتقديره تبعا لعلمه الشامل الباقي. بعد أن أبرز الحجة التي لا يمكن رفضها من أن الله هو الخالق ولا خالق ولا رب سواه، عطف على ذلك أن لفت أنظارهم إلى الرّكن الثاني في هذا الدين، وهو الإيمان بأن محمدا رسول من عند الله، فيقول لهم القرآن عناية بهدايتهم، إن حصل لكم شك في أن هذا القرآن وحي من عند الله، فالدليل بين أيديكم على صدقه: إنكم تمتازون بالفصاحة والبيان والبلاغة، وإن قدراتكم على إدراك ما في الكلام من قوة وإحكام معلومة لكم ومعترف بها من غيركم والقرآن أمامكم فإذا كان من كلام غير الله فأتُوا بسورة واحدة تكون مساوية له في البلاغة وروعة البيان وجمال الأسلوب. والصدق الأبدي، واستعينوا على ذلك بمن شئتم حتى بالأرباب التي تدعونها للنصر والتأييد.

فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾

بيان معانى الألفاظ:

اتقوا: احموا أنفسكم

الوقود: ما يوقد به كالحطب والنفط والفحم.

أعدت : هيئت ، هيأها الله.

بيان المعنى الإجمالي:

لم تستطيعوا في الماضي أن تأتوا بسورة مثل القرآن ولا تستطيعون في المستقبل أبدا ذلك، فاحموا أنفسكم من آثار رفضكم وتكذيبكم فالله أعد للكافرين نارا مادة اشتعالها أجسام الكافرين من الناس ومن الحجارة.

بيان المعنى العام:

24-فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا... أعدت للكافرين.

لفت القرآن أنظار الرّافضين تصديق الرّسول ﷺ إلى أن دليل صدقه هو القرآن، فتحداهم أن يأتوا بسورة مثله ذلك أن قوتهم في التعبير البديع وتجويد الكلام والتصرف فيه، قد أعطتهم ميزة لا يشاركهم فيها أحد وقت نزول الوحي، ثم أخبرهم أنهم عاجزون عن ذلك وقت نزول الوحي وعاجزون أيضا عجزا أبديا فيما يستقبل من الأزمان. وهذا التحدي مفتوح للبشرية في عمرها الطويل، وثبت عجزها، فكان القرآن بذلك حجة الله على العالمين في جميع الأزمنة والظروف على صدق رسوله محمد ﷺ.

والله رحيم بعباده فنبههم إلى أن إصرارهم على العناد، رغم عجزهم عن معارضة القرآن والإتيان بسورة مثله يعرضهم قطعا للعقاب يوم القيامة، فناداهم كي يحموا بالإيمان أنفسهم من النار التي تشتعل بأجسام الكافرين وبالحجارة. وفي تصريح القرآن بأن الحجارة وقود إعجاز علمي، فقد تبين اليوم أن الطاقة الحرارية التي تتولد من ذرات حجارة اليورانيوم مثلا من أقوى الطاقات المعروفة للبشرية.

وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا ۙ قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا ۖ وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

البشارة: إخبار بأمر محبوب للمخاطب.

الصالحات: جمع صالحة، الفعلة الحسنة.

جنات: جمع جنة وهي المكان الكثير الشجر الملتف.

الأزواج: جمع زوج يطلق على الرّجل وعلى المرأة بعد اقترانهما.

مطهرة: لا عيب فيهن.

خالدون: باقون بقاء أبديا.

بيان المعنى الإجمالي:

أخبر يا محمد المؤمنين الذين قرنوا الإيمان بصالح العمل بأن الله أعد لهم جنات تتخللها الأنهار الجارية، وأن ثمارها وإن تنوعت فقد بلغ كل نوع من أنواعها كمال اللذة حتى إنه لَيُخَيَّلُ للآكل أنها نفس الثمار التي كان تناولها من قبل، مع أن لكل واحدة منها مذاقها ولذتها. وأن الله قد أعد لهم أزواجا مطهرة من العيوب والنقائص. وفوق هذا لا خوف من الزوال والفناء، فهم خالدون في الكرامة التي أنعم الله بها عليهم.

بيان المعنى العام:

25ـ التربية التي تفضل بها ربنا على عبيده تربية تحرك نواحي التركيب الفكري والعاطفي للبشر، فسبحانه لا يقتصر على التحذير الذي يرمي بهم في اليأس والخوف الذي يشل تطلعاتهم إلى التحول إلى ما هو خير، ولا يملي لهم في البشارات التي تتراخى معها العزائم وتتواكل النفوس، فكان من شأن القرآن أنه يجمع بين البشارة والإنذار، يُطمع ويخوّف. فبعد أن حذر الكافرين من النار التي تلتهم البشر والحجارة ووقوده منهما، بشر المؤمنين بجنات تكاثفت أشجارها وجرت خلالها المياه في أنهارها، وأثمرت أشجارها ثمارا، طعم كل نوع منها بلغ الغاية في اللذة وحسن المذاق وسهولة التناول، يكاد آكلها يظن أنها نوع واحد. ولكنها في الحقيقة مختلفة. وفي هذا الجو البديع يتم النعيم والأنس بأزواج طهرت منهن النفسيات والأجسام من النقائص التي كانت ملازمة لهن في الدنيا. وفوق كل ذلك إن نعيمهم هذا لا يكدره خوف انقطاعه، فقد تحقق لهم الخلود الدائم السرمدي إلى أبد الآبدين.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا

مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

استحيى: احتشم، وذلك إذا أتى بأمر لا يليق بمنزلته.

بعوضة: حشرة صغيرة، ولها أنواع.

الفاسق: الخارج عن الطاعة وهو على مراتب، وأرذله ما بينته الآية بعد.

نقض: خالف وأبطل ما التزمه.

عهد الله: ما أمر بالتزامه ورعايته.

ميثاقه: تأكيده.

الإفساد: تحويل ما هو نافع إلى ما هو ضار.

بيان المعنى الإجمالي:

مكائد يهود لا تنتهي، فبعد أن تحدى القرآن البشرية قاطبة بأن يأتوا بمثل سورة من القرآن وعجزوا، أثار اليهود مكيدة جديدة فقالوا: إن الله في عظمته وجلاله لا يليق به أن يضرب الأمثال بالحشرات كالنمل والعنكبوت والنحل، فطعنوا: بأن ذلك يدل على أن القرآن ليس منزلا من الله، وبهذا روجوا على عقول الضعفاء من الكافرين لينصرفوا عن الدعوة الإسلامية. فسجل الله في كتابه أنهم أغبياء عندما ظنوا أن القدرة لا تظهر إلا في الأجرام الكبيرة، ذلك أن أصغر مخلوق فيه من أسرار الخلق وكمال التقدير ما يرفعه لأن يضرب الله به المثل. وقد تقدم العلم التجريبي فأبرز بعض أسرار الخلق في البعوض في جينومه، وطريقة تكاثره. وخصائص ذكرانه وإناثه، وما يزال يواصل البحث لاستكشاف كثير من الجوانب التي ما تزال خفية، يدرك العلماء وجودها دون حقيقتها ونظامها. ولذا يكون ضرب المثل بهذا المخلوق الضعيف يزيد الذين آمنوا إيمانا، ويتأكد عندهم صدق الرّسول فيما يخبر به عن ربه، وأما الكافرون فيزيدهم إمعانا في الضلال وبعدا عن الحق. وما رفضهم للتمثيل بالمخلوقات الصغيرة وتكذيب الرّسول ﷺ إلا جريا على ما التزموه في حياتهم من نقض العهود التي أخذ منهم الميثاق المؤكد على احترامها، التي منها عدم تغيير ما شرعه لهم وعدم إخفاء بعضه، وتأييد الرّسل الذين يأتون بعد موسى عليه السلام. وقطعوا ما أمرهم الله أن يصلوه. إن هدايته للمرسلين خيط واحد، فرفضُ قبول ما نزل على سيدنا محمد ﷺ هو قطع لما نهوا أن يقطعوه. ويفسدون في

أرض الله التي أمر الله بإعمارها ونشر الخير في جنباتها. ولذلك أنبأهم عالم الغيب والشهادة بأنهم هم الخاسرون في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام

26-27: إن الله لا يستحي...أولئك هم الخاسرون.

قرب الله لعباده المعاني البعيدة لطفا بهم وعناية بهدايتهم وذلك بمُقارَنتِها وتشبيهها بما هو قريب منهم مألوف لديهم. مثّل تشبيه الإيمان الرّاسخ بالشجرة المثمرة الضاربة عروقها في الأرض، ومثل تشبيه الذين يتخذون آلهة من دون الله بالعنكبوت ووهن ما تبنيه، ونحو ذلك من الأمثال المنتشرة في القرآن. ولما تحدَّى القرآن البشرية في جميع عصورها الحاضرة والتي تأتي بأن يأتوا بسورة تشبه القرآن، وثبت عجزهم عن ذلك، كان ذلك أوضح دليل على أن القرآن من عند الله.

عمل اليهود على تشكيك المغفلين من الكافرين بمكيدة سخيفة، فأوهموهم بأن القرآن قد جاءت فيه الأمثال بالمخلوقات الضعيفة التي ليس لها عظيم شأن في الوجود، كالبعوض والنمل ونحو ذلك، والله في عظمته وجلاله لا يليق به أن يضرب الأمثال بهذه الأشياء التي لا خطر لها وليس لها قيمة كبيرة وبنوا على ذلك أن القرآن ليس من عند الله.

نبه سبحانه بهذه الآيات أن كل كائن من خلق الله له أسرار لا يعلم جميعها إلا خالقها، فالبعوض على صغر حجمه تمثل خريطته الوراثية (جينومه) دقة عجيبة، وضبطا محكما لجميع تحولاته وتوجهاته في الحياة. إنه من الجهل والغباء أن يستهين الإنسان بأسرار الخلق في أي كائن، هذه الأسرار التي أشار إليها القرآن في قوله تعالى **(ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى)**[1] إن عددا غير قليل من العلماء المتميزين عكفوا على دراسة البعوض، وما هو أصغر منه من الكائنات الحية، لكشف أسرار الخلق، ورغم ما بذلوه من جهود، فإنه ما يزال قسم منها غير معلوم، ومن ذلك سر الحياة فيها.

فالله العظيم في عزته وجلاله قد أحكم خلق كل شيء، ولا يختلف عنده خلق الكبير عن خلق الصغير، أو ما يعتبره بعض المغفلين الضالين تافها. والتمثيل به منسجم الانسجام الكامل مع عظمة الخالق سبحانه.

وينبني على ذلك أن هذه الأمثال تزيد المؤمنين سعة في آفاق إيمانهم، إذ بمجرد ما يأتي المثل بهذه المخلوقات الضعيفة تنفتح بصائرهم على النظام الكوني العجيب، ويدركون ارتباط الكائنات كلها في هذا الكون بتقدير من الخلاق العليم، كلها شاهدة

---

[1] سورة طــه آية 50

على عظمة الخالق وعلمه وقدرته وإرادته النافذة. وفي المقابل تزداد حيرة الكافرين الذين فصلوا الكون عن خالقه، فيعمى عليهم سر التمثيل بهذه الكائنات الصغيرة، فتتضاعف حيرتهم، ويمضون في ضلالهم وعماهم، ويتبين خروجهم عن صراط الله. فهم **(الفاسقون)** من اليهود الذين استحكم الضلال فيهم، وذلك بسبب نقضهم العهود التي أخذها الله عليهم أن لا يحرفوا ما أنزل عليهم وأن يحترموا الأنبياء، وأن يتبعوا رسالة الإسلام، ولكنهم نقضوا كل المواثيق التي أخذها عليهم موسى عليه السلام، وقطعوا سلسلة الهداية التي أراد الله أن تتابع حلقاتها لتُخْتَم بمحمد ﷺ، فأوقفوها على موسى بل قطعوها حتى عن موسى بما حرفوا من الوحي الذي استحفظوا عليه. وتبعا لانفصالهم عن هدي الله كانوا دائما يسعون لتأويل الحق فتربِّتْ عقولهم على الانحراف. وليضمنوا لأنفسهم التواصل رغم ذلك، برعوا في المؤامرات التي تؤجج الحروب والعداوات، وتهتك الوحدة الإنسانية. وإنك لتجد في كل أزمة يمر بها العالم إصبعا يهوديا يحرك الشرفي الخفاء، وسنة الله في الكون أن مآل المفسدين الخسران في الدنيا والآخرة.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

كيف: سؤال مع إنكار، كقولك كيف تضرب صديقك؟

تكفرون بالله: تنكرون تفرد الله بالألوهية (لا إله إلا هو)

استوى إلى السماء: قصد إلى خلق السماء.

سواهن: أتم خلقهن على أكمل وجه.

بيان المعنى الإجمالي:

إنه من العجب بعد أن ذكَّرَ البشر بمظاهر قدرته من تيسير الأرض، أن يكفر الإنسان بربه ويجعل له شريكا. ويحقق القرآن قدرة الله الدالة على وحدانيته في تصرفه في البشر، فلينظر كل إنسان إلى ذاته: إنه كان غير موجود فمن أوجده ونفخ فيه الرّوح؟ وإن عمره مضبوط لا يستطيع أن يزيد فيه ولا أن ينقص منه، فالمحيي والمميت هو الله. ومن قدر على الإيجاد بعد العدم، وعلى الإعدام بعد الإيجاد، هو القادر وحده على الإحياء ثانية. وليس هذا الإحياء عبثا ولكنه ليجزى كل فرد عما قدم. وليتأمل الإنسان في الكون الذي حوله، فإنه سيتبين له أن القدرة

المبدعة هي التي خلقت للبشر كل ما تحويه الأرض فوق ظهرها وفي باطنها. وفوق ذلك أن الله هو الذي خلق السماوات السبع. والسماوات بأسرارها وحكمة خلقها لا يحدثها إلا من وَسِعَ علمه كل كبيرة وصغيرة.

بيان المعنى العام:

28-29-كيف تكفرون بالله... وهو بكل شيء عليم.

أيقظ القرآن بسؤاله **(كيف)** العقول، وأثارهم لأمر عجب، ذلك أن الآيات السابقة ذكّرت البشر بمظاهر القدرة المبدعة من أن كل فرد هو مخلوق له من مضى ومن سيأتي وأنه يسر لهم الحياة في الأرض وربط بينها وبين السماء ربطا محكما أخرج به للناس أبراتهم وفاكهتهم. وعَجَبٌ كيف يكفر الإنسان ويجحد الخالق، وفي ذاته ما يرفع هذا الضلال الذي وقع فيه.

كل فرد كان معدوما فتعلقت القدرة الإلهية فأخرجته من العدم إلى الوجود، ونفخت فيه الرّوح، وسرت فيه الحياة بذلك، وكل فرد سينتهي أجله ويموت، ومن قدر على الإيجاد بعد العدم قادر على الإحياء ثانية، الإحياء الذي يعود به كل فرد إلى من أبدعه أولا فَكَلّفَهُ، وثانية ليحاسبه عن عمله فيما كلفه به. وفي محيطه أيضا من المظاهر ما يوجب العجب من إنكار الخالق سبحانه. فباطن الأرض وما على ظهرها يتلاءم مع البشر ويستفيدون منه في حياتهم هذه. لاء م بينهم وبين ما تخرجه الأرض على وجهها من خيرات وما يحويه بطنها من مختلف المعادن وما يعمرها من الطاقات. فالعقل إذا رفع عنه حجاب الغفلة يعجب من إنكار الخالق الذي لا يستطيع أحد سواه أن ينسب لنفسه خلق أي شيء من ذلك.

وارتقى القرآن من تحريك نظر الإنسان إلى نفسه إلى نظره في الأرض ثم حركه إلى القدرة الباهرة في خلق السماوات. وأسرارُ السماوات لا تحيط بها القدرات البشرية. الأبعاد بينها تقدر بالسنوات الضوئية. وما تحويه كل سماء منها مقدر تقديرا محكما من العليم الذي وسع علمه كل كبيرة وصغيرة. **(وهو بكل شيء عليم)**.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ
فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ
﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ
إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ

ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ
إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذۡ قُلۡنَا
لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾
وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا
هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا
كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ
حِينٖ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾
قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ
وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا
خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الملائكة: جمع ملك. والملك مخلوق من غير المادة لا يعلم حقيقته إلا الله خالقه. من طبيعته أنه غير قادر على فعل الشر فهو ممحض للطاعة. ولكل ملك مقامه ومهامه الموكولة إليه ينفذها حسب طبيعته تلك. وجماع ذلك وصف القرآن لهم **(لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)**[1].

خليفة: هو آدم وذريته. وأطلق عليه لفظ الخليفة بالنظر إلى أن قوى الأرض سخرت له فهو المتصرف فيها.

يفسد: يحول النافع فيها إلى ضار.

يسفك الدماء: يقتل غيره.

نسبح: التسبيح هو ما يصدر من الكائن من قول أو عمل يدل على تعظيم الله وتنزيهه عن النقص.

نسبح بحمدك: نعظمك تعظيما مقرونا بحمدك.

نقدس: التقديس تنزيه الله سبحانه عن كل نقص باعتقاد كماله المطلق والتعبير عن ذلك.

أنبئوني: أخبروني.

---

[1] سورة التحريم آية6

سبحانك: نعظمك وننزهك.

غيب: خلاف المُشاهد.

الحكيم: الذي لا يلحق ما فعله ولا ما دبره نقص بسب خفاء بعض الجوانب.

تبدون: تظهرون.

تكتمون: تخفون.

أبى: امتنع.

استكبر: امتنع عن قبول الحق تكبرا ظانا أنه أرفع.

رغدا: أكلا هنيئا وافرا لا يتعب في تحصيله.

أزلهما: الزلل الانزلاق، ومعناه في الآية فعل ما نهى الله عنه.

مستقر: مكان استقرار.

متاع: ما يستمتع به الإنسان من ملذات.

حين: الوقت يصح أن يكون وقت فناء العالم أو وقت موت كل شخص.

تاب: تاب العبد رجع عن المعصية إلى الطاعة نادما عما صدر منه وتاب الله على التائب قبل توبته وأعاد رضاه عنه.

التواب: القابل لتوبة المذنبين على كثرتهم، وتكررها منهم.

الآيات: جمع آية وهي ما يدل على أمر من شانه أن يخفى، وتطلق الآية على الحجة لأنها تظهر وجه الحق إذا خفي على المخاطب.

بيان المعنى الإجمالي:

بينت الآيات السابقة أن الله مكن الإنسان من الأرض ويسرها له، ثم انتقل القرآن لعرض قصة خلق الإنسان لعمارتها.

أعلم الله ملائكته أنه سيجعل في الأرض من هو متصرف فيها مكلف بعمارتها. ولم يتبين لهم كيف إن المستخلف هذا يستطيع أن يحقق الإرادة الإلهية مع أن فيه جوانب تنافي التصرف الرّشيد. فمن طبيعته أنه يغضب فيقتل خصمه وتستبد به شهواته فيفسد ويحول الصالح إلى ضار. فأعربوا عن استغرابهم مع ما يليق بهم من الأدب نحو الله قائلين نحن ننزهك ونحمدك ونقدسك.

كان الجواب مختصرا: إني أنا الله أعلم ما لا تعلمون.

ثم عرفهم بحكمته في استخلاف آدم وذريته في الأرض. وذلك بأن أعان آدم على معرفة أسماء الأشياء كلها. والتسمية مرحلة فوق معرفة الأشياء، إذ لا يستطيع أحد أن يسمي الشيء تسمية صحيحة، إلا بعد التمييز بين المتشابهات ومعرفة الخصائص. ثم أحضر آدم معهم وأحضر شريط الأشياء التي علّمها لآدم. وقال

لملائكته: أخبروني بأسماء هذه الأشياء التي هي حاضرة أمامكم، إن كنتم صادقين في تصوركم أن هذا المخلوق لا يصلح لعمارة الأرض. فأجابوا قائلين: ننزهك ربنا لا نعلم إلا ما علمتنا. إنك أنت العليم الذي وسع علمه كل شيء، البالغ الحكمة فيما قدره وأنجزه.

وبعد أن تبين عجز الملائكة عن الإجابة، قال الله تعالى: يا آدم أخبرهم بأسماء جميع الأشياء الحاضرة. وفعل آدم، فبين ولم يخطئ. فعندها قال الله تعالى لملائكته: ألم أقل لكم إني أعلم ما ظهر وما هو خفي مستور في السماوات والأرض، وأعلم ما تظهرونه وما هو كامن في بواطنكم.

ويتابع القرآن العرض بمشهد آخر: هو أمره سبحانه للملائكة بالسجود لآدم، لما ظهر من مزاياه. ويبدو المشهد وقد خر جميع الملائكة سجدا تنفيذا لأمر ربهم، يبقى كائن واحد رافعا هامته كان مأمورا مع الملائكة لما توجه الله بالأمر، وهو إبليس أبو الجن، امتنع من السجود استكبارا، ظانا أنه أعظم من آدم وأكرم منه، ويقول الله عنه إنه كافر قد استحكم منه جحود حق الخالق.

المشهد التالي في هذه القصة العجيبة التي ستتكرر في القرآن يتمثل في الجمع بين أمر الله ونهيه: أمر الله آدم أن يسكن مع زوجته الجنة. وأباح لهما أن يأكلا ما شاءا من ثمارها من أي مكان أرادا، ثمارا لا تنقطع، ولا يتعب آكلها لا في التحصيل عليها ولا في هضمها.

نهاهما عن شجرة في الجنة عرفهما بها وأحضرها أمامهما، وحذرهما أن يقتربا منها قربا يمكنهما من الأكل منها.

سكن آدم وزوجته الجنة ونعما ما شاء لهما النعيم، يعيشان في أفضل حال وأتم كرامة.

والشيطان يغلي حقدا للتكريم الذي خُصا به فمكر بهما، وسيأتينا في آيات أخرى كيف نفذ مكره. فارتكبا الخطيئة وأكلا من الشجرة التي مُنِعا من الأكل منها. ونالا جزاءهما العاجل فأُخرجا من الجنة محرومين من النعيم الذي عاشا في رخائه الأمد الذي قدر لهما.

أصدر الله أمره لهما أن ينزلا من دار الكرامة والنعيم ويتحولا عن تلك الحياة الرّغيدة الهنيئة إلى نوع آخر من الحياة، هي أقل منزلة وأكثر عناء. وهي دار مغالبة نابعة من حب كل فرد إيثار نفسه بالخير، وما يترتب على ذلك مما يوجب انتشار العداوات بين ذريته أو إن العداوة مستحكمة بين البشر وإبليس.

آدم في موقف رهيب وتحول مزعج، والمحنة عظيمة، والخوف من العقوبة بالسخط الدائم تحَرك عقله وقلبه لتصور المصير المجهول.

لم يبق آدم طويلا على هذه الحال حتى جاء اليسر بعد العسر تفضلا من الله، إذ ألهمه ربه كلمات لم يبينها القرآن، قالها آدم فتاب الله عليه. فانتهت أزمة آدم الكبرى.

وبعد أن أعلمه الله بتوبته عليه أمره ثانية أن يهبط من الموقع الذي هو فيه بعد خروجه من الجنة. وهو نزوله إلى الأرض التي سبق في علم الله أن يُسْكِنَهُ وذريته فيها ليعمروها مساعَدين بما ينزله عليهم من هداية على لسان رسله حتى يكون سعيهم فيما استخلفوا فيه سعيا محققا لحسن الخلافة. وأنه من تبع الهدى الذي ينزله الله يحقق لنفسه الطمأنينة فهو لا يخاف من المستقبل، ولا يحزن على ما فاته. وفي المقابل فإن الذين يرفضون ما جاء عن الله ويجحدون، ويكذبون الرّسل وما أقامه الله على الحق من أدلة بينة، فأولئك الملازمون لنار جهنم لا يفارقونها خالدين فيها لا مطمع لهم في العفو.

بيان المعنى العام:

هذه أول قصة في القرآن، موضوعها خلق آدم أول الناس وجودا وأب البشر جميعا. حدث عظيم اعتنى به القرآن وفصله في أكثر من سورة. واتصالها بالآية السابقة التي بين فيها أن الله خلق للبشر ما في الأرض جميعا، بَيِّنٌ.

وما ذكر في هذا الموقع من سورة البقرة يشمل المشاهد التالية:

30-وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة... مالا تعلمون.

المشهد الأول: يجمع الله الملائكة ويعلمهم أنه سيجعل في الأرض من يقوم على عمارتها ويتصرف فيها.

المشهد الثاني: تحير الملائكة حيرهم تركيب هذا المستخلف وخصائصه رأوا فيه أنه قادر على التعمير كما هو قادر على التخريب وأنه مؤهل للطاعة كما هو مؤهل للمعصية، وهكذا... فتوجهوا إلى الله طالبين أن يكشف حيرتهم وسألوا سؤال استفسار لا سؤال اعتراض: أتجعل عمارة الأرض بيد من هو قادر على الإفساد، واندفاعه لتحقيق مصالحه قد يصل به إلى قتل من يقف دون ذلك ؟ ويؤكدون مع الأدب الكامل معلنين ما استقر في عقيدتهم بقولهم: نحن نعظمك ربنا ونعتقد أنك الحكيم العليم وثناؤنا عليك ربنا متصل بنا لا يفارقنا (نسبح تسبيحا مقترنا بحمدك) وننزهك عن كل نقص لكمالك الذاتي. **(ونقدس لك)** ويجيبهم الله

جوابا قاطعا لسؤالهم: إني أعلم ما لا تعلمون. فنهاية المشهد حيرة لمعت في الأفق. خيوط حلها مُسْتَكِنَةٌ في علم الله الذي لا يغيب عن علمه شيء.

31- وعلم آدم الأسماء كلها...إن كنتم صادقين.

المشهد الثالث: قرب الله آدم، وحرك ما أودعه في باطنه من حب المعرفة، وأعانه على تبين الأشياء، ثم التحول بما حصل في باطنه من صورها إلى مرتبة وراء ذلك هي التعبير عن ذلكم الحاصل الذهني بالكلام الدال عليه. وذلك سر من أسرار استخلافه: الذي هو المعرفة واختزان ما عرفه في ذهنه ثم القدرة على إبلاغ الحاصل الذهني لغيره. واستقرت المعلومات في عقل آدم، وارتبطت المعرفة بالنطق والتعبير.

32-33-قالوا سبحانك لا علم لنا...تبدون وما كنتم تكتمون.

المشهد الرّابع: أحضر الله سبحانه الملائكة وعرض عليهم شريطا للموجودات التي علمها لآدم، وطلب منهم أن يُعَلِمُوه بأسماء ما قدم لهم بما يميز بعضها عن بعض في التعبير كتميزها في الواقع.

وكان جوابهم: تنزهك سبحانك، لا نعلم إلا ما علمتنا إياه، وفتحت لنا باب معرفته. لسان حالهم يقول إننا نجهلها وما عندنا من علم هو لا يتجاوز ما تفضلت علينا فعلمتنا إياه.

ويبرز هذا المخلوق الجديد آدم، ويخاطبه ربه في الجمع الحاشد: عَرِّفْهُم يا آدم بأسماء جميع الأشياء المعروضة. ويتقدم بما سبق له من تعليم إلهي لا خطأ فيه فيقرن بين كل شيء واسمه. وهي مرحلة النضج البشري. فإن الطفل يعمم في صغره الباكر، فكل مستدير قد يطلق عليه كرة. ثم كلما ارتقى ذهنه يخرج من التعميم إلى التدقيق فالتفاحة غير الكرة مثلا. ثم يسمو في معرفته فيفرق بين أنواع التفاح، ثم يسمي كل جزء مما تركبت منه التفاحة، ثم يسمو فيتعرف على خصائص كل جزء ويطلق عليه اسمه وهكذا.

وينبهر الملائكة من مزايا هذا الكائن المستخلف، ويخاطبهم ربهم عندها: ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض ؟ إن هذه الأشياء التي حوتها الأرض والسماوات أنا خلقتها وأنا أعلم بها ويتضمن ذلك أني أعلم من هو أقدر على تنفيذ إرادتي فيها. وأَعْلَمُ قبل تعبيركم ظواهر ما تعلنونه وما لم تعلنوه مما هو مكتوم عندكم.

34-وإذ قلنا للملائكة اسجدوا...وكان من الكافرين.

المشهد الخامس: أدرك الملائكة مزايا آدم التي أهلته للخلافة في الأرض، وتبين لهم مقام العلم للتأهل لشرف الاستخلاف، بما كشف لهم ربهم في المشهد السابق، فصدر الأمر الإلهي لجميع الحاضرين كي يعبروا عن هذا التقدير للعلم بأن يسجدوا لآدم. وبدا مشهد التكريم الرّائع بسجود الملائكة جميعهم، وبقي كائن واحد شذ في المشهد وانحرف ولم ينفذ الأمر، هو إبليس الذي كان من الجن من غير جنس الملائكة وكان يعيش معهم وشمله الأمر. ويشهّر القرآن بعصيانه ويشرح علة فساده بأنه رأى نفسه أعظم من آدم، وحمله طغيانه على عصيان الله. وفي امتناعه من السجود، زيادة عن المعصية ورفض الاستجابة للأمر، أن مؤدى استكباره نفي الحكمة عن الله في أمره بالسجود لآدم، فهو مُعَرِّض بنفي الحكمة عن الله، وذلك كفر يوجب أن يكون إبليس من جملة الكافرين بالله، لا يختلف عنهم لأن الكفر كما يُطْبَعُ به صاحبه بالرّفض لوحدانية الله يطبع به أيضا بالاعتراض عليه وتحكيم الرّأي في أوامره ونواهيه برفضها أو قبولها.

35- وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك... فتكونا من الظالمين.

المشهد السادس: افترق في هذا المشهد الحاضرون إلى ثلاثة أقسام:

1) الملائكة المنفذون لأمر ربهم وقد أدركوا سر استخلاف آدم وسجدوا له.

2) إبليس المتعاظم المستكبر، وقد نزل عن المرتبة التي كان عليها من رفقة الملائكة ودخل في زمرة الكافرين.

3) آدم وزوجه وقد كرم آدم بالعلم ثم بسجود الملائكة ثم بالإذن له في سكنى الجنة، مع زوجه وهو حسب طبيعة خلقه محتاج لتستمر حياته أن يأكل ويشرب ويوفر لبدنه مقومات بقائه. ويطلق الله لهما الحرية في الانتفاع بما حوته الجنة من نعيم لا ينفد من متنوع أشجارها وسوائلها ومنتجاتها، لا يلحقهما في ذلك تعب ولا جوع ولا عطش. ومن بين أشجار الجنة، التي لا يبلغها التعداد، يعين لهما شجرة ويحضرها لهما فيتعرفان عليها تعرفا يجعلها لا تختلط بغيرها من شجر الجنة وينهاهما ربهما أن يقرباها أو يأكلا منها. ويؤكد النهي بأن القرب منها يدخلهما في زمرة الظالمين، بعصيان الأمر وبظلم النفس بالحرمان من النعيم.

36- فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما...مستقر ومتاع إلى حين.

المشهد السابع: آدم وزوجته وقد ألفا الجنة ونعيمها، فارتخت عزيمتهما واقتربا من الشجرة التي حرمها الله عليهما وأكلا منها. ويكسى آدم وزوجه ثوب الخطيئة ومخالفة الأمر بفعل المنهي عنه، وللشيطان دور كبير فيما قام به من وسوسة

وتزيين الأكل منها. وتبرزهما الآية وهما خارجان من الجنة لا يستطيعان البقاء فيها لحظة بعد ذلك، كأن الجنة قذفتهما إلى الخارج. وما أشد حسرتهما عندما يأتيهما النداء الجازم يتضمن ثلاثة أمور:

الأول: أمر بالهبوط والنزول، أمر ينهي ما خولهما عندما قال: وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة. وهو حرمان لهما ولعقبهما من الذرية من دخول الجنة في الدنيا.

الثاني: أن العلاقة بين ذريته لا تكون علاقة ود دائم ومحبة مسترسلة وإخاء. إنهما لما كانا في الجنة ما كان تحصيل الرّزق يهمهما ولا الخوف من النقص يخطر على بالهما، فلما أخرجا من الجنة وتبعهما الذرية فإن الحياة الدنيا يرافقها التغالب وحب الاستئثار بالخير، والخوف من المستقبل، وكل ذلك مما يثير التنازع والتنافر.

الثالث: أن كوكب الأرض هو المتسع الحيوي الذي يعيش فيه وذريته، يستمتعون بالخيرات المنبثة فيه. فليست الأرض التي مكن من الحياة فيها دار عذاب بل فيها من المتاع ما قدره الله فيها لبني الإنسان، وذلك إلى الأجل الذي قدره الله في سابق علمه.

ملاحظة:

سوى القرآن بين آدم وحواء ولم يُلْق بالمسؤولية على حواء، ولم يلق باللائمة عليها وحدها، على أنها استدرجت زوجها لارتكاب المعصية بل حملهما معا جريرة المخالفة للأمر بالأكل من الشجرة ، وخاطبهما معا بالخروج من الجنة كما خاطبهما عندما أدخلهما الجنة. وفي هذا رفض لما نقله اليهود والنصارى من أنها هي التي طوّعت زوجها للأكل وأنها سبب البلاء.

فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٩﴾

37-فتلقى آدم...الرّحيم.

المشهد الثامن.

يذهب التصور ما يشاء في تقدير حالة آدم عليه السلام وهو خارج من الجنة، محروم منها، لابسا ثوب المعصية النازلة به عن مرتبة الكرامة التي كان عليها من تقدير

الملائكة له، يجهل مصيره وتتحرك نفسه اللوامة. وسنة الله أنه يعقب الضيق بالفرج، فتتفتح روح آدم ليتلقى من ربه كلمات هي مفتاح لرضوانه عليه، وهي كلمات لم يفصلها القرآن في هذا الموضع ولكنها تشير إلى إعلان التوبة والندم والابتهال إلى الله أن يغفر له.

أي فرحة تهز آدم وقد أعلن الله أنه تاب عليه! وهو فضل الرّحمن الرّحيم لا يختص به آدم، فالله هو التواب يعفو عمن أذنب ورجع إلى باب فضله سائلا، ولنفسه الآثمة مؤنبا ولائما. إنه هو الرّحيم الذي شملت رحمته خلقه، فتحها لمن زل ثم التزم طريق الهدى وآوى إلى ربه تائبا.

38-قلنا اهبطوا منها جميعا...يحزنون:

مع الفرحة العارمة التي يظهر فيها آدم وقد تقبل الله توبته ورفع عنه إثم خطيئته، يأمره الله تعالى بالمضي إلى الأرض التي سيعمرها وتعمرها ذريته من بعده، ويعلمه أن بقاءهم فيها مقرون بثقل التكليف والمسؤولية، مع بيان أن هذا التكليف يرفقه اللطف ببعثة الرّسُل يبينون لذريته الطريق الذي يرضى عنه خالقهم ويساعدهم على النجاح في تحمل ثقل المسؤولية. مؤكدا أنهم يضمنون باتباع الهدى الذي يبين معالمه رسل الله أمرين كبيرين:

أ- أنهم يفوزون بالطمأنينة في الحياة الدنيا والآخرة، فلا يقرب الخوف قلوبهم ولا يشل حركتهم،.

ب-وأنهم لا يحزنون على ما فاتهم إذ أن سلوكهم كان على وضاء المنهج الإلهي.

39-والذين كفروا وكذبوا...خالدون.

وفي المقابل فإنه يحذر من يرفض قبول ما يبلغه رسل الله جاحدا لما تقتضيه العبودية لله مكذبا بالآيات البينات التي تحرك القلوب والعقول الدالة على أن الله هو وحده الخالق المتصرف، وعلى صدق المرسلين من المعجزات. فيكون التحذير لذرية آدم من يوم نزل آدم إلى الأرض وما لحق نزوله بواسطة رسالات الله للبشر، وإيماء إلى رسالة النبي محمد ﷺ ، المؤيد بالقرآن هذا الكتاب الذي اختص بأن كل وحدة من وحداته آيةٌ. التكذيب بها كفر. ويستحضر الكفرة المكذبون بآياته في ختام المشهد بأنهم مسوقون في النهاية إلى النار التي ارتبطت بهم وارتبطوا بها (**أصحاب النار**) لا ينفك عنهم مهانتها ولا يخفف عنهم من عذابها خالدون فيها أبدا.

وإذا كانت المشاهد السابقة تعرض علينا خلق الإنسان وما حف به، فإن هذه الآية تدخلنا معشر البشر في المشهد. إنه بين البشارة والإنذار يتحرك القلب ويستيقظ

العقل، وينتبه كل تال ليرى منزلته ومآل سلوكه في هذه الحياة مقررا يتحقق نفاذه يوم القيامة.

من عبر القصة:

هذه القصة تسجل قيمة العلم فبالعلم تقدم آدم للاستخلاف في أرض الله، وبالعلم سجد الملائكة لآدم، وهذا ما يفرض على المؤمنين أن يحترموا العلماء، وأن يتقدموا في التخصص العلمي إلى أبعد مقامات التخصص. كما تُنَبِّهُ إلى أن الاستكبار أساس الخطايا وجالب البلايا. أن باب التوبة مفتوح لبني آدم، وأن المؤمن لا يقنط من روح الله.

يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ

إسرائيل: يعقوب بن إسحق بن إبراهيم عليهم السلام.

اذكروا: لتكن حاضرة في أذهانكم.

أوفوا: حققوا.

العهد: ما التزم به اليهود من التوحيد وتطبيق شرائع موسى والإيمان بمحمد ﷺ. وعهد الله إليهم بالتكريم والعون.

ارهبون: خافوني

بيان المعنى الإجمالي:

دعا الله بني إسرائيل (اليهود) إلى أن يستحضروا دائما فيض النعم التي أنعم بها عليهم وعلى أسلافهم، وأن يحققوا في الحياة ما أخذ عليهم من مواثيق التزموا بها. وأنهم إن وَفَّوْا بعهودهم أنجز لهمم ما وعدهم. وشدد عليهم أن لا يرهبوا أحدا إلا الله مهما اختلفت الظروف والأحوال.

بيان المعنى العام:

4-يابني إسرائيل اذكروا....وإياي فارهبون.

تكرر في القرآن دعوة بني إسرائيل ليكفوا عن الكيد للإسلام، وتذكيرهم بما أنعم الله على آبائهم، وتقريعهم بمتنوع مظاهر عنادهم وجراءتهم وبمختلف المكائد التي كانت ديدَنهم في التعامل مع الآخرين، وبما صنع آباؤهم مع رسول الله إليهم سيدنا موسى عليه السلام ومع الأنبياء الذين توالوا فيهم، مما سيأتينا تفاصيله في سور القرآن الكريم.

صلة خطاب بني إسرائيل بالآيات السابقة:

دعا الله البشر جميعا لعبادته في الآيات السابقة (**يا أيها الناس اعبدوا ربكم**) الآيات 25/21 – ثم قص عليهم قصة خلق أبيهم آدم وأنه سيبعث لهدايتهم رسله. وأقدم وحي باق عند البعثة المحمدية هي التوراة التي أنزلت على سيدنا موسى ﷺ . وقد استحفظَ عليها بني إسرائيل. ولكن التوراة قد اختلط فيها صادق الوحي بإضسافات بشرية، وحرف اليهود عبر القرون ما حرَّفوا وكتموا منها ما كتموا. وهم يدعون أنهم وحدهم الماسكون للحقيقة. فتوجهت عناية القرآن إليهم ليقرعهم بالحقائق التي أخفوها، وبالتحريف الذي غيروا به ما استحفظوا عليه، ويدعوهم إلى معاضدة الحق الذي جاء على لسان محمد رسول الله ﷺ، فينصروا دينه ويتبعوا شريعته. وتتابعت الآيات في هذه السورة مفصلة ما ذكرناه. النداء في هذه الآية من الله إلى بني إسرائيل يوقظهم ليكونوا على ذُكر للأمور الهامة التالية:

أولا: أن يكونوا مستحضرين دائما للنعم الكثيرة التي أنعم الله بها عليهم حاضرة في قلوبهم جارٍ ذكرها على ألسنتهم. لم يفصل النعم هنا في هذه الآية، وسيرد تفصيلها في مواقع كثيرة من القرآن.

وذكرهم ثانيا: بالعهود التي قطعوها على أنفسهم، وسيأتي تفصيلها أيضا، كالمحافظة على شريعة موسى وعدم تغييرها، والإيمان بمحمد ونصرته، وقبول ما أتى به من ربه وافق رغباتهم ومخططاتهم أو خالفها.

وذكرهم ثالثا: بأن ما ضمنه لهم من النجاة والفوز مرتبط بالوفاء بعهودهم، مشعرا لهم أنهم إذا قصروا ضاع عنهم ما كانوا يرجون.

وحرك مشاعرهم في ختام هذا النداء بأن عليهم، مهما اختلفت بهم الظروف والأحوال وبرزت دواعي الإقدام والإحجام، عليهم أن لا يرهبوا ولا يخافوا أحدا إلا الله. وما ذلك إلا لأن خوف الله أساس صلاح الإنسان في عقيدته وسلوكه.

وَءَامِنُواْ بِمَا أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾

بيان معانى الألفاظ:

المصدق: الدال على صدق ما في كتبهم.

تشتروا: تستبدلوا.

بيان المعنى الإجمالي:

يا بني إسرائيل آمنوا بالوحي الذي أنزلته على قلب محمد المؤكد لما تؤمنون به في جوهره، ولما كان مصدقا لما معكم ،فالواجب يقتضيكم أن لا تكونوا مسارعين للكفر به ورفضه، ولا تبيعوا ما تقرر من الهدى بثمن قليل من الحظوظ العاجلة.

بيان المعنى العام:

41-وآمنوا بما...فاتقون.

يترتب على دعوتهم للوفاء بالعهود أن يؤمروا بالإيمان بما أنزله الله من وحي على لسان رسوله محمد ﷺ ، لأن ما جاء به يؤكد في جوهره ما معهم من وصايا أنبيائهم. ويشنع على من سبق منهم إلى الكفر به ورفضه. ثم تشير الآية إلى أنه لا يبرر الاستعجال بالكفر به، إلا حظوظ دنيوية خسيسة يستبدلون بما عندهم من صريح الحق وشريف الإيمان وعزم العهود، يستبدلون بذلك ثمنا بخسا من متاع الدنيا وحظوظها الرّخيصة، سواء أكانت مالا أو رئاسة وتحكما، فجميعها لا وزن لها أمام ما وعدهم الله من الثواب والنصر والكرامة **(وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم)**. وجماع ذلك هو ما ينبغي أن يعمر به قلوب المخاطبين من تقوى الله التي بها يحمي المكلف نفسه من غضب الله وعقابه.

وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

لا تلبسوا: لا تستروا الحق بالباطل حتى يخفى.

كتمان الحق: إخفاؤه وعدم إظهاره.

بيان المعنى الإجمالي:

يا بني إسرائيل لا تخلطوا الحق بالباطل حتى يسبق الباطل ويخفى الحق لا تقصدوا لذلك وأنتم تعلمون الحق.

بيان المعنى العام:

42-ولا تلبسوا الحق...تعلمون.

نهى الله بني إسرائيل عن تضليل الناس بخلط الحق بالباطل حتى يسبق الباطل ويضيع الحق. إن مما بلغهم إياه موسى عليه السلام من الوحي: ما أوصاهم به وشدد عليهم من نشر كلمة الله وعدم كتمانها **(وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه)**[1]. إن إيقاع الناس في الضلالة تعظم شناعته إذا كان ع ن

[1] سورة آل عمران آية 187

عمد، بحيث يعلم المضل الحقيقة ويغش غيره فكريا ليضله. إن في نهي بني إسرائيل عن التمويه والتدليس والتلبيس فيما يعلمون حقيقته، إيقاظا للمؤمنين حتى لا يسيروا في طريق الضلال بتزييف الحق والترويج للباطل.

وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

إقامة الصلاة: الإتيان بها كاملة.

الرّكوع: انحناء الظهر ليُكوّن مع الرّجلين زاوية قائمة.

بيان المعنى الإجمالي:

يا بني إسرائيل اقرنوا الإيمان بمحمد بإقامة الصلاة وأداء زكاة أموالكم والاندماج مع المؤمنين في العبادة.

بيان المعنى العام:

43- وأقيموا الصلاة...الرّاكعين.

أمر بني إسرائيل بعد أن فرض عليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ في الآية السابقة (**وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم**) أمرهم أن يقرنوا الإيمان الباطني بالقيام بشعائر الإسلام: فأمرهم بالصلاة على الطريقة التي يؤديها عليها المسلمون فيركعون مع الرّاكعين، وأن يقوموا بواجبهم في التضامن الاجتماعي بإبلاغ زكاة أموالهم لمن يستحقها.

۞ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

البر: جماع الخير في العقيدة وفي الفعل.

النسيان: ذهاب ما في الذاكرة.

تتلون الكتاب: تقرأون التوراة .

بيان المعنى الإجمالي:

ينكر القرآن على يهود دعوة غيرهم إلى الاستقامة وفعل الخير والتزام طريق الفضيلة عقيدة وسلوكا وقولا، وهم يخالفون ما يبينونه للناس مع أنهم يتلون التوراة التي تنهاهم عن الخداع.

بيان المعنى العام:

44-أتأمرون الناس...أفلا تعقلون.

صورة الخطاب صورة سؤال وجهه الله إلى بني إسرائيل. وهذا السؤال لا يقصد منه تلقي الجواب، ولكن يراد منه توبيخ يهود وإنكار منهجهم، ذلك أنهم يَدْعُون إلى فعل الخير والاستقامة والتحلي بالفضائل، ثم إنهم في حياتهم يمثلون صنوفا من الشر والرّذيلة والخداع. ويفضح تناقضهم هذا بأنهم يقدمون على الشر وهم يتلون التوراة التي تنهاهم عن ذلك، وتذكرهم بالعواقب الخاسرة لهذا الخداع. كأنهم فقدوا عقولهم فأصبحوا كالأنعام بل هم أضل.

ونظير هذا الاستفهام أن تقول لمن أهان والده: أتهين والدك وقد حنا عليك ورباك صغيرا؟ فأنت تقصد إلى توبيخه ولا تطلب منه جوابا.

وفي هذا الإنكار والتوبيخ ما يوقظ المؤمنين أن لا يسلكوا مسالك يهود من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم فعل المنكرات وترك المعروف.

وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الاستعانة: طلب ما يتأيد به الإنسان ويتقوى به.

الصبر: قوة في النفس تثبُت بها عزيمة الإنسان على تحقيق ما هو خير له في العاقبة وإن كان مخالفا لرغباته العاجلة وكذلك تقبل الواقع المؤلم أو المزعج دون شكاية ولا ضجر.

الصلاة: الرّكن الثاني من أركان الإسلام.

لكبيرة: ثقيلة شاقة.

الخاشعين: الخشوع حالة باطنية تجعل الخاشع متذللا مطمئنا للعبادة تظهر آثارها في سكون الجوارح وعدم الاشتغال بغير ما هو مقبل عليه في تلك الحال.

يظنون: يتيقنون.

ملاقوا ربهم: راجعون إليه ليحاسبهم ويجزيهم.

بيان المعنى الإجمالي:

أرشد القرآن بني إسرائيل أن يستعينوا للثبات على الدين الحق (الإسلام) بالصبر عليه وإن فاتهم بذلك بعض الحظوظ العاجلة، وبإقامة الصلاة، رغم أن المواظبة عليها أمر شاق إلا على الذين سكنت قلوبهم لذكر الله متيقنين أنهم سيقفون ين يديه ويعودون إليه ليحاسبهم ويجزيهم.

بيان المعنى العام:

45-46: واستعينوا بالصبر...راجعون.

اليهود حسب تربيتهم وما عمرت به أدمغتهم شديدو التعصب ليهوديتهم، ألفوا ذلك ورسخ فيهم حتى صار ملكة. فلكي يطمئنوا بالإسلام الذي دعاهم القرآن إليه، أرشدهم ليستعينوا بأمرين هامين:

أولهما: الصبر، بمعنى أن تكون عزيمتهم قوية ماضية، إن دواعي بقائهم على دين اليهودية قائمة من التكتل اليهودي وتعصبهم لبعضهم، ومن الرّئاسة التي لرجال الدين منهم والولاء لهم والطاعة، ومن اثر الإلف لما تعودوا عليه منذ بواكير صباهم من الطقوس والأعياد، ومن شدة المتمسكين باليهودية على من دخل منهم في الدين الإسلامي ورفضهم له. يهزم كل هذه الدواعي قوةٌ في النفس ومضاءٌ في العزيمة وتغليبُ الفوز في الآخرة على كل شيء، وبالإرادة الصلبة يتميز الرّجال في مقامات السمو الإنساني.

ثانيهما: إقامة الصلاة، وهو تكرير لما سبق في قوله تعالى **(واركعوا مع الرّاكعين)** ولما كانت الصلاة هي العبادة التي تتخلل فترات اليوم خمس مرات فهي التي تبقي الإنسان على صلة دائمة بربه، فتصقل روحه كلما أصابها غبشٌ من مخالطة المادة واللهث وراء المطالب العاجلة. وفي الصلاة أسرار عظيمة ندرك آثارها في يقظة الرّوح، والاستقامة، والسمو عن الدنايا وحظوظ النفس في دَرَكِ الخطيئة والإثم.

عبادة الصلاة نظرا لتكررها خمس مرات في اليوم والليلة، وما تقتضيه من طهارة بالوضوء أو الغسل، ومن طهارة المكان والثياب ومن إعداد الباطن ليتفرغ للمناجاة والإقبال على الله. لا ينهض بها إلا من استقر الإيمان في قلبه فاستمتع بالخضوع لمولاه، وبدا على جوارحه وأعضائه السكينة والانقياد فكان مستحضرا دوما موقنا جازما بأنه سيلقى ربه ويرجع إليه مجردا من كل قوة ومن كل نصير، وأنه سيحاسبه ثم يجزيه.

يَٰبَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

اذكروا نعمتي: لتكن النعم التي أنعمت بها على آبائكم حاضرة في أذهانكم لا يتطرق إليها النسيان.

اتقوا يوما: احذروا عذاب يوم.

لا تجزي نفس عن نفس: لا تقوم نفس بقضاء حق عن غيرها.

ولا يقبل منها شفاعة: لا يقبل منها أي وسيط يظن أن له مكانة لجلب نفع، أو لدفع ضر.

و لا يؤخذ منها عدل: ولا يؤخذ منها فدية تفدي بها نفسها من عذاب الله.

بيان المعنى الإجمالي

يكرر تنبيه بني إسرائيل إلى النعم الكثيرة التي أنعم بها على آبائهم، ويفرد منها نعمة تفضيلهم على العالمين في عصرهم، ويحذرهم من عذاب يوم القيامة اليوم الذي تتحدد فيه مسؤولية كل شخص عما قدم فلا شفاعة في ذلك اليوم ولا يقبل أي عوض عن التقصير، أو ما تعلق بالنفس من مظالم.

بيان المعنى العام:

47-48: يا بني إسرائيل...ولا هم ينصرون.

يتواصل توجه القرآن إلى بني إسرائيل ليطوعهم لقبول الإسلام والدخول في دين الله الخاتم. يوقظهم ليكونوا ذاكرين ما أنعم الله به على آبائهم، ذلك أنه من المعلوم أن الانتساب إلى المميَّزين من البشر يعطي للأخلاف مكانة وعزة بذلك الانتساب ومن النعم التي خصها بالذكر أنه فضل آباءهم على جميع معاصريهم. وتفضيلهم كان ببعث الرّسل والأنبياء منهم وتمييزهم بحمل هداية الله، وبالكتاب المنزل (التوراة) وبأن التوراة التي أوتوها بقيت المرجع للهداية حتى في عهد عيسى عليه السلام. وتَأَثُّرُ بني إسرائيل بتلك النعم أعدهم للتعمق في فهم الوجود مما كان له مدخل في خروجهم عن الأمية وشرفوا بمخاطبة القرآن لهم أنهم أهل الكتاب.

ويقصد القرآن بهذا التذكير نزع ما توهمه بنو إسرائيل أن ذلك التكريم هو لأمر ذاتي فيهم، فأيقظهم ليخلصوا أنفسهم من الغرور بتلكم النعم. وإن مما يقتضيه الإكرام والتفضل بالنعمة أن يكونوا أوفياء لما نزل على لسان موسى عليه السلام بما أمرهم به من اتباع الرّسالة الخاتمة. والتكريم لا يقتضي الانفلات من تحمل المسؤولية، بل بالعكس فكلما ارتفع مستوى الإنسان كلما كان ذلك مما يقتضي منه أن يكون أحرص على الكمال والبعد عن التَّسَيُّبِ ، فحذرهم من عذاب يوم القيامة. هذا اليوم الذي يتحمل فيه كل فرد نتائج عمله فلا يقوم أحد مقام غيره ولا شفاعة تخرج الكافر من العذاب، ولا يقدم أي بديل ولا فدية عما يكون الفرد مطلوبا به، ومن أين الفدية وكل الناس فقراء في ذلكم اليوم. لا يملكون إلا ما قدموه من الأعمال الصالحة.

وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾

بيان معانى الألفاظ:

آل فرعون: الآل بمعنى الأهل، وفرعون حاكم مصر، وآله قومه وأعوانه وخاصته وأتباعه.

يسومونكم سوء العذاب: يذيقونكم أسوأ العذاب ويعتبرونكم حقيقين بذلك.

يستحيون: يبقون نساءكم أحياء.

البلاء: الامتحان والاختبار، ويكون بالخير ليظهر الممتحَن بالنعمة شكرها أو كفرانها، وتكون بالشر ليظهر المبتلى مقدار صبره وتحمله أو جزعه.

بيان المعنى الإجمالي:

يوالي القرآن على بني إسرائيل تعداد النعم التي أنعم بها على آبائهم فيقول: اذكروا إذ نجينا آباءكم من ظلم فرعون الذي نفذت أحكامه فيكم، يسلط عليكم أسوأ العذاب: يذبح ذكوركم ويبقي نساءكم. لقد كان امتحانا شديدا.

بيان المعنى العام:

49- وإذ نجيناكم... عظيم.

يعدّد القرآن ذكر النعم التي أنعم بها على بني إسرائيل، ويحفزهم إلى الوفاء بما تقتضيه. فقد نجاهم من بطش فرعون لما كانوا في مصر تابعين لحكمه، سلط عليهم زبانيته الذين بلغ بهم التنكيل ببني إسرائيل أنهم كانوا يذبحون أبناءهم كما تذبح الخراف، ويبقون على النساء.

عزم فرعون على استئصال بني إسرائيل وإذلالهم، فسلط عليهم أتباعه كلما ولد ذكر ذبحوه حتى ينقطع نسلهم، وسخروا الرّجال للأشغال الشاقة، واستبقوا النساء بدون رجال وفي ذلك إيماء إلى ما كانوا يريدونه من الاستمتاع بهن أو الخدمة. ولو لم تدركهم عناية الله للحقهم الفناء، ومن نجا منهم من الذبح فإنه يتأصل الذل فيه ويورّثه ما يتناسل منه. وإنه امتحان عظيم بشهادة رب العزة.

﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝٥٠﴾

بيان معانى الألفاظ:

فرقنا: فصلنا بعضه عن بعض.

بكم البحر: بسببكم.

بيان المعنى الإجمالي:

واذكروا يا بني إسرائيل نعمة فرق البحر بكم فنجوتم من طلب فرعون ونجوتم من الغرق، ونعمة إغراق عدوكم وإطباق البحر عليه وعلى أتباعه. وأنتم قد شاهدتم النعمتين.

بيان المعنى العام:

50-وإذ فرقنا...وأنتم تنظرون.

تفصيل للمنة السابقة في قوله تعالى **(وإذ أنجيناكم من آل فرعون)** أنجاهم الله لما أوحي إلى سيدنا موسى أن يخرج ببني إسرائيل إلى البحر الأحمر فيعبره. وتبعه فرعون بجنوده حتى لم يبق بينهم وبينه كبير مسافة. وانزعج بنو إسرائيل، فأوحى الله إلى سيدنا موسى أن يضرب البحر بعصاه، فضربه وانفلق البحر وسار موسى بقومه على يبس قاع البحر، ولما تبعه فرعون أطبق عليه وعلى جنوده البحر فغرقوا. وبنو إسرائيل يشاهدون الآيات المتتالية المؤيدة لنبيه سيدنا موسى عليه السلام.

وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

واعدنا موسى أربعين ليلة: حددنا له موعدا أربعين ليلة.

اتخذتم العجل: جعلتم العجل معبودا.

عفونا: عدم المؤاخذة بالذنب.

بيان المعنى الإجمالي:

وعد الله موسى عليه السلام أربعين ليلة ليمكنه من الشريعة الهادية، وفي هذه الفترة صنع السامري لهم عجلا من ذهب، له خوار، فعبده بنو إسرائيل على أنه إلههم، فكان ذلك منهم أعظم تجاوز للحق. وتظهر المنة إثر ذلك فيعفو الله عن هذه الجريمة رجاء أن يقدروها حق قدرها ويشكروا ربهم.

بيان المعنى العام:

51-52: وإذ واعدنا موسى...تشكرون.

بعد أن من الله على بني إسرائيل بإنجائهم من فرعون وإغراقه، أعلمهم موسى أن الله سيمكنهم من الشريعة التي تبين لهم المنهج الذي يضمن لهم الهداية في علاقاتهم الاجتماعية وفي علاقاتهم بالكون. وأن الله ضرب له ميعادا أربعين ليلة يتقرب فيها إلى ربه ويناجيه ليظفر بالشريعة الموثقة. وأقام عليهم مدة مغيبه أخاه هارون، وفي فترة مغيبه عنهم اتخذوا عجلا من ذهب على أنه إلههم، وتوجهوا إليه بالعبادة بالرّغم من أن هارون عليه السلام عمل على أن يثنيهم عن هذا الضلال المبين. (وسيفصل الله هذا الأمر في سور أخرى). ولكن الله بفضله وكرمه لم يطرد بني إسرائيل من رحمته، ولم يعجل لهم العقوبة الماحقة، بل تاب عليهم وعفا عنهم. وهي منة عظمى تثير في نفوسهم حياء مما اقترفوه وتقديرا لفضل الله عليهم مع أنه

لا عذر لهم في هذا الذنب العظيم، وذلك مما يوجب إيقاظهم لشكره سبحانه، على عظيم فضله.

وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

الكتاب: التوراة الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام .

الفرقان: المعجزات التي فرق الله بها بين الحق والباطل .

بيان المعنى الإجمالي:

اذكروا يا بني إسرائيل نعمة إنزال التوراة على موسى مع المعجزات التي أظهرت الفرق بين الحق وبين الباطل.

بيان المعنى العام:

53-وإذ آتينا موسى...تهتدون.

النعم التي أنعم الله بها على بني إسرائيل وعددها عليهم في هذه الآيات تقتضي أن يشكروا ربهم على ما أنعم به عليهم، ويحتِّم عليهم أن يؤيدوا الحق الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ. فمن هذه النعم أن الله جعلهم أهل كتاب منزل من عنده، وأن الله أيَّد رسولهم بالآيات المعجزة، رجاء أن تتفتح قلوبهم لهداية رب العالمين فيقومون بتأييد الحق ولا يرفضونه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

قوم موسى: هم الذين خلفهم لما ذهب لقبول الشريعة.

ظلمتم أنفسكم: عصيتم ربكم وجنيتم على أنفسكم.

توبوا: ارجعوا عن المعصية إلى الطاعة.

البارئ: هو الخالق بتقدير محكم، ينقل المخلوق من حال إلى حال.

تاب: عفا عن الذنب.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن ما دار بين موسى وقومه بعد أن وجدهم يعبدون العجل، فأمرهم أن يقتلوا أنفسهم ليطهروها من الخطيئة، وقاموا بذلك، إلى أن أنزل الله توبتهم، فرفع عنهم القتل، والله هو التواب الرّحيم بعباده.

بيان المعنى العام :

54-وإذ قال موسى لقومه... إنه هو التواب الرّحيم.

نعمة أخرى من النعم التي أنعم بها الله على بني إسرائيل ذكرهم بها. وهي أن الله أوحى إلى موسى عندما رجع من ميعاد ربه يحمل ألواح التشريع، ووجد قومه عاكفين على عجل من ذهب يعبدونه. أوحى الله إليه أن يخاطب قومه مسجلا عليهم أنهم قد ظلموا أنفسهم ظلما كبيرا بعبادة العجل، إذ قطعوها عن خالقها وباريها وربطوها بذلكم العجل. وأمر قومه أمرا جازما أن يطهروا أنفسهم من هذه الخطيئة الشنيعة، وأن يتوبوا على الطريقة التي يقبل الله بها توبتهم، وذلك بأن يقتل بعضهم بعضا. وقاموا بذلك وقبل أن يفنوا بالقتل تداركهم لطف الله فعفا عنهم ورفع القتل عنهم، على أن من قُتِل كان شهيدا، ومن بقي حيا مُحيَتْ زلته وقبلت توبته. وهذه الرّحمة الإلهية العظيمة ليست غريبة عن الله، فهو التواب الرّحيم، يغفر الزلات، ثم يعود بالرّحمة على التائب. الرّحمة التي يتبعها محو آثار الخطيئة والإثم، ثم التفضل والتكريم.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

جهرة: رؤية ظاهرة واضحة.

أخذتكم الصاعقة: استولت عليكم صاعقة، نار كهربائية تنزل عادة من خلال السحب المتراكمة وخاصة البركانية.

بعثناكم: أرجعنا لكم الحياة.

بيان المعنى الإجمالي:

بكل رقاعة واجه بنو إسرائيل موسى بقولهم: إنا لا نؤمن برسالتك في المستقبل حتى تمكن أبصارنا من النظر إلى الله بكل وضوح، فأخذتهم نار أزهقت أرواحهم لعظم الوقاحة والذنب الذي صدر منهم، ثم عفا الله عنهم وأحياهم، رجاء أن يشكروا هذه النعمة الكبرى نعمة الإحياء.

بيان المعنى العام:

55-56: وإذ قلت ياموسى...لعلكم تشكرون.

واقعة أخرى ظهرت فيها المنة وأسعفهم الله بعفوه. ذلك أن بني إسرائيل واجهوا موسى عليه السلام بصفاقة غريبة، فقالوا له: لن نؤمن برسالتك حتى تمكننا من النظر بأبصارنا إلى الله رؤية واضحة بينة، لا يدخلنا فيها شك أن الذي نبصره هو الله الذي تدعونا لعبادته. وهذا تجاوز للحدود وصفاقة بعد ما رأوا من المعجزات المتوالية المؤيدة لسيدنا موسى﷤. وعندها عاقبهم الله بأن سلط عليهم قوى كهربائية خطفت أرواحهم في الحين – قد تكون من نوع الصواعق التي تحملها السحب الكثيفة السوداء–ثم إن الله بعد ذلك عفا عنهم وأرجع لهم أرواحهم، فعادوا للحياة كما كانوا. ولو لم يدركهم عفوُ الله ورحمته لانقطع وجود بني إسرائيل. إنه لنعمة يفضي إدراكها لشكر المتفضل عليهم، من الذين أحياهم وممن يأتي بعدهم لمَّا لم يستأصلوا استئصالًا يمحقهم ونسلهم من الوجود.

وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الغمام: سحاب أبيض يلطف حرارة الشمس ولا يظلم الأرض.

المن: مادة صمغية فيها حلاوة، تنزل في بعض البوادي مع الصباح، تجمع وتعالج، صالحة لأن تقتات.

السلوى: طائر دون الحمام طيب اللحم.

كلوا من طيبات ما رزقناكم: إذن بالأكل مما رزقوا مع وصفه بأنه لذيذ الطعم

بيان المعنى الإجمالي :

يوالي القرآن تذكير بني إسرائيل بالنعم التي أنعم بها على آبائهم، ومنها أنهم لما كانوا في صحراء سيناء تائهين لطَّف عليهم حرارة الصحراء بسحاب أبيض رقيق وأنزل عليهم المن فكانوا يلتقطونه كل صباح ويطبخونه، وسخَّر لهم طيور السُّماني، يمسكونها ويستمتعون بلذيذ لحومها، وأذن لهم في الانتفاع بذلك.

بيان المعنى العام :

57-وظللنا عليكم الغمام...يظلمون.

تتوالى آيات سورة البقرة مذكرة بني إسرائيل بالنعم التي أنعم الله بها عليهم وعلى آبائهم، وبما أن القرآن سيفصلها في مناسبات أخرى كان ذكرها هنا مختصرا. كان

بنو إسرائيل في صحراء سيناء تائهين، وشأن الصحراء أن تكون شديدة الحر في النهار قاحلة. لطف الله بهم في وضعهم هذا من نواح ثلاث: غطى سماء الصحراء بسحب بيضاء تنكسر على طبقتها العليا أشعة الشمس فتحميهم من حرها، دون أن تظلم عليهم الرؤية. أنزل عليهم مع الصباح مادة حلوة تلتصق بأوراق الشجر يمكن جمعها وتعالج كما يعالج الدقيق، ويصنع منها خبز الملة. فضمن لهم أقواتهم بدون تعب. بعث لهم طيور السمانى (السلوى) وسخرها لهم يمسكونها بسهولة، يذبحونها ويأكلون لحومها ذات الطعم اللذيذ. ومن تمام النعمة أنه أذن لهم في الانتفاع بكل ذلك حتى يكونوا مطمئنين إلى أن الله أباحها لهم. توالى موقف بني إسرائيل المستخف بالنعم التي افتتحت آيات سورة البقرة بتذكيرهم بها (**يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم**)[1] وتوالى فضل الله عليهم. فكان موقفهم هذا لا يضر الله شيئا، ولكنهم ظلموا أنفسهم بإفساد فطرتهم وتعرضهم للعقوبات التي لا تستأصلهم، ولكنها تفصح عن خروجهم عما يقتضيه الإنعام.

وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

القرية : البلدة المكونة من مجموع مبان. تطلق على المدينة الكبيرة وعلى البلدة الصغيرة .

من حيث شئتم: من كل مكان فيها.

رغدا: عيش رغد: طيب واسع.

سجدا: جمع ساجد، أي أن يدخلوا على هيئة السجود شكرا لله.

قولوا حطة: قولوا هذه الكلمة.

بدل: غير دون إزالة الأصل.

رجزا: عذابا.

يفسقون: يخرجون من الطاعة إلى المعصية.

---

[1] سورة البقرة ، آية 40

بيان المعنى الإجمالي :

قال الله لبني إسرائيل ادخلوا هذه القرية التي هي حاضرة أمامكم، وقد أبحت لكم أن تأكلوا من ثمارها وغلاتها من أي مكان شئتم، ادخلوا من بابها سجدا لي وقولوا (حطة) وإضافةً إلى ذلك سأغفر لكم جميع ما ارتكبتم في السابق من آثام، وسنزيد المحسنين فوق ذلك فضلا مني. ولكن بني إسرائيل ظلموا أنفسهم فبدلوا الكلام الذي أمروا أن يقولوه ؛فأنزل الله عليهم عذابا من السماء بسبب خروجهم عما حدده الله لهم.

بيان المعنى العام:

58-59، وإذ قلنا ادخلوا...بما كانوا يفسقون.

من الوقائع التي حصلت في عهد سيدنا موسى ما جاء في هذه الآية: توجهت إليهم عناية الله فقال لهم: هذه القرية التي أمامكم ادخلوها فقد ملكتكم خيراتها، كلوا من أي مكان منها ما شئتم رزقا طيبا واسعا، ادخلوها من بابها مستحضرين نعمة الله وفضله معبرين عن ذلك بالسجود لله.**(وقولوا حطة)**

فرض المفسرون لبيان مدلول هذه الكلمة فروضا كثيرة، والذي أنا مقتنع به: أن بني إسرائيل قد أمروا بأن يقولوا ما تؤديه هذه الكلمة (حطة) بلغتهم العبرانية، وقد يكون مفهومها ما يدل على الخضوع المناسب للسجود والتوبة إلى الله، لقوله بعد ذلك تغفر لكم خطاياكم، إذ الشأن في الفضل الإلهي أنه يعفو عمن طلب العفو، وخاصة إذا كان كلامه موافقا لما أذن فيه الله، كما رأينا في قصة آدم أن الله تاب عليه لما توجه إليه بالكلمات التي تلقاها منه. ثم فتح لهم باب الأمل ليستحثهم على الاستقامة بأنه سيزيد المحسنين منهم ما يرقى بهم عن منزلة الغفران للذنوب إلى مقامات أرفع غير محدودة. ولكن بني إسرائيل لغلظ أكبادهم، وتعودهم التمرد على الأوامر الإلهية، وإلفهم للعصيان وظلم أنفسهم بالخروج دوما من الطاعة إلى المعصية، غيروا ما أمروا به إلى كلام آخر قريب منه لا يؤدي نفس المعنى. وكان جزاؤهم أن الذين ظلموا فغيروا سلط عليهم عذابا نزل عليهم من السماء لم يستطيعوا منه توقيا ولا ردا. جزاء خروجهم عن الطاعة إلى المعصية. وفي هذه القصة ما ينبه المؤمنين إلى التزام التعبير الذي جاء عن الله في كل المناسبات التي قصر المكلفين على ذلك. كألفاظ القرآن، والدخول للصلاة وما يذكر فيها.

۞ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۖ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

استسقى: طلب الماء الذي يسقي به قومه.

انفجر: انفتح بقوة.

لا تعثوا في الأرض مفسدين: لا تفسدوا في الأرض فسادا كبيرا.

بيان المعنى الإجمالي:

نعمة أخرى ذكر بها القرآن بني إسرائيل وإن كانوا يعرفونها: عطشوا في برية لا ماء فيها فطلب موسى ﷺ أن يسقيهم، فأمره الله أن يضرب حجرا بعصاه التي كانت إحدى معجزاته، فضربه فانفجرت من الحجر الصلد اثنتا عشرة عينا، لكل سبط من أسباط بني إسرائيل مشرع يروى منه. ثم أعلن سبحانه لهم أنه أحل لهم أن يأكلوا هنيئا مما رزقهم الله، وأن يشربوا من ماء تلك العيون. ونبههم كي يتذكروا فضل الله عليهم ولا ينسوا هذه المنة فيفسدوا في الأرض أشد الفساد.

بيان المعنى العام:

60-وإذ استسقى موسى...مفسدين.

كان موسى عليه السلام حريصا على سلامة قومه، شأن الرّسل بما جبلهم الله عليه من الرّأفة والرّحمة، ولما كان في الصحراء أدرك قومه العطش، فتوجه متوسلا إلى الله أن يسقيهم، فأمره ربه أن يضرب الحجر بعصاه، التي جمع الله فيها أسرارا كثيرة وكانت مظهرا لكثير من معجزاته. ضرب موسى بعصاه، فتدفقت بقوة من الحجر الصلد اثنتا عشرة عينا بعدد أسباط بني إسرائيل، وألهم الله كل سبط من أسباطهم، فعرف المشرع الذي يشرب منه، لطفا بهم حتى لا يتدافعوا وقد أدركهم العطش، وتدفق الماء أمام أنظارهم صافيا شأن ماء العيون التي تتفجر من الصخور. ثم أذن لهم أن يأكلوا وأن يشربوا من الخيرات التي رزقهم الله، ونبههم بنهيه أن يفسدوا في الأرض أشد الفساد.

وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ

أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ۚ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُو بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

بيان معاني الألفاظ:

لن نصبر: لن نطيق الاستمرار.

طعام واحد: نوع واحد من الأطعمة لا يختلف.

البقل: نبات عشبي يتغذى به الإنسان دون علاج.

القثاء: نبات قرعي أطول من الخيار.

الفوم: الثوم ويطلق أيضا على الحب الذي يخبز.

الذي هو أدنى: الذي هو أقل قيمة وأخس.

مصرا: كل مدينة هي مصر ويمكن أن يراد منها مصر فرعون.

ضربت عليهم الذلة: قضي عليهم بالذل .

المسكنة: الفقر.

باؤوا: رجعوا وقد لزمهم.

يكفرون بآيات الله: يكذبون بها.

بيان المعنى الإجمالي :

مما عاناه سيدنا موسى من قومه أنهم قالوا له بكل صفاقة وتبرم من الخيرات التي ينعمون بها. إنهم لن يستطيعوا الاستمرار على المن والسلوى، أكل غير متنوع. ولذا فادع ربك أن يخرج لنا البقول والقثاء والثوم والعدس والبصل. أجابهم سيدنا موسى: عجبا لكم! أتطلبون الأقل قيمة وتبذلون في مقابله الأرفع والأفضل. انزلوا إلى أي مدينة فستجدون فيها هذه الشهوات الدنيئة. فانزلوا إلى أي مدينة من المدن فإنه يتوفر فيها ما تعلقتم به. وكان جزاؤهم أن ألزمهم الله الذل والفقر. وانقلبوا يصحبهم غضب الله عليهم. وفضحهم بما كانوا يقترفون من شناعات. فقد كانوا يكذبون الرّسل ويرفضون قبول معجزاتهم ويقتلون الأنبياء وهم الخيَرةُ من البشر، بدون مبرّر يحق به قتلهم وإنما هو ظلم شنيع. ذلك الغضب والذلة والمسكنة استحقوه بسب عصيانهم وتجاوزهم للحدود التي حدها الله.

بيان المعنى العام:

61- وإذ قلتم ياموسى...وكانوا يعتدون.

كان حرص سيدنا موسى ﷺ لتوفير ما يضمن لبني إسرائيل الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة حرصا كبيرا، شأن رسل الله الذين عمرت قلوبهم بحب الإنسانية وخاصة بالذين أرسلوا إليهم ؛ وكان يلقى من قومه صنوفا من العناد. قلوبهم قاسية سريعة التبرم كثيرة المطالب. أنقذهم من ظلم فرعون وزبانيته ورفع عنهم الذل، وأراهم من الآيات والمعجزات ما أكرمه الله به. وفي صحراء التيه حماهم من شواظ الحر الشديد، من شمس الصحراء الحارقة، بواسطة الغمام الذي تتكسر عليه الأشعة ويبقى النور المساعد. وفَّر لهم الله بدعائه الأكل الهنيء يصلهم دون عناء ولا جهد، ولا يعتريهم الخوف من انقطاعه، وتدفقت المياه صافية موزعة على أسباطهم. وفي كل مرة يذكرهم بأن ما أكرمهم به ربهم هو رجاء أن يشكروا نعمه كما ختمت به الآيات السابقة. وأول مراتب الشكر الشعور بالنعمة وبفضل مسديها والاجتهاد في طاعته. ولكن بني إسرائيل فسدت نفوسهم وهبطت هممهم بالرّغم مما بذله موسى ﷺ من جهد ليرفع مستواهم، ويهيئهم لتحمل الحفاظ على الرّسالة وعلى الكتاب المنزل (التوراة)، فسجل القرآن في هذه الآية وقاحتهم وجزاءهم.

قالوا: يا موسى لقد سئمنا هذه الحياة ولن نستطيع أن نستمر عليها في المستقبل. صرحوا بأن صبرهم، ولا يكون الصبر إلا على مكروه، صبرهم على ما توفر لهم من لحوم الطيور (السلوى) وما ينزل جديدا كل يوم مع الصباح ما يطبخونه ويعملون منه خبز الملة. صبرهم نفد وطلبوا منه على ما تعودوه من أن الله يستجيب دعاءه، طلبوا منه أن يدعو ربه، وهي وقاحة أخرى إذ نسبوا الله لموسى فقط، ولم يقولوا ربنا. ما هو طلبهم؟ أن يخرج الله لهم من الصحراء البقول والثوم والعدس والبصل.

قال لهم موسى منكرا عليهم: أترغبون أن يتوفر لكم الأقل قيمة والأحط في الموازنة، بدل ما أنتم ممكنون منه مما هو خير وأزكى طعما ومذاقا مع الاطمئنان على توفره؟ إذا كان همكم في تنوع الأكل، وهمَمُكم متعلقة بالأشياء الهابطة نازلة بكم عن عزمات المصلحين، فانزلوا إلى المدينة التي تتوفر فيها هذه الأشياء، وقد روي أن المراد بها أي مدينة أرادوا، وحمله بعضهم على مصر فرعون التي كانوا يقاسون فيها أنواع الذل والمهانة. ولما كانوا قد خرجوا بذلك عن التفضل الذي عودهم به، فلذا كان الظاهر أن يحمل الأمر بدخول مصر على غير الإباحة أو الإذن ولكن على التوبيخ أو التعجيز، لأنهم في الصحراء بعيدين عن الأمصار، وكذلك لا يتصور رجوعهم إلى مصر فرعون التي أنقذوا بالخروج منها. ويسجل القرآن ما ألزمهم به الله إلزاما لا ينفك، من الذلة والمسكنة، وأنهم رجعوا بأشد خيبة

أن غضب الله عليهم. وأن الله ما ظلمهم فقد دأبوا على الفساد والعمل على ما يوجب عقابهم، مما هو ديدنهم وهم مع موسى، وبعد ذلك في الأزمان المتلاحقة، من الكفر بالمعجزات المؤيدة للرسل، وحبْكِ الدسائس الكاذبة لقتل الأنبياء، فهم العصاة وهم المتجاوزون لحدود الله.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

الذين آمنوا: المؤمنون بمحمد ﷺ.

الذين هادوا: اليهود.

النصارى: أتباع السيد المسيح عليه السلام.

الصابين: جمع صابئ، فرقة دينية تؤمن بيحيى عليه السلام وتنفي النبوة عمن جاء بعده، استوطن معظمهم العراق، كما يوجد عدد منهم بجنوب إيران وفي فلسطين يوحدون الله. تقوم ديانتهم على التوحيد والتعميد والصلاة والصوم والصدقة. سنزيد تفصيل بعض ما يتعلق بهم عند شرحنا للآية 69 من سورة المائدة إن شاء الله.

بيان المعنى الإجمالي :

ينصف الله المؤمنين به فطَمأن المؤمنين بسيدنا محمد ﷺ ، وكذلك أهل الديانات السابقة من اليهود والنصارى والصابئة، من الذين أمنوا بالله وباليوم الآخر وبمحمد ﷺ وجمعوا إلى ذلك صالح العمل، طمأنهم بالفوز بثواب الله الذي ينتفي معه الخوف من المستقبل، والحزن على ما مضى.

بيان المعنى العام:

62-إن الذين آمنوا...ولاهم يحزنون.

طريقة القرآن في إصلاح البشر أنه يفتح لهم أبواب الأمل في رحمة الله فلا يطبق عليهم كابوس اليأس والقنوط، ولا يهملهم منفلتين من الضوابط التي بها صلاح أمرهم، فيقرن البشارة بالنذارة ووصف عذاب النار والمهانة، بوصف نعيم الجنة والرّضوان ويطلقها قاعدة تجعل الإنسان في ميزان الحذر والأمل "**إن مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا**". ولما كانت الآية السابقة قد ختمت بأن الله حكم على بني إسرائيل بالذل والمسكنة والغضب الذي يحرمهم من كل أمل في الرّحمة وهو حكم تُرْعَدُ له القلوب ويلقي في النفس أشد ما يكون من الخشية والخوف من سخط الله، عقب ذلك بفتح الأمل في قلوب الصالحين فقال تعالى: "إن الذين آمنوا بمحمد ممن

كانوا في عهده وممن سيلحقون بهم في بعيد الآماد، وكذلك اليهود والنصارى، والصابئين" وهم فرقة كانت تؤمن بالله خالق الكون ويلتزم أصحابها في حياتهم بالقيم الخلقية الجامعة للفضائل الأربع (العفة والشجاعة والحكمة والعدالة) ومنهم من لم يكن على هذه الحال. ولما كانت فرق الصابئة مختلفة، والمنقول عنهم أنهم يَتَخَفَّوْنَ ولا يعلنون عن عقائدهم، لذلك اختلف الفقهاء في إجراء أحكام أهل الكتاب عليهم فذكرت هذه الآية أن الذين آمنوا: الذين اتبعوا دين الإسلام وكذلك اليهود والنصارى والصابئين ممن جمع إلى الإيمان ما يقتضيه الإيمان من قبول كل ما جاء به النبي ﷺ، وطبق ما بلغه من تشريع فعمل الصالحات. هؤلاء يحقق الله لهم أجرهم تحقيقا مؤكدا بأن ذلك الأجر هو عنده سبحانه، وكفى بذلك دلالة على تيقنه وثباته. هذه الآية تقرر حقيقة كبرى تنادي في ضمير البشرية أن المسؤولية بما يتبعها من ثواب أو عقاب، هي مسؤولية فردية ترتبط أساسا بصلاح العقيدة، ثم بالوفاء لما تقتضيه وتهدي إليه من العمل الصالح الذي يرضي المعبود. وبهذا يكون بنو إسرائيل لا يشفع لهم نسبهم إلى إسحق ويعقوب وإبراهيم، كما لا يضر من آمن منهم وعمل صالحا بما فرط من أسلافهم من كفر وفساد وجراءة.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

أخذنا ميثاقكم: العهد الذي أخذ منهم بعد رفع الطور عليهم.

الطور: جبل.

خذوا ما آتيناكم بقوة: الزموا ما آتيناكم من التشريع بعزم على التطبيق.

واذكروا ما فيه: تدبروا ما تضمنه.

توليتم: أعرضتم.

بيان المعنى الإجمالي:

يذكر القرآن بني إسرائيل بالعهد الذي أخذه الله من آبائهم على العمل بالشريعة ثم نقضهم للعهد رغم ما شاهدوه من المعجزات وتوجه الله لهم مؤكدا عليهم بالعمل بذلك ثم إنهم رغم ذلك لم يعملوا به، وأنه لولا أن الله تفضل عليهم فعفا عنهم لكانوا من الخاسرين خسرانا أبديا.

بيان المعنى العام:

63-64: وإذ أخذنا ميثاقكم....لكنتم من الخاسرين.

اذكروا يا بني إسرائيل أنا أخذنا الميثاق بالعمل بالوصايا العشر من آبائكم الذين كانوا حاضرين عندما أتى موسى بالشريعة بعد تردد منهم، وما أذعنوا إلا عندما شعروا أن الجبل سينقض عليهم ويسحقهم إن لم يستجيبوا، وقلنا لهم خذوا هذه الشريعة بعزم على تطبيقها فما أنزل عليكم هو السبيل لحصول التقوى. ثم إنه بعد هذا الميثاق الذي أذعنوا إليه وصحب قبولَهم له من الآيات ما جعلهم يستسلمون ويعاهدون على العمل به، ثم إنهم بعد كل ذلك نقضوا ما التزموا به. ثم خاطبهم بقوله: ولولا فضل الله عليكم بشمول رحمته لكم وإسعافكم بعفوه لكنتم من الخاسرين خسرانا أبديا.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

اعتدوا: جاوزوا الحق بمخالفة ما أمروا به.

السبت: اليوم التالي ليوم الجمعة.

خاسئين: أذلاء حقيرين.

النكال: العقاب الشديد الرّادع للجاني ولغيره.

ما بين يديها: ما قارنها.

ما خلفها: ما سبقها.

موعظة: ما يرهب به للتحذير من الوقوع في الشر.

بيان المعنى الإجمالي:

حرم الله على قرية من قرى بني إسرائيل أن يعملوا يوم السبت فاحتالوا بأن نصبوا مصايد للأسماك يوم الجمعة ويجمعون ما يحصل فيها يوم الأحد. فعذبهم الله بمسخهم قردة إما في خلقتهم وإما في مداركهم، فكان عقابهم تنكيلا بهم لما صدر منهم في الحال ولما سبق، وموعظة للمتقين حتى لا يحتالوا على حدود الله.

بيان المعنى العام :

65-66: ولقد علمتم الذين اعتدوا...موعظة للمتقين.

أمر الله أهل قرية من قرى بني إسرائيل على البحر الأحمر أن يخصصوا يوم السبت لعبادة الله ولا يعملون فيه، وأن يأمن فيها كل الأحياء، فلا يحل لهم الصيد

في البر ولا في البحر. ولا حظوا أن الأسماك تظهر بكثرة في هذا اليوم، فاحتالوا لصيدها يوم السبت بأن نصبوا مصائد لها يوم الجمعة، ثم يجمعون ما يحصل فيها يوم الأحد. ويأتي الأمر التكويني من الله الذي أَمْرُهُ: **(إذا قال للشيء كن فيكون)** فمسخهم الله قردة. فهِمَ كثير من المفسرين أن الله حول خلقتهم إلى خلقة القردة. ويرى آخرون أن الله سلبهم قوة التفكير التي يمتاز بها الإنسان عن الحيوان، جزاء من جنس العمل، إذ هم بمكرهم صرفوا ذكاءهم للاحتيال على ما يريد الله تحقيقه منهم ليتمكنوا من تحصيل ما يرغبون فيه. وأرجح هذا التخريج استنادا إلى نظيره في قوله تعالى في الآية السابقة من سورة البقرة: **(يخادعون الله وهو خادعهم)** فنكّل الله بهم جزاء ما قاموا به. وكانوا بذلك عبرة للمتقين حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أهل هذه القرية.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ
أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ
إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ
﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ
لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ
عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ
وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟
يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

بيان معنى الألفاظ:

هزؤا: السخرية مع الاستخفاف.

لا فارض ولا بكر: ليست كبيرة سقطت أسنانها، ولا هي صغيرة.

عوان: متوسطة بين الكبر والصغر.

صفراء فاقع لونها: صفراء شديدة الصفرة.

تسر الناظرين: تدخل السرور على من ينظر إليها شأن النظر إلى الجميل من كل شيء.

تشابه البقر علينا: وجدنا ما وصفت لنا في أكثر من بقرة ولم تتبين لنا البقرة المقصودة التي كلفنا بذبحها.

لا ذلول: لم تستخدم لا في حرث الأرض ولا في سقيها.

مسلمة لا شية فيها: سليمة من العيوب نقية لا علامة فيها.

بيان المعنى الإجمالي:

يواصل البيان القرآني عرض قصص موسى ﷺ مع بني إسرائيل، تضمنت هذه القصة: أن الله أوحى إلى موسى أن يأمر بني إسرائيل أن يذبحوا بقرة. والأوامر الإلهية تقتضي أن يسرع المأمور بالطاعة بتنفيذ ما طلب منه إظهارا للعبودية له سبحانه. ولكن بني إسرائيل كشأنهم في الدوران والمماطلة والبحث عما يمكنهم من الانفلات من المطالب، واجهوا نبيهم بوقاحة فقالوا له: أتهزأ بنا وتسخر منا؟ فأجابهم عليه السلام واعظا، إن الاستهزاء بالبشر والإخبار عن الله بما لم يأمر به لا يليق بالأنبياء. فقالوا له: اطلب من ربك إذن أن يبين لنا ما هي صفتها ؟ فراجع ربه فأعلمه أنها بقرة وسط لاهي متقدمة في السن حتى سقطت أسنانها ولا هي صغيرة لم تكتمل، وعوض أن يستجيبوا عاودوا السؤال: اطلب من ربك أن يبين لنا ما لونها؟ فأجابهم: إنها بقرة صفراء خالصة الصفرة لونها عجيب يسر الناظر إليه. ولم يسرعوا بالاستجابة فقالوا: اطلب من ربك أن يبين لنا بيانا أتم لصفاتها ؟ فأجابهم إنها بقرة كريمة عند مالكيها، لم تذلل للخدمة فلم تحرث الأرض ولم تسق الحرث، صفاؤها واضح لا عيب فيها، ولا علامة خاصة على ظاهرها. عندها توقفوا عن الأسئلة وقالوا: الآن وضح ما طلب منا. فبحثوا عن البقرة الجامعة للصفات المذكورة وذبحوها. وحرمهم الله التيسير في القيام بالمطلوب لتعنتهم وتباطؤهم.

بيان المعنى العام:

67-71، وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم...وما كادوا يفعلون.

هذه قصة مما لاقاه سيدنا موسى ﷺ من تعنت بني إسرائيل وسوء أدبهم، تشمل القصة المشاهد التالية:

أولا: أوحى الله إلى سيدنا موسى أن يأمر بني إسرائيل بذبح بقرة. والأوامر الإلهية لا خيار للمأمورين في الاستجابة لما أمروا به. ولكن بني إسرائيل عوض أن يبادروا إلى الطاعة فَيَذْبَحُوا بقرة من البقر ويظهرون بذلك الطاعة، قابلوا الأمر بسوء الأدب، واتهام موسى ﷺ أنه يسخر منهم ويستهزئ بهم. **(قالوا أتتخذنا هزوًا)** ويتبرأ موسى من هذه التهمة ويستعيذ بالله منها، فإن السخرية بالبشر من فعل الجاهلين بالعواقب، الذين لا يقدرون أنهم مسؤولون. ومن أعظم المنكر أن يعمد الأنبياء عليهم السلام إلى الاستهزاء أو الإخبار عن الله بما لم يبلغهم بواسطة الوحي.

ثانيا: وقد قُرّعوا لسوء أدبهم مع نبيهم رجعوا فطلبوا أن يبين لهم ما هي صفات هذه البقرة؟ يتلقى موسى الوحي المبين: فيبين لهم أن عليهم أن يذبحوا بقرة لم تهرم فتفقد أسنانها ولا هي صغيرة لم تكتمل قواها، بل هي وسط نشيطة وشأن من يريد التعرف على الدابة أن يبحث أولا عما يدل على سنها. وأكد عليهم أن يسارعوا بالاستجابة.

ثالثا: شأن بني إسرائيل أنهم يتلكؤون في أداء الحق، ويماطلون ما أمكنهم أن يماطلوا، ويخفون طبيعتهم هذه بالظهور بمظهر المطيع الرّاغب في أداء ما هو مطالب به، فبرزوا في هذا المشهد بوقاحتهم يسألون موسى أن يدعو ربه، ومن سوء أدبهم لم يقولوا ربنا كأنهم يتبرؤون من العبودية لجلاله، فسألوا أن يبين لهم ما هو لونها ؟ ويضيق عليهم بأن البقرة المأمور بذبحها: بقرة صفراء واضحة الصفرة لا يخالط لونها ما يكسر نقاءه، على خلاف عادة الصفرة في البقر، إذ يخالط صفرتها حمرة، وهي لذلك تسر من ينظر إليها وتدخل على نفسه الرّاحة.

رابعا: لم يسرعوا بالاستجابة فسألوا وبنفس الطريقة الفجة، ادع ربك أن يبين لنا شيئا من صفاتها معتذرين بأن البقر الجامع للأوصاف السابقة لم تتميز منها واحدة عن بقية جنس البقر. أتى الوحي لسيدنا موسى: إنها بقرة كريمة عند أهلها لم يذللوها لا لحرث الأرض ولا للسقي، بل بقيت على نضارتها وجمالها، وهي سليمة من العيوب، ولا يظهر عليها علامة خاصة.

خامسا: بعد هذا البيان المعرف بالبقرة تبعا لمواصلة الأسئلة منهم. أعلنوا بأن موسى عليه السلام قد بلغ في البيان كماله وبه ظهر الحق الذي طلب منهم. فوجدوا البقرة المعينة بتلك الأوصاف وذبحوها. وكان تنفيذهم للأمر شاقا عليهم، فكادوا يعجزون عن تحقيقه. لأنهم في أول الأمر لو أسرعوا لكفاهم ذبح أي بقرة، وروي بسند غير قوي: أن النبي ﷺ قال (لو اعترضوا أدنى بقرة فذبحوها لكفتهم، ولكن شددوا فشدد الله عليهم).

الموعظة من هذه القصة:

على المكلف أن يسارع بالاستجابة بتنفيذ ما أمره به ربه، وعلى العالم أن يبحث عما يؤثر في الحكم ليكون موجها لمعرفة المقصود من الحكم ليبني عليه غيره، أما الأوصاف غير المؤثرة فالعناية بها والتوقف عندها لا يفيد توسعا في الاستنباط، ولا عمقا في الفهم والتعليل. فكون البقرة مثلا صفراء أو أي لون كانت، وكونها صغيرة أو كبيرة، وكونها عاملة أو غير عاملة، كل ذلك مما لا يؤثر في الطاعة لما أمر به الله.

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

نفسا: شخص، إنسان.

ادارأتم: تدافعتم، كل واحد يتنصل من جريمة القتل ويرمي بها غيره.

مخرج ما تكتمون: مظهر ما تخفونه من الحقيقة.

بيان المعنى الإجمالي:

وجد قتيل -في بني إسرائيل- قام أولياؤه يطالبون بدمه وأنكر المتهمون. وكان ذلك في زمن ذبحهم للبقرة. فأوحى الله إلى موسى أن يضرب القتيل ببعض أجزاء البقرة، فضربوه بها فحيي وأخبر بقاتله. إن إحياء هذا القتيل دليل على أن الله قادر على إحياء الموتى، ولقد أظهر لكم يا بني إسرائيل مظاهر قدرته، وتحقق ما تحقق أمام أبصاركم لعلكم تحركون عقولكم وتستفيدون من التأمل في دلالات النبوة الصادقة.

بيان المعنى العام:

72-73، وإذ قتلتم نفسا...لعلكم تعقلون.

اتصل بقصة ذبح البقرة جريمة قتل. ذلك أن يهوديا وجد مقتولا في محلة حسي من اليهود، فاتهمهم بنو عمه بأنهم قتلوه. وتبرأ المتهمون من الجريمة ورموا بها بني العم لأن والد القتيل ثري والقتيل وحيد والديه وماله سيؤول إلى بني عمه . فوجود القتيل في محلة المتهمين ترجح براءة بني العم. وكون بني العم هم المستفيدين من الجريمة ليذهبوا بالمال يرجح براءة المتهمين الذين لا يستفيدون من الجريمة شيئا. فأوحى الله إلى موسى ﷺ أن يضربوا الميت ببعض من البقرة، فضربوه بذلك البعض فحييَ ، وأخبر أن قاتليه هم بنو عمه. ولفت الله نظر بني إسرائيل ليتأملوا فيما تم، ليتبينوا أولا: يسر إحياء الله للموتى وبعثهم يوم القيامة ليجزوا عما قدموه في حياتهم. وثانيا: قدرة الله على إظهار آيات صدق رسوله موسى. فإنهم كما تقدم شكوا في صدق نبيهم لما أمرهم بذبح البقرة. وكل ذلك مما يحتم على المشاهدين لما تم أمام أبصارهم أن يحركوا عقولهم، ويكفُّوا عن اللجاج.

وتشير الآية: أن إحياء الميت بضربه ببعض من البقرة غير مرتبط بكون البقرة كبيرة أو صغيرة صفراء أو سوداء، مكرَّمة أو مبتذلة. وهذا التأمل يهدي إلى الإسراع بالطاعة، وقصر السؤال والبحث عما يمكن أن يكون علة في الحكم أو

مظهرا لحكمة فيه. لأن ما عدا ذلك مضيعة للوقت وتعويد للعقل على الاهتمام بالتوافه.

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (74)

بيان معنى الألفاظ:

قست: القسوة ضد اللين. والجسم القاسي يصعب التأثير فيه، وكذلك القلب القاسي لا يقبل الهداية، ولا يتحول عن الوضع الذي هو عليه.

خشية الله: الخوف منه.

ما الله بغافل: الله عالم لا يغيب عن علمه شيء.

بيان المعنى الإجمالي:

أبرزت هذه الآية قسوة قلوب بني إسرائيل رغم الآيات والألطاف التي تفضل الله بها عليهم، فقلوبهم صُلْبة جافة كقسوة الحجر الذي لا ينفذ إلى باطنه نور ولا ماء، بل إن قلوبهم أشد صلابة من الحجارة، إذ أن بعض الحجر تتفجر منه الأنهار الجارية، وبعضها ينشق فيخرج منه الماء، وبعضها إذا توجه إليه الأمر الإلهي تحرك وتحول ونزل إلى المكان الذي أمره الله أن يستقر فيه. وهدّدَ بني إسرائيل بأن الله مطلع الاطلاع الكامل على ما تعمر به قلوبهم وتنطق به ألسنتهم وما يحيكونه من مكر.

بيان المعنى العام:

74-ثم قست قلوبكم...ما الله بغافل عما تعملون.

توجه الخطاب لبني إسرائيل مؤنبا لهم أنهم بعد ما أراهم الله من آياته وتلطف بهم ولم يعاجلهم بالعقوبة، بعد كل ذلك تفاقم عنادهم مما تبعه قسوة قلوبهم قسوة شديدة، فهي صلبة كصلابة الحجارة التي لا ينفذ إلى باطنها شعاع من النور، ولا لين من الرّواء، وأكد الله وهو العليم بتلكم القلوب المتحجرة أنها أشد قسوة من الحجارة، إذ أن بعض الحجارة يتفجر منه الأنهار فتجري دافقة بالمياه الغزيرة، وبعضها يتشقق فيخرج الماء من ثناياه، ومن الحجارة ما يتوجه إليه الأمر التكويني بالتحول من مكانه فيخضع ويطيع ويستقر في المكان الذي حدد له. لقد قست قلوب بني إسرائيل فالمتتبع لتمردهم وتماديهم على معصية الله، إن وضعهم وضع من يظن أن الله غير

مطلع عليه يحصي كل ما صنع وما دلس به ومكر. فختمت الآية بإعلان أن الله الذي أمهلهم لا يخفى عنه شيء.

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾

بيان معنى الألفاظ:

أفتطمعون: الطمع ترقب حصول شيء محبوب يرادف الرّجاء، وضده اليأس.

يحرّفونه: يخرجون به عن المراد منه بالتبديل أو التأويل الهادم للمقصود من الكلام.

بيان المعنى الإجمالي:

لا تترقبوا إيمان يهود فقد طبعوا على مصادمة الحق، إذ كان فريق منهم يبلغ أسماعهم ما أوحى الله به، ثم يعملون على تحريفه عن قصد.

بيان المعنى العام:

75-أفتطمعون أن يؤمنوا لكم...وهم يعلمون.

إن ما قصه الله بلسان الوحي القرآني يجعل انتظار إيمان بني إسرائيل أمرا مستبعدا لا يقع. ذلك أن تربيتهم التي نشأوا عليها، طبعتهم على المراوغة، فقد كان فريق من علمائهم يسمعون كلام الله المنزل على موسى أو المنزل على محمد، وهم يعرفون جيدا ما يقصد إليه، وما يرمي إليه من خير، ومع ذلك يكدّون عقولهم ليحرفوه فيخرجوه عن ظاهره، ويغيروا معناه والمراد منه.

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾﴾

بيان معنى الألفاظ:

إذا خلا بعضهم إلى بعض: كانوا وحدهم لا يسمع ما ينطقون به إلا من حضر معهم.

فتح الله عليكم: بما بينه لكم في التوراة.

ليحاجوكم به: ليكون حجة للمسلمين عليكم يوم القيامة.

بيان المعنى الإجمالي:

بعض اليهود رفضوا الدخول في الإسلام، وبعضهم أظهروا نفاقا أنهم آمنوا برسول الله وما أنزل عليه، فلام الكافرون منهم المنافقين في خلواتهم لأنهم في ظنهم قد سربوا معلومات توراتية تكون حجة عليهم يوم القيامة، ورموهم بالبله وضعف العقل. والله عليم لا يخفى عليه شيء.

بيان المعنى العام:

76-77: وإذا لقوا الذين آمنوا...وما يعلنون.

تفضح الآية سلوك المنافقين من اليهود الذين إذا كانوا في المجامع الإسلامية كانوا يظهرون أنهم آمنوا وتركوا اليهودية وراءهم. فهذا وجههم مع المسلمين وجه كاذب، والمنافق لا يكون إلا كذابا جبانا. ووضع هؤلاء المنافقين مع اليهود عندما لا يحضر أحد غير يهودي، وضعهم أنهم يُؤنّبون من رؤساء يهود فيقرعونهم لأنهم أخبروا المسلمين ببعض الحقائق الواردة في التوراة، ظنا منهم أن تلكم المعلومات اختصوا بها فاطلاع المسلمين عليها لا بد أن تكون من فلتات ألسنة المنافقين الذين أظهروا الإسلام. ويؤدبونهم بأنهم بإخبار المسلمين عن الحقائق المثبتة في التوراة سيجده المسلمون حجة عليهم يوم القيامة لأنهم ما كانوا ليعلموا ذلك، لو أن المنافقين الذين يخالطونهم تحفظوا وراقبوا ما ينطقون به. ويبالغ رؤساء يهود في تقريع المنافقين، بأن ما فعلوه يدل على غباوتهم وضعف عقولهم، لأن المسلمين سيحتجون على اليهود يوم القيامة بما علموه منهم.

كل ذلك كان من فساد عقيدة اليهود بظنهم أن الله لا يعلم حقائق الأمور وتخفى عليه دخائل نفوسهم وما تحدثهم به نفوسهم الخبيثة. فعلم الله علم شامل لا ينتظر إخبار اليهود حتى يعلم الحقيقة.

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

بيان معنى الألفاظ:

الأمي: من لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

الكتاب: التوراة.

الأماني: جمع أمنية وأولى ما تحمل عليه: أنهم لا يعلمون مقاصد التوراة ومفاهيمها الحقيقية. وما ترمي إليه، بل كل ما عندهم خليط غير محقق شأن ما يتمناه الإنسان مما لم يحصل بعد.

الويل: لفظ يدل على الشر والهلاك.

بيان المعنى الإجمالي:

من اليهود طائفة تزيت بزي العارفين بالتوراة، والحال أنهم جهلة لا يقرأون ولا يكتبون ولا يعرفون كتابهم وإنما يحملون ظنونا لا أساس لها من الصحة. ومنهم من يدعي العلم ولكن لا أصل عنده يعتمده فيما ينشئ، بل هو يوثق ظنونه وأوهامه ثم يفتري على الله الكذب ويقول: إن ما كتبه هو كلام الله. وتوعد الله هؤلاء بسبب ما كتبوا، وبسبب ما ربحوه من كذبهم على الله من الرّئاسة وحطام الدنيا.

بيان المعنى العام:

78-79: ومنهم أميون...وويل لهم مما يكسبون.

فضح الله اليهود وكشف حقيقتهم التي ستروها بمظاهر زائفة كاذبة. فبعضهم كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، جاهل ليس له حظ من العلم. وهم على جهلهم هذا يخيلون للناس أنهم على حظ من المعرفة، وعلى ميراث من الكتاب. ويكشف الله حقيقتهم أنهم لا يعرفون من الحق شيئا وإنما عمرت أدمغتهم مجموعة من الأماني، كإعلانهم أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الله لا يعذبهم، فصرح القرآن بأن أمانيهم هذه بنيت على ظنون كاذبة وأوهام خادعة. ومنهم من ارتفع عن مستوى الأمية فهو يقرأ ويكتب. ولكن ما ذا يكتب وماذا يشيع في الناس؟ إنهم يسودون كتابات من نسج خيالهم، ويبلغ بهم الكفر أنهم ينسبون ما كتبوه بأيديهم متيقنين أنه نتاج أوهامهم، ينسبونه إلى الله، فيجمعون إلى ضلالهم، العمل على إضلال الآخرين. فحق عليهم الويل والعذاب بسبب ما كتبوه من أباطيل وبسبب الدافع لهم على ذلك، من حب الرّئاسة والظهور بمظهر الحاملين لوحي الله فيكتسبون به مقاما اجتماعيا وما يتبعه من حطام الدنيا.

وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ
عَهْدَهُ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ
بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

مس النار: احتراقهم بها لوصول لهبها إليهم.

أياما معدودة: أياما قليلة تحسب، شأن الشيء القليل.

أتخذتم عند الله عهدا: هل عندكم وعد مؤكد من الله ؟

بيان المعنى الإجمالي

مما أشاعه اليهود أن الله لا يعذبهم إلا أياما قليلة، فرد عليهم القرآن بأنهم كاذبون في دعواهم لأن الله لم يعدهم بذلك، ووبخهم بنسبتهم أمرا إلى الله بدون علم. وردّ عليهم بأن من سعى لارتكاب السيئات حتى أحاطت به خطاياه من كل جانب وأطبقت عليه، فإن هؤلاء هم الذين يصحبهم عذاب النار. هم على خلاف وضع المؤمنين الذين عملوا صالحا يُرضي الله، الذين سيخلدون في نعيم الجنة.

بيان المعنى العام:

80- وقالوا لن تمسنا النار...ما لا تعلمون.

من افتراءات اليهود وضلالاتهم التي يشيعونها ويروجون لها، أن الله لا يؤاخذهم بما يقترفونه من آثام وما يفسدون به في الأرض، وما يعتدون به على أموال الناس وأعراضهم، وذلك لأن الله في دعواهم، كتب أن يعذبهم فقط بمقدار الأيام التي عبدوا فيها العجل، أو يوما عن كل ألف سنة من عمر الكون. وهذا افتراء وقح على سنة الله ونكران لعدله الكامل الذي يليق بجلاله. فرد الله عليهم وأسقط دعواهم ونبّه المؤمنين إلى كذبهم، لأن ما يدعونه لا يستند لسند يثبت لهم ما يدعون. إن هذا لا يتحقق إلا إذا وعدهم الله بذلك، وهم كاذبون فالله لم يعدهم، والله لا يخلف وعده. والله سبحانه بسط ميزان العدل، تجري أحكامه على البشر جميعا، وهو اللائق بجلاله وكماله، فدعوى التمييز بين البشر وتفضيل جنس على آخر وقبيلة على غيرها هو قول على الله بغير علم.

81- بلى من كسب...خالدون.

ويصرح القرآن بما يقتضيه ميزان العدل الإلهي، فينفي ادعاء يهود، وأن من سعى إلى الخطيئة بتصيدها راضيا بها محبا لها حتى تقوقع في داخلها، وأحاط به الشر من كل جانب، وليس له منفذ لنور ينفذ منه الخير والاستقامة إلى روحه، فهؤلاء هم الذين كتب الله عليهم أنهم ملازمون لعذاب جهنم لا يجدون عنها حوَلا.

82-والذين آمنوا وعملوا الصالحات. خالدون.

ومما يؤكد ذلك أن الله كتب لمن خالف منهج الكفر اليهودي، فآمن بالله وأيد إيمانه بصالح العمل، أن الله كتب له الجنة خالدا فيها لا يخرج منها فضلا من الله ونعمة.

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَامَىٰ وَٱلْمَسَاكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

الميثاق: الوعد المؤكد.

توليتم: نقضتم ما التزمتم به.

معرضون: تاركون قصدا.

بيان المعنى الإجمالي:

من الوقائع التي سجلها القرآن: أن الله أخذ على بني إسرائيل الوعد الموثق بأن يفردوه بالعبادة، وأن يكرموا والديهم، ومن تجمعهم بهم صلة القرابة، ومن يعاملونهم من المستضعفين كاليتامى والمساكين، وأن يتحفظوا فيما يجري على ألسنتهم فلا يجهرون بالسوء من القول، وأن يقيموا الصلاة بأدائها على أفضل الوجوه، وأن يؤدوا ما أوجب الله عليهم من مساعدة بأموالهم للمحاويج، وفي أوجه البر، وبعد أن وَعَدُوا بالالتزام بكل هذه الأمور، وأن يُوصوا بها أخلافهم، نكث العهدَ فريق من الماضين وكثير ممن جاء بعدهم.

بيان المعنى العام:

83- وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل...وأنتم معرضون.

أبرز القرآن الميثاق الذي أخذه على بني إسرائيل والعهد الحقيقي الذي التزموا بتطبيقه هم وذريتهم من بعدهم، يتضمن هذا العهد حسبما صرحت به هذه الآية: العقيدة بأن يفردوا الله بالعبادة ولا يشركوا به شيئا. أن يحسنوا معاشرة والديهم، وكذلك ذوي القربى ممن تجمعهم بهم آصرة النسب أو الصهر، وأن يرعوا حقوق اليتامى ويتلطفوا بهم وكذلك بالمساكين أهل الحاجة، وأن يراقبوا ألسنتهم ويبتعدوا عن الإذاية بالسوء من القول، فيحسنوا الخطاب، وأن يجددوا تذكرهم وصلتهم بالله فتتيقظ أرواحهم بالصلاة وتصفو من الشح بالبذل من أموالهم بواسطة الزكاة حسبما كانوا مأمورين به في شريعتهم. هذا هو الميثاق الذي أخذه الله عليهم، والذي يضمن لهم سعادة الدنيا والآخرة. أعرض عنه معظمهم ولم يحافظ عليه إلا قلة منهم ،وهم في عهد الرّسالة، الذين آمنوا بسيدنا محمد ﷺ.

وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ لَا تَسۡفِكُونَ دِمَآءَكُمۡ وَلَا تُخۡرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ ثُمَّ أَقۡرَرۡتُمۡ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ تَقۡتُلُونَ أَنفُسَكُمۡ وَتُخۡرِجُونَ فَرِيقٗا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمۡ تَظَٰهَرُونَ عَلَيۡهِم بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَإِن يَأۡتُوكُمۡ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمۡ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيۡكُمۡ إِخۡرَاجُهُمۡۚ أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

السفك: أصل معنى السفك الصب والمراد به القتل.

تظاهرون عليهم: تتعاونون ضدهم، بغير الحق.

الأسارى: جمع أسير وهو الموثوق في الحرب من الأعداء.

تفادوهم: تبذلون المال لإخراجهم من الأسر.

الخزي: الذل.

بيان المعنى الإجمالي:

يذكر الله بني إسرائيل بما أخذه الله عليهم من مواثيق وعهود وذكسرهم في هذه الآية بالعهود الآتية: أن لا يقتل اليهودي أخاه، أن لا يؤذيه بالاستحواذ على منزله، أو المكر به ليخرجه منه. ويقيم عليهم الحجة بأنهم يقرون بذلك ويشهدون به فهم لم ينسوا هذا الميثاق. ولكن سلوكهم على خلاف ما يقرون به فقد تنازعوا واقتتلوا فسطا بعضهم على بعض بعد موسى عليه السلام وفي المدينة قبل هجرة النبي ﷺ إليها. وشنع عليهم موبخا لهم على انحرافهم بتناقضهم. إذ هم بعد القتل والأسر يبذلون الأموال لفداء الأسرى باعتبار أن التوراة تفرض عليهم ذلك. فشاركوا في قتل بعضهم وتمسكوا بالإسهام في بذل الفدية لإطلاق الأسارى، فجازاهم الله عن سوء أفعالهم ذلاً في الدنيا وعذابا في الآخرة. وقد خسروا لأنهم باعوا نعيم الآخرة الباقية بحظوظ دنيوية فانية.

بيان المعنى العام:

84-85: وإذ أخذنا ميثاقكم...تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان.

يُذكِر الله بني إسرائيل بما أخذ عليهم من عهــود ومواثيــق لــم يحترموهـــا، ومضـــوا فـــي نقضها مع أنها تحفظ لهم كيانهم وتحمــيهم مـــن الضــعف والتلاشـــي وتجلــب رضـــا الله والفوز في الدارين. أخذ عليهم عهدا أن لا يقتــل اليهــودي أخــاه، وأن يحمـــي حياتـــه ولا يعين عليه عدوا، معتبرا أن من يستهين بحياة أخيـــه فكأنمـــا اســـتهان بحياتـــه. ولـــذا قـــال تعالى: لا تسفكون دماءكم. وقد تكرر في التوراة هذا العهــد. كمـــا أخـــذ علـــيهم المواثيـــق أن يحمـــوا إخـــوانهم ولا يخرجـــوهم مـــن ديـــارهم بـــالمكر أو بالتعـــاون مـــع الأعـــداء. فالعهدان حاضران من زمن موسى ﷺ ماضيان مـــع الـــزمن يقـــرُّ بهمـــا بنـــو إســـرائيل خلفا عن سلف حتى في عهد الرّسالة المحمدية ويشهدون بهمـــا. ومـــع ذلـــك فقـــد مضـــوا في عهود سابقة، كمـــا ذكـــره القـــرآن وكمـــا تـــذكره أســـفار التـــوراة التاريخيـــة، علـــى محاربة بعضهم بعضا، واستمر ذلك في حـــرب قبائـــل المدينـــة المنـــورة قبـــل الهجـــرة فتحالفت قبيلتا قريظة والنضـــير اليهوديتـــان مـــع الأوس؛ وانحـــازت قبيلـــة بنـــي قينقـــاع اليهودية مع الخزرج. وكان كل حليـــف يقاتـــل مـــع حليفـــه مـــن كـــان يهوديـــا أو غيـــر يهودي. ويستولي الفريق المنتصر على مكاسب المغلوب، فعطلـــوا مـــا أخـــذ علـــيهم مـــن العهود التي كانت حاضرة في أذهانهم يشهدون بـــأنهم ملزمـــون بهـــا. وكـــان ذلـــك فـــي حرب بعاث قبل الهجرة بخمس سنوات. فهم قـــد أهملـــوا مـــا أخـــذ علـــيهم مـــن عهـــود ومواثيق، ومع ذلك فإنهم لما انتهت الحـــرب جمعـــوا الأمـــوال لفـــداء الأســـرى، تمســـكا بما تأمرهم به التوراة. فوبخهم القرآن علـــى تناقضـــهم والعمـــل بـــبعض مـــا جـــاء فـــي التوراة ورفض البعض الآخر، وأعلن تـــوبيخهم علـــى صـــنيعهم الـــذي دل علـــى غبـــاء في التصرف وقلة فقه، ذلك أنهم تآمروا علـــى قتـــل بعضـــهم بعضـــا واســـتباحة دمـــائهم وديارهم، ثم هم يدفعون الأموال لإطـــلاق أســـراهم عمـــلا بـــالتوراة، فهـــلاً عملـــوا بهـــا وكفوا أيدهم عن دماء إخوانهم وديارهم.

وعقب القرآن على موقف يهود من المواثيق التـــي أخـــذت علـــيهم بـــإبراز جـــزاء ســـوء أفعالهم في الدنيا والآخرة. إذ ســـلط علـــيهم المذلـــة والهـــوان فـــي الـــدنيا، والنكـــال فـــي الآخرة بأشد العذاب الـــذي لا يوصـــف ولا يبلـــغ الخيـــال تحديـــد مـــداه. ويهـــددهم بـــأن مضيهم على العمل ببعض ما نـــزل علـــيهم ومخالفـــة الـــبعض الآخـــر، وتحكـــيم هـــواهم فيما أنزل عليهم، يهدّدُهم بأن الله مطلع على حقائق عبثهم لا تخفى عليه خافية.

86-أولئك الذين اشتروا...ولا هم ينصرون.

ويدخلون في قسم المغضوب عليهم الذين باعوا آخـــرتهم ومـــا أعـــده الله فيهـــا مـــن نعـــيم مقيم وكرامة ورضوان، بثمن بخس من الحظـــوظ العاجلـــة فـــي الـــدنيا، فخســـروا الـــدنيا

والآخرة، فلا أمل لهم في تخفيف العذاب عليهم يوم القيامة ولا أمل لهم في نصر الله.

الحكمة:

تسجيل القرآن على بني إسرائيل نقضهم للعهود وتعاونهم على التنكيل بإخوانهم، وجزاؤهم على ذلك بخسارة الدارين ؛ فيه تنبيه للمسلمين أن ينظروا في سنن الله في الكون وأن يحذروا أن يكون سلوكهم كسلوك يهود فيحل بهم ما حل باليهود من خزي في الدنيا وعذاب في الآخرة. وفيه تحريض على الوحدة وترك أسباب النزاع.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ ۖ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

بيان معنى الألفاظ:

قفينا: أرسلنا رسلا بعد موته.

عيسى: رسول الله لبني إسرائيل ولد سنة 620. قبل الهجرة.

البينات: المعجزات البينة الواضحة.

أيدناه: قويناه.

روح القدس: الرّوح المطهر يحتمل أن يكون الرّوح الذي نفخ في عيسى وهو في بطن أمه، ويصح أن يكون معناه الملك جبريل عليه السلام .

استكبرتم: ظننتم أنفسكم أرفع من قبول ما جاء به المرسلون.

مالا تهوى أنفسكم: ما ترفضونه لأنه خلاف ما يميل إليه هواكم من التحلل من ضوابط الشريعة وحب الملذات الهابطة.

بيان المعنى الإجمالي:

استحضر القرآن من جديد بعثة موسى عليه السلام لبني إسرائيل مؤيدا بالتوراة، ليواصل فضله عليهم بإرسال الرّسل من بعده وآخرهم عيسى قبل البعثة المحمدية. ونوه بعيسى بما أيده به من المعجزات الواضحة التي أظهرها لهم، تبعا لما قواه به من صفاء روحه وطهارتها أو بجبريل. ثم يوبخ بني إسرائيل أن العناد استقر في تركيبهم النفسي. فكلما جاءهم رسول من عند الله قابلوا هدايته بالرّفض بين التكذيب أو الاعتداء بقتل الرّسول المبعوث لإصلاحهم.

بيان المعنى العام:

87- ولقد آتينا موسى...وفريقا تقتلون.

في هذه الآية توبيخ لبني إسرائيل وإبراز لانحرافهم ورفضهم للحق، فهم يذكرون أنه لما جاءهم موسى بكتاب من عند الله يأخذ بعقولهم وأرواحهم إلى مستوى رفيع من الكمالات، قابلوه في حياته ﷺ بالعصيان والتحايل للتنصل من التكليف ونظام شريعة الله. ويمطالب مادية هابطة. وتقررُهم الآية على أن هذا كان ديدنهم مع أنبياء الله الذين توالوا في بني إسرائيل يجددون لهم أمر دينهم، ويحكمون صلتهم بالزمان الذي يعيشون فيه، وذلك من أكبر النعم إذ لم يهملهم الله لأنفسهم يتضاعف تخبطهم مع الزمن. ولكن عوض أن يشكروا نعمة ربهم عليهم واصلوا تعنتهم وأظهروا الترفع عن الانصياع لهدايتهم.

وكان آخر رسول بعثه الله إليهم عيسى ابن مريم عليه السلام. وكانت معجزاته ظاهرة بينة متنوعة تتحدى المكابرين والمعاندين تحديا لا يستطيعون مجاراته ولا إنكار تلكم المعجزات لما اتصفت به من الوضوح والظهور. إنها معجزات أيده الله بها، وهيأه لها بما نفخ في روحه من طهر وإشراق يسرت له إبراز مؤيداته تلك. كما أنه تأيد بالملك جبريل. وهو روح: موجود غير مادي لا تدركه الحواس التي من طبعها أن لا تتبين إلا ما كان مجسما، وروح عيسى وجبريل ﷺ كلاهما لا صلة له بالمادة، كلاهما قد بلغ من الصفاء والنقاء الحد الأعلى فتنزه عن النقص الملازم للمادة. ولقد كان موقف بني إسرائيل من عيسى وممن تقدمه من الرّسل الذين ظهرت المعجزات على أيديهم مصدقة لهم، كان موقفهم منهم الرّفض لاعتقادهم أنهم أعظم من أن يتبعوا المرسلين، ووصل بهم هذا الاستعلاء ،إلى تكذيبهم أو إلى الاعتداء على حياتهم بالقتل للتخلص منهم.

وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

بيان معنى الألفاظ:

غلف: جمع أغلف، وهو ما وضع عليه حاجب (غلاف) يمنعه من وصول ما في الخارج إليه.

لعنهم الله: طردهم من رحمته وحرمهم فضل ألطافه.

بيان المعنى الاجمالي

واجه اليهود النبي ﷺ لما دعاهم لما يحييهم أن على قلوبهم غلافا، فلا ينفذ إليها شيء من كلامه ولا من دعوته. فرد الله عليهم: كذبوا بل إن سبب إعراضهم هو

عنادهم، وجازاهم على فسادهم: أن لعنهم فطردهم من رحمته. ولذا فإن الإيمان لا يكاد يصدر منهم، ولا يؤمن منهم إلا نفر قليل.

بيان المعنى العام:

88-وقالوا قلوبنا غلف...فقليلا ما يؤمنون.

سجلت هذه الآية ما كان يواجه به يهود الدعوة المحمدية ، تلكم الدعوة التي قامت على تحريك العقول وفتح القلوب للتأمل في مضامينها، المستجيبة للفطرة ولما يقتضيه العقل وينشرح له الضمير، واجهوا رسول الله ﷺ وسلم بأن قلوبهم مغلفة بغلاف، فلا تنفذ معه أي كلمة من كلماته ولا يحرك فيهم ساكنا، فسواء أتوجه إليهم بالخطاب أم لم يتوجه، وسواء أتلا عليهم ما نزل عليه أم لم يتْله فقلوبهم عليها غلاف سميك . ورد الله عليهم بأنهم كذبوا في قولهم: إن على قلوبهم غلافا به لم ينفذ نور الإسلام إلى قلوبهم، رد عليهم بأن الله لعنهم جزاء تمردهم على رسل الله بدءا بموسى ووصولا إلى محمد ﷺ، وطردهم من رحمته وحرمهم من ألطافه فطبع على تلكم القلوب الزائغة، وهو الحجاب الذي به لم تلن قلوبهم للإسلام، ولذا فإنه لا يؤمن منهم إلا عدد قليل.

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

من عند الله: مصدر القرآن هو الله.

مصدقا لما معهم: محقق لما ورد في التوراة من الحقائق الثابتة في العقيدة والأخلاق والمغيبات التي لا سبيل إلى إدراكها إلا بالوحي.

يستفتحون: يطلبون الفتح أي النصر.

البغي: الظلم.

فباؤوا: رجعوا بغضب مضاعف.

بيان المعنى الإجمالي:

كان اليهود كلما قاتلوا المشركين يدْعُونَ الله أن ينصرهم بالنبي الموعود المؤيد بوحيه. ولكنهم عندما جاءهم كتاب من الله على لسان رسوله الصادق تنكروا لما صدر عنهم قبل ذلك وكفروا به، فاستحقوا اللعنة والطرد من رحمة الله. وما كان رفضهم للإيمان إلا ناتجا عن حسدهم لمن اختاره الله للرسالة من غير بني إسرائيل.

بيان المعنى العام:

89-90: ولما جاءهم كتاب...عذاب مهين.

هذا نص جامع لما ورد في الآيات السابقة موضح لمضامينها. ذلك أن اليهود كلما دخلوا في حرب مع المشركين في المدينة المنورة هددوا أعداءهم بأن الله سيبعث نبيا سينتصر لهم ويتغلبون بتأييده على الكافرين. فهم حسب ما تلقوه من وعود الأنبياء وما ورد في التوراة يعلمون أن نبيا سيبعث ينتصر للمظلومين ويظهر الحق، وأنه مؤيد بكتاب من الله. ما هو موقف اليهود بعد ذلك مع رسول الله ﷺ؟

يسجل القرآن أنهم عرفوا من الكتاب (القرآن) أنه يصدق ما يؤمنون به مما جاءت به التوراة من التوحيد والعقيدة الحق والغيب الذي لا سبيل لمعرفته إلا بالوحي، وكذلك القيم الخلقية السامية التي يرتفع بها مستوى الإنسان، وأخبار الماضين مما لا قبل للنبي ﷺ بمعرفته إلا من طريق الوحي، فلما قامت هذه الأدلة مجتمعة على صدقه كفروا به حسدًا أن تخرج النبوة من بني إسرائيل. فاستحقوا بهذا الكفر أن تتسلط عليهم اللعنة والطرد من رحمة الله وأن يحرمهم ألطافه وفضله، وأن يذيقهم عذابا يهينهم ويكسر كبرياءهم. وكانت حصيلتهم أنهم رجعوا بغضب مضاعف. والغضب من الله معناه أن الله لا يمنحهم رحمته ولا تأييده. لقد اعترضوا على الإرادة الإلهية وعلى عدل الله وحكمته فلم يقبلوا أن تكون النبوة في غير بني إسرائيل. فجمعوا بين رفض الحق الذي أتاهم به رسول الله، وبين الاعتراض على الله.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا
وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ
وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ

ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ
بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن
كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن
كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

ما وراءه: ما جاء بعده.

أشربوا: اختلط بقلوبهم ومشاعرهم كما يمتزج الماء بما يتحلل فيه.

خالصة من دون الناس: لا يظفر بنعيمها إلا اليهود.

بيان المعنى الإجمالي:

تسجل هذه الآيات الدعاوى الباطلة التي كان اليهود يروجونها للتشكيك في الإسلام. وعلّم الله نبيه كيف يدحض شبهاتهم. فكانوا إذا دعوا إلى الإيمان قالوا: لا نؤمن إلا بالتوراة المنزلة علينا ونرفض كل ما جاء بعد ذلك مع أنه لا تناقض بين هذا وذاك. وهم كاذبون لأنهم قتلوا أنبياء التوراة وآخر من عملوا على قتله وهو منهم عيسى عليه السلام. وهم من ناحية أخرى قد تنكروا لما قرره موسى من الوحدانية فعبدوا العجل، ثم إن انحدارهم من سمو التوحيد إلى عبادة عجل من ذهب قد نفذ إلى قلوبهم واستولى على عقولهم ومشاعرهم فأصبحوا لا يهمهم إلا المال. فإيمانهم لذلك هو أفسد إيمان. كما يشيعون في إصرار أنهم شعب الله المختار الذين كتب لهم وحدهم نعيم الآخرة، ولو كانوا صادقين موقنين به لكانوا يحبون أن يموتوا ليفوزوا بالنعيم، ولكن اليهود هم أشد الناس خوفا من الموت لفساد أعمالهم.

بيان المعنى العام :

91- وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله...إن كنتم مؤمنين.

تكشف هذه الآيات عن تحريف اليهود للشريعة التي ألزموا باتباعها ويدحض القرآن تعلاتهم التي يخفون بها مكرهم. ويشمل ذلك الأمور التالية: أنهم عندما دعوا للإيمان بما هو حق منزل من عند الله، رفضوا متعللين بأنهم لا يؤمنون إلا بما أنزله الله عليهم وهم يكفرون بكل ما جاء بعده، فتوقف التشريع الإلهي على التوراة بزعمهم، رغم أن ما أنزل على موسى وما جاء به محمد يتفقان في الأصول العامة وفي مبادئ التوحيد والأخلاق يصدق التالي ما جاء في الأول ،ويصحح بعض الأخطاء التي تسربت من تناول البشر للتوراة، ومن اختلاف الزمن وما يقتضيه من

تحوير في التشريع بما يناسب تطور البشرية. ثم يكشف القرآن عن كذبهم في دعواهم هذه، فيجابههم أنهم لو كانوا فعلا يؤمنون بالتوراة المنزلة على أنبياء بني إسرائيل فلماذا تجرأوا فقتلوا بعض الأنبياء المكملين للتوراة ؟ هذا ما ينادي بكذبهم: أنهم يؤمنون فقط بأنبياء التوراة.

92-ولقد جاءهم موسى...ظالمون.

يعري القرآن كذبهم ودعواهم احترام التوراة وموسى عليه السلام ، بأنهم لما جاءهم سيدنا موسى عليه السلام بالحجج الظاهرة والمعجزات المؤيدة والعقيدة الواضحة بالإيمان بالله الواحد الأحد. كان موقفهم من كل جهود نبيهم الصادق المصدوق، أن عبدوا العجل بمجرد ما غاب عنهم فارتكبوا أكبر الظلم وهو الشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم.

93-وإذ أخذنا ميثاقكم...إن كنتم مؤمنين.

إنهم لما أخذ الله عليهم الميثاق الذي فصلته الآيات السابقة ورفع فوقهم الطور ليذعنوا ويشاهدوا أن الأمر جد لا هزل، بما صحب ذلك من أوامر جازمة أن يلتزموا بما أنزل عليهم وبصفة لا ترتخي فيها عزائمهم ، وحرك أسماعهم وأيقظهم إلى الاستماع لما يرد عليهم من ربهم ليمتثلوا، كان جوابهم أن أخذوا بالظاهر الذي لا يمكنهم إنكاره فقالوا سمعنا، وفي نفس الوقت الذي صرحوا فيه بالسماع الموجب للامتثال أضمروا العصيان والمخالفة.

استولت المادة عليهم، فقد دخل العجل الذهبي في تفكيرهم ومشاعرهم واستولى على قلوبهم، فعمر كل مجرى من مجاري تفكيرهم، فغدا الذهب الذي صيغ منه العجل الذي عبدوه يأخذ بقلوبهم فلا يلتفتون إلى المعاني السامية ولا إلى المعايير الخلقية، وهمهم الوحيد في الدنيا هو جمع المال. يقول الشاعر الحبيب جاء وحدو رحمه الله

فهل بين النقود وقوم موسى *** معاهدة توثقها العهود
فلولاهم لما كانت نقود *** ولولاها لما كانت يهود
إذا جاء المخاض وجر شرا *** لحبلاهم ولم يفد الحديد
رموا بالأرض تحت الأم فلسا *** فينزل عند رنته الوليد

ومع ذلك هم يدعون أنهم مؤمنون. فقل لهم يا محمد: إن إيمانكم هو أقبح إيمان وأفسده لو كنتم مؤمنين، مما يرمي إلى أنهم لا يملكون من الإيمان شيئا.

94-95: قل إن كانت لكم الدار...عليم بالظالمين.

إنهم يبذرون الشك في المجتمع بادعائهم المستمر مع الزمن أنهم شعب الله المختار المفضل، وأن الله لا ينجي يوم القيامة إلا بني إسرائيل، يتبجحون بهذا، ويكررونه في إصرار، فيلجئهم القرآن بأن يأمر النبي ﷺ أن يتحداهم إن كانوا صادقين في دعواهم أن الله خصهم بالجنة من دون البشر وأن ما ينتظرهم من نعيم هو أعظم مما أوتوه في الدنيا، يتحداهم بأن يتمنوا الموت ليظفروا بذلك النعيم. ومعلوم من طبائع يهود، في القديم والحديث، أنهم أشد الناس خوفا من الموت. فلو كان ما يقولونه بألسنتهم معتقدًا لهم ما وجدتَ فيهم هذا الإصرار على حب الحياة والحذر من الموت وشدة الخوف منه. وتختم الآيات بإعادة تقرير أن الله لا يخفى عليه أمر الظالمين، ولمّا كان أمرهم مفضوحا معلوما عنده سبحانه فهو يهددهم بالعقوبة التي يقتضيها العدل الإلهي.

وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

أحرص: أشد تعلقا.

يود: يحب.

يعمر: يبقى حيا.

مزحزحه: مبعده.

بصير : عليم بحقيقة.

بيان المعنى الإجمالي:

إن قوة حرص اليهود على الحياة تتجاوز ما فطر عليه البشر من حب الحياة. فهم أشد حرصا حتى من المشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر تجد اليهودي يحب أن يعيش ويستمر في الوجود ولو بلغ أرذل العمر وأحدق به الذل وهل ينتفع بحياته ؟ فحياته لا تبعده من العذاب الجزاء المحتوم إن الله عليم بأفعالهم.

بيان المعنى العام :

96- ولتجدنهم أحرص الناس...بما يعملون.

هذه الآية تجسم حب اليهود للحياة. إنهم أشد الناس تعلقا بالحياة، فحبهم للحياة يتجاوز حتى حب المشركين الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا أمل لهم

في كرامة بعد الحياة الدنيا. إنهم يحبون أن تستمر بهم الحياة، إنهم يودون أن يبقوا أحياء ألف عام وإن كان هذا الأمد غير متوقع حصوله، وإن كانوا يعلمون أن الهرم يلحق كل إنسان فينقلب بعد القوة إلى حياة شقاء وعذاب، حياة أرذل العمر. ويلحقهم التهديد بأن الله عليم العلم الكامل بما يصدر عنهم وبما يفعلونه

قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾

بيان معنى الألفاظ:

عدو: مبغض.

جبريل: الملك الموكل بإبلاغ وحي الله.

قلبك: قواك التي تتقبل بها الوحي وتعيه.

ما بين يديه: ما سبقه.

بشرى: إخبار بخير حاصل لمن توجه له الخبر.

ميكائيل: ملك من الملائكة المقربين.

عدو للكافرين: يفعل بهم ما يفعل العدو بعدوه.

بيان المعنى الإجمالي:

قل يا محمد من أبغض جبرائيل فإنه ما أبغضه إلا لأنه أبلغك ما أمره الله بإبلاغه إليك حتى وعيته عنه، وهو تنزيل شاهد بصدق رسالات الله جميعها، يرشد إلى الطريق المنجح في الحياتين، ويُطمْئن من يؤمن به بأنه سيُجزَى خير جزاء من رب العالمين. ومن أبغض جبريل فقد أبغض الله، لأنه هو الذي أرسل جبريل، وأبغض ميكائيل إذ لا فرق بينهما، وأبغض ملائكته لتساويهم في الصفات والعبودية لله. ومن أبغضهم فهو حقيق بأن يجزيه الله من جنس ما علِقَ بنفسه ولا مطمع له في العفو ولا في الرّحمة .

بيان المعنى العام:

97-98: قل من كان عدوا...عدو للكافرين.

يروّج اليهود من الأكاذيب ما يلبسونه لباس الحق مدعين أنه من علم الكتاب الذي اختصوا بعلمه ،فكان مما نشروه من زيف: أنهم لا يتبعون رسول الله، لأن الذي يأتيه بالوحي هو جبريل، وجبريل عدوهم لأنه الذي يأتي بالعذاب، فأوحى الله لنبيه

ما يدحض به قولهم، بأن الناظر في مضمون ما أتى به جبريل إلى الرّسول من وحي يجده جامعا لأمور كلها تنبئ عن كونه حقا :

1) أنه صادر بإذن من الله العلي الحكيم وليس لجبريل دور إلا ابلاغه لك كما تلقاه من رب العالمين.

2)أنه يصدق الرّسالات السابقة ويؤيدها، فلا خلاف بين ما جاء به إلى محمد وبين ما أنزل على رسل الله الماضين.

3) أن من يتأمل فيما جاء به يتبين له أنه يهدي إلى الصراط المستقيم الذي ينعم سالكه بالرّضا الموصل إلى النجاح.

4) أنه يبشر ولا ينفر ويدعو ولا يطرد ويجمع ولا يفرق.

ثم يلقن نبيه أن يعلن أن من أعلن عن بغضه لجبريل فهو معلن لعداوته لله رب العالمين ولميكائيل وللملائكة، لأن الملائكة مؤتمنون على ما يكلفهم الله به لا فرق بينهم لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون فمن عاداهم لما نفذوه فإنما عادى من أمرهم. وبما أنه لا فرق بينهم في تنفيذ ما يأمرهم الله بتنفيذه فهم سواء. وبغض أحدهم هو بغض للآمر والمنفذ، إن ما روجوه كان بسبب اتباعهم لهواهم، واعتمادهم له في الحكم على الأشياء فكانت نتيجته أن الله قرر أن يعاملهم معاملة العدو لعدوه، لا عفو ولا رحمة.

وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟
عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ
عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ
ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ
وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ
عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ
فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم
بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟
لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ

كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَاتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

الفاسقون: جمع فاسق، وهو المتمرد الخارج عن الحدود التي حددها الله.

نبذ: طرح العهد ولم يوف به.

الذين أوتوا الكتاب: اليهود.

كتاب الله: القرآن.

وراء ظهورهم: متجاوزين عنه لا يلتفتون إليه.

اتبعوا: عملوا بما تتلو الشياطين.

الشياطين: كفرة الجن أو خبثاء البشر المضللون.

سليمان: هو سليمان بن داود عليه السلام ولي ملك يهود سنة1. 14 ق م.

السحر: عمل نوع من الأشرار له تأثير سيء على القابلين لتمويههم وحيلهم الماكرة. ويطلق على ما علم ظاهره وخفي سببه.

الفتنة: معناها قريب من الابتلاء، تطلق على الوضع الذي يكون فيه المفتتن مدعوا إلى التمييز بين موقفه من داعية الخير والشر مع قوة داعية الشر.

خلاق: نصيب وحظ.

بيان المعنى الإجمالي:

أنزل الله الآيات البينات التي تفرض من ذاتها الإيمان بها لوضوحها وصدقها، وما يكفر بها إلا الأشرار الخبثاء المتمردون على الحق. والآية تقصد اليهود الذين طبعوا على نكث العهود، وهذا هو شأنهم إلى اليوم، فكلما وجدوا أنفسهم ملزمين بعهد تنصل منه فريق منهم إسقاطا للعهد عن جميعهم. وما ذلك إلا لفقدهم صدق الإيمان. ولما جاءهم الحق بواسطة الرّسول المصدق للتوراة من عند الله، أعرض فريق من الذين أعطاهم الله التوراة، عن القرآن، مع أن ما جاء به القرآن يشهد بصحته ما أنزل على موسى فكان صنيعهم هذا كصنيع الجاهلين. وعملوا بما تقول الشياطين: إنه كان على عهد سليمان زاعمين أنه كفر. وكذبوا لأن ما تتلوه الشياطين كفر. وسليمان عليه السلام نبي معصوم. فالشياطين يعلمون الناس السحر ويدعون أن الساحر له من القدرة ما يؤثر به، فهم قد كفروا بنسبتهم التأثير لغير الله. كما يعلمهم الشياطين ما يدعون أنه أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت. والشياطين لا يهمهم إلا إغواء البشر وإضلالهم. وفرق بين ما يصنعه هاروت وماروت وبين ما يهدف إليه الشياطين. ذلك أن الشياطين يعلمون الناس السحر

قصد إفساد عقيدتهم وإفساد روابطهم الاجتماعية، وإدخال الخلل على نواح كثيرة من حياتهم؛ بينما هاروت وماروت كانا يعلمان الناس حقيقة السحر بالكشف عن خفايا ه وعن تمويهات السحرة، ولذا كانا عند الكشف عن أسرار السحر يحذران الناس ويوقظانهم إلى أن الله بعثهما في ذلك العهد الذي استشرى فيه فساد السحرة ليعلِّموا الناس حقيقة السحر، ويزيحا ما يتخفى وراءه السحرة من المكر، فيكون من تعلم منهما السحر ليرد كيد السحرة ناجيا، ومن تعلم منهما قصد العمل به وإغواء الناس يؤول به تعلمه ذلك إلى الكفر. وهو معنى الفتنة. كما يقال: فتنة المال، فمن أنساه المال حقوق الخالق غوى وهلك، ومن صرف المال في مرضاة الله سلم. ومع التحذير والتنبيه من الملكين على ما في السحر من فتنة، فإن كثيرا من المتقبلين لتلك المعارف يصرفونها في التفريق بين الزوجين. ويحقق القرآن أن نفاذ السحر ليس من طبع السحر وحده، ولكن الله هو الذي يقدر حصول آثاره. ثم إن الذين تعلموا السحر للعمل به لا للتحصن من شرور السحرة يكون تعلمهم هذا يضرهم ولا ينفعهم. وقد جاء في التوراة: النهي عن السحر، وعلم يهود منها أن كل من تملك السحر ليس له نصيب يوم القيامة من فضل الله. فحقا أن من باع نفسه بالعمل بالسحر ارتكب أعظم حماقة وظهر بمظهر الجاهل. إنه لو آمن اليهود بما أنزل على محمد ورسخت في نفوسهم خشية الله وتلبسوا بتقواه لتحقق لهم الثواب الصادر من الله، الثواب من الكريم الذي ليس لمقدار ثوابه حد.

بيان المعنى العام:

99-100: ولقد أنزلنا إليك آيات ...لا يؤمنون.

تفتح هذه الآيات بتقرير حقيقة يشهد بها رب العالمين أنه هو الذي أنزل على قلب رسول الله آيات القرآن بالغة أعلى درجة من البيان ،تثبت الإيمان في القلوب، فما ينكرها إلا الفسقة الخبثاء المتمردون على شريعة الله، وهذا يشير أولا إلى يهود المدينة الذين أنكروا ما جاء به محمد ﷺ. وكشف القرآن عن طبائعهم الخبيثة التي منها أنه كلما عاهدوا عهدا وأعطوا مواثيقهم، أسرعت طائفة منهم لنقض ما التزموا به، فيتحللون جميعا من عهودهم. وهذه طبيعة لازمة لليهود إلى اليوم. وعرفنا القرآن أن أكثرهم معاندون لا يدخل الإيمان قلوبهم.

101: ولما جاءهم رسول...لا يعلمون.

ثم أبرز ما يؤكد ذلك بأنه لما جاءهم رسول مبعوث من عند لله تشهد معجزاته بصدقه، ويشهد مضمون ما جاء به بصدقه أيضا ، لأنه لا يختلف ما قرره من حقائق التوحيد والقيم، عما جاء في التوراة. واجهوا القرآن بأن نبسذ مُعْرِضا فريق

من اليهود الذين يدعون أنهم أهل كتاب، نبذوا القرآن وتجاوزوه لا يلتفتون إليه ، شأنهم شأن الجاهلين الذين لا يعلمون ما في القرآن من صدق وحق، فهم أسوأ حالا من الجاهلين، لأن الجاهلين ما عرفوا الحقيقة، أما اليهود فهم رفضوا ما يعلمون أنه الحق، وتبريرهم أنهم لا يؤمنون إلا بالتوراة لا غير هم كاذبون فيه.

102 -103: واتبعوا ما تتلو الشياطين... يعلمون.

أبرز القرآن كذبهم بأن التوراة منصوص فيها أن على اليهودي أن يرفض السحر ولا يأخذ به. واليهود مع ذلك قد اتبعوا وعملوا بما تتلوه الشياطين على عهد سليمان، إذ يدعون أن سليمان ما بلغ ما بلغه من السلطان وسعة الملك إلا لأنه كان ساحرا أخضع بسحره البشر فدانوا له. ورد الله عليهم أن سليمان من عباد الله المقربين أبعد الناس عن الكفر، إذ لو اعتمد السحر لتثبيت ملكه وإكسائه ثوب الحق الوارد من الله لكان كافرا، وحاشاه من هذا. والشياطين هم الذين كفروا بتعليم الناس السحر ونشره قصد هدم العلاقات الاجتماعية وبث الفتنة وتضليل الأفراد المهيئين لتقبل تأثيرهم والاستحواذ عليهم. ويُعلّمون ما أنزل على الملكين هاروت وماروت. والذي أنزل على هذين الملكين أنه لما شاع السحر في العالم واستولى به السحرة على عقول الناس وأرواحهم، وخيلوا لهم أن لهم قدرات يستطيعون بها أن يتحكموا في الكون ويقلبوا أموره حسب إرادتهم، وأصاب الناس منهم بلاء إذ كان لتمويهاتهم من القوة ومن ظاهر التأثير ما خلخل الإيمان ووهَّن المقاومة الذاتية. فبعث الله هذين الملكين ليعلما الناس حقائق السحر ويكشفا ما خفي منه ، هذا الجانب الخفي هو الذي بواسطته حقق السحرة من الفساد ما حققوه. فكان الشياطين قد استفادوا من هذا التعليم الذي قارنه، أن الملكين عندما كانا يعلمان الناس لتحصينهم من أضرار السحر، ينبهان المتعلمين أن تعليمهم هذا ليدرك الناس حقيقة السحر. وتصرفهم فيه هو من الفتنة ، أي الخير المشوب بالشر، هو كالمال الذي هو في أصله نعمة ولكن الناس قد يتصرفون فيه تصرفا يثبت إيمانهم ويحقق صلاحهم، وقد يتصرفون فيه تصرف الفساد والتسلط على الناس والرّشوة وما إلى ذلك من أنواع الشر، فالمال فتنة. وكذلك السحر، فالملكان ينبهان من يتعلم منهما السحر أنه فتنة، فمن استعمله ليبطل عمل السحرة وينقذ إيمانه من اعتقاد أن للسحر قدرة مؤثرة في الدنيا ،بما يصفون له أن الله هو الخالق لكل شيء، كان تعلم السحر بالنسبة له نعمة وخيرا، ومن تعلمه ليفسد به العقيدة والكون ويلحق الضرر بغيره، فهو شر وفساد، كمن يستعمل السحر الذي يتعلمه منهما لتخريب البيوت والتفريق بين الزوجين اللذين جمع الله بينهما وقوّى آصرة التقارب بينهما بعاطفة الود

والمحبة، وبمشاعر الرّحمة والرّعاية. وقد صرح القرآن بالتأثير في إفساد العلاقات الأسرية بالسحر لأنه معظم ما يشتغل به السحرة. بعد أن سجل الله على يهود انحرافهم وكفرهم وعملهم على نشر الفساد، صرح القرآن بالحقّائق التالية: أن السحر لا تأثير ذاتي له، وأن الفاعل في الكون والمتصرف فيه هو الله وحده، ولا يستطيع السحرة أن يضروا بسحرهم أحدا إلا إذا أراد الله أن ينفذ فيه ضررهم، فالقدرة لله وحده والخلق له. أن ما يتعلمه الناس من السحر لا يحقق للمتعلم ولا للبشرية خيرا بل هو باب للضر والشر والفساد. أن من باع تقواه وخوفه من الله للتحصيل على السحر والعمل به ليس له أي نصيب يوم القيامة مما أعده الله لعباده الصالحين. أن هذا الذي قاموا به من تعليم السحر ومباشرته هو أسوأ ما يمكن أن يحصل عليه الإنسان في نشاطه الدنيوي. أن هؤلاء المعلمين والمباشرين للسحر لو تركوا هذا الطريق السيء، وصفا إيمانهم وحلت الخشية قلوبهم، لتعرضوا للثواب العظيم الذي يتجاوز التصور، لأنه ثواب من لا يحد مُلْكَهُ حدود. ولكنهم جهلوا وعموا عن الحقيقة.

هل للسحر حقيقة؟

إن أغلب من يدعون معرفتهم بطلاسم السحر ويوهمون ضعاف الشخصية واليائسين، والمتعلقين بالأوهام، بقدرتهم على تحقيق مطالبهم هم دجالون، يبتزون أموالهم، ويمدون لهم في الآمال الكاذبة. وقليل منهم قد استولى عليهم الشر وفساد العقيدة، وانفصلوا في باطنهم عن المجتمع الذي يعيشون فيه، وكانت لهم قوة عظيمة في الجانب اللامادي من كيانهم، قد يبلغون إلى حد من درجات الإيذاء كما يتضرر المحسود من الحاسد. **ولكن على المؤمن أن يوقن أن السحر لا يترتب عليه لذاته ضرر إلا إذا قدر الله ذلك وجعل الساحر الخبيث وسيلة للضرر. هو كالميكروب والفيروس ينتشر في الكون ولا يضر إلا من أراد الله له أن يؤثر فيه.** وليس من السحر في شيء ما يقوم به البهلوانيون من حركات درسوها وتفننوا فيها، تقلب العاديات التي ألفها الناس، وقد اتخذوا من ذلك موردا للرزق. يحضر عروضهم للترفيه كثير من الناس، **وليست من السحر الذي تتحدث عنه الآية في شيء.** ذلك أن هؤلاء البهلوانيين لهم مؤسسة تجمعهم في مؤتمر سنوي يعرض المشاركون مهاراتهم وما وصلوا إليه ويتأيد بعضهم ببعض، وغايتهم الترفيه لا الإضرار بالناس.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾

بيان معنى الألفاظ:

راعنا: فعل أمر من رعاه أي رفق به.

انظرنا: من النظر في أمر غيره مراعاة لمصالحه.

بيان المعنى الإجمالي:

يعلم الله المؤمنين طريقة خطابهم لرسول الله ﷺ، فإذا كانوا في مجلسه وهو يبين لهم أحكام الدين وأسراره، وأحسوا بعمق ما يعرض عليهم وما يقتضيه من التأمل فيه، أن يقولوا له: انظر إلينا، ولا يقولوا له: راعنا، لأن اليهود اتخذوا هذه الكلمة وسيلة مبطنة لإيذائه ﷺ.

بيان المعنى العام:

104-يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا...أليم.

عملُ اليهود في مجتمع المدينة على إيذاء رسول الله وصحابته متنوع. فمما كانوا يؤذون به أنهم تخيروا في خطاب النبيء ﷺ كلمات مؤذية في باطنها تبعا لقصدهم الخبيث وإن كانت في ظاهرها مقبولة، وغطاؤهم أن المؤمنين يخاطبون النبي ﷺ بها، ومن هذه الكلمات قولهم: راعنا، التي تفيد في أصل استعمالها ارفق بنا واحرسنا. ولكن وزان هذه الكلمة: راعنا هي أيضا اسم فاعل من رعِن فهو راعن وأرعن وهو الأهوج في منطقه. فكان اليهود يخاطبون النبي ﷺ وهم يقصدون سبَّهُ ويتسترون بأن خطابهم كخطاب صحابته. أطلع الله نبيه على ما تنطوي عليه ضمائرهم من خبث وقطع عليهم تعلتهم، فأمر المؤمنين أن يستبدلوا راعنا بانظرنا. وقرن دعوتهم إلى أدب الخطاب بأمرهم أن يحسنوا الاستماع حتى تنتقش في عقولهم وقلوبهم ما يخاطبهم به. وختمت الآية بأن الكافرين والمقصود بهم اليهود، أعد الله لهم عذابا أليما جزاء فساد نياتهم وسخفهم.

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾

بيان معاني الألفاظ:

يود: يحب الحب المفضي إلى تمني حصول المحبوب.

ينزل: يبلغ من اللوح المحفوظ شيئا فشيئا.

خير: النبوة وما صحبها من فضل إلهي على المؤمنين.

بيان المعنى الإجمالي:

يعاديكم الكافرون من اليهود والنصارى والمشركين، ويحسدونكم على ما آتاكم الله من الهداية، فلذلك تجدهم لا يحبون أن يحصل لكم خير ولا يتمنونه لكم. والخير بيد الله يهبه لمن يشاء، وفضل الله لا يحد ولا يؤثر فيه حسد الحاسدين.

بيان المعنى العام:

105-ما يود الذين كفروا...الفضل العظيم.

استحكم الحسد في قلوب الكفار من اليهود والنصارى والمشركين في العهد النبوي، وكلما تتابع الوحي ازدادوا غيظا ونقمة تبعا للشحنة العَفِنَةِ من البغض التي التهمت كل معاني الإنسانية من نفوسهم المريضة. فهم يكرهون أن ينزل الله على المؤمنين بمحمد آياته البينات، وتشريعاته المحكمة، وحقائق الكون البعيدة والقريبة. مرضت نفوسهم فلا يتمنون لكم أي خير ولا يحبون أن يصلكم أي فضل من ربكم الذي عُنِيَ بكم وتتابعت عليكم هداياته.

ويسْخَرُ القرآن من تلكم العواطف المريضة ويعلن الحقيقة التي غفلوا عنها: إن الفضل بيد الله يمكن منه بحكمته من يشاء من عباده، فليس لبغضهم ولا لحبهم أي تأثير ولا أثر. إن لله هو صاحب الفضل الذي لا تحده حدود ولا يبلغ مداه التصور القاصر الهزيل.

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾

بيان معنى الألفاظ:

ما ننسخ: النسخ إزالة شيء وإثبات شيء آخر مكانه.

ننسها : مضارع أنسأها، والإنساء هو التأخير.

الولي: القريب المناصر.

بيان المعنى الإجمالي:

يقرر الله سبحانه أنه إذا أبطل حكما من الأحكام التي أَنْزَلَهَا للعمل بها في الحدود الزمنية التي فيها مصلحة العباد، أو أخر تنزيلها، فإن تصرفه سبحانه لحكمة ومصلحة للناس رحمة بهم. وذلك بناء على ما ثبت في العقيدة من أن الله قادر القدرة المطلقة، التي من آثارها تحويل أوضاع الناس، ومن تمام قدرته أنه يهديهم

إلى ما هو خير لهم في كل حال. وكما أحسن التقدير في ملكه في السماوات والأرض، فقدرته على ضبط ما يصلح البشر أولى، واعلموا أنه لا ينصركم إلا الله القريب منكم.

بيان المعنى العام:

106-107-ما ننسخ من آية...من ولي ولا نصير.

تشكيك يهود وقدرتهم على التمويه لزعزعة العقائد، وبث المغالطات في المجتمعات لخلخلة وحدتهم، من الأمور التي تتابعوا عليها خلفا عن سلف، وقاست منهم الدعوة الإسلامية منذ بداية نشأتها في العهد النبوي وإلى اليوم ما قاست.

أنصف القرآن التوراة، شأنه في بيان الحقيقة، وتحدث عنها باعتبارها كتابا حقا أنزل من عند الله على بني إسرائيل كقوله تعالى:**(إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون)**[1] فقابل يهود المدينة هذا الإنصاف بالدس، واتخذوا من ذلك مطعنا في صدق رسول الله ﷺ ، فزعموا أن محمدا يشهد بأن التوراة نور، ثم يدعي أنه أوحي إليه ما يرفع أحكامها ويلزم الناس بتركها واتباعه. وما كان حقا يبقى حقا ، لأن نسخ ما هو حق وإبداله بغيره ينادي بأن الله قد ظهر له في زمن أمرا ثم بدا له وظهر له أمر آخر وعبروا عن هذا (بالبداء) وهو نقص لا يتصف به الله. وانتهوا من هذه المغالطة أن دعوى الرّسول سيدنا محمد ﷺ أنه موحى له من عند الله يفضي إلى اتصاف الله بالتغير ونقض الحقائق التي أثبتها. فرد الله تشكيكهم هذا، وكشف عن جهلهم وتعصبهم، بما وضحته هذه الآية: إن الله خلق الكون وأجرى خلقه على سنن، ومن تلكم السنن أن العالم وما يحويه من بشر وغيره، متطور متغير، غير ثابت. وهذا التغير يجري بقدرة الخلاق العليم الذي ينسق بين الإنسان وظروفه المادية الجديدة، كما ينسق بينه وبين أوضاعه الاجتماعية، بما يمكنه منه من تشريع يستجيب لتحولاته تلك. ويربي المجتمعات تربية الرّفيق الذي يلطف بها، فلا يحولها دفعة واحدة من وضع استحكم وتقرر في عوائدها وفي نمط حياتها، بل يأخذها برحمته حتى يطوّعها إلى المقام الرّقيع الذي يريد أن تصل إليه لتحقق الخلافة التي مكن منها الإنسان. فاليهود الذين أذلهم فرعون، ثم نصرهم الله عليه بقيادة سيدنا موسى عليه السلام أنزل الله عليهم التشريع الذي يصلح من شأنهم ويرعى تركيبهم النفسي وعاداتهم التي نشأوا عليها وأصبحت لاصقة بعقولهم وبمشاعرهم. ومما يوضح ذلك ما سبق أن ذكّر به القرآن من تركيبهم النفسي

---

[1] سورة المائدة، آية 44

المادي الهابط في سورة البقرة ، أنهم قد أكرمهم الله ويسر لهم العيش بدون عناء وأجرى لهم رزقهم ورسول الله موسى معهم، سئموا وقالوا: يا موسى إنا اشتقنا إلى الثوم والبصل والبقول والقثاء، فادع لنا ربك يخرج لنا ذلك من الأرض. مع أن أرض سيناء أمامهم أرض صحراء قاحلة جدباء لا تنبت هذه البقول. لذا كان تشريع التوراة يعمل على تحويلهم والسمو بهم شيئا فشيئا. فأوضاع يهود غير أوضاع الإنسانية. ولقوة عنادهم شدد الله عليهم ليستقيموا. وقصة ذبح البقرة تريك أن نفسيتهم المريضة المادية لا تلين إلا بالشدة. كما قال ابن عباس شددوا فشدد الله عليهم. فنبه الله المؤمنين أن لا ينخدعوا بتضليل يهود. فإن الله إذا نسخ شريعة بشريعة أخرى، فإن ذلك مراعاة منه، وهو الرّحيم الرّؤوف بعباده، لتحقيق ما يصلح أمر البشر المتغير المتقلب حسب ظروفهم الاجتماعية وتطور أوضاعهم الاقتصادية والمعرفية. فقد تطورت البشرية من مستوى إلى مستوى حتى أصبحت قابلة لهداية تنظر إلى التركيب الإنساني والاجتماعي في قواعد عامة تحقق الخير والسعادة للإنسانية. وفي الأحكام التي تتصف بالثبات وعدم التغير. كالنهي عن الجهالة في المعاوضات أو التغرير، أو ضبط العبادات التي تحقق معنى العبودية والطاعة التي يرضاها الله من عباده، أو تحريم الزنا والمخادنة، أو نسبة الأولاد إلى آبائهم ونحو ذلك. فلما بلغت البشرية هذا المستوى ختم الله رسالاته إلى البشرية برسالة الإسلام الصالحة لكل زمان ومكان.

وعلى هذا القياس جرى التشريع الإسلامي، فلم ينزل على رسول الله ﷺ دفعة واحدة، بل تتابع الوحي ثلاثة وعشرين عاما، ربى الجماعة الإسلامية شيئا فشيئا. بعض التشريعات سبق كتشريع الصلاة مثلا، وبعضها تأخر كتشريع الحج. وما تأخر تشريع إلا أنزل الله من هديه ما هو مساو في الثواب والصلاح لما تأخر تنزيله أو يكون أصلح بالجماعة في ذلك الوقت، حتى إذا تهيأوا لقبول التشريع المضمر، نزل جبريل على الرّسول ﷺ بالوحي المبين. وكذلك في تثبيت ما يريد الله أن يحول عنه الجماعة مما ألفوه وجرى عليه أمرهم، ويصعب قسرهم عليه دفعة واحدة، وقطع الأسباب الرّابطة بالواقع على ما فيه من سوء، مما جعل إلفهم ذلك لا يشعرهم بفساده، كشرب الخمر الذي تتابع النهي عنه في أحوال خاصة إلى أن انتهى إلى تحريمه تحريما قاطعا. فالله المالك للسماوات والأرض، هو الذي يحولها من حال إلى حال ويحركها في مساراتها بقدرته الحكيمة، وهي في كُلٍّ مُقِرٌّ لها في الظرف التي هي فيه هو ما يضمن بقاءها وانتظامها، حتى إذا حولها كان ذلك مساويا في الفضل لوضعها الأول أو هو أفضل لانتظام الكون. وكما يرتبط

بقاء الكون بما يحويه من كواكب وسماوات ومجرات بلطف الله، فكذلك أنت أيها الإنسان الضعيف لا تجد وليا يرعاك ونصيرا ينصر ضعفك ويؤيدك إلا الله.

أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْـَٔلُوا۟ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

ود: أحب.

العفو : ترك العقوبة.

الصفح: الإعراض عن المذنب.

بصير: عليم.

بيان المعنى الإجمالي:

يحذّر القرآن صحابة رسول الله من التأثر بسلوك اليهود في علاقتهم بسيدنا موسى عليه السلام ، فقد أكثروا من الأسئلة وبلغت بهم الوقاحة مثلا أن سألوا موسى أن يروا الله رؤية واضحة، مما يدل على عدم استقرار الإيمان في نفوسهم. فحذر المسلمين من فرض الفروض والسؤال عنها حتى لا يحل بهم ما حل بيهود. فإن من يبذل إيمانه ليتيه في متاهات الكفر، ويتبع محصحصا عن الأوهام، فقد ضل وسط الطريق المنجي. إن معظم اليهود يحبون ويتمنون أن تعودوا كفارًا، لا محبة فيكم ولا رغبة في الخير لكم، ولكن قلوبهم امتلأت بالحسد ونفوسهم بالكبر، فهم يحسدونكم على ما فتح الله عليكم وينفرون من أن يدخلوا في دين الإسلام استكبارا عن أن يخضعوا للحق. فيرشد الله المؤمنين أن لا يسارعوا بعقوبتهم على ما هو مضمر في نفوسهم، وليتحلوا بما رباهم عليه الإسلام من عليّ الأخلاق بالعفو عنهم، بترك عقوبتهم وعدم لومهم على ما استبطنوه من الشر. وانتظروا أيها المؤمنون نصر الله الذي وعدكم به من إظهار دينكم وخزي أعدائكم، فالله لا يعجزه شيء ولكنه سبحانه يسير الأمور وفق حكمته التي تَعْجُزُ العقول عن إدراك مسارها الخفي البعيد. ثم هداهم إلى ما يقويهم في مواجهة حسد الحاسدين وبغض الكافرين، وذلك بالمداومة

على الصلاة التي تصقل أرواحهم وتقوي إيمـــانهم، وببـــذل الزكـــاة عـــن طواعيـــة وحـــب للقيام بها الأمر الذي يدعم رابطة الأخوة، ويؤكد اللحمة الجامعة بينهم.

بيان المعنى العام:

108- أم تريدون أن تسألوا...سواء السبيل.

كان مجتمع المدينة قد اخـتلط فيـه المسـلمون بالمنـافقين وبـاليهود، وقـد كـان اليهـود يمدون المنافقين بإشـكالات يلقونهـا إلـيهم ليبثوهـا فـي صـفوف المسـلمين ويحركـوا عقولهم حركة مضطربة لزعزعـة الإيمـان. وكـانوا يجرئـونهم علـى التوجـه بمتتـابع الأسئلة لرسول الله ﷺ . وشأن السؤال أن يُبقي فـي بـاطن السـائل تـدافعًا حتـى يسـتقر بالجواب المقنع. وتوالي مثل هذا الوضع، ممـا يهـز الإيمـان ويجعـل صـاحبه مترقبـا لما يطمئنه، فأرشدتهم الآية إلـى أن يطـردوا الإشـكالات التـي تُلْقِيهـا إلـيهم يهـود أو يلقيها الشيطان في نفوسهم حتـى يكـون الثبـات علـى مـا اسـتقر فـي نفوسـهم مـن الإذعان واليقين هو وسط الطريـق المـؤدي بسـالكه إلـى النجـاة، وأن لا يقعـوا فيمـا وقعت فيه بنو إسرائيل من مواصلة الأسـئلة حتـى أطبـق علـيهم الكفـر، وحـل علـيهم غضب الله.

109- ود كثير من أهل الكتاب...على كل شيء قدير.

وينبه المؤمنين إلى أن كثيرا من اليهود يحبـون ويتمنـون أن تعـودوا إلـى الكفـر. وقـد ذكر كثير من المفسرين أن هـذه الآيـة نزلـت عقـب واقعـة حاصـلها:أن حذيفـة بـن اليمان وعمار بن ياسر ﷺ عنهما ذهبـا إلـى المدرسـة التـي يـتعلم فيـه أبنـاء يهـود التوراة (المِدْراس) فقال لهم المعلمون: إنه لو كنتم على الحق مـا أصـابكم يـوم أحـد مـا أصابكم، فاتركوا دينكم إلى ديننا فنحن أهدى منكم. فثبتا علـى الإسـلام ولـم يـؤثر كـلام اليهود فيهما.

وكان عامة يهود يتمنون لو يعود المسلمون إلـى الشـرك، حملهـم علـى ذلـك حسـدهم الذي تطور تبعا لما يفتح الله كل يـوم مـن القلـوب للإسـلام، ولسـرعة انتشـاره بـين قبائل العرب، ولتمسك أتباعه به تمسكا كان بـه مقـدما علـى حيـاتهم وعلـى كـل مـا أوتوه من متاع الحياة الدنيا.

سـما الإسـلام بـأخلاق المـؤمنين، وتبعـا لـذلك أمـرهم الله أن لا يعـاجلوا بالعقوبـة حاسديهم وأن يصفحوا فلا يؤنبـوهم. إن حسـدهم لا يضـيركم، فرجـاؤكم فـي فضـل الله ثابت، ووعد الله لكم بـأن يظهـركم علـى أعـدائكم سـيتحقق. والله الكامـل الكمـال المطلق لا يعاجل بالعقوبة مع تمام قدرته. فعفوكم من الكمال .

110-وأقيموا الصلاة...بصير.

ويرشد الله المؤمنين إلى ما يقوي عزائمهم ويثبتهم على المستوى الرّقيع الذي تحولوا له بعد أن خالطت بشاشة الدين قلوبهم وعقولهم، بأن يُرَسّخوا ما بلغوه من كمالات بإقامة الصلاة على خير وجوهها من خشوع لله ومواظبة عليها في أوقاتها، وهو معنى إقامتها، وأن يعملوا على تأكيد آصرة الأخوة الإيمانية، وتمكين المحاويج من المسلمين من حقهم في الزكاة على وجه لا يظهر فيه المزكي ترفعا ولا منة، وهو معنى الإيتاء، أي فعل المرء ما يفعله محبا له طائعا به.

ويثبت الله المؤمنين على الالتزام بهذين الرّكنين بتقرير قاعدة تزرع الطمأنينة والرّجاء في قلوب المؤمنين: إن الله يسجل عنده، التسجيل الذي لا يضيع منه شيء، ما يقدمه الإنسان في حياته الدنيا، ليجد جزاءه عند رب العالمين، الله الذي لا يغيب عن علمه كبيرة ولا صغيرة ولا تنقلب حقائق الأفعال بالمظاهر. فالخير المجزيُّ به هو ما صلح فيه الباطن والظاهر.

وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

برهان: دليل مقنع.

أسلم وجهه: خضع .

الذين لا يعلمون: مشركو العرب الذين لا يسندون أقوالهم إلى كتاب.

بيان المعنى الإجمالي:

قال اليهود: لن يفوز بالجنة إلا اليهود وكذلك قالت النصارى الجنة للنصارى وحدهم. والجنة لا تُنال بالأماني. وكل دعوى لا تستند إلى دليل باطلة ومرفوضة يكذب مدعيها. لكن الحقيقة الصادقة التي يقبلها العقل، هي أن من أخلص لله بكليته، وقرن العقيدة بالعمل الصالح الحسن، هو الذي ضمن الله له أجره عنده وطمأنه،

فلا هو يخاف من آت ولا يحزن على ماض. وكما جازفوا في المآل قال كل فريق: إن الفريق الآخر لا أساس له ولا حقيقة، مع أن اليهود يشهد كتابهم الذي يتلونه وهو بين أيديهم بصدق المسيح والأنبياء وكذلك النصارى فإن كتابهم يعترف بالتوراة وبشر بمحمد. فكانوا بتعمد كل منهم رفض الدين الآخر لا يختلفون عن مشركي العرب الذين رفضوا الأديان الثلاثة. ويهددهم الله بأنه سيفضحهم، ويحكم عليهم جزاء ما تجنوا بتكذيبهم رسالات الله

بيان المعنى العام:

111-112: وقالوا لن يدخل الجنة...ولاهم يحزنون.

يظهر اليهود في المجتمع بأنهم أهل كتاب يعلمون مالا يعلمه غيرهم، فما يبثونه من أخبار يتميز بمصداقية في زعمهم، وكذلك النصارى فسجل القرآن من أباطيلهم: دعوى عريضة كاذبة من اليهود بادعائهم أن الجنة لهم وحدهم، ومن النصارى بأنهم يفوزون وحدهم بالجنة. ويرد الله دعاويهم هذه لأنها دعاو فارغة لا تستند إلى دليل يصدقها. ويبرز الحقيقة التي يقبلها العقل والمنطق: أن الفوز ليس بالأماني، ولكن الفوز لمن جمع بين أمرين:

أولا: إسلام الوجه لله، الذي مؤداه أنه أقبل مطيعا راضيا، بعقيدته ومشاعره مخلصا بها جميعا لله لا يشرك به أحدا.

وثانيا: أحسن في عمله وفي سلوكه وفي نشاطه في الكون وفي علاقاته بخلق الله. يبغي أن يرتفع بسلوكه عن القيام بالواجب، إلى أدائه على أفضل الوجوه وأتمها وأحسنها. فهؤلاء الذين اهتدوا ففازوا بالطمأنينة الرّاضية. أجرهم أمانة مستودعة عند ربهم عند من لا تضيع الودائع عنده، لا يحزنون على ما فات ولا يخافون من مخبآت المستقبل، كما قال تعالى أولئك لهم الأمن وهم مهتدون.

113- وقالت اليهود...فيما كانوا فيه يختلفون.

ويضيف كل فريق أنه يزدري الفريق الآخر، فاليهود يقولون: إن دين النصارى ليس له أساس ولا يتضمن حقيقة معقولة. والنصارى يرمون دين اليهود بنفس ما رمى به اليهود النصرانية. وكل واحد منهما مجازف متنكر لما يقتضيه كتابه الذي يؤمن به، إذ أن التوراة تنص على أن الله سيبعث أنبياء أخذ موسى على بني إسرائيل العهد أن يتبعوا الحق الذي أنزل معهم. وكذلك النصارى قد نص الإنجيل على أن الله أنزل التوراة، وبشر بمحمد. إن اليهود والنصارى بمجازفتهم هذه، لا يختلفون عن مشركي العرب(**الذين لا يعلمون**) الذين رفضوا اليهودية والنصرانية والإسلام، وقالوا: ما أنزل على بشر من شيء. فالثلاثة اليهود والنصارى ومشركو

العرب تشابهت أقوالهم، وتشابه مستندهم الذي لا يخرج عن الرّقض تبعا للهوى، وإغماض البصيرة عن الحقائق الثابتة، وسيأتي القول الفصل في إثبات الحق ودحض دعاواهم، عندما يوقفون وقد تجردوا من خيلائهم وبان ضعفهم ، ويصدر القول الحق من رب العالمين في يوم لا يملكون فيه شيئا.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَـٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

الظلم: الاعتداء على حق الغير والتسلط عليه بغير رضاه.

الخزي: الذل والهوان.

بيان المعنى الإجمالي:

يقرر القرآن أن من أشد الظلم، من بلغ به عتوه أن منع رواد المساجد التي لا ملك عليها إلا لله، منعهم من أن يذكروا الله ويطهروا أرواحهم بالعبادة ، ثم لم يكتف بذلك بل عمل على تخريبها. إنهم طغوا وتجبروا مع أنه لا يحق لهم أن يدخلوها إلا مستشعرين لعظمة رب تلك المساجد وقدرته خائفين من التسلط الظالم عليها. توعدهم القرآن بالخزي في الدنيا والعذاب الأليم في الآخرة.

بيان المعنى العام:

114-ومن أظلم ممن منع...ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

ذكرت الآية السابقة أن المشركين تجاوزوا جراءة اليهود والنصارى فكذبوا جميع الرّسل، وأنكروا الديانات كلها، وعطفت هذه الآية نوعا آخر من فسادهم وسوء تصرفهم. إن المشركين يسكنون حول المسجد الحرام وفي الأماكن التي فضلها الله بأداء العبادة فيها كالمسعى بين الصفا والمروة، والمزدلفة وعرفة، وهم لا يملكون شيئا منها، وإنما هي أماكن للعبادة يملكها المعبود بحق الله رب العالمين. ولكن تسلطوا وتجرؤوا وظلموا فمنعوا المسلمين من عبادة الله في تلكم الأماكن المقدسة، وحرموهم من التقرب فيها مخلصين لله. فكانوا بتسلطهم هذا ظالمين ظلما شديدا. لأنهم لو كانوا يعقلون لعمرت قلوبهم الخشية والخوف، وما تجاوزوا حدود الأدب فيها فضلا عن منع المؤمنين من العبادة فيها. يتوعدهم الله بأن جراءتهم هذه وظلمهم سيلقون جزاءه ذلا في الدنيا، وعذابا شديدا مهما تخيل البشر شدته هو

أعظم من ذلك، لأن الله الذي سيسلطه عليهم وصفه بالعظمة وهو لا يعظم لديه شيء، ولكنه أعظم مما يتخيله المتخيلون. أعاذنا الله من مقته وعذابه.

﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ فَأَيۡنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

المشرق والمغرب: الأرض كلها.

وجه الله: ذاته العلية.

بيان المعنى الإجمالي:

كل الأرض من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، ملك لله لا لأحد سواه فإلى أي جهة وفي أي مكان قام الإنسان بعبادته فالله معه يعلم قصده ويقبل خالص عمله ويجزيه عنه. إن سعة ملك الله تشمل كل شيء، ولا تخفى عليه خافية.

بيان المعنى العام:

115- ولله المشرق والمغرب...إن الله واسع عليم.

لما منع مشركو مكة المسلمين من أداء عبادتهم في الأمكنة التي فضلها الله وحرموهم من البيت العتيق والمسجد الحرام، وقد ألفوا تلكم الأماكن المقدسة وأنسوا بها في عباداتهم، طمأن المولى سبحانه المؤمنين، بأن سر العبادة هو في التوجه الخالص لله، وتعلق القلب به والخضوع لجلاله، وكل مكان يقوم فيه العابد بأداء العبادة مخلصا فذلك المكان هو ملك لله يستوي ملكه تعالى في كل جزء من أجزاء الأرض من مشرقها أو مغربها. لأن قاعدة العقيدة السليمة أن الله وسع ملكه كل شيء، فالأمكنة بالنسبة له تعالى متساوية، وهو المطلع على القلوب، فلا يخفى عليه سبحانه ما تكنه ولاما تظهره.

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾

بيان معنى الألفاظ:

سبحانه: تنزيه له. أي إن اتخاذ الولد ينافي الألوهية فلا تتصور فيه.

الولد: يقال على الابن والبنت كقوله تعالى يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين.

القنوت: الخضوع والانقياد.

بديع: المبدع هو المنشئ على غير مثال سابق.

بيان المعنى الإجمالي:

كشف القرآن عن فساد عقيدة غير المسلمين وعما يقولونه مما هو غير معقول. فمن ذلك إشاعتهم أن الله قد اتخذ ولدا، وهو باطل غير معقول لأن المالك لكل شيء الذي يتوجه إليه كل مخلوق بالخضوع والانقياد، لا يتصور فيه أن يطلب الولد. والذي أنشأ المجرات السائرة في الأبعاد الفسيحة، والأرض على غير مثال سابق فإيجاده يتحقق بتعلق إرادته التي لا يستعصي عليها أي شيء.

بيان المعنى العام:

116-117: وقالوا اتخذ...كن فيكون.

سجل القرآن على اليهود والنصارى والمشركين ما صدر عنهم من أقوال أشاعوها مما لا يقبله العقل ولا يقره المنطق. قال اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال المشركون الملائكة بنات الله. وذلك من الجراءة على الله، وقول عظيم فساده ، فلذا عقبه بقوله سبحانه، أي هو منزه عن هذا الذي لا يليق ولا يتصور ممن اتصف بالألوهية والخلق، تنزه أن يكون له ولد مما يتنافى مع حقيقة الألوهية. ولفت العقول إلى الأدلة المنزهة على أخصر طريق:

أولا: التعجيل بقوله **(سبحانه)** إبرازا لشناعة هذا القول، لأن الرّغبة في الولد ناشئة عن نقص في الوالد، لأن الوالدين لما كان الفناء يلحقهما رغبا في الولد للبقاء في الفرع، ولأن الوالد يرغب في الولد ليسعفه عند كبره وضعفه، والله منزه عن ذلك

ثانيا: إن كل الكائنات العاقلة وغير العاقلة في الأرض والسماوات مملوكة له، وهي أيضا خاضعة له يتصرف فيها تصرف المالك المطلق. كل له قانتون، وكلاهما مما ينفي الولدية ،لأن الولد جزء من أبيه لا مملوك له، وشأن الولد أن تكون صلته بوالده صلة بر وقرب لا صلة خضوع وانقياد.

ثالثا: إن الله أبدع خلق السماوات فلم يسبق لها وجود ولا مثل، وأبدع خلق الحيوانات على غير مثال سابق، وأبدع خلق الإنسان كذلك. فكل كائن هو مخلوق لله أنشأه مصورا كما أراد بحكمته، وشأن الولد أن يكون نسخة من أبيه لا مختلفا عنه اختلافا جوهريا.

رابعا: قرب الله لعباده إنشاء الكون الذي ضلت فيه عقول البشر، وخبط فيه الفلاسفة ما خبطوا دون أن يصلوا إلى نتيجة يقبلها العقل. وذلك ببيان الفرق بين الخالق والمخلوق، فإذا كان عمل المخلوق متوقفا على أسباب ومقدمات ، فإن شأن الخالق أمر آخر، إنه إذا تعلقت إرادته بإحداث أي شيء مادي أو روحي فإن إرادته يتصل بها اتصالا مباشرا الانجاز، بدون مقدمات ولا ترتيب، ولا مواد أولية. أما كيف يتم ذلك فإن عقول البشر تقصر عن تصوره دون دعوى استحالته.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

بيان معنى الألفاظ:

الذين لا يعلمون: المشركون.

آية: علامة على الصدق.

البشير: هو المخبر بأمر سار.

النذير: المخبر بأمر مخوف.

بيان المعنى الإجمالي:

قال المشركون إنا لا نؤمن إلا إذا كلمنا الله، أو نرى بأعيننا شيئا ينادي بصحة ما تقول، فلا تعجب يا محمد من عنادهم فهي الطريقة التي سار عليها الكافرون قبلهم. فعقولهم وتفكيرهم يشبه بعضه بعضا، وما أنزلناه عليك بين واضح لمن فتح بصيرته لقبول الهدى. وكن واثقا أنا أرسلناك مؤيدا ملابسا للحق، تبشر الصالحين وتنذر الكفار والفاسقين. وإن ما أعددته للكفرة من عذاب الجحيم هو فوق الوصف.

بيان المعنى العام:

118- وقال الذين لا يعلمون...لقوم يوقنون.

كما سجل مقالات اليهود والنصارى سجل مقالة المشركين. أرادوا أن يقذفوا باليأس في قلب رسول الله الحريص على هدايتهم، فقالوا له: إننا لا تؤمن بما جئت به إلا إذا كلمنا الله مباشرة ، وسمعنا صوته يعرفنا بأن ما تقوله حق، أو أن تأتينا معجزة مادية نراها بأعيننا. كما ذكره القرآن في سورة الإسراء **(وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا)**[1].

ثبت الله نبيه بأن ذلك هو شأن المعاندين مع المرسلين، فقد طلب اليهود من موسى أن يريهم الله جهرة، وأن يجعل لهم إلها كما للمشركين آلهة، إلى غير ذلك مما قصه الله في القرآن. وكذلك الأمر مع عيسى عليه السلام ، فقد سألوا أن تنزل عليهم مائدة من السماء. فعقولهم متشابهة كلما جاءتهم آية اقترحوا آية أخرى. وفيما أنزل

[1] سورة الاسراء، الآيات 90-92.

الله من القرآن ما يقوم حجة على صدق رسول الله ﷺ، فمضمونه وطريقته وأسلوبه، وما أخبر عنه من المغيبات التي لا تتأتى للعقل البشري، وكون كل ما جاء فيه يشهد العقل بصدقه ويؤكده، كل ذلك شواهد صدق لقوم فتحوا عقولهم لتقبل الحق .

119-إنا أرسلناك...ولا تسأل عن أصحاب الجحيم .

يزيد الله سبحانه تثبيتا لنبيه، فيخاطبه مخاطبة مباشرة، (إنا أرسلناك) ضمير المتكلم " إنا "من الله، وضمير المخاطب الحاضر رسول الله "أرسلناك" ومضمون اختلط بالرّسول واختلط به حتى أصبحا شيئا واحدا "بالحق" فهو الحق والحق معه. ويرفعه إلى المقام الذي أراده له فكل الخلائق مخاطبون من قِبَلِهِ ﷺ، من آمن ومن كفر(**بشيرا للمؤمنين ونذيرا للكافرين**) ثم يسليه عما يلقاه من رفض الكافرين لدعوته فيقول له: ولا تسأل عن أصحاب الجحيم. هم أهون من أن تسأل عنهم، وهوانهم يتجاوز الحد الذي يسأل عنه لمعرفته.

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

الملة: ما شرع الله لعباده على لسان الأنبياء ولا تضاف إلا للنبي ﷺ الذي تسند إليه فلا يقال ملة الله ولا ملة فلان ويقال ملة محمد وملة إبراهيم.

هدى الله: ما يقدره الله للشخص من التوفيق.

الهوى: رأي ناشئ عن شهوة لا عن دليل.

الولي: القريب المؤيد.

النصير: المعين على رد الضر.

بيان المعنى الإجمالي:

أخبر الله نبيه بأن تعصب اليهود والنصارى حجب عنهم تبين صدق الرّسول ﷺ ، وأنهم عَلّقوا مهادنته على ترك دينه واتباع ما هم عليه. قل لهم يا محمد: إن التوفيق من الله وحده، والهدى الحق الوحيد هو ما أنزله الله عَلَيّ. ثم يؤكد تأكيدا مبالغا فيه أن من اتبع ضلالاتهم النابعة من أهوائهم هو خاسر لأن الله لا يكون له مؤيدا ولا ينصره.

بيان المعنى العام:

120- ولن ترضى عنك...ولا نصير.

تعصب اليهود ليهوديتهم، وتعصب النصارى لما هم عليه تعصبا حجب عنهم النظر في دلائل صدق الرّسول وما في دين الإسلام من هداية تجمع بين البشر وتهديهم سواء السبيل، وبلغ بهم التعصب أن أعلن كل فريق أنه لا يهادن محمدا إلا إذا اتبع ملته وتخلى عن دينه. قل يا محمد بكامل الشجاعة والقوة:

إن هدى الله ووحيه هو الهدى الحق لا ما أنتم عليه من أوهام تراكمت، وتلفيقات اخترعتموها، وإني لا أملك هدايتكم لأن الألطاف التي تحيط بالإنسان حتى يسلم في دنياه وآخرته هي من الله وحده. ويؤكد القرآن أن من اتبع تلكم الأهواء المخترعة، والضلالات التي ألحقوها بما أنزله الله على رسله وحرفوا بها هداية الله، من اتبع ذلك فقد تخلى عن رابطته بالله الرّابطة التي يتبعها تأييد الله له ونصرته عند الشدائد، ومن تخلى عن تلكم الرّابطة هلك. وتوجُّهُ القرآن للرسول ﷺ فيه تحذير من الطمع في هدايتهم، فاسترضاؤهم طمعا في دخولهم للإسلام طمع فيما لا مطمع فيه، لشدة ما استقر في قلوبهم وعقولهم ومشاعرهم من حقد وبغض للإسلام.

ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٢١﴾

بيان معنى الألفاظ:

يتلونه حق تلاوته: التلاوة المتأملة الواعية لمضامين المقروء.

بيان المعنى الإجمالي:

الذين مكنهم الله من التنزيل الموحى به لرسله ، يقرأون القرآن قراءة المتفهم الواعي لمقاصده، وهؤلاء هم المؤمنون به لأنه يأخذ بعقولهم وقلوبهم إلى الإيمان بك وبالمنزل على قلبك.

ومن يكفر بالحق ويتبع هواه هو الخاسر الذي لا يجد من عمله شيئا.

بيان المعنى العام:

121-الذين آتيناهم الكتاب..ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون.

هذا هو شأن القرآن في الإنصاف، فلما أبرز تعصب اليهود والنصارى في الآية السابقة، بين أن من يتلو التوراة من اليهود ومن يتلو الإنجيل من النصارى تلاوة متأملة متفهمة مدركة لمضامينه، متوقفا في كل ما ورد فيهما مما لا يقبله العقل

ولا يمكن أن يكون وحيا، هؤلاء التالون التلاوة الحقيقية الذين رفعوا حجاب التقليد وعمى التعصب، هؤلاء يؤمنون بالرّسول وبالقرآن. وهم بذلك قد ربحوا في حياتهم الدنيا ربحا هو الفوز عند الله والطمأنينة في الدنيا بأنهم على صراط مستقيم. ومن كفر فأولئك الذين كان عملهم باطلا لا يَلْقَوْنَ منه أي نفع فهم الخاسرون.

يَـٰبَنِىٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّى فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَـٰلَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا لَّا تَجۡزِى نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٍ شَيۡـًٔا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٌ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

اذكروا: ذكر استحضار للنعم.

اتقوا: اجعلوا لنفسكم وقاية من عذاب الله.

بيان المعنى الإجمالي:

يكرر القرآن دعوة اليهود أن يستحضروا ما أنعم الله عليهم وأنه فضلهم على أهل زمانهم ببعث الأنبياء فيهم، وأنقذهم من ذل فرعون وغير ذلك من النعم. ثم أمرهم أن يحصّنوا أنفسهم من العذاب في يوم لا يتحمل أي فرد عن غيره شيئا، ولا يقبل منه فداء لأنه لا يملك شيئا في ذلك اليوم، ولا تنفعه شفاعة لأنه لا يستطيع أي شخص في ذلك اليوم أن يقوم شفيعا، ولا يجد له نصيرا.

بيان المعنى العام:

122-123 : يا بني إسرائيل...ولاهم ينصرون.

بعد أن كشف القرآن في هذه السورة عن مكائد اليهود وعنادهم وحسدهم ومكرهم في الآيات السابقة أعاد دعوتهم ليقرع أسماعهم من جديد لييأسوا من أن الله سيغفر لهم لأنه فضلهم على العالمين ببعث الأنبياء فيهم وما أفاضه عليهم من نعم كثيرة، فأكد ما جاء في مفتتح خطابهم أن الآخرة لمن اتقى وأنه لا ينجي الإنسان فيها إلا عقيدته الصالحة وعمله المرضي.

۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمۡنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَـٰذَا

بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن
كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذۡ يَرۡفَعُ
إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ
﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ
عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ
ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

بيان معنى الألفاظ

الابتلاء: اختبار المكلف في وفائه بما كلف به.

الكلمات: الكلام الموحى به لإبراهيم.

فأتمهن: أتى بجميع ما أمر به دون أن يبطئ.

الإمام: القدوة الهادي.

الذرية: نسل الرّجل وما توالد منه.

ينال: يحصل على الشيء وهنا العهد.

العهد: وعد الله.

الظالمون: مرتكبو الكبائر وأعظمها الشرك بالله.

البيت: يطلق بالغلبة على الكعبة.

مثابة: مثابة مقصد يرجعون إليه.

مقام إبراهيم: يصح أن يكون المراد به الحجر الذي كان يعلو عليه لما ارتفع بناء البيت (وهو الحجر الموضوع قبالة باب البيت الآن تحت قبة من الزجاج حفظا له) ويحتمل أن يكون مقامه البيت كله باعتبار أن إبراهيم كان يقوم عند البيت يفرد الله فيه بالعبادة ويدعو الناس للتوحيد.

عهدنا: أوصينا وصية مؤكدة.

العاكفين: جمع عاكف وهو المقبل الملازم على سبيل التعظيم.

البلد: المكان من الأرض المعروف حدوده، وغالبا ما يطلق على المأهول.

القواعد: جمع قاعدة وهي الأساس الذي يقوم عليه البناء.

الأمة: الجماعة العظيمة التي يجمعها ما له قيمته من نسب أودين أو زمان.

أرنا: من رأى بمعنى عرف أي عرفنا.

مناسكنا: جمع منسك ما نتعبد به، أرنا مُتَعَبَّدِاتنا.

الآيات: جمع آية جملة دالة على صدق التالي لها لما اشتملت عليه من البلاغة والإعجاز في النظم، والسعة والصدق في المضمون.

بيان المعنى الإجمالي:

كلف الله إبراهيم عليه السلام بجملة من التكاليف فأداها على أفضل الوجوه وأتمها، جازاه ربه فقال له: إني جاعلك إماما للناس يقتدون بك، فطلب إبراهيم من ربه أن تستمر الإمامة في ذريته، فأجابه ربه لِما طلب مع التدقيق أنه لا يبلغ تلك المرتبة ولا يستحقها من كان ظالما. ومن المقرر عند العرب في وقت البعثة صلة إبراهيم عليه السلام بالكعبة، فنوه الله بهذا البيت، بأن جعل تعلق الناس به تعلقا كبيرا، يخلف زواره بعضهم بعضا، ومن زاره يكون عند مغادرته متشوقا إلى العودة إليه، وجعل سبحانه في قلوب الناس حرمة له تحقق بها الأمن لزواره والقاصدين للعبادة فيه. وأمر سبحانه تبعا لذلك أن يتخذوا من المقام الذي كان يعبد فيه إبراهيم ويدعو إلى الله، ومن الحجر الذي كان يرتفع عليه لبناء البيت، مكانا يكون التقرب فيه إلى الله بالصلاة أعظم ثوابا. وأوصى إبراهيم وابنه أن يحرصا على إعداد الكعبة للعبادة بتطهيرها من كل ما يؤذي العابد، ومن الأصنام المنافية للتوحيد، حتى يتوفر للطائفين حول البيت والمقيمين فيه والعابدين الرّاكعين الساجدين، يتوفر لهم ما يمكنهم من أداء العبادة لله على أفضل الوجوه وأتمها.

وينوه القرآن بإبراهيم إذ توجه إلى الله داعيا أن يقدر لهذا المكان الأمن الذي تتحقق به العمارة، وأن ييسر لسكانه المؤمنين أسباب الرّخاء فيرزقهم من مختلف أنواع الثمار وإن كان في طبيعته مكونا من جبال جرداء، ويلقن الله نبيه بأن رحمته تسع المؤمن والكافر في الحياة الدنيا، إن متاع الكافر في الدنيا هو متاع محدود فان، ثم يلجئ الكافر إلى عذاب النار وبئس المصير.

كما ينوه بإبراهيم وهو يرفع الأسس التي تستند إليها جدران الكعبة مع ابنه إسماعيل بجمعه بين تنفيذ ما أمره الله به من بناء البيت، وبين الابتهال بأن يتقبل الله عملهما، والله لا يتقبل من الأعمال إلا ما نُفِذَ بإخلاص على أفضل الوجوه وأتمها، فَيُعَقِّب إبراهيم دعاءه بأنه سبحانه يعلم صدقهما في الإخلاص. كما يبتهل إلى ربه أن يجعلهما مسلمين له روحهما ومشاعرهما وأعمالهما، وأن يستمر هذا الإخلاص في قسم من ذريته، وأن يتفضل عليهم بمعرفة ما يرضيه من طرق العبادة، وأن يغفر للجميع غفلاتهم أو تقصيرهم، مقدما بين يدي دعائه اقتناعه بأن الله هو التواب الرّحيم بعباده. ويختم ابتهالاته بأن يحقق الله ما دعا به وذلك بأن يبعث في ذريته نبيا منهم يثبت كل ما جاء في ابتهالاته بأن يصحبه بكتاب معجز في بلاغته وفي

مضمونه ،يعلمهم الكتاب الذي يملأ قلوبهم من الحكمة ويزكي مداركهم وأفعالهم لتجري على صراط مستقيم. ويصرح برجائه في قبول دعائه بأنه يدعو ربه العزيز القادر الذي لا يعظم عليه أي شيء الموصوف بالحكمة البالغة.

بيان المعنى العام:

124- وإذ ابتلى إبراهيم ربه...الظالمين.

واذكر ما حدث مما سأتلوه عليك: كلف الله إبراهيم بالقيام بمجموعة من التكاليف مضبوطة، هو مأمور أن يكملها على الوجه الذي أمر به، ومنهي أن يدخل فيها ما لا يلائمها. ولما كان التكليف ظاهره أن النتيجة تظهر بعد تنفيذ المطلوب، عبر القرآن عن هذا التكليف بالاختبار (الابتلاء) ولم يفصل القرآن ما كلف به إبراهيم، لأن ذلك لا يهم، إنما المهم هو أن يقتدي البشر بأبي الأنبياء إبراهيم فيحرصوا على امتثال ما يطلب منهم خالقهم لينالوا الجزاء والتكريم. ويظهر أن هذه التكاليف تقتضي يقظة وجدا وذكاء في التنفيذ، لأن الله رتب على وفاء إبراهيم بما كلف به أن جعله قدوة للبشر جميعا في كمال الطاعة وحسن الامتثال، فقال له إني جاعلك إماما مقتدى به لجميع البشر. ويحرص إبراهيم لصفاء روحه وما طبع عليه من فضل، ولأن ذلك من الفطرة السليمة، أن يتكرم الله أيضا على بعض ذريته بالإمامة، حتى لا تنقطع هذه الميزة، القيادة للخير من نسله، وقد ثبت عن النبي ﷺ أن الإنسان ينتفع بعد موته بدعاء ولده له. فهي وشيجة بين الأصول والفروع ينتفع الآباء بصلاح ذرياتهم وتنتفع الذرية بصلاح الآباء. ويجيب الله إبراهيم بأنه لا يحرم الصالحين من ذريته من هذه المرتبة ويحجبها عن الظالمين. وأعظم أنواع الظلم وأشده، الكفر بالله، ومن الظلم تعدي حدود الله بارتكاب الكبائر والبغي على الناس، **(إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريما)**[1] وتقرر الآية حقيقة: هي أن الإمامة التي يكون صاحبها مُتَّبَعًا سواء أكان لتحمله لرسالة من الله أو لتحمله قيادة مجموعة بشرية في شؤون الحياة أو لقيادتهم في العبادة كإمامة الصلاة، أساس توليه تلكم القيادة: هو العدل والبعد عن الظلم. وتهدي الآية إلى مبادئ تنتفع منها البشرية في حياتها الاجتماعية إن هي راعتها، فإسناد الولايات والمناصب لا بد أن تتقدمه تجربة تظهر الكفاءات وتبرز ما عند الشخص من قدرات، وصفاء نفسه وروحه ببعده عن الظلم والانحياز للهوى.

125-وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا...السجود.

[1] سورة النساء آية 31

ذكر إبراهيم عليه السلام يثير في نفوس السامعين بناءه البيت الحرام. فيقول الله لرسوله واذكر لتجدّد ما حدث ليكون حاضرا في ذهن الناس ما تعاقبت العصور والأزمان، اذكر رفع إبراهيم أسس البيت الذي أمر ببنائه ليكون خالصا لله لا ملك لأحد عليه، وقرن هذا التذكير بمزايا الكعبة وما حولها، إذ خصها الله قبل البعثة بأنها المكان الذي يقصده الناس طائفة بعد طائفة كلما أتمت طائفة مناسكها خلفتها طائفة في دورة لا تنقطع، رتبها خالق الكون ترتيبا ثابتا، وهي مثابة للناس يتعلق زائرها بحبه العودة إليها، وهذا ما يدركه كل من طاف بالبيت وأقام في مكة إقامة تطول أو تقصر، فإنه يجد في نفسه شوقا للعودة إليها بمجرد ما يغادرها. وجعل لهم في هذا المقام أمنا يوم كان الأمن يكاد يكون مفقودا إذ وقر في قلوب العرب عدم التعدي لا على النفوس ولا على الأموال في جوار البيت. فإذا فارق الضعيف الحرم تعرض للاعتداء والتسلط عليه.

125-واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم...

قرئ واتخَذوا فعل ماض إخبار عن اتخاذهم البيت وما حولها موضعا للصلاة الخالصة لله فيه، بما قذفه الله في قلوبهم من الاهتداء إلى هذا الأمر، أو باعتبار أن إبراهيم أمر الناس باتخاذ البيت وما حوله مصلى، فاستجابوا واتخذوا. قرئ واتخِذوا (فعل أمر) على أن القرآن أدمج في تنويهه بالبيت الأمر بأن يتخذوا من مقام إبراهيم مصلى. على معنى وقلنا لهم اتخذوا ، فاتخذوا.

وأوصى الله سبحانه إبراهيم وابنه إسماعيل وأكد تلكم الوصية المتضمنة بأن يثبتوا في قلوب الناس أمورا تتعلق بهذا البيت وما حوله: تطهير البيت من القاذورات والأنجاس والأوساخ، فيكون البيت وما حوله نظيفا مساعدا ومحببا لإقامة العبادة حوله فلا يتأذى العابد بما يكرهه.

تطهير البيت من كل الأوثان ومظاهر الشرك ، تهيئة جميع الظروف المادية والرّوحية للطائفين حوله، إذ قد شرع الطواف حول البيت عبادة مرعية عند الله بمجرد ما تم بناؤه. تيسير العبادة فيه التي منها الرّكوع والسجود.

126-وإذ قال إبراهيم رب اجعل...وبئس المصير.

اذكر ذلك المشهد، مشهد إبراهيم وهو متجه لربه بالدعاء ضارعا إليه أن يقدر لهذا المكان الذي بنى فيه الكعبة: العمارة والسعة وطيب العيش. فيدعو أن يتحقق فيه الأمن الذي يقوم على العدل والرّخاء، وواصل إبراهيم دعاءه بأن يرزق ساكنيه من الثمرات المختلفة، إذ البلد الحرام بواد لا زرع فيه ولا سهول حوله وإنما هي

جبال صخرية سود. وبدون ما تنبته الأرض من خيراتها لا بقاء للإنسان ولا إقامة ولا هناء. فطلب إبراهيم أن يرزق أهله المؤمنين من ثمرات الأرض ما يقيم حياتهم فيه. فخص دعاءه بالمؤمنين، إذ أن الكُمّل من البشر تصفو مداركهم صفاء يتبعه أنه إذا نبهوا لأمر أجروا نظائره عليه. وإبراهيم قد سبق له أن دعا باستمرار الإمامة في ذريته دون تفصيل، ونُبه أن الإمامة لا تكتسب للظالمين. ولذا خص الرّزق بالمؤمنين، فلقنه ربه أن سنته في الخليقة أن لا يُقصر مرافق الحياة وأسباب الرّزق على المؤمنين، بل رحمته وسعت خلقه مؤمنهم وكافرهم في الدنيا. وأن ما يصل إليه مما يستمتع به هو متاع قليل، باعتبار أن متاع الدنيا لمدة قليلة لا تزيد على أقصى تقدير عن عمر الإنسان المحدود، والفناء يلاحقه، وما يستمتع به زائل غير باق ينتهي الإحساس به سريعا. فلا يغتر من يصل إليه ما هو محبوب من أمور الدنيا، فمتاعها قليل، ومن لم يؤمن مُلجأ لا مفر له من عذاب النار. ولا مصير أسوأ ولا أشنع ممن تكون خاتمته العذاب فيها مع ما يصحبها من خزي.

127-وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل...السميع العليم.

مشهد يسجل القرآن صورته لتبقى حية يتملاها البشر سائرة مع الدهر، بعد أن هيأ لها بتنويهه بإبراهيم.

مشهد إبراهيم وهو يرفع البناء مثبتا على الأسس التي أقام عليها الكعبة ويعلو بها، يساعده ابنه إسماعيل تنفيذا لوحي الله. ويندمج العمل المادي في الشعور الرّوحي ، فيجهر صوته داعيا: ربنا تقبل منا؛ مبرزا أن الجانب المادي من البناء ورفع جدران البيت لا قيمة له إلا إذا تقبل الله منهما العمل، وهي مرتبة يتعلم منها المؤمنون أن ارتفاع العمل إلى المستوى الذي يرضى الله عنه فيتقبله هو ما ينبغي أن يطلبه العابد بعبادته والعامل بعمله. فإنه وإن كان إبراهيم عليه السلام وولده ينفذان ما طلبه الله منهما، وهما مستحضران أن ما يقومان به ليس له أجر في الدنيا، وأن ذلك المكان ما أمر الله بعمارته بهذا البيت إلا لحكمة يعلمها، وأن الله شرفهما باختيارهما لتنفيذ أمره؛ ومع ذلك فقبول العمل منهما لا يدرك يقينا لأنه في علم الله المكنون. ومن حكمة إبراهيم أن وصل بقوله إنك أنت السميع العليم، فهو سبحانه المتفرد بسماع دعائهما وابتهالهما، وهو المتفرد بعلم بواطنهما وما انطويا عليه من إخلاص يقترن به حضور صلتهما بالأمر حضورا موصولا وَاعِين به أتم الوعي وأكمله.

128-129: ربنا واجعلنا...الحكيم.

ويصل عرض المشهد لسيدنا إبراهيم متضرعا لربه مع ولده إسماعيل بالدعاء: ربنا قدّرْ لنا الثبات على الانقياد لك فلا نغفل عن حقك، وقدر هذه الهداية لبعض ذريتنا. وإنما خص الدعاء بالهداية ببعض ذريتهما لعلمه أن من ذريتهما المؤمنين والكافرين الضالين، ووصل ذلك بأن يمن عليهما بمعرفة الطريقة التي تكون عليها العبادة محققة للرضا والقبول، ويبدو في هذا المشهد وهو مدرك بأن الإنسان مهما بذل من جهد هو مقصر، إذ كل لحظة تمر يغفل فيها عن استحضار جلال الله في النفس، تقصير من العابد في حق المعبود، فيدعو أن لا يؤاخذهما بما يصدر عنهما من تقصير، معتمدا على ما وصف الله به نفسه بأنه التواب الرّحيم. ويختم دعاه بابتهاله أن يبعث في ذريته رسولا منهم؛ ويلهم في دعائه توصيف هذا الرّسول زيادة على كونه منهم، أنه يكون مؤيدا بنص يتلوه عليهم، يكون معجزا، يتولى هذا الرّسول تعليمهم الكتاب المنزل عليه بتبليغه ثم بيانه، فتمتلئ قلوبهم بالحكمة التي تعصمهم من الضلال في العقيدة وتردهم إلى الحق إذا غفلوا.

وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

رغب: رغب في الشيء إذا أحبه ورغب عنه إذا رفضه كما في الآية.

سفه نفسه: أهانها ولم يعطها وزنا.

اصطفاه: اختاره بالنبوة وجعله للناس إماما وباختياره لبناء بيته وتسلسل النبوة في ذريته.

أسلم: أسلم نفسك لي.

شهداء: جمع شهيد وهو الحاضر عند حدوث الأمر.

بيان المعنى الإجمالي

هل يمكن أن يوجد من يعرض عن ملة إبراهيم إلا من أهان نفسه ولم يعطها وزنا. إن إبراهيم قد اختاره الله من بين البشر لتحمل الرّسالة وبناء الكعبة بيت الله الحرام. واستجاب له فجعل النبوة سائرة في ذريته إلى أن ختمها بمحمد ﷺ. وقد حقق القرآن أنه في الآخرة من عباد الله الصالحين المميزين. إن ما ناله كان جزاء

إسراعه لتنفيذ ما طلب منه فقد قال له ربه: أسلم وجهك لي فأسرع إلى الاستجابة. ثم إنه حرص على بقاء هذه الهداية في ذريته فوصى بها ذريته وكذلك حفيده يعقوب، مؤكدين على أن الله قد اختار لهم دين التوحيد فليثبتوا عليه إلى الموت. وكذبت يهود في دعواهم أنهم ملتزمون بوصية يعقوب فهم لم يشهدوا وصيته التي ما كانت تختلف عن وصية إبراهيم وإسحق فإنه عندما حضرته الوفاة شدد على بنيه أن يلتزموا بعبادة الله الواحد الأحد.

بيان المعنى العام:

130-131: ومن يرغب عن ملة إبراهيم ...أسلمت لرب العالمين.

تميز إبراهيم عليه السلام بإسراعه إلى الطاعة وتنفيذ الأمر الإلهي على خير الوجوه وأتمها إخلاصا وإنجازا باطنا وظاهرا، فكان ﷺ بما بلغه من وحي الله وبسلوكه الطاهر قد سن للبشرية من بعده الطريقة التي يرضى الله عنها في العقيدة والسلوك ،واستقر هذا في ضمائر التابعين للديانات الباقية. فاليهود والنصارى يعترفون بأنهم على خُطى إبراهيم والعرب كذلك، فالاستفهام الإنكاري في محله هل يوجد من يعرض عن ملة إبراهيم؟، فيقدر الجواب لا يوجد إلا من أهان نفسه ولم يعطها قيمتها. ذلك أن إبراهيم عليه السلام هو الرّجل المختار من الله، الذي خلق الخلق وهو أعلم بهم، وقد حقق إبراهيم في حياته الدنيا مراتب من السمو والنباهة والفضل لم يبلغها أحد من أهل زمانه بجمعه بين وضوح العقيدة والإخلاص في العمل، والاجتهاد في تنفيذ ما أمر به من ربه، وحسن قيامه على تربية أسرته، فكان مثلا للكمال البشري، فلا يتصور أن يوجد من يرفض منهجه ويتبع طريقا غير طريقه الرّاشد، إلا من لا يحترم نفسه ولا يفكر في عزتها. ثم يزيد القرآن تأكيدا لمزاياه بالتنصيص على أن الله قد اختاره في الدنيا، وأنه يوم القيامة سيكون مكرما مع عباده الصالحين. ثم يبرز مزيته الكبرى أن الأمر أتاه من الله بأن يسلم قلبه وروحه وحياته كلها لله فلا يشغله عن ربه أي شاغل، فأسرع بالاستجابة وقال بلسان مقاله ولسان حاله (**أسلمت لرب العالمين**) فأدمج في جوابه المستند الذي استند إليه والدليل الذي اعتمده وهو حضور الحقيقة الأولى بأنه مطمئن إلى أن الآمر هو رب العالمين الحقيق بأن يسلم كل فرد كل أموره إليه.

132-133: وأوصى بها إبراهيم...مسلمون.

ويعقب القرآن الموقف الإبراهيمي بتذكير أصحاب الديانات السماوية عند نزول هذه الآيات بالعهد الذي أخذه يعقوب على ذريته، هذا العهد الذي لم يحضره اليهود الذين ينتسبون إليه. الله هو العليم وحده بما جرى في ذلك المشهد، فقد سأل يعقوب بنيه

ما تعبدون من بعدي ؟ كان همه في آخر لحظة من حياته أن يطمئن على أن ما وقر في قلوبهم وأرواحهم وعقولهم هو التوحيد الخالص الذي كان عليه كما كان ورثّهُ إياه إبراهيم وإسماعيل وإسحق، هو الله الواحد الأحد، ثم إسلام الوجه له وحده في العقيدة والعبادة وجميع شؤون الحياة. وإذ استبان منهج إبراهيم عليه السلام الذي هو ما التزمه إسماعيل وإسحق ويعقوب، رد القرآن دعوى يهود: أنهم ملتزمون بوصية يعقوب عليه السلام أن يثبتوا على دين يعقوب كما يتصورونه بعد ما تراكم على وصيته عبر القرون من أوهام وما لابسها من ضلالات. وأبان أن وصية يعقوب هي التوحيد الخالص وأنه في تلكم اللحظة التي فارق فيها الدنيا، قد صرح ذريته أمامه بأنهم أسلموا عقولهم وأرواحهم وأعمالهم لله الواحد.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَـٰبِدُونَ ﴿١٣٨﴾ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

بيان معاني الألفاظ:

خلت: مضت.

حنيفا: هو وزن فعيل بمعنى فاعل، والحنف أصله ميلان في الرّجل يجعل صاحبه ينحرف في سيره عن المصاحبين له في المشي، ولما عم الشرك والضلال في عهد

إبراهيم وخالف هو ﷺ قومه جميعا وانفرد بطريق غير طريقهم عبر عن دينه بالحنيفية، وبأنه حنيف، ثم كثر استعمال حنيف في وصف الممدوح باتباعه طريقا غير طريق الضلال.

الأسباط: جمع سبط ابن الابن وهم اثنا عشر ولدا ليعقوب بن إسحق، كل واحد منهم أوحي إليه وكان نبيا. ومنهم تفرعت قبائل يهود.

بمثل ما آمنتم به: الإيمان واحد فالمراد بمثل ما آمنتم به إيمان مساو لإيمانكم.

شقاق: مخالفة قوية شديدة.

صبغة: واحدة من الصبغ.

بيان المعنى الإجمالي:

إن إبراهيم ومن آمن به قد مضوا في التاريخ لهم أجر ما وطنوا عليه أنفسهم وقاموا به من صالح الأعمال، وللحاضرين في زمن البعثة المحمدية جزاء أعمالهم. ولا ينتفع أحد بما قام به سلفه من خير، ولا يسأل أحد عما قدم غيره وإن كان من نسله. فتقرر أن المسؤولية متعلقة بالفرد الفاعل.

وقال اليهود: كونوا يهودا لتتحقق لكم الهداية والسلامة في العاقبة، وقال النصارى: كونوا نصارى لتحصلوا على الهداية، قالوا ذلك اعتقادا منهم أنهم ورثة الهدى الذي جاء به إبراهيم.

قل لهم يا محمد وليقل ذلك كل من اتبعك: إني على المنهج الإبراهيمي الرّافض لكل التصورات التي كانت في زمنه والمعلن للوحدانية الخالصة. وبهذه الخاتمة **(وما كان من المشركين)** رد القرآن على مشركي العرب الذين يدعون أنهم على دين إبراهيم. ثم فصل القرآن هذه الحنيفية، فأمرهم أن يواجهوا تلكم الدعوات التي يروج لها أهل الكتاب ومشركو العرب، فيقولون: نحن مؤمنون بالله، ومؤمنون بشرائعه التي نزلت علينا وهي خاتمة للشرائع وناسخة لكل ما يخالفها، دون أن ينافي هذا الإيمان ما أنزل على إبراهيم وعلى ولديه إسماعيل وإسحق، وعلى حفيده يعقوب بن إسحاق وعلى أبناء يعقوب (الأسباط) وما أنزل على موسى وعيسى، وكل هداية جاءت من الله فتلقاها أنبياؤه وبلغوها. فهي واحدة في أصولها. فنحن المسلمين: إيماننا بأن الحق واحد وهو كل ما جاء عن الله ونعلن أنا منقادون إليه. ثم يقوي القرآن ويثبت المؤمنين بأنه لا يوجد إلا طريق واحد هو ما بينه رسول الله ﷺ واستقر في قلوب صحابته، فمن آمن بذلك فهو المهتدي ومن خالفه ضل وخسر. وهو خارج عن طريق الله. ويثبت الله نبيه بأن ما يدبره الكفرة للكيد للدعوة وتألبهم على باطلهم، وتعصبهم ضد الإسلام، كل ذلك لا يفيدهم؛ وأن الله ناصر دينه سيرد

مكائدهم في نحورهم. فليثق كل مؤمن أن الله ناصر للحق على الباطل، فإن ما تنطوي عليه بواطنهم، وما يتهامسون به في الخفاء، فالله يسمع سرهم وجهرهم، وهو العليم بما تنطوي عليه نفوسهم فيحبط ما يخططون له من شر وأذى. إن هذا الإيمان الساري فينا مع ما أوحى الله به لأنبيائه، هو الصبغة التي صبغنا الله بها فكانت ميزتنا التي أصبحت ظاهرة فينا. ولا يوجد صورة أرقى ولا أحسن ولا أجمل منها. ولقن القرآن حجة دامغة لرد ادعاءات وجدل الكفار لجماعة المسلمين، فهم يدعون أن الله هو إلههم فقط. فاليهود أنهم شعب الله المختار والنصارى على أن عيسى ابن الله وأنهم اتحدوا به فهم أقرب إليه، فكان الرّد أن الله هو رب البشر جميعا، وعزله عن خلقه هو نفي لكمال الألوهية، فإنصاف العقيدة يقتضي رد ادعاءاتهم وإثبات أن الله تولى كل كائن فخلقه وأحاطه بألطافه حتى بلغ ما بلغ. وأن عدله لكماله يقتضي أن كل فرد مجزي بعمله، فلنا جزاء أعمالنا ولكم جزاء أعمالكم. ثم يترقى في إبطال تصوراتهم بأن المؤمنين بالرّسالة المحمدية يتميزون بالإخلاص الذي به تتفاوت الخلائق.

ويواصل القرآن تسجيل ضلالات أهل الكتاب وما يروجونه من أباطيل ليدحضها، فمنها أن اليهود قالوا: إن إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا على اليهودية، وقالت النصارى: بل كانوا على النصرانية. كان الرّد حاسما أن الله قد أعلم المسلمين أنهم ما كانوا يهودا ولا نصارى وأنهم واهمون فيما يزعمون، والله هو العليم. وأشار إلى أن هذه الضلالات قد أقرهم عليها أحبارهم ورهبانهم، إن هؤلاء الأحبار والرّهبان هم من أشد الناس ظلما لأتباعهم لأنهم لم يغيروا عليهم ما تراكم عبر التاريخ حتى اطمأنت له العامة إرضاء لهم واستدرارا لمحبتهم ونوالهم. ويهددهم القرآن بان الله لا يفلت شيء عن علمه، فسيجازيهم بسكوتهم عن الحق حتى أمعن بسكوتهم هذا أتباعهم في الضلال.

بيان المعنى العام:

134- تلك أمة قد خلت...عما كانوا يعملون.

انتظمت هذه الآيات بين دفتي إطار حاصر من البداية إلى النهاية. هذا الإطار الذي يقرر حقيقة كبرى هي من الأسس التي بنى عليها رب العزة الإسلام، فبلغ بالإنسانية درجة الرّشد. هي تأصيل أن كل فرد من أفراد الجنس البشري له شرف المسؤولية عن أعماله، لا ينتفع بصلاح أصوله ولا يتحمل جريرة ما اقترفوه. فأعلاه المفتتح به ، **تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون** – وخاتمته النهائية نفس الآية. وما بين دفتي الإطار تثبيت المؤمنين

على الإيمان ومحاجة للمعاندين الكفرة وإسقاط ما يستندون إليه مما يروجونه ويعملون على إقناع الناس به، فتهاوى ما بنوه بساطع الحجة وصادق البراهين، وثَبَّتَ القرآن المسلمين ولقنهم ما يسقطون به بهرج أراجيفهم.

135-وقالوا كونوا هودا...وما كان من المشركين.

أولا: روج أهل الكتاب دعوى مبناها عند اليهود أن الله لما بعث موسى بالهدى وأيده بالمعجزات، فمن أراد لنفسه النجاة والاطمئنان على أنه على هدى الله فليلزم دين اليهودية، ومبناها عند النصارى: أن الله قد اصطفى عيسى، وأنه ابنه، ولا سبيل لسلامة العاقبة إلا لمن التزم بدينه واتبع ما جاء به. ويرد الله عليهما معا، ويُضَمِّنُ إسقاط حجتهم الرّد على مشركي العرب فيقول: إن الذي جاء به محمد وأمرنا باتباعه هو ملة أبينا إبراهيم الملة التي طهرت العقيدة من كل لوثة شرك، فمال بالبشرية عن الطريق الذي كانت تسلك ونقّى أرواحها من الشرك والوثنية، واتخذ طريقا مجافيا منحرفا عما كان سائدا (حنيفا) ويتضمن هذا أن ما اعتقده اليهود من أنهم أبناء الله، وقبولهم لما يشرعه أحبارهم على أنه تشريع الله ينأى بهم عن الحنيفية التي أسسها إبراهيم والتي يدعون أنهم أتباعها الحقيقيون. وكذلك النصارى في تأليههم لعيسى وما قبلوه من رواسب الوثنية في عقائدهم ومعابدهم، كله مما يتنافى مع التوحيد الواضح النقي الذي كان عليه إبراهيم ويتضمن هذا، الرّد على مشركي العرب أيضا، الذين يدعون أنهم على دين إبراهيم مع شيوع الوثنية فيهم. ويسقط حجج اليهود والنصارى والعرب بقوله تعالى: **وما كان من المشركين**. وكلهم على نصيب من شرك ظاهر أو خفي.

136-قولوا آمنا بالله...مسلمون.

ثانيا: يلقن الله المؤمنين، بأن يعلنوا في اعتزاز ووثوق كامل: أنهم يعتبرون طريق الهدى طريقا واحدا لا اختلاف فيه، هو الخضوع لله وإسلام الوجه له. فكل ما جاء عن الله نؤمن به، وكل من اختاره الله لإبلاغ رسالته هو محل التصديق والتقدير؛ فكما نحترم نبينا محمدا ﷺ نحترم جميع رسل الله، ونصلي ونسلم عليهم كإبراهيم وإسماعيل أبي العرب وإسحاق جد أسباط بني إسرائيل، ويعقوب (إسرائيل) وكل ما أنزل على البشرية بواسطتهم نؤمن به على أن صلاح الإنسانية باتباعه، وقد أسلمنا وجوهنا وخضعنا لله، وارتبطت قلوبنا به سبحانه وتعلقت أرواحنا بهداه.

137- فإن آمنوا بمثل...السميع العليم.

ثالثا: بعد أن وضح القرآن محتوى الدين الإسلامي في هذه النظرة الشاملة لكل هدايات الله عبر القرون المتطاولة والأحقاب، أكد أن هذا هو طريق الهدى لا طريق غيره، وأن الطوائف الثلاث، يهود ونصارى وعرب، إن آمنوا إيمانا يتساوى مع ما تقرر في الآية السابقة فقد اهتدوا، ولا يضرهم ما كانوا عليه من كفر. وإن أعرضوا فما ذلك إلا لإصرارهم على معاندة الرّسالة الخاتمة فهم لا يبغون إلا مخالفة المسلمين. وقد تمكن الشقاق منهم فلا رجاء في اهتدائهم مادامت قلوبهم في غطاء مقفل لا يتأملون ولا يلينون للحق.

رابعا: عقد ت الطوائف الثلاث عزمها على الكيد للإسلام وتربص الدوائر به والاستعداد لممالأة وعون كل من يبغي بالجماعة سوءا، فطمأن الله نبيه بأن الله يحبط ما يحبكونه من خطط ماكرة وأنه حافظه وناصره، فمهما تَخَفَّوْا في نصب مؤامراتهم فالله يسمع ما يمكرون به، ويعلم ما تنطوي عليه صدورهم، وسيحبط أعمالهم. وهذه السنة من سنن الله، أن الباطل لا يهزم الحق، تعطي للمؤمنين في عصر الرّسالة وما يأتي بعده قوة على المصابرة وأملا في نصر الله ولينصرن الله من ينصر دينه ويلتزم بما شرعه.

138-صبغة الله...ونحن له عابدون.

خامسا: بهذه الصورة الجامعة من وحدة الإيمان بالحق، واحترام رسل الله، والتصديق والعمل بما شرعه، والوثوق بنصر الله، حلت السكينة قلوبهم، وأضاءت وجوههم أنوار الإيمان، وخلصت فعالهم وبواطنهم من الرّياء والنفاق والفساد، هذا لون جديد لون صبغ الله به المؤمنين فوحد صورتهم بهذه الملامح التي ذكرناها، فاختفى كل ما كان يخالف بينهم من أعراق وأنساب وألوان وفقر وثراء. فهي الإنسانية الواحدة متجهة إلى رب واحد تحكمها قيم واحدة وتشريع واحد وإحساس بأخوة دينية جامعة. وهل يوجد في الكون واقعا أو متخيلا صورة أجمل أو أنقى وأكمل من هذه الصورة التي صبغ بها المولى سبحانه البشرية المؤمنة بهداية خاتم المرسلين.

139-قل أتحاجوننا...مخلصون.

سادسا: يخاطب القرآن رسول الله ومن ورائه كل المؤمنين أن يعلنوا في قوة واعتزاز، وأن ينكروا على الكافرين أباطيل حججهم. فليقولوا لهم: أتحاجوننا في حكمة الله من بعثة الرّسل متتابعين، وتنكرون هذا الذي هو عين الحكمة وتدعون أن الله لما بعث رسولا فقد قصر الهداية على ما جاء به في عصره وما يتلوه من

أعصار إلى أبد الآبدين. وهو لا يبعث برسول بعد رسولهم الذي يؤمنون به؟ فيعلمهم أن يعلنوا أن الله ليس رب الإسرائيليين وحدهم ولا رب من يعتقد أن المسيح ابن لله ولكنه رب الناس جميعا، وهذا ما يقتضي أن يكون سبحانه لحكمته يراعي تحول الأعصار والأزمان وتحولات البشرية المتلاحقة فيشرع لهم ما هو مناسب لأوضاعهم فهو رب اليهود راعى ظروفهم ومستواهم وما يصلحهم في عهد موسى وكذلك في عهد عيسى، وكذلك الآن هو رب البشرية راعى ما يصلحها ببعثة محمد ﷺ. وأن ميزة الإسلام هو الإخلاص لله في عبادته وفي قبول ما شرعه وقرره من أمور العبادة أو المعاملات والعلائق بين البشر.

140-أم يقولون إن إبراهيم...وما الله بغافل عما تعملون.

سابعا: من المغالطات التي كان أهل الكتاب يروجونها، أن اليهود كانوا يقولون: إن إبراهيم كان يهوديا وكان النصارى يقولون: إنه كان نصرانيا، وما لهم بذلك من علم، بل هي مبالغات أملاها التعصب فأشاعوها ثم تناقلوها حتى وثقوا بها وما الأهم علماؤهم من أحبار ورهبان بسكوتهم عن تصويب خطئهم استدرارا لضمان بقاء الاستيلاء على عواطفهم وخضوعهم لهم.

يعلن القرآن، ويطلب من المؤمنين أن يعلنوا: أن هذه المغالطة تناقض ما أثبته الله من أن إبراهيم ومن عطف عليه ما كانوا يهودا ولا نصارى، وقد تكرر هذا أكثر من مرة في القرآن. فمن العناد والإصرار على الباطل أن يواصلوا إعلان ما قرر الله خلافه وأقام عليه الحجة كما سيأتي في قوله تعالى **(وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون)** [1]. ويُقَرِّعُ علماءهم بأنه بسكوتهم ومما الأتهم للجهلة المتعصبين يكونون من أشد الناس ظلما بكتمانهم ما عرفوا من الحق وإقرارهم أتباعهم على الضلال، ثم يهددهم بأنهم سيلقون جزاءهم حتما، لأن الله عادل ولا يغيب عن علمه شيء ولا تلحقه غفلة في لحظة من اللحظات فهو الحي القيوم.

141- تلك أمة قد خلت...ولا تسألون عما كانوا يعملون.

ويختم الإطار بنفس الآية التي ابتدأ بها. آية 134

﴿۞ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا

---

[1] سورة آل عمران آية 65

لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ
ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ
لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ
لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ
وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ
ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾
وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ
وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ
ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا
يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ٱلْحَقُّ مِن
رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ
مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ
خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ
مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِى عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَآ
أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ
وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِى
وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

السفهاء: الجَهَلة ضعاف العقول.

ولاهم: صرَفهم.

قبلتهم: الوجهة التي كانوا يتجهون إليها.

الصراط المستقيم: أقرب طريق يصل بواسطته سالكه إلى غايته.

وسطا: خيارا.

ينقلب على عقبيه: يرتد.

لكبيرة: شاقة على النفوس.

ليضيع: ليبطل آثار أعمالكم.

رؤوف: رحيم الرّحمة القوية التي يتبعها دفع المكروه وإزالة الضر.

تقلب وجهك في السماء: تحويل نظرك في جهات السماء.

شطر المسجد الحرام: جهة المسجد الحرام، أو الكعبة باعتبار أنها واقعة في وسط المسجد الحرام (شطره).

الأهواء: جمع هوى وهو الحب الشديد الذي يحجب العقل عن النظر في العواقب.

الممترين: جمع مُمتر، وهو الشاك.

وجهة: ما يجعله الإنسان قصده الذي يتوجه إليه.

الحجة: ما يؤيد به المتكلم رأيه لإلزام مخاطبه به.

الخشية: خوف يقارنه تعظيم.

يزكيكم: التزكية: تطهير النفس من الرّذائل لتنطلق إلى نيل الكمالات.

الحكمة: يعلمهم ما يصان به العقل عن الضلال وعن التأثر بالشبه.

اذكروني: اذكروني بألسنتكم من الذِكر. واستحضروا عظمتي وهو من الذُكر.

بيان المعنى الإجمالي:

اتجه النبي ﷺ والمسلمون بعد الهجرة، أكثر من سنة، في صلاتهم إلى بيت المقدس، ثم أمره الله أن يتحول فيستقبل الكعبة. فطعن المنافقون في هذا الأمر الإلهي، وروّجوا أنه لا يوجد أي مبرر لهذا التحول. رد القرآن عليهم بأن الله هو مالك الكون بجميع جهاته، وأنه يهدي إلى الطريق المستقيم الموصل إلى السلامة والنجاة، وهو الطريق الذي تكون غاية السائر فيه مرضاة رب العالمين. فمن غباء المنافقين الطاعنين تلبيسهم بأن بعض الجهات أفضل من بعض، وقد شاء الله لهذه الأمة الهداية لذلك الطريق. ويصرح القرآن بأن منزلة هذه الأمة عند الله منزلة سامية رفيعة فيقول: على هذا النحو من الكمال جعلناكم أمة أفضل من جميع الأمم، أنتم خيار، لأني قد أعددتكم لتكونوا شهداء على الناس في هذه الدنيا ويوم القيامة، ورسولكم شاهد لكم. وإني تخيرت لكم القبلة التي تتجهون إليها في صلاتكم ،فما شرعته لكم أولا من الاتجاه إلى بيت المقدس وما أمرتكم به من التحول إلى جهة الكعبة، فيه خير لكم بترويضكم على الطاعة، فيظهر من أسلم وجهه لله بالرّضا بكل

ما يبلغه عن الله فيواصل مسيرة الإسلام، وينكشف المنافقون... إنه اختبار كبير لا ينجح فيه إلا من هداه الله لطاعته. والله سبحانه برأفته ورحمته قَبِل ما مضى من صلاتكم متوجهين فيها إلى بيت المقدس كما يقبل صلاتكم إلى قبلتكم الجديدة.

هذا التوجه إلى الكعبة، كان النبي ﷺ لصفاء روحه ينتظر ورود الأمر به. فكان يحول نظره في آفاق السماء ينتظر الوحي المؤكد لما سمت أشواقه إليه، وعين الله تَحُوطُه ورعايته متواصلة لنبيه، فبشره بأنه سيأمره بالاتجاه إلى قبلة تُطمئن نفسه وما تعلقت به مشاعره. وصدر الأمر بأن يتوجه في صلاته إلى المسجد الحرام، كما صدر للمؤمنين في شتى بقاع الأرض أن يتجهوا إلى الكعبة في صلاتهم. ويثبت الله المؤمنين بأن استقبال الكعبة أمر يعلم صدقه علماء أهل الكتاب، وتشكيكهم هو من عملهم على تضليل المؤمنين، ويتهددهم الله بوعيده بأنهم لا يفلتون من قبضته فهو لا تخفى عليه خافية. ويحقق القرآن عناد أهل الكتاب بأنك لو حاولت تحريك عقولهم وقلوبهم بكل الأدلة على أن استقبال الكعبة، هو الحق، ما قبلوا ولا اتبعوا قبلتك (الكعبة) وقد ثَبَّتَكَ ربك فما أنت بتابع وجهتهم. إنهم قد التزموا الخلاف والمكابرة، فشأنهم معك في أمر القبلة هو كشأنهم فيما بينهم، فلا النصارى يأخذون بقبلة اليهود مع أنهم مأمورون باتباع ما جاءت به التوراة، ولا اليهود يأخذين بما هو عند النصارى مع أن عيسى عليه السلام جاء متمما للتوراة. ثم يقول الله لنبيه تيئيسا لأهل الكتاب من العودة إلى استقبال بيت المقدس، بأن هذا التحول نهائي، ولو فرض كما يفرض المحال أن تتبع ما يدعو إليه هواهم الضال من استقبال بيت المقدس، فإنك تكون محشورا في زمرة الظالمين الذين تعدوا حدود الله وغيروا شرعه.

ويثبت الله المؤمنين بإظهار ما طبع عليه أهل الكتاب أنفسهم من العناد، وذلك بتأكيده، أنهم يعرفون معرفة يقينية ،كما يعرف الآباء أبناءهم، أن ما جاءك من ربك هو الحق. وينصف الله أهل الكتاب بأن فريقا منهم يكتمون ما يعلمون ولا يظهرونه، وأن فريقا آخر أدرك صدق الرّسول وآمن به وكان من المسلمين الأخيار. الحق الذي أكرمك الله به هو منزل من ربك الذي تولاك بعنايته. فلا تكونن من الممترين أي الشاكين. والمقصود والله أعلم إيقاظ المسلمين حتى لا تروج عليهم مكائد أهل الكتاب فيداخلهم الشك.

ثم يقرر القرآن حقيقة يدركها الناظرون وإن كانت قد تخفى: أن الناس مختلفون في مقاصدهم وبالتالي في اتجاهاتهم، فبعضهم يُوَفَّقُ لقصد ما هو خير ومنهم من يحرم هذه الهداية فيتجه إلى الشر، ويترتب على هذه الحقيقة تحريضَ المؤمنين أن

يتسابقوا في إدراك الخيرات التي هي كثيرة وميسورة، وهي الفطرة التي فطر الله الناس عليها. ويلفت القرآن نظر المؤمنين إلى حقيقة يغفل عنها كثير من الناس أيضا، وهي صمام الأمان، هذه الحقيقة هي أن كل إنسان سيعود إلى ربه، ويأتيه محملا بما قدم من خير أو شر، إن الله قادر على كل شيء. إن تشريع تحويل القبلة تشريع عام في جميع الأحوال والظروف، يستوي في ذلك المقيم والمسافر، فالواجب على المؤمن حيثما كان أن يجتهد ليتوجه بصلاته إلى الكعبة. فإن هذا التوجه هو الحق الذي يرضى عنه المعبود الذي يعلم ما تقومون به من أعمال ولا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة. يعيد القرآن أمر الرّسول بالتوجه إلى الكعبة المشرفة عند الصلاة ليرتب عليه أن المؤمنين هم أيضا مطالبون ببذل الجهد في كل مكان، في الحضر والسفر بالتوجه إلى القبلة في الصلاة. إن هذه العناية بأمر القبلة وإنزال هذا التشريع الواضح المؤكد يبطل ما يحتج به الكفرة ليصدوكم عن القبلة، فأمر الله واضح، وإذا تحقق ورود الأمر من الله واضحا بينا، فكل ما يرد عليكم من حجج الكافرين لا قيمة له إذ هي مغالطات لا حجج. والذين تمكن الظلم من نفوسهم بتعديهم على أوامر الله وإنكار حقائق وحيه، هم ضعاف مهزومون، فلا تخافوهم وامضوا على الالتزام بما أمرتكم، واخشوا التفريط فيه، أو عدم العناية بتحقيقه، فقد أردت أن أكمل عليكم نعمتي بهذا التشريع. إنه بذلك يرجى أن تفوزوا بالهداية إلى ما يحقق قبول أعمالكم.

شبه القرآن نعمة الهداية بالتوجه إلى الكعبة في الصلاة بالنعمة الكبرى التي من الله بها على المؤمنين ببعثه محمدا ﷺ مقيما فيهم، يبلغهم ما ينزله عليه ربه من الآيات البينات، ويسمو بهم مطهرا لهم من كل ما ينحرف بعقولهم وأرواحهم إلى مهاوي الرّذيلة والفساد، ويعلمهم الكتاب المنزل فيحفظون عنه لفظه، ويكشف لهم أسراره، وما جاء فيه من تشريع هاد، ويعلمهم تعليما يحميهم من الخطأ والضلال والوقوع في حبائل الشبَه. ويرشد القرآن المؤمنين بعد تفصيل هذه النعم المتتابعة: أن عليهم أن يذكروا ربهم باليقظة لنعمه وكمال فضله، وأن يعبروا عن ذلك بألسنتهم، وأن يشكروه شكر المعترف بالفضل الرّاغب في المزيد. وليحذروا أن يجحدوا نعمه، أو أن يغفلوا عنها، أو أن يستولي على عقولهم تواصلها فينسبوها لأنفسهم.

بيان المعنى العام:

142-سيقول السفهاء...إلى صراط مستقيم.

سجل القرآن مصابرة الرّسول ﷺ والسابقين من المؤمنين، ومعاناتهم في المدينة المنورة من مكائد المنافقين الذين كان أغلبهم من اليهود أو من المتأثرين بهم. فقد

كانوا يترصدون ما يتتابع من وحي مميز للإسلام عن بقية الأديان. وكلما نزل تشريع أسرعوا إلى التشكيك في صلاحه، أو إلى ادعاء أنه لم يأت بجديد. ومعظم المسلمين كانوا ممن رسخ الإيمان في قلوبهم، وبعضهم دخل في الإسلام حديثا، وهؤلاء ربما يروج عليهم مكر المنافقين. وقد حدث في السنة الثانية من الهجرة أمر عظيم هز المجتمع المدني هزة كبرى، ذلك أن النبي ﷺ أمره ربه بأن يتوجه بصلاته إلى الكعبة المشرفة، بعد أن كان يتجه إلى الشام إلى بيت المقدس، أين أقام سليمان عليه السلام دولته، وأين ولد السيد المسيح عليه السلام. فكَبُر على أهل الكتاب هذا التحول بما يدل عليه من استقلال المسلمين عنهم استقلالا تاما. فأخذوا في نشر الأراجيف، وبذر الشكوك في صحة هذا التوجه. ولذا افتتح القرآن ما يتعلق بهذا الأمر بتثبيت المؤمنين، والرّد على الكائدين فقال تعالى: **سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها** ؟ السفهاء من الناس هم المنافقون كما يدل عليه قوله في فاتحة سورة البقرة **(ومن الناس من يقول آمنا)**[1] وقوله **(ألا إنهم هم السفهاء)**[2] . حركوا المؤمنين لرفض تشريع استقبال الكعبة بإثارة السؤال التالي: ما الذي حدث حتى يترك المسلمون القبلة التي كانوا عليها ؟ وهو سؤال مبطن فيه أنهم ينكرون وجود أيِ مصلحة في ذلك، وبالتالي فهم يطعنون في صدق النبوة. وأعلن القرآن عن حقيقة تبرز غباءهم فقال تعالى: قل يا محمد: وليجسب أيضا بذلك المسلمون لرد هذا المطعن: إن الجهات جميعها شرقها وغربها مملوكة لله وحده. وهو الذي يشرع ما يعلم فيه المصلحة التي يرضى عنها للتقرب لعلي ذاته، فيهديهم لها ليفوزوا برضوانه. وليس ذلك لأمر ذاتي وإنما بجعل إلهي.

143- وكذلك جعلناكم أمة وسطا...لرؤوف رحيم.

يقرن القرآن هداية المسلمين للتوجه إلى الكعبة: البيت الذي بناه إبراهيم بوحي من ربه كما فصل ذلك في الآيات 125←128 من سورة البقرة. يقرن ذلك بإبراز عناية أخرى خص بها أمة الإسلام فجعلها أمة وسطا، عزيزة، خيارا. كواسطة العقد لأنفس جوهرة فيه، في أخلاقها وموقفها من الكون والحياة والمخالف والموافق، وهي بعيدة عن التطرف والتفريط، فلا المسلمون موغلون في التشديد على أنفسهم، ولا التشريع الذي كلفوا بتطبيقه عسير تطبيقه، وما جعل عليكم في الدين من حرج. كما أنها ليست منحلة متراخية العزيمة تتشرب كل المؤثرات،

---

[1] سورة البقرة ، آية 8

[2] سورة البقرة ،آية 13

وتفقد ذاتيتها وخصائصها مع تقلبات الظروف والأحوال. جعل منها أمة لا تترك الدنيا وتعتبرها رجسا والكمال في عدم الالتفات إليها، ولا تقبل عليها إقبالا يوهن الطاقات الرّوحية، وبالتالي تستولي عليها المادة ومباهج الحياة الدنيا؛ بل ينعدم التناقض بين المادة والرّوح الذي حير كثيرا من الناس فتم بينهما التكامل بالإسلام فكانت به أمة وسطا. إنهم بهذه المنزلة السامية قد تهيأوا ليكونوا شهداء على الناس بتبليغ الإسلام وتوضيح أحكامه ثم الشهادة عليهم تبعا لذلك بأنهم مؤمنون أو كفار. وكذلك يوم القيامة، هم يشهدون للرسل بالتبليغ يوم ينكر أقوامهم. أخرج البخاري بسنده إلى أبي سعيد الخدريﷺ عنه قال: قال رسول الله ﷺ: يدعى نوح يوم القيامة فيقول: لبيك وسعديك يارب ، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم، فيقال لأمته: هل بلغكم ؟ فيقولون: ما أتانا من نذير، فيقول: من يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فيشهدون أنه قد بلغ، ويكون الرّسول عليكم شهيدا. فذلك قوله ﷻ: **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرّسول عليكم شهيدا-** والوسط العدل[1]. وإن ما شرعته لكم من الاتجاه قبل ذلك إلى بيت المقدس، ثم ما شرعته لكم من التحول إلى الكعبة فيه خير لكم، بترويضكم على الطاعة، وتمحيص المؤمنين المسارعين للامتثال وقبول ما ينزل عليهم من ربهم، وكشف من في قلوبهم مرض الرّاجعين إلى الكفر بأدنى سبب. وينوه الله بإسراع المؤمنين بالاستجابة لأوامر الله، فيعلن أن ذلك ليس بالأمر الهين، إنه بعد التوجه إلى بيت المقدس أكثر من سنة ثم في لحظة يأتي الأمر بالتحول فتبرز الطاعة الرّاضية، وقبول ما جاء عن الله، هو أمر ينبئ عن عمق الإيمان والخضوع للرحمن، حلول الهداية في القلوب وخلوص الأرواح من الشوائب. والله قد كتب ثواب صلواتكم التي توجهتم بها إلى بيت المقدس فلا يذهب جزاء أعمالكم. ويؤكد ذلك بأن الله رؤوف والرّأفة الرّحمة البليغة التي تختص بالمَرْضِيّ عنهم وهو رحيم أيضا رحمته التي وسعت كل شيء.

144-قدنرى تقلب وجهك في السماء...يعملون.

كان النبي ﷺ لصفاء روحه، وإشراقها اللامع متهيئا بإحساس خاص أن الله سينزل عليه أمره بالتحول إلى الكعبة، وكان يقلب نظره في السماء لعل الوحي سيأتيه قريبا بذلك. وفي اللحظة التي اختارها الله بحكمته، نزل عليه الأمر بأن يتوجه إلى الكعبة التي هي في وسط (شطر) المسجد الحرام. ويكرم أمته بخطابها بأن يتوجهوا شطر

[1] فتح الباري ج9 ص39/238

المسجد الحرام في الحضر والسفر في صلاتهم. إن هذا التحول يعلم أهل الكتاب من اليهود والنصارى صدقه، وأنه هو الحق المنزل من رب العالمين. ولكنهم يواصلون تضليلهم ومحاولة صد المؤمنين عن الإيمان. وخبثهم هذا مسجل عليهم تسجيلا لا يفلتون من عقابه.

145- ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب...إذا لمن الظالمين.

إنهم وطنوا أنفسهم على العناد ومقاومة الإسلام، لا تنفع فيهم الحجج، ولا ينصاعون لواضح الأدلة. لو جمعت لهم كل الأدلة البينة، ما تبعوا قبلتك. ويصرح بما يقتضي يأسهم من رجوع المسلمين إلى استقبال بيت المقدس **(وما أنت بتابع قبلتهم)** وهذا شأن أهل الكتاب فيما بينهم فما اتبع اليهود قبلة النصارى ولا اتبع النصارى قبلة اليهود.

-ويحذر الله المؤمنين من أن يروج عليهم ما يشكك به المنافقون، فإن أمر القبلة ليس أمرا مما يتسامح فيه أو يقبل الاجتهاد في المقصود منه، وعلى سبيل الفرض كما يفرض المحال، أن الرّسول ﷺ لو اتبع ما تذهب إليه عواطف أهل الكتاب بعد ما نزل عليه من العلم اليقيني فإنه يكون واحدا منهم من زمرة الظالمين. والمقصود والله أعلم شدة تحذير المؤمنين من التراخي في أمر القبلة.

146-الذين آتيناهم الكتاب...وهم يعلمون.

ثم بين القرآن إدراك أهل الكتاب لأمر التوجه إلى الكعبة فأكد أنهم يعرفون أحقية التوجه للكعبة معرفة بلغت من الوضوح أنها معرفة تساوي معرفة الوالدين أبناءهم. كما أنصف في الحكم عليهم فإن انصياعهم إلى ما تقتضيه هذه المعرفة اليقينية كانوا فيه على قسمين: فريق وطنوا أنفسهم على كتمان ما يعرفون، وقسم أشرقت نفسه للحق الوارد على لسان رسول الله ﷺ فأعلن إيمانه وانضم إلى حزب المؤمنين.

147- الحق من ربك فلا تكونن من الممترين.

ويصدع القرآن تبعا لذلك بأن ما جاء به هو الحق فلا تجعل للشك على قلبك سبيلا. وإن كان الخطاب للنبي ﷺ، فإن المراد والله أعلم، هم أمته حتى يحسوا بخطر الشك.

148- ولكل وجهة هو موليها...على كل شيء قدير.

ويذكر القرآن بحقيقة من الحقائق التي قد يغفل عنها: أن الله لم يخلق البشر نمطا واحدا كما تقذف به المصانع الصماء، ولكنهم مختلفون. ومن قدرة الخلاق العليم أن

ميز بينهم فلا يوجد إنسان نسخة كاملة من سلفه أو من جنسه فضلا عن غيره من الأجناس. فكل فرد له وجهة هو متجه إليها تبعا لما اقتنع به واختاره. ويرشد الله المؤمنين أن يرفعوا حجب الغفلة فينتبهوا إلى المآلات ويختاروا الطرق التي تبلغهم الخيرات التي لا مطمع لبلوغها إلا برضا الله، إن الله يجمع البشر جميعا من كان مقبلا عليه فيزيده قربا وكرامة ومن كان معرضا عنه فيسلط عليه عذابه ولا يفلت أي فرد من قبضة الله إنه القادر على كل شيء.

149 -150: ومن حيث خرجت...ولعلكم تهتدون.

ويزيد أمر التوجه للكعبة تأكيدا فيأمر النبي ﷺ وكذلك أمته، أن يرعوا هذا الاستقبال في صلواتهم بالحضر والسفر، هي قبلة تجمع من كان شرق الكعبة أو غربها أو شمالها أو جنوبها. إن ما يحتج به المنافقون وأهل الكتاب والمشركون هي حجج مدخولة لا قيمة لها فإياكم أن تتأثروا بها. إن أمر الله في استقبال الكعبة واضح لا مجال فيه للتأويل، وإذا أمر الله فليس هناك إلا الطاعة والتنفيذ. فسقط كل ما يحتج به المشككون والمعاندون. لكن الظالمين قد تعدوا أقدارهم واعترضوا على الحق، وتعصبوا، فلا يزعجكم تمالؤهم على الباطل ولتكن ثقتكم في الله الثقة التي تكسب قلوبكم القوة والثبات والشجاعة في الرّأي فلا تخافوهم واخشوني خشية توجب زيادة القرب مني بامتثال أوامري. فهذا هو السبيل الذي تبلغون به ما تبحثون عنه، وهو الاهتداء إلى الطريق الذي يرضيني. لقد أردت أن أتمم عليكم نعمتي، وتمام النعمة في الدنيا بما يحصل في نفس المؤمن من الطمأنينة والرّضا وفي الآخرة بالفوز بالجنة.

151- كما أرسلنا فيكم رسولا...تعلمون.

ويطمئن القرآن المؤمنين بتذكيرهم بنعمة عظيمة أخرى ينظر بها منّةً عليهم بالتوجه إلى القبلة، هي أن الله بعث فيهم رسوله يعيش بين أظهرهم، ويرقب أحوالهم، ويجمع كلمتهم، ويتلو عليهم ما ينزله الله عليه من آيات القرآن ، ويطهر نفوسهم من الشرك والفساد والرّذيلة، ويسمو بها فتتصل بالله تناجيه وهي مطهرة من الأدناس فارقت الجانب الطيني المظلم وأشرقت بأنوار الحق. ويعلمكم الكتاب تعليما يرفع ما أشكل عليكم وينهج لكم طريقة الإستقامة عليه ظاهرا وباطنا، ويعلمكم ما يحصسن نفوسكم من الوقوع في الخطأ والضلال، أو أن تفعل فيكم الشبه الحيرة فتقودكم في مسارب الضلال والظلام. إنها الحكمة التي ينزلها الله في القلوب فتضيء لها مسارب الحق وتحميها من الزيف. إنها مستويات ما كانت تخطر ببالكم قبل ذلك.

152-فاذكروني أذكركم...ولا تكفرون.

أتم الله علينا نعمته وأرسل فينا رسوله فأنقذنا من الضلال وهدانا إلى ما يرضيه علينا وإلى ما يفوزنا يوم القيامة. كما شرع لنا ما يصلح كل فرد في ذاته وفي علاقاته الاجتماعية وما يقيم الأمة على أصول تكسبها العزة. وذكر الله يكون باللسان ليكون اللسان رطبا بالتسبيح والتحميد والتمجيد والصلاة على رسوله وتلاوة القرآن. ويكون الذكر بالقلب باستحضار المؤمن في كل لحظة ومع كل فعل أن الله يرقبه ليحاسبه وهي البوصلة التي تجعل المؤمن ملتزما الصراط المستقيم طريق النجاة في الدنيا والآخرة. وليكن المؤمن شاكرا لنعم الله عليه النعم التي تتابع ولا تحد. وليحذر كفرانها فينسبها لنفسه ولذكائه أو للظروف المواتية فالأسباب لا ننكرها ولكن المؤمن يوقن ويتذكر أنه سبحانه هو خالق الأسباب وهو الذي يجعل الأسباب لا يصحبها ما يعطل تأثيرها. قال تعالى: **(وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)**[1].

ويرشد الله المؤمنين بعد أن فصل لهم النعم السابقة، التي تتابعت عليهم بفضل من الرّحمن الرّحيم، أن عليهم أن يذكروا نعم الله ويتأملوا فيها وأن تكون حاضرة في أذهانهم وقلوبهم وأرواحهم لا يغفلون عنها. إن تذكر نعم الله يفرغ في النفس نعيما لا يدانيه نعيم آخر، فأية كرامة وأي نعيم أرقى من شعور الإنسان أن رب العزة قد اعتنى به فأكرمه ونعمه وأحبه حبا مؤكدا. والذكر التأملي يساعد عليه الذكر اللساني. فقد ختم الإمام البخاري صحيحه بالحديث الذي رواه بسنده إلى أبي هريرة ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: كلمتان حبيبتان إلى الرّحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم[2] وجزاء هذا الذكر القلبي واللساني صرح القرآن بجزائه بوعده الذي لا يخلف: أنه سيذكر الذاكرين، وذكره يتبعه مواصلة العناية بهم بما يواصل عليهم من أمداده ورضوانه. ومع الذكر يرشد المؤمنين إلى الشكر بصرف نعم الله فيما خلقت من أجله لا في المعصية ولا فيما يضاد النعمة، أو الغفلة عن فضل المنعم ﷻ فيستولي على العقول تواصل الخير فينسبوا النعم إلى مهارتهم وذكائهم، وحسن تأتيهم للأمور. إن الكفر يتبعه زوال النعمة، والشكر يتبعه نموها وثوابها.

---

[1] سورة إبراهيم آية 7

[2] فتح الباري ج 17 ص427/426

*** التوجه إلى القبلة أول تشريع تفصيلي في القرآن. وقد أشرنا إلى مقدار الاهتمام به. والتوجه إلى عين الكعبة لمن كان مُمَكَّنًا من رؤيتها فَرْضٌ تبطل الصلاة بالانحراف عنها، وبعض المصلين في المسجد الحرام قد يغفلون فيكون موقفهم إلى غير سمت الكعبة مما يترتب عليه بطلان صلاتهم. وأما من كان بعيدا عنها لا يتمكن من تحقق الاتجاه إلى عين الكعبة فالمطلوب منه الاجتهاد وما أداه إليه اجتهاده يكفيه في تحقق الامتثال.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُواْ
لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُم
بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ
ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾
أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

بيان معنى الألفاظ:

في سبيل الله: في الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا.

لنبلونكم: نمتحنكم.

الخوف: الخوف من مباغتة أعداء الإسلام وحربهم.

الجوع: الأصل أن يطلق على الجدب، وتوسع فيه فيطلق على الحاجة الشديدة للأكل.

ونقص من الأموال والأنفس والثمرات: ما يصيب هذه الثلاث أو بعضها، بما تتعرض له من المصائب، فتزيل بعضها.

صلوات: ضروب من التطهير والمغفرة والتكريم.

بيان المعنى الإجمالي:

نداء للمؤمنين وإيقاظ لهم بأنهم مكلفون برسالة إصلاح في نفوسهم وإصلاح للبشرية وإصلاح لكوكب الأرض وما يحويه. ولنجاحهم في هذه المهمة عليهم أن يستعينوا بالصبر وعدم العجلة وأن يعملوا على تقوية أنفسهم وتزكيتها بالمحافظة على الصلاة. وذلك أن الله معين للصابرين. إن الإيمان لا يمنع من جريان سنن الكون على جميع البشر. فسيختبرهم ربهم في صدقهم بما يلاقونه في مسيرتهم من مصاعب كالخوف من غدر الأعداء ومكرهم، ونقص في الأموال والأنفس والثمار، بالحروب والجوائح ونحو ذلك. ويأمر الله نبيه أن يبشر الصابرين الصبر الإيجابي، الذي يكون من آثاره أن يستشعر المصاب بأنه مملوك لله، وأنه يعود إلى

خالقه في السراء والضراء. إن الصابرين الذين يستشعرون هذه المعاني ويصرحون بقولهم: إنا لله وإنا إليه راجعون، تتصب عليهم من خزائن الفضل الإلهي تزكية لنفوسهم وجبر لكسرهم، ورحمة تمسح جراحهم. وهم بذلك يستحقون شرف وصفهم من ربهم بأنهم الذين فازوا بالهداية لطريق الحق.

بيان المعنى العام:

153- يا أيها الذين آمنوا استعينوا...مع الصابرين.

ينادي القرآن المؤمنين نداء يوقظهم ويحرك عقولهم ليكونوا دائما مستشعرين مهمتهم في هذا الكون، إنها مهمة شرفهم الله بها، إنها مهمة الصلاح والطاعة لله وتنفيذ أوامره. وهي مسيرة طويلة يلاقي صاحبها الصعاب والمعوقات. والإنسان ضعيف فيرشد الله المؤمنين أن عليهم أن يطلبوا مدد القوة بأمرين:

أولا: الصبر الإيجابي وهو غير صبر الاستسلام والانطواء على الذات، بل هو العزيمة التي تُضْعِفُ قدرات المعوقات ومضاء المثبطات، فيعود المؤمن على خطته بالمراجعة وسد الثغرات التي كانت منها مداخل الضعف، وأن يصرف سنن الخالق في الفوز أو الهزيمة تصريفا يكون به فيما يستقبله أشد مضاء وأبلغ اقتدارا.

ثانيا: مع هذه الشحنة للعزيمة لتمضي في سبيلها غير واهنة، يقرن القرآن الصبر بتحريك القوة الرّوحية، بأداء الصلاة على وجهها حين يتصل المصلي بربه فيسمو على الكون كله ويجد نفسه في صلة مباشرة بخالق الكون وما يحويه، فيتمشى في قواه الرّوحية والعضلية مدد يستسهل به الصعاب، ويفتح له المغالق، ويؤكد صموده وعزته. روى الإمام أحمد أنه ﷺ كان إذا حزبه (اشتد) أمر فزع إلى الصلاة. ويُقِرّ القرآن قاعدة من قواعد سنن الله في الخلق: أنه يؤيد الصابرين فيكون معهم مساعدا ومقويا. ويظهر اتصال الآية بما سبق من أمر القبلة بحث المؤمنين على الصبر على الحق الذي جاءهم من ربهم، وأن يواظبوا على الصلاة التي من أركانها استقبال الكعبة. وأن الله مع المؤمنين سيظهر دين الإسلام وتتحلق حول الكعبة دوائر تحيط بكوكب الأرض في كل لحظة من لحظات الزمن.

154-ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله...ولكن لا تشعرون.

و لما ذكر الصبر وما ينتظره الصابرون، ناسب أن يصرح القرآن بالمنزلة العليا من الصبر وهي صبر الجهاد، فمن يصبر على المضي في الذب عن عزة الإسلام حتى يستشهد ويصبر على القتال حتى يظفر بإحدى الحسنيين فيلقى ربه ودماؤه تشهد بصدقه لتكون كلمة الله هي العليا، إن هؤلاء الشهداء يثبت القرآن خطأ من يظن أنهم بمفارقة الرّوح الجسد والقبضة من الطين قد ماتوا، بل هم ينعمون بحياة

روحية لا نستطيع نحن إدراك نعيمها. إن الشهيد قد سما عند ربه إلى منزلة كريمة، ومن كرامته أنه لا يغسل ولا يصلى عليه، لأن الله ضمن بتزكيته له الطهارة والغفران.

155-156: ولنبلونكم...إليه راجعون.

إن بعض المؤمنين يظنون أنهم بإيمانهم قد حققوا لأنفسهم ولممتلكاتهم حماية من كل الأضرار، وهذا خطأ كبير في التصور، فإن سنن الله في الخلق تجري على ما قدره لها سبحانه. فالله سبحانه يختبر صدق المؤمن ويمتحنه بما يسلط عليه من مكاره فيتعرض للخوف من مباغتة الأعداء، والتهديد بالاعتداء من الظلمة والجبابرة والكفرة، وتأتي سني الجدب التي تأكل كل ما تقدمها من خيرات، وقد لا يجد المؤمن ما يجيب نداء بطنه وقد خوت من الطعام، وقد تصيب الجوائح أمواله بالضياع أو الفساد أو النقص، وكل نفس أو عزيز من الأصول والفروع معرض للموت. هذه سنن كونية تجري على البشر مؤمنهم وكافرهم على من يصبر وعلى من يجزع. يمتحنون جميعا فمن يفوز في الامتحان؟ يبشر الله الصابرين بأنهم هم الذين يفوزون في هذا الامتحان. والصابرون هم الذين إذا أصابتهم مصيبة لم تستول عليهم فتغطي إيمانهم أو عقولهم. بل يفزعون عند هول المصاب إلى ربهم فزعا يُجري في أرواحهم ثقة في الله واعترافا بأن ما ذهب ليس ملكا لهم، بل إنهم وما يملكون الكل ملك لله، وأنه لا اعتراض على المالك عندما يقضي باستعادة ملكه متى أراد، فهو الله العزيز الحكيم، ما ظلم فيما فعل، ورحمته تبقى. هي الباب الفسيح الذي يأتي منه الرَّوْحُ إلى القلوب المكلومة. إن هذا التذكر ثم التصريح به **(إنا لله وإنا إليه راجعون)** يعقبه ما وعد الله به أن الله يرحمهم ويزكيهم ويجعل لهم من كربتهم فرجا ومخرجا. ويفوزون بأنهم من القوم المهتدين للطريق المستقيم.

۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

الصفا: ربوة يبدأ منها الساعي أشواط السعي.

المروة: ربوة ينتهي إليها الساعي في كل شوط.

شعائر الله: جمع شعيرة معلم على موضع العبادة في الحج والعمرة.

حج: الحج أصله القصد، وغلب في قصد المؤمن البيت الحرام للقيام بالمناسك.

اعتمر: زار، وغَلبَ في قصد البيت الحرام للقيام بالمناسك المخصوصة.

الجناح: الإثم.

يطوف: يصل إلى الصفا ثم يدور قاصدا المروة وهكذا.

تطوع: فعل طاعة، وتطلق بمعنى تبرع.

شاكر عليم: يبذل الثواب لمن صلحت نيته التي لا تخفى عليه.

يكتمون: لا يخبرون بما ينبغي الإعلام به.

البينات: ما أنزله الله من التشريع الواضح، وفصله من أمر العقيدة ومنها الإيمان بمحمد ﷺ.

الكتاب: التوراة والإنجيل.

يلعنهم: يبعدهم من الرّحمة مع إذلال.

أصلحوا: في أقوالهم وأفعالهم.

ينظرون: يؤخرون.

بيان المعنى الإجمالي:

شعر الأنصار بالحرج من السعي بين الصفا والمروة لأن الجاهليين نصبوا على كل منهما صنما يتمسحون به، فنفى الله هذا الحرج عن الساعين بينهما في الحج والعمرة. وعقبه بقاعدة عامة أن كل من تطوع بفعل الخير فإن الله يثيبه حسب قصده الذي لا يخفى عليه. وتوعد الله من يكتم ما أمر به من التعريف بآياته التي أنزلها بينة واضحة تهدي البشرية للخير، توعده بأنه سيبعده من رحمته ويذله ويهينه. وهو بذلك عدو للصالحين فيتوجهون إلى الله بأن يلعنه. ويفتح الله باب الرّجاء لمن أقلع عن الكتمان وتاب وأصلح ما أفسده، فنشر ما يعلمه من الحق بأن الله يتوب عليه. من مظاهر الكمال الإلهي أن الله، مع كثرة تجاوز البشر الحدود

ووقوعهم في الخطيئة، فإنه يقبل توبة التائبين. فسمي التواب لذلك وهو الرّحيم بعباده.

بيان المعنى العام:

158- إن الصفا والمروة...شاكر عليم.

في الآيات السابقة صور القرآن الهزة الكبرى التي حصلت عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وما ثَبّتَ به المسلمين. وقد حدث أمر شبيه لذلك، فإن النبي ﷺ لما بين مناسك الحج والعمرة ،التي منها السعي بين الصفا والمروة ، وجد بعض من المسلمين حرجا في القيام بهذا الركن. ذلك أنه قد نصب في الجاهلية على الصفا صنم هو إساف، ونصب على المروة صنم اسمه: نائلة. وكان الساعون يتمسحون بهما، ويعتقدون أن السعي هو إجلال لهما. فبينت هذه الآية أن الصفا والمروة من المواضع التي عينها الله ليقوم المحرم فيما بينهما بعبادة السعي، ولذا فإنه لا حرج على الساعي بينهما بما التصق بذلك في عرف الجاهلية الملحدة، إذ المؤمن يسعى بينهما باعتبارهما من المواضع التي حددها الله لأداء عبادة مخصوصة وخالصة لوجهه، فهذا هو الرّابط بين آيات تحويل القبلة. وهذه الآية، وإن كان وقت نزول هذه الآية قد تأخر عن وقت تحويل القبلة، فالجامع بينهما أن القرآن وطن قلوب المؤمنين على قبول التشريعين . ونَفْيُ الجناح معناه نفي الإثم الذي توهمه بعضهم باعتبار أن الإسلام هدم الشرك وما يتصل به، وما يحيي طرائقه في العبادة. فدقق، أن نصب الأصنام والتمسح بها هو من الشرك المهزوم، وأن هذين المكانين قد شرع الله الطواف بهما سبعة أشواط للتوجه إليه بالعبادة، وهو من الأسرار التي شرعها للبشرية ولا يعلم خصائصها إلا الله، والمظهر الأول في إصلاح النفس بذلك هو الطاعة لله وتطبيق ما شرعه على النحو الذي شرعه.
ثم أكد هذا المعنى بتقرير قاعدة عامة: أن من تطوع فقام بفعل خير، فإن الله يثيب صاحبه على حسن قصده وصلاح فعله، إن ربنا يشكر للصالحين أعمالهم بتحقيق المثوبة والجزاء عنها، ولا يخفى عنه ما يصدر عن أي إنسان، لا عمله الظاهر، ولا نيته الباطنة وقصده.

159- إن الذين يكتمون ما أنزلنا...ويلعنهم اللاعنون.

إن تشريع الله يجب أن يبلغ ولا يكتم. كان التبليغ عن الله مهمة الأنبياء والمرسلين، ثم هو مهمة العلماء، فإن الله لما فتح على بصائرهم ويسر لهم تلقي العلم والتفقّه فيه ، فإن واجبهم أن يبلغوا ما يسره الله لهم من الهدى. والعالم يحرم عليه أن يكتم ما الناس في حاجة إلى معرفته من الحق في العقيدة ووحي الله. وكذلك ما وصل إليه

من التشريع الإلهي سواء أكان مستندا إلى دليل منصوص من الكتاب أو السنة أو كان حصيلة اجتهاده، وعلى العالم أن ينظر في مآلات اجتهاده وما يترتب عليها من صلاح أو فساد. وكِتْمَانُ ما يفضي إلى مفسدة واجب، كما هو حال بعض الظلمة الذين يصرفون النص بما يهدم الإسلام أو يظلم العباد، فقد كان بعض الحكام يُعد لتحويل مسلمي بلده عن صوم شهر رمضان. فلقن ما ورد عن رسول الله ﷺ أنه خاطب الجيوش التي كانت معه قاصدة فتح مكة في رمضان وقال لهم: أفطروا لتقووا على عدوكم. فاتخذه حجة لصرف المسلمين عن الصوم، وقاس جهاد الناس في الحياة لتحصيل أرزاقهم على جهاد الحرب وقطع مفاوز الصحراء. وكما بلغ الحسن البصري أن الحجاج طلب من أنس بن مالك أن يحدثه بأشد عقوبة عاقب بها النبي ﷺ فحدثه بحديث العرنيين، فقال الحسن: وددت أنه لم يحدثه، لما عرف به الحجاج من الإسراع إلى سفك الدماء. والعالم إذا انفرد بمعرفة تشريع فالواجب عليه عينيا أن يبين ما يعلمه لطالبه. وإن تعدد العلماء بذلك فهو واجب عليهم وجوبا كفائيا، من قام به أجر، ولو لم يقم أحد منهم أثموا جميعا. وأشنع أنواع الكتمان ما فعله أحبار يهود وعلماء النصارى من كتمان ما سطر في كتبهم من أن عليهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن ينصروه. وجزاء الكتمان مصرح به في الآية: هو أن الله يطردهم من رحمته، ويخزيهم، ويظهر ذلهم وهوانهم. كما يلعنهم الناس لأنهم ظلموهم بكتمانهم ما يعلمون، فعملوا بكتمانهم ذلك على بقائهم في الضلال.

160-إلا الذين تابوا...وأنا التواب الرّحيم.

وشأن القرآن أن يعرف دوما بسعة الرّحمة الإلهية، وأن الله يحسب من المذنبين أن يعودوا إلى الخير والهدى، وأن يقلعوا عن فسادهم، فيبشر الذين يتوبون ويظهرون ما عرفوه من الحق ومن الأدلة البينة عليه، بأنه يتوب عليهم ويطهر ما علق بهم من قذارة الكتمان فالذين تاب الله عليهم وقبل توبتهم لا يحصون عدا وهو أرحم الرّاحمين لا تضيق رحمته بكثرة التائبين ولا بجيوش المستغيثين.

161-162:إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار...ولاهم ينظرون.

وكما استحق اللعنة من كتم العلم من أهل الكتاب وضلل أتباعه من أهل ديانته، فكذلك صرح القرآن بلعنة الكافرين المشركين الذين أشركوا بالله وماتوا على كفرهم. وبما أن الشرك أعظم أنواع الظلم، وأخس ما يمكن أن ينحدر إليه الإنسان عرفنا الله بأن اللعنة تحل عليهم من الله ﷻ ومن الملائكة ومن الناس الذين

يشمئزون من الشرك. وأنهم خالدون في جهنم في عذاب متواصل لا يجدون لحظة يخفف عنهم مقاساة آلامه ولا يؤخر نزول العذاب بهم.

وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

بيان معنى الألفاظ:

اختلاف الليل والنهار: تعاقبهما.

الفلك: السفن.

بث: فرق.

دابة: كل أنواع الحيوانات المتحركة.

السماوات: جمع سماء ما يرى أنه يعلو الكواكب ويحيط بها.

الند: المُساوي، والمماثل.

الحب: ميل النفس لما تستحسنه.

التبرؤ: تكلف البراءة من الأمر الذي من شأنه أنه مضر.

تقطعت: الانقطاع الشديد.

الأسباب: جمع سبب وأصله الحبل الذي يرتقى به إلى ما هو عال من سطح أو نخلة... كمن مد حبلا ليرقى به فتقطع قبل بلوغ غايته.

الكَرَّة: الرّجعة إلى المحل الذي كان فيه الرّاجع، والمراد به في الآية الرّجوع إلى الدنيا.

حسرات: جمع حسرة وهي الحزن المقرون بندم.

بيان المعنى الإجمالي:

خطاب للمؤمنين يحدد ما يجب أن تكون عليه العقيدة الصحيحة، فيقرر أن الله واحد لا مثيل له ولا شبيه ولا مشارك، وأنه واحد لا يتصور مركبا من أجزاء، وكل من نسبت إليه الألوهية، غير الله، هو إله زائف باطل ليس له من الألوهية أي معنى ولا صلة له بها بأي سبب. هو الرّحمن بعباده العظيم الرّحمة تقوم الدلائل على تفرده بالخلق من كتاب الكون: في النظام والإبداع الذي قام عليه خلق السماوات والأرض. وفي التكامل والتواصل بينهما. وفيما يشاهد كل يوم من تعاقب الليل والنهار، يخلف هذا ذاك، ويخلف ذاك هذا، في نظام مضبوط بحساب هو أدق حساب. وفيما هدى له الإنسان من تسخير البحر للتواصل بين الأقطار بواسطة السفن التي تحمل ما ينفع الناس، وبها يتم التبادل التجاري. وفي الأمطار التي تنزل من السماء فتتمشى مياهها العذبة في الأرض القاحلة الميتة فتحيي، وتخرج من صنوف الخيرات للناس والحيوان غذاء ومتاعا. وفي حركات الرّياح في اتجاهات مختلفة، الرّياح التي تصفي الجو وتلقح زهور الثمار، ويرتبط بحركتها تلك، نتائج جد مفيدة للحياة. وفي السحاب الخاضع للتقدير في وضعه في الجو، بين السماء والأرض ومسيره ونزول المياه منه. كل هذه الصفحات من كتاب الكون تهديك إلى أنه لو لم يكن الله واحدا لما سارت على هذا النظام المحكم الذي تجري قوانينه على طريقة واحدة يكشف العقل البشري عن بعضها كلما تقدم في ميادين سبر الحياة والتعمق في دراستها. ومع هذه الأدلة الساطعة فإن بعض الناس تعمى بصائرهم عنها ويرفعون بهواهم آلهة يحبونهم ويقدسونهم، كما يحب المؤمنون ربهم، في الظاهر، وإن كان حب المؤمنين لله المستند للأدلة اليقينية والمبني على النظر العقلي لا يدانيه حب الكافرين لأربابهم الذين اتخذوهم آلهة من دون الله.

ويعرض القرآن مشهد هؤلاء الظالمين لأنفسهم بالشرك، الظالمين لمن عبدوهم، الظالمين لمن أتى بعدهم فقلدهم، كأنك يا محمد تراه رأي العين يوم القيامة وكذلك كل من يصح منه الرّؤية، ما ذا ترى ؟ تراهم حين يرون هول العذاب الذي يحيط بهم ويدفعون إليه دفعا، وقد فقدوا النصير والمعين، وبرزت قوة الله القوة الكاملة التي لا يشاركه أحد فيها. وحين تذوب صلات القربى والانتصار، حين يتبرأ المعبودون من دون الله ممن عبدوهم وحين تفر الأصنام ممن عبدها، يوم يجد المشرك نفسه وحيدا ذهبت القوى التي كان يُخَيَّل إليه أنها تنصره وتؤيده، وتمزقت كل الصلات بينهم، في ذلك اليوم تنفجر قلوب المشركين من الحسرة ويقولون: يا ليت لنا أن نعود إلى الحياة الدنيا، لنعلن لهؤلاء الأرباب أنا كنا مخطئين في

تعظيمهم ، وأنهم ليسوا أهلا للعبادة ولا صلة لنا بهم. هي حسرة تَقْرِنُ إلى عذابهم الجسمي عذابهم النفسي. ولا ينفعهم إعلان توبتهم وانفصالهم عن آلهتهم، فهم مقيمون في العذاب إقامة دائمة لا تنقطع.

بيان المعنى العام:

163-والهكم إله واحد لا إله إلا هو الرّحمن الرّحيم.

تعلن هذه الآية العقيدة الإسلامية واضحة وضوحا تاما، وسوف يتكرر في القرآن التأكيد على هذا الأساس الذي يقوم عليه بناء الدين الإسلامي كله. هذه الحقيقة هي اعتقاد أن الله واحد. هو واحد في ذاته وفي صفاته، فلا يشاركه أحد في ذاته ولا في صفاته. هو واحد ليس مركبا من أجزاء، هو واحد في الخلق فلا خالق غير الله هو واحد في ملكه للكون وما يحويه فلا يملك أحد معه شيئا، هو واحد في تشريعه فلا تشريع إلا لله. ومن عظمته وكماله أنه المتصف بالرّحمة الكاملة التي وسعت كل شيء. كما سبق بيانه في سورة الفاتحة.

164- إن في خلق السماوات والأرض...يعقلون.

ثم يهدي القرآن إلى ما يزيد هذه العقيدة تمكنا في العقول والقلوب، فيدعو إلى النظر في كتاب الكون، هذا الكون الفسيح الذي تتكرر علينا مشاهده، التكرار الذي قد يجعلنا لا نتأمل الحكمة فيه، وقد تغطي هذه الرّتابة والتوالي على مداركنا، فتحجبنا عن التفطن لأسرار القوانين التي تحكمه. يهز القرآن عقولنا هزا يحرك الانتباه لما هو أمام أنظارنا. فيعرض علينا في هذه الآية مشاهد من هذا الكون العجيب، ويتكرر لفت أنظارنا فيما سيأتي من آيات القرآن. فلنتابع ما جاء في هذه الآيات: إن السماء التي تعلو أي موقع نسير فيه، نراها بأبصارنا في كل لحظة نرفع فيها رؤوسنا، والسماوات الأخرى(المجرات) التي وصل العقل بمتابعة القوانين المحكمة إلى وجودها والتي تضعف حواسنا عن رؤيتها. وإن الأرض التي استخلفنا الله فيها، نسير في أرجائها ونتغذى منها، وننمو مما تخرجه، والتي تتحرك بسرعة مضبوطة دقيقة لا تزيد ولا تنقص عما قدر لها، التأمل في ذلك كله يثير أسئلة: من خلقهما من أي شيء تم ذلك ؟ ما هي القوانين المودعة في هذا الخلق الذي كشف العلم قديما وحديثا أنه لا أثر في ذلك للصدفة العمياء؟ ما يجري في السماء المحيطة بنا وفي السماوات الأخرى؟ ما تحمله هذه الأرض في بطنها، وما هي أسرار ثباتها وزلزالها، ويابسها وبحارها. وما هي العلاقة بين السماء والأرض، وأثر هذه العلاقة على حياة الإنسان والحيوان والنبات ؟ يتعاقب علينا الليل والنهار. يأتي الليل فيظلم ظلاما مطبقا أجزاء من الأرض. ويعقبه النهار فيخلفه ويضيء ما

كان مظلما. وفي كل من الليل والنهار حكمة تستمر بها الحياة. وكل ذلك بحسبان لا يختلف ، تصرح التقاويم بوقت طلوع الشمس ووقت مغيبها، وبعدد ساعات ودقائق وثوان، كل ليلة وكل نهار من العام. السفن تجري على سطح الماء وتمخر البحار والمحيطات، محملة بما ينفع الناس من غذاء ومعادن ومصنوعات، هدى الله الإنسان لصنعها، ثم أعانه على تطويرها بمراعاة القوانين المضبوطة من الخلاق العليم الحكيم. فما هي هذه القوانين؟ التفاعل الذي يحدث بين الأرض اليابسة والبحار المتلاطمة، وحرارة الشمس، والرّياح المختلفة الاتجاهات والقوة، فتنشأ السحب المحملة بالرّطوبة التي تتجمع وتُنْزِل مياها عذبة من السماء ، فتستجيب الأرض القاحلة بما ينزل عليها من رحمة، وتتحول من مساحات جرداء أو ذابلة إلى خضرة يانعة، وتتمشى في عروق الأشجار والنبات فإذا هي الغذاء والزهور وصلاح الهواء. وكما تجري الحياة في الشجر والنبات، فكذلك تجري الحياة في الحيوانات المختلفة التي تدب على وجه البسيطة، فتتوالد وتنمو، إن هذا الارتباط العجيب بين هذه الظواهر يثيرنا القرآن ويوقظنا حتى لا نمر عليه غافلين.

ظاهرة الرّياح، الهواء المحيط بالأرض، في حركته المختلفة بين القوة والضعف وبين مختلف الاتجاهات، يجب أن نتعمق في هذه الظاهرة ، لنعرف العوامل التي تؤثر في هذا الهواء اللطيف الذي لا يكاد الإنسان يحس به، كيف يتحرك حركته المختلفة في اندفاعها واتجاهاتها، وما ينشأ عن ذلك في الأرض والحياة بصفة عامة؟

ظاهرة السحب التي لم ترتفع في طبقات الجو ارتفاعا يعطل نزول الغيث منها، ولم تنخفض فتلامس سطح الأرض مما تصعب معه حياة الناس، وسخرت معلقة في مسارها بين السماء والأرض بمقدار يتحقق معه توفر القوانين لتحولها إلى مطر. ولماذا تمر على أراض عطشى فلا تنزل منها قطرة، وتفيض من خيراتها على مناطق أخرى فتحييها ؟

في هذه الظواهر مجتمعة. ومنفردة، ما ينادي بلسان حاله، لأصحاب العقول الرّاجحة التي تتجاوز الظواهر إلى الحقائق، أنه لا يُقْبَل أن تكون نتيجة الصدفة العمياء. فيتأكد بالنظر فيها أنه لا يمكن أن يتصور حصولها ولا استمرارها على هذا النحو من الدقة والضبط إلا بتقدير وترتيب من العالم المحيط علمه بكل دقيقة وكبيرة وصغيرة. فهي دليل شاهد على وجود الله. كما تقوم أيضا شاهدة على وحدانية خالقها، إذ لو تعددت الآلهة فانفرد كل إله بخلق واحدة منها، لما تحقق الانسجام فيما بينها في البناء العجيب للكون، فانتظامها فيما بينها دليل قاطع على

أن خالقها واحد أعطى بحكمته القوانين لكل واحدة منهـا، ثـم التناسـق فيمـا بينهـا بمـا حصل منه التكامل والنظام والاستمرار. مـنح الله كـل إنسـان عقـلا يفكـر بـه، كلمـا حركه للتأمل انكشفت له جوانب هامة قـد يكـون خفاؤهـا بسـيطا وقـد يكـون عميقـا، ولكنها جميعها قابلة للانكشاف والتبَيُن، وكلها تنـادي بـأن الله هـو الـذي خلقهـا. ومـع ذلك فإن بعض النـاس يغمضـون بصـائرهم ويقمعـون ومضـات عقـولهم فيحبسـونها عن التفكـر، ويتيهـون تبعـا لـذلك فـي متاهـات تفسـد فطـرتهم فتضـل عقـولهم وتنحرف عواطفهم، فيتخذون من الوهم ما يرفـع بعـض المخلوقـات مـن الأصـنام إلـى مرتبة العبادة فيخضعون لهـا، ويتحـرون فعـل مـا يرضـيها، ويحبونهـا كمـا يحـب المؤمنون ربهم، فيتعصبون لها ويعلنون الولاء لها، ولكنـه حـب قاصـر ومهتـز إذا مـا قورن بحب المؤمنين لله فحبهم لذاته العلية حـب متأصـل يعلـو علـى كـل مـا يعمـر قلوبهم من مشاعر، وإنك لتجد المؤمن يبـذل فـي سـبيل مرضـاته تعـالى كـل عزيـز حتى نفسه التي بين جنبيه.

165- ومن الناس من يتخذ...شديد العذاب.

عجيب هو أمر فريق من الناس تقوم أدلة التوحيـد أمـام أبصـارهم وبصـائرهم تنـاديهم إلى الإيمان. ولكنهم يعرضون عما تقتضـيه وينحرفـون فينشـؤون مـن خيـالاتهم آلهـة مساوية لله في ألوهيته. ثم يتضخم خيـالهم فيتعلقـون بأوهـامهم ويخلصـون لهـا كأنهـا شيء حقيقي ويحبونها كما يحـب المؤمنـون الله رب العـالمين. واحتـرس القـرآن مـن هذا التشبيه ليحدد أن حبهم هذا لا يرقـى لحسب المـؤمنين لله. فـالمؤمن مـع ربـه فـي السراء والضراء لا ينفصل عنـه اسـتجاب لدعائـه عـاجلا أو أجـل الاسـتجابة تبعـا لعلمه وفضله. بينما هؤلاء المشـركون يقطعـون صـلتهم بـآلهتهم إذا اكتشـفوا عجزهـا. وإذ كشفت الآية عن سخافتهم باتخاذهم آلهة مـن دون الله فإنهـا واصـلت تهديـدهم بمـا سيلقونه يوم القيامة. فقال تعالى: ولو تـرى.... يُعَـرَّوْنَ يـوم القيامـة ؛فإنـك لـو تـرى الذين ظلموا بإشراكهم وهم يُرعدون على أشد ما يكون مـن الخـوف واليـأس لـو تـراهم وهم يائسون نادمون على ما حصل مـنهم حـين يـرون بأبصـارهم أن القـوة العظيمـة انفرد بها الله وأن آلهتهم لا تغني عـنهم شـيئا. وأن مظـاهر العـذاب التـي يوقنـون أن الله أعدها لهم. أنها على درجة من القوة والشدة فوق متصوراتهم.

166-167؛ إذ تبرأ الذين اتبعوا...وما هم بخارجين من النار.

استحضر القرآن مشهد هؤلاء الذين اتخـذوا مـن دون الله أنـدادا أخلصـوا لهـم، فلفـت نظر كل من يمكن منه الرّؤية إلى الصـورة التـي يكونـون عليهـا يـوم القيامـة كـأنهم

يشاهدونها اليوم، وأي صورة! صورة الظالمين بعبادة الأنداد الذين ظلموا معبوديهم الصالحين كما عُبد عيسى ﵇ وعبد بعض الصالحين بتخيّل أنهم آلهة بعد موتهم، ونصب أصنام ممثلة لهم. كما ظلموا من اتبع أهواءهم وخيالاتهم من الدهماء فأضلوهم، صورة ضعفهم وتخبطهم وقد تحققوا مصيرهم، ورأوا رأي العين ما هم قادمون عليه من العذاب، فخارت عزائمهم وتبدد ما كانوا يعتزون به، وأن ما توهموه قوة تهاوى، وأن القوة المؤثرة قد تفرد بها الله ﷻ جميعها، وليس لأحد من تلك الأنداد ما يغني عنهم في قليل ولا كثير. هي صورة يذهب فيها التصور كل مذهب من مظاهر الذل والمهانة والخسران. وتتواصل الصورة مبرزة حالة أخرى لصيقة بالحالة الأولى: أن الرّوابط التي كانت تجمع العابدين والمعبودين قد انهارت وتبددت كما يتقطع الحبل الذي شد به المرتقي نفسه ليحميه من السقوط، فيتقطع قطعا صغيرة ، ويهوي المعتمد عليه ليتحطم. عندما يتبرأ المعبودون من الذين عبدوهم، وينكرونهم، ويذوب ما كان بينهم من صلات، وترتفع في هذا المشهد أصوات المخذولين من الأتباع الذين كانوا يلوذون بمعبوديهم خاضعين، ترتفع أصواتهم معلنين أمنيتهم: أن يعودوا إلى الحياة ليواجهوا الذين كانوا يعبدونهم، بأنهم لا قيمة لهم ولا يستحقون أن يخضعوا لهم ولا أن يكون بينهم وبينهم أي صلة. على هذا النحو من الخيبة والألم النفسي والعذاب، يظهر الله ﷻ بكمال قدرته وعدله، أعمالهم لهم، أحزانا تصحبها لهفة على ما فات، وينتهي المشهد بأن النار محيطة بهم من كل جانب، مطبقة عليهم، لا يجدون منفذا للخروج منها.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

بيان معنى الألفاظ:

الطيب: ما يستلذه الإنسان.

خطوات: جمع خطوة وهي المسافة التي بين قدمي الماشي، وهي هنا بمعنى المسالك التي يدعو إليها الشيطان ويقررها في نفوس أتباعه.

مبين: ظاهر العداوة.

النعيق: الصياح بالغنم لزجرها.

بيان المعنى الإجمالي:

الآيات التي سبقت هذه الآيات لفتت الأنظار إلى بديع الصنع الإلهي وما قدره فأحكمه وما أجرى في هذا الكون من منافع للبشرية، وعرّت المشركين كاشفة عن غباء من اتخذ من دون الله أربابا أخلصوا لهم، وهددتهم بما سينتهي إليه أمرهم. ثم أشار في هذه الآيات إلى انحراف نابع من إعراضهم عن عبادة الله، ذلك أنهم توهموا تحريم بعض الأشياء بدون مبرر، فناداهم الخالق موقظا لهم فاتحا لهم مظاهر كرمه وفضله، نافيا أن يكون ما ينفع الناس محرما عليهم، فقال تعالى بما يفيد الإذن والعَتَبَ على من تجاوز: كلوا مما هو موجود على هذه الأرض مما أحللته لكم، وكل حلال هو طيب. وأيقظهم إلى:أن الشيطان يمهد لكم طريق الضلال بوسوسته فلا تتبعوا ما يزينه بمكره الخفي في نفوسكم إن الشيطان عدو لكم ظاهر العداوة. تأملوا فيما يزينه لكم فلا تجدون فيما يوسوس به ويأمركم بفعله إلا ما يضر وما هو قبيح. ثم يبرز القرآن، على طريقته، منبع الانحراف في تفكير الكافرين وعقيدتهم وسلوكهم، هذه الآفة هي التقليد الأعمى المقترن بالتعصب، وإغلاق المنافذ على العقل والتفكير، حجتهم أنهم يتبعون ما كان عليه آباؤهم، والعجب أنهم يتبعونهم، وإن كان هؤلاء الآباء لا حظ لهم من التفكير ولا عقل لهم. ومن فقد العقل فقد الهداية. ثم ضرب القرآن مثلا يجسم حالتهم ليقرّب تصورها تقريبا عاما، فقرن بين صورة الكافرين، وآيات الله تتلى عليهم، ورسول الله ﷺ يبين لهم الحق، ومشاهد الكون تلفت الأنظار وتؤكد صدق الإسلام، وهم لا يلقون لذلك بالا ولا ينتفعون، قرن صورتهم تلك بصورة راعي القطيع الذي يدعو قطيعه إما للشرب أو الأكل أو الاجتماع، بأصوات لا يدرك الغنم منها إلا أصواتا، لا يتبينون من حقيقتها ولا مدلولها إلا كونها أصواتا. ولما كانت الدلائل التي عرضت في القرآن وكتاب الكون، لما كانت من قوة الوضوح باستنادها إلى الفطرة، ومن الصدق باستنادها إلى شاهد البصيرة والعقل، فالذي حرم الكافرين من الانتفاع بها، هو ما اختاروه لأنفسهم بسكوتهم عن الحق سكوت الأبكم، وبما أصموا آذانهم حتى لا ينفذ صوت الحق إلى أسماعهم، وبإغماض أعينهم فلا تنتقل مشاهد الكون إلى قلوبهم، هم صم بكم عمي. والعقل المكتسب ينمو ويكتسب فعاليته مما يرد عليه من الحواس. ولذا فإن فاقد الحواس لا يكون له العقل المكتسب، فهم لا يعقلون.

بيان المعنى العام:

168-169: يا أيها الناس كلوا...مالا تعلمون.

في الآيات السابقة تم عرض بعض المظاهر الدالة على تفرد الله بالوجود الواجب وتفرده بالخلق والتنظيم بما يلفت الأنظار إلى إدراك الأسرار وراء ذلك ليهتدي الناظر، إلى الإيمان اليقيني عن تدبر واقتناع. وسجل أن بعض الناس لم ينتفعوا بذلك ومضوا على كفرهم تقليدا لآبائهم وطمسا لوهج الفكر أن تنفذ أنواره لإدراك الأسرار وما وراءها. ختم على أنظارهم التقليد لمن كان قبلهم. ترسب من فساد عقيدتهم أن قسموا ما في الكون الذي يملكه رب العالمين إلى حلال وحرام، فحرموا على أنفسهم بعض ما منحه الله لعباده بناء على أوهام، فناداهم القرآن عارضا عليهم فضل الله على البشرية، أن الله أحل لخلقه أن ينتفعوا بما أودعه في هذه الأرض، وإن كانت الآية نصت على الأكل، فإن ذلك بالنظر إلى أن الغذاء هو أول ما يعنى به الإنسان في حياته ولذلك خص بالتنصيص عليه، فبينت الآية أن الله خلق ما في هذه الأرض لينتفع به الإنسان مما كان حلالا تستطيبه النفس المرسلة على فطرتها. وحذر البشرية من الشيطان الذي يعمل بوسوسته فيهيج العواطف ويزين لها الفساد، والعبث بالثوابت فيخلخل نظام التفكير البشري، فيتبع ذلك الفوضى في القيم للذين يتأثرون بوسوسته وتضليلاته فَيُحَرِّمُون ما أذن الله فيه، ويحرض على ما هو شر للإنسان في حاضره وعاقبته، وذلك لأنه انتصب في الحياة الدنيا عدوا للإنسان، نجاحه في إغوائه حتى يغير ما أمر الله به ونهى عنه، و يخيل لمن يغويه أنه بذلك على طريق الهدى، حتى يخسر دنياه وأخراه.

170- وإذا قيل لهم اتبعوا...لا يعقلون شيئا ولا يهتدون.

يثور سؤال: ما الذي يزيغ بالإنسان حتى يتبع طريق الشيطان ويبتعد عن الحق الذي جاء واضحا بينا على لسان محمد ﷺ؟ جرثومة الفساد الأولى هي التقليد الأعمى، فالله أعطى للإنسان العقل ليفكر به وهذا العقل متى اعتمده واتبع ما يقتنع به هو نور وصمام أمان، ولكن الضياع والهلاك عندما يعطل الإنسان العقل ويقمعه ويبعده عن التفكير وتقرير الحق، ويحكم العادات وما ورثه عن الآباء ويتعصب لذلك. يعميه التّعصب لما كان عليه آباؤه ولو كانت عقولهم سخيفة ضعيفة وبالتالي هم عاجزون عن تبين الحق وطريق الهداية إليه.

171- ومثل الذين كفروا كمثل الذي...لا يعقلون.

يجسم القرآن صورة الكافرين الذين رسم مظاهر عنادهم وغبائهم وتعصبهم فيمثل موقفهم من دعوة الرّسول ﷺ بالرّاعي الذي يدعو غنمه للأكل أو الشرب أو يناديها لتجتمع الشاردة إلى القطيع، لا يدرك القطيع من الرّاعي إلا أصواتا تحرك سمعه لا

يفهم دقائق معانيها ولا مضامينها. إن القصور ليس من ناحية الداعي الرّسول ولا في آيات كتاب الكون، ولكن الخلل جاء من أن الكافرين أخرسوا ألسنتهم عن النطق بالحق، وأصموا آذانهم عما أنزله الله من آيات بينات، وأغمضوا أبصارهم عن النظر في كتاب الكون البديع وما تنطق به شواهد الخلق المحكم من دلائل الألوهية والوحدانية، فعطلوا عقولهم باعتبار أن العقل ينمو بالرّصيد الذي يستقبله من الحواس، فتعطيل الحواس تعطيل للعقل.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

الميتة: ما ذهبت حياته من غير تذكية.

أهل لغير الله: ما ذكر عليه عند الذبح غير اسم الله.

غير باغ ولا عاد: غير مجاوز الحد ولا متعد.

بيان المعنى الإجمالي:

دعا الله المؤمنين مبرزا منته عليهم بإذنه لهم أن يأكلوا الطيبات التي أحلها لهم، وأن يقرنوا ذلك بالتوجه بالشكر لله على ما أنعم عليهم، الشكر الذي هو مقتضى الإيمان. ولما كان الحلال هو الكثير قصر البيان على المحرمات القليلة وهي: ما مات من الحيوانات بغير تذكية، والدم، وكل أجزاء الخنزير، وما ذكر عليه عند الذبح غير اسم الله. ثم إن منهج الشريعة الإسلامية في التكليف أنه يرتفع الحرج عند الضرورة، فالجائع الذي يخشى على نفسه الموت يرتفع عنه إثم تناوله لهذه المحرمات ليُبقي على حياته، فالآخذ بهذه الرّخصة لا إثم عليه إذا كان تناوله للمحرم بمقدار الضرورة مستشعرا فضل الله عليه، وذلك لأن الله غفور للسيئات رحيم بعباده.

بيان المعنى العام:

172-يا أيها الذين آمنوا كلوا...تعبدون.

ينادي القرآن المؤمنين نداء يرتب عليه فارقا آخر بين المؤمنين والكافرين، فإذا كانت الآية السابقة لما أذن فيها للكافرين بأن يأكلوا الحلال الطيب ليرتب على ذلك أن لا ينساقوا فيما يزينه لهم الشيطان من التحليل والتحريم، فإن المؤمنين معصومون بفضل إيمانهم من هذا الانحراف، ولذا فإن تخصيصهم بالإذن في الأكل

من خيرات الأرض عُقَبَ بتذكيرهم أن عليهم أن يشكروا الله على ما رزقهم، وأن لا يغفلوا عن ربط النعم بمنعمها، وذلك لأن الإيمان الواضح هو الذي يجعل الإنسان متصلا بربه في كل شأن من شؤون حياته، مما يسمو بالأعمال العادية إلى مرتبة العبادة، وعلى هذا فالمسلم عندما يأكل ويذكر إنعام المنعم شاكرا يصير أكله عبادة مأجورا عليها.

173-إنما حرم عليكم الميتة...إن الله غفور رحيم.

ولما أمروا بأكل الحلال فقد اقتضى المقام بيان ما هي الأشياء التي أحلها الله ؟ ولما كان الحلال هو الأصل وأنه منتشر في الطيبات الكثيرة المتنوعة، ولما كان الحرام مقصورا على ما اعتبره الشارع الحكيم خبيثا، وهو قليل جدا بالنسبة للحلال، عدد سبحانه المحرمات ليُفهَم أن ما سواها مأذون في الانتفاع به، وأول أنواع الانتفاع هو الأكل. فعدد هذه المحرمات التي هي:

أ-**الميتة**: وهي كل حيوان مات من دون تذكية. والتذكية تختلف باختلاف الحيوانات، فالحيوانات البرية الأهلية كالبقر والغنم والإبل والطيور الداجنة ذكاتها بالذبح أو العقر للإبل، مع تسمية الله. وما لا يقع في قبضة الإنسان كالغزال والطيور فذكاتها برميها بما تقتل به مع التسمية، وما كان من الحيوانات التي لا دم لها كالجراد والحلزون فذكاتها بما يزهق حياتها مع التسمية. وقد اختلف الفقهاء في طريقة تذكية بعض الحيوانات ليحل أكلها. وعلى المسلم أن يتفقه في دينه ويراجع العالِم بالأحكام الشرعية ليطمئن على حلية ما يأكله.

ب -**الدم**: الدم الخارج من الحيوان عند ذبحه نجس وعلى المؤمن أن يغسل مكان الذبح بما يزيل آثار الدم. وكذلك دم الجراح من الأحياء، إنسانا كان المجروح أو حيوانا.

جـ -**لحم الخنزير**: الخنزير يحرم أكل أي جزء من أجزائه، لا فرق بين اللحم والشحم والجلد والغضاريف والعظام، وعبر القرآن باللحم لأنه المقصود الأعظم من الحيوان لا لقصر التحريم عليه.

د- **ما أهل لغير الله به**: هو كل ما ذكي وذكر عليه غير اسم الله، يستوي في ذلك ما كان يذبحه الجاهليون باسم أصنامهم، وما يذبحه بعض الجهلة باسم من يظنون أنه من الصالحين. إن هذه المحرمات تحقق هدفا من أهداف تربية الإسلام لهذه الأمة، الأمة التي تقود البشرية للخير، ويثق بهم غيرهم، فيبعدهم تدينهم عن الخبائث والمستقذرات، ويطبع بذلك نفوسهم بالعزة ويحميهم من الوقوع في الرّذائل. ولذا فإن الإنسان في حال الضرورة القصوى التي يجد فيها وضعه أنه لا خيار له

إما أن يتغذى بالمحرم أو يموت من الجوع. فهنا يقوم عاملان: عامل نفسي داخلي هو رفضه لهذه المحرمات ونفرته منها، وعامل جسماني، حياته معرضة للموت بعدم الأكل. ففي هذا المقام سلمت روحه ومشاعره وضعفه الجسماني يزول بأكل المحرم، فأذن له الشارع الحكيم في الأكل، وحدد له بأن يكون غير ظالم بأكله، وغير متعد حد الضرورة التي ألجأته للأكل. وحد الضرورة تقدر عند مالك بالتزود من الميتة إذا ظن عدم وجود ما يأكله في المستقبل ففي هذه الحالة يجوز له أن يتزود حتى إذا وجد الحلال طرحه وحرم عليه أكله، ونقل عن الحنفية والشافعية أن الشبع من العدوان وللشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ملحظ ذكي فقد أوضح أن قوله تعالى:**(غير باغ ولا عاد)** هو تفسير لحد الضرورة أي إن المضطر هو الذي يصل به حد الإحساس بالجوع إلى مستوى يحمله على ظلم غيره أو الاعتداء عليه. على معنى أن الآية وردت لقطع كل تعلة للظلم والعدوان في المجتمع. ثم إن الله طمأن قلبه وهو يهتز قطعا عند أكله لما حرمه الإسلام عليه، بأن الله غفور رحيم بعباده.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ﴿١٧٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

يكتمون: يخفون.

لا يكلمهم الله: تعبير عن غضب الله عليهم.

يزكيهم: لا يثني عليهم.

شقاق: خلاف.

بعيد: كبير.

بيان المعنى الإجمالي:

يتوعد القرآن الذين يخفون أحكاما وآيات مما أنزله الله في كتبه، ويفعلون ذلك مقابل ما يأخذونه من الرّشا التي لا تساوي شيئا له قيمته في مقابل ما أخفوه، يتوعدهم بأن ما قبضوه سيكون نارا تهتك أحشاءهم، وأنه سيحل غضبه عليهم يوم القيامة

فيهملهم ولا يكلمهم ،وأنه سيعذبهم عذابا أليما. إن هذا الجزاء هو جزاء عدل، لأنهم بكتمانهم ما أنزل الله قد أخفوا الحق والهدى الذي بإخفائه يحل الباطل والضلال، وبإخفائه باعوا ما كتبه الله من التكريم والمغفرة للعلماء الذين ينشرون ما استحفِظوا عليه من العلم، باعوه وثمنه في النهاية العذاب في الآخرة وانقلابهم إلى أئمة للضلال. وختمت الآية بصورة تهكمية تعجبية من طول صبرهم على عذاب النار. إن ما عرض في الآيتين هو العدل الكامل لأن الله نزل الكتاب يحمل الحق، فالذين اختلفوا فيه، والحق لا يقبل الاختلاف، هم قد ابتعدوا عن منهج الكتاب وذهبوا في طريق يختلف عن طريق الله اختلافا كبيرا. فحق عليهم وعيد الله.

بيان المعنى العام:

174-175: إن الذين يكتمون ما أنزل الله...فما أصبرهم على النار.

الأمانة التي حملها العلماء في جميع الديانات، والتي بها كان لهم المقام الرّفيع عند الله، هي بيان ما أنزله الله وتبليغه للناس ورد الشبه التي تعرض للناس. ولذا فإن خيانة الأمين لما اؤتمن عليه أمر فظيع مستنكر. فإذا فسد العالم فأخفى ما أنزله الله وباع الثقة والأمانة فغير وبدل، مقابل ثمن من متاع الدنيا سواء أكان مالا أو جاها، أو استدرارا لعواطف الحكام أو الجماهير، فإن جرمه عظيم، هو قد اختل عنده الميزان وانقلبت القيم رأسا على عقب، توعده الله بأن ما استمتع به في العاجل هو في العاقبة نار تمزق أحشاءه وتقطع أوصاله، وغضب من الله، فهو يستغيث ولا يغاث ويسأل المغفرة فيضيع توسله ولا يسمع، ويفقد مرتبة العلماء الذين يحظون عند ربهم بالثناء عليهم، فالكاتم المرتشي لا يثنى عليه في ذلك الموقف، وجزاؤه عذاب أليم معنويا وجسميا. هؤلاء الكاتمون المرتشون قد باعوا ما ورّثهم الله من كتابه، وما كلفوا به من نشر ما عرفوه، باعوا ذلك الهدى فأخفوه، وباعوا المغفرة التي وعد الله بها العلماء، باعوا ذلك وقبضوا ثمنا زهيدا فانيا. هذه الصفقة من نتائجها أن الحق لما خفي ظهرت مكانه الضلالة، وغُطي على الأتباع الحق الذي كتموه بالباطل الذي أظهروه، فكان جزاؤهم نارا يتقلبون في حرها، وتختم الآية بتعبير تهكمي فيتعجب من صبرهم على عذاب النار.

176- ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق...اختلفوا في الكتاب لفي ضلال بعيد.

كل ما جاء في الآيتين السابقتين هو العدل الذي لا تَشَفّيَ فيه وإنما هو الجزاء الوفاق: لأن الله أنزل الكتاب مقترنا بالحق ليظهره وليجري الحياة عليه، فالكاتمون قد انحرفوا وأخذوا طريقا مختلفا اختلافا كبيرا يبتعد عن الهدى كلما أوغل السائر فيه بسبب كتمان علماء السوء.

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا ۖ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

بيان معنى الألفاظ

البر: كلمة جامعة تشمل سعة الإحسان وجملة من أنواع الخير.

قِبَل: المكان الذي يقابلك.

الرّقاب: جمع رقبة ومعناها هنا الرّقيق العبد.

البأساء: الفقر.

الضراء: شدة الحال على الإنسان ويقابلها السراء.

البأس: القتال والحرب.

بيان المعنى الإجمالي:

نفت الآية أن يكون الخير كله محصورا في الاتجاه إلى جهة من الجهات إلى المشرق أو إلى المغرب، ولكن جماع الخير في هذه المجموعة التي تبين منهجا متكاملا لطريق الهدى التي تشمل: الإيمان الجازم بوجود الله وبصفاته العلية – الإيمان بأن كل إنسان سيلقى جزاءه يوم القيامة – الإيمان بأن الله خلق ملائكة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون – الإيمان بالنبيين الذين بعثهم الله بوحيه لإصلاح البشر وهدايتهم إلى طريق الحق الذي يرضاه – من تطهر قلبه من الشح فسمح بالمال الذي يحبه، فنال منه ذوو قرابته، واليتامى، والفقراء، والبعيد عن بلده ومركز أمواله، والمحتاجون الذين يسألون العون، والأرقاء ليتحرروا من أسر العبودية، ـــ من أقام الصلاة ركن الدين العملي الأول، وأدى زكاة أمواله طائعا بها، وأوفى بعهده إيفاء يأمنه به من عاهده ويستثيقه، ومن نزع من قلبه الخوف فثبت عند نزول الضر به ولم يظهر التشكي من الألم الذي يصيبه، ولم يجبن عند الحرب. انظر إلى هؤلاء في سُمُوِّهِمْ بما جمعوه، فهمُ الصادقون، قد تتوجوا بصفة التقوى الكاملة.

بيان المعنى العام:

177-ليس البر أن تولوا وجوهكم...هم المتقون.

كان التحول عن التوجه من بيت المقدس إلى المسجد الحرام (الكعبة المشرفة) بعد أكثر من سنة قد اتخذ منه المنافقون مغمزا للتشكيك في صدق الرّسول ﷺ ، كما بيناه في الآيات السابقة من هذه السورة . وما أظنهم قصروا في الترويج لهذا المطعن حسب تصورهم. وقد فضحتهم الآيات السابقة وكشفت عن سوء دخيلتهم وعن تبديلهم وتحريفهم لكتبهم وإخفاء كثير مما استُحفِظوا عليه، مما أثار حقدهم فواصلوا طعنهم في تحويل القبلة، بتأكيدهم أن الخير كله في التوجه إلى بيت المقدس، فقطعت هذه الآية تمويهاتهم بتفصيل هذه القيمة الكبرى التي هي (البر) جماع الخير والإحسان. فكانت هذه الآية قاطعة لمطاعنهم مقررة للقيم التي بني عليها الخير والصلاح عند الله. نفت الآية أولا كل ما عملوا على الترويج له، ببيان أن البر ليس محصورا في التوجه إلى جهة معينة كما يدعون ، وأثبتت عقب ذلك أصول البر مفصلة في ثلاث وحدات كبرى:

الوحدة الأولى: الإيمان: الإيمان بالله إلها واحدا متصفا بصفات الكمال منزها عن النقص – والإيمان بأن الله سيبعث الخلائق كلها يوم القيامة لا يفلت من جزاء ذلك اليوم أحد – والإيمان بملائكته الكرام إجمالا على أنهم مخلوقات مكرمة لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وتفصيلا فيما أخبرنا الله عنه من خصائص لبعضهم – والإيمان بأن الله وثق وحيه في كتب بلغها الرّسل لأقوامهم – والإيمان بأن الله بعث النبيين يهدون البشر إلى صراط الله الذي يرضاه، وأنهم منزهون عن النقائص التي توجب الرّيبة فيهم.

الوحدة الثانية: المال والمجتمع: البار هو المطهر نفسه من الشح بالمال، الذي غُرِس في نفوس البشر حبه، فآتاه طائعا غير آسف، وبذل منه لذوي قرابته فقوّى تماسك الرّوابط بين أعضاء أسرته ،و عمّق حب بعضهم لبعض– ورق قلبه لليتامى الذين فقدوا العائل الذي كان يعنى بهم فنظر إليهم وأكرمهم–والمساكين الذين هدم الفقر كبرياءهم – ونال من فضله من اغترب عن موطنه ونفد ماله – والسائلون للمعروف فصدقهم وأعانهم دون التنقيب على أحقية احتياجهم– وأعان الأرقاء على نيل حريتهم وخروجهم من ذل العبودية إلى كرامة الحرية.

الوحدة الثالثة: المزكي نفسه بالتسامي في مراتب الكمال الذي يساعد عليه: إقامة الصلاة الرّكن العملي الأول في الإسلام، وكفاك إدراكا لمرتبة الصلاة في السمو بالنفس أن المصلي يناجي ربه – وإيتاء الزكاة وإخراجها طائعة بها نفسه راغبا في قبولها من الله بلا منة – ومراعاة الرّباط الاجتماعي ، بالمحافظة على العهد الذي وثق به التزامه نحو الطرف الآخر، فيأمن كل فرد على الوفاء بالالتزامات كأنها

حاصلة بمجرد العهد- والذي روض نفسه على الثبات في الأزمات بتحمل الخصاصة وحرمان الفقر لا يتبرم ولا يشكو حظه ولا يضعف عن القيام بما يمكنه القيام به في عزة نفس وثقة في ربه - وكذلك عدم الخوف والشجاعة في ساحات القتال والدفاع عن الجماعة وعن الحق. إن هؤلاء الذين فُصّلت ملامحهم وصفاتهم الأساسية في هذه الآية هم الكمّل الذين شهد الله لهم أنهم استحقوا أن يخلع عليهم صفتي النبل: هم الصادقون لا زيف في شخصياتهم، وهم المتقون الذي كان قربهم من الله حيا في نفوسهم يهديهم ويحصنهم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

بيان معنى الألفاظ:

كتب: فرض وألزم به.

القصاص: جزاء الجاني بما يعادل جنايته.

العبد: المملوك الذي يتصرف فيه مالكه حتى بالبيع والشراء.

عفي: أسقط التتبع.

بيان المعنى الإجمالي:

دعا الله المؤمنين أن يطبقوا شريعة القصاص لحفظ حياتهم. والخطاب للحكام كي يطبقوا شريعة القصاص، ولأولياء القتيل حتى لا يطالبوا بأكثر من القصاص، وللقاتل كي يسلم نفسه للحاكم ليقتص منه. والقصاص حكم لازم إذا طلبه أولياء القتيل. والقيمة الإنسانية لا تفاوت فيها، فلا يوجد ذكر، مهما سمت قيمته الاجتماعية ومستوى علمه أو ثرائه، أن تعتبر قيمته أرفع من قيمة فقير جاهل ، وكل امرأة حياتها مساوية لبقية النساء. وكذلك كل رقيق مع غيره من الأرقاء وإن اختلفت أثمانهم اختلافا كبيرا.

وحددت الآية أن القصاص ليس متعينا إذا عفا أولياء القتيل ورضوا بالتعويض المالي (الدية)، وعلى أولياء القتيل إذا تنازلوا عن القصاص أن يطلبوا بحقهم دون إعنات وتضييق على القاتل. وعلى القاتل، وقد تسامح معه أولياء القتيل، أن يدفع ما عليه من تعويض مالي (الدية) دون تلكؤ ومماطلة. إن في تمكين أولياء القتيل من

أخذ الدية بدل القصاص هو تخفيف من الله على الناس ورحمة بهم. وإذا رضي أولياء القتيل بالدية، أو طالبوا بالقصاص فالحكم بات لا تراجع فيه، وليس لهم بعد القصاص أن يعتدوا على أهل القاتل ولا أن يعتدوا على القاتل بعد أخذ الدية. إن تشريع القصاص فيه حفظ حياة الجماعة الإسلامية لأن من يدور بخلده الانتقام بالقتل إذا علم أنه لا مفر له من القصاص وأنه لا مطمع له في البقاء حيا بعد إزهاق روح خصمه، إنه مع تصور ذلك، يَنْكَفُ عن القتل. فتسلم حياة المقتول وحياة القاتل معا. ويحرك القرآن قوتين حاميتين من الإقدام على القتل: قوة العقل البشري الذي يوازن بين إشفاء غليله وبين غريزة حب الحياة التي طبع عليها البشر. وعامل تقوى الله الذي هو من مقتضيات الإيمان.

بيان المعنى العام:

178-يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص...عذاب أليم.

حددت الآية السابقة آية البر الملامح الأساسية للمسلم، بما يصور الصلاح الفردي لأتباع هذا الدين. واعتنت هذه الآية بركن عظيم من الصلاح الاجتماعي وهو حفظ الحياة. إن الركن الأول في بقاء المجتمع هو احترام الحياة الإنسانية وتحقق الأمن على بقائها. هانت حياة الآخر عند العرب قبل البعثة المحمدية، فكان من أوقَدَ غيظه يقتل خصمه، وكانت القبيلة تغير على الأخرى لتملك نساءها ولتستحوذ على أموالها، ويقتل في هذه الغارات كثير من الناس. فلما جاء الإسلام حمى حياة البشر وشرع القصاص، فمن يقتل غيره عمدا عدوانا يكون لوليه حق المطالبة بقتله. كما كان من عرف الجاهلية أن قيمة الحياة متفاوتة، فإذا كان القتيل ممن له مكانة اجتماعية رفيعة، أو كانت قبيلته ترى نفسها أعز من قبيلة القاتل فإنه لا يقنعها أن تقتل القاتل. روي أن رجلا من قبيلة غني قتل شاسَ بن زَهير فقال لزهير من يُمَثِّلُ قبيلة غني:سل ما تريد في قتل شاس؟ فقال: إحدى ثلاث لا يرضيني غيرهن، فقال: ما هن؟ قال: تحيون شاسا، أو تملؤون داري من نجوم السماء، أو تدفعون غَنِيًا بأسرها فأقتلها، ثم لا أرى أني أخذت عوضا. فقرر الإسلام أن المسلمين تتكافأ دماؤهم، بمعنى أن قيمة الحياة واحدة، وأخذ في التفصيل لتمكين تلكم القاعدة بتمام الوضوح، فكل رجل هو كفء لأي رجل في قيمة الحياة وكذلك كل امرأة هي مساوية لأي امرأة مسلمة كانت زوجة الملك أو ابنته أو بنت راعي الغنم أو الفقير المعدم. وكذلك كل رقيق هو مساو لأي رقيق وإن اختلفت قيمهم في السوق. ولما كان قوله تعالى **(كتب عليكم)** يقتضي بظاهره أنه لا بد من قتل القاتل نفت بقية الآية **(فمن عفي له من أخيه شيئا)** هذا الظاهر وبينت أن ولي

القتيل مخير بين أن يطلب بالقصاص، أو أن يطلب أخذ دية القتيل ويعفو عن القصاص. وهذا التخيير أكْمَلَتْهُ الآية بما يلي: أن تكون مطالبة ولي الدم بحقه مطالبة ليس فيها غلظة ولا إعنات، حتى لا يظهر أنه يرغب في التشفي. ثم إنه إذا رضي بالدية فلا يتجاوز ذلك إلى قتل قاتله بعد أن رضي بأخذ الدية. وعلى المعفو عنه أن لا يتلكأ في دفع ما عليه من الدية أو يماطل ويراوغ. وينبه القرآن أولياء القتيل والقاتل، ينبههم جميعا أن تشريع قبول الدية مع العفو هو تخفيف من الله ورحمة بالناس، هذه الرّحمة التي بتشريعه تسري في قلوب الناس فتستل من النفوس الغلظة وحب الانتقام. وختمت الآية ببيان أمرين :

الأول: رفع ما يمكن أن يستقر في الذهن: أن الرّجل يقتل بالرّجل لا بالمرأة والعكس، وأن الحر لا يقتل بالعبد، فقال تعالى: ولكم في القصاص حياة فأفاد بهذا أن القتل العمد العدوان يوجب حق المطالبة بالقصاص سواء أتساوى القاتل والمقتول في الجنس (الذكورة والأنوثة) والحرية أو اختلفا. فكل قاتل عمدا عدوانا غيره معرض للقصاص منه إذا لم يعف ولي القتيل.

179- ولكم في القصاص...لعلكم تتقون.

الثاني: تعليل تشريع القصاص بما يتبع هذا التعليل من قوة الاقتناع به والدعوة له من جميع المؤمنين. فبين سبحانه أنه إذا رسخ في نفوس البشر أن كل من تعدى على غيره بالقتل سيقتص منه، ولا ينعم بالبقاء حيا بعد قتل غريمه، وليس للقاضي أن يجتهد في هذا أو أن يخفف من العقوبة، فإذا علم أن رقبته ستقطع حتما، ففي معظم الأحوال يقوم في باطنه داعي حب الحياة وغريزة حب البقاء، فلا يقدم على القتل، وبهذا تسلم حياة من كان معرضا للاعتداء عليه، وحياة من كان عازما على القتل، فحفظ أصل الحياة في المجتمع. وحركت الآية الناظرين فيها إلى أن ما قررته يستجيب له كل من له عقل، إذ لا يرضى أي إنسان أن يكون فعله قاضيا بجنونه وبفقدان عقله. وبأن تقوى الله التي هي شارة الإيمان تقتضي حرص كل إنسان على حياة الآخرين.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ
بِٱلْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ
يُبَدِّلُونَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ
فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

حضر أحدكم الموت: ظهور قرب الموت بِتَبَيُنِ العلامات التي يعقبها الموت.

الخير: المال.

الوصية: ما يعهد بتنفيذه بعد الموت.

بدله: التغيير بنقص أو إبطال.

بالمعروف: ما تقبله النفوس ولا ترفضه وهو ما اتسم بالعدل.

جنفا: الجنف الميل عن العدل بدون قصد الأذية.

بيان المعنى الإجمالي:

قررت الآية أن على كل من تبين له قرب أجله أن يوصي فيما سيخلفه من أموال. وأن هذه الوصية ينتفع بها الوالدان والأقارب، ولم تحدد الآية نصيب كل نوع من الموصى لهم، وأوكلته للموصي بأن يراعي أن تكون وصيته متسمة بالعدل، فلا يرى الموصون لهم فيها حيفا ولا يعترض عليها الناس حسبما استقر في نفوسهم من العدل في مثل هذا. والإيصاء مؤكد باعتباره حقا على كل من يخشى الله ولا يكون المؤمن إلا متقيا. وتحذر الآية من تغيير وصية الموصي العادلة ممن شهد عليها أو قام بتنفيذها، وأنه يتحمل إثم التبديل، والله مطلع على الحقيقة لا يخفى عليه شيء فإنه سبحانه قد سمع ما أوصى به الموصي، وهو عليم بحقائق الأمور وخاصة في الطريقة التي نفذت بها الوصية . وقررت الآية أيضا أن من توقع من الموصي ميلا عن العدل بدون قصد إضرار، أو علم منه الحيف وقصد الإضرار بالتوزيع البعيد عن العدل أو الحرمان لبعض المتساوين، فقام بإصلاح ما جار فيه الموصي بالتأثير عليه ليعود إلى العدل، أو إصلاح ما فعل بعد موته، قصد أن لا تكون الوصية سببا في الفرقة والعداوة، فعمله مرضي عند الله لأن الله يغفر للعائد إلى الخير ما سبق وهو الرّحيم بعباده فهو يشرع لهم ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام:

180-كتب عليكم إذا حضر...المتقين.

اعتنت الآية السابقة بحفظ الحياة. وقررت هذه الآية بعض أحكام المال الذي هو دعامة الحياة. وخصت ما يتعلق بمال الإنسان إذا ظهرت أمارات الموت وقرب أجل المالك، وذلك لوقوعها عقب قتل النفس.

وقد كان العرب يتحكمون في توزيع أموالهم بعد موتهم حسبما تمليه عليهم عواطفهم، الأمر الذي جعل الارتباط العائلي مهتزا. فقررت هذه الآية في بداية التشريع أن تخرج المسلمين من الفوضى التي كانوا يتصرفون بها في أموالهم بعد موتهم وهيأتهم لتشريع الميراث الذي عزلهم عن التصرف في قسمة أموالهم

وتولاها الله بعدله لأنه هو مالك المال حقيقة. فكان موقع هذه الآية في التشريع بين الحرية الفوضوية في توزيع التركات، يحرم الثري أهله ويعطي ماله للأباعد ولا يعدل بينهم إن خصهم بجانب من أمواله، وبين التشريع الدقيق الذي أعطى لكل وارث حقه. ولذا فإن المعتمد أن هذه الآية لم يبق العمل بها بعد أن نزلت الآية المحددة لنصيب كل وارث من تركة الميت. تفيد الآية أن الله أوجب على من كان له مال وظهر من وضعه الصحي أنه قد قرب أجله، أن عليه أن يوصي في ماله فيوزعه، ويخص كلا من والديْه ومن أقاربه بنصيب من التركة، وأن يراعي في توزيعة مالَهُ عليهم بعد موته، أن لا يكون فيه حيف كبير يرفضه الموصى لهم ويعترض عليه المجتمع. وأثارت الآية ما استقر في قلوب المؤمنين من التقوى التي يصحبها دوما تنفيذ الأوامر على أعدل وجه وأتمه.

181- فمن بدله بعد ما سمعه...سميع عليم.

وشددت الآية على الذين يتولون تنفيذ الوصية، أن عليهم أن يحترموا وصية الموصي وأن ينفذوها كما أوصى، وأن من بدل الوصية يتحمل إثم التبديل وإثم الحيف الذي ترتب على تدخله. والله قد سمع ما أشهد به الموصي على وصيته، وهو عليم بحقيقة طريقة تنفيذها لا يخفى عليه تغيير المنفذ وتبديله. وفي ذلك تهديد لمن يخون الموصي فيغير وصيته.

182- فمن خاف...غفور رحيم.

وبجانب هذا التهديد لمن يبدل ، تَعْرِضُ الآية الوجه الآخر، وهي صورة المنفذ الفاضل التقي، الذي ظن أن الموصي حاد عن العدل ولم يعتدل ميزان التوزيع عنده ففضل بعض المتماثلين أو حرمهم إما بقصد الإضرار الموجب للإثم أو مع عدم قصد الإضرار لسوء تقديره، فقام بإصلاح الوضع بأن أقنعه قبل موته بالرّجوع إلى العدل، أو قام بالإصلاح بعد موته، فإنه إذا كان التبديل بقصد إقامة العدل المأمور به في الوصية، فلا يخش من التهديد السابق فإنه لا يشمله، والله غفور للموصي إذا رجع، رحيم بعباده فلا يؤاخذ من عمل على إقامة العدل.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ
لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ
مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ
خَيْرٌ لَّهُۥ ۚ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ

فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ
فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ
ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ
وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ
إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ
ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ
كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا
كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ
مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى
ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

بيان معنى الألفاظ:

أياما معدودات: قليلة يعدها الناس.

فعدة من أيام أخر: قضاء أيام بعدد ما أفطر.

يطيقونه: يستطيعون الصوم بجهد ومشقة.

فدية: هي طعام مساكين بعدد أيام الفطر.

تطوع: زاد على الواجب بإطعام أكثر من مسكين أو أطعم وصام.

شهد الشهر: كان حاضرا غير مسافر، وكذلك من علم بدخوله.

لتكملوا العدة: تكملوا صيام الشهر.

تكبروا الله: تستحضرون عظمة الله في قلوبكم، وتعبرون عن ذلك **بكلمة الله أكبر.**

فليستجيبوا لي: فليجيبوا دعوتي بالطاعة.

يرشدون: يهتدون ويستقيمون.

الرّفث: كلمة جامعة لكل ما يريده الزوج من زوجته مما يتعلق بالجنس كلاما أو مباشرة.

تختانون: تعبير عن تفاعل داخلي بين الإقدام على ما لا يرضي وبين الإحجام مع شدته. فهو تنازع باطني.

عاكفون: جمع عاكف وهو من تطوع بالبقاء في المسجد بنية التقرب يوما وليلة على أقل تقدير مع الصوم.

حدود الله: الحواجز التي لا يحل تعديها كالحد بين الشيئين إذا تجاوزه دخل في غيره. فإذا تجاوز الحلال دخل في الحرام.

بيان المعنى الإجمالي:

نادى القرآن المؤمنين ليثير فيهم داعي الاستجابة لما فرض عليهم، والآية بينت أن الله فرض الصيام على هذه الأمة كما فرضه على الأمم السابقة، باعتباره طريقا ينال به الصائم رضى الله ويُعِده للتحلي بالتقوى. والصيام في الإسلام ليس شاقا إذ الواجب لا يتجاوز أياما معدودات، وشأن العادّ أن يعد القليل، وأن من كان مريضا مرضا يشق معه الصوم فله أن يفطر ويقضي الأيام التي أفطر فيها، وكذلك المسافر يجوز له أن يفطر أيام سفره ويقضي، كما خفف أيضا على الذين يطيقون الصوم لكن بجهد ومشقة كأصحاب الصنائع الشاقة والهرِم وكبار السن أن يفطروا ويطعموا عن كل يوم محتاجا مسلما، ومن تطوع بالزيادة على الحد الأدنى في الإطعام أو أطعم وصام فقد قدم خيرا وما قدمه من خير لا يضيع فسيجد ثوابه عند الله. وأكد على القيام بفريضة الصيام على الصحيح القادر بأن في ذلك خيرا عظيما. وذكر المسافر أيضا بأن الصّوم أفضل إذا كان لا يجد مشقة زائدة في الصيام، وكذلك المريض الذي لا يبلغ به المرض حد الخطر في الصيام، فكل هؤلاء الصوم خير لهم من الفطر ثم القضاء وليس الصوم واجبا عليهم في تلك الحال. ونوه الله بالصيام فأخبر سبحانه أنه تخير له الشهر الذي أكرم فيه البشرية بإنزال القرآن فيه، القرآن الذي يهدي الناس للحق. وبما جاء فيه يفترق الحق عن الباطل ولا يبقى لَبْسٌ. وأكد الأمر بصيامه لمن علم بدخوله أو كان حاضرا غير مسافر، بعد ما ربط ممتنا، بفرض الصيام في مثل الشهر الذي ابتدأ فيه إنزال القرآن، وذكر بأن ترخيصه للمريض والمسافر في الفطر هو جري على ما تفضل به من أنه لا يريد أن يشق على البشر وإنما يريد أن ييسر عليهم. هذا التيسير الذي يساعد على القيام بصوم كامل أيام الشهر بقضاء ما فات إذا تعسر الأداء في شهر رمضان. وهذا ما يثير في نفس المؤمن شعورا بعظمة الخالق سبحانه، فهو المطلع العليم بأحوال عباده يرفق بهم، مما يقتضي أن يعظموه تعظيما يعبرون عنه بكلمة الله أكبر أثناء صيامهم وعند إتمام العبادة في نهاية الشهر، وإذا عمّرت النفس بذكر الله واستحضار عظمته، انطلق لسان العابد وجوارحه بالشكر للخالق العظيم المتفضل. وتوجه الخطاب لمحمد ﷺ في هذا الجو من الصلة بين الخالق

والمخلوق فيقول الله لنبيه: إذا سألك عبادي عني فأخبرهم بأمرين: الأول أني قريب منهم بما يدل عليه القرب من اطلاع ورعاية وتشريف، والثاني أني أعلم أنهم فقراء لكرمي فأنا الله العظيم أجيب دعوة الداعي إذا ابتهل بسؤال مطالبه. فليكن هذا حاضرا في أذهانهم وليجتهدوا في إجابتي لما أمرتهم به ومنه الدعاء، فهذا هو الذي يحقق لهم الهداية والاستقامة. ثم بين القرآن بعض أحكام الصوم، فصرح بأن الزوج قد أحل الله له في ليالي الصيام أن يستمتع بزوجته، إذ الرّابطة الزوجية قوية كأن كل واحد منهما لباس للآخر. والله مطلع على ما يجري في نفوسكم فمن كان يغالب غريزته وتغالبه في ليالي شهر رمضان، ويظن أنه آثم إن غلبته شهوته في الليل، أعلنت الآية بأن الله قد تاب عليه ولا يؤاخذه. وصرح التصريح الذي ينفي كل احتمال: أن الصائم يحلّ له أن يجامع زوجته ما بين غروب الشمس وطلوع الفجر. وتصرح الآية بأن الأولى أن لا يمتنع الرّجال من الاتصال الجنسي لليالي شهر رمضان حتى يتضاعف نسل الأمة. وحددت الآية وقت الصوم بأنه ما بين طلوع الفجر الصادق **(الخيط الأبيض من الخيط الأسود)** وبين غروب الشمس. وكان من سنة رسول الله ﷺ أنه يلازم المسجد في العشر الأواخر من رمضان، ولما كان الصائم يباح له في الليل الأكل والجماع، نبهت الآية أن المعتكف يحرم عليه أن يجامع زوجته وهو معتكف في المسجد. وختمت الآية بتنبيه المؤمنين أن ما عرضته آيات الصيام هي حدود لا يجوز تجاوزها. فثبوت الشهر يوجب الصيام ونهار الصيام يمنع فيه الإشباع الجنسي والأكل والشرب والمعتكف يمنع من قربان زوجته حتى في الليل. وعلى هذا النمط من البيان يجري بيان الله للناس أحكامه مما ينفي اللبس، لأنه سبحانه يريد أن تستقر التقوى في قلوبهم.

بيان المعنى العام:

183ـ يا أيها الذين آمنوا...لعلكم تتقون.

دعت هذه الآيات، من سورة البقرة، المؤمنين ليقوموا بصيام شهر رمضان أحد أركان الإسلام الخمسة، وحثتهم على أدائه بالطرق التالية:

أولا: بندائهم بوصف الإيمان **(يا أيها الذين آمنوا)** على أن الاستجابة هي من مقتضيات الإيمان.

ثانيا: نصت على أن الصيام واجب مؤكد بما تدل عليه كلمة كُتِبَ من توثق.

ثالثا: ببيان أن الصيام طريق العبادة لله، فرضه سبحانه على الأمم السابقة، وإن كان مظهره في الدين الإسلامي يختلف عما طلب من غيرنا لأن التشريع بلغ قمته في هذا الدين.

رابعا: أن الصيام يؤثر في القلب تقوى الله، ذلك أن التركيب الإنساني من الرّوح والجسد، صلاحه في التوازن بين قوتيه هاتين، فصيام رمضان يُعَدِّل من ضراوة القوى المادية في الإنسان، ويطوعها للفضيلة، وبذلك تعلو تقوى الله في اختيارات الإنسان وسلوكه.

184- أياما معدودات...إن كنتم تعلمون.

خامسا: أن مدة فريضة الصيام لا مشقة فيها كبيرة لأنها لأيام معدودات، وشأن من يَعُد أنه لا يَحسُب إلا القليل. وفعلا فأيام الصيام يكاد المؤمنون صغارهم وكبارهم يعدونها ولا يخطؤون فيها، ولا تجد هذا في أي شهر آخر من أشهر العام.

سادسا: أن تشريع الصوم راعى أحوال المؤمنين الخاصة، فمن كان مريضا مرضا يشق عليه الصيام فيه، ومن كان مسافرا، فقد فتح له باب التخفيف بأن يفطر في أيام مرضه وسفره ثم يقضي ما فاته بعد شفائه وبعد عوده إلى بلده. .

سابعا: من كان يطيق الصوم بمشقة كالمرأة الحامل، والمرضع التي يتأثر ولدها بنقصان لبنها، والكبير الذي لا يستطيع الصيام إلا بمشقة كبيرة، ومن كان عمله الذي يحصل منه على معيشته شاقا يضعفه الصيام عن القيام به على وجهه، فإنه يجوز له أن يفطر ويطعم مسكينا عن كل يوم أفطر فيه. ثم إنه على من يتمكن من الصيام بعد رمضان أن يقضي ما فاته. ولفتت الآية قلوب المكلفين بالصوم إلى أنهم إذا تطوعوا بأن صاموا وأطعموا فهو خير مدخر لهم عند الله وكذلك من زاد على إطعام مسكين، أو تخير في الإطعام الأجود والأفضل. ومن باب الإرشاد إلى الأكمل بينت الآية أن من تحمل المشقة الزائدة التي لا تضر به وصام مع الناس فالصيام خير له بما يدل عليه من كثرة الثواب.

185- شهر رمضان ...تشكرون.

ثامنا: أن الشهر الذي تخيره الله للصيام، له مزية خاصة، فهو الشهر الذي في مثله أنزل على رسول الله ﷺ القرآن لما كان في غار حراء، ومن المقرر أن المناسبات التي تَفَضّلَ فيها الله على البشر بالخير الكثير يرجى أن يعظم فيها الثواب.

تاسعا: أنه لما يرجى من عظم ثواب الطائعين المنفذين لأوامر الله في مثل نزول شهر القرآن، تأكد الأمر لكل من كان حاضرا وقت دخول الشهر، وعلم به أن يصومه مستحضرا ذلكم الظرف الفاصل بين عهدين، عهد ضياع الإنسان، وعهد انبثاق الهدى الذي فرق بين ظلام الشرك وأنوار الوحدانية.

عاشرا: رغم الرّبط بين نزول القرآن وتشريع الصوم ، فإن التخفيف ماض لمن كان معذورا ، دون أن ينقص من ثوابه، إذا هو أفطر وعوض ما فاته بعد ذلك بمقدار ما فاته عددا.

حادي عشر: أن التخفيف والرّخصة التي شرعها سبحانه في الحدود التي بينتها الآية تؤكد فريضة الصيام باعتبار أن الله يريد أن ييسر على المؤمنين أمر عبادته إذا كانوا معذورين ،لا أن يشق عليهم. **(يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)**.

ثاني عشر: أن هذا التخفيف لا يعفي من أخذ برخصة الله من صيام عدد الأيام التي أفطر فيها حتى يكمل عدة أيام الصيام التي قام بها المؤمنون. **(ولتكملوا العدة)**.

ثالث عشر: أن صيام رمضان يزكي النفس، ويصقل الرّوح فتنطلق المشاعر والألسنة بالتكبير. والتكبير الجاري في الضمير، والجاري على اللسان بكلمة **((الله أكبر))** يمثل قمة من التصور والفعل الإيماني. إن مؤدى التكبير أن المكبر يشهد على نفسه أنه يعتقد أن الله ﷻ أكبر من كل ما يدخل في نطاق التصور فيثبت لله بذلك الوحدانية وجميع صفات الكمال، ولذا كان مما سنه النبي ﷺ يوم العيد بعد إكمال الواجب، التكبير. يكبر الساعي للصلاة ويكبر الإمام في صلاة العيد سبع تكبيرات في الرّكعة الأولى ويكبر في الرّكعة الثانية خمسا ويخلل الخطبة بالتكبير **(ولتكبروا الله على ما هداكم)**

رابع عشر: أن الصيام يطوع اللسان والجوارح للشكر، الشكر الذي ينطلق من تقدير الشاكر لنعم الله عليه التي يزيد إحساسه بها عندما يلاحظ ألطاف الله بإقداره على مشاركة المؤمنين القيام بهذه الفريضة، وعندما يحرم نفسه من شهوات البطن والفرج بالصيام فتخرج من حلقة الرّتابة التي يغفل الإنسان معها عن تقدير قيمتها فيوقظه الحرمان إلى تقديرها حق قدرها، وعندما ينظر فيما حف الله به أوامره في هذه العبادة من تيسير وصالح وعد. وعندما يشعر بارتباطه بالقرآن ارتباطا أوثق **(شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن)**

186- وإذا سألك عبادي...لعلهم يرشدون.

تثير هذه الفيوض الإلهية التي أشرنا إليها طاقة كبيرة في الشعور بنعم الله ولطفه، كأن النفس أصبحت متطلعة أكثر لمزيد تفصيل لمنزلة المؤمن عند ربه إثر هذه التجليات التي هزته فقربته من القرآن كلام رب العالمين وهدته إلى العبادة التي ارتضاها للتقرب منه عبر الشرائع التي شرعها على لسان المرسلين صلوات الله وسلامه عليهم، فقال تعالى: **(وإذا سألك عبادي عني فإني قريب)**، فوجه

الخطاب لرسوله وبادر بإبراز الصلة بينه وبينهم (عبادي) وكان المفهوم الذي أراد تقريره: أنه قريب منهم، بما يفيده القرب من إعزاز لهم، ومن اطلاعه الكامل على أحوالهم فهو لا يتركهم للظروف تعمل فيهم عملها. وفوق ذلك أنه يجيب دعاءهم لتفريج كُرَبِهم وتحقيق مطالبهم، فَقُرْبُهُ منهم هو قرب عناية لا قرب مكان تعالى الله عن ذلك. ولذا فإن عليهم أن يجيبوا داعي الله بالإخلاص لعبادته وتطبيق أوامره في ضوء الإيمان ، فعلى هذا النحو من الصلة بين الخالق الكريم والمخلوق المنفذ المؤمن، ينفتح باب الرّشد في السلوك وإصابة العابد الحق في مسيرته في الحياة. وفي ذلك ما ينبه المؤمن إلى التوجه بالدعاء إلى الله، وأنه مرجو الإجابة أثناء صيامه وعند إفطاره وعند ما يقبل على صيام اليوم القادم. أخرج ابن ماجة بسنده إلى عبد الله بن عمرو بن العاص ﵁ يقول: قال رسول الله ﷺ: إن للصائم عند فطره لدعوة ما ترد. وكان عبد الله بن عمرو يدعو عند فطره: الله إني أسألك برحمتك، التي وسعت كل شيء، أن تغفر لي[1]

187- أحل لكم ليلة الصيام... لعلهم يتقون.

ثم نصت الآية على ضبط ما يحل للصائم، فبينت أن الصيام تنسحب أحكامه ما بين طلوع الفجر وغروب الشمس، وأنه يحل له فيما بينهما ما كف نفسه عنه أثناء النهار تقربا لله، وأن الله عليم بما يجرى في نفوسكم مما تحرج منه بعضكم من الاتصال الجنسي في الليل التحرج الذي صحبه تدافع بين تلكم الرّغبة وبين أداء الصيام على أتم الوجوه وأنقاها، فاعلموا أنه يحل للصائم أن يجامع زوجته في الليل، وأن من سنن خلقه أن قوّى الامتزاج بين الزوجين قوة مثلها بأن كل واحد منهما لباس لصاحبه، بما يوحي به كلمة اللباس من ستر ومن شدة قرب ومن حاجة. بل إن الإشباع الجنسي مرغب فيه رجاء تكثير النسل **(وابتغوا ما كتب الله لكم)** كما أحلت الآية الأكل والشرب كامل الليل إلى أن يظهر خيط الضوء الأول في الأفق مؤذنا بطلوع الفجر.

والإذن بالمباشرة، التي كان يتحرج منها في ليلة الصيام، لا يتجاوز ذلك الإذن إلى الاعتكاف، فإن الاعتكاف الذي هو نية الصائم العبادة بالتزام البقاء في المسجد لمدة أقلها أربع وعشرون ساعة، لا يحل فيها الاستمتاع بالزوجة. وتختم الآية بالتأكيد على أن ما شرعه الله في الصيام هي حدود، والخروج عن الحد يوقع في الإثم فعلى المؤمن أن يكون يقظا يقظة تامة فلا يقرب من تلكم الحدود حتى لا ينزلق إلى

---

[1] ج 1 ص 557ح1753

المحرم. وعلى هذا النحو من البيان الذي فصلته آيات الصوم يجري بيان الله لآياته للناس جميعا. لتحل، تبعا للوضوح وتحريك العقول والمشاعر، التقوى صمام الأمان، في الحاضر والمآل.

وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

بيان معنى الألفاظ:

لا تأكلوا: أخذ المال مع قصد عدم إرجاعه لصاحبه.

الباطل: بدون رضا صاحبه.

تدلوا بها: تدفعوها.

بيان المعنى الإجمالي:

نهي صريح واضح مجسم يحرم أن يستولي أي فرد على مال غيره بغير رضاه، كما نهت الآية عن الرّشوة التي يتوسل بها الرّاشي لتبرير ما أخذه بحكم الحاكم الذي هو في الحقيقة ما كان ليحكم له لولا الرّشوة، فهو من أكل الأموال بالباطل. وشنع على المتسلطين على أموال غيرهم بأنهم يعلمون أنهم ظالمون.

بيان المعنى العام:

188- ولا تأكلوا أموالكم...تعلمون.

فيما سبق من سورة البقرة أذن الله للناس قاطبة أن يأكلوا الحلال الطيب مما تنتجه الأرض، وحذرهم من اتباع طريق الشيطان. وفي الآية السابقة حذرهم من الاقتراب من الحدود التي حددها حتى لا يقعوا في الحرام. وحب الناس للمال وتملكه غريزة قوية، قد تسوغ للقوي بسلطانه، أو بمكره، أن يستولي على مال غيره ظلما بدون وجه شرعي، ويدخله في مكاسبه فلا يظهر له أثر يميزه عن ماله، كأنه يهضمه في معدته فلا يُتَفَطنُ له. فأضافت هذه الآية التحذير الشديد من أكل المال بالباطل. كما نهاهم أن يتوسلوا إلى أكل المال بالباطل بواسطة الرّشوة، ويكون حكم الحاكم مبررا ظاهريا، مع أن الرّاشي يعلم أنه باطل وظلم. وهي شناعة أبرزتها الآية توجب النفرة منها لمن كان مستقيم الفطرة. وسيأتي في القرآن مزيد تحليل وتنفير من أكل المال بالباطل الظاهر منه كالغصب والسرقة، والخفي كالرّبا وبيع الغرر ونحو ذلك.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾

بيان معنى الألفاظ:

الأهلة: جمع هلال وهو القمر في الأيام الثلاثة الأولى من الشهر.

المواقيت: جمع ميقات وهو الوقت.

البر: كما تقدم هو جماع الخير.

بيان المعنى الإجمالي:

سأل بعضهم النبي ﷺ عن حكمة تحول القمر إلى هلال، فأنزل الله أن الحكمة من ذلك، أن يتمكن الناس من ضبط أوقاتهم، ومن ضبط وقت الحج. كان أهل الجاهلية إذا أحرموا بالحج أو العمرة امتنعوا من دخول بيوتهم من أبوابها، اعتقادا منهم أن من كمال فعل الخير بعد الإحرام أن لا يدخل المحرم بيته من الباب. فبين الله زيف هذا الاعتقاد وأنه لا صلة له بالخير. وأن الخير في تقوى الله، ولا حرج في دخول المحرم من الباب. وأمرهم بالتزام التقوى سبيل الفلاح.

بيان المعنى العام:

189-يسألونك عن الأهلة...لعلكم تفلحون.

سجل القرآن سبعة أسئلة توجه بها الصحابة إلى رسول الله ﷺ في سورة البقرة. وردت في الآيات التالية: 189 - 215- 217-219- 220 -222.

السؤال الأول في هذه الآية : سأل بعضهم النبي ﷺ عن الحكمة التي أظهر الله بها منزلة الهلال في مسيرة القمر، فأجابهم ﷺ بهذه الآية أن الحكمة من ذلك هي ضبط الأوقات. ذلك أن الأيام تتوالى لا يختلف يوم عن غيره، فكانت الحكمة أن يضبط ما مضى من الأيام وما هم ملتزمون به في المستقبل بوضع الهلال فتعلم الأشهر، والحساب الشمسي حساب تقديري لا يصلح أن يكون معرفا لجميع البشر، بينما وضع الهلال هو مدرك حسي من جميع الناس. وكما هو ضابط لأوقات الناس هو أيضا ضابط لوقت أداء فريضة الحج التي يجتمع فيها المؤمنون على صعيد عرفة في يوم واحد هو التاسع من ظهور هلال شهر ذي الحجة.

وعقب القرآن هذا البيان بتحقيق الحق في أمر آخر من أمور الحج. ذلك أن العرب قبل البعثة كانوا يعتقدون أن من أفعال الخير التي هم مطالبون بها بعد إحرامهم أن لا يدخلوا بيوتهم من أبوابها بثياب إحرامهم، ومن اضطر لدخول بيته فإن كان مبنيا

صعد إلى السقف ثم نزل أو أحدث ثقبا في السقف منه يدخل ويخرج، وإن كان من سكان الخيام دخل من خلف الخيام. وهي عقيدة باطلة لا صلة لها بالخير. فرفع القرآن هذا الوهم وصرح أنه ليس من فعل الخير في شيء دخول البيوت من ظهورها، وأن البر والخير هو في تقوى الله، التقوى التي هي سبيل الفلاح ، فمن اتقى الله حق تقاته فإنه يرجو أن يكون ناجحا في حياته الدنيا والأخرى.

وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ
﴿١٩٠﴾ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ
مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ
فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمۡ
حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِۖ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَلَا عُدۡوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾
ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ
بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنفِقُواْ فِي
سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِۛ وَأَحۡسِنُوٓاْۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

سبيل الله: الطريق الموصل إلى مرضاته. ومعظم وروده في القرآن الجهاد في نصرة الإسلام.

الاعتداء: مجاوزة الحد.

ثقفتموهم: حيث تمكنتم منهم ظفرتم بهم، أو أدركتموهم.

الفتنة: التسلط بوسائل القهر لإخضاع المتسلط عليه.

الحرمات: حرمة النفس، وحرمة المكان(المسجد الحرام) وحرمة الزمان (الأشهر الحرم).

بيان المعنى الإجمالي:

أمر الله المؤمنين أن يقاتلوا أعداء الدين الذين يقاتلونهم أو يستعدون لقتالهم، وذلك تحت راية نصرة الدين وحرية الاعتقاد، لا تسلطا على الآخرين ولا رغبة في مكاسبهم وخيراتهم. وأن لا يتجاوزوا الحدود بالاعتداء على العدو بأكثر مما يردعه. إن الله لا يساعد المعتدين ولا يقرّبهم منه. ولا تترددوا في قتلهم حيث أدركتموهم إذا كانوا يعدون لقتالكم أو يقاتلونكم فعلا، ولا تتحرجوا من إخراجهم من مكة التي أخرجوكم منها، إن ما صنع معكم المشركون هو أشد فظاعة من قتالهم

وقتلهم، لأنهم عملوا على إرغامكم على الكفر بشتى أنواع التسلط المادي، والتعذيب، وهو (الفتنة) وإرغام الإنسان بالقهر ليترك معتقده، أشد من القتل. وأكدت الآية على حرمة المسجد الحرام. وهذه الحرمة إن انتهكها المشركون فقاتلوكم فيه فلا تترددوا في قتالهم فيه. وهو الجزاء العدل للكافرين الذين اعتدوا على حرمة المسجد الحرام. واعلموا أنهم إن كفوا عن تجاوزاتهم واحترموا حرمته فكفوا عنهم. وإعلام عام للبشرية جميعا أن الله غفور رحيم بعباده حتى من كان على الشرك ثم آمن فإن توبته من كفره يغفر بها له ما تقدم له من كفر ويرجو رحمة الله. وبينت الآية الأمد الذي ينتهي فيه القتال: وهو أن تضمن الحرية في العقيدة ولا يتسلط على أي أحد لإرغامه على تبديل دينه. وأنهم إن انتهوا عن سلوكهم في محاربة الناس في عقائدهم فلا تتسلطوا إلا على من بقي على ظلمه يعمل على تحويل الناس عن الإيمان، إن ذلك من أشد أنواع الظلم. وقد يحدث أن يتسلط المشركون على المؤمنين بالقتال أو الإعداد له في الأشهر الحرم التي حرم الله فيها القتال، غدرا بالمسلمين، فحاربوهم ولا بأس عليكم فإنه هم الذين انتهكوا حرمة الأشهر، فأنتم بقتالكم إياهم تعملون على حصانة تلكم الأشهر. وكونوا في جميع أحوالكم مستحضرين لخشية الله واتقاء غضبه وعذابه، وهذا الاستحضار هو قوة عظمى لكم، لأن الله ناصر ومؤيد للمتقين. وحرضت الآيات في ختامها على الإنفاق في سبيل الله. فكان الأمر واضحا أن يستعدوا الاستعداد الكامل، وأن يبذلوا المال الذي منحهم ربهم، ليكون وضع المسلمين في مستوى يردع أعداءهم عن التفكير في التسلط عليهم، فإن التقصير في الإعداد لا يكون إلا بغفلة عن المآل الذي يترتب عنه ضياع المال والنفوس والعزة، وهو التهلكة.

قاعدة عامة: أمر المؤمنين أن يتجاوزوا أداء الواجب إلى إرادة السمو في كل ما يصدر منهم إلى درجة الإحسان، فإن الله يحب المحسنين، ينصرهم، ويثيبهم، ويكتب لهم العزة في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام:

190 - وقاتلوا في سبيل الله...المعتدين.

يذهب كثير من المفسرين إلى أن هذه الآيات هي التي أذن الله بواسطتها للمؤمنين أن يدافعوا عن أنفسهم وأن يقاتلوا المشركين. وهذا الإذن أحاطه القرآن بجملة من القواعد والأحكام التي تخرج بالمؤمنين عما ألفه العرب في حروبهم.

أولا: أن القتال يجب أن يقوم به المؤمنون لتحقيق غاية سامية لاحظ لأنفسهم فيه، فلا قتال مأذون فيه للاستيلاء على أموال الآخرين ولا على ممتلكاتهم، ولا على ما

تحويه أرضهم من ثروات، ولا لقهرهم واستعبادهم والتحكم في مصائرهم. ولا للتظاهر بالقوة والبطش، والنكاية الماحقة للقيم الإنسانية للتحصيل على مرتبة أعلى في الجيش ونحو ذلك.

ثانيا: أن لا يكون القتال مبادرة، ولكن يقاتلون من قاتلهم فعلا أو أخذوا في الاستعداد للإغارة على بلاد الإسلام وترويعهم.

ثالثا: أن يكونوا في قتالهم منضبطين، فلا يعتدون على الأعداء بقتل من لا يقاتل من الأطفال والشيوخ، أو الإفساد في الأرض بقتل الحيوانات انتقاما من أصحابها، أو حرق المزارع وقلع الأشجار ونحو ذلك من أنواع الفساد في الأرض.

رابعا: أن يكونوا دوما ذاكرين أنهم يفقدون التأييد الإلهي بالاعتداء. إن الله لا يحب المعتدين سواء أكان الاعتداء في الحرب أم في السلم.

191←193- واقتلوهم حيث ثقفتموهم...كذلك جزاء الكافرين.

خامسا: أن لا يفهموا من النهي عن الاعتداء التهاون بتتبع الأعداء ومعاملتهم بالمثل، بل هم مأمورون بتتبع الأعداء أينما كانوا حتى لا ينقلبوا عليهم **(واقتلوهم حيث ثقفتموهم)**. وأن لا يتحرجوا من إخراجهم من مكة، فإن المشركين سبقوا في هذا الأمر، إذ ضيقوا على المسلمين حتى أخرجوهم من ديارهم وأموالهم. بل إن ما صنعه المشركون كان أقسى، إذ هم تسلطوا على المؤمنين ليقهروهم على الكفر ويرتدوا عن الإسلام، بالتعذيب المادي وبالحرب النفسية. فالفتنة أشد من القتل الذي تنتهي به الحياة، إذ الفتنة تعذيب متواصل، وقهر للإرادة، وتحويل البشر من نور الإيمان إلى ظلام الكفر

سادسا: أن الإذن بقتال الكفار لا يبيح تحليل ما حرمه الله وقرره من أن يكون مكانا آمنا لا قتال فيه. وهو المسجد الحرام من تاريخ بناء سيدنا إبراهيم له. **(وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا)**[1] لكن إذا اعتدى الكفار على حرمة المسجد الحرام فقاتلوكم فيه أو قتلوا بعضكم ، فلا تتحرجوا من القتال فيه بل عليكم أن تقتلوهم فيه حتى تضمنوا للمسجد الحرام حرمته.

وكذلك القتال في الأشهر الحرم (ذي القعدة وذي الحجة ومحرم ورجب) فلا تتحرجوا من قتالهم إذا قاتلوكم فيها. فقتال المشركين هو انتهاك للحرمة التي حرمها الله، وقتالكم هو ضمان للحرمة. وهكذا يكون جزاء الكافرين أن لا ينفلتوا من جرائمهم بدون عقاب.

---

[1] البقرة ،آية128

سابعا: أن الأمر بالقتال له حد وليس دفعا للمؤمنين أن يكونوا في حالة حرب مستمرة، بل إنه عندما تتحقق الغاية من القتال يتحتم الكف، والغاية أن تضمن للناس حريتهم الدينية فلا يفتنوا في دينهم بإلجائهم إلى الكفر.

ثامنا: أنه إذا انتهى الكافرون وخضعوا، وانحرف قسم منهم فاستمروا في الاعتداء فقابلوا اعتداءهم بما يردعهم حتى يكون العابد آمنا غير خائف ولا مضطهد.

194-الشهر الحرام...أن الله مع المتقين.

تاسعا: إن الشهر الحرام الذي أحل لكم القتال فيه هو مقابل انتهاك المشركين له، والتعدي على الحرمات في المسجد الحرام أوفي الشهر الحرام لا يحمي المعتدي من استحقاقه القصاص، فحرمة البشر مقدمة على حرمة الأمكنة والأزمنة . فهذا هو العدل الذي قرره الإسلام: أن من اعتدى علينا نجازيه بمثل ما فعل انتصافا لا تشفيا، فلا يتجاوز المؤمنون في أخذ حقوقهم ممن ظلمهم ميزان العدل.

عاشرا: وجهت الآية المؤمنين إلى التمسك بالقوة الخفية المؤيدة، وهي التقوى. هذه التقوى التي ينبغي أن تكون حليفة المؤمن في أرجاعه في السلم والحرب. ذلك أن الله ينصر المتقين ويقيهم بأس أعدائهم.

195- وأنفقوا في سبيل الله... المحسنين.

حادي عشر:. كما قررت الآيات السابقة أحكام الحرب والحدود التي حددها الله بما لا يصحبه وَهَنُ المسلمين ولا ضعفهم ولا تجاوزهم لحدود الله، ختمت بقاعدة كبرى في ضمان قوة الأمة ومناعتها. فأمر تعالى المؤمنين أن لا يبخلوا بالإنفاق في سبيل الله، بما يشمله الإنفاق من آلات الحرب والعتاد، ودراسة فنون الحرب، وحماية الثغور. وتحقيق كل ذلك مما يتطلب إنفاقا لا تقتير فيه. فاحذروا أيها المؤمنون أن يدخل الشح بأموالكم في تقدير العواقب فَتُقَصِّرُوا في الإنفاق، فإن التقصير في ذلك ينتهي بالذل والهلاك. كالذي يمد يديه ليوثق في ذل الأسر.

وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ

وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ
ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ
وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ
جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ
ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ
﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ
﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ
فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾
وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ
﴿٢٠١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ فِيٓ
أَيَّامٖ مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوۡمَيۡنِ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۖ لِمَنِ
ٱتَّقَىٰۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

أتموا: الإتمام الإتيان بالشيء كاملا، أو إكمال ما نقص منه.

أحصرتم: منعتم.

استيسر: ما كان الإتيان به لا مشقة فيه لأنه سهل.

الهدي: الحيوان المتقرب بذبحه لله في الحج.

محله: مكان حلوله وهو مكة أو منى.

النسك: الذبيحة المقصود بها التعبد.

الأمن: ضد الخوف، السلامة مما يخاف منه.

حاضرو المسجد الحرام: المقيمون في مكة وما حولها داخل الحرم.

فرض الحج: نواه وعزم على فعله.

الرفث: الكلام اللغو، والكلام الفاحش، قضاء الشهوة الجنسية.

الجدال: الخصام، والمفاوضة الكلامية على سبيل المنازعة والمغالبة.

التزود: إعداد المسافر ما يقتاته في سفره.

الألباب: جمع لب وهو العقل الرّاشد، ويطلق على الخالص من كل شيء.

ابتغاء الفضل: التجارة، والفضل: المال.

الإفاضة: الخروج بسرعة.

عرفة: عرفة وعرفات: المنبسط من الأرض الذي يجتمع فيه الحجيج يوم التاسع من شهر ذي الحجة. والوقوف به جزء من الليل هو أعظم أركان الحج.

المشعر الحرام: مزدلفة، وهي من الحرم.

الخلاق: النصيب من الخير.

بيان المعنى الإجمالي:

الحج ركن من أركان الإسلام، والعمرة سنة مؤكدة ، وعلى المحرم أن يخلص بعمله لله، وأن يتمه إذا شرع فيه وأن يؤديه كاملا كما بينه القرآن ووضحته السنة. وإذا منع العدو، أو المرض، أو العجز، المحرم من إتمام ما شرع فيه (وهو المراد بالمحصر) فيتحلل بعد أن يذبح هديه أو ينحره. وما يجب على المتحلل المحصر تفصيله في كتب الفقه. الهدي هو ما يذبحه المحرم من الغنم أو من البقر أو من الإبل. ولا يتكلف المحصر إلا ما هو في طوقه بدون حرج. من كان مريضا أو محتاجا إلى حلق رأسه وهو محرم، فالواجب عليه إذا حلق أن يقدم فدية. والفدية: صيام ثلاثة أيام، أو إطعام ستة مساكين أو ذبح نسك من الغنم أو البقر أو الإبل. المتمتع وهو الذي يقوم بعمرة في أشهر الحج، وهو من غير أهل مكة، ثم يتحلل منها ويحرم بحجة عن نفسه في عامه ذلك دون أن يعود إلى بلده. فهذا هو المتمتع، وعليه أن يقدم هديا يذبح بمكة أو بمنى على تفصيل مذكور في كتب الفقه. من كان من غير أهل الحرم وتمتع ولم يجد هديا إما لفقره أو فقدان ما يجزئ فالواجب عليه أن يصوم عشرة أيام: ثلاثة منها في الحج، وسبعة إذا رجع إلى بلده. وحركت الآية ما في قلوب المؤمنين من صلتهم بالله ليكونوا يقظين إلى ما يرضيه حتى يحصنوا أنفسهم من غضبه وعقابه، فإن الله شديد العقاب لمن أمعن في ضلاله وبعد عن طريق الحق. نصت الآية على أن الحج وقته محدد، وهو شوال وذو القعدة وذو الحجة. واختلف الفقهاء في اعتبار ذي الحجة كله من أشهر الحج أو الأيام التسعة الأولى منه أو العشرة أو الثلاثة عشر. وهذه الأشهر هي من الأشهر الحرم، تتأكد حرمتها على من أحرم بالحج، فعليه أن يحفظ لسانه من الكلام الفاحش والباطل واللغو، وعليه أن يحفظ جوارحه ولسانه من الآثام، وعليه أن لا يتعرض في مخالطته للناس إلى الجدال المحرك للنزاع. وَعَدَ الله من التزم بهدايته وفَعَلَ الخير، وذلك كأدائه لمناسك الحج على الوجه الأكمل كما أرشدت إليه الآية، وحفظ

لسانه وجوارحه، أنه يثبت عنده ما قام به من الخير ويثيبه عليه. وذكّر المؤمنين بأن يعدوا زادهم الذي يجدونه في سفرتهم الكبرى- الموت -الزاد الذي ينفعهم في الحياة الباقية، وهذا الزاد هو تقوى الله، هي الزاد الذي لا يفنى، والزاد الذي لا يقوم غيره مقامه عندما ينفصل عنه كل عزيز كان متصلا به. إن من له عقل صائب ذكي، يدرك أن عليه أن يكون دوما على صلة بربه بما يقترن بذلك من الاستقامة والعمل بما يرضيه. وأعلم المؤمنين أن عقد صفقات تجارية لا يتنافى مع أداء مناسك الحج أو العمرة. ووحد بين جميع المؤمنين في الحج بأن الواجب عليهم أن يقفوا بعرفات وأن يتوجهوا منها إلى المشعر الحرام الذي هو المزدلفة، وأن يذكروا الله في هذا المكان. وأمرهم بذكره ذكر الاعتراف بفضل هدايته التي هي أعز وأكرم ما يحصل عليه المؤمن في حياته. فإنكم إن نظرتم في وضعكم قبلها تجدون أنفسكم تائهين ضالين عن الطريق المؤمن لكم في الدنيا والآخرة. كما ذكرهم بأن عليهم بعد قضاء مناسك الحج أن لا يغفلوا عن ذكر الله، هذا الذكر الذي يصدر عن حب كما يذكر أحدكم أباه، فمن فطرة البشر أنهم إذا ذكروا آباءهم ذكروهم بما يعبر عن حبهم وعن التنويه بكمالاتهم، بل المطلوب منهم أن يكون ذكر الله أتم وأكمل من ذكرهم آباءهم. ولما كان ذكر الله ينتهي بالذاكر لسؤال ربه حاجاته، قسمت الآية السائلين إلى قسمين:

- قسم همه في الدنيا فقصر دعاءه على نيل حظوظ الدنيا وغفل عن الآخرة، فلا يكون له بغفلته عنها أي حظ.
- وقسم المؤمنين الصالحين الذين يتوجهون إلى ربهم أن يؤتيهم من فضله في الدنيا الخيرات الطيبة السالمة من النكد ، وفي الآخرة ما وعدهم من الفضل الذي لا يشوبه نقص ولا شعور بالحرمان، وأن يعجل لهم بدار الكرامة فيدخلون الجنة مع السابقين الذين لا يعذبون بالنار.

وختمت آيات الحج بأمرهم أن يذكروا الله ولا يغفلوا عنه في أيام منى، وهي الأيام المعدودات: الثلاثة التالية ليوم العاشر من ذي الحجة. وقررت الآية أن من أقام بمنى يوم الحادي عشر والثاني عشر من ذي الحجة ونفر بعد رمي جمار اليوم الثاني فلا إثم عليه بالتعجل، ومن تأخر فلم يخرج من منى إلا بعد رمي الجمار في اليوم الثالث فلا إثم عليه. واستواؤهما تعبير عن التخيير. وذلك لمن كان دليل اختياره التقوى. وقاعدة عامة يذكر بها القرآن دائما هي، أن على المؤمن أن يكون مستحضرا تقوى الله بصفة دائمة، ومستحضرا أنه سيحشر مع الناس بين يديه.

بيان المعنى العام:

196-وأتموا الحج والعمرة...أو نسك.

الحج عبادة بقيت منه صورة عند العرب من شريعة سيدنا إبراهيم عليه السلام. فاهتمت آيات الحج بإقامة أمور مما انحرفوا فيه عن شريعة إبراهيم. ومن ذلك

أولا: التوجه لله وحده في الحج والعمرة. ذلك أن العرب أقاموا أصناما في الكعبة وعلى الصفا والمروة، فكان التوجيه الأول للمؤمنين أن يجعلوا حجهم وعمرتهم خالصة لله، وعلى هذا كان الذكر الذي يصحب الحاج والمعتمر مع إحرامه: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك.

ثانيا: أن تؤدى مناسكهما تامة كما بينه رسول الله ﷺ الذي قال: خذوا عني مناسككم.

ثالثا: أن على من شرع في عمل من أعمالهما أن يتمه ويبلغ به غايته، ولا ينقطع عنه حتى يتمه. وهذا ما أرشد إليه قوله تعالى: وأتموا الحج والعمرة لله. ويسر على من شرع في أداء الحج أو العمرة ومنعه مانع من عدو أو مرض أو عجز(وهو المحصر) أن يقدم هديا: من الغنم أو البقر أو الإبل. ويبقى على إحرامه حتى يذبح الهدي أو ينحر.

كما يسر الله على المحرم الذي أصابه ما يحتم عليه حلق رأسه أن يحلق رأسه ويفتدي، والفدية إطعام ستة مساكين لكل واحد منهم نصف صاع، أو صيام ثلاثة أيام، أو ذبح هدي.

رابعا: بجانب هذا التيسير شرع للمؤمنين من غير أهل الحرم (حاضروا المسجد الحرام) إذا قصدوا أداء فريضة الحج أن يقوموا بالحج والعمرة في سفرة واحدة، وفي أشهر الحج، وذلك على خلاف ما كان يعتقده المشركون أن العمرة لا تكون في أشهر الحج. والطريقة في ذلك أن يحرم بالعمرة، ثم يتحلل منها ويحرم بالحج بعد ذلك (وهو التمتع) ويقدم المتمتع هديا، فمن لم يستطع لفقر أو لعدم وجود ما يهديه ، فرخص له سبحانه أن يصوم عشرة أيام، ثلاثة في الحج وسبعة عند رجوعه إلى بلده. ونصت الآية على عشرة أيام لئلا يتوهم أنه يصوم سبعة أيام إذا لم يصم الثلاثة.

أحيت الآية ما أُمِرَ به المؤمنون دوما من تقوى الله حتى تصحبهم في جميع أعمال الحج والعمرة، من ناحيتين: أداء المناسك كما شرعها، والحذر من المعاصي، فلا يتكل على ما فتحه الله له من فضل فيتهاون وتتراخى عزيمته، فليكن المؤمن دوما على حذر فإن الله شديد العقاب.

197-الحج أشهر معلومات...الألباب.

خامسا: ضبط للمؤمنين وقت الحج في شهر شوال وذي القعدة وذي الحجة، وهل جميع شهر ذي الحجة أو التسعة الأيام الأولى منه أو العشر أو الاثني عشر؟ خلاف بين المفسرين في التحديد.

سادسا: أن من عزم على الحج فأحرم فليكن منضبطا في سلوكه، فالمحرم عليه أن يكون حذرا من الكلام الفاحش ومن الخروج عما حدده الله بارتكاب المنهيات وأن يتجنب الخصام والجدال المفضي للنزاع. ويعد الله من التزم بآدابه وطبق شرعه بأنه سيجزيه عما قدمه من خير، جزاء وافيا فلا يضيع من عمله شيء، لأن الله عليم بحقيقة ما يعمله كل فرد في حياته. ولذا فإن على المؤمن أن يستعد للحياة الآخرة، فهو في حياته الدنيا على سفر ليتحول من الدار الفانية إلى الدار الباقية، وزاده في سفرته هو التقوى. ولذا تصرح الآية بدعوة رب العزة لمن كان له عقل راجح ذكي أن يلتزم سبيل التقوى.

198-ليس عليكم جناح أن تبتغوا...من قبله لمن الضالين.

سابعا: أبطل القرآن ما كان يتحرج منه المشركون من التجارة في أيام الحج. فرخص لقُصاد بيته أن يقوموا بصفقات يجنون منها أرباحا **(أن تبتغوا فضلا من ربكم)**

ثامنا: كان بعض المشركين يقفون بعرفة، وكان الحُمْس وهم (قريش ومن دخل معهم من كنانة وخزاعة) يقفون بالمشعر الحرام تأويلا منهم بأنهم لما كانوا أهل الحرم فهم لا يتجاوزونه في مناسكهم. فسوت هذه الآية بين جميع الحجاج بأن يقفوا بعرفات ويدفعوا منها إلى المشعر الحرام، وهو المزدلفة. وفي المشعر الحرام يُوَالُونَ ذكر الله، بتمجيده وتكبيره وتحميده . ومنته على خلقه توجب عليهم أن يذكروه بما مَنَّ عليهم من الاهتداء إلى ما ينفعهم في دنياهم ومعادهم، وقد كانوا قبل أن تبلغهم هداية ربهم يشاركون بقية الأقوام في سلوك مسالك الضلال والضياع.

199-ثم أفيضوا...إن الله غفور رحيم.

تاسعا: كان المشركون بمجرد ما يدفعون من المشعر الحرام إلى منى يتحللون من الانضباط، وإذا هو التفاخر والتشبيب بالنساء ومجالس اللهو، فأرشد الله المؤمنين أن يوالوا ذكره ذكرا صادرا عن حب خالص وإكبار كما يذكر المرء آباءه. إنه من فطرة البشر أن يذكروا آباءهم ذكرا منبعثا عن حب، معبرا عن تقدير بالغ،

يرتاحون لهذا الذكر وينشطون له، بل طلب منهم أن يكون ذكرهم لله أكمل وأتم من ذكرهم آباءهم، فالله أعز من أنفسهم وآبائهم.

200- فإذا قضيتم مناسككم...وما له في الآخرة من خلاق.

عاشرا: كان المشركون إذا توجهوا بالدعاء بعد أدائهم لمناسك الحج يسألون حظوظا من الدنيا، ومتاعا من الحياة العاجلة، فكان قَصْرُ همهم على ذلك موجبا لحرمانهم من الكرامة يوم القيامة فلا نصيب لهم منها.

201-ومنهم من يقول...عذاب النار.

ونوه بالمؤمنين الذين، بعامل ما رسخه هذا الدين في عقولهم وقلوبهم، من التزاوج بين الدنيا والآخرة ، يسألون ربهم من خيرات الدنيا وثواب الآخرة، ويدعونه أن يكونوا مع السابقين للجنة، بمغفرة وفضل دون أن تمسهم النار، فأخبر القرآن أنهم مميزون بأن نصيبهم مما اكتسبوه من صلاح وتقوى يجزيهم به ربهم ولا يطيل حسابهم، ذلك أن من نوقش الحساب عُذب.

202-203: أولئك لهم نصيب...تحشرون.

حادي عشر: في هذا الجو من التأكيد على دوام الذكر يزيد القرآن تفصيلا لما أجمله في قوله: كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا، وذلك ببيان زمن الذكر في الأيام المعدودات التي هي أيام منى يوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة. ثم رخص للحجاج أن يقتصروا على اليوم الحادي عشر والثاني عشر يرمون في كل يوم الجمار ثم ينتهي باليوم الثاني عشر كل أعمال الحج. كما يمكن لمن أراد الإقامة بمنى يوم الثالث عشر أن يواصل.

ونصت الآية أولا: على أن من تعجل فقد عمل بالرّخصة فلا إثم عليه بالتعجل، نفيا لما يتوهم أن التعجل، وإن كان لا يبطل الحج، فإن فيه نقصا عن التمام قد يأثم به المتعجل.

ونصت ثانيا: أن من أقام بمنى اليوم الثالث عشر ولم يتعجل لا إثم عليه أيضا إذا كانت إقامته بمنى، وهو ملتزم فيها تقوى الله وآداب أيام منى. ونفي الإثم لدفع ما يتوهم أن من لم يأخذ بالرّخصة، معرض عن التيسير الذي تكرم الله به على الحجاج. فأفادت الآية بهذا التنصيص على الصورتين أن الحاج مخير بين التعجل وعدمه، وأنه لا مزية لأحدهما على الآخر.

ثاني عشر: تتوج آيات الحج بأمر ما كان له دخل في تصور المشركين، وذلك بالوصية الجامعة التي على الحاج أن يكون حريصا على مراعاتها بعد أن طهر

نفسه بأداء الرّكن الخامس من أركان الإسلام. **تقوى الله. التقوى التي يكون بها المتقي مستحضرا أن الحياة الدنيا قصيرة وأن الناس جميعا سيحشرون بين يدي رب العالمين، لا يتخلّف منهم أحد في الحشد الجامع الذي يعطيهم صورة منه ما كانوا عليه عند أداء المناسك.**

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾

بيان معنى الألفاظ:

من الناس: بعض الناس.

يعجبك: يحسن عندك.

يشهد الله: يقول: الله يعلم أن ما أقوله حق.

ألد: شديد الخصام.

الحرث: شق الأرض للزراعة وسمي الزرع حرثا وكذلك ما يغرس من الشجر.

النسل: ما خرج متتابعا كنتاج الحيوانات.

الفساد: إتلاف ما هو نافع نفعا محضا أو راجحا.

أخذته العزة: استولت عليه العزة بسبب تكبره.

فحسبه: يكفيه جزاء.

المهاد: ما يهيأ من الفراش.

يشري: يبيع نفسه.

السلم: يطلق على الإيمان وعلى السلام.

كافة: جميعا.

زللتم: أصل الزلل انزلاق الرّجل، والمراد في الآية عدم الثبات فانزلقتم واتبعتم الشيطان.

بيان المعنى الإجمالي:

لا تغتر أيها المؤمن بكل ما تسمعه. ذلك أن بعض النـــاس يـبطن الشـر والخبـث، ومـع ذلك يعطيك من طـرف لســانه حــلاوة، ويعمــل علـى تغريـرك بقولــه: الله يشــهد أن باطني لا يختلف عن ظـاهري. وهـو فـي الحقيقـة يَقْلِـبُ الحقـائق شـديدُ الخصـومة. ويفتضح أمره إذا ابتعد عنك أو تمكن من السلطة، فإنـه فـي الحالـة الأولـى يظهـر مـا انطوى عليه من فساد وإفسـاد، وفـي الحالـة الثانيـة يفسـد بظلمـه فـي الأرض بمـا يصحب الظلم من الخوف فينكمش النـاس عـن الإنتـاج، ويتراجـع العمـران، وتقصـر الأرض تبعا لذلك عن إبراز خيراتها، ولا يتشـجع العمـال فيـنحط الاقتصـاد، ويـذهب الأمل فيعيش الناس ليـومهم بـلا مخططـات يتتـابع إنجازهـا فـي المسـتقبل. والله لا يحب من يتسبب في الإفساد. وهذا الصـنف مـن النـاس مطبـوع علـى الكبـر، فـإذا توجه له من ينصحه ويذكره بـأن عليـه أن يخشـى حسـاب الله فيتقـي غضـبه، شـمخ بأنفه وتكبر. ويكفيه جزاء أن الله سيهينه بإدخالـه جهـنم التـي تكـون لـه فراشـا، ومـا أسوأه من فراش. ومن الناس من باع نفسـه لله ابتغـاء مرضـاته وطمعـا فـي الفـوز برضوانه، وليأمل من سلك هذا المنهج كـل خيـر، فـإن الله رؤوف بعبـاده المـؤمنين. وبناء على ذلك يصدر النـداء لجميـع البشـر أن يـدخلوا جميعـا فـي الإسـلام عقيـدة وتطبيقـا لشـرائعه، وأن يتجنبـوا المسـالك التـي يـدعو إليهـا الشـيطان. فتـذكروا أن الشيطان هو عدوكم، عداوته واضحة بينة. ولـيعلم مـن تبـع نـداء الشـيطان وانحـدر إلى الرّذيلة وارتكب إثما، بعد ما تبين له طريق الهدى، لِـيَعْلم أنـه لـم يضـر إلا نفسـه، فإن الله في عزته وحكمته لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية.

بيان المعنى العام:

204: ومن الناس من يعجبك قوله ...وهو ألد الخصام.

في آيات الحج ذكر القرآن أن بعض الناس قصـروا همهـم علـى الحيـاة الـدنيا: (**آتنـا في الدنيا وما لهم في الآخـرة مـن خـلاق**) وهـم الكـافرون. وبعـض النـاس، وهـم المؤمنون يتوجهون إلى ربهم أن لا يحرمهم من فضـله فـي الـدارين (**آتنـا فـي الـدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة...**). وذكر في هذه الآية نمطـا آخـر مـن النـاس وهـو الـذي يظهر الإيمان، ويتكلم في الإسلام وعن المسلمين مـا يسـر المسـتمع لـه، وهـو يـبطن خلاف ما يقول. فصلت الآية ملامح هذا النمط مـن النـاس حتـى يحـذره المسـلمون ولا تروج عليهم حيله ومحاولاته الاندساس في الجماعة الإسلامية.

أول ملامحه: أنه يغر المستمع له بالتنويه بالإسلام، وإبراز مزاياه، وخصت الآية الاستحسان لأقواله في الدنيا، لأنه سيفضح يوم القيامة ويظهر نفاقه ويلقى جزاءه مهانة في جهنم.

ثاني ملامحه: أنه يشهد الله على أن نفسه عمرت بحب الله ورسوله والمؤمنين.

ثالثها: أنه إن عرضت خصومة تجده شديدا جدا في الخصام يقلب الحجج ويعتمد الجوانب البعيدة ليدعم بها باطله.

رابعها: أنه إذا انصرف عنك وابتعد، ومكنته الفرصة، تجده متحركا حريصا على إفساد الأرض، لا يشفي مرضه النفسي وما امتلأ به من حقد وبغض للناس إلا الإفساد بإهلاك ما به قوام حياة الناس كالزروع والثمار والأشجار والحيوان والدور. ومن ذلك في عصرنا أسلحة الدمار الشامل كالأسلحة الذرية والجرثومية والحارقة والصواريخ الماحقة لكل ما يقوم أمامها.

<u>قاعدة:</u> **(إن الله لا يحب الفساد)** فالمفسد خسر رضا الله عنه، ومن سخط عنه لا يفلت من عقوبته.

205-206 : وإذا تولى...ولبئس المهاد.

خامسها: أنه متكبر لا يخضع للحق، فإذا وعظه واعظ، استولى عليه تكبره واعتزازه بما صدر عنه من إثم ورذيلة وظلم واستبداد، وأصم أذنيه عن الحق.

والظالم المتعالي المفسد المعتز بما يصحبه من إثم، يدفعه لذلك كبره وظنه أنه قوي مقتدر، لا يفلت من منزلة الهوان يوم القيامة في جهنم. وجهنم هي أسوأ فراش يهيأ يجمع بين العذاب الذي يتجاوز الوصف والإذلال الذي لا حد له. وقد تجتمع هذه الصفات وقد يظهر بعضها، والعاقبة واحدة.

207- ومن الناس من يشري...والله رؤوف بالعباد.

شأن القرآن أنه يذكر الشيء وقسيمه ليستوفي كل شأن من شؤون الحياة. إنه بجانب النمط الأول المفسد يتألق نمط آخر: وهو الذي يبيع نفسه، النفس التي هي أغلى ما يملكه الإنسان، يبيعها ويُسلِمها لنصرة دين الله وابتغاء رضوانه، هذا الرّضا الذي لا يناله الإنسان إلا إذا كان سُلّم القيم عنده مرتبا على أن طاعة الله وتحقيق ما ينصر دينه وينفع عباده أولى أوليائه. يبشر الله هذا النمط بأنه رؤوف بهم فييسر عليهم أمرهم ويرحمهم ويعينهم، ولا يكلهم إلى نفوسهم فهم في رعاية الله ورحمته.

208- يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم...إنه لكم عدو مبين.

نداء من الله للمؤمنين كي يستيقظوا للامتثال لما سيأمرهم به، ويبتعدوا عما سينهاهم عنه: أمرهم أن يلتزموا الثبات على العقيدة الإسلامية وطاعة أوامر الله، إذا فسر السلم بالإسلام، وأن يلتزموا السلام بينهم بما تقتضيه أخوة الإيمان ورابطة الدين الحق التي استلت من النفوس ما ترسب فيها من آثار العداوات التي كانت مستحكمة بين القبائل العربية وحولتها إلى تناصر ووحدة. وهذا الأمر يشمل كل مسلم وهو معنى (كافة). ونهاهم عن اتباع ما يدعو إليه الشيطان، وما يرسمه من طرق الضلال والفساد. وحذرهم من تلبيسه ليكونوا يقظين دائما إلى أنه عدو واضح العداوة، لا يغريهم إلا بما يعقبه خسرانهم.

209- فإن زللتم...حكيم.

وأكد التحذير بأن من تراخت يقظته فانزلق متبعا للشيطان، فليكن حاضرا في علمكم دائما: أن الله عزيز لا يغلب ولا تعترض إرادته ولا تحد قدرته، حكيم محكم للأمور، بما يترتب على هذين الوصفين، أن من اتبع خطوات الشيطان بعد التحذير، وبعد أن بلغت بينات الحق ،فإنه معرض للعقوبة التي لا ظلم فيها .

هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٢١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

ينظرون: ينتظرون.

الظلل: جمع ظلة: ما يستر ويحجب ما فوقه.

الغمام: أرق السحاب وأصفاه.

القضاء: الفراغ من الأمر وإتمامه.

بيان المعنى الإجمالي:

بعد أن جاءت الأدلة البينة على صدق الرسول ﷺ ، فالتلكؤ عن الدخول في الدين لا عذر فيه، إلا أن ينتظروا بإيمانهم أن يشهدوا الله في ظلل من السحب يخاطبهم مباشرة مع الملائكة تعالى الله عن ذلك. وقد قضي الأمر وتقرر الحكم، وسوف يعود الجميع إلى ربهم، وينفرد سبحانه بالسلطان ظاهره وباطنه ولا يملك أحد منهم شيئا (**والأمر يومئذ لله**).

بيان المعنى العام:

210- هل ينظرون إلا أن تأتيهم...وإلى الله ترجع الأمور.

ذكرت الآية السابقة أن الأدلة البينة الواضحة قد عرضت على الناس **(من بعد ما جاءتكم البينات)**، ولا عذر لمن يتلكأ ويسوف ولا يبادر بالاستجابة. إن شواهد صدق الرّسول ﷺ قد قضت على كل ما يوجب التردد ونفت الحيرة، فما الذي ينتظرونه ليدخلوا في دين الله؟ هل ينتظرون أن ينكشف عنهم الحجاب فينظروا بأبصارهم الذات العلية وقد جاءتهم في كتل من الغمام ؟ هذا أمر قد سجله الله على الكافرين المعاندين المستكبرين في سورة الفرقان: **وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا**[1]. وإذ وصلوا إلى هذا الحد من العناد وغلظ الرّوح وفساد التفكير، فقد قضي الأمر وصدر القرار العام الشامل الذي لا مثنوية فيه. فكل الخلائق يصير أمرها إلى الله وقد قضى الله على كل نفس جزاءها جزاء وفاقا.

سَلْ بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

سل: أمر من سأل.

كم: اسم للعدد المبهم يستفهم بها.

الآية البينة: المعجزة والدليل الواضح.

يبدل: يجعل شيئا عوضا عن آخر.

نعمة الله: الآيات البينة الهادية للحق المزيلة للشك.

بيان المعنى الإجمالي:

أمر الرّسول أن يتوجه بالسؤال لليهود الذين كانوا حاضرين في المدينة عند نزول الآية: كم يسر الله لهم من الآيات البينة. التي هي نِعَم توجب الطمأنينة والثبات، ولكن بني إسرائيل بدلوا تلك النعم بعدم تقديرها حق قدرها واستمروا على مواصلة الطلبات وعدم الرّضا بها. واستحق بنو إسرائيل، كما يستحق كل من لم يعرف حق نعم الله عليه، العقوبة من الله الذي لا يفلت من أراد عقوبته من تسليط ما يستحقه عليه. إن مباهج الحياة الدنيا وما كساه الله بها من جمال وحسن، هو المدخل الذي ينفذ منه الشيطان إلى قلوب الكافرين، حتى يصل بهم الأمر إلى اعتبار تلك

[1] سورة الفرقان آية21

المباهج هي الحياة ولا قيمة وراءها ومن كان حظه منها ضعيفا ينظرون إليه بازدراء على أنه نازل في المقام الاجتماعي. وعلى هذا كانوا يسخرون من فقراء المؤمنين. وعمر الدنيا قصير فهؤلاء الصالحون من المؤمنين سيرفع الله مقامهم يوم القيامة، ويذل الكافرين. وعطاء الله للصالحين عطاء واسع لا تحده حدود.

بيان المعنى العام:

211- سل بني إسرائيل...فإن الله شديد العقاب.

أمر النبي ﷺ أن يسأل اليهود عما مكنهم الله منه من الآيات البينات، وما أظهره لهم موسى عليه السلام من المعجزات النافية لكل ريب في صدقه، وقد قص القرآن في غير ما آية أن اليهود كلما آتاهم الله آية قابلوها باقتراح الممكن والمستحيل، طلبوا بعد ما يسر الله لهم في أرض التيه، المن والسلوى، طلبوا الثوم والبصل والبقول. وطلبوا مرة أخرى أن يروا الله جهرة. وطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها كعبدة الأصنام **(قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة)** والآيات يؤتيها الله عباده لينفي عن قلوبهم الحيرة، ويبعد من قلوبهم الشك ، وهي بذلك من أكبر النعم، فقابلوها بما يدل على عنادهم وقسوة قلوبهم، وبدلوا ما ينبغي أن يصدر عنهم، بعد إيتائهم إياها، من الطاعة وسلوك طريق الهداية الواضح، بدلوا ذلك بتلكم المطالب المتلاحقة، سليسلة بنت سليسلة. ويصدر الحكم العدل كقاعدة في معاملة العصاة من هذا النوع بأن الله شديد العقاب لا يفلت الجاني منه. وترتبط الآية بقوله تعالى في الآية السابقة، **(فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم)** بالتذكير بما سلط على بني إسرائيل بعد إعراضهم عن الانتفاع من الآيات البينات.

212-زين للذين كفروا...يرزق من يشاء بغير حساب.

لقد زين الله الحياة الدنيا زينة رتب عليها اختبار البشر، فأما الذين كفروا فقد أغرتهم الحياة الدنيا بما أودع فيها من حسن وجمال يستهوي النفس فيستولي عليها ولا يترك فيها مدخلا لدفق نور الإيمان وجمال العبادة، والشيطان يَرْكَبُ ما في الحياة من زينة ليحصر نظر من يتبعه في ذلك الوجه الحسن من القوة ومختلف أنواع الشهوات والاستكبار بغير حق. إلى أن يصل إلى احتقار النواحي الرّوحية والسلوكية، فتتبدل القيم، ويعتبر التسامح ضعفا والفقر خسيسة، والصدق بلاهة، والعفة فقد حساسية بالجمال. فيلف الظلام على قلوبهم وأرواحهم ويرفضون ما آتاهم الله من الآيات، بل يتجاوزون بصلفهم ذاك إلى احتقار ضعفاء المؤمنين والسخرية منهم. إن المتاع الذي استولى عليهم ونفخ الشيطان به في مشاعرهم فهبطت، هو متاع زائل. يدرك المتأمل أن جميع متع الحياة الدنيا لا تتجاوز لحظة

ظهورها وتفنى عندها. أما ما أعده الله لعباده المتقين في الآخرة فطبيعته تختلف عن طبيعة متاع الحياة الدنيا، إذ تتزاوج فيه المتعة الرّوحية والعقلية والجسدية بصفة تسمو عن كل تصور. ومن الكرامة لهم والنكال بالكافرين، شعورهم بمنزلة المتقين التي تعلوهم **(فوقهم)** وشتان بين عاقبة الكافرين الذين يلقون جزاءهم من المهانة والحرمان والهوان، وبين عاقبة المتقين الذين يعلي الله سبحانه أقدارهم، فيرفعهم إلى منازل الكرامة والرّضوان والقرب. وتعبر الآية عن ذلك تعبيرا يذهب فيه التصور ما شاء بقوله:**(من غير حساب)** إذ ما يحسب هو المحدود أما ما تجاوز الحد والعد فخاصته أنه لا يحسب. وترتبط الآية بقوله تعالى **(والله رؤوف بالعباد)** ومنزلة المتقين من رأفته وبقوله تعالى **(وقضي الأمر وإلى الله ترجع الأمور)** فهذه هي صورة من صور رجوع الأمر إليه.

كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

الأمة: اسم للجماعة التي يجمعها موطن أودين أو لغة.

واحدة: أمرها واحد في الدين.

بعث: أرسل لتبليغ شريعته.

النبي: من أوحى الله إليه فإن أمر بتبليغ الوحي والقيام على تنفيذه فهو الرّسول.

مبشرين: من البشارة وهي الإعلام بخبر (الوعد).

منذرين: من النذارة، وهي التحذير من شر (الوعيد).

بغيا بينهم: ظلما وحسدا.

بإذنه: بتيسيره.

بيان المعنى الإجمالي:

مضت البشرية زمنا، يعلمه الله، مؤمنة بالله على الفطرة السليمة، ثم برز الخلاف بينهم في العقيدة واختلط الحق بالباطل، واستمر ت الأوضاع على هذا النحو، بين الإيمان والضلال، ومن رحمة الله بعباده أنه كلما اختلط الأمر وعميت الحقيقة يبعث رسولا. طريقة المرسلين أنهم يبينون الحق ويزيلون الشبه وما داخل العقول

والعوائد من ضلالات، يَعِدُون الطائعين بالنجاة والفوز ويحذرون العصاة المنحرفين وينذرونهم إن لم يرتدعوا بعذاب الله. وأنزل على كل رسول كتابا يكون المرجع لتبين الحكم الذي يرضاه الله. ثم إن الناس، بعد ما يجمعهم الرّسول والكتاب الذي أوحي إليه وبلغه، يعودون بعد ذلك إلى الاختلاف في فهم الكتاب وفيما تضمنه من الحق الجامع للكلمة، وما كان هذا الاختلاف إلا بعامل الحسد وتجاوز الحق إلى الهوى. واستمر هذا الخلاف المشين إلى أن ظهر في الكون المؤمنون بمحمد ﷺ الذين ميزهم بهدايتهم لوجه الحق الذي لا يلتبس كما التبس على الأمم السابقة فاختلفوا. وذلك فضل الله خص به أمة محمد، يؤتي سبحانه فضله من يشاء.

بيان المعنى العام:

213-كان الناس أمة واحدة...صراط مستقيم.

(ومن الناس من يعجبك ...)[1] والآية **(يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم)**[2] والآية **(سل بني إسرائيل...)**[3] تلكم الآيات كشف فيها القرآن مواقف بعض الناس في العقيدة والسلوك. وكشف في هذه الآية عن حالة البشرية عامة من بداية الخلق إلى البعثة المحمدية. فمضمون الآية من الغيب. ذكر القرآن أن الناس كانت تجمعهم عقيدة واحدة، تبعا لقلة عددهم، وسلامة فطرتهم، وقربهم من التربية الصالحة التي قام عليها آدم وزوجه، ثم اختلفوا بما يركبه الوهم من صور في العقيدة والعبادة وما يزينه الشيطان من ضلالات، وهذه الصور الوهمية والشيطانية من طبيعتها أن لا يتفق البشر على قبولها، وأن يختلفوا بسببها اختلافا يذهب بوحدتهم ويبعدهم عن ربهم. ويتكرر هذا الأمر في مسيرة الخليقة، وتدارك الله البشر بإرسال الأنبياء، فكلما فسد أمر البشر في حقبة من الأحقاب، وانطمس الحق وشاعت الضلالات يبعث رسولا يدعو إلى الحق ويبين المنهج الصحيح في العقيدة والعبادة ويَعِدُ من اتبعه ويبشره بسلامة الحاضر والمآل، ويحذر المخالف الرّافض للدعوة وينذره بسوء المصير. وإن أمر البشر لعجب، يأتي الرّسول ويبين ويترك في القوم الذين بُعِث فيهم كتابا من عند الله، مسجل فيه الحق والمنهج الرّاشد فيفرطون في الاحتفاظ بنص ما تلقوه من الوحي، ويضيفون إليه من أهوائهم ما يطمس نوره ويوهن تأثيره، وذلك من أشد الظلم إذ اعتدوا على كلمة الله فقوي الاختلاف بينهم،

---

[1] سورة البقرة ،آية 203

[2] سورة البقرة ،آية 208

[3] سورة البقرة ،آية 211

واشتد التعصب بين طوائفهم، وكلما أوغلوا في طريقهم ذاك تأكدت الفرقة وازدادوا بعدا عن الحق. وبعث الله محمدا ﷺ ليعود بجميع أهل الديانات السائدة عند البعثة، يعود بهم إلى الطريق الصحيح والصراط المستقيم. فقد اختلف اليهود في التقديس والتقرب من بعض الصالحين منهم، ونسبوا لأنبيائهم مناكر تحط من مقامهم واختلفوا في مصيرهم يوم القيامة، وكذلك النصارى اختلفوا في ماهية المسيح عليه السلام وفي ميلاده وفي ضبط ما شرعه لهم بإذن من ربه. فهدى الله المسلمين بفضل ما بينه محمد ﷺ إلى الحق الذي غاب عنهم. فكانوا الآخرين زمنا، المقدمين في إدراك الحق بتيسير من الله ﷻ. وهذه المزية هي فضل من الله ﷻ، والله يخص من يشاء بالهداية إلى الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه، الواضح المهيمن على جميع الشرائع السابقة.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (214)

بيان معنى الألفاظ:

مثل الذين خلوا من قبلكم: شبيه ما حصل للأمم السالفة قبلكم.

البأساء: الفقر وما يصيب الإنسان في ماله.

الضراء: شدة الحال على الإنسان ويقابلها السراء.

زلزلوا: الزلزلة حركة عنيفة.

بيان المعنى الإجمالي :

أتظنون أن تفوزوا بدخول الجنة دون أن تتعرضوا لما يختبر به صدق إيمانكم في ظروف وأحوال فيها شدة، على سنة الله في الأمم التي سبقتكم. فقد ابتلوا في أموالهم وأبدانهم وعانوا من الضيق ما عانوا، حتى يجأروا إلى ربهم يسألونه أن يعجل بنصرهم عند اشتداد الأمر وضيق الصدر والخوف من الفناء العام. ويبشر الله المؤمنين بأن الله سينصرهم وأن ساعة الفرج، والخروج من الضيق وتبين الفوز، قريبة وليست بعيدة.

بيان المعنى العام:

214- أم حسبتم...ألا إن نصر الله قريب.

كانت منة الله على أمة محمد في ختام الآية السابقة منة عظمى خصهم بها **(فهدى الله الذين آمنوا إلى ما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدي من يشاء إلى**

صراط مستقيم) وينبه القرآن المسلمين إلى أن الكرامة التي خصوا بها تدعوهم إلى اليقظة والصبر ومغالبة الصعاب، وتحدي مؤامرات وإذايسات الكافرين، ينبههم إلى أن ذلك هو سنة الله في الذين مضوا من الأمم، فقد ابتلوا في أجسامهم وفي أموالهم، ووقعوا في الشدائد، ففقدوا الطمأنينة فكانوا في رجة تتبعها رجة، حتى يقول رسولهم والمؤمنون معه عند قوة الكرب وإطباق الشدائد إطباقا بحيث لا يظهر في ظلام النفق بصيص من نور ينبئ عن المخرج من الوضع، يقولون: متى يأتي نصر الله؟ بعد أن عرض على أتباع الرّسول سيدنا محمد ﷺ هذه الصورة للمجاهدة الشديدة، يخرجهم من غزو اليأس ويعجل القرآن ببشارتهم: إن نصر الله قريب منهم. فمهما اشتد بأس الكافرين، ورغم ما دبروه ونفذوه من استيلاء على الأموال وتعذيب وإخراج من الديار ومفارقة للأهل والموطن، فإنه بصبرهم واعتمادهم على ربهم وثقتهم في الحق الذي هم عليه، يأتي قريبا نصر الله. وما النصر إلا من عنده.

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

الخير: المال.

ابن السبيل: المسافر الغريب.

بيان المعنى الإجمالي:

هذا هو السؤال الثاني في سورة البقرة: سأل بعض المسلمين النبي ﷺ عن الذين هم أولى بالإنفاق عليهم الإنفاق الذي حض عليه. كان الجواب أن أحق الناس بذلك الوالدان والأقارب واليتامى والفقراء المحتاجون، والمسافر الغريب. وختم الآية بأن الله لا يخفى عليه ما تفعلونه من خير، فهو يجازيكم عن صالح ما قدمتموه.

بيان المعنى العام:

215-يسألونك ما ذا ينفقون...به عليم.

عُرف العرب بكرمهم، وبفخرهم بتبذير المال، ودعاهم الرّسول ﷺ أن ينفقوا من أموالهم ما يقوي لحمة التآخي بين الجماعة الإسلامية، وأن إنفاقهم سيلقون جزاءه عند الله متى التزموا بمنهج الإسلام في الإنفاق، ولذا طلبوا منه ﷺ أن يبين لهم أوجه الإنفاق التي تقربهم من رضوان ربهم. فسجل القرآن السؤال، وسجل الإجابة التي جاء بها الوحي، فافتتحه بقل، حتى يكون أبلغ في الدعوة إلى الإسراع بتنفيذه.

عدت الآية خمسة أنواع من المقدمين عند الإنفاق، إذا تأملت فيهم تقتنع بأن ملحظ مراعاة تقوية آصرة الترابط الاجتماعي واضحة. وهم على ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول:** الأسرة: الوالدان والأقارب.
- **القسم الثاني:** ذوو الحاجة في المجتمع، المساكين الذين لا يجدون ما يكفيهم من مقومات الحياة الكريمة.
- **القسم الثالث:** رابطة الإيمان بين المقيم في بلده والغريب الوارد، الذي قد يكون بسبب بعده عن بلده في ضيق، فهو جدير بأن يعان، وإن كان غنيا في بلده. ثم أرجعت المؤمنين إلى ما استقر في نفوسهم من التربية العالية التي رباهم عليها النبي ﷺ ، فذكرهم بأن الله يعلم ولا يفوته أي عمل خير يقوم به المؤمن، وفي ذلك إشارة إلى أنه يتولى جزاءه، وأن عمل الخير أوسع مما عد في الآية.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

بيان معنى الألفاظ:

القتال: الجهاد بالحرب.

كره لكم: تكرهونه.

الشهر الحرام: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب.

قتال فيه كبير: إثمه كبير.

أهله: المستوطنون بمكة.

الفتنة: التسلط بالظلم لإكراه المظلوم على التخلي عما يؤمن به.

يردوكم عن دينكم: يرجعونكم إلى الكفر بعد الإسلام.

حبطت أعمالهم: ذهبت آثارها.

بيان المعنى الإجمالي :

خاطب الله المؤمنين بأن الله أوجب عليهم القتال وخوض الحرب دفاعا عن الدين، والله يعلم أن النفوس تكره الحرب لما فيها من تعرض للمخاطر وانشغال عن الأهل وعن الأعمال التي كان يقوم بها المحارب ، ولكن التشريع الذي يحصن الأمة ويحميها لا يتبع رغبات الناس وميولهم فصرحت الآية بأن ما فرضه الله على المؤمنين فيه الخير لهم. والغيب محجوب عنهم، فقد يكون ما يحبون حصوله فيه ضرهم، وقد يكون ما يكرهونه الآن فيه الخير في المستقبل لهم. فالله متفرد بعلم الغيب، والبشر لا يعلمون من الغيب شيئا. سئل الرّسول ﷺ عن حكم القتال في الشهر الحرام، فأوحى الله لنبيه ما يجيب به وأمره أن يقول لهم: إن إثم القتال فيه إثم كبير، ولكن منع من شرح الله صدره للإسلام من الإيمان، وإجباره على الكفر بالله، والحيلولة بين المعظمين للمسجد الحرام وبينه، وإخراج المهاجرين: أهل مكة من ديارهم، هذه المظالم والتعديات التي قام بها كفار مكة، أعظم إثما وأشد نكارة من القتال في الشهر الحرام. وأيضا فإن التسلط بالقهر والظلم والنكاية بالمؤمنين ليرتدوا عن الإسلام أكبر إثما وأقبح من القتل في الشهر الحرام. ونبه الله المؤمنين بأن الكافرين يستعدون لمحاربة المسلمين وجبرهم على التخلي عن إسلامهم وإن كان ذلك مستبعدا، فليحذروهم، وليعلموا أن من يرتد عن الإسلام سيحرم من جزاء ما قام به من صالح الأعمال قبل ارتداده، فيذهب كل ما قدمه سدى، ويفقد في ضربة واحدة جميع المزايا الخاصة بجماعة المسلمين في الحياة الدنيا كالتناصر، ورعاية بيت المال، والدفن في مقابر المسلمين، والتوارث إلى آخره. وكذلك يلقى نفس المصير في الآخرة فيحبط ثواب جميع ما قام به من صالح الأعمال. وينوه القرآن عقب ذلك بالمؤمنين المهاجرين المجاهدين في سبيل نصرة الإسلام، بأن الله ينزل في قلوبهم الطمأنينة، فهم في جميع ظروف العسر واليسر على رجاء في رحمة الله. ويتأكد رجاؤهم بإيمانهم أن الله عظيم المغفرة واسع الرّحمة.

بيان المعنى العام:

216-كتب عليكم القتال...والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

يحرك الله المؤمنين ليستيقظوا، وليشدوا عزائمهم على الامتثال لما يأمرهم به باعتبار أنه من مقتضيات الإيمان. أخبرهم بأن الله أوجب عليهم الجهاد (القتال) والله يعلم أن خوض غمار الحروب شديد على الإنسان لا يحبه، لما يمكن أن يتعرض له المقاتل من مخاطر بالموت أو الجراح، ولانشغاله به عن نشاطه الاقتصادي،

وبعده عن أهله وتركه لهم، والإنسان بطبيعته يكره ذلك. ويدعو القرآن المؤمنين إلى تجاوز النظرة العجلى، القاصرة على الحاضر القريب، بحكم أن البشر محجوبون عن معرفة الغيب، ذلك أن ما سيحدث في المستقبل ليس كما يتوقعه البشر في حاضرهم، فكم رغبوا في أمر فكانت عاقبته هلاكا وخسرانا، وكم كرهوا أمرا جعل الله فيه خيرا كثيرا يظهره في إبانه. يحقق هذا أن الله هو المتفرد بعلم الغيب وأن الناس لا يعلمون من الغيب شيئا. في الآيات 194/190 السابقة في هذه السورة تبين بعض أحكام القتال زمانا ومكانا. وهذه الآية وقد نَفَذَتْ إلى الغيب البعيد وحركت المؤمنين بأنه فرض عليهم ممن يعلم عواقب الأمور فلا تردد في القيام به.

217-يسألونك عن الشهر الحرام... خالدون.

وفي هذه الآية سجل القرآن السؤال الثالث في سورة البقرة. سئل رسول الله ﷺ عن حكم القتال في الشهر الحرام، وقد ذكر أنها نزلت في سرية سيدنا عبد الله بن جحش الذي تعرض لقافلة فقتل منها شخصا وأسر اثنين آخرين في آخر يوم من شهر جمادى الثانية، فكان ذلك اليوم هو أول يوم من رجب الشهر الحرام، فشغب الكفار وسألوا عن القتل في الشهر الحرام وأن ما وقع يؤذن بأن محمدا ﷺ نقض حرمة الأشهر الحرم. نزل القرآن على قلب رسول الله ﷺ آمرا له بأن يجيبهم بالوحي المنزل: إن القتال في الشهر الحرام إثمه كبير لمن قصد انتهاك حرمته، ولكن 1- صد الناس ومنعهم من اتباع سبيل الله وطريقه الذي يرضاه لعباده. 2 - وكفر الكافرين بالله. 3- -ومنع القاصدين للمسجد الحرام من الطواف بالبيت وأداء المناسك . 4-وإخراج أهل المسجد الحرام (سكان مكة) منه قسرا والاستيلاء على ديارهم وأموالهم، وهذا ما قام به المشركون المعترضون على خطأ عبد الله بن جحش في معرفة أول الشهر. إن هذه المناكر هي أعظم إثما وأشد شناعة عند الله. وفوق ذلك ما صنعه المشركون بالمسلمين من تدبير أنواع التسلط والقهر وتنفيذها، ليخرجوا المسلمين من الإسلام الدين الذي ارتضوه، وهو ما عبر عنه بأن الفتنة أشد إيلاما وأبلغ أذى من القتل. فمواصلة التعذيب والسخرية أشد إذاية وألما من القتل. ويؤكد العزم على المضي في الاستعداد للقتال والقيام به عند الحاجة بأن المشركين مصممون على مواصلة التسلط عليكم وشن الحروب على دياركم، لا يشفي غليلهم منكم إلا شيء واحد (هو أن تَرْتَدّوا عن دينكم وتُوَلّوا ظهوركم للإسلام) وبعيد أن يبلغوا ما عزموا عليه.

إن أمر الارتداد عن الإسلام فظيع جدا، فمن يرتد عن الإسلام ويظلم قلبه بحجاب الكفر حتى يدركه الموت، يخسر الدنيا والآخرة. ففي الدنيا يخرج من الجماعة، فتنقطع جميع أسبابه التي كانت تصل بينه وبين المؤمنين في أسرته وفي المجتمع، في التعامل وفي العبادة، وليس له حظ في بيت مال المسلمين ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، إلى آخر خصائص المسلم في المجتمع الإسلامي. وحظه أسوأ من ذلك في الآخرة، فصلواته وصدقاته وما قام به من صالح الأعمال لا يبقي منها أثر في ميزانه عند حسابه. وجزاؤه العدل أن يقترن بالنار وتقترن به فلا ينفك أحدهما عن الآخر (**أصحاب النار**) وهو خالد فيها إلى أبد الآبدين.

218-إن الذين آمنوا...والله غفور رحيم.

وينوه القرآن بعد أن وصف فظاعة مآل المرتدين، ينوه بالمؤمنين الذين توالت منهم مشاهد الفضل والثبات، الذين تركوا أموالهم وديارهم فهاجروا من مكة إلى المدينة تقديما لإيمانهم على كل شيء من حظوظ النفس في الدنيا، وقاموا بالاستعداد والذود عن سلامة الجماعة الإسلامية بجهادهم وخروجهم لحرب أعداء الإسلام، إن هؤلاء قد رزقهم الله نعمة عزيزة، هو أن اليأس لا يدخل قلوبهم فهم في حالتي العسر واليسر يرجون رحمة الله التي وسعت كل شيء، ذلك أن الله عظيم المغفرة واسع الرّحمة.

۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

الخمر: عصير العنب المختمر الذي يحجب عقل شاربه .

الميسر: قمار كان لعرب الجاهلية.

الإثم: معصية الله بفعل سيء لا يرضى عنه الله.

العفو: ما زاد عن الحاجة من المال ولا يرهق المعطي.

العنت: المشقة.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن سؤال المؤمنين لسيدنا محمد ﷺ عن أمرين كانا شائعين عند عرب الجاهلية، سألوا عن حكم شرب الخمر، وعن حكم لعب الميسر فأوحى الله لنبيه قرآنا يتلى: إن في الخمر والميسر إثما كبيرا، هذا الإثم يعلو على ما فيهما من بعض المنافع. وسألوا أيضا عما ينفقون، فبيّن لهم أن ما هم مكلفون به هو أن يكون الإنفاق بما لا يجهدهم ولا يثقل عليهم، ونبههم إلى أن فيما أجيبوا به ما يدعوهم إلى التأمل فيه ليدركوا أن فيه السلامة والنجاح لكل فرد منهم ولمجتمعهم، والفوز بالرّضوان يوم القيامة. وسألوا عن الطريقة التي يتعاملون بها مع اليتامى فأجابهم ، قل: العناية بإصلاح أمورهم التربوية والبدنية والمالية خير من إهمالهم وتركهم وشأنهم. والذي ينبغي أن تستحضروه عند مخالطتكم لهم في كفالتهم أو القيام على أموالهم أو عقد رابطة الزواج معهم ونحو ذلك من أنواع المخالطة، أن تستحضروا أنهم إخوانكم، ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه. ويوقظهم القرآن إلى أن المظاهر قد تكون زائفة وقد تكون حقيقية، والذي يراقبكم ولا يخفى عليه الواقع ولا حقائق الأمور هو الله عالم الغيب والشهادة. ويذكرهم بهذه النعمة التي أحل لهم بها مخالطة اليتامى في حدود الصلاح، فلم يوقعهم في مشقة البعد عن الضعفاء من أقربائهم وأهليهم. فهو العزيز الذي لا يرد أمره راد، وهو الحكيم الذي يُجري أمر التشريع على مقتضى الحكمة دون إيجاب عليه.

بيان المعنى العام:

سجل هذا المقطع السؤال الرّابع والخامس والسادس التي سألوا عنها رسول الله ﷺ والتي تولى القرآن الإجابة عنها مفتتحا بكلمة: قل.

219-يسألونك عن الخمر...لعلكم تتفكرون.

السؤال الرّابع: سألوا عن حكم شرب الخمر وعن الميسر معا. وصلتها بالآية السابقة أن الله نوه فيها بالمؤمنين وفتح لهم باب الرّجاء وذكرهم فيها بأنه **(غفور رحيم)**[1] مما يشعر بأن تعاليم الإسلام أثرت في أرواحهم وعقولهم فأكسبتها صفاء جعلهم يعودون إلى ما ألفوه بالنقد والتساؤل، وإذا اهتز ما اعتادوه وتحيروا في الأمر فزعوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه ليبين لهم ما فيه صلاح أمرهم في الدنيا والأخرة. قرن بين الخمر والميسر الذي هو نوع من القمار الذي كان من مستتبعات مجالسهم الخمرية على ما سيأتي بيانه. أما الخمر فهو شراب يحتوي على نسبة

[1] سورة البقرة أية 218

من الكحول من شأنه أن يدفع شاربه إلى متابعة احتسائه إلى أن يؤثر فيه نشوة تصل إلى فقدان سلطانه العقلي على تصرفاته. ولا فرق بين أن يكون من عصير العنب المختمر أو من غيره. ويختلف المسكر عن المخدر، فالمسكر يُكَوِّن في شاربه اندفاعا، والمخدِّر يوهن متعاطيه ويتركه في أحلام وتصورات خيالية توهمه بأنه في نعيم. وقد كانت الخمر من أحب الأشياء للعرب في جاهليتهم، تكاد تكون أكبر متنفس لهم ينغمسون بشربها في حياة اللهو، فهاموا بها لما طبعوا عليه من شجاعة وكرم، والخمر تعينهم على ذلك. ما كان الجانب العقلي التأملي يستهويهم في حياتهم الموسومة بالعاطفة المشبوبة. وفي مجالسهم الخمرية التي أجادوا وصفها في أشعارهم. كانوا يقرنون شرب الخمر بأكل اللحم المشوي، وإذا لم يحضرهم اشتروا جزورا(من الإبل) بثمن مؤجل ثم استهموا عليه، ليدفع ثمنه الخاسر. وطريقة ذلك: أنهم يُعدُّون عشرة قداح (والقدح سهم صغير ليس في رأسه سنان) يضعون علامة على كل واحد من السبعة ويتركون الثلاثة الباقية غفلا، ثم يجلس أحد المقامرين بجانب من يوكل إليه إجالة السهام في خريطة وإخراجها واحدا بعد واحد، يسمى كل واحد عند إخراج القِدْح، فإذا خرج السهم المكتوب عليه انحاز صاحبه إلى جهة ثم يخرج قدح آخر فثالث وهكذا، والذين يخرج لهم السهم الغفل يتحملون ثمن الجزور. والنبلاء الرّابحون لا يأكلون من لحم الجزور ولا يأخذون منه شيئا بل يعطونه تكرما للفقراء واليتامى والمحاويج. ثم أطلق لفظ الميسر على كل قمار. وما كان من القمار على رهان فهو محرم إجماعا وما كان بدون رهان كالشطرنج واللعب بالورق ونحو ذلك فما حمل على المحرم فهو محرم إجماعا كالاشتغال به إذا أدى إلى الغفلة عن الصلاة واستغراق الوقت في اللعب وترك التكسب والقيام على العيال والتعصب والخصام. وما لم يحمل على محرم فمعظم المذاهب السنية على تحريمه.

وأما الخمر فهو حرام. ومُنْكِرُ حرمةَ السكر مُنْكِرٌ لما علم من الدين بالضرورة. واختلف الفقهاء في النص المحرم لشرب الخمر فرأى بعضهم أن الآية المحرمة لشرب الخمر هي قوله تعالى:(**يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون**)[1].

---

[1] سورة المائدة الآيتان 90-91

والذي يترجح عندي أن هذه الآية مفيدة للتحريم لما جاء فيها بأن في الخمر إثما كبيرا ولا يعقل أن ينص على مقارنة الإثم الكبير عقابُه على شيء حلال، إذ الحلال لا يقارنه إثم. خاصة إذا وصف الإثم بكونه كبيرا أي شديدا. ونصت الآية على أن فيهما منافع للناس، وهذا شأن الحياة الدنيا يختلط فيها الخير بالشر، والصلاح بالفساد، وما غلبت مفاسده حرم وما غلبت مصالحه أذن فيه، ففي الخمر منافع لمن يُعدها ويتاجر فيها وقد تؤثر بعض التأثير الحسن على الصحة، ولكن مضارها الجسمية أقوى على الكبد وعلى القلب والشرايين كما كشف عنه علم الطب، وهي تعطل العقل الذي به شُرّف الإنسان وكُلّف وكُرم. وفيها تبديد للمال، وتثير العداوة، وتذهب الحياء، وتوهن التزام شاربها بالقيم والأخلاق. وأما الميسر، القمار ففيه من المنافع أن النبلاء كانوا بمكنون الأيتام والمحاويج ومن يلم بساحتهم من الضيوف، من لحم الجزور. وأما الإثم فهو ما يوقعه من العداوة والبغضاء والتلهي عما كلف به الإنسان من عمارة الكون، وعن القيام بما فرض عليه من التكاليف. من الاستيلاء على مال الخاسر بالباطل.

السؤال الخامس: سألوا: ماذا ينفقون؟ عقب السؤال عن الخمر والميسر والجواب عنه بذكر هذا السؤال، والمناسبة أن المحتاجين كانوا ينتفعون من المجالس الخمرية ومما يذبح فيها، فحضر بعد تحريم الخمر والميسر سؤالهم عما ينفقون، كما أن الإسلام سما بتفكيرهم، وفتح لهم مناهج من السلوك ما كانوا يفكرون فيها، الأمر الذي حملهم على التوقف والسؤال ليدركوا الحق والكمال. وأجابهم أن عليهم أن ينفقوا بطريقة لا تشق عليهم ولا تحملهم عبئا ثقيلا يقطعهم عما هداهم إليه من منازل الكرامة والفضل. ذلك أن الإنسان إذا حمل ما يشق عليه فإن عوامل الرّفض لما يشق على النفس تنتهي به إلى ترك ما يثقل. فالمصلحة أن تكون النفقة غير مقطوعة، والقليل الدائم خير من الكثير المنقطع. وعلى هذا النحو من البيان تولى القرآن الأخذ بعقول المؤمنين إلى مستويات رفيعة من النظر والتدبر، فذكر ما في الخمر والميسر من مصالح ومفاسد، ومضار ومنافع، وتخصيص الإنفاق بما تجود به النفس دون مشقة، كل ذلك يمكن المؤمنين من التدبر في صلاحهم في الدارين.

220-في الدنيا والآخرة...إن الله عزيز حكيم.

السؤال السادس: سألوا عن علاقتهم، وعن الطريقة السليمة في تعاملهم مع اليتامى. قد يكون صلة الآية بما سبقها ما أشرنا إليه من أن اليتامى كانوا يحصلون على نصيب من اللحم في الميسر. فهم حاضرون في أذهان السائلين عن الخمر والميسر، وقد يكون ما ذكر من الإنفاق يثير في النفس علاقة المؤمن بقريبه اليتيم،

وكان التعرض لليتم، بسبب الحروب والمرض، يصيب كثيرا من الأطفال، مما يجعل مشكلتهم تدعو إلى البحث عن الطريق لحلها حسب ما يرضي الله. وكان الجواب قرآنا يتلى:

أولا: أنهم مأمورون بإيصال اليتامى كل ما يصلح أمورهم، إصلاح نفوسهم بحسن القيام عليهم في تربيتهم، وإصلاح لهم بإعزازهم، وإصلاح لهم في أموالهم بتنميتها وحفظها لهم، وإصلاح في زواجهم فلا يرغب عنهم ليتمهم، ولا يرغب فيهم للاستيلاء على أموالهم. ونبهت الآية إلى أن النظر في شؤون اليتامى بما يحقق ما هو أصلح لهم، هو خير من التعفف والتورع باعتزال مباشرة تلك الأمور، وذلك لما يرجوه الناصح لهم من المثوبة .

ثانيا: أنهم إذا تجاوزوا هذه المرحلة إلى مرحلة أشد اتصالا فخالطوهم في أموالهم بشركة أو مصاهرة في تزويج اليتيم أو اليتيمة، أو استأجروهم للعمل أو كانوا أجراء في أرزاقهم، أو اختلطوا بهم في أكلهم وشرابهم، فالضابط الذي تجب مراعاته هو أن لا يغفلوا عن العلاقة التي غرسها الإسلام وأكد عليها **علاقة الأخوة الإيمانية** ولا يكون المؤمن مؤمنا حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

ثالثا: ذكّر القرآن بحقيقة هي من مقومات الإيمان حتى لا يغفل عنها من يتعامل مع اليتامى، وهي شمول علم الله واطلاعه سبحانه على حقائق الأمور، فالله سبحانه لا يخفى عليه ما يبطنه المتعامل مع اليتيم، فالمَظاهر لا تُخفي الحقيقة عنه، فهو يعلم من قصد إلى إيصال الإصلاح لليتيم ومن قصد التسلط عليه مقدما حظوظه. فالله سبحانه يعلم المفسد من المصلح.

رابعا: ذكر المؤمنين بأن عليهم أن يشكروا نعمة الله عليهم فيما شرعه لهم في مخالطة اليتامى، فهذا التشريع حقق لليتامى صلاح أمورهم والحفاظ على شخصيتهم وأموالهم، ويسر على أعضاء أسرتهم الكبار أن يخالطوهم ولا يعزلوهم. فهو التشريع من العزيز الذي لا يُرد أمره ولا يُعترض عليه وأن عزته هي عزة الحكيم الذي لا يصدر عنه إلا ما هو خير للبشرية.

وَلَا تَنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤۡمِنَّۚ وَلَأَمَةٞ مُّؤۡمِنَةٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكَةٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡۗ وَلَا تُنكِحُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤۡمِنُواْۚ وَلَعَبۡدٞ مُّؤۡمِنٌ خَيۡرٞ مِّن مُّشۡرِكٖ وَلَوۡ أَعۡجَبَكُمۡۗ أُوْلَٰٓئِكَ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلنَّارِۖ وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ وَٱلۡمَغۡفِرَةِ بِإِذۡنِهِۦۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

بيان معاني الألفاظ:

العبد: الذكر المملوك غير الحر.

الأمة: الأنثى المملوكة غير الحرة.

بإذنه: بإرادته وتقديره.

بيان المعنى الإجمالي:

نهى الله المؤمنين عن الزواج بالأنثى المشركة، فإذا آمنت حل للمؤمن أن يتزوج بها، وذلك لبعد ما بينهما في تصور الوجود والقيم المبنية على ذلك، مفضلا الزواج من أمة مملوكة، منزلتها الاجتماعية نازلة لرقها، على الزواج من المشركة الحرة ولو كانت جامعة لصفات تُرَغِّب فيها كالجمال والثراء والجاه. وكذلك نهى عن تزوج المسلمة من مشرك، وأن العبد المملوك المسلم خير من المشرك الحر ولو كان على حظ من الجمال والثراء والجاه. ذلك أن فاسد العقيدة بالشرك يدعو إلى ما يتلاءم مع عقيدته من الفعال والأخلاق التي تقود إلى النار، فهو بذلك يناقض مناقضة كاملة ما يدعو إليه المولى سبحانه ويهدي إليه، الذي هو الصراط المستقيم الذي يقود إلى الجنة، ويتعرض به المؤمن إلى غفران ذنوبه بإرادة الله وفضله ، وناحية أخرى هي أن ما يدعو إليه بين واضح لا غبش فيه ولا ظلام، مفتوح للتفكر فيه ينسجم مع الفطرة ومع مقتضيات العقل الرّاشد.

بيان المعنى العام :

221-ولا تنكحوا المشركات...يتذكرون.

لما تعرضت الآية السابقة إلى الوصية بمخالطة اليتامى وعدم عزلهم، وكان بعض اليتامى قد يختلفون في دينهم، فناسب أن يفصل القول في الزواج مع اختلاف الدين. فبين الأحكام والعلل:

أولا: نهى أن يتزوج المسلم مشركة تدعو مع الله إلها آخر أو علمانية لا تؤمن بالله الواحد الأحد. والأمة المملوكة المؤمنة وإن كانت فاقدة لحريتها فإن الاقتران بها أفضل في الحاضر والعاقبة من الحرة المشركة وإن توفر فيها ما يدعو إلى الإعجاب بها كالمال والجمال والجاه، وكذلك العكس فلا تتزوج المسلمة من مشرك ولو أعجبت بماله أو بجماله أو بمركزه الاجتماعي. وأن العبد المسلم المملوك الفاقد لحريته خير من المشرك.

التعليل: إن الله قدر أن يحصل بالزواج امتزاج وود وقبول كل طرف للتأثر بالطرف الآخر. فمن لا يخص الله بالوحدانية ويشرك به آلهة أخرى أو العلماني الذي ينفي وجود الله تكون تصوراته ونظرته للوجود وعلاقاته بالكون وبالناس

جارية على خلاف المؤمن بالله ، الأمر الذي ينتهي بالشقاق والاختلاف بين الزوجين، ويكون الأثر سيئا جدا، مع التضاد بين الوالدين، على سلامة نفسية الذرية وسلوكهم وبالتالي نجاحهم في الحياة.

ثالثا: خطر الزواج بالمشركة والزواج بالمشرك على العاقبة يوم القيامة، ذلك أن المشرك حسب تصوراته وتأثيره يحمل قرينه على سلوك لا يُقَدِّر فيه أبدا مرضاة الله ولا يعطي لأوامره ونواهيه أي أثر على اختياراته وأعماله، الأمر الذي ينتهي بالقرين إلى الانحراف ويؤدي في النهاية إلى عذاب النار.

رابعا: إن الله بما لطف به من إرسال الرّسل وهداية الناس إلى الصراط المستقيم، بيسر بذلك على الناس أن يفوزوا بالجنة وأن يحصلوا على مغفرته ورضوانه بإرادته سبحانه.

خامسا: إن ما نهى الله عنه أو أمر به أو أرشد إليه، جار على طريقة واحدة من الوضوح والبيان، ينسجم مع الفطرة التي خلق الله الناس عليها، ويبعد بهم عن الغموض، فتنفتح عقولهم للتأمل وبالتالي التفكر في النظام الفكري الشامل للوجود والتشريع.

ملاحظة أولى: نصت الآية على أنه يحرم على المؤمنة أن تتزوج بمشرك. وكذلك يحرم عليها أن تتزوج بكتابي.

أما المؤمن فقد نصت الآية عليه أنه يحرم عليه أن يتزوج بمشركة. أما تزوجه بكتابية فحلال. وربما يسأل سائل لماذا لم يحرم على المؤمن الزواج بكتابية نظير حكم المؤمنة؟ والجواب عن ذلك يتبين بإبداء الفرق بينهما. ذلك أن الرّجل إذا تزوج الكتابية فإنه يحترم دينها والنبي الذي تتبعه، أما الكتابي فهو على خلاف ذلك لا يحترم دينها ولا النبي الذي تتبعه وينفي في اعتقاده أن يكون رسولا. فمن البداية يكون مقوم من مقومات الحياة الزوجية ضائعا. ثانيا أن الزوج يستطيع أن ينهي عقد الزواج إذا بدر من زوجته الكتابية ما تقدح به في دينه أو تسخر منه، أما المسلمة لو تزوجت بكتابي وسخر من دينها أو قدح فيه فإنها لا تستطيع أن تنهي عقد زواجها به، وتكون مجبرة على تحمل الإهانة.

ملاحظة ثانية: الكتابية التي يحل التزوج بها ليست التي ولدت في بلد بعض سكانه كتابيون. فعدد غير قليل من الجيل التالي ممن كان على دين النصارى أو دين اليهودية خلع إيمانه وانضم إلى صف العلمانيين الرّافضين للتدين. وهذا يجري حتى في البلاد الإسلامية فإذا كانت الأنثى التي ولدت في بلد من بلدان العالم الإسلامي ومن أسرة مسلمة ولكنها فارقت الإسلام وأنكرت الألوهية فإنه لا يحل للمؤمن أن

يتزوج بها. وكذلك إذا كان الرّاغب في الزواج من المؤمنة إذا كان قد رفض التدين بالإسلام فإنه يحرم على المسلمة أن تتزوج به ولوكان والداه مسلمين.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

المحيض: دم الحيض أو زمانه أو مكانه.

الأذى: الضر غير الفاحش.

اعتزلوا: اتركوا مجامعتهن.

تقربوهن: تجامعوهن.

بيان المعنى الإجمالي :

سأل بعض الصحابة عن حكم الجماع زمن الحيض فأنزل الله على رسوله هذه الآية مجيبة عما سألوا عنه بأنه يترتب عن مجامعة المرأة في الحيض ضرر. وهو ما يوجب الامتناع عن المخالطة الزوجية حتى تطهر المرأة، فإذا انقطع الحيض حل الجماع الذي كان ممنوعا. وتشير الآية إلى أن من لم يجر على ما بينته الآية ووقع في الإثم فشأنه شأن كل من تجاوز حدود ما أحل الله، وعليه أن يسرع إلى التوبة، إن الله يحب التائبين كما يحب السائرين على طريق الهدى. وأكدت الآية على أن المخالطة الزوجية هي الطريقة لنمو الجماعة الإسلامية كما تنمو خيرات الأرض بحرثها وزرعها، فأحل الله أن يتم الاتصال بين الزوج وزوجته على أي وجه يتم به الاستمتاع الذي يرجى منه حصول النسل، وذكرهم بأن عليهم أن يقدموا الخير الذي يجدون ثوابه يوم القيامة، وأن يكونوا دوما مراعين ما يقيهم منزلة الهوان عند الله الذي هم آئلون إليه وسيلقون جزاءهم منه. ويختم التوصيات والأحكام بطلبه تعالى من نبيه أن يبشر المؤمنين بفضل الله ورعايته

بيان المعنى العام:

222- ويسألونك عن المحيض...ويحب المتطهرين.

صلة الآية بما تقدمها هو أن الآية السابقة اعتنت بقضية من قضايا بناء الأسرة. وهذه الآية تجيب عن تساؤل عن بعض ما يتعلق بعلاقة الرّجل بامرأته.

وهذا هو **السؤال السابع** في سورة البقرة. سألوا رسول الله ﷺ عن المحيض أي الحيض. وبما أن مجتمع المدينة المنورة يشمل المهاجرين والأنصار، واليهود ، والنصارى، والمشركين، والدهريين، على نسب تقل أو تكثر، فمن الإشكالات التي حدثت والتي أخذت حسب الظاهر اهتماما ونقاشا، قضية علاقة الرّجل بامرأته وقت حيضها. وطرفان كانا متناقضين وبينهما مراتب تقرب من هذا الطرف أو من الآخر ، فاليهود لا تدخل الحائض البيت أيام حيضها، والنصارى لا يتحرجون من معاشرة المرأة أيام حيضها والمشركون والدهريون لهم عادات مختلفة يقرب بعضهم من اليهود ويقرب آخرون من النصارى لأنهم لا شريعة لهم جامعة. وكذلك طريقة الاستمتاع دخلت فيها عادات مختلفة أوجبت أيضا تساؤلات. ونظرا إلى أن المؤمن حريص على أن يكون سلوكه تحت راية الإسلام وأحكامه في القليل والكثير والصغير والكبير، رجعوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه عن حكم الإسلام. فكان الجواب متضمنا الآداب والأحكام التالية:

أولا: نبه أن الحيض يتسبب في ضرر وإذاية للأسرة لم يفصل نوع الأذى الذي يحصل لأمرين: أحدهما أنه مدرك بالفطرة لما في دم الحيض من عفونة ورائحة كريهة، وثانيهما أنه من إعجاز القرآن أن لا يحصر الأذى في الحدود التي بلغها علم المُنَزّلُ عليهم الوحي وقت نزوله، بل يذكره عاما ليكشف العلم عن أنواع من الضرر يشملها العلم الإلهي ويقصر إدراك علم البشر عن جميعها في ذلك الظرف. وبهذا التنبيه في البداية لما في جماع الرّجل لامرأته أيام حيضها من الضرر يكون القرآن قد أعد المؤمنين لقبول ما يأتيهم من ربهم معللا يستجيبون له بداعية الإيمان وبداعية الفطرة.

ثانيا الحكم: تحريم الجماع أيام الحيض. وهذا أمر مجمع عليه. أما الاستمتاع بالملاعبة فقد اختلف الفقهاء في حدود ذلك. والذي يترجح عندي أن لا يقرب الفرج ولكل منهما أن يبتغي من قرينه ما أحله الله له فيما سواه.

ثالثا: ضربت الآية حدا لحل الجماع، **(ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن)** والذي عليه جمهور الفقهاء أن الرّجل لا يجامع امرأته إلا بشرطين ــ1) أن ينتهي نزول دم الحيض ــ 2) أن تتطهر ــ طهارة الغسل بالماء الرّافع للحدث وللقذارة ــ ويرى بعضهم أنه يكتفي بغسل المرأة فرجها ــ

رابعا: أذن الله للرجل أن يجامع امرأته بعد تطهرها في الموضع الذي أحل الله له فيه ذلك. فكلمة ــ من ــ بمعنى ــ في ــ نظير قوله تعالى: إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة، أي في يوم الجمعة.

223-نساؤكم حرث لكم...وبشر المؤمنين.

خامسا: أكد حكم الإذن في مجامعة الرّجل امرأته بقوله تعالى(**نساؤكم حرث لكم**)[1] -الحرث في القرآن أطلق على القدر المشترك بين العمل الذي يبغي منه صاحبه الإنتاج . فحرث الأرض زرعها بعد تهيئتها لتنتج، وحرث الآخرة العمل الصالح الذي ينتج ثوابا قال تعالى: **من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه**. وحرث الدنيا ما ينتج للإنسان مما يبغي الحصول عليه في الدنيا دون نظر إلى الآخرة قال تعالى: **ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة من نصيب**[2].

والقصد الأول في الزواج هو تحقيق ما أراده الله من استخلاف الإنسان في الأرض، هذا الاستخلاف الذي لا يتم إلا إذا بقي النوع الإنساني بالتناسل الذي سبيله الوصال الجنسي ، فعبر عن ذلك بقوله تعالى (**حرث لكم**) وصرح بأن الكيفية التي يتم بها الجماع مأذون فيها في جميع الأوقات التي لم يحرمها الله كحالة الصوم وحالة الاعتكاف. وفي كل مكان لا يحرم فيه الجماع كالمساجد.

سادسا: عقب ما بينه من أحكام وآداب بالتوجيه الذي يعتني به القرآن دائما، وهو إحياء مراقبة الله واستحضار أن أي عمل يقوم به المؤمن في الحياة يربطه بربه، فعلى هذا تُذَكّره الآية بأن الله يحب المؤمن المستحضر دوما صلته بربه الاستحضار الذي يترتب عليه أنه إن حصلت منه غفلة أو تجاوز يعود سريعا إلى ربه ليجد في ساحة القرب هذه المغفرة والمحبة، كما يجدها الذي لم يغفل ولم يذنب. وفي هذه الخاتمة إشارة إلى أن من لم يلتزم قبل نزول الآية بما قررته وبمجرد ما سمعها أقلع عن كل ما يخالفها هو مهنأ بأن الله يحبه.

سابعا: حرض المؤمنين أن يكونوا دائما مستعدين ليوم القيامة استعدادا يجعلهم يحرصون على إعداد زادهم للسفرة الكبرى التي سيلقون فيها ربهم، وينبغي أن يصل هذا الشعور إلى درجة اليقين الذي لا يدخله شك ولا ارتياب. وماذا سيكون حالهم يوم اللقاء؟ عجل القرآن بالبشارة آمرا نبيه ﷺأن يتولى إبلاغهم هذه البشارة. (**وبشر المؤمنين**)

وَلَا تَجْعَلُواْ ٱللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَـٰنِكُمْ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصْلِحُواْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

---

[1] سورة الشورى آية20

[2] سورة الشورى آية 20

بيان معنى الألفاظ:

ولا تجعلوا الله: ولا تجعلوا اسم الله.

عرضة: معروضا، أو قوة.

تبروا: البر جماع الخير.

لا يؤاخذكم: لا يعاقبكم.

اللغو: الكلام الخطأ الذي لا يعتد به.

كسبت قلوبكم: عقدتم عليه النية.

حليم: الحليم الذي يقبل العذر.

بيان المعنى الإجمالي:

نهى الله المؤمنين أن يحلفوا بالله لتكون يمينهم تعلة للامتناع من فعل الخير ومما يرضي الله. وهذا القصد الخفي الذي لا يدركه الناس هو على حد سواء مع النطق، فالله سميع لما تقولون، عليم بنياتكم. ثم بينت الآية حكم اليمين بعد الحلف، فذكرت أن الله لا يؤثم الحالف ولا يلزمه كفارة في يمين اللغو. وهي اليمين التي تجري على لسان الناس دون أن يقصدوا القسم ولا الالتزام، كقول أحدهم: والله إن هذا لأمر عجيب. ولكنه يؤاخذ ما عقد عليه الحالف النية القصد في المستقبل. وبما أن الناس قد تَنْفَلِتُ ألسنتهم بالأيمان دون قصد إلى التهاون بالقسم، ثم يقعون في الحرج في المستقبل ختم الآية بأن الله غفور رحيم.

بيان المعنى العام:

224- ولا تجعلوا الله عرضة...والله سميع عليم.

ختمت الآية السابقة بقوله تعالى:(**وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين**) فجمعت وصايا للمؤمنين تدعو لليقظة والاستعداد وملازمة التقوى، مما هيأ للبشارة المطلقة العامة. ومما يحرج المؤمن أن يكون قد حلف يمينا على عدم فعل أمر صالح ثم يجد نفسه بين الوفاء بقسمه وبين الاستجابة لدعوة القرآن: (**وقدموا لأنفسكم الآية...**) فارتبطت هذه الآية بسابقتها. والوجه الأول في فهم الآية أنها نهت المؤمن أن يحلف على ترك ما هو خير، من أنواع البر ومن التقوى ومن الإصلاح بين الناس، ثم يجعل يمينه تعلة للامتناع. كما تحتمل الآية أن يكون النهي عن جعل اسم الله والحلف به جاريا على ألسنتكم بكثرة، مما يترتب عنه أن تسبقوا للحلف به على ترك الصالحات (**البر والتقوى والإصلاح بين الناس**) وختمت الآية بأن الله لا يغيب عنه شيء مما تتلفظون به لأنه سميع، كما

يعلم قصدكم وما تحركت به مشاعركم الباطنة وأنتم تحلفون لأنه موصوف بالعلم عليم .

225- لا يؤاخذكم الله باللغو...والله غفور حليم.

وثنى القرآن ببيان ما يترتب على الحلف بالله ففصل الحكم على النحو التالي: أن الله لا يؤاخذ الحالف على يمين اللغو. ويمين اللغو عند مالك هي اليمين التي ينطق بها الحالف غير قاصد الحنث ولا الكذب. كمن يظن شيئا ويقرن إخباره بالقسم ثم يتبين أن الواقع على خلاف ما يظن (كأن يرى شخصا قادما من بعيد فيسبق إلى القسم أنه فلان) ثم يظهر أنه شخص آخر. ومثله ما يجري على الألسنة دون قصد للحلف نحو: لا والله، بلى والله. أن الله يؤاخذ الحالف على ما قصده ونواه عند الحلف. واختلف الفقهاء في المقصود بالمؤاخذة:

فعند الإمام مالك أن المؤاخذة قد تكون بالإثم في الآخرة وقد تكون بالكفارة في الدنيا ومن ترك التكفير آثم. فمن حلف يمينا غموسا يعتقد عند حلفه أنه كاذب فهذه يمين مؤاخذ صاحبها يوم القيامة، ولا كفارة عليه في الدنيا. وكذلك من ألزمه القضاء لرد دعوى خصمه أن يحلف فحلف يمينا هو فيها كاذب وهي اليمين (المصبورة).

وأما اليمين التي تكون المؤاخذة فيها بالكفارة فهي اليمين على ترك فعل شيء ثم يفعله أو على فعل شيء ثم لا يفعله.

وعند الشافعية اليمين التي يؤاخذ حالفها بالكفارة هي يمين الغموس، واليمين على شيء يظنه ثم يتبين خلافه، واليمين المعلقة على الفعل أو عدم الفعل.

وعند أبي حنيفة: يمين الغموس فيها الإثم ولا كفارة لها. واليمين المقصودة سواء أبنيت على الظن فلم يصدق، أو كانت معلقة، الواجب فيها الكفارة.

وختمت الآية بأن الله يغفر لعباده زلاتهم، والتذكير بهذه الصفة ليسرعوا إلى الالتزام بما تقتضيه الآية في الأيمان وأن يحفظوا ألسنتهم من الحلف.

والصفة الثانية هي لغسل ما يمكن أن يعلق بالنفس من أن ذنب الجراءة على الحلف بالله أمر عظيم قد يدفع إلى اليأس، بأن الله متصف بالحلم الذي هو العفو وقبول عذر المقصرين.

لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾
وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

بيان معنى الألفاظ:

يؤلون: الإيلاء هو حلف الزوج على ترك مجامعة زوجته أربعة أشهر فأكثر.

تربص: انتظار.

فاؤوا: رجعوا إلى مباشرة الحياة الزوجية الطبيعية.

بيان المعنى الإجمالي :

من حلف على عدم وطء زوجته أربعة أشهر (هو مُـول) ويمينـه هـذه هـي (الإيـلاء). والإيلاء حرام لأنه إضـرار بالزوجـة. والمـولي مخيـر بـين أن يعـود إلـى جمـاع زوجته وبين أن يطلقها.

بيان المعنى العام:

226-227: للذين يؤلون من نسائهم...فإن الله سميع عليم.

من أنواع اليمين التي كانت شائعة في المجتمع العربـي أن الـزوج قـد يريـد الإضـرار بزوجته فيحلـف أن لا يجامعهـا السـنة والسـنتين، ويبقيهـا معلقـة لا تعـيش العيشـة الزوجية ولا هي حرة تتزوج زوجا آخر يُعِفُّهـا، فكـان ممـا هـدى إليـه الإسـلام رفـع هذه المظلمة في الرّابطـة الزوجيـة. فبـيَّن أن حكـم الإيـلاء الحرمـة إذا كـان لقصـد الإضرار بالزوجة. وأبطل هـذا التسـلط الظـالم بإيقـاف الـزوج بعـد تمـام الأشـهر الأربعة، فيجبره القاضي، أو يعود هو من نفسه إلى مجامعـة زوجتـه. ومـا سـبق منـه من يمين أكد بها عزمه لا تكون مانعا مـن الإصـلاح بينهمـا ورفـع الظلـم والتحلـي بالتقوى، فإن الله يغفر ما سبق لـه مـن اليمـين بـإخراج الكفـارة. وإن أبـى فعليـه أن يطلق، والله يسمع ما تبين به زوجته منـه، علـيم بمـا صـدر منـه. وإن أبـى فالحـاكم يطلق عليه وينفصم النكاح وتعتدّ زوجته، فإن راجـع رأيـه وأراد أن يعـود إلـى الحيـاة الزوجية العادية أثناء عدتها فله ذلك لأن الطلقة طلقـة رجعيـة. وعنـد أبـي حنيفـة أنـه ببلوغ تمام الأربعة الأشهر تبين منه بدون رفع إلى القاضي.

وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓا۟ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا

تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ
مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ
أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ
فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمۡسِكُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعۡرُوفٖۚ وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا
لِّتَعۡتَدُواْۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَقَدۡ ظَلَمَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ وَٱذۡكُرُواْ
نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡحِكۡمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ
وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ
أَن يَنكِحۡنَ أَزۡوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوۡاْ بَيۡنَهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمۡ
يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ وَأَطۡهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

يتربصن: ينتظرن.

قروء: جمع قرء، يطلق على الطهر وعلى الحيض.

بعولتهن: البعولة جمع بعل والمراد به أزواجهن.

تسريح: حسم صلة الزوجية.

حدود الله: أحكامه الفاصلة بين الحلال والحرام، هي كالفواصل بين أملاك الناس.

الضرار: المبالغة في الضر.

العضل: منع المرأة من الزواج.

أزكى: أكثر خيرا.

بيان المعنى الإجمالي:

لما ذكر في الآيتين السابقتين أن الإيلاء قد ينتهي إلى طلاق بينت هذه الآيات الخمس آداب الطلاق وأحكامه، فذكرت: لا يحل للمرأة إذا طلقها زوجها أن تتزوج غيره إلا بعد أن تدخل في الحيضة الثالثة بعد الطلاق. ويحرم عليها أن تكتم من أسرار رحمها، فتعلن خلاف الواقع، مما يؤثر في تمكنها من التزوج. ولتتّق الله فإن التغليظ في هذا أمره عظيم عند الله، فهي مسؤولة عن قول الحقيقة بمقتضى إيمانها بالله الذي أمرها، وبمقتضى إيمانها باليوم الآخر الذي ستحاسب فيه. وفي مدة الانتظار هذه يحق للزوج أن يراجع زوجته إن أراد إصلاح هذا البيت الذي تهدم بالطلاق. وتقرر الآية قاعدة عظيمة في بناء المجتمع والأسر: هي أن للمرأة

من الحقوق مثل ما عليها من الحقوق، فإنسانيتها كاملة ودورها في بناء الأسر والمجتمع دور أساس. ومكن الله الرّجل، في مسيرة الأسرة، من قيادتها لما فيه خيرها وهي الدرجة. والله الذي نظم شؤون الحياة الأسرية عزيز لا يغلب، حكيم لا يأمر إلا بما فيه خير. ويمكن للزوج أن يطلق زوجته مرة أولى ومرة ثانية على أن تبنى العلاقة على قاعدة: هي أن الزوج إما أن يمسك زوجته ويمضي على حياته الزوجية بالأمر المعروف الذي ينسجم مع الفطرة: من تقديرها والإنفاق عليها ومشاركتها في أمور الأسرة، وإما أن يفترقا ،مع الإحسان في هذا الفراق بما أوجبه الله على الزوج لمطلقته في العدة، ومن عدم إيذائها بالحديث السوء عنها أو عن أهلها، فكما هو مطالب بالإحسان في حال الزواج هو مطالب به في حال المفارقة.

ويحرم على الزوج أن يضطر زوجته لطلب فراقه بإذايتها حتى تفتدي نفسها بشيء من المال الذي أخذته منه صداقا أو هدية. ولكن إذا كرهت الزوجة المقام معه، بما يترتب على البغض من التفريط في حقوق الزوجية، وإثارة المشاكل التي تقلب حياة البيت جحيما لا يطاق، فإنه لا إثم على الزوج في أخذه ما يتفقان عليه من المال لينهي العلاقة الزوجية بينهما.

إن ما قررته الآية حدود حددها الله في الفراق، فلا يحل لأحد من الزوجين أن يتعداها فلا يظلم الزوج زوجته حتى تفتدي منه، ولا تظلم الزوجة زوجها لتضطره إلى طلاقها. وليعلمْ كل مؤمن ومؤمنة أن مكرَ أحدهما بالآخر لينفذ أغراضه ظلم. وكفى بالإنسان إثما وتحذيرا أن يعلن الله أنه ظالم.

إذا طلق الزوج زوجته بعد الطلقة الثانية فطلقها للمرة الثالثة فإنها تحرم عليه بمجرد تلفظه بالطلاق. ولا يحل أن يعود إلى حياته الزوجية إلا إذا خرجت من عدتها ثم تزوجت زوجا آخر ثم يطلقها الزوج الثاني ثم تخرج من عدتها منه. فإذا تحقق ذلك، كان له أن يتزوجها من جديد بعقد جديد مستوف للشروط والأركان إذا كانا قد تأدّبا بهذه التجربة، وأثّرت فيهما تأثيرا يظن معه أنهما سيعيشان في المستقبل حياة زوجية حسبما قررته الشريعة الإسلامية، يسكن فيها كل منهما إلى قرينه. إن هذه الأحكام هي كالحدود في الأملاك لا يتجاوز الحد إلا ظالم. وقد بين الله الحدود التي لا يجوز تجاوزها. ليحذر من يعلم أن الله حقيق بأن يطاع وحقيق بأن يحذر الإنسان موقفه بين يديه يوم القيامة.

وصية أخرى لمن يطلق زوجته: أنها ما دامت في عدتها، من الطلقة الأولى أو الثانية، أن له أن يراجعها إذا كان قد تأثر بطلاقها تأثرا يبني معها الحياة الزوجية في المستقبل على المعروف دون إضرار مع الوفاء للميثاق الغليظ. كما له أن يترك

سبيلها لتتزوج بزوج آخر إن أرادت. وإياكم أن يتسلط الرّجل على المرأة تسلطا ظالما فيه تعسف بقهرها وإهانتها أو إضرار بها. إنه من يتسلط على المرأة تسلطا فيه تعد على حقوقها وكرامتها، قد ظلم نفسه بتعريضها لسخط الله وعقابه. وحذار، أيها المؤمنون أن تستخفوا بما أنزله الله عليكم شأن المستهزئين الكافرين. وأمرهم أن يكونوا مستحضرين دائما نعم الله عليهم، ومن أجلّها ما أنزله عليهم في كتابه وما ثقّف به عقولهم بحكمة الوحي. وجماع الخير هو تقوى الله، تقوى من هو موقن مستحضر أن الله لا تخفى عليه خافية. ونهى الرّجال عن أمر آخر. وهو أن لا يمنع الرّجل من هي تحت نظره من الرّجوع إلى زوجها إذا خرجت من العدة إذا رضيا بالعودة إلى حياتهما الزوجية على الأصول التي جرى بها العرف ولا ينكرها المجتمع. كل ما سبق من الأحكام والآداب أنزل ليتعظ به المؤمنون الذين يؤمنون بالله فيطيعون أوامره ويخشون حسابه يوم القيامة فلا يقدمون على معصيته. وبالالتزام بأحكامه تنمو فيهم الكمالات الإنسانية فيترفعون عن دواعي الشر والانتقام والظلم، ويتطهرون من الحقد والبغض. ويطوع نفوسهم لقبول أحكامه بتذكيرهم بالحقيقة العظمى: هي أن علم الإنسان قاصر وقريب، والله هو العليم بالحاضر والمآل. فباتباع أوامره وهدايته يحققون النجاح في الدارين.

بيان المعنى العام:

228- والمطلقات يتربصن...عزيز حكيم.

اعتنى القرآن في هذه الآيات ببيان الأحكام في حالة تصدع الأسرة بالطلاق. بعد أن بين في الآيتين السابقتين تصدع العلاقة بالإيلاء. إن عناية الإسلام ببناء المجتمع على أصول النظام والعدل والاستجابة للفطرة مبثوثة في القواعد والأحكام التفصيلية في القرآن والسنة النبوية. والأسرة هي حجر الأساس في البناء الاجتماعي. اهتم القرآن بإبطال ما جرى عليه أمر الجاهلية في كثير من الأمور في شأن الأسرة، وأدمج الطريقة التي يرضاها في إبطال ما كان متعارفا عند العرب قبل الإسلام. يتوضح ذلك في متابعة الآيات الخمس أعلاه، وبشرحها فيما يلي:

229-الطلاق مرتان... فأولئك هم الظالمون.

المسألة الأولى:

أن الزوج إذا فارق زوجته بطلاقها، فإن مستتبعات الحياة الزوجية المفصومة بالطلاق لا تنتهي بمجرد الطلاق فتتحرر المرأة من العقد الأول كأن شيئا لم يكن، بل يجب عليها، إن كانت ممن تحيض، أن تبقى منتظرة بلوغ الأمد الذي حدده الله، وهو أن تتوالى عليها بعد طلاقها ثلاثة أطهار برؤيتها للدم المؤذن ببداية الحيضة

الثالثة، عند الإمام مالك، وبالانتهاء من الحيضة الثالثة عند أبي حنيفة. وقبل ذلك للزوج أن يراجعها. وبعده يمكنها أن تتزوج ممن ترضاه. ولا يرتجعها زوجها المطلق إلا برضاها. وهذا الأمد مراعى فيه جانب الزوج وجانب المرأة، فالمرأة إذا حاضت بعد طهرها الأول تبين أنها غير حامل ولم يبق لزوجها المطلق أي حق عليها. وأما الطهر الثاني والثالث فهو تلوم للزوج عله يتأمل في وضعه فيعود إلى زوجته. وفي هذا الأمد يذكر القرآن المرأة بأن عليها أن تكون صادقة فيما هي مؤتمنة عليه **(ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن)** فيحرم عليها أن تكتم الحقيقة لتعجل في انتهاء العدة أو تكتم الحمل الذي أحست به فتدعي أنها قد دخلت في الحيضة الثالثة. شددت الآية على المؤمنات ليكن صادقات في أمر العدة، وربطت ذلك: أولا بالإيمان بالله باعتبار أنه أمر مؤكد من الله. ولأن دين الإسلام قد أقيم تشريعه على الأصول الخمسة التي منها حفظ النسل. وثانيا على الإيمان باليوم الآخر لتراقب مصيرها فتخشى العاقبة إن هي كتمت. والمطلقة ما دامت في العدة من الطلاق الرّجعي لمطلقها أن يراجعها. وتدعوهم الآية للمراجعة وتحثهم عليها باعتبار أن من شأن المسلم أن يسارع إلى الإصلاح.

** صرحت الآية بقاعدة لها شأنها في إصلاح أحوال المجتمع (هي إعلان حقوق المرأة من خالق المرأة والرّجل) بمناسبة الدعوة إلى الإصلاح. ذلك أن قاعدة البناء الاجتماعي هي الأسرة، التي تقوم على عنصرين أساسيين **(الزوج والزوجة)** وكانت حقوق الزوج مصونة عرفا وتطبيقا. وكانت منزلة الزوجة مهضومة إلا إذا كان لها في قلب زوجها من الحُظْوة ما يرفعها إلى مقام الشريك المؤثر في شؤون الأسرة. ولكن ليس هذا هو القاعدة في الاعتبار. فقررت الآية منادية بأن المرأة لها من الحقوق ما للرجل من الحقوق. فإذا أكرمها فليس ذلك على سبيل تنازل الزوج، بل على أساس أن الله جعلهما عنصرين لكل منهما حقوق مرعية. هذه الحقوق تسير متناسبة مع دور كل منهما في هذا البناء على أساس التكامل بينهما. فلا يصدر من أحدهما نحو الآخر ما ينكر ويرفض شرعا أو عرفا، مما فصلت الشريعة الإسلامية أحكامه وبينت حدوده ويرضاه أصحاب العقول السليمة من الانحياز والتعصب. ولا يذهَبَنَّ الظن إلى أن المرأة مساوية للرجل في كل شيء، فبين قهرها وجعلها تابعة مهينة للرجل وحرمانها من التصرف في مالها، ومن نصيبها من الميراث ومن أجرة عملها، وبين جعلها مساوية للرجل في كل شيء حتى في الميراث الذي قسمه الله قسمة عادلة، وفي إيجاب إنفاقها على زوجها، وفي القيام على الأسرة بصفة مساوية للرجل، مما يتبعه، عند الاختلاف اهتزاز بناء

الأسرة، وضياع الأولاد بين قطبين. بين هــذا وذاك جــاء المــنهج الإســلامي أن للرجــال عليهن درجة هي درجة القوامة التي لا تَعَسُّفَ فيها ولكنهــا تَحفــظ التــوازن فــي العائلــة وتحسم الأمور بالحكمــة والعــدل. وختمــت الآيــة بــأن الله عزيــز لا يعتــرض عليــه لتثبيت هذه العدالة بين الجنسين التي ربما يأنف منهــا بعــض الرّجــال بمــا رســخ فــيهم من عادة التسلط على الإناث. وعزته سبحانه مقرونة بالحكمــة. فهــو يشــرع مــا يصــلح شؤون العباد ويضمن مصالحهم جميعا.

المسألة الثانية:

230 -فإن طلقها فلا تحل له... لقوم يعلمون.

من أنواع التعسف، التي جرى عليها الأمر فــي كثيــر مــن الأحــوال، أن الرّجــل يطلــق زوجته، وعندما يقرب أمد انتهاء عدتها يراجعهــا لا بقصــد معاشــرتها ولكــن يقصــد أن يعيد طلاقها، وهكذا، فكلما قارب أمد خروجها من العدة راجعهــا ثــم يطلقهــا، فــلا هــي زوجة ولا هي مطلقة. يفعل ذلــك بعــض الرّجــال نكايــة فــي زوجــاتهم. فشــرع الله للزوج أنه يحل له أن يطلــق زوجتــه المــرة الأولــى، ويطلقهــا المــرة الثانيــة، فــإذا طلقها مرة ثالثة حرم عليه أن يراجعهــا ولا يحــل لــه العقــد عليهــا مــن جديــد إلا إذا تزوجت ودخل بها زوجها الثاني، ثم طلقهــا وخرجــت مــن عــدة طلاقهــا مــن الــزوج الثاني. كما سيفصل في بيان معاني الآية التالية. ويعلــن القــرآن أن الــزوج فــي علاقتــه بمطلقته بين أمرين: إما أن يُبقي على العلاقة الزوجية علــى الصــفة التــي يقبلهــا عــرف الناس في الحالة والمعاملة، وبين أن يفارقهــا. وعليــه أن يحســن إليهــا بالمتعــة، علــى ما سيجيء في قوله تعالى**(ومتعوهن علــى الموســع قــدره وعلــى المقتــر قــدره)**[1] وأن لا يضارها بعد الطلاق كنشر مساويها أو مساوي عائلتها بالحق أو بالباطل.

المسألة الثالثة:

أخذ العوض من الزوجة إذا رغبت في فــك عصــمتها. الأصــل أن الــزوج لــيس لــه أن يأخذ في مقابل الطلاق أي شيء من العوض، ســواء أكــان مســاويا لمــا بذلــه لهــا فــي صداقها أو أقل أو أكثــر. ولكــن تعــرض حــالات ضــبطها القــرآن بمرجــع يتصــور بصور كثيرة، هذا الأصل الجامع هو أن يغلب على الظــن، حســبما ظهــر مــن النفــرة بينهما، أن بقاء العلاقة الزوجية بينهما ســتؤدي إلــى خصــام متواصــل وإيــذاء متبــادل، ومكر كل منهما بالآخر. مما يســتوجب أن يطغــى الهــوى وحــب الســيطرة والأنانيــة، مما يُخْشَى معه تبعا لذلك أن لا يراعى ما حدده الإســلام مــن حســن المعاشــرة ومراقبــة

---

[1] سورة البقرة آية236

الله وإقامة العدل. وفي معظم الأحوال يظهر هذا الانحراف إذا رغبت الزوجة عن زوجها، وأسباب التحول النفسي كثيرة. ففي هذه الحالة غير الطبيعية يجوز أن يتفقا على الفراق على أن تدفع المرأة لزوجها شيئا من المال ويعبر عن هذا [بالخلع] ولكن إن كان الزوج هو الذي آذى الزوجة وأساء معاملتها لتختلع منه فإن المال الذي يأخذه منها مال حرام.

المسألة الرّابعة:

أن كثيرا مما يتعلق بتطبيق الأحكام التي بينتها الآيات السابقة قد يدخله الهوى ونزغات الشيطان فتدفع أحد الزوجين أو كليهما إلى تغليب الهوى فيتراخى عن الحدود التي بينها الله، فحذر المتراخي من مجاوزة الأحكام الإلهية والتعدي عليها باختراق الحدود التي منع من تجاوزها. ويدخل المتهاونون بالأحكام السابقة تحت قاعدة عامة وهي: أن من يتعدى حدود الله يطبع بحكم لا يستطيع منه انفكاكا، هو حكم الله عليه بأنه ظالم، بما يتبع الظلم من المساءلة والعقاب.

المسألة الخامسة:

صرح القرآن بأن الزوج إذا طلقها الأولى وراجعها، ثم الثانية وراجعها، ثم تلفظ بالطلاق للمرة الثالثة. فإنه يحرم العقد عليها بعد ذلك، وتعتد، ولها أن تتزوج بغيره. لكن إذا طلقت بعد زواجها الأخير، بعد الدخول بها، وبعد الاتصال الجنسي بينهما فإنه إذا خرجت من عدتها بعد هذا الطلاق فلزوجها الأول أن يعقد عليها برضاها عقدا جديدا. وميثاق الزوجية ميثاق غليظ، فلذلك نبهت الآية على أن استئناف زواج جديد مع زوجها الأول بعد خروجها من عدة طلاقها من الزوج الثاني ينبغي أن يحتاط فيه الطرفان فلا يقدما عليه إلا إذا ظنّا ظنًّا غالبا أن تجربة الانفصال التي بلغت ذلك الحد قد أثرت فيهما وأنهما سيقيمان حياتهما الزوجية فيما يستقبل، على احترام ما حدده الله في العلاقات الزوجية من مودة ورحمة واحترام وعدل. تلكم الحدود التي تولى الله بيانها في كتابه للقوم الذين يعلمون ما في حدود الله من مصلحة لهم في العاجل والآجل، ويعلمون ما يترتب على تجاوزها من خسران.

تنبيهان:

الطلاق الثلاث، حسب منطوق الآية، هو الطلاق الذي يوقعه الزوج المرة الأولى ثم يعود إلى التزوج بها ثانية ثم يطلقها بعد الزواج الثاني ثم يعود إليها ويتراجعان ثم يطلقها طلقة ثالثة. وأما تطليق الزوج زوجته بلفظ الثلاث بأن يقول لها: أنت طالق ثلاثا، فطلاقه هذا يعتبر طلقة واحدة. المطلقة للمرة الثالثة لا يجوز أن يعقد عليها

زوجها الأول إلا إذا دخل بها الثاني وجامعها، ولم يكن قاصدا تحليلها للزوج الأول. لعن الله المحلِّل والمحلَّل له. والتحايل على أحكام الله لا يقلب الأحكام ولا يحل الحرام.

231-وإذا طلقتم النساء فبلغن...أن الله بكل شيء عليم.

المسألة السادسة:

جاء في أثناء الآية 229 أن الزوج مخير أثناء العدة بين أن يُبقي على الرّابطة بينه وبين مطلقته، وبين أن يسرحها ويفصم ما بينهما **(فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان)** وهذه القيمة الخلقية توجهت العناية القرآنية إليها مرة ثانية في هذه الآية لمتابعتها فسوت بين الإبقاء على علاقة الزوجية برجوع الزوجة إلى زوجها، وبين فصم العلاقة بينهما وذهاب كل واحد في حال سبيله تحت راية المعروف الذي لا ينكر ولا يعترض عليه، لفوزه بالقبول العام في المجتمع. وخص الأحوال المناقضة للمعروف فنهى عنها، فقال: ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا. هو التعسف في التسلط على المرأة بإمساكها رهينة بيت الزوجية مع حرمانها من حقوقها وكرامتها. فإمساكها قصد التعدي عليها وهدْرِ قيمتها الإنسانية ذنب عظيم، وفساد يعود على فاعله بالوبال. فقد حققت الآية أنه ظالم لنفسه، وهو أمر قد يخفى فتعين توضيحه. إنه إذا قصد الرّجل التعدي على حقوق زوجته والإضرار بها، فإن الحياة في البيت تضطرب وتصبح العلاقة علاقة كراهية وتدبير ضروب من المكر والنكاية لا يسلم منها لا الزوج ولا الزوجة ولا الأولاد. كما يتعرض للعقاب الأخروي. وأكدت الآية على تطبيق ما جاء من تشريع عند انفصام الزوجية فجمعت بين النهي والأمر، نهيٌ أن يبلغ الإنسان بمخالفته لأحكام الطلاق أنه يعتبر مستهزئا بما أنزله الله من آيات بينات، الذي هو أمارة نفاق. وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم، وذكر النعمة هو العمل بها، وهذه النعمة تظهر في الوضع الذي كانوا عليه قبل الرّسالة، وضع الجاهلية، فذكر النعمة يقتضي العمل بما أنزله عليهم من القرآن وما لابسه من الحكمة. وأعلنه إعلانا عاما أن علم الله محيط بكل صغيرة وكبيرة، فالعبرة بالحقائق لا بالمظاهر.

المسألة السابعة:

232- وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن...وأنتم لا تعلمون.

لما جاء في الآية السابقة أن التسريح يجب أن يتم بالمعروف مع الإحسان، كان من لوازم ذلك أن تُمكَّن المرأة من حقها في الزواج، الذي منه أن تعود لزوجها

الأول. وكانت الأنفة الجاهلية تقف حاجزا دون عودة المطلقة إلى زوجها. فنهت الأولياء أن يمنعوا المرأة من الرّجوع إلى زوجها ، إذا حصل منهما التراضي على استئناف الحياة الزوجية على الوجه الذي يصحبه الرّضا ولا يعقبه ما ينكر. وأطلقها القرآن موعظة وربطها بالإيمان بالله واليوم الآخر حثًّا على الأخذ بهذه الموعظة، ثم أيَّد العمل بذلك، بأن عودة الزوجة إلى زوجها هو أكثر خيرا وأفضل عائدة على الأسرة، بلمّ شملها ورتق الفتق الحاصل واستمرار التآلف الذي يتجاوز المرأة إلى أهلها. وهو أطهر لتخليص العلاقة من رواسب الإحن بالفراق. وينبههم إلى أن الذي أرشدهم لذلك هو الله الذي يعلم عواقب الأمور التي يجهلها الناس. فالخير كلّ الخير في اتباع ما أرشد إليه.

۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

الحول: العام.

رزقهن: نفقة القوت.

الكسوة: اللباس.

لا تكلف: لا تؤمر نفس بما فيه مشقة.

إلا وسعها: إلا بما تطيقه.

لا تضار: لا يُلحق الضرر بها.

الفصال : الفطام.

بيان المعنى الإجمالي :

من الحقائق التي قررها القرآن وأقرها ودعا إليها أن منتهى أمد رضاع الصغير عامان، وبهما ينتهي ما شرع من أحكام مرتبطة بالرّضاع. وما دامت الأم ترضع ولدها فإن الأب ملزم بالإنفاق عليها في غذائها وكسوتها سواء أكانت في العصمة أم مطلقة. ومقدار النفقة والكسوة يرجع في تقديرهما إلى العرف الذي لا ينكر، وهو

مختلف باختلاف أحوال المنفِق والمنفَق عليها. ولا يُقبل أن تتضرر الأم بولدها ولا أن يتضرر الوالد بولده. وإذا مات الأب فإن هذه المعاملة التي أوصت بها الآية من عدم الإضرار بالأم مستمرة ومرعية. وإذا رغب الوالدان في فطام الصغير قبل الأمد بأن اتفقا على الفطام أو أقنع أحدهما الآخر به، فلهما ذلك ما لم تتعرض حياة الصغير أو سلامة نموه إلى الخطر. وللوالدين أن يسلما الرّضيع إلى مرضعة تتولى إرضاعه والقيام على شؤونه في تلكم المدة، والوالد مطالب بأن يسلم للمرضعة ما اتفقا عليه من الأجر على الوجه الجاري في عرف الناس ولا ينكرونه.

هذه علاقة ثلاثية بين الزوج الوالد والزوجة الوالدة والمولود الرّضيع، أو علاقة رباعية بين تلك الأطراف وطرف رابع هو المرضع المستأجرة، وكل علاقة يمكن أن يجري تنفيذها على الوجه الصالح ويمكن تنفيذها بتلاعب طرف من الأطراف وإظهار وجه صالح مخالف للباطن. فلذا ختمت الآية بالدعوة إلى تقوى الله، وأن يكون كل مكلف على ذُكر من أن الله لا يغيب عن علمه شيء يستوي في علمه الظواهر والبواطن.

بيان المعنى العام :

233-والوالدات يرضعن...بما تعملون بصير.

يتواصل البيان القرآني لتوضيح بعض ما يتعلق بالأسرة. فتحدثت الآيات السابقة عن الإيلاء والطلاق، ومضمون هذه الآية ما ينشأ عن الزواج من نسل فبينت الأمور التالية:

أولا: أن أمد الرّضاع، الذي بني عليه أحكامٌ عِدّةٌ، هو عامان كاملان. وسيأتي حكم التقصير عن هذا الأمد في آخر الآية. ومطلوب من الأم أن ترضع ولدها وجوبا إذا كان الولد لا يقبل أن يرضع غير لبن أمه. وهي مدعوة، ندبا، إلى إرضاعه إن لم يتعين الإرضاع فيها. وحثت الآية الأم على الإرضاع بالتعبير عنها بالوالدة لما تثيره علاقة الولادة من الحنو والعطف على المولود. وقد أودع الله في لبن الأم من العناصر ما ينمو به الرّضيع نموا صالحا، ويكوّن فيه مناعة تكون له ذخرا في باقي أيام حياته. وهذا يشمل الأم في حالتي قيام العلاقة الزوجية والطلاق.

ثانيا: أن على الأب أن ينفق على الأم المرضعة لولدها ما يلزمها لتغذيتها التغذية الصالحة، وأن يتولى إكساءها. ووقع التنصيص على الإنفاق بما يشمل حالة قيام الزوجية لأن المرضع بتوسع في نفقتها بما يضمن إدرار اللبن اللازم لتغذية رضيعها. وكذلك الكسوة بما يتطلبه احتضان الرّضيع من النظافة وغسل الثياب وتغييرها. وهذه النفقة الواجبة على الوالد يرجع فيها إلى العرف المقبول من الرّأي

العام ولا ينكر في العادة. فليست نفقة الوالد الثري كنفقة الفقير المعدم، ولا النفقة على ذات المكانة العالية في المجتمع كالنفقة على الوضيعة.

ثالثا: قررت الآية قاعدة تشمل الإنفاق وتتعداه إلى بقية الواجبات على الناس: **لا يكلف الله نفس إلا وسعها:** لا يطالب الإنسان بما يتجاوز ما تتحمله طاقاته البدنية أو المالية أو النفسية. فبالنسبة للإنفاق لا يكلف الوالد نفقة ترهقه وتتعدى إمكاناته المادية، ولا تكلف الأم بالإرضاع إذا كان ذلك مما يمكن أن يسبب لها مضاعفات سيئة. ولا تضر الأم بولدها انتقاما من زوجها إذا كانت مطلقة فتمتنع من إرضاعه مثلا ولا يضر الوالد بولده بنزعه من أمه انتقاما منها أو التقتير عليها في النفقة بما يجعل لبنها قليلا أو فقيرا من مكوناته الغذائية.

رابعا: وعلى الوارث مثل ذلك. اختلف فيه المفسرون اختلافا كبيرا في المراد بالوارث، والمثلية ، ومعاد اسم الإشارة. فالذين حملوا الوارث على أنه وارث المولود له، اختلفوا في بيان المثلية، فمنهم من حملها على النفقة والكسوة، ثم اختلفوا هل يجب ذلك في مال الوارث على قدر الأنصباء، أو يجب على من هو أقرب، أو يحمل على من جمع بين القرابة والرّحم ولا عبرة بالقرابة وحدها؟ ومنهم من حملها على عدم المضارة. ومنهم من حمل الوارث على وارث الصبي لو مات. ومنهم من رأى أن حكم الآية منسوخ. وهذه محامل قد أقام كل ناظر في الآية معنى الآية على ما ترجح عنده بأدلة ظنية لا تقطع الخلاف. والذي ترجح عندي، بعد النظر، أن مؤدى الآية: على الوارث أن يعامل المولود لها معاملة حسنة بدون تعسف، فقد كان من عادات العرب في الجاهلية أن المتوفَّى يحكم كبير ورثته في زوجته، وكثيرا ما كانوا يمنعونها حتى من الزواج، فهذا التسلط الشائع حسمه القرآن بدعوة الوارث أن لا يضر بالوالدة التي فقدت زوجها وهي تحتضن وليدها الذي هو فرع من الميت.

خامسا: ذكرت الآية أن منتهى أمد الرّضاعة عامان للذين يرغبون في أن تبلغ الرّضاعة غاية مداها. فإذا رغب الوالدان في فطام الصبي قبل ذلك الأمد وتحقق الرّضا من الطرفين وتشاورا بأن طرحا مقترح الفطام على بساط الدرس وتبين لهما بعد تقليب النظر والتأمل في المعطيات الواقعية أن فطام الصبي لا يضره ، وأنه يستطيع أن ينمو نموا صالحا مع الفطام والتغذي بغير لبن الأم، فما يقررانه تبعا للمصلحة لا إثم عليهما فيه ولا مؤاخذة.

سادسا: رخص القرآن للزوجين أن يطلب الوالد مرضعة تتولى القيام على الصبي إلى حين فطامه. وهذه كانت عادة عند العرب طلبا لنمو الصبي في وسط ينمو

فيه بعيدا عن عفونات المدن ويأخذ فيه فصاحة البدو، وسلامة لغتهم، وتأتيهم لما يقصدونه بوضوح. وهذه التربية الطبيعية هي التي نوه بها أبو الطيب المتنبي لما قال

حسن الحضارة مجلوب بتطرية *** وفي البداوة حسن غير مجلوب

وأجر المرضعة في مال الوالد فلذلك قيد الجواز بتسليم المولود له ما يدفعه بطريقة ليس فيها إبطاء ولا مشاحة ينكرها العرف، لما يمكن أن يترتب على ذلك من ضرر بالرّضيع إذا تجاوز الوالد حدود المعاملة الطيبة مع المرضعة.

سابعا: هذه أحكام تتضمن علاقات متعددة قوامها المولود له، والوالدة، وقد تضاف إليهما المسترضعة. تنصبُّ على الرّضيع الضعيف الذي، مما سيتأثر به مستقبله، ونجاحه أو فشله، طريقةُ القيام عليه في أمد الرّضاع. إن تنفيذ تلكم الأحكام مع هذا التداخل في العلاقات واختلاف الصورة التنفيذية لها، وإمكان إبرازها بظاهر مقبول وباطن سيء أو القيام بها على الوجه المرضي الصالح، كل ذلك كان داعيا لتذكيرهم بتقوى الله المحصّنة عن التجاوز والغش في المعاملة. وليتذكروا أن سلوكهم معلوم عند الله بوجهه الظاهر وبما استند إليه من مقاصد خفية لا تغيب عن علمه سبحانه.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا ۖ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

بيان معنى الألفاظ:

يُتَوَفَّوْنَ: يموتون

بلغن أجلهن: كملت عدتهن.

بالمعروف: ما أذن فيه الشرع.

خبير: اسم فاعل من خبر إذا علم تفاصيل الشيء .

التّعريض: كلام يقصد منه صاحبه معنى آخر غير المعنى الظاهر.

أكننتم: أخفيتم.

السر: ما قابل الجهر.

المتعة: ما يعطيه المطلق لمطلقته.

الموسع: من كان له فضل من المال.

المقتر: المقل، القليل المال.

بيان المعنى الإجمالي :

بينت الآية عدة المرأة التي تُوفي زوجها وهي غير حامل، أن عليها أن تنتظر أربعة أشهر وعشر ليال، وأنه بانتهاء هذا الأجل تحل للأزواج، ولا حرج ولا لوم على أهل الزوج ولا على المرأة المعتدة إذا عقدت زواجها بعد تلك المدة أو تزينت. ما دامت تراعي ما أذن فيه الشرع (بالمعروف) والله لا يفلت من علمه شيء فلتعلم المعتدة أن الله يرقبها. ومن أحكام العدة: أن المعتدة لا تتزوج ولا تُخطب ولا تَعِد أي رجل بالزواج . وقد أباح القرآن التعريض بما يكنه الخاطب في نفسه من رغبته في الزواج من المعتدة بعد خروجها من العدة. والتعريض كلام غير صريح يفهم منه قصد المتكلم ولكن بطريقة غير صريحة مكشوفة، كقول الرّجل للمعتدة: هنيئا لمن ترضين عنه وتتزوجينه. ولكن لا يحل أن يصل بالكلام إلى التصريح والتواعد بالزواج بعد العدة. ويحرم عقد الزواج على المرأة قبل انتهاء أجل عدتها. حفظا لسلامة النسب إذ لعلها أن تكون حاملا في أول فترات الحمل. ويحذر القرآن من التسرع في الاقتران بالمعتدة قبل بلوغها ذلك الأجل. فالله عليم بما يجري في ضمائر البشر فليحذر المؤمن أن يبرز ما زوره في نفسه في الوقت الذي لا يحل له ذلك. ومع ذلك فإن الله غفور لما جرى في القلب وغاية ما صحبه هو التلويح والإشارة ولم يصحبه التصريح وذلك بما اتصف سبحانه من الحلم. وللعاقد على امرأة أن يطلقها قبل أن يدخل بها. ومن طلق زوجته قبل الدخول فعليه أن يرسل إليها هدية يختلف مقدارها تبعا ليسر الزوج وعسره، يطيب بها خاطرها. وهذا مما يقتضي أن تكون طريقة الإرسال ونوع ما يرسله

جاريا على المعروف الذي لا ينكر، ويذهب بما علق في النفوس من رجة الفراق فيطفئ شيئا مما يمكن أن يتولد من الكراهية والنقمة. وإذا طلق العاقد زوجته قبل أن يدخل بها، وقد تم تعيين مقدار الصداق عند العقد، فالواجب عليه أن يدفع لها نصف الصداق المقدر. وللزوجة إذا كانت مالكة أمر نفسها وطُلّقت قبل الدخول أن تتنازل عن نصف الصداق الذي وجب لها بالعقد، وللزوج أن يدفع لها الصداق كاملا. ويثير القرآن داعية التقوى المركوزة في قلوب المؤمنين؛ هذه الداعية التي تقرب كل واحد من الزوجين من التسامح وتبعد بهما عن المشاحة. وهو ما مهد للنهي عن الغفلة عن خلق الفضل. والله بصير بما يقدمه الإنسان من صالح المواقف.

بيان المعنى العام:

234-والذين يُتَوَفَّوْنَ منكم... والله بما تعلون خبير.

إن انفصام عقد الزوجية قد يكون بالطلاق وقد يكون بالموت. وقد فصلت الآيات السابقة ما يترتب على الطلاق. وفي هذه الآية (234) بينت الآية ما يترتب على وفاة الزوج:

أولا: يجب على المتوفّى عنها زوجها غير الحامل أن تمتنع عن الزواج وأن لا تتزين وأن تلازم بيتها أربعة أشهر وعشر ليال ولا تخرج من بيت الزوجية في الليل. وإذا أتمت المعتدة هذا الأمد فلا جناح أي لا إثم ولا لوم على أهلها ولا عليها، إذا فارقت حالة الإحداد، بالتزيُّن والطيب وعقد الزواج حسب المعروف مما أقرته الشريعة من الأحكام والآداب. وقد كان من عادة العرب أن تمكث المتوفى عنها زوجها سنة لا تمس ماء ولا تتنظف ولا تتزين ولا تتزوج. وكانوا يرون ذلك من الوفاء الذي يتعيَّن على الزوجة أن تفعله. وعلى الأهل مراقبة تنفيذ ذلك. فحد الإسلام ذلك بأربعة أشهر وعشر ليال حفاظا على الأنساب، إذ لعله أن تكون الزوجة قد علقت من زوجها قبل وفاته، ولا يتحرك الجنين إلا بعد أربعة أشهر، وأضيفت لها عشر ليال لما قد يكون عليه وضع بعض الأجنة من الضعف. فإذا مضت هذه المدة ولم يتحرك في بطنها جنين تحققنا براءة رحمها من الحمل. فلا مانع من أن تتزوج بزوج آخر يُعِفُّها. وختمت الآية بأن الله خبير بما يصلح أمر المجتمع وأمر الأفراد.

235-ولا تعزموا عقدة...أن الله غفور حليم.

ثانيا: قد تكون المتوفّى عنها زوجها جامعة لصفات تتوفر بها الرّغبة في الزواج منها، والنفوس من شأنها الإسراع إلى الظفر بالمرأة إذا جمعت الخصال والمزايا

التي يقدر الرّجل سعادته في الاقتران بها. وهذا أمر يعلمه الله، يعلم ما يتردد في خيال الرّاغب من تذكر المعتدة وحضورها في ذهنه، والغريزة الجنسية من أقوى الغرائز. ومن ناحية أخرى فإن ما أصّله الإسلام من الحفاظ على الأنساب يقيني تتحتم مراعاته وعدم التهاون به، ولذا رخص للراغب أن يتكلم بما لا يدل صراحة على عرض نفسه على المعتدة ليتزوج بها، ولكن يشير إشارات غير مباشرة، لا تدل على التزام طرف نحو الطرف الآخر. أما المواعدة من الطرفين فحرام ولو كانت سرا لا ينشره هو ولا تنشره هي. والعلة في ذلك أن المعتدة إذا صادف الخاطب من نفسها هوى وهو راغب فقد يتعجلان عقد النكاح قبل أمده.

ثالثا: أكدت الآية على الامتناع من العزم على تنفيذ عقد الزواج بالمعتدة قبل تبين براءة رحمها من الحمل. وحذر الرّجل والمرأة أن تتغلب عليهما دواعي الاستعجال فيبطنان الحقيقة الممنوعة التي لا تغيب عن علم الله. وهو تهديد بإنزال عقابه وتقريع بأن مخالفة ما شرعه غفلة عما صحبه من فضل وحلم لما أباح لهما التعريض.

236- لا جناح عليكم...حقا على المحسنين.

رابعا: أعلم المؤمنين أنه لا إثم على الزوج إذا طلق زوجته بعد أن عقد عليها وقبل أن يدخل بها. والطلاق قبل الدخول لا يخلو: إما أن يكون قد عين لها مقدار الصداق ونوعه، أو تم العقد مع السكوت عن الصداق. فإذا طلقها قبل تسمية الصداق، فظاهر الآية أنها لا تستحق شيئا من الصداق. والمطلوب من المطلق أن يبعث لها ما يكرمها به ويستلّ شيئا مما حصل في نفسها من الطلاق. الملقب بـ(المتعة) وقد اختلف الفقهاء في حكم المتعة والحالة هذه، هل هي واجبة اعتمادا على صيغة الأمر (ومتعوهن) أو مرغب فيها على سبيل الندب اعتمادا على تخصيص الأمر بالمحسنين، ولو كانت واجبة على الجميع لما خص المحسنين بالذكر؟ ثم إن المتعة، سواء أقلنا بوجوبها أو بأنها مندوبة، ربطها القرآن أولا بحال الزوج من عسر ويسر، وربطها ثانيا بالمعروف الذي يراعي وضع المرأة اجتماعيا فلا يبعث بما لا يليق بها، أو يكون فيه استخفاف بمنزلتها. إذ تشريع المتعة لجبر ما حصل في نفس المطلقة من ألم وما تسبب فيه الطلاق من ضرر، فإنه من المعروف أن الظنون تذهب مذاهب شتى في تعليل الفراق. وعمل المؤمن على رأب الصدع من أدب الإسلام **(ولا تنسوا الفضل بينكم)**

237- وإن طلقتموهن...بما تعملون بصير.

خامسا: إذا طلق الزوج قبل الدخول وكان قد عين لها مقدار صداقها ونوعه ، فالواجب عليه أن يمكنها من نصف الصداق الذي سماه لها. ثم إن المطلقة إذا كانت مالكة لأمرها رشيدة فإن لها أن تسامح مطلقها في نصف الصداق الواجب لها، وكذلك للأب في ابنته البكر أن يعفو عن نصف الصداق. وفهمه بعض المجتهدين على أن الزوج يعفو بإكمال الصداق. وفي هذا الاحتمال بعد لأن الإكمال ليس عفوا إلا على تمحل.

وحركت الآية أريحية المؤمن في الطلاق وفي غيره، وكذلك المطلقة ووليها بأن العفو يقرب الإنسان من الاتصاف بالتقوى، لما يقره في نفس العافي من التسامح ويبعده عن التصلب في المطالبة بالحق. والمؤمن الكامل لا يكون إلا سمحا. وأحيى في نفوسهم صفة يرغب في الاتصاف بها كل سوي في خُلُقِه وأدبه، بأن جعل المسامحة والعفو من الفضل، ومن يتشدد في حقه يكون بمثابة الناسي لهذا الخلق. وأكد سبحانه أنه لا يغيب عنه شيء من أعمال البشر. فهو سبحانه يرى ذلك منا ويجزي به.

حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ (٢٣٨) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ (٢٣٩)

بيان معنى الألفاظ:

حافظوا على الصلاة: كونوا يقظين لأدائها في أوقاتها المفروضة.

الصلاة الوسطى: مؤنث الأوسط، والمراد منه مذكور في توضيح النص.

قانتين: القنوت الخضوع والخشوع.

بيان المعنى الإجمالي:

أمر الله المؤمنين: أن يكونوا يقظين لما ألزمهم به من أداء الصلوات ، فلا تلهيهم مشاغل الحياة عن أدائها في أوقاتها، وخص الصلاة الوسطى صلاة الصبح، بمزيد من العناية، وأن يؤدوا صلواتهم قائمين لله خاشعين. ويَسَّرَ لمن كان في ظرف شديد كالخوف في الحرب، أو من عدو أو من أي متسلط يهدده أن يصلي على الحالة التي يمكنه معها أداء صلاته في وقتها المحدد قائما أو راكبا. وأنه إذا عاد الأمن صلى قائما خاشعا، ذاكرا ربه ذكر الشاكر على ما تفضل به عليه من معرفة، ما كان ليحصل عليها لولا العناية الإلهية بالوحي المنزل على رسوله ﷺ .

بيان المعنى العام:

238-حافظوا على الصلاة...قانتين.

القرآن كتاب هداية شاملة للإنسان تساعد مواهبه وقواه الرّوحية والعقلية وتعنى بمشاكله الحياتية في الدنيا ومصيره يوم القيامة. فكان نظمه وترتيبه ومنهجه في التأثير مُصْطَبِغاً بهذه الخاصية الشاملة. فهو لا يواصل بيان حكم من أحكام التعامل مثلا إلا ويقرنه بالدعوة إلى تقوى الله أو التضامن الاجتماعي ونحو ذلك. وبعد أن تتابع البيان القرآني لبعض مشاكل الأسرة وشرح أحكامها، توجهت عنايته إلى الرّكن العملي الذي يفتح للإنسان مسالك المحافظة على حدود الله وتطبيق أوامره برغبة وعن اقتناع فتضمنت دعوته:

أولا: التأكيد والتذكير بما ألزمهم به من أداء الصلوات في أوقاتها. وخص من بين الصلوات المفروضة الصلاة الوسطى. وحسب النص القرآني المركب من الأمر بالمحافظة، والتأكيد عليها بصفة خاصة، وما يحتمله معنى الوسطى من ماصَدَقات، اختلف العلماء تبعا لذلك في تحديدها. فحملها بعضهم على صلاة الصبح لتوسطها بين الليل والنهار. وحملها آخرون على صلاة الظهر التي يأتي وقتها والناس يواصلون أشغالهم فوقتها معرض للذهول عنها وهو وسط النهار. وقيل: هي صلاة العصر، باعتبار أن أول صلاة في اليوم هي صلاة الصبح، فتكون العصر الصلاة الوسطى. وبعضهم جعلها المغرب لما كانت أول صلاة فرضت هي صلاة الظهر، فتكون المغرب هي الصلاة الوسطى. وبعضهم رأى أنها صلاة العشاء لما ورد أنها أثقل صلاة على المنافقين. وقد يترجح أنها صلاة الصبح للتنويه بها في قوله تعالى **(وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا)**[1] ولكون وقتها يجيء والناس نيام. وقد نوه القرآن بالذي يتجافى عن مضجعه لعبادة ربه فقال تعالى:**(تتجافى جنوبهم عن المضاجع)**[2].
ومن حافظ على جميع صلواته يهنأ بأنه حافظ على الصلاة الوسطى قطعا.

ثانيا: أن يؤدوا صلاتهم من قيام مع الخشوع لله فلا كلام ولا حركة تنافي التوجه الكامل لله.

239- فإن خفتم... ما لم تكونوا تعلمون.

ثالثا: الصلاة، كما أفاده قوله تعالى **(إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا)**[3] يجب على المؤمن أن لا يغفل عنها حتى في أحرج الأوقات، ومن رحمته ما شرعه من تيسير أداء الصلاة في ساعات الحرج الكبير. فرخص للمؤمن إذا كان في

[1] سورة الإسراء آية 87

[2] السجدة آية 16

[3] سورة النساء 103

وضع يخاف فيه على نفسه كحال الحرب، أو وجود عدو كاشح غير بعيد عنه، أو وجود سبع أو سيل داهم ونحو ذلك، أن يصلي كيفما تيسر له واقفا أو راكبا مع خشوع تام أو أقل ما ينطبق عليه الخشوع. وتستمر الرّخصة إلى أن يعود إلى حال الطمأنينة. فشملت الرّخصة أداء الصلاة مع أقل ما ينطلق عليه الخشوع استثناء من إيجاب القنوت، ومع الرّكوب والرّهبة من الوضع المحرج استثناء من القيام والقنوت معا.

رابعا:أن هذه الرّخصة تقدر بقدرها فإذا ذهب الخوف وجب على المؤمن أن يؤدي صلاته على الوجه الكامل الذي هدى الله إليه، بواسطة بيان رسوله ﷺ قولا وعملا، على تلك الصفة التي ما كان للبشر أن يعلموها لولا تعليم الله لهم إياها.

وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ ۚ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

الذين يتوفون: الذين يقاربون حالة الموت.

غير إخراج: ليس للأولياء إخراجها.

بيان المعنى الإجمالي:

دعت الآية كل متزوج عند ما يقترب من الوفاة أن يوصي لزوجته بأن تتمتع بالسكنى مدة عام من تاريخ وفاته. وهذه الوصية تعطيها حقا ولا تفرض عليها واجبا، فإذا قررت الخروج من المسكن الذي أوصى به الزوج قبل السنة فقد أسقطت حقها، ولا إثم ولا لوم لا على الورثة ولا عليها في ذلك، إذا لم تَتَعد ما هو معروف شرعا من بقائها إلى تمام العدة ومن امتناعها من الزينة في أمد العدة.

بيان المعنى العام:

240 - والذين يتوفون منكم... عزيز حكيم.

ذهب معظم المفسرين إلى أن هذه الآية كان معمولا بها إلى أن نزل ما ينسخها ويبطل العمل بها. والناسخ آية الميراث التي أعطت للزوجة المتوفى عنها حظها من الميراث، ولا وصية لوارث. كما بطل انتظارها سنة بالآية السابقة (**يتربصن بأنفسه أربعة أشهر وعشرا**) فكل متوفى عنها زوجها تستحق نصيبها من الميراث وتستحق أيضا النفقة والسكنى في أيام عدتها. وبعد أيام عدتها لا يبقى لها حق زائد عما قرر لها من نصيبها من الميراث. وذهب فريق آخر إلى أن العمل باق بهذه

الآية، على معنى أن الزوج عند إحساسه بقرب وفاته يوصي لزوجته أن يُنفق عليها وتسكن في بيتها مدة عام من تاريخ وفاته. على معنى أن المتوفى عنها يجب عليها أن تبقى أربعة أشهر وعشرا تتمتع بالسكنى والنفقة، وإذا أوصى لها زوجها بما زاد على ذلك إلى تمام العام من وفاته فذلك لها إن شاءت بقيت في بيت الزوجية وتتمتع بالنفقة، ولها أن تسقط ما متعها به زوجها ولا لوم عليها ولا إثم ما دامت ملتزمة بما هو معروف من الأحكام والآداب الشرعية، وكذلك الورثة لا لوم عليهم إذا هي فضلت إسقاط حقها فيما أوصى به الميت.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾

بيان معنى الألفاظ:

الآيات: دلائل الشريعة.

بيان المعنى الإجمالي:

لكل المطلقات المتعة وتمكينهن من ذلك حق على من كان متقيا لله، وعلى هذا النحو من البيان ينزل الله على عباده التنظيمات ليتأملوا بعقولهم ما جاءهم من الوحي.

بيان المعنى العام:

241-242: وللمطلقات متاع... لعلكم تعقلون.

بين القرآن حكم تمتيع المطلقة قبل الدخول. ودعت هذه الآية إلى تمتيع المطلقة بصفة عامة.

وحكم تمتيع المطلقات بصفة عامة هو كحكم المطلقة قبل الدخول المبين في معنى الآية السابقة، وكذلك التعليل.

ولا يستثنى من المطلقات إلا المختلعة، وهي الزوجة التي تكره المقام مع زوجها وتبذل له مالا ليطلقها فيفعلان، فهذه لا تستحق متعة. تفنن التعبير القرآني في وصفه الزوج المُمَتِّع، بالإحسان في الآية السابقة وبالتقوى في هذه الآية، وهما وصفان متكاملان لا يوجب اختلافهما اختلاف حكم. وحركت الآية عقول الناظرين فيها من المؤمنين للتأمل حتى يدركوا في وضوح نعمة الله عليهم بما بينه من أحكام وآداب تقيم المجتمع على أفضل الوجوه وأكملها التحاما.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

ألوف: جمع ألف.

حذر الموت: خوفا من الموت.

بيان المعنى الإجمالي:

استحضر في نفسك، يا محمد، وكل من تتأتى منه الرؤية، هذا المشهد العجيب: مشهد قوم كانوا وفيري العدد، بلغ عددهم الآلاف، تركوا ديارهم وخرجوا منها لما استولى عليهم الخوف من الموت.

فأماتهم الله زمنا، ثم رد عليهم إدراكهم. وتلكم الألطاف وذلكم الفضل من الله يسعف به عباده وما من فرد في الدنيا إلا هو محوط بأنواع من الفضل الإلهي في كل زمن وفي كل حال. ولكن الناس في غفلة فقليل منهم من يشكر أيادي الله عليه.

بيان المعنى العام:

243-244، ألم تر إلى الذين خرجوا...عليم.

هذه طريقة من طرق التنبيه والإيقاظ للسامع ليستحضر ذهنه ويحرك قواه للاستحضار، على أن ما سيذكر بعد هذه الصيغة (**ألم تر**) مثير للعجب موجب للاعتبار فما هي هذه الصورة العجيبة ؟ هذه الصورة تتمثل في أن قوما كانوا في ديارهم، مما يشعر بالاستقرار في الديار من سكينة ومَنَعة. وبينما هم على هذه الحالة دب الخوف في قلوبهم. لم يفصل القرآن أسباب خوفهم، أهو العدو، أم هو المرض والوباء، أم هو التسلط الظالم، أم غير ذلك؟ كما أبهمت الآية طريقة انتشار الخوف من وضعهم أشيء شاهدوه، أم أراجيف نشرتها الألسن فارتجفت بها القلوب أم غير ذلك ؟ سجلت الآية أنهم خرجوا من ديارهم وأبهم القرآن وجهتهم التي انصرفوا إليها. كما سجلت الآية أن ما حصل في قلوبهم فارتبكوا به وفروا هو خوفهم من الموت. تراءى لهم الموت ففروا منه .

وإذا بالموت الذي خافوا منه يفترسهم بكلمة واحدة مِنَ الذي يقول للشيء كن فيكون، فيبدو المشهد بعد ذلك الاضطراب ساكنا. هل ماتوا حقيقة، أو الموت موت مجازي لا حقيقي، على معنى ذهاب الفزع بإحساسهم ، أو صعقوا فكانت صورتهم صورة آلاف الجثث لا حراك بها، دون أن تغادر أرواحهم أجسادهم ؟ نص الآية

يحتمل كل هذه الوجوه. والآية تسجل أن الله أعاد لهم قوى الإدراك بعد ما حل بهم فأحسوا بفضل الله، الفضل الذي ينال منه كل فرد من البشر حظه. ولكن غفلة معظم البشر وتعلقهم بالحياة العاجلة، يحجبهم ذلك عن واجب الشكر. في ذلكم الإبهام ما يوحي بحالة الفزع التي هم عليها ، بما يصور للسامع للآية صورة من الاضطراب والجري اللاهث والتلفت والهلع، وترسم ملامح من الجبن والتعلق بالحياة. طوى القرآن ذكر أسمائهم وقبائلهم والأمة التي ينتسبون إليها، والإجابات عن الأسئلة التي أثرناها. كما لم يفصّل كيفية ما حل بهم من الموت والإحياء ليكون سردها على هذا النحو مقتصرا على ما به العبرة للمؤمنين الذين نزل عليهم القرآن، كي يحصنوا أنفسهم بالشجاعة والثبات، وليعلموا أن الخوف من الموت لا يؤثر في إبعاد الموت **(قل إن الموت الذي تفرون منه فإنه ملاقيكم)**[1] وهو معنى أكده القرآن ولفت الأنظار إليه في آيات عدة. وليكون هذا المشهد بجميع ما ورد فيه مهيئا للآية التالية التي يُعد بها القرآن الأمة لتحمل أعباء الدفاع عن الدين. فجاء الأمر بالقتال في سبيل نصرة الدين، بالثبات والشجاعة وعدم الخوف، وهو الطريق الموصل إلى مرضاة الله. وهو طريق يرعاه الله فلا تقع فيه حركة من الحركات، قلت أو جلت، ضعفت أو عظمت، إلا سجلها الله تسجيل من لا يغيب عن سمعه شيء، وما يدبره المجاهدون من تدبير وما يخططونه من خطط وما يجري في عزماتهم فإن الله به عليم. وذلك وعد كريم بالمثوبة يتيقن المؤمنون حصوله تيقن العلم لا الظن.

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

القرض: إعطاء شيء مع قصد أن يعود مثله لمعطيه.

حسنا: تطيب فيه النية.

يقبض: يتولى قبض القروض.

يبسط: يضاعف الثواب.

[1] سورة الجمعة آية 8

بيان المعنى لإجمالي:

يحث الله سبحانه على أن يقدم المؤمن ويتنازل عن بعض ما يملك بقصد أن يجد ثوابه عند الله مضاعفا. وأشار التعبير إلى تحقق مضاعفة الثواب بأن الله هو الذي يتولى قبض ما قدم. ويبسط الجزاء بما يتناسب مع فضله وكرمه، وأتم البشارة بأنه مدخر عنده يوم القيامة لأن جميع الخلائق تعود إليه فتلقى عنده جزاءها.

بيان المعنى العام:

245- من ذا الذي... وإليه ترجعون.

أمر الله المؤمنين بأن يقاتلوا في سبيله، بما يدعو إليه القتال من تجهيز للجيوش وبذل للنفس ، فحرّض على ذلك وعلى كل بذل، بما تضمنته هذه الآية. والمال مال الله وهو الغني الغنى المطلق، ولكنه ربى بالإسلام البشر تربية تسُلُ من نفوسهم خسيسة الشح، فحضهم على السماحة بأن جعلهم في صورة المقرضين له. والمقرض هو الذي تسمح نفسه بإعطاء شيء مما يملكه، فيقدمه مع قصد أن يعود إليه مثله أو مساويه.

ثم قررها قاعدة: أن كل من يقدم قرضا عن قصد حسن بلا رياء ولا طمع خبيث فإن الله سبحانه يتولى بفضله وكرمه قبول ما قدمه، مما يترتب عليه بوعد مؤكد منه ، أنه يضاعف له ثوابه أضعافا كثيرة. وهل هذا التضعيف هو بما يثيب به المقرض يوم القيامة أو هو شامل لذلك ولتيسيره لنوافل فضله في الدنيا ؟ إطلاق الآية يرجح إرادة الثوابين. والله متصف بأنه القابض للقروض الحسنة تشريفا للمقرضين، ويبسط الجزاء لتذهب النفسُ في تصور الجزاء كل مذهب ، إذ هو ممن وسع ملكه كل شيء ولا ينقص من ملكه شيء، وهو الموصوف بالكرم. والحقيقة أن كل الناس سيعودون إلى الله ، وتذكيرهم بهذه الحقيقة في ختام الآية ليثقوا أنه لا يضيع لهم شيء مما قدموه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ

بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾
وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ
وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً
لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ
مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ
غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ
قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟
ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا
بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى
ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ
ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ
لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ
نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

الملأ: الجماعة الذين أمرهم واحد.

هل عسيتم: لعلكم.

اصطفاه: اختاره.

التابوت: صندوق مستطيل حفظ فيه ما بقي من الألواح التي تلقاها موسى.

سكينة: الاطمئنان.

لآية: معجزة ظاهرة.

فصل بالجنود: ابتعد بالجنود.

من لم يطعمه: من لم يذقه.

غرفة: ما تأخذه كف اليد من الماء.

ملاقوا الله: الموت في سبيل الله.

فئة: الجماعة من الناس.

بإذن الله: تمكينه وعلمه.

أفرغ علينا: ارزقنا صبرا يعم قلوبنا وعقولنا ومشاعرنا.

ثبت أقدامنا: أعنا على الثبات وعدم الفرار.

بيان المعنى الإجمالي:

إثارة للتأمل، ثم الاعتبار فيما وقع لبني إسرائيل في فترة من تاريخهم. توالت الهزائم على بني إسرائيل بعد موت موسى عليه السلام، إلى أن ثار في نفوسهم رفض الواقع وهزتهم نخوة بَعَثَتْهم على مطالبة نبيهم أن يختار لهم ملكا يؤمره عليهم ويتولى قيادتهم ليأخذوا بثاراتهم ممن تحكموا فيهم وأذلوهم. وقد كان نبيهم مدركا للوهَن الذي استولى على عزائمهم، فسألهم لعلكم إذا فرض عليكم القتال تتأخرون عنه ؟ أكدوا أنهم عزموا أمرهم فإن ما وصلوا إليه يدفعهم دفعا قويا للقتال فقالوا: قد تم قهرنا فأخرجنا عدونا من ديارنا وأسر أبناءنا. ويظهر بعد ذلك صدق فراسة نبيهم فيهم فإنه لما فرض عليهم القتال تراجعوا، ولم يثبت إلا عدد قليل منهم. ويحق عليهم بذلك وصف الظلم الذي كان معلوما لله من قبل. قال النبي بعد ذلك للبقية التي أظهرت الثبات على خوض القتال تحت راية ملك يدبر شؤونهم ويقودهم إلى النصر، قال لهم نبيهم: إن الله قد اختار لكم ملكا ميزه عليكم، هو طالوت. تعجبوا من هذا الاختيار وقالوا: كيف يكون ملكُنا هذا الرّجل على مكانته الاجتماعية السوقية، وفينا من هو أقدر وأعظم في نفوس بني إسرائيل منه. ثم ثَنَّوْا بأنه مع منزلته الاجتماعية النازلة هو فقير. بين لهم نبيهم جهلهم، وأثبت لطالوت ثلاث خصال ليست لأحد منهم:

أ- أن اختياره كان من الله الذي يعلم المصلح من المفسد.

ب - أنه أقوى منهم بدنا وأطول قامة بما يجعل العدو يرهبه أشد رهبة.

ج ـ أنه أعلم منهم جميعا. ثم إن الله هو المالك الحق وأنه يعطي من ملكه لمن يشاء لا اعتراض عليه. والله واسع فضله، يعلم من هو أحق بالولاية. ثم زادهم بعرض آية تخضع لها رقابهم هي: أن تابوت العهد، الذي يحل معه الأمن والسكينة والطمأنينة في قلوبهم ويذهب به الفزع والخوف، بما أودع فيه من أشياء نفيسة مما تركه آل موسى وآل هارون، هذا التابوت الذي ضاع منهم وكان ما أصابهم من انهزامات متتالية قد حصل بعد ضياعه من أيديهم، سيأتيهم تحمله الملائكة ويتسلمه طالوت. خضع بنو إسرائيل لما رأوا الآية وساروا وراء ملكهم طالوت، فلما أبعد بهم أخبرهم بأن الله سيبتليهم ويختبر جلَدَهم، ذلك أنهم سيمرون على نهر صاف، ماؤه بارد، وأن الله لم يبح لهم أن يستقوا منه، وأن من شرب منه

طرد من جماعة النبي. ومن لم يشرب منه إلا مقدار غرفة بيده يطفئ بها لهب كبده إلى الماء، ينجح في الامتحان، وهو من جماعته. فلما مروا على النهر انكب معظمهم على النهر يشربون، وقد يكون بهم عطش فارتووْا، ولم يطبِّق التحذير إلا جماعة قليلة. هم الذين كانوا مؤمنين حقا فواصلوا معه المسيرة إلى العدو. واستشعر الذين بقوا معه عظم ما هم قادمون عليه ودبّ الخوف في قلوبهم، فقالوا: إن طاقتنا تقصر عن مواجهة جالوت قائد الأعداء وجيوشه الجرارة. وبقيت بقية صالحة في الجيش من الذين يظنون أن الله قد يكرمهم بالشهادة فقالوا: كثيرا ما غلبت جماعة قليلة جماعة أكثر منها عددا وعدة بسابق علم الله وتمكينه. والله يؤيد الصابرين ولا يتركهم لنفوسهم. ولما التقى الجمعان أخلصوا في الابتهال إلى الله داعين ربهم: يا الله ثبتنا عند اللقاء وحبب لنا الجهاد، وانصرنا بتأييدك على القوم الكافرين. وتنكشف المعركة الفاصلة عن انهزام الأعداء رغم كثرتهم وقوتهم، وعن انتصار كامل للمؤمنين. وبرز في الجيش داود فقتل جالوت قائد جيش العدو، ومنّ الله على هذا الفتى الشجاع فآتاه الله بما بذل في مدافعة الأعداء، أن جعل ذلك مهيئا له ليصبح ملكا. وجمع له مع المُلْك الحكمة في تسيير أمور من هم إلى نظره، ونمى علمه. وسيأتينا تفصيل ما رزقه الله لداود ﷺ. ويختم هذا التسجيل للحوادث المتسلسلة ببيان سنة الله في الخلق: أنه الله، ركب في الإنسان قوة تدفعه إلى تأمين نفسه ورد ظلم من يريد أن يهضم حقوقه المادية والمعنوية. وأنه لولا هذا التركيب المُحكَم الذي بُني عليه خلق الإنسان لفسدت الأرض ومن عليها، ذلك إذا كان الظالم يستبد باتباع شهواته ويستأصل من لا يخضع لمطامعه، فإن النهاية هي ذهاب ما كان به تكامل هذا الكون فينتهي الكون ولكن فضل الله عظيم. ما أنزلناه عليك يا محمد، من دلائل التصرف المحكم لله في الكون، تثبِّت قلبك وتزيدك إيمانا وتؤكد لك أنك من زمرة المرسلين الذين اختصهم الله دائما بمعرفة الحق، الذي لا يلحقه الباطل.

بيان المعنى العام:

246-ألم تر إلى... عليم بالظالمين.

صورتان متقابلتان سجلهما القرآن: .

الصورة الأولى مضت في الآية(243) تمثل جماعة استولى عليهم الخوف من الموت فخرجوا من مأمنهم وتاهوا حذرا منه، فسلط الله عليهم ما كانوا يحذرونه ثم أحياهم ليعتبروا.

الصورة الثانية: هو ما جاء في هذه الآيات من آية (246) إلى آية (251) فلنتبع تسلسل الأحداث وما تخللها من عبر، أو ما سنكشف عنه أثناء هذا التتبع الممتع.

التسجيل الأول: يدعو الله نبيه وكل مؤمن أن يستحضر من خلال ما قصه القرآن علينا في هذه الآيات الصورة المتحركة المليئة بالتقلبات والمفاجآت. جمع من الإسرائيليين كانوا يسكنون في مكان واحد، ويرتبطون بروابط الإقامة والجنس. الزمن التاريخي ،بعد مضي زمن على وفاة موسى عليه السلام وأخيه هارون. قد تسلط عليهم من استبداد أعدائهم وقهرهم، ما أثار في نفوسهم الحمية، فأخذت دواعي الانتقاض تدبُّ، محركة لهم لرفع الظلم وإرجاع ما ذهب من عزتهم. ويشير ذلك إلى سنة من سنن الله في الخليقة: أن الظلم ينتهي بتحريك المظلوم في النهاية ليرفع عن نفسه الظلم والاحتقار، بما يتبع ذلك من فقد للأمن وثورة تدفع الذين كانوا تحت سلطان الاستبداد ليسترجعوا كرامتهم المسلوبة وحقوقهم المغصوبة وتعمر القلوب بالبغض وحب الانتقام. ولذلك توجهوا إلى نبيهم أن يساعدهم على اختيار ملك عليهم، يجمع أمرهم، ويُعِدُّ لَهم الخطط التي يصلون بها إلى تحقيق نجاحهم ويقاتلون تحت لوائه في سبيل الله لا طمعا في مغنم ولا تسلطا ظالما على البشر. وسنة ثانية يشير إليها هذا المقطع: إن حاجة البشر إلى من يجمع كلمتهم ويوحد صفوفهم وينسق بين إمكاناتهم هو أمر ضروري للبشر، فقيام الدولة أول خطوة في العمران البشري المنظم.

التسجيل الثاني: أن نبيهم لم يكن واثقا من أن نفوسهم قد بلغت هذا المستوى من إباء الضيم والاستعداد للقتال والموت في سبيل ذلك. فقال لهم: لعلكم إن فرض عليكم القتال، بما يقتضيه من تضحيات وشجاعة، أن لا تقاتلوا وتجبنوا. فكان جوابهم حازما جأروا بأن الأمر بلغ بهم أن لا خيار لهم، فكل ما يمكن أن يبعث الجبن في النفوس قد ذهب، فأموالهم قد استولى عليها عدوهم بعد أن أخرجهم منها، وأبناؤهم في أسره يذلهم ويستخدمهم .

التسجيل الثالث: يظهر ما كان خفيا مما أدركه نبيهم الذي ما كان رده عليهم ليثبِّطهم**(هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا)** ولكن ليحذرهم من الضعف والوهن. ويفهم من تتابع المشهد أن نبيهم قد سأل من الله أن يأذن لهم في القتال. فلما تلقى الإذن وبلغه إليهم بأن الله قد فرض عليهم القتال، وعلموا أن الأمر جد تولَّى القسم الأعظم منهم وجبنوا. ويبرز في المشهد علم الله الذي لا تخفاه خافية، فهو عليم بهذه الكثرة المهزومة الظالمة، ظالمة لنفسها برضاها بالذل، وظالمة للجماعة التي استجابت، لأن انهزامهم يزعزع شيئا ما من صمود الصامدين،

ويخذل الفئة التي صممت على القتال لكن مع بقية الملإ. وفي هذا المقطع من الحكمة أن على القيادة ألا تنخدع باندفاعات الدهماء. وفيها تحريض للمؤمنين أن يستعدوا لقتال المكيين الذين أخرجوهم من ديارهم وأموالهم.

247- وقال لهم نبيهم... واسع عليم.

التسجيل الرّابع: بقي النبي في هذه القلة التي عقدت العزم وعاهدت على المضي إلى القتال. وما بقي إلا أن يعلن النبي اسم الملك القائد ولما تلقى من الله اسم من عيَّنه سبحانه لهذه المهمة، قال لهم: **إن الله قد اختار لكم طالوت ملكا.** وهنا يَلقَى النبي ﷺ من بني إسرائيل رفضا ومشاكل. لم يعجبهم ما اختاره الله، وأعلنوا بكامل الوقاحة رفضهم لهذا الاختيار، وأخذوا يناقشون أمر الله وصرحوا بأن طالوت ليس من ذوي المكانة الممتازة في المجتمع، وأنه مع ذلك فقير. ويصبر النبي على هذا الصلف ويبين لهم ما فاتهم إدراكه، وهو يتمثل في الأمور الآتية:

1) أن الله العليم هو الذي اصطفاه على قومه وقدمه عليهم ومعنى هذا أن الظواهر تكذب على محك التجربة، والله يعلم مآلات الأمور علمه بحاضرها.

2)اختار طالوت لهذه المهمة لأنه جمع بين، قوة الجسم التي يتحمل بها مشاق السفر ومداومة القتال، ومواصلة اليقظة، والمهابة في عيون الأعداء، وفرض شخصيته على الجند الذين يسيرون تحت لوائه، وبين ما رزقه الله من ذكاء وفطنة فكان أعلمهم بفنون القتال وأقدرهم على القيادة بحكمة وبصر مما يمكنه من الاختيارات الموفقة .

3) أن المالك الحقيقي للكون ولبني إسرائيل هو الله، ولا يعترض عليه في تصرفه في ملكه فهو يعطي من ملكه ما يشاء لمن يشاء. وهو القادر التي لا تحد قدرته حدود، وهو العالم الذي يستوي في علمه ما كان والحاضر والمآل.

248-وقال لهم نبيهم...إن كنتم مؤمنين.

4) أن الله قد يسر لطالوت أن يأتيهم بالتابوت الذي أضاعوه تحمله الملائكة بطريقة لم يفصلها القرآن (وهو صندوق جمع فيه بعض الألواح التي أخذها موسى وبقايا مما تحطم منها) وفي هذا التابوت أسرار عظيمة، فكان قبل أن يضيع منهم ينصرون كلما رفعوه، وانحل أمرهم وشرذوا بعده.

5) نبههم إلى الربط بين رجوع التابوت وتمليك طالوت عليهم بأن مجيئه قصد به أن يكون آية دالة على أن الله هو الذي اختار لهم طالوت ملكا. وأن اعتماد هذه الآية علامة على الإيمان.

249-فلما فصل...مع الصابرين.

التسجيل الخامس: يفهم من السياق أن البقية الباقية من المقتنعين بالقتال، الذين انقادوا للملك طالوت، قد توحدوا تحت إمرته وأعدوا للقتال عدته وسار الجيش قاصدا منازلة الذين ساموهم الخسف والهوان. ناداهم في طريقهم طالوت: إن الله سيختبركم بالنهر الذي ستمرون عليه، هو نهر يجري ماؤه عذبا زلالا، وأن ما بكم من شهية الماء يدفعكم إلى الشرب منه، فإياكم أن تشربوا من مائه إلا أن يأخذ أحدكم بيده ما يبل به جفاف حنجرته، واعلموا أن من شرب منه فذلك هو القطيعة بيني وبينه، ومن ذاقه على الوصف الذي وصفت لكم فهو مني يسير معي للقتال. سمع الجيش ما أعلمه به طالوت. ولكن عندما وصلوا إلى النهر انكب معظمهم عليه يرتوي مبالغا من مائه. وبذلك تقلص جيش طالوت إلى عدد قليل من الناس هم الذين لم يشربوا، أو الذين لم يجاوزوا ما أخذوه غرفة بأيديهم. وفي هذا المقطع ما يقرر قاعدة من قواعد القيادة: أن يدرب القائد الجيش الذي معه على الطاعة ، الطاعة التي لا نقاش معها، القائد يأمر والجندي يطيع.

250-ولما برزوا لجالوت...وانصرنا على القوم الكافرين.

التسجيل السادس: يفهم مما طواه السياق أن الأخبار قد بلغتهم تفيد أن العدو قد أعد عدته وأمر على جيوشه الجرارة قائدا رهيبا هو جالوت. ويضطرب جيش طالوت لما ترامى إليه من الأخبار، وينقسم إلى قسمين:

- ❖ قسم: المعادلة عنده هي بين الكثرة والقلة، ولا قوة إلا القوة المادية، وبناء على ذلك يصرحون بأنهم لا طاقة لهم بجالوت وجنوده.
- ❖ وقسم: يُدخل في المعادلة تأييد الله وهم الذين يرقبون أن يفوزوا بالشهادة **(يظنون أنهم ملاقوا الله)** فيردون على المثبطين الخائفين بقولهم: إنه قد تكرر في التاريخ أن جماعة قليلة العدد انتصرت وهزمت من هم أكثر منها عددا بتأييد من الله، والله يؤيد الصابرين. فعامل الصبر والإيمان وقوة العزيمة واسترخاص الحياة هو المحقق للنصر.

251-فهزموهم...على العالمين.

التسجيل السابع: سار طالوت بمن بقي معه إلى لقاء جالوت وجنوده. ولما التقى الجيشان أيد جيش طالوت نفسه بالابتهال إلى الله، أن يوطِّن نفوسهم على الصبر على القتال وأن يستل منها دواعي الخوف، وأن يثبتهم فلا يتسرب ضعف الفرار إلى قلوبهم، وأن يجعل ضرباتهم مُوَهِّنَةً للعدو، وأن يهبهم نصره على القوم

المعتزين بكفرهم. ودارت المعركة وانكشفت عن هزيمة الكافرين هزيمة نكراء وبرز من بين المقاتلين شاب ما كانت بطولته معروفة من قبل، قتل جالوت وحز رأسه. هذا الفتى هو داود الذي بلغ بنو إسرائيل تحت إمرته بعد ذلك أوج عزهم لما ملك عليهم. وآتاه الله الحكم والنبوة وفتح على بصيرته ففاق أهل زمانه علما ومعرفة.

252-تلك آيات الله...المرسلين.

وتختم التسجيلات بتقرير حقيقة: هي سنة الله في خلقه التي أجرى عليها أمر الكون، وقد يكون الناس عنها غافلين: أن الله قد فطر الناس على أن يدفع بعضهم بعضا، على أن لا تكون الحياة الدنيا حياة ساكنة رتيبة، بل حياة مضطربة يتصارع فيها الخير والفضيلة والعدل من ناحية، والرّذيلة، والظلم والشر من ناحية أخرى. وهذا الصراع هو طبيعة الخلق الإلهي الذي أراد أن يكون الإنسان خليفة في أرض الله ينمي خيراتها. يبين لنا ذلك أن الناس قد ركبت فيهم غرائز هي التي تدفعهم لعمارة الأرض فلولا غريزة حب البقاء، وغريزة حب التملك، وغريزة الأنانية، وغريزة الجنس لولا هذه الغرائز ما جاهد الإنسان في الحياة وما نمّى شيئا من خيراتها، ولكان مقتنعا بما عنده في يومه راغبا عن هذا السعي الدؤوب المتعب، والحرص على توفير أكثر ما يستطيع توفيره من متاع الدنيا. هذه الغرائز قد تقوى عند بعضهم قوة تتجه تارة نحو الخير. وتارة نحو الشر، فيتغلب حب الاستئثار والأنانية عندهم على حقوق الآخرين. وبنفس تلكم الغرائز يقف فريق آخر يدافع عن مكتسباته ويأخذ على يد المستبد الظالم، وبهذا التدافع يرتقي العالم في إحداث وسائل التغلب والاستيلاء على الخيرات بمتنوع طرق الحق من ناحية، وبوسائل الشر والظلم من ناحية أخرى، وتكون يقظة الإنسان مصاحبة له. فمن فضل الله على الإنسان أن مكنه حين استخلفه، بما أودع فيه من قوى، من النجاح في مهمة الاستخلاف التي يمضي فيها إلى الأمد المقدر في علمه سبحانه. فكان في ذلك فضلُه واضحا على العالمين مؤمنهم وكافرهم صالحهم وشقيهم. وأكثر من هذا، إن التدافع لم يقتصر على جنس الإنسان بل شمل كل الكائنات وانبثقت من هذا التدافع سنة أخرى من سنن الخلق: سنة التطور نحو الأفضل والبقاء للأصلح. وهذه الحقائق التي لا علم للناس بها قبل نزول الوحي يقول الله: إنه يتلوها على قلب رسوله مصاحبةً للحق الذي لا ريب فيه كاشفةً عن خفايا تقوم مناديسة بأن محمدا ﷺ أحد رسل الله، علّمه كما علّمهم، وعلّمه ما لم يكن يعلم وكان فضل الله عليه عظيما.

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَٰكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (253)

بيان معاني الألفاظ :

البينات: المعجزات الواضحة.

روح القدس: جبريل عليه السلام.

القدس: الطهر النزاهة.

بيان المعنى الإجمالي :

أشارت الآية إلى موكب المرسلين وهم يتتابعون عبر الزمن لبيان هداية الله. وهم ليسوا على مرتبة سواء فبعضهم أفضل من بعض. وصرحت الآية بسبب التفضيل، فضل موسى بأن الله أبلغه كلامه بدون واسطة جبريل، واختص عيسى بأن مكنه من معجزات ظاهرة محسوسة وأيده بجبريل، وما كان في رسالاتهم ما يوجب القتال. ولكن التعصب يعمي البصائر فتخفى الحقائق البينة، فوقع الاختلاف بسبب هؤلاء المتعصبين فكان منهم الكافرون، ونجا المتبصرون فآمنوا. ولو شاء الله أن يمنعهم من الاقتتال لفعل. ولكن الله يتصرف حسب حكمته التي إدراك جميع أسرارها فوق طاقة العقول فيفعل سبحانه ما يريد.

بيان المعنى العام:

253- تلك الرّسل...يفعل ما يريد.

ختمت الآية السابقة بقوله تعالى **(وإنك لمن المرسلين)** فأشارت إلى هذا الموكب من رسل الله وميزهم كأنك تشاهدهم أيها التالي لقوله **(تلك الرّسل)** وقرر حقيقة: هي أنهم وإن اشتركوا في تحمل شرف الرّسالة فإنهم ليسوا على مرتبة سواء. فالله الذي تخير رسله من بين خلقه **(الله أعلم حيث يجعل رسالاته)**[1] فاضل بينهم، وخص بعضهم بمزايا تعود إلى النجاح في المهمة التي أوكلت إليه أوّلا، وتعود إلى أنواع العناية التي خصه بها. فموسى عليه السلام قد خصه بأن أعطاه قدرة جعلته يحس إحساسا خاصا فهم مراد الله من كلامه له بكل مداركه في لحظة مناداته بجانب جبل الطور. وعيسى عليه السلام جعل صلته بجبريل صلة ابتدأت من الساعة التي حملت

[1] سورة الأنعام آية 124

به أمه ونفخه فيها إلى أن توفاه الله ورفعه. وواسطة العقد بينهما في الذكر محمدﷺ الذي أشار له بقوله: ورفع بعضهم درجات. تبدو هذه المنزلة الرّفيعة في بعثته إلى الثقلين وختْم الرّسالة به وفي بقاء القرآن سليما من كل تحريف أو تغيير أو زيادة أو نقصان، تتواصل هدايته عبر القرون لا يتناقض في ذاته ولا يأتيه ما ينقضه. وبقاء معجزاته ناطقة بصدقه سائرة مع البشرية في امتداد عمرها. وكل معجزات الرّسل الآخرين أصبحت بعدهم في دائرة السماع بها، وخرجت من الإدراك المباشر بما له من قوة. ثم إن أتباع الرّسل ثارت بينهم الفتن وقامت الحروب واقتتلوا. وهذا الذي وقع لم تتعلق الإرادة الإلهية بمنعهم منه، ولم يرد الله أن يستلّ من نفوسهم دواعي التعصب ويقسرهم قسرا على التأمل في البينات التي من شأنها أن تنشر السلام، وتجمع الكلمة، وتوحد الصف، وتقضي على الباطل. بعد أن جمعهم رسلهم على كلمة الله، ثار بينهم بعد ذلك الخلاف، الخلاف الذي هو نابع من الهوى والتعصب، وعدم تحكيم ما هو بين أيديهم من الآيات البينات. ووصل بهم النزاع إلى حد غير معقول ولا مقبول. فكفر بعضهم وهم الذين أبعدوا في التأويل والخروج عما تقتضيه كلمة الله، وبقي البعض مؤمناً. ثم تطور اختلافهم إلى القتال وإزهاق الأرواح. ولو شاء الله أن يصدهم بقوته عن القتال لفعل، ولكن الله يفعل في هذا الكون ما تعلقت به إرادته. وإرادته سبحانه هي البيان وإرسال الرّسل، ثم ترك الحرية للناس يسيرون في الحياة سير المسؤول عن أعماله. إذ لو منعهم منْ تجاوز هداية المرسلين، وأخضع المبطلين من المبعدين في التأويل إلى الصالحين المتمسكين بالبينات، وغلّ أيديهم، لانتهى التكليف الذي بنى عليه الله أمر الحياة الدنيا.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

الخلة: الصداقة التي يتقوى بها الصديق لتحقيق مراده.

الشفاعة: الوساطة في طلب النفع أو دفع الضر.

بيان المعنى الإجمالي :

دعت الآية المؤمنين لبذل المال الذي تفضل به الله عليهم ورزقهم إياه، لأنه هو الذي سخر الأسباب وأزال العوائق لكسب ما كسبوا. وحثهم على التعجيل بذلك قبل أن يدركهم يوم القيامة، اليوم الذي لا يحصل فيه أي كائن ولو على أقل شيء

ينفعه، لأن سبيل الكسب إما مبادلة مال بمال ولا بيع في ذلك اليوم، وإما عطية من صديق ولا صديق يملك شيئا يعطيه، وإما بشفاعة يتدخل بها الشافع لينيل المشفوع فيه ما يرفع عنه المآخذ أو يقويه على نيل مبتغاه، ولا شافع في ذلك اليوم إلا من أذن له الرّحمن في حدود ما أذن له فيه. وقد انحصر الظلم في القوم الكافرين.

بيان المعنى العام:

254- يا أيها الذين آمنوا...والكافرون هم الظالمون.

نداء من الله للمؤمنين يستحثهم على الإنفاق، ويدعوهم إلى غسل ما يمكن أن يعلق بالنفس من لوثة الشح، ومرض حب المال حبا ينسي المرء حقيقة يُذَكر بها القرآن في أسلوبه المعجز هي أن المال يرزق منه الله ما شاء لمن شاء. فكل مولود يولد عريانا لم يملك بنفسه شيئا، ثم يأتيه ما كتبه الله له من رزق ولو عوّقه القدر المحتوم عن الكسب لما حصل أي شيء من المال الذي بين يديه. فحواسه وسلامته البدنية، وما رزقه من ذكاء وفطنة، زيادة عن الظروف المواتية، كل ذلك من الله. يعجز الإنسان عن تحقيق أي شيء من ذلك. ويجمع هذه الأمور وغيرها قوله تعالى (**مما رزقناكم**) فالملك ملكه، وتوفّق الإنسان لكسب شيء منه هو بتسخيره تعالى. وإذا كان الملك لله، فالإنسان مستخلف فيه، مسؤول عن تصرفه، فيكون الإنفاق الذي دعا إليه المؤمنين هو الإنفاق المشروع الذي يرضاه مالك الملك. وخاصيته أن يجد المنفق إنفاقه يسري معه في الحياة الدنيا ويواصل مسيرته ليلقاه يوم القيامة ثوابا وكرامة. ويدخل في ذلك دخولا أوليا الإنفاق في سبيل الله، فترتبط الآية بما ألمحت إليه الآية السابقة من الاقتتال بين أهل الحق وأهل الباطل، وبين الضالين من الكفار والرّاشدين من المؤمنين. **(ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا)** وتبرز الآية تلكم الخاصية الداعية لتعجيل الإقبال على الإنفاق قبل أن تضيع الفرصة، فإن كل إنسان سيعرض على ربه يوم القيامة في يوم لا ينتفع بمال يشري به نفسه إذ لا يملك شيئا تتم به صفقة البيع **(الملك يومئذ لله)**[1] ولا يجد صديقا يبذل له لعلاقته به قليلا ولا كثيرا، ولا يجد شافعا يشفع له في تقصيره أو ينيله أي مكرمة. إن الكفر بالله هو أعظم أنواع الظلم، فالكافر يجحد فضل الله عليه ويعصيه وينكر تصرفه في الكون ويتسلط على أهل الإيمان، ويظلم الناس بفاسد سلوكه وفرط أنانيته، وصدق الله: **(والكافرون هم الظالمون)**.

[1] سورة الحج آية 56

ٱللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

القيوم: القائم على كل أمر بما يجب له.

لا تأخذه: لا تستولي عليه.

سنة: بدء النعاس.

النوم: ما يذهب معه يقظة الذهن ليستريح.

يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم: يشمل علمه الماضي من أحوالهم والمستقبل منها

كرسيه: تصرفه بعلمه.

لا يؤوده: لا يثقله فيَحْنيه.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآية تتميز باسمها الخاص: آية الكرسي. وروي أنها فسطاط القرآن وفَصّلَت جُمَلُها ما يُعَرِّف المؤمن بالخالق العظيم. فافتتحت باسم الجلالة (الله) وهو الاسم الذي اختص به لا يشاركه غيره فيه، وأول تعريف له: أنه هو المتفرد بالألوهية لا يشاركه أحد في ذلك فأبطل التصريح بذلك كل عقائد الشرك. وكل من ادعى الألوهية أو أسندت إليه هو كذب وزيف. والثاني: أنه حي لا يموت ولا يفنى.

والثالث: أنه قائم على الكون يمكن كل كائن بما يحفظ وجوده وبما يوصله إليه مما كتبه له .

والرّابع: أنه لا تستولي عليه غفوة تسبق الاستغراق في النوم ولا يستغرق في النوم.

والخامس أن السماوات وما حوته والأرض وما فيها مملوكة له لا يتصور أن يشاركه في ملكه أحد.

والسادس:أنه لا يمكن أن يتقدم أي شفيع من ذاته ليشفع عنده وهو رد لما يزعمه بعض عبدة الأوثان أن آلهتهم تشفع لهم عند الله. لكن من يأذن الله له في الشفاعة تكريما له فإنما ذلك بإذنه.

والسابع: أن علمه شامل لواقع الحياة لجميع المخلوقات في كل لحظة حاضرة، وفيما سبقها من اللحظات إلى أبعد الآماد الماضية. وكذلك فيما يستقبل من الأزمان علما واحدا لا اختلاف فيه ولا يغيب عن علمه شيء.

الثامن: أن علمه لا يقاس بعلم الكائنات إذ علمه سبحانه عام شامل وأما علم غيره فإنما هو في حدود ما يسّره له.

والثامن: أن كرسيه وسع الكائنات الموجودة في السموات وفي الأرض، وسنزيد ذلك بيانا في المعنى العام.

والتاسع: أن قيامه على الكون وتصرفه فيه تصرف الحفظ والرّعاية، لا يثقله ولا يتعبه فهو مطاوع له بما جُبِل عليه من الطاعة السريعة لما يدبره ويأمره به.

والعاشر: أنه هو العلي الذي سما في مقامه فلا تبلغ العقول تصور علاه، وكل ما خطر بالبال من السمو والكمال فالله أكمل. والحادي عشر: أنه الموصوف بالعظمة البالغة.

بيان المعنى العام:

255- الله لا إله إلا هو...العلي العظيم.

لُقِّبَتْ هذه الآية بآية الكرسي، والكرسي لم يذكر في القرآن إلا في هذه الآية. روى الحاكم بسنده إلى رسول الله ﷺ أنها: سيدة آي القرآن. ووصفت بأنها فسطاط القرآن (والفسطاط مجتمع أهل المدينة حول الجامع) وفضائلها كثيرة والتنويه بها وخصائصها مبثوثة في كتب التفسير. هذه الآية عرّفَتْ المؤمن بالعقيدة الصحيحة في ذات الله سبحانه. جمعت أحد عشر وصفا لله تُميِّزه بالألوهية الكاملة المتفردة. أجرت تلك الصفات على العَلَم المفرد الذي لا يشاركه في التسمية به أحد وهو أعرف المعارف (الله)

الوصف الأول: أنه هو المتفرد بالألوهية. فكل معبود سواه باطل وزيف. وأشد ما يفسد العقول أن تقبل بتقديس وعبادة فاقد للتأثير محدَثٍ فانٍ. وبذلك تفرد الإسلام بأنه دين التوحيد الخالص.

الوصف الثاني: الحي. وحياته سبحانه حياة أزلية لا بداية لها أبدية لا نهاية لها، تنبئ عن الكمال الذي يقارنه العلم والتأثير.

الوصف الثالث: القيوم، صفة مبالغة تثبت أن الله قائم على كل كائن من بداية وجوده إلى فنائه وزواله، يعطيه خصائصه ويتصرف فيه في كل لحظة من

لحظات وجوده فيتطور في المسار الذي رتبه لــه تحــت عنايتــه، قــال تعــالى (**أفمــن هو قائم على كل نفس بما كسبت**)[1]

الوصف الرّابع: لا تأخذه ســنة ولا نــوم. مــن لــوازم النبهــاء الأذكيــاء المــدبرين أنــه يلحقهم الإعياء، ويســتولي علــيهم النــوم ليتجــدد نشــاطهم. وبينــت الآيــة أن تصــرفه سبحانه هو التصرف الذي يقول للشيء: كن فيكــون، لــيس ذلــك بجهــد مبــذول. فــتم تجسيم هذا المعنى بالتنصيص على أنه لا يســتولي عليــه الإعيــاء فتصــيبه إغفــاءة ، أو يستولي عليه النوم مما هــو مشــاهد فــي البشــر مــن ضــعفهم عــن مواصــلة العمــل ومقاومة النوم. فالسِنة هي تلك الحالة التي تسبق النــوم المســتغرِق. وفــي هــذا رد لمــا اعتقده أرسطو ومن تبعه أن الله ترك العالم يسير حسب قوانين واستغرق في ذاته.

الوصف الخامس: له ما في الســماوات ومــا فــي الأرض. مالــك الكــون كلــه ســمائه وأرضه وما فيهما من ملائكة وجــن وإنــس وحيــوان ونبــات وجمــاد. لا يشــاركه فــي هذا الملك أحد. فملكُ البشر مثلا ملك محدود بــزمن، ملــكٌ نــاقص لا يســتطيع المالــك أن يحفظ ما ملكه على الوجه الذي يريده حتى في حــدود ذلــك الــزمن. وهــذه الجملــة تبرز ارتباط آية الكرسي بما سبقها في قوله تعالى(**أنفقوا مما رزقناكم**)

الوصف السادس: أنه لا يتجرأ أحــد، فيتقــدم للشــفاعة فــي غيــره، ممــا يتســبب عــن شفاعته من تنفيل للمشفوع، أو رفع ما استحقه من عقوبة. وفــي هــذا نفــي لمــا يزعمــه أهل الأوثان أن معبوداتهم تشفع لهم عنــد الله. ولــيس معنــى هــذا أنــه لا تقــع شــفاعة أصلا فقد استثنت الآية صورة مــن الشــفاعة مقبولــة وهــي:أن يــأذن الله لمــن يشــاء تكريما ،لا إدْلالًا من الشفيع على أنه مقدم ذاتيا لذلك.

الوصف السابع: أنه يعلم ما تقدم من أعمال كل فرد وما هــو حاصــل فــي الحــال ومــا سيحصل منه في المستقبل. ولما كان علمه سبحانه علــى هــذا المســتوى فــإن تفصــيله هذا يؤكد نفي الشفاعة، لأن شأن الشــفيع أن يُــثَمِّن فــي المشــفوع النــواحي الإيجابيــة ويستر النواحي السلبية.

الوصف الثامن: أن علمه يشمل الجزئيــات والكليــات، ومــا يتهيــأ لــه كــل فــرد مــن تطورات وتغيرات تصل به إلى نهايته. وعلمــه ســبحانه لا يقــاس بــه أي علــم يحصــل للبشر، لأن البشر لا يحيطــون بــالمعلوم.إحاطــة كاملــة إذ النهايــة محجوبــة عــنهم، والعاقبة مجهولة لهم وما سيلقون فيها مجهول، والمســتقبل بصــفة عامــة لا يفضــي بمــا سيكون عليه.

---

[1] سورة الرّعد 33

الوصف التاسع: وسع كرسيه السماوات والأرض. ظاهر هذه الجملة أن الله له كرسي، وأن كرسيه أوسع من السماوات والأرض. واللفظ يحتمل أن يكون المراد مدلولا لا نعلم عنه إلا أنه يطلق عليه لفظ الكرسي، ويختلف اختلافا كاملا عن الكرسي المادي . فهو من متعلقات الذات الإلهية التي تقصر مداركنا عن الإحاطة بها. كما يحتمل اللفظ أن يكون المراد منه معنى غير حقيقي مما شاع استعماله في اللغة العربية من التعبير عن السلطان بالكرسي. أومن إطلاق الكرسي على العلم. وعلى هذا يكون المعنى: وسع علمه أو وسع سلطانه.

الوصف العاشر: أن تصريف هذا الكون القريب منه والبعيد، والمدرك منه بالأبصار والمدرك بالأدلة القائمة على وجوده ولكن لبعده تضعف الأبصار والآلات الآن عن تحديده، مما تقدر أبعادُها بالسنوات الضوئية. إن تصريف أحوال كل جزء صغير أو عظيم من هذا الكون الكبير، وتمكين كلٍّ من التطورات التي تحدث فيه واتصاله بغيره مع حفظ كيانه، يتم كل ذلك دون أن يُثقل عليه مصورا نفي الثقل بنفي انحناء المباشر لحمل شيء ثقيل. وهو معنى لا يؤوده.

الوصف الحادي عشر: العلي. وعلوه سبحانه سمو معنوي هو أرفع من أن يحيط به علم البشر، أو ينحصر في مدارك الإنسان، أو يتأثر بأي شيء مما يجري في الكون. كل شيء تافه بالنسبة للذات الإلهية. فهو العلي الأعلى.

الوصف الثاني عشر: العظيم: وعظمته سبحانه لا تحد فكل ما خطر ببالك من الأمور العظيمة فالله أعظم من أن تقاس بعظمته أو تخرج عن سلطانه.

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

الإكراه: قهر الإنسان على فعل ما يكرهه.

الدين: الإسلام.

تبين: تميز.

الرّشد: الهدى.

الغي: الضلال في المعتقد.

الطاغوت: المقدس من دون الله.

استمسك: تمسك.

العروة الوثقى: أصله الحلقة يمسك منها للشد.

بيان المعنى الإجمالي :

نفت الآية أن يكون اتباع الدين مستندا إلى الضغط على الشخص أو إرهابه ليؤمن. فقد وضحت مقومات الإسلام وأركانه. وتَمَيَّزَ الهدى في العقيدة، ولم يبق مدخل لأي شائبة من شوائب الضلال. وصرحت الآية بعد ذلك بالنتيجة: أن من يكفر بكل ما عبد من دون الله فهو آمن في مساره، كمن تمسك بعروة قوية شديدة الاتصال بأصلها لا يخشى انحلالها ولا انقطاعها. والله لا يخفى عليه ما يجري في بواطن العباد وظواهرهم. يسمع أقوالهم وتنكشف له بواطنهم.

بيان المعنى العام:

256- لا إكراه في الدين... سميع عليم.

تبين من تفاصيل آية الكرسي العقيدة التي أقام عليها صرح الإيمان. فقد وضَّحت مفهوم الألوهية من الوحدانية إلى العظمة التي لا يدانيها أي شيء. وهذا التصور لا يمكن أن يبلغ درجة العقيدة بالإكراه والضغط والتعذيب. ذلك أن الإكراه قد يحصل به الإذعان والاستسلام الظاهري، أما العقيدة التي مقرها الباطن والضمير فلا تستقر استقرار الثبات والطمأنينة إلا إذا حصلت بناء على الاقتناع المستند إلى الوضوح الكامل. وهو معنى قوله تعالى: قد تبين الرّشد من الغي قد تميز طريق الهدى تميزا لا يلتبس بطريق الضلال. وواصلت الآية إبراز هذا التميُّز بأن من يكفر بأي معبود كان سوى الله ولا ينتهي به إلى رفض الإيمان عامة بل يؤمن بالله وحده **(فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله)** هو الذي نجا، وضربت الآية مثلا له بأن الإنسان في مسيرته في الحياة الدنيا كمثل شخص تتقاذفه الأمواج، فيلقى إليه حبل شديد الفتل في طرفه حلقة لا تنقطع عن أصلها ولا تنحل، فيتمسك بها لتكتب له السلامة في النهاية. هذه العروة الوثقى هي العقيدة الصحيحة بعد أن وضحت. وتتوج الآية بأن الله لا يخفى عليه شيء من أمور البشر فهو سميع لما يجري على ألسنتهم عليم بما تحويه عقولهم وضمائرهم. وهو ما يشير إلى تأكيد أن من آمن مكرها لا يعتبر مسلما.

<u>تنبيه</u>: يعترض كثير من الحاقدين على الإسلام، ويروِّجون إلى أن الإسلام قد انتشر بالسيف. وهذه الآية تفند ما ادعوه. إذ أن هذه الآية من الآيات الأصلية المحكمات فلا يوجد في التاريخ دليل واحد على أن فردا أو أمة أجبروا على الدخول في الإسلام. بل إن هذه الآية تمثل أصلا من أصول النظام الاجتماعي: أن الحرية هي أساس بناء المجتمعات في كل ما يتصل بحياتهم الاجتماعية من دين وتملك وحُكم وبناء الأسر إلى آخره. وما يقدم كحجة على ما يدعون من الحروب

التي قام بها المسلمون، هو تضليل وتزييف للحقيقة. ذلك أن الإسلام قام على الحرية. فمن يمنع البشر من حريتهم يقاتل حتى يتخلى عن ظلمه وجبروته ويترك للناس حريتهم في المعتقد. فالقتال لحماية الحرية لا لقتلها.

ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

بيان معنى الألفاظ:

ولي: الحليف الذي ينصر حليفه.

الظلمات: الشبهات.

النور: الإيمان.

خالدون: البقاء المستمر.

بيان المعنى الإجمالي :

الله في عظمته وجلاله هو الذي يثبّت المؤمنين ويرعاهم، فيخرجهم من ظلمات الشك ويزيح عنهم الشبهات. والذين كفروا سندهم الطواغيت التي لا أصل لها ولا حقيقة إلا الوهم المضل الذي سرى منهم إلى أتباعهم فأضلهم وحجبهم عن الإيمان. وحق عليهم سوء العاقبة بخلودهم في النار.

بيان المعنى العام:

257- الله ولي الذين آمنوا...هم فيها خالدون.

في الآية السابقة تقرير بنجاة وفوز المؤمنين بسبب إيمانهم، وهذه الآية أضافت إلى وضعهم الأول تقريرا آخر هو أن الله تكفّل بإعانتهم ليواصلوا مسيرتهم متمسكين بإيمانهم. وإنه لمطلب عزيز. ذلك أن شأن الإنسان في حياته أنه معرض لوساوس الشيطان وتلبيس الفجرة وحديث النفس، تعمل متفرقة ومجتمعة على الإحاطة به وتضليله. والله قد تكفل بأنه يتولى المؤمنين فيخرجهم من حبائل الشيطان ووساوسه فيثبتهم على الصراط المستقيم في نور الإيمان الواضح المطمئن. وفي المقابل فإن الذين كفروا تتشرب عقولهم شبهات وأباطيل المضللين من الإنس والجن فيخرجونهم من دائرة الإيمان، ليلف ظلام الحيرة والشك على مداركهم. متحيرون في تصور مبدئهم ومصيرهم وما ينتظرهم. ويكشف القرآن عما يسألون عنه ولا يجدون له جوابا، فيعلن أنهم سائرون إلى مصيرهم الذي هو أسوأ مصير: الخلود الدائم في نار جهنم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

بيان معنى الألفاظ:

حاج: خاصم بالباطل.

بهت: عجز عن المعارضة.

بيان المعنى الإجمالي :

دعت الآية كل مؤمن ليحيي هذا المشهد ويتأمل فيه. أثبت إبراهيم عليه السلام للملك أن الله هو وحده الذي يتصرف في الكائنات فيُحيي من أراد ويميت من يشاء. فرد عليه الملك معاندا وقال: أنا أيضا أحيي من أعفو عنه وأنفذ الموت فيمن أريد قتله. فقال له إبراهيم: إن الله يتصرف في الكون كله فهو الذي يطلع الشمس من المشرق، فائت بها من المغرب، فانقطعت حجة الملك. وهكذا يكون الظلم حجابًا فلا يصل الكافر إلى الاهتداء إلى الحق.

بيان المعنى العام:

258- ألم تر إلى الذي حاج...الظالمين.

ورد في آية الكرسي أن الله حي، وورد في الآية التي تليها أن الله يفتح على بصائر المؤمنين فيزيح عنهم الشبهات على عكس الكافرين. فمكّن القرآن تلكم المعاني بما ورد في هذه الآية التي خاصم فيها الملك المتغطرس إبراهيم عليه السلام. عرض إبراهيم عليه السلام على الملك العقيدة التي أرسل بها، ليهدي الناس إليها. وقال له: إن الله هو المتفرد بالإحياء والإماتة، فيحيي من يشاء ويميت من يشاء. ولكن الملك بغطرسته وزهوه بنفوذه أجاب بأن ما عرضه إبراهيم ليس من خصائص ربه وحده، وأنه وهو الملك يتصرف في حياة الناس كما يشاء، فينفذ الموت فيمن تعلقت إرادته بقتله ويبقي حياة من عفا عنه. فحوله إبراهيم لغلظ حسه واستكبازه، لا إقرارًا لرده ولكن ليربط بين الخالق والكونْ مما لا يستطيع أحد أن يثبت لنفسه أي تأثير فيه. هي الحقيقة المشاهدة المتكررة وقال له: إن الله يطلع الشمس كل يوم من المشرق، فإن كنت إلها فأطلع الشمس من المغرب. فأفحمه وظهر عجزه.

وهكذا فالآيات الكونية يهدي الله بها المؤمنين فيثبتون، ويحرم الكافرين بما يسدله الكفر على بصائرهم فلا يهتدون بها.

الحكمة: في لفت نظر المؤمنين لهذه المحاجة دليل على أن إقامة الحجة على ما يعتقده المؤمنون أنه الحق، منهج إلهي جرى عليه المرسلون.

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

بيان معنى الألفاظ:

خاوية على عروشها: ساقطة على سقفها.

لم يتسنه: لم يتغير.

ننشرها: نحييها.

بيان المعنى الإجمالي:

واقعة ثانية تؤكد أن الله هو الحي المتصرف بالحياة والموت، لفت القرآن إليها الأنظار ليتمثلها المؤمنون في نفوسهم.

تمثل الواقعة: أن رجلا كان مسافرا على حمار ومعه طعامه، ومر في طريقه على قرية فرأى منظرا مفزعا. خربت القرية خرابا فظيعا، انقلب أسفلها على أعلاها، وقد دخل اليأس قلبه من هول الخراب فقال: بعيد جدا أن يحيي الله هذه القرية بعد هذا الخراب المميت. فأماته الله مائة عام، ثم رد عليه قُوَّتَهُ على الحركة ، وجاءه السؤال من الله الخالق: كم لبثت في هذا المكان فقال: بقيت يوما، ثم راجع نفسه ليكون دقيقا، فقال: بل بقيتُ بعضا من يوم. وعرفه الله بالحقيقة أنه مضى على مكثه في ذلك المكان مائة عام. ثم حرك نظره لما حوله ليرى عجائب قدرة الله. الطعام الذي كان معه والذي من شأنه أن يسرع إليه الفساد بقي سالما، وأن حماره الذي يستطيع أن يسرح في أرض الله بما يبقي على حياته أمدا طويلا قد أصبح عظاما نخرة. فلما تبينت له الحقيقة بالمقارنة نطق لسانه بقوله: **أعلم أن الله على كل شيء قدير.**

بيان المعنى العـام:

259- أو كالذي مر على قرية... قدير.

هذا هو المشهد الثاني الذي يؤكد بتفاصيله ما أثبتتــه آيــة الكرســي لله مــن الحيــاة ومــا أكدته الآية التالية من أن الله ولي الذين آمنوا.

يمثل المشهد ما يلي:

الخطوة الأولى: رجل يسير على حماره ومعه طعامــه وهــو يتأمــل فيمــا حولــه تأمــل المعتبر الدقيق النظر. وينكشف لــه منظــر مفــزع: قريــة كانــت عــامرة بأهلهــا قــد أصبحت خرابا، انقلب أسفلها علــى أعلاهــا. ســقطت ســقوفها ثــم أتبعتهــا الجــدران ، وأصبحت ميتة لا حركة فيها. وعصَرَ المشهد علــى قلبــه فــإذا هــو يــائس يســتبعد أن تعود القرية إلى الحياة يوما.

الخطوة الثانية: أن هذا المسافر لم يغادر القرية بل بقــي فــي موقعــه، وإذا هــو يلتحــق بالقرية ويموت كما مات من فيها، ويبقى على حالته تلك لا يتحرك مائة عام.

الخطوة الثالثة: يبعثه الله بعد موته، والقرآن لــم يفصــل هــل إن الله أبقــاه جثــة بــدون روح أو إنه سبحانه قد سلبه اليقظة فكانت قواه تعمل في همــود؟ المهــم أنــه بقــي مائــة سنة لا يشعر بما حوله، ثم فــي لحظــة عــادت لــه حواســه. وأول مــا طــرق ســمعه السؤال التالي من نفسه: كم لبثت فــي هــذا المكــان؟ ويســرع هــو بالإجابــة، فيقــول: لبثت يوما، ثم يراجع نفسه بعد أن دقق آخر زمن كــان لــه فيــه وعــي، فوجــد أنــه قــد مرت عليه فترة لا تصل إلى اليوم فقال: بل مكثت بعض يوم.

الخطوة الرّابعة: الكشف عن الحقيقة المعجزة. يســمع القــول الحــق: لــم تلبــث يومــا أو بعض يوم بل لبثت مائة عام كاملة. وليزيل دهشته يــأمره أن يتأمــل فــي طعامــه الــذي كان بجانبه قبل أن يموت، فيجده سالما لــم يــؤثر فيــه الــزمن، ويــؤمر أن ينظــر إلــى حماره الذي كان يمكن له أن يرعى في أرض الله بمــا يطيــل حياتــه إلــى أمــده، فيجــده عظاما نخرة مفرقة وكأنه وهو يفرك عينيه ليتثبــت فيمــا جــرى حولــه، فــإذا بعظــام الحمار تقترب من بعضها ويكسوها اللحم والجلــد ويقــف حمــاره بجانبــه كمــا تركــه. مرت الأعاجيب الثلاثة في لحظة: تُحَقُّقه أنه بقي ميتــا مائــة عــام، بقــاء الطعــام الــذي من شأنه أن يسرع إليه الفساد بقــاؤه ســالما لــم يتغيــر، عظــام الحمــار تكســى اللحــم والجلد ويقف الحمار كما كان. ليست أخبارا ولكنهــا حقــائق محسوســة أدركهــا ببصــره وتحركت أمام ناظره. عبر عن إعجابــه وعــن شــكره لفضــل الله عليــه الــذي كشــف عن قلبه الشكوك التي خامرته واليأس الــذي اســتولى عليــه فقــال: أعلــم يقينيــا أن الله على كل شيء قدير. وبهذا ارتبطت هــذه الآيــة بقولــه تعــالى (**الله ولــي الــذين آمنــوا**

يخرجهم من الظلمات إلى النـور) وبآيـة الكرسـي التـي وصـفت الله بالحيـاة فقامـت كدليل على ذلك لأن فاقد الحياة لا يتصور منه أن يعطيها.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

صرهن إليك: قربهن منك تقريبا يعرفك بهن معرفة واضحة.

بيان المعنى الإجمالي:

خفي على إبراهيم عليه السلام سر الحياة فطلـب مـن الله أن يريـه كيـف تسـري الحيـاة فـي الكائن فيتحول من حالة الموت إلى حالـة الحيـاة. أجابـه الله: لِـمَ تسـأل هـذا السـؤال ألست مؤمنا ؟ قال إبراهيم: آمنت يا ربي، ولكن أريـد أن تسـعفني بمـا ينضـم بـه علـم المشاهدة إلـى علـم الـدليل ليطمـئن قلبـي. إن مـن طبـع الخلـق أن تثيـر عقـولهم التساؤلات.

قال الله: خذ أربعة طيور فقطعها أجزاء ثـم اخلطهـا وقسـمها إلـى أربعـة أقسـام ثـم اجعل على كل جبل من الجبال التي حولك جزءا منها ثـم مرهـا بالقـدوم إليـك تأتيـك سعيا. واعلم يـا إبـراهيم أن الله لا يعجـزه شـيء، هـو كامـل الحكمـة فـي تصـرفه وتقديره.

بيان المعنى العـام:

260- وإذ قال إبراهيم ...عزيز حكيم.

حدث ثالث ينضـم إلـى المشـهدين السـابقين يزيـد توضـيحا لمضـمونهما. ذلـك أن إبراهيم عليه السلام توجه إلى ربه سائلا له أن يريه الكيفيـة التـي تسـري بهـا الحيـاة في الكائن. فمضمون السؤال أن يعرض على بصـره الصـورة التـي يـتم عليهـا إحيـاء الشيء. أجابه الله عن سؤاله بإلقاء سؤال عليه، فقال لـه: ألـم يسـبق لـك أنـك آمنـت بي وبقدرتي على كل شيء ومنها الإحياء؟ أجـاب إبـراهيم بـأن إيمانـه لا يعتريـه شـك ولا ريب، ولكنه يريد أن يجمع بين علم المعاينة الحِسّـي وبـين مـا هـو حاصـل عنـده من العلم التجريدي النظري، لتكون المعاينة البصرية دافعة لمـا يجـول فـي الـنفس مـن طلب الكيفية. فأمره أن يقوم بالتجربة التالية: أن يأخذ طيـورا أربعـة يتأمـل فـي لـون كل واحد منها وفي شكله وفي خصائصـه، ممـا يعطـي للتجربـة تصـويرا أتـم. إذ الطيور لا بد أن تكـون مختلفـة الصـورة والشـكل واللـون. ثـم يتـولى ذبحهـا ثـم

تقطيعها، ثم يخلط القطع، ثم يقسم المخلوط إلى أربعة أقسام، فكل قسم لاشك أنه يحوي أجزاء من كل طائر من الطيور الأربعة، ثم يضع كل قسم من الأقسام الأربعة على جبل فتتباعد الأجزاء، ثم يدعو الطيور لتأتيه. فعل إبراهيم ما أمر به، ودعا الطيور فجاءته تمشي على رجليها، غير طائرة، وفي مجيئها ماشية غير طائرة ما أعطى للتجربة قوة، إذ تمكن من التأمل فيها بما أثبت له عيانا أنها الطيور التي سبق له أن قطّعها. وتختم الآية بالتأكيد على حقيقة هي التي استندت إليها التجربة: هي أن الله لا يغلبه شيء، يفعل ما يريد فعلَه ويبرزه بحكمته التي لا يفوتها شيء من الدقة. والحياة لا تتأتى إلا من القادر المطلق الحكيم الذي لا يفوته سر الحياة. وهذه الحادثة توضح بجلاء ارتباط الآية بإثبات أن الله حي، وبإبراز صورة من عنايته بالمؤمنين بما يُثَبِّتُهُم ويزيح عنهم الشبه (**الله ولي المؤمنين**).

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

المن: تذكير المنفق للمنعَم عليه بما أعطاه.

الأذى: يشمل المن وغيره مما يحتقر به المعطى له.

بيان المعنى الإجمالي :

ضرب الله مثلا يجسم ثواب المنفقين في سبيل الله، مثَّل أجر المنفق في سبيل الله الذي أخلص في عطائه لا يبغي منه محمدة عاجلة ولا يتبجح بما أعطاه ولا يؤذي من تفضل عليه بالاستعلاء، مثل ما يحصل عليه من ثواب كالزارع الذي رمى في أرض طيبة حبة واحدة فبورك فيها ونمت وأخرجت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة. والمعطي هو الله فهو يضاعف لمن يشاء تبعا لما قارن العمل الصالح من إخلاص. والله واسع ملكه لا ينقص ما يثيب به من مُلكه شيء، وهو عليم بنيات وأحوال المنفقين.

بيان المعنى العام:

261-مثل الذين...والله واسع عليم.

تكرر في سورة البقرة التحريض على الإنفاق وتصفية النفوس من داء الشح، ففي تعريف المؤمنين أول السورة **(ومما رزقناهم ينفقون)** وفي الآية السابقة 195**(وأنفقوا في سبيل الله...)** وفي الآية 254 **(يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات...)** والسورة واحدة فأكدت هذه الآية قيمة الإنفاق ببيان ثوابه والأدب الذي يتحتم أن يصحبه: جاءت الآية بمثّل يجسم مضاعفة ثواب المنفقين في سبيل الله، والأصل أن الإنفاق في سبيل الله هو الإنفاق في الجهاد. فقارنت بين الزارع الذي يرمي بحبة في أرض مباركة طيبة قد توفر لزرعه جميع أسباب النماء والصلاح فسقاه الغيث وحماه الله من الآفات فأخرجت الحبة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، بما يعطى المنفق ثوابا يصل إلى سبعمائة ضعف. ولا تعجب أيها المؤمن فإن الله يضاعف الثواب لمن يشاء. وفيه إشارة إلى أن الأعمال بتضاعف ثوابها بمقدار ما يصحبها من الإخلاص، والله المعطي لا ينقص من ملكه شيء وسع ملكه السماوات والأرض. وهو عليم لا يخفى عنه شيء مما انطوت عليه نفس المعطي من كدر حب الذات وطلب الثواب من البشر، أو من صفاء في القصد وأنوار التقوى.

262- الذين ينفقون...ولاهم يحزنون.

ثم حددت الآية أن الأدب الكامل في الإنفاق أن لا يتبع المنفق ما أعطاه بالتذكير به دائما ومحاسبة المعطَى له بما أعطاه، وأن لا يؤذي بصدقته، والإيذاء مراتب: من الاستكبار والنظرة المتعالية إلى الكلام الذي فيه تعد على كرامة المنفق عليه. وقد يكون فردا وقد يكون شعبا أو مجموعة من البشر. فلو تبجح مثلا قائد الجيش بأنه لولا بطولاته وذكاؤه ما كان للجيش أن ينتصر، فإنه بتبجحه هذا أبطل ثواب ما حققه من نصر. فالإنفاق عمل خير، والمنُّ والأذى شر يتسلط على الخير فيمحقه. وطمأن الله المنفقين بأن أجرهم مضمون حفظه، لا يضيع منه شيء. لأن الله هو الذي تكفل بذلك. وبشر المنفقين ببشارة عظيمة أنهم لا يخافون من المستقبل، وما يخبئه يوم القيامة، فقد كتب الله لهم الأمن في ذلك اليوم، ومسرتهم أنهم لا يحزنون على ما فات لأن ما عند الله خير وأبقى مما أنفقوه.

۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ

فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

قول معروف: المقبول في العرف العام.

مغفرة: التجاوز عن الإساءة.

رئاء الناس: إظهار العمل للناس للتفاخر به.

صفوان: حجر كبير أملس.

وابل: الكثير القوي من المطر.

صلدا: الأملس الصلب الذي لا شيء عليه.

بيان المعنى الإجمالي:

موازنة بين قول الكلمة الطيبة في مواجهة السائل، والتجاوز عما يصحب سؤاله من سوء أدب وتطاول، وبين الصدقة التي يتبعها أذى للسائل، فَحَكَمَ الله سبحانه بأن الكلمة الطيبة وما عطف عليها خير من الصدقة التي تلبي الحاجة المادية وتكسر نفس الفقير. والله وهو الكامل الغني يعفو عن السيئات عفوا لا يتبعه لوم ولا حط من قيمة المعفو عنه.

ثم نهت الآية عن الصدقة التي يقع بعدها المن على المنفَق عليه أو إذايته، ونفرت من ذلك بتشبيهه بالكافر الذي خلا قلبه من الإيمان بالله واليوم والآخر فقَصَرَ همه على الحياة الدنيا، فهو لسوء باطنه لا يتصدق إلا ليحقق ما يرغب فيه من التطاول على من يعطيهم، والظهور بمظهر الكُمَّل الأسخياء.

ثم نفَّرت ثانية من هذا السلوك بضرب مثل يعبر عن عاقبة الصدقة التي يصحبها المن والتطاول، بالحجارة الملساء المغطاة بتراب خفيف يبذر فيها الزارع، حتى إذا نزل الغيث الغزير ذهب بالتربة وما تحويه وبرز وجه الحجارة عاريا، لا يقدر الكافرون على الانتفاع بشيء مما بذلوا فيه جهدهم. وبهذا يكون الكفر حجابا يمنع من بلوغ آثار الهداية الإلهية.

بيان المعنى العام:

263- قول معروف ومغفرة...والله غني حليم.

فصلت الآية السابقة أمر الإنفاق في سبيل الله وحرضت عليه. والإسلام كما يحرض المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله يربيهم:

أولا: على بذل العون للفقراء والمساكين بالتصدق عليهم.

وثانيا: على أن يكون هذا الإنفاق جاريا على طريقة لا تؤذي المتصدَّقَ عليه، ولا تداس بها كرامة من اضطرته الحاجة إلى السؤال. وقد جمعت الآية الأمور الثلاثة التالية:

أولا: أن المؤمن إذا كان لا يملك ما يجيب به السائل فليباشره بكلمة طيبة: (يسر الله لك الخير، يؤسفني أن وضعي لا يسمح لي بعونك ونحو ذلك) وإن الكلمة الطيبة التي لا تجرح كرامة السائل خير من أن يتصدق عليه ثم يتبع صدقته بالمن والتذكير بها، أو بالإذاية القولية أو الفعلية. وقد يُلْحِفُ السائل في الطلب ويحرج المسؤول أو يتجاوز حدود الأدب في خطابه، فيدعو القرآن إلى التكرم والعفو. وينبهنا القرآن إلى أن الله هو الغني عن عباده وكل الخلائق تسأله وكثير منهم قد أساؤوا في حياتهم وتجاوزوا حدوده وهو سبحانه يحلم عنهم ولا يقابل معاصيَهم وتجاوزاتهم بالحرمان.

264- يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا...القوم الكافرين.

ثانيا: أن يرعى في طريقة تصدقه الأدب، فلا يصحب صدقته ولا يتبعها بالمن على المحتاج والتطاول عليه والتذكير بفضله، ولا بإيذائه بالقول أو بالفعل، وليعلم من لم يرْعَ ذلك أنه لا يطمع في ثواب ما أنفقه، وأنه حرم نفسه من الجزاء الذي شأنه أن يخلفه الله عليه في الدنيا، وأن يكون مدَّخَرًا يوم القيامة. ثم مثل الله خسران المتصدق الذي لم يتأدب بأدب الإسلام في الصدقة بأن مثله كمثل الكافر الذي ينفق أمواله طلبا للرياء والشهرة والذكر، لا حبا في الخير ولا شعورا بالتضامن الإنساني. خلا قلبه من نور الإيمان بالله فهو لا يرجو ثواب عمله يوم القيامة. وقرَّب مآل ذلك بأن ضرب له مثلا، بمن يصحب صدقته بالمن والأذى ولا يرعى أدب البذل، إن مثله كمثل حجارة صلبة ملساء غطى ظاهرها طبقة خفيفة من التراب بذر فيها الزارع حبه منتظرا نباته وتضاعفه، وينزل المطر غزيرا فيذهب بالتراب وما يحويه ويبرز الحجر أصم عاريا أملس. ويظهر في المثل مظهر المنفقين مع المن والأذى بصورة العجزة الخائبين اليائسين الآسفين، لا يقدرون على الانتفاع بشيء مما بذلوا فيه جهدهم. والكُفر يضرب بحجابه على أهله فلا ينفذ إلى عقولهم وضمائرهم وقلوبهم أنوار الهداية فهم في ظلامهم محرومون.

وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾

بيان معنى الألفاظ :

ابتغاء: طلبا لمرضاة الله.

تثبيتا: تمكنا من أنفسهم.

الجنة: مكان كثير الشجر.

بربوة: مكان مرتفع من الأرض.

أكل: ما يؤكل.

وابل: المطر الكثير.

طل: المطر القليل.

بيان المعنى الإجمالي:

واصل القرآن تمثيل أحوال المنفقين بما يجسمها للمتأملين. فضرب مثلا للذين ينفقون أموالهم طلبا منهم أن يصلوا إلى رضا الله، وتمكينا لأنفسهم من التغلب على دواعي الشح ليترسخ حُب السماحة في قلوبهم، مثَّلهم بجنة في مكان خصب مرتفع قليلا رويت بغيث غزير، فتضاعف إنتاجها وكثرت خيراتها، أو سقيت بمطر فيه كفاية، فلم يحرم صاحبها من غلاتها. فالمتصدق ينال ثواب ما قدم من خير يتضاعف تبعا لإخلاصه. والله مطلع على أحوال نفوسكم فلا يخفى عليه من حقيقتها شيء.

بيان المعنى العـام:

265- ومثل الذين ينفقون...والله بما تعملون بصير.

هذا هو الوجه الثاني للمنفقين ، فإذا كانت الآية السابقة جسمت حال المنفقين الذين لم يتأدبوا بأدب الله، فإن هذه الآية اعتنت بحال المنفقين الذين قاموا بما قاموا به طلبا للفوز برضوان الله. وانضم بهذه الآية الإنفاق في سبيل الله المذكور في الآية السابقة **(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله...)** إلى الإنفاق في مختلف وجوه الخير التي يرضى الله عنها. وبرزت هذه الوجوه النيرة للذين امتلأت أرواحهم بأنوار الإيمان فمحضوا ما يقدمونه من إحسان في وجوه البر لينالوا رضى الله عنهم، وليمكنوا أنفسهم من الثبات على العطاء ويقتلعوا جذور الشح والتردد في علاقتهم بالمال. مثلهم القرآن بجنة ذات أشجار مثمرة طاب مكانها، وكانت تربتها

غنية ثرية في مكان مرتفع، ونزلت عليها الأمطار الغزيرة فروت أرضها وجرى في أفنانها وثمارها ما ضاعف إنتاجها، أو نزل بها مطر كاف أقل من ذلك، فلم يحرم صاحبها من إنتاجها. وهكذا يختلف حال المنفقين الصالحين فيما يقرر لهم من مثوبة بين الثواب المضاعف، وبين ما هو دون ذلك تبعا لوضع المنفق من الإخلاص الكامل، أو ما خالطه غيره على وجه لا ينفي الإخلاص. والله يعلم ما تنطوي عليه النفس عند قيامها بما قامت به وأنجزته، فالظواهر لا تخفي تحت غطائها الحقيقة الكامنة في الضمائر.

أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

أيود: أيحب.

الإعصار: ريح شديدة تقلع الأشجار.

فيه نار: مع حرارة شديدة.

بيان المعنى الإجمالي:

إن الذي ينفق ماله رئاء الناس مثله كمثل صاحب جنة في أوج عطائها جمعت بين النخيل والأعناب وصنوف الأشجار المثمرة، ريُّها مضمون بما يتخللها من أنهار جارية، وقد شاخ صاحبها وكبرت سنه، وذريته غير قادرين على الكسب لصغر أو قصور، فحالته تمثل الاحتياج الشديد لإنتاج تلكم الجنة. وفي لحظة تعصف ريح سموم حارة تقتلع الأشجار وتحرق الأوراق والثمار، فتقضي على آماله. كذلك يكون المرائي بصدقته يوم القيامة ذهب ما قدم هباء ولا ينتفع بشيء منه في اليوم الذي يكون أشد ما يكون احتياجا. والله يبين للناس الحقائق التي بالتفكُّر فيها تسلم للمؤمن عاقبته.

بيان المعنى العام:

266-أيود أحدكم... تتفكرون.

افتتحت الآية بسؤال: أيحب أي واحد منكم أن يحصل له ما عرضته الآية ؟ وهو كما تقول لشخص: أتحب أن يذهب بصرك ؟ وذلك لحث السامع على الانتباه والتفكير. ما هو المثل الذي ضربه القرآن في صورة السؤال ؟ مثَّل الذين يراؤون

بالصدقات برجل له جنة اصطفت فيها النخيل والأعناب وتنوعت فيها الأشجار المثمرة وهي في أوج عطائها، تتخللها الأنهار الجارية فلا يخشى عليها صاحبها عطشا، تملأ القلب وتبهج العين، وقد كبرت سنه وأدركه الهرم، ومع ذلك هو يَعُول ذرية ضعافا لا يقدرون على الكسب، فكل آماله معلقة بهذه الجنة. وكل اعتماده هو وأسرته على ما تنتجه من خيرات. وفي لحظة تعصف رياح عاتية كأعنف ما يكون قوة، حارة تشوي ما تلفحه وتحرقه، وينكشف المنظر عن أشجار مقلوعة وأغصان وثمار محترقة، وآمال ضائعة ويأس مقيم، لا يستطيع أن يعيد غراسها لكبره ولا ذريته يخلفونه لضعفهم. فمثل هذا العجوز الذي ذهبت آماله كمثل المنفق رئاء، أنفق وسعى حتى إذا جاء يوم الحساب، بين يدي رب الأرباب، وجد ما قدمه هباءً منثورا، لا ينتفع منه بشيء. وهو مثل يضربه الله للناس ليتفكروا فيه ويأخذوا منه العبرة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ
وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ
ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلۡفَقۡرَ وَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم
مَّغۡفِرَةٗ مِّنۡهُ وَفَضۡلٗاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ﴿٢٦٨﴾ يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ
ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَآ أَنفَقۡتُم
مِّن نَّفَقَةٍ أَوۡ نَذَرۡتُم مِّن نَّذۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُهُۥۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِن
تُبۡدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَۖ وَإِن تُخۡفُوهَا وَتُؤۡتُوهَا ٱلۡفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ
وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّـَٔاتِكُمۡۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٢٧١﴾ ۞ لَّيۡسَ عَلَيۡكَ
هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡۚ وَمَا
تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ ٱللَّهِۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا
تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا
فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا
يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾

ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

الطيبات: أفضل الأموال.

ما أخرجنا لكم من الأرض: الزروع والثمار.

ولا تيمموا: ولا تقصدوا.

الخبيث: السيء كالحرام والمستقذر وهو عكس الطيب.

تغمضوا: تتساهلوا في أخذه مع أنه مكروه لغرض ما.

الفحشاء: اسم لفعل شديد السوء، أو قول كذلك.

واسع: واسع الفضل لا يحد فضله.

الحكمة: الحكم الصادق الذي لا شبهة فيه، وهي بالعلم المتقن والعمل به.

أولو الألباب: أصحاب العقول الصحيحة.

نذرتم: التزمتم من قرب.

تبدوا: تظهروا صدقاتكم.

فنعما هي: فالصدقة المظهرة حسنة لا ينقص الإظهار من قيمتها.

يُكفِّرُ: يمحو.

ابتغاء وجه الله: إخلاصا لله.

يوف: تجدونه كاملا غير ناقص.

أحصروا: حبسوا.

ضربا في الأرض: الانتقال في الأرض قصد التجارة.

التعفف: التنزه عن السؤال.

سيماهم: علامة الحاجة تُعَرِّفُ بهم .

الإلحاف: الإلحاح في المسألة.

بيان المعنى الإجمالي:

تتضمن هذه الآيات الثمانية ما يلي:

❖ أمر الله المؤمنين أن ينفقوا من المال الطيب الجيد ومما تخرجه الأرض من خيرات مما يرغب الإنسان فيه لجودته ومن الحلال، ولا يتصدق برديء ماله الذي لا يقبله في تعاملاته إلا مع نوع من التسامح لغرض من الأغراض، وليتذكروا أن

الله سبحانه غني عن البشر فالإنفاق هو لمصلحتهم، وأن الله محمود على جميع الأحوال.

❖ نبههم إلى أن الشح بالمال هو من الشيطان الذي يوسوس فيوقع في نفس البشر الخوف من الفقر ليمسكوا أموالهم ومن ناحية أخرى يفتح لهم شهية ارتكاب الرّذائل، ففرِّقوا بين منهج الشيطان هذا، وبين منهج الله الذي يدعوكم لواسع رحمته وغفرانه ويعدكم من فضله ما يفتح الآمال، وهو منجز ما يعدكم لأن سعة ملكه لا ينقص منها شيء وهو عليم بما يجري في ضمائركم.

❖ يختلف البشر في قدرتهم على بلوغ الحقيقة والعمل بها، فمن رزق نفاذا في بصيرته لا يخدع بالظواهر عن إدراك الحقيقة ، فقد أوتي الحكمة، ومن ظفر بالحكمة فقد ظفر بالخير كله. وأصحاب العقول الكاملة هم الذين ينفذون إلى حقائق الوجود.

❖ يبشر المؤمنين بأنهم كلما أنفقوا نفقة واجبة أو تطوعا، أو التزموا فعل خير فوفوا به، فإن الله لا يغيب عن علمه شيء من ذلك ويجزي فاعله. بغفران ذنوبه. ومن شح بالواجب عليه أو لم تسمح نفسه بمساعدة المحاويج فأول عقوبة، هي أنه لا يجد في ساعة الحرج والضيق معينا ولا نصيرا ويكون مكروها من الناس.

❖ كل من بذل ماله للمعروف واجبا كان أو تطوعا، وأظهر صدقته فعمله هذا عمل صالح يثاب عليه، وأفضل منه أن يخفي صدقاته ويوصلها للفقراء دون أن يعلم أحد بما صنعه، ويجزى بمحو سيئاته. والله لا يخفى عليه شيء من نياتكم، فأخلصوا لله في البذل

❖ الله وحده هو الذي يتصرف في الهداية فيؤتيها من يشاء ويحرم منها من يشاء، وقد كلف الرّسول ﷺ بإبلاغ شريعة ربه وكذلك العلماء من بعده ولم يكلف أيا منهم أن تتحقق فعلا هداية من يدعونه.

❖ كل ما تنفقونه من خير فإن فائدة النفقة تعود إليكم، وحدة في المجتمع، ونشرا للحب بينكم، واقتلاعا للحسد والبغضاء. ونفقتكم الصالحة هي التي تقدمونها طلبا لرضا الله، والله يحاسب حساب الجزاء والكرامة فيوفي كل منفق بثواب ما أنفقه، ولا ينقص منه شيء.

❖ تأكيد للتحريض على الإنفاق وخاصة للفقراء الذين وقفوا أنفسهم على الجهاد لإعلاء كلمة الله، الذين لا يستطيعون أن يتنقلوا في أرض الله لتنمية أموالهم بالتجارة، وعزةُ نفوسهم تجعل الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء من تعففهم عن المسألة،

ولكن المتأمل في العلامات ينتبه لفقرهم مع أنهم لا يمدون أيديهم للسؤال ولا يُلِحُّون.

❖ تأكيد على أن ما ينفقه المؤمن سيلقى جزاءه، لأن الله عليم بما أنفقه وهو قد وعد بالجزاء ووعده لا يخلف.

❖ عممت الآية مؤكدة أن كل منفق يلقى جزاءه أنفق بالليل أو بالنهار، كان إنفاقه سرا أو ظاهرا علانية، جزاء مدخر عند ربهم الذي تولاهم بالهداية، وفضله عليهم موصول، فهم قد أمنوا في مستقبلهم فلا يصيبهم مكروه يوم القيامة، وكتب الله لهم ألطافه عند الشدائد فالله وليهم، ولا هم يحزنون على ما فات منهم لعظم الرّعاية التي سيلقونها.

بيان المعنى العام:

267-يا أيها الذين آمنوا أنفقوا...أن الله غني حميد.

واصل القرآن في هذه الآيات الثمانية بسط ما يتعلق بالإنفاق فاعتنى بما يلي:

أولا: حث المؤمن على تَخَيُّرِ المال الذي ينفق منه، فأمره أن ينفق، من المال الذي سعى في التحصيل عليه بالطرق الحلال المال الطيِّب المرغوب فيه، لينفقْ من الذهب والفضة ومن الأنعام ومن الزروع والثمار التي أخرجها الله من الأرض ومكن منها الإنسان. ونهاه أن يقصد إلى المال الرّديء والمرغوب عنه والمال الحرام لينفق منه، فإن الله طيب ولا يقبل إلا طيبا. وكيف يجرؤ الإنسان على تقديم المال الذي لا يرضى أن يدخله في ملكه إلا مع نوع من التساهل وعدم الرّضا، وإذا قَبِلَهُ فإنما يقبله مع رفضه الباطني له لأمر وراء قبوله له وحطٍّ من قيمته. فكيف يرفض غير الطيب لنفسه ولا يرضاه لها ويقدمه لله الغني الحميد. إن في تقديم الرّديء للمحتاج في ذلك هدم لنفسية المحتاج وإذلال له، فإذا كان قد سد خلته بما أعطاه من مال رديء، فإنه قد اعتدى عليه باحتقاره. واعلموا أن الله غني عن صدقاتكم محمود على جميع الأحوال.

268-الشيطان يعدكم...واسع عليم.

ثانيا: أيقظ المؤمنين ليتنبهوا فلا ينخدعوا، فهما طريقان: طريق الله وطريق الشيطان. عليهم أن يميزوا بينهما. الشيطان يلقي بوسوسته في قلوبكم ويصور لكم أن الإنفاق يقودكم إلى الخصاصة والفقر فينفركم منه. ويملأ بواطنكم بالخوف من المستقبل على أنكم إذا صرفتم ما في أيديكم اليوم ذهب عنكم، ولا تجدونه عند الحاجة. ومن ناحية أخرى هو يزين لكم كل قبيح فيطمس على سليم فطرتكم فتنقلب موازين الخير والشر عندكم ويضلكم. وكم من شحيح بماله يدفعه الشيطان

إلى الفحشاء وطرق الرّذيلة فينقلب شحه بذلا بدون حساب في الرّذيلة ومستنقع الشهوات. تنبهوا فإن طريق الله سبحانه يفتح قلوبكم على الأمل فيصفيها مما يمكن أن يخالطها من ظلام المعصية فتنشرح للمستقبل بما أعده الله من فضل. والله واسع الفضل، عليم بما انطوت عليه صدوركم فيجزيكم.

269-يؤتي الحكمة...الألباب.

يختلف البشر في قدراتهم العقلية فمنهم من يقف عند الظواهر لا يتجاوزها ويغتر بها، ومنهم من ينفذ إلى حقائق الأشياء ولا تغيب عن بصيرته عواقب الأمور، وهذا هو الحكيم الذي رزقه الله الحكمة. ويتفضل سبحانه على من يشاء من عباده فيمكنه من الحكمة التي تصحح مداركه، ويبعد بها ضلالات الشهوة عن أحكامه، فتُطرد من التأثير على اختياراته، فيترجح عنده الصواب والخير على ما سواهما. ويقرر القرآن قاعدة في نجاح البشر: أن من لزم في حياته التأمل وانطلق فكره فأدرك حقائق الأشياء فاستقامت مداركه، وتغلب على نوازع الشهوة ووساوس الشيطان، فتوجهت ميوله تبعا لذلك لما هو خير وأسلمُ عاقبة، فإن حظه في هذه الدنيا الحظ العظيم، وما يحصل عليه من الخير لا تحد حدوده. وإنه لا يصل إلى الارتواء من الحكمة وإدراك حقائق الأشياء بدون غلط، ويطوع سلوكه لمقتضيات الحكمة، إلا أصحاب العقول الصافية النابهة.

270-وما أنفقتم من نفقة...أنصار.

ثالثا: إن من الحكمة أن يستحضر المنفق أن الله لا يخفى عليه أي نفقة كانت صغيرة أو كبيرة، سواء أنفقها في سبيل الله أو تصدق بها، أو أي التزام منه بفعل الخير، وهو النذر، سواء أرَبَطَه بأمر أم لم يربطه، على أن تقترن به المراعاة التامة لكل ما أرشد الله إليه وبينه في الإنفاق. ثم إن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر فحرموا المستحقين ما فرضه الله لهم في أموال الأغنياء، وظلموا أنفسهم فحرموها من الكمال الخلقي ولوثوها بداء الشح، لا يجدون نصيرا يوم القيامة ويفقدون النصير في الدنيا. إنه قد بنيت النفوس على حب من يحسن إليها، فمن يشح بماله ولا تلين نفسه لمساعدة المحتاجين لا يجني من ذلك إلا بغض الناس له والتخلي عنه عند الأزمات. ولا يجد نصيرا ولا معينا، بل يكثر الشامتون به.

271-إن تبدوا الصدقات...والله بما تعملون خبير.

رابعا: تبين من الآية السابقة 263: **(يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى)** أثر الرّياء في إحباط ثواب الإنفاق، فيذهب المال ويحرم أجر ما

أنفقه. وقد يتساءل المؤمن عن النفقة إذا أظهرها المتصدق بغير قصد الإذلال على المنفَق عليهم، ولا حبا في الظهور، فهل إظهارها يحبط أجرها سواء أكان الإنفاق من الواجب كالزكاة، أم من المتطوع به كالصدقات ؟ تقرر الآية أن الصدقة التي أظهرها صاحبها ولم يصحبها رياء هي أمر طيب، إبداؤها وإظهارها لا يؤثر سلبا على نيل المتصدق رضا الله وثواب ما أنفق . ولكن الصدقة التي أخفاها المتصدق وأوصلها إلى الفقير، والإيتاء هو إيصال الشيء بلطف يمّحي معه انكسار نفس المعطَى، ولا يعلم بها إلا الله، إن ذلك هو أكثر ثوابا وأعظم أجرا وهي سبب للعفو عن السيئات.

272-ليس عليك هداهم...تظلمون.

خامسا: ما نظّمه القرآن في البذل الواجب والمندوب، وموقف الناس من هذا النظام بين متبع له وبين رافض، وأثر ذلك في بناء المجتمع الإسلامي، جعل النبي ﷺ يحزن لعدم اهتداء الناس جميعا للأخذ بهذا النظام، فأعلمه الله وأعلم أيضا كل داعية للخير من علماء الأمة، أنه لم يكلف أحدا منهم بأن يعمل الناس بما يدعونهم إليه من الخير والصلاح، إذ أن مهمتهم بيان الحق ودفع الشبه، وأما الاهتداء بذلك فليس موكولا لهم، ذلك أن الله وحده هو الذي بيده الهداية، فييسر الأسباب لمن أراد له الخير، ويحرم منها من كتب له الحرمان، دون أن يجبر الضال على الضلال أو يلجئه إليه، ولا أن يجبر المهتدي على الهداية.

سادسا: حوصلت الآية 272 **(وما تنفقوا من خير فلأنفسكم...)** أثر الإنفاق في بناء الفرد، فقررت أن البذل يعود بالصلاح على المنفق أولا، لأنه يستل، بمواصلة العمل به، داء الشح من نفسه، ولأنه يسمو في درجات الكمال النفسي، ولأنه يؤكد حب الناس له وسعيهم لعونه، وتحوله من النظر القريب القاصر إلى امتداد بصيرته إلى جزائه يوم القيامة بإدخال عنصر هام يقترن بالإنفاق وهو قصد الطاعة لله. وتؤكد الآية في خاتمتها تحقق الجزاء كاملا غير منقوص، بأن الله تكفل بإعطاء المنفق وفاء ما بذله ولا ينقص منه شيء.

273-للفقراء...به عليم.

سابعا واصل قوله تعالى **(للفقراء الذين...)** التنصيص على إيتاء الصدقات الفقراء من هذا النوع الخاص: وهم الذين أحاطت بهم ظروف قاهرة منعتهم من السعي في طلب الرّزق، من الذين محضوا أنفسهم للجهاد وإعلاء كلمة الله والدفاع عن الأمة، ومن الذين عوّقتهم جراحات القتال فعجزوا عن التنقل في طلب الرّزق، ومن

الفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم فعجزوا عن تدبير متطلبات الحياة كالمهاجرين الأولين من مكة إلى المدينة واللاجئين في كثير من مناطق الحروب. وهم على قدر كبير من عزة النفس، يتورعون عن سؤال الناس. بل إن الجاهل بحالهم يظنهم أغنياء بسبب تنزههم عن التعرض للمسألة يترفعون عن مد أيديهم للسؤال فضلا عن أن يبالغوا في الطلب، ولكن الحاجة التي هم عليها لا يستطيعون معها أن يخفوا حالهم من الخصاصة، فعلاماتها تدل على وضعهم لمن يتأمل في أحوالهم. وهو حث للمؤمنين على أن يسعوا للتعرف على هذا النوع العزيز من الناس فيسعفونهم ويمدون لهم يد العون. ويؤكد القرآن على الجزاء المرتقب لأن الله لا يخفى عنه ما تقومون به من خير، فهو يعلمه. وعلمه الذي لا يغيب به عنه كبيرة ولا صغيرة ولا ظاهر ولا باطن، يفتح باب الأمل في رضوانه.

274-الذين ينفقون...ولا هم يحزنون.

ثم أكد هذا المعنى بأن الذين يتولون إنفاق أموالهم في جميع الأزمان لا يختلف الليل عن النهار، وفي كل الصور من السر الذي لا يعلمه أحد إلا الله ومن العلانية ، لهم أجرهم ثابت عند من لا تضيع الودائع عنده. يضمن لهم أنه يؤمنهم، فهم مطمئنون إلى حسن العاقبة في الآخرة وإلى العون والمدد الإلهي في الدنيا. ولا هم يحزنون عما فات من أموالهم لأنهم واثقون من أنها ستضاعف لهم عند ربهم وتحصنهم في حياتهم.

ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلۡبَيۡعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمۡرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۖ وَمَنۡ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِن كَانَ ذُو

عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ
يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

بيان معنى الألفاظ

يأكلون الرّبا: يستحوذون على ما يذره عليهم الرّبا.

يتخبطه: يهزه هزا عنيفا.

المس: مس الجن، الجنون.

موعظة: النصح ببيان العواقب.

سلف: مضى وفات.

يمحق: يذهب فلا يبقي له أثرا.

يربي: ينمي.

فأذنوا: اعلموا حتى لا يباغتكم ما سيحصل.

رؤوس أموالكم: أصول أموالكم.

عسرة: العجز عن الوفاء بالدين.

النظرة: التأخير.

ميسرة: اليسر بوجود المال.

توفى: أوفى فلانا حقه أعطاه إياه تاما.

بيان المعنى الإجمالي:

الذّين يلتهمون الرّبا بشراهة يفقدون التوازن فهم مضطربون كشأن الذي يحركه الشيطان حركة عنيفة من مس الجن. هذا جزاء تلبيسهم بقولهم: إن الرّبا والبيع لا اختلاف بينهما، فلما كان البيع حلا لاً فكذلك الرّبا. وهذه التسوية باطلة، لأن الله المختص بالتصرف في ملكه أحل البيع وحرم الرّبا. وليس لأحد أن يغير أحكامه. إن من تأمل في أمر ربه وأطاعه حذرا من سوء العاقبة، وتاب فأقلع عن التعامل بالرّبا فإن رحمة الله تشمله. ولا يؤاخذ بما سبق أن أخذه من مال الرّبا الحرام. وأما من عاد إلى التعامل بالرّبا بعد أن بلغه حكم الله فيه فإن مصيره إلى عذاب النار يوم القيامة لا يفارقها ولا تفارقه. ويهدد القرآن المتهالكين على الرّبا بأن الله قدّر تقديره النافذ أنه سيذهب بما تحصل عليه المرابي من أموال. وفي المقابل قدر أن ينمي أموال المتصدقين ويبارك لهم فيها فيعوضهم أكثر مما أنفقوه. والطاعة تفضي بصاحبها إلى القرب من الله، والكفر وما يزينه لصاحبه من المعاصي وارتكاب الآثام يفضي ذلك إلى إبعاد صاحبها عن منازل القرب والكرامة والحرمان

من التوفيق والألطاف التي تعين على فعل الخير. وبالمقابل فإن الذين آمنوا والتزموا في حياتهم فعل الخير وأدوا صلواتهم في أوقاتها على أتم الوجوه، وبذلوا عن طواعية زكاة أموالهم، إن أجرهم ثابت لا يضيع شيء من جزاء صالح أعمالهم، ويثبّت الله الأمن في قلوبهم فلا يحل فيها الخوف من المستقبل ولا الحزن والأسف على ما مضى. ثم يوقظ الله المؤمنين، مؤكدا التزام تقوى الله، بما يصحب التقوى من الكف عن متابعة التعامل بالرّبا الذي يتناقض مع الإيمان. ثم توعدت الآية الذين يواصلون التعامل بالرّبا بالحرب التي يأذن الله بتسليطها عليهم، وبتكليف الرّسول بإبلاغ أمره بمحاربتهم. قررت الآية أن من تاب من المتعاملين بالرّبا فحقه أن يقبض أصل المال الذي بذله دون زيادة. والزيادة ظلم من المرابي، كما أن من تاب يستحق أصل ماله كاملا بدون مماطلة. إذ النقص من أصل المال أو المماطلة ظلم لمن كان مرابيا. وإذ ا كان المدين معسرا لا مال له يوفي منه دينه فعلى الدائن أن يؤخره حتى يتيسر حاله. وأن يتكرم الدائن للمعسر فيعفيه من دينه، خير وأفضل في تمكين الود بين الجماعة وما يتبع ذلك من الثواب.

وخُتمت آيات الرّبا بوعظ يشمل جميع الناس كي يصونوا أنفسهم في اليوم الذي يعودون فيه لعرض حسابهم عند الله، مجردين مما كانوا يتقوّوْن به في حياتهم الدنيا. هو يوم القيامة، الذي ستجد فيه كل نفس جزاءها كاملا عما قدمت، حكما عادلا لا يظلم فيه أحد.

بيان المعنى العام:

275-الذين يأكلون الرّبا...أصحاب النار هم فيها خالدون.

اعتنت الآيات السابقة بتوضيح ما يتعلق بالإحسان والصدقات مما فصلنا القول فيه خلال بيان المعنى العام. ويقابل أولئك الصالحين الذين سمت نفوسهم فأشركوا إخوانهم فيما آتاهم الله من فضله، يقابل هؤلاء قوم استولى عليهم الجشع وحب المال فتقطعت الأسباب التي تربطهم بأعضاء المجتمع الذي يعيشون فيه، كل همهم الاستحواذ على المال بجميع الطرق، فأبرزت الآية صورتهم المشوهة بأخذهم للربا في شراهة بالغة ، ونهم عنيف، بمن يأكل الرّبا أكلا. ثم زادت تشويها وتنفيرا من وضعهم ومآلهم، بأنهم كلما أرادوا القيام كانوا كالمصروع الذي هزه الشيطان هزا عنيفا فاضطربت حركاته، يسقط كلما حاول أن يتقدم. يمكن أن نفهم الآية على أنها تقدم صورة لأكلة الرّبا في الدنيا، هذه البلية العظمى التي عمت البشر في عصرنا هذا، فاضطربت أحواله العامة والخاصة. تتوالى الأزمات الاقتصادية فتهز العالم كله هزا عنيفا، وتضطرب مسيرة أعظم القوى الاقتصادية ، ويبدو المستقبل غامضا

رهيبا، ولا تجد الجواب عند أحد. ووضع الأفراد ليس أسلم من الوضع العام. ضغط المرابون على عامة الناس فسلبوهم أمنهم واستقرارهم، وفشت الأمراض النفسية. تلاحظ بوضوح أنه كلما كانت مظاهر الرّفاه الاقتصادي أقوى كلما تضاعف القلق النفسي والحيرة في تلكم المجتمعات، وتضاعف عدد المنتحرين بعد أن خنق ضغط المرابين الأمل الذي يعطي للحياة معنى وقيمة. كما يمكن أن تكون الآية تقدم تصويرا لوضعهم الأخروي، فالمعنى أنهم عندما يبعثون يوم القيامة يخرجون من قبورهم تضطرب حركاتهم في غير تناسق كلما قاموا سقطوا، وهكذا يسيرون في المحشر إلى المصير الذي ينتظرهم. وجشع المرابين أعماهم عن تبيُّن الحقيقة واختلط عليهم الأمر حتى صرحوا بأنه لا فارق بين البيع والرّبا. شُبهتهم التي أفسدت عقولهم، أنه كما يتحصل البائع من صفقته ربحا رضي المشتري ببذله، فكذلك المرابي يستفيد من صفقته الزيادة التي رضي بدفعها المقترض أو الطالب للتأخير. ويأتي الجواب جازما حازما رادا لضلالتهم: إن الله، الذي هو مالك الكون، أحل البيع وحرم الرّبا. وهذا دليل عام يجب أن تخضع له الرّقاب وتتقبله العقول والأرواح بالإذعان، وتسير العمليات الاقتصادية في مختلف صورها داخل الحدود التي حددها مالك المال ومالك صاحب المال. وهذا ما يقتضيه منطق العقل. ومن ناحية أخرى فإن ما يحصل عليه المرابي من الزيادة يختلف اختلافا جذريا عما يحصل عليه بالتجارة

أولا: صفقات البيع معرض فيها المشتري للربح والخسارة، بينما المرابي رابح دائما، والمقترض خاسر دائما للزيادة، فانتفى العدل بين نوعي الصفقتين.

ثانيا: في صفقة البيع يحصل المشتري على السلعة التي يرغب في امتلاكها، إما للانتفاع الشخصي أو ليتاجر بها. أما المال الذي يقترضه أو الذي يمهله المرابي مدة مقابل الزيادة، فإن الطرف الضعيف اقتطعت منه زيادة الرّبا لا في سلعة وإنما في بقاء المال عنده زمنا. والمال ليس غاية في ذاته وإنما هو وسيلة، فترتيب الزيادة على ذلك قلب للأوضاع، وتصبح الوسيلة غاية.

ثالثا: إن التأمل في ما يحصل للطرفين يعطينا النتيجة التالية: أن المرابي تزداد ثروته يقينا، لأن جميع الصفقات التي يعقدها، ربحه مضمون فيها. وفي المقابل فإن الساعين لتحقيق الكسب بالفلاحة أو الصناعة أو التجارة، معرضون للربح أو الخسارة. ومن البدهي أن من تكون صفقاته تضمن له الرّبح دائما هو الذي يجمع في النهاية أكبر قدر من الثروة، فتنحسر الأموال من حاصل الإنتاج إلى جيوب المرابين.

رابعا: إن نشاط التجار والفلاحين وأصحاب المصانع والعاملين بالفكر أو بالساعد يضيف للثروة الإنسانية إضافات تبرر لكل واحد ما يحصل عليه، وتدفعه لمزيد من البذل والعطاء. أما المرابي فإنه لا يضيف للثروة شيئا و لا يكد ذهنه إلا لاصطياد العاملين، فيكبلهم بشروطه الثقيلة التي تضمن له الفائدة قبل رأس المال. وإذ تبين الحق من الباطل، ولطف الله بعباده ففتح بصائرهم وارتفع اللبس بما أنزله من وحي ووضحت النصيحة بالابتعاد عن الرّبا، فمن اهتز قلبه لما نزل من تحريم الرّبا وأقلع وتاب، له ما تم قبضه قبل أن ينزل الحكم النهائي ولا إثم عليه فيما سبق له أن أكله من الرّبا. والتهديد لمن كانت عزيمته غير صارمة فعاد إلى التعامل بالرّبا، تهديد ه بالخلود في النار.

276-يمحق الله... كفار أثيم.

يتهدد القرآن المرابين، الجاهلين بما يكون عليه الحال في المستقبل، المندفعين إلى جمع أكثر ما يمكنهم جمعه من مال ادخارًا لحوادث الزمن وتقلبات الأيام، يهددهم بأن الله سيمحق الرّبا ويمحو ما جمعوه منه، وسوف يذهب الرّبا بالفائض والأصل معا، فلا يجدون منه شيئا عند الحاجة. وفي المقابل فإنه سبحانه سيبارك للمتصدقين، ويفتح لهم أبواب الرّزق، ويخلف عليهم ما قدموه من عون. وهذه سنة من سنن الله في الكون، جرى أمره أنه لا يكرم الكافرين الملوّثين بالآثام، وهو معنى نفي الحب من الله لهم.

277-إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات... ولاهم يحزنون.

ثم تحيي الآيات التربية التي غرسها القرآن في قلوب المؤمنين ومشاعرهم حتى تكون ناصعة في الضمائر تنير السبيل وتحمي من الانزلاق، فيسجل الصورة النقية للنمط الرّفيع من البشر في خطوطها الكبرى التي يتفرع عنها كل خير:

1) الإيمان

2)الالتزام بمقتضياته في السلوك بالقيام بصالح العمل الذي يرضى عنه الله باطنا وظاهرا –

3) أداء الصلاة على الوجه الكامل المحرك للضمير الذي يطوع الفرد لعمل الصالحات ويظهر منه آثار الخشوع في فترة المناجاة –

4) والطوع عن رضى بإيصال حقوق الفقراء في مال الواجدين.

ثم تظهر الآية النتيجة في إطار رفيع بارز: أن ما قدموه مسجل لا يضيع من جزائه وأجره شيء مضمون عند من تولاهم بهدايته وعنايته **(عند ربهم)** وفوق ذلك أنهم يجدون الأمن والطمأنينة في نفوسهم، هم واثقون من فوزهم فلا يخافون

حدوث مفاجئ في المستقبل، ولا هم يندمون على ما مضى ولا يحزنون على ما فات.

278-يا أيها الذين آمنوا... إن كنتم مؤمنين.

ثم تتوجه العناية القرآنية بالمؤمنين ليحصنهم من الرّبا، المارد المفسد للبشرية، هذا المارد الخبيث الذي يلتف بمظاهر براقة تغري به، فالثروات الكبرى هي بين يدي كمشة من المرابين، والحياة الناعمة في مظهرها النابعة من ذلكم الوفر المالي، والحصول عليه بغير تعب ولا جهد تدفع الشهوات لتتمرد على نداء العقل والضمير، فيوقظ القرآن المؤمنين بهذا النداء النافذ إلى أعماق النفس المحرك لمشاعرها: اتقوا الله، تقوى الله هي الحصن الذي إليه تلجؤون، عودوا إلى الفطرة التي فطركم الله عليها، طهروا أموالكم من رجس الرّبا، واتركوا ما بقي منه. وإذا كان لا يحل لكم أن تأخذوا ما بقي لكم من العقود الرّبوية فمن باب أولى أن لا تنشئوا عقودا تشتمل على هذا الخبث. استيقظوا إلى أن التعامل بالرّبا يهز الإيمان ويبرز المرابي في صورة فاقد الإيمان.

279-فإن لم تفعلوا... ولا تظلمون.

معصية الرّبا معصية عظيمة، والمتلوث بالرّبا معرض لحرب من الله، ومن رسوله، أعلم الله بذلك المرابين. حمل معظم المفسرين الآية على السبب الذي نزلت فيه: ذلك أن قبيلة ثقيف بالطائف كانت لها ديون على قريش، أهل مكة، فاشترطوا لدخولهم في الإسلام أن ما عليهم من الرّبا مطروح وما لهم على أهل مكة من ربا ثابت غير ساقط. واجتهد رسول الله ﷺ ، وكان من رأيه أن دخول قبيلة ثقيف فيه قوة للإسلام، وأنه لم يبح لهم الاستمرار على التعامل بالرّبا ولكن قبل منهم أن ما تم عقده قبل الصلح يمضي إلى نهايته، ولكن تحريم الرّبا هو من الثوابت في الإسلام، وأن استئصال هذا الورم الخبيث لا مجال فيه للاجتهاد، ولا يمكن قبوله بأي وجه من الوجوه قصرت الفترة أو طالت. فجاء الحكم الفاصل من الله :أن الصلح مع الرّبا منقوض. روي أنه لما نزلت الآية قالت ثقيف: لا يدي لنا بحرب لله ورسوله (أي لا قدرة لنا على محاربة الله ورسوله) فطاعوا بالانكفاف عن الرّبا وطرح ما لهم من الرّبا. وطوي ملف الرّبا.

ويمكن أن يحمل الأمر على ما قدره سبحانه من هلاك للبشر الذين يتعاملون بالرّبا، فالحروب التي أكلت الأخضر واليابس، والتي لا تكاد تنطفئ من مكان حتى تشتعل في مكان آخر، والظلم الفاشي والاستبداد المنتشر، والاستحواذ على حقوق

الشعوب، والفقر، وذهاب الطمأنينة من حياة الناس رغم ما تكدس من متنوع الخيرات ،والهزات في أسواق المال التي لا تهدأ قليلا حتى تعود إلى الظهور بوجه كالح وعنف أكبر، لا ينفك كل ذلك، مع التعمق في الأسباب والمؤثرات، عن فعل جرثومة الرّبا، هي حرب الله على الرّبا وعلى المروّجين له.

280-وإن كان ذو عسرة... تعلمون.

ويقدم القرآن الوصفة التي يعالج بها الفساد الذي استشرى في التعامل والقسوة التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي فيبينها فيما يلي :

الأول :التوبة بالعزم المؤكد على ترك الرّبا، والرّفض لهذه الخطيئة والاشمئزاز منها.

الثاني: الاقتصار على أخذ المرابي رأس ماله الذي بنيت عليه المعاملة، ويتنازل عن كل زيادة في مقابل الزمن. هذه الزيادة التي هي ظلم وأخذ للمال بالباطل. ومن ناحية أخرى فإذا كان القرآن حرم ظلم المرابي بأخذ الزيادة فكذلك حرم على المدين أن يظلم المرابي بالمماطلة بعد طرح الفائدة.

الثالث: أن يعامل الدائن المدين معاملة إنسانية عند حلول أجل الدين، فهو مطالب، على سبيل الوجوب، أو على سبيل الندب أن يؤخر المدين إذا كان وقت حلول الدين لا يملك ما يقضي به دينه.

رابعا: أن الكمال في التحلي بالقيم الإنسانية الرفيعة: أن يعفو الدائن عن المدين إذا كان معسرا وأن يتصدق عليه بما هو في ذمته من الدين. ويتحقق أجر الصدقة وإن كان حين تمكينه من المال لم ينو التصدق عليه

281- واتقوا يوما ترجعون لا يظلمون.

وجماع الخير، والمنهج الرّاشد، والحصن للإنسان في معاملاته كلها، أن يكون مستحضرا دوما لتقوى الله، وأن يحذَّرَ الجزاء في اليوم الذي يعود فيه إلى ربه بلا مال ولا أهل ولا جاه. كل الناس يصيرون إلى ربهم ويرجعون إلى حكمه العادل النافذ، وتستوفي كل نفس حساب ما قدمت لا ينقص شيء مما قدمته في حياتها، ثم إنه لا يبخس أي فرد في ثواب أعماله، لأن الله هو الحكم العدل الذي لا يظلم أحدا.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ

وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِى
عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُۥ بِٱلْعَدْلِ ۚ
وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن
تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَىٰهُمَا ٱلْأُخْرَىٰ ۚ وَلَا يَأْبَ
ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُوا۟ ۚ وَلَا تَسْـَٔمُوٓا۟ أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ
أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدْنَىٰٓ أَلَّا تَرْتَابُوٓا۟ ۖ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةً
تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ۗ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا
يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ
ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ۞ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ
مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ ٱلَّذِى ٱؤْتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلْيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ ۗ وَلَا
تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

مسمى: معين.

العدل: الحق.

ليملل: إلقاء كلام ليُكتب مطابقا لما سمع.

يبخس: يغبن، لا يخفي شيئا يترتب عليه نقص.

السفيه: مختل العقل.

الضعيف: الصغير.

الذي لا يستطيع أن يمل: الذي لا يستطيع أن يمل لبكم ونحوه.

أن تضل: أن تنسى.

ولا تسأموا: لا تَمَلُّوا.

الصغير والكبير: الجليل والحقير.

أقسط: أشد عدلا.

بيان المعنى الإجمالي:

حاجة الناس للاستدانة حاجة عامة، وحرصُ الإسلام على أن يحتاط الدائن والمدين احتياطا ينفي احتمال وقوع النزاع أمر أساس في بناء العلاقات. فهدت الآية إلى

الطريق الأرشد في هذا المقام. نادى المؤمنين أن يوثقوا الدين بوثيقة مكتوبة يتحدد فيها المقدار والأجل. وأمر الكاتب الذي طلب منه الكتابة أن يستجيب ويقوم بكتابة الدين مراعيا الحق فلا يظلم الدائن ولا المدين، ونهت الآية الكاتب عن الامتناع من الكتابة، كتابة تبين الحق مراعيا ما تفضل الله على الكاتب لما علّمه طريقة توثيقه وأكدت الأمر بالكتابة **(فليكتب)** . وبينت الآية الطريقة المثلى في كتابة الدين: أن الذي يتولى الإملاء على الكاتب الموثق هو المدين، وحركست خوف الله في قلبه عند الإملاء فلا ينقص شيئا من حقوق الدائن. وإذا كان المدين غير قادر على الضبط إما لخفة عقله، أو صغره، أو عجز في حواسه، فإن وليه هو الذي يُطلب منه أن يقوم بضبط ما على منظوره فيمليه على الكاتب مراعيا الصدق والحق. وطلبت الآية أن تؤكد وثيقة الدين بالإشهاد. واشترطت في الإشهاد أن يكون باثنين فأكثر ذكرين مسلمين، أو برجل وامرأتين، وأن يكون الشهود من الاستقامة بدرجة يرضى الخصم بشهادتهم ولا برفضهم القاضي. وعللت الآية مقابلة شهادة الرّجل بشهادة امرأتين، بالحرص على حفظ الحقوق، إذ المرأة في معظم المجتمعات القديمة لا تحضر صفقات العقود، فقصرت ثقافتها في باب المعاملات عن الرّجل، وتبعا لذلك قد يعرض لها النسيان لبعض ما جاء في العقد من ضوابط، فطلب أن تتقوى بثانية لتتولى كل منهما مساعدة الأخرى في ضبط ما يمكن أن تنساه صاحبتها، فكل واحدة منهما مذكِّرة (بكسر الكاف) ومذكَّرة (بفتح الكاف). ونهت الآية من يطلب منه تحمل الشهادة أو أداؤها، أن يمتنع من القيام بهذه المهمة حفظا للحقوق. كما نهت المتعاملين عن التهاون بكتابة الدين بعامل الملل والكسل، سواء أكان الدين حقيرا أو جليلا، وعليهم أن يضبطوا الأجل. وعنيت الآية بتأكيد هذا النظام الذي تعرضت له الآية بتعليله بأنه أقرب لتحقيق العدل، وأعون على إقامة الشهادة، وأقرب إلى نفي الرّيبة والشك. واستثنى من ذلك، رغم التأكيد، التجارة التي تدار حاضرة، أي لا دين فيها، أن تتم الصفقة بدون كتابة لما في كتابتها من الحرج. ثم أكدت الآية الأمر بالإشهاد ليرتب عليه أن الشاهد ومثله كاتب وثيقة الدين يؤديان خدمة للمجتمع هي إقامة العدل. فلا يقبل أن يتسبب قيامهما بهذه المهمة أن يلحق بهما أي ضرر كان، كما أن عليهما أن يحرصا على عدم الإضرار بأحد طرفي العقد. وحذرت الآية من عدم تطبيق هذا التشريع في نظامه المتكامل، بأن ذلك يلوث المتخلي عنه بالفسق والخروج عن منهج الإسلام. وحثتهم على تقوى الله، وذكرت بأن الله هو الذي تولى تعليمهم فأخرجهم من البداوة والجهل. والله سبحانه هو العليم الذي يشمل علمه ما يتوقعه

الإنسان وما لايتوقعه. ثم تعرضت الآية لصورة أخرى يمكن أن يتعرض لها المتعاملان، وهي أن يكونا مسافرين ولا يوجد كاتب ولا شهيد. فالطريقة لنفي الخصام في المستقبل واطمئنان المتعاملين هي أن يأخذ الدائن من مدينه رهنا توثِقَة بحقه، يعيده إلى صاحبه عند خلاص الدين. وصورة أخرى أن يكون بين المتعاملين من الخلطة والاطمئنان ما يرفع توقع أي إشكال في المستقبل، كالصديق مع صديقه الملاطف، والوالد مع ولده، ففي هذه الحالة يذكرهما القرآن بأنه لا يجب عليهما، والحالة تلك، أن يشهدا أو يكتبا وثيقة الدين أو أن يقبض الدائن رهنا، وكل طرف مأمور بأن يسلم للطرف الآخر ما التزم به ، وائتمنه عليه. ونهت الآية في الختام عن كتمان الشاهد لشهادته، لما يتسبب عنه من ضياع الحقوق، وحذرت من هذه المعصية باعتبار أنها تلوث قلب الكاتم، الذي لا يفلت من العقاب، لأن الله لا تخفى عليه خافية.

بيان المعنى العام:

282-يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم... بكل شيء عليم.

حذرت الآيات السابقة من آفة الرّبا وكشفت عن مساوئه. والرّبا مرتبط بالدين في معظم أحواله. فكان من حكمة القرآن أن عقب النهي عن الرّبا بفك الارتباط المتوهَّم بين الرّبا والتداين.

أُطلِق على هذه الآية: اسم آية الدين. وهي أطول آية في القرآن. تقوم على المقومات التالية:

الأول: تشريع الدين باعتباره حاجة لا يستغني عنها المجتمع، إذ تتحقق به مواساة الواجد بقرض المحتاج الذي ينتظر حصول المال في المستقبل. وهو وسيلة لترويج التجارة لمن سيملك الثمن، فلا يحرم من تملك ما يرغب في اقتنائه لنفسه أو لعائلته، دون إرجاء ذلك إلى التحصيل الفعلي على الثمن.

الثاني: توفر الضمانات التي تيسر اعتماد التداين مع الطمأنينة دون خوف بتفصيل أنواع التوثق.

الثالث:مراعاة ما يضمن نفي الخصام في المستقبل.

الرّابع: مراعاة العدل والحق في جميع المراحل. وذلك ما سنفصله فيما يلي: نداء الله للمؤمنين أنه شرع لهم التداين ولم يحرمه عليهم. ورتب سبحانه ما يكون به هذا التعامل محققا لمصلحة الأفراد والأمة. وذلك بتطبيق تشريع الدين واحترام المبادئ التي تضمنتها الآية والتي نفصلها فيما يلي:

أولا: أن الإسلام لا يمنع التداين، ولا يحرم من كان في ضائقة مالية أن يعمر ذمته بالتزام قضاء ما التزم به، من قرض أو من ثمن سلعة، في المستقبل. سواء أكان ذلك لقضاء مآربه الشخصية والعائلية، أو ليتاجر ويستثمر. وأكدت السنة النبوية على المدين أن يعزم عند عقد الدين على الوفاء بالتزامه.

أخرج الإمام أحمد بسنده إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: من داين الناس بدين يعلم الله منه أنه حريص على أدائه كان معه من الله عون وحافظ. قالت: وأنا ألتمس ذلك العون. وروى الإمام مسلم[1] في صحيحه بسنده إلى أبي قتادة، أنه سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ: أنه قام فيهم فذكر لهم: أن الجهاد في سبيل الله والإيمان بالله أفضل الأعمال، فقام رجل فقال: يا رسول الله، أرأيت إن قتلتُ في سبيل الله تكفر عني خطاياي؟ فقال له رسول الله ﷺ: نعم ! إن قتلتَ وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر، ثم قال رسول الله ﷺ: كيف قلتَ ؟ قال: أرأيت إن قتلتُ في سبيل الله أتكفر عني خطاياي ؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم! وأنت صابر محتسب مقبل غير مدبر **إلا الدين** فإن جبريل عليه السلام قال لي ذلك[2]. فافتتحت الآية بقوله **إذا تداينتم بدين**، فالقرآن يقر التداين ولا ينفر منه ويسجل أنه ظاهرة محققة ومتكررة في التعامل بين البشر.

ثانيا: أن على المتعاملين بالدين أن يضبطوا الأجل الذي يكون عنده وفاء المدين بدينه فقال: **إلى أجل مسمى** – يكاد يكون لوضوحه ودقته حاملا لاسم يتميز به. وذلك نفيا للاختلاف وما ينشأ عنه من خصام.

ثالثا: أن يسجلوا الدين بالكتابة في وثيقة تكون المرجع بين الطرفين والحجة التي يتم العود إليها فقال تعالى: **فاكتبوه** – وهذه صيغة أمر يمكن أن تحمل على الاستحباب، ويمكن أن تحمل على الوجوب. وحملها على الوجوب أولى، وذلك لما في الإلزام بالكتابة من قطع أسباب الخصام قطعا تاما، ولأنه إذا كان واجبا فإنه لا يتحرج الدائن من التمسك بكتابة الدين لأنه طاعة لواجب. وقد اعتنت الآية عناية بالغة بوثيقة الدين لتؤدي وظيفتها في التوثق أداء جيد ا. وهذا ما يحتم العناية بالتوجيه الإلهي المتضمن ما يلي:

أ: أن يتولى الكتابة شخص ثالث إذا كانا جاهلين بالكتابة أو كان أحدهما لا يحسنها. وحرك القرآن عامل الإيمان الذي ينطوي عليه الكاتب، الإيمان الداعي

---

[1] ج6 ص350.

[2] إكمال الإكمال ج 5ص227/228

للصدق والأمانة. وكون الكاتب طرفا ثالثا عند جهل أحدهما أمر الكتابة، هو لدفع الرّيبة عندما يتولى أحد طرفي العقد الكتابة ويكون الطرف الآخر جاهلا، لما يمكن أن يُحَدِّث الجاهل به نفسه أن الطرف الآخر يسجل ما هو أصلح له.

ب: أن يراعي الكاتب العدل فلا ينحاز لطرف فيوثق له حقوقه، ولا يعتني بالآخر متساهلا في توثيق حقوقه، فضلا عن التدليس والتبديل.

جـ: نهت الآية من كان قادرا على توثيق الحق عن الامتناع من القيام بأمر التسجيل. وهل الامتناع محرم أو مكروه، أو ينظر هل تعين القيام به لتفرده بالقدرة على التوثيق فيجب مع التعين ويندب مع عدم التعين؟ اختلف الفقهاء في ذلك. ولما كان في الحياة المدنية في معظم أقطار الأرض، تُعَيِّنُ الحكومات من يقوم بهذه المهمة فإن النهي ينصرف لهم خاصة، فيحرم على من تهيأ لذلك بإذن من الحكومات أن لا يستجيب عندما يطلب منه.

د: أن يتذكر الكاتب أن الله تفضل عليه فيسر له أمر التعلم فلا يمتنع من التوثيق، وليتذكر أيضا أن الله علمه الحق لا الباطل فليحذر عند كتابة الوثيقة أن يظلم أحد المتداينين. **ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله.**

هـ: إن الذي يتولى إملاء نص الوثيقة هو المدين الطرف الأضعف، ومن حكمة ذلك أنه لو أُوكِلَتْ مهمة الإملاء للدائن وزاد في الحقوق الرّاجعة إليه، فقد يضطر المدين للسكوت خوفا من إلغاء العقد الذي هو في حاجة إليه. وهذا ما هو منتف عندما يملي المدين.

و: تُذَكِّر الآية المملي (المدين) بأن عليه أن يستحضر في نفسه عند الإملاء ما تفرضه التقوى من الصدق والابتعاد عن التحايل، وأن لا يغبن الدائن في صغير ولا كبير، وأن لا يستعمل العبارات الموهمة أو القابلة للتأويل.

ز: احتاط التشريع للوضع الذي يكون فيه المدين صغيرا أو ضعيف العقل أو به عاهة تعوقه عن الإفصاح، فقرر أن من يتولى أمره في الحياة هو المقدم في الإملاء، مراعيا الحق فلا يبخس من حقوق المدين ولا الدائن شيئا قل أو كثر.

رابعا: أن يضموا إلى وثيقة الدين على الصفة المذكورة الشهادة على الدين.

وطلب الشهادة كما يدل عليه **(واستشهدوا)** يحتمل الوجوب أو الاستحباب. وبينت الآية خصائص هذه الشهادة لتكون مؤدية للغرض من إقامتها فمن ذلك:

أ- التعدد: رجلان، لأن التعدد يؤكد الثقة بصدق الشهادة وينفي الرّيبة فيها.

ب - الإسلام: ذلك لأن ما يحمله المسلم في قلبه من خشية الله وعبادته وحده يقوم مناديا باطنيا بالتزام الحق. وأما معظم غير المسلمين فإنه لا يُطْمَأَنُّ إلى صدقهم

عندما يتعلق الأمر بنفع للمسلمين. وكون بعضهم قد ينصف المسلمين لا يطعن فيما قررناه، لأن الأحكام تبنى على الغالب. والإذاية المنصبّة على ديار الإسلام قديما وحديثا شاهد صدق على ذلك.

جـ: التيسير على المتعاقدين: بجعل شهادة رجل وامرأتين مساوية لشهادة رجلين. وبرر التشريع تسوية الرّجل بالمرأتين، بأن الذي كان يجري عليه الأمر في المجتمعات إلى زمن قريب: أن الأنثى لا تحضر مجالس المعاملات فكانت ثقافتها في هذه الناحية محدودة. وهو ما يجعل احتمال تعرضها لنسيان بعض خصائص عقود المداينة أمر وارد. فبشهادة اثنتين تتولى كل واحدة منهما تذكير الأخرى ما يمكن أن يفوتها ضبطه فيتكاملان. فكل واحدة منهما مذكِّرة (بالكسر) ومذكَّرة (بالفتح) ويتحقق بذلك الحفاظ على الحقوق.

د: على صاحب الحق أن يتخير لتحمل الشهادة من يكون جامعا للصفات التي تجعل القاضي يقبل شهادته، ولا يرفضها، وكذلك المدين يرضاها ولا يطعن في ثقة صاحبها. وهو معنى قوله تعالى: **ممن ترضون من الشهداء.**

هـ: تحميل المجتمع مسؤولية المساعدة على ضبط الحقوق بتحمل الشهادة وأدائها. وحكم الامتناع عن تحمل الشهادة حرام إذا تعينت، وكذلك حكم أدائها إذا تعينت ولم يحصل ضرر للشاهد. ومع تقدم المجتمعات أسندت التنظيمات تحمل الشهادة وأداءها إلى قوم مخصوصين، فلا يتوجه الطلب على غيرهم إلا في الحالات النادرة عندما لا يمكن إشهاد من انتصب لذلك.

خامسا: حرضت الآية من جديد على توثيق الدين بالكتابة، وخاصة الأجل الذي يجب فيه أداؤه، وعللت ذلك بأنه هو الطريق المحقق للعدل الذي ألزم الله به عباده وجعله مقصدا من مقاصد التشريع. ولأن الكتابة أيضا تساعد على إقامة الشهادة، والكتابة تنفي الرّيب والشكوك في المستقبل.

سادسا: من التيسير الذي راعاه القرآن في نظامه المذكور سابقا، أنه إذا كان التعامل بالتجارة الحاضرة التي يتداولها التجار بينهم، وفي توثيق كل صفقة حرج، أنه لا إثم عند ترك التوثيق والإشهاد.

سابعا: شرعت الآية الإشهاد عند التداين، والترخيص في عدم الإشهاد إذا كان العقد تجارة حاضرة. وشرع هذا المقطع من الآية **(وأشهدوا إذا تبايعتم)** الدعوة إلى الإشهاد على البيع في غير التجارة كبيع الدور والأرضين.

التحصين للتشريع:

حصَّن القرآن هذا التشريع بمراعاة أمرين يفضي عدم توفرهما إلى ضياع التنظيم الإلهي الذي سبق تحليله:

أولهما: الحرص الكامل أن يعامل الكاتب والشهيد معاملة طيبة تنفي أن يلحقهما أي نوع من أنواع الضرر. فأبرزت الآية أن التهاون بحقوقهما فُسوق وإثم عظيم. ذلك أن التراخي في حصانتهما يفضي إلى امتناع الصالحين للشهادة والكتابة من القيام بهذه المهمة النبيلة خوفا من الضرر، فتضيع الحقوق.

ثانيهما: النور الهادي للاستقامة على الطريق، والتطبيق الصالح في الظاهر والباطن للتشريع، وذلك بالتقوى التي هي يقظة الضمير والعقل معا، يقظة تجعل المكلف يتحكم في هواه ويبذل جهده لتطبيق شرع الله. ويمن الله على هذه الأمة بأنه تولى تعليمها ما يصلح أمرها في الدنيا والآخرة، وهو التعليم الذي لا يشوبه نقص ولا عوج، لأنه تعليم الله الذي يعلم بواطن الأمور وظواهرها وحاضرها ومآلاتها القريبة والبعيدة. **واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شيء عليم.**

تعرضت خاتمة هذه الآية **وإن كنتم على سفر.** . . . لهداية الأمة في حالات قد تعرض لبعض أفرادها أو في بعض أحوالها، فأكملت التعليم في ضبط الحقوق ونفي ما يوجب الخصام في المستقبل. *وذلك بما يلي:*

أولا: إذا وقع التداين في السفر، ولم يتمكن المتداينان من الكتابة والإشهاد، فإن تركَ الأمر كذلك قد يصحبه إما الإعراض عن العقد، وإما أن تذهب طمأنينة الدائن بأحاديث النفس. فدلت الآية على الحل الذي يقبله التشريع الإسلامي ويتمثل ذلك في: أن يقدم المدين رهنا للدائن، الشأن فيه أن لا تبعد قيمته كثيرا عن قيمة الدين، يتراضيان عليه ويطمئن الدائن بأن له مرجعا يعود إليه لاستخلاص حقه عند عجز المدين عن الوفاء. أن يكون هذا الرّهن مقبوضا. فإذا وعد المدين بتقديم الرّهن ولم يعقبه القبض إلى أن فلس المدين، فإن الدائن لا يستقل بالرّهن الموعود به ويعتبر كواحد من الغرماء يستحق حصته في المحاصة. أن الرّهن كما يجوز في السفر فكذلك لا مانع منه في الحضر.

ثانيا: إن كل ما سبق من الكتابة والإشهاد والرّهن وتفاصيل ذلك، شرعه الله لنفي الخصام حتى تبقى وحدة الأمة مرعية. ولذا فإنه إذا كان الارتباط والصلات محكمة بين المتعاملين، بصفة ربما تتزعزع لو تحتم طلب الدائن بالكتاب أو الإشهاد أو الرّهن، لأن كلا منهما يأتمن الآخر ولا يخشى منه إنكارا وهذا كحال الولد مع أبيه مثلا أو الزوج مع زوجه، أو الصديق الملاطف شديد الارتباط، ففي حال تَحَقُّق

ائتمان كل طرف للآخر يسقط ما كان مطلوبا من مختلف أنواع التوثق. ويأمر الله أمرا جازما من ائتمنه المتعامل معه أن يؤدي الأمانة التي ترتبت في ذمته كاملة، وليستحضر في قلبه تقوى الله حتى لا يوسوس الشيطان في نفسه أن دائنه ليس له عليه حجة، فيجحد الحق كله أو بعضه. وفي الجمع بين اسم الجلالة **(فليتق الله)** وبين كلمة (ربه) ما يلقي في النفس المهابة ويذكرها بفضل الله عليه إذ تولاه بعنايته حتى بلغ ما بلغه. وتختم الآية بالوصية الجامعة التي تعتبر ركنا في كل ما سجلته الآيات السابقة وهي الشهادة، هذه الشهادة التي لا يظهر أثرها إلا إذا كان الشاهد مستعدا دوما لأدائها ومساعدة من يطلب منه أداءها ليصل بها إلى حقه. وتقرر الآية أن من يكتم الشهادة ويمتنع من أدائها عندما يطلب منه، أن العصيان والإثم قد تأصلا فيه وتمكنا منه ونفذا إلى قلبه. وفي ذلك أشد التحذير من كتمان الشهادة. ولا يتعلل الكاتم بأي علة فإن الله مطلع على الحقائق لا يفوته علم أي شيء يقع في الوجود.

لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

تبدوا: تُظهروا.

يحاسبكم: يجازكم، ويؤاخذكم.

سمعنا: رضينا وقبلنا.

بيان المعنى الإجمالي:

تقرر الآية أن ما حوته السموات والأرض ملك لله، وخاصية الملك هي تصرف المالك فيما يملكه. ولما كان الإنسان هو المستخلف والمكلّف، بنى القرآن على هذه الحقيقة، أن الإنسان محاسب عما يجري في نفسه، أبداه أم أخفاه، لأن الله لا يغيب عن علمه شيء، كتم الإنسان ما في نفسه أو أظهره. ورتب على هذا العلم المحيط حقيقة هي نتيجة للحقيقة الأولى، وهي أنه لما كان الله هو العليم المنفرد بالملك، فمن توابع ذلك أنه يفعل ما يشاء في ملكه، فيغفر لمن تعلقت إرادته بمحو ذنوبه، ويسلط عقوبته على الآثم الذي لم يُقَدِّرْ أن يدخله في عفوه ورحمته. وختمت الآية بما يثبت ما عَرَضَتْهُ، وهي الحقيقة الثابتة: أن الله عليم بكل شيء.

بيان المعنى العـــام:

284-لله ما في السماوات... قدير.

هذا الآية تتويج لما انتظم في الآيات السابقة من التشريع والعقيدة والسلوك، فتقرر قاعدة لها أثرها الكبير في توجيه المؤمن وإحياء رقابته لمولاه. يتبين ذلك مما ورد فيها:

أولا: تذكر بالحقيقة الكبرى: كل ما تحويه السماوات والأرض ملك لله. وهذه الحقيقة قد يغفل الإنسان عن بعض مضامينها، كما يغفل عن مقتضيات تلكم المضامين. يسلم الإنسان بأنه لم يدخل في تصرفه إلا شيء قليل من هذا الكون، ولكن قد تحصل الغفلة عن الحقيقة بما تحجبه الظواهر، فيظن مثلا أنه مالك متصرف في بعض الأشياء، وأقل ذلك أجزاء بدنه المادية، فضلا عن عالمه النفسي الذي يتحكم في إذاعته أو إخفائه.

ثانيا: إن من مقتضيات تلكم الحقيقة أن الإنسان لا يملك ذاته فضلا عن أجزاء الكون الخارجي. فما يجري في باطنه يظن أنه هو الوحيد العالم به، وأنه قادر على إخفائه أو إظهاره. وأن هذه القدرة تعطيه استقلالية تامة لا يحاسبه أحد عليها، فمثلا حبك لشخص أو بغضك له، وترتيبك على هذا الحب أو البغض، وما تخططه في باطنك للتنفيذ، والخطوات الأولى التي تهيئها لذلك، أنت مخطئ جدا إذا ظننت أن كل ذلك محجوب ما دام في نفسك. فإنه من مقتضيات الملك الحقيقي لله أن كل ما يجرى في باطنك هو مكشوف عند الله يعلم تفاصيله ولا يغيب عنه شيء منه.

ثم إن ما سيُرَتِّبُه الله عما حدثت به نفسك وما أعددته وما نفذت به، يكشف لك أنك ما تملك من أمرك شيئا، وينبني على ذلك أنه سيحاسبك. وتقرر الآية أنه حساب الكريم المتفضل الرّؤوف بعباده المالك المقتدر الحكيم . مقتضى ملكه وحكمته أنه يغفر ذنوب من تعلقت إرادته بتكريمه والعفو عن ذنوبه، ويسلط العقوبة على من أثم وحاد عن الطريق المستقيم ولم يسعفه ربه. ولا يعجزه سبحانه كبير ولا صغير ولا حاكم ولا محكوم ولا رئيس ولا مرؤوس، كلهم ضعفاء تُنَفَّذ فيهم القدرة، قدرة من لا يخرج شيء عن الطوع لإرادته.

تدقيق لمسؤولية الإنسان:

المرتبة الأولى: ما يجري في النفس من الخواطر، وما يلقيه الشيطان في باطن الإنسان، وما يحدث به الإنسان نفسه من واردات وهو لا يستطيع أن يكَوِّن حماية من ورودها، ثم يطردها ويستيقظ. فهذه لا مؤاخذة عليها قطعا ولا إثم وإن كانت داخلة تحت دائرة الفساد والشر.

المرتبة الثانية: أن تبلغ تلكم الواردات الذهنية إلى مرتبة الاستقرار والعزم دون أن تترتب عليها أفعال خارجية. وهذا كالكفر والحسد. وهذه يؤاخذ عليها الإنسان ويحاسب عليها، وإن لم يصدر منه فعل يحقق الكفر أو الحسد في الخارج.

المرتبة الثالثة: أن يكون العزم قد خرج من دائرة الباطن إلى التنفيذ الخارجي وحال بين الشخص وتنفيذ ما عزم عليه حائل لا مدخل له فيه. وهذا ما اختلف في المؤاخذة به.

المرتبة الرّابعة: أن يعزم ثم يستيقظ إيمانه قبل التنفيذ ولا ينفذ ما عزم عليه، وهذا لا يؤاخذ بما حدثته نفسه ولا بالخطوات التي قام بها للتنفيذ ما لم يكن فيها ضرر. وهو على رجاء أن يثاب عن إقلاعه عن الشر.

ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

لا نفرق: نؤمن بهم جميعا بلا فرق.

سمعنا: قبلنا ورضينا.

الوسع: الطاقة.

لا تؤاخذنا: لا تعاقبنا.

الإصر: الأمر الغليظ الصعب.

بيان المعنى الإجمالي:

تسجيل للصورة الكاملة للإيمان تتمثل في إيمان الرّسول سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وفي إيمان الذين استجابوا لدعوته، الذين أقاموا عقيدتهم على ما نزل عليه من الله. يتمثل ذلك في الإيمان بالله وملائكته وجميع الكتب المنزلة منه وبرسله الذين بعثهم لهداية الأمم السابقين. وصرحوا بأنهم يعتقدون أن رسل الله جميعا تنبع رسالاتهم من منبع صدق واحد. فهم يؤمنون بهم جميعا. ثم

انطلقت ألسنتهم بالتعبير عما استقر في قلوبهم فأعربوا عن عزمهم على الطاعة، وسألوا ربهم أن يغفر لهم، غفرانه الذي يجدون نعمته يوم يصيرون إليه وقد تركوا كل شيء وراءهم: يوم القيامة. ثم إن الله، في عظيم رحمته، لم يكلف البشر ما لا يطيقون القيام به إلا بمشقة كبيرة. وقرر في سابق حكمته أن كل فرد مسؤول عما فعله وقدمه من خير أو شر. وعلم المؤمنين أن يتوجهوا إليه بهذا الابتهال المتضمن:

1) ربنا لا تعاقبنا إن نسينا القيام بما ألزمتنا به
2) ربنا لا تعاقبنا إن أخطأنا بفعل ما لم تشرعه لنا بدون قصد للعصيان.
3) ربنا لا تكلفنا ما هو فوق طاقتنا.
4) ربنا لا تحملنا الأمر الغليظ الصعب على النحو الذي حملته لبني إسرائيل.
5) ربنا اغفر لنا خطايانا.
6) ربنا ارحمنا برحمتك الواسعة.
7) ربنا أنت ولينا فانصرنا على القوم الكافرين الذين يتربصون بنا.

بيان المعنى العام:

285-آمن الرّسول... وإليك المصير.

حقيقة ساطعة سجلها القرآن: إن محمدا الرّسول ﷺ آمن إيمانا تاما واضحا بربه، ونجح في مهمته فشاركه المؤمنون أيضا الذين استجابوا لدعوته، هو الإيمان الشامل بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا الإيمان هو تفصيل لما افتتحت به سورة البقرة – ***يؤمنون بالغيب***– ومن خصائص إيمان هذه الأمة المنوه بها:

أولا: تصريحهم بما استقر في قلوبهم: أنهم يؤمنون بجميع الرّسل ولا ينكرون رسالة أي منهم. يعتبرونهم كلهم رسل الله قد جاؤوا بالحقيقة، وأن الحقيقة لا تختلف لأن الحق واحد. وهذا ما لا تجده عند أتباع أي دين من الأديان. فاليهود ينكرون نبوة عيسى ونبوة محمد، والنصارى ينكرون نبوة محمد. وكثير من الأنبياء الذين قص الله علينا أخبارهم ينكرون نبوتهم. فدعواهم التسامح دعوى كاذبة عقديا، وكاذبة سلوكيا، بشنهم حربا على الإسلام حربا ما يختفي وجه منها حتى يظهر وجه جديد.

ثانيا: إعلانهم بما استقر في نفوسهم من أن إيمانهم تجاوز العقيدة الباطنية إلى الالتزام بمقتضيات الإيمان، وأن عزمهم على الطاعة لكل ما جاء من ربهم عزم مؤكد، ويسألون ربهم أن يغفر لهم ويدخلهم تحت راية عفوه فإن المصير إليه وحده يوم القيامة.

286- لا يكلف الله نفسا إلا وسعها...فانصرنا على القوم الكافرين.

ثم إن الآية التي اختتمت بها سورة البقرة تتضمن:

أولا: إعلانا من رب الكون أنه رحيم بعباده فلا يكلف أي فرد من أفراد البشر إلا ما هو قادر على القيام به، أي إن قدراته الفكرية والمادية تمكنه من تنفيذ التكاليف الإلهية.

ثانيا: أنه بعد التكليف بما يطيق الإنسان فعله، يعلن أن كل فرد مجزي بما قدم فله ثواب ما كسب من أفعال الخير، ويتحمل وحده عقاب ما اكتسبه من الشرور. وهذا ينفي ما تدعيه يهود أنهم غير محاسبين على شرورهم التي يؤذون بها، وكذلك ما يعتقده النصارى من أن الإيمان بتعذيب المسيح يكفر سيئات المؤمن بذلك.

ثالثا: ترتبط خاتمة سورة البقرة بخاتمة سورة الفاتحة. فسورة الفاتحة ختمت **بدعاء علمه رب العزة للمؤمنين (اهدنا الصراط المستقيم) وتختم** سورة البقرة بهذا الابتهال الذي هدى إليه أمة محمد ﷺ المتضمن أمورا أساسية للنجاة:

أ: ربنا لا تعاقبنا إن نسينا أو أخطأنا. والإنسان لضعفه معرض للنسيان، ومعرض للوقوع في الخطأ. وأثر الفعل الخطأ واقع والواقع لا يرفع، وأثر النسيان أيضا واقع ولا يرفع. فيبتهل المؤمن لربه أن يقبله يوم القيامة في مستوى الذين لم يخطئوا وصاحبتهم اليقظة فلم يصدر منهم نسيان.

ب: ربنا لا تحملنا بعهود أو تكاليف ثقيلٌ عملُها صعبٌ تنفيذُها. يستحضرون ما قصه الله علينا في كتابه عن بني إسرائيل، كقصة البقرة، وتكليفهم بقتل أنفسهم وتحريم الحياة المدنية عليهم تائهين في الصحراء...

جـ: ربنا لا تكلفنا بما لا نستطيع أن نقوم به مما يتجاوز طاقتنا.

د: يرتقي المؤمن وهو متجه بكليته إلى الله يسأله سؤال المعترف بالحاجة إلى ألطافه فيما يكلفه به فيرتقي إلى التضرع تضرع المعترف بالتقصير والقصور، فيمد أكف الضراعة أن يعفو عنه، أن يمن عليه بالمغفرة التي لا تبقي للمعصية أثرا، وإلى فيوض الرّحمة الواسعة أن تشمله فكل مكرمة هي من رحمة الله وكل نعيم هو منها. ويتوج الابتهال الذي علمنا الله إياه في خاتمة هذه السورة، بإبراز الارتباط بين الرّب سبحانه وبين الداعي المؤمن، فإذا هو ارتباط العبد بمولاه، العبد الذي لا يملك شيئا، والمولى الذي يَشْرُفُ العبد بعبوديته فيسأله ما يتجاوز به مطالبَ الفرد، وما أكثرها، يتجاوز ذلك إلى ما هو أعز عليه من كل شيء، هو أن ينصر الله أمة محمد على الكافرين حتى تكون كلمة الله هي العليا. روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي مسعود ؓ قال: قال النبي ﷺ: من قرأ بالآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كفتاه[1] .

---

[1] فتح الباري ج 1. ص431

سورة آل عمـــران

نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ بالمدينة تالية لسورة البقرة، عدد آياتها مائتا آية. فحسب عدد الآي هي في المرتبة الثالثة – سورة البقرة – سورة الأعراف – سورة آل عمران –وهي السورة الثالثة حسب ترتيب المصحف. وحسب ترتيب النزول الثامنة والأربعون. أشهر أسمائها (سورة آل عمران) للتنويه الوارد فيها بآل عمران وهم: – عمران– والد – مريم –وزوجه– وأختها زوج – زكريا – ويحيى – عليهم السلام.

الٓمٓ ﴿١﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ كَيۡفَ يَشَآءُۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٦﴾

معنى الألفاظ:

الحي: الحياة اللائقة به التي يقارنها التصرف في الكون بالحكمة.

القيوم: المتصرف في كل كائن بما يحفظ له كيانه حال وجوده.

الكتاب: القرآن.

لما بين يديه: لما جاء قبله من الكتب والصحف.

التوراة – الكتاب الذي أنزل على سيدنا موسى عليه السلام.

الإنجيل: الكتاب الذي أنزل على سيدنا عيسى عليه السلام.

الفرقان: الفارق بين الحق والباطل.

المنتقم: المبالغ في العقوبة.

بيان المعنى الإجمالي:

افتتحت هذه السورة كما افتتحت سورة البقرة بالحروف الثلاثة (ألف –لام – ميم –) وأتبعت بذكر اسم الجلالة (الله) لتجري عليه الصفات المميزة له. فهو الحي،

وهو المدبر لكل شأن من شؤون الموجودات. ومن ذلك أنه نزل على قلب سيدنا محمد، الكتاب (القرآن) يسير في جملته وتفاصيله مع الحق ويسير الحق معه، فهما متلازمان. وهو لذلك يصدق ما جاء من الكتب السابقة التي منها التوراة الكتاب الذي أنزل على موسى عليه السلام والإنجيل الكتاب الذي أنزل على عيسى عليه السلام، ثم خص القرآن بمزية هي أنه يفرق بين الحق والباطل. حذر الكافرين بهذه الأدلة الواضحة بأنهم سيعذبون بسبب رفضهم لما أنزله الله أشد العذاب. والله عزيز لا يغلبه شيء، وهو شديد العقاب لمن تعرض لسخطه. ومن مظاهر عموم تصرفه وكونه القائم على الكون ما قد يغفل عنه كثير من الناس: فالله هو وحده الذي تولى خلق الإنسان في رحم أمه على تقدير منه على الصورة والكيفية التي يريدها سبحانه، لا إله يتصرف هذا التصرف غيره. إنه العزيز الذي يجري مقاديره على أساس الحكمة البالغة.

بيان المعنى العام:

1-ألم -

افتتحت هذه السورة كما افتتحت سورة البقرة بالحروف الثلاثة التي تقرأ مفصولة عن بعضها. وقد قدمنا الرّأي الذي نرجحه في بيان المقصود منها.

2-الله لا إله إلا هو الحي القيوم.

يلي هذه الأحرف إبراز اسم الجلالة (الله) ليجرى عليه فيما يلي ما يميزه سبحانه بالألوهية الحق التي لا يشاركه فيها أحد. وقد اعتنى القرآن وأكد في عديد المناسبات ما يتميز به الله من الصفات والكمالات التي لا يشاركه فيها أحد ليبرز بصفة جلية التصور الإسلامي لله. وفي كل مناسبة يختار القرآن ما يتناسب مع المعاني التالية ويتبين ذلك :**أولا**- وصف الله بأنه حي الحياة الكاملة التي تليق به سبحانه، بما يفيد أن غير الحي لا يصلح أن يكون إلها. وفي هذا رد لعقيدة عبدة الأوثان الذين يعبدون ما لا حياة فيه، ولعقيدة النصارى الذين يعبدون عيسى عليه السلام مع تقريرهم أنه عذب ومات.

ثانيا القيوم: الذي يتصرف في كل كبيرة وصغيرة في هذا الكون من الهباءة إلى أعظم الكواكب. فيثبت وصف القيوم أن كل ما يجري على المخلوقات جميعها هو بإرادته وتقديره وفعله. وفي ذلك ما ينفي نفيا قاطعا عقيدة النصارى أيضا الذين يزعمون أن عيسى إله، وهو لم يستطع، حسب عقيدتهم وما هو مثبت في كتبهم، أن يمنع نفسه من عذاب أعدائه. كما ينفي هذا الوصف ما يعتقده بعض الفلاسفة من أن الله خلق الكون وأعطاه قوانينه، ثم تركه يجري على تلكم السنن.

3-4: نزل عليك الكتاب بالحق... ذو انتقام.

ثالثا: من قيامه على الكون أنه نزل على سيدنا محمدﷺ القرآن الذي يهدي البشرية إلى ما يضمن لها باتباعه السلامة في الدنيا والآخرة، وربطه بالحق ربطا لا يختل. فكون القرآن منزلا من عند الله، يقوم شاهد صدقه، أنه مهما اختلفت الظروف والأحوال، فإنك تجده مقارنا للحق وتجد الحق مقارنا له لا ينفصلان.

رابعا: مصدقا لما بين يديه. الحق واحد لا يختلف، والباطل له صور كثيرة وأشكال مختلفة. ولما كان القرآن منزلا من عند الله فإنه بالضرورة يصدق ما جاء في الكتب السابقة التي أنزلها الله على رسله. ومعنى ذلك أنه يشهد لما جاء في تلكم الكتب التي سبقته من صحيح العقيدة.

خامسا: وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس. والله ﷻ اعتنى بخلقه لتقويم أمرهم، فأنزل كتبه على رسله ومنها، التوراة المنزلة على موسى عليه السلام والإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، وقد سبقت القرآن كالممهدة له.

سادسا: وأنزل الفرقان. وميز القرآن على جميع الكتب السالفة بأنه هو الحكم فيما يعتقده أتباع تلكم الديانات التي اختلط عليها الأمر بما أدخلوه من تحريف في كتبهم، فالفارق بين الباطل الذي نفذ إلى كثير من التصورات العقدية عند اليهود والنصارى، وبين الحق الذي هو أصل تلك الكتب، ميز الله به القرآن فوصفه بالفرقان. ما يقتضيه العقل أن يقبل الناس على هذا الدين وأن يخلعوا التعصب والعناد. وينذر القرآن من يقابل هذه الأدلة الواضحة المعقولة بالرّفض، ينذره بأنهم يعرضون أنفسهم لعذاب الله الشديد. إن الله عزيز لا يغلبه شيء عقابه قوي بالغ.

5-6: إن الله لا يخفى عليه...الألباب.

رابعا: تثبت الآية علم الله الدقيق بكل ما يحويه هذا الكون في ظاهر الأرض وباطنها، وفي السماوات بما تشمله من كواكب ومجرات، لا يخفى عليه شيء منها مهما دق. ويوقظ الإنسان الغافل ليتأمل في هذه الظاهرة التي تجري على كل إنسان وتتحكم في مصيره وهو قد لا يلقي لها بالا: فالله هو وحده الذي يقدر لكل إنسان وهو لقيحة، في رحم أمه، جميع خصائصه التي تكون عليها صورته في المستقبل. شكل كل جزء من أجزائه، حظه من الذكاء، لون بشرته، لون عينيه، مقدار قوته، فصاحة لسانه، وكل ما تتصور من المميزات لكل فرد التي جعلت كل إنسان في هذه الدنيا صورة فريدة ليس لها مثيل. إن هذا التصرف يقوم شاهدا على

أن الله تفرد بالعزة فكل شيء هو طوع أمره وإرادته، وأن ما يصدر عنه يمثل الحكمة الكاملة فهو العزيز الحكيم.

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٧ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ۝٨ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ۝٩

بيان معنى الألفاظ:

المحكمات: واضحة الدلالة.

أم الكتاب: الأصل الذي يرجع إليه.

المتشابهات: الآيات التي في دلالتها على المقصود خفاء.

القلوب: العقول.

زيغ: ميل عن الحق والصواب.

ابتغاء: قصد.

بيان المعنى الإجمالي:

تتابعت الآيات محددة للعقيدة الإسلامية في الذات الإلهية. فالله هو الذي أوحى لنبيه وأنزل عليه القرآن. هذا القرآن الذي أراد الله أن تكون آياته على صنفين: صنف واضح الدلالة لا خفاء فيه، وهذا هو معظم القرآن وإليه المرجع في فهم نصوصه. وصنف يحتمل أكثر من وجه لا رجحان لواحد منها، وهو المتشابه.

وكشفت الآية عن موقف الناظرين في متشابه القرآن فصنفتهم إلى صنفين: صنف الرّاسخين في العلم وصنف الذين فسدت عقولهم. وتوجهت العناية لفضح الصنف الثاني أولا درءا لخطرهم فكشفت عن ملامحهم: عقولهم غير مستقيمة، ينقّرون عن الآيات المتشابهة لا لفهمها وإدراك محاملها المعقولة، ولكن ليفتنوا الناس عن دينهم صارفين تلك الآيات إلى ما يزعزع الإيمان ويزرع الشك، أو ليؤولوا الآية على المحمل الذي يوافق أهواءهم. مع أنهم لا قدرة لهم على التأويل الصحيح الجامع لأطراف القرآن. والعلم الكامل الدقيق لجميع الآيات المتشابهة في القرآن هو لله وحده. والمؤمنون الذين اختلطوا بالقرآن حتى حصلت لهم بذلك مدارك مستقيمة

فيه، موقفهم من الآيات المتشابهة أنهم يقدمون مقدمة بين يدي نظرهم هي: أن القرآن كله حق من عند الله، ثم يبنون على هذه المقدمة تسليط الضوء على المتشابه بالعودة إلى الآيات المحكمات يستلهمون منها ما يرجحون به بعض الأوجه، أو ما يفرض عليهم التوقف. أثنى الله عليهم فوصفهم بأنهم أصحاب العقول الرّاجحة.

ويُعَلِّم الله أمة الإسلام، بقيادة نبيها عليه الصلاة والسلام، أن يتوجهوا إلى الله بالدعاء التالي: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا:تولنا بألطافك حتى نثبت على الطريق الذي هديتنا إليه، وهب لنا من لدنك رحمة: ابتهال أن يقرن ثباتهم على الحق بأن يحوطهم برحمته التي وسعت كل شيء، مما يتعلق بالمدارك العقلية، وبالمطالب الجسمية، وبالفتوحات الرّوحانية، وكلها من عند الله. ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد: علمهم أن يُذَكِّروا أنفسهم في ختام دعائهم باستحضار المآل الذي يكون الإنسان أحوج ما يكون إلى رحمة ربه يوم القيامة المحقق مجيئه.

بيان المعنى العام:

7- هو الذي أنزل ...الألباب.

تواصلت عناية القرآن بتحديد خصائص الذات الإلهية في التصور الإسلامي الحق. فترقى من تقرير أن الله هو المؤثر في كل إنسان من بداية تكونه في رحم أمه، ترقّى إلى إثبات أن الله هو وحده الذي أوحى لنبيه ﷺ ، فأنزل عليه آيات القرآن. والقرآن كلامه وهو أعلم بما أنزله. فكشف عن بعض خصائص القرآن في هذه الآية، وذكر أن آيات القرآن صنفان: آيات محكمات وهي التي كان التعبير فيها كاشفا عن المقصود منها، فهي واضحة الدلالة إما لأنه لا احتمال فيها أو لأن الاحتمالات المفروضة مرجوحة ضعيفة يطردها وضوح بيان النص. وهذه الآيات هي معظم القرآن، وهي التي إليها المرجع في فهم كلامه سبحانه تشبيها لها بالأم في العلاقات البشرية.

آيات متشابهة: وهي التي تحتمل أكثر من وجه، وبالرّجوع إلى الآيات الصريحة والثوابت والمقاصد يُوَفِّقُ العلماء الفقهاء في علم القرآن إلى الكشف عن المراد منها. وبعضها يخفى مدلولها خفاء يحار الناظر المنصف في الكشف عن المراد، كالحروف المقطعة في أوائل السور وكقوله تعالى: **(وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم)**[1] .

[1] سورة النمل آية 82

والآيات المحكمات هي معظم ما جاء في القرآن، وإليها المفزع في التعرف على العقيدة والشريعة والسلوك. ولا إشكال فيها.
أما الآيات المتشابهة فيتعلق بها أمران:
أولا: بيان موقف الناس من الآيات المتشابهة.
ثانيا: إبراز حكمة وجود المتشابه في القرآن.
موقف الناس من الآيات المتشابهة
تكفل القرآن ببيان موقف الناس من الآيات المتشابهة وقسمهم إلى صنفين:
أ: صنف فسدت عقولهم وانحرفوا عن الصراط المستقيم وحملهم بغضهم للقرآن وللنور الذي جاء به، حملهم على إهمال الآيات المحكمة، والتنقير عن الآيات التي تحتمل أكثر من وجه (المتشابهات) لا ليربطوا بينها وبين ما جاء في الآيات المحكمات، ولكن ليشككوا الناس في القرآن وليفتنوهم عن دينهم بتخييلهم لهم أن القرآن متهافت متناقض. أو ليصرفوا الكلام عن الاحتمال المتسق مع طريقة القرآن فَيَلْوُونَهُ بما يلائم قصدهم في الإفساد وإضلال الناس. والحال أنهم ليس لهم علم بطرق تأويل الكلام على ما استقر عليه الأمر في الأساليب العربية.
ب: صنف آخر تمرس بالقرآن وبأساليبه وأدرك أسرار العربية وتصاريف الكلام، وتعمقت أنظاره في الكتاب العزيز فاستقام له من ذلك وضوح في الرّؤية يدرك بها كثيرا من الغوامض، ويفتح بعلمه وتقواه مغالق قد لا يتبين وجهها في بادئ الرّأي. وقامت في مداركهم حقيقة يقينية أولى: أن القرآن كلام الله، كله حق وكله صدق، وأنه لا يمكن أن يوجد فيه تناقض أو اختلاف أو ما يناقض المعقول. وتبع ذلك أن القرآن وحدة كله من عند الله فكلما عرض للناظر فيه اشتباه فالواجب العود إلى المحكمات. وقامت في عقولهم أيضا حقيقة ثانية، هي أن إدراك كل ما جاء في القرآن إجمالا وتفصيلا وبلوغ اليقين في المراد من كل آية من القرآن هو لله وحده. فهو الذي أنزل الكتاب وهو أعلم به. وبناء على ذلك فإنهم لا يجرؤون على حمل أية آية من القرآن على معنى لم يهد إليه أسلوب القرآن في طريقته، أو يخالف مقاصده أو يناقض ثوابته. روي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: أي سماء تظلني وأي أرض تقلّني إذا قلت في كتاب الله برأيي. وبهذا فإن علم المراد من كل آية من آيات القرآن قد اختص به الله سبحانه لا يشاركه أحد في ذلك وهو ما يظهر من قوله تعالى: **وما يعلم تأويله إلا الله.**

ويثني القرآن على هذا الصنف، بأنهم هم الذين تأهلوا لإدراك ما مكنهم ربهم من فهمه ووقفوا عند ذلك، فهم أصحاب العقول الرّاجحة التي لا تخبط خبط عشواء.
وثانيا: إبراز حكمة اشتمال القرآن على المتشابه.

أولا: إن القرآن أنزل بلسان عربي جرى على ذلكم السنن وعلا في أسلوبه فكان معجزا. ومن وجوه إعجازه تعبيره عن المعاني بطرق الحقيقة والمجاز على ما في المجاز من محامل عديدة، ومجالات فسيحة تتسابق فيها الأفهام. فتختلف وجوه الاحتمال في بيانه، ويكون هذا الأسلوب أشد تأثيرا وأمتع للراسخين في العلم، ومزالق يقصدها الذين في قلوبهم زيغ.

ثانيا: القرآن ليس كتابا موقوف أثره على وقت نزوله، بل هو الحق وهادي البشرية إلى يوم القيامة، فكانت صياغته صالحة لكل مستوى حضاري، فتجد المعنى قد لا يكون واضحا في عصر أو يفهم على وجه، حتى إذا تطورت معارف البشرية وجدت القرآن في طريقة تعبيره لا يتخلف عن الحقيقة ولا يناقضها، فيزول بعض التشابه بالتقدم المعرفي للبشرية.

ثالثا: أن القرآن قد اعتنى بما وراء الطبيعة، وبيان ذلك بالكلام قد يسمو فيه إلى مستويات تكون معبرة عن الحقيقة، ولكن بلوغ الأفهام لإدراك المعنى المقصود صعب تحققه للتفاوت الكبير بين أوضاع اللغات وبين المفاهيم الماورائية .

8-9-ربنا لا تزغ...الميعاد.

يختم هذا التقرير بتلقين الرّسول والمؤمنين أن يتوجهوا إلى ربهم بهذا الدعاء: ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا. إنه بعد أن كشف عن موقف الذين انحرفوا فتتبعوا المتشابهات قصد فتنة الناس وإضلالهم وانصرفوا عن الآيات البينات والهداية، وفي ذلك خسارة كبرى في الدارين، والمؤمنون على حذر من العاقبة التي لا يضمنها إلا عون من الله، فيعلمهم بهذه الآية أن يتوجهوا إليه ليثبت قلوبهم على الهداية التي تفضل بها عليهم، ولولا فضله وألطافه ما اهتدوا. أن يطلبوا من ربهم أن يشملهم برحمته التي وسعت كل شيء. إنها الألطاف الإلهية التي تسعدهم بالحماية في دينهم وعقولهم وأبدانهم. إن هبة الرّحمة من الله هي أعظم هبة تحقق للإنسان السعادة ، وهِبَاتُهُ سبحانه لا تحد.

9-ويختم الدعاء بالتوسل أن يكتب لهم حسن العاقبة، فيعبرون عن يقينهم بأن الله سيبعث الناس جميعهم في يوم، يقينٌ قدومُه لاشك فيه، إنه يوم وعد الله أن يجمع الناس فيه، وسبحانه لا يخلف الميعاد.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا
فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿١١﴾

بيان معنى الألفاظ:

لن تغني: لن تدفع.

وقود: ما يحترق في النار كالحطب.

كدأب: شأنهم كشأن.

أخذهم الله بذنوبهم: سلط العقاب عليهم بسبب ذنوبهم.

بيان المعنى الإجمالي:

يقرر القرآن حقيقة:أن متاع الدنيا من أموال وأولاد لا تنفع أصحابها الكافرين، وأنهم سيكونون وقودا للنار تشتعل بأجسادهم. وأن الله سيباغتهم بنقمته وعذابه في الدنيا فيكون شأنهم في استئصالهم كشأن آل فرعون ومن سبقهم من المكذبين، سلط عليهم عقابه بسبب ذنوبهم. فليحذر المكذبون نقمة الله فإنه سبحانه شديد العقاب.

بيان المعنى العام:

10-11: إن الذين كفروا لن تغني...شديد العقاب.

يعتز المؤمنون بصلتهم بربهم، ويجدون بذلك الطمأنينة، وتلهج ألسنتهم بالدعاء إليه سبحانه ليثبتهم كما جاء في الآية السابقة. وفي المقابل يعتز الذين كفروا بالله ورسله بما لهم من أولاد وما جمعوه من أموال. وهو غرور منهم فإن كل ذلك لا يدفع عنهم شيئا من عذاب الله. وفي الآخرة تكون أجسامهم المادة التي تشتعل بها نار جهنم. وأما في الدنيا فإن شأنهم سيكون كشأن آل فرعون وشأن المكذبين بآيات الله البينات الدالة دلالة واضحة على صدق ما جاؤوا به من عند الله، ممن جرت عليهم سنة الله في تسليطه عقوبته الماحقة جزاء ما ارتكبوه من معاص واقترفوه من ذنوب. والله شديد العقاب لا يفلت من عقابه أحد ممن قدر عقابهم في الدنيا.

قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغۡلَبُونَ وَتُحۡشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدۡ
كَانَ لَكُمۡ ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ
يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ
لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿١٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

تحشرون: الحشر الجمع والسوق.

المهاد: أصله الفراش وجهنم أسوأ فراش.

الفئة: الجماعة من الناس.

رأي العين: الرّؤية بحاسة البصر.

بيان المعنى الإجمالي:

أمر لرسوله أن يرهبهم وأن يظهر لهم قوته، فيواجههم بأن جيوش المسلمين ستهزمهم، وأن مصيرهم بعد موتهم إلى جهنم وهي أسوأ مهاد. إن ما تحقق أمام أبصاركم في عاقبة الجماعة المؤمنة التي تجاهد في سبيل نصرة دين الله، وعاقبة الجماعة الكافرة، وما أحاط بالواقعة من ضلال أبصاركم وفساد تقديركم، فأخطأتم في عدة المقاتلين المؤمنين، فهزموكم. إن الله يؤيد بنصره من يشاء. وفي واقعة بدر هذه عبرة لتتيقنوا أن صولات الكفر هي إلى انهزام.

بيان المعنى العام:

12-13: قل للذين كفروا...الأبصار.

أمر الله رسوله أن يسمع الكافرين ما يزلزلهم ويدخل الوهن في عزائمهم ، وأن يظهر لهم قوة المسلمين، أمره أن يواجه الكافرين بالمآل الخاسر الذي يترصدهم: إن جيوشهم ستنكسر وستهزم شر هزيمة، وأن مظاهر عزتهم في الدنيا ستتحول إلى ذل وخيبة وأن عاقبتهم في الآخرة هي نار جهنم. ولا أسوأ وأشد إيلاما من أن تكون العاقبة بما مهدوه لآخرتهم: نار الله الموقدة. هذا التهديد سيتحقق لا محالة ، وشاهده ما تم في غزوة بدر الكبرى. إن في هذه الغزوة لدليلا ظاهرا. جماعة مؤمنة خرجت تقاتل في سبيل نصرة دين الله وإعلاء كلمته، وجماعة أخرى كافرة تقاتل ولا مبدأ لها ولا سند. وما عند الجماعة الكافرة من أسباب الغلبة، من العدد الكبير من المقاتلين الأشداء، تحول إلى سبب للهزيمة، وضللتهم حواسهم، وقذف في قلوبهم الخوف لما قدروا عدد جيش المسلمين بضعف عددهم، وهم أمامهم ينظرون إليهم ، ولكن افسد الله أبصارهم وانخدعوا بما رأوه بأعينهم. ولما اصطف الجيشان كانت الرّهبة من قوة جيش المسلمين قد خلخلت عزائمهم ،ووهنت قواهم. والله هو المتصرف فيؤيد بأسباب النصر من يشاء. لقد دخلت عوامل ما حسبها جيش الكافرين، وما حسبها أيضا جيش المسلمين، ليكون في ذلك عبرة تزيد المؤمنين وثوقا بأنهم على الحق وأن الله معهم.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ
ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ
وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ (14) ۞ قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ
عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞ
وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ (15) ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا
فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ (16) ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلۡقَٰنِتِينَ
وَٱلۡمُنفِقِينَ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ (17)

بيان معنى الألفاظ:

القناطير المقنطرة: الكميات الكبيرة من الذهب والفضة والنقود.

الخيل المسومة: المسيبة في مراعيها.

متاع: ما يستمتع به الإنسان مدة.

حسن المآب: المرجع الحسن أي العاقبة الحسنة.

هل أؤنبئكم: هل أعلمكم.

القانتين: هم المؤدون للعبادة على أكمل الوجوه.

الأسحار: جمع سحر وهو سدس الليل الأخير.

بيان المعنى الإجمالي:

فطر الإنسان على حب ما في مظهره جمال يغري به، مما تشتهيه الأنفس وتنساق إليه، وعددت الآية من ذلك شهوة الجنس: حب الرّجل للمرأة والعكس، وإنجاب الأولاد، وجمع الأعداد الكثيرة والأوزان الثقيلة من المعدنين النفيسين: الذهب والفضة، والخيل النشيطة القوية المطلقة في مراعيها، والأنعام من البقر والغنم والمعز والإبل، والحرث في المزارع والحقول. يتعلق الناس بهذه الشهوات بمقتضى فطرتهم، ويجدون فيها متعة، ويقر القرآن بذلك ولا يعكس الفطرة، ولكنه يوقظ الناظر إلى أن الشهوات تزول سريعا، وأن النعيم الذي أعده لصالحي عباده عندما يرجعون إليه يسمو على تلكم الشهوات بدوامه وحسنه. وتحول الأسلوب بصدور الأمر الإلهي إلى رسوله أن يخبرهم بتفاصيل ما هو خير من شهوات الدنيا، مما أعده الله للذين حلت التقوى في قلوبهم، جنات تتخللها الأنهار الجارية ، أزواج مطهرة من العيوب الجسمية والخُلقية، وفوق ذلك يحل عليهم رضوان من

الله، والله عليم بحقيقة عباده فلا يحل رضوانه على المرائين. ويتميز هؤلاء المرْضيُّ عنهم بأنهم هم الذين يخلصون في التوجه إلى الله، تعرب ألسنتهم عما استقر في قلوبهم من الإيمان ويدعون ربهم بالمغفرة لما قصروا فيه وأن يحميهم من عذاب النار. هؤلاء الذين نوهت بهم الآيات هم الذي اتصفوا بصفات الكمال: الصبر، والصدق، وحسن العبادة، والتصدق على المحتاجين، والتوجه إلى الله في ثلث الليل الأخير بالاستغفار.

بيان المعنى العام:

14-زين للناس...والله عنده حسن المآب.

هذه الآيات تكشف عن حقيقة التركيب الإنساني وصلة هذا التركيب بالحياة الدنيا، وذلك ليرتب على عرض تلكم الحقيقة موعظة المسلمين. لقد أكد القرآن في حديثه عن خَلْق الإنسان أنه مركب من قوى: هي طبيعته التي يتميز بها عن الكائنات الأخرى. وأن القرآن لا يعمل على قمع تلكم الفطرة ولكن يعمل على إعلائها. يقرر القرآن أن البشر فطروا على التعلق بالشهوات. وهي قوى مؤثرة فيهم. يحدثون أنفسهم بها حديث المحب بما يحبه. عدد القرآن منها:الشهوة الجنسية من تعلق الذكر بالأنثى والعكس. وما تزال هذه الغريزة تعمل في توجيه سلوك الإنسان إلى مناح مختلفة. وشهوة إنجاب الأولاد، ويشعر البيت العقيم بتعاسة وظلام في أركانه، ويجد الأبوان في نسلهما امتدادا لوجودهما، وأمانا لهما عند العجز. وشهوة تملك المال من الذهب والفضة والنقود، ويزداد شراهة وفرحة كلما تكشف مخزونه وتضاعف ما تحويه خزائنه من قناطير المعدنين النفيسين: الذهب والفضة. حب الخيل المنطلقة في مراعيها وهي كلها نشاط وحيوية وجمال. وما تزال الخيل إلى اليوم مرغوبا في اقتنائها تعطي لناظرها فضلا عن مالكها انشراحا. وحب تملك الأنعام من الغنم والبقر والجمال. وكذلك المزارع المعتنى بها المحروثة بما تنتجه من ثمار وحبوب وزهور التي تبهج النفس وتقر بها العيون. يقر القرآن بما لهذه الشهوات من حظ ، ولا يقمع الفطرة، ولكن يدعو الإنسان بعد هذا العرض أن لا يجعل كل همه في هذه المباهج والمتع المحدودة الزمان فتلهيه عن إدراك ما فيها من جوانب سالبة، وليعلم أن ما أعده الله عنده محفوظا للصالحين من عباده مما سيلقونه في مآلهم، هو الأكمل والأفضل.

15-قل أؤنبئكم بخير من ذلكم...بالعباد.

يواصل القرآن الموعظة، فيقول الله لنبيه قل: وهو ما يوقظ المؤمن للاستماع والتلقي، هل تريدون أن أعلمكم بما هو خير من تلكم الشهوات الفطرية؟ ويأتي

الجواب مفصلا لما هو خير: جنات تتخللها الأنهار الجارية لا يكدر صفوها خوف الزوال، إذ يستقر في ساكنيها الإحساس بالخلود، وأن ما رزقوه باق لهم لا يتحولون عنه ولا يلحقه فناء ولا ذبول. أزواج مطهرة من العيوب الخِلقية والخُلقية، وما أكثر عيوب البشر في هذه الحياة مهما أوتوا من وسامة ورزقوا من جمال. إن تلكم النقائص لا تعلّق بالمؤمنين والمؤمنات في الجنة. مما يجعل الأنس والتكامل بين الزوجين يبلغ غاية مدى التوافق والحب. يتوج هذا النعيم بحلول رضا الله عنهم، ذلكم الرّضا الذي أسنده القرآن لاسم الجلالة: **(رضوان من الله)** الله الذي يعلم حقائق النفوس ودخائلها فلا ينال هذا الرّضا إلا من طهرت نفسه وزكت حقا.

16-17-الذين يقولون...والمستغفرين بالأسحار.

يرسم القرآن ملامح عباده المتقين بإجراء هذه الأوصاف عليهم:

الصابرين: تتفاوت قيم الناس بما أوتوه من قدرة على التحمل وعلى المداومة، وعلى الثقة بالنفس وعدم الجزع عند المصائب والملمات، وبالصبر على الخير فلا تبطره النعمة ولا تنسيه ضعفه وحاجته.

الصادقين: الثابتين على الحق قولا وعملا. الذين يطمئن إليهم الناس في تعاملاتهم، ويثقون بهم.

القانتين: الذين إذا وقفوا بين يدي ربهم للعبادة استحضروا جلال الموقف فاندمجت مشاعرهم وأرواحهم في المناجاة المطهرة للنفس والمعلية لها إلى مقامات القرب.

المنفقين: الذين يجودون بما آتاهم الله من فضل رزق على المحتاجين من إخوانهم المؤمنين مما يؤكد التحام المجتمع الإسلامي ورقيه.

المستغفرين بالأسحار: الذين يتركون مضاجعهم في السدس الأخير من الليل، عندما تهدأ الحركة وتكون النفوس أشد حساسية وأبلغ صفاء وانشراحا، فيتوجهون إلى ربهم طالبين مغفرته وصفحه وتجاوزه عما قصروا فيه. هؤلاء شهد الله لمنهجهم بالخيرية، ونوه بهم ليعمل المؤمنون على سلوك مسلكهم ، والأخذ بطريقتهم.

شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ
ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ

أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾

بيان معنى الألفـاظ:

شهد الله: شهادة الله: إعلان للحقيقة بما أقام عليها من أدلة.

القسط: العدل.

بغيا: تجاوزا للحق.

حاجوك: جادلوك.

الأميون: المشركون.

بيان المعنى الإجمالي:

يعلن الله مقررا الحقيقة الكبرى التي يقوم عليها دين الإسلام: (وحدانية الله وتصرفه في الكون). وذلك بما نصب عليها من شواهد العقل والوحي والفطرة. ويعلنها أيضا الملائكة بما يبلغونه من وحي، وما يعبرون به عن إيمانهم، ويعلنها العلماء بما يقيمونه من حجج عليها. إنه العزيز الذي ينصاع كل موجود لإرادته، الحكيم في فعله. إن الدين الصحيح، بعد البعثة المحمدية، المعتبر عند الله، هو الإسلام، وجميع الأديان ما كان من وضع البشر أو من الأديان المستندة إلى الرّسل السابقين التي حرّفها أتباعها لا يقبلها الله ولا تنجي أصحابها. وهذا التحريف الذي اقترن باختلاف أهل الكتاب، الاختلاف الذي تفرقت به أصحاب الديانات السماوية في أديانهم وفي قبولهم لدين الإسلام، حصل بعد أن بلغهم العلم الصادق من الوحي الذي جاء به رسلهم. لقد كان اختلافهم وكفرهم بسبب ظلمهم وتجاوزهم واستكبارهم عن الإذعان للحق. هدّدهم الله بأنه سريع الحساب لا يحتاج لتعداد سيئاتهم تبعا لحدوثها فيجزيهم بعدله عن كفرهم. ويرشد الله نبيه عند لجاج الكافرين باستمرارهم على الجدال بأن يعلن ﷺ، قطعا لتمويهاتهم، حقيقة ينقطع عندها الجدل: أسلمت عقلي وروحي وجسمي وكل ما أملك فجعلته خاضعا لله راضيا بأحكامه، وكذلك الذين اتبعوني فهم على هذا المبدأ يسيرون. وأمره أن يتابع الدعوة إلى الإسلام، فيدعو اليهود والنصارى ويسألهم هل أسلمتم وجوهكم لله، فإن من أسلم وجهه لله فقد اهتدى لدين الحق. وإن أعرضوا عن دعوتك فلا تحزن فإنما كلفت بإبلاغ ما أوحاه الله إليك وقد فعلت. والله لا يخفى عنه شيء من أمر العباد، فهو يعلم حرصك على التبليغ ويعلم عنادهم وإصرارهم على الكفر بما يتبعه من جزاء.

بيان المعنى العــام:

18-شهد الله...الحكيم.

ترتبط هذه الآية بما افتتحت بـه السورة (**الله لا إلــه إلا هــو الحــي القيــوم**) فيؤكـد مضمونها أن الله قد أودع في الكون وفـي قـوانين العقـل وفـي الفطـرة السـليمة مـا ينادي ويشهد بأن الله واحد لا شريك له ، وما يثبت أنـه أقـام هـذا الكـون علـى سـنن وأنظمة لا جور فيها ولا اختلال، رابطا الأسـباب بمسـبباتها والنتـائج بمقـدماتها، فهـو العدل المطلق الساري في كـل كبيـرة وصـغيرة. وذلـك تبعـا لعزتـه التـي لا تغلـب، فينصاع كل المخلوقات لتقديره الحكيم. وهذه الشـهادة التـي ينطـق بهـا مـا أودعـه الله في الكون، يعلنها أيضا ملائكته في تمجيدهم لذاته وفيمـا بلغـوه مـن وحـي وكلفـوا بـه من مهام تحقق ذلكم العدل والنظام. وكذلك مـن فـتح الله علـى قلـوبهم المعرفـة والعلـم الصحيح الذين يقومون في المجتمعات البشرية بالاحتجاج على ذلك.

19-إن الدين عند الله...الحساب.

إن كل التصورات التي يدين بهـا البشـر سـواء اسـتندت إلـى أديـان سـماوية حرفهـا الأتباع أو إلى مخترعات من وضـع البشـر كلهـا زائفـة وباطلـة، ولا ديـن يوصـف بالصدق والحق إلا دين واحد هو الإسلام الـذي جـاء بـه محمـد ﷺ. إن السـابقين مـن أصحاب الديانات قد اختلفوا: اختلفـت اليهـود فيمـا بيـنهم فـي حقيقـة العبـادة، وفـي تصور الله جل وعلا، وفي تشـبيهه بخلقـه، واختلفـت النصـارى بـين مثبـت للبنـوة وناف لها، وبين من يتقدم على أنه ممثـل لله يغفـر ويحـرم. وبـين اليهـود والنصـارى فقالت اليهود: ليست النصـارى علـى شـيء وقالـت النصـارى: ليسـت اليهـود علـى شيء، واختلفوا في وصف الـدعوة المحمديـة، بقصـرها علـى الأميـين أو بتكذيبـه. إن هذا الاختلاف الذي بلغ الأسس العقدية والعباديـة حصـل بعـد أن جـاءهم الحـق علـى لسان رسلهم وعلى لسان محمد ﷺ، ومـا كـان الحامـل لهـم علـى هـذا الاخـتلاف إلا اتباع ما عمرت به نفوسهم من الظلـم وغمـط الحـق لتحقيـق مكاسـب دنيويـة فكـل يبغي الرئاسة ويطوع الحقيقـة الإلهيـة لنزواتـه. ويهـددهم الله بـأن حسـاب الله سـريع آت لا ريب فيه، وأيام الدنيا تتسارع إلى نهايتها وبمـا أن علمـه تعـالى غيـر مجـزأ ولا بتابع للزمن، إذ علمه واحد، فحسابه للظالمين سريع.

20-فإن حاجوك...بالعباد.

يتوجه القرآن إلى النبي مرشدا له، بعـد لجـاج الكـافرين فـي عنـادهم، فيقـول لـه: إن واصلوا جدالك فواجههم بإعلان هـذه الحقيقـة الدامغـة، قـل: أسـلمت وجهـي لله، أي:

قلبي وروحي وعقلي وبدني ومشاعري وكل ما أملك، طوعتها لرب العالمين راضيا بأحكامه، وكذلك كل من اتبع الهدى الذي جئت به. وقل أيضا مناديا اليهود والنصارى والأميين، وهم (المشركون من العرب والدهريون منهم ومن يدعي أنه على دين إبراهيم) وعبر عنهم بالأميين لأنهم لا يرجعون إلى كتاب بين أيديهم، ولأن من يقرأ، قليلٌ فيهم، قل لهم جميعا: هل أسلمتم وخضعتم لله ؟ ويأتي الجواب من رب العزة: بأن من أسلم وجهه لله الواحد الأحد المتصرف وحده في جميع الكائنات، فقد اهتدى ونجا. وإن واصلوا عنادهم وأعرضوا عنك، فلا تضجر ولا تأسَ على مصيرهم، فإنما أنت مكلف فقط بإبلاغ وحيي، وقد فعلتَ. والله بصير بعباده عليم بهم بما يتبع العلم من ترتب الثواب والعقاب حسبما قدموا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ
ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ
ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمۡ تَرَ
إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ
يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا
مَّعۡدُودَٰتٖۖ وَغَرَّهُمۡ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيۡفَ إِذَا جَمَعۡنَٰهُمۡ لِيَوۡمٖ
لَّا رَيۡبَ فِيهِ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٢٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

حبطت أعمالهم: زوال آثارها النافعة في الدنيا والآخرة.

النصيب: القسط.

إلى كتاب الله: إلى التوراة أو القرآن.

ثم يتولون: يتكرر منهم النفور والإعراض.

بيان المعنى الإجمالي:

ترسم هذه الآيات صورة شنيعة لليهود، وتفضحهم، فهم يدعون الإيمان من جهة ويكفرون بما تقتضيه الأدلة البينة الصادرة عن الله، ويقتلون الأنبياء فقد قتلوا زكرياء ويحيى ويزعمون أنهم قتلوا عيسى. وفي كتبهم اعتراف بجراءتهم على دماء الأنبياء والمصلحين ومن يدعوهم إلى العدل، ويأمر الله نبيه بأن يبشرهم، وأية بشارة ؟ هي العذاب الأليم. فهي بشارة استهزاء بهم. إن ما يظنون أنها أعمال

صالحة تكون لهم عدة في دنياهم وأخراهم، قد محا الله آثارها وثوابها فلا يجدون منها ما ينفعهم. ولا يجدون من ينصرهم. وحالة عجيبة أخرى لهم: لقد وصل إليهم جزء من التوراة يدَّعون أنهم يؤمنون به، ولكن فريقا منهم عندما يدعون إلى تحكيم نصوص التوراة أو التأمل في القرآن المأخوذ مباشرة من لسان الرّسول ﷺ، ينفرون معرضين. اعتمدوا ظاهرا على عقيدة موهومة: أنهم لا يؤاخذون بالشرور الصادرة منهم لأن الله وعدهم أنه لا يعذبهم إلا أياما قليلة بمقدار المدة التي عبد فيها آباؤهم العجل، وهذا من مفترياتهم وأكاذيبهم التي أوقعتهم في الغرور. كيف يكون حالهم عندما يجمعهم الله يوم القيامة الذي هو حقيقة ثابتة لا شك فيها، هذا اليوم الذي تنال كل نفس جزاء ما كسبته في حياتها الدنيا، ومتولي الحساب الحكم العدل الذي لا يظلم ؟

بيان المعنى العام:

21-22إن الذين يكفرون بآيات الله...من ناصرين.

في الآيات السابقة سجل القرآن على اليهود والنصارى أنهم اختلفوا من بعد ما جاءهم الحق بسبب تغليبهم لحظوظهم الدنيوية من وجاهة ورئاسة.

ويشنع القرآن على اليهود الذين انتهى بهم الضلال إلى:(1) الكفر بآيات الله فلم يذعنوا إليها وتركوا العمل بها ترك الكافرين، ومع علمهم بصدقها أقدموا على تحريفها فاعتدوا على قداستها وضللوا الناس بذلك. (2) قتل الأنبياء، ومع إقرارهم بنبوتهم يكون قتلهم من أفدح أنواع الظلم، فتلوا زكرياء وقتلوا ابنه يحيى عليهما السلام، ويدعون أنهم قتلوا عيسى عليه السلام، وقتلوا أشعياء. وإن كان القتل إنما تم من بعضهم إلا أنهم بقبولهم لتلكم الاعتداءات الفظيعة وعدم نصرتهم لأنبيائهم، اشتركوا بذلك في الجريمة ونسب القتل إلى جميعهم. (3) قتلهم الصالحين الذين يأمرون بالعدل، ويتحمسون لإقامة سلطانه. وما يزال اليهود إلى اليوم يخططون وينفذون لاغتيال كل من ينادي بالحق أو يقف ضد مكرهم وتسلطهم. فأيديهم ملطخة بدمائهم، كالدوق هامرشولد الأمين العام للأمم المتحدة، وعدد غير قليل من الفلسطينيين والمتميزين من العلماء في الدول العربية. يأمر الله نبيه بأن يبشرهم: وأي بشارة؟ هو يستهزئ بهم بأن ما صنعوه يجزون عليه عذابا بالغا أقصى حدود الألم، وأن ما قدموه من أعمال، إن كانت في ظاهرها غير سيئة، قد تبخرت ولم يبق لها أثر ولا ينتفعون بها لا في الدنيا ولا في الآخرة. وذلك هو الخسران المبين. وأن ما حزبوه من أحزاب ستتفكك ولا يجدون لهم نصيرا.

23-ألم تر إلى الذين أوتوا ... وهم معرضون.

فضحا لفسادهم وإعلانا عن تناقضهم يحرك الناظرين إلى ما يأتي: إن اليهود الذين قد بلغهم قسم من التوراة، الكتاب الذي يؤمنون به، ويدّعون أنهم يسيرون على هداه، هؤلاء عندما يوقفون في المحاجة ليرجعوا إلى ما بين أيديهم من الكتاب ليكون الحكم ، أو يدعون إلى التأمل في القرآن وقد ظهرت أعلام صدقه، يكون موقف فريق منهم الإعراض عن كل ذلك، والاستمرار على الضلال. وكشأن القرآن في الإنصاف، لم ينسب الإعراض إلى جميع اليهود، ولكنه سجل ذلك على الفريق المعاند، واليهودي الذي انخلع من العناد والمكابرة لا يتضرر من يهوديته.

24-ذلك بأنهم قالوا...ما كانوا يفترون.

يفضح القرآن سبب رفضهم للحق وإعراضهم عمسا جاء به الوحي، إن مرد ذلك تعلقهم بأوهام وخيالات لا أساس لها، كرروا على أنفسهم كذبة انتهوا إلى تصديقها، فأخذوا يصرحون بها، قالوا: لن تمسنا النار ولا نعذب إلا أياما معدودات بقدر المدة التي عبد فيها آباؤهم العجل، وما وراء ذلك لا يحاسبون على ما يفعلونه من شر ومن ظلم وفساد. وهذا الغرور الذي تأصل فيهم حتى أصبح جزءا من الدين عندهم، الذي بني على كذب وافتراء وخيالات باطلة.

25-فكيف إذا جمعناهم ليوم...وهم لا يظلمون.

سينتهي بهم إلى اليوم الذي تبغتهم فيه الحقيقة التي لا شك في حصولها، يوم يجمعهم الله فلا ينفلت أي فرد منهم، يوم تجزى كل نفس الجزاء العادل بما كسبته في حياتها. لا يغني عن الإنسان في ذلك اليوم نسبه ولا ما أقنع به نفسه من أوهام وخيالات. وفي ذلك اليوم يظهر العدل الإلهي فلا يظلم ربك أحدا وتجزى كل نفس بما قدمت.

قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن
تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي
ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ
ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢٧ لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن
دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ
تُقَىٰةٗۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨ قُلۡ إِن تُخۡفُواْ مَا فِي
صُدُورِكُمۡ أَوۡ تُبۡدُوهُ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا
عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ
رَءُوفُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا
يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

اللهم: يا الله.

المُلك: التصرف بالتدبير وإقامة الحقوق ورعاية المصالح.

تنزع: تزيل.

تولج: تدخل.

الرِّزق: ما ينتفع به الإنسان.

ليس من الله في شيء: انقطعت صلته بالله.

تتقوا منهم: تتجنبوا المكروه منهم.

بيان المعنى الإجمالي:

قل: يا الله ! أنت المتفرد بالتصرف في الكون وما يحويه تتصرف في الدول والشعوب والقبائل والأمم، تمكن بعض خلقك من التصرف في جزء من ملكك، وتَصْرِفُ من مكنته من ذلك متى تشاء، بيدك الخير كله، فلا يصل خير إلى أحد إلا من فضلك، إنه لا حد لقدرتك. في هذا الكون يتعاقب بتدبيرك الليل والنهار كل يوم، فيدب الظلام دبيبا خفيا في النهار حتى يعم الكون ثم تسري خيوط النهار شيئا فشيئا في ظلمة الليل حتى ينقشع ظلامه، وحياة وموت يجريان على الكائن، ويعقب الموت حياة وتعقب الموت الحياة. وما من حي إلا أنت وحدك الذي ترزقه من الهواء إلى المقادير المالية الفائقة للحصر. إن الإيمان الذي فُصِّلَ يقتضي أن تكون رابطته أرقى رابطة جامعة، وأن الاختلاف فيه يوجب القطيعة. فالمؤمنون لا يرتبطون بالكافرين برباط الموالاة والتناصر، وصرحت الآية بوضع من لا يمتثل فيواصل موالاته للكافرين، تاركا صِلاتِهِ بالمؤمنين، أنه بعيد عن الله قاطع صلته به. وقد يكون المؤمن في وضع خاص يخشى على نفسه وعلى إخوانه إذا لم يُظهر بلسانه ما يحميه ويقي به نفسه فيستعمل التقية، وقلبه مطمئن بالإيمان. إن المؤمن في هذا الوضع لا إثم عليه ولا يتأثر إيمانه بما وقى به نفسه مما لا يعتقده. وهذه

الحالة الاستثنائية ينبه المؤمنين إلى خطورتها ويحذر من التلاعب بها، ويهدد من يرتخي إلى موالاة الكفار بأن المصير في النهاية إليه سبحانه، يوم يبعثون وتظهر الحقيقة عارية فاضحة. ثم يأتي إعلان عام بكلمة (قل) يؤكد ما تضمنته الآية السابقة: إن ما تنطوي عليه صدوركم سواء أظهرتموه أم أخفيتموه لا يخفى منه شيء عن الله الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض. والقاعدة اليقينية: **إن الله بكل شيء عليم**. ويقرر هذا المعنى إبراز صورة مبنية عليه، ذلك أن كل نفس ستجد ما عملته من خير ماثلا أمامها ،و ما اقترفته من شر حاضرا أمامها مجسما تود أن لو تأخر حضوره إلى أمد بعيد، وهذه الصورة المقدمة قصد منها تحذير الناس وموعظتهم ببسط مصيرهم. والله يحذر البشر من الوقوع في الهلاك رأفة بهم. بعد ما حذر ووعظ بما تسمو به النفوس، دلهم على أعظم هدف فقال تعالى: إن الطريق الذي يبلغ بكم أن يكون حبكم لله صادقا وأن يسبغ الله عليكم من آثار حبكم له أن يحبكم، فتفوزون بالرّضا والطمأنينة وسعادة الدارين. الطريق الموصل: هو اتباع رسول الله، فباتباعه يحبكم الله ويمحو سيئاتكم. يتأكد هذا الوعد بأن الله غفور لذنوب عباده واسع الرّحمة. ثم حثت الآية على طاعة الله وطاعة رسوله، فهي مفتاح السعادة. ومن أعرض ونفر من اتباع ذلك فلا طمع له في كرامة الله وغفرانه ورحمته لأن الله لا يحب الكافرين الرّافضين لرسالة الإسلام.

بيان المعنى العام:

26-27: قل اللهم مالك الملك ...بغير حساب .

إعلان في الكون، أمر أن يصرح به رسول الله ﷺ بأن يقول: يا الله أنت المالك للأكوان تتصرف فيها بإرادتك وحكمتك، وجميع القارات والممالك والدول، والشعوب والقبائل، أنت وحدك المتصرف فيها، تؤتي من خلقك ما شئت من ملكك ليتصرف فيه، وليس إلا تصرفا وقتيا تنزعه منه وتسلبه متى شئت. العباد جميعهم فقراء لك، فمن عز منهم فبفضل منك، ومن ذل منهم فبإرادتك وعدلك سلب منه ما سلب. أنت المالك للخير لا يصل خير لكائن إلا ما قدرته ،وإن كل ما يحدث في الكون لا يخرج عن إرادتك وحكمتك. وبما أن ما يناله الإنسان من خيرات لا يكاد يحصى وما يصيبه من مكروه وشر هو قليل بالنسبة للخير الكثير، اكتُفِي بذكر الخير عن ذكر الشر وإن كان الجميع منه فهو الخالق لكل شيء. تؤكد وحدات هذا الإعلان أن قدرة الله هي المؤثرة في كل الموجودات كبيرها وصغيرها (**إنك على كل شيء قدير**) ويتوالى هذا الإعلان بالتعبير عن إدراك المؤمن خضوع الأكوان للنظام الذي رتبه بحكمته. أنت ربنا الذي تدخل الليل في النهار فتأتي الظلمة

رويدا رويدا حتى تمحو آخر شعاع من النهار، وأنت ربنا الذي تدخل النهار في الليل فإذا خيوط النور تهتك أستار الظلام شيئا فشيئا حتى يعم الضياء، في حركة على أدق نظام. وكما يتقابل الليل والنهار بتقديرك، فكذلك في هذا الكون يتقابل الموت والحياة، وهما من أسرار خلقك، وإنك بعظيم قدرتك تخرج الحي من الميت، فالأرض الميتة ينزل عليها الماء فإذا هي تخرج من أنواع الزروع والثمار والدواب ما لا يحصر، وكثير مما تخرجه يدخل في تركيب الإنسان وتنمو به الأجزاء الحية فيه. وتلكم الأرض بعد أن أخذت زخرفها وازينت يعود ما كساها وما خرج منها إلى تحلل وموت، بل أنت أيها الإنسان في كل لحظة تموت فيك خلايا وتتولد أخرى، كل ذلك بقدرتك وإرادتك وحكمتك يا الله. إن ما على وجه الأرض من خيرات لا يحد ولكن لا يحصل أي فرد على شيء من تلكم الخيرات الوافرة إلا بإرادتك، فأنت ربنا ترزق من شئت من خلقك رزقا وافرا يتجاوز الإحصاء والعد. فلا يَبْطَرْ الإنسان بما أوتيه من رزق فالفضل في ذلك لله وحده.

28-29، لا يتخذ المؤمنون...والله على كل شيء قدير.

إن هذا الإعلان الذي كشف عن التصور الحق للكون يقتضي من المنادين به الواثقين بمضامينه أن يتألف بينهم نسيج موحد، لا يقبل أن يدخل فيه خيط غريب، ولا يقبل خيط من خيوطه أن يلتحم بما هو غريب. فَصَدَرَ الحكم الواجب الإذعان له ومراعاته: لا يتخذ المؤمن الكافر وليا ينصره ويفضي له بأسراره ويقدمه على ما تقتضيه أخوة الإيمان، فيقربه ويبعد المؤمنين أمثاله. والحكم يتواصل بأن من خالف هذا الأمر وتولى الكافرين من دون المؤمنين فقد انفصل عن الله، وخلع لباس الإيمان الذي دخل به، وبه اعتبر واحدا من الأمة الإسلامية. لقد ابتلي المسلمون بمن ضعفوا فقدموا حظوظهم الدنيوية على مقتضيات الإيمان وخانوا الأمة والدين. ويقسم الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله الموالين للكفار إلى ثمانية أقسام: (1) أن يكون باطن الشخص على موالاة الكفار والميل لهم. وهؤلاء هم المنافقون، أشد أنواع الكفر ضررا وفسادا. (2) أن يناصرهم لقرابة أو مودة في الوقت الذي يجاهرون فيه بعداوة المسلمين، مع مقته لدينهم ومودة المسلمين. وهذا ذنبه من أعظم الذنوب ويخشى على نفسه أن ينزلق للكفر. (3)هي كالحالة الثانية لكن الكافرين لا يجاهرون بعدواتهم للمسلمين، وحكمها الحرمة أيضا. (4) موالاة طائفة من الكفار للاستعانة بهم على طائفة من المسلمين. ومع الاتفاق على أنه ذنب عظيم إلا أنه قد اختلف فيه النظار بين تكفيره ومع الاستتابة، أو بدون استتابة، أو الاجتهاد في كل حالة تبعا للضَّرر الحاصل من الانحراف. (5) أن

يبتغي الكفار موالاتنا في الحرب على أعدائنا. وهذه مسألة اختلفت فيها الأنظار بين مجيز عند الحاجة، وبين محرم مطلقا، ومجيز للاستعانة بأهل الكتاب دون الكفار. (6)أن يتخذ واحد من المسلمين واحدا من الكفار وليا له لكمالات فيه دون أن يترتب على ذلك إضرار بالمسلمين. ويرى الشيخ ابن عاشور أن ذلك جائز. وعندي أن هناك مقامين: حسن المعاشرة وهذا ما أقره الإسلام وأذن فيه، والمقام الثاني أن يتخذه وليا بما في الموالاة من التناصر والود القلبي والتقريب في مختلف شؤون الحياة الخاصة والعامة، فهذا لا أرى أنه مأذون فيه، وذلك لعموم قوله تعالى لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. (7)حالة المعاملات الدنيوية في التجارات والعهود والمصالحات، وأحكامها مبسوطة في كتب الفقه.

إظهار الموالاة لاتقاء الضر وهو ما فصلته الآية فيما يلي: إن التشريع الحكيم يراعي الظروف الاستثنائية التي قد يكون فيها المؤمن في وضع يخشى معه على نفسه أو أمته من الكافرين، وأنه يقدر أن يصانعهم بأقوال لا يرضاها، يتخذها تقية لحماية نفسه أو ماله في ذلكم الظرف فهذا الوضع معفو عن صاحبه. وترفع الآية علامات الفزع حتى لا يتلاعب أحد بهذه الرّخصة، فالله يحذرنا من موالاة الكفر باطنا والاعتذار عن ذلك ظاهرا، فإن الله لا تروج عليه معاذير المتخاذلين. ويتواصل الإعلان: إن الله لا يتم علمه بواسطة حاسة من الحواس، تعالى الله عن ذلك، فسواء أخفى الإنسان حقيقة ما يجري في نفسه أو أبداها، فالأمر سواء بالنسبة لله، لا يتغير علمه ولا يزداد ولا ينقص. فعلمه شامل على مستوى واحد، ما حوته السماوات جميعها والأرض وقدرته تعالى لا تحدها حدود فهو القادر على كل شيء.

30- يوم تجد كل نفس...والله رؤوف بالعباد.

ويعرض القرآن صورة مجسمة للمصير. اليوم الذي تجد كل نفس قائمَة أعمالها الخيرة حاضرة وضاءة براقة، وما عملت من سوء وشر حاضرا مكشوفا، تود أن يتأخر ظهوره أطول ما يكون من الآماد. إنه بهذا العرض يعظكم الله ويحذركم، وذلك لأنه رؤوف بعباده لا يرضى لهم الكفر والخسران. إن سر قوة هذا البناء المحكم هو حب الله. وحب الله الذي لا يتحقق الإسلام إلا به له علامة تُعَرِّفُ بثبوته،(**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني**) أمارته الحرص على الالتزام بتطبيق ما بلغه وقرره وبينه رسول الله ﷺ.

31- قل إن كنتم تحبون... والله غفور رحيم.

إنه إذا وُجِد هذا اللازم من الحرص على اتباعه تحصل النتيجة، وأية نتيجة؟ هي أعز ما يطمح المؤمن أن يحصل عليه: محبة الله للعبد بمعنى إكرامه وإعانته وفتح أبواب الخير والنجاح له، ثم يمحو ذنوبه على ما قصر في جنب الله، يطهره من جميع الآثام فيعرض يوم القيامة وضاء نقيا.

32-قل أطيعوا الله ... فإن الله لا يحب الكافرين.

ويؤكد القرآن على طاعة الله والرّسول. وينتهي إلى أنهما طريقان متقابلان، فمن تولى وأدار ظهره لطريق التطبيق والالتزام بشرع الله، فجزاؤه مقابل لما جوزي به الصادقون من المؤمنين: إن الله لا يحب الكافرين. يعذبهم ويخزيهم ويوهن أمرهم، ويسلبهم الأمن والطمأنينة.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةًۢ
بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ
رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا
مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ
عِندَهَا رِزْقًاۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن
يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ
ذُرِّيَّةً طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ
أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
(٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِى عَاقِرٌۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ
يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةًۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ
أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًاۗ وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ (٤١)

بيان معنى الألفاظ:

اصطفى: اختار

آل إبراهيم: قرابة إبراهيم

أنبتها نباتا صالحا: أنشأها إنشاء صالحا.

رزقا: ثمارا في غير فصولها

المحراب: مكان مرتفع، يخصص للعبادة.

الحصور: الذي لا يرغب في قربان النساء.

العاقر: المرأة التي لا تلد.

الرّمز: الإشارة الدالة سواء أكانت بالشفتين بدون نطق أو بغيرهما.

بيان المعنى الإجمالي:

اختار الله من بين البشر آدم فجعله أبا للبشرية، واختار نوحا ليكون أول رسول، واختار إبراهيم وقرابته فكان إبراهيم أبا للأنبياء، واختار آل عمران مريم وعيسى. وآل إبراهيم وآل عمران ذرية متصل بعضها ببعض. ومن خَبَرِ آل عمران أن امرأة عمران أحست بالحمل فنذرت أن يكون حملها خالصا لخدمة بيت المقدس ظنا منها أنه ذكر. فلما وضعت حملها تبين أنه أنثى. وسمتها مريم تيمنا بمريم أخت موسى وهارون، ولأن والد مريم سَميّ والد ابنتها. وتوجهت إلى الله أن يحفظها ويحفظ ذريتها من وسوسة الشيطان. تقبل الله دعاءها، ويسر لها تربية صالحة في رعاية صالحة، ولما كان عمران والدها قد مات وهي في بطن أمها تولى زكرياء كاهن بني إسرائيل كفالتها. وظهرت لها كرامات، منها أنه كلما دخل عليها زكرياء في محرابها وجد عندها رزقا. وسألها زكرياء عن مصدر تلكم الثمار، فكان جوابها: هي منحة من الله، إن الله يرزق من يشاء من عباده ولا حد لفضله. وفي ذلك المقام توجه زكرياء بالدعاء أن يرزقه الله ذرية صالحة. وختم ابتهاله بثقته في قربه من ربه الذي يسمع دعاءه. واستجاب الله له، فجاءته البشارة وطرق سمعه نداء علوي من الملائكة وهو قائم يصلي في محراب مريم، إن الله يبشرك بولد اسمه يحيى يصدق بكلمة من الله، وسيدا في قومه، ولا يهتم بقربان النساء، يؤتى النبوة، وهو واحد من الصالحين. وتعجب زكرياء كيف يكون له ولد وأسباب الإنجاب مفقودة. فهو قد هرم وامرأته عاقر لا تلد. وكان الجواب: لا تعجَّب ! كهذا الأمر يحقق الله فعله، فالأسباب العادية التي وضعها الله لا يعقل أن تمنعه سبحانه من تحقيق مراده. وطلب زكرياء أن يقيم له علامة يعرف بها متى سيتم وعد الله له. فكانت الآية منه ذاته: أن يعجز عن النطق ثلاثة أيام. وهو في تلك الأيام مأمور بالانغماس في الذكر والتسبيح لله في جميع الأوقات من العشي إلى الصباح.

بيان المعنى العام:

33-34: إن الله اصطفى...من بعض والله سميع عليم.

نوه الله ببعض المفضلين من البشر الذي أكرمهم سبحانه بكرامات هي من فضله، واسألوا الله من فضله، فذكر أنه اختار آدم أبا للبشرية وأكرمه بما تناسل منه من الأنبياء والصالحين وبمحمد ﷺ. واختار نوحا ﷺ ليكون أول من يتحمل الرّسالة لهداية العالمين، واصطفى آل إبراهيم عليه السلام بما تناسل منه من الأنبياء والرّسل وخاتمهم محمد ﷺ. واختار آل عمران والد مريم بما أجرى على ابنته من كرامات سيفصلها القرآن. وهم ذرية متصلة الأنساب في دمائهم، ويمثلون وحدة في سلوكهم. وهذه الشهادة مُؤكَّدٌ صِدقها، لصدورها من الله الذي لا يغيب عن سمعه ولا عن علمه شيء.

35-36: إذ قالت امرأة عمران...الشيطان الرّجيم.

يبرز القرآن من بين هذه الفترات الطويلة فترة يفصل أحداثها: تحس امرأة عمران، كاهن بني إسرائيل، بحمل في بطنها. فتتوجه إلى ربها ناذرة ما في بطنها لخدمة بيت المقدس. ويموت زوجها قبل ولادتها، فتكون الصدمة الأولى، ثم يأتيها المخاض، فإذا المولودة أنثى، والإناث لا يتولين خدمة بيت المقدس وهي صدمة ثانية، وتتجه إلى ربها آسفة فتناجيه معبرة عن أحاسيسها: رب إني وضعتها أنثى، فهي قد صدمت إذ لم يتحقق لها أملها أن يكون مولودها ذكرا تهبه لخدمة بيت المقدس، وكأنها تمني نفسها ثم تتبين الحقيقة: إنها أنثى.

ويقطع حديث امرأة عمران، ويصرح القرآن بحقيقة هي من كلام الله: الله أعلم بنفاسة هذا الذي وَضَعَتِهِ. ثم يعود الحديث عن امرأة عمران الآسفة: وليس الذكر كالأنثى. وتقبل وضعها، وتتخير لابنتها اسم مريم تيمنا بمريم ابنة عمران أخت موسى وهارون عليهما السلام. وتلجأ إلى الله أن يتقبل هذه المولودة وأن يحوطها بعنايته، فيحميها وذريتها من وساوس الشيطان ونزغه.

37- فتقبلها ربها... يرزق من يشاء بغير حساب.

يصرح القرآن بأن الله تقبل هذه المولودة بأحسن قبول، وأحاطها بألطافه فتولاها بتيسير الظروف الملائمة لتنشأ على خير الوجوه وأكملها، فيسر لها أن يكون كافلها القائم على تربيتها النبي زكرياء، ويلهم زكرياء أن يقيمها لخدمة بيت المقدس لتكون أول أنثى تحظى بهذا الشرف. وخصص لها مكانا عاليا تعبد فيه ربها وهو

(المحراب) فالمحراب في شريعتهم مكان مرتفع معزول يصعد إليه بسلم ينفرد فيه الشخص بعبادة الله. كان زكرياء يرعاها ويتفقدها في محرابها.

ولشد ما كانت دهشته عندما تكررت ملاحظته: أنه كلما دخل عليها محرابها وجد عندها رزقا: ثمارا جنية في غير إبانها، ويسألها في دهشة من أين أتيت بهذه الثمار في غير فصل نضجها ؟ فتصرح بالكرامة لكافلها ،وتخبره: **هي من عند الله،** وتضيف: إن الله يرزق من يشاء من عباده رزقا لا يحد. تنفتح روحه على العطاء الإلهي ويمتلئ من الثقة التي لا تحدها حدود في فيوض خيراته ، يبتهل إلى الله أن يرزقه ذرية طيبة صالحة ويعبر عن ثقته في الاستجابة بأنه يدعو من يسمع ابتهالات أوليائه.

38-39: هنالك دعا...ونبيئا من الصالحين.

ويقوم في محراب مكفولته مصليا، فيسمع نداء الملائكة بالبشارة تفضل الله بتفصيلها تفصيلا يضاعف به مسرته. 1)أن سيولد له ولد – 2)اسمه يحيى – 3)يصدق هذا المولود بكلمة الله، ولم يبين المراد منها في ذلك الوقت، ولكنها تدل على أنه ولد صالح يبادر بتصديق كلمة الله. وسوف يظهر مما قصه القرآن أنه يبادر بتصديق (عيسى عليه السلام) – 4)أنه جامع لشيم الرّئاسة يطيعه الناس – 5) أنه لا يتعلق بالنساء ولا يرغب في الزواج – 6) أنه سيعطيه الله مرتبة النبوة – 7) أنه واحد من أسرة عباد الله الصالحين.

40-41: قال رب...وسبح بالعشي والإبكار.

البشارة عجيبة جدا، حملت زكرياء أن يحقق فيها كيف تبرُزُ للوجود ؟ مع أنه قد بلغ سن الشيخوخة وأن امرأته: زوجته الوحيدة، عاقر لا تنجب. ويأتي الجواب من ربه: كذلك الإنجاز الخارج عن العادة يفعل الله في ملكه ما يشاء، لا تعطل إرادته عن النفاذ العوائد والأسباب الظاهرة. ويتيقن زكرياء باستجابة دعائه ويطلب من الله أن ينصب له علامة تعرفه بالوقت الذي سيسعد فيه بهذه الكرامة. ويعرفه ربه بعلامة ستكون من ذاته لا من أمر خارج عنه. إنه عندما يحبس لسانه عن النطق ثلاثة أيام متوالية، ولا يستطيع أن يتكلم بكلمة، ولا يتصل بالناس إلا عن طريق الإيماء والرّمز لمراده. ويأمره ربه أن يبالغ في الذكر الذي هو واجب الشكر، وأن يسبح ربه. يحتمل أن يكون التسبيح بما يدل على التنزيه للذات العلية، ويحتمل أن يكون مرادا به الصلاة في العشي والصباح.

وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ
ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَٰلِكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ
مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ
يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ
ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ
رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا
قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ
وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ
لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ
ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى
بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ
يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن
رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ
مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

بيان معنى الألفاظ:

اقنتي: لازمي العبادة.

المسيح: الممسوح بدهن خاص.

الوجيه: المقدم على أمثاله.

المهد: صندوق من خشب من دون غطاء يمهد فيه فراش الصبي.

الكهل: من دخل في عشرة الأربعين.

جئتكم بآية: أرسلت إليكم مؤيدا بدليل صدق.

أخلق لكم من الطين: أصور لكم من الطين.

الأكمه: الأعمى، أو الذي ولد أعمى.

الأبرص: من البرص، وهو مرض يصيب الجلد.

ما بين يدي: ما تقدم قبلي.

بيان المعنى الإجمالي:

اعتنت هذه الآيات بتفصيل أخبار مريم وابنها عيسى عليه السلام. وافتتحت بتوجه الملائكة لمريم قائلين: يا مريم إن الله قد اختارك مما يمكن للثقة في نفسها، وطهرك من الأرجاس والآثام، واختارك مفضلا لك على جميع النساء. يا مريم اشكري ربك على ما أفاض عليك من نعم فواصلي العبادة بإخلاص، واسجدي له، واركعي مع الناس. ويفصل القرآن بين أخبار مريم ليثبت صدق نبوة محمد ﷺ ، فيثبت أن ما قصه علينا من أخبارها هو من الغيب الذي أوحي له به فما كان مشاهدا لأخبارهمْ وهم يلقون الأقلام التي يكتبون بها التوراة ليقترعوا بها لإظهار من هو أحق بكفالة مريم. والخبر العجيب التالي قول الملائكة لمريم: إن الله يبشرك بأنك ستحملين بولد متفرد بمزايا: كلمة من الله – اسمه: المسيح عيسى ابن مريم – وجيه في الدنيا والآخرة – من زمرة المقربين عند الله – يكلم الناس في سن صباه الباكر في المهد – ويكلمهم بكلام النبوة عندما يبلغ سن الكهولة – وهو في جميع أحواله من الصالحين. توجهت مريم إلى ربها ليكشف لها حيرتها، كيف تحمل ولم تضاجع أي إنسان؟ يأتيها من الله ما يثبتها: كهذا الأمر العجيب يخلق الله ما يشاء بدون تقدم أسباب. إنه إذا قدر أمرا يأمره فيستجيب. ثم تواصل الآية تفصيل مزايا عيسى عليه السلام: يعلمه الكتابة فلا يكون أميا –يفتح قلبه للحكمة – يعلمه ما جاء في التوراة والإنجيل فلا يروج عليه أي تحريف– يرفعه إلى مقام الرّسالة فيدعو بني إسرائيل – يدعوهم مظهرا لهم أنه مؤيد بآية من الله (معجزته) ويذكر لهم معجزاته التي منها:أنه يصور من الطين هيئة طير ثم ينفخ فيه فيكون طائرا بإذن الله – أنه يعيد البصر لمن ولد أعمى أو لحقه العمى – ويبرئ من أصابه البرص– يرد الحياة لبعض الموتى– وكل ذلك بإذن الله – يعلمهم بما هو من أسرار بيوتهم من أكلهم وما يدخرونه. انتبهوا فكل ذلك دليل على صدقي إن كنتم من الذين حل الإيمان في قلوبكم. أنه يصدق التوراة التي تقدمته ولا يبطلها – أنه يخفف عنهم بتحليل بعض ما حرم عليهم – وجماع القول: أن الله ربي وهو ربكم فأفردوه بالعبادة. هذا الطريق الذي أدعوكم إليه هو الطريق المستقيم الموصل إلى النجاة.

بيان المعنى العـــام:

نوه القرآن في الآيات السابقة بآل عمران فيمن نـــوه بهـــم. وعرضـــت هـــذه الآيـــة وحـــدة من آل عمران هي مريم وابنها عيسى ، فلنتابع هذا العرض الشيق الممتع.

42-43:وإذ قالت الملائكة...مع الرّاكعين.

يبدأ العرض بنداء صادر من ملائكة الله موجه إلى مـــريم بعـــد أن بلغـــت ســـن الشـــباب وهي مقبلة على العبادة فتفتّحت روحها لتلقي الفيـــوض الإلهيـــة. نـــداء تصـــغي لـــه بكـــل قلبها: يا مريم إن الله اختارك فأودع فيك مـــن الكمـــالات مـــا ميـــزك بـــه وطهـــرك مـــن الأرجاس والآثام ومن كل ما يحط مـــن كرامتـــك، واختـــارك مـــن بـــين النســـاء جميعـــا. والله أعلم، هل هو يقصد تفضيلها على نساء عصرها أو علـــى جميـــع النســـاء مـــن بنـــات آدم إلى يوم القيامة. يا مريم، توجهي بقلبـــك وروحـــك ومشـــاعرك مخلصـــة إلـــى الله في عبادتك، تقربي له بالسجود، وتقربـــي إليـــه بـــالرّكوع مـــع الجماعـــة. وهـــي مزيـــة لمريم إذ رخص لها أن تشارك مجـــامع العبـــادة مـــع الرّجـــال **(مـــع الـــرّاكعين)** ينقطـــع العرض ليتوجه الكلام إلى رســـول الله ﷺ، ليكـــون مـــا عـــرض ومـــا ســـيعرض مؤكـــدا لرسالته.

44-ذلك من أنباء...وما كنت لديهم إذ يختصمون.

ما عرضناه عليك هو من أخبار الغيب ما علمتها إلا بطريـــق الـــوحي منـــا إليـــك. إنـــك ما كنت مشاهدا لأحبار اليهود وهم يلقون أقلامهم التـــي كـــانوا يكتبـــون بهـــا التـــوراة. إذ كان من عادة الأحبار أنهم إذا اختلفـــوا فـــي أمـــر، التجـــأوا إلـــى القرعـــة، ويعتقـــدون أن الأقلام التي سمت بكتابة التوراة تعيـــنهم علـــى معرفـــة الحـــق ويـــذعنون لمـــا تظهـــره. ولما ولدت مريم وكانت ابـــن كـــاهنهم الأكبـــر عمـــران تســـابقوا لنيـــل شـــرف رعايتهـــا والقيام على تربيتها. وأراد الله أن يفـــوز بـــذلك نبيـــه زكريـــاء. مـــا كنـــت يـــا محمـــد حاضرا وهم يختصمون فيمن يفوز بكفالة مريم. ولكنـــه مـــن علـــم الغيـــب الـــذي علمـــك الله.

45-46: إذ قالت الملائكة...من الصالحين.

يعرض القرآن، بعد هذا الفصـــل المؤكـــد لصـــدق النبـــي ﷺ، خطـــاب الملائكـــة لمـــريم فيعلمونها بأمر مثير للعجـــب والاســـتغراب: يـــا مـــريم، إن الله يبشـــرك، أنـــك ســـتحملين بكلمة الله، ثم يجرون على هذه البشارة مميزاتهـــا: **اســـمه المميـــز لـــه:** المســـيح عيســـى ابن مريم. **مسيح** : يمسح بالزيت على الطريقة التـــي مســـح بهـــا موســـى أخـــاه هـــارون لما قبله الله أن يكون وزيرا له، وعليها يمسح من يملك فـــي بنـــي إســـرائيل. **وجيـــه فـــي**

الدنيا والآخرة، رزق القبول والتقدم على النـاس، محتـرم فـيهم، حيثمـا أقبـل بوجهـه عظم وروعي، يجمع بين وجاهة الدنيا والآخرة. **يكلم النـاس وهـو مـا زال فـي مهـد الصبا** (الصندوق من الخشب الذي يمهد فيه للصـبي فراشـه فـي بـواكير صـباه) كمـا سيكلمهم عندما يبلغ قوة الكهولة فيدعوهم إلـى الله ويـبلغهم شـريعته. هـو مـن زمـرة عباد الله الصالحين الذين تولاهم الله بالهداية والرّعاية.

47-قالت رب أني يكون لي غلام... يقول له كن فيكون.

يبلغ العجب من مريم الغاية ، وتنقطع عـن الملائكـة وتتوجـه إلـى ربهـا كـي يزيـل حيرتها: رب أنى يكون لـي ولـد ، كيـف يتـأتى لـي أن أحمـل ولـم يضـاجعني أي إنسان، فأنا ما زلت بكرا كما تعلم. ويأتي الجواب حاسـما معلـلا مـن الله. كـذلك الأمـر يتم تصرفي. فالله إذا أراد إحـداث شـيء لا يتوقـف علـى تتـابع الأسـباب والمسـببات والمقدمات والنتائج، وإنما هو الطوع لإرادته، فإذا أمـر وقـال لشـيء: كـن. يصـاحب أمره حدوث ما قدر وأراد. وقوله تعالى (**كـن**) هـو تمثيـل للتقريـب لأذهـان البشـر ، والحقيقة أنها الإرادة يعقبها بدون تراخ حصول المراد.

48←51: ويعلمه الكتاب...هذا صراط مستقيم.

ثم يتتابع كلام الملائكة وهم يعرفـون بمزايـا عيسـى عليه السلام:إن الله سـيعلمه الكتابـة فـلا يكون أميا. يعلمه الحكمة فهو يدرك دومـا حقـائق الأمـور وعللهـا وغاياتهـا ومبانيهـا. يعلمه التوراة فلا يروج عليه تحريف المحرفين ولا تأويـل الجـاهلين فهـو يفهمهـا كمـا قصد منزلها. يعلمه الإنجيل الكتاب الذي خصـه بـه فـلا يفوتـه شـيء مـن مقاصـده ومراميه. أنه سيبلغ به شرف الرّسالة فيرسله الله لبنـي إسـرائيل قومـه. يعـرض عليـه الملائكة طريقته في الدعوة إلى الله وهو مازال في عهـد البشـارة بـه. ومـا يتأيـد بـه من عند الله: إني أعمل من الطـين صـورة طيـر ثـم أنفـخ فيهـا فتكـون، بـإذن الله الخلاق العليم، طائرا حقا. إني أبرئ الأعمى الـذي ولـد فاقـدا للبصـر أو الـذي عمـي بعد ذلك، فيصبح بصيرا يرى رؤية سليمة بإذن الله.

أبرئ الأبرص، وهو مرض جلدي، يبلـغ مسـتويات مختلفـة، كـان منتشـرا فـي ذلـك العهد، ويبدو أنه كـان عصـيا علـى العـلاج. فكـان عيسـى عليـه السـلام إذا مسـح الأبرص شفي بـإذن الله. مكننـي ربـي مـن رد الحيـاة علـى بعـض المـوتى بإذنـه. أستطيع أن أخبركم ببعض أسـرار البيـوت التـي لا يعلمهـا إلا صـاحبها، فـأنبئكم بمـا تأكلون فيها، وأنبئكم بما تدخرون، كأني أعيش داخل البيـت. وذلـك بفضـل مـا يكشـفه لي ربي.

والخلاصة:أن في كل ما ذكرته لكم ما يقوم دليلا على تأييد الله لي فآمنوا بما أرسلت به إليكم إن عمر قلوبكم نور الإيمان الهادي لقبول ما جاء من عند الله. يبين مركزه بالنسبة لما سبقه من التوراة المنزلة على موسى، فيقول: إن موقفي منها يتمثل في ناحيتين:

الناحية الأولى: أني أؤكد ما جاء في التوراة وأصدق به.

الناحية الثانية: أني أحل لكم بعض المحرمات التي كان الله حرمها عليكم. فهو يقر أصل التوراة إقرارا لا ينافي أنه ينسخ بعض أحكامها تبعا لما ينزله الله عليه. ويأمرهم أن يتقوا الله التقوى التي تحل في القلوب فتجعلها حريصة على اتباع ما يأتيها من ربها، ولا تظهر تقواهم إلاّ إذا أطاعوه. وسيختم عيسى عليه السلام إقناعه لبني إسرائيل بدعوته التالية: إن الله ربي وربكم كلنا عبيده وكلنا خلقه، فأخلصوا عبادتكم له، هذا طريق مستقيم يصل بكم إلى الحقيقة وإلى السعادة.

۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْءَايَٰتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

الحواريون: لقب لأنصار عيسى عليه السلام.

الشاهدين: الشاهدين للرسل بالصدق.

المكر: تدبير يقصد به إيقاع الضر بطرق خفية.

مطهرك من الذين كفروا: عاصمك من اليهود الكافرين بك فلا يمكنون من إهانتك.

مرجعكم: البعث للحساب.

المباهلة: الدعاء باللعن.

بيان المعنى الإجمالي:

طوى القرآن مراحل حمل مريم بعيسى وولادته ونشأته، وقد تحقق كل ما بُشرت به أمه، وابتدأ ﷺ في نشر دعوته وعرض آياته المؤيدة. فقابل اليهود دعوته بالرفض وكفروا به. عندها دعا عيسى دعوة عامة: من ينصرني على نشر دين الله ؟ فأسرع لإجابته الحواريون معلنين أنهم قرروا أن ينصروا دين الله، وأن الإيمان قد تمكن من قلوبهم، وطلبوا من عيسى ﷺ أن يشهد بإسلامهم، وتوجهوا إلى الله بقولهم: **ربنا إننا أسلمنا وجوهنا إليك فاكتبنا عندك من الشاهدين على رسلك بالتبليغ.**

أخذ اليهود يخططون في خفاء وينصبون حبائلهم للإضرار بعيسى، ويحرضون ولاة الأمر على قتله. وسعيهم هذا فاشل في النهاية لأن الله قدر حماية رسوله من مكرهم. أيس عيسى ﷺ من إيمانهم، بل حتى من مهادنته. وعندها أعلم الله عيسى ﷺ بالقرار الحاسم للموقف المتضمن:1) انتهت حياتك في هذا الوسط – 2) إني رافعك إلي – 3) إني حاميك من الكافرين فلا يستطيعون النيل من كرامتك – 4) إن دعوتك سيكتب لها الظهور فقدرت لمن يؤمن بك أن يكون أعلى وأرفع ممن يكفر بك إلى يوم القيامة – 5) إني سأظهر صدقك وأصدر حكمي بينك وبين الذين كذبوك. وعرفه بهذا الحكم فقال: أما الذين كفروا بك فأعذبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة ولا يجدون نصيرا يخرجهم من العذاب، وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيجزيهم بكل ما قدموا من صالح العمل. وحقق هذا الجزاء بأن الله لا يحب الظالمين، فيعاملهم معاملة عادلة بدون رحمة، ويفهم منه أنه يحب المقسطين فيعاملهم معاملة الرّحمة والعفو والتكريم.

ويصرح القرآن بالغاية من التفاصيل الواردة في الآيات السابقة: ما تلوناه عليك يا محمد من الآيات شاهد على صدقك، فما كان لك أن تعلم تلك التفاصيل لولا أنا أوحينا إليك، وهو ذكر يوصل المؤمنين إلى الحكمة: ومن الحكمة كشف الغطاء عن السر الذي تاه فيه اليهود والنصارى وضلوا (ولادة عيسى من أم بدون أب) حمل

اليهود على تكذيبه والإساءة إليه وإلى أمه والطعن في نسبه. وحمل النصارى على ادعاء أنه ابن لله. أبانت الآية أنه لا عجب في ذلك، فقبل عيسى يؤمن أصحاب الديانات كلهم، أن آدم أبو البشر جميعا قد خلقه الله من تراب، لم يتوسط في إيجاده أم ولا أب ، ولما تعلقت الإرادة بإيجاده صدر الإذن فوجد. بكلمة كما وجد عيسى بكلمة. فهذا الذي بيناه هو الحق فلا يدخل الشك نفسك والمراد من ذلك التعريض بالنصارى. تمسك بما أوحيناه إليك، فهو الحقيقة التي لا شك فيها. وإذا أخذ العناد بعقول النصارى وواصلوا مجادلتك بعد ما جاءك من الحق والعلم اليقيني فادعهم للمباهلة: فليدع كل منا من معه. ندعو أبناءنا وتدعون أبناءكم، وندعو نساءنا وتدعون نساءكم، ونحضر نحن وتحضرون أنتم، في مشهد نبتهل فيه إلى الله أن يصب لعنته على الكاذبين. إن ما أوحيناه إليك من سرد لما تم في أمر عيسى عليه السلام هو القصص الحق الذي يسجل الواقع كما تم حدوثه. يشهد لصدقه أن لا إله إلا الله، والله لا بد أن يكون موصوفا بالعزة غالب لا يغلب، فاعتقاد النصارى أن المسيح إله وأن اليهود تسلطوا عليه وقتلوه تناقض غير معقول، وهو حكيم وحكمته توجب قدرته على إفساد خطط الكافرين ومكرهم. إن النصارى إذا تولوا ولم يقبلوا المباهلة فلا تبتئس فإن الله عليم بالمفسدين، على معنى أنه سيجازيهم بما عزموا عليه من الفساد.

بيان المعنى العام:

52- فلما أحس عيسى منهم الكفر... واشهد بأنا مسلمون.

طوى القرآن التعرض لفترة حمل مريم بعيسى وفترة صباه وشبابه. وكيف ابتدأ دعوته ، وذلك اكتفاء بما تلقته مريم عليها السلام من تفاصيل لا يمكن إلا أن تتحقق في دنيا الواقع، وقد تحققت. وتبدأ القصة من تسجيل عناد وتكذيب اليهود لعيسى، حتى أصبح كفرهم واضحا أحس به إحساسا قويا وصل به إلى حد الإياس من اهتدائهم. كذبوه واستهزأوا به ورموه بكل منكر، فنادى في المجامع: من ينصرني لإبلاغ كلمة الله ؟ وهذا شأن رسل الله أنهم يحرضون الناس على تأييد الحق وعلى نصره ليكتب لهم منازل السابقين. أسرع الحواريون اثنا عشر رجلا حسب الرّواية للاستجابة لندائه، قالوا: نحن أنصار دين الله ، آمنا بالله وبك رسولا، فاشهد علينا أنا قد أسلمنا وجهنا لله. ثم توجهوا إلى الله مبتهلين متقربين إلى ذاته العلية (ربنا) بما يوحي به لفظ الرّب من الاتصال والقرب، مسجلين.

أولا: أن الإيمان بما أنزلته على عيسى قد استقر في قلوبنا وعقولنا.

وثانيا: أننا لا نخرج عن المنهج الذي يسطره عيسى نتابعه بكل حب ورضا.

وثالثا: أننا نطلب منك ربنا أن تُثبِّتنا ثباتا دائما على ذلك حتى نكون من الشاهدين بصدق عيسى وصدق رسل الله جميعا.

وتقابل الفريقان. الفريق الأول: عيسى ومعه قلة من الناس على رأسهم الحواريون، والفريق الثاني: اليهود بكهانهم وتجارهم وفلاحيهم وأتباعهم.

أخذ الفريق الثاني يخطط للمكر بعيسى، يحرضون السلطة عليه ليحملوا بيلاطس، الوالي على بيت المقدس، أن يأخذ القرار بقتله. على أنه مفسد مهيج للمجتمع مفرق للكلمة.

54-ومكروا ومكر الله...والله خير الماكرين.

في مقابل مخططهم الخبيث يخبرُ الله أنه يمكر بهم فيفسد مخططاتهم ويحمي عيسى من مكائدهم (والله عندما يحبط مخططات الفاسدين يحصل بذلك الخير للناس).

55-إذ قال الله يا عيسى... تختلفون.

أعد اليهود كل ما يمكنهم إعداده للقبض على عيسى ثم القضاء عليه. ويخبر الله كلمته بأمور: 1)إني متوفيك 2) إني رافعك إلي 3)إني مطهرك من الذين كفروا 4) إني قدَّرت أن يكون المؤمنون بك ظاهرين على الذين كفروا بك في الحياة الدنيا إلى يوم القيامة 5) وفوق هذا أنكم ستعودون إلى حكمي يوم القيامة فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون6) الكافرون أعذبهم عذابا أليما وأمقتهم فلا يجدون نصيرا – 7) المؤمنون الذين عملوا الصالحات لا يضيع من صالح أعمالهم شيء، أوفيهم أجورهم 8) إن الله لا يحب الظالمين فهو يمقتهم ولا يصلهم شيء من واسع رحمته، ويفهم منه أنه يحب المقسطين فيدخلهم في رحمته التي وسعت كل شيء. لنتتبع ما أوحى الله به إلى عيسى وهو ما حققه فعلا.

أولا: إني متوفيك: الظاهر من هذا التركيب إني مُنْهٍ حياتك بيدي وأحول بينك وبين اليهود فلن يصلوا إليك. يدل على ذلك قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام:**فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم**[1]. وكثير من الآيات القرآنية المراد من التوفي هو إنهاء الحياة. وإنهاء حياته على تلكم الطريقة محبط لكيد يهود.

ثانيا: رافعك إلي: الظاهر حمله على تكريمه بمنزلة رفيعة خاصة عند الله. ويبعد أن يكون معناه رفعه إلى السماء أخذا من هذا النص. وذلك لأنه لا يقبل أن يظن أن الله في السماء وأنه رفعه إليه في السماء، لأن الله يتعالى عن المكان. والأرض

[1] سورة المائدة 117

والسماء كلها أمكنة وأبعاد. وأخبر الله عن إدريس فقال: **(ورفعناه مكانا عليا)**[1] ولقد صعد رواد الفضاء إلى القمر وهم يعدون لبلوغ ما هو أبعد من ذلك، ولا يوجب ذلك كرامة زائدة لهم في مقاماتهم الإنسانية.

ثالثا: مطهرك من الذين كفروا: مُنَجّيك من تسلط الذين كفروا. لأن تسلطهم عليه يجعل خبثهم ورجسهم يصل إليه. مع ما صحبه من قصد الإهانة.

رابعا: جَعْل إلهي أن من آمن بك يا عيسى منصور غالب لمن كفر بك ما بقيت الدنيا.

خامسا: وبعد ذلك فستعودون جميعا إلى الله الذي يحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون، إذ النصر الدنيوي لم يُرضخ اليهود الكافرين للإيمان بعيسى.

56-57: فأما الذين كفروا...الظالمين.

سادسا: تصريح بالحكم الذي سيصدره رب العزة يوم القيامة: أما الذين كفروا بك فسأعذبهم عذابا شديدا يفوق التصور.

سابعا: الذين آمنوا بك وقرنوا الإيمان باتباع ما جئت به فكانت أعمالهم صالحة، يجزيهم جزاء وافيا لا يضيع من أجورهم شيء.

ثامنا: يتأكد الوعد والوعيد بإبراز الحقيقة التالية: إن الله لا يحب الظالمين. وهي تفيد بلفظها أنه لا يتجاوز عن أي منكر من أفعالهم ولا يطمعون في رحمته. وفي المقابل فإن المقسطين الذين لا يتجاوزون حدود ما جاء به عيسى ويراعون في أعمالهم أن تكون على وفق هدايته يحبهم الله، ومن أحبه الله أعانه على الخير وضاعف حسناته وغفر سيئاته.

58←60 - ذلك نتلوه عليك... فلا تكن من الممترين.

بعد أن سجل القرآن ما خاطب الله به عيسى، وقد نفذه، توجه الخطاب لمحمد ﷺ مظهرا له الغاية من سرد ما تم لعيسى فيقول الله لنبيه: ما نتلوه عليك هو آية ومعجزة وذكر يحوي الحكمة ويبينها. وتتجلى تلكم الحكمة في إسعاده المسلمين بإدراك سر خلق عيسى من أم بدون أب، الذي حير البشرية التي لم تهتد بنور الإسلام وما يزال يحيرها. كفر به اليهود ورموه وأمه بكل منكر مستبعدين خلق إنسان بدون أب. وحير النصارى فزعموا أن الذي يصدر للوجود بدون أب لا بد أن يكون إلها أو ابنا لله. وتفرقوا في تلكم التصورات أحزابا وشيعا. ويأتي الحكم الفصل من القرآن: إن عيسى كلمة الله خلق بكلمة منه وله نظير في تاريخ البشرية. فأهل الديانات جميعا يؤمنون بأن أبا البشرية هو آدم وهو مخلوق من تراب بدون

[1] سورة مريم آية 57

أب ولا أم، وبكلمة الله **(كن)** فهذا هو الحق الذي فتحه لك ربك الذي تولاك. وإذا كان الخطاب لرسول الله فلا تكن من الشاكين، فإن المقصود به نهي النصارى عن التشكك في أمر عيسى بعد التوضيح والبيان الذي جاء به القرآن بالخبر الصادق الموحى به قرآنا شاهدا على أن هذه التفاصيل لا علم بها لرسول، وتقويم معلومات النصارى بسرد الحقائق كما تمت، مما يقبله العقل. ونقض دعواهم في إصرار أن عيسى إله.

61-فمن حاجك فيه...لعنة الله على الكاذبين.

إن وضع النصارى إذا كان هو مواصلة الجدل بالباطل فادعهم إلى المباهلة: تقدموا فلندع نحن أبناءنا ولتدعو أنتم أبناءكم وندعو نحن نساءنا وتدعون أنتم نساءكم، ونحضر نحن وتحضرون أنتم في هذا الجمع الرّهيب، ثم نبتهل جميعا إلى الله أن ينزل لعنته على الكاذبين. يذكر كتاب السيرة أن نصارى نجران الذين قدموا على النبي ﷺ في المدينة وحاوروه في أمر عيسى وأنزل الله على رسوله ما يبطل ما اعتقدوه في عيسى عليه السلام، واصلوا تمسكهم بظواهر أولوها على غير وجهها (كلمة الله – ليس له أب...) فدعاهم الرّسول ﷺ للمباهلة ليقطع عنادهم. وامتنعوا من التقدم للمباهلة.

62-63: إن هذا لهو القصص...بالمفسدين.

يؤكد في خاتمة العرض أن ما تلقاه الرّسول من ربه هو القصص الحق الموافق للواقع والمنسجم مع قوانين العقل. فالله لا يكون إلا واحدا **(ما من إله إلا الله)** وأن الله لا يكون إلا عزيزا لا يقهر ولا يغلب ولا يؤذى ويستحيل أن يلحقه أذى. فاعتقاد: أن المسيح إله وأنه قتل وصلب بعد أن صاح صيحة عظيمة، كلام متناقض. وأن الله لا يكون إلا حكيما، وبعيد من الحكمة، أن يسلم نفسه للتعذيب. ويهون الله على رسوله بأن إعراض المعاندين سينقلب عليهم، فإن الله عليم بالمفسدين. وهو تهديد لهم بأنهم لا يفلتون من جزاء إفسادهم. وتطمين في الآن نفسه لرسول الله ﷺ.

قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ

فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبۡرَٰهِيمُ يَهُودِيّٗا وَلَا نَصۡرَانِيّٗا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفٗا مُّسۡلِمٗا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾

بيان معنى الألفاظ:

تعالوا: أقبلوا.

كلمة سواء: كلمة نتحد فيها جميعا.

أولى الناس: أقربهم منه وأخصهم به.

بيان المعنى الإجمالي:

دعوة لأهل الكتاب من اليهود والنصارى، بعرض قضية لا يمكن أن يقع فيها خلاف نستوي جميعا في الإذعان إليها: أن نفرد الله بالعبادة، ولا نثبت الألوهية لأحد سواه، ولا نرفع بعضنا إلى مقام الألوهية. فإن أعرضوا فسجلوا عليهم أنكم مسلمون. ثم فند القرآن اعتراضهم على المسلمين فيما يثبته المسلمون لأنفسهم من أنهم على دين إبراهيم، وحاصل اعتراضهم أنه إذا كان الإسلام هو دين إبراهيم فقد زدتم فيه فلستم إذن على دين إبراهيم. وكان الرّد عليهم أنه لا علم لكم إلا ما جاء في التوراة والإنجيل وهما لم يتعرضا لدين إبراهيم بالتفصيل، وإذا كنتم لا تعرفون دين إبراهيم فمن أين لكم أن تحكموا على الإسلام بأنه زاد على دين إبراهيم؟ والتوراة والإنجيل متأخران على عهد إبراهيم فمن أين يأتيكم العلم بدين إبراهيم. ونحن نستند لكلام ربنا بما أثبته أن الإسلام على ملة إبراهيم. ثم صرح بالنتيجة التي لا تقبل منطقيا المجادلة فيها: أن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا، فلم يرد لا في التوراة ولا في الإنجيل أن واحدا منهما جدد دين إبراهيم. وإذ نفى عن إبراهيم كونه يهوديا أو نصرانيا أثبت له أن عقيدته كانت قد اتخذت طريقا مختلفا عن جميع التصورات التي كانت في عصره، مال عنها جميعا وهو معنى **(حنيفا)** وأسلم وجهه وروحه لله الواحد الأحد. ودعوى مشركي مكة أنهم على دين إبراهيم كلام باطل لأن إبراهيم ما كان مشركا ولا صلة له بالمشركين. وانبنى على ذلك أن أقرب الناس من إبراهيم:

أولا: هم الذين آمنوا به في ذلك العهد كلوط وإسماعيل وإسحاق عليهم السلام ومن اتبع دينه قبل أن يدخله التحريف.

ثانيا: هذا النبي الكريم محمد ﷺالذي أحيا أصول الحنيفية بما أنزل عليه من ربه .
ثالثا: أمة محمد التي ضمن لها الله نقاء دينها بفضل القرآن الكريم. ويجمع الكل عقد شرف أنهم أولياء لله والله وليهم.

بيان المعنى العام:

64-قل يأهل الكتاب... فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون.

على منهج القرآن الرّفيق المحتكم للعقل، يأمر الله نبيه أن يدعو أهل الكتاب إلى أن يقروا مع المؤمنين بالإسلام، في أمر يستوي فيه البشر جميعهم. يتمثل ذلك في القيم التالية:

أولا: نتفق على أن نخص الله بالعبادة، فلا نعبد أحدا سواه، لا صنما، ولا بشرا حيا ولا ميتا. نتحرر من الخضوع لأية قوة كيفما كانت، نعتز بأننا لا نخضع ولا نركع لأحد سواه.

ثانيا: أن لا نشرك بربنا شيئا، فلا نجعل بيننا وبينه واسطة لا حبرا ولا راهبا ولا رجلا ولا امرأة.

ثالثا: أن تكون الشريعة التي نطبقها في حياتنا ونلتزم بها هي شريعته. فلا يتسلط أحد علينا ليلزمنا بما يريده ويخضعنا لأحكامه.

هذا هو التحرر والعزة التي ندعوكم إليها. وهذه دعوة فيها إنصاف يستوي به البشر جميعا. يقول الله بعد ذلك: فإن أعرضوا عنكم وواصلوا عنادهم فسجلوا عليهم: أنكم مسلمون وجوهكم لله الواحد الأحد.

65-66، يا أهل الكتاب...والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

ويعرض القرآن صورة أخرى من جدال أهل الكتاب، ذلك أنهم ناقشوا الرّسول ﷺ في دعواه أنه على دين إبراهيم وقالوا له: إن ما جئت به، فيه زيادات على ما جاء به إبراهيم. ويلقن الله رسوله ما يرد به لجاجهم ، فيُقَرّعُ أهل الكتاب بأنهم يجادلون في إبراهيم ويقارنون بين دينه وبين ما أتى به محمد، ومن أين لهم أن يعرفوا دين إبراهيم ؟ والتوراة والإنجيل الكتابان المرجعان لهما ما بينا شريعة إبراهيم، وما أنزلا إلا بعد إبراهيم بأزمان، وما جاء فيهما ما يكشف عن دين إبراهيم. فهل فقدتم عقولكم لتقولوا: دين إبراهيم مغاير لما جاء به محمد ؟ ها أنتم تقدمتم في جدالكم مع الرّسول ﷺ في شأن موسى أو عيسى على حسب ما استقر في أذهانكم مما علمكم أحباركم أو رهبانكم، فكيف تحاجون في إبراهيم وليس لكم به أي علم لا من علمائكم ولا من كتبكم. وهنا يبدو الفارق بينكم وبين المسلمين ،فإن الله أعلم

نبيه بالوحي الصادق منه وهو العليم بدين إبراهيم بأن الإسلام متفق مع دين إبراهيم في عقيدته وأصوله.

67- ما كان إبراهيم...وما كان من المشركين.

الحقيقة التي يصرح بها القرآن في شأن إبراهيم هي: أن إبراهيم ما كان يهوديا، وما كان نصرانيا. وإذ نفى عنه أي صلة باليهودية والنصرانية، أثبت له : أنه كان حنيفا رافضا لجميع صور التدين التي كانت في عصره مائلا عنها(وهو معنى الحنيف) أسلم وجهه وروحه وقلبه لله. وهو ليس من المشركين كما يدعي المشركون من العرب أنهم على دين إبراهيم.

68- إن أولى...والله وليُّ المؤمنين.

وإذ تبينت الحقيقة فإن أقرب الناس لإبراهيم.

أولا: هم الذين آمنوا به كسيدنا لوط وابنيه إسماعيل وإسحاق عليهم السلام ومن تبعه وسار على هداه.

وثانيا: هذا النبي الذي أحيا سنة إبراهيم فأزال الأصنام وحطم الأوثان، وأعاد مناسك الحج كما كانت في عهده، ونشر التوحيد الخالص. فنَقَّى الحنيفية ملة إبراهيم من كل دخيل مناقض لصفائها، وكان لكتاب الله المنزل عليه الفضل في إحاطة الحنيفية بسياج يبقي على أصولها ما بقي الزمان.

ثالثا: الذين آمنوا بمحمد، هذه الأمة التي تخيرها الله لتكون شاهدة على الحق الوارد عليها من ربها وعلى الحق الذي تلقاه رسل الله ومنهم إبراهيم عليه السلام . ويجمع الكل عقد شرف: أنهم أولياء الله والله وليهم، لا لنسب ولا لأن واحدا بذل نفسه لتكفير ذنوبهم وإنما لتمسكهم بدين التوحيد: الإيمان الخالص.

وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا
يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾
يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾
وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجْهَ
ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ
ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ

ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

الطائفة: جماعة من اليهود.

وجه النهار: أول النهار.

بيان المعنى الإجمالي:

ودت جماعة من اليهود أن يضللوا بعض المسلمين وأن يشككوهم في الحق الذي أنزل عليهم. وهم عاجزون عن التأثير في المسلمين، فكانوا هم الضالين لرفضهم الدين الحق، وهم لتعصبهم لا يشعرون أنهم ضالون. ثم وبخ اليهود لكفرهم بالمعجزات التي أيد الله بها نبيه، ويخاطبهم: العجب أنكم تشهدون هذه الآيات تتوالى على أنظاركم ! ثم وبخهم لخلطهم الحق بالباطل حتى ذهبت الثقة بما بين أيديهم من الكتاب. ووبخهم لكتمانهم لما يعرفونه من الحق. وشنع على جماعة أخرى من اليهود عملوا على المخادعة، ذلك أن بعضا من رؤساء يهود قالوا لبعض أتباعهم: أظهروا دخولكم في الإسلام في أول النهار، ثم أعلنوا كفركم في آخر النهار على أنكم جربتم الإسلام فوجدتم أنه لا حقيقة له . ثم خافوا أن يستقر الإسلام في قلوبهم فأخذوا عليهم أن يثبتوا على اليهودية ولا يغادروها. وبرروا ذلك: أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم، على أن التوراة لا تقبل النسخ، ولا يستطيعون أن يحاجوكم عند ربكم. رد القرآن عليهم بصعقة تفسد مكرهم: إن الهدى هدى الله. وقد حرمكم إياه. فأنتم في ضلالكم سادرون. وقد تخلل هذا الرّد مقالتهم. إن حسد اليهود حملهم على إنكار نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فرد الله عليهم، بأن الفضل يملكه الله ويتصرف فيه وحده، يؤتيه من يشاء، ويصرفه عمن لا يريد أن يتفضل عليه. ومما ضل فيه اليهود أنهم لم يدركوا سعة فضل الله، وهو يختص برحمته بعض خلقه لا عن ضيق في سعة فضله ورحمته ولكن لحكمة، إنه صاحب الفضل الذي لا يحد.

بيان المعنى العام:

69- ودت طائفة... وما يشعرون.

لاقت الدعوة المحمدية في المدينة صنوفا من مكر اليهود ومن دسائسهم. واستقر في نفوسهم المريضة هاجس، حمّل طائفة منهم على تمني أن يصلوا إلى إضلال المؤمنين، بالتشكيك في صدق ما جاءهم به رسول الله ﷺ. ويعلق القرآن على هذه

الخواطر بأنها لا تحقق غرضهم بل العكس هو الذي يحصل، ذلك أنه باستمرارهم على التعصب ضد الإسلام فإنهم ما أضلوا إلا أنفسهم وحرموها من الاهتداء بدين الحق.

70-71: يا أهل الكتاب لم تكفرون... وأنتم تعلمون.

ويوبخهم القرآن منكرا عليهم كفرهم بما شاهدوه ورأوه رأي العين من المعجزات والأدلة البينة الواضحة على صدق الرّسول. ويفضحهم القرآن بأن موقفهم من الإسلام لم يكن عن اشتباه أو حيرة وإنما تولد عن تعمد لكتمان الحق بل لخلط الحق بالباطل، بل لإكساء الحق ثوب الباطل وخلطه به حتى يضيع، وذلك عن قصد خبيث. وتلبيسُ الحق بالباطل يكون أشنع إذا صدر من أهل العلم.

72-73: وقالت طائفة... واسع عليم.

مع استبطانهم لإخراج المسلمين من دينهم ومع إخفائهم للحق وكفرهم بالآيات البينات، تبرز طائفة منهم مخادعة في مكر شديد. ما ذا صنعت هذه الطائفة الفاسدة؟ دعوا بعضا من أتباعهم الذين يطيعونهم أن يعلنوا إسلامهم في الصباح ويحضروا مجالس النبوة ويؤدوا صلاتهم مع المؤمنين حتى إذ ا أدبر النهار في آخره، أعلنوا أنهم جربوا هذا الدين، فوجدوه لا ينطوي على صدق ولا يؤدي وظيفة الدين من الطمأنينة والوضوح. فيطعنوا بذلك في الإسلام من الداخل: على أنه لا يثبت على التجربة. وخشي رؤوس الكفر أن يثبت هؤلاء الماكرون الداخلون في الإسلام على هذا الدين. فشددوا عليهم أن يثبتوا على اليهودية ولا يؤمنوا ولا يصدقوا إلا من اتبع دين اليهودية. ولا يصدقوا أي أحد يدعي أنه أوتي مثل ما أوتيه موسى من ربكم، ولا حجة لأحد عليكم عند ربكم. ويقطع القرآن بين أول وصاياهم لهؤلاء الأتباع وبين آخرها بما يبطلها جميعها. فإنهم بنوها على وهمهم أن الله فضل بني إسرائيل وموسى على العالمين تفضيلا حصر الحق فيما جاء به، فقال تعالى: إن هدى الله هو الهدى. فليس ما كتبه أحبارهم ولا ما توهموه من أن الهدى هو هدى موسى.

74- يختص برحمته... ذو الفضل العظيم.

ثم زاد هذا المعنى تأكيدا، إن الفضل العظيم الذي لا يبلغ إدراك سعته أحد ، هو ملك لله يتصرف فيه كما يشاء ويختار يؤتيه من يشاء وتصل آثاره لمن تعلقت إرادة الله أن تصل إليه. والله واسع فضله ، فقصرُ فضله على موسى أو على بني إسرائيل هو وهم باطل، عقيدة وعقلا ، مناقض لعدم محدودية فضله. وهو نظير

رحمته التي وسعت كل شيء فجعل رحمته قاصرة على بني إسرائيل هو باطل أيضا وسخف من الظن.

﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (76) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (77) وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (78) ﴾

بيـــان معنى الألفـــاظ:

يؤد ه: يسلمه.

قائما: حريصا ومواظبا على مطالبته.

ليس علينا في الأميين: ليس علينا في أكل حقوقهم.

الأميين: العرب لأنهم لا يكتبون.

سبيل: مؤاخذة.

خلاق: نصيب.

بيان المعنى الإجمـــالي:

عرضت الآية منصفة أن من أخلاق بعض اليهود أنهم أمناء، وأن بعضهم تأصلت فيهم الخيانة فلا تستطيع أخذ حقك منه إلا إذا تابعت المطالبة، ويبررون خيانتهم بأن الله لا يؤاخذهم بسبب الاستحواذ على أموال العرب الأميين. ويكذبون على الله في وقاحة لأنهم يعلمون بأنهم كانوا كاذبين. والحق أن من أدى ما اؤتمن عليه واتقى فإنه يكون مع الذين فازوا بمحبة الله من المتقين. ومن أخلاق اليهود أنهم يبيعون ما عاهدوا الله عليه من إظهار الأحكام المنزلة عليهم، يبيعون ذلك حتى بثمن قليل جزاؤهم أنه لا نصيب لهم من الكرامة يوم القيامة ويحل عليهم غضبه ولا يغفر لهم ذنوبهم ويستحقون عذابا أليما. ومن أخلاق يهود أنهم يحاولون مغالطة المسلمين في قراءة نصوص التوراة فينطقون بها على وجه يحملها السامع غير

المنتبه على خلاف معناها الحقيقي ويظن أن ذلك هو ما نزل في التوراة. وهو محرف غير ما أنزل. ويضيفون إلى ذلك أنه يكذبون على الله. وكذبهم متعمد.

بيان المعنى العام:

75-76: ومن أهل الكتاب...والله يحب المتقين.

عرضت الآية صورة من أخلاق اليهود اختلفوا فيها. وأنصفهم القرآن، فلم يعمم الفساد جميعهم. بعضهم أمين، إن استأمنته في قنطار من المال أو أكثر أو أقل أدى لك حقك بدون مماطلة، ومنهم من تأصلت فيه الخيانة فإذا عاملته أو استودعته ولو دينارا أعياك بالدوران والمماطلة، ولا تستطيع أخذ حقك منه إلا إذا واليت المطالبة وضيقت عليه. ويبررون أكل أموال الناس بالباطل، بأن الله لا يؤاخذهم إذا استولوا على أموال العرب الأميين. ويسجل الله عليهم كذبهم ويزيد في التشنيع بأنهم يعلمون الحقيقة، فيكونون قد جمعوا بين سفالة وإثم الخيانة ، وبين الجراءة بتعمد الكذب على الله الذي لا تخفاه خافية.

77- إن الذين اشتروا...ولهم عذاب أليم.

كذبوا على الله وخسروا آخرتهم لأن سنة الله الماضية: أن من أدّى ما التزم به وحلت التقوى قلبه فإنه يظفر بأعز مطلوب: إنه داخل في زمرة الذين يحبهم الله، إن الله يحب المتقين. وبالمقابل فإن من يخون الأمانة ويغلب الحظ العاجل على تقوى لله فإنه يحل عليه غضب الله وسخطه. ومن انحراف اليهود عن الحق: أنهم يبيعون العهد الذي أخذ عليهم في التوراة، والالتزامات التي يعقدونها مع الناس، بل حتى ما يوثقونه بالأيمان، يبيعون ذلك ويتنكرون له، مقابل ثمن قليل لا قيمة له بالنظر إلى شرف الإنسان وخشيته من الله. لذا سجل القرآن جزاء استخفافهم بذلك أنهم محرومون من أية كرامة ولا نصيب لهم مما أعده الله لعباده الصالحين. ولا يقف جزاؤهم على الحرمان بل إن الله يحتقرهم فلا يكلمهم ، ويزيد في مقتهم فلا يغفر لهم ذنوبهم **(ولا يزكيهم)** ويحل عليهم غضبه فيكون مصيرهم بين المهانة والإهمال.

78- وإن منهم لفريقا... ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون.

ومن مخازيهم أنهم دربوا ألسنتهم وطوعوها بطريقة تخيل للسامع الكلمة أنها تفيد معنى غير معناها، ويحسب تبعا لذلك أن المنزل ما سمعه محرفا بهذا اللَّيِّ. ولا يقفون عند هذا الحد بل يعمدون للكذب على الله فينسبون له ما اختلقوه، وهم يقصدون التحريف والكذب.

تنبيــــه:

توالى فضح انحرافات بني إسرائيل وتسجيل مآلهم وخسرانهم. وعلى المسلمين أن يعلموا أنهم لا ينقذهم انتسابهم للإسلام بالقول ومناقضة هدايته بالعمل والسلوك. إن كل ما ذكر عن اليهود ينبه المسلم أنه لا يشفع له إسلامه إذا سار على طريقة يهود. يكرر القرآن في صادق بيانه: الذين آمنوا وعملوا الصالحات. إن حب الضلال للناس، أو العمل على نشر الضلال، والمكر والحيلة، وخيانة الأمانة ولو كان المؤتمن غير مسلم، ومحاولة تبرير الخيانة، وتغيير مقاصد الإسلام وأحكامه طلبا للجاه أو للمال، كل ذلك يقرب المسلم الذي ينحط إلى دركات سلوك اليهود، يقربه من اليهود بمقدار ما يبعده عن جماعة المسلمين.

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

ربانيين: منسوبين لله أي مخلصين له.

تدرسون الكتاب: تقرؤونه قراءة تفهم وتدبر.

الميثاق: العهد.

إصري: عهدي وميثاقي.

بيان المعنى الإجمالي:

إن من أنزل الله عليه كتابه، وشرح صدره بجودة النظر فعمر قلبه بالحكمة، وتخيره لمرتبة النبوة وهداية الخلق، لا يتصور منه أن يقول للناس: كونوا عبادا لي واتركوا عبادة الله. وهذا رد على النصارى الذين ادعوا أن عيسى عليه السلام أمرهم أن يعبدوه. إذ العبادة لا تقبل تعدد المعبود. إن ما يقتضيه من جمع تلكم المزايا أن يأمر الناس بأن يكونوا منتسبين إلى الله ربهم (**ربانيين**) يخلصون له وحده ولا

يشركون به أحدا في عبادته، لأن ذلك هو المنسجم مع علمكم بالكتاب، وبدراستكم له دراسة مكنتكم من مضامينه. وإن سياق أمره لكم بالتوحيد الكامل ينفي أن يكون أمركم بأن تتخذوا الملائكة أو الأنبياء أربابا من دون الله. إنه تناقض فهل يمكن أن يأمركم بما يوجب الكفر، مع اعترافكم بأنه رباكم على الإسلام ؟ ثم استحضر القرآن العهد الذي أخذه الله على جميع الأنبياء مذكرا به: هذا العهد المتضمن: أخذ الميثاق على النبيئين أن يبلغوا ما آتاهم الله إياه من الكتاب والحكمة، ثم بعد ذلك أن يأخذوا على أممهم أنه إذا جاءهم رسول يصدق الأصول التي جاؤوا بها، وهو محمد ﷺ، أن عليهم أن يؤمنوا به وينصروه. ثم أكد عليهم هذا الميثاق فقال لهم: هل أنتم مقرون بذلك وهل أخذتم عهدي على الوفاء بما التزمتم أنتم وأممكم به. قالوا: أقررنا. قال تعالى: **فاشهدوا بذلك واعلموا أني شاهد عليكم**. وإن من تولى من الأمم التي شهدتم عليها فأولئك هم أشد الناس فسقا.

بيان المعنى العام:

79-80: ما كان لبشر... بعد إذ أنتم مسلمون.

بعد أن كشف القرآن عن صور من مكر اليهود وفساد دخيلتهم وحاجّهم وهددهم في الآيات السابقة، وجه عنايته لمحاجة النصارى وإظهار إعراضهم عن العقل فيما يدعونه دينا لهم. فقال تعالى: ما كان لبشر... بعد إذ أنتم مسلمون.

(لا يتصور ولا يعقل أن يكون واحد من البشر يتخيره الله ويقربه تقريبا يدل دلالة قاطعة على أنه صالح ظاهرا وباطنا – والله هو العليم بحال البشر في جميع أطوارهم، لا يتوقف علمه على ظهور حقيقة الإنسان بالممارسة للحياة– ثم يؤتيه ويمكنه من الكتاب المنسوب للذات الإلهية الحجة على الخلق، ويجري الحكمة على لسانه فيربي الناس على الإدراك الصحيح، ويؤتيه النبوة التي يكون بها مبلغا لتشريع الله للخلق)، لا يتصور فيمن هذه صفته أن يقول للناس: كونوا عبادا لي، توجهوا إلي بالعبادة وتقربوا إلي من دون الله. وذلك أن العبودية لا تقبل الشركة . فلما زعم النصارى أن عيسى عليه السلام أمرهم أن يعبدوه، والعبادة لا تقبل الشركة، فمؤدى ذلك أنه أمرهم بأن يكفروا بالله. فلا يعقل أن يكون رسولا داعيا لعبادة الله، ثم في الوقت نفسه داعيا للانصراف عن الله إلى ذاته، داعيا للكفر لمن أسلم على يديه. وإذ استحال عقلا ،كما هو مستحيل واقعا، ما نسبتم لعيسى من أنه أمركم أن تجعلوه ابنا معبودا ، فالحق أن عيسى دعاكم لتكونوا ربانيين بسبب ما أوتيتم من العلم من الكتاب الذي نفى عن الله الشريك، وبسبب ما تحصل في قلوبكم من دراسة الوحي دراسة متأنية فاحصة. والرّباني كلمة مشتقة من الرّب على

صيغة المبالغة- كما تقول لحياني لعظيم اللحية وشعراني لكثيف الشعر- ويراد به: المؤمن بالله الجامع بين العلم الواسع والحكمة. وكما لا يعقل أن يأمركم بما ذكرتم، فإنه يستحيل أيضا أن يأمركم بأن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا. ذلك أنهم ادعوا أن عيسى أمرهم أن يتخذوا صورا خيالية للملائكة وللأنبياء، وأن يعظموا تلكم الصور تعظيما وصل بهم إلى التقرب إليها وسؤالها.

إن التقرب بالسؤال والتقديس لغير الله كفر. وهل يمكن أن يأمركم بالكفر بعد أن حقق إسلامكم لله؟.

81-82: وإذ أخذ الله... فأولئك هم الفاسقون.

ويأتي بعد تلكم الأنواع من المحاجة وتبكيت اليهود والنصارى، يأتي بعد ذلك الإعلان عن حقيقة يعلمها الله وأراد أن يظهرها على أنها فذلكة لما سبق عرضه في الآيات. يذكر القرآن بالعهد الموثق الذي أخذه الله على جميع الأنبياء، أن يبلغوا ما آتاهم الله من الكتاب الموحى به إليهم وما آتاهم من الحكمة التي تستقيم بها عقول أتباعهم، هذا الميثاق مقترن بأمر هام فوق ذلك: هو أن يأخذوا على أتباعهم وعلى من يحمل الدين عنهم ميثاقا وعهدا أنه إذا جاءهم رسول من صفاته أنه يصدق الأنبياء الذين جاؤوا قبله، فلا ينقض ما بينوه من عقيدة ومبادئ عامة لصلاح البشرية، أن عليهم وعلى أتباعهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه نصرا مؤزرا. وبعد أن طاع كل نبي بإعطاء هذا العهد والميثاق المؤكد عليه وعلى من دعاهم، أحاط الله سبحانه هذا العهد بتأكيدات: قال الله تعالى: أقررتم بهذا العهد إقرارا ينفي إنكاره في يوم من الأيام أو ظرف من الظروف كيفما كان ؟ هل أخذتم على ذلك، الالتزام الموثق القوي العهد؟ أجابوا بقولهم: أقررنا.

وهنا أراد الله أن يؤكد عهده تأكيدا بالغا مبلغا عظيما من التوثيق فقال تعالى: اشهدوا على أنفسكم بذلك، وأنا الله العزيز الحكيم شاهد عليكم. هذا الميثاق أنه عندما يظهر محمد ﷺ ويبشر الناس برسالته أن تؤيدوه وتنصروه، وتدافعوا عن الحق الذي جاء به. واعلموا أن من لم يوف بهذا العهد ونكل فأولئك قد عظم جرمهم وهم الحقيقون بصفة الفسق.

أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا
وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن

رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِينًا
فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟
بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾
خَـٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ
ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟
كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ
فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴿٩١﴾

بيان معنى الألفـاظ:

تبغون: تطلبون.

أسلم: استسلم.

بيان المعنى الإجمالي:

ما أبلغ عناد اليهود فهل يطلبون دينا غير دين الله الذي انقاد له من في السماوات والأرض طوعا أوكرها بإلجاء الأدلة أو عند حضور الموت. أمر النبي ﷺ أن يقولها واضحة: آمنت أنا ومن معي بما أنزله الله علينا من الحق وبما أنزله على إبراهيم والأنبياء من ذريته إسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط، وما أوتي موسى من الهدى وما أوتي عيسى أيضا. نؤمن بجميع أنبياء الله ولا نرفض واحدا منهم وقد أسلمنا وجوهنا وأرواحنا لله. وهذا هو ما يرضاه ربنا من البشرية. فمن يطلب دينا غير هذا ، دينه مرفوض، وخسر آخرته. يبعد جدا أن يمكن الله من ألطاف هدايته قوما كفروا بعد إسلامهم، وبعد أن شهدوا بصدق محمد، وبلغتهم الأدلة البينة. هم ظلموا بكفرهم والله لا يهدي القوم الظالمين. وقد استحقوا جزاءهم لعنة من الله ومن الملائكة ومن جميع الناس خالدين في المهانة، لا يطمعون أن يخفف عنهم ما هم فيه. إن الله يغفر لمن تاب بعد كفره وحقق توبته بصالح الأعمال لأنه هو الغفور الرّحيم. وفي المقابل فإن الذين كفروا بعد إيمانهم وانغمسوا في الكفر لن ييسر الله لهم أسباب التوبة لأنهم الضالون. والذين كفروا وماتوا على كفرهم لا يقبل منهم فدية ولو كانت مل ء الأرض ذهبا ولا يجدون من ينصرهم.

بيان المعنى العام:

83-أفغير دين الله...وإليه ترجعون.

توبيخ لأهل الكتاب لرفضهم دين الله، بعد تذكيرهم بما أخذ عليهم من عهود. فأي دين يطلبونه، وقد استسلم لله وانقاد له من في السماوات والأرض، انقاد له بعضهم عن طواعية وحب في الحق وانقاد له بعضهم بعد الممانعة واضطرته الأدلة للإذعان له. وينقاد له الكافرون عندما يأتيهم الموت. والكل يرجع إليه ولا يخرج من قبضته ولا من مصيره الذي ألزمه إياه.

84-85: قل آمنا بالله...وهو في الآخرة من الخاسرين.

أمر النبي ﷺ أن يعلن:

أني آمنت والذين معي، آمنا بما أنزله الله علينا من قرآن وهدى، وبما أنزله على إبراهيم وإسماعيل واسحق (ولدي إبراهيم) ويعقوب ولد إسحاق، والأسباط الأنبياء من أولاد يعقوب، وما آتاه الله لموسى ﷺ من الوحي، وما آتاه لعيسى ﷺ. نؤمن بجميع أنبياء الله، لا نفرق بينهم، ولا نرفض أي واحد منهم، هم جميعا على حق أكرمهم الله بالنبوة ونحن مسلمون لله. وقطعا لجدال المكذبين يصدرها قاعدة عامة: من يبتغ دينا غير دين الإسلام الذي جاء به محمد، لن يقبل منه، ولا يضمن لنفسه النجاة في الآخرة وإنه لمن الخاسرين.

86- كيف يهدي الله قوما...لا يهدي القوم الظالمين.

إنه يبعد جدا أن يمكن الله من ألطافه قوما كفروا، بعد أن آمنوا وشهدوا بصدق الرّسول وأن ما جاء به هو الحق ووصلتهم الآيات البينة. إن الله لا يسعد بألطافه القوم الظالمين، فلا يهديهم إلى الحق.

87←89: أولئك جزاؤهم...فإن الله غفور رحيم.

صرح القرآن بجزاء أولئك الذين رفضوا دين الله بعد أن آمنوا به :جزاؤهم لعنة الله والملائكة والناس جميعا، كما جاء في الآية **(خالدين في عذاب جهنم، لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون)**[1]، ليعودوا إلى الإيمان بالحق. وفي المقابل فإن رحمة الله تسعف من تاب من ضلاله وقرن توبته بصالح العمل حتى يظهر صدق توبته، وذلك أن الله غفور رحيم.

90-إن الذين كفروا...وأولئك هم الضالون.

---

[1] سورة البقرة الآيتان 160-161.

ويدقق القرآن فيقول : إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم تعمق ضلالهم ، وترسخ الكفر فيهم وتأصل، لا مطمع في توبتهم فضلا عن تصور قبولها. وأولئك هم الذين انغمسوا في الضلال فأحاط بهم.

91-إن الذين كفروا وماتوا... وما لهم من ناصرين.

أكدت الآية الأخيرة مضمون سابقتها، من ناحية أن من مات على الكفر لن يفيده شيء يمكن أن ينجيه من سوء المصير. هو يائس من رحمة الله ومغفرته، بل لو عمل على تقديم فدية لجبر نقص كفره تتمثل في ملء الأرض ذهبا، فلن يفيده ذلك، وهذا نوع من المبالغة لتيئيسهم ، لأن ملء الأرض ذهبا مستحيل يُقَدَّر كما يقدر المحال للدلالة بصفة مجسمة، على أن من مات على الكفر لا أمل له في عفو الله. أولئك قد حق فيهم القول: إن لهم عذابا أليما ولا يجدون نصيرا من شافع أو كفيل.

لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

البر: كمال الخير.

نال الشيء: حصل عليه.

بيان المعنى الإجمالي:

تحريض للمؤمنين حتى يكون إيمانهم هاديا لهم إلى نيل مراتب الكمال في الخير الذي هو مسيرة متلاحقة إلى البر. ولن يحصلوا عليه إلا إذا طاعت نفوسهم ببذل ما هو عزيز عليهم. والله لا يخفى عليه شيء مما يعمله الإنسان.

بيان المعنى العام:

92-لن تنالوا البر...فإن الله به عليم.

لقد ختمت الآيات السابقة بتيئيس اليهود والنصارى، المصممين على مناوأة الدعوة المحمدية، وكذلك من مات على الكفر، من رحمة الله. وشأن القرآن أنه يقرن النذارة بالبشارة، وعرْضَ صورة النازلين إلى أحط الدركات، بصورة الصاعدين إلى المراتب السامية.

يرشد القرآن المؤمنين إلى الطريقة التي يصلون بها إلى نيل منزلة الأبرار فيقول: لن تصلوا إلى نيل البر حتى تقطعوا الطريق الطويلة المتتابعة في فعل الخير والبعد عن الشر، وللبر سماته التي تدل على أن حب الخير قد تأصل في أعماق النفس البشرية حتى أصبح نورا يضيء لها طريقها وقوة دافعة إلى النفس لتَقَبُّلَ طائعة

القيام بما كان عسيرا شاقا. إنه ما تزال الروح تصقل شيئا فشيئا بالطاعة حتى ينقلب ما كان منافرا لها محبوبا. فالعبادة في السحَرِ مثلا تصبح أليفة النفس فتجد فيها راحتها، **(تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا)**[1] والمال الذي من طبع النفس الشح به تصبح النفس تقدم على بذله بغير ممانعة، ثم يسمو ذلك حتى يصبح الإنفاق لذة، فينفق النفيس الذي يَضِنُّ به عادة ويحسب التمسك به. إنه إذا وصل الإنسان في تزكية نفسه إلى هذا المقام، فذاك منزلة الأبرار. وما يفعله هو البر. ويثبت الله المؤمنين على هذا السلوك بقوله: إن كل ما يقوم به الإنسان من خير فإن الله به عليم. والتذكير بأن الله به عليم، يفيد أمرين: أولا: أن الله يجزي الإنسان بما قدمه وثانيا: أن مراتب الإخلاص يعلمها الله ولا تخفى عليه.

۞ كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

الافتراء: الكذب والاختلاق.

بيان المعنى الإجمالي:

ادعى اليهود أن التوراة حرمت أشياء أحلها الإسلام، وهم لا يرون النسخ فأوهموا أتباعهم والسذج أن ذلك دليل على عدم صدق القرآن – ناقشهم القرآن في دعواهم أن الله حرم في التوراة ما زعموا، ذلك أن التحريم صدر من يعقوب على نفسه والتوراة نزلت بعد ه بأزمان. ولما كان من شأنهم العناد ألجأهم القرآن إلى أن يأتوا بالتوراة ليظهروا النص الذي يحتجون به وهو غير موجود. وبذلك يكونون قد كذبوا على الله واختلقوا أشياء من خيالهم نسبوها إلى الله. وكذب اليهود وصدق الله. إن دعوة الإسلام تتبعهم دائما فأمرهم قائلا: اتبعوا ملة إبراهيم حنيفا، فإنه ما كان من المشركين.

بيان المعنى العام:

93-كل الطعام... فاتلوها إن كنتم صادقين.

---

[1] سورة السجدة آية 16

هذه الآيات ترد على اليهود افتراءاتهم التي يروجون لها ويبنون عليها نتائج باطلة كمقدماتها. عددوا أشياء محرمة عليهم نسبوا تحريمها إلى التوراة، وهي مما أباحها الإسلام. وبنوا على ذلك أن الإسلام يخالف الحق الوارد عن الله في التوراة ولذا هو ليس من عند الله.

ابتدأ الرّد عليهم بأن كل أنواع الأطعمة كانت حلالا لبني يعقوب عليه السلام. وإنما الذي وقع أن يعقوب حرم على نفسه أشياء إما زهدا، وإما لوضع صحي خاص به امتنع معه عن بعض الأطعمة تبعا لما وصف له أطباؤه. وهذا التحريم من يعقوب كان طبعا قبل أن تنزل التوراة على موسى بقرون. فما ادعوه من أن التوراة هي التي حرمت كذب على التوراة، وخلط بين محرمات التوراة وما حرمه يعقوب على نفسه ومن ناحية أخرى فما ذكروه من المحرمات فيه زيادة عما حرمه يعقوب. وليظهر القرآن كذبهم وافتراءهم، أمرهم أن يأتوا بالنص المثبت فيه ما ذكروه من المحرمات، وتحداهم بقوله: **إن كنتم صادقين.**

94-فمن افترى... فأولئك هم الظالمون.

ثم ألزمهم بالنتيجة المترتبة على عجزهم عن الإتيان بنص يصدقهم فيما قالوا. هذه النتيجة الطبيعية التي لا تقبل نقاشا ولا ردا هي: إن من افترى على الله الكذب بعد الرّجوع إلى التوراة التي احتججتم بها فأولئك هم الظالمون أشد الظلم بكذبهم على الله. وتعين أن يكونوا هم الظالمين لما عجزوا عن الإتيان بنص من التوراة يثبت مقالتهم.

95-قل صدق الله... وما كان من المشركين.

يصرح القرآن بالحقيقة الثابتة آمرا لرسوله أن يعلنها: **قل صدق الله.** وينبني على ذلك أنهم مأمورون باتباع ملة إبراهيم حنيفا كما فصلها القرآن، إبراهيم الذي ما كان مشركا بالله. ومحمد هو المظهر لليقينيات التي في دين إبراهيم.

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

بيان معنى الألفاظ:

بكة: مكة البلد، أو مكان البيت.

البركة: الزيادة والنماء – وتطلق على الدوام والثبات.

بيان المعنى الإجمالي:

حقق القرآن أن أقدم بيت بني لعبادة الله عبادة خالصة، هو البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام بمكة. جعل الله البركة فيه باقية أبد الدهر، وفيه من الأسرار ما يعمق الشعور الديني الرّاقي. فيه آيات معجزة دالة على مزاياه، منها الحجر الذي قام عليه إبراهيم لبناء البيت. لَان له وبقيت آثار قدميه ظاهرة وكتب الله الأمن لسكانه. وأكرمه بأن جعله مقصدا لأداء الحج الذي فرضه وألزم به كل من استطاع أن يجد طريقا إليه. ومن رفض الإذعان لفريضة الحج ورفض ما ألزم الله به عباده فلم يضر إلا نفسه، لأن الله غني عن العالمين جميعا لا يتأثر بطاعتهم ولا بعصيانهم.

بيان المعنى العام:

96- إن أول بيت وضع للناس للذي...وهدى للعالمين.

يؤكد القرآن على الاتصال بين إبراهيم عليه السلام وشريعته، وبين محمد ﷺ والدين الذي بعث به لختم رسالات الله للعاملين. ومن مظاهر هذا الترابط أن البيت الحرام، بناه إبراهيم عليه السلام ، بأمر من ربه بلغه إياه جبريل عليه السلام، وأعانه على إنجازه إسماعيل عليه السلام. فاجتمع في هذا البيت أمر رب الأرباب بواسطة ملك الوحي جبريل والعامل فيه إبراهيم والمساعد له إسماعيل. وهو شرف للكعبة لم يشاركها فيه أي بيت آخر. وبجانب هذه المزايا ما حققه القرآن، بأن هذا البيت هو أقدم بيت بني لعبادة الله وحده. واستمر كذلك عبر الأحقاب والعصور، حتى إنه في العصر الجاهلي بقي مستقرا في نفوس العرب، على وثنية عدد غير قليل منهم، أن الكعبة بيت الله. دونوا ذلك في أشعارهم، وطبقوه عمليا في طوافهم حول الكعبة. وما أقدم أحد على التشكيك في ذلك. حتى إنه لما قصد أبرهة الأشرم الحبشي الكعبة ليهدمها، كان جواب عبد المطلب: للبيت رب يحميه. وحماه الله فعلا. فاعتراض يهود على توجه المسلمين للكعبة، وادعاؤهم أن بيت المقدس أولى بالتوجه إليه، غير صحيح ولا مستند إلى دليل يؤيد دعواهم، بل ما ذكر في مزايا الكعبة يجعلها حرية بأن تكون قبلة للتقرب إلى الله من جميع العالمين. وبكة، ومكة، هل هما شيء واحد، أو مكة مكان البيت ،ومكة المدينة، أو العكس ؟ اللغة لا تنفي أي واحد من هذه الاحتمالات. أضاف الله لمزية سَبْقِهِ على جميع البيوت المتخذة للعبادة أمورا: أن الله بارك فيه. وضروب البركة كثيرة-1معنوية- 2) ومادية :

فمن الأول: أن الصلاة في حرمه تعدل أكثر من ألف صلاة. وأن الأعمال الصالحة يتضاعف ثوابها، وأن الجلوس حوله والنظر إليه ينمي الطاقات الرّوحية،

ويشرح القلب، ومنها أن الطواف حوله عبادة، زيادة عن كونه ركنا من أركان الحج والعمرة.

ومن الثاني: أن ماء زمزم فيه خير كثير لشاربه، وهو بئر واحدة ومع ذلك يستقي منها الناس في مكة والمدينة ويحمل الحجاج والعمار كميات تقل أو تكثر، وهو معين لا ينضب . ومع أن مكة في واد غير ذي زرع، فإن صنوف الخيرات التي ترد إليها تدل على البركة فيها. **هدى للعالمين:** ميزة أخرى أن البيت هو القبلة التي ارتضاها الله ليتوجه نحوها البشر عند صلاتهم.

وإذا كان الإسلام قد نسخ جميع الشرائع السابقة فإن التوجه لبيت المقدس كان مما نسخ، ولم تبق قبلة يقبل الله الصلاة إليها إلا الكعبة البيت الحرام.

97-فيه آيات بينات... العالمين.

هذه الآيات كما يدل عليه لفظ الجمع هي كثيرة، وهي بينة لا يختلف فيها، فمن أوضح هذه الآيات أن الداخل للحرم يجد في روحه تساميا وطهارة وزكاء، ويشعر شعورا أقوى بصلاته مع إخوانه المؤمنين في مشارق الأرض ومغاربها. وكل من زاره يزداد شوقه إلى العودة إليه. وفيه مقام إبراهيم الباقي آية أبد الدهر على ما قارن بناءه من عناية وعون. ومنها أن البيت بمكان غير ذي زرع، والمشاهد قديما وحديثا، أن الخيرات موفورة فيه.

مقام إبراهيم: يتفق أهل الأديان الثلاثة أن إبراهيم عليه السلام جميع الأنبياء هم نسله . وإبراهيم أقام في مكة وبنى البيت بأمر من ربه مع ابنه إسماعيل . وكون إبراهيم أقام فيها وأقام أول بيت وضع للعباد بوحي من ربه، يدل على ما لهذا البيت من خصائص ميزها بها رب العالمين. من دخله كان آمنا: امتن الله على قريش بأن الله آمنهم من خوف. وهذا الأمر قد تأكد بمجيء الإسلام. وأخذ الجاني بجنايته إذا ارتكبها في الحرم، أو لجأ إليه لينجو من العقوبة مسالة للفقهاء أنظار فيها.

إيجاب الحج: هذه الآية أصرح نص على وجوب أداء الحج الرّكن الخامس من أركان الإسلام. والرّاجح أنها نزلت في السنة الثالثة للهجرة، وقيل: في أواخر سنة خمس بعد غزوة الخندق. وقيل في سنة تسع. والذي يهمنا اليوم أن الحج ركن من أركان الإسلام، وأنه إلى البيت الحرام وما حوله من المناسك التي حددها النبي ﷺ ، كما قال في حجته: خذوا عني مناسككم. وتلك مزية من مزايا البيت الحرام. وقد أكدت الآية القيام بأداء هذا الركن على كل من يستطيع القيام به. وقوله تعالى: **ومن كفر فإن الله غني عن العالمين،** وإن حمله بعضهم على التراخي عن أداء فريضة الحج حتى تفوت المتراخي وذلك كفر. ولكن إعمال الأدلة جميعها يرجح

أن المتراخي كافر بنعمة الله، أو تراخيه يجعله قريبا من الكافرين فهو تغليظ على المتهاونين.

قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ
يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ
وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَـٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ كَـٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتُ
ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

بيان معنى الألفاظ:

تصدون: الصد الإعراض.

تبغونها عوجا: تطلبون لها عدم الاستقامة.

يعتصم بالله: يلجأ إلى الله.

بيان المعنى الإجمالي:

إنكار على أهل الكتاب تماديهم على الكفر بآيات الله كالقرآن ومعجزاته ﷺ، وإنكار عليهم أن يرفضوا الإقرار بفضائل الكعبة. ويهددهم بأن الله عليم بما يعملون. ثم يثني بالإنكار عليهم لأنهم مع معرفتهم للحق، يعملون على منع الناس من اتباع الطريق المستقيم الذي يرضاه الله من عباده ويريدون أن يسيروا في الطريق المعوج مع أنهم يشهدون في باطنهم أن ما يضللونهم به هو غير سبيل الله. وهددهم بأنه يعلم مكرهم بما يفيد مجازاتهم. يحذر الله المؤمنين من تلبيس أحبار اليهود والقساوسة، وأنهم إن لانوا لهم وأطاعوهم وقعوا في فخهم، ذلك أن غايتهم أن يخرجوكم من دينكم وأن تتحولوا إلى الكفر بعد أن هداكم الله للإيمان. يستفهم القرآن استفهاما يدل على استبعاد أن يؤثر فيهم تضليل بعض اليهود والنصارى، في الوقت الذي يسمعون فيه القرآن ويتلقون من نور النبوة مباشرة ما ينفي عنهم شبه المضللين.

بيان المعنى العام:

98-قل يا أهل الكتاب... والله شهيد على ما تعملون.

مجتمع المدينة مجتمع يشمل المؤمنين من الصحابة رضي الله عنهم، ويشمل المنافقين الذين يكيدون للإسلام والمسلمين، ويشمل اليهود. ولقد عمل رسول الله ﷺ، بمجرد حلوله بالمدينة المنورة، على كتابة ميثاق بين طوائف اليهود، وبين

المسلمين، ضمن لكل فريق حقوقه وواجباته، ووفر فيه الأمن والأصول التي يتيسر بواسطتها التعايش. ولكن اليهود دأبوا على مناوأة الإسلام والكيد للمسلمين. فكان القرآن ينزل موبخا لهم على عنادهم وعلى ما يدبرونه من مكر. ويأمر نبيه بأن يخاطبهم مواجها لهم بكلمة، قل: وبخهم على رفضهم الإذعان للآيات البينات التي تتوالى على رسول الله ﷺ يسمعونها ويشاهدونها، ويهددهم بأن الله لا يخفى عليه عنادهم فهو شهيد عليهم لا يغيب عنه من أمرهم شيء سبحانه

99-قل يا أهل الكتاب لم تصدون... وما الله بغافل عما تعملون.

ويحاولون تضليل المؤمنين ليعرضوا عن دين الإسلام. تريدون منهم أن يسيروا على الطريقة التي تخالف الفطرة الطريقة المعوجة، والحال أنكم في بواطنكم تقرون وتوقنون بأن ما جاء به محمد حق. واعلموا أن الله لا يغفل عن سوء صنيعكم، فسيجازيكم عنه.

100-101: يا أيها الذين آمنوا...إلى صراط مستقيم.

في هذا الجو المشحون بالمؤامرات، يتجه للمؤمنين فيناديهم موقظا: اعلموا أنكم إذا لنتم للفريق من اليهود المضلل، فتنبهوا أن غاية يهود هو أن يردوكم عن إيمانكم الذي شرح الله له صدوركم إلى الكفر. ويثبت الله المؤمنين بأنه يستبعد أن تنطلي عليهم مؤامرات يهود، أو تؤثر فيهم، خاصة وأنه تتابعت عليكم آيات القرآن المحركة للقلوب المجلية للأرواح، المحصنة للعقول من الزيف والأراجيف، وأنتم تنعمون بالاقتباس مباشرة من الأنوار النبوية، فرسول الله يعيش بين أظهركم. وتكون الخاتمة قاعدة من قواعد النجاح والرّشد: من يلجأ إلى الله ويتمسك به فقد حقق لنفسه السلامة، وبالتالي الفوز في هذه الدار ويوم القيامة.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٠٢﴾
وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ
فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا وَكُنتُمۡ عَلَىٰ شَفَا حُفۡرَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ
فَأَنقَذَكُم مِّنۡهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

اعتصموا: اعتصم طلب ما يمنع ويحصن.

حبل الله: ما يتمسكون به من شرع الله.

شفا حفرة: طرف حفرة.

بيان المعنى الإجمالي :

دعا الله المؤمنين أن يلزموا التقوى، التقوى الصادقة التي يتطابق فيها الباطن والظاهر، التي يألفها المؤمن حتى تكون قرينة أعماله ونواياه في جميع ظروفه وأحواله. وبهذه التقوى يتيسر الامتثال للأمر الموالي **(ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون)** فيكونون ملازمين لهذا الدين في كل لحظة من لحظات حياتهم، حتى يتحققوا بذلك أن يكونوا وقت حلول أجلهم ثابتين على الإيمان. وذكرت الآية بنعمتين عظيمتين: الأولى: أنه حوّل حالهم من عداوة مستحكمة إلى توافق وود وتناصر، والثانية: أنهم كانوا قريبين من الهلاك، فأنقذهم الله من ذلك في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام:

102-يا أيها الذين آمنوا اتقوا...إلا وأنتم مسلمون.

بعد أن حصن الله المؤمنين من دسائس اليهود بكشف مكرهم بالمؤمنين، توجهت العناية القرآنية لإكسابهم قوة يغالبون بها الصعاب ويتمكنون بها من النجاح في دنياهم وأخراهم، فأمرهم أن يصحبوا التقوى الكاملة صحبة تختلط بضمائرهم وبعقولهم، وتَبْرُزُ عليها أعمالهم، فيكون باطنهم وظاهرهم واحدا، يعيشون مع مراقبة الله في كل ما يصدر عنهم، ينفذ شعاع الإيمان إلى قلوبهم فيخلصون في نواياهم، وتتحكم مراقبتهم لله فيما يقدمون عليه من شؤون الدنيا أو أمور الآخرة، في دوافع الإقدام وطريقة الإنجاز، وفي المحركات لكوامن الشهوات ونوازع النفس والشيطان، وكوابح يقظة الصلة بالله عن قربان المعصية، بحضور أشعة الإيمان الموقظة. هذا معنى **ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته**. وهذا ما فهمه ابن مسعود ﷺ من الآية لما قال: أن يطاع فلا يعصى ويشكر فلا يكفر ويذكر فلا ينسى.

وتقوى الله حق تقاته أمر يصحب الروّح حتى يصير جزءا منها لا يفارقها ولا تفارقه. وصرح القرآن بهذه الصورة البليغة لما قال **(ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون)** الذي مؤداه أن يكون المؤمن مع التقوى في كل لحظة من لحظات يقظته، حتى إذا جاءه أجله، كانت لحظة وفاته كبقية لحظات حياته، إيمانا صادقا

103-واعتصموا بحبل... لكم آياته لعلكم تهتدون.

وإذ مهد لهم طريق نجاتهم بالتقوى، وجههم إلى ما يحفظ كيانهم ، ويقيم لهم جامعتهم التي بها يحفظون عزتهم ويَرْهَبُهُمْ عدوهم فلا يطمع فيهم. ولا سبيل

لتحقيق ذلك بعد التلبس بالتقوى، إلا أن يقيموا رابطتهم الاجتماعية على التمسك بهداية الله التي لا تزيد مع الأيام إلا قوة وشدة.

يرتبط البشر فيما بينهم بمراعاة أنواع من الرّوابط، رابط الأسرة، ورابط القبيلة، ورابط المدينة والقطر، ورابط الجنس ورابط البرنامج السياسي. وهذه الرّوابط جميعها لا يلغيها القرآن، ولكنه يوقظ المؤمنين إلى أن قصر العلاقات البشرية على واحد منها أو حتى على مجموعها، هو تنكر لجوهر الإنسان الذي يسمو عن تلكم الحدود الضيقة المصطنعة ، فيأمر القرآن المؤمنين أن يكون رباطهم الجامع هو مجموع الهداية التي جاءتهم من عند الله. إنه رابط يسمو عن المصالح الظرفية المتقلبة لأنه ملتبس بالحق الذي لا يتغير، ويسمو عن الفردية لأنه رابط يجتمع فيه الكل باعتبارهم مخلوقين للواحد الخلاق. جسمت الآية هذه الوحدة فجعلت البشر كمن تقاذفتهم الأمواج في بحر هادر، فامتد لهم حبل من أخذ به نجا. ذلكم البحر الهادر المتلاطم هو الحياة ودواعي الأنانية والمصالح العاجلة وحب التسلط وقوى الشيطان والشر، وذلكم الحبل المنجي الذي امتدت فروعه فوصلت إلى كل فرد فرد، هو دين الإسلام دين الله المنقذ للبشرية من غيها وضلالها وحيرتها. إنه لا ينفع لمس الحبل أو القرب منه، ولكن لا ينجو إلا من تمسك به بقوة والتزمه التزاما يصحبه في نشاطه وحياته. وهو حبل لا ينظر فيه لكل شخص على انفراد وإنما هو حبل يجمع المؤمنين كلهم، فالفوز بالبقاء يتحقق إذا أخذ الجميع به ، وإذا تمسك به بعضهم وتركه بعضهم، لم يستطع الماسك وحده أن ينجو. إن التفرق عودة للمنهج المناقض لمنهج الله كما بيناه.

ويتأكد هذا المبدأ الاجتماعي بتذكير الله للمؤمنين بحالة كانوا عليها، ومضت عليها حياتهم ردحا من الزمن غير قليل، وما استطاعوا أن يخرجوا منها رغم ما بذله حكماؤهم وأولي الرّأي فيهم. لقد استحكمت العداوة بين القبائل مكونات المجتمع العربي، يتقاتلون وتسفك الدماء، وتستمر العلاقة الحربية المتوترة أمدا يبلغ عشرات السنين. وما كانوا يستطيعون الصمود أمام غزو الأمم المحيطة بهم، وما كان يحسب لهم حساب في ميزان القوى المتحكمة في العالم، لتفككهم وقصر نظرهم. أنعم عليهم بالإسلام ،أنعم عليهم إذ طوع قلوبهم لتلقي الوحي الذي ضخ في أرواحهم لينا بعد قسوة، وحبا بعد كراهية وبغض، وترابطا إنسانيا بعد طغيان الأنانية، وأثرة بعد الاستئثار. تجمعت برحمة الله تلكم المعاني فتكون منها نسيج الأخوة الإيمانية، وما تزال تنمو هذه النعمة في قلوب المؤمنين عبر السنين والقرون، حتى أصبح المسلم في اندونيسيا يشعر برباط الأخوة مع المؤمن في

المغرب الأقصى، يجتمعون مثلا في الحج فمن صفا إيمانه ينظر للمؤمنين كأنه قد ربوا في محضن واحد وتعارفوا منذ أزمان.

ونعمة أخرى صورها القرآن بهذا التجسيم المرعب ثم الممتع: جماعة انزلقت بهم أقدامهم وهم على منحدر، وصلوا إلى نقطة هي حرف قاع بعيد قعره يلتهب نارا، تكاد ألسنة لهبه تحرقهم، ولا يستطيعون العودة إلى منطلقهم. ففي هذا الوضع الميؤوس منه، تأتي الرّحمة الإلهية فتنقذهم من العذاب والهلاك الذي يترصدهم. هذا هو أمر الإسلام جاء للعرب وقد تهيأوا للانحلال الاجتماعي والذوبان وانحرفوا في عبادتهم فمصيرهم العذاب والنكال. جاء الإسلام فأنقذهم من سوء المصير.

والنعمة التالية أنه على هذا النحو، تتوجه إليهم العناية الإلهية فتفتح بصائرهم وتفتح لهم الطريق المستقيم، وليس ذلك لإقامة الحجة عليهم ولكن رجاء أن يهتدوا وينقذوا أنفسهم من الضلال ويسيروا في طريق الهدى.

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (104) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (107) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ۗ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (108) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (109)

بيان معنى الألفاظ:

الأمة: الجماعة.

المعروف: ما كان مقبولا، تألفه العقول وينسجم مع الشرع.

المنكر: الباطل والفساد.

نتلوها: التلاوة حكاية كلام لإرادة تبليغه بلفظه.

بيان المعنى الإجمالي:

دعوة للمؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ ولمن يأتي بعدهم، أن تقوم جماعة منهم بالحفاظ على سياج المنهج الإسلامي في الحياة، يتولون تحريض البشر على الإتيان بما أمروا به على وجهه المشروع، ويوقظونهم حتى يمتنعوا عن الشر الذي

نهوا عنه. وهؤلاء هم الذين تحقق لهم النجاح. ونبهوا إلى الصورة المعاكسة لينفروا منها ويبتعدوا عن التراخي في القيام بواجب تحصين الأمة من الانحلال في القيام بالواجبات، أو الانغماس في إتيان المنهيات، لأنه إذا تحللت الأمة وانساقت مع أهوائها، والأهواء لا يجمعها جامع، ولا تقوم على معايير ثابتة، فإنه تتفرق كلمتهم ويختلفون في غاياتهم، كما هو حال اليهود، إذ تفرقت كلمتهم وتسلطت عليهم الأمم فشرّدتهم. ومآلهم يوم القيامة أشد نكاية ، ولهم عذاب عظيم. سيذوقون هذا العذاب يوم الجزاء الذي تبيض فيه وجوه المنعَّمين وتسود فيه وجوه الممقوتين المعذبين. أما الذين اسودت وجوههم فيقال لهم على سبيل التوبيخ والتقريع: أكفرتم بعد إيمانكم ؟ ثم يهانون بالتوجه إليهم أن يتسلط عليهم العذاب إلي أن يبلغ الإحساس به أقسى درجة من الإحساس. وأما الفريق الأول وهم الذين ابيضت وجوههم فينالون جزاءهم رحمة من الله خالدين فيها. كل ما سبق مما نزلناه عليك من آيات القرآن نتلوها على قلبك لنثبتك بها ولتبلغها للناس بما اشتملت عليه من بشارة وإنذار وتحقيق للجزاء، هذا الجزاء الذي هو العدل الإلهي. فالله سبحانه لم يخلق البشر ليعذبهم ولكن ليجزيهم بما عملوا. وشاهد ذلك أنه مالك السماوات والأرض، فهو يريد صلاحهم لا إدخال الضر عليهم بظلمهم بل يجزيهم بما قدموا.

بيان المعنى العام:

104-105: ولتكن منكم أمة...وأولئك لهم عذاب عظيم.

تتابعت الآيات السابقة مؤسسة للأركان التي تقوم عليها الأمة الإسلامية لتؤدي دورها الفاعل في الحياة. تُوِّجَتْ تلكم التوجيهات والأوامر بدعوة هذه الأمة أن تكون أمينة على هذا الدين في الحياة العملية. أمروا بأن يحولوا أنفسهم تحويلا تخرج به منهم أمة لها مواصفات ومميزات تقوم بالدور المنوط بها في قيادة البشرية تتحقق بها الفضيلة وتقمع الرّذيلة، وتؤيد الخير وأهله وتستأصل الشر وشياطينه. كما تقول لطالب علم: ليكن منك العالم الذي ينفع الإنسانية. كما يمكن أن يحمل المعنى على أنهم أمروا بأن يتخصص منهم فريق للقيام بدور الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. والذي يترجح عندي هو الأول. إن الأمة التي تحمل رسالة الإسلام هي الأمة التي يتكون في ضميرها العام وفي شعور كل فرد من أفرادها، كراهية الشر ورفضه، وحب الخير والعون على سيادته. وهؤلاء الذين سَمَوْا في أخلاقهم إلى هذا الحد هم الذين اختصوا بالفلاح والنجاح والفوز في الدنيا والآخرة.

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مراتب. فأعلى المراتب هي للعلماء الذين تعمّقوا في معرفة الشريعة، ولا يكاد يختلط عليهم في أمر واحد الخير والشر، وكذلك لأولياء الأمر القائمين على تنفيذ شرع الله في المجتمع الإسلامي وهؤلاء مكلفون بالقيام بهذا الواجب.

ودون هذه المراتب العالية مراتب دونها، وما من مسلم إلا وهو يدرك وجهة نظر الإسلام في أمور كثيرة وإن لم يبلغ درجة القسم السابق.

فهؤلاء في حدود ما يتيقنونه، هم مأمورون بالدعوة إلى المعروف والنهي عن المنكر. خذ لذلك مثلا القيام بفريضة الصلاة يكاد حكمها لا يختلف في مستوى إدراكه أكبر عالم عن العامي البسيط في مداركه الشرعية. وكذلك شرب الخمر فإدراك شره معلوم علما يقينيا لكل مسلم. فالآية تدعو الأمة إلى أن تكون يقظة لما يتكشف للناس من قضايا، وتكون حاسة الدعوة أو حاسة الرقض قوية، تجعل كل من تحدثه نفسه بالخروج عما ارتضته الأمة يصطدم بهذا الإجماع على تحقيق الخير، ورفض الشر.

106-107: يوم تبيض وجوه...هم فيها خالدون .

لتثبيت المؤمنين على هذا المبدأ يحذرهم بأنهم، إذا ما تراخوا عن القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن عاقبتهم لا تختلف عن عاقبة من قبلهم، الذين بلغتهم آيات الله البينة فتركوها وراء ظهورهم فانحلت جامعتهم، وفسدوا بترك المنكرات تشيع فيهم وبإهمال الحظ على الخير بينهم. وذلك لأن الاستقامة تُكَوِّنُ للأمة رأيا واحدا ونهجا للسلوك لا يختلف، شأن الحق الذي لا يكون إلا واحدا. أما الهوى والشهوات فهي مسالك عديدة، ومنعرجات في السلوك عن الاستقامة بعيدة. والتفرق يفضي إلى الاختلاف. والاختلاف الذي يمعن أصحابه في البعد عن الحق لهم عذاب عظيم. سيلقون هذا الجزاء في اليوم الذي تفترق فيه ملامح البشر، على صنفين: صنف ابيضت وجوههم، وليس المراد بالبياض أن وجوههم أصبحت كالجير وصفحات الورق النقية، ولكنه صفاء ونور وإشعاع الرّضا والفوز كما قال تعالى(**تعرف في وجوههم نضرة النعيم**)[1]. وأما الفريق الثاني وهم الذين اسودت وجوههم، فكانت من الكروب والهموم، والخزي والشقاء ، والكآبة واليأس، كالحة لا تلمس فيها أي طيف من رضا أو نور.

108-109: تلك آيات الله... ترجع الأمور.

[1] المطففين آية 24

تلكم الآيات نتلوها على قلبك يا محمد مقرونة بالحق الذي لا يتخلف. إن ما جاء فيها من إنذار ووصف للعذاب مما سيتحقق لحاقه قطعا بالكافرين، فما يريد الله أن يظلم أحدا من العالمين. فالله مالك السماوات والأرض جميعها، يريد صلاحهم وإصلاحهم، وأعانهم على اتباع الحق. وسيعودون إليه ليجزيهم عما قدموا جزاء لا ظلم فيه.

كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًى ۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

أخرجت: الإخراج: الإيجاد والإظهار.

يولوكم الأدبار: يفرون منهزمين.

ثقفوا: وجدوا على حال التمكن منهم.

بيان المعنى الإجمالي:

خطاب للصحابة الكرام، منَ الذي خلق الخلق وهو أعلم بهم، أن هذه الجماعة التي حوّل محمد صلى الله عليه وسلم هي خير أمة وجدت في تاريخ البشرية.

مقومات هذه الخيرية تبدو في أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر وإيمانهم إيمانا نقيا تصدر عنه جميع أعمالهم الظاهرة والباطنة. وأيقظ أهل الكتاب من غفلتهم بأنه يمكنهم أن يبلغوا مرتبة الصحبة بإعلانهم إيمانهم بصدق. وأنصف القرآن أهل الكتاب بتحقيقه أن أهل الكتاب على قسمين: قليل منهم دخل في الإسلام، وأكثرهم تشبث بفسقه وفساده. ولا ينبغي لهذه الكثرة أن تخيفكم، فهم لا يقدرون على الإضرار بكم، وغاية ما يصلكم منهم، بعض الإذاية الخفيفة التي لا تؤثر فيكم. وأنهم إذا ما هَيَّأُوا أنفسهم للحرب فلن يبلغوا منكم مرادهم إذ يفرون منهزمين هزيمة لا قيام لهم بعدها. لقد أحاط الذل بهم أينما وجدوا، لا يستطيعون الخروج منه إلا بإحدى طريقتين: أن يسلموا فيعتزوا بالإسلام، وإما أن يعقدوا حلفا مع قوة منيعة تحميهم بقوتها. كان مآلهم أن غضب الله عليهم، وأنهم لاَقَوْا جزاءهم المقدم في

الدنيا فأحاط بهم الصغار والفقر المذل. وهو جزاء عدل بسبب عصيانهم الذي جعلهم يكفرون بآيات الله البينة، وبسبب اعتداءاتهم على الأنبياء بقتلهم.

بيان المعنى العام:

110- كنتم خير أمة... الفاسقون.

شهادة وأي شهادة من رب العالمين لهذه الأمة. تناولت أولا صحابة رسول الله ﷺ ممن آووه ونصروه، ومن الذين هاجروا معه أولئك الذين نوه بهم القرآن في أكثر من آية، وتتابعت الأحاديث الصحيحة مؤيدة لمضمون هذه الشهادة. إنه لا تبلغ أمة هذه المرتبة إلا إذا أخذت ملتزمة بمقومات الفلاح التي هي سنن الله في الاجتماع، وسننه في الفوز بالجنة والرّضوان. لا يمكن لأمة من الأمم أن تحقق لنفسها الحياة الإنسانية الرّقيعة، والحياة المادية الرّخية، والمناعة المحصنة لها، إلا إذا جمعت بين المقومات الثلاثة التي جمعتها هذه الآية-1) الأمر بالمعروف -2) النهي عن المنكر-3) الإيمان الحقيقي بالله. لنحاول تحليل ذلك حتى يتبين لنا صدق القرآن تطبيقيا.

الأمر بالمعروف: عبارة عن التزام عام من كافة أفراد الأمة على الاهتمام بتحقيق كل عمل خير للأمة. فهم يساعدون على إنجازه، ويذكرون الغافل عنه، ويتضامنون بتقديم كل واحد منهم ما يمكنه تقديمه. فالأمر بالمعروف يشمل ميدان الأخلاق على سعته ويشمل الميدان الاقتصادي بمختلف ضروب النشاط التي يمكن أن تفتح فيه، ويشمل الأسرة بالحفاظ على المقومات التي تحميها من التحلل والتسيب والانغلاق وتقوي آصرة الوحدة بين أعضائها، وتمكن الجيل الجديد من ميراث الأمة ليحافظ عليه ويسير به إلى الأمام. ويشمل حصانة الأمة بالقيام على سد كل ثغرة في بناء جهازها الدفاعي، كل فرد يشعر بالمسؤولية لتكون حدود الأمة وثغورها وتجهيزاتها العسكرية محصنة، وجنودها مدربين خير تدريب. ويشمل ميدان المعرفة في واسع ما فتحه الله للإنسان من حقول العلم فيكون همّ كل فرد أن يعين على نشر المعرفة، فيساعد الجاد ويحرك المتقاعس، ويشعر الطلبة بأنهم على نظر اعتزاز من الأمة. فالأمر بالمعروف يحول الفرد من قصر نظره على مصالحه، وخويصة نفسه كما يقولون إلى الاهتمام بكل ما يعود على الأمة بالخير، حتى يكون الخير ظاهرة عامة معنيا بانتشارها وتثبيتها.

النهي عن المنكر: ليس النهي عن المنكر كما يصوره بعضهم نهي السكير عن شرب الخمر، أو الكاذب عن الكذب. فهذا من النهي عن المنكر ولاشك، ولكن ليكون هذا المبدأ مقوما لتكون الأمة خير أمة أخرجت للناس لا بد أن يفهم على

صورة أدق وأعمق وأوسع مدى. النهي عن المنكر حصول ملكة اجتماعية ترفض الشر وتتقزز من الرّذيلة، وتعمل بعد ذلك على الحيلولة بين أهل الفساد من أن يكون لهم صوت مخرب وعمل مفسد. إنه شعور الضال أن أمامه سدا من المجتمع يرفض انحرافه ويمقت شره ولا يسكت عنه.

إن مقاييس الخير والشر كثيرا ما تكون مُعينة على الانحراف إذا استمدت معاييرها من الإنسان وحده. ذلك أن الإنسان كثيرا ما تتداخل شهواته ورغباته وتحزبه في تقدير الخير والشر فتضلله ضلالا بعيدا. خذ لذلك مثلا: أنا أدون ما أثبته في هذه الفقرات – يوم عاشوراء من عام 1411 ـ ويمثل هذا اليوم الذكرى الأولى لبداية الهجوم على غزة. بالطائرات الأمريكية والقنابل المتطورة في الفتك بالبشر. تمزقت أجساد الأطفال والشيوخ والنساء والشباب والكهول من سكان غزة وهي تحت الحصار. ومرت سنة وهي ما تزال تحت الحصار، بل يجري بدون توقف تشديد الحصار على السكان ليموتوا جوعا وعطشا ومرضا، أو يمدوا أيديهم للقيود وسلاسل الأسر ويستسلمون استسلام الذل الذي لا قيامة بعده. ومئات الآلاف من المفكرين ورجال الدين المسيحي واليهودي تمر أمامهم الأحداث، وهم بين الصمت المخزي، وبين التحريض الوحشي. وفئة قليلة صوتها يُمْتَصُّ قبل بلوغه الشفاه وحركات محتشمة لا تستطيع أن تصاول الباطل. وما ذلك إلا لأن قيم هؤلاء قيم منتزعة من المصالح الشخصية لا من العدالة الرّبانية. فكانت الصفة الثالثة لكون هذه الأمة خير أمة أخرجت للناس هو إيمانها، واقتباسها الحق من شرع الله لها.

إن هذه الشهادة من الله سبحانه بخيرية هذه الأمة، وإن كانت قد تحققت في مجتمع الصحابة بالمدينة المنورة، فإنه لما كان تحققها نتيجة تجمع مقومات هي سنن الله في الخلق فإن ذلك مما يوقظ الأمة ورجال الإصلاح فيها أن يبنوا هذه الأمة على هذه الوحدات الثلاث (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله). ولما توجه الخطاب أولا إلى الصحابة رضوان الله عليهم ونوه بهم التنويه الذي ميزهم به عن المجتمعات البشرية في جميع العصور، ولما كانت تلك المرتبة قد بلغوها بأخذهم بسنن الله في الصلاح، كرر دعوته إلى أهل الكتاب ليتحدوا مع الصحابة ويندمجوا في الأمة الإسلامية ويفوزوا بالصحبة ويحققوا الخير لأنفسهم، ولكن قليلا منهم اهتدوا. ولم يمنعهم ما كانوا عليه، عندما انفتحت قلوبهم للإيمان، أن يعتبروا جزءا من خير أمة أخرجت للناس.

أنصف القرآن هذه الطائفة التي دخلت في الإسلام ولكن أغلب أهل الكتاب وخاصة من يهود المدينة شَرِقوا بالنجاحات التي حققتها هذه الأمة، فكانوا بين الحسد والعمل

على خداع أهل دينهم ومنعهم من الدخول في الإسلام، وترويج الإشاعات لفتنة الناس وبث بذور التفرقة فحق عليهم بذلك وصف الفسق في مقابلة الذين آمنوا منهم .

111- لن يضروكم...ثم لا ينصرون.

طمأن الله المؤمنين بأن ما يمكر به اليهود في المدينة لا يصل إلى حد الإضرار بالأمة، غاية ما يبلغونه هو الإذاية، كقولهم لرسول الله ﷺ (راعنا) كما قدمنا بيانه في الآية (104) من سورة البقرة.

112- ضربت عليه الذلة والمسكنة... كانوا يعتدون.

إن أخذهم بتلكم الطرق الملتوية طبع نفوسهم على الخسة فعجزوا عن المجابهة، وأحاطت بهم الذلة، فلا يستطيعون التحول عنها ولا رفع المهانة التي التصقت بهم إلا بأحد أمرين:

الأمر الأول: أن يمزقوا نسيج الذل الذي التف عليهم وذلك بدخولهم في زمرة المؤمنين، وهو حبل الله، فيرفع الله أقدارهم، ويعلي همتهم بارتباطها بمنهج الإسلام في الحياة (ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)[1] .

الأمر الثاني: أن يدخلوا تحت رعاية قوة من غيرهم، وهو الحبل من الناس وهذا ما هو حاصل اليوم. إن عربدة إسرائيل وعجرفتها ، ما كان يمكن أن يحدث لولا القوى الصليبية المتكتلة ضد الإسلام والمسلمين التي دخلت إسرائيل تحت حمايتها فاتخذوا منها يدا ضاربة شاغلة للمسلمين عن المضي فيما تقتضيه يقظتهم. كان مآل يهود أن غضب الله عليهم، فثقوا أيها المؤمنون أنهم كلما خرجوا من نكبة إلا تحل بهم نكبة أخرى. لقد حلت عليهم المسكنة فهم لا ثقة لهم بأنفسهم واعتمادهم على القوى الدولية الظالمة، والظلم حسب سنن الله في الكون إلى زوال.

إن تاريخهم تاريخ أسود فقد عمدوا إلى ما أنزل عليهم من الهدى فحرفوه وكتموا منه ما كتموا، فكانوا سريعين للدخول في الكفر. ثم إنهم تجرؤوا على أنبياء الله وقتلوهم إمعانا في الاعتداء .

۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ

---

[1] سورة المنافقون آية 8

ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ
فَلَن تُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ
أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١٦﴾
مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ
ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

بيان معنى الألفاظ:

سواء: مماثل.

آناء: أوقات.

يسارعون: يستكثرون مبادرين.

بيان المعنى الإجمالي :

أنصف القرآن أهل الكتاب، فلم يحشرهم في قالب واحد، بل نوه بطائفة منهم مسجلا ما قاموا به من العمل الصالح، فذكر أن منهم أمة مجتهدة في القيام بدينها، يتلون كتاب الله المنزل عليهم في أوقات الليل، ويسجدون لربهم. تحقق منهم الإيمان بالله واليوم الآخر، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويتسابقون لفعل الخيرات. وبهذا كانوا معدودين في عباد الله الصالحين. وكل ما فعله المؤمن من خير فإن الله لا يحرمه جزاء فعله. وفي المقابل، فإن الذين كفروا بالله لن يفيدهم شيئا، عند الله، ما جمعوه من أموال ولا ما رزقوه من أولاد، وذلك ما يعول عليه هذا الفريق. فبالمال يشتري الضمائر ويفدي نفسه، وبالأولاد يجد النصير المدافع. ولما فقدوا كل قوة واجهوا جزاء ما قدموه ، فكان جزاؤهم أنهم عقدت بينهم وبين النار صحبة تلازمهم ويلازمونها خالدين فيها. وإذ انتفى أن ينتفعوا بالأموال والأولاد، فهل ينتفعون بما قدموه من خير؟ كان كثير من الكفار، يطعمون الجائع ويغيثون الملهوف ويحمون الجوار. فجسم القرآن إياسهم من الانتفاع من ذلك، بأن أعمالهم الخيرة في ظاهرها، وضعهم فيها، كوضع قوم حرثوا أرضهم فأنبتت الزروع وظهرت الثمار فأصابها ريح فيها برد شديد يقتل كل حياة في النبات فأهلكت الزروع والثمار. وانقلاب أعمالهم هباء عدل، لم يظلمهم الله في هذا الجزاء إنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بالله الذي مكنهم من تلكم النعم التي خيل لهم أنها من عندهم.

بيان المعنى العام:

113-114،ليسوا سواء... من الصالحين.

بعد أن شهر القرآن بمكر اليهود وأعلن جزاءهم. عاد ليدقق منصفا للصالحين منهم. فافتتح الآية بقاعدة عامة. ليس أهل الكتاب سواء، ليسوا كلهم جديرين بضرب الذل والمسكنة عليهم. إذ منهم طائفة اجتهدوا في تطبيق دينهم، وقاموا به خير قيام. لم ينقطعوا عن تلاوة الكتاب المنزل عليهم، وارتبطوا به يتلونه في هدأة الليل، ويتأثرون بمواعظه ويخرون سجدا لربهم. صلحت عقيدتهم فثبتوا على الإيمان بالله واليوم الآخر، وقاموا بواجبهم في إصلاح المجتمع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يتسابقون لفعل الخير شأن المؤمنين الصادقين الذين يجدون لذتهم في القيام بالأعمال النافعة للمجتمع. وشهد الله لهم أنهم من عباده الصالحين، وفي ذلك إيماء إلى حسن الجزاء والتكريم.

115- وما تفعلوا من خير... بالمتقين.

ثم التفت القرآن للحاضرين من أهل الكتاب فتوجه لهم بالخطاب، أن ما يعملونه من خير لن يضيع ولن تذهب آثاره، بل سيجدون جزاءه قبولا عند الله ، وينسحب هذا الوعد على الماضين الذين وصفوا في صدر الآية. ذلك أن الله يعلم علما بالغ الدقة المتقين الذين صدقوا في نواياهم وكانوا دوما مستحضرين لصلتهم به سبحانه.

116- إن الذين كفروا لن تغني...هم فيها خالدون.

وفي المقابل تعرض القرآن للمشركين الذين استحبوا الكفر على الإيمان، ومضوا سادرين في الإعراض عن الله. وشأن الكافرين أنهم يتعلقون بقوى مادية يعولون عليها وحدها لما يمكن أن يصيبهم، وفعلا فالمشركون عولوا على أموالهم لتجزي عنهم، وعلى أولادهم الذين من شأنهم أن يسرعوا لنصرة آبائهم عند الشدائد ليدافعوا عنهم ظنا منهم لغباوتهم أن شؤون الدنيا هي المقياس الوحيد في الفوز أو الخيبة. وقطع القرآن آمالهم بأن أموالهم وأولادهم لا تنفعهم ولو بشيء قليل، إنهم بكفرهم قد كونوا بينهم وبين النار صحبة ألفتهم وألفوها وهم خالدون فيها لا يبرحونها.

117-مثل ما ينفقون...ولكن أنفسهم يظلمون.

ولما كان بعض المشركين قاموا في حياتهم بأعمال صورتها صورة الأعمال الصالحة، فقد كانوا مثلا يطعمون الجياع في زمن الشدة ، ويغيثون الملهوف، ويقرون الضيوف، ويقومون بوساطات تنزع الإحن وتنهي القتال بين القبائل فهل تغني عنهم هذه الأعمال ؟ هل تقلب وضعهم السيء إلى ما هو أحسن؟

صورة هذه الأعمال صورة حسنة، ولكنها صورة خاوية مُنْبَتَّة لا قرار لها ولا ثبات، إن العمل يكتسب صلاحه من إخلاص صاحبه لله. وهم لم يؤمنوا فكانت صورة عملهم كعمل قوم حرثوا أرضهم ونما زرعها، واعتنوا بالأشجار فأثمرت، وقبل أن تبلغ النضج وأوان القطاف تأتي ريح شديدة فيها برد يحرق النبات والأغصان والثمار فأهلكت الكل. وما ظلمهم الله إذ أحبط أعمالهم، لأنهم هم الذين قطعوا العطاء عن معطيه فكانوا هم الظالمين وما ظلمهم الله.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن تَمۡسَسۡكُمۡ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡ وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿١٢٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

البطانة: صديق الرّجل المختص به.

لا يألونكم خبالا: لا يقصرون في السعي لما يكون به اختلال أمركم.

ودوا ما عنتم: يحبون ما يدخل عليكم التعب الشديد.

العض: شد الشيء بالأسنان.

الغيظ: غضب شديد يصحبه حب الانتقام.

إن تمسسكم حسنة: إن يصبكم أمر حسن.

بيان المعنى الإجمالي:

حذر القرآن في هذه الآيات المؤمنين من المنافقين الذين كانت لهم صلات بأهل المدينة قبل الإسلام. فدعاهم إلى أن يتيقظوا فلا يواصلوا ما كان عليه أمرهم معهم من قبل، يوم كان الود بينهم محكما يطلعون على أسرارهم ويفضون إليهم بدخائلهم ويتعاونون معهم تعاونا شاملا. لقد انقلبوا فهم اليوم يعملون جهدهم ولا يقصرون لتختل أموركم. يحبون أن تحل بكم المشقة والعسر. تنبهوا ففي فلتات ألسنتهم ما يُعَرّفُ بتفكيرهم وعقائدهم، وما تخفيه صدورهم مما لم يظهر في فلتات

ألسنتهم أعظم خطرا. ويؤكد على تنبيههم بقوله: قد بينا لكم الأدلة التي تكشفون بها ما وراء الظواهر، إن كان لكم عقل يعرفكم بالحقيقة. قارن القرآن بعد ذلك بين نفسية المؤمنين والمنافقين. فالمسلمون لا يكنون البغض لهم لحسن ظواهرهم، وبينما المنافقون يبطنون بغض المسلمين، والمسلمون يؤمنون بالكتب السماوية كلها عكس المنافقين، والمنافقون يغالطون المؤمنين، فإذا التقوا بالمؤمنين قالوا لهم: إنا مؤمنون وإذا ابتعدوا عبروا عن الشحنة الغضبية بعض أناملهم. فليموتوا بما حملوا من الغيظ. والله لا تخفى عليه خافية مما يجتهدون في إخفائه. أكل الحسد قلوبهم، فإذا أنعم الله على المسلمين بنعمة حزنوا، وإن يصبهم أمر سيء يفرحوا. اصبروا أيها المؤمنون واثبتوا، فإنه لا يضركم بغضهم ولا خداعهم، فتغلبوا على إذايتهم بالصبر، والله سبحانه يعلم جزئيات أعمالهم فلا يغيب عن علمه شيء، على معنى أنه سيجازيهم على الصغيرة والكبيرة من سوء أفعالهم.

بيان المعنى العام:

118-119، يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا... بذات الصدور.

كان مجتمع المدينة قبل مجيء الإسلام تتداخل فيه عناصر من اليهود ومن المشركين. فلما أعز الله المدينة بإيواء الرّسول صلى الله عليه وسلم وصحابته المهاجرين والأنصار الذين دخلوا في دين الله من أهل المدينة أصبحت التركيبة الاجتماعية تشمل المسلمين، وتشمل اليهود وتشمل المشركين، وتشمل قسما آخر له ظاهر كاذب وباطن مخفي، وهم المنافقون الذين كشفت الآيات السابقة في أول سورة البقرة خطرهم **(ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين...)**. هؤلاء المنافقون هم أشد خطرا على المؤمنين من اليهود والمشركين. ولذلك اعتنت هذه الآيات بتحصين المؤمنين من مكرهم وخطرهم. نبهتهم ليستيقظوا ويكون لهم حس يعرفون به هؤلاء الذين يخادعونهم متخفين وراء ظواهر مغشوشة. حذرتهم الآية من تقريب المنافقين تقريبا يمكنهم من الاطلاع على أسرارهم، وخفايا حياتهم الخاصة، كما كانوا يقربونهم من قبل. إنهم اليوم يجتهدون ويبذلون وسعهم لِتَخْتَلَّ أموركم، إن ما يثلج صدورهم ويدخل عليهم السرور أن تنقلب حياتكم إلى مشقة وعسر. تنبهوا لسقطات كلامهم، فإن ما امتلأت به قلوبهم من بغض لكم ينفلت بسببه من ألسنتهم ما ينبئ عن دخيلتهم. ودخيلتهم أشد سوءا وأبلغ حقدا من فلتات ألسنتهم. قد بينا بهذا لكم الآيات الدالة على نفاقهم، فتنبهوا حتى تكون عقولكم تهديكم وتكشف لكم حقيقة أمرهم فلا تنخدعون لمظاهرهم. استيقظوا فإنكم ماضون على طيب سريرة المؤمنين فأنتم تحبونهم،

ولكنهم لا يحبونكم. فوارق كبيرة بينكم: إنكم تؤمنون بكل الكتب التي أنزلها الله على المرسلين مما يتبعه احترامكم لكلمة الله، وهم لا يؤمنون بالقرآن ولا يتورعون عن تغيير نصوص الوحي. إذا لقوكم غرُّوكم بلسانهم الكاذب، معلنسين إيمانهم حتى لا تحذروهم فإذا غابوا عنكم واطمأنوا إلى أنه لا عَينَ ترقبهم تفجروا غيظا عليكم، وتحرقوا فعضوا أناملهم لتفريغ بعض ما في قلوبهم من الحقد. قولوا لهم: ليصحبكم غيظكم إلى الموت، فنحن مطمئنون إلى رحمة الله وفضله معنا. والله عليم بما تنطوي عليه الصدور فسيجازيكم بسبب حقدكم وبغضكم.

20 -إن تمسسكم حسنة...محيط.

ثم فصل آثار هذا الغيظ، إنهم إن تمسسكم حسنة يحزنوا ويصيبهم الكمد وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وتنشرح لها صدورهم. فاصبروا ماضين على ما أنتم عليه فبصبركم وتقواكم لا يضركم كيدهم وعداؤهم ولا ينقص شيء مما قدر لكم. وثقوا بأن الله لا يخفى عليه قليل ولا كثير من أعمالهم. وفي هذا تطمين للمؤمنين من ناحية ،وتهديد للمنافقين بأن مكرهم يتعذبون به مرضا في نفوسهم وعقابا يوم القيامة.

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَـٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ
هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾
وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ
لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَـٰثَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾
بَلَىٰٓ ۚ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَـٰفٍ مِّنَ
ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا
ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْ يَكْبِتَهُمْ
فَيَنقَلِبُوا۟ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ
ظَـٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن
يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

غدوت: خرجت بالغداة.

من أهلك: بيت لأهلك.

تبوئ: تتخير مكانا يرجع إليه المقاتلون.

وليهما: متولي أمرهما وناصرهما.

أذلة: ضعاف.

من فورهم: المبادرة السريعة.

المسوم: الحامل(لسمة) وهي العلامة.

البشرى: خبر بوصول ما فيه نفع.

طرفا: الناحية التي هي منتهى المكان، ويمكن أن يراد بها رؤوس الكفر.

يكبتهم: يصيبهم بالغم والكمد.

بيان المعنى الإجمالي:

اذكر ما تم في ذلك الصباح الذي خرجت فيه من بيتك تختار للمجاهدين المواضع الأصلح للقتال. والله سميع لما يضطرب في نفوس أهل المدينة وفي نفوس الغزاة من أهل مكة، عليم بنوايا الجميع. وأبْرَزَ من ذلك ما همت به بنو سلِمة وبنو حارثة من أهل المدينة من الانخزال (تركوا الجماعة ورجعوا) عن القتال، ثم عصمهم الله ومضوا تحت راية رسول الله ﷺ. ورغم الفارق بين عدد الكفار المهاجمين وعدد المسلمين فالمؤمنون يثقون بربهم ويتوكلون عليه. ذكر الله المؤمنين بالنصر الذي مكنهم منه في غزوة بدر وهم ضعاف لقلة عددهم ونقص عدتهم. فاستمروا على التقوى، وهذا النصر يحرككم لشكر ربكم على عنايته بكم. طمأن النبي ﷺ الصحابة في تلكم المعركة وقد كثرت في أعينهم جيوش العدو، فبلغهم الوحي الذي جاءه من ربه: ألن يكفيكم للتغلب على أعدائكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة يقاتلون معكم أشداء في قتالهم ينزلون عليكم لا يعترض سبيلهم أحد ؟ وأكد الجواب فقال: بلى! أي إن ذلك كاف. ثم زادهم طمأنينة لما بلغهم أن مددا من الكفار سائر لنصرة المهزومين منهم، فأكد للمؤمنين بأنهم إن يصبروا على القتال وتكون التقوى حَيّةً في قلوبهم يمددهم ربهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين بعلامة تعبيرا عن شجاعتهم. وما جعل الله هذا الإمداد إلا بشرى لكم لتطمئن به قلوبكم ويزول ما حصل من الرّهبة بكثرة الأعداء، وكونهم من صناديد قريش المعروفين بقوة البأس. وثقوا فيما أنتم عليه من الحق فإن النصر لا يملك التمكين منه إلا الله وليس مرتبطا بآلات القتال والعَدَدِ فقط. فإن الله عزيز لا يغلب، حكيم يجري أمور الحياة على حكمة قد تخفى على كثير من الناس. ذلكم النصر الذي يمحو به أطرافا من جيوش الأعداء أو يذلهم إذلالا يتمكن به الغم والكمد من قلوبهم،

فتصحبهم الخيبة عند عودتهم لديارهم. وبعضهم سينعم عليهم بالهداية للتوبة والدخول في الإسلام، والبعض سينالهم جزاؤهم من عذاب الدنيا وخزي الآخرة لظلمهم. ويذكر القرآن بين هذه المآلات الأربعة، أن الله هو المتصرف بحكمته، فليس لك يا محمد من أمر عاقبتهم شيء، هو من تصرف الله وحده. ومن ناحية أخرى فإن الله هو مالك ما في السماوات وما في الأرض. لا يسأل عما يفعل يغفر لمن يشاء ذنوبه، ويعذب من يشاء بما قدم. وما غفران الذنوب إلا بفضل منه، لأنه أرحم الرّاحمين.

بيان المعنى العام:

121-وإذ غدوت من أهلك... والله سميع عليم.

سجلت هذه الآيات بعض ما جرى في غزوة أحد، التي تمت في شهر شوال من السنة الثالثة للهجرة، التي شارك فيها مشركو مكة وبعض أحلافهم. وأحد جبل غير بعيد عن المدينة المنورة على طريق المطار نزل المشركون بسفحه. استشار رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه فاختلفوا، وكانت الكثرة مع الداعين إلى الخروج لمواجهة الأعداء، فنزل النبي صلى الله عليه وسلم على رأيهم. بعد هذه المقدمة المختصرة من السيرة ننظر في الآيات:خرج النبي ﷺ صباحا من بيته وقد لبس لباس الحرب إلى جبل أحد، ورتب بحكمته موقع كل قسم من الجيش. وتشير الآية إلى أنه كان يجري في كتيبة الإسلام أمور خفية، لم تَخْفَ عن سمع الله ولا عن علمه.

122-إذ همت طائفتان منكم...فليتوكل المؤمنون.

من ذلك أن عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين رجع بثلث الجيش قائلا: نحن لا نقاتل خارج المدينة- وهَمّ بنو سلِمة وبنو حارثة أن يعودوا ولا يواصلوا، ولكن الله تولاهما بهدايته وأيقظهما لإدراك الخطر الداهم فلم ينخزلا وواصلا مسيرتهما. ويعدون من مكارمهم أن الله أنزل فيهما: والله وليهما. وكفى بهذه الشهادة (والله وليهما) فخرا. ويقطع متابعة الأحداث للتذكير، وذلك شأن القرآن في عرضه للأحداث فأمرهم أن يصدُقوا في توكلهم على الله.

123-ولقد نصركم الله...لعلكم تشكرون.

إن هذا التوكل الصادق كان سبب نصر فيما مضى، النصر الذي حول وجه التاريخ. ويعود لتقوية نفوس المجاهدين في غزوة أحد بعد الانكسار الذي لحق بالمسلمين لما تحول بعض الجيش عن المنازل التي حدد لهم رسول الله صلى الله

عليه وسلم البقاء فيها، فيذكر بنصره لهم في غزوة بدر يوم كان جيش المسلمين قليل العدد لم يستعد كل الاستعداد لخوض المعركة. فالمعطيات الظاهرية تصفه بأنه جيش ذليل لقلة عَدَدِه وعُدَدِه ولكن كل واحد منهم كان يحمل بين جنبيه نفسا معتزة بالله كأرفع ما يكون الاعتزاز، واثقة به كأبلغ ما يكون الوثوق. وهنا ينقطع تسلسل السرد، ليأمرهم بالتزام القوة التي تحقق لهم النجاح، وهي تقوى الله بحيث يكون الله حاضرا في قلوبهم وأرواحهم يعيشون معه، وذلك ما يتبعه نصره المفضي بهم لشكر نعمته بالفوز والتمكين.

124-إذ تقول للمؤمنين... بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين.

يعود القرآن لمتابعة سرد الأحداث، فيذكرهم بما بلغهم النبي ﷺ مما تلقاه عن ربه بقوله: ألا يكفيكم للنصر أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة ينزلون عليكم لا يعترض سبيلهم أحد ؟ ويتولى الرّسول الإجابة فيقول: بلى! هذا العدد كاف لسدحر الأعداء وتحقيق النصر.

125-بلى إن تصبروا... مسومين.

يذكرهم بسنن النصر فيقول: إن تصبروا على الجهاد وتلازموا تقوى الله فلا يهمكم من الجهاد مغنم مادي ولا ذكر طيب، وإن تَقَوّى العدو بمدد معجل في سيره لتعزيزه بعد الانكسار، فلا تخشوا ذلك فإن ربكم يَعِدُكم بأن يمدكم في هذا الوضع الجديد بخمسة آلاف من الملائكة، يحمل كل واحد منهم علامة بطولته وقوته على الجهاد. ومما يوضح هذا أن المجاهدين ببدر بعد أن حققوا انتصارهم الساحق على قريش بلغتهم الأنباء أن كرز بن جابر المحاربي قد جيش الجيوش لنصرة المهزومين من قريش فخشي المسلمون من هذا المدد المسرع وعَدَدُ جيش المسلمين ما يزال على حاله لم يلحق بهم أي مدد من المدينة، فبشرهم بأنه لو وصل كرز وجيشه فإن الله سيمدهم بخمسة آلاف من الملائكة. ولم يواصل كرز سيره وعاد بمن معه. فيكون القرآن قد بين أن الله ربط إمدادهم بخمسة آلاف بثلاثة أمور: صبرهم – تقواهم – وصول جيش كرز – فلما لم يصل هذا الجيش تحقق للمسلمين الأمن وعدم الخوف وشدة التعلق بربهم دون وصول الملائكة .

126-وما جعله الله...العزيز الحكيم.

هذا الذي أخبرهم به رسول الله من الإمداد بثلاثة آلاف ثم بخمسة آلاف يحقق أمرين: البشرى لكم بالنصر مما يشير إلى عناية الله بهم بإدخال السرور عليهم في تلكم المواقف الحرجة. وليحصل في قلوبكم الطمأنينة بأنكم ستنتصرون على

أعدائكم. ويعقب القرآن بالتذكير بقاعدة يريد أن تكون حاضرة في نفوس المؤمنين وهي: إن النصر لا يأتي إلا من عند الله. فهو سبحانه يثبط من يشاء وينصر من يشاء لأنه عزيز لا معقب لحكمه ولا معترض على قضائه ولا راد لأمره. وإنزال نصره يجري على قانون الحكمة الذي يجري عليه تصرفه في الكون. يسلط موجبات الهزيمة على الكافرين ليمحو طرفا منهم وهم الذين قدر أن يقتلهم المسلمون، أو يسلط عليهم الكمد والغم، يذوقون مرارة الهزيمة والأسى على من مات منهم ويعودون إلى أهليهم تصحبهم الخيبة والذلة والانكسار.

127- ليقطع طرفا... فينقلبوا خائبين.

عرف نبيه ومن ورائه المؤمنين أن ما سلط على الكافرين هو جار على حكمته وأن ما تحقق من نصر في بدر هو من إجراء الله الأمور على سابق تقديره، سواء ما ذكر في الآية من قبل، من قتل بعضهم أو كبتهم أو ما تلا ذلك.

128-ليس لك من الأمر..فإنهم ظالمون.

-قوله: (**ليس لك من الأمر شيء**) أو التوبة عليهم، أو تعذيبهم بسبب ظلمهم. فقوله تعالى: (**ليس لك من الأمر شيء**) جملة معترضة بين الصور الأربع التي قدرها الله على الكافرين. قِسْم قتل وهو ما يشير إليه قوله تعالى (**ليقطع طرفا...**) وقسم ولى تُجلِّله الخيبة والهزيمة أشار له قوله تعالى (**أو يكبتهم...**) وقسم سيهديهم ويتوب عليهم، كالذين دخلوا في الإسلام بعد الفتح وقبله يشير إليه قوله (**أو يتوب عليهم**) وقسم سيسلط عليهم عذابه في الدنيا والآخرة كالذين نفذ فيهم القتل وماتوا على كفرهم وإليه الإشارة بقوله تعالى (**أو يعذبهم...**).

129-ولله ما في السماوات...غفور رحيم.

يحقق ذلك: أن الله هو الذي يملك وحده ما في السماوات وما في الأرض، لا يخرج عن سلطانه وملكه شيء قلّ أو كثر، كبر أو صغر. ويتصرف في ملكه هذا كما تقتضيه حكمته فيغفر ذنوب من يشاء من عباده ، وهو في ذلك رحيم عادل، ويعذب من يشاء وصفة العدل واجبة له في جميع الأحوال.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٣٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

أعدت: هيئت

الطاعة: عمل المأمور على تحقيق مراد الآمر.

بيان المعنى الإجمالي:

نهى الله المؤمنين أن يتعاملوا بالرّبا الذي ينبني عقده على مضاعفة الزيادة على رأس المال (الرّبا) كلما حل الأجل ولم يوف المدين بدينه. ولتكن تقوى الله مصاحبة لكم، تلكم التقوى التي بها تحققون الفلاح في الدنيا والآخرة. وكَوّنُوا وقاية لأنفسكم تحفظكم من نار جهنم، النار التي هيأها الله للكافرين، فهي عذاب ومهانة. وأعظم وقاية هي الطاعة التي تفتح أبواب الرّحمة.

بيان المعنى العام:

130 - يا أيها الذين آمنوا... لعلكم تفلحون.

نزلت هذه الآية عقب نزول الآيات التي سجلت بعض ما جرى في غزوة أحد وذَكرَتْ بالتأييد الحاصل في غزوة بدر. ولم يظهر لي وجه ارتباط معنوي بما سبقها، وما حاول به بعض المفسرين ربطها به لم يتبين لي أنه يتناسب مع فصاحة القرآن، فيكون موضعها بأمر من رسول الله ﷺ أن يكون هذا مكانها من نظم الآي. حركت الآية مشاعر المؤمنين بما يقتضيه وصف الإيمان، ليلتزموا بما جاء بعد النداء من تشريع، باعتبار أنه من مقتضى الإيمان. نهاهم عن الاستحواذ على الرّبا. وصوره صورة بشعة، بكون المرابي يمضغ ويزدرد بصفة مستمرة، وما ذا يأكل ؟ يأكل الرّبا أضعافا مضاعفة. أما الشر المستطير الذي يترتب على الرّبا فقد تعرضنا له في شرح الآيات (281/275) من سورة البقرة. وأما ما تميزت به هذه الآية فهو تصوير بشاعة أخذ الرّبا وقيام علاقات الواجدين والمحتاجين إلى السيولة على الرّبا. ووصْفُ الرّبا بكونه أضعافا مضاعفة، هو وصف كاشف لا وصف يراد منه التقييد حتى يكون حكم الرّبا جائزا مع انتفاء القيد (أضعافا مضاعفة) وهذا الوهم وقع فيه بعض الذين يعملون على تبديل حكم الله، بقولهم: إن الرّبا إذا كان لا يبلغ أضعافا مضاعفة حلال. وبيان سقوط هذا الفهم: هو أن الرّبا لا يكون عند العقد إلا أضعافا مضاعفة. لأن كلمة أضعافا مضاعفة ليست بالنسبة لرأس المال كما فهمه كثير من الشارحين للقرآن. ولكن الرّبا هو، أضعاف مضاعفة. ومن طبيعة عقد الرّبا أن يشترط المرابي على من يقرضه المال أن يؤدي له كل سنة فائضا، وكلما تأخر المدين تضاعف الرّبا. ولو تتبعت أعمال البنوك الرّبوية في جميع أنحاء العالم فإنك تجد العقود مبنية على أن المدين يلتزم عند العقد بدفع

فائض متفق عليه في السنة ولو تأخر يوما أو شهرا أو سنة أو سنتين أو أكثر من ذلك عن السداد، فإنه مطالب بزيادة حق المرابي من الرّبا بنسبة الزمن الذي تأخر فيه. والعداد يحسب والرّبا يتضاعف.

131-واتقوا النار... أعدت للكافرين.

أمرهم عقب نهيه عن أكل الرّبا، بأن يَتَقَوْا بتقوى الله، الطريق الموصل إلى الفلاح في الدنيا والآخرة. ومن التقوى أن يبتعدوا عن الرّبا. وأرشدهم إلى أن يُكونوا حماية لأنفسهم من النار التي أعدها الله للكافرين. وفي وصف النار بأنها أعدت للكافرين ما يدل، أولا، على أن المؤمنين بمخالطتهم للقرآن استقر في معارفهم هول هذه النار، وثانيا أنها النار التي أعدها الله للكافرين ، وثالثا في جعل ذلك تابعا للنهي عن أكل الرّبا ما يشير إلى عظم ذنب أكلة الرّبا، فالنار هي نار الكافرين، والعياذ بالله، بما يصحبها من عذاب ومهانة.

132- وأطيعوا الله...ترحمون.

باب التقوى وباب النجاة من النار وبالتالي باب التعرض لأبواب الرّحمة الإلهية هو طاعة الله ورسوله، بأن يجعل المؤمن أعماله ونواياه، وفق ما يريده الله من عباده.

سَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

سارعوا: بادروا.

السراء والضراء: الفرح والحزن.

كظم الغيظ: إمساك الغيظ حتى لا يظهر أثره.

الفاحشة: الفعلة المتجاوزة الحد في الفساد.

ظلم النفس: فعل الذنب الكبير.

لم يصروا: الإصرار: الاستمرار ونفيه هو الإقلاع.

بيان المعنى الإجمالي:

دعوة تنبئ عن حب الله لهذه الأمة، مضمونها أن يبادر كل مؤمن ومؤمنة إلى العمل بما يَسعد به بمغفرة ربه لذنوبه، المغفرة التي يصحبها التنعم في الجنة، التي قرب الله سعتها بالمتعارف للناس في دنياهم، بأن عرضها كعرض السماوات والأرض جميعا. هيأها الله جزاء للمتقين. ومن هو أهل لأن يوصف بأنه متق؟ هو الذي كان سلوكه في الدنيا يدل على نفس طيبة محبة للخير ومبتعدة عن الشر. ملامح هذا المتقي: 1) أن مساعدته للآخرين تشمل حالتي الفرح والحزن 2) أن قوته على التحكم في أرجاعه تجعله لا يظهر غيظه ولا يبادر بالانتقام3) أن سماحة نفسه لا تبقي للغضب والغيظ أثرا فهو يعفو عمن تعدى عليه مع قدرته على رد الفعل. ومن جمع هذه الصفات هو جدير بأن ينال أعظم جزاء يرجوه المؤمن، وهو أن يكون محبوبا من الله موصوفا عنده بأنه من المحسنين.

هؤلاء المنوه بهم المحسنون، بجانبهم من لم يبلغ درجتهم ولكن فضل الله شملهم، وهم الذين إذا ارتكبوا فاحشة بفعلة متجاوزة الحد في الفساد، أو ارتكبوا ذنبا من الذنوب الكبائر، تنبهت قلوبهم عن قرب لما تقتضيه العبودية من الطاعة وعدم تجاوز الحدود، فحصلت الندامة في مشاعرهم، والإقلاع عن الذنب والعزم على عدم العودة، وطلبوا من الله أن يمحو ما سجل في صحائفهم. ولا يغفر الذنوب ويمحوها إلا الله، هؤلاء جزاؤهم قبول توبتهم وغفران ذنوبهم، والتنعم في جنات تتخللها الأنهار، لا يخشون خروجهم منها، ولا انقطاع فضل الله عليهم إلى أبد الآبدين. ونعم الأجر والثواب أجر العاملين بما يرضي رب العالمين.

بيان المعنى العام:

133-سارعوا إلى مغفرة... للمتقين.

ختمت الآية السابقة بدعوة المؤمنين للثبات على طاعة الله ورسوله. فعقبها بإرشادهم إلى أن يسرعوا ويبادروا بالاستجابة لذلك، مما يترتب عليه، من فضل الله، مغفرة الذنوب، ومحو آثار الخطيئة، فتفتح لهم جنة لا يعلم سعتها إلا الله. فقوله سبحانه عرضها السماوات والأرض، تصوير لسعة آفاقها حسب أوسع المقاييس عند البشر في الدنيا. ولكنها هي فوق ذلك، إذ لا يعدو أن يكون تقريبا لما ألفه البشر في حياتهم الدنيا. وليس في البيان ما يفهم منه قياس سعة الجنة بالسماوات والأرض. وقرن وصفها بهذه الآفاق المترامية الأطراف بأن الله أعدها بفضله وقدرته وكرمه للمتقين. فلا تسأل عن أنواع الكرامة والجمال والبهاء مما حوته تلكم الجنة.

134- الذين ينفقون...المحسنين.

من هم المتقون الذين أعدت لهم هذه الجنة ؟ بينت الآية نوعين من هؤلاء الذين أعد الله لهم جناته دار كرامته.

ملامح النوع الأول:

1) يحملون نفوسا سمحة بمشاركة إخوانهم مما أفاء الله عليهم من أموال، الواجب منها كالزكاة والمندوب، كالصدقات، والقروض الحسنة، وتجهيز الجيوش والبذل في جميع السبل التي يعتقدون أنها ترضي ربهم. يستوي حالة السراء عندهم التي تلهي الإنسان بما هو فيه من فرح، عن الاشتغال بغيره،و حالة الضراء عندما يكون في كرب فلا تشغله همومه الخاصة عن التفضل.

2) الذين يكظمون الغيظ، فعندما يُعتَدَى عليهم فيثور في الإنسان، حسب طبيعته التي خلق عليها من إباء الضيم، حب الانتقام، تجد المتقين في هذا الوضع يتحكمون في عواطفهم وأرجاعهم فلا يسارعون إلى إفراغ جام غضبهم بما يتبعه من تفرق ونزاع.

3) صفة الكمال الثالثة المميزة لهذا النوع العالي من المتقين أنهم يغسلون ما علق بنفوسهم من آثار تجاوز إخوانهم وتعديهم، فهم يعفون مع القدرة على أخذ حقوقهم والانتصاف ممن ظلمهم ولا يجدون في صدورهم بقية من كراهية أو بغض.

135-والذين إذا فعلوا فاحشة...وهم يعلمون.

ملامح النوع الثاني:

المتبادر أنهم أقل درجة من النوع الأول – ملامحهم:

أنهم إذا ارتكبوا فعلا قبيحا فيه فساد كبير، أو ظلموا أنفسهم، ومعنى ظلمهم لأنفسهم أنهم لوثوا أنفسهم بكبيرة من الكبائر، فإن نفس الإنسان تكون نقية صافية سليمة ليس بينها وبين الاتصال بالله حجاب، حتى إذا غم عليها بعامل الشهوة أو وسوسة الشيطان، ضعف شعاع ذلكم الاتصال، وارتكبت الخطيئة الكبرى، فإنه يكون في هذه الحالة قد ظلم نفسه وحجبها بحجاب الغفلة عن الوفاء بحق الله. ولكن هذا النوع بمجرد ما ينحرف عن الجادة تستيقظ روحه، ويحضر في عقله وقلبه صلته بالله وما تقتضيه من الوقوف عند حدوده، ويتحرك في داخله قوارع الندم على ما فرط، وهؤلاء يحل في قلوبهم الاشمئزاز من الوضع الذي انحط بهم إلى درك المعصية فيتبع هذا الحال العزم على عدم العودة إلى ما وقع فيه. ويذكر أن ربه قريب منه رحيم فيلتجئ إليه بطلب المغفرة والصفح عما قدم. وهو موقن تمام اليقين بأنه لا يغفر الذنوب إلا هو سبحانه. لاكما يظن المشركون أن آلهتهم

تتكفل لهم بمحو ذنوبهم ولا كما يظن النصارى أن عيسى عليه السلام قدم نفسه للتعذيب بالقتل ثم الصلب ليغفر لهم خطاياهم.

136-أولئك جزاؤهم مغفرة...أجر العاملين.

هؤلاء وإن كانوا حسب الظاهر دون المرتبة الأولى إلا أن فضل الله قد شملهم وبشرهم.

أولا: بأن جزاءهم قبول توبتهم، ومغفرة صادرة من ربهم الرّحيم بهم المغفرة المنقية من لوث المعاصي كأنها لم تصدر منهم معصية.

ثانيا: بأن لهم عنده جنات تتخللها الأنهار، بما يلقي هذا المشهد في النفس من ضروب الجمال والنضرة والخضرة والزهور والأنس، ينعمون فيها بما أعطاهم ربهم، دون أن يكدر صفو نعيمهم خشية انقطاعها فهم خالدون. ولما كان الجزاء قد بلغ أبعد مداه ختمت الآية بالتنويه من الرّب الكريم بذلكم الجزاء، بأنه نعم الجزاء للعاملين على بلوغ رضا الرّحمن.

قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

خلت: مضت وسبقت.

سنن: جمع سنّة: الطريقة الطبيعية التي يجري عليها الأمر.

لا تهنوا: الوهن: شعور الشخص بأنه ضعيف لا قدرة له على الإنجاز.

يمسسكم: يصيبكم.

القرح: الجرح والمقصود به في الآية خسارة معركة أحد.

محص: التمحيص: التنقية.

محق: المحق: الذهاب شيئا فشيئا.

بيان المعنى الإجمالي:

مضت أحوال الأمم السابقة على قوانين لا تتخلف في غاياتها ونتائجها. فسيروا في الأرض لتتكشف لكم تلكم القوانين. ويتبين لكم الخسران الذي لحق بالمكذبين في جميع الأعصار. هذا القرآن تكفل الله فيه ببيان الحقيقة للناس، وهو يهديهم إلى ما يوضح لهم الطريق الموصل للنجاح في الدارين، وهدايته ليست هداية باردة، ولكنها هداية تؤثر في القلب والعقل والمشاعر فتتفتح للخير، وهو الموعظة. لا يدخل الوهن إلى عزائمكم فتجبنوا عن مغالبة الصعاب، ولا يدخل الحزن إلى قلوبكم فيستولي عليكم الانكسار والكآبة. أبشروا بالنصر والغلبة فأنتم الغالبون الأعلون، إن كنتم مؤمنين حقا. لا يحزنكم خسارة معركة أحد والجرح النفسي الذي حصل لكم، فإن أعداءكم قد خسروا خسارة أعظم في واقعة بدر. وهذه سنة من سنن الحياة، أن الأيام لا تكون إيجابية دائما لفريق من الناس وسلبية للآخر، بل يتداول كل فريق النصر والهزيمة، حسبما يجمعه من موجبات أحدهما.

كانت واقعة أحد معللة بعلل:

العلة الأولى: إبراز أن الأيام دول فلا يظن المؤمن أنه سينتصر بإيمانه إذا لم يمض على سنن الله في النصر والهزيمة.

العلة الثانية: ليظهر في الوجود العلم الإلهي كما حصل في الأزل.

العلة الثالثة: تكريم من قدر الله له الشهادة من الذين تمنوا بلوغ شرفها. ونص في مقابلتهم على هوان قتلى الكفار وخسارة عاقبتهم، لأن مُؤَدَّى: (والله لا يحب الكافرين)، أنه يعاملهم معاملة المُبْغَض المهين.

العلة الرّابعة: تمحيص المؤمنين بتزكية أنفسهم، وأن ما لاقوه في غزوة أحد ينقيهم من الشوائب التي علقت بهم لبعض تجاوزاتهم. ومن قتل منهم لا ينقص من عدد المسلمين لأن الإسلام ينتشر وتتضاعف أعداد المؤمنين به.

العلة الخامسة: محق الكافرين الذين قتلوا، فهلاكهم ضعف لهم لأنهم سائرون إلى ضعف وقلة. ثم أيقظهم إلى نقطة خفية هي أن غاية المؤمنين أن يفوزوا بالجنة دار الكرامة، فألقى عليهم سؤالا: مالكم اضطربتم لما حصل لكم في وقعة أحد؟ أتظنون أنكم تنالون الجنة دون أن تقيموا الدليل على صدقكم في الجهاد وصبركم عند اللقاء؟

وذكرهم بحرصهم، عندما عرض عليهم النبي ﷺ الأمر، حرصهم على الخروج للجهاد، وعدم التحصن بالمدينة. ورغبتهم في الموت في سبيل إعلاء كلمة الله، فمالكم قد دب الوهن في نفوسكم والحزن على ما حصل في هذه الغزوة؟

بيان المعنى العام:

137-قد خلت... المكذبين.

النظام هو القاعدة التي بني عليها الكون، سواء في ذلك الجانب المادي أو الجانب الاجتماعي. وبناء على ذلك أقام ابن خلدون فلسفته على أن أصول العمران قواعد ثابتة تسير عليها البشرية والنتائج تابعة للمقدمات. وهذا ما أرشد إليه قوله تعالى (**قد خلت من قبلكم سنن...**) يلفت القرآن نظر المؤمنين إلى أن ما يحصل في العمران البشري من نجاح أو فشل، ليس نتيجة الصدفة، ولكن ذلك يتبع قواعد في العمران، هي سنن أجرى الله عليها أطوار المجتمعات، فخراب المجتمع أو نجاحه هو تابع لمسيرته في الكون من صلاح أو فساد. وهذه السنن قد تكررت في الأمم السابقة .

-يطلب القرآن من المؤمنين أن يحصلوا المعرفة من طرقها، التي منها التاريخ الذي لا يعطي أفضل مخزونه إلا بالسير في الأرض للاطلاع المباشر على أحوال الأمم. ومن ذلك وضع الذين جاءتهم الهداية والموعظة من الله فكذبوا ورفضوا وواصلوا حياتهم على ما تمليه عليهم شهواتهم، فكان عاقبتهم الخراب والانحلال.

138-هذا بيان للناس...وموعظة للمتقين.

تنبهوا أيها المؤمنون للذخر العظيم الذي جاءكم من ربكم، فقد جاءكم بيان شامل للناس جميعا، يجدون فيه على اختلاف ظروفهم ومستوياتهم الفكرية معالم طريق الخير واضحة لا احتمال فيها، وليس هو البيان الذي لا يحرك إلا عقل الإنسان، ولكنه يؤثر في جميع قواه العقلية والشعورية فيحتضنه ليهديه إلى ما يحقق سعادته . ثم هو يحرك قلبه ليرقق مشاعره حتى تسرع إلى الاستجابة. إنه لا يوجد كلام يبلغ مبلغ القرآن في تأثيره في قوى الإنسان العقلية والسلوكية والشعورية.

139 -ولا تهنوا...إن كنتم مؤمنين.

اعلموا أن قوتكم هي بهذا الدين والكتاب المبين، فإياكم أن يدخل الوهن في عزائمكم لما أُصِبتم به في معركة أحد، وإياكم أن يستولي عليكم الحزن والأسى، فتحصرون همكم فيما أصبتم به، ويتضخم ما حصل لكم فيشل اندفاعكم لنشر ما استُحْفِظْتُم عليه. أبشروا بالنصر والتأييد فأنتم الغالبون الأعلون، وإياكم أن يدخل الشك قلوبكم ، إن إيمانكم يؤكد لكم أن العاقبة لكم.

140-141، إن يمسسكم قرح...يمحق الكافرين.

يُلطِّف القرآن على المسلمين ما أصابهم يوم أحد، بأن الله قد حقق لهم النصر المبين في غزوة بدر، ويقول لهم: إن أصابكم جرح يوم أحد فقد أصاب المشركين جرح مثله. وتذكير بما بدئ به المقطع: إن الأيام لا تسير على وتيرة واحدة فالمنتصر قد ينهزم في جولة تالية، وبالعكس، وذلك حسب سنن الله في النصر والهزيمة. وأبرز القرآن العلل لما أصاب المؤمنين يوم أحد.

الأولى: أن يدرك المؤمنون أن النصر حسبما أفادته الآية الأولى يتبع سنن الله في الكون، فلا يعتمدوا في المستقبل على أن الحق معهم فقط بل لا بد من جمع موجبات الغلبة.

142-أم حسبتم... الصابرين.

الثانية: ليظهر في الوجود ما سبق في علم الله. وهذا الذي ظهر هو تجل لما كان حاصلا في علم الله في الأزل. كما أنه لا يخالف في صفة العلم أن يكون علم الله بما وقع بعد مضي زمن عليه هو ذات العلم الأزلي. علم الله لم يتغير قبل حدوث الحدث وعند حدوثه وبعد حدوثه، لأن علمه ليس متوقفا على بروز المعلوم للوجود.

143-ولقد كنتم تمنون... فقد رأيتموه وأنتم تنظرون.

الثالثة: تكريم من قدر له الشهادة، فإن الصحابة رضوان الله عليهم كانوا في شوق للفوز بمرتبة الشهادة في سبيل نصرة الإسلام بالصبر على القتال حتى الفوز بإحدى الحسنيين.

الرّابعة: تمحيص المؤمنين بتزكية نفوسهم، وتنقيتهم مما علق بها من التجاوزات التي وقعوا فيها في حياتهم. وبهذا التطهير يكونون في المستقبل أمضى عزيمة وأقدر على مباشرة الجهاد.

الخامسة: محق الكافرين، فإن من قتل منهم لا يعوض، لأن الإسلام يمتد ويكثر الداخلون فيه كل يوم، والمشركون إلى نقص حتى انتهى أمرهم من جزيرة العرب.

وقد استوفى القرآن العلل لما وقع في غزوة أحد، فانتقل إلى سؤال تذكير للمؤمنين بعد ما أصابهم من الحزن والكمد فسألهم: أتظنون أن تفوزوا بمطلبكم وغايتكم التي من أجلها حرصتم على ملاقاة العدو خارج أسوار المدينة، أليست الجنة هي غايتكم؟ وهل يبلغ أحد هذه المنزلة قبل أن يظهر صدق جهاده وصبره على القتال ؟هذا هو مهر الجنة.

لقد كنتم قبل خروجكم للجهاد تتمنون لقاء العدو بما يترتب عليه من الموت في سبيل نصرة الدين فها أنتم قد رأيتم الموت يصرع كثيرا منكم، فلماذا الجزع والكمد ؟

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْـَٔاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾

بيان معنى الألفاظ

خلت: مضت.

ينقلب: يرجع إلى الكفر.

كأين: كثيرا ما.

الرّبي: المتبع لشريعة الرّب.

الإسراف: الإفراط وتجاوز الحد.

بيان المعنى الإجمالي:

يقرر القرآن حقيقة أساسية في العقيدة غفل عنها بعض المشاركين في غزوة أحد. هذه الحقيقة هي: أن محمدا رسول يجري عليه ما يجري على سائر رسل الله الذين جاؤوا قبله. وبعض الرّسل قد تسلط عليه الكفار فقتلوه وبعضهم بلغ الأجل المقرر له فمات. فإياكم أن تعودوا إلى الكفر إن مات محمد أو قتل. ومن يعد إلى الكفر بعد الإيمان فإن الله أعلى من أن يتضرر بكفر الكافرين.

وسيجزي بفضله من شكر ربه على الهداية التي أوتيها فثبت عليها وقام بما يقتضيه شكر النعمة. لا تظنوا أن الموت يصيب البشر في فوضى بدون تقدير سابق. فكل نفس تموت، إنما تستوفي أيامها واللحظات التي قدر الله أن تبقى فيها حية. اعلموا أن ذلك مدون ومكتوب في كتاب حسب علم الله. ومن يجعل كل همه في حياته أن ينال حظوظ الدنيا فإن الله يمكن هؤلاء من نتائج أعمالهم فيها. ومن

كان همه الأصلي أن ينال ثواب الآخرة يمكنه الله من ذلك. والجزاء الأخروي خاص بالشاكرين الذين لا يغفلون عن حق المنعم في جميع أعمالهم. وثبتهم بتذكيرهم بأن كثيرا من أتباع الأنبياء السابقين الملتزمين بما جاءهم من ربهم قد قتلوا مع أنبيائهم، وثبتوا لما استحر فيهم القتل، فكانت عزائمهم ماضية لم يصبها الخور والتردد، ولم يضعفوا عن مواصلة القتال ونصرة أنبيائهم، ولم يستسلموا للعدو. ثم ظهر ثباتهم الباطني على ألسنتهم فتوجهوا إلى الله بالابتهال داعين: ربنا اغفر لنا ما فرط منا من ذنوب، وتجاوز عن الكبائر التي وقعنا فيها. كل همهم أن ينصروا دين الله الذي آمنوا به وسعدوا أن يلقوا في سبيل إقامته وعزته ما لقوا وانصرنا على القوم الكافرين. والله الكريم وهو يرعى عباده المؤمنين عجل لهم بالإجابة، فمكنهم من الفتح والغنيمة في الدنيا، وفوق ذلك ثواب الآخرة الذي هو أحسن ثواب وأكمله. وفوق ذلك كله أنهم من المحسنين والله يحب المحسنين ولا تسأل عمن نال حب الله فهو السعيد.

بيان المعنى العام:

144-وما محمد إلا رسول...الشاكرين.

هذه الآيات داخلة تحت القاعدة العامة السابقة: **قد خلت من قبلكم سنن.** هي سنن الله التي أجرى عليها حوادث الكون. التي هي ميزان تؤيد العقول وتعصمها، ففي غزوة أحد أشاع المنافقون وبعض العامة أن محمدا قد مات. وإذن لم يبق من أمر الإسلام شيء. بل بلغ الأمر ببعضهم أن دعا إلى طلب الدخول تحت حماية أبي سفيان.

فتنزل هذه الآية جامعة بين لوم المستضعفين، وتقريع المنافقين، وإبراز الحق الذي غفل عنه هؤلاء . ومرتبطة بسنن الله التي خفيت عليهم.

إن محمدا لا يعدو أن يكون رسولا سبقه رسل حملوا هداية الله للبشر. يجري عليه ما جرى عليهم. ومن سنة الله فيهم أن بعضهم قتل وبعضهم بلغ أجله الذي حدد له فمات. فما هذه الغفلة التي أصابتكم؟ أفتنقلبون كفارا إن مات محمد أو قتل ؟ ومن يعد إلى الكفر ويخلع ثوب الإيمان فخسارته على نفسه لا تتعداها. إن الله لا ينتفع بإيمان المؤمنين ولا بطاعتهم وتعالى أن يضره كفر من كفر. وهو سبحانه بفضله سيجزي الشاكرين. والشاكر هو الذي صرف النعمة فيما خلقت له، فالرّوح للقرب من الله، والعقل للتأمل في خلق الله والانتفاع بما في هذا الكون من إمكانات، والقوى المادية لتصرف في وجوه الخير حسبما حدده الله. وهذا التذكير والعتاب على ما وقع بعد نيل الكافرين من المؤمنين في غزوة أحد، فيه تحذير للمؤمنين أن

يقعوا في اضطراب إذا توفي رسول الله ﷺ. ورغم ذلك فإنه قد وصل الأمر بالبعض إلى الرّجوع إلى الكفر بعد أن أعلن أن النبي ﷺ فارق الحياة ومات فكانت حروب الرّدة. والبعض من الصحابة لم يفقد بموت رسول الله ﷺحكمته وثباته كأبي بكر ﷺ، فإنه بعد أن دخل على رسول الله ﷺ ، وكشف عن وجهه الشريف وقبله، وتبين له أنه قد فارق الحياة، قام خطيبا مفتتحا كلامه بهذه الآية، فسكن الناس وقبلوا الخبر المفزع.

145-وما كان لنفس أن تموت... الشاكرين.

يؤكد القرآن المعنى الذي بينته الآية السابقة فيقرر: إن بقاء الإنسان حيا ليس بإرادته، وكذلك مفارقته للحياة فلا يفارق الحياة إلا بإذن الله. فلحظات بقاء كل فرد موثقة ومكتوبة في كتاب لا يزيد ولا ينقص ما كتب فيه وضبط.

وإذا كان من سنن الله في الحياة أن الأجل لا يزيد ولا ينقص، فإن البشر رغم ذلك يختلفون، فبعضهم يقصر نظره على هذه الحياة الفانية، ويبذل جهده للنيل من حظوظها، وبناء على سنن الله تلك، فإنه ينال حظه من الدنيا. ومن الناس من يربط همه وغايته بالفوز في الآخرة، فيعمل على ربط الدنيا بالآخرة ومن سنن الله أيضا أن من يبغي بنشاطه في الدنيا الفوز بثواب الآخرة ينال منزلة الفوز في الآخرة، ويتأكد ذلك بأن الله سيجزي الشاكرين، وقد حددنا مقتضى الشكر قريبا.

146-وكأين من نبي... الصابرين.

إن الزلزال الذي قارن وأعقب غزوة أحد كان زلزالا شديدا رأينا كيف عالج القرآن آثاره. وما يزال يواصل اقتلاع تلكم الآثار في آيات عديدة أخرى. ففي هذه الآية وما يتلوها يعرض القرآن من تاريخ الأمم الماضية ما يرفع به معنويات الجيش بعد تلكم الواقعة. ويبين أن ما أصابهم هو سنة تكررت في تاريخ الأنبياء فعدد غير قليل من الأنبياء السابقين قتل معهم في حروبهم مع الكافرين عدد كثير من صحابتهم المخلصين لله المتصلين به الملتزمين لهدايته (الرّبيون) نسبة إلى الرّب لشدة تعلقهم به. ولما استَحَرَّ القتل في أتباع تلكم الرّسل وتطايرت الرّؤوس وحمي وطيس المعارك بقي الأحياء منهم ثابتين، عزائمهم قوية نافذة، لم يعرف الوهن إليها سبيلا، وما لحقهم ضعف في المقاومة ولا ارتعشت أيديهم من الخوف، وما استسلموا للعدو يفعل فيهم ما يشاء. إن هذه العزائم النافذة، والسواعد القوية لم ترتخ في هول المعارك، بل وقفت مع الرّسل في عزة متحدية.

147-وما كان قولهم... الكافرين.

إن رباطة جأشهم، وقوة إيمانهم، برزت على ألسنتهم ابتهالات ودعاء إلى الله وكان أكبر همهم رضوان ربهم عليهم: اللهم اغفر لنا ذنوبنا. فالهاجس الذي يبغون أن يطمئنوا من جانبهم عليه هو أن يصفح الله عنهم فيما تقدم لهم من تجاوزات وأن يمحو زلاتهم الكبرى (إسرافنا في أمرنا) وأن يثبتهم الله عند اللقاء ثباتا يزلزل أعداءهم فيحققوا نصر دين الله ويهزموا الكافرين.

148- فآتاهم الله ثواب...المحسنين.

عجل الله بالاستجابة لابتهالاتهم ورعى تضرعهم وحسن قصدهم، فجمع لهم بين مطالبهم الدنيوية فانتصروا وغنموا وأحسوا بعزة الغلبة. وبين ثواب الآخرة وهو أكرم وأجمل وأحق بأن يتنافس فيه المتنافسون. إنهم محسنون في جميع مواقفهم، ففازوا بحب الله لهم لأن الله يحب المحسنين.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ
خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ
مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ
إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَـٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم
مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ
عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الرّعب: الفزع من شدة خوف.

مأواهم: مصيرهم ومقرهم.

مثوى: مقام.

صدق الوعد: تحقيقه.

بإذنه: بتيسيره.

تحسونهم: تقتلونهم.

الفشل: الوهن والإعياء.

التنازع: الاختلاف.

بيان المعنى الإجمالي:

نداء للمؤمنين يحذرهم أن يسمعوا للكافرين الذين يعملون على التأثير عليهم بطرق خبيثة يغررون بها، قد تكون في ظاهرها عطفا عليهم وحبا فيهم ولكنها في باطنها لا تهدف إلا إلى شيء واحد هو أن يكتسبوا ثقتكم ليعودوا بكم إلى الكفر الذي كنتم عليه، وفي عودتكم إلى الكفر خسارتكم الكبرى بإحباط أعمالكم إنهم لا يضمرون لكم ودا ولا موالاة. إن الذي يتولى رعايتكم هو الله يسير بكم إلى النصر ولا أقدر من الله على نصركم. إن هذا النصر المؤكد يتحقق بما قرره الله من أنه سينزل الرّعب في قلوب المشركين، تبعا لفقدانهم الثقة في معبودا تهم التي أشركوا بها والتي لا يقوم لهم دليل مثبت أن لها من الأمر شيء. وبناء على اختيارهم للضلال فعاقبتهم النار، وإن أسوأ مقام من كان مهينا في نار جهنم يحترق بنارها. ثم عرض عليهم ما تم بصور متلاحقة يتكون من مجموعها شريط فيه عبرة وملام وذكرى وبشارة: لقد حقق الله ما وعدكم به من النصر أولا، وذلك إذ تتبعتم الكفار تعملون، بتيسير من الله، السيف في رقابهم. وبقيتم على هذه الحال حتى لحقكم الإعياء، ثم اختلفتم: أتبقون مرابطين حيث حدد لكم رسول الله ﷺ، أم تغادرون أماكنكم طلبا للغنيمة. ثم رجح أغلبكم مخالفة أمر الرّسول وعصيانه، من بعد ما رأيتم ما تحبونه من نصر. وافترقتم فرقتين: فرقة تريد أن تحصل على الغنائم التي تهيأت بفرار الكافرين وتركهم أموالهم، وفرقة ثابتة على تطبيق أمر رسول الله ﷺ المؤدي إلى الفوز في الآخرة. فصرفكم عن الكافرين بسبب خلافكم وعصيانكم عن متابعة الجهاد إلى تمام النصر ليتحقق فيكم الابتلاء. ولطفا من الله بعباده المؤمنين وبعد تتابع لومهم وتقريعهم، يعلن الله بفضله: أنه عفا عنهم ولا يؤاخذهم بما صنعوا. إن الله يتابع فضله على المؤمنين.

بيان المعنى العام:

149 - 150 : يا أيها الذين آمنوا... خير الناصرين.

فتحت غزوة أحد مشاكل في المجتمع المدني. بعد النصر العظيم في غزوة بدر وما خلفه انتصارهم من قوة نفسية ووثوق بقوتهم جاء انكسارهم في غزوة أحد يخلخل الأوضاع ويحدث ثغرات أراد المشركون والمنافقون أن يدخلوا منها إلى الصف الإسلامي لينفذوا مخططاتهم الرّهيبة. والله مع المؤمنين يوقظهم وينبههم ويكشف لهم ما خفي عليهم من مكائد الكافرين والمنافقين.

لقد حاول بعض الكافرين أن يثبت الهزيمة في نفوس المؤمنين وأن يبلغ بذلك إلى التشكيك في مستقبل الإسلام. والإنسان بعد الهزيمة يكون متقبلا لما كان يرفضه

رفضا قاطعا عند الانتصار. هذه سنة الله في البشر. وعناية الله بأمة محمد أيقظتهم لما يدبره الكافرون لهم بما يظهرونه لهم من عطف يُنَوِّمُ ما كان عندهم من رفض لمقالاتهم نبههم إلى أن هؤلاء الذين يندسون في صفوفهم ويظهرون لهم الود، لهم غاية واحدة، هي أن يخدروهم حتى يعودوا إلى ما كانوا عليه من الكفر، وذلك هو الخسران المبين. إنهم حاقدون عليكم وقد تولاكم الله فهداكم، وأعانكم فنصركم في بدر وفي اللقاء الأول في أحد، وأعطاكم ربكم الطمأنينة والإحساس بالعزة والكرامة، هو مولاكم الذي يسر لكم بفضل دينه هذه المكتسبات العظيمة. ثقوا بأنه سينصركم أعز نصر وأتمه فإنه لا أحد ييسر لكم النصر غيره.

151-سنلقي في قلوب... الظالمين.

أيها المؤمنون إني أنا المتصرف في الكون. سأجعل في قلوب الذين كفروا الرّعب الذي يضعف قواهم ويهلهل عزائمهم. إن حصول ذلك أمر نابع من المقدمات التي هيأها الكفار ذلك أنهم أشركوا بالله معبودات ضعيفة لا يثقون في مساعدتهم لهم مساعدة يقينية، لأن معطيات التأثير مفقودة لديهم. ومع عدم تثبيتهم وما يصحبه من انهزامهم فإن عاقبتهم نار جهنم يصلونها. ولا مقام أخبث من جهنم.

152-ولقد صدقكم الله وعده...المؤمنين.

اذكروا أن الله وعدكم نصره ، وحقق لكم ما وعدكم به، اذكروا ذلك المشهد في بداية المعركة، وسيوفكم تلاحقهم تقتلهم وهم فارون منكم ورياح الظفر تؤيدكم، استمر ذلك إلى أن شعرتم بالإعياء وتنازعتم مختلفين أتمضون على قتالهم إلى تمام النصر، أو تسرعون إلى الغنائم والأموال التي ترونها وقد تركها الكفار وأخذوا يفرون؟ ثم عصى قسم كبير منكم ما حدده لكم رسول الله من الثبات في أماكنكم التي ائتمنكم عليها، وهم الذين حركتهم الأموال المعرضة للغنيمة، وحب المال من طبيعة النفس البشرية، وثبت فريق آخر منكم وَفِيًّا لتنفيذ ما أمر به رسول الله ﷺ، لا يجلبهم المال ولا الغنائم كل همهم في ثواب الآخرة المرتبط بالطاعة لرسول الله. وإذ تفرقت كلمة الجيش هذا التفرق صرفكم عن الكافرين ليكون ذلك ابتلاء لكم واختبارا وإعدادا لما يستقبل من الأيام، بين الكفر والإيمان. إنه بعد ما وقع في هذه الغزوة وما أشار إليه قوله تعالى من لوم وتقريع **(منكم من يريد الدنيا)** يعجل القرآن بأن ما وقع منهم من تقصير لم يزعزع إيمانهم ولا يخدش في

صدقهم، ويعجل لهم بالبشارة بأن الله قد عفا عنهم ما وقعسوا فيه من تقصير. وهذا شأن المولى سبحانه، ففضله على المؤمنين غير محدود.

إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

تصعدون: من أصعد في الأرض ذهب فيها. صعد في الجبل تسلق.

لا تلوون على أحد: لا يلتفت أحد لغيره ليرحمه.

أخراكم: آخر الجيش.

أثابكم: عاقبكم.

النعاس: نوم خفيف – مقدمة النوم.

برز: خرج.

مضاجعهم: جمع مَضْجَع، وهو الموضع الذي قتل فيه المقتول.

ليبتلي: ليختبر.

الصدور: الضمائر.

ليمحص: ليخلص ما في قلوبكم من نقائص.

بيان المعنى الإجمالي:

صُرِف المجاهدون عن أعدائهم ففروا في الشعاب والأودية، لا يهتم الفار إلا بنجاته، ولا يهمه من أمر أخيه شيء، وكان الرّسول ﷺ يناديهم في آخر الجيش:

(إلي عباد الله من يكُر فله الجنة) فكان جزاؤهم أن أضيف إلى الغم الذي أدخلوه على أنفسهم، بضياع الغنائم التي تسابقوا إليها أضيف غم آخر بالقتل والجراح ونكبة الهزيمة. عاقبكم الله بذلك لتعلموا أن ما حل بكم هو بجنايتكم، فلوموا أنفسكم، ولا تحزنوا. إن في هذه المصارحة بأسباب المصيبة ما يضعف الإحساس بها، شأن المصاب إذا علم أن مصيبته نتيجة ما قدمت يداه هانت بعض الشيء. واحذروا فإن الله يعلم حقيقة ما تعملون. في هذا الوضع الحرج ميز القرآن بين المؤمنين، وقد ابتلوا، وبين المنافقين. فأما المؤمنون فقد أنزل الله عليهم سِنَة من النوم، أعادت للعزائم ثباتها وللقلوب أمنها. وأما المنافقون، فقد فضحهم القرآن مسجلا ما انطوت عليه صدورهم من خبث وما كانوا يتهامسون به، وقد ضاعف فسادُ دخيلتهم همهم.

يشرح القرآن ذلك، بأنهم، تبعا لفساد عقيدتهم في الله، أخذوا يظنون بالله ظنونا فاسدة. منها قولهم: إن خروجنا من المدينة ما كان بتدبيرنا، يلوحون بذلك إلى خطأ الرّسول. ويجيبهم القرآن: نعم ليس لكم من الأمر شيء، لأن الأمر والتصريف كله بيد الله. ثم يفضحهم القرآن، مبرزا ما يخفونه من النفاق الذي يتهامسون به بينهم ويعملون على ترويجه: لو كان لنا من أمر الناس والتدبير ما قتل من قتل منا هاهنا. وأجابهم القرآن: قل لهم يا محمد: لو كنتم في بيوتكم فإن من قدر الله عليه القتل، لا مناص له من الخروج إلى مصرعه ليتحقق فيه ما قدر له. ثم يعود النص القرآني إلى المؤمنين يواصل بيان علل ما كان الله قدره: يريد الله أن يختبر ما انطوت عليه صدوركم من الثبات والطاعة، وليصرف بما أصابكم ،ما تلوثت به قلوبكم من بعض المعاصي والله عليم بما يجري في الصدور مما لا تبين عنه الألسنة. ويبرز هذا المعنى بصفة أبين فيقول: إن الذين تولوا وفروا في ذلكم اللقاء، ما كان لهم أن يقعوا فيما وقعوا فيه لولا أن الشيطان قد أثر فيهم فأزلهم عن الموقف الصواب، وذلك مرتبط بما قدمت أيديهم، ويعجل القرآن ببشارة المؤمنين بعد لومهم الذي يكسر النفوس ويوجب الهم، يبشرهم بأن الله قد عفا عما فعلوه. ذلك أن الله من صفاته الغفران والحلم.

بيان المعنى العام:

153-إذ تصعدون... والله خبير بما تعلمون.

يسجل القرآن بعض مشاهد غزوة أحد، لتكون حية في قلوب المؤمنين، حتى لا يعودوا لمثل ما وقعوا فيه. هذه الصورة تمثل المجاهدين الذين كانت رياح بوادر النصر تهز مشاعرهم، وهم في مواقع حصينة مأمورون أن لا يفارقوها، وكانت

الغنائم بارزة أمام أعينهم، وقد ألقى بها المشركون فرارا بأنفسهم. هؤلاء الذين أوكل إليهم حماية الجيش الإسلامي بالثبات في مواقعهم استهوتهم المغانم المطروحة، فتسابقوا إليها وأخلّوا المواقع الحصينة، فانقض عليها المشركون، وقد تعرت ظهور المسلمين، فتحول النصر الأول إلى هزيمة. أصبح معظم الجيش فارا لا يلوي على شيء هَمّ كل فرد أن ينجو بنفسه، لا ينظر الفار إلى وضع أي أحد من إخوانه. وفي هذا المشهد يصدح صوت القائد، رسول الله صلى الله عليه وسلم ينادي في الناس: إلَيّ عباد الله من يكُر فله الجنة – فتجمع حوله صلى الله عليه وسلم المخلصون الصادقون.

ويسجل القرآن حالة الفارين فيقول: إن الله جازاهم في الحال، بأن أضاف إلى غمهم مما فاتهم من نشوة بوادر الانتصار وفوات الغنائم، أضاف إليه غما آخر من الخوف والهزيمة وتسرب الشائعات. واجههم القرآن ببيان الأسباب التي كانت من صنعهم، ليذهب عنهم الأسى على ما فاتهم، وليرفع عنهم الحزن العميق والكآبة ليستفيقوا من هول الصدمة. ذلك أن المصاب إذا تحقق أنه ليس مظلوما ، وأن مصيبته إنما كانت نتيجة ما قام به من أخطاء، فإن إدراكه هذا يخفف عنه من ثقل المصيبة ويدفعه إلى إصلاح نفسه. والله عليم بما كان وما يكون فلا يخفى عنه شيء من أعمالكم ولا من نتائجها القريبة أو البعيدة.

154-ثم أنزل عليكم من بعد الغم... بذات الصدور.

يسجل المشهد واقعا آخر، هو أن الجيش كان على قسمين:

القسم الأول: الذين كانوا حول رسول الله ثابتين رغم النكبة التي حصلت، تتوجه إليهم العناية الإلهية فتثبتهم وينزل عليهم في هذا الظرف العصيب ما يؤمن قلوبهم ليعود لها اندفاعها، ويقوي عزائمهم ليعود إليها مَضَاؤُهَا، فيغشاهم نعاس خفيف وصفه الصحابي الجليل أبو طلحة الأنصاري قال: غشينا النعاس ونحن في مصافنا يوم أحد، قال: فجعل سيفي يسقط من يدي وآخذه، ويسقط وآخذه[1]. إن أخذ النعاس للمجاهدين في هذا الظرف العصيب، ظاهرة خارجة عن المألوف، تبرز عناية الله بهذه العصابة النقية التي كانت حول رسول الله ﷺ.

القسم الثاني: طائفة من الجيش، كان الهم نابعا من بواطنهم، من أنفسهم الفاسدة، ذهبت بهم هواجسهم إلى أن تصوروا في ذات الله وفي تصرفه تصورات من رشح الجاهلية التي لم تُنَق منها دخائلهم بعد. من ذلك أنهم يقولون: الأمر بغير

[1] فتح الباري ج 9 ص 296

أيدينا، يُعَرّضون بأنهم أقدر على القيادة وأن الأخطاء التي وصلت بالجيش إلى الهزيمة هي من سوء التدبير. ويجيبهم القرآن: ليس لكم من الأمر شيء، لأن المتصرف في الكون هو الله، فتطلعكم إلى مشاركة الله في تصريف الأمور من فساد عقيدتكم ومن بقية لوثة الشرك في نفوسكم. ويفضح القرآن سرائرهم فيعلم النبي: بأنهم يخفون في أنفسهم من النوايا والأفكار ما لا يظهرونه لك. ففي أنفسهم حسرة وغيظ وثورة يقولون: لو أخذ برأينا في عدم الخروج من المدينة ما قتل منا أحد. تعريض بسوء قيادة الرّسول صلى الله عليه وسلم. يرد القرآن عليهم في جزم: إن المواضع والأزمنة المحددة ليبلغ فيها كل إنسان أجله، هي من تقدير الله الذي لا يتخلف. ومن قدّر له الموت في مكان يخرج عند أجله من بيته ليموت في المكان المقدر له .

وينعطف الكلام بعد فضح المنافقين ليتوجه من جديد إلى المؤمنين يمسح جراحهم ويضيف إلى العلل السابقة: أن الله أراد أن يختبر ضمائركم مقرونا هذا الاختبار بتزكية نفوسكم وتخليصها مما خالطها من تقصير وتجاوز. ويؤكد هذا المعنى ما ختمت به الآية من أن الله عليم بما يجري في بواطن الصدور.

155-إن الذين تولوا منكم... إن الله غفور حليم.

يؤكد القرآن أن الذين فروا يوم أحد، وقعوا تحت تأثير وساوس الشيطان، بسبب بعض ما اكتسبوه ،ككلفهم بالمال ومخالفة أمر رسول الله، أو بسبب خطايا سابقة وهّنت عزائمهم. ويتلو هذا التقريع واللوم بارقة عفو الله عن الكبيرة التي وقعوا فيها وهي الفرار يوم الزحف. ويعلن القرآن أن الله عفا عن هؤلاء الفارين. وهنيئا لهم ما منحهم ربهم من فضل وكرامة. وهذا شأن الله الكريم فهو غفور حليم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى

ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن
ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾

بيان معنى الألفـــاظ:

الضرب في الأرض: السفر.

غزى: جمع غاز.

الحسرة: شدة الأسف والحزن.

لنت لهم: كنت مصفحا عن جفاء الجفاة، واسع الخلق.

الفظ: السيء الخلق، الجافي.

لانفضوا: لتفرقوا.

شاورهم: اعرض عليهم الأمر المهم للاستئناس برأيهم.

بيان المعنى الإجمالي:

كان مجتمع المدينة مختلطـا، فيـه المؤمنـون وفيـه الكـافرون، ويعمـل القـرآن علـى تحصين المؤمنين حتى لا تتسرب إلـيهم تصـورات الكـافرين وعقائـدهم، فمـن ذلـك قول الكافرين عن إخوانهم إذا سافروا فماتوا أو شـاركوا فـي الحـرب فقتلـوا: لـو بقـوا بيننا ما ماتوا ولا قتلوا. إن سوء عقيـدتهم يضـاعف أسـاهم وحـزنهم ويطبـع نفوسـهم بالحسرة التي تصيبهم بالغم والإحبـاط. اعلمـوا أن الله هـو الـذي بيـده وحـده الحيـاة والموت، وهو العليم بما تفعلون. إنـه إن قُتِلْـتم مجاهـدين، أو مِـتّم وأنـتم تسـعون فـي الأرض فما تحصلون عليه بعد ذلك مـن مغفـرة مقرونـة برحمـة هـو خيـر ممـا تجمعونه من متاع الدنيا. ولدار الآخرة خير. وأكد هـذا المعنـى: إن مـتم أو قتلـتم فـإن مصيركم إلى الله الذي أعد لكم مغفرته ورحمته.

طبع رسول الله ﷺ على أكمـل الأخـلاق وأنبلهـا، وانضـاف إلـى ذلـك أن الله أنـزل عليه من رحمته ما جعله لينا في تعامله. وبهـذه الرّحمـة التـي هـي عطـاء الله لنبيـه أحبه الناس والتفوا حوله، إذ لو كان فظا فـي تعاملـه جـافي الطبـع، أو فاقـدا للرحمـة قاسي القلب لما استطاع أن يُكَوّن منهم أمة موحدة. فحقق يـا محمـد مـا جمـع الله فيـك من كمالات خلقية، فاعف عنهم، واطلب لهم مـن الله التجـاوز عـن سـيئاتهم، وقـربهم إليك واعرض عليهم الأمور الهامة ليبدوا آراءهـم بكـل حريـة. فـإذا تبـين لـك وجـه السداد بعد المشاورة، فانفذ إلى ما عزمـت عليـه بـدون تـردد، معتمـدا علـى الله فـي تحقيق ما أنت قاصده. إن الله يحب المتوكلين عليـه ممـا يؤكـد قيمـة التوكـل أن الله إذا أراد نصـركم فـلا تسـتطيع أي قـوة أن تغلـبكم وتقهـركم. وبـالعكس فـإذا أراد الله

خذلانكم فلا تجدون نصيرا بعده تلتجؤون إليه. وصلة المؤمنين بربهم تجعلهم مستجيبين للتوكل على الله حق التوكل.

بيان المعنى العام:

156-يا أيها الذين آمنوا... بصير.

عناية الله بهذه الأمة تبرز في وجوه عديدة. منها أنه يريد أن يحصنهم مما يمكن أن يتسرب إلى تصوراتهم من الكافرين الذين يقاسمونهم الحياة بالمدينة. فنبههم حتى يكونوا يقظين لما يتحدث به الكافرون في جميع المجالس فلا يسايرونهم في أقوالهم: إن إخوانهم الذين ماتوا في الأسفار، أو شاركوا في الغزو فقتلوا، إنهم لو بقوا في المدينة فلم يسافروا، ولم يشاركوا في الغزو لم يموتوا ولم يقتلوا. إن تحرقهم على المصير الذي صاروا إليه، وتعلقهم بالحياة تعلقا أنساهم الحقيقة التي تتكرر أمام أبصارهم من أن الموت لا مفر منه، ما استفادوا من ذلك إلا مضاعفة لأحزانهم، وتعميقا لحسراتهم. إياكم أن تكونوا مثلهم فإن الله هو الذي يحيي ويميت، لا تستمر الحياة بحب الإنسان لها ولا تنقطع بكراهته لها. والمهم أن تكونوا على ذكر بأن الله يعلم حقائق أعمالكم ويجزيكم بها.

157، 158-ولئن قتلتم في سبيل الله... فإلى الله تحشرون.

تأكدوا بأنه إن قتلتم في الجهاد، في سبيل إعلاء كلمة الله ونصر دينه، أو ضربتم في أرض الله تبغون عمارتها وتحريك أموالكم بالتجارة فلحقكم الموت، فلا يحزن عليكم أهليكم ،فإن المغفرة التي تصل من الله إلى موتاكم المقرونة برحمته الواسعة خير مما تجمعون من متاع الحياة الدنيا. فما يوفر لهم ربهم أفضل مما يمكن أن يحصلوا عليه لو استمرت بهم الحياة ولا أسف على ذهاب الحياة فالجميع سيحشرون ويصيرون إليه.

159 –فبما رحمة من الله... يحب المتوكلين.

إن الهزات الكبيرة التي عاشها المسلمون أيام غزوة أحد، قابلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقلبه الكبير، ووَسِعَ أحداثها بلينه، وقرب بين المسلمين في خلافهم وهزيمتهم وفرارهم وعفو الله عليهم بالرّحمة التي تتميز بأنّها عطاء الله لنبيه خصه به وأودعه فيه (**فبما رحمة من الله**) مرت الأحداث والصف الإسلامي متماسك. إنه لو كان محمد جافي الطبع قاسيا صعب المزاج ولو كان فاقدا للرحمة غليظ الإحساس، لتفرقت كلمتهم وابتعدوا منه. إن العرب معروفون بعزة النفس وبالأنفة وإباء الضيم وحدة الإحساس، فبذلك الخلق العظيم والرّحمة واللين، حَوّلَهُمْ إلى

مجتمع مدني رفيع متماسك في علاقاته، تمكن الحب بين أعضائه حبا لا يقاس به علاقات العشيرة والأسرة التي لم يوثقها الإيمان. فداوم يا محمد على هذا المسار النبيل وذلك بالعفو عنهم وعدم معاجلتهم بالعقوبة، واطلب لهم من الله المغفرة عن تقصيرهم، حتى يشعروا بأنك ترعاهم أفضل رعاية وأكملها، لا تلاحقهم باللوم والتثريب. قربهم منك وشاركهم في تسيير أمور الجماعة ، اعرض عليهم ما يهم أمر الأمة في السلم والحرب، حتى يشعر كل واحد بأنه يتحمل مسؤولية سلامتها ونجاحها. اسْمُ بهم حتى يعتبر كل واحد من أمتك نفسه أنه ليس فردا من قطيع يتبع بلا فهم ويجري بلا وعي للهدف والمصير.

إن أمر الله رسوله بأن يستشير أصحابه، ويعرض عليهم ما يهمهم ويقلب معهم ظواهر الأمر وخوافيه كان بصيغة **(وشاوروهم في الأمر)** وهي صيغة أمر وهذه الصيغة، يذهب معظم العلماء الدارسين لنصوص الشريعة، إلى أنها تفيد الوجوب أينما وردت في كلام الشارع الحكيم. وبناء على ذلك فإن الاستشارة ليست أمرا اختياريا أو أمرا مفضلا بل هي أمر حتم أوجبها الله على نبيه وهي واجبة على أولي الأمر والمتحملين للمسؤوليات في الأمة الإسلامية على مر العصور. يقول ابن خُويزَمَنْدَاد من كبار المالكية: واجب على الولاة المشاورة، فيشاورون العلماء فيما يشكل من أمور الدين، ويشاورون وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ويشاورون وجوه الناس فيما يتعلق بمصالحهم، ويشاورون وجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها. ويقول ابن العربي في توجيه ذلك: الشورى مسبار العقل، وسبب الصواب. ورد الشيخ أبو بكر الرّازي المعروف بالجصاص على من يرى أن النبي أمر بالمشورة تطييبا لخاطر أصحابه فقال: لو كان معلوما أنهم إذا استفرغوا جهدهم في استنباط الصواب عما سئلوا عنه، ثم لم يعمل به لم يكن في ذلك تَطْيِيب لنفوسهم ولا رفع لأقدارهم، بل فيه إيحاشهم بالمشاورة. ويقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: والشورى مما جبل الله عليه الإنسان في فطرته السليمة، ولذلك قرن الله تعالى خَلْق أصل البشر بالتشاور في شأنه، إذ قال للملائكة: **(إني جاعل في الأرض خليفة)** إذ قد غني الله عن إعانة المخلوقات في الرّأي، ولكن عرض على الملائكة مراده ليكون التشاور سنة في البشر ضرورة أنه مقترن بتكوينه. فإن مقارنة الشيء للشيء في أصل التكوين

يوجب إلفه وتعارفه. ثم يقـول: وإنمـا يلهـي النـاس عنهـا حـب الاسـتبداد، وكراهيـة سماع ما يخالف الهوى . وذلك من انحراف الطبائع وليس من أصل الفطرة[1].

وكان سيدنا عمر ﷺ عنه يكتب لعماله يأمرهم بالتشـاور ويتمثـل لهـم فـي كُتُبِـهِ بقـول الشاعر:

خليليَّ ليس الرّأي في صدر واحـد *** أشيـرا علي بالذي تريـان

إنه بعد تقليب الرّأي، وظهـور المعطيـات المـؤثرة فـي النجـاح، والعوامـل المسـاعدة على عدم الفشل عندما يختمر الـرّأي، ويبـرق العقـل الرّاشـد فيبعـث العزيمـة علـى المضي إلى هدفها، عنـد ذلـك وقـد جمعـت بـين صـدق الصـورة، وبـين الأسـباب المؤثرة، فوثق عزيمتك على المضي بالتوكل علـى الله، لـيكن حضـور قلبـك وروحـك مع الله يطمئنك بأنه يزيح من مسارك المعوقات والمفاجآت ويعينك بتأييده.

هذا معنى التوكل. فليس التوكـل انـدفاعا غبيـا بـلا تعمـق فـي التفكيـر، ولا إهمـالا للأسباب التي ربط الله بها النجاح والفشـل وجعلهـا سـننه فيهمـا. وثِـقْ أن مـن توكـل على الله حق توكلـه فـإن الله لا يخذلـه، لأنـه يحبـه، ومعنـى الحسب الإلهـي التأييـد والمعونة.

يؤكد القرآن على عقيدة التوكل في نفوس المؤمنين حتـى لا يغفلـوا عـن تأثيرهـا. إنهـا قوة باطنية تنفذ إلى الرّوح فـإذا هـي متفائلـة راضـية مستبشـرة بعيـدة عـن التـردد والخوف، وتنفذ إلى القوى البدنية فإذا هـي تسـتمد مـن القـوة الرّوحيـة قـوة وصـلابة أمضى عل المواصلة وأقدر على التحمل.

160 -إن ينصركم الله... فليتوكل المؤمنون.

اعلموا أن توكلكم على الله هـو الاسـتناد إلـى قَـدَرِهِ الـذي لا يغالـب، فبتـوكلكم حـق التوكل، لا التواكل المنحل، لن تخذلوا. إنه مـن ينصـره الله فـلا يتصـور أن يوجـد لـه غالب يهزمه. وهذه أفضل قوة تغالبون بهـا الصـعاب. وبالمقابـل فإنـه إن لـم تأخـذوا بما يقتضيه التوكل الحق، وهيـأتم أنفسـكم للهزيمـة ولـم تحتـاطوا بـالرّأي والأسـباب، فإن الله يخذلكم فـلا تجـدون بعـده ناصـرا. إنـه علـى الله وحـده يتوكـل المؤمنـون، فيأخذون بسننه ويتعلقون به تعلق الواثق بعونه.

---

[1] التحرير والتنوير ج 4 ص 15.

وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ ۚ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَن بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

بيان معنى الألفاظ:

يغل: يأخذ شيئا من غنيمة الجيش بدون إذن.

بيان المعنى الإجمالي:

إنه من غير المتصور أن يخون أحد المغانم التي تحت ولاية رسول الله صلى الله عليه فيأخذ منها شيئا دون إذنه. وعقوبة الغال في الآخرة: أن يفضحه على رؤوس الملأ فيحشر يوم القيامة وهو يحمل ما استولى عليه. ثم يسلط عليه الجزاء العدل الذي يستحقه. ثم يأتي سؤال قصد به إيقاظ المخاطبين للتفرقة بين من يتتبع في مسيرة حياته رضوان الله، ومن حصل من نشاطه في حياته سخط الله وغضبه، ومأواه الذي يصير إليه جهنم ولا أسوأ من مصيره ذاك. والذين اتبعوا رضوان الله ليسوا على مرتبة سواء عند الله فالصالحون يتسابقون في الخيرات، والله لا يخفى عليه دخائلهم.

بيان المعنى العام:

161- وما كان لنبي أن يغل... لا يظلمون.

من شَرُفَ بمصاحبة رسول الله ﷺ في ساحات الجهاد، ومن أحس بما كان يدفع المقاتلين إلى الإقدام والتضحية بنفوسهم لا يجد أي عذر في خيانة رسول الله ﷺ وسرقة شيء من الغنائم التي حصلها الغزاة بجهادهم . فهي كبيرة من الكبائر صرحت الآية بعقوبة صاحبها في الآخرة، وذلك بفضحه في مشهد يوم القيامة عندما يحشر وهو يحمل ما غله دون أن يستطيع الانفلات منه ويطول وضعه على هذه الحال إلى أن يحسم أمره بجزائه على جريمته جزاء عدلا. وفي كتب الفقه بيان عقوبة الغال.

162-أفمن اتبع رضوان الله...المصير.

وفي المقابلة بين من صدقوا الجهاد ومن تسفل فخان واستولى في خفية على شيء من الغنائم يلحق القرآن كل فريق بالمجموعة الكبرى التي هي من شاكلته. ويوقظ المخاطبين بعرض صورتين متنافرتين:

الصورة الأولى: صورة من يواصل مسيرته في حياته الدنيا يوما فيوما ولحظة فلحظة، وهو حذر يبتغي في كل أعماله رضوان الله.

الصورة الثانيــة: صورة من خرج يسعى، وينشط في حياتــه الــدنيا: ليعــود فــي خاتمــة ذلك بسخط الله وغضـــبه منقطـــع عـــن فيـــوض الهدايـــة الإلهيـــة، قَلِـقٌ بَـرِمٌ بالحيـاة، ويستمر به ذلكم العناء، ليكون المرجع الذي يصير إليـــه، هـــو جهـــنم ولا أســـوأ مصـــيرا منها. وهؤلاء مرتبة واحدة مرتبة الهوان والعذاب.

163-هم درجات عند الله... والله بصير بما يعملون.

أما أصحاب القسم الأول فدرجاتهم ومراتبهم في الجزاء متفاوتـــة تبعـــا لمـــا قـــاموا بـــه من صالحات الأعمال ولما صحب أعمـــالهم مـــن الإخـــلاص الـــذي هـــو محـــل تفـــاوت كبير بين البشر. والله لا يخفـــى عليـــه صـــغير ولا كبيـــر ولا ظـــاهر ولا بـــاطن فهـــو البصير بما يصدر عن العباد. وفي ذلك مـــا يحقـــق تكـــريمهم بمجـــازاتهم عمـــا قـــدموه في دنياهم.

لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ
وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾
أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ
ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ
قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ
بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ
وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ
﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾
فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ
أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ
ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ
أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ
إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ

ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ
ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ
وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

من الله: أنعم الله.

يتلو عليهم آياته: يقرأ عليهم آيات القران.

يزكيهم: يطهر نفوسهم.

الاستبشار: حصول البشارة.

نعمة الله: صلاح الحال.

الفضل: الزيادة في النعمة.

حسبنا الله: الله كافينا.

الوكيل: القائم بشؤون من وكله .

بيان المعنى الإجمالي:

تتابعت النعم على المؤمنين فضلا من الله، وأعظمها بعثة سيدنا محمد واحدا من العرب يجمعه بهم نسب ووطن ولغة. قريب منهم يتلو عليهم آيات القرآن المنزل عليه، ويطهر نفوسهم من أوضار الشرك وأخلاق الجاهلية، ويشرح لهم ما في القرآن من هدى، ويعلمهم طريقة تلاوته، ويحرضهم على حفظه ويفتح عقولهم وبصائرهم على الحِكَم. وشتان بين ما كانوا عليه من ضلال واضح، وبين ما هم عليه اليوم بعد أن خالطت أنوار الوحي قلوبهم.

ثم يواصل القرآن متابعة آثار غزوة أحد، وما يجري من حديث عنها في المجتمع المدني. فما تزال آثار المصيبة تحركهم للتأمل فيها، فكان من الأحاديث التي دارت في المجتمع: من أين للمشركين أن ينتصروا علينا ؟ كان الجواب على شقين: شق مقدم أنكم قد أصبتم من أعدائكم في غزوة بدر ضعف ما أصابوا منكم في أحد. وشق ردٌّ بعد السؤال. ما حصل لكم من هزيمة هو نتيجة أخطائكم التي أنتم مسؤولون عنها . إن الله على كل شيء قدير. وواصل الحديث عن آثار هذه الغزوة فقال: إن ما أصابكم يوم التقى جمع الرّسول وجمع المشركين، لم يشأ الله أن يمنع منه، وهذه الهزيمة لها أثرها في صفاء المجتمع فقد ميز الله بين المنافقين والمؤمنين فظهر نفاق المنافقين عيانا. إن عبد الله بن أبي بن سلول لما أثر على بعض الجند حتى رجع ومعه ثلثه، وقال له عبد الله الأنصاري :اتقوا الله ولا

تتركوا نبيكم وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا عنا مــن يريــدنا مــن العــدو، كــان جوابــه: الذي نحن مقبلون عليه ليس هناك قتال. إن مقــالتهم تكشــف عــن ســوء دخيلــتهم وأنهــم في الحقيقة ابتعدوا عن الإيمان وكانوا أقرب إلى الكفــر. إن مــا ينطقــون بــه أمــامكم، مخالف لما يعتقدونه مما انطوت عليه نفوسهم. لقد وضــح لكــم نفــاقهم مــن قــولهم: إن إخواننا لو اتبعوا رأينا ولم يخرجوا ما قتلوا. أجــبهم يــا محمــد بمــا يكشــف عــن فســاد تفكيرهم وبما يسقط شغبهم: امنعوا الموت عــن أنفســكم وحققــوا لكــم حيــاة لا تنتهــي إن كنتم صادقين في أن موت إخــوانكم مــا كــان إلا بســبب القتــال. ثــم نــوه القــرآن بالشهداء الذين بذلوا أرواحهم في ســبيل نصــرة ديــن الله. ونشــر كلمتــه فــي العــالمين إنهم وإن قتلوا وفارقوا الدنيا إلا أن الله ميزهم من بــين ســائر البشــر بنعــيم لأرواحهــم لا يشاركهم فيه غيرهم، حقق الله لهم حياة كريمة عنده، يُجــري علــيهم مــن رزقــه مــا يصل إلى حد الرّضا ويجري السرور فــي أرواحهــم لمــا آتــاهم الله مــن فضــله كمــا يستبشرون بإخوانهم المجاهــدين الــذين يواصــلون نصــرة الــدين، فــيطلعهم الله علــى أحوالهم ولا يقطعهم عنهم، ويجسم وضعهم مــن النعــيم: بــأنهم فــي حالــة لا يحزنــون فيها على أمر ممــا مضــى، ولا يخــافون ممــا يحملــه الغيــب فرضــاهم وطمــأنينتهم تواصلت من الماضي إلى المستقبل.

يستبشرون بما أفــاض الله علــيهم مــن صــلاح الحــال ومضــاعفة الخيــرات. إن ممــا يضاعف سرورهم وغبطتهم أن حصل لهم علم اليقين بأن إيمــانهم قــد بلــغ حــد الكمــال فجرى عليهم ما يجريه الله على المؤمنين. وقرر ثبــات هــذا الإيمــان ووضــوحه بــأنهم استجابوا لنداء الرّسول في الوقــت الــذي يــذهل فيــه النــاس عــادة إنــه هــو وقــت هزيمتهم، وميزهم بذكر بعض ما يحقق ما سبق :أنهــم مــن زمــرة المحســنين المتقــين الذين كتب لهم من الثواب والأجــر مــا يتجــاوز الوصــف إذ وصــفه الله بأنــه عظــيم. تطاول المشركون بعد معركة أحد بأن هددوا المســلمين: أن الموعــد العــام القابــل فــي بدر. ثم عملوا على اختلاق مكيدة مــع الموعــد هــي تــرويج إشــاعة: أنهــم جمعــوا جموعا غفيرة للقضاء على المسلمين قصد بــث الرّعــب فــي جماعــة الإســلام. فــزادت هذه الشائعة المسلمين تصميما علــى الجهــاد وخرجــوا إلــى بــدر. وتبــين أن شــائعة المشركين هراء. قارنوا بــين وضــع المــؤمنين ووضــع المشــركين، فالمشــركون تبعــا لخواء أرواحهم يقذف الشيطان فــي قلــوبهم الرّعــب. والمؤمنــون الــذين وثقــوا بــربهم يعجز الشيطان عن تخويفهم. فواصلوا مــا أنــتم عليــه ولا تخــافوا إلا الله. إن الخــوف من الله سمة الإيمان.

بيان المعنى العام:

164-لقد من الله... مبين.

يتابع القرآن، بأسلوبه المعجز، الحديث عن غزوة أحد هذه الغزوة التي هزت المسلمين هزة عنيفة وأصيبوا فيها بهزيمة فقدوا فيها ما فقدوا من إخوانهم. ضمد جراحهم وواساهم وذلك:

أولا: بتذكيرهم بالنعمة الكبرى التي لا تضاهيها نعمة. هي منة الله عليهم التي حولت كل ما كانت تتسم به عقائدهم وأفكارهم وطريقتهم في الحياة هي أن بعث الله فيهم رسولا ليس غريبا عنهم فيعسر عليهم الامتزاج به عربي من مكة أحبوه وقدروا كرم نفسه ونبل خلقه قبل بعثته. أخذ بعقولهم وقلوبهم إلى ما نزل عليه من آيات كتاب الله المنزلة عليه، فأثرت فيهم سموا في نفوسهم وإعلاء لأخلاقهم ومفاهيمهم، وعلمهم كيف ينتفعون بهذا الوحي المنزل: طريقة تلاوته وحفظه في صدورهم ليكون نورا لهم في مسالك الحياة وبين لهم ذلك أتم بيان بالطريقة العملية من سلوكه ﷺ. وصقل عقولهم فأشربت الحكمة فإذا جاهليتهم السابقة التي كانت تحبب إليهم مسالك الشهوة تحولت إلى تحكيم العقل الرّاشد في أرجاعهم واختياراتهم (الحكمة).

165-أولما أصابتكم... على كل شيء قدير.

ثانيا: إن هذه المصيبة التي أصبتم بها والتي أذهلتكم فتساءلتم كيف حصل ما حصل؟ قدم الجواب عن هذه الحيرة: أنكم قد سبق لكم أن انتصرتم نصرا عزيزا في بدر هو في قيمته وأثره على المعركة بين الكفر والإيمان ضعف ما لاقيتم في أحد. ومن ناحية أخرى فإن ما أصابكم هو نتيجة لما قدمتم فعودوا إلى أنفسكم حاسبوها. وهكذا يربي القرآن المؤمنين على النقد الذاتي وعدم البحث عن التبرير الذي لا يقوم معوجا ولا يصلح نفسا. نعم إن الله قادر على أن ينصركم رغم ما قمتم به من أخطاء، ,ولكن سننه في الكون جرت على الحكمة التي ربطت المسببات بأسبابها.

166-167: وما أصابكم يوم... والله أعلم بما يكتمون.

ثالثا: إن ما أصابكم يوم التقى الجيشان، فلأن الله لم يقدر أن يتداركم بألطافه، وليكون ما جرى مظهرا يميز بين المؤمنين وبين المنافقين فيفضح المنافقين بما صدر عنهم من أقوال وأفعال. فإن عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين لما صحب جيش المسلمين عمل على خلخلة الصف بدعوته أتباعه للعودة إلى المدينة.

فانخزل معه ثلث الجيش ،وقد توجه إليه عبد بن عمر بن حرام الأنصاري رضي الله عنه قائلا: اتقوا الله ولا تتركوا نبيكم وكونوا معه فإما أن تقاتلوا معنا وإما أن تحموا ظهورنا وتدفعوا عن الحوزة. وتكثروا سواد الجيش في عيون الأعداء. سجل القرآن جوابه المبرز لعمق نفاقه: لا يكون اليوم قتال، ولو كنا نتيقن أنه ستستعر الحرب لاتبعناكم وما رجعنا. إن جوابهم هذا يدل على أنهم قد ابتعدوا عن الإسلام واقتربوا من الكفر، إذ لم يبق لهم من صلة به إلا دعواهم أنهم مسلمون. أكد هذا المعنى بقوله: يقولون بأفواههم كلاما لا صلة له بما يجري في بواطنهم. والله لا يخفى عليه ما يجري في بواطنهم من بغض للإسلام وعمل على إضعافه.

168- الذين قالوا لإخوانهم... إن كنتم صادقين.

لم يقتصر بث الوهن في الصف الإسلامي قبل اللقاء بل تواصل ذلك حتى بعد المعركة، فقد أخذوا يشيعون إظهارا للأسف، وإلقاء من طرف خفي للوم على رسول الله وإيماء إلى أنهم أحرص على حياة المجاهدين منه فقالوا: لو أطاعنا هؤلاء الذين قتلوا وما خرجوا لهذه المعركة لبقوا أحياء بيننا. ويرد الله عليهم بما يفضح غباءهم وتمويههم: إن كنتم صادقين أن الذي لم يشارك في الجهاد واستجاب لنصيحتكم لا يموت، فاحموا أنفسكم من الموت، إن الموت سيأتي على حياتكم أحببتم أم كرهتم.

169-170: ولا تحسبن الذين قتلوا... ولا هم يحزنون.

رابعا: نوهت الآية بالوضع الذي صار إليه الذين قتلوا في سبيل نصرة دين الله وإعلاء كلمته، لا تظنوا أنه يجري عليهم ما يجري على غيرهم من الأموات. لقد ميزهم الله بخمس مزايا :

أ: أنهم أحياء عند ربهم إنهم يختلفون عن بقية الموتى، فلهم حياة خاصة زاد توضيحا لها:

ب: أنه يجري عليهم من ربهم رزق لا يحصل عليه غيرهم، هو رزق لا صلة له بالنواحي المادية، بل هو تكريم خاص بهم من القرب والنعيم الرّوحي.

جـ: أنهم في حالة من ذهاب جميع أنواع الحزن: استولى الفرح عليهم بما أغدق الله من فضله عليهم.

د: أنهم لم ينقطعوا عن الدنيا وعما يجري فيها فصلتهم بإخوانهم المواصلين للجهاد يدخل عليهم البِشْرَ بما يحققونه من انتصارات للإسلام. ومما يؤكد فرحهم

بما يعرفهم به ربهم من أخبارهم، أنهم أيقنوا بأن إخوانهم أمنوا في مستقبلهم كما أمنوا في نتائج ما سبق لهم، فلا يلحقهم الحزن مما ذهب وانقضى.

172-الذين استجابوا لله...أجر عظيم.

عظمت بشارتهم، وتأكد لديهم أنهم حازوا أكمل ما يبغونه، وهو الإيمان، وذلك أن جزاءهم ثابت تبعا لكمال إيمانهم، دليله أن الله يثبت أجر المؤمنين فلا يضيع شيء مما عملوه من خير. هؤلاء المؤمنون الذين استجابوا لنداء الرّسول في أحرج الأوقات في الوقت الذي أصابهم فيه الجرح المؤلم جرح الهزيمة، الذي من العادة أن يذهل المصاب فيشغله همه عن كل شيء لقد لازمهم الإحسان في أعمالهم وفي إيمانهم، وكتب الله لمن جمع بين الإحسان والتقوى أن يناله أجر يتجاوز كل تصور، ولذا وصفه الله سبحانه بأنه عظيم.

173-174-الذين قال لهم الناس...والله ذو فضل عظيم.

ومن توابع غزوة أحد التي سجلها القرآن ،أن المشركين وهم منصرفون، وَاعَدُوا المسلمين بالحرب في بدر السنة التالية. ثم بعثوا لهم عند اقتراب الموعد من يَذْكُرُ لهم أن المشركين قد جمعوا جيوشا كبيرة وأنهم سيهجمون هجمة ساحقة وكان قصدهم أن يزرعوا الخوف فيهم فلا يجازفون بالخروج للقائهم فيشيعون في العرب أن المسلمين ضعفوا وامتنعوا عن اللقاء. ولكن بمجرد ما بلغت هذه الشائعة حَمِيَ داعي الدفاع عن الدين في قلوب المؤمنين واستعدوا للخروج معلنين أنهم واثقون من أن الله سيكفيهم أعداءهم وينصرهم وأنهم اعتمدوا عليه فهو المدبر لأمرهم يهديهم ويسلك بهم خير الطرق وأنجحها فهو وكيلهم، والله بقدرته وعلمه لا يبلغ وكيل مبلغه في الهداية والنصرة. وخرجوا فعلا. ولكن قريشا أخلفت ما وعدت ولم تخرج إلى بدر فرجع المؤمنون إلى المدينة، وسجلوا على المشركين ضعفهم وخوفهم رجعوا يصحبهم ما أكرمهم الله به من نعمة العافية، وتحقيق عزة الإسلام، دون أن يحصل لهم مكروه.

175-إنما ذلكم الشيطان يخوف...إن كنتم مؤمنين.

هذا فصل من فصول المعركة بين الكفر والإيمان تبرز الآية نتيجتها: أن الكفر يعتمد على الشيطان الذي يستطيع أن يؤثر في أصحاب القلوب الخاوية من الإيمان، فيقذف فيها الخوف. أما المسلمون فهم لإيمانهم قد تحصنوا من تخويفات الشيطان بيقينهم الذي حجب قلوبهم عن وساوسه بحجاب يعجز عن اختراقه. فدُوموا أيها المؤمنون على الاستناد إلى قوة الله، القوة التي لا تقهر، وحصنوا بذلك أنفسكم

من الخوف، وخافوا من الله لا من غيره، فإن الخوف من غير الله يتبعه الهروب والابتعاد عما يخافه الإنسان بينما الخوف من الله مؤداه زيادة القرب منه إن الخوف من الله شارة الإيمان.

وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ ۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

الحظ: النصيب من الشيء النافع.

اشتروا: استبدلوا.

نملي لهم: نؤخرهم في الحياة.

سيطوقون: سيلبسونه أطواقا تحت أعناقهم وفوق صدورهم.

بيان المعنى الإجمالي:

حرص النبي ﷺ على اهتداء البشر حرصا كبيرا. فكان يحزن لإعراض من لم يؤمن. فخاطبه ربه مسليا له من إصرار الكافرين، فقال له: لا تحزن، إن كفرهم لا يؤثر فيما قدره الله من إظهار دينه، يريد الله أن يجزيهم عن تمردهم على الحق بحرمانهم فلا يكون لهم أي حظ من الكرامة يوم القيامة، بل لهم عذاب عظيم. إن الذين باعوا ما كان يمكنهم أن يحصلوا عليه من الإيمان باعوه بالكفر لن يصلوا بعنادهم هذا إلى النكاية في دينه، وأكد أن الله أعد لهم عذابا شديد الإيلام. لقد أخطأ الكافرون عندما ظنوا أن الله يؤخرهم ولا ينهي حياتهم إكراما لهم وزيادة في الخير وما غفلوا عنه أن الله بحكمته قدر أن يمهلهم ولا يقضي عليهم في الحال، ليكون كل يوم تستمر فيه حياتهم تتضاعف آثامهم، ويكونون مستحقين للعذاب المهين.

فمع الإيلام الجسدي العذاب النفسي بالهوان والإذلال . كان مجتمع المدينة مختلطا، بعضه مؤمن، وبعضه كافر وبعضه منافق فكما قدر سبحانه بحكمته أن يمهل الكافرين ليزدادوا إثما، كذلك قدر بحكمته أن يلقى المؤمنون في غزوة أحد هزيمة ميزت المؤمن الصادق الطيب في سريرته وفي أعماله، من الكافر السيء والمنافق الخبيث . ومن حكمته أيضا أن حجب الغيب عنكم ليحقق في الكون ما قدره، فيحصل من مباغتة الغيب للناس ظهور الصالحين وانكشاف المنافقين. إن هذا الغيب لا ينكشف منه شيء للناس ولكن الله يختار من عباده من يشاء لتحمل إبلاغ هدايته فآمنوا بالله وبهؤلاء الرّسل الذين هم حملة وحيه. فإن الذين آمنوا بهم وعملوا بما جاؤوا به لهم أجر عظيم في مقابلة القسم الأول الذين لهم عذاب عظيم.

يظن المنافقون أنهم بشحهم وامتناعهم من الإسهام في الإنفاق العام قد أحرزوا أموالهم فكان اختيارهم هو الاختيار الأفضل. أكد القرآن أنهم قد انصرفوا عن الخير إلى الشر وأن اختيارهم مفض بهم إلى أن أموالهم ستكون طوقا يختنقون به ويحملون أثقاله.

ومن غبائهم أن الأموال التي شحوا بها سيفارقون الحياة ويتركونها وراءهم. إن الأرض والسماوات آئلة كلها إلى الله. والله عليم ببواطن الأمور.

بيان المعنى العــام:

176-ولا يحزنك الذين... ولهم عذاب عظيم.

هذه الآيات مرتبطة بغزوة أحد. فإن الكفار بعد انكسارهم إثر انتصار المسلمين في غزوة بدر قد عادوا بعد غزوة أحد إلى التظاهر بكفرهم، يبثون في المجتمع سموم التشكيك، فكانت مظاهرهم تلك وأعمالهم الخبيثة التي جسمتها الآية بصورة من يجري مسرعا ظانا أن سيبلغ غايته عاجلا. وما غايتهم إلا هدم الإسلام، كان ذلك مما أحزن النبي صلى الله عليه وسلم، فخفف ربه عليه آلامه النفسية، ونهاه عن الاعتداد بتلك المظاهر، ذلك أن الله ناصر دينه، ولن يستطيع الكفار أن يمنعوا الإسلام من الظهور والانتشار.

سيحقق الله ما أراده لهم تبعا لفسادهم وإفسادهم: أنهم يأتون يوم القيامة محرومين من أي نصيب من الكرامة ولو قَلّ، بل لهم عذاب وصفه الله بأنه عظيم.

177-إن الذين اشتروا... ولهم عذاب أليم.

إنهم قد باعوا ما كان يمكنهم الحصول عليه من الإيمان في مقابل الاستمرار على الكفر. صفقة خاسرة عقدوها ولن تنتج لهم ولو شيئا قليلا، لأن الله قدر أن ينهزم الكفر الذي يعملون على سيطرته . ولا يحصلون من شرائهم ذلك إلا العذاب الأليم.

178-ولا يحسبن الذين... مهين.

خابت ظنون الكفار وفسدت نتائج ما حسبوه ، من أن الله لما مد لهم في الأجل وأمهلهم أن ذلك أمارة نجاحهم وازدياد حظهم من الخير. إن وراء هذا الظاهر الذي خدعوا به حقيقة رهيبة، هي أنه كلما تراخى بهم الأجل واستمروا في الحياة، فإنه سيتضاعف تبعا لذلك ما يحملونه من آثام، وسيلقون تبعا لذلك عذابا يتجاوز العذاب الجسمي إلى العذاب النفسي من المهانة والإذلال.

179-ما كان الله ليذر المؤمنين... أجر عظيم.

لتدبير الله حِكَم قد تخفى على الناس. لقد كان الكفار والمنافقون مندمجين في المجتمع المدني، وكانوا يتخفون فلا يظهرون ما تنطوي عليه سرائرهم من عداء للإسلام، وتعلقت إرادة الله أن لا يبقي مجتمع المدينة على هذا الوضع ، وأنه سيميز بين من خبثت سريرته وفسدت عقيدته، وبين من طابت نفسه وصلحت عقيدته. فتحقق ذلك بما تم في غزوة أحد. وهذا أمر مغيب عنكم وما كان الله ليطلعكم على أسرار الغيب وما يريده لكم من خير. ولكنه سبحانه تخير من عباده رسلا يبلغونكم وحيه، هذا الوحي الذي به نجاحكم في حياتكم الأولى والآخرة. فآمنوا بالله ورسله، فإنه بالإيمان والتقوى المنبثة عن صدق العقيدة، وحسن الفعل تنالون الأجر العظيم. وهنا تم التقابل بين عاقبة المؤمنين لهم أجر عظيم وعاقبة الكافرين لهم عذاب عظيم أليم مهين.

180 -ولا يحسبن الذين يبخلون... خبير.

بهذه الغزوة ظهر نفاق المنافقين ،إذ شحوا بأموالهم ، ولم يشاركوا المجتمع في تحمل نفقات المصالح العامة، بخلوا بما آتاهم الله من فضله إن الأموال التي بين أيديهم إنما حصلت لهم بفضل الله فهو الذي ساقها إليهم. إن جزاءهم على شحهم أن تلك الأموال ستكون أغلالا في أعناقهم، شهرة لهم في ذلك الموقف تنادي بدناءة نفوسهم وتكون أثقالا مادية لا يستطيعون نزعها من رقابهم. ومن عماهم أنهم لو نظروا لتبين لهم أن كل من ملك مالا هو في النهاية يتركه وراءه، وما جرى على الفرد يجري على الجنس كله، فالنهاية أن كل ما في السماوات والأرض سيتفرد الله سبحانه بملكه. والله سبحانه خبير بما تعملون، يعلم نواياكم وغاياتكم التي دفعتكم إلى ما عملتم، والطريقة التي بها أنجزتم تلكم الأعمال.

لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ
وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ

أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّامٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا
نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي
بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدۡ
كُذِّبَ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِكَ جَآءُو بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ
ٱلۡمَوۡتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوۡنَ أُجُورَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ
ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ۞لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ
وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ
أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

سنكتب ما قالوا: نثبته في صحائفهم التي بها يحاسبون يوم القيامة.

ذوقوا: الذوق مقصود به الإحساس.

الزبر: كتب الأنبياء.

المنير: المبين للحق.

زحزح: أبعد.

الغرور: الخدع والتمني بالباطل.

لتبلون: الابتلاء الاختبار لينكشف ما يقابل به المصاب مصيبته من الصبر أو الجزع.

عزم الأمور: إمضاء الرأي وعدم التردد.

بيان المعنى الإجمالي:

من مكائد اليهود ترويج مغالطاتهم، قالوا: إن دعوة محمد للإنفاق في سبيل الله يعتبر قرضا يجزي الله به أضعافه، ومعنى ذلك أن الله فقير ونحن أغنياء. هددهم بأن ما روجوه علمه الله وسيجزيهم عن وقاحتهم تلك جزاء محققا. فقد وثق ما نطقوا به في كتاب أعمالهم الذي سيصحبهم يوم القيامة، مع ما ارتكبوه من الآثام العظيمة كقتل الأنبياء ظلما وتمردا ويقابل مقالتهم الباطلة قول الحق من الله: ذوقوا عذاب النار المحرقة. وذلك جزاء عدل هو نتيجة ما قدمتم في حياتكم ،والله لا يظلمكم.

ومن الأباطيل التي يروجونها للتشكيك قولهم: إن الله أخذ علينا عهدا وميثاقا أن لا نصدق أي رسول إلا إذا نزلت نار من السماء تحرق القربان. أجبهم يا محمد بما يبرز كذبهم وتعنتهم: إن الله قد بعث فيكم أنبياء مؤيدين بالآيات الدالة على صدقهم وبما تزعمون، وآمنتم بهم ثم قتلتموهم فلماذا أقدمتم على قتلهم بعد إيمانكم بهم إن كنتم صادقين. فلا تحزن يا محمد إن تمادوا على عنادهم وتكذيبك، فهذه سنة المستكبرين عن اتباع الحق، فقد كذبت رسل من قبلك قدموا بين يدي دعوتهم الآيات البينة الواضحة على صدقهم، وجاءوا بالكتب المنزلة من عند الله وبالتوراة.

وخلاصة الأمر أن كل نفس ستموت، وأنه بعد الموت سيأتي الحشر والحساب، وهو يوم ظهور نتائج الامتحان في الحياة الدنيا. فمن زحزح عن النار، فأدركه لطف ربه وابتعد عن النار وأدخل الجنة فقد نجا وحصل مبتغاه في الخاتمة. وكل ما يستمتع به الإنسان في الحياة الدنيا هو متعة تغر وتخدع من تعلق بها.

ثبت الله المؤمنين بما يجب عليهم أن يكونوا عليه في مواجهة متنوع الصعاب. أعلمهم أنهم يختبرون في أموالهم مثل ما استحوذ عليه مشركو مكة من أموال المهاجرين وما ستتعرضون له من القتل والجراح في الجهاد، وسيقرع أسماعكم أنواع كثيرة من الهجو ووقاحة الكافرين. فاصبروا على دينكم ولا تشغلكم سفاهتهم عما أنتم عليه من الهدى، فإن صبركم وثباتكم على سلوك ما يرضي الله (التقوى) تنالون به ثواب أهل العزم لأن ذلك من عزم الأمور.

بيان المعنى العام:

181-182: لقد سمع الله... بظلام للعبيد.

أخذ اليهود يبثون بين الناس من آمن ومن لم يؤمن، أباطيل وتمويهات تصد من لم يؤمن وتزلزل بعض ضعاف الإيمان. فمما موهوا به: أن القرآن دعا للإنفاق في سبيل الله وخاصة بعد نكبة أحد واستعداد الرّسول وجماعة الإيمان لبناء أنفسهم بناء جديدا يدفع صولة الكفر وما يقتضيه ذلك الوضع من بذل سخي للتسليح وأدوات الجهاد. فقالوا: إن الله يطلب من الناس أن يبذلوا أموالهم باعتبار أن ما يقدمونه هو قرض يضاعف الله مثوبته، وبنوا على ذلك أن الله فقير وأن المطلوب منهم أغنياء. ويعقب القرآن على ما قالوه فيحقق أن الله قد سجل جراءتهم على الله تسجيلا لا يمحي، وليست هذه أول جراءة من اليهود، فإن آباءهم قد اعتدوا وقتلوا أنبياءهم ظلما وعدوانا. ويوم القيامة يأذن الله لجهنم أن تعذبهم بإحراقهم بنارها مع تضاعف إحساسهم بالعذاب، ثم يخزيهم سبحانه بإعلانه أن ما انتهى إليه أمرهم هو جزاء ما قدموه لم يظلمهم إذ لا يتصور أن يظلم الله عبيده.

183-الذين قالوا... إن كنتم صادقين.

يتواصل فضح افتراءاتهم وكذبهم على الله، بادعائهم أن الله أخذ عليهم عهدا مؤكدا: أن لا يؤمنوا لمن يدعوهم لا تباع دينه إلا بشرط أن تنزل نار تحرق قربانه. نفى الله أن يكون قد وقع هذا وأنه أخذ العهد عليهم باختبار صدق الرّسول وارتباط الإيمان بهذه النار. وذلك أن الله بعث لهم رسلا بعد موسى عليه السلام فجاؤوهم بالآيات البينة والأدلة الظاهرة، وآمنوا بهم زمنا على معنى أنه قد جاؤوكم بما قلتم، ولكنكم بعد كل ذلك قتلتموهم. فَلِمَ تجرأتم عليهم وقتلتموهم إن كنتم صادقين في دعواكم هذه ؟

184-فإن كذبوك... والكتاب المنير.

تأثر النبي ﷺ من تصميمهم على رفض دعوته ونشر الأباطيل والأكاذيب التي يزعمون أنها مستمدة من الوحي الذي نزل عليهم فواساه ربه وآنسه بأن ذكر له ما حصل لمن تقدمه من المرسلين، فإنهم قد كُذِّبُوا رغم ما تأيدت به دعوتهم من الأدلة الواضحة البينة، ومن الكتب المنزلة ومن التوراة التي هو نور.

185-كل نفس ذائقة الموت ... متاع الغرور.

يعقب القرآن على كل ما سبق من جراءتهم على الله وعلى رسله، وافترائهم وادعائهم أنه قد عهد إليهم، وإصرارهم على تكذيب رسول الله والكيد للإسلام يعقب بالتذكير بحقيقة يغفل عنها الناس، لو يذكرونها ويتفكرون فيها لاستقاموا، هذه الحقيقة أن كل نفس لها أجلها الذي تنتهي إليه حسبما قدره الله لها، لا تتأخر عنه لحظة ولا تتقدم. ثم تجد كل نفس جزاء ما قدمت. والناس فريقان في هذه النهاية: فريق السعداء، وفريق الأشقياء الذين يفهم مصيرهم النهائي المناقض لمصير السعداء. اعتنت الآية بالسعداء الذين ابتعدوا عن النار وأدخلوا الجنة دار الكرامة وهؤلاء قد فازوا ونجحوا ونجوا من الأخطار. إنه النجاح الحقيقي إذ كل ما يستمتع به الإنسان في الحياة الدنيا، هو نعيم زائف قليل خادع يمني الإنسان ويرخي له في الآمال.

186- لتبلون في أموالكم... فإن ذلك من عزم الأمور.

التفت القرآن بعد ذلك لتقوية عزيمة المؤمنين على المواصلة، فبين لهم أنّه سيجري الاختبار في أموالهم كما حصل من اعتداء مشركي مكة على أموال المهاجرين التي تركوها وراءهم. وما يقدمونه من أموال لتجهيز الجيوش وما تأكله الحرب من أموال بأسباب مختلفة. فبمقدار سماحة نفوسهم بمكاسبهم وعدم اضطرابهم لما

يلحقهم من ذهابها يكون نجاحهم في الامتحان. وسيمتحنون أيضا في نفوسهم بالقتل والجراح وأنهم سيلقون من سفاهة المشركين ما يؤذيهم بالسباب والطعن في كرامتهم وأعراضهم ، فاصبروا فإنه إن صبرتم على ذلكم الابتلاء فاعلموا أنكم ترتفعون إلى المستوى الإنساني الرّفيع الذي هو من أشد الأمور وأحسنها.

وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

بيان معنى الألفاظ:

نبذوه: النبذ: الطرح والإلقاء بمعنى عدم العمل به.

مفازة: منجاة.

بيان المعنى الإجمالي:

اذكر، يا محمد، وأعلنْ أن الله أخذ على بني إسرائيل عهدا موثقا: أن يبينوا ما جاء في كتابهم، ولا يكتمون منه شيئا. فنقضوا العهد ولم يعملوا به، وباعوا الأمانة بثمن بخس. إن ما أخذوه إلى زوال قريب، شأن ما يحصل عليه الإنسان في الحياة ويعقبه جزاء خيانة العهد يوم القيامة، إن ما حصل لهم هو أسوأ مقابل.

ويرفع القرآن بعد ذلك وهما من أوهام علماء يهود ومن المنافقين منهم ومن غيرهم، هذا الوهم هو أنهم استطاعوا أن يوهموا المسلمين بأنهم على حظ رفيع من الخير، وفرحوا بتسجيل ذلك الظاهر، وبنوا عليه أنهم ينتظرون من المؤمنين أن يمدحوهم على ما فعلوا. إن تمويهاتهم لا تدفع عنهم ما يترصدهم من العذاب الأليم. إن الله هو المتفرد بملك السماوات والأرض لا يغيب عن علمه سبحانه أي حادث فيهما، ومن باب أولى اطلاعه على حقيقة ما يضمرون.

بيان المعنى العام:

187-وإذ أخذ الله ميثاق... فبئس ما يشترون.

يؤكد القرآن أن الله أخذ بواسطة رسله على من آمن بهم أن يعلنوا ما أنزل عليهم ولا يحرفونه، وأن يبلغوه لمن يأتي بعدهم على النحو الذي بلغهم من ربهم واضحا، وأن لا يعمدوا إلى تأويله تأويلا يخرجه عما قصد به، وأن لا يحذفوا منه شيئا

يخفونه عنهم. وثق عليهم العهود بالوفاء وحذرهم عاقبة نقضها. ولكن شراهة أعقابهم، الذين كانوا في زمن بعثة محمد ﷺ، على ما ينفعهم في العاجل من رئاسة وما يتبعها من جمع الأموال ومن ممالأة المستبدين من الحكام والظلام من الموسرين أفسد مسيرتهم فتركوا تلكم التعاليم والعهود التي عاهدوا عليها عند تلقيهم للعلم، وجعلوها خلفهم لا ينظرون إليها. وما حصلوا عليه في مقابل الإرث النبوي، ثمن زهيد في الحقيقة، لأنه مسلوب البركة من ناحية ومآل آخذيه الخذلان والخسارة في الدارين من ناحية أخرى، فهو أسوأ ثمن وأخسه وأبخسه.

وهذا هو شأن الذين تفسد أرواحهم من أصحاب المقامات العلمية في كل زمان الذين يغلبون مصالحهم العاجلة فيحرفون الكلم عن مواضعه طمعا في الرئاسة أو المال السحت.

189/188-لا يحسبن الذين يفرحون... على كل شيء قدير.

يرفع القرآن في هذه السورة بعضا من الأوهام ، اعتنى بإزالتها وبين زيفها. الوهم الأول: حسبان الذين قتلوا في سبيله أمواتا **(ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا)**[1] – الوهم الثاني**(ولا تحسبن الذين كفروا أنما نملي لهم خيرا لأنفسهم)**[2] – الوهم الثالث **(ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم)**[3]. الوهم الرّابع **(ولا يحسبن الذي يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا)**[4].

هذا القسم الرّابع: يمثل نمطا من البشر يبتهجون بما استطاعوا أن يغالطوا به غيرهم ويخدعوهم ، ويفرحون بتمرير خبثهم على أنه خير وصلاح وينتظرون أن يكال لهم المديح على شرورهم التي غلفوها بظاهر من الخير والقصد الطيب. هذا النمط الماكر لا يختص بوقت نزول الآية، بل هو مندس في الجماعات يعشش فيها كما تعشش الطفيليات الضارة في الأجسام السليمة، تتخفى حتى لا يكاد المبتلى بها يشعر بها ثم تبثٍ سمومها. ويدخل فيه دخولا أوليا من كانوا موجودين في عهد الرّسالة ، منهم المنافقون الذين كانوا يقدمون لرسول الله ﷺ المعاذير الكاذبة للتخلف عن الغزو ويعذرهم ويعلنون أنهم ما تخلفوا إلا لتلكم المعاذير وأنهم مع

[1] سورة آل عمران آية 169

[2] سورة آل عمران آية 178

[3] سورة آل عمران آية 18

[4] سورة آل عمران آية 188

المؤمنين. ومنهم أحبار يهود الذين حرفوا ما سئلوا عنه من التوراة ويعبرون عن فرحهم بأنهم بلغوا ما عندهم من العلم، وأنهم أهل لأن يثنى عليهم لنشر ما أنزل إليهم. يقول الله لنبيه ولكل مؤمن، يحاول هذا النمط خداعه: لا تظنن أنهم قد نجوا من العذاب، وأنه وإن قبلت أقوالهم في الظاهر، وأنه لا موجدة عليهم ممن قبل منهم ولكن الله سيجزيهم على خبثهم فيعذبهم العذاب الأليم. وصنيعهم هذا هو من كفرهم وسوء ظنهم بعلم الله، فإن الله له ملك السماوات والأرض يعلم كل دقيقة فيهما، ولولا دقة علمه بالخفايا فيهما وإحاطته بما يجري فيهما ما انتظم أمرهما. ولولا أن كل ما في الكون خاضع لقدرته لا يخرج عنها لعمّت الفوضى فيه. وبهذا فمن جهلهم وكفرهم ظنهم أن تمويهاتهم تمر بدون عقاب.

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾
ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن
تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا
يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا
وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ
إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن
ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخْرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأُوذُواْ فِي
سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

باطلا: لغير غاية.

سبحانك: تنزيها لك عما يقوله المبطلون.

لا تخزنا: لا تفضحنا بما يخجل منه المفضوح.

استجاب: أجاب.

بيان المعنى الإجمالي:

حث المـؤمنين أن تكـون حيـاتهم حيـاة اليقظـين لا الغـافلين. ففـي خلـق السـماوات والأرض على النظام الذي يسيرها ويحكمهـا. وكـذلك تعاقـب الليـل والنهـار واقتطـاع هذا من ذاك والعكس، وفي تداخلهما علـى نظـام لا يتبـدل ولا يختـل. فـي كـل ذلـك دلائل واضحة لأصحاب العقول النافذة منادية بقـدرة الخـالق وحكمتـه وكمالـه يـدفعهم هذا النظر إلى تسبيح الله وتمجيـده علـى أيـة حـال كـانوا، سـواء أكـانوا قـائمين أم قاعدين أم متكئين على جنوبهم، أي في جميـع أحـوالهم لأن وضـع الإنسـان الحـي لا يخرج عن وضع من هذه الأوضاع الثلاثة. ثـم تلهـج ألسـنتهم وقـد تملكهـا الإعجـاب بما لاحظت وشاهدت: **ربنا** إنك خلقت هذا العـالم لغايـة لا عبثـا، تنزهـت فـي كمالـك وحكمتك عن العبث. فَنَجِّنَا من النار. **ربنا** إننا مـدركون تمـام الإدراك أنـك مـن ترمـي به في النار فقد سلطت عليه الخزي وفضـحته بـين الخلائـق وأهنتـه. وأنـه لا مطمـع له أن يجد نصيرا ينصره لا بشفاعة ولا بدفع عوض عنـه. ثـم يشـكرون ربهـم: **ربنـا** إن اهتداءنا من فضلك ما اهتدينا إلا لأننا سـمعنا كلامـك ينادينـا إلـى الهـدى والإيمـان فتعلقنا به وآمنا. ثم يطلبـون ربهـم: **ربنـا** اغفـر لنـا ذنوبنـا بعفـوك واسـترها ولا تفضحنا بها، وتولنا بفضلك فاجعل كل سيئة قمنا بها تجد مـن كرمـك مـا يمحـو آثارهـا وواصل علينا فواتح رحمتك حتى يجمعنـا المـوت مـع الصـالحين مـن عبـادك. **ربنـا** حقق لنا ما وعدتنا على لسـان رسـلك مـن النصـر علـى الأعـداء، وتمكـين الـدين، والثبات على الإيمان حتى نفوز برضـوانك فـي جناتـك. عَجَّـلَ لهـم ربهـم بإجابتـه لابتهالاتهم فطمأنهم أنه لا يحبط أي عمل صالح قـام بـه ذكـر أو أنثـى مـن الـداعين، الذكر والأنثى سواء في تحقق الوعـد لجـزاء أعمـالهم، إذ هـم فـي آدميـتهم سـواء ويفصل القرآن أهم الأعمال الصالحة:

أ: الهجرة الأولى إلى الحبشة والهجرة الثانية إلى المدينة المنورة.

ب: تفضيلهم ترك الديار والاستيلاء على الأموال على الافتتان في الدين.

ج: ثباتهم رغم الإذاية بسبب إسلامهم والصبر المطمئن على العقيدة.

د : المقاتلة في سبيل نصرة الدين وشاركت النساء فـي الجهـاد بمـا كـن يتولينـه مـن القيام على خدمات ضرورية للمجاهدين.

هـ: بذل النفس في سبيل العقيدة في السلم والحرب.

هذه النواحي الخمس قام بها المسلمون ذكـورهم وإنـاثهم بمـا تفرضـه عقيـدتهم، فأكـد مرة ثانية أنه سيكفر عنهم سيئاتهم ليـدخلهم دار الكرامـة فـي جنـات تتخللهـا الأنهـار

الجارية، لا منة لأحد عليهم، ثوابا خالصا من ربهم الذي دعوه. والثواب الكامل الحسن هو من عند الله وحده.

بيان المعنى العام:

تنتظم خاتمة سورة آل عمران مشهدا عجيبا بلغ غايات السمو بالتقابل بين الكون والإنسان وبين الابتهال والثواب وبين آثار الصلاح والجزاء.

190-إن في خلق السماوات والأرض... لآيات لأولي الألباب.

أولا: هذا الكون الكبير السماوات ما يدركه منها الإنسان ببصره ،و ما يتحقق بعض ما تحويه بالعلم والبحث والآلات، والأرض التي يعيش على وجهها وما فيها من مظاهر تتقلب أمام ناظره، وما يجري في بطنها من قوى انكشفت له أو ما تزال تحمل أسرارها منتظرة من الإنسان أن ينفذ إلى تلكم الأسرار ليطوعها لخير التقدم الإنساني ورفاهيته، والحياة السارية فيها من النبات إلى الحيوان إلى الإنسان كل هذا الكون الكبير المترامي الأطراف، يقرر القرآن أن في خلقه بالإيجاد، وأن في أسرار خلق كل جزء من أجزائه مهما ضؤل أو عظم، وكذلك التقلبات الكبرى التي تتابع كل يوم من تعاقب الليل والنهار على حساب دقيق وآثار تلكم التقلبات على كل الكائنات الأرضية يجد في ذلك أصحاب العقول اليقِظة **(أولو الألباب)** دلائل القدرة التي لا تحد والعلم الذي يتجاوز تصورات البشر والإرادة النافذة والحكمة البالغة. هي آيات شاهدة وناطقة بلسان حالها على أن النظام والتقدير المحكم قاعدة هذا الخلق، فيبلغ العقل اليقين بوجود الخالق وكماله.

191-الذين يذكرون الله...عذاب النار.

إنه إذا كان العلم مفتاح الأبواب لكل من يمحض له همته، ويواصل البحث الدؤوب، فينكشف له بذلك ما ينكشف له حسب ما رزق من ذكاء، وخطة صالحة، وحسن تعاون وموقعه من الميراث المعرفي البشري، فإن محصوله المعرفي هذا يكون مقطوع الرّأس مُنْبَتًا إذا هو لم يربط كل ذلك بمبدع الأكوان الله رب العلمين. إن المحصول المعرفي إذا استقر في العقول ولم يتجاوزها إلى القلوب والأرواح لا يكون صاحبه منتفعا بعلمه. هو كمن يملك ثروة عظيمة، ولكنه لا يبلغ بها أن يستر جسمه ويغذي بدنه. فالعلماء أصحاب العقول الكبيرة، علمهم غير فاعل إذا لم يهتدوا بذلك إلى ربط الكون بمبدعه، والاستعداد لما ينتظر كل فرد من حساب وجزاء.

فإذا امتلأ العقل من التدبر فأيقظ جميع القوى ليسير معها في موكب واحد، يتحرك اللسان بذكر الله، فيمجده ويحمده ويشكره. ويكون حضور المخزون المعرفي

متوهجا في جميع الأزمان والظروف، سواء أكان قائما أم قاعدا أم مضطجعا. وأعلى مقامات الذكر والقرب من الله في الصلاة وتشير هذه الآية إلى أن المصلي مطلوب منه أن يصلي قائما فإن عجز صلى قاعدا فإن عجز صلى مضطجعا فعلى جنبه الأيمن ثم الأيسر ثم على ظهره.

-إن الذكر باللسان أمر مهم، ويبلغ كماله عندما ينطلق العقل متأملا فيما كان عَمَرَ به الفكر من آيات الله في الأنفس والآفاق، فيعقبه التصريح بالإعجاب بما نفذته يد الإبداع الإلهي، ويصرح تصريحا نابعا من تتبعه لحقائق الكون وقوانينه الحاضرة في ذهنه: ربنا ما خلقت هذا باطلا لا لغاية، وعبثا دون أن يترتب على ذلك نظام مرعي فيه صلاح، تنزهت ربنا عن نقص العابثين.

192-ربنا إنك من تدخل النار... من أنصار.

ثانيا: إثر هذا التصريح بما وقر في النفوس من إيمان يسمو بصاحبه إلى مقامات يشعر فيها أنه قريب من خالقه وخالق الأكوان، ترتفع الأيدي إلى بارئها داعية، وتنطلق الأرواح مبتهلة: فقنا عذاب النار. إن اليقين بالجزاء المبني على أن الخلق ليس عبثا وأنه سيتبعه الجزاء بدخول الجنة أو النار يتبعه: احْمِنَا ربنا من عذاب النار.

وتَرِقُّ الأشواق وينمو الشعور بالقرب، فيخاطب المؤمنون المتأملون الواعون أنهم مستحضرون لما حذرهم منه ربهم: أن من يدخل النار يصحب العذاب الجسمي العذاب النفسي من الخزي والمهانة، ومن الشعور بالضياع وفقد النصير والمعين، فتتقطع الأسباب والصلات ويحس كل من دخلها بأنه لا مغيث له ولا نصير.

193-ربنا إننا سمعنا... مع الأبرار.

ويزداد إحساسهم بالقرب فيبتهلون: ربنا إننا سمعنا مناديا نفذت كلمته إلى قلوبنا وبلغ نداؤه أعماقنا: أن افتحوا عقولكم وأرواحكم على ما يتضمنه الإيمان، فاستجبنا وآمنا. هل هذا النداء هو نداء الرّسول ﷺ مما وعته آذان الصحابة أو نداؤه المسجل في كتاب الله وسنة رسوله المحفوظ على مدى الأزمان؟ الظاهر عندي هو الثاني. بعد الإيمان يأتي العمل بما جاء به الإسلام. والإنسان ضعيف، وللنفس نزوات، وطائف الشيطان يحجب البصيرة، ويبعد الشخص عن منازل الصفاء والتقوى ويقعد به عن التزام رتبة التطبيق الكامل بصفة دائمة، فالابتهال التالي: ربنا فاغفر لنا ذنوبنا، واسترها علينا، واعف عنا ولا تؤاخذنا بما قصرنا فيه من عبادتك، وما كان من تعدينا على خلقك فَتَوَلَّنا بتكفير آثامه عنا وأرضهم من فضلك بما يمحو آثار تجاوزنا. وثبتنا ربنا على هذا المنهج إلى أن نكون في اليوم الذي

تتوفى فيه أنفسنا قد بلغنا مرتبة الصفاء والقرب التي تجمعنا مع الأبرار المتقين الذين جمعوا الخير من أطرافه.

194-ربنا وآتنا ما وعدتنا...إنك لا تخلف الميعاد.

تختم الابتهالات بأن يحقق لهم الجزاء الذي وعد به الصالحين على لسان رسله من خيري الدنيا والآخرة. طمأنينة في القلب، وحبا لله، ورضا بما قدره ويسره ونصرا على الأعداء وغلبة للإسلام وانكسارا لأعدائه، وفوزا بنعيم الجنة ووبرضا الله. وأن يبعدهم عن منازل الخزي والمهانة. مطمئنين وهم يدعون بأن فضل الله سيحقق لهم دعواتهم، إنك سبحانك لعزتك وكمالك لا تخلف ما وعدت به.

ثالثا: هذه الابتهالات وتلكم الأشواق، وقد ارتفعت إلى مولاها بدعاء القرب، **ربنا** تكررت خمس مرات فأثبت سبحانه أنه أجاب عبيده، وقربهم إليه ، لأنه **ربهم** الكلمة التي تربط الإنسان بخالقه في صورة من العناية به وتتابع ألطافه عليه. قال الإمام جعفر الصادق: من حَزَبَهُ (نزل به أمر مهم أغمه) فقال خمس مرات: ربنا، أنجاه الله مما يخاف وأعطاه ما أراد. قيل وكيف ذلك؟ قال: اقرؤوا إن شئتم (**الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم... إنك لا تخلف الميعاد)**

195-فاستجاب لهم ربهم...حسن الثواب.

أكانوا ذكورا أم إناثا فلا الجنس يرفع عمل العامل ولا هو يخفضه. إن العدل الإلهي يزن الأعمال بقيمها وصفاء سريرة أصحابها. والتسوية بين الرّجل والمرأة لا يشوبها تمييز في هذا الميدان. لأن الامتزاج بين الجنسين كامل في الحقيقة الإنسانية. فالذين هاجروا وتركوا ديارهم وأموالهم في الهجرة الأولى إلى الحبشة أو في الهجرة الثانية من مكة إلى المدينة المنسورة من الرّجال والنساء وتوالى عليهم الإيذاء، وقد أوذي المؤمنون والمؤمنات في الله من المشركين المكيين، ولم يستسلموا لصولة الشرك العاتي بل ارتقت عزائمهم للقتال والتمكين للإسلام من الانتشار ومات بعضهم في الجهاد من الرّجال والنساء ، وشارك النساء الرّجال في ساحة الحرب يقمن بما يحمي ظهور المقاتلين، ويمددنهم بما هم في حاجة إليه من إسعاف الجرحى ونقل الأقوات والإمداد بالسلاح، هؤلاء لأجزلن ثوابهم بما يمحو ما ارتكبوه من سيئات، ثم لأضاعفن ثواب صالح أعمالهم فأدخلهم الجنة التي تتخللها الأنهار الجارية. وما أوتيهم هو ثواب خالص صادر من عندي لا منة فيه ولا خوف من انقطاعه. وأحسن الثواب وأكمله وأرفعه وأتمه هو ما كان واردا من عند الله مالك الملك.

لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ
ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن
يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا
قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

لا يغرنك: لا يخدعك.

تقلب: تصرف.

متاع: ما يعجل الانتفاع به.

نزل: ما يعد إكراما للضيف.

بيان المعنى الإجمالي:

لا يخدعنكم ما أو تيه بعض الكافرين مما يتعلق بالحياة الدنيا وتصرفهم فيها تصرفا ناجحا في السلم أو الحرب من الثراء ، أو بعض الانتصارات في المعارك، فلا تحزن لكل ذلك فهو سائر إلى زوال وذل. وعاقبتهم جهنم أسوأ مصير. يضاعف نكالهم ما تقرر للمتقين من جنات تتخللها الأنهار خالدين فيها لا يخرجون منها، فهم ضيوف الرّحمن أعد لهم ذلك إكراما لهم. وما خبأه الله للصالحين الأتقياء هو خير من كل نعيم.

ثم أثنى القرآن على بعض أهل الكتاب ممن آمنوا بالله وآمنوا بما أنزله الله على رسلهم، وواصلوا انفتاحهم على ا لحق بالإيمان بما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم قرنوا إيمانهم بالتذلل لله، وحافظوا على ما تلقوه عن الله فلم يغيروا منه شيئا ولم يبيعوا ما اؤتمنوا عليه بثمن هو بخس مهما علا . أولئك لهم أجرهم مدخر عند ربهم، وليطمئنوا بأنهم سينالون فضل الله عليهم في الدنيا والآخرة بدون تأخير.

وتختم السورة بوصية جامعة للخير فتدعو المؤمنين إلى الصبر ومغالبة الصابرين من الأعداء، وتنادي فيهم: أن لازموا اليقظة فلا تتراخوا في حراسة النقط والمداخل التي يمكن أن يفجأكم منها العدو. وتحلوا بالتقوى التي هي باب الفلاح في الدنيا والآخرة.

فائـــــدة:

قال العلماء: يستحب لمن انتبـه مـن نومـه أن يمسـح علـى وجهـه، ويسـتفتح قيامـه بقراءة هذه العشر الآيات اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم. ثـم يصـلي مـا كتـب لـه، فيجمع بين التفكر والعمل[1].

بيان المعنى العام:

196←198، لا يغرنك تقلب... للأبرار.

من عناية القرآن بالمؤمنين الذين نوه بهم ووعـدهم مـا وعـدهم ممـا فصـلنا القـول فيه في الآيات السابقة، من عنايته أنه عمل على تحصـينهم مـن مظـاهر لافتـة للأنظـار مثيرة للتساؤل. إذ يشـاهدون بعـض الكـافرين يتقلبـون فـي متسـعات مـن الثـروة والصحة والأولاد ويتـاجرون فيربحـون، ويحققـون فـي بعـض المعـارك انتصـارات كما وقع في غزوة أحد، والشيطان يسـعى بوسوسـته إلـى لفـت الأنظـار إلـى ذلـك فيوقع في النفوس إكبارا لما هم فيه من نعمـة. وذلـك أول مراتـب ارتجـاج الصـمود. فينبه القرآن أولئك المنوه بهم إلى أن تلكم المظـاهر أو الجـولات هـي منفعـة عاجلـة قليلة الأهمية سريعة الزوال مقطوعة من الجزاء الـدائم يـوم القيامـة. ثـم إنهـا تنقلـب عليهم لتكون الغاية التي يسيرون إليها ويقيمـون فيهـا جهـنم، فمـا أسـوأ مـا هيـأوه لأنفسهم وما أسوأ ما هيأه الله لهم! 198-وليبرز ما قصده يُـذَكِّرُ بمـا أعـد للمتقـين مـن جنات تتخللها الأنهار، هي مـا أعـده الله لضـيوفه مـن الكرامـة . ومـا عنـد الله مـن الثواب والكرامة هو أفضل من كل نعيم، وخير من كـل مـا حصـل عليـه البشـر فـي حياتهم الدنيا.

199-وإن من أهل الكتاب... سريع الحساب.

وليمكن في تثبيتهم يـذكرهم بـأن بعـض أهـل الكتـاب جمعـوا بـين الإيمـان بـالله والإيمان بالحق الذي تلقوه من رسلهم والإيمان بما أنـزل علـى رسـوله صـلى الله عليـه وسلم وبلغه للأمة، وهم قد أضافوا إلى الإيمان شـعورهم بعظمـة الخـالق فهـم متـذللون خاشعون، يكبر عليهم أن يبيعوا ما تلقوه من الشـريعة كمـا صـنعه أحبـار يهـود حـين بدلوا وغيروا مقابل رئاسـتهم الدنيويـة ومـا يقبضـونه مـن أمـوال. ويبشـر الله هـذه الطائفة بأن الله سيجزيها في الدنيا والآخرة جزاء سريعا لا يبطئ.

[1] فتح الباري ج 9 ص 30 3 /30 5

200-يا أيها الذين آمنوا...لعلكم تفلحون.

تختم السورة بالوصية الجامعة التي ينادي فيها جميع المؤمنين بوصف الإيمان بما يشير إليه ذلك من وجوب الالتزام، لأنه من مقتضيات الإيمان. اصبروا الصبر الإيجابي صبر العزم على الثبات مهما اشتد الامتحان، اصبروا على الإيمان الذي نعمتم به، اصبروا على نصرة الدين ومقاومة أعدائه اصبروا على معاكسات الحياة فالحياة جهاد والنصر فيها للصابرين، اصبروا على التعلم وعلى البحث وعلى مقاومة الشر. والصبر باب جامع لكل المواقف النبيلة الشريفة الناجحة. وإذا لقيتم من أعدائكم من يصبر على اللقاء فكونوا أتم منه صبرا وأكمل. وكونوا يقظين لرعاية المواطن التي يمكن أن يباغتكم العدو منها لتكن كل عين من عيون المسلمين حارسة للجماعة شاعرة بمسؤوليتها في حفظ الأمة ومناعتها. وجماع الخير هو في أن تحل التقوى في قلوبكم حلولا يمتزج بكل ما تقومون به من قول أو عمل. اتقوا الله فإن التقوى سبيل الفلاح.

ســـــورة النســـــاء

هذه هي السورة الرّابعة حسب ترتيــب المصــحف. وهــي ســورة مدنيــة نزلــت علــى رسول الله ﷺ بعد الهجرة. تواصــل نزولهــا أعوامــا. وحســب ترتيــب النــزول عــدت السورة الثالثة والتسعون نزلت بعد سورة الممتحنة وقبل سورة الزلزلة.

سميت في المصاحف. وفيما رواه أصــحاب الصــحيح بســورة (النســاء) ووجــه ذلــك افتتاحها بأحكام صلة الأرحام، وتشريع أحكام كثيرة متعلقة بالنساء.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

بث: نشر.

تساءلون به: يسأل بعضكم بعضا فيقسم عليه بالله.

الرّقيب: حفيظ لا يغيب عنه شيء.

آتوا: احفظوا لهم أموالهم حتى يأخذوها إذا رشدوا

اليتامى: جمع يتيم. وهو الذي فقد أباه في حال صغره.

الخبيث: الحرام.

الحوب: الإثم.

بيان المعنى الإجمالي:

إيقاظ ونداء وأمر لجميع الناس، من كان حاضرا وقت نــزول الآيــة ومــن ســيأتي بعــد ذلك إلى يوم القيامة، أن على كــل فــرد مــنهم أن يحــذر غضــب ربــه، وأن يراعــي حقوقه، إذ ما كان لأي فرد أن يخــرج إلــى الحيــاة لــولا إرادة الله خلقــه. ذلــك الخلــق العجيب المنبثق من نفس واحدة (آدم الرّجل الأول)، ثــم إبــراز زوجــه (حــواء) منــه.

ثم انتشر نسلهما في الأرض ذكورا وإناثا. وكرر الأمــر بتقــواه وقرنــه بــأمره بمراعــاة حقوق القرابة التي تشكلت منها الأسر معلــلا ذلــك بــأن مــن الفطــرة مــا غــرس فــي ضمير الإنسان من تعظيم الله وتعظيم القرابــة فقــد جــرت عــادة النــاس أن مــن أراد أن يقسم على مخاطبــه، ســأله بحــق الله وبحــق القرابــة والــرّحم. واعلمــوا أن الله لا يغيب عنه شيء من تصــرفاتكم. وإنــه إذا كانــت العلاقــات بــين ذوي القربــى محميــة بتهيؤ الإنسان للــدفاع عــن حقوقــه فــإن اليتــامى الــذين فقــدوا آبــاءهم معرضــون للاستيلاء على أموالهم لضعفهم. فصرحت الآية بأن أكل مال اليتيم إثم كبير.

بيان المعنى العام:

1-يا أيها الناس اتقوا ربكم...رقيبا.

نداء من رب العباد، يأمرهم بأن يلزمــوا تقــواه فيحــذروا موجبــات ســخطه وغضــبه، وأن يحرصوا على الوفاء بحقوقه وأوامــره وأن لا يغفلــوا عــن الحقيقــة التــي جــرى عليها وجود هم على هذا الكوكب هذه الحقيقــة التــي مفادهــا أن أصــل خلــق البشــر من نفس واحدة (**آدم أبو البشر جميعا**) ثم أنشأ من هــذه الــنفس الواحــدة زوجــا لهــا (**هي حواء أم البشر أيضــا**). وانتشــر مــن نســلهما مئــات الملايــين الــذين عمــروا الأرض التي استخلفوا فيها. إن في هذا الخلــق العجيــب الإنســان فــي تركيبــه المعقــد والمنظم كأتم ما يكون النظام والتناسق، مــا يــدعو الإنســان كــي يكــون دومــا ذاكــرا للقدرة المبدعة، التي قدرت مما قــدرت، فــي تركيبــه أن يكــون مــدنيا بخلقتــه ، فــآدم خلق له زوجا من نفسه، ومن هذه الرّابطة نشــأت الأســرة بفروعهــا، وتَحقّــقُ مــا أراده الله من استخلاف الإنسان يتوقف على التعاون والوفــاء لهــذه الرّابطــة، فــأمر كــل فــرد أن يرعى صلات القرابة فيعمل على ما يمتنها ويحذر مما يوجب تفككها.

وهنا نلحظ أن المبدأ كان واحدا وأن التعدد نشأ عــن هــذه الوحــدة لــذا أُمِــر الإنســان أن يسعى إلى الحفاظ على ما يجمع، خاصة وهو فــي علاقاتــه عنــدما يســأل مخاطبــه شيئا ويريد أن يؤكد إجابته يعزم عليــه بعظمــة الله وبصــلات القربــى. وهــذا هــو مــا ينسجم مع الفطرة في سنن الحيــاة وكــذلك فــي العقيــدة المقامــة علــى التوحيــد. ونبــه البشر إلى أن الله رقيب عليهم هل وَفّوْا بما أمرهم به أو تراخوا فيه ؟

2-وءاتوا اليتامى أموالهم... كبيرا.

إن علاقات القرابة محمية أيضا بما ركز فــي فطــرة البشــر مــن حفــاظ الفــرد علــى حقوقه ومكتسباته. ومع الضعف لا بد مــن وازع يحمــي تلكــم الحقــوق مــن انتهاكهــا والتعدي عليها ومن اتخاذ غطاء القرابة لنهــب أمــوال الضــعفاء. واليتــيم الفاقــد لوليــه معرض ماله للزوال، إما بحرمانه من طــرف الكبــار مــن حقوقــه، أو بالتصــرف فيــه

تصرفا يقضم منه باستمرار ما يفنيه ويذهب به. فأمر القرآن أمرا مؤكدا بحفظ مال اليتيم وجميع حقوقه المالية من تركة مورّثه، وخاصة المقدم عليه ممن يتولى القيام على أمره الذي غالبا ما يكون من الأقارب. فلا يُتَفَطَّنُ لخيانته عن قرب. وصرح بأن الاستيلاء على ماله حرام ومال خبيث.

وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَيْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَّرِيئًا ﴿٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

تقسطوا: تعدلوا.

تعولوا: تميلوا.

نحلة: عطية.

هنيئا مريئا: لا تخافون في الدنيا به مطالبة ولا في الآخرة تبعة.

بيان المعنى الإجمالي:

من وجوه التسلط على مال اليتامى أن بعض أوليائهن إذا كانت اليتيمة تحت رعايته جميلة ثرية يتزوجها ولا يقدم لها مهرا يتناسب مع مزاياها. فنهاهم القرآن إذا ظنوا أنهم سيبخسون اليتامى اللاتي في رعايتهم حظهن في الصداق. وبرر ذلك بأن الإناث كثر فليتزوجوا من غير اليتامى اثنتين أو ثلاث أو أربع نساء. ولكن نبههم إلى أن الزواج بأكثر من واحدة مراعى فيه العدل بينهن، في جميع النواحي التي هي في مقدوره. ومن لم يأنس من نفسه اقتداره على العدل فليقتصر على واحدة. ويجوز للرجل أن يتسرى بما يملكه من غير الحرائر. والاقتصار على واحدة أقرب للعدل والبعد عن الميل. وبمناسبة ذكر صداق اليتيمة، شرع القرآن أن على الزوج، وعلى ولي المرأة أن يمكنها من صداقها ولا يعود عليه ليأخذ شيئا منه إلا إذا رضيت بالتنازل عن كله أو بعضه وعندها لا حرج على الزوج ولا على الولي.

بيان المعنى العام:

3-4: وإن خفتم ألا تقسطوا...فكلوه هنيئا مريئا.

اعتنت الآية السابقة بحفظ أموال اليتامى ونهت الأولياء عن التسلط على مكاسبهم ذكورا كانوا أو إناثا. ومما كان غير منكر وقت نزول الآية، أن بعض أولياء

اليتامى كانوا لا يتحرجون من الزواج باليتيمة التي تحت نظره إذا كانت وسيمة وذات مال دون أن يقدم لها صداقا يتناسب مع مزاياها ، ولكنه يتسلط عليها تبعا لولايته عليها، فيغمطها حقها. فنهوا عن ذلك بهذه الآية. وبرر ذلك:

1) إن النساء كثر، فيستطيع أن يتزوج غيرها باثنتين أو بثلاث أو بأربع نساء. وحتى لا يفهم من ذلك أن القرآن فتح باب التزوج بأكثر من واحدة بدون ضوابط، أتبع ذلك بأن التزوج بأكثر من واحدة مشروط بأن يأنس المتزوج من نفسه أنه قادر على العدل بين زوجاته فلا يظلم إحداهن بما يكسر نفسيتها فتشعر أنها محتقرة أمام ضرتها إذ كل واحدة منهن إنسان له حرمته الإنسانية وزوجة له، لها من الحقوق في العشرة والنفقة وحسن المعاملة ما لغيرها. وقد يجد الزوج من نفسه ميلا لإحداهن دون أن يترتب على ذلك ظلم ومهانة، فهذا مما غفره الله للزوج بهذا القيد.

2)أن يتسرى (التسري هو العشرة الجنسية للأنثى المملوكة) بمن ملك رقبتها بشراء أو تبرع أو ميراث، لأنها غير حرة –

3) إن الالتزام بهذه الضوابط هو مما يقرب الرّجل من عدم الميل عن العدل، وبالتالي يبعده عن خطيئة الظلم.

<u>رفع وهم:</u> يحمل المجتمع الرّجل مسؤولية التزوج بأكثر من واحدة ويعتبرون ذلك ظلما للمرأة وانتقاصا لحقوقها. والمتأمل المنصف يلاحظ أن الأنثى لا تجبر على الزواج برجل متزوج. أفلا تتحمل الزوجة الرّاضية أو الرّاغبة في الزّواج من متزوّج قسطها من المسؤولية ؟ فلو امتنعت النساء من قبول الزواج من المتزوجين لما وجد من يجمع أكثر من امرأة واحدة.

وبما أن الآية نهت عن ظلم اليتيمة بتزوجها دون صداق أمثالها، أتبع ذلك بأن شرع القرآن أمرا آخر قريبا منه. وهو أن على الأزواج والأولياء أن يمكنوا المتزوجة من صداقها الذي جعله الله عطية لها تملكه، وليس عوضا عن التزوج بها، ولا منة لأحد عليها فيه. فقطع بذلك تسلط بعض الأولياء على صداق من هن تحت نظرهم، وكذلك إجبار بعض الأزواج زوجاتهن على التنازل عن الصداق بعضه أو كله. ونفت الآية بعد ذلك الحرج عن الزوج أو الولي إذا تنازلت الزوجة له عن بعض صداقها أوكله، دون ضغط أو إكراه، فله أن ينتفع به ولا يخشى سوء العاقبة.

وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَـٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَـٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا۟ ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

السفهاء: السفيه من لا يحسن التصرف في المال.

قيما: تصلح بها أموركم.

ابتلوا: اختبروا.

آنستم: علمتم.

الرّشد: انتظام تصرف العقل بحفظ المال وحسن التدبير فيه.

بداراً: عجلة.

فليستعفف: فليمسك عن مال اليتيم.

بيان المعنى الإجمالي:

لا تمكنوا من المال الذين لا يحسنون التصرف فيــه، ولكــن أجــروا علــيهم مــا يكفــيهم في معاشهم ولباسهم وأحسنوا مخــاطبتهم. وليعمــل ولــي الســفيه علــى تمرينـــه حتــى يخرج من الحجر، وذلك بتكليفه بشيء من التصرف يختبره بــه. فــإذا بلــغ اليتــيم وعُلِــم بالاختبــار رشــده فعلــى وليــه أن يمكنــه مــن مالــه. ونهــى الأوليــاء أن يســارعوا باستهلاكها قبل الترشيد مبادرين بــذلك قبــل أن يكبــر الأيتــام. وضــبط علاقــة الــولي بمنظوره فبين القرآن أن الولي إن كــان غنيــا فالواجــب عليــه أو الأفضــل أن لا يأخــذ شيئا من مال اليتيم ومن كان فقيرا فلــه أن يأكــل منــه بــالمعروف، أي حســب ســعة المال وضيقه وحســب مســتوى الــولي الاجتمــاعي. وأمــرهم أن يشــهدوا عنــد دفــع الأموال لليتــامى بعــد ترشــيدهم قطعــا للخصــومات، واعلمــوا أن الله يحاســبكم علــى أعمالكم، وهو لا يغيب عنه شيء. فحسابه أدق حساب.

بيان المعنى العــام:

5-ولا تؤتوا السفهاء أموالكم...معروفا.

من حرمة المال في الإسلام واعتنائه بــه، أن نهــى مــن يتــولى أمــر الســفيه لصــغر سن، أو تبذير كبير، أو لكونه مظنة ســوء التصــرف، أن يمكنـــه بمـــا هـــو فـــي حاجـــة

إليه من ماله قبل رفع السفه عنه . وأبرز قيمة المال في الحياة بأنه الوسيلة التي يصلح بها الناس أمور معاشهم.

6- وابتلوا اليتامى...وكفى بالله حسيبا.

وإذ شرع للأولياء منع السفهاء من أموالهم، فإنه أمرهم بتمكينهم بمقدار ما هم في حاجة إليه من نفقة وكسوة، مع العناية بإكرامهم في طريقة التعامل معهم حتى يُنَشَّأوا على أدب الخطاب. وفي الآية تنويه بالمال وإبراز لحرص الإسلام على حفظه، كما يفهم ذلك من التوصية برعاية أموال اليتامى من ناحية ومن ناحية ثانية بالإشارة التعبيرية اللطيفة في إسناد أموالهم إلى الجماعة الإسلامية (أموالكم)، الدالة على أن المال ينتفع به صاحبه بصفة مباشرة ، وتعتبر الثروة مقوما من مقومات الأمة لتحقيق مناعتها وتطورها فلها علاقة بها، مع أن حقوق الملكية الخاصة واجبة الاحترام.

إن ولي اليتيم مطالب بأن يقدر من أول يوم يتحمل فيه مسؤوليته أن واجبه حفظ مال اليتيم أولا، وتهيئته ليتولى التصرف في ماله ثانيا. ولذا أمرت الآية أولياء اليتامى أن يدربوا من هم إلى نظرهم على التصرف في المال حتى يبلغوا سن النضج الذي يُمكن فيه الإنجاب من ناحية، ويطمئنوا إلى حسن تصرفهم من ناحية ثانية ، وهو المعبر عنه بالرّشد، وعليهم عندها أن لا يتلكأوا وأن يبادروا بإعطاء اليتامى أموالهم. وإكمالا للعناية بحقوق اليتامى يحذر القرآن المقدمين عليهم من تبذير أموالهم تبذيرا يتسابقون فيه مع الزمن حتى لا يجد اليتيم عند بلوغه سن الرّشد مالاً يطالب به. وهذه الأمانة فصل القرآن فيها أحوال أولياء اليتامى، أمرهم إن كانوا أغنياء أمرا، يحتمل أن يكون على الوجوب أو على الندب والإرشاد أن يَعِفّوا عن أموال اليتامى فلا يستفيدوا منها شيئا لأنفسهم، وإن كانوا فقراء رخص لهم أن يأكلوا منها بما لا ينكر ه العرف العام، وهو يختلف في تقديره حسب سعة مال اليتيم وضيقه وحال الولي ومكانته الاجتماعية. وحتى تتواصل العلاقة الطيبة بين المُرّشد وبين وليه، ولا يحدث نزاع في المستقبل، أُمِر الولي بأن يشهد عند تسليمه المال لليتيم. ويحرك القرآن ما وقر في قلب المؤمن من موجبات الإيمان، فيذكره بأن الله لا يغفل عن تصرفات الأولياء إنه مطلع على كل كبيرة وصغيرة ويكفي اليتامى رعاية الله لهم وحسابه لمنظوريهم، فهو يخلف على اليتامى ما ضاع عليهم، ويجزي المحتالين بما قدموه.

لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ
وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿٧﴾ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ
ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾ وَلْيَخْشَ
ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا
سَدِيدًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا
وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

مفروض: معين المقدار.

سديد: صواب.

بيان المعنى الإجمالي:

قررت الآية أن الرّجال يرثون من تركة الوالدين والأقربين ، وأن النساء لهن حظهن من التركة أيضا، وأن الرّجال والنساء يأخذ كل واحد نصيبه من التركة لا فرق بين ما كان له شأن من التركة وبين ما كان تافها، ولا فرق بين أنواع المال المخلف. ولكل وارث نصيبه المعين المقدر من الله. وأرشد القرآن الورثة عند قسم التركة، على طريق الندب، أن يعطوا لمن يحضر قسمة التركة من أقارب الميت غير الوارثين ومن اليتامى والمساكين أن يعطوهم شيئا من المخلف، وأن يحسنوا طريقة مخاطبتهم فلا يغلظون عليهم أو يحتقرونهم بسبب ما أنالوهم. وعلى ولي اليتيم أن يقدر أنه يمكن أن يُخلّف أيتاما ضعافا، ويتقدم على مالهم مقدم يسيء لهم، وكل والد يخاف أن تنتهب أموال ذريته من بعده. فحماية ذريته من بعده تكون بتقوى الله فيما ولي عليه، وكذلك بتقوى الله في كل شيء، فإنها حصن للذرية من التسلط عليهم. كما عليه أن يخاطبهم بما يعتبره العرف العام مقبولا غير مسيء.

وليحذر أولياء اليتامى العاقبة فإن كل من استولى على مال يتيم ظلما، فليعلم أنه إنما أدخل في كيانه نارا على معنى أنه سيصيبه في دنياه ما يحرق عافيته ويتلف ما جمعه. ومع عذاب الدنيا عذاب الآخرة.

بيان المعنى العام:

7- للرجال نصيب مما ترك...مفروضا.

بينت الآيات السابقة ما يتعلق بأموال اليتيم بعد موت وليه. فتابع القرآن بعض أحكام المال في الميراث التي كانت غير مرعية قبل نزوله. إن ما كان مقبولا في

العرف العام الجاهلي: أن المال المخلف عن الميت يستحقه الأقوى من أقربائه، مما يمدد لسلطانهم على الضعفاء من الأهل والعشيرة. فجاء الإسلام لإنصاف جميع الورثة وتمكينهم من حقوقهم وخاصة المرأة التي إن كانت زوجة اعتبرت جزءا من الميراث يتحكم في مصيرها إن لم تكن أما أكبر الأولاد، وإن كانت غير ذات زوج فلا تستحق شيئا من مخلف والديها ولا غيرهما من قرابتها فنصت الآية نصا صريحا أن كل أنثى تستحق من تركة الميت زوجا كان أو أبا أو أما أو قريبا، تستحق نصيبها من مخلفه، سواء أكان كسوة أو سلاحا أو عقارا أو أثاثا أو نقودا، مما قل منه أو كثر. إنها العدالة والكرامة الإنسانية التي تتحد فيهما الذكور والإناث، والاعتبار بالحقائق لا بالأوهام، فالذكر والأنثى كل واحد منهما يحمل الحقيبة الوراثية التي لأصولهما، وكل واحد منهما نسل للأبوين، يحمل من صفاتهما الخلقية الوراثية ما يحمل وينسب إليهما، فمن الوهم أن تحرم الأنثى ويستقل الذكر بالميراث.

8-وإذا حضر القسمة...قولا معروفا.

وأرشدت الآية، على طريقة الندب، ورثة الميت عندما يقومون بقسمة التركة، أن يعطوا من حضر من الأقارب غير الوارثين ومن الأيتام ومن المساكين، شيئا من التركة. ولعل في ذلك وصلا لما كان يقوم به الميت في حياته ، فتسلية لهم على فقده يمكنون من ذلك. ومن الثوابت في تربية القرآن لهذه الأمة أن يحرصوا على أدب الخطاب، فلا يكسروا كرامة أي أحد بالخطاب الجافي ولو كان من حضر القسمة من المذكورين، بسبب ما يعطونه إياه.

ثم وعظت الآية التالية كل من يصلح للموعظة وحذرتهم بتحذيرين لو تأملهما من يقرأ القرآن بقلب واع ، ما وُجِد يتيم مظلوم من وليه.

9-وليخش الذين لو تركوا...وليقولوا قولا سديدا.

أولا: ذكرت الآية أن من يتولى أمر اليتيم عليه أن يخشى أن تَتَيَتَّم أولاده وهم ضعاف لا يقدرون على حماية أرزاقهم ولا الدفاع عن كرامتهم. إن حمايتهم تتحقق برعاية الله لهم تبعا لصلاح والدهم واستقامته. في قصة سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام، أنهما توليا إقامة جدار قريب من الانهيار، مما يترتب على انهياره ظهور كنز يتيمين وامتداد الأيدي له، حفظاه لأن والدهما كان صالحا. (سورة الكهف الآية 76 و81) فعلى أولياء اليتامى أن يحرصوا على تقوى الله ، فبها يقدمون مناعة وحفظا لذريتهم لو ماتوا وتركوهم صغارا. ليطمئنوا على أن الله

يجزي أولاده بعد موته بحفظه لهم من التعــدي علــى حقــوقهم. وأدب الخطــاب يــذكر به القرآن دائما، وليقولوا قولا معرفا.

10 -إن الذين يأكلون أموال...سعيرا.

ثانيا: تحذير أشد: أن كل من استولى على مال يتيم فإنما أدخــل فــي كيانــه نــارا، علــى معنى ما يترتب على النار من فســاد لمكتســباته الدنيويــة فــي بدنــه ورزقــه وذريتــه وعاقبة أمره. وفوق ذلك وأشد منه وأنكــى، أنهــم سيصــلون نــار جهــنم بــأليم عــذابها الجسمي والنفسي.

يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين فإن كن نساء فوق اثنتين
فلهن ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما
السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث
فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصية يوصي بها أو دين آباؤكم
وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله إن الله كان عليما
حكيما (11) ۞ ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن لهن ولد فإن كان
لهن ولد فلكم الربع مما تركن من بعد وصية يوصين بها أو دين
ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فإن كان لكم ولد فلهن
الثمن مما تركتم من بعد وصية توصون بها أو دين وإن كان رجل يورث
كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت فلكل واحد منهما السدس فإن كانوا أكثر
من ذلك فهم شركاء في الثلث من بعد وصية يوصى بها أو دين غير مضار
وصية من الله والله عليم حليم (12) تلك حدود الله ومن يطع الله ورسوله
يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك الفوز العظيم
(13) ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله
عذاب مهين (14)

بيان معنى الألفاظ:

الكلالة: الحالة التي لا يوجد في الورثة ولد ولا والد.

غير مضار: دون قصد الإضرار.

بيان المعنى الإجمالي:

قررت الآيات ما يستحقه بعض الوارثين. وقدمته في شكل وصية فيها خير للمؤمنين وفيها إلزام لهم نظرا إلى أنها وصية من الله. ويتضمن هذا التشريع أمورا

أولا: أن قسمة التركة تتم بعد – أ: أن يأخذ الدائنون ديونهم التي لهم على الميت من التركة – ب: بعد أن تنفذ وصية الميت في الثلث فأقل.

ثانيا: أن قسمة المخلف يتم على التفصيل التالي المنصوص عليه في هذه الآية وحسبما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم من سنته. 1) أن الأنثى من أولاد الميت ترث نصف ما يرثه الذكر. 2) أن البنات إذا انفردن فلا أخ لهن يرثن الثلثين –3) أن البنت الواحدة إذا انفردت عن أخيها ترث نصف التركة –4)أن ميراث الأبوين – أ) إن كان معهما فرع وارث من ابن أو بنت أو ابن ابن أو بنت ابن هو السدس لكل واحد منهما. ب) يقتسمان التركة بينهما إذا انفردا ولم يكن معهما وارث. للأم الثلث وللأب الثلثان. ج) إن وجد مع الأم أكثر من أخ أو أخت للميت ترث الأم السدس –وبجانب ذلك فإن صلة الزوجية توجب استحقاق كل واحد منهما نصيبه من الميراث:

<u>الزوج</u> يستحق نصف تركة زوجته إن لم يكن لها فرع وارث فإن كان لها فرع وارث من ابن أو بنت أو ابن ابن أو بنت ابن فللزوج ربع التركة.

<u>الزوجة</u> ترث ربع مخلف زوجها إن لم يكن له فرع وارث. وتستحق الثمن إن كان له فرع وارث.

<u>القاعدة في هذا سارية –</u> يقدم أولا حقوق الدائنين ثم الوصية في حدود الثلث.

<u>الإخوة للأم:</u> إذا كان الميت لا ولد له ولم يترك أبا وله أخ أو أخت لأم يرث من تركته السدس، إذا كان الإخوة للأم أكثر من واحد اقتسموا الثلث بينهم بالسوية للذكر مثل حظ الأنثى.

وأكدت الآية في خاتمتها على وجوب العمل بما ذكر، وأنها حدود يحرم تجاوزها، وأن من يطع أوامر الله ورسوله يلق جزاءه جنات تتخللها الأنهار. وهددت من يعصي الله ورسوله بالعذاب المهين.

بيان المعنى العــام:

11←14 يوصيكم الله في أولادكم...وله عذاب مهين .

حولت هذه الآيات التقاليد في توزيع تركة الميت التي كان يأخذ بها العرب في جاهليتهم وقوضت مبانيها. وأقامت نظام التوارث على القيم والعلاقات التي

أسست بها رابطة الأسرة، فلم تهمل حظ أي عضو من أعضائها من الميراث حسب تقدير، أحكمه الله رب العالمين وألزم به المؤمنين. افتتحت الآية الأولى بقوله تعالى : يوصيكم. والوصية تشير إلى أن مضمونها فيه خير كثير للموصّى ، وصرح فيها بأنها صادرة عن الله، فهي في قوة الأمر ودالة على الإلزام. وزاد ذلك تأكيدا بقوله تعالى في خاتمتها فريضة من الله، وما كان على هذا النحو فعلى الأمة كلها أن تقوم على تنفيذه ،و أن ترعاه حق رعايته وأن وراءه رقابة الله، فصرحت الأيتان (14/13) بذلك. إن هذا النظام الذي حدد ما لكل وارث من نسبة في الميراث ، إن تلكم الحدود التي حددها الله لا يزاد عليها ولا ينقص منها. وهي واجبة التطبيق حسبما بينه الله ورسوله فمن استجاب مدفوعا لذلك بالطاعة ،ضمن له رب العزة، دخوله للجنة التي تتخللها الأنهار، والخلود فيها لا يبرحها، وإن الفوز بالجنة لهو أعظم فوز وأنفسه. وقرن القرآن الوعد بالوعيد تبعا لقوة الاهتمام، فمن يعصي أوامر الله ورسوله ويتجاوز بالتغيير لما حدده من حقوق كل فرد من الورثة، يدخله نارا لا يبرحها خالدا فيها، ومع عذاب النار عذاب الإهانة. وإتباع عذاب النار بعذاب الإهانة فيه حث على قبول ما فصله الله ، لأن أنفة العرب في وقت التنزيل جعلتهم ربما يظهرون التجلد لأنواع العذاب لكن لا يقبلون المهانة. مما ينبغي أن ينتبه إليه أن هذا المقطع لم يستوعب جميع أحكام قسمة التركة، فقد أوكل لرسوله أن يبلغها مع الحوادث التي تعرض عليه لفصلها. وذلك كما جاء في الآيتين السابقتين (**من يطع الله ورسوله – ومن يعص الله ورسوله**) وقد رواها الصحابة رضوان الله عليهم وعملوا بها، وأجمعت الأمة على تطبيقها.

الأحكام التي تضمنتها الآيات:

أولا: أنه يقدم في التركة الدائنون فيتسلمون ديونهم.

ثانيا: أنه إذا فضل شيء بعد أداء الديون فإنه تنفذ وصية الميت بما لا يتجاوز ثلث التركة إن هو أوصى. وما بقي يجري قسمه على الحدود التي جاءت في هذا النص.

مدلول الولد: الابن الذكر والبنت. الفرع الوارث معناه: الابن وابن الابن وبنت الابن، والبنت

ثالثا : أن قسمة التركة بين الذكور والإناث من أولاد الميت تقوم على قاعدتين: 1) أن الأنثى لها حظها من كل نوع من أنواع المال المخلف – 2) وأن حظها هو على النصف من حظ الذكر.

رابعا: إذا ترك الميت بنتا واحدة استحقت من مخلف والدها النصف.

خامسا: إذا ترك الميت أكثر من بنت،ولم يترك ابنا، فلهن ثلثا التركة مهما كان عددهن يَقْتَسِمْنَهُ بالسوية.

سادسا: الأبوان يستحق كل واحد منهما السدس من مخلف ولدهما إذا كان للميت فرع وارث.

سابعا: إذا ترك أبوين فقط، ولم يترك فرعا وارثا قسمت التركة بين الأبوين للأم الثلث وللأب الثلثان.

ثامنا: إذا ترك أما ومن الإخوة أكثر من فرد،ذكورا كانوا أو إناثا استحقت الأم سدس التركة.

تاسعا: الزوج يرث نصف ما تركته زوجته إذا لم يكن لها فرع وارث ويرث الرّبع إذا كان لها فرع وارث.

عاشرا: الزوجة ترث الرّبع إذا لم يكن لزوجها فرع وارث فإن كان له فرع وارث ورثت الثمن.

حادي عشر: من مات ولم يترك فرعا وارثا ولا والدا، وهو المعبر عنه **(بالكلالة)** وترك أخا لأم أو أختا لأم استحق سدس التركة. فإذا تعدد الإخوة للأم فنصيبهم ثلث التركة يقتسمونه بينهم، الذكر والأنثى سواء .

وقد تخلل هذا الضبط أمر مهم: هو تنبيه القرآن أن مبنى التشريع على المصالح الحقيقة لا على العواطف المحجوبة في غالب الأحوال عن النفاذ إلى إدراك الخفايا التي فيها الخير للإنسان في حاضره ومعاده. والعواطف تتحرف إلى الهوى المضل ، فيترجح لديها ما فيه خسارة بما تكسوه به من بريق خادع،**(ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله)**[1] فقد يصور الهوى أن الآباء أولى بالتنفيل، أو المهم هو تمكين الأولاد من جميع المال لما ينتظرهم في بناء حياتهم من مطالب، فيقمع القرآن هذه الوساوس بقوله **(آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيهم أقرب لكم نفعا فريضة من الله)**. والله الذي شرع ذلك علمه كامل فهو العليم والحكمة فيما يأمر به إذ هو الحكيم.

وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةً مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾

[1] سورة ص آية 38

وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَـٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ۖ فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ
يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾
وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى
تُبْتُ ٱلْـَٔـٰنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾

بيان معنى الألفاظ:

الفاحشة: الفعلة القبيحة.

يتوفاهن الموت: يأخذهن الموت.

بجهالة: بدون روية.

بيان المعنى الإجمـالي:

تقرر الآية أن المرأة إذا فعلت الفعلة القبيحة (الزنـا) وشـهد عليها أربعة من الرّجال المسلمين العدول ' فالعقوبة التي تسلط عليها: أن القاضي يحبسها ببيت لا تخرج منه حتى تموت أوأن ييسر الله لها طريقا تخرج به من حبسها. ولم تبين الآية ما هو هذا المخرج. وإذا فعل الرّجل الفاحشة، سواء أكان بكرا أو محصنا، وثبت ذلك عليه بما يقبل به شرعا ثبوت الجريمة، فعقوبته أن يؤذى بأنواع من الإذاية تردعه كالتعيير والتوبيخ والهجر، وقيل: حتى بالضرب غير المبرح. ويستمر ذلك إلى أن تتحقق توبته وعزمه على التنكر لما كان عليه واشمئزازه منه. ولما كان من صفات الله التوبة والرّحمة وذلك هو الكمال، فعلى المؤمنين أن يكونوا توابين رحماء. وقد ضمن الله قبول توبة التائبين تفضلا منه بشرطين – 1) إذا كانوا قد أقدموا على إتيان المعصية باندفاع غامر من شهواتهم دون رفض للحكم أو استهزاء به – 2) أن يتوبوا قبل الموت.

والتوبة بما تتضمنه من رفض باطني لما سلف من المعاصي، وترك المعصية في الحال، وعزم صادق على عدم العودة إلى مثلها، وأن يكون ذلك حياء من الله لا من غيره، ولا تكون مقبولة إذا أخرها العاصي حتى بلغت الرّوح الحلقوم. ومثله الكافر لا تفيده توبته إذا أقلع عن كفره في اللحظة التي يشاهد فيها ما يضطره إلى الإيمان. فكلاهما قد هيأ الله له عذابا مؤلما.

بيان المعنى العام:

15-واللاتي يأتين الفاحشة من نسائكم...سبيلا.

تتابع في هذه السورة الاهتمام بالنساء ورفع الظلم الذي كان مسلطا عليهن، ومُكّنّ من حقوقهن. وناسب أن يعقب ذلك أن رعاية الأنثى لا يمنع من تأديبها وإصلاحها، باعتبار أنها عضو له تأثيره الكبير في الأسرة وفي المجتمع، فإذا انحرفت كان انحرافها تتبعه آثار سيئة فمن الحزم والصلاح تعريفهن بواجباتهن وما يترتب على انفلاتهن وتضييعهن للأمانة التي يتحملنها. ذكرت الآية أن المرأة المسلمة إذا ارتكبت الفاحشة وثبت ذلك عليها بالطريق المقبول شرعا وهو شهادة أربع رجال مسلمين صالحين عليها بفعلتها التي قامت بها، ومثل الشهادة إقرارها غير مكرهة بما فعلت، فعقوبتها حينئذ أنها تحبس في البيت لا تبرحه حتى تموت أو يأتي ما يغير هذا الحكم فيجعل الله لها سبيلا للخروج من حبسها ذاك.

هذه الفعلة، المعبر عنها بالفاحشة، يكاد يجمع الناظرون في كتاب الله: أنها الزنا، وأن هذه العقوبة تشمل البكر والثيب ، وأنها كانت العقوبة الواجب تطبيقها في أول الأمر بعد الهجرة في المدينة. وأن هذا الحكم قد نسخ بجلد البكر، ورجم المحصنة. ورأي آخر له قيمته من النظر، أن هذا الحكم هو في الساحقات (والسحاق هو الشذوذ الجنسي بين الأنثى ومثيلتها) وأن عقوبتهن السجن في البيوت سجنا مؤبدا. والعمل بالآية باق ولا نسخ.

16-واللذان يأتيانها منكم...رحيما.

تعرضت الآية بعد ذلك لحكم الذكرين **(واللذان يأتيانها منكم فآذوهما)** إذا فعلا الفاحشة، وفسرت كما سبق في النساء بالذكرين الزانيين ، البكر والمحصن والحكم هو إيذاؤهما بالتوبيخ والتعيير، ورأى بعضهم أنهما يضربان ضربا غير مبرح أيضا.

17-إنما التوبة على الله...حكيما.

وتقرر الآية إن هذا الحكم لا يلزم طيلة الحياة، فإذا ظهرت التوبة وقارنها صلاح الحال، ومخايل الاستقامة، رفع ما كان من العقوبة. ويذهب من رأى أن صدر الآية نزل في الساحقات، إلى أن المقصود هنا عقوبة اللواط (الشذوذ الجنسي بين الذكور) وأنهما يؤذيان وتستمر عقوبتهما وانحطاط مركزهما الاجتماعي إلى أن تتبين توبتهما توبة تجمع الشروط.

18- وليست التوبة للذين يعملون... عذابا أليما

ويقرب عودة الزاني والزانية أو من عمِل عمَل أهل لوط إلى الوضع الاجتماعي المقبول بعد التوبة، بأن الله وهو الكامل، من صفاته الثابتة التوبة

والرّحمة. وعلى المؤمن أن يقتبس من الكمـال الإلهـي طريقتـه فـي الحيـاة. ويحصـر القرآن التوبة التي يتفضل بها الله على العصاة الذين يتحقق فيهم أمران أساسيان:

-أن يكون إقدامهم علـى ارتكـاب المعصـية كـان نتيجـة غفلـة وعـدم تقـدير لآثـار المعصية، واندفاع من الغريزة وقوى الشـهوة تحجـب البصـيرة وتنـوم قـوى الإيمـان فينسى لحظـة الخطيئـة رابطتـه بخالقـه. ولا يقـوم بالمعصـية تفضـيلا لهـا وإنكـارا لحكمها أو استهزاء به.

-أن يكون يقظا لسوء ما صنع فلا يستمر على تكـراره اسـتمرارا يصـحبه إلـى النـزع بل يتوب قبل حضور النزع الأخير. فـإذا لـم يتحقـق الشـرطان فـي العاصـي فإنـه لا تقبل توبته.

كما أنه لا تقبل توبة الكافر المواصـل لكفـره ورفـض الحـق، إلـى حضـور النـزع الأخير، الوقت الذي يحضره ملك الموت ويرفـع الاختيـار والتكليـف. فمـن آمـن فـي هذا الوقت الضيق هو كتصريح الكافرين يوم القيامـة أنهـم كـانوا فـي حيـاتهم ضـالين وأنهم معترفون بالحق ولكن ذلك الاعتراف لا ينفعهم. هـؤلاء جميعـا قـد هيـأ الله لهـم عذابا أليما. إلا أن المؤمن العاصي لا يخلد فـي النـار، أمـا الكـافر فيجـري عليـه مـا أكده القرآن دائما بأنهم مخلدون في عذاب جهنم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴿١٩﴾ وَإِنۡ أَرَدتُّمُ ٱسۡتِبۡدَالَ زَوۡجٖ مَّكَانَ زَوۡجٖ وَءَاتَيۡتُمۡ إِحۡدَىٰهُنَّ قِنطَارٗا فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ أَتَأۡخُذُونَهُۥ بُهۡتَٰنٗا وَإِثۡمٗا مُّبِينٗا ﴿٢٠﴾ وَكَيۡفَ تَأۡخُذُونَهُۥ وَقَدۡ أَفۡضَىٰ بَعۡضُكُمۡ إِلَىٰ بَعۡضٖ وَأَخَذۡنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴿٢١﴾

بيان معنى الألفاظ:

لا يحل لكم: يحرم.

تعضلوهن: تمنعونهن من الزواج.

المعروف: ضد المنكر. وهو ما جاء على ما يلائـم الشـرع ويتناسـب مـع مـا يجـري عليه أمر الناس.

بهتان: الباطل الذي يتحير من بطلانه.

أفضى: امتزج بعضكم ببعض.

بيان المعنى الإجمالي:

مما كان مقبولا قبل الإسلام أن المرأة تخضع لظلم الرّجل لها، إذ كان ولي الميت أحق بامرأته يرثها كما يرث ماله، وينفذ فيها إرادته من التزوج بها أو تسريحها أو منعها من الزواج. وكان بعض الأزواج ينفر من معاشرة زوجته ويبقيها عنده مع الإضرار بها ليستولي على مالها بعد موتها. وبعض الأولياء يمنع منظورته من الزواج حتى يكون مالها له ولا يذهب إلى من تتزوجه ومن تنجبه. وكان بعض الأزواج يضر زوجته ويمنعها من حقوقها لتتنازل له عن بعض ما قدمه لها عندما تزوج بها. فنهى الإسلام الذكور من التسلط الظالم على المرأة.

استثنى القرآن حالة لا حرج على الزوج من لز زوجته إلى الافتداء. وهي إذا ما ثبت لديه ثبوتا يقينيا أن زوجته قد زنت. وهذا الحكم كان قبل إنزال حكم اللعان وأما بعد تشريع اللعان فليس للزوج أن يضار زوجته ليسترجع بعض ما قدمه لها.

وأوصت الآية الأزواج بمعاشرة زوجاتهم بالطريقة غير المنكرة لا شرعا ولا عرفا. ونبه الأزواج عندما تتحول عواطفهم عن زوجاتهم من حب إلى كراهية أن لا يعجلوا بقطع العلاقة الزوجية فعسى أن يجعل الله في تلك الزوجة خيرا كثيرا. وغريب أن يعمد الزوج إلى إلجاء زوجته إلى التنازل له عن بعض ما تسلمته صداقا لها عند العقد ، بعد أن امتزجا امتزاجا كبيرا وحل لكل واحد منهما ما كان محرما عليه من الآخر، وبعد أن أخذن من أزواجهن عهدا على حسن المعاشرة.

بيان المعنى العام:

19-يا أيها الذين آمنوا لايحل... خيرا كثيرا.

يدعو القرآن المؤمنين إلى إنصاف المرأة، ويقرر منع صنوف من الظلم كانت تسلط عليها، وضروب من القهر تجبر على قبولها بموجب ما جرت عليه عاداتهم. ولكل نوع من المخاطبين، الأزواج والأولياء والحكام، ما يليق به.

كان من حق أكبر الأولاد أن يتحكم في مصير زوجة أبيه إما أن يتزوجها رضيت أو أبت، أو يزوجها ممن يشاء، أو يحبسها عنده حتى تموت، أو يسرحها. وكان هذا الحق أيضا لولي الميت إذا لم يخلف أبناء، فيسرع هذا الولي لإلقاء ثوب على زوجة الميت، ليتحكم في مصيرها كما يتحكم ابنه. وكان بعض الأزواج لا يعاشر زوجته معاشرة الأزواج ولا يسرحها، ولكن يبقيها عنده ليرثها عند موتها. وكان بعض الأولياء يمنع منظورته من الزواج ليرثها بعد موتها، ولا يذهب مالها لزوجها ولمن تنجبه من الذرية. فنهى القرآن عن ذلك وأزال هذا الاستبداد من

العلاقات الأسرية، وأعطى حرمــة ومكانــة لإرادة المــرأة. ونــوع آخــر كــان الرّجــل يرغب في تطليق زوجته، ويرغب في آن واحـد أن تفتـدي منـه بتمكينــه ممــا أخذتــه منه صداقا، فيعمد إلى الإضــرار بهــا وحرِمَانِهَــا مــن حقوقهــا حتــى يســتولي علــى بعض ما أخذته ظلما. والحكم واحــد فــي الجميــع. واســتثنى القــرآن صــورة واحــدة هي أن يثبت زنا الزوجة، فله أن يطلب منها أن تفتــدي منــه ويطلقهــا مقابــل مــا يأخــذه منها. وكان هذا قبل تشريع اللعان. ويثبت القــرآن التصــور الــذي أتــى بــه، والمــنهج الــذي أراد أن يقــيم عليــه بنــاء الأســرة، فيخاطــب الأزواج أن علــيهم أن يقيمــوا العلاقات الزوجية على الوجه الذي لا ينكر، وينتفي منــه الظلــم الــذي لا يقبلــه الإســلام. وينبههم إلى أنه في حالة تحول العواطف من الحــب إلــى الكراهيــة، فعســى أن يكــون الله قدر فيما كرهوه خيرا كثيرا أعظم عائدة على الــزوج مــن نفرتــه مــن بعــض مــا عليه زوجته.

20-21، وإن أردتم استبدال زوج...وأخذن منكم ميثاقا غليظا.

وظلم آخر مما كان شــائعا فــي المجتمــع الجــاهلي، والــذي يمكــن أن يســتمر فــي المجتمعات هو أن تتعلق إرادة الزوج بــان يغيــر زوجتــه فيتــزوج بــأخرى ويطلــق الأولى، ويستعين على تحقيق رغبته بحمل زوجتــه الأولــى علــى التنــازل عــن بعــض ما أخذته منه صداقا، خاصة إذا كان ما بذله لها مقدارا كبيرا لــه بــال فتســول لــه نفســه أنه لما كان سيفارقها، فــلا حــرج فــي اســترجاع مالــه. فيشــنع القــرآن ويحــبط هــذا التبرير، بالتذكير بأن العلاقة بينهما بلغت مــن التواصــل والامتــزاج حــدا كبيــرا، وقــد ارتبطا برباط الزوجية الذي أباح لكل منهما ما كــان محرمــا. وأعطــى الرّجــل لزوجتــه ميثاقا وعهدا أن يكرمها ، ذلك أن شأن كل خاطب، أنه يعبــر عــن تعلقــه بمــن يطلــب يدها، وعن حرصه على تمتيعها. إن ما يقدمه الزوج لزوجتــه مــن الهــدايا ومــا يبذلــه لها من الصداق ، وما يقيمه من احتفال بالحــدث، كلهــا شــواهد ناطقــة بالعهــد الموثــق المؤكد. فمن العجب أن يفكر في الاستيلاء على شيء مما قدمه. **(وكيف تأخذونه)**

وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً
وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ
وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم
مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ
ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ

أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ ۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُكُمْ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُواْ بِأَمْوَٰلِكُم
مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا

بيان معنى الألفاظ:

المقت: البغض. سمى العرب نكاح زوجة الأب مقتا.

ساء سبيلا: طريق سيء مرفوض.

الرّبائب: جمع ربيبة وهي بنت الزوجة من زوجها السابق.

حلائل: زوجات.

المحصنات: المحصنة المتزوجة في حال بقاء رباط الزوجية.

محصنين: متزوجين منهن على ما أحله الإسلام.

المسافح: الزاني.

بيان المعنى الإجمالي:

تبين الآية النساء اللاتي يحرم على الرّجل أن يتزوج بإحداهن. وهن:
1)زوجة الأب بمجرد العقد عليها. -2)الأم الوالدة وأمها الجدة وإن علت -3) البنت وإن نزلت كبنت الابن وبنت البنت وإن نزلت - 4) الأخت شقيقة كانت أو لأب أو لأم- 5) العمة شقيقة كانت أو لأب أو لأم -6) الخالة أخت الأم شقيقة كانت أو لأب أو لأم -7) بنت الأخ الشقيق أو لأب أو لأم -8) بنت الأخت شقيقة كانت أو لأب أو لأم-9) الأم التي أرضعته 1.) الأخت من الرّضاعة -11) أم الزوجة التي عقد عليها دخل بها أو لم يدخل -12) بنت الزوجة التي دخل بها - 13) زوجة الابن التي عقد عليها - 14) الجمع بين أختين -15) الأنثى المتزوجة وهي في عصمة زوجها.

وما كان من سبي النساء في الحروب التي تصبح الأسيرة ملكا لصاحبها فإن ملك رقبتها من سيدها لا يمنعه من الاتصال بها جنسيا بعد استبرائها إذا كانت قبل ذلك متزوجة.

وأكدت الآية الالتزام بتجنب ما حرمه الله من النساء بأنــه قــد كتبــه الله علــى المــؤمنين على سبيل الإلزام لا خيرة لهم فيــه. ثــم نصــت الآيــة أن الله أحــل للرجــل أن يتــزوج غير المنصوص على تحريمهن وذلك بعقد وتقديم مهر.

وأكدت الآية على بذل المهر كاملا إذا دخــل الــزوج بزوجتــه واســتمتع بهــا. ورخــص للزوجة أن تتنازل عن بعض مــا وجــب لهــا مــن الصــداق كمــا رخــص للــزوج أن يزيدها على ما سماه لها إذا كــان ذلــك عــن رضــى. والله الــذي ضــبط هــذه الأمــور ضبطها مستندة لعلمه وحكمته.

بيان المعنى العام:

22←24، ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء...إن الله كان عليما حكيما.

إن تكوين الأسرة قاعدة المجتمع ومحضــن الأجيــال القادمــة، لابــد أن يكــون خاضــعا لنظام دقيق ونظرة بعيدة للمصــالح، والابتعــاد عــن مجــرد قضــاء الشــهوة الغرَزِيَّــة.

فمن ذلك ضبط ما يحرم على الرّجل من النســاء اللاتــي فــي العقــد علــيهن مفاســد تــم إدراك بعضها بالفطرة فكانت عند التنزيل ثابتــة فــي أخــلاق البشــر وبعضــها نبهــت إليه الشريعة وجعلته فــي مســتوى مــا نفــرت منــه الطبــاع. ففــي الآيــات الــثلاث تنصيص على النساء اللاتي يحرم العقــد علــيهن. فلنتتبعهــا: زوجــة الأب التــي عقــد عليها دخل بها أو لم يدخل. وهذه لم يتم الإجماع علــى منعهــا قبــل الإســلام. بــل كــان ابن الميت له الحق في أن يجبر زوجة أبيه، إن لم تكــن لــه أمــا، علــى الــزواج منهــا. ولذا قرنت الآية هذا الزواج بما يوجــب الابتعــاد عنــه والنفــرة منــه حســب الفطــرة، فوصفته بأنه قبيح جدا، وهو ممقوت، حتــى أطلــق عليــه العــرب نكــاح المقــت، وأنــه طريق سيء لتكوين الأسرة.

الأم التي ولدت الرّجل وأمها جدته وإن علت. ذلك أن صــلة الولــد بأمــه صــلة احتــرام وتقدير ووقار، فمن مناقضة الفطرة أن تهبط العلاقة إلى اللهو والعبث والرّفث.

البنت. ومثلها بنت الابن وبنت البنــت. وممــا يلحــظ أن اللغــة العربيــة لا يوجــد فيهــا كلمة تدل على الاتصال الجنسي المحرم بين الوالــد وابنتــه، الــذي هــو أمــارة علــى انتفاء تصور ذلك. وفي اللغات الأوروبية يوجد هذا المصطلح.

الأخت سواء أكانت أختا شقيقة، أم لأب،أم لأم.

العمة سواء أكانت شقيقة، أم لأب، أم لأم.

الخالة أخت الأم سواء أكانت شقيقة، أم لأب، أم لأم.

بنت الأخ سواء أكان شقيقا أم لأب أم لأم. وما تناسل منهن.

بنت الأخت سواء أكانت شقيقة، أم لأب، أم لأم. وما تناسل منهن.
المرأة التي أرضعت الرّجل، وهي أمه من الرّضاعة، مادام لبنها وصل إلى جوفه في خلال الحولين الأولين.
الأخت من الرّضاعة أي التي رضعت من المرأة التي أرضعت الصبي، سواء أكانت من زوجها أو من غيره.
أم المعقود عليها. فبمجرد العقد على البنت يحرم الزواج بالأم.
ابنة المرأة التي عقد عليها ودخل بها، أمّا إذا طلقها قبل أن يدخل بها جاز له التزوج من ابنتها.
المرأة التي عقد عليها ابنه دخل بها أو لم يدخل. والمراد بالابن الابن الحقيقي لا الابن المنسوب إليه بالتبني، فالتبني. وإن كان حراما إلا أن المتبنِي يحل له التزوج من زوجة متبناه إذا طلقها سواء أدخل بها أم لم يدخل.
أخت زوجته ما دامت في عصمته. فإذا طلقها وخرجت من عدتها جاز له التزوج بأختها.
المرأة التي هي في عصمة زوج، هي محرمة على جميع الرّجال ما دامت في العصمة، فإذا طلقت وخرجت من العدة جاز التزوج بها بشروطه وأركانه. واستثنت الآية الأسيرة المتزوجة قبل أسرها فلسيدها أن يستمتع بها بعد استبرائها.
ونصت الآية بعد استيفاء المحرمات أن ما عداهن هو حلال في وقت نزول هذا التشريع. وما زاد على ذلك يعتمد فيه ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه كقوله: يحرم من الرّضاع ما يحرم من النسب.
وأكد القرآن على المؤمنين أن يلتزموا باحترام ما قرره الإسلام في هذا الباب من التحريم والحلِّيَّة.
وأرشدت الآية إلى أن الحلية لابد أن يتوفر لها قصد الزوج للعقد على الوجه الشرعي بتوفر أركان النكاح، وتقديم المهر للزوجة، وأن يكون القصد هو الإحصان بما يترتب عليه من النسب والصهر والتحريم والتحليل والميراث. لا مجرد الاستمتاع الذي هو الزنا . وأن على الزوج أن يمكن زوجته من صداقها، وللزوج وللزوجة أن يتصرفا في الصداق بالرّضا، تصرفا تتنازل فيه الزوجة عن بعض صداقها لزوجها، أو يسمح الزوج بالزيادة على الصداق تمكينا للمودة والألفة بينهما. حافظوا على تطبيق هذه الأحكام فهي منزلة من عند الله المتصف بعلم الأمور على حقيقتها لا يخفى عليه شيء منها، الحكيم الذي لا يخطئ في تحقيق المصلحة في كل ما شرعه.

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ
أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ
فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ
وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى
ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ
وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ
وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ
يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ
ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾

بيان معنى الألفاظ:

طولا: القدرة.

الفتيات: جمع فتاة والمقصود بها هنا غير الحرة.

أهلهن: المالكين لهن

مسافحات: المسافحة الزانية مع من ترغب فيه بدون تعيين.

الأخدان: جمع خدن وهو الخليل الذي تلتزم المرأة معاشرته وحده بدون عقد.

أحصن: تزوجن.

العنت: المشقة الزائدة من العزوبة.

بيان المعنى الإجمالي:

من لم يكن له من المال ما يستطيع به أن يتزوج مسلمة من ذوات العفاف والصون فإنه يرخص له أن يتزوج من مملوكة (أمَة) مسلمة، والإنسان يسمو بإيمانه والله مطلع على الأرواح التي صفاها الإيمان فكأنها بإيمانها تخلصت من المقام الاجتماعي المنحط، خاصة والصلة بين الأحرار والإماء مقررة بانتساب الجميع لأب واحد وأم واحدة. وبينت الآية طريقة تنفيذ الزواج بأن يكون بإذن مالكيهن، وببذل الصداق. مع قصد التعفف لا الزنا ولا المخادنة. وإذا تزوجت الأمة ثم زنت فحدها على النصف من الحرة خمسين جلدة. وأرشدت الآية المؤمنين أن لا يقدموا على الزواج بغير الحرائر إن لم تبلغ الغلمة (حب الاتصال الجنسي) بأحدهم حدا يوقع صاحبه في مشقة قد تسوقه إلى ما هو أسوأ من التزوج بأمة. فمن

استطاع أن يصبر على العزوبة فليصبر، وهـو خيـر لــه حتـى لا يكـون أولاده الـذين سيتناسلون منه بواسطة هذا النكاح مملـوكين لسـيد الأمـة، الأمـر الـذي يحـول بينـه وبين القيام على حسـن تـربيتهم ويفقـدهم الحريـة وإلا فإنــه لا حرمـة مـن التـزوج بالإماء. والله بفضله يغفر ما سلف من الذنوب بعفوه، رحيم بعباده.

ما سبق في هذه السورة مـن الأحكـام التـي خـالف فيهـا التشـريع الإسـلامي بعـض الأحكام التي ألفوها وقبلوها كالتزوج من زوجـة الأب، هـو مـن فضـل الله علـى هـذه الأمة إذ بين بتلكم الأحكام طريق الرّشد فـي الحيـاة وكشـف عـن القواعـد المرعيـة في فترات صلاح الأمم السابقة التي ما بلغوها إلا بعـد تجـارب وأخطـاء إنـه سـبحانه يريد أن ينعم عليكم بقبـول التوبـة، وفـي المقابـل فـإن المأسـورين باتبـاع اللـذات ، المنقادين إلى إشباع شهواتهم يعملون علـى أن تنحرفـوا عـن الطريـق المسـتقيم. كـل ما شرعه الله لكم لا يوقعكم عند تطبيقه في مشقة، وكلما وقـع المـؤمن فـي عسـر مـن أمره فإن الله يخفف عنه، وهو أعلم بأن الإنسان الذي خلقه معرض للضعف.

بيان المعنى العام:

25-ومن لم يستطع منكم طولا...رحيم.

من فطرة الإنسان توقه إلى تكوين أسـرة، وممـا يقـوي اندفاعـه إلـى ذلـك غريزتـه الجنسية العارمة. وقد فرض القرآن على من يرغب فـي الـزواج أن يبـذل لمـن يريـد الاقتران بها الصداق الذي يرضيها. وكانت ثروة العـالم محـدودة قبـل أن تـدخل الطاقـة في الإنتاج، فبعض الرّجال يشتد شوقه إلى الزواج ولا يجـد المـال الـذي يبذلـه صـداقا، فرخص القرآن لمن لم يجد مالا يتزوج بـه أن يتـزوج بأمـة مسـلمة. وتضـيف الآيـة أن الله يعلم ما اهتدت إليه قلوبكم من الإيمان، وهو يشير إلـى جبـر مـا فـي المملوكـة المؤمنة، مـن نقـص اجتمـاعي، بإيمانهـا الـذي هـو محـل عنايـة الله. ويضـيف أن الأحرار والعبيد رجالا ونسـاء كلهـم تناسـلوا مـن أب واحـد آدم، وأم واحـدة حـواء، وذلك ينفي ما جرى عليه أهل الجاهلية من احتقـار غيـر الأحـرار والحرائـر احتقـارا جعلهم لا يقربون غير الحرائر إلا علـى ضـرب مـن العبـث وقضـاء الشـهوة بالزنـا ونحوه. والتزوج بالإماء يخضع لنظام واجب التطبيـق. مـن ذلـك أن يكـون النكـاح بإذن مالكيهن وأن يقدم الـزوج لزوجتـه المملوكـة صـداقا حسـب مـا جـرى عليـه العرف وأن يكون القصد من العقد علـيهن العفـة وإحصـان المملوكـة بـأن تكـون ذات زوج يعفها وتعفه، لا بقصد إفراغ الشهوة بالزنـا ولا باتخاذهـا خليلـة يصـطفيها لنفسـه دون أن يترتب على ذلك أي حق من الحقوق.

إذا تحققت الشروط المعتبرة فإن الأمة المدخول بهـا إذا زنــت كانــت عقوبتهــا خمســين جلدة على النصف من عقوبة الحرائر. ويؤكد القــرآن علـــى أن التــزوج بغيــر الحرائــر هو رخصة لمن يوقعه استمرار العزوبة في مشقة قد تفضـــي بـــه إلـــى مـــا هـــو أســـوأ من التزوج بغير الحرة. ومع هذا يحرض القــرآن غيــر الواجــد علـــى الصـــبر وعـــدم التسرع وذلك لأن الأولاد يتبعون أمهم فـــي الـــرّق، فيكونـــون عبيـــدا لســـيدها، وهـــو مـــا يحرمهم من تربية أبيهم ومن ميراثـــه ومـــن كثيـــر مـــن الحقـــوق الاجتماعيـــة، ويكفيـــك حرمانهم من الحرية. ويعقب القرآن على جميع الأحكـــام بـــأن الله متصـــف بأنـــه غفـــور لعباده ما وقعوا فيه من تجاوز وأن ما شرعه لهم هو لمصلحتهم ورحمة بهم.

26-يريد الله ليبين لكم... والله عليم حكيم.

يحقق القرآن الغطاء العام لكل ما شرعه ببيان ما يريده رب العزة لهذه الأمة:

أنه يريد أن يبين للأمة طريقها السالك الــذي يحقــق لهـــا ســـعادتها فـــي الـــدارين بـــدون غموض ولا اشتباه، بما يحميها من الحيرة.

27-والله يريد أن يتوب...ميلا عظيما.

وأن يهديها للحقائق التي بلغتها الأمم السابقة بعـــد تجـــارب وطـــول عنـــاء فيقـــدمها لهـــا واضحة المعالم بينة المقاصد تتقبلها العقول وتألفها النفوس.

أن يميز لهم بين ما يريده الله لهم، وبين مـــا يريـــده لهـــم الـــذين اســـتعبدتهم شـــهواتهم وانقادوا لملذاتهم الرّخيصة وانغمسوا في حمأة الرّذيلـــة، الـــذين يعملـــون علـــى انحـــراف المؤمنين عن الطريق المستقيم انحرافا عظيما ليُطبِّق عليهم الضلال والفساد.

28- يريد الله أن يخفف عنكم...وخلق الإنسان ضعيفا.

هذه إرادته سبحانه التي حقّقها بما شرعه لكم يريـــد أن يخفـــف عـــنكم، فســـبحانه يرعـــى قدراتكم المحدودة ولا يكلفكم ما فيـــه مشـــقة، وكلمـــا حصـــلت المشـــقة أســـرع التيســـير والتخفيف. وهذه قاعدة من قواعد التشـــريع مرعيـــة لـــدى الفقهـــاء والمجتهـــدين، الـــذين يقدرونها تبعا لتعمقهم في الوضع وتقديرهم للتيســـير الـــذي يرفـــع الحـــرج. ولـــيس ذلـــك بابا مفتوحا لمن لم يملك المستوى العلمي الذي يمكنه مـــن بيـــان حكـــم الله. وتخـــتم الآيـــة بإعلان حقيقة قد يغفل الناس عنهـــا: هـــي أن الإنســـان بنـــي تركيبـــه علـــى أنـــه ينتابـــه الضعف، والذي خلقه وهو أعلم به يراعي من رحمته وفضـــله هـــذا الضـــعف فـــلا يثقـــل عليه. والآية تشير إلى مبدأ من مبـــادئ التربيـــة الإســـلامية التـــي كـــون عليهـــا النبـــي صلى الله عليه وسلم هـــذه الأمـــة، فارتفعـــت بـــذلك إلـــى مقامـــات ســـامية مـــن الرّشـــد الاجتماعي: على كل مؤمن أن يرعى أخاه المؤمن فـــلا يثقـــل عليـــه هـــذا الخُلُـــق هـــو

مقتبس من الكمال الإلهي الذي يرقى المؤمن فيه إلى مستويات حسب طاقته وما قدره له ربه من الكمال. فلا تُضْجِرْ أخاك بالمقام عنده كأنه لا شغل له في الدنيا إلا الحديث معك، ولا تكثر المطالب على من تربطك بهم علاقة اجتماعية من زواج أو بنوة أو أبوة أو قرابة أو صداقة. قَدِّرْهُ دائما في تعاملك أن الإنسان ضعيف له حاجات فلا تستغل حياءه. وتأملوا فيما أدب به القرآن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنزاله: **فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم والله لا يستحي من الحق** [1].

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ عُدۡوَٰنٗا وَظُلۡمٗا فَسَوۡفَ نُصۡلِيهِ نَارٗاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَنُدۡخِلۡكُم مُّدۡخَلٗا كَرِيمٗا ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ:

لا تأكلوا: لا تستولوا.

بالباطل: بغير الطريق المشروع.

عدوانا: التسلط بالظلم.

بيان المعنى الإجمالي:

نهى القرآن المؤمنين أن يستولي أحدهم على مال غيره بغير وجه شرعي وقد فتح لهم بأبواب التجارة الدائرة بينهم عن طريق التراضي التحصيل على الرّزق. ونهاهم أن يعتدوا بالقتل. إن الله، تعالى أن يكون مسؤولا ، رحيم بكم. فكيف لا تكونوا رحماء فيما بينكم. ومن لم يمتثل وارتكب ما نهى الله عنه بالتسلط على غيره بالظلم فاستولى على ماله أو قتله، فليعلم أنه لا يفلت من عقاب الله وسيصلى نار جهنم، ولا يجد ملجأ ولا طريقا للنجاة. يفتح القرآن الأمل للعصاة الذين لم يفسدوا بعظيم الجرائم واجتنبوا الكبائر، أن الله سيتفضل عليهم بمحو ما ارتكبوه من صغائر الإثم. فيقدمون على ربهم وقد امحست من صحائفهم آثار الذنوب، فيدخلهم الجنة بما أعده فيها لهم من كرامة.

بيان المعنى العام:

29-يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا... كان بكم رحيما.

---

[1] سورة الأحزاب ، آية 53

يهدف القرآن إلى تكوين مجتمع فاضل، تربط أفراده صلة متينة من الود، وهذا لا يتحقق إلا إذا كان كل فرد يحترم حقوق غيره ولا يتعدى عليها، بل إن المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا. ولذا نهى القرآن المؤمنين، ودعاهم بوصف الإيمان ليبني عليه أن عدم احترام هذا النهي يتناقض مع الإيمان. قدم في النهي ما يقرب حدوثه ويتهاون بعض الناس به، وهو الاستيلاء على مال الآخرين بغير وجه شرعي. ويشمل ذلك القمار والسرقة والغش والرّبا والغصب وبصفة عامة: كلما كان انتقال المال من يد إلى يد بالقهر أو بالتحايل أو بطريق محرم أو بغير رضا صاحبه، هو داخل تحت قوله تعالى: **لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**.وأخرج في صورة الاستثناء ما يحصل عليه التاجر من المكاسب التي تم التبادل فيها برضا الطرفين فإن ذلك حلال، وإن كان ما يحصل عليه التاجر في بعض الصفقات يكون أكبر بكثير مما قدمه من خدمات.

وثنى بالنهي عن القتل. والقتل من أعظم الذنوب، هو مخرب للمجتمع محطم للوحدة، مزرعة للفتن، والقاتل عدو الحياة التي يستوي فيها جميع الأحياء، فمن قتل غيره، باعتباره متعديا على الحياة، فكأنما قتل نفسه، ولذا كانت معصية القتل يستوي فيها من قتل نفسه ومن قتل غيره. لا يقدم الجرم على القتل إلا من ضاقت الحياة أمامه فوصل به الأمر إلى أن أغلقت في عقله جميع الأبواب وانسدت كل السبل. وعمي عن سعة رحمة الله .

30-ومن يفعل ذلك... يسيرا.

وحتى يقتلع من نفوس البشر الإقدام على هذين الجرمين العظيمين أفصح القرآن عما ينتظره كل من أقدم على هاتين المعصيتين، ظلما واستهانة بحقوق الآخرين، ينتظره أن يصلى نار جهنم، ولا يجد ملجأ يلجأ إليه ولا قدرة على الهرب فينساق إليها كما يندفع العصفور إلى البازي.

31-إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه... كريما.

يفتح المولى أبواب الأمل لمن لم يستول الشر على نفسه ولكن ينزلق في قليل من الأحوال إلى ارتكاب بعض الذنوب الصغائر لكن خوفه من الله وقوة إيمانه ووضوح صلته بالله ،كل ذلك يحول بينه وبين ارتكاب الكبائر. فيعده ربه بأن يمحو من صحائفه آثار ذنوبه الصغائر ليقدم على ربه بصفحة بيضاء من الآثام، فيكون مآله دخول الجنة بما فيها من كرامة.

وفي التفرقة بين الذنوب الكبائر والصغائر اختلاف كبير بين علماء الأمة. فبعضهم بالغ بأن كل معصية هي كبيرة وبعض المعاصي أكبر من بعض ومنهم من حصرها في عدد: الشرك بالله، وقتل النفس، وقذف المحصنات الغافلات، وأكل مال اليتيم، والفرار يوم الزحف والسحر، وعقوق الوالدين. وربطها بعضهم بما قارن النهي عنه وعيد النار أو عذاب أو لعنة.

ومنهم من تعمق فقال: يقدر عظم الذنب، فيعتبر كبيرة بما يترتب عليه من الفساد وما ينبئ عنه من قلة اكتراث صاحبه بنهي الله وتحريمه ووهن تدينه.

وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٣٢﴾ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَٰلِىَ مِمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ ۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَـَٔاتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

موالي: جمع مولى :القريب من الورثة.

عاقدت أيمانكم: من كانت قرابتهم بغير القرب الطبيعي. كالحِلْف والتبني.

بيان المعنى الإجمالي:

يطلب القرآن من الإنسان أن يكون واقعيا لا يعيش في الخيال، تتبع نفسه ما أنعم الله به من نعم على غيره لم يحصل هو عليها، فيستقر الشعور بالحرمان منها في نفسه حتى تأخذ عليه فكره، وقد يتحول متابعة التفكير وعدم الرّضا إلى حالات نفسد عليه حياته وربما تبعثه على الحسد أو على الإجرام. فالآية تنبه المؤمن إلى الاعتصام بالرّضا بالمقدور والقناعة بما وصل إلى الإنسان من رزق دون أن يمنعه ذلك من العمل على ما يحوله إلى ما هو أفضل، ثم الاستعانة بالالتجاء إلى الله أن ييسر له أمره. ويؤكد القرآن ما تكفلت سورة النساء ببيانه من حقوق المرأة بصفتها الإنسانية الكاملة. فالمرأة لها حظها من الأعمال التي أنجزتها باختيارها وللرجل نصيبه من نتائج الأعمال التي اكتسبها. وتتلو الآية المفيدة أن الله شرع لكل تارك مال مواليه يرثون عنه ماله من الآباء والأبناء والأقارب فلا تتمنوا الحصول على ما فضل الله به بعضكم على بعض من الميراث.

وعطفت على الوارثين الصلة الحاصلة بالعقد لا بالنسب ولا بالصهر، وكانت قرابة معتبرة يستحق بها المعا قد شيئا من الميراث، ثم نسخ هذا الحكم وانفرد الوارثون، المعينون بالنصوص، بمال الميت.

بيان المعنى العام:

32-ولاتتمنوا ما فضل الله به بعضكم...عليما.

يتفاوت البشر في حظوظهم من الخير، هم مراتب في الثراء والجمال والعلم والدين...، وتختلف النساء عن الرّجال في الحظوظ التي ينالها كل جنس. ثم إنهم بعد ذلك مختلفون ففريق قنعوا بما قدر لهم، القناعة الإيجابية التي لا تعطل عن السعي لتحويل الحال، وفريق المتبرمين بوضعهم الساخطين على ما قدر لهم في الحياة أو ما شرعه الله لهم. وبين الأطراف مراتب كثيرة. ويتوجه التأديب القرآني للفريقين

يرشد الفريق الأول إلى قطع تسلسل حديث النفس عن الأماني والاشتغال بالمفقود. وليس معنى ذلك أن يقطع طموحه فلا يخطط لنيل ما هو أفضل في المستقبل، بما يتحول معه حاله إلى وضع يكون أرفق به وأسعد فذلك مخالف لفطرة الإنسان التي خلقه الله عليها، بل مخالف لأمره أن يحقق خلافته في الأرض بالطموح الصالح (**واسألوا الله من فضله**)ولكن لا يلتحق بالفريق الثاني الذي يشقى بأمانيه.

وينهى الفريق الثاني عن الإغراق في الأماني، وحصر التفكير فيما فقدوه، دون النظر إلى ما حصلوا عليه من نعم. ذلك أن حصر الإنسان همه فيما لم يحصل عليه، ينتهي به إلى السخط على وضعه، ثم يتطور إلى حسد من هو مفضل عليه، وقد يتحول إلى كراهية ثم إلى سعي ظالم للحيلولة بين المنعم عليه وبين تمتعه بما رزقه الله، وقد ينتهي إلى الكيد أو القتل.

ويدخل في الفريق الثاني تمني النساء التسوية مع الرّجال في كل شيء، في الجهاد، والميراث، وقد روي أنه وقع التصريح بذلك من بعض النساء في العصر النبوي، والآية نزلت بحكم عام يثقف الرّجال والنساء. ليُوقِنْ كل مؤمن ومؤمنة بأن ما ضبطه الإسلام في الحقوق والواجبات، وما خص به كل جنس وما قسم لكل فرد من الميراث، وفي حياته من الصحة والقوة أو الضعف والمرض، والجمال والوسامة أو الدمامة، والعلم والفصاحة أو الجهل والفهاهة، والوجاهة والحظوة أو الخمول وفقدان التوقير والقبول، ونحو ذلك هو من العدل الإلهي الصادر عن علم كامل محيط بالكون ومن فيه وما فيه.

فالله عليم العلم الكامل بكل شيء ما عظم وما دق فليطرد المؤمن وساوس النفس التي يتبعها التوقف أو الاعتراض، وذلك بالاعتماد على أن الذي ميز كل فرد بنصيبه في هذه الحياة الدنيا، هو الذي وسع علمه كل شيء. ومن التشريع العادل الذي لا يغمط أحدا حقه، ما قرره القرآن منذ أربعة عشر قرنا: أن نتائج العمل تقدر بما قدمه العامل من جهد وجودة أي بقيمة العمل لا بقيمة المنتج، الرّجل والمرأة في ذلك سواء. إن هذه التسوية لم تتحقق في العالم بصفة شاملة حتى اليوم. ولم تنل المرأة التسوية في الحقوق والأجور في الغرب إلا عقب الحرب العالمية الثانية، وبعد احتجاجات واضطرابات.

وهذه الآية مرتبطة في بعض ما تدل عليه، بالتفاضل الذي نظم به القرآن قسمة التركات، فهي متصلة بآية المواريث.

وتتبعها الآية التالية التي جاء نظمها بطريقة توجب على تاليها التأمل في ترابط أجزائها ليتبين له معناها فيمكن أن تفهم على المعنى التالي:

33-ولكل جعلنا موالي مما ترك... شهيدا.

التارك للمال من الرّجال والنساء، شرعنا لكل قريب منهم حظه من الميراث من مواليه، وهم الوالدان الدال على عمود النسب فيدخل فيه الأبناء وما تناسل منهم، والأقارب الجوانح بالأخوة والعمومة. كما يمكن أن تفهم:ولكل شيء من التركة التي خلفها الوالدان والأقربون شرعنا للذين هم مؤهلون للميراث من ذلك المخلف ما يؤول إليهم على مقادير مراعى فيها العدل والحكمة. فلا تتمنوا ما فضل به بعضكم على بعض في الثراء في حياتهم ولا ما فضل الله به بعضكم على بعض في النصيب المحدد من الميراث. وتتعرض خاتمة الآية لتنظيم اجتماعي كان عليه المسلمون في العهد الأول. إذ التركيبة الاجتماعية كانت تلتئم فيها الوحدة العائلية من عناصر ثلاثة: وحدة النسب، ووحدة الصهر، ووحدة الولاء الذي كان يتحقق إما: تبعا للعتق فالمعتِق يستحق حظه من تركة معتَقه، وإما بعقد يعقده اثنان بينهما ويؤكدانه بالقسم أو بمسك كل منهما بيد الآخر: أنهما ترابطا ارتباطا كاملا يرث أحدهما الآخر وينصره ويثأر له ويعادي من عاداه، ويكون سَلْما لمن يسالمه من تعاهد معه، وإما بعقد التبني فقد كان بعضهم يتبنى ولد غيره فينسبه إلى نفسه فيستوي بذلك مع أولاد صلبه في جميع الحقوق ومنها الميراث، وينضاف إلى ذلك ما عقده النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار فقد آخى بينهم أخوة تبعها الميراث. فلم تزعزع آية المواريث البناء الاجتماعي زعزعة هادمة بضربة واحدة، بل أبقت للولاء حظا من الميراث إلى أمد محدود، حتى إذا سار أمر الميراث على القَسم

الذي حددته الآية وألفوه، نزل مــا ينســخ الميــراث بــالولاء فــي قولــه تعــالى: **وأولــو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** (خاتمــة ســورة الأنفــال) وانتهــى التــوارث بغير القرابة والصهر وولاء المعتق خاصة.

ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

قوامون: القوام: المكلف بالرّعاية والحفظ.

قانتات: جمع قانتة: وهي المطيعة عن إرادة ورغبة ومحبة.

نشوزهن: النشوز: العصيان مع استعلاء وتمرد.

شقاق: خلاف يفضي إلى الانفصال.

بيان المعنى الإجمالي:

حقيقة قدمها القرآن بين يدي الأحكام التابعة لها. هذه الحقيقــة عبــر عنهــا فــي صــورة قاعدة من قواعد الحياة التي بنى عليها الله نظــام الكــون، هــي أن القيــادة فــي مؤسســة الأسرة، للرجل وينبه إلى أنه ليس في ذلك تــوهين لشــأن المــرأة ولا إضــعاف لــدورها في الحياة ولكن هذا التنظيم مبني على ما خــص بــه كــلا مــن الجنســين ، فإنــه مــن الحقائق الأولية المدركة ضروريا لجميع البشــر أن جــنس الرّجــال أصــلب فــي هيكــل التركيب العضلي وأقدر على اقتحام المخاوف والتغلــب عليهــا. وذلــك قــدر فضــل الله به جنس الرّجال وألزمهم تبعا لذلك بواجبات لــم تفــرض علــى المــرأة التــي منهــا أن الرّجل مطالب بالسعي لكسب الــرّزق والإنفــاق علــى الأســرة وتــوفير مــا هــي فــي حاجة إليه من سكن وغذاء وكسوة ورعايــة فــي حــالتي الصــحة والمــرض. وليســود الوئام في الأسرة، على المرأة أن تكون عضــوا صــالحا فيهــا، وصــلاحها يــتم بتزكيــة نفسها لتعمل بذكائها على نشر الوفــاق فــي الأســرة، فتكــون مطيعــة لزوجهــا الطاعــة التي تكفل الحياة الزوجية في أمن ووئام. ولا يجــوز للــزوج أن يتعســف فــي تنفيــذ مــا يترتب على القوامة فلا يعتبر نفسه سيدا للمــرأة يأمرهــا فتخضــع. ومــن ناحيــة أخــرى

فإنه لما كان سعي الزوج لكسب الرّزق يصحبه مغيبه عن البيت، وتكون الزوجة مؤتمنة طول مدة مغيبه على ماله وعلى عرضه وعلى رعاية أولادهما، ذكرها القرآن بالصفة الثانية الضرورية لصلاح الأسرة، أن تكون يقظة لما كلفت به من رعاية ما اؤتمنت عليه من المال والعرض وتنشئة الأولاد على الفضل والخير. قد تتمرد الزوجة وتلغي حق زوجها في تسيير الأسرة على الخير، ويفسد الجو في البيت على الزوج وعلى الأطفال، فشرع القرآن ما يمحو هذه النزوة الطائشة وذلك بدعوة الزوج إلى تذكيرها بما أوجب الله عليها من الطاعة، ومن حقوق الأولاد أن يعيشوا في بيت يسوده الوفاق لا الخصام، فإن عادت الحياة الزوجية إلى سابق عهدها فبها ونعمت وإن استمرت على الترفع واحتقار زوجها هَجَرَها في الفراش، فإن تمادت وكانت من المحيط الذي ألفت فيه المرأة أن لا تحترم الزوج إلا إذا ضربها، فليضربها ضربا لا للتشفي ولا للإهانة. أما إذا كان الضرب يزيد في نفورها وينمي الشقاق بينهما فلا يحل له أن يضربها. ويؤكد القرآن أن وسائل التأديب هذه إنما مكّن منها الزوج لتعود الحياة الزوجية إلى صفائها، وليست تسلط قهر وإذلال للزوجة. ويذكر الأزواج بأن سلطان الله فوق الجميع فهو العلي الأعلى. وإنه لقوي على تنفيذ موجبات العدل من الذين يتمردون عليه.

وإنه حفاظا على سيادة الوفاق في حياة الأسرة، وحتى لا يقع الإسراع بالطلاق يدعو العناصر المؤثرة الخارجية أن تتداخل إذا عجز الزوجان عن إزالة ما بينهما من خلاف، فأوكل للمحتَرَمَيْن من أعضاء العائلة أن يتكون منهما مجلس عائلي، حكم من عائلة الزوجة، وحكم من عائلة الزوج يفوض لهما النظر في أسباب الخلاف، ويتعمقان في بحثهما، لتبين أفضل السبل لإزالة أسباب النفرة، وعليهما أن يخلصا في إرادة الخير للأسرة التي دب التمزق لتركيبها، وليستعينا بالله ليعود الوئام والامتزاج والصفاء ومع حسن القصد والتوكل لا يعدمان العون من الله. وتختم الآية بتذكير الحكمين بأن الله عليم ببواطنهما خبير بنياتهما وما قاما به من سعي للتوفيق أو سعي أحدهما لتغليب من يمثله.

بيان المعنى العام:

34- الرّجال قوامون...إن الله كان عليا كبيرا.

أثار مضمون هاتين الآيتين ضجة مفتعلة ممن ولّوا ظهورهم لأحكام الله وجعلوا أهواءهم وعقولهم مُحكَّمة في الحياة مقدمة على ما أحكمه من تشريع. فلنتتبع ما ورد فيهما حسب قواعد الشريعة وما أراد الإسلام أن يحققه من غايات. وحسب ما يقتضيه منطق الأشياء ويوجبه العقل الصافي من لوث الأهواء.

تفتتح الآية الأولى بإعلان قاعدة من قواعــد النظــام الاجتمــاعي:الرّجــال قوامــون علــى النساء. على معنى أنه إذا لم تحترم هذه القاعدة اختــل النظــام الاجتمــاعي فــي الأســرة التي هي الركن الأساس الذي يقوم عليه المجتمــع ،فــإن ســلمت الأســرة ســلم المجتمــع وإن تحللت واختل تركيبها اهتز المجتمــع كلــه فــي جميــع مظــاهره بمــا يتبــع ذلكــم الاختلال من ضعف ووهن وفساد.

فلنتتبع أولا معنى **القوامة**. القوامة مأخوذة من القيام. بما تشــير إليــه هــذه الكلمــة مــن جد واجتهاد وعناية، فمن أراد أن ينجز أمرا هامــا لا يباشــره وهــو قاعــد، بــل يقــوم إليه ثم يوالي بعد قيامه متابعة الخطــوات التــي يبــرز بهــا عملــه علــى مــا ينبغــي أن يكون عليه. فالقوامة مسؤولية يتحملها الرّجل فــي الســير بالأســرة علــى الوجــه الــذي يضمن للأطفال نموا صالحا، ومرانا على حــل معقــد مشــاكل الحيــاة، وتربيــة متتابعــة تشمل الرّوح والعقل والسلوك. وتضمن للمــرأة عفتهــا وتيســير إمكاناتهــا للتعــاون مــع الرّجل في القيام بــأمر الأســرة وتربيــة الأولاد. ويضــمن للجميــع الــرّزق الشــامل للمسكن والغذاء واللباس والعلاج عنــد المــرض. وبهــذا يتبــين لنــا أن القوامــة ليســت تسلطا على المرأة تسلطا يفقــدها شخصــيتها ويجــرح أو يــذهب بكرامتهــا يقــول الله تبارك وتعالى**(ولقد كرمنــا بنــي آدم)** يســتوي فــي هــذه الكرامــة الــذكور والإنــاث، والرّجال والنساء، وليس لأحد أن يبطل أو يتجاوز مــا حكــم بــه الله. فالقوامــة ليســت تسلطا ظالما ولا تعسفا ولا إهدارا لمــا منحــه الله للمــرأة مــن ذكــاء وقــدرات عقليــة وخلاصة تجارب، وليست تفردا بالسلطة كمن يقود قطيع الأغنــام يســير بهــا كمــا يريــد إلى حيث شاء. وإنما القوامة هي طبيعة النظــام فــي جميــع المؤسســات، والأســرة أهــم تلكم المؤسسات. فالمؤسسة التجاريــة أو الماليــة أو الإداريــة أو الفلاحيــة لا يمكــن أن تنجح إلا إذا عهد بهَا لأصلح الأفــراد فيهــا وأقــدرهم علــى التســيير المحكــم. الحقيقــة التي يجب أن تكون حاضرة، هــي أن الرّجــل مســؤول عــن تصــرفه بهــذه القوامــة المراعى فيها أمور: رعاية الصلاح والعدل، والمحاسبة عليها.

نعم قد انحرف بعض الرّجال فظلموا نساءهم كما شكا شوقي ذلك لما قال:

ظلم الرّجال نساءهم وتعسفوا *** هل للنساء بمصر من أنصار

هذا الظلم هو نتيجة عدم تطبيــق الهدايــة الإســلامية فــي التعامــل، وتربيــة اجتماعيــة بلغت من السوء والانحراف والخروج عــن حــدود الــدين مــا كانــت نتائجــه انحطــاط العالم الإسلامي في كل شيء فتمكنت منه الأمــراض النفســية والخلقيــة واســتعد لقبــول التسلط الظالم مــن القــوى الاســتعمارية المســتكبرة، ومــن أنظمــة مســتبدة متســلطة، فسرى ذلك في المجتمع، وترســخ فــي النفــوس المريضــة مجــاوزة الحــدود والتســلط

الظالم بل أصبح التبرم من هذا الوضع أو الشكوى جرما وذهب ما جاء به الإسلام من تحرير الإنسان من العبودية لغير الله، وأصبح قبول الإذلال والاستعباد أليف النفوس فكان للمرأة نصيب من هذا الجو العام المناقض لما ثبته القرآن في عقول المؤمنين وفي نفسياتهم.

إنه في هذا المحضن الذي يلتقي فيه شِقّا النفس **(خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء)** كما جاء في مفتتح هذه السورة أعطى القرآن في هذا المحضن لكل وحدة حقها، فالرّجال بما زودهم الباري سبحانه من قوة عضلية تفوق عادة قوة المرأة ،و من تركيبة نفسية جعلتهم أكثر إقداما وشجاعة في مغالبة الخطوب، فكانت استعداداتهم ميسرة لهم العمل بعيدا عن البيت وفي الأشغال التي تقتضي تلكم الخشونة والسواعد، فأوكل الله إليهم حماية الأسرة من ناحية وتحصيل الرّزق لينفقوه على جميع أعضاء الأسرة. **الرّجال قوّامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم.**

وأعطى للمرأة دورها الأساس المستجيب لطبيعتها النفسية والعضلية، فهي شريكة الرّجل يستمع لرأيها ويحترم ما تكشف عنه من حق وصلاح. وقد سمع الله قول التي تجادل رسول الله ﷺ في شأن زوجها[1] ومن مخالفة الهدي المحمدي حبسها عن التعلم، فالنبي ﷺ خص النساء بأوقات يعلمهن فيها. وقد كانت أمهات المؤمنين مرجعا لكبار الصحابة يأخذون عنهن العلم. فليس من الإسلام في شيء أن تكون حبيسة البيت غارقة في ظلام الجهل محجوبة عن نور المعرفة.

والمرأة الصالحة هي القانتة التي لا تظهر التمرد والتحدي، فالقانتة هي المطيعة نتيجة اقتناع ورضا. والمرأة الصالحة هي التي تكون أمينة على ما ائتمنها الله عليه من مال الأسرة، وعفافها، ومراقبة الأولاد في سلوكهم، وعدم التستر على نزواتهم بل تستعين بزوجها على حسن تربيهم وتقويم ما اعوج من سلوكهم حتى يكون الزوج وهو بعيد عن البيت كأنه حاضر فيه لأن عين الزوجة عين الرّقيب الصالح الشاعر بالمسؤولية والأمانة، حافظات للغيب بالطريقة التي أمر الله بها في حفظ الزوج عند مغيبه.

ثم تعرض القرآن لحالة مناقضة لما ينبغي أن تكون عليه الحياة الزوجية. هي حالة تستبد بالمرأة فيها تصورات ووساوس حتى ترى نفسها أرفع من زوجها وتتمرد على الأعراف المرعية عادة في الأسرة، وهذه الحالة يعبر عنها بالنشوز المشتق

---

[1] سورة المجادلة آية 1

من نشزْ الأرض للمكان المرتفع منها. يظهر منهــا التحــدي لمكانتـــه فـــي قيــادة الأســـرة من غير حق، تتباعد عنه، لا تقوم بما كانت تقــوم بـــه، هـــي حالـــة مؤذنـــة بالانفصـــال، وهي وضعية آثارها مدمرة على الأطفـــال. وفـــي هـــذه الحالـــة أرشـد القـــرآن الـــزوج ليقوم بعلاج الوضع الجديد، فذكر مـــن الطـــرق لتعـــود الحيـــاة الزوجيـــة لســـابق عهـــدها من الوفاق، الوعظ والتذكير، والهجر فـــي المضـــاجع فـــلا يكلمهـــا ولا يلاعبهـــا إذا مـــا اختليا، الضرب التأديبي. ونؤكد علـــى أن الإرشـــاد هـــو للعـــلاج، أي دواء لحالـــة غيـــر سوية مَرَضيّة، ومن شأن الدواء أن يقدر تناوله بمـــا يترتـــب عليـــه مـــن الإصـــلاح، فـــلا يعطى الدواء إلا إذا ظـــن أنـــه يفيـــد المـــريض، ويحـــرم إذا كـــان يتوقـــع أن يضـــاعف الضرر. فإذا كانت الزوجة من بيئة لا يضرب الرّجـــل فيهـــا زوجتـــه بحـــال، ولـــو مـــد يده إليها فهي القطيعة التي لا رجوع بعـــدها فـــإن الضـــرب يكـــون محرمـــا، وكـــذلك إذا كان الهجر يعرف الزوج أنه يضاعف نفرتها منه فلا يهجرها.

35- وإن خفتم شقاق...عليما خبيرا.

وإذا استمر الاضطراب الذي حدث في الأســـرة وآذن الوضـــع بالشـــقاق، فإنـــه حتـــى لا يسرع الزوج إلى الطـــلاق بمـــا يتبعـــه مـــن تمزيـــق للعائلـــة، دعـــا الله أقربـــاء الـــزوج وأقرباء الزوجة أن يتدخلوا فيكونوا منهما مجلســـا عائليـــا يبحـــث فـــي الإشـــكال الحـــادث والتعمق في البحث عن أسبابه ثم العمل علـــى اجتثـــاث الشـــر الـــذي ظهـــرت بـــوادره. يحضر ممثل لعائلة الزوجة من حكمائها، ويحضـــر ممثـــل محتـــرم مـــن عائلـــة الـــزوج أيضا يكون همهما الإصلاح وإزالة أســـباب الخـــلاف، ودعـــوة المتجـــاوز منهمـــا إلـــى الرّجوع إلى الطريق المستقيم، ويعدهما الله بالعون فـــي مهمتهمـــا إذا أخلصـــا النيـــة فـــي التوفيق. والله علـــيم بنيـــة كـــل فـــرد منهمـــا خبيـــر بصـــدقهما، لا يســـتطيع أي منهمـــا التلبيس أو المغالطة.

۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴿٣٨﴾

وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمْ
عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ
شَهِيدًا ﴿٤١﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا
يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

الجار الجنب: الجار الذي لا تربطك به علاقة قرابة.

الصاحب بالجنب: المصاحب الملازم كالضيف والرّفيق في السفر.

المختال: المتكبر.

أعتدنا: هيأنا.

القرين: المصاحب.

مثقال ذرة: وزن بيضة النمل أو ما يتطاير من التراب بالنفخ، وهو تعبير عن التفاهة.

بيان المعنى الإجمالي:

تذكير بالأساسيات التي تميز المسلم، وذلك بأداء ما أوجبه الله من العبادات على المؤمنين، وتنبيه للحذر من مزالق الشرك، فلا يشركوا بالله شيئا. وطلب الإحسان في المعاملة لأصناف ممن يتكون منهم المجتمع في الأسرة وفي الحياة بصفة عامة فنبه على تسعة أصناف: الوالدين فتتجاوز معاملتهم حد الحقوق إلى الإحسان، وكذلك القرابة فلا يتهاون المسلم بالإحسان إلى أقاربه، ويتصل هذا الإحسان بالنوعين الضعيفين في المجتمع اليتيم الفاقد لوليه الذي كان يعزه ويحميه، والفقير الذي وهنت الحاجة منزلته، وكذلك الجار الذي اجتمع فيه حق القرابة، والجار الذي لا تربطك به رابطة سوى الجوار، كذلك إلى من يصحبك ويلازمك في إقامتك أو في سفرك، والمسافر الذي ليس له رفيق ولا عصبة تحميه فكأنه لا سند له ولا يعرف إلا الطريق الذي يسير فيه، الأرقاء، العبيد الفاقدين للحرية.

وعرفت الآية في خاتمتها بالداء الذي يمنع من الإحسان وعاقبته، فذكرت أنه إذا توطنت جرثومة الكبر والترفع وحالت بين الإنسان وبين الإحسان، فجزاؤه إذن أن الله لا يسعفه بالعون ولا يرفعه إلى منزلة القرب منه ويبعده عن منازل كرامته. ثم انتقلت الآية محذرة المؤمنين من أخلاق المنافقين واليهود، الذين يشحون بما لديهم

من فضل مال، ويحرضون غيرهم علــى الشــح، ويخفــون مــا رزقهــم الله مــن أمــوال مظهرين الفقر والحاجة. وسفالة أخــلاق هــؤلاء لا يضــيع جزاؤهــا فقــد أعــد الله لهــم عذابا يهينهم. ومن المنافقين من يسبقون إلى التظــاهر بالســخاء والبــذل لا دفعــا لحاجــة ولا إغاثة لملهوف، ولكن ليظهروا بمظهــر الأجــواد الكرمــاء، وليرفعــوا منــزلتهم فــي المجتمع ويتحدث الناس بنــبلهم وفضــلهم، وذلــك رشــح كفــرهم بــالله واليــوم الآخــر فقصروا نظرهم على الحياة الدنيا، وما ذلــك إلا لأن الشــيطان صــحبهم فــأزاحهم عــن صالح الأعمال التي تنفع المجتمع، وحصرهم فــي دائــرة مصــالحهم الخاصــة وأخصــها الخيلاء والكبر. ما أسوأ وضع من صحبه الشيطان واتبــع مــا يمليــه عليــه. ثــم يتوجــه القرآن بتوبيخ الفريقين الذين يبخلون والذين ينفقــون رئــاء النــاس، يــوبخ الفريــق الأول بأنهم أغبياء، ظلام عقولهم حجب عنهم ما هو خيــر لهــم. ذلــك أنهــم لــو آمنــوا بــالله واليوم الآخر وأسرعوا إلى الإنفاق من المال الــذي مــا اكتســبوه إلا مــن فضــل الله، لكان ذلك خيرا لهم في الحال والمآل.

ويوبخ الفريق الثاني بأن استيلاء حب المال علــيهم، ومــا تولــد عنــه مــن شــح مقــيم، وعدم تحركهم للبذل ما كان إلا إيثارا للمحمدة من النــاس دون أن يكــون لهــم حــظ مــن الإيمان، كل ذلــك لا يخفــى علــى الله منــه شــيء، فيهــددهم بأنــه سيحاســبهم. وهــو معنى**(وكان الله بهم عليما)**. إن ما أعده ســبحانه مــن العــذاب المهــين ومــا هــدد بــه الذين يبخلون ويراؤون ويكفرون، هو الجزاء العــدل فــالله لا يظلــم النــاس ولا يتجــاوز بالعذاب ما يستحقه العاصي عن معصيته ولو بجزء قليــل تافــه. علــى خــلاف جــزاء المحسنين فإن الله يضاعف جزاء الحسنات بفضــله وبمــا صــحب العمــل الصــالح مــن طيب النوايا وحسن القصد.

وينتهي هذا المقطع بعرض مشهد عجيــب ، حقيــق بــأن يتعجــب منــه لأنــه فــوق مــا يصوره الخيال، هو اليوم الذي تجمع فيه الخلائق، ويــأمر الله أمــره النافــذ فيجــيء عــن كل أمة شهيد يشهد على من آمن ويشــهد علــى مــن تــولى وكفــر، ويتقــدم محمــد ﷺ ليقدم شهادته على قومه الذين رفضوا دعوتــه واســتحبوا الكفــر علــى الإيمــان. يصــور القرآن بإشارة خاطفة هول هــذا المشــهد: أن الــذين كفــروا وعصــوا رســول الله لمــا شاهدوا ما حصل للمشهود عليهم من الأمم الســابقة يبلــغ بهــم الخــوف مبلغــه فيجــري في نفوسهم الوَجِلَةِ أماني: دخــولهم فــي جــوف الأرض حتــى يســتوون مــع ســطحها. وتبرز خاتمة الآية أنهم في هذا المشــهد لا يســتطيعون كتمــان كفــرهم ولا معاصــيهم. لنطق جوارحهم بما قدموه.

بيان المعنى العام:

36- واعبدوا الله... مختالا فخورا.

هذا المقطع يعنى بتوجيه الإنسان إلى ما يحقق بــه ســعادته فــي الــدنيا والآخــرة، فهــو يربط بين ما ينبغــي أن يكــون عليــه المــؤمن فــي حياتــه وبــين المصــير المفصــل للمؤمنين والكافرين.

موقع هذا المقطع مما سبق من الآيات أنــه جَــرْيٌ علــى طريقــة القــرآن فــي عنايتــه بإصلاح الفرد والمجتمــع إصــلاحا يقــوم علــى مواصــلة التــذكير بالثوابــت وتكــرار الوصاية بها حتى تكون حيــة فــي القلــوب والعقــول فاعلــة لتتحقــق الاســتقامة علــى الطريق. فبعد أن فصلت سورة النساء كثيرا من الأحكــام ، كانــت العــودة إلــى الأصــل الذي يستند إليه كل تشريع ويقوم عليه صلاح الدارين فأمرت الآية:

أولا: اعبدوا الله العبادة التي تظهر في أركــان الإســلام العمليــة الأربعــة، وفــي ربــط المؤمن كل عمــل يعملــه بــالإخلاص لله فيــه وقصــد التقَــوّي علــى طاعتــه. وقــرن سبحانه الأمر بالطاعة بالنهي عن الإشــراك بــه ولــو شــيئا يســيرا. وفــي ذلــك إيقــاظ للضمير كي يكون مستحضرا دائما الإخلاص لله والاعتماد عليــه وحــده وهــذا ممــا قــد يغفل عنه المكلف.

ثانيا: الأصل الثاني: ما بنــى عليــه القــرآن النظــام الــذي يمكــن البشــر مــن القيــام بوظيفتهم في الكون الذي استخلفوا فيه. فابتــدأ بالأســرة مؤكــدا علــى أن تقــوم العلاقــة بين الذرية وبين الوالدين علــى الإحســان، المرتبــة التــي تســمو علــى أداء الواجــب، يظهر ذلك في طاعتهما وطريقــة الخطــاب، وإكرامهمــا فــي حياتهمــا وبعــد موتهمــا، وهذا من خلق الوفاء لمن تقــدم منــه الجميــل. وكــذلك العلاقــة مــع الأقــارب فســرى الأمر بالإحسان إلى القرابة التي تتكون منها الأسرة على نفــس النحــو المــأمور بــه فــي الوالدين مما يُمَتِّنُ بناءها، وذلــك بالعنايــة بــربط صــلات المــودة، وعــون المحتــاج، وإحياء الرّوابط بالتزاور والتكريم، والتواصل، وعــدم إهمــال جامعــة النســب والصــهر وخاصة في الأعياد والأفراح والنكبات.

ثالثا: رعاية المستضعفين في المجتمــع، كالأيتــام الــذين فقــدوا العائــل والنصــير ممــا يجعلهم يشعرون أن انتسابهم للإســلام يحمــيهم فــي بــواكير صــباهم ورابطــة الإيمــان تدفع عنهم الحاجة. وكذلك المساكين الذين عضــهم الفقــر. فالإحســان المــأمور بــه فــي الآية يحصنهم من جرثومة الحسد ويرقى بإنســانيتهم إلــى الشــعور بالمســاواة مــع بقيــة أعضاء المجتمع.

رابعا: رابطة الجوار: لقد كانت عناية الإسلام بإحكام الصلة بين الجيران باعتبارها مقوما من مقومات البناء الاجتماعي القوي الصامد للمخاطر والهزات. والأحاديث الداعية لرعاية الجار والإحسان إليه كثيرة، وتنوعت فيها طرق تحسيس المسلمين بها، قال صلى الله عليه وسلم: (ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)[1]

وقد يتأيد حق الجوار بوشائج أخرى كالدين والصلاح والاتحاد في المهنة ونحو ذلك، وأكد القرآن على اجتماع رابطة الجوار والقرابة، ورفع الوهم عن إهمال الجار الذي لا يصلك به إلا الجوار، فغير المسلم وغير الصالح والذي لا يساعدك في الملمات له عليك حق الجوار كما تدل عليه الآية (**الجار الجنب**).

ويدخل في هذه الوحدة رابطة الصحبة، فالذي تآلفتَ معه وأصبح ملازما لك وأنت ملازم له (**الصاحب بالجنب**) عليك بصفتك مسلما أن تحسن عشرته.

خامسا: نوعان من المجتمع قد لا يراعى جانبهم، أمر الإسلام بالإحسان إليهما إذ هما عنصران من المجتمع الإسلامي في حاجة إلى الاهتمام بهما وعونهما وهما:

1)العبيد الذين كان أهل الجاهلية ينظرون إليهم نظرة احتقار وإذلال تنزل بهم عن مرتبة البشر، فرفع القرآن من شأنهم وأدخلهم في المجتمع وفرض الإحسان إليهم.

2) المسافر المنفرد الذي ليس معه رفقة، وليس له في المحل الذي نزل فيه ولي ولا خليل فكأنه قد انبت عن الوجود ولم تبق له صلة إلا بالطريق الذي يسلكه، فعبر عنه بابن الطريق.

إن الذي استبد بأهل الجاهلية ففرطوا في الاعتناء بالأنواع المذكورة، هو تكبرهم وانتفاخهم بالفخر. وهدد القرآن المتكبرين في كل زمان ومكان بأن الله يهملهم ولا يعينهم ولا يقربهم منه ويحرمهم مما يتكرم به على عباده الصالحين. وهو معنى عدم حب الله لهم. فليحذر المؤمن من الكبر وما يجر إليه.

37- الذين يبخلون ويأمرون...عذابا مهينا.

إن تراخي الكافرين والمنافقين عن فعل ما يدمجهم في المجتمع كان بتأثير صفة محطمة للمروءة هي شحهم وبخلهم بما آتاهم الله من فضله، وتحريضهم على عدم القيام بواجب المواساة، وكتمانهم ما تفضل الله به عليهم كلما دعوا إلى السماحة،

---

[1] متفق عليه. فيض القدير ج5ص447

وذلك بإظهارهم الفقر كذبا. ويُعْلِمُ الله أنه قد هيأ لهم عذابا يتجاوز الألم الحسي إلى الإذلال والمهانة.

38- والذين ينفقون أموالهم...قرينا.

ويفضح القرآن قسما آخر لا يقل وضعهم فسادا عن إخوانهم الباخلين. وهم الذين ينفقون الأموال ليزدادوا تكبرا، همهم في لفت أنظار الرّعاع ليتحدثوا بوفرة أموالهم، قد أظلمت قلوبهم بفقدهم للإيمان بالله وبالجزاء الأخروي، ووجد الشيطان في أرواحهم الخاوية مسرحا ممتدا يجري فيه، ليمكن فيها الفساد الذي يقودهم إلى الشر ويحجزهم عن الخير.

39-وماذا عليهم لو آمنوا...وكان الله بهم عليما.

ويتوجه القرآن بعد فضحهم إلى توبيخهم وإبراز ضعف عقولهم ، وعمساهم عما يفيدهم، فيقول: إن هؤلاء المنافقين والكفرة لا يخسرون شيئا ولا يتضررون لو أزاحوا عن عقولهم حجاب العناد والاستكبار، فآمنوا بالله وتيقنوا بأن الله سيبعثهم يوم القيامة وطاعت نفوسهم بالإحسان مما تحصلوا عليه من فضل الله، والله سبحانه عليم بما يجري في عقولهم وبما يختلج في قلوبهم، لا يغيب عنه شيء.

40- إن الله لا يظلم...أجرا عظيما.

بعد هذا التوبيخ وذلك التهديد، تصرح الآية بحقيقة مُعَرّفَة بتصرف الذات الإلهية في الكون. هذه الحقيقة مركبة من أمرين:

العدل المطلق الذي لا ظلم معه، والفضل مع الحكمة.

نفت الظلم عن الله نفيا عاما شاملا في عقاب العصاة لا يظلم أحدا ولا ينزل به عقوبة تتجاوز جرمه ، وعبر عن العدل الإلهي الكامل النافي للظلم، بأنه لا يظلم وزن بيضة النمل ولا جزيئة من التراب تتطاير بمجرد النفخ عليها. وهذا تصوير في الوقت الذي ما كانت حساسية الموازين تستطيع ضبط ميزان الذرة مما يفيد نفي الظلم عنه سبحانه على أبلغ صورة.

وأما الفضل مع الحكمة، فسبحانه لا يجزي عن الحسنة بقدرها ولكن يضاعف ثوابها كما يقتضيه فضله، ويتفاوت الجزاء كما تقضيه حكمته. ويبلغ هذا الفضل درجات تتجاوز ما يتصوره البشر، إذ وصفته الآية بأنه صادر منه وأنه عظيم.

41-42: فكيف اذا جئنا من كلّ أمّة .... و لا يكتمون الله حديثا

المشهد بهذا السؤال المثير، سؤال مثير للعجب والتساؤل كيف يكون حال البشر وقد صدر الأمر من الواحد الأحد بحضور شهيد من كل أمة يشهد عليها بما بلغه

لهم، ومواقفهم من دعوته، ويتفرد من بين الشهداء محمد ﷺ فيختص بدعوته مفردا ويتشرف بالخطاب المباشر (وجئنا بك) ليشهد على ما قابله به قومه ومقدار التزامهم بهدايته. فيصورهم المشهد وقد تضاءلوا حتى تنحصر رغبة الذين كفروا وعصوا الرّسول في شيء واحد: أن تبتلعهم الأرض ويغرقوا فيها وتسوى بهم. وفي طرف المشهد إعلان أنهم سيفضحون أنفسهم بلسانهم ولا يستطيعون أن يكتموا معاصيهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغۡتَسِلُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٤٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

الجنب: الوضع الذي يكون عليه الإنسان مطالبا بالغسل لأداء الصلاة.

عابر السبيل: المسافر.

جاء أحد منكم من الغائط: أصل الغائط: المكان المنخفض، وقد كان العرب يقضون حاجتهم في مكان منخفض يسترهم عن الأعين. والمعنى بال أو تبرز.

لامستم النساء: اللمس يشمل اللمس باليد أو الجماع.

صعيد: كل ما علا وجه الأرض.

طيب: طاهر.

بيان المعنى الإجمالي:

نهت الآية المؤمنين عن أداء الصلاة في الحالة التي تكون عقولهم مختلطة بما شربوه من الخمر (سكارى) حتى تعود إليهم يقظتهم العقلية ، وذلك بأن يعلموا مفاهيم ما يقولون. ويتصل بهذا الوضع أن يكون المسلم جنبا حصل منه اتصال جنسي، أو خرج منه مني في اليقظة أو في النوم ذكرا كان أو أنثى، أو أتمت الأنثى أيام العادة الشهرية أو انتهى خروج الدم منها بعد النفاس. فيحرم على الجنب أن يصلي وهو على تلكم الحالة، وعليه أن يتطهر فيرفع الجنابة عنه بغسل كامل بدنه بالماء الطاهر. ويسر الله على الجنب الفاقد للماء أو الذي حيل بينه وبين الماء بأي سبب من الأسباب، أو المريض الذي يخشى من الاغتسال حدوث مرض أو زيادته، أو ضررا بالغا منه، أن يقصد إلى جزء من الأرض طاهر لم يتلوث بنجاسة فيلصق

كفيه به، ثم يمسح بهما وجهه ويديه. وبذلك يعتبــر طــاهرا تحــل لـــه الصـــلاة. وكــذلك من انتقض وضوءه أوكان على حالة مـــن حـــالات الجنـــب وحضـــر وقـــت الصـــلاة أن يتيمَّمَ ويصلي. وختمت الآية بالتذكير بـــأن الله غفـــور للمـــؤمنين فـــلا يؤاخـــذهم بالصـــلاة بالتيمم بدون غسل، وبأنه رحيم بهم يصحب تكليفه لهم التيسير عليهم.

بيان المعنى العام:

43- يا أيها الذين آمنوا...إن الله كان عفوا غفورا.

الصلاة أبلغ مظهر من مظاهر العبادة المأمور بهـــا بصـــفة عامـــة فـــي المقطـــع الســـابق، فجاء الأمر في هذه الآية أن يقيموها على أحسن الوجـــوه وأتمهـــا بـــأن يكونـــوا مـــدركين تمام الإدراك لما يقولون، إذ بذلك تؤدي وظيفتهـــا فـــي ربـــط المصـــلي بربـــه و تزكيـــة نفسه وإعلاء مشاعره، فنهت هذه الآية المـــؤمنين عـــن الصـــلاة إذا كانـــت آثـــار الســـكر أفقدتهم التحكم العاقل فيما تنطق به ألسنتهم، ومن البديهي أن المنطق دليل العقل.

لقد تفنن الشعراء في التنويه بالخمر ومجالســها، وســجلوا مـــا تحدثـــه فـــيهم مـــن نشـــوة تضاعف تأثرهم بمبـــاهج الحيـــاة، وترهـــف إحساســـهم، وتبعـــث فـــيهم أريحيـــة تـــدفعهم للبذل، وانشراحا يتبعه إقبال علـــى اللـــذة والمجـــون، وشـــجاعة تـــذهب بـــالخوف ومـــن ناحية أخرى ترفع برقع التردد والحياء. لقد تتـــابع البشـــر علـــى شـــرب الخمـــر، وألفـــوا مجالسها التي تجمع وجوه القـــوم والظرفـــاء، ويـــأتون إليهـــا بالقيـــان وآلات اللهـــو. ولـــم يعرف أنه نهي عن شربها قبل الإسلام، فكانت فـــي أول الإســـلام جاريـــة علـــى الإباحـــة الأصلية. ولما كان الإسلام هو الدين الـــذي خـــتم الله بـــه هداياتـــه للعـــالمين، وأنـــه بلـــغ بهم في التشريع والتنظيم أعلى الـــدرجات، فإنـــه تبعـــا لـــذلك اختـــص بتحـــريم الخمـــر. ونظرا لإلفهم شربها، وأنه لا ينظر إليها، في المجتمـــع العربـــي وفـــي بقيـــة المجتمعـــات قبل التشـــريع الإســـلامي، علـــى أن شـــربها منكـــر أو لا يليـــق، راعـــى الإســـلام فـــي تحريمها التدرج فلم يفطمهم عنها مرة واحدة، فقـــرن فـــي ســـورة البقـــرة بـــين وصـــفين فيها الإثم والمنافع **(يســـألونك عـــن الخمـــر والميســـر قـــل فيهمـــا إثـــم كبيـــر ومنـــافع للناس)**[1] وقد بينا وجه القرن بينهمـــا فـــي تفســـير هـــذه الآيـــة فـــي ســـورة البقـــرة، وأن تحريمها من الآية هو الظاهر. ولكن لم ينتـــه عـــن شـــربها كـــل المـــؤمنين بعـــد نـــزول هذه الآية وقال بعضهم:نشربها لما فيها من منـــافع. ونزلـــت هـــذه الآيـــة تحـــرم علـــيهم قربان الصلاة وهم سكارى. وهو تعبير بليغ في إفـــادة المنـــع مـــن الصـــلاة فـــي حالـــة السكر، لأنه إذ منع من قربانها فـــي حالـــة الســـكر، فمـــع إقامـــة الصـــلاة فعـــلا يكـــون

---

[1] سورة البقرة 291

التحريم أولى، وجعل لذلك حدا وهــو أن تنتهــي آثــار السكر ويعلمــوا مــا يقولــون. ومعلوم أن الصحابة كانوا أحــرص مــا يكــون علــى إقامــة الصــلوات فــي أوقاتهــا، فتحريم قربان الصلاة يضيق عليهم مــن وقــت شــربها. ومــن هنــا بــدأ التنفيــر منهــا والنظر إليها نظرا يختلف عن نظرهم الســابق. إذ أصــبحت حالــة دنيئــة تنــافي شــرف الصلاة. وتهيأت العقول والمشــاعر لقبــول الإقــلاع عنهــا بتحريمهــا. وقرنــت الآيــة حكم تحريم قربان الصلاة مع الســكر المنــافي لمقــام التوجــه إلــى الله الــذي يتحــتم أن يكون العابد فيه على وضع سام عبر عنــه الشــيخ عبــد الله ابــن أبــي زيــد رحمــه الله بقوله: والمصلي يناجي ربه، فأي مقام يرقى فيــه المــؤمن لهــذه المرتبــة التــي يكــون فيها بحال قرب ومناجاة لربه !قرنت الآية ذلك بحرمــة الصــلاة عنــدما يكــون المســلم جنبا، والجنب هو الوضــع الــذي يكــون عليــه عقــب الاتصــال الجنســي، أو خــروج المني منه ذكرا كــان أو أنثــى يقظــة أو منامــا، أو عنــد انتهــاء دم الحــيض (العــادة الشهرية) أو عند انتهاء دم النفاس. ففي هــذه الحــالات يجــب علــى الجنــب أن يتطهــر بغسل كامل بدنه بالماء. وقد فصل الفقهاء بناء على السنة طريقة الغسل وأحكامه.

ولما كانت الصلاة على المؤمنين فرضــا حتميــا خمــس مــرات فــي اليــوم، وتَعْــرُضُ حالة الجنابة للإنسان بداعي غريزة الجنس القوية، أو تبعــا لطبيعــة الخلقــة، وقــد يكــون الجنب غير قادر على الغسل ، كحالة المســافر أو المقــيم الــذي لا يجــد مــن المــاء ما يكفيه، وكالمريض الذي يخشى من غسل كامــل بدنــه تضــاعف مرضــه وتعرضــه للخطر، أو تأخر برئه، وكذلك حالة العاجز عــن بلــوغ المــاء لفقــده أو للحيلولــة بينــه وبينه كحالة الخوف. ففي هذه الأحــوال يســر الله علــى المــؤمنين، وراعــى ظــروفهم فرخص في تعويض الغســل وأمــرهم بــالتيمم وذلــك بــأن يقصــدوا إلــى جــزء مــن الأرض(وهو الصعيد) طاهر لــم يتلــوث بنجاســة (وهــو الطيــب) فيمســح بيديــه بعــد لصقهما بالصعيد وجهه ويديه. وليستحضر المــؤمن فــي تلكــم الحــالات أن الله تفضــل فعفا عن المسلمين في الأحوال التي بيناهــا، وذلــك لرحمتــه التــي صــاحبت التكليــف. إن الله كان عفوا غفورا.

وكما رخص للجنب في التيمم فكذلك رخص لمن انــتقض وضــوءه بســبب مــن أســباب الجنابة، أو لكونه قضى الحاجة البشرية (**أو جــاء أحــد مــنكم مــن الغــائط**) أو لمــس بلذة امرأته، أن يتيمم ويقوم بأداء ما فرض عليه من الصلاة.

والأصل في عبادة التيمم أن شــأنها كشــأن العبــادات فــي ضــبط طرائقهــا ومقاديرهــا وأوقاتها لأنها تعبدية، القيمة الكبرى فيهــا أن القــائم بهــا يستحضــر أنــه عبــد لله أمــره فأطاع. ولكن لا يمنع ذلك من الاجتهاد والبحث عــن حكمــة لا نجــزم بأنهــا مــراد الله،

ولكن على معنى أنه يمكن أن تكون مقصودة بالتشــريع. فــأقول: إن كــل إنســان خلــق من ماء ، فإذا أراد القيام للصلاة وتوضأ نشط من ناحيــة، وتــذكر أن أصــل خلقتــه مــن ماء وتتابع الفضل الإلهي عليه فرعاه ووفقه حتــى أقبــل علــى العبــادة، وبجــنس المــاء الذي خلق منه يستعد للصلاة ويرجع إلى خالقــه عابــدا مناجيــا. ومــن ناحيــة أخــرى فإن أصل الخلق البعيد هــو التــراب. قــال تعــالى **(والله خلقكــم مــن تــراب)**[1] وتكــرر التنصيص على أن أصل الإنسان التراب ست مرات فــي القــرآن فــإذا عــدم المصــلي الماء الذي هو أصل خلقه القريب، فيعود إلى الأصــل البعيــد ويستحضــر بالقصــد إلــى التراب أصل خلقه ونعم الله عليه وأنه أهــل التقــوى وأهــل المغفــرة حقيــق بــأن يعبــد بإخلاص. فبهذا الملحظ يكون المكلــف قــد اســتعد للصــلاة اســتعدادا روحيــا صــالحا. روى جابر رضي الله عنه أن رســول الله ﷺ وســلم قــال: جعلــت لــي الأرض مســجدا وطهورا فأي رجل من أمتي أدركته الصــلاة فليصــل[2]. وتناولــت الآيــة حكــم الجنــب إذا أراد الصلاة: أنه مأمور بالاغتسال ورخص للمسافر فــي التــيمم وأدمــج فــي الآيــة الترخيص في التيمم بدل الوضوء. و كلّ ذلك عند العجز عن استعمال الماء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَـٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

يحرفون الكلم: يميلون عن الدلالة الواضحة إلى التأويل الباطل.

غير مسمع: غير مأمور بأن تسمع.

اللي: الانثناء، يثنون ألسنتهم عند النطق بالكلمة لتكــون غيــر واضــحة وتحــتمل غيــر الوجه الظاهر.

---

[1] سورة فاطر آية 11

[2] فيض القدير ج 1 ص576 ح 1174

بيان المعنى الإجمالي:

تعجب من حالة قوم من اليهود أخذوا نصيبا من التــوراة، ولــم ينتفعــوا بمــا أوتــوه، إذ عملوا على تحريفه وتحويل معانيه إلى ما ينسجم مــع أهــوائهم فقــد اختــاروا الضــلالة على الهدى، خبثت نفوسهم فهــم يــودون أن تضــلوا مثــل ضــلالهم فــلا تســيروا فــي طريق الإيمان وما يتبعه. والله عليم بأعــدائكم ومــا يكنونــه لكــم. ويكفــيكم فــي رد مــا يدبرونه عون الله ورعايته لكم، فهو ولــيكم وهــو نصــير لكــم. ويشــهر بفريــق مــنهم كانوا يحضرون مجالس الرّسول ﷺ فعندما يتلو عليهم مــا أوحــى الله بــه إليــه يقولــون: سمعناك وعصيناك. واسمع منا، يلحقون بهــا (غيــر مســمع) علــى أن ظــاهر كلامهــم أنه غير مأمور وباطن كلامهم: الدعاء عليه بالصــمم. ويتوجهــون إليــه بــالقول (راعنــا) على أنهم يقصدون: ترفق بنا ولا تعجــل. وبــاطنهم ســب: يــا أرعــن أي يــا أهــوج. ويهدفون من تحايلهم في التعبير إلى الطعن في صلة الرّســول ﷺ بــالله، علــى أنــه لــو كان رسولا لأخبره ربه بما قصدوه. وقد كشف الله خبث نفوسهم لرسوله.

ويسجل القرآن عليهم أنهم اختاروا لأنفســهم طريــق الضــلال، فلــو اســتجابوا للرســول وقالوا ما يجب أن يقال مما يناسب حــرص الرّســول علــى هــدايتهم: ســمعنا وأطعنــا، واسمع منا، وانظرنا لنفهم ما تقصد إليه، لكانت استجابتهم للحــق خيــرا لهــم فــي الــدنيا فلا يكونون منبوذين غير مطمئن لهــم، ولكــانوا تبعــا لــذلك علــى ســداد فــي المنطــق والتفكير ولكن حلت عليهم اللعنة فلا ينفذ الإيمان إلى قلوبهم.

بيان المعنى العام:

44-ألم تر إلى الذين...أن تضلوا السبيل.

تكررت هذه الصيغة (**ألم تر**) خمس مــرات فــي ســورة النســاء ووردت فــي غيرهــا دون أن تبلغ هذا العدد. وهي تفيد التعجب مــن أمــر حصــل علــى أن جميــع الظــروف والمعطيات تقتضي عدم حصــوله. وكلهــا مرتبطــة بيهــود المدينــة. تتضــمن هــذه الآية أن فريقا منهم قد أوتوا نصيبا من التــوراة التــي كــان مــن المفــروض أن تهــديهم وتعمق إيمانهم وتزيدهم ارتباطا بالفضيلة والاســتقامة، ولكــنهم علــى العكــس مــن ذلــك اختاروا طريق الضلالة والشر. وهذا مــا دعــت الآيــة إلــى التعجــب منــه. لقــد كــان ترجيحهم للضلالة على الهدى واضحا سجله القــرآن بقولــه (**ألــم تــر**) بــدل ألــم تعلــم، لأن ضلالهم كان من الظهور حتى كأنه يرى بالعين. ثــم إنهــم أضــافوا لفســادهم الــذاتي الباطني والعملي، أنهم يودون لو يــؤثرون فــيكم فيصــدونكم عــن الإيمــان ويحولــونكم إلى مسايرتهم في ضلالهم، والابتعاد عن الطريق المســتقيم الــذي هــديتم إليــه. إن هــذه

الضغينة التي هيمنت هي أمـر لـه خطـره، وذلـك بمـا كـان لهـم مـن قـوة ماليـة وتضامن بين قبائل يهود في المدينة.

طمأن القرآن المؤمنين بأن الله ولـيهم وناصـرهم، والله علـيم بمـا يغلـي فـي قلـوب أعدائكم ، فلا تخشوهم، يكفيكم الاعتماد عليـه فهـو سـبحانه سيفسـد علـيهم مخططـاتهم في إغوائكم، وسينصركم فيحبط مكائدهم.

45-46: والله أعلم بأعدائكم...نصيرا.

تفصل الآية التالية بعض وجوه مكر يهـود الـذين بلغـت بهـم الجـراءة إلـى صـرف التوراة، التي أنزلت هدى ونور، عن تحقيـق غايتهـا، وإلـى الوقاحـة مـع رسـول الله ﷺ، والتحايل على إخفاء ذلك، ففضحهم القرآن: كـانوا يؤولـون كتـابهم تـأويلات بعيـدة عن سياق النص، غريبة عما يتبادر منه فيحملونها معـاني تشـهد لانحـرافهم وتبـرر مـا أخذوا أنفسهم به. كما كانوا يبدلون بعض نصوص التوراة ويميلـون بهـا إلـى مـا بثـوه في أتباعهم من ضلالات.

بلغ بهم العناد أن النبي ﷺ عنـدما كـان يـبلغهم الـوحي المنـزل عليـه حرصـا علـى هدايتهم، يجيبونـه بكـل صـفاقة: سـمعنا كلامـك وعصـيناك. فسـجل القـرآن علـيهم وقاحتهم. كانوا يعقبون على رفضهم السـابق، بطلـبهم مـن رسـول الله ﷺ أن يسـمعهم، فيخاطبونه بقولهم: اسمع غير مسـمع. إن هـذه العبـارة لهـا ظـاهر فيـه أدب، وبـاطن مقصود به الإذاية. فظاهرها أنهم قالوا لرسـول الله: اسـمع منـا مـا نقولـه لـك، وأنهـم تأدبوا بقـرن الأمـر بالسـماع بـالاحتراس بـأنهم لا يقصـدون الأمـر (غيـر مـأمور بالسماع) وباطنها قصد الدعاء عليه أن يصـيبه الصـمم ولا يسـمع. وبهـذا يكونـون قـد جمعوا بين متناقضين: أدب، وإذايـة. فـإذا كـانوا فـي مجمـع المـؤمنين يكونـون قـد حصنوا أنفسهم من رد فعل صحابته رضوان الله علـيهم، الـذين كـانوا يفدونـه بأنفسـهم، وإذا انقلبوا إلى أتباعهم عرفوهم بقصدهم الخبيث.

أضافوا لما تقدم مواجهتهم لرسول الله ﷺ بقـولهم: راعنـا – ممـا ظـاهره، تَلَطَّـفْ بنـا ولا تعجل علينا في عرضـك مـا تقـول، ولكـنهم يقصـدون سـبه بأنـه (راعـن) أي أهوج في منطقه. ويلوون ألسنتهم بها يقصـدون سـبه بالعبريـة (راعـون) يقـول الشـيخ أبو محمد عبد الحق ابن عطية : وهذا اللي باللسان مـن اليهـود، إلـى خـلاف مـا فـي القلب موجود حتى الآن (أي في النصف الأول من القـرن السـادس الهجـري) فـي بنـي إسرائيل، ويحفظ منه في عصرنا أمثلـة، إلا أنـه لا يليـق ذكرهـا فـي هـذا الكتـاب[1].

---

[1] المحرر الوجيز ج4 ص89

وما يزالون على هذه الطريقة القبيحة حتى يومنا هذا في القرن الخامس عشر. كانوا يسرون إلى أتباعهم بمقاصدهم الخبيثة ويقولون لهم: لو كان محمد نبيا لأعلمه ربه بمطاعننا. وهو معنى قوله تعالى: وطعنا في الدين.

يعقب الله على ما صدر من يهود، بتجديد دعوتهم إلى ترك التعصب ضد الإسلام فيعرض عليهم ما يحولهم عن المنهج الذي يسيرون عليه من إضمار العداء وقلب الكلام وتحريفه والسفالة في التعامل، يحولهم إلى ما هو خير لهم في الحاضر والمآل. فإنهم لو اتخذوا موقفا مغايرا فقالوا: سمعنا وأطعنا، لكان ذلك خيرا لهم ، وأبعد عن الالتواء، مُبينا عن استقامة في التفكير وسداد في الموقف. ولكن قد حلت عليهم اللعنة التي أقصتهم عن رحمة الله، فلا ينفذ الحق المنجي إلى قلوبهم، وبذلك هم أبعد ما يكون عن الإيمان. فمعنى(**قليلا ما يؤمنون**): أن قلوبهم قد أقفلت فلا ينفذ إليها نور الهداية، والقليل الذي اهتدى من يهود ودخل في الإسلام يؤكد الطبع على أرواح عامتهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴿٤٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٤٩﴾ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴿٥٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

نطمس: من الطمس وهو إذهابه عن صورته.

أمر الله مفعولا: ما يريد فعله، وقضاه نافذ.

افترى: كذب كذبا لا شبهة له فيه.

يزكون: أصل التزكية التطهير والتبرئة من الذنوب.

فتيل: الفتيل شبه الخيط في شق النواة يضرب مثلا للشيء التافه جدا.

بيان المعنى الإجمالي:

يدعو الله اليهود أهل الكتاب أن يسارعوا إلى الإيمان بما جاء به محمد ﷺ ، لأنه منزل من عند الله ويصدق ما جاء في التوراة التي يزعمون أنهم يؤمنون بها. ويهددهم بأنهم إن لم يفعلوا فسيختم على عقولهم فلا يدخل إليها أنوار الحق،

وينقلبون بذلك إلى حالة الضلالة التي كانوا عليها قبل أن يُنَزل عليهم التوراة، أو أن تحل عليهم اللعنة كما حلت على العصاة من أهل القرية الذين اعتدوا في السبت. وما قدره الله نافذ لا مرد له. ومما يحث على ذلك أن الله لا يغفر لمن قطع صلته بالله وأنكر وجوده أو وحدانيته، وهو بواسع رحمته يغفر ما دون الشرك للمؤمنين الذي كان إيمانهم بالله ورسوله لا يدخله ريب ولا شك، ولكنهم لم يلتزموا تطبيق شرعه دائما، فاقترفوا الذنوب ولم يتوبوا عما اقترفوه حتى ماتوا. والفرق بين المؤمنين وبين العصاة وبين المشركين واضح لأن الشرك كذب عظيم خطره، جزاؤه الخلود في النار.

ويثير القرآن العجب من اليهود الذين يغالطون الناس بالثناء على أنفسهم وعلى بعضهم بعضا، ليركزوا في نفوس العامة الثقة بهم، ويخدعوهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه، وأنه لا يعذبهم، وأنه تخيرهم على البشر. وكل ذلك كذب وافتراء. فالشهادة بالصلاح هي ممن يعلم بواطن البشر وحقائقهم ولا يعلم ذلك إلا الله فهو الحقيق بتزكية من يشاء، ولا يظلم هؤلاء الذين زكاهم، ولا يغفل أي عمل صالح من أعمالهم ولو كان قليلا تافها. ليتأمل كل ناظر في كذب يهود المفضوح على الله، وهو ما يقوم وحده شاهدا باستيلاء الإثم عليهم على أوضح ما يكون.

بيان المعنى العام:

47- يا أيها الذين أوتوا الكتاب... مفعولا.

عرفهم القرآن في الآية السابقة بالطريق المنجي لهم عندما يستمعون لدعاء الرّسول لهم. وعمق تلكم الدعوة بندائهم بالوصف المقتضي ترك العناد(**يا أيها الذين أوتوا الكتاب**) ،فأمرهم بأن يؤمنوا بما جاءهم به محمد ﷺ، المتضمن ما يوجب عليهم اتباعه، لأنه منزل من عند الله، ولأنه لا يختلف في أصوله عن التوراة التي يزعمون أنهم يؤمنون بها، فهو يصدقها ويؤكدها في أصول العقيدة. وهددهم بأنهم إذا لم يسارعوا بالاستجابة فإنه سيطمس على وجوههم ويردها على أدبارها. بمعنى أنه سيختم على عقولهم فلا ينفذ إليها شيء من أنوار الحق، وأنهم سينقلبون بذلك إلى الضلالة التي أخرجتهم التوراة منها والظلام الذي أطبق على الكافرين فبقوا متخلفين. ويمكن أن يكون الطمس المهدد به عذاب مادي بإزالة حواسهم من وجوههم وتحولها إلى الخلف. والمعنى الأول أولى. أو أن يسلط عليهم عذابا كعذاب أهل القرية الذين اعتدوا في السبت. وقد تبينت قصتهم في سورة البقرة آية 63، وكل ما قدره الله وأراد تحقيقه نافذ لا راد لما قضى به في الحال

والاستقبال. وحفزهم ليؤمنوا بأن من لم يشــرك هــو علــى رجــاء مــن مغفــرة ذنوبــه. فدخولهم في الإسلام سيجعلهم على طمع من الفوز.

48-إن الله لا يغفر... إثما عظيما.

آية: **إن الله لا يغفر أن يشرك بــه...** . تعتبــر محــورا قامــت عليــه المناقشــات بــين الطوائف الإسلامية فلنتتبع أولا ما يفهم من ظاهرها.

إن الله لا يغفر أن يتعدى الإنسان فيظلم الظلــم الأعظــم علــى الإطــلاق، ويشــرك بــالله إشراكا يعطي به الخصائص الإلهية لغيــره ســبحانه. فــإذا فســدت العقيــدة إلــى هــذه الدرجة فمعنى ذلك أنه أخرج تعقل العالم والنظــام الكلــي لــه إلــى الفوضــى والفســاد. والشرك يتبعه فساد العمل والأخــلاق، ويقعــد بالإنســان عــن القيــام بــدوره التعميــري الذي استخلفه الله به في هذا الكون. وأنه سبحانه ســيغفر مــا دون الشــرك مــن الــذنوب لمن يشاء من عباده. كيف فَهِمَ المسلمون هذه الآية ؟

أولا: إن الشرك بصورتيه:

1) الكفر بالله: بنفي الألوهية وليس للعــالم خــالق يتصــرف فيــه. ومــن هــؤلاء الــذين يدعون أن الطبيعة وحدها هي التــي تســير الكــون حســب قــوانين ذاتيــة مثبتــة فيهــا

2)الإيمان بأن لله شركاء، يتصرف كــل واحــد مــنهم فــي قــوة وناحيــة مــن نــواحي الكون.

إن المشرك لا يغفر الله له ذنبه العظيم هذا (الشرك) ولا بــد أن ينــال جــزاء كفــره ممــا أوعد الله به في كتابه، تحقيقا لما تواتر في القرآن والســنة تــواترا بلــغ درجــة اليقــين أن الله سيعذبهم على كفرهم. وهم خالدون فــي العــذاب لا يخفــف عــنهم ولا يجــدون وليــا ولا نصيرا.

ثانيا: من آمن بالله ولــم يــؤمن بمحمــد ﷺ وكفــر برســالته. وهــذا القســم هــو كــافر تضافرت الأدلة على أنه لاحقٌ بالقسم السابق، غير داخــل فــي قولــه تعــالى**(ويغفــر مــا دون ذلك لمن يشاء)** لأن الله أخبر في قرآنه أن كل مــن رفــض الإيمــان بســيدنا محمــد يحبط ما عمل من خير، ويخلد في العذاب.

ثالثا: المؤمنون الذين لم يرتكبــوا إثمــا، وكانــت رقــابتهم لــربهم تصــحبهم فــي جميــع ظروف حياتهم، فصفت أرواحهم وصلحت أعمــالهم. هــم أوليــاء الله المتقــون الــذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنــون. وهــؤلاء مصــيرهم جنــات النعــيم بإجمــاع المســلمين. ويلتحق بهذا القسم من أذنب ثم استيقظ من غفلتــه وتــاب. وقــد قامــت الأدلــة المتــواترة من الكتاب والسنة على أن مصيرهم إلى رضــوان الله وجنــات النعــيم. وأجمعــت جميــع الفرق والطوائف على أن الله محقق ما وعدهم به.

رابعا: من آمن بمحمد وارتكب المعاصي ولـم يتـب مـن ذنوبـه حتـى أدركتـه منيتـه.
وهذا القسم قد اختلفت طوائـف المسـلمين فـي مصـيره يـوم القيامـة: ذهـب جمهـور علماء المسلمين من أهل السـنة والجماعـة، إلـى أن مصـير هـؤلاء بـين أن يسـعدوا بفضل الله عليهم، فيمحو ذنوبهم، ويكفر عنهم سـيئاتهم، ويـدخلهم الجنـة بمشـيئته التـي وقع التنصيص عليها في هـذه الآيـة (**ويغفـر مـا دون ذلـك لمـن يشـاء)** وبـين أن يدخلهم تحت قسطاس عدله، فيعـذبوا بمقـدار مـا عصـوا عـذابا يطهـرهم مـن لـوث الخطيئة، وأوضار الخطايا، وجرائيم الإثم، ثـم يـدخلهم ربهـم الجنـة. علـى معنـى أن من آمن بالله وبرسوله وبما جاء به من الحـق ولـم يلتـزم العمـل بأحكـام الإسـلام فـي حياته، ولم يتب من آثامه إلى أن مات، فإنه لا يخلد فـي النـار تحقيقـا لمـا قامـت عليـه الأدلة من الكتاب والسنة ومن ذلك هذه الآية.
وذهبت المعتزلة إلى أن فاعل الكبيرة لابد أن يعذب، وهـو خالـد فـي النـار، وأن هـذا هو ما يقتضيه العدل الإلهي. وأولوا: **(و يغفر مـا دون ذلـك لمـن يشـاء)** لمـن يشـاء التوبة أي يتوب من ذنوبه، ومن لم يتـب لا يغفـر لـه. وذلـك لأنـه فـي منزلـة بـين منزلة الكفر والإيمان.
ومذهب الخوارج أن مرتكب الكبيرة إذا لم يتـب مـن ذنبـه قبـل المـوت كـافر، وأنـه مخلد في النار. ومذهب الأباضية منهم أنـه كـافر كفـر نعمـة. وقالـت المرجئـة مـن آمن بالله وبرسالة محمـد وبالشـريعة التـي بلغهـا، فإنـه لا يضـره مـا ارتكـب مـن معاص، وذنوبه مغفورة كلها، وهو من أهل الجنة قطعـا. وقـد أخـذ الجـدال والاحتجـاج أوقاتا كبيرة وجهودا فكرية عظيمة، وقـارن ذلـك فـي بعـض الفتـرات تـدخل السـلطة ناصرة مذهبا من المذاهب منكلة بمن خالف ما اختارته.
واعتمد الخوارج على القوة وقتـل مـن خـالفهم، فسـالت أنهـار مـن دمـاء المسـلمين، وقطعت الطرق، وكثرت الفتن وبلغ التنكيل بمن خالفهم حدودا مرعبة.
وتختم الآية ببيان فظاعة الإشراك بالله وأن المشـرك يكـون بإعلانـه عـن الشـرك قـد كذب كذبا لا شبهة له فيه، هو معرض عن الـدلائل والشـواهد المنتشـرة فـي صـفحات الكون المنادية بعظيم القدرة وكمال التدبير.
وبالتالي هو مستحق لأن ينفذ فيه الوعيد، ولا مطمع لـه فـي العفـو الإلهـي، إذ قطعـوا ما بينهم وبين خالقهم فحرموا، عدلا منه وإنصـافا، رحمتـه الواسـعة وحجبـوا دونهـا بحجاب الإشراك الصفيق

49-ألم تر إلى الذين يزكون...ولا يظلمون فتيلا.

ويحرك القرآن العجب من الذين يعملون علــى مغالطــة النـــاس بــإعلانهم عــن تقــواهم واستقامتهم وانصياعهم للحق، وبأن الله قد تخيرهم علــى ســائر البشــر لأنهــم مــن نســل إسرائيل، وأنهم أحباء الله وأولياؤه، ويسردون ذلك ويعيدونــه ليثبتــوه فــي الفكــر العــام، ويفوزوا بالتقدير وما يتبعه من حظوظ دنيويــة. إن ثنــاءهم علــى أنفســهم ليخــدعوا بــه أتباعهم والسذج مــن معاصــريهم، أمــر مثيــر للعجــب لأنهــم مــدركون أن كــل مــا يروجونه مفتريات، وأنهم يتكلمون بادعاءات باطلة لا ســند لهــا ولا أثــر حقيقــي لهــا. إن الشهادة بالصلاح والخير التي تترتب عليها آثارهــا الشــهادة التــي يزكــي بهــا مــن يشاء تزكيته وهم الصالحون من عباده الذين يخشــون ربهــم فــلا يفتــرون عليــه الــذين يجازيهم فلا يظلمهم ولو شيئا تافها مما قدموه.

50-انظر كيف...إثما مبينا.

يأمر الله كل ناظر والرّسول صلى الله عليــه وســلم أول مــن يتوجــه لــه بالخطــاب، أن يتأمل في رقاعة هؤلاء اليهــود الــذي يتجــرؤون فيكــذبون علــى الله ويزعمــون أنهــم أشد قربا وأعظم مكانة عند ه ، وأنــه لا يعــذبهم لقــرابتهم منــه. سلســلة مــن الأكاذيــب يفترونها على الله، بلغت من الشناعة أنه لا منزلة في الفساد والإثم أوضح منها.

إن حال كثير من المسلمين اليوم لا يختلف عــن حــال يهــود الــذين شــنع بهــم القــرآن ليحذرنا مسلكهم، وبالتالي عاقبة أمرهم عند الله. إنهــم يزكــون أنفســهم بمــا تفضــل بــه على أسلافهم الذين اختارهم على العالمين وأفاض عليهم مــن التأييــد مــا أفــاض ممــا جعل هؤلاء الأخلاف يظنــون أن تلــك الكرامــات منســحبة علــيهم بمجــرد الانتســاب. والله خلق الخلق وكلهم عبيده يتفاضــلون بأعمــالهم وصــلاحهم واســتقامتهم لا بأنســابهم ومكانة أصولهم وخيريتهم وخشيتهم من ربهم. واليــوم يعلــن كثيــر مــن المســلمين أنــا خير أمة أخرجت للناس، ويتساءلون لمــاذا لــم يحقــق الله لنــا وعــده؟ إن الله لا يخلــف الميعاد **(لينصرن الله من ينصره)** نحن خير أمة أخرجــت للنــاس إذا أقمنــا حياتنــا علــى الفضيلة والخير وعلى الأصول التي أجــرى عليهــا ســنن الحيــاة، وقلعنــا كــل نابتــة ضارة من المجتمع، وكنا حازمين في هذا كمــا يقتضــيه مــا أتبعــت بــه آيــة الخيريــة **(تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنــون بــالله).** فبمــاذا يشــهد واقعنــا؟ إننــا نؤدي أسوأ شهادة ضد الإسلام منفرة منا ومــن ديننــا ، محبطــة لأعمالنــا، تجــذبنا إلــى التفرق والتخلف. وإلى الله المشتكى.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً ﴿٥١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ ٱلْمُلْكِ فَإِذًا لَّا
يُؤْتُونَ ٱلنَّاسَ نَقِيرًا ﴿٥٣﴾ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ
ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ
بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا سَوْفَ
نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ
تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا
ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾

بيان معنى الألفاظ:

الجبت: لا وجود لهذه المادة ج ب ت – في العربية. وقد يكون المراد بها الشيطان والسحر وما عبد من دون الله.

الطاغوت: كل ما عبد من دون الله.

صد: أعرض.

سعيرا: تلهبا وكناية عن العذاب بالاحتراق.

يصلون نارا: التصلية شيّ الجسم على النار.

الظل الظليل: الظل البالغ غاية ما يمكن أن يتصور عليه الظل.

بيان المعنى الإجمالي :

إثارة لعجب رسول الله ولكل من يتدبر الآية، تعجب من اليهود الذين مكنهم الله من بعض التوراة فخالفوا أصرح ما جاء به كتابهم: توحيد الله، وآمنوا بالضلالات المختلفة من السحر والأصنام، وأضافوا إلى ذلك تضليلهم لمن سألهم عن طريق الشرك وطريق الإسلام فقالوا: إن الشرك أهدى سبيلا من دين محمد. إن ما صدر منهم يكشف عن نفاذ لعنة الله عليهم فلا يجدون نصيرا يأخذ على اندفاعاتهم ليردهم إلى سبيل الحق كما لا يجدون النصير في ساعات العسر والأزمات.

لقد طبع اليهود على الحسد والشح، فمن شحهم أنهم لا يعرفون السماحة، فلو أنهم أوتوا نصيبا من ملك الله الواسع في هذه الأرض فإنهم لا يؤتون الناس ولو جزءا تافها من الملك العريض غير المحدود. بل إنهم لفساد طويتهم يحسدون محمدا والمؤمنين على ما آتاهم الله من فضله يحزنهم أن يتفضل الله على غيرهم، مع أن

كتابهم والواقع يشهد أن الله لم يختص بفضله جنسـا ولا أمـة مـن عبـاده فقـد آتـى الله آل إبراهيم الكتاب وبعث منهم مرسلين ومكن بعضهم مـن ملـك عظـيم. ثـم إن بعضـا من أهل الكتاب قد فتح الله على بصيرته فآمن بمحمد ومـنهم مـن أعـرض عنـه وعانـد بعد أن تبين له الحق، وهـؤلاء يكفـيهم فـي مقابلـة فسـادهم جهـنم تسـتعر. وفصـل عذابها بأن الله سيشويهم بنار جهنم كلمـا احترقـت جلـودهم أبـدلهم الله جلـودا غيرهـا ليكون عذابهم ملازمـا لا يتعطـل، والله لا يغلبـه أمـر، حكـيم لا يعظـم عليـه إبـدال الجلود. وإمعانا في النكاية بالذين كفـروا بالآيـات الواضـحة يعـرض القـرآن تفصـيل ما أعد لمن آمن وعمل صـالحا فقـد أعـد الله لهـم جنـات تتخللهـا الأنهـار الجاريـة، أمّنوا بقاءهم في النعيم إلى أبد الآبدين، تكمل كرامتهم بـأزواج مطهـرة مـن كـل نقـص، وهم في ظلال من الجنة لا يصحبها ظلمة ولا تقطع.

بيان المعنى العام:

51-52: ألم تر إلى الذين... فلن تجد له نصيرا.

ذكرت الآية السابقة أن اليهود يُثنون على أنفسهم ليخـدعوا النـاس، فسـجلت هـذه الآيـة معلنة بعض مخازيهم وكـذبهم ومناقضـة أفعـالهم لأقـوالهم . فضـحتهم بـأنهم يـدعون التمسك بالتوراة التي من أبلغ ما اهتمت به تركيز التوحيـد ونفـي الشـركاء مـن ناحيـة، وسجلت عليهم من ناحية أخرى أنهم يؤيـدون عبـدة الأصـنام تثبيتـا لهـم وطعنـا فـي الإسلام دين التوحيد.

ترتبط هذه الآية بما دبره يهود المدينـة بعـد مـا تَـمَّ فـي غـزوة أحـد، وطمعـوا فـي الإجهاز على الإسلام ، فبعثـوا وفـدا مـنهم لأهـل مكـة، يُغْـرُون المشـركين بمحمـد وجماعته ليتم القضاء عليهم. جمـع الوفـد بعضـا مـن علمـائهم ومـن المقـدمين فـيهم ليزينوا للمشركين حرب المسلمين بعد انكسـارهم فـي أحـد. وحرضـوهم علـى غـزو المسلمين في المدينة وقـدموا لهـم أنهـم سـيكونون معهـم يـدا واحـدة للقضـاء علـى الإسلام. فقال لهم المشركون:إنكم أنـتم أهـل كتـاب، ولعلكـم سـتكونون إذا جـد الجـد أدنى لمحمد منا، فكان جواب يهود:أن ما عليـه المشـركون هـو أرضـى عنـد الله مـن دين الإسلام، فقالوا لهم:اسجدوا لآلهتنـا إن كنـتم صـادقين، فسـجدوا. فـأنزل الله علـى رسوله ما فضحهم وسجل عليهم أنهم آمنوا بالجبـت والطـاغوت والجبـت كلمـة دخيلـة من لغة الحبشة مادة (ج ب ت) مهملة لم يـرد لهـا ذكـر فـي معـاجم اللغـة العربيـة واختلف في المـراد منهـا علـى التـدقيق، وكـل التوجيهـات لا تخـرج عـن التمسك والإيمان بباطل لا أصـل لـه. وفـي مفـاتيح الغيـب: وبالجملـة فـإن الأقاويـل كثيـرة وهما(الجبت والطاغوت) كلمتان وضـعتا علمـين علـى مـن كـان غايـة فـي الشـر

والفساد (ج 9 ص129) وقالوا للمشركين: أنتم بما حافظتم عليه من القيام على بيت الله الحرام أهدى طريقا من المسلمين. وما صدر منهم هو نتيجة حتمية لما تم من لعن الله لهم، فإن من يلعنه الله يفقد النصير الذي يأخذ على اندفاعاته ويهديه إلى الحق، كما يفقد النصير في ساعات الحرج والعسر.

53-54: أم لهم نصيب من الملك... ملكا عظيما.

طبع اليهود على الشح وعلى الأثرة، يسوؤهم ما ينعم به غيرهم وإن كان لا يمنعهم ما قدره الله لهم. فضح الله ما تكنه نفوسهم المريضة ووبخهم فقال: مالهم يضطرمون غيظا على ما تفضل به رب العزة على محمد وأمته ؟ إنه لو كان لهم حظ من ملك الدنيا الواسع لبخلوا، ولا يصل إلى أي إنسان منهم ولو شيء تافه لقوة بخلهم. يشهد لذلك، ما جرى عليه يهود في تاريخهم القريب والبعيد، من ترتيب مكر شديد، يمكنهم من امتصاص أموال العاملين الكادحين وخيراتهم وأملاكهم. وخير مثال على ذلك قيامهم على التعامل الرّبوي الذي جعلهم يستأثرون بنتائج ما يبذله البشر من جهود لإنماء الثروة التي فتحوا أفواههم لابتلاعها وخزائنهم للاستحواذ عليها. إنه إذا أدرك الكادح حظه العاثر، فما قنّنوه، وهو مصداق هذه الآية لا يرحم معسرا بل يسحقه سحقا. إن من المبادئ التي تبرز خبثهم: أن المدين عندما يدفع قسطا من الدين، يعتبر ذلك القسط هو ما هو مدين به من الرّبا، فإذا تم استخلاص جميع ما وظف من الرّبا ينقص من دينه بمقدار ما يدفع إذن.

إنهم يحسدون محمدا على ما آتاه الله من فضله من الوحي، ومن حب أمته له ، ومن انتصاراته، ومن الكمالات التي جمعها الله فيه كما يحسدون أمته على الهداية التي مكنهم الله منها. إن حسدهم ينبئ عن مرض خلقي وفساد في الطبع لأنهم لو نظروا في أرسال فضل الله، مما هو مسجل في التوراة، لوجدوا أن فضل الله قد شمل آل إبراهيم فآتاهم الله الكتب السماوية، من الصحف والتوراة والإنجيل، والنبوة التي هي الحكمة الخالصة، ومكن كثيرا منهم من ملك واسع.

55-ثم سجلت الآية وضع الذين كانوا حاضرين في زمن الوحي من هؤلاء الحاسدين، أن منهم من اهتدى ومنهم من أعرض. وبعد البيان فكفى بعذاب جهنم يلفح لهبه أجسام المعرضين.

56-إن الذين كفروا بآياتنا...عزيزا حكيما.

من هذه الخاتمة الأخيرة المهددة بعذاب جهنم سعيرا، انتقل القرآن مفصلا ذلك التهديد فقال: إن الذين جاءتهم الأدلة البينة الظاهرة الواضحة، المنبثة في الكون

كله، فكفروا بها وأنكروا ما توجبـه ضـروريا، سـوف يشـوي أبـدانهم بنـار جهـنم، لا ينفك عنهم العذاب، كلما أحرقت جلودهم وفقـدت بالتـالي قـدرتها علـى نقـل الإحسـاس بالعذاب بدلهم الله جلـودا غيرهـا تقـوم بوظيفـة نقـل العـذاب علـى أشـده ليحسـوا الإحساس التام بآلامه. إن الله عزيز لا يغلبه شيء مـن تبـديل الجلـد، فـي الحـين كلمـا أحرق، بجلد غيره، وهو الحكيم، فتنفيذ إرادته تتم على أكمل وجه متصور وأتمه.

57 –والذين آمنوا... ظلا ظليلا.

ومما يضاعف النكاية بهؤلاء المكذبين بآيـات الله تنويـه القـرآن بمـا سـيلقاه المؤمنـون من نعم وتكريم وجزاء، وعرف بهم:

أولا: أنهم قابلوا تلك الآيات بإيمان عميـق حـلَّ فـي قلـوبهم فوصـلهم بـربهم صـلة لا تنقطع أنوارها.

ثانيا: أن إيمانهم طوع جميع ملكاتهم وحواسهم وقواهم للعمـل الصـالح، كمـا أمـرهم بـه ربهم.

سيكون جزاؤهم بذلك جنات تتخللها الأنهار الجارية بمـا يـبهج الـنفس وتنسـاب معـه المشاعر في رضى ومتعة لا يحد وصفها ومما يضـاعف نعـيمهم إيقـانهم بـأن نعـيمهم هذا دائم لا ينقطع وتتضاعف المنة بجمع الله بيـنهم وبـين أزواج مطهـرة مـن النفـاق والرّذيلـة والتبـدل والأخطـاء وأعـراض الهـرم والمـرض والـنقص. ويـتم المشـهد بالإلماع إلى جانب من جمال تلكم الجنات: ظلها ظليل غير منقطع ولا مظلم.

﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴿٥٩﴾ ﴾

بيان معنى الألفاظ:

الأمانات: جمع أمانة الشيء الذي يعطيه لمن يحفظه له إلى أن يطلبه منه.

أهلها: أصحابها.

العدل: المساواة بين الناس بإيصال كل ذي حق بحقه طلبه أو لم يطلبه.

نِعِمّا: نِعْمَ اتصلت بها ما، نعم صيغة مدح.

التنازع: الاختلاف الشديد.

تأويلا: أحسن ردا.

بيان المعنى الإجمالي:

هذا طلب مؤكد صادر من الله جل جلاله يتضمن أمــرين يقــوم عليهمــا بنــاء المجتمــع، ولا يجوز التهاون بأي منهما. أحــدهما موجــه لكــل مســلم ومســلمة مهمــا كــان دوره الاجتماعي، أن يحفظ ما اؤتمن عليــه، وأن يســلمه لصــاحبه بمجــرد طلبــه. وثانيهمــا: أنه وإن خوطب به كل الناس لكــن لا يتحقــق الطلــب بالنســبة للشــخص إلا إذا ابتلــي بالحكم بين الناس فهذه الآية تتنــاول رؤســاء الجمهوريــات، والــولاة والقضــاة ورجــال الشرطة، وكل من حكم بين اثنين أو كانت لــه ســلطة لتطبيــق القــوانين فــي أي ميــدان كان، وكذلك من احتُكِم إليه فهــؤلاء جميعــا مــأمورون بالعــدل المطلــق محاســبون يوم القيامة عن الحكم الذي ألزموا به المتحاكمين إلــيهم. ومــا أحســن مــا وعــظ الله بــه عباده. والله لا يخفى عليه شيء فهو السميع لكــل قــول، الــذي لا تخفــى عليــه حقــائق الأمور. هذان الأصلان العظيمان يســتمدان صــدقهما مــن طاعــة الله وطاعــة رســوله. ونصت الآية على تكرار لفظ أطيعوا مــع الرّســول لينفــي كــل تعلــة للاقتصــار علــى القرآن وحده. فطاعة رسول الله في كل ما شرعه مأمور بهــا كشــأن مــا ثبــت تشــريعه بالقرآن. وثلث سبحانه بطاعة كل مــن يتحمــل مســؤولية القيــادة فــي أي مســتوى مــن المستويات، كالخلفاء والأمراء والملوك ورؤســاء الجمهوريــات والــولاة والقضــاة وكــل من يسير جماعة من الجماعات، كرؤساء المؤسســات والــزوج فــي الأســرة وهكــذا، إذ انتفاء الطاعة لمن هم في نظر المُسَيِّر معناه الفوضـــى والتشــتت والخيبــة. وقيــدت الآيــة بأن يكون هؤلاء الرّؤســاء منــا ، أي مســلمين، فــإن تســلط الكفــار علــى قطــر مــن الأقطار وجب على سكانه عصــيانهم ومقــابلتهم بالجهــاد الحربــي وبالجهــاد المــدني بعدم طاعتهم. وسنة من سنن الله فــي الخليقــة، أن بنــى تــركيبهم علــى التنــوع تنوعــا يتجاوز الجنس إلى التمايز بين الأفراد فلا تجــد إنســانا نســخة مطابقــة لإنســان آخــر، ومن طبيعة هــذا الاخــتلاف فــي المواهــب والمحــيط والمــؤثرات، أن يكــون النــاس مختلفين. إن ظاهرة الاختلاف أساس مــن أســس رقــي المجتمــع، كمــا أنهــا يمكــن أن تؤدي إلى خرابه وتحلله. ولحماية الاختلاف مــن الانحــراف يــأمر القــرآن بــالرّد إلــى تشريع الله في القرآن وســنة رســول الله ﷺ ، فبهمــا يتحصــن الفــرد والمجتمــع مــن الشر، ويهتدي إلى الخير المحقق في الحاضر وفي العاقبة.

بيان المعنـــى العـــام:

58- إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات...ضلالا بعيدا.

موقع هذه الآية مما سبقها جار على مــنهج القــرآن الــذي يعتنــي بإصــلاح البشــر أولا وبالذات. يتواصل تسجيله لما يريد أن يســجله، ويتخلــل ذلــك مــن الموعظــة والتــذكير

ما يحيي الأرواح ويحركها للخيـر. والله أعلـم بطبـائع النفـوس التـي إذا تـوالى سـرد موضوع واحد وطال ذلك، تقطع حبـل الانتبـاه وتراخـت اليقظـة، فـإذا تحـول نظـم الكلام من موضوع إلى موضوع آخر، كان ذلـك التحـول منشـطا للـذهن ليقبـل علـى الجديد بعناية فيكون رسوخه في المشاعر المتلقيـة أنفـذ وأتـم. إن مضـمون الآيـة هـذه من القضايا التي اعتنى بها الإسـلام لإقامـة النظـام الاجتمـاعي علـى القـيم الحافظـة لقوته وتماسكه، ولإبراز نظافة العلاقات الاجتماعية والثقة بها.

افتتحت الآية بإبراز الأمر من الله **(إن الله يأمركم)** بما يلقيـه هـذا التركيـب فـي الـنفس من مهابة يتبعها إذعان. يـأمر الله بعظمتـه وجلالـه أمـرا واجبـا محتمـا أن كـل مـن اؤتمن على شيء يجب عليه أن يـؤدي الأمانـة ولا يخونهـا. والأمانـات أنـواع: فمـن أودعك شيئا فرقابة الله عليك إلى أن تمكنه ممـا ائتمنـك عليـه. ومـا عنـدك مـن العلـم هو هبة من الله إليك ائتمنك على تبليغـه لمـن هـو فـي حاجـة إليـه، فكـل المجتمـع الإسلامي إما عالم أو متعلم. وما آتاك الله من المـال نصـيب الفقـراء منـه أمانـة أنـت مسؤول عنها لتمكين مستحقيها منها. وعلاقة الزوج بزوجـه الـذكر والأنثـى سـواء كـل منهما مؤتمن على تلك العلاقـة وعلـى مـال صـاحبه وعلـى أسـراره. وبهـذا تكـون الأمانة تقتضي تارة تمكين صاحبها منها، وتكـون تـارة بالحفـاظ عليهـا وعـدم التفـريط فيها على النحو الذي يريده صاحبها. وعلى هذا النحـو تفهـم الآيـة فـي شـمولها وفـي واسع أبعادها. وسنتوسع، إذا يسر الله ،في هـذا المعنـى عنـد بيـان مـا يتعلـق بقولـه تعالى: **(إنا عرضـنا الأمانـة علـى السـماوات والأرض والجبـال فـأبين أن يحملنهـا وأشفقن منها وحملها الإنسان)**[1]

والحكام بما مكنوا به من السلطة التي تنفذ بها أحكـامهم، لهـم دور أسـاس فـي تطـور المجتمعات وسيادة الأمن وتحقيق العزة للفرد. فهـذه الأمانـة التـي حُمِّلُوهَـا، ارتبطـت بالأمر العام الأول واقترنت به ، إذ العـدل الملزمـون بـه يحقـق أداء الأمانـة. وتخـتم الآية بالتنويه بهذين الأساسين: أداء الأمانـة والعـدل. فمـا أحسـن القيـام بهمـا (نعمـا) وكم يكون المجتمع الرّاعـي لهمـا المحـافظ عليهمـا متمكنـا مـن السـعادة والرّقـي ! ويحذر أصحاب الأمانـات وأصـحاب السـلطة بـأن الله سـميع لا يفوتـه شـيء مـن الأسرار التي تجري في الخفاء، عليم بحقائق الأمور لا يخدع.

ثم حركت الآية التالية مقتضيات الإيمان التي بهـا يتمكنـون مـن الاسـتجابة لمـا أمـروا به من أداء الأمانة والعدل في الأحكام. إن هذين الأساسـين لا يكـون لهمـا دورهمـا فـي

---

[1] سورة الأحزاب آية 72

صلاح الفرد والمجتمع إلا إذا كان المرجع في الحــق واحــدا واضــحا بينــا، لا اخــتلاف فيه، وانتفت الفوضى في إدراك مقتضياتهما.

59-يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله... تأويلا.

إن تصور الحق والعمل به لــه مرجــع واحــد فــي الإســلام، هــو طاعــة الله وطاعــة رسوله. فالأمانة تحفظ وتؤدى حسـب مـا شــرع الله وأمــر بــه رســوله، والعــدل هــو العدل المتلقى عن الله وعن رسوله الكــريم. أمــرت الآيــة بطاعــة الله وثنــت بطاعــة رسوله تنصيصا، وذلــك لينفــي كــل التصــورات والضــلالات التــي قــد يتعلــل بهــا المبطلون والسفهاء، الذين يبررون تنصلهم من تطبيق كثيــر مــن أحكــام الإســلام، بــأن صدق إيمانهم يقتضي أن يقتصروا علــى القــرآن وحــده. فهــذه الآيــة مبطلــة لــتعلاتهم هادمة لما يروجونه من ضلالات، فهم يصدمون نصــا صــريحا. ثــم ثلثــت الآيــة بــأن عطفت على طاعة الله وطاعة رسوله طاعــة أولــي الأمــر، ممــا يقتضــي أن طــاعتهم من دين الله. ويتعلق بأولي الأمر:

أولا: أن المراد بهم الذين من طبيعة المجتمع المتمــدن أن يتولــوا فيــه المناصــب التــي تسير أمر الجماعة على نظام كالخليفــة، أو الملــك، أو رئــيس الجمهوريــة، والــوزراء والولاة وأعوانهم القائمين على تطبيــق أســس التعــايش بــين أعضــاء الأمــة، ورجــال القضاء الذين يقيمون العدل فيما يعرض عليهم مــن نزاعــات. أمِــرَ المؤمنــون بطــاعتهم لأنه لا يستقر أمر الجماعة، ولا يتحقــق تقــدم ولا نظــام إلا بالطاعــة وعــدم الانتقــاض على أولي الأمر في هذه المناصب السياسية والقضائية.

ثانيا: لا يقتصر مدلول أولي الأمر علــى هــؤلاء، فــالزوج فــي الأســرة هــو صــاحب الأمر الذي تتحتم طاعتــه مــن الزوجــة والأولاد والمســاعدين. وكــذلك القــائمون علــى المصانع والشركات والمؤسسات وكل تجمع له رئيس يسير العمل فيه.

ثالثا: إن المرجع الذي أثبته القــرآن وأكــد عليــه وربــط بــه التصــور الإســلامي فــي القضايا الجزئية وفي المبادئ العامة، هو الاحتكــام إلــى شــرع الله وأوامــره فــي كــل شيء، فما الإسلام إلا إسلام الوجه لله. ولذا فإن طاعة أولي الأمــر هــي فــي حــدود مــا جاء به الإسلام، وإن التيقن من هذا الالتزام يتحقق بما يبلغــه علمــاء الأمــة. ومــن هنــا جاء ما قرره كثير من المجتهدين أن طاعة أولــي الأمــر تبــع لطاعــة العلمــاء. ولــيس معنى ذلك أن للعلماء سلطة سياسية فوق ســلطة رجــال السياســة والقضــاء، وأن هنــاك تنازعا بينهما. بل المقصود من ذلك هو وجوب خضوع كــل فــرد مــن أفــراد المــؤمنين لشرع الله إن عَلِمَهُ فذاك وإن جهله فإن علماء الأمــة هــم المرجــع، وصــاحب الســلطة واجب عليه أن لا يخرج عما يبيّنونه. ومما ينبغــي أن يعلــم توضــيحا لــذلك، أن فقهــاء

الأمة اتفقوا على أنه لا يتولى منصب الإمامة أي الخلافة (الولاية العظمى رئاسة الدولة) إلا من بلغ درجة الاجتهاد في الدين إن وجد وإلا فإن مصلحة حفظ كيان الأمة مقدم على هذا الشرط.

رابعا: قيدت الآية أولي الأمر بكونهم منا: أي مسلمين. وهذا يقتضي أنه إذا تسلط على المسلمين من ليس منهم، فإن الواجب عليهم أن يعقدوا العزم على عدم طاعته، ورفض وجوده، بالجهادين: الجهاد الحربي والجهاد المدني (العصيان) الذي يحرمه من تثبيت أركانه. هذه ثوابت لا تقبل التأويل ولا التراخي في تنفيذها.

إن شأن الكثرة البشرية أن يصحبها اختلاف وهذه سنة من سنن الله في المجتمعات الإنسانية. وكلما وقع خلاف أمدته العواطف، وأججته نوازع الشيطان لينقلب إلى نزاع، يريد كل فريق أن ينتصر. إن وجود مرجع يكون هو الحاكم ، وحكمه يقبل جميع الأطراف به، وينبثق من العقيدة ، ويتمثل في الرّجوع إلى حكم الله وحكم رسوله، إن هذا المرجع المأمور بالرّد إليه يجمع بين كونه هاديا للحق، وبين كونه يسمو بالخلاف إلى تحقيق غاية، هي تحول المتنازعين من الانتصار للرأي إلى السعي إلى تثبيت المصلحة الخاصة والعامة معا.

هذا المقطع يرتبط بما صُدِّرَتْ به الآية من طاعة الله وطاعة رسوله، فلا يشعر أي طرف أنه خضع للآخر، بل كان الخضوع لله رب العالمين . والرّد إلى الله ورسوله فيه إشارة إلى وجوب مراقبة الله والاستعانة به لتبصير المتنازعين حتى ينجلي النزاع بذهاب أسبابه. والتعليق بقوله: **(إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر)** مع أن افتتاح الآية بدعوة المؤمنين يهدف إلى أمرين:

الأول: المبالغة في التحريض على الرّد وتجريد كل متنازع من أهوائه ودواعي أنانيته .

الثاني: التلميح إلى اعتبار أن عدم الامتثال يجعل الإيمان بالله واليوم الآخر قلقا غير ثابت، وهذا ما يخشاه كل مؤمن أبلغ خشية بالخوف من إحباط العمل. فجمع هذا التعليق بين الحث والتهديد.

وأكد هذين الأمرين بقوله: **(ذلك خير)**، فيه نفع لكم يقيكم من انزلاق التنازع إلى ما يجلب الشر. وهو أحسن عاقبة فتمسكوا بارتباطكم بما يهديكم إليه القرآن، وما سنه لكم رسوله صلى الله عليه وسلم.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ
يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن
يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ
ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ
أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴿٦٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

يزعمون: مضارع زعم: وهذه المادة تتضمن الإيماء إلى كذب المخبر أو عدم الوثوق بكلامه.

تعالوا: ائتوا.

الطاغوت: أصل معناه الصنم، وأطلق هنا على كاهن اليهود تشبيها له بالصنم المعبود لغلو قومه في تقديسه.

عظهم: مرهم بفعل ما هو خير، والانكفاف عن الشر، بالتأثير في القلوب والمشاعر.

بيان المعنى الإجمالي:

تعجيب من تناقض المنافقين ووقاحتهم. يزعمون أنهم آمنوا بالقرآن وبالتوراة مما يفرض عليهم أن يتحاكموا إلى شرع في خلافاتهم، ولكنهم يتحاكمون إلى الطاغوت (كبير كهان اليهود) مع أن الكتابين يؤكدان عليهم أن يكفروا بالتحاكم إلى الطاغوت. وما ذلك إلا لأن الشيطان قد تسلط عليهم فأضلهم ضلالا بَعُدَ بهم كثيرا عن منهج الحق. وبلغ بهم العناد وتَأصّل الكفر إلى حد أنهم إذا سمعوا: أقبلوا على ما أنزل الله من الحق وما يحكم رسوله بَيَانَهُ ظهر نفاقهم بإعراضهم عن الرّسول أتم إعراض. فلا تسأل عن وضعهم، لما تصيبهم مصيبة بسبب ما قدموا ثم يتقدمون إليك معتذرين ولباس الخزي يُشَوّهُ وجوههم، وهم في ذل يحلفون: ما أردنا باحتكامنا للكاهن إلا أن نُزيل أسباب الخلاف فنحسن إلى المتخاصمين ونوفق بينهما. إنهم لا يضرونك بنفاقهم والله عليم بما يُكِنُّونَ فهو الذي يتولاك بالتأييد

وأظْهِرْ لهم ثباتك بالإعراض عما قدموا وبعدم الاكتـراث بهـم، وتـولَّ مـوعظتهم ببيـان الحق وتهديدهم بسوء العاقبة وليكن قولك لهم قويا ينفذ إلى قلوبهم ويرعدهم.

بيان المعنى العام:

60 -ألم تر إلى الذين...بعيدا.

هذه هي الآية الرّابعة في سورة النساء المصدرة بقوله تعالى: (ألـم تـر) وقـد قـدمنا مـا يتعلق بهذا الأسلوب قريبا في الآية (44) من هـذه السـورة. وقـد اختلـف الـرّواة فـي ربط الآية بما وقع قبيـل نزولهـا. والـذي يسـتخلص مـن روايـاتهم أن بعـض مـن ظاهره الإسلام قد حصل بينه وبين شخص آخر خـلاف، فـدعاه الخصـم إلـى التحـاكم عند رسول الله ﷺ ، فأبى وآثر أن يتحاكم إلى الكـاهن. شـنع الله علـيهم وأبـرز مـوقفهم هذا في صورة تبقى على التاريخ متعجبا منها دالة على عناد وحماقة هؤلاء.

أبرز القرآن صورتهم في تناقض غريـب: تسـمع مقـالتهم: إنهـم آمنـوا بمـا أنزلـه الله عليك، وبما أنزله الله علـى أنبيائـه مـن الحـق، وتـدخل إشـارة لطيفـة، كـأن هاتفـا يصحبهم عند شهادتهم هذه ينادي: إنهم غيـر صـادقين، وذلـك باختيـار كلمـة يزعمـون ملتصقة بأقوالهم. وبهذا يبرز تناقضهم الأول بين ما يضمرون وما يصرحون به.

التناقض الثاني: ما عقدوا عليه عزمهم من التحـاكم إلـى الكـاهن، المعظـم مـن اليهـود كتعظيم عبـدة الأوثـان للصـنم الأكبـر، المعبـر عنـه بالطـاغوت وقـد أمـروا أن لا يعظموه ولا يعتمدوه ولا يصدروا عن حكمـه، للتنـاقض بـين ذلـك وبـين توحيـد الله، قاعدة جميع الشرائع، بما يقتضيه التوحيـد مـن رفـض كـل حاكميـة لغيـره. فتنـاقض عزمهم مع ما يجب عليهم تشريعا من عند الله في التوراة وفي القرآن.

التناقض الثالث: ما يروجونه من أنهم على هدى من الله، ثـم هـم يتبعـون مـا يوسـوس به الشيطان في مداركهم ، والإيمان يسـير بهـم إلـى الهـدى والوضـوح ويقـربهم مـن الله، والشيطان يعمل علـى دفعهـم إلـى الضـلال يتيهـون كلمـا أوغلـوا فـي اتباعـه ويزيدون بعدا عن الله.

61- وإذا قيل لهم تعالوا...صدودا.

التناقض الرّابع أنهم يدعون كما ذكر في صدر الآية إيمـانهم بمـا أنـزل علـى رسـول الله وبالتوراة المنزلـة، ومـن لـوازم هـذه الـدعوى أنهـم إذا غفلـوا فـانحرفوا عـن مقتضيات الإيمان وذُكِّرُوا عـادوا سـريعا إلـى مـا أعلنـوا التـزامهم بـه. ولكـنهم إذا أوقظوا إلى الضلال الكبير الذي وقعوا فيـه ودُعُـوا إلـى تحكـيم مـا أنـزل الله وإلـى التطبيق السليم للوحي عند رسول الله ، برز نفاقهم وإعراضهم إعراضا كبيرا.

62-63: فكيف إذا أصابتهم مصيبة...قولا بليغا.

رتبت الآية على موقف هؤلاء المنافقين، التهديد بما سيصيبهم جزاء ما قدموه، ولم يفصل نوع المصيبة التي يتحقق بها التهديد الذي يترصدهم. ويثير الصورَ الدالة بقوله: كيف يكون حالهم إذا جاؤوك يعلوهم الخزي، ويتملقون فيقسمون بالأيمان أنهم ما أرادوا من تحاكمهم إلى الطاغوت إلا تمهيدا لفض النزاع وتوفيقا يرفع الخلاف، وهي أيمان لا تخفي ما وراءها من الكذب والنفاق. 63-ويفضح القرآن دجلهم بأن الله يعلم ما تنطوي عليه ضمائرهم. ويسند القرآن النبي صلى الله عليه وسلم، فيوصيه بأن لا يكترث بما صدر عنهم، فهم أضعف من أن يضروا الدعوة، أو أن يطفئوا نور الله بأباطيلهم وخداعهم، وأن يبرز لهم ثقته الكاملة في الحق الذي هو عليه، فيلقي عليهم المواعظ التي تكشف لهم عن وجه الخير، ويخوفهم سوء عاقبتهم ويجلي ما سيلقاه التائبون الصالحون. ولا تُقَصِّرْ في إبلاغهم ما ينفذ إلى عقولهم ويحرك مشاعرهم ليرتدعوا.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴿٦٦﴾ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

شجر: الاختلاف الذي لم يتبين فيه وجه الحق.

حرجا: ضيقا شديدا.

بيان المعنى الإجمالي:

ما بعث الله أي رسول من رسله عبثا، بل الواجب الحتم أن يبادر كل واحد من المبعوث إليهم إلى طاعته. وكان الأجدر بالمنافقين الذي أضلهم الشيطان أن يسرعوا إليك معلنين توبتهم مستغفرين من ذنوبهم لتستغفر لهم، ويفوزوا عندها

بغفران ما سلف منهم، والله تواب رحيم لا يردهم خائبين. ثم أكد بأبلغ تأكيد أنه لا يكون الإيمان مقبولا إلا إذا حكمك صاحبه فيما وقع من خلاف، وفوق ذلك يكون راضيا بحكمك مطيعا مسلِّما بعدله، لا ساخطا. ويعطي القرآن صورة فرضية مؤداها أنه لو طولب مدعي الإيمان بقتل نفسه أو الخروج من وطنه، فإن المستجيبين لهذا الابتلاء لا يكون إلا قلة. مع أن الذين يسرعون للاستجابة يفوزون بما هو خير لهم في العاقبة ويقوى ثباتهم على الحق ويحظون بالأجر العظيم الذي لا يوصف بأكثر من العظمة. ويصور القرآن منزلة المطيعين لله ولرسوله، بأنهم سيكونون في موكب الأخيار المنعم عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والمشهود لهم من الله بالصلاح. وما أشد حسن هذا الموكب وأكرم بها رفقة، يتنزل عليهم الفضل، الذي لا يحد ولا منة فيه، من الله الذي يعلم حقائق الناس فيؤلف بين الصالحين منهم.

بيان المعنى العـــام:

64- وما أرسلنا من رسول...توابا رحيما.

يواصل القرآن بيان ما يتصل بالمنافقين الذين اتبعوا الطاغوت وأعرضوا عن التحاكم لرسول الله، فيقرر قاعدة من القواعد التي بنى الله عليها بعثة الرّسل للعالمين، من الرّسول الأول إلى محمد صلى الله عليه وسلم: هذه القاعدة تعرف البشر أن الله ما بعث رسولا إلا ليطيعه المبعوث إليهم فيما يبلغهم عن ربه. ولا خيَرّة لأحد بعد معرفة حكم الله الذي بلغه الرّسول الأمين. وهذا هو أمر الله الواجب تطبيقه. ويربط هذا بموقف المنافقين، الذين رفضوا التحاكم لشرع الله فظلموا أنفسهم بهذا الإعراض، وعرضوها لغضب الله، ولو لم يتمادوا على عنادهم، فقدموا على رسول الله مستغفرين من ذنوبهم تائبين من المعصية، لسعدوا بتوبة الله عليهم ولوجدوا في واسع رحمته ما يطهرهم من الذنوب، لأن الله من صفاته الأزلية أنه تواب رحيم.

65-فلا وربك لا يؤمنون...ويسلموا تسليما.

حقّق بأبلغ تأكيد، أن الإيمان لا يُقبَل ولا يكون صاحبه صادقا في دعواه، ولا تترتب عليه آثاره، إلا إذا حَكَّمَ مدعي الإيمان في كل شؤون حياته شرع الله المنزل، وبخاصة في كل نزاع يحدث بينه وبين غيره. ولا يكون تحكيم الرّسول مُبَلِّغا رضوان الله ومثبتا لصفة الإيمان الكامل لصاحبه، إلا إذا كان المُحَكَّم راضيا بالحكم غير رافض له ولا قلقا من تطبيقه، وبناء على هذه الآية فإن من يرفض التحاكم لشرع الله، إن كان رفضه مرتبطا باعتقاده عدم صحة الشريعة المنزلة، فهو

كافر. وإن كان إعراضه عن الانقياد لحكم الإسلام والتحاكم لغيره، لاعن رفض، ولكن اتباعا لهواه ولمصالحه الدنيوية، فهو آثم إثما عظيما.

66←68- ولو أنا كتبنا عليهم...صراطا مستقيما.

فرض مُتْبَع بما ينبني عليه لو تحقق، وهذا الفرض يفهم على صورتين:

الصورة الأولى: أن الطاعة لرسول الله غير محددة بحد، فالمؤمن الحق هو الذي ينفذ كل ما طلب منه، استجابة لأمر الله وأمر رسوله، حتى إنه لو أمر بقتل نفسه، أو الخروج من وطنه فإن المؤمن الكامل الإيمان الذي استقر نور الإيمان في ضميره استقرارا بلغ به أن كل محببات النفس تزول قيمتها بجانب طاعة الله، إن المؤمن الذي بلغ هذه الدرجة يستجيب لهذا الأمر، وإن كان الذين سموا إلى هذه الدرجة قليل من المؤمنين. وهو من إنصاف القرآن للحقيقة وتركه للمبالغة. ويبين أنهم لو أقدموا على تنفيذ هذا الأمر الصعب تنفيذه، فإن ذلك يكون خيرا لهم في الحاضر والعاقبة، وأعظم تثبيتا للإيمان في قلوبهم. على معنى أنهم لا يترددون في كل ما أمرهم به ربهم، ويجدون لذتهم العظمى في طاعة الله وتنفيذ أوامره. وهؤلاء سينالون جزاءهم من ربهم أجرا لا يقدر قدره لوصف الله له بأنه عظيم وذلك تبع لهدايتهم الطريق المستقيم. وإن كان الأجر العظيم تابعا للهداية إلا أنه تقدم في الآية تعجيلا بالبشارة.

الصورة الثانية: أن الله لو أوجب على الناس أن يلجموا جميع شهواتهم فلا يتركوا لأي منها سبيلا للظهور ولا مطمع في الإشباع. وعبر عن هذا بقتل النفس، أو أمرهم أن ينخلعوا عن مكاسبهم ومآويهم التي تحميهم من الحر والقر ليمحضوا أنفسهم للعبادة، فإن مثل هذا عظيم تنفيذه، ولكن قوة الإيمان تجعل قليلا من الناس يسارعون للتنفيذ. وهؤلاء، بترك كل متاع الدنيا وراءهم وفعل ما وُعِظوا به سيحصلون على خير كثير ويزيدهم هذا الإقبال، الذي يلغي حظوظ النفس، ثباتا على الحق وإلفًا له. ويعظم أجرهم إلى حدود تفوق الوصف بثباتهم على الصراط المستقيم.

69-70 : ومن يطع الله والرّسول...عليما.

ويفصل القرآن بعض مظاهر هذا الأجر العظيم لمن يطيع الله ورسوله، أنهم سيكونون مصاحبين للذين أنعم الله عليهم، هؤلاء الذين فازوا بالكرامة في الدار الآخرة، من النبيين أمناء الله على وحيه، والصديقين الذين سبقوا إلى تصديق المرسلين وأيدوهم بمجرد ما خالطت أنوار الوحي الأولى قلوبهم والشهداء الذين

بذلوا حياتهم لترسيخ الإيمان في قلــوب العــالمين. والصــالحين الــذين اســتقاموا فكانــت خشيتهم لله حامية لهم من ارتكاب المعاصــي. ومــا أحســن هــذه الرفقــة فــي المقامــات العليا من الكرامة والنعيم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعٗا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمۡ
لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنۡ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَالَ قَدۡ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذۡ لَمۡ أَكُن مَّعَهُمۡ شَهِيدٗا
﴿٧٢﴾ وَلَئِنۡ أَصَٰبَكُمۡ فَضۡلٞ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمۡ تَكُنۢ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُۥ مَوَدَّةٞ يَٰلَيۡتَنِي
كُنتُ مَعَهُمۡ فَأَفُوزَ فَوۡزًا عَظِيمٗا ﴿٧٣﴾ ۞ فَلۡيُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشۡرُونَ
ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ
أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ
وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا
وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ
يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓاْ أَوۡلِيَآءَ
ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّ كَيۡدَ ٱلشَّيۡطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

انفروا: اخرجوا للحرب.

ثبات: جمع ثُبَة بمعنى جماعة.

ليبطئن: مضارع بطأ تثاقل عن الجهاد.

شهيدا: حاضرا.

مودة: صحبة، ومحبة.

يشرون: يبيعون.

المستضعفون: من يعدهم الناس ضعفاء.

القرية: مكة.

الطاغوت: الأصنام.

بيان المعنى الإجمالي:

نبهت الآية المؤمنين أن يكونوا يقظين لما يعده لهم العــدو مــن مكائــد. وأن يرتبــوا لكــل معركة ما يتناســب مــع طبيعتهــا الخاصــة فليخرجــوا للجهــاد جماعــات جماعــات أو

يخرجوا جميعا صفا واحدا مترابطين. ويفضح القرآن الجبناء من المؤمنين الذين يَسْتَخِفُّون من الناس عند نداء الجهاد، متثاقلين عن الانضمام لصف المجاهدين، ثم ينزوون مترقبين ما تسفر عنه المعركة، فإذا أصيب الجيش الإسلامي قالوا: أنعم الله علينا فسلمنا إذ لم نخرج معهم، وإذا تفضل الله على المسلمين يقولون آسفين: يا ليتنا خرجنا معهم فتكون لنا مكانة عند رسول الله وعند الناس، ونُصيبُ من الغنائم كما أصابوا. كأنهم لم يكونوا وقت النفير حاضرين. ثم يكرم القرآن المؤمنين المجاهدين كأنهم هم وحدهم المعوّل عليهم بالنهوض بنشر دين الله، يأمرهم بالقتال منوها بهم بأنهم باعوا متاع الحياة بما أعده الله لهم في الآخرة. ويحقق الله ربح صفقتهم سواء أقتلوا فكانوا من الشهداء أم انتصروا وغنموا فحققوا نشر دين الله، ويؤكد بأن أجرهم عظيم لا يعلم مقداره إلا مفيضه عليهم ربهم الرّاضي عنهم.

ثم يلتفت القرآن للجميع حتى المترددين يحرك كوامن الإيمان فيهم فيلقي سؤالا منكرا تقاعسهم مثيرا للعجب من ترددهم، ويبرز الدواعي للتغلب على ضعفهم: فيذكرهم بأنهم يقاتلون في سبيل الله الذي تعلو به قيمتهم الإنسانية فيرتفعون عن الأهداف القريبة الهابطة، ولينولوا شرف الاستجابة لهذا النداء الذي جأرت به حناجر المستضعفين من أهل مكة من الرّجال والنساء والولدان، الذين تسلط عليهم طغاة الكفر فعذبوهم وفتنوهم وضاقت بهم السبل، حتى يئسوا من كل عون إلا من عون ربهم فرفعوا أيديهم مبتهلين راجين أن يخرجهم من مكة التي استبد أهلها وبالغوا في ظلمهم وأن يجعل لهم وليا يحس بالعذاب المسلط عليهم والإهانة التي المنصبة عليهم صبا، فيتولى نصرهم.

وقارن القرآن بين الفريقين: المؤمنين الذين يستندون إلى الله ويقاتلون في سبيل نصرة دينه لتكون كلمة الله هي العليا، والكافرين الذين يقاتلون ليعبد البشر الأصنام من الحجارة أو العباد أو الشهوات. وما يكيد به الشيطان ويزينه في قلوبهم. فاثبُتوا وقاتلوا المستندين إلى الشيطان، فإن ما يكيد به لدفعهم إلى القتال لا يصمد أمام إيمانكم وقيمكم.

بيان المعنى العام:

71-يا أيها الذين آمنوا... أو انفروا جميعا.

هذه الآية تثير حمية المؤمنين للدفاع عن دينهم الذي ارتضوه، هم مأمورون أن يخرجوا للجهاد ، ويذكرهم القرآن بأن يأخذوا كل الاحتياطات لحماية أنفسهم ودفع كيد أعدائهم. وهو الحزم في مباشرة أمور الحرب، فيتوقى المجاهدون أن يصابوا

في أرواحهم أوفي أبدانهم، ويتخيــر المجاهــدون طبيعــة كــل معركــة ومــا تقتضــيه، أشار إلى ذلك بقوله: انفروا جماعات متفرقين، أو انفروا صفا واحدا.

72-73: وإن منكم لمن ليبطئن فأفوز فوزا عظيما.

استنهض القرآن همة بعــض ذوي الشخصــيات الضــعيفة، رغــم أنهــم فــي الصــف الإسلامي، بالكشف عما يجري في نفوسهم وما تنطــوي عليــه ضــمائرهم. جســم حــالهم مع الانتصار والانكسار. هؤلاء الــذين رغــم أنهــم مــن الجماعــة الإســلامية إلا أنهــم لاستيلاء الخوف علــى قلــوبهم تــراهم فــي هــذا الوضــع الســخيف . فتــراهم إذا أذن بالجهاد يتثاقلون، ينزوون حتــى لا تبصــرهم الأعــين وهــم فــي ترقــب. فــإذا أصــيب المسلمون بضرر، ولا يهمه إلا أنه ســلم، فيهنــئ نفســه ويصــرح بقولــه: قــد أنعــم الله علي إذ فزت بجلدي ولم أشاركهم، ولم أحضر هذه الوقعة التــي مــات فيهــا العديــد مــن الناس. وبالمقابــل، إذا انتصــر جــيش الإســلام فآتــاهم الله مــن فضــله نصــرا علــى الأعداء، وغنائم استولوا عليها، وعزة الغلبة، يعــود باللائمــة علــى نفســه التــي تؤنبــه، آسفا أن حرم من مشاهد الظفر والانتصار قائلا:يا ليتنــي كنــت مشــاركا فــأحظى بفــوز عظيم، أغنم ويرضى عني رســول الله، ويشــهد لــي النــاس بالبطولــة كأنــه مــا كــان حاضرا وقت النفير، وهــذا شــأن الجبنــاء أصــحاب النفــوس المريضــة لا يهمهــم إلا مصالحهم، ولا يرتقون إلى منازل الشرف.

74-فليقاتل في سبيل الله...أجرا عظيما.

وضع هؤلاء المترددين وضع زري يتنافى مــع عــزة الإيمــان والوثــوق فــي تأييــد الله، فأعرض عنهم القرآن زيادة في تقريعهم وتــوهين شــأنهم، والتفــت الخطــاب إلــى مــن استقر الإيمان في قلــوبهم اســتقرارا عــلا علــى كــل شــيء فجعلهــم الأحقساء بــالأمر بالقتال، ونوه بهم بأنهم يقاتلون فــي ســبيل الإســلام لا تعصــبا لقبيلــة ولا لحــزب، ولا لغنيمة أو مجد شخصي وتفاخر بالبطولــة، ولا للســيطرة علــى النــاس وعلــى خيــرات أرضهم. هم يقاتلون في سبيل الله الواحد الأحــد؛ قــد اشــتروا مــا عنــد الله مــن حســن ثواب الآخرة الباقي بمتاع الدنيا الزائل، وتجارتهم تجارة رابحة.

أكد أن تجارتهم رابحة على جميع الأحــوال، فهــم إن قتلــوا فــازوا بــأجر الشــهادة وإن انتصروا وغلبوا كتب لهم في ميزان حسناتهم فضــل نشــر ديــن الله وبــذل حيــاتهم فــي سبيله، والأجر الموعــود بــه أجــر عظــيم لا يعلــم مقــداره إلا الله فهــو ممــا يتجــاوز الوصف.

75-وما لكم لا تقاتلون في سبيل الله...نصيرا.

يوالي القرآن حث المتقاعسين المترددين ولا ييأس مـن صـلاح حـالهم، فيوجـه خطابـه للجميع مقرونا بالإنكار في صيغة تـدعو إلـى العجـب: مـا بـال النـاس لا يسـارعون للقتال في سبيل الله، والعقيدة تدفع إليه وترجحه مـا بـالهم لا تـنهض حميـتهم لإخـوانهم الذين ضعفوا عن المقاومة وعن الفرار بدينهم وعن حمايـة أنفسـهم مـن الإذايـة الـذين احتجزهم كفار مكة من الرّجـال والنسـاء والولـدان وأقفلـت فـي وجـوههم الأبـواب. يحرك ما في قلوبهم من حمية، وما في أرواحهـم مـن إيمـان، بتصـوير المشـهد وقـد امتدت أيدي هؤلاء المستضعفين وشخصت أبصارهم إلـى خـيط الأمـل الوحيـد البـاقي، إلى الله العلي الأعلى، تسـمع أصـواتهم وهـم يجـأرون بالـدعاء إليـه يطلبـون شـيئا واحدا: ربنا أخرجنا من هذه القرية (مكة) رغم أنهـم يحبونهـا حبـا شـديدا فقـد ولـدوا في أرضها المباركة نشأوا في سـاحاتها بجـوار البيـت العتيـق ولكـن الظلـم المسلط عليهم من أهلها أزال كل ما في تلك المزايا من تـأثير، يطلبـون الانعتـاق مـن الكـابوس الذي ضيق عليهم الحياة وفتنهم في عقيدتهم وكرامتهم وأن يجعـل لهـم وليـا يحـس بمـا يحسون ويعمل على استنقاذهم، ويكون لهم نصيرا.

76- الذين آمنوا يقاتلون...ضعيفا.

يستنهض القرآن الهمم ويلفت الأنظار إلى القـوة التـي يسـتند إليهـا صـفُّ المجاهـدين المؤمنين، وصَفُّ الكافرين. فيميز بين الفـريقين فـي البواعـث النفسـية وفـي الأهـداف المرسومة لكل فريق. الذين آمنـوا يقـاتلون بـدافع مـن العقيـدة وبقـبس مـن الإيمـان وبمدد من الله، ولهم غاية واحـدة أن ينتشـر ديـن الله فـي الكـون فيـنعم كـل إنسـان بالمنزلة السامية منزلـة الكرامـة فـلا يخضـع ولا يسـجد إلا لله، ويـنعم بـأمن العـدل فجميع حقوقه موفورة، فهم يندفعون من تلكم المبادئ، وتلـوح لهـم الغايـة مـن جهـادهم واضحة رفيعة، كأن كل واحد منهم أصبحت آمال البشرية معلقة عليه.

الفريق الثاني فريق الكفر، قلوبهم خاوية من الإيمان، لـم يتحركـوا إلا مـن أجـل منـافع مادية هابطة، لا تعمر قلوبهم رحمـة ولا حـب للآخـرين، وإنمـا طمـع فـي التسـلط والاستبداد، والاستيلاء والنهب للخيرات، ليحولوا من تسـلطوا علـيهم إلـى مهانـة الفقـر وذل الاستعباد. فجميعهم في جميع العصـور إنمـا يريـدون أن يقيمـوا للنـاس أصـناما من الحجارة أو مـن العبـاد أو مـن الشـهوة والجـنس يلهثـون وراءهـا مسـتعبدين، ليحققوا منافع لهـم. ولـذلك تجـدهم إن صـالوا سـاعة فنفسـهم مقطـوع عـن قريـب، واندفاعهم واهن. إن ما يسول لهم الشيطان وما يخـدعهم بـه ليمضـوا فـي القتـال ومـا يكيد به لجمعهم لا أسـاس لـه ولا سند. فكونـوا واثقـين مـن أن انتصـاركم علـيهم محقق لا محالة.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ
عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا
لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ
خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى
بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ
يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن
نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ
أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴿٨٠﴾ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ
مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ
وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨١﴾

بيان معنى الألفاظ:

كفوا أيديكم: اتركوا القتال.

كتب عليهم القتال: فرض عليهم القتال وألزموا به.

بروج مشيدة: حصون مبنية بناء قويا متينا.

الحسنة: الحاصل الملائم للإنسان.

السيئة: عكس الحسنة.

حفيظا: يحتمل معنيين : يحفظهم من الوقوع في الكفر والمعاصي،أو ليحفظ مساويهم ويقيدها عليهم.

تولى: عصى ولم يُصْغِ إلى دعوة الرّسول.

برزوا: خرجوا.

بيّت: قدر أمرا في السر.

الوكيل: القائم بالأمور، المصلح لما يخاف فساده.

بيان المعنى الإجمالي:

وضع عجب أثار القرآن المؤمنين لينظروا في تناقض أصحابه. فقد كان بعض المؤمنين وهم في مكة يسألون رسول الله ﷺ أن يسمح لهم بقتال المشركين فلم يأذن

لهم، لأنه لم يُؤْذن له من ربه بالقتال وقصر هم علــى إقامـة الصــلاة وأداء الزكــاة. ثــم إنه بعد الهجرة أمروا بالقتال الذي كانوا يطلبون القيــام بــه، وعــوض أن يبتهلــوا بهــذا الأمر الجديد، قام عامل الخوف في نفــوس هــذا الــبعض، واختــل الميــزان الــذي كــان يحكم أرجاعهم، وإذا خشيتهم من المشــركين تبلــغ حــدا يســاوي خشــيتهم مــن الله بــل أشد. وسرى في تفكيرهم استفهام، مــا الغــرض مــن فــرض القتــال علــى المــؤمنين ؟ وتمنوا أنه إن كان ولا بد فهلا تــأخر إيجابــه ! وأعلــن القــرآن مــا كــان يســري فــي بواطنهم من الخوف ومن التردد. فكان هذا الإعــلان، الإيقــاظ الأول لهــم مــن غفلــتهم. ثم عطف عليه بيان الحكمة التي تبصرهم ليثوبــوا إلــى رشــدهم: الموازنــة بــين متــاع الحياة الدنيا بما بني عليه من نقص وزوال، القليــل التافــه، وثــواب الآخــرة الســرمدي الموعود به للمجاهدين فــي ســبيل الله. ومــن ناحيــة أخــرى فــإن الخــروج للجهــاد لا ينقص من العمر شيئا. فإن الموت يدرك كل حــي ولا يمنــع منــه الحصــون المحكمــة البناء القوية الآساس. ثم أتبع تقريــع الــوجلين الخــائفين بفضــح المنــافقين وإعــلان مــا يجري في قلوبهم وبيــنهم وبــين أتبــاعهم، فكــان ممــا جــرى علــى ألســنتهم: أن مــا يحصلون عليه من خير وفضل من وفر الإنتــاج وربــح التجــارة ونحــو ذلــك هــو مــن فضل الله وما يصيبهم من نكبــات هــو تــابع لحلــول النبــيء بــين أظهــرهم. تــولى القرآن رد مقالتهم بجواب حاسم: إن كل ما يقع في الكون مــن خيــر أو شــر هــو بقــدرة الله وإرادته. مــا أشــد غبــاءهم كــأنهم مجــانين لا يــدركون معــاني الأحاديــث التــي يسمعونها. ذلك أن القاعدة التي يجري عليها أمر الحيــاة الــدنيا هــي ارتبــاط المســببات بأسبابها، ونفاذ سنن الله التي منها أنه قدَّر جريــان الحيــاة علــى انتفــاء الصــدفة، ورزق كل إنسان العقل الذي يكشف لــه عــن الصــلاح والفســاد، وأقــام دلائــل تفصــح عــن الكوامن في الأشياء والأفعال من خير أو شر. فإذا لــم يســتفد الفــرد مــن ســنن الله هــذه فما يصيبه هو من تقصيره وهو مسؤول عنه. ثم أكــد ذلــك بــإعلان أنــه بعــث محمــدا رسولا يبلغ ما يوحي له به لا دخل له فيما يصيبهم مــن خيــر أوشــر. شــأنه فــي ذلــك شأن المرسلين جميعا. ولا أتم ولا أبلغ من رقابــة الله علــى النــاس وشــهادته علــى مــا يعملون.

إن شرع الله الهادي للخير الحامي لهــم مــن الفســاد لا يصــل إليــه بشــر إلا بواســطة الرّسول. فمن أطاع الرّسول فهو في الحقيقة قد أطاع الله فيما أمر به أو نهى عنه.

لا يهمك إعراضهم فما أنت بمسؤول عــن إعراضــهم. إنهــم لفســادهم وتلــونهم وجبــنهم إذا كانوا في مجلسك يعبرون عــن انقيــادهم لمــا تبلغــه مــن تشــريع وهدايــة، ولكــنهم بمجرد ما يخرجون من عندك تأخذ طائفــة مــنهم يــدبرون فــي خفــاء ومكــر الطريقــة

التي بها يتخلصون من كل ما أقروا به. فلا يحزنك أمرهم وأعرض عنهم وتوكل على ربك فإنه سيتم نوره ويكفيك أمرهم .

بيان المعنى العام:

77-ألم تر إلى الذين قيل لهم...فتيلا.

هذه هي الآية الخامسة والأخيرة من الآيات الواردة في سورة النساء مفتتحة بألم تر، التي تلفت أنظار المؤمنين، وتثير العجب من التناقض الحاصل. وبيانه: أن مشركي مكة قد آذوا المؤمنين وتفننوا في التنكيل بهم كما هو معلوم، وطلب بعض الذين أوذوا من النبي ﷺ أن يأذن لهم في القتال فلم يأذن لهم لأنه لم يؤمر من ربه إلا بالبلاغ والاحتجاج. ولعلهم كانوا يجدون في صدورهم حرجا من قبول الضيم والسكوت عنه. كل ما أمروا به باعتبارهم مسلمين هو أن يصبروا ولا يثيروا أعداءهم بالقتال، وأن يقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة. فبعد أن هاجروا واستقروا في المدينة وانضم الأنصار للمهاجرين، أذن الله لنبيه في قتال المشركين. وهو أمر سُرّ به معظم المؤمنين وأصبحوا يتربصون بفارغ الصبر أن يفوزوا بإحدى الحسنيين الشهادة في سبيل الله أو النصر وما يصحبه من غنائم. ولكن فريقا من المؤمنين عند تشريع الجهاد ممن كانوا يطلبون من رسول الله أن يأذن لهم في القتال خافوا لقاء المشركين. فهي حالة غريبة من التناقض تدعو للعجب، فعمد القرآن بأسلوبه المعجز أن يصور لهؤلاء أنفسهم ويبرز ما حدثوا به أنفسهم وأن يرفع ما غشيهم من الغفلة. صوّرهم للمؤمنين ولأنفسهم أنه بلغ بهم الخوف والجبن أن ما أعزهم الله به من الإيمان قد اهتزّ، فقد أصبحوا بهذا العارض الذي عرض لهم يخشون المشركين ويخافونهم خوفا ساوى خوفهم لله بل تجاوزه. ولفرط جبنهم قالوا في نفوسهم: ربنا لماذا ألزمتنا بالقتال وفرضته علينا بهذه السرعة؟ ربنا لولا أخرتنا إلى أجل قريب غير بعيد! فأظهرت الآية شدة اضطرابهم وكشفت ما كانوا يحدثون به أنفسهم مما لا يمكنهم أن يبيحوا به في المجتمع الإسلامي بالمدينة، هذا المجتمع المتماسك حول رسول الله ﷺ.

كان هذا التشهير أول خطوة ترفع الغشاوة عن بصائرهم إذ أنبأ الله رسوله والمؤمنين بما كان يجري في بواطن هذا الفريق الخائف الوجل. ثم أتبع ذلك بالحكمة التي تبلغ شعاب الرّوح والعقل والضمير فتوقظها. أيقظهم إلى الميزان الذي اختل فليتذكروا أن متاع الحياة الدنيا فان محدود بجميع المعايير، قليل بالنسبة لما أعده الله للمتقين، وإنه لا يفوتكم أي حظ من حظوظكم بالجهاد ولو كان تافها. والأجل المقدر لكم لا ينقص منه لحظة بالقتال.

78- أينما تكونوا يدرككم الموت... يفقهون حديثا.

إن الحرص على الحياة لا يــؤثر فــي الحقيقــة الســرمدية: أنــه لا يســتطيع أي فــرد أن يفر من الموت الــذي يلاحقــه فيلحقــه فــي المكــان والزمــان المقــدر، لا يحــول بــين الإنسان والموت التجــاوّه إلــى الحصــون المتينــة الآســاس المحكمــة البنــاء، الرّفيعــة العالية، المانعة للجيوش والأســلحة والــدبابات مــن اقتحامهــا، فــالموت أقــوى مــن أن يمنعه مانع.

79-ما أصابك من حسنة فمن الله...وكفى بالله شهيدا.

انتقل القرآن في معالجته لأوضاع المجتمــع المــدني الــذي كــان معظمــه ملتفــا حــول رسول الله، مطيعا لأمر مولاه، فتعرض لبعض الجبنــاء وحــركهم للجهــاد، ورفــع مــا غشى بصائرهم من تقديم الحياة الدنيا ومتاعها علــى مــا عنــد الله. ثــم تعــرض لفريــق آخر مندس في صفوف الجماعة وخطــره أشــد. هــؤلاء هــم المنــافقون الــذين عــالج القرآن دسائسهم بفضح ما كانوا ينشرونه سرا بــين المقــربين مــنهم وبمــا تحــدثهم بــه أنفسهم. بلغ بهم التزوير وفســاد الطويــة أنهــم إذا نــالهم مــا يحبــون فربحــت التجــارة وآتت الفلاحة ثمراتها ونتجت الأنعام، أعلنوا أن هــذا مــن عنــد الله، وإذا انعكــس الأمــر فأصابهم ما يكرهونه قالوا: هذا بســبب محمــد فهــو طــالع شــؤم علينــا. وكــان الــرّد حاسما ليقطع رواج هذا التصور الفاسد، فقــال تعــالى: إن المتصــرف فــي الكــون هــو الله وحده لا شريك له، فما وقع فيه ممــا رضــي بــه النــاس أو ســخطوه لا مــدخل لأي كائن فيه، وهذه هي الحقيقــة الواضــحة ولكــن هــؤلاء الــذين ربطــوا الحســنة بــالله والسيئة بمحمد، هم قد عطلوا عقــولهم، هــم كالمجــانين الــذي يســمعون الأحاديــث ولا يفهمون معنى ما يقال. إن مقالتهم تلك قد تــروج علــى بعــض المغفلــين فلــذلك عقبهــا الله بالإعلان عن الحقيقة التي أجرى عليها أمر الكــون، ومســؤولية الإنســان فيــه، علــى أخصر وجه وأتمه، فقال تعالى ما معناه:

أولا: إن ما خلق عليه نظام الكون هو ارتباط المســببات بأســبابها فــلا ســبيل لصــدفة ولا لوقوع أي شيء دون أن يكون مرتبطــا بأســبابه وهــذا التنظــيم لله وحــده لا مــدخل للإنسان فيه. والله مكن الإنسان من قوى العقــل الــذي يميــز لــه بــين الخيــر والشــر، ويكشف له ما يحميه من الاختلال والفساد والخسران. وهــذا كلــه مــن خلــق الله ومــن عنده، وإن الله نصب على تلكم الأسباب وما يترتــب عليهــا علامــات فــي طــوق العقــل أن يصل إليها، وهذا من خلق الله. فهذا هو الجانب الذي قــرره قولــه تعــالى: **(كــل مــن عند الله)** وما عقبه بقوله: **(ما أصابك من حسنة فمن الله)**

ثانيا: ما يصيب الإنسان من أمور يكرهها مرده في معظم الأحوال إلى تقصير الإنسان في الاستفادة من سنن الله في الخلق، واتباعه لهواه لا لما يقتضيه صارم العقل ودقيق النظر، أو تكفير لما اقترفه من الذنوب والمعاصي. روى الترمذي بسنده إلى أبي هريرة قال لما نزل:(**من يعمل سوءا يجز به**) شق ذلك على المسلمين، فَشَكَوْا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: قاربوا وسددوا، وفي كل ما يصيب المؤمن كفارة حتى الشوكة يشاكها والنكبة ينكبها[1].

وبناء على هذا صرح القرآن بهذه الحقيقة: هي أن الله أرسل محمدا مبلغا لما يصل إليه من وحي الله ليس مؤثرا فيما يحدث للناس من أمور تلائمهم أو تسوؤهم.

ولا أتم ولا أبلغ من شهادة الله على ما يقوم به كل فردمن الحيطة والجد أو الكسل والتفريط ، ولا أعدل منه سبحانه فيما يرتبه على ذلك من الجزاء.

80-من يطع الرّسول فقد أطاع الله...حفيظا.

إن تفرقة المنافقين بربطهم الخير الذي يصيبهم بالله والشر من شؤم الرّسول، هي تفرقة بين الله ورسوله، ورد عليهم ردا جازما، بأن من يطيع الرّسول فقد أطاع الله. إنه إذا كان الخير في اتباع شرع الله، وشرعه إنما يصل إلى البشر بواسطة رسوله، فلا جرم أن هذه القاعدة تصبح قاعدة ضرورية من أنكرها لا سند له إلا العناد. فمن أعرض عن قبول الدعوة فلا يلومن إلا نفسه وما أرسلناك لتكون حارسا عليهم ولا مسؤولا عن إعراضهم عن الحق.

81-ويقولون طاعة..وكيلا.

ثم فضح القرآن مكرهم بالتلون وفساد طبيعتهم، فهم لا يقفون جهارا ليصرحوا بما عندهم ولكنهم يظهرون الطاعة إذا كانوا في مجلسك ويقولون بطريقة لا لبس فيها: أمْرُنا:أنا نطيعك في كل ما تبلغنا من تشريع ونعمل به. ولكنهم بمجرد ما يخرجون من عندك تعد طائفة منهم سرا الطريقة التي يمكنهم بواسطتها أن يتنصلوا مما قالوه والتزموا به.

فلا يهمك أمرهم ولا تكترث بهم، ولا تخش خلافهم فالله رقيب عليهم يسجل كل ما أعدوه في الخفاء، سيواجههم به في حسابهم، فتوكل على الله واعتمد عليه فإنه حافظك وراعيك وكفاك رعاية الله لك واعتمادك عليه.

---

[1] الجامع الكبير ج 5 ص132 ح 3. 38

أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾
وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ
أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ
ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾
مَّن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَـٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ
كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴿٨٥﴾

بيان معنى الألفاظ:

يتدبرون القرآن: يتأملون في مضامينه.

جاءهم أمر: سمعوا خبرا.

أذاعوا به: أفشوه.

ولو ردوه: لو أبلغوه لرسول الله.

يستنبطونه: يعلمون الحقيقة الخفية منه.

يتدبرون القرآن: يتأملون معانيه.

تنكيل: العذاب الذي يرتدع من يشاهده فضلا عن المسلط عليه.

كفل: نصيب من الخير أو الشر.

مقيتا: مطلعا.

بيان المعنى الإجمالي:

عجب للمنافقين كيف لا يتأملون في القرآن، يخبرهم عما يحدثون به أنفسهم، أو يتآمرون به في خلواتهم ثم هم لا يجدون أي اختلاف بين الواقع وما أخبرهم به، كما أنهم لا يجدون في مضامين القرآن اختلافا على عكس العمل البشري. إن في ذلك لدليلا على أن محمدا صادق أمين فيما يبلغه عن ربه.

ثم تولى القرآن تربية ضعفة المؤمنين الذين يعمدون إلى نشر ما يبلغهم من الأخبار، دون تثبت، مع أن مختلقيها إنما بثوها ليشنوا بها حربا على المسلمين للتضليل، بإيهامهم بقرب حصول الخوف ، ليرتبكوا، أو الوضع وضع أمن ليتراخوا. وجه إليهم اللوم وعلمهم أن عليهم أن يعودوا لرسول الله أو لأهل الخبرة والرّأي ليعرفوهم بحقائق تلكم الشائعات وما تخفيه وراءها. إن هذا التأديب والتعليم والهداية

هو من فضل الله علــيكم، أخــرجكم بواســطتها مــن اتبــاع الهــوى والشــيطان وبهــذا الفضل خذل الشيطان فليس له عليكم من سبيل إلا قليلا مما أثره الضعف البشري.

بعد ذلك أعاد القرآن التأكيد على القتال في سبيل الله، فــأمر رســوله بالقتــال فــي ســبيل الله أولا ثم أمره أن يستحث المؤمنين عليه ثانيا . وتشــير الآيــة مــن طــرف خفــي إلــى أن الله مؤيدهم وسينصــرهم لأن بأســه ســبحانه أقــوى وأعظــم، وأن تنكيلــه ســيكون بالغا درجة أنهم سيكونون عبرة وموعظة لغيــرهم. ثــم أرشــد المــؤمنين كــي يراعــوا في شفاعتهم إبراز الحق، وأن من يتوسط بشفاعته ليحق الحــق ينــال حظــه مــن أجــر العادل الذي توسط لديه، وأن من توسط للظلم يكتــب لــه قســطه مــن الإثــم. والله مطلــع على ما يجري في السر فليستقم الشفعاء.

بيان المعنى العام:

82- أفلا يتدبرون القرآن... كثيرا.

تولى القرآن الرّد على المنافقين في الآيات الســابقة، وأضــاف إلــى ذلــك مــا ورد فــي هذه الآية. كيف يرفضون رسالتك، ومعجزتــك القــرآن، ونصوصــه بــين أيــديهم! فمــن العجب أنهم لا يتأملون في معانيه ليوقنــوا أنــه مــن عنــد الله وأن الــذي جــاء بــه هــو رسول الله، ولفت نظرهم إلى ناحيتين: إحداهما أنــه يخبــرهم بمــا حــدثتهم أنفســهم بــه دون أن يطلع على ذلك أحد وما فضحه مما تآمروا بــه فــي ســر مــع أتبــاعهم، فكــان القرآن موافقا لما تم في الواقع لا يختلف ما صرح به عما كتموه.

ولو كان من عند غير الله المطلع علــى الغيــب لاختلــف مــا يخبــر بــه عمــا حصــل ولظهر تناقضه مع الواقع طبعــا. وثانيهمــا أن القــرآن تتــابع نزولــه الســنين المتواليــة، ولا يجد الناظر فيه اختلافا بين ما تضمنه من معــاني وأحكــام وقصــص وتهــذيب، ممــا يدل على أنه محكم من عند الله.

83-وإذا جاءهم أمر من الأمن...إلا قليلا.

تولى القرآن تربية المؤمنين في عصر الرّســالة وفيمــا يليــه مــن الأعصــار. ذلــك أن الأعداء يحاربون الحق بطرق عديــدة، منهــا القتــال بالســلاح، ومنهــا الحــرب النفســية وإشاعة الأخبــار الزائفــة ليربكــوا مســيرة الأمــة ويــدخلوا الشــكوك والأوهــام هــم يعملون على بــث الخــوف حيــث لا خــوف، وينشــرون الأخبــار المطمئنــة ليتراخــى المؤمنون في اليقظة والاستعداد. هذه الحــروب النفســية لهــا أثرهــا البــالغ فــي خلخلــة المجتمع، وربما تيسر للأعداء تنفيذ مخططاتهم ومكــرهم. ولــيس كــل المــؤمنين علــى درجة واحدة من الفطنة والتنبه، ولم تكــن المعطيــات الخفيــة والبعيــدة حاضــرة عنــد جميعهم. وبناء على ذلك حصل في مجتمــع المدينــة، كمــا يمكــن أن يحصــل فــي كــل

مجتمع، أن الأعداء يختلقون الأخبار الزائفة ويروجونهـا، فيتلقفهـا السـامعون مـن غيـر ذوي الخبرة ويتحدثون بهـا. ومـن المعلـوم أن الخبـر إذا راج وسـمعه النـاس مكـررا أثر ذلك في اقتناعهم به وارتفع مـن احتمـال الصـدق والكـذب احتمـالا متسـاويا إلـى ترجيح صدقه ؛ فيكون هؤلاء الأغرار الـذين روجـوا مـا سـمعوه قـد أعـانوا الأعـداء على تحقيق ما خططوا له مـن مكـر. فوجـه لهـم القـرآن اللـوم علـى هـذا التسـرع بالحديث بكل ما يسمعونه، ورباهم التربيـة الاجتماعيـة ، بمـا يفـرض علـيهم أنهـم إذا سمعوا خبرا لا ينقلونه بمجرد سماعه، وإنما عليهم أن يتثبتـوا فـي صـدقه بـالعودة بـه إلى رسول الله ﷺ أو إلى المباشرين للأمـور التنظيميـة فـي الدولـة، المطلعـين علـى خفايا الأمور.

وحرب الشائعات ما تـزال مـن أشـرس أنـواع الحـروب، ومسـاعدة مروجيهـا علـى تحقيق مكائدهم خطر كبير، وما يزال الـدهماء لضـعف تكـوينهم السياسـي والاجتمـاعي يتلقفون كل ما يسـمعون ويروجونـه، ويندفعون لـذلك ليَبْـرُزُوا فـي مسـتوى الـذين يعلمون ما خفي على غيرهم، ولكنهم في الحقيقـة كـانوا آلـة للمـاكرين، وحربـا علـى أمتهم من حيث لا يشعرون. ويمتن الله على المؤمنين بأنه بفضـله قـد نقلهـم مـن تحكـيم أهوائهم، والانسياق مع شهواتهم التي منها ترويج كل مـا يسـمعونه حبـا فـي الظهـور، وأنهم كانوا مأسـورين لغوايـة الشـيطان الـذي يُظِلهـم فيتبعونـه فتـولى الله بفضـله تثبيتكم على الحكمة ورفع مستواكم الإنساني، فلـم يبـق للشـيطان علـيكم مـن سـبيل إلا في حالات قليلة، هي أثر الضعف البشري.

84-فقاتل في سبيل الله...تنكيلا.

تابع القرآن بناء على ما أمر به من القتال، وما أرشـد بـه لحمايـة المسـلمين مـن مكـر المنافقين والأعداء، مؤكدا أمره بالقتال القتـال الـذي يهـدف إلـى إعـلاء كلمـة الحـق، وإعزاز البشرية بالعبـادة لله وحـده لا لإذلالهـم وتسـخيرهم ودون طمـع فـي خيـراتهم ولا الاستيلاء على أموالهم وأراضيهم، فـأمر رسـوله أولا بالقتـال فـي سـبيل الله، ثـم أمره أن يحض المؤمنين علـى الاسـتعداد للقيـام بهـذا الفـرض نفسـيا وماديـا. وبـث الرّجاء في نفوسهم بأنه سيفل شـوكة الـذين كفـروا. والله سـبحانه فـي عزتـه وقدرتـه أقوى منهم وسينكل بهم . فلا تتراخوا فيما هو موكل إليكم من الاستعداد والجهاد.

85-من يشفع شفاعة حسنة...مقيتا.

أتبع القرآن إرشاده للمؤمنين عندما تبلغهم أخبار تـؤثر فـي الأمـة، بإرشـادهم إلـى مـا كان جاريا أيضا فيهم، قبل أن تتألف منهم هـذه الأمـة التـي أعـدها لقيـادة العـالم إلـى

الخير. كانت الوساطات شائعة في الخيـر أوفـي الشـر، وفـي إقامـة العـدل أو الظلـم والجور، وفي التأليف أو التفريق، كانت هذه الوساطات تنطلـق مـن العلاقـة التـي بـين الشافع وبين المشفوع فيه، ولا تحتكم لميزان الخيـر ولا تنظـر إلـى مـا يترتـب عليهـا في المجتمع، والقرآن يُعِدُّ الأمة لتحمـل عـبء الهدايـة العامـة التـي لا تسـتطيع أن تقوم به إلا إذا كانت هـي مستمسـكة بقـيم الصـلاح والعـدل، فأبـان لهـم أن الشـفاعة يتحمل فيها الشفيع قسـطه مـن آثـار شـفاعته، وأن العلاقـات الخاصـة والعواطـف لا يقوم بها مجتمع يدعو بسلوكه إلى الهـدى، وحَمَّـلَ تبعـا لـذلك كـل وسـيط مسـؤوليته، فإن أعان الحق وعرّف المشفوع عنده بما يبعده عن الجور، كـان لـه مـن الأجـر مثـل العادل وفاعل الخير الذي اهتـدى بشـفاعته، وبالمقابـل فإنـه إذا شـفع فأعـان الظـالم على ظلمه وفاعل الشر على شره فإنه يتحمـل قسـطه مـن الإثـم. ركـز القـرآن هـذه القيمة في المجتمع بأن الله مطلع على ما يجـري مـن صـور الشـفاعة التـي عـادة مـا تكون في صورة السعي المباشر غير الظاهر. وهـذا أحـد معـاني المُقيـت الـذي يعبـر أيضا عن الحافظ والمقتـدر وموصـل الأقـوات. والظـاهر أن أقـرب المعـاني لموقـع المقيت في الآية هو المطلع.

وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا
﴿٨٦﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ
ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ۞ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن
تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا
كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن
تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا
﴿٨٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ
أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ
ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٩٠﴾
سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ

أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ
وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿٩١﴾

بيان معنى الألفاظ:

الحسيب: العليم. المحصي.

فئتين : فرقتين.

وليا: صديقا تبثه سرك وتعتمد عليه.

حصرت صدورهم: ضاقت صدورهم وكانوا في حرج.

الفتنة: المحنة في الرّجوع إلى الكفر.

أركسوا فيها: رجعوا إلى الكفر على أسوأ ما يكون الرّجوع.

بيان المعنى الإجمالي:

أمر الله المؤمنين بالتزام أدب التخاطب فمن حياه أخوه فالواجب عليه أن يرد عليه تحيته مساوية أو أحسن منها. وعلى المسلم أن لا يستهين بما أدب الله به هذه الأمة، فإن الله يحصي كل ما يصدر من الإنسان ليجازي عليه. إنه الله المتفرد بالألوهية رتب خلق البشر على أنهم مجزيون بأعمالهم، الجزاء الذي يلقاه كل فرد يوم القيامة، اليوم الذي يحشر فيه الناس جميعا لرب العالمين، إنها حقيقة لا يسدخلها الشك، أخبر الله بها، وكلامه سبحانه أعلى أنواع الحديث الصادق الذي لا يتخلف.

ثم انتقل القرآن إلى عرض حالة عجيبة ينكرها. حاصلها أن المؤمنين، قد افترقوا إلى فرقتين في موقفهم من بعض الذين اختاروا البقاء بمكة ولم يلتحقوا بالمهاجرين، وكاتبوا المسلمين بالمدينة وأخبروهم بأنهم أسلموا. وقد استغلهم المشركون فوكلوهم بالقيام على تجاراتهم، حتى تسلم لهم في طريقها إلى الشام، الذي أصبح تحت رقابة المسلمين. خدع بعض المسلمين بهم وقالوا لا نتعرض لهم فوبخهم القرآن إذ انخدعوا بهم، ونبههم إلى أن الله قد أركسهم فقلبهم إلى الكفر تبعا لما كسبوه بفساد عقائدهم وخبث تدبيرهم ثم واصل توبيخهم عن طريق سؤال إنكاري: أتريدون أن تهدوا من حكم عليه الله بالضلال، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا يحوله إلى الحق. ثم كشف سوء دخيلتهم بأن كل ما يحبون أن يصلوا إليه هو أن يردوكم إلى الكفر لتكونوا سواء في الضلالة. فإياكم أن تتقوا فيهم أو تُقَرّبوهم لأنفسكم فتفضوا إليهم بأسراركم أو تعولوا عليهم في نصركم. إن ثبتوا على ما هم عليه فلا تهنوا في شأنهم وخذوهم واقتلوهم في أي مكان وجدتموهم فيه. واستثنت الآية من كان من هؤلاء له صلة بقوم عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأمن المتبادل.

كما أن الله أذن بقبول الذين قدموا طــالبين الــدخول فــي الإيمــان وهــم محرجــون فــلا يريدون قتالكم ولا قتال قــومهم. إنهــم وإن كــانوا لــم يكــن التــزامهم بالانتســاب إلــى الإسلام صريحا كاملا إلا أن الله أذن لنبيه في قبــولهم، لأن عــدد المســلمين كــان قلــيلا مع صولة كبيرة للشرك، فهؤلاء لو لم يتــول الله هــدايتهم أبقــاهم علــى الكفــر لتســلطوا عليكم، فقبولهم على هذا النحو، مــع استســلامهم وانقيــادهم لكــم خيــر لكــم، وانتهــى الإذن بقتالهم.

بيان المعنــى العــام:

86-87: إذا حييتم بتحية...ومن أصدق من الله حديثا.

يتابع القرآن هدايته لهذه الأمة في علاقاتهــا الاجتماعيــة، فيقــيم قاعــدة التواصــل بــين أعضاء المجتمع على أساس المساواة أولا ثــم علــى تمتــين تلكــم العلاقــات. أرشــدت الآية **(وإذا حييتم بتحية...)** المســلمين عنــد لقــائهم بالابتــداء بتحيــة بعضــهم بعضــا، وتحية المسلمين هي: الســلام علــيكم. ومــن بــدأ صــاحبه بالتحيــة فالواجــب أن يــرد المسلم عليه بأدب يساوي مقالته أو يكــون الــرّد أحســن: وعلــيكم الســلام ورحمــة الله، على من سلم مقتصرا على: السلام علــيكم وعلــيكم الســلام ورحمــة الله وبركاتــه لمــن أضاف ورحمة الله أو أضــاف ورحمــة الله وبركاتــه. وهــذا الأدب ينبغــي أن يكــون خلقا للمسلمين ، فلا نقصره علــى: الســلام علــيكم، ولكــن كلمــا تلطــف معــك أخــوك المسلم فحياك بمناسبة عيد أو نجــاح أو عــرس أو مولــود... مباشــرة أو بــأي واســطة من رسالة أو خطاب بالهاتف أو بوسائل الاتصال، فــإن المســلم بمــا هــداه الله فــي هــذه الآية يسرع إلى رد التحية بأحسن منها أو بمُساويها.

وقطع هذا الأدب ما كان يخيل لــبعض المســتكبرين أن التكــافؤ فــي القيمــة الاجتماعيــة هو الذي يوجب رد السلام، أما المستضــعفون فهــم أحــط مــن أن يــرد الســلام علــيهم علية القوم وكبراؤه. ويؤكد الالتزام بهــذا الأدب، أن الله علــيم يحصــي مــا يصــدر مــن الإنسان: الكبير والصغير، وما كــان مــن الأدب، ومــا كــان مــن الــذكر أومــن القــول الطيب أو من القول الساقط ، فلا يتهــاون المؤمنــون بمــا يؤكــد تقــاربهم، والله ســبحانه يجازي الإنسان بما يصدر منه من أدب أو تهاون به.

ويؤكد القرآن ما اتصف به الله من كونــه عليمــا محصــيا، بالتــذكير بمــا اتصــف بــه سبحانه من صفات الألوهية. فهو الله المتفرد بالألوهية وقــدر تقــديرا لا خلــف فيــه أنــه سيجمع البشر جميعا ليــوم القيامــة لا يســتثني أي إنســان مــن هــذا المصــير المحتــوم وهو آت يقينا لا شك في ذلك. أخبــركم الله بــه وعــرفكم بقدومــه ومــا ينتظــر البشــر فيه. وما يخبر به الله سبحانه في كماله وجلالــه هــو الصــدق الــذي لا يخــالف الواقــع

أبدا، ولا يبلغ أي إخبار في أحقيته وصـــدقه كــلام الله. وهـــذه الآيـــة تفــتح لتاليهـــا الآيــة الواردة بعدها.

88-فما لكم في المنافقين...فلن تجد له سبيلا.

إنه من أوائل سورة البقرة وما تلاها، تتابع التحذير مـــن خطـــر المنـــافقين المندسـين فـــي صفوف المســلمين، وأن علـــى المســلمين ألا ينخـــدعوا بظـــواهرهم ولا بأكـــاذيبهم وقـــد وقع في المجتمع المسلم اختلاف في شأن بعـــض المنـــافقين، الـــذين تمكنـــوا مـــن إخفـــاء حقيقتهم على بعض المـــؤمنين فضـــللوهم، وتـــرجح عنـــدهم أنهـــم مؤمنـــون صـــالحون. ويذكر ابن عباس أنهم قوم من أهل مكـــة كتبـــوا إلـــى أصـــحاب النبـــي صـــلى الله عليـــه وسلم بالمدينة أنهم مؤمنون بالرّغم من أنهم لم يتمكنـــوا مـــن الهجـــرة لأســـباب روجوهـــا وواصلوا إقامتهم في بلد الكفر، ومعلوم أن الرّســـول ﷺ كـــان مـــن سياســـته، أن ضـــرب حصارا على تجارة المكيين، وذلك لإخضاع أهـــل مكـــة المتقـــوين بالتجـــارة التـــي هـــي سبب وفرة أموالهم وبالتالي عتوهم واستكبارهم، وأصـــبحت الطـــرق الواصـــلة بـــين مكـــة والشام غير آمنة بموقع المدينة في وسط طريـــق التجـــارة، ومكـــة بـــواد غيـــر ذي زرع، فكان الحصار شديدا عليهم ومؤذنـــا بانهيـــارهم. لـــذا كلـــف أهـــل مكـــة هـــؤلاء الـــذين طمأنوا بعضا من أهل المدينة بأنهم مؤمنون، فســـلموا لهـــم أمـــوالهم ليتـــاجروا بهـــا فـــي أمن من تعرض جيش المـــؤمنين لهـــم. وانحـــاز بعـــض مســـلمي المدينـــة لهـــم، واثقـــين بصدقهم ولم يرض معظم الصحابة بهـــذا الإيمـــان المزيـــف. فـــوبخ القـــرآن المصـــدقين لهؤلاء المنافقين، وكان الســـؤال ســـؤال إنكـــار، كيـــف تختلفـــون فـــي شـــأنهم والله قـــد أركسهم، فقلبهم إلى الحالة التي كانوا عليها من الكفر، ومـــا كـــان ذلـــك ظلمـــا لهـــم، إنـــه بسب تضـــليلهم وإصـــرارهم علـــى الكفـــر ومحاولـــة خـــداع المســـلمين، وهـــو مـــؤدى قوله:(ما كسبوا) ثم واصل تأنيب المخدوعين: ما هـــو هـــدفكم مـــن تصـــديقهم وهـــم قـــد ضلوا، أتريدون أن تجعلوا الذين أضـــلهم الله بمـــا كســـبوا مهـــديين؟ إن مـــن جـــازاه الله بسوء صنيعه، يستحيل أن تجد له طريقا يعود به إلى الصلاح.

89- ودوا لو تكفرون... وليا ولا نصيرا.

ثم كشف عن دخيلتهم بأنهم يحبون لكم الكفـــر وأن تســـتووا معهـــم فـــي ضـــلالهم. بهـــذا يتبين لكم الفوارق الفاصلة بينكم وبيـــنهم، فـــلا صـــلة تجمعكـــم بهـــم. فإيـــاكم أن تركنـــوا إليهم، ولاتكن بينكم وبينهم موالاة تتناصـــرون بهـــا، وحتـــى لا يخـــتلط علـــيكم الأمـــر أو تخدعكم الشبه، فإن السمة التي تدل علـــى صـــدق الإيمـــان هـــي المهـــاجرة فـــي ســـبيل

مرضاة الله إلى المدينة المنورة فمن قعد فقعوده شـارة ضـلاله وكفـره. فطبقـوا عليـه أحكام الكفرة.

بهذه العلامة الفارقة يكون موقفكم منهم، فـإن هـم سـكنوا إلـى البقـاء فـي مكـة ولـم يهاجروا فعاملوهم معاملة الكافرين الذين أشهروا الحـرب علـى الإسـلام، كونـوا أقويـاء في مـواجهتهم، خـذوهم واقتلـوهم فـي أي مكـان كـانوا، وإيـاكم أن تعتمـدوا علـى موالاتهم فتبثوهم أسراركم أو ترتبوا جهادكم على الانتصار بهم.

90-إلا الذين يصلون إلى قوم...سبيلا.

ولما كان من ثوابت الأمة الإسلامية أنهـا تفـي بعهودهـا ولا تنقضـها، اسـتثنى القـرآن من أولئك الذين حرض المسلمين على قتالهم.

أولا: الذين ينتسبون إلى قوم عاهدوا رسول الله ﷺ على عدم القتال

ثانيا: الذين وردوا إلى المدينة مسلمين بميثاق مـع رسـول الله أنهـم لا يقـاتلون قـومهم معه، ولا يقاتلون المسلمين، وكان ذلك قبل فتح مكة. ثـم نسـخ هـذا الحكـم لمـا قـوي المسلمون فمن يدخل في الإسلام لا يتخيـر مـن أحكامـه مـا يوافـق روابطـه السـابقة. اهتمت الآية بهؤلاء فأوضـحت أنهـم صـادقون فـي إيمـانهم، لأنهـم كـانوا محـرجين (حصـرت صـدورهم) مـوزعين بـين الوفـاء لأهـل ملـتهم الجديـدة (المسـلمين) لا يرضون أن يقاتلوهم وبين ما تأصل فـي نفوسـهم مـن احتـرام صـلة القرابـة التـي تجمعهم بمن بقي مشركا من أهليهم، واكتفى مـنهم رسـول الله ﷺ بـذلك ليـأمن جـانبهم ويضعف بذلك حزب الكفر في أول الأمر. ومـن كـان مـن المسـلمين يجـد فـي هـذا الاستثناء مهادنة للكفر، عرفه القرآن: بـأن الله لـو شـاء أن يمـنعهم الإيمـان لتسـلطوا. عليكم فوضعكم مع مهادنتهم خير لكم، في الوقـت الـذي مـا زلـتم فيـه قليلـي العـدد، فلما أمنتم جانبهم، وعبروا عن انقيادهم لكم ورضـاهم بالإسـلام، فـإن الله الـذي أمـركم بقتال الكافرين لم يأذن لكم بقتال هؤلاء.

91-كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها... سلطانا مبينا.

ثم تعرضت الآية لنوع آخر عـرفهم بـأنهم لا يهمهـم إلا أن يضـمنوا الأمـن لأنفسـهم هادنوا المشركين ليأمنوا على مكاسبهم وهم فـي مهـادنتهم هـذه يرضـون بـالعودة إلـى الكفر على أسوأ وجه، فقد طلـب مـنهم كفـار قـريش أن يسـجدوا لغيـر الله فسـجدوا. ويريدون أن يأمنوا بطشكم فأظهروا لكم الإسلام، وهـم فـي بـواطنهم لا يهمهـم الإسـلام ولا الشرك ولكن كل همهم أن يفـوزوا بـالأمن مـن جميـع الأطـراف. فعلاقـة هـؤلاء بالمسلمين علاقة غير واضـحة، ولـذا خـالف القـرآن بيـنهم وبـين مـا تقـدم، فعلـى

المسلمين أن يكونوا منهم على حذر، ولا يكتفى منهم بالقول، فإذا لم يعتزلوا قتالكم، ولم يقدموا لكم ما يفيد طاعتهم لكم، وأعانوا أعداءكم عليكم أو عملوا ما يؤذيكم، فادفعوا مكرهم بالاستيلاء عليهم وقتلهم أينما كانوا، وهؤلاء لتلاعبهم، قد جعل الله لكم عليهم الحجة الواضحة من أفعالهم فلا تخشوا ملاما على التنكيل بهم.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ
مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ
مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ
مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً
مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ
جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

رقبة: رقيق، إنسان فاقد لحريته.

الدية: المال الذي يدفع لعائلة القتيل ونوعه ومقداره يعلم من الشرح.

يصدقوا: يتنازلوا عن طلب الدية.

ميثاق: عهد مسالمة.

بيان المعنى الإجمالي:

حفظ الإسلام للمؤمنين حياتهم، فالمؤمن في المجتمع الإسلامي لا يخشى على حياته، ولا يتصور من مسلم أن يقتل أخاه المسلم إلا إذا كان عن خطإ. ومن قتل مؤمنا خطأ فالواجب، لجبر هذه الواقعة الأليمة أن يحرر عبدا مسلما فيعوض للأمة الإسلامية عن خسارتها بتكميل إنسانيته. وأن تدفع أسرة القاتل (العاقلة) دية لعائلة القتيل مقدر نوعها حسب ثروة مجتمع القتيل من أهل النعم أو من أهل النقود. وإذا كان القتيل مؤمنا وأهله كفار ليس بيننا وبينهم عهد مسالمة فالواجب تحرير رقبة مؤمنة فقط. أما إذا كانت بيننا وبين قومه معاهدة عدم اعتداء فالواجب في هذه الحالة الدية تسلم إلى أهله المعاهدين وتحرير رقبة مؤمنة. ومن لم يتمكن من تحرير رقبة مؤمنة لفقره أو لعدم وجودها، كما هو الحال الآن، فعلى القاتل خطأ أن يصوم شهرين، ستين يوما، يتابع الصوم، فلو قطع صومه وجب عليه استئناف الصوم المتتابع. وذلك قصد أن يتوب الله عليه، لأنه أتى أمرا عظيما، إذ الخطأ

يتحمل المخطئ فيه نصيبا من المسؤولية لأنــه فــي معظــم الأحــوال لا يكــون إلا عــن تقصير قَلَّ أو كَثُرَ.

الحالة القطيعة الرّابعة أن يقتل مؤمنا متعمدا. ومــن قتــل مؤمنــا متعمــدا فالوعيــد الــذي حكم به الله عليه أنه سيدخله جهنم وسيخلد في العذاب، علــى معنــى طــول الأمــد الــذي يقضيه في جهنم، أو أنه لا مطمع له في الخروج منهــا أصــلا، ومــع ذلــك لعنــة تلحقــه لا يجد منها فكاكا، وعذاب عظيم لا شك في إهانته وتعذيبه به.

بيان المعنى العام:

92-وما كان لمؤمن ولا مؤمنة...عليما حكيما.

بعد تفصيل بعض ما يتعلق بقتال الكافرين وقتلهم فصل القــرآن تشــريع مــن يقتــل نفســا بشرية في غير الجهاد في سبيل الله. وهــو تفصــيل وتوضــيح أيضــا لــبعض العلاقــات الاجتماعية وما يترتب على الخطأ والعمد فيها إذا بلغت إلى القتل.

افتتحت الآية بأن صلة المؤمن بأخيــه المــؤمن سَــمَتْ إلــى حــد أن الإيمــان صــيرهما كشخص واحد، يفهم هذا من قوله تعالى **(ومــا كــان لمــؤمن أن يقتــل مؤمنــا إلا خطــأ)** أي إنه لا يتصور أن يقصد المؤمن إلى قتــل أخيــه، إلا أن يكــون مــا وقــع تــم علــى سبيل الخطأ. فالمسلمون قد حولهم الإيمان من قــوم هانــت عنــدهم حيــاة غيــرهم أخــذا بثأر أو ردا لمهانة أو للاستيلاء على مال حــولهم إلــى أن القتــل أصــبح غيــر متصــور بينهم إلا أن يكون خطأ لا عمدًا.

والقتل تَعَدٍ على الحيــاة، لا يجــامع الإيمــان الــذي مــن ثوابتــه أن الحيــاة مصــونة لا يتصرف فيها إلا الله وحده ولا يقدم أحد على إزهاقهــا إلا بإذنــه. ولــم يبــق مــن صــور القتل إلا أن يقع على سبيل الخطأ. فتحقق بهذا الــدين أمــنُ النــاس علــى حيــاتهم التــي هي من أعز ما يحرص البشر عليه، وهي من أعظم مهمات الدول والحكومات.

عالج الإسلام ما لا يمكن التحرز منه (القتل الخطأ) وفصل أحكامه كما يلي:

أولا: إذا قتل مؤمن مؤمنا خطأ، فكون القتــل وقــع خطــأ لا يرفــع الواقــع المــؤلم: أن نفسا بشرية قُضِيَ عليها. وما يهدف إليه القرآن في هذه الحالــة هــو التخفيــف مــن وقــع المصيبة التي رزئت بها عائلة القتيــل بفقــدها عنصــرا مــن عناصــرها، ورزئــت بهــا الأمة الإسلامية بموت أحد أعضائها، والمــؤمن عزيــز علــى المــؤمنين. وتخفيفــا مــن وقع المصيبة أوجب على القاتــل أن يحــرر مؤمنــا مــن أســر الــرّق، فيجبــر للأمــة الإسلامية ما خسرته باستكمال الرّقيــق المــؤمن شخصــيته، بفكاكــه مــن أســر الــرّق، فيتحول بتحريره إلى عضــو كامــل فــي المجتمــع الإســلامي. وتجبــر العاقلــة وهــي الأسرة الكبيرة للقاتل، تواسي القاتل فيما وقع فيه وتواســي عائلــة القتيــل، فتــدفع لعائلتــه

الدية. التي تختلف بين كون القتيل من سكان المدن، فتدفع لهم مائتين وخمسين وأربعة آلاف غرام من الذهب (250 ك 4) من الذهب أو ما يوازي قيمتها من العملة المحلية. وإذا كان من أهل البادية الذين ثروتهم من الإبل، فإن قيمة الدية مائة من الإبل معين سنها بالسنة النبوية، وإن كانت ثروتهم من الشاء فألفا شاة. ولأسرة القتيل أن تعفو عن الدية وبعفوها تسقط المطالبة. وتدفع موزعة على ثلاث سنين. وللدية أحكام مفصلة تفصيلا بينا في كتب الفقه.

ثانيا: إذا قتل مؤمن مؤمنا خطأ، وعائلته كافرة معادية للأمة الإسلامية، فالواجب في هذه الحالة تحرير مسلم من أسر الرّق. ولادية.

ثالثا: إذا كان القتيل مؤمنا من قوم كافرين بينهم وبين الدولة الإسلامية عهد مسالمة، فالواجب تحرير رقبة مؤمنة. ومعها الدية كما تقرر في القسم الأول.

إنه في جميع الأحوال المذكورة التي يجب فيهما على القاتل أن يحرر رقبة، ولكنه إن كان فقيرا لا يتمكن من قيمة العبد الذي سيحرره، فإن الواجب عليه في هذه الحالة أن يصوم شهرين متتابعين،. ستين يوما.

واعلموا أن هذا التشريع هو فاتح للأمل في توبة الله على القاتل لأنه أتى أمرا عظيما، وإن كان عن خطأ. لأن المخطئ في معظم الأحوال ما أخطأ إلا لكونه تساهل في بعض الاحتياطات، وقصر في الحذر.

93- ومن يقتل مؤمن متعمدا...عذابا عظيما.

رابعا: قصد القاتل إزهاق روح مؤمنة، هذا القاتل هو عنصر فسد وفقد إحساسه بصلاته الإنسانية والإيمانية، وقست روحه ومداركه قسوة قطع بها الرّوابط التي تجمعه بالبشرية وبالأمة الإسلامية. إن شناعة القتل تتجاوز كل وصف وتنزل إلى أحط دركات السفالة. إن القاتل لا يغطي إثم ما أقدم عليه كفارة، لا صيام ولا دية. لا يأمل في أي فضل من الله وهو معنى الغضب. وأعلن أنه أبعده بعدا لا أمل معه في رحمة الله التي وسعت كل شيء: البشر والحيوان والجماد والصالح والمسرف على نفسه، فهو مستثنى منها والعياذ بالله. إن جزاءه في الآخرة أنه خالد في النار. وهل خلوده تعبير عن طول مكثه في النار طولا مسترسلا إلى آماد بعيدة، أو هو لا يخرج من النار أصلا، وهل تقبل توبة القاتل أو لا تقبل ؟ اختلف علماء الدين في ذلك اختلافا كبيرا. وقد يكون من الحكمة أن يفقد القاتل الطمأنينة في بقية عمره، فهو لا يعلم مصيره ولا يستطيع أي عالم أن ينفث في روحه برد اليقين، فيكون هذا أول جزائه من العذاب.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنۡ أَلۡقَىٰٓ
إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسۡتَ مُؤۡمِنٗا تَبۡتَغُونَ عَرَضَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ
كَثِيرَةٞۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبۡلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ فَتَبَيَّنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ
بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿٩٤﴾ لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ غَيۡرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ
وَٱلۡمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ
وَأَنفُسِهِمۡ عَلَى ٱلۡقَٰعِدِينَ دَرَجَةٗۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ عَلَى
ٱلۡقَٰعِدِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴿٩٥﴾ دَرَجَٰتٖ مِّنۡهُ وَمَغۡفِرَةٗ وَرَحۡمَةٗۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا ﴿٩٦﴾

بيان معنى الألفاظ:

الضرب في الأرض: السير فيها.

تبينوا: تأملوا وتثبتوا.

عرض الحياة: متاع الحياة.

أولي الضرر: من بهم نقص يقعد بهم عن القتال.

وعد الله الحسنى: وعد الله الجنة.

بيان المعنى الإجمالي :

خرجت سرية من جيش المسلمين فلقيت في طريقها رجلا على جمل فقتلته بالرّغم عن كونه خاطبهم بما يفيد إسلامه. ولما علم النبي صلى الله عليه وسلم بالحادثة أنكر على القاتل أشد الإنكار، ودفع ديته لأهله . ثم أنزل الله هذه الآية إنكارا وتوبيخا للقاتل، وإرشادا وتشريعا عاما. فالتشريع في إيجاب التثبت وعدم العجلة في جميع الأمور. والتوبيخ كان شديدا موازنا للفعلة المنكرة. وبخهم على الإسراع بالقتل والدافع إليه حب الاستيلاء على الغنيمة، ووبخهم على عجلة ثانية لأن الله وعد المؤمنين بالنصر، مما يترتب عنه مغانم كثيرة، ووبخهم ثالثا لأن حالهم كان كحال القتيل، كانوا كافرين فعبروا عن دخولهم للإسلام بكلمة الإسلام، فلو لم يُصَدَّقُوا لقتلوا. وأكد إرشادهم إلى عدم العجلة وحرك ضمائرهم ليرهبوا، وذلك لأن الله يعلم الدوافع الخفية.

ثم نوه القرآن بالمجاهدين بعد اللوم الموجه للذين لم يتثبتوا منهم. وفي تنويهه بهم ميز المجاهدين عن المؤمنين الذين لم يشاركوا في الجهاد، مبديا عذر غير الممكنين منه لعجزهم عنه. وقد وعد الله في هذه الآية وعدا مؤكدا المجاهدين بأموالهم

وأنفسهم في سبيل الله بالمنزلة الرّفيعة في الجنة، وأنهم سيدخلونها بصحيفة أعمال غير ملوثة بذنب، لأن من جزائهم أيضا مغفرة ذنوبهم وتتنزل عليهم الرّحمات بما يكسبهم الرّضا. ولرفع كل لبس صرح القرآن بأن الله وعد ووعده لا يخلف: أن مآل المؤمنين المجاهدين وغير المجاهدين، مآلهم الجنة، لا يحبط تخلفهم عن الجهاد صالح أعمالهم.

بيان المعنى العــام:

94-يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم... خبيرا

فصلت الآيات السابقة بعض ما يتعلق بقتل المؤمن غيره. فذكرت قتل الخطأ وقتل العمد. ومن صور قتل العمد ما فصلته هذه الآية التي نزلت عند حادثة رواها البخاري وغيره. أن سرية لقيت رجلا على بعيره فظنته كافرا رغم أنه بدأهم بالسلام. فتقدم له أحدهم وقتله وغنموا جمله وما كان معه من متاع. ولما بلغ الخبر النبي صلى الله عليه وسلم عاتب من قتله عتابا شديدا وأنزل الله هذه الآية جامعة بين توبيخ القاتل، ومفصلة تشريعا وإرشادا للمسلمين عندما يعترضهم من لا يعرفون أنه مسلم، أن عليهم أن لا يتعجلوا وأن يتثبتوا. وكان نسج الآية مرتبطا بالحادثة، إذا عرضت الأمر بكون المسلمين مسافرين **(إذا ضربتم في الأرض)** مع أن الحكم واحد في السفر والحضر. فالأمر بالتثبت وعدم التسرع في الحكم على من لا يعلم كفره، والإقدام على قتله أمر لا يقبل من المؤمنين الذين عظّم الإسلام في قلوبهم حرمة الحياة. ثم ضاعف التوبيخ بأن القتل قد نفّذ بعد أن عبر المقتول بما يفيد إسلامه وكُذّب بغير دليل. وأعلنت الآية عن الدافع للعجلة أن القاتل كان يريد الفوز بالغنيمة: الجمل والمتاع. وما قيمة ما غنم ؟إن هو إلا متاع الحياة الدنيا القليل الزائل. ومبالغة في إنكار ما تم، ذكرهم:

أولا: بأن الله وعد المؤمنين بأنه سيفتح عليهم نصره، وسيغنمون الغنائم الكثيرة

ثانيا: خاطبهم: إن وضعكم كان شبيها بوضع هذا الرّجل الذي قتلتموه، إذ كنتم كفارا فمن الله عليكم بهدايتكم للإسلام فأسلمتم بكلمة الإسلام، فلو كُذِّبْتُم في دعواكم وأعمل السيف في رقابكم أكان يرضيكم ذلك؟ وإذ قد أنبهم التأنيب البالغ، أعاد التأكيد على وجوب التحلي بالتثبت وعدم العجلة، وحذرهم بأن الله يعلم الدوافع الخفية الكامنة في النفوس.

95-96: يستوي القاعدون...غفورا رحيما.

وبعد أن وبخ المتعجلين غير المتثبتين من المجاهدين، انتقل القرآن إلى التنويه بالمجاهدين، فذكر أن المجاهدين لهم مقام رفيع. وقسم المسلمين إلى ثلاثة أقسام:

1)المجاهدين.
2) الأصحاء القاعدين الذين لم يشاركوا في الجهاد.
3)الذين بهم عاهة من عمى أو عجز عن المشي أو مرض ونحو ذلك. فعذر القسم الثالث، ولم يدخلهم في الموازنة، وإن أجرهم يتبع حسن نياتهم وما يسهمون به في الجهاد من أموال وسلاح وتجهيزات.

ولإبراز مزايا الجهاد، عقد القرآن مقارنة بين المؤمنين القاعدين عن الجهاد، وبين المؤمنين المجاهدين بأموالهم التي يبذلونها لتجهيز الجيوش، وبأنفسهم بما يتعرضون له من أخطار الحرب على حياتهم أو سلامة أعضائهم فصرح بأنهم متفاوتون في مقامهم عند الله رغم اتحادهم في كونهم مؤمنين. فقد فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على بقية المؤمنين الذين لم يشاركوا في الدفاع عن الأمة ونشر دين الله، فضلهم قسما بهم عن غيرهم بدرجة عظيمة. ويشعر التنويه وتنكير الدرجة بأنها مقام عَلِيّ عند الله. وحتى لا يظن بالمؤمنين القاعدين نقص في إيمانهم أو حطة في مآلهم، نبه القرآن على أن الله وعد، ووعده لا يخلف، أن كل من حلت بشاشة الإيمان قلبه فإن جزاءه الجنة بما تشمله من الرّضا والنعيم.

وإذ جمع بين كل المؤمنين في حسن العاقبة، ثنى بالتنصيص مرة أخرى على تفضيل المجاهدين على القاعدين بالأجر العظيم، وفسره بأنه درجات يعلون بها متميزين بها على غيرهم، وأن الله هو الذي يتولى منحهم إياها بدون واسطة كما تشير إليه (منه) ومع هذه الدرجات، التطهير من جميع الذنوب فيقبلون على ربهم صفحة بيضاء نقية خالية من ظلمة الذنوب وغبش التقصير، فتتنزل عليهم الرّحمات التي تسكن معها القلوب والأرواح إلى ما رزقوه من فضل وكرامة، وهذا جار على ما ثبت لله من كونه الغفور الرّحيم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي
ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ
وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا
يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ فَأُوْلَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعۡفُوَ عَنۡهُمۡۚ وَكَانَ
ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورٗا ﴿٩٩﴾ ۞وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ

وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

توفاهم: تقبض أرواحهم.

ظلم النفس: أن يفعل الإنسان فعلا يؤول إلى مضرته.

مستضعف: الذي يعده المتسلط عليه ضعيفا فلا يعبأ به.

مراغما: مكانا من الأرض يذهب فيه.

وقع: ثبت.

بيان المعنى الإجمالي:

لما أذن للنبي ﷺ بالهجرة إلى المدينة خرج معه معظم المسلمين، وبقي البعض بمكة، فمنهم من فتن في دينه وكفر، ومنهم من بقي مستخفيا مؤمنا بقلبه بعيدا عن الرّسول وعن الجماعة الإسلامية. وهؤلاء خرجوا يوم بدر مع المشركين، ومنهم من قتل واختلف المسلمون فيهم فبعضهم أعلن أن المقيمين في مكة إخوانهم كاتبوهم بثباتهم على الإيمان، ورأى معظم الصحابة أنهم بقعودهم في بلد الكفر قد ارتكبوا أمرا عظيمٌ فساده، كبيرٌ شره. فنزلت هذه الآية التي وصفت حالتهم عندما ماتوا. فقد صاحب قبض أرواحهم من ملائكة الموت، توبيخهم وتعييرهم بأنهم قد ظلموا أنفسهم، وأنهم سألوهم سؤال تقريع وتوبيخ: في أي وضع كنتم إذ تخلفتم عن الهجرة؟ كان جوابهم أنهم قبلوا لضعفهم تسلط الكفار عليهم. واصل الملائكة سؤالهم: لما ذا لم تهاجروا في أرض الله الواسعة وبقيتم تحت القهر ؟ فلم يجدوا لأنفسهم عذرا، وأعلم القرآن بأن مصيرهم إلى جهنم أسوأ مصير. ثم إن القرآن وهو يصف ما حصل لهؤلاء الباقين في مكة، استثنى الذين كانوا فعلا مستضعفين من الرّجال والنساء والولدان، الذين ليس لهم من التجربة والذكاء ما يجدون معه حيلة للخروج من مكة، والذين أقعدهم النقص الملازم لهم كالعمى، عن الاهتداء إلى المدينة. ولذا فإن الله يؤملهم في العفو عنهم ،ويقرب لهم الأمل بأن الله عفو غفور. وحرك الهمم والعزائم للهجرة، بأن أرض الله واسعة لا تضيق بالبشر، فكل من هاجر وترك موطنه لينجو بدينه يجد في أرض الله التراب الواسع الذي يأويه ويقوته. ومع التنبيه على الجوانب المادية الميسرة للهجرة عرض القرآن فضلا آخر من الله على من خرج من موطنه مهاجرا إلى الموضع الذي يحقق فيه

رضوان الله ورسوله، ثم يموت في الطريــق، فــإن الله يــدخر لـــه ثــواب هجرتــه غيــر منقوص. والله غفور رحيم.

بيان المعنى العام:

97-إن الذين توفاهم الملائكة...وساءت مصيرا.

أذن الله لنبيه أن يهاجر مع المؤمنين مــن مكــة إلــى المدينــة. ونفــذ الجميــع أمــر الله، وبقي البعض بمكة لم يهاجر، فمنهم من فتن في دينــه ورجــع إلــى الكفــر، ومــنهم مــن بقي مستخفيا لا يظهر الكفر ولا الإيمان إلــى أن فتحــت مكــة وســاد الــدين الإســلامي فيها. ومن هؤلاء الذين لم يهــاجروا مــن خــرج مــع المشــركين يــوم بــدر، فبعضــهم أسر، ومنهم من مات على تلك الحالة. فما هــو وضــعهم ؟ نــزل القــرآن كاشــفا مجيبــا عن هذا السؤال، مجسما مصيرهم وما ينتظــرهم. وكــان الأســلوب أســلوبا بــث الحيــاة والحركة في المشهد.

الصورة تتضمن حدثا ومحاورة لم يطلع علــى تفاصــيلها إلا الله، فســجلها القــرآن بأبــدع تصوير في هذه الآية: جثث جماعــة ظالمــة لنفســها بتقاعســها عــن الهجــرة، وفســاد تدبير أمرها ببقائها بمكة فــي الوقــت الــذي اختــارت الكثــرة الكــاثرة مــن المــؤمنين الهجرة مع رسول الله ﷺ إلى المدينة المنورة. وبخــتهم الملائكــة لمــا قبضــوا أرواحهــم وجرت بينهم المحاورة التالية: قالت لهم الملائكة فــي أي وضــع كنــتم باختيــاركم البقــاء في مكة ؟ أجابوهم بأنهم لم تكن لهم شوكة تمنعهم وأجبــرهم أهــل مكــة علــى طــاعتهم. وهذه تعلة غيــر مقبولــة ؛فقــال لهــم الملائكــة: ألا تعلمــون أن أرض الله واســعة لــم تضق عليكم، يمكنكم أن تجدوا في فضائها الرّحــب مــأوى لكــم ومتســعا مــن العــيش؟ وإذ قد سقطت كل تعلاتهم وألزموا بتعمدهم التقصير والرّضــا بالبقــاء مــع أهــل الكفــر، أعلن القرآن جزاءهم: أن المأوى الذي يصيرون إليه، جهــنم أســوأ مصــير يصــير إليــه الإنسان. والظاهر أن هؤلاء لم يرتدوا، وإنما مــالأوا الكفــار ولــم يهــاجروا فــي الوقــت الذي كانت الهجرة فيه إلى المدينة من أوكد الواجبــات. ذلــك أن هــذا الحــوار لا يواجــه به الكفار، وَوُوْجِه به هؤلاء لتقصيرهم التقصير غيــر المغتفــر، لأنــه فــي الوقــت الــذي كان فيه المسلمون في حاجة إلى تقوية صــفهم، ويــربكهم أن يتعلــل بعضــهم بمصــالحه ولا يلتحق بالصف المسلم.

98-99:إلا المستضعفين من الرّجال...عفوا غفورا.

والله، الموصوف بالعدل والفضــل، راعــى المستضــعفين حقــا، مــن الرّجــال والنســاء والولدان، الذين لا يستطيعون حماية أنفســهم مــن ظلــم المشــركين المســتكبرين، ولــيس

لهم من الذكاء والنباهة ما يمكنهم من التخلص، أو لا يهتدون للطريق الذي يؤمن لهم بلوغ المدينة كالعميان. أولئك يرجى عفو الله عنهم فلا يحاسبهم على عدم هجرتهم. وأكد رجاء العفو بأن الله متصف بالعفو والمغفرة.

ولما كان العفو صادرا من الله وهو العليم بما قرره في شأنهم علما لا احتمال فيه، فلماذا عبر بعسى التي تفيد الاحتمال لعله من بلاغة القرآن إبراز هذا العفو في صورة الرّجاء ليدرك المخاطبون عزته وأنه لا يتحقق إلا بما يقرره الله الذي لم يُطلع أحدا على غيبه هذا. والحكم المستفاد من هذه الآية كان مرتبطا بوضع الجماعة الإسلامية في الفترة السابقة لفتح مكة. ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم أعلن أن لا هجرة بعد الفتح لأن مكة أصبحت دار إسلام. فنسخ حكم الهجرة بعد الفتح. وقد عقب الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله على هذه الآية، بأنه وإن نسخ حكمها إلا أن العلماء في إعمالهم للنظر عن طريق القياس بحثوا في حكم إقامة المؤمن في غير بلاد الإسلام. وهو تحقيق نفيس اعتمدته ولخصته. والأحوال الأصلية التي يتعرض لها المسلم في غير البلد الذي تطبق فيه الأحكام الإسلامية يتصور بست صور:

الصورة الأولي: أن يكون مكان إقامة المسلم بلدا يفتن فيه المسلم في دينه، بما يجبره على مفارقة الإسلام. وحكم هؤلاء أنهم يستوون مع الذين نزلت فيهم الآية، والواجب عليهم أن يهاجروا ليسلم لهم دينهم.

الصورة الثانية: أن يكون الوضع لا يبلغ الفتنة في الدين، ولكن لا تسلم للمقيم حياة تحقق له أمنه على نفسه ومكاسبه، بأن يكون عرضة للقتل أو التعذيب أو مصادرة مكاسبه. وهذا يجب عليه أن يهاجر إلى بلد يكون آمنا فيه.

الصورة الثالثة: أن يكون مقيما ببلد استولى على مقاليد الحكم فيه غير المسلمين، وضمنوا للمتساكنين حرية العقيدة، ويجبرون الجميع على الرّضوخ لأحكامهم في جميع القضايا. وهذا وضع المسلمين المقيمين في الغرب اليوم. وذكر أنه اختلف فيه قول المالكية فكرهه مالك كراهة شديدة، وحمل الكراهة بعض حذاق علماء المذهب على الحرمة. إنه نظرا لأوضاع المسلمين الاقتصادية اليوم، وقد انتشر الفقر فيهم، ونظرا إلى أن معظم الحكومات الإسلامية لا تلتزم في أحكامها بالإسلام، ونظرا إلى ما يستفيده المهاجرون من التمكن العلمي والتقني وفن العمل الدقيق مما يمكن أن يسمو بالوضع الاقتصادي والعلمي في بلدانهم عندما يعودون إليها أو عندما يقيمون بها مشاريع تقرب الشقة التي تزداد اتساعا وعمقا كل يوم بين العالم المتقدم اقتصاديا وبين عالمنا الإسلامي، لكل ذلك فإنه يترجح عندي أن المقيمين في بلاد

الغرب لا حرمة عليهم في إقامتهم بهـا. وعلـى الـدول الإسـلامية أن تعنـى بهـم بمـا يثبتهم على دينهم ويبقي على الصلة التي تجمعهم بأوطانهم قوية مشعة

الصورة الرّابعة: أن يتسلط الكفار على بلـد إسـلامي فيسـلبون منـه السـلطة السياسـية ويضمنون الحرية الدينية ولا يتدخلون في الأحكـام التـي تجـري علـى المسـلمين، كمـا وقع في صقلية عندما استولى عليها النرمان. وكمـا وقـع فـي غرناطـة فـي المعاهـدة الأولى التي ضمنت للمسـلمين إجـراء حيـاتهم الدينيـة علـى أصـول الإسـلام عبـادة ومعاملات وقضاء، فأقام بها بعضهم وهـاجر قسـم آخـر. ولـم يعـب المهـاجر علـى المقيم. مما يفيد أن الهجرة ليست واجبة.

الصورة الخامسة: أن يتسلط غير المسـلمين علـى بلـد إسـلامي فتكـون لهـم السـلطة العليا، ولا يغيرون أنظمة حكمها تغييرا كاملا. ويبقـون علـى المسـلم صـاحب السـلطة فيها، ولا يتدخلون في الحياة الدينيـة ولا فـي الأحكـام، وخاصـة الأحـوال الشخصـية. كما تم في القرن التاسع عشر والقرن العشرين فـي مصـر وتـونس والعـراق والمغـرب وسوريا وليبيا... وهذه الصورة واضح أنه لا يجب على أهلها الهجرة من بلدهم.

الصورة السادسة: أن يشيع فـي بلـد إقامـة المسـلم المنـاكر والبـدع، وتغييـر بعـض الأحكام على مـا يخـالف الأحكـام الشـرعية مخالفـة صـريحة، ولا يسـتطيع المقـيم الإنكار ولا التغيير إلا بالقول، أو هو لا يسـتطيع ذلـك. والمنقـول عـن مالـك وجـوب الخروج منها. ويلاحظ الشيخ ابن عاشور أنه وقع مثل هـذه الحالـة فـي القيـروان مـدة تسلط العبيديين، ولم يخرج منها علماؤها ولا الصـالحون. وضـرب مـثلا ببقـاء الشـيخ محمد بن أبي زيد. وهو من هـو عِلمـا وفضـلا وتقـوى وصـلاحا. ويلاحـظ أمـران على هذا التدقيق العلمي:

أولهما: أن الأوضاع السياسية قد تغيرت تغيرا كبيـرا، فـلا يسـتطيع أي مسـلم أن يقـيم في بلد غير بلده إلا بجواز سفر وبموافقة مسـبقة مـن سـلطات البلـد المقصـود ولمـدة محددة.

ثانيهما: أن على المسلمين الذين قهـرهم العـدو وتسـلط علـيهم أن لا يستسـلموا للقهـر استسلاما نهائيا فإن الاستسلام الكامل والخروج مـن الأوطـان هـو عبـارة عـن مـوت الشعب من ناحية، وتأييد للغاصب من ناحية أخرى.

فالحل الواجب عليهم في نظري: أن يصـبروا صـبرا إيجابيـا بالعمـل بشـتى الطـرق الظاهرة والخفية لمقاومـة التسـلط البـاغي، وأن لا يستسـلموا ولا أن يسـلموا وطـنهم ويفرغوه لمن غـزاهم. وأن يتحـدوه بتخطـيط محكـم يحقـق لهـم مباشـرة عبـاداتهم الضـامنة لاسـتمرار الارتبـاط بالجامعـة الإسـلامية وبقـاء الـدين فـي خَلَفِهِـمْ. وأن

يخططوا وينفذوا ما يزعزع الغزاة حتـــى ينهكـــوهم ويســـتردوا ســـيادتهم المســـلوبة. ولا أرى الفرار زيادة عن كونه أصبح غير ممكن، حلا صالحا. والله أعلم.

100-ومن يهاجر في سبيل الله...غفورا رحيما.

ومن يهاجر في سبيل الله... ثم أيقظ البشـــر إلـــى أن حريـــة الإنســـان لا تقهـــر لمكـــان الإقامة، فإن الله خلق الأرض فسيحة، يجـد كـل صـاحب عـزم فيهـا مجـالا واسـعا. والرّغام أصل معناه التراب. وفوق تراب هـذه الأرض، يجـد كـل إنسـان مكانـا يـأوي إليه ويقيم فيه ومنه يخرج قوته ويواصـل حياتـه عزيـزا. ثـم عقـب الجانـب المـادي بالجانب الرّوحي الذي يبرز فيه كمال الفضل الإلهـي، فـذكر أن مـن عقـد العـزم علـى الالتحاق بالمدينة وخـرج مهـاجرا إلـى الموضـع الـذي يرضـاه الله ويجـاور فيـه رسوله صلى الله عليه وسلم، ثم يموت في الطريق وينفـذ فيـه القضـاء المبـرم، قبـل أن يبلغ غايته، فإن الله بكريم فضله قد ضمن له أجـر مـن هـاجر فعـلا. ويلحقـه بكوكبـة الصحابة الذين فازوا بذلكم المقام. ويتأكد ذلك بأن الله غفور رحيم.

وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٠٢﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

ضربتم في الأرض: سافرتم.

أمتعتكم: جمع متاع وهو كل ما ينتفع به الإنسان من آلة الحرب وغيرها.

يميلون: يكرون ويشدون عليكم.

ميلة واحدة: مستأصلة لا تحتاج إلى ثانية.

يفتنكم: يمتحنكم بالحمل عليكم.

أقمت لهم: أديتها على الوجه الكامل بأركانهـا وطريقـة أدائهـا لا كيفمـا اتفـق كحـال المسايفة الذي تؤدى فيه الصلاة على الوجه الممكن.

كتابا موقوتا: فرضا محددا بأوقات.

لا تهنوا: لا تضعفوا.

ابتغاء القوم : طلبهم.

بيان المعنى الإجمالي:

أمران أساسيان أكدتهما الآيات. الأول: أن المكلف مطالـب بإقامـة الصـلاة فـي جميـع الظروف والأحوال التي هو مخاطب فيها بـأداء الصـلاة، وأن الله يسـر عليـه إذا كـان يجد مشقة. والثاني: أن على المـؤمن أن لا يتراخـى وأن يكـونَ حازمـا فـي الاسـتعداد للجهاد. فإذا كان مسافرا مجاهـدا فـلا إثـم عليـه إذا صـلى الظهـر ركعتـين وكـذلك العصر والعشاء. وأنه إذا كان المؤمنـون فـي غـزوة يـؤمهم فيهـا النبـي ﷺ ، وكـل واحد من المسلمين يرغب في الائتمام برسول الله ﷺ ، فإنـه يقسـم الجـيش إلـى فـرقين: تصلي الفرقة الأولى معه ركعة وتكمـل الصـلاة وحـدها وتسـلم؛ وفـي هـذه الحالـة يكون باقي الجيش يحرس المصـلين، فـإذا أتمـت قـدمت الفرقـة الثانيـة وصـلت مـع رسول الله ﷺ ركعة يسـلم إثرهـا رسـول الله ﷺ، وتكمـل هـذه الفرقـة الثانيـة ركعـة وتسلم. وعلى كل فرقة أن تأخذ سـلاحها عنـد أداء الصـلاة، ولا تتهـاون فـإن الأعـداء يترصدون منكم غفلة لينقضوا عليكم بضربة سـاحقة. ومـن تعـذر عليـه حمـل سـلاحه في الصلاة لمرض وَهَّـنَ قـواه أو لِوَحَـل مطـر فـإن الله لا يكلـف الإنسـان إلا مـا يطيقه، لكن المهم أن تكونـوا يقظـين. ويطمـئن الله جـيش الإسـلام بـأن الله سيسـعفهم بتأييده ويوهن أمر الكافرين فيسلط عليهم من العـذاب مـا يهيـنهم بـه. ولا تغفلـوا عـن ذكر الله بعد إتمام الصلاة على أي حالة كنتم قائمين أو قاعدين أو على جنوبكم.

إذا حصلت لكم الطمأنينة بانتهاء المعركـة أو برجـوعكم إلـى ديـاركم فـأتموا الصـلاة. ولا تغفلوا عن أدائها في أوقاتهـا. إن الصـلاة ركـن وفـرض مؤكـد مضـبوط بأوقـات محددة. ولا تضعفوا في طلـب الكفـار فـإنكم وإن اسـتويتم معهـم فيمـا مـن شـأنه أن يصيب المقاتل، فإنكم تتميزون عليهم بوثوقكم بتأييـد الله. فـأنتم بـذلك علـى رجـاء مـن النصر أو الشهادة. والله عليم بما تعملون ومـا يجـري فـي ضـمائركم فسـوف يجـزيكم ما وعدكم، وهو الحكيم الذي أرشدكم إلى ما يهديكم في الحاضر والمصير.

بيان المعنى العام:

101- وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح...عدوا مبينا.

تتابعت هذه الآيات. وهي في مجموعها تؤكد وتنبه المؤمنين على قيمة الصلاة والحرص على أدائها في أوقاتها، باعتبار أنها تحيي الرّوح وتطهر النفس مما يمكن أن يكون قد علق بها من أوضار المادة، وتجدد صلة الإنسان بربه، هذه الصلة التي تهدي إلى الطريق المستقيم وتساعد على التقوى وفعل الخير. وبصفة عامة تعمق الإيمان وتنهى عن الفحشاء والمنكر.

والصلاة لا تسقط عن المكلف إلا عند فقد الوعي. فسواء أكان صحيحا أو مريضا، مقيما أو مسافرا، في حالة جهاد أوفي حالة سلم، هو في جميع الظروف مطالب بأداء الصلاة في وقتها. وتأخيرها عن وقتها المحدد لغير ضرورة من الضرورات المعتبرة شرعا، كبيرة من الكبائر تحتم على المتخلف التوبة وقضاء ما فاته والالتجاء إلى الله أن يغفر له ذنبه. كيف لا وهو قد تعمد قطع صلته بالله.

والله الذي فرض الصلاة متكررة في اليوم وفي كل يوم، راعى بفضله ما يمكن أن يتعرض له المصلي من مشقة في بعض الظروف فيسر عليه أداءها في وقتها مع التخفيف. ومن ذلك المسافر والمجاهد في سبيل الله وقت الحر. فذكر سبحانه في هذه الآية حكم صلاة المسافر المجاهد. وسأقتصر على شرح معنى الآيات عل ما يقتضيه ظاهرها، وأحيل القارئ الكريم الذي يرغب في الاطلاع على تفاصيل أحكام صلاة الخوف على ما فصله الفقهاء.

أعلم الله المؤمنين أولا: أنهم إذا خرجوا للجهاد في سبيل الله، أنه خفف عنهم، وأنه لا إثم عليهم إذا قصروا صلاتهم الرّباعية إلى ركعتين، الظهر والعصر والعشاء. وعلل ذلك باحتمال أن يَنْقَضَّ الذين كفروا عليكم عند أدائكم الصلوات كاملة كحال الأمن، وقد تبين لكم أن الكافرين أعداء لكم عداوة ظاهرة.

102-وإذا كنت فيهم فأقمت لهم...أعد للكافرين عذابا مهينا.

ثم تعرضت الآية إلى حالة ثانية فيها تخفيف على المجاهدين إذا كان الرّسول معهم وهم حريصون على الائتمام به، أن يقسم الجيش الذي معه إلى قسمين. قسم يصلي مع النبي ﷺ ركعة، ويكون القسم الثاني في مواجهة العدو، ويتم هذا القسم الأول الرّكعة الثانية وحده، وبعد تسليمهم، يأتي القسم الآخر الذي كان في مواجهة العدو فيصلي مع النبي ﷺ ركعة، ويسلم النبي ﷺ ، ويتمون صلاتهم بعد سلامه. وبذلك يكون الجيش كله قد فاز بالصلاة معه. ورأى معظم الفقهاء أن أمراء الجيش لهم هذه المزية بالصلاة بالجيش على فرقتين تصلي كل فرقة مع قائد الجيش ركعة.

ورأى بعضهم أن هذا الحكم خاص برسول الله ﷺ، فــإذا لــم يكــن حاضـــرا مـــع الجـــيش صلى كل فريق بإمامهم ركعتين.

وعلى المصلين مع الرّسول أولا أو ثانيــا أن يكونـــوا حـــذرين، فـــلا يتركـــون أســـلحتهم وأمتعتهم بل يحملونها معهم في الصـــلاة. وهـــو إيقـــاظ للمـــؤمنين أن لا يعولـــوا علـــى إيمانهم فقط فيما أجرى الله عليه سننه في الحـــرب. فـــإنهم وإن كـــانوا فـــي حالـــة جهـــاد وصلاة، وذلك أفضل ما يكون عليــه المـــؤمن، إلا أنـــه لا يســـمح لـــه بـــالتراخي وتـــرك اليقظة والاستعداد على أتم وجه وأكمله. فـــإن الكـــافرين يترصـــدون لكـــم ليجـــدوا مـــنكم غفلة، فيكُرون عليكم بكل ما لديهم من القوة والعنف ليستأصلوكم.

وإذ أمرهم بالتحوط الكامل وأن لا يتخلوا عـــن أســـلحتهم، وأن يكونـــوا متصـــفين باليقظـــة والحزم في مواجهة العدو ولو كانوا في الصـــلاة، يســـر علـــيهم إذا كـــان الوضـــع الـــذي هم عليه يجدون معه عسرا كبيرا ومشـــقة فـــي حمـــل أســـلحتهم، كحـــال المطـــر أوحـــال بعض المجاهدين المنهكـــين بـــالمرض، رخـــص لهـــم فـــي هـــذه الحالـــة أن لا يحملـــوا أسلحتهم. والتأكيد المتواصل أن يكونوا يقظـــين، فيأخـــذون لكـــل احتمـــال حســـابه الـــذي يسد جميع الثغرات، ويؤمنهم حسبما يقتضيه فـــن القتـــال والتحصـــن مـــن كـــل مباغـــت. ويثقون من ناحية أخرى في تأييد الله لهم. إن الله قـــد هيـــأ للكـــافرين مصـــيرا لا محيـــد عنه، أن الله سيكسر شوكتهم ويعذبهم بالهزيمـــة والقتـــل والأســـر ممـــا يـــذلهم ويمحـــق عزتهم ويهينهم على أيديكم.

103-فإذا قضيتم الصلاة...موقوتا.

ثـــم يـــذكر الله المـــؤمنين أن يكـــون لســـانهم رطبـــا بـــذكر الله، المقـــوي لقلـــوبهم علـــى الصمود، يذكرونه كيفما كانوا وهـــم يقـــاتلون العـــدو، لا يلهـــيهم القتـــال عـــن ذكـــر الله، فالذكر يربط على القلوب ويثبت الأقدام.

ثم بين للمؤمنين أنه إذا ذهبت موجبـــات التخفيـــف مـــن الخـــوف أو مـــن الســـفر فـــأدوا الصلاة على الوجه الأتم الذي سنه لكـــم رســـول الله ﷺ . وذكّـــر هنـــا بحكـــم هـــو مـــن الثوابت كما وضحناه في أول بيـــان معنـــى الآيـــة: إن الصـــلاة فرضـــت فرضـــا حتمـــا وركنا من أركان الإسلام في أوقاتها المحددة.

104- ولا تهنوا في ابتغاء القوم...حكيما.

ثم شجعهم وأمـــرهم أن تكـــون عـــزيمتهم ماضـــية فـــي طلـــب الكـــافرين لا يملـــون ولا يضعفون حتى يكسروا شوكتهم وتكون كلمـــة الله هـــي العليـــا. وحـــركهم علـــى المضـــي في نصرة الدين، بالمقارنـــة بيـــنهم وبـــين الكـــافرين. فمخـــاطر القتـــال واحـــدة بيـــنكم،

ولكنكم تتميزون عليهم بأنكم آملون فــي جهــادكم، ترجــون إحــدى الحســنيين النصــر أو الشهادة. فالمجاهد المؤمن يتجاوز حدود المعركة إلى مــا وراءهــا، يتصــور أنــه نــاجح لا محالة فإن هو قهر عدوه فذلك هدفه القريب من الجهــاد، وإن حصــل لــه مكــروه فــي حياته أو في بدنه، فهو الأجر الكبير الذي يرقبه مــن ربــه. والله علــيم بمــا يجــري فــي نفوسكم حكيم دلكم على سبل النصر وفصلها لكم.

إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَا أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴿١٠٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿١٠٩﴾ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾

بيان معنى الألفاظ:

خصيما: الخصيم المنتصر المدافع.

يختانون : يخونون.

يستخفون: يحاولون الاختفاء والتستر.

يبيتون: يدبرون أمورهم بالليل.

يعمل سوءا: عمل السوء مع الناس.

يظلم نفسه: يرتكب المعاصي بغير إذاية لغيره.

احتمل بهتانا: علق به الكذب الفاحش.

بيان المعنى الإجمالي:

أحيت الآية حقيقة، وإن كانت مستقرة في نفس رسول الله ﷺ ، إلا أن القرآن ذكر بها ليرتب عليها ما يتبع ذلك. هذه الحقيقة أن الله أنزل القرآن مندمجا بالحق يثبته ويهدي إليه. ليحكم بين الناس حكما مستندا إلى تلكم المبادئ التي رفع البشرية وعلى رأسها رسوله لإدراكها إدراكا بينا واضحا من القرآن، ويُمَكِّنُ اعتمادها من تَبَيُّنِ الحقيقة وإشاعة العدل. ويتبع ذلك أنه بعد تبين الحقيقة فالموقف الأول أن لا يكون مدافعا عن الخائنين الذين يدبرون الطريقة الفاسدة التي بها يخونون أنفسهم بدفعها إلى الخطيئة والابتعاد عن الصدق وهؤلاء الذين يختانون أنفسهم لا يحبهم الله، لأن الله يمقت كل خوان منغمس في الإثم والمعصية . ويؤكد القرآن أن الله هو الذي تولى بعنايته إنزال القرآن منطويا على الحق ليكون لك دليلا بما أراك الله في الحكم بين الناس. ولا تؤيد الخائنين بخصام من يخاصمهم. وواظب على الاستغفار فالله غفور رحيم. ولا تتول الدفاع عن الذين يخونون أنفسهم باقتحام الموبقات، فإن الله يمقت الخائنين. عجب من غبائهم هم يخفون مفاسدهم عن أعين الناس، ويمضون الليالي في تدبير الشر من الأقوال الكاذبة والله مطلع عليهم لا يغيب عن علمه شيء. يحذر المؤمنين من الاغترار بمظاهرهم والدفاع عنهم، فإنهم لا يجدون من يدافع عنهم يوم القيامة أو يكون وكيلا عنهم في تقديم براءتهم. إن من يقوم بمعصية تضر غيره أو تضر نفسه ثم يستيقظ ويعود إلى ربه طالبا عفوه فَلْيَبْشِرْ بأن الله غفور رحيم. ومن ناحية أخرى فإن من يرتكب معصية ثم يحاول أن يلقيها على بريء فإنه يضم إلى معصيته الأولى حملا ثقيلا، وكذبا قبيحا واضحا. ويطمئن رسوله بأنه في رعايته وفضله لا تضره محاولات الماكرين، فما تعلقت به همهم من إضلالك يعود الضلال عليهم، ولا يبلغون الإضرار بك، لقد اكتسب قلبك مناعة بما عمر به من الكتاب المنزل عليك والحكمة. وفوق ذلك فقد علمتك ما لم تكن تعلمه من قبل، وفضلي عليك عظيم.

بيان المعنى العام:

105←106-إنا أنزلنا إليك الكتاب...كان غفورا رحيما.

توجهت الآية بالخطاب أولا للنبي ﷺ يؤكد له حقيقة معلومة عنده وعند المؤمنين جميعا، ليرتب عليها ما سيرد بعد ذلك. هذه الحقيقة: هي أن الله أنزل على رسوله القرآن، كله حق ويمكن كل ذي حق من حقه، فهو والحق سواء. ورتب على هذه الحقيقة أنه باعتباره رئيس الأمة والقاضي في جميع الخصومات التي تعرض عليه، فإن تأمله في كتاب الله يهديه إلى الحق ليحكم به بين المتخاصمين بناء على هذا

التعليم الإلهي في تناول القضايا المعروضة عليه حسبما قرره القرآن من المبادئ والأحكام. وما أفاض على نبيه من التوفيق، وما تميز به من ثاقب النظر، يجعل اجتهاده في تطبيق المبادئ الكلية على القضايا الجزئية يسير به إلى إعطاء كل ذي حق حقه. وحذرت الآية من تأييد من يخاصم المحقين. وأمرت بالاستغفار ليكون العود إلى الله واللجأ إليه، وطلب المغفرة ملازما للمؤمنين. فالآية في مجموعها أرشدت الحكام إلى التأمل في الكليات التي جاءت في القرآن لتكون هي السند الذي يعود إليه الحاكم لينظر فيه نظرا متعمقا ليفتح له ذلك وجه الحق فيما يحكم فيه من القضايا بين المتخاصمين. ومن يخاصم الخائنين فَأيِّدْهُ، ولاتكن له خصما .

روي في الحادثة التي صحبت نزول الآية أن صحابيا اشترى لطعامه دقيقا، وخزنه مع سلاحه، فسرق في الليل. وقد قامت له قرائن اتهم بها المظنون فيه، ورفع الأمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وعمد المتهم إلى إلقاء المسروق في بيت يهودي، ثم حاول هذا المتهم السارق أن يتأيد ببعض الصحابة ليشهدوا له عند رسول الله بالصلاح والتقوى، ووجه الرّسول ﷺ التهمة لمن اتهمه السارق الحقيقي، لأن كل الملابسات المصاحبة تنفي عنه التهمة. شهادة من شهد له بالفضل، كون المسروق ليس في حوزته، أن الذي وجد عنده المسروق يهودي ومعروف أن اليهود لا يتورعون عن الإضرار بأي مسلم. فكاد يفلت من التهمة، فأنزل الله على رسوله هذه الآية التي برأت يهوديا وكشفت فساد وخيانة أنصاري كان يظن به الخير.

وإذا كان ظاهر الخطاب في بعض أجزاء الآية، قد توجه إلى النبيﷺ فإن الأحكام إرشاد إلى الأمة في جميع الأعصار.

107-ولا تجادل عن الذين...من كان خوانا أثيما.

إنه ما يزال الخبثاء الخائنون يرتكبون الآثام ويعتدون على الفضيلة ، ويتهمون غيرهم في مكر سيء مقيت، ومن خبثهم أنهم يتظاهرون بالتقوى والصلاح ويغرون بذلك ذوي النوايا الطيبة ليتولوا الدفاع عنهم. فأيقظت هذه الآية المؤمنين جميعا أن لا يكونوا مدافعين عن الذين بلغت بهم السفالة أنهم يؤذون أنفسهم لأنهم مردوا على الشر فهانت عليهم أنفسهم.

108-يستخفون من الناس... بما يعملون محيطا.

فضحهم بلفت الأنظار إلى التعجب من غبائهم: إنهم يدبرون أمرهم في خفية من الناس، وذهلوا عن كون الله يرقبهم وهو بصير بكل حركة في الفكر أو العمل تصدر منهم، فلم ينكفوا عن الشر مع علمهم بذلك.

109- ها أنتم هؤلاء جادلتم... وكيلا.

وأعاد القرآن التحذير مــن الاغتــرار بــالظواهر، والتــدخل فــي القضــايا بــدون بينــة يقينية قصد تبرئة الخائنين في الدنيا. تنبهــوا إنهــم لا يجــدون مــن يتقــدم للــدفاع عــنهم يوم القيامة أو يكون وكيلا في الآخرة يدفع عنهم .

110-ومن يعمل سوءا...غفورا رحيما.

وتتواصل الآية تنبه المؤمنين في مباشرة الحياة فتفــتح لهــم أبــواب الرّجــاء، ولا تــدخلهم في كابوس اليأس، فقال تعالى: إنه من يعمل عمــلا ســيئا مــع المــؤمنين ممــا نهــى الله عنه، أو يعصي الله في دائرة علاقته مع نفســه، ثــم يســتيقظ فيعــود إلــى ربــه، نادمــا ضارعا طالبا من ربه المغفــرة لمــا صــدر عنــه، فــأبواب الفضــل الإلهــي مشــرعة مفتحة، ليهنأ بقبول تضرعه، إنه واجــد ربــه متصــفا دائمــا بــالمغفرة والرّحمــة. إن الله يحب التوابين، هؤلاء الذين إذا غــم الشــيطان علــى بصــائرهم تيقظــوا وأســرعوا إلــى العودة إلى استحضار عبوديتهم وقربهم من ربهم.

111-ومن يكسب خطيئة أو إثما...عليما حكيما.

يتتابع في الآيات، تسجيل الحقائق التي على المــؤمنين أن تكــون حاضــرة فــي أذهــانهم: أن من يقصد إلى ارتكاب محرم من المحرمات فــإن إثمــه واقــع علــى نفســه لا يتحمــل غيره شيئا من وزره، والله عليم بكل ما يقع في الوجــود، حكــيم ومــن حكمتــه أنــه لا يحمل أحدا جريرة أفعال غيره.

112-ومن يكسب خطيئة أو إثما...عليما حكيما.

هذا المفهوم من الآية يقدم إلى التحذير مما يقع في الوجــود مــن تضــليل فمــن يعــص الله معصية كبيرة أو صغيرة ثم يتهم بريئا فرارا مــن تحمــل تبعــة أعمالــه فقــد أثقــل نفسه بمضاعفة مسؤوليته بانضمام كذبه الفــاحش الممقــوت إلــى مــا عملــه مــن ســوء ليجزى عنهما معا.

113-ولولا فضل الله...فضل الله عليك عظيما.

ثم تعرض الآية للتأييد الذي خص بــه رب العــالمين نبيــه فــي ذلــك الجــو المشــحون بالعداء للدعوة وتدبير الدسائس، وإعــداد أنــواع المكــر فــي الخفــاء، فــيعلن القــرآن أن فضل الله على نبيه بالتأييد، وتخصيصــه بتواصــل الرّحمــة لــه فــي جميــع المواقــف، ذلكم الفضل وتلكم الرّحمة تفسد على المضــللين مخططــاتهم وتكشــف لرســوله مكــرهم، وتعصمه من أذاهم. لقد هموا لغبائهم أن يضــلوك، وهــم الــذين ضــلوا باعتقــادهم أنهــم يستطيعون أن يؤثروا فيك بما يحيد بــك عــن الحــق. وهــم أعجــز مــن أن يضــروك

ولو بأقل الضرر. إن الله قد ثبتك وفتح بصــيرتك بمــا أنزلــه عليــك مــن الــوحي فــي القرآن، وما طبع به قلبك من الحكمة التي لا تحيــد بهــا عــن الصــواب، إن مــا أنزلــه عليك ما كنت لتصل إلى علمــه لــولا أن الله هــو الــذي تــولاك فعلمــك، وتتــوج تلكــم المنن بخطاب نبيه خطاب التقريب والتشــريف بــأن فضــل الله عليــك يــا محمــد كــان فضلا عظيما لا يحد.

على المؤمنين أن يكونوا واعين بكتابهم ويهتــدوا بهديــه ويتــأملوا فــي مضــامينه، فهــو الذي يسمو بهم في مقامات الفَهْم والحكمة، وهو أعظم فضل أوتوه في الحياة.

﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (114) وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (115) ﴾

بيان معاني الألفاظ:

النجوى: حديث السر الذي لا يسمعه إلا المخاطب.

يشاقق: يخالف عنادا وقصدا للخلاف.

نوله ما تولى: نعرض عنه.

بيان المعنى الإجمالي:

إذا تحدث أحد إلى غيره في سر لا يسمعه أحد، فإن ذلك ممــا يثيــر الرّيبــة فــي نفــوس الآخرين، وخاصة عندما كان المسلمون في المدينة علــى حــذر مــن مباغتــة المشــركين ومكرهم. فنهى الله المؤمنين عن التناجي المثيــر للريــب. واســتثنى مــن ذلــك أن يســار المؤمن أخاه ليستعين برأيه في إيصــال الخيــر كمســاعدة فــي إبــلاغ صــدقة أو تنفيــذ أمر معروف ينفع الجماعة، أو إصلاح بين متخاصــمين. إن مــن يفعــل هــذا لــه أجــر عظيم عند الله. ومن يخالف المنهــاج الــذي شــرعه رســول الله ﷺ، ويــولي ظهــره للطريق الذي يسلكه المؤمنون، يهمله الله ولا يكتــرث بــه، ويحقــق عليــه وعيــده بــأن يدخله جهنم يصلى حرها ولا أسوأ مصيرا منها.

بيان المعنى العام:

114- لا خير في كثير... أجرا عظيما.

تعطينا الآية صورة لوضع المسلمين فــي المدينــة يــوم كــانوا يخشــون المكائــد التــي يعدها المشركون للقضاء عليهم. فكانوا حذرين مــن ذلــك يقظــين، وقــد كــان المنــافقون

يعملون على زرع الرّيبة والخـوف فـي قلـوب المـؤمنين. ومـن مكـرهم أنـه كـان أحدهم يدعو منافقا مثله ويساره فـي حـديث لا يسـمعه أحـد ليوهمـوا مـن يـراهم أن هناك أمرا خطيرا بلغهم، فينبني على ذلك تأويلات تحقـق لهـم زعزعـة الثقـة . ولـذلك تكرر النهي عن انتشار النجـوى. وبينـت الآيـة أن النجـوى أغلبهـا شـر. واسـتثنت الآية بعض ما يتناجى به أهل الخير، وحددته في ثلاثة أنواع:

1) المناجاة في إسعاف المحاويج، فيتناجى اثنان من صـالحي الأمـة لإبـلاغ نـولهم بمـا يتلافى خصاصة بعض الفقراء دون أن يسمع أحد بذلك سعيا لإخفاء الصدقات.

2) أن يتناجى اثنان لإنجاز أمر من المعروف الذي تدعو إليه الشريعة.

3) أن يتناجى اثنان لترتيب طريقة لإصلاح مـا فسـد فـي علاقـة بعـض المـؤمنين.

وإخفاء هذه الثلاثة أفضل من إعلانهـا. فمـن ينـاجي لينجـز ذلـك طلبـا لمرضـاة الله، يبشره القرآن بأن الله سيؤتيه أجرا عظيما يثيب به حسن قصده وسعيه إلى الخير.

115- ومن يشاقق الرّسول...وساءت مصيرا.

توعد القرآن من يقصد إلى مخالفة الرّسول عنادا واسـتكبارا عـن اتبـاع الحـق بعـد أن قامت عليه الحجة وتَبَيَّنَتْ الحقيقة ومن ينصـرف عـن الطريـق الـذي يتبعـه المؤمنـون في عقيدتهم وفي منهجهم في الحياة، فإن الله يتركـه وشـأنه وهـو مهـين لا يـؤثر فـي الدعوة الإسلامية وسيحقق وعيده عليه بـأن يصـليه عـذاب جهـنم. ولا أسـوأ مصـيرا من جهنم.

إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ
فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا
شَيۡطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفۡرُوضًا ﴿١١٨﴾
وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ
خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾
يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا
يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٍ
تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا
﴿١٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

مريدا: المبالغ في العصيان المتجرد للشر والغواية.

لعنه: أبعده مع سخط وغضب.

مفروضا: مقدرا من الله.

منّاه: وعده ما لا يتحقق.

يُبَتِّكُن: يُقَطِّعُنّ.

محيص: ملجأ.

بيان المعنى الإجمالي:

يؤكد القرآن ما سبق في الآية 48 من هذه السورة: أن الله هو الواسع الرّحمة الغفور، يمن إذا شاء على عباده بالمغفرة لذنوبهم، ولكن المشركين لا مطمع لهم في غفرانه. لأن المشرك قد انحرف عن الهداية انحرافا بعيدا عن الحق. هؤلاء المشركون بغبائهم قد اتخذوا آلهة إناثا يدعونها لتؤيدهم وفي عرفهم الإناث أحط من الذكور، وهذه السخافة تبعت اعتمادهم على الشيطان الذي ناصب العداء للجنس البشري من اليوم الذي أطرده الله. عرف الشيطان مداخله في نفوس البشر من الشهوة وبسط الأماني وحب التسلط، فسَدَّ على أتباعه منافذ النور فاتبعوه. قطعوا آذان الأنعام وزعموا أنها تحت رعاية آلهتهم، وعمدوا إلى الدين فحرفوه. ولا عجب فيما انحدروا إليه، فإن من يتخذ الشيطان سندا من دون الله فقد خسر دنياه وآخرته ، وهو الخسران الواضح. وكل ما يمنيهم الشيطان به هو تغرير بهم. وإن مآل أتباعه الخلود في نار جهنم ولا يجدون طريقا ينفلتون به من عذابها. وفي المقابل فإن الذين آمنوا وصحبوا إيمانهم بالعمل الصالح سيدخلهم ربهم جنات فيها من النعيم ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين لا يخشون الخروج منها. اطمئنوا فإن هذا وعد الله، وهو الحق لأن كلامه هو أصدق الكلام وأتمه لا يلحقه نقص ولا نقض.

بيان المعنى العام:

116-إن الله لا يغفر أن يشرك به... ضل ضلالا بعيدا.

تأكيد لما سبق تقريره في هذه السورة الآية (48) من أشرك بالله لا مطمع له في المغفرة ولا في العفو، لأنه قد ابتعد عن الحق بعدا شاسعا وسلك طريقا معاكسا له، فانتفت كل صلة له به.

117-إن يدعون من دونه...مريدا.

ثم أخذ القرآن يفصل ضلالات المشركين، إنهم لما ولوا ظهورهم للإيمان توجهوا إلى أصنام ومن قوة ضلالهم أنهم عبدوا إناثا، وحسب ما استقر عليه عرفهم

الجاهلي: إن الأنثى أحط قيمة من الذكر. عبدت قريش اللات ، وعبد مشركو الأوس والخزرج مناة. إن انحرافهم وعماهم عن الهدى تابع لتعلقهم بالشيطان الذي أبعده الله وطرده، وهو الذي حسن لهم عبادة الأصنام. ويطلق المَرِيد على الخارج عن السلطة.

118-119: لعنه الله وقال...خسر خسرانا مبينا.

فضح القرآن موقف الشيطان الذي اتبعوه فذكّر بما بدر من وقاحته وجراءته. إنه لما طرده الله، وكان قد علم من التركيب البشري مداخل إغوائهم وتضليلهم أعلن أنه سيتخذ من تلكم المداخل النصيب الذي قدره الله وينفذ منه للعقول فيفسدها، وللأرواح فيغشيها ويقطعها عن باريها، وللشهوات فيحركها، وللأنانية فيطغيها، وبذلك يصبح متحكما في الذين يقبلون غوايته، يعدهم بالبقاء، ويفتح لهم أبواب الأماني فيتعلقون بالخيالات، وما تلكم الأماني إلا للتغرير بهم. انطلقت الشهوات بدون رادع من الرّوح أو العقل، وتمردت الأنانية فقام التسلط وحب الغلبة بالباطل، وأسلسوا قيادهم للشيطان فنفذوا كل ما يأمرهم به. إن هَمَّ الشيطان الأول أن يخرجهم من واضح التوحيد إلى الشرك، فَحَسَّنَ لهم أن يقطعوا آذان الأنعام تخيلا منهم أنها أصبحت تحت رعاية الآلهة فلا تركب ولا تحلب، وهو تعبير عن إلصاق المقدس بما ليس له أدنى حظ من التقديس في منطق الواقع والعقل. ومنه اتخاذ تماثيل يتمسح بها ويركع إليها أو قبورا يحج إليها ويذبح عندها القرابين، ثم ترقى أنه بعد أن يستولي على عقولهم بمثل تلك الأمور، يأمرهم أن يغيروا خلق الله، وخلق الله هو دين الإسلام دين الفطرة كما عرفه القرآن في قوله تعالى: **(فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم)** وما أكثر الضلالات التي يزين بها الشيطان لمن يقع تحت سلطانه تغيير الدين بِوَهْمِ التعمق في الدين. وخطر هذا الخلط شديد إذ فاعل ذلك يظن نفسه على هدى فلا يتيقظ للتوبة.

حمل بعض المفسرين تغيير خلق الله على نتف المرأة شعر وجهها، وبعض ما تتخذه النساء للتجميل، الذي يبقى أثره كالوشم، وهذا بعيد. إذ ارتباط الأمر بالمصالح وارتباط النهي بالمفاسد يفيد قطعا أن كل عمل لا يصحبه ضرر خاص أو عام لا يدخل تحت طائلة التحريم. فأي ضرر إذا أزالت المرأة شعر وجهها مع أنه يندب لها نتف إبطها وحلق ما حول السوأتين من الشعر. ومما يبعد تحميل الآية هذه الأمور أن ما جاء بعد ذلك، وهو الموجه لقصد الشيطان وتنفير الناس من كيده، أن من يتخذ الشيطان وليا يستند إليه ويعتمده من دون الله فقد خسرانا بينا. فأي امرأة تزيل شعر وجهها تكون قد اتخذت الشيطان وليا واعتمدته وتركت توليها

لربها ؟ إن هذا بعيد جدا في نظري وفيه خلط وبعد كبير عن الأدلة اليقينية المفرقة بين مباني التحليل والتحريم.

120-122: يعدهم ويمنيهم...ومن أصدق من الله قيلا.

إن من يتبع إغواء الشيطان وتضليله عاقبته جهنم ولا يجد طريقا للانفلات منها. وفي المقابل فإن الشق الآخر الذي أقفل منافذ الشيطان فسهل عليه عمل الصالحات وقام بها، فإن الله سيدخله جنات الكرامة بما تشتمل عليه من مباهج للنفس وطمأنينة على دوام نعيمها، وتأكد هذا الوعد بأنه وعد صادر من الله. وقول الله لا يلحقه نقص فلا أحسن ولا أكمل منه.

لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (١٢٣) وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا (١٢٤) وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا (١٢٦)

بيان معاني الألفاظ:

أمانيكم: جمع أمنية.

نقيرا: النكتة في ظهر النواة، وذلك مثل للتفاهة.

بيان المعنى الإجمالي:

بينت الآية أن الفوز برضوان الله لا يتحقق بالأماني ولكن العدل الإلهي يحكم مصير البشر. فمن يرتكب ما نهاه الله عنه يجد جزاءه، ولا يفلت من عقاب الله فلا ينفعه قريب ولا حليف. ومن يجمع بين الإيمان والعمل الصالح من ذكور بني آدم وإناثهم فَلْيَبْشِرْ بأن جزاءه الجنة، ولا يضيع شيء من صالح أعماله ولو كان قليلا.

إن من يتبع هذا الدين يبلغ به الغاية في الحسن والتوفيق في الحياة، لأنه أسلم عقله وحواسه وقواه جميعها لله، وجعل غايته في كل ما يصدر عنه أن يكون على درجة عالية من الإخلاص والصدق والكمال الممكن. كيف لا ومتبع هذا الدين ملتزم بالتوحيد الذي كان عليه سيدنا إبراهيم عليه السلام. هذا النبي الذي ارتقى في الكمال الإنساني فوثق صلته بالله فكان في جميع أوقاته مستحضرا أنه مع ربه. فقبله الله وقربه منه قربا يرعاه به في كل لحظة، كما يفعل الخليل بخليله. وهذا القرب يفهم

على أن الله هو مالك ما في السماوات ومــا فــي الأرض، وسـيدنا إبـراهيم واحـد مـن هذا الكون الذي وسعه علم الله سبحانه.

بيان المعنى العام:

123- ليس بأمانيكم ولا أماني أهل الكتاب... ولا نصيرا.

تمثل هذه الآية العدل الإلهي الذي أجرى عليه سـبحانه جـزاء الأعمـال. فنفـت الآيـة وأثبتت: نفت الأوهام التي تسبق لها بعض الظنون تبعـا لمـا يسـتقر فـي النفـوس مـن أماني، هذا الظن المنفي الذي ترتب عليه، أن كل فريـق يظـن أنـه هـو النـاجي وأنـه لا يجزى بسوء ما صنع. فـاليهود يزعمـون أنهـم أبنـاء الله وأحبـاؤه لا يعـذبهم تبعـا لذلك، والنصارى يؤمنون بأنهم باعتقـادهم أن الإيمـان بتعـذيب المسـيح يكفـر عـنهم كل سيئاتهم. وقال بعض المحاورين لهم مـن المسـلمين: إن أمـة محمـد وحـدها هـي الناجية. فجمع سبحانه في هذه الآية كل هذه التصـورات المبنيـة علـى التمنيـات، والتـي تنسحب أيضا على ما يمكن أن يحدث فـي المسـتقبل كمـن يـذهب بـه خيالـه إلـى أن شرف نسبه أو صلاح أصوله تفتح لـه أبـواب القبـول عنـد الله، جمعهـا كلهـا ونفـى أحقيتها وأكد بطلانها، ونفى نفيا قاطعـا حصـول الجـزاء الصـالح بالأمـاني؛ وأثبـت تنصيصا أمرين:

الأمر الأول: أن من عصى الله يلقى جزاءه العـادل عمـا ارتكبـه، ولا يعفيـه مـن ذلـك قريب ولي، ولا حليف ينصره.

124- ومن يعمل من الصالحات... ولا يظلمون نقيرا.

الأمر الثاني: أن الفوز بدخول الجنة مـرتبط بـأمرين لا بـد مـن اجتماعهمـا: الإيمـان، والعمل الصالح. يستوي في هذا الذكر والأنثـى، نفيـا لمـا يتوهمـه المشـركون مـن أن الأنثى لا ترقى إلى مساواة الرّجل في مراتب القبـول. وأكـدت الآيـة علـى أن أي عمـل صالح بالمعيار الإسلامي ولو كان قلـيلا يسـعد فاعلـه بجزائـه ولا يهملـه الله. وأثبتـت الآية أن المؤمنين بموسى الذين قرنوا إيمـانهم بتطبيـق شـريعته، وأن المـؤمنين بعيسـى المطبقين لشريعته، والمؤمنين بمحمد العاملين بشـريعته نـاجون مجزيـون. ولمـا نزلـت الآية وجد فيها المسلمون الصالحون من الصـحابة شـدة غيـر مـا اسـتقر فـي نفوسـهم من أن الدين الإسلامي يسر لا شدة فيـه. روي أن بعضـهم سـأل النبـي ﷺ لمـا فهـم عموم الآية وشمولها. قال أبو بكر الصـديق ﷺ: يـا رسـول الله مـا أشـد هـذه الآيـة! فقال: يا أبا بكر! أما تحزن؟ أما تمـرض؟ أمـا تصـيبك الـلأواء ؟ فهـذا بـذلك. علـى معنى أنه يجزى بها في الدنيا حتى يلقى ربـه بـدون ذنـب. والـذي أرجحـه أن الكـافر مقطوع الصلة بالله فلا أمل له في مغفرة أي ذنب من ذنوبـه فهـو يجـزى بهـا جميعـا،

وأما المؤمن فهو على رجاء أن تغفر له ذنوبه. فمعنـــى الآيـــة أن المـــؤمن يلقـــى جـــزاء ذنوبه ما لم يتب، أو يتفضل الله بمغفرتهـــا، وهـــو معنـــى: أن علـــى المـــؤمن أن يكـــون دائما بين الخوف والرّجاء، وذلك مما يزيده صلة بربـــه وتعلقـــا بـــه. وسـند ذلـك الجمـع بين ما تفيده نصوص القرآن والسنة مـــن المغفـــرة والفضـــل، ومـــن العـــدل المطلـــق لله. فالإسلام يسمو بالإنسان إلى مستوى المســـؤولية، المســـؤولية التـــي مؤداهـــا أنـــه يتحمـــل تبعات أعماله السيئة والخيـــرة، وذلـــك شـــرف الإنســـان الـــذي يســـمو بـــه عـــن جميـــع الكائنات الأرضية. وهو بهذا يخرج بـــه مـــن دائـــرة الأوهـــام ويجعلـــه يواجـــه صـــرامة الواقع كما باشره.

125- ومن أحسن دينا ممن...واتخذ الله إبراهيم خليلا.

إنه لا أحسن ولا أكمل من هذا الدين، إن معتنقه منقـــاد بجميـــع حواســـه وبعقلـــه لخالقـــه. وهو ما يفيده: إســـلام، أي انقيـــاد الوجـــه، والوجـــه مجمـــع الحـــواس ومســـتقر الإدراك والفهم. فإسلام الوجه تعبير عن عمق الطاعة تبعا لصـــادق الإيمـــان، وتُثْبِـــتُ الآيـــة بأنـــه محسن، ينفذ ما يقوم بـــه مـــن أعمـــال علـــى أكمـــل الوجـــوه. ولا يكـــون محســـنا إلا إذا صحب عمله حسن القصد ونفذ أعماله على خير الوجـــوه، مطبقـــا الحـــدود التـــي حـــددها الله في عبادته، ومبتعدا عن الغش والتقصير في أعمالـــه الدنيويـــة. إنكـــم أيهـــا المؤمنـــون بمحمد ورثة دين إبـــراهيم فـــي التوحيـــد والإخـــلاص. وإبـــراهيم قـــد ســـما فـــي مقـــام العبودية فقد اتخذه الله خليلا. ومعنى اتخاذه خلـــيلا أنـــه طهـــر قلبـــه وحواســـه ومداركـــه، فبلغ من إخلاصه أنه أصبح متصلا بربه اتصـــالا دائمـــا، حاضـــر القلـــب مـــع الله، أبعـــد عنه ربه الغفلات، فهو في كل عمل يقوم به وفي كـــل حركـــة، وفـــي كـــل خـــاطرة، هـــو مع الله شأن الخليل مع خليلـــه يلازمـــه ولا يبعـــد عنـــه. وقبـــل الله منـــه هـــذا الحضـــور فقربه كما يقرب الخليل خليله. وليس معنى ذلـــك مســـاواة إبـــراهيم لـــرب العـــزة، ولكنـــه الفضل الذي تفضل بـــه الله علـــى إبـــراهيم، ومـــن آثـــاره أن جعـــل فـــي ذريتـــه النبـــوة الموحدة.

126- ولله ما في السماوات...بكل شيء محيطا.

تصريحا بهذا التنزيه، تتبع آية (**اتخـــذ الله إبـــراهيم خلـــيلا**) بقولـــه ســـبحانه: (**ولله مـــا في السماوات...**) فالتذكير بأن الله مالـــك مـــا فـــي الســـماوات ومـــا فـــي الأرض مـــن ملائكة وبشر وأجرام متفاوتة فـــي الكبـــر والصـــغر مـــن الـــذرة إلـــى المجـــرات، يؤكـــد التصور الإسلامي، بـــأن جميـــع الكائنـــات مملوكـــة لـــه خاضـــعة لإرادتـــه؛ بصـــرف

شؤونها تبعا لعلمه المحيط بكل شيء. وما ميـز الله بـه سـيدنا إبـراهيم عليه السلام مـن قـرب لا يعدو أن يكون صورة من صور فضله العظيم.

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِن بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَالصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ ۚ وَإِن تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَن تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ۖ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ ۚ وَإِن تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

يستفتونك: استفتى طلب الفتيا.

ترغبون: هذا الفعل إن عدي ب [في]: رغب في كذا فمعناه طلب تحصيله، وإن عدي ب[عن] رغب عنه فمعناه الإعراض.

كتب لهن: فرض لهن من الصداق.

أن تقوموا: تدبروا ما يصلح أموالهم وأحوالهم.

نشوز: الترفع عن الزوجة ترفعا يؤذيها أو يحرمها المكانة التي هي للزوجة عادة.

إعراض: أن يبتعد عنها. وهو إيذاء دون النشوز.

خير: أي فيه خير.

الشح: ما جبلت عليه النفوس من المشاحة وعدم المسامحة وخاصة في حال الخلاف.

المعلقة: الإعراض الذي يطول معه الهجر لها فلاهي زوجة ولا هي مطلقة.

بيان المعنى الإجمالي:

التحول الكبير الذي أنجزه الإسلام في نطاق الأسرة وإبراز مكانة المرأة فيها، دعا كثيرا من الصحابة أن يتوجهوا إلى النبي ﷺ يسألونه. وكان النبي ﷺ يجيبهم بما ينزل عليه من وحي. وفي هذه الآية كان الجواب قرآنا. والقضية أن بعض القائمين

على شؤون اليتامى يتصرف تصرفا يمكنــه مــن غاياتــه دون نظــر لحقــوق ومصــلحة اليتيمة التي في حجره. فإن كانت جميلة ثرية اخــتلط مالهــا بمالــه يتزوجهــا ولا يعطيهــا الصداق الذي هو نظير صداق أمثالهــا، وإن كانــت دميمــة ثريــة منعهــا مــن الــزواج لتبقى ثروتها تحت يده، وإن كانــت فقيــرة ولهــا حــظ مــن الجمــال لــم ينصــفها فــي صداقها، فأمرت الآية أن يسير وليها فــي القــرارات التــي يتخــذها علــى مــا يقتضــيه العدل، وكذلك في شأن اليتــامى الــذكور يجــري مــا يقــوم بــه علــى قــانون العــدل. وحرضهم على فعل الصالح بأن الله لا يخفى عليه صلاحهم وسيجازيهم.

ومن قضايا الأسرة أن الزوجــة إذا أحســت أن العلاقــة بينهــا وبــين زوجهــا ضــعفت وأنها سائرة إلى ترفعه عنها وحرمانها من حقوقهــا أو أن ينصــرف عنهــا، فــإن لهــا أن تختار بكامل حريتها أن تتنازل عن بعض حقوقهــا إذا رأت أن ذلــك أفضــل لهــا، فلهــا مثلا أن تبذل له مالا على أن يطلقها، أو تتنــازل لــه عــن بعــض حقوقهــا لتبقــى فــي بيت الزوجية ، وشأن النفوس أن حرصها علــى اســتيفاء جميــع حقوقهــا جبلــي فيهــا، ولذا لا لوم عليها إذا اختــارت عــدم التنــازل. ويــدعو الأزواج إلــى حســن المعاشــرة والتزام تقوى الله، والله سيجزيهم عن ذلك.

وقضية أخرى من قضايا الأسرة: إن الزوج إذا كان متزوجــا بــأكثر مــن واحــدة، فإنــه مأمور بالعدل بين زوجاته. ويعلــن القــرآن حقيقــة أن العــدل الكامــل صــعب تحقيقــه، ولكن يحرم عليه أن يميــل فــي علاقتــه الظــاهرة عــن إحــداهن فيتركهــا كالمعلقــة لا يعاملها معاملة الزوجات ولا يطلقها فتكون حرة ممكنة مــن الــزواج بغيــره. ومــن عــاد إلى العدل فإن الله يغفر له ما مضى ويرحمه.

وإذا تعذر أن تسير الحياة الزوجية علــى مقتضــى الضــوابط الإســلامية وتــم الفــراق بينهما فعليهما أن يكونا بعد هذا الانفصــام آملــين فــي المســتقبل، فــإن الله يغنــي كــل واحد منهما عن صاحبه بما ييسره له، لأن ملك الله واسع وهــو حكــيم فــي تصــرفه فــي هذا الكون.

بيان المعنى العام:

127- ويستفتونك في النساء...فإن الله كان به عليما.

كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ذكية الفــؤاد، قويــة الــذاكرة لمــا شــهدته مــن الأحداث التي صاحبت كثيرا من الأحكام. فقيهة فــي الــدين، فكــان الصــحابة يرجعــون إليها في كثير مما يشكل عليهم. روى أصحاب الصــحيح، واللفــظ لمســلم، عــن عــروة بن الزبير رضي الله عنه أنه سأل خالته عــن هــذه الآيــة: (**وإن خفــتم...**) قالــت يــا ابن أختي هي اليتيمة تكون في حجر وليها تشاركه فــي مالــه، فيعجبــه مالهــا وجمالهــا،

فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى سُنّتِهنّ من الصداق. وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن. قال عروة: قالت عائشة: ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن فأنزل الله ﷻ(**يستفتونك في النساء...وترغبون أن تنكحوهن**) قالت: والذي ذكر الله: أنه يتلى عليكم في الكتاب. الآية الأولى التي قال فيها: **وإن خفتم أن لا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء.** قالت عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: وترغبون أن تنكحوهن، رغبة أحدكم عن يتيمته التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال. فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل رغبتهم عنهن إن كن قليلات المال والجمال[1].

كانت الأنثى مظلومة في العصر الجاهلي، فرفع الإسلام عنها الظلم وحول وضعيتها فرفعها إلى وضعها الحقيقي بما لها من قيمة إنسانية. وهذا الوضع الجديد دعا الصحابة أن يعودوا للنبي ﷺ يطلبون منه أحكام النساء في كثير من الأحوال. فمن ذلك ما جاء في هذه الآية. ولما كانت هذه الأحكام تدخل في صميم الأسرة وكانت على غير ما ألفوه، نبه القرآن على أن الذي يتولى إجابتهم هو الله. وكان من عادتهم أن الأنثى إذا كانت يتيمة محجورة، فوليها يتصرف في حظوظها حسب هواه. فإن كانت ثرية جميلة وكان قد خلط مالها بماله ويخشى أن يتزوجها أجنبي فيقاسمه المال، تزوجها هو ولا يعطيها صداق أمثالها. وإن فقدت المال والجمال أعرض عنها. فكانت الآية داعية للعدل في معاملة اليتامى. وكذلك من هم في الولاية من الصغار، أمروا أن يقوموا على شؤونهم العامة بالعدل الذي يرضى الله عنه. واعلموا أن ما تقومون به من رعاية للأيتام وما تفعلونه معهم من خير، فإن الله يعلمه وسيجازيكم، وإياكم أن يكون ظاهر أعمالكم مناقضا لخفي مقاصدكم.

128-وإن امرأة خافت من بعلها...بما تعملون خبيرا.

ومما يعرض للعلاقات الأسرية أن تفقد العلاقة الزوجية الود والسكن، فيميل الزوج عن زوجته، وتضعف رغبته فيها فتبرد العلاقة وتنذر بتحول، إما إلى ترفع الزوج وإيذاء الزوجة بالكلام الخالي من اللطف، أو تعييرها أو بالتقتير عليها في النفقة، وهذا من النشوز، أو بالابتعاد عنها فلا يجالسها ولا يتحدث إليها ويهملها، وذلك تبعا لميل نفسه عنها. هذا الوضع ليس وضعا عاديا ولا كثيرا، عمل القرآن على علاجه

[1] إكمال الإكمال ج 7 ص324

حتى لا يؤول إلى هدم الأسرة بالطلاق. وهو لا يحدث فجأة، ولكن يتطور شيئا فشيئا حتى ينتهي إما إلى الإضرار أو الطلاق. والنساء أسرع في الإحساس بهذا التغير في سلوك الزوج لأنه أمر عاطفي وقد وهب الخالق للمرأة قوة في عاطفتها حرم منها الرّجل إذ بها تصبر على الحمل وما يتبعه من الحضانة والعناية بالمولود إلى أن يبلغ سن النضج. فإن خافت الزوجة من بلوغ هذا التقلب غاية مداه، أرشدها القرآن إلى ما يمكنها أن تقوم به لعلاج هذه الحالة في أول مراحلها. فللمرأة في هذه الحالة أن تختار وتقدر العواقب بكامل حريتها وتقرر الحل الذي تعتقد أنه أنسب لها مما يحل لها. فلها أن تطلب طلاقها وتقدم للزوج مالا مقابل فك عصمتها منه، وهو المعبر عنه بالخلع. وما يأخذه الزوج من مال مقابل طلاقها حلال، إذا كان برضا الزوجة وبدون إضرار تعسفي منه. وقد يكْرَه الزوج أن يعاشرها العشرة العادية لكبر سنها أو دمامتها، أو تغير عواطفه لأمر من الأمور، أو تكون ضرتها مثلا قد استولت على عواطفه. ففي مثل هذه الحالات للزوجة أن تختار طريقة ترضاها للبقاء مع زوجها، كأن تتنازل عن القسم العادل ولا تطالب بحقها في الفراش، أو تتنازل عن نوع من النفقة التي عودها بها. نفت الآية الإثم عن الزوجين عند اختيارهما لحل فيه تنازل عن الحقوق. بل إن الآية حثت على السعي للمصالحة مع الحطيطة، لأن شأن الصلح أنه لا يتم إلا بتنازل من الطرفين أو من أحدهما. ولأن الصلح كله خير. وذكر القرآن بأن كثيرا من النفوس تشح بحقوقها ولا تتسامح. ولكن النفوس التي رَوَّضها الإيمان وغرس فيها وشائج الأخوة والحب والرّحمة، لا ترضى أن يكون تصرفها كتصرف النفوس التي لم يدخل نور الإيمان في قلوبها. ويحرض القرآن الزوجين في هذه الحالة على التخلق بصفة الإحسان وما يصحبه من تقوى الله ووزن كل طرف قراراته بهذه التقوى التي تطهر النفوس من الأنانية وما يتبعها من قصَرِ النظر على الحياة الدنيا.

129-ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء...غفورا رحيما.

ثم عالج القرآن وضعا آخر من أوضاع الأسرة عندما يتزوج الزوج بأكثر من واحدة. فيعلن حقيقة مفادها: أن الطبيعة التي خلق الله عليها الإنسان لا تمكنه من العدل بين زوجاته مائة بالمائة، وهو العدل الكامل . ولما كان العدل على مراتب، وأن بعضها هو مناط التكليف، وبعضها تابع لميل الطبع لا يستطيع له الإنسان حولا، فميل نفس الزوج إلى إحدى زوجاته أكثر من ضرتها هو أمر خارج عن نطاق التكليف لا يؤاخذ به ولا يعاقب عليه، وأما ما يترتب على هذا الميل من تمكين الزوجة، التي هي أقل تأثيرا عليه، من حقوقها من إنفاق وحسن معاملة وقسم

عادل، فهو مسؤول عنه معرض لجزاء الظلم أو العدل. ولذا نهت الآية الزوج أن يهضم حقوق زوجته التي مال قلبه عنها، فيتركها كالمعلقة التي لاهي خلية من زوج تتعرض للتزوج بمن يكرمها ويرعى حقوقها، ولا هي زوجة تتمتع بما شرعه الإسلام لها من حقوق ومنزلة في الأسرة. وحرض سبحانه من فرط في حقوق المرغوب عنها أن يثوب ويتوب، بأن يصلح سلوكه ويحترم زوجته بما لها عليه من ميثاق الزوجية، ويستحضر فيما يستقبل تقوى الله التي تعظه أن يجور أو يهمل. إن من فرط وتاب يجد من ربه المغفرة لما سلف منه وينعم برحمته بما يفتح له من عون في حياته .

130-وإن يتفرقا يغن...واسعا حكيما.

ثم فرضت الآية الحل الآخر إذا نفر الزوج من زوجته وتعذرت إقامتها معه على ما أوصى به القرآن، ولم ترض هي بالتنازل عن أي حق من حقوقها، ولم يرض هو أن يطوع قلبه لما ترغب فيه، فإن الفراق هو الحل. والله يغني كل واحد عن صاحبه ويفتح له سبيلا في الحياة. يؤكد ذلك أن الله الذي لا يحد ملكه قدير يخضع له ما تعلقت إرادته بتحقيقه، حكيم في تسييره للعالم.

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا ﴿١٣٣﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ ثَوَابُ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿١٣٤﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

قوامين بالقسط: ملتزمين بالعدل في الأحكام.

الله أولى بهما: أحق بالنظر في شأن الغني والفقير.

تلووا: اللي هو خروج الإنسان من العدل إلى الظلم في الحكم أو عن الصدق إلى التزييف في الشهادة.

تعرضوا: تمتنعوا من الحكم بعد ظهور الحق أو تمتنعوا من أداء الشهادة.

بيان المعنى الإجمالي:

تذكر هذه الآية بما استقر في قلوب المؤمنين من أن الله هو المتفرد بملك السماوات والأرض لترتب على هذه الحقيقة الامتثال للتشريعات والإرشادات التي وردت في الآيات السابقة ولترتب على ذلك استنهاض الهمم لمراعاة تقوى الله في الحياة، التقوى التي هي ركن هام، توالت الوصاية بها على لسان محمد صلى الله عليه وسلم ومن قبله من رسل الله عليهم السلام. وبناء على ذلك فإنّ من أعرض عن التقوى وكفر بالله فإن كفره لا ينقص شيئا من سلطان الله، فالله هو الغني عن عباده المستحق للحمد دائما. وبما أنه مالك الكون كله، فهو الضامن لسيرورتها على السنن التي سنها. ويتوعد الكافرين بأن قدرة الله لا يعجزها أن يفني المعرضين عنه ويأتي بآخرين مطيعين خاضعين له. ويذكر البشر بأن مزية هذا الدين أنه يفتح لمعتنقيه العاملين به أسباب النجاح في الدنيا والآخرة. ولا تناقض بين العمل للدنيا مع العمل للآخرة. والنجاح في الحياة يقوم على العدل فإذا ذهب العدل اختلت الحياة. ولذا أمر المؤمنين أن يكونوا مستعدين دائما لنصرة الحق في القضاء لا يتراخون إذا ما أحسوا بمخالب الظلم تمزق حصن الحياة الآمنة. وعلى من يتولى القضاء أو الشهادة أن لا يتأثر بوضع المتخاصمين، من الفقر أو الغنى أو المكانة الاجتماعية، ولا بعلاقة الأبوة أو القرابة. فإن الله هو الذي يتولى عباده فليس لكم أن تراعوا أحد الخصمين على الآخر. ولتحذروا الانحراف عن العدل في الحكم أو الميل لأحد الخصمين وتقويته على خصمه، أوتزييف الشهادة ، أو أن تمتنعوا من القضاء أو من أداء الشهادة إذا كان في ذلك تضييع الحق ، فإن الله يعلم حقيقة ما تعملونه، ولا يغيب عنه باطن قصدكم ويجازيكم على ذلك.

بيان المعنى العام:

131-132: ولله ما في السماوات وما في الأرض... وكفى بالله وكيلا

فصلت الآيات السابقة الجزاء على الأعمال، وبعض أحكام الأسرة التي إن صلح أمرها استطاع الإنسان أن يؤدي مهمة الخلافة في الكون، وإن فسدت قصر في ذلك. وأعلنت هذه الآية الحقيقة التي تستند إليها تلكم الأوامر والتعاليم والإرشادات: هي أن الله يملك وحده ما احتوته السماوات والأرض، وأنه لما كان مالكا لها وحده فهو العليم بما ينفع الناس ويصلح أمرهم، وأنه حقيق بأن يتولى البشر برعايته ويكشف لهم ما خفي عنهم، فيوصيهم بما فيه خيرهم مما يحجبهم عن إدراكه شهوات النفس ومحدودية العلم . تلكم الحقيقة تتبعها حقيقة سرمدية باقية هي

الأساس الذي يبنى عليه صرح السـعادة، أوصـى الله بهـا البشـر فـي عهـد الرّسـالة وفيما سبق من الأزمان، فما من رسول إلا دعـا إليهـا وكـرر الـدعوة، هـي تقـوى الله التي كانت أكثر كلمات القـرآن تـردادا، أي أن يكـون الله حاضـرا فـي قلـب الإنسـان وفي مشاعره، يصحبه عند كل عمل أو تـرك، فيرقـب ربـه ويستحضـر مننـه عليـه، وينكشـف لـه بـالتقوى أن الله لا يخفـى عليـه حقـائق الأفعـال والنوايـا ولا تحجبهـا المظاهر فهي مُعَرَّاةٌ من كل غشاء كاذب. ثم ثنت بمقابـل التقـوى والارتبـاط بـالله، بـأن من قطع صلته بالله وكفر، فإن كُفْرَ مـن كفـر لا يـنقص شـيئا مـن سـلطان الله علـى الكون. إنه سبحانه هو الغني عـن عبـادة العابـدين وشـكر الشـاكرين ولا يـنقص مـن ملكه وعظمته كفر الكافرين ولا جحود الجاحدين، إنـه المحمـود الحقيـق بالحمـد، حمـده الإنسان أو لم يحمـده. ويؤكـد القـرآن تلكـم الحقيقـة: أن الله وحـده مالـك السـموات والأرض وهو الكفيل أي المتصرف فيها كما تشاء حكمته وتقديره.

133-إن يشأ يذهبكم...على ذلك قديرا.

إن هذا التصرف المطلق يبـين أن مـن مضـمونه أنـه قـادر علـى أن يمحـق هـؤلاء المعاندين المناوئين لدينه، الساعين في أرضـه فسـادا تبعـا لكفـرهم واسـتكبارهم بغيـر الحق. وإن من مقتضيات ذلكم الملك المطلق والقـدرة التـي لا تحـدها حـدود أن إذهـاب هؤلاء والإتيان بآخرين يتقون الله ويخشـونه مـن أيسـر مـا يتصـور بالنسـبة للقـدرة الإلهية.

134-من كان يريد ثواب الدنيا...سميعا بصيرا.

بعد ذلك التهديد يعود القرآن لاستجلاب البشـر لطاعتـه ويفسـح لهـم فيمـا يرقبونـه من فضله، ويؤكد لهم أن التقوى والتزام هديه تتبعهمـا فيـوض النـوال والخيـر الشـامل لمباهج الدنيا والفوز في الحياة الآخـرة. والله لا يغيـب عنـه شـيء يقـع فـي الكـون، سواء أكان صوتا يسمع وإن خفي، أو ذاتـا مـن شـأنها أن تُـرى مهمـا ضـؤلت، فهـو يجزي عن الكلمة الحسنة وعن فعل الخير.

فدين الإسلام هو الدين الذي يجمع بين الدنيا والآخـرة، وينفـي أن يكـون بينهمـا تضـاد، وأن التوسعة على الإنسان في الدنيا لا تنافي أن يفوز بالكرامـة فـي الآخـرة متـى آمـن والتزم تطبيق شرع الله في تعاطيه لشؤون حياته.

135- يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين...بما تعملون خبيرا.

ثم يدعو القرآن المؤمنين أن يكونوا قائمين علـى سـيادة العـدل فـي القضـاء. وإشـراكُ المؤمنين جميعهم في القيام بنصرة العـدل يفضـي إلـى محاربـة الجـور حتـى يصـبح

العرف السائد في المجتمع الإسلامي هو إجراء العــدل ومقــت الظلــم والاشــمئزاز منــه ومن مرتكبه. ولا يــتم قيــامهم بالعــدل إلا إذا اســتقاموا فــأدوا الشــهادة التــي يعتمــدها القاضي في فصل القضايا شهادة صادقة يرعى فيها الشــاهد مــا أوجبــه الله مــن الصــدق ويؤديها على أفضل وجه يكشف الحقيقــة، ولا يكــتم أو يحــول بعــض الجزئيــات التــي تؤثر فيها. فربط الشــهادة بــالله يحــتم علــى الشــاهد أن يرقــب الله عنــد أداء شــهادته. وينبه القاضي والشاهد لما يمكــن أن يــؤثر عليــه فــي حكمــه، أوفــي شــهادته فيكــتم الشهادة أو ينقص من تفاصيلها أو يضيف في ثناياها شــيئا ممــا يحولهــا عــن وجههــا. عليه أن يلتزم ما يقتضيه الحــق والعــدل ولــو كــان الأمــر متعلقــا بذاتــه فــي الحكــم والشهادة.

فليؤد الشهادة على وجهها، ولو كانت على نفسه، ولو كانت علــى مــن تربطــه بــه أشــد الرّوابط الاجتماعية كالوالدين والأقــارب بصــفة عامــة مــن زوج أو ولــد أو صــديق. ومن قوة العناية بالعدل نصت الآية على الوالــدين والأقــربين بعــد الــنفس، لأن بعــض الناس يكون لهم من الشجاعة وشرف النفس مــا يقضــون بــه علــى أنفســهم أو يقــرون به، ولكن إذا تعلــق الأمــر بالوالــدين أو الذريــة قامــت الحميــة والتــأثيرات الجانبيــة تنتصر وتضغط، فأكد القرآن على الالتــزام بالعــدل. وكمــا نبــه القــرآن المــؤمنين أن لا يتراخوا في إجراء الحق مع النفس أو مع الوالدين والأقربــاء، فإنــه حمايــة لهــذا النظــام الاجتماعي الذي يحــرص عليــه، أضــاف إلــى ذلــك، التحــذير مــن التــأثر بالوضــع الاقتصادي، فمن الناس من يعامل الغنــي لغنــاه وإن كــان مــبطلا، ومــنهم مــن يــرأف بالفقير لفقره فيقوي جانبه بــاطلا بــالحكم أو الشــهادة، فينبــه القــرآن المــؤمنين إلــى أن يحموا أنفسهم من هذه الأوهام، ويذكر بأن الله وحــده هــو الأولــى بــالفقير والغنــي ولا يكون الفقر أو الغنى عاملا على ترجيح جانب المبطل.

إياكم أن تتأثروا بالهوى وما يزينه لكم، فإن الإســلام إنمــا جــاء لإخــراج الإنســان عــن داعية هواه المضللة، ولا يكون عبدا لله حقا إلا إذا ظفــر بــالتحكم فــي دواعــي الــنفس. إن الهوى يدعو للانحراف عن العدل ويدفع إلى العدول عــن الحــق فــي الحكــم أو عــن الصدق في الشهادة، وهو معنى(**أن تلووا**)،وقد يدعوكم إلــى المماطلــة فــي الحكــم حتــى يضيع الحق، أو الامتناع عن الشهادة ليعجز المحق عن إثبات حقه.

ويتوعد القرآن في خاتمة ما قــرره، بــأن الله لا يخفــى عليــه الــدواعي الباطنيــة التــي تنحرف بالإنسان، ولا يشتبه عليه الحــق بالباطــل والجــور بــالظلم، علــى معنــى أنــه سيجازي كل إنسان بحقيقة فعله .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ
وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ
ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ
ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ
لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ
أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعٗا ﴿١٣٩﴾ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ
إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ
غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾
ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ
لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ
بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾

بيان معاني الألفاظ:

أولياء من دون المؤمنين: جمع ولي: نصير قريب.

يتربصون بكم: ينتظرون ما سيحل بكم.

نصيب: حظ قليل من النصر.

نستحوذ: ندفعكم للقتال بما خططناه لكم لتحقيق ما تم من الغلبة.

بيان المعنى الإجمالي:

يذكر القرآن المؤمنين بأن يكون شعورهم بعقيدتهم حيا في نفوسهم ليواصلوا الثبات عليها، هذه العقيدة التي تشمل الإيمان بالله المتصف بصفات الكمال، وبرسوله محمدﷺ خاتم الأنبياء، وبالقرآن المنزل عليه، وبالكتب التي أنزلها الله على رسله، والتي لم تحفظها الأمم المنزلة عليهم، ففرطوا فيها، فاندرست أو حُرِّفت. فالإيمان بها إيمان إجمالي لا تفصيلي. ومن يكفر بذلك أو ينكر البعث في اليوم الآخر، فقد سلك الطريق المقابل للاتجاه الصحيح وضل ضلالا كبيرا. وأشنع أحوال هؤلاء هو حال الذين ترددوا بين الكفر والإيمان، فكلما دخلوا في الإيمان قليلا عادوا إلى كفرهم، وهكذا إلى أن فارقوا الحياة على الكفر ؛ فهؤلاء لا أمل لهم في مغفرة الله ولا في بلوغ الهداية إلى الحق. هؤلاء المتلاعبون بالدين هم المنافقون فبشرهم بأن

الله أعد لهم عذابا يبلغ ألمــه كــل جــزء مــن كيــانهم، إنهــم قــد انتصــروا وانتســبوا للكافرين ويلقي القرآن سؤالا يفضــح ســوء اختيــاراتهم، مــا الــذي يبغــون أن يحققــوه بموالاتهم للكافرين؟ أيبغون أن يتمكنوا مــن منــازل العــزة بهــم ؟ كــلا ! إن العــزة لله جميعا، يُمَكَّنُ منها من اهتدى للإيمان فقط.

وحذر القرآن من مصانعة المنــافقين الــذين بلــغ مكــرهم، أنهــم كــانوا يعملــون علــى زعزعة تقديس آيات الله فيســتهزئون بهــا فــي المجــالس، ويخفــون قصــدهم الخبيــث بأنهم ما أرادوا إلا الترويح والتخفيف من ثقل الجــد. كــان النهــي صــارما عــن القعــود معهم إذا استهزأوا بآيات الله. إن التغاضي عنهم مآل من يجالســهم فــي هــذه الحــال أنــه يكون مثلهم. وقد تقرر أن الله سيجمع الكافرين والمنافقين فــي نــار جهــنم. اعلمــوا أنهــم قد فقدوا الوضوح وبالتالي القرار الــذي يظهــرون بــه دائمــا، فــإن أكــرمكم الله بفتحــه وانتصرتم على جيــوش الكــافرين وحــاولوا مغــالطتكم بــأنهم جــزء مــنكم وحضــروا بعض مجامعكم العامة كأداء الصــلاة معكــم فــلا يخــدعنّكم تظلــيلهم. وفــي المقابــل إذا حقق المشركون أقل نصر وأهونــه انــدفعوا نحــوهم يــذكرونهم بمــا أعــانوهم بــه مــن توجيه وتأييد، به أقدموا على غزو المسلمين، وأنهــم زيــادة علــى ذلــك كــانوا يثبطــون المسلمين ويمنعونهم بمختلــف أنــواع المكــر مــن الجهــاد. إن الله ســيحكم بيــنكم يــوم القيامة فيظهر المنافقين على حقيقتهم مخزيين.

ويثبت الله المؤمنين بوعده أنه ينصر دينه ويؤيــد المــؤمنين، فلــن يســتطيع المشــركون ولا من يكون معهم أن يســتولوا علــى المــؤمنين الصــادقين المطبقــين لشــرع الله فــي حياتهم.

بيان المعنى العام:

136- يا أيها الذين آمنوا كونوا...بما تعملون خبيرا.

نداء للمؤمنين ليكونــوا دومــا مستحضــرين القاعــدة الأولــى التــي بُنِــيَ عليهــا الــدين الإسلامي، هي الإيمان بالله وبرسوله محمــد ﷺ وبــالقرآن الــذي أنزلــه بواســطة الملــك جبريل عليه فتلقاه وبلغه، وبأن الله لم يهمل البشــرية فــأنزل أيضــا كتبــا بلغهــم إياهــا رسلهم، ولكنهم فرطوا فيها فلم تحتفظ بصــدقها الــذي أنزلــت عليــه، فطواهــا الــزمن أو حرفت تحريفا فقدت معه كل حجيــة، فالإيمــان بهــا هــو إيمــان إجمــالي لا تفصــيلي. ولزيادة البيان والتأكيد صرح القرآن بالوجه المقابل للإيمــان وهــو الكفــر ومبانيــه التــي هي ضد الأولى، وفصلها تفصــيلا أتــم. فمــن كفــر بــالله بإنكــار الألوهيــة أو بادعــاء شريك له، أو أنكر وجود الملائكة، أو جحــد أن الله أنــزل كتبــه وحيــا إلــى رســله، أو كذب الرّسل جميعهم أو كذب واحــدا مــنهم، أو لــم يــؤمن بالبعــث ومــا كشــف عنــه

القرآن مما يجري يوم القيامة **(اليوم الآخر)** من كفــر بكــل ذلــك أو بواحــد منهــا فقــد ابتعد عن الحق بعدا كبيرا فقد معه الاهتداء. هو كمن طلــب أن يبلــغ مكانــا عــن يمينــه فاتجه وجهة الشمال فكلما زاد خطــوة وأوغــل فــي ســيره زاد ضــياعا وضــل ضـــلالا كبيرا.

137- إنّ الذين آمنوا... و لا ليهديهم سبيلا.

إن هؤلاء الكافرين على مراتــب، فأشــدهم ضــلالا المتلاعبــون بالــدين الــذين أظهــروا الإيمان ثم ارتدوا فكفروا، ثم أظهــروا الإيمــان مــن جديــد ثــم رجعــوا إلــى ضــلالهم وكفرهم، وتمكن الكفر من قلوبهم وغشى على بصــائرهم واســتمروا علــى كفــرهم إلــى الموت ؛هؤلاء ما قدر الله لهم من واســع مغفرتــه شــيئا، وحــرمهم مــن كــل هدايــة، أطبق عليهم ظلام الكفر فلا يبدو لهم أي خيط من أنوار الإيمان.

138-139: بشر المنافقين بأن لهم...فإن العزة لله جميعا.

هؤلاء المنافقون الــذين كــانوا يســخرون مــن المــؤمنين ويتلاعبــون بالــدين ، توجــه القرآن علــى طريــق الــتهكم بهــم، فــدعا النبــي ﷺ أن يبشــرهم، وبمــا ذا يبشــرهم ؟ يبشرهم بعذاب يبلغ ألمه كل جزء من كيانهم. ثم شــنع بهــم وفضــحهم مبــرزا ضــعف مداركهم، إذ كانوا في باطن أمرهم يتولــون مشــركي مكــة فيخلصــون لهــم ويؤيــدونهم ويظهرون لهم الود ويَعِدونهم بــأنهم معهــم وأنهــم مــن ناحيــة أخــرى لا يعتمــدون إلا عليهم، يفعلون ذلــك مضــادة للمــؤمنين. ويبلــغ التشــنيع بغبــائهم مبلغــا كبيــرا بإلقــاء السؤال التالي: لمــا ذا يتولــون المشــركين ؟ أيتولــونهم ليعتــزوا بهــم ؟ إن العــزة لله لا يشاركه غيره فيها إلا مــن أراد الله أن يعــزه. وذلــك بــين، لأن أمــر المشــركين إلــى زوال وضعف، والإسلام يزداد كل يوم امتدادا وانتشــارا وقــوة. فهــم قــد خرجــوا مــن دائرة العزة والقوة إلى دائرة الهوان والضعف.

140-وقد نزل عليكم في الكتاب...والكافرين في جهنم جميعا.

ثم التفت القرآن إلى المؤمنين يحــذرهم مــن المنــافقين الــذين كــانوا يخفــون نفــاقهم، فنبههم إلى أمر ربما يغفل عنه بعضــهم. ذلــك أن المنــافقين وقــد كــانوا مندســين فــي المجتمع المدني ويبالغون في التخفي، بلغــوا مــن خبــثهم أنهــم يعمــدون إلــى المقــدس، إلى آيات الله فيكفرون بها ويستهزئون بها، ويظهرون أنهــم إنمــا يفعلــون ذلــك ترويحــا للنفس ولعبا، وهو ما صرحت بــه الآيــة **(ولــئن ســألتهم ليقــولن إنمــا كنــا نخــوض**

ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون)[1] نبه القرآن المؤمنين الصادقين: أن عليهم بمجرد ما يبلغ المنافقون هذا الحد من الجراءة، أن يقوموا من ذلك المجلس ويقاطعوهم، إظهارا لغضبهم ولرفضهم التجري على آيات الله. وهذا الموقف هو الموقف المدني، ففي المجامع الدولية إذا تعدى أحد الخطباء على مقدسات دولة من الدول خرج وفد تلك الدولة حالا رفضا لما سمع وإنكارا. وعرّف المؤمنين بما يترتب على مصانعتهم والبقاء معهم إذا تعمدوا السخرية من الحق الذي أنزل عليكم، إنكم إن بقيتم تكونوا مساوين لهم، وأعْظِمْ بذلك إنكارا ووعظا. ولا فرق بين عاقبة الكافرين الصرحاء وبين المنافقين، إن الله سيجمعهم في جهنم مأوى العذاب والمهانة.

141- الذين يتربصون بكم... على المؤمنين سبيلا.

تابعت الآية التالية الكشف عن نفسية المنافقين القلقة، فهم بين ما يحبون تحقيقه، وبين الواقع الذي يكذب أمانيهم في معظم الأحوال. هم منتظرون، ليس لهم موقف صريح، فكل صدام بين الكفر وبين جماعة الإيمان، تراهم إن أنزل الله تأييده وفتح على المسلمين ما يثبت الصادقين ويقمع الكافرين، قال المنافقون: ألم نكن معكم، بما أعلنوه، كذبا، من إيمانهم، وحضورهم مشاهد التجمعات الإسلامية. وإن كان للكافرين نصيب قليل من الغلبة، طاروا فرحا وأدلوا بما كان لهم من فضل في ذلك، ذكروا المشركين بأنهم هم الذين تولوا تخطيط ما أقدموا عليه في حرب المسلمين، وفصلوا لهم ما يجب فعله وما يتحتم تركه، ثم دفعوهم إلى قتال المسلمين، وهونوا عليهم أمر المعركة، فهذا هو معنى الاستحواذ في الآية. ذلك أن هذه الصيغة تأتي بمعنى الاستيلاء والغلبة كقوله تعالى **(استحوذ عليهم الشيطان)**[2] ووردت في هذه الآية، وتأويلها على الغلبة كما جرى عليه المفسرون السابقون فيه تمحل وحمل على معنى بعيد لا ينسجم مع ما جاء تاليا لها **(ونمنعكم)** فهم بين دفع وحماية.

إن إدلال المنافقين على المشركين ورد مركبا من أمرين، أنهم أحاطوا بالمشركين بتفننهم في حملهم على الهجوم على المسلمين بتوهين قوة المسلمين، وبمدهم بأخبارهم، واطلاعهم على الثغرات التي يُؤْتَوْنَ منها، وضخموا نواحي الضعف فيهم، حتى دفعوهم إلى شن الحرب، ثم إنهم من ناحية أخرى أدلوا بما كانوا

---

[1] سورة التوبة الاية 65.

[2] سورة المجادلة آية 19

يقومون به من حماية الكافرين من المسلمين، بترويج الإشاعات التي يرمون من ورائها بث الخوف في المجاهدين، ومن عونهم بالسلاح والعتاد خفية، ومن خروجهم مع المسلمين للجهاد ثم رجوعهم قبل المعركة ليدخلوا الاضطراب في الجيش الإسلامي كما كان موقفهم الذي سجله القرآن عليهم في وقعة أحد كما سبق بيانه في هذه السورة. فكلمة استحوذ، مأخوذة من الحوذ: السوق السريع أو العنيف وقال الفيروزابادي في البصائر: (استحوذ، استاقهم مستوليا عليهم من حاذ الإبل يحوذوها إذا استاقها سوقا عنيفا)[1] فهم يُدلُون بأنه لولا ما قدموه للمشركين ما كانت المعركة لتنشب، فهم يريدون أن يقنعوا المشركين بأنهم هم الذين دفعوا إليها ويسروا لهم أمرها وتولوا منع المسلمين من النكاية بهم. وبهذا يترجح عندي أن ما يرغب المنافقون فيه ليس التحصيل على حظ من المغنم، كما خرج الآية عليه معظم المفسرين وإنما الذي يبغون ترويجه، أن يثق بهم المشركون وأن يطمئن إليهم المسلمون. وما كشفه القرآن من مكر المنافقين مع اندساسهم في صفوف المسلمين، وعدم تميزهم، أتبعه القرآن بأنهم وإن استطاعوا أن ينفلتوا من تسلط المؤمنين عليهم في الحياة الدنيا فإنهم سينالون الجزاء العادل يوم القيامة وسيفضحهم في ذلك اليوم بإحضارهم للمحاكمة بين يديه. ثم طمأن القرآن المؤمنين بأن الله قَدَّرَ أن لا يكون للكافرين عليهم السلطان الذي يظهرون به على الإسلام، وتكون لهم الغلبة عليهم.

وهنا يثور سؤال حاصله: أن الكافرين قد أخرجوا المسلمين من ديارهم وأموالهم في الأندلس، وأجبروا من بقي منهم على التنصر، وسجل التاريخ التنكيل المخزي بأوامر رجال الكنيسة، وكذلك الأمر في صقلية، ثم إن الاستعمار قد اكتسح بلاد العالم الإسلامي واستولى الكافرون على أموالهم وأراضيهم، وتحكموا في رقابهم، وسخروهم لنصرتهم في حروبهم. والله لا يخلف وعده.

والجواب عن ذلك: هو أن المؤمنين الذين وعدهم بالحماية والتأييد ليسوا الذين ينتسبون إلى الإسلام بأقوالهم أو بأمانيهم، ولكن المسلمين الذي كتب الله لهم العزة ووعدهم أن لا يجعل للكافرين عليه سبيلا، هم المسلمون الذين يطبقون ما جاء عن الله في الأسس التي أمروا بمراعاتها في السلم والحرب. ففي الحرب أمروا بالاستعداد والجهاد. الاستعداد الذي يحتم عليهم أن يكون مستواهم العلمي في صناعة الأسلحة ومستواهم في فنون الحرب يتطور مع الزمن، يثبتون دائما على

[1] ج تاج العروس ج9 ص 340/399

أن يكونوا في مقدمة الأمم في هذا الميدان يـرهبهم أعـداؤهم، وتصـغر أي دولـة عـن أن تحدثها نفسها بالاعتداء عليهم. وبالجهاد بمـا يقتضـيه مـن التـدريب العـالي وتربيـة النفوس على العزة وبذل النفس في سبيلها.

وفي السلم بأن يكونـوا صـفا واحـدا متعـاونين لا يفـرق وحـدتهم أطمـاع دنيويـة حقيرة، وأن يكونوا في ميدان العلوم أئمة بما يبـذل فـي سـبيله مـن عـزم قـوي وبـذل سخي. وأن تكون رايـة العـدل ناصـرة للحـق مؤكـدة للعـزة لا ينكسـها أي سـلطان، مصونة من العبـث ومـن تسـخيرها للأغـراض السـافلة، وأن يكـون الالتـزام بـالقيم الخلقية يمثل عقدا بين المؤمنين جميعـا علـى مختلـف مستوياتهم. وأن يكـون الالتـزام بالعبادة الحارس لهذا البناء، يمليه الشعور بلذة الطاعـة. فهـل المسـلمون عنـدما غلبـوا على أمرهم كانوا على هذه الحال؟ التـاريخ يشـهد أنهـم مـا انهزمـوا إلا بعـد انفـلات العقد الرّقيع الذي نظمه الإسـلام فتنـاثرت حباتـه، وتمـزق النسـيج المتميـز فتنـاثرت لحمته وسداه، ولم يبق من الإسلام إلا أشباح بدون روح .

إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ
يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (142) مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ
وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا (143) يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا
تَتَّخِذُواْ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ
سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا (144) إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا
(145) إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ
مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (146) مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ
بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (147)

بيان معنى الألفاظ:

يخادعون: يظهرون خلاف ما يبطنون تمويها وتضليلا.

كسالى: جمع كسلان وهو من كان فاترا متثاقلا في القيام بعمله،

المذبذب: المتردد بين أمرين

الدركة: المنزلة في الهبوط

بيان المعنى الإجمالي:

فضح القرآن المنافقين بأن صورة أعمالهم كصورة من يسعى لخداع الله، إنهم يجتمعون مع المسلمين في بعض المجالس الصالحة فقد يحضرون الصلاة مع الجماعة، وقد يتقدمون لرسول الله ﷺ بالسؤال أو طلب فصل قضية نزاع ونحو ذلك، وهم يظنون أن الله لما لم يعجل بعقوبتهم ولم يوقف كيدهم، أنهم أمنوا جانبه وخدعوه. ويثبت القرآن أن الله لما لم يعجل عقابهم ولم يستأصل شوكتهم هو قد أملى لهم، فهم في الحقيقة مخدوعون لا خادعون، لأن جزاءهم مؤجل و ثابت لا شك فيه.

وللمنافقين سمات ينقشع بها ما أخفوه من حقيقة أمرهم. فهم إذا قاموا إلى الصلاة قاموا متثاقلين همهم أن يظهروا للناس بمظهر العُبّاد رياء، ووهَّنت صلتهم بالله فلا يذكرون إلا في حالات قليلة مما جرى على الألسنة أو في الظروف التي يظنون أن هناك من يرقبهم. وهم أيضا فقدوا الطمأنينة في العقيدة والحياة فهم مرة مع المشركين يتوددون إليهم ويبذلون لهم ما يُمَكِّنُهُمْ من مناوأة الإسلام والمسلمين، ومرة مع المسلمين يظهرون لهم أنهم معهم حتى بالعَوْنِ بالمال إخفاء لمكرهم، وهم بذلك كانوا ممزقين بين الكفر والإيمان، فلاهم مؤمنون حقا ولا هم معلنون بكفرهم فَيُتَّقَوْنَ. وقد كتب الله عليهم الضلالة بسوء أعمالهم وفساد طويتهم فلا تَنْتَظِرْ أن يهتدوا لسبيل الحق.

ولما كان وضع الكفر الظاهر والخفي ما بينه القرآن، نبه الله المؤمنين إلى خطرهم فحتم عليهم أن لا يعتمدوا عليهم ولا يعاملوهم معاملة الأولياء، حذرهم سوء العاقبة بأن من يتولى الكافرين لا يجد يوم القيامة جوابا ولا عذرا ينجيه. فلا بد أن يتحقق في الكون صفاء التركيب الاجتماعي الإسلامي. وشدد التحذير من المنافقين بأن مصيرهم هو في أحط المنازل وأسوئها في النار ومع العذاب المهين اليأس من المستقبل فلا يجدون نصيرا يخفف عنهم يوما من العذاب.

وكشأن القرآن يعمل دائما على جلب الناس لطريق الهدى لا للانتقام منهم فيبشر المنافقين، على عظم جرمهم، بأنهم إذا تابوا، وأصلحوا عقيدتهم وعملهم ووثقوا بفضل ربهم وأخلصوا فطردوا كل شبهة من شبه الشرك وكل دخيلة من رياء، فإن مصيرهم هو مصاحبة المؤمنين الذين لم يخالط النفاق قلوبهم، المؤمنين الذين أعد الله لهم أجرا عظيما لا يحد مقداره. ويؤكد هذا المعنى بأن الله لا يريد التنكيل بعباده الذي عرفوا حق نعمه عليهم وآمنوا. فإن الله يشكر لعباده بحسن الجزاء للصالحين. والله من صفاته أنه شاكر وهو العليم الذي لا يلتبس عليه أمرهم ومقاصدهم.

بيان المعنى العام:

142- إن المنافقين يخادعون...ولا يذكرون الله إلا قليلا.

واصل القرآن كشف حقيقة المنافقين وفضح دخيلتهم. إن أهم سمة للمنافقين هي قدرتهم على التخفي، والظهور بمظاهر تجعل الناظر إليهم يظن بهم الخير والكمال، وفي الحقيقة هم يبطنون خلاف ذلك. يحضرون الصلاة مع الناس، وقد يبذلون من المال ما يبعد تصور عدائهم للإسلام، يعملون على هذا النسق ليتمكنوا من الاندساس في صفوف المسلمين ويطلعوا على أسرارهم، ويمكروا بهم كلما وجدوا الفرصة سانحة، وهمهم أن يسهموا في القضاء على الإسلام. فأعمالهم الظاهرة تعتمد على غفلة الآخرين. ومن غبائهم وفسادهم أنهم يظنون أن الله غير مطلع على ما ينسجونه من مكر وما يبيتونه من بغض لدينه وما يخططونه للإجهاز عليه، وأنه لما أمهلهم ولم يسلط عليهم عاجل عقوبته، أنهم بذلك قد حققوا ما يريدون دون أن يمسهم أذى. ويعلن القرآن أن ما يترصدهم من جزاء يوم القيامة يكشف لهم أنهم هم المخدوعون، والله أجل من أن يخفى عليه ما تنطوي عليه صدورهم وما يعدونه في الخفاء. وحتى يعرفهم المؤمنون كشف القرآن عن بعض سماتهم التي تميزهم.

أول سمة: أنهم إذا حضروا وقت أداء الصلاة مع المؤمنين يظهر عليهم التثاقل والوناء، على عكس المؤمنين الصادقين الذين ينشطون لأداء الصلاة.

وثانيتها: أن صلاتهم صلاة الرّياء والإظهار للناس، تنفصل ظواهرهم عن بواطنهم. إنه إذا خشع القلب سكنت الجوارح وبدا على العابد ملامح الإقبال على الله، أما المنافق المرائي فإن وضعه الفاقد لشعور الاتصال بالله لا يكاد يخفى على المحققين.

وثالثتها: أنهم لا يذكرون الله إلا قليلا.

هذه السمة لا تكاد تخفى، فإن المؤمن ينطلق لسانه بذكر الله مقارنا لمعظم أوضاعه، بالتسمية والتكبير وقراءة القرآن ومختلف أنواع الذكر التي تطمئن القلب.

143-مذبذبين بين ذلك...فلن تجد له سبيلا.

ورابعتها: أنهم لكثرة تلونهم وبعدهم عن الاختيارت البينة والمنهج الواضح، صاحبهم في حياتهم اضطراب في كل شؤونهم ومن أهمها عقيدتهم، فهم ليسوا مؤمنين يعيشون مع المسلمين عيشة المسلم وجهه لله، ولا من الكفار الرّافضين للدعوة المحمدية، فهم يظهرون انتسابهم للإسلام ويأتون من الأعمال ويتخذون من

المواقــف مــا لا يرضــى عنــه إلاّ الكــافرون، ويتأيــدون بالكفــار ويســرون إلــيهم بالإخلاص لهم.

إن الله قد حرمهم هدايته ومنع عنهم ألطافه، فلا يجـدون مـع ذلـك سـبيلا إلـى الهـدى ورياض الإيمان.

144-ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا...سلطانا مبينا.

وإذ قد فضح القرآن المنافقين وما يتآمرون بــه مــع الكفــار للانقضــاض علــى الإســلام وسحقه من الوجود، وأن عداءهم له عداء قـد تأصــل فــي قلــوبهم وأعمــالهم، فالواجــب على المســلمين أن يحــذروا مــوالاتهم، والاقتــراب مــنهم اقتــراب المــودة، والتعــاون معهم، وتقديمهم على المؤمنين. إذ التعــاون مــع الغيــر ضــرورة لا معــدل عنهــا فــي الحياة فإذا والوا المشــركين، فمعنــى ذلــك أنهــم قــدموهم علــى المــؤمنين، وضــعفت الرّابطة الإيمانية عن التأثير في الحياة الجماعيــة تــأثير القــوة وتمكــين الــود. ويبلــغ التحذير من القوة أن من يربط صِلاتِه بالكافرين يفقــد كــل حجــة وكــل عــذر يمكــن أن يخفف من جزاء فساد سلوكه وما تنبئ عنه موالاتــه مــن دَخَــلَ فــي عقيدتــه، ويفقــد كل جواب عندما يتعرض للسؤال يوم القيامة عن هذه الموالاة.

145-إن المنافقين في الدرك...ولن تجد لهم نصيرا.

أكد القرآن النهي عن تــولي المشــركين الــذي هــو شــأن المنــافقين، بــإعلان مصــير المنافقين، وأن موعدهم الدركات النازلة فــي نــار جهــنم، فحتــى فــي العــذاب يكونــون أحط أهل النار. والتصريح بأنهم لا يجدون نصــيرا يشــفع لهــم أو يؤيــدهم هــو تعبيــر عن اليأس الذي يصحب عذابهم البدني.

146-إلا الذين تابوا وأصلحوا...أجرا عظيما.

واستثنى القرآن من المنافقين الذين استيقظ ضــميرهم وانفــتح لهــم بــاب الرّشــد فــأقلعوا عن النفاق، وتابوا منه عائــدين إلــى ربهــم، وأتبعــوا التوبــة بصــلاح العمــل، ووثقــوا بفضــل الله وأن هدايتــه هــي الطريــق المنجــي، وتمكــن الإخــلاص لله مــن قلــوبهم وأرواحهم فكان تدينهم لا تشوبه شائبة شرك ولا دخيلــة ريــاء، فهــؤلاء مــع المــؤمنين، لا يضرهم ما سبق منهم. وهذا التوكيد جــرى عليــه القــرآن، ومفــاده أن التوبــة إذا لــم يقرنها لوازمها من التحول عن المسيرة التي كان يسير عليهــا الآثــم، إلــى مــا يضــادها من التزام واستقامة وتطبيق عملي لشرع الله، هــي توبــة فارغــة مــن محتواهــا مُعَطَّلَــةً عن آثارها. وحث المنافقين على التوبة، بــأنهم بمــا يتفضــل الله بــه علــيهم مــن قبــول

توبتهم وحشرهم في زمرة المؤمنين، بأن ما وُعِد به المؤمنون، الذين سيصحبونهم، من تكريم، هو أجر يفوق في عظمته التصور ولا يحد مداه.

لقد تتابع الوعيد بعذاب المنافقين والمشركين في الآيات السابقة وعقبت هذه الآية بنفي وهم: أن تسليط عذاب الله عليهم هو تشف منهم.

147-ما يفعل الله بعذابكم...شاكرا عليما.

أعلن القرآن للناس جميعا أن الجزاء هو من ينابيع الحكمة الإلهية، وهو من الارتباط بين الأسباب والمسببات فمن آمن واتقى يكون قد هيأ لنفسه موجبات الكرامة والطمأنينة في الحياة الدنيا ونعيم الجنة والفوز يوم القيامة. وأما من كفر مصرا وأعرض معاندا فقد أعد لنفسه الخسارة في الدارين. وأن الله لا ينتفع بعذابهم. فمن شكر بصرف النعمة فيما خلقت له وانبعثت أعماله عن عقيدة مصدقة بأركان الإيمان مطبقة لمقتضياتها، فإن الله يشكر للصالحين أعمالهم ويثيبهم ويُثَبِّتُهُمْ، وهو العليم بحقائق الأمور وبواعث الأعمال.

الفهــــــرس

ســـــورة الفاتحة : 13
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ...... وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (1←4) : 13
اهْدِنَا الصِّرَاطَ.... وَلَا الضَّالِّينَ (5←7): 16

ســـــورة البقرة : 19
الم......إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (1←20): 19
يَا أَيُّهَا النَّاسُ.... وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (21←22): 32
وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ.... إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (23) : 33
فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا.... أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ (24) : 35
وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا.... وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (25) : 35
إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي.... أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (26←27): 36
كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ.... وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (28←29): 39
وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ.... أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (30←39): 40
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ... فَارْهَبُونِ (40) : 49
وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ... وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ (41) : 50
وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ.... وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (42): 51
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ... وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ(43) : 52
أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ... أَفَلَا تَعْقِلُونَ (44) : 52
وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ... وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (45←46): 53
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ... وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (47←48): 54
وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ... ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ(49): 55
وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ... وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (50): 56
وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (51←52) : 57
وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى... لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (53): 58
وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ... إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (54): 58
وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (55←56) : 59
وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ... وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(57): 60
وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ..... بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (58←59): 61
وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ... وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ(60) : 63
وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى... بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (61) : 63
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا.... وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (62): 66
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ... لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (63←64): 67

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ... وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (65←66) : 68
وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ..... وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ (67←71): 69
وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ..... لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (72 ←73) : 72
ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ... وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (74): 73
أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا... وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75) : 74
وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا... وَمَا يُعْلِنُونَ (76←77): 74
وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ... مِمَّا يَكْسِبُونَ (78←79) : 75
وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ... هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (80←82): 76
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ... وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ (83): 78
وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ... وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ(84←86) : 79
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ... وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ (87): 81
وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ... فَقَلِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ (88): 82
وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ... وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ (89←90): 83
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا.... وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (91-95) : 84
وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ... وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (96): 87
قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ... فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ (97←98): 88
وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ... لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (99←103) : 89
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.. وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (104): 94
مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا... وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (105): 94
مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا... مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ(106←107) : 95
أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا... إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (108←110): 98
وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ... فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (111←113) : 100
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ... عَذَابٌ عَظِيمٌ (114): 102
وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُوَالْمَغْرِبُ... إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (115): 103
وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ... كُنْ فَيَكُونُ (116←117): 103
وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ... وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ (118←119): 105
وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ... مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (120): 106
الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ... فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (121): 107
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ... وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (122←123): 108
وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ... إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (124←129): 108
وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ... وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ(130←133): 114
تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ... عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (134←141): 116
سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ... وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ (142←152): 121
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (153←157): 131
إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ... وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (158←162): 133

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ... وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (163←167):................................137
يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ... فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (168←171):................................142
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(172←173):................................145
إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ...الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ(174←176):................................147
لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ...وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (177):................................149
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (178←179):................................151
كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ.... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (180←182):................................153
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (183←187):................................155
وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ... وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ(188):................................162
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (189):................................163
وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ...إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (190←195):................................164
وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ...وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (196←203):................................167
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ...أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (204←209):................................174
هَلْ يَنْظُرُونَ... وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ(210) :................................177
سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ... وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (211←212):................................178
كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً... إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (213):................................180
أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ.... إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (214):................................182
يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ.... فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ(215):................................183
كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ... وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (216←218):................................184
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ... إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (219←220):................................187
وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ.... لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (221):................................191
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ.... وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (222←223):................................194
وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ.... وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ(224←225):................................196
لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ... فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (226←227):................................198
وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ... وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (228←232):................................199
وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ... بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (233):................................207
وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ.... إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (234←237):................................210
حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ.... مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (238←239):................................214
وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ.... وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (240):................................216
وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ.... لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (241←242):................................217
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا.... أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (243←244):................................218
مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ.... وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (245):................................219
أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.... وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (246←252):................................220
تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ.... وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (253):................................228
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.... وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (254):................................229

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ..... وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (255):........................ 231
لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ..... وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(256):........................ 234
اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا.... هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(257):........................ 236
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ.... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (258):........................ 237
أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ.... عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (259):........................ 238
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ.... أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(260):........................ 240
مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ... وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (261←262):........................ 241
قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ..... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (263←264):........................ 242
وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ.... وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (265):........................ 245
أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ..... لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (266):........................ 246
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا..... وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(267←274):........................ 247
الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا....... كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (275←281):........................ 253
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا...... وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (282←283):........................ 259
لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ..... عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (284):........................ 267
آَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ..... عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (285←286):........................ 269

ســـــــورة آل عمران :........................ 272
الم.... هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (1←6):........................ 272
هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ..... لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ(7←9):........................ 275
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا..... وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (10←11):........................ 279
قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ..... لِأُولِي الْأَبْصَارِ (12←13):........................ 279
زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ.... وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (14←17):........................ 281
شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ..... وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (18←20):........................ 283
إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ..... وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (21←25):........................ 286
قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ..... فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (26←32):........................ 288
إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آَدَمَ...... وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (33←41):........................ 293
وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ...... هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (42←51):........................ 297
فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ...... فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (52←63):........................ 301
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ..... وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ(64←68):........................ 306
وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ...... وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (69←74):........................ 309
وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ....... وَهُمْ يَعْلَمُونَ (75←78) :........................ 312
مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ... فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (79←82) :........................ 314
أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ... وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (83←91):........................ 316
لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ... فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92):........................ 319
كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ... مِنَ الْمُشْرِكِينَ (93←95) :........................ 320
إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ... فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (96←97):........................ 321

قلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ... إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (98←101): 324
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (102←103): 325
وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ... وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (104←109): 328
كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ... وَكَانُوا يَعْتَدُونَ (110←112): 331
لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ... وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (113←117): 334
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (118←120): 337
وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ... وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (121←129): 339
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (130←132): 343
وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ و... وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (133←136): 345
قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ... فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (137←143): 348
وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ........ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (144←148) : 352
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا..... وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (149←152): 355
إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ..... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ(153←155): 358
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (156←160) : 361
وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ... وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (161←163) : 366
لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ... إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ(164←175) : 367
وَلَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ... وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (176←180): 373
لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ... فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (181←186) : 375
وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ... وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (187←189) : 379
إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ... وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (190←195): 381
لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا... وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (196←200) : 386

ســــــورة النّساء : 389
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ... إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (1←2): 389
وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى... فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا(3←4): 391
وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ... وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا (5←6): 393
لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ... وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا (7←10): 395
يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ... وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ (11←14): 397
واللاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ... أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (15←18): 400
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا (19←21): 403
وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا (22←24): 405
وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا..... وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا (25←28) : 409
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ... وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (29←31) : 412
وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ..... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (32←33): 414
الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ.... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا (34←35): 417

وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا.... وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا (36←42): 421
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.... إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا (43): 427
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا... فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا (44←46) : 430
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ آمِنُوا...... وَكَفَى بِهِ إِثْمًا مُبِينًا (47←50): 433
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا.... وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا (51←57): 437
إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ... ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (58←59): 441
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ... وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (60←63) : 446
مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ... وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا (64←70) : 448
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... نَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا(71←76): 451
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ... وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (77←81): 455
أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ.... وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا (82←85): 460
وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ...سُلْطَانًا مُبِينًا (86←91): 463
وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا... وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا (92←93): 468
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا.... وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (94←96): 471
إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ... وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (97←100): 473
وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ...وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (101←104) : 478
إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ...وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا(105←113): 482
لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ...وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (114←115): 486
إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ... وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا (116←122): 487
لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ... وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا (123←126): 490
وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ... وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعًا حَكِيمًا (127←130): 493
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (131←135): 497
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ... عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا (136←141): 501
إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ... وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا (142←147): 506

زهرة البيان في تفسير القرآن

سماحة الشيخ محمد المختار السلامي
مفتي الجمهورية التونسية سابقا

الجزء الثاني

﴿لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴿١٤٨﴾ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمْ يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الجهر : الإعلان، ضد الإخفاء

إن تبدوا : إن تظهروا

يريدون أن يفرقوا : يحاولون التفرقة.

أعتدنا: هيأنا بتقدير منا.

بيان المعنى الإجمالي:

تنبهوا أيها المؤمنون وراقبوا طرق خطابكم، فإن الله يبغض من يتوجه لغيره بالسيء من الكلام القبيح والجارح. ومن ظُلِمَ فلا إثم عليه إذا هو انتقم لنفسه بمثل ما وقع الاعتداء به عليه. ولا يحل أن يرد على القاذف بالقذف. والله لا يفوته شيء من أقوالكم ولا ما تنطوي عليه قلوبكم. والأولى بالمعتدى عليه أن يقابل الاعتداء بالعفو، فإن الله وهو القادر الذي لا يعجزه شيء يغفر للمتجاوزين.

ثم يتوعد القرآن الكافرين ويكشف عن فاسد عقيدتهم. إنهم يكفرون بالله، فيصفونه بما هو كفر كتحديد قدرته أو إثبات البنوة له أو الشح، أو غفلته عن سوء صنيعهم، ويفرقون بين الله ورسله بتكذيب بعضهم، وبقولهم يكفينا أن نؤمن ببعض الرسل. آمن اليهود بموسى وكفروا بعيسى وبمحمد ونفوا النبوة عن كثير من أنبيائهم، واتبع النصارى اليهود في نفي النبوة عن كثير من الأنبياء وكفروا بمحمد ﷺ. ويقولون نؤمن ببعض الرسل ونكفر ببعضهم، ويتوهمون أنهم ناجون باتخاذهم طريقا وسطا بين رفض النبوة وبين الإيمان بجميعهم. رد الله عليهم زعمهم بأنهم قد انطبقت عليهم حقيقة الكفر الصريح، وأن الله أعد للكافرين، الذين هم منهم، عذابا أليما.

وفي المقابل نوه القرآن بالمؤمنين الذين آمنـوا بـالله المتصـف بجميـع صـفات الكمـال، وآمنوا بجميع الرسل ولم يُكذبوا أي واحد منهم، ووعـدهم بأنـه سـيوفر لهـم أجـورهم، وهو الغفور الرحيم، فمن كان كافرا ثم أسلم فإن الله يغفر له ما مضى.

بيان المعنى العـام :

148- لا يحب الله الجهر بالسوء من القول....سميعا عليما

هذا هدي القـرآن فـي تحديـد الآداب الاجتماعيـة التـي بمراعاتهـا يكـون المسـلمون بسلوكهم الإنساني الرفيع دعاة لـه. إنـه المجتمـع الـذي تـولى الله تأديبـه فحولـه مـن السلوك الجاهلي الذي كانت العواطف توجهـه، لا يسـتحي مـن فحـش الكـلام، ولا مـن كلام السوء، حوّله إلى مجتمع منضبط فـي أخلاقـه ولسـانه وسـلوكه بصـفة عامـة. إن تعويد اللسان على الانفلات منْ الرقابة، ينتهي بصـاحبه إلـى التطـاول علـى الآخـرين، ومعظم المشاحنات تتطور من قول السوء إلى الـبطش باليـد، وقـد تصـل إلـى القتـل. وقديما تعرض ضَبَّة لأبي الطيب المتنبي وقتله لهجائه لـه هجـاء أقـذع فيـه. إن الكلمـة الجارحة يبقى أثرها مهتكا للعلاقات يتفاعل في نفس المعتـدى عليـه مثيـرا للانتقـام مـن ظالمه، فيتمزق شمل المجتمع. وانتشـار قـول السـوء يغـرس فـي المجتمـع جرثومـة الوقاحة، ويتبعه لوث السفاهة والنذالة.

وقد أبدع القرآن في أخصر لفظ: إذ جعل التقابل بين ما يسـعى إليـه المـؤمن وبـين مـا يفضي إليه قول السوء. إن أعز شيء على من فتح قلبـه للإيمـان أن يكـون قريبـا مـن ربه متهيئا لنيل رضاه، وقول السوء يقصيه عـن عنايـة الله ورضـاه، إذ يكـون موقعـه موقع الذين يحرمهم الله من ألطافه ومن ثوابـه. فشـأن المـبغَض أن يكـون قصـيا عمـن لا يحبه لا ينتظر منه كرامة ولا قربـا. ويؤكـد القـرآن لاستئصـال هـذه الآفـة بتنبيـه المؤمنين إلى أن الله يسمع كل ما يحدث في الكون. فليسـتحي المـتكلم مـن النطـق بمـا لا يحبه الله، فإن الله يسمعه، وعطـف علـى التـذكير بصـفته القديمـة السـميع، عطـف العليم ليكون ما يبرز من المجـاهرة بالسـوء يسـتوي فيـه الكـلام والكتابـة والإشـارة، وليجد من انفلت من لسانه سوءا دون قصد في عفـو الله علـى مـا صـدر منـه فـإن الله عليم بالنوايا ومقاصد الناس.

149-إن تبدوا خيرا...عفوا قديرا.

لكن المعتدى عليه بسيء القول هـو بـين أمـرين: إمـا أن يعفـو، ومـن عفـا وأصـلح فأجره مدخر عند الله لا ينقص منه شـيء، وإمـا أن يـرد بمـا يسـاوي التطـاول الـذي

أوذي به. والعفو أولى لأنه من صفات الكمال الإلهــي. أنــه عَفُــوّ مــع أن قدرتــه علــى المتجاوز عنه قدرة لا حد لها. فالعفو كمال، والرد حق.

ولكن مما ينبغي أن يعلمه المؤمن أنه يحرم عليه القــذف وإن كــان دفاعــا عــن الــنفس. فالقاذف الأول يجلد ثمانين جلــدة وتســقط عدالتــه فــلا تقبــل شــهادته، ومثلــه مــن رد القذف بالقذف.

150-151: إن الذين يكفرون بالله... وكان الله غفورا رحيما.

ثم يعود القرآن لوعيد الكافرين والمنــافقين، بعــد أن بــين مــا اســتحقوا بــه ذلــك، ممــا ينطبق على كل من كان على شاكلتهم فيما يستقبل من الأزمان.

أولا: إنهم كفروا بالله، مع ادعائهم أنهم يؤمنــون بــه، وذلــك أنهــم تصــوروا الله وآمنــوا به على نهج هو في حقيقتــه كفــر بــه. إذ نســب بعضــهم إليــه أولادا، ورفــع آخــرون بعض مقدساتهم إلى مقام الألوهية، وقال بعضهم إنــه شــحيح وخلعــوا عليــه كثيــرا مــن صفات البشر، وادعى آخرون أنه منحاز، وكل ذلك كفــر بالحقيقــة الإلهيــة التــي هــدى الله إليها أمة محمد ﷺ. قال تعالى: **(وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)**[1]

ثانيا: محاولاتهم المتكررة للتفريق بين الله وبين من أرسلهم. فهم بتكذيبهم لبعض الرسل ونفي الرسالة عنهم يكونون بذلك قد حاولوا عزل بعضهم عن مقام الائتمان على شرعه، ورموهم بأنهم لا صلة لهم بالله. ففرقوا بين الله ورسله وقطعوا صلتهم به.

ثالثا: إعلانهم أنهم يؤمنــون بــبعض الرســل ويكفــرون ببعضــهم. فالنصــارى كفــروا بمحمد وآمنوا بعيسى وموسى، وأنكروا أيضا نبوة مــن أنكــر اليهــود نبوتــه مــن بعــد موسى. واليهود وقفوا إيمانهم على موسى وكفروا بكثيــر مــن أنبيــائهم وجعلــوا بعضــهم ملوكا ونسبوا لأنبيائهم من الكبائر ما ينفي نبــوتهم، وكفــروا بعيســى وبمحمــد. وهــؤلاء يبررون مواقفهم بأنهم قد اتخذوا طريقــا وســطا ينجــيهم عنــد الله، إذ هــم لــم يكونــوا كافرين بجميع الرسل فيحق عليهم كلمة الكفر.

رد القــرآن علــيهم ردا صــريحا ، فأشــار إلــيهم كــأنهم حاضــرون محصــورون مشاهدون **(أولئك)** ثم أصدر الحكــم القــاطع البيــات: إنهــم بجميــع طــوائفهم ومختلــف مقالاتهم، إنهم أولا، الكافرون الــذين تنطبــق علــيهم مواصــفات الكــافرين جميعهــا. لــم يحصل لهم أي نور من أنوار الإيمان كأن الكفــر انحصــر فــيهم. وثانيــا: إن مــآلهم قــد تقرر بسبب كفرهم فهيأ الله لهم عذابا مهينا كفاء كفرهم وفسادهم.

---

[1] سورة يوسف آية 106

ويصرح القرآن بمآل الفريق الناجي المقابل مفصلا ما جمعه من فضائل، أولا تحقق فيهم الإيمان الصافي، الشامل للإيمان بالله بما اختص به من الوحدانية وصفات الكمال، وآمنوا برسله جميعا من صرح القرآن بأسمائهم ومن ابتعثهم الله لأممهم ولم يذكرهم. فالمسلم يعتقد أن الله أوحى لرسله المختارين من بين البشر لكل أمة رسولها، مؤيدين بالمعجزات ومبلغين للتشريع الذي يرضى أن يكون عليه سلوكهم. وأن هؤلاء الرسل هم النخبة المختارة التي لا يرقى لمستواهم من لم يكلف بالرسالة، وأنهم باعتبار كونهم رسلا لله هم صادقون فيما بلغوه عن ربهم.

152-والذين آمنوا بالله ورسله...غفورا رحيما.

يشير القرآن أخيرا إلى أن الله سيمكنهم من الأجور التي تضاعفت بتضاعف الحقائق التي آمنوا بها وثبتوا عليها. وتختم الآية بأن الله كان غفورا رحيما، ليحقق لمن لم يكن من السابقين لاعتناق الإسلام ولمن سينضم إلى العقيدة الإسلامية الصحيحة الواضحة في المستقبل، أن الله يغفر لهم ما سبق وهو الرحيم بعباده فيدخل من اهتدى بعد ضلاله فسيح رحمته.

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن
ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ
مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا
فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا۟ فِى ٱلسَّبْتِ
وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ
ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا
قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ
عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟
فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ
ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ
مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

البهتان : الكذب المختلق الذي يفاجأ به المكذوب عليه، فلا يجد جوابا.

صلبوه: الصلب ربط المحكوم عليه بوثاق على عمود لا يستطيع الحراك معه.

شبه لهم: وقع الشبه على غيره بما يظن أنه هو.

بيان المعنى الإجمالي :

قاوم اليهود الدعوة الإسلامية مقاومة شرسة، فمن ذلك أنهم خيلوا للناس أنهم يؤمنون إذا وجدوا ما يثبت أن محمدا ﷺ رسول من عند الله. ولذلك طلبوا منه أن ينزل عليهم من السماء كتابا، أوراقه وخطه، منزلة من السماء، ويشاهدون هذه المعجزة. ليذعنوا للإسلام. وقد يكون بعض الناس يروج عليه صدق نيتهم، ولذلك هوّن الله الأمر على نبيه، بأن هذه طريقتهم في التضليل والتجاوز، فهم قد سألوا موسى عليه السلام أكبر من ذلك، إذ سألوه أن ينظروا إلى الله فيدركونه كما يدركون جميع المبصرات، وأن الله أرسل عليهم صاعقة لتأديبهم كما سبق في سورة البقرة. ولم يفد ذلك التأديب فيهم، فاتخذوا العجل الذي صنعه لهم السامري إلها، وعفا الله عنهم، وأعطى الله موسى عليه السلام قوة أخضعتهم لشريعته. ولما طلبهم أن يعاهدوا على الالتزام بما جاءهم من عند الله تلددوا، فرفع الله فوقهم الطور، إما أن يعاهدوا وإما أن يسحقوا سحقا تحته فخضعوا، وأمرهم أن يحترموا السبت وأعطوا المواثيق على ذلك، فتحيلوا لانتهاك المنع.

ثم إن الله سلط عليهم أنواعا من العذاب لنقضهم الميثاق، ولكفرهم ولتعديهم بالقتل على بعض أنبيائهم. وهذه حقائق مثبتة في التوراة التي يؤمنون بها، وتعللوا بأن قلوبهم محجوبة بحجاب ليس من فعلهم فهم غير مسؤولين، فرد الله عليهم بأنهم ألفوا المعاصي حتى أصبحت قلوبهم مغشاة من ظلمهم فلا يؤمنون. وسلط الله عليهم أنواعا من العذاب بسبب كفرهم أيضا ورميهم مريم النقية الصالحة زورا، بالفساد والفجور، وتبجحهم بأنهم قتلوا بقصد الإهانة المسيح عيسى ابنها عليه السلام. وحقق الله أنهم كاذبون، فقد نجى الله عيسى من مكرهم، وإنما وقع الصلب ونفذ القتل في شبيه به. وهذا أمر مختلف فيه بين النصارى، فرواياتهم في هذا روايات غير موثقة، ولا يملكون اليقين في قتله، إذ الحقيقة أن الله نجاه من كيدهم ورفعه عنده، والله لا يغلبه شيء. يفعل ما يشاء وينفذه بحكمته. ثم يثبت القرآن حقيقة أخرى: هي أن جميع أهل الكتاب اليهود الزاعمين أنهم قتلوه، والنصارى الذين يؤمنون بالصلب، كل واحد منهم عند النزع تبرز له الحقيقة: أنه ما قُتِل وما صُلِب.

بيان المعنى العام:

153 -154: يسألك أهل الكتاب..ميثاقا غليظا.

واجه النبيﷺ في مكة المشــركين بعـنفهم واســتكبارهم، ومتنــوع إيــذائهم المــادي ممــا فصلته كتب السيرة.

وفي المدينة واجه نمطا آخر من المعاكسة للدعوة قــام بــه يهــود، عملــوا علــى تشــكيك أصحابه في صدق دعوته، والمغالطة بما يشيعونه فــي الأوســاط بخبــث ومكــر. فتــولى الله في هذه الآيات عرض ما مكروا به، وتولى أيضــا الــرد علــيهم.وتعــين مــن ســياق الآية أن المقصود بالذين أوتوا الكتاب، اليهود.

طلبوا من رسول الله ﷺ أن يأتيهم بآيــة تــدل علــى أنــه رســول مــن الله، طلبــوا: أن ينزل عليه من السماء كتابا مخطوطا. وهــذا الطلــب قــد يــروج علــى صــغار العقــول ويجدون فيه طلبا معقولا. وتولى الله تبكيتهم من ناحيــة، وتأييــد رســوله بالكشــف عمــا سألوه من قبل لموسى عليه السلام الذي جمــع كلمــتهم وأخــرجهم مــن الاضــطهاد الفرعــوني، ورأوا من الآيات الدالة على صدقه الشــيء الكثيــر عنــد خــروجهم مــن مصــر، وفــي عبورهم إلى سيناء، وفي مقامهم فيها، ومع ذلــك ســألوا موســى أن يمكــنهم مــن رؤيــة الله عيانا، لا رغبة في السمو إلى هــذه المنزلــة، ولكــن همهــم أن ينظــروا إلــى شــيء عجب مخالف لما يبصرون عادة. وأن الله صــعقهم بســبب ظلمهــم وتجــاوزهم للحــدود، وقد امتن الله عليهم بعد ذلك كما قدمنا بيانه في ســورة البقــرة. والعقوبــة ثــم المنــة لــم تُصلح نفوسهم، إذ هــم بعــد ذلــك عبــدوا عجــل الــذهب الــذي صــوره لهــم موســى السامري، ثم إن الله عفا عنهم أيضــا، وأخضــعهم ســيدنا موســى عليــه الســلام لقبــول شريعته، وكان له سلطانه القوي والبين على تلكم النفــوس التــي تعــودت علــى التمــرد. وألزمهم أن يبذلوا عهدا موثقا بالتزام ما جــاءهم عــن الله، فتــرددوا ومَــا طَلّــوا، فرفــع فوقهم الطور، ووقعوا بين الإذعان للحــق وبــذل العهــد وبــين أن ينســحقوا تحتــه ولا يبقى لهم أي أثر. فطاعت نفوسهم عند ذلك ببذل العهد والتزام الميثاق.

وبعد كل ذلك كان من الطبعي أن تلين شكيمتهم ويســارعوا إلــى الطاعــة، وينفــذوا مــا يؤمرون به بدون تردد ولا تحريف. وفتح علــيهم أن يــدخلوا بــاب القريــة التــي كتبهــا لهم سجدا، فأبوا. وحرم عليهم يوم السبت فخرقــوا حرمتــه. وكــل ذلــك ســبق تفصــيله في سورة البقرة وأن الله أخذ عليهم ميثاقا مؤكدا لا مثنوية فيه ولا يقبل استثناء.

ذكر القرآن بتلكم المواقف لبني إسرائيل مع موسى عليه السلام ليُهــوِّن علــى رســوله، بــأن مــا يلقاه منهم من تعنت لقيه الأنبياء السابقون مــنهم، وليســجل أن تــربيتهم لأطفــالهم ثَبَّتَــتْ

ما كان عليه أسلافهم، فهم ماضون على نفــس الطريقــة، وأن اللجــاج والــدوران وطلــب النزول إلى المجسم المحسوس رسخ فيهم رسوخا لا يجدون عنه حوَلاً.

155-فبما نقضهم ميثاقهم....فلا يؤمنون إلا قليلا.

صرح بعصيانهم وأنهم لا يُؤمِنونَ، من ناحية أخرى ليبني علـــى فســادهم مــا تــأهلوا لــه من نقمة الله وغضبه عليهم،فلذا كان أول ما ســجل علــيهم نقضـــهم للميثــاق، وهــو مــا أخذوا به وسُلط عليهم بسببه من التنكيل ما سُلط. واستمر شـــأنهم علـــى هـــذا النحـــو كلمــا عاهدوا عهدا نبذوه.

وقد فصلت سورة البقــرة بعــض مــا صــدر مــنهم مــن كفــر بآيــات الله الواضـــحة، وجراءتهم على أنبيائهم بالإنكار لنبوتهم تــارة، وبقــتلهم، كمــا هــو ثابــت عنــدهم فــي التوراة، فقد قتلــوا مــن الأنبيــاء، أرميــاء، وحزقيــال، وأشــعياء، وزكريــاء، ويحيـــى، والقتل للأنبياء شناعته لاصقة بهم لأنه من أنكر الباطل والظلم.

وكذلك تبريرهم للرفض بمبررات كاذبة، إذ هم في الحقيقــة إنمــا يريــدون التنصــل مــن الإذعان للحق، كقولهم: قلوبنا عليها حجاب لا ينفذ مــا تقولــه إلــى أفهامنــا، فــلا تنتظــر منا أن نهتدي بدعوتك. ويكــذبهم الله فــي دعــواهم، وهــو العلــيم بــالقلوب وخلجاتهــا، وبالطبيعة التي خلقها عليها، فيقرر أن قلوبهم كقلوب البشــر جميعــا فطــرت علــى قبــول الخير أو الشر، وأن الإنسان بإرادتــه للخيــر ينمـــي قابليــة الخيــر والحــق، أو بإرادتــه للشر ينمي قابلية الشر والضلال، حتى يألف أحدهما إلْفــا ينســيه مــا هــو مُمَكّــن منــه من أحدهما بأصل الخلقة. واليهود بتنميــة الانحــراف فــي مــداركهم وأرجــاعهم كَونُــوا حجابا رافضا لأنوار الحق، فطبع الله على قلوبهم بما اختاروا لأنفسهم.

والطبع يتحقق بإحكام الغلق على الشيء، ثــم وضــع خــتم عليــه، فــلا يمكــن الوصــول إلى ما يحويه إلا بإزالة السداد الذي يَظْهَرُ أيُّ تغيير عليــه، بــزوال أثــر الخــتم. وبــذلك فإنه لا يرجى أن ينفذ نور الإيمان إلى قلــوبهم. ووصـــف إيمــانهم بالقليــل تأكيــدا لنفـــي حصوله، لأن الإيمان مرتبة واحدة، هي اليقــين الأيقــن بمــا يحويــه ممــا يرضـــى عنــه الله، فهم إن آمنوا مثلا بموسى عليه السلام فهم لا إيمــان معتبــرا لهــم، لأن تخلــف أي شــعاع من أشعة الإيمان يفضي إلى الظلام الدامس الذي تذهب معه جميع الأشعة.

156-وبكفرهم وقولهم....بهتانا عظيما.

ثم أعاد القرآن التذكير بالسبب الأصلي لمــا ســلط علــيهم، وهــو الكفــر فقــال تعــالى: قرنوا الكفر بظلم آخر ثبتوا عليه، وبلغــوه لــذريتهم، فاســتحق الــذين كــانوا حاضــرين والذين من بعدهم جزاء إفكهم. اتهموا مريم التقيــة النقيــة العابــدة المخلصــة لله، رموهــا

بهتانا وإثما وكذبا بما لا يتصور أن ترمى به لعفافها وانصرافها بكليتها لعبادة ربها. فوصف ما اختلقوه بأنه بهتان عظيم.

157-158: وقولهم إنا قتلنا المسيح...عزيزا حكيما.

إمعانا منهم في الكفر ادعوا أنهم قتلوا النبي الصالح الذي بعث فيهم ليصفي ما علق بعقائدهم من انحراف، ويخفف عنهم بأمر ربه بعض ما كان محرما عليهم كما تقدم تفصيله في سورة آل عمران. فعزموا على إهانته وقتله، ثم رَوَوْا ما ظنوا أنهم فعلوه لأخلافهم، حتى أصبح معدودا عندهم مزية من مزاياهم. ويحقق الله في هذا الأمر الذي دخله كثير من اللبس: إن الله قد نجى عيسى عليه السلام من الإهانة، وحماه من مكرهم، وأن الذي قُتِل ليس عيسى الذي رفعه الله إليه، بل ألقي الشبه على أعظم تلاميذه فسادا وأخبثهم نفسا وأشدهم خيانة، فظنوه عيسى وقتلوه. وقد تقدم في سورة آل عمران تفصيلات أعمق في هذه القضية، ودعوى الرسول ﷺ نصارى نجران للمباهلة وامتناعهم. ويؤكد القرآن الحقيقة التي علمها لاتِّباع هذه الأمة من أمر عيسى، التي مبناها أن الله عزيز لا يغلبه شيء، حكيم يحقق ما أراد مع إبرازه على أفضل الوجوه وأتمها تبعا لعلمه المحيط بجميع التفاصيل التي قد يغيب بعضها عن البشر.فخلق عيسى بدون أب لا استحالة فيه.

159-وإن من أهل الكتاب..... يكون عليهم شهيدا.

ثم يتبع القرآن ما ذكره في أمر عيسى عليه السلام، بحقيقة أخرى هي من علم الغيب، مفادها: أن ما من فرد من اليهود والنصارى إلا يؤمن بما ذكره الله في القرآن عنه. فاليهود عندما يحتضر كل فرد منهم تتكشف له الحقيقة بما ليس معه أي ريب أن عيسى لم يقتل ولم يصلب، وأنه رسول صادق. والنصارى كذلك عندما يحتضر أي فرد منهم يكشف الله له الحقيقة بأن عيسى عبد الله ورسوله لم يقتل ولم يصلب وأنه ليس إلها. ويتواصل قيام هذه الحقيقة يوم القيامة، فيكون عيسى شهيدا على الطائفتين، مصدقا من رب العزة عندما يعلن بأنه بلغ ما أوحي له به، وأن اليهود أعرضوا عنه، وأن النصارى الذين يدعون الإيمان به قد حرفوا رسالته، وأدخلوا فيها ما يتبرأ منه.

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا

لِّلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

صدهم : منعُهم الناس

الراسخون في العلم : المتمكنون في العلم

بيان المعنى الإجمالي :

مما يؤكد افتراء اليهود على الله **(من أنهم شعب الله المختـار)** مـا ذكرتـه هـذه الآيـات. إنه تبعا لأنواع الظلم الصادر منهم ومـنعهم النـاس مـن اتّبـاع الطريـق الـذي يرضـى الله عنه، عاقبهم الله بعقوبات تـردعهم عـن التمـادي فـي ذلـك. حـرم علـيهم تنـاول بعض الطيبات التي كانت حلالا، لتـردعهم عـن مواصـلة أكـل الربـا المحـرم أيضـا، واحتيالهم على الناس والاستيلاء على أموالهم بالباطـل. تلكـم هـي منـاكر شـاعت فـي المجتمع اليهودي وما تزال متواصلة إلى اليوم، رغـم تـوبيخهم وحرمـانهم. ثـم حطـم دعوى امتيازهم، بأنه أعد للكافرين مـنهم عـذابا أليمـا. وعَـدلُ الله هـو العـدل الكامـل فهو لا يشنع باليهود ولا يعد لهم العذاب الأليم لأنهم يهود، ولكـن ذلـك كـان جـزاء مـا اقترفوه، والفساد الذي التزموه. ولذا نصت الآيـة علـى أن الـذين جمعـوا بـين الـتمكن من العلم والإيمان الحق، هم غير متعصبين، فهـم يؤمنـون بمـا أنـزل إليـك يـا محمـد ويؤمنون بما جاء به الأنبياء السابقون، ويـؤدون صـلواتهم علـى أتـم وجـه، ويبـذلون عن طواعية زكاة أمـوالهم، وقلـوبهم عـامرة بالإيمـان بـالله وبـالجزاء يـوم القيامـة. وهؤلاء قد وعدهم الله ووعده الحق أنه سيؤتيهم أجرا عظيما لا يعلم مقداره إلا هو.

بيان المعنى العام:

160 -فبظلم من الذين هادوا...كثيرا.

عاد القرآن ليكشف أمر اليهود وما عوقبـوا بـه فـي زمـن موسـى عليه السلام. فزيـادة عـن العقوبات المفصلة سابقا، سلط علـيهم عقوبـة تـؤدبهم حتـى يرتـدعوا عـن صـلابتهم، واسترسالهم في الغي. وهذا نـوع مـن العقوبـات التأديبيـة، فقـد يمنـع الفـرد أشـياء ليتحول من الاسترسال في إشباع شهواته إلى نوع مـن الانضـباط، فتسـلس قيادتـه إلـى الخير. وقد سار على هذا المنهج بصـفة خاصـة القـائمون علـى تمـرين الجنـود علـى

الطاعة. فهم يمنعونهم من بعــض الأشــياء التــي لا ضـــرر فيهـــا فــي الظـــاهر، ولكـــن ليؤدبوهم بواسطة الحرمان على قبول ما يؤمرون بـــه، وحســـن الانقيـــاد. واليهـــود قـــد كان هذا الحرمان مسببا عن أمور:

1) ظلمهم في العقيدة والسلوك والعناد.

2)عملهم الدؤوب على الحيلولة بين الصالحين وبين الإخلاص لله، والقيام بما يشرعه

161- وأخذهم الربا وقد نهوا عنه...عذابا أليما.

3) شراهتهم على الربا، هذه الآفة التي نهـــوا عنهـــا. وزعمـــوا أن الله حـــرم الربـــا فـــي تعامل اليهود فيما بينهم فقط. ولكن الربـــا ظلـــم وفســـاد يتبعـــه اخـــتلال فـــي الاقتصـــاد، فادعاؤهم قصر ذلك على المبادلات بين الإسرائيليين تحريف وكذب على الله.

4) أكلهم أموال الناس بالباطل. وفـــي التـــوراة يعترفـــون بانتشـــار الرشـــوة. ومـــن ذلـــك أنهم يستبيحون الاستحواذ على أمـــوال غيـــر اليهـــود. وفـــي اســـتحواذهم علـــى أمـــوال الفلسطينيين وديارهم وأراضيهم ما يقوم شاهدا علـــى صـــدق مـــا وصـــفهم بـــه القـــرآن. وما تقدم في سورة آل عمران: **(ذلك بأنهم قـــالوا لـــيس علينـــا فـــي الأميـــين ســـبيل)**[2] ويصرح القرآن بأن الله قد هيأ للذين كفروا منهم عذابا يبلغ ألمـــه كـــل جـــزء مـــن أجـــزاء كيانهم المادي والنفسي.

162- لكن الراسخون في العلم...أجرا عظيما.

كشأن القرآن في الإنصـــاف وعـــدم التعمـــيم، وقـــع التصـــريح باســـتثناء اليهـــود الـــذين تمكنوا من العلم، وكانوا لا يرتجُّون لـــبعض الظـــواهر، وثبـــاتهم علـــى مـــا اســـتقر فـــي مداركهم لا تزلزله الأوهام والخيـــالات. هـــؤلاء العلمـــاء الراســـخون، يؤمنـــون برســـالتك ،إذ تقوم لهم الشواهد على صدقك وأن مـــا أتيـــت بـــه هـــو وحـــي الله، وإدراكهـــم للحـــق وتشبعهم به جعلهم أيضا يؤمنون بما أنزله الله علـــى رســـله الســـابقين، إذ الحـــق واحـــد ونوره لا يختلف. وكذلك تبعهم من لم تفسد فطرتهم فـــأدركوا حقيقـــة مـــا تـــدعوهم إليـــه، واستووا مع الراسخين في العلم وإن لم يكونوا منهم، اســـتووا فـــي الإيمـــان بـــك وبجميـــع رسالات الله. وعطف علـــيهم المقيمـــين الصـــلاة، وجـــاء العطـــف هكـــذا باليـــاء علـــى خلاف ما يقتضـــيه الظـــاهر مـــن الرفـــع، **(المقيمـــون الصـــلاة)** لأن المعطـــوف عليـــه **(الراســـخون)** والتـــالي:**(المؤتـــون الزكـــاة، والمؤمنـــون)**- ووجهـــه أن المتعاطفـــات إذا توالت جاز اتّباع بعضها لبعض وجاز قطع أحدها بإضـــمار : أمـــدح ــ مـــثلا، وهـــو مـــا

[2] سورة آل عمران ،آية 75

أرجحه لأن القطع يدل على الاهتمام بالمقطوع مع ما يدل عليه الفعل المقدر من معنى زائد. يتأيد ذلك بأن الصلاة في الدين الإسلامي لها الشأن المتفرد، إذ هي تابعة للتوحيد متكررة لإيقاظ المؤمن لما تضمنه الدين.

إن اليهود الذين جمعوا بين الإيمان بك وبما أنزل من قبلك، والذين أنوه بهم وأمدحهم لأنهم يقيمون الصلاة عمود الإسلام، ويؤتون الزكاة طواعية، تحت راية الإيمان بالله واليوم الآخر، سيؤتيهم الله من فضله أجرا عظيم القدر يتجاوز التصور.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ ۚ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (163) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا (164) رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (165) لَّٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (166)﴾

بيان معاني الألفاظ:

أوحينا: أوصلنا لك حقائق وعيتها متيقنا أنها من عند الله.

يشهد بما أنزل إليك :يثبت ويعلن صدقك وكذب المدعين أنه ليس من عند الله.

كفى بالله شهيدا: شهادة الله أقوى دليل على صدقك، فهي كافية.

بيان المعنى الإجمالي :

يُثبِتُ الله أن سنته مع جميع رسله أنه يوحي إليهم بكيفية يسمو بهم إلى مجاوزة وصول المدارك عن طريق الحس إلى مستوى يحصل معه أبلغ أنواع اليقين وأتم مستويات الإدراك لما أراد الله أن يثبته في قلب الموحى إليه فيعيه وعيا ثابتا. وهذ الوحي مكن الله منه الأنبياء نوحا ومن تلاه من النبيين كما أوحى إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وأبناء يعقوب وإلى عيسى وإلى أيوب وإلى يونس وهارون وإلى سليمان، وآتى داود كتابا هو الزبور. وكلهم ما قدموا كتابا جامعا مقروءا من عند الله كما اقترح اليهود تعنتا. وأرسل رسلا غير المذكورين، بعضهم قد سبق أن تحدث عنهم القرآن ورسلا لم يسبق لهم ذكر في القرآن.

والواجب الإيمان تفصيلا بالرسل المذكورين والإيمان الإجمالي بمن لم يذكر. على معنى أن كل رسول من عند الله يجب الإيمان برسالته وتقديره بأن ما جاء به حق وأنه معصوم.

وخص من بين الرسل موسى عليه السلام بأن أبلغه كلامه مباشرة بدون واسطة بدون حرف ولا تموج هواء.

إن مهمة هؤلاء الرسل تبشير المتبعين لما جاؤوا به، بأن لهم الطمأنينة في الحياة الدنيا، والفوز في الآخرة. وفي المقابل ينذرون من أعرض عما جاؤوا به بخسارة الدارين. ومن ناحية أخرى، رسالاتهم تقطع الاعتذار الذي يمكن أن يحتج به الكافرون ومرتكبو الشرور، يعتذرون بأنهم لو جاءتهم هداية الله ما وقعوا فيما وقعوا فيه.

والله عزيز لا يخرج شيء عن تنفيذ ما يريده فيه، وهو حكيم فيما رتب عليه أمر الكون في الحاضر والمآل.

ويكفي طمأنينة لصدق رسول الله ﷺ فيما جاء به أن الله يحقق صدقه ويعلن كذب الكافرين المشككين في صدقه. والملائكة الخِيَرَةُ الصادقون المعصومون يعلنون أيضا أن القرآن حق، وكفى بالله شهيدا.

بيان المعنى العام:

163 – إنا أوحينا إليك...وآتينا داود زبورا.

وتولى القرآن الرد عليهم كما تبين في الآيات السابقة. ثم أضاف إلى ذلك ما يحطم شغبهم بدليل يدمغ تعنتهم، فذكر سبحانه بالحقيقة التي جرى عليها أمر المرسلين جميعا، هذه الحقيقة هي أن الله لم ينزل على كل رسول كتابا، مع أن اليهود يعترفون بنبوتهم. فالله سبحانه أوحى لنبيه محمد ﷺ وحيا مثل ما أوحى لبقية الأنبياء، فلا تلازم بين النبوة وإنزال كتاب من السماء. ولكن خصيصة الرسل، هي الوحي. والوحي هو وضع تكون فيه حالة من اصطفاه الله قد بلغت من التجرد عن الإحساس المادي مستوى يستطيع فيه أن يتلقى ويعي ما يريد الله أن يمكنه منه من الهدى، متيقنا أن المعنى الذي وعاه هو من عند الله بصفة تساوي أو تفوق ما يسمعه عادة وهو في تمام الوعي والإدراك. إن إلقاء المعنى المتيقن أنه من عند الله، تارة يكون باللفظ، وتارة يكون بطريق آخر لا حرف فيه، ولكن وضوح معناه في قلب النبي كأشد ما يكون الوضوح.

هذه سنة الله مع الأنبياء ابتداء من أول نبي ورسول، وهو نوح عليه السلام. وتضافرت الأدلة على أن نوحا هو أول رسول من عند الله بعثه الله بشريعته. والظاهر أن بعثته كانت للعالمين كافة كرسالة النبي ﷺ، وأن الله بعث بعد نوح أنبياء كثيرين،

وصرحت هذه الآية بأسماء بعضهم، فأولهم ذكرا إبراهيم. وحقيق بأن يكون المقدم، فإنه عليه السلام جاهد في سبيل نشر توحيد الله باليد واللسان والعقل، وأقام الأدلة على التوحيد وأبطل الشبه، وتعرض إلى مقاطعة أقرب الناس إليه، وابتلي بتسليط العذاب عليه، وهو الذي بنى أول بيت لله بمكة، وهُدِيَ إلى إبراز طريقة التعلق بالله بكيفية واضحة. ثم تابعت الآية ذكر الأنبياء فذكرت ابنيه إسماعيل جد النبي ﷺ وإسحاق جد موسى. والأنبياء من نسل إسحاق وهم: يعقوب (إسرائيل) وأولاد يعقوب وهم الأسباط. ولا أريد أن أتابع التوراة في تعيين أسمائهم، فأنا لا أثق بما جاء فيها، ليقيني أنها حرفت ولم تبق على صفائها الأول. وأكبر دليل على ضياع النص الأول: أنها كتبت، في وقت موسى عليه السلام طبعا، باللغة العبرية القديمة التي كان موسى وبنو إسرائيل يتكلمون بها. ولا يوجد اليوم بين أيدينا أي نص باللغة العبرية القديمة التي هي لغة ميتة. لا هي موجودة، ولا يوجد من يفهمها. والموجود الآن هو بغير اللغة التي كان موسى عليه السلام يخاطب بها قومه، فهي على أحسن الفروض ترجمة تعبر عن فهم مترجمها. وأيضا ما حل ببني إسرائيل وتشتتهم في العالم بعد السبي البابلي، وتفرقهم تفرقا كبيرا في أنحاء العالم، ينفي الوثوق بشيء مما يدعون أنه التوراة. خاصة ونحن إذا تجاوزنا سفر الخروج لا نجد في التوراة إلا تسجيلا لتاريخ بني إسرائيل وتيههم في العالم في أزمان بعيدة عن عصر موسى وهارون. ولاقداسة ولا ثقة في تاريخ كتبه وسطره مجهولون.

ومن نسل يعقوب أيضا سيدنا عيسى عليه السلام، فهو يهودي بعثه الله لبني إسرائيل ليخفف عنهم بعض ما شدد الله به عليهم ليؤدبهم.

أما سيدنا أيوب عليه السلام، فقد اختلف في نسبه وفي العهد الذي بعث فيه وسيتحدث عنه القرآن بصفة أوسع في سورتي الأنبياء وص. والذي نجزم به أنه رسول من رسل الله وما زاد على ذلك مما لم يُعْنَ القرآن بضبطه لا يتعلق به كبير فائدة. ومن المرسلين يونس بن متى، ويذكر أنه بعث إلى أهل نينوى في القرن الحادي عشر قبل الهجرة. وسيأتي مزيد تفصيل لبعض أحواله في سورتي يونس والصافات.

ومن أنبياء بني إسرائيل هارون أخو سيدنا موسى والنبي الملك سيدنا سليمان وكلاهما من نسل يعقوب، ولم يؤت أحد منهما كتابا. ومنهم أيضا سيدنا داود. وهو من نسل سيدنا يعقوب أيضا وآتاه الله الزبور كتاب مواعظ. ولم ينزل عليه من السماء، واليهود يعترفون بنبوته.

164-ورسلا قد قصصناهم عليك...تكليما.

ثم عمم القرآن فذكر: أن الرسل الذين بعثهم الله لهداية البشرية كثيرون، وأن بعضهم قد قص الله على رسوله مِنْ أَمْرِهِمْ فيما أوحي إليه قبل نزول هذه الآيات، ومنهم من لم يخبر الله رسوله عن أنبائهم. وكل ذلك تابع لحكمة الله فيما أخبر به وفيما طواه.

ثم ذكرت الآية لتثبيت الواقع من جهة، وللرد على اليهود من جهة أخرى، فذكر القرآن أن الله كلم موسى تكليما، فأتى بالمفعول المطلق **(تكليما)** لتأكيد وقوع الكلام من الله لموسى.

وإثبات صفة الكلام لله أمر يقيني وإن قال المعتزلة: هو متكلم والكلام ليس صفة له، واستعانوا بالسلطة لفرض رأيهم، وامتحن كثير من أئمة الهدى فصبروا على التعذيب، وقتل عدد غير قليل منهم، حتى رفع الله الفتنة. والآية ترد مذهبهم إلا على ضرب من التأويل البعيد.

إنا نثبت لله كلاما منزها عن الأحرف والأصوات، وهو أمر من أمور الغيب تقصر أدوات إدراكنا عن تصوره تصورا دقيقا، فنؤمن به إجمالا على أن الله أبلغ موسى ما أراد إبلاغه بدون واسطة ملك ولا شجرة ولا أي واسطة أخرى، وبلا حرف ولاصوت، فأدرك موسى بسمعه ما تعلقت الإرادة الإلهية بإبلاغه إليه ووعاه عقله، وأصبح ما يمثله كلاما مستقرا في ذاكرته، فتسمية ما تقبله موسى كلاما، هو أقرب تعبير عن الحقيقة التي تلقاها موسى من ربه، وهو غير الكلام وأسمى منه، وتقصر اللغة، المعبرة عن المدارك البشرية للأشياء، أن تعبر عنه تعبيرا مساويا.

165-رسلا مبشرين ومنذرين...عزيزا حكيما.

أبان القرآن عن حال أولئك المرسلين فقال: هم مبشرون لمن يؤمن بأساسيات العقيدة ويطيع أوامر ربه ويخلص له، يبشرونه برضوان الله وبطمأنينة يجدها في حياته الدنيا، وبالفوز بالتكريم والنعيم في الحياة الآخرة. كما أنهم في المقابل ينذرون المخالفين لهدايتهم من غضب الله وما سيلقونه في الدنيا من القلق والضياع واليأس، ومن المهانة والعذاب يوم القيامة.

وبهذه البشارة والنذارة ينقطع ما يمكن أن يعتذر به المقصرون، والذين سلكوا في حياتهم الدنيا ما يتناقض مع مقتضيات الخلافة في الأرض فأفسدوا ولم يصلحوا. إن هؤلاء الرسل الذين بعثهم الله في أقوامهم أو للبشرية عامة لمساعدتها على معرفة الخير والتزامه والبعد عن الشر، ينقطع بهدايتهم تصور أن يقول المسرفون على

أنفسهم، المقتحمون للمناهي والآثام والقبيح والظلم والشر، أن يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير، ولو جاءنا رسول يهدينا لطريق الخير ما وقعنا فيما وقعنا فيه.

وهذا التصريح القرآني المفيد عدل الله في محاسبة البشر عن سلوكهم في الحياة نرجح به أن من لم تبلغه رسالة أي رسول، هو غير مسؤول عن أفعاله. قال تعالى: **(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)**[3].

166-لكن الله يشهد... شهيدا.

يطعن اليهود في صحة كون القرآن منزلا من عند الله، فتولى الله الرد عليهم ردا يسفه أقوالهم بطريقة لا أبلغ منها. فذكر سبحانه أنه يشهد، والشهادة هي إعلان من الشاهد بأن ما يقوله المشهود له حق، وأن ما يدعيه الطرف الآخر غير صحيح وكذب. والذي تولى الشهادة هو الله الذي لا يبلغ أحد من علم الحقيقة مبلغ ما عنده. وبماذا يشهد رب العزة؟ يحقق أن القرآن منزل إليك من عنده، وعطف على شهادته شهادة الملائكة بذلك، وهم الذين حسب طبيعة خلقتهم مسلوبون من الاختيار بين الصدق والكذب فلا يقولون إلا الحق. ثم بين أنه أنزله مرتبطا بعلم الله، فهو على أعلى مستويات الحقيقة ، الأمر الذي جعله معجزا في لفظه وفي معناه.

وإذا شهد الله بأمر فهو أعلى ما يمكن أن يتصور من التأييد، وتفنيد ما يخالف ما حققه، فلذلك لا يمكن أن يُطلب شيء آخر بعد ذلك. وكفى بالله شهيدا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّواْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَظَلَمُواْ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

صدوا :منعوا الناس من الدخول في الإسلام.

ضلوا: ضل: لم يهتد للطريق فضاع.

[3] سورة الإسراء آية **15**

بيان المعنى الإجمالي :

يحقق القرآن أن الكافرين الذين عملوا على منــع النــاس مــن الإيمــان الطريــق الهــادي لبلوغ رضوان الله قد تاهوا وابتعــدوا عــن الطريــق الــذي ينجــيهم. إن هــؤلاء الكفــرة الذين غشى على قلوبهم ظلام الكفر، فسمحوا لأنفسهم مــع كفــرهم بــأن يظلمــوا النــاس بالاستيلاء على حقوقهم، وتســليط العــذاب علــيهم، هــم يائســون مــن رحمــة الله فــلا يطمعون في عفو الله عن ذنــوبهم. ولا يلطــف بهــم ليمكــنهم مــن الاهتــداء. قصــرهم عنادهم وظلمهم على السير في طريق جهــنم، يصــلون نارهــا ويفقــدون كــل أمــل فــي الخروج منها. وتحقيق ذلك يسير على الله الذي ينصاع كل شيء لإرادته.

ودعوة كريمة من رب العزة للبشرية جميعا أن ينتبهوا لما فــي هــذا الــدين الــذي يقدمــه لهم أكمل الرسل، الدين الذي يمكنهم من الجمع بــين مــا هــو خيــر لهــم فــي الحيــاتين. وهم إن أعرضوا ولم يؤمنوا فإنهم لا يضرون إلا أنفســهم فــإن الله غنــي عــنهم، إذ كــل ما في السماوات والأرض ملك له خاضع لإرادته وتصرفه.

بيان المعنى العام :

167←169: إن الذين كفروا وصدوا...وكان ذلك على الله يسيرا.

ناقشت الآيات السابقة اليهود فيما كانوا يقومون بــه مــن التشــكيك فــي صــدق الرســول ﷺ، وفيما اقترحوه من إنزال كتــاب مــن الســماء مقــروء. وهمهــم هــو توقيــف المــد الإسلامي. وهم يشتركون في التشغيب مع المشــركين، فجــاءت هــذه الآيــة منــذرة لهــم وكاشفة عن حقيقتهم، فهم قد جمعوا :

أولا: إلى الكفر بما أنزله الله مــن الهــدى، مَنْــعَ مــن شــرح الله صــدره للإســلام مــن المبايعة على التزام عقيدتــه وأحكامــه. إنهــم بــذلك قــد ضــلوا وولــوا ظهــورهم لمــا ينجيهم، وزادوا بعدا تائهين. كلما أوغلــوا فــي مــنهجهم الفاســد ازدادوا ضــياعا ينتهــي بهم إلى الخسران والهلاك.

ثانيا: أنهم جمعوا إلى الكفر قساوة قلوبهم، القسوة التــي تغشــي علــى مشــاعرهم فتنــزع منها الرحمة والإنصاف، فتستسيغ تبعــا لــذلك غمــط حقــوق الآخــرين والإيقــاع بهــم والتسلط الباغي عليهم.

إنهم بما جمعوه من الكفر والصد عــن ســبيل الله والظلــم، قــد جمعــوا الأســباب التــي تفضي بهم إلى نيل جزائهم العادل، وهو حرمــانهم مــن رحمــة الله فــلا يغفــر ذنــوبهم، ولا ينزل عليهم ألطافه التي تسعد على الظفــر بــالطريق الهــادي لمــا ينجــي الإنســان في حياته الدنيا وفي معاده. ويســتثني القــرآن مــن الطــرق طريقــا واحــدا ســيهتدون

إليه، هو طريق الخسـران الكامـل فـي المعـاد، طريـق جهـنم دار المهانـة والعـذاب الأبدي الذي لا مطمع من انتهائه. إن إفضاءهم إلى ما هيـأوا أنفسـهم إليـه مـن العـذاب والمهانة يتحقق لا محالة، لأن الله لا يصعب عليه أي شيء تتعلق إرادته بتحقيقه.

170-يا أيها الناس قد جاءكم....وكان الله عليما حكيما.

ثم توجه القرآن بالخطاب لجميع بني الإنسـان، مـن كـان موجـودا عنـد نـزول الآيـة ومن يأتي بعد ذلك، يدعوهم ليكونوا واعين غير غـافلين عمـا فـي الإسـلام مـن خيـر واضح، يقدمه لهم الرسول الكامل فـي صـفاته وأخلاقـه الـذي ألِـف الحـق والتزمـه، فجميع الموازين الإنسانية العقلية والخلقية قـد تـوفرت فيـه، تخيـره لكـم ربكـم الـذي والى ويوالي عليكم عنايته ومدد فضله، فآمنوا، يكون الإيمـان خيـرا لكـم حسـب كـل الوجوه والتقادير. فالإيمان يجعل حياتكم في الـدنيا أسـلم وأهنـأ، وعـاقبتكم يـوم القيامـة أفضل ما يرجوه البشر من الكرامة والنعيم. إيـاكم أن تظنـوا أن الله ينتفـع مـن إيمـانكم أو يتضرر بكفركم. إنكم إن لم تستجيبوا لـداعي ربكـم فالخسـران علـيكم، ومـن كفـر هو شيء تافه لا قيمة له، فالله مالك السماوات والأرض، غني عنكم.

يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ
عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن
يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن
يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ
عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ
وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴿١٧٣﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا
مُّسۡتَقِيمٗا ﴿١٧٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

لا تغلوا في دينكم : الغلو : مجاوزة الحد في الدين الحق الذي أنتم مطالبون به.

وكيلا: حافظا.

لن يستنكف : الاستكبار مع مبالغة في الترفع.

يوفيهم أجورهم: يمكنهم من أجورهم مع الوفــاء، وهــو الزيــادة التابعــة، التــي يتحقــق بها عدم النقص.

برهان: الحجة الواضحة المُقْنِعة.

اعتصموا بالله : تمسكوا بدين الله.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد النداء الشامل لجميع البشر ليقبلــوا علــى مــا جــاء بــه محمــد ﷺ، توجــه القــرآن للنصارى الذين أهلكهم غلوهم في الــدين، فوقعــوا فــي الضــلال الكبيــر. إنهــم قدســوا عيسىعليه السلام بما هو خارج عن حدود الدين والعقــل، فكــذبوا علــى الله وقــالوا: إنــه ابــن الله. وأعلن القرآن فساد مقالتهم لمخالفتها للواقع، فالمســيح هــو ابــن مــريم ولدتــه كمــا تلد النساء بعد أن حملته في بطنها، وهو رسول كبقيــة الرســل ومــا كــان واحــد مــنهم إلها، وقد تَكَوّن في بطن مريم بدون أب ولكن بــإرادة مــن الله الــذي ينفّــذ أحكامــه فــي الكائنات فتستجيب للأمر بكلمة **(كن)** وبناء على ذلك تطور إلــى نفــخ الــروح فيــه الــذي كان نعمة من الله كبقية النعم. وإذ تبين الحق فكفُّوا عــن ضــلالاتكم وآمنــوا بــالله كمــا يحق له من التوحيد الذي هو الأصل الــذي دعــا إليــه جميــع الرســل. وآمنــوا برســله الذين كلفهم بإبلاغ وحيه وعيسى واحد منهم؛ ودعــوى أنــه إلــه يخرجــه عــن الرســالة، فيكون ضلالكم قد جمع بين نفي الرسالة عنــه ونفــي وحدانيــة الله. ثــم صــرح بنهــيهم عن دعوى التثليث بأي صورة من الصــور التــي أجهــدوا أنفســهم لتحويلهــا إلــى أمــر مقبول بجملة من الالتواءات. إن توحيد الله يكون خيرا لكــم فــي العقيــدة وفــي التصــور وفي المآل. إن الله إله واحد تنزه أن يكون له ولــد. وكيــف يكــون لــه ولــد، والولــد لا يكون إلا لحاجة، كإحساس الوالد بأن حياته محدودة بأجــل فيرغــب فــي النســل ليكــون نسله امتدادا لوجوده، والله هو البــاقي الأزلــي الأبــدي، وقــد يكــون طلبــا للعــون، والله مالك السماوات والأرض والقَيِّمُ عليها. وليس لعيســى ولا لغيــره أي اشــتراك فــي ذلــك وكفى بالله حافظا، فانتفت ألوهية عيسى وثبتت بشريته الكاملة ورسالته.

إنه لا يتكبر المسيح ولا الملائكة فيأنفون مــن الاعتــراف بكــونهم عبيــدا لله. ذلــك أنهــم لكمالهم يدركون أن من يستكبر ولا يرضى بكونه عبــدا مآلــه أنــه يحشــر وحيــدا فقيــرا

بين يدي الله مع جميــع البشــر. وأن الــذين طهــروا أرواحهــم بالإيمــان وعملــوا فــي حياتهم ما يرضى عنه الله من الأعمــال الصــالحة، فــإن الله سيتفضــل علــيهم بإيصــال أجرهم إليهم وافيا، ثم يضيف إلى أجورهم من كرمــه مــا لا يُعْلَــمُ حــده. وفــي المقابــل فإن المستكبرين الذي يأنفون مــن الخضــوع لله ســيجزيهم عــن فســاد طــويتهم عــذابا ينفذ ألمه إلى أرواحهم وأجسادهم، ومع ذلك ألم اليــأس فــلا يترقبــون مــن يشــفع فــيهم ولا من ينصرهم.

أفيقوا أيها الناس فقد جاءكم من ربكم البرهــان والحجــة الواضــحة فــي مضــامين هــذا الدين، وتأيد ذلك بالقرآن النور الذي يضــيء لكــم مســالك الحيــاة، ويبصــركم بطريــق النجاة. وعلى جميع الأحوال فإن الذين اســتقر الإيمــان الصــادق فــي قلــوبهم، ووثقــوا بربهم، فإنه سيفتح لهم آفاق رحمته وفضــله لينعمــوا بهــا وفيهــا، وبالتــالي يتبــين لهــم الطريق السالك الموصل لسعادة الدارين.

بيان المعنى العام :

171-يا أهل الكتاب لا تغلوا...وكفى بالله وكيلا.

يدعو القرآن النصارى مذكرا لهم أنهم أهل كتــاب منــزل يقتضــي أن يتبعــوا مــا جــاء فيــه بــدون زيــادة ولا نقصــان. يــدعوهم أن يعتقــدوا مضــامينه فــلا يبــالغون ولا يتجاوزون الحــدود التــي ضــبطها لهــم. ذلــك أن التجــاوز لا يكــون إلا مــن دوافــع الشيطان الذي يعمل على إضلال البشرية. وهو في هذا يتخذ طريقتين كلاهما شر :

إحداهما: أن يهون في عقل بعض الــذين يســتجيبون لــه مــا جــاء عــن الله، فيتراخــون عنه، ويفرطون فيه، بتخيّلات يزرعها في نفوسهم فيسلســون لــه قيــادهم حتــى لا يبقــى في مداركهم من شرع الله إلا انتساب، ضئيل تأثيرُه عليهم فــي الحيــاة. فقــد أهلــك مــثلا من صور له أن الصلاة، هي للرعــاع الــذين ضــعفت مــداركهم وقــواهم العقليــة، أمــا الأذكياء فالعقيدة مستقرة في قلوبهم فلا حاجة لهم بالعبادة وهكذا...

ثانيهما: أن يخيل لمن يستولي علــيهم أن يبــالغوا فــي الأصــول التــي تلقوهــا عــن الله، حتى يصل بهم إلى الاعتقاد بأن تجاوز الحــدود فيــه الخيــر كــل الخيــر. ومــا دروا أن اختيارهم هذا مؤداه: أنهم يقــررون أن الله وقــف فــي إصــلاح البشــرية إلــى مســتوى ليس هو الخير، ولكن الخير في تجاوزه. وما لبســه علــيهم الشــيطان هــو أفضــل ممــا ضبطه الله للعالمين.

إذن نهت الآية النصارى عن المبالغــة التــي انحــرف بهــا قساوســتهم، ورجــال الــدين فيهم، فكرموا رسولهم تكريما تجاوزوا بــه الحــد، فكــذبوا علــى الله عنــدما أشــاعوا أن

الله أمرهم أن يعتقدوا في رسولهم أنه إلــه، وبــذلك هشــموا الحــق الــذي جــاء عــن الله بإكرام رسولهم وطاعته، وأقاموا باطلا من عند أنفسهم أنه إلــه. ثــم بــين القــرآن الحــق الذي أنزله الله في شأن ســيدنا عيســى عليه السلام.هــذا الحــق قــرره فــي النــواحي الخمسة التالية:

أولا: عيسى هو ابن مريم البتول : ولدته أمه مــريم كمــا تلــد النســاء مــا يحملنــه فــي أرحامهن. وقد فصل القرآن فــي ســورة مــريم، المخــاض الــذي أحســت بــه، وأيــن ولدته، وحالتها النفسية، وما شاهدته عند ولادته مــن الكرامــات، إلــى آخــر التفصــيلات التي عني بها القرآن ليثبت لعيسى إنسانيته التي لا يخالطها أي عنصر آخر.

ثانيا : أن عيسى كان آية من آيات الله، ظهــرت فيــه القــدرة الإلهيــة بإكمــال الصــور الأربع في التكوين البشري

1) خلق الله آدم من تراب بلا أب ولا أم.
2) خلق حواء من آدم من ذكر دون أنثى.
3) خلق عيسى من أنثى بدون ذكر.
4) خلق بقية البشر من ذكر وأنثى.

ثالثا: أن عيسى رسول الله، وقد ذكر القرآن قبل هــذه الآيــة أســماء كثيــر مــن رســله، وأنهم أمناء الله على وحيه وهم بشر، ولم يكــن أي مــنهم إلهــا أو ابنــا لله. فــدعوى أن عيسى عليه السلاميختلف عن جميعهم في طبيعتــه، قــول مختلــق لا أســاس لــه مــن الصــحة مبناه الغلو.

رابعا : أن عيسى كلمة الله، وهذه فهمها النصارى علــى غيــر وجههــا. ذلــك أن تَكَــوّنَ البشر أخضعه الله لسنن متى توفرت، وجدت النطفــة ومــا يتلوهــا مــن الأطــوار. وفــي عيسى خروج عن السنن التي أحكمها. تكــون فــي بطــن أمــه لا عــن نطفــة ملقحــة، ولكن بإذن رباني يمثله أمره سبحانه تعالى التكويني الــذي أشــارت إليــه الآيــة : **(إنمــا أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)**[4].

خامسا : أنه روح من الله. وهذه مما أوقع الغلاةَ فــي الاشــتباه فضــلوا. ذلــك أن إســناد الحوادث إلى الله كثيــر وروده علــى معنــى أن ذلــك مــن فضــله، وأن حصــوله فــي الحقيقة هو بغير الأسباب الظاهرة، كقولــه تعــالى: **(ومــا بكــم مــن نعمــة فمــن الله)**[5]. على معنى أن جميع النعم لولا فضــله وعنايتــه لمــا حصــلت ولتعطلــت عــن بلوغهــا

---

[4] **سورة يـس آية 82**

[5] **سورة النحل آية 53**

إليكم. فكذلك حلول الروح في جسم عيسى التي تبعها سلامة الإحساس والتفكير كانت بعناية من الله مباشرة. على خلاف حلول الروح في بقية البشر التي تحدث في طور من أطوار تكون الجنين، مرتبطة بالتكون الأول من عنصري اللقيحة البييضة واللقاح.

إن الفهم إذا لم يخضع لصارم القوانين العقلية يتيه ويضل. إن العقل يقوم شاهدا ومناديا أن الله ليس كمثله شيء، وأنه لا يعقل أن يكون إلها وله ولد، أوأن جزءا منه حل في عيسى. فهذه خيالات ما كان لها أن تنفذ فيعتقدها البشر لولا تعطيل العقل والتيه في صحاري العواطف، التي وإن كان منطلقها محبة في سيدنا عيسى، ولكنها لما داخلها تراكمات عاطفة الغلو انقلبت شرا وتنكرا لما يقتضيه العقل وتجسيدا مستحيلا على الله سبحانه.

وإذ تبينت الحقيقة وانفصلت عن الأوهام، تصدر الدعوة من الله إلى النصارى، بأن يؤمنوا بالله: الإيمان المنزه له عن كل نقص، وأن يقرنوا إيمانهم بإيمانهم بالرسل الذين أرسلهم، ولما كان عيسى رسولا ففي ذلك إيماء لبطلان ما اعتقدوه من بنوته لله. ثم تصرح الآية بهذا المفهوم فتنهى الآية نهيا جازما عن عقيدة التثليث وعن التصريح بها. ثم تبالغ الآية في منعهم من هذا المنكر فتأمرهم أن يتوقفوا عنه وأن يحذفوه من كلامهم وعقائدهم. وأمرهم بالالتزام بهذا الانفصال البات الذي هو خير لهم. إن في التعبير بقوله تعالى: **(ولا تقولوا ثلاثة)** ما يشمل كل التأويلات التي أجهد فيها علماء اللاهوت المسيحي عقولهم، هم متمسكون بالتصريح بالتثليث ويقولون : إن الله واحد. هم من ناحية ثانية يجدون عقيدتهم هذه غير معقولة ولا منطقية، فقاموا بتأويلات متناقضة، تثبت التثليث وتنفيه. فقالوا: إن كلمة الله اتحدت بعيسى وتقمصت في إنسانيته ومازجته امتزاج الخمر بالماء فصارت الكلمة ذاتا في بطن مريم وصارت تلك الذات ابنا لله. فالإله هو مجموع الثلاثة.: الأب ذو الوجود والثاني الابن ذو الكلمة وهي العلم والثالث روح القدس. وزعم بعضهم أنه بمجرد ما صلب وقتل عاد الناسوت إلى اللاهوت فامتزجا.

وادعى بعضهم أنه انقلبت الإلهية لحما ودما، فصار الإله هو المسيح، ولذا ظهرت على يديه ما لا يصدر إلا عن الله كإحياء الموتى.

وجرى المُنَصِّرون اليوم على مغالطة السذج من الناس فقالوا :إن الشمس كوكب تصدر عنه الحرارة والنور. وكذلك الله والمسيح. وهي مغالطة سخيفة فالحرارة ليست الشمس ولا النور عين الشمس وإلا لأصبح عندنا في الكون مليارات

الشموس. إن الله لا يعقل إلا أن يكون إلها واحدا، يتنزه عن النقص الذي ألحقتموه به؛ هذا النقص: كونه اتخذ ولدا. فكلمة **(سبحانه)** أصبحت بتكررها في التعبير العربي **(اسما علما)** على التنزيه الكامل. ويلحق هذا التنزيه بدليله :أن الله متفرد بملك السماوات والأرض. والمسيح هو واحد من هذا الملك العظيم فلا يعقل أن يكون ابنا لله، لا بالنظر إلى كونه مملوكا، ولا بالنظر إلى غناء الله عن محتويات الكون لأنه مالكها والمتصرف فيها.

والله هو الحافظ لهذا الكون كله، فإنه سبحانه هو الكافي والحافظ لكم ولا يقدر أحد أن يحقق لكم الحفظ، فلا تعتمدوا غيره. وكفى بالله وكيلا.

172- لن يستنكف المسيح....فسيحشرهم إليه جميعا.

بمقدار ما استقر التثليث وبنوة المسيح، في عقيدة النصارى، راعى القرآن هذا الوضع العقدي الذي هم عليه مع دعاتهم وتشبثهم به، وأضاف إلى ما سبق من إبطاله التصريح بالحقيقة التي غابت عنهم بما غطاها من تعظيم المسيح، فصرح القرآن أنه حاشا المسيح أن يدعي مستكبرا لأنفة فيه، أنه ليس عبدا من عباد الله. وأدمج مع النصارى من يعتقد من العرب وغيرهم أن الملائكة بنات الله. فلا أحد من الملائكة ولا المسيح يجد في نفسه من الأنفة ما يحمله على أن لا يكون عبدا لله.

ثم يأتي بيان سبب انتفاء تصور الأنفة ، هذا السبب هو العلم، فالمسيح والملائكة يعلمون أنهم سيحشرون إليه مع غيرهم يوم القيامة، في يوم يشعر فيه كل فرد شعورا كاملا لا غبش فيه، أنه لا يملك من أمره شيئا.فكيف يشعر بالأنفة مع هذا العلم اليقيني!

173-فأما الذين آمنوا....من دون الله وليا ولا نصيرا.

بين القرآن ما سيحصل في هذا اليوم الذي تجتمع فيه جميع الكائنات، وفصلت الجمع إلى فريقين معلنة جزاءهم :

أولا : الذين آمنوا الإيمان الصحيح، وعملوا الخير فراعوا الصلاح المترتب على أفعالهم، جزاؤهم : أن الله بعدله وفضله، يمكنهم مما كتب من جزاء أعمالهم ويحقق لهم أجرهم وافيا غير منقوص، ثم يضيف بفضله زيادة تتناسب من كرمه الذي لا يحد مقداره.

ثانيا : الذين حسبوا بأنفتهم وكبريائهم أنهم لا يخضعون لله، وحاشا المسيح والملائكة أن يكونوا من هؤلاء، إن الله يعذبهم عذابا يبلغ ألمه الكبير كل جزء من

أجزاء تركيبهم النفسي والجسمي. وهو العذاب الذي لا مفر منه ولا يجري على عذاب الدنيا، الذي يطمع معه المعذَّب، أن ينهض من يتولاه ليشفع فيه أو ينصره، فعذاب الآخرة يصحبه اليأس. أعاذنا الله منه بفضله وكرمه.

174-يا أيها الناس قد جاءكم برهان...نورا مبينا.

ويختم القرآن تلكم التفاصيل بإيقاظ الناس جميعا إلى ما يحقق لهم الفوز، فيناديهم جميعا ليقدروا فضل الله عليهم : إنه قد جاءهم من عنده، الأدلة الواضحة البينة التي تهدي من تأمل فيها إلى طريق النجاة وتنفي الشك والحيرة، وفوق ذلك فقد صحب تلكم الأدلة الواضحة، نور لا يخفى ضياؤه، هو القرآن الذي تنفذ أشعته فتأنس بها القلوب وتكسبها الطمأنينة والأمل.

وإنه على جميع التقادير ومهما يكن من أمر، فإن الذين ثبتوا

أ-على الإيمان بالله الواحد الأحد.

ب -ووثقوا بربهم فلاذوا به في الرخاء والشدة، وألْفَوْهُ معهم وهم معه، هو الذي يتصرف فيهم وهو الذي يوالي عليهم نعمه، وهم يلجؤون إليه ويتوجهون إليه بالشكر عند الرخاء والنعمة، كما يتوجهون إليه بالدعاء والترقب عند الشدة والعسر.

فلا فضل إلا منه ولا مغيث إلا هو، ولا معبود سواه.

حقق أنه سيمكنهم ويدخلهم في رحمته الواسعة، التي تشمل عقولهم وأرواحهم وأبدانهم وذريتهم وما رزقوه في هذه الدنيا، ويبارك لهم فيما آتاهم، فيكسبهم في قلوبهم قناعة ورضوانا. وفوق ذلك يصحبهم دائما نور الهداية فلا تختلط عليهم السبل، وتتناغم في ضمائرهم مكنونات هذا الكون فتنتفي الحيرة والتساؤل، في كنف الله وهدايته. فهم قد ساروا ويسيرون في طريق لا عوج فيه ولا منحنيات ولا متشابهات، ولا شبهات. هو الصراط المستقيم ظاهرا ومضمونا.

يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي ٱلْكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكلالة : الحالة التي يكون فيها الميت لم يخلف والدا ولا ولدا.

الولد : يطلق على الذكر والأنثى. ويختص الذكر بالابن وتختص الأنثى بلفظ البنت.

يبين لكم أن تضلوا : يبين لكم كيلا تقعوا في الضلال.

بيان المعنى الإجمالي :

استفتى بعض الصحابة رسول الله ﷺ في طريقة قسم التركة إذا كان الميت ذكرا أو أنثى، ولم يترك ولدا ولا أبا، وترك أختا أو أختين فأكثر، أو ترك إخوة ذكورا وإناثا.فالواحدة ترث النصف والأختان فأكثر، يُقسم الثلثان على الرؤوس. وعند اجتماع الإخوة ذكورا وإناثا تقسم التركة بينهم للذكر مثل حظ الأنثيين. منة الله عليكم أيها المؤمنون ببيان وجه الصواب في هذه الأحوال حتى لا تعطوا الحق لغير من يستحقه. والله سبحانه وسع علمه كل شيء.

بيان المعنى العام :

175-يستفتونك قل الله يفتيكم...بكل شيء عليم.

تقدم في الآية (12) من هذه السورة حكم ما يستحقه الأخ للأم والأخت للأم أو الأخوة للأم من تركة الميت إذا لم يخلف أبا ولا ولدا. وتعرضت هذه الآية في صورة جواب عن سؤال طرحه بعض الصحابة على رسول ﷺ وتولى الله الإجابة عنه قرآنا يتلى. وهي صورة تشبه الصورة الأولى. وهي أن يترك الميت إخوة أشقاء أو لأب ذكورا أو إناثا أو مختلطين، ولم يترك بعده أبا ولا ولدا. وتشترك الصورتان في أن كل واحدة منهما يطلق عليها لفظ الكلالة. وذلك لأن المورث لم يترك ولدا ولا أبا.

وحاصل ما بينته الآية هو الصور التالية:

1) أن الميت الذكر إذا لم يكن له أب ولا ولد، وترك أختا شقيقة، أو لأب عند عدم وجود الشقيقة، فإنها ترث نصف المخلف.

2) بالمقابل إذا ماتت أنثى ولم يكن لها أب وارث ولا ولد، ولها أخ شقيق، أو لأب عند عدم وجود الشقيق، فإنه يرث المخلف جميعه.

3) أن الميت الذكر إذا لم يكن له أب ولا ولد وترك أختين شقيقتين فأكثر، أو لأب عند عدم وجود الشقيقتين، فالحكم هو تقاسم الثلثين.

4) إذا كان الورثة إخوة أشقاء ذكورا وإناثا، أو إخوة لأب عند عدم الأشقاء، ولم يترك الميت أبا ولا ولدا، فإن الإخوة يتقاسمون التركة للذكر مثل حظ الأنثيين.

وصرحت الآية بعناية الله بهذه الأمة، فهو يبين لها الحقــوق حتــى يكــون الأمــر عنــدها واضحا، فلا تقع في الحيرة فتتوقــف، ولا فـــي الضـــلال فتعطـــي نصـــيبا مـــن التركـــة لغير مستحقه حسب ما أراد سبحانه أن يكــون عليـــه قســـمة التركـــات. وتخـــتم الســـورة بتأكيد صدق وصلاح كل ما ورد فيها. ذلــك أن منزلهـــا، هـــو الواســـع علمـــه، المحـــيط علمه بكل شيء جِلِّهِ ودقيقه.

ســـــورة المـــائدة

أشهر أسمائها: سورة المائدة لاختصاصها بذكر قصة سؤال إنزال المائدة من السماء. كما تسمى سورة العقود، أخذا من الآية الأولى فيها. وروى ابن الفرس وابن عطية أنها تدعى في ملكوت السماوات (**المنقذة**) لأنها تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب.

أجمع أهل العلم على أن هذه السورة من السور المدنية، ابتدأ نزولها على رسول الله ﷺ عام صلح الحديبية. وتتابع نزول آياتها بعد ذلك. وهي السورة الخامسة حسب ترتيب المصحف. والحادية والتسعون حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة الأحزاب، وقبل سورة الممتحنة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَـٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ
غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ
شَعَـٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَـٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ
فَضۡلًا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٲنًاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن
صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ
عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٲنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

أوفوا : نفذوا عقودكم كاملة غير منقوصة.

العقود : جمع عقد وأصله عقد الحبل، ثم أطلق على الالتزامات الواقعة بين طرفين. كعقد البيع وعقد الزواج، والمعاهدات بين الدول وبين أفراد المجتمع الواحد كالعقد الاجتماعي.

بهيمة الأنعام : الإبل والبقر والغنم والصيد غير المفترس.

شعائر الله : كل ما حرمه الله.

الشهر الحرام: الأشهر الحرم أربعة ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب.

الهدي : ما عُين للذبح في النسك.

القلائد : الهدي الذي جعلت له قلادة تميزه.

لا يجرمنكم : لا يكسبنكم، أو لا يحملنكم.

شنآن: شدة البغض.

صدوكم : منعوكم.

بيان المعنى الإجمالي :

يأمر القرآن أمرا جازما المؤمنين ويحركهم مناديا بما استقرت عليه عقيدتهم، أن يحترموا ما عقدوه على أنفسهم ويوفوا بالتزاماتهم. والوفاء صفة تُقَوّي الاقتصاد، وتؤكد الرابطة بين أفراد المجتمع وتعطي الصورة المثالية للمسلمين فتُرَغِب في الانتساب إليه. وتشمل العقود ما عاقد عليه المؤمن بإسلامه، من احترام شرع الله.

ومما شرعه الله أنه أحل لنا الأنعام الإبل والبقر والغنم والمعز، وكذلك ما كان من الأنعام غير إنسي، غير المفترس، يُتَمَكّنُ منه بالاصطياد. واستثنت الآية حالة الإحرام، فلا يحل للمحرم أن يصطاد.

ومن الوفاء بعقد الإسلام أن يخضع المسلم لما يريده الله منه. ونهت الآية عن انتهاك حدود ما حرمه الله (**شعائر الله**) هي العلامات التي أقامها محددة لما نهى عنه وحرّمه، وكذلك أن يحترموا الأشهر الحرم فلا يبادئوا فيها أعداءهم بالقتال إلا ما كان دفاعا عن النفس، وكذلك أن لا يتعرضوا للأنعام التي يسوقها الحجاج والمعتمرون ليتقربوا بها وهي الهدايا، وكذلك ما قلد للهدايا مما يعلق في رقابها وينتفع منه الفقراء بعد نحرها أو ذبحها، وهي القلائد. وكذلك التعرض للحجاج والعمار القاصدين لبيت الله الحرام يبتغون نوال فضل الله من الأرزاق ومن رضوانه، وإن كانوا غير مسلمين. وبينت الآية أنه بعد إحلال الحاج أو المعتمر فإنه يجوز له أن يصطاد وأن يأكل مما يصطاده.

ونهت الآية أن يكسب المسلم خطيئة بالاعتداء في الحرم على الذين سبق لهم أن اعتدوا على المسلمين، وإن كان بغضهم منطوية عليه القلوب، ومنعوهم من العمرة عام الحديبية سنة ست.

وختمت الآية بالتذكير بالمنهج الإسلامي العام: أن تقوى ظاهرة الخير والبر في المجتمع الإسلامي، وذلك بالتعاون على الخير والتقوى، وأن يكونوا حاجزا بين المجتمع وظهور الإثم والشر فيه، واقتحام العدوان على الآخرين. وأن يتذكروا دوما ما يحصنهم فيلزموا الفضيلة: هو تقوى الله والحذر من عقاب الله الشديد.

بيان المعنى العام :

1-يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود.....ما يريد.

دعوة للمؤمنين بوصف الإيمان، تحرك ما انطوت عليه قلوبهم مما ربطوا به سلوكهم في الحياة، ليكون هذا التحريك أدعى لتطبيق ما يرد بعده. فماهو الأمر الذي اهتم به القرآن إلى هذا الحد فجعله فاتحة السورة؟

أمر جازم لكل مؤمن ومؤمنة وللقائمين على تصريف شؤونهم وتنظيمها، أن ينفذوا ما التزموه تنفيذا لا ينقض شيئا مما تعاهدوا عليه. فالبيع مثلا عقد، وكل طرف مأمور بأن يسلم للطرف الثاني كل ما التزم به بدون نقص، والمعاهدات بين الدول عقود يتحتم على أولي الأمر أن ينفذوا البنود التي وقعوا عليها، بدون إكراه، تنفيذا سليما. فالوفاء أمر ضروري لانتظام الحياة. ومن الغريب أني لم أجد من اعتبره من المقاصد الضرورية في التشريع الإسلامي.

فبالوفاء بالالتزامات يأمن كل طرف الطرف الآخر، ويكون الميزان دائما هو أن كل ما التزم به أي طرف ويرضاه لنفسه يمكن منه الطرف الآخر، ويطالب به. إن هذا الأمن له آثاره الإيجابية في مختلف أنواع الحياة، وهو مما يتحتم أن يراعى في التربية عمليا ونظريا فالنجاح الاقتصادي مرتبط أشد الارتباط بالوفاء بالعقود، وهناء الأسرة مرتبط بوفاء كل واحد من الزوجين بالتزاماته نحو الآخر. وكذلك الرابطة بين المؤجر والمستأجر. وبصفة عامة رابطة كل فرد في المجتمع ببقية الأفراد وبالمؤسسات المدنية، وهي بالأفراد.

وتلكم العهود داخلة كلها تحت مظلة العهد الذي ارتبط به كل مؤمن، هو عهده مع الله أن يطبق شرعه، ويخضع لأحكامه، وأن يسير في كل شأن من شؤون حياته الفردية والاجتماعية على الهدى الذي جاء به الإسلام.

إنه بهذا المفهوم ينحل إشكال في ارتباط قوله تعالى:**(أحلت لكم بهيمة الأنعام)** بقوله تعالى: **(أوفوا بالعقود)** لقد كان رسول الله عندما يأخذ العهد من الداخلين في الإسلام فيحرر عليهم أنهم لا يعصون رسول الله فيما يخبرهم به عن ربهم، كما جاء في سورة الممتحنة: **(ولا يعصينك في معروف)** وأنه لا تكون المبايعة معترفا بها وبآثارها إلا إذا طاع المبايع بهذا البند.

إن من مظاهر الشرك الفاشي في الجاهلية، قضية التحكم فيما هو حلال وما هو حرام، وربط ذلك بآلهة المشركين كما سيفصل في آخر هذه السورة **(ما جعل الله من بحيرة...)** وبناء على ذلك فالوفاء بالعقد الذي عقده كل مسلم على نفسه بدخوله في هذا الدين، يكون من مستلزمات ذلك العهد أن يخلع قضية التحليل والتحريم عما

كانت مرتبطة به من العادات والعقائد، وأن يخضعها لحكم الله. ولما كان ما يتناوله الإنسان في معاشه، من ضرورات بقائه، ويتكرر، أتبع القرآن أمره بالوفاء بالعقود باستحضار المؤمن حكم قوته من أحكام الله، ما يحل له، وما يحرم عليه.

نصت الآية على ما هو حلال جريا على الأصل الذي يَسَّر الله به على عباده أمر حياتهم، وخاصة في دين الإسلام، فكان المبدأ الذي عليه ينتفع الإنسان من خيرات الكون، اعتماد أن الأصل في الأشياء الإباحة. أحل الله لنا نصًّا بهيمة الأنعام. والبهيمة هي ما كان غير ناطق من أنواع الحيوانات، وكلمة الأنعام تشمل الإبل والبقر والغنم والمعز شمولا أوليا، كما تشمل الحيوانات غير المفترسة. فأفادت الآية أن ما كان منها أهليا هو حلال مطلقا، وما كان غير أهلي يتمكن منه بواسطة الصيد، هو حل لنا.

واستثنت الآية ما سيبينه القرآن والسنة من المحرمات.

الصيد، إذا كان الصائد محرما بحج أو عمرة، وكذلك إذا وجد الصيد داخل حدود الحرم. وحدود الحرم: من الكعبة للمتجه إلى المدينة **(التنعيم)** على بعد أربعة أميال، وللمتجه إلى العراق إلى **(المقطع)** على بعد ثمانية أميال، ومن طريق الطائف تسعة أميال إلى **(الجعرانة)** والمتجه إلى اليمن سبعة أميال إلى **(أضاة لِبْن)** والمتجه إلى جُدة، عشرة أميال إلى آخر الحديبية. وزاد هذا المقطع **(أحلت لكم بهيمة...)** ارتباطا بفاتحة السورة، بقوله تعالى: **(إن الله يحكم ما يريد)** فهو المشرع الحكيم الذي لا راد لحكمه، فنفذوا ما عاهدتم عليه ربكم.

2-يا أيها الذين آمنو لاتحلوا...إن الله شديد العقاب.

انتقل القرآن للتذكير بالحدود التي حددها الله فحرم اقتحامها على المؤمنين، فقال تعالى: **يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله** وشعائر الله جمع شعيرة وهي الأمارة على الشيء، والمقصود الأمارات التي أعلم الله أنها حده وطاعته إما بوجوب الفعل أو تحتم الترك، فهي على هذا المعنى دين الله كله.

واقتحامها يقع على مستويين :أن يقدم على الحرام، بفعل ما نهى عنه، أوترك ما أمر به دون أن يتحرج من المخالفة مع اعتقاد الحرمة، وهذا هو المعصية والإثم، والمستوى الثاني أن يحلل الحرام، أو يعتقد أن ما تقرر وجوبه شرعا ليس بواجب، أي رفضه لقبول ما حكم الله به، وهذا ربما يؤدي بصاحبه إلى الكفر والعياذ بالله .وترتبط أجزاء الآية بأن هذا تنصيص على ما تضمنه الأمر **(أوفوا بالعقود)** أي ما أخذه الله عليكم بمبايعتكم على الالتزام بالإسلام.

كما تحتمل الآية أن يكون المقصود بشعائر الله مناسك الحج، وما أقامه الله من معالمه، وهي ستة الصفا والمروة، والبدن أي الهدايا، والجمار، والمشعر الحرام، وعرفة، والركن. وعلى هذا فسرت الآية من بعض المفسرين. وبعد التعميم خصصت الآية، فنهت عن أمور :

1) الشهر الحرام : فحرم القتال، في الأشهر الحرم : وهي ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب

-2) الهدي :فحرم التعرض للهدي وهو ما يساق من الأنعام ليذبح في المكان المخصص للذبح في الحج أو العمرة

-3) القلائد : فحرم التعرض للهدي الذي وضع في رقبته قلادة تميزه، أو حرم الاستيلاء على القلادات التي تقلد بها الهدايا والتي كان الفقراء ينتفعون بها بعد ذبحها

4) المحرمين ؛ من كان قاصدا البيت الحرام لأداء المناسك ولو كان غير مسلم، لأنهم خرجوا من ديارهم يبتغون مرضاة الله وينتفعون بما يتيسر في الموسم من وجوه الرزق بالتجارة.

بعد أن فصل المحرمات، وصله بأن بعض المحرمات مؤقت، فنصت الآية على أن المُحْرِم إذا أكمل نسكه وتحلل منه، عادت الإباحة الأصلية للاصطياد.

ثم دقق القرآن في حرمة القتال في الحرم، فربما يتوهم، أن للمسلمين أن يأخذوا بثأرهم من الكفار الذين صدوا رسول الله ﷺوصحابته عن إتمام عمرتهم عام صلح الحديبية، كما يحل الصيد بعد التحلل، وقد تمكنوا منهم عام الفتح، فبينت الآية أن حرمة الحرم باقية لا يحل القتال إلا دفاعا عن النفس، ويحرم بصفة دائمة انتهاك حرمة ذلكم المكان الآمن. ومن ناحية أخرى فإن الله رفع سيوف المؤمنين عن رقاب كفار قريش بعد الانتصار عليهم، لما ادخره لكثير منهم ومن أبنائهم أن يكونوا قوة للإسلام ومن خير المدافعين عنه، وهو ما تم فعلا.

وبعد أن أمر القرآن ونهى، أبرز المنهج العام في الصلاح الذي يرضى عنه الله، والذي يمكّن هذه الأمة من أن تقوم برسالتها المؤتمنة عليها. فحضهم على التعاون وأن يؤازر بعضهم بعضا على الخير والبر، فإن تَمَكّنَ الخير من الظهور، كما يحتاج إلى عزيمة الفاعل، هو لا يستغني عن التأييد من الآخرين، بما يشمل معاونة فاعل الخير لتذليل بعض الصعوبات، حتى تكون النتيجة مشتركة بين البادئ وبين اللاحق، وبما يدفعه الرضا العام من دفع الناس إلى فعل البر، فيحصل في المجتمع فضيلة التسابق إليه.و تأكيدا لهذا المنهج الاجتماعي قرنت الآية الأمر بالنهي عن

ضده، فقال تعالى : **(ولا تعاونوا على الإثم والعدوان)** ومن ذلك الاعتداء على قَصَّاد الحرم، في وقت نزول الآية، من غير المسلمين، فإن مساعدة المسلمين لهم على فعل الخير تكسبهم ميلا عن الانحراف والشر، فيقتربون من الإسلام.

ويتكرر في القرآن الأمر بتقوى الله التي هي جماع الخير، مقترنة بالتحذير من التهاون بعقاب الله، الذي لا يفلت من شدته الآثمون.

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ وَٱلْمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا۟ بِٱلْأَزْلَٰمِ ۚ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ ۗ ٱلْيَوْمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِ ۚ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أهل لغير الله : الإهلال :الجهر بالصوت، ذكر عليها عند تذكيتها غير اسم الله.

المنخنقة : التي ماتت بحبس النفَس عنها.

المتردية : الساقطة من مكان عال فماتت بذلك.

النطيحة: التي ماتت من نطح حيوان.

ما ذبح على النصب : ما ذبح على الأحجار التي كان يتخذها الوثنيون للذبح عليها.

الاستقسام بالأزلام :طلب معرفة النصيب في المستقبل، بواسطة القداح.

رضيت لكم الإسلام : اخترت لكم الإسلام.

مخمصة : جوع.

غير متجانف :اضطر إلى الحرام غير مائل له.

مكلبين : المكلب هو مُرَوِّض الكلاب حتى تقدر على الصيد وتأتمر بأمر صاحبها، وتنتهي بنهيه.

بيان المعنى الإجمالي :

ما أحله الله لنا هو الأصل والكثير، وحرم على المسلمين أشياء لا يكونون في حرج إذا تركوها. بل إنها مستقذرة أو معرّضة متناولها لمخاطر صحية. فمن المحرمات: الميتة، والدم الخارج من بدن الحيوان، ولحم الخنزير، والحيوان الذي مات بقطع النفس عنه، والحيوان الذي سقط فمات، والحيوان الذي ضربه حيوان آخر فقتله سواء كان ذلك بقرون أو بحافر، وما أكله السبع فمات بافتراسه، فإذا تمكن المسلم من تذكية هذا الحيوان قبل موته، فأكله حلال. وما ذبح تقدمة أو تقربا لغير الله، ونهت الآية عن طلب معرفة المغيبات أو الأكل مما وقع التخاطر عليه الذي هو خروج عن شرع الله.

وقد حقق القرآن، ممتنا على الأمة، أن الله قد بلغ بالمسلمين إلى درجة :أنه قد استقر الإسلام استقرارا يئس معه الكفار من هزيمته. فاشكروا الله على ما بلغكم إياه بعد الضعف الذي كنتم عليه، وذلك باستحضاركم دوما خشية الله وحده، ولا تخشوا الكفار فقد خضدت شوكتهم وعلت راية الإسلام. وتقترن منة التفوق للإسلام، بمنة أخرى هي أن الله بلغ بهذا الدين الحد الذي أكمل به كل مقوماته في العقيدة والعبادة والتعامل والحقوق والواجبات والأخلاق وبناء الدولة.

والمنة الثالثة المُتَوّجة للنعمتين، أنه بجانب ما بينه وحققه، قد رضي لهذه الأمة التي ميزها على سائر الأمم، رضي لها الإسلام دينا، وليس بعد الرضا مرتبة أعلى منها، فكان دينكم الدين الخاتم.

ومنة رابعة: أنه أقام هذا الدين مع مزاياه وسموه، أقامه على التيسير وعدم الحرج، فمن ذلك أن المؤمن إذا حلت به المجاعة، فله أن يحفظ حياته ولو بما حرمه الله، إذا كان تناوله للمحرم من أجل الضرورة لا من أجل الميل إلى ارتكاب الإثم. والله من صفاته الأزلية المغفرة والرحمة. وأجاب القرآن عما تقدم به بعض الصحابة من السؤال عن ضابط ما أحل الله لهم فقال: إن ضابط ما هو حلال هو كونه طيبا. والطيب هو الذي لم يرد نص بتحريمه، ولم يكن مضرا بالجسم. ومن الحلال ما يصطاده المسلم بواسطة الكلاب المعلمة أو بواسطة البزاة ونحوها إذا ذكر اسم الله عليها عند إرسالها. فما أمسكته الحيوانات المُعَلمة على ما وُصِفَ حلال أكله. وللفقهاء تفصيلات يرجع فيها المسلم لأهل العلم.

وتوصي الآية في خاتمتها باليقظة للأصل الذي هو سبب السعادة، يعني تقوى الله، ويحدد القرآن أن حساب البشر عما قدموا يتم في سرعة كبيرة. وفيما وصل إليه

الحاسوب وما يعلنه من نتائج في سرعة عجيبة ما يقرب للأذهان سرعة الحساب الإلهي، الذي أمره إذا أراد شيئا أن يقول له: كن فيكون.

بيان المعنى العام :

4-حرمت عليكم الميتة....فإن الله غفور رحيم.

نصت الآية السابقة على أن الله أحل لنا بهيمة الأنعام، وأنه استثنى من ذلك ما سينص عليه بالكتاب أو بالسنة، ليبقى ما سوى ذلك حلالا. فمما استُثني، فيحرم أكله ما ورد في هذه الآية :

الميتة: وهي التي فقدت الحياة بدون تذكية. وفي تحريمها حفظ للصحة من ناحية وحفظ لكرامة الإنسان من تناول الأشياء المستقذرة طبعا.

الدم: حفاظا على الصحة لأنه يسرع إليه الفساد، ولأنه حمّال لأنواع من الجراثيم، ولأن تناوله تتبعه ضراوة.

لحم الخنزير: المحرم من الخنزير هو لحمه وما اتصل باللحم من شحم وعظم وغضاريف وأمعاء مما شأنه أن يؤكل أو يؤتدم به، وأما الجلد إذا دبغ والشعر إن جز ولم يعلق به شيء من منابته، فالظاهر عدم تحريم الانتفاع بذلك.

ما ذكر عند تذكيته غير اسم الله، وكان الجاهليون يذكرون عند التذكية أسماء أصنامهم. وينقلب المذكى بتقديمه إلى الأصنام رجسا يتحتم على المؤمن الابتعاد عنه. ومن ذلك ما يتقرب به الجهال لمن يظنون أنهم أولياء أصحاب مكانة ممتازة عند الله.

المنخنقة هي التي ماتت بحبس النفس، سواء أكان بفعل فاعل أو انخنقت بنفسها.

والموقوذة ما كان ذهاب حياتها بغير انهار الدم بالتذكية. كقتل بعض الأمم الحيوان بضربه على أم رأسه.

المتردية الساقطة من مكان عال وكان سقوطها سبب موتها.

النطيحة ما كان سبب موتها ضربها من حيوان آخر، بحافر أو بقرون.

ما كان موته من الحيوان بسبب حيوان مفترس.

واستثنت الآية ما تَمَكّنَ المؤمن من تذكيته قبل خروج روحه أو نفاذ أحد مقاتله، وذلك من المنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع. وقد ضبط الفقهاء أحكام ما يحل أكله في تلكم الحالات.

وألحقت الآية ما ذبح على ما اتخذه أهل الجاهلية من الذبح على أحجار أعدوها لذلك وهي النصب، واعتقدوا أن الذبح عليها يعطي مناعة للآكل، أو يطرد عنه مس الجن أو يحصنه، فهي مرتبطة بعقائد الشرك.

وتعرضت الآية لما كان شائعا عند العرب من أنهم ينحرون جزورا يشتركون في ثمنه، ويعدون قداحا، والقِدْحُ عود السهم بدون حديدة، ثم يعينون لكل قِدْح سهما، ثم يحركون السهام داخل خريطة ومن خرج له سهم أخذ النصيب المعين له. كما كانوا يعتمدون على تلكم الأزلام لمعرفة الغيب، إما بواسطة الكهان أو بدونهم. فنهت الآية عن النوعين. واعتبرته فسقا خروجا عن المنهج الشرعي لتطلبهم معرفة المستقبل من الأوهام ومن غير الوجوه التي مكن الله البشر منها. فالتأمل في الحاضر وما يترتب عنه حسب سنن الله في ارتباط المسببات بالأسباب، والتعرف على تقلبات الطقس مثلا بواسطة الأقمار الدائرة في الفضاء التي تلتقط الصور وتبعث بها إلى الأرض فتحلل على حسب القوانين الإلهية في تحركات تلكم المعطيات هو مما نصبه الله من العلامات.

بعد أن فصلت الآية حدود ما حرمه الله في نسق، جَمَعَ المأكول وغيره، ثبّتت تلكم الأحكام بأنها تعطي للمسلمين منهجا خاصا بهم، وطريقة تفصلهم عن الشرك وعن الكفر بجميع أنواعه، ومظهرا مميزا في حياتهم ؛ وإنه إلى اليوم تجد المسلمين الصادقين يتميزون بهذا التشريع، ويشمئزون مما يتناوله غيرهم من المحرمات في الإسلام بشراهة وإقبال. فناسب أن ينوه القرآن بهذا التشريع ويجعله حدا زمنيا فاصلا بين حياة المسلمين وغيرهم. فقوله تعالى **(اليوم يئس الذين كفروا من دينكم)**.هو تقرير يثبت أن الإسلام قد قوي واستقر وأصبح متمكنا في العقول والأرواح قضى على الآمال التي كان المشركون يعللون بها أنفسهم، منتظرين انطفاء نور الإسلام وانتهاء مده.

إن حصول اليأس في قلوب أعدائه، يبعث في الأمة الإسلامية الطمأنينة والعزة والتحدي، ولذا عقب هذه القضية التي حققها القرآن، بالتصريح بما يترتب عليها، وهو أن على المسلمين، وقد ذهب عنهم الخوف من أعدائهم، أن يتعمق في قلوبهم خشية الله التي بها يتمكن الدين الذي كان سبب عزتهم، يتمكن في قلوبهم ولا يغفلون عنه. لأنه بواسطة الخوف من الله بلغوا ما بلغوه، ولذلك قدم بنهيهم عن خشية الشرك الذي انهزم انهزاما لا قيام له بعدها.

إن هذه الآية بضخامة ما حوته لتمثل في تاريخ الإنسانية حدا فاصلا : أن الإسلام قد أعلن رب السماوات والأرض أنه هزم أعداءه هزيمة لا قيام لهم بعدها، يئسوا من أن يؤثروا فيه تحريفا أو تغييرا.

ومرت قافلة الزمن تتوالى على المسلمين وهم بين ضعف وقوة، ووحدة واختلاف، وتمسك بالدين وانحلال، ولكن الدين باق كما أراد الله أن يكون، لم تتحرف عقيدته

ولا اختلط تشريعه، ولا تبدل المنهج الذي يدعو إليه في الحياة معاملات وأخلاقا وآدابا. وإن كانت أوضاع المسلمين قد فسدت، ونأوا عن الإسلام وتعاليمه ، ولكن في أشد فترات الفتنة ما تزال طائفة يمدها رب العالمين بمدد منه تُبَقِي على نقاء الدين وتَحْفِظهُ. فكانت هذه الآية تصرخ في الدنيا أن هذا اليوم الذي نزلت فيه الآية هو يوم فاصل. ثم يرفع القرآن ثانية هذا اليوم ليكسوه ثوبا من الجلال والكمال فيعلن في يوم مشهود، وقد اجتمع المسلمون خلف سيدنا رسول الله ﷺ في حجة الوداع، يوم الجمعة، وكل الأسماع مصغية له، وكل الأنظار متجهة نحوه، وكل القلوب بلغت من الصفاء مبلغا كان فريدا في عمر الكون تتلقف كل حرف من رسولها، وتحفظه شاعرة بثقل المسؤولية : أنهم مؤتمنون على هذا الدين عليهم أن يبلغوه للبشرية، ولمن لم يحضر هذا المشهد، وللأجيال القادمة الضاربة في آماد الزمن.

روى الإمام البخاري بسنده في الصحيح عن عمر بن الخطاب ﷺ: أن رجلا من اليهود قال له :يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرأونها، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. قال : أي آية ؟ قال: **اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا.** قال عمر: قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ، وهو قائم بعرفة يوم جمعة[1].

في هذا اليوم تم الإعلان على أن الله أكمل دين الإسلام. ودين الإسلام يشمل العقيدة التي والى النبي ﷺ بيانها كامل حياته ورد الشبه عنها، وتفصيل مضامينها من الإيمان بالله ورسله وكتبه وملائكته واليوم الآخر والقدر؛ التي بها خرج الإنسان من دائرة الحس الحيواني الذي لا يدرك إلا المحسوسات ،إلى الأفق الفسيح الشامل لعالم الغيب والشهادة، والمادة وما وراء المادة. ويشمل ثانيا العبادات التي ختمت ببيان الحج عمليا، وأَمْرُهُ المؤمنين أن يأخذوا عنه طريقة أدائه. وقد تم ذلك فعلا يوم عرفة في حجة الوداع. ويشمل ثالثا المعاملات التي ضبط فيها الحلال والحرام والحقوق لجميع الأطراف.

ويشمل رابعا نظام الأسرة وحقوق كل طرف وواجباته في الحياة وفي الموت. ويشمل خامسا الأصول الخلقية التي يتميز بها المسلم في سلوكه مع الآخرين ومع الكون بمختلف ما يحويه.

---

[1] فتح الباري ج9 ص113

ويشمل سادسا القرآن بما اشتمل عليه من صلاح الدنيا والآخرة. إنه بعد يوم الحج الأكبر لم ينزل على رسول الله ﷺ أي نص تشريعي جديد. فهذا هو معنى إكمال الدين، أي إن الدين أخذ ينمو وتتسع آفاقه حتى بلغ ما أراد الله له من شموله الحياة الإنسانية الراشدة، مما يضمن اعتقاده، وتطبيقه عمليا، ما يصل بملتزمه إلى سعادة الدنيا والآخرة. ثم أردف القرآن المنة الثانية التالية لإكمال الدين: إتمام النعمة. وإتمام النعمة ينظر إلى إيقاظ المسلمين لمنة إكمال الدين الذي به اطمأنت نفوسهم، وهدوا للتي هي أقوم، ويتصل بذلك ما تحقق في ذلك اليوم من ظهور الدين ظهورا طهّر الجزيرة العربية من كل سلطان للكفر وأهله، فتم الأمر للإسلام ولم يحج في ذلك العام ولا بعده أي مشرك، وقضي على الشرك فيها قضاء مبرما، والحمد لله رب العالمين.

وتتمازج المنتان ليعبر عنهما تعبيرا مؤكدا لمضمونهما من ناحية، ومتوجا لهما بالرضا الذي هو أكبر نعمة كما صرح به القرآن. قال تعالى : **(وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيه ومساكن طيبة في جنات عدن و<u>رضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم</u>)**[1] فهذه الآية فصلت ما وعد الله به المؤمنين من الكرامة ليبلغ إلى أرفع درجة منها، وهي الرضا. فذلك مما يشير إلى سمو هذه الأمة في عناية ربها بها، مما جعلها شاهدة على جميع الأمم. فرضا الله لنا الإسلام دينا، يرشد إلى أن الله قد بلغ بهذه الأمة في هدايته المستوى الأرفع، لأنه ليس فوق الرضا مرتبة أعلى منه. وبذلك كان الإسلام خاتم الرسالات.

وختمت الآية بأن من تناول شيئا من المحرمات في حالات الاضطرار وكَلَبِ الجوع، فإنه لا إثم عليه في تناول ما حُرم إذا كان غير مائل إلى هتك حدود الحرام. فالمخمصة هي المجاعة التي تعم الموطن الذي ألمت به، وهذه الحالة العامة تبيح لمن خشي على حياته أن يسد رمقه بالمحرم، أي إذا كان الأكل في وضع فعلي مخوف، وليس مغتنما للترخيص العام. وأما إن كان الاضطرار غير متحقق فيه فإقدامه على تناول المحرم لا يعفيه من الإثم.وهو الظاهر من قوله تعالى: غير متجانف لإثم.

وقد تساءل معظم المفسرين عن صلة هذا المقطع بما قبله، وتأولوا تأويلات كثيرة.

والذي ظهر لي : أنه بعد أن صرح القرآن منوها بهذا الدين، وأنه قد اكتسبت هذه الأمة باتّباعه أرفع مقام، نبه القرآن بالتنصيص على حكم تناول المحرم عند

---

[1] سورة التوبة آية 72

المخمصة، بمنة أخرى في الإسلام أنه وإن بلغ بمعتنقيه إلى أعلى المراتب، فإنه مع ذلك قارنه تيسير الالتزام به، فمع الضرورة يبقى متبعه على منزلته وإن ترخص. وهو داخل تحت ما ثبت من الصفات الأزلية لله سبحانه، أنه يغفر مزيلا آثار التفريط، وهو الرحيم بعباده الرحمة الشاملة التي تفسح في الآمال.

ويتلو تحديد المحرمات بيان ما هو حلال. وصاغ القرآن هذا البيان على شكل سؤال وجواب عليه. وهو سؤال حسب ظاهر الآية قد تقدم به عدد غير قليل من الصحابة وتكرر ذلك. وفي السؤال عنه ما يفيد حرص الصحابة رضوان الله عليهم على معرفة شرع الله رغبة في الالتزام به. وأجابهم القرآن بضابط يكشف لهم الحكم وعلته، إذ ربطه بالطيِّب، فكل ما كان طيبا هو حلال أكله. وهذا الضابط يدرك المراد منه، حسب فهمي، بربطه بأصلين.

الأصل الأول: هو معرفة ما حرمته الشريعة، فكل ما نصت الشريعة على تحريمه ليس بطيب.

الأصل الثاني : أن كل ما يضر بالجسم ضررا سريعا أو بطيئا ليس بطيب.

وعلى ذلك فإن الطيبات هي كل ما خلقه الله في الأرض مما يمكن أن يتناوله الإنسان ولم يرد نص بتحريمه، وهو غير مضر بالبدن. أما أذواق الناس وما يستقذر عند بعض الناس ولا يستقذر عند قوم آخرين فلا رابط بينه وبين الحلية والحرمة. فالجراد محبوب عند أهل الجريد في تونس مثلا، وهو مستقذر في جهات عديدة أخرى، وكذلك الحلزون. ولقد شاهدت في جزيرة هونغ كونغ بالشرق الأقصى تجارا كبارا يختصون في بيع المجفف من الديدان والحيات والثعابين ونحو ذلك، واشمئزاز غير الآسيويين من تناوله لا يؤثر في الحلية. فالحلية ليست أمرا بالتناول، وإنما هي عدم منع الإنسان، وبهذا يتضح الحلال والمحرم أتم بيان.

5-وعطفت الآية على ما أحل، حكم ما يحصل عليه الإنسان من الحيوانات البرية بمساعدة الكلاب المعلمة ونحوها من الطيور كالبزاة. فحققت الآية أن ما أمسكه الحيوان المعلم الذي يرسله مالكه على الصيد فيسرع إليه ويدعوه فيأتيه، هو مما يحل أكله. ويدخل تحت هذا صور كثيرة اختلف الفقهاء في حكمها. فأما ما أمسكه المعلم بعد إرساله، وكان صاحبه قد ذكر اسم الله عليه عند إرساله، فلا خلاف في جواز أكله، تمكن منه صاحبه ميتا، أو حيا وذبحه. وأما إذا وجد الصيد قد أكل منه الحيوان المرسل فقد اختلف في جواز أكله والظاهر الجواز.

وتختم الآية بالتذكير بتقوى الله التي هي الحارس لحسن التطبيق. وتبرز حقيقة أخرى: وهي أن الله سريع حسابه للبشر، يعرف كل مسؤول حساب ما قدم في

أقصر وقت متصور. وقد شاهدنا في عصرنا أجهزة الحاسوب وهي تكشف لنا عن نتائج معقدة كانت تستدعي وقتا طويلا، تكشفها لنا بمجرد الضغط على زر.

ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

المحصنة : العفيفة.

أجورهن : صداقهن.

مسافحات : المسافحة هي الزانية التي لا تقصر علاقتها الجنسية مع رجل واحد.

متخذات أخدان : جمع خدن :وهي الخليلة التي ترتبط برجل واحد دون زواج.

حبط : ذهب ثواب عمله.

بيان المعنى الإجمالي :

كما أعلن القرآن أن الله يسر على المؤمنين تناول جميع الطيبات، فكذلك قرن هذا التيسير بحلية أكل ما أعده أهل الكتاب من المأكولات، مما لم يكن منصوصا على تحريمه في الإسلام. وكذلك لم يحرم الإسلام على المسلم أن يقدم من طعامه للكتابي اليهودي أو النصراني.

كما أحل الله للمسلم أن يتزوج بالمسلمة العفيفة فكذلك أحل له الزواج بالكتابية وأرشد إلى مراعاة العفة عند اختيار الزوجة مؤمنة كانت أو كتابية. وذكرت الآية بأن على زوج الكتابية أن يقدم لزوجته صداقا يعبر به عن تكريمها ورغبته فيها.

ورغم هذا التحليل، فإن القرآن ذكر المؤمنين بما أحاطه به من مراعاة الثوابت في العلاقات الجنسية. فلا يحل أن تنزل الرابطة إلى الزنا (الذي هم صاحبه سفح مائه أي الإشباع الجنسي) ولا إلى المخادنة بأن يرتبط بالمرأة وترتبط به دون عقد **(المخادنة)** وتزوج المؤمن بالكتابية لا يرفعها إلى ما تتميز به المؤمنة، ذلك أن عمل الكتابية وإن كان صالحا في مظهره إلا أنه هباء لا يترتب عليه أي ثواب عند الله.

بيان المعنى العام :

5-اليوم أحل لكم الطيبات...من الخاسرين.

تأكيدا لما تضمنته الآية السابقة ينضاف ما ذكر في هذه الآية، فإن منة الله على المؤمنين بتحليل جميع الطيبات مما يجعل الحياة ميسرة عليهم، قرنت إليه هذه الآية تيسير مخالطة أهل الكتاب **(اليهود والنصارى)** مخالطة تبيح لهم أن يتناولوا ما أعدوه من المآكل. والمراد من أطعمة أهل الكتاب ما كان لهم دور في إعداده. وهنا ينظر إلى المواد التي تكوّن منها طعامهم، فإن كان من النبات حل طعامهم إذا لم نتيقن احتواءه على محرم علينا كما طبخ بخمر أو أضيفت له مواد نجسة، وينسحب هذا الحكم على غير المتدينين بدين.وأما ما كان من أطعمتهم يحتوي على اللحم، فما ذكي ذكاة شرعية يحل تناوله، وأما ما ذكي بطريقة محرمة بشرعنا فلا يجوز تناوله. فالنصراني الذي أعد لحما ذكي بصعقة كهربائية أو بضرب رأسه يحرم على المسلم أكله. وغير المسلمين إذا كانوا ينتسبون إلى أمة نصرانية مثلا، ولكن الذي قام بتذكية الحيوان رافض لدينه ولبقية الأديان، فهو تبعا لذلك، ليس من أهل الكتاب في الواقع، فلا يحل أكل ما ذكاه. ومن التيسير أن الله لم يمنعنا من تقديم طعامنا لأهل الكتاب.

وفي الصورتين ما ينبئ عن عدم دعوة الإسلام لقطع الروابط مع أهل الكتاب، إذ في مخالطتهم ما يفتح باب التأثير في معتقداتهم، وتيسير دخولهم في الإسلام. ويمكن أن يعتبر ذلك في نظري دليلا على أن هذا الدين أنزل من عند الله، يوقظ الرافضين المستغربين إلى ما في الإسلام من ذخائر لهذه الأمة ومن طرق سالكة تمكن المسلمين من التطور الاقتصادي، معلنة التسامح قيمة أصيلة فيما يعود على المسلمين بالخير. إن ما أصاب المسلمين عبر القرون القليلة الماضية قد نزل بهم إلى دركات من الانحطاط والفقر والضعف، وتقدم العالم الغربي تقدما فسيح الأبعاد. إن تعامل المسلمين معه، مع الاحتفاظ بمقوماتهم الدينية، يفتح لهم مسالك لاقتباس المفيد منهم للنهوض. ومنهم من سار في هذا النهج، ولم يجدوا في ذلك حرجا، تبعا لثقافتهم الإسلامية غير المنغلقة.

وألحقت الآية في علاقتنا بأهل الكتاب حكم التزوج من نسائهم. عاطفا له على الزواج بالمحصنات من المؤمنات وورد النص هكذا : **(والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم)** وعمدة الجملة كلمة المحصنات، جمع محصَنة. وهذه اللفظة تطلق بإزاء أربعة معان :

المحصنة : المتزوجة. ولا يمكن أن تحمل الآية على هذا المعنى إذ المتزوجة لا يحل العقد عليها.

والمحصنة :المسلمة، ولا يمكن حمل الآية على هذا المعنى لقوله تعالى : **من الذين أوتوا الكتاب.**

والمحصنة : العفيفة.

والمحصنة : الحرة. وقد حمل بعض المفسرين الآية على إرادة الحرة، وبنى عليه أنه لا يحل نكاح الأمة الكتابية. وأرجح أن المراد بالمحصنة العفيفة، باعتبار أن القرآن بين ما يحل وأدمج في الحكم، الإرشاد إلى ما ينبغي للمؤمن أن يتحوط في زواجه، فيراعي في اختياره العفة والاستقامة، وخاصة عند التزوج بالكتابيات لضعف الوازع الديني فيهن. فيكون المعنى: وأحل الله لكم نكاح الكتابيات من اليهوديات والنصرانيات، وتيقظوا إلى الناحية السلوكية، فأُرْشِدُكُمْ إلى عدم الإقدام على الزواج ممن كانت مسترابة في سلوكها. ثم هل إن الزواج ممن لم تتحقق عفتها حرام، أو مكروه ؟ الراجح عندي الكراهة، وذلك بالنظر إلى عطف المحصنات من أهل الكتاب على المحصنات من المؤمنات. وربط حلية الزواج بالكتابيات بتمكينهن من مهورهن، فلا يظن المسلم أنه معفى من بذل الصداق للكتابية، وذلك لما في عدم بذل الصداق من ابتذال للزوجة وإن كانت كتابية. ومع الصداق المرتبط بالتكريم الذي لا يتسامح فيه وإن كان مع اختلاف الدين، يتحتم أن تكون العلاقة مبنية على الزواج الصريح، لا على قضاء الشهوة بالزنا الذي يهمل نتائج الاتصال الجنسي، ولا تقوم فيه العلاقة على وفاء كل من الزانيين للآخر، وهو المعبر عنه في الآية (**غير مسافحين**) ولا على الارتباط غير الملتزم والموثق بعقد وإن كانت العلاقة لا تشيع مع غير الخليل (**ولا متخذي أخدان**).

ونبهت الآية في ختامها إلى أن الزواج من نساء أهل الكتاب لا يرفعهن إلى مستوى المؤمنات، ذلك أنهن بكفرهن بما أنزل على سيدنا محمد ﷺ، قد امحت وبطلت كل أعمالهن الصالحة في ظاهرها. وأن صلة المؤمن بزوجته الكتابية قاصرة على الحياة الدنيا، لأن من لم يحصن نفسه بالإيمان هو خاسر عاقبته، محشور مع الخاسرين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْ ۚ

وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

المرفق : المعقد بين الذراع والزند.

الكعبان: العظمان الناتئان في مجمع القدم والساق.

الجُنُبُ : الوضع الذي يكون فيه المؤمن ممنوعا من الصلاة حتى يغتسل.

الغائط : المقصود به : قضاء الحاجة البشرية من بول أو براز.

لا مستم : تطلق الملامسة على المس بشهوة وعلى الجماع.

صعيد طيب : جزء من الأرض طاهر.

الحرج : الشدة والضيق.

بيان المعنى الإجمالي:

دعوة لكل مؤمن ومؤمنة أن يستعد بالطهارة لأداء الصلاة، بغسل كامل الوجه، والأيدي من أطراف الأصابع إلى المرفقين يغسلهما، وأن يمسح كامل رأسه بما علق بيديه من ماء، وأن يغسل رجليه يدخل الكعبين في الغسل.

هذا إذا كان قد نقض وضوءه، أما إذا تحول إلى حال الجنابة فالواجب عليه غسل جميع بدنه.

وخفف سبحانه على كل مؤمن إذا كان الماء يضره كحالة المرض، أو السفر في الشتاء، والماء البارد خطير عليه الاغتسال به ولا يجد الجنب ماء دافئا، أو انتقض وضوؤه بناقض من النواقض ولم يجد ماء لفقده أو خوف من الوصول إليه أو استعماله، أن يقصد إلى قطعة طاهرة من الأرض فيمسح بها يديه ثم يمسح بهما يديه ووجهه.

هذا فضل الله على المؤمنين لم يقصد في تشريعه أن يشدد عليهم بتكرر الطهارة، ولا أن يلزمهم بها على جميع الظروف والأحوال في العسر واليسر، ولا أن يحرمهم من مناجاته بالصلاة في أوقاتها، ولكن يريد الخير بهذه الأمة، يريد أن يطهركم ويتم نعمه عليكم بما جمعه في هذا الدين من كمالات وتيسير.

وتنبهوا فإن هذه النعم توجب عليكم اليقظة لمواصلة شكره بالجنان، والعمل واللسان.

بيان المعنى العام :

6-يأ ايها الذين آمنوا إذا قمتم....لعلكم تشكرون.

دعوة للمؤمنين أن يقبلوا على التأمل فيما يخاطبون به، ويلتزموا بمضمونه، وأن لا يغفلوا عنه. تفتتح الجملة الواردة بعد النداء بقوله تعالى **(إذا قمتم)** وفي هذا الاستفتاح إشارة لطيفة، إلى أن على المؤمن أن يجمع أمره ويقبل على الاستعداد للصلاة بحزم ودون تثاقل. فحتمت الآية بالتنصيص القرآني ما كان مفروضا قبل ذلك : أن المؤمن إذا عزم على الصلاة فلينهض إليها بكامل الاستعداد والشوق، والاستعداد الواجب هو أنه إذا كان محدثا (بأن انتقضت طهارته السابقة) فتقدير الآية إذا قمتم وأنتم غير متطهرين ،فالواجب التطهر.

وفصلت الآية أركان الطهارة وأقسامها.

أولا : الوضوء ويتحقق الوضوء الشرعي بالقيام بما يلي :

أ: النية : وأفهم وجوب القصد إلى الوضوء **(النية)** من قوله تعالى **(إذا قمتم)** فالاهتمام المدلول عليه ب :إذا قمتم، لا يتم إلا مع النية والعزم.

ب :غسل الوجه :وحد الوجه من منابت الشعر المعتاد أعلى الجبين إلى منتهى الذقن طولا، وعرضا من حد الأذن اليمنى إلى حد الأذن اليسرى.

ج:غسل اليدين من أطراف الأصابع إلى المرفقين. واختلف الفقهاء في وجوب غسلهما. وأرى وجوب غسلهما حتى يتحقق المتوضئ أنه غسل يديه، إذ التحديد في هذا متعسر. وشأن المصلي أن يدخل للصلاة بطهارة يغلب على ظنه كمالها، ولا يتحقق الكمال إلا بغسلهما. لكن إن تبين له بعد صلاته أنه لم يستوعبهما فصلاته صحيحة.

د : مسح الرأس. نص الآية: وامسحوا **برؤوسكم**. هذا النص يحتمل امسحوا الماء العالق باليدين برؤوسكم وهو يد ل على تعميم مسح جميع الرأس، على هذا بنى مالك ﷺوجوب تعميم المسح على كامل الرأس وكذلك أحمد بن حنبل. ورأى أبو حنيفة أنه يكتفى بمسح الربع وهو ما تلتصق به اليدان، وعند الشافعية بعض الرأس بدون تحديد، أي مقدار مسحه كفاه.

هـ :غسل الرجلين إلى الكعبين، وهو معطوف على قوله: وأيديكم، فكلاهما مغسول. والكعبان داخلان في الغسل.

ثانيا: الغسل للجنب وقد تقدم ما يتعلق به في الآية الثالثة والأربعين من سورة النساء.

ثالثا: التيمم، وقد تقدم تفصيل القول فيه في نفس الآية من سورة النساء. ونبه المؤمنين في خاتمة الآية إلى عنايته بالمسلمين ورعايته لهم، فالقصد من جميع التكاليف الشرعية السمو بالمؤمنين، وعدم إرهاقهم. فإلزام المؤمن أن يكون متطهرا عند كل صلاة، فيه من ناحية تنشيط للإنسان، وتنظيف لأعضائه الظاهرة الملاقية للغبار والأوساخ بالوضوء، وتنظيف لكامل الجسم عند وجود موجبات الغسل، والنظافة تبعد بالإنسان عن الخسة والقذارة وما يصحبهما من مهانة نفسية. ومن ناحية أخرى يتأثر المتطهر بقصده لهذا الاستعداد للصلاة لتسمو روحه إلى مقامات المناجاة والقرب من رب العباد.

ومن ناحية ثالثة راعى التشريع الأوضاع الخاصة التي تجعل المسلم في ضيق وعسر، فنبه على بعض الأحوال التي خفف فيها الطهارة المائية وأبدلها بالطهارة الترابية، التي وإن لم تحقق جميع الآثار الطيبة للوضوء والغسل، ولكنها تحقق التهيؤ للصلاة وعودة المتيمم بالتأمل في عمله إلى أن أصل خلقه من طين **(ماء وتراب)** فإن فقد الماء رجع إلى التراب ليستحضر حكمة الباري سبحانه في ذلكم الصنع العجيب فيقترب من خالقه.

والتحول من الطهارة المائية إلى الطهارة الترابية يمثل مقصدا أصليا في التشريع الإسلامي، أنه كلما تعرض المكلف إلى العسر الشديد أسعفته الشريعة بالتيسير والتخفيف. ويجب أن لا يعتمد على هذا الأصل إلا العلماء المدركون لأسرار الشريعة العالمون بمواطن التيسير، ومواطن العزيمة. فليس كل ما بدا أنه عسير يوقف التكليف.

وتستنهض الآية المؤمنين ليتأملوا فضل الله عليهم، فقد أكمل عليهم النعمة بتكريمهم بجعلهم حملة شرعه للبشرية إلى يوم الدين، وبهدايتهم للإسلام، وبتيسير القيام بما كلفوا به، فهم لا يجدون صعوبة في الجمع بين مطالب الحياة الإنسانية، وبين مقتضيات تطبيق الشريعة.

وهذا التذكير ينبغي أن يجعل شكر ربهم على نعمه تلك حاضرا في ضمائرهم، منطلقا على لسانهم مدعاة للعمل الصالح.وفي الشكر كمال الصفاء الروحي.

وَٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِى وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ

لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۙ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَعَلَى اللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

ميثاقه :العهد الذي التزموا به.

قوامين لله : تقومون قياما متكررا دائما لما يرضي الله.

لا يجرمنكم شنآن قوم : لا يحملنكم عداوة وبغض قوم.

يبسطوا إليكم أيديهم: يبطشوا بكم.

بيان المعنى الإجمالي :

أمر الله المؤمنين أن يتذكروا نعم الله عليهم، إذ في تذكر النعمة ما يوجب الوفاء بالطاعة لمسديها، وأمرهم أن لا يغفلوا عن المواثيق التي عقدوها على أنفسهم، تلكم المواثيق التي أعلنوا عقب أخذها منهم، أنهم قد وَعَوْا كل مضامينها وأنهم عازمون على العمل بها وعدم نقضها. وأمرهم بالتقوى الصادقة، فإن الله يعلم خفايا كل فرد وما تنطوي عليه الصدور.

كما أمرهم أن يقوموا مخلصين لله عاملين على تثبيت العدل ونشره، وأن يؤدوا الشهادة بما يثبت الحق لصاحبه، ولا يُحَابُوا في الشهادة قريبا، ولا يحرفوها بسبب عداوة أو بغض. فالعدل هو باب التقوى والله لا يحجب علمه شيء.

وألانَ نفوسهم للطاعة بالتذكير بوعده الكريم للذين آمنوا وطبقوا ما يقتضيه الإيمان من العمل الصالح، أن مآلهم ذهابُ آثار سيئاتهم، ومضاعفة عظيمة لثواب ما قدموه من الخير. ولتأكيد الحث ذكر المقابل وهو أن الذين كفروا الرافضين للحق المكذبين لآيات الله مآلهم الخلود في الجحيم.

ولتأكيد إقبالهم على الطاعة، ذكرهم بما أنعم عليهم من الأمن، بعد أن أعد أعداؤهم العدة للبطش بهم، فتولى الله بث الرعب في قلوبهم ونقضوا ما عزموا عليه، وكفاكم ربكم القتال. فواصلوا الحرص على تقوى الله، فإنه سبحانه هو الذي يتوكل عليه المؤمنون الصادقون فيكفيهم.

بيان المعنى العام :

7-واذكروا نعمة الله عليكم....الصدور.

فاتحة سورة المائدة تضمنت أصلا عظيما في صلاح المجتمع هو الوفاء بالالتزامات. وتتابع التنصيص على بعض تلكم الالتزامات. ومما يساعد المؤمنين على الوفاء بها أن يستحضروا نعم الله التي أنعم بها عليهم، حتى لا يُهَوّنُ إلفها وتكررها قيمتها العظمى.

وهذه النعم تشمل ما ركزه الدين في قلوب المؤمنين به، فقد أخرجهم من الحيرة والتساؤل إلى برد اليقين، ورفعهم فعقد بينهم وبين الخالق صلة تنمو بالطاعة وتقوى بالتقوى، ومكن لهم في الأرض فأزال عنهم الخوف، ووحد بينهم توحيدا تحقق به معنى الأمة التي يرتبط حاضرها بماضيها ومستقبلها، وأقام لهم الحياة على منهج العدل والعزة والصلاح. وهذه النعم إن نُظِر إليها من جانب الفضل كانت مؤكدة للثبات على الدين، وإن نظر إليها من جانب أنها مرتبطة بالميثاق الذي يأخذه الرسول ﷺ عند المبايعة، فهي تزيد ذلك تأكيدا، وهو الذي ذكر في سورة الممتحنة: **(يا أيها الذين آمنوا إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على أن لا يشركن بالله شيئا ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ولا يعصينك في معروف فبايعهن واستغفر لهن الله إن الله غفور رحيم)**[1] وهذه البيعة والميثاق كان ﷺ يأخذه من الرجال أيضا كما أخرجه البخاري من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: كنا عند النبي ﷺ فقال: أتبايعونني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تزنوا ولا تسرقوا؟ وقرأ آية النساء [أي آية بيعة النساء] فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له، ومن أصاب من ذلك شيئا فستره الله عليه، فهو إلى الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له[2] وإن كان قوله تعالى: **ولا يعصينك في معروف** شاملا لكل التشريع الذي بلغه النبي ﷺ وبينه قولا وعملا، إلا أنَّ التنصيص والتفصيل يبرز زيادة اهتمام بما تم التنصيص عليه. والمهم هو الالتزام بشرع الله وفاء بحق النعمة، ووفاء بما يقتضيه العهد والميثاق. وذكرهم بأنهم عند ما أخذ عليهم الميثاق بالطاعة والتطبيق لشرع الله صرحوا بقولهم : سمعنا وأطعنا، أي إننا عاهدنا ونحن يقظون فكل كلمة من الميثاق الذي كان يعرضه عليناﷺ، لم نغفل عنها، وقرعت أسماعنا واستقرت

---

[1] سورة الممتحنة آية 11

[2] فتح الباري ج10ص264

في أذهاننا، وإننا قبلنا هذا الميثاق والتزمنا به، وبالطاعة التامة والعزم على تنفيذ ما عاهدنا عليه من القيام بالواجبات والابتعاد عن المنهيات، والسلوك الذي بين منهاجه.

وتختم الآية بالتذكير بالأساس الذي بني عليه صلاح الإنسان في الدنيا والآخرة، وهو تقوى الله، التقوى التي يتطابق فيها الظاهر مع الباطن، فإن الله لا يغيب عنه ما حوته الصدور وما يجري في باطن الإنسان مما لا ينكشف للبشر.

8- يا أيها الذين آمنوا كونوا....خبير بما تعملون

ثم يذكر المؤمنين بالمنهج العام الذي خطه لهم، وعليهم أن لا يحيدوا عنه، وهو ما تقدم الأمر به في الآية 135 من سورة النساء :أن ينهضوا بما أوتوه من قوة إخلاصا لله، وأن يربطوا شهاداتهم بما يتحتم أن يستقر في قلوبهم، من أن الله مطلع على الحقيقة لا تخفاه خافية. ومعنى هذا أن يحرصوا على تحقيق العدل، فلا يحيدوا عنه، وأن لا يحملهم ما استقر في أنفسهم من بغض أو عداوة على المحاباة، فيسيروا مع أهوائهم ويميلوا عما يوجبه الحق والعدل. فالعدل هو الطريق الذي يبلغ به سالكه إلى الغاية المحققة للسعادة والرضا، وهي تقوى الله. ذلك أن الله يعلم دقائق ما تنطوي عليه النفس، ومقاصد كل إنسان من أعماله.

9-10، وعد الله الذين آمنوا...أصحاب الجحيم.

ثم يحثهم على الالتزام بالميثاق بما وعد الله به المؤمنين الذين قرنوا الإيمان الباطني بالعمل بمقتضياته، أن الله يمحو آثار النقائص والآثام التي ارتكبوها، ويضاعف لهم أجور حسناتهم. وفي المقابل فإن الذين كفروا بآيات الله وكذبوا بما قامت عليه شواهد الصدق والحق، سيحقق ما أوعدهم به من الخلود في الجحيم.

11-يا أيها الذين آمنوا اذكروا....ليتوكل المؤمنون.

يلفت نظر المؤمنين إلى نعمة أخرى عظيمة خصهم بها، وشاهدوا آثارها وأدركوها إدراكا بينا، تضمنت نصرا من الله وتأييدا لنبيه وللمسلمين. ذلك أن قوما من أشد أعدائكم ضراوة قد دبروا ما يهزمونكم به وأجمعوا أمرهم وأعدوا له، فتولاكم الله بتأييده وثبط أعداءكم، وكف عنكم أذاهم، دون أن تُبْتَلُوا بقتالهم. فاثبتوا على التقوى التي تكسبون بها كل التأييد في الدنيا، وأحسنوا التوكل على ربكم فهو وحده الذي يتوكل عليه المؤمنون وهو كافيهم.

وما ذكرهم به كان واضحا بينا وقت التنزيل، ولكن الروايات التي عينته قد اختلفت في السبب والتاريخ. وإن الذي نعتمده هو أن القرآن يؤكد بتذكيره بهذه

النعمة :أن على المؤمنين أن يلزموا التقوى والصدق في دين الله، وأنه سبحانه سيجري سنته من نصر المؤمنين الصادقين، ويحبط مكر أعدائهم.

۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

نقيبا: النقيب :الموكل بتدبير أمر الجماعة.

عزرتموهم :نصرتموهم ووقّرتموهم.

لعناهم : أبعدناهم عن رحمتنا.

قساوة القلب : القلب الذي لا يتأثر بالمواعظ.

يحرفون الكلم عن مواضعه : يقصدون إلى التأويل البعيد عن المراد، أو إخفاء بعض المنصوص، وتبديل المعاني الواضحة.

خائنة منهم : خيانة منهم.

بيان المعنى الإجمالي :

تكرر في القرآن التذكير بما أخذ ه الله على بني إسرائيل من المواثيق. وأقام على كل فرع من فروع القبائل اليهودية الاثني عشر نقيبا يتولى أمرهم ويحرض على وفائهم بما التزموا به. وخاطب الله بني إسرائيل بأنه سينصرهم ويتولاهم إذا هم أقاموا الصلاة، وأعانوا فقراءهم، وآمنوا برسل الله وأيدوهم ووقروهم، وقلعوا جرثومة الشح فقدموا طائعين ما يقبله الله لحسن القصد وزكاء الروح. وأنه سيحقق لهم حسن العاقبة، بمحو آثار الذنوب التي ارتكبوها ويدخلهم جنات النعيم. وحذرهم من أن الكفر بعد الاهتداء سيحبط أعمالهم ويرمي بهم في متاهات الضلال.

ولكن اليهود نقضوا الميثاق فاستحقوا اللعنة والطرد من رحمة الله، وتَتَابُعُ الوقوع في الخطيئة حَجَّر قلوبهم فلا يدخلها نور الوعظ ولا تتأثر به، وقسوة قلوبهم سهلت لهم تحريف ما بلغهم إياه رسلهم، وتمادوا على ترويج التحريف حتى نسوا كثيرا مما نزل عليهم. وتتابعوا على الخيانة، وبوجودهم في المجتمع المدني، سينكشف لك يا محمد كثيرا من خياناتهم. وقد تولى الله نبيه فَرَقّاهُ إلى أعلى مستويات الكمال الإنساني خلقا وأدبا. وجريا على هذه العناية أمره أن يعفو عن اليهود الخائنين وأن يصفح عنهم، فبذلك يرقى إلى درجة الإحسان والله يحب المحسنين.

بيان المعنى العام:

12-ولقد أخذ الله ميثاق بني إسرائيل...فقد ضل سواء السبيل.

من سنن الله في الأمم السابقة أنه يأخذ عليهم عهودا في الاستقامة والوفاء. وتكرر التذكير بما تم مع بني إسرائيل من أخذ المواثيق والتشديد عليهم في الالتزام بها، ومما أكد به سبحانه الميثاق المأخوذ على قوم موسى ﷺ، أن أقام لتحقيقه على كل سبط من أسباطهم الاثني عشر نقيبا منهم، أوكل إليه تدبير أمرهم وحراستهم من الانحراف، ومراقبة التزامهم به.

وخاطبهم الله معرفا لهم بأنه ناصرهم ومؤيدهم بشرط أن يوفوا بالميثاق، هذا الميثاق المتضمن:

1)أداء الصلاة على أتم وجوهها.

2)بذل العون من أموالهم للمحتاجين من الشعب، وهو المراد من إيتاء الزكاة، وليس المراد الزكاة بمقاديرها وشروطها المعروفة في الإسلام، فذلك من خصائص الدين الإسلامي الذي بلغ فيه إصلاح البشر بالتشريع غايته.

3) الإيمان برسل الله الذين سيبلغونهم ما يريده الله منهم في المستقبل، فشمل أنبياء بني إسرائيل وعيسى ﷺ ومحمدا ﷺ.

4) أن يقرنوا إلى لإيمان بهم توقيرهم ونصرهم والإخلاص لهم

5) أن تسمح نفوسهم بتقديم المعونات عن طواعية ودون انتظار جزاء عاجل، بل أن يكون ما يبذلونه مقدما لله.

وفي مقابل الوفاء بالميثاق، الجزاءُ الموعود به، وهو يشمل أولا تكفير السيئات بمعنى إزالة آثارها السيئة في النفس وفي الجزاء، ثم بعد التطهير من الآثام ودنسها يضمن لهم دخول الجنة التي تتخللها الأنهار الجارية بما يوجبه ذلك من نضارة وجمال يبهج النفس ويريحها. ويحذرهم من الكفر بالميثاق وخيانته فمن خانه

وفك ارتباطه به، يتيه في الضلال، ويكتب على نفسه باختياره الحرمان مما وعد الله به.

13- فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم...إن الله يحب المحسنين.

نقضوا الميثاق وتركوه وراءهم. فاستحقوا اللعن والحرمان من رحمة الله التي وإن وسعت كل شيء، فإنه لا ينالهم منها شيء لقبح ما اقترفوه.

و جرى عليهم سنة الله في الخلق: أن الانحراف عن الحق والإمعان في الضلال يفضي إلى قسوة في القلب، فينغلق على الباطل ويتكون عليه حجاب صفيق من الرفض، فتنسد منافذ نور الهداية ولا ترق قلوبهم للمواعظ.

لقد تتابعوا في الفساد فحرفوا كلام الله بالتأويلات الباطلة النابعة من قصد مخالفة مقاصد التشريع إلى ما يلائم هوى الاتّباع والرؤساء. وبلغ بهم ذلك الانحراف والإعراض عما أنزل إليهم، وتعلقهم بالتأويل وليّ عنق النصوص، بلغ بهم إلى نسيان نصيب مما بلغهم إياه رسل الله وذكروهم به. ولذا فإنك ستطلع يا محمد على مواطن كثيرة من خيانات عظيمة متتابعة منهم.

وإنصافا للحقيقة مع التدقيق للواقع الذي هو شأن القرآن، استثنى بعضا قليلا منهم، هم الذين ثبتوا على القيام بما أنزل إليهم ولم يتبعوا هوى النفس والشيطان. ومن عناية الله برسوله وإرشاده إلى التزام مكارم الأخلاق التي بلغ فيها النبي ﷺ الغاية، أرشده إلى العفو عن خياناتهم وعدم مؤاخذتهم، وهي درجة الإحسان التي يفوز فيها أصحابها بمحبة الله. إن في عرض نقض اليهود للمواثيق وما عطف عليه وما تبعه، ما يؤكد على المؤمنين وفاءهم حتى لا يقعوا فيما وقع فيه يهود.

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴿١٥﴾ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

أغرينا : من الإغراء أي تحسين الأمر ثم الحث على فعله حثا قويا.

يعفو : يعرض ولا يظهر.

سبل السلام : طرق السلامة، الآمن سالكُها.

بيان المعنى الإجمالي :

كما تعرض القرآن لليهود في نقضهم الميثاق، أبرز وضع الذين يدعون أنهم نصارى، باعتبار أنه الاسم الذي رضيه الحواريون لأنفسهم، أو لأنهم اتّباع عيسى الناصري. نقضوا هم أيضا الميثاق الذي أخذ عليهم من نصرة الحق، وخاصة الانضمام إلى العمل بما يدعوهم إليه خاتم الأنبياء سيدنا محمد ﷺ. لم يحتفظوا بكلام عيسى عليه السلام فنسوا نصيبا من تعاليمه، وضاعت الحقيقة من بين أيديهم، وتعلقوا بوصايا مبتورة، عَمَّقَتْ الخلاف بينهم والعداوة والبغضاء، وسيبكتهم الله يوم القيامة فيعلن ضلالاتهم، وينفذ فيهم ما أوعدهم به من النكال جزاء صنيعهم.

أفيقوا فقد جاءكم رسول من عندي يبين لكم الحقيقة التي خفيت عليكم بسبب ما حرفتم وضيعتم. ومن خلقه الكريم أنه يعفو عن كثير من أذاكم. انتبهوا فقد جاءكم من الله نور ينفذ ضياؤه إلى ما كان ظلاما، فيكشف الظلمة ويأخذ بأيديكم إلى منهج واضح مستقيم لا عوج فيه، يهدي به الذين اتبعوا رضوان الله إلى السلام الشامل في الحياة، ويحولهم من الظلام الذي خيم على العقل البشري إلى نور الحقيقة ووضاح المعرفة.

بيان المعنى العام:

14- ومن الذين قالوا إنا نصارى....بما كانوا يصنعون.

تحقيقا لما قدمناه في الآية السابقة أن الله أخذ على الأمم المبعوث إليها الرسل المواثيق بالوفاء لما قرره لهم رسلهم. وكما أخذ العهد على اليهود أخذ على النصارى. والمراد بهم من يدعون أنهم اتّباع السيد المسيح عليه السلام، أخذا من دعوة رسولهم المسجلة في الآية **(فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله)**[1] أخذ عيسى عليه السلام العهد على اتّباعه أن يكونوا أنصارا مؤيدين للحق وأن يؤمنوا بمحمد ﷺ. وبعد ذلك اختلطت عليهم السبل، وفقدوا تبعا لذلك المنهج الجامع بينهم بما أضافته كل فرقة من الإضافات التي لا

[1] سورة آل عمران آية 52

أصل لها، والتي تناقض الأصول التي رباهم عليها المسيح وفي طليعتها توحيد الله. ولما بلغ التحريف إلى العقيدة واختلطت على طوائفهم الحقيقة، والْتَبَسَتْ بكثير من الباطل، اعتبرت كل فرقة الفرقة الأخرى ضالة خارجة عن تعاليم المسيح، وانطوت نفوس اتّباعها على التصميم على معاداة الفرق الأخرى لردعها عن باطلها حسب تصورهم، وعمرت نفوسهم بالبغض لها.فالعداوة تحمل على الردع للآخر وبذل العون لقهره، والبغضاء كراهية باطنة منطلقة من الاشمئزاز، ويترتب عنها البعد عن المُبْغَض. وقد يجتمعان وقد يفترقان. واستمرت العداوة والبغضاء بين فرق النصارى وستستمر إلى يوم القيامة، ولا تذوب آثارهما إلا بالإقبال على الإسلام، وطرح الدين المسيحي من أن يكون مقوما من مقومات المجتمع.

وتوعدهم على عدم وفائهم بالميثاق، وعلى إغفال كثير من أصول الديانة التي جاء بها المسيح، وأنه سيعرفهم يوم القيامة بسوء صنيعهم، وما يرتبه على ذلك من عقاب، وهو تبكيت لهم وإذلال.

15-16: يا أهل الكتاب قد جاءكم....صراط مستقيم.

ثم جمع القرآن بين اليهود والنصارى باعتبار أنهم وقعوا في نفس الخطيئة : خطيئة نقض الميثاق، الذي عاهدوا عليه بنصرة رسل الله والإيمان بهم. وحقق أنه قد بلغهم بواسطة سيدنا محمد ﷺ نور واضح لا غبش فيه ولا خفاء، وهو ما أتاهم به من الهداية الشاملة للنجاح في الحياتين، يرفع عن بصائرهم ما كان يغشاها من ظلام التغيير الذي أدخلوه على معتقداتهم وتشريعهم. فالتوراة داخلها كثيرمن التحريف والتغيير، ولم تبق محفوظة، واليهود اليوم رغم ما وصلوا إليه من تأليب العالم لمناصرتهم على باطلهم، تجدهم لا يسوون بين اليهود، فالواردون من الغرب وهم: **(الأشخناز)** يقدمونهم على اليهود الواردين من الشرق الأوسط :(**السفريد**). واشتد الخلاف بين طوائف النصارى، فالكاتوليك لا يعترفون بالأرتودوكس والعكس، وحركة الإصلاح الديني ترفض الفريقين. وقامت حروب دينية استمرت قرونا وما تزال.

إن هذا النور الذي جاء به الإسلام يؤلف بين البشر ويوحد بينهم بالارتباط بالله العلي الكبير الذي خلق البشر كلهم، وهم عبيده. وتأيد ذلكم النور بكتاب مبين، يكشف عن الحق ولا يرمي بكم في مسالك التأويل المضلل والمناقض لمقتضيات العقل الراشد. دليله كامن في ذاته، إذ هو يهدي من اتبع رضوان الله الشائع فيه، يهدي إلى الطرق التي يضمن بها متبعها السلام الباطني والسلام مع الأسرة والسلام

مع المجتمع والسلام الإنساني عامة. ويخرجهم من ظلمات الشرك، وظلمات العصبية العمياء، ومن ظلمات الخرافة، ومن ظلمات الحيرة التي ما تزال تعصف بعقول المفكرين الذين ابتعدوا عن هدايته إلى اليوم. فهم ما يزالون يتساءلون من أين جئنا وإلى أين نصير وما هو المصير ؟ أسئلة عمّقت محاولات الإجابة الحيرة المحطمة. إن هذا الهدى وذلكم الدين يأخذ بأيديهم إلى الصراط المستقيم الذي لا يجد فيه السالك عوجا ولا التواءات وتظهر غايته من بدايته، فلا يُحجب سالكه عن الغاية التي يوصله إليها هذا الطريق المستقيم.

لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

يملك من الله : يقدر على شيء.

فترة من الرسل : بعد انقطاع في المدة الفاصلة بين عيسى ومحمد.

بيان المعنى الإجمالي :

شنع القرآن على النصارى دعواهم امتزاج عيسى بالله حتى أصبحوا ثلاثة في واحد. وأبطل تصورهم :بإعلان أنه مما لا يشك فيه عاقل، أن الله قادر على إهلاك عيسى وأمه ومن في الأرض جميعا بناء على أنه مالك السماوات والأرض، وفعلا أهلك عيسى حسب اعتقادهم فصلب وقتل، وماتت أمه وماتت أجيال متلاحقة من البشر وما يزال الهلاك يترصد كل جيل لتنفذ فيه إرادة الله. وما كانت إرادة الله

متوقفة على وجود عيسى، فهي نافذة قبل وجود عيسى وفي زمنه وفي الأزمنة القادمة. والكل يصير إلى الله ليحاسبه.
وبدعة أخرى أضافوها للدين، فقال اليهود: نحن أبناء الله يحبنا، وقالت النصارى: نحن أبناء الله يحبنا، كحب الأب لأبنائه. وبين سفه مقالتهم، بأنه من المشاهد في الحياة الدنيا أن الله يجازي بعضهم بعقابه على ذنوبهم، وفي الآخرة أيضا لا يقبل أن يكون مآل الصاحين كمآل المذنبين، بل المذنبون يعذبون جزاء ما اقترفوه، ومن غير المعقول أن يعذب الأب ابنه ومن يحبه. فدعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه دعوى كاذبة. بل الحقيقة أن الكل ملكه والمآل إليه، يتصرف فيهم بمقتضى العدل والحكمة، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء. وتختم الآيات بدعوة أهل الكتاب أن يتأملوا في دعوة الإسلام التي بلغتهم على لسان رسوله بعد مدة فاصلة بين نهاية المسيح وبين إعلان الإسلام، وقد اختلط الدين الذي جاء به الرسل السابقون. فالإسلام يزيل عذرهم ولا تقبل حجتهم في استمرارهم على ضلالهم، بأن يقولوا: جرينا على ما أخذناه من رجال الدين فينا ولم يأتنا رسول يبين الحق ؛ لقد جاءكم رسولنا يبشر الصالحين بالكرامة وينذر العاصين بالعذاب. وكل ذلك من قدرة الله وحكمته الشاملة.

بيان المعنى العام :

17- لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح....على كل شيء قدير.

نقض النصارى الميثاق الذي أخذه عيسى عليه السلام منهم، وأقبح ما وقعوا فيه تحريف عقيدة التوحيد، فصرحوا بأن الله قد امتزج بعيسى، وامتزج عيسى به فصارا شيئا واحدا أولوا تأويلا غير مقبول ولا معقول، فقسموا، في تقديرهم، الله إلى ثلاثة أصول سموها الأقانيم: أقنوم الذات، وأقنوم العلم، وأقنوم الحياة. وحل أقنوم منها في عيسى. شارتهم التثليث، على اختلاف طوائفهم، سرت مظاهرها في عبادتهم وفي التعبير عما تكنه ضمائرهم. صرح القرآن بأن ذلك التأويل مرفوض دينا وعقلا، وأن القائلين به المعتقدين له، <u>كفرة</u>: **(لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم.)**
وأضاف إلى التصريح بكفرهم تبعا لمقالتهم تلك، الاحتجاج عليهم، بما ينفي مقالتهم من أصلها. إن دعوى ألوهية عيسى وامتزاجه بالله دعوى تناقض مقتضيات العقل.
فعيسى عليه السلام قد أهلكه الله حسب عقيدتهم وقتل وصلب، وأم عيسى مريم ماتت أيضا، وجميع الكائنات الأرضية، يزول كل جيل مر بهذه الحياة، وما جرى

على جيل يجري على بقية الأجيال، فهي قد زالت أو معرضة للزوال، فمن يقدر أن يحمي أي واحد من هذه الثلاث من الهلاك؟ فلا المسيح يقدر أن يحمي نفسه، ولا مريم، ولا سكان الأرض. فدعوى ألوهية من هو عاجز عن حماية نفسه من جريان التقدير الإلهي عليه دعوى باطلة منقوضة، فلا يتصور أن يكون متحدا مع الله.وقرن القرآن بين عيسى وأمه وبين من في الأرض جميعا للتنبيه على أنهم تجري عليهم سنن الله النافذة في الكون الذي خلقه على وزان واحد.
ثم عقبت الآية بدليل آخر على فساد عقيدة النصارى، بالتذكير بأن الله هو وحده المالك للسماوات والأرض وما بينهما، بما يشمل جميع الكائنات منذ بداية الخلق. وإذا كان سبحانه هو المالك لذلك منذ البداية باعتراف البشر قبل خلق المسيح، فكيف يكون المسيح مشاركا لله في ألوهيته، والكائنات موجودة قبل خلقه. وغاية ما وقع: أن الله خلقه من أم بدون أب، وكل المؤمنين بالله يشهدون أن الله قادر على كل شيء. فاعترافهم بأن قدرة الله غير محدودة، يفعل ما يشاء، ينفي العَجَب من أن يخلق إنسانا من أم دون أب.

18-وقالت اليهود والنصارى...وإليه المصير.

ثم قرن القرآن بين اليهود والنصارى ليرد عليهم ما يروجونه من أباطيل، لا سند لها، تؤثر في الدهماء؛ وهي قول اليهود: إنهم أبناء الله يحبهم حب الآباء لأبنائهم، وقالت النصارى: إن المسيح ابن الله وبَنَوْا على ذلك أن كل من يؤمن به مكتوب له أن يدخل في زمرة عيسى فله منزلة البنوة، وهو محبوب عند الله.
ورد عليهم ردا مفحما، أنهم يعترفون بأن الله يسلط عذابه على الفسقة والخارجين عن حدود شرع الله، وإن كانوا متمسكين باليهودية أو النصرانية في عقيدتهم. وإلا لما كان فرق بين عمل الصالحات وعمل الشر. إنهم لو كانوا بمجرد العقيدة ينقلبون أبناء لله وأحباء له لما سلط على أحد منهم العذاب في الدنيا وفي الآخرة، شأن المحب مع حبيبه والأب مع ابنه. فمشاهدة العذاب النازل في الدنيا، وما يقتضيه العدل والإنصاف من أنه لا يكون مآل المذنبين كمآل الصالحين المتقين، ينفي مقالتهم ويسقطها، ويثبت في المقابل : أنهم بشر مخلوقون لله تجري عليهم أحكامه العادلة وينال رحمته من قدر له أن يكون من أهلها، لا يستطيع أي كائن أن يُدِلّ عليه. ولما كانت صلة البشر بالله تقوم أساسا على أنهم جميعهم مخلوقون لله، فإن ذلك يتبعه أن لا مزية لأحد منهم على غيره إلا بما يَجري عليه في حياته من صلاح. وتقتضي الألوهية أن يكون الأمر بيده يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء

على أساس الحكمة والعدل والرحمة. فدعواهم أن الله يغفر لهم جميع ذنوبهم بمجرد الإيمان بتعذيب المسيح، أو بانتسابهم لإسرائيل، لا مدخل لذلك في الغفران. وهذا ما تقتضيه حقيقة أن الله مالك السماوات والأرض وما بينهما، وما تقتضيه الحقيقة : أن المصير إليه وحده يحكم في الكائنات ولا راد لحكمه.

19-يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا...شيء قدير.

ومن رحمة الله بعباده وفضله على جميع خلقه، ما ترتب على ذلك من تجديد الدعوة لليهود والنصارى دعوة لطيفة ب **(يأهل الكتاب)** يحركهم أن ينظروا في الواقع نظرة تفتح لهم منافذ الفهم للحق، فيذعنوا له ويتركوا المكابرة. طلب منهم أن ينظروا في مضمون ما جاء به محمد ﷺ، ليجدوا أنه رسول الله. واختار القرآن أن يعبر بإسناده إلى ضمير الحضور **(رسولنا)** تأكيدا على شدة الصلة بين الله وبين رسوله. ومضمون رسالته هو أن يزيل ما غشى الوحي السابق من ركام الزمن المتلاحق، فغير معالم الوحي الذي بلغه رسلهم. فالإسلام قد أوحي به بعد مدة، من الزمن الذي بعث فيه عيسى عليه السلام، طالت قرونا، أخذ فيها الاتّباع يضيفون ويؤولون ويحرفون، فاكتسبت تلكم الإضافات والتحريفات، بمرور الزمن، قوة فرضت به نفسها على التصورات عند اتّباع الديانتين. فانطلقوا سادرين على ما ورثوه، واختلط الخير بالشر، والحقيقة بالباطل. فبرحمة الله بهم بعث رسوله يبين الحق ويبشر من يعمل به بحسن الجزاء والفوز عند الله، ويكشف الزيف ويحذر منه. فانقطع ما يمكن أن يحتجوا به أنهم سلكوا المنهج الذي أخذوه عن العارفين بالدين، وما أيقظهم للحقيقة أحد. فقد جاءهم رسولنا يقطع حجتهم تلك، ويكشف مميزا بين ما يوجب الثواب والرضا، وما يوجب العقوبة والسخط. ومن قدرته الشاملة المرتبطة بالحكمة بَعْثُهُ لرسوله، فأسرعوا باتّباعه تُحققوا النجاة.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ

ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٢٣﴾ قَالُواْ
يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا
قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡۛ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ
عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

كتب الله لكم : قضى وقدر وأثبت.

قوما جبارين : قوما أقوياء أشداء.

يتيهون : يسيرون ضالين لا مقصد لهم يصلون إليه.

فلا تأس : لا تتأسف.

بيان المعنى الإجمالي :

تصور هذه الآيات أحداثا تمت بين موسى عليه السلام وقومه في المشاهد التالية:

المشهد الأول : سيدنا موسى عليه السلام يعظ قومه مذكرا لهم بمنن الله عليهم: تحرروا من ذل استبداد الفراعنة، وأعيدت لهم عزتهم، واعتنى الله بهم فتوالى عليهم أنبياؤه يبينون لهم الحق، وتتابع عليهم من النعم ما لم يحصل لأي أمة من الأمم في عهدهم

المشهد الثاني : أمرهم الله بناء على ذلك، أن يستعدوا لدخول الأرض التي قدست ودفن فيها أبو الأنبياء إبراهيم.وناداهم :لا ترجعوا إلى ما كنتم عليه من الذل والتفرق فيلزمكم الخسران.

المشهد الثالث : يظهر بنو إسرائيل بعد ذلك، وقد تملكهم الخوف، وأعلنوا أنهم علموا أن سكان تلك الأرض قوم أقوياء أشداء. ولا طاقة لهم بمحاربتهم، وأنهم لا يستطيعون دخول تلك الأرض حتى يخرج منها ساكنوها، وعند ذلك يمكنهم أن يعمروها.

المشهد الرابع : يبرز رجلان إسرائيليان، من بين بني إسرائيل، قد أنعم الله عليهما بالثقة في الله ووضوح الإيمان، والاعتماد التام على عون الله. ويخاطبان القوم الخائفين الوجلين بقولهم: اعزموا وادخلوا عليهم من المنافذ، فإن الله لا يخلف وعده لكم، وستغلبونهم بمجرد ما تقتحمون عليهم أرضهم. وليكن حسن التوكل على الله

هو القوة التي تقتنعون معها أنكم لا تنهزمون إن كنتم صادقين فيما تدعونه من إيمان.

المشهد الخامس: بعد التذكير والأمر، والوضع الانهزامي لبني إسرائيل، ونداء الرجلين الصالحين لهم بالإقدام، يبرز مشهد بني إسرائيل: لم يتحرك فيهم نبض من الإيمان ولا الثقة، يبدون مرتبكين خائفين، مؤكدين لموسى أنهم عزموا عزما قاطعا أن لا يدخلوا الأرض ما دام فيها أهلها، وأن الحل الوحيد أن يقوم موسى وربه بهذه المهمة، وهم ينتظرون ما يتحقق في الواقع، قاعدون في مكانهم.

المشهد السادس : يظهر فيه موسى ﷺ وقد تملكه اليأس من قومه، وهو متوجه في ضراعه : رب إني قد فقدت كل سلطان عليهم، ولم يبق لي إلا نفسي وأخي، فلا تؤاخذنا بما تنزله من عقاب على المتخاذلين.

المشهد السابع: الإعلان عن الحكم العادل من رب السماوات والأرض : حرمت عليهم دخول هذه الأرض أربعين سنة يسيرون إلى غير غاية، ضالين، لا قرار لهم. يا موسى لا تتأسف على القوم الفاسقين ، فقد نالوا جزاءهم.

بيان المعنى العام :

20- وإذ قال موسى لقومه...أحدا من العالمين.

هذه حوادث تمت لبني إسرائيل في عهد موسى ﷺ. لم يُذَكّر بها القرآن لمجرد التسلية وسرد التاريخ، ولكن ليكون في ذلك ما يقرّع به اليهود باستحضار ما عوقبوا به جزاء تباطئِهم عن الاستجابة، وليكون في ذلك الموعظة للمؤمنين حتى لا يسلكوا ما سلكه بنو إسرائيل.وليقوموا بالأمانة التي أوكلها الله لهذه الأمة من نشر هدايته في العالمين. ابتدأ العرض باستحضار الجو العام الذي كُلِّف فيه بنو إسرائيل بما كلفوا به. لم يباغتهم بالأوامر ولكنه سبحانه في لطفه بعباده هيأهم لقبول ما سيرد عليهم.

أولا :ذكرهم بنعمة الله عليهم وفضله الذي آتاهم، ففي ذلك إيماء لما توالى عليهم بعد دعوة سيدنا موسى، من النعم التي تتابعت ابتداء من خروجهم من ذل الاضطهاد الفرعوني وما لاقوه في طريقهم من عناية كما سبق التذكير به في آيات متعددة من القرآن، إلى نزول التشريع الذي يضمن لهم الوحدة والهداية إلى الطريق الأقوم.

ثانيا: أنهم تميزوا في الوقت الذي كانت البشرية تتلمس الطريق الحق فلم تهتد لمسلكه، أنهم في ذلكم الزمن بعث الله فيهم أنبياء منهم، يأخذون بعقولهم وأرواحهم إلى المنهج الرضيِّ.

ثالثا: أن الله قد حررهم من ذل القهر الذي سلطه عليهم الفراعنة، فملكوا أنفسهم وتحرروا.وغاية ما يبلغه البشر من العزة أن يكونوا شاعرين بحريتهم وممارسين لها. كما أن هذا الوضع مؤذن بتكوين الأمة وتولي أبناءها السلطة. وهو ما يشير إليه قوله تعالى : **وجعلكم ملوكا.**

رابعا :"يا قوم ادخلوا الأرض....خاسرين.

أن الآيات التي أيد الله بها موسى لم تجتمع لقوم قبلهم. فانشقاق البحر، وما نزل عليهم في التيه بالصحراء من المن والسلوى، ورعاية سيدنا موسى لهم بالتربية والإصلاح والتشريع وراشد السياسة، خصائص لهم لم يشاركهم غيرهم فيها من البشر

21- ياقوم ادخلوا....خاسرين.

استحضار هذه النعم يهيء السامعين لقبول ما سيأمرهم به. فجاء الأمر بالتهيؤ والاستعداد لدخول الأرض المقدسة، التي دفن فيها أبوهم وأبو الأنبياء: سيدنا إبراهيم عليه السلام. ولتأكيد الإقدام على ذلك نهاهم أن يتولوا عن تنفيذ ما أمروا به وأن يرجعوا إلى الوراء، إذ في ذلك خسرانهم.

22- قالوا يا موسى إنّ...فإنا داخلون.

ما تقدم مؤذن بأن المتوقع من بني إسرائيل، وقد خاطبهم مذكرا بنعمه، أن يسارعوا بالاستعداد للجهاد والعزم على تنفيذ ما طلب منهم. ولكنهم أجابوا : بأنهم قد علموا أن سكان هذه الأرض التي أمروا باقتحامها، رجال أقوياء أشداء ؛وأنهم قد اتخذوا قرارا لا رجعة فيه، هو عدم خوض أي معركة، القوى فيها غير متكافئة. ولما كان الله قادرا على كل شيء فليمكنا من هذه الأرض بعد أن يُخرج ساكنيها، وعند ذلك ننفذ الأمر وندخل الأرض.

23-قال رجلان من الذين...إن كنتم مؤمنين.

ويبرز في المشهد رجلان، وإن كانا من بني إسرائيل الذين استولى عليهم الخوف، إلا أنهما تميزا بصفاء النظرة وبطهارة القلب، أنعم الله عليهما بالطمأنينة الدافعة إلى تنفيذ الأوامر الإلهية في ثقة تامة، فخاطبا قومهما بقولهما: تقدموا وادخلوا الأرض كما أمركم ربكم، وكونوا واثقين أنكم بمجرد ما تقتحمون عليهم المنافذ سينهارون وتغلبونهم ولا قدرة لهم على مقاومتكم، واستعينوا بالتوكل على الله حق التوكل إن كنتم صادقين في إيمانكم.

يشيران إلى أن الإيمان الصادق هو الذي يفرغ في القلب الثقة بالله فلا يتردد المؤمن في تنفيذ ما أمر به. وينكشف في المشهد إثر ذلك بنو إسرائيل الذين وُعِظوا من

موسى عليه السلام، ومن رجلين صالحين من قومهما لا يمكن أن يظن بهما غير النصح. بما ذا يظهرون؟

24-قالوا ياموسى إنا لن ندخلها...قاعدون.

يظهرون بمظهر التصميم على القعود، والخوف والحذر من كل المواقف التي فيها شرف وشجاعة. كرروا ما سبق أن أعلنوه لرسولهم وزادوه تأكيدا فقالوا : إنا لن ندخل هذه الأرض ما دام أهلها الأشداء الأقوياء فيها، ولا يوجد إلا حل واحد، أن تقوم بهذه المهمة أنت وربك فقوموا بمهمة القتال، ونحن هنا ننتظركم.

25 -قال رب إني لا أملك إلا نفسي....الفاسقين.

وينتقل المشهد لتصوير موسى إثر هذا الخذلان والوقاحة من قومه بني إسرائيل، وهو يبتهل إلى ربه في ضراعة، بعد أن استنفد كل الإمكانات لتحويل بني إسرائيل عن إصرارهم. يقول موسى مخاطبا ربه : رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي، وبنو إسرائيل قد قتل فيهم الخذلان والخوف كل حركة أو استجابة، ربنا لا تؤاخذنا بجرائم بني إسرائيل، ولا تجعلنا معهم إن قدرت إنزال العقاب بهم.

26-قال فإنها محرمة عليهم...الفاسقين.

وينتقل المشهد معلنا الحكم الرادع لبني إسرائيل، القاطع الذي لا مثنوية فيه: لقد حرمت عليهم هذه الأرض أربعين سنة، لا جامع لهم ولا مستقر، ولا يستطيعون تبعا لذلك أن يرتقوا في الحضارة التي لا تتحقق إلا بالإقامة. ويوجه ابن خلدون في المقدمة الحكم عليهم بالبقاء في صحراء التيه بسيناء أربعين سنة، أن الإسرائيليين فسدت تربيتهم تحت حكم الفراعنة الذين أذلوهم، وأن بقاءهم أربعين سنة ينشأ فيه جيل جديد مكون تكوينا يستطيع القيام بالرسالة التي أوكلت إلى رسولهم موسى عليه السلام. ويتوجه الخطاب إلى سيدنا موسى، لما يعلم فيه من رقة قلبه على قومه وحرصه على نجاحهم، فيقول له: لا تتأسف عليهم، فإنهم فاسقون خارجون عن حدود الله نالوا جزاءهم العادل.

وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا
يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ
مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴿٣١﴾ مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ
كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ
فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ
جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

النبأ : الخبر.

ابني آدم : ولدي آدم.

بالحق : بالصدق.

القربان: ما يتقرب به الإنسان إلى ربه.

تبوء : ترجع.

طوعت : يسرت له نفسه الإقدام بعد تردد.

أصبح : صار.

فبعث : فألهَمَ.

كتبنا: شرعنا.

السوأة : ما يسوء رؤيته.

يا ويلتا : صيغة استغاثة أشربت معنى التعجب.

أعجزت: هل أنا عاجز؟

الندم : أسف الفاعل على ما صدر منه دون تفطن لما يترتب عليه من مضار.

بيان المعنى الإجمالي:

اقرأ، يا محمد، خبر ولدي آدم وحقيقة ما تم فِعْلا من أمرهما. وذلك في الظرف الذي قرب فيه كل واحد منهما قربانا، فتقبل الله قربان الصالح، ورفض قربان أخيه الشرير. رفض الشرير حكم الله وحسد أخاه على ما له من منزلة وتوعده بالقتل. فكان موقف الصالح أن وعظ أخاه بأن رفض قربانه كان لعدم تقواه، إشارة منه أن الله يجزي الصالحين ويرفض الفاسقين. وأكد له عزمه أنه لا يسير في طريقه

الضال وأنه يتعفف عن القتل، لأن القاتل سيلقى سوء المصير، بتحمله لذنوب المقتول التي تطرح عليه، إضافة إلى ذنوبه وعظيم جريمة القتل الظالم.

وتطور الحسد في نفس المرفوض قربانه إلى أن استولى على تفكيره وعلى عواطفه، فقتل أخاه، وبذلك خسر الدنيا والآخرة.

وبعد أن أصبح القتيل طريح الأرض فاقدا لنبض الحياة عرضة للهوام، حرك المشهد نفس القاتل وتضاعفت حيرته، ما ذا عليه أن يفعل ؟ فألهم الله غرابا مات غراب مثله، أن حفر في الأرض أمام القاتل حفرة ردم فيها الغراب الميت. فتفطن القاتل البائس، وقلد الغراب ووارى جثة أخيه، واستولى عليه الندم.

إنه من أجل ما ذكر في القصة من فظاعة القتل شرع الله لبني إسرائيل : أنه من قتل نفسا بغير موجب من قصاص أو فساد كبير في الأرض فإثمه يساوي من قتل جميع الناس، ومن ساعد على إبقاء الحياة لشخص واحد فثوابه كثواب من ساعد على إحياء جميع الناس.

وقد جاءت رسل الله فبلغوا تشريعه هذا إلى بني إسرائيل، والعجب أن كثيرا منهم بعد كل ما وعظوا به ثابتون على التهاون بأرواح البشر، مسرفون في القتل.

بيان المعنى العام :

27- واتل عليه نبأ ابني آدم...من المتقين.

هذه واقعة حدثت في أزمنة بعيدة، نسج حولها الخيال ما أضاف إلى الحقيقة الأصلية إضافات لا أساس لها، ولذلك نبه القرآن في بدايتها إلى أن ما سيثبته قد تحرى فيه الحق والصدق، وأعرض عما نسجه الخيال. وفي هذه الحادثة عبرة متجددة، موقظة للناظرين، وماضية مع الزمن .

بطلا هذه القصة هما ولدان من أولاد آدم عليه السلام، رابطة الأخوة الجامعة بينهما محققة. يثير القرآن الانتباه بتحديد الإطار العام: أخوان قَرّبَ كل واحد منهما لربه قربانا من ماله، ولم يفصل القرآن ما قربه كل واحد منهما لأن ذلك لا أثر له فيما يريد القرآن أن يَلفت إليه الأنظار. وتبدأ المفارقات إثر ذلك :

المفارقة الأولى :أحد الأخوين تقبل الله قربانه فمضى هانئ البال. ويرفض قربان الآخر فيتغيظ. تنفجر العلاقة بينهما تبعا لذلك، فيهدد المرفوض قربانه أخاه بالقتل، بعد أن ثار في نفسه نار الحسد. وترتبط الحادثة بما بسطه القرآن في أول سورة البقرة حينما عرض المولى سبحانه على الملائكة أمر استخلاف البشر، فأشار

الملائكة ما في تركيب هذا الكائن من الاستهانة بالقتل، وما حصل بعد ذلك من حسد إبليس لآدم.

28-لئن بسطت إلي يدك لتقتلني....رب العالمين.

المفارقة الثانية: أن المُهَدَّدَ بالقتل لا يقابل التهديد بالتهديد، ولا الثورة بالثورة، ولكنه يبدي من التعقل ما حاول به أن يكف أخاه عما تهيأ له، فينصحه بإبراز سبب رفض قربانه، وهو أن الله لا يتقبل من الأعمال إلا ما كان جاريا على سنن المتقين من الإخلاص، وعدم المباهاة وكسر النفس كسرا لا تُدِلُّ معه بما عملت من خير. ثم إنه لا يجاريه في التعدي ولا يضمر لأخيه شرا، ويثير في وضوح عاقبة الشر الذي هدده به، وأنه حصن نفسه من المعصية بعزمه عزما مؤكدا وبإرادة قوية، أنه لا يقابل الإقدام على القتل من أخيه بعزمه على القتل، وأفصح عما جرى في قلبه من حذر العاقبة السيئة التي يُجزى بها القاتل، مما تعلماه من أبيهما، أن جزاء القاتل النار لأنه ظالم والنار جزاء الظالمين فتسلسلت موعظته في حكمة وتعقل.

29-30: إني أريد أن تبوء بإثمي.....من الخاسرين.

المفارقة الثالثة :يوحي النص بأن المقبولَ منه قربانُه قد مضى هانئ البال، لم يأخذ لنفسه الحيطة. وأن المرفوض قربانه قد استقر في باطنه تغيظه، وحصر فكره وعواطفه بالمظهر الناقص الذي كشف عنه الرفض لقربانه، وتَمَيُّزُ أخيه عليه. وهكذا هو الشأن، كلما لم يطرد المرء بالتقوى والنظر في العاقبة دواعي الشر، يقوى في ناظره دواعي الأنانية، حتى تضيق الدنيا على سعتها عن احتمالهما معا هو ومحسوده. وما يزال ترداد هذا التصور يضخم ذلك حتى ينساق إلى الإضرار بمن حسده. وهو معنى فطوعت له نفسه. وفي لحظة عنف الإحساس السيء بالمهانة التي ليس للمحسود يد فيها، يقدم على إلحاق الضرر. فقتل أخاه واستحق أن يحشر في زمرة الخاسرين لحياتهم في الحال والمآل.

31-فبعث الله غرابا يبحث...من النادمين.

المفارقة الرابعة : الرجل الصالح ملقىً على الأرض قد فارق الحياة، وأخوه ينظر إلى جثته لا حراك بها مستعدة لتتقبل هوام الأرض، ولا يوجد ما يحميها من التعفن شيئا فشيئا. وعند ذلك يدخل في المشهد عنصر جديد : غراب، وقد مات قرينه، ألهمه الله أن يحضر أمام نظر القاتل، فيحفر في الأرض حفرة يواري فيها جثة قرينه الميت.

–المفارقة الخامسة :الأخ القاتل الذي كان متهيجا يعود إليه رشده بعد ذلك فيأكله الندم، ويحس أنه أقل فطنة من الغراب، وتقوم في نفسه رابطة الأخوة، فيتعلم من الغراب الطريقة التي يغطي بها ما حصل لأخيه مما يسوء، ويواريه في التراب. وينتهي المشهد وهو مطأطأ الرأس نادم على ما فعل.

*** وفي هذا المثل حكمة عالية ترشد الناظرين إلى أن مسالك المعرفة مفتوحة أمام الإنسان. عليه أن ينتفع بها، سواء أبلغته عمن هو أوسع منه علما وأحد ذكاء، أو تلقاها عمن هو أدنى منه منزلة. فابن آدم تعلم من الغراب، وسيأتينا إن شاء الله خطاب الهدهد لسيدنا سليمان (**قال أحطت بما لم تحط به**)[1]

32-من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل...لمسرفون.

استحضرْ أيها التالي لهذه الآيات، أنه بسبب ما فصل فيها من فظاعة الإقدام على قتل النفس البشرية كان مما شرعه الله لبني إسرائيل : أن إثم قاتل النفس البشرية بغير حق، أي في غير قصاص ولا في حالة ردع المفسد في الأرض، هو إثم عظيم، تزن شناعته شناعة من قتل الناس جميعا، وفي المقابل فإن من أحيى نفسا واحدة فَنُبْلُ فعله يساوي من أحيى الناس جميعا.

وهذا التشبيه المُسَوِّي بين الاعتداء على حياة فرد بالاعتداء على حياة جميع البشر، وأن من استنقذ نفسا واحدة من الهلاك فكأنما استنقذ حياة جميع الناس، قد استشكله الناظرون في كتاب الله وحاولوا الإجابة عنه، ولا شك أنه يتطلب توضيحا.

والذي ترجح عندي أن الحياة أمر واحد لا يملكها إلا الله، ولا يدرك سرها إلا هو، فقتل نفس واحدة هو تعد على الحياة التي هي قدر مشترك بين البشرية من آدم إلى أن تنتهي الحياة على وجه الأرض، ولا ميزة لحياة فرد على حياة فرد آخر، ولذلك سوى الإسلام في التعويض(**الدية**) المقدار الذي يستحقه ورثة القتيل بين الملك والسوقي، والعالم والجاهل لاستواء قيمة الحياة. فكان التهاون بحياة فرد لا يختلف عن التهاون بحياة الجميع. وفي هذا التشبيه ما يردع القاتل عن ارتكاب جريمته الفظيعة، كما تجد في المقابل ما يحمل البشر أمانة حفظ الحياة وجزاء المُسْهِم في ذلك.

وبنو إسرائيل رغم ما شرعه الله لهم في التوراة، وزجرهم عن قتل النفس البشرية، وما أكده الأنبياء على هذا التشريع، ما يزالون أكثر الناس إسرافا في القتل والتهاون بحياة الناس. إن الذين قُتِلوا من الفلسطينيين بترتيبات من الحكومات الإسرائيلية

[1] سورة النمل آية22

على اختلاف أحزابهم وانتماءاتهم لا يكادون يحصون عددا. بل اغتالوا أولياءهم من الانكليز الذين أدخلوهم أرض فلسطين بوعد بلفور رئيس حكومتهم. والمجازر التي ارتكبت في قانا وفي غزة وفي لبنان، والإبادة الجماعية للأسرى من الجيش المصري، كل ذلك يوضح واقعيا ما شهدت به الآية : ثم إن كثيرا منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون.

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

المحارب : الذي يحمل السلاح لإخضاع الناس لينفذ فيهم إرادته.

يقتلوا : يقتلون بشدة وبدون رحمة بهم.

يصلبوا : يشد الجاني على خشبة ثم يطعن في المقتل.

من خلاف : تقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى.

بيان المعنى الإجمالي :

عقب القرآن مثل فساد القتل الأول في الوجود، الذي جرأ الخارجين عن حدود الله بعد ذلك لارتكاب تلكم الجريمة، عقب ذلك ببيان حكم جريمة أخرى شناعتها عظيمة في المجتمع الإنساني، وهي جريمة الحرابة. والحرابة هو خروج بعض الشطار عن النظام العام وتخويف الناس بالفتك بهم إذا هم لم ينقادوا لهم، فيقتلون ويسلبون الأموال ويتعدون على الأعراض، داخل المدن وخارجها، وبذلك تكون الحرابة معطلة لعمارة الأرض التي هي الغاية من استخلاف الإنسان في الأرض، ومناقضة للأمن الذي تكفل به النبي ﷺ إثر دخوله للمدينة وتكوين أول دولة إسلامية.ويسري هذا الحكم على الأمة الإسلامية بعد ذلك.

وجزاء المحارب إما التقتيل، أو التصليب، أو قطع اليد اليمنى والرجل اليسرى، أو النفي مع التضييق عليه في مكان لا يقدر فيه على إيذاء الناس، وفسر بالسجن.وإن هذه العقوبة الرادعة يصحبها مهانة في الدنيا، فترتفع عن المحارب منازل التكريم الشرعي والاجتماعي. ولهم عذاب عظيم في الآخرة هو أكبر من أن يحده وصف.

ورفع الله عن المحاربين الذين يتوبون قبل القدرة عليهم فيأتون طائعين من قبل أنفسهم معلنين ندمهم وعزمهم على الانخراط في الحياة الاجتماعية، رفع عنهم عقوبة الحرابة دون جزاء التعدي على حقوق العباد التي انتهكوا حرمتها، كجريمة القتل أو الاستيلاء على الأموال.

بيان المعنى العام:

33- إنما جزاء الذين يحاربون الله....عذاب عظيم.

أعان الله البشر على القيام بمهام الاستخلاف في الأرض بما شرعه لهم في علاقتهم بخالقهم وفي علاقتهم ببعضهم وفي علاقتهم بالكون عامة.وقدر أن يكونوا مختارين غير مجبرين، ورتب على ذلك أنهم مسؤولون. إن من يحرم البشر من الاختيار، فيتسلط بقدراته القتالية ويهاجم الناس بسلاحه ويشل حركتهم ويخضعهم لإرادته إما لافتكاك أموالهم أو لينال من أعراضهم، ولا يتردد في قتل من لا ينصاع له ؛ هذا هو المحارب سواء أخاف الناس في الحضر أو في البادية لاستواء الشناعة فيهما.

وقد عبر القرآن عنهم بأنهم يحاربون الله ورسوله، وهم أبخس وأذل من أن يواجهوا القادر الذي خضعت كل الكائنات لسلطانه، ولكن غاية ما وصلوا إليه أنهم يحاربون النظام العام الذي بنى عليه عمران الكون، هذا العمران الذي لا ينطلق إلا في ظل الأمن الشامل. وباعتمادهم على نشر الخوف يتعطل السعي، وينكمش العاملون الضاربون في الأرض من الجنسين.

ولما قدم النبي ﷺ المجتمع المدني. فمن أخل بالنظام بشطارته يكون قد حارب رسول الله ﷺ في البناء الذي انطلق به لنشر كلمة الله في الآفاق.

إن نشر الخوف وفقد الأمن على الأنفس والأموال والأعراض، يتبعه انعزال الناس عن الإنتاج والجد، فلا فلاحة ولا صناعة ولا تجارة. وبالتالي هو الفساد في الأرض.

قررت الآية العقوبة الرادعة للمحاربين: التقتيل، الصلب، قطع اليد والرجل من خلاف، النفي من الأرض. والتقتيل من قتّل بالتشديد والتصليب من صلب بالتشديد إيماء إلى أنه ينفذ فيهم الحكم ولا يرحمون. ومعنى التقطيع من خلاف أن تبتر اليد اليمنى وتقطع الرجل اليسرى. والنفي من الأرض إبعاده إلى مكان يؤمن به من عودته إلى إجرامه. وهل ذلك على التخيير لنظر ولي الأمر، أو إن هذه الأحكام مرتبطة بالجناية التي ارتكبها المحارب عند حرابته؟ اختلف الفقهاء والمتأولون في ذلك.

إن الذي يترجح عندي أن النظر فيه لولي الأمر، يقدر الأصلح للجماعة الإسلامية، ويراعي الظروف العامة، وليس له أن يخفف العقوبة إذا اقتضت المصلحة تشديدها، ولا العكس.

وضمانا لحسن التطبيق لمبدأ الاختيار هذا يتعين على ولي الأمر أن يستعين في تقدير العقوبة والمصلحة، بجماعة من الخبراء النزهاء الأتقياء، وينفذ ما يرونه محققا لانتظام أمر المجتمع.

إن عقوبة المحارب يجب أن تنفذ، وإن وضعه الاجتماعي سيكون وضع المهانة والخزي، وإنه سينال العذاب العادل يوم القيامة في نار جهنم.

34-إلا الذي تابوا....أن الله غفور رحيم.

إن من جاء تائبا باذلا للطاعة نادما على ما صدر منه قبل أن يقدر النظام العام عليه، فإنه يرتفع عنه إثم الحرابة وعقوبتها. وذلك من حسن السياسة الشرعية.

فإن المحارب إذا علم أنه سيجد من المجتمع وحكومته العفو إذا هو عاد إلى الاندماج في الحياة، وأنه إذا واصل شطارته فإنه لا يؤمن من أن يقبض عليه وينفذ فيه حكم الحرابة وليس لولي الأمر ولا لأي أحد أن يعفو عنه، فإن هذه السياسة الشرعية ستكون حافزا له على التوبة والرجوع إلى الصراط المستقيم.

وسكتت الآية عن حكم ما تعلق بذممهم أيام الحرابة من حقوق العباد كالقتل أو الاستيلاء على الأموال، والراجح أنهم مؤاخذون بذلك، لأن أثر التوبة خاص بحق الله لا بحقوق العباد في غير الحرابة إجماعا، فكذلك يتعين أن يكون الحكم في الحرابة

ولا تتحيروا في هذه السياسة الشرعية من العفو عن المحارب إذا جاء تائبا قبل أن يقدر عليه النظام العام، فإن ذلك جار على سنن الله سبحانه في معاملة عباده، فإنه سبحانه هو الغفور الرحيم للتائبين.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَـٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ
تُفۡلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ
لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٣٦﴾
يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الوسيلة : كالوصيلة وزنا ومعنى وهو ما يتوصل به إلى مرضاة الله.

ليفتدوا به: يقدمونه عوضا.

تفلحون :تظفرون بما هو مرغوب لكم.

بيان المعنى الإجمالي :

يذكر القرآن المؤمنين دائما بأن تكون خشية الله وتقواه ملازمة لهم في فكرهم وسلوكهم، وأن يعزموا عزما فاعلا ليتقربوا من ربهم بالعبادات التي شرعها لهم، فذلك هو الموصل للفوز بالرضوان، وبالتالي بالسمو ليقتربوا منه قرب التكريم. وأرشدهم إلى أرفع تلك الوسائل وهو الجهاد في الطريق الذي يرضيه، بما يشمله من جهاد بالنفس وبالمال وبالعلم وبنشر الفضيلة ومقاومة الرذيلة. وأن ذلك هو الذي يجعلهم على رجاء تحقيق النجاح والفلاح.

وفي المقابل فإن الذين كفروا بالله، لا حظ لهم في الآخرة ولا يجدون طريقا للعفو عنهم، فهم لو تصور كما يتصور المحال أن تدخل خيرات الأرض ومثلها في ملكهم، ثم يحاولون أن يقدموها تعويضا عن كفرهم ليفتدوا من العذاب، فإن الله لا يتقبل منهم ذلك، وقد اختصوا بعذاب يحسون بشدة ألمه بالغ الإحساس. هم يريدون أن يخرجوا من النار، وهذه الإرادة تتبعها الخيبة ليذوقوا العذاب النفسي مع العذاب الجسدي.

بيان المعنى العام :

35-يا أيها الذين آمنوا اتقوا....تفلحون

هذه سنة القرآن في الهداية، يقرن النذارة بالبشارة والترهيب بالترغيب. فبعد أن بين خطر الحرابة وأحكامها وختمها بقبوله لتوبة التائبين، توجه للمؤمنين جميعا يحرضهم على التمسك بتقوى الله التي هي سبيل الفوز في الدارين. ثم عطف عليها ما يزيد التقوى تحققا، وهي أن يعمل كل مؤمن على القيام بالطاعات التي تزيد المؤمن قربا من الله، فإنه من المعلوم أن القرب من الله ليس قرب مسافة ومكان ولكنه قرب منزلة ومكانة، هذه المنزلة التي يرتقي فيها العابد مع الإخلاص إلى مراتب الرضا، وذلك بمختلف ضروب العبادة التي شرعها وعرف عباده بأنه يقبل أن يعبد بها. وتوج إرشاده فدلهم بالأمر بالجهاد وبذل الطاقة فيما يقيم أمر الدين بما يشمل الجهاد بالنفس، والجهاد بالمال، والجهاد بالتعليم، والجهاد بنشر الفضيلة

ومقاومة الرذيلة. إنه بذلك تكونون على رجاء أن يتقبل الله منكم، فيكتب لكم النجاح والفوز في الدنيا والآخرة.

36 37: إن الذين كفروا لو أن لهم...ولهم عذاب مقيم.

وفي المقابل فإن اليأس للذين كفروا بالله ثابت لا محيد عنه. فلو أنهم ملكوا كل ما حوته الأرض من الخيرات، ومثل ذلك من المتخيل غير الموجود، لو تحقق لهم ذلك كما يفرض المحال، ثم حاولوا أن يقدموه فداء لما فرطوا فيه بإعراضهم عن الإذعان لربهم في حياتهم الدنيا، ومن فعل الخير، لو يتصور ذلك كما تتصور الفروض المستحيلة التي لا تتحقق، تجسيما لانتفائها، فإن ذلك لا ينفعهم ويرفض رفضا قاطعا. واختصوا بعذاب يتضاعف ألمه ولا يُلَطَّفُ منه تعود الجسم به. إنهم في هذا العذاب المؤلم لأجسامهم تتحرك أشواقهم وإرادتهم للخروج من النار، فتصيبهم الخيبة وتتبخر أمانيهم، فينضاف إلى عذابهم الجسمي عذابهم النفسي.

وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾

بيان معني الألفاظ :

السارق: هو المستحوذ خفية بدون إذن المالك، على مال لا ملك له فيه، المحتفظ به في حرز، ثم يخرجه.
الجزاء : المكافأة على العمل بما يناسبه.
النكال: العقاب الشديد.

بيان المعنى الإجمالي :

حكم الله بأن كل من يعتدي بسرقة مال غيره يعاقبه القاضي المسلم بقطع يده. وهذا الحد ردع به الله، العزيزُ سلطانُه، الظالمَ المعتدي بالسرقة، فلا اعتراض على حكمه. وإن الله يقبل توبة التائب من السرقة. ولا غرابة في تحول المذنب المنكّل به إلى ساحة المغفرة لأن الله مالك للسموات والأرض، يتصرف فيهما تصرفا كاملا، يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء، لا راد لحكمه، وقدرته نافذة.

بيان المعنى العام :

38-والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما...حكيم.

حددت الآية عقوبة من يسرق مال غيره ذكرا كان أو أنثى. فأوجبت على ولي الأمر أن يقطع يده. وهنا لا بد من التدقيق في تفاصيل مفهوم السرقة التي بينتها السنة :

أولا :أن يكون المستحوذ على المال لا شبهة له فيه.

ثانيا : أن يكون المال محفوظا حسب العرف في حفظه.

ثالثا : أن يكون السارق قد دخل إلى المحل الموجود به المال بغير إذن من صاحبه.

رابعا : أن يخرجه من مكانه ويذهب به.

خامسا : أن يستولي عليه خفية.

سادسا : أن يتم ذلك بدون إذن صاحب المال.

سابعا: أن تكون قيمة المال 1,05 غ من الذهب فأكثر.

ولا يقوم بالعقوبة إلا ولي الأمر، فليس للمسروق منه أن ينفذ الحد، لأن الحدود لا تنفذ إلا بعد الحكم بها وذلك من اختصاص القضاء. ثم بررت الآية هذا الحد، بأنه جزاء عادل للفعل الساقط الذي قام به بقصد وتدبير، من هو ظالم، وهو محقق للردع الذي يمنعه من العود. وليس لأحد أن يعترض عليه أو أن يعجب من شدته فإنه تنكيل حكم به الله العزيز سلطانه الذي لا يتعقب حكمه فهو صادر عن الحكيم الحكمة الكاملة.

39-فمن تاب من بعد ظلمه...غفور رحيم.

ثم إن السارق إذا تاب بعد قطع يده فإن الإثم يسقط عنه، وإن لم يقم عليه الحد وستره الله، وتاب نادما عما صدر منه فهو إلى حكم ربه، إن شاء غفر له وإن شاء أخذه بإثمه. وربطت الآية التوبة بالإصلاح، وهو مطلق لم يفصل، وحمل على أن المراد منه: أنه أقلع عن جميع الذنوب، واستقام على الطريقة. وعللت الآية قبول توبته بأن هذا هو المتسق مع الفضل الإلهي والرحمة، فإن الله غفور رحيم.

40-ألم تعلم أن الله له ملك....كل شيء قدير.

وتأكد هذا المفهوم بالآية التالية التي تستنهض العقل ليتأمل بأن انقلاب وضع السارق من التنكيل إلى مغفرة ذنبه بالتوبة غير غريب، لأن الله سبحانه متفرد

بالتصرف في السماوات والأرض وما بينهما، يسلط عقوبته على من يشاء، ويغفر لمن يشاء، وكل ذلك مرتبط بحكمته وقدرته.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ ۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟ ۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحْتِ ۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

يسارعون في الكفر : السبق إلى إظهار الكفر ونصرته، والعمل على خداع الناس بحججه.

سماعون للكذب: يكثر منهم سماع الكذب لانتشاره فيهم.

يحرفون الكلم :يحولون الكلام فيخرجونه عن إفادة مقاصده.

الخزي : الذلة والمسكنة.

السحت: المال الحرام بمختلف أسباب حصوله، الذي لا يبارك الله فيه.

بيان المعنى الإجمالي :

من عناية الله برسوله، أنه كلما اشتد عليه أمر القيام بنشر الدين، ومقاومة المعاندين، ينزل عليه ما يسليه ويقوي عزيمته ويثبته، ويخرجه من الوضع الحزين إلى الوضع الآمل في النصر. لقد أحزن رسول الله ﷺ أمْرُ الذين يتسابقون إلى إعلان كفرهم، من المنافقين الذين اندسوا في صفوف المسلمين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر، ومن اليهود الذين يشيع في مجالسهم اختلاق الأكاذيب وترويجها

حتى لا تكاد تسمع منهم في مجالسهم إلا صورا متسلسلة من الأكاذيب والافتراءات، وهم سماعون لأكاذيب أقوام آخرين مثلهم لم يقدموا عليك، ولكنهم بلّغوا ما يريدون إبلاغه إلى أولئك اليهود. إن الصفة اللازمة لهم التي عليها يعولون وبها يتشبثون، هي تحريف الكلام عن المقاصد التي وضعت لها بالتأويل والتبديل، ثم يقولون: إن ما عندنا هو الحق وإذا وافق محمد ما عندنا، مما ركّبوه حسب هواهم، فاقْبَلوا كلامه، وإن خالفه فكونوا حذرين من اتّباعه. ومع تصميمهم على الباطل الذي نسجوا هم خيوطه، فلا تحزن من عنادهم لأن الله حرمهم ألطافه، وأوكلهم إلى ما ثبتوه في أنفسهم من الباطل، ولا تستطيع أن تخرجهم عنه إلى طريق الهداية.

إن الله لم يرد أن يعطيهم القوة التي تطهر قلوبهم من العناد والإصرار على الكفر. وقد كتب لهم الخزي والمهانة في الدنيا، وكتب لهم في الآخرة العذاب العظيم. هم سماعون للكذب ضموا إلى فسادهم ذاك أكلهم الحرام بمختلف أنواعه، ولذا فإذا قدموا يطلبون منك أن تحكم فيما يعرضونه من قضايا، فإنك مخير بين أن تحكم بينهم أو أن تعرض عنهم ولا تحكمَ فيه. وإذا اخترت الحكم بينهم فاثبت على الحكم بالعدل لأن الله يحب الحكام العادلين. ثم يظهرهم في مظهر المتناقضين الفاقدين للإيمان. أمرهم عجب ! أتوك يدعون أنهم يبحثون عن حكم ما حصل لهم، مع أن التوراة، التي يقولون بأفواههم أنها كتابهم الذي يلتزمون به، بينت لهم ما يسألون عنه. وهم من ناحية ثانية لو أيدتَ حكم التوراة أعرضوا عما تحكم به. فالحقيقة التي يعملون على تغطيتها : أنهم فقدوا الإيمان واتبعوا الهوى.

بيان المعنى العام :

41-يا أيها الرسول لا يحزنك الذين....عذاب عظيم.

إن مقام رسول الله ﷺ المقام الذي لا يدانيه فيه أي إنسان، رعاه ربه من بداية أمره فسما إلى المنزلة التي حمله بها رسالته الخاتمة للعالمين. وهدايته للبشرية قاطبة، وتَـتَـبّعُ ذلك في القرآن جدير بأن يفرد له بحث خاص. وقد ذكر كثيرا من وجوهه القاضي عياض في الشفاء.

كان النبي ﷺ أكمل الناس شعورا بشرف مهمته، وكان تبعا لذلك يبذل كل ما آتاه الله من قوة لهداية الناس، يدفعه لذلك عوامل تمازجت فكونت منها قوة تُنَمّي حرصه، وبالتالي إحساسه بالغبطة كأشد ما تكون الغبطة عندما تنفذ كلمة الله إلى القلوب فتنقذها من الحيرة، وتضيء لها مسالك الفوز والرضوان، وبالمقابل كان يأسف أشد الأسف، ويحزن أشد الحزن إذا انكشف له أن الشيطان قد لف ضلالاته

على بعض العقول والأرواح وحجبها عن الإسلام فلم يؤثّر فيها أي شعاع من نور الحق. ويعربد الكفر بالقوة تارة، وبالتمويه والمكر تارة فيضلل الناس. ويحزن النبي ﷺوشأن الحزن أنه يجعل التفكير يدور في فلك موجبات الحزن ولا يتقدم، وعناية الله برسوله تسعفه فينبهه ربه، عناية به، فيقويه على مجابهة الكافرين وإصرارهم ومكرهم.

يسلي المولى سبحانه نبيه في ساعة حزنه، بما يفسحه له من الأمل، مما يجعل ثقته بانتصار الإسلام أمرا لا ريب فيه. يقول له ربه: كن واثقا من ظهور الإسلام، ولا يحزنك تعصب الكافرين الذين بلغ ضلالهم أنهم يسرعون لإظهار الكفر ونصره ومكافحة الحق، وخاصة أولئك المنافقين الذين عملوا على أن يخدعوا المسلمين فقالوا بألسنتهم: آمنا وأظهروا ما يفيد انتماءهم للإسلام واندسوا في صفوفكم، ليؤمنوا أن الجماعة تأمنهم، ولكن الظلام استبد بقلوبهم فتشبثت بضلالها.

-ولا تحزن أيضا يا محمد من اليهود، الذين من خصائصهم أنهم يختلقون الأكاذيب ويروجونها ويكررونها فتمتلئ بها مجالسهم وأسماعهم حتى يكادون يقتنعون بها، فهم سماعون للكذب لكثرة ما يروج منه في مجالسهم .وهم سماعون أيضا لكذب قوم آخرين لم يأتوك ولم يستفتوك مباشرة. ولم تعين الآية القوم الآخرين، ولم تتفق الروايات على تعيينهم، ولكنهم على شاكلتهم في الكذب والكيد الذي أدخل الحزن على رسول الله. ولم يأتوا لمجلس رسول الله ﷺ ولكنهم حملوا أسئلتهم ليهود بلغوا ما أرادوا تبليغه. ووصفهم القرآن بوصف آخر وهو أنهم يُحوّلون الكلام فيصرفونه عن المعاني التي وضعت لها، ويغيرونه بالتالي عما يقتضيه من أحكام ثابتة يعلمونها، ولكنها لا توافق هواهم. ولذلك ضبطوا مهمة من أرسلوهم، بأنهم لا يقبلون ما يقوله لهم رسول الله ﷺ، ولكن عليهم أن يعودوا به للأحكام التي يرتضونها مما يوافق هواهم ، فقالوا لهم: إن أفادكم ما نرغب فيه فخذوه واحتجوا به في الدنيا والآخرة، وإن أخبركم بأحكام غير تلك فلا تتبعوه، واحذروا فإن اتّباعه فيما يخالف ما نحن عليه، فيه فضيحتكم وانتصاره عليكم. ثم يسلي النبي ﷺ بأن من حجب الله عنه ألطافه، وخلى بينه وبين هواه فاتبعه، ولم ينظر فيما بلغته، فإن الله يفعل ما يشاء لا شريك له في ملكه ولا تملك حيلة ولا أي شيء يؤثر فيه ولو كان قليلا لتدخل الهداية قلبه. ثم عرّاهم بالإشارة إليهم فقال: إن الذي كشفهم بما يصدر عنهم، لم يرد الله أن يطهر قلوبهم، فيجعلها مفتحة لقبول الهداية بإزالة معوقات قبول الإيمان من الكبر والتقليد واتّباع الهوى. وقد كتب الله جزاءهم في

الدنيا: مذلة وصغارا، وجزاءهم في الآخرة عذابا عظيما، لا يحد وصفه إلا بالعظمة، لتذهب النفس في تصوره كل مذهب.

42-سماعون للكذب أكالون للسحت.... يحب المقسطين.

ثم ذكر بما وثقه من صفاتهم أنهم سماعون للكذب، وأضاف إليه أنهم لا يتحرجون من أكل المال الحرام كالربا والرشوة والتحايل على الناس للاستيلاء ظلما على أموالهم، وهو المال الفاقد للبركة في ذاته وفيما يترتب عليه.

ثم رتب على ما كشفه من ملامحهم وصفاتهم وضلالهم، أنهم إن جاؤوا للنبي ﷺ يعرضون عليه قضاياهم، أنه مخير بين القضاء بينهم بشرع الله وبين الإعراض عنهم، وذلك لأن قدومهم إليه ليس بغرض فض النزاع والانصياع لما يحكم به، ولكن همهم أن يجدوا سندا لهواهم في حكمه إن وافقه، وأنهم سيزيدون طعنا في الإسلام إذا حكم بما يخالفه.

وانبنى على هذا التخيير تعميق النظر فيما يحدث من خصومات أهل الكتاب وتدخل القضاء الإسلامي إذا كانوا يعيشون في المجتمع الإسلامي باعتبارهم ذميين . ولنبين أقسام ذلك وأحكام كل قسم :

أولا : ما كان من الشؤون الخاصة بالذمي كعبادته، والأخذ بما يظنه أنه حلال أو حرام، وهذا مجمع على أن الحاكم الإسلامي لا يتعرض للذمي في شيء من ذلك.

ثانيا : ما يجري بينهم من المعاملات التي بيّن الإسلام أحكامها، كالزواج والطلاق، وتناول الخمور وترويجها بينهم، والحاكم المسلم لا يتعرض إليهم ولا يقيم الحد على من يجب عليه.

ثالثا: الأعمال التي تتجاوزهم إلى غيرهم، كسرقة الأموال أو القتل أو الاعتداء على الأعراض. واتفق الفقهاء على أن القضاء الإسلامي ينفذ فيهم أحكام الإسلام. ومن ذلك منعهم من ترويج الخمور والمخدرات.

رابعا: النزاعات التي تحدث بينهم فإن لم يتحاكموا إلينا لا نتعرض لهم، وإن طلب أحد المتخاصمين أن يفصل القضاء الإسلامي في خصامهم كان له ذلك.

43- وكيف يحكمونك وعندهم التوراة....بالمؤمنين.

والعجب كيف يتوجهون إليك طالبين أن تحكم بينهم، وهم يدعون أنهم يؤمنون بالتوراة التي بيّن الله فيها الحكم في القضية التي عرضوها عليك، ولكنها لما لم توافق هواهم أعرضوا عنها، وحاولوا أن يتنصلوا مما ألزمتْهُمْ به، فتوجهوا إليك لعلهم يجدون عندك حكما يوافق هواهم، في فاسد ظنهم .فهم قد رفضوا حكم

التوراة، وهم أيضا بصدد أن يخالفوا ما تنبئهم به من أحكام، فهم ليسوا بمؤمنين بك ولا بالتوراة، وإنما همهم أن يبرروا شهواتهم وأهواءهم فما هم بمؤمنين، لا بك، ولا بنبيهم، ولا بالتوراة، فالإيمان منفي عنهم على أتم وجه وأكمله.

إِنَّا أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الهدى : الإرشاد في العقائد والشرائع.

الذين هادوا : اليهود.

الربانيون : العلماء الممكنون من الطرق المقنعة للناس.

الأحبار : جمع حبر وهو العالم في الملة الإسرائيلية.

استحفظوا : اؤتمنوا على إبلاغه وتوضيحه.

بيان المعنى الإجمالي :

تأكيد بأن التوراة وحي من الله مقامها رفيع، هي تهدي في الوقت الذي نزلت فيه إلى الحق، وهي واضحة بينة. قد أمر أنبياء بني إسرائيل الذين أسلموا أمرهم لله وخضعوا له، وكذلك العلماء الموكل إليهم تربية الناس، والأحبار كبار علماء اليهود، أمروا كلهم بأن يحكموا بما تضمنته من أحكام، وأن يبينوا على أساسها العقيدة وما يتصل بها للمجتمع اليهودي. إن ذلك مقتضى المهمة التي أوكلت إليهم من القيام على ما نزل إليهم حفظا عليه من التحريف والتبديل، وإبلاغا لهدايته بعيدا عن التأويل. إنهم شهداء على هذه الأمانة الموكلة إليهم. وأيقظهم حتى لا يخضعوا للمساومات والتأثيرات وإن بلغت حد التهديد. إن عليهم أن لا يخشوا في سبيل إقامة شرع التوراة عواطف الناس وعلاقاتهم بهم، وأن لا ينزلوا إلى قبول الرشاوى التي هي ثمن بخس مهما بلغت.وأن يثبتوا على خشية الله وما يقتضيه ذلك من الإصداع بالحق. وقرر ما يشمل ذلك الوضع ومثله على مر الدهور : أن من رفض الحكم بما أنزله الله استنقاصا له، فحكمه أنه دخل في زمرة الكافرين.

بيان المعنى العام:

44-إنا أنزلنا التوراة فيها هدى....هم الكافرون.

هذه الآية فيها تنويه بالتوراة الكتاب الرفيع الذي أنزلـه الله علـى سـيدنا موسـى، فأثبـت لها أنها من عند الله، وأنها في المقام الرفيع منزلـة لا مكانـا، وأنهـا مشـتملة علـى مـا يوضح العقيدة والشريعة، وأنها واضحة في دلالاتها ترفـع الشـبهات. يطبـق مـا جـاء فيها، على حياة الناس، أنبياءُ بنـي إسـرائيل. فحكمهـا لـم ينسـخ بمـوت موسـى عليه السلام. هؤلاء الأنبياء الذين أسلموا وجههم لله وكـانوا علـى سـنة الإسـلام التـي وصـى بهـا إبراهيم بنيه: **(فـلا تمـوتن إلا وأنـتم مسـلمون)**[1] والتـي بلغـت كمالهـا فـي شـريعة الإسلام.

والتوراة أمر النبيون أن يعتمدوها فـي إجـراء أحكامهـا علـى اليهـود إجـراء يلـزمهم، كانت الأحكام لهم أو عليهم. كمـا يعتمـدها فـي الفتـوى العلمـاء الربـانيون المقتـدرون على تعليم الناس ، وكـذلك علمـاء بنـي إسـرائيل الـذين يتولـون الحكـم فـي فصـل نزاعاتهم. أمروا أن يحكموا بما جاء فيها مـن غيـر تبـديل ولا تحريـف حسـبما أوكـل إليهم من الاستحفاظ على نصها وروحهـا. وقـد أشـهد الله الجميـع علـى القيـام بتلـك الأمانة. وأكد عليهم ذلك، بنهيهم أولا عـن الخضـوع لشـهوات النـاس وأهـوائهم ممـن لهم تأثير اجتماعي، وأمروا أن يفـردوا الله بالخشـية والخـوف منـه، فيستحضـروا فـي قيامهم بمهامهم رقابة الله عليهم. وبنهيهم ثانيا عن تـبديل مـا يتحققـون أنـه حكـم الله مقابل ما يقدم إليهم من أموال، هي ثمن بخس، مهمـا بلغـت، إذا قـيس بخيـانتهم للأمانـة الدينية التي استُحْفِظُوا عليها.

روى القاضي عياض في المدارك عـن أبـي الحسـن بـن المنتـاب قـال: كنـت عنـد إسماعيل يوما فسئل : لم جاز التبديل على أهل التوراة ولـم يجـز علـى أهـل القـرآن؟ فقال : لأن الله تعالى قال في أهل التـوراة :**(بمـا اسـتحفظوا مـن كتـاب الله)** فأوكـل الحفظ إليهم. وقال في القرآن: **(إنا نحـن نزلنـا الـذكر وإنـا لـه لحـافظون)** فتعهـد الله بحفظه فلم يجز التبديل على أهـل القـرآن. قـال : فـذكرت ذلـك للمحـاملي. فقـال: لا أحسن من هذا الكلام. فهذه مـن لطـائف القاضـي إسـماعيل وحسـن إدراكـه للمعـاني الثانوية في القرآن.

ثم أطلقه تهديدا يشملهم أولا، كما يشمل كل من عـرف حكـم الله واسـتهان بـه اسـتهانة يتبعها رفضه، فاعتمد في الحكم ما يقـرر أنـه خيـر مـن حكـم الله، فيطـرح حكـم الله

---

[1] سورة البقرة آية 132

على أنه غير صالح. ومن بلغت به الجراءة هذا الحد هو كافر، لأن مضمون ذلك أن حكم الله غير صالح، ناقص عن إصلاح الناس، وأن ما خيل له أصلح، هو خير من حكمه سبحانه.

وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

كتبنا: شرعنا لهم شرعا واجب تنفيذه.

النفس بالنفس :الذات بالذات.

قصاص: أن يجرح الجاني جرحا مساويا للجرح الذي أحدثه.

قفينا: أرسلنا عيسى تابعا للنبيين.

موعظة: الكلام الذي يؤثر في القلب والعواطف فتَلِينُ للطاعة، وتنزجر عن المنهيات.

بيان المعنى الإجمالي :

أعلنت هذه الآية الأحكام التي جاءت في التوراة، سواء ما أخفاه أحبار اليهود أو بدلوه وحرفوه، وتتضمن أن حكم الله في التوراة أن المتعدي يقتص منه : من قتل يقتل، ومن أتلف عين غيره يقتص منه بإتلاف عينه ، ومن جدع أنفا يفعل به مثل ما فعل، ومن اصطلم أذنا تصطلم أذنه، ومن أتلف سنا يفعل به مثل ما فعل، ومن جرح يفعل به مثل ما فعل.

وأن من عفا عن المعتدي، أثابه الله بتكفير ذنوبه.

وأضاف إلى منزلة التوراة التي حكم بها الأنبياء والعلماء، أن الله بعث عيسى عليه السلام تابعا لآثارهم جاريا على سنتهم من إقامة أحكام التوراة. وأن الله آتاه كتابا منزلا من عنده هو الإنجيل، الذي من صفاته أنه يشترك مع التوراة في كونه كتاب هداية

يضيء للسالكين طريق النجاة. وهو كتاب يؤكد ما جاء في التوراة التي تقدمته ولا يناقضها، ودوره هو إكمال التوراة وخاصة بالتخفيف عن بني إسرائيل بعض الأحكام الشديدة التي فرضت عليهم لتأديبهم. والإنجيل يرقق القلوب لتلتزم بالطاعة وتبتعد عما نهى الله عنه. والواجب على أهل الإنجيل أن يحكموا بما جاء فيه، فإن من لم يحكم بما أنزل الله فاسق منحط لا تقبل شهادته ولا رأيه.

بيان المعنى العام :

45- وكتبنا عليه فيها أن النفس....هم الظالمون.

هذه الآية ترد على بني إسرائيل وتعرف بما حرفوه من التوراة، وبما أخفوه. فهي تنص على أن الله شرع في التوراة :أن القاتل للنفس البشرية يقتل بها ، وأن من فقأ عينا تفقأ عينه، ومن جدع أنفا يجدع أنفه، ومن اصطلم أذنا تصطلم أذنه، ومن أتلف سنا يقتص منه بإتلاف سن له. ومن تعدى فجرح غيره يجرح مثل الجرح الذي أحدثه. وهو معنى والجروح قصاص.

وكان اليهود قد غيروا أحكام التوراة ، ففي حرب بعاث، وقد هزمت قبيلة بني النضير قبيلة قريظة، ألزمت النضير قريظة أن تدفع لها عن كل قتيل منها دية رجلين، ومن قُتل من قريظة ديته دية رجل واحد ، ومن قَتل نضير يا يقتل به ومن قَتل قرظيا لا يقتل به . فشنع القرآن بتناقضهم، كيف يدعون أنهم يقيمون أحكام التوراة، وفي الواقع هم لا يحترمونها.

ومما حكم به الله في التوراة أن القصاص حق للمعتدى عليه، وأن من تصدق على الجاني بالعفو عنه، العفو الذي يؤلف القلوب ويذهب الإحن ويقوي الوحدة، فإن الله يجزيه بتكفير ذنوبه. والعفو غير تبديل الأحكام، فتبديل الأحكام فيه ظلم للمعتدى عليه وقهر له، وهو يبقي على تعلق إرادة المعتدى عليه بالانتصاف لنفسه، ويخلخل بالتالي العلاقات الاجتماعية وينذر بالفوضى.

ومن عرف الحكم الذي ينتظم به أمر المجتمع الإنساني، ثم أهمله وحكم بخلافه فقد ظلم المحكوم عليه واستنقصه حقه، فهو بذلك معدود في زمرة الظالمين. وبهذا ثبت أن معيار الحق هو في الالتزام بتطبيق شرع الله. ثم أعلن القرآن أن الله تعالى بعث عيسى عليه السلام تابعا لمنهج النبيين من بني إسرائيل الذين كانوا يحكمون بالتوراة، وكان على طريقتهم وهديهم، فهو يقرر التوراة، ويصدق مؤيدا ما جاء فيها من أحكام باعتبار أنها تقدمته، وهو معنى: (**بين يديه**).

46-وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم....للمتقين.

ثم أضاف القرآن أن الله آتى عيسى الإنجيل كتابا منزلا من عنده، وهو يشترك مع التوراة باعتبار أنه يهدي للعقيدة السليمة ويبين الأحكام، وأنه كالتوراة يضيء للسالك طريقه مسارب النجاة والرضوان. وهو يصدق التوراة باشتماله على كثير من أحكامها، فلا تناقض بينهما في الأصول، وإن كان الإنجيل قد خفف بعض أحكام التوراة، التي كانت تناسب وضع عناد بني إسرائيل عند نزولها.

47- وليحكم أهل الإنجيل...هم الفاسقون.

أمر بنو إسرائيل عند نزول عيسى أن يعملوا بما جاء في الإنجيل، وأن يقبلوا ما نسخه من أحكامها. وختمت الآية بأن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون الخارجون عن حدود العدالة. وقد ختمت الآيات السابقة بقواعد عامة.

(1) أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون.

(2) أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون.

(3) أن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون.

ونظرا لربط الوصف بعدم الحكم بما أنزل الله في الثلاثة، واختلاف مقتضاه، مرة بالكفر، ومرة بالظلم، ومرة بالفسق، تعين التعمق في ذلك. فذهب بعضهم إلى أن من لم يحكم بما أنزل الله كافر ظالم فاسق. والآيات مرتبطة بأهل الكتاب وخاصة اليهود.

والذي ترجح عندي: أن من لم يحكم بما أنزل الله استخفافا به ورفضا له هو كافر. وأن من لم يحكم بما أنزل الله مع تيقنه بصدقه وصلاحه ولكن غلبه الهوى أو الرشوة فهو ظالم. ثم إن هذا النوع الأخير ينضم إلى الحكم بظلمه الحكم بفسقه، فهو أحط من أن تقبل شهادته، أو يعتمد رأيه.

وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ
فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا
مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا
آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ
تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن
يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم

بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَـٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

المهيمن : الرقيب على غيره مع علو.

الشرعة : الأحكام التفصيلية لأعمال المكلفين.

المنهاج : الطريقة العامة في التفكير وفي التصور وفي مباشرة الحياة بصفة عامة.

أمة واحدة : كل البشر من أولهم إلى آخرهم، متفقون في الدين، والتصورات.

ليبلوكم : ليختبركم بالتكليف.

فاستبقوا : سارعوا إلى الخير كما يجتهد المتسابق ليفوز.

بيان المعنى الإجمالي :

تنويه بالقرآن بأنه كتاب رفيع المقام أنزله الله إليك يا محمد ممتزجا بالحق، مصدقا لما جاء في الكتب السابقة من أصول العقيدة، ومن أحكام الحقائق الثابتة غير المتغيرة بتغير الزمان والأوضاع الاجتماعية. وهو مع هذه الرابطة بالكتب السابقة، هو قائم عليها جميعا، يعدل ما تقتضي مصلحة البشرية تعديله، لتتمكن من أداء رسالة الاستخلاف في الكون التي أراد الله أن تتحملها. وبناء على ذلك فالرسول ﷺ مأمور أن يحكم بما ورد في القرآن، وأن يعرض عن رغبات اليهود والكافرين الذين يُحكِّمُونَ أهواءهم وشهواتهم، وأن لا يقيم وزنا لما يتعللون به من الأحكام التي ألفوها، فشريعة الإسلام تختلف عن شريعتهم، ومنهاجه العام يختلف عن منهاجهم. ولو تعلقت إرادة الله أن يخلق البشرية كلها نمطا ثابتا لفعل، ولكنه خلقهم مختارين لا مجبرين، مكلفين، ومكنهم من السير في الطريق الذي يختارونه، ويحاسبون على ذلك. وأمْرُ الله إلى البشر أن يسارعوا إلى الخير ويتجنبوا الشر. وأنهم سيعودون إليه ليظهر لهم الحق الذي حادوا عنه اتّباعا لشهواتهم. ثم يؤكد القرآن على الحقيقة التي ذكرها في الآية الأولى من الحزم في تنفيذ أحكامه، والإعراض عن أهوائهم، وينبه رسوله لمكائد اليهود، وتلبيساتهم حتى يكون دائما يقظا لدسائسهم، التي يريدون من ورائها أن يحولوك عما أنزل الله إليك. ولا تهتم بهم إذا هم واصلوا إعراضهم، فإن ذلك بسبب تحجر قلوبهم تبعا لبعض الذنوب العظيمة التي غشت على بصائرهم. وهذا ما أصيب به كثير من الناس من الخروج عن حدود الله.

ما ذا يريد هؤلاء الذين يرغبون عن حكم الله؟ إنه لا يوجد إلا طريقان طريق الله الذي أخرج البشر من ظلمات الهوى إلى نور ميزان العدل، وطريق الجاهلية المحكمة للشهوات الظالمة. إنه لا أحسن ولا أكمل ولا أصلح من الحكم الإلهي الموجه للقوم الثابتين على اليقين.

بيان المعنى العام :

48-49: وأنزلنا إليك الكتاب بالحق...من الناس لفاسقون.

بعد أن نوّه القرآن بالتوراة والإنجيل، توجهت عنايته لبيان مقام القرآن بين الكتب السماوية، فأثبت له المزايا التالية سواء اشترك مع غيره في بعضها أو انفرد بها:

أولا : أن الله هو الذي تولى بنفسه إنزاله على قلب رسول الله، فأسند الإنزال لنفسه مع نون العظمة التي تشير إلى رفعة مقام ما تولى الله العناية به فبلغه.

ثانيا : إن القرآن قد أنزل، وليس معنى الإنزال التحول المكاني، ولكن الإنزال يشير إلى أنه قبل أن يتصل به رسول الله ﷺ كان محفوظا عند الله، فهو في أرفع مقام، فمراعاة لذلك عبر عن إبلاغه بالإنزال.

ثالثا: أن هذا الكتاب قد ارتبط بالحق ارتباطا عضويا، المعبر عنه بالملابسة، فكل ما جاء فيه من مختلف تصاريف معانيه، وأحكامه، وقصصه، وموضوعاته، كلها حق بعيدة عن الباطل.

رابعا: أن صلته بالكتب السابقة هي صلة موافقة وتكميل (**مصدقا لما بين يديه من الكتاب**)، فالقرآن يؤكد ثوابت العقيدة، وأحكام المصالح التي لا تتغير بتغير الأزمنة، ويحور أو ينسخ أحكاما أخرى تتبع تغير الأزمنة والمصالح.

خامسا: أنه مهيمن على الكتب السابقة جميعها، والمهيمن هو الذي يكون له من المقام والتأثير، ما يحله منزلة التأكيد أو التغيير لما سبقه. فكلمة الفصل هي ما يقرره مما جاء في آياته.

سادسا : بما أنه أثبت للقرآن أنه مُهيْمن على الكتب السابقة، والقول الفصل له في جميع القضايا التي تعرض على رسول الله ﷺ، فالرسول بناء على ذلك مأمور بأن يحكم بما ثبت عنده بالقرآن، وأن قوله تعالى : **(بما أنزل الله)**، أي عليك. ويلزم من هذا أن الرسول لا خيرة له في تقرير الأحكام. فليعلم كل من عرض عليه حكمٌ في قضية من القضايا، أنه لا يحكم إلا بما أنزله الله، وأن رضا المحكوم عليهم أو سخطهم لا يتأثر به النبي ﷺ، فحكمه مرتبط بالحق، والأهواء مشوبة بالباطل، ولو

توقع أنهم سيدخلون في الإسلام مبررين بما يجري عليه الأحكام بينهم، فالقرآن مهيمن.

وتأكيدا لكون القرآن مهيمنا لا تابعا، وقع التصريح بأن مجموع ما جاء قبل القرآن يختلف عن القرآن والرسالة المحمدية. فقال تعالى: **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا.** هاتان الكلمتان لم يتبين لي، مما تقدم تفسيرهما به عند أئمة التفسير، معنى واضح في نفسي.

والذي ترجح عندي أن الله جعل لكل أمة من الأمم مجموعة من الأحكام بها ينتظم أمرها، فهي شرعة تفصيلية لفصل قضاياهم وبيان حكم الله في كل ما يقدم عليه المكلف. والمنهاج هو التصور العام للحياة الذي يحد ث في الفكر بعد اختلاطه بكل ما جاءت به الشريعة فيحصل منه طريق للتصور والسلوك. وبهذا يكون كل رسول تطور بقومه حسب أوضاعهم وأحوالهم، وأن النبي ﷺ بلغ بأمته ما يميِّزُها عن كل ما سبق في التشريع وفي المنهج العام.

ثم يبين القرآن حقيقة من الحقائق التي بنى الله عليها أمر الحياة البشرية في الدنيا. بنى الإنسان على أنه ممكن من الاختيار فيما يتعرض له في حياته، فلم يُفْرَغْ في قالب واحد يسير عليه لا يختلف فرد عن فرد ولا جيل عن جيل كالحيوانات التي تسير على طريقة واحدة من أول الحياة، ولكن كل فرد ممكن بما آتاه الله من قوى الإدراك والتعقل، يختار ثم ينفذ، يتأثر بتجارب البشرية ويتفاعل معها. ويحصل من ذلك التفاعل البشري تطور حضاري شامل، به يختلف جيل عن جيل.لم يرد الله أن يجعل البشرية صورة نمطية لا يختلف حاضرها عن ماضيها ولا عن مستقبلها، دينهم من أولهم إلى آخرهم واحد لا خلاف فيه.

بل تعلقت إرادة الله أن يكون الإنسان مكلفا يتبع تكليفه الاختبار والجزاء عما يختاره، وذلك بتطويع عقله وما آتاه الله من قوى لتكون تصوراته العقدية مرتبطة بالحق، وليكون ملتزما في سلوكه حسب المنهج الذي يرضاه الله وإن خالف هواه وشهواته، وما تميل إليه نفسه. ويؤكد القرآن أن على البشر أن يستحضروا: أنه لا مفر لأي منهم من العودة في خاتمة أمرهِم إلى الله، وأن مصيرهم إليه، وأنه ستتكشف الحقيقة في ذلك المشهد فيجد البشر ما كانوا يختلفون فيه، تبعا لشهواتهم وأهوائهم، واضحا بينا لا غبش فيه فترتفع الشبه التي كانت تستند إليها ضلالاتهم.

ثم تأكد أمر النبي ﷺ بالالتزام بما تلقاه من وحي الله، وفي هذا التأكيد توصل لبناء النهي والأمر عليه (**ولاتتبع أهواءهم * واحذرهم**)عناية الله بتثبيت رسوله مستمرة، ومكر اليهود من أشد أنواع المكر، فأمر رسوله أن يكون مستيقظا

لتلاعبهم ودسهم، فأيقظه بالنهي عن أن يلين لهم بما يعدونه إن هو سايرهم، وعَمّق هذا النهي بتحذيره منهم، فإنهم أبعد ما يكون عن البحث عن الحق، ولا يبغون إلا فتنتك فتنساق إلى ممالأتهم في ضلالاتهم. وإن كان الله قد عصم نبيه من الضلال، لكن إذا كان التزامه بالحق نابعا من يقظة فكرية ومجاهدة كان له بذلك حظ من ارتفاع مقامه وزيادة ثوابه.

إن حصلَ ما هو متوقع من اليهود من الإعراض والثبات على الضلال، فلا تتأثر بذلك يا محمد، واعلم أن الله لم يمكنهم من ألطافه وحرمهم عونه فلا تتفتحُ بصائرهم على الهدى، وحقّ عليهم الشقاء، حُكْمًا عدلا من الله، أصابهم الله بتمكن الضلال منهم تبعا لبعض ذنوبهم .ولما كان النبي ﷺ شديد الحرص على إيمان البشر واهتدائهم، هوّنَ الله عليه ما يحس به من ألم لاستمرارهم على الكفر ، بأن هذا غير خاص بهم ولكن كثيرا من الناس ثبتوا على الفسق، فاثْبُتْ ولا تحزن.

50-أفحكم الجاهلية...حكما لقوم يوقنون.

ثم توجه القرآن في صيغة إنكار وتوبيخ للبشرية الضالة عن طريق الله، الراغبة في تحقيق أهوائها، فقال تعالى: **أفحكم الجاهلية يبغون؟** إنهما طريقان لا ثالث لهما : إما الخضوع للحق والانسجام معه في الحياة وتقديمه على هوى النفس، حتى يكون وعي الإنسان في الحياة أنه عنصر مرتبط بالكون كله، سعادته في ذلكم التناغم والتوافق مع الكون. وإما التمرد على قوانين الكون التي كلها عدل، وتغليب حظوظ النفس، وقبول اختلال الميزان ليُرضِيَ المتمرد شهواته وأهواءه. وهو الحكم الجاهلي. وهذا الحكم إن نجح في تقدم مادي محدود فهو مدمر للإنسان ولطمأنينته، وبالتالي سعادته.

وإذ تبين ما يوحي به قوله تعالى: أفحكم الجاهلية يبغون ؟ فكأنه انبثقت من هذا الإيحاء صورة فريدة جديرة أن ينظر إليها بإعجاب، بلغت من الحسن والكمال مبلغا ممتازا، انطبعت بالحسن والجمال، فلا أحسن منها للذين خرجوا من الأوهام وعمرت قلوبهم باليقين.

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ

بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ
فَأَصْبَحُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

أولياء : جمع ولي : وهو النصير والودود.

الذين في قلوبهم مرض : المنافقون.

الدائرة : تغير الحال من خير إلى شر، ودوائر الدهر نوائبه.

جهد الأيمان : أغلظ الأيمان.

حبطت : تلفت وخسرت.

بيان المعنى الإجمالي :

انتبهوا أيها المؤمنون فإن إيمانكم يفرض عليكم أن تكون صلتكم باليهود والنصارى والكافرين، صلة تحقيق عمران الكون ولا ترتفع إلى مستوى الود والتناصر. فإن اليهودي لا يخلص إلا لليهودي مثله، وكذلك النصراني. ولذا فإنه لا يخلص لغير المسلم إخلاصا تاما يقدمه به على مصلحة المؤمنين إلا من كان واحدا منهم، ومن كان في باطنه مع اليهود والنصارى فقد حرم الهداية لأن الله لا يهدي القوم الظالمين ومن كفر بالإسلام ظالم .

نشاهد أمرا عجبا: أن المنافقين يضمرون في أنفسهم التحوط لتُضْمَن لهم مصالحهم في المستقبل، فهم في ظاهرهم مع المؤمنين، وفي باطنهم يتولون غير المسلمين. فمن نجح من الفريقين يكونون معه غير خاسرين. إن المؤمنين على رجاء أن يفتح الله على المسلمين، أو يحدث من تصاريف قدره ما يعلي به كلمة الإسلام، والرجاء في الله يتحقق، وفي ذلك الظرف يفتضح المنافقون، يعلو وجوههم الكآبة وخزي الندامة. ويقول المؤمنون : عجبا من أمر هؤلاء، فقد كانوا يعيشون بيننا، ويقسمون الأيمان المغلظة على صدقهم، ويتيقن المؤمنون بشعور صادق يحل في قلبوهم مفاده : إن هؤلاء المنافقين قد ذهبت آثار كل ما قدموه مما ظاهره أنه خير وامحى كأن لم يوجد. لقد أصبحوا خاسرين.

بيان المعنى العام :

51-أيا أيها الذين آمنو لا تتخذوا...الظالمين.

وضحت الآيات السابقة حقائق بني عليها طبيعة التكوين البشري، وأمر المجتمع، نجملها فيما يأتي :

1: أن البشر بطبيعتهم ليسوا نمطا واحدا، ولا ينفرد العقل بتوجيههم في حياتهم. وتبعا لذلك تؤثر فيهم أهواؤهم وشهواتهم، والمحيط الذي يعيشون فيه، وموروثاتهم الحضارية والثقافية.

2:أن البشر تبعا لذلك لا بد أن يكونوا مختلفين، وأن اختلافاتهم تلك قد تعمقت بما اقترن بها من التعصب، فاعتصم كل فريق بمفاهيمه للكون، وبقيمه، ووضع الإنسان في هذا الوجود.

3 :أن الإرادة الإلهية قد قدرت أن الاختلاف ماض مع البشر، لا تتكشف الحقيقة لجميعهم إلا يوم يحشرون إليه يوم القيامة فترتفع الحجب، ويستوي الناس جميعا في إدراك الحقيقة.

4: أن الاختلاف بين الأمة الإسلامية وبقية الملل والنحل اختلاف جوهري، شمل التشريع والتصور العام للإنسان والكون وسلوك الإنسان فيه. وأن هذه إرادة الله فإنه سبحانه ما شاء أن يجعل البشرية أمة واحدة. وأن الأمة الإسلامية هي التي هداها الله الصراط المستقيم، وبالتالي فهي متميزة في عقيدتها وتشريعها ومنهجها في التصور والسلوك عن بقية البشر المتدينين منهم والكافرين.

هذه الحقائق قررها القرآن وذكر بها أكثر من مرة، وهذا ما يحتم على كل فردٍ من المسلمين أن يكون واعيا أتم الوعي لها، وأن يطوع علاقاته الاجتماعية على هداها.

لذا أُتبِعت الآيات السابقة بهذا النداء للمؤمنين، الذي مضمونه أن يكون عامل الوحدة بينهم المنبثق من الدين يؤلف بينهم تأليفا يجعل كل فرد مسؤولا عن صفاء المجتمع الإسلامي ونماسكه، وأن لا يتهاون في صِلاتِهِ بغير المسلمين إلى إمكان اعتبار من يخالفه في الدين وليا له يتناصران ويخلص له في الود.

ليس معنى هذا أن المسلمين يعادون غير المسلمين، ولا يعاملونهم، فهذا تصور خاطئ مناقض لإرادة الله أن يعمر البشر الكون الذي استخلفوا فيه، وكل إنسان يسهم في تنمية الخيرات أيا كان معتقده. ولكن الحد الفاصل بين التعاون في تطوير ما آتانا الله من خيرات، وبين ما نهينا عنه، هو أن المسلم يعامل غير المسلم معاملة أساسها العدل واحترام حقوق الإنسان وكرامته في دينه وحياته وماله وعرضه، ويتعاون معه في ميادين العمل والعلم المادي، ولكن لا يبلغ هذا التعاون إلى الودِ الذي يندمج به كل طرف في الطرف الآخر، فيفضي له بأسراره وأسرار

أمته، ويساعده في كل ما يطلبه منه دون نظر إلى صيانة الأمة الإسلامية وحقوق الدولة والأفراد.

ينبه الله المؤمنين إلى أن اليهود والنصارى اللذين كانا عنصرين هامين في المجتمع المدني، ويقومان بكثير من الأدوار الاجتماعية ويتعامل المسلمون معهم، قلب كل فريق منهم رافض لغيره، لا يخلص إلا لمن كان على دينه، وبناء على ذلك فإن كل من يرتبط باليهودي أو النصراني ارتباط ود وتناصر، ويتآلف معه إلى درجة الإخلاص له إخلاصا يقدم به مصالحه على مصالح المسلمين، في الشدة والرخاء والسلم والحرب، ويعتقد معتقداتهم إنه يكون قد خلع بذلك انتسابه للأمة الإسلامية وانقلب عضوا في اليهودية أو النصرانية. وحرم الهداية لأن الله لا يهدي القوم الظالمين، وهؤلاء اليهود والنصارى ظالمون بتحريفهم لما أنزل إليهم وعصيانهم للدعوة المحمدية. وأما الذين يوالون الكفار موالاة يخدعون بها المسلمين ويسندون أعداءهم، وتبقى قلوبهم غير مقطوعة عن الانتساب للمسلمين، وإن كان انتسابا ضعيفا، يفعلون هذا لتحقيق بعض أغراضهم الدنيوية الدنيئة، فإنه لا يحكم عليهم بالكفر، ولكن عظم الذنب الذي ارتكبوه يجعلهم من أشد أنواع الفسقة الآثمين، يعظم إثمهم بمقدار الضرر الحاصل للجماعة الإسلامية، حسب الخدمات التي انتفع بها الأعداء، وحسب وضع المسلمين من قوة أو ضعف.

52-فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون....نادمين.

إن مسارعة بعض الناس في مجتمع المدينة لموالاة اليهود أو النصارى، هو شارة نفاق، فإن مرض النفاق من أخبث ما تمرض به القلوب فتهتز شخصية المنافق وقيمه. لقد افتضح أمرهم، إذ تشاهد هؤلاء المنافقين تفتضح دخيلتهم بمسارعتهم للانتماء لغير المسلمين، إنهم فقدوا الثقة في انتصار الإسلام، ولذا هم يحدثون أنفسهم حديث المخذولين في كل زمان: أن عليهم أن يحتاطوا لتقلبات الزمان ونوائب الدهر. وذلك بأن يكونوا في ظاهرهم مع المسلمين وفي باطنهم مع اليهود أو النصارى ليضمنوا مصالحهم على جميع التقادير. إنهم على شك من نصر الله لدينه. ألم يعلموا أن الله مؤيِّد رسولَه ناصر للإسلام. إنه بالإيمان تعمر القلوب بالرجاء، فالمؤمن على رجاء أن يفتح الله على المؤمنين بالنصر المبين، أو أن ينزل أمرا من عنده يشتت به الكفر وأهله، وعندها يصبح المنافقون نادمين على ما أخفوه في أنفسهم.

53-يقول الذين آمنوا...خاسرين.

وتبدو الحسرة والتذبذب والحيرة، يوم النصر، على المنافقين، فيفتضح أمرهم، ويقول المؤمنون، متعجبين منهم وقد كانوا مندسين في صفوفهم، يظنون بهم الخير، يقول المؤمنون: عجبا من هؤلاء الذين كانوا معنا يحلفون الأيمان المغلظة على أنهم مخلصون للدين وللجماعة الإسلامية! ثم ينتشر الحكم الإلهي في قلوب المؤمنين يدركونه بما في القلوب من صفاء : هذا الحكم : حبطت وذهبت وفسدت كل أعمال المنافقين وخسروا، فكأنهم باتوا مزودين بما قدموه من خير فأصبحوا وقد امحى من صحائفهم كل عمل يمكن أن يستحق عليه جزاء.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الارتداد عن الدين : الكفر بعد الإسلام كان بالرجوع للدين السابق أو لغيره.

أذلة على المؤمنين : في شخصياتهم لين وحنو على المؤمنين.

لومة : واحد اللوم العتاب الشديد أو الخفيف.

بيان المعنى الإجمالي :

تثبت الآية أن الله كتب العزة لدينه، فمن يرتد عن الإسلام يكون هو الخاسر، ويمضي الإسلام مؤيدا بالذين يشرح الله صدورهم للإسلام، القوم الذين يحبهم الله فأكرمهم بهدايته، وهم يحبون ربهم ويعملون على ما يحقق مرضاته، لانت أخلاقهم للمؤمنين، وهم ذوو بأس وشدة على الكافرين، يبذلون أنفسهم وأموالهم في نشر الدين، ولا يتأثرون بعتاب من يعاتبهم في ذلك من المقربين لهم. إنه فضل الله يفوز به من يشاء الله له السعادة. والله واسع الفضل عليم بمن هو مؤهل لفضله.

إنه ليس للمؤمنين الصادقين من ولي إلا الله الذي تولاهم بعونه، وبتثبيتهم على الإيمان، ثم رسول الله الذي همه في سعادة المؤمنين في الدنيا والآخرة، ثم إخوانهم في الدين الحقيقيون الذين تهذبت عواطفهم ومشاعرهم فواظبوا على الصلاة وأشركوا المحاويج في أموالهم بالزكاة، وانسل من تركيبهم النفسي الكبر والأنانية

فلانت قلوبهم لله، وهو معنى **(وهم راكعون)** إن من يتولاه الله ورسوله ويتولاه المؤمنون الأبرار، لاشك أنه منتصر غالب. إنه من حزب الله. وحزب الله المؤيد بعنايته غالب منتصر.

بيان المعنى العام :

54-يا أيها الذين آمنوا من يرتدد...والله واسع عليم.

في هذه الآيات إبراز لعزة الإسلام، بأنه يكتسب قوته من ذاته، وأنه لا مزية لأحد على الأمة باعتناقه الإسلام أو بالثبات عليه. فنادى القرآن المؤمنين أن يستحضروا ذلك. ونبههم إلى أن من يخرج من هذا الدين ويرجع إلى الكفر، فإنه لا يضر الله شيئا، إذ الإسلام ماض يكثر معتنقوه وينتشر انتشار الضوء في العالم. إن في هذه الآيات كشف للغيب الدال على أنه أنزل ممن يستوي علم الحاضر والمستقبل عنده، فقد كفر كثير من العرب بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، ولم يؤثر ذلك في الأمة، إذ سرعان ما نصر الله دينه بأقوام انشرحت قلوبهم له، وأخلصوا له، وبذلوا في سبيل نشره دماءهم وأموالهم. لا تسأل كيف انضموا إلى هذا الدين، ذلك أن الله هو الذي تولى فتح بصائرهم فأتى بهم منفتحين على الإسلام، قدموا الخدمات الجليلة لرفع أعلام حضارته، وفي الذود عنه. أحبهم ربهم فرضي عنهم ويسرهم لطاعته والتعمق في دينه، وحصل لهم من هذا التكريم أنهم انفعلوا له فأحبوا ربهم حبا حلت به في قلوبهم عظمته وكماله، وارتبط في تصورهم كل خير بفضله فساروا في هذا المسلك تتضاعف شواهد إحسانه في نفوسهم فيزدادون تعلقا به. صورهم القرآن بأنهم بترقيهم في ذلكم التصور، ارتبطوا بإخوانهم المؤمنين ارتباطا عضويا لانت به أخلاقهم، وتطهرت معاملاتهم وذهب التعالي. وفي المقابل فإن ما جبلوا عليه من القوة والبأس والشدة لم يزده الإسلام إلا مضاء ونفاذا على الكافرين. فكان هذان الوصفان المتقابلان يتشكل منهما وصف ثالث، هو الحكمة في التصرف، هم يلينون في مقام اللين مع إخوانهم مما يزيد الألفة تمكنا، ويقسون على أعداء الدين بما يزرع الخوف في قلوبهم. والوصف التالي لهؤلاء القوم الذين عز بهم الإسلام، هو إقدامهم على الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. وقد أعز الله الإسلام بتلكم الأقوام فكان منهم الجيوش والقادة الذين اندفعوا في أرض الله يعرفون بالإسلام ويؤلفون عليه القلوب والمشاعر. ووصفهم أخيرا بأن عزماتهم ماضية، فانتفى التردد من أن يحل في نفوسهم، فلا يؤثر فيهم لومة اللائمين. ويأتي اللوم من

المشفقين المتوددين حذرا من أن يصيبهم في أنفسهم وأموالهم ما يتعرض له المجاهدون.

ويتألق من هذه الأوصاف تتويج يؤكد مضمون ما قررته الآية أن ذلك فضل الله يؤتيه سبحانه من يشاء من عباده. والله واسع فضلُه وإنعامُه تبعا لعلمه الدقيق بكل شيء.

55-إنما وليكم الله ورسوله... راكعون.

ويعود القرآن إلى تأكيد مضمون ما قرره في الآيات السابقة من النهي عن موالاة غير المؤمنين، بإبراز أن المسلمين ليسوا ضياعا في هذا الكون يبحثون عن التأييد البشري، كلا بل إنهم أعزاء بِقَصْرِ وِلاَيَتِهِمْ أولا على الله الذي يتولى المؤمنين كما تقرر ذلك في أول السورة: (**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا**)، ومن أعزه الله ورعاه لا يذل ولا يحتاج، وثانيا برسول الله الذي أحب المؤمنين حبا بلغ الغاية في حَدَبِه على إسعادهم في الدنيا ويوم القيامة. وثالثا بما غرسه الإسلام في مشاعر المؤمنين من التضامن والتناصر حتى إن الواحد منهم ليقدم أخاه المؤمن على الكافر وإن كان تجمعه به رابطة البنوة أو الأبوة.

وينوه بإخوة الإيمان التي روضتهم بالصلاة فلانت طباعهم وتدفقت مشاعرهم بالخير، والعواطف النبيلة، الذين يبذلون زكاة أموالهم فيقاسمون بما آتاهم الله إخوانهم، وتختم أوصاف أوليائهم المؤمنين بأنهم قد صفت أخلاقهم من كل كبر وأنانية فهم راكعون متذللون لله تجري السماحة في عواطفهم وأخلاقهم.

56- ومن يتول الله ورسوله....الغالبون.

إنه من ييسر الله له أن يكون الله وليَّه، ويتولاه الرسول الكريم، وتنعقد صلته بالمؤمنين الصالحين، يكون قد تأكد انتصاره وغلبته لأنه انضم إلى حزب الله. ويقتصر الفلاح على حزب الله فلا يفلح غيره.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَـٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلۡ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ

وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

هزوًا : سخرية.

نداء الصلاة : الأذان.

نقم: نقَمَ ينقِم الشيء: أنكره وعابه.

المثوبة : ما يعود به المرء إلى بيته من حاصل الخير الذي جمعه.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن على المؤمنين أن لا يركنوا لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ولا للكفار ولا يتخذوهم أولياء، إنهم يهزؤون بدينكم ويخرجون به عن الجد إلى اللهو والعبث، وفي ذلكم أعظم احتقار لكم. تمسكوا بتقوى الله فإنها التي تكسبكم الطمأنينة وتحصن بصائركم من أن يروج عليها الخداع. وأمر آخر إن أعداءكم من الكفار وأهل الكتاب قد بلغوا من الدناءة أنهم يسخرون من نداء المنادين للصلاة ويتخذون ذلك لعبا، هذا النداء الذي كله سمو ودعوة إلى الخير، ولكن لا عجب في ذلك فهم قد فسد عندهم ميزان العقل.

ثم ناداهم القرآن في صورة الإنكار المقرون بالعجب من مواقفهم فيعرض عرضا تفصيليا لأوجه الخلاف والوفاق، فيقول لهم ما الذي تنكرونه علينا ؟ فنحن نؤمن بالله فهل في هذا عيب ؟ ونحن نؤمن بما أنزل الله علينا ولستم ملزمين باتّباعنا، وأن أكثركم فاسقون غير ملتزمين بشريعة الله ونحن ملتزمون بتطبيق شرع الله. لم يبق إلا أنكم تحسدوننا على ما هدانا الله إليه.

ولكن اسمعوا وعوا، إن شر الناس هم الذين لعنهم الله، وقد لعن أسلافكم كما هو مثبت في كتبكم، وأن الله قد مسخ أسلافكم فحولهم إلى قردة وخنازير في الخلقة أو في المساوي السلوكية، وأن منهم من عبد الصنم كعبادتهم العجل لما تركهم موسى عليه السلام في رعاية هارون فأنتم شر الناس مكانة وأبعد عن الطريق المستقيم.

بيان المعنى العام :

57-يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا.....مؤمنين

تضمنت الآية تأكيدا للنهي عن موالاة أعداء الدين، حتى تكون الجامعة الدينية متفردة بالرباط الذي يؤلف بين المسلمين، وتنحل كل الروابط الأخرى، فلا يكون

لها أثر في المودة. وأبرزت الآية بتقديم الوصف الكاشف عن سوء صنيعهم ما يعمق اقتناع المؤمنين بعدم موالاتهم. إنهم قد أضافوا لمعاداة الإسلام سفاهة خلقية، فقد اتخذوا الإسلام ميدانا لسخريتهم، ولِلّعِبِ بالمقدسات التي يقوم عليها. وهي طريقة هابطة تزيد الشقة بعدا بينهم وبينكم.إن اليهود والنصارى والكفار يستهزئون بعقيدتكم، والعقيدة تمثل جهد الإنسان ليسمو عن القريب المحسوس إلى ما ينتظم المحسوسات كلها الظاهرة والباطنة، ويشمل إدراكه لمنزلته في الوجود وما وراء ذلك من الغيب. فالسخرية بالدين في حقيقتها سخرية بعقل المتدين واحتقار له. فكيف يوالي الإنسان من يحتقره؟ إن الحصن الحامي للمؤمنين والذي يؤكد عليه القرآن دوما، هو التقوى: هي شارة الإيمان الصادق، ومن فقدها فذلك أمارة اهتزاز إيمانه.

58-59: وإذا ناد يتم إلى الصلاة اتخذوها...وأن أكثركم فاسقون..

ثم شنع بموقف من مواقفهم: أنهم إذا سمعوا نداء الصلاة سخروا من المنادي، وخرجوا بندائه من الجد في الإقبال على الله إلى اللعب واللهو. إنهم قوم فقدوا عقولهم تبعا لعمًى بصائرهم.

ثم تفضح الآية خفة تفكيرهم إبرازا لقوله تعالى : **بأنهم قوم لا يعقلون.** وذلك بتوجيه هذا السؤال الإنكاري الذي لا يجدون له جوابا: ما الذي حملكم على الإنكار علينا، فلنفصل ما يجمع بيننا وما نختلف فيه. فديننا هدانا إلى الإيمان، الإيمان بالله، وهو قدر مشترك بيننا، وأنا نؤمن بما أنزله الله إلينا، وهذا أمر أنتم بين الإيمان به وبين رفضه لا نلزمكم باتّباعه، وأمر ثالث أنكم فسقة، سلوك أكثركم سلوك خارج عن حدود الله وأوامره، وذلك على خلاف ظاهرة مجتمعنا الملتزم بالطريق المستقيم. فنِقْمَتُكم هي إذن حسد على ما وُفّقْنَا إليه.

60-قل هل أنبئكم بشر من ذلك....سواء السبيل.

ثم يتوجه القرآن بمخاطبة أهل الكتاب ليحضرهم في مجلس التقريع والتوبيخ، ويسجل عليهم غفلتهم. فهو ينبئهم بما خفي عليهم. وبما ذا ينبئهم القرآن ؟ إن أكبر الناس شرا وفسادا في تقدير الله من كان محصله الذي يؤوب به يشمل :

أولا : تسليط الله عليه اللعنة، واليهود يعلمون من كتبهم أن كثيرا من أسلافهم كتبت عليه اللعنة وذكرت أسبابها.

ثانيا : مسخ كثير منهم، كما ذكر ذلك في سورة البقرة آية 65، وقد قدمنا اختلاف الناظرين في القرآن، فحمله بعضهم على المسخ الحقيقي. والذي ارتضيته أنه تشبيه لهم بالقردة والخنازير في التفكير الهابط والسلوك القبيح.

ثالثا: عبادة الصنم. إشارة لعبادتهم للعجل، مع أنه من أكثر ما شدد عليهم موسى عليه السلام هو التزامهم بعبادة الله وتوحيد ه. وفي كل ذلك كسر لما يُدلِّ به اليهود من أنهم أهل كتاب لم ينسخ بإظهار أنهم سلالة هؤلاء المفضوح مناكرهم الشديدة سلوكا وعقيدة. فمكانتهم شر مكانة، وهم أشد الناس ضلالا، وبعدا عن الطريق الحق.

وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ﴿٦١﴾ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًاۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

يد الله مغلولة : الله بخيل أشد البخل.

مغلولة : مقيدة بقيد لا تستطيع حركة. تجسيم لشدة البخل.

لأكلوا : لرزقوا.

بين المعنى الإجمالي :

مما عاناه النبي ﷺ من أهل الكتاب ظاهرة النفاق، فكانوا يَغْشَوْنَ مجالس النبي ﷺ يقولون: آمنا. وهم كاذبون، فإن عقيدتهم واحدة هي الكفر عندما دخلوا وفي جلوسهم وفي خروجهم. واستبطانهم للكفر لا يخفى على الله فسيجازيهم به. إنك إذ تراقب سلوكهم تراهم يسرعون إلى ارتكاب الآثام، وإلى الاعتداء والظلم والاستحواذ على المال الحرام. إن عملهم يستحق الذم.

أين علماؤهم(**الأحبار**) والموكل إليهم أمر تربيتهم (**الربانيون**) فلماذا لم ينهوهم عن الكذب وقول السوء، وعن أكل المال الحرام. هم مذمومون بصنيعهم هذا.

ومن فساد أقوال اليهود وعقائدهم أنهم قالوا: إن الله شحيح بخيل، يداه مقيدتان لا يسمح بالفضل. أذلهم الله وهزمهم حتى تكون أيديهم مقيدة، وصب عليهم لعناته. فالله لا يحد كرمه وفضله، ينفق ما يشاء تبعا لحكمته، وغناه الغنى المطلق. إن الذي أعمى بصيرة يهود وأجرى على لسانهم ما لا يقبل، لا قولا ولا عقيدة، هو اشتعال الحسد في نفوسهم بما أكرمك الله به من الوحي، فتضاعف كفرهم ومجاوزتهم للحدود. ونزع الله الإخلاص لبعضهم البعض، فهم متعادون إلى يوم القيامة. وفسد ما يجري في ضمائرهم، فهم يسعون دائما لإيقاد فتيل الحروب، والله يرد مكرهم ويحبط خططهم. وهم يدبرون ويقومون بما يفسد الحياة الاجتماعية في العالم. واستحقوا بذلك أن الله حرمهم تقريبه لأن الله لا يحب المفسدين، ويحب الصالحين.

كل ما سلط على أهل الكتاب من المذام والتهديد ليس بسبب كونهم يهودا أو نصارى، فإنهم لو آمنوا الإيمان الصحيح، وحلت التقوى قلوبهم، فإن الله يمحو ما ارتكبوه من السيئات ويكتب لهم الفوز في جنات النعيم.

كما أن أسلافهم لو أقاموا التوراة والإنجيل وطبقوا تشريعهما واقتنعوا بما بَيّناه من عقائد، لبارك الله لهم في حياتهم وأفاض عليهم من واسع خيراته. إن ما سبق من وصفهم وتهديهم وذمهم، هو ليس شاملا لجميع اليهود والنصارى فمن بينهم جماعة غير مُفْرِطَة ولا مُفَرّطَة، آمنوا بعيسى رسولا مكرما، فلا هو عندهم ابن زنا كذاب كما تقول اليهود، ولا هو إله ابن لله. ولكن الكثرة الكاثرة منهم، ساء عملهم فهم على غير طريق الهدى.

بيان المعنى العام :

61-وإذا جاؤوكم قالوا... بما كانوا يكتمون.

هذه الآيات تمثل صورا من معاناة الرسول ﷺ لعناد أهل الكتاب ومكائدهم، وخاصة اليهود الذين كان عددهم غير قليل في المدينة. ولما كانت هذه السورة من أواخر السور نزولا فإنها تكشف عن مواصلة اليهود للمكر والتلاعب، فلذا كان كشف مكائدهم وأخلاقهم والرد على أكاذيبهم، ضرورة لتثبيت المسلمين جميعا وخاصة الجدد الذين لم يتمكن الإسلام في قلوبهم.

62-وترى كثيرا منهم....يعلمون.

والى اليهود اعتماد النفاق لخلخلة الصف الإسلامي. فضحتهم الآية، وأعلنت أن ما يظهرونه لا يروج على المؤمنين، إن الله يطلع رسوله على هذا النوع من الفساد. فمنهم من يأتي إلى مجالس المسلمين بقيادة رسول الله ﷺ معلنين: أنهم آمنوا بالإسلام. والحقيقة التي كشفها الله لنبيه وسجلها في هذه الآية أنه لا فرق بين حالهم قبل مجيئهم ولا في حال جلوسهم ولا وقت انصرافهم، فالكفر متمكن منهم، والله لا تخفى عليه خافية فهو عليم بما انطوت عليه دخيلتهم فكتموه. إن ما تراه من سلوكهم يعلن عن كفرهم. فكثير منهم يقدمون على ارتكاب الآثام والمعاصي القولية والفعلية دون تردد ولا خوف، ويظلمون دون أن يتحرك لهم ضمير، ويستولون على الحرام من الأموال التي لا حق لهم فيها.

63-لولا ينهاهم الربانيون...يصنعون.

إن أحبارهم والربانيون المطلعون على فسادهم ساكتون مقرون لهم، فهم مشاركون لهم في انتشار الشر، لعدم قيامهم بالنكران عليهم لما ارتكبوه من مخاز وآثام. لقد استحقوا الذم بصنيعهم هذا من السكوت عن المناكر وإقرارهم للفساد. إذ سكوت العلماء ومن يتولون تربية الناس إعلان مُبَطّن عن رضاهم، وحجة لمن يقدم على متابعة الفساد بأنه لو كان قبيحا لما سكت عنه العلماء والمربون.

64 – وقالت اليهود يد الله مغلولة....المفسدين.

ومنكر آخر في عقيدة اليهود الذين ثبتوا على إعلان يهوديتهم، قالوا: يد الله مغلولة. يعني هذا التركيب أن الله بخيل شحيح لا يتفضل. ذلك أن الكريم يوصف بأن يده مبسوطة، لا يمسك المال لنفسه وإنما يسيل المال من يديه سيلان الماء. ووصف يده بكونها مغلولة، أي فيها غل قيد، يمنعها من القبض والبسط. ومقالتهم هذه إما إلزام وقح للمسلمين، فهم في أول أمرهم غير ميسوري الحال في المدينة، إذ هم قد خرجوا من ديارهم وأموالهم مهاجرين إلى المدينة، يقصدون بذلك الطعن في الإسلام، بأن ربكم قد ضيق عليكم ولم يوسع عليكم. ويحتمل أنها صدرت في حال

ثورة منهم في شدة من الشدائد التي يصاب بها سكان الجزيرة العربية زمن الجدب. وكان الرد سريعا بالدعاء عليهم أن تُقَيَّد أيديهم بغل الأسر ويهزموا، وباللعنة والطرد من رحمة الله والإبعاد من منازل الكرامة فلا يلقون إلا ذلا بسبب هذه الوقاحة التي طوعت لهم أن يقولوا هذه المقالة.

ثم أعلن القرآن الحقيقة التي تكذبهم في دعواهم: فيداه مبسوطتان، ولا يراد من ذلك أن لله يَدَيْنِ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، بل المقصود أن الله كريم كأوسع ما يكون الكرم، ينفق ويعطي تبعا لإرادته العلية وحكمته.

ثم كشف الله لنبيه سبب صدور هذا القول الفظيع منهم، هو أنهم قد امتلأوا غيظا وحسدا مما أكرمك الله به من الوحي المنزل، فبلغ بهم الخروج عن الحدود والجهار بالقول الغليظ. وهذا شأن السفهاء من الناس فهم إذا تغيظوا تنفلت ألسنتهم بما لا يرضاه العقلاء من القول.

إن حسدهم هذا على ما أكرمك الله به من الرسالة وأنزله لك من الوحي يضاعف طغيانهم ويعمق كفرهم.

ولا تظنّنّ أن أمرهم واحد فقد عاقبهم الله بأن ألقى العداوة والبغضاء بينهم، ومكنها في قلوبهم، فهي ملازمة لهم إلى يوم القيامة.

هذا ما ذكره القرآن. ولكن الدعاية اليهودية ضللت الرأي العام، وغطت حقيقة المجتمع اليهودي في إسرائيل. وصورته مجتمعا متآلفا متحدا. وذلك من الخداع والزيف وقلب الحقيقة. ذكرت جريدة لوموند الفرنسية في عددها الصادر 2010/6/19:أن مظاهرة بالقدس ضمت أكثر من مائة ألف من اليهود، وبلغت أكثر من مائتي ألف حسب تقدير المنظمين لها، يوم 2010/6/17 وذلك للاحتجاج ضد قرار المحكمة العليا في إسرائيل الذي منع الفصل بين التلاميذ من الأشخناز وبين التلاميذ السيفراد. الأشخناز هم اليهود الذين التحقوا بإسرائيل من أوروبا الوسطى أو الشرقية والسيفراد هم الذين كانوا يعيشون في بلاد المغرب العربي والشرق.

إن الأشخناز لا يقبلون أن يذهب أولادهم إلى فصول تجمعهم مع التلاميذ المنتسبين إلى أسر من السيفراد، متعللين بأن السيفراد ربوا فيما يخص التمسك بالتوراة تربية متسامحة.

اجتمعوا وهم متحدون على أولوية أحكام التوراة على الأحكام المدنية، التي تمثلها المحكمة العليا. هذه المحكمة التي قضت بمنع مواصلة الفصل في مدرسة

بمستعمرة إيمانويل بالضفة الغربية. كما قضت بسجن 35 وليا من المتطرفين لمدة أسبوعين. وقرنت الخبر بصورة للمتظاهرين من وكالة روتر.

ثم أعلم القرآن الرسول ﷺ، ونبه المسلمين إلى أن عداوة اليهود مستحكمة، فهم يدبرون ويعدون لحرب المسلمين المرة بعد المرة. والله يرد كيدهم ويخذلهم. فالنار التي يوقدونها للإجهاز على الإسلام يتولى الله إفساد مخططاتهم. ولا تظنوا أن الحرب الدائرة في أرض فلسطين هي حرب بيننا وبين اليهود، بل هي حرب بين الولايات المتحدة ومن يساندها، وبين سكان فلسطين والمسلمين قاطبة. انطوت نفوسهم على بغض للعالم أيضا، فهم يسعون في الأرض لإدخال الفساد المخلخل للمجتمعات في أخلاقهم وفي عقائدهم، همهم أن يمتصوا ما ينتجه الكادحون بعرق جبينهم وكشاف عقولهم. وبفسادهم هذا حرموا محبة الله التي يتبعها التأييد والرضا. فهم كاذبون في قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه. إن ما توعد به اليهود ليس لأنهم يهودا، ولكن لفسقهم وجراءتهم وعنادهم ورفضهم للإسلام، وسيعاملون معاملة كلها فضل لو أقلعوا عن مناكرهم تلك، وآمنوا بمحمد ﷺ واستحضروا في قلوبهم وفي مداركهم ما تقتضيه التقوى. إنهم لو فعلوا ذلك لفازوا بالسعادة، والله يمحو سيئاتهم ويكتب لهم الجنة يوم القيامة.

65- ولو أن أهل الكتاب آمنوا .....جنات النعيم .

إن ما دعا إليه الإسلام اليهود والنصارى، هو تحقيق لما أنزله الله عليهم في التوراة والإنجيل، إنهم لو عملوا بهما ولم يهملوهما في دائرة عدم المبالاة، وقبلوا القرآن الذي أنزله الله للبشرية وهم منهم، لو فعلوا ذلك واستقاموا، لتفضل الله عليهم برعايته وتيسير أمر حياتهم في الدنيا فيغدق عليهم خيراته التي تكثر مباركة بين أيديهم.

66-ولو أنهم أقاموا التوراة....ساء ما يعملون.

وينصف الله اليهود والنصارى قبل الرسالة المحمدية بأنهم لم ينحرفوا جميعا، ولكن منهم جماعة سلكت سبيل التوسط بين الإفراط والتفريط، آمنوا بعيسى رسولا من عند الله، ليس ابنا لله، ولا هو ابن زنا. ولكن أكثر اليهود والنصارى انحرفوا عن هدي الله وكانت أعمالهم سيئة تبعا لفساد عقائدهم.

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

التبليغ: إيصال الأمر إلى المقصود إيصاله إليه.

يعصمك من الناس : يحميك، ويمنعك من السوء الذي يدبر من الناس.

بيان المعنى الإجمالي :

يكرم الله رسوله بدعائه بوصف الرسالة التي هي أشرف وصف، فيأمره: أن يبلغ جميع ما أنزل إليه، سواء أرضيه المبلّغ لهم أم سخطوه. وكتمان أي شيء من المنزل عليه أعظم ما يمكن أن يتصور من الفساد. ويطمئنه الله بأن أعداءه لا يستطيعون أن يضروه وهو يقوم بالتبليغ. فإن الله وهو المتصرف، وهو الذي لا يقع شيء في الكون إلا بإرادته، قدر أن الكافرين لا يهتدون لإيذائه.

بيان المعنى العام :

67- يا أيها الرسول بلغ ما أنزل...لا يهدي القوم الكافرين.

دعوة لسيدنا محمد ﷺ بأعز ما يحمله من الصفات، وهو وصف الرسالة، التي مؤداها أن الله تخيره ليكون واسطة يتحمل إيصال ما ينزله الله إليه من الوحي إلى الناس. إنه لا منزلة أعلى في البشرية من هذه المنزلة، ولا وصفا هو أسمى من هذا الوصف، ولذا كان هذا النداء موحيا بتشريف الرسول وتكريمه من ربه إذ دعاه بـ: يا أيها الرسول. وهو من ناحية أخرى فيه إيماء لما يترتب على الوصف من ثقيل التكليف الذي هو أعظم أنواع التشريف. والنداء فيه إيقاظ للمدعو ليقبل بكليته على ما يدعى إليه. دعاه ليبلغ ما أنزله الله إليه. وهذه السورة من أواخر ما أنزل عليه، وهو قد تولى القيام بشرف التبليغ كامل الفترة المكية وما سبق نزول هذا النداء عدة سنين، فلماذا أعيد الأمر لما قام به فعلا؟ في هذا التكرير تشريف لرسول الله بالخطاب، وفيه تنبيه للبشر جميعا مؤمنهم وكافرهم أنه مأمور بالتبليغ من ربه، وفيه تقوية لعزيمته على المضي على نفس النسق الذي كان يسير عليه، وإن جاءه من الوحي ما يصعب على بعض المعاندين قبوله، لأنه يواجههم مواجهة صريحة. وهذه طريقة القرآن، فقد تكرر الأمر بالتقوى والتذكير بها في القرآن كثيرا، وكذلك في الأمر بالإيمان، ونحو ذلك مما في التذكير به مزيد تثبيت لمضمونه في نفس من توجه له الخطاب.

وأبرز القرآن أن عدم القيام بالتبليغ هو أعظم ما يمكن أن يتصور من الفساد، إذ جعل عدم التبليغ لما أوحي إليه المفروض بقوله: وإن لم تفعل، هو الجزاء على عدم التبليغ لجميع الوحي. وقد يتوقف في هذا الربط بالنظرة الأولى. وبالتأمل يبدو

وجه ترتيب هذا الجزاء على الشرط المفترض. ذلك أن المخالفات يعظم الإنكار عليها بمقدار ما يترتب عليها من الفساد. وبالتعمق في الفرض المقدر يبدو لنا أنه كتمان بعض الوحي عن البشرية. وقد أراد الله أن يهدي البشرية قاطبة بما أنزله على رسول الله ﷺ، فكتمان شيء من الوحي تضليل للبشرية قاطبة، ولا يتصور فساد أعظم من ذلك، فلذلك جعل الجواب على صورة تكاد تكون مساوية للشرط المفترض، إذ لا جريمة أعظم منها. ثم أعلم الله نبيه أنه قد حماه مما يخططه له الكافرون للنيل منه، بما يقطعه عن تبليغ الرسالة، فجميع مخططاتهم ومكائدهم مفلولة لا تحقق أهدافها الخبيثة، لأن المدبر للكون يحجب عن الكافرين المسالك التي يصلون منها إلى قطع الرسول عن التبليغ الذي هو أعز شيء على نفسه ﷺ.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

لستم على شيء : ليس لكم أي حظ معتبر من الدين.

فلا تأس : فلا تحزن.

الصابون :جمع صابئ، وهو الملتزم بدين الصابئة.

بيان المعنى الإجمالي:

قل يا محمد لأهل الكتاب من اليهود والنصارى: إنه ليس لما تدينتم به أي حظ ولا مكانة، إلا إذا راجعتم أمركم وحققتم في الحياة ما تأمركم به التوراة وما جاء في الإنجيل، وما يقتضيه ذلك من الإيمان بما أنزله الله لكم وللبشرية عامة بواسطة النبي الخاتم محمد ﷺ. إن ما أنزله ربك عليك يضاعف نفورهم بسبب بالغ حسدهم، فاستكبروا عن اتّباعك وطغوا وكفروا. فلا تحزن على ضلالهم لأنهم قد اختاروا لأنفسهم الكفر.

إن سنة الله في الجزاء، أنه مرتبط بالإيمان بالله واحدا كاملا لا شريك له، ثم الإيمان بأن كل إنسان مجزي عن عمله يوم القيامة بعدل الله ورحمته، ثم بالعمل الصالح في الدنيا. وهذا ينطبق على المؤمنين من الأمم السابقة الذين انقرضت

ديانتهم وعلى قوم موسى الذين اهتدوا بما أنزل على موسى ﷺ، وعلى من خلفهم من الذين واصلوا التمسك بهدى التوراة، التي تبشر بمحمد ﷺ وتجعل حدا لتلك الديانة، بظهور الإسلام الديانة التي تجمع البشرية. ولذا جمعتهم الآية ؛ فالمبتدأ فيها **(إن الذين آمنوا والذين هادوا)** وخبرها(**لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)**.

ثم عطفت مستأنفة النصارى والصابئون، والخبر مقدر **(كذلك)** فينطبق على النصارى الذين آتاهم الله الإنجيل، وعلى الصابئين الذين كانت أسلافهم على دين حق، فكل من كان متدينا بدين يوحد فيه الله ويؤمن باليوم الآخر ويلتزم في دنياه صالح العمل، هو آمن في مستقبله، ولا يحزن على شيء مما فاته في الدنيا.

بيان المعنى العام :

68- قل يا أهل الكتاب لستم على شيء...فلا تأس على القوم الكافرين.

أمْر من الله لرسوله أن يواجه أهل الكتاب بكشف حقيقتهم، هذه الحقيقة هي أنهم لا يملكون أي حظ من الدين المعتد به عند الله، إلا إذا احترموا نص وروح ما أنزله الله على لسان رسله في التوراة والإنجيل، إن الإذعان والتطبيق لما جاء في الكتابين يفضي بهم إلى الإيمان بالقرآن. إن ما يدعيه اليهود من أنهم أصحاب التوراة الكتاب المنزل، يكون باطلا من القول ما لم يقيموا ما جاءت به التوراة من الهدى المتضمن الإيمان بعيسى ﷺ ثم الإيمان بمحمد، وبعدم تغيير أحكام التوراة تبعا لهواهم. وكذلك النصارى لا قيمة لما يظنون أن نجاتهم باعتقاد أن صلب المسيح وتعذيبه مكفر لخطاياهم. فإن هذا لا أصل له في الإنجيل، ومن ناحية أخرى فإنه بشّرَهم بقدوم محمد ﷺ وطلب منهم أن يؤمنوا به ويعززوه، فدعواهم الإيمان بالإنجيل لا اعتبار له عند الله ما لم يطبقوا ما جاء فيه.

ثم كشفت الآية عن مرضهم الباطني الذي تولد منه رفضهم لما أنزل على الرسول من القرآن، فأعلنت أن ذلك بسبب حسدهم لما تميز به القرآن من هيمنته على الكتب السابقة، ولِما شرّفَكَ الله به لمّا اختارك لتبليغ هذه المهمة التي كان يتوقع اليهود أنها مقصورة عليهم.

إن مرض الحسد هذا حجبهم عن الخضوع للحق المنزل فطغوا وأداهم طغيانهم إلى الكفر به. ومعلوم أن النبي ﷺ كان يتألم أشد ما يكون التألم بسبب استحواذ الشيطان على العقول والأرواح فأضلها. ولذلك ختمت الآية بتسليته عن إعراضهم فقال له ربه: لا تتأسف على القوم الذين تمكن الكفر من عقولهم وأرواحهم، فإن ما

انغمسوا فيه كان نتيجة حسدهم وقرارهم إغلاق بصائرهم عن التأمل فما أنزل إليك.

بعد أن أُمِرَ النبي ﷺ بمجابهة أهل الكتاب بالحقيقة : أن كل ما يدعيه كل فريق منهم لنفسه من تفرده بأنه على هدى من الله وأنه بمنجاة من العذاب لإصابته ما أراده الله من البشر، دعواهم تلك دعوى لا أساس لها وباطلة وليس لها أي قيمة، إلا إذا أقاموا ما أمروا به في التوراة والإنجيل وما أنزله الله للبشرية عامة باتّباع دين الإسلام. بعد ذلك سحب على كل ما تقدم من الآي بيان حقيقة عامة، لا تتأثر بالزمان ولا بالمكان ولا بالدين الذي ينتسب إليه المتدين الراغب في نيل رضوان الله والفوز في الخاتمة، فقال: إن الذين آمنوا برسالات الله التي سبقت اليهودية، والتي اندرست ولم يبق شيء من كتبها المنزلة على الرسل الذين تتابعوا على البشرية من عهد نوح إلى عهد موسى عليهما السلام، والذين آمنوا بموسى ولم يحرفوا شيئا من رسالته، هؤلاء الذين آمن كل فريق منهم بالرسول الذي دعاهم لدين الله، وتحقق منه الثبات على الركن الأعظم توحيد الله، وما يتبعه من الإيمان باليوم الآخر، واستقام في حياته فكان مطبقا للمنهج الذي بلغه، وكان عمله عملا صالحا مرضيا، جميعهم أجرهم ثابت عند الله لا يضيع منه شيء، ولا يخافون هوانا في مستقبلهم، ولا يحزنون على ما فات، لأن ما سيلقونه من كرامة ومن فضل إلهي ينسيهم كل ما فات.

وكذلك الصابئون والنصارى الذين آمنوا وعملوا صالحا لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

69- إن الذين آمنوا والذين هادوا....ولا هم يحزنون.

قسمت الآية إذن المهتدين إلى قسمين: القسم الأول من أول عهد البشرية إلى مجيء موسى وسحبت عليهم حكما واحدا هو النجاة والفوز لكل من آمن بالله واليوم الآخر واستقام في حياته.

والقسم الثاني الصابئون والنصارى الديانتان الباقيتان إلى عهد البعثة المحمدية، كل من آمن من اتّباعهما بالله إيمانا لا يشوبه شرك، وآمن باليوم الآخر، واستقام، له أجره عند ربه لا يضيع منه شيء ولا يخاف من المستقبل ولا يحزن على ما فات، وضعهم كوضع القسم الأول المعطوف عليه. فالواو السابقة ل (**الصابئون والنصارى**) هي عاطفة هذه الجملة على الجملة السابقة (**إن الذي آمنوا والذين هادوا**)وخبر (**الصابئون والنصارى**) مقدر أي كذلك لا خوف......

وهذا الاستقلال بين الجملتين يبدو لي أنه معجزة من معجزات القرآن. ذلك أن الهداية الإلهية ابتدأت مع آدم وبرزت مع نوح عليهما السلام، ثم تتابعت الرسل ولم يبق لتلكم الرسالات من يحفظها، بل ما بقي منها، إلى عهد موسى، إلا صور باهتة لا جامع بينها. ثم أرسل الله موسى فأحيى به التصور الصحيح في العقيدة، وأقام الشريعة الصالحة لتقويم اليهود الذين فسدت طباعهم وأخلاقهم فأخذهم بما يقوم الاعوجاج الذي تمكن منهم. ثم أرسل الله عيسى عليه السلام ليقيم بني إسرائيل على الشريعة التي تصلحهم وتخفف عنهم بعض الشدة التي أخذتهم بها التوراة، وليبشر ويذكر بمجيء النبيء الخاتم ﷺ. وفي هذا الظرف الذي نشأ فيه سيدنا عيسى عليه السلام كان سيدنا يحيى النبي الذي اعتدى عليه اليهود فقتلوه، يدعو إلى الله، وبينه وبين عيسى صلة رحم وصلة نبوة. وهو الذي عمد السيد المسيح. آمن بنبوة سيدنا يحيى جماعة ، واعتبروه النبي الوارث للديانات السابقة جميعها، وأن شريعته هي الشريعة الخاتمة. وبذلك رفضوا نبوة عيسى، وما كانوا ينظرون إلى شريعة موسى إلا أنها شريعة منسوخة. هذه الطائفة هي طائفة الصابئة.

استقر الصابئون في فلسطين أولا ثم هاجر معظمهم إلى العراق. فهم قوم يؤمنون بالله الواحد الأحد، تواصل اضطهادهم من اليهود، ومن النصارى لتكذيبهم بعيسى، ومن الرومان الذين عاملوهم معاملة اليهود. وكذلك من معظم الساسانيين. ولذلك اعتمدوا في بقائهم على السرية الكاملة، وترابطوا فيما بينهم فمن مبادئهم الدينية أن الصابئ لا يتزوج إلا بصابئة وكذلك العكس. وورثوا منهج عدم البوح بأسرارهم إلى العهود الأخيرة. ولذا نجد الذين يتحدثون عنهم إنما ينطلقون من ظنون، وتوليدات للنزر القليل الذي تسرب من أخبارهم. إلا أنه في القرن العشرين وصلت الدراسات العلمية للكشف عن ديانتهم، فتبين أنها تقوم على الأركان التالية : 1)توحيد الله–2)التعميد وهو أهم الأركان العملية، ولذا كانت إقامتهم على نهر دجلة الذي يعتقدون فيه التقديس، وبمائه يعمدون رجال الدين، والمولودين، وعند الزواج وعند تكريم رجل الدين منهم. ويمكن أن يتكرر التعميد 3) الصلاة– 4)الصوم – 5) الصدقة – وهم يحرمون الخمر ويتمسكون بقيم خلقية صالحة.

ذكر كثير من المفسرين أنهم يعبدون الكواكب، ولا أقِر ذلك، لأن الله يقول فيهم وفي النصارى: **(من آمن بالله واليوم الآخر)** وأفترض أنهم لما كانوا يعتقدون أن الجهة المقدسة المطهرة التي يأتي منها الخير هي الشمال، وكانوا في صلاتهم وتقربهم وابتهالاتهم يتوجهون إليه، واعتمدوا في معرفة الشمال على النجم القطبي، إنه بناء على ذلك ظن المتابعون لظاهر طريقتهم في الحياة : أنهم يعبدون الكواكب.

فسقط بذلك ما يدعيه اليهود من تفردهم بالهداية والنجاة يوم القيامة، لأنه لا فرق بينهم وبين من سبقهم من الأمم. ذلك أن معيار النجاة صفاء الإيمان والعمل الصالح.

وكذلك سقط ما يعتقده النصارى من تفردهم بالفوز تبعا لما يدعونه من أن كل من آمن بتعذيب المسيح لتكفير ذنوب المؤمنين به هو الفائز. وفتح الباب للصابئة ليدخلوا في الإسلام بإنصاف أسلافهم، فقد كانوا يُعتبرون على أنهم من المشركين وعبدة الكواكب. هذا الإنصاف الذي أظهر ه الإسلام والذي لم يظهر إلا أخيرا هو شاهد على أن القرآن من عند الله عالم الغيب والشهادة.

لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًاۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٧٠﴾ وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ

بيان معاني الألفاظ:

لا تهوى أنفسهم: لا تحبه أنفسهم.

حسبوا أن لا تكون فتنة: ظنوا أن الله لا يبتليهم بما تضطرب به أمورهم.

فعموا وصموا : تحجرت ضمائرهم ففقدت التأثر بما حذرهم الله منه، كالأعمى وفاقد السمع لا ينتفع بعين ولا بأذن.

بيان المعنى الإجمالي :

مرة أخرى يذكر القرآن بني إسرائيل بالميثاق المؤكد الذي أخذ عليهم، وبمِنَنِهِ التي خصهم بها، ومن أجلِها أنه بعث فيهم أنبياءه ورسله ليبصرونهم بما يرضي الله ويحقق لهم الفوز في العاجلة وفي الآخرة. ولكن بني إسرائيل قابلوا الأنبياء بالقتل أو التكذيب، والمرسلين بالرفض لرسالاتهم وما يدْعونهم إليه مما يخالف هواهم.

لما استقرت لهم أمور الحياة الدنيا إلى حين، تمردوا عما شرعه الله لهم وظنوا أنهم أمنوا في مستقبلهم من اضطراب حياتهم ومن مكر الله، أطاعوا الله أو عصوه. فكان وضعهم في تركهم هداية الله والإعراض عن شرعه، كوضع السائر الأعمى الأصم، هو تائه لا يهتدي سبيلا يبتلعه الضلال. ثم استفاقوا من ضلالهم وتابوا فتاب الله عنهم ورفع البلايا التي سلطها عليهم. ثم تمردوا من جديد فسلط عليهم نقمه وخسروا صلاح دنياهم، وخسروا آخرتهم. ولم يكن هذا وضع جميع اليهود، فقد

استثنت الآية بعض الصالحين منهم الذين وفوا بالميثاق وراقبوا ما شرعه الله لهم. وهكذا يتميز في علم الله حقيقة أعمالهم فكما لا يختلط الصالحون بالمفسدين، فكذلك لا يخفى عليه المآلات التي يقصدونها من أعمالهم، فيجازيهم بها جزاءً وفاقا لما قصدوه من شر وضر.

بيان المعنى العام :

70-72: لقد أخذنا ميثاق....وما للظالمين من أنصار.

تكرر في القرآن التذكير بالميثاق الذي أخذه الله على بني إسرائيل، وأكده في هذه الآية بتقديم **(لقد)** إيماء إلى أن هذا الميثاق حاضر في نفوسهم، ولكن إهمالهم له وعدم مراعاته، نُزِّلوا بذلك منزلة المنكرين له.

لتثبيت ذلكم الميثاق وتجديد مضامينه بما يتلاءم والتطور الحضاري والعمراني، أرسل الله لبني إسرائيل أنبياء ورسلا يشددون على احترام ثوابت الميثاق ويبينون لهم التشريع الذي يرضى عنه الله في وضعهم يوم مجيء الرسل والأنبياء إليهم.

هذه العناية من الله قابلها بنو إسرائيل في كل الأزمنة ومع جميع الأنبياء والمرسلين، قابلوها بتحكيم أهوائهم في التشريع الذي بلغوهم إياه من رب العالمين. وواصلوا مسيرتهم على ما يوافق أهواءهم ويحقق شهواتهم. وما كان التشريع الإلهي ليخضع لانحرافات بني إسرائيل ، وتمردهم على منهج الصلاح في الكون لأنهم كما وصفهم رب العزة الذي لا يخفى عليه شيء من أمرهم لما قال: **(ويسعون في الأرض فسادا)** فكان موقفهم : أنهم قتلوا بعض الأنبياء ، كما هو مثبت في نصوص التوراة، وقابلوا رسالات المرسلين، وتوضيحات الأنبياء الآخرين بالتكذيب. فكان التمرد والعناد سجية لهم. وخَدعوا أنفسهم بإمهال الله لهم وعدم تعجيله بالعقوبة، فظنوا أن أمورهم تجري على استقامة، وأن حظوظهم الدنيوية تسير على أفضل الوجوه وأكثرها عائدة. أمنوا مكر الله، وما يبتلي به القوم الفاسقين من اضطراب الأمور وفساد الأحوال، ليهزهم بذلك، فيقلعوا عن الفساد. كان وضعهم كوضع السائر الأعمى الذي لا يسمع، فإنه بالطبع، كلما أوغل في سيره يزداد تعرضا للضياع والتلف.

تابع بنو إسرائيل ضلالهم وأصيبوا باضطرابات في حياتهم وفقد للأمن، وزلزلوا ثم استفاقوا وفتحوا بصائرهم ورجعوا إلى الله تائبين. والله يقبل التوبة عن عباده إذا أخلصوا، فرفع الله عنهم ما ابتلاهم به. ثم نسوا ما أصاب آباءهم فعادوا للتمرد على

شريعة الله وتابعوا ما تمليه عليهم أهــواؤهم، هــم عمــيٌ صــمٌ. فســلط الله علــيهم الفــتن واضطربت أمورهم وما زالوا على ذلك، إذ لم يذكر القرآن أنهم عادوا للتوبة.

وذكر القرآن أن الفساد لم يعمهم جميعا بــل كــان فــيهم الصــالحون، وهــذا هــو شــأن القرآن في الدقة، فقــال تعــالى : **كثيــر مــنهم**. وتخــتم الآيــة بــأن الله لا تخفــى عليــه بواطنهم وما يجري في عقولهم ممــا لــم يعلنــوه، وفــي هــذا إشــارة إلــى ســجية مــن السجايا التي طبع عليها اليهود من القيــام بأعمــال ظاهرهــا الفضــيلة والخيــر، ومآلاتهــا تابعة لمقاصدهم من الشر والإضــرار بالنــاس. ويــدل ذلــك علــى أن الله ســينزل بهــم عقابه عما فعلوه بقصد الشر والضر، وإن كان ظاهره الصلاح.

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ
وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ
ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ
صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ
يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ
وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

المأوى : المكان الذي يعود إليه.

حرم : منع.

الظالمون: المشركون.

ليمسن : ليصيبن.

قد خلت : مضت.

صديقة : متصفة بالصدق على أتم ما يكون، مقبلة على التصديق بالحق فلا ترتاب فيه.

انظر : تأمل لتعلم.

الآية : العلامة، والمراد بها الحجة والبرهان.

أنى : كيف ؟

يؤفكون : يصرفون عن الإيمان إلى الكفر.

ما لا يملك : ما لا يقدر.

بيان المعنى الإجمالي :

إعلان أول من الله: أن كل من اعتقد أن المسيح ابن مريم إله، هو كافر يجري عليه أحكام الكفر في الدنيا والآخرة. واعتقادهم هذا عجيب لأن المسيح قال لبني إسرائيل: خصوا الله وحده، الذي هو ربي وربكم، بالعبادة وإن من يشرك بالله فإن الله حكم بمنعه من دخول الجنة وقرر له عاقبة واحدة هي النار، ولا يجد المشرك المرتكب لأعظم ظلم بشركه نصيرا ينصره.

الإعلان الثاني :النصارى الذين اعتقدوا فصرحوا بأن الله ثالث ثلاثة، الله والمسيح، وروح القدس، هم كفروا بمقالتهم وعقيدتهم تلك. إن الحقيقة الوحيدة الصحيحة، أن الله فرد واحد لا إله إلا هو.

لقد قالوا مقالة شنيعة، وإنهم إن لم يقلعوا عنها ويعلنوا ندمهم عما صدر منهم ويتوبوا إلى الله توبة لا رجعة بعدها للتثليث، فإنه سينالهم عذاب أليم. ثم دعاهم إلى التعجيل بالتوبة الصادقة إلى الله عما اعتقدوا وقالوا، وأن يصلوا توبتهم بطلب الله أن يغفر لهم ما سلف. والله سيتفضل عليهم، لو فعلوا ذلك، بالعفو عن ذنوبهم، ثم يتولاهم برحمته فينعم عليهم، إنه هو الغفور الذي تسع مغفرته ذنوب التائبين على كثرتها وعظمها، الواسع الرحمة التي تشمل جميع الكائنات.

وبعد أن نفى القرآن صحة عقيدة النصارى المؤلهين لعيسى والمثلثين، بَيَّنَ حقيقة عيسى فقال : إن المسيح هو ابن مريم وليس ابنا لله. وإنه رسول لا يختلف عن بقية الرسل الذين حملهم الله أمانة تبليغ هدايته. وأيده بالمعجزات كما أيد المرسلين قبله، وإحياؤه للموتى هو من جنس إحياء العصا لموسى وانقلابها حية بل معجزة موسى عليه السلام أكثر عجبا. وأم عيسى هي امرأة التزمت الصدق في حياتها التزاما كاملا وكانت تؤيد الصادقين. وعيسى وأمه كانا يأكلان الطعام كما هو مذكور في الأناجيل. وأكل الطعام لا يكون إلا لتعويض النقص الحاصل عن بذل مجهود، ثم يصرف البدن الفضلات. فكيف يكون إلها من يجري عليه جميع أعراض البشرية من نقص وتعويض وإفرازات. فأعجِبْ من عقيدة النصارى وأعْجِبْ من ناحية أخرى كيف إن الله يقيم لهم الأدلة والحجج الواضحة البينة ثم هم ينصرفون عن الحق إلى الباطل والضلال.

ويختم القرآن تبكيت النصارى بدعوة النبي ﷺ ليواجههم بإنكار سذاجتهم ويقول لهم ما مؤداه : كيف تعبدون غير الله ، وتشركون بالله من هو عاجز عن دفع الضر عنكم كما هو عاجز عن جلب ما ينفعكم، ومن هو لا يسمع إلا في حدود قوانين السمع البشرية، ولا يعلم خفايا أموركم وحاجاتكم المغيبة، والله وحده هو السميع لكل ما يختلج في ضمائركم، عليم بظواهركم وخفاياكم؟

بيان المعنى العام :

72- لقد كفر الذين قالوا....وما للظالمين من أنصار.

بعد أن شنع القرآن على اليهود تمردهم وانحرافهم عن هداية الله، سجل على النصارى ما وقعوا فيه من ضلال، واحتج عليهم وبين لهم ولمن يعملون على إضلاله الحقيقة التي يشهد بها العقل.

أول ما سجله القرآن أنهم أرادوا الفوز بالإيمان فوقعوا في صريح الكفر. وذلك باعتقادهم وتصريحهم : إن الله هو المسيح ابن مريم. ثم إنه لا شبهة لهم فيما وقعوا فيه من شرك وضلال، لأنهم قالوا ذلك في حال أن المسيح ابن مريم قال لهم : إن الله ربي، أي أنا مخلوق له ليس لي من المكانة إلا أنه تولاني بعنايته، مما تفيده كلمة ربي من التربية. وثنى بأنه هو ربكم الذي أنشأكم، ولا شريك له في ذلك. وذلك يقتضي إفراده بالعبادة والخضوع لأحكامه.

وقد صرح إثر ذلك بما يفيده نسج الكلام المحكي عنه، وهو قاعدة عامة جرت على لسان جميع المرسلين ومنهم عيسى ﷺ : إن الذي يشرك بالله لا أمل له في دخول الجنة، وهي ممنوعة عليه منعا أبديا. وإن عاقبته التي ينتهي إليها نار جهنم لا محالة.

وتحقيق ذلك أن الله حَرَمَ المشركين من كل نصير، فلا شركهم يفتح لهم باب الأمل، ولا نصير يتوقع أن ينقذهم.

73- لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث..عذاب أليم.

ثم نفى القرآن التصور الآخر للنصارى. إذ التصور السابق يزعم أصحابه أن الله والمسيح شيء واحد. وطوائف كثيرة من النصارى يعتقدون ويصرحون بأن الله ثالث ثالثة، عبروا عن هذا بأن الله ينقسم إلى ثلاثة أقانيم: أقنوم الوجود وهو الذات وسموه الأب، وأقنوم العلم وسموه الابن، وهو الذي اتحد بعيسى وصار بذلك عيسى إلها، وأقنوم الحياة وسموه روح القدس. ومنهم من يعتقد أنه حين اتحدت الكلمة بمريم عند حملها أصبحت مريم إلها أيضا. فثالث ثلاثة على زعمهم واحد من

الثلاثة. اعتقدوا ذلك وصرحوا به مع أنه لا يتصور ولا يعقل أن يكون الإله إلا إلها واحدا، وهو الله. إن هذا القول المنكر الفاسد، والعقيدة الضالة المنحرفة للنصارى، تفضي بهم حتما إن لم يقلعوا عنها ويتوبوا منها، إلى مآلهم، وهو أنهم سيعذبون عذابا أليما بسبب كفرهم.

أعقب القرآن التحذير والوعيد بعرض كريم من رب العالمين، فدعاهم إلى التوبة بالندم على ما ساروا عليه من الضلال في سابق الآماد، وأن يطلبوا منه مغفرة ذنوبهم التي تلوثوا بها باطنا وظاهرا. ويثبت الله مؤكدا أنه هو الغفور الرحيم، فيرفع عنهم العذاب بتوبتهم ويكرمهم برحمته.

ثم أضاف القرآن تأكيد ما سبق باقتلاع الشبه التي ضللتهم، ورفع الحجاب عن بصائرهم، الحجاب الذي ما كان ليصل بهم إلى التثليث والشرك لو تأملوا بعقولهم في أقوالهم، فبين :

أولا : لا يختلف المسيح عن بقية المرسلين الذين بعثهم الله للبشرية ليخرجوها من الكفر إلى الإيمان ومن الفساد إلى الصلاح. وليست له صفة يختص بها عن بقية رسل الله. فانتفت كل شبهة في ألوهيته إذ استوى مع بقية الرسل. ومعجزاته هي كالمعجزات التي تأيد بها رسل الله. فإحياؤه للموتى هو من جنس إحياء الله العصا لموسى وانقلابها حية، بل الملاحظ أن انقلاب العصا الجماد حية تسعى أشد غرابة.

ثانيا: مريم أمه أمرأة صفت روحها واستقام خلقها، فكانت صادقة في أقوالها وأفعالها، تحب الصدق وتلتزمه، وكانت مع ذلك تتفتح للكلام الصادق وللحقيقة الثابتة فتقبلها قبولا لا يتبعه تردد ولا رفض. وكمال خلقها هذا لا يوجب لها أن تكون إلها، ومن ناحية أخرى فإن ما اتصفت به هو أمر لا تختص به، وإن كان عزيزا.

ثالثا: تتفق جميع طوائف النصارى على أن عيسى وأمه كانا يأكلان الطعام، وذلك مثبت في الأناجيل. وأكل الطعام يتم بداعية تعويض ما يُنقصه المجهود المبذول من الإنسان، والأجهزة تمتص من الأكل ما يُعَوِّضُ وتنفي الباقي في صورة فضلات. فبذلك يكون أكل الطعام الملازم للنقص والتعويض والفضلات، من أوضح الأدلة على عدم ألوهية عيسى وأمه.

74- أفلا يتوبون إلى الله....والله غفور رحيم.

عَجَبٌ أمر النصارى كيف يدعون ألوهية عيسى، ويواصلون اعتقاد ذلك! هذا أمر عجب، ليتأمل كل عاقل ليعلم كيف تم منهم أن عرضت عليهم الأدلة الواضحة

المتقدمة الكاشفة لهم عن الحقيقة، ثم ليعجب بعد ذلك كيف يُصْرَفون عن الأخذ بها، مع أنه لا منفذ يتطرق منه ما يصرف عن الاعتقاد الحق.

إنه بعد أن تم تبكيت النصارى في باطل ما أقاموا عليه عقيدتهم بأتم بيان وأوضح حجة، أمر الله نبيه ﷺ أن يواجه النصارى بإنكار ما هم عليه من عبادة غير الله، التي يتساوون فيها مع مشركي العرب، أمره بقوله :

76- قل أتعبدون من دون الله.....وهو السميع العليم.

قل :كيف تعبدون شريكا لله عاجزا، لا يقدر أن يدفع عنكم ضرا يصيبكم، أو يجلب لكم نفعا ترغبون فيه. إن عجزه بَيِّنٌ لأنه لا يسمع أصوات ضمائركم وهي تتجه بالابتهالات دفعا للضر وطلبا للخير. فإن الذي يسمع خلجات الضمائر، والضراعة خلف الجدران في سكون الليل ووراء الأستار، ورعشات القلوب عند الشعور بالعجز، هو الله سبحانه، إنه وحده السميع لطلباتكم العليم بأحوالكم.

قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ تَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِى ٱلْعَذَابِ هُمْ خَٰلِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَوْ كَانُوا۟ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِىِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨١﴾

بيان معاني الألفاظ:

الغلو : مجاوزة الحدود في أي أمر.

غير الحق : الباطل.

سواء : المستقيم وهو الحق الواضح.

لا يتناهون : لا ينهي بعضهم بعضا عما يرتكبونه من مناكر.

كثير منهم فاسقون : الكثير المذكور في أول الآية كافرون.

بيان المعنى الإجمالي:

أمر من الله لنبيه ﷺ أن يواجه أهل الكتاب بدعوتهم، أولا إلى ترك الغلو في الدين البعيد عن الحق والميزان، والمتلبس بالعاطفة. وثانيا أن يستقلوا رافضين التقليد الأعمى، فلا يتبعوا الذين حكموا أهواءهم فضلوا عن صراط الله، وأضلوا كثيرا من الناس، ولازم الضلال أخلافهم ممن كان في عهد الرسالة المحمدية فضلوا عن الصراط المستقيم : دين الإسلام.

ثم حقق القرآن أن داود وعيسى عليهما السلام قد لعنا الذين كفروا من بني إسرائيل، لا لكونهم يهودا ولكن لقساوتهم في عصيان الله، ولمواصلتهم الاعتداء على الأنبياء وعلى الناس.

خربَ مجتمعهم وظهرت فيه المفاسد واستحكمت، لأنهم كانوا يسكتون عن إنكار الفساد عند ظهوره، فتمكّن وأصبح مقبولا وتسارع إليه الرعاع. ما أسوأ فعلهم هذا من الرضا والسكوت!

ومن مظاهر الفساد المتمكن من كثير من بني إسرائيل في المدينة والشائع فيهم، أنهم يخلصون للمشركين بالتعاون والتناصر. هذا أمر سجل القرآن أن النبي ﷺ أبصره ورآه رأي العين، وما أسوأ ما قدمت لهم أنفسهم ! ما هو الأمر الذي هيأته لهم أنفسهم؟ هو سخط الله عليهم بما يصحب السخط من حرمانهم من جميع الألطاف الإلهية الكثيرة في الدنيا، وهم خالدون في العذاب يوم القيامة.

وما أيسر خروجهم من هذا الظلام والعقاب ! إنهم لو آمنوا بالله وبمحمد ﷺ، لو فعلوا ذلك لتم شفاؤهم من مرض النفاق وما يتبعه من الانتصار بالكافرين. ولكن تمكن الكفر من قلوب تلكم الكثرة ومن عقولهم، ذلك هو الذي حرمهم كل خير.

بيان المعنى العام :

77-قل يا أهل الكتاب لا تغلوا...سواء السبيل.

أمر الله نبيه أن يواصل دعوة أهل الكتاب من اليهود والنصارى، ويكشف لهم الشبهات التي حجبت بصائرهم عن الحقيقة وأضلتهم، فنهاهم.

أولا :عن الغلو في الدين الغلو المخالف للحق. والغلو إذا خرج عن الحد المأذون فيه مذموم. غلا اليهود بادعاء أن التوراة هي وحدها الحق ورفضوا ما جاء به عيسى وما أنزل على محمد عليهما السلام، وغلَوْا في تفضيل جنسهم على بقية الأجناس البشرية، وغلوا بزعمهم أنهم أقرب إلى الله من سائر الناس. وغلا النصارى في المسيح فجعلوه إلها وأنكروا نبوة محمد بعده. والغلو هو الحكم الذي

يتجاوز به المغالي الحد المعروف ثم يقتنع به ويكيف عليه عقيدته وسلوكه. ولما كان مبنى الغلو في أكثر الأحوال لا يستند إلى شرع ولا إلى عقل، ولكن يستند إلى جعل ما يشتهيه الإنسان حقا متبعا، كان مذموما منهيا عنه. ولذا كانت هذه القاعدة قاعدة كلية تبرز حقيقتها في مختلف أوجه نشاط الإنسان الروحي والعقلي والعادي. فوصل صيام النهار بالليل غلو، وترك الدنيا والعمل فيها وقصر النشاط في الحياة على العبادة غلو. والإقبال على العمل العقلي العلمي مع عدم ترويح العقل وإعطاء النشاط الذهني حظه من الراحة غلو يفضي إلى اختلال العقل نفسه، واعتماد العقل وحده وإنكار وسائل المعرفة الأخرى غلو يؤدي إلى الكفر. والغلو في الحياة بتحريم ما أحله الله من أنواع النعيم الحلال مذموم، كالغلو في الإقبال بشراهة على الحياة ومباهجها حتى تستولي على الروح والفكر.

وثانيا: نهاهم عن التقليد لمن سبقهم بغلوهم في تقدير عصمتهم دون ميز. فإن من بين هؤلاء السابقين من أحبارهم ورهبانهم من اتبعوا هواهم، فحرفوا ما أنزل عليهم وخالفوا ما يقتضيه الدليل فضلوا. وتجاوز فسادهم أنفسهم فأضلوا كثيرا من الناس. ونهاهم أيضا أن يقلدوا الذين ضلوا عن الطريق المستقيم من الأحبار والرهبان الذين حملهم هواهم أيضا على معاداة الإسلام.

78-لعن الذين كفروا من بني إسرائيل... يعتدون.

ثم أفرز القرآن الكافرين من بني إسرائيل، بأن اللعنة قد صبت عليهم بدعاء سيدنا داود كما جاء ذلك في المزامير، وعلى لسان سيدنا عيسى كما في نص الإنجيل. ولعنهم على لسان داود وعيسى عليهما السلام موجه للنهي السابق عن تقليد جميع السابقين من دون ميز. وليس لعن الكافرين من بني إسرائيل لكونهم يهودا، وإنما استحقوا اللعنة بسبب عصيانهم لأوامر الله وتمردهم على الحق، وبسبب ما تأصل فيهم واستمر إلى زمن نزول هذه الآية من الاعتداء على رسل الله والإضرار بالبشر. وقد أصبح قصد الإضرار بالبشر سجية في كثير من اليهود فمازالوا على هذه الحال إلى اليوم. وما فظائع اعتداءاتهم على الفلسطينيين وعلى مؤيدي حقهم إلا شواهد صدق على ما وصفهم الله به.

79-كانوا لا يتناهون....يفعلون.

وقد فشا فيهم ذلك إلى أن أصبح مظهرا عاما مسترسلا مع الزمن، بسبب أنهم كانوا يرون المنكر فيسكتون عن فاعله، ولا يبدون إنكارا. وعلى هذا النحو تفسد أخلاق الأمم. فإنه إذا لم يجد فاعل المنكر رفضا لفعله ممن يشاهده ومن الرأي العام، فإنه

يواصل فاسد عمله إلى أن ينتهي المجتمع إلى قبوله، ويسرع الرعاع إلى المتابعة إلى أن يصل الأمر إلى إلف المنكر. وعندها يستحقون غضب الله ولعنته. ومعنى قوله كانوا لا يتناهون: أن من فعل منكرا لا ينهاه غيره، وذلك الغير إذا فعل منكرا أيضا لا يجد من ينكر عليه فعله. إن السكوت عن المنكر قبول له. وهذا التمالؤ بالسكوت عن الفساد لهو اختيار سيء وفعل قبيح.

80-81: ترى كثيرا منهم يتولون....منهم فاسقون.

ومما عاناه الرسول ﷺ نفاق كثير من يهود المدينة، الذين أظهروا الإسلام، الأمر الذي مكنهم من الاندماج في المجتمع الإسلامي بالمدينة.

وإن كان النفاق أمرا باطنا يعمل المنافق على إخفائه، إلا أن مرض النفاق قد برز واضحا فاضحا، فقد وثّقوا صلاتهم بالكافرين، يفضون إليهم بالأسرار ويتعاونون معهم، ويعقدون في الخفاء التناصر بينهم. سجل الله هذا عليهم وأن الرسول اطلع على انتشار قبيح أفعالهم فقال: تشاهد كثيرا منهم وقد افتضح أمرهم بموالاة الكافرين. اختاروا ذلك وأرادوه لأنفسهم، وما أسوأ عاقبة ما أرادوا ! العاقبة سخط الله عليهم، والسخط مقابل الرضا، فإذا كان الرضا يتبعه الطمأنينة والتكريم، فإن السخط يتبعه القلق وسوء العاقبة، فهم مخلدون في النار لا يبرحونها.

إن تحولهم عن وضعهم السيء في الحاضر والمآل، أمر يسير. فلو تفتحت قلوبهم وعقولهم فآمنوا بالله ورسوله محمد ﷺ، لو فعلوا ذلك لشُفوا من النفاق والتخفي للتقرب وتولي المشركين. ولكن الذي أعماهم ومكن الضلال في قلوبهم ، هو الكفر المتمكن منهم، كثير منهم فاسقون : كافرون.

۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ
أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ
وَرُهۡبَانًا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ
تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ
﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ
ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ

وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٨٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

القسيس: النصراني العالم بدين النصارى.

الرهبان : جمع راهب، وهو النصراني المنقطع عن العالم للعبادة.

لا يستكبرون : متواضعون ،منصفون.

تفيض من الدمع : يفيض منها الدمع.

فاكتبنا : فاجعلنا.

الشاهدين : الذين حضروا بعثة الرسول وصدقوه.

بيان المعنى الإجمالي :

يتولى الله ﷺ رسوله والمؤمنين، فيكشف لهم مقدما دخائل الطوائف التي تتصل بهم ويتعاملون معهم. فحذرهم أشد التحذير من اليهود مؤكدا أنهم متحالفون مع المشركين، تعمقت عداوتهم للإسلام وأهله يكيدون لهم بمختلف ما تفيض به نفوسهم الخبيثة من كراهية.

وأن طائفة، من النصارى قَدِمَتْ عليك، مركبة من علماء بدين النصرانية (قساوسة) ومن رهبان انقطعوا لعبادة الله واستهانوا بمغريات الحياة الدنيا، معلنين في وضوح أنهم قدموا عليك وهم مازالوا على دين النصرانية. من صفاتهم أنهم طهروا أنفسهم من الكبر وعناد الحق، وكانت نفوسهم رقيقة تلين قلوبهم للقرآن بمجرد ما تطرقت بيناته أسماعهم، فلا يملكون أعينهم من البكاء المعبر عن عظيم التأثر بأنوار الوحي الحق. تنطلق ألسنتهم بما استقر في قلوبهم إثر ما سمعوه من القرآن، فيعلنون عن صادق إيمانهم، ويبتهلون إلى الله أن يجعلهم في عداد هذه الزمرة الخيرة الصالحة الشاهدة بصدق محمد ﷺ. ثم يلتفتون إلى أنفسهم فيخاطبونها مخاطبة من يحصن نفسه في المستقبل من كل تردد، يخاطبونها بقولهم: لايوجد ما يحول بيننا وبين الإيمان بالله وما جاء على لسان رسوله من آيات الصدق. وإنا نطمع أن يوثق بيننا وبين هذه الأمة بوشائج الالتحام والقيام بما يقتضيه الإيمان. أخبر الله نبيه أنه قبل هؤلاء النصارى الذين دخلوا في الإسلام، وأنه حقق لهم ثوابهم يوم القيامة جنات تتخللها الأنهار باقين فيها بقاء سرمديا، واعتبرهم من المحسنين، الدرجة العالية بعد الإيمان.

وفي المقابل فإن النصارى الذين ثبتوا على الكفر، وقابلوا الإسلام بالرفض والتكذيب لآياته البينات، لا يفلت منهم أحد من مصيره في الجحيم يلزمه ملازمة الصاحب لصاحبه وليس له محيد عنه.

بيان المعنى العام:

82.لتجدن أشد الناس عداوة...لا يستكبرون.

هذه حقيقة من الحقائق، التي أكد عليها القرآن أتم تأكيد وأكمله، كشفت للنبي صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين في وقت نزول الوحي، نظرة أهم الطوائف غير الإسلامية الذين كانوا بالمدينة، إلى الإسلام؛ وذلك ليؤسس عليها ﷺ طريقة التعامل معهم.

أولا : الطائفة التي استحكمت العداوة في قلوب أفرادها، وتشمل اليهود والمشركين. ذلك أنه بمجرد ما قدم النبي ﷺ المدينة كتب وثيقة التعايش السلمي بين سكان المدينة، وأمّن كل فريق على حقوقه، وسوى في القيمة الإنسانية بين جميع الطوائف. الأمر الذي يحقق ما كان يهدف إليه ﷺ من تمكين المجتمع المدني من أول سبب للتقدم الحضاري: الأمن. وحتى يمحض نشاطه لنشر دين الله من بيئة متعاونة لا متحاربة، استل البغض من صدور أفرادها. ولكن اليهود ناصبوا العداء للأمة الإسلامية، وتحالفوا مع مشركي مكة للكيد للإسلام. كانوا عيونا للمشركين يمدونهم بالأسرار، ويطلعونهم على الثغرات التي يستطيعون منها أن يجهزوا على المسلمين. كما كانوا يحيكون المكائد للتفريق والتشكيك، التي من أشدها خطر النفاق الذي عمل بواسطته اليهود على خلخلة المجتمع الإسلامي من الداخل. فكشف الله لرسوله وللمؤمنين بهذه الآية أن مقاومة يهود تتحد مع مقاومة المشركين، ليحذروهم حَذَرَ العدو لعدوه، وتكون لهم من اليقظة ما يحصن المسلمين من خطر اندساسهم. وليس معنى هذا مقاطعة اليهود مقاطعة اقتصادية واجتماعية، فإنه قد بقي التعامل بيعا وشراء وعملا، بعد نزول الآية، بين المسلمين واليهود في المدينة قائما. كما بقي التواصل الاجتماعي ساريا في مختلف المناسبات كالموت ومؤاكلتهم ودعوتهم والاستجابة لدعوتهم، كما تدل عليه الأحاديث الكثيرة في هذا الباب.

83-84: وإذا سمعوا ما أنزل.....مع القوم الصالحين.

ثانيا : طائفة النصارى من سكان المدينة والوافدين على النبي ﷺ من خارجها.

ولا يقصد القرآن هنا، والله أعلم، جميع النصارى الذين كانوا في زمن البعثة ولا فيما تلاها من الأعصار، وإنما يتحدث القرآن عن جماعة من النصارى حدد

ملامحهم وصفاتهم ومواقفهم المعلنة، حتى لا يفهم من النص القرآني حكم عام يشمل كل الطوائف النصرانية في الكون والتاريخ. ويتبين ذلك بما يلي :

أولا : أن تركيب هذه الطائفة تشمل بوضوح علماء بالنصرانية، وتشمل رهبانا تركوا مباهج الحياة الدنيا وأقبلوا في إخلاص على العبادة والتقرب إلى الله، وحسن السلوك. والطائفة بكمالها غسلت قلوبها من داء الكبر والتعالي، فهي جماعة تنساق إلى الحق بِرَغْبَةٍ، انسياق من صفت روحه فأصبحت مستعدة لاتّباعه أيا كان مأتاه.

ثانيا: أن هذه الطائفة كانت مرهفة الشعور تتأثر بدعوة الله، وتستجيب لندائه، وتسمو أشواقها عند سماع كلامه، فإذا خالط وحيه أسماعهم اندمجوا في ظلاله، وفاضت أعينهم بالدموع للوَجْد الحالّ في مشاعرهم تعبيرا عن التأثر بما سمعوا.

ثالثا: هم يصرحون بما استقر في نفوسهم، وما عزموا عليه تبعا لانصياعهم لدعوة الإسلام، فيقولون: ربنا آمنا فاجعلنا في الزمرة التي هديتها زمرة المؤمنين بمحمد الشاهدين بصدقه.

رابعا: هم يحركون كوامن مشاعرهم ومداركهم، فيخاطبون أنفسهم مجردين منها ما يزيدهم إيمانا ويرفع كل عوامل الشك والارتياب. فيتساءلون تساؤل المحقق الذي ينفي كل ما يمكن أن يدخل على ما اقتنع به من اهتزاز؛ فيقولون: أي شيء يمنعنا من الإيمان بالله على الطريقة التي أتى بها محمد ﷺ وهي رافعة لكل لبس. وبكامل الأدب والتفويض لله، هم بهذا اليقين في صدق رسالة الإسلام، يطمعون أن يقبلهم الله فيدخلهم مع القوم الذين تحقق صلاحهم، العصابة الخيرة التي حول رسول الله ﷺ.

85-86: فأثابهم الله بما قالوا...أولئك أصحاب الجحيم.

هؤلاء النصارى الذين تابع القرآن تصويرهم تصويرا يميزهم عن غيرهم، تقبل الله منهم إيمانهم وكتب لهم ثواب إيمانهم وصدقهم فيه: جنات تتخللها الأنهار، ينعمون فيها نعيما لا يلحقه انقطاع. إن هذا الجزاء والتكريم هو جزاء المحسنين، والإحسان هي المرتبة التي يرتقي فيها المؤمن بعد مرتبة الإيمان في منازل الكرامة.

وفي المقابل فإن الذين كفروا بالإسلام، وثبتوا على رفضه، سيخسرون آخرتهم خسرانا يربط بينهم وبين جحيم النار.

<u>ملاحظة :</u> ما يحتج به بعض السطحيين من أن صلة النصارى بالمسلمين هي صلة ود، والله قد أثنى عليهم في القرآن، هو تحريف للكلم عن مواضعه. فالقرآن تحدث عن النصارى الذين حدد صفاتهم وملامحهم. فهل النصارى الذين قاموا بالحروب

الصليبية، ثم بالزحف الاستعماري على بلاد الإسلام، ثم بالتخطيط المحكم لمنع بلاد الإسلام من التطور، والاستحواذ على ما رزقهم الله من خيرات في أراضيهم، وتأييد إسرائيل على المضي في باطلها وظلمها وإخراج الفلسطينيين من ديارهم وأموالهم بغير حق، هل يوجد خيط واحد ولو ضئيل يجمع بين هؤلاء النصارى وبين النصارى المنوه بهم في الآية ؟ إن الذي ينطبق عليهم هو خاتمة الآية : **(والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم)** فهم لا يحملون أي ود للمسلمين.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

لا تعتدوا: لا تتجاوزوا ما حده الشرع لكم من الحلال.

بيان المعنى الإجمالي :

نداء للمؤمنين أن يلتزموا بما حكم الله به ولا يتجاوزوا أحكامه، فما أحله الله يُقبلون عليه ولا يمتنعون منه، وما حرمه يمتنعون منه ويتحاشونه، فإن من يتجاوز ما حكم الله به يفقد، تبعا لذلك، تأييد الله له. وأذن لهم أن يأكلوا كل ما كان حكم تناوله حلالا، وكان طيبا ليست له آثار سيئة على سلامة أبدانهم وأرواحهم. وأمرهم أن تكون تقوى الله حاضرة في ضمائرهم، إن التقوى من مقتضيات الإيمان.

بيان المعنى العام :

87-88: يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا...أنتم به مؤمنون.

يربي القرآن الأمة الإسلامية تربية تأخذهم إلى التوسط فيما يقبلون عليه وفيما يدعونه. فكانت هذه الآية تجري في ذلكم المساق. فنهتهم أن يحرّموا على أنفسهم ما يسره الله لهم من الحلال، على معنى التقرب لله بالامتناع، كما كان الرهبان يُلزمون به أنفسهم. وضَمّنَ النهي العلة، ذلك أن الله تعالى ما أحل لنا إلا الطيب، فتحريمه قلب لحقائق الأشياء، وإعراض عن النعمة، وكلاهما ينافي المنهج الإسلامي.

وفي المقابل نهاهم عن الاعتداء على ما حدده الإسلام من المحرمات. إن المتجاوزين للحدود لا يعاملهم الله معاملة من يرضى عنهم المكرمين المحبوبين عنده. فعلى المسلم أن يحرص على أن لا يكون منحلا تغلبه شهواته فيقبل على الطيب والخبيث، ولا أن يضيق على نفسه فيمتنع من بعض النعم لخيالات موهومة.

ثم أذن لهم القرآن في تناول الحلال الذي لا إثم فيه، الطيب الذي لا يتبع تناوله ضرر نفسي ولا روحي ولا بدني. وهو من فضل الله على الناس تولى رزقهم إياه. والمعيار الذي يجب أن يكون مراعى دائما حاضرا في ضمير المؤمن، هو تقوى الله، هذه التقوى التي هي من مقتضيات الإيمان. وفي التذكير بالتقوى في الانتفاع بخيرات الكون ما يثير رقابة المؤمن على أن يكون ما ينتفع به قد اتبع في كسبه طرق الحلال.

وإذا حرم الإنسان على نفسه ما أحله الله، سواء أكان باللفظ أو بالعزم، فإن تحريمه لا يؤثر، بل يبقى الحلال حلالا، لأن التحليل والتحريم لله وحده. ولا يستثنى من هذا إلا شيء واحد، وهو ما فوض الله فيه الحكم للإنسان، وهو العلاقة الزوجية، فإن للزوج أن يرفع ما كان له بعد عقد الصداق ويحرم زوجته فتحرم عليه.

لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

لغو اليمين: اليمين الجارية على اللسان دون قصد أو التي حلفها معتقدا لما حلف عليه فتبين خطؤه.

عقدتم الأيمان: قصدتم الحلف.

الكفارة: أصلها من الكفر بمعنى الستر، والمقصود به إزالة آثار الالتزام باليمين.

أوسط ما تطعمون: بين طعام المسرفين وطعام المقترين.

بيان المعنى الإجمالي:

من جرى على لسانه يمين أثناء كلامه دون قصد للحلف، فإنه لا إثم عليه ولا يلزمه شيء. وهي يمين اللغو. لكن الحالف القاصد لتوثيق كلامه باليمين هو مسؤول عن

يمينه آثم إن لم يحترمها.وتيسيرا من الله على عباده شرع لمن يحلف، ويجد نفسه في حرج من الوفاء بيمينه، أن يتحلل من يمينه فيرتفع عنه الإثم والالتزام، وهو أولا، مخير بين ثلاثة أمور تحقق له التحلل.

1) أن يطعم عشرة مساكين ما يكفيهم يومهم من الطعام الوسط في بيئة القسم

2) أو أن يكسوهم كسوة تصح بها الصلاة

3)أو أن يعتق رقبة ذكرا أو أنثى. ومن لم يتمكن من أحد هذه الثلاثة يتحلل من يمينه بصوم ثلاثة أيام. ولا كفارة لليمين إلا ما ذكرته الآية.

وعلى المؤمن أن يستحضر في ضميره قداسة الحلف بالله، فيوفي بيمينه إذا حلف، ولا يتهاون بالحلف تهاونا يجعله يقدم على الحلف بمناسبة وبدونها.

على هذا النحو الواضح شرع الله لكم وبين، فتأملوا في نعمه تأملا يفضي بكم إلى شكرها.

بيان المعنى العام :

89 - لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم....لعلكم تشكرون.

ربى القرآن المسلمين على مراقبة ألسنتهم، والوفاء بما التزموه. وتكون هذه المراقبة أشد تأكيدا إذا قوى المؤمن كلامه باليمين. وذلك لأنه قد جعل الله بقسمه كفيلا عليه بالوفاء. وبهذا يكون الحانث في يمينه آثما.

ولطفا من الله بعباده يسر لهم :

1) أن من حلف يمينا غير قاصد للحلف، وإنما جرى القسم على لسانه دون قصد لتوثيق ما أقسم عليه، فإن هذه يمين وصفت بأنها لغو لا تترتب عليها آثارها، ولا إثم على الحالف. وذلك كقول المتكلم غير الحافظ للسانه :لا، والله. أو نعم، والله.

2) كما أن من حلف على شيء يجزم بأنه صادق، ثم تبين خطؤه، فإنه لا إثم عليه.

وبالمقابل فإن من أقسم قاصدا لليمين موثقا كلامه بالحلف بالله، لتنفيذ أمر في المستقبل، أو عدم فعله، كقول الحالف : والله لأسافرن غدا، أو قوله :والله لا أسافر غدا ؛ثم وجد نفسه في حرج من الالتزام بالوفاء، أو وجد ما هو خير له مما امتنع منه باليمين، وأراد أن يتحلل من يمينه، فقد شرع الله له ما يزيل الالتزام السابق، ويرفع الإثم بتحلله من يمينه، وهو المعبر عنه بكفارة اليمين.

والكفارة مخير فيها الحانث بين أمور ثلاثة :

أ–إطعام عشرة مساكين ما يكفيهم غداء وعشاء، ويكون الطعام وسطا بين ما اعتاده الأغنياء في طعامهم وبين طعام المقترين والفقراء.

ب –إكساء عشرة مساكين كسوة، ساترة تجزئ لإقامة الصلاة.

ج ـ-عتق رقبة : والمراد به تحرير عبد ذكر أو أنثى. ذلك أن أسرى الحرب قد يرى رئيس الدولة أن مصلحة الأمة في استرقاقهم فيسترقهم. فمن استُرِقَّ يفقد حريته ويكون ملكا لصاحبه، في ذاته وفي ماله. وقد رغب الإسلام في تحرير العبيد، ومن ذلك جَعْلُهُ أحد ما يتم به تكفير اليمين.

من كان فقيرا وحنث في يمينه يكفيه للتحلل من الالتزام، ورفع الإثم عنه، أن يصوم ثلاثة أيام. يكفيه أن يصومها مفرقة، أو متتابعة.

وأما اليمين التي يقسم بها الحالف على خلاف الواقع، فهي يمين الغموس. تغمس صاحبها في النار، ولا كفارة لها إلا بالتوبة ورد ما استحوذ عليه، ظلما بواسطتها، لصاحبه. وبما أن السبق لليمين شارة من لا ثقة له بنفسه من ناحية، وأمارة ضعف التقديس الواجب لله تعالى بالتسرع في إدخاله في العلاقات، نبه القرآن : أن على المؤمن أن يحفظ لسانه عن الحلف، ولا يبادر بالقسم.

ويمتن الله على المؤمنين بأنه على هذا النحو من التوضيح والبيان يعلمهم ويربيهم، فلينتبهوا لنعمه ولا يغفلوا عنها، ويكون ذلك بشكر الله على نعمه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٩٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الميسر: نوع من القمار.

الأنصاب حجارة تنصب للعبادة، أو لذبح القرابين عليها.

الأزلام :القداح التي يزعم المستقسم بها أنها تعرفه بحظه المستقبل.

الرجس : الخبيث المرفوض.

من عمل الشيطان: من تأثير الشيطان في النفوس.

يصدكم : يمنعكم.

توليتم : عصيتم.

بيان المعنى الإجمالي :

يفتح القرآن بصائر المؤمنين إلى ما في شرب الخمر، ولعب الميسر والقمار، من مفاسد، فهما من الخبث والقذارة بحيث ترفضهما العقول السليمة، وهما من نسيج الشيطان الذي يلف بهما على قلوب الماضين معه، إنهما مطية لتحقيق الشيطان ما عزم عليه من إهلاك الإنسان، وبهما يعمل على إغوائه ليخسر دنياه وآخرته، كما يتخذهما وسيلة لتمزيق وحدة المسلمين وإحلال البغضاء والعداوة محل الحب والأخوة. يحرك القرآن المؤمنين إلى الإقلاع عنهما إقلاعا لا عودة بعده، هو خط النهاية وقد تبين. فهل أنتم منتهون ؟ كما يذكرهم بالابتعاد عن آفتين كان لهما التأثير السيء الكبير في عقول أهل الجاهلية وهما: تقديس الحجارة المنصوبة بعبادتها أو التقرب بالذبح عندها. واستطلاع الغيب بأمارات وهمية لا صلة بينها وبين الغيب. ويأمر القرآن البشر جميعهم أن يطيعوا الله بفعل كل ما أمرهم بهم، والابتعاد عما نهاهم عنه، وأن يطيعوا رسوله كذلك، وأن يكونوا يقظين لصلتهم بالله فيما يفعلون ويتركون. وليعلموا أن من أعرض عن تنفيذ شرعه فإنه لا يضر إلا نفسه، وما كان الرسول إلا مبلغا لما أمر بتبليغه، وبيانه أتم بيان للبشر.

بيان المعنى العام :

90-يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر....لعلكم تفلحون.

دعا الله المؤمنين بوصف الإيمان لينتبهوا إلى أن ما يلي النداء هو أمر هام محقق للإيمان، دعاهم ليتأملوا فيما نهاهم عنه.

نهاهم عن أربع :

1) شرب الخمر.
2) القمار بجميع صوره ومنها صورة الميسر التي كانت شائعة عند العرب.
3) تقديس الحجارة بالتقرب إليها أو جعلها وسيلة للعبادة كذبح الذبائح عندها.
4) طلب معرفة الغيب المحجوب عن الناس بما هو موهوم لا حقيقة له.

حرك القرآن في ثلاث مناسبات قلوب المسلمين وعُقُولَهم لتقويم ما في الخمر من مضار سَتَرَها فَتَعَوَّدَ الناس شربها، ومضى تحليلُها عند أهل الكتاب. ومراعاة لذلك، والله أعلم، تدرج في منعها. وكانت هذه الآية هي الآية القاطعة في الدلالة على تحريمها.

وقرن الميسر بشرب الخمر في آيتين من القرآن، وذلك لأن المجالس الخمرية كان يصحبها أكل اللحم المشوي، فإذا لم يكن ذلك حاضرا في المجلس الخمري، اشتروا

جزورا (**واحدا من الإبل**) يذبحونه ويشوون لحمه، ولا يأكل منه أهل الشهامة، ويُمَكّنُ من لحمه الفقراء وأهل الحاجة. ويدفع ثمنه الذي خرج له السهم الخاسر كما بيناه في الآية -219- من سورة البقرة. وكان ذلك يعد من النبل والشهامة.

وحتى يقتلع القرآن ما طبعت به النفوس من عوائد في المجتمع الجاهلي، كان التحريم مؤكدا بالتصريح بأسبابه: أن الخمر والميسر رجس، أي خبيث ترفضه وتذمه وتكرهه النفوس الزكية. وما جرى عليه أمر الجاهلية هو أوهام لا حقيقة لها.

من عمل الشيطان : أي إن الشيطان يدبر، ويموه، ويستهوي النفس للإقبال على شرب الخمر وعلى لعب القمار، ليحقق ما يهلك به الإنسان.

91-إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم....منتهون.

إن أشد ما يفزع منه الشيطان أن يرى المسلمين متحدين متعاونين، تأكدت الأخوة في علاقاتهم. ولذا هو يعمل على أن يصل إلى تنفيذ شره بتمزيق تلكم الرابطة، فيحول الأخوة والتناصر إلى العداوة، والحب إلى البغضاء. والخمر يمكنه من ذلك عندما تغيب الرقابة على العقول والأرواح، والميسر يفتح له باب الحسرة في نفس الخاسر والنقمة على من قامره فغلبه واستولى على ماله.

إنه بالخمر والقمار يتمكن من إلهائكم عن ذكر الله فتُغلّف الغفلة قلوبكم وتستولي على مشاعركم، ولا تهتز أرواحكم لداعي الصلاة. فإن مجالس الخمر والقمار، يستغرق فيها الشاربون والمقامرون استغراقا يستولي على مشاعرهم، فإذا سمعوا دعاء الأذان لم يتحركوا. والغفلة عن الصلاة تمكين لشره من النفاذ إلى القلوب.

ويتوجه القرآن إلى المؤمنين يحركهم إلى الاستجابة بالإقلاع الكامل عن الخمر والميسر، مجسما لذلك بوضع حد النهاية الذي ليس بعده طريق.

والأنصاب هي الحجارة التي كان يعبدها بعض الوثنيين، ويتقرب عندها عدد غير قليل بالذبح عندها. والأزلام هي طريقة من طرق محاولة التعرف على الغيب المستور. وكلاهما هبوط بمنزلة الإنسان إما بتقديس حجارة لا تختلف عن بقية الأحجار إلا بوهم علق بالعقول فوهّن قدرتها على التمييز، وإما بجعل الصدفة المحضة دليلا على المستقبل الذي لا رابطة بينه وبين ما توسل به إلى معرفته. وكلاهما تمقته العقول المستقيمة وتذمه، وأيضا هما من مداخل الشيطان المضللة. وهذا التحذير مستمر إلى اليوم كالرجوع إلى العرافين الدَّجّالةِ الكذابين، أو نذر القرابين وذبحها عند أضرحة من يظن صلاحه، تبعا لما نسجته الأخيلة وتداولته

الألسن أخبارا ترتفع في بعض الأحيان إلى مستوى أعلى مما أوتيه المرسلون من المعجزات.

92-وأطيعوا الله....البلاغ المبين.

قاعدة من القواعد التي يقتضيها الدين، ويؤكدها العقل، وقد يغفل عنها الغافلون، فيكرر القرآن التذكير بها، هي أن الله لما بعث رسله بشرعه فإن المقصود الأول هو أن يطيع الناس ربهم فيما أنزله إليهم، وأن يطيعوا رسوله المبلغ لرسالته.

والطاعة مستوى إنساني رفيع، إذ يلزم المطيعُ نفسه اتّباع الحق عن رضا يجد فيه لذته وينعم روحيا بجمال وجلال الطاعة. وتأكيدا للطاعة ينبه القرآن المؤمنين أن يكونوا على حذر من الغفلة عن التزامهم بالطاعة، هذه الغفلة التي هي أقوى منافذ الشيطان واستيلائه على النفوس.

ثم يعلن القرآن أن من عصى ربه ولم ينفذ أوامره ولم ينته عما نهاه عنه فهو الخاسر، ومهمة رسول الله ﷺ التبليغ، يبذل جهده ويتحمل ما يتحمل، لإيصال ما تلقاه من ربه إلى البشر مبيّنا واضحا لا شبهة فيه، وليس قاهرا للعباد على قبول ما يبلغه والطاعة لله.

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾

بيان معاني الألفاظ:

جناح: إثم.

طعموا : أكلوا أو شربوا

بيان المعنى الإجمالي :

أثبتت الآية أن الذين ماتوا من صحابة رسول الله، وقد كانوا شربوا الخمر قبل البت في تحريمها، وأكلوا من لحوم الميسر، أثبت أنه لا إثم عليهم فيما تناولوه قبل التحريم، إذا تحقق فيهم الأركان الثلاثة التي هي عماد الفوز والنجاة: الإيمان الخالص، وتقوى الله بالابتعاد عما حرمه، وعمل الصالحات المأمور بها. وأن من كان منهم قد بلغ درجة الإحسان في عقيدته كما قال ﷺ : **(الإحسان أن تعبد الله كأنه تراه)** فتوفر في قلوبهم هذا الاستحضار لجلال الله ورافقهم في عباداتهم،

وجوّدوا تنفيذ الخير عن محبة، هؤلاء المحسنون الذين ماتوا وهم على هذه الحالة يحبهم الله.

بيان المعنى العام :

93-ليس على الذين آمنوا جناح....يحب المحسنين.

الظاهر من هذه الآية أنها تؤكد ما أفاده قوله تعالى :(**يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم)**[1] وقوله تعالى:(**يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم**)[2].

فتكون الآية مفيدة لما تقرر من حل تناول الطيبات، وأنه لا إثم ولا لوم، ولا يتقرب إلى الله بالامتناع عن أكلها أو شربها، إذا كان المتناول قد حافظ على ما هو معتبر في الدين ومنوه به، وهو التقوى والإيمان وعمل الصالحات. فبهذه الثلاثة تقوّم منزلة الإنسان في صلاحه. الإيمان الذي هو اليقين وهو من متعلقات العقول، والتقوى التي تكون بالتوقّي والابتعاد عن ارتكاب المحرمات وبالقيام بالمأمورات. والتقوى تشمل عمل الصالحات، وعطف عمل الصالحات عليها لإبرازه اهتماما به، ثم أكدت الآية التقوى والإيمان، توجيها إلى إحياء الشعور بالإيمان ومقتضياته، والازدياد في التقوى التي لها مراتب، ثم أكدت الآية أمر التقوى وقرنته بالإحسان الذي هو مرتبة أعلى في فعل الخير، بالإتيان به على أكمل الوجوه وأحبها للنفس، ولذلك عقبه بقوله: **(والله يحب المحسنين)** ومحبة الله تعلق لعنايته بالمحسنين يتبعه حُظوة خاصة ينعم بها المحسنون.

ومعظم المفسرين حملوا الآية على أنه بعد أن حذر القرآن من شرب الخمر وما عطف عليه، وقبّحه وربطه بالانصياع إلى الشيطان، ثار سؤال في نفوس المؤمنين الصالحين، الذين كانوا حريصين على سعادة إخوانهم كحرصهم على سعادتهم، وهو ما هو وضع المؤمنين الذين ارتكبوا تلكم المنهيات قبل أن يموتوا، بل كان بعضهم توفي قبيل نزول الآية وما يزال الخمر ولحم الميسر في بطنه ؟ فنزلت الآية معرفة بأنه لا إثم عليهم فيما فعلوه قبل التحريم إذا تحقق منهم الأصول الثلاثة : الإيمان، والتقوى، وعمل الصالحات. وأن المحسنين منهم محبوبون عند الله.

---

[1] سورة البقرة آية 172

[2] سورة المائدة 87

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ
ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٩٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ
ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ
ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ
عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٩٥﴾ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ
عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٩٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

ليبلونكم: يكلفكم ويلزمكم بأحكام الصيد، ولما كان في التكليف اختبار للمكلف عبر عنه بقوله :ليبلونكم.

بشيء من الصيد : أنواع مما يصاد.

تناله أيديكم ورماحكم : مصيد تتمكنون منه بأيديكم، أو برماحكم ، فَعَمَّ.

بالغيب: عندما لا يكون مشاهدا.

اعتدى: صاد غير عابئ بالنهي.

جزاء : عوض تأديبا وعقوبة.

ليذوق : ليحس ما يكدره.

وبال : السوء وما اشتد من المكروه.

متاع: ما ينتفع به مع لذة.

السيارة: المسافرون.

الحشر : الجمع يوم القيامة.

بيان المعنى الإجمالي :

تحذر الآية المؤمنين وتنبهم إلى أن الله سيختبرهم بتعرضهم لفتنة، هي تكاثر الصيد حولهم، ما يمسك منه باليد وما يتم اصطياده بالرمح والسهم، عندما يكونون محرمين. وأن هذا الابتلاء سيظهر بعده في الوجود ما سبق علم الله به منذ الأزل. وحذر المتهاون المعتدي على الحرمة التي خص بها الحرمين بالعذاب الأليم.

ثم صرحت الآية بحرمة الصيد لمن كان محرما ولمن كان داخل الحرمين وإن لم يكن محرما.

من قتل صيدا عمدا آثم وعليه جزاء من النعم مثل الصيد يقدّر هذه المساواة خبيران عدلان.ومن قتله خطأ، عليه الجزاء ولا إثم عليه. ويساق هذا الجزاء إلى مكان الذبح بمكة. وللمتعدي أن يدفع بدل الجزاء من الأنعام طعاما، وصفة ذلك أن يقدر ثمن الجزاء بالمال، ثم يقدر المقدار الذي يشترى به من الطعام، ويتصدق به على الفقراء لكل واحد منهم مد. وكذلك حكم من قتل ما هو أحط من قيمة صغار الأنعام. كما له أن يصوم بدل جزاء النعم والإطعام، يوما عن كل مد.

والتأثيم وما صحبه من الجزاء، شرع ليحس المعتدي بسوء فعله. وتفضل الله على التائبين بقبول توبتهم، ثم حذرت الآية أشد التحذير من العود بما يترصد العائد من نقمة الله العزيز الذي ينفذ ما أراد، وليس ذلك لمطلق الانتقام بل إن ذلك هو ما تقتضيه الحكمة.

وفي المقابل بينت الآية التالية أن الله أحل صيد البحر للمحرم وغيره بيعا وشراء وأكلا، وامتن بأن طعام البحر فيه متعة للصائدين والمسافرين تجارا كانوا أو غيرهم. وأعادت التذكير بتحريم صيد البر للمُحْرِم. وما يثبت المؤمن على ما يرضي الله هو استحضار التقوى في القلب، بما يصحب ذلك من اليقين بأن الجميع سيحشرون إليه، متساوين في الفقر في ذلك المشهد.

بيان المعنى العام :

94-95: يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم....والله عزيز ذو انتقام .

هذه الآية تفيد تكليف المؤمنين بأن لا يقتلوا صيدا في الحرم. فللحيوانات حصانة داخل حدود الحرم إلا ما استثني بالسنة.وذلك كالحية والغراب والحدأة والفأرة والعقرب والكلب العقور، وما يهدد الإنسان من الحيوانات المفترسة. وكذلك إذا أحرم المسلم بحج أو عمرة فإنه لا يقتل صيدا لا خارج الحرم ولا داخله.

إن هذا التكليف سيدخل به المؤمنون في حال الاختبار، وهو ما تحقق في عمرة الحديبية. ذلك أنهم وجدوا أنفسهم بالحديبية، والحيوانات التي من شأنها أن تصاد كثيرة حولهم، ما كان يمكن أخذه باليد مباشرة أو بما تعده اليد من شراك ونحوه، وما كان يتم أخذه برميه بالرمح أو السهم. وأن بعضهم كان محرما والبعض كان غير محرم، فكان هذا الوضع موقعا لهم في حال الاختبار. فالصادقون من المؤمنين تعففوا عن الصيد بما حل في قلوبهم من خشية الله المطلع على الخفايا (إن لم تكن

تراه فإنه يراك). وأما من تساهل واعتدى من بعد ما تقرر من تحريم الصيد على المحرم، فإنه عرض نفسه لعذاب أليم يلقاه يوم القيامة. وتحقق في الخارج ما كان الله يعلمه من الأزل، من اختلاف المبتَلين، فهو يعلم من يتعفف ويخشى الله، ويعلم من يتساهل ويغريه تمكنه من الصيد فيصطاد. ولم يحدث شيء كان خفيا عن علمه سبحانه.

ثم أبرزت الآية التالية مع تفصيل ما أشارت إليه الآية السابقة **(يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم)** حكم الصيد للحرُم. والحرُم هو الذي دخل في الإحرام بحج أو عمرة كان داخل الحرم أو خارجه، ويطلق الحرُم أيضا على الموجود داخل الحرم المكي، وإن لم يكن محرما. وحكم كليهما واحد، وهو حرمة الصيد بما يشمله من أخذ بيض الصيد. والجزاء المترتب عليه. وأما الحرم المدني فإنه يحرم الصيد فيه ولا جزاء على الصائد. حكم من قتل الصيد فعلا، لا من جرحه أو قطع منه عضوا ولم يقتله: الحرمة وجزاء الصيد عقوبة عما فعل، ينتفع به ضعاف الحال، سواء أكل منه أو لم يأكل. فإن قتله خطأ فلا إثم عليه وعليه جزاء الصيد.

والجزاء، ما يماثل المقتول من النعم :الغنم والمعز والبقر والإبل. وقد اجتهد الفقهاء في تقدير المماثلة في الجزاء. وذلك مبسوط في كتب الخلاف وكتب التفسير. وقد رأيت أن لا أشغل القارئ بذلك تبعا للتحول البيئي والعمراني الذي حدث في الحرمين، إذ لا يكاد يوجد صيد داخل الحرم، ولا في طريق الحاج أو المعتمر. وما كان من بعض الحيوانات الصغيرة، فالمؤذي منه يقتل كالعقرب، وما كان لا يؤذي كالنمل والذباب والخنفساء، فهو محل خلاف، هل تجب فيه قبضة من الطعام أولا يجب فيه شيء ؟

ولنعد إلى الآية :**(فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة)** يعني والله أعلم أن من قتل ما يوجب الجزاء، فعليه أن يعود إلى أهل الخبرة في التّقدير، ممن اتّصف بالعدالة من المؤمنين، وعلى الحكمين أن يقوما بهذه المهمّة لكل من طلبها منهما . فيُقدّرَان أقرب شيء من الأنعام للصيد الذي قتل .

ما قُدّر بمثيله من الأنعام يذبح في الحرم. وبما أن التّنظيم العّام قد تكفّلت به أجهزة الدّولة، فالذّبح لا يكون إلاّ في مكّة في المكان المعدّ لذلك من الحكومة.

وللمعتدي بالقتل أن يطلب من الحكمين، تقدير ذلك بالطّعام. ومقياس تعديل الحيوان بالطّعام يكون بتقدير ثمن الجزاء من الأنعام، ويحوّل الثّمن إلى ما يشترى به من الطّعام ويعطي مدا لكل مسكين. كما له أن يطلب منهما، تقدير ذلك بالصيام. وهو مرتبط بتقدير الطعام، وقد

اختلف فيه : هل يصوم يوما عن كل مد أو عن كل مدين، وهل إن غاية الصوم عدد الأمداد، وإن تجاوزت الشهرين أو لا يتجاوز الشهرين ؟
فالجزاء على التخيير كما يقتضيه ظاهر الآية. ثم أبرزت الآية النقمة على قاتل الصيد وذلك : أن قاتل الصيد عوقب بما عوقب به وشدد عليه، ليحس بإثمه وسوء ما فعل. ثم هدد القرآن من لم يرتدع بالعقوبة المسطورة فعاد واعتدى في الحرم، أو بعد إحرامه قبل تحلله، أن الله سينتقم منه. وليحذر المؤمن من هذا التهديد، فقد وصله القرآن بأن الله عزيز ينفذ ما أراد وهو الغني عن المُعين، ينتقم حسب ما تقتضيه الحكمة من ردع المفسد على وفق ما قدم.

96-أحل لكم صيد البحر....إليه تحشرون.

ثم بين القرآن أن صيد البحر يختلف حكمه عن صيد البر، فافتتحت الآية بتعجيل الحكم (الحل). وما يصطاده الصيّادون من الحيوانات البحرية هو حلّ للصائدين، وحل للمسافرين الذين يشترونه منهم أو يتولّون اصطياده بأنفسهم فيتمتّعون بأكله، أو ينتفعون بنقله والاتجار فيه .
وأعيد التّنبيه على حرمة أكل الصّيد على المحرم. وفي حل أكل المحرم من الصّيد الذي لم يتول اصطياده خلاف وتفصيل. فبعض الفقهاء حرّم على المحرم أكل لحوم الصيد ما دام محرما مطلقا. ومنهم من رأى تحريم أكل ما اصطاده غير المحرم إذا كان قد قصد تقديمه إلى محرم، ومنهم من رأى أنه لا يحرم إلا ما اصطاده المحرم بنفسه، أما ما اصطاده غيره فلا يحرم عليه أكله سواء أهدي له أو اشتراه .
والأمر بالتقوى في خاتمة الآية مؤكد على المؤمنين تطبيق ما شرعه الله, ويزداد هذا التأكيد قوة بقوله تعالى : (**الذي إليه تحشرون**) فإبراز التذكير بالحشر مؤذن بأن البشر محاسبون يوم يجمعون لدى رب العالمين، فليكونوا يقظين مستعدين غير غافلين.

هذه إحدى معجزات التشريع الرباني، تبدو في أن الله شرع للبشرية قاطبة حمى للحياة في الحرمين، تحترم فيه حياة البشر والدواب والطير. وشدد على من تسول له نفسه انتهاك هذه الحرمة، وذلك لحكم يعلمها هو، ومنها أن الإنسان المستخلف في الأرض يجد صورة، إذا ما تأمل في عواقبها، اهتدى للنسج على منوالها وتعميمها، ليكون السلم عاما وشاملا لكل أجزاء المعمورة، ويستل من النفوس اندفاعاتها في حالي الغضب واللهو. إنه رواق الأمن يظلل الكائنات كلها حتى الشجر والنبات. ومن ناحية أخرى فإن انتشار الإسلام، بحمد الله في الأرض،

وتوافد المسلمين بأعداد كبيرة حجاجا وعمارا، يقتضي رعاية سلامتهم بالأمن الشامل، وفي قيام الصيادين باستعمال أسلحتهم ما يعرض حياة بعض قصاد الحرمين لخطر الخطأ.

﴿جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٩٩﴾ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكعبة : اسم علم على البيت الذي يطوف حوله الحجاج والمعتمرون.

البيت الحرام: البيت المعظم المهيب.

قياما: تقوم بها مصالح من كان حولها أو قصدها.

القلائد : ما يعلق على الهدايا في رقابها أو على ظهورها.

تبدون : أعمالكم الظاهرة التي لم تستروها.

تكتمون : الأعمال التي تخفونها عن أعين الناس.

الألباب : العقول السليمة العميقة.

بيان المعنى الإجمالي :

مكانة الكعبة مكانة متميزة، تم لها ذلك بجعل رباني. وهي البيت الحرام الذي لا تنتهك حرمته ولا يقع التعدي على ما حوله. وبها قام صلاح الناس الساكنين حولها أولا ثم صلاح البشرية بما أثرت في الساكنين حولها من أخلاق رفيعة بها انتشر الإسلام في العالم.

وبالهدايا التي تذبح للحجاج والعمار القاصدين الكعبة، يقوم أيضا أمر المساكين بما ينتفعون به من لحومها. وكذلك بما يعلّق عليها ويُقلّد في رقابها من ثياب وأحذية وأقمشة، التي تعطى للفقراء بعد ذبحها أو نحرها.

إن هذا الجعل العجيب يقوم دليلا على علم الله بالأمور في حاضرها وفي مآلاتها القريبة والبعيد ة،. فبهذا الجعل قام لكم دليل إضافي على علم الله الواسع الشامل.

ولتحذروا فإن الله شديد عقابه لمن يتعدى حدوده، واسع المغفرة لمن يخشاه ويسرع بالتوبة إليه.

ولا عذر لأي فرد في تجاوزه، فإن الرسول ﷺ قد بلغ، والله سبحانه يستوي في علمه ما تظهرونه وما تخفونه. ولتكن عقولكم موضوعية في نظرها، فإنه لا يستوي الخبيث والطيب، وإن كان الخبيث كثيرا، فالكثرة لا تقلب حقائق الأمور. وليتمسك بالتقوى أصحاب العقول الراجحة فالتقوى سبيل الفلاح في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام :

97-جعل الله الكعبة البيت الحرام....بكل شيء عليم.

إرادة ربانية وعناية إلهية خص بها الله الكعبة، فجعلها متميزة بما أثبته في القلوب والعقول والمشاعر من مهابتها وعظيم احترامها، واعتبارها ملاذا لا ينتهك. وقدر في هذا البيت ما يضمن للساكنين والمقيمين حوله ما يقوم به أمرهم وتتيسر حياتهم وإن كانوا في واد غير ذي زرع. لقد وقر في نفوس العرب احترام البيت وسكان الحرم، فكانت تجارتهم تذرع مسالك الجزيرة العربية آمنة لا يتعرض لها أحد.

وتجمع في أسواق مكة في القديم والحديث وفي كل الأزمان متنوع الثمار، ومختلف السلع حتى النفيسة والنادرة، وسجل القرآن النشاط التجاري لسكان الحرم في سورة قريش. وطبع النفوس على الشوق إلى الكعبة، فما زال الوافدون على البيت يتضاعفون مع الزمن، وينتفع مَنْ حولها بالأرزاق التي يصحبونها وينفقونها.

وحول الكعبة نشأ الرسول ﷺ ونشأ الصحابة الذين قاموا بنشر الإسلام في الخافقين، فكانوا بما استقر في نفوسهم من تعظيمها باعتبار أنها مؤسسة أقامها أبوهم إبراهيم الداعي للتوحيد، وسليمت فطرتهم فكانوا مؤهلين لقبول الإسلام والذود عنه وإبلاغه، فكانت قياما للبشرية جمعاء، بذلك الارتباط. ولم يقف كونها قياما للناس على ما تم من قبل، بل ما يزال ذلك يتضاعف مع الزمن، وإن الناس من كل أقطار الدنيا لتلتهب أشواقهم إلى هذا البيت، يجتمعون حوله حجاجا وعمارا، فتسمو أرواحهم، وتتقوى اللحمة الجامعة بينهم، ويتعمقون في كشف حاجاتهم ومشاكلهم، والبيت قيام للناس.

والله جعل بفضله ما هو من متعلقات البيت من الزمسان، قياما للناس، في الأشهر الحرم، حيث يعم الأمن على الحياة وعلى الأرزاق. فالشهر الحرام، أشهر الحج : ذو القعدة وذو الحجة ومحرم، وشهر العمرة : رجب. ومن توابع الحج الهدايا التي يسوقها الحجاج والمعتمرون ليذبحوها تقربا ينتفع بلحومها الفقراء. والهدايا يعلق

عليها القلائد من الثياب والنعال ونحوها، فتكون وهي تمر في مسالك المناسك معروفة لا يتعرض لها، وينتفع الفقراء بتلكم القلائد بعد ذبحها أو نحرها. إن ما ترتب على بناء البيت وجعله خالصا لعبادة الله الواحد الأحد وتخيره أن يكون في ذلكم المكان القفر، آية من الآيات الدالة على علم الله المحيط بكل شيء، يعلم ما في الأرض، ويعلم ما في السماء، وكلاهما مخلوق له يسيرهما حسب تقديره، ويجري فيهما من الأحداث ما يؤكد العلم الشامل الدقيق. فلو نظر الناظرون بقدراتهم العقلية وتجاربهم لما اهتدوا في زمن بنائه إلى الحكمة التي ترجح تخير الكعبة، لتكون البيت الحرام في ذلكم المكان، بل لكان حكمهم أن الساكنين حوله ينتهي بهم الأمر إلى الانقراض أو الفرار. فتطوّر الأوضاع من وقت البناء إلى اليوم الذي نعيش فيه وإلى المستقبل القريب والبعيد على النحو الذي تم ، وتحقّق كون البيت قياما للناس، ويزداد كل يوم به صلاح أمر الناس، كل ذلك قد أقام به الله سبحانه دليلا هاديا على علمه، وعلى أن علمه يشمل دقائق الأمور وعظيمها وتحولاتها منذ الأزل.

98-اعلموا أن الله شديد العقاب....غفور رحيم.

ختم ما لفت إليه الأنظار في الآيات السابقة من التشريع والتقدير المحكم والعلم الشامل، بأمر حرك فيه المخاطبين ليهتموا بمضمونه بقوله :(**اعلموا**) أنّ الله شديد العقاب لمن خالف أوامره، وأنه غفور رحيم لمن خشي الله فتاب بعد التقصير وطبق ما أمر به واتقى مولاه.

99-ما على الرسول إلا البلاغ....وما تكتمون.

ليس للمقصر أي عذر، فالرسول ﷺ مبلغ عن ربه تقتصر مهمته على ذلك، وكل إنسان مسؤول بعد ذلك عما قدم. والله سبحانه مطلع على كل ما يفعله الإنسان من خير أو شر. يستوي في علمه ما يعلنه الإنسان وما يكتمه.

100- قل لا يستوي الخبيث والطيب....والله غفور رحيم.

ثم يعمد القرآن إلى تربية العقول على النظر بالاعتماد على الصفات المؤثرة في التقويم، وأن يسقط المؤمن من الاعتبار الصفات المبهرجة التي تذوب عند المراس وتسقط عند التأمل. فمن ذلك أن بعض العقول قد تتأثر بعامل الكثرة فترى الحق مع العدد الكبير من الناس. والكثرة أمر خارج عن المقومات التي تكون بها الأشياء حقيقية أو موهومة. فاعتقاد الكثرة الكاثرة قديما أن الأرض غير متحركة لا يعطي لهذا الاعتقاد أي مصداقية. وكون أغلب الناس ليسوا بمسلمين (**وما أكثر الناس ولو**

حرصت بمؤمنين) لا يعطي لعدم الإيمان أي قيمة من الحق. وقد حاول المشركون أن يؤثروا بكثرة العدد أنهم على حق، فجاءت الآية لافتة للأنظار، أن يتعمق الناظر في القضية التي يحكم عليها تبعا لما اشتملت عليه من خبث وفساد، أو ما تضمنته من حق وصلاح. وهما أمران يدرك الإنسان عدم مساواتهما بسليم فطرته. وإن الكثرة قد تلفت الأنظار في بعض الأحوال وتعجب الناظر، لكنها إذا كانت كثرة لا تمتد جذورها في الأعماق فهي كثرة زائفة زائلة.

وجماع الصلاح الذي يذكر به القرآن دائما ليكون نورا يضيء للمؤمن مسالك ودروب حياته، هي تقوى الله بما تشع في بصيرته من أنوار هادية، هذه التقوى التي يتمسك بها أصحاب العقول الراجحة السليمة، لأن بها يرجو المتقي أن يكون من الناجحين في حياته الدنيا والآخرة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ وَإِن تَسۡـَٔلُواْ عَنۡهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلۡقُرۡءَانُ تُبۡدَ لَكُمۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهَاۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٞ ﴿١٠١﴾ قَدۡ سَأَلَهَا قَوۡمٞ مِّن قَبۡلِكُمۡ ثُمَّ أَصۡبَحُواْ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

تسوؤكم : توقعكم في حرج.

البحيرة: هي الناقة التي ولدت عشرة أبطن، يشقون أذنها طولا، يكون ذلك علامة على كونها أصبحت مقدسة.

السائبة : هي الناقة أو البعير المنذور لحصول مرغوب أو دفع مكروه.

الوصيلة : الشاة التي ولدت سبعة أبطن، يجعلون السابع لطواغيتهم.

الحامي : الفحل من الإبل إذا نتجت من ظهره عشرة أبطن، يقدس كالبحيرة.

تعالوا : أقبلوا.

عليكم أنفسكم : احرصوا على صلاح أنفسكم.

بيان المعنى الإجمالي :

وثق المؤمنون بصدق رسول الله ﷺ، وبأنه يستمد من الوحي الحقائق الثابتة، فكان تبعا لذلك، أن بعضهم يسأله عن أمور الدين وعن أمور الدنيا، ما كان خاصا وما كان عاما. وفي ذلك إحراج له من ناحية، وإحراج حتى للسائل عندما يكون الجواب الحق يسوء السائل. فكان من عناية الله بالمؤمنين أن تولى تأديبهم في هذا الموضوع. فنهاهم أولا عن الإكثار من الأسئلة خاصة إذا كانت الإجابة تحتمل أن يتأذى منها السائل هو أو غيره. وثانيا أنه إذا كان موضوع السائل مما يعود إلى حسن إدراك للتشريع وللحقائق المتصلة به فإنهم إن سألوا ولم يكثروا فإن الله يجيبهم عند نزول القرآن، أو يتولى الرسول ﷺ الجواب. ونبههم إلى أن بعض التفصيلات عفا الله عنها ولم يذكرها توسعة على عباده وفضلا منه عليهم. وذكرهم بأن من الأمم السابقة من واصلوا التدقيق في الأسئلة حتى وقعوا في حرج ولم يستطيعوا تنفيذ ما وقع الجواب عنه وكفروا به.

وإذا كان الله قد حرّم مكة وميزها بجملة من التشريعات، وهو الذي جعلها كذلك، فإن المتنطعين من أهل الجاهلية حرموا أشياء، اتّباعا لخيالاتهم ولسوء عقيدتهم. فمن ذلك تحريم البحيرة، وهي الناقة التي ولدت عشرة أبطن، يشقون أذنها فتصبح بعد ذلك ترعى وتشرب من أي مكان، ولا تركب ولا تحلب إلا لضيوف الأصنام، ولا يجز وبرها، وإن ماتت أكل من لحمها الذكور لا الإناث. ومثلها السائبة : وهي التي وقع النذر بها على حصول محبوب أو زوال مكروه، فإذا تم للناذر ما أراد قطع قطعة من جلد فقار ظهرها وتأخذ أحكام البحيرة. وكذلك الوصيلة وهي الشاة التي ولدت سبعة أبطن فإن كان السابع ذكرا ذبحوه للطواغيت وإن كانت أنثى استبقوها للطواغيت. وكذلك الحامي، وهو الفحل الذي نُتِجَ من ظهره عشرة أبطن، فيقدس كالبحيرة. فهذه كلها من افتراءات الجاهلية. ومعظم المطبقين لها من المقلدين الذين فسدت عندهم آلة التفكير. يدلك على ذلك أنهم إذا دعوا إلى التأمل في القرآن وإلى حضور مجالس الرسول ﷺ قالوا : كفانا المنهج الذي كان يسير عليه آباؤنا. عجبا لهم أيتعصبون فيتبعون آباءهم، ولو كان آباؤهم جهلة ضُلّالاً !فلا تحزنوا أيها المؤمنون ولا تتهموا أنفسكم بالتقصير لعنادهم وتعصبهم، والزموا رقابة صلاح أنفسكم، ولا يضركم تماديهم على الضلال إن اهتديتم بهداية الله التي منها الأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر. كلكم، مؤمنكم وكافركم، ستعودون جميعا إلى حكم الله يوم القيامة فيكشف لكل عامل حقيقة عمله من صواب أو فساد.

بيان المعنى العام :

101-102: يا أيها الذين آمنو لا تسألوا....أصبحوا بها كافرين.

حضر الصحابة مشاهد الوحي، وتلقوا من آيات القرآن ما يبين الأحكام وما يطلعهم على ما أراد الله إطلاعهم عليه من المغيبات. وتحولوا إلى الطاعة، إلى قيادة أوتيت الحكمة ولها سند من الله العليم بكل شيء.ففتح لهم ذلك بابا لعرض أسئلتهم على رسول الله ﷺ، وتوسعوا توسعا تجاوز أمور الدين إلى قضايا الحياة، فالمسافر يسأل رسول الله عن نجاحه في سفره، ومن ضل له شيء من ماله قد يسأله وهكذا ، ودخل بسبب هذا الوضع كثير من المنافقين يلقون أسئلة لا يقصدون بها إلا إعناته. فنزل القرآن يوقف هذه الفوضى.

علمهم أن عليهم أن لا يكثروا من الأسئلة، فإن في إجابتهم عن بعض الأسئلة ما يوقعهم الجواب عنه في حرج. من ذلك ما روي في الصحيح أن عبد الله بن حذافة سأله : من أبوه؟ وكان بعض الناس يتهمونه في صحة نسبه فأجابه : بأن أباك حذافة. قد قالت له أمه بعد ذلك : ما سمعت بابن أعق منك. أأمنت أن تكون أمك قارفت ما يقارف نساء الجاهلية فتفضحها على أعين الناس؟[1] وسأله آخر عن منزلته يوم القيامة أو منزلة أبيه فقال له : في النار[2].

جاءت هذه الآية بعد التأكيد على أن النبي مبلغ عن ربه ما أمر بتبليغه، فهذه مهمته الشريفة التي يضطلع بها. وعرض قضايا خارجة، عن التشريع وعن العقيدة، وعن الأدب، وعن بيان سنن الله في الكون، ليس من مهماته. وإحراجُه ﷺ بإلقاء أسئلة عليه خارج دائرة الرسالة مناف لتوقيره من ناحية، وفيه خلط غير مقبول بين مقام الرسالة الهادية، وبين قضايا جزئية لا تفيد الجماعة ولا السائل إلا على نوع من الفضول، إن لم تَسُؤْهُ.

إنه من حكمة الله أن غيب على الإنسان كثيرا من جوانب حياته، بناء على أن قواه العقلية لا تتحمل أن ينكشف لها الغيب،، وذلك لأن معرفة الغيب تجعله تعيسا، فلو علم متى سيأتيه أجله، أو أن عزيزا عليه سيموت بعد شهر مثلا، أو أن حربا ستأتي على جميع مكتسباته، أو أنه سيفقد قواه العقلية في تاريخ كذا، هذا ومثله من

[1] فتح الباري ج18ص29

[2] نفس المصدر ص31

الغيب، الذي من لطف الله أنه لم يمكن الإنسان من معرفته قبل حدوثه. ومعرفته به قبل وقوعه مع عدم تمكنه من توقيه يجعله يقضي ما بين الأجلين في كرب شديد. فما ستره الله على الإنسان قد يكون فيه خير كثير في استقرار حياته. فإحراج الرسول ﷺ بالسؤال عن مثل ما ذكرناه لا يفيد السائل، بل قد يسوؤه. فلذلك نهوا عن مثل تلكم الأسئلة.

وتواصل الآية تفصيل ما يتعلق بالأسئلة. والمحور الذي يبدو لي أنه هو ما ينبغي ضبطه لإدراك نظم الآية، واستخراج معانيها، هو كلمة (**أشياء**) فكلمة أشياء وردت في صدر الآية منكرة (**يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوؤكم**) وهذه قد بيَّنتُ المقصود منها حسب ما ترجح عندي.

وأما ما ورد بعد ذلك من الضمائر فإنه لا يدل على موضوع الأسئلة التي وردت في صدر الآية، ولكن لكل موقع مدلوله حسبما تدل عليه موارد الشريعة ومبادئها، فإذا أبرزنا الضمائر يكون نسج الآية هكذا : وإن تسألوا عن أشياء حين ينزل القرآن تبد لكم، عفا الله عنكم في تلك الأشياء والله غفور حليم. قد سأل قوم من قبلكم أشياء ثم أصبحوا بالأشياء المسؤول عنها كافرين. إنه بحمل لفظ (**أشياء**) حسب هذه الخطة يكون معنى الآية هكذا والله أعلم:

أولا : نهت الآية عن الأسئلة التي فيها إعنات، أو تطلب معرفة الغيب، أو طلب كشف عما يسوء السائل الجواب عنه، وكذلك عن مختلف أنواع الفضول التي تحول مقام النبوة من الهداية العامة إلى إجابات عما يتعلق بأغراض دنيوية خاصة في أغلبها.

ثانيا: السؤال عن قضايا دينية وهي على نوعين :

بعضها فيه طلب للبيان عند حيرة المسلم في الموضوع المسؤول عنه، وقد تولى القرآن الإجابة عن بعض تلكم الأسئلة وتولت السنة بيان أسئلة أخرى. والرسول يبين للناس ما نزل إليهم من ربهم. قال عبد الله بن عباس: ما رأيت قوما كانوا خيرا من أصحاب رسول الله، ما سألوه إلا عن ثلاث عشرة مسألة حتى قبض، كلهن في القرآن. وهذا ما يفيده قوله تعالى (**وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم**) تظهر لكم عند نزول القرآن بإجابته عنها. واعلموا أن ما سكت عنه الوحي ما كان عن نسيان ولكنه رحمة بكم وعفو من الله. روى الدار قطني بسنده إلى أبي الدرداء ﵁ أن رسول الله ﷺ قال :إن الله فرض عليكم فرائض فلا

تضيعوها، وحدد لكم حدودا فلا تعتدوها، ونهاكم عن أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء من غير نسيان فلا تكلفوها، رحمة بكم فاقبلوها[1].

والبعض الآخر فيه متابعة وتطلع لا تمس إليهما حاجة، وقد يترتب على الإجابة عن السؤال مشقة للمسلمين. روى البخاري بسنده إلى سعد بن أبي وقاص أن النبي ﷺ قال: إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته[2].

إن مثل هذا التنقير والتتبع قد وقع في الأمم الماضية، وسلوكهم هذا تبعه التشديد عليهم، وانتهوا بكفر ما كانوا يتحرون أداءه على أكمل وجه تبعا لكثرة أسئلتهم.(**قد سألها قوم من قبلكم ثم أصبحوا بها كافرين)** فإذا كان المأمور به واضحا، فلا تتنطّعوا وتنقروا عن الجزئيات المحددة التي كلما زادت ضاق مجال الاختيار على المكلفين، والله يريد بكم اليسر.

103-ما جعل الله من بحيرة...لا يعقلون.

إن ما ركز في نفوس العرب قبل البعثة من احترام الكعبة وما اتصل بذلك من الهدايا والقلائد، ليس من وضع الجاهلية، ولكنه من جعل الله كما بينته الآية السابقة. وهناك أمور أخرى كانت من وضع الجاهلية لا تمت للحق بسبب، نبه القرآن عليها، منها :

البحيرة: وهي الناقة إذا ولدت عشرة أبطن شقوا أذنها طولا، وقدست فلا تركب، وترعى وتشرب حيث شاءت لا تزجر. ولا يجز وبرها، ويختص بلبنها ضيوف الطواغيت. وإذا ماتت حتف أنفها حل لحمها للرجال دون النساء.

السائبة: البعير أو الناقة تجعل نذرا، فإذا تحقق ما نذر إليه قدس كالبحيرة. وكانت تقطع قطعة من جلدة فقار الظهر تكون علامة لها. وما تلده السائبة يكون مثلها.

الوصيلة: وهي الشاة تلد سبعة أبطن، فإن كان السابع ذكرا نبحوه للطواغيت، وإن كانت أنثى استحيوها للطواغيت، وإن أتأمت **(ولدت اثنين)** استحيوهما جميعا للطواغيت. ولقبائل العرب أعراف مختلفة في بيان المقصود من هذه المزاعم التي نفى القرآن أن يكون لها أصل من الحق.

الحامي: فحل الإبل الذي نُتِجَتْ من صلبه عشرة أبطن، فيقدس كما تقدس البحيرة.

بين القرآن بأوضح بيان أن هذه المذكورات من افتراءات وكذب الكفار لا أصل لها، ولا قداسة لها، كيف وهي تنتهي إلى التقرب للأصنام. وإن معظم الذين يقدسونها هم من المقلدين الذين لا يملكون العقل المميز.

---

[1] سنن الدار قطني ج 4 ص298

[2] فتح الباري ج18ص27

104- وإذا قيل لهم تعالوا...لا يهتدون.

ومن عجيب أمر الكفرة، أنه إذا خوطبوا بدعوتهم إلى الإقبال بالاستماع والتدبر وإعمال الفكر في القرآن، وإلى حضور مجالس الهدي النبوي، أقبلوا لتوازنوا بين ما أنتم عليه وما يدعوكم إليه الكتاب والرسول، كان جوابهم يدل على جمودهم وتعصبهم وصرحوا : بأنهم في غنى عن ذلك لأن ما ورثوه عن آبائهم كاف لهم في الاهتداء إلى الحق. عجيب أمرهم كيف وثقوا بآبائهم هذا الوثوق فانقادوا إلى سلوك مسالكهم، وإن كان آباؤهم منغمسين في الجهل، مغرقين في الضلال.

105-يا أيها الذين آمنوا عليكم....بما كنتم تعملون.

وإذ بلغ العناد والجمود إلى هذا الحد، فإن الداعي لا إثم عليه إذا لم ينتصح المخاطب بنصحه وثبت على ضلاله، فقوله تعالى :**(لا يضركم من ضل إذا اهتديتم)** يطمئن المؤمنين الذين ثبتوا على الحق وقاموا بما يمكنهم من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولكنهم وجدوا من مخاطبيهم آذانا صما، وعنادا مستحكما.
وليس معنى ذلك أن المؤمنين غير مخاطبين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
و يتبع القرآن ذلك بتثبيت المؤمنين وتهديد المعاندين الضالين، بأنهم سيعودون إلى الله فيظهر لكل منهم القيمة الحقيقية لما كان يعمله في الدنيا.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا
عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ
ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا
وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ (١٠٦) فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا
ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ
فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ
(١٠٧) ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ
وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ (١٠٨)

بيان معاني الألفاظ :

ضربتم في الأرض : كنتم مسافرين.

أصابتكم مصيبة الموت : أشرفتم على الموت.

المصيبة: الحادثة التي تحل بالإنسان من شر أو ضر.

تحبسونهما : تمنعونهما من الانصراف.

إن ارتبتم: إن لم تقتنعوا.

لا نشتري به ثمنا: لا نستبدل بما شهدنا عليه عوضا.

عثر: اطلع.

الأوليان : الأحقَّان.

أدنى : أقرب.

على وجهها :على الصفة الكاملة الواضحة.

بيان المعنى الإجمالي:

اعتنت الآية ببيان طريقة توثيق الوصية. وطريقة التوثيق تكون بإشهاد رجلين عدلين من المسلمين على الوصية، حسبما يمليه الموصي الذي أحس بدنو أجله، ويجب على الشاهد تحمل الشهادة وأداؤها عندما تطلب منه. وأنه إذا كان الموصي الذي دنا أجله على سفر ولم يجد من يُشهده على وصيته يسر الله عليه بتمكينه من إشهاد غير المسلمين.

وأن طريقة أداء الشهادة من غير المسلمين: أن يؤديا الشهادة في زمن قريب من الصلاة، وطريقة أدائها : أن يقولا: إن اتهمتمونا في الشهادة، فإنا نقسم بالله: أنا نؤدي الشهادة كما علمناها لا نحرفها ولا ننقص منها، ولا نستبدل بالأمانة التي حملناها أي ثمن مهما عظم، ولو كان الدافع مراعاة ذوي قرابتنا. وأنا نستشعر في بواطننا أننا نكون آثمين إن كذبنا.

إنه إذا تبين كذبهما واستحقا الإثم الذي ختما به شَهَادَتَهُمَا، يقوم أولياء الموصي واحدا كان أو أكثر برد شهادة الشاهدين غير المسلين، ويكونوا الأحق بالوصية ويقسمون بالله: إن شهادتهم صدق حق، وأنهم ما اعتدوا على الشاهدين الأولين في تكذيبهما ورد شهادتهما، وإنهم يستشعرون الإثم الذي يرتكبونه لو لم يكونوا صادقين، إذ يكونون من الظالمين.

إن هذا التوثيق والتأكيد على الأولياء كما بينته الآية، يعتبر الطريقة الأقرب لضمان أداء الشهادة على الصفة الواضحة الصادقة البينة. ومن ناحية أخرى فإن خوف الأولياء من أن ترد شهادتهم فيفتضحوا، ويقوم غيرهم بالحلف ورد شهادتهم، عامل آخر يدفعهم للصدق. وتختم الآية بدعوة المخاطبين إلى التزام تقوى الله وأن

يطيعوا ربهم فيما يأمرهم به. وليعلموا أن الله يحجب هدايته عن القوم الفاسقين الخارجين عن حدود الله.

بيان المعنى العام :

106 -يا أيها الذين آمنوا شهادة.....لمن الآثمين.

اعتنت هذه الآية بتوثيق الوصية. ذلك أن الإسلام قد راعى في تشريعه ما يمكّن صاحب الحق من الوصول إلى حقه، فشرع الإشهاد كما تقدم في عقود البيع، وفي عقود الدين في سورة البقرة. وإذا كان الطرفان في البيع والدين يمكنهما الدفاع عن حقوقهما وإظهار الحقيقة، فإن الوصية لا يوجد بعد موت الموصي إلا طرف واحد وهو الموصى له. ولذا كانت العناية والتفصيل لتوثيق الوصية في هذه الآية أتم.

وافتتحت الآية بدعوة المؤمنين على أن ما سيرد فيها من التشريع يتحتم عليهم الحفاظ عليه وتطبيقه. وتركيب الآية وطولها يقتضي من الناظر في كتاب الله أن لا يتعجل، وأن يتابع تفصيلاتها متأملا. إذا ظهرت علامات قرب الموت، وأراد أن يوصي في ماله فعليه :

أولا : التوثق بالشهادة. الشهادة بينكم اثنان متصفان بالعدالة من المسلمين يشهدان بما يملي عليهما المحتضر، ويجب عليهما تحمل الشهادة وأداؤها عندما يطلب منهما ذلك.

ثانيا : إذا كنتم مسافرين وحل بكم ما ينذر بقرب الموت، وأردتم الإيصَاءَ في مالكم، فالحكم سواء. إلا أنه رخص في هذه الحالة أن تشهدوا اثنين من غير المسلمين، إذا فقد العدول المسلمون. وأنهما عند أدائها يتخير الوقت الذي يدليان فيه بشهادتهما، بأن يكون عقب الصلاة. وهل الصلاة صلاة الشاهدين ؟ أي بعد أن يقوم الشاهدان غير المسلمين بأداء صلاتهما على النحو المشروع في ديانتهما، ليكون وضعهما الروحي قد تهيأ للصدق، أو المراد بالصلاة إثر صلاة المسلمين بقرب، العصر أو الظهر، وهو بعيد إن كان الشاهدان غير مسلمين. يقسمان على هذا النحو: إن ارتبتم في شهادتنا فإنا نؤكدها بالقسم بالله: لا نستبدل بالحق الذي نؤديه كما سمعناه، ولا نغيره، مقابل ثمن هو قليل مهما عظم، ولو كان الثمن ولاء القرابة (أي إنهما لا يقدمان صلة القرابة على الإدلاء بالشهادة كما تحملاها) ويضمان أيضا إلى القسم: ولا نكتم شهادة الله، أي لا نحذف شيئا من هذه الشهادة التي نستشعر أن الله شهيد علينا يرقبنا في صدقنا، وإننا مستحضرون أيضا أنه لو حرفنا الشهادة في أصلها أو

بكتمان بعضها، فإننا نكون قد ارتكبنا إثما، على معنى أننا هيأنا أنفسنا للعقوبة من الله.

107-فإن عثر على أنهما استحقا.....لمن الظالمين.

إنه بعد هذا التشديد عليهما بتذكير أنفسهما بما ينتظرهما إن هما حرفا أو حذفا. بعد ذلك إن اطلع وتبين: أنهما لم يصدقا في شهادتهما وارتكبا إثم تزوير الشهادة، بأن استبدلا بالصدق ثمنا لأنفسهما، أو محاباة لقرابتهما، أو كتما بعض ما استشهدا عليه بطلت شهادتهما. والحل عند ذلك :

أنه يقوم رجلان اثنان، فيردان الشهادة التي تم أداؤها من ذينك اللذين تبين كذبهما ويعوضان تلك الشهادة الساقطة، ويكونان من الذين ذهب حقهما بالشهادة الباطلة، وهما الأجدران والأحقان بأن يقبل قولهما بعد تبين أن الشاهدين الأولين كذبا وحل عليهما الإثم. ويستحقان ما تم الاستحواذ عليه بالشهادة الأولى. وذلك بعد أن يقسما اليمين التالية :بالله إن شهادتنا التي ندلي بها هي الحق، وأننا ما اعتدينا على الشاهدين الأولين، يعني أننا رددنا شهادتهما وأقسمنا لأن شهادتهما كانت باطلا، ثم يؤكدان قسمهما بأنهما يشعران بثقل قسمهما هذا، وأنه لو لم يكونا صادقين في رد الشهادة الأولى لكانا ظالمين، بمعنى أنهما يستحضران في نفسيهما عقاب الظلم.

108-ذلك أدنى أن يأتوا الشهادة على وجهها....الفاسقين.

إن ما تقدم ضبطه وبسطه في صفة اليمين ومراعاة الزمان، ذلك أقرب وجه يترتب عنه أن يقدموا الشهادة بأدائها واضحة بينة صحيحة، بتحريك الوازع الباطني، وأمر آخر متوقع حاضر في نفوس الحالفين ثانية، وهو خوف الفضيحة، بأنهما لو كذبا فإنه ترد أيمان بعد أيمانهما ويفتضحان.

وختمت آيات الإشهاد على الوصية بالتذكير، كما هو شأن القرآن في تعقيب الأمر الهام الذي قد يَلْوِيهُ بعضهم في التطبيق، التذكير بتقوى الله، التقوى التي هي الرقيب الداخلي على صدق المكلف في عمله، وقوّى مفاد التقوى بالأمر بالاستماع الذي معناه الطاعة. وقرن الأمر بالتقوى والطاعة بالتحذير من التهاون الذي يعقبه أن المتهاون يعتبر فاسقا، والله يحرم هدايته القوم الفاسقين الخارجين عن الحدود التي حددها.

<u>**ملاحظة**: وَرَدَتْ</u> صياغة الآية في قوله تعالى : (**فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهما الأوليان فيقسمان....**) في صورة التثنية آخران – يقومان – الأوليان – وهكذا...والظاهر، والله أعلم، أن مَرَدّ ذلك إلى الواقعة التي ارتبطت

بها الآيات، فقد كان وليا الموصي اثنين، فراعاهما القرآن في تسجيل التشريع في هذه القضية، التي تجري أحكامها في أمثالها لا على التثنية بل حسب قواعد الشريعة. فلو كان الولي واحدا حلف وحده، ولو كانوا جمعا حلفوا جميعهم.

يَوْمَ يَجْمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا عِلْمَ لَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ
﴿١٠٩﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ
بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ
وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا
بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِى ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ
مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ
بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾

بيان معاني الألفاظ

روح القدس : جبريل عليه السلام.

المهد : فراش الوليد إثر ولادته.

كهلا: الكهل من جاوز الثلاثين، وقيل الأربعين.

الأكمه : فاقد البصر منذ الولادة.

الأبرص : المريض بالبرص، داء جلدي كان علاجه صعبا.

تخرج الموتى : تحييهم بعد دفنهم في قبورهم.

كففت : حلت بينهم وبين الإضرار بك.

بيان المعنى الإجمالي :

مشهد من مشاهد يوم القيامة عرضه على الناس ليحذروا هول السؤال يوم القيامة. يسأل الله الرسل بما ذا أجابهم أقوامهم. ومع كامل الأدب يعترفون بأن علمهم قاصر، والله هو العليم العلم الكامل بما كان منهم. ويفرد القرآن عيسى من بين الرسل مصرحا بما خصه الله به في ذلك اليوم. يذكر عيسى بما أنعم به عليه في الدنيا. ويعدد من النعم : تأييده بجبريل منذ ولادته إلى أن بلغ سن الكهولة، وتعليم

الله إياه للكتابة والحكمة، والتوراة والإنجيل، وجمعه بين اليد الفنية القادرة على تصوير طائر من الطين، ثم يحيَى بمجرد ما ينفخ فيه، وقدرته على رد البصر لمن ولد أعمى، وإبراء المصاب بالبرص، ويخرج من مات ودفن إلى الحياة من جديد، ورد مكر بني إسرائيل به عندما رموه بالسحر لما قدم لهم الآيات البينات على صدقه. وفتح قلوب الحواريين لرسالته فـآمنوا بالله ربا وبالمسيح رسولا منه، بلغ بهم الإيمان من الوضوح والقوة أن أشهدوا الله الذي يعلم الظواهر والخفايا على حسن إسلامهم.

بيان المعنى العام :

109- يوم يجمع الله الرسل....علام الغيوب.

تتضمن الآية عرضا لمشهد من مشاهد يوم القيامة، ليكون عظة للناس، بتقرير موقف البشر في ذلك اليوم، وما سينكشف فيه. واذكر يا محمد يوم يجمع الله الرسل ليسألهم بقوله: ما ذا أجابتكم به الأمم التي بعثتكم إليها برسالاتي ؟ ويكون الجواب واحدا من جميعهم. قالوا : لا علم لنا إلا ما فتحت لنا من فضلك معرفته مبرزين قصر علمهم، وأن الله هو المتفرد بالجمع بين علم ما كان حاضرا وما غاب عن الناس. وهذا المشهد كما عرضته الآية يتضمن أمورا هامة:

أن هول هذا اليوم من مظاهره أن كل الناس مسؤولون عن أداء مهمتهم في الحياة، حتى المرسلون على علو منزلتهم عند الله. فليحذر كل مكلف من السؤال الذي يأتي على كل ما قدم الإنسان.

أن علم المرسلين باستجابة أممهم محدودة، لأنهم ما يعلمون إلا ما تصل إليه القدرة البشرية، وهي ظواهر. فمن أممهم من كان صادقا ومنهم من كان منافقا، ومنهم من بقي بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، ومنهم من ولد بعد ذلك. وعلم كل ذلك لله وحده. وفي هذا الجواب إيماء إلى عدل الله في حسابه لأنه مبني على علمه الذي لا يغيب عنه شيء.

110-111: إذ قال الله يا عيسى ابن مريم....بأننا مسلمون.

ثم تفرد الآية من المشهد العام محاورة بين الله وعيسى عليه السلام.

يفتتح الحوار بنوع من الاستئناس والتقريب، إذ يقول الله لعيسى عليه السلام : استحضر في نفسك نعمتي التي خصصتك بها :

1) لقد أيدتك بجبريل عليه السلام(**روح القدس**) صاحبك هذا التأييد من أول أمر. في بواكير صباك وأنت ما زلت في المهد فـألقى الملك، روح القدس) على لسانك

الكلام الفصيح، فكان ذلك آية لك على ما أعددتك لـهُ مـن تبليـغ رسـالتي، وكـان ذلـك أيضا دحضا لما رماك به اليهود ورموا أمـك بـه. كمـا أيـدتك عنـدما أصـبحتَ كهـلا فكان ما يجري على لسانك أرفع معنى وأكمل هداية من كلام الناس.

2) العلم الذي ملأ به عقله وروحه، فمكنه مـن معرفـة الكتابـة أو كتـاب مـن الكتـب التي نزلت قبل موسى.

3) الحكمة 4) التـوراة -5) الإنجيـل -6) إيتـاؤه القـدرة علـى صـنع تمثـال كأنـه الطير- 7) ثم نفخه في الطير فتسري فيـه الحيـاة -8) رد البصـر لمـن ولـد أعمـى -9)عودة السلامة لمن تمكن البرص من جلـده -10) رد الـروح للميـت فيخـرج مـن قبره حيا -11) حصنْتك من بني إسرائيل وهـم يمكـرون بـك حتـى تمكنـت مـن أداء الرسالة وفزت ببقاء الدين الذي بشرت به، رغم رميهم لـك بالسـحر الـذي ينبنـي عليـه الحكم بالقتل حسب شريعة التوراة. وقـد تقـدم توضـيح ذلـك فـي سـورة آل عمـران (الآيات 12، 46 ، 50) ألقيـت فـي قلـوب الحـواريين الانفتـاح لاتبَاعـك وتأييـدك والإيمان بي وبك رسولا من عندي، إيمانا أسلموا بـه قلـوبهم وأرواحهـم لمـا يقتضـيه الوحي المنزل عليك، فاسـتقر هـذا المسـتوى فـي بـواطنهم فكـان مـا يجـري فـي مشاعرهم: أنهم رضوا بالإيمان وثبتوا عليه، وفـي خـواطرهم توجـه إلـى الله أن يشـهد سبحانه على هذا الإيمان والتأييد لعيسى عليه السلام.

إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

المائدة : هي الجهاز الخشبي عندما يوضع عليه الطعام مرتفعا على الأرض.

تطمئن قلوبنا : بالمعاينة الرافعة لكل حديث للنفس.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر طلب الحواريين من عيسى عليه السلام : هل يستطيع الله سبحانه أن ينزل عليهم من السماء مائدة عليها الطعام؟ وما أجابهم به عيسى: أن عليهم أن يتقوا الله حق تقاته فذلك الذي تطمئن به القلوب، إن كانوا مؤمنين. رفعوا في إجابتهم كل ريب، وصرحوا بأن غايتهم من إنزال المائدة، أن يحصل لهم بركة وشرف الأكل من الطعام النازل من السماء، كما يحصل لهم بذلك طمأنينة المعاينة، ويجمعون إلى علم الاستدلال على صدقك علم المشاهدة، ويحظون من ناحية أخرى بشرف أن يكونوا على هذه المائدة من الشاهدين ، يبلغون ذلك لمن لم يحضر. أخبر الله عيسى بأنه سينزل هذه المائدة، وحذر الحواريين بأن من يكفر بعد نزولها فإن الله سيعذبه عذابا يفوق الوصف، ما عذب به في قسوته وألمه أحدا من العالمين.

بيان المعنى العام :

112-إذ قال الحواريون يا عيسى.....مؤمنين.

بمناسبة تذكير عيسى عليه السلام يوم القيامة بنعم الله عليه، التي منها أنه فتح بصائر الحواريين ليؤيدوه وينصروه ويعربوا عن صادق إيمانهم. بهذه المناسبة يقول الله لنبيه محمد ﷺ : اذكر ما جرى بين الحواريين وعيسى. طلب الحواريون من عيسى سائلين مع الأدب الكامل : هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ وليس قولهم: هل يستطيع ربك ؟ شكا في قدرة الله، ذلك أنه قد تقرر إيمانهم في الآية السابقة، وشهد الله عليهم بذلك وسجل دعاءهم أن يجعلهم من الشاهدين. ولكن كمال الأدب مع القادر على الفعل أن يخاطب على هذا النحو. كما تقول للثري المعروف بالكرم: هل تستطيع أن تقرضني دينارا؟ وعبر القرآن عن طريقة في كلامهم تضاهي هذا الأدب في اللغة العربية.

وطلبوا أن تكون المائدة نازلة من السماء، وفيه إشارة إلى أنهم ما كانوا يسألون طعاما للشبع، وإنما سألوا معجزة ظاهرة للعيان.

تلقى عيسى عليه السلام سؤالهم باستغراب. فأمرهم أن يلازموا تقوى الله، فتقواه سبحانه هي التي تفرغ الطمأنينة في قلوب المؤمنين، وأن لا يطلبوا خوارق العادة بعد ما تبين لهم صدقه بما رأوه من معجزاته عليه السلام، وإذن فلا حاجة لطلب معجزة جديدة؛ لأن هذه سلسلة لا تنتهي.

113-قالوا نريد أن نأكل منها....من الشاهدين.

كان جواب الحواريين ما يأتي : قالوا :

أولا: نريد أن نأكل منها، فيدخل الطعام المبارك المطهر النازل من السماء في أحشائنا، وهو شرف عظيم يرجوه كل إنسان صالح.

وثانيا : تحصل في قلوبنا طمأنينة تطرد كل حـديث للـنفس، لمـا للمعاينـة الحسـية مـن ظهور وقوة.

وثالثا : لِنَضُمَّ إلى علم الاستدلال علم المعاينة فنجمع بين العلمين.

ورابعا : لنكون على هذه المعجزة من الشاهدين عليهـا المبلغـين لمـا حصـل لمـن لـم يحضر.

114-قال عيسى ابن مريم....خير الرازقين.

إذ تبين لعيسى ما يمكن أن يترتب على استجابة طلـبهم مـن خيـر، سـأل ربـه جامعـا بين اسم الجلالة (اللهم) وبين اسم الرب (ربنا) بما يوحيـه مـن عنايـة وفضـل ورجـاء للتكرم، فطلب منه أن ينزل على الحواريين المائـدة التـي طلبوهـا، ليكـون ذلـك اليـوم يوما يذكرونه على أنه عيد الكرامـة التـي خصـهم الله بهـا، يسـير هـذا العيـد مـع الزمن، يذكره من حضر ومن سـيأتي. وألحـق بدعائـه أن يـرزقهم مـن فضـله، فـإن رزقه سبحانه لا يصحبه منة ولا استرجاع ولا ينقص بـه مـن ملكـه شـيء، فهـو خيـر الرازقين.

115- قال الله إني منزلها عليكم...أحدا من العالمين.

قال الله العظيم العلي : استجبت لطلبكم. وإني محذركم بأن مـن يكفـر بَعْـدُ مـنكم، فإنـه يقدم على الحساب وقد ذهب كل عذر، فـإني أنـا الله سأسـلط عليـه عـذابا يفـوق كـل عذاب سلطته على أي واحد من البشر.

طوى القرآن تفصيلات: هل نزلت المائـدة أو لـم تنـزل؟ قـال بعـض المفسـرين بأنهـا نزلت، وقال آخرون بـأن الحـواريين لمـا سـمعوا التهديـد خـافوا وطلبـوا مـن الله أن يعفيهم. وعلى أنها نزلت فما هو الطعام الـذي كـان عليهـا؟ عينـه بعضـهم بأنـه خبـز ولحم. والذي نجزم به أن ما طواه القرآن لا نتطلب كشفا وتعيينا له.

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا

تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الرقيب: الحافظ المراعي.

سبحانك : أنزهك عن ذلك.

ما في نفسك : ما في علمك.

الغيوب : جمع غيب، وهو المستور عن الناس.

بيان المعنى الإجمالي :

هذا هو المقصود الأعظم من المشهد العام الذي ألقي فيه الضوء بصفة خاصة على عيسى ﷺ. سأله الله :أأنت قلت لمن بُعثت إليهم اتخذوني وأمي إلهين؟ وهو ما روج له النصارى حتى أصبح ركنا من عقيدتهم. كان جواب عيسى ﷺ واضحا مرتبا على النحو التالي :نزه الله عن هذه المقالة، أنه لا يعقل أن يقول ما ليس له بحق. أكد النفي بأنه لو قال ما نسبوه إليه لتعلق علم الله به، وإذ لم يتعلق علم الله بتلك المقالة فذلك دليل على عدم صحة ما نسب إليه، إن الله لا يغيب عن علمه لا ظاهر ولا باطن.

أثبت أن ما بلّغه إليهم : هو ما أمره الله به: أن يعبدوا الله بصفته أنه رب عيسى وربهم.

وأنه كان شاهدا عليهم عندما كان حيا، ثم إنه بعد أن توفاه الله ورفعه إليه، فإن الله هو الرقيب على أقوالهم وعَقَائِدِهِمْ وأفعالهم. شأنهم شأن بقية الخلائق. ثم أعلن عن تفويض الأمر إليه في جزائهم، فإن عاقَبْتَهُم فهم عبادك خاضعون لعدلك، وإن تغفر لهم فإنك العزيز القدير على المغفرة، وأنت الحكيم فتنزل العقاب أو تغفر تبعا للحكمة البالغة.

بيان المعنى العام :

116- وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم...علام الغيوب.

يواصل القرآن الخطاب الذي خص به عيسى ﷺ يوم القيامة. يوم يجمع الرسل. يقول الله: يا عيسى أأنت الذي قلت لأتّباعك: اتخذوني وأمي إلهين سوى الله. وفي هذا التقرير لعيسى تصريح بإبطال ما يزعمه رجال الدين النصارى من أن الله حل في عيسى وأمه، ذلك أنه إذا انتفت الوحدانية انتفت الألوهية، لأن الإله لا يكون إلا

واحدا، إذ الاشتراك في الألوهية نفي لهـا، لمـا يقتضـيه مـن عجـز كـل شـريك عـن تحقيق مراده، فلا يكون إلها.

الإجابة التي ستكون من عيسى في ذلكم المشهد متضمنة :

أولا : أنه قبل أن ينفي عن نفسه هذه المقالة بـادر بقولـه : سـبحانك، أنزهـك عـن هـذا تنزيها تاما. فابتدأ بنفي هذا الزعم من النصارى المناقض لمفهوم الألوهية.

ثانيا: ثم نفى أن يكون قال هذه المقالة، بدليل أنه لا يتـأتى منـه أن يقـول كلامـا بـاطلا ليس بينه وبين الحق صلة.

ثالثا: أن ما اتهمتُ به محض افتراء، ودليلي على هذا أنـي لـو قلتـه فقـد علمـت ذلـك، لأن علمك يا ربي محيط بكل شيء، فلمـا لـم يعلـم الله أن عيسـى قـال هـذه المقالـة، كان ذلك دليلا على اختلاقها وأنه لا أصل لها.

رابعا : حقق علم الله بكل ما صدر منه، بـأن الله محـيط علمـه بمـا يجـري فـي نفـس عيسى فضلا عما يقوله ويصرح به. على معنـى أن هـذه المقالـة لا يتصـور أن تجـري في نفسه فضلا عن التصريح بها. وأدمج في كلامه عجزه عـن الإحاطـة بمـا فـي علـم الله. وهو معنى**(ما في نفسك)** أي ما في علمك.

خامسا : أضاف دليلا آخر لنفي ما رمي بـه، أنـه مـوقن بـأن الله علـيم العلـم الكامـل الشامل المحيط بكل غيب. وهذه المقالة من الظاهر فهي أولى بالنفي.

117 - ما قلت لهم إلا ما أمرتني....على كل شيء شهيد.

بالغ عيسى في التبرؤ من هذه التهمة لأنهـا صـدرت مـن محبيـه ومتبعيـه وَرُوِّجَ لهـا حتى أصبحت الركن في العقيدة المسيحية.

والقاعدة في التبرؤ من أي تهمة أن يعمل المـتهم أولا علـى نفيهـا، ثـم يعقـب بتثبيـت الأمور التي تناقض التهمة، وتزيد في نفيها ونصـاعة براءتـه منهـا. فصـرح بأوضـح بيان عما بلّغه لقومه وما أمرهم به. فقـال : مـا قلـت لبنـي إسـرائيل إلا الـنص الـذي تلقيته منك **[أن اعبدوا الله ربي وربكم]** وهـو نـص واضـح لا احتمـال فيـه، لا يقبـل التبديل أو التغيير.

ثم ترقى عيسى في الجواب إلى إبراز حقيقـة أخـرى: إنـي كنـت شـاهدا علـى مـن بعثتني إليهم يوم كنت بين أظهرهم حيا، فلما توفيتني ورفعتنـي إليـك، انقطـع مـا بينـي وبينهم، وأصبحوا تحت رقابتك، لا يمكـن لـي أن أعـرف مـا بـدلوا ولا أن أؤثـر فـي صلاحهم، وهم غير محجوبين عن رقابتك، فأنت الشهيد على جميع الأشياء.

118-إن تعذبهم فإنهم عبادك...العزيز الحكيم.

وبعد أن برأ عيسى نفسه من المقالة الباطلة، وقد مكنه الله في ذلك اليوم بأن يبين الحقيقة نفيا وإثباتا كما قدمناه، فوض الأمر إلى الله في جزاء الذين رموه بما رموه به. فقال: إن تعذبهم بما افتروا وكذبوا، فإنهم عبادك ماض فيهم حكمك ولا راد لما به تقضي، وإن تغفر لهم فإنك المتصف بالعزة تقدر على المغفرة كما تقدر على العذاب، وأنت الحكيم فيما تختاره، فما تنفذه هو الصواب.

قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ ﴿١٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ

الصادقين : في عقيدتهم وأقوالهم وأفعالهم.

رضوا عنه : رضوا بما آتاهم من فضله، فلا يطمحون لأكثر مما أوتوه.

بيان المعنى الإجمالي :

يقول الحق وقوله الحق: هذا يوم متفرد، يوم ينفع الصادقين ما صدقوا الله عليه من العقيدة والفعل والقول. يكرمهم الله بجزائهم : جنات تتخللها الأنهار، لا يخشون انقطاع أي نعيم منها، ورضًا من الله عليهم، ورضاهم بما آتاهم من فضله، فلا تطمح نفوسهم لشيء آخر. إنه الفوز الذي بلغ من العظمة ما ليس بعده من مزيد.

وذلك بالنسبة لعطاء الله يسير، لأن الله هو المتفرد بملك السماوات والأرض وما يعمرهن من تافه الأشياء وعظيمها، ولا غرابة في ذلك فقدرة الله لا تحدها حدود ولا يخرج أي شيء عن سلطانه.

بيان المعنى العام :

119-قال الله هذا يوم ينفع الصادقين...الفوز العظيم.

ينتهي المشهد بإعلان الله الحقيقة التي غابت عن كثير من الناس في الدنيا، في هذا اليوم يوم القيامة والرسل مسؤولون فضلا عن غيرهم يعلن الله هذه الحقيقة: إنه لا يفوز إلا الصادقون، بما يشمله الصدق من الصدق في العقيدة، باعتقاد ما هو حق يقتضيه العقل والوحي، والثبات عليه ثباتا لا يزعزعه شك ولا ارتياب. والصدق في العمل من العمل الصالح الذي لا يخفي منه العامل وجها غير مشرف، فلا غش ولا خديعة ولا تلبيس ولا تغرير. والصدق في القول فلا كذب ولا تلبيس ولا فحش.

في هذا اليوم يجد الصادقون جزاء صدقهم. يجدون سعادة مادية فيما أعده الله لهم من جنات تتخللها الأنهار، لا يخشون فراقها أو انقطاع نعيمها. ويجدون سعادة روحية متمثلة في إحساسهم بأنهم قد فازوا برضا الله عنهم، وأن نفوسهم قد امتلأت رضا وبهجة بما نالوا، فهم لا يرقبون وراء ما توفر لهم أي شيء. وكأن القرآن يطبع العرض بكلمة خاتمة هي جماع ما توفر لهم : ذلك الفوز العظيم.

120- لله ملك السماوات...على كل شيء قدير.

هذا وقد آذنت السورة ببلوغ نهايتها، بإعلان الله أن هذا اليوم هو اليوم الذي يبلغ فيه الصالحون غايتهم. ختم القرآن السورة بأن الله متفرد بملك السماوات والأرض وما يشمله هذا الكون مما أدركه الإنسان ومما خفي عليه. ولا يهولنك عظم هذا الكون الذي تبلغ أبعاده السنوات الضوئية، فإن الله قدير لا تحد قدرته ولا يعجزه شيء. خضع الكون بما فيه لله رب العالمين. وإذا اعتمدنا أن هذه السورة هي آخر ما نزل من القرآن فقد عانقت هذه الخاتمة فاتحة الكتاب : **الحمد لله رب العالمين.**

ســـــورة الأنعـــام

هذه هي السورة السادسة حسب ترتيب المصـــحف. نزلـــت بمكـــة علـــى رســـول الله ﷺ ، والسور الخمس السابقة: الفاتحـــة، والبقـــرة، وآل عمـــران، والنســـاء، والمائـــدة، تلقاهـــا بعـــد الهجـــرة. وحســـب تـــاريخ النـــزول العـــام للمصـــحف عـــدت الســـورة الخامســـة والخمسون، نزلت بعد سورة الحجر وقبل سورة الصافات.

اسم هذه السورة: لها اسم واحد هو سورة الأنعام. وقـــد ذكـــر لفـــظ الأنعـــام فيهـــا ســـت مرات. والـــراجح عنـــد المفســـرين، أنهـــا نزلـــت علـــى رســـول الله ﷺ جملـــة واحـــدة، فانفردت بذلك بين طوال السور.روى الطبرانـــي وابـــن مردويـــه عـــن ابـــن عمـــر قـــال: قال رسول الله ﷺ نزلت علي ســـورة الأنعـــام جملـــة واحـــدة ، يشـــيعها ســـبعون ألـــف ملك، لهم زجل بالتسبيح والتحميد [1].

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾

بيان معانى الألفاظ:

يعدلون: يسوون بالله غيره.

قضى : وفَّى كل إنسان عمره كاملا.

أجل مسمى عنده : يوم البعث.

تمترون : تشكون.

معرضين :منصرفين عنها، يرفضونها مقدما قبل النظر.

أنباء : جمع نبأ. وهو في الآية بمعنى: الخبر الهام المحقق مضمونه.

---

[1] الدر المنثور3 ص4

بيان المعنى الإجمالي :

سجلت الآية أن الحمد الكامل لله وحده، فهو الحقيق بالثناء، هو الله الذي خلق السماوات والأرض فقدرها على أكمل تقدير في كل جزئية من جزئياتها، وفي علاقاتها فيما بينها، وهو وحده سبحانه الذي رتب الكون على نظام فمما رتبه، أن جعل الظلمات والنور، يخلف النور الظلمة في النواحي المادية، وفي الحاصل الإيماني. فالأنبياء ينيرون للبشرية طريق الهدى بعد ظلام الشرك والحيرة. ومن العجيب أنه رغم هذه الأدلة الواضحة على أنه لا شريك لله في هذا الخلق، فالذين كفروا يسوون بين الله وبين آلهتهم.

والله وحده هو الذي خلقكم من طين، ثم إنه وقّى لكل كائن أجله لا يزيد عنه لحظة ولا ينقص عنه لحظة، ثم إنه قدر أن جميع الخلائق ستحشر إليه، وبعد كل هذه الحقائق يشك من يشك في نفا ذ قدرة الله في الخلق كله ! هو الله في السماوات يصرفها بمحكم تقديره، وكذلك في الأرض. لا يخفى عنه شيء من أسراركم ولا أعمالكم، فهي مكشوفة عنده على حقيقتها سيجزيكم الجزاء العدل عنها.

إن المشركين قابلوا الآيات البينات التي جاءتهم من الله مؤيدة لرسوله، قابلوها بالإعراض عن التأمل فيها أو الإفادة منها، عنادا واستكبارا.

إن الله سيحاسبهم على تكذيبهم حسابا يعرفون به عاقبة ما اختاروه لأنفسهم، من أخذ آياته مأخذ الاستهزاء وعدم الجد.

بيان المعنى العام :

1-2: الحمد لله الذي خلق.....ما كانوا به يستهزئون.

واجهت الآيات الأولى من سورة الأنعام الذين كفروا.

1-أولا: افتتحت بهذه الجملة العظيمة **(الحمد لله)** وهي تفيد اختصاص الله بالثناء على كمالاته، فلا يستحق أحد الثناء الكامل إلا الله وحده. والحمد أشرف من المدح، لأن المدح يكون للعاقل وغيره كالطير والحيوان والمناظر الجميلة، فقد تمدح طائرا لجماله، وبقرة لغزارة لبنها، ونحو ذلك. والحمد أدل على العبودية من الشكر، لأن الشكر يكون كفاء النعم التي رزقها الشاكر، والله مستحق للحمد على كمالاته دون نظر لما يَسّرَه للإنسان الحامد من فضله.

له الحمد وحده سبحانه وليس للآلهة التي تعلق بها المشركون أي استحقاق للحمد، فهي على اختلاف تصور عُبّادها عاجزة عن التدبير والفعل.

الله هو الذي خلق السماوات والأرض، بما يفيده الخلق من إيجاد أعيانها، وما أودع فيها من قوانين، بها تم الخلق واستمر على أكمل صورة وأفضلها. وخص الأرض بالذكر لأنها أقرب للإنسان الناظر تبعا لاستقراره وحياته فيها. فملاحظته للإبداع والنظام أقرب وأوضح. ولفت النظر لما رتبه على نظام الكون سماوات وأرضه، من الظلمات والنور. لأنك إن نظرت إلى عظم أجرام الكواكب والحكمة في خلقها، أو نظرت إلى ما يعرض لها من ظلمات ونور، في الحالتين تقر بأن الحمد لله وحده.

-وعجب أمر الكافرين الذين يسوون بالله غيره، فيتخذون لأنفسهم آلهة، مع أن أدنى نظر ينفي عنهم أن يكون لهم أي تأثير لا في أنفسهم ولا فيما حولهم.

ثانيا : أبرزت أمرا آخر عظيما يجري على كل إنسان، هو انتقال الإنسان في مراحل ثلاث :

المرحلة الأولى: هي الخلق الأول الذي أبدع الله فيه الإنسان من الطين إلى أن بلغ بشرا سويا.

المرحلة الثانية :أنه وفّى لكل إنسان أجله فلا يستطيع أن يمد في عمره لحظة **(ثم قضى أجلا)**. ثم إن هذه البشرية جميعها سيبعثون في لحظة معلومة عنده **(وأجل مسمى عنده)**

ثالثا: واجه المشركين بإظهار غباوتهم، إذ كيف يشكون في البعث الذي ينادي أصل الخلق بإنشائه من عدم على إمكانه، وكذلك إفناؤه في ذاته وفي الأعراض المتصلة به. والإنسان واحد من هذا الكون وجد ثم يفنى، وفي كل لحظة من وجوده تفنى أعراض متصلة به وتخلفها أخرى وهكذا. فالتأمل في هذا القانون العام يكشف للمتأمل تحقق ما أخبر الله به من أمر البعث.

3-وهو الله في السماوات...تكسبون.

رابعا: أكد تفرده بالألوهية في السموات وفي الأرض. إن ظاهرة جريان الخلق على سنن ثابتة في السماء والأرض، هو الذي مكن الباحثين من الوصول إلى القمر وإلى سبر غيره من الكواكب. ولو كان الخلق غير مستند إلى واحد في الجميع لما أمكن أن يحصل أي تقدم علمي خارج الأرض. وهذا النظام المحكم الواحد دليل على العلم الكامل والحكمة. إن هذا العلم كما نشأ عنه ذلكم النظام، فإنه من ناحية أخرى ينفذ إلى البشر، فالله يعلم سرهم كعلمه بعلانيتهم، أي إنه يستوي في علمه ما يكتمه الإنسان وما يظهره. ويعلم سبحانه مقاصد البشر من أعمالهم وما يكسبونه

بإرادتهم، وإن ستروها وغلّفوها بما يضلل الناظرين من البشر إليها، ولكن علم الله نافذ إلى الحقيقة.

وفي التذكير بهذه الحقيقة إشارة إلى ما يرتبه الله بعدله على عمل الإنسان من ثواب أو عقاب.

4-وما تأتيهم من آية....معرضين.

خامسا: سجل القرآن عنادهم فكلما بلغتهم آية من آيات الله الدالة بوضوح على صدق الرسول، سواء أكانت من الأمور الخارقة للعادة التي أيده بها، أم كانت من آيات القرآن المعجزة، أم من أخبار الغيب التي تنادي بصدقه، كان موقفهم واحدا، هو عدم التأمل منها، ورفض أن ينظروا فيها، والإعراض الكامل عنها كأنها لم تبلغهم.

5- فقد كذبوا بالحق لما جاءهم...يستهزئون.

إن الحامل لهم على هذا الرفض هو تصميمهم على التكذيب، كذبوا بالحق البين عنادا، وقد جرت سنة الله في المكذبين عنادا أنه يجزيهم الجزاء الماحق، وهؤلاء سوف يسري عليهم ما سلطه الله على الذين يقابلون آيات الله بالاستهزاء. فينكشف لهم بجزائهم عن عنادهم ورفضهم، واستهزائهم به صدق ما سخروا منه.

أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ
وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ
وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ
بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ
وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا
وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ
سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

قرن: الأمة التي دامت طويلا.

مكناهم : ثبتناهم. ملكناهم ما تصرفوا به.

السماء : المطر

مدرارا : لا يخلف نزوله في أوقات الحاجة إليه.

الإهلاك : الإفناء.

القرطاس : ما يكتب عليه من جلد أورق أو كاغذ، ونحو ذلك.

الإنشاء : الإيجاد المبتكر.

للبسنا :اللبس اختلاط يترتب عنه عدم التمييز.

الاستهزاء : السخرية.

حاق : أحاط.

العاقبة : المآل.

بيان المعنى الإجمالي :

تحض الآية على الاعتبار بما وقع للأمم السابقة التي علموا أخبارها ورأوا آثارها شاهدة على المستوى الحضاري الذي بلغوه. فقد أسعدهم الله بما ثبتهم في ما ملكوه من الأراضي، فأحسنوا القيام عليها إحسانا لم تبلغوا مثله، وسخر لهم الظروف المناسبة لنماء الزرع والغرس، وكانت الأنهار تتخلل أراضيهم تنشر البهاء وتضاعف الخصب، فتصرفوا في حياتهم بالفساد والخروج عن حدود الله، فأبادهم الله بسب ما اقترفوه من آثام. ثم إن الله استبدلهم بأقوام آخرين يواصلون عمارة الأرض.

ثم صور القرآن عناد المشركين بأن الله لو نزل عليهم كتابا مسجلا على قرطاس، وتثبتوا فيه وجمعوا لحاسة البصر حاسة الاختيار باليد **(اللمس)** فانتفي كل أثر للريبة والشك، لاستمروا على الرفض، وقالوا: **إن هذا إلا سحر واضح بين.**

وطلبوا تعنتا من رسول الله ﷺ أن يصحبه ملك يؤكد أنه مرسل من الله. ومن غبائهم وضلالهم أنهم لم يقدروا ما يترتب على ذلك، فإنه لو أنزل ملك كان ذلك مُلْجئا لهم فانتهى أمر التكليف. ومن ناحية أخرى إن ما رزقه الإنسان حسب تكوينه لا يمكنه من إدراك الملائكة، فلو أنزل الله ملكا ما استطاعوا إدراكه إلا إذا تشكل بشكل إنساني ، وعندها لا يتحقق إلا استمرار الاختلاط عليهم.

ثم هون الله على رسوله ما يلقاه من عناد وإصرار الكافرين، فذكره بأن ذلك هو سنة المتمردين من البشر مع رسلهم، أنهم لا يأخذون الهدى مأخذ الجد، ولكن مأخذ السخرية والاستهزاء، وأن سنة الله فيهم أنه يحيطهم بعاقبة سخريتهم، فيبيدهم إبادة ماحقة. قل لهؤلاء الكفار سيروا في أرض الله، وتأملوا في عاقبة الأمم السابقة التي كذبت رسلها. بذلك تستطيعون أن تقفوا على الآثار الكاشفة عن مصير المكذبين لرسلهم. فإن سنة الله واحدة في الإمهال وعدم الإهمال.

بيان المعنى العام :

6-ألم يروا كم أهلكنا...آخرين.

هذه الآيات تَتَابع فيها لفت الأنظار إلى الأدلة الشاهدة على تفرد الله بالتصرف في الكون، وإقامة الحجة على عناد الكافرين، وإعراضهم عن آيات الله.

تفتتح الآيات بتوجيه سؤال ينكر به القرآن على الكافرين، على معنى أنهم أبصروا بعيونهم، وعلموا علم اليقين من الأخبار التي شاعت واعتقدوها، عاقبة المفسدين الكافرين، لقد سلط الله عذابه على الأمم التي يسر الله لهم الأسباب، فأقدرهم على عمارة الأرض التي ملكوها، فعمروها وكانت لهم خبرات أرقى من خبراتكم فتصرفوا تصرفا أفضل مما تتصرفون به فيما بين أيديكم، ويسر لهم استخراج الخيرات المودعة فيها بما لم تبلغوا مثله، ورتب سبحانه بفضله ترتيبا جعل السحب تنهل عليهم بالغيث النافع بمقدار ما تدرك به زروعهم وتثمر أشجارهم، دون خوف من جدب يذهب بمحاصيلهم الزراعية.إن وفرة الري قد اختزنت منها طبقات الأرض ما درت به العيون وانسابت منها الأنهار الجارية. لقد كانت كل مظاهر الحياة الدنيا معلنة عن قوة تمكنهم وتواصل حياة الرفاه لهم. ولكن فسد سلوكهم وتراكمت آثامهم، فسلط عليهم ما أهلكهم وقطع دابرهم، وذهب بالنعيم الذي يسره لهم جزاء كفرهم وسوء أعمالهم. وذلك حسب سننه في الكون.

وتحقيقا لما قدره سبحانه من عمارة الأرض ببني الإنسان، فإنه لما أباد الآثمين أنشا من يخلفهم ليواصلوا خلافة الإنسان في الأرض.

وفي هذه الآية تهديد للمشركين أن سنة الله في الخليقة، أنه كلما عتت أمة بعد ما مكنها الله منه من القوة وسعة الرزق، أنه سيفنيها ويذهب بحضارتها وتنقلب أثرا بعد عين.

وفي إنشاء الأمم الصالحة لتخلف الأمم الفاسدة بشارة للأمة الإسلامية، وهي ما تزال في مبدأ أمرها، أن الله سيمكن لها في الأرض ويعلي شأنها. وتنبيه إلى أن حصانة الأمم مرتبطة بصلاح سلوكها في الحياة.

7-ولو نزلنا عليهم كتابا....سحر مبين.

ثم أكد القرآن تأصل العناد في الكافرين، فكما أنهم لم ينظروا في سنن الكون ولم يتعظوا بفناء الحضارات عندما يفسد أصحابها، فكذلك يحملهم عنادهم على إنكار المحسوس. والصورة التي عرضها القرآن تتمثل في أنه لو أنزل الله عليهم من السماء كتابا، مسجّلٌ كلماتُه على القرطاس، ثم اختبروه بأيديهم ليجمعوا بين الإحساس البصري واللمس، ذلك أن الأبصار قد تخدع، أما مع اجتماع الإدراكين النظري واللمسي فلا مجال للمغالطة. ولكنهم لفرط عنادهم يقولون إن هذا سحر وقلب للحقائق بين.

8- وقالوا لولا أنزل عليه ملك....ثم لا ينظرون.

تتوالى الصور الفاضحة لعناد الكافرين. قالوا لمحمد ﷺ : لولا أنزل الله عليك ملكا يكون معك، حتى نستيقن أنك مبعوث منه. وظنوا أنهم أعجزوه، فرد القرآن عليهم كاشفا ضعف تفكيرهم، وعدم نباهتهم.

أولا :إن الله لو بعث ملكا فأول ما يترتب على ذلك أن ينقلب الاختيار الذي بنى الله عليه أمر الحياة الدنيا، إذ يكون الملك ملجئا لهم، وينتهي التكليف، وينتهي تبعا لذلك تمكين الإنسان من النظر فيعجل له جزاء إعراضه.

9-ولو جعلناه ملكا....ما يلبسون.

ثانيا : أن إدراك البشر الحسي لا يتم إلا إذا كان المشاهد قد توفرت فيه قوانين الرؤية من الجسمية، وانعكاس الشعاع، وسلامة الحاسة الخ، فالبشر لا يقدرون على إدراك صورة الملائكة، ولذا فإن ما طلبوه من رؤية ملك مصاحب للرسول لا يمكن إلا إذا تشكل الملك في صورة رجل، ولو كان على شكل رجل لحصل الالتباس عليهم كما حصل في الأول فيشكون في صدقه، ومعنى هذا أن مجيء الملك لا يفضي إلى إقناعهم، وأن ما طلبوه لم يقصد به الرغبة في الاهتداء، وإنما للشغب والاستهزاء.

10- ولقد استهزئ برسل من قبلك....يستهزئون.

ولذا رتب القرآن على ما طلبوه، أنه من نوع ما اقترحه الرافضون للتأمل فيما أنزله الله على رسله من الآيات، فتحولوا عن إعمال النظر إلى المواجهة الوقحة بالسخرية من رسل الله وبما جاؤوا به من الهدى، وأن الله أحاط بعذابه المستهزئين. وفي هذا تهديد للمتعنتين المستهزئين بما أكرم الله به رسوله من الحق، وأن مآلهم

هو مآل أمثالهم في الأمم السابقة، من المَحق والعذاب الذي يحيط بهم من كل جانب فلا يجدون منه مخرجا.

11-قل سيروا في الأرض...المكذبين.

وبعد أن كشف القرآن عن خفايا مقاصدهم، ورد عليهم أكمل رد وأوضحه، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم: هذه أرض الله أمامكم وكتابها مفتوح ناطق بعاقبة الذين رفضوا هداية المرسلين، فآثارهم في الجزيرة العربية شاهدة على مآل الكافرين المفسدين المتكبرين المستهزئين بالحق. ذهبوا فخربت ديارهم وتشتت شملهم ومزقوا كل ممزق بسبب تكذيبهم.

قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ
يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ (١٢) ۞ وَلَهُۥ مَا
سَكَنَ فِي ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ (١٣) قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا فَاطِرِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَهُوَ يُطۡعِمُ وَلَا يُطۡعَمُۗ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَسۡلَمَۖ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ (١٤) قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ
(١٥) مَّن يُصۡرَفۡ عَنۡهُ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمَهُۥۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡمُبِينُ (١٦)

بيان معاني الألفاظ :

كتب : أنفذ رحمته فعمت جميع الكائنات.

خسروا أنفسهم :عطلوا قواهم العقلية فلم ينتفعوا بها.

الولي : الناصر المدبر.

الفاطر : المبدع الخالق.

صرفه عنه : أبعده.

بيان المعنى الإجمالي :

تضمنت هذه الآيات توجيه الرسول ﷺ في محاجة المشركين، فتأيد ﷺ بأمر الله له بأن يصرح بأن ما يخاطبهم به هو من عند رب العزة.

فأولا : اسألهم من المالك لجميع ما في السماوات والأرض ؟ وليس لهذا السؤال إلا جواب واحد.

وثانيا قل لهم :هو الله، فلذا باغتهم به. إنه الله الذي عمت رحمته الخلائق كلهم، لا شك أنه سوف يجمعكم إلى يوم القيامة. والذين عطلوا عقولهم فقد خسروا نتائج إعمالهم لمواهبهم، فلا يمكن أن يحصل منهم الإيمان. إنه الله الذي يملك جميع الكائنات سواء أدخلت في الليل أو في النهار، لا تفلت من رقابته، إنه هو السميع لكل حركة، العليم بالسر والعلانية.

وثالثا: أعلمهم بأنك قد استقر إيمانك بأنه لا ناصر ولا معين إلا رب العزة، هو الذي أنشأ السموات والأرض، هو الرازق فلا خير إلا منه، وهو الغني الغنى المطلق لا تلحقه الحاجة .

ورابعا: قل لهم إني أمرت أن أكون أول المسلمين، فقد تمكن الإسلام في قلبي تمكنا بلغ التمام والكمال الذي لا مرقى فوقه. ونهيت أن تكون لي أي صلة بالمشركين لا في عقيدتهم ولا في الائتلاف معهم في شؤون الحياة.

وخامسا :عرفهم قائلا: إني أخاف عاقبة أمري إن عصيت ربي من عذاب يوم عظيم يفوق عذابه كل وصف، من يصرف عنه ذلك العذاب فقد دخل في رحمة الله، لا تسألوا عن الجزاء فهو الفوز العظيم الذي ليس فوقه فوز.

بيان المعنى العام :

12-قل لمن ما في السماوات والأرض...فهم لا يؤمنون.

تكرر في هذه الآيات الأمر ب (قل) خمس مرات، مما يوحي بأن الله يلقن نبيه حجته التي لا مرد لها، ويشجعه على مواجهة الكافرين بالحقائق التي بني عليه أمر هذا الدين.

أولا: أمر لرسوله أن يواجه المشركين بالسؤال المبكت، الملجئ لهم إلجاء يفرض عليهم الإقرار بالحق. هذا السؤال: من يملك ما في السماوات وما في الأرض ؟ من يملك مخزونات الكون كله؟ إن الذين اتخذوهم شركاء لله لا يستطيعون أن يدعوا بأن لهم أي شيء من التصرف في الأكوان الأرضية والسماوية.

ثانيا: أمره بأن يعاجلهم بالجواب وأن يسرع بدمغهم بالحقيقة التي كل ما عداها باطل لا أساس له. فكان نسج الآية مقررا لنفي الشرك وإثبات تفرد الله بالألوهية والتصرف، وَرَدَ على طريقة السؤال، وعدم انتظار الجواب منهم إذ ليس لهم في هذا المقام جواب. وأدمج في الجواب حقيقة تفتح باب الأمل وتنادي في ضمائر البشر جميعهم بالقرب من الخالق الكريم سبحانه.هذه الحقيقة تثبت أن الله سبحانه قد تعلقت إرادته بأن يتصرف برحمته تصرفا عاما ينال منه الكافر والمؤمن على

درجات مختلفة، فالرزق عام لجميع البشر، والعافية الظاهرية والعلاقات الأسرية كذلك، وعدم معاجلته الكافرين والعاصسين بالعقاب، وغير ذلك مما رحم الله به البشر جميعهم من محققات عموم رحمته، وقد خص المؤمنين بأنواع من الرحمة منها الهداية والرضوان، ومنها الطمأنينة القلبية، ومنها ما أعده من نعيم في الآخرة وغير ذلك مما لا يدخل تحت حصر.

ولما ثبت أن الله هو المتفرد بما يجري في السماوات والأرض، وأنه رحيم بخلقه فإن من مستتبعات الملك والتصرف، وعدم المعاجلة بالانتقام، أنه سيحاسب البشر على تصرفاتهم في ملكه الشامل، إذ هو المالك لقواهم الذاتية ولما يسره لهم في الأكوان. إنه سيجمعهم دون أن ينفلت واحد منهم، يوم القيامة، ليجزي كل فرد بما قدم من خير أو شر. إن كل واحد منكم صائر إلى هذا اليوم، ولا شك أنه سيجمع فيه كل جزء من أجزائكم أينما كانت ومهما تباعدت.

وفي هذا اليوم يفترق البشر فرقتان : ناج برحمة الله التي ابتدأت في الدنيا بالهداية إلى الحق والاستقامة على الطريق الذي يرضيه، وهالك خسر ما الشأن أن تمكنه منه مواهبه. ذلك أن الله مكن الإنسان من العقل والنظر ليدرك الحقيقة، ويدرك ما يترتب على أعماله من سعادة أو شقاء، إن هذه المنحة الإلهية هي أفضل ما أوتيه الإنسان، هي رأس ماله الحقيقي في الدنيا والآخرة. إنه إذا عطل فكره، واتبع شهواته وضلالاته، وكذب ما جاء به الرسول، يكون قد خسر أخص ما يتميز به وما يضمن له وضوح الاتجاه الذي يحميه من الضياع. وإذا ذهب من الإنسان ذلك يُحْجَبُ عن إدراك الحق ولا تنفتح له أبواب الإيمان. (**الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون**).

13-وله ما سكن في الليل والنهار...السميع العليم.

ثم صرح القرآن بما تضمنه قوله :(**قل لمن ما في السماوات والأرض قل لله،**) فحقق أنه مالك لكل ما له وجود في أي زمن كان. فالكون بين ظلام ونهار، فما يحويه الزمان ملك لله، يستوي في ذلك الأجسام والأعراض، ينشئها بحكمته، ويفنيها بإرادته. ولا يخفى عليه شيء من أمرها في حال وجودها ولا في حال عدمها، فيسمع كل حركة فيها ومنها، ويعلم تقلباتها الجارية عليها وما يصدر منها. فهو السميع العليم. وفي ذلك تهديد للكافرين الذي يبيتون الكيد للإسلام، وفيه بشارة للمؤمنين أن الله لا يضيع شيئا مما قدموه قولا أو فعلا.

14-قل أغير الله أتخذ وليا فاطر...المشركين.

ثالثا: أمر رسوله أن يعلن بالقول البين الواضح نتيجة لما سبق، أنه لا يتصور أن يربط نفسه بالتبعية والإذعان لأحد إلا لله. ويبدع القرآن بإجراء الصفات على الذات الإلهية، فهو الذي أنشأ وأبدع السماوات والأرض، وهل أنا إلا جزء من هذا العالم الذي أنشأه وأبدعه، وهو الذي يجري الأرزاق التي بها بقاء البشر والحيوان ومنها الأطعمة **(يطعم)** وهو الغني عن كل أحد غيره، فلا يحتاج لمن يرزقه.

رابعا: أمر رسوله أن يقول للمشركين قولا يبعث اليأس في قلوبهم من رجوعه عن مواصلة الدعوة للإسلام، بالتأكيد على أنه أول مسلم، وشأن الأولية هذه أن تجعل الإسلام متمكنا في نفسه لا رجعة عنه. وفي هذا إيماء بأن المسلمين كما يأخذون عنه الدين من الوحي فكذلك يتبعون هداه العملي، لأن المسلمين يتبعونه وهو أولهم وإمامهم. وصرح بمقابل الثبات على الإسلام المبني على التوحيد، مؤكدا بالنهي عن ضده وهو الشرك فلا نسب بينه وبين المشركين في العقيدة، ولا في الموالاة.

15-16: قل إني أخاف إن عصيت ربي...الفوز المبين.

خامسا: هذه هو البيان الفاصل بينه ﷺ وبين المشركين، فقد رد عليهم بما يقتضيه العقل في قوله :**(قل أغير الله أتخذ وليا...)** ثم رد عليهم بما تقتضيه الاستجابة للأمر الجازم في قوله :**(قل إني أمرت أن أكون..)** ثم أعقب ذلك بالعامل المستقر في ضميره استقرارا جعله ملازما له ﷺ، يؤثر في مشاعره ويهديه، وهو قوله: **(قل إني أخاف..)** فالرسول ﷺ مأذون بأن يصرح بما استقر في مشاعره الشريفة من خوف عذاب يوم عظيم. واصفا اليوم الذي تجمع فيه الخلائق بأنه يوم عظيمٌ ما يقع فيه ، عظمة تفوق الوصف. هذا اليوم الذي يكون البشر فيه فريقين لا ثالث لهما: فريق أكرمه الله فصرف عنه عذاب ذلك اليوم، فحلت عليه الرحمة، يعلن فوزه ونجاحه العظيم في الامتحان الذي تم اختباره فيه كامل أيام حياته. وفي المقابل فريق يسلط عليه عذاب ذلك اليوم فيكون قد خسر الخسران الذي ليس بعده أمل، ذهب ما قدمه من عمل هباء منثورا. نسأل الله أن يفوزنا بفضله ويدخلنا في رحمته.

وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ

لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

المس: وضع اليد على شيء، والمعنى إيصال شيء مؤثر.

الضر : ما يؤلم الإنسان.

القاهر : الغالب، المطوع كل شيء لإرادته.

العباد :جمع عبد والمراد بذلك البشر.

الخبير: العليم.

أكبر : أقوى، وأبلغ عدلا.

ومن بلغ: وكل فرد بلغه القرآن.

بيان المعنى الإجمالي :

تبين هذه الآيات الحقائق الضرورية التالية: كل ما يصيبك من ألسم وضر وحرمان لا تستطيع أية قوة أن تحميك منه ولا أن ترفعه عنك، والله وحده هو الذي يكشف ضرك. وكذلك إذا أراد ربك أن يفيض عليك من خيره وصلك فضله، لأنه القادر على كل شيء. إن الله هو المتحكم في حياة البشر فلا يخرج عن سلطانه أي فرد منهم، تنفذ فيهم إرادته تبعا لحكمته وعلمه.

قل لهم: أي شهادة أكمل وأتم، ما هذه الشهادة التي لا تحتمل الخطأ؟ تَولّ قطع طريق الإجابة عنهم وقل لهم : هي شهادة الله بيني وبينكم. هو يشهد بصدقي، وأنه أوحى إلي هذا القرآن الحاضر أمام أعينكم بإعجازه، الذي ينذركم سوء المصير إذا أنتم لم تقلعوا عن الكفر. ويتجاوزكم هذا القرآن لكل من بلغه من البشر بنفس الإنذار. ثم يسألهم سؤال إنكار لما اعتقدوه، أتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ؟ ولا ينتظر منهم الجواب لينفي نفيا قاطعا ما استقر في نفوسهم من الشرك، فالله لا يمكن إلا أن يكون إلا واحدا متفردا بالألوهية. ثم يأمره بأن يصارحهم بأنه لا صلة بينه وبينهم وأنه رافض لهذا الباطل من الشرك بريء منه.

ودليل آخر: هو أن أهل الجاهلية كانوا يثقون بما عند أهل الكتاب من الأنباء، والمنصفون من أهل الكتاب يعلمون أن القرآن كتاب الله معرفة واضحة كأشد ما يكون من الوضوح، كما يعرفون أبناءهم ولا يشكون فيهم. ولكن المشركين عطلوا

قواهم العقلية فخسروا الفائـدة المرتجـاة منهـا، ولـذا فهـم لا يؤمنـون تبعـا لتعطـيلهم قدراتهم الفكرية.

بيان المعنى العام :

17-وإن يمسسك الله بضر...على كل شيء قدير.

هذه الآيات تؤكد ما تقرر من تفـرد الله سـبحانه بالألوهيـة والتصـرف المطلـق. وقـد تميزت بالسمة التي وردت عليهـا الآيـات السـابقة، مـن عنايـة الله برسـوله وتأييـده، وتشجيعه لإعلان ما يرد عليه، وذلك بتكرار كلمة (قل) أربع مرات.

تثبت الآية الأولى أن التصرف لله وحـده، فيخاطـب الله رسـوله ومـن ورائـه البشـرية جميعا، أن ما يصاب به الإنسان مما يؤلمه مـن أنـواع الشـرور، فيؤذيـه لـن تسـتطيع أية قوة حمايته من الضـر، ولا تسـتطيع أيضـا أن ترفعـه عنـه بعـد وقوعـه، وإنمـا الكاشف لذلك هو الذي بيده الأمر الذي تتحقـق إرادتـه بـإنزال الضـر أو رفعـه. وفـي ذلك رد لما يعتقده المشركون أن آلهـتهم تحمـيهم. وفـي المقابـل فـإن مـا يصـل إلـى الإنسان من خير مادي أو نفسي أو روحي هـو مـن الله وحـده. ودليلـه أن قـدرة الله لا تحد فإيجاد الخيرات كلها مرتبط بتعلق القدرة بإنجاز ما أراده.

18-وهو القاهر فوق عباده...الخبير.

ظاهرتان تبرزان أن الإنسان واقع تحـت سـلطان الله الـذي لا يغلـب: النـوم والمـوت. وما سواهما لا يختلف عنهما وإن غابت نصـاعة الحقيقـة عـن الإنسـان. أثبتـت الآيـة أن كل إنسان في هذا الكون تحكمه حكما لا مثنوية فيـه قـدرة الله التـي تخضـعه وتنفـذ فيه أحب أم كره. وعجزه عن رد المقدور، يفسـره أن كـل حـدث يحـدث هـو مـرتبط بأسباب ونظام صادر عـن الحكمـة البالغـة لله العلـيم بكـل دقيـق وجليـل فـي حيـاة الإنسان.

19-قل أي شيء أكبر شهادة...مما تشركون.

ثم ثبت القرآن الحقائق التي أقامهـا واسـتدل عليهـا بنـوع آخـر مـن التثبيـت. فـأمر رسوله أن يواجههم صراحة بهذا الكـلام، فيسـألهم: أي شـيء أعظـم شـهادة وأصـدق وأقوى تثبيتـا؟ ويعـاجلهم بـالجواب، لأنـه لا جـواب غيـره حسـبما يقتضـيه العقـل والإيمان. إن شهادة الله بصدق نبوتي بما تطمـئن إليـه النفـوس وينغـرس فـي العقـول. أي إني أشهد الله الذي تعلو شهادته علـى جميـع الشـهادات، أنـي قمـت بـإبلاغكم مـا أمرني به، وأني صادق فيما أنذرتكم به. وأنه سـبحانه أوحـى إلـي هـذا القـرآن المتلـو عليكم الذي نفذ إلى مسامعكم، المنـذر لكـم سـوء العاقبـة والعـذاب المقـيم إن تمـاديتم

على المكابرة والرفض له. وإن نذارة القرآن لا تقتصر عليكم فإني رسول الله إلى البشر جميعا، فكل من بلغه هو مقصود بالخطاب منذر به.

ثم واصل تبكيتهم والإنكار عليهم بإلقاء السؤال التالي: هل أنتم تشهدون وتقرون أن مع الله شركاء آلهة أخرى تتعدد بها الآلهة ؟ ويعاجلهم بالجواب مبرزا تبرؤه من هذا الاعتقاد الشنيع، مأذونا له بالتصريح قل لهم ما مفاده: دعني من شهادتكم التي أتبرأ منها، وأعلن الحقيقة التي أواصل تركيزها في العقول والضمائر: إنه لا يوجد ولا يعقل إلا أن يكون الإله إلا واحدا، وإنني بريء من هذه اللوثة القذرة التي التصقت بعقولكم وكانت عليها عقيدتكم، من إشراككم بالله، ومن الأصنام التي تشركونها في ألوهيته.

20-الذين آتيناهم الكتاب...فهم لا يؤمنون.

الذين آتيناهم الكتاب وكما أشهد اللهُ القرآن، على صدق الرسول، أتبعه بشهادة المنصفين من أهل الكتاب. وقد كان أهل الكتاب من اليهود والنصارى محل ثقة من العرب في معرفتهم بما يجهلونه هم من أخبار الدين. فأثبت القرآن أن الدارسين للكتب السماوية يعرفون صدق القرآن كما يعرف الآباء أبناءهم، معرفة لا يدخلها شك ولا ارتياب.

إنه بعد الدلائل والحجج والشهادات الصادقة، انكشف عنادهم على أبشع صورة، ولم يبق للمشركين ما يتعللون به لرفض التوحيد وتصديق الرسول، إنهم حجبوا عقولهم عن النظر، وعطلوا قواهم العقلية فخسروها إذ لم يفيدوا منها ما تجليه من الحق، وبذلك حرموا من الإيمان في الحاضر والمستقبل.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢١﴾
وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾
ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ
أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

افترى : كذب متعمدا للكذب.

تزعمون : الزعم :ميل ظن السامع إلى تكذيب القائل.

الفتنة : تطلق بمعنى الإعجاب ، وبمعنى الاختبار.

ضل: غاب.

يفترون: يختلقون.

بيان المعنى الإجمالي:

إن أشد الناس ظلما من كذب على الله فادعى أن له شـريكا، وكـذلك مـن كـذب بالأدلـة التي أيد بها رسله. وقد حكم الله على الفـريقين بخسـران الـدنيا والآخـرة. ثـم فصـل القرآن بعض ما سيلقونه يوم القيامة عندما يحشـر المشـركين مـع آلهـتهم، ثـم يبكـتهم موبخا سائلا: أين شركاؤكم الذين تزعمـون أنهـم ينصـرونكم؟ يتحيـرون فـلا يجـدون جوابا إلا ما يضاعف حيرتهم فيلتجئون إلى ما كانوا عليه فـي الـدنيا مـن القسـم الفـاجر **(والله ربنا)** والكذب المفضـوح **(مـا كنـا مشـركين)** ويفضـحون فـي الجمـع الحاشـد فيؤمر المحشورون بالنظر إليهم نظـرة اسـتنقاص وسـخرية، لكـذبهم، ولفقـدهم سـندهم الذي كانوا يعولون عليه.

بيان المعنى العام:

21-ومن أظلم ممن افترى...لا يفلح الظالمون.

إن أبلغ الناس ظلما من تعمد الكـذب علـى الله، بادعـاء شـريك لـه، أو وصـفه بمـا لا يليق به، وهذا ما كان عليه أمر الجاهلية قبـل البعثـة. ومثلـه فـي الظلـم الشـديد مـن كذب بآيات الله الدالة علـى صـدق رسـوله ﷺ. وقـد حـق علـيهم بسـبب ذلـك أنهـم خاسرون لا يفلحون لا في حياتهم الدنيا ولا في الآخرة.

22-ويوم نحشرهم جميعا...كنتم تزعمون.

ثم يستحضر القرآن في مداركهم هول ما سـيلقونه يـوم الحشـر مُبْهَمًـا لتـذهب الـنفس فيه كل مذهب من الفظاعة والسوء. يوم يحشـرهم جميعـا، ولا ينفلـت أي واحـد لا مـن العابدين ولا من المعبودين.

23- ثم لم تكن فتنتهم....ما كنا مشركين.

وبعـد أن يحشـرهم ويتـركهم زمنـا منتظـرين سـوء جـزائهم لتحـل علـيهم المذلـة والصغار، بعد تلك المدة التي تطول على المجـرمين فتزيـد فـي عـذابهم، يتوجـه إلـيهم السؤال الموبخ عن زعمهم أن معبـوداتهم تشـفع لهـم، المعبـودات التـي هـي حاضـرة معهم مهينة لا تدفع عن نفسها فضـلا أن تـدفع عـن عابـديها.يختيـرون بهـذا السـؤال المحير الملقي بهم في الاضـطراب، وتتحـدد حيـرتهم بهـذا السـؤال التـوبيخي، فتلقـي بهم في فتنة أخرى، فيقولون: **(والله ربنـا مـا كنـا مشـركين)** فتكـون الفضـيحة معلنـة شديدة، متمثلة في قسمهم بالله الذي أنكروه في حيـاتهم الـدنيا، ثـم إضـافة اسـم الـرب

اعترافا منهم بما يفيده لفظ الرب من توالي الرعاية والعون، وهم كانوا يطلبون العون من شركائهم، ثم الكذب الصريح: ما كنا مشركين. فتنوا فوقعوا في أخزى صورة وأشنعها أمام الجموع الحاشدة يوم الحشر.

24-انظر كيف كذبوا على أنفسهم...ما كانوا يفترون.

ويصورهم القرآن في أخزى صورة عندما يأمر الجبار كل من يصح منه النظر، أن ينظر إليهم نظرة الاحتقار والسخرية، كاذبين فاجرين ضاع ما كانوا ينتصرون به: كذبوا على أنفسهم، زادهم السؤال حيرة، وحشروا على ما كانوا عليه في الدنيا من الإسراع للكذب والقسم الفاجر والكذب المفضوح. والألسنة والجلود ناطقة بالحقيقة، وغاب عن نصرتهم الأرباب التي كانوا يبتغون عندها النصر في الدنيا.

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوٓا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الأكنة : جمع كنان وهي الغطاء الساتر.

يفقهوه : يفهموه حق الفهم.

الوقر : الصمم الشديد.

الأساطير : جمع أسطورة وهي الخبر عن الماضين.

ينأون: يبتعدون.

يهلكون : يضرون أنفسهم أبلغ الضرر.

بدا: ظهر عيانا بما ينفي كل ريب.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن أن بعض الكافرين كانوا يستمعون إلى القرآن وقلوبهم منصرفة عن التدبر في مضامينه وفهم هدايته، لا يستفيدون حتى من جماله كأنهم أصيبوا بالصمم، معرضين عن كل الأدلة الناطقة بصدقه فلا يؤمنون بها. تلزمهم عوارض العناد حتى إنهم عندما يقدمون عليك يدفعهم حب مجادلتك ومخاصمتك، يخلصون إلى استنتاج واحد: إن ما في القرآن هو قصص الأمم الماضية. ومع ذلك هم ينهون اتباعهم عن استماعه، ويبتعدون عن هدايته، وهم بذلك لا يضرون إلا أنفسهم بخسارتهم للدنيا والآخرة دون أن يتفطنوا لما سيحيق بهم.

ثم صور القرآن مشهدين لهم يوم القيامة. كل واحد منهما معروض على جميع الناظرين :

المشهد الأول وهم على حافة جهنم موقنين بأن مصيرهم إليها متحسرين يقولون: يا ليت لنا أن نعود إلى الدنيا فنترك الكفر ونعتنق الإيمان. ويكذبهم الله فيما صرحوا به، فإنهم لتمكن الفساد منهم، لو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى كفرهم. وهم كاذبون في مقالتهم تلك، وقد كانوا مصممين على أن لا حياة إلا الحياة الدنيا وليس وراءها حياة أخرى ولا بعث.

والمشهد الثاني : مشهد الكافرين واقفين في ذلة موقف العبد الفار بعد القبض عليه، وقوارع التأنيب موجهة إليهم: هل إن ما ترونه اليوم بأعينكم حق؟ ويجيبون في ذلة: ما كنا عليه باطل وربنا إن هذا هو يوم البعث. وينتهي المشهد بتنفيذ الحكم بقوله تعالى: هو ذا العذاب الذي ينفذ فيبلغ أعلى درجات الإحساس، ذوقوا آلامه بسبب كفركم السابق في الحياة الدنيا.

بيان المعنى العام :

25- ومنهم من يستمع إليك...أساطير الأولين.

سجل القرآن موقف بعض المشركين الذين كانوا يتظاهرون بالتعقل، فلم يعرضوا عن القرآن الإعراض التام، بل تظاهروا بالاستماع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يتلو آياته. وقصدهم من هذا الاستماع أن يصرفوا الناس عنه ويرفضوا ما جاء به. فحق عليهم ما اختاروه لأنفسهم، وجعل الله قلوبهم كأنها محجوبة تحت ساتر صفيق فلا يفقهون ما تضمنه من هداية وبيان للحق. وتظاهُرُهم بالسماع مع أن قلوبهم مشغولة منصرفة عنه، منع أسماعهم من أن تنفذ إليها كلمات القرآن كأنها أصيبت بصمم. إنه قد يبلغ اهتمام الإنسان بموضوع حدا يستولي على جميع

مداركه، فيأتيه من يخبره بخبر وينصرف عنه، ثم لو سألته إثر ذلك هل سمعت بما أخبرك به فلان ؟ لكان جوابه أنه ما سمعه ولا شعر به.

وأبصارهم غافلة كذلك عن إدراك الآيات التي تتابع على أبصارهم، فهم لا ينتفعون بأي آية من الآيات مهما كانت شديدة الوضوح في إعلانها عن الحق، فحرموا الإيمان بها. إن إعراضهم الشديد وعزمهم على رفض ما جاءهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان سببا في انحرافهم فقصدوا من المجيء إليك المجادلة لا التدبر وإعمال العقل لفهم الحقيقة. فأعلنوا عن كفرهم وقالوا: إن ما سمعناه من محمد هو من القصص عن الأمم الماضية. مع أن ما جاء في قصص القرآن المقصود منه هو التدبر في أحوال الماضين لينتفع من الاعتبار بها الناظرون، وهي بعيدة كل البعد عن نسج القصص المراد به التلهي.

26-وهم ينهون عنه . . وما يشعرون.

ثم سجل القرآن شناعة أخرى للمعاندين من الكفار: أنهم ينهون الناس عن استماع القرآن، ويغرقون في الابتعاد عما تضمنه من الهدى وفتح العقول وصقل الأرواح. ويعود الهلاك والضر عليهم، فلا يضرونك ولا يستطيعون إيقاف المد الإسلامي، وما ذلك إلا لأن عنادهم ضرب على عقولهم حجابا ففقدوا الشعور بالصالح لهم في حاضرهم ومعادهم.

27-ولو ترى إذ وقفوا على النار...من المؤمنين.

ثم رسم القرآن صورة من هلاكهم تتم يوم القيامة، فقال تعالى:**(ولو ترى..)** والمخاطب بها أولا النبي ﷺثم كل من يصح منه الرؤية، فالمشهد حاضر أمام الأبصار باعتبار أن المخبر به هو الله سبحانه الذي لا يختلف علمه بين الحاضر والمستقبل، ماذا يرى الراؤون؟ يرون جموع الكفار يلهثون في السير حتى بلغوا جهنم ووقفوا على لظاها المستعر، فانطلقت من أفواههم حسرة قسائلين: يا ليتنا نرد إلى الدنيا، ولا نكذب بآيات الله التي بلغها رسل الله ولفتوا إليها أنظارنا فأعرضنا عنها، ونكون بذلك من الذين استقرت عقيدة الإيمان في قلوبهم. وسجل القرآن نفي التكذيب قبل تسجيل الإيمان لأن هول ما شاهدوه كان نتيجة فعلهم الذي هو التكذيب.

28-بل بدا لهم ما كانوا...وإنهم لكاذبون.

ويضرب القرآن عن أمانيهم وحسراتهم، بإبراز أمر كانوا يخفونه في الدنيا من خواطر الإيمان التي كانت تستيقظ بها فطرهم فيصدونها، ويطردونها تكبرا وعنادا.

29-وقالوا إن هي إلا حياتنا...بمبعوثين.

ويعلن القرآن فسادهم الذي تأصل في قلوبهم وانغرس فيها فلا ينخلعون منه ، إنه لو تحققت أمانيهم وردوا إلى الدنيا فإنهم سيعودون إلى الكفر والتكذيب والعناد. ويؤكد القرآن: أنهم كاذبون فيما يقولون. فقد ترسخ في ضمائرهم ما كانوا قالوه في حياتهم الدنيا: لا حياة إلا ما نعيشه على سطح الأرض، ولا بعث ولا نشور.

30-ولو ترى إذ وقفوا على النار....تكفرون.

ومشهد آخر يستحضره القرآن ليعرضه كأنه مرئي، هو مشهد الكافرين وهم واقفون في المحشر أذلاء خاضعين، يقرعهم ربهم كما يقرع السيد عبده وقد قبض عليه بعد إباقه وفراره، يسألهم : أهذا الذي تشهدونه في المحشر حق أم خيال وافتراء ؟ كان جوابهم لا صحة لما كنا ندعيه وأقسموا على ذلك.

يخاطبهم الله إثر ذلك خطاب التنكيل بهم: ذوقوا العذاب الأليم بسبب كفركم في الدنيا.

قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

بيان معانى الألفاظ :

الساعة : ساعة البعث.

بغتة : فجأة، دون توقع.

الحسرة : الندم الشديد.

فرط : أضاع لعدم العناية بحفظه.

الأوزار : جمع وزر وهو الحمل الثقيل.

يزرون : يحملون.

اللعب :عمل ليست له غاية مفيدة إلا تقصير الوقت والتخفيف على العقل من أثر تواصل الجد.

اللهو: ما يقوم به الإنسان مما لا يتعب عقله ويجلب له متعة لما فيه من لذة ملائمة للشهوة.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه صورة من صور البعث للذين رفضوا الدعوة المحمدية وأنكروا يوم القيامة. إنهم يمثلون صورة من الضياع والإفلاس، يأكلهم الندم على ما فرطوا فيه يوم كانوا

في الدنيا، يفاجئهم يوم البعث لأنهم ما كانوا يتصورون حصوله. يسيرون مثقلين بالذنوب التي تضاعف كربهم، فهي أسوأ ما يُتَحَمَّلُ لأنه لا مطمع لهم في إنزالها بل تهوي بهم إلى أشأم مصير. تعلقوا بالحياة الدنيا فقطعوا أعمالهم ونياتهم عن النظر إلى المآل بين يدي رب العباد. فكانت الحياة تسير بهم لا إلى غاية شأن اللاعبين ينتهي اللعب بهم دون أن يحققوا مكسبا. أو تقدم لهم ملاهي تشحن شهواتهم فتهوي بهم في درك الحيوانية.

بيان المعنى العام:

31-قد خسر الذين كذبوا...ما يزرون.

يواصل القرآن عرض ما سيلقاه الكافرون يوم القيامة. وأول ما تعلنه الآية أن الذين كذبوا بالحقيقة التي أنذرهم إياها رسول الله: أن الله سيوقفهم أمام قضائه العاجل، وينفذ فيهم حكمه بدون إمهال، سيدركون ذهاب كل ما قدموه، ويدركون أيضا أنهم عطلوا عقولهم بتصميمهم على الكفر عنادا، فخسروا فعل هذه القوة التي منحهم الله إياها لينقذوا أنفسهم من الهلاك. وإنه بسبب هذه الخسارة التي دمرت عاقبتهم كانوا في هذا الوضع السيء الذي رسم القرآن بعض ملامحه التي منها: أن يوم القيامة يفزعهم أشد الفزع لأنهم بتكذيبه به ينزل عليهم نزول الصاعقة دون أن يكونوا مستعدين لملاقاته، ولا متوقعين له تبعا لتكذيبهم به، وحين يَفْجَأُهم بحقائقه المرعبة، لا يملكون إلا أن يعبروا عن شدة ندمهم لتفريطهم في الاستعداد لهذا اليوم، وهو رفضهم للإيمان، وتركهم لصالح الأعمال. ويظهرون في المشهد يحملون أثقالا من الذنوب تقصم الظهور وتزيد في الكرب. إن ما يحملونه هو أسوأ ما يمكن أن يحمل في ذلك اليوم.

تعلقوا بالحياة الدنيا وهمهم لا يعدو أن يحصلوا على ما تقدمه بطبيعتها، فلا يحصلون منها إلا ما يحصل عليه من صرف وقته للعبث الذي يلتهم وقته ولا يحقق غاية ولا يفوز بنافع. أو تقدم لهم لهوا يستمتعون به متاع الشهوة الزائلة التي تهبط بأصحابها إلى مستوى الحيوانية.

32-وما الحياة الدنيا إلا لعب....أفلا تعقلون.

وفي المقابل ينبه القرآن البشر إلى ما يخرج بهم من الضياع إلى ما يزكي أعمالهم، ويرفع من مستواهم الإنساني فتستمر آثارهم، وذلك ليس إلا بالربط بين الدنيا والآخرة، بتقدير أن أعمالهم ونياتهم يلتحم فيها قصد حسن ثواب الآخرة بالمنافع الدنيوية. وهو معنى التقوى التي تجمع بين حسن استخلاف الإنسان في الكون

وتعمير الأرض، واستحضار الحياة الآخرة في كل عمل وقصد. وهو ما يعطي للمتقين طمأنينة راضية، وتقبلا لأعمالهم التي يجدونها حاضرة عند ربهم يجزون بها بفضله وكرمه. فأعمِلُوا عقولكم لتدركوا ما في التقوى من خير.

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ۞ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٣٦﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

يجحدون : لا يعترفون بما يعلمون ثبوته.

النبأ : الخبر عن أمر عظيم.

كبر: شق.

تبتغي : تطلب.

نفقا : منفذ عميق في الأرض.

بيان المعنى الإجمالي:

يخفف الله على رسوله ويطرد عنه الحزن الذي ألم به تبعا لرفضهم الإيمان، وما ينجر عنه من خسارتهم للدنيا والآخرة. فيبين له حقيقة خفية هي أن عدم إيمانهم لم يكن نتيجة تكذيبهم الصارم له، ولكن كان بعامل المكابرة من تطبيق القيم التي جاء بها من المساواة وكرامة الإنسان والجمود على عبادة الأوثان المقدسة من آبائهم. فرفضهم لاتّباعك من ظلمهم بجحد الحق.

ويضيف إلى هذه الحقيقة الكامنة أن إعلان تكذيبهم الظاهر لك هي سنة جرى عليها أمر المرسلين مع أقوامهم، فقد لاقوا من أممهم التكذيب ومختلف أنواع

الإذاية، فتحلوا بالصبر الإيجابي وواصلوا القيام بمهامهم إلى أن أيدهم الله بنصره. ونصره سبحانه ثابت بكلامه الذي لا يبدل. وقد بلغك في القرآن تفاصيل ذلك.

وإن كان قد شق عليك موقفهم هذا ورفضهم لجميع الآيات البينات، فإنه مما ينبغي أن تعلمه أنهم مصرون على الكفر، فلو ذهبت تبحث في أنفاق الأرض، أو اتخذت سلما لترقى به في السماوات باحثا عما يقنعهم ما قبلوا ما تدعوهم إلي.إنه لو شاء الله أن يخلقهم على غير النحو الذي هم عليه لفعل، ولكن إرادته أن يتركهم لاختياراتهم، يحاسبون عليها. فإياك، يا محمد، أن يكون تعلقك بالنجاح في مهمتك حاملا لك على بلوغها، مما ينسيك الوضع الذي خلق الله عليه الخلق، من مستعد للإيمان ومن معرض عنه. فالمستجيبون هم الذين يتلقفون الهداية فيلقون إليها أسماعهم ويقبلون عليها وقلوبهم متفتحة. والمقفلة قلوبهم هم كالموتى لا يسمعون ولا يعقلون إلى أن يبعثهم الله على ما هم عليه من الإعراض.

ومن عنادهم أنهم طلبوا من رسول الله معجزات محددة كما يريدون، ثم استدلوا بعدم الاستجابة لطلبهم على أن الرسول غير مؤيد من ربه، ورد الله عليهم بأن القدرة الإلهية لا يعجزها شيء، وأن طلبهم هذا قلب للأوضاع بجعل الرسول آلة في أيديهم يقترحون فيجيب. وهم جاهلون بمقام الألوهية التي تَحكم ولا تُحكم.

بيان المعنى العام:

33-قد نعلم إنه ليحزنك....بآيات الله يجحدون.

إنه وضع يضغط على النفس فيجلب لها الحزن والكمد، عندما يعيش النبيل بين قومه، وهو معروف بالصدق والأمانة، وعلو الأخلاق والشهامة، أمدا يتجاوز الصبا والشباب ويبلغ كمال الكهولة، ثم يتنكر له القوم وينكرون حديثه، ويرفضون ما يقول لهم. كان هذا وضع النبي ﷺ وهو في مكة. ومما زاده أسى حرصه ﷺ على إيمان قومه، وعلى النجاح في المهمة الشريفة التي أوكلت إليه من هداية الخلق للإسلام.

إن من عناية الله به أن يخفف عنه همه، فسلاه مفتتحا بأنه يرعاه ويعلم الجو الذي يعيش فيه حق العلم، وما أثر في نفسه الشريفة، ويدمج في هذا التقريب الذي يسكب في نفس النبي ﷺ أسمى ما يبهج الروح، يدمج حقيقة يعلمها سبحانه، هي ما استقر في قلوب المعاندين وأكنوه: يعلم نبيه بأنهم بين أمرين لم يتضح لهم السبيل، فهم من ناحية تبهرهم حجج القرآن، وثقتهم المبنية على التجربة الطويلة لرسول الله وكماله الخلقي، ومن ناحية أخرى وفاؤهم لمفاهيمهم وما تواصل عليه تصوُّرهم

المأخوذ عن أسلافهم ؛ فكانوا بين الرفض الصريح والتساؤل في الباطن. فهم في حقيقة أمرهم لا يقرون بما لا يرفضونه رفضا قاطعا، وإنما يظهرون أنهم يردونه، وهو الجحود للحق الثابت والأدلة البينة القاطعة التي كانت مؤيدة لرسول الله ﷺ. فظلموا أنفسهم وظلموا الحق.

34-ولقد كذبت رسل من قبلك...من نبإ المرسلين.

ويواصل القرآن تسلية رسول الله ﷺ، فيؤكد له أن هذه هي سنة المرسلين مع الأقوام الذين يدعونهم لدين الله. فقد كذبوا رسلهم وتجاوزوا التكذيب إلى الإذاية فأساؤوا إليهم بمختلف أنواع الإساءات.وصبر رسل الله على مقابلة حرصهم على إنقاذهم، بالتكذيب والإذاية صبرا لازمهم إلى أن تحقق نصر الله لهم. ثم أكد القرآن تحقق هذا النصر لرسل الله ولمحمد خاتمهم ؛بان هذه السنة لا يوجد من يستطيع أن يغيرها عن مسارها. فكن واثقا من أن الله سينصر دعوتك ويعلو الإسلام على الشرك. وفيما سبق أن أنزل عليك في القرآن من أخبار الأمم السابقة، وما لاقوه من أممهم، وتدارك الله لهم بالنصر، ما يثبت قلبك ويذهب حزنك.

35- وإن كان كبر عليكم إعراضهم...من الجاهلين.

ثم عرض القرآن ما يفيد اليأس من اهتدائهم، فعرف رسوله أنه إن كان قد شق عليك ثباتهم على الكفر والعناد، فلم يبق بعد ما عرضته عليهم من الآيات إلا أن تنفذ إلى باطن الأرض لتخرج منها دليلا يخضعون إليه، أو تتخذ سلما ترقى به إلى السماء بحثا أيضا عما يقنعهم، فتأتيهم به. ومع ذلك فلا تطمع في إيمانهم، لأن الله طبع على قلوبهم فلا ينفذ إليها أي نور. والله سبحانه لو أراد أن يطبعهم على قبول الحق والاستجابة لمنطق العقل والحجة لفعل. لقد حرمهم الله ذلك فإياك يا محمد أن تكون من الجاهلين لهذه القضية الكبرى التي بني أمر البشر عليها في هذه الدنيا؛ من أن منهم من ينشرح صدره للإسلام، ومنهم من طبع على قلبه فلا ينفذ إليه أي شعاع من أشعة الإيمان.فلا يضق صدرك بإعراضهم.

36-إنما يستجيب الذين...يرجعون.

إنه من سنن الله في الاهتداء، أن بعض من تتوجه إليهم الدعوة يتلقون ما يلقى إليهم من الهدى بآذان واعية، يطرق أسماعهم الوحي فتتلقفه عقولهم وأرواحهم، ويستقر في مداركهم فتنطبع به حياتهم الروحية والعملية. والبعض الآخر أحياء كالأموات، تعطلت مداركهم كتعطل مدارك الأموات، فلا ينفذ إلى أسماعهم كلمات الوحي ولا

تحرك من مداركهم شيئا، وبالتالي هم ماضون على مـا كـانوا عليـه قبـل تلقـي كلمـات الله. ويبقون على هذه الحال إلى أن يبعثهم الله من قبورهم فيجازيهم.

37-وقالوا لولا نزل عليه آية....لا يعلمون.

واصل القرآن إلزام الكافرين وإبـراز عنـادهم والـرد علـيهم، فكـان ممـا قـدموه مـن التشغيب أنهم طلبوا: أن ينزل الله على رسوله آيـة علـى المواصـفات التـي يقترحونهـا وفي قولهم (**من ربه**) إيماء إلى نفسيهم للصـلة الوثيقـة بـين الرسـول والمُرْسِـل، علـى معنى أنه إذا كانت الصلة مؤكدة على حسب ما تقتضـيه كلمـة الـرب، لاسـتجاب ربـه إلى ما اقترحوه. وذلك ليستنبطوا من عـدم إسـعافه بالآيـات التـي طلبوهـا: أنـه لـيس مرسلا منه.

كان الرد مفحما لهم بالشقين اللذين ينحل لهما الجواب:

الشق الأول: أن الله مكن رسوله مـن الآيـات التـي تقـوم دلـيلا علـى صـدقه، والتـي بدلالتها على صدقه، أثرت في الفطر السليمة مـن العنـاد فـآمن عليهـا مـن آمـن مـن الناس. وبهذا يكون اقتراح أدلـة علـى مقيـاس السـائل، إلزامـا وقحـا لله بـأن يؤيـد رسوله على هوى كل مكابر، وهو أمر لا حسد لـه، ولا يليـق بمقـام الألوهيـة الحاكمـة أن تكون محكومة.

الشق الثاني: أن القدرة الإلهيـة لا تحـد، فهـو القـادر علـى كـل شـيء. ولكـن عـدم إجابتهم لما يقترحونه مـن الآيـات لا يثبـت لهـم مـا يريدونـه مـن الفصـل بـين الله ورسوله. فهم يسـتنبطون لجهلهـم التشـكيك فـي قـدرة الله علـى تأييـد رسـوله تبعـا لهواهم.

وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ:

الدابة: كل حيوان يتحرك في الأرض صغيرا كان أو كبيرا.

أتتكم : الإتيان، الحلول.

الساعة: يراد منه ساعة انقراض الدنيا.

تنسون : تتركون.

بيان المعنى الإجمالي :

كل الحيوانات التي عمرت بهـا الأرض علـى ظهرهـا أو فـي باطنهـا أو فـي جوهـا، يحكم كل نوع منها قوانين الخلق والخصائص التـي تـم عليهـا إيجادهـا. كشـأن قـوانين خلق الإنسان بما له من خصائص. وليس للصدفة من محـل فـي ذلـك، بـل هـي توجـد حسب التقدير المحكم فلا يختلط نـوع بنـوع آخـر، وهـي تنتهـي مـن الحيـاة بـنفس الحكمة والتقدير. كل ذلك مسطور في علم الله الذي لا يتبدل.

إن المكذبين بآيات الله قد فقدوا الانتفاع من قوة السـمع فـلا ينفـذ الحـق إلـى بـواطنهم مما يسمعون فهم صم، وفقدوا الانتفاع من النطـق المـرتبط بـالتفكير فهـم بكـم، ولـف عليهم ظلام الكفر والعناد بحجب متراكمة فهم فـي ظلمـات الكفـر المطبـق علـيهم فـلا يبصرون نور الهداية ولا يهتدون. إن الله هـو المنفـذ لمـا قـدره، فمـن حرمـه ألطافـه كان تائها في الضلال، ومن أسعفه بـالتوفيق كـان سـائرا فـي طريـق واضـح مسـتقيم يصل بين أجزاء الكون ومبدعها، وينتهي به إلى بلوغ غايته..

ثم يهدد القرآن الكافرين ويثيـرهم بالسـؤال: مـا تظنـون أن تفعلـوه إذا أخـذت بـوادر الانتقام منكم تتهددكم أو أخذ الكون فـي الانهيـار لتنتهـي الحيـاة ؟ أتـدعون أحـدا مـن آلهتكم؟ أتلجأون إلى أحد غير الله ؟ ويقطـع عـنهم الجـواب فيبـادرهم بالحقيقـة التـي لا حقيقة غيرها ؛ إنكم تدعون الله وحده ليكشف الهـول الـذي تيقنـتم قـرب حلولـه. وهـو سبحانه الفاعل المختار، يكشف ما شاء أن يكشفه من العـذاب، ويحـل بكـم مـا شـاء أن ينفذه. وفي أهوال هذا اليوم ستنسـون مـا كنـتم تتخذونـه شـركاء لله، تعـالى الله عمـا يشركون.

بيان المعنى العام :

38-وما من دابة في الأرض...يحشرون.

توالت الآيات السابقة مؤكدة عقيـدة البعـث، وأن الله أيـد رسـوله بـالمعجزات البينـة، وأن كتاب الكون يؤيد ما جاء بـه. ثـم أتبـع القـرآن ذلـك بهـذه الآيـة (**ومـا مـن دابة...يحشرون)** التي كانت مثيرة لأفهام عديـدة، ومثـار إشـكال نـدعو الله أن يلهمنـا رشدنا ويسعدنا بالفهم الذي يرضيه. فأقول:

تفيد الآية أمرين :

الأول : جميع الحيوانات التي تدب والتي تطير، يجـري علـى كـل نـوع منهـا قـانون يربط بينها تسير عليه. يستوي فـي ذلـك ؛مـا كـان منهـا يـدب فـي الأرض، وهـي الحركة المرتبطة بالحيـاة، إذ كـل حـي مـن المخلوقـات متحـرك حركـة إراديـة، أو حركة فطرية. فإذا مات الكـائن توقفـت مختلـف أنـواع الحركـات؛ ومـا كـان يطيـر بأجنحته في الجو من البازي إلى الفراشة. هذه الحيوانـات التـي يلحظهـا الإنسـان، وقـد لا يتأمل في التقدير المبدع لها، فيلفت القرآن أنظار البشـر إلـى أن كـل نـوع منهـا لـه قانونه الخاص الذي يسير عليه مـن مبـدأ حياتـه إلـى نهايتهـا. فجينـوم الأسُـود غيـر جينوم الفهود وجينوم المعز غير جينوم الضـأن...وتجـري هكـذا تلكـم القـوانين التـي تفوق قدرة الإنسان علـى حصـرها لا يحصـيها إلا خالقهـا. وكمـا أخضـعها لحكمتـه وتدبيره في حياتها، فكذلك نبه إلى أنها ستحشر إليه يوم القيامة.

فالآية تتضمن أمرين هامين:

أولهما :أن كل نوع من أنواع الحيوانات الدابة والطـائرة قـد وضـع لـه قـانون خـاص به، وهذا ما يؤكد من كتاب الكون، قدرة الله وحكمته وتفـرده بالتسـيير لهـا مـن بـدايتها إلى نهايتها. وذلك ما يقوم عليه بناء الإسـلام العقـدي، فتكـون الآيـة مؤيـدا لرسـول الله ﷺ في دعوته. وبهذا ظهر وجه الارتبـاط بـين هـذه الآيـة والآيـات المتواصـلة مـن بداية هذه السورة (**سورة الأنعام**).

ثانيهما : أن هذه الحيوانات بمختلف أنواعها ستحشر إلـى ربهـا. وهـذه القضـية توقـف عندها جميع المفسرين، وإشكالها واضح. ذلك أن الحسـاب بعـد الحشـر هـو للمكلفـين. وهذه الحيوانات لا عقل لها وبالتالي هي غير مكلفة فلا تحاسب على أعمالها.

ذهب بعضهم إلـى أنهـا ستحشـر متأيـدين بقولـه تعـالى: **(وإذا الوحـوش حشـرت)**[1] واختلفوا هل إنها ستحاسب على أعمالها، أو إن حشـرها لإبـراز أن العـدل الإلهـي فـي أكمل صورة، فيكون حشرها مظهـرا مـن مظـاهر القـدرة والعـدل. ويتـأول بعضـهم الحشر على أنه الموت، وأن جميع الحيوانات سينتهي أمـد حياتهـا حسـب تقـدير ربهـا لما خلقها، فليس هو أمرا أخرويا وإنما أمر يجـري عليهـا فـي الـدنيا. وذهـب فريـق آخر إلى أنها ستحاسب على تعديها ثم تنقلب ترابـا يـوم الحشـر. ووجـه بعـض مـنهم ذلك بأنه مظهر لعموم العدالة الإلهية.

والذي ترجح عندي: أن الله سيحاسب المكلفين جميعهم على مـا قـدموه فـي حيـاتهم مـن خير أو شر. وقد جاء تصـوير ذلـك علـى أبـين وجـه فـي قولـه تعـالى: **(ونضـع**

---

[1] سورة التكوير آية 5

الموازين القسط ليوم القيامة وإن كان مثقال حبـة مـن خـردل أتينـا بهـا وكفـى بنـا حاسبين)[1] _ فالحساب للبشر، وإحياء الواقعة كما تمـت فـي الـدنيا مـن قـدرة الله تبكـت المذنبين، فيكون من عذب حيوانا من الحيوانـات محاسـبا علـى ذلـك ويحشـر الحيـوان الذي وقع عليه التعدي ليحضر محاكمة من تعدى عليه وخـالف مـا نهـى الله عنـه مـن تعذيب الحيوان .وأما الجزاء الأخروي فهـو للمكلفـين مـن البشـر فقـط[2]. وفـي ذلـك زيادة تأكيد على البعث بصفة عامة ورد على منكريه، وإبـراز حجـة مـن سـنن الكـون على صدق الرسول وقدرة الله التي لاتحـد وحكمتـه البالغـة.وتخلـل الآيـة التنبيـه إلـى أمر آخر له خطره ومقامه، هو محقق لما بيناه. حاصله أن كـل مـا يحـدث فـي الكـون ليس للصدفة فيه من مكان، فكل صغيرة وكبيرة من نظام الكـون، وكـل مـا يحـدث فـي الوجود مسجل في علم الله **(ما فرطنا في الكتاب من شـيء)** فلـيس المـراد مـن الكتـاب كتاب له دفتان وأوراق، ولكن الكتـاب هـو العلـم الأزلـي الأبـدي الـذي لا يتغيـر ولا يتبدل ولا يضيع منه شيء.

39-والذين كذبوا بآياتنا...مستقيم.

ترتبط الآية بما بعدها بأن من لـم يـؤمن بالآيـات المنبثـة فـي الكـون والمنزلـة علـى رسول الله ﷺ، هم فاقدون لحواسهم المغذية لمداركهم، لأنهـم أصـموا آذانهـم عـن قبـول هداية الرسول ومواعظه، وأغمضوا أبصارهم عـن التأمـل فـي آيـات الله فـي القـرآن وفي الآفاق، والْتفّتْ على قلوبهم حجب متراكمة من ظلام الكفـر فـلا ينفـذ إليهـا شـعاع من أنوار الهداية.

ولا تعجبوا من تعطيلهم لحواسهم ولعقولهم حتى أطبـق علـيهم الكفـر. فـإن الله يحجـب ألطافه عمن يشاء من العبـاد، فيبـدأ المحجـوب طريقـه بالانصـراف عـن آيـات الله، وعدم التأمل فيما يرد عليه من الهدايـة، ثـم يـوالي مسـيره فـي هـذا الطريـق وكلمـا أوغل في طريقه ذلك باختياره وإرادته تتكاثف عليـه ظلمـات الكفـر حتـى ينطبـع بـه. وهو معنى قوله تعالى: **(كلا بل ران على قلـوبهم مـا كـانوا يكسـبون)**[3] ممـا سـنزيده بيانا عند شرح هذه الآية إن شـاء الله. وفـي المقابـل فـإن مـن حفّتـه ألطـاف البـاري سبحانه يسعده بتحبيب الحق لنفسه، فينبعث مـن عقلـه قـوة تـأنس بـالحق ولا تهـدأ إلا إذا لامست اليقين، تنفـذ أبصـارهم وأسـماعهم إلـى مـا وراء الظـواهر الماديـة إلـى الوحدة التي تجمع بينها، فإذا الكـون كلـه يسـير عنـدهم فـي نظـام متناسـق مـرتبط

---

[1] سورة الأنبياء آية47

[2] انظر إن شئت شرح الأبي إكمال الإكمال ج 7ص32/31 وشرح المعلم للما زري ج3 ص 166

[3] سورة المطففين آية14

ببارية، وهو الطريق الذي لا عوج له. فكل الكائنات سلسلة متناغمة لا نشاز فيها ولا تنافر بينها.

40-41: قل أرأيتكم إن أتاكم....وتنسون ما تشركون.

ثم يأمر نبيه بمواجهة الكفار وهزهم هزا إلى ما استحضرته الآية من التهديد بالعذاب أو انتهاء الكون. ما ذا تظنون أن يقع منكم إذا أنزل الله عليكم بواكير عذابه فخفتم الهلاك والعذاب، أو اختل نظام الكون مؤذنا بنهاية الحياة، أتدعون أصنامكم وما كنتم تعبدونه من دون الله وتتوسلون إليه، إن كنتم صادقين في عبادتكم له غير ضالين ؟ أتدعونهم لكشف ما تظنون أن حلوله قريب منكم وهم لا يملكون شيئا من القوة ولا من الفعل ؟ ويعاجلهم بالجواب لأنه لا جواب غيره ليظهر أن ضلالهم لا شبهة فيه، فيكون الجواب: إن ما كنا ندعوه من دون الله باطل ولا ندعو إلا الله فهو الذي يملك كشف ما ينذرنا من العذاب. ويعلن الحقيقة: أن ما يمكن أن يترتب على ذلك هو تحت سلطانه سبحانه وينفذ حسب إرادته، فيكشف ما شاء أن يكشفه، وينفذ ما شاء تنفيذه، وتعريهم الآية من كل سند، فهم في هذا الوضع يذهلون عمن كانوا يستمدون منهم العون ويتقربون إليهم من المعبودات الباطلة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا ۚ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

البأساء: الفقر.

الضراء : شدة الحال على الإنسان، ويقابلها السراء.

يتضرعون: التضرع التذلل والاستكانة.

قست : صلبت ولم تلن لتقبل التذكير.

بأسنا : الشدة في معاملتهم.

مبلسون: آيسون.

قطع دابر : تم استئصالهم.

بيان المعنى الإجمالي :

في هذه الآيات تهديد للمشركين الطاغين بقوتهم، بتذكيرهم بسنة الله مع الطغاة المفسدين. فقد أرسل الله رسله لكثير من الأمم السابقة لهدايتهم، فأعرضوا وكذبوا، فسلط الله عليهم من المصائب في أرزاقهم وأبدانهم ما يوقظهم إلى أنهم تحت حكم الله، وأن عليهم أن يسارعوا إلى التضرع إليه والتقرب منه، ولكن قلوبهم فقدت اللين الذي ينفذ منه التذكير فكانت صلبة قاسية، بسبب إلفها لتأثير الشيطان الذي أقنعهم بسلم القيم المقلوب، حتى قطعهم كليا عن هداية الله. ثم فتحت لهم مختلف مسالك النعيم الدنيوي، فانغمسوا فيها معرضين عن الحق وما تقتضيه الأخلاق، وخيل إليهم أنه لا نعيم فوق ما وصلوا إليه، وعندها بلغوا القمة في الفساد، فأنزل الله عليهم عذابه الماحق دون سابق إنذار واستأصلهم فلم يبق لهم أثر. ولله الحمد رب العالمين المتصرف بحكمته في الكون المنقذ للبشرية بقضائه على الفساد عندما يستشري ويطغى.

بيان المعنى العام :

42-ولقد أرسلنا إلى أمم....يتضرعون.

هذه الآية نوع آخر من تهديد المشركين الرافضين للاستجابة لدعوة النبي ﷺ.وذلك ببيان سنة الله في الذين يكفرون بما جاءهم من الحق.

أكد سبحانه أنه أرسل إلى أمم عديدة، مضت في التاريخ، رسلا مؤيدين بالمعجزات، ليخرجوهم من الكفر إلى الإيمان. فقابلوهم بالتكذيب والرفض لما جاءوهم به من عند الله. فسلط الله عليهم زواجر في أموالهم أذهبت البركة، فتبعها العسر، وأنزل الله عليهم مصائب في أبدانهم وفي مختلف شؤون حياتهم فتبعها الضيق والأسى، فعل بهم ذلك رجاء أن يتأثروا ويقلعوا عن كفرهم عندما ظهر لهم عجزهم عن حماية أنفسهم، قبل أن يستأصلهم العذاب الأكبر، وذلك من رحمة الله بهم.

واستحضر القرآن الحالة كأنها مشاهدة الآن فرتب على ذلك تحريضهم على التضرع إلى الله واللجأ إليه لمّا حلت بهم النقم الأولية من الشدة التي جَسَّمت لهم عيانا قدرة الله التي لا تغلب. وفي ذلك لطيف إشارة إلى مشركي مكة يدعوهم إلى الإيمان.

43-فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا....وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون.

أصابهم ما أصابهم لتلين قلوبهم وينقادوا للحق، ولكن قلوبهم كانت قاسية بتصميمها على الكفر لا ينفذ إليها أي شعاع من أنوار الإيمان، تلكم القسوة التي تسبب في

تمكنها منهم اتّباعهم لما يلقيه، في نفوسهم، الشيطان الذي خلط عليهم القِيَمَ بوسوسته.

44-فلما نسوا ما ذكروا...مبلسون.

تابع الشيطان تضليلهم، وهم قد واصلوا الإصغاء لما يزينه لهم من الإعراض، حتى أقفل على قلوبهم، فقطعت كل صلة لها بهداية الله، وفاتهم التنبه إلى ما ينتظرهم من النقمة الكبرى. واستدرجهم ما فتح عليهم من مختلف ضروب متاع الحياة الدنيا ونعيمها، فأمعنوا في اغترارهم بزخارف الحياة وزينتها. وبلغوا قمة الفساد عندما خيل إليهم أن لا نعيم وراء ما هم فيه، ولا قادر على الحيلولة بينهم وبين ما تمكنوا منه. وعبّوا صنوفا من اللذة لا يحكمها خُلُقٌ ولا قيم. إن وضعهم حسب سنن الكون، هو أنهم أصبحوا مهيئين للزوال، وفعلا أصابهم الله بالنقمة الماحقة التي نزلت عليهم فجأة، فإذا اليأس يحل محل عريض الآمال التي كانت تملي لهم، وتم استئصالهم فلم ينج منهم أحد بسبب ظلمهم للحق وتمردهم على الفضيلة والإيمان.

45-فقطع دابر القوم الذين كفروا...رب العالمين.

انتقمنا من المشركين ،استأصلناهم عن آخرهم، ولم نبق لهم أي أثر. ويعلمنا القرآن في خاتمة الآيات بأن موقف المؤمن من تقلبات أمور الحياة أن عليه أن يتوجه لله بالحمد والثناء على حكمته وكمال فضله في حسن تصرفه.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم
بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ
عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرْسِلُ
ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ
عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ
قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

أخذ الله : عطل الله.

الختم على القلوب :جعل القلوب مقفلة لا ينفذ إليها نور الإيمان.

يأتيكم به: يعيده إليكم
تصريف الآيات : تنوعها.
يصدفون: يعرضون إعراضا شديدا
بغتة : دون توقع لقدومه.
جهرة : يبدو لكم أوائله ثم يتتابع إلى أن ينزل.
يسمهم العذاب: يلتصق بهم التصاقا يجعلهم يحسون بألمه أشد ما يكون الإحساس.
خزائن الله : ما هو في ملك الله من الأرزاق أو العلم.

بيان المعنى الإجمالي :

يهدد القرآن المشركين ملجئا لهم بأن مـا يعبدونـه مـن دون الله لا يسـتطيع أن يحمـيهم لو أراد الله أن يحرمهم من أسماعهم وأبصـارهم، أو أن يجعـل عقـولهم محجوبـة عـن الإدراك. إنه من العجب إعراضهم، رغم أن القرآن ينـوع الأدلـة الحسـية والعقليـة. ثـم ينبههم ليتأملوا في عجزهم، فلـو أراد الله أن ينـزل بهـم عذابـه فـي ضـربة واحـدة أو يتفاقم، فإن عذابه ينزل بهم لا محالة لأنهم ظالمون، ولا أشد ظلما من الشرك.
إن ما اقترحوه من المعجزات غير وارد، لأن مهمـة المرسـلين هـي إبـلاغ البشـر مـا أعد الله للمطيعين من ثواب، وتحذير المخالفين مـن نقمـة الله وعذابـه، وليسـت مهمـتهم عرض المعجزات حسبما يصوره لهم عنادهم. فمن آمن بـالله ومـا أنزلـه علـى رسـوله يطمئن لسعادته في الدنيا والآخرة. ومن كذب يلصـق بـه عـذابا يعـم كـل جـزء مـن أجزاء بدنه، وذلك بسبب الآثام التي ارتكبها.
وقل لهم، معرفا بمهمتك: إني لا أملك مـا اخـتص الله بـه مـن ملـك ولـيس لـي علـم شامل لما هو مخبأ عن البشر (الغيب) ولست مَلَكًـا. مهمتـي مقصـورة علـى اتّبـاع مـا يوحي به الله إلي. فمن تأمل فيما جئت به مـن عقيـدة وشـريعة فقـد فـتح عقلـه، وهـو كمن سلم بصره سلامة ينقل له المرئيات كما هـي، ومـن أعـرض عـن الهدايـة فهـو كالأعمى لا يهتدي إلى الطريق المأمون. ما لكم لا تتفكرون فتدركون الحق؟

بيان المعنى العام :

46-قل أرأيتم إن أخذ الله...ثم هم يصدفون.

هدد القرآن المشركين بسلب الله إياهم نعمه التـي أنعـم بهـا علـيهم وقابلوهـا بكفرانهـا. فقد مكنهم من وسـائل الإدراك للمحسوسـات والمعقـولات: السـمع والبصـر والعقـول، فيسألهم سؤال تبكيت: أي إله يستطيع أن يرد علـيكم واحـدا منهـا لـو أراد الله تعطيلـه ؟ وهم يقرون بأنه لا يوجد واحد من آلهتهم التي يعبدونها يستطيع ذلك.

ثم يبرزهم القرآن في صورة الحيارى التائهين. المطلــوب مــن النــاس أن ينظــروا إلــى تناقضهم وغبائهم، فقد تنوعت الأدلــة، مــن المحســوس فــي خلــق الســماوات والأرض، في مجموعها وفــي جزئياتهــا، ومــن المعقــول بمــا عرضــه مــن الأدلــة والبــراهين الواضحة. فسواء اعتبروا بما تنقلــه إلــيهم الحــواس أو بــالتفكر بواســطة عقــولهم فــي الأدلة، مما ينفي كل شك ويرفع كل شبهة وريب، ومع ذلــك هــم يعرضــون عمــا تفيــده ويصممون على مواصلة الكفر بالله.

47-قل أرأيتكم إن أتاكم....إلا القوم الظالمون.

ثم هددهم بنوع آخر حاصلهُ ؛ أن عذاب الله يســلطه علــى مــن أراد تســليطه، قــد يــأتي ضربة قاصمة في سرعة وقوة ماحقة، وقد يــأتي متطــورا مــن مســتوى إلــى مســتوى أعلى حتى يسحقهم العذاب. ويسألهم عقــب إيقــاظهم لمــا يمكــن أن يســلط علــيهم مــن العذاب سؤال إنكار في قوة النفي، بمعنى لا يهلــك إلا القــوم الظــالمون، والشــرك أشــد أنواع الظلم. إن الشرك لظلم عظيم.

48-وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين...ولاهم يحزنون.

تابع الرد على المشركين، لما تكرر منهم مطالبة الرسول، بأن يؤيد الله الذي بعثه بمعجزات على وفق ما يقترحونه. فقرر القرآن أن سنة الله في بعث الرسل أن يمكنهم من التشريع الهادي للعقيدة البينة، ويقرنون دعوتهم بالبشارة بحسن الحاضر والعاقبة لمن اتبعهم، ويحذر الذين يرفضون اتّباع هداهم بالعذاب وخسارة الدنيا والآخرة. ويحقق القرآن في الواقع ما بشروا به وأنذروا منه. فمن سلمت عقيدته وصلحت أفعاله، تحقق جزاؤه باطمئنانه على وضعه فلا هو يخاف من المستقبل ولا يحزن على ما مضى. وفي المقابل فإن الذين رفضوا دعوة الرسل وكذبوا بما أنزله الله من المعجزات المؤيدة، وبشواهد العقل والدلائل الواضحة، يعذبون بسبب عصيانهم. ومس العذاب معناه أنه ينفذ إلى جميع حواسهم فيبلغ ألمه جميع المواطن. ذلك أنه لكل إدراك من المحسوسات جهاز في البدن يختص به، إلا الإحساس بالمس فإنه منتشر في جميع أجزاء البدن. ويتتابع أمر الله لرسوله بكلمة:[قل] وذلك لإبراز الاهتمام بما يرد بعد الأمر. فما هو الأمر المهم الذي أمر النبي ﷺ أن يقوله ويعلنه؟

50-قل لا أقول لكم عندي خزائن....أفلا تتفكرون.

أمر أن يصرح تصريحا ينفي كل شبهة وكل ادعاء: إن مهامــه التــي أوكلــت إليــه مــن ربه لا تتعدى ما يقترن بتثبيت مضــامين الرســالة، ولــذا فكــل مقترحــات المشــركين لا مدخل لها في المهمة التي أوكلت إليه.

فما اقترحوه من بيت من زخرف أو كتاب في قرطاس، أو الإجابة عن المغيبات، أو أن يكون معه ملك يصحبه ينسجم وإياه انسجاما يجعل صلتهما دائمة لتوافق طبيعتهما، هذه المقترحات وأمثالها من الخوارق لا مدخل لها في مضامين الرسالة.

ولما نفى أن يكون لما اقترحوه أي صلة بتحقق مهمة الرسالة، أتبع ذلك بالتصريح بتحديد مضمون الرسالة التي يحرص عليها ﷺ أتم الحرص، ويتبعها دون أن يفرط في أي جزء منها. فمضمونها أنه ملتزم بما يأتيه من الوحي من الله لا يزيد عليه ولا ينقص منه، ولا يضيف إليه شيئا ولا يخفي منه أي شيء.

ثم أمر النبي ﷺ بـ(قل) ليواجههم محددا وضعهم الذي هم عليه، وذلك في صورة سؤال إنكاري ليكون أبلغ في الإثارة، هل يستوي الأعمى والبصير ؟ والإجابة عنه من الأمور البديهية، إلا أنه يشير إلى أن وضع الكافرين في الحياة كوضع العُمْي السائرين في الطريق، فهم إلى الضلال والضياع، لا ينتفعون بدلائل السُّبُل المنصوبة، ولا يدركون حتى الاتجاه الذي يبلغهم غايتهم. وأن وضع المؤمنين كوضع سالمي البصر ينتفعون بما بلغهم الرسول إياه من هدى الله فهم على الصراط المستقيم المنجي والمبلغ للغاية. ويسألهم سؤال إنكار يلحقه بالسؤال الأول، ما لكم لا تعملون عقولكم حتى تظهر لكم الحقيقة بينة مكشوفة.

وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الغداة : أول النهار.

العشي: من الزوال إلى الصباح.

من الله عليهم :هداهم بالسبق للإيمان.

سوءا: معصية.

بجهالة : بسبب حماقة، وغفلة عما تقتضيه صلته بالله.

التفصيل : التوضيح والتبيين.

بيان المعنى الإجمالي :

خص يا محمد بمزيد من العناية، الذين توثقت صلتهم بالله، فكانوا يخشون اليوم الذي يعرضون فيه على ربهم، إنهم يجتهدون في تطبيق شريعته ابتغاء مرضاته، ليقينهم أنهم ليس لهم نصير ولا شافع في ذلك اليوم إلا الله. فبعنايتك بهم يرجى لهم أن يكونوا من المتقين.

ولا تمنع من مجلسك أولئك المتعلقين بالله، الذين يبتهلون بالدعاء إليه كامل أوقات حياتهم، مخلصين له لا يبغون إلا مرضاته. إنك لا تحمل من حسابهم أي شيء وهم لا يحملون من حسابك شيئا، فكل امرئ يحاسب على ما قدم، ومهمتك أن توالي تذكيرهم، إنهم أهل لأن يعتني بهم فحرمانهم من مجلسك ظلم لهم، وحاشا رسول الله أن يظلم هؤلاء المخلصين، ولكن في هذه الصورة ما يوقظ المؤمنين لتوثيق ارتباطهم بالمستضعفين من المؤمنين والمؤمنات. لقد فتن الكافرون بسببهم، لأنهم ترفعوا عن اتّباع الحق الذي جاء به الإسلام لإسراع المستضعفين في التمسك به. إنهم ينظرون إليهم نظرة احتقار لهم لفقرهم وهوان منزلتهم الاجتماعية. وما سبْقُهم للإسلام إلا جزاء شكرهم لنعمة الله عليهم الذي لا يخفى عليه شكر الشاكرين، فيجزيهم بالهداية والتوفيق.

ثم يتوجه الخطاب القرآني لرسول الله ﷺ ليكرمهم عند قدومهم عليه فيبادرهم بالسلام، ويعلن لهم أن الله قد ألزم نفسه الرحمة الواسعة الشاملة، وأنه قد خصهم بأن من غفل منهم عن الطاعة الواجبة، ثم استيقظ فتاب، وتحول عن عمل السوء إلى عمل الخير، فإن الله يتوب عليه لأنه واسع المغفرة، عظيم الرحمة. إنه على تلك الطريقة الواضحة البينة ننزل عليك آيات الكتاب مفصلة لا لبس فيها، ونمكنك من الاطلاع على خفايا ما تنطوي عليه نفوس المجرمين.

بيان المعنى العام :

51- وأنذر به الذين يخافون...لعلهم يتقون.

تتواصل الأوامر الإلهية للرسول ﷺ تهديه للتي هي أقوم في أداء مهمته الشريفة. فأمر أن يخص بمزيد العناية الذين آمنوا وصحب أرواحهم وعقولهم الخشية من أن يكونوا يوم القيامة معدودين من المقصرين. إن هؤلاء الذين استقر الإيمان في قلوبهم فكانوا دوما على صلة بالله، يحذرون أن يلقوه يوم القيامة دون المستوى الذي هداهم إليه بواسطة رسوله، ولذا تجدهم حريصين أشد الحرص على مجالس النبي ﷺ ليعمقوا إيمانهم ومعرفتهم بأحكام الدين، وليقتبسوا من أنوار النبوة ما يضيء لهم مسارهم في الحياة. وهم على اقتناع كامل بأنهم لا يجدون يوم القيامة من يتولاهم ويدافع عنهم ولا من يشفع في تقصيرهم، وكل اعتمادهم على ربهم وعلى ربهم وحده. إن عنايتك بهم هي السبيل التي يرجى بها أن تحصل التقوى في قلوبهم.

52-ولا تطرد الذين يدعون ربهم....من الظالمين.

يتابع القرآن توجيه الرسول إلى الحرص على هؤلاء، فينهاه أن يعرض عنهم في مجلسه بتخصيص عنايته ببعض المستكبرين من المشركين الذين أبت عليهم كبرياؤهم وعنجهيتهم أن يستووا في مجالس التذكير النبوي مع الفقراء والمستضعفين، وطلبوا من الرسول أن يفصل بينهم، ويبعدهم عنه.فقابل القرآن ازدراء المشركين لهم بالتنويه بهم وإظهار مزاياهم. وأولها صفاء الإيمان الذي جعلهم يدعون ربهم ولا يدعون غيره في جميع حاجاتهم ، هم على هذه الحالة كامل أيام حياتهم في الليل والنهار في الصباح والمساء، هذا الصفاء الذي صاحبه الإخلاص. إن دعاءهم وابتهالاتهم خالصة لوجه الله لا يبغون بها إلا رضاه. فواصل عنايتك بهم، فتلك هي مهمتك الشريفة، ولا تتحمل حسابهم على ما قدموا كما لا يتحملون شيئا من حسابك، فكل فرد من البشر مسؤول عما قدم في حياته .وأن حساب الفرد مرتبط بسلامة عقيدته وصلاح عمله، وأن قيمته عند الله تكون تبعا لذلك على هذا النحو، وعلى المؤمنين أن يلتزموا بهذه القيمة في التعامل، ولا يدخلوا في مقاييسهم الغنى والفقر والمستوى الاجتماعي. ولتأكيد الالتزام بهذا الأدب وجه الخطاب إلى النبي ﷺ بقوله: **(فتطردهم فتكون من الظالمين)** مع أنه لا يتصور من علو أخلاقه ﷺ أن يطردهم، وهم يبغون تنوير بصائرهم مما أنزل

إليه. ففي ذلك أبلغ تأكيد على تنبيه المؤمنين معاملة الناس حسب قيمهم لا حسب ثرائهم.

53-وكذلك فتنا بعضهم ببعض...بأعلم بالشاكرين.

وعلى هذا النحو من التمييز بين المستكبرين الذين يرفضون قبول الهداية لأن المستضعفين الفقراء أكرمهم الله بالسبق للإيمان، وبين هؤلاء الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، كان هؤلاء المستضعفون فتنة للمستكبرين حالت بينهم وبين الدخول في دين الله. ثم كشف القرآن عن هذه الفتنة التي خدعوا أنفسهم بها دون أن يصرحوا بها وقد امتلأوا كبرا وعجبا، كيف يقبل حسب مقاييسهم أن يمن الله على هؤلاء الذين قيمتهم الاجتماعية منحطة لإحاطة الخصاصة بهم، ولا أثر لهم في مسار الحياة، كيف يمن الله عليهم بالسبق للإيمان؟ ويرد عليهم القرآن أبلغ رد بقوله: أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟ إنما مَنَّ الله به عليهم من الهداية، هو من آثار علمه الذي يصل إلى بواطن الأمور وصوله إلى الظواهر، فهو سبحانه يعلم الشاكرين لفضله المتعلقين به الراغبين في رضاه فيجازيهم بتأييده لهم بألطافه، وبذلك سبقوا إلى الإيمان.

54-وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا....فإنه غفور رحيم.

ووالى القرآن عنايته بالمؤمنين الصالحين الداعين ربهم بالغداة والعشي، فطلب من نبيه أن يكرمهم إذا قدموا عليه إبرازا لفضلهم، وذلك بابتدائهم بالسلام إخبارا لهم بأن الله كتب لهم الأمن وهم مع رسوله آمنون. ثم تأكيد نوالهم لفضل الله: بأنه سبحانه أثبت لنفسه الرحمة، وما أثبته لا يقبل الزوال ولا الضعف. فرحمته عامة شاملة لمن أراد أن يدخله فيها. ومن تفاصيل هذه الرّحمة أن مَنْ زلَّ من المؤمنين، فوقع في الخطيئة وارتكب الإثم، ثم تيقظ بعد ذلك، وأصلح حاله بالتوبة والإقلاع عن الذنب، والندم على ما فرط، فإن الله يتوب عليه ويمحو ذنبه، وذلك لأنه سبحانه متصف ببالغ المغفرة وعظيم الرحمة .

55-وكذلك نفصل الآيات..سبيل المجرمين.

إنه على هذا النحو من التوضيح والتبيين يكرمك ربك بالبيان القرآني الواضح، فيفصل آياته تفصيلا لا يبقي فيها لبسا فيحصل لك الوضوح الكامل الذي تتبين به آياته، ويعرفك بالطريق الخبيثة التي يسير فيها المجرمون. فتنكشف لك دخائل نفوسهم، وما يبيتونه من مكر، وما امتلأت به صدورهم من حسد وكبر.

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ ۙ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الأهواء :جمع هوى، وهو ميل النفس تبعا لعاطفة لا لنظر عقلي.

البينة : الحجة المثبتة للحق بوضوح تام.

تستعجلون به : طلب تعجيل العذاب الذي أنذرهم به.

قضي الأمر: انتهى النزاع والخلاف.

بيان المعنى الإجمالي :

أدخل اليأس في قلوب المشركين من أن يستطيعوا صدك عن الدعوة، بإعلان أنك مطيع لربك الذي نهاك عن الشرك وعبادة غيره، فإن معبوداتكم لا تقوم عليها حجة ولا دليل، وإنما سندها الهوى المضلل، وأنا لست ضالا ولو اتبعتكم لفارقت الجماعة المهتدية، صارحْهم بأنك موقن اليقين الكامل من أنك سائر على منهج واضح بين، لا غموض فيه ولا ريب. هداني إليه ربي الذي يرعاني. ولما كذبتم بذلك فالقطيعة بيني وبينكم. إن ما تطلبون تعجيله من العذاب الذي أنذرتكم به ليس داخلا تحت قدرتي. إن ذلك من قضاء الله وحده، الله الذي لا يخبر إلا بالصدق ولا يقضي إلا بالحق، ولا أبلغ عدلا ولا أصدق حديثا من عدل الله وخبره. وما لكم لا تفهمون؟ إنه لو كان إنزال العذاب بيدي لتم الفصل بيني وبينكم، ولكنه من خصائص القدرة الإلهية. إن تأخيره ليس نتيجة غفلة عن ظلمكم، فالله لا يغيب عنه ظلم الظّالمين، وسينزل عليكم عذابه فلا مفر لكم من ذلك.

بيان المعنى العام:

56-قل إني نهيت أن أعبد....من المهتدين.

تفيد هذه الآية نوعا آخر من نقض الشرك، فبعد دحض الشرك بالأدلة العقلية، وبالنظر في كتاب الكون، ينقض الشرك بأن الله مالك الكون كله نهى عن عبادة هذه الأصنام التي عبدت بغير حق. ويخاطبهم بقوله: إن عبادتكم لا سند لها إلا الهوى

ولم تقم على عقل ولا على منطق. وإن اتبعت أهواءكم أكون قد ضللت وفارقت المهتدين الذين أنا معهم على الصراط المستقيم. فلا مطمع لكم في الانحياز إلى ما تعبدون.

57-قل إني على بينة من ربي....خير الفاصلين.

بعد أن اجتهد المشركون في صده عن مواصلة الدعوة للإسلام بمختلف أنواع الإذاية القولية والنفسية والفعلية، رجاء أن يعود إلى دينهم، واجههم بما يقطع أطماعهم ويدخل اليأس الذي لا رجاء بعده في نفوسهم بتصريحه: إنه يسير في عقيدته وفكره على أدلة بينة واضحة، وصادقة لا شك فيها، وصلتني من ربي الذي أنا محل عنايته. هذا الذي جاءني من الحق من ربي قد كذبتم به، فالقطيعة بيننا ولا شيء يجمعنا. ويسرع بإجابتهم عما يوردونه من طلبهم تعجيل ما أنذرهم به من العذاب، بإيقاظهم إلى الحقيقة التي جلاها بما أوحي إليه وبما يقتضيه العقل : إن التصرف هو لله لا لي، ينزل عذابه في اللحظة التي تقتضيها حكمته.

والحكم لله لا يؤثر فيه استعجال المستعجلين ولا استبطاء المستبطئين. وهذه هي السنة التي يجري عليها قضاء الله وخبره. فالله لا يخبر إلا بالحق ولا يقضي إلا بالحق، وينفذه في الوقت الذي قدره وعلى الطريقة النابعة من حكمته البالغة.

58-قل لو أن عندي ما تستعجلون به...أعلم بالظالمين.

ويلقن رسوله آمرا له أن يقول لهم: إنه لو كان تعجيل العذاب الذي أنذرتكم به، والذي تطلبون أن يحل بكم، لو كان هذا العذاب بيدي لأنزلته عليكم وقضي الأمر وانتهى، فما لكم لا تفهمون؟ ولكن الماسك بالأمور العليم بها الذي يُصَرِّفها حسب إرادته، هو الذي لا يخفى عليه ظلم الظالمين، فإذا أخر عذابهم فليس ذلك لغفلته، بل هو تابع لتقديره وحكمته.

۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن
وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ
﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ
أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ
عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا

يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ
مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ
لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾
قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ
يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ
يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾

بيان معانى الألفاظ:

مفاتيح : جمع مفتح، وهو المفتاح، ومفتح أفصح من مفتاح.

الغيب: ما لا سبيل إلى علمه.

كتاب مبين : موثق بوضوح.

التوفي :التوفي الأصل فيه الإماتة، وفي الآية الحالة التي يكون عليها الإنسان عند النوم، لا يدرك ما حوله.

جرحتم : كسبتم.

توفته رسلنا: قبضت روحه الملائكة الموكلون بذلك.

لا يفرطون : لا يقصرون.

التضرع : التذلل.

خفية : سرا بدون رفع صوت.

الشاكر : هو من يرعى نعمة المنعم معبرا بالمقال والحال عن ذلك الاعتراف.

يلبسكم شيعا : يخلط عليكم أموركم، فلا ينتظم لكم رأي بل تكونون أحزابا مختلفين.

تصريف الآيات : تنويعها.

بيان المعنى الإجمالي :

الغيب وهو ما لا طمع للإنسان في معرفته لخروجه عن دائرة الانكشاف بوسائل المعرفة التي مكن منها الإنسان. هذا الغيب تفرد الله بعلمه ولا يشاركه في ذلك أحد، وكأنه باب مقفل مفاتيحه بيد ه سبحانه. فعلم الله لا تفوته الدقائق الخفية في باطن الأرض أو على ظهرها، وكذلك ما برز فوق سطح أمواج البحار وما

احتضنته من كائنات في قعرها القريب والبعيد. وكل تحول، ولو يبدو حسب النظرة الأولى تافها، لا يغيب عن علمه، حتى إن أي ورقة تسقط، وأي حبة مخزونة داخل طبقات الأرض، وأي رطب أو يابس، وصلب أو رخو، الكل موثق في علم الله توثيقا لا يفلت منه شيء.

البشر كلهم تحت تصرفه. تنبه أيها الإنسان في تصرف الله فيك، فهو يسلبك كل يوم روحك، فيتعطل إدراكك لما حولك، عند نومك، ويقبض روحك قبضا نهائيا من الحياة الدنيا متى أراد، وهو الذي يبعث فيك اليقظة بعد النوم ليتعاقب التصرف فيك من العليم بكل ما تقوم به من نشاط في الكون علما كاشفا يتجاوز الظاهر إلى حقيقة الفعل وغاياته، منتهيا إلى رجوعك فريدا عنده، فينبئك عما قدمت ويجزيك عنه الجزاء العادل.

والعجب من الإنسان كيف يخرب فكره بالشك مع هذه الشواهد الحاضرة في نفسه كل يوم. إنه الله المتحكم فيكم يرضخكم لإرادته، وتصحبكم ملائكته يحصون عليكم أفعالكم، إلى أن يرسل من يقبض أرواحكم، ولا ينجو من ذلك أحد. ثم ترجعون إلى الله الذي يتولاكم ولا يتولاكم غيره، وهو الحاكم لا حاكم سواه، يحاسبكم في سرعة فوق ما تتصورون. إن الشواهد على ذلك في حياتكم الدنيا كثيرة. فعندما ترجف قلوبكم في الظلمات برا أو بحرا وتضطربون ضارعين لا تقدرون على رفع الصوت من شدة الخوف، مقدمين توبتكم: إِنَّهُ إذا تفضل عليكم فأنجاكم لتكونُنّ من المعترفين بالفضل العاملين بما تقتضيه المنة، من ينجيكم؟ ولا ينتظر منهم الجواب لأن الجواب واحد يدمغهم به، إن الله وحده هو القادر على إنجائكم، والغريب أنكم بعد ذلك تشركون به فتدعون معه آلهة ما أسعفكم واحد منها.

ويبرز هذا المقطع في خاتمته عجز الإنسان، وتفرد الله بالقدرة، فيهدد المشركين بأن الله قادر على سحقهم بتسليط العذاب عليهم، فيأتيهم من فوقهم كالصواعق والرياح العاتية، أو يهلكهم بعذاب من تحت أرجلهم كالزلازل وانفجار البراكين، أو يقضي على قوتهم الاجتماعية، فتتفرق كلمتهم ويعظم التعصب، وينقلب كل فريق خصما لغيره همه في إذايته والاعتداء على حياته ومكتسباته، وبذلك يتحلل المجتمع ويبتلعه أعداؤه.

بيان المعنى العام:

59-وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو....في كتاب مبين.

هذه الآيات توضح العقيدة الإسلامية في قدرة الله وعلمه. فصل للمؤمنين ما يوضح ويقرب منهم حقائق علمه وقدرته.

يقرر القرآن أن الله متفرد بعلم الغيب، وهو كل ما لا يستطيع البشر أن يدركوه بما أوتوه من وسائل. فبعض الأمور الخفية التي يدركها بعض البشر بذكائهم أو بواسطة الآلات الكاشفة ليست من الغيب.

ثم فصلت الآية بعض التفصيل سعة العلم الإلهي، فهو سبحانه يعلم ما حوته الأرض اليابسة، وما حوته البحار والأنهار، ولفت النظر إلى أن التحولات التي تطرأ على الكائنات لا تغيب عن علمه ، وإن كانت تافهة، فسقوط ورقة من الشجرة، معلومة له سبحانه في تاريخ سقوطها وفي المكان التي تنزل فيه، وفي التحولات التي تطرأ عليها بعد ذلك. وكذلك الحبة المندسة في الطبقات الخفية للأرض، وضعها وتحولاتها، وبصفة عامة كل رطب وكل يابس من أجزاء الكون، مضبوط أمره مقدما ضبطا دقيقا بينا لا غموض فيه. عبر عن ذلك بالكتاب المبين.

60- وهو الذي يتوفاكم بالليل...بما كنتم تعملون.

نبهت الآية إلى وضع من أوضاع الإنسان يمر عليه كل يوم، وهو مظهر من مظاهر القدرة الإلهية، ومحدودية القدرة البشرية، وهي حالة نومه التي يغيب فيها عن إدراك ما حوله، ثم يستيقظ ويعود كما كان، وهو تنبيه إلى إمكان ومعقولية أمر البعث.

كما نصت على أن علم الله لا يغيب عنه أي عمل يقوم به الإنسان في حياته، وربطت الآية العلم بأعماله في النهار، لأن معظم ما ينجزه الإنسان من خير أو شر يتم في النهار. ومع العلم يبدو مظهر القدرة في تمكين الإنسان من الفعل. ذلك التقلب بين الليل والنهار تتحقق به النهاية المقدرة لكل فرد تقديرا يحدد أجله بتعاقبهما، لا يزيد لحظة على أجله المقدر له ولا ينقص منه لحظة. هذا التقدير والضبط ينتهي إلى غاية هي رجوع جميع البشر إلى خالقهم بعد أن ينتهي حظ كل واحد منهم في الدنيا.

61-وهو القاهر فوق عباده....لا يفرطون.

إن ما يجري على البشر ليس عبثا، بل هو ينتهي إلى توقيف كل فرد على ما عمل من خير أو شر باعتباره مسؤولا عن أعماله، وبالتالي هو مجزي عنها. ليستيقظ كل فرد من غفلته، وليعلم بما لفت إليه القرآن من حالتي النوم واليقظة، ومن جريان الموت، بإرادة الله وتقديره في كل ذلك، فلا قدرة للإنسان على مواصلة اليقظة إذا

أخذه النوم غلابا، ولا يطيل أجله إذا حضر داعي الموت. إن المتصرف ذلك التصرف الذي يُخضِع الإنسان أراد أو أبى هو الله، فظهر أنه هو القاهر فوق عباده .

62-ثم ردوا إلى الله....أسرع الحاسبين.

يزيد تلكم الحقيقة تفصيلا : ما مفاده أن الله أوكل بكل إنسان ملائكة يرقبون ويسجلون كل ما عمله من خير أو شر، يلازمونه في كل حال من أحواله لا يغيب عنهم من أمره شيء. تتواصل تلكم الرقابة وذلكم التسجيل إلى أن يبعث الله من يقبض روحه. هم ملائكة أمناء لا تلحقهم الغفلة، فلا ينفلت أحد تَم أجله من تنفيذ أمر الله فيه. ثم يصير كل فرد إلى حكم الله من ثواب أو عقاب. والله هو سيدهم الحق الكامل السيادة والملك، انتبهوا ! فهو الحاكم ولا حاكم غيره ولا يشاركه أحد في أحكامه (**ألا له الحكم**) وسيحاسب كل فرد عما قدم، ومقاييسكم في سرعة الحساب هي مقاييس بشرية، وحساب الله يفوق في سرعته كل تصور. فما سرعة الحاسوبات العملاقة في عصرنا هذا إلا كحركة قطرة في أمواج المحيطات.

63-64: قل من ينجيكم من ظلمات... ثم أنتم تشركون.

ثم يكشف حجاب الغفلة عن الأنظار، فيسأل البشر جميعهم، من الذي يقدر أن ينجيكم عندما تختلط عليكم مسالك البراري في الظلام الدامس؟ وعندما تضطرب الأمواج ويهيج البحر، وتحجب السحب السماء فلا نجم يهدي ولا القمر ينير، وتطبق عليكم ظلماته، نعم في هذه الظروف يشتد الإحساس بالضعف والخوف من الهلاك ؟ وقبل أن يتلقى منهم الإجابة يسرع إلى بيان الحقيقة التي لا حقيقة غيرها : أنكم تلجؤون إلى الله، وقد ضؤلت في أعينكم قدراتكم شاعرين بالذل وجلين، تسرون بدعواتكم وابتهالاتكم، معاهدين على الشكر إذا قدر لكم النجاة. ولكن أصحاب النفوس المريضة التي تمكن منها الانحراف لا تستقيم إذا ذهب عنها الخوف، ولذا يسجل القرآن عليهم أنهم إذا انكشف عنهم ما كانوا يخشونه عادوا إلى ما كانوا عليه من التقرب لآلهتهم والإشراك بالله.

65-قل هو القادر على أن يبعث عليكم....لعلهم يفقهون.

يتوجه القرآن لهم بالتهديد المرعب: إن الله وحده هو القادر الذي لا يعجزه أن ينتقم منكم بأنواع العذاب الذي لا تستطيعون له ردا. فينزل عليكم العذاب من فوق رؤوسكم فلا ملجأ لكم منه، أو يرسل عذابه عليكم من تحت أرجلكم كالزلازل والانفجارات النارية كما يشاهد في البراكين عند عودة النشاط إليها. وعذاب آخر

يكشف به القرآن عن أمر خطير يصيب المجتمعات، وذلك بأن تختلف كلمتهم، ويتعصب كل حزب لرأيه، تعصبا يدفع إلى البغضاء والقتال، فيتسلط كل فريق على الفريق الآخر بالقتل والتنكيل. وهو ما يتبعه الذوبان والاستعداد الذاتي لقبول التسلط المستبد، والذل المقيم. ثم يحرك كل من يملك القدرة على التأمل ليبدي عجبه من أمر هؤلاء المشركين:

كيف إن الله يوقظهم بمتنوع الآيات الجامعة بين البشارة والإنذار وبين التأمين والتخويف وبين الكشف عن بواطن الأمور ومآلاتها، وبين العرض الجامع لمظاهر التقدير المحكم في أنفسهم وفي الآفاق. كل ذلك من فضل الله من شأنه أن يقربهم من إدراك الحق والتزامه، ولكنهم لعنادهم وتشبثهم بالكفر لا ينتفعون به.

وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٧﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الوكيل : المدافع والناصر.

النبأ : الخبر المهم.

مستقر : وقت يحصل فيه.

يخوضون في آياتنا : يتكلمون فيها بالباطل.

أعرض عنهم : اترك الجلوس معهم.

الذكرى : التذكر.

ذر : اترك.

غرتهم : خدعتهم.

تبسل نفس : تحبس حبسا لا مفر منه.

بما كسبت : بما جنت من شر.

الولي : الناصر والشفيع.

تعدل : تفدي على قدر ما عوض عنه.

الحميم: الماء الشديد الحرارة.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن تكذيب مشركي مكة لرسولهم الذي هو منهم، مع أن شواهد صدقه بينة واضحة. قل لهم إني لست قيما عليكم أمنعكم من الكفر. وكل ما أخبرتكم به سيظهر في الوقت الذي قدره الله لإظهاره، وتحققوا أنكم ستشاهدونه وتعلمون صدقي.

وفصل القرآن مواقف المشركين فمنهم :

1) هؤلاء الرافضون المكذبون.

2) ومنهم المبطلون المتكلفون للتشكيك والدس. وعلى كل مؤمن أن لا يجالسهم، فإن مجالستهم خطيرة وخاصة على من لم يكن له نظر ثاقب يكشف تلبيسهم. ولا يتحمل المؤمنون في ترك مجالستهم تقصيرا ولا لوما لأن الآية نزلت قبل الإذن في الدفاع، ولكنهم مطالبون بتذكيرهم عاقبة سوء منهجهم، رجاء أن تحلّ التّقوى قلوبهم

3) ومنهم المغرورون بالدنيا وبخاصة حياة الاستمتاع باللعب واللهو.

ذكرْ بالقرآن كل نفس أنها ستحبس وتكون رهينة بما اكتسبته بفعلها وقصدها، وأنها لا تجد وليا ينصرها يخرجها من المأزق الذي وقعت فيه إذ الأمر يوم القيامة لله وحده، ولا تجد شفيعا يتوسط لها، ولا يقبل منها أي فدية، وأولئك المغرورون سيحبسون جزاء لما كسبوه في حياتهم الدنيا. أُعِدّ لهم ماء حميم كأشد ما يكون حرارة يلهب بواطنهم يستغيثون ولايغاثون. وفوق ذلك عذاب يبلغ ألمه كل جزء من كيانهم، وذلك بسبب إصرارهم على الكفر.

بيان المعنى العام :

67-وكذب به قومك... بوكيل.

سجل الله على مشركي مكة كفرهم وسوء معاملتهم، فرغم أنهم من قوم سيدنا محمد ﷺ، خبروه في صباه وشبابه وكهولته ولقبوه بالأمين، رغم ذلك، تنكروا لما يقتضيه كل ذلك من تصديقه، وعدم الإسراع إلى الرفض. فأعلنوا تكذيبه، وتكذيب أن يكون

القرآن الذي جاء به من عند الله. رغم أنه هو الحق الخالص الذي لا تشوبه شائبة من الباطل، فما دعاهم إلا لما يوجبه العقل الراشد والفطرة السليمة.

وفي مواجهة عنادهم أمره الله أن يعلن استجابة لأمره تعالى: أني لست موكلا بمنعكم عن الاسترسال في الكفر، وإنما أبلغكم ما أرسلت به إليكم. ثم هددهم بأن كل ما أخبرتكم به سيتحقق لا محالة، واستعجالكم لا يقدم ولا يؤخر، فتحقُقُ كل خبر أو نزول عذاب، قد قرر الله له في سابق علمه أجل ظهوره في الدنيا أو في الآخرة. وسوف تعلمونه علم اليقين بالمشاهدة.

68-69: وإذا رأيت الذين يخوضون....لعلهم يتقون.

انتقل القرآن لتحديد علاقة الرسول والمؤمنين بالمشركين، فيخاطبه القرآن مع أمته ليهديهم إلى أفضل طريقة في القيام بمهمة الدعوة إلى الله. إن بعض المشركين قد تدربوا على الباطل، وحذقوا الجدال وطوَّعَتْ لهم نفوسهم الخبيثة ألسنتهم، فتجدهم بارعين في تلبيس الحق وإكسائه ثوب الباطل والعكس. وقد كانوا معروفين عند رسول الله، فبمجرد ما يراهم مجتمعين يعلم حسبما خَبَرَهُمْ، أن كل همهم الذي يجتمعون عليه ويتساندون فيه، هو تزييف الحقائق وتضليل الناس، ولذلك وردت الآية بصيغة: وإذا رأيت، دون سمعت.

إن هؤلاء الذين أصبحوا رؤوس المروجين للباطل، الذين أقفلوا عقولهم فلا ينفذ إليها شيء مما أوحي إليك، إذا رأيتهم مجتمعين فلا تجالسهم، وأعرض عنهم، إنهم ميؤوس من اتِبَاعهم للهدى، يَتَقَوُّوْنَ بجلوس الناس إليهم واستماعهم لباطلهم، فالإعراض عنهم أشد نكاية لهم من محاجتهم. وكما يتوجه الخطاب حسب ظاهره لرسول الله ﷺ، فإنه موجه إلى كل مؤمن ومؤمنة، مبين للموقف الأرشد من هؤلاء الذين يظهرون في كل زمان ومكان، وخطرهم أعظم الخطر، تبعا لذلاقة لسانهم وقدرتهم على قلب الأمور.أكد القرآن على مقاطعتهم إلا إذا خاضوا فيما لا تعلق له بالدين، ونبه إلى أن مجالستهم في الحالة الأولى لم يبق لها مبرر بعد التنبيه الجازم بالمقاطعة. إن هذا المنهج في العلاقة معهم هو منهج بات. وبناء على ذلك فلا يتصور أن تجالسهم إلا أن يكون الشيطان قد أنساك هذا النهي، وليس المراد، والله أعلم، أن الشيطان يتسلط على رسول الله فينسيه، ولكنه مبالغة في بيان الابتعاد عنهم في مجالس خوضهم، مما يفيد أن مجالستهم لا تكون إلا من تأثير شيطاني بنسيان هذه الموعظة، وهو مما لا يتصور أن يحدث من رسول الله ﷺ . ولكن قد يتعرض بعض أمته لنسيان ذلك، فتنبه الآية جميع المؤمنين ليكونوا يقظين، ولا

يتركوا للشيطان سبيلا بنسيهم هــذه المقاطعــة ولا تــدل الآيــة علــى نســيان الرســول، واحتمال وقوع ذلك لا يفيد أبــدا وقوعــه، وغايــة مــا يفيــده (وإمــا ينسـينك الشــيطان) الإشارة إلى رفض القرآن أن يحدث ذلك كقوله تعالى، **(قــل إن كــان للــرحمن ولــد فأنــا أول العابدين)**[1]. إن مجالسهم تلك مناقضة لما عليه المؤمنــون، إنهــم قــوم تمــالأوا علــى الظلم.

والإسلام يقتلع من نفوس اتّباعه كل ظلم. ثم أكــد القــرآن حقيقــة مســؤولية كــل إنســان عن أعماله فقط. فنفى مسؤولية المؤمنين المتقين عــن خــوض الكــافرين فــي آيــات الله، وعن حسابهم عنها، لما يمكــن أن يتصــور مــن مســؤوليتهم لعــدم صــدهم عــن هــذا المنكر العظيم، وذلك لأن الآيــة مــن الآيــات المكيــة التــي لــم يــؤذن وقــت نزولهــا بمحاربة الشرك بما يقتلع جذوره. بل القصد من هذا التحــذير هــو قيــام المتقــين بــوعظ المشركين وتخويفهم مما يترصد هم من عذاب الله، لعلهم يقلعون عن خوضهم.

70-وذر الذين اتخذوا دينهم هزؤوا ولعبا....كانوا يكفرون.

تعرضت الآية إلى نوع آخر من المشركين، وهــم الــذين جعلــوا ديــنهم مجموعــة مــن اللعب واللهو. وقد كان المشركون يتقربون حــول الكعبــة بالتصــفيق والصــفير، وكثيــر من فرق النصارى يُدخلون، إلى اليــوم فــي عبــادتهم، تحريــك أوتــار الآلات الموســيقية على أوزان خاصة يدمجونها في العبادة، ومــا يــزال اليهــود يعتمــدون البــوق الخــاص في التقرب إلى الله. وكثيــر مــن الــدعاة إلــى عبــادة الله بغيــر مــا شــرعه يحــددون رقصات يوهمون الاتّباع الأغرار أنها نشــوة القــرب مــن الله. وإذا كــان النــوع الســابق جماعة صمموا على معارضة الإسلام وإلصاق الأباطيــل بــه، وجمعــوا حــولهم النــاس ليصدوهم عن اتّباع الهدى، فإن هذا النوع يلهي النــاس بطــريقتهم الهابطــة التــي تبعــد بهم عن الجد وتزين من اللعب والهوى ما يغــري الرعــاع باتّبــاعهم والانضــمام إلــيهم. مستواهم الذهني هــابط بعيــد عــن النضــج يميــل إليــه ضــعفاء العقــول. وخوطــب الرسول: لا تكترث باستهزائهم ولا تهتم بضلالهم.

ثم امض على ما أنت عليه مــن عمــوم تــذكيرك بــالقرآن كــل نفــس، لتوقظهــا للمــآل الصعب حين تُحبَس بما عملت في هذه الدنيا فلا تجــد مخلصــا لهــا :لا ناصــر يرعاهــا ويقدر على تأييــدها، ولا شــفيع يشــفع فيهــاء لتفــرد الله ســبحانه بــالحكم فــي ذلــك الموقف. ولو حاولتْ أن تفدي نفسها بأن تعطي عطاء أيــا كــان فإنــه يــرفض ولا يقبــل. فهو اليأس من النجاة بجميع ما يتصور في الدنيا لا نصير ولا شافع ولا فدية.

---

[1] الزخرف آية 81

إن الذين اتخذوا دينهم هزؤا ولعبا محبوسون بما قدموه، يائسون لا منقذ لهم، ووضعهم أسوأ وضع، فهم إذا رغبوا في السقيا لا يقدم لهم إلا شراب يغلي في أفواههم وبطونهم ،وفوق ذلك عذاب، الإحساس بألمه شديد. وذلك هو الجزاء العدل بسبب إصرارهم على الكفر.

قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأعقاب : جمع عقب وهو مؤخر القدم، يقصد به الرجوع إلى المكان الأول.

استهوته :استولت عليه فأفقدته قوته العقلية فأصبح يسير حسبما توجهه.

حيران: متردد لا يقطع بأمر.

الحق: ضد الباطل ويطلق على القول الجاري على الحكمة والصواب. ويطلق على الفعل البالغ أقصى حد في الإتقان.

قول الله : كل ما يدل على مراده وقضائه في المحشر.

الصور : البوق الذي ينفخ فيه ليجتمع الجيش عند سماعه.

بيان المعنى الإجمالي :

محاولات المشركين لعودة المؤمنين إلى الكفر فاشلة، وأُمِر النبي ﷺ أن يصارحهم بذلك، لأن آلهتهم عاجزة لا تنفع ولا تضر. إن وضع العودة إلى الشرك كوضع المسافر الذي قطع المسافات ثم رجع إلى منطلقه دون أن يحصل مقصده. بل هو كالمسلوب العقل من الشياطين التائه في الأرض، الموغل في التوحش والفرار من الناس، حتى إن جماعته المشفقين عليه لا يستجيب لندائهم.

يوهم المشركون أنهم على هدى، والهدى واحد، هو دين الإسلام هدى الله ،ولذلك فقد أمرنا ربنا أن نسلم وجوهنا إليه، وأمرنا أن نكون دوما على صلة به بواسطة

الصلاة، وأن تكون قلوبنا عامرة دوما بالتقوى لجلاله. وأعلمنا أن الخلائق سيحشرون بعد البعث ليتم حسابهم. لأنه ما خلقهم عبثا، كشأنه سبحانه في خلق السماوات والأرض، تفرد بخلقها وما تحويه، وخلقه مقرون في كلياته وجزئياته بالحق، بالغا الحد الأعلى من الإتقان، والبشر جزء من هذا الخلق. إن قوله الحق عندما يقول للشيء كن فيكون. وهو المتفرد بالتصرف يوم يعيد الأرواح إلى أجسادها فتستجيب للحشر كما يستجيب أفراد الجيش إذا سمعوا بوق النداء. وحسابه حساب الذي يستوي علمه بالمغيبات عن البشر كعلمه بما ظهر، هو العلم المحيط لأنه بنى أمر الكون كله على الحكمة وهو الحكيم، وأجراه على ما يقتضيه العلم الشامل فهو الخبير به.

بيان المعنى العام:

71-72: قل أندعو من دون الله.... إليه تحشرون.

قل لهم قولا فصلا يجعلهم يائسين من التأثير على المؤمنين: إن انصراف من ينصرف عن الله، فيتوجه إلى صنم عاجز لا يؤثر نفعا، ولا يستطيع أن يضر بدليل أنه ما حقق لراجيه مطلبا، ولا انتقم ممن رفض عبادته، إن من يفعل ذلك خاسر مضيع للخير الذي حصل عليه من منة الله عليه بهدايته إلى الحق، مثله كمثل المسافر الذي خرج قاصدا قضاء مهم، فعاد إلى منطلقه دون أن يحقق ما قصد إليه، ولم يجن إلا التعب والعناء، وهذا لا يرضاه عاقل. ثم أردف ما يؤكد بشاعة الراجع على عقبيه بصورة أخرى ينفر منها كل إنسان، وهي صورة المختل عقله، الذي يعتقد أهل الجاهلية أن الشياطين قد تستولي على عقل بعضهم فتجعله يسير في الأرض على غير هدى ولا إلى غاية، لا يقبل نصحا ولا يدرك مصلحة. لهذا المسلوب عقله أصحاب كان معهم، فنفرهم وتاه، فإشفاقا عليه وحبا فيه يدعونه ليأتيهم، لأن من شأن المسلوبين تحولهم إلى توحش ونفرتهم من الناس ولو كانوا قبل ذلك مرتبطين بهم أوثق الارتباط. فقد شبهت الآية حال من ارتد عن الإسلام بعد أن أكرمه الله بالاهتداء إليه وتركِه إخوانه المؤمنين، شبهته بحال من فسد عقله بتأثير الشياطين فيه، فتاه في الأرض وانفصل عن جماعته انفصالا جعله لا يستجيب لدعائهم له.

وواصل الرد عليهم والتأكيد على ضياع جهودهم في فتنة المؤمنين بإيهامهم أنهم على هدى، فقل لهم: إن الهدى الحق واحد هو هدى الله الوارد في وحيه على لسان رسوله، وما عداه مما تدعون إليه باطل وزور ولا يتضمن أي جانب من الهدى.

وقل لهم أيضا: إنا أمرنا لنسلم وجوهنا لرب العـالمين الـذي خلقنـا فـي أكمـل صـورة ومكننا من هدايته على لسان رسله. وأنه أمرنا بقولـه: أن أقيمـوا الصـلاة، حتـى تكـون الصلة بيننا وبينه متجددة منفلتة من الغفلـة. وأمرنـا بقولـه: اتقـوا الله، والتقـوى تتكـرر في القرآن بكثرة لتكون حية مشعة فـي قلـوب المـؤمنين ومـداركهم. فجمـع فـي الـرد عليهم ثلاثة أركان أمر الله بها، الأمـر الـذي تتحـتم طاعتـه وهـي : إسـلام الوجـه لله وحده، وإقامة الصلاة، وتقوى الله.

إن هذا التوجيه الإلهي المعتمد على الأركان الثلاثـة يفضـي إلـى الكشـف عـن الغايـة التي هي مآل البشر جميعا، هي حشرهم لديه وحده يـوم القيامـة ليحاسـبهم عـن مقـدار استجابتهم لتلكم الأركان.

73-وهو الذي خلق السماوات والأرض....الحكيم الخبير.

الفعل الإلهي خالص من كل شـائبة عبـث أو باطـل، يقـوم شـاهدا علـى ذلـك خلـق السـماوات والأرض، خلقهـا خلقـا مقترنـا بالإتقـان الكامـل والتقـدير المحكـم. ففـي جزئيات الكواكب وفي مجموعها وفي علاقـة كـل كوكـب منهـا بغيـره مـن الكواكـب يظهر بجلاء للناظرين الحكمة والإتقان، فهي ملتبسة بالحق.

ويستمر هذا الحق يوم البعث، فقولـه الحـق يـوم يقـول للمعـدوم :كـن فيكـون، فيـتم البعث بالحكمة، كما تمت النشأة الأولى بالحكمة. والمـراد بـالقول :كـل مـا يـدل علـى مراده وقضائه من التكوين والبعـث والحسـاب، والثـواب والعقـاب، والسـتر والفضـح، والتكريم والإذلال.

ويواصل القرآن تفصيل حكمتـه تعـالى فـي إعـادة الخليقـة وبعثهـا بقولـه: تفـردا لله بالملك يوم النفخ في الصور، يوم يصـل النـداء المحيـي لكـل مـن مـر علـى ظهـر الأرض ثم مات. ولا تذهب في تصور الـنفخ وطريقتـه وآلتـه واسـتجابة الكائنـات لـه مسرعة، فإن ذلك من الغيب الـذي اسـتعملت فيـه الألفـاظ المقربـة للتصـور العـام، لا للتصور الدقيق التفصيلي، لأن مدارك الإنسـان فـي الحيـاة الفانيـة قاصـرة عـن إدراك حقائق الحياة السرمدية الباقية.

وإذ صرح القرآن بالبعـث والمعـاد والحسـاب، فـإن الكمـال المطلـق لـرب العـالمين يقتضي أن يجري على المبعوثين حكمه العـادل الـذي يخضـعون لـه مقتنعـين بعدالتـه. فصرح بأن علمه بحقائق الأمور هو العلم الكامـل الـذي يسـتوي فيـه مـا هـو مشـاهد للبشر وما هو مغيب عنهم. فمقاصد البشر من أفعالهم التي قـاموا بهـا فـي الحيـاة الـدنيا مغيبة، وهي منكشفة لله. فيستوي علمه بمـا هـو فـي مقـدور البشـر علمـه، ومـا هـو

مستور عنهم لا يصلون إليه. إنه قد أتقن صنع كل مخلوق، لأنه خبير بكل جزئية في وضعها الخاص وتحولاتها ومآلاتها.

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً ۖ إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَا أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾

بيان معاني الألفاظ :

مبين : بين، ظاهر.

ملكوت :الملك العظيم، مملوكات الله في السماوات وفي الأرض.

الموقن : العالم علما لا يقبل الشك.

جن الليل : أظلم.

أفل: ذهب ضوءه لمغيبه في الأفق.

البازغ: المشرق في ابتداء شروقه.

بريء : لا صلة بيني وبين ما تشركون.

بيان المعنى الإجمالي :

أبرز القرآن التوحيد ونفي الشرك، من عرض قصة إبراهيم عليه السلام.ومن متابعة قصة إبراهيم عليه السلام يمكننا أن نوزعها إلى المشاهد التالية :

المشهد الأول : ينعي إبراهيم على أبيه أمرين:

1)اعتقاده بتعدد الآلهة،

2) وأن تكون حجارة جامدة. ويؤكد له : أنه قد أوغل في الضلال البين الذي لا شبهة فيه.

ويتبع القرآن هذا المشهد بأن الله امتن على إبراهيم فأنفذ بصيرته إلى ما وراء الظواهر الكونية في الأرض والسماء، فاقتنع بأنها مملوكة لله، وبلغ درجة اليقين في ذلك مع الصالحين من عباد الله.

المشهد الثاني : أنه كان في رفقة فبدا في ظلام الليل كوكب بين النجوم أشد ضياء، فالتفت لرفقته وقال لهم، وكأنه كان يبحث عن شيء، :هـذا ربـي يرغـب فـي الوصول إليه : هذا ربي الذي يتولاني. وتابع مع رفاقه مسار الكوكب. ولكنه اختفى بعد زمن. فتوجه إلى رفاقه بقوله: إني لا أرضى لنفسي ربا يغيب عني، فسقط بكلمة واحدة أن يكون الكوكب إلها.

المشهد الثالث : واصل مع رفاقه التأمل في السماء، فصادف أنه بعد مغيب الكوكب المذكور، أشع القمر وظهر في الأفق متميزا، فقال إبراهيم لرفاقه كما قال سابقا: هذا ربي. وتابَعُوا النظر. فجرى على القمر ما جرى على الكوكب، وعندها أعلن إبراهيم عن منهجه: إني متمسك بربي الذي يسعدني بالهداية وهو معي في كل لحظة.

ونلحظ أن إبراهيم عليه السلام أدمج في المرحلة الثانية زيادة على رفض رضاه بالقمر إلها: أنه موقن بأن الرب الحقيق بالعبادة هو الذي يرقب عبيده ويتولاهم بهدايته.

المشهد الرابع : ما تزال رفقته تصحبه وتطلع عليهم الشمس متوهجة، فاستدرجهم إلى النظر في اتخاذ الشمس إلها لكبر حجمها وقوة إشعاعها؛ فقد أخفت جميع الكواكب. ثم تقضّى النهار وأفلت.

ويبدو إبراهيم عليه السلام وقد كسب الجولة فيفصح مناديا قومه: لم يصلح أي كوكب ليكون إلها، ولذا فإني بريء من الشرك الذي تعتقدونه، وإني مقبل بعقلي وروحي نحو الذي خلق السماوات والأرض، مائلا عن جميع التصورات التي تعتقدونها، وبكلمة جامعة ليس بيني وبين المشركين صلة.

بيان المعنى العام :

74-وإذ قال إبراهيم لأبيه....مبين.

توالت الآيات في سورة الأنعام مبطلة للشرك محطمة للأوهام التي عششت في العقول فأفسدت تصوراتها بصور متنوعة من الإفصاح عن الحقيقة. وعطف القرآن على ذلك نماذج رزقوا فطرة نقية لم تلوثها العادات والتقاليد، فاهتدوا إلى إثبات الألوهية. يلفت القرآن النظر في هذه الآيات لقصة أبينا إبراهيم عليه السلام، وهو يعيش في وسط عَمّهُ الشرك وعبادة الأصنام فقادته فطرته السليمة إلى اليقين بأن الله واحد لا يعقل أن يكون له شريك. فلنتابع القصة:

المشهد الأول: إبراهيم عليه السلام مع أبيه (آزر) يخاطبه منكرا عليه اتخاذه أصناما آلهة. فهو ينكر عليه أمرين : عبادة الأصنام التي لا تعقل ولا تؤثر.وكون المعبودات

كثيرة. فلم ينكر عليه اتخاذ صنم إلها، وإنما هي أصنام كثيرة وآلهة. وذكرت الآية أن اسم أبي إبراهيم (آزر) ولما كان المذكور في التوراة أن اسم أبيه هو **(تارح)** أخذ المفسرون في التأويل مسالك عديدة، على أن له اسمين: آزر وتارح، أو إنه عمه، أو إن آزر وصف، أو لقب، أو هو كلمة تدل على السباب، أو إن البلدة التي قدم منها اسمها آزر، الخ.... والذي اطمأننت إليه وجريت عليه في هذا التفسير : أن التوراة والإنجيل لا ثقة بنصوصهما، ليس معنى هذا أنهما كلها باطل وزيف، ولا أنها حق وصدق، ولكن اختلط فيهما الحق بالباطل وكلام البشر بالوحي. فما يرد فيهما يقضي القرآن عليه باعتباره مهيمنا على جميع الشرائع والكتب السابقة.

75- وكذلك نري إبراهيم...من الموقنين.

يواجه إبراهيم ﷺ أباه بالدقة الكاملة، فما ينتقده عليه ليس محل محاورة أو جدال، بل إن أباه مغرق في الضلال والابتعاد عن الحق، هو في ضلال واضح ظاهر، من العجب أن يكون قد ثبت عليه وقد مضى على هذا الضلال زمن كبير.

المشهد الثاني :إبراهيم ﷺ يتأمل في الكون.

إن ذلك الموقف الذي اهتدى إليه وكان له من الشجاعة ما جعله يصرح به وينتقد فيه أباه أقرب الناس إليه في المجتمع، هو من توابع العناية الإلهية التي خص بها.

فالمشهد الثاني: هو أنه على ذلك النحو من التوفيق الذي هداه إليه ربه، كشف له من رؤيته للمُلْك العظيم لله في السماوات والأرض ما وراء المحسوس، فنفذ إلى قلبه وروحه ما أزاح عنه كل ريب وشك، فامتلأ من اليقين بتفرد الله بالألوهية وانضم بذلك إلى موكب الموقنين من عباد الله الصالحين.

76-فلما جن عليه الليل رأى كوكبا...الآفلين

المشهد الثالث: إبراهيم ﷺ يسير مع جماعة، فأظلم عليهم الليل، وسطعت النجوم التي كانت مغيبة في النهار. وينظر في قبة السماء وقد انتشرت في أرجائها النجوم، كما هو الحال قبل أن يغلب التلوث الذي تفاقم في عصرنا، ويتميز كوكب من بين النجوم يبدو أشد بريقا وضياء. التفت إلى الذين حوله مخاطبا: هذا الكوكب البراق المتألق في السماء بين النجوم هو ربي الذي تولاني بعنايته. وكان قومه يعبدون النجوم فاطمأنوا إليه. وواصل السير معهم في ظلام الليل والكوكب يسطع نوره لامعا. وبعد زمن غاب عن الأنظار، فالتفت إلى من كان حوله وقال لهم: لا أرضى أن أتخذ ربا يغيب عني. وفي هذا المشهد يظهر إبراهيم ﷺ يحاول هداية قومه

بطريقة غير الطريقة التي خاطب بها أباه. فهو يستميلهم مظهـرا أنــه معهـم، ثـم يظهـر لهم بما جرى على الكوكب، أن تصورهم أحقية عبادته مما يرفضه العقل.

77- فلما رأى القمر بازغا...الضالين.

المشهد الرابع: يواصل سيره مع قومه، وقـد هـدم خيـالهم: أن يكـون الكوكـب اللامـع إلها. وعند مغيب الكوكب يظهر في الأفق القمر عنـد أول طلوعـه أشـد إشـراقا وأكبـر من الكوكب المرفوض، فتوجه لرفقته كأنـه وجـد مـا كـان يبحـث عنـه قـائلا : هـذا ربي. ويمضون في سيرهم يرقبون القمر، ويأفل القمر فـلا يُـرى لـه أثـر فـي السـماء. ومن حكمة إبراهيم أنه ترقى في مخاطبة قومه عنـد أفـول القمـر فـأدمج فـي كلامـه : أنه يؤمن بإله هو الذي يواصل هدايته للحق، فإذا تخلـى عنـه وانقطـع مـا بينهمـا فهـو إله لا ينفع في الهداية، ولاشك عنده أنه سيكون مع القوم الذي ضلوا طريق الهداية.

78-فلما رأى الشمس بازغة...بريء من المشركين.

المشهد الخامس :تشرق الشـمس علـى القـوم، وهـي أشـد لمعانـا وأقـوى ضـوءا، ويخاطب قومه بأنه أخطأ مرتين، في اتخاذه الكوكب إلهـا، ثـم فـي اتخـاذه القمـر إلهـا بدل الكوكب وقد أفلا، والشمس أكبـر منهمـا فتكـون مسـتحقة للألوهيـة أكثـر منهمـا. وينتهي النهار وتغيـب الشـمس كمـا غـاب قبلهـا الكوكـب والقمـر فيكـون المشـهد السادس.

79-إني وجهت وجهي للذي فطر...وما أنا من المشركين.

المشهد السادس : يصرح إبراهيم في قـوة واقتنـاع متحـديا :إن مـا أنـتم عليـه مـن الشرك، هو لوثة أنا بريء منها. بعد أن تبين مـن تتبـع أحـوال الكواكـب لـيلا ونهـارا أنه لا يصلح واحد منهـا ليكـون إلهًـا. وإذ انتفـت الألوهيـة عـن الكواكـب الفائقـة، فالكواكب الأضعف أجدر أن لا تكون آلهة. ويبدو فـي المشـهد علـى أنـه لـيس سـلبيا يعتمد النفي فقط، ولكنه الواثق برأيه الشجاع فـي إظهـاره، فـيعلن: إنـي أقبلـت بقلبـي وعقلي وبروحي علـى الـذي خلـق السـماوات والأرض، فأنـا منصـرف إليـه وحـده متوجه إليه، منحرف عن جميع الاتجاهات الأخرى التـي كانـت الشـائعة بيـنكم. ولـيس بيني وبين المشركين صلة ولا رابطة.

وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيۡفَ أَخَافُ

مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ
فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟
إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ
عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

السلطان : الحجة.

يلبسوا : يخلطوا.

آتيناه : ألهمناه الحجة.

بيان المعنى الإجمالي :

المشهد الخامس: إبراهيم عليه السلام بعد إعلانه براءته من الشرك ومن المشركين، يواجه حملةً من عبدة الكواكب والأصنام يدافعون بها عن معبوداتهم. لم يفصل القرآن ما احتج به خصومه عليه، ويفهم من سياق الرد عليهم أنهم شنعوا عليه رفض عقيدة قومه، وخوفوه انتقام الآلهة منه. رد عليهم إبراهيم منكرا متعجبا: أي حجة لكم وقد تفضل الله عليّ فهداني، وكيف لي أن أخشى آلهتكم العاجزة حجارة كانت أو كواكب. إن ربي هو الذي يتصرف في أمري فإن أصابني بضر فبمشيئته، وهو العليم الذي يتحقق علمه في الكون. ما لكم لا تُعْمِلون عقولكم التي تهديكم إلى أن معبوداتكم لا تتصرف في نفسها فكيف تتصرف في غيرها.

إنكم أحق بالخوف مني، فإنكم أشركتم بالله ما لا تقوم عليه حجة. فأيُّنا أحق أن يشعر بالأمن؟ ولم ينتظر إجابتهم فأعلن عليه السلام : أن أحق الفريقين بالشعور بالطمأنينة والأمن، هم الذين آمنوا إيمانا صافيا بالله سبحانه إيمانا لا يشوبه ظلم الشرك، وفوق ذلك هم المفوزون بالهداية.

المشهد السادس: يبدو فيه إبراهيم عليه السلام منتصرا بعد أن تأيد بالحجة التي ألهمه الله إياها فأفحمهم. وأنه محل العناية التي أهلته لأن يكون في زمرة عباد الله الأخيار الذين رفع درجاتهم في مقامات القرب والسمو الإنساني. والله يضفي فضله على من يختاره من عباده تبعا لعلمه الدقيق وحكمته.

بيان المعنى العام :

80-81: وحاجه قومه...إن كنتم تعلمون .

المشهد السابع: أخذ قوم إبراهيم ﷺ يحاجونه إثر انفصاله عنهم وإعلانه عن عقيدته. يستمع لما يخالونه أدلة مقنعة، ثم يتولى رد شبههم أولا، ثم يحتج عليهم بساطع الحجج لإثبات ما آمن به.

طوى القرآن ما احتج به قومه عليه، ولكن يفهم من إجابته أن قومه أوردوا عليه الحجة التي يعتمدها المشركون في مواجهة أنبيائهم، أن عبادة الأصنام والكواكب هي دين الآباء التي عليها ساروا فانتظم أمرهم، وحاولوا التشكيك في الصفات التي تفرد بها الله بالتأثير في الكون والبشر. فكان رده عليهم أنه أحس إحساسا ملأ قلبه باليقين أن الله تولاه بالهداية. وحاجوه بالحجة الأخرى للمشركين، وهي أن الآلهة سيغضبون عليه وينتقمون منه. فرد عليهم أنه لا يخشى أحدا إلا الله وأصنامهم عجزة أبعد ما يكون عن التأثير فهم لا ينفعون أنفسهم، وهم لذلك لا يضرون، فكيف يخشى بأسهم عاقل. وإذا مسني ضر فليس للآلهة المزعومة أي دخل في الضر، إنه يمكن أن يصيبني ضر عندما يشاء ربي أن يسلط علي ضرا، وأنا واثق منه في حالتي العسر واليسر، لأن ربي عليم العلم الشامل بكل ما يقع في الكون، فلا يقع نفع أو ضر إلا بعلمه وإرادته. ثم تحداهم موبخا بقوله : ما لكم لا تتفكرون؟ لماذا عطلتم قواكم الفكرية التي تدركون بها الحقيقة النافية للشرك. ثم انقلب عليهم مهاجما : عجبا لكم تخوفونني بطش أصنام لا تسمع ولا تبصر ولا تتحرك، وكواكب تظهر وتختفي لا تملك البقاء على حالة من الظهور، ولا تخافون بطش الله الذي يتحكم في الكواكب والحجارة التي تعبدونها، وخالق الأكوان لم يمكنكم من حجة توجب عبادة ما تعبدون. فنحن فريقان : أنتم كفرتم بالله واعتمدتم أخيلة لا حقيقة لها، وتنكرتم للخلاق العظيم الذي خلقكم فعصيتم وضللتم، ونحن موقنون بخالقنا الفعال الهادي، متصلون به ونرجو عونه، نجد في قلوبنا أنه معنا. فأينا هو آمن حقا ؟ أجيبوني.

82-الذين آمنوا ولم يلبسوا....وهم مهتدون.

يسرع إبراهيم بالجواب إشارة منه إلى أنه لا يمكن أن يقدم إلا جواب واحد، وهو إن الذين آمنوا إيمانا نقيا، من كل شائبة شرك أو تعطيل، ولم يظلموا الظلم العظيم بالشرك، هم وحدهم المفوزون بالأمن النفسي والعقلي والرّوحيّ. وهم الذين تحققت لهم الهداية إلى الصراط المستقيم، الناجي من يسلكه، الموصل إلى مرضاة الله وحسن ثوابه.

83-وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم....حكيم عليم.

المشهد الثامن: يبدو إبراهيم عليه السلام متألقا مؤيـدا، محـل الثنـاء والرضـا مـن رب الأرباب على مر الأزمان.

يشهد الله وكفى بشهادته شهادة أنه ألهَمَ إبـراهيم الحجـة التـي يرضـاها، فقـد وصـفت الحجة بأنها حجة الله لصدقها ووضوحها علا بها على قومه في ميدان المحاجة.

ثم أضاف لعنايته بإيتائه الحجة البالغة، أضاف تنويها آخـر، بـأن الله رفعـه فـي مراتـب الكرامة درجات ملحقا له بنظرائه من المهديين المرضـيّ عـنهم المتـألقين فـي مراتـب الكمال الإنساني.

ولا تسأل لم خص الله بعض البشر بهذه المكانة الرفيعـة ؟ ارجـع إلـى مـا اتصـف بـه سبحانه من العلم الكامل بالظواهر والبواطن وبـالقيم الحـق للنـاس، وإلـى حكمتـه فـي تسيير الكون وتصرفه فيه، تجد الجواب بـأن ذلـك مظهـر للعلـم والحكمـة، وإن خفـي على البشر تبعا لعلمهم المحدود وقصورهم عن الكمال الذي يستطيع الإحاطة.

وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الذرية : اسم يجمع نسل الإنسان.

اجتبيناهم : اخترناهم.

بيان المعنى الإجمالي :

ذكر المقطع بعضا من الذين مَنّ الله عليهم بـالتكريم فأضـاف إلـى تكـريم إبـراهيم بـأن الله قد من عليه إذ جعل من نسله إسحاق ويعقوب نبيـين مهـديين، كمـا هـدى مـن قبـل إبراهيم نوحا، سلام الله عليهم جميعا. كمـا هـدى مـن ذريـة إبـراهيم ببلـوغهم مرتبـة النبوة داود وسـليمان وأيـوب ويوسـف وموسـى وهـارون مسـجلا أيضـا أنهـم مـن المحسنين، نالوا ما نالوه بإحسانهم، ثم عطف علـيهم زكريـاء ويحيـى وعيسـى وإليـاس وشهد الله لهم بأنهم من القـوم الصـالحين، وأضـاف إسـماعيل واليسـع ويـونس، وهـم كالسابقين من ذرية إبـراهيم، ولوطـا المعاصـر لإبـراهيم، ذاكـرا أنـه فضـلهم علـى

عالمي زمانهم. وألحق بهم آباءهم وما تناسل منهم وإخوانهم، الذين اختارهم بناء على علمه بنقاء دخيلتهم، وهداهم إلى الصراط المستقيم في العقيدة والقول والعمل. والمذكورون كلهم من الأنبياء على كل مسلم أن يعرف قدرهم ويحترمهم.

بيان المعنى العام :

84←86: ووهبنا له إسحق ويعقوب...فضلنا على العالمين..

لما ذكر القرآن المِنَنَ التي أكرم بها الله إبراهيم ﷺ، وأدمج في ذلك أنه يرفع درجات من يشاء تبعا لحكمته وعلمه، ناسب أن يُفَصِّل بعض هذه المنن، فكان هذا المقطع محققا لذلك.

فمن ذلك أنه جعل في نسله النبوة، فابنه إسحق ويعقوب كانا نبيين ورزقا الهداية التي فتحت لهما باب الإصلاح للبشر. ونصت الآية على أن الله قد هدى نوحا عليه السلام قبل إبراهيم وولده وحفيده. كما هدى إلى الصراط المستقيم من ذرية إبراهيم داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وآتاهم النبوة فخلد الله أسماءهم في تاريخ البشرية أعلام إصلاح ودعاة للخير. وعلى ذلك النحو من التكريم يجزي الله المحسنين بالفتح على بصائرهم لنقي الإيمان، وتفتح أرواحهم لقبول الوحي، وقوة شخصيتهم لإبلاغ شريعة رب العالمين للبشر. ثم عدد من المكرمين أمثالهم عاطفا على ما ذكر في الآية السابقة زكرياء ويحيى وإلياس وهؤلاء الثلاثة من أنبياء بني إسرائيل ونوهت الآية بصلاحهم، ثم أردفت الآية التالية، إسماعيل بن إبراهيم ﷺ واليسع ويونس بن متى، وهؤلاء الثلاثة أيضا هم من نسل إبراهيم. وآتى الله لوطا عليه السلام النبوة وكان يعيش في عهد إبراهيم، ونوهت الآية بهؤلاء الأربعة بأن الله فضلهم على عالمي زمانهم فأنزل عليهم وحيه. فتكون الآيات المفصلة لقوله نرفع درجات من نشاء قد ذكرت خمسة عشر نبيا كلهم من ذرية إبراهيم ﷺ. وافتتح التعداد بإبراهيم وختم بلوط اللذين كانا يعيشان في زمن واحد وربط الجميع بنوح الذي نص على تقدمه الزمني إذ يعد أول رسول للبشرية. فجملة ما ذكر ثمانية عشر ما بين نبي ورسول.

87-ومن آبائهم وذريا تهم...صراط مستقيم.

بعد أن نوه القرآن بالثمانية عشر عطف عليهم من كان على منهجهم في العقيدة والسلوك ممن تجمعهم بهم رابطة النسب من الآباء والذرية والإخوان. فذكر أنه قرب بعضهم باختياره على غيره، وفتح بصيرته على الهداية الربانية الصراط المستقيم الذي يصل بسالكه إلى النجاة والفوز برضوان الله.

ولما كان الحق واحدا وهم جميعا على حق بشهادة رب العـزة، فإنـه يكـون مـن المحـتم على كل مسلم أن يحترمهم على التعيين فـيمن عينـه القـرآن وعلـى الإجمـال بالنسـبة لمن لم يعينه.

<u>تنبيه :</u> عُنِيَ كثير من المفسرين بضـبط أسـماء المنـوه بهـم وأنسـابهم، والتـوراة هـي العمدة التي استقوا منها جل معلوماتهم، وبما أن التـوراة لا ثقـة بمـا ورد فيهـا عنـدي، ونظرا إلى أن ضبط ذلك لا يضيف شيئا، وإهماله لا يـنقص مـن المقصـود أمـرا يمـس جوهر الهداية، فلذلك رجحت عدم التعرض لذلك.

ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

حبط : تلف وذهب لسوء عمله.

اهتده : اتبع آثارهم في القول والفعل.

الحكم : الحكمة وهي العلم بطرق الخير.

وكلنا بها : وفقنا للإيمان بها والقيام بحقها.

بيان المعنى الإجمالي :

إن الهدى، وخاصة إلى الصراط المستقيم، الـذي كـان عليـه المنـوه بهـم فـي الآيـات السابقة هو هدى الله، يتفضل به سـبحانه علـى مـن يشـاء مـن عبـاده تبعـا لحكمتـه وعلمه. ومن أهم موجبات الهداية نقاء الإيمان مـن لوثـة الشـرك، فلـو أشـرك هـؤلاء المنوه بهم لحظة لحبط ما قاموا به من صالح الأعمال، فلا يجدون من ثوابهم شيئا.

ثم أضاف إلى مميزاتهم أن الله مكنهم من الكتاب وحيا أُنُفًـا، أو قيامـا علـى مـا نـزل على الرسل قبلهم، وأفرغ في عقولهم الحكمة. وبلغ ببعضهم رتبة النبوة.

فلا تتأسف يا محمد إن رفض مشركو مكـة الإيمـان بهـم ، فقـد وَفَّقْنـا للإيمـان بهـم وتقديرهم والاقتداء بهم قوما من خيار الناس ليسوا كافرين بآيات الله.

ثم ميزهم وأشار إليهم كأنهم مُشَاهَدُون لصدق الإيمان بهم. أولئك الذين تميزوا بأن الله مكنهم من هداه، فاقتدِ بهم يا محمد، أي فكن الحلقة الخاتمة لهذا الموكب من عباد الله المفضلين.

ونبههُمْ إلى أنك لا ترغب في جزاء منهم. قل لهم: إن ما آتانيَ الله ليس خاصا بكم ولكنه هو هُداه للبشرية جميعا، فلا أطلب منكم عوضا وإن قَلَّ.

بيان المعنى العام :

88-ذلك هدى الله يهدي...ما كانوا يعملون.

إن الاهتداء ليكون الإنسان محسنا مفضلا على صراط مستقيم كما جاء في المقطع السابق، ذلك الهدى هو هدى الله وكفى به كمالا نسبتُه إليه، يلطف بمن يشاء من عباده فيمنحه هداه من الذين اصطفاهم عن علم وخبرة. وأخص خصائصهم نقاء إيمانهم من لوثة الشرك، ولفظاعة الشرك أدمج في الآية أن هؤلاء الذين بلغوا ما بلغوه من المكانة الرفيعة عند ربهم، سيذهب ثواب جميع ما قاموا به من خير لو تلوثوا بالشرك.

وفي هذا الافتراض أبلغ تحذير من جرثومة الشرك. ثم نوه بالمذكورين من أصحاب الأعلام والآباء والذرية والإخوان، بأن الله قد آتاهم الكتاب، على معنى أن بعضهم مكنه من وحيه بإنزاله عليهم وتكليفهم بتبليغه، وبعض مكنه من حسن فهمه وتطبيقه على الحياة المتطورة بما يحقق مقاصده وينفي عنه الشُّبَهَ. كما أنزل الحكمة في قلوب جميعهم، وهي التي تضيء لهم في مسالك الحياة المسلك الذي يرضي الله ويحقق العدالة والخير. وشرف بعضهم بالنبوة دون الرسالة فسما به إلى تلقي الوحي غير مكلف بتبليغه للناس.

إن رفض مشركي مكة الاستجابة للدعوة المحمدية التي من مضمموناتها الإيمان بما آتاه الله للرسل والأنبياء والملهمين من عباده الصالحين، وإن كفرهم بها، لا يقلل من قيمتها ولا يضعفها، فإن الله قد وكل بحفظها ورعايتها، قوما عندهم المَنَعَةُ والقوة والقدرة على تثبيتها ونشرها في الآفاق، سارّعوا بالاستجابة للحق الذي أطمأنوا إليه وخلعوا كل ما ينافي الدعوة أو يناقضها. وهم صحابة رسول الله ﷺ. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ من إصرار مشركي مكة على المقاومة، وتنويه بالسابقين الأولين من الصحابة رضوان عليهم، وبشارة بالذين سيتأيّد بهم من الأنصار.

89-أولئك الذين آتيناهم الكتاب...بها بكافرين.

يميز القرآن(**الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة**) مبرزا لهم في إطار يخصهم فيشير إليهم بقوله: أولئك الذين هدى الله. فهم قد فازوا بتيسير من الله لبلوغ تلك المراتب، وتنتهي تلكم المقدمات جميعها ليخاطب رسول الله ﷺ، ليكون ختاما لكل ما آتاه الله الصالحين من قبله من الأنبياء والمرسلين والملهمين، جامعا لمزاياهم مقتفيا أثرهم. ويشمل هداهم أصول العقيدة وهي من الثوابت التي لا تختلف على مر العصور والأزمان، وتشمل تزكية النفس والسمو بها وسلم القيم الخلقية التي بها ينتظم أمر البشر في اجتماعهم لتحقيق مفهوم الخلافة، وهذه قد بلغت في الإسلام القمة العالية، وذلك لارتباطها في كثير من النواحي بالتشريع المفصل للحقوق والواجبات، وهذه في تفاصيلها تُميز الإسلام بالهيمنة على ما جاء في التشريعات السابقة. وبهذا فإن أمر الرسول ﷺ باتّباع هداهم الذي هو هدى الله ينسحب على الثوابت في العقيدة والسلوك، وعلى الجوانب المرتبطة بالعقيدة والسلوك في التشريع العام، وينفرد الإسلام بخصوصيات أوحاها الله لنبيه تمثل المستوى الذي أراد الله أن تبلغه البشرية في تعاملاتها وعلاقاتها، وهو معنى ختم الرسالة.

90-أولئك الذين هدى الله...للعالمين.

تختم الآية بأمر الله نبيه أن يبين للمشركين ناحية من النواحي التي تختلف فيها الدعوة المحمدية عما ألفوه من القيمين على دياناتهم، قل يا محمد: إن ما أدعوكم إليه والمنهج الذي أبينه لكم، والأحكام التي أعلمكم بها، وعملي على السمو بكم وإخراجكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الله، إن تبصيركم بكل ذلك لا أطلب ولا أنتظر منكم عليه جزاء ماديا، إن مهمتي ودوري في الحياة ليس على ما هو المعهود عندكم من علاقتكم بالكهان والقيمين على معابدكم الذين يعيشون مما تقدمونه لهم، إن ما أتيتكم به هو ذكرى للعالمين، هو الدين الذي يرضاه الله للبشرية جميعا، فأنتم إذا ما أسرعتم بقبول الإسلام، فهو سبق إلى الخير والكمال الذي سيعم ويهتدي به البشر جميعهم. فأنا ناصح أمين كأسمى ما يكون النصح. والناصح الطامع في نوال، نصيحته منقوصة وأثرها ضعيف.

وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓاْ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ

يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ
وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ
سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ
تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

ما قدروا الله حق قدره: ما عرفوا الله حق معرفته.

النور : الوضوح.

قراطيس : جمع قرطاس، أوراق.

مبارك : كثير خيره.

مصدق الذي بين يديه : يؤكد صحة وسلامة ما تقدمه من الكتب.

أم القرى : مكة، وهي أول قرية في شبه الجزيرة العربية.

الافتراء : اختلاق الخبر الذي لا أصل له.

غمرات الموت :الشدائد العظيمة التي يعاني هولها الظالمون عند الموت.

تجزون : تعطون مقابل عملكم.

الهون : الذل.

الاستكبار : الإعراض مع قلة اكتراث.

بيان المعنى الإجمالي:

لقد فسدت عقول المشركين فما علموا الله حق العلم، إذ افتروا زاعمين أن الله لم يوح بأي شيء. ويسألهم القرآن سؤال إنكار وتبكيت: من أنزل التوراة ذلك الكتاب الذي جاء به موسى، أنوارُه كاشفة للحقيقة، وداع إلى طريق الهداية؟ ويدمج في هذا السؤال التعريض باليهود الذين جعلوا ذلك الكتاب تابعا لأغراضهم، فوَزّعُوهُ بطائق يظهرون ما يوافق أهواءهم ويحجبون ما لا يرغبون فيه. ويباغتهم القرآن بأمر رسوله أن يقول: الله الذي أنزل ذلك. ولا تكترث بهم فدعهم، يا محمد، سادرين في خلطهم بعيدين عن الجد مستواهم مستوى الأطفال المأخوذين باللعب.

وهذا القرآن كتاب أنزلناه، وجعلنا فيه الخير الكثير، يصدق ما جاء من الحق في الكتب التي سبقته، ومع ذلك نتمكن بواسطته من إنذار أهل مكة ومن حولها، ولكن الذين آمنوا قد تحقق منهم الإيمان باليوم الآخر وسَمَوْا فهم يحافظون على صلاتهم بحسن أدائها في أوقاتها.

إن أقبح أنواع الظلم وأشدها، هو ظلم من تجرأ على الله فكذب عليه، أو قال: تلقيت وحيا من الله، وهو لم يصله من أنوار الوحي شيء. ومثلهما من قال: إني أستطيع أن أنزل مثل القرآن.

ولو تنكشف لك الصورة الحقيقية لشاهدت أمرا بالغا الحد الأعلى من الفظاعة، صورة الظالمين الذين تجرؤوا على الله، وهم عند النزع والملائكة الموكلون بقبض أرواحهم يقسون عليهم، ويقولون لهم أخرجوا أرواحكم لتلقى جزاءها، إن جزاءكم اليوم العذاب الجامع بين الألم والمهانة، وهو جزاء عدل مسبب عن كذبكم على الله، واستكباركم عند سماع آياته.

بيان المعنى العام :

91-وما قدروا الله حق قدره....في خوضهم يلعبون.

تمضي هذه السورة تقيم الحجج على صدق رسالة الإسلام، وتهدم ما يحتج به المعاندون، وتبكتهم بإبراز تناقضاتهم وغفلتهم وعدم مسايرتهم لصرامة المنهج العقلي.

لما ضيق القرآن الخناق على المشركين، وحاجهم فأبكتهم، لجأوا إلى إنكار بعثة الرسل جميعا، وهذا مظهر من مظاهر تأصل العناد فيهم ونكرانهم للبديهيات وفساد تركيبهم العقلي. هم يدعون أنهم على دين إبراهيم ويعدون هذا الانتساب من مفاخرهم، ولكن مقاومتهم للإسلام سولت لهم أن ينكروا حتى وجود المرسلين قبل محمد ﷺ، لعل هذا الإنكار يحسم في تصورهم الدعوة التي جاء بها. وهذا من وقاحتهم وجهلهم بالله، ذلك أن حكمة الله الذي استخلف الإنسان في الكون، تقتضي أن يساعد المستخلَف في أداء مهمته، فرزقه العقل، وبعث رسله يهدونه في مسيرته ليؤدي دوره في الاستخلاف بما يحقق عمارة الأرض وإصلاحها. فإهمال الإنسان وتركه ينشط غير معان بوحي صادق، هو اختلال للميزان، لا يليق بالحكيم فما قدّر المشركون العليم الحكيم حق قدره.

شنع القرآن عليهم هذه المقالة، وأحالهم إلى أمر واقع في حياتهم، إن مشركي مكة لهم صلات مع اليهود في المدينة وغيرها، وكون اليهود هم اتّباع الديانة التي جاء

بها موسى عليه السلام أمر بديهي يدركه العامة والخاصـة ولا يسـتطيعون إنكـار ذلـك، فوجـه لهم السؤال التالي : من أنزل التوراة التي جاء بها موسى؟ أجيبوا.

وأدمج القرآن عند ذكر التوراة كونها نـورا أي حقـا واضـحا، وأنهـا مـع ذلـك هـدى ترشد إلى الصراط المستقيم بني إسرائيل وهـم النـاس فـي الآيـة، لأن التـوراة تشـريع خاص ببني إسرائيل، ولم تكن دعوة موسـى عامـة للبشـرية، إذ عمـوم الرسـالة مزيـة رسالة محمد ﷺ.

وبمناسبة ذكر التوراة التي نوه بها، شنع بموقـف اليهـود مـن هـذا النـور والهـدى، إذ حولوها بعد أن كانـت مجموعـة فـي كتـاب إلـى وحـدات، كتبوهـا فـي قـراطيس وفرقوها بطائق، قصد إخفاء بعضها الذي يخالف هـواهم وإظهـار الـبعض الـذي يحقـق لهم ما يرغبون في إظهاره .وذُمُّوا لهذا القصد السيء بالتفريق.

وظاهر النظم القرآني أن الخطاب موجـه إلـى بنـي إسـرائيل، وقـد قـدح المفسـرون عقولهم لجعل الخطاب موجها للمشـركين، ووجـدت فيـه تعسـفا. وتحيـر بعضـهم فـي توجه الخطاب إلى اليهود بقوله :**(تجعلونه قـراطيس)**لأن الإفحـام ابتـدأ مـع المشـركين والتحدي بمن أنزل التوراة مع المشركين أيضا.

وعندي أن الثابت أن النبي ﷺ كلما نزلت عليه آية مـن القـرآن أمـر كاتـب الـوحي أن يكتبها في مكانها: بعد كذا وقبل كذا. فلما انتقل إلى المدينـة وكانـت سـورة الأنعـام مـن آخر ما نزل عليه، وقـاوم اليهـود الـدعوة بصـنوف مـن المكـر والـدهاء والخبـث حسبما تبين لنا فيما سبق عرضه من آيـات، فلعلهـم بتنويـه القـرآن بـالتوراة ووصـفها بالنور والهدى، قد اتخذوا ذلك ذريعة لـرفض الإسـلام بادعـاء أن التـوراة تكفـي عـن غيرها. فأنزل على رسـول الله فـي وصـف اليهـود أنهـم أخفـوا بعـض هـذا النـور والهدى، وخاصة ما يتعلـق بالبشـارة ببعثتـه وأخـذ الميثـاق علـى آبـائهم بنصـرته. ووضعت في مكانها من سورة الأنعام هذه. ومـا نقلنـاه مـن أن سـورة الأنعـام نزلـت جملة واحدة لا يتنافى مع إلحـاق آيـة بهـا. وقريـب مـن هـذا مـا أخرجـه البخـاري والترمذي. وأحمد وابن حبان وغيرهم أن النبـي ﷺ لمـا نزلـت عليـه آيـة **(لا يسـتوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سـبيل الله بـأموالهم وأنفسـهم)** وكتبهـا كاتـب الوحي زيد بن ثابت رضي الله عنه. وكان ابن أم مكتوم حاضـرا فقـال : يـا رسـول لـو أسـتطيع الجهاد لجاهدت، فأنزل الله على رسوله بواسـطة جبريـل **(غيـر أولـي الضـرر)** فـأمر رسول الله صلى الله عليه وسـلم أن يلحقهـا علـى النحـو المثبـت فـي المصـحف **(لا**

يستوي القاعدون من المـؤمنين غيـر أولـي الضـرر والمجاهـدون فـي سـبيل الله) والحديث يبلغ حد الشهرة[1].

وسؤال ثان مطوي دل عليه نسق الآية : أجيبوا من علمكم مـا لـم تكونـوا تعلمونـه أنـتم ولا آباؤكم من سنن الله في الماضين، ورسالاته إلى البشر وما وقع لهم ؟

يثبت القرآن بهذا السؤال الذي تحدى بـه المشـركين فـي مكـة: أن القـرآن دليلـه مـن ذاته، فما ورد فيه حجة قائمة على صدقه، إذ أن ما أخبـر بـه مـا كـان يعلمـه العـرب ولا آباؤهم في جاهليتهم.

ولذا كان الجواب باتا وقاطعا ومنصـرفا عـن انتظـار مـا يقولونـه ويجيبـون بـه. ولا جواب غيره. قل: الله. فهو الذي أنزل التوراة علـى موسـى وكَـذَّبُوا فـي نفسيهم عنايـة الله بالبشر وإرسال الرسل إليهم. وأن الله هـو الـذي علمهـم مـا لـم يكونـوا يعلمـون. فإنزال التوراة رد لقولهم : ما أنزل الله علـى بشـر مـن شـيء.والتعلـيم الحاصـل فـي مداركهم الذي حصل لهم بدون تسبب ولا تعلـيم ولا بحـث، هـو دليـل آخـر علـى أن القرآن منزل من عند الله. وبعـد أن أفحمهـم القـرآن، توجـه إلـى الرسـول ﷺ بقولـه: اتركهم في تخليطهم وعبثهم، مبتعدين عـن الجـد منصـرفين إلـى اللهـو، إن مسـتواهم الفكري هو مستوى الأطفال الذين لا هم لهم إلا اللعب.

92-وهذا كتاب أنزلناه....صلاتهم يحافظون.

لما كان العلم الحاصل بالقرآن شـاملا للمـؤمنين والكـافرين، وتلـك مزيـة مـن أعظـم مزايا القرآن، ثنى على ذلك بإبراز بعـض خاصـيات القـرآن الكتـاب المنـزل. فأشـار إليه بقوله:[وهذا]واصفا له بـأن موثـق مكتـوب لا يدخلـه الزيـد ولا الـنقص، وأن مـا يحصل به من الخيرات لتاليه والناظر فيه والعامل بـه يتضـاعف مـع الـزمن **(مبـارك)** وصلته بالكتب السابقة قوية، ذلك أنه جاء بالحق، والحـق واحـد لا يختلـف، فهـو يؤكـد ما جاءت بـه مـن أصـول العقيـدة وطهـارة السـلوك، ويسـمو بتلـك القـيم دون أن يناقضها، وباعتبار أنه الكتاب الخاتم والتشـريع الربـاني الأخيـر كـان مناسـبا للمرتبـة التي بلغتها البشرية، فاتحا لها مسالك التطور الإيجابي.

ويحقق ما أوكل إليك من إنذار أهل مكة ومن حولهـا مـن القبائـل الـذين يفـدون إليهـا فيسمعون آيات القرآن كما يسمعها أهلها. وإن كـان القـرآن منـزلا لينـذر بـه الرسـول البشرية سوء العاقبة إن هم لـم يسـتجيبوا، إلا أن قصـر ذلـك علـى أهـل مكـة ومـن

---

[1] فتح الباري ج9 ص33/328. والدر المنثور ج 2 ص363/361

حولها في هذه الآية مراعاة لما سبق من مجادلة الرسول لهم، لأنهم هم الذين أنكروا أن الله أرسل رسلا.

ولما كان المؤمنون الأولون ما زالوا في مكة مختلطين بالمشركين، ميزتهم الآية بأن الله يعلم أنهم يؤمنون بالآخرة ويؤمنون بالقرآن، ونوه بمحافظتهم على الصلاة التي هي شارة صفاء العقيدة وعمق الإيمان.

93-ومن أظلم ممن افترى...عن آياته تستكبرون.

نوع آخر من الرد على مزاعم المشركين من عدم إنزال شيء من الوحي على أحد، ما صرحت به الآية :أن أشد أنواع الظلم أن يختلق الإنسان كلاما وينسبه إلى الله، أو قال أوحي إلي ولم يتلق أي وحي، ومثلهما من بلغت به الجراءة والادعاء، فزعم أنه سيخرج للناس كلاما في مستوى ما يدعيه محمد أنه أنزل من عند الله. ووجه الرد أن الرسول ﷺ موقن ومصرح أن ما ينكره المشركون ويتهمون من وراء إنكارهم رميه بالاختلاق والتزيد ونسبة أقوال من عنده إلى الله، إن ذلك لا يتصور أن يلتصق به لأنه يعتبره أعظم ظلم يصدر عن إنسان، وأنه المتهيب أن يقول عن الله ما لم يأذن له به.

وهذه الآية توقظ البشر حتى لا يقعوا في شراك بعض الدجاجلة المدعين أنهم تلقوا وحيا من الله، كما تروجه مثلا فرقة البهائية الضالة: أن البهاء تلقى عن الله وحيا يكمل به رسالة الإسلام.

لو ترى يا محمد، ومثله كل من تصح منه الرؤية، لرأيت أمرا فظيعا غاية الفظاعة تذهب النفس في تصوره كل مذهب لشدة هوله، هذا الأمر المهول هو وضع الظالمين، ويدخل فيهم دخولا أولياء المتجرئون على الله الذين فضحت الآية السابقة جراءتهم، وضعهم عند نزع أرواحهم وهم يقاسون شدائد النزع، في هذه الحالة تكون ملائكة الموت يبسطون أيديهم لاقتلاع أرواحهم، ويصحبون فعلهم ذلك بمخاطبتهم :الفظوا أرواحكم وأخرجوها من أبدانكم. والظاهر أن المقصود ليس بسط أيد، ولكنه تمثيل لما يعانونه عند النزع من العذاب والغلظة، وليس أمرا بإخراج الأرواح ولكنه زجر وإرهاب، وإعلامهم من طرف الملائكة بما يزيد في كمدهم وعذابهم : أنهم سيجزون العذاب الجامع بين الآلام وبين المهانة والذل. يقولون لهم :هذا جزاؤكم عما قدمتموه من الكذب على الله بقولكم :ما أنزل الله على بشر من شيء، وتقديمكم لأصنامكم شركاء له، وجزاؤكم عن استكباركم لما كانت آياته تتلى عليكم فتعرضون ولا تكترثون بها وترون أنفسكم أرفع من قبول الهدى.

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ
وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ
عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

فرادى: كل واحد منكم جاء منفردا.

ما خولناكم : ما أنعمنا به عليكم.

الزعم : القول الباطل بناء على تعمد للباطل، أو عن سوء تصور واعتقاد.

بيان المعنى الإجمالي :

يواجه المشركون يوم القيامة بإسماعهم ما يضاعف حسرتهم وندمهم مع اليأس من إصلاح وضعهم :ها أنتم قد قدمتم منزوعين من الصلات كحالتكم يوم خلقكم الأول. كل ما كسبتموه في حياتكم من مال وقرابة، وقبائلكم وجاهكم، قد تركتم كل ذلك خلفكم. وأين الشفعاء الذين كنتم تعتمدون عليهم وتصرحون بذلك؟ لا وجود لهم لا يرون، لقد تمزقت كل الروابط، وكل واحد منكم فرد يواجه مصيره.

بيان المعنى العام :

94- ولقد جئتمونا فرادى...ما كنتم تزعمون.

يعاقب المشركون جزاء استكبارهم المعتمد على ما كان لهم من أنصار ومن قوة، بمواجهتهم بذهاب ما كانوا يعتزون به، إمعانا في إهانتهم وتعذيبهم. يستمعون إلى تأكيد مفاده : أنكم قد بعثتم وقدمتم إلى الحساب ولا نصير لكم ولا مؤيد ولا رابطة بينكم وبين أي كان، كل واحد منكم فرد نزع منه ما كان يتقوى به من صلات، غريب كاليوم الذي خلقته فيه أول مرة. كنتم تتقوون بالمال والأولاد والقبيلة والصحة والشجاعة، تركتم كل ذلك في الماضي البعيد، لا تجدون أثرا منه في موقفكم هذا، وما زعمتموه من أن أصنامكم تشفع لكم، أين هم؟ ليس لهم أي حضور. تمزقت الروابط التي كنتم تتقون بها، والتي نفخت أوداجكم وعتوتم بها عتوا كبيرا. وضاع ما كنتم تدعونه من الآلهة، فلا علم لها بحالكم ولا يسمعون دعاءكم، ولو سمعوه ما استجابوا لكم. وفي هذه المواجهة بإعلان وضعهم، وإن كانوا يحسون به، ما يضاعف إهانتهم ويثير فيهم قوارع الندم غير المفيد.

إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ
ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ
ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ
ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ
وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا
مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ
مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

بيان معانى الألفاظ :

فالق : الفلق: الشق.

الحب : البذور التي تخلف بها الأصول.

النوى : جمع نواة الجسم اليابس داخل التمر.

أنى : لا يوجد موجب.

تؤفكون : تصرفون عن توحيده والإقرار بتفرده بالخلق.

فالق الإصباح : مظهر الصبح من ظلمة الليل كأنه يشقه.

سكنا: تحصل فيه الراحة من نصب النشاط.

حسبانا : منظم أمرها بحساب دقيق.

العزيز: النافذة قدرته، فكل شيء مذلل له.

النجوم : جمع نجم، وهو الكوكب المشع في الليل الذي يرى صغيرا.

أنشأكم : أوجدكم.

مستقر : من القرار والثبات.

مستودع : بقاء إلى أمد.

يفقهون : الفقه هو الإدراك الحاصل بعد التأمل والتدقيق.

الطلع: الوعاء الذي خرج منه.

قنوان : جمع قنو، وهو العرجون.

دانية : قريبة.

ينعه: طيبه، ونضجه.

بيان المعنى الإجمالي :

هذا المقطع يثبت أن الله هو المتصرف في الكون. هو الذي فلق الحب والنوى بعد أن انفصل عن أصله ومات وأصبح يابسا، أخرج منه ما هو حي من الزروع والنخيل، كما يخرج من النبات الحي وثمار النخل البذور الميتة اليابسة، إن الذي خلق وتصرف هو الله وحده لا شريك له، فهل يوجد ما يصرفكم عن توحيده وعبادته. وهو الله الذي يخرج الصباح المضيء من الظلام الدامس، وهو الذي جعل الليل لتسكنوا فيه وتستجموا ويعود لكم نشاطكم، ويرتبط النهار بالشمس ويبدو القمر في الليل على أقدار متفاوتة، وحركاتهما في الفلك تجري على حساب بالغ الدقة، قدر ذلك وأجراه الله الذي يخضع له كل شيء، وهو العليم بالظواهر والخفايا. تأملوا في السماء كيف انتشر فيها ما لا يعد من النجوم. وفتح عقولكم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر. آيات مؤكدة للتصور الإلهي في العقيدة الإسلامية لمن أوتي من العلم ما يستطيع به رصد ظواهر النجوم.و الله سبحانه هو الذي كون الإنسان من نفس واحدة فتكاثر نسله وعمر الأرض وقدر له ما هو كامن في ذاته ليتحول من وضع إلى وضع آخر، فما إن يستقر في وضع حتى يكون استقراره مهيئا له لينتقل إلى وضع آخر، كأنه كان في الوضع الأول وديعة غير ثابتة. وقد فصل سبحانه الأدلة ولم يجملها فبالتأمل في كل ما يتعلق بالإنسان في مختلف أوضاعه تقوم البراهين، لكل من يتعمق في النظر، على تفرد الله بالخلق والتقدير.

وهو الله وحده الذي أنزل من السحب الماء على الأرض، فتأملوا في هذا الترتيب العجيب الذي يحدث في الكون. يتخلل الماء في طبقات الأرض فيبرز كل نبات، وبعد الإنبات تذهب كل نبتة في اتجاهين متعاكسين، اتجاه ينفذ إلى باطن الأرض يُروّي ويُغذّي، واتجاه إلى ظاهرها يستمد من الشمس والهواء ما يبلغ به الغاية المقدرة له، وإذا الأرض بساط أخضر نضير، ثم هي سنابل وأشكال من الحبوب المتراكمة كسنابل القمح والشعير تُكوِّن بحرا يموج مع حركات النسيم. وبجانب ذلك ترى النخل تخرج منه حاضنات الطلع تبدي منه ما يتم منه التلقيح وإذا هي العراجين المملوءة بالتمر الحلو الشهي القريب من الإنسان مهما طالت أشجار النخيل، فقد أودع في الصبيان فضلا عن الشباب والكهول قدرة على بلوغ أعاليها. وبجانب النخيل يُخرج بهذا الماء النازل جنات من الأعناب، ومن الزيتون والرمان.

الماء واحد والأرض واحدة والثمار متنوعة قد يكون بينها تشابه في اللون والشكل والمذاق، وقد يكون بينها اختلاف. تأملوا في الثمار في بداية أمرها، وعندما تنضج وتتهيأ للقطاف، في الشكل واللون وفي الطعم والتمكن من منابتها. كل ذلك يقوم شاهدا على حكمة الخالق وتفرده بالتقدير العجيب. والمؤمنون هم الذين يربطون بين تلكم المظاهر وبين مبدعها، فيتعمق إيمانهم ويزداد تألقا وينعمون بالطمأنينة لما يعتقدونه.

بيان المعنى العام:

95-إن الله فالق الحب والنوى...فأنى تؤفكون.

بعد أن أبطل القرآن جميع حجج المشركين وهددهم ووصف من سوء مصيرهم ما وصف، انتقل إلى الاستدلال على ما تضمنته العقيدة الإسلامية، وإلى تحريك العقول للنظر في كتاب الكون لتستفيد منه دلائل التوحيد، ولتتوجه لسبر ما أودع الله في هذا الكون من نظام ييسر لها القيام بتحقيق الخلافة في هذا العالم.

سِرْ في البرية بعد أن لفحتها الهواجر وجففتها أشعة الشمس المحرقة، وانظر إليها جرداء لا نبات ولا شجر، ثم انظر إليها بعد أن روتها الأمطار فتخللت المياه باطنها. انظر إليها وقارن بين ما كانت عليه وهي ميتة، والصورة النضرة التي تحولت إليها وقد كسيت ببساط أخضر يبهج النفس ويملأ العين من جمال الحياة، راقبها متأملا فستجد أنها في حركة مستمرة، تنمو كل يوم وتزداد فروعها طولا وامتلاء. يدعوك القرآن أن لا تمر على هذه التحولات غافلا، اعمل نظرك فيها. إن الأعشاب والزروع التي قتلها الحر تركت في الأرض قبل أن تيبس وتموت، حبوبا جفت معها وسقطت منها، هي خلفها وامتدادها في الوجود. فإذا تلكم الحبوب بعد أن رواها الغيث ودخلت مياه الأمطار في شعاب الأرض، تنفلق كل حبة يابسة ماتت مع أصلها فينزل منها إلى باطن الأرض ما تنغرس به فتثبت وتتغذى، وترفع رأسها إلى أشعة الشمس تتقوى منها وتخضر. فسبحان من أخرج من الحبة الميتة نسخة من الأصل عادت بها دورة الحياة بعد الموت. إن هذه الدورة الذاهبة في مسارها حسب قوانين مضبوطة سوف تأتي على تلكم الخضرة اليانعة بما هي عليه من نماء وحركة فيخرج منها الحب اليابس الميت قبل أن تموت. وكما تتولد من الحبة اليابسة أنواع لا يحدها الإحصاء من الزروع والزهور والبذور والثمار، فكذلك على نفس التقدير المحكم تنفلق نواة التمرة فتمد في حركة متقابلة، تمد أصلها

إلى باطن الأرض ورأسها إلــى الســماء، حتــى تنضــج مــن أعــذاقها التمــور، وكــل واحدة منها تحتضن نواة تدور منها دورة الحياة من جديد.

96-فالق الإصباح....العزيز العليم.

إن الفاعل المنظم لتلكم الدورات هو الله. فلا يبقــى مــا يضــللكم لــو تــأملتم، ولا يوجــد موجب يصرفكم عن توحيده والإقرار بربوبيتــه وتفــرده بــالخلق والتقــدير. وإلــى أيــن تذهبون بحثا عن الجواب ؟ لا جواب إلا جواب واحد.

إنه بجانب فلق الحبة والنواة، انفلاق يخرج به الصــباح مــن الليــل. ثــم يغشــي الليــل بظلامه الكائنات فتنقلــب الحركــة التــي كانــت تضــطرب بهــا الحيــاة فــي الإنســان والحيوان، تنقلب إلى سكون يشمل الكون كله فيخلف كل كــائن مــا أضــاعه مــن نشــاط في النهار بسكونه في الليل. وهكذا في دورة متجــددة كــل يــوم، يتفاعــل معهــا الإنســان والحيوان والنبات.

وظاهرة كونية عظيمة أخــرى تتفاعــل معهــا الكائنــات أيضــا وتــؤثر فيهــا، الشــمس بالنهار والقمر بالليل، لفت القرآن إلى ناحية مــن خصائصــهما: أنهمــا يســيران بحســاب دقيق بالغ الدقة. إن هذه الظواهر الكونيــة التــي لفتــت الآيــة أنظــار المــؤمنين إليهــا، لتحرك بصائرهم:

أولا :إلى ما يقوي الإيمان في قلوبهم. فمــن الحبــة الصــغيرة وتحولاتهــا إلــى الشــمس والقمر وسيرهما المنتظم يؤكد ذلك قدرة الله وحكمته وأنه هو الخلاق العليم.

وثانيا: ليكتشفوا القوانين التي بنى الله عليها سبحانه الكــون ورتــب هــذا النظــام الســائر من الحبة والذرة إلى الشمس والقمر. وفي ذلك مــا يحــتم علــى أمــة الإســلام أن تمتلــك المعرفة بالبحث والتدقيق، والكشف عن ســنن الله الثابتــة، وأن تبنــي علــى كــل مرحلــة وصلت إليها ما يليها من مستويات المعرفة.

تقرأ ما بين دفتي التوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب الدينية فلا تجد ما يجمع بين العقيدة والعلم كما تجده في القرآن. ولكن المسلمين فرطوا وما زالوا مفرطين. فإذا ما طلع العلماء عليهم بكشف جديد وتدقيق ينفي التعميم، يبتهجون بأن القرآن راعى في تعبيره، أو لفت النظر ليستقصي المؤمنون مظاهر الوجود التي أشار إليها. وما يزال العلماء في الأمة الإسلامية عالة على ما تسمح لهم الأمم المتقدمة بمعرفته، لا يخرجون من دور التقليد المنحط إلى المستوى الذي يدعو له الإيمان من التأمل في خلق الله.

فإذا كان رواد الحضارة الحديثة قد أهدروا جهودا فــي تفســير هــذا النظــام، ورغــم مــا وصلوا إليه من كشوف علمية كان لها أثرها فــي ســيادتهم الحضــارية، فــإنهم فرضــوا

افتراضات لا تسمو عن الخيال في ميدان العلم الدقيق. فإن الإسلام يحل هذه المشكلة بلفت البصائر إلى حكمة الله في الكون، ويربط العلم بالإيمان ويخرج الإنسان من التيه إلى برد اليقين.

97-وهو الذي جعل لكم النجوم...لقوم يعلمون.

ثم يلفت القرآن أنظارنا إلى التأمل في هذه القبة التي تحيط بنا، وتلمع نجومها في الليل تتجاوز الحصر، لها مساراتها الثابتة وخصائصها المقدرة، وأول ما يستفيده منها الإنسان إذا تأمل، أنه يستطيع بمعرفة منازلها الاتجاه الذي يُـؤَمِّنُ مساره ليصل إلى غايته المقصودة، سواء أكان سائرا في ظلمات البحر أم في مفاوز الصحراء المترامية الأطراف.

تحركت الدول المتقدمة لمعرفة أسرار بعض هذه النجوم فأرسلت مسابيرها مستكشفة، فأفادت تقدما علميا في الوسائل المبلغة وفي معرفة الكون، وتحكمت بذلك في فروع تطبيقية تقوي سيادتها وتمكن لها في الأرض. هي آيات ناطقة لمن يستمع، منادية بأن أسرارها غير محجوبة عن الجادين الذين لهم عقول متعطشة لتروى من نبع المعرفة، هي لا تقنع بالظواهر بل تتجاوزها إلى الأعماق كلما بلغت مستوى طمحت إلى ما وراءه. وهم القوم الذين عنتهم الآية : بأنها فصلت الآيات لقوم يعلمون.

98-وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة...لقوم يفقهون.

ثم ترقى القرآن في إيقاظ العقول لآياته فهزها لتتأمل فيما هو أعظم من كل ما لفت إليه القرآن الأنظار في الآيات السابقة، وهو خلق الإنسان.

أول ما يلفت إليه القرآن هو التكاثر البشري، أنشا الله الإنسان الأول فردا وحيدا، كما تقدم في سورة البقرة من خلق آدم عليه السلام. ثم تناسل منه أولاده بعد أن خلق منه زوجه حواء. وأجرى على الجنس البشري قوانين التوالد والتكاثر كما أجرى على الحب والنوى. والتذكير بهذا الإنشاء للإنسان بما له من خصائص تميزه عن سائر الكائنات فيه إثارة للعقل البشري ليتجاوز الظواهر إلى ما وراءها من نظام دقيق في الخلق، ليتعمق في إدراك خلق الإنسان في جميع مراحل أطواره، وما يكون عليه من صحة أو ما ينتابه من أمراض، بما يشمل علوم الحياة والطب والصيدلة، والعلوم المساعدة. وهي علوم سار فيها المسلمون أشواطا لعدة قرون ثم تخلوا عن السبق العلمي وأصبحوا يأخذون عن الأمم المتقدمة المقادير التي تسمح لهم بمعرفتها. فالآية تحرك العقل ليزداد الناظر إيمانا ولينفذ إلى قوانين الخلق فيحسن بذلك الخلافة في الأرض.

وأضافت الآية إلى تفرد الله بإنشاء الإنسان قوله: **(مستقر ومستودع)** والمستقر مأخوذ من القرار حسب الأصل اللغوي، والمستودع مأخوذ الودع. والقرار ثبوت، والودع بقاء إلى أمد محدود، شأن الوديعة تبقى عند المودَع إلى أن يطلبها صاحبها.فما المقصود بما أجراه الله على الإنشاء؟ اختلف المفسرون في المراد منه من أنه مودع في أصلاب الآباء، مستقر في أرحام الأمهات، مستقر في الدنيا مودع في القبر إلى يوم يدعى للحساب، إلى احتمالات أخرى. والذي ترجح عندي بسبب تأثير البساط الذي ورد فيه إنشاء الإنسان، والذي أبينه فيما يلي: إن هذا المقطع تضمن تحول إخراج الحي من الميت والعكس، فهو تحول تجري عليه دورة الحياة النباتية من الضد إلى الضد، وإخراج الصباح من ظلمة الليل، ثم انبساط ظلام الليل، والحركة الدائبة في النهار ثم السكون في الليل وهكذا دواليك، وظلام الليل المعمي على الإنسان وجهته إلى النجوم التي تلمع في السماء فتهديه إلى بلوغ مقصده. فلما عرض القرآن إنشاء الإنسان ألحق به أن هذا الإنسان يجمع بين حالتين : حالة يستقر فيها وحالة ينتقل منها، وهو في حال استقراره فيه استعداد كامن ليتحول عن تلك الحالة إلى حالة أخرى. فهو في بطن أمه مستقر استقرارا مؤذنا بانتقاله إلى الحياة على سطح الأرض، فهو مستقر ومودع. فإذا انتقل إلى الحياة فوق سطح الأرض فهو مستقر فيها مهيأ ليخرج من الحياة الدنيا إلى القبر أولا فيكون بالنظر إليه بعد ولادته مستقرا وبالنظر إلى الموت الذي يترصده فيأخذه مودع. وهو في قبره مستقر فيه إلى يوم بعثه فإن نظرت إليه بعد موته هو مستقر في قبره، وإن نظرت إليه باعتبار أنه سيحشر فهو في قبره مودع.

ومن دقة التعبير القرآني أنه ربط الحالتين بالواو**(مستقر ومستودع)**. ولخفاء هذا التقدير عبر القرآن عن التفطن إليه بالفقه، الذي هو مختص بإدراك الأمر الخفي الذي يحتاج إدراكه إلى فطنة. وتكون تلكم التحولات الجارية على الإنسان دليلا على تفرده سبحانه بالخلق، لأن الإنسان رغم تميزه بالإرادة والمسؤولية إلا أن ما قدر لِيَجْرِيَ عليه ليس له فيه دخل، وفي ذلك دليل على تفرد الله بالخلق لا شريك له. وهو ما انساقت الآيات السابقة لإقامته وتحقيقه.

99-وهو الذي أنزل من السماء ماء....لقوم يؤمنون.

آية أخرى يلفت القرآن إليها الأنظار لتدعم ما تقدم من الأدلة. وهي إنزال الماء الواحد الذي لا اختلاف فيه ، فإذا هو مع ذلك يؤثر الإنبات أولا ثم الآثار المختلفة، فتخرج بسببه النباتات اللاصقة بالأرض بلونها الأخضر الجميل، ثم يتهيأ ذلك

النبات الخَضِرُ ليتولد منه حب منسق بعضه فوق بعض كما يشاهد في السنابل، ويجري في عروق النخل فيبدو الطلع، وهو الغلاف السميك الحافظ والحاوي لزهر النخل، فينشق عنها لتبرز داعيةً للتلقيح، فتتحول بعد ذلك إلى عراجين محملة بالتمر والرطب، ووصف العراجين بأنها دانية. وبما أن الدنو معناه القرب حمله معظم المفسرين على أن الله امتن بالنخيل في شبابها عندما يكون جني تمرها قريبا من الجاني. ولكن النص القرآني في معرض الامتنان لم يخصص بل ربط الدنو بالنخل مطلقا.

ولذا فالذي أرجحه أن المعنى على أن الله أقدر الإنسان على جني ثمارها، فهي قريبة منه مهما ارتفعت في السماء أعاليها. وفي جميع المناطق التي تنبت فيها النخيل يقوم حتى الصبيان بجني التمر والرطب بكل سهولة.

ويخرج بهذا الماء النازل جنات من أعناب، كما يخرج به الزيتون والرمان، والملحظ الذي عنيت به الآية هو التأمل في ثمار الكرم والزيتون، فأنت إذا نظرت إلى أشجارها تجدها تكاد تكون واحدة لا خلاف بينها في الجذوع والأغصان وشكل الورق، ومع ذلك فهي في مذاقها قد يشبه بعضها البعض وقد يختلف، مما يقوم دليلا على أنها مخلوقة لفاعل مختار هو الذي فضل بعضها على بعض في الشكل واللون والمذاق.

وتختم الآية بدعوة صريحة عالية للنظر والتدبر المسترسل بين حالتين لما ذكر، حالة ظهور الثمر وحالة النضج، تحول في الحجم، وتحول في اللون، وتحول في الطعم، وتحول في التعلق بالشجرة. إن تلكم الأحوال تقوم آيات شاهدة للمؤمنين على حكمة الله وتحكمه في الكون. وإنما خص المؤمنين لأنهم الذين يربطون الحوادث بالخلاق العليم، فالمؤمن كلما وقف على ظاهرة من ظواهر الكون العجيبة يربطها بخالقها ويتآلف معها، وتسكب في روحه السكينة.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ
صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ
خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ
وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَاءَكُم بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ

فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الجن : مخلوقات لله من طبيعة نارية، لا تدركها حواس البشر.

خرقوا: كذبوا.

أنى : كيف، من أين ؟

الصاحبة : الزوجة.

وكيل : حفيظ رقيب.

اللطيف : يحتمل أن يكون المراد به تنزيه الله عن الإحاطة به فهو صفة ذات، كما يحتمل أن يكون معنى اللطيف على أنه صفة مبالغة لما يجريه سبحانه على مخلوقاته من الرفق والإحسان فهو صفة فعله سبحانه. الذي أحاط علمه بكل دقيق وجليل.

بصائر : جمع بصيرة، وهو العقل الذي تظهر به المعاني والحقائق.

درست : تعلمت.

بيان المعنى الإجمالي :

من ضلالات المشركين أنهم ادعوا أن الله له شركاء من الملائكة ومن الجن يتصرفون معه، ومن غبائهم أنهم غفلوا عما يعترفون به من أن الله هو خالقهم، ولا يعقل أن يكون المخلوق شريكا للخالق. إن الله الكامل منزه عما يصفه به المشركون. هو الذي أنشأ السماوات والأرض وما حوته على غير مثال سابق فكيف ينسب له ولد أو زوجة، وهم يعترفون بذلك. وكل الكائنات مخلوقة له على ما سبق في علمه، ولا يغيب عن علمه شيء. إن الكامل في ذاته وصفاته هو ربكم الذي اعتنى بكم فأخرجكم من ظلمات الجهل والشرك إلى أنوار المعرفة والتوحيد. هو المتفرد بالألوهية والخلق، فأخلصوا له في العبادة فإنه الحافظ لكل ما رُزِقْتم من خير. تنزه عن المادة فلا يراه البشر بعيونهم، والله لا يخفى عليه شيء فهو يعلم ما يبصره الإنسان وما قارن رؤيته من قصد حسن وخير أو قصد خبيث وشر، ليلقى حسابه. لقد أنزل لكم بهدي رسوله ما يبصركم بالحق ويبعدكم عن الضلال، فمن اهتدى بما أُنزِل إليه فلنفسه أبصر فاهتدى، ومن رفض فعمي عن الهدى فما أضر إلا نفسه. وليس رسول الله حارسا يحرسكم من الوقوع في الخطيئة. ويقول الله

تعالى: على هذا النسق أظهر الآيات المبينة لطريق الصلاح. وكان الأثر في الناس أن المشركين كابروا في الحق بعد ما تبين. وقالوا: علمتها من دراستك لما عند أهل الديانات السابقة، واقتنع بها المؤمنون فكانت بيانا للقوم العالمين بصدقك.

بيان المعنى العام :

100- وجعلوا لله شركاء...عما يصفون.

الشرك يقوم على ضروب من الأوهام، وقد عمل رسول الله ﷺ على نقضه، ففتح بصائر الناس على ما فيه من ضلال، ومخالفة لمقتضيات العقل. فمن ضلالات بعض المشركين ادعاؤهم أن الجن شركاء لله في ملكه. وقد سار العرب في تخيلهم للجن فاثبتوا لهم سلطانا على بعض الناس، وأنها تتشكل وأن لها أصواتا، وتقربوا إليها ليتحصنوا من بطشها بهم، واعتبروهم شركاء لله في ملكه. وينقض كل هذه التخيلات التي وصلت بهم إلى الشرك، أن الله خلق العابدين للجن وهم يعترفون بذلك، فكيف يشركون به من لم يخلقهم ؟ ويحتمل عود الضمير على الجن، أي إن المشركين من العرب يعترفون بأن الجن مخلوقون لله، فكيف يعتقدون أنهم مخلوقون لله ويشركونهم في الألوهية؟

وكذبوا في أمر آخر، فادعوا أن الجن أبناء الله وأن الملائكة بنات الله، أو أن الملائكة بعضهم ذكور وبعضهم إناث. فكان اختلاقهم هذا منبثقا من جهل فاضح عبر عنه القرآن بـ (**خرقوا**) والله منزه عما يصفه به المشركون. وأُفْهِمْ من كلمة (**خرقوا**) أنهم بنسبتهم البنات لله قد مزقوا النسيج العقلي فخرجوا من المعلوم إلى المجهول.

101-بديع السماوات والأرض....بكل شيء عليم.

هو الذي أبدع السماوات والأرض وخلقهما على غير مثال سابق، وإذا كانت السماوات والأرض على ضخامتهما مخلوقة لله والمشركون موقنون بذلك، فكيف يدعون أن الجن والملائكة شركاء لله لما لها من القوة في زعمهم، وأين قوتها من عظمة السماوات والأرض؟ وهم يدعون أن الملائكة في السماء والجن في الأرض والصحاري، فكيف تكون آلهة وهي محدثة بعدهما.

ثم طردت الآية ما نسبوه لله من ولد طردا يبعده عن التصور، فنفت أن تكون له زوجة مما يؤيد نفي الولد، لأن العرب وإن لم يدعوا لله زوجة، فإنه من المسلمات عندهم أن الولد لا يكون إلا بعد الزواج، فانتفاء الزوجة يتبعه انتفاء الولد. وبصفة عامة فكل شيء مخلوق لله، السماوات وما حوته والأرض وما يعمرها في الظاهر

والباطن. ويذكر القرآن في خواتم آياته بأن الخلق تحقق بعلم الله المحيط بالدقائق والتحولات.

102-ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو...وكيل.

الأوصاف التي جرت في الآيات السابقة أكدت تميز الذات الإلهية بأوصاف الكمال، فأشارت الآية إليه **(ذلكم الله)** هو ربكم الذي تولاكم بعنايته وألطافه. المتوحد بالألوهية، فما بكم من نعمة فمن خلقه، وما يحيط بكم من الكائنات فمن خلقه، وما مكنكم منه من الهداية والمعارف فمن خلقه، فكل شيء معنوي أو مادي من خلقه، وإذ شمل خلق الله كل مقوم من مقومات الإنسان في روحه وعقله وجسمه ورزقه، فحتم على كل إنسان أن يفرده بالعبادة وأن يجد في عبادته رضوانا واطمئنانا لعقله وروحه. وهو الحافظ لكم، لدينكم، ولعقولكم ولأجسامكم، ولعلاقاتكم الاجتماعية.

103-لا تدركه الأبصار وهو يدرك... اللطيف الخبير.

لكل إنسان سليم خمس حواس يدرك بها العالم المادي الخارجي: السمع والذوق والشم واللمس والرؤية. والرؤية هي أقوى الحواس التي يتصل بها الإنسان بالعالم الخارجي وبه يعرفه. فنفى الله سبحانه أن تدركه عين باصرة، لأنه تعالى أن يكون ماديا، وتصفه الآية بأنه لطيف، ووصفه سبحانه باللطف يحتمل أن يكون وصفا لذاته العلية، منزهة له عن إحاطة العقول بذاته فضلا عن الحواس، ويحتمل وصفه باللطف بالنظر إلى ما يجريه على خلقه من الرفق والإحسان. والمعنى الأول أقرب لاتحاده في النهاية مع قوله : **(لا تدركه الأبصار)**

وإذا كانت عيون البشر غير مؤهلة لرؤيته وهو واجب الوجود، فإن الله لا يخفى عليه شيء من أبصار الناس وما يستعملون فيه أبصارهم من الحلال أو الحرام ومن العبادة أو الإثم، وفيما ينفعهم أو يضرهم. فكلما وجه الإنسان بصره ليدرك الموجودات حوله، فإن باعثه على الرؤية الخفيّ في نفسه معلوم لله، ومحاسب عليه. وختمت الآية بوصفه بالخبير أي الدقيق علمه بالكليات والجزئيات، يعلمها قبل حدوثها وبعد حدوثها ولا تغيب عنه مآلاتها.

104-قد جاءكم بصائر من ربكم...بحفيظ.

يخاطب القرآن المرسل إليهم على لسان رسول الله ﷺ، فينبههم إلى أنهم قد ورد عليهم ما ينير قلوبهم للحق ويحميهم من الباطل، وهي دلائل على الحق لا تحتمل الزيغ أو اللبس، لأنها من رب العالمين وردت. وإذ ضمن القرآن الاهتداء بها فإنه ترك للإنسان الاختيار في اتّباع طريق الهدى أو طريق الضلالة، فمن قَبِلَ ما جاءه

واهتدى به فقد حصّل لنفسه الخير، ومن لم يلتفت لما جاءه من الهدى فإنما جنى على نفسه وأضر بها. ويقول الرسول: وذلك لأن مهمتي بوصفي رسول الله هي تبليغ ما أرسلت به ولست حفيظا عليكم أمنعكم من الوقوع في الخطيئة والإثم.

105-وكذلك نصرف الآيات...لقوم يعلمون.

ويظهر القرآن أنه على نفس السنن الذي أنزل به الآيات التي هي بصائر للناس، فكذلك يصرف الله الآيات التصريف الواضح الدلالة القوي التأثير، وقد أفضى هذا التصريف إلى التجاوب معه ولكن على نحوين:

الأول: قال المشركون لما بهتهم بيانه: هذا تعلمته من أصحاب الديانات القديمة.

الثاني: كان هذا التصريف والبيان هداية للقوم الذين استقر علمهم بصدقك، فكان جاريا على النسق الذي دل عليه قوله تعالى: (**هذا بصائر للناس فمن أبصر فلنفسه ومن عمي فعليها**)

ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

أعرض : لا تهتم بعنادهم.

الحفيظ : الحامي لهم من كل مكروه.

بيان المعنى الإجمالي :

واصل تبليغ ما أوحي إليك من ربك، هو الواحد الذي لا شريك له، ولا تهتم بعناد المشركين، ولا تحزن لشركهم ورفض الاستجابة لشرع الله، فإن الله خلق البشر على أساس أن كل فرد مختار لا مجبر، ومسؤول عن اختياراته، ولو شاء أن يجعل طبيعة الخلق البشري منساقة إلى الخير، لا تقدر على الشر والشرك لفعل، وعندها لا يستطيع أي منهم أن يشرك بالله. ومن ناحية أخرى فلا تحزن من عدم إيمانهم، فما أرسلتك مانعا لهم من الوقوع في الخطيئة، وما أنت وكيل عنهم تصرف أمورهم فتسأل عن شركهم.

بيان المعنى العام :

106-اتبع ما أوحي إليك.... المشركين.

هذا أمر من الله لرسوله أن يواصل الدعوة على النسق الذي سار عليه، فيتولى دوما إبلاغ ما أوحي إليه لمن آمن ولمن كفر. وفي ذلك تقوية لعزيمته للمضي في نشر

الدعوة وهداية الناس. وآنسَ القرآن الرسول ﷺ بإظهار صلته بالموحي إليه (ربك) وأدمج في هذه الوصية الحقيقة السرمدية أساس الدين الإسلامي (التوحيد). والإعراض عن المشركين، هو الإعراض المناسب للوضع العام الذي عليه المسلمون قبل الهجرة، يوم كان المشركون يبحثون عن التعلات للفتك بالمسلمين، فمهادنتهم بالإعراض عنهم هو الاختيار الأفضل في تلكم الظروف. وترفع النبي ﷺ والمؤمنون عن مجاراتهم في سفههم وقلة أدبهم هو نوع من الإعراض مأمور به في تلك الفترة.

107-ولوشاء الله ما أشركوا...عليهم بوكيل.

إن حب النبي ﷺ للناس وعمله تبعا لذلك على هدايتهم، وحرصه العظيم على بذل كل طاقاته للنجاح في مهمته الشريفة من القضاء على الشرك وإبلاغ شرع الله لهم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن ما لاقاه من مشركي مكة من العناد والرفض، كل ذلك ضاعف أساه وحز في نفسه الشريفة وسبب له كمدا، فسلاه ربه بتذكيره بالحقيقة التي بنى عليها سبحانه خلق الإنسان، أنه خلق الإنسان على أساس أنه مختار مسؤول عن اختياراته، غير مجبر على الإيمان ولا على الكفر، يواجه مصيره على ذلك، ولو شاء الله أن يخلق البشر بدون اختيار ومجبرين على التوحيد والخير لخلقهم كذلك، ولعجز أي واحد منهم أن يدعي لله شريكا. ويُذكّره مخففا من آلامه، بأن الله ما جعلك حاميا لهم من الضلال والكفر، وما أنت موكّل عليهم تصرّف شؤونهم باختيارك حسبما تقدره من المصلحة شأن الوكيل مع موكِله، هم أحرار يفعلون ما يختارون ثم يلقون جزاءهم تبعا لما اختاروه.

وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ

بيان معاني الألفاظ :

السب: الشتم بتعيير المخاطب بنقيصة بحق أو بباطل.

عدوا :عدوانا وظلما.

الإنباء : الإعلام.

الإشعار: الإعلام بما من شأنه أن يخفى.

الطغيان : التخبط في الشر والكبر.

العمه : التردد والتحير.

بيان المعنى الإجمالي :

شأن المؤمن أن يكون سببا في الخير لا في الشر، وعليه أن يكون يقظا لما يترتب على أقواله وأفعاله في الوجود من نفع أضر. ولذا منع القرآن المؤمنين من سب معبودات المشركين، لأن سبهم مظنة رد المشركين على الإثارة بتعديهم عن جهل بسب الله. وعلى هذا النحو من حجب الألطاف عن الفسقة والجهلة يستقر الانحراف في نفوسهم حتى يخالونها حسنة، وهم سيعودون إلى ربهم فيعلمهم بحقيقة ما صدر منهم لينفذ فيهم ما قدر لهم من جزاء.

ويوالي القرآن عرض ما قدمه المشركون من تعلات، فأقسموا بالأيمان المغلظة أنهم يقبلون ما جاء به رسول الله ﷺ إذا ما جاءهم من عند الله بمعجزة من المعجزات التي اقترحوها. فكان جوابهم أن شد من ساعد رسوله وأمره أن يرد عليهم بأن ما طلبوه قلب للأوضاع فإن الآيات هي ملك لله يظهر منها ما يشاء، وليس الله بمنتظر مقترحاتهم ليحققها لهم، ثم توجه للمؤمنين أن لا ينخدعوا بما يروجونه، فمن الذي ينبئكم عما خفي في نفوسهم؟ وهو أنه إذا جاءتهم المعجزة لا يؤمنون بها. ولا تنتفي حيرتهم فتأخذ عقولهم في تقليب ما ورد عليها لمحاولة التشكيك فيه لرفضه، وتظهر الحيرة على أبصارهم، وهو الشأن الذي قابلوا به الدعوة أول ما جاءتهم.

بيان المعنى العام :

108-ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله....بما كانوا يعملون.

أدبُ القرآن وتربيةُ السنة والمثال النبوي في الحياة، كل ذلك سما بأخلاق المؤمنين وعمل على نظافة ألسنتهم كعمله على نظافة ضمائرهم وأرواحهم. قال تعالى: **(لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظلم)**[1]. وتراعى هذه القيمة الخلقية في علاقات المؤمن بأخيه المؤمن وفي علاقته بغير المؤمن. أخرج الإمام مسلم بسنده إلى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : من الكبائر شتم

---

[1] سورة النساء آية148 (راجع ما قدمناه)

الرجل والديه، قالوا : يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟ قال : نعم، يسب أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه[1]. ومن يسب أخاه المسلم فاسق. روى الإمام مسلم بسنده إلى عبد الله بن مسعود ﷺ عنه. قال ﷺ : سباب المسلم فسوق. قال مالك: من آذى مسلما أدب. والمُحَكَّمُ فيما هو سَبٌّ: العُرْفُ. وفي المدونة ومن قال لرجل: يا شارب الخمر، أو يا آكل الربا، أو يا خائن، أو يا حمار، أو يا ثور، أو يا خنزير، أو يا فاسق، نكل به. وجعل الشيخ ابن عرفة الهجاء من السب[2]. وقد يبرر بعضهم التطاول على غير أهل دينه، وسب أصنامهم ومقدساتهم بأن ذلك دليل على قوة إيمانه واحتقاره للكفر، وفي معظم الأحوال يثير الشتم حفيظة المشتوم، ويرد الفعل بسب الله فتكون النتيجة أن الساب كان سببا في التطاول على الله. فنهت الآية عن سب المعبودات الأخرى لا تكريما لها، ولكن لتحقيق أمرين:

أولهما أن يكون المؤمن عفَّ اللسان غير فاحش ولا متفحش كما كان النبيﷺ.

وثانيهما :أن لا يكون سببا في التعدي على الذات الإلهية، وما يمكن أن ينشأ عن ذلك من الخصومة التي لا يتحكم في تطوراتها، دون أن يترتب على ذلك مصلحة دينية ولا اجتماعية. وقد نص الفقهاء على أنه إذا كان الكافر في مَنَعَةٍ ويعلم الساب أن الكافر لا يمتنع من رد الفعل فإن السب حرام.

ثم إن جراءتهم على سب الله، هو اعتداء، ناشئ عن جهل بمعنى أن فعلهم ذلك خروج عن الحق والصواب وتجاوز للحدود، وشاهد على جهلهم وفراغهم من العلم، وشأن الجهال أنهم يقتحمون المهالك دون أن يتفطنوا. فمن يجهل عاقبة عضة الأفعى مثلا ربما يعجب بشكلها فيأخذها ليلعب بها فيكون في ذلك موته.

ويذكرنا القرآن دوما بأن الله خلق الإنسان وقدر أن يكون حرا في تصرفاته مسؤولا عنها، يبني قراراته وأعماله إما على هدي من الشريعة والعقل، وإما انطلاقا من هواه وشهواته، وهو في الأول يتعلق بالجوهر والمآل، وفي الثاني يتعلق بالمظاهر والعاجل، فقد انحرفت أمم على رسلهم، وعارضوهم واختاروا مباهج الحياة وزينتها على الاستقامة والجد. وحبل الحياة الدنيا قصير وأيامها معدودة، فهم سيصيرون إلى ربهم الذي لا يغيب عنه أي شأن من شؤونهم ولا أي عمل من أعمالهم، فيعلمهم بما استقر في علمه مما قدموه. وفي ذلك إشارة إلى الجزاء الذي سيلقونه.

---

[1] إكمال الإكمال ج 1 ص191

[2] إكمال الإكمال ج 1 ص177

109-وأقسموا بالله جهد أيمانهم...لا يؤمنون.

يواصل القرآن في هذه السورة رد تعلات المشركين ولجاجتهم، فكان مما قدموه، شرطا لإيمانهم برسول الله ﷺ: أنهم لا يؤمنون برسالته حتى يأتيهم بدليل قاطع من الخوارق يثبت به أنه جاء من عند الله. وأقسموا على ذلك الأيمان المغلظة.
وكان الجواب قاطعا لحجتهم شجع فيه القرآن النبي ﷺ ليبكتهم بقوله : قل، ومضمون ما أمر بقوله :بيان أن الآيات المعجزات هي من ملك الله وقَدَرِه يبرز منها ما شاء كيف شاء في الوقت الذي يشاء، فهو سبحانه وحده الحاكم في الآيات، وليس لكم أن تقترحوا عليه أن يظهر لكم الآية التي اقترحتموها.
وكما ردت الآية على المشركين ببيان فساد مقترحهم، اعتنت بالمؤمنين فخاطبتهم خطابا ينفي رواج ما اقترحه المشركون، فقال تعالى :**(وما يشعركم)** أيْ :أيّ شيء ينبئكم ويعلمكم أن المعجزات التي اقترحوها لو تحققت لما كان لها أي أثر في اهتدائهم وقبولهم للإيمان، لأن اقتراحهم كان القصد منه التعنت لا الرغبة في حصول دليل يهديهم. فتوقع الإيمان منهم، ولو جاءتهم المعجزات التي طلبوها، بعيد منفي.

110-ونقلب أفئدتهم...في طغيانهم يعمهون.

نمنعهم الألطاف التي تفتح العقل والروح لاتّباع الهدى، فنجعل الآيات لو جاءتهم لا يسرعون لتقبلها، بل تسبق عقولهم إلى فرض الاحتمالات وفروض التشكيك، فيغرقون في تقليب وجوه الرفض، وتظهر تلكم الحيرة على أبصارهم، وهو شأن المتحيرين، أنك تجد أبصارهم منقلبة غير ثابتة، كأنهم يستمدون جوابا مِنْ مَأْتَى لا يعرفونه. وهذا كوضعهم عندما جاءهم الهدى أول مرة، فقد واجهوه بالرفض والبحث عما يدفعه، وتحيروا بين أمرين :
الأول : نصاعة الحجة وقوة الدليل وموافقة الدعوة للفطرة. وما في القرآن من إعجاز.
الثاني : جمودهم على ما هم عليه من الشرك وعبادة الأوثان، والوفاء للعادات التي عليها آباؤهم. فكانوا متحيرين، ولم يسعفهم الله بالتأييد، ولم يحطهم بألطافه، وتركهم تسير بهم عواطفهم في الضلال، التي من أشدها تأثيرا فيهم إفراطهم في الكبر، والِفْهمْ للشر حتى صار الشر طبيعة ثانية لهم وجعلوه منهج حياتهم، وتركهم الله فيما اختاروه لأنفسهم يتحملون عواقبه.

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ (111) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ (112) وَلِتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ (113)﴾

بيان معاني الألفاظ:

قبلا: المقابلة والمواجهة.

يوحي : الوحي الكلام الخفي النافذ إلى العقل.

الزخرف :المزين من الكلام لتضليل السامع عما فيه من باطل.

الغرور : الخداع.

تصغي : تميل فتقبل القول.

يقترفوا: يكتسبوا الإثم.

بيان المعنى الإجمالي :

إن صلابة المشركين في رفض الإسلام بلغت درجة قوية في العناد، فإنه لو عاينوا إنزال الملائكة، أو أحيى الله لهم موتاهم فاخبروهم، أو تجمّع حاضرًا أمامهم جميع ما طلبوه من المعجزات، لو تم كل ذلك فإنهم مواصلون الثبات على شركهم، ولن يخرجوا منه إلا إذا أسعفهم الله بألطافه وأزاح عن عقولهم الثبات على العناد. ولكن أكثر المشركين جهلة بقدرة الله على تيسير الخير لهم. وعلى هذا النحو جعلنا للأنبياء قبلك أعداء من الفسقة الفجار من البشر ومن المرد ة الكفار من الجن، يتعاونون فيما بينهم ويسر بعضهم إلى بعض ما يمضون به في فسادهم من القول المضلل الذي يغرون به، ولو أراد الله منعهم لمنعهم. فلا تهتم بهم واتركهم يتخبطون في أكاذيبهم وافتراءاتهم.

وقد تمكنوا من تغرير الذين لا يؤمنون باليوم الآخر ولا يخشون الحساب فاستمعوا إليهم، وجاروهم فيما يدعون إليه، وتمكنوا من عقولهم فرضوا بوسوستهم، وانغمسوا في الفساد الذي أصبح سجية لهم.

بيان المعنى العام :

111-ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة...أكثرهم يجهلون.

يواصل القرآن دحض تعلة المشركين بأن إيمانهم متوقف على ظهور المعجزات التي اقترحوها، فيكشف عن عنادهم الذي هو الداء الدفين في عقولهم الذي حرمهم الإيمان. ويؤكد أنه لو تهيأ لهم حضور ما طلبوه، وشاهدوه بأعينهم فإنهم لا يؤمنون. وعددت الآية بعض مقترحاتهم التي منها: أن ينزل الله مع رسوله ملائكة يخاطبونهم، أو أن يحيي الله بعض الموتى فيشهدون بصدق الرسول، وحتى لو جمع الله لهم كل شيء سألوه من خوارق العادة، فرأوه عيانا وكان حاضرا أمامهم، ما انصاعوا للإيمان ولا دخلت الهداية قلوبهم، لقساوتها وتمردهم، ولكن عندما تتعلق مشيئة الله بهدايتهم فإنه سبحانه يسعدهم بالألطاف التي تفتح بصائرهم على الحق فيتركوا العناد. والواقع أن أكثر المشركين غارقون في الجهل الذي حجبهم عن إدراك أن الأمر كله بيد الله. وفي تعليق ذلك بالأكثر إنصاف من ناحية لأن بعضهم مهيأ للإيمان من ناحية أخرى، وفعلا فإن الإسلام قد كان ينتشر كل يوم بين المشركين إلى أن كان فتح مكة فدخل الناس في دين الله أفواجا.

112-وكذلك جعلنا لكل نبي....فذرهم وما يفترون.

وأعلم الله نبيه أن هذا النسق مضى عليه من سبقه من الأنبياء برفض الإيمان والتصلب في الكفر، وعداوة المرسلين والأنبياء. فكل نبي بعث قوبل من خبثاء الإنس ومن مردة الجن المفسدين بالعداء ومحاولة صده عن تحقيق ما أوكل إليه من هداية البشر إلى الخير. إنها عصابة سوء يتساندون على الشر ويوسوس بعضهم بالقول أو بالفعل ما يضيف إلى مكر كل فريق صورا في الإفساد والتضليل، يلبسون الباطل بزينة جانبية خادعة إمعانا في التغرير.

لا تبتئس يا محمد فهذه سنة الله في الخليقة تكررت على مر العصور، ولو شاء الله أن يخلق الناس مهتدين يسرعون إلى قبول الحكمة والخير لما أعجزه ذلك، وما استطاعوا أن يفعلوا ما فعلوه من التضليل والعناد. فاتركهم يتخبطون في أكاذيبهم فإنهم لن يضروك شيئا.

113-ولتصغي إليه....مقترفون.

وكشف القرآن عن قوتهم في التغرير والتلبيس بما يزينون به أقوالهم من زيف، فقد استطاعوا أن يؤثروا في المشركين الذين لا يؤمنون بالآخرة الذين ليس عندهم رقيب على ما يصدر عنهم من خير أو شر، فهؤلاء يستمعون إليهم استماع المنقاد لوسوستهم الراضين بها، فيقعون في الإثم ويتتابعون في السيئات والفساد.

أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ
ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ
كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ
أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحكم : الحاكم المتخصص الذي لا ينقض حكمه.

مفصلا : مبينا.

تمت : التمام بلوغ الشيء كماله، ويقدر ذلك في كل مقام بما يناسبه.

مبدل : التبديل جعل شيء مكان شيء آخر.

إن تطع: تفعل ما يأمرك به بدون رفض.

يخرصون : الخرص القول بالتخمين الذي لم يسنده دليل ولا حجة.

بيان المعنى الإجمالي :

يرشد القرآن رسول الله ﷺ أن يقول للمشركين عندما دعوه ليحتكموا إلى غير الله، أن يقول لهم : كيف يتصور أن أطلب حكَما غير الله، وهو الذي أنزل إليكم القرآن مفصلا، فيه جميع القضايا التي تهم الإنسان في حياته الدنيا وفي معاده. واليهود الذين آتاهم الله الكتاب، التوراة، المنزل على موسى يعترفون بهذه الحقيقة، وأنه مرتبط بالحق ارتباطا جذريا. وكن واثقا أنهم يعترفون بذلك في باطنهم وإن أحجموا عن إعلانه ولا تشك في ذلك. كيف لا وقد بلغت كلمات الله (القرآن) الكمال الذي ليس فوقه كمال مما ينفع الناس، ويعلن الحقيقة في كل موضوع من المواضيع التي تناولها. والحق الذي نزل به لا يقبل التبديل ، فكل مبدل ينكشف سقطه وضلاله. والله يسمع ما يدبر به المناوئون للقرآن ويعلم ما تكنه صدورهم، وسوف يجازيهم بما مكروا.

علّم المؤمنين أن يعتمدوا على حجج العقل أو صادق الوحي، وأن الكثرة العددية للكافرين لا تكسب آراءهم صدقا، فلا تتبعوا ما يدعونكم إليه لأنهم لا يبغون إلا إبعادكم عن الطريق الموصل لمرضاة ربكم. وإن ما يلقونه إليكم مستند إلى التخمين ويتخيلون أنهم على حق. فلا يخدعونكم، إنه بيدكم ميزان عادل لا يضللكم، فإن الله

هو وحده العليم العلم الكامل بخفايا النفوس، فلا يستطيع ضال أن يخفي ضلاله، وهو العليم بالذين اهتدوا فسلكوا الطريق المؤدي لمرضاته، فلا تهمكم الكثرة ولكن زنوا البشر بانقيادهم لربهم.

بيان المعنى العام :

114-أفغير الله أبتغي حكما....من الممترين.

من اعتناء الله برسوله أنه يلقنه الحجج القاطعة للمراء والجدل فنظم الآية على معنى : قل للمشركين الذين يريدون منك أن تتحاكم إلى من يعتمدونهم عادة في التحكيم :كيف أطلب حكما غير الله؟ منكرا مستقطعا طلبهم أن يرجع إلى غير الله في الحكم. والله جل جلاله قد قطع كل شك فيما يحكم به، بما أنزله إليكم في القرآن من أدلة شاهدة على صدقه وعدله. إنه الكتاب الذي أوضح الحق فيه بلا إجمال وبينه تبيينا بلا غموض. إن الذين آتاهم الله الكتاب من اليهود يعلمون يقينا أنه كتاب منزل إليك من ربك لا دخل لك فيه، وأنه ربطه بالحق وربط الحق به في كل ما تضمنه من أخبار وأحكام ووعد ووعيد من أمور الدنيا والآخرة. ويحتمل النص **(يعلمون)** اليهود الذين آمنوا بمحمد ﷺ، والظاهر شمول من آمن، وهو واضح، ومن لم يؤمن، بشهادة الله في أنهم يعلمون ويكتمون.

ولا تكن يا محمد من الشاكين في أنهم يعلمون مزايا القرآن. ويحتمل أنه خطاب لجميع البشر: أن لا يكونوا من الشاكين مما ورد في هذه الآية.

115-وتمت كلمة ربك صدقا....وهو السميع العليم.

يخاطب القرآن البشر جميعهم بالحقيقة التالية: لقد بلغ القرآن الكمال الذي ما بعده كمال، فجميع ما فصّلته آياته من حكم ومواعظ وتقرير للعقيدة وتوضيح لطرق العبادة وبيان للأحكام بين البشر، في سلمهم وحربهم وفي دنياهم وآخرتهم، وما اعتنى به من إرشاد، بلغ كل ذلك الكمال مع كونها صادقة لا يلحقها كذب ولا انتقاض، عادلة لا يتبعها ظلم. وسيستمر القرآن على هذه الصفة من الكمال ولن يحدث أن يرد ما يناقضه أو يبطله مما تقبله العقول. ومحاولات الفسقة لا تروج وتتهافت. وفي الآية تنبيه للمؤمنين أن لا يتراخوا في تطبيق ما جاء به بالتأويل، أو ترك العمل به، فإنهم يكونون بذلك على غير الصدق والعدل، ومن غيّر سبيل الهدى ضل في النهاية وباء بالخسران. وتختم الآية بالتذكير بصفتين من صفاته **(وهو السميع العليم)** وفي ذلك تهديد ووعيد لمن يحاول تبديل كلمات الله، بأن الله يسمع ما يجري في السر من المكر لتبديل كلماته والخروج عن حدوده، وهو العليم

بما هو مستقر في الضمائر، فمبررات بعض المبدلين بألسنتهم لا تنفعهم عند الحساب، فالله عليم بما تخفيه الصدور.

116-وإن تطع أكثر من في الأرض...وإن هم إلا يخرصون.

ثم عرض القرآن حقائق في الواقع مضللة. فمنها أن أكثر أهل الأرض على غير هدى، وأن حاصل ما استقر في عقولهم ناشئ عن ظن لا عن يقين مستند إلى صارم حجج العقل أو إلى صادق الوحي، وأن سلامة البشر في حياتهم الأولى والأخرى باتّباع القيمة الحقيقية للرأي دون الاعتماد على الكثرة العددية، وأن من يتبعهم يضل الطريق وينتهي إلى عدم الوصول إلى ما كان يبحث عنه.

وأنهم لفساد طريقتهم في تحصيل المعارف يظنون ظنا، لا عن بحث، ولكن عما يسبق لأذهانهم التي هي مكونة من الحق المختلط بالضلال.

فينبه القرآن الرسول والمؤمنين أن لا ينخدعوا بالرأي المستند إلى الكثرة، فإن أكثر أهل الأرض على غير هدى، فإنه إذا راجت عليكم ظنونهم فإنهم ينتهون بكم إلى الضلال والبعد عن الطريق الموصل إلى مرضاة الله. إن ما يلقون به ناتج من ظنونهم التي انخدعوا بها ولم يمحّصوها، وآراؤهم تخمين وظنون كاذبة. من ذلك ما ورد أن المشركين حاولوا تشكيك بعض المؤمنين فيما تبين لهم من الوحي، فقالوا لهم: أنأكل ما نقتله ولا نأكل ما يقتله الله (الميتة)؟ ونحو ذلك من الشبهات التي يقصدون منها خلخلة الاقتناع الراسخ في قلوب المؤمنين.

117-إن ربك هو أعلم....وهو أعلم بالمهتدين.

تختم الآيات بما يمكّن الطمأنينة بعناية الله برسوله وبالمؤمنين، وذلك أنهم يستندون إلى الله الذي لا تخفاه خافية، فهو الوحيد الذي شمل علمه خفايا جميع القلوب من كان على ضلال ويعمل على تضليل البشر، ومن هو متمكن من الهدى ويسير في الطريق الذي يرضي الله. والقائد إلى الهدى الضامن لمرضاة الله في اتّباعه هو الرسول ﷺ.

فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا۟

مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

بيان معاني الألفاظ:

المعتدون : المجاوزون للحدود المخولة لهم.

ظاهر الإثم : الذنب الذي يطلع عليه الناس.

باطن الإثم : ما لا يطلع عليه الناس.

أولياء الشياطين : المشركون.

المجادلة : المنازعة بالقول للإقناع.

بيان المعنى الإجمالي :

إذن من الله للمؤمنين أن يـأكلوا ممـا ذكـر عنـد تذكيتـه اسـم الله، ومعنـى ذلـك أن لا يأكلوا مما ذكر عليه غير اسم الله ولا ممـا قصـد عـدم ذكـر اسـم الله عليـه. وأن هـذا الالتزام مرتبط بالإيمان. ولا تمتنعوا من الأكـل ممـا ذكـر اسـم الله عليـه، لا تتوهمـوا أن الامتناع عن أكل اللحوم المأذون في أكلها، مما يتقرب بـه إلـى الله. فـإن كثيـرا مـن الناس يوهمون غيرهم بـذلك فيضـلونهم، إذ التحليـل والتحـريم للخـالق وحـده. ومـن يبدل حكم الله هو معتد لا يفلت مـن رقابـة الله فـي الـدنيا ومـن عذابـه يـوم القيامـة. وتجنبوا الآثام ما كان منها ظاهرا للنـاس ومـا كـان مسـتورا لا يَطّلَـعُ عليـه. إن مـن يرتكب الإثم ينال جزاءه. ثم أكد القرآن النهي عن الأكـل ممـا لـم يـذكر اسـم الله عليـه ليرتب على انتهاك ذلـك، أنـه فسـق وخـروج عـن المـنهج الإلهـي. وإن الشـياطين مهتمون بإغوائكم وذلك بتسليط الذين يوسوسون إليهم ليجـادلوكم فـي صـحة مـا نهـاكم ربكم عنه. واعلموا أن من ينقاد لوسوستهم فيصل به الأمـر إلـى الشـك فـي فسـاد مـا نهى الله عنه يكون مساويا للمشركين.

بيان المعنى العام :

118 119 : فكلوا مما ذكر اسم الله...وهو أعلم بالمهتدين.

لما كان المشركون يعملون على إضلال المـؤمنين عـن سـبيل الله، ويسـوون بـين مـا حرمه الله وبين ما أباحه، ولا يدخلون فـي القـيم إلا المظـاهر الماديـة الصـرف، فـإذا تساوى الأمران في المظهر المادي سووا في الحكم، كمـا ورد فـي قولـه تعـالى: **(ذلـك**

بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا)[1] وكذلك فيما يحل للإنسان أكله وما يحرم، فبينت هذه الآية أن كل حيوان غير محرم أكله لا يجوز تناول لحمه إلا إذا ذكر اسم الله عليه عند تذكيته. وأن على المؤمنين أن لا يتساهلوا في تناول اللحوم التي لم يذكر اسم الله عليها، وأن تميز المؤمنين بمآكلهم أمر هام مَعْنِيّ به. وتفيد الآية أن ما ذكر غير اسم الله عليه لا يحل أكله، ومثله ما قصد ترك التسمية عليه. وهذا الحكم من الثوابت التي لا تقبل التأويل ولا التعطيل.

وأما إذا نسي المذكي التسمية، فالصحيح أنه يؤكل. ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا.

<u>تنبيه</u> : ما جرت عليه عادة بعض الناس من نذر ذبح حيوان عند ضريح من يعتقد فيه الصلاح، ويذكر عند الذبح اسم الموعود بالذبح عنده، فالذبيحة أهلت لغير الله، والأكل منها حرام. كما أن المتقرب في ظنه كتبت عليه خطيئة كبيرة إن لم يصل إلى الشرك بالله.

إنه إذا أحل الله شيئا فمعنى ذلك أن المؤمن مخير بين الإقدام على ما أحله الله وبين الامتناع. لكن على أساس أن العامل في تفضيل أحد الشقين، هو حامل غير مرتبط بتبديل الحكم المقرر، فمن أقدم على الحلال لا يزعم أنه واجب، ومن تركه لا يُحَرّمُه. فالآية تبين أنه لا مبرر للامتناع من أكل اللحوم المذكاة التي ذكر اسم الله عليها عند التذكية. وتكون هذه قاعدة عامة في تشريع الحلال. وتحير المفسرون في علة التذكير بهذا التوجيه، ويمكن توجيهه بما ذكرته من تأسيس قاعدة ارتبطت صياغتها بما سبقها وما لحقها. واحتمال أنه توجيه لمن ظن أن التنزه عن أكل اللحوم يعتبر قربة، فنفت الآية من ظن أنه يكون التقرب بترك ما أحل الله. وما ذكر بعد ذلك من التشديد على أن الله فصل ما حرمه، وأنه حتى المحرم إنما هو محرم في غير حالة الضرورة، قد يكون مساعدا على هذا التخريج.

ويزداد هذا التخريج قربا عندي بما جاء في الآية التالية: أن كثيرا من الناس يضلون غيرهم بغير علم، أي استنادا إلى أوهام غير صادرة لا عن نص إلهي ولا عن نظر عقلي منهجي. وقد توعدت الآية في ختامها هؤلاء الذين يغيرون الأحكام الإلهية، بوصفهم أنهم معتدون مجاوزون للحدود المخولة لهم، وأن الله يعلم ما صنعوا وما بدلوا وحرفوا مما يشير إلى تعرضهم للعقاب.

120-وذروا ظاهر الإثم وباطنه...يقترفون.

[1] سورة البقرة آية 275

واتركوا أيها المؤمنون الإثم سواء أظهر للناس، أم كان في السر. والمعنى الابتعاد عن جميع الآثام. فإن الرقابة الإلهية تقتضي أن تكون حاضرة في قلب المؤمن سواء أكان خاليا أم في ملأ من الناس. وذلك لأن الذين يتوجهون للإثم ويرتكبونه سيجزيهم الله بما قدموا من عمل.

121-ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله....إنكم لمشركون.

ولما كان تعليل الامتناع عن الأكل مما لم يذكر اسم الله فيه بعض الخفاء، إذ التذكية ليست قربة من القرب، وإنما هي وسيلة للانتفاع بأكل اللحم الحلال، كرر القرآن النهي عن أكل ما لم يذكر اسم الله عليه. ولم أجد تعليلا لذلك عند المفسرين، والذي يظهر لي أن التذكية فيها إزهاق روح والقضاء على حياة مخلوق لله، فشرع الإسلام ذكر الله عند الذكاة ليتذكر المؤمن أنه أقدم على ما أقدم عليه باسم الخالق الآذن. ولهذا كانت تسمية غير الله على الذبيحة خروجا عن الإذن، وفيه منفذ للشرك، على أن المذكور هو المالك لحياة المذكَى أو المتقرب له بحياته. ونبه القرآن إلى أن الشياطين العاملين على إضلال الناس، يوسوسون إلى من يتولونهم ليتمكنوا من إضلالكم وترك ما أمركم به ربكم، بإلقاء الشبهة، على أنه لا فرق بين لحم ذكر اسم الله عليه ولحم لم يذكر اسم الله عليه. ليستدرجوكم إلى الأكل مما ذكر عليه غير اسم الله. واحذروا فإنكم إن تراخيتم فتأثرتم بما يحبكون للوصول إليه، من قبولكم الطعن في أحكام الإسلام، فإن من ينحدر إلى هذا المستوى يكون مساويا لمن أشرك.

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

مثله :حالته.

الناس : الأحياء من البشر.

المكر : العمل على الإضرار بالغير خفية وتحيلا.

وما يمكرون إلا بأنفسهم : ما يضرون إلا أنفسهم.

الصغار : الذل.

بيان المعنى الإجمالي :

ضرب القرآن مثلين يجسم أحدهما من كان كافرا فأسلم، ومن استمر على كفره. فالأول يشبه الميت الذي كان مسجى في ظلمات القبر فأحياه الله وأرسل له نورا بدد الظلام المحيط به فاستبان له مساره واندمج في الناس.

وشبه الثاني بالذي لفّت عليه ظلمات القبر فلا يجد منفذا يخرج به من الظلمات. والنور هو الإسلام والظلمات هي الكفر. وإنما لم يخرجوا من الكفر، مع ما في النور من وهج ووضوح لأن الشيطان زين لهم ما هم فيه فأعماهم عن إدراك الإسلام. ومشركو مكة السادرون في الظلام، هم سائرون على ما قدره الله من أن كل رسول يلاقي من أكابر المجرمين ما يمنعون دعوته من الانتشار الكامل، يضعون في طريقه المعوقات ظنا منهم أنهم يضرونه بذلك. والحقيقة أنهم أعجز من أن يضروا رسل الله ولكن الضرر واقع بهم.

وسجل القرآن من وقاحتهم واستكبارهم أنهم قالوا: لن نؤمن حتى ينزل الله علينا من وحيه مثل ما آتاه الله للرسل. ورد عليهم القرآن مشهرا بضعف تفكيرهم، إن الرسالة تكليف من الله لمن يبلغ عنه وحيه للناس، والله العليم العلمَ الكامل بحقائق البشر وقيمهم، هو وحده الذي يختار من يستطيع القيام بهذه المهمة. وإن هؤلاء المستكبرين سيصيبهم الذل وينزل عليه العذاب بسبب ما كانوا يبيتون للطعن في الإسلام وصد الناس عنه.

بيان المعنى العام :

122-أومن كان ميتا فأحييناه....ما كانوا يعملون.

عُنيت الآية الأولى في هذا المقطع بالتنويه بالذين اهتدوا للإسلام والتقبيح لمن استمروا على الشرك. وذلك بضرب مثل لكل فريق يجسم حالة الإنسان بعد خروجه من الكفر إلى الإيمان، وفي المقابل حالة من واصل إقامته على الكفر. مثل القرآن وضعية الكافر الذي فتح بصيرته وآمن بالدين الإسلامي، بمن كان ميتا مسجى في ظلمات قبره، فدبت فيه الحياة ونفذ النور إليه يهتك أستار الظلام الدامس الذي يحول

بينه وبين إدراك ما حوله، وزالت الوحشة الرهيبة المخيمة عليه، فأخذ يمشي بين الأحياء يتأكد شعوره بارتفاع غربته ووحدته، بفضل انتسابه للجماعة المؤمنة.

وفي المقابل من استمر على كفره، فمثّله كمثل شخص ميت في ظلمات قبره، مقطوع الصلات لا يحس الإحساس الكاشف بما حوله، فهو منبتّ من الوجود. ولا تعجبوا كيف يرضى عاقل أن يستمر على البقاء في الظلمة والغربة، وقد مدت خيوط النور إلى البشر تناديهم: أقبلوا إلى مركز النور تسعدوا.

الجواب: هو ما تقرر في الآيات السابقة قريبا من أن شياطين الإنس والجن يزينون لهم ما هم عليه من كفر وما هم فيه من ظلام وغربة.

123-وكذلك جعلنا في كل قرية...وما يشعرون.

بينت الآية سنة من سنن الله في الخليقة استمرت مع دعاة الهدى، فكان من سننه أنه جعل في القرى التي يرسل إليها رسله، رؤوس ضلال يهيمنون على الاتّباع بطرق شيطانية ويخضعونهم لتوجيهاتهم، هذه التوجيهات المبنية على الإضرار والتشويه بالافتراء والتلبيس، فيقفون سدا يحجب أنوار الهداية عن أولئك الاتّباع ظنا منهم أنهم يضرون بذلك الرسل. والحقيقة أنهم لا يضرون إلا أنفسهم، بتحملهم لأوزارهم وأوزار الذين يضلونهم. وهم سادرون في عماهم غافلون عن المآل غير شاعرين بما خسروا وبما يترصدهم من عذاب. وأكابر مجرمي مكة مقصودون قصدا أوّليًّا محشورون في أولئك الضُّلّال المجرمين.

124-وإذا جاءتهم آية....بما كانوا يمكرون.

بعد أن حشر القرآن رؤوس الكفر بمكة في زمرة المشركين من الأمم الماضية، سجل نوعا آخر من كبريائهم وتمردهم، ومطالبتهم بما يظنون أنه يعجز رسول الله ﷺ. وقد بلغ عتوهم مبلغا جاوز المجرمين الذين قبلهم، فإذا جاءتهم آية من آيات القرآن تشهد لرسول الله بالصدق، فعوض أن يتأملوا فيها ويتعظوا بها ويهتدوا، طلبوا ليؤمنوا بالإسلام: أن ينزل الله عليهم وحيه كما أنزله على الرسل الذين جاؤوا مبلغين لرسالات الله. فرد القرآن عليهم بإظهار ضلالهم وعدم فهمهم لأسرار الوحي وقيمته، فبين أن بعثة الرسل ليست أمرا سهلا يتأتى لكل إنسان بوصف الإنسانية، ولكن الرسالة مقام رفيع يتخير فيه رب العزة من بين خلقه من جمع مواصفات خاصة من التعلق بالله، وصفاء النفس وجودة الرأي وسمو الأخلاق وتفتح الروح وحب البشر، والتضحية في سبيل إسعادهم، ونحو ذلك من الصفات التي لا تجتمع إلا للمتميزين من البشر الذين اختارهم الله لتحمل رسالاته، ثم واصل عنايته بهم

حتى بلغوا مرتبة الكمال الإنساني الذي تنفتح عندها قلوبهم لتلقي ما ينزل عليهم من الوحي، فيكونون في مرتبة بين الملائكة وبين البشر. هم بشر يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق، وهم أقرب ما يكون إلى الملائكة من امتزاج الخير والحق بتكوينهم الفكري والعاطفي.

ويهدد القرآن هؤلاء المستكبرين، بأنه سيصيبهم ذل من عند الله، لا يستطيعون حماية أنفسهم منه، ويصحبه عذاب، وذلك بسبب إجرامهم وبما كانوا يدبرون لوقف انتشار الإسلام وإعداد الإذاية لأهله.

فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٥﴾ وَهَـٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾ ۞ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَـٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الهدى : الطريق الموصل للغاية، ويقصد به كثيرا رشاد العقل.

يشرح: يزيل الانقباض من الدعوة الجديدة، ويجعل بينه وبينها تناسبا فيستعد لقبولها وتستقر في قوى إدراكه.

الصدر : العقل والروح.

الضيق: الشديد الضيق.

الحرج : تحقيق لمستوى الضيق العالي الذي عليه الصدر.

الرجس : الخبث والفساد.

دار : مكان الحلول.

السلام : الأمان.

بيان المعنى الإجمالي:

يُسيِّر الله سبحانه شؤون العالم وسكانه حسب حكمته، فمن يرد الله أن يهديه يسعفه بالهداية والتأييد، ويمنع عنه المعوقات ويرزقه الألطاف، ومن يرد أن يبقيه في ضلاله، يحرمه من تلكم الألطاف، ويجعل صدره غير قابل لأنوار الهداية يضيق عن قبولها، يبلغ ضيق صدره الشديد، أن حاله كحال من يصعد في السماء فكلما

ارتفع علوا زاد صدره ضيقا وتقطعت أنفاسه، وكذلك يمكن الله الفساد في قلوب الذين رفضوا الإيمان.

وإذا كان طريق الكفر يزداد ضيقا وحرجا كلما أوغل فيه أصحابه، فإنه في المقابل جعل الصراط الذي يسلكه المؤمنون مُبلِّغا لرضوان الله في يسر. وقد فصَّل الآياتِ النازلةِ من السماء للمؤمنين الذين يتدبرون في آيات الله.

وعجَّل البشرى للمؤمنين الذي أراد الله هدايتهم بأنه أعد لهم دار الأمن **(الجنة)** ينعمون فيها، ترعاهم عناية الله، وهو وليهم يمتعهم بكل ما يرغبون فيه.وذلك جزاء ما قاموا به من صالح الأعمال.

بيان المعنى العام :

125-فمن يرد الله أن يهديه...على الذين لا يؤمنون.

إن الاستكبار والعناد الذي ظهر من رؤوس الكفر حتى أوقفوا إيمانهم على أن يوحي الله إليهم كما أوحى لرسله، إن هذا الموقف الغريب منهم وغير المعقول يثير في النفس سؤالا : لما ذا بلغ بهم العناد للإسلام إلى هذا الحد؟

فجاءت الآية الأولى في هذا المقطع تشرح ذلك وتبينه.

إن الاهتداء وإدراك الحق ثم انقياد العقل والمشاعر له وأنس الروح به، مرتبط ذلك بعون من الله، فييسر للإنسان الألطاف ويمنع عنه المعوقات، ويفتح على قلبه فيلين لذكر الله، فإذا تجمعت هذه المساعدات التي هي من التصرف الإلهي المالك لشؤون الحياة كلها وما يجري في هذا الكون، تحققت الاستعدادات التي بها ينظر الإنسان فينشرح عقله للتأمل فيما يعرض عليه ويتابعه إلى أن يحصل اليقين في نفسه فإذا هو مقتنع مؤمن.

وبالمقابل فإن من يرد الله إضلاله، أي عدم إسعافه بما يمكنه من قبول الإيمان، فإنه يتركه لنفسه، ويمنعه ألطافه فيكون صدره تبعا لذلك ضيقا لا يجد نورُ الإيمان منفذا إلى باطنه. ثم أردفت الآية تشبيها يجسم شدة ضيق صدره فمثلته بمن يَصَّعَّدُ يعالج الصعود في السماء.

وقد فهم السابقون هذا التجسيم بمقارنة الذي يصعد الجبل فإنه يضيق تنفسه ويلهث، كلما أمعن في صعوده. واليوم قامت شواهد العلم التجريبي مثبتة أن الطبقات العليا تكون العلاقة بينها وبين وجود الأكسجين علاقة عكسية، فكلما زادت المسافة بين الأرض وبين الإنسان ضعفت نسبة الأكسجين وضاق تنفسه إلى أن يختنق. كذلك

الضيق والحرج يجعل الله الفساد واستشراء الفساد في صدور الذين لم يدخل الإيمان قلوبهم.

وتأكيدا لمصداقية الوصف الذي وُصِفَ به المشركون، ذكر في المقابل وصفُ وضع المسلم. فإذا كان المشرك يسلك طريقا صعبا يعاني منه وتضيق أنفاسه، فإن الذي انفتحت روحه على الإيمان يكون سالكا طريقا لا عوج فيه ولا منعرجات، فبلوغ السالك للغاية التي يقصدها ميسور لا عنَتَ فيه، كأن الغاية مشاهدة من بداية الطرق.

126-127: وهذا صراط ربك مستقيما...بما كانوا يعملون.

من نعم الله أنه عُني بالمؤمنين ففصل لهم آيات القرآن تفصيلا جامعا بين وضوح المحتوى، وبين كونها دلائل على الحق، ومعجزات تزيد المؤمنين طمأنينة، وسعة في مداركهم بتأملهم فيها وتفكرهم في مضامينها.

وإذ أثنى عليهم بما وصفهم به وبالمثل الذي ضربه لهم، صرح القرآن بما أعد لهم من جزاء فقال : خصوا باستحقاق دار الأمن والسلامة، يعني الجنة فوصفها بأن أصحابها حصلوا على الأمن، ففقدوا الخوف من انقطاع نعيمها أو اختلاطه بما يكدره، وزاد هذه الإقامة سموا أنها عند ربهم، قريبة من رحماته وعنايته، وهو النصير لهم المتولي توفير كل ما يسعدهم في إقامتهم السرمدية. وثبت لهم ذلك جزاءً، بسبب ما قدموه في الدنيا من صالح الأعمال.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّـٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٢٩﴾ يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَـٰفِرِينَ ﴿١٣٠﴾ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَـٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾

بيان معاني الألفاظ :

معشر: الجماعة الذين أمرهم واحد.

الاستكثار : المبالغة في الإكثار.

أولياؤهم : المتعلقون بالجن.

استمتع : انتفع.

المثوى : مكان الإقامة.

يقصون : يخبرون.

الإنذار : الإخبار بما يخيف.

إهلاك القرى : إبادتها مع سكانها.

بيان المعنى الإجمالي :

يوقف الله المشركين من الإنس والجن يوم القيامة، ويقرر الجنَّ على تضليلهم للإنس ومبالغتهم في ذلك. ويأتي الجواب من الإنس الذين كانوا يوالون الجن قائلين: نعم ربنا قد استفاد كل فريق منا من الفريق الآخر، استمتع الجن بالرئاسة وقبول الإنس إغواءهم المخرب لمصيرهم، واستمتع الإنس بالإقبال على الشهوات، والظلم، والعب من متع الدنيا بدون حساب. والآن قد تفطنا إلى أنا قد انتهينا إلى الأجل الذي حددته لنا فانتهى كل شيء. يعلمهم الله بحكمه البات فيقول لهم : النار هي الدار التي خصصت لإقامتكم وأنتم خالدون فيها. ولكن الله قد يهدي بعض المشركين ممن كانوا في زمن نزول الآية، فهم مستثنَوْن من ذلك المصير. إن ما قدره الله من الجزاء لكل إنسان هو نابع من حكمته وعدله. وعلى ذلكم النحو من تسليط الجن على الإنس وانتهاء أمرهما معا إلى الهلاك يسلط الله بعض الظالمين على بعض.

ويتوجه الخطاب ثانية إلى المشركين من الإنس والجن يقررهم مع توبيخ، ألم يصلكم مع المبلغين هداياتي من القرآن المفصل وينذروكم مصيركم في هذا اليوم ؟ وكان جوابهم استسلاما كاملا: شهدنا على أنفسنا أنا سمعنا وعصينا، وذلك بسبب افتتانهم بالحياة الدنيا التي غرهم متاعها، وبذلك شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين ، على معنى اليأس الذي لا أمل معه. والله لا يظلم القرى وساكنيها فيبيدهم وهم غافلون. ولكنه يوقظهم وينبههم، فإذا اختاروا الكفر على الإيمان كان جزاؤهم الجزاء العادل.

بيان المعنى العام:

128-129: ويوم نحشرهم جميعا...إن ربك حكيم عليم.

قدم القرآن في الآيات السابقة جزاء الصالحين الذي بلغ أنهم اختُصوا بدار السلام. وعقب ذلك في هذه الآيات بتفصيل جزاء القسم المقابل. فافتتحه بأن الله سيجمعهم

يوم القيامة ويشدد عليهم الحساب، ويواجههم بالفساد الذي عملوه في الدنيا ويقررهم عن ذلك. ولما تآلف المشركون من الجن والإنس على الضلال، وكان التكامل بينهم. بينت الآية حشرهم جميعا ثم مواجهة كل فريق منهم. ويبدأ العرض بمحاسبة الجن الذين كانوا متبوعين في الدنيا يأمرون فيطاع أمرهم، وفي ذلك إهانة إضافية لهم فيواجههم سبحانه بقوله: يا معشر الجن، والمعشر الجمع الذين أمرهم واحد، أيها الجن قد استشرى فسادكم وكثر إضلالكم للإنس، ونوعتم طرق تأثيركم عليهم فانقادوا لكم. فأوقفهم السؤال الأول على مسؤوليتهم عن الفساد الذي انتشر بين البشر.

وقال التابعون المخلصون لهم من الإنس: ربنا، نعترف أن كل واحد منا أخذ حظه مما كان يبتغيه، فالجن بلغوا غرضهم من نشر الفساد في الكون وإغواء البشر، وتعطيل نشر الفضيلة والحق، وخضوع الإنس لهم، وعملهم بما يشيرون به ويهينونه. والإنس استمتعوا بالشهوات ومتنوع طرائق الفساد وفتحت لهم أبواب الملذات الهابطة. ثم يعلن الإنس عن استسلامهم، وأن الإمهال وما كانوا يعللون به أنفسهم من رفض البعث قد ذهب هباء واصطدموا بالحقيقة التي لا مفر منها، وانقطع الأمل فقد بلغنا الأجل الذي حددته لنا.

يباغتهم الجبار بحكمه الصارم : النار مستقركم ودار إقامتكم، وأنتم خالدون فيها خلودا أبديا سرمديا. يأتي عقب هذا الحكم قوله :**(إلا ما شاء الله)** مما يفيد ظاهره الاستثناء من الخلود. وفي هذا الاستثناء ما يعارض أمرا مجمعا عليه استقاه الناظرون من عديد النصوص يكاد يبلغ درجة العلم الضروري.

ويمكن تخريج ذلك على أن المخاطب به ﷺ والمؤمنون، على معنى أن ما حرَّرَتْه الآية يفيد جزاء المتعاونين من الإنس مع الجن على الفساد والشرك، وذلك يشمل جميع المشركين السابقين قبل البعثة، والمشركين الحاضرين وقت نزولها، والذين سيوجدون ، وسبق في علم الله أن بعض المشركين الحاضرين سيؤمنون ، فيكون المعنى إلا من شاء الله إيمانهم فلا يدخلون في قوله : **النار مثواكم**. وختمت الآية بالتأكيد على صفتين من صفات الله. الأولى أنه حكيم يضع كل شيء موضعه المناسب، عليم بما يبطنه البشر تتكشف عنده سرائرهم. وهو ما يحقق العدل الإلهي في الجزاء الذي بسطته الآيات السابقة.

وبما أن من أهم أغراض القرآن إثارة النفوس للاعتبار، عقب مآل الظالمين بأن من سنن الله في الاجتماع البشري، أنه يحدث في نفوس الظالمين ميلا للظلم وأهله فيتعاونون عليه، على أن بينهم موالاة لتقارب قيمهم ومفاهيمهم في الحياة. كما يمكن

أن تفهم الآية على أن من سنن الله في الحياة أن كل ظالم سيبلى بظالم يتولى تسليط الظلم عليه كما ظلم.

130-يا معشر الجن والإنس.... كانوا كافرين.

ثم يعاد النداء للمشركين من الجن والإنس، نداء يعقبه استفهام يجمع بين التقرير والتوبيخ مضمونه: أتقرون بأنه قد جاءتكم رسل منكم ؟ أي أتقرون أن الله قد اعتنى بكم ومكنكم بواسطة رسل تفهمون كلامهم، بلغوكم آياته وأبانوا لكم ما يرضاه منكم في العقيدة والعمل، وحذروكم من مشهد هذا اليوم يوم القيامة؟

كما يبدو في السؤال أن الله حقق أن الرسل منهم. واستشكل كثير من المفسرين أن يكون الله بعث رسلا من الجن. وتأولوا النص تأويلات بعيدة فيها تمحل تكون بها غير جارية على ما يقتضيه ظاهر السؤال من إفحامهم وتقريعهم.

والذي تبين لي أن النص ورد فيه لفظ (**رسل**) منكرا فلم يقل رسلي معرفا بالإضافة التي تفيد أن المستفهم عنهم هم رسل الله، وكذلك لم يرد بلفظ (**الرسل**) حتى تكون للعهد المقصود به الموحى لهم. ورسل منكر، باق على مدلوله اللغوي يفيد (**مبلغون**)، أي ألم يصلكم من يبلغكم؟

والإنس قد بلغهم المرسلون الموحى لهم شريعة الله، ثم تم تبليغهم بواسطة من حملوا الرسالة وعهد إليهم بنشر دين الله كما قال تعالى :(**فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون**)[1] وبهم استمرت الدعوة عبر الأجيال المتلاحقة. وتقوم الحجة على الكافرين الذين بَلَغَتْهُم الدعوة واستمروا على كفرهم. وبالنسبة للجن فقد أثبت القرآن أن نفرا من الجن **أنذروا قومهم بتقدير إلهي**، وقارنوا بين ما أنزل على محمد ﷺ وما أنزل على موسى: وإذ **صرفنا إليك** نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلى قومهم **منذرين***29*قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم **(30) يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم (31) ومن لم يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض وليس له من دونه من أولياء أولئك في ضلال مبين (32).**

ومن الحكم التي لقنها القرآن للمؤمنين أن الرسول لا بد أن يكون محسنا للسان المخاطبين. قال تعالى:(**وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم**)[2]

[1] سورة التوبة آية 122

[2] سورة إبراهيم آية 4

فالمرسل إلى الجن لا بدأن يكون عليمـا بلسـانهم وبطـرق خطـابهم وإقنـاعهم. وطريقـة ذلك من الغيبيات التي لم يخلق فينـا البـاري سـبحانه القـدرة علـى إدراكهـا. ذلـك أن الإدراك ليس مرتبطـا بوجـود الشـيء، ولكـن بتـوفر شـروط الإدراك بـين المـدرِك والمدرَك، فمن الضلال نفي ما لا يدركه الإنسـان بحواسـه، والحقـائق تثبـت بـالحواس أو بالعقل أو بالخبر الصادق. قررهم القرآن مـع تقريـع، بسـؤالهم عـن إتيـان مبلغـين لهم بينوا ما أراد الله تبليغه إليهم ؟ فـذكر مـن ذلـك: إخبـارهم عمـا أنزلـه الله إلـيهم، فأطلق يقصون: على ما يفيده يخبرون، يخبـرونهم بآيـات القـرآن ومـا أنزلـه الله مـن الأحكام، ثم إنذارهم وقوفَهم بين يدي ربهم في هذا اليوم.

أجابوا: إننا نعترف ونشهد، بأنهم قد بلغونا ما أمـروا بتبليغـه.ولكـن رفضـهم وعنـادهم كان بسبب تعلقهم بالدنيا ومتاعها تعلقا حجب نظـرهم عمـا أُخبِـروا بـه. وهكـذا تكـون المغريات الدنيوية حائلا دون التأثر بالحق، وتدفع إلـى المفاسـد وتنكـب عـن الصـراط المستقيم.

واستسلموا استسلام الفاقد لكـل أمـل، فصـرحوا بـأنهم كـانوا كـافرين. واسـتوى فـي استحقاق العقاب الكافرون من الجن والإنس. وفي هـذا تحـذير للمشـركين الـذين يُـدِلُّونَ بما جمعوا من الدنيا.

131-ذلك أن لم يكن ربك...وأهلها غافلون.

ثم إن إرسال الرسل إلـى البشـر وإبـلاغ الـدعوة إلـيهم، يهـدف إلـى قطـع معـاذير الكافرين المعرضين عن الله، بقولهم: نحن غافلون عن نتـائج أفعالنـا ولـو وقـع تنبيهنـا لأقلعنا، فقيام الرسل بمهمتهم تقطع حجـتهم فيلقـون مصـيرهم. وبـذلك كـان اسـتمرار المفسدين على فسادهم، وإعراضهم عـن الهـدى الواضـح البـين المعـروض علـيهم، يترتب عليه إهلاك القرى وساكنيها. وفي ذلـك إيقـاظ للكـافرين والمشـركين والمعانـدين لشريعة الله من التمادي على الكفر الذي يعرضهم للإبادة.

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعۡمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ وَرَبُّكَ ٱلۡغَنِيُّ
ذُو ٱلرَّحۡمَةِۚ إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفۡ مِنۢ بَعۡدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن
ذُرِّيَّةِ قَوۡمٍ ءَاخَرِينَ ﴿١٣٣﴾ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٖۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ ﴿١٣٤﴾ قُلۡ
يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَامِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ
ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١٣٥﴾

بيان معانى الألفاظ :

درجات : منازل.

الغني : الذي لا يحتاج لغيره.

يذهبكم : يفنيكم.

يستخلف :يعوض.

لآت : حاصل لا محالة.

معجز: جعله عاجزا عن تنفيذ مراده.

العاقبة : النتيجة التي ينكشف عنها الفعل، من حسن أو سوء.

بيان المعنى الإجمالي :

كل فرد ينال الدرجة التي يستحقها بعمله، إما إلى الكرامة في حدودها المختلفة، وإما إلى الهوان في العذاب بدركاته المختلفة أيضا.والله مطلع على ما في كل عمل من الصدق والصلاح، أو ما فيه من الضرر والفساد، ولا يغيب عنه عمل العاملين. وإن ربك، يا محمد، غني لا يتصور أنه محتاج، ورحيم بعباده رحمة قوية شاملة للعباد حتى الكفار، فهو يرحمهم ببعثة الرسل إليهم، وتسخير ما حولهم لهم. وهو القادر الذي لا يخرج شيء عن إرادته. إنه لو أراد إفناءكم وتعمير الكون بغيركم ما أعجزه ذلك. والظاهرة المؤيدة في أنفسكم، فقد جئتم إلى هذا الكون لتخلفوا من سبقكم. إن ما أعلمتكم به من أنواع الانتقام آت لا محالة، ولا تستطيعون أن تعجزوني عن إنزاله بكم فإن قدرتي لا تحد.

ويوجه القرآن النبي ﷺ ليلح على إنذار المشركين حتى يقلعوا عما هم فيه مهددا. قل لهم: واصلوا العمل على الطريقة التي أنتم عليها، وإني مواصل عملي على نقيض ما أنتم عليه، وستعلمون غدا من يفوز منا بحسن المآل، والفائز معلوم، لأنه لا يفلح ولا ينجح من اعتمد الظلم في تصوره وعقيدته وعمله.

بيان المعنى العام :

132- ولكل درجات مما عملوا.....يعملون.

كل فرد من أفراد القرى له درجته، المناسبة لما عمله من خير أو شر، عند ربه. فإهلاك القرى بسبب تفشي الظلم فيهم، ثم عقابهم يوم القيامة، لا ينسحب هذا الحكم على جميع سكانها الصالحين والمفسدين، بل لكل مقامه وجزاؤه الذي يختلف بين الكرامة والثواب، وبين المهانة وسواء الجحيم. والله لا يغيب عنه عمل أي فرد، فلا يختلط الصالح بالفاسد، ولا الحسن بالقبيح. وحتى العذاب لو سلط على القرية

بصالحيها فأبيدت، فإن المؤمنين ينتقلون إلى حياة الكرامة عند ربهم. فكل عمل هو مثبت عند الله.

133←134: وربك الغني ذو الرحمة....وما أنتم بمعجزين.

ثم التفت الخطاب للنبي ﷺ ليثبت قاعدة من قواعد التصور الإيماني، مفادها : إن ربك يا محمد الذي تولاك برعايته، هو المتفرد بالغنى الذي لا يحتاج، إذ الحاجة نتيجة نقص، والله كامل الكمال المطلق. وهو صاحب الرحمة الواسعة التي شملت كل شيء والتي لا تحدها حدود.

وحتى لا يفهم من ذلك بذل أمل للمشركين، توجه القرآن بالتهديد لهم : أن ربك الغفور صاحب الرحمة قادر أن يفنيكم جميعا أيها المشركون، وأن يعوض عنكم ما تتعلق به إرادته من البشر سواء أكانوا عربا أم عجما، وعلى هذا جرت سنته فهو سبحانه جعل كل جيل خلفا للجيل الذي قبله، وإذا نظرتم في شأنكم فستتبينون أنكم خلفتم من سبقكم.

وحذر الكافرين من استهزائهم بالوعيد الموجه إليهم، الذي تظهر صورته القبيحة في طلبهم تعجيل العذاب المهدد به. فقال تعالى : إن ما أوعدتكم من الانتقام منكم آت لا ريب فيه، ومن أنتم حتى تظنّوا أنـي عاجز عن تنفيذ ما هددتكم به؟ إنكم لا تنفلتون من بطشي بكم.

135– قل يا قوم اعملوا على مكانتكم....لا يفلح الظالمون.

ثم طلب من النبي ﷺ أن يخاطبهم وهم على هذه الحالة من التكذيب والاستهزاء فيؤمر أن يقول لهم : يا قوم واصلوا على الحالة التي أنتم عليها من العناد ومن الرفض، ومن ربط قيمكم بمتع الحياة والانغماس في الشهوات، والتكذيب بالحساب. وهذا على سبيل التهديد بالنظر إلى أنه سيكشف لهم عن النهاية التي هم صائرون إليها.وفي دعوة النبي ﷺ لهم بـ **(يا قومي)** ما يشعر بشدة إشفاقه عليهم، فليس هو المتشفي منهم ولكنه الحريص على جلب الخير والسعادة لهم، ويحزنه المآل الذي هم صائرون إليه.

ثم صرح بأن منهجه واتجاهه وقيمه ﷺ على نقيض ما هم عليه، فقال: إني عامل، أي إني ماض على منهجي وطريقتي ومتمسك بقيمي. وإذا كنتم اليوم جاهلين بعاقبتي وعاقبتكم، فإنه ستنكشف لكم انكشافا ينفي الجهل وينير الحقيقة فتصبحون بعد ذلك عالمين بمن يفوز بالعاقبة الحسنة، فيحل في دار النعيم وحسن الجزاء والرضا والطمأنينة.

ومما يؤكد فوزنا بالمقامات الرفيعة وخسرانكم لحياتكم باعتبار أنها تفضي بكم إلى المهانة والعذاب، أن القاعدة التي يجري عليها الكون والتي يعود إليها الإنسان ليقوم عمله :أن مآل الظالمين، الخسران المبين.

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الجعل : قدروا النصيب الذي يصرف.

ذرأ: أنشأ ونمى.

الحرث : الزروع والثمار.

الزعم : الاعتقاد الفاسد.

ليردوهم: ليضروهم أشد الضرر.

ليلبسوا : يخلطوا عليهم دينهم بضلالات.

الافتراء: الكذب المتعمد.

حجر: ممنوع.

خالصة : مباحة.

وصفهم : التحديدات التي بنوا عليها أحكامهم.

السفه : خفة العقل.

ضلوا : الضلال ؛ الخطأ في الطريق الموصل إلى المقصود.

بيان المعنى الإجمالي :

قدمت هذه الآيات نماذج من الفساد الذي يلحق الفكر البشري إذا أصيب بالإلحاد أو الشرك. فمن ذلك أن المشركين حكموا في محاصيلهم الحيوانية والزراعية فقسموها ثلاثة أقسام. قسم خالص للشركاء يستحقونه كاملا غير منقوص، وقسم لله يصرف إليه، وما ذهب منه إلى نصيب الآلهة يبقى للآلهة دون العكس. وفي سنة الجدب يكونون بالخيار في النسبة المحددة لله. وقسم ثالث يتصرفون فيه تصرف المالكين وطبع الله على أحكامهم هذه بأنها أحكام سيئة.

ومن ذلك أيضا: أن شركاءهم الذين يعتمدون ما يوسوسون به إليهم، أخفوا عليهم القبائح المنكرة، وزينوا لهم الإقدام على قتل البنات خوف العار أو الفاقة، وقتل ما ينذرونهم من أولادهم عندما يتحقق ما نذروا له إرضاء للصنم الموعود. فدمروا تركيبهم النفسي وخرجوا عن الفطرة المبنية على حب الآباء لأولادهم ورحمتهم بهم، ولبسوا عليهم دينهم فأدخلوا فيه ما لا ينسجم مع الطبيعة البشرية ولا مع الحق الذي يرضى الله عنه. ولو شاء الله لقسرهم على اعتقاد ما هو صالح وعلى فعله، ولكن الله قدر أن يكون الإنسان مختارا مسؤولا. فلا تهتم بهم فهم قد طبعوا على العناد.

ومن ذلك، أنهم نشروا الأفكار الخاطئة والفاسدة، كقولهم فيما بين أيديهم من الأنعام والحرث :بعضها حكمنا عليه بأن تناوله محرم حتى نأذن فيه، وأن بعض الأنعام حرام أن تركب، وأن بعض الأنعام التي تقدم قربانا لآلهتهم، ولا يذكرون اسم الله عليها، تحقيقا لما أمر الله به لتكون خالصة للصنم. وهذا افتراء وكذب على الله، وإنهم لا يفلتون من نيل العقاب الذي يكون كفاء لافتراءاتهم.

ومن ذلك قولهم: أن ما تحمله بطون بعض الأنعام، كالتي ذكرت في سورة المائدة، من أجنة تولد حية ومن ألبان، حلالٌ تناولُه للذكور، حرام على الإناث؛ وما ولد ميتا حلال للجنسين. وعقب هذا التحكم بأن الله سيعاقبهم عليه بمقتضى الحكمة والعلم.

وخاتمة القول: انهم يمثلون التاجر الذي خسر رأس ماله وأصبح مفلسا. وبيان ذلك أنهم أولا عمدوا إلى ما أنعم الله به عليهم من ذرية فقتلوهم وهم ما زالوا في المهد. ولم يقدموا على ذلك تحقيقا لمصلحة أو استجابة لدليل، ولكن هو السفه وخفة العقل.

وثانيا إلى ما رزقهم الله من نعم فحرموها على أنفسهم وعلى غيرهم فأهدروا الغاية التي يُسِّرت بها إليهم. فهم ضالون مغرقون في الضلالة بعيدون عن أي خيط من الهدى.

بيان المعنى العام :

136- وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث....ساء ما يحكمون.

يمثل الإلحاد والشرك أعظم كارثة تحل بالعقل البشري فتفسد عليه أحكامه وتصوراته، وعلاقاته الاجتماعية، وتشوش نظرته للكون ولدوره فيه. ومن رحمة الله بالإنسان بعثة الرسل كلما عم الضلال وتمرد الإلحاد وانتشر، وغابت الحقيقة. فكانت الرسالة الخاتمة على لسان رسول الله سيدنا محمد ﷺ كاشفة عن المنهج الصحيح في العقيدة والتصور، وضمن سبحانه بقاءها نقية بنقاء الكتاب الكريم القرآن محفوظا بحفظ الله.

قدم القرآن نماذج للوضع الذي ينحدر إليه الإنسان عندما يحجب عنه النور الهادي، نور الوحي. وكشف كيف يفسد عقله وتفكيره، ويفقد حتى الشعور بسموه الإنساني.

كانت هذه النماذج تمثل المعتقدات المتمكنة في العقل العربي الجاهلي وقت البعثة المحمدية. تقرأ الشعر العربي فيتملكك الإعجاب بالدقة في التصوير، وبتطويع اللغة لأداء تلكم المعاني المتخيلة والمشاهدة، وتقريبها من السامع ليستمتع بما وصل إليه الشاعر من ملاحظات بلغت مبلغا ساميا في النفاذ إلى ما وراء الظاهر.وأقاموا لشعرائهم مناسبات تعتبر عيدا اجتماعيا سنويا للأدب والبيان، وكان لكثير منهم فراهة. وتوفيق في تنمية المال بالتجارة. ولكن لم يحمهم ذلك لما فسدت العقيدة من النزول إلى المستوى الذي رسمته الآيات القرآنية في هذا المقطع.

أولا: أخذوا المحاصيل من الزروع والثمار، و الأنعام، التي يقرون أن الله هو الذي أنشأها ونماها فقسموها أقساما :

القسم الأول: خصصوا هذا النصيب لله، يصرفونه للضيوف والمساكين، ولا يأكلون منه شيئا.

القسم الثاني :هو نصيب آلهتهم يصرفونه لسدنتهم، ينفقونه عليها. وللسدنة حظ منه.

القسم الثالث : هو نصيبهم.

ثم تصرفوا في هذا الذي وزعوه توزيعا لا سند له، فما كان مخصصا لله سمحوا بأن يذهب نصيب منه إلى ما جعل للآلهة، فإذا حولت الريح شيئا من المحاصيل المخصصة لله فحملته إلى الذي لشركائهم أقروها. وإذا كانت السنة سنة مجاعة

قالوا: إن الله غني عنا. وإذا أخصب ما جعلوه لله وهلك ما جعلوه لشركائهم، قالوا: ليس لآلهتنا بد من نفقة، وأخذوا ما جعل لله وحولوه إلى آلهتهم.

وفي المقابل إذا حولت الريح شيئا مما جعلوه لآلهتهم أبقوه لها. وإذا أجدب ما جعلوه لله وكثر ما جعلوه لآلهتهم، قالوا : لو شاء لأزكى الذي له.وإذا تسرب الماء لشيء مما جعلوه لله تركوه، ولا يفعلون ذلك في صورة العكس.

137-وكذلك زين لكثير....وما يفترون.

هذا التعسف في أحكامهم وتطبيقاتها يكشف عن الضلال الذي استحكم فيهم نتيجة الشرك المتأصل فيهم، بالإعراض عن النظر في البراهين المنادية بفساد ه.

ثانيا: زين لهم شركاؤهم ما هو من أقبح الأمور ومن أشدها فظاعة ومناقضة للفطرة، فاستساغ بعضهم قتل أولادهم وفلذات أكبادهم. أوهمهم الشياطين أن قتل البنت فيه حفظ لعرض القبيلة، وتقليل لِحِمْلِ الأب في الإنفاق، وهو معظم ما كان يقوم به بعض قبائل العرب، كما زينوا لبعضهم نذر أحد الأولاد للصنم إذا حصل للناذر أمر مرغوب فيه، وهكذا أفسدوا ما غرس في الفطرة من حب الأولاد والدفاع عنهم بتخييلات من خوف العار أو الفقر أو رضا الصنم. ضاعفوا الوسوسة، ليقدموا على ما يضرهم أبلغ الضرر بقتل عاطفة الأبوة الراحمة في أشد أوقات حاجة الولد إلى الحنان والعطف. وليلبسوا عليهم دينهم فيخلطون عليهم ويدخلون ما هو فاسد في ما يعتقدونه، ففقدوا بذلك الميزان، إذ تساوى الفساد الصريح بالصالح.

ثم بين القرآن أنه لو شاء الله أن يحصنهم من هذه الضلالات، في قسرهم على الخير، ويُكَوّن فيهم مناعة من قبول وسوسة الشياطين، لفعل، إذ لا يعجزه شيء. ولكن هذا خلاف ما بنى عليه أمر البشر في الأرض، إذا قدر أن يكونوا مسؤولين عن أعمالهم مختارين لا مجبرين.

ولبَّسوا عليهم بجعلهم يقبلون أن ما نسبوه إلى الله كذبا هو حق. فهَوَّن القرآن أمرهم على رسول الله فقال: اتركهم فيما صدَّقوا به من الكذب، وما جزموا به جزما لا يقبلون معه أي مراجعة، فقد قمت بأمانة التبليغ على أتم وجه وأكمله.

138-وقالوا هذه أنعام وحرث حجر..بما كانوا يفترون.

ثالثا :نظروا في محاصيلهم فقسموها ثلاثة أقسام أيضا، معتقدين أن ذلك من الدين، تبعا لما وسوست به الشياطين.

الصنف الأول: قالوا هذا الصنف من الأنعام ومن الزروع والثمار حكمنا بحرمة الانتفاع به إلا لمن نُعَيِّنه، فهو محرم على جميع الناس حتى على أنفسهم، ولا يتغير هذا الحكم إلا إذا اختاروا رفع الحظر عمن يشاء لهم خيالهم.

الصنف الثاني: أنعام حرموا ركوبها. وقد تقدم في سورة المائدة تفصيل تلك الأنعام المحرمة.

139- وقالوا ما في بطون...حكيم عليم.

الصنف الثالث: أنعام نذروها تقربا لآلهتهم، وزعموا أن الله أمرهم أن لا يذكروا اسم الله عليها لتكون خالصة للصنم المتقرب إليه. فكذبوا بقولهم: إن الله أمرهم بعدم ذكر اسمه، وكذبوا لما نسبوا الرضا لله عنهم بالتقرب لآلهتهم، ولذا عقب القرآن كذبهم هذا بقوله: **(افتراء على الله)** ومن أشنع وأقبح الانحرافات الافتراء على الله. فلذلك عقب ما سجله عليهم من الافتراء، بأنه سيجزيهم بسبب ما كانوا يفترون عليه سبحانه، ولم يعين الجزاء لتذهب النفس في تصور العقاب كل مذهب.

رابعا: تجاوزوا سحب الأحكام على ما هو موجود إلى ما سيوجد في المستقبل، فعينوا بعض أنواع من الأنعام، منها ما ذكر في سورة المائدة، ثم حكموا على ما ستنتجه من نسل ولبن، وأصدروا حكمهم التشريعي عليها على النحو التالي:

ما ولد حيا مما تحمله الإناث وكذلك ألبانهن، يحل الانتفاع به للذكور دون الإناث من زوجات وبنات. ما ولد ميتا، يشترك في حل تناوله الإناث والذكور.

وهذ اتعسف آخر، فيه أحكام استندوا فيها إلى ما وسوس به إليهم شياطينهم، وفيه احتقار للإناث الذين سوى الله بينهم وبين الذكور في كل ما يعود للقيمة الإنسانية، ولذا عقب بنظير ما عقبت به الآية السابقة، أن الله سينزل بهم الجزاء الوفاق والعادل عن مفترياتهم. والله حكيم في ما يقدره ويفعله، فيكون جزاؤهم مناسبا للمفاسد التي اخترعوها ونشروها، وأنه سبحانه عليم بما حكموا وبما فعلوا.

140-قد خسر الذين قتلوا...وما كانوا مهتدين.

ثم يصدر الحكم التقديري لنتائج ما حكموا به وما فعلوه. وهذا الحكم الكاشف عن معيار ما صدر عنهم أجمله القرآن في كلمة تجسم نهايتهم وتعرف بالحقيقة على أخصر طريق: باؤوا بالخسارة الكاملة .هم كالتاجر يسعى ويكد، ويلقى في النهاية ذهاب رأس المال والإفلاس. ثم يوضح القرآن معنى خسرانهم :فالله رزقهم الأولاد، وهم زينة الحياة الدنيا، ومطلب عزيز يستبشر كل والد بهذه النعمة ويُهَنَّأ بها، ومن حظهم منهم أنهم إذا قاموا عليهم بحسن التربية أن يجدوهم ذخرا عند الكبر والحاجة، فيقابلون هذه النعمة بسلوك سفيه، سلوك من ضعف عقله واختلت

مواهبه، إذ يعمد إلى قتل نسله بيده تبعا لأوهام أوحـت بهـا شـياطين الإنـس والجـن، لا تستند إلى علم بل إلى أوهام واحتمالات لا دليل على أنهـا سـتحدث كمـا توهمـوه. فمـن أين لهم أن الإناث يجلبن لهـم العـار، أو أن يكونـوا فـي ضـائقة مـن العـيش عنـدما يرعونهن. والسفه الثاني أنهم عمدوا إلى مـا مكـنهم الله مـن رزق لينتفعـوا بـه ويقبلـوا به على الحياة في سعة، حرّمُوا هذا الرزق على أنفسـهم وعلـى غيـرهم فأهـدروا نفعـه مفترين على الله أنه هو الذي أرشدهم إلـى ذلـك. وتتكشـف النتيجـة بينـة : قـد ضـلوا فسلكوا الطريق الذي يعاكس ما قصدوا إليه، وأكـد ضـلالهم بـأنهم لـم يصـحبهم شـيء من الهداية.

۞وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ
وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟
حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ
حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ
مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ
حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ
﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا
ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ
مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أنشأ: أوجد.

جنات: جمع جنة وهي القطعة من الأرض التي زكا شجرها.

معروشات : مرفوعات فوق أعمدة.

الأكل : ما يؤكل.

الأنعام : الغنم والمعز والبقر والإبل.

حمولة: يحمل عليها البشر بالركوب والمتاع.

فرش: ما يفرش من جلود الأنعام، وما ينسج من الصوف والوبر.
أزواج : جمع زوج. اسم لذات لازمت الانضمام إلى أخرى. فالرجل والمرأة كل منهما زوج بالنسبة للآخر.
الضأن : الشاء.
شهداء: حاضرون.

بيان المعنى الإجمالي :

الله وحده هو الذي أوجد جنات قد التف شجرها بعضها قائم على سوقه وبعضها مرتفع على أعمدة. وأنشأ لكم النخيل والزروع لكل منها مذاقه وفوائده الغذائية، وكذلك الزيتون والرمان التي قد يكون بين ثمارها تشابه وقد تختلف. هذه نعمي فكلوا من ثمارها عندما تستطيبونها، وخصصوا، عند جنيها للادخار أو البيع، نصيب المحاويج الذي هو حق لهم، وإياكم أن تسرفوا في الأكل أو الإنفاق، فإن الله لا يحب المسرفين، لأن الإسراف مجلبة لستحكم الشهوة في سلوككم. والله أنشأ لكم من الأنعام ما تستعينون به على السفر، وما يمكنكم من فُرُش تريح أجسامكم، تتخذونها من جلودها ومن أوبارها وأصوافها. وأنا الذي خلقتها أبحت لكم أن تأكلوا من لحومها، فلا تبدلوا ما حكمت به، ولا تستجيبوا لما يسوله لكم الشيطان من تحريم لبعضها، فإنه عازم على إغوائكم وإنه لكم عدو واضح العداوة فاحذروا الانزلاق لما يلبس به ويوسوس.
وتثبيتا لهذه الوصايا ناقش ما يذيعه أعلام الشرك من أحكام اخترعوها وضللوا بها الناس. إن الأنعام التي امتن بها الله ثمانية أزواج: كبش ونعجة، ومعزى وتيس. وبقرة وثور، وناقة وجمل. هي متساوية في النوع. فهل حرم الله الكبش والتيس أو حرم النعجة والمعزى، هل حرم ما تحمله الإناث ؟ أخبروني بكلام مبني على العلم لا على الوهم. وكذلك البقرة والثور، والناقة والجمل، هل حرم الله الذكر أو الأنثى، أو حرم ما تحمله بطون الإناث ؟ هل كنتم حاضرين عندما حرم الله ما تدعون أنه أوصاكم بتحريمه؟ لا حجة لهم ولا جواب لأنه كله افتراء وكذب وأوهام اختلقوها وروجوها. إنه لا يوجد ظلم أشد سوءا من الكذب على الله بتحريم ما أحله وتحليل ما حرمه، إنه إيقاع للناس في الضلال، وتربية عقولهم على التصديق بالأوهام. وسيكون جزاء هؤلاء مناسبا لما اقترفوه. إن الله يمنعهم عونه على الاهتداء فيستمرون في ضلالهم إلى أن يفارقوا الحياة.

بيان المعنى العام :

141- وهو الذي أنشأ جنات معرشات....إنه لا يحب المسرفين.

تذكير بالنعم مسندة لله، فهو وحده الذي أنبتها ومكنها من النمو بتيسير أسبابه والحماية من الآفات. ذكر من هذه النعم الجنات، تلكم القطع من الأرض التي نما شجرها والتف فلا يرى ما خلفها، منها ما هدى الإنسان لرفعه عن الأرض ليكون وقاية لما يحمله من ثمار، ومنها ما قامت على سوقها مرتفعة أيضا. وكلاهما بهجة للنظر وخير محمول للإنسان. وهو وحده الذي أنبت النخل والزروع ، فنماها إلى أن آتت ثمارها وحبوبها، والأرض واحدة والماء واحد، وكل صنف له مذاقه وخصائصه ، وكذلك الزيتون والرمان، قد تجد التشابه بينها وقد لا تجده.

ثم أصدر الإذن المُحِلَّ للانتفاع بتلكم المنن على خلاف ما اخترعه الجاهليون من التحريم والتقسيم. ومبدأ الإذن من تاريخ الإثمار قبل الحصاد لكل المحصول الذي لا يتم إلا بعد كمال النضج. فهو إِذْنٌ لهم في الأكل من ثمار جناتهم عندما يستطيبون ذلك. ثم أمرهم بأن يؤدوا الحق الواجب فيه يوم حصاده وإعداده للخزن أو البيع. وهذا حق قرنه الله بالصلاة، فكان من الواجب على المسلمين من الأول أن يسمحوا بمساعدة المحاويج من محاصيلهم الزراعية في العهد المكي الذي تسلط فيه المشركون على أرزاق المستضعفين من المسلمين. وهي الزكاة الواجبة التي سماها الله حقا في القرآن ليرفع بذلك المنة على الآخذين لها، وليرفع الاختيار عن المالكين في دفعها لهم. ثم إن تشريع الزكاة قد نزل ما يفصله في العهد المدني.

ولما كان هذا التوجيه معرفا للمؤمنين للمنهج الذي يرضاه الله في محاصيلهم الزراعية، أدمج في ذلك ما يكمل به هذا التوجيه، فنهاهم عن الاستجابة لدواعي الشهوة، بالإسراف في الأكل أو الإنفاق.

وحذرهم مما يفضي إليه الإسراف، باعتبار أن المسرف يكون بإسرافه مجانبا للمنهج الذي يحبه الله. يوضح ذلك أن الإسراف في المأكل يتبعه ثقل بضعف النشاط، وزيادة في الوزن يصحبه استعداد لاختلال في التوازن الجسمي، والإسراف في الإنفاق قرين الاستجابة لدواعي الشهوة، وإذا أفرط المنفق في الاستجابة لشهواته فَقَدَ التحكم فيها وتصبح له خلقا، هو انحلال للإرادة واتِّباع لنوازع النفس، وقد لا يسلم من الوقوع في المكروه أو المحرم. والقرآن حريص على استقامة المؤمن وإكسابه مناعة تحفظه في خُلقه وجسمه.

142-ومن الأنعام حمولة وفرشا....إنه لكم عدو مبين.

الله وحده هو الذي أنشأ لكم الأنعام التي تساعدكم علـى حمـل الأثقـال ونقلهـا، وتعيـنكم بركوبها على قطع المسـافات، وتمكـنكم مـن وطـاء يـريح أجسـامكم تتخذونـه مـن جلودها أو مما تنسجونه من أشـعارها أو مـن أوبارهـا.ويضـاف إلـى تلكـم الـنعم أن تأكلوا من لحومها، فهي رزق لكم من عند الله، إياكم أن تتبعـوا مـا يـأمر بـه الشـيطان وأن تتبعوا خطاه وطرقه التي يزينهـا لكـم، ومـا يوسـوس بـه مـن تحـريم بعضـها، فالكلام إذن في الانتفاع ونهي عن تبـديل حكـم الله الـذي يتخـذه الشـيطان سـبيلا إلـى العبث بالنظام الإسلامي فـي الحيـاة. وتـذكروا أن الشـيطان مصـمم علـى عـداوتكم ومواصلة تنفيذها بإقصائكم عما يرضاه الله لكم، عداوتـه بينـة، فاحـذروا مـا يوسـوس به.

143←144: ثمانية أزواج من الضأن...لا يهدي القوم الظالمين .

ثم واصل القرآن محاجة المشركين فيمـا قـرروه مـن أحكـام اعتباطيـة لا أسـاس لهـا فأتبع ما امتن به من الأنعام حمولة وفرشـا وتحلـيلا للأكـل منهـا، أتبـع ذلـك بتحويـل المشركين هذه النعمة إلى التدخل فـي التحليـل والتحـريم. ناقشـهم فـي الأحكـام التـي زعموا أن الله حكم بها. واتبع معهم طريقة متأنية في هدم ما افتروه.

فالأنعام ثمانية أزواج لا غير، والمراد مـن الأزواج أن كـل جـنس مـن الضـأن ومـن المعز ومن البقر ومن الإبل، إما ذكـر أو أنثـى، والـزوج هـو مـا يكـون مـع الآخـر الملازم له وحدة. فالرجل مع المرأة كـل منهمـا يمثـل زوجـا بالنسـبة للآخـر، وذَكَـرُ الضأن مع النعجة كل منهما زوج للآخر، وكذلك المعز والبقـر والإبـل. فـلا فـرق بـين كل وحدتي الزوج، إلا بالذكورة أو الأنوثة.فالأنعام كلهـا ثمانيـة أزواج. ومـن هنـا تبـدأ المحاجة بإلقاء السؤال الإنكاري عن سر التفرقة التـي عممـوا اعتقادهـا علـى اتّبـاعهم. فالغنم ذكورها وإناثها، أحرم الله الذكور أو الإنـاث ؟ بـل أحـرم الله مـا تحملـه بطـون الإناث؟ وكذلك المعز سواء بسواء، أخبروني مستندين فيمـا تقولـون إلـى العلـم لا إلـى الأوهام إن كنـتم صـادقين فيمـا تزعمـون أن الله أمـركم. والأزواج الأربعـة الأخـرى على وزانها. البقر مثلها، وكذلك الإبل.

لقد حرم المشركون ما حرموا مما ذُكر في سورة المائدة، ومـا ذكـر فـي هـذه السـورة الآيات [137– 139] فبعد أن فصل في هدوء أصـناف الأنعـام زوجـا زوجـا، توجـه بالسؤال التالي : نسبتم التحريم لله فهـل كنـتم حاضـرين عنـدما حـرم مـا تدعونـه، أو بلغتكم وصيته بالتحريم وعلى لسان مـن؟ إعـلان مـن الله أن مـن أشـد أنـواع الظلـم فسادا، وأعظمها هدما للحـق، وأبلغهـا نُكْـرا، الـتقحم علـى أحكـام الله بتغييرهـا ثـم

الافتراء بنسبتها إلى الله بغير علم، فهو فساد في التشريع يوضع له مسوغ ليشتد الإقبال عليه والرضا به واستمراره، ويغفل الناس عن التثبت فيه بعد أن كسي ثوب القبول. هذا المسوغ هو ادعاءان الله أمر به.

إن الغاية التي بَعَثَتْ على ذلك هي إضلال الناس وتحويلهم عن الحق إلى الزيغ ليمضوا غافلين عن الضلال الذي هم فيه. وهدد القرآن في خاتمة الآية الفاعلين للتضليل الثابتين عليه بأن الله يسلبهم هدايته، فهم وإن عرضت عليهم كل الأدلة الكاشفة عن الحقيقة، لا ينتفعون بها ولا يهتدون إلى الطريق المستقيم.وبذلك هم خاسرون في الدنيا بما أفسدوه من الميزان في التفكير، وهم خاسرون آخرتهم بافترائهم على الله وتضليلهم لمتبعيهم. لقد رأينا في الآيات السابقة عناية شديدة ببيان الحق في التحريم والتحليل، وبسط القرآن القول في ذلك البسط الوافي. وقد يثور سؤال لما ذا كل هذه العناية بهذا الموضوع؟ الذي اعتقده أن القضية من أخطر القضايا، هي قضية منزلة الإنسان في الكون، هل هو الحاكم الذي يعطي لكل شيء قيمته، ويعين له تبعا لذلك حكمه التشريعي، أو إن الإنسان عبد لله عليه أن يطبق ما جاء عنه ولا يفتات عليه بإعطاء أحكام يتبع فيها هواه وما يتراءى له ؟ ولذا فإن محاجة المشركين فيما قرروه من أحكام للأنعام ينسحب على كل ما قرروه من أحكام لما يباشره الإنسان في حياته الخاصة والاجتماعية وعلاقته بالكون.

قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الطاعم : آكل الطعام.

المسفوح : السائل من المذبح أو من المنحر أو من العروق بالفصد.

الرجس :الخبيث، المستقذر.

الفسق: الخروج، والمراد به الخروج من الدين أو من الطاعة إلى الإثم.
الحوايا : جمع حاوية، والمقصود به الرداء الشحمي الجامع للأمعاء.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن رد القرآن على المشركين صحة ما حرموه أعقبه ببيان المحرمات على البشر. فأمر رسوله أن يعلن ما وصله بطريق الوحي من المحرمات عند نزول الآية. وعدد: الميتة، والدم، ولحم الخنزير لأنه مستقذر، وما ذبح لغير الله الذي هو خروج عن الدين شرعا أو عقيدة ، وأن المضطر له أن يرفع الوضع الحرج الذي هو فيه بالأكل مما حرم في حدود الضرورة.

وأن الله حرم فيما حرم على اليهود كل ذي ظفر من الحيوان كالإبل والأرانب وحرم عليهم الشحوم إلا ما التصق بالعظام من السمن، أو ما كان على الظهر، أو الأردية الجامعة للأمعاء. كان ذلك التحريم عقوبة لهم على ذنوبهم وبغيهم وعصيانهم لرسلهم. وإنهم لكاذبون فيما يدعونه أن الله لم يحرم عليهم شيئا، وما أخبر به الله هو الصدق من العليم الخبير.

إنه إذا استمر المشركون على ما هم عليه مكذبين لك، أو إذا كذبك اليهود فيما أخبرتهم به، فأعلن ما تؤمن به من أن الله إذا لم يعاجلهم بالعقوبة، وأمهلهم فلم يمحقهم بمجرد افترائهم، فلأنه صاحب الرحمة الواسعة. ولكن بأسه، وبطشه إذا حل فإنه لا مرد له، يلحق القوم المجرمين بسبب إجرامهم.

بيان المعنى العام :

145 - قل لا أجد فيما أوحي إلي محرما....فإن ربك غفور رحيم.

إذ تَتَبَّعَ مفتريات المشركين فيما هو محرم، وحاجَّهُم وبين سفههم في تحريم ما حرموا، كان من تمام البيان توضيح ما هو حرام فعلا في شريعة الإسلام. والنبي ﷺ هو معلمهم، فأمره ربه أن يعلن ما هو حرام في دين الله. فذكرت الآية أنه إلى حد نزولها لا يوجد في الوحي ما هو محرم أكله إلا أربعة أشياء –

1) الميتة.

2) الدم المسفوح. وهو الدم الخارج من الحيوان عند تذكيته بالذبح في الرقبة، أو النحر في اللبة بالنسبة للإبل أو البقر، أو الدم السائل من العقر بالنسبة للصيد.

3) لحم الخنزير، وبما أن الخنزير كان مما يعرض للصائدين وكان أكله مستساغا في عوائدهم، فليقتلع منهم ما ألفوه، أتبع التحريم بوصف لحمه بأنه خبيث مستقذر.

4) ما ذبح وقصد به غير الله.

وبما أن هذه الآية مكية فإن المحرم أكله قد تتابع بالوحي بيانه. فلا تفيد الآية القصر على هذه الأربعة إلا وقت نزولها. ثم إن إبراز حكمة تحريم ما حرم قد سبق بيانه في سورة البقرة آية -173- وفي سورة المائدة آية - 3- وقرن التحريم بالعفو عن المضطر إذا دفعته الحاجة حالة كونه غير باغ ولا عاد. راجع الآية 173 من سورة البقرة.

146-وعلى الذين هادوا حرمنا...وإنا لصادقون.

ثم إن القرآن أتبع ما حرم على المسلمين بما كان حرمه على اليهود، وفي ذلك ما يشير إلى الرد على المشركين، أن ما حرموه لا يستند إلى تشريع إلهي لا في الحال ولا فيما مضى. حرم الله على اليهود ما يلي : كل حيوان له ظفر. كالإبل والأرنب. الشحوم من الشاء والمعز والبقر إلا ما كان في الظهر. أو كان ملتصقا بالعظم تبعا للسمن، وكذلك الأكياس الشحمية الحاوية للأمعاء.

وعلل القرآن تحريم ما حرمه عليهم بأنه عقوبة لهم على بغيهم. وقد أنكر اليهود أن الله حرم عليهم ما تلاه القرآن، لظنهم أن ذلك مناقض لما يزعمونه من أنهم أبناء الله وأحباؤه وأن الله اختارهم على العالمين اختيارا دائما سرمديا مما لا ينسجم مع تخصيصهم بتحريم الطيبات، وقالوا :إنهم حرموا ذلك اقتداء بيعقوب.

وقد كذبوا فإن التوراة التي يعتمدونها تنص على تحريم ذلك.

147-فإن كذبوك فقل....عن القوم المجرمين.

إنه بعد هذا البيان إن واصل المشركون عنادهم مكذبين لك، فذكرهم بأن ربكم الذي والى عليكم الكثير من ألطافه ومن نعمه، وأعلِمْهُم أنه فعل ذلك بكم، لأنه صاحب الرحمة التي لا تحد، فلا تغتروا بتأخير العذاب وإمهالكم من تعجيل مقته، فالله لا راد لبطشه الذي ينزله على القوم المجرمين، فلا يجدون ملجأ منه. وفي قوله تعالى : عن القوم المجرمين، ما يثبت إجرامهم.

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ
كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ
فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ
ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٤٩ قُلۡ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشۡهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ

حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُواْ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

حتى ذاقوا بأسنا: إلى غاية وجودهم باستئصالهم بالعذاب الذي لا مرد له.

إخراج العلم : التصريح به وعدم كتمانه.

تخرصون : تكذبون.

الحجة البالغة: الحجة الموصلة لإفحام الخصم.

هلم :أحضروا.

الأهواء : جمع هوى، وهو اتّباع الملائم في العاجل، ولكن عاقبته ضرر.

يعدلون : يسوون بالله غيره.

بيان المعنى الإجمالي :

يُفَنِّد القرآن وهما من أوهام المشركين، ومن تعلات المتقاعسين عن تطبيق ما التزموا به بمقتضى إيمانهم. يتمثل ذلك في دعواهم وقولهم :إن الله لم يشأ لنا الإيمان، وأنه لم يشأ أن يمنعنا من تحريم ما حرمناه، كما يبرر المتراخون عن القيام بالفرائض والواجبات الدينية والمقتحمين لحدود الله بأن الله لم يهدهم ولو هداهم لكانوا صالحين. فكان الرد ناقضا لحجتهم هذه، بأن بين القرآن،

أولا: أن هذه التعلة هي نفس التعلة التي استند إليها الأقوام المكذبون الذين لم يقروا بالحقيقة إلا بعد أن سلط الله عليهم ما تحققوا أنهم هالكون لا محالة.

وثانيا :من أنبأكم أن الله لم يشأ لكم الهداية بعدم الإشراك أو عدم تحريم ما حرمه، أو أنه لم يقدر هدايتكم، فما ذكرتموه ظنون كاذبة. لا أساس لها وليس لكم عليها أي دليل، وما أنتم إلا كذبة. وهذه الحجة المعروضة من الله على البشرية هي الحجة التي تنتهي إلى غايتها وهي بيان الحق وإعلان زيف ما تدعون. نعم إن الله لو شاء أن يقسركم جميعا على الهدى لفعل، ولكنه أراد أن يمكنكم من حرية الاختيار ثم محاسبتكم على تنفيذ ما تختارونه. وآخر ما يمكن أن يستندوا إليه أن يكون لهم شهداء يؤيدون دعواهم. ولذا طلب منهم على وجه التحدي أن يأتوا بشهدائهم أن الله حرم ما حرموه. وهم لا يجدون أي شاهد صادق، فإن أتوا بشهداء كذبة، فقاطِعْهم وكذِّبْهم، وافضحهم بأنهم شهود زور لا يستحقون أن تشهد معهم، أتوا بهم لأنهم

متحدون معهم في التكذيب بآيات الله وفي عدم الإيمان باليوم الآخر، يسوون بين الله وبين أصنامهم.

بيان المعنى العام:

148-سيقول الذين أشركوا...وإن أنتم إلا تخرصون.

إعلام من عالم الغيب كشف به لرسوله ما سيحتج به المشركون، والله مطلع على خفايا صدورهم، وما يهيئونه فيما بينهم ليواجهوا القوة التي حيرتهم، قوة انتشار الإسلام وتوسعه في اكتساب ضمائر أهل مكة. إن هذا النوع من المجادلة والاستعداد لإفحامهم، واجتهادهم في الطعن فيما جاء به الرسول ﷺ، يقوم شاهدا في نظري على أن هذه السورة نزلت في أواخر العهد المكي، كما ذكره بعض المحققين. لقد تحول المشركون في رفضهم للإسلام، من عدم المبالاة أولا، ثم من السخرية والاستهزاء لاحقا، ثم من الاعتماد على البطش المادي لكبح امتداد الإسلام ثالثا؛ وقد انتهت المقاطعة الاقتصادية إلى خيبة ولم تحقق ما كان يرجى منها. تحولوا إلى فرض الفروض العقلية التي هي في تصورهم وفهمهم ينهار بها البناء الإسلامي العقلي والعقدي. الذي أعلمَ الله به رسوله أن ما سيقدمونه يقوم على أساس: أن بعثة الرسول لا حاجة إليها. وأن ما تقوم عليه الدعوة من المسؤولية والحساب غير معقول.

كيف صاغوا وبسطوا تصورهم هذا ؟ قالوا: إنه على حسب ما تثبته يا محمد: إن الله هو المتصرف في كل أمر من أمور هذا الكون؛ وإذا كان ما تقوله حقا فلماذا لم يمنعنا من الشرك ؟ وإذا كان ما نعتقده أو نفعله هو لا يخرج عن حكمه، فلماذا لم يمنعنا من تحريم ما حرمناه لو كان ما حرمناه باطلا، مما جادلتنا فيه فأكثرت جدالنا ؟ إن هذه الشبهة يزينها الشيطان للضالين عبر التاريخ، ويقذفها حتى في عقول كثير ممن ينتسبون للإسلام، ويظن الجميع أنها تنجيهم من ضلالهم وكفرهم، أو من تقصيرهم وعدم قيامهم بالواجبات. فكثير من المتراخين عن أداء ما أوجبه الله عليهم من الصلاة أو من الزكاة، إذا ذكرتهم أو عاتبتهم على إهمالهم لما هو مفروض عليهم، أجابوك هكذا قدر الله، ادع لنا بالهداية، ويظنون أنهم بذلك يتنصلون من المساءلة.

الحجة التي رد بها القرآن على البهرج الذي قدموه هي :ما هو مستند دعواكم أن الله منعكم من التوحيد أو لم يحل بينكم وبين ما قررتم تحريمه مما هو حلال ؟ هل استندتم إلى علم ؟ إن العلم لا يكون إلا ما ينبثق عن الدليل، ولا يكون العلم علما

أبدا، إذا ما استند إلى تخيلات، أو دعاوٍ لا سند لها. تحداهم أن يقدموا سند هذا العلم، وفي هذا التحدي إبراز لجهلهم وتعنتهم وضيق أفقهم العقلي.

إن الله خلق البشر ومكن المسؤولين (المكلفين) منهم من قوة تُدرِك الخير والشر، وتوازن بين الحق والباطل، وإرادة تُرَجِّح جانب الإقدام أو الإحجام، ومن قدرة تنفذ ما رجحته واختارته من الفعل أو الترك.هذه حقيقة ضرورية يجدها كل فرد في نفسه وهو يباشر شؤون الحياة الفكرية والروحية والعملية. خذ لذلك مثلا : من يملك قطعة أرض رواها الغيث، وهو ممكن من حرثها وزرعها بما له من معدات وقوة، وعلى إنتاجها يتوقف استمرار حياته، ورغد عيشه.

هذا المالك بين خيارين : إما أن يفلَح أرضه ويعتني بزرعه ويوالي القيام عليه بما يصلحه، وإما أن يترك أرضه بوارا. والموعد للاختيارين يوم الحصاد. فهل لمن آثر ترك أرضه بوارا من حجة على ما سيلقاه من حرمان؟

الإنسان يحرث، ثم يزرع، ثم يرعى زرعه وينقيه من الأعشاب الضارة، ويقوم برشه بما يحفظه من تسلط الطفيليات والجراثيم. هذا هو مسؤولية مالك الأرض، ثم إن إنبات الزريعة ونموها وبلوغها حد النضج ليس مسؤولا عن شيء من ذلك، ذلك من قدر الله. فالإنسان أوتي العقل الذي ينظر به في كون الله، ويسعده الوحي ببيان طريق الهدى ومسالك الضياع والخسران، ذلكم الوحي الذي يحتضن العقل ويبعده عن المتاهات ويطرد عنه الحيرة، فهذا من قدر الله الذي لا يَدَ للإنسان فيه، قد وفره رب العالمين. وإذا لم يوفره انتفت المسؤولية، فالمجنون غير مؤاخذ بما يجري في دماغه من إيمان أو كفر، والبشر إذا لم يسعفهم الوحي لا يؤاخذون:**(وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا)** فإذا توفرت القدرة البشرية وبلغ الوحي، فمن لم ينظر في الأدلة البينة من العقل والوحي، ولم يستجب لمقتضياتهما سئل واستحق العقوبة. كصاحب الأرض الذي قعد في بيته ولم تحركه الأمطار ولا داعي الأرض التي يملكها للعمل والجد. وهكذا المتراخي عن أداء الفروض الواجبة عليه. فمثلا: إن وجود الماء أو ما يقوم مقامه، وكونه عاقلا مدركا لحضور وقت الصلاة ووجوبها، لم تعوّقه قوة قاهرة عن القيام بها. ثم يدعي أن الله لم يهده هو كذب على الله، لأنه من أين له أن يعلم أنه لم يشأ له أن يقوم بصلاته. بل إنه هو الذي لم يشأ أن يتحرك إلى الماء وما يتبعه للقيام بالفريضة. وهذا هو المحقق فإن إرادته لم تتحرك، فتبعها عدم تحرك القدرة للتنفيذ. ثم إن الآية كشفت عن العلة التي بها ضلوا، وهي أنهم تحولوا من العلم الذي هو ما يملكونه من قدرات محققة، إلى ظن كاذب غير مستند إلى ما

يدعمه، فهو منهار لا ينفعهم في مــآلهم، ولا يبلــغ بهــم فــي المحاجــة مبلــغ أصـــحاب العقول الواضحة، والصادقة الرؤية.

149-قل هلم شهداءكم...لهداكم أجمعين.

ثم أعلنت الآية عن تهافت حجتهم وأنها وهم لا يحقـق لهـم مـا رغبـوا فيـه مـن هـدم الأساس الذي قام عليه، وإن الحجة التي تـأتي علـى مـا قـدموه فتهدمـه مـن القواعـد هي حجة الله التي ذكرت في الآية. فهي حجة تبلغ الغاية من إيرادها.
والكلمة الجامعة: هي أن الله لو شاء أن يخلقكم خلقـا آخـر، فتكونـون كالملائكـة فاقـدين للاختيار ممحضين للخير، كما قال تعالى فـيهم: **(لا يعصـون الله مـا أمـرهم ويفعلـون ما يؤمرون)** لو شاء ذلك، لكنـتم كـذلك.ولكـن إرادتـه سـبحانه قـد تعلقـت بتحمـيلكم للمسؤولية، وهي شرف الإنسان إذا عرف كيف يؤديها على وجه الخير.

150-قل هلم شهداءكم....بربهم يعدلون.

وتحقيقا لإبراز سفههم، وإظهارا لفقدانهم أي حجـة، تـابع القـرآن عـرض مـا بقـي ممـا يمكن أن يحتجوا به لينقضه ويسـقطه، ويعـريهم مـن كـل سـند عقلـي أو مـن وحـي السماء، فتحداهم أن يحضروا مـن يشـهد بـأن الله حـرم علـيهم مـا ادعـوا تحريمـه، تحداهم أن يأتوا بهؤلاء الشهداء ليـؤدوا شـهادتهم علـى مـلأ مـن النـاس. وإن فُـرض أنهم أتوا بشهداء فاعلم أنهم شـهداء كذبـة يـزورون الحقيقـة ويفتـرون بشـهادتهم بمـا يتيقنون خلافه. إنهـم لا يجـدون شـهداء إلا مـن الـذين هـم مـثلهم يُكـذّبون بآياتنـاء ويكفرون بالبعث والجزاء. وإنهم إنما يتبعون ما يمليـه عليـه هـواهم المـريض الـذي إن عجل لهم ما يرضون عنه، فسينتهي إلـى فضـحهم وتـدميرهم. والطامـة الكبـرى فـي تفكيرهم أنهم يسوون بين الله وبين أصنامهم.

﴿قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (151) وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُواْ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (152)﴾

وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

تعالوا : أقبلوا.

الإملاق : الفقر.

الفواحش : جمع فاحشة، وهي الفعل الشديد القبح الموجب للإثم الكبير.

أشده : المستوى الذي يكون فيه قادرا على حفظ ماله، بالحزم وحسن النظر في الأمور.

القسط : العدل.

بيان المعنى الإجمالي :

أمر من الله لرسوله أن يدعو البشرية للتأمل في المنهج الإسلامي العام. وصرفهم بذلك عن الاشتغال بأمور ليس لهم فيها سند من تشريع أو من عقل.

أمر أن يقول :أقبلوا فاسمعوا مني ما أتلوه عليكم من المحرمات التي بلغتني عن طريق الوحي. الآية الأولى تتضمن :

1) وحدوا الله ولا تشركوا به

2) أحسنوا إلى والديكم

3) وأحسنوا إلى ما يسره الله لكم من الذرية ،فلا تقتلوا أولادكم خشية الفقر فإني ضامن لرزقهم كما رزقتكم، ولا تقوموا بإجهاض الحوامل

4) ابتعدوا عن الآثام الظاهرة للعيان والآثام التي لا يظهرها الآثم للناس، واطردوا فكرة الإثم بمجرد ما يوسوس بها لكم الشيطان

5) احترموا الحياة ولا تقتلوا إنسانا إلا بالعدل المبني على حكم حاكم، أو دفاعا عن النفس. أوصيتكم بهذه الوصايا رجاء أن تستيقظ عقولكم لتدركوا تحتُّمها فلا تضيعوها.

الآية الثانية تتضمن :

1)حافظوا على أموال اليتامى ولا تسوّل لكم نفوسكم الاستحواذ على شيء منها لفقدان اليتيم لوالده الذي كان يدافع عنه وتستّر الناظر في أمواله بساتر القرابة فلا تحركوا أموالهم إلا على الوجه الأفضل لهم.

2) كلما كان التعامل بالكيل أو الميزان فـأعطوا لكـل صـاحب حـق حقـه، ولا تنقصـوا منه شيئا ولو كان طفيفا. ولا حرج عليكم فيمـا وقـع مـن تطفيـف بـدون قصـد مـنكم فالتكليف ساقط مع العجز.

3) إذا تكلمتم فاحرصوا على العدل في أقوالكم ولو كـان مـا تصـرحون بـه مـن الحـق يتضرر منه قريب لكم.

4) حافظوا على الوفاء بعهودكم فإن الله رقيب على ما أخذ عليكم من عهود.

تأملوا في هذه الوصايا واعملوا بما أوصيتكم به رجاء أن تكون على ذُكر منكم دائما.

وبالجملة، فمجموع ما أنزلته عليكم على لسـان رسـولي يمثـل المـنهج القـويم الـذي لا عوج فيه، يصل بكم إلى السعادة التي ترغبـون فيهـا بأيسـر مـا يكـون، ومـن أقـرب طريق وبما لا يتناقض مـع فطـرتكم ومـع عقـولكم. وإيـاكم أن تتبعـوا سـبلا أخـرى فتتفرق بكم الطرق وتبعدون عن سبيل الله.

إن سبيلي هو وحده الذي تحل معه التقوى في قلوبكم فتمنح أرواحكم شفافية واستقامة

بيان المعنى العام:

151-قل تعالوا أتل....لعلكم تعقلون.

بعد أن جادل المشركون أشد الجدال، وتولى القـرآن إفحـامهم وتقـويض مـا بنـوا عليـه مقالاتهم الفاسدة، حولهم القرآن إلى ما يحفـظ علـى البشـر الحيـاة التـي تتناسـب مـع المستوى الإنساني، وكشف لهم بـذلك أن مـا كـدوا فيـه عقـولهم، زيـادة علـى كونـه باطلا، ليس هو من الأسس التي يحـق للبشـر أن يُعْنَـوْا بهـا، ويجعلوهـا المقدمـة فـي سلم اهتماماتهم. ولذلك أمـر رسـوله أن يـدعوهم فيقـول لهـم: أقبلـوا علـي لتسـمعوا المـنهج الإلهـي الـذي يحفـظ لكـم مقـامكم الإنسـاني، ويُمَـتِّنُ رابطـتكم الاجتماعيـة ويساعدكم بالتالي على الفوز بالحياة الآمنة المطمئنة البالغـة بكـم السـعادة فـي الـدارين. وذلك يتضمن النظام الاجتماعي. ومما نصت عليه الآية:

أولا: العناية بصلاح العقيدة، فإنـه لا قيمـة للبشـر، ولا يتحقـق الأمـن بيـنهم، إذا لـم يطهروا قلوبهم وعقولهم من لوثة الشرك.

ثانيا : التضامن العائلي وذلك :

بأن يحرصوا على ما يقتضيه من السـمو بالعلاقـة بـين أعضـاء الأسـرة مـن النفـع المادي الحاصل أو المترقب، إلى الإحساس بالواجب والوفاء له.

علاقة الأولاد بوالديهم عند الحاجة : إنه إذا كـان الكبـار يسـتجيبون فـي القيـام علـى ذريتهم بعامل الفطرة السليمة التي غرسها الله فـي قلـوب الوالـدين، وبالأمـل فـي أنهـم

سيجدون من ذريتهم عونا عند الحاجة، وأنهم يخلفونهم في أنسابهم وأموالهم فيحققون لهم استمرارهم في الوجود، إذا كان قيام الوالدين على الذرية يقوم على الدوافع التي بيناها، فإن قيام الأولاد على الوالدين لا يقوم به الأولاد إلا بعامل خلقي رفيع، هو خلق الوفاء. ومن ركائز التربية الإسلامية إحياء الأخلاق العالية في قلوب معتنقيه، فدعا أن تكون العلاقة بين الأصول والفروع، تُعَيَّرُ بضابط الإحسان. إنه لما أمر القرآن بالإحسان للوالدين، فمعنى ذلك أن على الذرية أن يكون ضابط معاملتهم ليس أداء الواجب فقط، ولكن أن يقدروا تعاملهم على أساس الإحسان أي إنهم لا يُعتبرون مستجيبين لأمر الله إلا إذا كان التعامل على أفضل وجه وأسماه. خذ لذلك مثلا :تمكين والديك مما يحفظ عليهما حياتهما، من المسكن والملبس والغذاء بقدر حاجتهما، هو الواجب. ولكن المطلوب من المؤمن بحكم إيمانه هو شيء فوق هذا، هو أن يصحب ذلك حسن المعاملة في القول والطريقة، وتخير ما يرضيهما في حدود طوقه.

علاقة الوالدين بأولادهم: إن الفطرة حسبما قدمناه تدفع الإنسان دفعا للعناية بما أنجبه وانتسب إليه، ولكن هذه الفطرة قد تنحرف بعوامل تناقضها وتضعف سلطانها. وبناء على رعاية القرآن للفطرة، وهو دين الفطرة، حذر في هذه الآية وفي كثير من الآيات من الوأد. ولئن كان الوأد قد قضى عليه القرآن، إلا أنه تفشت في عصرنا ظاهرة الإجهاض المتعمد. والإجهاض وأد، لأن اللقيحة عندما تعلق بالرحم هي من يوم علوقها تحمل جينومها الخاص بها. إن عدد الشعرات مثلا في كل جزء من أجزاء البدن ولونها وكونها سبطة أو جعدة ومتى تسقط ومتى يتغير لونها، ولون العينين من حور أو زرقة، ولون البشرة إلى آخر الخصائص التي تميز كل فرد عن غيره، كل ذلك عبأته القدرة الإلهية في رأس اللقيحة من اليوم الذي تم فيه التخصيب، ومع الزمن يظهر ما هو كامن موجود. فالاعتداء على اللقيحة بالإجهاض في الأيام الأربعين الأولى أو قبل ذلك أو بعده، هو اعتداء على الحياة وعلى النسل. لقد كان من أسباب قتل الآباء لبناتهم في العصر الجاهلي خوف الفقر. وتقدير المغفل الفقير أن الخصاصة ستلزمه طول حياته، وأيقظ القرآن إلى أن الله ما خلق نسمة إلا وقدر لها رزقها، وخاطب البشر في جميع الأعصار خطابا مباشرا من الله : **(نحن نرزقكم وإياهم)** فكما رزقتكم حتى بلغتم مستوى الإنجاب فكذلك نرزق ذريتكم، فعليكم أن تأخذوا بأسباب الرزق.

ثالثا :طهارة السلوك ويتضمن :

الابتعاد عن الآثام وبخاصة الكبائر التي يصحبها فساد يتبعه الآثار السيئة في نفس الفاعل وفي المجتمع، وأنت إذا تتبعت الآثام فعلا وتركا، تجدها لا تخرج عن الانحراف عن السلوك الصالح في الالتزام بالأخلاق الفاضلة والاستقامة في علاقة الإنسان بربه وبإخوانه في الإنسانية وفي علاقته بالكون. وتبدو التربية الإسلامية في النهي عن القربان وذلك لأن من شأن اقتحام الآثام أن لا يكون دفعة واحدة، بل تجد الأثم يدخل الشيطان فكرة الإثم في نفسه، ثم يتابع التفكير فيها إلى أن يصل إلى العزم والتنفيذ، فإذا كان يقظا فطرد الوسوسة من أول الأمر نجا. ونهى عن الفواحش ما ظهر وما بطن لتعميم النهي عن الآثام التي يقترفها الإنسان، فبعض الآثام يظهرها الآثم كالكذب والنميمة والغيبة وبعضها يخفيها الآثم كالسرقة والزنا. وخص من الآثام الكبيرة قتل النفس، مع أنه من أعظم الفواحش، عناية من القرآن ليحذر منه، إنه إذا وقع التهاون بحرمة الحياة أسرع الفساد للمجتمع في جميع شؤونه. واستثنى القرآن من ذلك أن يكون القتل بالحق، كالدفاع عن النفس أو عن الدين، أو القتل القصاص بالحكم العادل من الحاكم. ومما يتأكد التنبه إليه أنه لا تقتل النفس إلا بعد إحضار المتهم، وتمكينه من الدفاع عن نفسه ليظهر ما يمكن أن يكون خفيا من الملابسات التي بها يحرم قتله، ولا بد أن يكون الحكم من القضاء العادل. وقد ضبط التشريع الإسلامي القتل بضوابط تحترم النفس الإنسانية ولا يحل تجاوز أي جزئية من تلكم الضوابط.

ويختم هذا التوجيه الوارد في الآية بالإشارة إليه **(ذلكم)** ويعبر عنه بأنه توصية من الله. فاحذروا أن تتراخوا في الالتزام بها. وربطها برجاء أن يكون الالتزام بها والتأمل فيها مما يوقظ العقل إلى إدراك الحكمة فيها.

152-ولا تقربوا مال اليتيم....لعلكم تذكرون.

ثم انتقل القرآن إلى بيان أصول التعامل بين أعضاء المجتمع الإسلامي فبين:

أولا: اليتيم الفاقد للوالد والذي يتولى أحد أقاربه النظر في شؤونه المالية، أوصى الله الناظرين عليه المتولين للتصرف في أمواله أن يتصرفوا فيها التصرف الذي يراقبون الله فيه ، وليعلموا أن الله سيحاسبهم على ذلك، فعليهم أن يبتعدوا عن كل ما من شأنه أن يعود بالنفع على الولي والضرر على اليتيم. وأن يتوخوا الطريقة الأحسن والأكمل في كل تصرف صغيرا كان أو كبيرا. وعليهم أن يوالوا رعاية ذلك إلى أن يبلغ الصبي السن والمستوى الاجتماعي الذي يستطيع أن يتصرف في ماله تصرف الرشداء.

ثانيا : في العلاقة بين البائع والمشتري. إنه إذا كان التبايع في ذات معينة، كشراء خبز أو سيارة أو قميص، فإن الأمر واضح، بالنسبة للمتعاملين، وأما إذا كان موضوع المبادلة ما يوزن أو يكال، فالمأمور به أن يحرص البائع على إعطاء المشتري حقه كاملا لا ينقص منه شيئا ولو قليلا. والمشتري كذلك مطالب بالعدل، إذا كان ما يسلمه يقدر بالكيل أو الميزان. وكل تكليف في الإسلام هو مرتبط بما هو في الإمكان ولا يقع معه المكلف في حرج. ولا يوجد تكليف خارج عن طاقة الإنسان في العادة فإذا سقطت حبات من المكيال بدون تعمد فلا حرج، وكذلك إذا وضع عن خطأ مثلا معيار عشرة غرامات عوض عشرين كان بائعا أو مشتريا فالآية تصرح في مثل هذه الحالات، أنه غير مكلف وبالتالي غير محاسب.

ثالثا: دور اللسان في المعاملات بين البشر دور كبير جدا كما هو معلوم. كالوعود والنصيحة والحكم والشهادة والنصح والأخبار، وتكاد تكون العقود لا تنبرم بين الناس إلا بالأقوال بما يسبقها من مراوضة إلى العقد نفسه، وكذلك المزاح والشتم، وبصفة عامة كل ما ينطق به الإنسان وله أثر في الطرف المقابل، كل ذلك داخل تحت ميزان العدل، وإدراك العدل من الظلم يكاد يكون فطريا في الإنسان، ولذلك كثيرا ما يحيل عليه القرآن لوضوحه في العقل السوي. وقد يعمر شعور المتكلم بتأثيرات خارجية تحيف به عن العدل، فلذلك أيقظت الآية من يترتب على كلامه ظلم أن يلتزم العدل ولو كان المتضرر بكلامه قريبا له.

رابعا : الوفاء بالالتزامات الموثقة باستنادها إلى الله في الأمر بالوفاء بها، سواء أكانت من عهود الفرد مع ربه، أم مع الجماعة، أم مع فرد آخر يتعامل معه.

ثم جمعت الآية هذه الوصايا وأحضرت في ذهن المخاطبين على أنها وصايا تتحتم رعايتها صادرة من الله، رجاء أن تتذكروها ولا تغفلوا عنها.

153-وأن هذا صراطي مستقيما...لعلكم تتقون.

ختم هذا المقطع بإبراز صفة جامعة للدعوة الإسلامية تتمثل فيما يلي:

إن جميع ما وجهته إليكم وأرشدتكم إليه، وما أمرتكم به وما نهيتكم عنه، إن كل ذلك يمثل وحدة مترابطة حاضرة أمامكم بواسطة ما أنزلته على رسولي، إن جميع ذلك يمثل طريقا مستقيما لا عوج فيه، يصل بكل فرد يسلكه، وبكل جماعة تلتزم بالسير على هداه، يصل بهم إلى تحقيق السعادة التي يجهد الإنسان لبلوغها من أخصر طريق وأوضحه.

اتبعوا الطريق السالكة التي بينها لكم الوحي، وإياكم أن تتبعوا الطرق الأخرى، إنكم إن سلكتموها تضيعون في متاهاتها ولا تصلون إلى قصدكم. إنها السبيل التي تحفظ لكم التوازن بين الروح والعقل والجسم، وتحفظ لكم العدل في الفكر وفي التعامل، إنها الطريق التي تضمن لكم الطمأنينة الراضية التي تمكن قواكم من النشاط على المنهج الواضح بدون قلق ولا غموض.

ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى
وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟
لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن
دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ
جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟
يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾

بيان معانى الألفاظ :

الكتاب : التوراة.

تمام: مكملة للصلاح الموروث عن الأنبياء السابقين لموسى.

على الذي أحسن : المحسن.

الطائفتان : اليهود والنصارى.

صدف : حاد وأعرض.

بيان المعنى الإجمالي :

إنه فوق ذلك قد أنزلنا الكتاب على موسى إتماما وإكمالا لما نزل من قبله من هدايات الله، مفصلا لكل ما يتعلق بصلاح الدنيا والآخرة، ويشرح القلوب للأخذ بهداية الله، ينشر فيها الرحمة والسكينة، لعلهم بذلك يبلغون درجة اليقين بالبعث والحساب. إنه فوق ذلك وأعلى منه درجة هذا الكتاب (القرآن) منزل من عند الله كَثِيرَةٌ خَيْرَاتُهُ، فاتبعوا هداه، ولتكن تقوى الله تهديكم في جميع أعمالكم، رجاء أن تفوزوا برحمة الله. هو كتاب يقطع المعاذير التي يمكن أن تقدموها، بأن تقولوا : إن الكتب السماوية السابقة لم تصل إلينا ولا عنيت بنا وإنما خوطب بها اليهود

والنصارى، ونحن لم ندرس كتبهم فلا نلام عن عدم الإيمان، أو تقولوا: لو أنه أنزل علينا كتاب يوضح لنا العقيدة والتشريع لكنا أشد هداية منهم. فقد قطعنا معاذيركم وأنزلنا عليكم (**القرآن**) واضح الدلالة معجزته من ذاته لما اشتمل عليه من الهدى وتفصيل الأحكام مع التيسير والشمول، وهو رحمة لقلوبكم من الحيرة ولعقولكم بإخراجها من الضلال. إنه لا يمكن أن يكون فريق أشد ظلما من الذين كذبوا بآيات الله وأعرضوا عنها. هم ظلموا أنفسهم، ظلموا رسول الله وظلموا البشر بما كانوا يقيمونه من سدود في طريق الإسلام. وعيد لا مفر منه : إن الله سيجزيهم أشد العذاب وأقساه وأسوأه بسبب إعراضهم وصدهم عن سبيل الله وبما فعلوه.

بيان المعنى العام :

154-ثم آتينا موسى الكتاب....بلقاء ربهم يؤمنون.

الآية الأولى في هذا المقطع تثبت مرتبة أعلى في الدعوة إلى اتّباع دين الإسلام. فإن الله الذي أنزل على موسى عليه السلام التوراة، الكتاب الذي يعتبر كمالا لما تلقاه بنو إسرائيل عن رسلهم وأنبيائهم من عهد إبراهيم إلى مجيئه، والذي فصل وبين بيانا شافيا ما يتطلع بنو إسرائيل إلى معرفته من الشريعة التي يرضى الله عنها، والذي يملأ قلوب المُتَلَقِّينَ له بالهداية إلى الطريق *المستقيم*، ويرحمهم من الحيرة التي كانوا عليها وينقذهم من الذل المسلط عليهم رجاء أن يستقر الإيمان في قلوبهم استقرارا يقربهم من اليقين بيوم البعث والحساب.

155←157: وهذا كتاب أنزلناه مبارك...كانوا يصدفون.

تأتي الآية الثانية التي هي الهدف من التنويه بما جاء به موسى، فتقدم في إطار متميز حاضر الكتاب (**القرآن**) الذي تلقاه محمد من ربه، فأثبتت أنه منزل من عند الله ردا لما اعترض به المشركون من أنه من عند محمد، وأن خيراته من جمع الكلمة وإحياء شرع الله وتكميله ، خيرات لاتحد ، إنه مبارك. إن هذه الصفات تحتم عليكم أن تتبعوا ما جاء فيه من الهدى، وأن تلازموا التقوى بتفتح أرواحكم لتكون متصلة بالله في جميع أحوالكم، إنه باتّباعه والتزامكم التقوى يرجى لكم الفوز بالرحمة الربانية.

لقد أنزلنا عليكم القرآن قاطعا للمعاذير التي يمكن أن تتعللوا بها. فمما يمكن أن تتعللوا به عن عدم إيمانكم أن تقولوا :لم ينزل الكتاب من الله إلا على اليهود والنصارى الذين جاؤوا من قبلنا، ونحن لم ندرس ما نزل عليهم، ولم نتعلم من أحبارهم ورهبانهم ما تلزمنا به الحجة. أو تقولوا متعالين: لو أنزل الله علينا

الكتاب لكنا أسرع إلى الاهتداء والعمل الصالح من اليهود والنصارى. إنه إن كنتم تعتذرون بما ذكر في الصورتين قبله، فقد سقطت جميع المعاذير إذ قد بلغكم ما يظهر الحق، ويدفع الباطل، بأتم بيان وأبلغه. إنه مع وضوحه في تفصيل كل ما يتعلق بالدنيا والآخرة، هو في طريقته يساعد على تقبل ما جاء به، والاهتداء بهداه العام والخاص. وهو كله رحمة، فقد تفرد بالتشريع الجامع بين ما يحقق السعادة في الدنيا والآخرة، وبين ما ينمي العقل، ويفتح للروح منافذ للسمو، ويعلو بالخصائص الإنسانية إلى مقام رفيع، ومع ذلك فأحكامه ميسرة لا حرج فيها. إنه مع هذه العناية ،وهذه المزايا التي خصكم بها رب العالمين، عليكم أن تحذروا. فإنه لا أشد ظلما ممن جاءته الآيات البينات من الله، فقابلها بالتكذيب وأعرض عنها. إن هؤلاء ظلموا أنفسهم بعدم السير بها في الطريق الواضح وعرضوها للمساءلة والعذاب. وإن ظلمهم تجاوز ظلم أنفسهم إلى عدم توقير رسول ﷺ ، وظلموا الناس بصدهم عن الإسلام بالقول والفعل.

إن الذين بلغ ظلمهم هذا الحد بالتكذيب، ونشر الأراجيف والأباطيل لمنع الناس من الاهتداء، سيكون جزاؤهم أسوأ العذاب، بسبب صدودهم وإعراضهم.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ
يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ
إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ
مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ
فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

هل ينظرون : هل ينتظرون.

لا ينفع نفسا إيمانها : لا ينفعها في الآخرة.

أو كسبت في إيمانها خيرا : عملت عملا صالحا.

شيعا: فرقا مختلفة.

لست منهم في شيء: لا صلة بينك وبينهم.

بيان المعنى الإجمالي :

وأصل الكافرون عنادهم رغم ما جاءهم من الآيات البينة الدالة على صدق رسول الله ﷺ، وقد أزال القرآن كل شبهاتهم وأحبط ما ثار في نفوسهم من اعتراضات، فمالهم لم يستجيبوا؟ هل ينتظرون أن تأتيهم الملائكة أو يأتيهم رب العالمين ليقتنعوا؟ لقد نص القرآن على أن هذا المقترح مناف للعقل. أو هل ينتظرون أن تأتيهم آية من آيات الله تخضعهم وتجبرهم على الإذعان للحق ؟ وليعلموا أن هذه الآيات عندما تأتي على ذلك النحو، فإنه لا يقبل الإيمان من أي نفس لم تؤمن قبل مجيء الآية. ومثلهم الذين آمنوا وتهاونوا بالواجبات واقتحموا حدود الله، فعند مجيء الآيات الملجئة لا تقبل توبتهم.

انتظروا ما سيحل بكم من العذاب، وإني منتظر كرامة ربي ورضوانه.

وتوجه القرآن للرسول ﷺ ليبين له أن منهجه متفرد لا صلة بينه وبين ما يسير عليه غيره من أصحاب الديانات الأخرى. إنهم جعلوا الدين سببا للفرقة والاختلاف لربطه بمصالحهم الدنيوية، وسيحاسبهم الله عما حرفوا وبدلوا وفرقوا بين البشر بعد أن يقررهم ويظهر لهم سوء أعمالهم. إن ما يقدمه الإنسان من خير أو شر مثبت في صحائفه، ولكن الله أمر ملائكته في تقدير الخير بأن يكتبوا لفاعله ما يساوي ما ترتب على فعله من صلاح عشر مرات على الأقل إلى سبعمائة ضعف، وذلك من فضل الله، وأن من ارتكب سيئة ولم يتب منها تكتب له سيئة واحدة وذلك من عدل الله، ولا يظلم ربك أحدا.

بيان المعنى العام:

158-هل ينظرون إلا أن تأتيهم...انتظروا إنا منتظرون.

قطع القرآن على المشركين ما يحتجون به في الآية السابقة بقوله تعالى :(**فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة فمن أظلم ممن كذب بآيات الله وصدف عنها...**) ثم واصلت الآية الأولى في هذا المقطع إظهار ما يمكن أن يخفوه في صدورهم مما وسوس به الشيطان ليثبتوا على كفرهم، فافتتحت بسؤال يجمع بين الإنكار والتعجب : ما الذي ينتظرون لتلين قلوبهم للإيمان؟ هل ينتظرون أن تنزل عليهم الملائكة كما سجل القرآن عليهم ذلك، أو يأتي ربك ؟ وفعلا قد سألوا أن يتم هذا ليؤمنوا. وقد رد الله عليهم ذلك بأنهم ما فطنوا إلى أنهم طلبوا المحال، إذ أن طبيعة خلقهم تجعلهم غير مؤهلين بما أوتوه من قوى لإدراك الملائكة. وأعظم من ذلك بعدا طلبهم مجيء الله ليقنعهم. فالمقترحان من المحال عقلا تحققهما.ومن طلب

المحال فإنما أعلن عن فساد عقله. أوهل ينتظرون أن تأتيهم بعض الآيات التي اقترحوها مما هو غير مستحيل عقلا؟ ونبههم لما يترتب عن تحقيق طلبهم هذا: إنها القاضية عليهم. وفصلها بأنه عندما تأتي الآيات التي طلبوها ليؤمنوا، والتي لا تكون إلا عذابا، ينتهي الأمر ولا تنتفع أي نفس بإعلان إيمانها إذا كانت لم تؤمن قبل مجيء الآيات. ومن الآيات المنتظرة التي أخبر بها النبي ﷺ طلوع الشمس من مغربها، لأن الإيمان المعتد به ما كان عن اختيار لا اضطرار، وطلوع الشمس من مغربها آية ملجئة. وأدمج في الحديث عن المشركين وعدم نجاتهم إذا حصل من الآيات ما هو ملجئ، أدمج وضع المؤمنين المقارفين للمعاصي المهملين لفعل الصالحات والخير، فهم أيضا لا ينتفعون من توبتهم إذا حضرت أشراط الساعة. ثم هددهم القرآن بدعائهم إلى الانتظار الذي سيعقبه حلول نقمة الله بهم ونزول العذاب الأليم الذي لا مفر منه، فهذا ما ينتظركم وتنتظرونه، ونحن ننتظر النصر من ربنا والتكريم.

159-إن الذين فرقوا دينهم وكانوا....بما كانوا يفعلون.

ثم يخاطب الله نبيه ليؤكد له أنه هو وحده الذي يسير على الصراط المستقيم، ولينفي أي صلة بينه وبين المتدينين في عصره، من المشركين واليهود والنصارى وسائر الطوائف، التي اتخذت من الدين منطلقا لتحقيق مصالحها. وإذا انبنى الدين على المطامع الدنيوية كان مجلبة للنزاع والاختلاف فكل طائفة تكيف عقائدها وتشريعاتها حسب ما تتوقع من تحصيل للمنافع بذلك. فيقول له: إن الذين تفرقوا بسبب الدين من المشركين الذين اتخذوا آلهة متعددة، كل أتْبَاعِ إله يتعصبون لإلههم، أومن اليهود الذين نفوا كل هداية غير ما خوطبوا به، ثم تفرقوا شيعا وما يزالون متفرقين، وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم. ومن النصارى وهم أشد تفرقا وتعصبا على بعضهم. إن هؤلاء جميعا ليس بينك وبينهم أي صلة. إن الدين الحق هو الإيمان بإله واحد الله رب العالمين، وإذا كان النبع الذي يجري منه الإيمان واحدا، فكل من يحول الإيمان إلى اختلاف هو ليس منك يا محمد ولست منه. إنهم سَيُعْرَضُونَ على ربهم بما زيفوه وحرفوه وفرقوا به بين البشر، وفي ذلك اليوم سوف يُعلمهم الله بنتائج ما كانوا يفعلونه، فضحا لأمرهم، وخزيا لنفوسهم، وتيئيسا من مغفرة ذنوبهم. وفي ذلك تحذير للمسلمين من أن ينساقوا إلى هذا المنحى الذي وقعت فيه الأمم السابقة، وأن يكونوا محافظين أشد الحفاظ على وحدتهم.

160-من جاء بالحسنة فله عشر....وهم لا يظلمون.

لما ورد ذكر قبول الإيمان والأعمال، أوعدم الانتفاع بها عندما تأتي آيات ربك، أكمل القرآن مقدار الجزاء في هذه الآية. فمن فعل أمرا حسنا في ميزان الشرع فإن جزاءه يكون ضعف ما قدم عشر مرات. ومعنى هذا أن الفعل الحسن هو ما يترتب عن القيام به خير. تقدير هذا الخير والمساواة بين الفعل وأثره، هو من الأمور التي يحصيها الملائكة الموكلون بذلك حسبما تلقوه عن رب العزة. إن المقارنة بين الحسنة وجزائها أمر الله ملائكته أن لا يقل عن عشر أمثالها، وقد يبلغ سبعمائة ضعف.فالعشر يمثل الحد الأدنى. وفي المقابل، فإن من فعل سيئة مما نهى الله عنه فإنه يكتب له في ميزان أعماله ما يساوي الضرر الذي أحدثه دون زيادة. وإذا كان الفضل الإلهي قد ضاعف حسنات المحسنين، فذلك ما يدعو البشر لفعل الخير حتى يألفوه ويتسابقوا لفعله. وقصر العقوبة على ما يساوي السيئة فذلك مثال للعدل الإلهي، والله لا يظلم أحدا.

قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الدين القيم : الدين الذي يكفي الإنسان لتحقيق صلاحه في جميع شؤونه.

الملة : الدين. والملة لا تضاف إلا إلى النبي، ولا تستعمل إلا في مجموع الشريعة، فلا يقال: الصلاة ملة الله ويقال دين الله.

النسك : العبادة.

الوزر : الحمل الثقيل.

تزر: تحمل.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآيات الثلاث افتتحت بـ[قُل] اهتماما بمضمونها وتأييدا لرسوله في التصريح بها وهي:

1) قل لهم : إن ما أنا عليه هو من فضل ربي الذي هـداني إلـى هـذا المـنهج الجـاري على استقامة لا عوج فيه، فسالكه يدرك من البدايـة الغايـة التـي سيصـل إليهـا، وهـو شامل لكل ما يقيم حياة الإنسان علـى أفضـل الوجـوه، أَجْتَمِـعُ فـي هـذه الملـة مـع إبراهيم الذي لم يرض بأي دين من الأديان التي كانـت سـائدة فـي عصـره، فمـال إلـى طريق التوحيد الواضح، وخلّص عقيدته وأعماله من الشرك.

2) قل لهم إني مخلص في جميع أعمـالي لله وحـده، فـي صـلاتي وفـي عبـادتي وإن جميع كياني في حياتي أو في موتي كل ذلـك خـالص لـرب العـالمين الـذي لا شـريك له. وبهذا الإخلاص وإفراد الله أمرنـي ربـي فأطعتـه، وإنـي أول السـائرين فـي هـذا الموكب الساعي نحو الله باعتبار أن مفهوم الإخلاص الواضح الكامل لا يفارقني.

3) قل لهم إني مقتنع الاقتناع الكامل أن الله هو ربي، فكيـف أتطلـب ربـا غيـره، وكـل الكائنات استمدت من تقـديره وحكمتـه وجودهـا وخصائصـها ومسـارها إلـى أن تبلـغ نهايتها. وهو العادل الذي لا يظلم أحدا، فكل مـا يكتسـبه الإنسـان بعملـه مـن خيـر أو شر ينال جزاءه. ولا يتحمل أي فرد الإثم الذي ارتكبه غيـره. ثـم إنكـم جميعـا سـتقفون بين يدي ربكم يوم القيامة ليحاسبكم مبينا لكم ما اقترفتم ويجزيكم.

بيان المعنى العام :

161-162: قل إنني هداني ربي....وأنا أول المسلمين.

هذا المقطع متكون من ثلاث آيـات كـل واحـدة منهـا افتتحـت بكلمـة :(**قـل**)إبـرازا للاهتمام بمضامينها، وأنها من الأصول التي بني عليها الإسلام.

الآية الأولى : أعلِنْ بكامل الوضوح يا محمد فقـل : إنـي مطمـئن علـى أن الله تـولاني بهدايته فيسر لي اتّباع المـنهج الواسـع الـذي لا ضـيق فيـه ولا عـوج، ولا انحرافـات تترك السالك في حيرة أو خوف ممـا هـو آت. هـو الـدين والمـنهج الجـامع والكـافي للسالك، فيه الهداية التامة والأمن الباطني. هـو ملـة إبـراهيم التـي كـان عليهـا، ممـا يشير إلى أنه ﷺ مجدد للتوحيد الذي جاهد في سـبيل إقـراره سـيدُنا إبـراهيم عليه السلام جهـادا بالغا، حتى استقام له الطريق الموحد المختلف عن كل ما كـان سـائدا فـي عصـره مـن التصورات، هذا الرسول الكريم الذي قاوم الشرك مقاومـة لا هـوادة فيهـا، والـذي علـم من ربه أن النبي الذي ينجح من ذريته نجاحا يهزم فيـه الشـرك، ويرفـع رايـة التوحيـد في الأرض، هو محمد ﷺ، واستحضـر فـي نفسـه عليه السلام هـذه الصـلة الرفيعـة بينهمـا. فدعا ربه أن يبعث في العرب محمدا، كما جـاء فـي الآيـة 129 مـن سـورة البقـرة، والتي أمر بعدها النبي ﷺ بأن يقول مع المؤمنين في إعـلان واحـد: (**قولـوا آمنـا بـالله**

وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبـراهيم) الآيـة 136- إبـراهيم ﷺ الـذي كـان مؤمنـا موحدا وما كان من المشـركين، فلـذا كانـت صـلته بـدين التوحيـد الخـالص (الـدين الإسلامي)أتم صلة.

164- قل أغير الله أبغي ربا وهو رب....كنتم فيه تختلفون.

هذا موقف الشاكر الشاعر بالنعم الكبرى التـي أفْرَغَـتْ فـي قلبـه أسـمى مـا يمكـن أن ينعم به قلب، ويأنس به ضمير، وتستنير بـه روح فتشـف وتعلـو فـي مقامـات الوجـد والحب إلى أعلى مقام. يَعْلَمُ الله ما عمـرت بـه نفـس محمـد ﷺ مـن الطهـر والصـفاء والإخلاص، فلقنه التعبير عن ذلك في هذه الآيات. ونرافقه ﷺ وهـو يعلـن مـا أمـره بـه ربه في تسبيحة لربه تعرج بها الروح إلى الإخـلاص الكامـل، وإسـلام كـل شـيء فيـه إلى رب العالمين، فالصلاة التي كانت قرة عينه ﷺ وراحـة نفسـه تتسـامى إلـى مرتبـة تتصل فيها برب العالمين، وليست الصـلاة وحـدها التـي ينـدمج فيهـا ﷺ فـي اتصـاله بربه بل معها كل عبادة يقوم بها(**نسكي)** بل يستوي فـي هـذه الصـورة المتصـلة بربـه حياته وموته، فهو معه حامد شاكر مُـنَعَم بمـا أفرغـه فـي قلبـه مـن معـاني القـرب والحضور، وصفاء الإخلاص. كل ذلك لله وحده لا أملـك منـه شـيئا، ويضـيء التوحيـد إضاءة يمتزج فيها اللفظ بالمعنى **(لا شـريك لـه)** ويبـرز مقـام العابـد مـن المعبـود ومقام السيد الكريم من العبد المطيع، وبـذلك أمـرت فاسـتجبت حبـا، وسـعيت فرحـا وقربا، فأنا بذلك أول المسلمين. ليست الأولية في التـاريخ الزمنـي، ولكنهـا الأوليـة فـي مقام الإخلاص، وفي مقام إدراك النعمة الكبـرى بمـا آتـاه الله منهـا، وفـي ربـط كـل لحظة من لحظات حياته بربه كما جاء في ابتهاله وقد تنكـر لـه قومـه، وآذاه مـن ظـن أنهم يعينونه على أداء الرسالة وهداية العـالمين (إن لـم يكـن بـك غضـب علـي فـلا أبالي). ثم بعد أن بلغ الإعلان هذا المستوى الرفيـع ينـدمج ﷺ فـي الكـون كلـه فيعبـر عن ذلك مأمورا أن يقول:**(قل أغير الله أبغي ربا وهو رب كـل شـيء)** هـو الكـون بمـا يحويه من جماد وحيوان وبشر، الشمس والقمـر والكواكـب والمجـرات، كـل مـا يبلغـه الإدراك الحسي أو العقلي من المحدثات، كلهـا تولاهـا ربـي بالعنايـة وأودع فيهـا مـا أودعه من الحكمة في الخلق وحسـن التقـدير والـتحكم فـي الحاضـر والمصـير، ممـا يفهم من كلمة ربي ورب كل شيء. فـإذا كانـت جميـع الخلائـق قـد أخـذت وجودهـا وخصائصها ومنهج تطورها وأجلها الـذي أجـل لهـا، مـن ربهـا، فكيـف تتصـورون أيها المشركون أن أبحث عن رب غيره !

ثم يصرح الإعلان، الذي أمر بخطاب الناس بـه، بـأمر أعلـى مـن ذلـك هـو جـوهر النبوة: هو تنبيه البشر إلى أنهم مسؤولون عما يصـدر مـنهم، فكـل عمـل يصـدر عـن الإنسان باختياره يحاسب عليه ويجزى به، فما كسبه من خيـر ينـال ثوابـه، ومـا كسـب من شر لا يستطيع التنصل من عقوبته. أي ما تكسب أي نفـس مـن عمـل إلا هـو لهـا أو عليها، فلا تتحمل نفس ثقل الذنوب التي قـام بهـا غيرهـا. والمقـام الـذي هـو فـوق ذلك هو ما يعتري البشرية من اخـتلاط الميـزان، وقلـب سـلم القـيم، واعتبـار الخيـر شرا والشر خيرا. لقد اختلفت الفرق اختلافا كبيرا بلغ درجـة التعصـب بمـا يقارنـه مـن ثبات كل فرقة على ما رأت أنه الصلاح، وقامـت بالاحتجـاج لـه والـدفاع عنـه، ومـا الحجج التي حطمها القرآن في الآيات السابقة والتـي حـاجوا بهـا رسـول الله إلا نتيجـة الزيغ الذي أصيبوا به وجمدوا عليه. لهذا بعث المرسـلون لإرجـاع سـلم القـيم لنصـابه، ورغم ذلك ثبت الزائغون على ما هم عليه. فقل لهم إنكم سـتقفون بـين يـدي ربكـم فـي يوم الحساب.

إنكم عند وقوفكم بين يدي ربكم سيعرّفكم عنـدها بـالقيم الحقيقيـة لمعتقـداتكم وأعمـالكم، وما هي عليه من باطل وضلال مما يفضي بكـم إلـى إدراك مسـؤوليتكم وتحمـل نتـائج فسادكم، فيتبين الحق يومئذ ويضل عنكم ما كنتم تعتقدون فلا تجدون منه أي نفع.

وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ ﴿١٦٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

خلائف الأرض: تخلفون في الأرض من سبقكم.

ليبلوكم : ليكلفكم فيظهر التكليف نتيجة اختباركم.

درجات: مستويات النعم.

سريع العقاب : ينفذ عقابه بدون تردد.

بيان المعنى الإجمالي:

تختم سورة الأنعام بهذه الآية الجامعة الشـاملة. تـذكر بـأن الله قـدر بحكمتـه أن يجعـل البشر أجيالا يخلف بعضـها بعضـا ليواصـل كـل جيـل تحقيـق دوره فـي اسـتخلاف الإنسان في الأرض. وأنه لم يخلق البشر نمطا واحدا بـل فضـل بعضـهم علـى بعـض في العلم والعقل والمال والوسامة والقوة والجـاه والسـلطة إلـى آخـر أنـواع التفضـيل. وما رُزِقَهُ الإنسان من نعمة هو مختبر فيها؛ أصـرفها حسـب مـا أمـره خالقـه وخالقهـا

أم تجاوز الحدود المخولة له؟ وليكن كل إنسان متذكرا أن الله هو العادل القاهر الغفور الرحيم، فمن ظلم طغى وأفسد وتجاوز الحدود فإنه سينزل به عذابه بسرعة وبدون تردد ؛ ومن أصلح واتقى فإن الله يتجاوز له عما كان منه من تقصير.

بيان المعنى العام :

165-وهو الذي جعلكم خلائف...وإنه لغفور رحيم.

ختمت سورة الأنعام بهذه الآية التي بالتأمل في مضمونها يتبين أنها متصلة اتصالا مكملا لفاتحة السورة. كانت فاتحة السورة (**الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض...هو الذي خلقكم من طين**) فهي متضمنة لخلق الله السماوات والأرض، وخلق الإنسان من بعض أجزاء الأرض. وتفيد هذه الآية أن الله قدر أن يجعل النسل الإنساني يخلف بعضه بعضا في عمارة الأرض. وهذا من حكمة التقدير، وهي نعمة شاملة لكل فرد من البشر.

يزداد ذلك وضوحا ببيان، أنه لو قدر للبشر أن يكون كل فرد منهم باقيا ما بقيت الأرض التي خلقوا منها، لجمد التأثير الحضاري في المستوى الذي كان عليه الموجودون الأولون. ولتعطل الإنسان عن التقدم بالمعرفة والقدرة عن التطوير في شعب الحياة المختلفة. فكان من الحكمة أن يخلف كل جيل الجيل السابق ويبني على ما وجده فيضيف إليه ما يحقق إرادة الله من استخلاف الإنسان في الأرض لعمارتها وإبراز ما حوته من خيرات.

ومن ناحية أخرى فإن من أعظم النعم نعمة الحياة، فبناء النظام البشري على أن كل جيل يخلف غيره هو الذي جعل كل إنسان وُجِدَ ينعم بهذه النعمة. إنه سبحانه قدر فأحسن التقدير، لما ربط الإنسان بالأرض برابطة عضوية جعلته يسعى إلى البحث، وإلى بذل كل ما أوتيه من ذكاء لينمي عطاءها وليكون سلوكه معمرا لا مخربا ومضيفا لا منقصا، ولا يتحقق ذلك إلا إذا كان عمله في الكون في المنهج المحدد من خالقه وخالق الكون.

إن هذه الآية الخاتمة لسورة الأنعام تُذَكِّرُ في إعجاز بجميع المعاني التي تحكم نجاح الإنسان في مهمته الاستخلافية، وأنه محاسب عنها. وأن استبداده المخرب تظهر آثاره المدمرة إذا نسي أولم يعتبر في حسابه حدوده التي خولها له خالق الكل. فالإنسان ليس سيد الكون ولا قاهر الطبيعة، لكنه عبد لله، ومعمر منسجم مع الطبيعة، تطاوعه كلما ازداد معرفة بها.

والله الحكيم لم يقدر أن يكون البشر نمطا واحدا تحكمهم قاعدة المساواة المطلقة في المواهب والإمكانات بلا اختلاف بينهم في ذلك، بل إنه قدر أن يكون بعضهم أرفع

من بعض في صلاح السلوك، وفي درجات الذكاء، وفي حب الخير أو الانجذاب نحو الشر، بله الوسامة والقوة العضلية وبسطة الجسم.

وفي ذلك اختبار للإنسان في مقدار طاعته لربه. هل ينسى خالقه وينصرف في الحياة بادعاء كاذب أنه لا حاجز يحجزه عن تحقيق أغراضه، أو هو ذاكر لمهمته في الحياة في الإطار العادل الذي شرعه له رب العالمين ؟ إن ما أودعه الله في الكون من خيرات، وما آتاه لكل فرد من الظروف والقدرات، وما حفه به من ألطاف، هو تكليف تبرز نتائج اختباره يوم العرض عليه.

ويختم هذا التذكير الخاطف العام الشامل بتقرير قاعدة يقينية عليها يجري لقاء البشر لحصاد ما قدموه في الحياة فليحذروا وليكونوا على ذُكر منها ليسعدوا: إن ربك يا محمد وربِ كل إنسان، هو العادل القاهر الغفور الرحيم، فمن كانت نتيجة اختباره شرا فتسلُط العقاب عليه يتم في سرعة بلا تردد، ولا يستطيع أي كائن أن يغير ما حكم به. ومن كانت نتائج اختباره خيرا فإن الله يغفر له ما شاء من تقصيره ويرحمه برحمته الواسعة التي يفيض بها من النعم مالا يحصى.

كمل بحمد الله وحسن عونه، وله المنة والفضل ىتفسير الربع الأول من القرآن الكريم. وذلك يوم الثلاثاء 25 من شهر ذي القعدة 1431 الثاني من نوفمبر 2010-

أسأله سبحانه وهو ولي التوفيق وبيده الخير وهو على كل شيء قدير أن ييسر لي إكماله، وأن يرزقني الإخلاص والقبول، فهو الولي الحميد لا إله غيره ولا رب سواه.

سورة الأعراف

هذه هي السورة الأولى في الربع الثاني من القرآن العظيم. عدد آياتها–206– فتكون في طولها تالية لسورة البقرة في عدد الآيات. هي من السور المكية. سميت بسورة الأعراف، وهو اسمها الوحيد في المصاحف، أخذا من اختصاصها بذكر الأعراف, اللفظ الذي لم يذكر في بقية سور القرآن. هي الثامنة والثلاثون حسب ترتيب النزول عند ابن النديم. نزلت بعد سورة يس وقبل سورة الفرقان. وعن جابر بن زيد أنها نزلت بعد سورة ص وقبل سورة الجن، وهي السّابعة حسب ترتيب المصحف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓصٓ ﴿١﴾ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۗ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾

بيان معانى الألفاظ:

حرج: ضيق في صدرك.
تنذر به : تحذر به سوء العاقبة.

بيان المعنى الإجمالي :

يراجع ما يتعلق بالأحرف المفتتح بها: ألف – لام – ميم – صاد– ما ذكر في فاتحة سورة البقرة. هذا كتاب أنزل إليك تتحمل وحدك ثقل إبلاغه. فكن مستعدا لذلك ولا تضق بما ستلاقيه من متاعب في سبيل نشره في العالمين. اعلم أنك مطالب بمواجهة الكافرين لتحذرهم سوء العاقبة إذا هم أعرضوا عنه، ومطالب بأن توضحه وتعمق الشعور بمضامينه للمؤمنين ليكون حاضرا في نفوسهم دائما.

بيان المعنى العام :

2-1: المص...وذكرى للمؤمنين.

افتتحت السورة بالأحرف التالية: ألـف – لام – مـيم – صـاد– وقـد تقـدم فـي تفسـير سورة البقرة بعض ما يتعلق بهـذه الطريقـة التـي اخـتص بهـا القـرآن. وعـدت هـذه الحروف الأربعة الآية الأولى فيها.

تبع هذه الأحرف الآية[2] : **كتاب أنزل إليك فلا يكن في صـدرك حـرج منـه لتنـذر بـه وذكرى للمؤمنين.**

أيقظت الأحرف المقطعة العقل للتأمل والروح لقبول تجليات ما سيرد بعدها.

ومن خصائص هذه الآية الثانية أن الحضور فيها سـمة واضـحة , فكتـاب خبـر لمبتـدأ مقدر: هذا كتاب.

وترجح عندي ذلك لما تـلاه مـن الخطـاب المباشـر للرسـول خطابـا متتابعـا (**إليـك**) (**صدرك**) (**لتنذر**) فيكاد قصد الحضور والقرب قد عـين المبتـدأ:(**هـذا**) وخبـره كتـاب مبارك مقدس , يسمو عن الكتب لأنه منزل إليـك, وإنـك لتتحمـل ثقـل مسـؤولية القيـام بما يفرضه عليك؛ هذا الدور الذي تخيرتُك له واصطفيتك للقيـام بـه. إنهـا مهمـة ثقيلـة وشاقة تواجه بها البشرية قاطبة وما ترسّـخ فـي عقولهـا وضـمائرها قرونـا متطاولـة , وتواجه بها أصحاب المصالح الخاصة الـذين يـدافعون عـن مصـالحهم بكـل شراسـة. فلتكن يا محمد مستعدا لكل ذلك, لا يضق صـدرك بالتكـذيب , ولا تيـأس مـن مواصـلة مهمتك رغم العناد ,وتحمّل الأذى في بـدنك وفـي نفسـك , واصـبر علـى المـؤامرات التي يحيكها لك المشركون والكافرون والملحـدون. إنـي أسـتروح مـن قولـه تعـالى : (**فلا يكن في صدرك حرج منه**) السمة العامـة لهـذه السـورة التـي فيمـا عرضـته مـن مواقف الأمم مع أنبيائهم وما تتخللها مـن مـواعظ , مـا يقـوي قلـب رسـول الله علـى مواصلة الدعوة وتمكين الثقة في نفسه وهو يواجه العالم كله.

فالقرآن يتحمله رسول الله ﷺ ليحذر به الرافضين من العواقـب التـي سـتحل بهـم ومـن العقاب الذي سينزل بهم, بما يشمل فساد أحوالهم الاجتماعيـة فـي الـدنيا, والتنكيـل بهـم يوم القيامة. ومن ناحية أخرى هو يـذكر المـؤمنين ليُحيـيَ أرواحهـم, ويعمـر عقـولهم بالخير ويشرع لهم مسلكا واضـحا فـي الحيـاة يألفونـه, حتـى تـرتبط عقيـدتهم وسـلم قيمهم بسلوكهم, فلا يغفلون عنه.

﴿ٱتَّبِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَكَم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَا فَجَآءَهَا بَأۡسُنَا بَيَٰتًا أَوۡ هُمۡ قَآئِلُونَ ﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعۡوَىٰهُمۡ إِذۡ جَآءَهُم بَأۡسُنَآ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيۡهِم بِعِلۡمٖۖ وَمَا كُنَّا غَآئِبِينَ ﴿٧﴾ وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٨﴾ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

اتبعوا: اعملوا بما أمرتكم به.

أولياء : جمع ولي وهو الناصر والصديق المخلص, والمراد به في الآية: المعبود

التذكر : من الذُكر وهو حصول الصورة في الذهن ضد الذهول والنسيان.

الإهلاك : الإفناء

بأسنا: عذاب الدنيا.

بياتا : ليلا.

قائلون : في وقت راحة القائلة, ما بين الزوال والعصر.

فلنقصن : فلنخبرنهم.

المفلحون :النجاح بتحصيل المطلوب.

بيان المعنى الإجمالي :

دعوة من رب العباد للبشر جميعا, يأمرهم أن يتبعوا ما تفضل به عليهم فأنزله على لسان رسوله ليساعدهم على ما يمكنهم من السعادة في الدارين. ويؤكد عليهم أن لا يتهاونوا بذلك، بنهيهم عن الانحراف إلى اتّباع ما يأمرهم به الأصنام والسدنة. وينعي عليهم غفلتهم وعدم يقظتهم ليكونوا ذاكرين تعلقهم بالله دون غيره.

تنبهوا فلا تلقوا بأيديكم إلى الهلاك، فإن قرى كثيرة أهلكناها مع ساكنيها في الوقت الذي ظنوا فيه أمنهم، فجاءهم عذابنا ليلا أو عند إخلادهم لراحة ما بعد الزوال.

وكان عذابا ساحقا أبدوا معه يأسهم، لما ظهرت لهم الحقيقة التي عملوا على عدم التنبه إليها، فأعلنوا: أن ما حل بهم هو نتيجة ظلمهم لرسل الله وللحقيقة التي جاؤوا بها. إن الله سيوقفهم فيسأل المرسلين: هل بلغوا؟ فتقطع معاذير المكذبين وينكشف

ما قابلوهم به. ثم يسألهم سـؤال التبكيـت والتقريـع، ولا ينتظـر جـوابهم، إذا يخبـر الله كل فرد بما قدمه إخبارا مستندا إلى علمه المطلع علـى ظـاهر مـا يعملـه كـل إنسـان كعلمه بباطنه. وإثر ذلك توزن الأعمال. فأما أعمـال الصـالحين الموحـدين فلكـل عمـل وزنه، ويثقل ميزان خيرهم فيعلن عن فلاحهم، وأمـا أعمـال المشـركين فـلا يوجـد مـا له ثقل حتى يوزن، فيكون كل سـعيهم فـي الـدنيا ذهـب هبـاء ويجـدون أنفسـهم وقـد خسروا كل شيء نتيجة ظلمهم للآيات التي جـاءتهم مـن ربهـم لتنقـذهم مـن الضـلال، فقابلوها بالرفض.

بيان المعنى العام :

3-اتبعوا ما أنزل...ما تذكرون.

يتوجه الخطاب إلى كل من يصح أن يخاطب في عهـد الرسـالة وفيمـا يـأتي بعـد ذلـك إلى يوم القيامة، بـأمرهم ربهـم أن يطبقـوا فـي حيـاتهم المـنهج الـذي قدمـه القـرآن والأحكام التي حددها، والعقيدة التي وضحها، والأخـلاق التـي رسـمها. لتعلمـوا أن كـل ذلك أنزل عليكم من ربكم الذي تولاكم بعنايتـه، فـرزقكم عقـولا تـدركون بهـا الحـق، وأعانكم على تلقي الهدايـة بـالوحي الصـادق الطـاهر المنـزل، ولـذلك اختـار كلمـة (ربكم) ولتثبيت ذلك صرح بالنهي عن اتّباع مـا يـدعوكم إليـه أوليـاء منحرفـون عـن منهج الله من الآلهة أو سدنتهم أو زعمـاء ملحـدون ورؤسـاء مضـلون مضـللون. فـلا يختلط عليكم ما أتاكم من ربكـم وألـزمكم اتّباعـه، بمـا يزينـه لكـم الخـارجون عـن حدوده.

وتختم الآية بتحريكهم لإعمال عقـولهم ، وإيقاظهـا وتحصـينها مـن دسـائس المضـللين الذين يعملون على إلهائهم عـن مـنهج الله، وينسـونهم هـداه بتقـريبهم مـن الشـهوات، وتقريب الشهوات إليهم حتى يتعلقوا بها وتكـون حجابـا علـى بصـائرهم. فكانـت هـذه الآية محللة لما جاء في الآية التي سبقتها مـن الإنـذار والتـذكير. غفلـتُكم الغالبـة عـن تذكر ما أنزل إليكم من الهدى، توقعكم في اتّباع مـا يزينـه لكـم مـن اتخـذتموهم أوليـاء من دون الله.

4-5: وكم من قرية...إنا كنا ظالمين.

ثم أظهر القرآن ما ينذر به المنحرفين عن اتّباع مـا جـاءهم مـن عنـد الله، بمـا سـلطه الله من عذابه على قرى كثيرة فدمرها ودمر ساكنيها. إنـه بمجـرد مـا تعلقـت إرادتنـا بتدميرها أتاهم عذابنا بغتة في الوقت الذي خيل لهم أنهـم مطمئنـون، أتـاهم فـي الليـل الذي عادة ما يسكن فيه الناس ويرتاحون ثم ينامون، أو فـي فتـرة القائلـة التـي يتطلـب

فيها البشر الإخلاد للراحة من عناء الكسب. وفي ذلك تهديد للمشركين الذين اغتروا بما عندهم من قوة، فليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب تِلْكُمْ القرى.

-ثم وصف حالهم عندما أخذهم البأس وحل عليهم العذاب، أيقظهم العذاب إلى ضعفهم، واستحضروا في تلك اللحظة تمردهم وعنادهم، وما كانوا يسلطونه على دعاة الحق من ظلم، وما كانوا يقيمون أمام الهداية من حواجز ليوقفوا مدها عدوانا واستكبارا. فما كان دعاؤهم، وقد أخِذوا من كل مكان وانهارت قواهم، إلا أنهم اعترفوا بظلمهم للصالحين وبظلمهم لأنفسهم، بالشرك الذي هو أعظم الظلم، توهما منهم أن ذلك ينقذهم من العذاب. ولكن عذاب الله إذا جاء لا يؤخر.

6-فلنسألن الذين...ولنسألن المرسلين.

ثم انتقل القرآن لعرض ما سيلاقونه يوم القيامة، فذكر أن الله سيسأل في ذلك اليوم الرسل: هل بلغوا ما أوحي إليهم إلى أقوامهم ؟ لتبكيت المجرمين ونزع كل عذر يمكن أن يتنصلوا به من المسؤولية. وأن الله سيسأل أيضا المكذبين الضالين الذين أرسل الله إليهم الرسل ليقلعوا عن الضلال، سيسألهم بما ذا أجابوا المرسلين؟ ما كان موقفهم منهم؟ وهو فضح آخر وعذاب عندما يستعرض المكذب شريط أعماله وسلسلة فساده. هو كالمجرم الذي أقر، وكتب إقراره بنفسه، ودل على جميع الظروف المحيطة، وضبط في حالة تلبس، ولم يبق أي شك في تحمله للمسؤولية، ثم يسأله القاضي عن فعله، في الظرف الذي هو مأخوذ فيه لا يستطيع الإنكار ولا المراوغة، فيكون إقراره بذنبه عذابا آخر وانهيارا لنفسيته.

ولا ينتظر الله منهم الجواب، فإن علم الله بما قدموه أعمق وأتم، إذ يخبرهم بكل تفاصيل ما فعلوه من شر في الدنيا، شريط يمر أمامهم، وتقوى ذاكرتهم فلا يشكوا في شيء منه. فهو علم الله الذي ما كان يغيب عنه شيء من أفعال عباده.

6←9: فلنسألن....بما كانوا بآياتنا يظلمون.

ثم إن القرآن عُنِيَ بتفصيل ما يترتب على سؤال الرسل والمرسل إليهم، وذلك أن البشر جميعا تُعرض أعمالهم التي لم يغب منها شيء عن علم الله، ويظهرها للبشر يوم القيامة. وفصل طريقة إظهارها مرتبطة بجزائها. فقال تعالى : إنه في هذا اليوم يبرز الله سبحانه للخلائق قيمة أعمالهم في الدنيا، هذه القيمة يظهر الله الأعمال الخيرة في صورة يكون لها وزن، فتوزن بميزان صادق لا يهمل أي حسنة من الحسنات ولو كانت صغيرة، فإذا كانت هذه الأعمال خالصة لوجه الله أداها صاحبها حسبما أمر به ولم ينقص منها، تجمع منها في الميزان ثقل معنوي يقابل

بما يوازيه من جزاء فضلا من عنـد الله. ويكـون أصـحابها نـاجحين فـائزين بالرضـا والنعيم. وأما إذا فقدت الأعمال قيمتها ولو كانت فـي ظاهرهـا صـالحة، لكـن الأسـاس الذي يعطيها الوزن وهو الإيمان، حل محلـه الشـرك المحطـم لقيمـة العمـل كمـا قـال تعالى :(**وقدمنا إلى ما عملوا من عمـل فجعلنـاه هبـاء منثـورا**)[32] يعـرض المشـركون يوم الحساب وليس في ميزانهم أي حسنة، فمعنى: خفـت، فقـدت أي ثقـل يوضـع فيهـا. وهم الخاسرون. شأنهم شأن التاجر الذي سـافر وتنقـل واختـرق المفـاوز وكـد فكـره، فإذا النتيجة إفلاس وخسران، ذهبت حياتهم سدى ولـيس لهـم مـن أعمـالهم إلا النصـب والتعب. إنهم ساقوا أنفسهم إلى ذلكـم الخسـران لمـوقفهم الظـالم مـن الآيـات المنزلـة عليهم، لرفضهم النظر فيها، ثم العمل بهديها.

وَلَقَدْ مَكَّنَّٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾ وَلَقَدْ
خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ
يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ
خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا
فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ
ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم
مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ
﴿١٧﴾ قَالَ ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

مكناكم :جعلنا لكم القدرة على التصرف.

معايش :جمع معيشة وهو ما يمكن الإنسـان مـن اسـتمراره فـي الحيـاة، مـن الطعـام والشراب.

الخلق : الإيجاد.

التصوير: إعطاء الشيء شكلا يميز الذات عن غيرها.

الطين : التراب المخلوط بالماء.

---

[32] سورة الفرقان آية 23

الصاغر: الذليل الحقير.

أغويتني : أضللتني.

لأقعدن : لألْزِمَنَّهُمْ .

مذؤوما: معيبا.

مدحورا : مقصيا.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن أن الله مكن الإنسان من الانتفاع بما أودعه في الأرض ليجد فيها طعامه وشرابه، ولكن مع هذا الفضل الواضح يغفل كثير من البشر عن شكر المنعم سبحانه. ولقد أنعمنا عليكم بالإيجاد، ثم صورناكم في أحسن صورة وأكمل وضع بما يمكنكم من أداء رسالتكم في الأرض. وأكرمناكم بأن أمرنا الملائكة بالسجود لأبيكم آدم، وأن الملائكة سجدوا له اعترافا بفضل العلم الذي علمه ربه. وإن إبليس امتنع من السجود وعصى ربه. وأن الله لم يُعجل بعقوبته، بل استفسره عن سبب تخلفه عن السجود بعد أن بلغه الأمر. فأعلن أنه يرى نفسه أفضل من آدم، لأن المادة التي خلق منها هي النار، وأن أصل آدم من طين.

والنار مزاياها أعظم من مزايا الطين. فجمع بين العصيان والاستكبار. ولذا أمره سبحانه أن يهبط من المقام الذي عاش فيه زمنا طويلا، ذلك أن المحيط الذي كان يعيش فيه محيط مقدس لا يقبل أن يسكنه عاص مستكبر عن تنفيذ أوامر الله مهين ذليل حقير. قال إبليس : رب لا تُعَجِّل باستئصالي وأطل في حياتي إلى آخر الدنيا. فأعلم المولى سبحانه أن هذا ما قدره منذ الأزل، وأنه سيبقى إلى ذلكم الأجل.

ثم كشف إبليس عن عدائه المتأصل لبني آدم ومخططه لإغوائهم، فقال : إنه تبعا لما أغويتني لأحول بينهم وبين اتّباع شرعك، ولألزم المسالك التي ترضيك فأصرفهم عنها. وسوف أبذل لإضلالهم ما وسعني الجهد، فأحاول تنفيذ ما أريده منهم لا أجد طريقا لذلك إلا سلكته، ولا أيأس فكلما تفطنوا لمكري حاولت من طريق آخر التأثير عليهم حتى تنهار مناعتهم ويقعوا في حبائلي.

ولا تجد أكثر الناس شاكرين لك، بل يحجبهم الكفر عن الاعتراف بفضلك. وصدر الأمر الإلهي بإخراجه مما كان فيه، مقرونا بالذم ،مبعدا، مصيره ومصير من اتبعه جهنم يملؤون جنباتها.

بيان المعنى العام :

10- ولقد مكناكم...تشكرون.

يؤكد القرآن أن الله أعطى القدرة للإنسان ليعمر الأرض ويسخر ما فيها لمنفعته، ومن تمكين الله له فيها، أن جعل طعامه مما تنبته وشرابه مما تختزنه في باطنها من المياه المتدفقة من العيون في الأنهار والمخزونة في الآبار. ثم نعى على المشركين كفرهم بنعمة الله الكفر الذي جعلهم لا يلتفتون إلى أن جميع النعم التي نالتهم منه سبحانه، وبالتالي لا يشكرون الله على ذلك إلا قليلا.

11- ولقد خلقناكم...لم يكن من الساجدين.

ثم ذكر القرآن البشر بنعمة الإيجاد، وهي من النعم التي يغفل عنها كثير من الناس. إنه إذا كانت الفطرة تدرك عزة الحياة، فإن أول مراحل الحياة هو الإيجاد بعد العدم. وهذا الإيجاد قارنه مزيتان هما محل المنة والتذكير بالنعمة أيضا:

المزية الأولى أن هذا الخلق تم بعناية الله وفيه تشريف للنوع، كما يتبين ذلك من قصة خلق آدم.

والمزية الثانية: أن الله صور الإنسان في أجمل صورة، وأعطاه من الخصائص ما به سما عن بقية ما حوته الأرض من الكائنات، فاستطاع أن يسخرها لما يُمَكِّنُهُ من حسن الخلافة في الأرض.

والمنة الأرفع: هو أن الله لما خلق آدم أبا البشر جميعا أكرمه بأن أمر ملائكته بالسجود له. وقد فصلنا القول في ذلك وفي قيمة العلم عند تفسير قصة سجود الملائكة لآدم (الآية 34 من سورة البقرة).وسجل القرآن أن الملائكة سجدوا كلهم لآدم إثر الأمر تحقيقا للطاعة التي فطروا عليها، واستثنى من المشهد كائنا واحدا لم يستجب للأمر فلم يسجد وهو إبليس. ثم تأتي المحاورة بين إبليس وبين الله، وفي ذلك ما يعطي منهجا في الحكم والمؤاخذة، هذا المنهج هو أنه لا تبنى المؤاخذة على ما عند الحاكم من يقين بمسؤولية المخالف، بل لا غنى عن تقرير المخالف وإيقافه للسؤال، وتمكينه من بيان ما عنده.

تمت هذه المحاورة حسب المراحل التالية:

12-قال ما منعك أن تسجد...من طين.

أولا : يسأل الله إبليسَ: ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟ يسأله معرفا له بعصيانه، لماذا لم تمتثل لأمري بالسجود. ثم، هل كان إبليس ملكا أو كان داخلا في زمرة الملائكة وليس منهم ؟

ما أطمئن إليه أن إبليس فهم أنه مأمور ومطالب بالسجود لآدم، وما سوى ذلك محل اجتهاد لا يقين فيه. والراجح أنه من الجن أدمجته القدرة الإلهية في الملائكة.

قال تعالى:(**إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمـر ربـه**) ولـذا نجـده فـي المحـاورة، لم يعتذر بأنه غير مأمور.

ثانيا: أجاب إبليس جوابا واضحا وقحا، شـأن المسـتكبرين يواجهـون مـا يصـدر عـنهم بصلف وكبرياء قال: أنا خير من آدم. ثم استدل علـى علـوه علـى آدم بـاختلاف أصـل الخلقة. فآدم عليه السلام مخلوق من طين، وإبلـيس مخلـوق مـن نـار. ولمـا كـان فـي النار من الخصائص ما توهم به ما يوجـب فضـلا لـه علـى آدم، اعتبـر ذلـك مبـررا لعصيان الأمر الإلهي، إذ النار فاعلة والطين منفعـل، والنـار تُطهِّـر ولا تحمـل الخبـث بخلاف الطين،، والنـار تضـيء وتشـع بخـلاف الطـين. وهـذا شـأن الكبـر يضـلل صاحبه، فيظن أن ما له من المزايا موجب لتقدمـه وتفوقـه، ولـولا الكبـر لظهـرت لـه المزايا الحقيقية التـي فضـل بهـا آدم، فالعنصـر الـذي منـه الخلـق، هـو كالوسـامة والصفات الجسمية عنصر غير مؤثر في تحمل المهام الثقيلة.

إن اختيار آدم لتعمير الأرض كان لخصائص فضلته علـى كـل الـذين أمـروا بالسـجود له، التي منها ما رزقه من عقل ومن مواهب تسـتحثه للمعرفـة، ومـن طمـوح إلـى مـا هو أفضل عائدة، ومن قابلية للسمو في معـارج الكمـال الروحـي، ومـن إدراك الإنسـان الذي لم تفسد فطرته، إلى الفارق بين المعبود والعابـد، فـالمعبود الخـالق يـأمر وينْهـيَ، والعابد يطيع من دون توقف ولا مجادلة.

13-قال فاهبط منها...من الصاغرين.

ثالثا: أمام صلافة إبليس وعصيانه وتمسكه بموقفه الضـال حسـم الأمـر، وقـال الله لـه قول من لا راد لقوله: اهبط منها، أي اهـبط مـن المنزلـة الرفيعـة التـي أنـت فيهـا. وهل هي السماء أو مكان رفيع آخر ؟ لم يحدد القرآن أيـا مـن الاحتمـالين. وعلـى كـل فإنها عقوبة تناسب ما صدر عنه.

ثم أعقبه بالتعنيف لتجاوزه الحد، وأن المكان الـذي كـان حـالا فيـه مـن فضـل الله، لا يليق به أن يبقى فيه حفاظـا علـى قداسـته مـن أن تـدنس بالكبريـاء والعصـيان. ثـم أضاف إلى سحبه من المنزلـة التـي كـان فيهـا إلـى أسـفل، صـدور الأمـر المفيـد إذلاله(**اخرج منها**) مصرحا بإهانته: (**إنك من الصـاغرين**) إنـك واحـد مـن الحقيـرين الأذلاء.

14-15: قال أنظرني...من المنظرين.

رابعا: طلب إبليس من الله أن يطيل بقاءه إلى يوم البعث، ولا يعجل بإفنائه.

خامسا : أعلم الله إبليس بما سبق في تقديره قبل أن يسأله: أنه واحد من الذين قدر الله لهم طول البقاء إلى يوم البعث. فإبليس أحقر وأهون على الله من أن يستجيب دعاءه ويكرمه بذلك، وهو الذي ألزمه منزلة الذل. ولذلك لم يقل له أجبت سؤلك أو أنظرتك.

16-17: قال فبما أغويتني...شاكرين.

سادسا :أحس إبليس من نفسه قدرة على التأثير السيء في عقول البشر وأرواحهم، وشعر بما له من إمكانات وقدرات على تحويل البشر من الخير إلى الشر، ومن الاستقامة إلى الضلال. وذلك بسبب إضلال الله له جزاء استكباره وصلفه. وبناء على ذلك أعلن: أني سألازم البشر ملازمة غير منقطعة، فأمنعهم من اتّباع صراطك المستقيم، وأحول بينهم وبين الاهتداء إلى ما يرضيك، ولأصُدنّهم عن منهج النجاة. ثم ارتقى في الإفصاح عن عداوته لبني آدم وكيده لهم، فذكر أنه يواصل تحبيب الفساد إليهم وإضلالهم، فلا يترك طريقا لبلوغ ذلك إلا سلكه، فعبر عن جميع الطرق التي يمكن أن يتأثر بها الإنسان بالجهات الأربع المحيطة به، عن اليمين وعن الشمال، ومن الأمام ومن الخلف، فكلما تفطن الإنسان لإغوائه حاول إبليس إغواءه من ناحية أخرى حتى يّوهّن قوة مدافعته، ويسلس له قياده. وهذا شأن العدو مع عدوه إذا عزم على الانتصار عليه، فتجده يبحث في كل الجهات عن ثغرة ضعيفة ينفذ منها.

ويعترف في النهاية أنه عارف بأنه لا يستطيع أن يتسلط على جميع البشر تسلط الإغواء والبعد عن الله، ولكن الأكثرية سيؤثر فيها، فتنقطع عن الله ولا تكون شاكرة له، والمقابل للشكر هو الكفر لقوله تعالى:(**فاشكروا لي ولا تكفرون**).

18- قال فاخرج منها...أجمعين.

سابعا : يتكرر الأمر بخروج إبليس مقترنا بالذم والنقص ومبعدا مطرودا. ثم يؤكد سبحانه أن من تبعه وسار في الطريق الذي يزينه له فإن مآله مآل متبعيه في جهنم التي أملؤها منكم جميعا، وإن كثر عددكم.

وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا

مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

وسوس : تكلم بكلام خفي لا يستوعبه إلا المستمع له.

ليبدي : ليكشف ما كان خفيا.

ما ووري : ما ستر .

سوءاتهما: السوأة ما يسوء، وتطلق على العورة.

قاسمهما : حلف لهما.

دلاهما بغرور : فعل بهما ما يفعله من أخذ إنسانا ودلاه في بئر بحبل مهرى يعلم أنه سينقطع به ويهوي فيه بتغريره.

يخصفان عليهما: يلزقان الورق على بدنهما.

بيان المعنى الإجمالي :

صدر الإذن الكريم من الله لآدم وزوجه بأن يتخذا الجنة سكنا لهما ، ومع السكنى أذن لهما في الأكل ما شاءا من ثمار أشجارها، وأحضر أمام أعينهما شجرة عيَّنَهَا حتى لا تشتبه بغيرها ونهاهما نهيا جازما من الاقتراب منها فضلا عن الأكل من ثمرها، وحذرهما بأنهما يعتبران من القوم الظالمين لو عصيا وارتكبا النهي. ولم تمض مدة طويلة على تنعمها بهذه التكرمة حتى أخذ إبليس يدبر ما يوقعهما به في المعصية. وأخذ يزين لهما الأكل من ثمر الشجرة المنهي عن الاقتراب منها، وحرضهما بما في تلكم الشجرة من أسرار، وأن الله ما نهاهما عنها إلا ليبقيا على وضعهما ولا يتحولان إلى ملكين أو يكتب لهما الخلود.

وأخذ يغريهما بأنهما لو أكلا منها لانقلبا إلى ملكين ينعمان بالاستغراق في العبادة كما تنعم الملائكة، أو أن يخلدا فلا يذهب عنهما شيء من النعيم الذي هما فيه. ولما وجد منهما نوعا من التردد حلف لهما: أنه ناصح لهما يدبر لهما ما يعود عليهما بالخير الكبير. فغرر بهما ورمى بهما في مهواة لا يمسكان إلا بحبل واه من غش الشيطان وفسقه، فتقطع بهما ووقعا في الخطيئة لما تهاوت مقاومتها لوسوسته

وتناولا من ثمر الشجرة. وبمجرد ما ذاقا طعمه تحـولا مـن وضـع المـأذون لـه، إلـى وضع العاصي المجترئ على ما ليس لـه عليـه سـلطان. وتعريـا مـن السـتر الإلهـي الذي كان يشملهما، وبرزت عورة كـل منهمـا ظـاهرة لصـاحبه، فاشـمأزا مـن ذلـك وأسرعا إلى ورق من الجنة يغطيان به عورتهما.

يتلو هذا الوضع: أن الله ناداهما نداء الموبخ لهما المقـرع لهمـا، مـذكرا بنهيـه الجـازم، ومذكرا بما نصحهما به من التحصن من الشيطان الذي هـو عـدو لهمـا عـداوة شـديدة واضحة. فعصيا ربهما واتبعا نصيحة عدوهما الشيطان.

وحُصِرَا في بركة العصيان، وأُلْهِمَا أنه لـم يبـق لهمـا إلا الاعتـراف بالـذنب واللجـوء إلى الله. فتوجها إليه معترفين بما ارتكباه مـن ذنـب عـادت آثـاره عليهمـا فقـد ظلمـا أنفسهما بالخروج من إشراق الطاعة إلى ظلام المعصـية، وابـتهلا إلـى ربهمـا :أنـه إن لم يغفر لهما تقصيرهما ويتفضل عليهمـا برحمتـه، فإنهمـا سـيكونان حتمـا مـن القـوم الخاسرين الذين لا أمل لهم. وهل يبقى أمل مع غضب الله ؟

بيان المعنى العام :

19- ويا آدم....من الظالمين.

ينتقل القرآن مواصلا قصة آدم عليه السلام. فبعـد أن رفـع الله قـدره فـي مـلأ مـن الملائكـة وسجدوا له ،وأذل إبليس وطرده وأهانه وأعلمـه بسـوء مصـيره ومصـير مـن اتبعـه، واصل القرآن ذكر قصة آدم حسب الترتيب الزمنـي. فبعـد طـرد إبلـيس يـأذن الله لآدم أن يسكن الجنة مـع زوجـه ويجتمـع فـي هـذا الإذن تحقيـق لرفعـة منزلتـه، وإذلال لإبليس عندما يرى إكرام الله لآدم.

ويأذن الله لهما وقد أصبحت الجنة سـكنًا لهمـا، أن يتمتعـا بمـا تنتجـه أشـجارها مـن ثمار على اختلاف أنواعها ومذاقاتها، ويعـين شـجرة مـن بـين الأشـجار ويحضـرها لهما ويشير إليها، فتميزت تمام التميـز، وينهاهمـا عـن قربانهـا أو أن يحومـا حولهـا، حتى لا يغفلا عن النهي، فضلا عن الأكل منها، وحتـى لا تقـوى داعيـة حـب الاطـلاع فتدفعهما لاقتحام ما نهيا عنه. عرفهما بما تـؤول إليـه منزلتهمـا إذا أكـلا منهـا: أنهمـا يكونان من الفئـة الظالمـة. ظالمـان لأنفسـهما، وظالمـان بالتعـدي علـى حـدود الله، وظالمان لدار الكرامة بتدنيسها بالمعصية.

20-21: فوسوس إليه...لمن الناصحين.

ولم تطل بهما الإقامة في الجنة حتى أخذ إبليس يعـد خططـه لتنفيـذ مـا توجبـه العـداوة التي صرح بها: إن طرق الشيطان في الإفساد تعتمـد الـدخول علـى قـوى البشـر مـن

الناحية التي يضعف الإنسـان عـن مقاومتهـا. وشـأنه أنـه يلقـي بـالفكرة فـي عقـل الإنسان، ويحببها له بإبراز ملاءمتها له، ويضـخم مـن موجبـات الإقبـال، وكلمـا ثـار في نفسه خاطر يصرفه عن الفعـل، عمـل علـى تـوهين الصـارف حتـى ينسـاه ولا يأخذ به في الاعتبار، وما يزال يردد ما يوسوس بـه، ويـدخل علـى مـن يوسـوس لـه من جميع المنافذ، حتى يألفه، ثم يقوى ميلـه إلـى أن تتحـرك إرادتـه، ويعقبهـا التنفيـذ لما يريد.

وما أظن إبليس إلا أنه اتخذ هذه الخطة الخبيثة في حمـل آدم علـى الأكـل مـن الشـجرة التي نُهي عن الأكل منها. هـو مـن البدايـة حـدد هدفـه الخبيـث، وهـو أن يعريهمـا فينكشف آدم وزوجه وتظهر سـوآتهما. هـل المـراد بـذلك أن يفعـلا المحـرم ويأتيـا المنهي عنه في المكان المقدس الذي لا يقبل أن يكون سـاكنه لا يرعـى مـا هـو محـرم؟ فسوآتهما على هذا عصيانهما وارتكابهما للمنهي عنـه. أو هـل إن المـراد مـن سـوآتهما انكشاف ما كان مستورا عن الأعين من عورتيهما. السـوأة تطلـق علـى العـورة. وكـان إبليس عالما بأن الأكل من الشجرة يفضـي بهمـا إلـى وضـع سـيء يكشـف نقصـهما وأنهما لا يستحقان سـكنى الجنـة. وهكـذا شـأن الحاسـدين ينشـرحون ويبتهجـون إذا زالت النعمة عن صاحبها، ولا يهمهم أنالوا منها أم لم ينالوا.

ذكر القرآن من الوسوسة التي هونت على آدم وزوجه الأكل من الشجرة: أنه أقنعهما بأن في هذه الشجرة أسرارا عجيبة. من أكل منها تحول إلى مَلَكٍ أو حقق لنفسه الخلود وعدم الفناء. وأن الله ما نهاهما عن الأكل منها إلا لمنعهما من الوصول إلى أحد الهدفين العزيزين. أي إلا كراهة أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

فثغرة الضعف الأولى :هو ما هو معلوم عند إبلـيس مـن بنـاء التركيـب النفسـي عنـد آدم، وقد ورثه منه ذريته، هو الطمـوح. وبـالطموح تمكنـت البشـرية مـن بلـوغ مـا بلغته من الاكتشافات، وانفتح لها النفاذ إلى المجهـول وإقامـة البنـاء المعرفـي الـذي مـا بلغت فيه الإنسانية مرتبة إلا كانت فاتحة لما وراءها، وهـذا مـا مكـن الجـنس البشـري من الخلافة في الأرض وتعميرها. فآدم حسـب تركيبـه النفسـي يطمـح لمنـازل أسـمى وأرقى من المنزلة التي هو فيها.

وشعر بأن الملائكة يتميزون بالطاعة الحبيبة بصـفة لا تخطـر معهـا ببـالهم المعصـية. فتاق آدم حسب طبعه أن يصل إلى تلك المرتبة، مرتبة الملائكة في هذه الميزة.

و ثغرة الضعف الثانية : هي ما يعلمـه إبلـيس مـن التركيـب النفسـي لآدم، وهـو مـا طبع عليه البشر وَوَرِثُوهُ مِمَّـا طبـع عليـه أبـوهم أيضـا، هـو خـوف الإنسـان علـى

مكتسباته أن تضيع منه، وأعز شيء هو الحياة. فالبقاء في الحياة مغروس في فطرة آدم وفي ذريته من بعده. فلَوَّحَ لهم إبليس بالخلد الذي لا يلحقه زوال.

وقد يكون مع ذلك أن آدم وزوجه، وجدا في الجنة ما ملأ نفسيهما ابتهاجا وغبطة، فكانت حساسيتهما للبقاء في هذا النعيم بالغة مستوى استولى عليهما، الأمر الذي مكن إبليس من التأثير عليهما من هذه الناحية.

-وثغرة الضعف الثالثة: أنهما لم يتمرسا على المعاملة مع المخادعين. فإبليس لما وجد منهما نوعا من التردد، أقسم لهما بأنه ناصح أمين، وأن الأكل من الشجرة فيه الخير كل الخير ولا ضرر منه. وما كان يدور بخلدهما أن أحدا يقدم على الحلف كاذبا. فانقادا لوسوسته وهوى بتغريره بهما في الخطيئة. والصورة في الآية مجسمة حية، رمى بهما في مهواة سحيقة بعيد قعرها، وربطهما فتمسكا بحبل خداعه وأكاذيبه وفجوره، الذي انقطع بهما فوجدا أنفسهما في القاع الذي لا مخرج منه.

22- فلما ذاقا الشجرة...مبين.

بمجرد ما ذاقا من ثمر الشجرة، والذوق أول ما يحس به الآكل، تَعَرَّيا مما كان يلفهما، وبدت عورتهما. وبالفطرة كان منظرهما في شعورهما منظرا قبيحا اشمأزا منه، وأسرعا إلى ستره بما اتفق لهما في ذلكم الموطن. ولا يوجد إلا ورق الشجر، فأخذا يلصقان من أوراق الأشجار ما يغطي عورتيهما.

-المرحلة التالية :بعد انهزامهما وعصيانهما باتّباع وسوسة إبليس، وتعجيل عقوبتهما، فتعريا ولا ساتر إلا أوراق الشجر، يناديهما ربهما ليسمعهما ما تأهلا له من توبيخ على عصيانهما وفعلهما ما نهيا عنه، وعلى تقصيرهما في اتخاذ الحيطة مما نبههما إليه. فقد عين لهما الشجرة التي نهاهما عن قربانها فضلا عن الأكل منها، ونبههما إلى أن إبليس مصمم على عدائهما وعداؤه واضح بين.

23-قالا ربنا ظلمنا...من الخاسرين.

المرحلة التالية : جللهما الندم، وأحسا إحساسا بالغا بالخطيئة التي وقعا فيها. وكان خطاب الله بتوبيخهما وتقريعهما، ضاعف خوفهما من المصير الذي بدت بوادره في عرائهما وظهور سوآتهما وفقدان ما يستتران به إلا ورق الشجر. وشتان ما بين وضعهما السابق، وهما مستوران بستر الله، وبين وضعهما بعد ذلك. فألهمهما ربهما من رحمته وفضله فالتجآ إليه التجاء من انسدت في وجهه جميع الأبواب إلا باب الرحمة والمغفرة، فقدما بين يدي خطابهما الاعتراف بالذنب، هذا الذنب الذي

كانت آثاره المدمرة واقعة عليهما، ربنا ظلمنا أنفسنا. ثم ترقيا بإبراز أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، وقدما ما عمر به قلبيهما من اعتماد رحمته وغفرانه.

من حكم هذا المقطع:

أولا: أن يكون المؤمن يقظا للخواطر التي يلقيها الشيطان، فيطردها ولا يتابعها، فإن متابعتها توهن المناعة التي يغرسها الإيمان في القلوب. وسيأتي مزيد بيان لهذا في هذه السورة عند قوله تعالى : **(إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذاهم مبصرون)**.

ثانيا: أن يسارع إلى التوبة والابتهال إلى الله إذا قارف الخطيئة.

ثالثا: أن لا يكون الطموح مبررا لاقتحام حدود الله.

قَالَ ٱهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ
فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا
يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ
يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ
عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا
جَعَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

مستقر : مكث، تابع لوجودهم في الأرض.

متاع : الملذات غير الدائمة.

ريشا: زينة.

لا يفتننكم : لا يغلبنكم على أنفسكم.

أولياء : صحابة مقربين.

قبيله : ذريته وصنفه.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن التجأ آدم وزوجه إلى ربهما ليغفر لهما تقصيرهما بما ألهمه إياهما من كلمات تقبلها منهما، أمرهما وأمر إبليس أيضا، بأن ينزلوا إلى حياة أخرى فيها عناء وتكليف، وأنه كتب سبحانه أن العلاقة بين الشيطان وذريته من ناحية وبين

آدم وذريته من ناحية أخرى هي علاقــة عـداء. وأن بقــاءهم فــي الأرض التــي هيأهــا لقبولهم واستقرارهم فيها هي إلى أمد معلوم عنــد ه. كمــا أعلمهــم أنـــه قــدر أن الأرض تتوفر لهم فيها مقومات الحياة، وأن نهايتهم فيها وأن خــروجهم يــوم البعــث يكــون منهــا أيضا.

ثم ذكرهم بمنة طبعهم على حب اللبـاس الســاتر لعــوراتهم، والتجمــل بــه. وأن العفــة وتقوى الله هي أفضل لباس لأنه ســاتر مــزين للــنفس والــروح. فــانتبهوا لهــذه الــنعم رجاء أن تكونوا متذكرين لها دائما.

ودعا البشر جميعا إلى الحذر من الشيطان وما يفــتن بـــه الإنســـان لإفســـاد فطرتــــه، إنـــه عدو لكم فقد تسبب في إخراج أبــويكم مــن الجنــة، وحــرمتم منهــا تبعــا لفتنتـــه، التـــي تعريا بعدها وانكشفت عورتاهما. احذروا الشــيطان فإنـــه يــراكم هــو وذريتــه واتّباعــه، ولكنكم لم تُمكنوا من رؤيته، إن حصانتكم مــن فتنتــه وتضــليله بالإيمــان. إن الشــياطين أصدقاء موالون للذين فقدوا الإيمان.

بيان المعنى العام :

24-25: قال اهبطوا...ومنها تخرجون.

انتقل القرآن لعرض ما أحكمه الله في تصــريف الأمــور إثــر إعــلان آدم وزوجــه عــن توبتهما وابتهالهمــا كمــا ذكــر. وجــاءت صــياغة الــنص علــى نحــو يفيــد الاهتمــام بالمضمون، إذ تكرر لفظ (**قال اهبطوا... قال فيها تحيون**)

مضمون القول الأول:

أ: أمر لمن كان حاضــرا بــالهبوط إلــى الأرض، فشــمل ذلــك آدم وزوجــه، وإبلــيس. حرمان من الجنة وإبعاد منها ومن المنازل العالية التي كانوا فيها.

ب :كشف عما استقر في طبع كــل منهمــا: كــل واحــد مــن الجنســين عــدو للآخــر. وعلى هذا الوضع اقترن تحولهمــا إلــى الأرض. يعمــل إبلــيس بكــل مــا أوتيــه مــن إمكانات ليضل ما تناسل من آدم، نجاحــه وكــل همــه أن يفســد علــى الإنســان حياتــه الروحية ويفقده الطمأنينــة ولــذة الطاعــة وجمــال الاســتقامة. وغــرس فــي بنـــي آدم شعورهم بعداوة إبليس لهم، فكلمــا اســتيقظوا ولــم يســتطع أن يخــدرهم، ابتعــدوا عنـــه وحاربوه في الضلالات التي ينشرها، وبهــذا كــان للعلمــاء المصــلحين المرتبــة العاليــة عند الله لأنهم هم الذين يقيمون البشر علــى ســواء الســبيل، ويســاعدونهم بالتــالي علــى تحقيق الخلافة الصالحة في الأرض، ويكشفون لهم عن مداخل الشيطان.

ج :تمكينهم من العيش في الأرض، يستقرون فيها فلا تضطرب بهم، ولا يكون بينهم وبينها تنافر.

ويستمتعون بما فيها من خيرات بما يشمل بالنسبة لآدم وذريته السكن والطعام والشراب واللباس، والزينة.

د :بقاؤهم في الأرض، واستمتاعهم بخيراتها ليس بقاء دائما سرمديا، بل هو إلى أجل مقدر عند الله.

مضمون القول الثاني : كشف عن صلة الإنسان بالأرض، فخاطب آدم، ومن ورائه ذريته، أن حياتهم على وجه الأرض، وأن موتهم في الأرض التي تتقبل أجسادهم فتحتضنها إلى الوقت المقدر لخروجهم منها عند البعث.

26- يا بني...لعلهم يذكرون.

انتقل القرآن بعد ذلك، فخاطب ذرية آدم، مظهرا تفضلا آخر، فبعد أن مهد لهم الأرض لحياتهم ولموتهم، ثم بعثهم منها، ذكرهم بمنة أخرى هي هدايتهم لاتخاذ اللباس الساتر لأجسامهم، بخلق المواد الأولية التي منها يكون اللباس، ثم بهدايتهم إلى تصنيع تلكم المواد حتى تكون صالحة للستر. فقد سبق في الآية قبلها: أن آدم لما تعرى هو وزوجه أسرعا إلى شيء من ورق الجنة يسترهما بعض الستر. وغرس في طباعهم الميل إلى ذلك.

المنة الثانية في اللباس: أنه مع حفظه للبدن من تقلبات الطقس، يرتفع بالإنسان عن الصورة التي عليها الحيوانات، وذلك بفطرهم على الاشمئزاز من بُدُوِّ العورة.

المنة الثالثة في اللباس: أنه يضيف إلى جمال اللابس جمالا**(وريشا)**. ومراعاة الجمال ترتفع بالذوق، وتساعد على السمو في كثير من النواحي الحضارية. وما امتن الله علينا به هو دعوة إلينا لمراعاته.

وقد ورد في السنة ما كان يتجمل به رسول الله ﷺ من جيد الثياب. وكل نعمة يكون الإعراض عنها مخالفا للمنهج الذي جاء به الإسلام، كما أن المغالاة فيها تعتبر حيادا عن المنهج أيضا. وقد ضبطت السنة ما يحل للرجال لبسه وما يحرم عليهم، وهو الوسط الخيار.

27- يا بني آدم لا يفتننكم...لا يؤمنون.

وأدمج القرآن الوصاية بالحرص على تقوى الله، حتى تكون لباسا ساترا من الخطيئة ومن النزول إلى دركات الإثم والفسق. إنه لا قيمة للثياب إذا كانت النفس ملوثة بالخطيئة، أو إذا كان الخُلق ممزقا بالرذائل. وفي ذلك ما يكون باعثا للتذكر،

تذكرا يقي المؤمن من حجاب الغفلة عن القيم الحق، ومن الاهتمام بالأعراض السريعة التحول والزوال.

وإذ ظهرت المنة بغرس الله في الفطرة الميل إلى ستر العورة والبدن باللباس. والتجمل به ؛ توجه القرآن للبشر جميعا بالتصريح بالنهي عن الانحراف عن الفطرة بطاعة الشيطان فيما يُلَبِّس به عليهم من قبول العري.

وهذا كما وقع في الجاهلية بعد محق أبرهة وجيشه لما أراد هدم الكعبة، فكان من جملة ما ترتب على ذلك، أن قريشا سنت سننا لتعظيم حرمتهم في أعين القبائل، منها أنه لا يطوف أحد بالبيت من غير القرشيين ومن تبعهم، إلا عريانا أو أن يعيره قرشي ثيابا يطوف فيها. وتقرر في عقيدتهم أن ذلك قربة يتقربون بها إلى الله. وتقول العرب لتبرير ذلك: لا نطوف في ثياب تدنسنا فيها بالذنوب، ونطوف عراة كما خرجنا من بطون أمهاتنا. كما ظهر في العصر الحاضر العري الكامل في بعض النوادي. وانحرف عدد غير قليل من الإناث فكشفن الصدر، والزند، والفخذ. وشاع لباس الشواطئ الذي لا يغطي إلا السوأتين مع ضغط وقح مصور.

يحذر القرآن من هذا الانحراف بأنه انقياد للشيطان الذي كان سببا في إخراجكم من الجنة بإخراج أبويكم منها **(آدم وحواء)** وأول ما ابتليا به هو العري وانكشاف عورتيهما مما ارتاعا له وحاولا ستره بأوراق الشجر. وينبه البشر ليكونوا يقظين لما طبع عليه الشيطان من القدرة على التخفي، والتأثير في الإنسان دون أن يراه فالشيطان وذريته وصنفه **(قبيله)** يتابعونكم ولا يَغيبون عن رؤيتهم لكم، وأنتم لا تشعرون بوجودهم.

والتحصن من كيدهم يتم بالإيمان الواضح الحاضر في القلب. إذ الإيمان يطردهم، ومن فَقَدَ الإيمان تكون الشياطين له أصحابا، مرافقين مقبولين في الفكر والضمير.

وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَا ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَقِيمُوا۟ وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۚ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ۗ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

بيان معانى الألفاظ :

الفاحشة : الفعل الشنيع القبيح المرفوض.

وادعوه : اعبدوه.

مخلصين : لا يشركون به أحدا.

الدين : الطاعة.

يحسبون : يظنون ظنا غير مستند لدليل.

بيان المعنى الإجمالي :

من فساد تفكير المشركين، أنهم إذا فعلوا أمـرا منكـرا يرفضـه العقـل والـذوق بـرروا ذلك بأنه من سنن آبائهم، فاكتسب عنـدهم بقدمـه هـذا صـدقا وأحقيـة. ثـم زادوا فـي الضلال فقال: ما سلك آباؤنا هذا المسـلك إلا لأنهـم تلقـوه عـن الله، وهـذا أشـنع مـن سابقه. ولذا اهتم القرآن بـالرد علـيهم فـي افتـراءاتهم وأمـر رسـوله أن يصـارحهم بالقول الحاسم : إن الله الكامل الكمال المطلق لا يعقـل أن يـأمر بمـا هـو منكـر قبـيح. بلغت بكم الوقاحة أن تقولوا على الله قولا غير مستندين فيه إلى علم يقيني.

ما أمر الله إلا بالعدل المطلق في العقيدة والعبـادة والسـلوك والتعامـل والخلـق. أمـر أن تتوجهوا له وحده في كل مكان وزمـان، وأن تعبـدوه مخلصـين فـي عبادتـه وطاعتـه، ثم إنكم ستعودون إليه على النحو الذي أنشأكم به أول مـرة فـي حيـاتكم الـدنيا. والحـال أنكم فريقان: فريق سـمعوا الهـدى فـأقبلوا عليـه والتزمـوه فثبـتهم الله علـى الهـدى؛ وفريق أعرضوا واستمروا ثابتين على ضلالهم، فلـم يسـعفهم بألطافـه، لأنهـم اعتمـدوا ما يزين لهم الشياطين، وضلالهم مركب، لأنهـم يظنـون أنهـم مهتـدون. فهـم جـاهلون بالحق، وجاهلون بأنهم جاهلون.

بيان المعنى العام :

28- وإذا فعلوا فاحشة...ما لا تعلمون.

هذا المقطع يشنع على المشركين ما يَتَقَوَّلُـونَ بـه علـى الله، ويـنقض مـا نسـجوه مـن باطل. فالمشركون إذا صدر عنهم ما هو مرفوض عقـلا وذوقـا ، ممـا هـو منكـر أشـد النكارة (**فاحشة**) أضافوا إلى سوء أعمالهم اعتـذارات غيـر معقولـة وفاسـدة اختلقوهـا من أوهامهم؛ وركبوا عليها ما ركبـوه. فكـان ممـا بـرروا بـه طـوافهم بالبيـت عـراة مثلا، أو تحريم ما حرمـوه مـن الحـلال، أو تحليـل مـا أحلـوه مـن الحـرام ؛ قـالوا معتذرين لمن ينكر عليهم : إن ما نفعله سنده أنـه ممـا ورثنـاه عـن آبائنـا، وآباؤنـا لا يفعلون إلا ما هو حق وخير، ولا بد أن يكونوا قـد أخـذوه مـن وحـي بلغهـم عـن الله.

إنها سلسلة لا تستند للعقل ولا للحواس، ولكنها متخيلة، تخيلوا أن آباءهم منزهون عن الفساد والباطل، ويكفي في أحقيتها قدم عهدها. وأنه لا بد أن يكون الله قد عرف آباءهم برضاه عنها.

29-30: قل أمر ربي...أنهم مهتدون.

وأبطل القرآن كل ما بنوه ؛ بأمره لنبيه ﷺ أن ينقض ادعاءاتهم وأن يواجههم بالتصريح الواضح فيقول لهم: إن الله الكامل الكمال المطلق لا يعقل أن يأمر بما كان ساقطا مذموما من الأقوال والأفعال. وإنكم وقحون وقاحة مرفوضة بقولكم على الله ونسبتكم إليه أشياء لا علم لكم بها وإنما هي من نسج خيالكم، وكفى بالمرء كذبا واختلالا في التفكير أن يقيم تصوراته الموهومة مقام الحقائق الثابتة. إن ما يأمر الله به عباده له سمات تعرف به، وعليه من أنوار الحق ما يجعله لا يلتبس بالباطل. فما هي هذه السمات ؟

السمة الأولى: أن كل ما جاء عن الله يمثل العدل الذي يأخذ بالبشرية في المنهج الوسط الذي لا يميل بسالكه عن الحق. وقد فصلنا بعض ما يكشف عن هذا المنهج في قوله تعالى:**(وكذلك جعلناكم أمة وسطا)**[33] فكل ما شأنه أن ينحرف بالإنسان عن ذلكم المنهج هو ليس من الإسلام في شيء.

السمة الثانية: أن التوجه في الإسلام لا يكون إلا لله، وأنه دين يتمكن فيه المؤمن من التقرب إلى الله في كل مكان طاهر، والله قريب من العابد أينما كان.

السمة الثالثة: أن من دخل في الإسلام فعليه أن يخلص لله في عبادته، ولا يقصد بأعماله غير خالقه. فالدين في الآية بمعنى الطاعة.

السمة الرابعة: الربط بين الحياة الدنيا وبين الحياة الآخرة، فالأعمال والنوايا تمتد لتكون حاضرة يوم القيامة لصيقة أصحابها، ومؤذنة بالجزاء العدل عنها. وتصور أن البعث هيّنٌ لأنه لا فارق بين الخلق الأول وبين إعادته.

ثم يصرح القرآن بأن الناس فريقان: فريق اهتدوا، فثبتهم الله على الهدى إلى صراطه المستقيم؛ وفريق ثبتوا على الضلالة التي كانوا عليها من قبل ولزموها ولم يقلعوا عنها. وأعرضوا عن التدبر فيما خوطبوا به. وذلك لجمودهم على ما هم عليه من سلوك المسالك التي ثبتها الشيطان في ضمائرهم، ومن غبائهم أنهم يظنون أنفسهم على هدى.

---

[33] سورة البقرة آية143

۞ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا
يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ
قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ
لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلۡ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلۡإِثۡمَ وَٱلۡبَغۡيَ
بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَأَن تُشۡرِكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ
﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٞۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَأۡخِرُونَ سَاعَةٗ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

مسجد : مكان سجود وفي المقام الأول بيوت الله التي أذن الله أن ترفع.

نفصل : نقسم ونبين.

البغي : الاعتداء على الغير في بدنه أو عرضه، أو ماله.

السلطان : الحجة والمبرر الحق.

الأمة : الجماعة التي اشتركت في عقيدة.

أجل : إمهال مضبوط أمد حلوله.

جاء أجلهم : حل أجلهم.

يستأخرون، يستقدمون : يتأخرون، يتقدمون.

بيان المعنى الإجمالي :

نداء من خالق الأكوان لجميع البشر من أبناء آدم، يأذن لهم بواسطته أن يلبسوا ما مكنهم منه من لباس يزين ظواهرهم ويستر عوراتهم وأن يكونوا في أماكن العبادة على أتم وضع خلافا لما كان عليه المشركون في وقت البعثة من الطواف بالبيت وأداء كثير من المناسك وهم عراة. وأذن سبحانه لبني آدم أن يأكلوا ويشربوا من الطيبات التي هيأها لهم في الأرض في قصد ودون إسراف، فإن الله لا يحب الذين استولت عليهم شهواتهم فدفعتهم للإقبال على الملذات دون حدود.

وأمر الله نبيه أن يوبخ المشركين سائلا منكرا عليهم تحريم ما أعده الله لعباده من الزينة ومن الطيبات. وأمره أن يجهر بالحقيقة أن ما مكن الله منه عباده يستمتع به المؤمنون في الدنيا دون أن تترتب عليهم أية مسؤولية في الآخرة، وأن صنوف الترفيه ستتوفر لهم يوم القيامة خالصة لهم لا يشاركهم فيها الكافرون. على هذا

النحو من التفصيل والتدقيق يجري البيان الإلهي لعباده الذين ينتفعون بما يعلمونه. ثم رد القرآن على المشركين تدخلهم في التحريم والتحليل ونسبتهم إلى الله ما وضعوه من عندهم، وذلك ببيان ما حرمه الله. فالله لم يحرم إلا خمسة أمور:

1)الفواحش أي الأمور الشديدة القبح المرفوضة خلقيا وعقليا سواء أكانت ظاهرة أو يعمل الفاحش على سترها.

2) فعل ما يترتب عليه عقوبة. وهي الآثام التي نهى الشارع عنها.

3)التعدي على الناس وظلمهم في أجسامهم أو أموالهم أو أعراضهم.

4)الإشراك بالله في ذاته وصفاته وأفعاله، أو اتخاذ وسائط بين المخلوق والخالق.

5) الكذب على الله بنسبة ما لم يثبت بدليل صادق أن الله أمربه. لا يذهب الأمل طويلا بهؤلاء المكذبين، فإن الله كتب على كل جماعة تساندت على الباطل والضلال أنها منتهية إلى الاستئصال في الوقت المحدد لها، لاتتقدم عنه ولا تتأخر عنه.

بيان المعنى العام:

31 –يا بني آدم...لا يحب المسرفين.

هذا خطاب لجميع البشر، يأمرهم خالقهم وخالق ما في الأرض جميعا أن ينتفعوا بما أودع الله في أرضه من ضروب الزينة عندما يقصدون أماكن العبادة، وفي ذلك إبطال لما رسمته الجاهلية من العري في الطواف بالبيت، وفيه أيضا دعوة للمسلمين أن يتطيبوا ويلبسوا ما يظهروا به في مظهر محترم في كل موضع سجود، إن في العناية بحسن اللباس ما ينمي شعور الشخص بعزته وكرامته، الأمر الذي ينأى به عن النزول إلى الحطة ومراتب الهوان.

وكما أمر القرآن بالستر وأخذ الزينة في المساجد، فكذلك دعا الناس إلى الاستمتاع بما مكنهم من طيبات المآكل والمشارب. فالمنهج الإسلامي ليس في الحرمان من تلكم الطيبات وحسن اللباس، لكن في الإقبال عليها دون إسراف وتجاوز للحد المقبول دينا وصحة. ويشمل الإسراف تناول ما حرمه الله، والمبالغة في الإقبال على الأكل وما يقترن به من تخمة وما يتبعه من سمنة تبلد الذهن، وتثقل الجسم، وتدعو إلى الكسل والنوم. وقد قدمنا شيئا مما يتعلق بالإسراف في شرح قوله تعالى: (**إنه لا يحب المسرفين**)[34] وفي التوجيه الذي تضمنته الآية ما يلفت نظر

---

[34] سورة الأنعام آية141

البشر إلى ما تميز به الإسلام من قرن ما ينفع الإنسان في دنياه بما ينفعه في أخراه، فالتزاوج بين الدنيا والآخرة في نظر الإسلام طابع يتميز به عن جميع الديانات الأخرى، فهو يدخل تنظيم أمور الحياة الدنيا في صميم الدين.

32- قل من حرم...لقوم يعلمون.

وبخ القرآن المشركين فاضحا ما التزموه من فساد، وما أدخلوه في عقائدهم من ضلالات حرفوا فيها الحق، فحرموا أنفسهم من كثير من الخيرات كالستر، وأكل طيبات لا ضرر فيها لا على الجسم ولا على الروح، كتحريمهم أكل الدسم في أيام الحج، وتحريم البحيرة وما عطف عليها. فوجه القرآن سؤالا إنكاريا مضمونه أنه لا دليل ولا سند لمن حرم زينة الله التي أخرجها لعباده لتسمو أذواقهم وتتفتح لهم أبواب وطرق يرقون فيها إلى مستويات رفيعة من الحضارة، وأدمج في السؤال ما ينفي وجود جواب عما أحدثوه، وذلك بإسناد هذه الزينة إلى الخالق الذي أوجدها لينعم بها عباده. فالمشركون بتحريمهم ما حرموا كأنهم وقفوا بين الخالق وبين خلقه، وبوصف الرزق بالطيب الذي لا ضرر في تناوله ما ينفي أي سند لما أحدثوه. فالسؤال المنكر يشرح تعسفهم واقتحامهم ما لا دخل لهم فيه بأي وجه من الوجوه. ولذلك كان هذا السؤال لا يقتضي جوابا لفقدان الجواب، فعقبه القرآن بإعلان الحقيقة : إن تلكم الزينة والطيبات من الرزق ينتفع بها المؤمنون ولا يجدون في ذلكم الانتفاع حرجا لأنهم يقبلون عليها وفي ضمائرهم أنهم يتناولونها بإذن من خالقها يطيعونه فيما أذن فيه ولا يرفضون الإقبال على ما امتن به.

وأنهم سيلقون ربهم دون أن تعلق بهم مؤاخذة عما تنعموا به منها، وأن الله سيخصهم وحدهم يوم القيامة بأنواع من الفضل لا يشاركهم الكافرون فيها. ويفهم من الكلام أن المشركين حرموا أنفسهم بغير وجه من بعض ما أذن الله فيه، وأنهم لا نصيب لهم منها في الآخرة.

تأملوا فيما تحرر في هذه الآيات من الحدود الفاصلة بين الحلال والحرام وعدم التداخل بينها وسد الثغرات التي ينحرف فيها الفكر الإنساني فيحل الحرام أو يحرم الحلال. إنه على هذا النحو سنتابع التوضيح والتبيين للقوم العالمين المنتفعين بعلمهم، لا الذين يعلمون ويخالفون مقتضيات ما يعلمونه.

33- قل إنما حرم ربي الفواحش...مالا تعلمون.

ويتوجه القرآن للنبي ﷺ فيأمره بإعلان ما حرمه الله، ذلك من متتبعات قوله في نهاية الآية السابقة : **(كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون)** عددت الآية من المحرمات.

1) الفواحش : جمع فاحشة وهي الفعل الشنيع في قبحه والخلق الدنيء الذي يستحيي منه أصحاب المروءة، واللفظ البذيء الذي يستحي من النطق به أو من سماعه المؤدَّبون من الناس.

والفواحش نوعان: فواحش تعلن وخاصة إذا انحط الرباط الاجتماعي وانهزمت القيم الخلقية في المجتمع. وفواحش يقوم بها الفاحش دون أن يعلن أنه هو صاحبها، كالزنا والحسد.

2) الإثم : وهو ما نص الشارع على تحريمه من الأقوال والأفعال التي يعتبر فاعلها عاصيا. ويشمل هذا جميع المحرمات بالشرع.

3) البغي : وهو التعدي على الآخر، وألحق بالبغي وصفا كاشفا (**بغير الحق**) تشنيعا على البغاة. لأن البغي لا يكون إلا بغير حق، وما كان بحق لا يعد بغيا فمن البغي الاستحواذ على المال أو السب والتعريض أو التكبر.

4) الإشراك بالله: وهو أصل الفساد وسبب قوي لاختلال بُوصَلَةِ التوجيه في الحياة. وكشف عن الإشراك، بإلحاق أنه لا يستند إلى حجة ولا إلى عقل ولا إلى مشاهدة.

5) التجاوز المرفوض بالقول على الله بدون علم، بنسبة تشريع إليه لم ينزله على لسان رسله ولا في كتاب من كتبه.

يختم هذا المقطع بعرض قاعدة تجري مجرى الأمثال، صالحة لتأكيد مضامين ما تقدم، وللاحتجاج بها فيما يعرض للمؤمن في حياته.

34- ولكل أمة أجل...يستقدمون.

قدر محتوم أجراه الله على كل فريق ضل الطريق فكذب على الله، وغير أحكامه وعقد عقد ولاء مع الشيطان يأتمر بما يوحيه إليه مما سجله القرآن في الآيات السابقة، أن الله يمهله ولا يهمله، وأن مآله مقدر أجلُه فينفذ عنده الحكم الإلهي. وهكذا تم في عصابة السوء من مشركي مكة، فهم لم يمضوا بعيدا حتى تم استئصالهم عند الأجل الذي قدر لهم، وسطع نور الإسلام في مكة وخلصت العبادة فيها لله وحده. ولم يستطيعوا أن يتقدموا أو يتأخروا عن الأجل المحدد.

يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ إِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصۡلَحَ فَلَا
خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَآ أُوْلَٰٓئِكَ
أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٣٦﴾ فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوۡ كَذَّبَ

بِـَٔايَـٰتِهِۦٓۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓاْ
أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُواْ
كَـٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ ٱدْخُلُواْ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ
كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ
رَبَّنَا هَـٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَـٰكِن لَّا
تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُواْ
ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

يقصون : يتلون، يسردون ويوردون.

آياتي : من الكتب المنزلة، وما أيد الله به رسله من العلامات الدالة على صدقهم.

ينالهم : يصيبهم.

نصيبهم : حظهم.

الكتاب : يحتمل أن يراد به القرآن، أو ما قدره الله.

رسلنا : ملائكتنا.

يتوفونهم :ينزعون أرواحهم من أجسادهم.

قد خلت : مضت وانقرضت.

اداركوا : تلاحقوا واجتمعوا في النار.

أولاهم : السادة المتبوعون.

أخراهم : التابعون.

ضعفا: أشد وأكثر.

بيان المعنى الإجمالي :

خطاب تكرر على ألسنة الرسل، وتعاقب التنبيه إليه، مضمونه : دعوة من الله إلى جميع البشر أنه تكفل سبحانه بمساعدتهم على اتّباع طريق الهدى بإرسال رسل غير مجهولين لديهم، هم منهم يعرفونهم، مهمتهم أنهم يقيمون لكم الأدلة البينة التي توضح العقيدة وتحدد المنهج السلوكي الذي يرضى الله عنه، وينبهونكم إلى أنه من لبس ثوب التقوى وعمل صالحا يظفر بالأمن السابغ، فلا هو يخاف من المستقبل

ولا هو يحزن عما مضى. وأما الذين كذبوا بالآيات التي لفت المرسلون إليها أنظارهم، ورفضوا الانتفاع بها استكبارا، فقد عقدوا بينهم وبين النار عقدا لا ينفك.

إن هذا الجزاء هو جزاء عدل يطابق ظلمهم، لأن الذين ينسبون إلى الله كذبا وافتراء، التشريع الذي اختلقوه، والذين كذبوا بآيات الله، هم حسب المعايير للخير والشر يعتبرون أشد الناس ظلما لجراءتهم على ربهم. إنهم سيلحقهم النصيب الذي قدر لهم من العذاب، وعندما يأتيهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم يقرعونهم، ويعرضون عليهم منازلهم من العذاب ويقولون لهم: أين الآلهة التي اعتمدتم عليها تدعونها في كل أمر عسير لقضاء حوائجكم ؟ يكون جوابهم بكل حسرة بعد انكشاف الأمر: لم نجدهم كأنهم تاهوا فذابوا، وأعلنوا الحقيقة المرة: أنهم كانوا كافرين.

وإذ شهدوا على أنفسهم بالكفر ولم يبق لهم مقال بعد ذلك، ينادي رب العزة إذلالا لهم وتنفيذا لما كان كتب لهم: انضموا إلى الجماعات الكافرة التي مضت قبلكم من الجن والإنس ليكون منكم جميعا ركام، تحية القادمين الجدد لمن سبقهم الدعاء إلى الله أن يلعنهم ولا يمكنهم من أي قبس من رحمته. ثم يرتفع ضجيج في جهنم بين الذين كانوا مقدمين في الدنيا وأثروا في غيرهم فاتبعوهم، وبين التابعين، يسجل القرآن ما يجري فيه. يرفع التابعون حناجرهم بالشكوى والدعاء.

هؤلاء الرؤساء في الدنيا أضلونا فأنزل بهم ربنا عذابا شديدا مضاعفا. ظنا منهم أن عذابهم بذلك يكون أخف منهم. نقض الله ظنهم بأنه قدر أن يكون للتابعين والمتبوعين عذاب شديد، ولكنكم لا تعلمون. إن العذاب ينزل بكم لأنكم رضيتم بالكفر ومكنتم لرؤسائكم من توجيهكم لأنكم بطاعتكم إياهم أغريتموهم وعارضتم الرسل بمحض اختياركم فأنتم مسؤولون عما قمتم به لا يتحمل عنكم من أطعتموهم شيئا. وقال المتبوعون **(أولاهم)** عذابنا وعذابكم سواء لاستوائنا في الكفر والتكذيب فليست لكم أي مزية يتبعها تخفيف العذاب عنكم وحدكم، فذوقوا العذاب بسبب ما اكتسبتموه من شرٍّ في الدنيا.

بيان المعنى العام:

35-36: يا بني آدم إما يأتينكم...خالدون.

هذا خطاب رب العزة توجه به إلى جميع البشر بفضل عنايته بهم وإرادة الخير لهم. نَعَمْ إن الله خلق البشر مزودين بالإدراك والاختيار، وقدر أن يتحملوا المسؤولية عما يفعلونه ويختارونه. ولما كانت الشهوات والغرائز لها دورها في توجيه الإنسان، وأن الشيطان انتصب عدوا له، يسعى لإغوائه وإبعاده عن طريق

الهدى، كان من لطف الله بالبشر أن وجه لهم الرسـل الـذين يحملـون الهدايـة الربانيـة، يوضحونها ويحببونها لهم ويقنعونهم بانسجامها مع فطـرهم ومـع العقـل الـذي بـه تـم استخلافهم في الأرض. فخاطبهم في هذه الآيـة خطابـا وكـل بـه جميـع الرسـل مـن عهد آدم واستمر التذكير به إلـى الـزمن الـذي ختمـت فيـه الرسـالة بإمـام المرسـلين وخاتمهم محمد ﷺ .يقول الله لكل رسول: بَلِّـغْ البشـر أن الله يـأمركم أنـه كلمـا جـاءكم رسل بشر تعرفونهم، جاءهم الوحي من عند الله يروون لكـم الآيـات التـي تلقوهـا مـن ربهم، فأطيعوهم واعملوا بما جاؤوكم به من عنـدنا. وطـوى جـواب الشـرط(**أطيعـوهم**) ليصرح بمعناه بواسطة تقسيمهم قسمين شاملين لجميعهم:

القسم الأول: من وجه عزمه ليقـي نفسـه غضـب الله وعقابـه، فـاتقى ذلـك بالطاعـة وصادق العقيدة، ووجه إرادته إلى الإصلاح في عملـه وفـي علاقاتـه بالنـاس وبـالكون. وتقرر الآية الجواب الذي هو الجزاء، أنه آمن فلا يلحقـه أي مـن أنـواع مكـاره الـنفس وأنكارها. وتفيد الصياغة أنه آمن مـن مفاجـآت المسـتقبل، ولا يجـد فيمـا فاتـه مـن عمله وسلوكه ما يدخل الحزن على قلبه.

القسم الثاني :الذين كذبوا بآيات الله وأقاموا من عنادهم سـدا يحجـب عـنهم التأمـل فـي آيات الرسل، وأصيبوا بما أصيب به إبلـيس مـن الاسـتكبار وابتلـوا بجرثومـة جنـون العظمة، الصلة بينهم وبين النار مؤكدة، لا يفارقونهـا ولا تفـارقهم، شـأن الصـاحب مـع صاحبه، وأن هذا المصير في النار لا ينفك عنهم إلى أبد الآبدين.

37-فمن أظلم ممن افترى...أنهم كانوا كافرين.

مفهوم الظلم الاعتداء على الحقوق، ويكون ذلـك إمـا إنكـارا للحـق، وإمـا نابعـا مـن الكبر وتخيل المستكبر أن له أن يفعل مـا يشـاء. فارتبطـت الآيـة بالقسـم الثـاني مـن الآية السابقة. وعندما تبلغ جراءة الظالم أن يكـون متعـديا علـى مـا يجـب لله سـبحانه من التقديس، فيكذب على الله ويرى أن ما زينه له هواه هـو الحـق الـذي حكـم الله بـه. أو يكذب ما بلغه من هداية رسله، عندما تبلغ جراءته هـذا الحـد يكـون بـلا شـك أظلـم الناس، وأشـدهم وقاحـة. إن هـؤلاء الظلمـة، وقـد أجـرى علـيهم مـا يعـزلهم عـن الصالحين فتميزوا، سينال كل واحد منهم نصيبه من الوعيـد الـذي أنـذرهم بـه القـرآن، أو المعنى: ينالهم النصيب من العذاب الـذي قـدره الله لكـل واحـد مـنهم تبعـا للفسـاد الذي ترتب على أعماله وسعيه المخرّب. كما يمكن حمـل الآيـة علـى بلـوغ مـا قـدره الله من الرزق ومن الإمهال وعدم معاجلتهم بالعذاب.

وإذ قد صرحت الآيـة علـى أن الظـالمين بالكـذب علـى الله وتكـذيب آياتـه سـينالهم نصيبهم مما قدر لهم ومنه ما وصـفه القـرآن، وفـي هـذا الظـرف يـأتيهم ملائكـة الله فيقتلعون أرواحهم من أجسادهم. وعند ذلك يواجـه كـل ملـك الـذين أوكـل إليـه نـزع أرواحهم بالاحتقار والتقريع، ويري كل واحد منهم مقعـده الخاسـر فـي العـذاب قـائلين: أين شركاؤكم الذين كنتم تدعون أنهم ينصرونكم عند الشدائد ويدافعون عنكم ؟
كان جوابهم: ما وجـدناهم فـلا نعـرف مـواقعهم ولا يعرفـون مواقعنـا، وهـو تجسـيم لشعورهم بضلالهم، وأعلنوا تبعـا لـذلك مقـرين شـاهدين علـى أنفسـهم بـأنهم كـانوا كافرين بالحقائق التي بلّغتها إياهم رسلهم.

38-39: قال ادخلوا...بما كنتم تكسبون.

إنه إثر هذه الشهادة وهـذا الإقـرار يبلـغ أسـماعهم صـوت الحـق يُنَفِّـذُ فـيهم حكمـه فيوقنون بمصيرهم الخاسر، يقول لهم: انضـموا ممتـزجين بالجماعـات التـي انقرضـت وسبقتكم، بعضهم من الجن وبعضهم من الإنـس، فـادخلوا جميعـا مسـتقرين فيمـا أعـد لكم من النار.

ثم تعرضت الآية لنوع من أنواع المهانة التي تذلهم، بنقض مـا كـانوا عليـه فـي الـدنيا. لقد كان الكافرون فـي الـدنيا يتناصـرون ويؤيـد بعضـهم بعضـا، ويتقاسـمون الأدوار ليكيدوا الرسل واتّباعهم؛ فبمجرد ما يدخلون النار تنقلب المـودة والمـوالاة إلـى أشـد مـا يكون من البغض والعداوة وحب التشفي. كلما دخلـت جماعـة فألقيـت فـي لهـب النـار حياها من سبقها في النار بلعنة مجلجلة. ويستهزئ الـنص القرآنـي بهـم فيطلـق علـيهم لفظ الأخوة (**أختها**)، أخوة التبرؤ والتشفي والابتهـال بإبعـادهم، فـلا يقسـم لهـم شـيء من الرحمة. وبعد وصف بعض ما تلقاه وفود النار مـن اللعنـة والتبـاغض وذهـاب كـل الروابط التي كانت تربطهم في دنياهم، يصفهم إثر ذلك وقـد تتـابعوا فـي النـار فحـوتهم جميعا، يكشف القرآن عن بعض من علاقاتهم في النـار وكيـف ينظـر الاتّبـاع للرؤسـاء الذين كانوا يدينون لهم بالطاعة المقرونـة بالإكبـار، وبمـاذا يواجهـونهم؛ وفـي المقابـل ماذا يقول المتبوعون لتابعيهم وقد تمزقت كل الصلات وانقلبت إلى ضد ما كانت.

يقول الاتّباع [**أخراهم**]،الـذين كـانوا فـي الـدنيا يسـارعون لتنفيـذ مـا يمليـه علـيهم متبوعوهم، ويحتَمُون بهم، يقولون :ربنا إن الـوزر يتحملـه هـؤلاء المسـتكبرون الـذين أضلونا وحالوا بيننا وبين الإيمان، فأنزِلْ عليهم ربنـا أشـد العـذاب وأقسـاه مـن النـار. فهم قد امتلأوا من الحقد والـبغض والشـماتة بالـذين كـانوا يلـوذون بهـم ويتبعـونهم. ويعلن الله: أن التابعين والمتبوعين لكل منهم العـذاب الشـديد. ولكـن جهلكـم هـو الـذي

حملكم على تقديم هذا الطلب، إن مسؤوليتكم عـن ضـلالكم تتحملونهـا بإعراضـكم عـن الرسل، وقد رزقتم العقل المدرك، وعـرض علـيكم الرسـل الحقـائق مجلـوة واضـحة، واخترتم بأنفسكم اتّباع رؤسائكم، بل إن فـي طـاعتكم لهـم إغـراء لهـم فـي التمـادي على الكفر واستكبارهم، ولكنكم لا تعلمـون أنـه لا يتحمـل أحـد وزر غيـره. وينطلـق من جهنم صوت الرؤسـاء [أولاهـم] قـائلين : كـذبتم لـيس لكـم علينـا أي مزيـة ولا فضل، فنحن سواء في ظلام الكفر، كـذّبتم الرسـل كمـا كـذّبنا، وتـابعتم شـهواتكم كمـا استمتعنا، وانزلقتم في الفساد معرضـين عـن الآيـات كمـا انزلقنـا، اكتسـبتم مختـارين جميع أفعالكم ، فذوقوا عذاب النار اليوم بسبب ما كسبتم من الآثام.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

لا تفتح لهم أبواب السماء : كلمة جامعة تدل على حرمانهم من جميع الخيرات والألطاف الإلهية.

الجمل : حبل غليظ تشد به السفينة، والحيوان المعروف، وهو أضخم الحيوانات الأهلية.

سم الخياط: ثقب إبرة الخياطة.

مهاد: فراش.

غواش: جمع غاشية، وهي الغطاء.

المجرمين : المرتكبين للجرم: الذنب.

نزعنا: أزلنا.

غل : حقد.

بيان المعنى الإجمالي:

تبين الآيات جزاء المكذبين بآيات الله والمستكبرين عن عبادته في جميع الظروف والأزمان. فالعقوبة الأولى أن أعمالهم لا يكتب لها القبول ولا ترتفع إلى الصالحات المقدر لها المثوبة عند الله، ولو ترتب عليها نفع للناس. والعقوبة الثانية أنه يتبع إحباط أعمالهم أن دخولهم للجنة دار الكرامة مستحيل كاستحالة دخول الحبل الغليظ الذي تربط به السفن في ثقب إبرة الخياط. إن جزاءهم هذا هو جزاء المجرمين، وهم مجرمون. ويفصل القرآن وضعهم في جهنم بأن تحتهم نار تلهب، وفوقهم طبقات من النار. وعلى هذا النحو يجزى جميع الظالمين. وهم بتكذيبهم واستكبارهم قد ظلموا.

وأما الذين استقر الإيمان في قلوبهم، وفاض على أعمالهم فكانت صالحة حسب المعيار الشرعي، يتميزون بأنه بينهم وبين الجنة رابطة قوية كأنها صحبة، هم مخلدون في نعيمها. لقد فازوا بدون مشقة لأن الله لا يكلف البشر إلا ما يطيقونه فضلا منه. وتعرضت الآية لوضعهم وهم يتقلبون في النعيم، فقلوبهم عمرت بالمحبة والود بعد أن نزع الله منها الحقد والبغض، وأنهم يسكنون الجنة التي تتخللها الأنهار الجارية بما يصحب ذلك من جمال أخاذ للطبيعة وهدوء. وقد امتلأت أرواحهم من الرضوان فعبروا عن ذلك بالتوجه إلى الله حامدين مثنين على فضله الذي ابتدأ في الدنيا بهدايتهم إلى طريق النجاح والفوز، معترفين أنه لولا ألطافه سبحانه ما كان لهم أن يبلغوا هذا المقام، وصرحوا بما تقرر عندهم في الدنيا وانكشف لهم عيانا في الجنة فقالوا: لقد صدق الرسل فيما بلغونا.

ويبلغ النعيم ذروته عندما يخاطبهم الله بقوله : إن تلكم الجنة التي وعدكم بها رسلكم، قد أصبحت ملكا لكم كما يملك الوارث مال مورثه، بسبب ما قدمتموه من أعمال نالت مرضاتي.

بيان المعنى العام :

40-41: إن الذين كذبوا بآياتنا... نجزي الظالمين.

خلاصة لما بسط وقُررَ في الآيات السابقة مما كتبه الله للمستكبرين والمكذبين، وتأكيد له، وإعلام بما يفيد ملازمة السخط لهم ويأسهم من رحمة الله أو الخروج من العذاب. فجسّم هذه المعاني بأن أبواب السماء لا تفتح لهم.

ويراد بأبواب السماء والله أعلم، المسالك التي يؤذن للمقبولين المرضي عنهم من البشر أن ينفذوا منها والتي ترفع منها قرباتهم وأعمالهم الصالحة إلى مراتب

القبول. فهي ليست أبوابا من خشب أو حديد، أو ذات مصاريع، وليست لها أي سمة من سمات المادية. ونظيره أن يقول القائل: ذهبت للتجارة في تونس فوجدت جميع الأبواب مفتوحة، هو يقصد التيسير الذي صحبه في سعيه. وبالمقابل قد يذكر أنه سعى لتوظيف ابنه مثلا فوجد جميع الأبواب مغلقة، يعني أنه باء بالخيبة ولم يتمكن من تحقيق ما أراده، وكان الرفض الحصيلة التي انتهى إليها. فيكون المعنى والله أعلم: إن الذين كذبوا بآيات الله واعتبروا أنفسهم أعظم من أن يطيعوا ما جاءتهم به الرسل، لا يطمعون أن يقبل منهم أي عمل قاموا به، والرحمة الإلهية مقطوع أملهم منها، ومقامات السمو لا يصلون إلى مرتبة من مراتبها. مما يفيد حرمانهم من جميع الخيرات المدخرة من فضل الله لعباده يوم القيامة. ولا ينافي هذا أن ينالوا من رزق الله في حياتهم الدنيا المتاع القليل، والآئل إلى الزوال السريع. ثم علق القرآن دخولهم للجنة على أمر اجتمعت فيه الاستحالتان العادية والعقلية، مما يفيد نفيه على أبلغ صورة بتعليقه على دخول الحبل الغليظ في ثقب إبرة الخياط.

أما الاستحالة العادية فمعلوم أن ثقب الإبرة لا يمكن أن يدخل فيه الحبل الغليظ الذي تشد به السفن عادة. وأما الاستحالة العقلية فإن احتواء الأصغر للأكبر مناقض لمقتضيات الحكم العقلي. وإذ استحال دخول الجمل في ثقب الإبرة عاديا وعقليا فكذلك يستحيل دخولهم إلى الجنة. وعلى هذا النحو من العدل في الجزاء، واستحالة أن يجدوا رَوْحا من رحمة الله، على هذه الطريقة نجزي الآثمين المجرمين الذين حُددت لهم في حياتهم الحدود، فاقتحموها ولم يذعنوا.

إذ استحال دخولهم إلى الجنة عاديا وعقليا كما أفاده الأمر المعلق عليه، فإلى أين يصيرون؟ مصيرهم إلى جهنم تحتويهم احتواء كاملا، فتكون لهم فراشا من تحتهم وغطاء من فوقهم. وعلى هذا النحو يجزي الله الظالمين يصلوْن نار جهنم التي استحقوها بسبب ظلمهم، من التكذيب والاستكبار.

42-والذين آمنوا...هم فيها خالدون.

وفي المقابل فإن من صَفَتْ سرائرهم بحلول اليقين الإيماني فيها، ثم انسجمت أفعالهم مع ما تقتضيه العقيدة فصلحت وخلصت مما يفسدها أو يشوهها، تميزوا بأن الله هيأ لهم الجنة ينفردون فيها بالنعيم الذي لا ينفد. وأدمج فيما خصهم به من نعيم منة أخرى؛ أن فوزهم بتلكم المرتبة تم لهم بلوغه مع التيسير عليهم وعدم الحرج إذ لم يكلفوا فوق ما يطيقون.

43- ونزعنا ما في صدورهم...بما كنتم تعملون.

ثم اعتنى القرآن بتفصيل ما ينعمون به يوم القيامة. فمن النعم التي ذكرها:
صفاء قلوبهم فقد نزع الله من قلوبهم الغل، اقتلعـــه مـــن جـــذوره فلـــم يبـــق لـــه أي أثـــر. والغل هو الحقد الذي يملأ نفس من بلغه ســـوء مـــن غيـــره، فـــإذا هـــو يتحـــرق للانتقـــام ويهنأ بالشماتة، وبصفة عامة تكـــون ســـعادته فـــي شـــقاء الطـــرف الآخـــر وغمُّـــه فـــي سعادته. ووصْفُ أهل الجنة بهذا الوصف يفيد تمـــام التـــآخي والـــود بـــين ســـاكنيها، هـــو على الضد من وضع أهل النار كمـــا تبـــين لنـــا فـــي الخصـــام المحتـــدم بـــين التـــابعين والمتبوعين في الآية السابقة؛ وهذا نعيم نفســـي. وقـــد أبـــدع شـــوقي لمـــا وصـــف هـــذا المستوى في مناجاته لربه:

ونشهد ما آذيت نفسا ولم أضـــر *** ولم أبغ في جهري ولا خطـــــــراتي
ولا غلبـــتني شقـــوة أو سعادة *** على حكمة آتيتـــني وأنـــــــــاة
ولا جال إلا الخير بين سرائري *** لدى ســـــدة خيـــــرية الرغبــــات
ولا بت إلا كابن مريم مشفقـــا *** على حسدي مستغفرا لعــــــــداتي

نعيم مادي ذكر منه أن الجنة يتخللها الأنهار الجارية، بمـــا يصـــحب ذلـــك مـــن الخضـــرة والجمال ورونق الحياة
نعيم روحي ذكر منه: ابتهالاتهم إلى الله بحمده علـــى نعمـــه التـــي حبـــاهم بهـــا، فالحمـــد تعبير عما امتلأت به المشاعر من إحساس بفضـــل الله علـــيهم، اعترافـــا مـــنهمْ بـــأن مـــا نالوه ما كان ليتحقق لولا أن الله تفضل عليهم فهـــداهم، وجنـــبهم مواقـــع الفتنـــة والوقـــوع في شراك إبليس وأعوانه، ونوازع النفس الأمارة. ويتمثـــل لهـــم مـــا قـــام بـــه المرســـلون من تبليغ هدايات الله، وأن ما حُظوا به هو مـــن جملـــة مـــا أخبـــروهم بـــه، فـــارتفع مـــن حناجرهم ما يفيد هذا الاعتراف: لقد جاءت رسل ربنا بالحق.
بعد أن يعم النعيم السابغ مشاعرهم وأرواحهم وأجسامهم بمـــا يمثـــل الســـعادة فـــي قمتهـــا، يتفضل رب العزة على أصحاب الجنـــة فينـــاديهم بمـــا يفهمـــون منـــه مـــا تعلقـــت الإرادة الإلهية بتبليغه إليهم وهم في هذه النشـــوة :إن الجنـــة التـــي كنـــتم تعتقـــدون أنهـــا صـــدق وحق، قد مُكِّنتم منها كما يتمكن الوارث من مخلـــف مورثـــه بـــلا منـــة، بفضـــل صـــالح أعمالكم. وفي التنويه برضا الله عنهم وعن أعمالهم في الـــدنيا نعمـــة عظيمـــة تفـــوق مـــا سبق من النعم.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗا فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْأَخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ وَبَيْنَهُمَا
حِجَابٌ ۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَنَادَوْاْ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ
عَلَيْكُمْ ۚ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ ۞ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَٰرُهُمْ تِلْقَآءَ أَصْحَٰبِ
ٱلنَّارِ قَالُواْ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالاً
يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُواْ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَهَٰٓؤُلَآءِ
ٱلَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحْمَةٍ ۚ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ
تَحْزَنُونَ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

وجد: ألفى، ولقي.

وعد: يطلق الوعد على الوعد بالخير، وعلى الوعيد بالشر.

أذن: رفع صوته بالنداء ليسمعه البعيد فضلا عن القريب.

لعنة الله: الإبعاد من فضل الله وتكريمه.

صد: صرفهم الناس عن الهدى بإذايتهم.

سبيل الله: الطريق الموصل إلى مرضاته.

يبغونها عوجا: يعملون على إظهار طريق الله محرفا معوجا.

حجاب: حاجز مانع من الاتصال.

الأعراف: جمع عرف وهي أعالي الشيء كعرف الفرس والديك.

صرفت: تم لفت أبصارهم.

سيماهم: العلامة المميزة.

بيان المعنى الإجمالي:

بعد أن استقر أصحاب الجنة في منازلهم منها، وشرفهم ربهم بخطابه أنما أفاء به عليهم من نعمة هو جزاء ما قاموا به من صالح الأعمال ؛يفصل القرآن مشاهد من العلاقات بين أصحاب الجنة وأصحاب النار.

المشهد الأول: نداء أصحاب الجنة أصحاب النار نكاية فيهم، يقولون لهم: قد مكننا ربنا مما وعدنا، فهل مكنكم أنتم أيضا، ويجيبون: نعم ! ويرتفع صوت يملأ

الأسماع: صب الله لعنته على الظالمين الذين منعوا الهداية من أن تنطلق إلى جميع القلوب ، وحرفوها لصرفها عن حقيقتها إلى صورة معوجة، وأنكروا البعث.

المشهد الثاني: حاجز عظيم بين أهل الجنة وأهل النار، يقوم على أعاليه رجال **(أصحاب الأعراف)** ولم تحدد الآية من هم أصحاب الأعراف إلا بالمكان الذي هم فيه، مكان مرتفع بين الجنة والنار. وبناء على ذلك اختلف الناظرون في تعريفهم، فحملهم البعض على أنهم من الكمل من المؤمنين استنادا إلى أنهم في مكان عال فوق الحاجز، ورأى آخرون أنهم ملائكة سموا رجالا لقوله تعالى ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا، وعند مجاهد والحسن هم فضلاء المؤمنين، وقيل هم الشهداء، وذهب بعضهم إلى أنهم ممن خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا لم يفوزوا بدخول الجنة مع السابقين ولم تغلب سيئاتهم فيكونوا من الداخلين إلى النار، وأرجح الرأي الثاني استئناسا بقوله تعالى : **(وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم)**[35] ولأنه هو الذي ينسجم مع سياق الآية ولا يحتاج إلى كثير من التأويل لما يرد بعد. ينظر أهل الأعراف إلى أهل الجنة فيحيونهم بالسلام، ويعظم شوقهم إلى الالتحاق بهم، وهم آملون في فضل الله أن يحقق لهم ذلك.

المشهد الثالث: تُوجَّه أبصارهم بقدرة خارجة عن إرادتهم إلى جهة أصحاب النار، فيشتد خوفهم ويبتهلون إلى الله أن لا يجعل نهايتهم معهم.

المشهد الرابع : ينادي أصحاب الأعراف رجالا من أهل النار عرفوهم في حياتهم الدنيا، وبقيت سماتهم ومشخصاتهم غير مختلطة بغيرهم، فيخاطبونهم بما يزيد في إهانتهم وتحريك ما يؤذيهم قائلين : لم يفدكم ما جمعتم من مال وما كثر حولكم من عصبية، ويضيفون : تذكروا ضعفة المؤمنين الذين كنتم تحتقرونهم وأقسمتم أنه حتى لو فرض أن الجنة حق فإن هؤلاء لا يدخلونها. انظروا إليهم وقد سبقوا إلى منازلهم العلية في الجنة. وهذا من العذاب النفسي الشديد عندما يرى المستبدون المستكبرون من كانوا يحتقرونهم في أعلى درجات النعيم، وهم في أحط دركات العذاب والمهانة.

المشهد الخامس : يؤذن لأصحاب الأعراف أن يلتحقوا بأماكنهم في الجنة لا خوف عليهم من زوال النعيم، ولا يبقى في نفوسهم حزن يكدر عليهم نعيمهم

---

[35] سورة التوبة آية 102

بيان المعنى العام :

سجلت الآيات السابقة ما يجري على ألسنة الأبرار في الجنـة، ومـا يجـري علـى ألسـنة الأشرار في جهنم. وتناول النص القرآني بعـد ذلـك بعـض مـا يجـري بـين أصـحاب الجنة وأصحاب النار.

44-45: ونادى أصحاب الجنة...بالآخرة كافرون.

المشهد الأول : ينادي أصحاب الجنة أصحاب النـار وبينهمـا مسـاحات شاسـعة، ولكـن حال الآخرة غير حال الحياة الدنيا، فالصـوت وإن كـان مـن بعيـد يسـمعه مـن توجـه إليه الخطاب؛ ينادونهم مع التبجح علـيهم وإظهـارا للنكايـة بهـم، ومضـاعفة كـروبهم، معلنين أنهم قد سعدوا بما أفاء الله عليهم مما وعـدهم بـه مـن الكرامـة والنعـيم؛ وهـذا الإخبار يضاعف ألمهم النفسي، وهم على أسوأ حالة مـن المهانـة والعـذاب. ثـم يُلقـون على أصحاب النار السؤال التالي: هل ألفيتم ما وعدكم ربكـم مـن الجـزاء، فلقيـتم مـا وصفه لكم المرسلون؟ ويجيبونهم في انكسار : نعم ! ولـيس القصـد مـن السـؤال تلقـي الجواب، وإنما يلهم الله أهل الجنة أن يتوجهـوا بهـذا السـؤال المعلـوم جوابـه، تكريمـا لهم، ونكالا وإهانة لأصـحاب جهـنم، وإيقـافهم علـى اسـتحقاقهم العـذاب بمـا قـدموا. كقولك لمن يلعب بالبارود وكنت نبهته، فانفجر عليـه وتشـوه؛ هـل لقيـت نتـائج اللعـب بالبارود؟

المشهد الثاني: يرتفع صـوت مُـدَوٍّ يختـرق الأبعـاد ينـادي: لعـن الله لعنـة مجلجلـة تحجب الكافرين الظالمين عن نوال أي نصيب من رحمـة الله. الـذين فسـدوا فـي الـدنيا وأفسدوا، الذين كانوا يقفون حاجزا لمنع النـاس مـن الاهتـداء بمـا بعـث بـه الرسـل، ويحولون بيـنهم وبـين اتّبـاع المسـالك المبلغـة لمرضـاة ربهـم، ويجهـدون أنفسـهم لتحريفها وإظهارها في مظهر غيـر مسـتقيم تنفيـرا منهـا، ويرفضـون الإيمـان بيـوم البعث.

46-وبينهما حجاب...وهم يطمعون.

المشهد الثالث: يصور حاجزا بين الجنة والنار؛ ولا يـذهب بـك التصـور إلـى تجسـيمه حسب العرف الدنيوي، فهو أمر من أمور الآخرة قربتـه الآيـة بمـا تسـمح بـه اللغـة. يقوم على أعاليه قوم لـم يـدخلوا الجنـة بعـد، وهـم يطمعـون راجـين أن يسـعفهم الله برحمته فيأذن لهم بدخولها. يخاطب هؤلاء القائمون علـى الأعـراف، وقـد انكشـف لهـم أصحاب الجنـة وأصـحاب النـار ويجـري بيـنهم وبـين الفـريقين الحـوار التـالي : يتوجهون أولا إلى أصحاب الجنة فيبادرونهم بتحية الإسـلام (**سـلام علـيكم**) نـالكم مـن

ربكم الأمن والإكرام، فهنيئا لكم ما أنتم عليه من النعيم. وتصـف الآيـة مـا يجـري فـي باطن أهل الأعراف وهم يخاطبون أهل الجنـة، وقـد اطلعـوا علـى حيـاتهم فيهـا، أنـه تضاعف شوقهم إليها إذ هم لم يدخلوها بعد، وهم طـامعون فـي شـمول رحمـة الله لهـم ليأذن لهم باللحاق بأهلها.

47-وإذا صرفت أبصارهم...القوم الظالمين.

ثم يُوَجَّهون فتقع أبصارهم على أهل النـار، فيسـارعون بالـدعاء أن يبعـدهم عـن القـوم الذي ظلموا فاستحقوا العذاب، وأن لا يجعل بينهم وبيـنهم أي صـلة. وفـي إسـناد الفعـل للمجهول(صُرِفَتْ) ولم يعبر بِصرَفُوا، إشارة إلـى الفـرق بـين نظـرهم إلـى أصـحاب الجنة الذي تبعه مبادرتهم بندائهم وبالسـلام وشـعورهم بـأن بيـنهم وبـين أهـل الجنـة سبب وصلة؛ بينما نظرهم إلى أهل النار ليس بداع ذاتـي وإنمـا هـو أمـر حصـل لهـم دون رغبة منهم أو شوق.

48-49، ونادى أصحاب الأعراف...ولا أنتم تحزنون.

المشهد الرابع: أصحاب الأعراف وقد حل في قلوبهم الخـوف مـن إلحـاقهم بأهـل النـار فابتهلوا إلى ربهم بأن لا يجعلهـم معهـم، أخـذوا يقرِّعـون بعـض أهـل النـار الـذين يعرفونهم بمشخصاتهم المميزة لهم قائلين :ما نفعكـم ولا دفـع عـنكم مـا جمعتمـوه مـن أموال ولا كثرتكم التي كنتم تكاثرون بها المؤمنين وتعتـزون بهـا وتقـدمون ذلـك علـى أنه حماية لكم فلا يستطيع أي كان أن يطولكم. ذهب كـل ذلـك كـذهاب الأوهـام عنـدما تصدمها الحقائق. ثم إنّ هؤلاء المستضـعفين مـن المـؤمنين الـذين احتقرتمـوهم حتـى أقسمتم أنه حتى لو كانت الجنة حقا فإنه يسـتحيل أن يكـون هـؤلاء مـن أهلهـا، وذلـك تبعا لمقومات السمو البشري عندهم، فهم لغلظهم وانحـراف سـلم القـيم عنـدهم، جعلـوا قيمة الإنسان مرتبطة بثرائه، وما له من جـاه ومـا حولـه مـن الأتْبَـاع ومـا رزق مـن أولاد وعصبية. يقـول أصـحاب الأعـراف : انظـروا إلـى المقامـات العليـة لهـؤلاء المستضعفين في جنان الخلد وما أغدق الله عليهم من فضـله، فقـد جعلهـم سـابقين إلـى تلك المكانات. وفي هذا الخطاب نكاية برؤساء الكفـر فـي الـدنيا ؛ إنـه مـن أشـد مـا يلقاه القوي العنيد من الإذلال أن يرى من كان يحتقـره فـي أسـمى مقـام، وهـو يتمـرغ في الهوان والمذلة والعذاب.

المشهد الخامس : هؤلاء الواقفون على الأعراف وقـد أبطـأ بهـم عملهـم عـن الـدخول مع السابقين إلى الجنـة، وكتـب لهـم أن ينظـروا إلـى أهـل الجنـة ويسـلموا علـيهم ويطمعون في الالتحاق بهم، وتصرف أبصارهم إلـى جهـة أصـحاب النـار فقرَّعـوهم

وذكّروهم بمواقف استكبارهم في الدنيا، وضياع كل مـا تعلقـوا بـه، وهـم بـين الخـوف والأمل في رحمة الله، يناديهم مناد : ادخلوا الجنـة لا خـوف علـيكم مـن مفارقتهـا، ولا يبقى في صدوركم حزن على ما فاتكم طيلة وقت الترقب.

وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَنۡ أَفِيضُواْ عَلَيۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ أَوۡ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُۚ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ فَٱلۡيَوۡمَ نَنسَىٰهُمۡ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوۡمِهِمۡ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجۡحَدُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدۡ جِئۡنَٰهُم بِكِتَٰبٖ فَصَّلۡنَٰهُ عَلَىٰ عِلۡمٍ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ

بيان معاني الألفاظ:

أفيضوا: ادفعوا لنا الماء بقوة وكثرة.

رزقكم الله : المتبادر منه هو الطعام.

حرمهما: منعهما.

ننساهم : نهملهم ونتركهم.

هل ينظرون : ما ذا يترقبون ؟

تأويل : تحقيق ما جاء به في الواقع المشاهد.

نسوه من قبل : صدوا وأعرضوا عنه في الدنيا.

بيان المعنى الإجمالي :

يتناول هذا المقطع أولا: شيئا مما كان يدور بين أهـل الجنـة وأهـل النـار. طمـع أهـل النار لوفرة الخيرات عند أهل الجنة أن يفيضوا علـيهم المـاء والطعـام. أجيبـوا بـأن الله قد منع الكافرين من خيرات الجنة. إن حكمـه عـدل فـيكم فَـذَكَّرُوا مـن أوصـافهم مـا يؤكد ذلك، فالدين الذي يحمل الإنسـان علـى تناولـه بالجـد باعتبـار أنـه يجمـع بـين الحاضر والمصير، قد اتخذوه لهوا ولعبا، واغتروا بما تهيأ لهم من نعيم في الدنيا.

ثانيا: ما أقره الله في مداركهم، أنه قرر إهمـالهم بسـبب تـركهم ونسـيانهم ليـوم القيامـة فيهملهم كما يهمَل الشيء المنسي، لأنهم جحدوا ما تدل عليه آياتنا البينة الواضحة.

إنهم حقيقون بالجزاء الذي سلط عليهم لأنا قد أبلغناهم الكتاب الذي بينا ما فيه بيانا لا يحتمل الخطأ ولا التغيير، يتضمن الهدى على أتم وجه، والرحمة كلها، ينتفع به من آمن.

يوقظهم بهذا السؤال: ما الذي أبطأ بهم عن الاستجابة فهل يترقبون يوم القيامة يوم يتحقق ما أخبر به ؟إن كان هذا فموقفهم يوم القيامة هو التالي ؛ يقول الذين أعرضوا عن اعتقاد ما جاء به وتركوا العمل به :نعترف الآن أن ما جاء به رسل الله حق. ثم يبحثون عن مخلص، يتوهمون أن يجدوا من يشفع لهم عن تجاوزاتهم، ولا شفيع. ويتمنون أن يعودوا إلى الحياة الدنيا ليغيروا عقائدهم وأعمالهم.

يعلن الباري حكمه: خسروا أنفسهم ولن يجدوا شيئا من أوهامهم التي تعلقوا بها في الدنيا يمكن أن ينفعهم.

بيان المعنى العام :

50- ونادى أصحاب....على الكافرين.

المشهد السادس : حوار بين أهل الجنة وأهل النار مضمون هذا الحوار: أن أهل النار وقد حرموا من كل خير تحرقهم نار جهنم فيجدون آلام الاحتراق دون أن يقضى عليهم، ويحسون بالظمأ كأشد ما يكون الإحساس، وتلهب بواطنهم من حر جهنم، ويحسون بالجوع ؛ فيحملهم ما هم عليه أن يناشدوا أصحاب الجنة ليتفضلوا عليهم بفيض من الماء ومن القوت، هم لا يطلبون بلالا لريقهم بل حاجتهم إلى الماء الكثير(**فيض غزير**) جلودهم تتلهف للماء ليطفئ اللهب، وحناجرهم جفت ولم تَرْوَ منذ أُدخِلوا النار. والجوع على أشده وأقساه. وهم يظنون أن أهل الجنة لما كانت الأنهار تجري من تحتهم وعطاء الجنة وثمارها مما لا ينفد، فبناء على ذلك لا يثقل عليهم ولا يحرجهم ولا ينقص شيئا مما يتمتعون به إسعافهم، فهم آملون في استجابة طلبهم.

يجيبهم أهل الجنة بجواب قاطع لآمالهم مخيب لتوقعاتهم: إن الله حرمهما منعهما على الكافرين، ثم يعرفونهم بعدل الله فيهم. ذلك أنهم عوض أن يأخذوا الدين الذي يعتقده الناس ويصلحون به حياتهم بجد، حولوه إلى لهو ولعب، وقد قدمنا في تفسير الآية 70 من سورة الأنعام تفصيل ما يدل عليه ذلك. وأنهم اغتروا بما حصلوه في الحياة الدنيا فظنوا أنها النهاية فلا نعيم بعد ذلك ولا عذاب.

51-52: فاليوم ننساهم...يؤمنون.

المشهد السابع: أيد الله كلام أهل الجنة فحصل في مدارك أهل النار الحقيقة التالية واردة من عند الله: إن جزاءهم هو الجزاء العدل، لما كان موقفهم من الآيات التي أنزلتها والهداية التي بلغها رسلي موقف من لم يأبه بها، أهملوها كما يترك الإنسان الشيء الذي لا يهمه؛ فالجزاء من جنس العمل. يُتْركون: حالتهم حالة المنسي المهمل الذي لا يمر على بال. ويضيف لتقريعهم وإظهار النكال بهم التذكير بإعراضهم عن التأمل في القرآن الذي جاءهم من عندنا، القرآن الذي بيناه بيانا تاما، الصادر عن علمنا العلم الكامل الذي لا يأتيه ما ينقضه أو يضيف إليه، الذي لا يحتمل الخطأ ولا التغير، مضامينه مساعدة البشر على متابعة الطريق الموصل للسعادة في الدارين، من الذي علم ضعفهم وقدراتهم المحدودة فلم يكلفهم ما يشق عليهم، وعلم قصورهم عن ولوج الغيب فرحمهم بما فتحه عليهم من علم أحوال الآخرة، ولطّف من غرائزهم، وأعطاهم الميزان في شؤون الحياة جميعها. فهو رحمة عامة شاملة، في مضامينه، وفي نصه.

53-هل ينظرون إلا تأويله...كانوا يفترون.

يتلو تلكم المشاهد إيقاظ المعاندين الصادين، فيسألهم سؤال إنكار لبطئهم عن الاستجابة للقرآن إيمانا وعملا به، يقول لهم الحق تعالى : أي عذر لهم في التأخر عن الإيمان بذلكم الكتاب؟ إن دلائل صدقه من نفسه في نصه ومحتواه، فهل يترقبون للإيمان به تحقق ما أخبر به عن يوم القيامة والجزاء؟ إنه يوم يتحقق ما أوعدهم به وما فصلّه عن مآلهم، في ذلك اليوم يقول الذين أعرضوا عنه وتركوه وراءهم وأقبلوا على الحياة الدنيا كحال الناسي لما أمر به، يقولون في حسرة، وقد برز للعيان ما كانوا يكذبون به: تيقنا الآن أن كل ما أخبرنا به الرسل هو حق صدق. ثم يعودون لأنفسهم بحثا عن مخلص مما هم فيه، وما يجري في عقولهم هو نظير ما كان يجري فيها يوم كانوا في الدنيا، أنهم كلما وقعوا في ورطة يبحثون عن الشفعاء الذين يتوسلون بهم لانتشالهم من المضيق الذي أحسوا بانحصارهم فيه. هل لنا من شفعاء ؟ أو هل نعود إلى الدنيا فنتحول عن طريقتنا التي كنا عليها فنحسن الاعتقاد والعمل مقلعين عما كنا نعتقده ونعمله ؟

ويعلن الحكم العدل فيهم : فلا يخاطبهم ولكن يصدر الحكم البات : لقد خسروا ذواتهم كلها لا بعض المتعلقات، إن الخسارة التي كانوا يخشونها : أن يذهب ما جمعوه كلا أو بعضا، أما الخسارة المسلطة عليهم يوم القيامة فهي خسارتهم ذواتهم، ولم يجدوا أي أثر لما كانوا يتصورونه من نجاتهم، فكانت خيالات كاذبة.

إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَـٰهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ ٱلْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۚ كَذَٰلِكَ نُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا ۚ كَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

ربكم : أصله في اللغة المصلح، وهو الله مع الإشارة لعنايته بإصلاح البشر.

يغشي: يغطي.

حثيث : سريع.

تبارك الله : ظهرت بركته، ظهر علوه. والبركة قوة الخير.

ادعوا : اطلبوا من ربكم ما تريدون أن يحققه لكم.

تضرعا: بخشوع واستكانة، جهرا.

يرسل: يبعثها فتهب.

نشرا : جمع نشور كرسل ورسول، وهي الريح الحية الطيبة.

بين يدي رحمته : سابقة للمطر.

أقلت : حملت.

ثقالا: مملوءة بالرطوبة

ميت : لا نبات يعلو أرضه.

البلد الطيب : الأرض التي تجمع فيها العناصر الميسرة للإنبات والتغذية.

إذن ربه : عناية به بتقدير سلامته من الآفات وما يعاكس تطوره.

النكد : غير الصالح.

تصرف الآيات : تنوعها.

بيان المعنى الإجمالي :

من أهم ما توجهت إليه عناية القرآن توضيح العقيدة توضيحا ينفي كل تصور مضلل. فاعلموا أن ربكم الذي دعيتم لعبادته وتصديق رسوله محمد ﷺ ، هو الله الذي خلق السماوات والأرض خلقا متدرجا في ستة أيام لا يعرف إلا الله حقيقة هذه الأيام والآماد التي تدل عليها. وليست هي أيام الأسبوع التي ما حدثت إلا بعد خلق السماوات والأرض وانتظام السير العام للكون. ثم استوى على العرش وهو مخلوق أعظم من السماوات والأرض لا يعلم كنهه إلا الله ؛ فهو كالأيام، من المغيبات التي أمرنا بالإيمان بها كما وردت في كتاب ربنا ولا نتجاوز ذلك إلى تصويرها بمقاييسنا الدنيوية. ثم إنه أجرى أمر الكون بتدبيره، فمن ذلك جعله سبحانه الليل والنهار، يسرع كل واحد منهما إلى تغطية الآخر ثم ينسلخ المغطى ويغطي الآخر. وهكذا في دورة منتظمة أحكمها الخلاق العظيم.

والشمس والقمر وسائر الكواكب، كلها خاضعة لحكمه يجريها حسب تقديره المحكم. انتبهوا فربكم له وحده الخلق وله وحده التدبير بعد الخلق، يُسيّر المخلوقات حسبما قدره لها إلى آجالها. وإذ تبين لكم أن ربكم هو المتصرف وحده في كل كبيرة وصغيرة في الكون فإذا اهتديتم إلى طلب العون والدعاء، فادعوا ربكم جهرا وسرا، والزموا في دعائكم الحدود التي سمح لكم بطلبها فلا تطلبوا محرما ولا محالا ولا ما ينافي الأدب. إن المتجاوزين لحدوده لا يحبهم فلا يستجيب لهم، وقد خلق لكم ربكم الأرض صالحة لتكون حياتكم فيها ميسورة، ووفر لكم فيها ما يمكنكم من الانتفاع بها وتطوير ذخائرها، فلا تفسدوا النظام الذي بنيت عليه الأرض لتتمكنوا من تحقيق ما أوكل إليكم من مهمة الاستخلاف الصالح فيها. وادعوا ربكم ليساعدكم مستشعرين الحاجة لعونه وأنتم بين الخوف بسبب ما فرط منكم، والرجاء في فضله وكريم عونه، وأحسنوا فإن المحسنين في عبادتهم وفي أعمالهم وفي تعمير الأرض، يفوزون بأن رحمة الله تسعفهم عن قرب ولا تخطئهم وذلك بتحقيق المدعو به أو الثواب أو كليهما. ومن رحمته سبحانه وقدرته وتنظيمه للكون، أنه يرسل الرياح في الاتجاه الذي يأتي الخصب بعده، فتكون مقدمة لنزول الغيث، وتجمع السحب وتمر بها على المراكز التي تشحنها بالرطوبة، فيسوقها بتقديره إلى البلد الذي كان قاحلا أجرد لا نبات فيه، فينزل الله من السحاب الماء الذي يحيى به البلد فيخرج به متنوع الثمار وتسري الحياة في كل جزء منه.

وانتبهوا ! فكما أحيى سبحانه الأرض بعد موتها فكذلك سوف يبعث البشر من قبورهم فيحيون بعد الموت.

والبلد الطيب تربته المحتوية على عناصر التغذية كاملة، يخرج ربه نباته بعنايته فيؤتي الثمرات الطيبة. والبلد الفاقد لمقومات النمو لا يخرج إلا نباتا خبيثا كالسباخ. وكذلك تكون آثار ما أنزله الله من الهدى يتلقاه من طابت دواخلهم بالقبول والاعتقاد والعمل فيسعدون به في حياتهم الدنيا والآخرة، ويتلقاه الكافرون بالرفض والعناد فلا ينتفعون منه بشيء بل يندفعون إلى مناوأته ومعاكسته فيتعمق ما هم عليهم من ضلال وتسوء آثارهم.

بيان المعنى العام :

عني هذا المقطع بإجراء صفات الكمال على الله، وما انفرد به من التقدير والإنجاز الذي لا يمكن أن يدعي أحد المشاركة فيه، وأنه قريب من الداعين يستجيب لهم، وأن تصرفه بالخلق المتجدد في الكون يقوم دليلا على البعث، وفي كل ما يحدثه ما يدعو الإنسان لشكره على نعمه. أكد الله الحقيقة التي ينبني عليها استقامة الفكر البشري، هذه الحقيقة هي أن الله هو المتصف وحده بالربوبية، فهو ربنا بما تشير إليه لفظة الرب من العناية الموصولة التي شملت الإنسان في ذاته وفي موقعه من هذا الكون. فما كان للإنسان أن يتصرف ويحيى فيه لولا العناية الإلهية في ربطه به ربطا يتلاءم مع تركيبه الجسمي والعقلي. هذا الكون المشاهد تولى هو وحده خلقه بما يحويه من السماوات والأرض.

54-إن ربكم...رب العالمين.

يعلمنا سبحانه أنه خلق السموات والأرض خلقا متدرجا حصل في ستة أيام، ولم يحصل دفعة واحدة، مع أنه القادر على ذلك. ولكن حكمة هذا التدرج في الخلق لم يفتح لنا باب الوصول إليها، وإن كنا نجزم أن ذلك ما كان على ذلكم النحو إلا لحكمة. والأيام الستة من الحقائق التي وردت في كتب الله التي أوحى بها لرسله. والحق أنها تقدير لا نعلم كنهه، وأنها ليست أيام الأسبوع المقدرة بطلوع الشمس وغروبها ثم طلوعها من جديد. ولكن اليهود جعلوا الخلق ابتدأ يوم الأحد وانتهى يوم الجمعة وأن يوم السبت يوم راحة. وهذا من خيالاتهم الباطلة لأن التقدير بأيام الأسبوع لا يصح إلا بعد خلق السموات والأرض وتحريك الأرض حركة دائرية حول نفسها، فجعل وقت الخلق أيام الأسبوع التي لا يمكن أن تظهر إلا بعد خلق السماوات والأرض تأويل فاسد وغير صحيح، وإن كان بعض المفسرين تأثر به.

وتثبت الآية : **ثم استوى على العـرش.** وهـذه الكلمـات الـثلاث جـدير بنـا أن نرفـع عنها ما يمكن أن يصوره الخيال عند سماعها دون يقظة عقلية.

ثم : تدل على التراخي؛ أي إن ما عطـف بهـا حصـل بعـد المعطـوف بهـا متراخيـا بزمن وليس إثره مباشرة. فإذا قلت: جاء محمـد ثـم صـالح، أفـاد الكـلام أن الفاصـل بين زمني مجيئهما ملحوظ واضح. وإذا قلت جاء محمـد فصـالح، مدلولـه قـدوم صـالح بعده بدون فارق زمني يُلْحظ. ولا يعقل أن يكون الزمـان مـن متعلقـات الـذات الإلهيـة لأن مبنى الزمن على التغيـر، وتعـالى الله عـن ذلـك علـوا كبيـرا. فتعـين أن يكـون التراخي هاهنا في الرتبة تراخيا معنويا؛ أي إن رتبة اسـتوائه علـى العـرش هـي فـوق رتبة خلقه للسماوات والأرض. كما تقول محمد تلميـذ مجتهـد، ثـم إنـه هـو الأول فـي فصله. فتصوركم لخلـق السـماوات والأرض علـى عظمتهـا، اسـتواؤه علـى العـرش أعظم.

استوى " أصل معناه الاعتدال، ثم تـم التصـرف فـي هـذا اللفـظ فأصـبح يـدل علـى الاعتلاء وما يتصل به معنويا. وإذ أسند الاسـتواء إلـى الـذات العليـة تعـين أن يكـون المراد منه ليس ماديا، ولا يمكن للعقل أن يحـدده، وقـد سـأل رجـل مالكـا رضـي الله عنه فقال : الرحمن على العرش استوى كيف اسـتوى يـا أبـا عبـد الله ؟ فسـكت مالـك مليا حتى علاه الرحضاء(عرق كثير يغسل الجلد) ثـم سُـرِّي عنـه فقـال : الاسـتواء معلوم والكيف غير معقول والسؤال عنـه بدعـة والإيمـان بـه واجـب، وإنـي لأظنـك ضالا، أخرجوه عني. فكل ما يتعلق بالـذات الإلهيـة ممـا أخبرنـا عنـه القـرآن نجـزم بصدقه وأنه حق، وكل تكييف لمفاده حسـب التصـور العقلـي البشـري المنتـزع مـن مشاهد الحياة ضلال، ومخالف للحقيقة.

العرش :العرش ينسب إلى أصحاب السلطان على أنـه الكرسـي المرتفـع الـذي يجلـس عليه الملك، وهو مفهوم مادي محـدد مهمـا أضـيف إليـه مـن فـن وفخامـة. وعـرش الرحمن كائن أوسع وأعظم من السماوات والأرض، نـؤمن بـه لإخبـار القـرآن بـه ولا نكيفه كما قلنا في الاستواء. فيكـون القـرآن قـد حقـق أن مـا أنجزتـه القـدرة الإلهيـة السـماوات والأرض، وأبعادهـا تقـدر بالسـنوات الضـوئية، ولا يعلـم مقاديرهـا ولا حدودها ولا تفاصيل المواد المركبـة منهـا إلا الله سـبحانه. وأنـه خلـق العـرش وهـو مخلوق أعظم من السماوات والأرض، واستوى عليـه بـدون مماسـة ولا علـو مكـاني. والله أعلم بمراده من هذه الحقيقة التـي تهـز الإنسـان المـؤمن هـزا، ليـدرك قيمـته الحق في هذا الوجود ؛ فلولا أن الله أكرمـه بالعقـل وبهدايـة رسـله لكـان شـيئا تافهـا

ضئيلا جدا بالنسبة لعظمة ما أبدعــه الخـــالق ســبحانه. والفاعـــل هــو الله ربكـــم. وهـــو المؤثر في تغيرات الكون هو الذي جعل كلا من الليـــل والنهـــار يطلـــب أحـــدهما الآخـــر طلبا سريعا مجدا في طلبه، ليحل مكانه ويذهبه. وهـــو ســـبحانه المتصـــرف فـــي الشـــمس والقمر والنجوم خلقها أولا، ثم نظم تحولاتهـــا بنظـــام دقيـــق لا تخـــرج عنـــه ولا يختـــل، مع أن عظم أجرامها مما لا يمكن لغيره أن يخضعه لما يريـــده لهـــا مـــن نظـــام. ونـــذكر بالساعة الضابطة للوقت، فجودتها وإتقان صـــنعها، هـــو بموافقـــة ســـيرها للحركـــة التـــي نظم عليها سبحانه سير الكواكب. وهذه الموافقـــة لا تَثْبُـــتُ إلا لمـــدة محـــدودة ثـــم تختـــل وتضطرب وتبعد عن الدقة. والشمس والقمر والكواكـــب تســـير فـــي نظـــام منـــذ خلقهـــا الله. كل ذلك من تقدير الله ربكم.

الله ربكم هو المتصرف وحده لا شـــريك لـــه فـــي خلـــق الكـــون جليلـــه وحقيـــره، وهـــو وحده المسخر لها، لتجري على النظام الذي قـــدره لهـــا فـــي تناســـق مـــع بقيـــة أجـــزاء الكون. ألا له الخلق والأمر. فالله وحده هو الخـــالق والمـــنظم. وقـــد جـــرى علـــى ألســـنة كثير من الناس التعبير بالفكر الخلاق، والنظـــام الخـــلاق، ونحـــو هـــذه التعبيـــرات التـــي ألقاها الشيطان في لهوات البشر دون أن يتفطنـــوا لمـــا فيهـــا مـــن تجـــن وعـــدم صـــدق فعلى المؤمنين أن يتفطنوا ويقلعوا عنها لما فيها من ادعاء كاذب.

وإذ تم عرض التصور الذي ينبغي أن يستقر في قلـــوب المـــؤمنين، مـــن انفـــراده بـــالخلق والتصرف المحكم في الكون، في دقة بالغـــة حـــد الكمـــال، وفـــي نظـــام يجـــري بـــدون اختلال، شمل السماوات والأرض والكواكـــب والليـــل والنهـــار والشـــمس والقمـــر، فـــإن كل ذلك مما يملأ النفس إيمانـــا وإعجابـــا وتقديســـا لله الخـــلاق العلـــيم، فوقـــع التصـــريح بهذا المعنى في قوله تعالى : تبارك الله رب العالمين – كثـــرت خيراتـــه فكـــل جـــزء مـــن أجزاء العالمين شملته رعايته وحسن تقديره ولسانُ حاله شـــاهد. ومـــا كـــان ليكـــون علـــى النحو الذي هو عليه لو لم يكن مربوبا له.

55-56: ادعوا ربكم تضرعا...المحسنين.

استقر فعلا في نفوس المؤمنين الاقتناع برعايـــة الله وفضـــله وبأنـــه ربهـــم الحـــق، ممـــا أكد ارتباط المؤمن به عندما يستحضر كل ما حولـــه فـــي الكـــون وعنايتـــه بـــه. فناســـب أن يذكره بأن يتوجه إليه بالدعاء ليحقق له ما تكون بـــه حياتـــه أفضـــل وأحســـن، ويبعـــد عنه الأكدار. ومن أدب الدعاء أن يكون معبرا عما يجـــب أن يكـــون فـــي نفـــس الـــداعي من شعور بالحاجة وعجز عن تحقيق ما يبغيه، وأن ربه هـــو وحـــده الـــذي بيـــده الخلـــق والأمر، وأنه رحيم قادر لا يعجزه شـــيء. يـــدعو جهـــرا أو ســـرا فقـــد دعـــا النبـــي ﷺ

وجهر، ودعا خفية وأسر، كما أذنت بـه الآيـة. ومـن أدب الـدعاء أن لا يتجـاوز فـي دعائه ما أذن فيه الشرع، فلا يدعو بمـا ينـافي الأدب، ولا بمحـال ولا بمعصـية ؛ فـإن الله لا يحب المعتدين في الـدعاء وفـي غيـره. ونفـي الحب عـن الله مـؤداه أنـه لا يساعدهم ولا ييسر لهم أمورهم ولا يستجيب لما طلبوه منه.

قرن القرآن بين آداب الدعاء، وبين أمـر آخـر يسـاعد علـى قبـول الـدعاء، وهـو أن يكون عمل الإنسان في الأرض التي اسـتخلف فيهـا، عمـلا ينمـي مـا أودعـه الله فـي الأرض من خيرات، ويؤثر فيها تـأثيرا يحـول ظاهرهـا وباطنهـا إلـى منـابع عطـاء متواصل بتواصل حياة الإنسان على سطحها. لعـل مـن أول مـا يفسـد العمـران الظلـم والاستبداد، والشرك ظلم عظيم. نهت الآية الإنسـان عـن الإفسـاد بطريقـة تجعـل مـن يتأملها يستحيي من فعله الضـار بمكوناتهـا؛ فقـد حقـق القـرآن أن الله أصـلح الأرض لما خلقها. صلاحها بمكوناتها وصلاحها بموقعها في الكـون، وصـلاحها بمـا تتـأثر بـه من أشعة تنفذ إليها، وصلاحها بالماء الذي ينزل عليها، إلـى آخـر مـا نظمـه سـبحانه ؛ فقبيح بالإنسان الذي ترتبط حياتـه وحيـاة الجـنس البشـري فـي الحاضـر والمسـتقبل بهـذه الأرض التـي أصـلحها الله، قبـيح بـه أن يفسـدها ويعطـل عطاءهـا. وطغيـان المذاهب المادية في عصرنا هذا قد أخل بـالتوازن الـذي بنـى الله عليـه الأرض، أخـل به إخلالا يعرض الأرض ومن عليها إلى حياة الضنك إن لـم نقـل الـزوال. ويبـدو لـي أن في اقتـران الإذن بالـدعاء بـالنهي عـن الإفسـاد فـي الأرض حكمـة بالغـة، إذ أن الدعاء يكون إما بتوفير محبـوب أو بـدفع مكـروه، والإفسـاد فـي الأرض عمـل علـى رفع للمحبوب، وتثبيت للمكروه، فكيف يدعو بمـا يعمـل هـو علـى نقضـه ! وواصـل القرآن بعد أن أدمـج هـذه التوصـية التـي تتعلـق بالـدعاء، وتشـمل سـلوك الإنسـان وتعامله مع الأرض، واصل إرشاد المؤمنين إلى مـا علـيهم مراعاتـه فـي الـدعاء مـع التضرع الجهير في أدب، أو الخفية في ابتهـال خاشـع، والوقـوف عنـد الحـدود التـي يرضاها الله وعدم الاعتداء، والتزام السـلوك الـذي يصـلح الأرض ولا يفسـدها، علـيهم أن يعمر قلوبهم ومشاعرهم الخـوف والطمـع. إن الخـوف مدرجـة للكمـال ولمحاسـبة النفس، وللنقد الذاتي. ذلـك أن العبـد الخـائف فـي علاقتـه بربـه يعتبـر نفسـه دومـا مقصرا، لا يدري ما يبلغ به تقصيره وما يتطور إليـه، فـإذا حـل الخـوف قلبـه فمعنـى ذلك أن شعوره بالخطأ شعور حاد، وأن نفسه تشمئز مـن صـورة الـنقص التـي ظهـر عليها أمام الله الذي لا تخفاه خافية وأن حـوافز تنقيـة ذاتـه أخـذت فـي العمـل، وأول نتائجه الاحتياط في المستقبل.

إن التوازن الذي يربي عليه الإسلام المؤمنين يجعلهم لا يميلـون إلـى جهـة واحـدة كمـا بسطناه في تفسير قوله تعـالى: (**وكـذلك جعلنـاكم أمـة وسـطا**) فـالخوف إذا اسـتولى على النفس كان مرضا؛ ولذا قرنـه القـرآن بـالطمع فـي رحمـة الله وعفـوه وكرمـه، فيكون الخوف والرجاء كما عبر به بعضـهم كالجنـاحين للطـائر يحملانـه فـي طريـق استقامة، فلا يستبد به الخوف ليرميه فـي مهلكـة اليـأس، ولا يسـتبد بـه الطمـع حتـى يُدِل بما عمله مع أنه غير موقن بأنه بلغ درجة القبـول. وفـي الحقيقـة فـإن الإنسـان لا يدعو ربه وهو واع بمعنـى الـدعاء إلا إذا كـان خائفـا أن يـرد دعـاءه، وآمـلا فـي قبوله. ثم تستحث الآية المؤمنين أن يتساموا إلـى مرتبـة أعلـى مـن أداء الواجـب إلـى مرتبة الإحسـان. والإحسـان يتكيـف بحسـب موضـوعه، يكـون فـي العبـادة بعمـق استحضار العابد للمعبود، ويكون في العمل بتجويد العامل مـا يؤديـه مـن عمـل بحيـث ينتقل في ذلك من مرتبة إلى مرتبة أسمى في الإتقـان، ويـتم بلـوغ ذلـك باستحضـار أن المولى مطلع على ما يقوم به مع رغبة فـي أن ينـال رضـاه. ويبشـر المـؤمنين الـذين يحسنون أعمالهم، ومنها الدعاء، بـأن بـاب الرحمـة الإلهيـة قريـب مـنهم، كأنـه تـتم الاستجابة بفور الدعاء ثوابا أو تحقيقا. وفي اختصـاص القـرب بالمحسـنين مـا يفيـد أن غير المحسنين لا يطمعون فـي رحمتـه، والمشـركون أولـى مـن يتحقـق فـيهم عـدم الإحسان.

57-58: وهو الذي يرسل الرياح...يشكرون.

والله ربكم هو وحده الـذي أقـام ورتـب نـاموس التفاعـل بـين الأرض والسـماء فـي إخراج النبات، ونماء الشجر وبروز الثمر. يعرض قانونـه العـام فيكشـف أنـه سـبحانه يبعث الرياح فتهب موزونة، تنتشـر فـي الآفـاق التـي تعلقـت الإرادة الإلهيـة بالتـأثير فيها، وتتقدم سابقة للرحمة الأمطـار التـي كتـب أن تـروي الأرض والبشـر والحيـوان. حتى إذا حملت تلك الرياح سحبا ثقيلة بما تعلق بها مـن رطوبـة، وهـي تتهـادى تـزداد ثقلا، تسيرها تلك الرياح بقدَرٍ خاص تسوقها كمـا يسـوق الفـارس فرسـه. لا ينصـرف السحاب بمائه حيث شاء، بل كل حركة مضبوطة مقدما فـي سـيره ذاك، فقـد قـدر لهـا ربكم غايتها في المساحات من الأرض التي أراد أن تُنْـزِل بهـا ماءهـا، الـذي لا ينـزل إلا عندما يأذن له، وبعد زمن غير طويل تبدأ حركة أخـرى تتفاعـل فيهـا الجـذور مـع الماء والأرض، حركة خفية عن الأنظـار فـي كـل لحظـة وبـدايات تتبعهـا تطـورات متلاحقة منتظمة، فـإذا هـي الأغصـان مثقلـة بالثمـار المتنوعـة الأحجـام والأشـكال والمذاق. الماء واحد والأرض واحدة ولكل ثمـر وقـت قطافـه وخصائصـه فـي تقـدير

عجيب هو من صنع ربكم. ومع نقلة سريعة مـن هـذه المظـاهر الكونيـة يلفـت العقـول البشرية مقربا لها ما خفي علـى كثيـر مـن النـاس مـن أمـر البعـث، فكمـا تحولـت الأرض الجرداء الميتة التي لا حياة فيها إلى صـورة مـن النمـو البـالغ غايتـه ومـداه، كذلك يتم بعث الناس من قبورهم بعد الموت.

فيما بسطه القرآن من رياح تتحـرك إلـى أرض ميتـة تسـقيها السـحب فتحولهـا إلـى حركة نماء وخروج ما كان كامنا، في ذلكـم مـا يعـين الإنسـان علـى التـذكر والتـدبر وقبول حقيقة البعث على أنها قريبة معقولـة. ثـم واصـل القـرآن عـرض توابـع هـذه الصورة العجيبة في السحب المسيَّرة حسـب التقـدير المحكـم، أنهـا وإن كـان مُسَـيِّرُهَا واحدا هو ربكم، والماء الذي تحمله ماء طيب كـريم حملتـه نقيـا، بعضـها ينـزل مـاؤه على أراض طيبة، توفر فيهـا جميـع عناصـر الإنبـات، ثـم إمـداد الأشـجار والنبـات بمختلف ما يحتاجه كل نوع من الحاجات للنمـو والإزهـار والإثمـار، وتتطـور مرعيـة بإذن ربها في كل طور من الأطوار، فتبرز الثمار نقية صالحة تنفع الأحياء.

إن ذلك نظير ما أنزلـه الله مـن الهـدى علـى لسـان رسـله، تلقـاه أصـحاب الأرواح الطاهرة فانتفعوا به وأثمر صلاحا فـي حيـاتهم وحسـن اتصـال بـربهم وطهـارةً فـي سلوكهم. ونفـس الأمطـار تصـيب أراض سـبخة سـيئة عجفـاء لا تنبـت إلا النبـات الخبيث الذي لا ينتفع به الإنسان ولا الحيـوان. وكـذلك وضـع مـن أصـم أذنيـه عـن وحي الله وأعمى بصره عن النظر في آياته فـلا يترتـب علـى الـوحي إلا قسـاوة فـي قلبه، ومضاعفة عناد.

وعلى هذا النحو ننوع الآيـات، التـي تنفـذ أنوارهـا إلـى العقـول فتـتفطن للحقـائق، وينتفع بها الذين يدركون قدرها فتنطلق ألسـنتهم وقلـوبهم بشـكر ربهـم علـى مـا بينـه وأحكمه، وتزيد الكافرين ضلالا.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ
عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾
قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى
وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ
عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ
مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الملأ: أشراف القوم وقادة الرأي فيه.

ضلال مبين : سرت في طريق خاطئ لا شك فيه.

عمين : جمع عَم، فاقد البصر، يقصد به من فقد الرأي.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله نوحا إلى قومه فقال لهم مرشدا لهـم عطوفـا بهـم: يـا قـومي اعبـدوا الله ولا تعبدوا غيره ولا تشركوا به أحـدا إنـه لا إلـه إلا هـو، وكـل مـا عـداه لا يسـتحق أن يعبد،

إني أشفق عليكم وأخاف أن تعذبوا عـذابا عظيمـا إذا واصـلتم مـا أنـتم عليـه. أجابـه أكابر القوم وقادة الرأي فيهم: إنك يـانوح مغـرق فـي الضـلال. تلطـف بهـم وزادهـم بيانا ليقنعهم، فذكر: أنه بعيد عن الضلالة، وكيف يكون ضـالا وهـو مؤيـد برسـالة مـن رب الأكوان كلها، الذي أوكل إليَّ أن أبلغكم كـل مـا يـأتيني مـن وحيـه، وأن أعـاملكم معاملة النصوح الراغب في خيركم، وما أخبركم به إنما تلقيتـه مـن ربـي الـذي علمنـي ما لا تعلمونه، إذ حياتكم سائرة على التقليد لا على النظر. يـا قـومي مـا الـذي جعلكـم تعجبون فترفضون ما جئتكم به ؟ تأملوا فـإن مـا دعـوتكم إليـه هـو ذكـر مـن ربكـم يحرك عقولكم وضمائركم، جاءكم به رجل منكم تعرفـون صـدقه ولـيس غريبـا عـنكم. يحقق هذا الذكر ثلاثة أشياء:

أ- يحذركم سوء العاقبة التي ستحل بكم إن لم تتبعوه

ب- أن تتحلى قلوبكم بتقوى الله التي تفتح بصائركم.

جـ أن تشملكم رحمته في الحاضر والمصير إذا أنتم استجبتم.

ما كان منهم بعد هـذا البيـان المقنـع اللـين إلا أن أجمـع كبـراؤهم ودهمـاؤهم علـى تكذيبه. فتحققت العاقبة التي كان أنذرهم بها : سجل القـرآن أولا نجـاة نـوح ومـن آمـن به، وتنفيذ حكمه في المكذبين فأغرقهم، أوقعوا أنفسهم فـي النكـال لأنهـم أقفلـوا عقـولهم فأعرضوا إعراضا كاملا، شأنهم شأن العمي الذين لا يبصـرون فهـم إلـى العطـب فـي مسارهم أقرب.

بيان المعنى العام :

تبين لنا في الآية السابقة ما ترمز إليـه مـن انتفـاع المـؤمنين بـالوحي المنـزل إلـيهم، فيصدر عنهم كل خير، وبالعكس تكون حالة الكـافرين الرافضـين. فـأتبع القـرآن ذلـك بما قصه علينا مـن أنمـاط المجتمعـات البشـرية السـابقة، ومـا جـاءهم مـن الهـدى

ومواقفهم منه، وعاقبة أمرهم ؛ لينتظم من ذلك ما يـدعو المـؤمنين لمزيـد مـن التمسـك بما جاءهم من الهدى، ويكون موقظا للكافرين إلـى أن مـا بثـه الشـيطان فـي عقـولهم هو على نفس الطريقة التي أضل بها السـابقين. فليحـذروا مكـره وليسـارعوا بالـدخول في دين الله.

59 ←64: لقد أرسلنا نوحا إلى قومه...قوما عمين.

القصة الأولى التي عرضها هي قصة نوح مـع قومـه. وهـو أول رسـول إلـى الأرض. كما يشير إليه قوله في سورة النساء: **(إنا أوحينا إليك كمـا أوحينـا إلـى نـوح والنبيـين من بعده)**[36] أحل الله في قلبـه الـوحي وأمـره بتبليغـه، فأسـرع إلـى القيـام بالمهمـة الموكلة إليه، خاطب المرسل إليهم بقوله: يا قوم اعبـدوا الله مـا لكـم مـن إلـه غيـره. إن تحليل هذا النص يفيدنا:

أ – أن القرآن لم يعن ببيان من هم المرسل إلـيهم؛ إذ مـا عـرفهم إلا بـأنهم قومـه. فمـا ضبط منازلهم من القارات، ولا جنسهم الجامع لهم.

ب – أن أول ما عني به هو أن يعبـدوا لله وأن لا يعبـدوا غيـره ممـا تقيمـه الأوهـام على أنه حقيق بالتقرب إليه، وأن لا يشركوا به أحدا فيخلصـون لـه وحـده فـي العبـادة. ومضمون ذلك الاعتراف بأنه هو الخالق وحده.

جـ – أنذرهم بعد ذلك العذاب الذي أعلـم الله أنـه سيسـلطه علـى الرافضـين للـدعوة، وأنهم إن لم يفردوا الله بالعبادة فلا منجاة لهم مـن عـذاب يـوم عظـيم. ووصـف اليـوم بأنه عظيم ولم يفصل، لتسرح النفس في تصوره كل مذهب.

د – أن نوحا ﷺ لانَ لهم وخاطبهم خطـاب المتـودد المشـفق علـيهم، فنسـبهم لنفسـه باعتبار أنهم يمثلون عنده جزءا منه: يا قومي، وأنـه يحـبهم ويخـاف علـيهم أن يلحقهـم العذاب: إني أخاف عليكم.

هـ – أجابه أكابر القوم المتولين زمام القيادة عمـا عرضـه علـيهم قـائلين: إننـا نعتقـد اعتقادا جازما أنك غارق في الضلالة البينة. فهو رفض تـام لكـل مـا قالـه. ممـا يـدل على أنهم يرفضون توحيد الله ويرفضون أنه مرسل، ويرفضون البعث.

و– أجابهم في هدوء الكُمّل من البشر : يا قـومي أنـا أبعـد مـا يكـون عـن الضـلال، طريقي واضح، ما أدعوكم إليه يتلخص فـي أنـي رسـول مـن رب الكـون كلـه، أنـا مكلف بتبليغكم ما أوحَى إلي ربي، وكلما تجدد الـوحي أقـوم بتبيينـه وتوضـيحه وهـو

---

[36] سورة النساء آية 163

معنى رسالات أي كلما تجدد وحي أبلغه، وأسعى جهدي لتقريبكم من المنهج الذي تكون به حياتكم أسلم في الحال والمآل ،فأنصحكم بتوجيهكم إلى الخير وكشف ما يمكن أن يخفى عنكم مما يضر بكم. وجماع ذلك وسنده أن ربي علمني فأصبحت أوضح إدراكا وأعمق للكون ولمنزلة الإنسان فيه، ولِمَا يصل به إلى الفوز أو الخسران. وهذه أمور خفيت عنكم، فظننكم أنني مغرق في الضلال كان. نتيجة محدودية عِلْمِكم القاصر. ما الذي جعلكم تعجبون من أمري ؟ وبما أن العجب شعور باطني يحصل عند أمر مستغرب، أخذ نوح عليه السلام يتابع ما يمكن أنه أثر في نفوسهم واحدا واحدا.

أولا: أعجبتم من قيام رجل منكم تعرفونه، خبرتم أخلاقه وسلوكه، فلو كان من غير جنس البشر أو هتف بكم هاتف لم تتبينوا صاحبه، أو كان الرسول غريبا عنكم لم تعرفوا سلوكه وأخلاقه لربما كان لكم عذر في إنكار ما جاءكم به.

ثانيا: أن مهمته هي إبلاغكم ذكر من ربكم الذي تولاكم بعنايته فأحاطكم بألطافه حتى بلغتم ما بلغتم إليه، ينبهكم إلى ما يترصد كم من سوء إذا أعرضتم عنه، ولتحصل لكم وقاية من الشر ومن العذاب. مع رجاء أن تحل عليكم رحمته التي تكسبكم الطمأنينة وصلاح الأمر.

إنكم إذا حَلَّلتُم ما كان مثار عجب منكم تجدونه موجبا لسرعة الإقبال والابتهال به.

بعد هذا البيان الرفيق المبعد لكل شبهة، ما كان من قادة الرأي وأَتْبَاعِهِمْ من الدهماء إلا التمادي على ما هم عليه من عبادة الأوثان وتكذيب رسول الرحمن.

أيس نوح من اهتداء قومه بناء على ما أخبره به ربه كما سيأتينا في سورة هود. وتظهر العاقبة التي كان أنذرهم إياها. أن الله أنجى نوحا ومن آمن معه، وأغرق الكافرين به بسبب تكذيبهم. وذلك لأنهم كانوا قوما تمسكوا بالعناد والرفض الذي عطل عقولهم فأصبحت حالتهم كحالة الأعمى لا يدري إلى أن يتجه، ولا يحمي نفسه من العطب.

۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ

عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ
فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ
وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠)
قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا
أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ۚ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ
(٧١) فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۖ وَمَا
كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)

بيان معاني الألفاظ:

نراك : نعلم.

سفاهة : سخافة العقل.

بصطة : الكمال، والوفرة والسعة.

نذر: نترك.

رجس : عذاب، وقد يراد منه فساد وخبث

غضب: ما يترتب على الغضب عادة من إنزال العقوبة بالمغضوب عليه.

المجادلة : المحاجة.

أسماء : ما لا حقيقة له إلا في إطلاق الاسم عليه.

السلطان : الحجة.

بيان المعنى الإجمالي :

في موكب الرسل الذين سجلت سورة الأعراف قصصهم، تأتي قصة هود تالية لقصة نوح وعاد قوم هود خلفوا قوم نوح وتابعوا القيام بالدور الحضاري الذي عهد للجنس البشري أن يقوم به. ولكنهم انحرفوا انحرافا كبيرا واتخذوا آلهة من دون الله. بعث الله إليهم رجلا منهم هود عليه السلام، فأمرهم أن يفردوا الله بالعبادة فإنه لا إله إلا الله، وحرضهم أن يتقوا الله فيكون حاضرا في قلوبهم دائما. تقدم رؤساؤهم الذين تمكن الكفر من عقولهم فردوا عليه ردا وقحا قالوا: إنا نعتقد أنه قد خف عقلك إذ تأمرنا بترك آلهتنا، والراجح أنك غير صادق في دعواك أن الله أرسلك. تلطف معهم وواصل تبصيرهم قائلا : يا قومي إن عقلي سليم صحيح نافذ إلى الصواب،

وإني رسول حق من رب الكون كله، كلفت بمهمة منـه علـي أن أبلغكم كـل مـا يـرد عليَّ من وحيه، ويهمنـي جـدا أن أنصـحكم حتـى لا تهلكـوا، ومـن خلقـي الأمانـة، والأمين لا يكون كاذبا. ما الذي جعلكـم تعجبـون فتكـذّبون ؟ هـل مثـار العجـب أن الله بلغكم بواسطتي ما يذكركم؟ فأنا رجـل مـنكم عرفتمـوني قبـل هـذا وتشـهدون بمقـامي الخلقي واستقامتي. ياقومي لا تغفلوا عن النعم التـي حبـاكم الله بهـا، فقـد مكـنكم مـن مواصلة عمران الكون بعد أن أهلـك المكـذبين مـن قـوم نـوح، ورزقكـم كمـالا فـي أجسامكم. يا قوم لا تغفلوا عن النعم التي خصكم الله بهـا، إن ذكـركم لـنعم ربكـم يفـتح باب الرجاء لنجاحكم.

بعد هذا البيان اللين المقنع المتودد لهـم ليسـرعوا إلـى لإيمـان، أجـابوه فـي صـلافة : هل جئتنا لنعبد الله ولا نعبد أي إلـه آخـر، ونتـرك مـا درج عليـه آباؤنـا الـذين هـم وحدهم قُدْوَتُنَا، فاعلم أنا نرفض ما جئتنا به، وإن كنت صـادقا فيمـا أنـذرتنا بـه فعجّـل به. وعند بلوغهم هذا الحد من العناد أعلمه ربـه بأنـه قـد تـم القضـاء، وأنـه سيسـلط عليهم جزما العذاب المقدر، وأن الله قد غضـب علـيهم فـلا يتوقعـون مـنهم رحمـة أو تأجيلا. ثم واجههم منكرا عليهم ما وصلوا إليه فقـال أتحتجـون علـي بأشـياء لا حقيقـة لها ولا تعدو أن تكون أسماء لموهومات ما جعل الله فيها حجة ولابرهانا.

وإذ قد بلغتم من العناد والكفر هـذا الحـد فترقبـوا العـذاب الـذي سـيحل بكـم، وإنـي مترقب حلوله عليكم. ووقع العذاب وأنجى الله هـودا والـذي آمنـوا معـه لمـا شـملتهم رحمته تعالى. وتم استئصال القوم المكذبين، فلم يبق لهـم أثـر مـن بعـدهم. ولـم يحلُـلْ الإيمان في قلوبهم.

بيان المعنى العام :

تتابع موكب المرسلين بعد نوح ﷺ، ويفصل القرآن مـا وقـع لهـم مـع أقـوامهم. وأول قصة هي قصة سيدنا هود ﷺ، الذي أثبت القرآن أنـه مـن قبيلـة عـاد، عُطفـت علـى قصة نوح وقد أوقفنا القرآن على الأمور الأساسية فيها.

65←69: وإلى عاد أخاهم هودا... تفلحون.

أرسل الله هودا إلى قبيلة عاد، وهـو واحـد مـن أفرادهـا، بمـا يفيـده معنـى الأخ مـن القرب النسبي. دعا قومه إلـى إفـراد الله بالعبـادة، حسـبما يوجبـه العقـل، لأن العبـادة بمعنى الطاعة والتقـرب لا تكـون إلا للإلـه، ولا إلـه إلا الله. وحـذرهم العقـاب الـذي سوف يحل بهم بسبب ما هم عليه مـن الشـرك، وأمـرهم أن يحصـنوا أنفسـهم بتقـوى الله التي بها يسلمون.

كان جواب رؤساء القوم المقدمين فيهم بعد أن دعـاهم إلـى عبـادة الله وحـده: إنـا علـى يقين من أنك مصاب بخفـة العقـل وضـعف التفكيـر، إذ تأمرنـا بتـرك عبـادة آلهتنـا. ودعواك أنك مرسل تضمك إلى صف الكاذبين الذين لا تروج علينا أباطيلهم.

رد هود على قومه بلطف قائلا: يـا قـومي ملكـاتي العقليـة سـليمة صـادقة منتظمـة، واختياري من رب الكائنات كلها، بتكليفي بتحمل مهمـة إبلاغكـم رسـالاته، التـي تأخـذ بعقولكم وأرواحكم إلى المنهج السوي الآمن.

إن تكليفي بشرف تلكم المهام ينادي بما تفضل الله به عَلَـيَّ مـن رجاحـة العقـل. وبنـاء على ذلك فإني باذل جهدي لأقدم لكم النصح الـذي يـؤمنكم فـي الحيـاة، وإنـي أمـين، والأمانة وصف يوجـب نظافـة صـاحبه فـي السـر والعلـن، ولا يتصـور أن تجتمـع الأمانة مع الكذب. هـل تملككـم العجـب بسـب مجـيء رجـل مـنكم تعرفونـه وقـد خبرتموه وهو يعيش بين أظهركم ؟أتعجبون لأني قـد جئـت لأنـذركم مـا سـيحيق بكـم من السوء إن لم تصدقوني وواصلتم حياتكم على النحو الـذي أنـتم عليـه ؟علـى معنـى أنكم لو كنـتم أصـحاب عقـول تنظـر فتهتـدي بنظرهـا لكـان مـا أنكرتمـوه موجبـا لإسراعكم بقبول ما جئتكم به.

تذكروا ما أنعم الله به عليكم وخصكم به من الفضـل، هلـك قـوم نـوح فيسـر لكـم أن كنتم أول أمة بعدهم تواصلون التقدم بالحضـارة البشـرية. وتـذكيرهم هـذا فيـه إشـارة إلى ما حاق بقوم نوح لما أشـركوا بـالله، وإنـذار إلـى أن مـآلهم سـيكون كمـآل مـن قبلهم. وذكرهم بنعمة ثانية أن الله أكمـل علـيكم نعمـه فجعـل أجسـامكم كاملـة، فكـان خلقهم تاما، قاماتهم طويلة، وقدراتهم الجسمية وافية، مميزين بذلك بين الناس.

70-قالوا أجئتنا...من الصادقين.

-بعد ذلكم التوضيح واللطف بهم في كشف ما خفي عـنهم وتقـديم شـواهد النصـح لهـم والحذر أن يحل بهم العذاب، وشأنه كشأن الرسل أنهـم يـودون لـو يبلغـوا إنقـاذ قـومهم من الفساد الفكري والعقدي وما يتبع ذلـك مـن تـأهلهم لنـزول العـذاب ؛ كـان جـواب قومه ما يأتي : قالوا منكرين ما أفاده خطابـه ﷺ : مـا بَذَلْتَـه مـن جهـد وقدمتَـه لنـا، مضمونه : أن نفرد الله بالعبادة ونطرح ما استمر عليه آباؤنـا مـن تقـديس آلهتنـا التـي بلغوا بها ما بلغوه من العزة والسيادة في الأرض.

إذا كان هذا هو ما تبغي أن تصل إليه وتنذرنا بعذاب إن لم نقلـع عـن عبـادة مـا يعبـد آباؤنا، فإنا نتحداك أن تنزل علينا العذاب الذي خوَّفتنا بـه. يتضـمن كلامهـم تكذيبـه فـي دعواه الرسالة وفي مضمون ما أوعدهم به.

71-72: قال قد وقع عليكم.... وما كانوا مؤمنين.

كان جواب سيدنا هود معتمدا على ما أوحـى الله لـه بـه. مضـمون ذلكـم الـوحي: أن الله قد حكم عليه بحكمه الذي لا يـرد، فهـو لتحققـه كأنـه **(وقـع)** وتـم فـي الخـارج **(رجس وغضب)**.أما الرجس فيحتمـل أنـه سـينزل بهـم عـذابا لـم يحـدد نوعـه ولا زمانه، ويحتمل أن يكون معنـى الـرجس تمكـن الخبـث مـن نفوسـهم والضـلال مـن عقولهم، ومع الرجس غضب، بما يفيده مـن مقـت الله لهـم فـلا يتوقعـون منـه رحمـة ولا لطفا. ثم قرَّعهم مبرزا خـراب عقـولهم، بـأنهم مـا قـدموا لمحاجتـه دلـيلا يسـند معتقدهم. لم يقدموا إلا أمرا واحدا أسماء بـدون مسـمى، تخيلـوا فـي بعـض الأصـنام، أو في بعض المتوهمات قوة مؤثرة، فـأطلقوا عليهـا أسـماء، وكـل أمـرهم وهـم فـي وهم، لم يؤيَّد بقوة من حجة من الحجج التـي يكـون لهـا سـلطان يخضـع لهـا الفكـر وينصاع لها. وأنهى كلامه بتحديهم بما أنذرهم مـن عـذاب، فقـال لهـم : انتظـروا مـا سيحل بكم مما تكذبون به، وأنا معكم منتظر أن العـذاب سـيحل بكـم لا محالـة. نفـذ الله ما أنذر به هود قومه.

وقدم بين يدي ذلك إنجاءه عليه السلام ومن معه من المـؤمنين بمـا قـدره سـبحانه مـن إنـزال رحمته بهم التي صانتهم من العذاب ومن الغضب فـرافقتهم بـذلك ألطافـه إلـى الأجـل المقدر لهم. واستأصل قومه المكذبين فلم يُبـق لهـم أثـرا وقطـع نسـلهم ومضـوا فـي الهالكين لتكذيبهم بآيات الله وشركهم.

وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ
جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ
ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ
عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا ۖ
فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ
صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾ فَعَقَرُوا۟ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ

وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ
فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّى
وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾

بيان معاني الألفاظ

ثمود : قبيلة من قبائل العرب البائدة.

البينة : الحجة الواضحة

تمسوها بسوء : تلحقون بها أي أذى.

بوأكم : أنزلكم.

السهول : المستوي من الأرض.

تنحتون. النحت بري الحجر بآلة.

عثا: أفسد فسادا شديدا.

عقروا : جرحوا الناقة جرحا تبعه موتها.

عتوا :تجاوزوا الحد في الكبر.

أخذتهم : أهلكتهم.

الرجفة : اضطراب الأرض بحركة من تحتها أو بصواعق من فوقها.

جاثمين : منكبين على صدورهم كهيئة الأرنب، ميتين لا حراك لهم.

تولى : انصرف عن فراق وغضب.

بيان المعنى الإجمالي :

بعث الله إلى ثمود الأمة التي خلفت قوم عاد، رسولا منهم هو سيدنا صالح. أمرهم بعبادة الله وعدم الإشراك به. وقدم لهم معجزة دالة على صدقه هي ناقة مملوكة لله وحده، لم يكلفهم علفها ولا القيام عليها، وغاية ما كلفوا به نحوها أن لا يتعرضوا لها بسوء ويخلوا بينها وبين أرض الله تسرح فيها. وحذرهم من حلول العذاب الأليم بهم إذا هم مسوها بأذى. وليقربهم من الهدى الذي جاءهم به ذكرهم بما آتاهم الله من فضل، فقد جعلهم القائمين على الحضارة الإنسانية بعد عاد، ومكنهم من الأرض التي كانوا يسكنونها فيسر لهم بناء قصور في سهولها، وأن ينقروا في الجبال بيوتا لسكنهم أيضا. حرك ضمائرهم ليشكروا الله على النعم التي أنعم بها عليهم شكرا يصرفهم عن الإفساد في الأرض. كان موقف الزعماء المستكبرين أن رفضوا الدعوة وحاولوا أن يصرفوا عنه الذين آمنوا به من المستضعفين، ولكنهم خابوا في

ذلك وثبت المستضـعفون علـى إيمـانهم. أعلـن الزعمـاء المسـتكبرون عـن رفضـهم الإيمان بما آمن به المستضعفون. ثم عزموا على حسم الأمـر مـع صـالح، وذلـك بـأن دبروا إظهار كونه غير مرسل بقتل الناقة التي هي معجزته.

وفعلا دبروا طريقة لقتلها، ثم تحـدوا صـالحا بقـولهم: قـد قتلنـا الناقـة فسـلط علينـا العذاب الذي هددتنا به إن كنت فعـلا واحـدا مـن المرسـلين. لـم يمهلهـم الله إلا ثلاثـة أيام، ثم أخذتهم رجفة قتلتهم جميعا وتركتهم جثثا منكبين على وجوههم.

أسف صالح لِما انتهى إليه أمرهم وقال آسفا معبرا عن ذلـك: يـا قـوم لقـد أبلغـتكم مـا ستكون عليه عاقبتكم، وبذلت جهدي لأساعدكم علـى سـلوك طريـق الهـدى والصـلاح، ولكن عنادكم جعلكم تعرضون عني ولا تحبون متابعة نصحي.

بيان المعنى العام:

قبيلة ثمود من القبائل العربية البائدة، خلفت في الحضارة عـادا قـوم هـود. أتبـع القـرآن قصة هود بقصة ثمود. ولما وردت تفصيلات في القصة لـم تـذكر فـي هـذه السـورة، أرجأت بيانها إلىٰ مكانها من القرآن. أُذَكِّر بما قدمتـه فـي المقدمـة مـن حرصـي علـى قرن ما أكتبه بالنص في مكانه الذي ورد فيه.

فأنا غير معني بالقصة كما وقعت في التـاريخ ولا بجمـع تفاصـيلها فـي مكـان واحـد، بل أقتصر على توضيح النص القرآني كما ورد في موضـعه حتـى يكـون أقـرب إلـى أفهام إخواني المؤمنين عند تلاوته. فـإذن أتـابع قصـة ثمـود مـع نبـيهم صـالح عليـه السلام كما وردت في هذه السورة:

73-74: وإلى ثمود...ولا تعثوا في الأرض مفسدين.

افتتح دعوته كما افتتحها الرسل من قبله بقوله : أفـردوا الله بالعبـادة، إنـه لا يوجـد إلـه غير الله حقيق بأن يعبد. أنا مؤيد بحجة واضحة من ربكـم الـذي تـولاكم بعنايتـه. هـذه الحجة البينة حاضرة أمامكم تشـاهدونها: ناقـة يملكهـا الله وحـده. ولـذا فإنـه لا يحـل لأحد منكم أن يتسلط عليها. اتركوها ترعـى فـي أرض الله، وكونـوا علـى حـذر مـن الاعتداء عليها، إنكم مهددون بعذاب أليم ينتزعكم انتزاعا لـو مسـها أحـد بسـوء. أحيـوا في نفوسكم منن الله عليكم التـي منهـا : أن الله بـارك فـيكم فجعلكـم تواصـلون بنـاء الحضارة بعد عاد، ومكنكم من الأرض تمكينـا تقيمـون قصـورا فـي السـهول تنعمـون بسكناها، وهداكم إلى النحت في الجبال فتتخـذون منهـا بيوتـا، اذكـروا هـذه الـنعم ولا تغفلوا عنها، ولا تفسدوا في الأرض الفساد الـذي يحولهـا عـن النظـام الـذي خلقهـا الله عليه.

75-76: قال الملأ الذين...به كافرون.

بعد هذا التذكير والتوجيه الذي تألفه النفس الطيبة، حاول الذين أفسد الكبر فطرتهم تأليب المستضعفين من الدهماء ضد صالح ﷺ، فتوجهوا إليهم بالسؤال التالي: هل عندكم يقين بأن صالحا مرسل من ربه ؟ كان جواب المستضعفين واضحا: إنا على يقين من صدقه في جميع ما أخبر به ومؤمنون به. فكانت صفعة للمستكبرين.

إن استكبارهم أثر فيهم ما هو شأن مرض الكبر أن يؤثره في النفوس، فتصلبوا في عنادهم، فجمعوا بين دعوة صالح وانفتاح المؤمنين لتصديقه وقالوا: نؤكد تأكيدا قاطعا أنا كافرون بما آمنتم به. على معنى أن إيمانكم لا يقوّي صالحا.

ثم دفعهم تصلبهم في الكفر والعناد إلى الاستخفاف بما أوعدهم به إذا لم يحترموا الآية :عدم التعرض للناقة. وقد صمموا على إظهار عدم صدقه بالتعرض للناقة، فإنه ما دامت الناقة ترعى في أرض الله سالمة يكون ذلك طعنا في قرارهم وتكثيرا للمؤمنين به. فنفذوا ما تصوروه أنه الحل الحاسم بينهم وبين دعوة صالح ﷺ، وتجاوزوا الحد **(كما يعبر عنه في العرف تجاوزوا الخط الأحمر)** وقتلوا الناقة. ليس معنى قتلهم للناقة أنهم تولوْا جميعا قتلها، ولكن على أنهم دبروا ورضوا بقتلها معتبرين ذلك نصرا لهم. ثم أظهروا التحدي لصالح بعد ذلك فقالوا له: إن كان ما ادعيته حقا، وأن الله الذي هددنا بالاستئصال هو الذي أرسلك إذا قتلنا الناقة فها نحن قتلناها، ولينفذ فينا وعيده.

77 -78: فعقروا الناقة...جاثمين.

لم يمض على اعتدائهم وقت طويل، ثلاثة أيام كما سيأتينا في سورة هود، فارتجفت بهم الأرض رجفة قضت على حياتهم، تحولوا إلى جثث هامدة منكبين على وجوههم.

تركهم صالح في وضعهم وانصرف عنهم متحسرا على ما أصابهم، مظهرا لذلك بقوله: يا قوم قد اجتهدت في إنقاذكم من هذا المصير، لقد أبلغتكم ما أوحاه إلي ربي، وبذلت جهدي لأبين لكم ونصحتكم نصح المشفق عليكم من حلول ما حل بكم، ولكن عنادكم وإصراركم انتهى بكم إلى الإعراض عني إعراض من لا يحب الصلاح ويكرهه.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾
إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا

كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٞ يَتَطَهَّرُونَ
﴿٨٢﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرٗاۖ
فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفاحشة : الفعلة الشديدة القبح.

ما سبقكم :لم يفعلها أحد قبلكم.

مسرفون :مبالغون مبالغة مرفوضة في الشهوات.

يتطهرون : يتكلفون الظهور بمظهر المتعففين.

الغابرين : الهالكين.

بيان المعنى الإجمالي :

قصة لوط في هذه السورة مفادها: أنه أصبح الشذوذ الجنسي ظاهرة استساغها الرأي العام في القرية التي كان يسكنها سيدنا لوط. بعثه الله إليهم ليقلعوا عن فعل الفاحشة. عرفهم بما في عملهم من الفساد الشنيع الذي لم يفعله أحد من المجتمعات التي قبلهم. عجب لكم أتتركون النساء وما حباهن الله به من مميزات خِلْقية تشبع الرجل جنسيا والمرأة في آن واحد. إنكم قوم أسرفتم في الشهوة واللذة فوقعتم فيما وقعتم فيه من مناكر! لم يجدوا جوابا، فكان ردهم أن قرروا إخراج لوط وأهله من القرية. وفي سخرية برروا إخراجهم لهم، بأنهم قوم يتكلفون الطهارة فليذهبوا إلى حيث يجدون الطهر. أنجى الله لوطا وأهله إلا امرأته، وأنزل على المفسدين المسرفين الشذاذ مطرا من السماء أبادهم ولم يفلت منه أحد منهم. إنهم أصبحوا مثارا للعبرة فانظروا إلى عاقبة المجرمين وحصنوا أنفسكم من الإجرام حتى لا يأخذكم العذاب.

بيان المعنى العام :

أُتبِعت قصة صالح بقصة لوط عليهما السلام. وكان بين قصة صالح وما سبقها من القصص تشابه، أما قصة لوط فهي تتميز بميزات خاصة.

80-81: ولوطا إذ قال لقومه...قوم مسرفون.

تبدأ هذه القصة بأن أول ما اهتم به هو نهي قومه وتشديد النكير عليهم بسبب ما انتشر فيهم من فعل الفاحشة. هذه الفعلة التي بلغت أقبح الدرجات في السفالة. أن

يقضي الذكر شهوته الجنسية من ذكر مثله، هو قلب لقانون الحياة وفساد في الطبع وقطع للتكاثر، وتعريض للفاعل والمفعول إلى أمراض عصبية (الإيدز – السيدا)فقد أثبتت ملاحظة أهل الاختصاص من الأطباء أن هذا المرض القاتل قوي الانتشار بين الشواذ جنسيا. وتأثيره في اختلال الشخصية يقيني، حمل بعض الدول الكبرى على منع الشواذ جنسيا من الخدمة العسكرية.

والإطلاق القرآني(**فاحشة)** – القبيح الشديد القبح، خير تعبير وأصدقه عن هذه الفعلة المخربة. انتشرت هذه الفعلة في قوم لوط انتشارا جعل الرأي العام يستسيغها ولا يرفضها، وهو مؤذن ببلوغ عدواها إلى الأمم المجاورة. ولو استساغت البشرية ذلك فإنه يكون إيذانا بانقطاع الجنس البشري، وذهاب الأسرة وما يتبع ذلك من النظام الاجتماعي بصفة عامة. فأنقذ الباري سبحانه البشرية بإرسال سيدنا لوط لينهاهم نهيا باتا ليقلعوا عما ألفوه. وذكَّرهم بأنهم قد أحدثوا في العلاقات الجنسية حدثا منافيا للفطرة، إذ أن البشر من عهد آدم إلى زمنهم لم يقع منهم ذلك. وأكد نهيه بتجسيم مع تصريح لفسادهم : أنهم يقضون شهوتهم الجنسية من الرجال ويتركون النساء اللاتي أودع الله في تركيبهن الجسمي ما يثير الشهوة، ورزقهن وسامة ورقة لا توجد في الذكور، وفي جهازهن التناسلي ما يتكامل به مع الذكور ليتم الإنجاب. النعمة الجليلة التي من الله بها على الجنس البشري.

وقد سمعتُ من الأسر العقيمة ما يقاسونه من الحياة الرتيبة، عندما تأخذ العاطفة في الهدوء. إن ما يرزق الله به الزوجين من الأولاد يجدد حياتهما فتقوى الألفة بينهما. وأنهى دعوته لقومه بإيقاظهم ومخاطبتهم بقوله : لقد فسدتم تبعا لإسرافكم في الشهوة، نبههم إلى أن قضاء الشهوة في أصله أمر مشروع ؛ لكن الشهوة إذا عرمت وخضع الإنسان لتلبية ما تدعو إليه، فإنها تهوي بصاحبها إلى الرذيلة والفساد.

لم يذكر القرآن أنه أمرهم بعبادة الله مما يفهم منه أنهم ما كانوا مشركين. وأفهمُ من هذا ما يدل على عناية الله بصلاح العقيدة أولا، وبصلاح العمل المحقق لحسن الخلافة في الأرض ثانيا. فقد ورد نمط العناية بالعقيدة في قصص نوح وثمود وصالح، وجاءت هذه القصة لبيان النمط الثاني من هداية الله للبشر ليستقيموا في سلوكهم، ولا يخضعوا للشهوات.

82←84: وما كان جواب... عاقبة المجرمين.

بما ذا أجابه قومه؟ أجابوه بعزمهم على إخراجه ومن كان على شاكلته من القرية، بل أصدروا أمرهم بتنفيذ ما خططوا. وقرنوا إبعادهم من القرية بسخرية لاذعة، بما

أن لوطا وأهله أناس يتكلفون الطهارة الخلقية، وينفـرون ممـا قبلـه المجتمـع وينكرونـه، فيكون إخراجهم لا ضرر منه عليهم. أنجى الله لوطـا وأهلـه مـن العـذاب الـذي حكـم بإنزاله عليهم، فخرجوا من القرية قبل حلول العـذاب بأهلهـا. واسـتثنى الله امـرأة لـوط فهلكت مع الهالكين. وصورت الآية العـذاب: أن الله أنـزل علـيهم مـن السـماء مطـرا قاتلا لم ينج منه أحد من القوم المسرفين.

وبعد أن تم المشهد يأمر القرآن كل من يتمكن مـن التـدبر أن يتأمـل فـي عاقبـة الـذين يعبدون شهواتهم ويقتحمون المناكر، ليكـون مـا وقـع لقـوم لـوط عبـرة سـارية مـع الزمن. ويمكن أن يكون الخطاب لمحمـد ﷺ، أن ينظـر فـي عاقبـة المفسـدين ليتسـلى عما يلاقيه من ضلال قومه.

على أولياء الأمر أن يعملـوا علـى استئصـال الشـذوذ الجنسـي مـن المجتمعـات، وأن تتجه العناية في التربية المدرسـية والاجتماعيـة بغـرس الاشـمئزاز مـن الفاحشـة، وأن يعاقب الفاعل والمفعول به عقوبة رادعة. والعقوبة على اللـواط عقوبـة تأديبيـة لـم يـرد نص من الكتاب ولا من السنة يحدد مقدراها. وبنـاء علـى ذلـك فعقـاب مرتكبهـا عقابـا رادعا لا بد منه، ويجتهد الحكام في تقديره شأن التعزيـر. وقـد عـزر الشـذاذ بعقوبـات مختلفة حسب الاجتهاد في تاريخ القضاء الإسـلامي، مـن الحـرق والـرجم إلـى الجلـد والسجن.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

أوفوا : أعطوه وافيا غير ناقص.

البخس : احتيال أحد طرفي التعامل ليحط من قيمة المشترى.

الصراط : الطريق الموصل للقاء شعيب عليه السلام.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه قصة شعيب مع أهل مدين. فقد أرسل الله إليهم شعيبا واحدا منهم فأمرهم بإفراد الله بالعبادة، إذ لا يوجد إله حقيق بأن يعبد سواه. وهذا دليل واضح من ربكم. وبعد أن وثق من إبلاغهم العنصرين الأساسيين: عبادة الله وحده، وأنه رسول. أمرهم أن يقيموا علاقاتهم الاقتصادية على الحق والعدل، وذلك بأن يعطوا لكل متعامل حقه من الكيل أو الوزن، ونهاهم أن يتحايلوا ببخس أصحاب السلع قيمتها الحقيقية ليستولوا عليها بثمن أقل. ونهاهم أن يعملوا في الأرض عملا يفسد القوانين التي خلقها الله عليها. وأجمل بعد التفصيل فحرضهم على تطبيق ما أمروا به لأنه خير لهم في الحاضر والمصير إن كانوا حقا مؤمنين. ونهاهم عن التعرض لمن يريد أن يتصل بشعيب بالوعيد لمن آمن والتشكيك لمن لم يشتد عزمه، وعن قلب الحقائق بإظهار ما جاء به على غير الوجه الذي بشر به.

ثم حرضهم على ترك العناد بتذكر نعم الله عليهم، فإنهم يعلمون حق العلم أنهم كانوا جمعا قليل العدد فبارك الله فيهم ومنعهم من الأوبئة، فكثروا حتى صاروا أمة. وهددهم بما آل إليه أمر المفسدين. وختم دعوته وقد انقسموا قسمين: مؤمن وكافر. فنادى فيهم جميعا :اصبروا حتى يحكم الله بين المؤمنين والكافرين الحكم الحاسم العادل، فإنه سبحانه لا أعدل من حكمه.

بيان المعنى العام :

85-86: وإلى مدين أخاهم شعيبا...عاقبة المفسدين.

أرسل الله إلى مدين، وهي أمة سميت باسم جدها مدين. وما ذكره النسابون في سلسلة نسبه لا توجد عليه حجة مقبولة. كان أول اهتماماته أن يفرد قومُه الله بالعبادة، فدعاهم إلى عبادة الله وحده مؤكدا أنهم لا بد لهم أن يعبدوا خالقهم ولا خالق إلا الله، فهو وحده المستحق بأن يعبد. وأعلمهم أنه مرسل من الله إليهم، وأن الله أيده بحجة واضحة تصدقه جاءتهم من عند الله ولا يمكن أن تأتي من غيره. بعد أن غرس هذين المبدأين عبادة الله وحده، والتسليم بأنه رسول الله إليهم اعتنى بإصلاح الخلل الاجتماعي في التعامل، فأمرهم: بأن يلزموا العدل في المبادلات التي تقع بينهم، فمن كال فالواجب عليه أن يمكن الطرف الآخر من حقه كاملا، وكذلك من قام على الميزان، حتى يطمئن كل واحد منهم لغيره، وتنقطع أسباب الخصومات ويشعر بالتكامل مع الآخر.

أن يبتعدوا عن الاحتيال الذي يمكن الأكثر دهاء مـن الاسـتيلاء علـى شـيء مـن مـال صاحبه بإيهامه أن سلعته بائرة لا تساوي شيئا، أو يصور لـه السـوق علـى أنـه نـازل، أو أن يظهر لغيره من المشترين أنـه مـن ذوي الخبـرة ويعطـي فيهـا ثمنـا أقـل مـن قيمتها ليصرف الناس عنها ويفوز بها بالثمن الدون .

وبالجملة فالبخس المنهي عنه أن يتحايل علـى صـاحب السـلعة ليسـتولي عليهـا بـثمن قليل، ومثله من يحسد الجالب فيخيـل إليـه أن قيمـة سـلعته دون الحقيقـة، أو لا يرغـب فيها الناس. والبخس هدم للأمانة التي بضـياعها يضـعف رواج السـلع ويثـبط الجـالبين الذين يحدثون الرواج الـذي ينبنـي عليـه الازدهـار الاقتصـادي. أن لا يفسـدوا الأرض بما أنهم مؤتمنون عليهـا، الأرض التـي سـخرها الله لكـم وطوعهـا لنشـاطكم، وبناهـا على قواعد تمكنكم من استثمار خيراتها والتقـدم بمنتجاتهـا كمـا ونوعـا. حـافظوا علـى ذلك، إياكم أن تفسدوا أرض الله بسوء الاسـتعمال، أو إدخـال عناصـر مخربـة تقضـي على خصوبتها ووفر عطائها.

وبالجملة فإن كل ما أمرتكم به من إفراد الله بالعبادة، وتصـديقي فيمـا أخبـركم بـه عـن ربكم، والعدالة في التعامل، وتشـجيع العـاملين فـي الاقتصـاد علـى بـذل مزيـد مـن النشاط، والحفاظ على الأرض لتواصل إنتاجها، هو هدى مـن خـالق الكـون فيـه خيـر لكم فأنتم المنتفعون به في الدنيا والآخرة. فإن كنتم مؤمنين يكـون مـا أمـرتكم بـه خيـرا لكم، ولا يتحقق أي خير لكم إن لم تؤمنوا. ذلك أن جرثومـة الشـرك تهتـك كـل صـلاح للفرد والجماعة في الدنيا. إذ الشرك منزلق للفساد ولمخالفة كـل مـا أمـرتكم بـه، وأمـا في الآخرة فخسارتكم إن لم تؤمنوا تكون أبين وأوضـح. وبعـد أن رغـبهم فـي الإيمـان وما يقترن به من خير كثير اهتم بقضية خطيرة مـن قضـايا تمـرد أهـل مـدين نهـاهم عنها، فإنهم حسب نص القرآن كـانوا يرقبـون المسـالك والطـرق المؤديـة إلـى لقـاء شعيب، فيهددون من تفتح قلبه للإيمان به، ويصـدون مـن عـزَم علـى لقائـه، ويقفـون سدا عن وصولهم لدين الله الـذي يرضـاه الله (**عـن سـبيل الله**) ويحرفـون تحريفـا باطلا ما جاء على لسان شعيب، يبغون من ذلك أن يظهـروه بمظهـر يكـون بـه بعيـدا عن الاستقامة حتى ينفروا منه الساعين لقبوله. ثـم ذكـرهم بـنعم الله التـي خصـهم بهـا والتي يتقلبون في فضلها، فأمرهم أن يتذكروا تـاريخ أمـتهم، فقـد كـانوا جماعـة قليلـة العدد ليس لها تأثير، فقدر الله ما بارك بـه فـي نسـلهم، وحمـاهم مـن الأوبئـة، فكثـر عددهم وأصبحوا أمة لها وزنها. وذكرهم أيضا بما فعـل الله بـالأمم التـي خرجـت عـن حدوده وأفسدوا، ومن أعظم الفساد الشـرك ومنـع النـاس مـن الـدخول فـي ديـن الله،

انظروا كيف كانت عاقبتهم. هددهم شعيب بأن سنة الله في القوم المكذبين واحدة وأنه سيستأصلهم كما استأصل المفسدين من الأمم السابقة.

87- وإن كان طائفة..وهو خير الحاكمين.

ختم شعب مواجهتهم بعد ما تبين انقسامهم إلى طائفتين: طائفة آمنت به وعملت بوصاياه بعد أن اعتقدت أنه رسول موحى إليه من رب الناس. وطائفة واصلت ما هي عليه من الكفر والتكذيب. واجه الطائفتين معا بأن على المؤمنين أن يصبروا حتى يأتي نصر الله وينفذ وعيده في الكافرين، وهدد الكافرين أن عليهم أن ينتظروا فإن ما أوعدهم آت لا محالة. وهو ما سيحكم به رب العباد، الذي يصدر حكمه عن العدل المطلق. فلا أعدل ولا أفضل من حكمه.

۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

العود: الرجوع.

الملة: الدين.

افتح: احكم.

خاسرون: معرضون للأضرار.

بيان المعنى الإجمالي :

ما إن أتم شعيب رده القاطع لحججهم، الواضـح البـين، حتـى حزمسوا أمـرهم فخيـره كبراؤهم بين أمرين :إما أن يخرجوه ومـن آمـن معـه مـن ا لقريـة، وإمـا أن يعلنـوا رجوعهم عن دينهم ويعبـدوا آلهـتهم. رد علـيهم شـعيب هـل أنـتم مصـممون علـى إكراهنا على ذلك ؟اعلموا أن ما تدعوكم إليه هـو مـن عنـد ربنـا ولا نسـتطيع أن نعبـد ما تعبدون بعد أن نجانا الله من الشـرك، إلا إذا تعلقـت إرادتـه بإضـلالنا، فإنـه لا راد لحكمه، فإنه الحكيم العليم بكل شيء. إنا متوكلون عليه فهـو كافينـا، ثـم توجـه بالـدعاء إلى ربه أن يحكم بيـنهم وبـين الكـافرين، إن حكمـك الحـق فأنـت خيـر الحـاكمين لا يغيب عن علمك شيء وعدلك هو العدل الكامل.

أفحمهم بمنطقية كلامه وبصدق لهجتـه فخشـي رؤسـاء الكفـر أن يتـأثر اتّبـاعهم بـه فقالوا لهم : إنكم إن اتبعتم شـعيبا فستغضـب علـيكم الآلهـة وتخسـرون حيـاتكم. بعـد ظهور صلابتهم في الكفر أخذتهم رجـة قضـت علـيهم وتـركتهم جثثـا هامـدة منكبـين على صدورهم على هيئة الأرانب. وأعلن القـرآن: أنّ الـذين كـذبوا شـعيبا استؤصـلوا ولم يبق لهم أي أثر، وكانوا هم الخاسرين لا المـؤمنين بشـعيب. تـركهم شـعيب علـى وضعهم وقال : يا قومي لقد أبلغتكم ما أوحى الله به إلي، لـم أحجـب عـنكم شـيئا منـه، واجتهدت لتسلكوا مـا يوجـب مرضـاته ولا تتعرضـوا لنقمتـه شـأن الناصـحين. إن خراب مدينتهم وذهاب قومها الكافرين عن آخـرهم لمنظـر يثيـر الأسـى ولكـن كفـرهم وعنادهم جعلهم أحقاء بالنهاية التي اختاروها لأنفسهم فلا حزن عليهم.

بيان المعنى العام :

88ـ قال الملأ الذين استكبروا...كنا كارهين.

بعد أن سمعوا خطاب شعيب المؤكد على وجوب قبولهم مـا جـاء بـه، المهـدد لهـم إن تمادوا على كفرهم، برز رؤسـاء القـوم الكـافرين، شـامخين مسـتعلين فـي الخطـاب، مظهرين قوتهم ومعتزين بها، وقالوا لشعيب: أنت بين خيارين لا ثالث لهما :

1) أن لا نبقيك أنت ولا أحدا ممن اتبعك مقيما في أرضنا.

2) أو أن تترك كل ما جئت به وتعود إلى ديننا. خطاب باستعلاء وغلظة.

89←91 : قد افترينا...في دارهم جاثمين.

قال شعيب: أنتم مصممون على هـذا وإن كنـا تحـت الضـغط كـارهين لمـا عرضـتم. اعلموا : أنّ الخلاف ليس بيننا وبيـنكم فـي أمـر اخترعنـاه أو رأي نبـع مـن تفكيرنـا. إني مبلغ عن الله فما تدعونني إليه من قبول دينكم يدفع بنـا إلـى أحـط منزلـة وأخبثهـا،

إذ نكون قد حولنا ما أمرنا به ربنا من عبادته والتـزام شـرعه إلـى ديـنكم وهـو كـذب عليه، وهو الآخذ بناصيتنا. وقد نجانا، بما أنـزل علينـا مـن وحيـه، ممـا أنـتم عليـه. واعلموا أنه بعد أن شرح الله صـدورنا للإيمـان فـلا يمكـن أن نصـير أعضـاء فـي ملتكم، إلا أن تتعلق قدرته وإرادتـه سـبحانه بإضـلالنا. ذلـك أن الله هـو وحـده الـذي وسع علمه كل شيء فـي الحاضـر والمسـتقبل. علـى معنـى أن محـاولتكم إضـلالنا محاولة فاشلة فأنتم أضعف من أن تؤثروا فـي عقيـدتنا؛ والضـغط علينـا لا يحقـق لكـم ما تريدون، فما كان الدين ولن يكون تحت الإكراه.

واصل شعيب محاجته مدمجا في أثنائها بعـض الحقـائق الإيمانيـة، شـأن المصـلحين أنهم يغتنمون كل مناسبة لتركيز مبادئهم، فقال : إن علـم ربنـا شـمل كـل شـيء، فـلا يغيب عنه أي أمر. لا تظنوا أن تهديدكم أثّر فينا فـنحن قـد توكلنـا علـى الله فـي نشـر دينه وفي إقامة الحجة عليه، وربنا لا يضيعنا فهو ولينـا ووكيلنـا. وكلمـا واصـل الـرد عليهم زادت حجته وضوحا وإيمانه نصاعة وقـوة، فتوجـه إلـى الله داعيـا، ربنـا افـتح (أي احكم) بيننا وبين قومنا المهددين لنا حكمك الذي لا يفـارق الحـق، فإنـك ربَّنـا خيـر الحاكمين، لأن الحكام قد يضـللهم الشـهود أو قـدرة الخصـم علـى المغالطـة، أو يفقـد الدليل المبين للحق. والله سبحانه عندما يحكم حكما فـإن حكمـه لا يتـأثر بمـا يمكـن أن يتأثر به حكم الحكام. ارتج رؤساء الكافرين بشعيب، مـن قـوة حجتـه ووضـوح بيانـه، فأسرعوا بمخاطبة الممالئين لهم علـى الكفـر حتـى لا ينفلتـوا مـن ديـنهم فخـاطبوهم قائلين : نقسم لكم أنكم ستصـابون بالأضـرار إن اتبعـتم شـعيبا، وستخسـرون بغضـب الآلهة عليكم. فثبتوا على العناد والكفر.

عجّل الله عقوبتهم، فارتجفت بهم الرجفة فصاروا جثثـا هامـدة لا حـراك بهـا، صـرعى في كل مكان، وإنه لمشهد مرعب في شـوارع المدينـة التـي يسـكنونها وفـي منـازلهم، كل الكافرين وجوههم إلى الأرض علـى صـدورهم، وأرجلهـم مقرونـة والمـوت سـيد الموقف. وسيأتينا تتبع أوسع لما أصابهم في سورة هود إن شاء الله.

92-93: الذين كذبوا شعيبا...على قوم كافرين.

يعلق القرآن بعد ذلك على الحدث : يبرز الهَلْكَى بأنهم هـم الـذين كـذبوا شـعيبا، كـأنهم لم يبقوا يوما في مدينتهم، امحت آثارهم وهلكوا جميعا (**كـأن لـم يغنـوا فيهـا**) ويبـرز أيضا أن ما خَوَّفُوا به وما خافوه من الخسارة، قـد حـل بهـم. يبـدو فـي نهايـة القصـة سيدنا شعيب بعد ما حل بقومه، يبدو تاركا لهم على وضعهم، ثـم يجـيش فـي نفسـه مـا أبقاه الحدث في نفسه فيخاطبها مستحضرا لهول ما حـدث : يـا قـوم لقـد بـذلت جهـدي

لأنقذكم وبلغتكم ما أوحى به الله إلي، وكشفت لكم عن مصـــيركم كشــف مـن يريـد لكــم الخير والنجاة. وفي هذا التعداد ما يثير الإشفاق عليهم فيعــود إلـــى نفســه موقظـــا لهـــا : كيف يحزن على قوم كافرين ؟ فهم الذين اختاروا مصيرهم.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

أخذناهم : أصبناهم بالمكروه الذي لا يستطيعون دفعه.

البأساء : المصائب الشديدة في الآمال.

الضراء : المصائب في البدن.

يتضرعون : التضرع التذلل والمسكنة.

التبديل : التعويض.

عفوا: كثروا.

السراء :النعمة ورخاء العيش والضراء ضدها.

أخذناهم : أهلكناهم.

بغتة: فاجأهم الهلاك.

بيان المعنى الإجمالي :

يسلط الله على الذين يرفضون رسالات أنبيائه ضــروبا مــن الشــدة والأســقام، رجــاء أن يدركوا ضــعفهم وينتفــي غــرورهم فيلتجئــوا إلـــى الله بالطاعـــة والـــدعاء. ولا يـــوالي عليهم المحن، بل يمهلهم فينشـــر علـــيهم رحمتـــه وييســـر لهـــم معيشـــتهم ويبعـــد عـــنهم الأمراض حتى يكثر عـــددهم، ولكـــنهم يعـــودون إلـــى الكفـــر بـــنعم الله، ويربطـــون مـــا حصل لهم بأن ذلك من سنن الكون، وقد عـــاش آبـــاؤهم متقلبـــين بـــين الرخـــاء والشـــدة، ويواصلون بهذا التصور تمـــردهم علـــى هدايـــة الله، وعنـــدها يأخـــذهم عـــذاب الله أخـــذة يكونون غير مستعدين لها ولا متوقعين قدومها.(**بغتة**)

بيان المعنى العام :

94-95؛ وما ارسلنا...وهم لا يشعرون.

بعد أن تتابع في القصـــص الســـابقة إيقـــاظ الرســـل لأقـــوامهم وهـــدايتهم إلـــى الطريـــق المستقيم، مفصلا الأحداث في كل قوم مع نبـــيهم، تـــولى القـــرآن بيـــان ســـنن الله العامـــة

في إرسال الرسل. فمن سننه سبحانه أنه يبعث الرسول إلى البشر يعرفهم بما يوحى إليه ويبينه ويقنع به، فإذا قابلوا هدايته بالإعراض والتكذيب، سلط عليهم الشدائد التي من شأنها أن تخفف من غلوائهم واعتدادهم بقوتهم، وتعود بهم إلى التأمل في قدراتهم فيقلعوا عما كانوا عليه، ويتقبلوا الهدى الذي جاءهم من ربهم.

وبعد ذلك ييسر عليهم حياتهم فتحسن أحوالهم، حتى يكثروا وتتوافر عندهم الخيرات. وعندها يقولون : إن التقلب بين الضر والسعة، والخصب والجدب، هي تحولات تسير عليها دورات الكون، قد عاش آباؤنا على هذا النحو، ولا دخل للاستقامة ولا تتبع الشهوات في تلكم التحولات، ولا تأثير لما يدعونا إليه الرسل في مجيْ النفع أو الضر. وعندها وقد تمردوا ولم يرعوا حق الله فيما أُغْدِق عليهم من النعم ولم يشكروا فضله، يهلكهم الله فجأة دون أن يكونوا قد استعدوا لما ينزل بهم من عذاب، وهم غير شاعرين بقرب ما سيحل بهم من مكر الله. فليحذر الغافلون عن سنة الله هذه، فقد ذكَّر بها في كتابه لكيلا يغتروا بالظروف المواتية، وما هم عليه من رخاء.

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

فتحنا : مكناهم.

بركات : جمع بركة وهي الخير الذي لا تبعة على صاحبه في الآخرة.

ضحى : الزمن التالي لطلوع الشمس صباحا عندما يتبين ضوؤها.

المكر : إضرار بعد إعداد يخفى على من يقع عليه.

يهد: يرشد.

بيان المعنى الإجمالي :

تحريض من الرب الكريم للبشر الذين تتكون منهم مجموعات أن يصلحوا عقيدتهم بالإيمان، وأن يراقبوا الخالق في سلوكهم فيلزموا الاستقامة **(التقوى)** لو حققوا ذلك لجزاهم ربهم بالخيرات الكثيرة والرخاء من السماء والأرض. ولكنهم تمردوا

وخرجوا عن الصـراط المسـتقيم فسـلط الله علـيهم البلايـا بسـبب فسـادهم. غـالطوا أنفسهم فظنوا أنهم آمنون من عـذاب الله، الـذي سـيحل علـيهم، وهـم لا يـدرون متـى سيحقق الله وعيده. قد يـأتيهم العـذاب وهـم نـائمون، أو فـي الضـحى وهـم لا هـون يلعبون. ما أشد غفلتهم، كيف يكونون آمنين مما أعـد لهـم الله القـدير مـن الهـلاك. إنـه لا يغفل عن بطش الله إلا القوم الذين كتبت عليهم الخسارة

بيان المعنى العام :

96- ولو أن أهل القرى...بما كانوا يكسبون.

تأكيد على حقيقة من العدل الإلهـي، فـإن أهـل القـرى الـذين تـم استئصـالهم بعـد أن تيسرت أحوالهم ونالهم من فضـل الله مـا نـالهم، مـا تسـلط علـيهم العـذاب إلا لأنهـم واصلوا حياة الكفر والفساد، ولو أنهم آمنوا فطهروا عقيـدتهم مـن الشـرك ومـن عبـادة الأوثان، ثم طبقوا شرع الله في حياتهم وكونـوا لنفسـهم بصـلاحهم وقايـة مـن عذابـه، لو فعلوا ذلك لعمهم من الله الخير الكثيـر، ولأنـزل علـيهم الـنعم مـن السـماء وأخـرج لهم الخيرات من الأرض، فالسماء تمطر، والريـاح تهـب بـالخير، والثمـار تسـلم مـن الآفات.

ولكنهم كذبوا بآيات الله وواصلوا مـا هـم عليـه مـن فسـاد فـي العقيـدة وفسـاد فـي السلوك، فأمهلهم الله ثم أهلكهم دون أن يفلت منهم أحد، بسـبب مـا كسـبوا مـن السـيئات باختيارهم.

97←99: أفأمن أهل القرى...إلا القوم الخاسرون.

ثم إن القرآن صرح بالغاية مما عرضه، وهـو أن ينتبـه البشـر إلـى أنهـم بإعراضـهم سينزل عليهم العذاب كما صب على من قبلهم صبا. كيـف يـأمن البشـر نـزول العـذاب لردعهم؟ إنه لا أمن لهم لا عنـدما ينـامون فـي الليـل ولا عنـدما يأخـذهم اللهـو فـي الضحى. فإذا كانوا غير آمنين فـي الأوقـات التـي يخلـد فيهـا الإنسـان إلـى الراحـة واللعب فمن باب أولى أنهم لا يأمنون في غيرها من الأوقات.

وبصفة عامة هل أطمأنوا إلى أنهم يمضون فـي حيـاتهم ولا يتعرضـون لمكـر الله، إنـه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون.

أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ ۚ
وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ

وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ
كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن
وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

يرثون : يحلون بالأرض حلول الوارث في المخلف.

أنبائها : أخبارها.

العهد : الوعد المؤكد، والالتزام.

بيان المعنى الإجمالي :

عجب كيف لم يتعظ الذين يسكنون الأرض التي أباد الله أهلها بسبب كفرهم، كيف لم يتعظوا، هددهم :إني لو شئت لمحقتكم بسب ما ترتكبونه من ذنوب كما أبَدتُ من قبلكم. وأن أقفل على قلوبكم فلا تنتفعون بما تسمعون كأنكم صم.

ثم سحب القرآن على القصص السابقة ما يجمع بينها، فحقق القرآن :أن تلكم الأمم قصّ علينا بعض أخبارها، وأن رسلهم قدموا لهم الدلائل على صدقهم واضحة بينة، وأنهم قابلوهم من أول الأمر بالرفض لدعوتهم، فلما واصلوا توضيح ما أتوا به وأقاموا عليه الأدلة ونفوا الشُبَه تمادوا على كفرهم عنادا حتى لا يتراجعوا عن تكذيبهم السابق.

وكذلك يطبع الله على عقول الكافرين فلا ينفذ إليها من نور الحق أي شعاع هاد. وكما فقدوا الإيمان فقدوا الخلق المستقيم فالعهد لا يفي به إلا من آمن برسالات الله. والأكثرية كافرة خارجة عن حدود الله.

بيان المعنى العام:

100-أولم يهد.....فهم لا يسمعون.

أقدم بين يدي هذه الآية بمقدمة حاصلها : إن من شأن البشر أن يفتح لهم كتاب الكون ما يوقظهم إلى أن الظواهر لها ما وراءها، وأنهم إذا ما تعمقوا في النظر انكشفت لهم أسرار ينتفعون بها في حياتهم. وإن هذه هي ميزة من ميزات الإنسان التي يتميز بها عن الحيوان الذي يقف عند ما تنقله له حواسه ولا يتجاوز الظاهرة المحسوسة. وبناء على ذلك فإذا مر الإنسان على الظواهر ولم يتأملها ولم تهده إلى

ما ينفعه في حياته ويعدل تبعا لـذلك سـلوكه، يكـون هـذا مثـارا للعجـب. علـى هـذه القاعدة ورد هذا النص القرآني الكريم.

حرك القرآن في صورة تعجبية البشر الـذين يعيشـون فـي الأرض التـي عمرتهـا أمـم قبلهم وتمردوا على سنن الله ولـم يحسـنوا فيمـا اسـتخلفهم الله فيـه، فسـلط الله علـيهم عذابه واستأصلهم ولا ترى لهم من باقية، كيـف يعيشـون فـي مسـاكنهم ولـم يعتبـروا بما وقع للماضين: أن الله قادر علـى أن يلحقهـم بمـن سـبقهم ويـدمرهم كمـا أهلكهـم، عجب! لِمَ لَمْ ينتبهوا إلى أن سلسلة ذنـوبهم ستعرضـهم للتـدمير والاستئصـال. ونجعـل ذنوبهم يتبعها أن تكون قلوبهم مقفلة عـن نفـاذ نـور الهـدى إليهـا، كمـا يخـتم علـى الرسالة بالطابع من الشمع فلا تفتح. رزقوا آذانا ولكن تصـميمهم علـى رفـض كـل مـا يأتيهم تبعه أن أصبحوا صما لا يسمعون.

101-102- تلك القرى...أكثرهم لفاسقين.

حوصل القرآن ما قصه علينا من أخبـار الأمـم الماضـية، وسـحب علـيهم مـا يجمـع بينهم فكان مما اهتم به: أن ما أخبر به عن القرى هـو مـن عنـد الله صـادق لا يختلـف عن الحقيقة في شيء، وأنه تعالى لـم يفصـل أخبـارهم بـل قـص علينـا بعضـها كمـا يشير إليه قوله تعالى: **(من أنبائها)** ولم يقل: أنباءها.

إنّ الله بعث لهم رسله وكل رسول كان مؤيدا بمـا يـدل علـى صـدقه بكيفيـة واضـحة تنفي كل شبهة. إنّهم سارعوا بتكذيب الرسـل، وصـابر الرسـل وبينـوا ورفعـوا الشُـبه وأجابوهم عن تساؤلاتهم، وأسقطوا باطل حججهم، ومـع ذلـك لـم يؤمنـوا لأنهـم غيـر مستعدين للتراجع عما صرحوا به قبـل ذلـك مـن الكفـر. إن العنـاد والإصـرار كـان موجبا لمنع الله قلوبهم مـن التفـتح علـى الحـق، وكـذلك يفعـل الله بالمصـرين علـى الكفر.

إنهم جمعوا إلى الكفر والعناد، عدم الوفـاء بـالعهود التـي أخـذت علـيهم؛ سـواء فـي ذلك: الميثاق الذي أخذه الله على بنـي آدم كمـا سـيأتينا فـي هـذه السـورة فـي قولـه تعالى: **(وإذ أخذ الله مـن بنـي آدم مـن ظهـورهم ذريـتهم وأشـهدهم علـى أنفسـهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنـا كنـا عـن هـذا غـافلين)**[37] – أو ما ركزه في العقل البشري وفطر عليـه الإنسـان مـن الإيمـان بـالله. أو مـا كـانوا عليه في تعاملهم مع الرسل ومع المؤمنين فكلما عاهدوا عهدا حلوه ولم يفوا به.

---

[37] سورة الأعراف ، آية 172

وهذا شـــأن معظمهـــم إلا الـــذين فـــتح الله قلـــوبهم للإيمـــان ولـــذلك اســـتثناهم القـــرآن. وإخلافهم للعهود هو شأن الكـــافرين الـــذين فقـــدوا ميـــزان القـــيم فهـــم لا يرعونهـــا فـــي سلوكهم.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٠٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ
﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ
مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾
فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الملأ : الجماعة من علية القوم.

فظلموا بها: كذبوا بما تضمنته.

عاقبة : آخر الأمر ونهايته.

حقيق : واجب.

أرسل : ائذن لبني إسرائيل بالخروج.

بيان المعنى الإجمالي:

بعث الله موسى، بعد الأنبياء الذين قص علينا أخبارهم في سورة الأعراف هذه، إلى فرعون وكبار دولته. فظلموا أنفسهم بمعارضتها، ظلموا موسى بعدم تصديقه. ويدعو القرآن كل صاحب عقل وبصيرة أن يتأمل في عاقبتهم حتى لا يحل به ما حل بهم.

أعلم موسى فرعون بـــأن رب العـــالمين قـــد أرســـله، وأن الواجـــب يفـــرض عليـــه أن لا ينقل عن الله إلا الحق الذي أوحى به إليـــه، وأن الله أيـــده بمعجـــزة واضـــحة بينـــة تثبـــت صدقه، وأن فرعون مأمور بأن يمكن بني إسرائيل من مغادرة مصر معه.

كان جواب فرعون: إن كنت مؤيدا كمـــا تقـــول بشـــيء خـــارق للعـــادة فـــأظهره لنـــا إن كنت صادقا فيما تدعيه. عندها ألقى موسى عصـــاه مـــن يـــده علـــى الأرض، فتحولـــت إلى ثعبان حقيقي لا يشك الناظر في كونه ثعبانا.

ثم أدخل يده في جيبه وأخرجها، ففاجأ الحاضرين بـــأن يـــده تحـــول لونهـــا إلـــى بيـــاض كأشد ما يكون البياض، يخالف لـــون جلـــده، فـــي بياضـــها إشـــراق يســـتهوي النـــاظرين لمتابعة النظر إليه.

بيان المعنى العام :

103- ثم بعثنا من بعدهم موسى...عاقبة المفسدين.

تتابعت في هذه السورة قصص الأنبياء التي ختمت بالتأكيد على أن الذي فصلها هو الله الذي وسع علمه كل شيء. وعطف على القصص السابقة قصة موسى ﷺ، هذه القصّة التي عني بها القرآن في سور كثيرة مفصلا بعض المراحل الهامة في حياته ابتداء من صباه الباكر، إلى بلوغه سن الرشد وقيامه بالدفاع عن قومه المستعبَدين المظلومين، إلى زواجه وتشريفه بالرسالة، إلى تبليغه رسالته إلى فرعون وحاشيته المتحكمة في بني إسرائيل واستكبار فرعون والنهاية التي آل إليها أمره، إلى ما لاقاه من بني إسرائيل من عصيان والتواء وانحراف. وفي كل مناسبة يذكر ما يلائم الهدف الذي من أجله تم عرض الجانب الخاص.

وقد يأتي التعرض لموسى في شكل إشارة خاطفة كما ورد في قوله تعالى **(إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى)**[38].

افتتحت قصة موسى في هذه السورة بلفت النظر إلى العبرة منها، ثم تتابع تفصيل حوادث كثيرة مما عنيت به القصة لتنتهي إلى ربط فوزهم عند ربهم باتّباع رسالة محمد ﷺ. ربط القرآن ب **[ثم]** بين قصة موسى والقصص التي سبقت في هذه السورة إشارة إلى أن رتبة هذه القصة وما تضمنته من مواعظ مرتبة فوق ما سبقها، كما سنعمل على الإشارة إليه.

تفتح القصة بتسجيل:

أن الله بعث سيدنا موسى ﷺ محملا برسالة منه. وأن الله قد أيده بما يثبت للناظرين صدقه، أيده بمؤيدات واضحة لا احتمال فيها. أن تلكم الرسالة كانت موجهة إلى فرعون ملك مصر، وإلى المقربين منه الذين كان لهم دور في تسيير دفة الحكم بما لهم من تأثير على فرعون. فكانوا جميعا مكلفين بالاستجابة لمضمون ما بلغهم. وأفهمُ من هذا أنه حسب النص، لم يدعُ موسى عليه السلام سكان مصر. إنّ فرعون وكبار رجال دولته كانوا ظالمين، ظلموا موسى بتكذيبه، وظلموا أنفسهم بمقابلة الدعوة بالرفض دون نظر في الحق الذي جاء به، وبالمكابرة وعدم الإذعان للمعجزات البينة.

إنّ مآلهم كان أسوأ مآل، دعا الله كل من له عقل أن يتعظ بعاقبة هؤلاء المفسدين، الذين دفعهم فساد تفكيرهم، وفساد عقيدتهم، إلى المصير الذي ستبرزه الآية فيما

---

[38] سورة الأعلى آية 18و19

بعد. وبهذا تكون فاتحة القصة داعية لكل عاقل أن يحمي نفسه من العناد والتكذيب بآيات الله.

104←108-وقال موسى يا فرعون...بيضاء للناظرين.

بعد هذه المقدمة الداعية للاعتبار أخذ القرآن يفصل مراحل القصة فسجل: أولا: عرض موسى، ﷺ، على فرعون أن رب البشر والأكوان جميعها **(رب العالمين)** أرسله لإبلاغ وحيه. خاطبه في أدب بدعائه ب **(فرعون)** الذي هو شارة الملك المصري، وأومأ من أول الأمر إلى مقام العبودية النافية لما يدعيه فرعون من الألوهية **(من رب العالمين)**. وطمأن فرعون بأنه مدرك لما يقتضيه مقام الرسالة من وجوب التحري الكامل فيما يخبره عن الله. ثم أردف أنه مؤيد بحجة بينة ظاهرة تنفي عنه الريبة فيما يدعيه من الإخبار عن الله، وأنه أذن له بأن يبلّغ فرعون: أن عليه أن يأذن لبني إسرائيل في الخروج معه ومغادرة مصر.

ثانيا: بدا فرعون، بعد سماعه للعرض، شاكا في صدقه : ولذا طلب منه أن يظهر هذه الآية البينة التي تنفي عنه التهمة وتثبت صدقه.

ثالثا: إن شأن موسى من الوثوق بنفسه هو كشأن رسل الله بعد تلقيهم الوحي، فلذلك لم يظهر المعجزة مع دعوته حتى طلبها فرعون. وإذ استراب فرعون في صدقه، وطلب منه إظهار معجزته، عند ذلك رمى على الأرض بعصاه، وإذا المفاجأة لجميع الحاضرين : أن العصا تنقلب ثعبانا حقيقيا لا تخييل فيه ولا خداع بصر. ثم أدخل يده في جيبه وأخرجها، وتحصل مفاجأة ثانية : أن يده التي كانت في لون بقية جلده تصبح بيضاء كأشد ما يكون البياض، تثير الناظرين للتأمل فيها والتنعم بالنظر إليها، فهو بياض غير معهود، إذ يجتمع في هذه المعجزة شيئان: تحول لون جلد اليد في سرعة لم تتجاوز إدخال اليد في الجيب وإخراجها منه. وأنها تحولت إلى بياض خاص يدعو الناظرين إلى متابعة الرؤية لما فيها من جمال، ومن غرابة التحول السريع، حتى ينتفي كل توهم أو تخيل، ويتم الاطمئنان إلى أن ما شاهدوه حق واقع.

قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ
فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿١١٠﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿١١١﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ

سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿١١٢﴾ وَجَآءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرۡعَوۡنَ قَالُوٓاْ إِنَّ لَنَا لَأَجۡرًا إِن كُنَّا نَحۡنُ
ٱلۡغَٰلِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمۡ وَإِنَّكُمۡ لَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أرجه : أخره.

المدائن : جمع مدينة.

حاشر : الذي ينادي ليجمع الناس.

بيان المعنى الإجمالي :

وقع فرعون في حرج بعد أن قدم موسى ما يطلبه من فرعون، وبعد إظهاره للآيتين العجيبتين المؤيدتين له. وابتدأ التداول بين الحاضرين لاتخاذ الموقف الأفضل. فكان الرأي أن يؤجل النقاش مع موسى وأخيه هارون، وأن يبعث الملك في مدائن مصر من يجمع أعلام السحرة، متوقعين أن ما أتى به موسى هو من السحر وسيتغلب عليه علماء السحرة المجتمعون. ونفذ الأمر، وحضر السحرة في مجلس فرعون مدلين بقدراتهم وعميق علمهم، وسألوه أولا عن الأجر العظيم الذي سيبذله لهم بعد غلَبهم لموسى؛ فأكد لهم بأبلغ تأكيد: إني سأمنحكم ما تأملونه وفوق ذلك أن يرقى بهم ليكونوا من حاشيته المقربين له.

بيان المعنى العام :

109-110: قال الملأ...فماذا تأمرون.

باغتت المعجزتان الظاهرتان فرعون ومن كان حاضرا مجلسه ذاك من كبار القوم ومقدميهم. وقد يكون أن فرعون طلب منهم وجهة نظرهم في هذا الإشكالية التي باغتتهم. المعجزتان بينتان ودعوة موسى لا تلائمهم.

قلبوا أوجه الرأي، فأقنعوا أنفسهم بأن ما أتى به موسى سحر عظيم من ساحر متمكن من علم السحر. وأن دعوته خطيرة جدا لأنه يريد أن يكون من بني إسرائيل عصابة حوله، يتملك عليهم ويخضعون له بالطاعة، وقد يقودهم إلى التغلب على أهل مصر كلها، أو أن دعوته إذا ظهرت في العامة فإنهم سينتقضون على حكم فرعون ويخرجون معه. استمع فرعون لمناقشاتهم، وللفروض التي رجحوها في أمر موسى، ولتصورهم للخطر الداهم الذي يمكن أن يصيب الدولة من دعوته. وعرضوا الحلول التي تتكفل بإنقاذ الموقف ؛ ثم توجهوا لفرعون ليأخذ القرار

المناسب. فطلب منهم أن يحـددوا المقتـرح الأفضـل فـي هـذا المقـام للخـروج مـن المأزق.

111 - 112- قالوا أرجه...سحار عليم.

كان الرأي المقترح، وهو الذي أخذ به فرعون : أن يؤجـل النقـاش مـع موسـى وأخيـه هارون وأن لا يعجل بالرد، وطوي ذكر هـارون فـي اللقـاء الأول، وذلـك بنـاء علـى أن القرآن في سرده للقصة قد يستغني عن بعض التفصـيلات اعتمـادا علـى مـا يـذكره في القصة في موضع آخر مراعاة لموقع تلك الجزئيـة فـي الموقـع الآخـر. وأن يبعـث في مدائن مصر من يجمع له كـل سـاحر مـتمكن مـن علمـه، ثـم يحضـرونهم إلـى فرعون. إذ هداهم مِرَاسُهُمْ السياسي إلى عدم الالتجاء إلـى الـبطش، إذ أن مـا وقـع بـين فرعون وموسى لا بد أن يكون قد شاع في أهـل مصـر، وأن تحديـه بمـا أظهـره مـن الآيات سيترتب عنه خلخلة نظام الدولة إذا لم يظهر تغلب العلماء السحرة عليه.

113-114: وجاء السحرة...لمن المقربين.

نفّذ القرار، وأقدم السحرة علـى فرعـون مـدلين بمـا عنـدهم مـن قـدرات فائقـة فـي السحر، فسألوا فرعون: أنفوز بالأجر الذي يتناسـب مـع قـوة علمنـا وغلّبنـا لموسـى. كان جواب فرعون بالتأكيد أن أجرهم مضمون، وأن منـزلتهم عنـده سـترتفع إلـى مقـام الحاشية المقربة منه.

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحۡنُ ٱلۡمُلۡقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلۡقُواْۖ فَلَمَّآ أَلۡقَوۡاْ سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ ﴿١١٦﴾ ۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَإِذَا هِيَ تَلۡقَفُ مَا يَأۡفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلۡحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

تُلقي : الإلقاء هنا عرض ما عنده مما تحدى به فرعون والملأ.

سحروا أعين الناس : جعلهما متأثرة بالسحر.

استرهبوهم : أدخلوا في نفوسهم الخوف والرهبة.

تلقف : تبتلع.

يأفكون: مضارع أفك من الإفك وهو الصرف من الحق إلى الباطل. وهو ما زوروه فقلبوا الحقائق في أعين الناظرين.

انقلبوا صاغرين : صاروا إلى مذلة.

بيان المعنى الإجمالي :

حضر السحرة معتزين بما أعدوه الذي هو أرقى ما وصلوا إليه من السحر. ولوثوقهم بقدراتهم خيروا موسى بين أن يبدأ بإظهار ما عنده أو يُقَدِّمُون عليه. مكنهم موسى من البداية؛ وحسبوا أنهم قد خدعوه، فأسرعوا بعرض ما رتبوه، وإذا الساحة الكبرى تنقلب إلى ثعابين وأفاع تتحرك في اندفاع مخيف، وتمكن السحرة من الاستيلاء على أنظار المشاهدين الذين خُدِعوا وظنوا أن ما يتحرك أمامهم حق، فاستولت الرهبة عليهم من هول ما يضطرب أمامهم. عندها أوحى الله إلى موسى يؤذنه بأن يلقي عصاه، ويتحول المشهد إلى صورة ما كان يتوقعها أحد من الحاضرين، تلتهم العصا التي تحولت إلى ثعبان يبتلع في سرعة مذهلة كل ما أعده السحرة فإذا هي أثر بعد عين. وانهزم السحرة انهزاما شنيعا وجللهم الذل بعد العز الذي دخلوا به، وذهبت آمالهم في الأجر الوفير والسمو إلى مرتبة المقربين من فرعون التي وعدهم بها. ولكن هذه الهزيمة فتحت بصيرتهم فخروا ساجدين وأعلنوا عما استقر في عقولهم: إنا آمنا برب العالمين كما عبر عنه موسى، لا بألوهية فرعون، نؤمن برب موسى وهارون الإله الحق.

بيان المعنى العام :

115- قالوا ياموسى...نحن الملقين.

هذا هو المشهد الذي اجتمع فيه موسى وأخوه عليهما السلام من جانب؛ وفرعون والملأ من قومه، وأعْلَمُ من كان في مصر من السحرة، وخلق كثير تسابقوا ليشهدوا الحدث العظيم الذي سيقوم به السحرة مجتمعين، مقدَّرٌ أن كل واحد منهم يضيف ما عنده من خبرة ومران إلى ما عند الآخرين ليتألف من مجموع ذلك سحر ما سبق للناس أن رأوا مثله.

ابتدأ المشهد بتخيير السحرة موسى بين أن يكون هو السابق في عرض ما عنده أو أن يتأخر عنهم. وذلك لإبراز ثقتهم بقدراتهم أمام الجمع الحاشد، وأنهم لا يخشون ما سيقوم به.

116- قال ألقوا...بسحر عظيم.

كان جواب موسى مختصرا صادرا عن ثقة مستندة إلى التأييد الرباني لا إلى العبث والتخيُّل الشيطاني. أجابهم بكلمة واحدة ألقوا. فاسرعوا ظنا منهم أنهم كسبوا الجولة الأولى لأن المقدم هو الذي يبقى أثر فعله في المشاهدين.وكان صنعهم محكما استولى على أنظار الحاضرين فحملقوا فيه بين الإكبار لصنعهم وبين الرهبة من الحركة التي ماج بها المشهد. وكان عملهم بالنظر إلى القيمة التخييلية سحرا عظيما جدا.

117-118: وأوحينا إلى موسى...ما كانوا يعملون.

في هذا الوقت الرهيب، وقد ظن الحاضرون والسحرة أن موسى عاجز عن مقابلة سحرهم بما يبطله، في هذا الوقت يلقي الله في قلب موسى وحيه الفاصل: ألق عصاك. كلمة مختصرة كالكلمة الأولى :(**ألقوا**)فألقى عصاه في الساحة الكبرى التي خيل للناس أنها انقلبت إلى ثعابين وأفاعي متوترة مستعدة للانقضاض والفتك. وما أعظم المفاجأة للسحرة ولمن حضر ! العصا الواحدة التي كان يمسك بها موسى تنقلب ثعبانا التهم في لحظة جميع ما كانت تموج به الساحة من حبال وعصي أخذَتْ صورة الثعابين والحيات. التهمتها فعلا لا تخييلا، ولم يبق لها أثر ولا وجود مادي، لا في أصل خلقتها ولا في الصورة التي تحولت إليها في أعين المشاهدين. فظهر في لحظة الحق النازل من تأييد إلهي، وذهب ما كانوا قدموه من أمور لا حقيقة لها، هي إذن من الباطل.

119-120: فغلبوا هنالك...ساجدين.

كان السحرة عند قدومهم معتزين بقدراتهم، واثقين بما تعاونوا على إعداده معا متكاملين فيما بينهم؛ ما كانوا يتخيلون أن يذهب كل ما أعدوه في لحظة وينهار علمهم وتميزهم في اختصاصهم، وتذوب الآمال العريضة التي كانوا يأملون فيها، من عظيم الأجر وبلوغ مرتبة القرب من فرعون. تحول شموخهم إلى ذلة وصغار.

121-122: قالوا آمنا... وهارون.

ثم اقتحمت عقولهم حجة الحق الذي ساد اللقاء بينهم وبين موسى، وذهبت الغشاوة التي حجبت أرواحهم عن الوصول إلى الحقيقة، فسجدوا لله تعبيرا عن الخضوع لجلاله واليقين بأنه هو المتصرف في الكون حسبما قدره واختاره. ثم صرحوا بما استقر في عقولهم فقالوا: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون. تبرأوا مما كانوا يعتقدونه، وتبعوا موسى في قوله: رب العالمين، ثم نفوا كل لبس عن عقيدتهم :إن

الذي يؤمنون بألوهيته ليس فرعون المدعي لنفسه أنه ربهم، ولكنهم يؤمنون برب موسى وهارون الواحد الفرد.

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا۟ مِنْهَآ أَهْلَهَا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٢٣﴾ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾

بيان معاني الألفاظ:

من خلاف: قطع اليد من جهة والرجل من الجهة الأخرى.

الصلب : الربط على الخشبة وقد يتبعه القتل عليها وقد لا يتبعه.

منقلبون : راجعون.

تنقم : إنكار على الفعل مع حقد على فاعله.

أفرغ علينا صبرا: عُمّنا كما يعم الماء من أفرغ عليه .

بيان المعنى الإجمالي:

تغيظ فرعون من موقف السحرة، فزمجر فيهم مؤنبا منكرا، كيف تسمح لكم نفوسكم أن تؤمنوا قبل أن تتلقوا الإذن مني، وهي جريمة لا تغتفر أن يتحرروا فيما يعتقدونه، وجريمة أخرى أنكم تآمرتم مع موسى لتخرجوا قسما من المواطنين من بلدهم. سوف تعلمون ما سأحله بكم من العذاب، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، تقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى والعكس، ولأسمرن أيديكم وأرجلكم في جذوع النخل، ولا أستثني أي واحد منكم. أجابوه في تحد وطمأنينة بما رزقهم الله من الإيمان : إنا صائرون إلى ربنا، ما الذي أغاضك فحقدت به علينا ؟ إيماننا بربنا الذي لمست آياته البينة قلوبَنا وعقولنا فانقدنا لها. ثم أعرضوا عن فرعون وتوجهوا توجه الواثق المطمئن إلى ربهم داعين أن ينزل عليهم صبره الذي يعمهم كما يعم الماء النازل كل أجزاء الجسم، وأن يختم لهم حياتهم على الإسلام.

بيان المعنى العام:

المشهد التالي الذي سجله القرآن، هو الوضع المختلف بين ما كان عليه الأمر قبل ظهور الآية التي أذعن لها السحرة وبعد انقلاب العصا حية أتت على كل ما قدموه فابتلعته.

123-124: قال فرعون آمنتم...لأصلبنكم أجمعين.

يظهر فرعون وقد تملكه الغضب، وثار في نفسه الاستكبار والقسوة التي تجري في عقول الظلمة على مر التاريخ، مما يجعلهم يتصورون أن الناس عبيد لهم يتصرفون في عقولهم وعواطفهم وجميع ملكاتهم، عليهم أن لا يتحركوا إلا بإشارتهم، ولا يؤمنوا إلا بما يرضونه. صدر منه ما يعبر عن كل ذلك بقوله: منكرا إنكارا مبطنا بالتهديد، كيف تؤمنون بإله موسى قبل أن يصدر لكم الإذن مني. على أن تجاوز الانتظار لإذنه هي الجريمة الكبرى الأولى. والجريمة الثانية تتمثل في اتهامهم بأنهم تآمروا مع موسى في الخفاء مؤامرة تقسم الشعب، وتفتح الباب لخروج بعض المواطنين من أرضهم التي ألفوها، إذ هم من أهلها.

ألبس فرعون هاتين الجريمتين للسحرة ليكون وعيده بالانتقام منهم انتقاما لا يتصورونه الآن ولكنه سينزل بهم فيعلمونه (**فسوف تعلمون**) صدره يغلي بالحقد شأن المستكبرين عندما يُسْقَط في أيديهم ويشعرون باهتزاز سلطانهم. المقبول والمعقول عندهم هو الطاعة ولا شيء وراء ذلك، ثم ألقى في قلوبهم الفزع بأنه سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، فإذا قطع اليد اليمنى أتبعها بالرجل اليسرى، والعكس. وأنه سيصلبهم فسيسمر أيديهم وأرجلهم ، ولا يستثني أي واحد منهم من العذاب.

125-126: قالوا إنا إلى ربنا...وتوفنا مسلمين.

وفي مقابل هذا الغضب الهادر يجيب السحرة المؤمنون وقد حلت السكينة قلوبهم فيتحدونه في هدوء: إنا صائرون إلى ربنا. لماذا تحقد علينا هذا الحقد، ثم أشاروا إشارة تنفي اتهامهم بالمؤامرة بأن إيمانهم كان هو الموقف الذي يتخذه كل عاقل: عقلنا الآيات التي جاءتنا من عند ربنا فآمنا بها.

ثم يسمو موقفهم إلى مرتبة راقية فيتوجهون بالدعاء والابتهال إلى الله أن ينزل عليهم الصبر الذي يعم إحساسهم ومشاعرهم، ثبتنا ربنا على إسلام كل قوانا إليك وحدك. ويتضاءل أمام هذا الدعاء الخاشع فرعون حتى ليبدو وكأنه حفنة من تراب لا قيمة لها في نظرهم.

وفي هذا المشهد ما يدفع المؤمنين في كل عصر ومصر إلى الثبات والصبر والتأسي بما فتحه الله على الذين جاؤوا ليتغلبوا على موسى ويفضحونه، فشرح الله صدورهم واستهانوا بالطاغية وتحدوه.

وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ
وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾
قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ
عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ
قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ
تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

قاهرون : غالبون مذلون.

العاقبة : النهاية بما يسر ويلائم.

أوذينا: أُصبنا بما يُؤلمنا ويُحزننا.

بيان المعنى الإجمالي :

أخذ اتّباع موسى في الانتشار وخشي المقربون من فرعون على مصالحهم المرتبطة به، فأغروه بالانتقام منهم وهوّلوا الخطر المتوقع على سلطانه وعلى المقدسات في مصر. وتمكنوا من إثارته، فأعلن عن عزمه على قطع دابر الفتنة التي أحدثها موسى، وذلك أنه سيقتل الذكور من بني إسرائيل قوم موسى، ويبقي الإناث للاستمتاع والخدمة، وأنه صمم على إذلالهم وقهرهم حتى لا تكون لهم شوكة.

واشتد الضغط على بني إسرائيل فتولى موسى رفع معنوياتهم، وأن النصر سيكون حليفهم إذا جمعوا بين ثلاثة أركان : قوة الإيمان والاستعانة به في كل كربة تحل بهم أو خطة ينفذونها – خلق قوي متين يحالفون الصبر للمواصلة وللتغلب على الصدمات فلا ينهارون أبدا – أن الأرض لله، وتصرفُ فرعون فيها هو إلى أمد قليل والذي يتمكن من التصرف في النهاية هم عباد الله الذين يسيرون على سننه في الفكر والعمل.

ومع تواصل الضغط من فرعون وملئه هرعوا إلى موسى معبرين عن شدة تبرمهم من الوضع الذي هم عليه، فقد تواصل التنكيل بهم وتتابعت إذايتهم بالقول والفعل من قبلِ أن يأتي موسى ومن بعد دعوته لفرعون. كان جوابه تعبيرا عن رجائه

القوي، بناء على ما أوحى الله له به، في إهلاك فرعون، وأن الله سيمكنهم من أرض لهم السيادة عليها ليعمروها حسب ما يرضى عنه الله، وأنه سيرقبهم ويحاسبهم عن عملهم.

بيان المعنى العام:

127- وقال الملأ...فوقهم قاهرون.

أحاط فرعون نفسه بجماعة من علية القوم يتملقونه، ويدفعونه إلى ما يتناسب مع طبيعة الاستبداد التي يَسير بها في حكم مصر. شأنه في هذا هو شأن المتسلطين الظالمين على مر التاريخ، لا يُقَرِّبون إلا من يزين لهم القهر، الذين يبررون ويرتبون ما يواصل به الاستبداد. ولذلك بادروا بتقديم رأيهم المبني على التهويل، وإظهار خوفهم على النظام أن يختل فتفسد الأمور بهذه الدعوة التي شاعت في الشعب، وأن يسقط التصور العقدي فيتركون عبادتك وتقديس آلهتك. على معنى أنهم سينتقضون عليك، وأن الدولة ستخرج من النظام إلى الفوضى، ومن الوحدة إلى التشتت والتمزق. وبكلامهم هذا وصلوا إلى النقطة الحساسة التي تثير فرعون وتغريه بالانتقام من موسى وممن اتبعه. ويبطنون من وراء ذلك حماية المزايا التي يتمتعون بها في سلطة فرعون.

واستطاعوا فعلا أن يُغْرُوا فرعون بالانتقام، فأعلن عن الخطة التي سيواجه بها موسى ومن اتبعه: هي خطة تحتوي على ترتيب طرق خبيثة ماكرة للإذلال تتمثل في قتل الذكور حتى ينقطع نسلهم، والإبقاء على النساء للاستمتاع والخدمة، والتسلط القاهر عليهم الذي يقضي على ما بقي فيهم من كرامة فيخضعون لسلطانه أذلاء. والذي يدل عليه تسلسل الأحداث أن فرعون لم يسرع بتسليط العقوبة على السحرة، وأن ما حدث قد شاع أمره، وأن اتّباع موسى من بني إسرائيل ومن القبط قد ازداد عددهم، فأحس بالخطر منهم على سلطانه.

128- قال موسى لقومه...والعاقبة للمتقين.

ثم ظهر دور القائد الملهم المؤيد في خضم هذه الفتنة وقرارات البطش. إن الأساس الذي يحفظ لأتْبَاعِهِ وجودهم واستمرارهم، هو شعورهم بقوتهم وأن لا ينهزموا نفسيا باليأس ولا يركعوا للظلم. أمرهم أن يحسنوا التوكل على الله توكلا فاعلا يجعلهم واثقين من أنفسهم في التحدي لفرعون وتهديداته بفضل ما يرقبونه من عون من الله، ولتكن كل مصيبة يصابون بها تزيدهم صمودا لمواصلة الوجود. ثم أعلن لهم حقيقة هي ركيزة البقاء : إن الأرض التي يتصرف فيها فرعون تصرف

التعسف، لا يملكها ولا يبقى له التصرف فيها. إن الأرض لله يمكن منها من يشاء من عباده، حسب سننه سبحانه في الاستخلاف.

والاستبداد نذير خراب ينتهي بصاحبه إلى فقد ما مُكّنَ منه، وما يتحقق في النهاية هو فوز المتقين الذي يحترمون سنن الله في الفكر والعقيدة والعمل

فدلهم بهدي النبوة على أركان النجاح الثلاثة.

1) القوة النفسية الواثقة من ربها المستعينة به.

2)القوة الخلقية بالصبر على المواصلة وعدم الانهزام.

3) التقوى بصلاح العقيدة والعمل.

128-قالوا أوذينا...كيف تعملون.

كان رد قومه على ما قوّى به عزائمهم وما طمأنهم به وما بينه من خطة النصر، أن عبروا عن تبرمهم من الوضع الذي هم عليه وأعلنوا نفاد صبرهم قائلين : إنه قد تواصل تعذيبنا وإذايتنا بالقول والفعل من قبل مجيئك وإلى الآن.

كان جواب موسى أصرح قليلا مما دل عليه نصحه وعرضه السابق، ممّا يفهم منه أنه تكلم بناء على وحي من الله فهم منه أنهم على رجاء أن يحقق الله لهم النصر على عدوهم فرعون ، وأن الله سيمكنهم من الأرض التي لا يكونون فيها عبيدا لأحد بل متصرفين فيها تصرف المستخلفين. المهمة التي أوكلت لآدم وذريته. ونبههم إلى أن استخلافهم هو استخلاف المسؤولية ليراقبهم في تصرفهم فيها.

وَلَقَدْ أَخَذْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

أخذنا : أصبنا.

السنين : الجدب والقحط.

الحسنة : النعم المتنوعة والكثيرة.

يطيروا : يتشاءموا.

آية : العلامة التي تدعي أنها تؤيدك وتثبت صدقك.

الطوفان: الفيضان العظيم.

الجراد: حشرة تتكاثر بسرعة وتهلك كل ما مـرت عليـه مـن النبـات ولحـى الشـجر. يبدأ ضررها في صورة أرجال كاسحة، ثم تتحول إلى طائرة.

القمل : بضم القاف وتشديد الميم غير القَمْل بفتح القاف والميم. فالثاني حشرة طفيلية تمتص دم الإنسان وتنقل له بعضا من أنواع الجراثيم. والأول دويبة من جنس القردان، تلتصق بالبعير عند هزاله، وتفتك بالسنبلة وهي غضة قبل أن تخرج.

الضفادع : جمع ضفدع حيوان معروف يعيش في البرك وفوق اليابسة.

الدم : السائل الأحمر اللون الذي يجري في عروق الحيوان والإنسان.

مفصلات: يتبع بعضها بعضا غير مجتمعة.

استكبروا : تعاظموا.

بيان المعنى الإجمالي :

واصل فرعون وقومه غرورهم، وتحدوا موسى بـأنهم لا يؤمنـون بـه مهمـا قـدم لهـم مما يدعي أنه معجزة. وعندها أخذت الآفات تتـابع علـى فرعـون وقومـه، موقعـة لهـم في أشد الحرج. أرسل الله عليهم الفيضـانات تـدخل البيـوت فتفسـد المتـاع والمخـزون من الطعام واللباس بما يصحبها من وحل. ثم بعد ذلـك ابـتلاهم بـالجراد تتـابع أرجالـه تقضم كل أخضر وتأكل لحى الأشـجار فتمـوت. ثـم مكـن القمـل مـن التكـاثر كثـرة عجيبة فلصق بهم وبحيوانـاتهم وبثمـارهم فأفسـدها. وهـو غيـر القمّـل الـذي يعلـق بالإنسان في ظروف اجتماع الوسخ والدسومة. ثم سلط علـيهم الضـفادع تَنِقُّ فـي كـل مكان في قدورهم ومخادعهم وعلى أجسامهم، في حياتهـا بـلاء وفـي قتلهـا مـا يوجـب التفسخ والتقزز.

ولكن فرعون وقومه أهلكهـم مـا طبعـوا علـيهم أنفسـهم مـن تـوهم أنهـم عظمـاء لا يتبعون موسى. فكان الذي يقودهم في حياتهم الإجرام الذي رسخ في نفوسهم.

بيان المعنى العام :

130-131: ولقد أخذنا آل فرعون...أكثرهم لا يعلمون.

استمر الوضع أمدا، موسى ينشر دعوته، وفرعون يـوالي الضـغط علـى بنـي إسـرائيل ومن آمن. وتظهر المصائب الأولى التي من شـأنها أن تـوقظ النـاس لتعـديل سـلوكهم، فأصابهم الله بالجدب والقحط، فلا الأمطار تنزل ولا النيـل يفـيض فينشـر علـى جنباتـه الخير والنماء، ولا المزارع تنبت الحبـوب والبقـول علـى نطـاق واسـع، ولا الأشـجار

تزهر فتحمل الثمرات بما يكفي الناس. يقول تعالى : فعلنا بهم ذلك رجاء أن يتذكروا فيتوبوا إلى رشدهم. وصياغة هذه الآية جاءت على ما هو المعروف عند البشر، فإن من شأنهم أنهم إذا توالى عليهم الخصب والسعة اطمأنوا، وأنساهم الإلفُ التفكيرَ في القدرة التي يسرت ما يسرته. وأنهم إذا تحول الخصب إلى جدب يتساءلون ويعودون لأنفسهم قصد إصلاحها. وصياغة الآية على هذا النحو داع للأمة الإسلامية أن تستيقظ عندما ينزل بها عسر، وأن تعود إلى ربها بالاستغفار وعمل الصالحات.

ويلوح سؤال عن التأثير الذي حصل لهم بعد ذلكم التذكير، فبينت الآية أنهم أوغلوا في الكفر والعناد، فإذا يسر الله لهم نعمة من النعم قابلوا الفضل بالكفر عوض الشكر وقالوا: هذه النعمة حق لنا. وإن جاءهم ما يسوؤهم تشاءموا بموسى ومن معه، على معنى أن الآلهة غضبت لما ابتدعوه فانتقمت من الجميع. ويرد القرآن هذا التصور الذي حدث في قصة موسى، والذي يحدث على مر الأزمان بتحقيق : إن الله هو المالك المصرف للأمور فليس ما يحدث مسببا عن الاقتران الظاهري، ولكنه بفعل الله وتقديره. ولكن أكثر الناس لجهلهم بسنن الكون وعموم التدبير الإلهي لمسيرة الحياة في كبيرها وصغيرها يقعون فيما وقع فيه قوم فرعون.

ومن الدقة القرآنية أن عبر القرآن بـ **(ولكن أكثرهم لا يعلمون)** فلم يعمم الجهل على كل فرد، ولكن بعضهم يعلمون أن لا رابط بين موسى وبين ما حصل من الجدب ونقص الثمار.

132- وقالوا مهما... فما نحن لك بمؤمنين.

ثم تحدوا موسى قائلين: إن كل ما تأتي به من الأشياء التي تقدمها دليلا على صدقك، فحقيقتها أنك تريد أن تسحرنا بها، فإنا قد عقدنا العزم على الكفر بها. وإذ بلغ بهم العناد هذا الحد سلط الله عليهم من البلايا ما يخضعهم ولا يبقي لهم شبهة.

133- فأرسلنا عليهم الطوفان...وكانوا مجرمين.

أرسل الله عليهم الفيضانات التي تهلك متاعهم ومزارعهم، بما يصحب الطوفان من وحل ومن تخريب للبنية الاقتصادية. وبعد ذلك أرسل عليهم أرجال الجراد التي ما مرت على أرض إلا تركتها جرداء لا تبقي على أخضر ولا على لحاء الأشجار. وبعد ذلك أرسل عليهم القمل وهو نوع من القردان يعلق بالحيوانات فيمتص دماءها ويعلق بالأشجار فيفسد ثمارها. وهو غير القمل بفتحتين الذي يعلق بالإنسان عند

توفر ظـروف تكونـه مـن الأوسـاخ والدسـومة ويمـتص دم الإنسـان وينقـل بعـض الجراثيم نقلا يصل إلى الوباء العام.

ثم أرسل عليهم الضفادع وقد هيأ لها سبحانه ظروف تكـاثر خارجـة عـن العـادة، فـإذا هي تقتحم طرقهم ومساكنهم وتنـزل فـي طعـامهم وفـوق رؤوسـهم وعلـى أجسـامهم. ففي حياتها كرب لهم وبعد قتلها قـذارة وتفسـخ أزعجهـم أشـد الازعـاج. ثـم أصـيبوا بالدم وهل المقصود بالدم وبـاء الرعـاف، أو تحـول النيـل إلـى لـون أحمـر كالـدم ينقزز من شرابه أو استعماله في شؤون الحياة ؟ وفـرض الشـيخ محمـد الطـاهر ابـن عاشور أن المياه حملت دودا أحمر حول لكثرته لـون الميـاه إلـى حمـرة. كانـت هـذه البلايا آيات تحدى بها موسى عليه السلام فرعون وقومه. لـم يجمعهـا علـيهم فـي زمـن واحد، ولكن بعد أن تضيق حياتهم بآفة ويحصل لهم الفرج منها، تعقبها آفة أخرى.

ولكن الآفة العظمى ما كان كامنا في نفوسـهم مـن الاسـتكبار والتعـاظم، وتـوهم أنهـم فوق أن يؤمنوا بموسى. ولتأصل الإجـرام فـي تـركيبهم النفسـي، قـابلوا البلايـا التـي صبت علـيهم صـبا، والتـي كانـت معجـزات واضـحة، قابلوهـا بـالرفض والتعـالي الكاذب.

وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ
عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ
إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ
كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ
يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۖ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ
ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ۖ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ
وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الرجز: العذاب.

عهد عندك : ما أودع عندك من الأسرار.

ينكثون : ينقضون ما عاهدوا عليه.

الانتقام: العقوبة الشديدة.

أغرقه : تسلط عليه بكيفية يجعله واقعا تحت الماء غير قادر على التنفس.

اليم : بحر القلزم، البحر الأحمر.

الغفلة : أصلها ذهول الذهن عن الشيء، والمراد بها هنا الإعراض.

يستضعفون : يُستعبَدون ويُهانون.

الأرض : أرض الشام.

باركنا فيها : أكثرنا خيراتها.

كلمة ربك الحسنى : كلمة ربك البالغة تمام الحسن لأنها لا تقبل الخلف.

التدمير : التخريب الشديد.

ما كان يصنع فرعون وقومه: ما رُتب ونُفذ من المصانع.

يعرشون : يرفعونه فوق الأرض من الأشجار والمباني.

بيان المعنى الإجمالي :

فصل هذا المقطع ما يقابل به فرعون وقومه البلايا النازلة بهم، فذكر أنهم إثر نزول العقاب المخرب لنظام حياتهم يلجؤون إلى موسى يطلبون منه أن يدعو ربه رفع ما نزل بهم من بلاء، وأنهم في المقابل يؤمنون به مبعوثا من إلهه ويخلون بينه وبين بني إسرائيل ليخرج بهم من أرض مصر. ولكنهم كلما رفع عنهم العذاب نقضوا عهودهم فيعاودهم الله بعذاب آخر. ولم يؤخرهم الله إلى ما لانهاية له فبعد الكوارث الخمس أغرقهم في البحر الأحمر وقطع دابرهم، لتكذيبهم بالآيات الواضحة وإهمالها كأنها لم تبلغهم. ومكن الله بني إسرائيل بصبرهم ومغالبتهم للقهر الفرعوني من جميع الأرض التي قدر فيها الخيرات الوافرة، وخرب ما شيده فرعون وقومه من المنشآت الحضارية، وأهلك جناتهم التي رفعوا أشجارها ونظموها بطرق تضاعف الإنتاج.

بيان المعنى العام :

134-135: ولما وقع عليهم...إذا هم ينكثون.

سجل القرآن الطريقة التي قابل بها فرعون والملأ أنواع العذاب التي سلطت عليهم تباعا. كانوا كلما صب عليهم نوع من العذاب التجأوا إلى موسى طالبين منه أن يدعو ربه كي يرفعه عنهم، وفي المقابل يصدقونه ووعدوه بتمكينه من الخروج ببني إسرائيل من مصر. وفي صياغة ذلك خصائص تدعوني إلى بيانها :

1) نسبوا الرب لموسى ولم يعترفوا بأنه رب العالمين كما عرفه موسى ؛ وذلك لأنهم كانوا يؤمنون بتعدد الآلهة فغاية ما قبلوا أن يثبتوه لموسى أن الذي فعل بهم

ما فعل، هو ربه الذي يعبده، ومعناه ادع ربك(**الخاص**) بما علمك واستقر في قلبك من الطرق التي يستجيب لك عندها.

2) أن سيدنا موسى كان يأخذ عليهم في كل مرة عهدا مؤكدا : أنه بمجرد ما يُرفع عنهم العذاب يصدقونه في أنه مرسل ويمكنونه من إخراج بني إسرائيل من أرض مصر، وليس معنى ذلك أنهم يؤمنون بالله رب العالمين ولكن يصدقونه حسب عرفهم أنه مرسل من ربه.

3) أنه كلما كشف الله عنهم العذاب ينكثون ما أخذه عليهم من مواثيق ويحولون بينه وبين الخروج بقومه. وكشف العذاب كل مرة هو إلى أجل. ذهب مفسرون إلى أن الأجل هو نهاية الحياة إذ كل واحد بعد رفع العذاب سيبلغ الأجل المقدر له، ورأى آخرون أن الأجل هو الأجل المقدر لإهلاكهم. والذي يترجح عندي أن الله يكشف عنهم العذاب الأول استجابة لدعاء موسى، وأن هذا الكشف يستمر إلى الأجل الذي ييأس فيه موسى من وفائهم، وهم سينتهون إلى هذا الأجل لأنهم مصممون من أول الأمر على نقض العهد. وكذلك في العذاب الثاني ثم الثالث والرابع والخامس.

136- فانتقمنا...عنها غافلين.

إنه بعد هذا التلاعب منهم حق عليهم الانتقام الذي لا مثنوية فيه ولا تأجيل، فتم إغراقهم في البحر حسبما يأتي تفصيله في سورة يونس. وذلك جزاء تكذيبهم بالآيات البالغة من الوضوح مرتبة عالية، وإعراضهم عنها رغم ذلك حتى كأنها لم تعرض عليهم.

137-وأورثنا القوم... وما كانوا يعرشون.

ثم سجل القرآن أن تنفيذ ما قدره الله وحسن عونه قد أسعف بني إسرائيل الذين تسلط عليهم التعسف والقهر وتم إذلالهم، فأورثهم أرض الشام كلها من المشرق إلى المغرب، الأرض التي بارك الله فيها بخصب إنتاجها وحمايته من الطفيليات فتضاعفت محاصيلها. وفي ذلك من تطمين للمؤمنين في مكة أن سنة الله في الأمم التي سبقتهم، أنه ولي المستضعفين الذين يأخذون بأسباب النصر، التي تقوم أولا على الصبر الإيجابي الذي يغالب ولا ينهار أمام التعسف المادي. ينصرهم وتكون لهم العاقبة ويحصل لهم الأمن والسيادة على المواطن التي يحلون فيها.

وبهذا تحققت الإرادة الإلهية والوعد الرباني بتمليك بني إسرائيل الأرض التي بشرهم موسى بها، وذلك لأخذهم بسنن مغالبة الاضطهاد، وبصبرهم وتحديهم لبطش فرعون وزبانيته. كما تحققت سنة الله في العمران: أن الظلم سائق الخراب

والدمار. فخرب سبحانه ما كان يعتز به فرعون وقومه من المنشآت الحضارية المتنوعة، وما كانوا يرفعونه من الأشجار في جناتهم فوق الأرض.

وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾

بيان معاني الألفاظ:

المجاوزة : البعد عن المكان عقب المرور فيه.

أتوا على قوم : مروا على قوم.

العكوف : الملازمة بقصد العبادة.

تجهلون: جهلة بمفاسد عبادة الأصنام.

متبر: مهلك.

يسومونكم :يحملونكم ويسلطون عليكم.

بلاء: اختبار وامتحان.

بين المعنى الإجمالي :

يسَّر الله بفضل منه لبني إسرائيل أن يخرجوا من مصر ويعبروا البحر الأحمر وينتقلوا من إفريقيا إلى آسيا. ومروا في مسيرتهم تلك على قوم مستغرقين في عبادة آلهتهم، فأعجبوا بهم وطلبوا من موسى أن يجعل لهم إلها مجسما قريبا منهم كما هو وضع القوم الذين مروا عليهم. وأنكر موسى عليهم طلبهم ذاك واصفا لهم بأنهم مغرقون في الجهل، وأيضا فإنه من شدة الغباوة ونكران الجميل أن يتقدموا بمثل هذا الطلب والقوم الذين طلبوا أن يكونوا مثلهم، هم إلى دمار في عقيدتهم وفي مقومات مجتمعهم، وهم على باطل.

وذكرهم بأن الله فضلهم على أهل زمانهم ببعث رسول فيهم موحى إليه بشرع يهديهم للتي هي أقوم في حياتهم، كما ذكرهم بأن الله أنجاهم من بطش فرعون وآله الذين كان يستأصلون الذكور منهم قصد إفنائهم ويستبقون نساءهم ليستمتعوا بهن

ويقمن بالخدمة. وفي هذا الهوان المسلط ابـتلاء مـن الله عظـيم، فكيـف تطلبـون اليـوم إلها غيره ؟

بيان المعنى العام:

138←141: وجاوزنا ببني إسرائيل...من ربكم عظيم.

قطع بنو إسرائيل البحر الأحمـر بعـون مـن الله، فـانتقلوا مـن القـارة الإفريقيـة مـن أرض مصر إلى الجهة المقابلة من القـارة الآسـيوية. مـروا فـي رحلـتهم علـى قـوم يعبدون الأصنام. أعجب الإسـرائيليون بطـريقتهم فـي العبـادة، وقـرب إلههـم مـنهم، فطلبوا من رسولهم وزعـيمهم، موسـى عليـه السـلام، أن يجمعهـم علـى إلـه مجسـم وقريب منهم كما هو حال الذين شاهدوهم. طلبوا ذلك لأنهـم نسـوا العهـد الموثـق الـذي أخذه الله على إسـرائيل : أن يفـرد هـو وذريتـه، الله بالعبـادة ولا يشـركوا بـه شـيئا **(ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصـطفى لكـم الـدين فـلا تمـوتن إلا وأنتم مسلمون)**[39].

كان جواب موسى عن مقترحهم ردا قويا عنيفـا يتناسـب مـع غلـظ أكبـادهم وغبـائهم وقساوة مشاعرهم، قال لهم : إنكـم قـوم انغمسـتم فـي الجهالـة، ذهـب مـنكم العلـم وأصـبحت تصـوراتكم ملوثـة بالباطـل مجافيـة للحـق والواقـع. إن هـؤلاء الـذين استهواكم ما هم فيه من عبادة الأصنام هـم قـوم هلكـى منغمسـون فـي الباطـل ؛ ثـم أردف موبخا لهم متعجبا من طلبهم أن يقيم لهم إلهـا غيـر الله، ونعمـه التـي أنعـم بهـا عليكم لا تحصى قائلا لهم: كيف أبحث لكم عـن إلـه، والله فضـلكم علـى العـالمين فـي هذا الزمن، فخصـكم بـإنزال شـريعته علـيكم دون بقيـة النـاس، وأبـان لكـم مـنهج التوحيد، وأنقذكم من فرعون. وذكّرهم بمـا سـلطه علـيهم فرعـون مـن ظلـم وعـذاب وإهانة، إن إنجاء كم من بطـش فرعـون وآلـه الـذين صـمموا علـى إفنـائكم بتقتيـل الذكور وإبقاء النساء للخدمة والاسـتمتاع، إن فـي ذلكـم اختبـارا لكـم لتظهـروا شـكر النعمة أو كفرانها. فكيف تطلبون مني أن أجعل لكم إلها كإله عبدة الأوثان؟

۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى

[39] انظر ما قدمناه في سورة البقرة آية132

وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الميقات : الزمن الذي قدر فيه عمل.
اخلفني : كن خلفا عني تسير الأمور حسبما كنت أسيرها.
جاء لميقاتنا: حضر في الموعد بدون تأخير.
تجلى: ظهر بدون حجاب.
دك: تفرق وانهد.
خر : سقط على الأرض.
صعق: مصعوقا، وهو الذي يفقد إدراكه عند صيحة قوية، أو انفجار، أوصدمة، أو نزول صاعقة من السحب.
أفاق : رجع له وعيه وإدراكه.
أول المؤمنين : المبادر بالإيمان.
اصطفيتك : آثرتك وفضلتك.

بيان المعنى الإجمالي:

ضرب الله موعدا لموسى يلقاه فيه مقداره ثلاثون ليلة بأيامها، وأضاف إليها بعد ذلك عشر ليال بأيامها، فتم اللقاء في أربعين ليلة. وقبل أن يتوجه للموعد أناب عنه في تسيير أمور بني إسرائيل أخاه هارون، وأوصاه بان يعتبر نفسه خليفة له زمن مغيبه بسيَّر ببني إسرائيل في جمع كلمتهم وإجابتهم عن أسئلتهم وفض قضاياهم الفردية والاجتماعية على النحو الذي عهده هارون منه، وأن يكون همه نشر الصلاح في جميع شؤون حياة قومه، وأن يكون يقظا من تسرب الداء الذي يصيب كثيرا ممن يتولون حكم الجماعات البشرية، المتمثل في تقريب عصابات السوء منهم، فحذره من الفساد ومن تقريب المفسدين منه أو أن يتبع مسلكهم فإنه لا ينتهون إلا إلى الخراب ؛ وإن كانوا في بادئ الأمر لا يظهرونه.
لما جاء موسى للميقات نال من ربه أعظم تكرمة إذ تلقى في كيانه كلام ربه بدون حرف ولا صوت كما يليق بتنزيهه التنزيه الكامل عن شبه المخلوقات. ثم طلب

موسى من ربه أن يتفضل عليه فيمكنه من رؤية ذاته على ما يليق بها من التنزيه. وأجابه ربه أولا بأنه لن يراه في الحاضر ولا في ما يستقبله من أزمان الحياة الدنيا. وجسم له صورة تعرفه بسبب ذلك قائلا له : انظر إلى الجبل أمامك وسأرفع الحجاب بيني وبينه، فلما رفع المولى سبحانه الحجاب بينه وبين الجبل اندك الجبل وتفتت، وخر موسى على وجهه فاقدا للإدراك. ثم إنه عندما أفاق عاد على نفسه باللائمة وتوجه إلى ربه بالتقديس والتمجيد والتوبة من تقصيره في التفكر عندما سأل الرؤية.

وذكر المولى سبحانه موسى بالمنن التي خصه بها فقال له : إني ميزتك على الناس وفضلتك بتحميلك إبلاغ رسالتي وإقناع الناس بها، وفضلتك بكلامي لك مباشرة. وهذا ما يحتم عليك أن تقوم بالمهمة التي وكلت إليك وأن تكون من حزب الشاكرين لنعم الله عليك.

بيان المعنى العام :

142 - 143: وواعدنا موسى ثلاثين ليلة...أول المؤمنين..

كما تقدم في سورة البقرة آية 51 أن الله وقت الله لموسى أربعين ليلة، ودققت آية سورة الأعراف أن المواعدة كانت لمدة ثلاثين ليلة ثم أتمها الله بعشر. فكانت حسب الحاصل في ذهن موسى ﷺ مفصلة ثلاثين أولا، ثم أتمها بعشر فصارت أربعين ، وهي في علم الله سبحانه أربعون ليلة أمر بها موسى ثلاثين فعشرة. وللمفسرين أقوال في تحديد الحكمة من هذا العدد، وما تم فيه. والذي تدل عليه الآية ويقتضي منا الوقوف عنده وعدم مجاوزته، هو أن الله ضرب موعدا لموسى فصله إلى فترتين الأولى بثلاثين والثانية بعشرة والمجموع أربعون ليلة بأيامها. وأن موسى ﷺ قد أتم ما طلب منه في الأجل المحدد، وأنه استخلف على بني إسرائيل، قبل قدومه إلى الميعاد، أخاه هارون ليرقبهم في سلوكهم، ويصلح ما يمكن أن يزعزع وحدتهم أو يحرف مسيرتهم التي يرضى الله عنها، وأوصاه أن يحذر من المفسدين الذين يتسللون للمجتمع فيخربونه. وهذا النهي جماع ما يحقق استقامة الأمة وعدم انحرافها، فإن راعيها يجب أن يكون بعيدا عن الفساد، أو أن يجعل في حاشيته مفسدين، أو أن يسير في طريق المفسدين، فالمفسدون ضالون مخربون لبناء المجتمع، وإن كانت أعمالهم في بداية الأمر لا يلوح عليها فساد، إلا إنهم تبعا لما ألفوه هم مهيؤون للانحراف على نحو ما تعودوا عليه، ولذلك نهى موسى ﷺ أخاه

أن يتبع سبيل المفسدين وإن كان لم يظهر على عملهم فساد في أول الأمر. وسجلت الآية ما تم في ملاقاة موسى لربه. فذكرت أمرين :

أولهما: أن الله كلم موسى، وهذا الكلام ليس بتموج الصوت في الهواء ولا بقرع الأذن بالذبذبات الصوتية، ولا كالكلام الذي يقع به التخاطب بين البشر في الدنيا. هذا مما يجب أن يكون واضحا لا لبس فيه. والذي يجب أن يفهم عليه كلام الباري لموسى : أن موسى حصل له إدراك لما شرفه به ربه من الكلام، بحيث حصل له هذا الإدراك والوعي للخطاب الإلهي، فأكسبه اليقين الأيقن أنه خطاب إلهي، واستقر في وعيه عليه السلام كل المعاني التي أراد الله أن يخاطبه بها استقرارا بالغا الدرجة القصوى من اليقين والوضوح، وأن كل ذلك قد تم بدون صوت يتموج ولا بحرف يقرع القرع المميز له. ووجه بعضهم أن الكلام حل في شجرة وهي الواسطة بين موسى وربه، وآخرون أن الكلام كان يصل إليه من جميع الجهات، وهي توجيهات لا تستند لدليل صحيح ولا تكشف السر. والذي نجزم به أن موسى فاز في هذا اللقاء بمرتبة عظيمة فضلا من الله ونعمة.

ثانيا : أن هذا التفضل والحُظوة التي حصلت له بتلقي مداركه لكلام الله، الذي يسمو عن كل ما يتصور من جمال الإحساس، أطمعه ذلك أن يسأل ربه رفع الحجاب، وأن يمكنه من رؤيته كما أقدره على سماع كلامه، فقال : رب أرني ذاتك أنظر إليك. وجاءه الجواب بالرفض لسؤاله، ونفاه بلن المفيدة استمرار النفي فيما يستقبل من أزمان الدنيا. وأقام له ما يُفهمه السبب في عدم استجابة طلبه بصورة مجسدة واضحة بينة. فأمره أن ينظر إلى الجبل القريب منه ويتأمله، فإن الله سيتجلى للجبل تجليا يرفع الحجاب الذي جعله سبحانه بين الخالق والمخلوق، فإن قدر الجبل الصلد على البقاء مع رفع الحجاب عنه، فإنه لا فارق بينك وبين الجبل في الأصل، كلاكما مخلوق في حضرة الخالق. وتم المشهد، وبمجرد ما رُفع الحجاب بين الجبل وبين الله اندك الجبل وانهدّ، وصعق موسى الذي لم يقو على استيعاب المشهد الذي يتجاوز ملكاته. يصور القرآن بعد ذلك موسى وقد أفاق وعادت له مداركه سليمة بعد هول المشهد، وبان له أن ما سبق إلى ظنه أن رؤية الله في الدنيا ممكنة، على ما يقتضيه التنزيه الكامل، قصور في النظر، وأنه لو رفع الحجاب بينه وبين الله لسحق سحقا لا يبقي على شيء منه. واستيقظت أنوار النبوة في نفسه فحركته إلى التوجه إلى الله بالتنزيه والتقديس عما لا يليق بجلاله وكماله. واستشعر تقصيره بسؤاله الرؤية، وكل همه أن لا ينزل عن مكانته التي رفعه إليها رب

العالمين، فعبر عن توبته من التقصير. ونظير هذا ما وقـع لنـوح عليه السلام لمـا سـأل لولـده الكافر المغفرة لأنه من أهله، فوعظه ربه بقوله: (**يا نـوح إنـه لـيس مـن أهلـك إنـه عمل غير صالح فلا تسـألني مـا لـيس لـك بـه علـم إنـي أعظـك أن تكـون مـن الجاهلين* قال ربي إني أعوذ بك أن أسـألك مـا لـيس لـي بـه علـم وإلا تغفـر لـي وترحمني أكن من الخاسرين**)[40] فعبر موسى عن توبتـه التوبـة الخالصـة التـي يزجيهـا عزم مؤكد على عدم العود، والشعور بالندم على ما فـات، وتوجـه إلـى الله قـائلا: إنـي تبت إليك. وثنى بما يؤكد توبته بأنه يعتبر نفسه أول مـن سـبق إلـى الإيمـان، فالإيمـان صحبه من أول مراحـل حياتـه، علـى معنـى أن بينـه وبـين خـالص الإيمـان إلـفٌ وصحبة.

144- قال يا موسى إني اصطفيتك...من الشاكرين.

خاطب الله موسى بفضل الرب الذي لا يحـد، وبعفـوه الـذي يليـق بكرمـه وبجلالـه، وقال له : يا موسى إني آثرتك علـى جميـع النـاس المعاصـرين لـك، واخترتـك مـن بينهم فحملتك رسالتي، وكنت أنت المبلّغ لهم عنـي مـا تعلقـت إرادتـي بتبلـيغهم إيـاه، وزدت في تكريمك فخصصتك بكلامـي الـذي سـعدت بـه . فكـن قويـا علـى تلقـي تشريعي وهداياتي، وعلى إقناع الناس بذلك ونشـره بيـنهم. وأشْـعِرْ نفسـك المـنن التـي تتابعت عليك فكن لها ذاكـرا شـاكرا فـي موكـب المـؤمنين الشـاكرين فضـل ربهـم عليهم.

وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٤٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٤٧﴾

[40] هود آية 46 و47.

بيان معاني الألفاظ :

اللوح : قطعة من خشب مصقولة صالحة لإثبات الكتابة عليها.

الموعظة : النصح المشوب بتحذير.

التفصيل : التبيين لما أجمل.

فَخُذْها: تَلَقَّ واحفظ.

بقوة: بعزيمة وإرادة صلبة للعمل والإبلاغ.

الرشد: سبيل الصلاح من الإيمان والعمل المرضي.

الغي : سبيل الفساد والضلال، ضد الرشد.

الغفلة : انصراف العقل والذهن عن تذكر شيء.

أصرف : أمنع وأصد.

حبطت : سقطت وفسدت.

بيان المعنى الإجمالي :

ذكر القرآن ما تم بين موسى وربه في الميقات. فذكر أنه مكنه من الألواح التي جمعت أصول الهداية والتشريع والمنهج الذي على بني إسرائيل أن يتبعوه في حياتهم. وحثه ليتدرع بقوة العزيمة للمضي في سبيل التبليغ والإقناع والرعاية. وأن يأمر قومه بأن يكونوا على أتم الاستعداد للأخذ بها فهي الجامعة للحسن كله. وأخبرهم بأن الله سيمكنهم من رؤية عاقبة الفاسقين فيما أقاموه من حضارة. وأعلم الله أنه سيصد المتكبرين في الدنيا عن اتّباع الحق. بحيث أنهم إذا شاهدوا سبيل الهدى تنكبوا عنه وابتعدوا وإن لاحت لهم طرق الفساد والشر تسابقوا إليها؛ إن وضعهم هذا كان بسبب تكذيبهم بآيات الله، يلهيهم عنها تكبّرهم وإعراضهم، فكلما قامت آية قابلوها بالغفلة وعدم النظر فيها.

إن جزاء المكذبين بآيات الله والمنكرين ليوم القيامة هو جزاء عدل لأنهم ينطلقون من عدم اعتبار أحقيتهم للمثوبة، فيجازون حسب تصورهم.

بيان المعنى العام :

145-وكتبنا له في الألواح...دار الفاسقين.

واصل القرآن سرد ما تم في اللقاء الخاص بين موسى وربه، فبعد أن ذكر ما ميزه به من الكلام، وما أوقفه عليه من امتناع الرؤية في ذلك الظرف، سجل أنه سبحانه قد مكن موسى من الألواح التي وثّق فيها ما أراد أن يتحمله موسى من الهداية والتشريع للعمل به ولإبلاغه وإقراره في بني إسرائيل.

تـدقيـق :

1) ذكر القرآن أن الهداية التي كلف بها موسى كانت مكتوبة على ألواح. وحسب التوراة كانت الألواح من حجر. واعتمد رواية التوراة بعض المفسرين. ويبعد هذا عندي: أن ألواحا عشرة فصلت العقيدة والشريعة على ألواح من حجر لا يستطيع موسى عليه السلام لثقلها أن يحملها. ولذا فالذي أطمئن إليه أنها ألواح من مادة صنعها الله وأمر بأن تثبت فيها الكتابة وهي مما يستطيع موسى حمله.

2)أن تسجيل ما سجل عليها لم يكن بواسطة، وإنما أذن الله أن تتقبل الألواح التسجيل لما أراد أن يسجله عليها. وما سجل عليها كان مما يفهمه بنو إسرائيل بلغتهم في عهد موسى التي هي اللغة العبرية القديمة، اللغة التي انقرضت وماتت. فما يثبته اليهود من تفصيلات للوصايا العشر، هو مقطوع السند غير موثوق به. ينص القرآن على أن الله كتب لموسى على الألواح كل ما أراد سبحانه أن يكون مرجعا لبني إسرائيل من الهداية، التي تشمل النصح الذي يقربهم للعمل بما يعود عليهم بالصلاح والخير مع صبغة تحذيرية من إغفال ما نصحهم به وهداهم إليه. كما بين لهم فيها ما فيه إجمال من الوحي وطريقة تطبيق المنهج الإلهي في الحياة وبلوغ التفاصيل للعقائد والآداب والتشريع. إن وضع بني إسرائيل بعد طول أمد اضطهادهم، وتسخير الطغاة لهم من فرعون وملئه، قد عمَّق في مشاعرهم الرضا بالذلة والمسكنة، وهبط بهم إلى مستويات إنسانية سافلة. ولذلك أمر الله موسى أن يتلقى ما آتاه الله من الوحي والألواح بعزم صلب لا يلين ولا يعرف الرخاوة حتى يتمكن من تغيير نفسية بني إسرائيل ويرفعهم بغرس الأساسيات التي يكونون بها أمة صالحة لإحياء شريعة الله. وكلف موسى عليه السلام أن يأمر قومه بأن يتمسكوا بما جاءهم به من التشريع وما هو مثبت في الألواح، أمروا أن يأخذوا ذلك بهيئة من يتمكن من الشيء فيدخله في ملكه ويتمسك به. فهم مأمورون بأن يعملوا بما جاءهم، الذي هو الأحسن والأفضل من كل ما استقر في نفوسهم قبل مجيء موسى وربوا عليه حتى صار عادات لهم. ومجيء التعبير بقوله تعالى : **[بأحسنها]** قد يثير في التالي تساؤلا هل إن معناه أن يتخيروا من الألواح أحسن ما فيها ،دون ما هو أقل حسنا؛ تطبيقا للقاعدة أن أحسن أفعل تفضيل يدل حسب النظرة الأولى على شيئين أحدهما حسن والآخر أحسن، وأن بني إسرائيل أمروا على لسان موسى أن يتمسكوا التمسك الكامل بالأحسن. وكون الألواح مشتملة على حسن وأحسن غير مقبول، لأن الجميع منزل من عند الله لإصلاحهم، فلماذا لا يكون كل

ما جاء فيها من الأحسن. ويساعدك على فهم هـذا الاختيـار فـي التعبيـر، التأمـل فـي نظائر هذه الآية في القرآن، كقولـه تعـالى: (**فتبـارك الله أحسـن الخـالقين**)[41] وقولـه: (**أتدعون بعـلا وتـذرون أحسـن الخـالقين**)[42] – ومـن اليقينـي أنـه لا خـالق إلا الله. ويقول تعالى :(**أفمن يخلق كمن لا يخلق أفـلا تـذكرون**)[43] – وقولـه تعـالى : **أصـحاب الجنة يومئذ خير مقاما وأحسن مقيلا**) [44]– تصـف الآيـة أصـحاب الجنـة فـي مقابـل أصحاب النار من المجرمين المكذبين – وقولـه تعـالى: (**أولئـك الـذين نتقبـل عـنهم أحسن ما عملـوا**)[45] – والقرآن يتحدث فـي هـذه الآيـة عـن تكـريم الصـالحين فـلا يتصور أن يقصر ثوابهم على أحسن أعمالهم ويلغي مـا هـو دون ذلـك مـن الحسـنات– وأقوى الآيات قربا قوله تعالى:(**اتبعـوا أحسـن مـا أنـزل إلـيكم مـن ربكـم**)[46] فهـذه الآيات لا تفيد تفضيلا لبعض على بعـض، ولكنهـا تلفـت النظـر إلـى مرتبـة الحسـن الرفيعة في جميع مواردها. فحسن خلـق الله بـالغ الدرجـة العليـا. ومقيـل أهـل الجنـة بالغ درجة من الراحة والنعيم لـيس فوقهـا درجـة، والله يتقبـل مـن المـؤمنين صـالح أعمالهم التي تسمو بفضل توبته وحبه إلى مرتبة عاليـة مـن الرضـا كقولـه تعـالى فـي آية أخرى : **أولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات** [47].

إنه إذا قارنا وضع بني إسرائيل أيام كانوا فـي مصـر تحـت حكـم الفراعنـة مسـلوبي الحرية مسخرين للخدمة منزوعي الحقوق، إذا قارنـا ذلكـم الوضـع ووضـعهم بعـد مـا أكرم الله نبيهم وقائدهم الذي سيكوّن مـنهم أمـة، تبـين لنـا مـن الفـارق العظـيم بـين الوضعين وصف ما أنزل إليهم بالأحسن.

أي البالغ أعلى درجات الحسـن. ثـم أعلمهـم بـأن الله سـيريهم بـأعينهم ديـار القـوم الفاسقين، أي منازلهم التي خربت بسبب فسقهم وخـروجهم عـن حـدود الله. وفـي ذلـك تحذير لهم من الخروج عما نزل عليهم من التشريع ومـا بينـه لهـم فـي أمـور العقيـدة والأخلاق.

---

[41] سورة المؤمنون آية 14
[42] سورة الصافات آية125
[43] سورة النحل آية 17
[44] سورة الفرقان آية24
[45] سورة الأحقاف آية 15
[46] سورة الزمر آية 55
[47] سورة الفرقان آية 70

146-147 : سأصرف عن آياتي...بما كانوا يعملون.

بعد ذلك توجهت عناية القرآن إلى تسجيل سنة من سنن الله في الهداية، حتى ينتبه الموجه إليهم آياته إلى أن تلكم الآيات الهادية للعقيدة الحق، وللتشريع الأصلح، وللسلوك الأفضل، لا ينتفع منها كل الناس بل إن الله سيمنع ويصد عن الانتفاع بما أنزله على لسان رسله من الآيات وما يعمر به الكون من الدلائل، وذلك بحجب ألطافه المساعدة على التدبر واليقظة لما فيها من دلالات تهدي العقول والأرواح إلى الأخذ بها، بحيث تقرع أسماعهم وتقوم أمام أعينهم ولكنهم لا ينتفعون منها بشيء. مَنْ هؤلاء الذين ينزل عليهم حجاب عازل ؟سيصد الذين تكون علاقتهم بالكون علاقة التكبر والاستعلاء الكاذب، فقوله تعالى: (**بغير الحق**) هو وصف يشرح التكبر ولا يقيده، فالتكبر هو التعالي ولا يكون التعالي إلا مجانبا للحق، هو في حقيقته أوهام تعشش في ذهن المتكبرين فيتخيلون أنفسهم أعلى مرتبة من قبول ما تتلوه عليهم رسل الله، أو أن تحرك مشاهد الكون ضمائرهم لما وراء تلك الآيات من قوة مبدعة.

إن ما ذكره القرآن في قصة خلق آدم من تكبر إبليس وإبائه السجود وما أداه إليه الكبر من الغضب والمقت والشقاء، يكَون مع هذه الآية هداية للبشر تحذرهم من عاقبة الكبر. إن الكبر يتولد عن غفلة عما في المتكبر المغرور من نقص وما بنيت عليه خلقته من حاجة يعجز أن يحققها؛ فإذا استحوذ الكبر على التفكير فإنه يدفع صاحبه دفعا إلى إغماض عينيه وحجب تفكيره عن إدراك الحقائق الماثلة أمامه التي تدعوه إلى إخضاع نفسه للحق، فيختار تبعا لذلك الطريق الذي يرفض الآيات البينة، حتى لا يجرح هذا الخضوعُ كبرياءه.

إن المتكبر يَحُولُ كبره وبين ما أنزله الله على رسله، وما بثه في كتاب الكون من دلائل، فيصل به إلى التعنت إلى درجة أنه لو اجتمعت على بصره وغزا قلبه كل ما يمكن أن يكون دليلا يبلغ بيانه درجة من الوضوح التي ليس فوقها درجة، إنه رغم ذلك يتأصل العناد فيه، فلا ينقاد إلا إلى ما تدعوه إليه شهواته، ولا يتبع سبيل الرشد سبيل الصلاح ولا يميل إلى العمل الطيب، وبالعكس يجد بين كبريائه وبين الفساد وسيء الأعمال إلفا، فيجري وراء إشباع شهواته، سبيل الغي. إن هذا الوضع السيء لتركيبهم النفسي مرتبط بكفرهم بآيات الله، يمرون عليها مرور من لا ينتبه إليها ولا تَلفت نظره وإن كانت ماثلة أمامه.

والقاعدة التي تستخلص من هـذه الآيــة: إن الـذين كـذبوا ورفضـوا آيـات الله الداعيـة للخير وصادق العقيدة، لا تكـون لأعمـالهم أي قيمـة يـوم القيامـة، فهـم إن فعلـوا مـا ظاهره خير من مسـاعدة للمحتـاجين أو نصـرة للمظلـومين أو كـرم وحسـن معاملـة، فإن ما فيها من قيمة ظاهريـة تعتبـر باطلـة لا جـزاء عليهـا. وذلـك هـو العـدل لأن أعمالهم صدرت عنهم وهم لا يقصدون منهـا أن تـنفعهم يـوم القيامـة الـذي لا يؤمنـون به. وهو نظير قوله تعالى:(**وقدمنا إلى ما عملوا مـن عمـل فجعلنـاه هبـاء منثـورا**)[48]
والآيتان تسلية لرسول الله ﷺ بسبب ما كـان يجـده فـي نفسـه مـن رغبـة فـي هدايـة البشر، وحسرة من صدودهم، وبالمثل بالنسبة للمصلحين والدعاة إلى الخير.

وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

بيان معاني الألفاظ:

الحلي : جمع حَلْي وهو المصوغ.
الجسد : الجسم الذي لا روح فيه.
خوار : صوت البقر.
سقط في أيديهم : تبين لهم خطؤهم وندموا.
أعجلتم أمر ربكم : أتركتم الأمر الذي أمركم به ربكم.
الشماتة :سرور النفس بما يصيب غيرها من الأضرار.

---

[48] سورة الفرقان آية 23

بيان المعنى الإجمالي :

يقص علينا القرآن أنه بعد أن توجه موسى ﷺ للميقات جمع بنو إسرائيل حليّهم وسبكوا من الذهب صورة عجل يصوت كما تصوت البقر، وعبدوه على أنه إله. والعجب من غباوتهم وفساد فطرتهم أن يعبدوا ما لا يستطيع أن يهديهم بالكلام فضلا عن العون الفعلي، عبدوا العجل فظلموا أنفسهم وظلموا عقيدتهم وظلموا سيدنا موسى بالتنكر لما ثبته في عقولهم من التوحيد. ثم إن بني إسرائيل تبينوا خطأهم وفساد ما وقعوا فيه والظاهر أنه بعد رجوع موسى من الميقات ندموا وقالوا: إنا نترقب من الله أن يغفر لنا ما وقعنا فيه وإن لم يغفر لنا نكون قد خسرنا كل شيء.

ويصور القرآن المشهد التالي: سيدنا موسى عائدا من المناجاة بعد أن أوحي إليه أن القوم قد كفروا وعبدوا العجل، وهو غاضب غضبا شديدا وعمه الحزن. زمجر في بني إسرائيل: لقد انقلبتم إلى أسوأ ما يكون بعدي، كيف تركتم ما عاهدتم عليه ربكم؟ ومن شدة غضبه ألقى الألواح التي شرفه ربه بها في الميقات، ومد يده إلى رأس هارون فجذبه جذبة قوية خارت قواه بها، وأخذ في جره إليه.

توسل إليه هارون بصلته به وذكره بأنهما من أم واحدة، وعرفه بأنه ما تخاذل في القيام بمهمة الاستخلاف، ولكن بني إسرائيل عصوه وهددوه بالقتل إذا حال بينهم وبين العجل. وتوسل إليه أن لا يقسو عليه قسوة يفرح بها أعداؤه، وأن لا يحشره مع الظالمين عبدة العجل. وإذ تبين لموسى صدق أخيه دعا ربه أن يغفر لهما وأن يعمهما برحمته وهو راج قبول دعائه، لأن الله أرحم الراحمين.

بيان المعنى العام :

148-149: واتخذ قوم موسى...من الخاسرين.

بعد أن عرض القرآن بعض ما يتعلق بما تم في الميقات وعقبه بأن وضوح الآيات لا يلجئ البشر للاهتداء بها، تابع قصة بني إسرائيل، وما وقع منهم بعد ذهاب موسى للميقات واستخلاف هارون عليهم.

وقع منهم في الأيام الأربعين التي قضاها موسى بعيدا عنهم، أن سبكوا من حليهم جسما على صورة عجل، جوّدوا في صنعه وأحكموا، حتى إن الرائي يخاله عجلا، وهم مهرة في صناعة الذهب ؛فما تزال هذه الصناعة من ثقافة بني إسرائيل إلى اليوم، يجيدون صنع الحلي والتحف، وينتجون من الأشياء الدقيقة ما له قيمة فنية عالية. وأضافوا إلى تصويره على هيئة العجل، أن جعلوه يخور كأنه حي، ثم

اتخذوه إلها. ذكر شهاب الدين القرافي قال: أخبرت عن القاضي الفاضل وزير الملك الناصر صلاح الدين، أنه جاءه رجل فقال له: عندنا صنم يتكلم، فذهب إليه معه، فوجد صنما من رخام أحمر قد أتى عليه الرمل إلا رأسه وهو ساكت. فقال له الفاضل: ماله لا يتكلم ؟فقال له تريد ذلك ؟ فقال : نعم، فوضع الرجل إصبعه على ثقب في وسط رأسه، والريح يخرج منه خروجا شديدا، فمنع الريح من الخروج حتى تغمر باطن الصنم به، ثم فتح ذلك الثقب، فشرع الريح يخرج، وجعل الصنم يقول :: هاتان المدينتان كانتا لشداد وشديد ابني عاد، ماتا وصارا إلى التراب. من ذا الذي يبقى على الحدثان ؟وطول في الحدثان تطويلا شديدا حتى فرغ الريح من جوفه، ثم أعاد سد ذلك الثقب، فأعاد القول بعينه مرارا، ثم افترض القرافي سر ذلك. فلعل بعض الإسرائيليين أخذ هذه التقانة من الحضارة المصرية القديمة[49].

وينكر القرآن عليهم ما وقعوا فيه مبرزا له بصورة التعجب : ألم يروا أن العجل جامد لا حياة فيه ؟ كيف يكون إلها إذا كان لا يقدر على مخاطبتهم ويعجز تبعا لذلك عن إرشادهم أو هدايتهم، وفوق ذلك صورته من جنس البقر داعية لقوة التعجب إذ نوع البقر ليس من أرقى الحيوانات ؟ إن الواقع المحسوس ينادي بأن إسباغ الألوهية عليه تجاوزٌ للحدود، وتعد على الإنسان بجعله يخضع لجسد منحوت لا حياة به. ثم إن القرآن طوى ما بعد انحرافهم وعبادتهم للعجل الذي سيذكره في سورة طه، فعجّل بذكر تيقظهم لسوء صنيعهم وتبينوا الضلال الذي وقعوا فيه، فأقلعوا وتوجهوا إلى الله ربهم تائبين مستحضرين رحمته وفضله مبتهلين أن يغفر لهم ما وقعوا فيه، شاعرين أنه إن لم يتفضل عليهم بقبول توبتهم وغفرانه فإن مآلهم أن يكونوا من القوم الخاسرين. وبهذه المناسبة أريد أن أؤكد أن طريقة القرآن في قصصه أنه يوظف المشهد الذي يعرضه لتحقيق الغرض الذي من أجله ساقه، ولا يقصد أبدا لعرض قصصي يتابع الأحداث بتفاصيلها وتتابعها التاريخي.

150-151: ولما رجع موسى...وأنت أرحم الراحمين.

ثم عرض القرآن مشهدا آخر هو في الواقع بينه وبين ما قبله حوادث طواها القرآن في هذه السورة وفصلها في سورة طه. فإن سيدنا موسى وقد أطلعه ربه على ما وقع فيه قومه من عبادة العجل، امتلأ غضبا وحزنا، ورجع مسرعا إلى قومه، وصاح فيهم تنفيسا عما في نفسه من الأسى : بئسما خلفتموني من بعدي :إنكم بعد

---

[49] نفائس الأصول في شرح المحصول ج1 ص442/440

مغيبي عنكم كنتم على أسوأ ما يكون عليه مستخلف، نقضتم كل ما ربيستكم عليه وأقررته في ضمائركم؛ كأنه يذكرهم بأن العهد ليس ببعيد، وذلك لما طلبوا منه أن ينصب لهم إلها كما للقوم الذين مروا عليهم آلهة. وثنى بالإنكار عليهم كيف تركتم ما أمركم به ربكم من إفراده بالعبادة فلم تواصلوا المسيرة بعد ذهابي للميقات؟ لقد استشاط غضبا وكان رجلا قويا، تخيره الله على هذا المستوى من القوة ليكون قادرا على إصلاح الوضع الذي عليه بنو إسرائيل من التقلب والعناد، ومهارتهم في التأويل حتى لما هو واضح بين، فلا بد لتقويمهم من رجل صُلب لا يلين، يقيم اعوجاجهم ولا يلين لما يصدر منهم من فساد يعود بهم إلى ما كانوا عليه قبل خروجهم من مصر. وبلغ به الغضب أن ألقى الألواح التي مكنه الله منها على ما وصف القرآن فيها من هداية وتفصيل، هَمًّا منه بتعجيل تأديب هارون الذي حمله مسؤولية خلافته عند مغيبه، فأنشب يديه في رأسه. يجره إليه بعنف وقوة، وهي صورة تكشف عن شدة الغضب والحزن. وما كان هارون عليه السلام ليستطيع أن ينفلت من قبضته، فاسترحمه وتوسل إليه بالرابطة التي تجمعهما، وبعنصر الحنان في تلك الرابطة، كأنه يثير في نفسه أنهما ولدا من بطن واحد ورضعا من أم واحدة. يرجوه أن لا يبطش به، وأن يستمع إليه، وأن لا يظن به أنه قصر في أمانة الاستخلاف، وأنه قاوم بما عنده من جهد ضلال قومه، وعمل فعلا على صدهم عن عبادة العجل، ولكن إصرارهم وصل بهم إلى حد أنهم هددوه بالقتل إن لم يقلع عن معارضتهم. ورجاه أن لا يبالغ في تعنيفه فإن الذين كانوا هددوه بالقتل يُسَرون بما يتعرض إليه من بطش، ومن ناحية أخرى أن لا يسويه بالقوم الظالمين كما جاء في نهاية الآية 148 اتخذوه وكانوا ظالمين. فما عَبَدَ العجل ولا رضي به ولا سكت عن الإنكار والمقاومة.

وينتهي المشهد بصورة من التآخي بين موسى وهارون، فقد قبل عذره واستبان له عدم مسؤوليته. فتوجه إلى الله طالبا أن يعمه مع أخيه بالمغفرة عن كل تقصير. ذلك أن عبادة بني إسرائيل للعجل، قد يكون لهارون قسط من المسؤولية وإن كان صغيرا، إذ يتصور أن يكون قد خفي عليه بعض المواقف التي تحول بينهم وبين الشرك. كما أن موسى وقد أسرع بالغضب على أخيه والبطش به مع أنه بذل غاية جهده، كل ذلك هدى موسى عليه السلام أن يبتهل إلى الله بالدعاء بالرحمة التي يرجو أن تشمله فإن الله أرحم الراحمين.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ
بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا
هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

سينالهم :سيصيبهم.

غضب من ربهم : إرادة السوء لهم وحرمانهم من الألطاف.

الذلة : يسلبهم العزة فينقادون لكل من يتسلط عليهم.

المفترين: الكاذبين كذبا لا شبهة لهم فيه.

غفور : لا يؤاخذهم بذنوبهم التي تابوا منها في الآخرة.

سكت الغضب : سكن وذهب الغضب.

بيان المعنى الإجمالي :

يخبر القرآن عن سوء عاقبة الذين عبدوا العجل: أنه سيصيبهم غضب من الله فيحرمهم ألطافه وينزل بهم العقاب وينزع من نفوسهم العزة فيضرب عليهم الذل فيخسرون أولا دنياهم، وعلى هذا النحو سيكون جزاء الذين يختلقون الأكاذيب ويروجونها. ويبشر مرغبا الذين عملوا السيئات وأسرعوا إلى التوبة يهديهم إيمانهم لفعل الخير، بأن الله غفور رحيم. وبعد أن هدأ موسى وذهب غضبه، أخذ الألواح التي كان ألقاها، والتي بقيت سليمة يستنسخ منها ما هو هدى ورحمة للذين يخافون أن ينحرفوا عن هداية الله.

بيان المعنى العام :

152-153: إن الذين اتخذوا العجل...نجزي المفترين.

هذا خطاب من الله عقب به ما تقدم من المشاهد. يسجل الله سبحانه :

أولا: إن الذين رفعوا العجل المنحوت إلى مقام الألوهية فعبدوه، سيصيبهم جزاء ما فعلوه، وعين الجزاء بأنه غضب من الله، فلا يقدّر لهم ألطافه وينزل بهم السوء، ويقرن ذلك بتمكن الذلة من نفوسهم، فيرضون بالمهانة ويتقربون لمن يقسو عليهم ويمتهنهم. إن ما نزل بهم هو جزاء اختلاقهم الأكاذيب وترويجها، وعلى هذا النحو

من الغضب والمهانة تستمر سنة الله في عقاب المفترين، فختام الآية تحذير للبشر في جميع الأزمان من اختلاق الأكاذيب وترويجها.

153-وكشأن القرآن أنه يتابع الوعيد بالوعد والنذارة بالبشارة. يعد الله الذين انحرفوا فعملوا السيئات، ثم تابوا مقلعين راجعين إلى طريق الهدى، وكان بريق الإيمان في قلوبهم ناصعا يضيء لهم مسالك الحياة، إن من صفات ربك يا محمد أنه يغفر للتائبين رحيم بعباده.

154- ولما سكت...لربهم يرهبون.

أبرز القرآن بالتصريح ما دل عليه ابتهالات موسى بالمغفرة له ولأخيه وبالرحمة، أنه رجع له هدوؤه، فقال تعالى: ولما سكت عن موسى الغضب، تعني الآية زوال غضبه وذهاب ثورته. وعندها رجع إلى ما مكنه ربه في الميقات من الألواح التي كان يحملها وألقاها من يده لما اشتد على أخيه وصاح معنفا بني إسرائيل لعبادتهم العجل. أخذ موسى تلك الألواح، وفي نسختها أي ما يستنسخ منها، والذي أرجحه أن الألواح لم يفسد ما كتب فيها، لأن الله أثبت أنها بقيت أصلا يستنسخ منه ما حوته الألواح الأصلية من الهدى والرحمة. فهي تهدي إلى الطريق الذي يُرضي الله ويبين للناس ما يقيم حياتهم الدنيا على خير الوجوه وأكثرها عائدة. ولكن لا ينتفع بها إلا الذين يخافون ربهم خوفا يجعلهم يراقبون دوما ما جاءهم من عنده على لسان رسله.

وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ
أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا
مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾
۞وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ
أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ
ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ
ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ

ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

أخذتهم الرجفة : أصابتهم رجفة عظيمة هزتهم هزا شديدا.

لميقاتنا: في الوقت والمكان المعينين من الله.

فتنتك: ما يقع به اضطراب الأحوال.

أنت ولينا: ناصرنا وعمدتنا.

اكتب : أثبت وخلد.

حسنة: حسنة الدنيا العافية والغنى والتوفيق. وحسنة الآخرة الجنة.

هدنا : تبنا.

سأكتبها: أقدرها وأقضيها.

الإصر : التكاليف الشاقة.

الأغلال : جمع غل، وأصله القيد في رقبة الأسير، يجر منه إذلالا.

عزروه: أيدوه.

بيان المعنى الإجمالي:

بعد أن أقام موسى عليه السلام مدة في قومه يصلح ما فسد منهم بعبادة العجل، اختار من قومه سبعين رجلا، توجه بهم إلى الميعاد الثاني. استولت عليهم رجة عظيمة امتصت قواهم ومداركهم. توجه موسى إلى ربه ضارعا فقال: رب إن الأمر بيدك ولو شئت أن تهلكهم لما عبدوا العجل ما سلمت ولا سلموا. ثم أضاف متضرعا: أتنزل علينا ربنا غضبك بسبب ما فعل أصحاب العقول الضعيفة السخيفة منا ؟ إن ما تم هو الفتنة التي فتنتنا بها ليتبين الصادقون من المزيفين ؛ فتُرتِّب عليها ضلال من هو أهل للضلال، وتَهدي بها من هو ثابت على الحق متبصر، ربنا إننا عبيدك وأنت ولينا ولا ناصر لنا غيرك فاغفر لنا ما وقعنا فيه، وأنزل علينا رحمتك التي

يتبعها كل خير، فإنك ربنا خير من غفر. وأعطنـا برعايتـك لنـا فـي هـذه الـدنيا كـل خير، واجعل الجنة مثوانا، إنا تبنا إليك.

قال الله لموسى معلما له بحقيقة أوصافه القدسية، التـي منهـا أن عذابـه سـبحانه يسـلطه على من يشاء من عباده، وهم الـذين كفـروا فقطعـوا صـلتهم بـه، وأن رحمتـه تشـمل البشر جميعهم في الدنيا، فكل فرد من البشـر سـواء أكـان مؤمنـا أم كـافرا صـالحا أو فاسقا يناله من رحمة الله ما قدره له في الدنيا. كمـا أعلمـه أنـه بجانـب رحمتـه العامـة قدر رحمة خاصة حقق أنه سيفيضها على المتقين الـذين يقومـون بـأداء زكـاة أمـوالهم واستقر الإيمان الواضح في عقولهم وأرواحهـم. هـؤلاء الـذين يلتزمـون بمـا جـاء بـه محمد النبي الأمي الذي ميزه بروح بلغت من صفائها ومـن عقـل ينفـذ بوضـوحه إلـى صواب الحكم والتحليل، ومن الحكمة البالغة، ما صـحبه منـه فـي جميـع مـا قـام بـه التسديد. وبذلك كانت الأمية في حقه كمالا وفـي غيـره نقصـا. وكانـت معجـزة ذاتيـة له.

إن هذا النبي يجدون أوصافه المميزة له فـي التـوراة والإنجيـل، هـذه الأوصـاف التـي منها: أن دينه دين الفطرة فهو يأمرهم بـالمعروف وينهـاهم عـن المنكـر، ويقـرر لهـم أن تناول ما هو طيب غير ضار وغير مستقذر ولا منهـي عنـه حـلال، ويحـرم علـيهم كل ما هو خبيث ومستقذر، ويخفف عنهم ما كـانوا مكلفـين بـه مـن الأحكـام الشـاقة، ويسوي بينهم فيرفع كل ميز عنصري سببه اللـون أو الجـنس أو القوميـة. إن مـن آمـن بهذا النبي الكريم وأيده ونصره في نشر الدين والتزم فـي حياتـه اتّبـاع الهـدى الواضـح الذي جاء به هو الفائز الـذي تحقـق فلاحـه. ثـم يـأمر محمـدا ﷺ أن يـدعو البشـرية جميعا لاتّباع الإسلام مهما اختلفت أجناسهم وأعـراقهم وحضـاراتهم، لأنـه رسـول مـن عند الله رب الكـون كلـه المالـك للسـماوات والأرض، لا إلـه غيـره ولا رب سـواه، يتصرف في الموجودات كلها بالحياة أو الموت.

يأمر الله كل إنسان على وجه البسيطة فـي عهـد الرسـالة وفيمـا يتلـوه أن يـؤمن بـالله وبرسوله **(النبي الأمي)** وهـذا الوصـف لا يشـاركه فيـه أحـد ﷺ الـذي مـن أخـص خصائصه، الإيمان البالغ درجة اليقـين والوضـوح الـذي لـيس فوقـه مقـام، والإيمـان بكل ما أنزله الله علـى أنبيائـه مـن الهـدى، والإيمـان بعيسـى علـى أنـه كلمـة الله. ويأمرهم رب الأرباب أن يقرنوا إيمـانهم بمحمـد بتطبيـق شـرعه، فإنـه بـذلك يرجـى أن يكونوا مهتدين.

بيان المعنى العام :

155←157: واختار موسى سبعين....هم المفلحون.

هذا المقطع يترجح أنه يُفَصِّل بعض ما تم لموسى بعد أن هدأ غضبه وسأل المغفرة والرحمة له ولأخيه من ربه، وأقام مدة في قومه يهديهم ويطهر ما علق بهم بعد عبادتهم للعجل. ذهب موسى عليه السلام لمناجاة ربه تبعا لما أمره به، وقد صحب سبعين رجلا اختارهم من بني إسرائيل. ويقودهم ليحضروا في الزمن والمكان المعينين من الله. فهذا ميقات غير الميقات الأول.

بعد أن بلغوا الميقات أخذتهم هزة شديدة، ملكت كل قواهم، فقدوا التحكم في مداركهم وفي أعصابهم وفي أعضائهم، بما يفيده الأخذ من الاستيلاء الكامل. وفي هذا الوضع، الصعب على موسى مشاهدتُه، لم يبق له إلا أن يتوجه إلى الله بالابتهالات والدعاء واللجأ إليه. ولما لهذه الابتهالات من صفاء عقبتها الإجابة، سجلها القرآن لتكون سنة للمؤمنين في حالات الكرب والشدة.

أولا: افتتح موسى ﷺ ابتهالاته بتفويض الأمور كلها لله، والاعتراف له بالقدرة التامة، وإظهار العجز والفقر من الداعي إلى مالك الأمر سبحانه، يقول : رب لو شئت أن تهلكهم من قبل عبادة العجل وتهلكني معهم، فإن قدرتك لا يعجزها شيء ولا اعتراض على ما تقدره بحكمتك ربنا.

ثانيا: يتوسل إلى ربه أن لا يهلكهم بتعميم العقاب الذي ينزله على ضعفاء العقل والإدراك من الهمج الذين أسرعوا لعبادة العجل.

ثالثا: اعترف بأن الذنب عظيم وأن ما وقع منهم كان بقضائك ربي وقدرك، وليس في الكلام ما يدل على الاعتذار، ولكن القصد منه تمجيد الله بأنه هو وحده المتصرف، فعبادة العجل فتنة زلزلت العقول والأرواح، ولو شئت أن تمنع حصولها لفعلت ولكن قضاءك يجري على الحكمة التي يعجز العقل البشري عن الإحاطة بها، فتسلب ألطافك وتبصيرك ممن شئت فيهلك بما قدمت يداه، وتمنح ألطافك لمن شئت فينجو بفضلك.

رابعا: عبر عن تقربه إلى الله وأنه يعتقد أن لا ناصر له ولقومه إلا هو، والاستعطاف من أدب الدعاء.(**أنت ولينا**)

خامسا: سأل بعد تلكم المقدمات من التفويض والتوسل والاعتراف والاستعطاف، الغفران الذي هو بمعنى الستر للذنوب ومحو ما يترتب عليها، والرحمة الشاملة لخيري الدنيا والآخرة. ومغفرة الله لا يدانيها عفو البشر، فالعاصي يكون قد عصا

ربه بما أعطاه ربه من إمكانات، وهو يعلم أنه مطلع عليه، ويعلم أن لا يستطيع أن ينفلت من العقوبة، ومع هذا يغفر له ربه ذنبه فلا يبقى منه أثر. ولو صفح الإنسان عمن تصرف في ملكه بمثل تلكم الأوصاف فإنه وإن عفا عنه تكرما، وقلما يقع ذلك، إلا أن منزلته لا تعود أبدا إلى ما كانت عليه، فلا شك أن مغفرة الله أعلى شأنا وأكرم من مغفرة الغافرين؛ وأنت خير الغافرين. كما سأله أن يقدر له ولقومه ما يمكنه من خيرات الدنيا الشاملة للعافية، والغنى والتوفيق لصالح الأعمال، وأن يجعلهم من أصحاب الجنة يوم القيامة؛ وما قدره الله فنواله محقق.

استجاب الله لابتهالات موسى، وزاده تعريفا بالكمال الإلهي فقال له: إنه الله المالك للعذاب وللرحمة. فأما العذاب فإنه يصيب به من يشاء من المستحقين له باختيارهم موجبات العذاب، فالعذاب لا يشمل البشرية كلها ولكنه خاص. وأما الرحمة الإلهية فهي رحمة واسعة شاملة تنال كل شيء حتى الفسقة والكفار. إن من يتأمل في الخلق يرى أن نعما لا تحصى تفضل الله بها على العباد، فالتنفس، والأكل والشرب واللباس، وما رزقه كل كائن من القوى التي يستطيع بها مواصلة العيش أو عطف غيره عليه إن كان عاجزا، وبصفة عامة فإنه لا يقدر أحد أن يحصي نعم الله ورحمته التي يَتَرَفَّهُ بها الخلق. وبجانب الرحمة العامة رحمة خاصة، عَرَّفَ سبحانه من خصه بها، وأكد بأنها مثبتة مقررة كشأن المكتوب وسيوصلها لأصحابها، وهم من جمعوا الصفات المنصوص عليها:

1)التقوى : الحماية التي يحصن بها الإنسان نفسه، فلا ينزلق إلى ما نهى الله عنه، ويفعل الخير.

2) إيتاء الزكاة يُمَكِّنُ منها مستحقيها عن طيب نفس.

3) صفاء الروح والتجرد من العناد لتحل فيها الآيات المنادية بصدق الرسل محل اليقين وتضيف كل آية يقينا إلى يقين، سواء أكانت من المعجزات الحسية التي تأيد بها الرسل أم من الكلام المعجز وهو القرآن. فانسحب هذا الوصف على بني إسرائيل عند مجيء عيسى فكان عليهم أن يؤمنوا بالآيات التي تأيد بها، وانسحب عليهم وعلى النصارى بعد مجيء محمد ﷺ. وأما قبل أن يجهر ﷺ بدعوته، فَتَحَقُّقُ هذا الوصف يتم بالإيمان به عند قدومه حسب الميثاق الذي أخذه موسى من بني إسرائيل والميثاق الذي أخذه عيسى عليهم.

4) اتّباع شريعة محمد ﷺ الذي وصفته الآية بكونه الرسول النبي الأمي ؛ تتابعت ثلاثة أوصاف :

أما أنه رسول فلأنه بلغ شرع الله، وأن ما أتى به يُوقِف العمل بما جاء من الشرائع قبله، حتى ما كان متفقا معه، فإن الهدى منحصر في اتّباعه والأخذ بما جاء به، إذ تَكَوَّنَ من مجموع الوحي المنزل عليه المنهج المعبر عنه ب **(الإسلام)**.

وأما أنه نبي؛ فالنبوة مفادها أنه أوحي إليه وأنه تلقى من ربه ما تعلقت الإرادة الإلهية بإبلاغه إليه. فوصفه بالنبوة تأكيد على أنه سما إلى مرتبة قبول الوحي. ووصفه بالرسالة تثبيت لكونه كلف بإبلاغ ما أوحي إليه به. وقد اجتمع في رسول الله ﷺ الوصفان. وأما أنه أمي ؛ فإن وصف الأمية المقرون بالنبوة والرسالة من خصائصه صلى الله عليه وسلم، كانت الأمية له كمالا يسمو به على سائر الخلق أجمعين، وهو في غيره نقص وعيب؛ يوضح ذلك ما جرى على لسانه من الحكمة والصواب، وما وفق فيه من تكوين أمة قادرة على المضي بالدعوة ونشرها في العالمين، وتأليفه بين القبائل التي روَّضها على الوحدة بالموعظة الحسنة، والقرآن الذي بقي مع الزمان سليما من التحريف يقدم للبشرية أفرادا وجماعات وأمما السبيل الهادي إلى الأمن والتقدم، وما قارن تصرفاته من الصواب والخير مما لم يصل لمستواه أي فرد من المتعلمين القراء. فكان الكمال البشري مع الأمية في رسول الله ﷺ أمرا ذاتيا لم يتوسط فيه تعليم من بشر ولا دراسة لكتب. وهو المعنى الذي أخرجه ابن السمعاني بسنده إلى ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله أدبني فأحسن أدبي ثم أمرني بمكارم الأخلاق فقال: خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين[50].

واختلف المفسرون في بيان وصف الرسول محمد ﷺ بالأمي. فبعضهم رأى أن الأمي منسوب إلى الأم، أي بقي على الحالة التي صدر عليها من بطن أمه لم يتعلم القراءة ولا الكتابة، وبعضهم خرجه على الانتساب إلى الأمة، لأن الأمة بجملتها غير كاتبة حتى تحدث فيها الكتابة كسائر الصنائع. وعلى التخريجين فالأمي مضمَّن عدم القراءة والكتابة. ويرجح أن المقصود به كونه ﷺ لا يقرأ ولا يكتب، قوله تعالى: **(وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون)**[51] وخرجه آخرون على أنه منسوب إلى أم القرى، وهذا غير مضمن لعدم القراءة والكتابة.

---

[50] فيض القدير ج1 ص225

[51] سورة العنكبوت آية 48

ومع تعيين الرسول ﷺ بالأوصاف الثلاثة، أضاف الله في وحيه إلى موسى، خصائص دعوته:

1) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. يوضحه أن الدين الذي يدعو إليه دين الفطرة؛ فهو يدعو إلى ما تقتضيه الفطرة السليمة ويشجب ما يخالف مقتضياتها. فهو يعمل على أن يكون المجتمع كله جاريا في سلوكه على أوصاف طبيعية تيسر وحدته وتضامنه.

2) يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث. إنه تبعا لكون دينه دين الفطرة هو لا يُضَيِّق على أمته في حياتها، فكل ما لا يضر الإنسان في نفسه ولا في خلقه ولا في دينه وهو غير مستقذر حلال، ومع تحقق أحد الأسباب المذكورة يكون حراما. ثم إنه قد يتحاشى أقوام بعض المآكل ويقبل عليها غيرهم بشراهة تبعا لعادات، لكن ذلك لا يصح أن يعطى حكما شرعيا.

3) يبطل ناسخا ما كان مشروعا قبله من الشدة الثقيلة، هذه الشدة التي ساعدت سيدنا موسى عليه السلام على إصلاح بني إسرائيل، ليستقيموا بعد أن فسدوا بما سلط عليهم من الذل من فرعون وزبانيته، وإلفهم لمنازل الهوان. ثم يرتقي بمعتنقيه إلى مرتبة إنسانية واحدة لا يشعر فيها أي من متبعيه بالامتهان أو أن بعضهم يتميز بقيمة أعلى من غيره. فمثلا في شريعة موسى خص اللاويون بمزايا رفعتهم إلى رتبة سيادية دائمة. وجرت معاملات الأمم لمن يدخل تحت سيادتهم بالاستنقاص لحقوق المغلوبين على نحو لا يأملون في الخروج منه. فبان مما ذكرناه رفع الإصر بمعنى إبطال كل تشريع فيه مشقة كبيرة، وما جعل عليكم في الدين من حرج.

ومعنى وضع الأغلال: أن من يدخل في الدين الذي يدعو إليه تكون له نفس القيمة التي لأي مؤمن. لا تفاضل بينهم بلون ولا جنس ولا نسب ولا عرق.

بعد أن ذكر في صدر الجواب لموسى أن رحمته الخاصة سبحانه سيكتبها لمن تتبعنا ملامحهم، تختم الآية بما يؤكد تلكم الرحمة، وما يؤكد من ناحية صفاء الاتّباع وصدقه، بأن الذين آمنوا بهذا الرسول النبي الأمي... إيمانا حملهم على تأييده وإظهار صدقه للناس بما وجدوه في كتبهم، ونصروه على من يبغي إطفاء دعوته، وأدركوا النور الذي جاء به فاتخذوه هاديا لهم في مسيرتهم في الحياة، إن هؤلاء هم الذين فازوا في عاقبة أمرهم وهم المختصون بالفلاح، وخسر كل من لم يسر على نهجهم. وبهذا فإن النص القرآني كما يشمل اليهود والنصارى، يشمل أيضا جميع من وُجِّهت إليهم الدعوة فاستجابوا، واتبعوا ملازمين للنور الذي جاء به.

158- قل يا أيها الناس...لعلكم تهتدون.

لقد أوضحت الآيتان السابقتان ما تميز به الإسلام، وصفات رسوله الذي دعا كافة البشر إليه، وفلاح من اتبعه؛ فَجَرْيًا على ما يهدف إليه القرآن من صلاح البشرية، أمر رسوله أن ينادي في الكون كله وأن يدعو الناس جميعا ليؤمنوا به على أنه رسول الله إلى كل إنسان، ممن حضر وقت النداء وممن سيأتي في مستقبل الأزمان. ومما يوجب الاستجابة إلى عموم هذه الدعوة الموحِّدة، التي تجاوزت طبيعة دعوة موسى وعيسى الخاصة ببني إسرائيل، أنه مبعوث من الله الذي له ملك السماوات والأرض، وهو وحده الحقيق بأن يعبد حسبما يقتضيه مفهوم الألوهية، وأنه سبحانه هو أيضا وحده الذي يحيي، وهو الذي يميت وليس ذلك لأحد غيره. إن هذه المقدمات يتبعها أن تتوحد البشرية على عقيدة واحدة وعلى دين واحد. وخاصة مفهوم الإحياء والإماتة، فإن هذا المفهوم كما يبرز أثره في الأجسام يبرز أثره في الأرواح، كما جاء في قوله تعالى : **(أومن كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها)**[52]

وتتأكد دعوة الرسول بالأمر الإلهي لجميع البشر أن يؤمنوا بالله وبرسوله وأن يلتزموا في حياتهم عقيدة وعملا وسلوكا ما جاء به الرسول النبي الأمي، محمد المتفرد بهذه الأوصاف بين الخلائق، المنوه به من قبل ربه: أنه يؤمن أوضح إيمان وأتمه بالله وبكلماته المتمثلة فيما أوحي له به من القرآن، وما أوحي للنبيين من قبله من الحقيقة، وبعيسى الذي هو كلمة من الله كما بيناه في سورة آل عمران : **(إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم)**[53] – وكما أشرنا إليه: إن الإيمان الذي نادى في البشرية أن يؤمنوا به، هو المبين في ختام الآية بأنه الإيمان الذي يصحبه الاتّباع لكل ما جاء به عقيدة وعملا وأخلاقا. وبهذا الإيمان المقرون بالالتزام العملي يرجى لكم تحقق الهداية، والرجاء مناطه أنه مغالبة للنفس في مسيرة الحياة، وهذه لا غنى لها عن موصول الألطاف الإلهية.

[52] سورة الأنعام آية122

[53] سورة آل عمران آية45

وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ ١٥٩ وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ
أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ
فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ
ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا
ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠ وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ
وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ
خَطِيٓـَٰٔتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ
ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٦٢

بيان معاني الألفاظ:

قوم موسى: المتبعون لشريعته قبل البعثة المحمدية.

يعدلون : لا يظلمون في أحكامهم.

قطعناهم : قسمناهم.

الأسباط: أبناء أبناء يعقوب إلى كل واحد منهم تنتسب قبيلة.

انبجست : انشقت.

بيان المعنى الإجمالي :

أنصف القرآن بني إسرائيل فبين أنهم لم يجمعوا على الضلال ولكن فريقا منهم ثبتوا على الحق ويقضون بالعدل. وقسم موسى بني إسرائيل إلى اثنتي عشرة فرقة كل واحدة تُدْعَى سبطا تنسب إلى الولد الذي تناسلت منه من أبناء يعقوب عليه السلام. وأوحى الله لموسى لما عطشوا وكانوا في الصحراء، وسأله السقيا، أن يضرب الحجر بعصاه، فضربه وتفجرت منه اثنتا عشرة عينا عرف كل سبط العين الذي يرتوي منه. ثم ذكر القرآن ما منّ به الله على بني إسرائيل وهم في الصحراء من الغمام الذي يظللهم ومن تيسير طعامهم من المن والسلوى، وأباح لهم أن يأكلوا ويشربوا مما رزقهم من رزق طيب. وإن الذين تجاوزا الحدود أوقعوا أنفسهم فيما يوجب لهم العذاب وظلموا بذلك أنفسهم ولم يضروا الله شيئا. واذكر

مذكرا لهم قصة القرية التي أذن لهم بدخولها والانتفـاع بخيراتهـا، وقـد تقـدمت مفصـلة في سورة البقرة.

بيان المعنى العام :

159- ومن قوم موسى...وبه يعدلون.

هذه الآية تعلمنا التدقيق والضبط. فقوم سـيدنا موسـى لـم يعبـدوا كلهـم العجـل، وإنمـا عبده سفهاؤهم. وقوم سيدنا موسى هم الملتزمـون باتّبـاع شـريعته التـي بقيـت شـريعة الله إلى أن نسختها الشريعة الإسلامية، ولذلك فإنـه بعـد مجـيء الإسـلام لا يقـال لمـن يتبع شريعة موسى : إنه من قومه، ولكن هم يهود أو بنـو إسـرائيل. يبـدو هـذا التـدقيق والإنصاف في أن بعض الذين التزموا بشريعة موسـى كـانوا علـى حـظ مـن التقـوى ومن دعوة الناس إلى الحق، ومن الحكم بالعدل إذا تولوا الحكم بين الناس.

160-وقطعناهم اثنتي... يظلمون.

كان موسى عليه السلام رسولا وقائد أمة ورجـل دولـة. وسـاعده الـوحي علـى النجـاح فـي مهمته، فنفّذ ما أوحي إليه من تقسيم بني إسرائيل إلـى اثنتـي عشـرة فرقـة، كـل فرقـة تسمى(**سبطا**) والسبط ما تناسل من أولاد سيدنا يعقـوب الاثنـي عشـر. وبهـذا التقسـيم تيسر تنظيم أمرهم في كل شؤون الحيـاة المدنيـة. فمـن ذلـك أنهـم لمـا عطشـوا بعـد اجتيازهم البحر سألوا موسى الماء، فطلب السـقيا مـن ربـه، وأوحـى إليـه أن يضـرب الحجر بعصاه، فضربه فتفجرت من الحجـر اثنتـا عشـرة عينـا بعـدد الأسـباط، وقـد اهتدى كل سبط إلى العين التي تخصه فشربوا وارتووا دون تدافع.

وقد تقدم الكلام على هذه المعجزة في سورة البقرة آية60 ومـا تبعهـا مـن المـنن التـي تفضل بها عليهم من الإذن للغمام بتظليلهم مـن وهـج الشـمس فـي الصـحراء، وإنـزال المن عليهم كل صباح يقتاتون منه ما يقيم حيـاتهم، مـع لحـم السـلوى [**السـماني**] التـي سخرها لهم يمسكونها دون عناء. وقد تقدم ما يتعلـق بهـذه المـنن فـي سـورة البقـرة. وأضاف إلى المنة المادية المنـة الاعتباريـة بتـذكيرهم أن هـذا مـن فضـل الله علـيهم فليأكلوا منه وليشربوا من الماء المتفجر من الصخرة، وكلها طيبات من رزق الله.

161-162: وإذ قيل لهم اسكنوا...بما كانوا يظلمون.

وختم الآية بأن ما وقع من بني إسرائيل من عـدم مقابلـة تلكـم الـنعم بالشـكر والطاعـة كان له أثره على نفسياتهم. وعصيانهم لا يضـر الله شـيئا ولكـن يجمعهـم فـي الجـزاء إلى الظالمين. وقد تقدم في سورة البقرة فـي تـوبيخ بنـي إسـرائيل قبـل تفجيـر المـاء نظير ما ذكر هنا. وما بين الطريقة التي نسجت بها القصـة هنـا، وبـين طريقـة التعبيـر

في سورة البقرة من جزئيات يوضحها أن غرض القصة هنا هو سرد ما تم وفي سورة البقرة التوبيخ. فكان الإعجاز البياني موجبا لشيء من الاختلاف حسبما يلائم كل موقع. والقرية التي أمروا أن يدخلوها لم يعين القرآن اسمها، ورتب لهم طريقة دخولهم وما يقولونه، ولكن عصى فريق منهم متجاوزا الحدود التي حددها لهم موسى بوحي من ربه، فأنزل الله على الذين عصوا وبدلوا عذابا نزل عليهم من السماء لم يستطيعوا منه تَوَقِّيا، وكان ذلك بسبب ظلمهم وقد تقدم شرح أوفى في سورة البقرة آية 59/58.

وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

يعدون : يظلمون ويتجاوزون الحق بمخالفة الشرع.

الحيتان: الأسماك.

شُرّعا: متتابعة مصطفة ظاهرة.

نبلوهم : نختبرهم.

حاضرة البحر : قريبة من شاطئه.

معذرة : إقامة عذر.

نسوا: تركوا.

بيس : مؤلم شديد.

عتوا: من العتو وهو الاستعصاء.

خاسئين: مبعدين أذلاء.

بيان المعنى الإجمالي:

أذن القرآن لرسول الله ﷺ أن يسأل اليهود عن أهل القرية التي كانت على شاطئ البحر، والتي يكتمون أمرها ولا يخبرون به، لاحظ أهل القرية أن الأسماك تأتي

بكثرة للشاطئ يوم السبت، وتُوغل في داخل البحر في الأيسام الأخرى، مما أغراهم بالاحتيال عليها يوم السبت ليمنعوها من العودة إلى لُجِّ البحر. فكان هذا اختبارا لهم ليظهر فسقهم وتجاوزهم للحدود التي حددتها التوراة ؛واحتالوا عليها فعلا. وقام فريق من أهل القرية بنهيهم عن ذلك، ولم يفد فأقلعوا عن وعظهم، وواصل فريق آخر نهيهم ووعظهم. دار بين الفريقين الصالحين الحوار التالي: قال الذين اعتزلوا وعظهم للذين يوالونه: لم تتعبون أنفسكم في وعظ هؤلاء الذين حق عليهم المحق أو العذاب الشديد؟ أجاب الفريق المواصل إن نهْيَنا إظهار لعذرنا أمام ربنا، ولعلهم في النهاية يقلعون عن الإثم. ولكن الكسب المادي أصسم آذان الصيادين عن المواعظ. فلما واصلوا تجاوز الحدود سلط الله عليهم عذابا شديدا فمسخهم قردة.

والأقرب أن المسخ كان كفاء ما صنعوا، فهم قد احتالوا وصرفوا ذكاءهم في انتهاك ما أمروا به، فكان العذاب بسلبهم قدراتهم العقلية، فأصبحوا في مستواهم الذهني كالقردة ليس لهم من القوى العقلية إلا التقليد الغبي في الأمور المادية القريبة.

بيان المعنى العام :

163- واسألهم عن القرية...بما كانوا يفسقون.

دعوة موجهة إلى رسول الله ﷺ أن يثير اليهود بسؤالهم عن أهل القرية التي كانت قريبة من شاطئ البحر. وذكر المفسرون في تعيينها أقوالا كثيرة لم يبينوا مستندهم في التعيين. ولا يُقصد من السؤال أن يجيبوه عما حصل لهم، ولكن اليهود كانوا يكتمون قصة هذه القرية، فعرَّف القرآن نبيه بها، وسألهم عنها لينبئهم أنه موحى إليه من الله المطلع على ما يخفونه من تاريخهم كعلمه بما يضمرونه في أنفسهم من حقد ومكر بالإسلام، وأنه يكشف له خفاياهم. فما هي قصتها؟

كانت القرية قريبة من شاطئ البحر، وكان أهلها يصطادون الأسماك، ولاحظ سكانها أن يوم السبت تظهر الأسماك بكثرة، واليهود يحرم عليهم العمل يوم السبت. ابتلاهم الله بهذه الظاهرة ليتبين المحافظون على شريعة التوراة والمتهاونون بها. ويذكر المفسرون صورا كثيرة لطريقة انتهاكهم لقداسة السبت، وكلها لا تخرج عن تصوير حيل تمكنوا بها من منع الأسماك من الرجوع إلى داخل البحر، ثم يقبضون عليها يوم الأحد.

فالله لم يقسرهم على الوقوع في الإثم وعدم احترام عطلة يوم السبت، وإنما تعرضوا لامتحان يختارون فيه بأنفسهم بدون ضغط عليهم طريق التقوى أو طريق الفسق. ويصرح القرآن بأن ما تعرضوا له من الامتحان كان بسبب تماديهم على

المعاصي والخروج عن الحـدود، فكـان ذلـك كاشـفا لحقيقـتهم معـدا لتسـليط العقوبـة عليهم.

164←166-وإذ قالت أمة منهم...قردة خاسئين

دقق القرآن أن انتهاك السبت لم يحصل مـن جميـع أهـل القريـة. ولكـن أهلهـا كـانوا ثلاث فرق: جماعة تحيلوا على الأسماك يوم السـبت حتـى أوقعوهـا فـي قبضـتهم فـي اليوم التالي. وجماعة قامت منددة ناهية للمعتدين حتـى أيسـت مـن إقلاعهـم عـن الإثـم فاستمرت منكرة في باطنها غير موالية مباشرة النهـي. وطائفـة والـت الإنكـار وشـجب ما يقوم به الصيادون. ثم إن الفرقة الثانيـة قالـت للفرقـة الثالثـة: لـم تتْعِبـون أنفسـكم بوعظ هؤلاء الذين اسـتهانوا بالمقـدس اسـتهانة سـينالهم بسـببها عـذاب شـديد وهـم مصممون على التمادي لا يتأثرون بـالمواعظ والتـذكير. أجابـت الطائفـة الثالثـة :إننـا نوالي وعظهم ليكون قيامنا به عذرا عند ربنـا أننـا مـا فعلنـا ولا سـكتنا، ومـن ناحيـة أخرى لعلهم بمواصلة وعظنا يرجعون عن غيهم ويتقون ربهم.

أعقب ذلك أن الصيادين لم يلتفتوا إلى المواعظ، وواصـلوا التحيـل علـى الأسـماك يـوم السبت، فهم لرفضهم المـواعظ كـأنهم نسـوا مـا تـوالى علـى أسـماعهم مـن تـذكير الصالحين منهم. فسلط الله عذابا شـديدا(**بـيس**) علـى الظـالمين بسـبب تصـاممهم عـن الاتعاظ والتمادي في الإثم وخروجهم عـن الحـدود الواضـحة فـي التـوراة ، وأنجـى الذين قاموا بالنهي عن المنكر. ثم أضاف القرآن أنهم تمـادوا فـي عصـيانهم، فهـل هـذا التمادي هو تحقيق وتأكيد لما سـجلته الآيـة السـابقة، فأتبعـه القـرآن بتفصـيل العـذاب الشديد (**بيس**) أنه أصدر أمره التكويني بأن يكونوا قردة أذلاء.

ويحتمل أن الله سلط علـيهم أولا عـذابا شـديدا، فلـم يقلعـوا وواصـلوا الاعتـداء فـي السبت فمسخهم الله قردة.

وتقدم في الآية 60 من سورة البقرة ما يحتمله لفظ المسخ.

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ
رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ
ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ
﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَٰذَا ٱلْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ
سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلُهُۥ يَأْخُذُوهُ ۚ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَٰقُ ٱلْكِتَٰبِ أَن لَّا

يَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ وَدَرَسُواْ مَا فِيهِ ۗ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِٱلْكِتَٰبِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾ ۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧١﴾

بيان معاني الألفاظ:

تأذن: أعلم بما سينفذه.

ليبعثن : ليسلطن وليرسلن.

يسومهم : يكلفهم ويحملهم.

سوء العذاب : أشده.

خلف من بعدهم : حدث بعدهم الذين خلفوهم.

العرض : ما يزول ولا يبقى، والمراد به المال.

الأدنى : الأقرب أي الدنيا.

الميثاق : ما أخذه عليهم موسى عليه السلام من إقامة التوراة والعمل بها.

يمسكون: مضارع مسك بمعنى مسك، أي يضبطون أعمالهم.

نتقنا : اقتلعنا ورفعنا.

ظلة : سحابة.

بيان المعنى الإجمالي:

أعلم الله ملائكته بما قدره ليقوموا على تنفيذه، أعلمهم أنه قدَّر أن يسلط على بني إسرائيل من يحملهم أشد العذاب وأسوأه. والله العظيم المقتدر القهار يوقع العقوبة وحاشاه أن يتردد، كما أنه متصف بالمغفرة والصفح عن المذنبين التائبين ويرحم عباده بما يهيء لهم من ألطاف.

وسجل القرآن: أن الله بعد أن جمع بموسى عليه السلام كلمة بني إسرائيل، قسمهم جماعات جماعات، بعضهم صالح وبعضهم غير صالح واختبرهم تارة بالخير، وتارة بالعسر والشدة لعلهم يرجعون إلى الطريق المستقيم. وظهر إثرهم خَلَفُهُم الذين ورثوا عنهم التوراة، فكان من أمرهم أنهم يقبلون على الحياة الدنيا معرضين عما يأمرهم به كتابهم، ويقولون تبريرا لفسقهم: إن الله سيغفر لنا، وتمادوا على ذلك يقبلون الرشاوى ويغيرون نصوص التوراة مؤولين. يسألهم القرآن سؤال تقرير: ألم يؤخذ عليكم الميثاق الذي التزمتم به أن لا تحرفوا ما أنزل عليكم ولا تنسبوا إلى الله إلا

الحق المثبت في الكتاب، ومع الميثاق أنتم غير جـاهلين فقـد درسـتم التـوراة وعـرفتم مضامينها. آثرتم الحياة الدنيا ومتاعها قليـل، وأعرضـتم عـن الـدار الآخـرة، ونعيمُهـا خير للذين اتقوا ربهم، ما لكم أفقدتم عقولكم!

أنصف القرآن الخلف بأن منهم من يراعي في أعماله ما جاء في التوراة، وكان على صلة بربه فأدى الصلاة على الوجه السليم، وفضلُ الله لا يهمل المحسنين أجرهم.

وقصة أخرى قد ذكرت في سـورة البقـرة حاصـلها : أن بنـي إسـرائيل تـرددوا فـي التزام ما جاء في التوراة فرفع الله فوقهم الجبل وبلغـت بهـم الرهبـة أنهـم ظنـوا أنـه سيقع عليهم ويسحقهم. وعندها أمِـروا أن يقبلـوا مـا فـي التـوراة بعـزم ثابـت علـى التطبيق وأن يذكروا ما جاءهم من ربهم حتى لا يستولي عليهم النسيان.

بيان المعنى العام :

167-وإذ تأذن ربك...لغفور رحيم.

اذكر يا محمد ما أعلم الله بـه ملائكتـه، المـوكلين بتنفيـذ أمـره، أن علـيهم أن يسـلطوا سوء العذاب على اليهود في جميع مراحـل التـاريخ إلـى يـوم القيامـة، فكلمـا خرجـوا من كرب يهيئون الظروف لينالهم القدر المحتوم. ولـيس العـذاب الموعـود بـه، المعلـم به الملائكة لتنفيذه مسلطا على اليهود لكونهم يهـودا، ولكـن ذلـك تـابع لكفـرهم بآيـات الله وببشارة محمد ﷺ، فإذا آمنوا به كما هـو الحـق وكمـا تـأمرهم بـه التـوراة، فـإن الوعيد سيرتفع عنهم. وتعلن الآية وصفين من صفات الله تعالى :

الصفة الأولى مرتبطة بإنزال العقوبة، فإن عقابـه شـديد لا يجـد مـن ينـزل بـه منـه مخرجا.

والصفة الثانية مرتبطة بالفضل، فالله غفور يغفـر لهـم مـا كـانوا عليـه قبـل إيمـانهم، ورحيم بما أقامه على صدق الرسول من شـواهد، ومـا قارنـت الـدعوة المحمديـة مـن معجزات تذهب بوساوس الشيطان وتضليلات ربّيّيهم، وتُيَسِّـر لهـم الـدخول فـي ديـن الله.

168- وقطعناهم في الأرض أمما...لعلهم يرجعون.

ثم ذكرت الآية وضعا من أوضاع يهود وقـد نفـذ فـيهم القـدر المحتـوم، هـو الوضـع الذي قطعهم وفرقهم بعد أن كانوا مجتمعين. فـإن بنـي إسـرائيل بعـد أن قـادهم موسـى عليه السلام قيادة حكيمة، وَحَّدَتْ بينهم بما يمنـع حـدوث شـقاق بـين عشـائرهم، وذلـك لما قسمهم أسباطا كما بيناه سابقا، ولكـن مـع مـرور الـزمن وتنكـرهم لمـا جـاء فـي التوراة فرَّق القدر الإلهي بينهم، كما يُقَطَّـع الثـوب فيتمـزق، وتوزعـوا فـي أرض الله.

ويشير القرآن إلى ظاهرة واضحة من تتبع طريقة اليهـود وهـم موزعـون بـين الأمـم، هذه الطريقة هي أنهم لا يندمجون في غيـرهم ويتميـزون برابطـة جامعـة بيـنهم، قـال تعالى : **(قطعناهم في الأرض أمما)** فكل مجموعة منهم فـي قطـر أو دولـة تعقـد بـين أفرادها رابطة جامعة تكون بها أمة وسط الأمة.

169- فخلف من بعدهم خلف...أفلا تعقلون.

ومن ناحية أخرى أنصفهم القرآن ولـم يُجـرِ علـيهم حكمـا ثابتـا لا يختلـف بـاختلاف الأشخاص والظروف، فحقق أنهم علـى فـرقتين، بعضـهم شـهد الله بصـلاحه فاسـتقام في سلوكه وآمن بما جاء في التوراة وعمل بـه، ومـن ذلـك الإيمـان بمحمـد صـلى الله عليه وسلم، وبعضهم كان دون هذه المرتبة من الصلاح.

ومراتب انتفاء الصـلاح متفاوتـة. ثـم إن الله اختبـرهم بـالخير والضـر. إن الامتحـان المقدر لهم من الخير أو من الضر لم يكـن اعتباطـا، ولكـن تقويمـا للنفـوس رجـاء أن تعود إلى الإيمان والتزام طريق الصـلاح. ذلـك أن بعـض النـاس إذا جـاءتهم الحسـنة تيقظوا لفضل الله عليهم فأقبلوا عليه بالشـكر والطاعـة، وأن بعضـهم إذا ابتلـي بالسـيئة هزته لمحاسـبة نفسـه والرجـوع إلـى الطريـق الـذي يرضـي رب العـالمين. فلـيس الاستدراج ولا الانتقام هو المقصود، ولكن الإصلاح بالعودة إلى الطريق المستقيم.

170-والذين يمسكون...أجر المصلحين.

تعرض القرآن للحديث عن الذين خلفوا آباءهم وجـاؤوا بعـدهم. فقـد انتقـل إلـيهم مـن آبائهم الكتاب الذي نزل على موسى فعلموا ما فيه بمـا يرفـع عـنهم اعتـذارهم بـالجهـل عندما يوقَفون على سوء أعمالهم. وهـم مـع علمهـم بأحكـام الكتـاب يسـارعون فـي قبول المال الفاني غير الباقي سواء أكان ذلـك فـي الارتشـاء عنـدما يكونـون حكامـا، أوفي بيان أحكـام التـوراة للاتبَـاع فيؤولونهـا حسـبما يوافـق الأهـواء، أو فـي عـدم الاقتصار على الحلال في المعـاملات، فوصـفهم بشـدة تعلقهـم بالمـال الـذي يقدمونـه على ما استحفظوا عليه مـن كـلام الله وأحكامـه، ويقـدمون مبـررا لفسـادهم بـأن الله سيغفر لهم ذنوبهم. وهذا مـا يروجـه اليهـود والنصـارى، فـاليهود يكـذبون علـى الله زاعمين أنه لن تمسهم النار إلا أياما معدودات هي الأيام التـي عبـدوا فيهـا العجـل ومـا يتلبسون به من المناكر بعد ذلك مغفور لهم لأنهم أبناء الله وأحباؤه.

والنصارى يزعمون أن عيسى ابن الرب وأنه بذل بدنـه للتعـذيب ليغفـر ذنـوب البشـر الذين يؤمنون بذلك. فالصلاح عندهم والخير لـيس فـي الاسـتقامة ولا فـي فعـل الخيـر ولا في تحقيق الاستخلاف؛ ولكن في الإيمـان بـأن عيسـى صـلب ليكفـر عـن ذنـوب

البشر، أو في أنهم من نسل يعقوب الذي رفعه الله على سائر البشر. وهي دعوى تناقض العدل الإلهي. إنهم مع علمهم بحرمة الأموال التي تدخل في مكاسبهم، يواصلون لذلك لا يرعوون، فكلما جاءهم مال حرام أخذوه. ويتعللون بأن الله وعدهم بغفران ذنوبهم.

رد الله عليهم دعواهم، ووجه لهم سؤال تقرير وتوبيخ محصله: ألم يؤخذ عليكم الميثاق الذي جاءت به التوراة من الالتزام بالعمل بما جاء فيها. ومما أخذ عليهم أن لا يكذبوا على الله، وأن لا يغيروا شيئا مما أنزله عليهم. ومع الميثاق هم قد درسوا الكتاب وفهموا مضامينه، فانتسابهم لموسى يوجب عليهم أن لا ينقضوا الميثاق الذي أخذ عليهم: أن لا يقولوا على الله إلا الحق وأن لا ينسبوا للتوراة شيئا يختلقونه لا أصل له، وكذلك علمهم بما في التوراة التي درسوها وتفهموا نصوصها، فبهما معا قامت عليهم الحجة.

إنهم يختلقون الأكاذيب على الله، ويعملون بخلاف ما درسوه فعلموه، وذلك لتقديمهم متاع الحياة الدنيا وتعلقهم بمتاعها الوقتي الزائل. إنهم واهمون فإن الحياة الآخرة خير للذين اتقوا ربهم، ولكنهم لم يتقوا ربهم وآثروا الدنيا الفانية على الآخرة الباقية. ينبههم القرآن محركا لمداركهم، ما الذي أصابكم حتى سرتم في طريق الهلاك، أليس لكم عقول تهديكم للخير ؟

170-والذين يمسكون...أجر المصلحين.

ومن إنصاف القرآن أنه لم يسحب تلكم الأوصاف الذميمة على جميع الخلف، فنوه بالذين يضبطون أعمالهم حسبما جاء في التوراة واستقاموا في سلوكهم، ثم أضاف وصفا آخر مع صلاح العمل : إقامة الصلاة ؛وهو كناية عن إيمانهم بمحمد ﷺ، وذلك لأن شارة الإسلام هي إقامة الصلاة. وصرح بما كتبه لهم مسندا له إلى عزته التي تجعل الجزاء متيقنا، **(إنا لا نضيع أجر المصلحين)** فالذين يمسكون بالكتاب سنجزيهم خير الجزاء وأوفاه لأن عزتنا تقتضي أنا لا نهمل جزاء المصلحين .

171- وإذ نتقنا الجبل...لعلكم تتقون.

ثم انتقل القرآن للتذكير بأمر آخر أدّب الله به بني إسرائيل، ذلك أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة وأعلمهم أنهم مكلفون بالعمل بما جاء فيها، لم يسرعوا إلى إجابته والتزام ما أمرهم به ربهم، وتوقفوا حتى يعلموا ما تتضمنه. فأمر الله ملائكته أن تقتلع الجبل الذي كانوا في سفحه، وأن يرفعوه فوق رؤوسهم كأنه سحابة تظللهم، وبدهي أن الجبل الأخشب بصخوره وثقله ليس ظلة يتظلل بها، ولكن هو في

ارتفاعه على رؤوسهم ومساحته الشـاملة لجميـع القـوم، كأنـه سـحابة ولـيس سـحابة لقوله تعالى بعد ذلك: **وظنوا أنه واقع بهم**. ونزل الرعـب فـي قلـوبهم وتوقعـوا توقعـا راجحا أنه سيقع عليهم ويسحقهم سحقا. وسمعوا النـداء: خـذوا مـا أنزلنـاه علـيكم مـن التشريع بعزيمة ثابتة على التطبيق لما جاء فيـه، وكونـوا ذاكـرين لمـا تضـمنه، فإنـه بذلك يرجى أن تكونوا من المتقين.

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٧٤﴾

بيان معاني الفاظ :

الذرية : اسم جمع لما يتولد من الإنسان.

أخذ: انتزع.

نفصل : نبين ونرفع الالتباس.

بيان المعنى الإجمالي :

تبين لنا هذه الآية أمرا غيبيا حسب قـدرات إدراكنـا وحسـبما تسـمح بـه اللغـة. يثبـت القرآن أن الله جمع البشر كلهـم بعـد أن انتـزعهم مـن ظهـور أصـولهم، وركـز فـي فطرهم الإيمان بأنه هو ربهم، وأن هذا التركيز تبعـه اعتـرافهم بألوهيتـه، وبقـي كامنـا في النفوس. وذلك حتى لا يعتذر من كفر منهم يـوم القيامـة بقولـه: غفلـت عـن التأمـل فلا يفيده ذلك لأنه خالف فطرته. أو يعتذر باتّباعه لمـن أشـرك مـن آبائـه، وهـو عـذر لا ينفي المسؤولية.

بيان المعنى العام :

أتَمَّ القران بالآية السابقة ما قصد إليه في هذه السورة مـن ذكـر أحـوال بنـي إسـرائيل. وابتداء من هذه الآية إلى ختام السورة عنـي بالمشـركين ليكشـف لهـم ضـلالهم ويبـين لهم مسلك الإيمان.

172-173: وإذ أخذ ربك....بما فعل المبطلون.

تفتتح الآية بالتذكير بأمر من أمور الغيـب لا سـبيل لمعرفتـه، ولا لتكييفـه ولا للاطـلاع على الوجه الذي تم به إلا مـن الوسـيلة الوحيـدة لـذلك، وهـي الـوحي الإلهـي. لقـد

أحضر الله في لحظة من لحظات الزمن التـي لا يعلمهـا إلا هـو ولا يعلـم طريقتهـا إلا هو، ولا يعلم اللغة التي تم بهـا الخطـاب إلا هـو، ولا يعلـم اللغـة التـي أجـاب بهـا المسؤولون إلا هو، ولا يعلم قليل ولا كثير من هذا المشـهد الـذي أشـارت إليـه إلا هـو سبحانه العليم بما دق وجل.

إنه حدثٌ تم في عمر الكون قرَّبه لنـا الخـلاق العلـيم بلغـة تعطـي لعقولنـا ولإمكاناتنـا تصورا عاما، هو ما سنحاول بيانـه، أمـا التصـور الـدقيق الـذي قـد يـذهب الخيـال لاستحضاره، فإن ما نجزم به أن كل الصـور المتخيلـة لا رابـط بينهـا وبـين الحقيقـة والواقع. وصل العلم اليوم إلى حقيقة مفادهـا: أن كـل كـائن بشـري عُبِّئـت خصائصـه الخلقية والنفسية والعقلية فـي الجينـوم المحمـول فـي رأس اللقيحـة المخصـبة. وهـذا الذي كَشَفَ عنه العلم، ولم يُوجِدْهُ، يقف عند حـدود الإمكانـات التـي تأخـذ سـبيلها إلـى الظهور ما لم يدخل عليها عامل خـارجي يحولهـا عـن مسـارها، ولا يسـتطيع أن يتنبـأ العلم ولا الباحثون بهذه الطوارئ التـي تـدخل فـي خـط التطـور، لأنهـا مـن تقـدير التصرف الإلهي. فإذن الاستعدادات كلها كامنة في شـفرة الجينـوم. ومـن ذلـك قدراتـه التناسلية ولكن لا يوجـد فـي الشـفرة، ولا يمكـن أن يوجـد، مـع مـن يـتم الاتصـال الجنسي والتوالد المتأثر بجينوم الأبوين معا لأن ذلك من القدر الإلهي المحجوب.

إن ما اكتشفه العلم يبعث لنا خيطا من النور يكون ما يرتسم بـه فـي أذهاننـا مـن الآيـة أوضح مما كان الأمر عليه قبل ذلك. فما يتناسل من البشـر فـي المسـتقبل معلـوم عنـد الله، وقد صرح به مـثلا فـي قولـه تعـالى :**(فبشـرناها بإسـحق ومـن وراء إسـحق يعقوب)**[54] وكذلك الأمر بالنسبة لجميع أفراد البشر الـذين سيتناسـلون مـن آدم إلـى يـوم القيامة. والنظام الذي تسير عليه كل خلية فـي تطورهـا مسـطور فـي الجينـوم. فـنفهم من هذا أن الله أودع في كل جينوم ما يجعلـه إذا تطـور حسـب قانونـه الأصـلي يصـل إلى الإيمان بالله خالق الكون. وهذا الإيداع تم تنفيـذه فعـلا وكتـب فـي شـفرة الجينـوم. فتكون كل نفس بشرية، كما أودع في شفرتها المشـي علـى رجلـين عنـد بلوغهـا الحـد من النمو الذي يمكنها من ذلك، فكذلك كتـب فيهـا الإيمـان بـالله خـالق الكـون ؛تظهـر آثار ذلك عندما ينمو وتتمكن قواه العقلية وملكاته مـن النظـر. فعبـر القـرآن عـن ذلكـم الإبداع وعن قبول كل ناسلة له واحتفاظها به في مخزونهـا بهـذا التعبيـر المعجـز فـي دقته وفي طريقة نسجه لتقريبه من عقولنا القاصـرة فـي حـدود إمكانـات اللغـة. وهـذا نظير قوله تعالى : **(ثم استوى إلى السـماء وهـي دخـان فقـال لهـا ولـلأرض ائتيـا**

[54] سورة هود آية 71

طوعا أوكرها قالتـا أتينـا طـائعين)[55] وقولـه تعـالى: (**إنـا عرضـنا الأمانـة علـى السماوات والأرض والجبال فـأبين أن يحملنهـا وأشـفقن منهـا**)[56] وإذا جرينـا علـى تتبع ألفاظ الآية حسب ظاهرهـا يكـون مؤداهـا : أن الله فـي عَـالَمِ الغيـب أخـذ مـن ظهور البشر، والتعبير بالظهور له مزيته، إذ الظهر يعبـر بـه عـن القـوة التـي يتحمـل بها الكائن البشري الأثقال، فمما يحمله البشر ما يتناسـل مـنهم، وكـل ناسـلة تأخـذ مـن أصلها مورّثات خاصة لا تشاركها فيه أي ناسـلة أخـرى، أخـذ الله مـن ظهـور البشـر في وقت لا يعلمه إلا هو، وبطريقة لا يعلمها إلا هـو. وأودع فيهـا القـدرة علـى معرفـة أنه الخالق، وتم ذلك فعلا فإذا هي جميعها بعـد ذلكـم الإيـداع مقِـرَّةٌ بـأن الله هـو رب الكائنات، قالوا بلى شهدنا. ثم علقت الآية على هـذا الحـدث: فعلنـا بكـم ذلـك إسـقاطا لأي عذر تعتذرون به: أن تقولوا. لئلا تقولـوا. ومـا يتصـور الاعتـذار بـهِ مِمَّـن لـم يؤمن أحد أمرين: إما أن يعتذر فيقول: غفلت عـن التأمـل فـي الآيـات والشـواهد التـي تبلغني الوصول إليك ربي. وإما أن يعتذر فيقـول: وقعنـا تحـت ضـغط التقليـد لآبائنـا الذين أشركوا فاتبعناهم. وكلا العذرين ساقط لا ينفـع لأنهـم حسـبما ركـز فـي فطـرهم وكتب في خريطة جينومهم **[الجينـوم : الخريطـة، المسـجل فيهـا الخصـائص الذاتيـة لكل إنسان من اليوم الأول الذي خصبت فيه البييضـة]** ممكَّنُـون مـن التوحيـد. إن لـم نقل منساقون إليه بيسر. وما قدموه مـن رجـاء لعـدم المؤاخـذة والتجـاوز عـنهم فـلا يؤاخذون بانجرارهم مع المبطلين الذين هم أحـق بـأن ينـزل علـيهم وحـدهم العـذاب. أفتهلكنا بما فعل المبطلون ؛ هو كلام لا يتجـاوز أن يكـون تنصـلا مـن المسـؤولية. ولا ينفي المسؤولية الاعتذار عنها.

174-وكذلك نفصل الآيات...ولعله يرجعون.

وعلى هذا النحو من البيان والتدقيق يـتم عـرض الأدلـة الهاديـة إلـى الحـق، ولعـل المشركين إذا تأملوا فيما يعرضه علـيهم القـرآن يرجعـون إلـى الفطـرة التـي فطرنـا الناس عليها ويدخلون في الإسلام.

وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ

[55] سورة فصلت آية11

[56] سورة الأحزاب آية 72

كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٧٧﴾ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ
فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿١٧٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

النبأ : الخبر المروي.

آتيناه آياتنا : يسرنا له الاطلاع عليها.

انسلخ : من السلخ وهو كشط الجلد، وهو عبارة عن الانفصال والبراءة

أتبعه: لحقه ملازما.

الغاوين : الضالين.

رفعناه : سمونا به في الكمال الإنساني.

أخلد إلى الأرض : مال إلى الأسفل والأخس.

إن تحمل عليه :تطارده وتستثيره.

يهد الله : يقدر له سلوك طريق النجاة.

بيان المعنى الإجمالي:

اقرأ يا محمد عليهم هذه القصة ليتدبروا فيها، حاصلها :أن رجلا آتاه الله عقلا صالحا وملكات تدعوه إلى التأمل في الكون وفي الآيات الناطقة بقدرة الله وتفرده بالخلق والتقدير. وتأمّل فعلا وتفتّحتْ له أبواب المعرفة، ولكنه لم يواصل فانسلخ وتعرى مما أحاط به نفسه من ثياب الإيمان. وتحول إلى متابعة شهواته وتحكيمها في سلوكه؛ فلزمه الشيطان يغريه، فكان من زمرة الضالين الغاوين. ولوشاء الله أن يحيطه بألطافه وتوفيقه لفعل، ولكنه أبى مقامات السمو ونزل إلى ما تقتضيه الشهوات الهابطة، فمثله كمثل الكلب، الذي يلهث في حال إضرائه وتهييجه، ويلهث وهو ساكن.

هذا المثل هو مثل القوم الذين كذبوا بالأدلة التي نصبها الله على التوحيد، فاقصص على الناس القصص التي أنزلها الله عليك، فإنه يرجى أن يتعظوا بها ويتفكروا فيما ترمي إليه من مواعظ.

ما أقبح مثل الذين كذبوا بآيات الله، وما ظلمـوا إلا أنفسـهم. مـن يسـعفه الله بـالظروف والتوفيق للهداية ينل الهداية، ومن يخذلـه فهـو فـي زمـرة الخاسـرين الـذين يقـدمون على ربهم يوم القيامة مفلسين.

بيان المعنى العام :

175-176: واتل عليهم...لعلهم يتفكرون.

طلبت الآية من النبي ﷺ أن يقرأ على النـاس خبـر رجـل مكّنـه الله مـن تتبـع الأدلـة الدالة على التوحيد والخير، وهذا الرجل لـم تعينـه الآيـة ، وحملـه بعضـهم علـى أنـه أمية بن أبي الصلت الثقفي، كان شاعرا ذكيا رفض الشـرك وتتبـع الكتـب الرائجـة فـي عصره بين اليهود والنصارى فلم يرتضها وتزهّـد، وهـداه عقلـه إلـى أنـه لا يقبـل أن يترك الله البشر في عمى، وأنه قد اقترب موعد رسـول هـاد؛ ورجـا أن يكـون مـوحى إليه. ثم إنه بعد البعثة حسد النبي ﷺ ومات على الكفـر. وقيـل هـو عـامر بـن صـيفي الراهب الذي حمله حسده للنبـي ﷺ علـى ممـالأة المشـركين. وأيـا مـا كـان الرجـل المُنَكَّرُ الذي أنزلت فيه الآية سواء أكان رجلا معينا، أو كـان غيـر معـين، فالـذي تـدل عليه الآية أن الله طلب من رسوله أن يتلـو علـيهم هـذه الصـورة التـي محصـلها : أن الله أعطى رجلا من الوضوح الفكري ما جعلـه يتتبـع الأدلـة فـي الكـون الهاديـة إلـى الإيمان به، وانشرح صدره لما وصل إليه؛ ولكنه بعـد ذلـك خـرج مـن الوضـع الـذي وصل إليه ومن الفيض النوراني الذي فتح بصيرته، فتحولـت حالتـه كحالـة الشـاة التـي كشط جلدها فتعرت من إهابها. تحول إلـى اتّبـاع الهـوى ورغبـات الـنفس. وإذ تحـول إلى هذا الوضع أسرع الشيطان إليه، ومـا زال يغريـه بـالانحراف إلـى أن طبـع علـى قلبه فصار من الجماعة الغاوية الضالة.

ولو شاء الله أن يحيطه بألطافه ويحجب عنه موارد الفساد التي وقع فيها لفعل، ولكن هذا الرجل اختار ومال إلى الشهوات الهابطة واتبع ما تدعوه إليه رغباته الجسمية الحسية، معرضا عن مراتب السمو التي كانت لاحت له أول الأمر، فحرم من الهداية التي يمنحها الله لمن سلك مسالكها، يقول الله تعالى: **(ويزيد الله الذين اهتدوا هدى)** [57]–

ومثل القرآن هذا الذي أعرض عـن الهـدى واتبـع هـواه وتـآلف مـع الشـيطان مثلـه بالكلب. تلحظون أنك إذا أغريته بالصيد أو هاجمتـه تحـرك يلهـث، وكـذلك إن لاعبتـه أو تركته لحاله لا ينفك عن اللهث. ومثله الـذي تعلـق بمـا تـدعوه إليـه الشـهوة تجـده

---

[57] **سورة مريم 76**

فاقدا للطمأنينة يجري وراء شهواته الهابطة لاهثا سواء أكـان فـي حالـة اسـتمتاعه بهـا أوفي حالة عدمها. فإن المرء إذا فتح الباب لتنطلـق شـهواته بـدون تحكـم، يكـون كلمـا قضى شهوة من شهواته تضاعفت شراهته. فاقصـص علـيهم القصـص التـي أحكمتهـا في القرآن، لا ليلهوا بها ولكن لأجل أن يتدبروا فيهـا ويتفكـروا فـي مراميهـا ليحـذروا عواقب السوء والخسران.

177-178: ساء مثلا...هم الخاسرون.

ويدرك كل مستبصـر أن وضـعهم وضـع سـيء. وأنهـم هـم الـذين ظلمـوا أنفسـهم فحولوها من طرق الهدى إلى طرق الكفر والفسـاد. واعلمـوا أن الله بعـث رسـله وأقـام الأدلة الهادية، ومكن الإنسان من النظر بما آتاه من حـواس وعقـل، ودعـا كـل فـرد أن يعمل فكره فيما هو معروض عليه من الهدى، ولـم يقـم موانـع تحجـب الإنسـان عـن التأمل والنظر. ثم بعد ذلك قد يقيم الله في عقـل النـاظر وفـي محيطـه دواعـي تحبـب له الخير والهداية، وتشرح صدره للإقبـال علـى مـا قدمـه لـه، والجـزم بـه والثبـات عليه، إلى أن يوافيه أجله، فيمـوت علـى حسـن الخاتمـة ويكـون بـذلك مهتـديا مـن المهتدين. كتب الله لي ولكم حسن الخاتمة. وقـد يعـرض الإنسـان علـى مـا مكنـه الله منه، ولا يسعده الله بالعون والتوفيق لطريـق الهـدى ويتركـه لنفسـه التـي تكـون منـذ البداية منفصلة عن التعلق به، فيكون مع القـوم الـذين اختـاروا الضـلالة علـى الهـدى ويكون من زمرة الخاسرين. علـى أن الحيـاة الـدنيا هـي رأس مـال، فإمـا أن يحسـن التصرف في رأس المال الذي مكنه منـه رب العـزة، وإمـا أن يسـيء التصـرف فيـه فيخسره، ويجد نفسه يوم القيامة بين يدي ربه مفلسا خاسرا مع الخاسرين.

من هذا النص الكريم يتبين الإنسان أن سعادته تابعـة لمـا يحيطـه بـه رب العـزة مـن ألطاف وتوفيق، وأن ما ينعم به من هداية واسـتقامة نـابع وتـابع للفضـل الإلهـي، ممـا يحتم عليه دوام الشكر والدعاء بـأن لا يخذلـه، وأن يواصـل عليـه ألطافـه حتـى يلقـاه يوم القيامة في زمرة العباد الصالحين. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٨٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

ذرأنا : خلقنا.

الغفلة : عدم الشعور بما يحق الشعور به.

الحسنى : مؤنث أحسن، المتصف بالحسن الكامل الذاتي.

يلحدون في أسمائه : يطلقون أسماء الله على أصنامهم.

بيان المعنى الإجمالي:

يحقق القرآن أن الله خلق خلقا كثيرا من الجن والإنس منصرفين إلى ما يفضي بهم إلى جهنم، كلما تحركت داعية الصلاح قتلوها وتحولوا إلى الشر. خلق الله لهم قلوبا أي عقولا من شأنها أن تتبين العواقب، ولكنهم لا يتجاوزون الظواهر الآنيَّة، وخلق لهم أعينا وهم كذلك لا يتجاوزون المرئي إلى ما وراءه من تناسق وقدرة مبدعة، ولهم آذان يسمعون بها الوحي ولكنهم لا ينتفعون بما يسمعون. لا فرق بينهم وبين الأنعام، بل هم أضل منها إذ الأنعام حرمت التفكير وتجاوز الواقع إلى ما وراءه، فوقوفها عند ذلك لا عيب فيه بالنسبة لها، أما هؤلاء فهم عملوا على تعطيل ما مكنهم منه ربهم فهم أضل من الأنعام. إنهم يعيشون في غفلة عما ينادي به العقل وعما تثيره الحواس من تجاوز للمدركات الحسية إلى النظام الذي وراءها.

وأرشد القرآن المؤمنين كي يتوجهوا إلى ربهم فيدعونه بأسماء الكمال التي رضيها لنفسه. وأن لا يأبهوا بالشغب الذي يصدر من المشركين الذين يسمون كذبا بعض آلهتهم باسم من أسمائه سبحانه. كونوا واثقين أن الله لا يمهلهم وسوف يجزيهم عن أعمالهم القبيحة التي منها ما سموا به آلهتهم الباطلة.

بيان المعنى العام:

179 -ولقد ذرأنا...هم الغافلون.

يحقق القرآن أن الله جعل قسما من الذين خلقهم من الجن والإنس وعددهم كثير، ليعملوا بما ينتهي بهم إلى جهنم. تجد جانب الخير غير معدوم فيهم؛ ولكن جانب الشر بيده القيادة فيتغلب دافعا المخلوق للضلال، ويعطل الجوانب الخيرة عن التأثير في السلوك. فبالنظر إلى أن سلطان التوجيه بيد قوى الشر يكونون كأنهم خلقوا للعمل بعمل أهل النار.

وتثبت هذه الآية كما ورد في آيات عديدة أخرى، أن الله كما خلق الإنس خلق الجن. ولكن تركيبنا الجسمي وطبيعة خلقتنا، والتركيب الجنسي وطبيعة خلقته، تجعلنا لا نقدر على تصور الجان ولا التعامل معه. ونجزم بأنه مخلوق ومكلف ومجزي

عما يفعل. والذي أعتقده أن الجن من خلق الله، وأنه مكلف، وأن النبي ﷺ بعث للإنس والجن، وأنه يرانا ولا نراه، لقوله تعالى: **(إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم)** كما سبق لنا في هذه السورة آية 27. والشيطان من الجن لقوله تعالى : **(إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه)**[58] وما زاد على ذلك من الروايات الشائعة بين الناس لم أجد له مستندا من الوحي أو من العقل. أتْبَعَ القرآن ملامح هذا الخلق الذي يعمل بعمل أهل جهنم وينساق إليها. فأثبت الله لهم قلوبا، والقلب يطلق ويراد منه في القرآن العقل المفكر المدرك للظواهر وللخفايا بالتأمل وترتيب وسائل الاستنباط. ومزية العقل الإنساني على الإدراك الحيواني هو في تجاوز الظواهر إلى ما وراءها. وذلك هو الفقه الذي هو إدراك الأمر الخفي، إذا لا يقال فقهت السماء، ولا فقهت أن الأربعة ضعف الاثنين. فهؤلاء لهم قلوب **(عقول)** ولكنهم عطلوها فأصبحت لا تدرك ما وراء الظواهر، فلا يدلهم النظام مثلا على وحدة الخالق وعلى وجوده. ولهم أعين لا تتجاوز نقل المحسوس إلى العين، فلا تتعدى ذلك مثلا إلى تتبع المرئيات وما فيها من تناسق وجمال وما يهدي إليه ذلك، وكذلك أسماعهم. فهم كالأنعام التي رزقت حواس من البصر والسمع ووقفت عند حد المنقول إليها لم تتجاوزه. فالحاسة التي لاتتفاعل مع العقل المنظم، ثم المولد هي كحاسة الأنعام، بل هي أسوأ منها.

ذلك أن الأنعام لم تعطل شيئا من إمكاناتها، وهؤلاء عطلوا ما وهبهم ربهم من قدرات فكانوا أشد ضلالا منها. ثم شنعت الآية بهم فأخرجتهم في صورة الذي يمشي في الكون ولا يشعر بما حوله غافل عن جميع المؤثرات.

180- ولله الأسماء الحسنى...ما كانوا يعملون.

من شأن القرآن أن يعنى بالمؤمنين، وبهداية البشر إلى الحق، فبعد أن حرك الكافرين ليقلعوا عن كفرهم، وبصر المؤمنين ليدركوا انحراف الكفرة وسوء مصيرهم، ثنى معتنيا بالمؤمنين ليكونوا دوما على صلة بالله، ينادونه في كل ظرف وحين، ينادونه ويدعونه باسم من أسمائه التي رضي بها تبعا لما فيها من كمالات، ولا يحق أن يسمى بها إلا هو. والأسماء الحسنى البالغة أعلى درجات الكمال، منها ما هو مختص به نحو **(الله)** ومنها ما يطلق على البشر بمفهوم دال على السمو كالعالم والبصير، ولكن إطلاقه على الذات العلية يفيد الكمال المطلق الذي لا يدانيه

---

[58] سورة الكهف آية50

فيه أحد، ومنها ما يكون عند إطلاقه على الله دالا على الكمال لأنه منصرف إلى ما يليق بجلاله، ولا يطلق على البشر كالغني والمتكبر والجبار. فتسمية البشر بها تسمية خادعة وغير صادقة فلا أحد من البشر غني ولا يكون إنسان كاملا إذا كان جبارا متكبرا بل يكون مفسدا، وهي في الذات الإلهية كمال لما يترتب عنها من صلاح.

ولا يقف عدد الأسماء الحسنى على التسعة والتسعين التي ورد بها حديث البخاري: **(لله تسعة وتسعون اسما مائة إلا واحد من حفظها دخل الجنة وهو وتر يحب الوتر)**[59] – وجه كثير من العلماء المدققين عنايتهم لمتابعة الأسماء الحسنى من الكتاب والسنة، وهم بين مقتصر على التسعة والتسعين، ومنهم من بلغ بها المائتين وحتى الألف، وألفوا فيها التآليف تقربا لله ونشرا للمعرفة أحسن الله مثوبتهم. وبسط القول في ذلك ابن حجر في الفتح وعد الأسماء حسب اجتهاده فقال وهذا سردها لتحفظ :

الله –الرحمن –الرحيم –الملك – القدوس – السلام–المؤمن –المهيمن –العزيز – الجبار – المتكبر –الخالق – البارئ – المصور–الغفار – القهار – التواب – الوهاب – الخلاق – الرزاق –الفتاح – العليم – الحليم –العظيم – الواسع –الحكيم – الحي – القيوم – السميع– البصير – اللطيف – الخبير– العلي – الكبير – المحيط –القدير – المولى – النصير–الكريم –الرقيب– القريب– المجيب – الوكيل – الحسيب– الحفيظ – المُقيت– الودود– المجيد – الوارث– الشهيد – الولي– الحميد– الحق – المبين –القوي – المتين – الغني – المالك – الشديد– القادر– المقتدر –القاهر– الكافي – الشاكر – المستعان – الفاطر– البديع– الغافر– الأول– الأخر – الظاهر – الباطن – الكفيل – الغالب– الحكم – العالم – الرفيع – الحافظ – المنتقم – القائم –المحيي–الجامع –المليك– المتعال– النور – الهادي – الغفور– الشكور – العفو – الرؤوف– الأكرم – الأعلى – البر – الحفي – الرب – الإله– الواحد – الأحد– الصمد – الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤا أحد.

وإذ ثبت أن أسماء الله الحسنى دالة على ذاته العلية مفهمة لكماله سبحانه. فلا تهتموا بالذين، لكفرهم ودناءتهم، يتجرؤون فيسمون آلهتم ببعض الأسماء الحسنى. فحال تلك الآلهة يدل على سخفهم بصوغ أسماء التقديس لها مع كونها على أشد ما يكون من الضعة والنقص. لا تهتموا بهم فسيجدون جزاءهم.

---

[59] فتح الباري ج13ص487/471

وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٨١﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾ أَوَلَمْ
يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ
السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ
فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ
يَعْمَهُونَ ﴿١٨٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

استدرج: فعل مشتق من الدرج المعد للانتقال من مستو إلى مستوى أرفع أو العكس في البناء أو في السلم. والمقصود تحولهم من حال إلى حال أخرى.

أملي لهم : أمهلهم.

الكيد: ضرب من الاحتيال يتضرر منه المحتال عليه ولا يتفطن له. وهو ما قدره الله في الأزل ثم ينفذه عند أجله دون أن يتفطن المعاقب.

المتين: القوي

الصاحب : الشخص الملازم. وفي الآية ملازمتهم لتتبع أحواله والاهتمام بشأنه.

المجنون : المصاب بالخبال وفقد قوة العقل.

النذير : المحذر من شر.

ملكوت : المُلك العظيم.

اقترب أجلهم : يحتمل أن يكون المعنى قرب وقت استئصالهم ، وأن يكون مرادا به مجيء الساعة.

الطغيان : الإفراط في الكفر.

يعمهون : يتحيرون.

بيان المعنى الإجمالي :

يحقق القرآن أن الله مكن بعض البشر الذين خلقهم من السمو إلى مرتبة هداية الناس إلى الحق الذي أنزله، والحكم بالعدل عندما يحكمون بينهم. وفي المقابل فإن الذين رفضوا الاعتراف بما تدل عليه الأدلة من الكون ومن الوحي المثبتة لتفرد الله سبحانه بالألوهية، فإن الله سيهوي بهم شيئا فشيئا كالنازل من الدرج، وهم غافلون

عن مصيرهم، ولا يعجل لهم بالعقوبة، بل يمهلهم إلى الأجل الذي قدره لإهلاكهم. إن الله قدير لا تحد قدرته في الكيد بهم. العجب من أمرهم: كيف أقفلوا عقولهم عن إدراك سمو الرسول ﷺ، وأن كل ما يصدر عنه ويحيط به يقوم شاهدا على أنه صاحب العقل الراجح، وهو أبعد ما يكون عن الخبال. بل هو نذير لقومه مما ينتظرهم من العاقبة السيئة، مكنه الله من القدرة على البيان.

-والعجب من أمرهم أيضا : أنهم لم ينظروا في الملك العظيم لله الشامل للسماوات والأرض، ولم يتأملوا في عجائب الخلق في كل جزئية من جزئيات الكائنات. ولم يتفكروا أن أجلهم سيبغتهم وليس بعيدا. والعجب من أمرهم أيضا كيف أنهم لم يؤمنوا بالقرآن وأدلة صدقه بالغة أعلى درجات الوضوح، فهل يجدون ما يساوي القرآن في هدايته ووضوحه ليتبعوه. ولكن من يحرمه الله من ألطافه ليهتدي فإنه لا يجد هاديا، وسيبقيهم في مجاوزتهم للحدود متحيرين.

بين المعنى العام :

181-وممن خلقنا أمة...وبه يعدلون.

هذه الآية هي نظير الآية 159 من هذه السورة – (**ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون**) وهي حسب نظمها لا تختص بزمن ولا بمكان، بل أفادت سنة من سنن الله في الخلق، أنه لا يعم الفساد والشرك والظلم الكون كله، فمن خَلْقِه سبحانه في كل زمان ومكان من يصرف همه إلى هداية الناس والعدل بينهم.

182-183: والذين كذبوا...كيدي متين.

وحقق أن الذين كذبوا بآيات الله، سيسلط عليهم عقابا فصَّله بأنه يهوي بهم في الضلالة والفساد شيئا فشيئا بطريقة لا يدركها المستدرَج، ولا يتفطن إلى المكان المتحول منه، النازل به إلى أسفل، ولا يُعجِّل لهم بالعقوبة بل يمهلهم إلى الأمد الذي قدره لإهلاكهم. إن كيد الله قوي. فهذه الآية تلفت نظر المؤمنين أن لا يعجبوا من عدم تعجيل العقوبة بالمكذبين، فليس تدبير الله لأمر الكون والبشر كشأن مقايضة التجار يتعجل فيها العوضان، بل إن الله يأخذ بالمكذِّب نازلا به دون أن يتفطن إلى المنزلة السفلى ويمهله حتى يبلغ الأجل الذي قدر فيه سبحانه أن يسلط عنده عذابه عليه.

وهكذا يكون المكذبون ينتهون إلى دمارهم. والتدبير الإلهي يمهلهم ولا يوقظهم حتى يتجمع ما يعجل بعقوبتهم ؛ وعندها ينزل عليهم عذابه، دون أن يكونوا شاعرين بما كان يترصدهم. هم عُمْي عن مصيرهم.

إن هذا التدبير شاهد على أن الله عندما يمكر بالمكذبين فإن مكره قوي يتحقق ما أعد إليه في الأزل. ومكر الله محقق لصلاح البشر. به يكون المكذبون لسوء عاقبتهم، عبرة لمن يعتبر.

183-أولم يتفكروا...إلا نذير مبين.

ويثير القرآن العجب من أمر المكذبين، كيف وصلت بهم المكابرة والعناد، وكيف عطلوا عقولهم فاختلطت عليهم الأمور، ورموا النبي ﷺ بالجنون! إن قوة عقله، وإحكام تدبيره للأمور، ووضوح ما أتى به من وحي، وما سطره من تصور للكون ومنهج للحياة، كل ذلك شواهد على أن النبي الذي اهتموا بأمره واشتغلوا بما يصدر عنه وما تتطور إليه دعوته (**صاحبكم**) إن ذلك مما يؤكد أنه أبعد ما يكون عن الجنون والخبال، الذي من شأنه أن يكون تفكيره وكلامه مضطربا بعيدا عن التناسق. ولكن الحقيقة أنه جمع بين وصفين ليسا لأحد غيره هما :

أولا: النذارة فهو ينبهكم إلى مصيركم وما ينتظركم من خيبة وخسران إن لم تسمعوا ،ولم تعملوا بما ينقذكم مما حذركم منه.

ثانيا: البيان، فهو قد أوتي من الفصاحة والوضوح، ما يمكن كل سامع له من فهم قصده، وعدم اختلاط المنهج الذي يبلغه عن ربه.

185-أولم ينظروا...بعده يؤمنون.

وفوق ذلك، إن من أمْرِهِمْ العجيب، كيف لم يتأملوا فيما تنقله إليه حواسهم، كيف لم يتأملوا في الملك العظيم لله : ملك السماوات والأرض. ثم كيف لم يتأملوا في قوانين الخلق التي تم بها تنظيم كل شيء. فالقرآن يثيرهم إلى الاعتبار بما في دقيق الأشياء التي هي تحت أنظارهم ينظرون إليها، ويسمعون ما يصدر عنها من أصوات، ويلمسونها، فيدركون من كل ذلك كيفياتها المختلفة. ومع الإدراك الحسي قوانينها المنظمة لوجودها وتحولاتها ومصائرها. إنها كلها تنادي بأن لها ربا خلقها وأعطاها خصائصها التي تسير عليها. وهذا هو أول ما يدعو إليه الإسلام: الإيمان بالله الواحد الأحد. وهذا هو أعظم ما اهتم به محمد ﷺ، فكيف يرمى بالجنون ؟

إنه النذير فمما أنذرهم به قيام الساعة، واستعدادهم لنزول العذاب المستأصل لهم؛ فكيف لم يستيقظوا إلى هذا الأمر ولم يعدوا نفوسهم للأمر الثابت قدومه وهو مؤجل بأجل عند الله لا يستقدم ساعة ولا يتأخر؛ وأنه في حساب الله قريب!

إنه بعـد هـذا الحـديث الصـادق البـين الموضـح للحاضـر والمـآل، المـوقظ للعقـل والحواس، الوارد على لسان رسول الله إنـذارا، والمؤيـد بـالقرآن المنـزل عليـه ؛ إنـه بعد ذلك لا يمكن أن يؤثر فيهم حديث آخر يؤمنون به.

186-ومن يضلل الله... في طغيانهم يعمهون.

وتأتي الخاتمة رافعة لكل تساؤل يمكن أن تتحدث به النفـوس: مـا الـذي منـع المكـذبين من الاهتداء؟ فيأتي الجواب قاطعا لكل تساؤل :أن مـن يضـلله الله بحرمانـه مـن العـون على إدراك الحق، فإنك لا تجد مـن يسـاعده علـى اتّبـاع الطريـق المسـتقيم. ويسـتمر معهم هذا الوضع من عدم الانتفاع بالآيات فلا يؤثر فـيهم بألطافـه حتـى يخـرجهم مـن إفراطهم في الكفر، ويبقيهم متحيرين. لا التكذيب الـذي هـم عليـه يعطـيهم اليقـين، ولا الآيات تسكب في عقولهم إدراك الحق، تصحبهم الحيرة إلى آخر حياتهم.

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾

بيان معاني الألفاظ:

الساعة :بالألف واللام وقت فناء العالم.

أيان : ما هو وقت.

مرساها: وقوعها.

التجلية : الكشف.

ثقلت: شدة الساعة.

بيان المعنى الإجمالي:

إن أقوى ما يتحدى المشركين ويقلقهـم هـو وعيـدهم بالبعـث يـوم القيامـة. ولـذا هـم يسألون الرسول ﷺ عن الساعة التي تتوقف فيها مسـيرة الحيـاة الـدنيا، ظنـا مـنهم أنـه يعلم موعدها. فأمر أن يقول لهم كلاما قاطعا لشغبهم: إن علـم وقـت مجيئهـا عنـد ربـي لم يُطلعْني عليه، ولا ينفذها بما يظهر آثارها فـي الوقـت المحـدد، إلا هـو. هـي أمـر ثقيل شاق على السماوات والأرض التي تنفجر. فتنفيـذها فـي وقتهـا لا يـأتيكم إلا فجـأة

دون سابق إعلام. يسألونك كأنك عالم بها أو مهتم بها كاهتمامهم. ما ظنوه باطل، فإنه تبعا لما أدبك به ربك لا تولي اهتمامك لما علمت أنه من الغيب الذي لم يطلع الله عليه أحدا. ولكن الإلحاح في السؤال سببه جهلهم بحقيقة الغيب وقل لهم: إن الغيب بالنسبة لي يجري على نسق واحد. فكما أني لا أعلم وقت الساعة، فكذلك لا أعلم ما سيصلني من خير في المستقبل، ولا أنا ممكن منه، ولا ما يمكن أن يصيبني من ضر. كل ذلك معلق بمشيئة الله يتصرف فيه كما يشاء. وأكبر دليل على ذلك أني لو كنت أعلم مقدما ما هو مخبوء في المستقبل لحصلت على خير كثير، ولتحصنت من كل سوء. اعلموا أني : ما أنا إلا مبين لما يوحي إلي من ربي للمؤمنين، فأبشر من يستقيم بالمآل السعيد عند ربه، وأنبه الغافل والمقصر لكي يثوب إلى الصراط المستقيم.

بيان المعنى العام :

187-يسألونك عن الساعة...لا يعلمون.

افتتحت الآية بسؤال أورده المشركون على النبي ﷺ وتكرر من كثير منهم مضمونه: إنك توعدنا وتتهددنا بيوم القيامة، وتعتبر ذلك جزءا أساسيا في العقيدة التي تدعو إليها، فمتى تأتي الساعة؟ وقد سجل القرآن هذا السؤال بطريقة خاصة ؛ كان السؤال بقوله:(أيان مرساها) فهم في هذا المقام لم يسألوا عن حقيقتها ولا كيفيتها ولكن السؤال كان عن موعد حصولها وثبوتها، والمرسى مأخوذ من رسا الدال على الثبوت كقولك رست السفينة والجبال الراسيات. والسائلون يستبعدون حصولها فكأنهم من سؤالهم يغمزون بنوع من الاستهزاء تبعا للاستبعاد. والسؤال عن الساعة وإن كان يهم المسلمين أيضا تبعا لما فطر عليه الإنسان من حب المعرفة، إلا أن سؤال المشركين غير سؤال المؤمنين الذين تطلعوا لمعرفة الساعة فكان سؤال بقولهم : متى الساعة ؟ بينما سؤال المشركين كان ب **(أيان)** الموحي بالاستبعاد مقدما.

علّم الله نبيه طريقة جواب المشركين عن سؤالهم، وأظهر الاهتمام بأمره بكلمة **(قل)** وقتها مستور محجوب في علم الله، هو من الغيب الذي لم يطلع عليه أحدا من خلقه، لا يرفع الحجاب لتظهر قبل أوانها، بل هي تقع في الوقت الذي أثبته في علمه، ولا يرفع ذلك الحجاب إلا الله وحده. ويشير القرآن إلى ضعف إدراك المشركين لأمر الساعة، فيبين أن أمرها عظيم جدا، ثقيل بما يصحبها من مشقة تجعل كل فرد مستشعرا ضغطها عليه كأنه حامل ثقلا ينوء به كاهله، مشقتها تهد

السماوات والأرض. قدر سبحانه أنها تـأتي علـى الكائنـات كلهـا بـدون سـابق إنـذار، فتبغتها جميعا وينفذ قدر الله الذي قدره لانتهاء الحياة في الكون كله.

ومما يدل على تكرار السؤال ما أثبتته الآية بقوله تعـالى:(**كأنـك حفـي عنهـا**) والحفـي في الآية يحتمل معاني منها: حفي بمعنى عـالم، بنـاء علـى أنـك مبـالغ فـي السـؤال عنها، وشأن المبالغ في البحث أن يصل إلـى مـا يبحـث عنـه. فنفـت الآيـة أن يكـون الرسول ﷺ مهتما بها الاهتمام الذي يتوهمـه المشـركون-كمـا يحتمـل - حفـي- كأنـك ملح في السؤال عنها – ويحتمل –حفي –أن يكون مشـتقا مـن حفـي بـه بمعنـى بـالغ في إكرامه والمعنى على هـذا يسـألونك عنهـا، كأنـك مكـرم للمشـركين تجيـبهم عـن سؤالهم إكراما لهم. وعلى الوجهين الآخرين يتعلق عنها بحفي.

وعلى كل الاحتمالات، فالآية تشير إلى أن الرسول ﷺ لـم يُـولِ اهتمامـه لمعرفـة وقتهـا لما سبق من علمه أنها من الغيب الـذي قـدر الله أن يكـون مخفيـا عـن جميـع النـاس. وهذا مما لا ينافي كرامته على ربـه ولكنـه يثبـت كمـال أدبـه وسـمو نفسـه التـي لا تطلب ما لا مطمح لها في التحصيل عليه. وأكـد القـرآن مـا قـرره فـي صـدر الآيـة من أن وقت ظهور الساعة لا يعلمه إلا الله ولا يُطلع عليـه أحـدا. فحصـر العلـم بوقتهـا عنده وحده سبحانه. ولكن الجهـل الضـارب علـى عقـول كثيـر مـن النـاس يـدفعهم للسؤال عنها.

<u>تنبيــــه</u> يظهر في عصرنا بـين الفينـة والأخـرى بعـض الـدجالين الـذين يوهمـون الناس بأن فناء الكون سيكون فـي تـاريخ كـذا، وينتظـر فـي خـوف بعـض ضـعاف العقول، ويتحدثون به وتهتم به بعـض وسـائل الإعـلام الرخيصـة، ثـم يظهـر كـذبهم والعالم مواصل مسيرته إلى الأجل الذي حدده الخالق، العالم وحده بنهايته.

188-قل لا أملك...لقوم يؤمنون.

إن أنواع الشغب التي يضـلل بهـا المشـركون أتْبَـاعَهُمْ، ويوهمـون بهـا أنفسـهم أنهـم أحرجوا النبي ﷺ بما لا يستطيع له دفعا، كانت كثيـرة ومتنوعـة، والله فـي عونـه يـدفع مكرهم. فمن ذلك أنهم قالوا : إذا كنت نبيا فاسأل ربـك أن يطلعـك علـى الأمـاكن التـي سيكون فيها الخصب فتذهب إليها، وعـن السـلع التـي سـيرتفع أثمانهـا فـي المسـتقبل فتشتريها الآن حتى يتوفر بذلك الـربح الكثيـر. فكـان مـن ضـحالة تفكيـرهم ظـنهم أن النبوة مكاسب ماديـة تخـص صـاحبها بالمـال الـوفير. وهـذه الأقـوال تـروج علـى الدهماء، ولذلك صدر ت الآية في الرد عليهم بكلمـة (**قـل**) الدالـة علـى الاهتمـام. قـل لهم يا محمد :إنـي رسـول حقـا، لكنـي لا أسـتطيع أن أجلـب لنفسـي نفعـا، تبعـا

لاطلاعي على الغيب، ولا أستطيع أن أدفع عنها ضرا كذلك، إلا إذا تعلقت مشيئة ربي بتمكيني من نفع فإنه يسعفني بتسخير الأسباب لتحقيق ذلك بناء على سننه في الكون. وكذلك إذا تعلقت مشيئة ربي بدفع ما يضرني بما ييسره لي من ألطاف.

وحَرِّكْ عقولهم الذاهلة بالتأمل فيما يشاهدونه، وهي قضية بديهية : إني لو كنت أعلم الغيب وما سيحدث في الكون من نفع أوضر قبل حدوثه، لتجمع عندي من الخيرات الشيء الكثير، ولصحبتني السلامة في جميع فترات حياتي، والمشاهد أني ما جمعت من الخير أكثر مما قدره لي ربي، ولا توقيت من جميع المكاره والأسواء. أفيقوا من غفلتكم فإن دوري في الحياة قاصر على ما كلفني به ربي: أن أدعو الناس إلى اتّباع الصراط المستقيم، وأن أبشر الذين يتبعوني بحسن العاقبة. وأن أنذر الذين يكذبون بآيات الله وينتكبون الصراط المستقيم بما يترصدهم من عذاب الله وخسران العاقبة.

۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا
حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا
لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شِرْكًا فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ
فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا
يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا
يَتْبَعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾
أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ
لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾ إِنَّ وَلِـِّۧىَ
ٱللَّهُ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩٦﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا
يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٧﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا
يَسْمَعُوا۟ ۖ وَتَرَىٰهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

ليسكن إليها : ليجد عندها الطمأنينة والود.

تغشاها: جامعها.

أثقلت : أصبح لجنينها في بطنها وزن يثقلها.

فتعالى الله : تنزه الله.

صامتون: ساكتون لا تقومون بدعوتهم.

الكيد : الإضرار الواقع الذي لا يتفطن له المقصود إضراره.

الولي : الناصر الذي يكفي أمور من تولاه.

الهدى : ما فيه نفع وصلاح.

بين المعنى الإجمالي :

حقيقة ثابتة : الله هو الذي خلق كل كائن من البشر، ورتب ذلك على منهج واحد : كل واحد منهم نشأ من نفس واحدة هي الأب الذي جعل من نوعه نفسا أخرى فتكوَّنَ منهما زوجا، وتبعا لما بينهما من الاتصال كانت العلاقة بينهما علاقة تكامل وطمأنينة، تبلغ إلى التمازج والإشباع الجنسي. الذي بواسطته يتم تلقيح بُيَيْضَة الزوج (المرأة) فتحمله في رحمها حملا خفيفا في أول أمره لا تشعر به، ثم ينمو حتى يكون له وزنه الذي يثقلها. ويستعد الأبوان لقبول المولود الجديد عنصرا من عناصر الأسرة. ثم عرض القرآن نموذجا سيئا للأسرة المشركة، التي تكون عند إحساسها بالحمل تبني عليه الآمال وتدعو أن يكون الحمل عنصرا صالحا، وتلتزم بشكر الله. وبعد الولادة ينقلب الأمر وتتنكر الأسرة لما كانت التزمت به، وتجعل لمولودها شركا، ومما تُظهر به ذلك، التسمية فتسميه عبد يغوث وعبد اللات ونحو ذلك من أسماء الأصنام. وتنزه الله أن يكون له شريك. فتجمع بهذا الخُرْق بين نقض ما التزمته، وبين سفه الرأي ؛ إذ يشركون ما هو عاجز عن خلق أي شيء مع أنهم مخلوقون لله. ويشركون عجزة لا يستطيعون نصر من اعتقدوا فيهم الألوهية، بل لا يستطيعون نصر أنفسهم ممن يهينهم ويعتدي عليهم. إنهم لعنادهم لا يسمعون دعوتكم إياهم لما ينفعهم، فسواء في النتيجة أ دعوتموهم أم أعرضتم عنهم. من ضلالكم يا مشركون أنكم تدعون من دون الله كائنات مخلوقة مثلكم عجزة. اطلبوا منهم أن يقبلوا عليكم إن كنتم صادقين في وهمكم أنهم يستحقون أن يعبدوا ويطلب منهم. أفيقوا من هذه الأوهام التي خدرتكم. ألهذه الأصنام أرجل يمشون بها؟ ألهم أيد ينفذون بها ما يهزم أعداءهم؟ ألهم أعين يبصرون بها لمعرفة

أهدافهم ؟ ألهم آذان يسمعون بها دعاءكم لهم ؟ قل لهم: نادوا شركاءكم وأجمعوا أمركم معهم ودبروا للإضرار بي ونفذوا في سرعة ما تكيدون به.
إن هذا التحدي نابع من يقين كأقوى ما يكون اليقين، هو إن الله ناصري ومتولي أمري أكرمني بإنزال كتابه، وهو الذي يتولى الصالحين المسلمين. أفيقوا من غفلتكم، فإن الذين تدعونهم من دون الله عجزة عن نصركم، بل هم عجزة حتى عن حماية أنفسهم. بل إن دعوتموهم لتقديم ما ينفعهم لا يسمعون شيئا مما تقولونه. تراهم وقد جسمتهم الآية كأن النحات صورهم في صورة من ينظر إليك ولكن في الحقيقة هم لا يبصرون.

بيان المعنى العام :

189-190-هو الذي...عما يشركون.

تضمنت هذه الآية عنصرين أساسيين هما: سنة الله في خلق البشر. ونموذج من النماذج التي تمت في الواقع، عرض على طريقة لم تعتن بتعيين الأشخاص ولكن عنيت بعرض الواقع لاستخلاص العبرة منه. العنصر الأول: إقامة الدليل الواضح على نفي الشرك وإثبات الخلق لله وحده. فإنه مما يدعو إلى التدبر في حكمة الخلاق العظيم، السنة التي أجرى عليها التكاثر البشري. فكل البشر خلقوا على نفس الطريقة من نفس واحدة التي جعل الله سبحانه زوجا من نوعها. فكانا معا من نوع واحد. فقوله تعالى: خلقكم من نفس واحدة، خلق كل واحد منكم:
أولا: من نفس واحدة هي الأب بالنسبة لكل واحد.
ثانيا : من نفس عديلتها التي تكون مع الأب زوجا. فكل واحد منهما يطلق عليه زوج في العربية وهما من نوع واحد.
وكون المرأة من نوع الرجل منة أخرى، بها تحقق للإنسان المحضن الصالح لنموه واكتسابه التربية التي تؤهله لمواجهة الحياة والاندماج في المجتمع الكبير، خاصة وامتداد طفولة الإنسان واحتياجه لمن يساعده على بلوغ المدى الذي يتمكن فيه من الاعتماد على نفسه، هو أطول طفولة في الجنس الحيواني. وابتدئ بالأب لأن دوره في الإنجاب دور أساس هو دور التلقيح للبييضة التي تفرزها الأنثى فتخصب ويحصل منهما الخلية الأولى 46 كرموزوما وتمر رويدا دون أن تتفطن الأم إلى مسيرتها لتعلق في جدار الرحم، ومن هناك يبدأ تطورها. ومن الإعجاز القرآني التعبير: حملت حملا خفيفا فمرت به، فالخلية لا توزن إلا بالميزان الإلكتروني لخفتها وتمر عبر قناة فالوب لتعلق في أول طور من أطوار الوجود الإنساني.

وكون الأنثى من نوع الذكر في المقومات الأساسية والخصائص الإنسانية، هو من كمال التقدير الإلهي الذي بنى على ذلك غريزة فيه تدعوه إلى الأنس بها والتكامل معها. هذه الغريزة التي تتحرك في داخلهما لمزيد التواصل والاندماج حتى تصل بهما إلى قضاء الشهوة الجنسية، التي تبلغ درجة من الإحساس المشترك ما يجعل كل واحد منهما كأنه لباس يشتمل على الآخر كما جاء في قوله تعالى : (**هن لباس لكم وأنتم لباس لهن**)[60] ومن إبداع القرآن أن عبر بقوله تغشاها عوض غشيها ليدل بذلك على عمق الإحساس باللذة وشدة التمازج بينهما. وهذه السنة تتكرر في الوجود، ويحصل بها التكاثر البشري.

العنصر الثاني :عنيت الآية بسرد التفاصيل التابعة للتمازج الجنسي في أسرة، متتبعة المراحل التي تمت فذكرت :

أنه بعد أن جامع الرجل زوجته (**تغشاها**) وتم تلقيح البييضة بالحيوان المنوي، وأصبحت البييضة مخصَّبة مرت في طريقها عبر قناة فالوب إلى موقعها في الرحم لتعلق به، ومن تلك اللحظة أصبحت المرأة تحمل جنينا سيتطور حسب سنن الله في الخلق .فتمر به خفيفا، لا تشعر بوجوده في أول الأمر، ثم ينمو فيأخذ الإحساس بوجوده يقوى، وتأنس الأم لحركاته وتنتظر مع زوجها يوم الولادة الذي يكون حدثا في الأسرة. كل أملهما أن يكون عضوا صالحا فيها. وصورت الآية الحالة التي تهدف منها التي هي وعظ الأبوين لكيلا يقعا فيما وقعت الأسرة المعروضة في هذا النموذج. إن الآمال العريضة التي بناها الأبوان على ما سيولد لهما، أرشدتهما للتوجه إلى الله أن يجعل من ولدهما المرتقب ما تقر به الأعين استقامة ونجاحا يسعدان به عند وضعه، وتتعلق به آمالهما عند كبرهما بالرعاية والوفاء.

وعقب هذا الابتهال التصريح بعزمهما على شكر النعمة والاعتراف أن ما رزقاه هو من فضله. ووضعت الأم وجاء الولد مكتمل الحواس تام الخلق مؤهلا ليكون عضوا جديدا في الأسرة. وهنا تنعكس الصورة وتذهب في طريق مخالف للعرض الذي مر في هدوء ومعقولية، فإذا هما يجعلان لهذا الولد الذي رزقهما الله، تعلقا بشريك لله. وتحول شكر النعمة إلى كفر، وتمضي الأسرة في ضلالها فتختار لمولودها اسما يربطه بصنم من الأصنام، كعبد العزى، وعبد يغوث، وعبد شمس.

191-192: أيشركون مالا يخلق...ولا أنفسهم ينصرون.

---

[60] سورة البقرة 187

ويعلق القرآن على هذا النموذج السيء، فيصـــرح أولا بتنزيـــه الله عـــن كـــل التصـــورات التي يشرك بها المشركون، ما كان في هذا النمـــوذج ومـــا كـــان مـــن الصـــور الأخـــرى للشرك – ثم يرد عليهم منكرا متعجبا من ضـــعف تفكيـــرهم، وتعلقهـــم بالأوهـــام ؛ كيـــف يشركون بالله ما لا يمكن أن يتصور منه قدرة على خلـــق أي شـــيء، بـــل إن مـــا تُـــوُهِّمَ أنهم شركاء هم مخلوقون، مـــا اســـتطاعوا أن يوجـــدوا أنفســـهم. فمـــا أعظمهـــا ســـذاجة وغباوة عندما ينسبون إليها قدرة على الخلق.وأمر آخـــر أن العابـــد ينتظـــر مـــن معبـــوده أن ينصره في الأزمـــات وعنـــد الكـــرب، وهـــذه الأصـــنام جامـــدة لا حـــراك لهـــا فـــلا تستطيع تبعا لذلك أن تكون إلى جانبهم مؤيدة ناصرة، بل أكثـــر مـــن ذلـــك هـــي عـــاجزة عن حماية نفسها ممن يعتدي عليها.

193-وإن تدعوهم...أم أنتم صامتون

وأبرزت الآية إصرارهم على الكفر وعنادهم بمـــا أثبتتـــه، مـــن أنكـــم إذا بـــذلتم لـــدعائهم إلى الهدى جميـــع إمكانـــاتكم الفكريـــة والقوليـــة، وتَقَـــوَّيْتُمْ بـــالإرادة الخيـــرة، فـــإنهم لا يأخذون بما تدعونهم إليه ولا يتبعون منهجكم. إنـــه يســـتوي فـــي التـــأثير علـــيهم دعـــوتكم إياهم، وصمتكم عنهم.

194-195: إن الذين تدعون...فلا تنظرون.

ثم ترقى القرآن في إظهار سفه عقول المشركين بـــالله فـــأعلن : إن الـــذين تـــدعونهم مـــن دون الله وتعتقـــدون أن لهـــم تـــأثيرا فـــي حيـــاتكم وقـــدرة علـــى الاســـتجابة لمطـــالبكم ونصركم، هم على أقصى تقدير عبـــاد مـــثلكم، حســـب تصـــوركم، إذ العبـــد لا يطلـــق إلا على الإنسان الفاقد لحريته، نظـــرا لمنزلتـــه مـــن الخـــالق. فـــإذا كـــانوا عبـــادا حســـب تصوركم لا مزية لهم عليكم، فما أسفه عقـــولكم إذ تخضـــعون لهـــا وهـــي لا مزيـــة لهـــا علـــيكم. جربـــوا حقيقتهـــا فادعوهـــا لنصـــرتكم، ليســـتجب الأصـــنام لـــدعائكم إن كنـــتم صادقين في إثبات الألوهية لها، إن كانت تملك قـــدرة، وهـــو أمـــر يقصـــد بـــه التعجيـــز أي إظهار عجزها عن الاستجابة، فانتفى أن تكون آلهة.

ثم أكدت الآية مضمون ما ســـبق، بتجســـيم عجـــز مـــا يعبـــدون مـــن دون الله، ففصـــلت الآية ما يمكن أن تتحقق به النجدة من الأصنام حســـب العـــرف، فوجهـــت ســـؤالا إنكاريـــا أَلَهُمْ أرجل يسرعون بها لينصروكم إذا دعوتمـــوهم؟ ألهـــم أيـــد يُنَفِّـــذون بهـــا مـــا يضـــر الأعداء ضررا لا مخلص لـــه منـــه؟ ألهـــم أعـــين يبصـــرون مواقـــع الأعـــداء ومقـــاتلهم فيجهزون عليها ليمنعـــوكم مـــن أذاهـــم؟ ألهـــم آذان يســـمعون بهـــا الصـــريخ فيطيـــرون لنجدتكم ؟ وإذا كانت هـــذه هـــي كـــل أدوات النصـــرة، وهـــم فاقـــدون لأي منهـــا، فمـــن

السفاهة في الرأي دعاؤكم لها مع عجزها الظاهر كما تشاهدون. ثم أمر الله رسوله أن يتحداهم بأن يجمعوا أمرهم مع آلهتهم، وأن يدبروا ما يتمكنون به من إيقاع الضرر به، وأن يسرعوا بذلك ولا ينتظرون. مؤدى هذا التحدي أن رسول الله ﷺ يعلن عن عجزهم أن يتمكنوا مع آلهتهم أن يلحقوا به أذى، وإن دبروا ذلك في خفاء وتستر.

196- إن وليي الله...يتولى الصالحين.

ينادي النبي ﷺ معلنا إعلانا يجمع بين الثقة التامة، والتحدي لخصومه المشركين: إنه مستند إلى الله الذي يتولاه بنصره وحمايته وهدايته، هو ربه الذي أيده بكتابه الذي تحدى به المشركين فأعجزهم عن يأتوا بمثله. ويضيف إلى تفضل الله عليه بالنصر والتمكين، يضيف إلى ذلك أنه سبحانه ولي الذين آمنوا به. وأعظم بها بشارة بالنصر للجماعة الإسلامية حوله، وقد أعلمهم ربهم على لسان رسوله في كتابه أنه يتولاهم.

197-198: والذين تدعون من دونه...وهم لا يبصرون.

ثم تعرفهم الآية بضلالهم وفساد تفكيرهم فتقول لهم: أنتم تَدْعُونَ لنصركم وتأييدكم العجزة عن نصركم، كعجزهم عن نصر أنفسهم. إن هذه الأصنام فاقدون للسمع فإن دعوتموهم إلى ما فيه خير ونفع لا يسمعوا الدعاء، هي غير مدركة لما يُصلحها وينفعها، وتراهم وقد نحتوهم على هيئة الأحياء ينظرون إليك ولكنهم لا يبصرون، هم حجارة صماء صور بلا أرواح.

خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ
نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ
ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا
يُقْصِرُونَ ﴿٢٠٢﴾ وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ مِن
رَّبِّى هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٣﴾ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ
فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً

وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ
رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢٠٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

خذ العفو : اجعل الصفح عن المذنب طريقة لك.

العرف : ما يقبله الرأي العام ولا ينكره.

أعرض : لاتؤاخذ.

الجاهلون : السفهاء.

النزغ : النخس كناية عن وسوسة الشيطان.

استعذ بالله : التجئ إلى الله ليحصنك.

اتقوا: تأصلت صلتهم بالله في عقولهم فراعوا ما يرضيه.

المس : أصله اللمس، ومعناه الإصابة غير المتمكنة.

الطائف : الخاطر الذي يجول في النفس.

مبصرون : مهتدون.

إخوانهم : جمع أخ وهو بمعنى الموافق في التصور ومنهج الحياة.

يمدونهم : يقوونهم بالمدد.

الغي : الضلال.

يقصرون : يمسكون عن المواصلة.

بصائر: جمع بصيرة، وهو ما يتضح به الحق.

الاستماع : الإصغاء.

الإنصات : الإصغاء مع ترك الكلام.

التضرع : التذلل.

خيفة : خوف.

دون الجهر : الوسط بين الإسرار والجهر.

الغدو : الشطر الأول من النهار.

الآصال : جمع أصيل، الشطر الثاني من النهار.

بيان المعنى الإجمالي:

عناية الله برسوله منبثة في ثنايا القرآن ، ففي هذه الآية يوجهه:

1) إلى أن يتمسك في معاملاته بخلق العفو والتسامي عن جهل الجاهلين.

2) أن يهتم بالإصلاح فيأمر من حوله بما هو مقبول شرعا.

3) أن يترفع على السفهاء فلا ينزل إلى مستواهم فيقابـل فظـاظتهم بمثلهـا بـل يعـرض عنهم. وأن يواصل التحصن بالله من نزغـات الشـيطان، ونزغاتـه بمـا يعرضـه مـن ملهيات عن ذكر الله، أو أن يستفزه للرد علـى السـفهاء. فـإن الله يسـمع دعـاءك علـيم بما انطوى عليه قلبك من كمالات. إن شأن المتقين أنهـم إذا عـرض لهـم الشـيطان بمـا يميلهم مع شهوات النفس يسـرعون بتـذكرهم مقـام العبوديـة فتـزول المغريـات التـي عمل الشيطان على التأثير بها علـيهم. وأمـا إخـوان الشـياطين الـذين تحـالفوا معهـم وتآلفوا، يمدهم الشياطين بمـا يغـريهم بمتابعـة الشـهوات، ولا يمسـكون عـن مواصـلة التأثير فيهم.

ومن سفه المشركين أنهم يطلبـون مـن رسـول الله ﷺ :أن يعـرض علـيهم آيـة حسـب تصوّرهم. وإذا لم يأت الوحي بما يطلبونه قالوا: لماذا لم تقتـرح علـى ربـك الآيـة التـي سألناك فينزلها عليك؟ قل لهم يا محمد: إني أتبـع مـا يوحيـه إلـي ربـي فأبلغـه وهـو العليم بما ينزل في الظرف الذي ينـزل فيـه. إن القـرآن يفـتح البصـائر علـى الحـق، أنزله ربكم الذي خلقكم وهو أعلم بما يصلحكم ويهـديكم، هـو الرحمـة التـي تنفـذ إلـى النفس فتسكب فيها الطمأنينة، وإلـى العقـول فتسـلك بهـا المسـالك المسـتقيمة، والتـي تصل بكم إلى منازل السعادة والرضوان، ينعم بذلك المؤمنون بآياته.

وإذا كان هذا القرآن على هذه المنزلة، فالواجـب علـيكم إذا سـمعتم آياتـه تتلـى علـيكم من رسول الله ﷺ، أن تسـتمعوا لهـا بتـدبر وأن تمسـكوا عـن الكـلام الـذي يشـوش أفهامكم، فإنه يرجى بذلك أن تتنزل عليكم الرحمات. والقـرآن هـو أفضـل الـذكر فـداوم على تلاوته وتدبره، واذكر ربك وأنت تجمع فـي نفسـك بـين مشـاعر التضـرع إليـه، والتذلل لعلي جلاله سرا وفوق السر ودون الجهـر، فـي جميـع أوقـات النهـار، واحـذر أن تغفل عن ذكر ربك. إن الملائكة الذين هـم فـي حضـرة ربـك خاضـعون متـذللون لجلاله، ويواظبون على تسبيحه، وهم مظهرون لذلك بسجودهم لعلي ذاته.

بيان المعنى العام :

199 -خذ العفو...عن الجاهلين.

جاء هذا الدين ليسمو بـأخلاق المـؤمنين، فكـان لهـم مـن الأوامـر والنـواهي مـنهج يحدد ما يقبلون عليه وما يحذرونه، وكان لهـم مـن الأسـوة الحسـنة فـي رسـول الله ﷺ مما حفظته السنة والسيرة النبوية الطاهرة ما يقيم لهـم مثـالا عمليـا يحتذونـه ويسـيرون عليه في علاقاتهم الأسرية والاجتماعية. وهذه الآيـة علـى وجيـز لفظهـا تمثـل قانونـا عاما للسلوك.

أمر الله نبيه ﷺ :

أولا: أن يتمسك بخلق العفو، فجسَّمه له في صورة من يمد يده لأخذ العفو والانتفاع به. والعافي هو من يسمو على الظرف الخاص الذي من شأنه أن يثير لصارم الرد. ولنا في رسول الله الأسوة الحسنة فكل مؤمن موجه له هذا الخطاب أيضا.

ثانيا : أن يعمل على إصلاح المجتمع، فيرشد الناس ويهديهم إلى العمل بما هو مقبول من الرأي العام، وعدم تجاوزه إلى ما هو مرفوض منهم. إن المجتمع يختل ترابطه إذا لم يحترم كل فرد من أفراده الأصول التي تكَوَّن منها العقد الاجتماعي. وهذا العقد الاجتماعي في البيئة الإسلامية صبغه الدين الإسلامي بصبغته، فغدا الصورة المثلى له. وكل مسلم عليه أن يكون راعيا لاستمراره والحفاظ عليه.

ثالثا: لا تؤاخذ يا محمد السفهاء، ترفَّعْ عن أن تنزل إلى دركاتهم، إن السفهاء يتطاولون على ذوي المكانة الاجتماعية وقد يكون منهم ذلك ليظهروا قوتهم ومكانتهم، فالإعراض عنهم قد يكون في بعض الأحوال خيرٌ ما يقمعهم.

وهذا التعليم الإلهي باق مستمر لم ينسخ. مناطه غير مناط الجهاد. يقول جعفر الصادق بن محمد الصادق: (في هذه الآية أمر الله نبيه بمكارم الأخلاق، وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق منها. وهي صالحة لأن يبين بعضها بعضا، فإن الأمر بأخذ العفو يتقيد بوجوب الأمر بالعرف، وذلك في كل ما لا يقبل العفو والمسامحة من الحقوق، وكذلك الأمر بالعرف يتقيد بأخذ العفو، وذلك بأن يدعو الناس إلى الخير بلين ورفق-

200-201، وإما ينزغنك....هم مبصرون.

ثم أمر الله رسوله أن يطلب من الله تحصينه من وسوسة الشيطان، ومن محاولاته الخبيثة لصده عن منهجه الذي يَغيض إبليس وأعوانه. وهذه الاستعاذة تعبير عما هو حاصل في نفسه ﷺ من شكر النعمة، فإنه بشر وفضل الله عليه خصه بالعصمة، فعلّمه ربه أن يوالي شكر النعمة التي أنعمها عليه بإحيائها في نفسه وطلبه أن يديمها عليه. والآية مرتبطة بالآية السابقة فإن ما يحدث أمام ناظره من التجاوزات أو من سفه السفهاء مما يحمل النفس حسب طبيعتها إلى الرد ؛ ومن هذا المكمن يحاول الشيطان النزغ. فإما ينزغنك، أُفْهَمُ منه إما يحضر من الأسباب ما يترصده الشيطان ليقترب منك، فاطلب من الله أن يواصل تحصينه لك.

إن الله سميع لدعائك لا تغيب عنه ابتهالاتك، عليم بأحوالك يرقبك تبعا لعلي مكانتك عنده (**فإنك بأعيننا**)[61] -وكما توجه الخطاب لسيدنا رسول الله ﷺ فإنه إرشاد لكل مؤمن ومؤمنة، أن يطلب من الله أن يحميه من وسوسته.

201-202: إن الذين اتقوا...يقصرون.

والاستعاذة بالله من الشيطان هي شأن المؤمنين المتقين، فإنك تجدهم إذا أخذت وساوس الشر تحاول غزو مشاعرهم وتطوف حول نفوسهم، تيقظوا للخطر سريعا، وتذكروا ما جاءهم من الهدى والتوجيه الرباني، فإذا المسلك النقي من غبش الوساوس يَمْثلُ أمامهم فيبصرون طريق الصلاح الذي يرضى عنه ربهم.

شأن الشيطان أنه ينفث الخواطر السيئة في نفس الإنسان، ثم يعمل على تحريكها من الأطراف إلى الداخل لتستقر، وما يزال يغري بمعاودة التفكير فيها ليبلغ بها درجة الاقتناع والتصميم على الاستجابة، وعندها ينساق الإنسان إلى الإثم وفعل الشر. فإذا تيقظ الإنسان لها من أول الأمر فطردها نقّى نفسه وأزال عنها الغمامة الأولى فلا تحجب عنها الحقيقة والصلاح.

ثم ذكر القرآن أن إخوانهم يمدونهم في الغي. والمقصود، والله أعلم، إخوان الشياطين، كقوله تعالى:(**إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين**)[62] أي الذين لفساد طويتهم تآلفوا مع الشياطين في الفساد، فتابع الشياطين إغواءهم بإمدادهم بما يضاعف إقبالهم على الضلال، ولا يكفون عن إغوائهم وتقريب مسالك الإثم منهم.

203-وإذا لم تأتهم...لقوم يؤمنون.

ثم رد القرآن على المشركين مقترحهم النابع من تصوراتهم الضالة، يقولون لرسول الله ﷺ إذا لم يستجب لهم، بعرض الآية التي يقترحونها، يقولون له: هلا طلبت من ربك أن يعطيك الآية المقترحة منا! هم يتصورون أو يرغبون من إظهار عدم استجابة الرسول لمقترحهم أنه ليس رسولا. تولى القرآن الرد عليهم: قل لهم يا محمد: أنا الرسول الأمين على ما يوحي إلي ربي. وهو الذي ينزل الآيات المحددة مضامينها تبعا لحكمته وعلي تقديره. إن تشغيبكم لا يؤثر علي فأنا أمين، ملتزم باتّباع ما يأتيني من الوحي من ربي. ثم عقب القرآن ببيان طبيعته، التي لا يخرج عنها والتي غفل عنها المشركون فقال: غاية هذا القرآن أنه يقدم للبشرية ما يوضح لها الحق وينفي ما يمكن أن يعلق بنفوس البعض من الضلالات التي

---

[61] سورة الطور آية 48

[62] سورة الإسراء آية27

أشير إليها في الآية السابقة :وإخوانهم يمدونهم في الغي. فسوء فهم المشركين لطبيعة القرآن يتبعه أن يقترحوا آيات لا تحقق غرض الهداية العامة التي هي غاية القرآن. ويعترضون على رسول الله بقولهم له: هلا اخترت الآية التي سألناك فتطلب من ربك أن ينزلها عليك ! ويجيبهم بأني أتلقى الوحي من ربي، هو الذي ينزل بحكمته ما يشاء في الظرف الذي يختاره. إن القرآن هدى يوضح طريق الحق، طريق النجاة والفوز في الدنيا والآخرة. والقرآن رحمة للبشرية تقيم لها معالم الطريق الذي يصل بها إلى قيام البشر بالخلافة على أكمل وجه وأحسنه. والقرآن رحمة لكل مستمسك به يحميه من خسران المصير. وبالطبع لا ينتفع من هداه ورحمته إلا القوم الذين أشرقت عقولهم وقلوبهم بنور الإيمان.

204←206- وإذا قرئ القرآن...وله يسجدون.

إنه بعد أن أشارت الآية لطبيعة القرآن والأهـداف التـي يعمـل علـى أن يسـمو بالنـاس إليها، إنه بعد ذلك كان من المناسب جـدا أن يرشـد النـاس إلـى مـا يجـب علـيهم أن يقوموا به عند تلاوة آياته عليهم، الواجـب أن يسـتمعوا إلـى رسـول الله ﷺ وهـو يتلـو عليهم ما أوحي إليه منه. أن يستمعوا إليه، بفـتح آذانهـم فتحـا لا يهمـل كلمـة منـه ولا حرفا، وأن لا يقطعوا انتباههم بأي كلام آخر. فـالقرآن يـدعو إلـى قبـول المتلـو علـيهم ما يطرق سمعهم بعقول تتفكر في هداه وفي مواعظه وفي أحكامه.

إنه إذا تحتم على الذين سعدوا بصـحبة رسـول الله ﷺ،أن يسـتمعوا إليـه وأن ينصـتوا، فإن الذين سيأتون من بعدهم إلى أبد الآبـدين، مـأمورون بـذلك فـي المجـالس العطـرة التي يتلو فيها المؤمن القرآن للتدبر فيه أو لحفـظ نصوصـه الطـاهرة، أو فـي مجـالس الذكر والعلم.

وقد خصَّصتُ، تبعا لما فهمته مـن الآيـة، مـن تهيـأ لتتبـع آياتـه تـلاوة أو تـدبرا أو دراسة بوجوب الاستماع والإنصات فقط. أما إذا كـان المسـلم مشـغولا بعمـل أو بعلـم، وأبلغته مكبرات الصوت تلاوة القرآن فلا يجب عليـه أن يتـرك شـغله أو يقطـع نظـره فيما بين يديه. وإني أدعو كل مسلم يتصل بكتـاب الله تـلاوة أو اسـتماعا مـن شـريط أو من وسائل البث، أدعوه أن لا يرفـع الصـوت بمـا يشـوش علـى المصـلي، أو يشـغل طالب العلم أو المستغرق في عمله.

وخُتِمَتْ الآية بأن الاستماع للقرآن مع الإنصات إليه، وفـتح القلـب لبيناتـه هـو السـبيل الذي يتلوه تنزل الرحمات من رب العباد. فلا تجعلـوا القـرآن مهجـورا فـي بيـوتكم أو في قلوبكم. وبهذه الآية ينعطف ختام السورة فيتصـل بأولهـا : كتـاب أنـزل إليـك فـلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر بـه وذكـرى للمـؤمنين. هـذه الـذكرى التـي لا تبلـغ

المستوى المصلح للعقول إلا إذا تلقته بآذان مصغية إليه لا تغفل عن مضامينه وعن بديع نسجه ولا يشغلها عنه أي شاغل.

-ثم ثنى القرآن بتوجه الأمر إلى رسول الله ﷺ أن يكون ذاكرا لربه، بمختلف أنواع الذكر ويدخل في الذكر تلاوة القرآن دخولا أوليا. فأمره أن يكون باطنه مستحضرا لمتنوع صيغ الذكر من تسبيح وتحميد وتمجيد وحوقلة وتهليل ونحو ذلك مما يربط ضميره الطاهر النقي، ويجعله أشد اتصالا وأمكن، برب العالمين. وأن يصحب هذا الذكر مشاعره وضميره وعقله، وأن يتوجه لربه ضارعا متذللا. هي حالة الخشوع التي يندمج فيها المتضرع بما يقوله ويحس به أعمق الإحساس، ويرتعش قلبه ويتحرك وجدانه. ومع التضرع المعبر عن الحالة الباطنية يرشده إلى الأدب الظاهري في التوجه، خيفة مستشعرا في كل لحظة من لحظات ذكره أنه العبد الخائف الوجل، المتعلق بكرم ربه كي يتقبل منه ذكرَه وأن يسعفه بتلكم المرتبة النفيسة. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. وأن من الأدب أن لا يصرخ بالذكر بل دون الجهر، فهو بين أن يذكره سرا وبين أن يذكره بصوت غير جهير، وذلك تبعا للوضع الذي يكون عليه وهو ذاكر، يراعي المستوى الصوتي الذي يزيده قربا، وأن يصحب الذكر في جميع الأوقات، التي نص منها في هذه الآية على النصف الأول من النهار وعلى النصف الثاني، لأنها الأوقات التي ينهمك فيها البشر في مشاغل الحياة. ولا يدل ذلك على الاقتصار على هذه الأوقات، فقد توجه الخطاب لرسول الله ﷺ مباشرة في سورتي المزمل وفي غيرها بمواصلة التقرب إلى ربه في جميع الأوقات.

وكل ما أمر به النبي ﷺ من أنواع العبادة، فإنه إذا كان بالنسبة له على سبيل الوجوب، فهو بالنسبة إلى الأمة طريقه الندب. وجماع هذا الإرشاد أن لا يكون من الغافلين عن ذكر الله.

وتختم السورة، بالربط بين الملائكة والصالحين من الناس، متصل بما أُمِرَ به من الذكر في الآية السابقة ؛ فإذا هو موكب واحد في حضرة الله رب العالمين، موكب طاهر خاضع له يحقق وُجُودَهُ بهذا الخضوع، وتطويع كل ما أوتوا من ربهم للعمل بما يرضيه، هم لا يستكبرون عن عبادته. يقترن كل نشاط منهم باستحضار دورهم المقصور على تعلق مشاعرهم به، والإحساس بأن كل عمل يقومون به، لبةُ في عبادته وتحقيق ما يريده منهم. ويبلغ كل لفظ في هذه الخاتمة مزية إعجازية، عبر عن الملائكة بالذين هم عند ربك، فسما بهم إلى أنهم قريبون قربا معنويا من الذات

الإلهية، وأدمج مع حُظْـوتهم التـي نالوهـا، أن القـرب قـرب مـن ربـك يـا محمـد، بإضافة **(الرب إليـه)** ممـا يشـير إلـى أن مكانـة الرسـول ﷺ مكانـة تفـوق مكانـة الملائكة.

هذا الموكـب موكـب تسـبيح لله وتنزيـه لـه ؛ إذ كلمـا زاد العابـد قربـا مـن ربـه واستحضارا لجلاله جاشت نفسه بـالاعتراف لـه بالتسـبيح والتنزيـه الكامـل، وأكمـل ما يعبر عمليا عن الخضوع والتسـبيح، هـو سـجود العابـد للمعبـود. هـذا السـجود الذي تُصَوِّرُهُ بالنسبة للملائكة على أنه تعبيـر عملـي عـن الخضـوع لا نـدرك كنهـه، والذي كلف به المؤمن، هو أن يضاهي الملائكة عنـدما يبلـغ فـي تلاوتـه هـذه الآيـة، فيسجد لله رب العالمين. فهي موضع سجود بإجماع.

بلغت ختام هذه السورة يـوم السـبت- 10- صـفر الخيـر 1432-2011/1/15 بعـد صلاة العصر. أعانني الله علـى إكمالـه وجعلـه خالصـا لوجهـه الكـريم، وأسـأله أن يتقبله مني، وأن ينفع به المؤمنين.

سورة الأنفــال

نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ بعـد الهجـرة، فـي شـهر رمضـان مـن السـنة الثانية إثر غزوة بدر الكبرى. الغزوة التي سجلت فـي تـاريخ الإسـلام أول نصـر علـى المشركين، والتي كانت بداية التحول الكبير في ميزان القوى.

والأصح حسب تاريخ النزول أنها نزلت بعد سـورة البقـرة. وممـا ينبغـي التـذكير بـه أن معنى نزول السورة، هو نزول الآيات التي تتابعت منهـا، وقـد تتـزل سـورة أخـرى في أثنائها. وكل ما ينزل على رسول الله ﷺ من الـوحي يـأمر كَتَبَـةَ الـوحي أن يلحقـوه بمكانه الذي تلقاه عن جبريل. قد تتـزل آيـات فـي أثنـاء سـورة أخـرى ، فتقـر فـي موضعها الذي أذن به الوحي. وهي السورة الثامنة حسب ترتيب المصحف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ
وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ
وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ
لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأنفال : الغنائم

ذات بينكم : أصلحوا ما يجعل الروابط الجامعة بينكم قوية سليمة.

ذكر الله : ذكر اسمه أو صفة من صفاته.

وجلت : خافت وفزعت.

التوكل : الاعتماد بعد الأخذ بالأسباب.

حقا : ثابتا ، بالغا درجة الكمال .

بيان المعنى الإجمالي :

سأل أصحاب رسول الله ﷺ عن حكم ما حازوه مـن أمـوال المشـركين الـذين هزمـوهم بعون من الله في غزوة بدر. واختلف تقـديرهم مـن هـو أحـرى بـذلك. فكـان جـوابهم على شطرين :

الشطر الأول: أن الغنيمة هي ملك لله، حكم رسـوله فيهـا. إنـه لـولا عـون الله ولطفـه ما كان يمكنكم أن تهزموا المشركين تلك الهزيمـة التـي جعلـت الفـار ممـن لـم يقتـل ينجو بنفسه غير ملتفت إلى ما كان يصحبه من أموال.

الشطر الثاني: تأديب للمجاهدين من الصحابة، وممن يـأتي بعـدهم تضـمن أصـولا بهـا يضمنون سعادتهم في الـدنيا والآخـرة، وبهـا يتـداركون مـا فـرط مـنهم مـن تعلـق بالأموال، وهي:

1) تقوى الله.
2) الاهتمام بإصلاح العلاقات الجامعة بين أعضاء الأمة.
3) طاعة الله ورسوله بكيفية يكون بها المطيع شاعرا بالغبطة إذ هدي للطاعة.

إن هذه الأسس التربوية يحض عليها الإيمان.

ثم وضحت الآية مَنْ هُم المؤمنون الذين تنفع فيهم المواعظ. هم من يجمعون الصفات التالية:

1) إذا حرك أسماعهم ذكر اسم الله أو صفة من صفاته ، استحضروا جلاله تفزع قلوبهم.
2) إذا سمعوا آيات القرآن تتلى عليهم تبعِ سماعهم توهج إيمانهم فتضاعف صالح عملهم.
3) يَجِدّون في العمل ويصحب جدهم يقينهم بأن نجاحهم لا يتحقق إلا بعون من الله فهم يعتمدون عليه ليرفع عنهم المعوقات ويسعدهم بالتوفيق.
4) يحافظون على الصلاة الركن المقوم للمشاعر والمُنَمّي لصفاء الروح
5) وينفقون من أموالهم ما يقوم شاهدا على نبذهم لداء الشح.

إن هؤلاء الذين جمعوا بين هذه الخصال الخمس، وصفهم القرآن بأنهم المؤمنون الذين كمل إيمانهم ، وأنه سيسمو بهم ربهم إلى درجات رفيعة عنده لا يلحقهم فيها نقص ولا خوف ، يزيل آثار ما قصروا فيه ، ويرزقهم من فضله رزقا وافرا لا منة معه.

بيان المعنى العام :

1-يسألونك عن الأنفال...إن كنتم مؤمنين.

هذا هو شأن الصحابة رضوان الله عليهم: كلما عـرض أمـر جديـد، لا يسـارعون إلـى الحكم عليه والتصرف فيه حسـبما يتـراءى لهـم، لكـنهم يعـودون إلـى رسـول الله ﷺ يطلبون منه أن يبين لهم ما يرضى الله عنه في الحادثـة الجديـدة ، كمـا كـان النبـي ﷺ

يدعو أهل الرأي من أصحابه يستشيرهم في بعـض القضـايا المسـتجدة التـي لـم ينـزل الوحي ببيانها. فقامت على هذه السنة العلاقـة بـين القيـادة وبـين أهـل الحـل والعقـد الذين برزت مواهبهم :تظهر الحقيقة إما مـن الـوحي ، وإمـا مـن الـرأي الـذي يحكـم السداد فيه تقليب وجوهه.

الذي حدث: هو أن الجيش الإسلامي تمكن، بعـون مـن الله، أن يحقـق أول انتصـار لـه في الحرب. وللانتصـار مشـاكله، كمـا للهزيمـة مشـاكلها. ومـن مشـاكل النصـر أن بعض الصحابة البواسل فتكوا بأقرانهم مـن قـادة جـيش المشـركين ونزعـوا مـا كـان معهم من مال وسلاح، وأن فلول المشـركين ولّـوْا منهـزمين وخلفـوا وراءهـم الأمـوال التي صحبوها، فمن يستحق تلك الأمـوال ؟ علـى السـنة التـي بيناهـا، رجعـوا إلـى رسول الله ﷺ يسألونه عن الغنائم التي ظفر بها الجيش، من يستحقها ؟

كانت محاورات بين رسول الله ﷺ وبـين الصـحابة، عـرض كـل صـاحب رأي رأيـه كما ورد بذلك أحاديث كثيرة فـي صـحيح مسـلم وجـامع الترمـذي وسـنن أبـي داود وأحمد وابن جرير وابن مردويـه وابـن أبـي شـيبة والبيهقـي وغيـرهم. وكانـت أول تجربة للمسلمين ، وتاقت نفوس بعضهم للنيل من الغنائم التـي كـان مـن أسـبابها قطعـا بطولاتهم وتفانيهم في القتال. وما جـاء الإسـلام ليخـرج البشـر عـن طبـائعهم، ولكـن ليزكيهم ويسمو بهم إلى الآفاق التي تكون بها إنسـانيتهم أكمـل ويوثـق صـلتهم بـربهم، فإذن لا غضاضة في مقاماتهم لتعلقهم بالمال الذي اسـتولوا عليـه مـن الأعـداء، ويبـدو في هذه الحادثة المنزلة التي بلغوها في التعفف؛ فالغنـائم تحـت أيـديهم ،ومـع ذلـك لـم تمتد يد إلى أخذ شيء قبل أن يأذن سيدنا رسول الله ﷺ ، بأخذه.

ونزل الوحي على رسول الله يعيد المؤمنين إلـى المـنهج الواضـح الـذي غفلـوا عنـه، هذا المنهج الذي يجمعه: أن الحكم لله وحده. يسألونك عـن حكـم الأنفـال؟ حكمهـا أنهـا لله ولرسوله. اذكروا أن الله هو مالك كل شـيء، وأنـه لـولا مـا أيَّـدكم بـه مـا كنـتم لتنتصروا على صـناديد قـريش وتهزمـوهم تلـك الهزيمـة التـي كانـت أول تخضـيد لشوكة الكفر، وبث الرعب في قلوبهم، واختلاط تقـديراتهم. فالغنـائم هـي ملـك لله الـذي يأذن لرسوله طريقة التصرف فيها.

إنه إذا كانت لله والرسول وانْتُزِعَ مـا تحـدثت بـه الأنفـس فـي جهـرة أو خفيـة مـن استحقاق لشيء منها، فإن الآية أتبعت هذا المعنـى بـالمقوم لهـذا المفهـوم المثبـت لـه في النفوس، وهي العودة لتقوى الله، أي اتخاذ وقايـة ذاتيـة تجعـل هَـمَّ المـؤمن معلقـا بأن يكون مطيعا لربه ذاكرا له واقفا عند حدوده. فغسل الأمـر بـالتقوى مـا حـاك فـي

النفوس من تعلق ببعض ما أسفرت عنه الغزوة من مغـانم. وأردفـت تنبـيههم إلـى أمـر خطير جدا: هـو أن انتصـارهم كانـت لـه مقومـات، وأحـد هـذه المقومـات الوحـدة الصماء والأخوة الصافية بينهم، وقد أخذت هـذه العلاقـة تتصـدع برغبـات فـي أجـزاء من المغنم ، بعلة أنه نزعها ممن أجهز عليـه، أو أنـه هـو الـذي جلبهـا، أو لأنـه هـو الذي كان يحمي ظهر المسلمين مـن مكـر أعـدائهم، إلـى غيـر ذلـك مـن المبـررات الذاتية، والتـي إذا عششـت فـي الـنفس تضـخمت وفرقـت. فأكمـل التأديـب الإلهـي للمجاهدين: أن يسارعوا إلى إصلاح هذا الخلـل الـذي دب إلـى صـلاتهم فينزعـوا مـن أنفسهم كل تعلق بتلك الأعراض التافهة إذا قيسـت بمـا يسـر لهـم الله مـن صـفاء فـي روابطهم الاجتماعيـة. مؤكـدا علـى أن الإصـلاح يجـب أن يبلـغ حقيقـة **(ذات)** مـا **(بينكم)** ما بينكم من متين الصلات. وأن يكون قبـول مـا تضـمنته الآيـة تحـت مظلـة الطاعة لله ورسوله، هذه الطاعـة التـي لا يتحقـق الإيمـان إلا بهـا. فصـرح بتعليقهـا بالإيمان:**(إن كنتم مـؤمنين)** تحريضـا عليهـا، نظيـر قـول القائـل: إن كنـت شـجاعا فاخرج لنصرة الحق، لا تقصد جعل شـجاعته محـل احتمـال ولكـن تريـد حثـه علـى الخروج.

إن ما فسرت به الآيـة هـو المعنـى الـذي تخيرتـه مـن كـلام المفسـرين السـابقين، وسأزيده تحديدا وضبطا في قوله تعالى: **واعلموا أن ما غنمتم من شيء....**[1]

طلبت الآية من أهل بدر ثـم مـن المـؤمنين الـذين يـأتون مـن بعـدهم ثلاثـة أمـور متتابعة: التقوى – وإصـلاح ذات البـين – وطاعـة الله ورسـوله – ثـم ربطـت ذلـك بالإيمان الذي هو محط الحرص عليه مـن كـل مكلـف. وحتـى يكـون مضـمون هـذا الإيمان واضحا، أعقبته الآية بما يحلله تحليلا يحدد مقوماته.

2←4-إنما المؤمنون....ورزق كريم.

المقوم الأول : القلوب التي تـرف وتخـاف وتوجـل وتتفـتح كلمـا ذكـر اسـم الله ، أو أمر من أوامره ،أو نهي من نواهيه ،أو نعمة من نعمـه ،أو نقمـة مـن نقمـه. فهـم بـين خوف من زوال النعم أو حلول النقم أو التراخـي عـن تطبيـق أوامـره ، أو الغفلـة عـن نواهيه. يغشى جلال الله قلوبهم فينبعثون إلى الاستقامة.

والتعبير عن العقل والمشاعر بالقلـب تعبيـر قرآنـي ،سِـرُّه فـي نظـري: أن القـرآن يخاطب البشر كلهم في وقت نـزول الـوحي وفيمـا يتلـوه مـن الأزمنـة ، ويخـاطبهم

[1] سورة الأنفال آية 41

على مختلف مستوياتهم العقليـة والمعرفيـة ، يخاطـب عـالمهم وجـاهلهم. وكـون قـوة التفكير وما يصحبها، مركزها الدماغ مما بلغ فيه العلم فـي عصـرنا شـأوا عظيمـا فـي الكشف عن أبعاده ، لا ينافي التعبير عـن ذلـك بـالقلوب؛ لأن كـل واحـد يحـس مـن نفسه ،عند الخوف أو عند الحماس ،تغيرا في نبضـات قلبـه يختلـف عـن وضـعه فـي الحالة العادية. فمن إعجاز القرآن أنه حقق إبـلاغ مضـامينه فـي كـل زمـان ومكـان ، ونفذ إلى مدارك البشر فأثر فيها بما يحس به كـل إنسـان، ومـا كـان كتـاب تشـريح أو تفصيل لوظائف القلب ؛ فإن ذلك مما أوكـل للبشـر الكشـف عـن أسـراره ، وربطهـا بمن أحكم خلقها.

المقوم الثاني: التأثر بآيات القرآن، والناس في مـواقفهم مـن آيـات القـرآن عنـدما تتلـى عليهم على أقسام: فمنهم الـذين يصـمون آذانهـم فيصـدون عقـولهم وحواسـهم عنهـا. وقسم عندما تتلى عليهم يكونون لاهين عما تتضمنه مـن حـق ، ينفـذ قليـل منهـا إلـى عقولهم وينفلت أكثرها عن مـداركهم. ومـنهم الـذين إذا تليـت علـيهم آيـات القـرآن نفذت إلى عقولهم ومشاعرهم فرسخت، فإذا بعقـولهم يتعمـق الإيمـان فيهـا كلمـا نزلـت آية فتلاها عليهم رسول الله ﷺ. وكذلك تكون علاقـة مـن يـأتي بعـدهم بـالقرآن عنـدما يتلون آياته أو يتدارسونها.

توقف كثير من المفسرين فـي تحقيـق مفهـوم زيـادة الإيمـان، ذلـك أن الإيمـان هـو اليقين، واليقين ليس له مراتب بعضها أقوى مـن بعـض. والـذي أفهمـه مـن الآيـة أن اليقين وإن كان مرتبة واحـدة ، هـي كمـا يعبـر عنـه 100% مائـة فـي المائـة، إذا نقص واحد تحول إلى ظن غالب لا يقين؛ لكن مـع ذلـك تختلـف مراتـب اليقـين مـن ناحية أخرى، وهي ناحية الاستحضـار والتوقـد فـي العقـل والمشـاعر وبالتـالي فـي التأثير على السلوك. فقد يكون الإنسان موقنـا مـثلا بـأن الصـدق خيـر وسـمو، ولكـن هذا اليقين قد يكون إشعاعه في المدارك وضاءً قويـا وقـد يكـون خافتـا. والفـرق بـين الطرفين تظهر آثاره في الثبات علـى الصـدق أو التهـاون بـه فـي بعـض الأحـوال. وكذلك الآيات عندما يتأمل التالي في مضامينها ويشـرح لهـا صـدره يتضـاعف شـعاع الإيمان، ويسمو به قطعا سلوكه ويصفو ضميره. فزيادة الإيمـان ليسـت قوتـه فـي ذاتـه ،لكن ازدياده في التأثير، ولا شك أن أنـوار الإيمـان وتأثيرهـا فـي نفـوس المسـتقيمين غير تأثيرها في المسرفين.

المقوم الثالث :التوكل علـى الله. والتوكـل مقابـل التواكـل، فالمتواكـل هـو المضـيع لأمره اعتمادا على غيره والتوكل علـى الله معنـاه أن المـؤمن يأخـذ بالأسـباب التـي

بنى عليها الله تحقق النتائج ، مــع اعتقــاده أن النجــاح لــيس بواســطة تلــك الأســباب ، ولكن بالمؤثر الحقيقي فــي الأســباب والمســببات ، وهــو الله ســبحانه. فمــن لــم يأخــذ بالأسباب على أنه يبلغ غايته بتوكله علــى الله فقــط، هــو واهــم ومحــرف لســنن الله التي بنى عليها أمر الكون ؛أما المتوكل فهو الذي يعتمــد علــى الله ســبحانه فــي إزالــة المعوقات من طريقه ،ويثق بأنه يسعده بالعون على النجاح ويمكنه من قصده.

هذه المقومات الثلاثة هي القسم الباطني الذي يتحقق بــه الإيمــان المنــوه بــه فــي الآيــة. ومع ذلك فلا يبلغ الفــرد درجــة الإيمــان الكامــل إلا إذا أضــاف إلــى هــذه المقومــات الثلاثة أمرين:

1)أداء الصلاة على الوجه الأتــم بمقوماتهــا الروحيــة والخارجيــة كمــا علمــه وطبقــه النبي ﷺ وهو معنى إقامة الصــلاة، ويــومئ ذلــك إلــى الحــض علــى إقامــة الصــلاة والعناية بشأنها.

2) إنفاق المال في وجوه الخيــر علــى العيــال والأقــارب ،والمواســاة للمجتمــع عــن طواعية وشعور بالراحة لما يقوم به.

إن الذين جمعوا هذه الأركان الخمسة : لين القلوب وبعــدها عــن القســوة – والتــأثر بمــا يسمعونه من القرآن تأثرا يضاعف توهج العقيــدة – والتوكــل علــى الله حــق التوكــل – وإقامة الصلاة – والسماح بالمال – هؤلاء الــذين تميــزوا بهــذه المنزلــة مــن الســمو ، هم المؤمنون الكمل **(حقا)**

جزاؤهم أن الله يرقى بهم مراتب من القــرب والتكــريم والتمييــز بمــا لا يلحقــه نقــص ولا زوال، باعتبار أنهــم عنــد الكــريم المــنعِم، بحيــث لا يتصــور مقــام أعلــى ممــا سينالهم. ومن تكريمهم أن يغفر لهم تقصيرهم فتكــون صــفحات أعمــالهم نقيــة لا غــبش فيها ، وبصفة عامة يشملهم ربهم برزق نفيس مــن الكــريم الــذي لا يــنقص مــن ملكــه شيء ، ولا يمتن بما أكرم وأعطى.

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾
يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾

الخروج: مفارقة المكان .

يساقون : يدفعون.

بيان المعنى الإجمالي :

نظر القرآن بـين دعـوة النبـي ﷺ صـحابته ليخرجـوا معترضـين القافلـة التجارية لقريش ، وكراهية بعضـهم الخـروج مـن المدينـة ومجـادلتهم رسـول الله ﷺ مبـرزين تخوفهم من الإقدام على ذلك ، ومـا أعقـب ذلـك مـن نصـر مبـين، بـاختلافهم عنـد تمكنهم من المغانم وتعلق نفوسـهم باقتسـامها وحكـم الله فيهـا بأنهـا ملـك لله ولرسـوله فزال ما كان يمكن أن يحدث من شقاق ، فكان الجـامع بـين القضـيتين وضـوح الخيـر وحسن العاقبة فيهما.

بيان المعنى العام :

5-6: كما أخرجك ربك...وهم ينظرون.

في سؤال المؤمنين عن المستحق للأنفال مـن المجاهـدين والجـواب عـن سـؤالهم بـأن الأنفال لله وللرسول، وإن كان يخالف رغباتهم، وتحقـق الخيـر فيـه. مثـل هـذا الأمـر أمر ربك بالخروج مـن بيتـك بالمدينـة للجهـاد، وإن كـان فريـق مـنهم كرهـوا هـذا الخروج، وكان الخير في خروجك.

وبيان ذلك أن النبي ﷺ ثبت عنـده أن قافلـة لقـريش محملـة بتجـارة مـن الشـام فـي طريقها إلى مكة، فدعا النبي ﷺ أصـحابه للخـروج إليهـا، حتـى يقطـع عـن قـريش الوريد الذي كانت تعاند به وتستكبر. فأجابه بعـض الصـحابة وتثاقـل قسـم آخـر. ولـم ينتظر المتثاقلين فخرج معـه ثلاثمائـة ودون العشـرين مـن المجاهـدين. وسـاروا فـي طريقهم فلما كانوا في وادي ذَفَرَان بلغ النبي ﷺ : أن قائد القافلـة أبـا سـفيان بـن حـرب فطن لجيش المسلمين فحول طريق القافلـة ونجـا بهـا، وأرسـل إلـى قـريش يخبـرهم بنجاة أموالهم وخروج النبـي ﷺ ، ونصـحهم أن لا يخرجـوا إليـه ، ولكـن أبـا جهـل حرض صناديد قريش على الخروج إلى بدر، وهـو نبـع مـاء كـان تقـام حولـه سـوق في الجاهلية، موجها رأيه بأن في خروجهم وإقامتهم فـي بـدر فـي زهـو وخـيلاء مـا يقنع العرب عندما يتسامعون به، بقوتهم ومضائهم وضعف المسلمين.

بلغ النبي ﷺ مـا عزمـت عليـه قـريش؛ فاستشـار أصـحابه فـي الأمـر، وخاصـة الأنصار الذين ضمنوا له نصره مـن الـذين يرومـون الاعتـداء عليـه فـي المدينـة، وهو اليوم خارجها. فكان مما حفظه الناس ما أجاب به المقـداد بـن الأسـود الـذي كـان من الذين هاجروا إلى الحبشة ثـم إلـى المدينـة: يـا رسـول الله امـض لمـا أراك الله فنحن معك والله ؛ لا نقول كما قالت بنو إسـرائيل لموسـى: اذهـب أنـت وربـك فقـاتلا إنا هاهنا قاعدون ، ولكن اذهب أنـت وربـك فقـاتلا إنـا معكمـا مقـاتلون، نقاتـل عـن

يمينك وعن شمالك وبين يديك ومن خلفك....فسـر بمقالتـه رسـول الله ﷺ.وكـان النبـي يستطلع رأي الأنصار فقال : أشيروا علي أيها النـاس ، وتفطـن لـذلك سـعد بـن معـاذ الأنصاري سيد الأوس فقال : والله لكأنك تريـدنا يـا رسـول الله ! قـال : أجـل، فقـال سعد: (لقد آمنا بك وصدقناك وشهدنا أن مـا جئـت بـه هـو الحـق ، وأعطينـاك علـى ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فـامض يـا رسـول الله لمـا أردت، فـنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هـذا البحـر فخضـته لخضـناه معـك ومـا تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنـا عـدونا غـدا ؛ إنـا لصُـبُر فـي الحـرب، صُدُق في اللقاء ، لعل الله أن يريك بنا ما تقـر بـه عينـك فسـر بنـا علـى بركـة الله) فتهلـل وجـه رسـول الله ﷺ وقـال : سـيروا وأبشـروا ، فـإن الله وعـدني إحـدى الطائفتين. فزال ما كان يجده البعض في قلوبهم من الكراهية للقتال.

وفي سرد الخبر وتنظيره ما يـدل علـى أن بعـض الصـحابة تـرددوا فـي أول الأمـر، وعبروا عن تخوفاتهم من اللقاء (**يجادلونك فـي الحـق**) هـي غفلـة مـن هـذا الفريـق لأن الله وعد هـم النصـر ؛ فـإذا انفلتـت القافلـة المحملـة بـالأموال، فـإن المعركـة مضمون نصرها. وأبرزت الآية كيف كان هذا الـبعض كـارهين للنـزال، كراهيـة مـن يدفع إلى الموت، وهو ينظر إليه قريبا منه ماثلا أمامه.

وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ
تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ
ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ
لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ
وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ
يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ
عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى
ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ
فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥۚ وَمَن يُشَاقِقِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الود : المحبة.

ذات الشوكة : ذات البأس.

بكلماته : التي قررت في الأزل، المعبرة عن مراده.

يقطع دابر : إزالة الكافرين إزالة تأتي على آخرهم فلا يبقى منهم شيء.

تستغيثون : تطلبون الغوث، وهو العون على رفع الشدة.

الإمداد :الزيادة من الشيء النافع ، أي مكثركم.

مردفين : متتابعين.

يغشيكم النعاس : يغطي النوم الخفيف يقظتكم.

أمنة : الأمن.

ليربط على قلوبكم :ينشطها ويثبتها.

الرجز: أصله : الاضطراب[1]

فوق الأعناق : الرؤوس.

المشاقة : العداوة بعصيان وعناد.

فذوقوه: الذوق بمعنى الإحساس.

بيان المعنى الإجمالي :

وعد الله سبحانه المسلمين النصر على قريش، إما بالاستحواذ على قافلة التجارة بقيادة أبي سفيان، وإما بهزيمة حربية ،يذلونهم بها ويكون لهم نصيبهم من غنائمها. وكانت عاطفة فريق منهم أن يتعرضوا للقافلة دون الجيش. إن هذا الخاطر الذي سبق لهم لا يحقق لهم النصر الحقيقي، إذ لا يعدو تحقق ما أرادوه من أمر بسيط، هو تعرض المسلمين لأموال أعدائهم. أما نصرهم على أعدائهم في ميادين القتل فهو يحق نصرا للإسلام ويكون البادرة الأولى التي سيتبعها ما يقضي على كل جذور الشرك في الجزيرة العربية ويبطل ضلالات الكفر. وإن كان الكافرون يكرهون هذا أشد الكراهية ويستعدون أتم الاستعداد لذلك.

[1] تاج العروس ج15 ص 149

وقد توالت منن الله على المسلمين في غزوة بدر وتتابع تأييده لهم :

1) شعر المسلمون بالوضع الحرج الذي هم فيه، بعد أن انفلت أبو سفيان وأخذ طريق ساحل البحر ونجا بما معه من أموال ، وأيقنوا بأن قريشا قادمة لمحاربتهم. فاستغاثوا من لا يغيث غيره، استغاثوا ربهم ، فحقق لهم الاستجابة لدعائهم وتضرعهم. وأخبر النبي ﷺ المجاهدين بأن الله وعدهم النصر.

2) تمثلت الاستجابة في أن الله أمر ألفا من الملائكة يتتابعون لتأييد المجاهدين.

3) أنه أراد من ذلك تعجيل البشارة لهم بالنصر قبل القتال. إنه مع مثل هذه العناية يعجز المشركون عن بلوغ نقمتهم من المسلمين المدى الذي أعدوه.

4) بعد الحيرة التي كانوا عليها والتصورات المختلفة، أنزل الله عليهم ما يأخذ بيقظتهم إلى نعاس يريح ملكاتهم، فاستفاقوا وهم يحسون أنهم يملكون قلوبا راضية مطمئنة.

5) ساق الله لهم سحابة أمطرتهم فتلبدت رمال الصحراء تحت أرجلهم مما يسر عليهم الحركة والتقدم إلى الموقع الأفضل قبل أن يبلغه الأعداء ،وقام من هذه المنة دليل على أن عناية الله تحوطهم فاطمأنت القلوب، وذهب ما كان يخالطها من وساوس الشيطان. وتوفر من مسيل الأودية المياه للشرب والتطهر.

6) أوحى الله لملائكته أمورا :

أولها أنه لا يتركهم لقدراتهم بل تصحبهم عنايته في جميع مراحل تحقيق ما كلفوا به.

وثانيها أنه سبحانه تكفل بأن يزعــزع ثقــة المشــركين بقــوتهم ، ويــدخل الــوهن فــي عزائمهم.

وثالثها أن يثبتــوا عــزائم المجاهــدين ويبثــوا الطمأنينــة والمضــاء فــي قلــوبهم. و أن عليهم أن يهيئوا الظروف التي تكــون بهـــا ضـــربات المجاهــدين تبلـــغ أهـــدافها فتكـــون ضرباتهم إما قاطعة للرؤوس قاتلة ، أو قاطعة للأصـــابع فـــلا يســـتطيع المقطـــوع مســـك سلاح.

ما أصابهم الله به من نكال هو جـــزاء اختيـــارهم لمـــنهج يعـــاكس مـــا ســـنه الله لعبـــاده وعنادهم وإصرارهم على ذلك. والله شديد عقابـــه لمـــن يســـير فـــي طريـــق يعـــاكس مـــا أمر به.

وفي النهاية تصرح الآيــة بالشــماتة للمــآل الــذي لاقــاه المشــركون: ذوقــوا العــذاب الدنيوي من إهانة وتقتيل، وفي الآخرة لكم عذاب النار.

بيان المعنى العام :

7-8: وإذ يعدكم الله....ولو كره المجرمون.

يسجل القرآن ما تم في غزوة بـــدر ، فيقـــدم معلنـــا وعــد الله للجـيش الإســلامي بأنـــه سيمكنه من الغلبة على طائفة مـــن الطـــائفتين والاســتحواذ عليهـــا: إمـــا قافلـــة التجـــارة بقيادة أبي سفيان بن حرب، وإما جيش قريش الذي خــرج مــدلا بقوتـــه مــدفوعا بتـــدبير أبي جهل. ولم يحـــدد فـــي البشـــارة بالنصـــر والوعـــد بالتملـــك أي الطـــائفتين ســيظفر المسلمون بها. ومال كثير من الجـــيش إلـــى أن ييســـر الله لهـم الاســتحواذ علـــى قافلـــة التجارة بما تحويه مـــن مـــال وفيـــر مـــن ناحيـــة، ولأن الاســتحواذ عليهـــا لا يعرضـــهم لخطر القتال من ناحية ثانية، ولأنهم لما خرجـــوا مـــن المدينـــة كـــان قصـــدهم التعـــرض للقافلة لا الحرب من ناحيـــة ثالثـــة. وينســـجم الســـياق بـــين الآيـــات المتتابعـــة مـــن أول السورة : أن ما مالت إليه النفوس كان الخير فـــي خلافـــه ، فـــرغبتهم فـــي قســـم الفـــيء، الخَيْرُ في صرفهم عنه وجعله لله ورسوله كما قـــدمناه ، وخـــروجهم مـــن المدينـــة تثاقـــل عنه بعضهم ومـــا كانـــت كلمـــتهم مجتمعـــة عليـــه ، وكـــان الخيـــر فـــي خـــروجهم ، وتفضيلهم لكسب المال على مواجهة المشركين كـــان الخيـــر فـــي خلافـــه، إذ انتصـــارهم في بدر ضعضع المشركين ، وأظهر للعرب بـــروز القـــوة الجديـــدة التـــي جمعـــت بـــين القيم وشدة البأس. وأعلنت الآية عن ذلك بأن الله قـــد تعلقـــت إرادتـــه وثبـــت فـــي علمـــه أنه سيمكن محمدا وأصـــحابه مـــن كســـر شـــوكة قـــريش وهـــدم كبريائهـــا وخيلائهـــا. فيمكن الدين الحق دين الإسلام من الظهور على أعدائـــه ؛ وبـــذلك تكـــون معركـــة بـــدر بداية القضاء على الكفر من جزيـــرة العـــرب ، تتســـع وتنتشـــر إلـــى أن تبلـــغ الإجهـــاز على آخر معقل من معاقل الكفر **(ويقطع دابر الكافرين)**

إنه بسبب ما أنزله الله من كلماته **(الـــوحي القرآنـــي)** وبســـبب مـــا ينزلـــه علـــى قلـــب رسوله من الوحي غير القرآني، وبســـبب مـــا تتلقـــاه عنـــه ملائكتـــه الموكلـــون بتســـيير العالم الخارجي وفق ما سبق به علمه مما يعرفهم به مـــن تأييـــد المســـلمين ، بســـبب كـــل ذلك يعلي أمر الإسلام ، ويرغم أنـــف المجـــرمين، ويفســـد كيـــدهم ويستأصـــل بـــاطلهم ويدحرهم مهـــزومين. وأن كـــراهتهم للـــدين الجديـــد بمـــا يتبعهـــا مـــن تصـــميم علـــى محاربته لا تغني عنهم شيئا.

وربما يتوقف الناظر في نظم الآيـــة إذ جـــاءت علـــى هـــذا النحـــو، ويريـــد الله أن يحـــق الحق... ليحق الحق ويبطـــل الباطـــل. فبـــالنظرة الأولـــى يكـــون المعنـــى الأول: يحـــق الحق، قد أبـــرز ســـببه ليحـــق الحـــق ويبطـــل والباطـــل ، والشـــأن أن يكـــون الســـبب والمسبب متغايرين. وهو ما تطلب له وجه بعض المفســـرين، وأهمـــل لفـــت النظـــر إلـــى هذه المعضلة كثير منهم.

والوجه الذي أفضله يتبين بتنظيرها بما صـــرح بـــه أحـــد رؤســـاء الحكومـــات الغربيـــة، لما سئل عند توليه الحكم: ما هي أهـــم مشـــاريعك فقـــال: ثلاثـــة أشـــياء: التربيـــة، ثـــم التربية، ثم التربيـــة. فالأصـــل أن يكـــون الثـــاني والثالـــث غيـــر الأول ، ولكنـــه أراد أن يؤكد حرصه على استقامة التربية في بلـــده ، وأنـــه إذا اســـتقامت تســـتقيم الحيـــاة كلهـــا. فكذلك يبرز نظم هذا النص أن مـــا هـــدى الله لـــه المـــؤمنين مـــن الإقـــدام علـــى النـــزال والجهاد هو الذي يحقق لهم كل خير ولا شـــيء غيـــر ذلـــك مـــن الاختيـــارات الأخـــرى. وهذا الضرب من التأكيد هو مـــن خصـــائص القـــرآن التـــي مـــا عـــرف نظيرهـــا فـــي الاستعمال العربي.

وفي هذا النص وما سبقه ما ينبـــه المـــؤمنين للتريـــث وعـــدم الإســـراع لاتخـــاذ قـــرارهم بمجرد ما يلوح لهم بـــادئ الـــرأي أنـــه الخيـــر، بـــل علـــيهم أن يتعمقـــوا ويتـــأملوا، وأن يحصنوا آراءهم من الأهواء التي تسبق إلى الأذهـــان فتضـــللها، وتحجـــب عنهـــا الحقيقـــة البعيدة الغور والتي فيها الفوز.

9-10: إذ تستغيثون ربكم...إن الله عزيز حكيم.

ثم سجل القرآن مما وقع يوم بدر، وما ذكرهم به هـــو ذكـــرى لهـــم ولمـــن بعـــدهم. فقـــال تعالى: واذكـــروا وضـــعكم وأنـــتم تطلبـــون مـــن الله أن يحقـــق إغـــاثتكم بعـــون منـــه، لتنتصروا على صناديد قـــريش الـــذين يفوقـــونكم عـــددا وعـــددا، فالتصـــريح بالاســـتغاثة يصور الوضع النفسي والوضع الحقيقـــي وهـــم يســـتعدون لخـــوض المعركـــة ، يصـــور شعورهم بالخطر من ناحية ،وقوة اعتمادهم علـــى ربهـــم وإحساســـهم بأنـــه قريـــب مـــنهم من ناحية أخرى. إن هذه الاستغاثة من رسول الله ومـــن المجاهـــدين، قـــد حفظـــت كتـــب السيرة ما استغاث به رسول الله ﷺ عندما مد يديـــه وهـــو مســـتقبل القبلـــة يـــدعو حتـــى سقط رداؤه عن منكبيه. ومما ابتهل به: اللهـــم أنجـــز لـــي مـــا وعـــدتني اللهـــم إن تهلـــك هذه العصابة اليوم لا تعبد....[1]

أعقب هذه الاستغاثة بتحقق الإجابة لمناشدتهم مبينـــا : أنـــه ممـــدهم بـــألف مـــن الملائكـــة يشدون أزرهم، يتتابعون أمدادا وراء أمداد. وهذه البشارة قـــد علـــم بهـــا المســـلمون قبـــل ابتداء القتال على الأرجح ،فوثقوا بالنصر وقويـــت إرادتهـــم لخـــوض المعركـــة ، وأنســـوا بأن عناية ربهم تحوطهم واطمأنوا بذلك.

[1] الروض الأنف ج5 ص105

ثم إنه هل شاركت الملائكة في القتال؟ ذهب معظم المفسرين إلى أن الملائكة خاضوا المعركة وقاتلوا مع المسلمين. وذهب فريق آخر إلى أن الملائكة لم تشارك في القتال. وأرجح هذا الرأي وذلك لأمور : 1) نص الآية أن ما أخبرهم به رسول الله ﷺ هو بشارة لهم بالتأييد فقط -2) إنه لو شاركت الملائكة في المعركة ما كان لأهل بدر من ميزة إذ النصر للملائكة وليس لهم - 3) إن الملائكة وهم مخلوقات لا ترى ولا يمكن للمحاربين من الأعداء أن يأخذوا حذرهم منهم يتبعه قطعا أن لا يبقى أحد من جيش الشرك، مع أن القتلى معدودون ومعروفون. -4) إن كتب السيرة نصت على من تولى قتل صناديد قريش من الصحابة وكان ذلك شرفا لهم. فما يبقى للملائكة ؟

11- إذ يغشيكم النعاس أمنة....ويثبت به الأقدام.

ثم سجل القرآن ما يذكرهم بنعمة أخرى وعناية أكرمهم الله بها في غزوة بدر، ذلك أنه قبل أن تبدأ المعركة، وهم على ما بينه القرآن، ما كان جميعهم يودون القتال وتعلق غرض هذا البعض بالاستيلاء على تجارة قريش، معتذرين أن ذلك هدفهم حين خرجوا من المدينة. إن بعض الجيش، لما تعين القتال فجأة ، ما كان على استعداد نفسي، ويدور بخلده ما يرهب ، والجهاد لا يأمن فيه أحد من أن يستشهد. في هذا الظرف التي تختلط فيه أحاديث النفس، ينزل الله النعاس على صحابة رسول الله صلى عليه وسلم ، مما يدل على أنه سبحانه سلخ من نفوسهم كل تردد وخوف ، فحل الأمن في قلوبهم إثر تلك الإغفاءة وكان ذلك أمرا على غير المعتاد.

ونعمة أخرى سجلها وذكر بها: أن الله ساق إليهم سحابة أمطرتهم، فلبدت لهم طريقهم، وتمكنوا من الوصول بسرعة إلى ماء بدر قبل أن يصل إليه المشركون. وكان في هذا المطر الذي سالت به الأودية ما مكنهم من الطهارة المائية التي تزيد المتطهر نشاطا ، وزالت آثار ما وجده بعضهم من تردد بما ألقاه الشيطان فيها ،إذ استبانت لهم آية من آيات عناية الله بهم فقويت العزائم للقاء الأعداء ، وتحولت الأرض تحت أقدامهم بعد أن تلبدت بالماء مساعدة على الحركة. فلا تسيخ أقدامهم في الرمال الرخوة.

12←14: إذ يوحي ربك للملائكة....عذاب النار.

ثم فصل القرآن العناية التي وردت في قوله تعالى : «**فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة)** مصورا لها : أن الله أوحى لملائكته بطريقة حصل لهم منها علم بمراده، أنهم في تنفيذ ما أوكل إليهم من مساعدة المقاتلين غير متروكين

لأنفسهم بل إن الله معهم يسعدهم بعونــه ويســدد توجهــاتهم. ثــم واصــل تفصــيل هــذا العون بأنه سيخلخل عزيمة الكفار ويلقــي فــي قلــوبهم الرعــب، فــإن قريشــا خرجــت متحدية كأشد ما يكــون التحــدي لرســول الله ﷺ جمعــت مــن المقــاتلين أشــدهم بأســا وأمضى ما يملكونه من السلاح، وبلــغ مــن ثقتهــا بنفســها أن صــحبهم القيــان، ليقيمــوا الاحتفال بانتصارهم. إنه مما يتبع ذلك أن يكــون المقــاتلون فــي هــذا الوضــع خطــرين لاحتقارهم لمن سيواجهونه في الحرب، فتكفــل الله بــأن يحــول قلــوبهم مــن الثقــة إلــى الخوف ومن الطمأنينة إلى الرعب.، **سألقي في قلــوب الــذين كفــروا الرعــب)** وأوكــل للملائكة تثبيت المؤمنين وغــرس الثقــة فــي قلــوبهم. وأمــرهم أن يوجهــوا ضــرباتهم القاتلة للأعداء بأن يســددوا ســيوفهم فتضــرب الأعنــاق ولا تحيــد عنهــا وأن يقطعــوا أصابعهم فيعجزون عن حمل الســلاح فــي المســتقبل، وأن يخــذلوا الكــافرين بصــرف أبصارهم عن وجهة السلاح الفاتك بهم عند النزال.

وتختم الآية بالتصريح بسبب الانتقام منهم، ذلــك لأنهــم عصــوا وعانــدوا، وتخيــروا أن يتبعوا طريقا معاكسا للطريق الذي أمــر الله بــه، وهــو معنــى شــاقوا، وقــررت الآيــة الحكم المسلط على من يعــاكس طريــق الله بأنــه ســيعاقبه أشــد العقــاب. ومــن ذلــك الهزيمة التي حلت بهم في بدر.

ويختم هذا العرض بتوجه إلــى المشــركين إظهــارا للشــماتة بهــم فيمــا أوقعــوا فيــه أنفسهم، ذوقوا العذاب والمهانة وشر الهزيمــة مــن جنــد كنــتم لا تقــرأون لهــم حســابا.

والقاعدة التي لا مثنوية لها : أن الكافرين سيعذبون أشد العذاب في نار جهنم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن
يُوَلِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفٗا لِّقِتَالٍ أَوۡ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٖ فَقَدۡ بَآءَ بِغَضَبٖ مِّنَ
ٱللَّهِ وَمَأۡوَىٰهُ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٦﴾ فَلَمۡ تَقۡتُلُوهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمۡۚ وَمَا رَمَيۡتَ
إِذۡ رَمَيۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبۡلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡهُ بَلَآءً حَسَنًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ
عَلِيمٞ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيۡدِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾ إِن تَسۡتَفۡتِحُواْ فَقَدۡ جَآءَكُمُ
ٱلۡفَتۡحُۖ وَإِن تَنتَهُواْ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَعُودُواْ نَعُدۡ وَلَن تُغۡنِيَ عَنكُمۡ فِئَتُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَوۡ
كَثُرَتۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

اللقاء : مناجزة العدو في الحرب.

الزحف : مشي المقاتل لعدوه في ساحة القتال مع حذر.

لا تولوهم الأدبار: أي لا تفروا فتكون أدباركم متجهة إليهم، ووجوهكم منصرفة عنهم.

متحرفا: منحازا ليقاتل.

باء بغضب : استحق الغضب.

الكيد: المكر.

ليبلي: مضارع أبلى، اختبر بالخير.

بيان المعنى الإجمالي:

أمر الله المؤمنين بالثبات وعدم الفـرار مـن سـاحة القتـال إذا زحفـوا علـى الأعـداء، وشدد النهي عن التولي ببيان عقاب هذا الخـذلان: أن المتـولي يكـون مسـتحقا لغضـب الله ويخسر آخرته ومثواه جهنم، واستثنت الآيـة مـن تـولى كيـدا لعـدوه ليراوغـه ثـم يَنْقَضُ عليه لا هربا، أو ليظهر الفرار ليتقوى بمقاتلين آخرين ثم يَكُرونَ معا.

حقيقة حرص القرآن على أن لا تغيب عن تصور المجاهدين:

أولا: أن المقتولين من المشركين مـا كـان ليتحقـق قـتلهم بضـرباتكم، ولكـن الله كـان معكم فسدد رمايتكم ووقْعَ سيوفكم، وحرم المقتـولين الألطـاف فـأذهلهم عـن الضـربات النازلة بهم فقتلهم الله. وكذلك الأمر بالنسبة للنبي ﷺ، فإنه لمـا أخـذ قبضـة مـن التـراب فتوزعت في أعين الكفار، ما كان ذلك ليتم برميك يـا محمـد وإنمـا هـو تأييـد مـن الله وقع به ما وقع. وفي ذلك ما يطمئن المؤمنين أن الله معهـم. وليكـون فـي هـذه الواقعـة تكليف مـن الله واختبـار قـدَّر أن يكـون حسـنا فـي بدايتـه وعاقبتـه، إن الله سـميع لابتهالاتكم، عليم بصدقكم. فقد تمت الغزوة والله يضعف ويخلخل كيد الكافرين.

إن تطلبوا الفتح أيها المؤمنون فقد جاءكم الفـتح المبـين، بمـا كـان لانتصـار المسـلمين في بدر من تحول لمسيرة التاريخ وتواصل لانتصار الإسلام.

وأنتم أيها المشركون إن تعودوا لمحاربة المسـلمين فسـنمكنهم مـنكم مـرة ثانيـة، ولـن يمنعكم من الهزيمة ما تجمعونـه مـن الأعـداد الكثيـرة. ذلـك أن الله ناصـر المـؤمنين ومن ينصره الله منتصر لا يهزم.

بيان المعنى العام :

16-15؛ يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم...وبئس المصير.

نداء من الله إلى المؤمنين أن يقوُّوا عـزائمهم عنـد لقـاء الأعـداء، ممـا يشـير إلـى أن الثبات عند القتال وعدم الفرار مـن مقتضـيات الإيمـان، يقـول القـرآن لهـم: إذا لقيـتم جيوش الكفر فاثبتوا ولا تفروا. وصـوَّر الفـرار بجعـل دبـر الإنسـان مواجهـا لعـدوه، وهو منظر بشع شـنيع لا يرضـاه الشـريف. واسـتثنى مـن النهـي، أن يكـون تـولي المقاتل لينحرف عن المواجهة ليعود، خداعا لقرنـه حتـى يـتمكن مـن الإجهـاز عليـه، وفن الحرب عند العرب كر وفر، أو لينضم إلى جماعـة يتقـوى بهـا ثـم يعـود إلـى النزال متقويا بهم وأقدر على النكاية في العدو. ثم أعقـب النهـي بالتحـذير مـن عاقبتـه، وهي غضب الله على الفار. والغضب يراد منه حرمانه من منازل التكريم.

والآية لم تضبط أي حالة يجوز للمقاتـل الفـرار فيهـا، لا مـن ناحيـة القـوة ولا مـن ناحية العدد. وسنفصل الكلام على ذلك في هذه السـورة إن شـاء الله فـي قولـه تعـالى **(إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين.)**[1]

ثم إن الله أنزل في كتابه ما يؤكد مضامين الآيـات السـابقة. فقـد عقبـت بـأن علـيهم أن يثبتوا عند ملاقاة الأعداء وأن لا يفروا، وذلك بناء علـى رعايتـه سـبحانه لهـم وتأييـدهم التأييد الذي جاءهم من الملائكة، ومن الغيث النافع، ومـن تقويـة النبـي ﷺ لقلـوبهم بمـا بشرهم به من نصر. فكان التأكيد بإظهار حقيقـة ربمـا تغيـب عـن التصـور، مفادهـا : أن النصر العظيم الذي تحقق في بدر، وهو الـذي لـو بُنِـي علـى المقـاييس المعروفـة في الحروب ما كان لينجر عنه تلك النتائج، فعدد المجاهـدين فـي جـيش المسـلمين كـان ثلث عدد أعدائهم، والأسلحة التي كانت لـديهم أفضـل مـن أسـلحة الجـيش الإسـلامي، والكفاية في القتال كانت بـين جـيش المسـلمين الـذين خرجـوا للاسـتيلاء علـى قافلـة تجارية، فلم يكونوا من خيرة المقاتلين بأسا وقدرة علـى النـزال، وبـين المقـاتلين الـذين خرجوا من مكة قصد الانتقام مـن المسـلمين، وهـم صـناديد المقـاتلين الـذين تمرسـوا بالحرب، والذين ترعب أسماؤهم من يبـارزهم. إن هـذا الواقـع الـذي قـد يُغفَـل عنـه فتغيب الصورة الحقيقية والأسباب التي تـم بهـا النصـر المبـين، أراد القـرآن أن يثبتـه ليبني عليه تعمير قلوب المؤمنين بأن الله معهـم يسـعدهم بـالظروف التـي يكـون بهـا النصر، على نقيض الظروف التي يجعلها مسببة لانهزام أعدائهم.

[1] الآية 66 و 67

17-18: فلم تقتلوهم...موهن كيد الكافرين.

إن هذا السر هو ما يشير إليه قوله تعالى : **فلم تقتلـوهم ولكــن الله قــتلهم**، فَكَشْــفُ هــذا السر يعطي للمؤمنين طاقة قتالية فيمــا سيخوضــونه مــن المعــارك، إذ يحقــق الله لهــم صراحة أن فوزهم في معركة بدر ليســت بقــتلهم للمشــركين والنكايــة فــيهم بأســلحتهم، ولكن تم ذلك بتأييد من الله لهــم، وســلب العــون عــن أعــدائهم. فهــو ســبحانه يســدد الرمية، ويذهل المشرك عما يصوَّب إليه ليقتله، فيكــون معرضــا لنفــاذ الســلاح المتجــه نحوه. فهذا ما أفهمــه مــن قولــه تعــالى: **فلــم تقتلــوهم ولكــن الله قــتلهم**. ليطمــئن المؤمنون فيما يستقبلهم من المعارك أنهم إذا أخلصــوا لله وســاروا إلــى ســاحات الــوغى بقلوب مطمئنة إلى النصر كما وقــع فــي غــزو بــدر، فــإن الله ســيوالي علــيهم تأييــده ويمكنهم من الظفر بأعدائهم، وبالتالي نشر ديــن الله فــي العــالمين بتمكــين البشــر مــن التعرف على مزاياه، وتمكينهم من حريتهم في اختيار الدين الذي يطمئنون إليه.

إن التأييد الحاصل للمجاهدين على حسب مــا بينــاه صــاحبه تأييــد آخــر هــو، معجــزة لرسوله : ذلك أن جبريل عليه السلام قال لرســول الله: خــذ بيــدك الشــريفة قُبْضَــة مــن تراب وارمهم بها، فأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بهــا المشــركين ثــم قــال : (شــاهت الوجوه) ثم نفحهم بها. ثم أمر أصحابه فقال لهــم : شــدوا فكانــت الهزيمــة. ومــا بقــي واحد من الأعداء إلا أصابه من تلــك القبضــة شــيء فــي عينيــه. فوصــول الحصــباء لعيونهم ما كانت لتحصل بمجرد رمي الرسول لهــا حســب العــادة والمــألوف، فالرميــة التي أصابت العيون ما كانــت برمــي النبــي ﷺ الــذي تــولى ظــاهرا الرمــي، ولكــن النتيجة كانت بتصويب الله بمعجزة منه لنبيه وعــون لــه. فخاطبــه بقولــه: ومــا رميــت رميا يصل إلى عيون المشركين ولكن الله هو الــذي صــوب ذلــك وحقــق أثــره. وفــي هذا ما يقوّي إرادة المؤمنين على مر الأزمــان بــأن الله معهــم يؤيــدهم ويســدد تــدبيرهم وفعلهم. وليس ذلك تواكلا ؛ فإن الألطاف التي حفت بالمجاهــدين فــي بــدر قــد صــحبها ثقتهم في النصر، وإقدامهم على القتال برباطة جــأش، واختيــار للمواقــع التــي تســاعدهم ويجدون فيها ما يمكنهم من الغلبة. فهم قد عملوا كــل مــا هــو فــي مقــدورهم، وتوكلــوا على الله بعد ذلك.

ثم صرح القرآن بعناية أخرى بسبب مــا تــم فــي بــدر. وهــو أنــه ســبحانه أظفــرهم بأعدائهم الذين أنزل الرعب في قلــوبهم، فانكســروا انكســارا فظيعــا، ليكــون ذلــك دالا على أنه لما كلفهم بالقتــال فهــو تكليــف ممحِّــض للخيــر مــن أولــه. والــبلاء يكــون بالخير والشر. وهو هنا بلاء بالخير إذ ربطــه بوصــفه بالحُسْــن((**حســنا**)).وذيــل الآيــة

بما يقوي مضمونها: إن الله سميع، سمع ابتهـالاتكم فاسـتجاب لكـم، وهـو علـيم بنيـاتكم التي كان اتجاهها لنصرة الدين وإعلاء كلمة الله وإذلال الكفر وأهله.

ذلكم جميع ما تقدم ذكره قد تحقق. وأن الله يثبط ويـوهن كيـد الكـافرين، فيجعـل كيـدهم وما قصدوه من إضرار المسلمين، منحلا لا يحقق غاية.

19-إن تستفتحوا فقد جاءكم...مع المؤمنين.

ويختم القرآن تسجيل ما أراد تسـجيله عـن بـدر، الغـزوة التـي كانـت بدايـة التحـول الحربي بين المسلمين والمشركين، بفذلكة توجـه فيهـا الخطـاب للمسـلمين والمشـركين، ليأخذ كل فريق ما يناسبه:

توجه للمؤمنين فهنأهم بالفتح الـذي سـألوه، إن تسـتفتحوا فقـد جـاءكم الفـتح وتحقـق النصر، وعلت كلمة الدين الذي تدافعون عنه.

وتوجه للمشركين بعد الهزيمة لبث اليأس في قلـوبهم مـن أخـذ الثـأر مـن المسـلمين، وأن الخير لهم هو أن يقلعوا عن الكيد للإسـلام. ثـم هـددهم بـأنهم إن عـادوا للحـرب والكيد والاستعداد للحرب، فسنة الله تظهر فـي المسـتقبل كمـا ظهـرت فـي بـدر مـن نصر دينه وإذلالكم وخسارتكم للحـرب، وإن كنـتم مصـممين علـى تجيـيش الجيـوش وتكثير عددكم وعقد الأحلاف للنصر. فإن جمـوعكم مهزومـة لا شـك مهمـا كثـرت لا تفيدكم، وذلك أن الله كتب على نفسه أن يكون مؤيدا للمـؤمنين خـاذلا لكـم. وهـي سـنته ولينصرن الله من ينصره.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا
تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٢١﴾ ۞ إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ
ٱلصُّمُّ ٱلۡبُكۡمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ
أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا
دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ
تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةٗ لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةٗۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ
شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ أَنتُمۡ قَلِيلٞ مُّسۡتَضۡعَفُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ تَخَافُونَ أَن
يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمۡ وَأَيَّدَكُم بِنَصۡرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ

بيان معاني الألفاظ:

الطاعة : امتثال بفعل الأمر والكفّ عما نهى عنه.

التولي : العصيان.

استجيبوا : أسرعوا بالإجابة بدون تأخير ولا تردد.

الفتنة : اضطراب الآراء.

اذكروا: فعل أمر من الذكر بضم الذال، بمعنى التذكر.

التخطف: الأخذ بسرعة بمعنى سرعة التغلب عليهم.

آواكم: حفظكم ورعاكم.

بيان المعنى الإجمالي :

يدعو القرآن المؤمنين إلى الإسراع بطاعة الله فيما يأمر به، وإلى طاعة رسوله، ويؤكد أمر الطاعة بالنهي عن البعد عما تقتضيه الدعوة، البعد الذي لا مبرر له مع سماعهم لنداء ربهم. ويقوي وجوب الطاعة حتى لا يكونوا كالقوم الخاسرين الذين يصرحون بأنهم سمعوا ما يبلغهم رسولهم ولكنهم لا ينتفعون بما يسمعون فهم لا يسمعون.

ويصور القرآن صورة بشعة، هي صورة الدابة الفاقدة للتفاعل مع المحيط الخارجي لا تبلغها الأصوات ولا صلة لها بغيرها، ولا تستجيب لأي مؤثر خارجي. وفي ذلك تقريب لصورة الكافرين الذين يسمعون الوحي فلا يصل إلى عقولهم، ولا ينطقون مسبحين لله بما يرونه من آياته وحكمته في الكون. علم الله أنهم مصممون على العناد فلذلك لم يسعفهم بألطافه، هم لعنادهم لو قرعت أسماعهم آيات الوحي فإنهم لا ينتفعون بها، ويعرضون عنها.

ينادي الله المؤمنين حاثا لهم على الإسراع للعمل بما جاءهم عن الله وإلى الاستجابة لما يدعوهم إليه رسول الله من الهدى، وإلى الإقبال عليه كلما ناداهم. إنكم تظفرون من الإسراع بالاستجابة إليه، بما يحيي عقولكم وأرواحكم ويفيض عليكم من بركته. وحثهم على الإسراع وعدم التباطؤ، لأن قلوب البشر بين يدي الله يصرفها كما يشاء، وستحشرون إليه.

حصنوا أنفسكم من الفتن التي إن اشتعلت تأتي على الصالح والطالح والظالم وغير الظالم. فقوموا بالأمر بالخير والنهي عن الفساد، فإن الله يعاقب عقابا لا مخلص منه وهو العقاب الشديد.

ثم أمرهم القرآن : كونوا متذكرين لمنن الله عليكم، فقد بدأ الإسلام بأعداد قليلة في وسط كثرة من المشركين ذوي بأس وفظاظة، كنتم تخافون أن يستأصلوكم، وذلك ليس عسيرا عليهم، فيسر لكم ملجأ في رحابة صدر رسول الله وفي الحبشة ثم في المدينة، ومكنكم من الانتصار عليهم فهزمتموهم في بدر على قلة عَدَدِكُم وعُدَدِكم،

وأفاض عليكم من الرزق الطيب في المدينة التي بارك سبحانه في أقواتها، وفي بدر بما غنمتم من أموال صناديد قريش.

بيان المعنى العام :

20-يا أيها الذين آمنوا...وأنتم تسمعون.

دعاء من الله للمؤمنين أن يعقدوا قلوبهم على طاعة الله ورسوله، وكان ماتقدم من أول السورة في قوله تعالى :(**وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين**)وفيما تلا ذلك من تسجيل لما في طاعة الله ورسوله، وإن كانت على عكس ما تراءى لهم من الصلاح كخروجكم لمواجهة الكافرين [**وإن فريقا من المؤمنين لكارهون**] هو الخير. كما حكم به الله في الأنفال، وكما في تحولهم من التعرض للقافلة إلى لقاء العدو في غزوة بدر. جمعا لكل ما سبق في السورة كرر القرآن أمره للمؤمنين بطاعة الله ورسوله. وهذه الطاعة يحتمها الإيمان ولذلك ناداهم به (**يا أيها الذين آمنوا**) ولتحقيق هذا الأمر الهام الذي هو مبنى الإيمان، صرح بالنهي عن الضد فقال تعالى : ولا تعرضوا عما يطلبه منكم وأنتم تسمعون دعاءه.

21- ولا تكونوا...وهم لا يسمعون.

إن مهمة الرسول ﷺ أن يبلغ ما أنزل إليه، والمقصود من تبليغه لوحي الله أن يؤثر في العقول والقلوب صلاحا، فإن استماع ما يقوله لا يحقق غايته إلا إذا نفذ إلى القلوب فهداها، وإلى الأرواح فزكاها، وإلى العقول فأنارها وأحكم مسارها وإدراكها. ونبههم ليحذروا وضع القوم الخاسرين الذين قالوا: سمعنا ما تقول، ولكن حاسة السمع لما نقلت التموجات إلى الدماغ وجدت أمامها سدا من العناد يرفض أن تتأثر بمضامينه العقول والقلوب. إنه لا خير في كلام يُسمع ورغم صدقه وهدايته لا يتأثر به السامع، فسمعهم كلا سمع.

22-23: إن شر الدواب...وهم معرضون.

ثم أبرز الصورة المشوهة لهؤلاء الذين يعرضون عن الاستفادة من الوحي، مقارنا لهم بشر الدواب، محققا شرهم بأنه ثابت عند الله الذي يعلم كل شيء أتم العلم. الدواب لها وظائف فطرها الله عليها، تؤدي دورها في الكون وتتفاعل مع غيرها، وكل دابة لها حسب الفطرة التي فطرت عليها، بتقدير من العزيز الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه، وظيفةٌ تقوم بها تستجيب للمؤثر الذي يرد عليها فتقوم بأداء ما فطرت عليه. ولكن بعض الدواب قد تفقد الإحساس بهذا الداعي فتفقد تبعا لذلك

دورها في الوجود، فتكون من أحط أنــواع الـدواب أقــرب مــا يكــون إلــى الجمــادات. وتشير الآية إلى أن الذين أبلغهم الرسول ﷺ ما أوحي بــه إليــه مــن الحكمــة والهــدى، فرفضوا التأمل فيه والاســتجابة لــه، بــأنهم كالــدواب الفاقــدين للإحســاس. ومعلــوم أن الكائنات تتفاضل في قيمتهــا، فأخســها الجمــاد الفاقــد للحيــاة، وفوقهــا النبــات الحسي المتحرك الفاقد للإحساس، وفوقهــا الحيوانــات الجامعــة بــين الحيــاة والإحســاس ولهــا نوع من الإلهام تتفاضل فيه بين أنواعهــا، وفوقهــا الإنســان الــذي يجمــع إلــى الحيــاة والإحساس العقل الذي ينظم بواسطة ما يرد عليــه مــن الحــس، مدخراتــه مــن المعرفــة بالتحليل والتنظيم والتوليد. فمن هــؤلاء مــن إذا طــرق ســمعه وأدرك بصــره آيــات الله من الوحي ومن شواهد الكون، عطل عقلــه عــن الانتفــاع بهــا. هــؤلاء لا فــرق بيــنهم وبين فاقدي السمع والبصر. وكذلك الذين يمرون على مشــاهد الإبــداع فــي الكــون فــلا تنطق ألسنتهم بما يعبر به العاقل عن ذلك الإحســاس، والــذين لا يــدعون إلــى معــروف ولا ينهون عن منكر، فــلا يــؤثرون فــي الحيــاة تــأثيرا برفــع الشــر أو يقــيم الخيــر والصلاح، صمٌ بكم ؛ إذ تعطلت ألسنتهم عن القيام بأخص مــا تميــز بــه الإنســان وهــو النطق بالخير. فهم والبكم سواء. وإذا تعطلت الحواس عــن التــأثير فــي تكــوين مــدارك الإنسان، لزم من ذلك أنهم فقدوا العقل فهم لا يعقلون.

23- ولو علم الله فيهم خيرا...وهم معرضون.

ثم انتقل القرآن لبيان تصميم المشركين على عدم الالتفــات لمــا يقــدم إلــيهم مــن هدايــة وبراهين ومواعظ،،فقال الله : ولو علم الله فــيهم قابليــة للاســتماع إلــى الحــق المنــزل، لأعانهم على ذلك ومنع عنهم الصوارف التي تحــول بيــنهم وبــين الانتفــاع بمــا يــبلغهم رسول الله ﷺ. بل إنه سبحانه لو أسمعهم الوحي وأصــاخوا إليــه واهتــزت نفوســهم لــه بعض الاهتزاز لحركوا ما ترسب في عقــولهم مــن الــرفض، فتولــوا معرضــين عنــه. ومن ذلك ما سجله القرآن علــيهم كقــولهم **(إن هــذا إلا ســحر يــؤثر)**[1] – وكقــولهم : **(قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هــذا إن هــذا إلا أســاطير الأولــين)**[2] بــل كــان بعضــهم يأنس لما في القرآن من بلاغة ويستمع إليه، ثم برفض هدايتــه. فهــم بــين معــرض عــن السماع ، وبين عازم على رفض ما يستمع إليه.

24- يا أيها الذين آمنوا استجيبوا...وأنه إليه تحشرون.

---

[1] سورة المدثر آية 24

[2] سورة الأنفال 31

ثم أعاد إيقاظ المؤمنين إلى أمر هـام مبينـا سـببه ومـا بنـي عليـه. فـدعاهم بوصـف الإيمان لأن الاستجابة من مقتضياته. إن الإيمان يقتضـي مـنكم أنـه إذا دعـاكم الله إلـى القيام بأمر من الأمـور أن تطيعـوه وتسـرعوا بـذلك، وكـذلك إذا دعـاكم الرسـول أن تسرعوا بإجابته سواء أكان دعـاؤه لكـم للإقبـال عليـه أو لتنفيـذ أمـر مـن الأمـور. فالاستجابة لله معناها الطاعـة، والاسـتجابة للرسـول تشـمل الطاعـة، والإقبـال عليـه، ذلك أن دعاء الرسول لهم يمكن الحيـاة فـيهم. والحيـاة يعبـر بهـا عـن التطـور فـي مراتب الكمال الديني والروحي والخلقـي. فتعـاليم الرسـول التـي يبثهـا فـي صـحابته تقوي دينهم، وتطهر أرواحهـم مـن الحيـرة، وتهـديهم إلـى أحسـن الأخـلاق وأكـرم الأفعال، وأن طاعته تضمن لهم الحيـاة السـعيدة يـوم القيامـة، قـال تعـالى **(وإن الـدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون)**[1] الحيوان الحيـاة الحقيقيـة التـي لا يلحقهـا فنـاء. فهذا هو المقصود بالإحياء بواسطة تعليمـه. كمـا أن الآيـة تفيـد أن علـيهم أن يسـرعوا إلى إجابته إذا هو ناداهم للإقبال عليـه. أخـرج البخـاري بسـنده إلـى أبـي سـعيد بـن المعلى قال: كنت أصلي في المسـجد فـدعاني رسـول الله ﷺ، فلـم أجبـه، فقلـت: يـا رسول الله. إني كنت أصلي. فقال: ألـم يقـل الله : اسـتجيبوا لله وللرسـول إذا دعـاكم [2] وذلك أن الاتصال المباشـر برسـول الله تصـحبه بركـة عظيمـة ظفـر بهـا الصـحابة رضوان الله عليهم، وأحسوا بفقـدانها بعـد انتقالـه إلـى الرفيـق الأعلـى. وقـد فصـل القاضي عياض من ذلك في الشفاء ما يتكون مـن مجمـوع مـا أثبتـه علـم يقينـي بـأن التأثير المباشر لرسول الله ﷺ في عقول وقلوب صحابته هو مـا يحقـق مـا جـاء فـي هذه الآية من الخير لمن يقبل عليه ويستجيب لندائـه[3] وقـال أبـو سـعيد :فيمـا أخرجـه البزار بسند جيد : **(وما نفضنا أيدينا من دفنه حتى أنكرنا قلوبنا)**[4].

ثم أيقظتهم الآية وهزتهم حتى لا يغفلوا عن مضـمونها، وذلـك بافتتاحهـا بقولـه تعـالى: **واعلموا.** فَأَمْرُهُمْ بالعلم يقصدمنه: انتبهوا وخذوا مـا يـأتيكم مأخـذ الجـد. ومضـمونها: أن الله يتصرف في الإنسان التصرف الكامـل، حتـى إن تحكـم الفـرد فـي تحقيـق أي أمر من الأمور، لا يـتم إلا إذا حـفَّ الإنسـانَ بألطافـه وعطـل المعوقـات، إذ أن إرادة الله تتحكم في جعل ثباته على الإنجاز متصـلا، أو تحـول بينـه وبـين ذلـك. ولا يظفـر

---

[1] سورة العنكبوت آية 64

[2] فتح الباري ج 9 ص224

[3] انظر ج1 من شرح ملا علي القاري على الشفاء ص177/166

[4] فتح الباري ج 9 ص215

الإنسان بالتوفيق وإنجاز ما يريده على الوصف الـذي يرضـي ربـه إلا بعـون مـن الله، هذا العون الذي سبيله سرعة الاسـتجابة بالطاعـة لله ولرسـوله. وبسـاوي العلـم بقـدرة الله على الحول بين المرء وقلبـه، الحقيقـة الأخـرى أن كـل فـرد سـينتهي إلـى ربـه ويحشر يوم القيامة عنـده. وكلاهمـا يتفقـان فـي أن المجـالين لله وحـده، وأن عليـه أن يسرع إلى الاستجابة.

25-واتقوا فتنة...أن الله شديد العقاب.

نبه المجتمع المسلم إلى مقاومـة الشـر بمجـرد ظهـوره. ذلـك أن المجتمـع إذا تراخـى أعضاؤه عن مقاومة الشر بمجـرد ظهـوره، أو لـم يعنـوا بسـيادة الفضـيلة، استشـرى الانحراف، وذلك مفض لا محالة إلـى اضـطراب العلاقـات الاجتماعيـة، وهـي الفتنـة التي تضطرب بها الأمور، ولا تقتصر على المفسـدين. إن الفـرد يتـأثر بـالمظهر العـام الذي عليه المجتمع، فإذا سادت الفضـيلة تيسـر لـه الخيـر وأمـن، واسـتحثه المظهـر العام على اتباعه والسير معه، وبـالعكس إذا ظهـرت الرذيلـة فسـواء، أشـارك فيهـا أو لم يشارك، فإنه يتأثر بها في سلوكه وفي أمنه. وأقل المراتـب أنـه يشـعر بـأن المحـيط يضاده، ويتنافر مع ما هو مقتنع به؛ وهي الغربة القاسية فـي الحيـاة. وفـوق هـذا، هـو أن ما توعد الله بـه المجتمعـات المنحلـة مـن عقابهـا بـالظواهر السـائدة فيهـا، يعـم المجتمع كله الفاسد والصالح. وهذا إذا جعلنـا قولـه تعـالى: (**لا تصـيبن الـذين ظلمـوا منكم خاصة**)، تابعا صفة للفتنة ولا نافية. ولو كان نسـج الآيـة لا تصـيب الـذين ظلمـوا منكم خاصة، لكان المعنى الذي حملنا عليـه الآيـة قريبـا واضـحا. ولكـن الآيـة وردت مؤكدة (**لا تصيبن**) والتأكيد مع النفي لم يقبلـه كثيـر مـن علمـاء اللغـة، ورأوا أن (**لا**) في الآية هي للنهي وأن الجملة ختمت عند قوله **واتقـوا فتنـة**. وتـأولوا الآيـة تـأويلات تخرج بالنص عن المنهج القرآني الواضـح لتسـتجيب للقواعـد التـي قعـدوها. ولا أرى في حملها على النفي مع التأكيد محذورا،

وبالغت الآية في التحذير من التراخـي فـي الاسـتجابة لـدعاء الله والرسـول، بـأن الله يعاقب العقاب الشديد، لأن عقـاب غيـره ترجـي معـه الشـفاعة، أو محاولـة الانفـلات منه، أما عقابه فلا يتمكن المعاقب من التفلت منه.

26- واذكروا إذ أنتم....لعلكم تشكرون.

جرى القرآن على نهجه في التربية والإصـلاح، فبعـد أن أمـرهم وحـذرهم، فسـح لهـم من الذكريات ما يشجعهم على المضي في طريقهم.

ذكرهم بوضعهم يوم كانوا في مكة، قليلٌ عـددُهم ،يـوم كـانوا أفـرادا معـدودين وسـط كثرة كاثرة من المشركين شرسين فـي مقـاومتكم يعـدونكم ضـعفاء ،لا وزن لكـم فـي مجتمعهم الجاهلي، وفي الأرض التي يحكمـون فيهـا بالاسـتبداد معتمـدين علـى قـوتهم المادية. آذوكم وآذوا النبـي ﷺ،وأنـتم مـأمورون بالصـبر علـى الأذى، وأنـتم خـائفون من أن يعزموا على استئصالكم فيظفـروا بكـم بسـرعة ويسـر، إذ كـان ميـزان القـوى بعيدا عن التكافؤ.

استحضروا هذا الوضع، واستحضـروا عنايتـه سـبحانه بكـم وحفظـه لكـم. جعلكـم محل رعايته وقربكم إلى مستقر الأمن، وحول ضـعفكم قـوة بتأييـد منـه، ورزقكـم مـن طيبات الرزق، فتمكنتم من الغنائم في بدر، وألان قلـوب الأنصـار لكـم، فشـاركوكم مـا عندهم من الخيرات التي بارك الله فيها. رجـاء أن تعمـر قلـوبكم بهـذه المـنن فتنطلـق بالشكر والاعتراف بفضل الله عليكم.

سجل الله هذا الوضع الذي تحول إليه المسـلمون، والـذي نمـا حتـى بلـغ بـه الإسـلام مشارق الأرض ومغاربها. وفي التذكير به مـا يبشـر المسلمين فـي جميـع الأعصـار بما ينتظرهم من تأييد وعز ونصـر، إذا هـم اسـتجابوا لله وللرسـول فـي الـدعاء لمـا يحييهم. وقد قامت شواهد التأييد متكررة مع الزمن كلمـا أسـرعوا للتمسـك بمـا آتـاهم الرسول ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٧ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الخيانة : نقض لما تم التعاقد عليه بدون إعلام.

الأمانة : ما يحفظه الإنسان عند غيره.

الفرقان: القوة التي يقتدر بها صاحبها على التفريق فلا يختلط عليه أي أمر.

بيان المعنى الإجمالي :

عناية الله بهذه الأمة شملت أوامر، في الالتـزام بهـا صـلاحها. وقـد تتـابع ذلـك فـي الآيات السابقة، كما شملت ما يتحتم عليهم أن يبتعدوا عنـه فنهـاهم عمـا يوجـب اختـلال

البناء النفسي والبناء الاجتماعي. فنهـاهم عـن الخيانـة بإضـمار الإنسـان مـا ينـاقض العهد الذي التزم به، ويدخل في هذا الباب جميـع المعاصـي باعتبـار أن المـؤمن عاهـد ربه على الالتزام بما علمه من شرعه. ونهاهم عن خيانـة مـا ائتمنـوا عليـه. وحـذرهم من مداخل الشيطان الذي يروِّضُهم على الخيانة بناء علـى مـا ركـز فـي الطبـاع مـن حب المال وحب الأولاد. وتذكروا أن الله عنده أجر عظـيم لا يقـاس بمـا تتعجلونـه مـن المال والأولاد. تحصَّنوا بالتقوى، فإنها تصـفي أرواحكـم وعقـولكم فـلا يخـتلط علـيكم الطيب بالخبيث، وبالتقوى يـتم تكفيـر سـيئاتكم، ومحـو ذنـوبكم. وفضـل الله عظـيم لا تحده حدوده.

بيان المعنى العام :

27-28: يا أيها الذين آمنوا...عنده أجر عظيم.

دعا الله المؤمنين بوصف الإيمان ليستحثهم علـى تطبيـق مـا سـيرد علـيهم بأنـه مـن مقتضيات الإيمان. وتضمنت الآية تحـذير المـؤمنين مـن الخيانـة بعـد أن بـين وشـدد عليهم في الاستجابة لله ولرسوله. فقـد ربـاهم القـرآن أولا علـى الاسـتقامة الظاهريـة، ثم ثنى بما يستتر في خفايا الـنفس فيهلـك صـاحبه. نهـاهم عـن الخيانـة، والخـائن لا يعلن خيانته، فيكون الطرف الآخر مطمئنا غير آخـذ حـذره منـه. ولـذا يكـون ضـرر الخيانة أشد. والخيانة في هذا تكون بين المتعـاملين، كمـا تكـون الخيانـة فيمـا ينـاقض ما أمر به الله، فيظهر الطاعة لما أمـر بـه، وهـو يـبطن الـنقض والتهـاون. وبمـا أن المؤمن تبعا لإيمانه يكون قد عاهد الله على اتّبـاع أوامـره واجتنـاب نواهيـه وأن يسـير في الكون سيرا ينتظم به أمر خلافة الإنسان فـي الأرض، فـإذا بيَّـت فـي نفسـه نقـض هذا الالتزام يكون قد خان العهد المعقود بينه وبـين ربـه. وممـا يزيـد الخيانـة فظاعـة، أن الخائن يخون وهو يعلم أنه خائن. ونصت الآيـة علـى خيانـة الأمانـة التـي يسـتثيق فيه المؤمن المتعامل معه، وضرر ذلـك يتعـدى العلاقـة بـين المتعـاملين، إلـى التـأثير السيء على الجماعة الإسلامية، ولذلك نسـب الخيانـة فـي الأمانـة إلـى نفـس الخـائن وغيره فقال : وتخونوا أماناتكم – إن الخيانة تفسـد الاقتصـاد وتكبّلـه، فيكـون ضـررها يسري إلى كل فرد من أفراد الأمة، الخائن أولا وبقية المجموعة ثانيا.

ثم أيقظت الآية المؤمنين إلـى الأسـباب الخفيـة التـي تتبعهـا الخيانـة. فمـن الـدوافع للخيانة حب المال وحب الأولاد والذرية، وكـل واحـد منهمـا يتخـذه الشـيطان مسـلكا للتأثير وفتنة الإنسان في دينه، فتتصادم داوعـي الخيـر والاسـتقامة مـع مغريـات حـب المال لنفسه وحب جمعها لذريته ؛ وهـذا التنـاقض هـو الفتنـة التـي لا يكـون معهـا

المؤمن مطمئنا، إذا لم يطرد دواعي الخيانة بمجرد مـــا تتحـــرك. ويقـــوي المـــؤمن علـــى التغلب على الافتتان، أن يتذكر دوما أن الله عنده أجر عظـــيم، يفـــوق مـــا يحصـــل عليـــه الخائن إن كف نفسه عن الخيانة. يظهر ذلك في بركة مالـــه وفـــي صـــلاح ذريتـــه وفـــي فوزه برضوان الله، وهو أكبر غنم يغنمه المؤمن.

29-يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا...الفضل العظيم.

أعاد القرآن الدعوة للمؤمنين بوصـــف الإيمـــان ليضـــيف إلـــى تحصـــنهم بتـــذكر: أن الله عنده أجر عظيم. تقرير تحصنهم بالتقوى، التقوى التـــي إن حلـــت فـــي القلـــب وتواصـــل إشعاعها فإن المتقي يصفو عقله وروحه صفاء يعصـــمه مـــن اخـــتلاط الأمـــور، فيتضـــح له الحق وضوحا تاما، ويتضح الشر وضوحا كـــاملا. ولا يخـــتلط عليـــه أحـــدهما بـــالآخر فيزل من الاشتباه. وأعظم بهذه المرتبة منزلـــة ورشـــدا فـــي الحيـــاة، بمـــا يشـــمل أمـــور الدنيا والآخرة.

وقرن الفرقان بمزية أخرى للتقوى تتمثل : فـــي أن الله بمحـــو ســـيئات المتقـــي، ويســـتر ذنوبه في الدنيا والآخرة، فلا يؤاخذه بها ولا يفضحه بعـــد أن ســـترها عليـــه. وفـــي ذلـــك حث على التقوى التي قـــرر ســـبحانه أن يكـــون جزاءهـــا مـــا لايُقْـــدَرُ قـــدْرُه، فـــالله ذو الفضل العظيم الشامل.

وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَـٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

المكر : التدبير الخفي لإيقاع الضر.

ليثبتوك : ليحبسوك.

أساطير : قصص.

يصدون: يمنعون.

بيان المعنى الإجمالي :

صمم المشركون على الكيد للنبي وللإسلام، فتشاوروا فيما بينهم لتبين أفضل طريقة تمكنهم من القضاء على الرسول. فقال بعضهم : نضيق عليه في سجن منفرد لا يخرج منه ولا يتصل بأحد إلا من خلال كوة نطعمه منها ونسقيه. وقال آخر بل ندعو له من كل بطن من بطون مكة شابا قويا جَلْدًا، فيضربونه معا ضربة رجل واحد فيضيع دمه بين البطون؛ فنؤدي لبني هاشم ديته ونستريح منه. وقال آخر نركبه جملا ونمنعه من العودة إلى مكة. والله حافظ نبيه فمكرهم ذهب هباء لا أثر له، وما قدره الله من عذابه لهم سيتحقق.

ومن قوة عنادهم وتضليلهم أنهم زعموا، عندما يتلو عليهم الرسول آيات القرآن، فقالوا: سمعنا ما قلته، ونقدر أن نقول مثل ما تتلوه. فما زِدْتَ عن كونك تقص علينا قصص الأمم الماضية. بل واصلوا إظهار صلفهم: أن دعوا الله أن يمطر عليهم حجارة من السماء تسحقهم، أو ينزل عليهم عذابا أليما إن كان ما يقوله محمد حق. وإذ لم يتحقق ما دعوا به فتصوروا أن ذلك دليل على أن القرآن ليس من عند الله. وقد قدر الله أن لا يعذبهم لأنك يا محمد فيهم، وإكرام الله لك حماهم من نزول العذاب. وإن كان عنادهم وشركهم ومقاومتهم للحق تجعلهم عرضة للعذاب، زيادة على ذلك ظلمهم الشنيع الذي سول لهم أن يمنعوا المؤمنين من المسجد الحرام في حال أنهم ليس لهم أي حق فيه، وإنما الحق هو للمتقين. ولكن أكثر المشركين جهلة لا علم عندهم.

بيان المعنى العام :

30- وإذ يمكر بك...خير الماكرين.

سجل القرآن منة عظيمة على رسوله ﷺ، وعلى المؤمنين تبعا له. ذلك أن قريشا أهمها أمر النبي ﷺ، وضاقت بدعوته، فكانت تعقد اجتماعاتها للنظر في أفضل طريقة تخلصهم منه ومن دعوته، التي أخذت في الانتشار، خاصة وأن من دخل في دينه لا يرتد عنه. فمن آرائهم الخبيثة التي تدارسوها في دار الندوة والتي سجلها العليم الذي لا تخفى عليه خافية قرآنا يتلى : رأي أبي البختري الذي اقترح: أوثقوه بالحبال وسدوا عليه جميع المنافذ، ولا تتركوا له إلا كوة صغيرة تلقون إليه منها طعامه وشرابه (**الحبس الانفرادي**). ورأي أبي جهل : انتدبوا من كل بطن من

بطون قريش فتى قويا، يضربونه ضربة رجل واحد فيتفــرق دمــه فــي جميــع البطــون، ويرضى قومه بنو هاشم بالدية. ورأي هشام بــن عمــرو أن يحمــل علــى بعيــر ويــتم إخراجه قسرا من مكة. كان هــذا تــدبيرهم للإضــرار برســول الله ﷺ. ويصــحب هــذا المكر إرادة الله الخفية عنهم، إرادته أن ينصر رســوله ويشــتت آراءهــم فــلا يســتقرون على قرار، وينجي رسوله إنجــاء يمكنــه مــن نشــر الإســلام نشــرا يستأصــل الشــرك ويخضع الكافرين. ولا مقارنة بين مكر الله ومكــرهم. فقــد خــذلهم الله وضــاع مكــرهم، وما رتبه الله العظيم القهار لهم أظهره، ونفذ فيهم.

31- وإذا تتلى عليهم آياتنا...إلا أساطير الأولين.

ينتقل القرآن لتسجيل شغب قريش ومحاولاتهم تضليل النــاس عــن الحــق، وتــوهين أمــر القرآن بادعائهم، تبعا لأحد بني عبد الدار الذي كان كثيــر الأســفار وقــد ســمع القصــص من الفرس والروم ومن نصارى الحيــرة، وروج أن القــرآن لــيس إلا قصصــا انتشــرت في الناس وهو يعلمها، وأنه يســتطيع أن يــأتي بمثــل مــا أتــى بــه محمــد ﷺ .وأيــده المشركون في دعواه.

لقد تحداهم القرآن أن يأتوا بسورة من مثله وعجزوا، ولــم يقــدموا شــيئا، فيكــون قــولهم هذا مردودا عليهم، فمــا مــنعهم أن يــردوا التحــدي؟ إن ادعــاءهم أن القــرآن قصــص الماضين هو تحريــف وكــذب، فــإن القصــص القرآنــي مــا كــان تلهيــة ولا تســجيلا للأحداث ولا تاريخا يسرد سردا، ولكنه لفــتٌ للأنظــار لســنن الله فــي الكــون، وإثــارة للعبر، وطريقة من طرقه في تعميق العقيدة، ودعوة النــاس إلــى الخيــر، وتصــحيح لمــا راج في خيالات الناس من أباطيل. فمنهج القــرآن فــي قصصــه يختلــف اختلافــا كليــا عن طريقة القصاصين الذين لا يهمهم إلا شــد انتبــاه الســامعين إلــى مــا يَرَوُونَــهُ مــن تخيلات لا أساس من الحق لكثير منها.

32-33: وإذ قالوا اللهم...وهم يستغفرون.

ثم سجل القرآن نوعا آخر مــن عنــادهم وأوهــامهم ومغالطــاتهم، ذلــك أنهــم أرادوا أن ينفوا كون القرآن من عند الله بطريقة سخيفة إذ قــالوا: يــا الله إن كــان هــذا القــرآن قــد أنزلته حقا وهو كلامك كما يدعي ذلك محمد، فــأمطر علينــا حجــارة واقــذفنا بهــا مــن السماء قذفا لا نستطيع له ردا، أو سلط علينا عــذابا شــديدا مؤلمــا. ومــن غبــائهم ظــنهم أن الله يتصرف حسبما يرغبون، فإن دعوا بــأن يمطــر علــيهم حجــارة أمطــرهم بهــا، وإن دعوا بالعذاب عجله لهم. إنهــم لا يــدركون، لغلــظ حواســهم وفســاد تصــورهم، أن الله يتصرف في الكون تصرفا تابعا لما سبق فــي علمــه حســب حكمتــه. ولــذلك تــولى

الرد عليهم بإظهار غفلتهم عما يمنع تسليط العقوبة عليهم أو تعجيلها. وذكرت الآية أمرين :

1) أن الله لم يقدر تسليط العذاب عليهم أو تعجيله، لأجل ما خص به النبي ﷺ من التكريم والتقدير، فلا يسلط العذاب على قوم يحل بين أظهرهم حبيبه ورسوله المصطفى. وقد كان ذلك جريا على سنة من سنن الله في إنزال العذاب على الأمم التي كذبت رسلها، إذ لم يتسلط عليهم العذاب إلا بعد إخراج رسوله من بينهم. ولننتبه إلى نسج الآية الذي يشير إلى مزية لسيدنا محمد ﷺ، إذ توجه نسج الآية بالخطاب المستحضر له المقرب له، وهو القريب من ربه دائما **((وأنت فيهم))** ولم يقل والرسول فيهم.

2) أن الله حماهم من إنزال عذابه لكونهم يستغفرون. وفهم الآية مشكل؛ حاول المفسرون محاولات عديدة بعضها أرشق من بعض، ولكن لم يبلغ أي تخريج في نظري مبلغ الوضوح الكامل. فالإشكال أن الله نسب لهم الاستغفار، والاستغفار : طلب المرء من الله أن يغفر له ذنبه بناء على أنه موقوف بين يديه يوم القيامة ؛ ومشركو مكة لا يؤمنون بالبعث، وبانتفاء الإيمان بالبعث ينتفي الاستغفار من أصله فضلا عن كونه مقبولا يرفع عنهم العذاب.

وأولى ما وجه به الإشكال أن الضمير **(وهم)** بعض المقيمين في مكة من المؤمنين الذين كانوا يستغفرون الله، فإكراما لهم لم ينزل الله العذاب الذي يستأصل. ويفهم الضمير من السياق، لأن الاستغفار لا يكون إلا من المؤمنين، فعاد الضمير على المؤمنين الذين لا يتوقع الاستغفار إلا منهم. ووَجَّه بعضهم معاد الضمير على ما سيتناسل منهم من المؤمنين المستغفرين، وفيه بعد. ولا أطيل بذكر كل التوجيهات.

34- وما لهم ألا يعذبهم...أكثرهم لا يعلمون.

ثم عقب ما من أجله لم يسرع العذاب إليهم، عقَّبه بأن الله لعظيم رحمته لم يستأصلهم، مع أن ما فعلوه يكونون به أحرياء أن ينزل عليهم عذابه. أخرج هذا المعنى على أسلوب الاستفهام الإنكاري: أي شيء ثبت لهم يتبعه نفي العذاب عنهم، أي لاشيء يحصنهم من العذاب. ثم شنع عليهم بالتشهير بسوء أعمالهم وظلمهم، التي من أقبحها، أن قريشا كانت تمنع من الطواف بالبيت وعبادة الله حوله من تريد منعه، مع أنه البيت الذي بناه إبراهيم عليه السلام ما بناه إلا ليكون خالصا لعبادة الله وحده.

إن توهمهم أن لهم حقا في تحديد مواصفات من يدخل المسجد الحرام ومن لا يدخله، هو وهْمٌ ظالم، فسكناهم حوله لا توجب لهم هذا الامتياز وإنما هو تعدٍّ بالظلم

على المؤمنين ؛ إن الذين لهم الحـق فـي أن يكونــوا ولاة للمســجد الحــرام والقــائمين عليه ومنع من يستحق أن يمنع، هم الــذين تشــبعت أرواحهــم بتقــوى الله فــلا يظلمــون ولا يتعدون على الحقوق، ولا يستولون بالباطل على مـا لا حـق لهـم فيـه، وفـي ذلـك تعريض بالمشركين الذين لم تحل التقوى قلوبهم. وزيـادة علـى ذلـك فـإن أكثـر الـذين يزعمون أن لهم ولاية على المسجد الحرام هم جهلة، ليس لهـم شـيء مـن العلـم.، إنمـا خص الحكم بالأكثرية لأن بعـض المقيمـين فـي مكـة كـانوا يعلمـون حرمـة البيـت وصلتها بإبراهيم عليه السلام.

وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً ۚ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ
تَكْفُرُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ
فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ
يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ
فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ قُل لِّلَّذِينَ
كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ
﴿٣٨﴾ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ
فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ ۚ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ
وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

المكاء : الصفير.

التصدية : التصفيق.

سبيل الله : الإسلام.

الحسرة: الندامة الشديدة.

الخبيث : الفاسد الرديء.

يركمه : يكثفه فيجعل بعضه فوق بعض.

المولى : المتولي أمر غيره يدفع عنه الأذى وينصره.

بيان المعنى الإجمالي :

كان مشركو مكة يشوشون على من يريـد الصـــلاة بالمســجد الحــرام، وذلـــك بالصـــفير والتصفيق، وهددهم القرآن بأن جزاءهم العذاب مع إظهار الشماتة بهم.

ومن مكر الكافرين بالإسلام أنهم كانوا يتوسعون في إنفـاق الأمــوال لتأليـب أكثــر عــدد ممكن على مقاومته ومنع الناس من الدخول فيه. ثـم أخبــر الله وهــو العلــيم الخبيــر أن مساعيَهم تلك لا تحقق لهم غايتهم؛ إنهم سينفقون أمــوالهم ثــم يجــدون الخيبـــة، فيــتملكهم الأسف على ما أنفقوا، ويغلبون في ساحة القتال. وفــوق ذلــك، النهايـــة التــي تنتظــرهم: أنهم سيحشرون إلى جهنم، فيقتــرن بحشــرهم تمــايز الفــريقين، فالــذين فســدوا وخبثــوا يلقى بعضهم فوق بعض في جهنم، وكفــى بهــذا المصـــير خســرانا وضـــياعا. وواضـــح أن جزاء الطيبين منازل التكريم والرضوان.

ثم أمر الله رسوله والمؤمنين أن يواصــلوا قتــال الكــافرين لخضــد شــوكتهم، فيعجــزوا بالتالي عن فتنة المؤمنين في دينهم، فيكــون الــدين عقيــدة وعبــادة وســلوكا لله وحــده. ولم نؤمر بالتنقيب عن قلــوبهم، فـــالله يتــولى ســـرائرهم إن كـــانوا صـــادقين أو كـــاذبين. وثقوا في عون الله لكم، فإن الكافرين إن تمادوا علـــى حـــربكم فـــإنكم منصـــورون علـــيهم بعون الله الذي يتولاكم، وهنيئا لمن تــولاه الله فـــلا ولايـــة أفضـــل وأكمـــل مـــن ولايتـــه، ولا نصر أعز من نصره

بيان المعنى العام :

35- وما كان صلاتهم...بما كنتم تكفرون.

شنع القرآن على مشركي مكة بتكذيبهم في قولهم : إنهــم أوليـــاء المســـجد الحـــرام، ذلـــك أنهم كانوا إذا رأوا النبي ﷺ وصحابته يصـــلون حـــول البيـــت شـــغبوا علـــيهم بالصـــفير والتصفيق ليلهوهم، فســـمى شـــغبهم صـــلاة. فـــدعواهم أنهــم أوليـــاء المســـجد الحـــرام يتناقض مع فعلهم وعملهم على التخليط على من يريــد أن يعبــد ربـــه. وبــذلك عرضـــوا نفسهم للعقاب الأليم يوم القيامـــة، مـــع إظهـــار الشـــماتة بهـــم وهـــم يعـــذبون بســـماعهم صوتا مفاده: ذوقوا العذاب جزاء استمراركم على الكفر.

36-37: إن الذين كفروا ينفقون...هم الخاسرون.

ثم فصل القرآن لونا مـــن عمـــل المشـــركين علـــى مقاومـــة الإســـلام. كـــان المشـــركون يبذلون الأموال للكيد للإســـلام بالإنفـــاق علـــى الجيـــوش بالعُـــدَد ومـــنحهم منحـــا ماليـــة، وترفيههم عند الحرب بتقديم اللحوم والخمـــور والقيـــان وآلات اللهـــو. يفعلـــون كـــل ذلـــك تصورا منهم أنهم بذلك يغلبون محمدا وجماعته. وفرق بـــين مـــن يحـــارب للترفـــه بأكـــل

اللحم واللهو، أو للجوائز المالية، وبين من يحارب لأجـل حريـــة البشــر فـــي معتقــداتهم، وتمكين الحق من الانتشار وكسر القيود المضروبة حوله.

هم يقصدون منع الناس من الدخول في الإسـلام. ويؤكـد الله سـبحانه أن مـا ينفقونـــه لا يحقق من مرادهم قليلا ولا كثيرا، سيشعرون بالحسـرة لخيبـــة آمـالهم وعـدم غنـاء مـا أنفقوه، وفوق هذا سينهزمون أمـام المــد الإسـلامي وقوتـه المنطلقـة الفاتحـة لـلأرواح والعقول. فيجمّعون بين الهزيمة والتحسر على ضـياع مـا أنفقـوه. والعاقبـة معلومـة أن الكافرين سيُجمعون، لا حول لهم ولا قوة يـوم القيامـة، فيسـاقون إلـى جهـنم. فيترتـب على ذلك تميز كل فريق، يجمـع الله الكـافرين، وعبـر عـنهم بالخبثـاء لكـون الخسـة وصفا غالبا عليهم، باعتبار أن الكفر يلتصـق بـه الفسـاد والخساسـة والقـذارة والحطـة في القيم والأخلاق. ويجمع الله المؤمنين تغشاهم أنـوار الكرامـة، وعبـر عـنهم بالطيـب لكون الإيمان يلزمه الترفع عن كل مـادي مسـتقذر وعـن الحطـة فـي الأخـلاق وعمـا يُؤَلَفُ منها، فتثبت في النفس ويقتنع بها الإنسان. وجعـل القـرآن جمـع الكـافرين شـبيها بما لا قيمة له، يطرح بعضه فوق بعض، فيطرحـون كمـا يطـرح الزبـل فـي جهـنم. إنهم بما يسلط عليهم من عذاب، ومعاملتهم بدفعهم إلـى جهـنم معاملـة الأشـياء التـي لا قيمة لها تتراكم، ينسحب عليهم وصف الخسران البين.

38- قل للذين كفروا...سنت الأولين.

بعد الوعيد الشديد والتهديد بالمهانـة، يتبـع القـرآن ذلـك بفـتح الأمـل فـي التـدارك، وإمكان النجاة بل الفوز. أمر الرسول أن يقـول لهـم مقالـة واضـحة محـددة مرغبـة : أن الله واسع المغفرة رحيم بعبـاده، فـإنهم إن يقلعـوا عـن محاربـة المسـلمين، وعـن العناد والتمسك بفاسد عقائدهم، فإن الله غفور رحـيم يمحـو عـنهم مـا سـبق أن التصـق بهم من آثام، وليحذروا من تبييت الخـداع للمسـلمين، وتأليـب الكفـار ضـد الإسـلام، فإن مآلهم سيكون نفس المآل الذي جرت بـه سـنة الله فـي الـذين يقفـون حربـا علـى الهدى: أن الله يخذلهم ويغلبون ويأسفون علـى مـا بـذلوه مـن مـال ومـا أعـدوه مـن مخططات خبيثة تنقلب علـيهم وبـالا. فقولـه تعـالى: **وإن يعـودوا فقـد مضـت سـنة الأولين)** معناه ؛ وإن يعودوا انتقمنا مـنهم، علـى الطريقـة والسـنة التـي تكـررت فـي الوجود، في إهلاك المعاندين المناوئين للحق.

39-40: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة...ونعم النصير.

أمر جازم لرسـول الله وللمـؤمنين بعـده أن يقـاتلوا الكـافرين الـذين يتـآمرون علـى المسلمين، ويعملون على الحيلولة بينهم وبين ما هم مطمئنـون إليـه مـن التوحيـد وبـاقي

أركان العقيدة وطريقة التعامل والسلوك. الدين كلــه شـــيء واحــد لا فــرق بــين العقيــدة وبين الأخلاق والبنــاء الاجتمــاعي وكــل مــا جــاء عــن الله. وأن لا يســالموهم إلا إذا ارتدع الكافرون وأقلعوا عن فتنة المسلمين. كونــوا أقويــاء معتــزين بمــا آتــاكم الله مــن الهداية وصلاح في الرأي والعقيدة ؛ فإن انتهــوا فرضــخوا وأســلموا فــلا تفتّشــوا عــن قلوبهم، فالله لا يخفى عليه شــيء مــن أعمــالهم القلبيــة أو الســلوكية. وإن تولــوا ولــم يستقيموا، فعوّلوا على سندكم الذي لا يهملكم أبــدا بعــد أن تــولاكم بهدايـــته ورعايتــه، الله مولاكم الممدوح بعزة من تولاه، والممدوح بأن من نصره لا يغلبه أحد.

۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ (41) إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (42) إِذۡ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلٗاۖ وَلَوۡ أَرَىٰكَهُمۡ كَثِيرٗا لَّفَشِلۡتُمۡ وَلَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ (43) وَإِذۡ يُرِيكُمُوهُمۡ إِذِ ٱلۡتَقَيۡتُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِكُمۡ قَلِيلٗا وَيُقَلِّلُكُمۡ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ (44)

بيان معاني الألفاظ:

أنزلنا : تعلقت قدرتنا بحصولكم عليه بأمر هو فوق العادة.

يوم الفرقان : اليوم الذي فرق الله بين الحق فاعزه، والباطل فأذله يوم السابع عشر من رمضان.

العدوة الدنيا : جانب الوادي القريب من المدينة.

الركب : قافلة التجارة بقيادة أبي سفيان.

أسفل منكم : تسير بساحل البحر المكان الذي هو أسفل من موقع المسلمين وكذلك المشركين.

ليهلك : الموت، والمقصود به الذلة وذهاب الشوكة.

ويحيى: الحياة ضد الموت، والمقصود منها النصر والعزة.

لفشلتم : لجبنتم.

تنازعتم : اختلفتم، ولكن وحد كلمتكم.

في الأمر : الخطة التي ينبغي أن تتبع.

بيان المعنى الإجمالي :

انتبهوا إلى هذا الحكم العادل الذي حكم به الله في الغنائم التي يحصل عليها المسلمون من أموال أعدائهم. فكل الغنائم قلَّت أو كثرت تقسم على خمسة. الأخماس الأربعة توزع على المجاهدين بالعدل. والخمس الباقي لله ولرسوله، يتصرف فيه رسول الله ﷺ، يصرف منه في نفقته ولمن يعوله، وكذلك الخلفاء من بعده، وفي مصالح المسلمين، وقرابة رسول الله ﷺ الذين لا يأخذون الصدقات ولا من زكاة أموال الناس، والأيتام الذين لم يترك لهم مورِّثهم سعة من المال، والمساكين والمسافرين المنقطعين عن مواطنهم. إن هذا التوزيع العادل هو ما حكم به الله، والالتزام به يوجبه الإيمان الذي غرس في قلوبكم، وما تقتضيه الآيات البينات التي شاهدتموها وترتب عليها نصركم في اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق فأعلاه وبين الباطل فأذله. اليوم الذي التقى فيه جمع المسلمين وجمع المشركين ببدر. والله القدير أيَّدكم ونصركم.

كانت ثلاثة مراكز متوازية :المسلمون بجانب الوادي من جهة المدينة المنورة، والمشركون في الجانب الآخر، وقافلة التجارة تسير مع الساحل. التقيتم في الزمن المحدد والمكان المحدد دون أن تضربوا لهذا اللقاء موعدا، جرى كل ذلك برعاية من الله ولو أعددتم لذلك اللقاء لما تم على النحو الذي تم عليه، التقيتم ليتحقق ما قدره الله من إذلال المشركين، وإعزاز المؤمنين ، مع تبين سبب النصر والهزيمة. وإن الله سميع عليم.

يوم الفرقان هذا تم بعد أن رأيت في المنام أن المشركين قليل، وأعلمت صحابتك فاستبشروا ووثقوا من هزيمة أعدائهم، لمَّا فهموا من الرؤيا الصادقة قلة عدد أعدائهم، فأخطأوا في التأويل، إذ تأويل الرؤيا ضعفهم واختلال أمرهم المهيء لهزيمتهم، وهذه الرؤيا لطف عظيم من الله، إذْ لو أراك الله إياهم على حقيقة عددهم لحل الخوف وتبعه الاختلاف من الإقدام على المعركة أو البحث عن مخرج منها. ولكن الله قدر لكم السلامة من نَقيصَتَيْ الخوف والاختلاف، إن الله يعلم ما تحويه الصدور ومناشئه. ثم أضاف الله لكم تأييدا آخر أن الصحابة قدروا جيش المشركين بعد أن رأوا رأي العين جمعهم، قدروه قليلا فتضاعف عزمهم على قهرهم. ورأى

المشركون جيش المسلمين فقدروه دون العدد الذي هو عليـه، فاسـتخفوا بــه ولــم يهيئــوا أنفسهم لمعركة شرسة، فكان هذا التخيل من الجانبين فيــه مــن الألطــاف التــي ســاعدت على تحقيق ما أراده الله من النصر.

بيان المعنى العام:

41-42: واعلموا أن ما غنمتم...لسميع عليم.

بدايةً تحرك المؤمنين ليستوعبوا ما يتلى علـيهم فـي هـذه المقطـع ومـا يتضـمنه مـن أحكام وتنظيم ليأخذوه مأخذ الجد ويلتزموا به. وهذه طريقـة قرآنيـة بهـا ينبـه المـؤمنين تنبيها موقظا، فافتتح بقوله: **(اعلموا)**

إن القضية التي عني بها القرآن في هذه الآية وفيما افتتحت به سورة الأنفال وما سيأتي في سورة المجادلة، هو بيان أحكام أموال الكفار التي يتحصل عليها المسلمون.

قسمت هذه الأموال إلى أقسام ثلاثة :

القسم الأول: حظ المجاهدين من الأموال التي ظفروا بهـا مـن أعـدائهم بعـد المعـارك، والانتصارات التي حققوها.

القسم الثاني: ما يعطى للمجاهدين بعد أن يستوفوا حقوقهم.

القسم الثالث: الأموال التي دخلت في ملـك الدولـة الإسـلامية بـدون حـرب ولا جهـاد وهو الفيء.

أما القسم الأول: وهو ما تحصل عليه الجـيش الإسـلامي بعـد انتصـاره علـى العـدو، وهو الغنيمة التي تناولت هـذه الآيـة تفصـيل أحكامهـا. فقسـمتها إلـى خمسـة أقسـام. الأخماس الأربعة توزع على المشاركين في القتـال علـى طريقـة تفضـل بـين الفـارس والراجل. وشدد القرآن على منع أي يـد أن تتـرخص بالاسـتيلاء علـى أي جـزء منـه ولو كان قليلا، وهو الغلول، الذي توعد عليـه، ونفـاه نفيـا قاطعـا عـن الرسـل. وقـد تكلمنا على ما يتعلق بذلك، في تفسير قولـه تعـالى : **وما كـان لنبـي أن يغـل ومـن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)**[1]

أما القسم الثاني: الخمس الباقي، فقد وزعته الآيـة بـين مسـتحقيه: لله -لرسـوله- لـذوي القربى -لليتامى -للمساكين -لابن السبيل -

أ)ما كان لله: كل ما أضيف لله إن لم يكن عبـادة فإنـه يصـرف فـي مصـالح المسـلمين الذين فـوض لرسـول الله ﷺ ثـم لخلفائـه التصـرف فيـه. وذلـك كتعبيـد الطـرق،

[1] سورة آل عمران161

والمصالح التي تُيَسِّر علـــى القـــائمين بـــالحج والعمـــرة أداء مناســـكهم، ومعاهـــد التعلـــيم، والعناية ببيوت الله، ونظافة البيئة، وتشجيع من يـــرى القـــائم بـــالأمر منفعـــة للأمـــة مـــن تشجيعه، كالعلماء والمتميزين مـــن المجاهـــدين، وذوي الكفـــاءة فـــي الاســـتخبارات التـــي تضيء لأولياء الأمور ما هو خاف عنهم......

ب) لرسوله: ويدخل في هذا المصرف مـــا ذكرنـــاه فـــي المصـــرف الســـابق، ومنـــه مـــا ينفقه رسول الله ﷺ على من يعوله. ورأى بعض الفقهاء أنـــه يســـتحقه مـــن بعـــده خلفـــاء رسول الله، الذين محضوا نشاطهم في الحياة لتصـــريف أمـــور الدولـــة وتـــدبيرها. وهـــم يستحقون رواتبهم من الخمس أو من بيت المال، لقيامهم على مصالح الأمة.

جـــ) **اليتامى والمساكين وابن السبيل**[1]. هم ممـــن يمكـــن لـــولي الأمـــر أن يعطـــيهم مـــن الخمس باجتهاده وبشرط الحاجة وإن لم تصل إلى حد الفقـــر. فالأيتـــام الـــذين تـــرك لهـــم آباؤهم وَفْرَ غِنى لا يأخذون شيئا من الخمس، والمســـاكين لـــولي الأمـــر أن يمكـــنهم مـــن مساعدات من الخمس. وابن السبيل كما تقدم بيانه فـــي ســـورة البقـــرة آيـــة 215- يمكـــن أيضا أن يعطى من الخمس.

فإذا ربطنا بين ما أفادته هذه الآية في أحكام الخُمُس الـــذي يتصـــرف فيـــه ولـــي الأمـــر، فربطناها بالآية الأولى : يسألونك عن الأنفال قـــل الأنفـــال لله والرســـول- فإنـــه يتـــرجح أن المقصود بالأنفال في الآية الأولى هو ما يعطيـــه ولـــي الأمـــر للمجاهـــد مـــن المغـــانم زائدا على حظه من المغنم رعاية لمصلحة تبينـــت لـــه. فالصـــحابة الـــذين طلبـــوا مـــن رسول الله ﷺ أن يمكنهم من شيء مـــن المغـــانم التـــي اســـتولوا عليهـــا مـــن مشـــركي مكة، يستقلون به قبل غيرهم، أرجعهم الله إلى عدلـــه، وهـــو أن تلكـــم المغـــانم أمرهـــا لله ولرسوله. وبين في هذه الآية الطريقـــة العادلـــة فـــي الاســـتحقاق. تقســـم الغنـــائم علـــى خمسة أنصباء ، توزع الأخماس الأربعـــة علـــى المجاهـــدين لكـــل نصـــيبه تبعـــا لكونـــه فارسا أو راجـــلا، والخمـــس البـــاقي يتصـــرف فيـــه رســـول الله، أو مـــن يتـــولى أمـــر المسلمين بعده، وجوز له أن ينفِّل منه مجاهدا لحســـن بلائـــه ومـــا نفـــع بـــه الأمـــة مـــن مغامرة وإقدام. فأزال ما علق بالنفوس إثر الاســـتيلاء علـــى أول غنيمـــة مـــن المشـــركين من حب الاستئثار بشيء منها، وبين لهـــم أن حقهـــم مضـــمون، وأن مـــا زاد عليـــه هـــو من السياسة التي يتصرف فيها قائد الأمة حسب المصلحة.

[1] سورة البقرة آية215

إن الطريقة التي اتبعت في بيان أحكام الغنائم بلغت من الحكمة حدا كبيرا. ذلك أنها نفذت إلى دخائل النفوس، وعملت على تحصين المؤمنين من وسوسة الشيطان الذي يحاول التأثير على الإنسان من ناحية عواطفه، فيضخم له حرمانه مما يحبه ليقوده بعد ذلك إلى تبرير مواقف وقرارات بعيدة عن الحكمة والتقوى. وشأن الإنسان مهما أوتي من نفاذ العقل وحدة البصيرة أن ينحرف عند ما يحكم لنفسه.

فلذلك شدد القرآن في الرضا بما ضبطه من أحكام، وربطها :

أولا : بالإيمان جاعلا قبول أحكامه المعيار الذي يقاس به صلاح روح الإنسان، هل استقر فيها الإيمان، أو تخلخل: إن كنتم آمنتم بالله، هذا الإيمان الذي يقتضي منكم أن لا تتبعوا ما لم تنالوه من المغانم وتسلموا لما حكم به رسول الله ﷺ بوحي من ربه : أن الخمس يتصرف فيه ﷺ بما يحقق مصالح الأمة فلا تتعلق أنفسكم بشيء منه.

ثم يعطف القرآن على الإيمان المستقر في العقول والقلوب، ظاهرة أخرى ضمَّت إلى العلم اليقيني، علما حصل بالمشاهدة فكان عين اليقين. هو ما شاهدوه عيانا في وقعة بدر من ظواهر التأييد والعون والرعاية لكم بقيادة هاديكم محمد ﷺ الذي اختصه القرآن في هذه الآية بكونه ،عبدنا المفضل على بقية العباد. ليستحضروا إنزال المطر الذي كان خيرا على المسلمين، شرا على أعدائهم، وما صرفكم به عن قافلة التجارة التي كنتم تودون نيل ما تحمله، إلى مواجهة الكفر المتمرد الطاغي المزهو بقوته، فكسرتم شوكته وقتلتم صناديده وغنمتم أموالهم. ولو قدَّرتم الأمر بالمقاييس المادية لكانت النتائج عكس ما حصل. ولذا حق أن يطلق على هذا اليوم يوم بدر اليوم السابع عشر من رمضان ، **(يوم الفرقان)** اليوم الذي فرق الله فيه بين الحق على ضعف أصحابه ماديا، وبين الباطل على قوة وعنف أصحابه وإدلالهم بعددهم وعدتهم وقوة أبدانهم ؛فكان يوما ينادي بأن النصر والعزة للحق، وأن الهزيمة والخذلان للباطل. وقدرة الله لا تغلب ويعجز البشر مهما جمعوا أن يعكسوا إرادته سبحانه. وفي هذا دفع كبير لمن هو على حق ليواصل الكفاح، ذلك أن الباطل له صولات تتكسر على صلابة الحق وتنقلب هباء تذروه الرياح.

يوم الفرقان السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة يوم يبقى يوما تاريخيا مذكورا على مر الدهور، وإذا كان اليوم يبقى متميزا براقا في ذاكرة المؤمنين الذين حضروا المعركة، وكذلك بالنسبة لمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، فإن موقع المعركة ومكانها، عني بذلك التنزيل ،فضبطها قرآنا يتلى؛ وحدد المواقع كأنها مشاهدة : جيش المسلمين قادم من المدينة وصل إلى بدر فنزل على مائها

وغوَّر المياه التي خلفها ليحـــرم المشـــركين مـــن المـــاء. وفـــي الجانـــب المنحـــدر علـــى ساحل البحر تمر القافلة التي كان هـــمُّ المســـلمين أن يقطعـــوا عليهـــا الطريـــق ويســـتولوا على ما تحمله. فهي ثلاثة مراكز في خـــط متـــواز : جـــيش المســـلمين ببـــدر ممـــا يلـــي المدينة، وأبو سفيان يستحث السير متخفيـــا ليفلـــت مـــن قبضـــة المســـلمين علـــى ســـاحل البحر، وأبو جهل والمقاتلون المشركون في الناحية المقابلـــة علـــى أتـــم اســـتعداد ليلقنـــوا المسلمين درسا لا ينسى، حتى يأمنوا بعدها علـــى أمـــوالهم التـــي تـــذرع الصـــحراء فـــي رحلتي التجارة (**رحلة الشتاء والصيف**) والتي كانـــت قبـــلُ آمنـــة تبعـــا لمـــا وقـــر فـــي نفوس العرب من تكريم قريش وعدم التعرض لأموالها.

ويدخل القرآن في المشهد ما يؤكد هذا اللقاء الذي تـــم تنفيـــذه بتقـــدير إلهـــي. إنـــه لأمـــر عجيب أن يتم هذا اللقاء، في المكان الـــذي أراده الله، فـــي الوقـــت المحـــدد بـــدون إعـــداد مسبق بين الفريقين. إنه لإعلان هذا التقـــدير تصـــرح الآيـــة: إنـــه لـــو اتفـــق المشـــركون والمسلمون على اللقاء في ذلك المكان وذلـــك الوقـــت لمـــا تحقـــق لقـــاؤهم بـــتلكم الدقـــة ، ولحصل بعـــض المعوقـــات التـــي مـــن شـــأنها أن تحصـــل حســـب مجريـــات العـــادة، واختلفوا في الثبات على الموعد المقدر المتفق عليه بينهم. ولكـــن الأمـــر تـــم علـــى ذلكـــم النحو، ليتحقق قدَرٌ سابق في الأزل، هو أمـــر لا يمكـــن أن يتخلـــف، فتمـــت كـــل مرحلـــة من مراحله بعناية من بيده الأمر، وأنجز ما كتبه في سابق تقديره.

كان تقديره سبحانه لغاية : هي قهر المشركين وإذلالهم وهزمهم على قوتهم وكسر خيلائهم، ونصر المسلمين وإعزازهم على ما هم عليه من قلة وضعف، وهم على ما هم عليه من حسن التوكل وعدم الزهو.

وتأكدوا أن الله لا تخفى عليه خافية ممـــا تتكلمـــون بـــه، لا يغيـــب عـــن ســـمعه صـــوت، ويعلم مقاصدكم وسر نواياكم، فكـــان ســـبحانه بـــذلك متصـــفا بالســـمع الكامـــل الـــذي لا يقاس به سمع، فإن الأسماع وإن استطاعت، فـــي أتـــم أحوالهـــا، أن تســـجل كـــل موجـــة صوتية، إلا أنها عاجزة عن التمييز بين الصادق والكـــاذب منهـــا، ولـــذلك قـــرن الســـميع بالعليم.

43-44: إذ يريكهم الله في منامك... وإلى الله ترجع الأمور.

يواصل القرآن عنايته وتدقيقه لما أيد به نبيه ﷺ،فســـجل الرؤيـــا التـــي أظهرهـــا لـــه فـــي منامه : أنه يلتقي بجيش المشركين وهـــم قلـــة، الأمـــر الـــذي طمأنـــه وطمـــأن المـــؤمنين معه، لمَّا قص عليهم رؤياه، ورؤيـــا الأنبيـــاء حـــق، أن المشـــركين لا يســـتطيعون لقلـــتهم أن يقفوا أمامهم في المعركة وأنهم سيسحقونهم لقلـــتهم. فـــزال مـــا كـــان يخـــالط نفوســـهم

من تهيب لنزال المشركين. ذلك أنهم فهموا من القلــة أنهــا قلــة عدديــة، فتحــوّل خــوفهم إلى تصميم وإرادة لخوض المعركة، واقتحموهــا بنفــوس موقنــة بالنصـــر، إن لــم أقــل مستسهلة، كأن الغلبة أمر محقق. وإظهــارا للعنايــة صــرح بمــا كــان يحصــل لــو أراه عددهم الحقيقي الذي يفوق عدد جيش المســلمين ثــلاث مــرات، زيــادة علــى مــا هــو مستقر في أذهانهم من جودة سلاح المشركين ومضائه تبعــا لثــرائهم، مــع مــرانهم علــى القتال وشدة بأسهم. إنهم لو علموا عددهم الحقيقي مع مــا ذكرنــا لتســرب الخــوف إلــى قلوبهم، وهو المقصود بالفشل، ولحصــل فــي صــفوف جــيش المســلمين اخــتلاف هــل يقدمون على القتال أو يرون رأيا آخــر يخــرجهم مــن الورطـــة. فبهــذه الرؤيــا قويــت عزائمهم وتوحدت كلمتهم. والرؤيا النبوية حــق، ولكــن تأويــل مــا رآه فــي المكاشــفة، على أنه الكثرة والقلة العددية، هو اللطف الذي صاحب هــذه الرؤيــا فحــوّل الرؤيــا مــن موجب للخوف والتردد، إلــى موجــب لتحريــك الإقــدام والتصــميم. واســتدرك تأكيــدا لإظهار العناية وإبرازا للمنة وما انبنت عليه، بــأن الله ســلمكم مــن الخــواطر والأوهــام وثبّتكم، والله عليم بما هو كامن في الصــدور مــن النوايــا والخــواطر، وبتأثيرهــا علــى القرارات وعلى القدرات القتالية.

ويواصل القرآن ما ثَبّتَ الله به المؤمنين في بــدر. ذلــك أنــه بعــد مــا أخبــرهم النبــي صلى الله عليه وسلم أنه رآهم في منامه عددا قليلا، وهو أمــر ســابق علــى بــدء القتــال، كان التثبيت المتواصل ما خيله في أعين الــرائين مــن الفــريقين. قَــدّرَ المســلمون عــدد أعدائهم، وهــم ينظــرون إلــيهم، قــدروا أنهــم فعــلا قليلــو العــدد، فهاجــت نفوســهم للانقضاض عليهم، إذ قد تهيأت الفرصة للتشفي مــنهم، بســبب مــا ســلطوه علــيهم قبــل الهجرة من تنكيل وتعذيب وصل بهم إلى إخراجهم مــن مــوطنهم مــرتين، إلــى الحبشــة ثم إلى المدينة. ويشد في عضدهم إيمانهم بــأنهم علــى حــق ينصــرون الإســلام. وفــي الجهة المقابلة خيل للمشركين أن عدد المسلمين أقل بكثيــر مــن الواقــع، فاســتخفوا بهــم وظنوا أنهــم فئــة قليلــة لا تســتحق حــزم الأمــر ولا كمــال الاســتعداد، وهــو رشــح غرورهم. فكان تأثير هذا الخطأ في تقدير العدد من الفــريقين قــد رتــب الله عنــه نتــائج متعاكسة، كان سببا في نصر المسلمين وانهزام عدوهم هزيمة منكرة.

وكون البصر يُخْدَعُ فترى العين ما يرتســم بــه فــي الــذهن قلــة، هــي علــى خــلاف الحقيقة، أمر ممكن إذا تصرف مالك العيــون (**الله ربهــا**) فيهــا تصــرفا يحقــق بــه مــا أراده. فما قضاه واقع ولا بد، وكل الأمور تعود إليه.

ومن لطائف الآية أن الله أسند الرؤيا المناميـــة للنبـــي ﷺ وهـــي حـــق، [**إذ يـــريكهم الله في منامك**] باعتبـــار أن المـــراد مـــن القلـــة الضـــعف عـــن المقاومـــة، وأســـند الرؤيـــة البصرية التي هي تخييل للناظرين مـــن المســـلمين والمشـــركين لعـــدد الفريـــق المقابـــل [**إذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلا ويقللكم في أعينهم**] وهي تخييل لا واقع.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرٗا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ﴿٤٧﴾ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤٨﴾ إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

فئة: جماعة.

الثبات: المواصلة وعدم التردد.

تفلحون :تظفرون بما قصدتم إليه.

الريح : القوة والنصر.

واصبروا: تحملوا ما يشق عليكم.

البطر : غمط النعمة والاشتغال بالمرح عن شكرها.

رئاء : رياء ومباهاة.

جار لكم : أنتم في ذمتي وحمايتي.

نكص على عقبيه : رجع من حيث أتى.

مرض القلوب : ضعف العقيدة.

بيان المعنى الإجمالي :

من عناية الله بالمؤمنين هـذه النصـيحة المسـاعدة علـى النصـر فـي الحـروب، وقـد تضمنت : 1) الأمر بالثبات وعدم التردد عند لقـاء العـدو 2) ليصـحب ألسـنتكم ذكـر الله 3) لتكن طاعة الله ورسـوله حليفـة قلـوبكم وأعمـالكم 4) لـتكن الرابطـة الجامعـة بينكم أكيدة لا يدخلها الاختلاف والنـزاع؛ فالتصـميم علـى الاخـتلاف يـوهنكم ويخـذلكم ويذهب قوتكم 5) تحلوا بالصبر على مـا يلاقـيكم مـن الشـدائد ولا تجزعـوا، فـإن الله يؤيد الصابرين 6) إيـاكم أن تكونـوا كالمشـركين الـذين خرجـوا مزهـوين بقـوتهم لا يذكرون نعمة الله عليهم، تهمهم المظـاهر ولفـت الأنظـار ولا يحملهـم علـى القتـال إلا منع الناس من اتّباع طريق الهـدى والحـق، والله لا يخفـى عليـه قليـل ولا كثيـر مـن نياتهم وأعمالهم فسينتقم منهم بالهزيمة في الدنيا والعذاب في الآخرة.

ثم ذكرهم بنعمة من نعمـه علـى رسـوله وعلـى المـؤمنين، ذلـك أن سـراقة الكنـاني وسوس له الشيطان أن ينضم بجيش من كنانة للمشـركين، فجـرأهم ذلـك علـى المضـي للقتال، ثم إن الله ألقى في قلب سراقة الرعب لمّا أحيا فـي نفسـه صـورته يـوم ابتلعـت الأرض قوائم فرسه وأيقن بـالهلاك، ثـم نجـا بفضـل دعـاء الرسـول، وتـولى تثبـيط قريش عن ملاحقة الرسول في الطريق التي سـلكها. كـان تـذكره للرعـب الـذي ألقـي في قلبه حاملا له على انخزاله من جـيش المشـركين وتخـويفهم بـأن الله شـديد عقابـه. فكان ذلك مقدمة وسببا من أسباب النصر في بدر.

ثقوا في عناية الله بكم، ولا يهمكم ما يقولـه المنـافقون والـذين لـم يثبـت الإيمـان فـي قلوبهم وما يعرضون به لتوهينكم: أن هـذا الـدين غـركم وسيصـل بكـم إلـى الهـلاك. إنكم قد توكلتم على الله، ومن يحسن التوكـل عليـه لا يهـزم، فـإن الله عزيـز لا يغلبـه شيء حكيم في أفعاله لا يخذلكم وأنتم حملة الحق.

بيان المعنى العام :

45-46: يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم...مع الصابرين.

من عناية الله بالمؤمنين دعوته لهم بتطبيـق مـا يقدمـه لهـم مـن نصـح، هـو قـانون النجاح عند لقاء العدو، وما يدعوهم إليـه هـو مـن مقتضـيات الإيمـان. وتضـمن هـذا النصح الأسس التالية.

أولا : إذا جد الأمر واندلعت المعركة ولقيتم جمعـا مـن أعـدائكم وجهـا لوجـه، فلـتكن عزائمكم قوية ماضية لا يوهنها تردد ولا خـوف، واصـلوا القتـال حتـى النصـر، فمـن

قوة العزيمة يستمد العقل ما يهديه لمــواطن الضــعف التــي يجهــز منهــا علــى العــدو، ومن العزيمة تشتد السواعد والعضلات على النزال.

ثانيا: كونوا دوما ذاكرين لربكم، الذكر الــذي يجعلكــم تحســون إحساســا أوضــح وأتــم بصلتكم بالله الذي وعدكم النصــر، فتشــعرون بالســند المصــاحب الــذي لا يهملكــم ولا يغفل عنكم. وهذا ما يعطي للمقاتل قوة وطمأنينة وطــردا لأطيــاف الخــوف فــي الشــدة. وليكن هذا الذكر موصولا متتابعا لا منقطعا.

بذلك يرجى لكم النصر، وتحقيق مــا ترغبــون فيــه مــن إعــلاء كلمــة الله، والاعتــزاز بالغلبة وقهر العدو المارد.

ثالثا: طاعة الله ورسوله، فإذا استقر في القلــوب الميــل إلــى طاعــة الله فيمــا أمــر بــه وهدى إليه، وأبانه من مسالك النجاة والقوة، وطاعــة رســوله فيمــا بيَّنــه وشــرحه ممــا أوحى الله له به، فإن الطاعة إذا سادت واستقرت تبعها العون والتأييد.

رابعا: لتكن كلمتكم واحدة، ومن طبع البشر أنهم مختلفــون، وهــذا الاخــتلاف قــد يكــون سببا يقوي المجتمع، وقد يكــون ســببا يهــري الجماعــة ويوهنهــا. إن الاخــتلاف الــذي يفسح لكل فرد أن يقدم رأيه النقي من الهوى كمــا يقتضــيه الأســاس الثالــث أعــلاه، وأن يسمع رأي غيره، وأن تكون الشورى التي تنتهــي بقبــول رأي الأكثريــة، والتنــازل عــن الرأي الشخصي لما رضيته الجماعة، هو اختلاف يبدي الجوانــب التــي قــد يكــون مــن اختفائها ما يؤثر ســلبا فــي القــرارات، وبالتــالي يعطــي الاخــتلاف قــوة فــي النظــر وسلامة في العاقبة. وأمــا الاخــتلاف الــذي لا يــذهب بســلبياته التشــاور، فإنــه يكــون مولدا لتعصب كل لرأيه، وهــو مشــرع للتنــازع ولابتعــاد كــل مخــالف عــن مخالفــه، وبالتالي تتمزق الوحدة التي هي العصب الذي يجــري فيــه دمــاء القــوة. يحــذر القــرآن من داء التنازع، سبيل الهزيمــة ووهــن القــوة، وضــياع الغلبــة، وفقــدان الأمــل فــي النصر. وهو معنى ذهاب الريح.

خامسا: الصبر الإيجابي الذي يبعث فــي الصــابرين حــوافز التغلــب علــى المعوقــات، ومقاومة الصعاب، والمواصلة للكفاح. إن مــن شــأن الحيــاة أن يبتلــى فيهــا الصــالحون كما يبتلى المجرمون، هذا الابتلاء هــو امتحــان يفــوز فيــه الصــابرون الــذين يرجــون رحمة ربهم. إذ بناؤهم النفسي متــين لا يتزعــزع بالصــدمات، اعتمــادا مــنهم علــى أن الله معهم يحميهم ويشد أزرهم.

47- ولا تكونوا كالذين...يعملون محيط.

سادسا : الوصية السادسة حذرهم من صورة شـنيعة هـي عكـس مـا هـم عليـه. هـي صورة المشركين الذين هزموهم وانتصـروا علـيهم فـي بـدر. صـورة الـذين يُـدِلُّون بقوتهم ويستهينون بأعدائهم، لا يعترفون بنعمـة الله. يسـوقهم الهـوى، ويتعلقـون بـالفخر والمباهاة ولفـت الأنظـار. إن الاسـتكبار والانحـراف عـن الجـد إلـى اللهـو، وعـن التواضع إلى الانتفاخ بالافتخار، هو إعلان عن قطـع الصـلة بـالله، يتبعـه قطعـا منـع الناس من الطريق المؤدي إلى طاعة الله والسـعي لمرضـاته. فمضـمون هـذه الوصـية أن على المؤمنين أن يكونوا شاعرين بارتباطهم بـربهم وأن مـا جمعـوه مـن قـوة ومـن تآخ ومن موجبات النصر هي من فضل الله.

وختمت الآية بتهديد المشركين الذين هم على الصورة التي وضحت ملامحها، هددوا بأن الله يرقب كل كبيرة وصغيرة مما انطوت عليه قلوبهم وما يصدر عنهم من سيء الأعمال، فهم في سياج محكم التطويق سيجازيهم الله عن كل ما صدر عنهم.

48-وإذ زين لهم الشيطان...شديد العقاب.

واذكر من عجيب صنع الله، ما حدث للمشـركين عنـد تصـميمهم الخـروج إلـى بـدر. كان من إحكامهم لأمرهم أنهم تهيبوا أن تنقضَّ علـيهم قبيلـة كنانـة عنـدما يكونـون فـي مواجهة المسلمين. وبينما هم على هذه الحال في تقليـب الأمـور، إذ جـاءهم سـراقة بـن جعثم الكناني يقدم جيشا من قومه، وسوس إليـه الشـيطان أن يؤيـد قريشـا فـي حربهـا، وأقنعه بأنه سيظفر من هذه الحـرب بالغنـائم والنصـر، فشـد مـن عزيمـة المشـركين واطمأنوا إلى أن كنانة ستكون شـريكا لهـم فـي حـرب المسـلمين ولا تـنقضَّ علـيهم، وأن المسلمين أضعف من أن ينتصروا أو يغلبوا..

سار معهم بجيشه فلما وصل إلـى بـدر، ورأى كـل جـيش عـدوه المقابـل لـه، رجـع بجيشه، ولما أنكروا عليه توليه، أجابهم :أخالفكم في الـرأي، إنـي أخـاف أن تحـل بـي كارثة لا مرد لها من الله ، وعقاب الله شديد لا يقاوم.

وهذا الموقف من سـراقة ذهـب فيـه المفسـرون إلـى تـأويلات بعيـدة مسـتندة إلـى روايات غير موثقة، والذي أرجحه هو ما يأتي :

سراقة بن مالك بن جعشم الكناني المدلجي صحابي أسلم عـام الفـتح. ولـه مـع رسـول الله وهو كافر موقفان تم فيهما التحول بألطـاف إلهيـة عجيبـة مـن الإضـرار برسـول الله إلى تأييده من حيث لا يعلم.

الموقف الأول: رسول الله وصاحبه أبو بكر في طريـق هجرتهمـا إلـى المدينـة، لحـق بهما سراقة. ولما رآهما صمم على تعريـف قـريش بمكانهمـا، وسـاخت أرجـل فرسـه

في الأرض، وأيقن بـالهلاك، فـأعطى لرسـول الله ﷺ عهـدا أن يعمّـي عليـه قريشـا، ويخبرهم بأنه كفاهم البحث في الطريق الذي رجع منه وأنـه لا أثـر لمحمـد فيـه، ودعـا له رسول الله ﷺ ووفّى سراقة بالعهد.

الموقف الثاني :في غزوة بدر، وقد أقبل يقود جيشـا لينصـر قريشـا وقـال لهـم: إنهـم في جواره فلا يخشون بأسا من كنانة، وسوس إليه الشـيطان ذلـك وحسـنه فـي نظـره، وصور له أنه نصر محقق، ليقضي الله أمرا كان مفعـولا. فيكـون مفـاد قولـه تعـالى : **وإذ زين لهم الشيطان...** تعبير عن الوسوسة التـي ألقاهـا الشـيطان فـي قلـب سـراقة. فكان قدومه حافزا لقريش على الخـروج وعصـيان أبـي سـفيان فـي نصـحه لقومـه بعدم الإقدام على حرب محمد، لما بعث إليهم بـأن القافلـة نجـت بكـل مـا تحملـه مـن أموال، بسلوكه بها الطريق المحاذيـة للبحـر، وأن لا فائـدة فـي الحـرب. فكـان قـدوم سراقة عليهم مشجعا لهم على المضي إلى بدر. ثم إنه لمـا بلـغ معهـم مـاء بـدر تـيقظ وذكر ما جرى لـه فـي طريـق الهجـرة؛ وتمثلـت لـه حالتـه وقـد انفتحـت الأرض لابتلاعه، ونجاته بدعاء الرسول له، فرجـع عـن الغـزو متقهقـرا إلـى الموضـع الـذي انطلق منه. وقال لهم: إن رأيي غيـر رأيكـم فـي حـرب محمـد، إنـي أخـاف الله، إن عقاب الله شديد فوق طاقة البشر.

إن ما جرى لسراقة كان في أوله شحذا لعزيمة قريش في الحرب، وانتهى إلى خذلان لهم، كما هو الأمر لما لحق سراقة بالنبي ﷺ في طريق هجرته حدثا ينكشف به الرسول وصاحبه، وانتهى إلى تحوله معينا ومساعدا دافعا لقريش عن اقتفاء أثره.

49-إذ يقول المنافقون...عزيز حكيم.

ثبت الله المؤمنين بما ذكرهم من منته التي تضافرت مـع بقيـة الألطـاف فكـان النصـر المبين في بدر، ومنهـا مـا لـم يطلعـوا عليـه إلا بإخبـار الله إيـاهم، كتـولي سـراقة وخذلانه لقريش قبيل بداية المعركة. وعطف علـى ذلـك أمـرا آخـر كـان يجـري فـي الخفاء في المجتمع المدني، من المنافقين ومن ضـعفاء الإيمـان ؛إن مـا كـانوا يتحـدثون به مما يطيش منه شيء إلـى أسـماع المـؤمنين، يقصـدون ممـا يهمسـون بـه تـوهين المؤمنين وتشكيكهم في الحق الذي تمكـن مـن قلـوبهم وأخلصـوا لـه إخلاصـا جعـل حياتهم وأرواحهم وتفكيرهم متعلقة به، يقـدمون فـي سـبيله كـل عزيـز. كـان همـس المنافقين والمتشككين أن هذه الجماعة التي حول محمد قـد غـرهم الإسـلام الـذي جـاء به، علي أنهم تعلقوا بأوهام سيكشف لهم الواقع عـن خيبـة آمـالهم. ورد القـرآن علـيهم بما يمكّن للطمأنينة في قلوب المؤمنين، وأنه ستكون لهـم الغلبـة ويتحقـق لهـم النصـر؛

ذلك أنهم توكلوا على ربهم. والمتوكل هو الذي يجمـع فـي باطنـه بـين قطبـين: قطـب الاستعداد حسب سنن الله في الكون، وحسـب القـوانين التـي أجـرى عليهـا مـا يُمكـن العامل من تحقيق ما سطره، وبين قطـب الاعتمـاد علـى الله اعتمـادا يمـلأ قلبـه قـوة وأمنا. بمعنى أنه يأمل أملا قويا فـي إزاحـة المعوقـات مـن طريقـه، وأنـه ستصـحبه الألطاف المساعدة ،ثم هو يمضي إلى غايتـه واثقـا غيـر متـردد. ومـا يقطـع بنجـاح المتوكل على الله : أن الله عزيز يطوع كل شـيء لإرادتـه وقدرتـه، وأنـه حكـيم فـي كل ما يصدر عنه، وإن خفيت الحكمة الإلهية علـى البشـر فـي بعـض الأحـوال، تبعـا لقصور العلم البشري، وبعده عن معرفة الغيب المستور.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۙ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٥٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّـٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٥١﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ ۙ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

يتوفى الذين كفروا : ينهي حياة الكافرين.

ذوقوا: أحسوا بألم عذاب الحرق.

قدمت أيديكم : بما فعلتم في حياتكم الأولى من الظلم والكيد للإسلام والكفر.

كدأب : كعادة.

يغير نعمة : يبدلها إلى نقمة.

بيان المعنى الإجمالي:

كل من تمكنه الرؤية، لو رفع عنه الحجاب، يرى مـا يسـلطه الله علـى الكـافرين عنـدما تفارق أرواحهم أجسادهم، تتلقاهم ملائكة العذاب بضـرب كـل جـزء مـن أبـدانهم مـن الأمام ومـن الخلـف، ويقولـون لهـم إهانـة وشـماتة بهـم: ذوقـوا عـذاب الحـرق، ويواجهونهم بأن ما سلط عليهم هو كفاء ما قدموه في حيـاتهم الـدنيا، وأنـه حكـم عـادل

لا شطط فيه لأن الله لا يظلم عبيده. إن شأن المشـركين هـو كشـأن آل فرعـون والـذين سبقوهم على الكفر والإعراض عن آيات الله، فأمكن الله منهم ولم يفلتهم من العذاب بما اقترفوه من آثام ؛ والله شديد العقاب.

إن الله رحيم بعباده يمكنهم من نعمه، ويبقيها عليهم حتى إذا قابلوها بالكفران وغيروا سلوكهم من الرشاد والشكر إلى الفساد والعصيان، غيَّر الله نعمه إلى نقمة وأمنهم إلى خوف. إن الله لا يخفى عليه شيء فهو يسمع خلجات الصدور وما يجري على الألسنة عليم بكل ما يبطنه الإنسان أو يصرح به.

جرى مشركو مكة على ما سار عليه آل فرعون والذين كفروا من قبلهم، وكذبوا بآيات الله الدالة على كماله وتفرده بالتصرف، فكان جزاؤهم الإهلاك بما أذنبوا، والعذاب الذي سلط على فرعون وقومه من إغراقهم ما يزال سائرا في ذاكرة البشرية. وذلك بسبب ظلمهم.

بيان المعنى العام :

50-51: ولو ترى إذ يتوفى...بظلام للعبيد.

هذا مشهد يعرضه القرآن على كل من يمكنه الرؤية من البشر، تنبيها إلى أنه لا تختص رؤيته بقوم دون غيرهم، فما هو هذا المشهد ؟ هو مشهد محجوب عن الأنظار في الدنيا، محقق وقوعه وتمكن رؤيته وإدراكه لو رفع الحجاب عن الأبصار فيما يوقعه الله بالكافرين من العذاب. يتضمن هذا المشهد أن الله يسلط على الكافرين عند موتهم عذابا يتمثل في أن الملائكة يلَقَونهم بصفع وجوههم ومقدم أجسامهم، كما يضربون قفاهم وظهورهم، فيكونون في وضع يلسعهم العذاب من جميع جهاتهم فلا يجدون رحمة إن هم تأخروا أو تقدموا. وهل هذا الجزاء خاص بمن قتلوا من المشركين في بدر، أو هو عام يشمل جميع الكفار في جميع الأزمنة؟ الراجح عندي هو الثاني وإن كان مصير مشركي بدر يدخل في النص دخولا أوليا. ويصحب الإذاية بالضرب الشماتة بهم وهم تحت هذا العذاب المقدم في الدنيا بمجرد ما تفارق أرواحهم أجسادهم : يقولون لهم :ذوقوا عذاب الحرق بالنار، فتفيد الآية أن الله يشوي الكافرين إثر موتهم بعذاب النار، ويقولون لهم نكالا بهم : إن ما سلط عليكم هو جزاء عادل لما قمتم به في حياتكم الدنيا، من الكفر والكيد للمسلمين، والظلم والاستبداد في علاقاتكم، وأن ما تعذَّبون به أوقعه عليكم الله الذي لا يظلم عبيده ولكنكم أنتم الظالمون. فأنواع العذاب المسلطة عليكم هي كفاء ما قدمتم.

52-53: كدأب آل فرعون...سميع عليم.

سار مشركو مكة على نفس السنن الذي سار عليــه آل فرعــون والمشــركون مــن الأمــم التي عمَّرت الأرض قبلهم، رفضوا الإيمان بالآيات التــي أقامهــا الله فــي كتــاب الكــون وفي الرسالات التي بلغها الرسل؛ اتخذوا موقفهم ذلــك عنــادا وجحــدا للحــق بعــد مــا تبين، فتراكمت ذنوبهم العقديــة والســلوكية، فــأهلكهم الله جــزاء مــا اقترفــوه، وعــاقبهم على ما ارتكبوه من آثام. استأصــلهم الله بعقابــه ؛ إنــه قــوي لا يخــرج عــن ســيطرته وتنفيذ إرادته شيء، وإن عقابه شديد لا ينجو من قدر أن يهلكه.

ثم كشف القرآن عن سنة من سننه في الخليقــة التــي يغفــل عنهــا النــاس. ذلــك أن الله يوالي نعمه على البشر وهم على صــلاح فــي العقيــدة والعمــل، ثــم يتراخــون لإلفهــم للنعم، ويغيرون سلوكهم، ويتهاونون بالمقومات التي بهــا تــم خفــض العــيش والرفاهيــة، فينغمسون في الرذيلة ويغيرون سلوكهم مــن الســلوك الملتــزم الطــاهر المــؤمن، إلــى سلوك منحل فاجر ،فيغير الله ما كان يسعفه به من نعــم إلــى نقــم وذلــة. إن الله مطلــع على كل ما يصدر عنهم مــن أقــوال، ومجازفــات، علــيم بــالظواهر والبــواطن، فــإذا تحولوا عن طريق الهدى وآثروا طريــق الضــلالة، فإنــه يســلب عــنهم نعمــه ويســلط عليهم نقمه، ويبدل عزهم ذلا وأمنهم خوفا.

54- كدأب آل فرعون...كانوا ظالمين.

ثم أبرز القرآن من جديد سننه التي أجراهــا علــى قــوم فرعــون وعلــى الأقــوام الــذين سبقوهم، واجتمعوا معهم على التكذيب بالآيات التي تنــبِّهُهُم إلــى خاتمــة أمــرهم، وتعلــن عن وعيدهم بسوء المصير إن هم واصلوا الكفر بما أقامه ربهــم الــذي بــين لهــم الحــق وكشف عن الباطل، أن سننه هي إبادتهم بسبب ما اقترفــوه مــن ذنــوب ؛ وصــرح بمــا أهلك به آل فرعون بإغراقهم، وآل فرعــون ومــن ســبقهم ســواء فــي ســوء المصــير، لأنهم متحدون في الظلم والفساد، ومن الظلم، الشــرك وتجــاوز حــدود الله فــي العلاقــات مع الكون وما يحويه.

إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٥﴾ ٱلَّذِينَ عَٰهَدتَّ مِنْهُمْ ثُمَّ
يَنقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٥٦﴾ فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي ٱلْحَرْبِ
فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ
إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الدواب : جمع دابة ما دب من الحيوان.

نقض العهد : إخلافه وعدم وفاء صاحبه بما التزم به.

تثقفنهم : تنتصر عليهم فتتمكن منهم.

فشرد بهم من خلفهم: فرق وبدد الجموع التي تأتي بعدهم.

خيانة : نقضا للعهد.

انبذ إليهم على سواء : اطرح إليهم عهدهم طرحا تستويان فيه.

بيان المعنى الإجمالي :

حشر القرآن فريقا من سفلة الناس مع الحيوانات الناطقة وغير الناطقة، ثم أعلن عن قيمتهم الوجودية، أنهم جمعوا الشر من أطرافه فلا يوجد حيوان استولى عليه الشر كما استولى عليهم. وهؤلاء هم الذين جمعوا أوصافا ثلاثة: الكفر – الإصرار عليه إلى الموت – نقض العهود بصفة تمكنت منهم فما عاهدوا عهدا إلا وهم يبيتون نقضه. وانتفى أن يخالط ضمائرهم شيء من الشهامة التي تجعل صاحبها لا يرضى لنفسه منازل الهوان. وإن كان الرسول ﷺ مأمورا بأن يعامل الناس بالحسنى، إلا أنه بالنسبة لهذا الفريق الخبيث الذي فسد وتكرر ظهور ذلك منه، فعليه أن يكون حازما معهم، وأن ينكل بهم النكال الذي يدفع من كان على شاكلتهم، ممن يأتي بعدهم، من الكيد للإسلام فيكون ما يوقعه بهم رئيس الدولة ذكرى رادعة لهم.

إن علاقة الأمة الإسلامية بمن حولها من الأمم لا بد أن تكون واضحة بينة، يتنبه رئيس الدولة إلى كل ثغرة متوقعة فيسدها بحزمه قبل انفتاح شرها. ومن هنا إذا كانت الدولة الإسلامية قد وثقت عهدا مع غيرها، فإذا أصبحت تلك العلاقة مسترابة يخشى من انتقاض أصحابها، فالحزم يجب أن يسود، وأن يوقف الجانب الآخر على ما هو ملتزم به، وأن يطرح إليه العهد الذي بينهم وبينه حتى يكون كل فريق لا يعيش على دَخَلٍ وريبة من نوايا الفريق الآخر. وهذا من تمام العدل والوضوح في العلاقات الدولية في الإسلام. فالله لا يحب الخائنين لعهودهم، وهو ما ينفي أن تكون الدولة الإسلامية ترضى أو تخطط تخطيطا فيه خيانة.

بيان المعنى العام :

55←57: إن شر الدواب...لعلهم يذكرون.

بعد عرض القرآن مآل فرعون وقومه بسبب تكذيبهم، صرح بقيمة المكذبين بالرسالة المحمدية المناوئين لها، فجمعهم في إطار واحد مع ما يدب على الأرض

من حيوانات عاقلة وغير عاقلة، وأخبر، وهو العليم بما خلـق، أنـه يتفـاوت حظهـا مـن الخير أو الشر. ولكن أسوأها وأفسدها، وأبعـدها عـن الخيـر، وأشـدها انغماسـا فـي الشر من جمع الصفات التالية:

1) الكفر بما أنزله الله من الهدى والبينـات، والـرفض لمـا يتلـى علـيهم مـن الكتـاب والحكمة، والإعراض عن شواهد الكون الداعية إلى التفكر والتأمل.

2) الإصرار على المضي فيما هم عليه من كفـر؛ تمكـن العنـاد مـن مشـاعرهم فهـم عازمون على عدم التحول عن كفرهم، ولو جاءتهم كل آية.

3) النقض لما عاهدوا عليه. فهم يضمرون الغـدر، يعطـونكم العهـود لتـأمنوا جـانبهم، ولتطمئنوا إليهم، وهم يبيتون لكم الشر بعون أعدائكم عليكم.

إنهم بهذه الأوصاف الثلاثة جديرون بأن يشهَّر بهم، وأن ينبه الله رسوله للموقف الذي عليه أن يواجههم به. إن شرهم عظيم، وتحديهم للوجود الإسلامي تحد خطير جدا.

إن الرسول وهو المكلف بتثبيـت أمـر الـدعوة، وتحصـينها وتحصـين المـؤمنين فـي الدولة التي بناها، ليدعو ذلـك إلـى اليقظـة التامـة، وأخـذ الأمـور بمـا يناسـبها مـن القرارات الحازمة، ولا يترك الأمر يستفحل إلى أن يحـل الخطـر. إنهـم فقـدوا التقـوى التي يتحلى بها من يحترم نفسـه ولا يرضـى لهـا منـازل الهـوان والحطـة، الـذين لا يرضون أن يتحدث عنهم الناس بالخيانة ونقض العهـود، وعـدم الوفـاء، ممـا هـو سـبة وعار حتى عند المشركين، فهؤلاء الـذين تكـرر مـنهم الإخـلاف والـنقض، هـم مـن السفلة الذين لم تحل التقوى قلوبهم.

إنه مأمور أن يقطـع رأس الخيانـة والعبـث بمجـرد مـا تظهـر أماراتهـا الأولـى ولا ينتظر حلول الخطر الفعلـي. فعليـه أن يكـون علـى حـذر مـنهم وأن يأخـذهم بالشـدة والنكال، لأنهم انطووا على الخبث والفساد. فإذا ظفـر بهـم فـي الحـرب فـلا يـرحمهم، ولا يروج عليه ما يقدمونه من معاذير. ويكـون مـا يوقعـه بهـم درسـا يتناقلـه النـاس، فيوقع المهابة والخوف في الذين يأتون من بعدهم أن يسلكوا مسلكهم.

58- وإما تخافن من قوم...لا يحب الخائنين.

وصورة أخرى من صور العلاقات الدولية، ينبـه فيهـا القـرآن النبـي ﷺ ومـن يـأتي بعده ممن يتولى أمر الجماعة الإسلامية، أنه إذا كـان بيـنهم وبـين غيـرهم عهـد بعـدم الاعتداء، فإن عليه أن يكون يقظا لما يجري عنـد المعاهـد، ولا يطمـئن لوفـاء المعاهـد لما وثقته المعاهدة. وهذا الحذر يتبعـه أنـه إذا مـا ظهـرت أمـارات الخيانـة، ونقـض العهـد، فالواجـب أن لا يتريـث حتـى يظهـر للوجـود مـا يـدبر، وعليـه أن يسـبق

الحوادث، ويعلن لخصمه المعاهد أنه يـرد عليـه عهـده، وأن كـل فريـق يسـير علـى منهج واضح، ولا يترك الأمر يفسد إلـى أن يباغـت المعاهـد المنطـوي علـى الخيانـة المهيئ لأسبابها الانقضاض على المسلمين في غفلة من أمرهم.

إن الله لا يحب الخائنين، فلا عليـك إن رددت علـيهم عهـدهم فهـم منبـوذون لا يحـبهم الله لأنهم خائنون، واتخاذك لهذا الحل يتناسب مع ما أفاضه عليك من حب وتكرمة.

وَلَا يَحْسِبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَبَقُوٓاْ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ ۞ وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦١﴾ وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

سبقوا: فاتوا بأنفسهم ونجوا بها.

لا يعجزون: لا يفلتون من طالبهم.

الإعداد : التهيئة.

ما استطعتم : كل ما هو داخل تحت قدرتكم.

قوة: الوضع الذي يكون به كمال النفاذ في تحقيق الهدف.

يوف إليكم : يؤديكم عوضه كاملا غير منقوص.

جنحوا : مالوا.

يخدعوك: يظهرون لك ما كانوا يخفونه من المكروه.

حسبك الله : الله يكفيك فيحميك من خديعتهم.

أيدك: قواك.

بيان المعنى الإجمالي :

كن واثقا يا محمد، أن الذين نقضوا العهـود وانفلتـوا مـن المؤاخـذة السـريعة، وظنـوا أنهم استطاعوا أن يسلموا من توابع نقضـهم، كـن واثقـا مـن أن الله سـيؤاخذهم ويسـلط

عليهم عقابه أينما كانوا، إن الله لا يقف أي مانع يمنعــه عــن تنفيــذ مــراده. فهــو القــدير التام القدرة. وعلى المؤمنين قادتهم وأوليــاء الأمــر فــيهم أن يحصسنوا الأمــة الإســلامية بالاستعداد للجهاد استعدادا ينشر الخوف في قلــوب أعدائــه بتطــوير الســلاح والقــدرات القتالية بصفة دائمة؛ هذه الرهبة التي تتعدى من كان مقامه قريبــا مــن الأمــة إلــى مــا وراءهم في الزمان والمكان، تبعــا لمــا يشــيع مــن القــوة الضــاربة للأمــة الإســلامية، فتلجم كل الأعداء من كان معروفا ومن كان غيــر معــروف. والله لا يغيــب عــن علمــه أمر. وحرَّضت الآية المؤمنين علــى الإنفــاق فــي ســبيل الله، وأن لا يشــحوا بــأموالهم لتحقيق القوة المخيفة للأعــداء، ووعــدهم أن ســماحتهم بــأموالهم فــي ســبيل الاســتعداد الحربي يوفي به الله أجورهم في الدنيا والآخرة.

وقررت الآية أن الاستعداد ليس القصد منه استئصــال الأعــداء، بــل إنــه إن بــدا مــنهم ما يدل على ركونهم للسلام وإقلاعهم عــن الحــرب، وتبــين أن الخيــر فــي مــوادعتهم، فلرئيس الدولــة أن يعقــد معهــم مــا يــؤمنهم ويــؤمن الجماعــة الإســلامية، وعليــه أن يصحب تقليب النظر في كل المعطيات الحاضــرة والمتوقعــة، أن يصــحب ذلــك بحســن التوكل على الله ليمضي واثقا للسلم الــذي رأى الخيــر فيــه. وليطمــئن فــإن الله يســمع ما يهمسون به وهو العليم الكامل العلم.

وإن كانوا ينطوون علــى غــدر فهــو احتمــال وارد، ولا تعــاجلهم بالاحتمــالات، وكــن واثقا من رعايتك ربك لك. يزيدك اطمئنانا ما أيدك به يــوم كنــت وحيــدا تــدعو إلــى الله وإلى دينه، فنصرك على أعدائك وانطلق الإســلام فــي آفــاق الكــون، وأيــدك بــالمؤمنين الذين عني بهم فألف بــين قلــوبهم حتــى أصــبحوا وحــدة متماســكة متآلفــة. وتوحيــد القلوب رغم ما غرس في الطبيعة البشرية من أنانيــة، وتحويلهــا إلــى إيثــار يجــد فيــه المؤمن سعادته في سعادة أخيــه، مــا كــان ليحصــل لــولا تقــدير إلهــي وعنايــة بــك وتقويتك على نشر دين الله. إن تحويل القلوب وجمعهــا واقــتلاع جميــع أســباب الجفــاء والخلاف، ما كنت لتبلغه، ولو أنفقت في ســبيل ذلــك كــل مــا فــي الأرض. ولكــن الله أراد فنفذ، وهو العزيز الذي لا يغلب، الحكيم في أفعاله.

بيان المعنى العام :

59- ولا تحسبن الذين كفروا...لا يعجزون.

نَقَضَ العهد من نقض من المشركين الــذين لــم يحترمــوا المواثيــق التــي ارتبطــوا بهــا بالدولة الإسلامية، وخُيِّل إليهم أنهم انفلتوا من المؤاخــذة والحســاب عمــا قــدموا. وقــدر الله أن يثبت نبيه وأعلمه، بأن ما تصــوروه مــن الانفــلات مــن العقوبــة والجــزاء عــن

خبثهم، هو خيال لا حقيقة له، ففـــي أجــل قريــب ســيكونون أســـرى مؤاخــذين بنتــائج خيانتهم، لأن الله لا يعجزه فار، ولا يفلت مـــن بطشـــه مختــف أو مــراوغ، فهــو لِســعَة علمه وعظيم سلطانه لا يعجزه أن يأخذ الظالم بظلمه حيثما كان، وأينما كان.

60-وأعدوا لهم ما استطعتم...وأنتم لا تظلمون.

هدى الله نبيه ومن يخلفه من أولياء الأمور، وكذلك أعضـــاء الأمـــة الإســـلامية إلـــى أخــذ الأمور بالحزم الكامــل المســبق، وأن لا ينتظــروا حلــول المكــروه وهجــوم الأعــداء عليهم ليدافعوا عن حــوزتهم ويقــاتلوا مــن هــاجمهم، بــل الواجــب أن يتهيــأوا لجميــع الاحتمالات، وأن يبذلوا في زمن السلم كل إمكاناتهم ليكونــوا علـــى أتــم الاســتعداد لكــل طارئ. إن الاستعداد المطلوب من الأمـــة الإســلامية قادتهــا وعلمائهــا ومراكــز البحــث فيها، وكل فرد من أفرادها بصفة عامة، حــدده القــرآن بــأن يبلــغ غايــة مــا يمكــن أن يُبْذَل، مما يمكِّن المهابة في قلوب الأعداء ويــرهبهم، فقولــه تعــالى :(**مــن قــوة**) كلمــة جامعة لا تقتصر على تصور عصر من العصور، بــل هــي متطــورة بتطــور المعرفــة البشرية في فنون التسليح والقتال .يجب أن تكون مراكــز البحــث العلمــي تُتَــابع تطــوير الأسلحة لتكون أشــد مضــاء وأبلــغ فتكــا، وأن تــدرُب الجيــوش علــى فنــون القتــال واستعمال الأسلحة ، والتخطــيط المحكــم لتحركهــا وحمايتهــا. يجــب أن يبلــغ مســتوى القوة هذا إلى الأعداء المتاخمين لحدود الدولــة الإســلامية فيــدخل الرهبــة فــي قلــوبهم، ولا تحــدثهم نفوســهم بمحاربــة المســلمين. فالإســلام حــريص علــى مناعــة الدولــة الإسلامية ونشر الرعب في قلوب الأعداء، لا على استئصالهم.

وعطفت الآية على التهيؤ بالقوة الشاملة البالغة، عطفت الآيــة ربــاط الخيــل الدالــة علــى طلب كثرة الخيل المعدة للقتال، وقد كانت الخيل أفضل مــا يعــين الجــيش علــى النكايــة في الأعداء لســرعة حركتهــا وقــدرة صــاحبها علــى المنــاورة، والإبعــاد فــي أرض العدو. فراعت الآية الوضع الخاص الــذي كــان عليــه العــالم والأمــة الإســلامية عنــد نزول الآية، وأرشدت إلى التطورات التي تتحول إليهــا البشــرية ممــا لــم يكــن معلومــا للحاضرين عند نزول الآية، كل ذلك في دقة عجيبة معجزة.

نصت الآية على أن الرهبة تتناول عــدو الله وعــدوكم، والمعنــى متقــارب، إلا أن نســج الآية على ما جاء عليــه فيــه تحــريض أكمــل علــى الاســتعداد، بــأن هــؤلاء الــذين تُرهبونهم هم محضوا قواهم لمعاداة الحق الذي جــاء عــن الله، وهــم بــذلك يســتحقون أن تكونوا مستعدين لهم مانعين لهم من وقف انتشار الحق، وهــم مــن ناحيــة أخــرى أعــداءٌ لكم يتربصون بكم ويبغون القضـــاء علــيكم. فمــن النــاحيتين: ناحيــة معــاداتهم للحــق،

وناحية عداوتهم لكم، تكونون مأمورين بالاستعداد الذي يدخل الرعب في قلوبهم، بما يتم لكم به الأمن من مكرهم. وبهذه الاستعداد تأمنون مكر أقوام آخرين بفضل يقظتكم واستعدادكم، وانتشار الأخبار عنكم بما جمعتموه من قوة، وحرستم به ثغوركم. إن هؤلاء الآخرين الذين لم يبلغ علمكم بمعرفتهم بأعيانهم، ولكن الله الذي يتولاكم ويقدر لكم النجاح والغلبة، لا يخفى عليه أمرهم فهو يرصدهم، واستعدادكم يلجمهم عن النيل منكم.

إن الاستعداد الذي حرضت عليه الآية يقتضي من المؤمنين أن ينفقوا من أموالهم ما يحققه، وأن لا يبخلوا بأموالهم عن بذلها في سبيل الله. ووعدهم وعدا لا يخلف، أن كل ما أنفقوه يجدون أجره في الدنيا حفظا وكرامة وعونا وتحصينا من الهزيمة، ويجدون أجر ه كاملا غير منقوص يوم القيامة، لا يظلمون في أي جزء منه بإهماله وترك حسابه.

61- وإن جنحوا للسلم...هو السميع العليم.

يواصل القرآن إرشاد الرسول ﷺ وقادة الأمة بعده إلى الطريق الأفضل في علاقة الدولة الإسلامية بغيرها. فيذكر القرآن أن الأعداء إذا مالوا إلى السلم حقيقة ووثِقْتَ أنهم يريدون فعلا عدم الحرب وأن تكون العلاقة بينكم وبينهم علاقة مسالمة يأمنونكم وتأمنونهم، ووثقت أيضا أن المسالمة فيها خير للأمة الإسلامية، فاتبع السلم ووافقهم على ما مالوا إليه. وليصحب التوكل على الله اختيارك، على معنى أنك مأمور بالاستعداد، وَوَزْنِ ما يعرض عليك بميزان المصلحة الراجحة في نظرك بتقصي كل الأسباب والظروف المحيطة، واجمع إلى اجتهادك التوكل على الله في تحصينك من كل ما يأتي به الغيب. وبهذا يظهر الفرق بين الاجتهاد والتوكل، وأن التكامل بينهما هو منهج التربية الإسلامية. واعلم أن الله هو السميع لكل ما تتحرك به ألسنتهم في سر أو جهر، وهو العليم بحقيقة ما يبطنون. وفي ذلك تطمين للمؤمنين بأنهم إذا ترجح عندهم السلم فلا يخشوا ما يمكن أن يحصل من غدر، فيحسن توكلهم على الله بعد الأخذ بالأسباب سيتولاهم ربهم.

62-63: وإن يريدوا أن يخدعوك...عزيز حكيم.

ولا يترك القرآن فرضية يمكن أن تظهر في المستقبل، فإذا استبطن المتقدمون بطلب الموادعة والسلام خداع المؤمنين، بعد أن ترجح عندك صدقهم، فإن هذه الفرضية لا تسمح لك بالتعجيل بنقض ما أبرمته، ولا تكن هذه الفروض تقتلع منك بمجرد الاحتمال ما أبرمته، وكن واثقا بربك فإنه كافيك، فقد توالت عليك عنايته

وألطافه. لقد أيدك بنصره العجيب الخـارق للعـادة يـوم كنـت تـدعو إلـى الله وحيـدا تواجه العالم كله بما لا يقبله، وأيدك بالمؤمنين الـذين بـاعوا نفوسـهم لينتشـر ديـن الله في الآفاق. ثم إنه أكمل عليك المنة إذ تحولـت الرابطـة بسين المـؤمنين بـك إلـى أنقـى رابطة وأتمها، بألف كل مؤمن صـاحبه، فزالـت مـن قلـوبهم الأحقـاد، بعـد أن كانـت التربية التي عليها العرب تهدف إلى تضخيم الأنانية ومـا يتبعهـا مـن سـعي كـل واحـد لنفعه الخاص، فإذا المؤمنـون يتحولـون بتقـدير إلهـي عجيـب إلـى وحـدة متكاملـة، ينشرح كل واحد منهم لما ينال أخاه من الخيـر، بـل هـو يسـعى إلـى إسـعاده. قـارن بين ما كان عليه الأمر من الحروب بين الأوس والخـزرج، ومـا كـان عليـه كـل بطـن من بطون قريش في علاقته مع غيره من البطون، وبـين علاقـات القبائـل فيمـا بينهـا، قارن ذلك وبين ما حصل من الامتزاج بين المهـاجرين والأنصـار، حتـى ليكـاد يتحـول الأنصاري مع أخيه المهـاجر إلـى شـخص واحـد. روي فـي كتـب السـيرة صـور عجيبة من الإيثار، إن ما حصل من وحدة صـماء بـين المـؤمنين نابعـة مـن عواطـف نبيلة من الحب والود، غرستها وغذتها يد القدرة الإلهية ومـا كانـت لتحصـل لـولا ذلـك التقدير الإلهي المؤلف بين القلوب، وهـو ممـا لا يمكـن بلوغـه ببـذل الأمـوال، فلـو أنفقت يا محمد ما في الأرض جميعـا لتحـول تلكـم العواطـف عمـا كانـت عليـه مـن أنانية وتنافر القلوب العصية عـن التـآلف، مـا بلغـت شـيئا يـذكر. ولكـن الله بحسـن تقديره، وإرادته إظهار هذا الدين، هـو الـذي ألـف بيـنهم. إنـه الله الـذي مـن صـفاته العزة وكمال القـدرة، لا يعجـزه شـيء فـي عـالم المـادة أو عـالم الأنفـس والعقـول والأرواح، يحوّل القلوب كما يشـاء ويريـد. وهـو يتصـرف بالحكمـة البالغـة المحققـة للخير.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ عَلَى ٱلۡقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمۡ عِشۡرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن تَكُن
مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٌ لَّا يَفۡقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلۡـَٰٔنَ
خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمۡ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمۡ ضَعۡفًاۚ فَإِن تَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغۡلِبُواْ
مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٌ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٦٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

صابرون : ثابتون على القتال.

عدم الفقه : عدم قدرتهم على فهم الأمور الخفية، تبعا لكفرهم بالله.

التحريض : المبالغة في الطلب.

الآن: اسم ظرف للزمن الحاضر.

بيان المعنى الإجمالي :

دعا الله نبيه ليؤكد له أنه يكفيه مخاطر نشر الـدعوة، وكــذلك مــا يســره لـــه مــن قــوة الرجال الذين هم حوله. ثم كرر نداءه ليتــولى هــذا الأمــر الهــام : مواصــلة تحــريض المؤمنين وحثهم على القتــال ، حتــى يكونــوا دومــا علــى أتــم الاســتعداد، وبساختلاط قلوبهم بالجهاد يكونون قادرين على أن يثبت الواحــد مــنهم أمــام عشــرة مــن الأعــداء، لأن كل واحد يحمل بين جنبيه قلبا متفتحــا علــى الــدنيا والآخــرة وعلــى حــب هدايــة البشرية ؛ بينما الكافر لا يعــدو همــه الحاضــر المحــدود، فهــو لا يتجــاوزه إلــى مــا وراءه.

وبعد زمن من هذا الحكم الشديد، خفــف الله علــى المــؤمنين وأوجــب علــيهم أن يثبتــوا إذا كان عدد أعدائهم لا يبلغ أكثر من ضعف عددهم، لأنـــه قــد اســتبان أن الســابقين مــن المؤمنين لا يدانيهم في قوة شخصــيتهم مــن جــاؤوا بعــدهم. هــذا أمــر الله والله يؤيــد الصابرين بنصره.

بيان المعنى العام :

64←66: يا أيها النبي حسبك الله....مع الصابرين.

توالــت الآيــات الســابقة مؤذنــة بعنايــة الله برســوله وبــالمؤمنين وبالأمــة الإســلامية وتبصيرهم بالاختيارات التي تحصنهم من الأعداء.

ثم إن القرآن خصص الرسول بالخطاب خطاب التقريب يُعِدُّه بــذلك لمــا يــأتي بعــد هــذه الآية إلى تمام السورة من التعــاليم التــي ستفصــلها. فكانــت هــذه الآيــة معلنــة أن الله كافيه من الشرور والأعداء والمكر الذي يمكر به الماكرون.

وتحتمل خاتمتها أن التأييد لرسول الله قد تــم بعنايــة الله بــه وبــالقوة التــي حولــه مــن المؤمنين فتجمع من كفاية الله له، ومن المؤمنين حولــه مــا يقــوي فــي نفســه رضــوان ربه عنه وتأييده فيما يستقبل.

ويحتمل أن الله أخبر رسوله بأنه كافيه وكافي المؤمنين، فهو يتولاهم كما تولاه.

وبعد أن طمأن القرآن النبـي بـأن الله كافيـه، رتـب علـى ذلـك أن عليـه أن يحـرض المستعدين للجهاد وللذب عـن حـوزة الإسـلام أن يهيئـوا أنفسـهم لقتـال الأعـداء، وأن يحثهم على خوض غمار الحـرب حتـى يكـون الاسـتعداد ومفهـوم الجهـاد حاضـرا دوما في نفوسهم مصاحبا لتفكيرهم لا يغفلـون عنـه. وبهـذا ينعقـد إلـف بـين المـؤمن وبين هذه الفريضة. ذكّرهم بمهمتهم السامية في الحيـاة، وأنهـم تحملـوا هدايـة البشـرية قاطبة، ذكّرهم بما أعـده الله للمجاهـدين فـي سـبيله مـن منـازل الكرامـة فـي الـدنيا والآخرة. وبهذا الاستعداد النفسي والتذكير المتتـابع تقـوى عزيمـة المجاهـدين. ورتّـب على تلكم التربية أنـه يجـب أن يثبـت الصـابرون أمـام أعـدائهم ولـو بلغـوا عشـرة أضعاف. وليس ذلك بغريـب ولا ببعيـد، لأن الفـرق فـي التركيـب النفسـي والعقـدي بينهما تركيب متفاوت جـدا، فتفكيـر الكـافر مغلـول بحـدود حظوظـه الماديـة ومـا يحققه لجسمه وأحاسيسه من متاع، هو محصور فـي تلكـم الحـدود، بينمـا ينطلـق فكـر المؤمن وتصوره إلى الكون ومبدعه، وإلـى الحيـاة الآخـرة والحيـاة الـدنيا فـي وقـت واحد، ويجد في نشر ما يؤمن به وفي اهتداء الناس به أكبر غـنم يغنمـه، فمـا أبعـد مـا بينهما ! قوم لا يفقهون أي لا يتجـاوزن الظـواهر إلـى الآفـاق البعيـدة مأسـورون فـي حدود ظرفهم المحسوس، وقوم تجتمـع فـي قلـوبهم الـدنيا والآخـرة والأخـوة البشـرية وما تقتضيه من انتشال الغافلين منهم. استمر التكليـف علـى ثبـات المـؤمنين الصـابرين لأعدائهم ولو كان عددهم عشرة أضعافهم. ثـم إن المـؤمنين تزايـد عـددهم ودخـل فـي دين الله من كانت قوة إيمانهم ووثوقهم بأنفسـهم تضـاهي قـوة السـابقين مـن الصـحابة الكرام، ومنهم من لم يبلغ تلك الدرجة، فنسخ حكم الوقـوف للعشـرة إلـى الوقـوف أمـام الأعداء إذا كان عددهم لا يتجاوز ضعف عـدد جـيش المسـلمين. فتقاتـل المائـة مـائتين ويقاتل الألف الألفين. بهذا أذن الله وأمر. والله يؤيد الصابرين ويكتب لهم الغلبة.

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ
ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ
فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم مِّنَ ٱلْأَسْرَىٰٓ إِن يَعْلَمِ ٱللَّهُ فِى

قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِن
يُرِيدُوا۟ خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

بيان معاني الألفاظ:

يثخن في الأرض : يتمكن سلطانه.

عرض الدنيا : المال.

طيبا: النفيس في نوعه، أي من خير الحلال.

فأمكن منهم : جعلك متصرفا فيهم تصرف الإنسان في مكانه.

بيان المعنى الإجمالي :

غنم المسلمون ما غنموا من أموال المشركين في بدر، وقد بينت السورة أحكام الغنائم، كما أنهم تمكنوا من أسر حوالي سبعين منهم، وبعد تداول الرأي في الموقف الذي يتخذونه فيهم، رجحوا أن يفدي كل أسير نفسه بالمال الذي يعود للمجاهدين. ولكن السنة التي جرى عليها المرسلون أن الذين يتمكنون من أسرهم يقتلونهم ولا يقبلون منهم فداء، حتى تكسر شوكة الكفر وتتم الغلبة عليهم وتعلو راية الدين في أرض الله، لأن كل كافر يعود إلى قومه يكون قوة للكافرين. فكان العَتَبُ على الذين رجحوا هذا الرأي. ولكن الله عذرهم بأنه من عدله ولطفه ومما سنه : أنه لا يؤاخذ المجتهد إذا أعمل رأيه وأخطأ، مع قصده الخير. ولولا هذا الفضل الإلهي للحقكم بسبب ما أخذتم من الفداء عذاب عظيم. فانتفعوا بالأموال التي قبضتموها من الأسرى، وهي حلال طيب لا شائبة فيه. كلوا منها وأنفقوا وكونوا مستحضرين دوما لما تقتضيه التقوى، والله غفور رحيم.

ثم أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يستل من نفوس الأسرى ما يمكن أن يكون قد استقر فيها من نقمة، أمره أن يعلمهم: أنه إن تحولت قلوبهم من شر الكفر إلى خير الإيمان فإن الله يتوب عليهم، ويعوضهم عما أخذ منهم من الفداء ما هو أوسع وأكثر. والله غفور يعفو عن السيئات ويرحم عباده إن هم أنابوا إليه.

ولا تهتم يا محمد إن انطوت نفوس بعضهم على خيانتك والانتقاض عليك عندما يعودون إلى ديارهم، فإني ناصرك عليهم، كما مكنتك من التحكم فيهم عندما أَسَرْتَهُم. والله عليم بما تنطوي عليه صدورهم، حكيم في تصرفه فيهم.

بيان المعنى العام :

67-68: ما كان لنبي أن يكون له أسرى...عذاب عظيم.

اهتمام القرآن بغزوة بدر كان اهتمامـــا كبيــرا، وحــق لهـــا ذلـــك، فهـــي الغــزوة التـــي تحولت بها كفة المقاييس فـــي جزيـــرة العـــرب، وبعـــد أن كـــان المســـلمون مستضـــعفين فارقوا ديارهم وأموالهم من شدة ضغط قريش علـــيهم، ينقلـــب ميـــزان القـــوى فـــي بـــدر فإذا هم يهزمون قريشا شر هزيمة، ويغنمون أمـــوالهم، ويأســـرون مـــن صـــناديدها عـــددا غير قليل، ويتحدث العرب بما تم في بدر.

مضمون هذه الآية: أن المسلمين كما غنمـــوا أمـــوال المشـــركين، وقـــد فصـــلت الســـورة فيما مضى أحكام الغنائم المالية، كذلك تمكنوا مـــن أســـر كثيـــر مـــن المشـــركين. وتمكُّـــنُ الجند الإسلامي من رقاب المشـــركين وهـــم أحيـــاء أفـــرز مشـــكلة؛ وهـــي مـــا يصـــنع المسلمون بهم؟ كانت هذه أول غزوة يأسر فيهـــا المســـلمون رجـــالا مـــن المحـــاربين مـــن أعدائهم، ولم ينزل تشريع يبين لهم حلًا لهذه النازلة، وكانت الفروض تحتمل:

1) قتلهم. فهم أعداء الدين كـــانوا حريصـــين علـــى الفتـــك بالمســـلمين، ولكـــن الله أمكـــن منهم، فليُنَفَّذ فيهم جزاؤهم حسبما كـــانوا مصـــممين عليـــه، كـــانوا مصـــممين علـــى قتـــل المسلمين فليقتلوا.

2) أن يبقوهم عبيدا مملوكين للمؤمنين.

3) أن يقبل من كل أسير فداء ماليا يتقـــوى بـــه المؤمنـــون علـــى مـــا كـــانوا عليـــه مـــن خصاصة، ويعوض شيئا مما استحوذت عليه قـــريش مـــن أمـــوالهم بعـــد هجـــرتهم إلـــى المدينة.

وهنا تظهر الطريقة التي كان الرسول يأخذ بها فـــي مســـتجدات الأمـــور التـــي لـــم ينـــزل فيها وحي، والتي تتطلب حلا. جمع أصحابه وعرض عليهم الأمر.

رأى فريق منهم أن تقطع رقـــابهم، فهـــم لا يؤمنـــون إن عـــادوا إلـــى ديـــارهم أحيـــاء أن يعودوا لقتال المسلمين. فقتلُهم فيه إرهاب للمشركين وتقليـــل لعـــددهم. وممـــن كـــان علـــى هذا الرأي من الصحابة عمر بن الخطاب رضي الله عنـــه وســـعد بـــن معـــاذ رضـــي الله عنهما.

ورأى فريق آخر أن يفدي كل واحد مـــن الأســـرى نفســـه بمـــال يكـــون قـــوة للمســـلمين، وقد تم إذلاله على الوضع الذي هو عليه من الكفر، ومـــر بتجربـــة قاســـية تزعـــزع مـــا كان يثق به من زائف عقائده. ولعله بعد ذلـــك أن ينشـــرح قلبـــه للإســـلام. وممـــن كـــان على هذا الرأي أبو بكر الصديق رضـــي الله عنـــه، ومـــال إليـــه عـــدد غيـــر قليـــل مـــن المجاهدين.

ولم أجد في السيرة من رأى أن يسترق الأسرى ويفقدون حريتهم بصفة نهائية.

إن عرض الأمر والمشورة، وتقليب أوجه الرأي لم يفض إلى رأي راجح، بل تكافأت الأنظار. ولا بد من الحسم.

أخذ النبي ﷺ يتأمل في المقترحَيْنِ، ويبحث لكل رأي عن نظير له فيما نزل من القرآن يرجح به أحدهما.

وجد أن الرأي الأول كان أقرب لموقف رسول الله نوح عليه السلام إذ دعا ربه بقوله: **(رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا.)**[1]

ووجد أن الرأي الثاني أقرب لمنهج إبراهيم عليه السلام، إذ قال **(فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم)**[2] ولمنهج عيسى عليه السلام لما قال : **(رب إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم)**[3] فمال للرأي الثاني وأخذ الفداء ممن كان له مال في قومه. وذلك لما طبع عليه ﷺ من اللين والميل إلى الأيسر، ورجاء أن يتوب الكافر ويسعد بالإيمان.

وقد بَلغ عدد الأسرى حسبما ذكره ابن هشام ستة وستين رجلا، وجاء في بعض الروايات أنهم كانوا سبعين رجلا. وذكر السهيلي أسماء تسعة من الذين فدوا أنفسهم ثم أسلموا.[4]

سن النبي ﷺ المبدأ الذي تُحَلُّ به المشاكل إذا لم ينزل الوحي، وهو التشاور. وأنه إذا لم يجمع المستشارون، فإن لولي الأمر أن يرجح ما يرى فيه المصلحة.

وبعد أن قَرَّ القرار بالإبقاء على الأسرى وأخذ فدية منهم، نزل على رسول الله ﷺ ما فيه عتَبٌ. أعلمه بأن سنة من قبله من المرسلين أنه لا يكون لأحدهم تملك الأسرى والاستفادة من فداهم إلا بعد أن يتمكن سلطانه في الأرض ويخضد شوكة الكفر. ذلك أن المهمة التي أوكلت إليهم في الجهاد والتأييد الذي رأوه في بدر ينادي بأن المهمة هي أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن في اختيارهم الفداء، وعدم الإجهاز على رؤوس الكفر ظاهره محبة المال الزائل، والله يريد منكم أن تسْمُوا للمهمة العظمى من قيادة البشريّة للخير، وإعلاء كلمة الله، فلا يقع الالتفات إلى متاع الحياة الدنيا إلا بعد أن تنجزوا المهمة التي أوكلت إليكم. والله عزيز لا يحتاج إلى عون، حكيم فيما يربيكم عليه من تعلقكم بمنازل العزة، والنظر إلى ماهو أبقى.

---

[1] نوح الآية26

[2] سورة إبراهيم الآية 36

[3] سورة المائدة الآية 118

[4] الروض الأنف ج5 ص 361/358

وإذ كان الاختيار غير الاختيار الأوفق، وحمل المجاهــدين عليـــه العجلـــةُ فـــي الحصــــول على مال الفداء، سجل العتب عليهم، بأنه لـــولا مـــا قـــدره ســبحانه وأجـــرى عليـــه أمـــر الثواب والعقاب، من أنه لا يؤاخذ المجتهد إذا أخطأ، لـــولا ذلـــك الفضـــل لمســـكم بســـبب إيثاركم للمتاع الدنيوي العاجل عذاب عظـــيم، كتســـليط هـــؤلاء الأســـرى علـــيكم بعـــد أن يرجعوا إلى أهليهم، ويشنوها حرب انتقام منكم.

69-فكلوا مما غنمتم...غفور رحيم.

هذا وقد عذركم ربكم، فانتفعوا بما أخذتم من مال الفـــداء، وهـــو حـــلال كـــأتم مـــا يكـــون الحلال، لا شائبة فيه. تنعموا به في كـــل وجـــوه الانتفـــاع. ولـــتكن تقـــوى الله وحضـــور حدوده والرقابة الحازمة ملازمة لكـــم، فـــإن التقـــوى شـــكر للنعمـــة، والله غفـــور رحـــيم بكم، فقد رفع عنكم كل توابع التقصير.

ربط هذا العتب بما تضمنته سورة الأنفال من نظائر:

عرضت سورة الأنفال مواقف اجتهادية للصحابة في غـــزوة بـــدر، تُبْـــرز أنهـــم رجحـــوا خلاف ما هو أفضل عائدة عليهم، متأثرين بما طبـــع عليـــه الإنســـان مـــن حـــب للمـــال. قال تعالى: **(وإنه لحب الخير لشديد)**[1] فلنتتبعها حسب ورودها في السورة.

1) إن النبي ﷺ بعد أن سار في طلـــب أبـــي ســـفيان بمـــا تحملـــه قافلتـــه مـــن أمـــوال، وتحقق عنده أنه غَيَّـــرَ طريقـــه، ونجـــا بأموالـــه، وعـــرض علـــى الجـــيش أن يســـتعدوا لجهاد قريش التـــي خرجـــت تبغـــي ردع المســـلمين، كـــان هـــوى كثيـــر مـــن الجـــيش الإسلامي أن لا يقاتلوا قريشا، إذا كان هـــواهم أن يغنمـــوا أمـــوال القافلـــة، وكـــان الخيـــرُ في لقاء العدو وكسر شوكته. وقد عتب عليهم القرآن ترددهم هذا.

2) إن كثيرا من المجاهدين تعلقوا بقسم الأموال التـــي غنموهـــا، وعتـــبهم القـــرآن علـــى ذلك، وبين لهم أن الأنفال ليست لهـــم وإنمـــا هـــي لله ولرســـوله، يضـــعها فـــي المصـــالح التي أذن لها فيها ربه.

3) كان المؤمنون في أول أمرهم قلة، فأمروا أن يثبت الواحد لعشرة لأن مبنى الإيمان على تفريغ قلب المؤمن من جميع علاقات الدنيا، وهو ما يضخ في روحه طاقة تمكنه من الاستجابة للأمر وتحقيقه. ولكن الضعف الذي عليه بعض من التحق بجماعة المؤمنين راعاه الله وخفف. ولو كانوا على مستوى وضعهم الأول متجردين من العلاقات المادية لفتحوا الدنيا وفي ذلك الخير الكثير. فعذرهم وخفف عنهم.

---

[1] سورة العاديات آية 8

4) ما تم في قضية الأسرى هذه من رغبة المجاهدين في الانتفاع بالفداء، مع أن إرهاب المشركين والفتك بهم هو المنهج الذي سار عليه المرسلون من قبل، وهو المحقق لرفع راية الإسلام. فكان العتب عليهم دون تأثيم.

وبهذا يتبين لنا أن القرآن بهذه المواقف الأربعة، وإظهار ما خفي بضبابية تأثير المال في الاختيار، يرمي إلى تربية المؤمنين على التعمق فيما يعرض عليهم، وأن تكون الموازنة في الاختيار بين المصلحة العاجلة وبين تثبيت دين الله، وإعلاء راية الإسلام في الآفاق.

70- يا أيها النبي قل...غفور رحيم.

ثم التفت القرآن إلى الأسرى فأمر نبيه أن يخاطبهم خطابا يقلع النقمة من قلوبهم، ويفتحها على فضل الله. إنه لا شك أن الأسرى قد انطوت نفوسهم على عدم رضى ومقت لما تم فيهم، وإن كان ما تم هو أهون ما يمكن أن يلقوه بعد أسرهم. أمر النبي أن يخاطبهم بما يلين أرواحهم للدخول في الإسلام، فأعلمهم أن ما أخذ منهم من مال سيتكفل الله بتعويضهم عنه بما هو خير منه. إن ما سيحصلون عليه من رزق حلال وما يوسع الله به عليهم، إن هم راجعوا عقولهم وأحسنوا التأمل في آيات الله الموحى بها وآياته في الآفاق، وأسلموا، سيخلفهم أكثر مما أخذ منهم وفوق ذلك يسمو بنظرتهم إلى الكون، وبأرواحهم إلى عبادة الله وحده.

ومن أسمائه العلية سبحانه أنه غفور، يصفح عن ذنوب التائبين ولو كانت كفرا، وأنه رحيم بعباده يقبل توبتهم ويساعدهم على سلوك الطريق الأرضى.

71- وإن يريدوا خيانتك...عزيز حكيم.

ثم جمع القرآن بين تحريض النبي الكريم على إبلاغ الأسرى ما أمره بإبلاغهم إياه من فتح آمالهم على فضله، وبين تطمينه على أن ما أخذه المجاهدون من الفداء لا يعقبه خسارة للدين، فإن هؤلاء الأسرى الذين عاهدوا عندما كانوا في أسرك :أنهم لا يحاربونك، إنهم لو أعطوا مواثيقهم وفي باطنهم أنهم سينكثون عهدهم ويخونونك، فلا تهتم بهذا الاحتمال، وتأمل في وضعهم الآن، تجدْ أن الله قد مكنهم من النظر وبلغهم آياته البينة، ومع ذلك فقد خانوا الله برفضهم للحق عنادا، وتعطيلهم لما تقتضيه عقولهم وفطرهم، فقادهم ذلك إلى الوقوع في الأسر، وأمكنك منهم فكنت متحكما فيهم كما يتحكم الإنسان في مكانه. ولو خانوك في المستقبل فهم إلى ذل وإلى انهزام. والله عليم بالنوايا ويرتب على علمه تصرفه بالحكمة البالغة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٞ ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٞ فِي ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٞ كَبِيرٞ ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٞ وَرِزْقٞ كَرِيمٞ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْۚ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمُۢ ﴿٧٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الهجرة : من هجر البلد أي الخروج منها.

الإيواء :هيأ مأوى وهو الملجأ والحرز.

ولي فلانا: نصره وقام بأمره.

في كتاب الله : قضائه وشرعه.

بيان المعنى الإجمالي:

أوضح القرآن في هذه الآيات ضوابط العلاقة المعتبرة والمُلْغِيَّة. نوه أولا بالمؤمنين الذين هاجروا من موطنهم إلى المدينة ثم جاهدوا في سبيل نشر دين الله، وجمع بينهم وبين المؤمنين من أهل المدينة الذين قبلوا المهاجرين وقاسموهم أرزاقهم وضمنوا لهم الأمن في مقامهم معهم، يدافعون عنهم بما يحمون به أنفسهم، فبين القرآن أن العلاقة بين المهاجرين والأنصار علاقة امتزاج وحد الله بينهم، هي علاقة التناصر والمؤازرة، بها ارتفعوا إلى أعلى مقام في سلم الإيمان.

أما الذين آمنوا ولم يهاجروا ورضوا بالبقاء مع القوم المشركين، فإنه رغم إيمانهم لا موالاة بينكم وبينهم، حتى يلتحقوا بكم. إلا أنه إن تسلط عليهم الكفار ليفتنوهم عن دينهم فالواجب عليكم أن تسرعوا لنجدتهم، إلا أن يكون بينكم وبين هؤلاء المشركين معاهدة عدم اعتداء فأوفوا بعهودكم. واعلموا أن الله لا يخفى عنه شيء مما تعلنون أو تضمرون

والكافرون تجمعهم علاقات، والمولاة بيــنهم قائمــة، وإيــاكم أن توالــوهم أو أن تتهــاونوا في هذا الأمــر، فإنــه إن واليتمــوهم وقربتمــوهم وأطلعتمــوهم علــى أســراركم، فــإن العاقبة وخيمة جدا يبذرون بينكم الفتنة والشــقاق، يشــعلون الحــروب بيــنكم. أغنــاكم الله عنهم.

إن المهاجرون الذين آمنوا وجاهدوا في ســبيل الله بــأموالهم وأنفســهم، ومعهــم الأنصــار الذين آووهم ونصروهم، أولئك هم الــذين ســما إيمــانهم إلــى أعلــى درجــات الســمو، وعدهم الله العفو عن كل تقصير، والأجــر الكــريم الــذي لا تشــوبه شــائبة نقــص، ولا يلحقه ألم ولا يحد من لذته حائل.

ثم إن الذين تخلفوا عن الهجرة ثم التحقوا بكم وتولــوا الــذود عــن الــدين والجهــاد فــي سبيله، فإنهم وإن فاتهم ما ســبقتُم إليــه مــن منــازل الكرامــة، إلا إنهسم بالتحــاقهم بكــم أصبحوا جزءا من جماعتكم.

ورضي الله في سابق تقديره المحكــم المكتــوب، ففطــر البشــر علــى رعايــة علاقــة القربى والرحم، وأنها إذا كان الاختلاف في الدين لا ينقضــها، فإنهــا رابطــة تتقــدم بهسا الموالاة في النصرة وفي الميراث.

بيان المعنى العام:

72-إن الذين آمنوا وهاجروا....بما تعملون بصير.

ختم القرآن هــذه الســورة بضــبط العلاقــات بــين البشــر، وإبــراز النــواحي الجامعــة والمفرقة بينهم فــي نظــر الإســلام. يجمــع البشــر روابــط متنوعــة: منهــا الــروابط الأســرية، والــروابط الوطنيــة، والــروابط اللغويــة، والــروابط السياســية، والــروابط الاجتماعية، وأنواع أخــرى شــائعة فــي المجتمــع القبلــي. فتــأتي هــذه الآيــات لتقــيم التواصل على أساس ديني، بمعنى أنها تقيم الوحــدة بــين البشــر علــى أســاس تصــور الإنسان للكون ولعلاقته بــه، علــى تصــور أن الكــون كلــه مخلــوق لله، وأن الإنســان مستخلف فيه، شرفه في تحقيق ما أراده الله منه وشــعوره بالمســؤولية فــي نشــر الخيــر واقتلاع الشر.

إن أقوى رابطة وأكملها وأنقاها هي الرابطة التــي أحكمهــا الله، بــين المهــاجرين الــذين فارقوا موطنهم ورضوا بالتنازل عن أموالهم، وتركوهــا وراءهــم فخرجــوا إلــى المدينــة المنورة، وبين الأنصار الذين آوَوْا المهــاجرين فيســروا لهــم الإقامــة بيــنهم، قاســموهم كل ما رزقهم الله فعوضوهم عن غربتهم حسن القبول وجمال العون.

تصوروا المهاجرين وقد قدموا على المدينة جماعــات متتابعــة فــإذا صـــدور الأنصـــار تسعهم، وينعقد بينهم أسمى عواطف الحــب والإيثــار. وتفصّــل الآيــة مــا امــتلأت بــه نفوس المهاجرين فتذكر : الإيمان بكل مـا جــاء بــه الإســلام، تلكــم هــي القــيم التــي تهديهم في حياتهم الخاصة والعامة، ومن توابــع كمــال الإيمــان أنهــم رضــوا بــالخروج من مراتع الصبا ومــألوف المــوطن، فهــاجروا غيــر آســفين ولا متحسرقين علــى مــا فاتهم. ومن توابع الإيمان والتصور الذي مــلأ عقــولهم وأرواحهــم جهــادهم فــي ســبيل نشــر ذلكــم الإيمــان بأنفســهم وأمــوالهم. كمــا تلمــح فضــائل الأنصــار الــذين آووا المهاجرين فقاسموهم ما يملكون، وأفســحوا لهــم فــي المســكن والســوق، وفــوق ذلــك أنهم ضمنوا لهم النصر على كل من يريــدهم بســوء أو يحــاول النيــل مــن أمــنهم فــي المدينة. إن المهاجرين والأنصار حسبما يقرره القــرآن توثقــت بيــنهم الرابطــة فجعلــت منهم كتلة واحدة ؛ يعين بعضــهم بعضــا ويــؤازره، وذهــب بعضــهم إلــى أن الرابطــة بلغت أن غير المهاجر لا يــرث المهــاجر وإن كــان مســلما، وكــان هــذا الحكــم فــي الظروف الأولى ثم نسخ فيما بعد لما أنزل الله وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض.

وأما المؤمنون الذين استقروا في بــلاد الشــرك ولــم يهــاجروا، فالصــلة بيــنهم وبــين المهاجرين والأنصــار مقطوعــة، لا يعينــونهم ولا يــؤازرونهم. واســتثنت الآيــة حالــة واحدة : وهي إذا تسلط المشركون علــى المــؤمنين الــذين لــم يهــاجروا ليفتنــوهم عــن دينهم، فإذا طلب المؤمنون المفتونون فــي ديــنهم مــن المشــركين، نصــرهم، فالواجــب أن تسرعوا لنجدتهم، إلا إذا كان المتســلطون بيــنكم وبيــنهم عهــد فــلا يحــل لكــم أن تنقضوا ما عاهــدتموهم عليــه. وختمــت الآيــة بالتحــذير مــن نقــض الميثــاق الــذي أعطيتموه فإن الله بصير بما تعلمون لا يغيب عنه شيء.

73- والذين كفروا...وفساد كبير.

وأما الذين كفروا فليس بيــنكم وبيــنهم مــوالاة، وذلــك لأن المشــركين بعضــهم أوليــاء بعض، فلهم رابطة تجمعهــم يتناصــرون بهــا. واحــذروا أن لا تقطعــوا ولايــتهم، أو أن يبقــى بيــنكم وبيــنهم مــودة وتناصــر، أو أن تســتودعوهم أســراركم، أو أن تعتبــروا موالاتهم أمرا هينا. الأمر على العكس فإنه يتبــع التراخــي فــي ذلــك فتنــة، إنــه تبعــا لمعاداتهم لكم في الدين، هم ينسجون فــي الخفــاء مــا يوقــع بيــنكم العــداوة والبغضــاء، ويخططون ما يشــعل الحــروب ويعمــق الخــلاف، وهمهــم الأكبــر أن يظهــر الكفــر ويعلو.

74-75 : والذين آمنوا وهاجروا...بكل شيء عليم.

ويقوي القرآن دعوته وتنبيهه على عــدم مــوالاة الكــافرين بــإعلان الثنــاء مــرة أخــرى على المهاجرين والأنصار، معليا من شأنهم بما جمعــوه مــن صــادق الإيمــان والهجــرة للمهاجرين، والنصرة التي كانت مثلا أعلــى فــي تــاريخ الإنســانية بالنســبة للأنصــار، ويميزهم بأنهم بلغوا القمة في مستوى الإيمــان. وخــتم تنويهــه بــالمغفرة لكــل تقصــير منهم. وأنه أعد لهم رزقــا لا تخالطــه مشــقة ولا يتبعــه نقــص ولا ألــم، يبلــغ أعلــى درجات الصفاء.

ويأتي في منزلة تاليــة المؤمنــون الــذين بقــوا مــدة فــي بــلاد الشــرك، ثــم التحقــوا بالمهاجرين، وقاموا بالجهاد والذب عن الدين، فــإنهم وإن فــاتهم بعــض مواقــف الجهــاد الأولى، إلا أنهم بالتحاقهم بكم ثبت لهم شرف الهجرة وهم منكم.

وختمت الســورة بتقريــر مــا فطــر عليــه البشــر فــي علاقــاتهم وارتبــاطهم بــأولي أرحامهم، وأن هذه الرابطة رابطة مرعية يؤكدها الإسلام مــا لــم ينفهــا الاخــتلاف فــي العقيدة.

وبناء على ذلك فإنه إذا تأكــدت رابطــة الــرحم برابطــة الــدين كانــت أقــوى رابطــة تتجاوز حسن العلاقة والتناصر إلى التــوارث وغيــره مــن صــلات القربى.وهــذا حكــم الله الذي حكم به في كتابه الذي سجل فيه ســنن الخلــق وراعــى فطــرة الإنســان، كمــا حكم به في القرآن. واعلموا أن الذي ضبط هذه العلاقــات وأوصــاكم بهــا هــو الله الــذي لا يغيب عن علمه شيء في الحاضر ولا في المستقبل، فما هداكم إليه فيه خيركم.

اللهم لك الحمد على ما أعنت ويسرت، ولك الشكر على ما به تفضلت وتكرمت.

فقد بلغت ختم تفسير سورة الأنفال بعد مرض قطعنــي شــهرا عــن متابعــة تفهــم آياتــه وتسجيل ما أطمئن إليه من معانيه. وهو اللطيف أدعــوه أن يســعدني بمــدد منــه وتوفيــق لمتابعة التأمل في كتابه وتفسير آياته البينــة وأن يجعلــه عمــلا خالصــا لوجهــه الكــريم.

والله حسبي ونعم الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

زوال يوم الثلاثاء : 1 جمادى الأولى 1432:2011/4/05-

ســــورة التـــوبة

يتفق المفسرون على أن هذه السورة هي آخر سورة نزلت على رسول الله ﷺ ، نزلت بعد سورة الفتح، فمرتبتها: الرابعة عشرة بعد المائة. ذلك أن النبي ﷺ لما رجع من غزوة تبوك في رجب سنة تسع من الهجرة ، أمّر أبا بكر الصديق رضي الله عنه على الحج ذلك العام ، وبعث معه بأربعين آية من صدر هذه السورة .إلى قوله تعالى: **(وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم)**

واتفقت المصاحف على ترك بداية هذه السورة بالبسملة. واختلفوا في توجيه ذلك روي عن مالك : أن هذه السورة نُسخ كثير من آياتها فسقطت البسملة مع الآيات المنسوخة، كما روي أن نساخ المصاحف لم يجدوا البسملة مثبتة في أولها فاتبعوا ما هو موجود. كما وجه من جانب المعنى بما روي عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، أن البسملة أمان وبشارة، وسورة براءة نزلت بنبذ العهود والسيف، فلذلك لم تبدأ بشعار الأمان. ورتبت في المصحف بعد الأنفال لتقارب مضمونيهما .

أشهر أسمائها(سورة براءة) كما سماها بعضهم بالتوبة. يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور وهذان الاسمان هما الاسمان الموجودان في المصاحف التي رأيناها.

وسماها بعضهم بالمقشقشة لتخليصها من آمن بها من النفاق وكان ابن عباس يدعوها بالفاضحة لفضحها المنافقين بتكرر قوله تعالى :ومنهم – كما رويت لها أسماء أخرى .بلغت أربعة عشر اسما وعدد آياتها 130 آية وهي السورة التاسعة حسب ترتيب المصحف.

بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ (1) فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَـٰفِرِينَ (2) وَأَذَٰنٌ مِّنَ
ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ
فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (3) إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا

وَلَمْ يُظَٰهِرُواْ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓاْ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ
﴿٤﴾ فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ
وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ
فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

براءة : خروج من العهود التي كانت بينكم وبين المشركين ورفع لها.

فسيحوا : السياحة السير في الأرض.

المعجز: ما يوجب العجز عن عمل ما.

الإخزاء : الإذلال.

أذان : إعلام وإشهار.

بشر : أصل البشارة الإعلام بما يسر، أريد بها الإنذار على سبيل التهكم.

ظاهروا : أعانوا.

المدة : الأجل .

انسلخ الأشهر: انقضى الأشهر.

الأخذ: الأسر .

احصروهم :منعهم من دخول أرض الإسلام.

اقعدوا له كل مرصد: الزموا مراقبة الثغور التي يمكن أن يتسربوا منها إلى أرضكم.

بيان المعنى الإجمالي :

كان النبي ﷺ مرتبطا بمعاهدات مسالمة بينه وبين كثير من قبائل العرب. وكان كثير منهم يبيتون الغدر، فأعلن الله على لسان رسوله أن كل تلكم المعاهدات قد تم إلغاؤها، ولهم أن يتحركوا في الأرض مدة أربعة أشهر ، وأنذرهم بأنهم ضعفاء لا يستطيعون أن يعجزوا الله القدير الذي سينزل بهم ما قدره لهم من الخزي والإذلال .وإعلان عام أمر بتبليغه أبو بكر رضي الله عنه ،وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه إلى كافة الناس المجتمعين يوم النحر بمنى أن الله قد أبطل تلكم المعاهدات فلا أمن لهم بعد أربعة أشهر .وأنهم إن تابوا وأقلعوا عن الشرك فقد سلكوا ما هو خير لهم في الحاضر والعاقبة، وأنهم إن ثبتوا على هم ما عليه من

الشرك فليعملوا أنهم لا ينفلتون من تسـلط القـدرة الإلهيـة علـيهم. وأمـر النبـي ﷺ أن ينذر الكافرين حلول عذاب أليم.

واستثنى القرآن من إسقاط العهود وإبطالها المعاهدين الذين لـم يصـدر مـنهم مـا يـدل على خبث طويتهم وتربصهم بالمؤمنين، ووفوا بعهـودهم فلـم يعينـوا عـدوا بسـلاح ولا بتدبير، ولم يحرضوا على المؤمنين أحدا، فهـؤلاء الـذين وفـوا بعهـودهم أوفـوا لهـم بما عاهدتموه عليه حتى يبلغ الأجل الذي تم عليـه الميثـاق. يؤكـد الوفـاء أن الله يحـب المتقين الذين لا يغدرون .

وعند تمام الأجل المضروب، الأربعة أشـهر، للمشـركين الـذين أعلمـوا بانتهـاء العهـد بينهم وبين المسلمين، فأنتم غير ملتزمين بـالكف عـنهم، ولـذا فهـم أعـداؤكم فـاقتلوهم حيثما وجدتموهم، واستولوا عليهم بالأسـر، وامنعـوهم مـن دخـول أرضـكم، وكونـوا حارسين لثغوركم وللمواقع والمنافذ التي يمكن أن يتسللوا منها.

واعلموا أن هذه العلاقة مع المشركين لا تعـود إلـى التغـاير فـي العـرق أو الانتسـاب القبلي أو إلى أي مقوم مـن مقومـات الاخـتلاف، لكـن تعـود إلـى تمسـكهم بالشـرك ورفض التوحيد ، ولذا فإنه إذا تابوا من الشرك وآمنـوا بـالله وأظهـروا صـدقهم بإقامـة الصلاة وإيتاء الزكاة ، فاتركوا لهم حريتهم، ومـا فـات مـنهم قبـل تـوبتهم لا يؤاخـذون به ، فإن الله غفور يقبل التوبة عن عباده، وهو رحيم بهم.

بيان المعنى العام :

1- براءة من الله من المشركين.

افتتحت السورة بكلمة براءة الدالة على أن مـا كـان يـربط بـين المسـلمين وبـين مـن عاهدوهم من المشركين قد انتهى. وأن الذي أنهـاه هـو الله، وأذن رسـوله أن يعلنـه فـي الناس. عقد النبي ﷺ معاهدات بينه وبـين المشـركين سـالمهم وسـالموه فيهـا. واسـتفاد من تلكم الموادعة توفير الظروف لنشر الدعوة ،حتـى إنـه خـرج إلـى حـرب الـروم. ومع اجتهاده في إقناع البشر بهدايـة الله، وبمـا فـتح الله بـه قلـوب كثيـر مـن النـاس للدخول في الإسـلام، تحققـت للمسـلمين قـوة تفـرض علـيهم مواقـف تتناسـب مـع أوضاعهم الجديدة. إن دعـوة الإسـلام تقـوم علـى أسـاس التوحيـد الخـالص، وهـدم الشرك. والإسلام والشرك متناقضـان لا يلتقيـان ولا يقبـل الإسـلام أن يهـادن الشـرك ويفسح له المجال للحركة والعمل. وقـد انضـاف إلـى ذلـك أن معظـم المعاهـدين مـن المشركين قد ظهرت منهم بـوادر تـدل علـى اسـتعدادهم لـنقض عهـودهم ، ومباغتـة المسلمين في الظروف الحرجة .فلا غنـى للإسـلام عـن الحـزم والحسـم. فجـاء هـذا

الإعلان الصارخ الواضح أن العهود التي كنتم وثقتموهـا (**إلـى الـذين عاهـدتم**) تبعـا لتوثيق الرسول لها، يعلن الله ورسوله بلوغها أمدها.

2- فسيحوا في الأرض ...مخزي الكافرين.

إن نقض تلكم العهود لا يدخل حيز التنفيـذ بمجـرد الإعـلان، بـل أذن لهـم أن يسـيروا في أرض الله أربعة أشهر ينسحب عليهم أمن العهود ولا يتعرض لهم المسلون .

لقد اختلف المفسرون في تعيين الأشهر الأربعة، والظاهر أنهـا مـن يـوم الحـج العاشـر من ذي الحجة إلى اليوم العاشر من ربيـع الثـاني مـن السـنة العاشـرة للهجـرة. ورأى بعضهم أن البداية من شوال تبعا لما ورد أن نزول بـراءة كـان فـي شـوال مـن السـنة التاسعة. ولا أرى لهذا الاختلاف أثرا، لأنّه حكم بلـغ منتهـاه فـي السـنة العاشـرة مـن الهجرة ولا أثر له بعد ذلك.

وذلكم الحسم والجزم قارنه تهديـد المشـركين، أيقظهـم مـن غفلـتهم بقولـه:(**اعلمـوا**) أنكم عاجزون عن حماية أنفسكم غيـر خـارجين عـن قـدرة الله التـي تلاحقكـم أينمـا كنتم. وأن الله مذلكم بسبب كفركم .

3-4: وأذان من الله ...يحب المتقين.

وإظهارا للجزم بهذا المفهوم الواضـح البـين أضـاف ضـبط الظـرف الـذي يـتم فيـه الإعلان، وهو يوم الحج الأكبر الذي يجتمع فيـه جميـع الحجـاج. وهـم يجتمعـون فـي عرفة، كما يجتمعون يوم العاشر في منى. وقام بهذه المهمـة أبـو بكـر الصـديق، وقـام بها علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، واستعان بأبي هريـرة فكـان يطـوف فـي منـازل قبائل العرب من منى.

ثم توجه الخطاب للمعاهدين من المشركين الـذين نقـض عهـدهم ، محرضـا لهـم علـى التوبة والدخول في الإسلام، بأن ذلك خير لهم ممـا كـانوا عليـه مـن أمـان العهـد ، إذ بالإسلام يحققون الأمـان والاهتـداء. وأنـذرهم أنهـم إن واصـلوا مـا هـم عليـه مـن الشرك، فإنهم لا ينفلتون من قبضة الله الذي يتصرف فـي كـل كـائن حسـب مـا قـدره وأراده. ثم التفت الخطاب إلى النبي ﷺ داعيا له أن ينذرهم بمـا تقـرر لهـم مـن عـذاب أليم شامل للقتل والسبي والإذلال، وعبر عن هـذا الإنـذار بالبشـارة تهكمـا، إذ البشـارة لا تكون إلا بما يحبه الإنسان وينتظر حصوله مشتاقا إليه.

واستثنت الآية المشركين الذين عاهدوا النبي ﷺ ، ووفـوا بمـا عاهـدوا عليـه ولـم يبـد منهم أي نكث ولا غدر، ولم يعينوا أحـدا علـى المسـلمين، ولـم يكيـدوا كيـدا يتضـرر منه المسلمون، فكانوا على حياد تـام مـوفين بمـا عاهـدوا. هـؤلاء أمـر المسـلمون أن

يكملوا لهم العهد الذي بينهم إلى الأجل الـذي وثـق بـه ولا يعـاجلوهم بحـرب ولا أذى. وأكد القرآن مراعاة الوفاء لهم بـأن حفـظ العهـد مـن موجبـات التقـوى، والله يحـب المتقين الذين يستحضرون في كل عمل يقومون به رضوان الله.

وفي هذا الاستثناء دليل على أن الذين تبرأ الله ورسـوله مـن عهـودهم، أنهـم مـا وفـوا بما وعدوا، وأن رسول الله قد اطلع على ما يبيتونـه، ومـا كـانوا يعدونـه فـي الخفـاء من الكيد للمسلمين وغدرهم .

5- فإذا انسلخ الأشهر ...غفور رحيم.

ثم تربصوا بالذين أعلن عن نهاية عهـودهم إلـى أن تنتهـي الأشـهر الأربعـة التـي أذن لهم فيها أن يسافروا في الأرض ويسيحوا فيها آمنـين. فبعـد انتهـاء تلـك الأشـهر، فقـد ذهب ما كـان لهـم مـن عهـد، فلكـم إن لقيتمـوهم أن تقتلـوهم، أو تأسـروهم، أو أن تضيقوا عليهم التقلب في الأرض فتمنعـوهم مـن سـلوك مسـالكها. وأُمِـرَ المؤمنـون أن يكونوا على حذر منهم يقظين للثغور، وللممرات التي يمكن أن يبغتوكم منها.

إن القوة التي دعيتم لمواجهة المشـركين بهـا، لـيس المـراد منهـا استئصـالهم ، ولكـن عونهم على الدخول في الإسلام . ولذا فإنهم إذا تـابوا مـن كفـرهم وخلعـوا مـا كـانوا يعبدونه من دون الله، وظهر من سلوكهم أنهـم صـادقون، وذلـك بإقامـة الصـلاة أهـم أمر في سلوك المسلم، وبأداء الزكاة المعلنـة عـن الانتسـاب للأمـة الإسـلامية بواسـطة الإسهام ومشاركة ذوي الحاجة والخصاصـة مـا يسـاعدهم علـى تحويـل وضـعهم، إذا تم ذلك فارفعوا عنهم جميع المضايقات ومكنوهم مـن العـيش فـي حريـة وأمـان. يغفـر للمذنب ذنبه إذا تاب وهو رحيم بعباده يساعدهم على التحول من الشر إلى الخير.

وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ
رَسُولِهِۦٓ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۖ فَمَا ٱسْتَقَٰمُوا۟ لَكُمْ فَٱسْتَقِيمُوا۟
لَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا۟ فِيكُمْ إِلًّا
وَلَا ذِمَّةًۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨﴾ ٱشْتَرَوْا۟
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا
يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِن
نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُم مِّنۢ بَعۡدِ عَهۡدِهِمۡ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمۡ فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلۡكُفۡرِ إِنَّهُمۡ لَآ
أَيۡمَٰنَ لَهُمۡ لَعَلَّهُمۡ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

استجارك : استأمنك .

المأمن : لمكان الذي يأمن فيه كدار قومه.

العلم :يطلق العلم في الكلام العربي على العقل وأصالة الرأي .

استقاموا : حسن المعاملة وترك القتال.

يظهروا عليكم : يغلبوكم وينتصروا عليكم.

الإل: النسب ،ويطلق على العهد .

الذمة : كل ما يجب أن يحفظ ويحمى.

الإباية : الامتناع.

نكثوا: نقضوا.

طعنوا : ثلبوا ونسبوه إلى النقص .

أئمة : جمع إمام وهو ما يجعل قدوة.

بيان المعنى الإجمالي :

هذا أمرٌ مفترض بيَّن القرآن حكمه، وهو أنه إن جاءك مشرك يطلب الدخول في جوارك وأمنك، فمكِّنه من الأمن واستمع لما يريد أن يبلغك واعرض عليه من كتاب الله ما يبلغ به حد فهمه ، ثم مكنه من العودة آمنا إلى قومه. ولا يضيرك إن هو سمع القرآن ولم يؤمن، ذلك أن الشرك يعطل العقول ويحجب عنها الحقيقة .

إنه لا عجب من إعلان القرآن انتهاء عهود المشركين مع الله ومع رسوله، وذلك لما يبيتونه من الغدر، ولا يستثنى من ذلك إلا الذين عاهدتموهم عند المسجد الحرام، فهؤلاء إن وفوا بما عاهدوكم عليه فوفوا لهم بعهودهم ، لأن هذا سلوك المتقين والله يحبهم .

إنه لا عجب من إعلان نقض عهود المشركين، ذلك أنهم قد انطووا على بغضكم، فلو انتصروا عليكم مرة فإنهم ينتقمون منكم ولا يراعون في النكال بكم عهدا ولا ذمة ولا قرابة أو جوارا. ما يحدثونكم به هو خلاف ما تضمره قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون لا يترفعون عن منازل النذالة.

ما قرره النبي ﷺ من الحقائق وبينها أتم بيان عـوض أن يثبتـوا عليـه بـاعوه وأخـذوا عوضه ثمنا قليلا من اللذائذ والفساد كشرب الخمـر والزنـا، فلزمـوا ذلـك ومنعـوا مـن يريد أن يتبع سبيل الله، ما أسوأ أعمالهم. لبغضـهم للمسـلمين هـم لا يراعـون فـي كـل مؤمن عهدا ولا ذمة مـن جـوار ولا قرابـة ،همهـم الـذي عقـدوا عليـه أنفسـهم هـو الاعتداء على المؤمنين.

ويسلس القرآن لهم طريق الهدى، فيعلمهم أنهم إن تـابوا مـن الشـرك وأظهـروا تـوبتهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكـاة، فتـوبتهم تمحـو مـا صـدر عـنهم مـن الآثـام وتنقلـب علاقتهم بكم إلى علاقة الأخـوة الجامعـة فـي الـدين الـذي يـذهب أي أثـر للخـلاف، وهكذا يفصل القرآن الآيات الهادية للقوم الذين لهم عقول راشدة.

وعليكم إن نكثوا أيمانهم وتجرأوا فطعنوا فـي ديـنكم ديـن الإسـلام ، فـاحزموا أمـركم وقاتلوهم، إنهم أصبحوا بذلك دعاة للكفر متبوعين، أيمـانهم كالعـدم. لعلـه بأخـذ أمـركم بالحزم أن ينتهي الشرك. وكذلك كان قد انتهى الشـرك مـن جزيـرة العـرب بعـد فـتح مكة وبعد عام الوفود.

بيان المعنى العام :

6←12: وإن أحد من المشركين...لعلهم ينتهون.

يوالي القرآن ضبط أحكام علاقة المسلين بالمشركين فبين :

أولا: أنه إن طلب منك مشرك أن تأمنه ليسمع كـلام الله بمخالطتـه لـك فـي مجالسـك ، وليبلغك ما يريد إبلاغه في سفارة أو غيرهـا ، وليقـيم عنـدك مـدة تـرى فـي إقامتـه عندك خيرا ، وترجح أن ذلك محقق لمصلحة مـن مصـالح المسـلمين، إن تحقـق هـذا الفرض في الواقع ، فأنت مأذون في الإيفاء له بمـا طلـب منـك مـن جـوار، ثـم بعـد اطلاعه على نمط حياة المسلمين، وبعد فهمه للقـرآن، إن هـو أراد أن يعـود إلـى قومـه الذين يأمن عندهم ، فلا تغدر بـه ومكنـه مـن ذلـك. إن عـدم إيمـانهم بعـد اسـتماعهم للقرآن واطلاعهم على نظافة المجتمع الإسـلامي وسـموه، إن عـدم إيمـانهم هـو بسـبب ضعف مداركهم العقلية، وفساد تفكيرهم بما ران عليه من ظلام الشرك .

ثانيا :لا عجب من إعلان الله نقض العهود التي كانـت بيـنكم وبـين المشـركين، إنـه لا وجه لأن يكون للمشركين على فساد عقيـدتهم ومكـرهم بـالمؤمنين وتبييـت الخيانـة أن يكون لهم عهد محترم عند الله وعند رسوله.

ثالثا :يستثنى من المشركين الـذين عاهـدتموهم عنـد المسـجد الحـرام، فتأكـد ميثـاقهم بالمكان المقدس الذي عقد فيه (المسجد الحرام) وبوفائهم لعهـدكم فلـم تبـدر مـنهم خيانـة

صغيرة ولا كبيرة. فهؤلاء الواجب عليكم أن توفــوا لهــم بعهــدهم كمــا وفــوا بعهــدكم ، وهي الاستقامة وعدم الالتواء .وهذه الاستقامة هي رشــح التقــوى، وأنــتم أمــة الإســلام، التقوى عنصر هام في بنائكم الخلقي والسلوكي، والله يحبكم لتلكم التقوى.

وقد اختلف المفسرون في تعيين هؤلاء المعاهــدين عنــد المســجد الحــرام، ولا أريــد أن أتابع ذلك لأنه حكم مضبوط بمكان وظروف معينة لا تتجدد.

رابعــا: إنه لا وجه للتساؤل عن إعلان نقض العهــود مــع المشــركين، فــإن قلــوبهم قــد امتلأت غيظا عليكم ، إنهم لو تمكنوا مــنكم فإنــه لا يشــفي غــيظهم إلا التنكيــل بكــم لا يراعون فيكم ما التزموا به من العهــود ولا يمــنعهم صــلة قرابــة ولا مــا جــرت بــه الأعراف من اعتبار أواصر الصحبة أو الجوار .

خامسا: عرى القرآن ما يسترون به بــواطنهم مــن فســاد ، هــم يتكلمــون معكــم بمــا يطمئنكم كي لا تأخذوا حذركم ،فهم يكيدون لكم، وقلــوبهم منطويــة علــى الغــدر وعلــى الكراهية، تمنعهم من مهادنتكم أو الصــدق معكــم . وإذا نَقَّبْــتَ عــن أخلاقهــم وتــربيتهم وسلوكهم، تجد أكثرهم فاسقين خارجين عن المروءة والشهامة والحياء.

يوضح فسادهم وفسقهم حتى أصبح الانحراف طبعا فــيهم، أنهــم بعــد أن عــرض علــيهم النبي ﷺ آيات الكتاب ، ولفت أنظارهم إلى ما في الكون مــن دلائــل التوحيــد ،وقــد بلّــغ وأزال كل شبهة حتى أصبح ما عرضه عليهم، لــو لــم يعقــدوا قلــوبهم علــى الــرفض، ملكا لهم لموافقته للفطرة وللحق، ولكــنهم بــاعوا هــذا المكســب الــذي يهــدي عقــولهم ويصلح أرواحهم ،باعوا ذلك بــثمن قليــل هــو إقبــالهم علــى شــهواتهم وعلــى ملــذات عاقبتها شر كشرب الخمر والزنا. ما أسوأ ما التزموه من الأعمال !

سادسا: عداوتهم تمكنت لكــل مــؤمن، لا يختلــف عنــدهم مــؤمن عــن مــؤمن آخــر ، تأصل شرهم لكل من حــل قلبــه الإيمــان فــلا يراعــون عهــدا ولا قرابــة ولا ذمامــا. تأصل حب الاعتداء في طباعهم ، وما نقموا منهم إلا إيمانهم .

سابعا: يدعوهم القرآن ليقلعــوا عمــا هــم عليــه، ويقــرن التحــذير والإنــذار بالبشــارة والتيسير. إن خروجهم من الوضع الذي هم عليه، وتمكينهم من كــل مــا هــو حــق لكــل مؤمن من الأمن، مرتبط بتوبتهم من الشرك وطــرح اتخــاذ آلهــة مــن دون الله، وإبــراز هذه التوبة عمليا بإقامة الصــلاة والإســهام فــي تحمــل رفــع الحاجــة عــن المحتــاجين وبذل الزكاة في مصــارفها. إنهــم إن فعلــوا ذلــك ســقط مــا فصــلهم عــنكم، وتعتبــر علاقتكم بهم علاقة الأخوة الإيمانية التي يتكامل فيهــا كــل مــؤمن مــع المــؤمن مثلــه ، هي الأخــوة الدينيــة التــي يتحــد فيهــا المؤمنــون فــي المفــاهيم الإيمانيــة والأخــلاق

والسلوك. وهكذا يعنى القرآن ببيان الأدلــة ويرفــع الشــبه، ويأخــذ بــالأنفس فــي رفــق ولين، ولكن لا ينتفع بمنهجــه إلا القــوم الــذين يعملــون عقــولهم فيصــلون بهــا إلــى صفاء الرؤية معرفة الحق .

ثامنا: مد لهم القرآن ما ييسر لهم الدخول في الإســلام ،ووضــح لهــم مــا يجنونــه مــن ذلك في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، معلنا في وضــوح أن المشــركين إذا هــم نقضــوا مــا عاهدوا عليه، واعتبروا الأيمــان التــي أكــدوا بهــا مــواثيقهم كأنهــا لــم تصــدر مــنهم فألغوها، وجاوزوا ذلك إلى الطعــن فيمــا تضــمنه الــدين فقلبــوا الحقــائق إغراقــا فــي التضليل والعداء، فالواجب عليكم أن توقفوهم عــن الإذايــة، وأن تشــنوا علــيهم الحــرب التي تذلهم وتقطع شرهم، إنهم بوقــاحتهم وجــراءتهم أصــبحوا قــادة متبعــين فاســدين لا ميثاق لهم ولا عهــد ولا أيمــان. فــاحزموا أمــركم ولا تتــرددوا، لعلهــم ينتهــون عــن فسادهم، أو ينتهي وجودهم من الكون. وهذا ما كان، فإنه بعــد ســنة الوفــود وفــتح مكــة انتهى الشرك من جزيرة العرب.

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوۡمٗا نَّكَثُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ وَهَمُّواْ بِإِخۡرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمۡ أَوَّلَ
مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ
بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذۡهِبۡ
غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تُتۡرَكُواْ
وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَلَمۡ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَلِيجَةٗۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ
مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ
خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ
وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الهم : العزم على فعل شيء.

الغيظ: الغضب المشوب بإرادة الانتقام.

الخزي :الإذلال .

الوليجة : مأخوذة من الولوج، وهو ما يخفيه صــاحبه مــن مكــر فيدخلــه ويعمــي عليــه حتى لا يتفطن له .فهو نوع من الخديعة.

يعمروا مساجد الله :العبادة فيها والقيام على ما يمكن العابدين.

بيان المعنى الإجمالي :

حرض القرآن المؤمنين على قتال النــاكثين للعهــود ،الــذين دبــروا كــل شــنيعة للكيــد للإسلام حتى إنهم في غزوة أحد وفي غزوة الخندق كــانوا يرمــون إلــى الضــغط علــى رسول الله ليخرج من المدينة لتكون الضــربة القاضــية علــى الإســلام .ورد الله كيــدهم في نحرهم. وحذر المجاهدين من التــردد وأن يحزمــوا أمــرهم، فــلا موجــب للخــوف منهم، فإن الله الذي أمــركم بقتــالهم أحــق بــأن تخشــوا عصــيانه. وهــذا مــا يقتضــيه الإيمان.

ثم صرح بالأمر بقتال الناكثين مرتبا علــى قتــالهم أن الله ســيعذبهم نفســيا وجسـديا بمــا يعينكم عليهم ، ويذلهم ، ويحقق لكم النصر عليهم ،ويشــفي مــا كــان فــي صــدور قــوم مؤمنين من التحرق عليهم بسبب ما آذوهــم مــن ناحيــة واحتــرام العهــود التــي بيــنهم وبين رسول الله ﷺ من ناحية أخرى، وينزل السكينة في قلوبهم بعد التحرق .

والله هو العليم بما ستؤول إليه الأمور فيتوب علــى مــن يشــاء ويدخلــه فــي رحمتــه ، وكل ما يصدر عنه سبحانه هو داخل تحت حكمتــه التــي تضــع الأمــور فــي نصــابها الحق .

حرض القرآن من كان حول النبي ﷺ علــى قتــال النــاكثين، وأيقظهــم إلــى أن علــيهم أن لا يظنوا أن الله حط عنهم الجهاد بفتح مكة ،فإن الله يريــد أن يظهــر مــنكم مــا ســبق في علمه، فيبرز في الواقع الصادقين فــي الجهــاد مــنكم، الــذين لــم يخــدعوا بــالتزلف للمشركين والتودد لهم واطلاعهم على أســرار المــؤمنين، ذلــك أن بعــض مــن تنــاولهم الخطاب كانوا من المنــافقين .والله لا يفوتــه شــيء، لا مــن ظــواهر أعمــالكم ولا مــن بواطنها يعلمها علما مستويا.

إنه لا يوجد وجه يمكن المشركين من عمــارة المســاجد لا بالعبــادة ولا بالقيــام عليهــا، حالة كون ما يعتقدونه وما يقومون به يشــهد بكفــرهم بــالله ،إن جميــع أعمــالهم باطلــة لا أثر خير لها ، فيأتون يوم القيامة وما قــدموا خيــرا فــي حيــاتهم، وجــزاؤهم الخلــود في النار .ولكن الذي شرفهم الله بعمارة مساجد الله هم الــذين جمعــوا بــين الإيمــان بــالله واليوم الآخر، وأظهروا انتسابهم للإسلام بالصــلاة والزكــاة، وأخلصــوا لله فــلا يخشــون أحدا إلا هو. إنهم الذين يرجى لهم أن يكونوا قد اهتدوا.

بيان المعنى العام :

13-ألا تقاتلون ...إن كنتم مؤمنين.

حرض القرآن المؤمنين علـى قتـال المشـركين النـاكثين، وأزال مـا يمكـن أن يـدخل قلوبهم من تردد أو خوف، إن على المـؤمنين أن يسـتعدوا وأن ينـدفعوا لحـربهم بكـل ثقـة ، مستحضـرين مـا فعلـوه، إنكـم عاهـدتموهم فعملـوا علـى خـداعكم وبيتـوا الانقضاض عليكم وأنتم غافلون، بل أكبـر مـن ذلـك فهـم قـد عزمـوا علـى إخـراج الرسول من المدينة لتكون الضـربة القاصـمة للإسـلام ،هيـأوا فـي أنفسـهم هـذا فـي غزوة أحد وفي غزوة الأحزاب. ولكن الله رد كيـدهم فـي نحـرهم. هـم الـذين بـدؤوكم بنقض المواثيق التي كانت أمانا بينكم.

انهضوا لقتـالهم واحزمـوا أمـركم ولا تتـرددوا، إنـه لا مبـرر للتـردد أو الخـوف ، أتخشون بأس الناقضين، والله الذي شدد عليكم في قتالهم أحـق بـأن تخشـوا عـدم تنفيـذ أمره ،إن الإيمان لا خيرة فيما يوجبه ويحتمـه ، والإنسـان إمـا مـؤمن يقتضـي إيمانـه وجوب الطاعة وتنفيذ الأمر، وإما غير مـؤمن فهـو تـابع لهـواه. فـالتردد فـي الإقـدام على قتالهم يجعل إيمانكم محتملا. وفي ختـام الآيـة بقولـه تعـالى :**(إن كنـتم مـؤمنين)** أبلغ تحريض ودفع لقتالهم فليس المقصود الشك في إيمـانهم، ولكـن الإثـارة علـى أبلـغ وجه كأن تقول لمتردد أقدم إن كنت رجلا .

14←16: قاتلوهم...والله خبير بما تعملون.

بعد أن حرضهم القرآن على قتـال النـاكثين للعهـود، صـرح بـالأمر الجـازم بمباشـرة قتالهم: قاتلوهم. ثم أفصح عما يترتب على قتالهم مـن فوائـد عظيمـة قـدر الله تكـريم المؤمنين المجاهدين بها وهي خمسة:

أولا : تعذيب الكـافرين بأيـدي المجاهـدين، ولـم يفصـل التعـذيب لشموله التعـذيب النفسي بحلول الرعب والخوف في قلـوبهم واستحضـارهم للضـعف، والعـذاب البـدني بما يلحقهم من قتل أو جراح .

ثانيـا: أن الله يخزيهم، فيذلهم ويزيل ما كانوا يجدونـه فـي نفوسـهم مـن عـزة وإدلال، وذلك أول مراحل الهزيمة والانكسار .

ثالثا : بعد ضربهم بما يحطم معنوياتهم يحقـق لكـم الله النصـر علـيهم نصـرا واضـحا يشتت جمعهم.

رابعا: يدخل البهجة في صـدور قـوم مـؤمنين، هـؤلاء الـذين آذاهـم النـاكثون للعهـد بمختلف أنواع الإذاية وكانت صرامة الإسلام تمـنعهم مـن الـرد علـيهم، فـاليوم إذ أذن

لكم في القتال ، فإن الله يشفي ما كان في صدورهم بالتنكيـل بهـم ومشـاهدة مـا ذكرتـه الآية حالا بهم .

خامسا: أنهم بعد ما يحل بالناكثين ،ويدخل البهجة علـى قلـوب المـؤمنين، لا يبقـي فـي قلوب المؤمنين أي تحرق على ما أوذوا به، كما يذهب كل أثـر مـن الغـيظ الـذي كـان يشتعل في بواطنهم ، بمعنى أن الله ينزل السكينة في قلوبهم.

إن ما وعد الله بـه المـؤمنين المسـتجيبين لـدعوة الله لقتـال النـاكثين، لا ينـافي أن الله يفتح باب التوبة للتـائبين مـنهم. إن فضـله سـبحانه علـى عبـاده لعظـيم، ولا ييـأس المؤمن من هداية الله حتى لأقسى الكافرين غلظـة وفسـادا .فإنـه سـبحانه يتـوب علـى من أسرع تائبا إليه معترفا بذنوبه مطرحا لهـا. والله علـيم بمـا تنطـوي عليـه الصـدور والمآلات المغيبة التي لا تصل إليها مـدارك البشـر. وهـو يجـري كـل ذلـك بحكمتـه البالغة.

ثم تثنى القرآن بحض المؤمنين علـى الجهـاد بطريقـة أخـرى تسـتحثهم ، وتعـرفهم أن الله كتب عليهم الجهاد، وأنه سبحانه يسجل استجابة كل فـرد لهـذا الأمـر المحـتم، الـذي دل عليه قوله قاتلوهم يعـذبهم الله بأيديكم.....الطريقـة البديعـة فـي هـذا النـداء للقتـال افتتحه بما معناه: أتظنون أنه بعد فـتح مكـة أن لا يلحقكـم الأمـر بالاسـتعداد والجهـاد، وأن يترككم الله غير مطالبين بالقيـام بهـذا الواجـب، والحـال أن الله لمـا يطلـع علـى تحقق ما قدره في علمه مـن قيـام المجاهـدين بالجهـاد. ولَمَّـا هـي أخـت لَـمْ، إلا أن الفارق بينهما دقيق، فكلاهما لنفي مضمون الفعـل الـوارد بعـدهما، إلا أن لـم تنفـي مـا بعدها نفيا قاطعا في المستقبل، ولما تفيد توقع حصول الفعل المنفـي بهـا. فـإذا قلـت لـم يأتي محمد فمدلول ذلك نفي قدومه، وإذا قلت لمـا يـأتي فمـدلول ذلـك عـدم قُدُومِـهِ مع توقع أن يحصل. فتفيد الآية توقع استجابة المـؤمنين لمـا حـثهم عليـه مـن القتـال، كما يعلم بالفعل الذين صدقوا في القتـال، ولـم يـدخلوا فـي مـواقفهم القتاليـة مكـامن يخفونها يسترون وراءها خـداعهم كـإغراء الأعـداء بالمسـلمين، والكشـف لهـم عمـا يعلمونه من أسرار المؤمنين. وحتى يكون المعنى واضـحا أقـول: إن الآيـة دعـت كـل من تألف منهم المجتمع حول رسـول الله ﷺ، وفـيهم المؤمنـون والمنـافقون، يعلمهـم أن عليهم أن يكونوا يقظين مستعدين للقتال. وهذا الحث يتبـين بـه فـي الواقـع الـذين علـم الله في الأزل أنهـم يسـرعون إلـى القتـال صـادقين لا يشـوب قتـالهم أي خديعـة ولا مكر، ويظهر المنافقين الذين تنطوي نفوسهم علـى الكيـد للمسـلمين فهـم متثـاقلون عـن القتال عيون لأعداء الإسلام، فظهر بهـذا الحـث الغايـة التـي مـن أجلهـا ورد. وتخـتم

الآية بما يؤكد مضمونها أن الله خبير بما تعملــون، فـلا يشــتبه عليــه عمــل الصـــادقين بعمل المنافقين المخادعين .

17- ما كان للمشركين...هم خالدون.

ثم انتقل القرآن لبيان ما يترتب على الكفر زيــادة علـــى قتـــال النـــاكثين، فصـــرح معلنـــا أن الكافرين بما هم عليه مـــن إنكـــار للوحدانيـــة، وعبـــادتهم للأصـــنام وعـــدم احتـــرامهم للمقدسات بما أدخلوه من خيـــالات تتـــافي مـــا لتلـــك المقدســـات مـــن احتـــرام كطـــوافهم بالبيت عراة ، هم بهذا الوضع غيـــر مـــؤهلين لأن يعمـــروا مســـاجد الله التـــي خصصـــها الله لعبادته ، فلا يحق لهم أن يعبدوا فيها، ولا أن يقومـــوا علـــى تنظـــيم عبـــادة العابـــدين، وبهذا قطع القرآن بين الكافرين وبين المســـجد الحـــرام، وكـــذلك بقيـــة المســـاجد. وســـجل عليهم أنهم شاهدون على أنفسهم بـــالكفر بمـــا يقولونـــه ومـــا يفعلونـــه. علـــى معنـــى أن تمكينهم من العبادة فيها يتناقض مع أقوالهم وأفعـــالهم ومـــع رفضـــهم للتوحيـــد. والنتيجـــة من تمسكهم بعقائدهم الضالة أن أعمالهم بطلـــت فـــلا أثـــر لهـــا لا فـــي إصـــلاح نفوســـهم ولا في انتفاعهم بها يوم القيامة، فيقدمون بصـــحف لـــم يســـجل فيهـــا أي عمـــل صـــالح، فيكون الجزاء العدل خلودهم في النار.

18- إنما يعمر مساجد الله من المهتدين.

إذ تبين أن المشركين غيـــر مـــؤهلين لعمـــارة مســـاجد الله وأن الواجـــب إقصـــاؤهم عـــن هذه المهمة الشريفة، كان من تمام البيان ضبط من هو مؤهـــل لـــذلك .وهـــو مـــن جمـــع الصفات التالية:

1) الإيمان بالله واحدا لا شريك له حقيق بأن يعبد وأن يتقرب إليه.

2) الإيمان باليوم الآخر إيمانا يجعل صـــاحبه مقـــدرا أن كـــل أعمالـــه سيحاســـب عليهـــا ثم يجزى، حتى تكون الرقابة الذاتية على أقواله وأفعاله رقابة ذاتية مسترسلة.

3) إقامة الصلاة وإيتاء الزكـــاة. حتـــى يكـــون الـــذي يعمـــرون مســـاجد الله المطبقـــون لشريعة الإسلام وحدهم.

4) يجمع هذه الأركـــان الأربعـــة أن يكـــون المـــؤمن الـــذي لـــه أن يعمـــر مســـاجد الله شجاعا لا يخشى إلا الله وحده تبعا لإيمانـــه أنـــه لا نـــافع إلا هـــو ولا ضـــار إلا هـــو. إن هؤلاء هم وحدهم الذين يرجى لهم تحقق انتسابهم إلى الأمة المهتدية.

۞ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ

ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

السقاية : سقاية الحاج من زمزم .

عمارة المسجد : القيام على إصلاحه وحراسته.

التبشير : إعلام المبَشَر بما يسره ولم يكن يتوقعه.

الرضوان : الرضا القوي.

النعيم : ما تلتذ به النفس من الملاذ المحسوسة.

المقيم : المستمر غير المنقطع.

بيان المعنى الإجمالي :

وازن بعضهم بين القيام على السقاية وعمارة المسجد الحرام، وبين السبق إلى الإيمان والهجرة والجهاد في سبيل الله، فرأوا أنهما في مقام واحد، فرد الله عليهم بأن هذا ميزان مختل وأنه لا مساواة بين الفريقين، فإن بعض الذين قاموا بذلك كانوا ظالمين بكفرهم، والله لا يهدي الظالمين، إذ هم محرمون في وقت كفرهم من هداية الله فكيف يستوون مع من نالوا من الهداية أعظم نصيب ؟

ثم حقق القرآن أن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم هم في أعظم درجة من الكمال، وهم المتفردون بالفوز. تولى الله بنفسه العناية بهم فبشرهم برحمة خالصة منه، والرضا الكامل عنهم، وبالجنات التي أعدها لعباده الصالحين ينعمون فيها بمختلف ضروب النعيم الذي لا ينقطع، فهم خالدون في درا الكرامة خلودا أبديا. وفضل الله عظيم .

بيان المعنى العام :

19- أجعلتم سقاية الحاج...القوم الظالمين.

لقد كان للمسجد الحرام قداسته التي توارثتها قريش من عهد إبراهيم عليه السلام، وكانت تبعا لذلك تعتز بمساعدة الحجاج والعمار. ومن الوظائف التي كانوا يقومون بها ويرون فيها شرفا لمن يتولاها، وبقيت بعد فتح مكة، القيام على سقيا المقيمين لأداء المناسك، وكان العباس بن عبد المطلب متولي السقاية من زمزم عند الفتح.

وكذلك حفظ البيت ستائرها ومفتاحها وكان المتـولي لـذلك يـوم فـتح مكـة عثمـان بـن طلحة وابنه شيبة من بني عبد الدار. وقد أقامهما النبـي ﷺ علـى مهامهمـا، ومـا يـزال إلى اليوم مفتاح الكعبة بيد أحفاد شـيبة. هـذه مهـام نـوه الإسـلام بشـرف القيـام بهـا. وجرى بناء على ذلك في المجالس بـين المـؤمنين مفاضـلة بـين القيـام علـى السـقاية وسدنة البيت، وبين ما قام بـه المهـاجرون الأولـون . ولعـل بعضـهم تطـاول إلـى أن قيامه على خدمة بيت الله الحرام أو سقاية الحاج لا تقل قيمـة وأثـرا عـن الهجـرة ومـا صاحبها. وهنا قد اختل الميزان .إن ميزان القـيم هـو بيـد مـدبر الكـون رب العـالمين، فأرجع سبحانه الحق إلى نصـابه، ورد علـى مـن ادعـى التسـوية، وأنكـر علـيهم أن يجعلوا سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام في مرتبـة تسـاوي مـن آمـن بـالله واليـوم الآخر فصفى عقيدته من لوثة الشرك ، وتعلق نظـره بفضـل الله وجزائـه يـوم القيامـة، ثم ارتقى فثبت تلكم القيم في الكون بجهاده. إنـه شـتان مـا بـين الصـورتين؛ فَحَكَـمَ الله بأنه لا مساواة بينهما في الميـزان الحـق عنـد الله. وإذا كـان مـن المعلـوم أن أعظـم الظلم الشرك بالله، فإن الذين لم يؤمنوا هم على غيـر هدايـة مـن الله بسـبب ظلمهـم ولا وزن لما قاموا به من عمارة وسقيا.

20←21: الذين آمنوا ....أجر عظيم .

ثم صرح القرآن بتميزهم فتتبـع أوصـافهم الرفيعـة ، إنهـم آمنـوا بمحمـد ومـا أنـزل عليه، وبلغ حبهم للإيمان وللرسول أن فضـلوا تـرك منـازلهم ومـوطنهم منضـمين إلـى رسول الله حيث كان فهاجروا إلى المدينة المنورة، ولم تكـن هجـرتهم تحـولا مـن بلـد لا أمان لهم فيه إلى بلد يتوفر فيه الأمن علـى أمـوالهم وأعراضـهم ، بـل إنهـم اتخـذوا من مجتمعهم الجديد منطلقا لنشر ديـن الله والـذود عنـه بالجهـاد بـالأموال والأنفـس، إن هذه الصورة الرفيعة التي جلاها القـرآن لتهـيء إلـى النتيجـة: إنهـم أعظـم درجـة عند الله لا يساويهم ولا يدانيهم من لم يجمع ما جمعـوا مـن الكمـالات ، وقـد اختصـوا بالفوز الذي لا تشوبه شائبة .

إن عناية الله بهم فتحت لهم من أبواب الكرامـة الشـيء الكثيـر، فقـد تـولى الله بنفسـه تبشيرهم وإدخال المسرة عليهم فقربهم إليـه معبـرا عـن صـلته بهـم بأنـه ربهـم بمـا تتضمنه كلمة الرب من الرعاية واللطـف والتربيـة، فبمـا ذا يـوالي علـيهم البشـارات ، تتضمن البشارات :

1) نزول رحمته عليهم، رحمة فيها عناية خاصة ومنسوبة إليه للدلالة على كمالها.

2) رضوانه عليهم، والرضوان هو الدرجة العالية من الرضا. وذلك مرتبة فوق الرحمة لأن الرضوان يتضمن شعور المرضي عليه بالقرب وأن منزلته عند ربه منزلة متميزة.

3) تحقق حسن العاقبة بدخولهم في الآخرة الجنات التي أعدها الله للصالحين من عبيده، هذه الجنات التي يجدون فيها ما تستطيبه نفوسهم وتلتذ به حواسهم، بصفة لا يلحقها انقطاع، خالدين في تلكم الكرامات خلودا أبديا. يؤكد ذلك أن الله عنده أجر عظيم يتجاوز الوصف ويسمو عن الخيال .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ
عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ
وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ
كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ
فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ لَقَدۡ
نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٖ وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ
عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا وَضَاقَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ ثُمَّ وَلَّيۡتُم مُّدۡبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ
أَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَا وَعَذَّبَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن
يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الولي :الصديق المناصر.

استحبوا : تمكن حبهم.

العشيرة : الأقارب الأدنون .

أموال اقترفتموها: أموال اكتسبتموها.

مواطن كثيرة : مواقع حروب كثيرة .

حنين : اسم واد بين مكة والطائف.

السكينة : الثبات واطمئنان النفس .

بيان المعنى الإجمالي :

نهت الآية المؤمنين عن التقـرب للآبــاء والإخــوان إن تمكــن الكفــر مــن قلــوبهم فـلا ينصرونهم ولا يخلصون في حبهم ولا يفضـــون إلـيهم بالأســرار. وليحــذر مــن تــولاهم مع تمكن الكفر منهم بأن ذلك يجعله عند الله ظالما.

ثم أمر رسوله ﷺ أن ينبههم بأنه لا خيرة فـي الأمــر، فإمــا أن يقـدم الإنســان حــب الله ورسوله وجهاد في سبيله، على حــب الأســرة بمــا تشــمله مــن آبــاء وأبنــاء وإخــوان وعشيرة ، وعلى حب ما جمعـــه مــن مـــال اكتســبه بعملــه واجتهــاده، وعلــى التعلــق بالتجارة النافقة التي تدخل البهجــة علــى مــن اسـتولى عليــه المــال، وعلــى التعلــق بالمسكن الجامع لما يــبهج الــنفس فتجــد فيــه الإقامـــة الراضــية. فمــن قــدم حــب الله ورسوله والجهاد في سبيله علــى المغريــات الأخــرى ســعد، ومــن تعلــق بالمغريــات وقدمها، فعليه أن ينتظر ما سيحل به من مصائب بســبب ســخط الله عليــه. وهــو بــذلك فاسق لا يأمل في هداية الله.

ثم ذكر القرآن المؤمنين بعنايته بهم، وأنـــه يســر لهــم أســباب النصــر فانتصــروا فــي حروبهم مع الكافرين. وفصل ما تم في حربهم مــع هــوازن فــي حنــين بعــد انتصــارهم العظيم وفتح مكة. إذ تقدم الجيش الإسلامي مزهــوا بكثرتــه للقــاء هــوازن ومــن انضــم إليهم من العرب الذين تغيظوا من فتح مكة. وتوزعــوا فــي مكــامن مــن حنــين ،وكــان الجيش الإسلامي يسير في أمنة، فباغته المهاجمون مــن كــل مكــان، فاضــطرب أمــرهم اضطرابا جعلهم يحسون كأنهم محاصرون، ولم يبــق لهــم فــي الأرض فســحة، ففــروا، وثبت رسول الله ﷺ، ونادى في المؤمنين أن أقبلوا فالتحق بــه عــدد غيــر كثيــر، وأنــزل الله السكينة في قلب رسول الله وفــي قلــوب المــؤمنين بعــد ذلــك وأيــدهم بجنــود مــن الملائكة يقذفون في قلوب الأعــداء الرعــب والخــوف ،فتمكنــوا مــن الانتصــار علــيهم انتصارا مكنهم من سبيهم ومن الاســتيلاء علــى ســلاحهم ومتــاعهم ومــن قتــل كثيــر منهم، فانهزموا شر هزيمة.

ثم أخبر الله أنه يتوب على من تاب، وأن تسليطه للمــؤمنين علــى الكــافرين الغايــة منــه كسر شوكة الكفر. وأن الله غفور رحيم بعبــاده. وفعــلا فإنــه بعــد أن انتهــت المعركــة وقفل ﷺ ومعه الغنـــائم الــوفيرة، قــدمت هــوازن تائبــة ترجــو الصــفح عنهــا وقبــول إسلامها ورد السبايا. وأكرمهم ﷺ ورد عليهم ســباياهم، ثــم التحــق بهــم قائــدهم معلنــا

إسلامه فقبله رسول الله ﷺ وأكرمه بـرد مـا لــه ونفلــه بمائـــة مــن الإبــل وولاه علـــى قومه. فأصبح درعا للإسلام وكذلك يتوب الله على من يشاء.

بيان المعنى العام :

23←24: يا أيها الذين آمون لا تتخذوا...لا يهدي القوم الفاسقين.

اهتمت سورة الأنفال بضبط أســس العلاقـــة التـــي يرضـــى الله عنهـــا ويؤكـــد حقوقهـــا، والتي لا يعتبرها ويلغيها، وذلك في قوله تعـــالى: **إن الـــذين آمنـــوا وهـــاجروا وجاهـــدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصـــروا أولئـــك بعضـــهم أوليـــاء بعـــض ..... والذين كفروا بعضهم أوليـــاء بعـــض)**[1] وســـورة الأنفـــال وســـورة بـــراءة بينهمـــا ترابط في كثير من الأغـــراض والأحكـــام. فكانـــت هـــذه الآيـــات تعمـــق وجهـــة النظـــر القرآني في العلاقات البشرية. ومن أهم العلاقات التي فطـــر عليهـــا البشـــر مـــا يحصـــل منها بسب النسب، وأقواها ما يحصـــل فـــي نطـــاق الأســـرة القريبـــة. إن هـــذه العلاقـــات تؤثر في ميول الفرد وعواطفه، مما يفضي إلى النصـــر والبـــوح بالأســـرار والـــود .ولمـــا كان المجتمع الإسلامي بقرب ولادته وتكونـــه، وكـــان بعـــض المســـلمين ينتســـبون إلـــى أسر لم تتخلص جميع أفرادها من الشـــرك، وكانـــت هـــذه العواطـــف ربمـــا يكـــون لهـــا أثرها في الرابطة الجامعة بيـــنهم وبـــين المـــؤمنين، لـــذلك دعـــا الله المـــؤمنين بوصـــف الإيمان ليلحظوا أن علاقتهم بأفراد أســـرهم مـــن آبـــاء وإخـــوة تفقـــد قيمتهـــا وتهتـــز إذا تمكن الكفر منهم تمكنا قويا ، فـــلا ينصـــرونهم ولا ينتصـــرون بهـــم ولا يفضـــون إلـــيهم بأسرارهم ،إنه لا موالاة بينهم وبينهم .واحذروا فإن مـــن تراخـــي فـــي هـــذا الأمـــر وشـــد ارتباطه بالكافرين من أسرته ، فإنـــه يعتبـــر ظالمـــا فـــي ميـــزان الله .وقـــد تـــوالى فـــي القرآن جزاء الظالمين ومقتهم.

ثم يتوجه الخطاب للنبي ﷺ لينبههم ويوالي التحذير، يأمره أن يقول لهم قولا بينا لا غموض فيه، يقول لهم: هذه موازنة لا تقبل أن يكون أحد طرفيها مختلطا بالطرف الآخر.

الطرف الأول ويشمل :

1)حب الله بما يقتضيه من بغض كل من يطرح أوامره، ولا يخلص إليه، أو يعبد شيئا سواه.

2)حب رسوله باتّباع أوامره واجتناب ما ينهى عنـــه ، فيكـــون الله ورســـوله أحـــب إليـــه مما سواهما، وكلما تقابل حب الله ورسوله بداعية حـــب تقتضـــي تـــأخير التعلـــق قاومهـــا ورفضها وأخلص حبه لله ورسوله .

---

[1] سورة الأنفال آية **74/73**

3) حب الجهاد في سبيل نصرة الإسلام وإعزازه لا يشح بمال ولا يخشى الموت .
الطرف الثاني ويشمل :
1)التعلق بأي عضو من أعضاء الأسرة، تعلقـا يجعلــه مقـدما علـــى مقومـــات الطــرف الأول، بما تضمه من آباء وأبناء، وإخوان، وأزواج. وعشيرة.
2) التعلق بالمال الذي اكتسبه ، ولا شك أن المال الذي اكتسبه صاحبه بتدبيره وعمله، أعز على النفس من المال الموروث الذي لم ينشئه صاحبه ولم يبنه وحدة وحدة.
3) الحركة الاقتصادية والخوف من الكساد ،بما يدخله النشــاط النـــاجح مـــن بهجـــة علـــى النفس ،وبعث لعريض الآمال.
4) المسكن المريح الذي يجد فيه ساكنه رفاهيته وراحته .
هذه المجموعة الثانية عزيزة على النفس قد يطغى حبهـا فيملـك كـل مشـاعر الإنســان، ويكون الاختيــار عســيرا عنـدما يحضــر الاختيــار بينهــا وبــين المجموعـــة الأولـــى. وبتفضيل الإنسان إحداهما على الأخرى يكون حظ الإنسان من سعادته أو شقائه.
فَمَنْ تمسك بمغريات المجموعة الثانية يكــون جــزاؤه الإهمـــال مـــن عـــون الله، ثـــم هـــو مهدد بسوء العاقبة ينتظر تحققها في أي لحظة مـــن لحظـــات حياتـــه. وهـــو معنـــى قولـــه تعالى: فتربصوا حتى يأتي الله بأمره.
ويختم على المتهاونين بحب الله ورسوله والجهاد في ســبيله بـــالحكم علـــيهم بـــأنهم فســـقة والله لا يسعف الفسقة بهدايته.

25←27: لقد نصركم الله....غفور رحيم .

هـــزهم القـــرآن لاستحضــــار مننـــه ببيـــان المقابلـــة بـــين وضــــعهم والله يمـــدهم بعونـــه ورعايته، وبين وضعهم حينما يتركهم لأنفسهم.
ذكرهم أولا بمتتابع النصر الذي به عزوا وبفضله تغلبــوا علـــى أعـــدائهم ونـــزل الرعـــب في قلوبهم. فالانتصارات التي تمكن بهـــا المســـلمون مـــن رفـــع رايـــة الإســـلام عاليـــة، هاديةً البشر لدين الله كانت كثيرة.
كما ذكرهم بوضعهم في غزوة حنين ، فـــي هـــذا الـــوادي بـــين الطـــائف ومكـــة، هـــذه الغزوة التي تقلب فيها الجيش الإسلامي بين الانكســـار الـــوقتي وبـــين النصـــر العظـــيم الذي هزم فيه الأعداء شـــر هزيمـــة وتمكـــن المســـلمون مـــن ســـبي رجـــالهم ونســـائهم وأموالهم ،تمت هذه الغزوة إثر فتح مكة. تغيظت قبيلـــة هـــوازن لمـــا بلغهـــا فـــتح النبـــي ﷺ لمكة ودخول قريش فـــي ديـــن الله ،فجـــيش زعـــيمهم مالـــك بـــن عـــوف النصـــري

المقاتلين من قبيلته ،ومن قبيلة ثقيف ، ونصر وجشــم ،وســعد بــن بكــر ، ونـــاس مـــن بني هلال .

وتوجه صلى الله عليه وسلم في جيش يتألف مــن مقاتلـة الفــتح **(عشــرة آلاف)** وانضــم إليهم من مسلمة الفتح ألفان. وكلف النبي ﷺ الصحابي الجليـل عبـد الله بــن أبــي حــدرد الأسلمي، أن يدخل في هوازن ويستطلع أخبارهم ، فلما تــيقن مــن عــزمهم علــى قتــال المسلمين رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر . فســار ﷺ لملاقــاتهم فــي اثنــي عشــر ألفا.

دخل المجاهدين زهو، إثر انتصــارهم بفــتح مكــة مــن جهــة، ولكثــرة المقــاتلين، بــل تحدث بعضهم قائلا: لن نغلب اليوم من قلة. غفلوا عما أكــده القــرآن فــي تــربيتهم علــى الاستعداد وقرنه بالتوكل، كما بيناه في ســورة الأنفــال. فــأوكلهم الله إلــى أنفســهم . فمــا حدث بعد ذلك ؟

وزع مالك بن عوف من معــه فــي شــعاب الــوادي ومداخلــه. وبينمــا كــان الجــيش الإسلامي يسير مزهوا بكثرته إذ انقضت عليه هوازن وثقيــف ومــن معهــم مــن الكفــار، وكان للمفاجأة دورهــا فــي اضــطراب الأمــور، وولــى المســلمون هــاربين ،بــل إن المساحات الشاسعة ضاقت عليهم فهم لا يــدرون إلــى أيــن يفــرون. وثبــت رســول الله ﷺ في قلة من المهاجرين والأنصار، ونادى فيهم بالإقبــال علــى الجهــاد والالتحــاق بــه. فأقبل عليه جماعة من المهــاجرين والأنصــار. هــذا وقــد أفــاق المســلمون بعــد هــول الصدمة، وإذا قلوبهم تنفتح على ثقــتهم بــربهم، واســتجاب لهــم ربهــم فــأنزل الســكينة في قلب رسوله ﷺ ، سكينة طمأنته على المسلمين وتمثــل بهــا أمامــه النصــر المحقــق. كما أنزل سبحانه السكينة في قلوب المؤمنين فثبتــوا فــي القتــال، وذهــب عــنهم الجــزع والخوف. وأيد المؤمنين بالملائكة تزرع في قلــوب الكفــرة اليــأس والخــوف والرعــب. وما هي إلا جولات حتى انهدت قواهم فسهل علــى المســلمين أســرهم وقــتلهم وغنيمــة أموالهم . فكان العذاب النازل بالكــافرين شــاملا لصــنوف مــن الإذلال والقهــر، وذلــك جزاؤهم.

وبعد منة النصر المبين، ذكــر القــرآن بمنــة إلهيــة أخــرى ، هــي كأمثالهــا تعقــب النصر الكبير على الكافرين. تتمثل هذه المنــة فــي كرمــه ســبحانه، وقبولــه توبــة مــن تاب من أولئك الكافرين الذين استفاقوا فــدخلوا فــي ديــن الله وقطعــوا مــا بيــنهم وبــين الكفر من صلات. وهكذا فإن هوازن بعــد انهــزامهم قــدموا علــى رســول الله مبــايعين على الإسلام، يرجونــه أن يــرد علــيهم الســبايا اللاتــي أســرن فــي المعركــة وقــبلهم

وأسعفهم بما يطلبون. ثم التحق بهم رئـيس هـوازن مالـك بـن عـوف معلنـا إسـلامه، فأكرمه ﷺ ورد عليه ما سلب منه ونفله بمائـة مـن الإبـل وولاه أمـر قبيلتـه فأصـبح رضي الله درعا للإسلام. وهذا تحقيق ينجز به الله غفرانه ورحمته.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡمُشۡرِكُونَ نَجَسٞ فَلَا يَقۡرَبُواْ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ بَعۡدَ عَامِهِمۡ هَٰذَاۚ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ عَيۡلَةٗ فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٢٨﴾ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ:

النجس : ما كانت النجاسة ملازمة له.

العيلة : الفقر .

الجزية : المال الذي عقد عليه الذمي أمنه.

عن يد :طائعين غير ممتنعين.

صاغرون : الصغار فقد العزة والأنفة.

المضاهاة : المشابهة والمحاكاة.

أنى يؤفكون : أنى يصرفون ، إلى أي مكان يصيرون .

الأحبار : جمع حبر وهو عالم اليهود .

الرهبان : جمع راهب وأصله المنقطع لعبادة الله من النصارى.

بيان المعنى الإجمالي:

قطيعة تامة بين المشركين وبين المؤمنين في المسجد الحـرام، فبعـد سـنة تسـع يخـتص المؤمنون بالقيام على شؤون المسـجد الحـرام، ولا يسـمح للمشـركين لا بـأداء العبـادة

فيه ولا بتولي أي خطة فيه ولا بدخولـه. ولا تتعللـوا بـالنواحي الاقتصـادية التـي كـان للمشركين دور في تنشيطها فتخافون الفقـر تبعـا لانقطـاعهم، فـإن الله سيعوضـكم مـا يغنيكم عنهم بمشيئته. إنه لا تخفى عنه حاجتكم ولا يخرج شيء عن حكمته.

ثم حدد العلاقة بين المؤمنين وأهل الكتاب بعد ما حدد العلاقـة فـي الآيـات السـابقة مـع المعاهدين الناكثين والموفين. فـأمر المـؤمنين أن يقـاتلوا أهـل الكتـاب حتـى يرضـوا بالدخول تحت راية الإسلام، ويدفعوا مقابـل ذلـك مـالا مقـدرا هـو الجزيـة. ويحفـظ المسلمون لهم حياتهم وأرزاقهم ويدافعون عنهم ،فبما يدفعونـه كـل سـنة ،ممـا يحجـبهم عن الاعتزاز بـدينهم والتطـاول والشـغب علـى المسـلمين، يتحصـلون علـى الأمـن الكامل. وذلك لأنهم لا يؤمنـون بـالله ولا بـاليوم الآخـر إيمانـا صـافيا مـن الشـرك ، وبالتالي هم ليسوا على دين الحق .

ولمزيد التأكيد على أنهم ليسوا على ديـن الحـق ،صـرح القـرآن أن اليهـود يزعمـون أن عزير ابن الله ، ويـزعم النصـارى أن المسـيح ابـن الله ؛ ينشـرون هـذه المـزاعم بأفواههم فهم لا ينكرونها، فهم يبتعـدون عـن الـدين الحـق ويقتربـون إلـى المشـركين الذين سبقوهم. قتلهم الله قتلا شديدا ، فإلي مكان ينصرفون ، ولا ملجأ لهم .

وفوق ذلك فقد قدسوا أحبارهم ورهبـانهم تقديسـا لا يكـون إلا لله، وذلـك بطـاعتهم ولـو كان ما يأمرونهم به مناقضا لما في التوراة والإنجيـل. مـع أنهـم أمـروا أن يخصـوا الله وحده بالعبادة والطاعة، وهو المنزه عن شركهم.

بيان المعنى العام :

28ـ يا أيها الذين آمنوا...إن الله عليم حكيم.

تفتح الآية بنداء للمؤمنين نداء يتضمن تكليفا وعلة لذلك التكليف.

أما التكليف فهو أنهم من بعد انتهـاء موسـم الحـج سـنة تسـع للهجـرة، هـم وحـدهم الموكل إليهم القيام على المسجد الحرام، تأكيدا صـريحا لمـا جـاء قبـل ذلـك فـي هـذه السورة آية 18 **إنما يعمر مساجد الله من آمـن بـالله واليـوم الآخـر**. وأنهـم مكلفـون بمنع المشركين من الدخول إلى المسجد الحـرام ابتـداء مـن انتهـاء موسـم حـج ذلكـم العام.

وأما التعليل فهو لأنهم نجس، أي إن ما يبطنونـه مـن عقيـدة بلـغ الحـد الأعلـى مـن القذارة. فإن الكعبة أقامها إبـراهيم ﷺ لعبـادة الله وحـده، فدنسـوها بشـركهم، فوصـفهم ب **(نجس)** تحقير لهم تحقيرا يقصيهم عـن منـازل الخيـر والفيـوض الإلهيـة. ويـدخل في ذلك منعهم من حضور مواسم الحج دخولا أوليا.

نفذوا ما أمركم الله به، واطردوا احتمال أن يكون منـــع المشـــركين مـــن حضـــور مواســـم الحج، والقرب من المسجد الحرام، أن يكـــون مـــنعهم ســـيحرمكم ممـــا كـــان المشـــركون ينفقونه في الموسم وانتفاع أهل مكة منه، وما يترتـــب عليـــه مـــن فقـــر المحتـــاجين ،فـــإن الله سيغنيكم ويعوضكم عـــن أمـــوالهم. وتحقيـــق ذلـــك مـــرتبط بمشـــيئته واختيـــاره إذ لا موجب عليه سبحانه. إن الله عليم يشمل علمه ما خفـــي عـــنكم ومـــا ظهـــر لكـــم، وهـــو يجري أمر الكون بحكمته. وفعلا فإنه بعد قطع المســـجد الحـــرام عـــن المشـــركين تـــدفقت الخيرات من جميع الجهات على أهل مكة إثر دخـــول النـــاس فـــي ديـــن الله أفواجـــا مـــن مناطق عديدة من جزيرة العرب ومن اليمن.

نتبعنا ما قرره القرآن في ضبط العلاقة بين المـــؤمنين وبـــين المعاهـــدين مـــن المشـــركين الناكثين، وغير النـــاكثين المـــوفين بعهـــودهم. ومنـــع المشـــركين مـــن قربـــان المســـجد الحرام بعد سنة تسع. وتناولت هذه الآيـــة العلاقـــة بـــين المـــؤمنين وبـــين أهـــل الكتـــاب، اليهود والنصارى ومن كان له كتاب يزعم أنه يعبد الله على ما هو مسطر فيه.

إنه لا يمكن أن تطمئن الدولة الإسلامية لسلامتها مـــا لـــم تـــتمكن مـــن جعـــل كلمـــة الله هي العليا. فأمر الله المؤمنين أن يقـــاتلوا أهـــل الكتـــاب حتـــى يظهـــروا علـــيهم ويبـــذلوا الطاعة للدولة.

29- قاتلوا الذين لا يؤمنون...وهم صاغرون.

قاتلوا الذين جمعوا الأوصاف التالية:

1) الذين لا يؤمنون بالله. ولا يقصـــد الإيمـــان كيفمـــا كـــان ، ولكـــن المقصـــود الـــذين لا يؤمنون بالله الإيمان الذي يرتضيه.

نعم إن اليهود والنصارى يدعون أنهم يؤمنون بالله واليـــوم الآخـــر ،ولكـــنهم أدخلـــوا فـــي إيمانهم ما يجعل إيمانهم مغشوشا بعيدا عـــن الصـــفاء. فـــاليهود مـــن أســـس عقيـــدتهم أن الله هو إله إسرائيل ، وأنه إله منحاز لهم ، وأنه لا يجري علـــيهم مـــا يجريـــه علـــى بقيـــة الناس إذ هم أبناؤه وأحباؤه. وفي التوراة تجســـيم منكـــر لله، وأن إســـرائيل أخـــذ يصـــارع الله إلى الصباح؛ إلى آخر ما أضافوه إلى الله مـــن خيـــالات وأوهـــام تتنـــافى مـــع الكمـــال والتوحيد.

والنصارى تقوم عقيدتهم على التثليث فـــي الأقـــانيم الثلاثـــة، إن عيســـى ﷺ جمـــع فيـــه الجانب الإلهي والجانـــب البشـــري ، اتصـــل اللاهـــوت بالناســـوت. ويـــدعون أن الســـر يكمن في كون هذا المفهوم يسمو عن الإدراك، والحقيقة أنه يناقض قوانين العقل .

2) الذين لا يؤمنون باليوم الآخر على النحو الصحيح الذي يؤثر صلاحا في عقيدة البشر وفي سلوكهم . فاليهود يزعمون أن الله لا يحاسبهم على أعمالهم، وإنما تمسهم النار أياما معدودة بقدر عبادتهم للعجل ، وأن الله لا يؤاخذهم على ظلمهم لغير اليهود، ونحو ذلك مما هو مثبت في التوراة .وهو ما هو واضح من سلوكهم في جميع الأعصار.

والنصارى يختلفون اختلافا كبيرا في تصور مفهوم الحياة الآخرة ، ويزعمون أنه يكفي الإنسان أن يؤمن بأن المسيح صلب ليخلص البشرية من آثامها حتى تكتب له النجاة .زيادة على صكوك الغفران مقابل ما يدفعه المسيحي لرجال الكنيسة في المناسبات التي ضبطها القساوسة.

3) لا يحرمون ما حرم الله ورسوله. خذ مثلا لذلك الربا المجمع عليه بين جميع الديانات السماوية، فاليهود يقررون أنه لا يحرم على اليهودي التعامل بالربا إلا مع اليهودي فقط. والكنيسة المسيحية أحلته بعد قرون من تحريمه .وبنص الإنجيل لا يحل اتخاذ التماثيل ، وفي كل كنيسة تماثيل منصوبة يتمسحون عليها ويتبركون بها. وهذه أمثلة قليلة من عدم احترامهم لما جاء في التشريع الإلهي على لسان موسى وعيسى.

4) وكفذلكة جامعة لما بيناه في العناصر الثلاثة هم لا يدينون دين الحق، بل يدينون بدين مشوه، ركب عليه من الخيالات وحذف منه ما حذف تبعا للشهوات، ما أفقده سماته، وباعد بينه وبين كمالاته .

– إنه يرتفع وجوب قتالهم إذا أمن المسلمون من شغبهم ومن تطاولهم ورضوا بأن يعيشوا في دولة الإسلام التي تحفظ لهم حريتهم الدينية، وتدافع عنهم بما يضمن لهم أمنهم ، ويؤدون في المقابل جزية: مقدار مالي يضبط عند دخولهم في ذمة الدولة الإسلامية يؤخذ منهم كل سنة، فيدفعونه منقادين طائعين ولا منازعين في إعطائه. وأداء الجزية يلتصق به مظهر انقيادهم للدولة وعدم قبول أي مظهر ينبئ عن الاعتزاز بدينهم .

30 -وقالت اليهود عزير...أنى يؤفكون.

ثم أبرز القرآن بعض ما أعلنوه من دياناتهم التي يتضح أنه لا صلة له بالدين الحق. فاليهود في المدينة لإسباغ القداسة والتمييز على بعض من سلف من أحبارهم زعموا أن عزير وهو في التوراة (عزرا) وعربه القرآن بتصغيره . والذي أملى التوراة من حفظه وجدد الهيكل، أنه ابن الله . وقالت النصارى المسيح ابن الله ، ففضحهم بأشنع ما اعتقدوه وصرحوا به مكررا . هذه الأقوال المختلقة يثبتون عليها ويشيعونها بأفواههم، فينعقد الشبه بينهم وبين المشركين، أي إنهم يبتعدون بذلك عن دين الحق ويشابهون المشركين. عجب أمرهم يدعون

أنهم على هدى المرسلين ويعتقدون ما لم ينزل الله به سلطانا. قاتلهم الله وهي صيغة تعجب من فساد القائل أو الفاعل، أي قتلهم الله قتلا شديدا لعظم نكارة ما قالوه ؛إنه لا ملجأ لهم. فإلى أي مكان يريدون أن ينصرفوا ، ولا مكان يأويهم مع مقالتهم المنكرة هذه.

31- اتخذوا أحبارهم ...عما يشركون.

ثم ارتقى القرآن في التشنيع عليهم .إذ تجاوزوا تأليه عزير وعيسى إلى اتخاذ اليهود الأحبار واتخاذ النصارى الرهبان أربابا ، ورفعهم عن مرتبة الإنسانية إلى مرتبة الألوهية ،ومن أخص خصائص الألوهية أنه وحده الذي يشرع للناس ما يرضيه ، وهؤلاء اليهود والنصارى قبلوا وطبقوا كل ما أمرهم به أحبارهم ورهبانهم ، وإن كان مناقضا لما ورد في الكتب المنزلة عليهم. فساووا تبعا لمغالاتهم بين المسيح وبين الأحبار والرهبان. مع أن الكتب السماوية والرسل الذين بلغوها عن الله صرفوا كل هممهم لتوحيد الله ونفي كل أثر من الشرك في العقيدة. فهو الله الواحد الذي لا إله إلا هو، تنزه عن كل ما يزعمون أنه شريك له.

يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الإباية : الامتناع .

ليظهره : ليجعله أعلاها وينصره.

أكل المال بالباطل : الاستحواذ عليه بغير حق وبدون مبرر.

الكنز : ادخار المال .

سبيل الله : الجهاد .

يحمى : من الحمي وهو شدة الحرارة.

بيان المعنى الإجمالي :

أعمى التعصب بصائر الأحبار والرهبان، فهم يريـدون أن يوقفـوا امتـداد نـور الإسـلام في الآفـاق، هـم عـاجزون، إذ تصـوروا الإسـلام كسـراج ينطفـئ إذا نفخـوا عليـه بأفواههم. وليبأسـوا فـإن الله قـدر أن ينتشـر نـور الإسـلام فـي الآفـاق ولـو كـره المشركون .ثم نبه القرآن إلى أن كثيرا مـن أحبـار اليهـود ورهبـان النصـارى فسـدوا في تركيبهم النفسي فسادا جعلهم يستبيحون الاستحواذ علـى أمـوال النـاس بغيـر حـق ، ويتناقضون مع ما يظهرون بـه ، فهـم يمنعـون النـاس مـن اتّبـاع طريـق الصـلاح. وعطف عليهم الذين يجمعون الذهب والفضـة ليـدخروها، لا يـؤدون زكاتهـا ويشـحون بأموالهم عن تلبية الحاجات الأكيدة للمجتمع ؛ بَشِّرْ هـؤلاء بعـذاب ألـيم يـوم يحضـرها الله فيحميها في نـار جهـنم ، ويكـوى بهـا كـل جـزء مـن أجسـامهم ،ثـم يهـانون بمخاطبتهم ، كنتم ترون عزكم في أموالكم فكنزتموها فذوقوا العذاب بما كنزتم .

بيان المعنى العام :

32- يريدون أن يطفئوا...كره الكافرون.

يتواصل بيان القرآن مقررا ما عليه أهـل الكتـاب مـن عـداوة للإسـلام وعمـل علـى إيقاف مده، هم عزموا عزما بالغا أن يجتهدوا فـي إيقـاف انتشـاره فـي العـالم، ومـثلهم بحالة من وجد نورا خارجا من مصـباح فـأراد أن يـنفخ علـى السـراج بفمـه ليطفئـه فينقطع النور. وبهذا التمثيل يظهر القرآن ضعفهم ووهـنهم وعجـزهم عـن تحقيـق مـا أرادوا ،فإن الله سبحانه قرر أنه سيتم نـوره ،نـور الإسـلام وسـيبلغ أقاصـي الأرض ، ولا يريد القادر الواحد إلا أمـرا واحـدا وهـو أن يبلـغ الإسـلام تمامـه . وإذا تعلقـت الإرادة بذلك حتـى أخرجهـا فـي صـورة حصـر الإرادة فـي إكمالـه، فمـا معاكسـة الكافرين من أهل الكتاب إلا سعي ضائع لا قيمة له ولا تأثير.

33-هو الذي أرسل ...ولو كره المشركون.

واصل القرآن إبراز ما خص الله بـه الإسـلام، ومـا فيـه مـن قـوة ذاتيـة ، ذلـك أن الرسول الذي بلغه هو رسول رب العالمين ، أرسله بدين هـو الهـدى الكامـل ففـي كـل ما جاء به بيان للطريق السوي الـذي لا يضـل سـالكه ،وأنـه ديـن لا باطـل فيـه ولا زيغ. وفي ذلك تعريض بأن مـا هـم عليـه لا يحقـق لهـم الهدايـة ولا الاقتـراب مـن الحق، بل يمد لهم في الضـلال والباطـل . وإذ تجمـع فـي ديـن الإسـلام الخصـائص الذاتية المذكورة فهو جـدير بـأن يعلـو فـي ميـدان النظـر ، وفـي ميـدان التطبيـق بصلاح معتنقيه ، على سائر الأديان .كيف لا وهو الـذي طهـر العقـول مـن الخرافـات

والأساطير، وطهر السلوك من الإثم والزيـغ ، وسـما بـالأرواح إلـى مسـتويات رفيعـة دنت من مستوى الطهر الكامل ، ووالى عنايتـه بهـا بمـا شـرعه مـن صـلاة يسـرها ورفع الحرج في أدائها، وكذلك بقية العبادات .

34-35: يا أيها الذين آمنوا...ما كنتم تكنزون.

من فساد الرؤساء الدينيين زيـادة علـى مـا عرضـته الآيـة السـابقة، أن كثيـرا مـنهم يستولون على أموال النـاس بالباطـل، فهـم يأخـذون الرشـاوى ليعطـوا للظـالم الحـق ويحجبوه عن صاحبه، ويعطون للفساق صـكوك الغفـران، ويغيـرون الأحكـام إرضـاء لأصحاب الجاه والسلطة . وهم يناقضون ما يظهـرون بـه للنـاس ، فهـم يـدعون أنهـم يقودون الناس للخير، وفـي الحقيقـة هـم يمنعـونهم مـن الـدخول فـي الإسـلام بمـا يروجونه مـن أكاذيـب وتحريـف للإسـلام، ويضـللون أَتْبَـاعَهُمْ فيجعلـونهم يعملـون بخلاف ما جاء في كتبهم، وما يزال هـذا ديـدنهم، فهـم بـذلك يقفـون سـدا مانعـا مـن الاهتداء خوفا على حظوظهم الدنيوية أن تتبخر. ومن حكمـة القـرآن وإنصـافه أنـه لـم يجعل هذا حكما عامـا، ولكـن نسـبه إلـى الكثـرة الكـاثرة مـنهم ومـا يـزال بعـض المنصفين منهم يعلن الحق ويؤيده.

وقرن القرآن الذين استولى عليهم النهم المالي وسـوء الطويـة، بضـرب آخـر قريـب منه، وهم الذين استولى عليهم حب المال فتعلقـوا بجمعـه ، وادخـاره، تـراهم يجمعـون الذهب والفضة ، يزداد شَرَهُهُمْ للجمع ، ولا يـرون وظيفـة للمـال إلا خزنـه وتكديسـه، ولا يشاركون الأمة بالإسهام بالإنفاق في الجهـاد الـذي يحفـظ العـزة ويحمـيهم ويـوفر الأمن للجميع. ولا يخرجون الزكـاة الواجبـة، وبصـفة عامـة يشـحون بـأموالهم كلمـا وقعت المجموعة في حاجة حسبما يقدره ويدعو إليه ولاة العدل.

وأما إذا كان جمع المال وكنزه من الأوجه الحـلال ، وأديـت زكاتـه ، ولـم تقـع الأمـة في ضائقة ظرفية تحتم إسعاف أصحاب الثراء لإخراجهـا مـن الوضـع الحـرج، فكنـز المال ليس مذموما ولا منهيا عنه. وهـذا مـذهب معظـم الصـحابة وأئمـة الفقـه. وقـال أبو ذر رضي الله عنه : ما فضل من مال الرجل عـن نفقتـه فهـو كنـز . وعـن علـي كرم الله وجهه: أربعة آلاف درهم فما دونها نفقة، وما زاد عليها فهو كنز.

إن الذين حددت الآية ملامحهـم إمـا(**الـذين يكنـزون**) وإمـا؛ الـذين يـأكلون أمـوال الناس بالباطل ويصدون... والذين يكنـزون، فبشـرهم بعـذاب ألـيم. وإذا كانـت أصـل البشارة في الإعلام بما يدخل البهجة ويحبـه المبشَـر، فإنـه قـد تسـتعمل فـي الإخبـار بالمكروه تهكما ومنه ما ورد في هذه الآية. فبمـا ذا أمـر الرسـول ﷺ أن يبشـرهم بـه؟

إن ما كنزوه من دنانير ودراهم أو ما تمثلــه كــالأوراق النقديــة، تلقــى فــي أشــد نــار حامية وهي نار جهنم ، يكوى بها كــل جــزء مــن أجســامهم جبــاههم ،وجنــوبهم مــن اليمين والشمال، وظهورهم، وصرح بتفصيل ما يشــوى بــه كــل عضــو مــن أعضــائهم للتهويل. وليس العذاب واقعا بنفس ما جمعوه فــإنهم يتركونــه وراءهــم ويفــوز بــه مــن يفوز، ولكن القدرة الإلهية تمثله يــوم القيامــة وتعاقــب بــه مــن أنــذرهم القــرآن بهــذا العذاب.

وبجانب العذاب الجسدي عذاب نفسي مضــاعفةٌ فــي النكــال والإيــلام، يخــاطبون مــن حيث لا يشعرون خطابا تتجاوب أصــداؤه فــي جهــنم والعيــاذ بــالله: هــذا مــا كنــزتم لأنفسكم تتقون به تقلب الأزمان، ولتكون لكم متعة وجمالا، فذوقوا عاقبة ما كنزتم.

إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ۚ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ ۚ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ ۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔوا۟ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّوا۟ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ ۚ زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الشهور : هي الشهور القمرية .

عند الله : في حكمه .

في كتاب الله : في محكم تقديره الأزلي.

الدين : النظام المنسوب إلى الخالق .

ظلم النفس : فعل ما يترتب عنه ألمها باقتحام ما نهى الله عنه.

كافة : تدل على العموم والشمول.

النسيء : كلمة مشتقة من النسأ بمعنى التأخير. ومنه تأخير الشهر حرام عن موعده

المواطأة: الموافقة .

التزيين : التحسين.

بيان المعنى الإجمالي :

أدخل المشركون الفوضى في الزمن، هذا الـزمن الـذي ضـبطه الله ضـبطا دقيقـا مـن اليوم الأول الذي خلق السماوات والأرض، فجعل الأشـهر القمريـة اثنـي عشـر شـهرا، وخص أربعة منها فجعلها أشهرا حرما، هـي ذو القعـدة وذو الحجـة والمحـرم وشـهر رجب. وهي تتميز بأن فعل الخيـرات فيهـا يتضـاعف ثوابهـا ، كمـا تتضـاعف آثـام العصاة. وأن هذا هو الـدين الكامـل، فإيـاكم أن تسـيؤوا إلـى أنفسـكم بحرمانهـا مـن الثواب المضاعف لصالح الأعمال ، أو مضاعفة العقوبة على العصيان.

وذكرهم بوظيفتهم التي هي جهاد جميع المشـركين حتـى تخلـص جزيـرة العـرب مـن المشركين الذين يتساندون لحربكم .واطمئنوا فإن الله مؤيد للمتقين .

ومن عبث المشركين أنهم عمدوا إلى الأشـهر الحـرم فرفعـوا حرمـة بعضـها، بتـأخير شهر من الأشهر الحرم إلى غيـر موقعـه فـي السـنة وسـموه: **(النســيء)** فاختلطـت المناسبات الدينية التي كان سنها إبراهيم عليه السلام ، وعملهم هـذا إغـراق فـي الكفـر وتبـديل ما أحكمه الله، وأصبح الشهر الحرام لا حرمـة لـه والعكـس، وهـم يتـأولون أن عملهـم هذا سينتهي إلى التوافق بين ما بدلوه وبـين مـا حرمـه الله .والعجيـب أنهـم يظنـون أن عملهم السيء هذا حسنا. فكانوا مغرقين فـي الضـلال، والله لا يسـعف القـوم الكـافرين بهدايته .

بيان المعنى العام:

36- إن عدة الشهور ....أن الله مع المتقين .

الزمن من مقومات العقل العملي، وكـل مـا كـان مـن مقومـات العقـل فهـو مـرتبط بالحقائق الواقعية التي لا تحتمل التبديل ولا التغيير، لأنـه بالعقـل يـرتبط البشـر وتسـمو معارفهم، ويتمكنون من تبادل المنافع بينهم.

ومن ضلال المشركين أنهـم تـدخلوا فـي الـزمن فغيـروا أوضـاعه، وربطـوه بهـوى زعيم من زعمائهم.

إنه مما أصلح به القرآن أمر البشرية ضبط الزمن للنـاس، فعـرفهم علـى المبنـى الـذي بني عليه هذا النظام. عرفهم بما يسر لهـم مـن الملاحظـة أن الله لمـا خلـق السـماوات والأرض ربط بين حركاتها بنظام محكم بنـى عليـه نظـام الوقـت ومكـن البشـر مـن معرفته على مرتبة سواء. فالقمر يدور حـول الأرض فـي شـكل حلزونـي يبـدأ هـلالا ثم يكبر ثم يتناقص إلى أن يبلغ المحاق، فيتم الشهر. ثـم بعـد اثنـي عشـر شـهرا يعـود للظهور من المكان الذي طلع في مثله قبلها وهكذا. إنّـه أجـرى أمـر الكـون علـى هـذا

النظام والتحديد فسرى عليه بتقديره المحكـم مـن يـوم خلـق السـماوات والأرض. وقـد أعلن القرآن هذه الحقيقة في كتابه ليبين أنه لا دخل للنـاس فـي تحديـد مواقـع الشـهور ولا في عددها في السنة.

وأن من بين الشهور أربعـة أشـهر خصـها الله بمزيـد حرمـة يتضـاعف فيهـا ثـواب المحسنين المتقين، كما يكون إثـم المنتهكـين لحرماتهـا أعظـم وأشـد نكـارة .وهـي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم وشهر رجب الـذي بـين جمـادى وشـعبان وهـذا مـا عليـه أكثر قبائل العرب، وعند ربيعة الشهر الرابع رمضان بدل رجب.

ولحرمتها نبه الله المؤمنين ليكونوا يقظين مستقيمين عـاملين علـى فعـل الخيـر منتهـين عن الفساد والشرفي هذه الأشـهر الحـرم. نـبههم إلـى أن فعـل الصـالحات يتضـاعف أجرها كما يتضاعف إثم المعاصي. وأن من انتهـك حرمـات الأشـهر الحـرم فقـد ظلـم نفسه بما فوت عليها من الخير، وحملها من الإثم المضـاعف. ومـن العلمـاء مـن حمـل المعنى على أنه لا يقوم المسلمون بقتال المشركين إلا إذا بدأوهم بالقتال .

والراجح عندي هو المعنى الأول، وذلك لمـا لحـق بالآيـة مـن قولـه تعـالى: **وقـاتلوا المشركين كافـة.** فإن تذكيرهم بقيامهم بالجهـاد وتتبـع المشـركين أينمـا كـانوا وحيثمـا حلوا، يكون أنسب بعدم تخصيص الأشهر الحرم بتوقيـف القتـال. إذ مـؤدى الآيـة مـع التعميم الشامل ينبئ أن مهمـة المـؤمنين هـي اجتهـادهم فـي استئصـال الشـرك مـن الجزيرة العربية ، فلا يتقيدون في ذلك بـزمن ولا عهـد ناكـث. وممـا يشـجعهم علـى تحقيق صفاء الجزيرة من الشرك، وأن يكونـوا يـدا واحـدة علـيهم، هـو أن المشـركين متضامنون على الوقوف في وجه الإسلام ومحاربته.

وتضخ الآية في قلوب المـؤمنين مـددا مـن الثقـة بالانتصـار علـى الشـرك، بالوعـد الكريم أن الله مؤيد للمتقين يعينهم ولا يخذلهم.

37-إنما النسيء زيادة ...لا يهدي القوم الكافرين .

ثم صرح القرآن بما كان من تلاعب المشـركين بـالزمن فأبطلـه وبـين فسـاده . كـان من أمر المشركين أن زعيم الحـج يملـك فـي نهايـة الحـج أن يعلـن تحويـل الأشـهر الحرم حسب هواه، فكثيرا ما يعلن أن شهر المحرم هـو صـفر، وينبنـي علـى ذلـك أن يتحول شهر ربيـع الأول إلـى المحـرم فيحسـبون الأشـهر هكـذا صـفر- محـرم – صفر- ربيع الأول- وهكذا فتبلغ أشهر العام ثلاثة عشـر شـهرا. وعُلـل ذلـك بـأنهم لا يصبرون على القتال ثلاثة أشهر متوالية ذي القعـدة وذي الحجـة والمحـرم. كمـا علـل بأنه لما كان العام القمري ينقص أحد عشـر يومـا عـن العـام الشمسـي فـإذا أضـافوا

شهرا لعامهم يعودون عليه بعد ثلاث ســـنوات ،فيـــتم التوافـــق بـــين الضـــبطين الشمســـي والقمري . وأيا ما كان ما اتخذوه من مبررات فهـــي مبـــررات واهيـــة مناقضـــة للطبيعـــة التي خلق الله عليها الكون.

إن تدخل المشركين في ضبط الأشهر، وتأخير شـــهر المحـــرم عـــن مكانـــه المعبـــر عنـــه **(بالنسيء)** إنما هو إغراق في الكفر، باعتبار أن هـــذا التـــأخير تشـــريع يـــنقض الحقيقـــة، ويقلب الشهر الحرام إلى شهر غير محرم والعكس ،كمـــا يحـــول المناســـبات التـــي ربـــط الله العبادة بها فتقع في غير موقعهـــا. فهـــي فوضـــى وتحكـــم لا أســـاس لـــه، يقصـــدون الإضلال .

إن سيدنا أبا بكر ﷺ لما حج بالناس سنة تســـع كـــان شـــهر الحـــج هـــو ذو القعـــدة. وأن النبي ﷺ سنة عشر أرجع شهر ذي الحجة إلى موقعه الحقيقـــي مـــن الســـنة. وقـــد قـــال ﷺ في حجة الوداع : (إن الزمان قـــد اســـتدار كهيئتـــه يـــوم خلـــق الســـماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهرا منهـــا أربعـــة حـــرم، ثـــلاث متواليـــات؛ ذو القعـــدة ،وذو الحجـــة، والمحرم ، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان)[1]

وحسب جميع المقاييس يكون النســـيء ضـــلالا وإضـــلالا وعبثـــا، مـــع هـــذا فقـــد فســـد نظامهم العقلي فهم يعتبرون هذا الفساد البـــين أمـــرا حســـنا. والله يحجـــب الكـــافرين عـــن الاهتداء للحقيقة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

[1] رواه الشيخان وأحمد واللفظ للبخاري. فتح الباري 9 ص95/394

بيان معاني الألفاظ:

النفر : التنقل بسرعة من مكان إلى مكان.

اثاقلتم: تثاقلتم. تباطأتم ولم تسرعوا للإجابة.

متاع : الشيء المتمتع به .

السكينة : اطمئنان النفس ، وخاصة في الظروف الحرجة.

بيان المعنى الإجمالي :

الآيات نزلت في غزو تبوك ،دعا النبي ﷺ سكان المدينـــة فـــي شـــهر رجـــب مـــن ســـنة تسع كي يستعدوا للخروج معه لنشــر ديــن الله فــي الأراضــي التابعــة لدولــة الــروم. السفر بعيد والزمن حر شديد ، فتثاقل بعــض النـــاس مـــن المـــؤمنين وكـــذلك المنـــافقون عن الإسراع للاستجابة، فعاتبهم القرآن علـــى تثـــاقلهم عـــن القيـــام بـــواجبهم فـــي نشـــر الدعوة وحبهم للراحة .وواصل تأنيبهم عن موقفهم الذي يـــدل علـــى أنهـــم فضـــلوا متـــاع الحياة الدنيا على الأجر العظيم في الآخـــرة. إن متـــاع الـــدنيا تافـــه وقليـــل بالنســـبة لمـــا يناله المؤمنون المجاهدون في الآخرة.

إنكم إن لم تنفروا مع رســـول الله فـــإن الله ســـيعذبكم عـــذابا أليمـــا علـــى تهـــاونكم. والله غني عنكم وهو قـــادر أن يســـتبدل بكـــم قومـــا آخـــرين ينصـــرون دينـــه، ولا يتضـــرر الرسول بذهابكم. إن الله على كل شيء قدير، قدير علـــى إذهـــابكم واســـتبدالكم بمـــن هـــم خير منكم.

إن الله تكفل بنصر دينه، فإن تخاذلتم عن نصـــره فـــإن ذلـــك لا يوقـــف المـــد الإســـلامي، وتذكروا أن الله أيده بنصره يوم لم يكن معه إلا أبوبكر وهمـــا فـــي الغـــار وقـــريش تتبـــع آثارهما في كل مكان. ففي هذا الموقف الصعب أنـــزل الله ســـكينته علـــى رســـوله فكـــان يجد في قلبه طمأنينة لا خوف معها، وكان يطمـــئن صـــاحبه ويقـــول لـــه : لا تحـــزن إن الله يؤيدنا ولا يتركنا لبـــأس الأعـــادي. وأيـــد الله رســـوله بجنـــود مـــن الملائكـــة فكـــانوا يصرفون القرشيين عن الوجهة التي تمكنهم من رســـول الله إلـــى وجهـــات أخـــرى كلهـــا ضياع حتى بلغ رسول الله ﷺ المدينة المنورة. فذهب أمـــر الكفـــار إلـــى الأســـفل مهينـــا، وعلت كلمة الله. والله عزيز لا يغلبه شيء حكيم في فعله لا تغيب عنه أي ناحية.

بيان المعنى العام.

38- يا أيها الذين آمنوا مالكم ...إلا قليل .

في شهر رجب من ســـنة تســـع دعـــا النبـــي ﷺ المـــؤمنين بالمدينـــة أن يتجهـــزوا لقتـــال الروم. كان الحر شديدا، ونضجت الثمار في الواحـــة المباركـــة حـــول المدينـــة .إن الحـــر

الشديد والظل الظليل في حدائق المدينة المنورة ، والثمـــار التـــي آتـــت أكلهـــا ، وهـــوى النفوس أن تخلد للراحة وأن تأخـــذ حظهـــا مـــن مغريـــات الإقامـــة وأن لا تقـــدم علـــى السفر، خاصة إذا كان إلى مسافات بعيدة فـــي الصـــحراء، كـــان ذلـــك امتحانـــا فاضـــحا للمنافقين الذين تباطـــأوا عـــن الاســـتجابة ، واختلقـــوا المعـــاذير الواهيـــة الكاشـــفة عـــن كذبهم، كما تثاقل بعض المؤمنين فلـــم يظهـــر مـــنهم مـــا يـــدل علـــى أنهـــم سيشـــاركون الجيش الإسلامي في المهمة التي انتدبوا إليها.

كان النبي ﷺ لا يصرح بقصـــده للمكـــان الـــذي سيســـير بـــالجيش إليـــه ، حتـــى يُعَمِّـــي الأخبار على الأعداء وإنما يُوَرّي .أما في غزوة تبـــوك هـــذه، فقـــد أعلـــم المـــؤمنين بأنـــه قاصد الروم في معاقلهم الأولية .

ظهرت حركة كبيـــرة فـــإذا المدينـــة كخليـــة النحـــل بعـــد هـــذه الـــدعوة للجهـــاد ، وإذا المؤمنون بعضهم يعد عدته من الظهر ومن السلاح ، وبعضـــهم يضـــيف إلـــى ذلـــك أنـــه يحمل إلى النبي ﷺ ما عنده من فضل ليجهز يه وليساعد به مـــن تقعـــد بـــه قلـــة ذات يـــده عن الإسهام في الغزوة ، وبعضهم يختلق المعاذير ويتـــوارى. لـــم يجبـــر النبـــي ﷺ أحـــدا على الخروج للغزو ، وتركهم لما وقر في نفوسهم من الإيمان .

سار الجيش بقيادة رسول الله ﷺ ، وقد فتح الله عليه فـــدخل صـــاحب أيلـــة يوحنـــة بـــن رؤبة تحت راية الإسلام وصالح بـــدفع الجزيـــة ، وكـــذلك أهـــل جربـــاء وأذرح. وكـــذلك ملك دومة الجندل من قبل الروم أكيدر بن عبد الملك من كنـــدة أســـر ، ثـــم صـــالح علـــى دفع الجزية. وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابا في الصلح وثقه ابن هشام[1].

افتتحت الآية بعتاب المتخلفين عن الإســـهام فـــي غـــزوة تبـــوك، وســـئلوا ســـؤال إنكـــار عليهم موقفهم ، إنه لا عـــذر لهـــم فـــي تثـــاقلهم وعـــدم إســـراعهم إلـــى تأييـــد الجـــيش الإسلامي ، وقد دعوا لذلك دعوة عامـــة : أســـرعوا بـــالخروج إلـــى الجهـــاد فـــي ســـبيل نصرة الدين ونشر رايته في العالمين . وقد صـــورهم القـــرآن صـــورة مســـتهجنة كـــأنهم كتل من اللحم ثقيلة تجذبها الأرض ويكلفها القيام عنتا **(اثاقلتم إلى الأرض)**

ثم وبخهم القرآن على تثاقلهم مخاطبا: هل انشـــرحت صـــدوركم للحيـــاة الـــدنيا ومتاعهـــا، وقدمتموه على الآخرة ؟ أين عقولكم وما يقتضيه إيمـــانكم؟ إن متـــاع الـــدنيا ومـــا تحويـــه من نعيم هو أمر تافه لا قيمة له بالنسبة لما أعده الله للمجاهـــدين فـــي ســـبيله مـــن كرامـــة في الجنة.

---

[1] سيرة ابن هشام ج 4 ص182/180

40-39: إلا تنفروا يعذبكم ...والله عزيز حكيم.

ثم عمق التوبيخ قارنا له بالوعيد فخاطبهم: إنه إذا سـمعتم الـدعاء للنفيـر ولـم تسـرعوا، فتربصوا أن يسلط عليكم عذاب أليم. وفوق هذا فـإن الله قـادر علـى أن يسـحقكم ويبـدل رسوله قوما خيرا منكم يقومون بالمهمـة التـي شـرفوا بالقيـام بهـا. واسـتبدالكم بقـوم آخرين خير منكم، أمر هين على الله، فهو القادر على كل شيء.

ثم بالغ في التأنيب: إنكم إن تخاذلتم ولم تنصروه وأخلـدتم إلـى الراحـة والظـلال، فـإن الله ناصره وهذه إرادة الله وقدره كما تقدم في هذه السـورة آيـة 33: (**هـو الـذي أرسـل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله**) إنـه الله نصـره علـى أعدائـه يـوم كان يختفي في غار ثور مع صاحبه أبـي بكـر الصـديق ، وقـد أخـذت قـريش علـى جميع الطرق ووعدت بسخي الجوائز لمن يظفر بـه ، ونصـره الله. هـذه الثقـة بالنصـر التي تركزت في قلبه ﷺ ؛ تبينوها فهو في هذا الظـرف الحـرج يثبـت صـاحبه ويقـول له: لا تحزن فإن الله معنا ناصرنا فـلا تسـتطيع قـريش أن تصـل إلينـا . فـإذا تحقـق نصره وهو مع صـاحبه فقـط فكيـف بـه وهـو اليـوم ومعـه عشـرات الآلاف مـن المؤمنين يفدونه بأرواحهم؟

إن خروج النبي ﷺ من مكة حتى وصـل الغـار مـع أبـي بكـر ،صـاحب ذلـك أن الله أنزل السكينة في قلبه ، فهو في كل حالة يشعر بطمأنينة تامـة ،واثـق مـن تأييـد الله لـه ، وفعلا فقد أيده ربه بجنود من الملائكة صـرفت تصـورات المشـركين وتـدبيرهم عـن بلوغ المكان الذي يختفي فيه ،كمـا صـرفتهم عـن الطريـق الـذي سـلكه إلـى المدينـة المنورة. وكان من أثر هذا التدبير الإلهي أن جعـل الله شـأن الـذين كفـروا ذاهبـا إلـى الأسفل حقيرا لا قيمة له سينتهي إلى المحـاق. وتظهـر كلمـة الله متميـزة ودينـه سـامقا إلى العلو ينتشر في عزة .

والله عزيز لا يغلب إرادتـه وقدرتـه شـيء، حكـيم فـي تصـريفه للأمـور لا يفوتـه مقصد.

ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً وَجَـٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَـٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ

صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ
أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞
وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ
ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ
خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ
ٱبْتَغَوُاْ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ
كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

خفافا: جمع خفيف، أصله الذي يمكنه وضعه الجسمي من سرعة الحركة والنهوض.

عرضا: ما يلفت الاهتمام من متاع الحياة الدنيا.

القريب : قصير المسافة التي تبلغ إليه.

سفرا قاصدا : سفرا متوسطا.

الشقة :المسافة الطويلة.

يهلكون : يوقعون أنفسهم فيما يوجب لها المضرة الشديدة.

الاستئذان : طلب الإذن .

ارتابت : شكت.

التـــردد : ذهاب ورجوع في مكان واحد لا يتحـول صـاحبه عـن موضـعه. والمقصـود الحيرة.

عدة :ما يعد للحرب من سلاح وتدبير .

انبعاثهم : نفوذهم لهذه الغزوة.

التثبيط : كسر العزم.

الخبال : اضطراب الجيش واختلال نظامه.

أوضعوا : الإيضاع تحريك البعير ليسرع في سيره.

قلبوا لك الأمور : أحكموا خطط المكر وتحوطوا لكل الاحتمالات.

بيان المعنى الإجمالي :

حــرك القــرآن المــؤمنين ليســارعوا إلـــى اســتجابة الــدعوة للجهــاد، علـــى مختلــف مستوياتهم في الكفاءة، وأن علــيهم أن يبــذلوا الأمــوال لتجهيــز الجــيش، ثــم علــيهم أن يقوموا بالجهاد فــي ســاحة المعركـــة. والجهــاد خيــر لكــم إذا تــأملتم ، فــي العاجــل والآجل. ولام القرآن بعضهم على وهن عــزائمهم مبــرزا أنهــم لــو دعــوا إلـــى متــاع قريب من متع الدنيا أو إلى سفر غير بعيد، لاســتجابوا. ولكــن عــزائمهم لا تتحمــل بعــد المسافة، ثم هم يحلفون الأيمـــان الكاذبـــة أنهــم كـــانوا عـــازمين علـــى الخــروج ولكــن حصلت لهم أعذار منعتهم. أهلكوا أنفســهم بجمعهــم بــين عــدم المشــاركة فــي الجهــاد وبالكذب وبالحلف عليه. وأيمانهم لا تروج على العليم الخبير فهو يعلم كذبهم.

لاطف المولى سبحانه نبيه لما قبل عذر الــذين تخلفــوا عــن الجهــاد ، فبــادره بــأن الله عفا عنه فلا تثريب عليه. ثم أردف ذلــك بســؤال : لمــاذا عــذرتهم قبــل أن يتبــين لــك المعتذرون الصادقون من المعتذرين الكاذبين؟

لا يتقدم إليك المؤمنون الصـــادقون يطلبــون الإذن لهــم فــي الجهــاد، فهــم بمجــرد مــا استمعوا الأمر بالنفير أعدوا له عدته ليبــذلوا أمــوالهم وأنفســهم يــدفعهم إلـــى ذلــك مــا انطوت عليه نفوسهم من التقوى. وينحصر الاستئذان فـــي الــذين فقــدوا الإيمـــان وتمكــن الشك من قلوبهم وهم غارقون في التردد.

لماذا هذا التدجيل ودعواهم أنهم تخلفوا لأعذار حصـــلت لهــم ، ينبئــك عــن كــذبهم أنهــم لو كانوا فعلا عازمين على الخروج مع المؤمنين لأعــدوا العــدة لــذلك. ولكــن الله الــذي يلطف بالمؤمنين لم يــرد أن ييســر لهــم الاندســاس فــي الجــيش الإســلامي ، فــوهّن عزائمهم ، وناداهم مناد من باطنهم اقعدوا ولا تنفــروا ، اقعــدوا مــع العجــزة والأطفــال والمرضى.

إنهم لو اندسوا في صفوفكم فإنهم لا يضــيفون إلــيكم إلا اضــطرابا ،ولأخــذوا يســرعون متنقلين من مكان إلـــى آخــر ومــن جماعـــة إلـــى جماعـــة يروجــون زائــف الأخبــار يقصدون إلى بث الاختلاف والبلبلة في صـــفوفكم ، خاصـــة وبعــض الجــيش الإســلامي يروج عليه ما ينشرونه من أكاذيب . هم ظلمـــة والله علــيم بهــم لا يخفـــى عليـــه ســيء مقاصدهم .

إن رغبة المنافقين في نشر الفتنة بين المؤمنين صـــفة لازمـــة لهــم، قــاموا بــذلك قــديما كما في وقعة أحــد، وشــأنهم أنهــم يعــدون الخطــط المــاكرة ويحكمونهــا، قمعهــم الله

فاظهر الله دينه وتم فتح مكة وبلوغ راية الإسلام إلــى تخــوم الــروم. وكُــرْهُهم للإســلام لا يزيدهم إلا نكدا.

بيان المعنى العام :

41-انفروا خفافا وثقالا...إن كنتم تعلمون.

استنهاض للمــؤمنين أن يســرعوا للاســتجابة لــداعي النفيــر إذا دعــاهم الــداعي إلــى القتال، من أمكنــه الخــروج بســهولة ومــن يتكلــف ذلــك ، الغنــي والفقيــر ، والشــاب والشيخ، والنشيط والكاسل، ومن له شغل والعاطــل ،ومــن لــه ضــيعة ومــن لا ضــيعة له، والشجاع والجبان. فجميع من توجــه إليــه الخطــاب عليــه أن يســتجيب، علــيهم أن يجاهدوا في سبيل نصر ديــن الله بــالأموال والأنفــس. هــم فــي أول الأمــر مطلوبــون ببذل الأموال ولذلك قدم في النص القرآني، حتــى إذا اســتعدوا خرجــوا ليبــذلوا نفوســهم نصرا لدينه.

إن مشاركتكم في الجهاد هي خير لكم، إذ يكتب لكم أجــر نصــرة دينــه، يكتــب بــه لكــم العزة، فَيَهابُكُمْ أعداؤكم، ويمتن العلاقة بينكم، تــأملوا لتــدركوا مــا يترتــب علــى الجهــاد من خيرات.

42- لوكان عرضا قريبا...لكاذبون.

ثم عاد القرآن لتأنيبهم، وأن عزائمهم متراخية لا ترقــى إلــى المســتويات الرفيعــة، إنــك لو دعوتهم لأمر قريب ليست له قيمة كبرى مــن أمــور الــدنيا، أو دعــوتهم لســفر غيــر بعيد، لاستمعوا إليك واتبعوك ، ولكن الــذي عــوقهم عــن الخــروج مــا صــرَّحت لهــم بتدقيق الجهة التي تقصدها ، إلى مشــارف الشــام باعتبــار بعــد المســافة. خــافوا مــن السفر البعيد ، فتعللوا مقسمين بالله بــأنهم غيــر قــادرين علــى الخــروج معكــم ، وهــم كاذبون .فأوقعوا أنفسهم فيما يوجب لهــا الخســارتين، إذ جمعــوا إلــى الكــذب فســقطت منزلتهم عند رســول الله، وإثــم اليمــين الفــاجرة ، تهــاونوا برقابــة الله علــيهم وقــدموا تعلاتهم إرضاء لكم حتى لا تسقط منــزلتهم عنــدكم . والله يعلــم حقيقــة أمــرهم فســجل أنهم كاذبون

43←45- عفا الله عنك ...يترددون.

استأذن بعض المتخلفين عن الجهاد الراضين بالبقــاء النبــي ﷺ أن يتخلفــوا عــن الغــزو، وقدموا له أعذارا قبلها منهم وعــذرهم. وفــي قبولــه أعــذارهم بتصــديقهم دون محاســبة تفضح أمرهم وتكشف عن حقيقتهم ليعلمهــا المؤمنــون تغطيــة علــى المتخــاذلين، ولكــن

الله قَبْلَ أن يوجه الملامة إلى رسوله، افتتح الكــلام بمــا يفيــد تقريبــه وأنــه عــذره فــي اختياره ، فبدأ الخطاب بقوله تعالى: **عفــا الله عنــك**، أنــت غيــر مؤاخــذ علــى قبولــك أعذارهم .ثم بين القرآن الأولى به ﷺ في هــذا المقــام مــع التلطــف بــه ،علــى صــورة سؤال لإظهار علة تقدمه بــالإذن، لــم أذنــت لهــم؟ علــى أن تــرك الإذن كــان أنســب بوضــعهم، وأن تتــأنى ليظهــر لــك الصــادقين وهــم المؤمنــون الــذين كــانوا حقيقــة معذورين، وتتبين المنافقين الكاذبين. .

ثم فصلت الآية الاستئذان، وأنه على نوعين تبعا لعقيــدة المســتأذن. فأمــا المؤمنــون فهــم إذا استنفروا للجهاد لا يستأذنونك في الخــروج إليــه. لأنــه معلــوم لــديهم أن علــيهم أن يستجيبوا لدعوة الجهاد إذ هــو مقتضــى إيمــانهم بــالله واليــوم الآخــر، فإيمــانهم بــالله يدفعهم لنشر دينه ونصر جنده، وإيمانهم باليوم الآخــر يــدفعهم إلــى الســبق لنيــل ثوابــه العظيم يوم القيامة.

ويتأكد هذا المعنى بأن الله علــيم بمــا تنطــوي عليــه قلــوب المتقــين الــذين يســارعون لمرضاة ربهم تبعا لصفاء أرواحهم.

وفي المقابل فإن الذين يختصون بالإســراع إلــى الاســتئذان للتخلــف عــن الغــزو هــم الذين خلت قلوبهم من نور الإيمان بــالله ، فلــذلك هــم يريــدون الــتخلص مــن الأمــر ، كما أنهم لا يؤمنون بالآخرة فلا يقيمون وزنــا ليــوم القيامــة الــذي يفــتح الــنفس علــى الجهاد ابتغاء ثواب الله. ثم انضاف إلى ذلــك تمكــن الشــك مــن عقــولهم ، فهــم بــين توقع انتصار المسلمين على الروم ، وبين استبعاده لمــا يعلمونــه عــن الــروم مــن قــوة قتالية، فأظهروا الإسلام حتى يكون لهــم حــظ إن انتصــر المســلمون ، وأبطنــوا الوفــاء لمعتقداتهم السابقة فهم متحيرون ، حيرة تدفعهم للرفض لا للبحث عن الحق .

46-47: ولو أرادوا الخروج ...والله عليم بالظالمين.

يبكت القرآن المتخلفين وينقض عليهم ما ادعــوه مــن الأعــذار التــي حــولتهم عــن إرادة الخروج إلى القعود والاستئذان، ذلك أنهم لــو أرادوا الخــروج فعــلا لقــاموا بإعــداد مــا يلزم للغزو من سلاح ومركوب، فعدم اســتعدادهم ينــادي بكــذبهم. ولمــا كــان خــروجهم مع الغزاة لا يفيدهم بل ربمــا يــدخل الضــرر علــيهم، كــان مــن ألطــاف الله أن وهــن عزمهم، وصرفهم عن الخروج. وأقام مناديــا ينــادي فــي بــاطنهم إتمامــا لمــنعهم مــن الخروج: أن اقعدوا ولا تغزوا، وابقوا مــع القاعــدين مــن الأطفــال والعجــزة والعمــي والمرضى.

ثم صرح القرآن بالسبب الذي من أجله وهن الله عــزيمتهم عــن الخــروج، فقــال : إنهــم لو خرجوا فيكم مندسين في صفوفكم لا تـــدفعهم عقيـــدة بـــأنكم علـــى حـــق ،ولا يحـــركهم رغبة في نصركم ، فإن خروجهم لا يزيدكم قـــوة ولا تأييـــد ، ولكـــن يفككـــك وحـــدتكم ، ويفرق صـــفوفكم، ويـــدخل الاضـــطراب علـــيكم .ولَتحَرّكُـــوا جيئـــة وذهابـــا مســـرعين **(لأوضعوا)** يشـــيعون الأخبـــار الزائفـــة ويبـــذلون جهـــدهم ليوهنـــوا عـــزائمكم ، وينفشـــوا الخوف بزائف ما ينقلونه بين جماعاتكم. همهم أن يـــدخلوا الفتنـــة لتختـــل الأمـــور ويفســـد نظام الجيش. وأكد خطرهم بأنهم لو خرجوا مندسين فـــي صـــفوفكم لأثـــروا علـــى بعـــض أفراد الجيش الإسلامي ، إذ ليس كله علـــى مرتبـــة واحـــدة مـــن الفطنـــة والتعمـــق فيمـــا يسمع ليستخرج مقاصد المـــروجين، ولكـــن بعضـــهم ســـذج يتـــأثرون بمـــا يســـمعون ولا يمحصون الأخبار، فيكون خطر خـــروجهم فـــيكم كبيـــرا بالنســـبة للـــذين تـــروج علـــيهم الأراجيف.

كشف القرآن عن الخطـــر الـــذي يمكـــن أن يحـــدثوه فـــي الجـــيش الإســـلامي، لأن الله لا يخفى عن علمه شيء من كيد الظالمين.

48-لقد ابتغوا الفتنة...وهم كارهون.

إن بث الفتنة هو ديـــدن المنـــافقين ، ومـــا هـــي أول مـــرة عملـــوا علـــى تحقيـــق ســـيء آثارها، وتشتيت وحدة المؤمنين ، ونظروا في كل ما يمكـــن أن ينفـــذوا بـــه كيـــدهم لـــك، فأعدوا لكل احتمال طريقا يمكنهم من مخططهم .

وكانت النهاية أن الله أحـــبط مخططـــاتهم ونصـــر الله دينـــه وعلـــت رايـــة الإســـلام فـــي الآفاق ففتحت مكة وانتصر الجيش الإسلامي في غزوه لبلاد الروم.

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾ إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥٠﴾ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ ۖ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَبِّصُونَ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

تصبك حسنة : تنال غنيمة أو تحقق نصرا.

المصيبة : ما يحل بالإنسان فيحزنه، والمراد بها هنا الهزيمة.

التربص : انتظار حصول شيء مرغوب حصوله.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن بعض معاذير المنافقين المتخلفين ليكون ذلك كشفا لنفاقهم.

فمن ذلك أن بعضهم اعتــذر بأنـــه يخشـــى أن يفــتن إن هـــو خـــرج للجهـــاد، ليعــذرهم ويمكنهم من التخلف. وعذرهم الكاذب أسقطهم فـــي قـــاع الفتنـــة. وســتحيط بهــم جهــنم يوم القيامة.

ثم عرى القرآن ما كتموه من بغض النبـــي ﷺ ،إنهــم يشــعرون بالتعاســة إذا انتصـــرت ، وفي المقابل إذا هزمت في واقعة يتبجحـــون بـــأنهم قــد تفطنـــوا لمـــا ســيحدث وحمـــوا أنفسهم ، ثم ينقلبون فرحين بعافيتهم وإصابتكم .

قل لهم يا محمد : نحن واثقون بأن الله يسير الأمـــور علـــى مـــا قـــدره ، ولـــذا فإنـــه لـــن يصيبنا إلا ما قدره وكتبه ، ومآلات الأمور بيده فـــنحن راضـــون بمـــا قـــدر لنـــا. نتوكـــل عليه وهو أمره .إن على المؤمنين أن يحسنوا التوكل عليه فهو كافيهم.

أنبئهم أن الفارق بـــين المـــؤمنين والكـــافرين بعيـــد جـــدا . فهـــم فـــي حســـرة لأنهـــم إذ ينتظرون أن تحل بالمؤمنين كارثـــة هـــم واهمـــون. فـــالمؤمنون يســـيرون إلـــى إحـــدى غايتين كل واحدة منهما حســـنة : إمـــا ثـــواب أخـــروي لا يقـــدر قـــدره إلا رب العـــزة ؛ وإما نصر مبين. وأما نحن فننتظر أن يحل عليكم عذاب مـــن عنـــده يـــوقعكم فـــي الـــبلاء كالقحط وسوء الحال ، أو بعـــذاب بأيـــدينا فننتصـــر علـــيكم بالقتـــل والأســـر. فتربصـــوا وانتظروا ، فإنا منتظرون الخير ، وأنتم لا تنتظرون إلا الشر.

بيان المعنى العام :

49- ومنهم من يقول ائذن لي....بالكافرين .

تولى القرآن في سورة التوبة فضـــح المنـــافقين بتســـجيل مقـــالاتهم التـــي يســـترون وراء ظواهرها نفاقهم، فعراهم وكشفهم. ومـــن ذلـــك أن بعـــض المنـــافقين تقـــدموا لرســـول الله معتذرين طالبين منه أن يعذرهم ، فبعضـــهم اعتـــذر بـــأن خـــروجهم للغـــزو يفتـــنهم، لأن وقت الخروج كان وقت نضج الثمـــار، يخشـــون أن يفتنـــوا بتـــرك أمـــوالهم ، وبعضـــهم اعتذر بأن خروجه إلى أرض الروم سيجعله مفتونا بجمـــال الروميـــات وهـــو شـــبق إلـــى النساء. فخروجه إلـــى الجهـــاد يوقعـــه فـــي الفتنـــة. كشـــف الله أمـــرهم وأعلـــم رســـوله

والمؤمنين أنهم منافقون. ذكـــروا أنهـــم يخشـــون الوقـــوع فـــي الفتنـــة ، وكـــذبُهم علـــى رسول الله وتعلاتهم الباطلة أسقطتهم في قعر الفتنة ، فهـــووْا فيهـــا إلـــى الـــدرك الأســـفل منها. وافتضح أمرهم فكل من نقل عنه أنه اعتذر بهذه المعـــاذير علـــم أنـــه منـــافق. وهـــم بمعاذيرهم يرغبون في الخـــروج مـــن المضـــايق بتـــرويج الباطـــل، فكـــان جـــزاؤهم أن مآلهم جهنم تحيط بهم لا يفلتون منها.

50-51: إن تصبك حسنة تسؤهم...فليتوكل المؤمنون.

وتابع القرآن فضح دخيلتهم ، بأنهم قد أضـــمروا بغـــض النبـــي ﷺ رفضـــا للحـــق الـــذي جاء به .وبلغ بهم الحقد من ناحية أنهم إن انتصر النبـــي وجيشـــه حزنـــوا ، ومـــن ناحيـــة أخرى إن أصابته مصيبة فهزم في معركـــة مـــن المعـــارك ، تبجحـــوا بـــأنهم لفطنـــتهم وتقديرهم للأمور وعواقبها بذكاء، تنبهـــوا فـــأدركوا النتيجـــة مقـــدما واســـتعدوا لهـــا ولـــم يصبهم سوء كما أصاب المؤمنين ففي الكـــلام إيمـــاء إلـــى شـــماتتهم التـــي بلغـــت أنهـــم امتلأوا فرحا بما أصاب المؤمنين .

ثم لقن القرآن النبي ﷺ ما يكبت المنافقين ليقول لهـــم : إنـــه لـــن يصـــيبنا مـــن ســـوء إلا ونحن واثقون من أن الله سبحانه قد كتبه لنا، فشـــماتتكم غبـــاء مـــنكم ، إن الكـــون ينـــتظم عندنا على أنه يسيره خالقه وما من أمـــر يقـــع إلا بإذنـــه، وأنـــه مولانـــا الـــذي يرعانـــا برعايته ،فما قدره لنا لا نعلم عواقبه البعيدة . وهـــو مولانـــا الـــذي لـــم يهملنـــا وأكرمنـــا بدينه، فنحن نتوكل عليه وحده. وهذا شـــأن المـــؤمنين الـــذين أمـــرهم أن يتوكلـــوا عليـــه توكلا لا تبطرهم النعمة ولا يستولي عليهم اليأس.

51-قل هل تربصون بنا...إنا معكم متربصون.

أمر النبي ﷺ أن يعلن في الناس الفـــرق بـــين المـــؤمنين والكـــافرين فيمـــا ذكرتـــه الآيـــة السابقة من تربصهم بالمؤمنين حلول المصائب. فقـــال تعـــالى: قـــل للكـــافرين إن وضـــعنا ووضعكم متضادان.

أنتم تتربصون أن يحل بنا ما يكرمنا الله به ، فنحن علـــى جميـــع الأحـــوال نشـــعر مقـــدما بعناية الله بنا وتقديره لنا الخير، هذا الخيـــر والعاقبـــة الحســـنة تكـــون دار الكرامـــة فـــي الآخرة ، أو النصر والغنيمة والفتح في الدنيا فنحن آملون في عناية ربنا بنا .

ونحن ننتظر أن يصيبكم الله بعذاب يقدره سبحانه ويحققـــه إمـــا مـــا يســـلطه علـــيكم مـــن الجوع والخوف وذهاب القوة ،وإما بأيدينا فنقتلكم ونأسركم .

فتربصوا، وانتظروا، إنا منتظرون معكم، ولا يكون إلا حلول ما يكبتكم ويعزنا.

قُلْ أَنفِقُواْ طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّن يُتَقَبَّلَ مِنكُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ قَوْمًا فَٰسِقِينَ (53) وَمَا
مَنَعَهُمْ أَن تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَٰتُهُمْ إِلَّآ أَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَبِرَسُولِهِۦ وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ (54) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ
أَوْلَٰدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ
(55) وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (56) لَوْ
يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (57)

بيان معاني الألفاظ:

الإعجاب : استحسان مع استغراب .

الزهوق : الخروج بشدة وضيق .

الفَرَق: الخوف الشديد.

الملجأ : مكان يعتصم فيه الخائف.

المغارة :الغار المتسع .

المدخل : مكان الدخول .

لولوا: انصرفوا.

يجمحون: مسرعين خائفين.

بيان المعنى الإجمالي:

عرض المنافقون على رسول الله ﷺ أن يسهموا بالمال، ويتخلفوا عن الجهاد. فأمر الرسول أن يعلمهم بأن ما ينفقونه سواء أكان عن طوع أم عن إكراه مرفوض غير مقبول، وذلك لما طبعوا عليه من فسق .إن الذي حال بينهم وبين قبول نفقاتهم ما جمعوه من فساد :كفرهم بالله وبرسوله، أنهم يكرهون الصلاة فإذا حضروها مع المؤمنين لا يقومون إليها إلا بتثاقل وكسل، أنهم لشحهم لا يتطوعون بالإنفاق ولا يسهمون إلا عن كره .

إنهم جمعوا الأموال والأولاد .فإياك أن تعجب بما جمعوه، فإنهم لا ينعمون به في الدنيا لأنهم طبعوا على الشح والتحايل والخوف من ذهابه والحيرة، لكونهم يعلنون خلاف ما يظهرون، وهم قد ربوا أولادهم على ما يسيرون عليه. وتكون خاتمة أمرهم في الدنيا أن تخرج أرواحهم بعسر وهم على الكفر. يضاف إلى مساوي

المنافقين أنهم يعملون على مغالطتكم فيقسمون أنهم جـزء مـن جمـاعتكم، وقـد كـذبوا لا صلة بينكم وبينهم، ولكن الذي حملهـم علـى ذلـك هـو الخـوف مـنكم. فـالجبن صـفة لازمة لهم والمؤمنون شجعان. ومن تَأصُّلِ الجبن فيهم أنهـم عنـدما دعـوا إلـى الجهـاد أخذت أعينهم تدور تبحث عن ملجـأ أو مغـارة أو أي شـيء يـدخلون فيـه فيسـترهم ، لينصرفوا إليه مسرعين .

بيان المعنى العام:

52- قل أنفقوا طوعا أوكرها ....إلا وهم كارهون.

الإنفاق يكون تارة عن سماحة في النفس، وحب في المشـروع المنفـق فيـه، ولـذا يجـد المنفق من هذا النوع راحة نفسية، ويجود وهو فـي حالـة مـن الرضـا لا يتبعهـا أسـف على ما أنفق ولا تعلق. وتارة يكون الإنفاق لمـا يعـرض للمنفـق مـن أوضـاع ملزمـة فينفق مرغما لا راضيا ، لأنه لم يجد طريقا للتفصي.

والمقصود من الآية أن كل ما ينفقه المنافقون يضيع هبـاء ولا يجـد ون مـن ذلـك شـيئا في ميـزان حسـناتهم. لأن الله لا يتقبـل أعمـالهم بـل يرفضـها، فسـواء أنفقـوا عـن طواعية كنفقاتهم لعون الفقراء من أهل ملتهم ، أو أنفقـوا كرهـا كإنفـاقهم لعـون جـيش الإسلام للتفصي من الجهـاد ، كمـا روي فـي سـبب نـزول الآيـة أن أحـد المنـافقين عرض على رسول الله أن يسهم بشيء مـن أموالـه فـي الجهـاد ؛ فكانـت هـذه الآيـة قاطعة لكل أمل في الثواب ، خاصة وقـد ذكـر أن بعـض المنـافقين كـان يعلـل نفسـه بأنه إذا أنفق مالا لعون المسلمين ،فإنه يربح إذا كان ديـن الإسـلام حقـا. وعلـل رفـض إنفاقهم بالفسق وهو الكفر.

إن الذي حال بينهم وبين قبول نفقـاتهم وإثـابتهم عنهـا، وإن كـان يحصـل منهـا النفـع للجيش الإسلامي هو أمر جوهري إذا انتفى سقط كـل مـا يمكـن أن يترتـب عليـه مـن آثار. أولا كفرهم بالله وبرسوله فسدت عقيدتهم ورفضـوا الإيمـان . ثانيـا أنهـم أضـافوا لكفرهم النفاق فهم يحضرون مجامع المسلمين ليظهـروا أنهـم معهـم، ولكـنهم إذا قـاموا إلى أداء الصلاة قاموا متثاقلين يؤدونها ظـاهرا وقلـوبهم منحرفـة عنهـا ، ثالثـا أنهـم لا يساهمون في الإنفاق العام إلا ونفوسهم كارهـة ليسـتروا بمـا ينفقـون بغضـهم للجماعـة وانحرافهم عنها.

55←57- فلا تعجبك أموالهم ...وهم يجمحون.

معظم المنافقين في المدينة من اليهود، وتـربيتهم مـن قـديم الأزمـان وإلـى الآن غـرس في نفوسهم حب المال، والقدرة على استثماره، والشـح بـه. وترغـب النفـوس بفطرتهـا

في المال، وتجد من جمعــوا الأمــوال يحظــون بتقــدير وتميــل إلــيهم الأنظــار. فلــذلك نبهت الآية إلى حقيقة: هي أن ما جمعــه المنــافقون مــن مــال لا يكســبهم قيمــة. ذلــك أنهم، في معظم الأحوال، لم يجمعــوا تلكــم الأمــوال إلا بالشــح والتحايــل. وكــذلك مــا حولهم من ذرية، إنهم ربوا على ما ربي عليه آبــاؤهم مــن جــبن وبخــل وفســاد، فتلــك المظاهر من الأموال والأولاد هي مظاهر مغشوشة وخادعة، فلا تكن معجبا بها.

إنهم يعيشون مع أولادهم في كرب من الخوف من افتضــاح أمــرهم، وفــي تمــزق بــين ما يظهرونه ، وبين مــا يعتقدونــه ،أراد الله أن تكــون خــاتمتهم خــروج أرواحهــم مــن ضيق وبعسر، وهم على حالهم من الكفر.

واصل القرآن الكشف عــن تلــون المنــافقين فقــال : إنهــم يُريــدُونَ أن تطمئنــوا إلــيهم فيحلفون بما يقنعكم أنهم مثلكم مؤمنون ، يكونــون وحــدة مــن مجــتمعكم . وكــذبوا فــلا صلة بينكم وبينهم وليسوا جزءا من المجتمــع الإســلامي. إن الــذي حملهــم علــى تقــديم هذه الأيمان الفاجرة ،أنهم يخافونكم فيحــاولون التمويــه علــيكم ليــأمنوا جــانبكم . إنهــم جبناء والمؤمن لا يكون جبانا فليسوا منكم ولستم منهم.

جسم القرآن شدة خوفهم وتأصل الجبن فيهم فقــال : إنهــم عنــدما يــدعَوْن إلــى الجهــاد تجدهم يبحثون عما يمكنهم من الاستتار ، فلــو وجــدوا ملجــأ يســترهم، أو مغــارة ، أو شيئا يدخلون فيه فيطبق عليهم، لو وجدوا أي ساتر لانصرفوا إليه مسرعين.

وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

يلمزك : يقدح فيك ويعيبك.

آتاهم : أعطاهم.

حسبنا الله : الله كافينا.

راغبون : طالبون.

بيان المعنى الإجمالي :

عرّفت السورة بنمط آخر من المنافقين الـذين عظمـت شـراهتهم للمـال ، فـإذا أعطـاهم الرسول شيئا من الصدقات رضوا ، وإن لم يعطهـم غضـبوا وصـدر مـنهم مـا يـؤذي. ولو كان لهم أي حظ مـن الصـلاح لرضـوا بمـا نـالوه مـن فضـل الله ومـن عدالـة رسوله، ولصرحوا بمـا يفـيض علـى ألسـنة المـؤمنين: إن الله كافينـا نفـرده سـبحانه بالطلب .

ثم بين القرآن أن الصدقات ليست حكرا على الـذين يرغبـون فـي النيـل منهـا ، وإنمـا يُمكّنُ منها النبي ﷺ وأولياء الأمر مـن بعـده أصـنافا مـن المجتمـع ، وذلـك لتـؤدي الصدقات دورها المالي الاجتماعي . يعطى منهـا للأصـناف التاليـة وهـم : - الفقـراء والمساكين الذين لا يكفيهم ما عنـدهم للوفـاء بحاجـاتهم الحياتيـة مـن مسـكن وغـذاء ولبـاس وعـلاج . -العـاملون علـى الزكـاة بجمعهـا مـن أربابهـا وتوزيعهـا علـى مستحقيها- المؤلفـة قلـوبهم مـن المسـلمين الجـدد أو مـن الجواسـيس لفائـدة الدولـة الإسلامية - الرقاب فيعطى الأرقـاء مـا يسـترجعون بـه حـريتهم - الغـارمون وهـم الذين استغرقت ديونهم الحلال كل ما عنـدهم - الجهـاد والاسـتعداد بمـا يرهـب العـدو ويحمي الدولة- للمسافرين المنقطعين عن أوطـانهم فيعطـون مـن الزكـاة مـا يتمكنـون به من بلوغ مواطنهم.

إن الزكاة فريضة فرضها الله وهو العلـيم بمـا يصـلح العبـاد الـذي يجـري تشـريعه على ما تقضيه الحكم البالغة.

بيان المعنى العام :

58-59: ومنهم من يلمزك ...إلى الله راغبون.

مما كشفته هذه السورة دخيلة المنافقين فعرفـت بهـم، إن بعضـهم يتتبـع مـا يقـوم بـه الرسول عند توزيعه للصدقات، فإن أعطي منها ونـال منهـا جماعتـه الـذين هـم علـى شاكلته أظهروا الرضا، وقالوا هذه قسمة عادلة. وإن لـم ينـالوا منهـا أظهـروا سـخطهم وتَبَرُّمَهُم وعلقوا على القسمة ما يدل على وقاحتهم. كمـا قـال بعضـهم: هـذه قسـمة مـا أريد بها وجه الله وقول آخر: اعدل يا محمـد. والنبـي ﷺ يعلـم مـن أحـوال أمتـه مـا يهديه إلى القسمة العادلة.

إن موقفهم هذا موقف مرفوض . والموقف الراشـد أن يقبلـوا مـا مكـنهم منـه الله ممـا أوحى به إلى رسوله في قسمة الصدقات، وهو ماقـام بـه فعـلا رسـوله. ولـو رضـوا به لكان خيرا لهم في العاجل والآجـل ،فقـد نـالتهم عنايـة الرسـول بالتوسـيع علـيهم ،

وسينالهم في المستقبل حسبما خبروا كــرم الرســول وعطفــه علـــى المحــاويج. وتجنـــيهم ولمزهم له سيحبط أعمالهم ويسوقهم إلـــى ســـوء المصـــير فـــي الآخـــرة . ولـــو صـــفت قلوبهم لقالوا: إن الله كافينا حاجاتنا، وإننا نعتــرف بعظـــيم فضـــله وســـيمكننا مـــا يســـد به خلتنا ويلبي حاجاتنا ، مع إعلانهم بإفراد الله بالطلب .

وبعد أن شنع القرآن عليهم بما جرهم إليه نفاقهم، وشراهتهم المفرطة على المال، ووقاحتهم، تولى القرآن بيان التنظيم الإسلامي في المساعدة من مال الصدقة. كان المنافقون يظنون أن النبي ﷺ يتصرف في الزكاة بتمكين من تظهر عليه الحاجة بإمداده بما يرفع حاجته. وهذا تصور خطأ. فالمال الذي يجمعه ﷺ من المؤمنين يتولى إنفاقه في المصارف التي حددها الله. فانتقادهم لرسول الله منبئ أيضا عن جهلهم.

60-إنما الصدقات...والله عليم حكيم .

المصارف التي حددها الله في الآية هي المصـــارف التـــي لا يحـــل لمـــن يتـــولى توزيـــع الصدقات أن يتجاوزها، وتشمل:

أولا وثانيا :الفقراء والمساكين .قد يرد علـــى لســـان الـــوحي لفـــظ الفقيـــر مفـــردا ولفـــظ المسكين مفردا، وهما متســـاويان والحالـــة تلـــك علـــى المفهـــوم المقصـــود منهمـــا، ولا فرق بين الفقير والمسكين فهو الذي لا يملـــك مـــا يســـد حاجتـــه مـــن المســـكن واللبـــاس والقوت والعلاج. ومن ملك دار سكناه وضاقت يـــده عـــن بقيـــة الحاجـــات هـــو مســـتحق للصدقة. وقد يجتمعان كما في هذه الآية ، والعطف يقتضـــي التغـــاير . فـــإذا اجتمعـــا فمـــا هو المفهوم من الفقير وما هو المفهوم من المسكين؟ ذهـــب كثيـــر مـــن العلمـــاء إلـــى أن المسكين أشد حاجة من الفقير ، وعكس آخـــرون مقـــررين أن الفقيـــر أشـــد حاجـــة مـــن المسكين . وقد تتبعت أدلتهم وانتهيت إلى عـــدم الاقتنـــاع بمـــا أوردوه مـــن الأدلـــة. ذلـــك أنهم جعلوا قاعدة البحث هي شدة الحاجة ، أو قلة الإمكانـــات الماليـــة لكـــل نـــوع. وقـــد اهتديت بالتأمل في الحديث الذي أخرجه البخاري ومالـــك والنســـائي ونصـــه عنـــد مالـــك بالسند إلى أبي هريرة أن رســـول الله ﷺ قـــال :لـــيس المســـكين بهـــذا الطـــواف الـــذي يطوف على الناس فترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتـــان؛ قـــالوا :فمـــا المســـكين يـــا رسول الله؟ قال : الذي لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطـــن لـــه النـــاس فيتصـــدق عليـــه، ولا يقوم فيسأل الناس[1] .

---

[1] التمهيد ج18 ص52/48

إنه تحديد بين من مشكاة النبوة ؛ لم يجعـل المرجـع فـي بيـان المفهـوم شـدة الحاجـة، ولكن أرجع ذلك إلى عامل نفسي ؛ هـو عـزة نفـس المسـكين الـذي لا يسـأل النـاس، ويعمل على الظهور بمظهر لا يلفت أنظار الناس لخصاصته،

فكلاهما محتاج إلا أن الفقير يظهر حاجته ويطلـب العـون، ولا يحـاول أن يسـتر فقـره. على عكس المسكين .

ثالثا: العاملون عليها. تمثل الزكاة في الدولة الإسلامية جـزءا مـن مهامهـا، يتمثـل فـي جمعها من أربابها، ثم في توزيعها علـى مسـتحقيها. وهـو عمـل لا غنـى عنـه لسـير نظام الزكاة على الوجه المطلوب .فيستحق هـؤلاء الموظفـون أجـرا مقـدرا يقـدره لهـم ولي الأمر ، يراعى فيه الجهد المبـذول ، والوقـت المخصـص . جـزاء لا تقتيـر فيـه على العامل ولا توسعة كبيرة.

رابعا: المؤلفة قلوبهم، وهـم حـديثو عهـد بالإسـلام ، ودخـولهم فـي الإسـلام يقطـع صلاتهم الاقتصادية بقومهم ، والعامل الاقتصادي لـه أثـره فـيهم . وفـي عـونهم مـن الصدقات صلاح ليثبتوا ويتقـوى حـزب الإسـلام. وكـذلك الجواسـيس الـذين يمكنـون الدولة الإسلامية من التعرف على أخبار العدو وثغراتـه. فهـؤلاء إعطـاؤهم مـن الزكـاة بمقدار ما يتحقق من المصلحة، فقـد رأى سـيدنا عمـر رضـي الله عنـه فـي زمنـه أن الداخل في الإسلام يكتسب عزة ومنعـة ولا حاجـة للأمـة الإسـلامية أن تعـين الـداخل الجديد في الإسلام ، إذ ما يستفيده من الإسلام أكثر ممـا يسـتفيده الإسـلام منـه . وهـذا ظرف يتغير فيتغير الحكم .

خامسا: في الرقاب . والمـراد مسـاعدة الرقيـق علـى اكتسـابه حريتـه التـي فقـدها، فيشترى الرقيق ليعتق، ومن عقد مع مالكه عقدا يتم بموجبـه عتقـه إذا هـو بـذل لمالكـه مالا معلوما، يعطى من الزكاة مـا يعجـل عتقـه، وكـذلك الأسـرى يـتم افتكـاكهم مـن الأسر من مال الزكاة.

سادسا: الغارم. وهو الذي أحـاط الـدين بمالـه، ولـم يسـتدن فـي معصـية، فتنتشـله الجماعة الإسلامية ليعود إلى نشاطه الاقتصادي الذي لا يقتصر نفعه على نفسه.

سابعا: سبيل الله عند أهل العلم يقصد منـه الجهـاد، بالبـذل فـي التجهيـزات العسـكرية وإقامة الجيش المدرب، وبناء الحصـون، وكـل مـا يقـوي الأمـة الإسـلامية فَيَرْهَبُهـا أعداؤها ويُغْلَبون إذا هم حاربوها.

ثامنا : ابن السبيل . الغريب المحتاج في بلد غربته يعطى مـن الزكـاة، ولـو كـان غنيـا في بلده.

لقد فرض الله الزكاة وأوجبها، وعلـى المـؤمنين أن يقومـوا بهـا باعتبارهـا ركنـا مـن أركان الدين، وضمانا للاستقرار، واقتلاع داء الحسـد مـن المحتـاجين .خـص الله هـذه الأصناف بإعطائهم من الزكاة، وهو العليم بما يصـلح المجموعـة البشـرية ، حكـيم فـي ضبطه ما ضبطه.

وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّهُۥ مَن يُحَادِدِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَأَنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدًا فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْخِزْىُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾ يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

يؤمن للمؤمنين : يصدقهم .

يحادد : المعاداة والمخالفة .

الخزي : الذل والمهانة.

خاض: دخل في حديث لا جد فيه .

مجرمين : كافرين.

بيان المعنى الإجمالي :

أنماط خبيثة من النفاق تولت السورة فضحهم. فمنهم مـن كـان يـؤذي النبـي، تبعـا لمـا امتلأت به نفسه المريضة من الحقد، فيتحدث بأن النبي يفـتح أذنـه لكـل كـلام ويصـدقه ولا يميز بين الحق والزيف .رد القرآن عليهم بأن أذنـه الشـريفة مفتوحـة علـى الخيـر تعيش مع الوحي والإيمـان، يصـدق المـؤمنين فيمـا يخبرونـه بـه لصـفاء أرواحهـم وسعيهم الموصول لاطلاع نبيهم على كل ما يستجد . وهـو رحمـة للـذين آمنـوا مـنكم

أيها المنافقون فلو عجل عليكم بالرفض لقطع عليكم بـــاب الهدايـــة. وأمـــا الـــذين يؤذونـــه ويواصلون ذلك فجزاؤهم عذاب أليم .
ونمط آخر من المنافقين يؤذونكم ثم يحلفـــون بالأيمـــان المغلظـــة علـــى إيمـــانهم وودهـــم لكم إرضاء لكم ، ولو كانوا مؤمنين لقـــدموا إرضـــاء الله ورســـوله واحترمـــوا أيمـــانهم . ما أشد جهلهم! فإنه من يعادي الله ورسوله قدر الله له منزلتـــه فـــي جهـــنم بمـــا يصـــحب ذلك من ذل.
يحاولون أن يظهروا لكم أنهم مؤمنون يخشون لـــو كـــانوا مخـــادعين أن ينـــزل الله فـــيهم سورة تكشفهم. مـــا يقولـــون ذلـــك إلا اســـتهزاء لإنكـــارهم أن الله يطلـــع رســـوله علـــى نفاقهم. قل لهم : إن الله سيكشف دخائلكم ويفضحكم .وإنـــك إن أوقفـــتهم علـــى مـــا قـــالوه لأجابوك بأنهم كانوا في فترة استراحة يـــدخلون فـــي مختلـــف صـــنوف الكـــلام ليمرحـــوا ويضحكوا. قل لهم مهـــددا ومؤنبـــا أتســـتهزئون بـــالله وآياتـــه ورســـوله ، فالمقدســـات لا تقبل العبث ولا تكون إلا على منهج الجـــد. لا تقـــدموا أعـــذاركم فهـــي مرفوضـــة، وقـــد سجل عليكم أنكم كفرتم وناقضـــتم أنفســـكم فيمـــا كنـــتم تدعونـــه مـــن إيمـــان. إن المـــآل بالنسبة إليكم: أن من تاب منكم تقبـــل توبتـــه ومـــن واصـــل يعـــذب لأنـــه كـــان مجرمـــا كافرا.

بيان المعنى العام :

61- ومنهم الذين يؤذون النبي ...لهم عذاب أليم .

تواصل السورة عرض ما لاقاه النبـــي ﷺ مـــن أذى المنـــافقين ومكـــرهم. وكشـــفت هـــذه الآية عن نوع آخر من إذايتهم لرسول الله . وكانـــت إذايـــتهم تتخـــذ فـــي الغالـــب صـــورة محتملة ، يقصـــدون الإذايـــة ويعرضـــونها علـــى وجـــه يبتعـــد عـــن أن يكـــون إذايـــة . يصفون النبي ﷺ بأنه **(أذن)** يقصدون أنه يقبل كل ما يســـمع ، ولـــيس لـــه مـــن القـــدرات التأملية ما يمكنه مـــن التفرقـــة بـــين الحـــق والزيـــف ، ويرمـــون مـــن وراء ذلـــك أنـــه لتصديقه لكل ما يقال له ، فلا حرج عليهم من التعـــريض بـــه والكـــذب عليـــه والتشـــكيك في رسالته ، لأنه سيقبل كلامهم إذا أوقفهم على ما بلغه عنهم .
وَرَدَّ عليهم القرآن أن الرسول يسمع فيثبت في عقله وضـــميره مـــا يســـمعه، فيـــه جانـــب حق، فإن سمع رسول الله يتصل بصفة متتابعة بالوحي مـــن ربـــه بمـــا يحملـــه إليـــه مـــن خير، ويسمع للمؤمنين الصـــادقين ويطـــرح معهـــم للـــدرس مـــا يعتـــرض الأمـــة ومـــا يمكنها من التغلب على المصاعب ، ويسمع ما يأتيـــه مـــن الأخبـــار التـــي تجعلـــه دائمـــا مطلعا أتم الاطلاع على ما تضطرب بـــه الســـاحة مـــن خفايـــا وظـــواهر ، وقـــد أشـــار

قوله تعالى (**يؤمن بالله**) إلى ذلك يفهم بالتعمق فـــي تلــك الجملــة .وهــو يســمع فيســتقر في سمعه ما يصله من المــؤمنين الــذين لا يكــذبون، وســمت فطنــتهم بعــد أن فــتح الله قلوبهم للإيمان فكان لهم من نور الإيمان لقانة تميز لهم بين الحق والباطل .

ثم إن سماعه ما تخبرونه به لا يدل على تصديقكم، لكنـــه لســمو خلقــه يتغاضـــى عــنكم حتى يهتدي للإيمان من أراد الله له الخير، ولو أســرع بإيقــافكم علــى زيفكــم لانقطعــتم عنه ، ففي إغضائه ﷺ رحمة للذين يفتح الله قلوبهم للإســلام. وأمــا الــذين يؤذونــه ثــم يواصلون فسادهم وإذايتهم جزاؤهم اللاحق بهم عذاب أليم .

ومن فساد دخيلة المنــافقين وضــعف شخصــيتهم، أنهــم يكثــرون الأيمــان لتثقــوا بمــا يقولون، فهم لا يتورعون عن جعل الله شاهدا عليهم وهــم يكــذبون، فهــم يعملــون علــى إرضائكم بائتمانكم إياهم بالأيمان كلما كانت الظــواهر تكــذبهم. ولــو كــان لهــم أي حــظ من الإيمان بالله لكانت خشيتهم لله تفرض علــيهم أن يقــدموا مرضــاته علــى مرضــاتكم. معلوم أن معظم المنافقين هم من اليهود.

ما أبلغ جهلهم ! حتى إنهم لا يعلمون أنه من يعــادي الله ورســوله فلــيس لــه إلا مصــير واحد، هو نار جهنم. معنى ذلــك أن إصــرارهم علــى النفــاق والكفــر نــزل بهــم إلــى درجة فقدهم العلم بما هو ضروري: أن كل مــن بلــغ عنــاده أنــه يعــاكس الله ورســوله ويعاديهما فلا رجاء له إلا في مصير واحــد، هــو نــار جهــنم خالــدا فيهــا لا يبرحهــا. وهذا المصير هو الذل العظيم الذي ليس وراءه ذل.

62←66 -يحلفون بالله...بأنهم كانوا مجرمين.

من خداع المنافقين أنهم يتظــاهرون بــأنهم صــادقون فــي إيمــانهم، ويتحــدثون عنــدكم: بأنهم لو كان في قلــوبهم شــائبة نفــاق أو كفــر فــإنهم يخشــون أن ينــزل الله ســورة تكشفهم وتفضحهم، وهم لا يؤمنون لا بصــدق الرســول ولا بــأن مــا ينــزل عليــه وارد من الله المطلع على خفايا الأمور ، ولكن يقولون هــذا اســتهزاء ، وتنفيــرا لمــن يتــبعهم من دين الإسلام . والاستهزاء طريقة من المكر الخبيث الــذي يقــيم حــاجزا بــين القابــل له وبين ما قصد التنفير منه.

أمر الرسول ﷺ أن يكشف دخيلــتهم ويفضــحهم ويتحــداهم : إن الله ســينزل مــا يفضــح كذبكم وقصدكم الاســتهزاء والإســاءة ، ينشــر مــا انطــوت عليــه دخــائلكم ، ومعنــى استهزئوا تهديد لهم بسوء عاقبة استهزائهم ، وأن الله سيفضحهم .

ونمط آخر من النفاق، ما يبلغ من مقــالات المنــافقين لرســول ﷺ ممــا يثيــر الشــك أو يبعث على الاستخفاف، فإذا أوقفهم على ما قــالوه وتحــدثوا بــه وجعلــوا فــي مجالســهم

ينفثونه في عقول اتّباعهم ليزدادوا نفرة من الإسلام وعـداء واسـتهانة بـه، فـإذا أوقفهـم على ما سرى من كلامهم وبلغه وسـألهم سـؤال محاسـبة ، كـان جـوابهم إنمـا كـان قصدنا الترويح عن أنفسنا ولسنا في مقام الجـد حتـى نؤاخـذ بمـا نقولـه، فإنمـا دخلنـا نتجاذب أطراف الحديث فلا صلة بين ما نعتقده وما بلغكم .

ويأتي الرد صارما، فيه توبيخ وتقريع، ورد لمغالطتهم. أتسمحون لأنفسكم أن تستهزئوا بالله وبرسوله وبآياته . إنهم اعترفوا بصدق ما نقل عنهم، فهم لم ينفوه، إنما ادعوا أنهم ما كانوا جادين. وهذا أمر شنيع إذ كيف يسمح لنفسه من يدعي الإيمان أن يجعل المقدس محل لهو ولعب واستهزاء. ثمّ أمر أن يقول لهم: لاتعتذروا. أي إن عذركم مرفوض لا يترتب عليه ما يترتب على الأعذار من إمكان قبوله ، ثم ألحق به أن ما صدر منهم كان محققا لكفرهم بعد ما ادعوه من إيمانهم .

ثم أنبأهم بمصيرهم ، فهم بين تائب من تجاوزاته ، نادم عمـا صـدر منـه ، ومـنهم مـن هو مصر يصحبه كفره ، وسوء دخيلته إلى آخر يوم مـن حياتـه. فرغـب القـرآن فـي التوبة وإصلاح النفس والإقلاع عن النفـاق بـأن الله يعفـو عـن طائفـة التـائبين، وأنـه يعذب الطائفة الأخرى بسبب تمكن الإجرام منها وهو الكفر.

ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾ كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَـٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَـٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَـٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَٰهِيمَ وَأَصْحَـٰبِ مَدْيَنَ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتِ ۚ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

يقبضون أيديهم : تمكن الشح منهم.

الفاسقون : الجامعون بين فساد العقيدة وسوء العمل .

أشد قوة :أعظم قدرة على الأعمال الصعبة .

استمتعتم : انتفعتم مع لذة.

الخلاق : الحظ من الخير.

حبطت أعمالهم: بطلت أعمالهم فلا يجدون لها ثوابا.

ألم يأتهم نبأ : ألم يبلغهم خبر.

مدين : الأرض التي كان يسكنها بنومدين.

المؤتفكة : المنقلبة ، وهي مجموعة قرى خسفت وصار عاليها سافلها.

بيان المعنى الإجمالي :

يمثل المنافقون والمنافقات رجالا ونساء وحـدة وهـم متضـامنون، يجمـع بيـنهم صـفات ذميمة الاستئناس بالشر وكراهيـة الخيـر. ولـذا تجـدهم يـأمرون بفعـل المنكـر مـن الكذب والخيانة ومختلف أنواع الفساد، وينهـون عـن المعـروف الـذي يألفـه أصـحاب الفطر السليمة ، وتمكن الشح منهم .قلـوبهم خاويـة مـن ذكـر الله، فـأهملهم الله إهمـالا جعلهم يهملون مصالحهم القريبة والبعيـدة. إن المنـافقين يمثلـون قمـة الفسـق. ألـزم الله المنافقين رجالا ونساء والكفـار عـذاب نـار جهـنم لا يخرجـون منهـا، وذلـك كفـاء فسادهم ، وأطردهم الله من رحمته، واستحقوا العـذاب الألـيم .يخاطـب المنـافقين فيقـول لهم: شأنكم كشأن أقوام سبقوكم كانوا أقـوى مـنكم وأكثـر أمـوالا وأولادا ، جمعـوا مـن متاع الدنيا الشيء الكثير ، فصرفوا همهم للاسـتمتاع بمـا أوتـوا ، وأنـتم مـثلهم أقبلـتم في شراهة على متاع الحياة، ودخلتم في اللهو فلم تقيمـوا لـه حـدا فـي اللعـب والعبـث وتناول المقدسات بالاستهزاء .وأولئك الأقوام بطلـت أعمـالهم فلـم ينتفعـوا بهـا لا فـي الدنيا ولا في الآخرة ، وأولئك يمثلون قمـة الخسـارة وأنـتم مـثلهم. عجـب كيـف لـم تتعظوا بما حصل للذين من قبلكم، قـوم نـوح وقـوم عـاد وثمـود قـوم صـالح وقـوم إبراهيم، وسكان مدين قوم شعيب ،والقـرى التـي صـار أسـفلها أعلاهـا. كـل أولئـك أتتهم رسلهم بالمعجزات وبالآيـات البينـات، فكفـروا بهـا، فعـاقبهم الله بسـبب كفـرهم وعنادهم، وما ظلمهم الله ، ولكن هم الذين عرضوا أنفسهم للدمار فظلموها.

بيان المعنى العام :

67- المنافقون والمنافقات...هو الفاسقون.

يمثل المنافقون وحدة في المجتمـع المـدني، ذكـورهم وإنـاثهم، الاتصـال بيـنهم قـوي كأشد ما يكون الاتصال، فكل فرد منهم منـدمج فـي المجموعـة. ويتسـاءل السـامع مـا

هو القدر المشترك بينهم ؟ ذكرت الآية أنهـم يتفقـون علـى، الأمـر بـالمنكر مـن كفـر وكذب وغش ونحو ذلك، من مخازيهم المـذكورة فـي الآيـات السـابقة، وعلـى النهـي عن المعروف، ينهون عن الإيمان وعن الصـدق وعـن الأمانـة وعـن كـل مـا تقبلـه فطرة النفس الصافية . إن قلوبهم خالية من ذكـر الله. الـذكر الـذي يـوقظ فـي الـنفس حب الخير وبغض الشر. أثر الخـواء الروحـي فـيهم، أن فقـدوا هدايـة الله ، بصـيرتهم مغلقة فلا يفتح لهم النظر إلـى العاقبـة ، تأصـل الشـح فـيهم فـلا يتقـدمون بمسـاعدة لمحتاج ولا مساهمة في مشاريع النفـع العـام. إن المنـافقين بلغـوا أقـبح صـورة مـن الفسق. ساءت أعمالهم كما فسدت عقيدتهم بالكفر .

68-وعد الله المنافقين...عذاب مقيم.

ثم يعلن القرآن عاقبة فسادهم: أن الله ألـزم رجـالهم ونسـاءهم، كمـا ألـزم الكفـار مـن المشركين الخلود في نار جهنم. لو سأل سائل عن هـذا الجـزاء هـل يـوازي فسـادهم ؟ أثبت القرآن أن نار جهنم كافية فـي جـزائهم، وأتبـع عـذاب نـار جهـنم بأنـه عـذاب تلحقهم فيه اللعنة، فلا ينتظـرون تخفيفـا مـن العـذاب ولا رحمـة تتـداركهم، وعـذابهم عذاب لا ينقطع متواصل إلى أبد الآبدين.

69-كالذين من قبلكم ...هم الخاسرون.

ثم يخاطبهم القرآن خطابا يقرب ما أوعـدهم بـه، فيقـول لهـم أنـتم لسـتم صـورة فـي الكون لا مثيل لها ، بل عرفت البشرية أنماطا من النـاس ومـن المجتمعـات كـانوا أشـد منكم قوة لسلامة أبدانهم وصلاح أجهـزتهم ، ولهـم مـن الأمـوال والأولاد أكثـر ممـا عندكم ، فأقبلوا على ما رزقوا بشراهة مغرقين في طلب اللـذة كمـا أقبلـتم أنـتم ، فكنـتم وإياهم في الإقبال على اللذة بشراهة متساوين وإن كان الـذين سـبقوكم قـد جمعـوا أكثـر مما جمعتم. واسـتولى علـيكم التراخـي فـي جنـب الله فـأغرقتم فـي اللهـو واللعـب واستبحتم الاستهزاء بآيات الله وخضتم فيمـا لا يحـل لكـم كـالجمع الـذين سـبقوكم. إن أولئك الذين سبقوكم بطل ما قاموا به من أعمال، فلم يبـق لهـا أثـر فـي الـدنيا وكـذلك كان أمرهم في الآخرة. يقدمون على ربهم وقـد ذهـب كـل مـا عملـوه فـي الـدنيا أي يقدمون مفلسين، وكذلك سـتكون عـاقبتكم أيهـا المنـافقون لأنكـم سـاويتموهم. وأولئـك الذين يحشرون على ذلك النحو هم الخاسرون.

70- ألم يأتهم نبأ...كانوا أنفسهم يظلمون.

إن خبر ما أحـاط بـالقرى الظالمـة ونهايتهـا كـان معلومـا عنـد العـرب يتناقلونـه، يقررهم القرآن بما هو مستقر في علمهم من خبـر الـذين مضـوا قـبلهم مـن الأمـم ؛

قوم نوح عليه السلام ، وقوم هود قبيلة عاد ، وقبيلة ثمـود مـع نبـيهم صـالح، وقـوم إبـراهيم من الكلدانيين ، والقوم الذين كـانوا يسـكنون مـدين ورسـولهم شـعيب، والقـرى التـي خسف الله بها الأرض وقلب عاليها سافلها وهم قوم لـوط، هـؤلاء جميعـا أتـتهم رسـلهم بالآيات البينات المظهرة للحقيقـة الواضـحة ، فظلمـوا بتكـذيب الرسـل وأنكـروا مـا بلغوهم وعاندوا ،فحق عليهم العذاب، إن نهايتهم كانـت جـزاء وفاقـا لمـا قـابلوا بـه رسلهم ، وبذلك انتفى الظلم عن الله بما سلطه علـيهم مـن متنـوع العقوبـات ، ولكـنهم هم الذين تتابعوا في ظلم أنفسهم.

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

عدن: الخلد والاستقرار .

رضوان: رضا كامل

بيان المعنى الإجمالي :

كما بين القرآن ملامح المنافقين ونهـايتهم، بـين ملامـح المـؤمنين وجـزاءهم. حقـق أن العلاقة بين المؤمنين علاقة موالاة وتناصر وشـعور كـل فـرد أن سـعادته فـي سـعادة أخيه .يأمرون بالمعروف فيعملون على أن تشيع فـي مجـتمعهم الفضـيلة، وينهـون عـن المنكر فيقتلعون من المجتمع كل نابتة شر. يـؤدون الصـلاة علـى أتـم وجـه ، ويؤتـون الزكاة عن طواعية ، ويخشون ربهم فـلا يتجـاوزون حـدوده ، ويعملـون علـى طاعتـه .جزاؤهم أن الله سينزل عليهم رحماتـه .إن الله ينفـذ مـا أراده ، وحكمتـه ظـاهرة فـي كل ما يصدر عنه .

إن الله وعد وعدا لا مثنوية فيه أنه سـيدخل المـؤمنين والمؤمنـات يـوم القيامـة، جنـات تتخللها الأنهار الجارية ، لا يخشون أن يخرجوا منهـا أو تـنقص خيراتهـا، وقـد أعـدت لهم قصور كأفضل ما يمكن أن ينجز، بلغـت مـن الطيـب فـي المظهـر والمخبـر كـل

غاية في جنات إقامة .وفوق ذلك وعدهم ربهم بأنـــه ســيحل فـــي قلـــوبهم الإحســـاس بـــأن الله راض عنهم، وذلك الرضا هو الفوز العظيم الذي لا فوز فوقه.

بيان المعنى العام :

71- والمؤمنون والمؤمنات ...إن الله عزيز حكيم.

نمطان من أنماط المجتمع عني القرآن بـــإبراز خصـــائص كـــل منهمـــا. نمـــط المنـــافقين وقد تتبعت الآية السابقة ملامحه ؛ والـــنمط الثـــاني مقابلـــه وهـــو نمـــط المـــؤمنين ولـــنقم مقارنة بتتبع القرآن الذي ميز كلا منهما عن الآخر تمييز التضاد.

المنافقون بعضهم من بعض: اندماج لا يقوم على قيم.

المؤمنون بعضهم أوليـــاء بعـــض :العلاقـــة علاقـــة تناصـــر وود واعتبـــار كـــل مـــنهم مسؤولا عن أخيه بالإسلام الذي جمعهم .

المنافقون يأمرون بالمنكر وينهون عن المعـــروف: ألفـــوا الشـــر وأبغضـــوا الخيـــر، فهـــم يعملون على نشر الأول، وكبت الثاني.

المؤمنون يأمرون بالمعروف وينهون عـــن المنكـــر: همهـــم أن يعلـــو الخيـــر، وأن يقتلـــع الفساد والشر من المجتمع.

المؤمنون يقيمون الصلاة: بهذا الوصف خالفوا المنافقين الذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم.

المنافقون : تمكن الشح من نفوسهم ، يقبضون أيديهم .

المؤمنون يؤتون الزكاة : ولفظ الإيتاء يدل على طواعية وسماحة .

المنافقون نسوا الله : ليس بينهم وبين طاعة الله رابطة.

المؤمنون يطيعون الله ورسوله : ألفوا الطاعة واطمأنوا إليها.

المنافقون جزاؤهم :إهمال الله لهم . فأنساهم أنفسهم.

المؤمنون: هم في رعاية الله وهم مؤهلون لنيل رحمة الله .

وتتبع المقارنة بين النمطين بأن الله عزيز ينفذ مـــا قـــدره ، وهـــو حكـــيم فـــي كـــل مـــا يصدر عنه سبحانه.

72-وعد الله ... وهو الفوز العظيم .

كما تقارن الآية التالية بين ما ألـــزم الله بـــه الكفـــار ومـــا ألـــزم بـــه وعـــدا مـــن عنـــده للمؤمنين. ففي الآية 68 فصل القرآن مـــا ألـــزم الله بـــه المنـــافقين والمنافقـــات والكفـــار. وفي هذه الآية 73 فصل مـــا ســـيحققه للمـــؤمنين مـــن الجـــزاء .فوصـــف الله منـــازلهم بأنها في جنات تتخللها الأنهار الجاريـــة ،مـــن تمـــام النعـــيم أنهـــم لا يخشـــون تحـــولهم عنها هم خالدون. وقد أعدت لهم قصور جمعت ما شـــئت مـــن الجمـــال والـــذوق الرفيـــع

لا يلحقها نقص لا في المظهر ولا فـي المخبـر ، هـو الطيـب الكامـل الطيـب .وفـوق هذه النعم التي تتجاوز الوصـف وتـبهج الـنفس فتملأهـا راحـة لا تتطلـع إلـى شـيء وراءه ،ولكن فوق التكريم المادي هذا ، ما يتنزل علـيهم فـيملأ أرواحهـم ، ويشـع فـي قلوبهم : أن الله فوزهم بالرضا الأكمل والأعظم منـه .وذلـك هـو الفـوز العظـيم الـذي لا يطمح المكرمون إلى شيء وراءه .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ
إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ
فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا
لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤) ۞ وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ
فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ
وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا
اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ
وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ
الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ
اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ
مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الْفَاسِقِينَ (٨٠)

بيان معاني الألفاظ :

الجهاد : القتال لنصر الدين.

المأوى : المكان الذي يرجع إليه الإنسان ويستقر.

الغلظ : خشونة الجانب .

كلمة الكفر : جنس لكل كلام يدل على كفر قائله.

الهـم : نية الفعل والانجاز .

نقموا : من النقم وهو رفض الشيء واستنكاره.

اللمز : الاغتياب وتتبع المعايب بحق أو بباطل .

يتولوا: يعرضوا رافضين التوبة.

يوم يلقونه: يوم الحساب يوم القيامة.

بيان المعنى الإجمالي :

يدعو الله نبيه ويأمره أن يتولى جهاد الكـــافرين والمنـــافقين علـــى مرتبـــة ســـواء، وأن لا يلين لهم، هم أهل لذلك في الدنيا ومآلهم يوم القيامة جهنم. وإنها لأسوأ مصير.

من صفاتهم أنهم يقولون ما يفضح دخائلهم، ثم يحلفون بـــالله نـــافين أن يكـــون مـــا بلغـــك عنهم صادقا .وكذبوا في أيمانهم فهم قد قـــالوا مـــا يحقـــق كفـــرهم بكـــلام لا يـــتكلم بـــه مؤمن . وبذلك يكونون قد تحقق كفـــرهم بعـــد مـــا ادعـــوه مـــن الإســـلام. ومـــن ناحيـــة أخرى دبروا وأعدوا من المكر مـــا حـــال الله بيـــنهم وبـــين تحقيقـــه. ولمـــاذا كـــل هـــذا العداء؟ إنه إذا حللـــت وضـــعهم لا تجـــد شـــيئا يوجـــب العـــداوة والنقمـــة علـــى الـــدين الإسلامي ، إلا أمر واحد، وهو أن حياتهم تحولـــت مـــن خصاصـــة إلـــى غنـــى بانتشـــار الإسلام في المدينة وتحرك الاقتصاد حركة إيجابية بفضـــل الله ،ونـــالوا مـــن الغنـــائم مـــا زادهم يسرا .وهذا يوجب الشكر والـــولاء لا النقمـــة والعـــداوة . ولـــذا فـــإنهم إن يتوبـــوا من نفاقهم يتحولون إلى ما هو خير بانـــدماجهم الانـــدماج الســـليم فـــي المجتمـــع وتطمـــئن أرواحهـــم ، وإن تمـــادوا علـــى نفـــاقهم فســـيكون جـــزاؤهم العـــذاب الألـــيم فـــي الـــدنيا والآخرة. ولا يجدون وليا ينتســـبون إليـــه ويقـــربهم، ولا يجـــدون نصـــيرا ينصـــرهم لأن الله ضيق عليه بإسلام سكان الجزيرة العربية.

ومن المنافقين نمط آخر كـــان فقيـــرا فـــأعلن عـــن معاهدتـــه لله أنـــه إن رزقـــه الله مـــالاً ليتصدقن به ويواسي المحتاجين ،وســـيزيده المـــال صـــلاحا فـــلا تجـــده إلا ســـائرا مـــع الصالحين. ولكنه بعد أن أجاب الله طلبه استولى عليـــه البخـــل، ونقـــض عهـــده معرضـــا عن الوفاء بالتزامه. فكان إخلافهم مفضيا إلى تمكن النفـــاق فـــي قلـــوبهم بســـبب إخلافهـــم ما وعدوا الله عليه، وبسبب استمرارهم على الكذب. مـــا الـــذي أعمـــاهم حتـــى جهلـــوا أن الله يعلم ما يجري في ضمائرهم وما يتحدثون به بصـــوت خافـــت مـــع المقـــربين مـــنهم، الذين يتناجون معهم. ولا غرابة في ذلك فالله هو وحـــده العلـــيم بمـــا يغيـــب عـــن البشـــر مما لا يستطيعون إدراكه.

ومن مخازي المنافقين أنهم يعيبون ســاخرين مــن الــذين يتطوعــون بالصــدقات مــن المؤمنين، ومن الذين لا يملكون مالا فيقــدمون جهــودهم للمســاعدة. ويحــرك المنــافقون قوى الشر الناقد فيهم ليبرزوهم في صــورة توجــب الســخرية مــنهم . عــاملهم الله بمــا يقلب أحوالهم إلى صورة توجب السخرية منهم. ومع ذلك فسينالهم عذاب أليم .

أعلم الله نبيه أن المنافقين الذين سيلزمهم النفاق إلــى المــوت، لــن ينــالوا المغفــرة مــن الله، سواء استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، وذلك لأنهــم كفــروا بــالله وبرســوله. وكــانوا فاسقين لا يستحيون من فعل جميع المخازي .

بيان المعنى العام :

73-74: يا أيها النبي جاهد ...ولا نصير.

الجهاد يطلق ويراد منه المحاربة بــآلات القتــال، ويطلــق الجهــاد علــى إلــزام الخصــم الرضوخ بالحجة إلى الحــق. وكلاهمــا مطلــوب مــن المــؤمنين .وطلبــت الآيــة مــن رسول الله أن يجاهد الكفار والمنافقين. أما جهاد الكفار فهو تأكيــد لمــا ســبق فــي آيــات كثيرة وخاصة في هذه السورة من حض المســلمين علــى الجهــاد بكــل مــا يُمَكّــن مــن خضد شوكة الكفر بمختلف أنواع الأسلحة. وأما المنافقون فهــم لــم يعلنــوا كفــرهم، بــل هم يظهرون للناس أنهم مؤمنون، وينفــون عــن أنفســهم كــل صــلة لهــم بــالكفر. وقــد اختلف المفسرون هل إن القتال الحربــيَ خــاص بالكــافرين أو هــو يشــمل مــن تحقــق نفاقه أيضا؟ وحذاق المفسرين على الأول. وهــو الأظهــر لأن المحاربــة كإقامــة الحــدود لا تكون بالظن .

وأمر الرسول أن يعامل المنافقين بغلظة علــى خــلاف مــا طبــع عليــه ﷺ مــن اللــين والرحمة في التعامل والخطاب. وذلك لفسادهم وفقــدهم للرجولــة والشــهامة ، فــلا ينفــع معهم اللين .

وقرن القرآن ذلك بالإخبار عن جزائهم، وهو مــا تأكــد فــي القــرآن أنهــم يعــودن يــوم القيامة إلى جهنم، كما يعود ساكن البيت إلى بيته. وما أســوأه مــن مصــير. ثــم كشــف عن حقيقة المنافقين وتلونهم وفساد دخيلتهم وتهــاونهم بالأيمــان، فقــال تعــالى: إنــك إن أوقفتهم على ما صدر منهم من تجن علــى الإســلام وطعــن فيــه ،كــان مــوقفهم أنهــم يحلفون الأيمان المغلظة أنهم ما صدر منهم ذلــك وأن النــاقلين يكــذبون ، لقــد قــالوا مــا سجله القرآن: أنهم إن عادوا إلى المدينة ليخــرجن الأعــز (**يعنــون جماعــة المنــافقين**) الأذل (يعنون المؤمنين) وأنكروا. وكما قال الجُلَــاس بــن ســويد: لــئن كــان مــا يقولــه محمد حقا فنحن أشر من حميرنا . ولمــا بلــغ كلامــه النبــي ﷺ ودعــاه وأوقفــه حلــف

الأيمان على نفي ذلك. وتحقق كفرهم بعد مـــا ادعـــوه مـــن الإيمـــان بمقـــالاتهم المناقضـــة للإيمان. وهَمّ بعض المنافقين فـــدبر مـــؤامرة يقضـــي بهـــا علـــى رســـول الله ﷺ بنصـــب كمين له مرجعه من غزوة تبوك ، وأطلع الله نبيـــه فلـــم يتحقـــق لهـــم مـــن مكـــرهم مـــا أرادوا أن يصلوا إليه.

ما هو الأمر الذي جعلهم ناقمين على الرسول وعلى الدين الإسلامي يضمرون لهما كل هذا العداء ؟ لو بحثت لم تجد إلا شيئا واحدا، هو أن الله أغناهم ورسوله من فضله. تحولت حالتهم من فقر وخصاصة إلى غنى، تبعا للحركة الاقتصادية النشيطة التي أدخلها المهاجرون في المدينة، وتبعا لما وزعه الرسول ﷺ من أموال الغنائم والصدقات. ومعنى ذلك أنهم قابلوا الفضل والإكرام بالجحود والنكران، مما يثبت سوء طويتهم وفساد أخلاقهم.

ويعلن القرآن أنه لا يهدف من متابعة المنافقين وفضح نواياهم وأعمالهم ومكرهم، طردهم طردا نهائيا، ولكن يدعوهم إلى التوبة والإقلاع عن النفاق، والدخول في دين الله. إنهم إن يتوبوا يتحولون من وضع سيء إلى وضع صالح ومن الشر إلى الخبر . وأما إن رفضوا التوبة وأصروا على النفاق يحذرهم القرآن بأنهم لا يجنون إلا عذابا أليما ، أولا في الدنيا بعيشهم في خوف من النكال بهم إن تبين أمرهم ، وثانيا يوم القيامة فلا مطمع لهم في نيل ثواب ولا كرامة .ولا يجدون في الأرض من ينفعهم ولا من يؤيدهم ولا من ينصرهم ، لأن جزيرة العرب قد دخلت في الإسلام وتوحدت كلمتها على الحق .

75←77: ومنهم من عاهد الله ...وبما كانوا يكذبون.

ثم تولى القرآن فضح نمط آخر من المنافقين، هو نمـــط ذكـــر القـــرآن أنـــه كـــان محتاجـــا فقيرا ، فعاهد الله في قلبه وأمام رسوله أنه إن وســـع الله عليـــه ، وآتـــاه مـــن فضـــله ممـــا يشير إلى أنه يطلب رزقا واسعا ، أنـــه يكـــون بمالـــه عضـــوا صـــالحا فـــي المجتمـــع ، يتصدق ويسعف المحتاجين ، وينفق فيما يقـــيم مصـــالح الأمـــة. وآتـــاه الله مـــا طلبـــه ، ونما ماله نموا هو من فضل الله الواسع. ولمـــا بلـــغ ثـــراؤه حـــدا كبيـــرا اســـتولى عليـــه الشح، وحجبه عن المعروف، بخل تمكـــن منـــه أصـــبح تفكيـــره يـــدور حـــول محـــوره. وتولى معرضا عن كل ما التزم به وعاهد عليه. ومـــن ســـنن الله فـــي الخليقـــة، أن الشـــر يُضعِفُ تأثير دواعي الصلاح والاستقامة، ويقـــود إلـــى شـــر آخـــر، علـــى عكـــس فعـــل الصالحات الذي يفتح للمتقي المضي في مـــنهج الهـــدى والرشـــد. قـــال تعـــالى:(**ويزيـــد الله الذين اهتدوا هدى**)[1] .

[1] سورة مريم آية 76

فكان نقضه للعهد وبخلــه مفضــيا إلـــى أن ثبـت الله فــي قلــوب هــذا الــنمط نفاقــا، لا يفارقهم إلى يوم القيامة الذي يحشر فيه البشر جميعهم إلـــى ربهــم فيقــدمون علـــى ربهــم شارة النفاق واضحة عليهم. وذلك بجمعهــم بــين إخلافهــم الوعــد الصــريح لله وبســب كذبهم. ولا يظن هذا الفريق أنه خدع الله حتى صدقه فيما عاهــد بـــه، ومكنـــه مـــن المــال الوفير الذي هو كل همه وغايته. فـــالله لا يخـــدع وهـــو العلــيم بمـــا غـــاب عـــن النـــاس عِلْمُهُ، فضلا عما علموه.

78- ألم يعلموا ...علام الغيوب .

ما لهم مضوا في هذا السبيل ؟ ألا يعلمـــون أن الله لا يخفـــى عليـــه شـــيء مـــن أمـــرهم ؟ فالله يعلم علما دقيقا ما يجري في سر الإنسان. وما يتحدث بـــه حـــديثا مخفيـــا مـــع أقـــرب الناس إليه من الأسرار.

وما وجدته في معظم كتب التفسير أن الآية نزلت فـــي ثعلبـــة بـــن حاطـــب ،رغـــب إلـــى رسول الله أن يسأل الله له سعة في الـــرزق ، وأنـــه بعـــد أن كثـــر مالـــه فـــارق مجـــالس الرسول ﷺ .ولما أوجب الله الزكاة بعث الرســـول إليـــه الســـاعي فـــرده ردا قبيحـــا، ثـــم إنه جاء إلى النبي ﷺ تائبا فلم يقبل توبته، وتابع العرض مـــع أبـــي بكـــر وعمـــر إلـــى أن توفي في عهد عثمان. وهذه الرواية ضعيفة منكرة سندا .كمـــا أنهـــا هاويـــة متنـــا .فـــالله لم يعين الفاعل ، والتائب تقبل توبته وإن كانـــت بعـــد كفـــر ، ومـــن تـــأخر عـــن تقـــديم صدقته فالحكم أنها تقبل منه متى قـــدم بهـــا، وحســـابه علـــى الله عـــن التـــأخير ، ومـــن ناحية أخرى فإن ثعلبة ممن شهد بدرا. ومقام البـــدريين المقـــام الـــذي لا يـــدانى بشـــهادة رسول ﷺ . حشرنا الله معهم وكتب لنا جوارهم في الجنة.

ثم إن هذا النمط لم ينقطع من المجتمع الإسلامي ، فكثيرا مـــا يتقـــدم بعـــض مـــن لا مـــال لهم بالنكير على أرباب الثراء يستنقصهم ، ويظهرون أنهـــم لـــو كـــان لهـــم مـــال لأنفقـــوا بسخاء وأسهموا في القيام بالمصالح العامة للأمـــة ،وقـــد يتفضـــل الله علـــيهم بمـــا كـــانوا يتمنونه، وتجد بعضهم ينقلب أشد شحا وحبا للمال من الذين كان يعترض عليهم.

79-80: الذين يلمزون ... لا يهدي القوم الفاسقين .

ومـــن مســـاوئ المنـــافقين مـــع شـــحهم وبخلهـــم بالمـــال أنهـــم يطعنـــون ويستنقصـــون المساهمين المؤمنين عندما يقـــدمون إســـهاماتهم وصـــدقاتهم، فيرمـــونهم بالريـــاء، أو بـــأن ما قدموه تافه بالنسبة لسعة رزقهـــم. وكـــذلك يطعنـــون فـــي الفقـــراء الـــذين لا يملكـــون سوى قوتهم البدنية ويتقدمون إلى رسول الله بما عنـــدهم مـــن جهـــد ليبـــذلوه فيمـــا يعـــود على الجماعة بالخير. ثم يسخرون منهم بما يستنقصونهم به عند من يسمعهم .

جزاؤهم أن الله يسخر منهم. ومعنى سخرية الله أن يبلوهم بنقائص تلفت الأنظار حتى يكونوا سخرية حقيقية عند الناس، بما يبتليهم به من بلايا. وجزاؤهم في الآخرة عذاب أليم .

(استغفر لهم الآية) ذكر كثير من المفسرين أسبابا نزلت عندها هذه الآية ترتبط بحالات معينة، معظمها لا يتجاوز حالة فردية. وطبيعة النص(لهم) تدل على الجمع لا على حالة خاصة. ولذلك فالذي ترجح عندي أن النبي ﷺ ، كما هو معلوم، كان حريصا أشد الحرص على اهتداء الناس، وعبر القرآن أبلغ تعبير عن هذا الحرص، بقوله : (**فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا**)[1] – وقال تعالى : (**فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين**)[2] – والبخع قتل النفس غمًا. وقوله تعالى : (**فمن اهتدى فلنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنت عليهم بوكيل**)[3] –فكان حريصا على غشيان مجالسهم ، يقظا لما يوردون عليه من إشكالات فيتولى إرشادهم بما عرف عنه من اللين ووضوح الحجة، لا ييأس فيكرر عرض الحق ، كل همه أن يندحر الكفر ويشرق الإيمان في قلوب البشر .فكان يدعو ربه أن يغفر لهؤلاء المنافقين **بهدايتهم للإسلام** ، وحاشاه أن يطلب المغفرة للكفار والمنافقين الذين ينهون حياتهم على النفاق. أعلمه الله أن بعض المنافقين لا يدخلون أبدا إلى الإسلام. فبالنسبة لهؤلاء الذين علم الله أنهم يموتون على الكفر، خاطبه بقوله: استغفر لهم الآية...فتكون هذه الآية في مساق قوله تعالى:(**إن الله لا يغفر أن يشرك به**)[4] – إن الآيات السابقة كشفت ما ينطوي عليه كثير من المنافقين من الخبث والفساد ، وأن بعضهم قد تأصل فيه هذا إلى درجة أنه سيلازمه إلى فراقه للدنيا ويكون معه يوم القيامة كما قدمنا. وأن بعضهم سيهديه الله ويكون عنصرا صالحا يجاهد لإعلاء كلمة الله. والاحتجاج بأن الله أطلع نبيه على المنافقين لم يرد فيه أنه أطلعه على من سيموت على النفاق وعلى من ستحل في قلبه الهداية.

وبناء على ذلك يكون معنى الآية والله أعلم: استغفر لهم تبعا لما طبعت عليه من الرحمة، أو لا تستغفر لهم تبعا لما سبق في علم الله من موافاتهم على الكفر

---

[1] سورة الكهف آية **6**

[2] سورة الشعراء آية **3**

[3] سورة الزمر آية**41**

[4] سورة النساء آية **48**

والنفاق، الحالتان سواء في النتيجة والغاية ، إن الله لا يغفر لهم أبدا ولو بالغت في الاستغفار ولفظ السبعين لا يراد منه حقيقته العددية ولكن يرمز إلى الكثرة الكاثرة.
فإن قيل لماذا كان الحكم حاسما بهذه الدرجة؟ أجابت الآية مبينة عدل الله في هذا :ذلك الحكم البات سببه أنهم كفروا بالله ورسوله كفرا صمموا عليه وأغلقوا عقولهم عن التردد فيه أو التساؤل ، إنه لا صلة بينهم وبينكم لا في الحاضر ولا في المستقبل . ثم أضافوا إلى كفرهم الفسق، الذي كان أيضا سببا في نفي أن تحصل لهم الهداية. والفسق مرتبة زائدة في الفساد على الكفر ، فالفاسق يضيف إلى فساد عقيدته هبوطا في سلوكه وإقبالا على المخازي وحركية في مواقع الشر.

فَرِحَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ بِمَقۡعَدِهِمۡ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلۡحَرِّۗ قُلۡ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرّٗاۚ لَّوۡ كَانُواْ يَفۡقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلۡيَضۡحَكُواْ قَلِيلٗا وَلۡيَبۡكُواْ كَثِيرٗا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٖ مِّنۡهُمۡ فَٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِلۡخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخۡرُجُواْ مَعِيَ أَبَدٗا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّاۖ إِنَّكُمۡ رَضِيتُم بِٱلۡقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٖ فَٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡخَٰلِفِينَ ﴿٨٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

المخلفون : الذين لم يشاركوا في غزوة تبوك.

مقعدهم : قعودهم.

خلاف: خلف.

يفقهون : يدركون ما وراء الظاهر.

الضحك : مقصود به الفرح.

البكاء : مقصود به الحزن.

طائفة : جماعة.

الخالفون : الذين يتركهم المجاهدون وراءهم في الديار، من العجزة والنساء والصبيان ومن لا غناء له في الحرب .

بيان المعنى الإجمالي :

ظن المنافقون أن النبي ﷺ صدقهم فيما قدموا له من معاذير، ولذلك أذن لهم في التخلف عن الغزو. فرحوا بذلك لأنهم كانوا يكرهون أن يسهموا في الجهاد بأموالهم

وأنفسهم، وأضافوا إلى ذلك عملهم على تثبـيط المجاهـدين قـائلين: إن الحـر شـديد فـلا تخرجوا في وقت الحر. قل لهـم: إنكـم فـررتم مـن حـر الصـيف وعرضـتم أنفسـكم لعذاب جهنم التي هي أشد حرا. ولكنهم لا يفقهـون أي لا يتجـاوزون الظـواهر إلـى مـا وراءها. إن فرحهم هو لفتـرة قصـيرة ، وسـيعقبه حـزن مقـيم . بسـبب مـا قـدموا وعملوا.

إنك إن دعوت المـؤمنين للجهـاد مـرة أخـرى وحضـرت طائفـة مـن رؤوس أولئـك المنافقين، و طلبوا منك أن تأذن لهـم فـي الخـروج مـع جـيش المسـلمين ، فـاطردهم وقل لهم :لا أسمح لكم أن تخرجوا معـي ،لا فـي هـذه المـرة ولا فيمـا يسـتقبل مـن الأزمان. ولن أمَكِّنَكُمْ من شرف القتـال للأعـداء . إنكـم رضـيتم وفضـلتم القعـود فـي المرة الأولى وقـدمتم المعـاذير الكاذبـة ، فكونـوا دائمـا مـع الخـالفين : مـن النسـاء والصبيان وغير القادرين على حمل السلاح.

بيان المعنى العام :

81-82: فرح المخلفون بمقعدهم ...بما كانوا يكسبون.

أبلغ النبي ﷺ المؤمنين دعوة ربهم للجهاد بأموالهم وأنفسـهم كمـا سـبق ذلـك فـي هـذه السورة" من الآية 37 إلى الآية 43" فـي غـزوة تبـوك. وخـرج مـع رسـول الله اثنـا عشر ألفا، وتخلف عنه من تخلـف وخاصـة المنـافقون وقـد قـدمنا أن اسـتئذانهم فـي البقاء كان شارة نفاق. ثم عادت هـذه الآيـة بتفصـيل أوضـاعهم ومـا كتـب لهـم مـن الجزاء على نفاقهم.

عمّتْ المنافقين الفرحة لمّا استأذنوا الرسول في البقاء فـي المدينـة وأذن لهـم فـي عـدم الخروج للجهاد. وحقق القرآن أن بقاءهم وفـرحهم كـان بسـبب كـراهتهم الإسـهام فـي نصر الإسلام لا بأموالهم ولا بأنفسـهم فمعـاذيرهم كانـت كاذبـة والحقيقـة أن نفوسـهم انطوت على كُرْهٍ للإسلام ولما يعود عليه بالخير، وكـره للجهـاد وبـذل المـال أو الـنفس في سبيله، وثبطوا الناس عن المشاركة في الجهـاد وخوفـوهم بـأن الوقـت وقـت شـديد الحر، يتعرضون فيه إلى مشاق خطيرة . قـل لهـم يـا محمـد: إنكـم عرضـتم أنفسـكم لنار جهنم تصلونها، واستهزاء بهم صرح بأنها أشد حـرا. وختمـت الآيـة بإثبـات أنهـم أغبياء لا يدركون إلا الظواهر، ولا ينفذون إلى ما وراء ذلك، فهم لا يفقهون.

82- فليضحكوا قليلا ...بما كانوا يكسبون .

بنى على وضعهم العاجل الذي ابتهجوا فيه بالتخلف قولـه: إن فـرحهم بمـا ظنـوا أنهـم استطاعوا أن يروجوه على النبي ﷺ مـن معـاذير التخلـف الكاذبـة ، هـو فـرح تعقبـه

عن قريب حسرة ،فليضحكوا قليلا ،على معنى ليفرحـــوا زمنـــا قلـــيلا يعقبـــه أســـف بمـــا يظهر الله رسوله على أعدائه وبانكشاف أمركم.

إن بكاءهم بما يرمز إليه لفظ البكاء مـــن حـــزن وأســـى هـــو حـــزن مقـــيم دائـــم. وذلـــك جزاء وفاق، استحقوه باجتهادهم في التضليل والكذب.

83-84: فإن رجعك الله...مع الخالفين.

ثم اعلم الله نبيه أن عليه أن يطبق عليهم عقوبة أخرى تنـــزل بهـــم عـــن مقامـــات الريـــادة والسيادة ،وتبين هوانهم وعدم الاكتراث بهـــم فـــي المســـتقبل ، فيقـــول الله لنبيـــه : إنـــك إن أعلنت الجهاد في المستقبل ودعوت المـــؤمنين للاســـتعداد ، علـــى النحـــو الـــذي تـــم في غزوة تبوك ،وتعرضت لك تلك الطائفة مـــن رؤوس النفـــاق تســـتأذنك فـــي الخـــروج مع الجيش ، فسجل عليهم هوانهم وامنعهم من الخـــروج معـــك، وقـــل لهـــم : لـــن أســـمح لكم بشرف الخروج معي أبدا، فجـــيش المســـلمين غنـــي عـــنكم ، ولـــن أقبـــل أن أراكـــم تقاتلون معي عدوا. ذلك أنكم رضـــيتم واطمـــأننتم للقعـــود فـــي المـــرة الأولـــى، وقـــدمتم المعاذير الكاذبة ، فاقعدوا مع الخالفين من النساء والضعفة من الأطفال والشيوخ.

وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ
وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن
يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُواْ
بِٱللَّهِ وَجَٰهِدُواْ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُوْلُواْ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُواْ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ
ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُواْ بِأَن يَكُونُواْ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ
﴿٨٧﴾ لَٰكِنِ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ جَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ
لَهُمُ ٱلْخَيْرَٰتُ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ
لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الطول : السعة في المال.

القاعدون : من لا يستطيع الخروج للجهاد، ومـن أبقـاه النبـي صـلى الله عليـه وسـلم لضبط الأمور عند مغيبه.

الخوالف : النساء . والرجل الذي لا خير فيه .

طبع : ختم بما يبقي على المطبوع مغلقا لا يفتح.

الخيرات : جمع خيرة وهو المستحسن من كل شيء.

الأعراب : سكان البادية.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد غزوة تبوك حرم الله تحريما دائما على نبيـه أن يكـرم منافقـا بالصـلاة عليـه .كمـا حرم عليه أن يقف على قبره عنـد الـدفن ، فـأخزاهم بحرمـانهم مـن بركـة صـلاته ، وبالإهانة لعدم القيام على قبره. ما حكم بـه علـيهم هـو جـزاء كفـرهم بـالله وبرسـوله كفرا التزموه إلى الموت .

كما أيقظ القرآن المؤمنين حتى لا يعطوا قيمة لمـا رُزِقَـه بعـض المنـافقين مـن أمـوال وأولاد وأن لا يعجبوا بها ، فإنه في الحقيقة عذاب لهم فـي الـدنيا إذ هـم يعيشـون علـى خوف على ما كسبوا ، وزاد الشح تمكنا منهم فحلت النذالـة فـي سـلوكهم وابتعـدوا عـن منازل العزة والشهامة .وفوق ذلك أن تخرج أرواحهم من أبدانهم وهم كافرون .

ومظهر آخر من مظاهر المنافقين: أنهم إذا أنـزل الله علـى رسـوله سـورة تـدعو إلـى الإيمان، رأيت التجهم يعلو وجوههم، وإذا أنزلـت سـورة تـدعو إلـى الجهـاد طلبـوا أن يبقيهم الرسول في المدينة. لم يجدوا ما يشـجعهم علـى الجهـاد فرضـوا أن يبقـوا مـع النساء ومع من لا حظ له من الشـجاعة والرجولـة. فقلـوبهم مغلقـة لا يمكـن أن يـدخل إليها نور الحكمة ولا النظر البعيد ؛كمـا يطبـع علـى الرسـالة التـي لا يـراد أن تفـتح. فهم قوم تفكيرهم سطحي لا ينفذ إلى ما وراء الظواهر والحظ العاجل.

وفي مقابل المنافقين تعرض السورة صورة المؤمنين وهم مع نبـيهم فـي كـل أمـر فـي الإيمان وفي الجهاد بأموالهم وأنفسهم، إنهم بذلك حـق علـيهم أن يحصـلوا علـى النجـاح التام ، فقد هيأ الله لهم جنات تتخللها الأنهار.إن مشهدهم ينادي بأنه الفوز العظيم .

وكما كان النفاق في المدينة وظهـر فـي غـزوة تبـوك ، فكـذلك انكشـف النفـاق فـي أعراب البادية . تخلف الأعراب عن الغـزو بعـد أن أمـروا بـه، وبعضـهم جـاء بعـد الغزو، قدم عذره الصادق فعذره النبي ﷺ ، وبعضـهم قعـد عـن الجهـاد لتكذيبـه وعـدم

إيمانه بالله ورسوله. وهـؤلاء سـيحل علـى الكـافرين مـنهم عـذاب ألـيم فـي الـدنيا والآخرة .

بيان المعنى العام :

84- ولا تصل على أحد منهم ... و ماتوا و هم فاسقون.

كان النبي ﷺ يصلي على من مات من المسـلمين ، وتظـاهُرُ المنـافقين بالإسـلام لـم يحرمهم من صلاته عليهم. وبعد أن تمرد النفـاق فـي غـزو تبـوك وثبطـوا المـؤمنين على القتال ولم يشاركوا لا بالمال ولا بـالنفس فيهـا ، وعـاقبهم الله بمـا عـاقبهم وشـدد النكير عليهم ، ومنعهم من المشـاركة فيمـا يسـتقبل مـن الغـزوات ، فكانـت القطيعـة واضحة بين المؤمنين والمنافقين ، أضاف الله إلـى ذلـك تسـليط خـزي آخـر علـيهم ، فمنع رسوله من الصلاة على موتى المنافقين. وفـي عـدم صـلاته زيـادة علـى حرمـان الميت من بركة دعائه، إظهار لنفاقه وكشـف لحقيقتـه . وإهانـةً لموتـاهم منعـه مـن أن يقوم على قبر الميت المنافق، إذ كان مـن كمـال خلـق النبـي ﷺ أن مـن مـات يكرمـه بالوقوف حتى يتم دفنه. إن هذا الحرمان وتلك المهانـة هـي بسـبب كفـر المنـافق بـالله وبرسوله كفرا تواصل إلى أخر لحظة من حياته، ومات فاسـقا علـى حسـب مـا قـدمناه أن الفسق يدل على ظهور فساد الكافر في أخلاقه وسلوكه.

85- ولا تعجبك أموالهم ...وهم كافرون.

ويريد القرآن أن يهون شأنهم فتعرض إلى مـا مكـنهم الله مـن مـال وأولاد مـن متـاع الحياة الدنيا التي تلفت الأنظار، وربما تدفع إلـى الإعجـاب بهـا، شـأن البريـق اللافـت للأنظار من كثرة الأولاد التـي تحـيط بـرئيس العائلـة فتكسـبه عـزة فـي المحافـل، وكذلك فاخر اللبـاس والخَيْـل والـنعم والـذهب والفضـة ومـا يصـحبها مـن رفاهيـة المنازل . هَوّنَ القرآن من هذه المظـاهر، والخطـاب للنبـي والمقصـود أمتـه، فـأيقظهم إلى أن كل ما يشاهدونه من أنواع النعم التي حظـي بهـا كثيـر مـن المنـافقين، والتـي ربما يود بعض الناس أن يكون لهـم مـثلهم، أن تلـك الـنعم هـي فـي حقيقتهـا عـذاب باطن يكتمونه في أنفسـهم ، أراد الله أن تكـون مسـالك لإنـزال العـذاب علـيهم فـي الدنيا . ذلك أن المنافقين غير مطمئنين فـي حيـاتهم ،يتضـاعف خـوفهم علـى مكاسـبهم بافتضاح أمرهم وما يتبعه من نزول النكال بهـم ، كمـا كانـت سـببا لـتمكن الشـح مـن قلوبهم فصحبتهم نذالة البخل، وحرموا مـن الشـهامة .ومـع العـذاب الـدنيوي صـحبهم النفاق إلى خروج أرواحهم فيموتون على الكفر . والعياذ بالله.

86-87: وإذا أنزلت سورة...فهم لا يفقهون.

وإذا أنزلت سورة :تسجيل آخر مفصل لــبعض أحــوال المنــافقين يشــنع بهــم. ذلــك أن شأن المــؤمنين، كلمــا نــزل علــى رســول ســورة جديــدة استبشــروا بهــا، ووعوهــا وأسرعوا للعمل بما فيها. وعقد الصحابة بينهم صــلات تمكــن مــن غــاب عــن مجلــس رسول الله ﷺ ، ونزل عنــد مغيبــه وحــي، أن يأتيــه رفيقــه بمــا جــد. هــذه الصــورة الوضيئة المشرقة يقابلها صــورة المنــافقين التــي كشــفتها الآيــة ، فــإذا أنزلــت علــى رسول الله سورة تدعو إلى الإيمان وتحث عليه وتَعِــدُ بــالفوز لمــن آمــن والشــقاء لمــن تولى وأعرض ، ظهر على المنافقين امتعاض وتبــرم .وإذا أنزلــت ســورة ضــمت إلــى ذلك الأمرّ بالجهاد كما وقع في هذه الســورة، ولــذلك خــص بعــض المفســرين **ســورة** بسورة براءة، وتنكير سورة لا يعينها في سورة بــراءة، بــل شــأن المنــافقين لا يختلــف أمرهم بين سورة براءة وبين غيرها من الســور الداعيــة إلــى الإيمــان والجهــاد. فــإذا أمرت السورة بالجهاد، طلبوا أن يتركهم مع الباقين في المدينــة. مــا معنــى تــركهم فــي المدينة؟

معناه أنهم تأملوا فلم يعتبروا حظا لأيــة داعيــة لخــروجهم إلــى الجهــاد، فرضــوا تبعــا لذلك بأن يبقوا في المدينة مــع النســاء والعجــزة والمرضــى .ومــا ذلــك إلا لهــوانهم النفسي وبعدهم عن منازل الشرف والرجولــة. إن قلــوبهم قلــوب مغلقــة لا ينفــذ إليهــا شعاع من نور الحكمة ولا القدرة على اتخاذ المواقف الصــائبة. كمــا يطبــع علــى مــا لا يراد فتحه طبعا يبقي عليه لا يُتَجَرّأ علــى فتحــه. ومــا ذلــك إلا لأنهــم قــوم عجــزت عقولهم عن النفاذ إلى فهم بواطن الأمور.

88-89: لكن الرسول والذين ... ذلك الفوز العظيم.

وإذا كان المنافقون تقاعسوا عن الجهاد ، فإنه في المقابــل تجــد الرســول والــذين آمنــوا التابعون له في الإيمان وفي الجهاد وفي جميــع الأمــور، أســرعوا إلــى الخــروج إلــى الجهاد وجاهدوا فعلا بــأموالهم وأنفســهم .إنهــم لإخلاصــهم فــي الاســتجابة لكــل مــا يدعوهم إليه رسول الله ﷺ كتب الله لهم مــن كــل أنــواع الجــزاء أحســنه وأكملــه فــي الدنيا والآخرة. واختصوا بالنجاح الذي لا يصحبه نقــص المحقــق لجميــع الآمــال. ومــن فلاحهم ما أعده الله لهم يوم القيامة وخصهم بــه، مــن مــآلهم إلــى الإقامــة فيــه: جنــات تتخللها الأنهار، لا ينكد عليهم نعيمهم خوف التحول عمــا هــم فيــه، فهــم مقيمــون فيهــا إلى أبد الآبدين. والمشهد قد اكتمل بصلاح في الــدنيا وطاعــة راضــية لرســوله وعنايــة تحققت من رب العزة بما أعده لهم من مقام فــي جنــات تتخللهــا الأنهــار. هــذا المشــهد لا تجد ما ينطلق عليه إلا أنه الفوز والنجاح العظيم الذي ليس فوقه نجاح.

90- وجاء المعذرون...عذاب أليم .

وكما سجل القرآن الموقـف المتخـاذل بالنسـبة للمنـافقين الـذين اعتـذروا عـن القتـال واستأذنوا في البقاء، وسجل الموقف المشرف للرسـول ﷺ والمـؤمنين معـه، سـجل فـي هذه الآية موقف الأعـراب سـكان الباديـة الـذين دعـاهم الرسـول للالتحـاق بجـيش الإسلام في غزوة تبوك وكانوا على نوعين :

النوع الأول: من حال بينهم وبين الجهـاد موانـع حقيقيـة، حـرمتهم مـن الإسـهام فـي الغزو، فقدموا علـى رسـول الله عارضـين بحـق أعـذارهم، اسـتمع إليـه وعـذرهم، وتحقق الهدف من قدومهم أنهم يرغبـون أن يكـون النبـي ﷺ مطمئنـا إلـى إخلاصـهم ، وأن يكون تخلفهم بعذر صـادق تخلفـا بـإذن منـه فـلا يقصـيهم فـي المسـتقبل عـن المشاركة في الغزو.

النوع الثـاني: الأعـراب الـذين كـان وضـعهم يسـمح بالجهـاد، ومسـاعدة الرسـول والمؤمنين في غزوهم بالمال والـنفس، ولكـنهم فضـلوا أن يقعـدوا فـي ديـارهم وأن لا يلتحقوا بالجيش الإسلامي. كذبوا فيما أعلنوه مـن إيمـان بـالله وبرسـوله، وأطلـع النبـي ﷺ على نفـاقهم وأن معـاذيرهم كاذبـة وليـدة كفـر ونفـاق. وتحقـق أنّ الله سيصـيبهم بسبب كفرهم عذابا أليما، يتسلط الصـالحون المؤمنـون علـيهم بالأسـر والقتـل، ويحـل عليهم غضب الله يوم القيامة فيدخلون جهنم خزايا.

لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الضعيف : واهن القوة من غير مرض.

الحرج: أصل الحرج الضيق، وإذا تعلق التكليف كـان المكلـف فـي ضـيق. إذ التكليـف لا يكون إلا بما فيه كلفة ومشقة تضعف أو تقوى.

ما عليهم من سبيل: ليس عليهم لوم ولا عقاب.

لن نؤمن لكم : لن نصدقكم.

تردون : ترجعون.

الغيب. ما غاب عن علم الناس.

والشهادة : ما علموه من الحاضر.

بيان المعنى الإجمالي:

الله رؤوف بعبـــاده، يعـــذرهم إذا أُمِــروا فلــم ينفـــذوا لعجــزهم ، ولا يلحقهـــم لـــوم ولا عقاب، كضعاف البنية من المؤمنين ، والمرضى ، والفقـــراء الـــذين لامـــال لهـــم يعينـــون به في تسليح الجيش. المُهِمّ أنهم يحملون نفوســـا تحـــب الله ورســـوله ، ولا تـدخر جهـــدا في العون بما يمكنها. إنهم بما انطـــوت عليـــه قلـــوبهم مـــن تعلـــق بمـــا يصـــلح ويعـــين المؤمنين هو محسنون عند الله، والمحسنون لا لوم عليهم ولا عقاب.

ويلتحق بالأنواع الثلاثة جماعة قدِمُوا على رسول الله ﷺ ، لهـــم حـــظ عظـــيم مـــن القـــوة والشجاعة والإخلاص، ولكن فقرهم ألجأهم إلـــى أن يطلبـــوا منـــه مـــا يركبونـــه ليكونـــوا مع المجاهدين. ولم يكن عنـــد الرســـول مـــا يحملهـــم عليـــه ،فـــانقلبوا والحـــزن الشـــديد يعصف بهم باكين لعجزهم عن الالتحاق بالجيش لفقرهم.

إنه إذا كان الله قد عفا عن أصحاب الأعذار فـــإن المنـــافقين مؤاخـــذون بـــتخلفهم وكـــذبهم وحلفهم الأيمان الفاجرة، لأنهم استأذنوك في التخلف وهـــم قـــادرون علـــى المشـــاركة فـــي الغزو لسلامة أبدانهم وثرائهم. ولكنهم اختـــاروا أن يبقـــوا مـــع النســـاء والعجـــزة. وبـــذلك أغلق الله منافذ عقولهم فاستولى عليهم الجهل وعدم التدبر.

بيان المعنى العام :

91-92: ليس على الضعفاء ...ألا يجدوا ما ينفقون.

من شارك في الغزو لرفع راية الإســـلام كـــان جـــزاؤه مـــا وصـــفته الآيتـــان –89/90– من التكريم الفائق للوصف. وتحدثت آيـــات كثيـــرة عـــن المنـــافقين المعتـــذرين بالمعـــاذير الكاذبة وعما سيلقونه من نكال وإهانة في الدنيا والآخـــرة. وفصـــلت هـــذا الآيـــات الـــذين لم يشاركوا لعذر مقبول. وهم :

أولا الضعفاء : من كانت قوتهم هزيلة لا يتحملـــون مشـــاق الســـفر ، ولا يتمكنـــون مـــن الضرب بالسلاح ، ولا يقدرون على إعانة المجاهـــدين ، فيكـــون حضـــورهم فـــي القتـــال ثقلا على الجماعة يعوقهم أكثر مما ينفعهم .

ثانيا المرضى : بما يشـــمل المـــرض المـــزمن كـــالعمى والزمانـــة ،والمـــرض الـــوقتي الذي يضعف البدن عن النشاط ، ويلزمـــه الراحـــة والعـــلاج . فهـــؤلاء لا دور لهـــم فـــي القتال . فهم معذورون .

ثالثا الفقراء :الذين لا يشـــاركون بالمـــال، بنـــاء علـــى أن المطلـــوب مـــن المـــؤمنين أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم وهؤلاء لا مال لهم. فهم معذورون .

هؤلاء غير مكلفين بالإسهام في الجهاد، إذا تحقـق مـنهم النصـح. إذا قـاموا بمـا يعبـر عن إخلاصهم في الدين، وسعيهم بالنصح مما يكشف عـن كـونهم حقـا مـع المجاهـدين لايدخرون جهدا. وكم من ضعيف أو مريض يُمَكّنُهُ القَدَرُ مـن معلومـات لهـا أثـر تفيـد المقاتلين فيطير بها فرحا، ويدبر الطريقة المثلى لتبليغها.

إنه إذا تأصل الإخلاص لله ورسوله، بعقد القلب علـى تقـديم كـل مـا يـتمكن منـه مـن مساعدة، فإن هذا النمط هو نمط محسـن لا صـلة بينـه وبـين الإسـاءة. والمحسـنون لا لوم عليهم ولا عقاب. وقد صيغت هذه الخاتمـة فـي قالـب قاعـدة عامـة تطبـق فـي جميع الظروف والأحوال . وهـو الله الغفـار لـذنوب عبـاده ولتقصـيرهم ولقصـورهم ، وهو الرحيم بهم فلا يؤاخذهم مع حسن نياتهم وأفعالهم.

رابعا نوع آخر من الفقراء: لهم قوة وخبرة بالقتال، جـاؤوك يـا محمـد طـالبين منـك أن تساعدهم بما يركبون عليه ليخرجوا مع الجـيش، إذ المسـافة بـين المدينـة وبـين تبـوك طويلة وبعيدة ،لا غنى للمجاهد عن دابـة تحمـل متاعـه وسـلاحه وتنقلـه فـي المفـاوز الفاصلة .واعتذرتَ لهم بأنك لا تملك رواحل تسـاعدهم بهـا .فانكسـروا لـذلك وعمهـم الحزن وفاضت عيونهم بالدمع ، كان طمـوحهم للإسـهام فـي الجهـاد كبيـرا ، وكانـت آمالهم أن يجدوا عندك طلبتهم ، فانفجروا باكين رغم قوتهم وشجاعتهم .

الفهـــــــرس

سـ ــــــورة النساء: 3
لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ... وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (148←152): 3
يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ... يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا (153←159): 6
فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا... سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا (160←162): 10
إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ... وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا (163←166): 13
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا... وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (167←170): 17
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ... وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (171←175): 19
يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ... وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (176): 25

سـ ــــــورة المائدة: 28
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (1←2): 28
حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ... إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (3←4): 33
الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ... وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (5): 40
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (6): 42
وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ... وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (7←11): 45
وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ... إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (12←13): 49
وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى... وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (14←16): 51
لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا... وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17←19): 54
وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ... فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (20←26): 57
وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ... فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (27←32): 61
إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ... أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (33←34) : 66
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ... وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (35←37): 68
وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا... عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (38←40): 70
يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ... وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (41←43): 72
إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ... فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (44): 76
وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا... فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (45←47): 78
وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ... حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (48←50): 80
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (51←53): 84
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (54←56): 88

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... وَأَضَلُّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (57←60): 90
وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا... وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (61←66): 93
يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ... إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (67): 97
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ... فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (68←69): 99
لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ... بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (71): 103
لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ... وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (72←76): 105
قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ... وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (77←81): 109
لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ... أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (82←86): 112
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (87←88): 116
لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (89): 117
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (90←92): 119
لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا... وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (93): 122
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (94←96): 124
جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ... لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (97←100): 128
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (101←105): 131
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (106←108): 136
يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ... قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ (109←111): 140
إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ... مِنَ الْعَالَمِينَ (112←115): 142
وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ... أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (116←118): 144
قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ... وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (119←120): 147

ســــــــورة الأنعام: 149
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ... يَسْتَهْزِئُونَ (1←5): 149
أَلَمْ يَرَوْا كَمْ... كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (6←11): 152
قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ... وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (12←16): 156
وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ... فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (17←20): 159
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى... مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21←24): 162
وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ... بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (25←30): 164
قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ... أَفَلَا تَعْقِلُونَ (31←32): 167
قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ... وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (33←37): 169
وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ... وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (38←41): 172
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ... وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (42←45): 176
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ... أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (46←50): 178

وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ... سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (51←55): 181
قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ... وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (56←58): 185
وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ... لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (59←65): 186
وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ... بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (66←70): 191
قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ ... وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (71←73): 195
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ... وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (74←79): 198
وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي ... إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (80←83): 201
وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ... وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (84←87): 204
ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ ... إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ (88←90): 206
وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ... وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ (91←93): 208
وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى ... مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (94): 214
إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى ... لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (95←99): 215
و وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ... وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (100←105): 221
اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ ... وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (106←107): 225
وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (108←110) 226
وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ... مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (111←113): 230
أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا... وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (114←117): 232
فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ... إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (118←121): 234
أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ ... بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (122←124): 237
فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ ... بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (125←127): 240
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ... بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ (128←131): 242
وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ... إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (132←135): 246
وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ ... قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (136←140) 249
وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (141←144): 254
قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا ... وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (145←147): 258
سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ... لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (148←150): 260
قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ... لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (151←153): 264
ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ... بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (154←157): 270
هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ... وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (158←160): 272
قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي ... بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (161←164): 275
وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ ... وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (165): 278

ســــــــورة الاعراف: 281
المص ... قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (1←3): 281
اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ ... بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (3←9): 283
وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ ... لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (10←18): 286
وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ ... لَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (19←23): 290
قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ... أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (24←27) 295
وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً ... وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (28←30): 298
يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ ... لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (31←34): 301
يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ ... بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ((35←39): 304
إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ... بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (40←43): 309
وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ... لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (44←49): 312
وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ ... وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (50←53): 317
إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ ... كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (54←58): 320
لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ... إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (59←64): 327
وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ... وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (65←72): 330
وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ... لَا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ (73←79): 334
وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ... فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (80←84): 337
وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ... وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (85←87): 340
قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ... فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (88←93): 343
وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ ... وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (94←95): 346
وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا ... إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (96←99): 347
أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ ... وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (100←102): 348
ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى ... وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (103←108): 351
قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ... قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (109←114): 353
قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ... رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (115←122): 355
قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ ... وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (123←126): 358
وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ... فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (127←129): 360
وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (130←133): 362
وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ ... وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (134←137): 365
وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ... وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (138←141): 368
وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً ... فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (142←144): 369
وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ... إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (145←147): 373
وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ ... وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (148←151): 378

إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ ... ورَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (152←154):........................ 382
وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ ... واتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (155←158):.................................. 383
وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى ... بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (159←162):.. 391
وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ ... كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (163←166):.................................... 393
وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ... وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (167←171): 395
وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ ... وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (172←174): 400
وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا ... فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (175←178):......................... 402
وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ ... مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (179←180):............................ 405
وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ ... فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (181←186): 409
يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ... إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (187←188):........... 412
هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ... وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (189←198): 415
خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ ... وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (199←206): 420

ســــــــورة الانفال: **428**
يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ ... عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (1←4): 428
كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ ... وَهُمْ يَنْظُرُونَ (5←6): 433
وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ ... وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (7←14): 435
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (15←19): 441
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (20←26):....................................... 445
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (27←29):.. 451
وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا ... وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (30←34): 453
وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ ... نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (35←40): 457
وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ ... وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (41←44):................................ 460
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً ... فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (45←49):............................... 467
وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا ... وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (50←54):................................... 472
إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (55←58):..................................... 474
وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ... إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (59←63): 477
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ... وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (64←66): 481
مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (67←71):.. 483
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا ... إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (72←75): 489

ســــــــورة التوبة: **493**
بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ... إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1←5): 493

وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ... لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (6←12):.. 497
أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ ... فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (13←18):............ 501
أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ... إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (19←22): 505
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (23←27):........................ 508
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (28←31): 513
يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ ... مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (32←35): 517
إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ ... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (36←37):............................ 520
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (38←40): 523
انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا ... وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (41←48):... 526
وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي ... إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (49←52): 531
قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا ... وَهُمْ يَجْمَحُونَ (53←57):.. 534
وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58←60): 536
وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ ... بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (61←66): 540
الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ ... كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (67←70):... 543
وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ ... ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (71←72): 546
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ ... وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (73←80): 448
فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ ... فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (81←83): 554
وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ ... مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (84←90):.. 556
لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى ... أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (91←92): 560

نهج البيان في تفسير القرآن

سماحة الشيخ محمد المختار السلامي
مفتي الجمهورية التونسية سابقا

الجزء الثالث

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
1436 هـ - 2015 م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية، أو أشرطة ممغنطة، أو وسائل ميكانيكية أو الاستنساخ الفوتوغرافي أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من المؤلف.

ISBN: 978-9938-14-190-0

I.R.A
مطبعة التسفير الفني
Imprimerie Reliure d'Art
الهاتف: 030 432 74 216+
الفاكس: 248 432 74 216+
البريد الالكتروني
reliure.dart@tunet.tn

۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ
ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ
إِلَيْهِمْ ۚ قُل لَّا تَعْتَذِرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا ٱللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ۚ وَسَيَرَى ٱللَّهُ
عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ
رِجْسٌ ۖ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟
عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾

بيان معنى الألفاظ :

انقلبتم : رجعتم من الغزو.

رجس : خبث.

بيان المعنى الإجمالي :

يكرر المنافقون تقديم أعذارهم عند رجوع المؤمنين من غزوة تبوك، أسكِتْهم بمصارحتهم بالنهي عن معاودة الاعتذار وأنك لا تصدقهم، قائلين : إن الله قد أطلعنا على جلية أمركم. والله يعلم حقيقة ما أنتم عليه في الحاضر والمستقبل، فمن الخير لكم أن تتوبوا، بإقلاعكم عن النفاق الذي أنتم عليه .إنكم سوف ترجعون إلى ربكم فيوقفكم على ما فعلتم ثم يجازيكم عن أعمالكم.

أعلم الله المؤمنين أن المنافقين سيعملون على إعراضكم عن لومهم وتقريعهم، فحققوا لهم الإعراض. لكنه إعراض قاطع للصلات بهم. إن دناءة نفوسهم جعلتهم كالخبث الذي يبتعد الناس عنه. ونهايتهم ستكون في جهنم جزاء بما اكتسبوه .

يقابلونكم بالأيمان ليتمكنوا من خداعكم فترضون عنهم. وهم فسقة، والله لا يرضى عن الفسقة، والمؤمن لا يرضى بما لا يرضى الله عنه .

بيان المعنى العام :

93- إنما السبيل ...فهم لا يعلمون.

ثم قابل القرآن بين الأصناف الذين عذرهم لصدقهم وإخلاصهم، قابل ذلك بالذين يطلبون منك الإذن ليبقوا في المدينة حتى لا يشاركوا في الغزو، ولا عذر لهم

يمنعهم، فهم أغنياء يملكون الرواحل والسلاح والــزاد، وليســت بهــم علــة تقعــدهم عــن الغزو، ولكن فقدوا الشهامة وتأملوا وقلبــوا أوجــه النظــر، فــانتهوا إلــى الرضــا بــأن يبقوا مع النساء والعجزة .وتبع اختيــارهم هــذا أن طبــع الله علــى قلــوبهم فهــي مقفلــة كالرسالة التي أغلقت، ثم أضيف الطبع عليها بطابع على الشــمع يبقــى أثــره فــلا تفــتح إلا بإفساده، والطبع مــن الله فــلا تتصــور إزالتــه . واختيــارهم للإعــراض وخَــتْمُ الله على قلوبهم انتهى بهم إلى جهل ظلامي لا يخرجون منه .

94- يعتذرون إليكم...بما كنتم تعملون.

الذي فهمته أن شأن المنافقين شأن المعتــذرين الكــاذبين الــذين يحســون فــي بــاطنهم أن الناس لا يصدقونهم، وهم لذلك يعيــدون علــى أســماع النــاس أعــذارهم لعلهــم ينتهــون إلى إقناعهم. فكان المنافقون بعد رجوع المؤمنين من غــزوة تبــوك يعيــدون مــا قــدموه من كاذب المعاذير. ويقمعهم القــرآن بإرشــاد المــؤمنين إلــى مــا يجيبــونهم بــه؛ قــل، الخطاب للنبي وللمؤمنين: لن نصدقكم أبدا، ولو كــررتم إلــى مــا لانهايــة. ملكنــا حقيقــة أمركم، فقد أعلمنا الله بما أنتم عليه وأخبرنا بــه. وأنــتم مفضــوحون عنــد الله ورســوله. ويحتمل معناه: دعوتهم إلى التوبة التــي ســيطلع علهــا الله ورســوله فيقبــل تحــولكم إن صدقتم.

ثم حذرتهم الآية بانكشاف أمرهم، يوم يرجعــون إلــى الله يــوم القيامــة، فــلا يســتطيعون ستر كذبهم بالمعاذير. وفي ذلك تحذير من تمــاديهم علــى النفــاق وترغيــب فــي التوبــة فإن الله يعلم ما غاب عن البشر ومنه ما تنطوي عليه الضــمائر، كمــا يعلــم مــا يصــدر من أفعال لكل إنسان.

95- سيحلفون لكم ...عن القوم الفاسقين .

أعلــم الله المــؤمنين أن المنــافقين ســيلقونهم علــى طــريقتهم فــي الكــذب والخــداع والاستخفاف بالأيمان عند رجوعهم من تَبُوك، يهدفون إلى قبــول مــا بــرروا بــه تخلفهــم فَتُعْرِضُوا عن لومهم وتقريعهم .فأمروا أن يقــاطعوهم مــرة واحــدة فيحققــوا الإعــراض لكن لا على النحو الذي يريده المنافقون من بقاء التعامــل والصــلات علــى النحــو الــذي كان قبل الخروج إلى الغــزو، بــل يهملــونهم فيعتبــرونهم كــأنهم غيــر موجــودين فــي المجتمع نكاية بهم واحتقارا لهم .إنهم لكــذبهم ولأيمــانهم الفــاجرة تدنســت نفوســهم فهــم كالخبث الذي يبتعد الإنسان عنه ويتحاشى أن يتلطخ به. وحقــق الله مــا ذكــره مــن قبــل: أن مآلهم الخزي يــوم القيامــة فــي جهــنم. وذلــك جــزاء لمــا عقــدوا عــزمهم عليــه وأنجزوه.

إنهم يريدون أن يخدعوكم بالأيمان الفــاجرة فترضـــون عـــنهم ويســـتلون نقمـــتكم علـــيهم. اعلموا أن الله لا يرضى عن القـــوم الفاســـقين. والمؤمنـــون لا يرضـــون بمـــا لا يرضـــى الله عنه. وذلك لفسقهم المتضمن كما قدمنا الجمع بين فساد العقيدة وسوء السلوك.

ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ
وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ
عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ
ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ
ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٩٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ
وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ
تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

بيان معنى الألفاظ :

أجدر : أحق وأولى .

الحدود : الفواصل المميزة.

المغرم : ما يدفع من المال ظلما وقهرا.

يتربص : ينتظر.

الدوائر : المصائب التي لا مخلص منها.

دائرة السوء : مصيبة السوء.

قربات : جمع قربة ما يتقرب به إلى الله .

السابقون الأولون : الأولون الذين سبقوا إلى الإيمان .

الأنصار : جمع نصـــير وهـــم الأوس والخـــزرج الـــذين آمنـــون برســـول الله صـــلى الله عليهم وسلم، كما يطلق على ذرياتهم من بعدهم.

أعد : هيأ .

بيان المعنى الإجمالي :

عني القرآن بتفصيل ملامح الفئات التي يتركب منها المجتمـــع، فزيـــادة عمـــا قدمـــه فـــي الآيات السابقة، تعرض لصنف آخـــر ممـــن يتعامـــل معهـــم المســـلمون، فنـــبههم إلـــى أن الأعراب سكان البادية تأثروا بقســـوة الطبيعـــة التـــي يعيشـــون فيهـــا، فـــأورثتهم غلظـــة

وجفاء، لذا كان كفرهم أشد وكذلك نفاقهم، وهم أحـــرى بـــأن لا يميـــزوا بـــين حـــدود مـــا أنزل الله على رسوله . أعلمكم الله بخصائصـــهم لأنـــه هـــو العلـــيم، وأرشـــدكم بحكمتـــه لأنه هو الحكيم.

ونمط آخر من الأعراب ينافق، فيقصد من النفقـــات التـــي يقـــدمها التفصـــي علـــى أنهـــا إتاوة. ثم ينطوي على بغض لكم ينتظـــر حلـــول كارثـــة بكـــم . دعـــا القـــرآن علـــيهم أن تحل بهم الكارثة، على معنى أنها ستحل بهـــم قطعـــا . والله يســـمع ويعلـــم مـــا يتحـــدثون به سرا في مجالسهم وما تنطوي عليه صدورهم لأنه هو السميع العليم.

ونمط آخر من الأعراب، يؤمن بالله ويؤمن باليوم الآخـــر، يقصـــد مـــن نفقاتـــه أن تكـــون له قربة إلى منازل مدخرة عنـــد الله، يقصـــد أن يـــدعو لهـــم الرســـول. بشـــرهم الله بأنـــه حقق لهم ما يقصدون وكتبها قربات لهـــم، وســـيدخلهم فـــي واســـع رحمتـــه ويعفـــو عـــن زلاتهم . إن الله غفور لعباده الصالحين رحيم بهم .

والقسم الممتاز هم الـــذين ســـبقوا للـــدخول فـــي الإســـلام، مـــن المهـــاجرين أهـــل مكـــة والأنصار أهل المدينة، ويلتحق بهم من الـــذين ســـاروا علـــى مـــنهجهم وكـــانوا محســـنين في عقيدتهم وسلوكهم. أولئـــك جـــزاؤهم تحقيـــق أن الله راض عـــنهم، وأنـــه ســـيجازيهم بما يبلغ بهم درجة الرضا عما هم فيه فلا يطمحون لنيل أي شـــيء آخـــر، وقـــد هيـــأ لهـــم جنات تتخللها الأنهار. لقد فازوا الفوز الأعظم الذي ليس فوقه فوز.

بيان المعنى العام :

97←99: الأعراب أشد كفرا...إن الله غفور رحيم .

الأعراب سكان البادية غلظت طباعهم تبعا للبيئـــة التـــي يعشـــون فيهـــا. ولـــزمتهم الشـــدة في حياتهم متأثرين بقسوة الطبيعـــة المحيطـــة بهـــم. فنبهـــت الآيـــة ســـكان المدينـــة عـــن طبائعهم، لقلة الاختلاط بهم حتـــى لا يظنـــوا بجمـــيعهم خيـــرا. بينـــت أن كفـــارهم أشـــد كفرا من كفار المدينة يتمسكون بـــالكفر أشـــد التمســـك، وكـــذلك نفـــاق المنـــافقين مـــنهم. سكان المدينة تُلزمهم الحضارة على التنازل عـــن بعـــض الأمـــور ليتمكنـــوا مـــن العـــيش مع الآخرين، أما البدوي الأعرابي فهم عصـــيٌّ عـــن التراجـــع عمـــا ارتســـم فـــي ذهنـــه. كما أن الفرص التي يتحاور فيها الحضري مـــع مـــن هـــو أســـمى منـــه معرفـــة وأعمـــق تفكيرا متكررة في المدينة، فتتفتح مداركه وتسمو، بينمـــا اقتبـــاس البـــدوي مـــن غيـــره لا يتأتى إلا في أحوال قليلة. وفوق ذلك، إن سكان المدينـــة علـــى صـــلة دائمـــة برســـول الله الأسوة الحسنة في كل شيء، يتلقون منه مـــا يصـــقل عقـــولهم ويهـــذب أرواحهـــم، ومـــا يزالون يرتقون من مرتبة إلى مرتبة أعلـــى منهـــا حتـــى اســـتنارت عقـــولهم ومشـــاعرهم

بما لم يحصل لغيرهم على مر التاريخ. ولذا كـان أهـل المدينــة أطــوع لتقبـل الأحكـام والتأدب بالأدب الإسلامي، علـى عكـس أهـل الباديــة فهـم أحـق أن لا يميـزوا بـين المتشابهات، وقد لا يدركون الفواصل بـين الأشـياء. والله علـيم حكـيم لا يفوتـه شـيء وقدر كل شيء تقديرا على أتم وجه وأكمله.

ثم ثنى القرآن بالكشف عن نفاق المنافقين مـن الأعـراب الـذين يجعلـون مـا ينفقونـه من زكاة أو من إسهامات في المصـالح العامـة، القصـد منـه التفصـي مـن المطالبـة على أنه إتاوة من الإتـاوات، أي ضـريبة ظلـم، يضـمرون انتظـار الـتخلص منهـا . وامتنعوا من أداء الزكاة، بمجرد ما انتقل الرسـول إلـى الرفيـق الأعلـى، لخليفتـه أبـي بكر ﷺ، فحاربهم وغلبهم. ومن ناحية أخرى هم لا يَقْـدِّرُون لكـم فـي المسـتقبل إلا أنـه ستحيق بكم كارثة، هـم ينتظـرون حلولهـا علـيكم. وعلـق الله علـى أمـانيهم بالـدعاء عليهم أن تحل كارثة السوء علـيهم. والـدعاء مـن الله لا يقصـد منـه تمنـي الحصـول ولكن تحقيق ما تضمنته صيغة الـدعاء. سـتحل بهـم كارثـة الهـلاك. والله يسـمع مـا يتناجون به عليم بمقاصدهم ونياتهم.

من شأن القرآن الإنصاف كما أشرنا إليـه فـي مناسـبات عديـدة. وقـد أنصـف القـرآن الأعراب فإنه إن كـان قـد شـنع علـى الفـريقين اللـذين كشـف عنهمـا فـي الآيتـين السابقتين، فإنه في هذه الآية أثنى علـى بعـض الأعـراب بـأنهم يؤمنـون بـالله إيمانـا صادقا يعطيهم تصورا للكون ونظامه وعلاقـة كـل مـا يحويـه بخالقـه، ويؤمنـون بمـا أنزله الله على محمد ﷺ، ويؤمنون بصفة خاصـة بيـوم الآخـر فهـم يراقبـون أعمـالهم مراقبة من يعلم أنه محاسب على ما قدم بـين يـدي ربـه. وانبنـى علـى ذلكـم الإيمـان أنهم يقصدون بما ينفقون التقرب إلى الله ليـدخره لهـم عنـده ويجـزيهم بـه، ويقصـدون أن يدعو لهم الرسول، إذ من عـادة رسـول الله أن يصـلي علـى المتصـدقين المسـهمين في بناء الدولة الإسلامية، كما سـيأتينا فـي الآيـة 103 مـن هـذه السـورة:**(خـذ مـن أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلواتك سكن لهم)**

وبشرتهم الآية بأن ما يتقربون بـه مـدخر عنـد الله، متأكـد ذلـك بصـلوات الرسـول، سيدخلهم به في رحمته، ورحمـة الله إذا حلـت تبعهـا كـل خيـر وانتفـى عنـدها كـل مكروه. مما يدل على أنهم سيلقون جزاءهم في الجنـة. ومـن المؤكـد أن الله غفـور فمـا سبق تـوبتهم ودخـولهم للإسـلام سـيمحوه، وسـيرحمهم كـأنهم لـم يفعلـوا إلا الخيـر الخالص.

100- والسابقون الأولون...ذلك الفوز العظيم .

أتم القرآن تفصيل وضع المجموعات التي تُكَــوِّنُ المجتمــع العربــي فــي عهــد الرســالة وموقفهم من الدعوة، ومآل كل نوع مــنهم، بالتنويــه بأكملهــا وأفضــلها علــى الإطــلاق، وهم الذين سبقوا إلى الإيمان برســول الله وفتحــوا قلــوبهم وعقــولهم للــدعوة وأســهموا بأموالهم وأنفسهم في سبيل نشــر الإســلام: أعظــم ســعادتهم أن يكونــوا المبشــرين بــه الرافعين للوائه على ما يصيبهم من ضر. واللفظ لــم يضــبط مــن هــم الســابقون، وقــد اختلف المفسرون تبعــا لاخــتلاف الروايــات ولتحمــل الــنص التــأويلات فــي تعيــين السابقين الأولين . فرأى بعضهم أنهم الــذين آمنــوا برســول الله قبــل فــتح مكــة مــن المهاجرين، ومن الأنصار. وقيل من آمن قبل بدر، وقيــل مــن صــلى إلــى القبلتــين أي بعد بدر بشهرين . وغير ذلــك مــن الاحتمــالات والــذي يتــرجح عنــدي هــو التأويــل الأول لأن لقب المهاجر لا يطلق على من هاجر بعــد الفــتح لقولــه ﷺ : لا هجــرة بعــد الفتح ولكن جهاد ونية. ولقوله تعالى: **(لا يســتوي مــنكم مــن أنفــق مــن قبــل الفــتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا)**[1] .

وعطف عليهم في رقيهم إلى المنزلــة الرفيعــة الــذين ســاروا علــى هــديهم، والتزمــوا طريقتهم، وبلغوا درجة الإحسان في حيــاتهم الباطنيــة والســلوكية. هيــأ الله لهــم جميعــا جنات تتخللها الأنهار، وحل عليهم رضــا ربهــم، فبلغــوا بمــا تجمــع لــديهم مــن نعــيم نفسي وروحي وبدني مرتبة الرضا التي لا يسأل صــاحبها شــيئا آخــر بعــد مــا أوتيــه من فضل إلهي .وذلك هو النجاح الــذي لــيس بعــد نجــاح، والفــوز الــذي لا يمكــن أن يوصف بوصف أبلغ من كونه عظيما .

وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠١﴾ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾ خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾ وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى

[1] سورة الحديد آية10

ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

بيان معنى الألفاظ :

مردوا على النفاق :تدربوا وتمرنوا عليه حتى حذقوه.

اعترفوا : أقروا بذنوبهم وأعلنوا التوبة منها.

تزكيهم بها: تنمي خيراتهم.

السكن : الاطمئنان والراحة.

بيان المعنى الإجمالي:

حذر القرآن المؤمنين من الأعراب المنافقين المتخفين حول المدينة الذين لم يشعروا بهم، وكذلك من المنافقين في المدينة المبالغين في التستر الذين تدربوا على النفاق، حتى إنك يا محمد لا تعلمهم بأعيانهم، ولكن الله يعلمهم لا يخفون عليه سيعذبهم مرتين في الدنيا، ثم يكون عذابهم يوم القيامة عذابا عظيما.

ونوع آخر هم من المؤمنين الذين يعيشون معك في المدينة خلطوا بين العمل الصالح، وبين القعود عن الغزو بدون عذر. إنه يرجى أن يتوب الله عليهم إن الله غفور رحيم بعباده.

اقبل من التائبين ما يقدمونه من الصدقات، فالصدقات تطهر النفس من الإثم، وتنمي الفضائل والخيرات، وزدهم فصل عليهم بمعنى ادع لهم، فإن دعاءك لهم يحل به في قلوبهم الطمأنينة وصلاح المعتقد . يؤكد القرآن قبول التوبة وقبول الصدقات لأنه هو الذي يقبل التوبة عن عباده وهو الذي يقبل الصدقات والله تواب فيعظم الرجاء عند التائب وكذلك يعظم قبول الصدقة بالنسبة للمتصدق .

وقل لهم يا محمد اجتهدوا في العمل الصالح، لتعوضوا ما فاتكم وتلتحقوا بالسابقين. واحرصوا أن يكون عملكم خالصا نقيا مرضيا، فأنتم مراقبون من الله، ومطلوبون أن تعملوا وفق ما سنه رسوله، وأن تتحروا ما يرضي الجماعة. وفوق كل ذلك فستعرض عليكم أعمالكم وتحاسبون عليها يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

101- وممن حولكم من الأعراب ...إلى عذاب عظيم.

أسلمت قبائل بدوية كانت مستقرة حول المدينة، وأظهروا الطاعة الكاملة، منهم جهينة، وأسلم، وأشجع، وغفار، ولحيان، وعصية . ولم يستقر الإيمان في قلوب

جميع أعضاء تلك القبائل، بل بقي منهم من كان يظهــر الإيمـــان ويـبطن الكفــر. وكـــذلك بعض سكان المدينة تدربوا أيضا على النفـــاق ومرنـــوا عليـــه حتـــى حـذقوه، يظهـــرون انتسابهم للإسلام والمسلمين حتى ليخـــالهم مـــن لا يعـــرف حقيقـــتهم أنهـــم مـــن فضـــلاء هذه الأمة، وهم إذا أمنوا من الأعين التـــي تـــرقبهم ظهـــروا علـــى حقيقـــتهم مـــن الكيـــد للإسلام. إن هذه المجموعة بلغت مـــن التخفـــي أنـــك لا تعلمهـــم ولكـــن علـــم الله محـــيط بهم، يترصدهم لينزل عليهم عذابه الذي وصـــفه بأنـــه مـــرتين. واختلـــف المفســـرون فـــي تعيين المرتين فحملوه على نوعين مـــن العـــذاب، وحملـــه الشـــيخ محمـــد الطـــاهر ابـــن عاشور على أن العذاب يضاعف ويتكـــرر علـــيهم، وهـــو أولـــى مـــا حمـــل عليـــه لفـــظ التكرر، ولكنه جعل المضاعفة لا تقف عنـــد حـــد .والـــذي تـــرجح عنـــدي والله أعلـــم: أن الله كما أخفى أسماءهم، أخفى كذلك نوع عذابهم، واقتصـــرت الآيـــة علـــى تأكيـــد أن كـــل واحد منهم سيعذب في الـــدنيا مـــرتين، لا نخصصـــهما بنـــوعين مـــن العـــذاب ينســـحبان على الجميع، بل كل واحد منهم يعذب، ثم يعاد تعذيبـــه .ثـــم يـــردون إلـــى عـــذاب واحـــد يوم القيامة هو عذاب جهنم.

102- وآخرون اعترفوا...غفور رحيم.

وفريق آخر تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين المبـــرئين مـــن النفـــاق، ولكـــن ضـــعفوا في لحظة خروج الجيش واعتذروا، فهم قد خلطوا مـــا ســـبق أن فعلـــوه مـــن الصـــالحات، خلطوا بين تلك الأعمال الصـــالحة والأعمـــال الســـيئة؛ ثـــم اســـتيقظوا فتـــابوا. يقـــول الله تعالى: يرجى أن يقبل الله توبتهم فيتـــوب علـــيهم. إن الله غفـــور رحـــيم ترشـــيح لقبـــول توبتهم التي صيغت في قالب الرجاء للإشارة إلـــى عظـــم الـــذنب مـــن ناحيـــة، ولأن الله غير ملزم بقبول توبة التائب المُخلصة له من العـــذاب، ولأن التوبـــة تقـــع فـــي وقـــت مـــا يزال فيه التائب يباشـــر الحيـــاة، وربمـــا يمـــتحن مـــن نـــوع المعصـــية التـــي عصـــاها فيضعف مرة أخرى .

103-خذ من أموالهم ...والله سميع عليم .

الآية تحتمل أن يكون المراد بها لا ترد مـــا قـــدموه لـــك مـــن الصـــدقات، وتحتمـــل أنـــه مأمور بأن يرشدهم إلى ما يمكن توبتهم من القبـــول وهـــو الصـــدقة. فالآيـــة تـــدل علـــى أن مما يساعد المذنب على الخروج مـــن تبعـــات ذنبـــه أن يقـــرن التوبـــة بالصـــدقة مـــن ماله، وليس كل ماله، لما تدل عليه كلمـــة (مـــن أمـــوالهم- مـــن إفـــادة التبعـــيض) هـــذه الصدقة التـــي تطهـــرهم بهـــا مـــن دنـــس الإثـــم. وتنمـــي خيـــراتهم النفســـية بالفضـــائل والحسنات، وصل عليهم؛ والصلاة مـــن الرســـول ﷺ للمـــؤمنين دعـــاء لهـــم، يعمـــر بهـــا

قلب المصلى عليهم بالرحمـــة والطمأنينـــة والأنـــس وصـــلاح المعتقـــد؛ ويـــذهب عـــنهم القلق والاضطراب والحيرة.

والله يسمع دعاءك ويجيبك، أرشدك للدعاء لهم وهو العليم بما يصلحهم.

104- ألم يعلموا...هو التواب الرحيم.

ثم حثهم على التوبة والصدقات بصيغة التعجـب كـأن الكـلام علـى معنـى مـالهم لـم يعلموا حقيقةً مـا كـان ينبغـي أن تخفـى علـيهم؛ أن الله يقبـل ....ذلـك أن الآيتـين السابقتين تضمنتا الرجاء فـي قبـول التوبـة وأمـر الرسـول بأخـذ الصـدقات وأن لا يردها عليهم. فكان الحث في هـذه الآيـة بتقريـر أن الـذي يقبـل التوبـة هـو الله، وأن الذي يقبل الصدقات هو الله. والله موصوف بأنـه التـواب الـرحيم . وذلـك مـا يشـجع على الإسراع بالتوبة وعلى التقـدم بالصـدقات، ممـا يـرجح عنـد التائـب أن الله يقبـل توبته لأن الله هو التواب، وكـذلك عنـد المتصـدق أن الله يقبـل صـدقته لأن الله رحـيم بعباده لا يردهم خائبين عن بابه.

105-وقل اعملوا...بما كنتم تعملون.

هذا أمر من الله لنبيه أن يطلب من المؤمنين الـذين تـابوا وقـدموا الصـدقات، أمـر لهـم بأن يجتهدوا في العمل. ذلك أن الله وقد تفضل عليهم فوعـدهم بقبـول تـوبتهم بمـا يمحـو ما كان منهم من تقصير وخاصة قعودهم عن الغـزو، حتـى يجبـروا مـا فـاتهم ويرقـوا بصالح الأعمال إلى مرتبة السابقين.

وحرضهم أن يكون عملهم صالحا خالصـا لله، وأن يجتنبـوا مـا نهـى الله عنـه، وذلـك لأن الله مطلع على مقاصدهم وما ظهر وما خفي مـن أعمـالهم، ويرقبـوا رضـا رسـول الله عنهم، فميزان الصلاح مأخوذ من سـنته التـي بينـت الطريـق الراشـد. وأن يقـدروا أنهم منتسبون إلى المجتمع الإسلامي يعيشون معهـم ويتبـادلون معهـم المنـافع فيجتهـدوا ليكون عملهم يُمكّن للـتلاحم الاجتمـاعي، فـلا يعملـون عمـلا يسـيء إلـى الجماعـة وترفضه . وفوق ذلك أن يكونوا مستحضرين دومـا أنهـم سـيعودون إلـى ربهـم الـذي دفع بهم إلى الوجود، سيعودون إليه يوم القيامـة وسيحاسـبهم عمـا عملـوا مـن خيـر أو شر، فيُكشَفُ يوم القيامة كل ما قدموه.

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾
ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا
لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ

لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن
تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ
أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا
جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ
بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾

بيان معنى الألفاظ :

مرجون : مؤخرون بنتظرون.

ضرارا : مبالغة في الضر .

الإرصاد : التهيئة .

لا تقم فيه : لا تصل فيه .

الشفا: الحاشية والطرف للهوة.

جرف : الحفير من واد أو مهواة.

هار : متهدم .

أسس: بني أساسه وهو قاعدة الجدار .

بيان المعنى الإجمالي :

تحدثت الآية 107 عن ثلاثة من الصحابة تخلفوا عن غزوة تبوك بدون عذر، ولا نفاق، ولكنهم تباطؤوا حتى فاتهم الجيش .سأل عنهم النبي ﷺ في تبوك . ولما رجع أتوه وصدقوه، فلم يكلمهم وأمر المؤمنين بمقاطعتهم، أخبرت الآية أنه سينزل فيهم حكمه إما بتعذيبهم وإما بقبول توبتهم. والله عليم بأمرهم حكيم فيما سيسلطه عليهم.

ثم عرضت سورة التوبة أمرا آخر من شأن المنافقين حول المدينة. فشنعت بالمنافقين الذين بنوا مسجدا قريبا من مسجد قباء وطلبوا من رسول الله أن يصلي فيه، وكان قصدهم أن يفرقوا كلمة المسلمين لينفردوا بالصلاة فيه بناء على ما طلب منهم عبد بن عمرو الراهب المتنصر والمقيم في بلاد الروم، ليقبلوه فيه عندما يأتي بجيش من الروم يقضي به على الإسلام من المدينة. وحلفوا ليستحثوا الرسول على الصلاة فيه بأن قصدهم أحسن القصد، يساعدون من يشق عليه الصلاة في مسجد قباء، على حضور صلاة الجماعة. ونزلت هذه الآية تنهى الرسولﷺ من الصلاة فيه وتفضح نواياهم، مبينة أن المسجد الذي أقيم من أول يوم بقصد الإخلاص

والتقوى أحق أن تعبد الله فيه، خاصـــة وهـــذا المســـجد يعمـــره رجـــال يحبـــون الطهـــارة حتى أصـــبحت خلقـــا لهـــم، فـــأحبهم الله لـــذلك، والله يحـــب المتطهـــرين فـــي ســـلوكهم والمواظبين على التطهر المادي.

يعلو المسجد الذي بني مع قصد التقوى وتحصـــيل رضـــوان الله، ويكـــون جامعـــا للخيـــر كله في الحاضر والمآل، وينـــزل إلـــى أســـفل الـــدركات مـــن صـــاحب تأســـيس بنيانـــه القصد الخبيث، فهو كالبنيان على طـــرف حفيـــر متصـــدع، فمـــا إن يعلـــو قلـــيلا حتـــى يتلاشى في القاع ركاما ينتهي إلى نار جهنم. والله يمنع هدايته عن القوم الظالمين.

إنه وإن بعث النبـــي ﷺ مـــن هـــدم البنـــاء وأحرقـــه، وتحـــول إلـــى مجمـــع للقـــاذورات والفضـــلات، إلا أن قلـــوب بناتـــه سيصـــحبها التلـــوث بمـــا صـــنعوه إلا إذا تمزقـــت وتلاشت، على معنـــى أن التلـــوث مـــرتبط بهـــم دائمـــا . إن الله علـــيم بـــدقائق الأمـــور وخفاياها، يقرر في كل أمر ما يدل على كمال حكمته.

بيان المعنى العام:

106- وآخرون مرجون ...عليم حكيم .

تتابع هذه السورة ما يتعلق بغزو تبـــوك . فتـــذكر هـــذه الآيـــة أن بعضـــا مـــن المطـــالَبين بالخروج للجهاد تخلفوا عنه، وهم ليسوا مـــن ذوي الأعـــذار ولا مـــن المنـــافقين ولا مـــن الكارهين للجهاد. ولكن اشـــتغلوا بـــدواعي خاصـــة فـــي حيـــاتهم حتـــى خـــرج الجـــيش، وأيسوا من اللحاق به . فبقوا في المدينـــة آســـفين . وســـأل عـــنهم النبـــي ﷺ وهـــو فـــي تبوك. وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أميـــة، ومُـــرارة بـــن الربيـــع. ولمـــا رجـــع إلـــى المدينة، أتوه وصَـــدَّقُوه، فلـــم يكلمهـــم، ونهـــى المســـلمين عـــن كلامهـــم، وأمـــرهم أن لا يقربوا نساءهم حتى يحكم الله فيهم. فهم ينتظـــرون نـــزول حكـــم الله فـــيهم؛ هـــذا الحكـــم المنتظر، إمـــا رفـــض تـــوبتهم وتعـــذيبهم، وإمـــا توبتـــه علـــيهم وغفـــران ذنـــبهم. والله يتصرف تصرفا يمثل العلـــم الكامـــل، والحكمـــة. فهـــو العلـــيم بصـــدق تـــوبتهم، وهـــو الحكيم في الحكم الذي سيظهره.

107-108: الذين اتخذوا مسجدا...المطهرين.

تعرض هذه الآيات نوعا آخر مـــن مخـــازي المنـــافقين حصـــل قـــرب الخـــروج لغـــزوة تبوك. ذلك أن جماعة من المنافقين من بني غـــنم بـــن عـــوف بتـــدبير مـــن عبـــد عمـــرو الراهب الذي كان قلبه يغلي حقدا علـــى الإســـلام، فقـــد أعـــان الأحـــزاب عنـــد غـــزوهم للمدينة، ثم فر إلى مكة، فلما فتحهـــا المســـلون احتمـــى بثقيـــف، فلمـــا دخـــل أهلهـــا فـــي الإسلام فر إلى أرض الروم. وقد أمـــرهم أن يبنـــوا مســـجدا قريبـــا مـــن مســـجد قبـــاء،

ينفردون بالصلاة فيه عـن الجماعـة. فبنـوا مسـجدهم وطلبـوا مـن رسـول الله أيـام استعداده للخروج إلى تبوك أن يأتيهم ويصـلي فيـه تمويهـا وتغريـرا، فـأنزل الله هـذه الآيات التي سنتابعها بالبيان .

يعرفهم القرآن بالصفة الغالبة عليهم التـي فضـحتهم: أنهـم بنـوا مسـجدا قصـدهم منـه إدخال الضر على المؤمنين من أهل قبـاء، ليفرقـوا كلمـة المسـلمين، وينعـزل أتبـاعهم المنافقون عن جماعة المؤمنين، ولتحدث الفرقـة بيـنهم بعـد مـا وحـد الإسـلام بيـنهم. وكان مما كاتبهم به الراهب أن يتهيأوا بالمبنى، ليكـون إمـامهم فيـه حـين يقـدم علـيهم في جيش من الروم للقضاء على الإسلام في المدينة.

ثم كان شأنهم كشأن المنافقين، في الإسـراع للحلـف بالأيمـان الفـاجرة، حلفـوا لرسـول الله: أنهم ما أرادوا بمسجدهم الـذي بنـوه إلا النيـة الحسـنى، إذ يـتمكن الضـعيف وذو الحاجة الذي يعسر عليه الذهاب إلـى مسـجد قبـاء، أن يصـلي فيـه ولا تفوتـه صـلاة الجماعة. ويعلق الله العليم بما في الصدور، أنهم كـذبوا فـي يميـنهم، فمـا كـان قصـدهم ما عرضوه ولكن ما سجلته الآية من الضرار والتفريق .

وإذ تبين القصد الخبيث، صرح القرآن بنهيه ﷺ أن يصلي فيه .

فنزلت الآية عند رجوعه ﷺ من تبـوك، ودعـوة المنـافقين لـه للصـلاة فيـه . وعنـدها أمر ﷺ بعضا من الصحابة أن يذهبوا إليه ليهدموه ويحرقـوا عمـده وأبوابـه. وتـم ذلـك وانقلب مجمعا للفضلات والزبل .ثم بين القرآن البـون الشاسـع بـين مسـجد الضـرار، وبين المسجد الذي أسس على التقوى، (لمسجد أسّس علـى التقـوى مـن أول يـوم) قيـل :هو مسجد المدينة. وهذا ما يؤيده الحديث الذي أخرجه مسـلم وغيـره عـن أبـي سـعيد الخدري أن رجلين من الصحابة اختلفـا فـي تعيـين أول مسـجد أهـو مسـجد قبـاء أم مسجد الرسول ﷺ ؟ فأتيا ﷺ فسألاه فقال: (هو مسجدي هـذا، وفـي الآخـر خيـر كثيـر) وقيل هو مسجد قباء . ولولا الحديث لكان نسق الآية يرجح أنه مسجد قباء.

ثم أضافت الآية مزية أخرى لمسجد قبـاء زيـادة علـى كونـه المسـجد الـذي صـحب الإخلاص بناءه، أن الـذين يقيمـون الصـلاة فيـه، وهـم الأنصـار، يجـدون لـذة فـي الطهارة جعلتهم يحبونها فأكرمهم الله بإعلانه عن محبـتهم لهـذه المزيـة التـي اختصـوا بها. فالطهارة وإن كانت فرضـا واجبـا، إلا أن الأنصـار اختصـوا بحـبهم لهـا حتـى صارت خلقا لازما لهم، فكانوا جديرين بثناء الله عليهم.

ثم أكد وفصل ما ذكرته الآية (108) إن المسجد الـذي يشـهد الله بأنـه أسـس مـن يـوم تخطيطه الأول والشروع في بنائه، وقد تحققـت إرادة التقـوى مـن إقامتـه، يكـون أحـق

الأمكنة بأن تقـوم فيـه بالعبـادة. وتنطبـق هـذه الشـهادة علـى مسـجد رسـول الله ﷺ بالمدينة، ومسجد قباء. فكلاهما أسس من أول يوم على التقوى والإخلاص لله.

ملحظ نفيس:

ذكر السهيلي في شـرحه لسـيرة ابـن هشـام، أن هـذه الآيـة حجـة لـرأي الصـحابة رضوان الله عليهم في اتخاذ عام الهجـرة مبـدأ للتـاريخ الإسـلامي،إذ بنـاء المسـجدين قباء ومسجد المدينة كانا إثر الهجرة، وقد عبر القرآن عـن ذلـك التـاريخ بقولـه : مـن أول يوم .

109-110، أفمن أسس بنيانه على تقوى...والله عليم حكيم .

ثم جسمت الآيـة، مـع المقارنـة بـين مسـجد الضـرار والمسـجد الأول . فـذكرت أن المسجد الأول صاحب إقامة أساسه الذي ارتفـع عليـه البنـاء قصـد رفيـع مـن التقـوى والتقرب إلى الله،فكأن القصد الصالح اخـتلط بالبنـاء فقـوّى تماسـكه، وجـرى بـه فـي المنهج الذي أريد به. وأن مسـجد الضـرار لسـوء قصـد أصـحابه، كأنـه فقـد القـوة والالتحام والثبات بما خالط بناءه من القصـد الخبيـث، فهـو كإقامـة بنـاء علـى طـرف حفرة متصدعة، فلا يتصور منه إلا أن ينهار سـريعا ليبتلعـه القـاع وقـد تلاشـى إلـى ركام .وتكون النهاية القرار في قاع نار جهنم للبناة عذابا علـى مـا حـاولوه مـن تفريـق الكلمة، وكذل للمبنى الذي أقاموه إهانة لهم . والله يحجـب هدايتـه عـن القـوم الظـالمين فلا يفتح لهم منها بوارق تضيء لهم معالم الطريق .

الآية -111- إن مسجد الضرار وإن بينا أنه قد هدم وأحرق ولـم يبـق لـه أثـر مـادي، ولكن الآية أثبتت أن أثره العقدي لم يذهب بذهابـه، فقـد قـدر الله تقـديرا لا انفكـاك لـه أن البناء الذي بنوه سيبقى مزعزعا لقلـوبهم تقـيم بـه الحيـرة والتـردد فـي عقـولهم، سيصحبهم الخوف من المصـير الـذي سيصـيرون إليـه، لا ينفـك ذلـك عـنهم إلا إذا تمزقت قلوبهم وفارقوا الحياة . والله علـيم لا تخفـى عليـه خافيـة مـن نوايـاهم، وهـو الحكيم في تناوله لأمرهم وإحلال النهاية التي أحلها بهم.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ ٱلۡحَٰمِدُونَ

ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١٢﴾

بيان معنى الألفاظ:

اشترى : وعد وعدا مؤكدا .

استبشروا: أبشروا.

بيان المعنى الإجمالي :

ذكرت الآية أن الله، وهو الذي مكن كل إنسان من حياته ورزقه، ميز المؤمنين بأنه اشترى منهم ما مكنهم منه، وأن الثمن الذي يبذله لهم: الجنة . ووضح طريقة بلوغهم إياها :أنهم يقاتلون في سبيل إعلاء كلمة عالمين مقدما، أنهم إما أن يقتلوا أعداءهم، أو يقتلهم أعداؤهم. تأكد هذا الوعد من الخالق في الكتب السماوية السابقة التوراة والإنجيل .كما يؤكده أنه لا يتصور واعد يفي بوعده كما يفي الله بوعده.

ونوه بالمؤمنين الذين جمعوا بين ثمانية مزايا: الإسراع للتوبة، الإقبال على العبادة، الحامدون لله على نعمه التي تفوق الحصر، السياحة في أرض الله للقيام بدورهم في عمارتها، المقيمون للصلاة بأداء أركانها من ركوع وسجود، الذين يعملون على صلاح المجتمع، ونظافته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمنفذون لكل ما ورد عليهم من تشريع أمرا كان أو نهيا. ويحق لهم أن يتقبلوا البشارة من ربهم بسبب صدقهم في الإيمان .

بيان المعنى العام :

111-112: إن الله اشترى من المؤمنين ..وبشر المؤمنين.

هذا وعد من الله موثق ومثبت ومؤكد صيغ في صيغة عقد بيع تمت جميع مقوماته واكتملت أركانه الأربعة: المشتري، والبائع، والثمن، والمثمن. ثابت في الماضي والحاضر والمستقبل، لا يأتيه ما ينقضه، ولا يلحقه ما يبطله. فلنتأمل في هذه الأركان حسب الصياغة البليغة في الآية:

المشتري : هو الله رب العالمين، وفي البداية بإسناد الشراء إلى الله ما يؤكد ثبات العقد لأنه عبر عنه بالفعل الماضي (اشترى) واستمراره لأن ما هو ملك له لا يأخذه منه أحد.

البائع :المؤمنون. يتناول المؤمنين من هذه الأمة تناولا أوليا من كان في حاضرا وقت نزولها ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، كما يتناول المؤمنين في تاريخ البشرية الطويل الذي تحقق فيهم ما حددته الآية.

الثمن : هو الجنـــة .ولا أنفـس ولا أجـل ثمــن ولا غايـــة وراء الجنـــة، يقــول تعـــالى : **(فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)**[1] .

المبيع المثمن : الحياة والأموال. وهبهم الحياة، ووهبهم المـــال، فكلاهمـــا ملـــك لـــه، ومـــع ذلك فإن حيازتهما من طرف المؤمنين حيازة لا ينفصل عنهـــا أنهـــم يبـــذلون مـــا وهـــبهم في مرضاته . فهم يخرجون لنصر دينه ونشر الحـــق فـــي العـــالم، وهـــم يعلمـــون مقـــدما أنهم لا يخرجون عن احتمالين:

1) المقدم عندهم أن ينصروا الدين ويهزموا الأعداء فيقتلـــونهم بســـبب مـــا منعـــوهم مـــن حرية نشر الحق.

2) أن يثبتوا ثباتا يصحبهم إلى آخر لحظة من حيـــاتهم فيموتـــون فـــي ســـاحة الشـــرف، ساحة الجهاد.

ثم يؤكد القرآن ما تضمنه المقطع الأول من الآية، بأن هـــذا وعـــد مـــن الله حـــق ثابـــت، وثقه في كتبه التي أنزلها على رسله، ذكـــر منهـــا الكتـــب التـــي بقيـــت البشـــرية تحـــتفظ بشيء منها، وهي التوراة والإنجيل، والكتاب الباقي المحفوظ أبد الدهر : القرآن.

ثم يستفهم استفهاما تقريريـــا مثبتـــا، أنـــه لا يمكـــن أن يتصـــور أن يبلـــغ أي عهـــد مـــن التحقيق ما يبلغه الوعد من الله. لأن كل واعد سوى الله، قـــد يحـــول بينـــه وبـــين تحقيـــق وعده معوقات تخرج عن ســـلطانه، والله مالـــك الأمـــور لا يخـــرج عـــن ســـلطانه شـــيء ولا ينقص من ملكه شيء.

ثم يكرم المؤمنين الذين عقدوا هذه الصفقة، فيتوجـــه إلـــيهم رب العـــزة بالخطـــاب بقولـــه: أبشروا بربح الصفقة التي نفذتموها. ولا صاحب صـــفقة يبلـــغ مـــن الفـــوز والنجـــاح مـــا بلغتم. يروي ابن عطية عن والده أنه سمع الـــواعظ أبـــا الفضـــل ابـــن الجـــوهري يقـــول على المنبر بمصر : ناهيك من صفقة ، البائع فيهـــا رب العـــلا، والـــثمن جنـــة المـــأوى، والواسطة محمد المصطفى . هكذا هو مثبت فـــي النســـخة، ولعـــل: المشـــتري فيهـــا رب العلا، لا البائع. والله أعلم.

ثم أخرج القرآن المؤمنين في إطار بنوه بمزايـــاهم ويتابعهـــا فـــي تسلســـل بـــديع فأثبـــت لهم ما يأتي:

التائبون : التوبة تنطلق بالنسبة للمـــؤمنين الأولـــين ، مـــن التوبـــة مـــن الكفـــر واطـــراح الشرك، ثم تسمو في يقظة رابطة بين المؤمن وربه، فكلمـــا مســـه طـــائف مـــن الشـــيطان

---

[1] سورة آل عمران 185

تذكر، فإذا بصيرته تجذبه جذبا قويا إلى طريق الهـدى طريـق الله .وكلمـا قـارف ذنبـا أسرع إلى التوبة .

العابدون : العبادة رشح شعور مرهف، بصـلة الإنسـان بربـه، يجـد طمأنينتـه ورضـاه النفسي عندما يتصل به عابدا حسب ما تلقـاه منـه، ثـم هـو يـرتبط بـالكون كلـه فـي موكب سائر إليه فيجد في كل نشاط عبادة للخالق سبحانه .

الحامدون : هي النعم تتـابع علـى الإنسـان، وقـد يكـون لتتابعهـا ذلك مـا يغفـل بـه الإنسان عن قيمتها، فإذا توقد الإيمان في القلب اسـتيقظ إلـى تلكـم الـنعم فـانطلق لسـانه وقلبه بالحمد للواهب الكريم. خذ لذلك مثلا: أنفاسك التي تجـري فيـك بيسـر نعمـة مـن أجل النعم، لو ضاق تنفسك قليلا لوجدت الدنيا كلها لا تعدل تلك النعمة.

السائحون: الذين يشعرون بوظيفتهم في عمارة الكون، بمـا يقتـرن بالسـياحة مـن نشـر للفضيلة، والمعرفة التي هـي أول خطـوة فـي الفعـل الصـالح، وتأكيـد العلاقـة مـع البشـرية. إننـا إذا تـذكرنا أن الصـحابة رضـوان الله علـيهم بلغـوا الحـدود الغربيـة لإفريقيا، وأن المسلمين وصلوا إلـى أراضـي الشـرق الأقصـى فنشـروا الإسـلام فـي جزر أندونيسيا وماليزيا وتايلندا، ينكشف لك قيمـة السـياحة الإيجابيـة التـي وصـف الله بها المؤمنين .

الراكعون الساجدون : هو تعبير عن إقامـة الصـلاة عمـود الـدين وأعظـم صـلة بـين المؤمنين وربهم، وبإقامتها يجتمعـون ويتعـارفون فـي الحـي والمدينـة . وبهـا يكـون الإيمان حيا نابضا في أرواحهم، نافذا إلـى سـلوكهم قـال تعـالى : **(إن الصـلاة تنهـى عن الفحشاء والمنكر)**[1] .

الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر: هذا الوصـف يمثـل الحـرص العـام علـى أن تشيع الفضيلة فـي المجتمـع، فـالمؤمنون المنـوه بهـم لا يقنعـون بصـلاحهم، لكـنهم يعملون بصفة مستمرة على نشر الخير، كما يحرصون علـى نظافـة المجتمـع مـن كـل انحراف، واستنكار أي نابتة تظهر، والعمل على اجتثاثها.

الحافظون لحدود الله: هذا وصـف جـامع يمثـل الالتـزام بكـل مـا شـرعه الله، فهـم يحافظون على تطبيق الأوامر، وعلى اجتناب ما نهى عنه.

وتؤكد خاتمة الآية خاتمة الآية السابقة، وذلـك الفـوز العظـيم، بـأن الله يبشـرهم بـأنهم سيحظون بذلك الفوز العظيم .

[1] سورة العنكبوت آية45

مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُوْلِي قُرْبَىٰ
مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (113) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ
إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ
(114) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ إِنَّ
اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (115) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا
لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (116)

بيان معنى الألفاظ :

الموعدة : الوعد .

تبرأ : تنزه بقطع صلته .

أواه: المكثر من قول : أوه . وله معان ترجع إلى رقة القلب والرأفة والتضرع.

ملك : التصرف والتدبير.

بيان المعنى الإجمالي :

لما كان الكفر والإيمان اتجاهين متعاكسين، فلا يتصور حسب المنطق السليم أن يتقدم النبي والذين آمنوا بطلب المغفرة للمشركين ولو كانت تربطهم بهم رابطة القرابة، إذا ما تبين لهم أنهم هالكون آئلون إلى النار . ولا تظنوا أن إبراهيم عليه السلام خرج عن هذا المنهج لما استغفر لأبيه المشرك، لأن أبا إبراهيم وعده بأنه سيتدبر أمره في الإيمان بالله، ففهم منه أنه أخذ في الطريق الصحيح، فاستغفر له طلبا من الله أن يسعده بعونه، فلما تبين له أنه مصر على الكفر قطع ما بينه وبينه. وإبراهيم عليه السلام رؤوف رقيق القلب متضرع، رزق عقلا راجحا .

واعلموا أن الله لا يعذب المؤمن بعد أن هداه، إذا ما أقدم على أمر منهي عنه قبل أن ينزل الحكم واضحا، فلا تنزعجوا من استغفاركم لبعض من تحبونهم قبل النهي. إن الله عليم بكل شيء. كيف لا وهو المدبر للسموات والأرض، المتصرف في الحياة والموت. فاعتمدوا على ربكم فليس لكم ولي ولا ناصر سواه.

بيان المعنى العام :

113-ما كان للنبي...أصحاب الجحيم.

العلاقة التي يعتبرها الإسلام ويرتب عليها حقوقها تقوم أولا على الإيمان، فإذا لم يجمع الإيمان لم تبق إلا علاقة إنسانية يتبعها عدم الظلم، أو التعاون فيما يتصل

بالحياة الدنيا. ذلك أن التصور الإيماني والتصور الكـافر يـذهب كـل واحـد منهمـا فـي اتجاه معاكس للآخر. يقـوم الإيمـان علـى ربـط الإنسـان عقلـه وروحـه ومشـاعره وانتظامه في الكون، على أن الكل موكب واحد صدر عـن الله وهـو سـائر إليـه حسـبما قدره. ويقوم الكفر على قطع العلاقـة بـين الخـالق والمخلـوق، بـين الإنسـان وربـه، وبين الكون والله. ويتبع ذلك أن النهاية متعاكسـة طبعـا. فـالمؤمنون يعتقـدون ويسـعون إلى الفوز بالجنة، والكافرون لا ينظرون إلى اليوم الآخر، فهـم إلـى النـار. وهـذا أمـر مقطوع به ثبت بالنصـوص القرآنيـة العديـدة وبالسـنة حتـى أصـبح ضـروريا مـن ضروريات الدين.

إن ضعف الإنسان قد يحجب على بريق إيمانه حجاب، فيـذهل فـي لحظـة مـن لحظـات حياته ويقع فـي الخطيئـة، ومَـن رحمـة الله أن فـتح لعبـاده المـؤمنين بـاب التوبـة والالتجاء إلى الله بطلب المغفرةِ ليمحو الذنب ويعفو قـال تعـالى : **(ومـن يعمـل سـوءا أو يظلم نفسـه ثـم يسـتغفر الله يجـد الله غفـورا رحيمـا.)**[1] وأذن لنبيـه أن يسـتغفر للمؤمنين والمؤمنات فقال تعـالى : **واسـتغفر لهـم**[2]- **واسـتغفر لهـم الله**[3]. **فبـايعهن واستغفر لهن الله**[4]. وأخبرنـا القـرآن أن حملـة عرشـه يسـتغفرون للـذين آمنـوا[5]. فاستغفار المؤمنين واستغفار الرسول لهم واسـتغفار حملـة العـرش ؛ كـل ذلـك محقـق لما خص به رب العزة المؤمنين من جزاء الجنة. وأمـا طلـب المغفـرة لمـن كفـر فإنـه يسير في اتجـاه معـاكس لمـا كتبـه الله لهـم مـن دخـول النـار. فحـري بالرسـول وبالمؤمنين أن لا يقدموا علـى طلـب المغفـرة للمشـركين، وقـد تبـين لهـم أن مـآلهم الجحيم . وحذرهم أن يضعفوا لعوامل الرحمة أو القرابة .

114- وما كان استغفار...لأواه حليم.

ولما ورد في القـرآن أن إبـراهيم اسـتغفر لأبيـه وكـان كـافرا، قـال تعـالى: **(قـال سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيـا)**[6] . ومـا شـرحنا بـه الآيـة لا يعطـي لإبـراهيم العذر في الاستغفار؛ فأزال القـرآن موجـب هـذا التوقـف، بـأن إبـراهيم عليه السلام اسـتغفر لأبيه مع كفره لأنه فهم من كلامه، وعدا منـه بالإيمـان، فكـان دعـاؤه طلبـا مـن الله أن

1 سورة النساء، آية110
2 آل عمران159
3 سورة النور آية62
4 سورة المتحنةآية12
5 سورة غافر آية7
6 سورة مريم آية 47

يسعده بتأييده ليتم ما وعد به. ولذا فإنه بمجرد ما تحقـق أنــه مصــر علــى الكفــر قطــع صلته به وانقطع عن الاســتغفار. ثــم أثنــى علــى إبــراهيم عليــه الســلام بأنــه رؤوف رفيق القلب متضرع إلى الله، ذكي الفؤاد راجح العقل .

115- وما كان الله ليضل ...بكل شيء عليم.

ثم طمأن القرآن المؤمنين الذين حملــتهم رقــة عــاطفتهم، ونبــل مشــاعرهم، فاســتغفروا للمشركين قبل نزول الآية القاطعة في هذا بتسجيل قاعدة هــي مــن الثوابــت فــي معاملــة الله للناس: أنه لا يكتب الضلال (المعصــية) علــى أحــد بعــد أن اهتــدى إلــى الإيمــان والعمل به، حتى يبين ما ينهى عنــه ويحرمــه ويلــزم بالابتعــاد عنــه فيؤاخــذهم بعــد ذلك. إن الله عليم بكل شيء ومنه ما يصلح البشر وحقيقة ما يصدر عنهم.

116- إن الله له ملك...ولا نصير.

ثم أكد مفصلا ما يــدل عليــه قولــه : إن الله بكــل شــيء علــيم، بلفــت الأنظــار إلــى التصرف في السماوات والأرض وتســييرها بدقــة ونظــام لا اخــتلال فيــه ممــا يقــوم شاهدا على علمــه الكامــل، وبتصــرفه فــي الحيــاة والمــوت، وكلاهمــا أقــرب شــيء للإنسان ؛ومع ذلك لا يعلم أحد متى تبعث فيه الروح ولا متى تنزع منه.

توكلوا على ربكم وثقوا أنكم لا تجدون مــن يرعــاكم ويتــولى أمــوركم وينصــركم علــى أعدائكم غيره.

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنفِقُونَ

نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾

بيان معنى الألفاظ :

التوبة : رجوع الله بعبده من حالة إلى حالة أرفع منها.

اتبعوه : أطاعوه.

العسرة : الشدة وضيق الحال.

الزيغ : الميل عن الطريق المقصود .

خلفوا: تأخر قبول عذرهم.

ضاقت عليهم الأرض : أحسوا كأن الأرض ضاقت عليهم.

بما رحبت : على سعتها.

ضاقت عليهم أنفسهم : ثقل عليهم الغم والحزن.

يقطعون واديا : يجتازون واديا.

بيان المعنى الاجمالي :

نوه القرآن بالمهاجرين والأنصار الذين أسرعوا بتلبية الدعوة إلى الخروج للجهاد في غزوة تبوك. وأعلمهم أنه قد تاب عليهم توبة تتمثل في رفع درجاتهم عنده. نوه بهم لأنهم اتبعوه في وقت فيه ضيق وعسر. وألحق بهم الذين رجحوا الخروج بعد تردد قليل وتاب عليهم، إن الله رؤوف بعباده يرعى ضعفهم، رحيم بهم .

وتاب الله على الثلاثة المعلومين عند الصحابة وقت نزول الآية وهم : كعب بن مالك ومرارة بن الربيع وهلال بن أمية، الذي تخلفوا عن المشاركة في الغزو، ولما سألهم الرسول عند عودته من تبوك، صدقوا رسول الله أنه لا عذر لهم، وعرضوا توبتهم. فلم يكلمهم النبي ﷺ ونهى الصحابة عن الاختلاط بهم، ونهاهم عن قربان زوجاتهم، فكان حصار اجتماعيا خانقا، حتى أصبحت الأرض الواسعة في نظرهم تضيق بهم، وغمهم الكمد والحزن فضاقت عليهم أنفسهم، لم يبق لهم أي رجاء إلا أن يشملهم الله بعفوه فهو الملجأ الوحيد . وبعد خمسين يوما تاب الله عليهم لأنه التواب الرحيم .

وبعد تبين مآل الصدق في غزوة تبوك، حرض القرآن المؤمنين أن يلتزموا تقوى الله وأن يكون مجتمعهم مجتمع الصدق .

إن الذين تلقوا أنوار النبوة مباشرة من سكان المدينة لا يتصور منهم أن يتخلفوا عن رسول الله إذا دعاهم للجهاد، ولا يتصور منهم أن يحموا أنفسهم مقدمين لها على

نفس رسول الله. ووعدهم الله مقابل هذا السبق لنصرة رسوله أنـــه يوثـــق لهـــم جميـــع مـــا يقومون به في الجهاد ما قصدوه ومـــا لـــم يقصـــدوه. قلـــيلا كـــان أو عظيمـــا، فعطشـــهم، وتعبهم، وجوعهم، ودخولهم في أرض الأعـــداء بخيـــولهم أو رواحلهـــم أو أقـــدامهم ممـــا يذل الكفر ويغيظه، ولا يستحوذون على شيء من الكفـــار ولـــو قـــل؛ الكـــل موثـــق لهـــم عند الله على أنه عمل صـــالح. وهـــم محســـنون فـــي ميـــزان الله . والله لا يهمـــل أجـــر المحسنين. وكذلك جميع نفقاتهم ما قل منهـــا ومـــا كثـــر، ومـــا يقطعونـــه مـــن المســـافات يُوثَّق في ميزان حسناتهم، ويجزيهم الله عن كـــل ذلـــك باعتبـــار أن كـــل مـــا قـــاموا فـــي الجهاد هو من أحسن أعمالهم، فيجزون عنه بناء على ذلكم الاعتبار.

بيان المعنى العام :

117-لقد تاب الله ...رؤوف رحيم.

تهيئ هذه الآية لما سيأتي بعدها. ومضمونها أن مـــا كـــان مـــن المـــؤمنين بعـــد دعـــوتهم إلى التهيؤ لغزو الروم قد اختلف اختلافا غير جذري .

نجد في قمة المواقف الشريفة النبيلة موقف النبي ﷺ وموقف المهاجرين والأنصار، الذين أطاعوه بمجرد ما دعاهم، فتهيأوا للقتال وسمحوا بالعون السخي من أموالهم في وقت ما كان فيه أهل المدينة في سعة من الرزق بل كانوا في ضيق وعسر. يروى أن سيدنا عثمان ﷺ أعطى ألف جمل وألف دينار وتسابق كثير منهم للبذل. هؤلاء تاب الله عليهم توبة رفعتهم من الوضع الذي كانوا فيه قبل الغزو إلى مرتبة أعلى وأسمى. كما أن فريقا آخر تجاذبه عاملان: عامل مثبط من شدة الحر وطيب الثمار وبعد الشقة للبلاد المقصودة، وعامل الاستجابة لدعاء الرسول ﷺ، وأخيرا تغلب نداء الطاعة وخرجوا مع الجيش، وأخبر الله أنه تاب عليهم من النقص الذي علق بهم وعفا عنهم .هذه الآية بما أكدته من التوبة المبنية على ما اتصف به الله من الرأفة والرحمة، كانت فاتحة لتسجيل ما تم في قضية ثلاثة من الأنصار كانوا معروفين بصدق إيمانهم، وهم كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية. تخلف هؤلاء الثلاثة عن الانضمام إلى الجيش القاصد تبوك. توجه إليهم الطلب مع بقية سكان المدينة، وما اعتذروا لرسول الله بأي عذر، ولم يأذن لهم النبي ﷺ في البقاء بها.

ولما رجع رسول الله إلى المدينة منتصرا من تبـــوك، ســـألهم فمـــا اعتـــذروا عـــن كـــذب، لكنهم اعترفوا بذنبهم وبدا عليهم الحزن لتثاقلهم عن الخروج .

أعرض عنهم رسول الله، وأمرهم أن يعتزلـــوا نســـاءهم، ونهـــى الصـــحابة عـــن التعامـــل معهم، فضرب عليهم حصارا اجتماعيا ذاقوا منه الأمـــرين مـــدة خمســـين يومـــا، وصـــفته الآية أنه خيل إليهم أنهم يعيشون فـــي ســـجن مضـــيق، فـــالأرض التـــي لا يجـــدون فيهـــا

تجاوبا لا من زوجاتهم ولا من أصــدقائهم وإخــوانهم، بــدت لهــم علــى ســعتها ضــيقة كأشد ما يكون الضيق .بل إن أنفسهم ضغط عليها الكمــد والحــزن حتــى كــادت تنفجــر من ثقل ما تحس به من الذنب ومن الوحدة .وبقي مع ذلك لهــم خــيط مــن الرجــاء هــو الوحيد الذي أبقى عليهم، هو اعتقادهم أنــه لا ملجــأ يحمــيهم مــن غضــب الله ومقتــه إلا العفو الذي لا يملكه أحد غيره.

ثم بعد الخمسين يوما نــزل علــى رســول الله ﷺ مــا يقــرر أن الله قبــل تــوبتهم وعفــا عنهم، ليكون هذا الفضل الإلهي دافعا لهــم للثبــات علــى العمــل الصــالح فيمــا يســتقبل ويحصنوا أنفسهم من المعاصــي. وهــو معنــى: تــاب علــيهم ليتوبــوا، ليــدوموا علــى وضعهم الذي من الله به عليهم بعد توبتهم فــلا يدنســوا أنفســهم بالآثــام بعــد أن طهرهــا فضل الله عليهم.

ملحظ جيد :

يقول ابن عطية في هذا ما يقتضــي أن الرجــل العــالم والمقتــدى بــه أقــل عــذرا فــي السقوط من سواه. وكتب الأوزاعــي إلــى المنصــور أبــي جعفــر فــي آخــر رســالة: (واعلم أن قرابتك من رسول الله ﷺ لــن تزيــد عليــك حــق الله إلا عظمــا، ولا طاعتــه إلا وجوبا، ولا الناس فيما خالف ذلك منك إلا إنكارا)[1] .

120- ما كان لأهل....لا يضيع أجر المحسنين.

هذه الآية تمثل ما ينبغي أن يستقر في عقول المؤمنين، بعــد مــا قررتــه الآيــات الســابقة من أن الله رضي على المؤمنين الصادقين، ورضــي عــن الــذين تــرددوا ثــم صــدقوا، ورضي عن الذين تخلفوا وصــدقوا معتــرفين بالــذنب. فتنويهــا بالصــدق وحثــا عليــه، أمر الله المؤمنين أن يثبتوا على التقــوى، وأن يمثلــوا فــي المجتمــع الإنســاني المجتمــع الذي يشيع الصدق فيه في كل مظاهر الحياة الروحية والاجتماعية.

تلقينا أنوار الهداية الإسلامية مــن القــرآن ومــن الســنة المطهــرة، ووصــلتنا بواســطة النقل الصحيح، وما يتلو المؤمن القرآن بفكــر وتأمــل إلا ويجــد نفســه تســمو وتشــف، وتحل في روحه الطمأنينة الراضــية . وإذا قارنــا هــذا بالإشــعاع الربــاني الــذي كــان ينفذ إلــى أرواح الصــحابة رضــوان الله علــيهم مباشــرة، وهــم يرقبــون ويســتمعون ويجلسون إلى رسول الله ﷺ ،نجد منــازل مــن الفيــوض التــي تعجــز عــن تصــويرها الكلمات، تجعلهم فوق بقيــة المــؤمنين الــذي لــم يحضــروا مجــالس الــوحي والتــذكير

---

[1] المحرر الوجيز ج7 ص73/74

النبوي . فوجب أن يكون حبهم للرسول أعظـم مــن حــبهم لأنفســهم وذريــاتهم والــدنيا وما فيها .

لذا كان من غير المتصور من سكان المدينــة، ومــن الأعــراب الــذين ضــربوا خيــامهم حولها، أن يــدعوهم الرســول للخــروج معــه للجهــاد، ولا يخرجــون معــه ويرضــون بالبقاء بعده في المدينة. كما لا يتصور مــنهم أن يقــدموا ســلامة أنفســهم علــى ســلامة الرسول، فيتركوه معرضا وحده للأعداء. إذ أنــه بمقــدار مــا يقــل عــدد الجــيش يكــون تعرضه للأذى أقرب وقوعا.

إن انتفاء ذلك التصور مبناه يقيــنهم أن الأجــر الــذي يكتــب لهــم بــالوقوف معــه فــي الجهاد أجر عظيم. ثم فصل هذا الأجر: هو يتمثل فــي كــل مــا يلحقهــم مــن أذى ولــو كان ضئيلا، حتى العطش، والتعب والإرهاق، و الجوع، ممــا يلقونــه فــي ســبيل إعــلاء كلمة الله بالجهاد، وكذلك وطــأهم أرض العــدو بســنابك خيــولهم أو بأخفــاف رواحلهــم أو بأقدامهم، بما يذل الكفار ويوقد في نفوسهم الغيظ، وكــذلك مــا يــرزؤون بــه الأعــداء في أنفسهم أو في أموالهم بالسبي والقتل والغنيمــة، كــل ذلــك يحصــيه الله ويكتــب لهــم أجر العمل الصالح. إنه إحصاء من لا يغيب عن علمــه شــيء وإن غفــل عنــه صــاحبه، أو ذهل عما فيه من نكاية بالأعداء. وختمت الآية بمــا يشــير إلــى أنهــم مــن المحســنين في سلوكهم، والله لا يهمل أي شيء من أجر المحسنين .

121-ولا ينفقون ...ما كانوا يعملون.

تواصل هذه الآية تفصيل الأجر العظيم المكتــوب للمجاهــدين مــع رســول الله ﷺ. فكــل ما ينفقونه عظمت قيمته أو قلــت حتــى خطــام الناقــة وشــراك النعــل، وســيرهم وهــم يجتازون الأودية، كل ذلك موثق لهم عند الله، وذلك ليجــزيهم عــن تلــك الأعمــال التــي هي أحسن الأعمال قيمة عند الله .

۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟
فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَـٰذِهِۦٓ إِيمَـٰنًا ۚ
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾ أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ

يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾
وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ
صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾

بيان معنى الألفاظ :

الفرقة : الجماعة من الناس الذين تربطهم رابطة توحد بينهم .

الطائفة : جماعة غير محصورة بعدد.

التفقه : بذل الجهد لتحصيل الفقه الذي هو فهم دقائق العلم.

الإنذار : الإخبار بما يتوقع شرمنه.

الغلظة: الشدة . بالجمع بين الجرأة والصبر على القتال، والعنف في القتل والأسر.

الاستبشار :أثر البشرى في النفس .

بيان المعنى الاجمالي :

كما حرض القرآن المؤمنين على الجهاد، حرضهم على التعمق في الدين بإدراك أسراره ومعرفة أحكامه من الحلال والحرام، تتخصص في كل فرقة طائفة ممن لهم استعداد لذلك، يتلون إنذار قومهم ليحذروا الخروج عن حدود الدين من الأوامر والنواهي .

وكما ينتشر الإسلام بالعلم فكذلك ينتشر بالجهاد، فالمؤمنون مأمورون بأن يوسعوا في أرض الإسلام في الأراضي المجاورة لهم، وليتدربوا على القتال ما يُفرِغ في قلوبهم الشجاعة والثبات، ومواجهة الكفار بحزم وثبات يرهب العدو .وليتقووا بتقوى الله فالله يساعد المتقين وينصرهم.

ومما فضحته هذه السورة من أمر المنافقين، أنه إذا أنزلت سورة، التفت بعضهم إلى بعض متوجها في سخرية : هل زادت هذه السورة في إيمانكم كما يتحدث القرآن عن ازدياد الإيمان بما ينزل من سوره ؟

رد القرآن عليهم بأن كل سورة من سور القرآن تنزل تتبعها زيادة، لكن الزيادة بالنسبة للمؤمنين تعميق لإيمانهم وزيادة في الوحي الذي آمنوا به، وتنشر في قلوبهم البشر، والزيادة بالنسبة للذين فسد ت عقيدتهم ومرضت قلوبهم بالنفاق تضاعف كفرهم وانحرافهم وتضم إلى ما امتلأت به نفوسهم من خبث خبثا جديدا.

ما لهم لا يتعظون بما يلحقهم كل عام من نكال؟ ومن عنادهم أنهم لا يتدبرون بما يسلط عليهم.

وإذا أنزلت سورة تفضح ما تحدثوا به فـي سـر، رأيـت بعضـهم ينظـر إلـى الـبعض الآخر، مستفسرا هل رآكم أحد لـيس مـنكم فنقـل أخبـاركم ؟ ثـم انصـرفوا حـائرين. صرف الله قلوبهم عن الحق ولـم يسـعفهم بـالعون للاهتـداء إليـه، وذلـك لأن عقـولهم واقفة عند الظواهر القريبة لا تتأمل في بواطن الأمور .

بيان المعنى العام :

122- وما كان المؤمنون...لعلهم يحذرون.

حرض القـرآن فيمـا سـبق مـن الآيـات المـؤمنين علـى القتـال، وكَشَـفَ المنـافقين وأوعدهم، ونعى على المتخلفـين تخلفهـم وإن كـانوا مـؤمنين . وكانـت تلكـم الآيـات تتوجه إلى الذين دعوا للخروج للغزو مـع رسـول الله ﷺ. والحكمـة فـي تربيـة الأمـة أن تكون الطاعة أساسا فـي تنظيمهـا وفـي علاقـة الأفـراد بالدولـة. كمـا أن الحكمـة تقتضي أن تتحصن الأمة بالعلم كما تتحصن بالقوة العسكرية.

وإذا كان دور الجند في الدولة الإسلامية الدفاع عن الأمة وعن الدين، وتمكين دعاته من نشره في العالمين، فإن التعمق في معرفة الدين وإدراك أسراره وفهمه الفهم الصحيح، هو الذي يوحد الأمة ويفتح بصيرتها على الحق، ويعطي للجيش التصور الصحيح للمفاهيم التي يجاهد في سبيلها، مما يجعل ثباته وشجاعته أتم وأكمل . فهما أساسان لبقاء الدولة: الجهاد، والعلم .و كلما انخرم أحدهما ضعفت الدولة وأسرع إليها الزوال.

وجمعا بين هذين الركنين بينـت الآيـة : أنـه لا يعقـل أن يـتمحض المؤمنـون للجهـاد جميعا . فتحرض الآية كل فريق مـن المـؤمنين أن تنصـرف جماعـة مـنهم ليدرسـوا الدين دراسة تمكـنهم مـن الاطـلاع علـى مراميـه البعيـدة وعلـى مقاصـده، وعلـى تنظيماته وأحكامه. ليتولوا نشر المعرفة الإسلامية فـي أقـوامهم عنـدما يعـودون إليهـا، ويتولون القيام على تعليمهم وتثقيفهم. ويكشفوا لهـم عـن الحـرام والحـلال، وينـذرونهم عاقبة إثم ارتكاب المحرمات. رجـاء أن يحـذروا ملابسـة مـا حرمـه الله، وأن يهتمـوا بالقيام بما أوجبه عليهم.

إن تخصص طائفة في العلوم الإسـلامية، ثـم قيـامهم بتبصـير إخـوانهم بعـد بلـوغهم مستوى القدرة على الإفادة والتعليم، كلاهما فـرض كفـائي تـأثم الأمـة إذا فرطـت فـي ذلك. لقد زرت ولاية سيان في الصين وحضرت صـلاة الجمعـة فـي مسـجدها الجـامع، وهو مسجد كبير يبلغ مع ساحاته أكثـر مـن عشـرة آلاف متـر مربـع، وتقـدم الإمـام ليصلي بالناس فكان ما قام به تمثيلية ليس فيهـا شـيء مـن صـلاة الجمعـة ولا حتـى من الصلاة . نتيجة للجهل، لما حالت الأنظمـة بـين الشـعب وبـين تخصـص جماعـة

منه للتفقه في الدين، فنسوا كل شيء، ولم يبـق فـي قلـوبهم وفـي معـارفهم إلا انتسـاب يحرصون عليه.

123- يا أيها الذين آمنوا...مع المتقين.

لما كان الإسلام في جوهره دينا عالميا، ولمـا كانـت الحكمـة فـي انتشـاره تقتضـي أن يتوسع شيئا فشيئا، إذ تتمكن قوته ويتسع سـلطانه كلمـا اقتربـت أقطـاره. ولـذلك اهـتم النبي ﷺ أولا بتخليص الجزيرة العربية من الشـرك. ثـم كانـت غـزوة تبـوك امتـدادا للإسلام إلى أطراف الجزيرة من ناحية الشـام. وصـرحت الآيـة بهـذه السياسـة التـي توخاها النبي ﷺ، وحَمّلَ المـؤمنين أن يقـاتلوا الأطـراف القريبـة مـنهم، وهكـذا كلمـا نشروا الدين في طرف، توجه الأمر لنشـر الإسـلام فيمـا يتلـوه مـن الأرض. وبجانـب هذه السياسة في أولوية الانتشار، دعاهم إلـى التـدرب علـى القتـال تـدربا يبلغـوا بـه درجة القوة على الأعداء، ينفي عنهم الخوف والضـعف ويمكـن فـيهم الجـرأة والصـبر والشدة في حملاتهم، شدة ترهب أعـداءهم .ثـم هـزهم ليتلقـوا الوصـية التاليـة بعقـول متفتحة، بقوله: واعلموا: أن الله يساعد المتقين، ويفـتح لهـم أبـواب النصـر، ويؤيـدهم في جهادهم، ولا يتركهم لقدراتهم فقط . فليحرصوا على التمسك بالتقوى.

124-125، وإذا ما أنزلت سورة...وهم كافرون.

تتابع هذه السورة كشف أحوال المنافقين، وفساد دخيلـتهم، ذلـك أنهـم إذا أنزلـت علـى رسول الله ﷺ سورة من القرآن، رأيت أعـين المنـافقين ينظـر بعضـها إلـى بعـض ؛ وبعضهم يهمس إلى من كان فـي جـواره قـائلا: أيكـم زادتـه هـذه السـورة إيمانـا ؟ استهزاء منهم بما أثبتـه القـرآن أن المـؤمنين يـزداد إيمـانهم وضـوحا، كمـا يـزداد بالوحدات التي يؤمنون بها، كما يزداد تـيقظهم بآيـات الله المتلـوة علـيهم، قـال تعـالى: **(وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا)**[1] .

ثم تولى القرآن الرد عليهم مبرزا جهلهم .نعم، إن السـور تزيـد فـي قلـوب البشـر مـا يتناسب مع ما استعدوا إليـه زيـادة متعاكسـة. أمـا الـذين تفتحـت أرواحهـم بالإيمـان فتزيدهم إيمانا على حسب ما أوضحناه، ويصحب هذه الزيادة أن يعم البشر كيانهم.

وأما الذين انحرفت عقولهم وساءت دخيلـتهم وفقـدوا الصـحة العقليـة وتمكـن مـنهم المرض الروحي، فزادتهم كفرا إلى كفـرهم وتراكمـت القـذارة فـي كيـانهم، وصـحبهم ذلك الفساد والكفر إلى آخر لحظة من حياتهم .

---

[1] سورة الأنفال أية 2

126- أولا يرون ...يذكرون.

ما لهم عموا ولم يتعظوا، فقد توالت النذر عليهم، فالله يسلط علـيهم كـل عـام الفـتن فـي الأنفس والأموال. مصائب من الأمراض والجـوائح ونقـص الذريـة، وانكشـاف أمـرهم بما يظهره القرآن مما يبالغون في كتمه والظهـور بخلافـه، وكـل ذلـك يوجـب اليقظـة ثم التوبة، لو كانوا يذكرون وتفيدهم المواعظ.

127- وإذا ما أنزلت سورة...لا يفقهون.

هذه آخر آية في سورة التوبة تفضح المنـافقين وتهتـك مـا سـتروه، وتقمعهـم بـأن الله مطلع عليهم. فإذا أنزل الله سورة تكشفهم وتعلـن شـيئا ممـا تحـدثوا بـه فـي خلـواتهم ودبروه فيما بينهم، وأطلع القرآن عليـه الرسـول والمـؤمنين . تحيـروا وأخـذ بعضـهم ينظر إلى بعض مما تنبئ عنه خائنة الأعين مـن العجـب، كيـف انكشـف سـرهم، مـن الذي كشفه، وأخذ كل فرد يسأل المنافق الآخر هل يـراكم أي شـخص لـيس مـنكم فبلـغ عنكم ؟ ثم انصرفوا عن المجلس وحيرتهم مصاحبة لهـم .لقـد صـرف الله قلـوبهم فلـم يعنها بالتوفيق ولا بمنع ما يحول بينها وبين الاهتـداء، وذلـك لكـون عقـولهم محـدودة النظر، قصيرة التأمل، لا تنفذ إلى ما وراء الظواهر، فاقدة للفقه.

لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾

بيان معنى الألفاظ :

جاءكم :توجهت إليكم الدعوة.

من أنفسكم : تعرفون نسبه فيكم، ليس غريبا عنكم ولا لصيقا.

عزيز عليه: يجد شدة على نفسه وثقلا.

ما عنتم :وقوعكم في الشدة والتعب.

حريص : شديد الرغبة في إيمانكم.

رؤوف : رقة في القلب

رحيم : يحسن للمرحوم.

التولي : الإعراض.

حسبي الله : الله يكفيني شركم .

بيان المعنى الإجمالي :

ثناء من الله على نبيه وتنويه به، وإيقاظ للبشرية للمنـــة ببعثتـــه، فهـــو رســـوله معـــروف نسبه، جربتموه فما رأيتم إلا كمـــالا. قلبـــه الكبيـــر يســـعكم جميعـــا، ويأســـف لكـــل مـــا يلحقكم من تعب وأذى .لا يألو جهدا لهدايتكم، يـــرأف بكـــم ويشـــارككم أســـاكم، ويحمـــل قلبه الرحيم حب الخير لكم .

فإن أعرضوا عنك وثبتوا علـــى مـــا كـــانوا عليـــه مـــن الشـــرك، وأخـــذوا يـــدبرون لـــك المكائد، فقل لهم : الله يكفينـــي أمـــري ويكفينـــي مكائـــدكم، فأنـــا متوكـــل عليـــه، ومـــن يتوكل عليه لا يضره مكركم، فهـــو رب العـــرش العظـــيم، ولا يوجـــد فـــي الكـــون ممـــا حوته السماوات والأرض ما يقارن بالعرش العظيم .

بيان المعنى العام :

128-129: لقد جاءكم رسول...وهو رب العرش العظيم .

ختمت سورة براءة بهاتين الآيتين. وتضمنتا :

أولا: شهادة من الله بما جمعه رســـوله ﷺ مـــن صـــفات الكمـــال الإنســـاني، يحـــق علـــى تاليها أن يقف متأملا في كل صـــفة مـــن صـــفاته، ليـــرى مثـــالا مـــن الســـمو الإنســـاني اجتمع فيه ما تفرق في غيره ولم يبلغ أي بشر مبلغه .

1) منة الله على العرب، ثم على البشـــرية جميعهـــا، أنـــه بلغـــتهم دعوتـــه التـــي بينـــت الحق وهدت الناس، ورفعـــت الحيـــرة، وأخرجـــت النـــاس مـــن الظلمـــات إلـــى النـــور. وصلتهم فضلا من الله دون أن يبذلوا فيها جهدا .

2) من أنفسكم : ليس غريبا عنكم تتوقفـــون فـــي مقامـــه وفـــي أخلاقـــه وفـــي ســـلوكه، عرفتموه فانكشف لكم عن صدق وعن فضل وعن أمانـــة، وعـــن اســـتقامة، وعـــن ترفـــع عن السفاسف. فهو من خياركم نسبا. ويساير هذا المعنى قراءة (أَنْفَسِكُمْ)

3) عزيز عليه ما عنتم : يؤلمه ويثقل عليـــه، أن تحـــل بكـــم مشـــقة أو يلحقكـــم تعـــب، فهو لا يدعوكم إلى ما فيه مشقة وعسر، بل كـــل مـــا جـــاءكم بـــه ودعـــاكم إليـــه ميســـر تحقيقه يزيد حياتكم رخاء وفضلا .

4) حريص عليكم: هو لا يكتفي بأن يبلغكم ما أوحـــي إليـــه ثـــم يتـــرككم، ولكنـــه يتـــابع بالتوضيح والبيان، وتكـــرار الـــدعوة ليـــوقظكم إلـــى ملازمـــة الهـــدى، ويتـــابع أحـــوالكم المعيشية وينال من كرمه وسخائه المحاويج، ويرعى ضعفاءكم .

5) رؤوف : يرق قلبه لأي ألم يحل بكم، فيجد كل من يتصـــل بـــه مـــن معـــالي أخلاقـــه ورقة قلبه تلطيفا لما حل به. وفي الرأفة شعور الطرف الآخر بمشاركة وجدانية.

6) رحيم :وصف أعم مـــن الرأفـــة، فالرحمـــة تشـــمل القريـــب والبعيـــد، وتـــدل علـــى اشمئزاز من العنف ورفض له.

ثانيا : إعلان التأييد الكامل لرسوله : إنه بعـــد هـــذا الثنـــاء مـــن الله العلـــيم، وتبعـــا لمـــا يستقر في النفس وهو يتابع الأوصاف النبيلة تترى، فإنـــه يحـــق ويجـــب علـــى كـــل مـــن شاهد هذا المثل الأعلى مجسما في محمـــد، أن يـــؤمن بـــه وأن يـــدخل فـــي الـــدين الـــذي يدعو له وأن ينصره.

وتوجه القرآن إلى النبي ﷺ : لا يضرك أمرهم إن تولـــوا وتمـــادوا علـــى الكفـــر، وكـــن واثقا من رفيع مقامك وصدق ما جئت به، وقـــل لهـــم كلمـــة فاصـــلة: حســـبي الله . هـــو ربي يكفيني كيدكم وما يدفعكم إليـــه الحســـد، لا أتوكـــل إلا عليـــه فهـــو الـــذي يســـعدني بالتوفيق لنشر الدعوة، ودحر الشرك والنجاح في مهمتي، ممـــا يعبـــر عـــن ســـعة أمَلِـــكَ، وذلك يزيد فـــي كمـــدهم ويشـــد أزرك، فإنـــك تســـتند إلـــى الله المتفـــرد بالألوهيـــة، رب العرش العظيم، وفي التـــذكير بكونـــه رب العـــرش العظـــيم مـــا يفيـــد الاســـتهانة بمـــا يدبرون، فما هم إلا شيء تافه أمام العرش العظيم الذي هو أعظم مخلوق.

22جمادى 1432-2011/4/26

ســورة يــونس

اتفقت المصاحف وكتب السنة على تسمية هذه السورة بسورة (يونس) الرسول ا لذي كذبه قومه ثم آمنوا قبل أن يعاجلهم الله بالعقوبة فعفا عنهم كما سنتبينه عند قوله تعالى:(**إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي**) آية98

وهي سورة مكية في مجموعها واختلف في بعض الآي فروي ما يفيد أنها نزلت بالمدينة وعـــدد آياتها : 109 آية. رتبتها في النزول الحادية والخمسون. نزلت بعد سورة بني إســرائيل وقبـــل سورة هود. وهي العاشرة حسب ترتيب المصحف.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ رَجُلٖ مِّنۡهُمۡ أَنۡ
أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمۡ قَدَمَ صِدۡقٍ عِندَ رَبِّهِمۡۗ قَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ
إِنَّ هَٰذَا لَسِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ
ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ
رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ
ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ﴿٤﴾

بيان معنى الألفاظ :

الكتاب : القرآن.

عجبا : خارجا عن المألوف يثير الذهن بحثا عن حقيقته.

صدق : أصل الصدق موافقة الشيء للواقع، ويراد منه مصادفته المأمول منه المرضي.

السحر : تخيل ما هو غير واقع واقعا.

يدبر : التدبير هو النظر في عواقب الأمور وما يحف بها من مؤيدات أو معوقات.

التذكر : التأمل في الحاصل الذهني سابقا ليرتقي به إلى ما يلزم عنه.

القسط : العدل.

حميم : شديد الحرارة.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت بثلاثة أحرف – ألف – لام – ر : تنبهوا إلى آيـــات الكتـــاب الـــذي يغـــرس فـــي قلوبكم الحكمة. لقد عجب المشركون أن يتخير الله من بـــين البشـــر رســـولا أوحـــى إليـــه لينبه الضالين من سوء العاقبـــة، وليبشـــر المـــؤمنين الصـــالحين أن الله كتـــب لهـــم فـــي اللوح المحفوظ مكانة رفيعة ثابتة عند ربهم الذي اعتنـــى بهـــم فـــوقفهم. تحيـــر الكـــافرون من اختصاص الرسول، البشرِ بتبليغ وحي الله، فرموه بالسحر .

ا علموا أن الله ربكم لا إله غيره، هو الذي خلق الســـماوات والأرض فـــي ســـتة أيـــام ثـــم استوى على العرش متصـــرفا فـــي خلقـــه، يـــدبر شـــؤون العـــالم كبيـــره وصـــغيره. لا يستطيع أن يتقدم أحد بين يديـــه بالشـــفاعة فـــي مقصّـــر إلا بعـــد أن يصـــدر لـــه الإذن بالشفاعة. المتعالي العظيم هو ربكم لا إله غيره خصوه بالعبـــادة التـــي هـــو حقيـــق بهـــا. ما لكم لا تتعمقون فيما تناديكم به فطرتكم من حقائق كامنة في بنائكم العقلي.

إنكم ستعودون إليه جميعا لا يفلت أحد مـــن هـــذا المصـــير. هـــو وعـــده الحـــق الـــذي لا يتخلف. من حكمته أنه بدأ الخلق وأظهره للوجود، ثـــم يعيـــده إليـــه كمـــا خلقـــه. إن ذلـــك هو مقتضى الحكمة حتى لا يكون الخلق عبثـــا لا يســـير إلـــى غايـــة. بـــل هـــو يجـــزي الذين تطهرت بواطنهم بالإيمان وعملوا بمـــا يقتضـــيه إيمـــانهم مـــن تطبيـــق لأحكـــام الله، سيوفّيهم أجورهم بالعدل. وأما الذين كفروا فقد أعد لهـــم شـــرابا يغلـــي كأشـــد مـــا تكـــون الحرارة، ويصحبه عذاب نفسي وجسمي يبلغ غاية حدود الألم.

بيان المعنى العام :

-1-الر تلك آيات الكتاب الحكيم.

افتتحت السورة بالحروف المقطعة كما افتتحت سورة البقـــرة. ومـــا ذكـــر هنـــاك ينطبـــق هنا. وتُنْطَق هكذا: ألِفْ – لامْ– رَ– مفتوحة بدون مد.

تتابُع هذه الحروف فيه إشارة دالـــة علـــى كـــون القـــرآن المركـــب مـــن هـــذه الحـــروف معجز. هي الحروف التي تتصـــرفون فيهـــا، وأنـــتم الأمـــة التـــي مـــن أعظـــم مزاياهـــا قدرتها على البيان، ونسج الكلام الفصيح الممتـــع. إنـــه إذا رفعـــتم عـــنكم العنـــاد تـــذعنون ولا شك بأن هذا الكتاب من عند الله، وقد تحداكم، ولـــم تســـتطيعوا أن تـــأتوا بســـورة مـــن الطراز الرفيع الذي جاء عليه. كمـــا يـــدل قولـــه: **تلـــك آيـــات الكتـــاب الحكـــيم** –مـــع أن القرآن تضمن من المعاني والحكم والتشريع ومن الحقائق مـــا يـــدل علـــى أنـــه مـــن عنـــد الله، إذ لا يتأتى لرجل أمي أن يأتي بذلك من عنده. وهو كتـــاب حكـــيم بـــالنظر إلـــى أنـــه حاكم على ما سبقه من الكتب يقر مـــا أراد الله إقـــراره بواســـطته، ويصـــحح مـــا دخـــل

فيها من تحريف، وينسخ ما أراد الله توقيف العمـل بـه. كما أنـه يُكسِب مـن تـدبره وتأمل في مضامينه، حكمةً وسدادا في النظر.

2-أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم ...إن هذا لسحر مبين.

لماذا تمكن العجب من المشركين؟ ألأنهـم وجـدوا أن الله القـادر علـى كـل شـيء، قـد أوحى إلى رجل غير غريب عـنهم يعرفونـه معرفـة تامـة، خبـروه فرضـوا أخلاقـه واستقامته ؟ وما الذي أوحى به رب العزة لهذا الرجل ؟ أوحى إليه أمرين

1) أوحى إليه ما يدل على عناية الله بالبشـرية بمـا يشـمل إنـذارهم بتنبـيههم إلـى مـا يترصدهم من خسارة وسوء منقلب، إن هم سلكوا طريق الضلال.

2) وأوحى إليه أن بَشِّرْ الذين آمنوا بك وصـدقوك واتبعـوا النـور الـذي أنـزل معـك، أن الله قد كتب لهم عنده، فتحقق ما قدم لهم في سابق علمـه مـن الخيـر والسـعادة، فـي اللوح المحفوظ.

بلغ بالكافرين العجب فتحيروا فـي إدراك سـر الـوحي، ونظـروا مـن زاويـة الـرفض والعناد فقالوا: إن ما جاء به سحر بين لا شـك فيـه. وذلـك أنهـم قـد عـاينوا أن هـذا الوحي الذي أوتيه قد نفذ إلى العقول فأقامها علـى طريقـة جديـدة، وحولهـا مـن مـنهج الأسطورة إلى منهج يرفض الأسـطورة، ونفـذ إلـى العواطـف والميـول فربطهـا بقـيم خلقية جعلها تتنكر لما كانت تقيم عليه حياتها وتعودت عليـه مـن قبـل. إن هـذا الـوحي الذي خلق من الإنسان الجاهلي إنسانا مختلفـا عمـا كـان عليـه مـن قبـل، لا يكـون إلا سحرا. زعما منهم أن السحر يؤثر في عقل المسحور ويقلـب مـا كـان ثابتـا فـي نفسـه قبل تدخله. ومن ضلالهم: أن السحر يهدف إلـى الإفسـاد وتمزيـق الأواصـر الجامعـة، وهذا الدين يدعوهم إلـى الخيـر والاسـتقامة، وإلـى مـا يوحـد بيـنهم، ويحمـيهم مـن عاديات الاختلاف الممزق.

3- إن ربكم الله الذي خلق....أفلا تذكرون.

تأكدوا أن الذي تولّاكم بالإيجاد والإمداد، هـو الله لا إلـه غيـره المتفـرد بـالخلق. خلـق السماوات والأرض وهذه حقيقة لا يستطيع المشـركون أن يجعلـوا لآلهـتهم دخـلا فيهـا. وما عقب خلق السماوات والأرض: **(في ستة أيـام ثـم اسـتوى علـى العـرش)** تقـدم بيانه في تفسير الآية -54- من سورة الأعراف.

أثبت القرآن عقـب خلـق السـماوات والأرض والأكـوان أنـه هـو المتـولي لتسـييرها وتدبير ما حوته وما بث فيها من دابة. وهو مـا يبطـل ويـرد علـى الـذين يزعمـون أن

الله خلق الكون، وأعطاه نواميس سيره، ثم تركــه يســير ويتقلــب فــي أحوالــه منفصــلا عن التأثير المباشر لعزته.

كما أبطلت الآية أيضـا مـا يعتقـده المشــركون: أنهـم لا يخشـون العاقبـة لأن آلهـتهم سيتولون الدفاع عنهم ويشفعون لهم فـي تقصـيرهم عنـد الله فَيَسْـلَمُونَ، فنفـت الآيـة أن يتقدم أيٌّ كان للشفاعة بين يدي الله، واستثنت ما أخبـر بـه الله مـن الشـفاعة لمـن يـأذن له في الشفاعة، وقد اختص محمد ﷺ بالشفاعة العظمـى فـي أهـل المحشـر، والشـفاعة الخاصة لأمته.

إن الله الذي هو ربكـم، وتـولاكم فخلقكـم، ويسـر لكـم الهدايـة علـى لسـان رسـوله، ورزقكم، هو الحقيق بأن تفردوه بالعبادة، فاعبـدوه. انظـروا فـي الحقـائق الكامنـة فـي نفوسكم وتأملوا فيها، فسوف تهديكم إلى إفـراده بالعبـادة سـبحانه. ففطـرتكم تنـادي بـأن الله هو المستحق أن يتقرب إليه وأن يعبد.

4- إليه مرجعكم جميعا...وعذاب أليم بما كانوا يكفرون.

إن الكمال الإلهي يقتضي أنه مـا خلـق السـماوات والأرض ومـا فيهـا عبثـا وبـاطلا، ولكن هذا الخلق سينتهي إلى أمده الذي قدره له فتظهر حكمتـه. وصـرح فـي هـذه الآيـة بهذا المعنى .ستعودون إلى الله وحده، لا شريك له، فكمـا أنشـأ كـل فـرد مـنكم ومكنـه من مقومات الحياة الجسمية والعقلية والروحيـة، ثـم سـلب مـا أعطـاكم عنـد مـا أراد، فكذلك سيرجعكم إليه لا يفلت من هذا التقدير أي كائن. تأكـدوا مـن هـذا المصـير فإنـه وعد الله الحق الذي لا يتخلف.

من مقتضيات حكمته في الخلق، عندما أحدثه أنـه سـيعود إليـه. هـذه الحكمـة التـي أفصحت عنها الآية تضمنت جزاء البشر المخلوقين وسيكون الجزاء على قسمين:

أولا: الذين جمعوا بين صفاء العقيدة، فآمنوا بالحقائق التـي يقتضـيها قـانون العقـل فـي الخلق والتصرف وما يقتضيه ذلك من صفات الكمال، ومـن بعثـة الرسـل ومـا أخبـروا به من المغيبات التـي لا تنـاقض العقـل ولكـن لا يسـتطيع أن يصـل إليهـا بإمكاناتـه وبين التطبيق العملي الصالح لما تلقـوه عـن رسـل الله مـن السـلوك الرضـي. إن الله سيجزيهم بإيمانهم وبصـالح أعمـالهم جـزاء عـادلا لا يهمـل أي خيـر صـدر عـنهم صـغيرا كـان أو كبيـرا. وفـي الإشـارة بالقسـط: العـدل، زيـادة تكـريم للمـؤمنين الصالحين، إذ الشعور بالنعمة تكون أتـم عنـدما يجـد المجـزي أنـه كـان فـي حياتـه محفوفا بعناية ربه الذي يحسب له كل أعمالـه ويجزيـه عنهـا يـوم القيامـة، وأن حظـه في الجزاء مع الكرم الإلهي موفور.

ثانيا: الذين كفروا بربهم ولم يذعنوا لما مكنهم مـن الآيـات الظـاهرة فـي الكـون ومـن الهداية عن طريق رسله، جزاؤهم شراب يغلـي فـي بطـونهم. وقـد تقـدم نظيـره فـي الآية (70) من سورة الأنعام. ويصحب ذلكم الشراب عـذاب خاصـته: أنـه يـؤلم أشـد الألم وأقساه بما يشمل الألم النفسي والحسي . ذلـك جـزاؤهم بمـا اسـتمروا عليـه مـن الكفر كامل حياتهم.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۚ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الضياء : النور الساطع القوي.

المنازل : مواقع القمر التي يبدو فيها كل ليلة من كونه هلالا إلى المحاق.

لا يرجون : لا يتوقعون.

اطمأنوا بها : سكنت نفوسهم لها فلا تتطلب شيئا وراءها.

مأواهم : المأوى مكان الرجوع، المصير.

يهديهم : يخلق فيهم ميلا إلى الخير.

الدعوى : الدعاء.

بيان المعنى الإجمالي :

من تدبير الله لأمر الكون، أن خص الشـمس بجعلهـا ضـياء تنفـذ أشـعتها سـاطعة فـي الأرض وما حوته، مما يبعث علـى النشـاط، وجعـل القمـر ضـياء لا يـزعج الإنسـان عندما يميل إلى السكون. وقد سيره في منـازل ثابتـة لا تتغيـر بمضـي الآمـاد. وألهـم البشرية الاستفادة من هذا الضبط المحكم، فهـداهم بـذلك إلـى اسـتنباط معرفـة التـاريخ

في علاقاتهم. وتمكنوا من معرفة الحســاب بواسـطة هـذا المرجـع الـدقيق. وكـل ذلـك يدل على أن الله هو الخالق المحكم لما صنع. صـنعُهما ملتـبسٌ بـالحق الـذي لا يدخلـه الباطل ولا العبث. مما ينبه المتقين إلى ما أودع من آيات في هذا التسيير.

إن الكفرة الذين لا يتوقعون أن يعودوا إلـى ربهـم ليحاسـبهم، وجعلـوا كـل همهـم فـي الحياة الدنيا وقصروا نظرهم عليها فلا يبغون شـيئا وراءهـا، وأضـافوا إلـى ذلـك أنهـم غفلوا ولم يتأملوا في الآيات المثبتة للخلق، إن مصيرهم إلـى النـار جـزاء بمـا تواصـل منهم من عقيدة فاسدة وعمل خبيث.

وفي المقابل فإن الله يمن على المؤمنين الذين عملـوا بمـا يرضـى الله عنـه، فجعـل فـي عقولهم حبا للخير والعمل الصـالح، ينصـرفوا إليـه تلقائيـا. ويجـزيهم جنـات تتخللهـا الأنهار. جمعت كل ما يطمحون إليه، فلم يبـق لهـم إلا التـنعم بـدعاء ربهـم مسـبحين. يشيع السلام بينهم، ويختمون بالثناء على فضل ربّ العالمين وعلى جلاله.

بيان المعنى العام :

5-هو الذي جعل الشمس ضياء .....نفصل الآيات لقوم يعلمون.

لفت القرآن في الآية الثالثة من هذه السورة إلـى حقيقـة: هـي أن الله يـدبر الأمـر فـي هذا الكون الذي خلقه. وصرحت هذه الآية بمظـاهر التـدبير المحكـم فـي الكـون الـذي خلقه يتمثل ذلك في تقديره أن جعل الشمس ضياء، وجعـل القمـر نـورا، يتعاقبـان علـى الكون بدقة تامة. وهما ظاهرتان متكررتان على النـاس فـي تتـابع تكـاد رتابتـه تجعـل الإنسان غافلا عما في ذلك من دلالة على الخالق وعلى إحكامه.

ترتبط بضياء الشمس الحياة كلها من الحرارة المناسبة للتكوين والنشاط الإنساني، إلى ما تنتجه الأرض، إلى تعقيم المحيط من التلوث، إلى ما يرقبه العالم من الانتفاع بهذه الطاقة المتجددة النظيفة المنبعثة من الشمس. وتجد في المقابل القمر فيه ضياء متغير لا يزعج الإنسان فيحرمه الهدوء والراحة. وظاهرة أخرى، أن الله قدر سير القمر منتظما في منازل، يبدو كل ليلة من ليالي الشهر في منزلة ثم ينتقل منها إلى منزلة أخرى إلى أن يبلغ تمام مسيرته، ليعود للظهور من جديد، وبذلك يتم الشهر القمري. وتحل الشمس في بداية كل شهر من السنة في برج، تنبه لها الإنسان فوجدها لا تتغير، وعلم منها بداية السنة الشمسية ونهايتها والفصول وما يرتبط بها، وخاصة في النواحي الفلاحية. وكان لهذه الحركة في كوكبي الشمس والقمر تأثير على الفكر الإنساني وعلى الحضارة كلها، إذ ضبط بتلك الحركة حياته وعلاقاته في عقوده وفي نشاطه في الأرض، وضبط التاريخ الماضي والمستقبل. وكان ذلك ملهما له لضبط تقديره الذهني والمعرفي بالحساب.

هاتان الظاهرتان تمران بالإنسان في رتابة جعلته قد يغفــل عمــا فــي ذلــك مــن التــدبير والحكمة. ولذلك أيقظت الآية الإنســان ليتــدبر فــي الحكمــة الإلهيــة فــي الخلــق، وأن يتأمل ولا يمر في غفلته سادرا، وأن الباطــل والزيــف والمصــادفة لا مــدخل لهــا فــي هذا النظام. وبهذا اللفت فَصَّلَ وبَيَّنَ ما في ذلك مــن الآيــات الدالــة علــى أن كــل أمــر قدَّره تقديرا في سابق علمه، ونفَّذه على ما اقتضته تلكم الحكمــة، وهــو مــا يؤكــد الأمــر السابق: [فاعبدوه] وهذا التفصيل لا يستفيد منه إلا الــذين رفعــوا عــن بصــائرهم حجــاب الغفلة فساروا في الحياة متأملين في كل مظهر مــن مظاهرهــا، متعمقــين فــي الأســباب ومسببها؛ وبذلك يتجدد لهم العلم وينمو، ويتعمق الإيمان ويزكو.

6-إن في اختلاف الليل والنهار....لقوم يتقون.

يتعاقب الليل والنهار على الكون، ويتكرر ذلك كــل أربــع وعشــرين ســاعة فــي انتظــام لا يختل، الليل والنهار. ويمر الإنسان بهما غافلا عما فــي ذلــك مــن التقــدير والإحكــام البالغ الغاية. فأدق ساعة صنعها الإنسان وكانــت نتيجــة مجهــود علمــاء كبــار، وفنيــين مهرة، لا تنتظم بصــفة دائمــة بــل يلحقهــا التعطــل، وتفقــد الضــبط. والليــل والنهــار مضبوطان بأربع وعشرين ساعة لا ينقص أمدها ولا يزداد حتــى أقــل مــا يتصــور مــن أجزاء الثانية. ملايين السنين في الماضي والمســتقبل إلــى أن يقــدر الله زوالهمــا. وفــي ذلك آية من آيــات الخلــق الإلهــي والتصــرف الحكــيم. وبجانــب هــاتين الظــاهرتين مخلوقات لا يحصيها إلا خالقها سبحانه، تتأثر بالليــل والنهــار وتنفعــل بمــا يحــيط بهــا وتسير في طريقها المرسوم لها حســب السُّــنَن التــي أعطاهــا. عــرف الإنســان بعضًــا منها وما هو محجوب عنه كثير. وهو مُمَكَّن من ضــبط مــا أجراهــا عليــه خالقهــا مــن قوانين. والتقوى تجعل الإدراك لهــذه الآيــات يتعمــق بالشــعور الموصــول باستحضــار أن يد القدرة الإلهية تخلق وترتب وتنظم.

7←8: إن الذين لا يرجون لقاءنا....بما كانوا يكسبون.

صرحت الآية بالنتيجة التي تعقب موقف المعرضين عــن التــدبر فــي الآيــات المنتشــرة في كون الله القريبة من كل ناظر، والكامنة فــي أجزائــه. أبــرزتهم وقــد التصــقت بهــم خصائصهم التي دمروا بها أنفسهم وهي تشمل:

1)أنهم لا يتوقعون أن يعيــدهم الله بعــد مــوتهم ليلقــوا جــزاءهم عنــده، فهــم لــذلك لا يلتفتون إلى ما وراء الظواهر الكونية من تدبير حكيم، وخالق عظيم.

2) أنهم رضوا بالحياة الدنيا فكانت آخر هممهم ومنتهى غرضهم، فوقفوا نظرهم عليها، وحسبوا أنها البداية والنهاية. فسكنوا لها. وقصُر تفكيرهم وعملهم عما وراءها فلم يقرؤوا له

حسابا. إذا أصابتهم حسنة طاروا لها طربا، وإذا أصابتهم سيئة قادهم حزنهم إلى اليأس، إذ لا وراء حياتهم حياة أخرى. أرواحهم قاحلة فلا تتسامى إلى ما وراء المادة. ومن العجيب أنهم رغم انغماسهم في الحياة الدنيا وقَصْرِ تفكيرهم عليها هم غافلون عما فيها من آيات تنادي بوجود الخالق وبنعمه وفضله.

إنه إذ تحقق فيهم هذا الفساد، وساروا عليه إلى النهايـــة، فـــإن مصـــيرهم الـــذي يعـــودون إليه، هو النار جزاءً بما عملوا عن إرادة وإصرار.

9←10: إن الذين وعملوا الصالحات....أن الحمد لله رب العالمين.

في المقابل لأولئك الكفرة الغافلين، مَـــنَّ الله علـــى الـــذين آمنـــوا إيمانـــا صـــادقا وقرنـــوا إيمانهم بفعل الخير، مَنَّ عليهم بأن جعل ما كســـبوه مـــن صـــلاح فـــي العقيـــدة والعمـــل، يشعُّ في عقولهم بما يميل بهم إلى الطريـــق الســـليم فـــي عواقبـــه، حتـــى يـــبلغهم ربهـــم المتولي لأمرهم، بتلك الهدايـــة والإيمـــان إلـــى المصـــير الســـعيد. هـــو جنـــات تتخللهـــا الأنهار الجارية. وإذ يصل بهم النعيم إلى تحقيـــق كـــل طموحـــاتهم فـــلا يشـــعرون بـــأي حاجة يسألونها، لا يبقى لهم إلا أن يكرروا بألسنتهم المناجـــاة الروحيـــة التـــي هـــي أكمـــل أنواع الكرامة عندهم فيدعون ربهم: سبحانك يـــا الله. ويحيـــي بعضـــهم بعضـــا بالســـلام الذي ألفوه في حياتهم الدنيا. ويختمـــون لقـــاءاتهم بالتوجـــه إلـــى الله حامـــدين كمالاتـــه، مستشعرين الغبطة بما استقر في قلوبهم من كونه رب العالمين.

۞ وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ ۖ فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ ۙ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

بيان معنى الألفاظ :

استعجالهم : تعجلهم الشديد.

الأجل : المدة المقررة للبقاء.

العمه : الخبط في ضلال.

كشفنا : أزلنا.

مر: مضى في طريقه غير ملتفت إلى ما سبق منه.

الإسراف : الإكثار في شيء غير محمود.

الإهلاك: الإفناء.

القرون : جمع قرن القوم المقترنون في زمن واحد.

البينات : جمع بينة وهي الحجة الواضحة على الصدق.

لننظر : لنعلم علما يتطابق فيه العلم الأزلي بالعلم التنجيزي.

بيان المعنى الإجمالي :

أمهل الله الكافرين ولم يعاجلهم بالعقوبة، فصرحوا: (بأنه لو كان الإسلام من عند الله، ونحن قد كفرنا به) لعجل لنا العقوبة. فعدم تعجيل العقوبة دليل على أنه ليس من عند الله حسب زعمهم. كما أن المؤمنين استبطأوا إمهال الكافرين وعدم معاجلتهم بالاستئصال .فكان الجواب في الآية واضحا: إن الله قد رتب أمر الخليقة على نظام أحكمه في سابق علمه، ولم يبن أمر الحياة الدنيا على المبادلة السريعة، بل على ألطافه وفضله وإمهال المسرف للتوبة والرجوع إلى الحق. وهذا ما تشاهدونه، فلو كان الأمر على ما تتصورون لخرب الكون. ولكن حكمته تعالى اقتضت إمهال الذين لا يتوقعون البعث فتركهم يسيرون في طغيانهم متحيرين.

ومن شأن الإنسان أن يشعر بالحاجة إلى العون الإلهي بمجرد ما يمسه ضر بدني أو نفسي، فيدعو ربه سواء أكان الضر ثقيلا ألزمه الفراش، أو خفيفا بقي معه جالسا أو منتصبا قائما، فإذا لطف الله به وشفاه نسي ضعفه السابق. وعلى هذا النحو يزين الشيطان للكافرين أعمالهم.

والله قد استأصل شعوبا من قبلكم، بسبب ظلمهم، بلغتكم أخبارهم. وبعد أن أرسلت إليهم رسلي مؤيدين بالآيات البينات الواضحة على صدقهم، لم يؤمنوا. وعلى ذلكم النحو نجزي القوم الذين تأصل الإجرام في نفوسهم. وانتبهوا فقد مننّا عليكم بأن مكناكم فجعلناكم خلفاء لهم في الأراضي التي كانوا يعمرونها، وسنُقَوِّم ما تقومون به لتجزون عنه جزاء عادلا، لا يستوي فيه الخبيث والطيب.

بيان المعنى العام :

11 ولو يعجل الله للناس الشر...في طغيانهم يعمهون.

دعوة بينة ربطت الإنسان والكون بالله، نادى بها رسول الله ﷺ في فم الدنيا، وما تزال تتردد أصداؤها تسير مع الحق ويسير الحق.معها. ولو رفع البشر عن عقولهم الكبر والعناد، لما بقي فرد يعادي ذلكم النداء المستجيب للفطرة، الفاتح للبشرية

مناقذ الرقي والسلام. قابل المشركون تلكـم الـدعوة بـالرفض والتحـدي، وحجـبهم عـن الحق تصور ساذج: أنه لو كان الدين الإسـلامي حقـا مـن عنـد الله، وهـم قـد كفـروا به، لعجل الله عليهم عذابه واستأصلهم. كما جـاء فـي قولـه تعـالى :(**وإذ قـالوا اللهـم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ...)**[1].

كما أن المؤمنين لاحظوا أن كثيرا من الكـافرين ينعمـون متـرفهين فـي الحيـاة الـدنيا، سلمت لهم أبدانهم وذرياتهم وأموالهم، فاسـتبطأوا تـزول العـذاب علـيهم. فعرفـت هـذه الآية الفريقين بقانون الله في الكون: أن الله لم يبن الكون علـى تقابـل سـريع بـين الشـر والعذاب، وأن رحمته وألطافه هي الظاهرة الغالبـة فـي الكـون، وأن مـا سـبق لتصـور الفريقين مناقض لتدبير الله في الخلق. فسجل القـرآن، أنـه لـو يعجـل الله للنـاس الشـر الذي طلبوه تعجلهم الشديد لتحقيق الخير الكثيـر فـي تقـدير الله، لانتهـوا مـن الوجـود، أي بمجرد ما يرتكبون الشـر. ولكـن الله قـدر أن يبقـى الكـون والبشـر إلـى آجـالهم المقدَّرة لهم. وبناء على أنه لا يتحقق في الكون إلا ما قدرتـه فـي سـابق علمـي، فـإني أنا الله أبقي الذين لا يتوقعون أن يعودوا إلينـا لحسـابهم علـى مـا قـدموه، أبقـيهم فـي ضلالهم وكفرهم سادرين يتخبطون لا يتبينون طريقا ينجيهم.

12-وإذا مس الإنسان الضر دعانا....ما كانوا يعملون.

كشفت الآية عن طبيعة من طبائع الإنسـان إذا أطبـق عليـه الكفـر. إن الإنسـان الكـافر إذا مسه ضر مما يؤلمـه نفسـيا أو جسـديا، أسـرع بـدعاء الله ليتقـوى علـى الحـدث المؤلم، كيفما كان حاله عنـد نـزول الـبلاء، سـواء أكـان علـى جنبـه، أو جالسـا، أو منتصبا قائما. هذا ما فهمه معظم المفسرين .

والذي ترجح عندي أن قوله تعـالى: دعانـا لجنبـه يشـمل معنيـين: أحـدهما أن يكـون بمعنى قريبا منه، دعانا لنكون عنـده نمـده بـالعون والرعايـة والتلطيـف. وثانيهمـا أن يكون القصد منه وهو على جنبه الحالة التي هي إحدى حالات الإنسان الثلاث.

ثم إن هذا الإنسان الكافر، إذا تعلقت إرادتنا وقدرتنا بإزالة ما به من ضر، وعوفي بعد ما كان يشعر بالضعف، يتحول كأنه ما لقي ضرا ولا ألما، وكأنه ما كان محتاجا ضارعا. وعلى هذا النحو من التسلط الشيطاني على النفوس التي بعدت عن الاعتدال ومالت إلى الإسراف، يتسلط عليها بإضلالها وإغوائها وطمس الحقيقة عنها، فيفقدون سلم القيم، وينقلب القبيح حسنا تألفه نفوسهم، والحسن قبيحا تنفر منه .

[1] سورة الأنفال آية32

13- ولقد أهلكنا القرون من قبلكم ...نجزي القوم المجرمين.

سنة من سنن الله في تنكيلـه بـالقوم الظـالمين، تقـوم شـاهدا علـى مـا ذكرتـه الآيـة السابقة: (**ولو يعجل الله للناس....**) إذ من الأخبار التـي كانـت شـائعة عنـد المشـركين من أهل مكة: أن الله أهلك أمما في فتـرات سـابقة، تقـدمت فـي تـاريخ الإنسـانية، وأن استئصالهم وإفناءهم كان بسبب ظلمهم، والشرك ظلم عظـيم. ومـا سـلط علـيهم عقوبتـه إلا بعد أن بعث لهم رسلا من عنده، قـوّى جـانبهم ورفـع المعـاذير عـن قـومهم، بمـا أيدهم به من حجج واضحة بينة قامت شاهدة علـى صـدقهم. ومـع ذلـك كـابروا عنـادا ولم يؤمنوا، فكان استئصالهم جاريا على سـنن الله فـي إهـلاك القـوم المجـرمين. وفـي ذلك إنذار للمشركين أنه سيحل بهم من العذاب ما حل بالمكذبين الذين سبقوهم.

14-ثم جعلناكم خلائف ....كيف تعملون.

ثم بعد استئصال القوم المجرمين من الأمم التي أهلكـت فـي جزيـرة العـرب، مكنـاكم من أن تخلفوهم في ديارهم ومساكنهم، ليكون ما تقومون بـه مـن أعمـال مفضـيا بكـم إلى النتيجة العادلة. إن علمه سـبحانه لا يتغيـر، فمـن كـان مـنكم فاضـلا فـي علمـه الأزلي، وعمل صالحا إذ لا يقع إلا ما تقرر في علمه القـديم، يجـزى حسـب مـا قـدم من الخير كما هو في سابق علمه، ومن ضل ولم ينظر فـي مـآل القـوم الكـافرين مـن قبله، وسار على طريقهم الضال، فإنه يعاقب عقوبة عادلة.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَـٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَـٰٓؤُلَآءِ شُفَعَـٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾

بيان معنى الألفاظ :

بدله : غيره.

من تلقاء نفسي: من جهة نفسي.

أتبع : لا أتصرف فيه بأي تغيير.

التلاوة : قراءة المكتوب أو استعراض المحفوظ.

أدراكم : عرفكم.

أتنبؤون : أتعلمون .

بيان المعنى الإجمالي :

صورة من صور معاناة الرسول ﷺ من المشـركين الـذين لا يؤمنـون بالبعـث، إنهـم إذا يتلى عليهم القرآن، يكون ردهم ائت بقرآن آخر غيـر هـذا الـذي نسـمعه منـك، يقـص علينا مثل ما هو موجود في كتب الفرس، أو بدل مـا تواجهنـا بـه مـن إبطـال آلهتنـا، ومن إنذارنا سوء المصير. قل لهم إن القرآن الـذي أبلغكـم هدايتـه لـيس لـي أن أغيـر منه شيئا، فأنا لا أتصرف فيه وإنما أتابع ما أتلقـاه مـن وحـي ربـي. إنـي مستحضـر عظمة الخالق، فمن يكذب عليه ويعصيه لا يفلت مـن عقابـه العظـيم يـوم القيامـة. ثـم أضف إلى ذلك إن التصرف بيد الله، فلو شاء الله أن يحرمنـي وحيـه مـا تلـوت علـيكم القرآن، ولو شاء الله أن يحرمكم لحرمكم معارفه.

ثم إنكم قد عرفتموني أربعين سنة، فما كنـت أبـاري الفصـحاء، وتعلمـون أنـي أمـي لا علم لي بتفاصيل الماضين، ولا بحقائق الكون. وهـذا القـرآن أمـامكم معجـز فـي لفظـه وفي مضامينه، أليس لكم عقل يهديكم! إنه لا يوجد ظلم أسـوأ مـن ظلـم الـذين يكـذبون على الله، أو الـذين تصـلهم آياتـه البينـة فيرفضـونها، إن هـؤلاء مجرمـون. ومـآل المجرمين الخسارة الكاملة في الدنيا والآخرة.

إنه من فساد ملكاتهم، وسـوء تفكيـرهم أنهـم يعبـدون مـن دون الله أصـناما عـاجزة لا تضر ولا تنفع، تبعا لما أوهمهم به سدنتها أنهـا تشـفع لهـم يـوم القيامـة، فـلا يلحقهـم بشفاعتها عذاب. فاعترفوا بأن بيد الله أمـر الآخـرة وعبـدوا الأصـنام. إن أوهـامهم لا حقيقة لها ولا أصل، وعلم الله الذي يضبط كـل شـيء ضـبطا محكمـا، ولا يغيـب عـن علمه شيء في السماوات ولا في الأرض يشهد بأن مـا أثبتمـوه مـن شـفاعة آلهـتهم لا أصل له. تنزه ربنا وتعالى عن شركهم.

بيان المعنى العام :

15-وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات. ..عذاب يوم عظيم.

تعرض هذه الآية تلـدد المشـركين، ونمـاذج ممـا عانـاه النبـي ﷺ مـنهم. فكـانوا إذا عرض عليهم ما أوحى الله لـه مـن آيـات القـرآن البينـة الواضـحة، اللافتـة للعقـول

المحيية للأرواح، قال الكافرون الــذين لا يتوقعــون حيــاة أخــرى غيــر الحيــاة الــدنيا، وينكرون البعث، قالوا: إذا كنت ترغب أن نستمع إليك فائـت بقــرآن غيــر هــذا القــرآن الذي تتلوه على مسامعنا، تكون مضــامينه مغــايرة لــه، يُومِنُــونَ إلــى أن يكــون شــبيها بما يسمعونه من قصص الفرس وملاحمهم. أو بدل ما تقرع بــه أســماعنا مــن تــرك مــا نعبده ونقدسه، فتُثني عليهم. ومن تحذيرنا سوء المصــير بالبشــارة وفــتح الآمــال. وفــي كلامهم إنكار واضح لكون القرآن من عند الله.

كان الجواب قاطعا رافعا لتوهمهم الذي بنوا عليــه ســؤالهم. مضــمونه: إن هــذا القــرآن هو كلام الله وليس لي أي دخل فيه. فأنــا غيــر مخــول أن أتصــرف فيــه أي تصــرف. أتلقاه من ربي، وأبلغه كما أوحــي إلــي، دون أن أزيــد فيــه أو أنقــص منــه، أو أحــول لفظا من ألفاظه أو معنى من معانيه. فأنا متَّبِــع أمــين علــى مــا أوحــي إلــي. ارفعــوا عنكم هذه الأوهام، ذلك أني أخاف إن تجاوزت ما أنا مكلــف بــه مــن التبليــغ الصــادق، أن يسلط علي عذابه يوم القيامة الذي يكون عــذابُ الكَذَبَــةِ علــى الله فيــه عظيمــا يفــوق الوصف. إنه لايفلت الكاذب على الله من العقوبة.

16-قل لوشاء الله ما تلوته.....أفلا تعقلون.

أردفــت الآيــة حجــة أخــرى تــدفع شــبهات الكــافرين المعانــدين. مضــمونها: أن الله المتصرف في الكون هو الذي يسر لي المَقامَ الــذي انتخبنــي لــه، ومكننــي مــن تــلاوة آيات كتابه عليكم. ولو تعلقت إرادته ومشيئته أن لا أتلــو علــيكم هــذا القــرآن لاســتحال علي تلاوته، ولو تعلقت مشيئته بإبقائكم علــى ضــلالكم لمــا أوحــى إلــي مــا فــتح بــه العقول ولا عرفكم به (ولا أدراكم به) بل لمــا أرســلني وواصــلت حيــاتي علــى النحــو الذي تعرفونه مني طيلة عمري الذي أقمته بينكم وأنتم ترقبــونني. فمــا كنــت يومــا فــي الأربعين سنة التي قضيتها بيــنكم مــن المتبــارين فــي القــول والبيــان، ولا مــن دعــاة الإصلاح وعرض الدعوة إلى الله. ما لكــم لا تتــدبرون ولا تتــأملون بمــا يفــتح عقــولكم فتحا يوجب عليكم أن تصدقوني، لأن ما أيدني به كــلام معجــز، فــي مضــامينه الكاشــفة عن الحقائق التي لا تتأتى لرجل أمي، ومعجز في صــياغته، مــا كــان لــي ســابقة بهــذا المستوى قبل الوحي الذي تلقيته من ربي.

17- فمن أظلم ممن افترى على الله ...لا يفلح المجرمون.

يواصل القرآن الاحتجاج على المشــركين ودحــض شــبهاتهم بطــرق متنوعــة، تقمعهــم وتكشف أنهم ما رفضوا الإسلام إلا بنــاء علــى العنــاد . فــذكرتهم الآيــة فــي طالعتهــا بأنه لا يتصور أن يبلغ الظلم بالإنسان مبلغا يســاوي ظُلْــمَ مــن اختلــق مــن عنــده مــا

نسبه إلى الله كذبا وبهتانا. فالنبي ﷺ شاعر بمقـام ربـه مقـدر لعاقبـة ذلـك الظلـم، فـلا يتصور منه أن يقدم عليه وشعوره بالغ هذا الحد. وفـي المقابـل نلقـي علـى المشـركين عباءة هذا الظلم الفاحش بسبب أنهـم كـذبوا بالآيـات البينـة الواضـحة. وتخـتم الآيـة بالتهديد بأن هـؤلاء الظلمـة، بالشـرك والتكـذيب، هـم مجرمـون مـآلهم الخيبـة فـي الدارين.

18- ويعبدون من دون الله .....وتعالى عما يشركون.

ثـم إن القـرآن يشـهر بالمشـركين، ويكشـف فسـاد تفكيـرهم وعقيـدتهم، إذ أنهـم يعرضون عن عبادة الله خالق الكون، ويتقربون إلـى أصـنام لا تضـر ولا تنفـع، تمثـل العجز الكامل، متأولين بأنها تنفعهم عنـد الله وتشـفع لهـم. فمـا أشـد غبـاءهم يعبـدون الأصنام، ويعترفون بأنها وسائل تشفع لهم عند الله. فقـد اعترفـوا بـالله وأعرضـوا عـن عبادته.

إن هذه الأصنام لا تأثير ولا قيمة لها. ومن تطاولكم أيهـا الكـافرون علـى الحـق، أنكـم تريدون أن تعرفوا الله الذي لا يخفى عليـه شـيء فـي الأرض ولا فـي السـماء وأحـاط بكل شيء علما، تريدون أن تعرفوه بوجـود مـا لا وجـود لـه فـي السـماوات ولا فـي الأرض. تنزه ربنا وتعالى عن سفالة الشرك.

وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُواْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِيٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾

بيان معنى الألفاظ :

آية من ربه :علامة على صدقه حسبما يقترحونه.

الغيب : ما غاب عن الحواس . والمراد به الآيات المقترحة منهم.

أذاق : مكن من الإدراك.

الرحمة : نعمة.

المكر : الاستهزاء والطعن فيها لتوهين شأنها.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن أن الناس كــانوا موحــدين لا خــلاف بيــنهم فــي ذلــك. ثــم إن الشــياطين أغوتهم، والشهوات أضلتهم. ولو كان الله يؤاخذ الخارج عــن الإيمــان بمجــرد مــا يبــدر منه الكفر، لعجل العقوبة وأبان الحق ناصعا، فينتهــي التكليــف تبعــا لــذلك. ولكــن إرادة الله كانت غير ذلك.

ومن شغَبِ المشــركين أنهــم يقترحــون ملحــين، أن ينــزل الله علــى رســوله معجــزة تصدقه، على المقياس الذي يتصورونه. قل لهم إن ما ســيأتي بــه المســتقبل هــو غيــب، والغيب بيد الله يظهر منه ما يشاء حسب حكمتــه لا حســب مقترحــاتكم. فــانتظروا مــا سيأتي من عنده.

عجبٌ أمر البشر، فإذا أدركتهم نعمة من النعم بعد أن مســهم الضــر، قــابلوا الفــرج مــن الكرب بإنكار الفضل الإلهي وشككوا. هددهم القرآن بأن مــا يمكــرون بــه ومــا يقلبــون به الأوضاع، سينالون جزاءه من الله المالك الــذي ســينتقم مــنهم ويقلــب أوضــاعهم. ولا يَضيع شيء من مقاصدهم السيئة وأعمالهم الخبيثة، فــإن الله أوكــل بهــم ملائكتــه الــذين أرسلهم لإحصاء أعمالهم فلا يفلتون من العقاب.

بيان المعنى العام :

19-وما كان الناس إلا أمة واحدة ....فيما فيه يختلفون.

هذه الآية هي قرينة الآيــة "213" مــن ســورة البقــرة. وإن كــان لكــل واحــدة منهمــا خصائص تركيبية تتناسب مع مــا ســبق كلامهمــا، إلا أن المعنــى الأســاس لهمــا يكــاد يكون واحدا.

تؤكد الآية على أن الإسلام دين الفطرة، على معنــى أن العقــل البشــري إذا لــم ينحــرف بمعطيات دخيلة عليه، فإنه لا يكون إلا مؤمنا بــالله الواحــد الأحــد لا شــريك لــه. إذ أن الاستقامة في التفكير لا يمكن أن تصل إلا لهــذه النتيجــة الصــادقة. وقــد فصــلنا القــول في ذلك عند تفسيرنا للآية " 213" من ســورة البقــرة. وبنــاء علــى ذلــك فإنــه مضــى زمن من عمر البشرية وهم متفقون فــي التصــور: أن الله خــالق العــالم وأنــه متصــف بصفات الكمال. اهتدوا إلى ذلك فطريا ولم يحــدث بيــنهم خــلاف فيــه. ثــم حــدث بعــد ذلك أن تدخَّل الشيطان بوسوسته، والغرائــز بعنفهــا، والأنانيــة بطغيانهــا، ففرقــت بــين البشر، فمنهم من حماه الله فبقي مؤمنا، ومنهم مــن اتبــع هــواه وغــرَّه الشــيطان فكفــر. ويبعث الله تفضلا منه أنبياءه ليبينوا الحق وليقيموا الدين كلما انتشر الكفر.

وإنه من سنن الله في الخليقة أنه لا يعجِّـل نقمتــه فيستأصــل الكــافرين، ويظهــر الحــق منتصرا وحده في العالم. ولكنه سبحانه يمهلهم لينجو المهتدي، ويخسر المبطل.

20-و يقولون لولا أنزل عليه آية....من المنتظرين.

من الشغب المتتابع من المشركين ما تضمنته الآيـــة: أن المشـــركين اقترحـــوا نظيـــر مـــا تقدم في الآية "15" وفي غيرها مـــن ســـور القـــرآن، أن ينـــزل الله علـــى رســـوله دلـــيلا ماديا يشهد بصدقه حسبما اقترحوه. وبنوا على ذلـــك أنـــه إذا لـــم يـــأتهم بمقتـــرحهم فـــذلك دليل على عدم صـــدقه وأن الله لا يؤيـــده. وهـــو مـــن باطـــل أوهـــامهم إذ قـــدَّروا أن الله ينتظر ما يقترحونه فيسرع بتنفيذه ليلجئهم إلى الإيمان. بـــل إن مـــا تأيـــد بـــه رســـول الله كاف لهداية من تدبر ولم يعاند.

أمر الله رسوله أن يرد عليهم، بأن كل أمر لم يقع بعـــد فـــي الوجـــود، هـــو مـــن الغيـــب الذي يتصرف فيـــه الله وحـــده، فيتحقـــق فـــي الوجـــود إذا تعلقـــت الإرادة بـــإبرازه، ولا يظهر إذا أراد الله عدم حدوثه. وإني منتظـــر مـــا يـــأتي بـــه الله المتصـــرف وحـــده فـــي الكون حسب حكمته لا حسب رغبـــتكم ومقترحـــاتكم. وبمـــا أنكـــم لا تملكـــون أي تـــأثير على اختيارات الله فانتظروا، وليس لكم إلا الانتظـــار الـــذي يبقـــي علـــيكم فـــي حيـــرتكم. ففرق بين انتظار الرسول لما يأتيـــه مـــن ربـــه فيـــؤمن بـــه، وبـــين انتظـــارهم الـــذي لا يستجاب له فيســـتمرون علـــى ضـــلالهم، ولا يترقبـــون إلا شـــرا علـــيهم فـــي الحاضـــر والمعاد.

21- وإذا أذقنا الناس رحمة من بعد ضراء.....تمكرون.

هذه الآية تسجل على الكافرين وتوبخهم في آن واحد. ذلك أن الله يتفضل عليهم فيغدق عليهم نعمه، التي هي رحمته التي تعم العالمين، ويفرج كروبهم ويبدل ما يصيبهم من ضر إلى شفاء بعد السقم، وخصب بعد الجدب، وأمن بعد الخوف. فإذا أدركوا هذه النعم قابلوها بنكران أن تكون لله يد في ذلك، وإذا ذُكِّروا بها استهزأوا وهوَّنوا من شأنها. يقصدون من وراء ذلك أن لا يجعلوا لتلك النعم أثرا يؤكد الإيمان . تهددهم الآية بأن رسل الله يكتبون ما يمكرون به ويُحْصُونَهُ عليهم، ليسلط عليهم، عندما يريد، في سرعة خاطفة، ما ينتقم به منهم انتقاما لا يجدون له مردًّا.

هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا

أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغۡيُكُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۖ مَّتَـٰعَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا مَرۡجِعُكُمۡ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٣﴾

بيان معنى الألفاظ :

الفلك: السفينة.

الجري : السير السريع.

طيبة: ملائمة.

عاصفة : شديدة السرعة.

من كل مكان : من جميع جهات السفينة.

أحيط بهم : أهلكوا.

البغي : الاعتداء.

المتاع : ما ينتفع به الإنسان انتفاعا غير دائم.

بيان المعنى الإجمالي :

الله الذي بنى الكون على نظام مكن به الإنسان من التنقل في البر والبحر. ويعطي القرآن صورة لإبراز أن التصرف لله وحده: مسافرون في سفينة خرجت من المرفأ والبحر هادئ جميل، والريح مواتية تسير بهم في الاتجاه المناسب. وفي لحظة تكفهر السماء وتشتد الرياح عاصفة، وتعلو الأمواج من كل الجوانب، أشفقوا على أنفسهم وعلا الموج حتى إن كل واحدة ستطغى فتسحب السفينة إلى القاع. وابتهلوا إلى الله أن ينجيهم معترفين بتقصيرهم معلنين عزمهم على الطاعة والشكر له إذا هو أنجاهم.

ويتفضل الله عليهم فيبلغهم ساحل النجاة. فارتد المفسدون إلى ما كانوا عليه مشركين بالله، سادرين في التمتع بما تقدمه لهم الحياة، لا يحترمون قيمة ولا أمرا، ولا يقفون عن اقتحام منكر. إنه إذا قطع الإنسان صلته بالله ضل في سلوكه وظلم غير ملتزم بالحق. وما يحصل عليه لا يعدو ما يتمتع به الإنسان في الحياة الدنيا المتاع القصير، ثم يكون مصيره إلى الله فيكشف له ما كان عليه من ظلم.

بيان المعنى العام:

22-هو الذي يسيركم في البر والبحر....لنكونن من الشاكرين.

تضمنت الآية دليلا على تفرد الله بالتقدير في تقلبات الكون، وعجز الإنسان عن التأثير، ومقابلة المشركين نعمته بالكفران .

بُني العالم على قوانين لا دخل للإنسان فيهـا، رغـم أن حياتـه لا تنـتظم إلا بهـا، فتنقـل الإنسان في البر والبحر، ما كان ليتيسـر لـولا تلكـم القـوانين التـي بنـي عليهـا أمـر الخليقة. فلو كانت جاذبية الأرض أقوى مما هـي عليهـا لتسـمر الإنسـان فـي مكانـه، ولولا أن الماء يدفع الفلك إلـى السـطح لغرقـت السـفن وهـي علـى الشـاطئ قبـل أن تبحر. فالتسيير في البر والبحر هو بتقدير إلهي عجيب؛ اختص به ربنا سبحانه.

ثم إن القرآن اقتطع صورة من صور السـير فـي البحـر فعرضـها بمـا لابسـها مـن معطيات. جماعة ركبوا سفينة وسارت بهـم فـي بحـر هـادئ جميـل، رقـت نسـماته، وامتد فيه النظر إلى آفاق بعيدة، وتعكس صـفحته زرقـة السـماء، والمبحـرون فرحـون بما توفر لهم من حـظ. وفـي لحظـة تعصـف الـريح فتعلـو أمـواج البحـر، وتحـيط بالسفينة من كل جهاتها، ويخيل للراكبين أن كل موجـة سـتطغى علـى السـفينة لتأخـذها إلى قاع البحر. لا تسـأل عـن القلـوب وقـد اضـطربت، وعـن الخـوف وقـد اسـتبد بالنفوس، وعن الشعور بالضعف الذي عقبه الاستسلام إلى القدر.

إن الإنسان حتى من كان إيمانه واهيـا، يثـور فـي باطنـه شـعور بأنـه فـي سـاعات الحرج الكبرى لا ملاذ له إلا رحمـة إلهيـة تنقـذه مـن بـراثن الهـلاك. ولـذا توجـه راكبوها مؤمنهم وكافرهم إلى الله مبتهلين: أنه إن عطـف علـيهم فأنجـاهم مـن الكـرْب الذي هم فيه، فإنهم يقابلون نعمته بالشكران والثبات على الإيمان.

23- فلما أنجاهم إذا هم يبغون ...بما كنتم تعملون.

استجاب الله دعاءهم، ونجوْا من العاصفة، وبلغوا شـاطئ السـلامة. كـان مـن الواجـب عليهم أن يوفوا بعهـدهم، وأن يسـتقيموا فـي حيـاتهم، وأن يتـذكروا ضـعفهم وأن مـا يحسون به من قوة إن هو إلا خيال يتبدد عند مباشرة الواقـع بمـا يحملـه مـن مفاجـآت. ولكن طائفة منهم تنكرت لما عاهدت عليه، وأعلنـت فـي وقاحـة عـن ظلمهـا، وأعظـم ظلم هو الشرك بالله. فقوله تعالى(**إذا هم يبغـون**) لا يشـمل كـل ركـاب السـفينة وإنمـا ينسحب على المشركين منهم المواصـلين للشـرك. رجعـوا إلـى عبـادة آلهـتهم، ومـا تنطبع به قلوبهم تبعا لذلك من غلظة واستبداد.

يخاطبهم القرآن مهددا: إن استبدادهم وظلمهم يعود علـيهم بالوبـال فـي الـدنيا والآخـرة. إنهم إن استمتعوا بما يجنونه من ظلمهم، وبتحررهم مـن القـيم الخلقيـة وانغمسـوا فـي الرذيلة، وأشبعوا شهواتهم، فإن ذلك متاع وقتي فـي الحيـاة الـدنيا. هـم خاسـرون للـذة الشـعور بالسـمو، وخاسـرون لسـلامة أبـدانهم وملكـاتهم. والعجـب أن المسـتبدين لا يتعظون بما جرت عليه سنن الله فـي الكـون. إذ كـل مسـتبد ظـالم جبـار يتـوهم أنـه

أذكى ممن سبقه، وأن سنة الله لا تجري عليه. ويمهله الله لأجـل قـدَّره فـي علمـه حتـى إذا حل عليه، ذاب ما بناه كما يـذوب الجليـد تحـت وهـج الشـمس. ولعـذاب الآخـرة أخزى .وسوف يعرض عليه يوم القيامـة جميـع مـا كـان يعملـه مـن سـوء، وظلمـه وإفساده في الكون، ليكون ذلك مقدمة للعذاب الأكبر.

إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٥﴾ ۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ۖ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ كَأَنَّمَآ أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِمًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧﴾

بيان معنى الألفاظ :

الزخرف : ما يتزين به.

ازينت : ظهرت زينتها.

أمرنا: ما يسلطه من الجوائح كالريح الشديدة البرودة أو الحرارة(السموم).

حصيدا : تالفة . أصله الزرع المقطوع من منابته.

لم تغن : لم تعمَّر.

التفكر : التأمل المتعمق.

يدعو: يطلب بما حتّمَهُ من التكليف بالفعل أو بالترك.

دار **السلام**: الجنة.

يهدي : يمكن بألطافه من الاهتداء.

الحسنى : الجنة.

يرهق : يغشى.

قتر : لون فيه ظلمة وكآبة من البؤس والشقاء.

عاصم : مانع.

أغشيت : غُطِّيت.

بيان المعنى الإجمالي :

قرَّب الله للناس حقيقة الحياة الدنيا، بالمقارنة بينها وبـين مـا يحصـل فـي الأرض عقـب نزول الغيث، من جمال وخضرة وثمار. ومالكوهـا يتوقعـون إنتاجـا طيبـا وافـرا. ثـم يسلط عليها الجوائح الماحقة في لحظة لا يتوقعها أحـد، فـإذا الأرض جـرداء كـأن لـم تنبت نباتا ولا امتلأت أشجارها بثمار. وهكـذا الـدنيا بعـد أن تغـري النـاس بمباهجهـا يفنيها خالقها في لحظة لا يعلم أحد زمن وقوعها. وفي هـذا المثـل موعظـة لمـن يُعمـل فكره ويتأمل.

والله يدعو البشر جميعا لامتثال شرعه حتـى يـدخلوا الجنـة، ويجـود بألطافـه وعونـه فيمكن من أراد له الخير من اتباع طريق الهدى.

وعلى العكس، فإن الذين محضوا خيارتهم للشر والرذيلـة، فـإنهم يجـزون جـزاء يعـادل سيئاتهم، وتغشاهم ذلة اليائس الـذي لا يجـد مـن يمنعـه مـن عقـاب الله. تنظـر إلـى وجوههم مسودة، كأن قطعا من ظـلام الليـل متراكمـة عليهـا. هـم ملازمـون للنـار لا يخرجون منها أبدا.

بيان المعنى العام :

24-إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه....لقوم يتفكرون.

تشبيه يجسم مقربا حالة الحياة الدنيا في سـرعة زوالهـا بعـد البهجـة المغريـة بجمالهـا، بحال النبات الذي يكون خضرًا نضرًا في شبابه بعد نـزول الغيـث، ثـم ييـبس ويصـير حطاما.

تعلُّق البشر بالدنيا تعلقا كبيرا ذُهلوا معه عن التأمل فـي نعيمهـا، حتـى بلـغ بهـم الأمـر أن غفلوا عن سرعة زوال ما تغري بـه مـن نعـيم. تـبههم القـرآن بهـذا المثـل الـذي ضربه حتى لا تخدعهم مباهجها ولـذاتها. هـو مثـل ملحـوظ لا يسـتدعي قـدْح الفكـر لإدراكه، ولكن الكافرين يغفلون عنه. يقدِّر البـاري سـبحانه إنـزال المـاء مـن السـماء، فيسري في باطن الأرض ويختلط هذا الماء بمقومات النمـو المخزونـة فيهـا، لينفـذ إلـى عروق النبات، فيمتص كل نبات ما هو في حاجة إليه ممـا حملـه المـاء معـه. ويتنـوع إلى ما يتحول إلى قوت للناس، وإلـى مـا يتحـول إلـى قـوت للأنعـام. وتنظـر إلـى المزارع والأشجار فإذا هي تمـلأ العـين إعجابـا بجمالهـا: بسـاط مـزركش الألـوان، وأشجار تحمل من الغلال المختلفة الأشـكال والأحجـام والمنـاظر. وأصـحاب المـزارع يترقبون عطاء وافرا، ومضاعفة لثرواتهم، وتعظم آمـالهم كلمـا اقتـرب موعـد الحصـاد

للزروع والقطاف للثمار. وهي في هذه الحال كحال الحيـاة الـدنيا بمـا تغـري بـه مـن مباهج الحياة. تَعْرِضها على البشر فينعمون بهـا وتغـريهم لذائـذها لـيعظم تعلقهـم بهـا، وتنطلق آمالهم إلى المستقبل لا يتوقعون انقطاعا لما هم فيه من خير ونعيم.

ويتحول المشهد في لحظة لا يتوقعهـا أحـد ولا هـي محـددة بـزمن، تـأتي فـي الليـل والناس نيام، أو في وضح النهار والنـاس فـي يقظـة وجـد. فـي هـذه اللحظـة يفجـأ البشـرية نـوعٌ مـن أنـواع الجـوائح المهلكـة، التـي تـدمر كـل مـا كـان بهجـة للأنـــظار، ومحطا للآمال. تسحقه حتى كأنه مـا عمَّـر سـطح الأرض ولا كـان لـه وجود. وكذلك الحياة الدنيا، يأتيها فـي لحظـة غيـر متوقعـة ولا معروفـة مـا ينهيهـا، يستوي في ذلك الأفراد، والحياة الدنيا وما تحويه بصفة عامة وشاملة.

وعلى هذا النحو من البيان يعرض القـرآن بصـفة مفصـلة لا مجملـة، مـا يغيـب عـن الإنسان، فيوقظ من كان له فكر ليحركه، فتتبين لـه الحقـائق التـي كانـت خافيـة، فيجـد في اختلاطه بالقرآن نورا يكشف له ما استتر، ويقدم له الموعظة الحسنة.

25-والله يدعو إلى دار السلام....إلى صراط مستقيم.

هذا شأن من شؤون الخالق كشفت عنه الآية جمع بين أمرين:

أولهما: أن الله يدعو البشر المكلفين جميعا إلى اتبـاع طريـق الصـلاح بتطبيـق أوامـره واجتناب ما نهى عنه.

ثانيهما: أنه يختص بالمساعدة، من يشـاء علـى الاسـتجابة والقيـام فعـلا بمـا تضـمنته الدعوة العامة.

فالدعوة إلى الخير واجتناب الشر تشمل كل فـرد مـن النـاس، وبيـان طريـق الصـلاح وطريق الفساد قام عليه دليلان من الـوحي والعقـل. وأمـا الاهتـداء فِعْلـا فـذلك يحققـه فضل الله، بعون من يشاء فيشرح له قلبَهُ الخير، ويزيح عنه المعوقات.

26- للذين أحسنوا الحسنى وزيادة...هم فيها خالدون.

إن الذين تأملوا في آيات الله، وتفكروا فيها، ثم اهتدوا إلى فعل الخير فأحسنوا في نواياهم، وضبطوا أفعالهم على الوجه الذي هدت إليه الشريعة، وكانوا محسنين في سلوكهم وفي علاقاتهم بإخوانهم في الإنسانية، أعد الله الجنة جزاء لهم، ويكرمهم إكراما فوق ذلك. يحتمل أن الله يتجلى لهم فيشعرون أنهم في حضرته بدون حجاب، ولا توجد نعمة تفوق تلكم النعمة. ويحتمل أن تكون الزيادة شعورهم برضوان الله عليهم.

وحقق القرآن انشراح وجوههم وصفاءها، فـلا تعلوهـا كآبـة ولا ظلمـة، وميـزهم بأنـه ملكوا الجنة ملكا لا يزول أبدا.

27-والذين كسبوا السيئات جزا سيئة....هم فيها خالدون.

ذكر القرآن في المقابـل الـذين اختـاروا طريـق الضـلال، ومحضـوا نشـاطهم لفعـل السيئات، بترك المأمور به، وفعل المنهي عنـه، وتفضـيلهم المنكـرات علـى المعـروف. يظهر العدل الإلهي الذي لا يظلم أحدا في مقابلة ما كسبوا، فيجـازي كـل سـيئة بجـزاء يناسبها. ويشرح هذا التماثل بأن تغشاهم ذلة وصـغار، هـي الكآبـة التـي تراهـا علـى وجوه المكروبين في حال اليـأس. رؤوسـهم منكسـة وهـم فـي ذهـول، إذ لا يمـنعهم مانع من عذاب الله ومقته. ثم جسـمت الآيـة الهـوان البـادي علـى الوجـوه، بتشـبيه وجوههم، كأنها ألبست قطعا متراكمة من الليل الشـديد الظـلام، لـم ينفـذ لهـا أي نـور. والخاتمة أنهم يميزون بتملكهم لجهنم تملكا يصحبهم أبد الآبدين.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾

بيان معنى الألفاظ:

نحشرهم : نجمعهم.

مكانكم : قفوا حيث أنتم.

شركاؤكم : الأصنام التي كانوا يعبدونها.

زيلنا: فرقنا بينهم تفريقا قويا.

كفى: أجزأ وأغنى عن غيره.

تبلو : تختبر كل نفس ثمرة ما قدمت.

ضل عنهم : ضاع عنهم فلم يجدوه.

بيان المعنى الإجمالي :

يجمع الله البشر جميعـا يـوم القيامـة، ويجمـع مـع المشـركين الأصـنام التـي كـانوا يعبدونها. ويفرض علـى المشـركين وعلـى أصـنامهم أن لا يتحركـوا مـن أمكنـتهم، ويقطع الجامع الذي كان بينهمـا. ويواجـه الأصـنام بقـوة يخلقهـا الله فـيهم المشـركين بقولهم: ما كنتم تعبدوننا، ويشهد الله عالم كل شيء أننـا مـا رضـينا عبـادتكم لنـا، ومـا كنا عالمين بها. وفي هذا اليوم تعلم كل نفس حقيقة مـا قدمتـه مـن خيـر أو شـر ومـا

ستلقاه من الجزاء، وقد رجعوا إلى الله الذي هو مولاهم الحق، وضـــاع فـــلا أثـــر لـــه مـــا كانوا يعبدونه، مما كان كذبا مولدا من خيالاتهم.

بيان المعنى العام :

28←30:ويوم نحشرهم جميعا....على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون.

مشهد عظيم من مشاهد يوم القيامة فصلته الآيات الثلاث نتتبعه فيما يلي:

أولا: يوم القيامة يجمع الله البشر جميعا مـــن مـــواقعهم المختلفـــة، وتصـــوَّرْ البشـــر مـــن لدن آدم إلى يوم انتهاء الحياة على الأرض، وقد أقبل كل واحـــد مـــنهم مـــن مكانـــه الـــذي استودع فيه، ليتم جمعهم بقدرة الخالق العظيم.

ثانيا: ثم بعد اجتماعهم يصدر الأمر الذي يخضـــع لـــه كـــل المحشـــورين، يصـــدر الأمـــر للمشركين ولأصنامهم: أن يلزموا مكـــانهم ولا يتحركـــوا. ويشـــير الأمـــر بـــالتوقف عـــن الحركة، يشير إلى أنهم مسؤولون عن جريمة اشتركوا فيها.

ثالثا: تنفذ القدرة الإلهية فتفرق بـــين المشـــركين وأصـــنامهم تفرقـــة كاملـــة، فيظهـــر مـــن هنا أن الرابطة التي كانت تجمعهم في الدنيا قد تمزقت ولم يبق لها أثر.

رابعا: ينطق الله الأصنام التي ادعـــى الكـــافرون أنهـــم شـــركاء لله، فيواجهـــون عابـــديهم المحشورين في صعيد واحد معهم بقولهم قولا صـــريحا: مـــا كنـــتم تعبـــدوننا فـــي الـــدنيا. وهذا التبرؤ الكامل منهم يوضحه ما يرد بعد. إذ الواقع أنهم كانوا يعبدونهم.

خامسا: لا يقصدون من نفـــي عبـــادتهم نفيهـــا أصـــلا، فـــإنهم عبـــدوهم وتقربـــوا إلـــيهم وذبحوا لهم القرابين، وادعوا أنهم يشفعون لهـــم عنـــد الله. ولـــذلك أكـــدوا نفـــي العبـــادة بالقسم عليها وقالوا: كفانا دليلا على ذلـــك أنـــا نشـــهد الله العلـــيم بكـــل مـــا يجـــري فـــي الكون كبيره وصغيره، أنا ما كنا راضـــين عـــن عبـــادتكم لنـــا، ولا أمرنـــاكم بـــذلك، ولا كنا شاعرين بأنكم تتوجهون إلينـــا بالعبـــادة. فـــأنتم تتحملـــون وزركـــم وجـــراءتكم علـــى الله.

سادسا: في هذا المشهد تنكشف لكل نفـــس انكشـــافا تامـــا مـــا قدمتـــه فـــي الـــدنيا، كأنهـــا تختبره فيصل بها الاختبار إلى إدراك يقيني لنتائج مـــا قدمتـــه فـــي الـــدنيا، ينكشـــف لهـــا الخير الذي هديت إليه، أو الشر الذي اقتحمته، وآثار ذلك من الكرامة أو المهانة.

سابعا: ينطق المشهد معلنا الحقيقة التي كـــانوا يجحـــدونها فـــي الـــدنيا ويكـــابرون فيهـــا: لقد رجعوا إلى الله متولي أمـــورهم وهـــو الحـــق، لا الزائـــف الـــذي تولـــد مـــن خيـــالهم الباطل. وذهبت ضياعا كل أكاذيبهم وصدع الحق وخابوا فواجهوا جزاءهم.

قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُوٓاْ أَنَّهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٣٣﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٣٤﴾ قُلۡ هَلۡ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهۡدِي لِلۡحَقِّۗ أَفَمَن يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهۡدَىٰۖ فَمَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

فسقوا : خرجوا عن طريق الهدى والحق.

تؤفكون : تصرفون عن الحق في الاعتقاد إلى الباطل .

يهدي : يبين طرق الصواب ويدعو إلى العدل.

لا يتبعون إلا الظن : اقتصروا على الأخذ بالظن الواهي الذي لا أساس له.

الحق : الثابت، وهو معرفة الله.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه أسئلة ملجئة لكل من انصرف عن الاعتقاد في الله، تبرز تفرده بخصائص الألوهية، وعجزَ كل ما تصوره البشر من القوى التي عبدوها.

السؤال الأول: يلفت فيه القرآن النظر إلى أن الرزق الذي يأتي من السماء أو من الأرض هو من فضل الله، ولا أحد غيره يمكن الإنسان من رزقه. وكذلك حواس الإنسان هي ملكه سبحانه. وهو الذي يخرج الحي من الميت، والميت من الحي بقدرة عجيبة. ومن يرعى أمر العوالم فيسيِّرُها على نظامها المحكم؟ لا أحد غيره. ألْقِ عليهم هذه الأسئلة فإنهم لا يجدون إلا جوابا واحدا: الله فاعل كل ذلك. فقل لهم إذن ما لكم لا تتّقون ربكم وتدعون أن له شركاء.

ذلكم هو الله الحق الذي خلقكم وأحاطكم بألطافه؛ وهو الحق وحده، وإذا ثبت أنه هو الحق فكل تصور لرب سواه باطل، فإلى أي جهة تتجهون ولا تكون إلا ضياعا؟

ومن سنن الله أن الإنسان إذا أَلِفَ ارتكاب المعاصي فإنه يحجب قلبه عن الإيمان.

قل لهم يا محمد: هل يمكن لأحد من شركائكم أن يخلــق الكــون ثــم يعيــده بعــد فنائـــه؟ ولا جــواب لهــم. فعـــاجلهم بـــالجواب الصـــحيح الواحـــد: إن الله هـــو المتفـــرد بالبـــدء والإعادة، فإلى أي جهة تتصرفون عن الحق فتتيهون في الباطل.

أقِم عليهم الحجة وأسألهم، هل لأي واحد من شركائهم التمكّن من هداية غيره ليسمو به إلى إدراك الحق والتزامه، وعجّل إليهم الجواب. هم أصنام لا يعقلون، والله هو المتفرد بالهداية. وعجب كيف يعرضون عن اتباع المتفرد بالهداية ويتبعون من لا يملك اهتداء، إلا أن ينقل من مكان إلى مكان آخر، ما كان يدري مقدما إلى أين يسير.

عجب لكم كيف تحكمون بهواكم، على ما هو صحيح عقديا وما هو فاسد.

ولكن أكثرهم إنما يعتمدون علـــى ظنـــون لا أســـاس لهـــا، والـــبعض الآخـــر وإن عـــرف ضلاله إلا أنه لم يرفضه تغليبا لحظوظ ماديـــة عاجلـــة. والظـــن الزائـــف لا يقـــوم بـــديلا عن الحق الثابت. وسيجزون يوم القيامة جزاء عادلا تابعا لما علمه الله منهم.

بيان المعنى العام :

31- قل من يرزقكم من السماء والأرض ...أفلا تتقون.

يثير القرآن العقل الإنساني للتأمل فيما حولـــه. فيعـــرض فـــي هـــذه الآيـــة ومـــا يتلوهـــا توجيه الرسول الله ﷺ لإثارة أسئلة متلاحقة للمشـــركين. ممـــا يجـــري حـــولهم، بـــل فـــي ذواتهم وهم يقفون عند ظواهرها ولا يتعمقون فيما وراء ذلك.

السؤال الأول: من يرزقكم من السماء والأرض؟

الرزق النازل من السماء ينال كل إنسان حظه منه، ويغفل معظم البشر عن أهميته، فلنتأمل فيه قليلا ليبدو لنا عظمته. ولنقف أولا أمام كوكب الشمس، والأرض واحدة من المجموعة الشمسية، نجد أن النبات ما كان لينمو لولا الشمس ولولاها لتجمد كل شيء على سطح الأرض، ومنها تستمد الطبقة الظاهرة منها القوة المتجددة، وتقوم الأشجار بالتفاعل مع أشعتها بتصفية الهواء، وتتبخر مياه البحار بواسطة حرارتها لتتكون منها السحب وتنزل الأمطار، وهي خزان لا يحد من الطاقة، تنتظر من الإنسان أن يسمو في معارفه ليستمد منها ما هو في حاجة إليه من الطاقة النظيفة. وبضيائها عرف الإنسان الكون وما يحويه من إنسان وحيوان وجماد، ولكل فرد حظه من نعمة الشمس، ولا يمكن له أن يحيا على وجه الأرض بدون رزقه وأخذ حظه من الشمس.

و من السماء تنزل الأمطار التي تقوم عليهـــا الحيـــاة، وبـــدونها تكـــون الأرض قاحلـــة لا تنبت زرعا ولا ثمارا ولا كلأ، ولا تعيش ماشـــية ولا حيـــوان. وكـــل فـــرد ينالـــه رزقـــه المقدر له من السماء.

و تفاعلُ الأرض مع السماء، كما أشرنا إليه قريبا، مقـومٌ حيـاة كـل إنسـان فـي قوتـه وسكنه ولباسه، وكل ما يساعده على الاستخلاف في الأرض.

السؤال الثاني: أم من يملك السمع والأبصار؟

ينتقل القرآن من العالم الخارجي إلى الإنسـان ذاتـه، فينصـب السـؤال علـى الحـواس الظاهرة التي يظن الإنسان أنـه ينفـرد بملكهـا، ويخـص منهـا السـمع والبصـر لقـوة ظهورهما. والحاستان لا يملكهما إلا الله، فهـو الـذي يوجـدهما ويحفظهمـا إلـى الأمـد الذي قدَّره. ومن يحرمه السمع يولد أصم، ومن يحرمه البصـر يولـد أعمـى. بـل أبلـغ من هذا فكثيرا ما يصطدم شخص بغيره أو يسقط في حفـرة أمامـه، ويخبـر عـن نفسـه أنه لم ير ذلك مع سلامة بصره وتـوفر الضـياء. وكـذلك كثيـرا مـا تختـرق تموجـات الهواء المحيط، وبعض الحاضرين لا يسمع الصوت رغم عنفه، فإذا نبه أدرك.

السؤال الثالث: من يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ؟

الظاهرة المحيرة التي تفعل فـي كـل إنسـان وحيـوان ونبـات، هـي ظـاهرة المـوت والحياة، تتعاقبان عليها جميعا. يطعم الإنسان ممـا تنبتـه الأرض ومـن اللحـوم والألبـان بعد طهيها، فتدخل في جهازه الهضمي ولا حياة فيها، فينمـو بهـا، وتـدخل فـي تركيـب كل خلية من خلاياه فيتوالد من كل نوع منها خلايـا حيـة. ثـم يفـرز مـا لا حيـاة فيـه من الإفرازات والخلايا الميتة، وفـي كـل لحظـة مـن لحظـات حياتنـا يجـري علينـا الموت والحياة فتموت خلايا وتنشأ أخرى إلى الأجل المقدر.

السؤال الرابع : من يدبر الأمر ؟

يَسير الكون على نظام دقيق محكم. فـي مكوِّناتـه العظمـى كالكواكـب، وفـي جزئياتـه الصغرى التي لا ترى إلا بالمجاهر الإلكترونية، فمن يدبر أمـر هـذا الكـون فـلا يحيـد عن مساره لحظة ؟

اسألهم يا محمد عن هذه الظـواهر الأربعـة، وألجـئهم إلـى الجـواب عنهـا. إنهـم لا يملكون إلا أن يقولـوا هـي مـن خلـق الله. ثـم عقَّـب تلـك الأسـئلة بسـؤال تعجـب واستغراب، إنه إذا كانت لا مندوحة لكم عـن الاعتـراف بـأن الله هـو الـذي يـرزقكم من السماء والأرض، وهو المتصرف في أنفسكم، وفـي المـوت والحيـاة، وهـو المـدبر للكون كله، فما لكم لا تتقونه بتنزيهه عن الشرك !

والعلمانيون في عصرنا يجيبون هـي الطبيعـة، ولـو سـألتهم مـا هـي هـذه الطبيعـة المختارة الفاعلة التي تنتظم العالم كلّه، وتعجـز عقـولكم وعقـول البشـرية جميعـا مـن أول تاريخها إلى الآن أن تجيب عن تلكم الأسئلة؟ يرددون الطبيعة ببغائيا.

32- فذلكم الله ربكم ....فأنى تصرفون.

ذلكم الجامع للقدرة التي لا تحد، المتصرف التصــرف الحكـيم العــام، الــذي لا يســتغني عنه أحد منكم، هو الله، هو الذي تــولاكم فأنشــأكم ويســر لكــم أســباب النمــو والحفــظ حتى بلغتم ما بلغتم وما يزال يحيطكم بعنايته (ربكــم) وهــو ربكــم الحــق لا مــا تقيمــه أخيلتكم من آلهة زائفة وباطلة. ويتقابــل حســب القســمة العقليــة الحاصــرة، إمــا الحــق وإما الضلال، فثبوت أن الله هو الرب الحق، فيكــون كــل إلــه عبــد مــن دونــه بــاطلا. ويتبع ذلك أن الحق لما كان واحــدا، فمــن انصــرف عــن طريــق الحــق لا يكــون إلا ضالا. ذلك أن الحق واحد، والباطل متعدد. فمن كــان مــثلا فــي مفتــرق طــرق قاصــدا جهة معينة، فالطريق السالك به إلى قصده واحــد، وكــل الطــرق الأخــرى تشــترك فــي أنها ضلال كلما أوغل فيها السائر ازداد بعدا عن القصد.

33-كذلك حقت كلمة ربك ....أنهم لا يؤمنون.

هذه سنة من سنن الله في مآل البشر المرتبط باســتمرارهم علــى الخــروج عــن الطاعــة وإيثارهم هواهم. يتأكــد لكــم بالمشــاهدة ومتابعــة أحــوال المجــرمين، أن الــذين ألفــوا المعاصــي، والخــروج عــن حــدود الله، أن قلــوبهم تحجــب بالمعاصــي، ومــا تــزال المعاصي تتراكم على بصائرهم وعقــولهم حتــى يضــرب بينهــا وبــين أنــوار الهدايــة بحجاب صفيق، تنفصل به انفصالا كاملا عن الحق، فــلا ينفــذ مــن الإيمــان أي شــعاع من نور إلى قلوبهم. وهذه سنة الله التي لا تتبــدل ولا تتغيــر: فــي إتّبــاعِ الإقامــة علــى المعاصي بالصرف الكامل عن الإيمان.

34-قل هل من شركائكم من يبدأ ...فأنى تؤفكون.

يواصل القرآن تلقــين النبــي ﷺ بــالحجج الملجئــة للمشــركين إلــى الاعتــراف بفســاد عقيدتهم، وإبراز تناقضهم. فيؤمر أن يسألهم سؤال إنكار مــع تقريــر، هــل يوجــد واحــد من شركائكم الذين تعبدونهم وتعتمدون عليهم، من يــدعي أنــه بــدأ خلــق الكــون، وأنــه سيعيده بعد فنائه إلى ما كان عليه ؟وهذا سؤال ليس لــه إلا جــواب واحــد، فلــذا عــاجلهم بالجواب: وهو أنه لا أحد منهم يــدعي هــذه القــدرة، وإنمــا هــي لله وحــده. ويعــاجلهم بالاستغراب والإنكار: إلى أي جهة تتصرفون فإنكم تنغمسون في الباطل.

35-قل هل من شركائكم من يهدي ...فما لكم كيف تحكمون.

يتابع القرآن الاحتجاج على المشركين، وكشــف قصــر نظــرهم، فيوجــه النبــي ﷺ إلــى تبكيتهم بسؤالهم: هل يوجد واحد من الشركاء الذين تعبــدونهم، لــه قــدرة علــى تــوجيهكم إلى طريق الصلاح والخير ؟ فبعد أن أثبــت عجــز شــركائهم عــن التصــرف بالإيجــاد

والخلق المادي لأي شيء في الكون، أعقبه بعجزهم عما هــو أعلـــى منزلـــة وأكمــل فـــي العلم والحكمة، وهو التفضل بهداية البشــر إلـــى طريـــق الهـــدى والصـــلاح، الـــذي بـــه يتمكن الإنسان من احتلال المكانة التـــي تليـــق بـــه مـــن الخلافـــة فـــي الأرض. ويتـــولى القرآن الجواب لأنه لا جواب غيره، فيثبت هـــذا الفضـــل لله وحـــده وينفيـــه نفيـــا قاطعـــا عن الشركاء.

ثم يرتب على هذه الحقيقة، أن ما يجب على العقـــلاء أن يتمســـكوا بـــه هـــو عبـــادة مـــن يهديهم إلى الحق وطاعته فيسمو بمداركهم، ويهـــذب أرواحهـــم. وهـــو وحـــده العلـــيم بمـــا يصلح أمرهم في العاجل والمآل.

أما الأصنام فإنها لا عقل لها تهتدي به، وليس لها جانـــب روحـــاني تســـمو بـــه عـــن دَرَكِ المادة. وغاية ما يتحقق لها أن يأخذها المتحكم فيها فينقلها مـــن مكـــان إلـــى مكـــان آخـــر، (إلا أن يهدى) وذلك الدرك السافل من العجز والبعد عن الهداية الروحانية.

ويتبع هذا البيان بالتعجب من مســـتواهم الفكـــري والعقـــدي، مـــالكم ؟ أي شـــيء تملكونـــه من العقل حتى تنحـــدروا لهـــذا المســـتوى الســـافل مـــن التفكيـــر الـــذي هـــداكم لعبـــادة الأصنام! ثم أضاف إلى ذلك التعجب تعجبـــا آخـــر يؤكـــده، كيـــف تصـــدرون الأحكـــام التي تقتنعون بها، مع وضوح عجز وتبعية الذين اتخذتموهم آلهة.

36-وما يتبع أكثرهم إلا ظنا...عليم بما يفعلون.

و بعد أن أبرز التعجب من ضلالهم، أبان سبب ذلـــك، أن أكثـــرهم إنمـــا يعتمـــدون علـــى أوهام لا أساس لها وخيالات لا تمت إلـــى الواقـــع والحـــق بســـبب. وأثبـــت القـــرآن هـــذا السلوك لأكثرهم، على طريقة القرآن في الإنصاف والضـــبط فـــي تســـجيل الواقـــع، فـــإن بعض المشركين متميزون بعقول راجحة وذكاء وفطنـــة، لكـــنهم عبـــدوا الأصـــنام لا عـــن اعتقاد بألوهيتها، ولكن حرصا منهم على استبقاء مكـــانتهم فـــي القيـــادة والزعامـــة. وفـــي ذلك إيقاظ للأتباع حتى لا يواصلوا الاغترار بهم.

وتختم الآية بقاعدة في التفكير: إن الظن الذي يســـتند إلـــى الأوهـــام والخيـــالات لا يكـــون بديلا عن الحق وعوضا عنه لا في قليل ولا في كثير.

ويهددهم القرآن بأن الله عليم بمن أشـــرك عـــن عمايـــة وتقليـــد، ومـــن أشـــرك لحظـــوظ مادية وزعامة، تغليبا لذلك على إظهار الحـــق والإيمـــان بـــه. والله يجـــزي كـــل واحـــد منهم جزاء عادلا حسب ما أحاط به علمه سبحانه.

وَمَا كَانَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ
مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ
يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ
عَـٰقِبَةُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُم مَّن يُؤْمِنُ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن لَّا يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ۖ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ
وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤١﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا۟
لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٢﴾ وَمِنْهُم مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ ۚ أَفَأَنتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَلَوْ كَانُوا۟ لَا
يُبْصِرُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

الافتراء : الكذب.

بين يديه : الكتب التي نزلت قبله.

التفصيل : التبيين بمختلف أنواعه.

لم يحيطوا بعلمه : لم يعلموه علما دقيقا.

التأويل : يطلق ويراد منه تفسير المعنى، ويطلق على اتضاح ما خفي من المعاني البعيدة أو الإشارة.

أنا بريء : لا تبعة علي، ولا مؤاخذة.

بيان المعنى الإجمالي:

إن هذا القرآن المعجز في نصه وفي مضمونه، لا يمكن أن يصدر عن بشر، فيكذب مدعيا أنه من إنشائه وينفيه عن الله. ولكن هذا القرآن متصل بالكتب السابقة، يصدق ما فيها من حقائق ويحقق البشارة التي وردت فيها بمجيء محمد ﷺ ويبقي ما الحقّ إبقاؤه وينسخ ما الحقّ نسخه. لا شك في أنه من عند الله.

إن الكفرة يقولون: إن محمدا افترى القرآن. قل لهم: إذا كان هذا الكتاب من طوق البشر فأتوا بسورة تساوي سورة من سوره، واستعينوا بمن شئتم من الفصحاء والأذكياء، ولكنكم عاجزون فأنتم كاذبون فيما تدعون .

هم رفضوا قبول القرآن قبل أن يتجمع لديهم ما يمكنهم من علـم مـا جـاء فيـه، وكـذبوه قبل أن يتابعوا ما نزل في شرحه والكشف عن فلسـفته، شـأنهم فـي ذلـك شـأن الـذين كذبوا من الأمم السابقة؛ فانظر حقيقة مآلهم بسبب ظلمهم.

ومن هؤلاء الكفرة من وصل في باطنـه إلـى الاقتنـاع بـالقرآن، ولكـن العنـاد حرمـه اتباعه. ومنهم من أعرض عنـه مـن البدايـة. وكلاهمـا مفسـد فـي عقيدتـه وسـلوكه، وربك لا يخفى عليه شيء من فسادهم وسيجازيهم بما قدموا.

وإن واصلوا تكذيبك فقل لهم: إني ماض في سبيلي سـألقى جـزاء مـا عملتـه، وسـتلقون جزاء عملكم. وأنا غير مؤاخذ بما تعملونه مـن شـر، وأنـتم لا تحصـلون علـى شـيء مما أعمل من خير.

ثم إن الكفرة يستمعون إلى ما تبلغهم إياه من الـوحي، ولكـنهم لعنـادهم لـم ينتفعـوا بـه شأنهم شأن من كان أصم لا يسمع، ومـع ذلـك فقـد العقـل فـلا تنفـتح ملكاتـه ليـدرك بنباهته ما تقوله له. ومنهم من ينظر في مسـيرتك فـي الحيـاة البالغـة درجـة الكمـال، ولكنه لم يحس بشيء فهو قد جمع بين عمى البصر وعمى البصيرة.

وسيجازيهم الله بما قدموا، وهو ما يؤكد أن الله لا يظلمهـم، ولكـنهم هـم الـذين ظلمـوا أنفسهم إذ أغلقوا عقولهم وحواسهم وقـدموا شـهواتهم، فخسـروا الطمأنينـة فـي الـدنيا والعاقبة الحسنة يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

37-وما كان هذا القرآن أن يفترى...لاريب فيه من رب العالمين.

يواصل القرآن الرد على المشركين المشككين في القرآن. وقد تضمنت الآيات السابقة في هذه السورة تفنيد مزاعمهم، والكشف عن الشبهات التي أضلتهم وحرمتهم توجيه العقل إلى طريق الهدى. وجاءت هذه الآية مؤكدة لتلكم المضامين بطريقة جديدة. فأثبتت مستحضرة القرآن أمام الناظر بالإشارة إليه (هذا) أنه إذا تأمل فيه المتأمل وتعمق فيما تضمنه، وتتبع أحكامه وآدابه، وما قصَّه من أخبار الماضين وما أدمج فيها من حكم وعبر، وما تأسَّس به من منهج فكري متكامل، وطريقة صياغة ذلك كله صياغة تميزت بأنها معجزة :

أولا: بأن جعلته صادقا في زمن نزوله حسـب المسـتوى الـذهني للبشـر وقـت نزولـه، وصادقا كلما تقدمت المعرفة الإنسانية ليتجدد الفهم تبعا لذلك.

وثانيا: من حيث المستوى التعبيري السـامي إلـى مرتبـة معجـزة، لا يسـتطيع أحـد لا في زمن الوحي ولا فيما تلاه من أزمان أن يـأتي بكـلام يسـاويه أو يدانيـه فـي الدقـة والفصاحة والجمال.

إن ما جمعه القرآن يقوم شاهدا من ذاته، علـــى أنـــه منـــزل مـــن عنـــد الله، ولا يعقـــل أن يؤلفه أحد سواه، أو أن يدعي كاذب أنه كلام أحد غير الله .

وإذ انتفى أن يكون مفترى من دون الله فما هو إذن هذا الكتاب؟

هو أولا: يصدق الكتب السابقة التي أوحى الله بهـــا إلـــى رسلـــه، فيثبـــت مـــا هـــو حـــق منها، وينفي ما أضـــافه النـــاس مـــن أساطير، ومـــا حرفـــوا مـــن أحكامـــه أو عقائـــده. ويصدق ما أخبرت به من البشارة به، ويُنبّهُ الأتباع على وجوب الإيمان به.

وثانيا: هو يفصل ما تضمنته الكتب الســـابقة تفصـــيلا يثبـــت مـــا أراد الله بقـــاءه، ونســـخ ما أراد الله نسخه، ويبين ما أجمل فيها، ويهدي للفهـــم الســـليم فيمـــا كـــان متشـــابها فيهـــا. كما قال تعالى: (**وأنزلنا إليك الكتـــاب بـــالحق مصـــدقا لمـــا بـــين يديـــه مـــن الكتـــاب ومهيمنا عليه**)[1] -

وإذ وضحت طبيعة هذا الكتاب وخصائصه، فالنتيجـــة الحتميـــة لـــذلك أنـــه لاشـــك فـــي أنه منزل من عند الله رب العالمين، القادر على كـــل شـــيء، لا يرتـــاب فـــي ذلـــك مـــن كان سليم العقل والإدراك.

38- أم يقولون افتراه .....إن كنتم صادقين.

ارتقى القرآن في إبطال ما يدعيه الكافرون .وكانت طريقته في ذلك:

أولا: أن كشف عن دعواهم الباطلـــة دالا علـــى انتفـــاء أن يكـــون لهـــا أي نصـــيب مـــن الواقع، متعجبا من مستواهم الفكري الذي انحـــط بهـــم إلـــى ادعـــاء أن النبـــيﷺ افتـــراه من عنده ناسبا له إلى الله.

وثانيا: بتحدّيهم أن يأتوا بسورة مثـــل ســـور القـــرآن، وأن يتأيـــدوا بمـــن شـــاؤوا لتحقيـــق ذلك، ولهم أن يســـتعينوا بالبلغـــاء والفصـــحاء، والأذكيـــاء والحكمـــاء مـــن كـــل القبائـــل والمقدمين في البيان، ليأتوا بسورة تســـاوي نظمـــه ومحتـــواه، إن كـــانوا صـــادقين فيمـــا زعموه أنه مفترى. فعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله يقـــوم حجـــة مفحمـــة علـــى أنـــه من عند الله لا دخل لمحمد فيه، وهو معجزته المثبتة لصدقه.

39 -بل كذبوا بما لم يحيطوا...عاقبة الظالمين.

ترقت الآية مشنّعة على الكافرين، بالكشف عن جهلهم وعجلتهم وتنظيرهم.

أولا: بادروا بالتكذيب دون تبين وإعمال نظر، وتعمـــق فيمـــا جـــاءهم بـــه رســـول الله ﷺ، فإن ما أنزل عليه يتضمن صلاح الدنيا والآخـــرة، ويقتضـــي تغييـــر ســـلم القـــيم الـــذي

---

[1] سورة المائدة آية 48

كان قدرا مشتركا بينهم إلى سلم قيم جديد تبني الحيـــاة عليـــه. وهـــذا أمـــر لـــيس بســـيطا، ولكنهم لعنادهم بادروا بالتكذيب قبل أن يعلموا بدقة مضامين القرآن.

ثانيا: استعجلوا فلم ينتظروا ما يرد من بيـــان لمتشـــابهه، وكشـــف عـــن الأغـــوار البعيـــدة لفلسفته، وتوضيح لما أشكل عليهم فهمه.

ثالثا: هم بهاتين الصفتين كغيرهم من الأمم الســـابقة الـــذين كـــذبوا بـــالحق لمـــا جـــاءهم، فسلّط الله عليهم عقابه. وفي ذلك وعيد بالعذاب للمكـــذبين، وأنـــه ســـيحل بهـــم مـــا حـــل بالأمم السابقة، إمضاء لسنته سبحانه في جزاء المكذبين. وفـــي ذلـــك أيضـــا تســـلية للنبـــي ﷺ بأن ما يلقاه قد لقيه إخوانه المرسلون من أممهم. وبناء علـــى ذلـــك فـــانظر يـــا محمـــد في آثار المكذبين الذين خلت ديارهم وتشتّتَ شملهم وساءت عاقبتهم .

40- ومنهم من يؤمن به...بالمفسدين.

وحقّقَ القرآن أن المكذبين ليسوا نمطا واحدا، فمنهم الـــدهماء الـــذين رفضـــوه بمجـــرد مـــا سمعوه، ومنهم من غلب ما في القرآن من حق عقله فصـــدّقه فـــي البـــاطن، لكنـــه لتغليبـــه حظوظ نفسه العاجلة، وإيثاره لشهواته على الاستقامة التـــي يـــدعو إليهـــا القـــرآن انحـــاز إلى المكذبين، فكلا الفريقين مفسد بتكثيره للكافرين، مفســـد لعـــدم انضـــباطه فـــي ســـلوكه بالفضيلة. والله يعلم كفرهم كما يعلـــم مـــا قـــاموا بـــه مـــن فســـاد فـــي الكـــون، وســـوف يجزيهم، فكان ختام الآية يُبطنُ تهديدا.

41- وإن كذبوك فقل لي عملي...مما تعملون.

بعد هذا البيان والإلجاء والكشف عـــن دخائـــل نفوســـهم فـــإن واصـــلوا تكـــذيبك فـــأعلن مفاصلتك عنهم مفاصلة يتحمل بها كل فريـــق نتـــائج أعمالـــه. إنهـــا مصـــارحة بأنـــه ﷺ مطمئن إلى نتائج أعماله وجزاء ما قدم. وأنذرهم بـــأنهم ســـيلقون أيضـــا نتـــائج أعمـــالهم. وأنكم لا تؤاخذون بما أعمل، وكذلك مـــن الإنصـــاف أنـــه لا تبعـــة علـــي مـــن أعمـــالكم، فأنا بريء من كل مفاسدكم لا يؤاخذني ربي بما تفعلون.

42←43: ومنهم من يستمعون إليك...لا يبصرون.

تتبعت الأيتان أحوال الكافرين في مقابلة ما يأتيهم من الوحي فقسمتهم إلى قسمين:

أولا: الذين يقبلون عليك فيستمعون مـــا أنـــزل مـــن القـــرآن والهـــدى، ولكـــنهم لعـــزمهم على الرفض لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينفـــذ شـــيء مـــن كلامـــك إلـــى قلـــوبهم التـــي قصدوا إلى إقفالها، فهم بذلك قد استووا مع من كـــان أصـــم لا يســـمع، وعجـــب مـــنهم إذ أعماهم التعصب إلى هذا الحد. وبالغ على عـــدم انتفـــاعهم، بأنـــه وإن كـــانوا بإعراضـــهم

كفاقدي السمع، فإنه أيضا ليست لهـم عقـول، ذلـك أن الأصـم إذا كـان ذا فطنـة فإنـه كثيرا ما يفهم من قرائن الكلام ما يتأثر به فيعلق بذهنه مراد المتكلم.

ثانيا: الذين يعيشون معك ويشاهدون سمو أخلاقك، وكمال أدبك، وحسن معاملتك، وبصفة عامة طريقتك في الحياة، ينظرون إلى كل ذلك ولكنه لا يفضي بهم إلى الإيمان بك، والاهتداء بهديك والتأسي بك، وبذلك فهم ومن فقد بصره سواء، بل هم مغرقون في الضلالة، لأن بصيرتهم بسبب عنادهم قد غلفت بحجاب فلا ينفذ إليها نور الحق.

44- إن الله لا يظلم الناس ...أنفسهم يظلمون.

ما قدَّره الله للنـاس الـذين أعرضـوا عـن الهـدى وكـذبوا الرسـل، وأقفلـوا عقـولهم وأسماعهم، ولم يستفيدوا مما نقلته إليهم أبصارهم، فتـراكم علـى بصـائرهم مـن العنـاد والفساد حجابا صفيقا، أولئك سينالهم نصيبهم من العـذاب. ومـا ظلمهـم الله إذ قـدر لهـم المصير الخاسر في جهنم. ولكنهم هم الـذين ظلمـوا أنفسـهم، إذ رزقـوا العقـول التـي بها يدركون الحقيقة ورزقوا الحواس التـي بهـا يهتـدون، ولكـنهم آثـروا متـاع الحيـاة الدنيا من الرئاسة أو التقليد والشهوات فعطلوها، فهم الذين ظلموا أنفسهم.

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُواْ إِلَّا سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿٤٥﴾ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ ۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَا أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

يتعارفون بينهم : يعرف كل واحد الآخر.

شهيد : عالم علم تحقيق.

لا أملك : لا أستطيع تحصيل نفع أو إبعاد ضر.

بيان المعنى الإجمالي :

عرف القرآن أن مما يشعر به الكافرون يوم البعث، ظنهم أنهـم مـا مكثـوا فـي قبـورهم إلا وقتا قصيرا، وأنه يعرف بعضـهم الـبعض فيـرون سـوء حـالهم جميعـا. ويوقنـون بأنهم خسروا آخرتهم بتكذيبهم بالوحي، وأنهم ساروا في حياتهم على غير هدى.

و سيحل بهم العذاب، إما في حياتـك فـي الـدنيا كمـا حـرمهم الغيـث سـبع سـنوات متوالية، وكما انهزموا في بـدر؛ وإن الله لا يفلـتهم. فـإذا توفـاك الله، فـإنهم لا ينفلتـون من قبضة الله. وهم راجعون إليه جميعا يـوم القيامـة، ليـوفيهم حسـابهم؛ والله لا يخفـى عليه شيء من أعمالهم.

و سنة الله أن يبعث في كل أمة أراد هدايتها رسولا؛ فـإذا جـاء الرسـول، كـان حسـابهم على موقفهم من هدايته حسابا عادلا، يُجـزَى فيـه الصـالحون الجـزاء الحسـن ويهـان فيه الكافرون بسوء ما قدموا، دون أن يُظلم أي فرد من المبعوث إليهم.

ويتوجه المشركون بسؤال يردِّدُونه بـين الفينـة والأخـرى يقولـون: متـى هـذا الوعـد الذي تهددنا فيه ؟ويُعَلِم الله رسوله الجواب: أن الله قدر الكـون ومـا يجـري فيـه. وهـذه العقيدة مستقرة في نفسي، فأنا موقن بـأني لا اسـتطيع جلـب مصـلحة لنفسـي ولا دفـع ضر عنها، وأنا لا أعلم إلا ما علمني ويسره لي، فمـن بـاب أولـى وأحـرى أن لا أعلـم متى ستحل عليكم نقمه. وكل أمـة لهـا أجلهـا الـذي سـيظهر فيـه مـا قُـدِّر لهـا، ولا تستطيع أن تؤخر الأجل عن موعده ولا أن تقدمه.

بيان المعنى العام :

45- ويوم نحشرهم كأن لم يلبثوا....وما كانوا مهتدين.

من أهم ما هدد به القرآن الكافرين أنهم سيبعثون يوم القيامـة بعـد المـوت. فكـانوا تـارة ينكرونه مستبعدين أن تعود الأجسـام بعـد تحللهـا إلـى الحيـاة، وتـارة يسـألون عـن ميعاده. وهذا التهديد يترك أثرا فـي نفوسـهم ويـدخل عليهـا الحيـرة. وفصـل القـرآن كثيرا مما سيجري يوم القيامة. ومن ذلك مـا جـا فـي هـذه الآيـة التـي أثبتـت أن الله سيحشر المكذبين يوم القيامة، وأنهـم يشـعرون كأنـه لـم يمـض علـى مقـامهم فـي قبورهم سوى ساعة من النهار، وأنه يعرف بعضـهم بعضـا، ويـذكر كـل واحـد مـنهم مخازيه ومخازيّ قرينه. وتعلق الآية على مآل الـذين كـذبوا بيـوم البعـث بأنـه خسـارة تامة إذ لم يستعدوا له، وأنهم انحرفوا عن الهدى وسلكوا مسالك الضلال.

46- وإما نرينـك ...على ما يفعلون.

توجه القرآن بالخطاب للرسول ليؤكد له أن الله لا يفلـت الـذين أعرضـوا عـن الإسـلام، وأن هذا الوعيد بالانتقام له حالتان:

الحالة الأولى: أن الله يسلط عليهم أنواعا من العذاب فـي الـدنيا، فيـرى النبـي ﷺ مـا يحل بهم من المقت والتنكيل، كمـا سـلط علـيهم القحـط سـبع سـنين متواليـة، وكمـا

هزمهم شر هزيمة يوم بدر، وقتل صناديدهم وسبى منهم من سبى وغنم ما غنم، وشاع انكسارهم في القبائل العربية.

الحالة الثانية: أن يواصل التنكيل بهم بعد أن يتوفاه الله، فلا يشهد ما يحل بهم، فالآية تطمئنه على أن ملاحقة العذاب بهم موصولة بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى. وأن الدين برعاية الله محميٌّ من أعدائه. وأنهم إن أفلتوا من العذاب في الدنيا فإنهم صائرون إلى العرض على الله يوم القيامة، والله عليم العلم الدقيق الشامل بما كانوا يفعلون في الدنيا، وهو وعيد بأنه سيسلط عليهم الجزاء العادل.

47-ولكل أمة رسول...وهم لا يظلمون.

جرت سنته سبحانه أن يبعث في الوقت الذي يريد، في الأمة التي تتعلق إرادته بهدايتها، أن يبعث فيها رسولا، فيتحولون من عدم المؤاخذة على أعمالهم، إلى حالة الرشد الإنساني بمعرفة الحق من لسان الرسول، والمحاسبة على العمل حسب الأحكام التي يبينها ويفصلها. ويتبع ذلك أن الناس ينقسمون إلى قسمين:

قسم: يؤمن بالرسول ويتبع ما جاء به فتكتب له النجاة والفوز برضوان الله والكرامة.

وقسم: يرفض ما جاء به الرسول ويكابر في الحق فيخسر دنياه وآخرته.

وهذا هو القضاء بالعدل بين الرسول وبين الأمة التي يبعث فيها. وقد تحقق انتفاء الظلم عن المبعوث إليهم؛ فالمؤمنون حسُنَ جزائهم على صالح أعمالهم ونقاء عقيدتهم موفور، وما يلقاه الكافرون من العذاب لا ظلم فيه، لأنهم لم يؤاخذوا إلا بعد البيان وإقامة الحجة.

48←49: ويقولون متى ..ولا يستقدمون.

يسجل القرآن بعض ما كان يدور بين الكفرة وبين الرسول ﷺ، فيعرض شبهاتهم وحاصل ما كذبوا به. يقولون لرسول الله ﷺ: متى سيحصل ما تعدنا به من العذاب في الدنيا ؟ ومتى يكون عذاب يوم القيامة، أي متى يأتي هذا الميعاد ؟ ويقرنون سؤالهم بإنكار حقيقة ذلك الوعد المذكور في الآية السابقة بإلحاقهم: إن كنتم صادقين فيما سيحل بنا. ويلقن الله رسوله الجواب المعبر عن النظرة الشاملة للكون، وما استقر في قلبه تبعا لذلك، فيأمره أن يقول لهم: إني لا أستطيع أن أدفع ضرا عن نفسي، ولا أن أجلب لها نفعا، إلا إذا شاء الله وتعلقت إرادته بمساعدتي على ذلك. ففي الحقيقة الجالب هو الله والمانع هو الله. وإذا كنت عاجزا عن الاستعداد بما ينفي عني يقينا الضر في المستقبل، أو أن يجلب لي النفع والرفاه ؛ فإن الحقيقة النابعة من ذلك أن الأمر كله بيده. وأنه هو وحده العليم بما سيحل بكم ومتى سيحل بكم. وإذا كان سبحانه لم يطلعني عليه، فجواب سؤالكم افتيات على الله، وسوء أدب منكم بسؤالكم عنه.

ويتبع هذه الحقيقة أن الله قدر لكل أمة أجلا، سيأتيها في هذا الأجل ما قدره لها من نفع أوضر. وأنه إذا حان الأجل المكتوب في علمه تحقق ما قدره وسطره. وإنه كما لا يمكن للإنسان أن يؤخر ما قدر له عن أجله، فكذلك لا يستطيع أن يقدمه عن أجله، سواء أكان تكريما أم عقابا. إذ كل ذلك هو مقتضى الحكمة الكاملة.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٠﴾ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ ۖ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٥٦﴾

بيان معنى الألفاظ :

بياتا: باغتهم بالليل .

الذوق : الإحساس.

أحق هو : هل هو ثابت لا شك فيه.

إي : حرف جواب لتحقيق ما تضمنه سؤال سائل.

المعجزون : الغالبون.

افتدت : تكلفت فداء نفسها.

بيان المعنى الإجمالي :

ما ذا تظنون إذا وقع عليكم عذاب الله الموعود به بغتة بالليل أو النهار؟ ما ذا يفيدكم استعجالكم؟ وفوق هذا عند وقوعه فعلا يقال لكم أتؤمنون به الآن وقد كنتم به تكذبون، لأن استعجالهم للعذاب مظهر تكذيب.

ثم يواجه الذين ظلموا بالشرك والعناد يوم القيامة بهذا الخطاب الدال على التنكيل بهم: ليكن إحساسكم بالعذاب على أشد ما يكون الإحساس، هو العذاب الذي لا تخرجون منه. وهو جزاء عدل لما كسبتم في حياتكم الدنيا من الفساد.

ويسألونك مظهرين البلَه، هل إن وقوع عذاب الخلد ثابت؟ أجبهم إي! نعم. هو ثابت ولا تستطيعون الانفلات منه.

ويوم القيامة تكون الحالة النفسية حالة اليـــأس، يــودُّ كــل مشـــرك لــو أمكنـــه أن يفـــدي نفسه من العذاب بتقديم مـــا حوتـــه الأرض مـــن خيـــرات، وإن ذلـــك لا يفيـــده لـــو كـــان يملكها. ويصحب حالة اليأس هذه كبــت لأحاسيســـه، فيأكلـــه النـــدم الـــذي لا يســـتطيع أن يصرح به. ويصدر الحكم العادل على كل مشرك بدون ظلم.

ويؤكد القرآن ما اهتم به أعظم اهتمـــام، فيـــذكِّر البشـــر بأنـــه وحـــده مالـــك مـــا تحويـــه السماوات والأرض. وملكه العظيم هذا يحقق أن مـــا وعـــد بـــه مـــن الحشـــر والجـــزاء لا ريب فيه. ولكن الذي أعمى بصائر المشركين هـــو الجهـــل. إن مـــن علـــم بالتأمـــل فـــي هذه الأكوان، النظام الدقيق الذي بنيت عليـــه، لا يمكنـــه أن ينســـب لله شـــريكا أو يكـــذب بما أخبر به. وأقرب شيء من الإنسان هو حياتـــه وموتـــه، فـــلا أحـــد يـــدعي التصـــرف فيهما، إذ هما له وحده سبحانه.

بيان المعنى العام :

50←51- قل أرأيتم... كنتم به تستعجلون.

سأل الكافرون عن موعد العذاب في الآيـــة (49) وهـــو ســـؤال يتضـــمن أنهـــم ســـيؤمنون يوم تحقق العذاب الموعود بـــه. وبنـــاء علـــى ذلـــك فهـــم يســـتعجلون حصـــول العـــذاب ليؤمنوا. وتنبههم هذه الآية إلى شدة غبـــائهم، فإنـــه إذا وقـــع العـــذاب فإنـــه لا يكـــون إلا عذابا ماحقا يستأصلهم ولا يمهلهم حتى يؤمنوا. وأدمـــج فـــي الجـــواب مـــا يفيـــد تحقـــق وقوع العذاب بغتة إذ أنه سيأتيهم إما بالليل وإمـــا بالنهـــار. ومعنـــى مـــا ذا يســـتعجل منـــه المجرمون ؟ أي إنه لا شيء يصـــلح لاســـتعجال المجـــرمين للعـــذاب، لأن مثـــل هـــذا لا يستعجل بل يطلب تأخيره، وفي التعبير عـــنهم بـــالمجرمين مـــا يفيـــد اســـتحقاقهم للعـــذاب لإجرامهم بالشرك.

ثم إنه فوق ذلك إذا وقع العذاب أتؤمنون به ؟ ويبرز مـــن المشـــهد مخاطـــب يقـــول لهـــم سؤال إنكار عليهم: أتؤمنون به الآن، وقد كنـــتم بـــه مكـــذبين تســـتعجلونه؟ فيجمـــع بـــين العذاب وبين التقريع على العناد والمكابرة.

52- ثم قيل للذين ظلموا...تكسبون.

وعذاب آخر أشد؛ يوم يواجه الـــذين ظلمـــوا بالشـــرك والمكـــابرة والعنـــاد، وهـــذا مشـــهد من مشاهد يوم القيامة، ولعذاب الآخرة أشد، فيقـــال لهـــم تنكـــيلا بهـــم: لـــيكن إحساســـكم بالعذاب إحساسا بليغا، وإنكم لا تجزون إلا جزاء وفاقا لمـــا كســـبتم مـــن الفســـاد، فكـــرتم فيه ونفذتموه فأقمتم على الباطل بإرادة وإصرار.

53 - ويستنبؤونك أحق...وما أنتم بمعجزين.

تسجل هذه الآية صورة أخرى من مواقف المشـــركين. حاصـــلها أنهـــم تقـــدموا لرســـول الله ﷺ سائلين ليعرفهم: هل إن وقوع عـــذاب الخلـــد الـــوارد فـــي الآيـــة الســـابقة حـــق لاشك فيه؟

عرف القرآن الرسول بالجواب الذي يرد عليهم ما تظـــاهروا بـــه مـــن الْبَلَـــهِ، قـــل لهـــم: إي ! نعم – إنه حق لا شك فيه، وأُقسِمُ على هذا بربي ســـبحانه الـــذي لا يقســـم بـــه بـــار إلا علـــى مـــا كـــان حقـــا .وردا علـــى مظهـــر بلههـــم : إنكـــم مقهـــورون مغلوبـــون لا تستطيعون إعجاز القدرة الإلهية عن تنفيذ ما تعلقت به الإرادة القديمة.

54- ولو أن لكل نفس ظلمت...وهم لا يظلمون.

هذا تحذير يحذر به القرآن المشركين، لعلهم يحـــذرون المـــآل الصـــعب الـــذي ينتظـــرهم. إنه لو ملكت كل نفس، رفضت الإيمان واختارت الشـــرك، لـــو ملكـــت مـــا فـــي الأرض جميعا من خيرات وثروات، لو تحقق لها ذلك فإنهـــا تـــودُّ أن تقدمـــه لتفـــدي نفســـها مـــن العذاب، وهذا وإن كان فرضا كما يفـــرض المحـــال، إلا أنـــه لا يقبـــل منهـــا ولا يخفـــف من عذابها شيء. وفوق ذلك هم لا يستطيعون الجهـــر بمـــا يحصـــل فـــي نفوســـهم مـــن الندم عندما يرون العذاب، هم مكبوتون عاجزون عـــن التنفـــيس عمـــا يحســـون بـــه مـــن الأسى عندما يشاهدون الأهوال. ويصدر الحكم البـــات الـــذي لا مثنويـــة فيـــه علـــى كـــل منهم، الحكم العادل الذي لا ظلم فيه.

55←56: ألا إن لله ...وإليه ترجعون.

هاتان الآيتان تثبتان وتؤكدان كل ما جاء في الآيات السابقة. فما سبق من وعيد للمشركين، وبعثهم يوم القيامة وحسابهم، وكشف ما أراد كشفه مما سيقع في ذلك اليوم، يقوم دليلا على ذلك مبعدا كل شك فيه: أن الله مالك السماوات والأرض، فمن تصرف في هذا الكون العظيم الذي يظهر الإنسان فيه ضئيلا ضعيفا، يكون قادرا على تنفيذ كل ما ورد في الآيات السابقة. وأن ما أخبر به هو حق ثابت غير قابل للنفي. وما ارتياب أكثر المشركين في صدقه إلا أثر من آثار الجهل بحقائق الأمور. وتعلق الحكم بالأكثر لأن بعض المشركين في الظاهر، المندمجين مع بقية المشركين، يعلمون الحقيقة ولكن لا يظهرون بمظهر التصديق تغليبا لحظوظ الدنيا التي يخشون ذهابها لو أعلنوا إيمانهم.

و أكد ما سيلقاه المشركون باســـتفتاح الجملـــة ب (ألا) المنبهـــة: إن وعـــده بحشـــرهم ثـــم بعذابهم حق لا شك فيـــه. ويـــدخل البشـــر تحـــت ســـلطانه بتفـــرده بالإحيـــاء والإماتـــة، يجريهما بإرادته وقدرته على كل إنســـان، ولا يســـتطيع أي كـــائن أن يتـــدخل فـــي بعثـــه للوجود ولا في بقاء وجوده.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾
قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ
لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

جاءتكم : بلغتكم.

الموعظة : النصح والتحذير مما يضر.

الصدور : جمع صدر والمراد به النفس.

الفرح : السرور الشديد.

يجمعون : يحصلون من المال.

بيان المعنى الإجمالي :

يوقظ الله البشر جميعا ليقدروا ما أنزل عليهم، المحرك لقلوبهم فكشف لهـا عـن الخيـر ليفعلوه وعن الشر ليبتعدوا منه. والمحصّن لعقولهم وملكاتهم من الزيغ والضلال، والمعرِّف بطريق السلامة في الدارين، والمساعد على السير فيه.

إن جميع ذلك هو من فضل الله ورحمته بكم، فكونوا مسرورين أتم السرور بما جاءكم. وإن ذلك أفضل مما يجمعه المشركون من الأموال.

إن تحكم المشركين في ما يجمعونه من الأموال، التي أنزلها الله وحده عليهم، ولا دخل لآلهتهم ولا لقدراتهم في قليل ولا كثير فيما حصلوا عليه من الرزق، قابلوه بالتحكم التعسفي فحرَّموا ماشاؤوا وأحلُّوا ماشاؤوا. قل لهم ملجئا هل اعتمدتم في التحليل والتحريم على إذن وصل إليكم من الله، أم أنتم تكذبون على الله! وإذا كان الله لم يأذن لهم، فهم كذبة مفترون.

وما هو المصير الذي يظن الكاذبون أنهم مقبلون عليه يوم القيامة ؟ إن الله هو المتفضل على العباد وفضله لا يحد، ولكن أكثر الناس ينكرون فضله ولا يشكرون نعمه، والمؤمنون يقدرون نعم الله عليهم فيشكرونها معترفين بالفضل.

بيان المعنى العام :

57- يا أيها الناس ...ورحمة للمؤمنين.

هذا نداء للبشرية في جميـع الأعصـار ومتتـابع الأزمـان، يلفـت فيـه أنظـارهم إلـى النعمة التي أنعم بها عليهم بإنزال القرآن الذي بلّغهـم إيـاه رسـول الله ﷺ. وفصّـل هـذه النعمة في المقومات التالية التي اختص بها:

أولا: هو موعظة، والموعظة تقوم على النصح العام والخاص لمن يتوجه المخاطيب بها. وبذلك فهي تشمل بيان ما يُمَكِّنُ من النجاة والفوز والطريق السالك لبلوغ ذلك، وتشمل أيضا التنبيه على ما يعترض السالك من المهالك التي تنحرف به عن بلوغ قصده. فهي بذلك بيان للحقائق وأوامر ونواه. وهذه الموعظة متميزة بأن الذي يعظ بها هو من يعلم عواقب الأمور كعلمه بحاضرها، فأمن المستجيب لها على تحقيق غايته أمر لا شك فيه. مسديها هو الذي أحاطكم بألطافه بما تشير إليه كلمة الرب من معاني الألطاف والعناية.

ثانيا: شفاء لما في الصدور. والمراد بالصدور الملكات التـي تسـيِّر الإنسـان فـي حياتـه من روح وعقل وعواطف وغرائز. وكـل واحـدة مـن هـذه الأربعـة معرضـة للسـقام والانحراف. والعلاقة بينها علـى التغالـب الـذي يحـرم الـنفس السـكينة. فـالعواطف والغرائز تدفع بقوة إلى الأثرة والضلال والشر، والعقـل قـد تبـرق لـه مسـالك الخيـر فيستقيم في تفكيره، وقد تحجبه العوائد المنحرفـة والمجتمـع وغوايـة الشـيطان فيضـل، والروح تصفو بمقدار ما ينغمس صاحبها في الخير والطهر، وتظلم في عكس ذلك.

إن هذه الأسقام التي تتعرض لها الملكات الإنسانية تجد شـفاءها فيمـا جـاء بـه القـرآن، فهو حصانة من الاختلال المهدد لنظام تلكم القوى وتوازنهـا. ومـن ناحيـة أخـرى فهـو الذي ينبه إلى المرض، ويصف الدواء الشافي، ويصف للمـريض مـا يجـب عليـه فعلـه وما يجب أن يمتنع منه حتى يشفى.

ثالثا: هو هدى .والإنسان في الحياة كسائر بلـغ مفتـرق طـرق متسـاوية فـي الظـاهر، كلها تضله إلا اتجاه واحد يبلغ به قصده إن هو اتبعه. ولمـا كانـت الغايـة التـي ينشـدها السائر في حياته هي السعادة، وحصولها أو ضياعها أمـر لا يعلمـه إلا مـن تمكـن مـن معرفة الغيب، ومعرفة الغيب لله وحده، فليطمئن الإنسان إلـى أنـه إن طبـق فـي حياتـه المنهج القرآني أنه سيحقق سعادته.

رابعا: هو رحمة. وقد بينا في سورة الفاتحـة هـذه الرحمـة العامـة الشـاملة. ولكـن لا يعيش في ظلالها الوارفة وفي أمنها إلا المؤمنون.

58-قل بفضل الله...مما يجمعون.

اهتم القرآن بمضمون هذه الآية اهتماما خاصا، فافتتحهـا بـأمر النبـي ﷺ أن يقـول مـا ورد فيها ويبلغه. والنبي ﷺ لا يكتم شيئا مما يأتيـه مـن الـوحي، فكـان الأمـر بـالقول

مبرزا للاهتمام بما جاء فيها. فما الــذي أمــر بـــه ؟ قــل للمــؤمنين: إن مـــا لفــتَ إليـــه الأنظار في الآية السابقة: موعظـــة مـــن ربكـــم، وشــفاء لمـــا فـــي الصـــدور، وهـــدى، ورحمة؛ العناصر الأربعة التي بيناها هي جمـــاع الخيـــر، وبهـــا تكمـــل ســـعادة المـــؤمن. فعلى المؤمنين أن يـــدركوا هـــذه النعمـــة التـــي خصـــهم بهـــا رب العـــالمين، ولتنشـــرح قلوبهم لنزول القرآن عليهم بما يحويـــه، وليعلمـــوا أن مـــا خصـــهم بـــه هـــو بفضـــل الله ورحمته، وأن عليهم أن يشـــعروا بالغبطـــة والســـرور للخيـــر الـــذي وصـــلهم. وأنَّ هـــذا الفضل بما أنزله عليهم في القـــرآن مـــن الهدايـــة، والرحمـــة التـــي حلـــت فـــي قلـــوبهم فاتبعوا ذلكم الهدى، هو لا يقـــاس بمـــا يجمعـــه البشـــر مـــن متـــاع الحيـــاة الـــدنيا. إذ أن هداية القرآن والتوفيق لاتِّباع ما جـــاء فيـــه، يجعـــل قلـــوبهم مطمئنـــة راضـــية، وهممهـــم عالية، وعقيدتهم واضحة صحيحة، وحبهم للخيـــر والفضـــيلة يرفـــع مكـــانتهم الاجتماعيـــة في الدنيا، ويمتِّن الروابط بينهم. فما حرموه فـــي أول أمـــر البعثـــة، ومـــا عليـــه بعضـــهم من الفقر خاصة بعد استيلاء المشركين علـــى أمـــوالهم، ســـيعقب ذلـــك فـــيض الأمـــوال عليهم في الدنيا، ويصل بهم إلى جنات النعيم في الآخرة.

59-قل أرأيتم ...على الله تفترون.

هذه الآية نظير الآية السابقة افتتحت بكلمة (قل) والموجه له الخطاب بهاهم المشركون. قل لهم يا محمد، إظهارا لخلل تفكيرهم، وتحكيمهم لأهوائهم، وإلجاء لهم ليذعنوا: ما هو رأيكم وما هي عقيدتكم فيما أنزل الله لكم من الرزق، فحكَّمتم فيه أهواءكم، بجعل بعضه حلالا وبعضه حراما. تقرر الآية ما لا يستطيعون نكرانه، أن ما وصلهم من رزق مما تنبته الأرض، أو من الأنعام الراعية، هو من عند الله بما أنزله من بركات السماء المنبتة للأعشاب والمرعى، والزروع والثمار. إنه لا مدخل لهم ولا لأحد من آلهتهم في بلوغ ذلك إليهم، وإذا كان المالك المعطي هو الله، فكيف حكموا فيما لا يملكون ؟ حكموا فيه حكما تعسفيا. حكموا على بعضه فجعلوه حلالا، وحكموا على البعض الآخر بالحرمة. كما تقدم لنا في سورة الأنعام الآيات (119/121/136/138←144) وألجأهم القرآن بسؤالهم عن سندهم في أحكامهم تلك، فقسم ما يفترض من السند إلى قسمين لا ثالث لهما، إذا انتفى أحد الشقين ثبت الآخر.

هل إن مستندكم في التحريم والتحليل إذن صـــدر عـــن الله، إذ هـــو المالـــك وبالتـــالي هـــو المحلل أو المحرم ؟ أم أنتم تكذبون علـــى الله فتـــوليتم التحليـــل والتحـــريم ولـــيس ذلـــك لكم، فاتبعتم دينا لا أساس له، فما اعتراضكم ونكـــرانكم للـــدين الثابـــت بالأدلـــة اليقينيـــة؟ وإذ انتفى أن يكون الله أذن لكم، فلم يبق إلا أنكم مفترون كاذبون.

60- وما ظن الذي يفترون...أكثرهم لا يشكرون.

عجب لأولئك الكذبة المفترين، ما يظنون أنهم سيلقونه، ما ذا ستكون مكانتهم وما هو حالهم !هم سيقدمون مجردين من كل حول وقوة يوم القيامة، وقد كانوا ثابتين مواصلين للكذب على الله، فيصحبهم خزي الكذب وكآبة المنظر. إنهم أوقعوا أنفسهم في الخسران المبين. ذلك أن الله تفضل على البشر جميعا ببيان طريق الهداية والنجاة، ومنحهم العقل المميز بين الحق والباطل، ولكن أكثر الناس لا يشكرون نعمة ربهم، فعطلوا عقولهم عن النظر، وقابلوا النعم بكفرانها. وقابل المؤمنون نعم الله عليهم بالاعتراف بها والشكر لله على ما تفضل به عليهم، والاجتهاد في القيام بما يرضيه.

وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦١﴾ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾ وَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ۚ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الشأن: العمل، والحال الهام.

شهودا : جمع شاهد، بمعنى العالم علم المشاهدة.

تفيضون : الإفاضة في العمل الاندفاع فيه.

يعزب : يخفى.

مثقال : معيار يعرف به الوزن.

الذرة : أصغر الأجسام حجما ووزنا. وتطلق ويراد منها النملة الصغيرة التي هي أصغر حيوان مدرك وقت نزول الآية.

كتاب : علم الله.

أولياء الله : المقربون منه باستحضارهم القرب منه والأنس به، وهم الذين يقربهم إليه برعايته لهم الرعاية الخاصة، ويوفقهم لما يرضيه.

لا تبديل : لا إبطال.

يخرصون : يقولون قولا يستندون فيه إلى التخمين معرضين عن المعطيات الهادية.

بيان المعنى الإجمالي :

يكرم الله نبيه بإعلامه بأنه يرعاه في كل أمر هام يقوم به، وكلمـا تـلا علـى البشـر مـا أنزل عليه من قرآن، وأنه يرعى كذلك المؤمنين وهـم يكـافحون فـي الحيـاة ويـندفعون.

وعلم الله شامل للكون كله، فـلا يحجـب عنـه أي كـائن مهمـا ضـؤل وزنـه كالنملـة الصغيرة ولا ما عظم كالمجرات. سواء أكان حالا فـي الأرض أم فـي السـماء. كـل مـا يجري على الحوادث مثبت في سابق علمه، موثّق في اللوح المحفوظ.

ويتميز من بين المرضـيِّ عـنهم أوليـاء الله المقربـون منـه، الـذين يرعـاهم رعايـة الرضا، وهم الذي صدقوا في إيمانهم، وصدقوا في أفعـالهم، فبيـنهم وبـين الخيـر سـبب قوي ونسب. يلتزمون بالطاعـة ويحضـر فـي عقـولهم صـلتهم بـربهم علـى جميـع الأحوال. جزاؤهم أن الله كتب لهم البشارة بالخير فـي الـدنيا والآخـرة ووكـل ملائكتـه بتنفيذ ذلك، وما قرره سبحانه ثابت لا يتغير. وما نالوه هـو الفـوز الأكبـر الـذي لـيس وراءه مرتبة.

ولا تأبهْ يا محمد لقبيح أقوالهم، ولا تتأثر لهـا تـأثرا يـدخل الحـزن علـى قلبـك، فهـي أقوال لا قيمة لها. والله أعلى وأجـل مـن أن يتـأثر بـأقوالهم. إن الله متفـرد بـالعزة ولا عزة لغيره؛ إنه يسمع أقوالهم ويعلم نواياهم، وسيجازيهم عنها.

ومن مظاهر عزته، أن كل من يحل في السـماوات ومـن يسـكن فـي الأرض، مملـوك لله. والذين يعتقدون في قدرة الأصنام فيـدعونهم مـن دون الله، علـى أنهـم شـركاء لـه، هم قد حجبوا عقولهم عـن النظـر واتبعـوا ظنونـا لا أسـاس لهـا وتمسـكوا بخيـالات كاذبة.

بيان المعنى العام :

61 -وما تكون في شأن...في كتاب مبين.

الذي فهمته من هذه الآية أنها حققت غرضين:

الغرض الأول: أن الله يرعى رسوله ويرعى أمتـه فـي جميـع الأحـوال، ويشـير ذلـك إلى ما لرسوله بين البشر من المكانة والعزة، وما لأمته من الكرامة عند ربها.

الغرض الثاني: التنبيه التفصيلي علـى شـمول علـم الله لكـل مـا يحـدث فـي الكـون.

ولنتتبع بعد ذلك نسق الآية في تفاصيلها.

أ) يخاطب الله نبيه معلِمًا له أنه لا يكون في حال مـن أحوالـه التـي يقـوم فيهـا بـأداء مهمات الرسالة، بمـا يشـمل التبليـغ والقيـام علـى تـدبير أمـور المـؤمنين، وتنظـيم

علاقاتهم، ورفع معنوياتهم، وبما يشمل إقبالـه علـى العبـادة وقيـام الليـل؛ لايكـون فـي حال من هذه الأحوال إلا والله شهيد عليه يرقبـه ويؤيـده، ويوفقـه لمـا يرضـيه. وفـي ذلك إشاعة للطمأنينة في قلبه بعناية الله به، وفيـه تسـلية عمـا يلقـاه مـن الكفـرة مـن الإذاية لأن الله معه في جميع أحواله.

2) ما تتلو: من الأمر الهام الذي أنت قائم به خير قيام، مـن نشـر القـرآن وإذاعتـه بـين البشر، القرآن الذي يوضح المنهج ويبـين القصـد، ويـؤمن الطريـق، كـن واثقـا أن الله شهيد عليك، يوفقك لتثبيت الصالح، ويقمع الجاحد.

3) ولا تعملون عملا أيها المؤمنون مما توجهـون لـه جهـدكم، وتنـدفعون لإنجـازه، إلا والله معكم يرعاكم ويسدد خطاكم. وعبر سبحانه عن ذاتـه العليـة بضـمير الجمـع **(كنـا)** إظهارا لعظمته سبحانه.

يستند كل ذلك إلى أن علم الله هو علم شامل لكل مـا يجـري فـي الكـون، فـلا يغيـب عن علمه أي كائن مهما ضؤل وزنه، ولو كان نملـة صـغيرة أو هبـاءة، ممـا لا يدركـه البصر إلا في الحزمة الضوئية فـي محـيط قليـل ضـوؤه. وكـذلك مهمـا عظـم، إذ عظمه لا يحجب علم الله عن الإحاطة به وبتقلباتـه. وسـواء أكـان مسـتقره فـي الأرض فوق أديمها، أو في محيطهـا، أو فـي باطنهـا، أو فـي السـماء فـي مترامـي أبعادهـا الهائلة. كل ما يجري علـى الكائنـات هـو مثبـت فـي علـم الله المعبـر عنـه بـاللوح المحفوظ. فعلمه لا يتغير بحدوث الحادث إذ هو سابق على الحدوث.

62←63: ألا إن أولياء الله...يتقون.

هذه الآية مفتتحة بما يدل على الاهتمام بمضـمونها وتحققـه، وذلـك مـأخوذ مـن كلمـة (ألا) مضـمونها: أن أوليـاء الله لا خـوف علـيهم ولا هـم يحزنـون. وأوليـاء الله هـم الموفقون من عباده توفيقا بلغ درجات من السمو والنقـاء، أهلـتهم ليحملـوا هـذه الصـفة المرتبطة برب العزة ارتباطا من الجهتين، من الله ومنهم.

فولي الله هو من جمع بين أمرين:

1)الإيمان الذي لا يداخله شرك ولاشك، والذي يجد به المـؤمن نفسـه فـي كـل لحظـة من لحظات حياته، قريبا من ربـه، يخشـى أن يطلـع عليـه فـي موقـف أو مكـان لا يرضاه، كما يخشى أن يغيب عن موقف يتحتم وجـوده فيـه. فهـو لـيس المـؤمن إيمانـا منوّمًا في ساعات كثيرة ومغفولا عنه. ولكنه الإيمان المتـيقظُ صـاحبُه إلـى مـا يحملـه من عقيدة فاعلة في وجوده.

2) المتقي لله .تقوى الله تفتح بصيرة المؤمن علـــى الخيـــر فتحببـــه إليـــه، وتردعـــه عـــن الشر فيكرهه ويمقته. وتكون التقوى ملازمـــة لـــه، فكلمـــا حضـــره اختيـــار لعمـــل مـــا، قادته تقواه إلى الخير وأبعدته عن الشر.

64 – لهم البشرى في الحياة...الفوز العظيم.

تذكر الآية ما خص الله بـــه أوليـــاءه مـــن تكـــريم فـــي الـــدنيا والآخـــرة، ذكـــرا يعطـــي للتصور أن يذهب فيه كل مذهب، إن لهـــم وحـــدهم البشـــرى، بمـــا يفيـــد الثقـــة الكاملـــة والرضا بما خصوا به من فضل. وإذا أخـــذت الـــنفس حظهـــا بمســـتوى لا تطلـــب بعـــده المزيد فتلك هي السعادة الكاملة. إذ المبشَّرون واثقـــون فـــي المســـتقبل آملـــون فـــي أنهـــم بمنزلة من رعاية الله وحبه.

وبعض العامة والدهماء يخصون أولياء الله، بـــأفراد ضـــعفت مـــداركهم العقليـــة، وربمـــا سال لعابهم على أذقانهم، لا يعتنـــون بلباســـهم ولا بنظافـــة أجســـادهم، ويكـــادون يكونـــون عالة على غيرهم في جميع شؤونهم. وهذا الفهم باطـــل وغيـــر صـــحيح. ذلـــك أن أفضـــل المؤمنين في هذه الأمة محمـــد رســـول الله ﷺ، وصـــحابته الـــذين أكـــرمهم الله بالســـبق للإيمان به، وبالجلوس إليه والأخذ المباشر من هديه، هـــم كـــانوا حملـــة الـــدين إلـــى مـــن أتى من بعدهم، وهم الذين جاهدوا فـــي الله حـــق جهـــاده، وكـــانوا مـــع رســـول الله فـــي غزواته، وبذلوا أنفسهم وأموالهم لتكون كلمة الله هـــي العليـــا. وكـــانوا علـــى حـــظ عظـــيم من رجاحة العقل وحسن السمت والأخذ من الدنيا فـــي غيـــر ســـرف، لبســـوا الجيـــد مـــن الثياب وأخذوا زينتهم عند كل مسجد. وما أعرضـــوا عـــن الـــدنيا ولكـــن أخـــذوها علـــى أنها مطية للآخرة. وقد فتح الله لهم أبواب الرزق، وما حفظتـــه كتـــب الســـيرة مـــن بـــذل سخي لأبي بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بـــن عـــوف وغيـــرهم يقـــوم شـــاهدا علـــى أن التقوى محلها القلب، وليس بينها وبين الإعـــراض عـــن الـــدنيا الإعـــراض الكامـــل أي صلة.

وقال معظم المفسرين إن هذه البشرى هي الفوز بالجنة يـــوم القيامـــة، وأمـــا فـــي الـــدنيا فروي أنها هي الرؤيا الصالحة، وقيل هي المنزلة التي يبشر بها المؤمن عند موته.

والذي أرجحه هو ما ذكرته من ثقتهم بالمستقبل الذي تأكد بقوله تعالى: **لا تبديل لكلمات الله.** فقد كتب الله هذه العناية بهم ووكل بها من يرعاها من ملائكته. ثم ختم كل ذلك بإبراز التنويه بما أوتوه: أنهم حازوا الفضل العظيم، وكفى بذلك تقديرا إذ هي شهادة الله العظيم سلطانه الذي لا يحد ملكه، فهو يشهد بأنهم أوتوا الفوز العظيم. وهذا يناسب ما رجحناه من أن البشرى لا تختص بأمر واحد، وما ذكر هو عرض لبعض ما يصح أن يتناوله النص.

65- ولا يحزنك قولهم...وهو السميع العليم.

وإذ انتفى الحزن عن أولياء الله، فإن الرسول ﷺ كان يشتد عليه ما يسمعه من المشركين من تمجيد لآلهتهم، ومن التطاول على مقام الجلالة سبحانه، وما يصحب ذلك من إذاية المؤمنين، وتفننهم في الاستهزاء والسخرية بالمقدسات . فلذلك أمر رسوله أن لا يتأثر بما يقولونه، ولا لتطاولهم بما استدرجوا به من قوة وأموال وعصبية؛ إيماء إلى أنها جميعها أعراض زائلة، وقوة يعقبها ضعف وانحلال. والعاقبة للمؤمنين. فإن الله سينصر دينه ويمحق الشرك ويظهرك على أعدائك. فالقوة التي لا تغلب، والإرادة التي لا تقهر هي لله وحده. ويحسن بقارئ القرآن أن يسكت سكتة خفيفة عند تلاوته الآية عند إتمام كلمة (قولهم) ثم يستأنف: إن القوة لله جميعا.

ثم يؤكد القرآن النهاية الظافرة : أن العزة والغلبة لله وحده. فهم آيلون إلى ذلة ونكال. يثبتُ هذا: أن الله سميع لما يقولونه في الجهر فيعذبهم بمقدار ما أجرموا، ويسمع همساتهم فيما بينهم وما يعدونه من مكر، وهو يعلم ما تنطوي عليه ضمائرهم من بغض للحق، وإعداد للمكر بالدين. وهذا الإعلان باطلاعه الدقيق على خبثهم الباطن والظاهر، هو وعيد لهم.

66-ألا إن لله ...وإن هم إلا يخرصون.

ويقوم شاهدا على أن العزة لله جميعا، هو أن ما تحويه السماوات والأرض مما يعقل ومما لا يعقل ملك لله. والعزة الحقيقية هي للمالك الواحد. وما يتبع الذين انحرفت عقولهم وفسدت فطرهم، فادعوا آلهة من دون الله وأشركوهم معه سبحانه في الملك، هم لا يتبعون إلا ظنونا كاذبة لا سند لها؛ فهم في الحقيقة يغلقون عقولهم عن كل المعطيات التي تساعد الإنسان على المعرفة، ويستندون إلى تخمينات من الأوهام الباطلة.

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ۖ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بِهَٰذَآ ۚ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

اتخذ : الاتخاذ أخذ شيء موجود للاستئثار به. أو إيجاد شيء للاختصاص به.

السلطان : البرهان والحجة.

الفلاح : حصول المبتغى من العمل مع سلامة العاقبة.

المتاع : المنفعة الآئلة إلى الزوال في الدنيا.

بيان المعنى الإجمالي :

تفرد الله بجعل الليل للنـاس فـي هـذه الحيـاة وقتـا يسـكنون فيـه، يجـددون نشـاطهم ويريحون أبدانهم وعقولهم من عناء العمـل اليـومي. وجعـل النهـار ضـياء يبصـرون فيه ما حولهم فتتعمق معـارفهم فيمـا يحويـه الكـون، ويعقـدون صـلاتهم ببعضـهم. إن في سماع القرآن ما يوقظ العقل ليدرك ما في هذا التنظـيم مـن الـدلائل علـى تفـرد الله بالتنظيم المُحكَم.

قال الكفرة إن الله اتخذ ولدا. والله منـزه أن يكـون لـه ولـد. وكلامهـم باطـل. وذلـك لأنه هو الغني الذي لا يتصور أن يكـون محتاجـا لاتخـاذ ولـد. وهـو مالـك مـا فـي السماوات وما في الأرض، ومن التناقض أن يكـون لـه ولـد وهـو مملـوك لـه. ولمـا أطلقوا كلاما غير مستند إلى دليل يصـدقه، كـان كلامـا بـاطلا. واسـتحقوا أن يوبخـوا لتطاولهم بالقول على الله بغير علم.

إن الذين تبلغ بهم وقاحتهم أن يكذبوا على الله هم خاسرون فـي الـدنيا، فـلا يحقـق لهـم كذبهم أي نفع. وما يحصلون عليه مـن مظـاهر تلفـت النظـر فـي الحيـاة الـدنيا مـن رئاسة أو مال، هو مما لا قيمة له لسرعة زوالـه، ثـم يسـلط الله علـيهم عذابـه الشـديد الذي يحسونه أشد الإحساس بسبب كفرهم.

بيان المعنى العام :

67 –هو الذي جعل لكم...لقوم يسمعون.

من مزايا القرآن أنه يجعل الإنسان يقظا لما يجـري حولـه، لا تسْـحَبُ منـه الرتابـة ولا التكرار ما وراءهما من حقائق عميقـة. فهـذه الآيـة ترفـع الغفلـة عمـا يتتـابع بصـفة منتظمة على الإنسان من تبادل بين الليل والنهـار. وتجـاوزت الآيـة الظـاهرة إلـى مـا وراءها من ارتباط الإنسان بهذا التحول، الذي يعطيه ما تـتم بـه حياتـه. فالليـل والنهـار يتعاقبان بصفة منتظمة. يأتي الليل فيسـكن الإنسـان إلـى الراحـة ليجـدد مـا فقـد مـن طاقات، ولينعم في سكون الليل بعلاقـات محببـة للـنفس ممتعـة وصـلات عائليـة بهـا تتمكن الرابطة الأسرية. والظلام يساعد على تحقـق ذلـك. ويـأتي النهـار مضـيئا فينفـذ

إشراقه إلى الكائنات بما يُمكِّن الإنسان من التعـرف عليهـا، ثـم النشـاط وعقـد صـلات بها فيتكون المجتمع ويتقدم العلم، ويسـتطيع القيـام بمـا أوكـل إليـه مـن الخلافـة فـي الأرض لتعميرها.

إن في هذا التنظيم الـدقيق مـا يقـوم شـاهدا ودلـيلا علـى تفـرد الله بالقـدرة الشـاملة والحكمة البالغة. إن من يسمع كلام الله سماع المقبل عليـه ينتفـع مـن عـرض القـرآن، فيستيقظ إلى ما في نظام الكون مـن دلالـة علـى تفـرد الله بـالخلق والتـدبير، فيتعمـق إيمانه.

68-قالوا اتخذ الله ولدا ...ما لا تعلمون.

من أقوال المشركين الفاسدة والباطلة، قولهم إن الله قد اصـطفى مـن خلقـه مـن اتخـذه ولدا، فنسبوا له سبحانه بعض الملائكة أولادا، وقال آخـرون إنـه تولـد مـن الله مـا هـو ولد له، وهذا غير ما تعتقده النصارى من بنوة عيسى.

نفى القرآن أن يكون لله ولد بأمور:

1) أن هذا مخالف لتنزيه الله عـن الـنقص، وهـو معنـى: سـبحانه، إذ يتنـاقض القـول بألوهيته مع نسبة ولد له.

2) أنه الغني لكماله فلا يتصور أن يكون محتاجا لما يكمل بـه ذاتـه. وطلـب الولـد إنمـا هو لنقص في الأصل يتمثل في أن الأصل مدرك لفنائه، فهـو يرغـب فـي الولـد ليكـون امتدادَه في الوجود، أو يرغـب فـي الولـد ليسـاعده عنـد الحاجـة. فاعتقـاد كمـال الله بغناه، ونسبة الولد له تناقض مرفوض.

3) يـدخل تحـت ملـك الله كـل مـا تحويـه السـماوات والأرض، بمـا يشـمل جميـع المخلوقات، والملك والبنوة متنافيان، ولذا كـان مـن أحكـام الشـريعة أن الولـد إذا دخـل في ملك أصله خرج حرا في الحال.

4) إن كل قول لا قيمة له إذا لـم يسـتند إلـى دليـل يثبـت صـحته، والـدعاوى الفاقـدة لسند، لا يحتج بها، وليس لهم دليل على ما ادعوه مـن اتخـاذ الله ولـدا، فتكـون دعـواهم أن لله ولدا دعوى مرفوضة من أساسها.

ثم وبخهم على التجني على الله، منكرا عليهم أن يقولـوا علـى الله مـا لا علـم لهـم بـه ولا سند من عقل أو كتاب.

69←70: قل إن الذين يفترون...بما كانوا يكفرون.

واجِهْهُمْ يا محمد بالحقيقة التي لا مفـر لهـم منهـا: قـل لهـم: إن الـذين ينشـئون مـن خيالهم مما لا أصل له، فيكذبون على الله وينسبون لـه الباطـل مـآلهم الخسـران المبـين

في الدنيا، ولا يجنون مــن افتــرائهم علـــى الله أي نفـــع دائــم. ومظـــاهر النعمـــة التـــي نمكنهم منها، ما هي إلا نعمـــة زائلـــة مؤقتـــة. ثـــم نســلط علـــيهم العـــذاب الشـــديد يـــوم القيامة، فيحسون ألمه أشد الإحساس، وما ذلك إلا بسبب استمرارهم على الكفر.

۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ
غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا
عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ
وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾
ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟
بِهِۦ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٧٤﴾

بيان معنى الألفاظ :

كبر عليكم : شق عليكم وأوقعكم في الحرج.

مقامي : حالي وشأني.

توكلت : عولت.

أجمعوا أمركم: اعزموا على الفعل بعد التردد.

لا يكن أمركم عليكم غمة : لا يكن ما تقصدون فعله غير واضح.

اقضوا إلي : نفذوا ما عزمتم عليه.

الأجر : العوض الذي يأخذه العامل.

نطبع: نختم ختما لا يحصل بعده الفتح.

بيان المعنى الإجمالي :

اتل يا محمد الخبر الذي فصله القرآن عن نـــوح. حاصـــل هـــذا الخبـــر الهـــام: أن نوحـــا بعد أن والى دعوة قومه انتهى إلـــى اليـــأس مـــن اســتجابتهم؛ فقـــال لهـــم يـــا قـــومي إن وصل بكم الحد إلي اســـتثقال وجـــودي بيـــنكم وتحـــرجكم مـــن تـــذكيري لكـــم بالآيـــات البينات والنعم التي تنعمون بها، فاعلموا أني معـــول علـــى مـــا يســـندني بـــه ربـــي مـــن العون. وهذا يجعلني لا أخاف شيئا، فاتفقوا مـــع شـــركائكم علـــى الأمـــر الـــذي ترونـــه، وليكن ما تجمعون عليه واضحا بينا، ثـــم نفـــذوه ولا تتراخـــوا. فـــإن واصـــلتم الإعـــراض

وتوليتم مستمسكين بالكفر، فإني أذكركم أني ما طلبت منكم أجـرا علـى مـا بلغـتكم إيـاه من الحق؛ وذلك لأن أجـري علـى الله الـذي أمرنـي أن أكـون موحـدا لـه، مخلصـا لجلاله في جميع شؤون حياتي. فواصَلوا تكذيبـه ولـم يقلعـوا عـن الكفـر، فنجـاه الله ومن كان مؤمنا معه في الفلك، وأهلك المكـذبين بآيـات الله بـإغراقهم، وكانـت عـاقبتهم واضحة هي الاستئصال لأنهم أنذروا فلم يفد فيهم الإنذار.

ثم إن الله تولى البَشَرَ بألطافه فأرسل إلـى الأقـوام الـذين حـادوا عـن طريـق الهدايـة رسلا، فكذبوهم رغم ما كانوا مؤيـدين بـه مـن المعجـزات، وواصـلوا التكـذيب. لقـد طبع الله على قلوبهم فلا ينفذ إليها مـن نـور الرسـالة شـيء بسـبب عـدوانهم بالشـرك ورفض النظر في الحق.

بيان المعنى العام :

71-واتل عليهم نبأ نوح...ولا تنظرون.

بعد أن أقام القرآن الحجة على المشـركين، وبعـد أن ذكـرهم بنعمـه، وبعـد أن هـددهم ليقلعوا عن الكفر والعناد، تولى تذكيرهم بما حصل لقوم نـوح الـذين كـان مـوقفهم مـن رسولهم نوح عليه السلام كموقفهم من محمد ﷺ.

اتْلُ على المشركين خبر نوح عليه السلام مع قومـه ليعتبـروا بمـا سـلط علـيهم مـن عـذاب فيقلعوا عن العناد. فيكون هذا النبأ نوعا آخر من أنواع التأثير الداعي إلى الإيمان.

خاطب نوح المرسَل إليهم متحببا إليهم متلطفا معهـم، نـاداهم بقولـه يـا قـومي، وشـأن الإنسان أن يكون محبا لقومه ناصحا لهم يسـعى لمـا فيـه خيـرهم. وهـذا هـو شـأن المرسلين، وما ينبغي أن يكون عليه الـدعاة إلـى الخيـر والصـلاح، مـن اللطـف فـي الخطاب، وإثارة الروابط المحركة لنبيل العواطف، حتى يقتـرن مـا يقتضـيه العقـل بمـا تدعو إليه العاطفة. وعرض عليهم أنهم إن شـق علـيهم مقامـه بيـنهم وسـئموا طريقتـه التي يدعوهم بها، التـي هـي التـذكير بالأدلـة البينـة علـى التصـور الحـق والعقيـدة الصحيحة في خالق الكون وكمالاته، وما أفاضـه علـيهم مـن خيـرات، فـاعزموا علـى تنفيذ ما دبرتموه، وأشركوا معكم شـركاءكم الـذين تعتقـدون بـأن لهـم قـدرات تفـوق قدراتكم. إني لا أبالي بما استعددتم له مـن الإضـرار بـي ولا أخشـاكم. اجتهـدوا فـي تدبير أمركم حتى يكون ما تقصدون إيقاعه واضـحا بينـا لا تـردد فيـه ولا غـبش .ثـم قوموا بتنفيذ ما صممتم عليه، ولا تتأخروا بي لإيقاع ما عزمتم عليه.

72-فإن توليتم...أن أكون من المسلمين.

فإن أعرضتم عما دعوتكم إليه، فتذكروا أني ما سألتكم من جـــزاء علـــى مـــا قدمتـــه لكـــم من هداية، وما بينته لكم من الحق. لا أنتظر أجرا على مـــا قمـــت بـــه إلا مـــن الله، الـــذي أمرنـــي، وأمـــره واجـــب الطاعـــة والتطبيـــق، أن أكـــون مـــن المســـلمين الموحـــدين لله المخلصين له في العبادة.

73 -فكذبوه فنجيناه...كان عاقبة المنذرين.

قابل قوم نوح رسولهم في النهاية بالتمادي على التكـذيب. وترتـب علـى هـذا الموقـف الرافض المتمسك بالتكذيب، ويأس نـوح مـن إيمـان أي واحـد مـن المصـممين علـى الكفر، أن نجاه الله والذين آمنوا معـه فـي السـفينة، وأن بـارك فـيهم فجعـل أعقـابهم خلفاء في الأرض بعد إغراق المكذبين واستئصالهم .

وإذ تمت الصورة حتى كأنها حاضـرة، ورد الأمـر بـالنظر إليهـا تحقيقـا للنبـأ الـذي افتتحت به القصة .شاهد الوضعية التي كانـت عليهـا عاقبـة المكـذبين، ومـا كانـت إلا جثثا طافية على سطح المياه تتقاذفها الأمواج. وفـي ذلـك تهديـد لمشـركي مكـة إن هـم واصلوا رفضهم وعنادهم.

74 -ثم بعثنا من بعده...على قلوب المعتدين.

عناية الله بالبشرية مسترسلة، فبعد أن أغرق المكذبين مـن قـوم نـوح، توالـت رسـالاته للبشر، كلما حادوا عن الطريق الصحيح في الإيمان. ولـم تعـين الآيـة المرسـلين كمـا وقع في مناسبات قرآنيـة أخـرى، وهـي معلومـة مـن مواقعهـا فـي القـرآن. ومـن الألطاف الإلهية أن كل رسول يبعث في قومـه معـروف عنـدهم غيـر غريـب عـنهم، جربوا صدقه وأمانته قبل تحمله مهمة التبليغ والهدايـة. فكـان كـل رسـول يقـدم لقومـه المعجزات التي تأيد بهـا ليـتمكن مـن هـدايتهم. وقـابلوا تلكـم البـراهين والمعجـزات بالتكذيب، وواصل الرسـل الـدعوة وطـرد الأوهـام والكشـف عـن المـنهج المعقـول، واستمر المكذبون على التكذيب الذي أعلنوه من قبـل. وعلـى هـذا النحـو مـن إغـلاق منافذ الحق إلى عقولهم يـتم الطبـع علـى قلـوب المعتـدين بالشـرك والعنـاد. والطبـع أصله ختم ينقش بالشمع على الرسالة حتى لا تفتح.

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنۢ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ بِـَٔايَٰتِنَا فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓاْ

أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ
لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالَ
لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ
ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ
كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الملأ: خاصة الناس، وسادتهم.

الاستكبار : المبالغة في التكبر.

مجرمين : مرتكبين لعظيم الذنوب.

لتلفتنا: لتلوينا وتصرفنا.

الكبرياء : التفوق على الناس.

الإلقاء : رمي الشيء إلى الأرض.

جئتم به : أظهرتموه.

سيبطله : يظهر عدم تأثيره في عيون الناس.

لا يصلح عمل المفسدين : لا يؤيد عمل المفسدين .

يحق الحق : يثبت الحق.

بكلماته: بواسطة أمره الذي يقول فيه للشيء كن فيكون .

بيان المعنى الإجمالي :

بعد موكب المرسلين الذين تتابعوا لهداية البشرية، بعث الله سيدنا موسى وهارون إلى فرعون وأصحاب الجاه والتقدم من قومه. ودهماء ذلك العصر كانوا تبعا لهم ليس لهم رأي. وقد أيدهما بالمعجزات الواضحة، فحملهم الكبر المتمكن منهم وما ألفوه من العصيان والإجرام على رفض الدعوة. بل تجاوزوا ذلك إلى رمي الحق الذي جاءهم بأنه سحر واضح لا شك فيه.

رد عليهم موسى منكرا: أتقولون للحق إنه سحر، مع أن مآل السحرة الفشل ؟

ردوا عليه قائلين: أنت تعرض علينا ما يقطع بيننا وبين ما التزمه آباؤنا في حياتهم، بل إن قصدك أن يكون لك المقام المقدم في أرض مصر لتحكم أهلها. ولذا فإنا لا نؤمن بك.

قال فرعون: رادا دعوتهما: علينا أن نبـين للنـاس أن مـا جـاؤوا بـه، هـو سـحر لا حق. ولذا أمر حاشيته أن يجمعوا له مـن أقـاليم مصـر النـابهين مـن السـحرة. وفعـلا حضر السحرة ومعهم آلاتهم، وحضر موسى.

قال موسى للسحرة قوموا بعرض ما عندكم. فلما ألقوا مـا هيـأوه قـال لهـم موسـى: إن ما قدمتموه هو سحر وإن الله سـيمحو آثـاره، لأن الله لا يؤيـد عمـل المجـرمين. وهـم مجرمون لأن غرضهم صد الناس عـن الإيمـان بموسـى. وأن الله يثبـت الحـق أحـب المجرمون الآثمون أو كرهوا.

بيان المعنى العام :

75- ثم بعثنا من بعدهم...مجرمين.

بعد موكب المرسلين المذكورين في الآية السـابقة، ذكـر القـرآن بعثـة سـيدنا موسـى مؤيدا بأخيه هارون. بعثه الله لحاكم مصر فرعـون، وللأعيـان والوجهـاء مـن حاشـيته. وقد أيدهم الله بالمعجزات التـي هـي أولا، غيـر خارقـة لقضـايا العقـل، وثانيـا هـي خارقة للعادة لكونها تفوق طاقة البشر. فظهورها علـى أيـديهم مصـاحبة لـدعوة النـاس لاتباعهم تقوم الدليل على صدقهم.

فرعون كان طاغيـة مسـتبدا يـذل شـعب مصـر ويعتـدي علـيهم ويسـلبهم حقـوقهم الإنسانية، ويعتقد أنه مخول بأن يجري على سـلوكه هـذا. فمقـاييس الحـق مفقـودة مـن حسابه، يرى نفسه أكبر من أن يراعيها ويخضع لها. وعلـى نهجـه كـان المقربـون مـن حاشيته. ويتبع الانتفاخ بالكبر التعدي علـى النـاس، والاسـتيلاء الظـالم علـى حقـوقهم، والاستهانة بالقيم الخلقية. ولذا عبر القرآن عن وضـعهم بـأنهم كـانوا قومـا مجـرمين، تأصل فيهم الإجرام، إذ لا يحسون عند اقتحام الآثـام بفسـاد ارتكـاب الإثـم، ولا تتحـرك أرواحهم فتهتز لارتكاب الخطيئـة. ومضـى التـاريخ علـى ظهـور مسـتبدين يقربـون كثيرا أو قليلا من الفراعنة الذين بعث فـيهم موسـى، لا ينتصـحون ولا يخشـون عاقبـة. ومعظمهم حصدوا ما قدموا في الدنيا من ذل وصغار. ولعذاب الآخرة أكبر.

76- فلما جاءهم الحق ...سحر مبين.

بعد أن عرض عليهم موسى ﷺ دعوته، وأظهر لهـم المعجـزات الدالـة علـى صـدقه وأنه مرسل من عند الله، أخذت المحـاورة تجـري بينـه وبيـنهم: كـذبوه ورفضـوا مـا جاء به، ورموه بأن ما قدمه دليلا على صدقه فـي أنـه مبعـوث مـن خـالق الكـون، لا يعدو أن يكون سحرا يخيل للناس ما يموه به أنه حـق، وهـو فـي الواقـع تخـيلات مـن مهرة في اللعب بحواس الناس.

77 –قال موسى أتقولون...لا يفلح الساحرون.

رد عليهم موسى منكرا: عجب لكم كيـف تطلقـون علـى الحـق الـذي عـاينتموه، أنـه سحر، مع أنكم رأيتم رأي العين أنه حق لا باطل ولا تمويـه فيـه. وكيـف آتـيكم بسـحر وأنا أعلم أن السحرة مآلهم افتضاح أمرهم وخسرانهم.

دفعهم الاستكبار إلى المضي في دفع ماجـا ء بـه بإظهـار أنهـم مـن الـذكاء والتجربـة بمحل لا يروج عليهم ما خفي من قصـده. اتهمـوه بأنـه يرمـي بمـا جـاءهم بـه إلـى تحويلهم عن المنهج الذي تمت تجربته، وسار عليـه آبـاؤهم مـن قـبلهم. وشـأن كبـراء القوم أن يتمسكوا بعادات أصولهم لما فيها مـن تأكيـد لمقـامهم الاجتمـاعي. وبصـرفهم عن عادات وتقاليد آبـائهم تنـزل مقامـاتهم، ويضـعف تـأثيرهم فـي المجتمـع، فيتخـذ موسى وهارون ذلك سبيلا ليظهـرا تفوقهمـا وعظمتهمـا فـي عقـول النـاس، فتكـون لهما بذلك الرئاسة ويستوليان علـيهم ويقـودانهم. فمـا دعوتهمـا إلا طمـع فـي الرئاسـة والاستيلاء على أرض مصر وشعبها.

وإنه نتيجة لذلك، بتفطننا إلى ما ترميان إليـه، فـنحن مصـممون علـى رفـض الإيمـان بما قدمتماه لنا.

79←82: وقال فرعون ائتوني...كره المجرمون.

بعد انطلاق المحاورة كما جاء في آية 75 تحول الأمـر إلـى مقارنـة تطبيقيـة بـين مـا عرضه موسى على أنه حق، وبين ما رمي به مـن السـحر. فكـان المشـهد يتمثـل فـي تسجيل الوقائع الآتية :

أولا : فرعون وقد انتفخت أوداجه، يأمر الملأ من حولـه أمـرا جازمـا، أن يجمعـوا لـه مهرة السحرة من جميع أنحاء ممالكه.

ثانيا: تنفيذا لهذا الأمر انطلقوا فـي أنحـاء مصـر يبحثـون عـن المتميـزين فـي علـم السحر، وأتوا بهم لفرعون.

ثالثا: حضر موسى المقابلة بينه وبينه السحرة وبـادرهم بقولـه: ألقـوا إلـى الأرض مـا هو معكم من الآلات التي أعددتموها، وحركوها وأظهروا ما عندكم من السحر.

رابعا: قدم السحرة أمام الجمع ما اسـتطاعوا أن يخـدعوا بـه عيـون المشـاهدين، وكـان مشهدا يجذب الأنظار، أبهر جميع المشاهدين إلا موسـى عليه السلام، فإنـه توجـه إلـيهم وهـم معتزون بما قدموه قائلا: إن هـذا المشـهد لا يعـدو أن يكـون خيـالات لا حقيقـة لهـا، وسـيظهر ربـي بطلانهـا ويفضـح أسـرارها. والله لا يؤيـد عمـل المفسـدين، الـذين يقصدون تضليل الناس واللعب بعقولهم حتى يسـتولوا علـى مـداركهم وينقـادوا إلـيهم .

وفسادهم في هذه المقابلة أوضح، لأنهم كانوا يرمـون مـن وراء مـا قـدموه أن يصـرفوا الناس عما جاء به موسى وأخوه من الحق. ويثبت الله الحـق الـذي أتيـت بـه، ويظهـر زيف ما أتيتم به مـن الباطـل بكلماتـه التـي تعبـر عمـا تعلقـت بـه الإرادة والقـدرة النافذتان. قال تعالى: (**إنما أمره إذا أراد شـيئا أن يقـول لـه كـن فيكـون**) [1]–وألحـق بكلامه ما يفيد عجزهم وأن إرادتهم غيـر مـؤثرة، وأن الفعـل لله وحـده، الـذي ينجـز في الوجود ما تعلقت به إرادته ولا أثر لحب المجرمين أو بغضهم.

فَمَا ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ۚ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٨٣﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾

بيان معنى الألفاظ :

يفتنهم: التسلط على الملكات العقلية بالقهر حتى تنصاع .

عال: مستبد.

الإسراف : تجاوز حد الاعتدال.

بيان المعنى الإجمالي :

انهزم السحرة وتبين للحاضرين أن موسى لـيس بسـاحر، وأنـه رسـول وأن مـا قدمـه ليس من عمل البشر، ولكن رغم ذلك لم يؤمن برسالته إلا قليـل مـن الشـباب مـن قـوم فرعون، كانوا حذرين مـن أن يعـذبهم مـع ملئـه ليرتـدوا. وذلـك لأن فرعـون حـاكم مستبد متعال، مسرف في غضبه كإسرافه في ملذاته .

ثم توجه موسى لقومه يحضهم علـى الثبـات، وأن يحسـنوا التوكـل علـى الله إن كـانوا حقا مؤمنين مسلمين. والإيمان محله القلب، والإسـلام تصـديق لمـا اسـتقر فـي القلـب بالعمل الظاهر بالجوارح.

أجابه قومه بأنهم متوكلون على الله، ثم توجهوا مظهـرين لحسـن تـوكلهم، مبتهلـين إلـى الله أن لا يجعلهم سببا لافتتـان المـؤمنين الآخـرين، بمـا يسـلط علـيهم مـن عـذاب وتنكيل، حذرا منهم أن يكون عذاب فرعون وملئـه سـببا لارتـداد المـؤمنين الـذين لـم

---

[1] سورة يـس آية 82

يكن إيمانهم بالقوة التي يصمدون بها عندما يشاهدون تعذيب المؤمنين. وأن ينجيهم برحمته الواسعة من القوم الكافرين.

بيان المعنى العام :

83 –فما آمن لموسى إلا ذرية...وإنه لمن المسرفين.

المشهد التالي الذي أظهرت الآية وجها منه، هو الوضع الجديد بعد أن ظهر موسى على السحرة الذين أعلنوا في الحين إيمانهم بموسى، متحدين فرعون كما هو مفصل في قصة موسى في غير هذه السورة.

الذي يتصور من القصة كما جاء في قوله تعالى: (**وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين**)[1] – أن الناس توافدوا على الساحة التي جرت فيها المقابلة، تبعا للدعوة العامة، ولما في المشهد من غرابة تدعو إلى الحضور. وأنه بعد ظهور الحق ظهورا اعترف به السحرة أنفسهم، وتغلغل في قلوب المشاهدين أثره، اندفع شباب من قوم فرعون، وإن كان عددهم قليلا، إلى الإعلان عن إيمانهم ملتحقين بالسحرة؛ وهذا هو شأن الشباب في اندفاعهم، وتحديهم للتسلط، لكون قواهم بقيت سليمة من الذل.

وإبرازا للعلاقة التسلطية من فرعون على قومه، كان هؤلاء الشباب خائفين من الفتنة التي من عادة الجبارين العتاة إنزالها بمن لا يخضع لهم، فيخرج عن إرادتهم، والتي يتسابق المتملقون من الحاشية لإيقاعها على من لا ينقاد انقياد الذليل الأعمى للتعسف؛ وذلك بالتعذيب النفسي والجسدي الذي يتجاوز حد التحمل. وأبانت الآية عذرهم في هذا الخوف بكشف طبيعة فرعون: إنه مستبد قاس يحتقر من هم تحت نظره، وهو مسرف متجاوز للحدود في التنكيل، وفي مباشرته للحياة، وأقل مظاهره الإسراف في الملذات الذي يطبع على النفس ويغشيها بظلام المادة الهابطة. وهذا من طبائع الاستبداد.

84←86: وقال موسى يا قوم...ونجنا برحمتك من القوم الكافرين.

يتحول بعد ذلك موسى لقومه، ليثبتهم بعد انتصاره على السحرة، بما يشحن عزائمهم حتى يكونوا أقدر على تحمل الأذى والثبات. يدعوهم أن يحسنوا التوكل على الله في مجابهة ما يوجبه الكفاح للانتصار على ظلم فرعون. وأن هذا التوكل هو من موجبات الإيمان، لا خيرة لهم فيه. إذ الإيمان الصادق هو الذي يكون به

---

[1] سورة الشعراء آية 40

المؤمن مستشعرا دائما اعتماده علــى عــون الله الــذي مــلأ قلبــه وحســه وتغلغــل فــي أعماقه، وبدون هذا الشعور لا يكون الإنسان مؤمنا. ثم أكــد هــذا الارتبــاط بيــنهم الــذي يلزمهم بالتوكل بشرط آخر، وهــو قولــه: إن كنــتم مســلمين. وإذا كــان الإيمــان محلــه القلب والمشاعر، فإن الإسلام مظهره فــي العمــل والتطبيــق. فهمــا شــرطان متكــاملان الإيمان بالعقيدة الصــالحة، والإســلام بالثبــات علــى العمــل حســبما يقــرره الــدين. إن الإيمان نور يحل بالقلب، والإسلام هو ظهــور أثــر ذلــك النــور فــي الســلوك العملــي. والتوكل شعور بالاستناد إلى العون الإلهي ومحلــه القلــب، والســير العملــي فــي الحيــاة على وفق العقيدة هو الإســلام. ولا قيمــة لأحــدهما دون الآخــر وأكــد علــيهم موســى حسن التوكل بجمعه فــي التعليــق بــين الإيمــان والإســلام: توكلــوا علــى الله إن كنــتم مؤمنين إن كنتم مسلمين.

و استجاب قومه لندائه، وأعلنوا ذلــك بقــولهم: علــى الله توكلنــا واســتندنا إليــه وحــده، نستمد منه القوة لمواجهة بطش فرعــون وفتنتــه. فالإيمــان طاقــة تــدفعهم إلــى الصــبر والطمأنينة، والرضا بالمقــدور، وعــدم التــردد، والإســلام طاقــة يــرتبط فيهــا العمــل بالعقيدة، فيحسنون الاســتعداد، ويتضــامنون فيمــا بيــنهم للتغلــب علــى مكــر فرعــون وملئه.

ثم تسجل الآية أنهم جمعوا بين الإيمان والإسلام فــي ابتهــالهم إلــى الله أن يحمــيهم مــن أن يتغلب عليهم فرعون فيفتتن بقية النــاس بمــا أصــابهم ويكفــرون. وأن يــدخلهم فــي رحمته، الرحمة التي تنجيهم من بطش القوم الذين تمالأوا على الظلم.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

بيان معنى الألفاظ :

تبوأ : اتخذ مكانا لسكناه.

قبلة : يحتمل أن يكون المراد إلى جهة القبلة كما يحتمل أن تكون البيوت متقابلة.

الزينة : ما يُحَسّن به الناس مظاهرهم أو محيطهم.

الطمس : المحو والإزالة.
اشدد :من الشدة بمعنى العسر والحرج .
الاستقامة : مفهوم جامع لخصال الخير والصلاح.

بيان المعنى الإجمالي :

أوحى الله إلى موسى وأخيه بعـد أن ظهـرا علـى السـحرة، وآمـن بهمـا مـن آمـن، أمرهما أن يرشدا المؤمنين إلى طريقة بنائهم الحضاري، وذلـك بـأن يجتمعـوا فـي حـي يبنون فيه مساكنهم على هيئة هندسية واحدة، مشرعة أبوابهـا إلـى القبلـة، وهـو الاتجـاه نحو الكعبة، التي هي ما بين المشرق والمغـرب بالنسـبة لأرض مصـر. كمـا أمـرهم أن يؤدوا الصلاة على أكمل الوجـوه لتكـون أرواحهـم نقيـة متآلفـة. وأعلمهـم بـأن الله يبشرهم بالتأييد والعاقبة الطيبة.

كان موسى عليه السلام يجد في نفسه الحرج الشديد، لأن فرعـون والمقـدمين مـن قومـه ثبتـوا على الكفر، ورأى أن سبب ذلك هو السعة والنعمة التي تـوفرت لهـم مـن زينـة الحيـاة ومباهجها، ومن كثرة الأمـوال التـي آتـاهم الله، فتوجـه إلـى الله أن يسـلب الخيـرات التي مكنهم منها، وأن يسلط عليهم من الكروب والدواهي مـا يجعـل قلـوبهم فـي حـرج شديد حتى يرتدعوا عن غيهم ويشعروا بضعفهم فيؤمنـوا؛ إنهـم لتمـردهم بسـبب الـنعم التي يعيشون فيها لا يؤمنون حتى يـذوقوا العـذاب الألـيم الـذي يفـتح بصـائرهم التـي حجبها الترف.

قال الله: قد استجبت لـدعائكما. ولِيَتَوَاصـل تنفيـذ اسـتجابتي لكمـا، عليكمـا بالاسـتقامة على الطريق الصالح عقيدة وعبـادة وسـلوكا، وإيـاكم أن تتبعـوا سـبيل الجهلـة الـذين ضلوا عن الحق.

بيان المعنى العام :

87- وأوحينا إلى موسى وأخيه...وبشر المؤمنين.

بتبليغ موسى الرسالة، وإظهار المعجـزات المؤيـدة، وإيمـان قومـه مـع جماعـة مـن القبط معظمهم من الشباب، تحقق عامل الوحدة العقديـة المكونـة للأمـة. وحسـب سـنن الله في الكون لا غنى للوحدة العقدية عن جوامـع ماديـة تحفـظ تلكـم الوحـدة، وتمكـن لها من التواصل والاستمرار.

أوحى الله لموسى ولأخيه عليهما السلام ليقوما بمـا يحقـق ذلكـم التوحـد للمـؤمنين فـي الحياة لبناء حضارة مقامـة علـى توحيـد الله وعبادتـه. وإن شـرط البنـاء الحضـاري الذي كان الدين المقوم الأول فيـه، هـو الاسـتقرار الممكـن لمتابعـة التكـوين الفكـري

والعقدي، وتمتـين الامتـزاج بـين أعضـاء الأمـة. لـذلك أوحـى الله لهمـا أن يوجهـا المؤمنين لبناء أحياء سكنية خاصة بهم، وأن لا يبقـوا علـى حالـة التشـتت التـي كـانوا عليها. وأن تكـون أحيـاؤهم مطبوعـة بطـابع مميـز إبـرازا للاسـتقلال الحضـاري. فأمروا أن تكون هندسة بناء مساكنهم على نمط واحـد متجهـة إلـى القبلـة. وهـل القبلـة هي جهة مكة الجنوبيـة، أو أن تكـون البيـوت متقابلـة ؟ ونـرجح الاحتمـال الأول، لأن ما بين المشرق والمغرب هو جهة القبلة (الكعبـة) وهـو مـا يجعـل الـدور معرضـة لدخول أشعة الشمس غالبا، فتكون أنقـى هـواء وأكثـر ملاءمـة للإقامـة فيهـا. وينـتظم شكل البناء الظاهري الذي هو مظهر توحد.

ومع ذلك يبرز التأكيـد علـى العنايـة بـالمقوم الـديني، فـأمرهم بالمواظبـة علـى أداء الصلاة على أتم وجه وأكمله، لتكـون أرواحهـم صـافية متعهـدة بالصـقل مستحضـرة بواسطة الصلاة ارتباطها بالله وارتباط بعضهم ببعض.

إنه بالتكامل بين النواحي المادية الموحـدة، وبـين النـواحي الروحيـة المقومـة، تتحقـق أسباب النجاح، تلكم الأسباب التي لا تفعل فعلها إلا بتيسـير مـن العزيـز الحكـيم، فلـذلك أمرهما، أن يبشرا الأمة برعاية الله لها وأنها بذلك سيكتب لها الفوز.

88- وقال موسى ربنا...العذاب الأليم.

لاقى موسى من فرعون ما لاقـاه مـن العنـاد والإصـرار والمكـر، وفـي حالـة مـن حالات تأملاته في الوضع الذي عليه قومـه، ومـا يرجـو لهـم مـن الهدايـة والمنَعـة، توجه مع أخيه إلى الله بهذا الدعاء المـؤذن بأنـه نتيجـة تـأملات فـي وضـع فرعـون وطريقته في الحياة. مضمون هـذا التوجـه: افتتحـه بـإبراز الصلة الضـارعة بينهمـا وبين الله، فهو ربهما الذي والى عنايته بهما؛ إنهما يواجهـان كـافرا عنيـدا، يتقـوى مـع حاشيته وأتباعه ووجهاء قومه بمـا آتـاهم الله مـن السـعة فـي الـرزق، تبعـا للتقـدم الحضاري الذي كان عليه أهل مصر في زمن موسـى، وبـذلك تمكنـوا بـه مـن التفـنن في مظاهر الزينة في لباسهم وأجسامهم ومحيطهم، فألهى ذلـك النـاس عـن النظـر إلـى ما ينطوون عليه من شر وفساد، وتملكهم الإعجاب بذلك وطوعهم للانقياد لهم.

رزقتهم ربنا سعة في المال، إذ أن الحضـارة يتبعهـا الرخـاء المـادي، وكثـرة الأمـوال تطوع الدهماء للانقياد والتبعية، فاستعملوا ذلك للإضـلال وانحرفـوا بهـم عـن الطريـق المستقيم طريق الله.

هذا كان حاصل تأملات موسى، وما توصـل إليـه مـن الأسـباب التـي جعلـت شـعب مصر على الحالة التي هو عليها. وإنه ليرغب رغبـة أكيـدة، كشـأن كـل المرسـلين، أن

يتحولوا عن طريق الضلال إلى طريق الهدايــة. فأعــاد ضـسراعته بقولـــه: (ربنـــا) أخـــذ في الدعاء الذي يظن أنه باستجابته ينتصر الإيمان على الكفر.

طلبا من ربهما أن يزيل ما يتقوّوْن بـــه مـــن الأمـــوال، وأن يخـــرجهم مـــن حالـــة الرفـــاه والأمن والراحة، إلى حالة من الشدة والعســـر فتتـــوالى عليـــه الأنكـــاد، وتتـــابع القـــوارع والأحزان، فتضيق قلوبهم عن تحمل المصـــائب، حتـــى يفيقـــوا إلـــى ضـــعفهم وعجـــزهم فيؤمنوا .إنهم ربنا لغلظ أكبادهم وما اســـتدرجوا بـــه مـــن أنـــواع النعـــيم، لا يؤمنـــون إلا إذا نفذ فيهم العذاب الشديد الإيلام وأحسوا به بالغ الإحساس.

89- قال قد أجيبت ...لا يعلمون.

أظهرت هذه الآية سنة مـــن ســـنن الله فـــي اســـتبقاء الخيـــر، واســـتدامة النعمـــة. علـــى المؤمنين أن يواصلوا ما هم عليه من التقوى والالتزام بشرع ربهم.

أعلم الله موسى وأخاه أنه حقق لهما ما طلباه، واســـتجاب لـــدعائهما فـــي فرعـــون وملئـــه. وأمرهما أن يواصلا السير على الطريـــق المســـتقيم بتطبيـــق مـــا شـــرعه الله لهمـــا مـــن الأحكام في المعاملات والنظافـــة فـــي الأخـــلاق والســـلوك لينفـــذ الوعيـــد فـــي فرعـــون وقومه ويتواصل. وتأكيدا لهذا الأمر صـــرح بـــالنهي عـــن ضـــده، وهـــو إتبـــاع طريـــق الجهلة الذين حجبهم جهلهم عن معرفة الحق فاتبعوا طريق الضلال.

۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾

بيان معنى الألفاظ :

أتبعهم : لحقهم.

بغيا: ظلما.

العدو : الظلم الشديد.

الإدراك : اللحاق.

خلفك : الذين يأتون من بعدك.

بوأناهم : أسكناهم.

بيان المعنى الإجمالي :

يسر الله لبني إسرائيل أن يخرجوا من أرض مصـر دون أن يـتفطن لهـم فرعـون فـي أول الأمر. فاتبع أثرهم يريد أن يبطش بهم على عادته فـي الظلـم والقسـوة. فلحـق بهـم وهم قريبون من البحر، فسلكوه علـى مـرأى منـه، فـاتبع طـريقهم فيـه مـع جنـوده، فأطبق عليه البحر وأخذ يهبط ويطفو حتى إذا خـارت قـواه أعلـن قـائلا: آمنـت بالـذي آمنت به بنو إسرائيل، وأنا من المسلمين. ويدخل سـمعه هـاتف الحـق منكـرا أن يفيـده إقراره في ذلك الظرف شيئا. ثم يؤنبـه بمـا كـان عليـه طيلـة حياتـه مـن العصـيان والتمرد، من الفساد بالظلم ومنـع النـاس مـن حقـوقهم والكفـر والإسـراف. وأن مـا رجاه من النجاة قد تحقق، لكن لجثتـه فقـط. وفعـلا قـذفها البحـر سـليمة مـن نهـش الأسماك، ليكون على وضعه وهو ملقى على الشـاطئ ميتـا لا حـراك بـه، آيـة ودلـيلا للذين يأتون من بعده، من الفراعنة ومـن الحاشـية ومـن النـاس، علـى أن قـدرة الله لا تغالب. إن ما يقيمه الله من الآيات يهدي لمعرفة الحـق، ولكـن غفلـة النـاس عمـا فـي الآيات من دلالات هو الذي يجعلهم لا يتعظون. أنعـم الله علـى بنـي إسـرائيل فأسـكنهم في أرض مباركة بعد أن اجتازوا البحر، كمـا أنعـم علـيهم بتوسـعة الـرزق. الطيـب. ومضوا على تلك الحال إلـى أن أنـزل الله علـيهم التكـاليف، فـاختلفوا اختلافـا فـرق كلمتهم، وسيحكم الله بين المتخالفين فيظهر الحـق ويجـازي كـلا حسـب قصـده عنـد الاختلاف.

بيان المعنى العام :

90–وجاوزنا ببني إسرائيل...وأنا من المسلمين.

ينتقل القرآن متحدثا عن بني إسرائيل، طاويـا الفتـرة بـين مفـاد الآيـة السـابقة وهـذه الآية. إن ما قدمه موسى من جمع قومه في حـي واحـد مميـز سـهّل الاتصـال بيـنهم، كان لحكمـة أظهرهـا الله فـي الوقـت المناسـب، الـذي أذن فيـه لموسـى وقومـه أن يغادروا أرض مصر، مجتازين اليابسة والبحـر إلـى الضـفة الأخـرى، دون أن يـتفطن فرعون وزبانيته لخروجهم. والظلمة المسـتبدون يعتبـرون هـذا تحـديا غيـر مقبـول. ولذلك جمع جنـوده مصـمما علـى اقتفـاء أثـرهم واللحـاق بهـم وتطـويقهم ليـردهم صاغرين، لينفذ فيهم ما هو شأنه مـن الظلـم والتعـذيب. إذن كـان يدفعـه لـذلك ظلمـه واستبداده (بغيا وعدوا). إنـه مـن حقهـم الإنسـاني أن يقيمـوا فـي أرض مصـر أو أن

يخرجوا منها؛ فاقتفاء آثارهم لردهم قسرا تعد علـــى الحريـــة الإنســـانية وهـــو ظلـــم، بـــل هو من أشد الظلم.

إذن تفطن فرعون مؤخرا لخروج بنـــي إســـرائيل بـــدون اســـتئذان، أســـرع فـــي اللحـــاق بهم، ووجدهم قد دخلوا في البحـــر يقطعـــون مـــا بـــين الضـــفتين، فأخـــذ الطريـــق الـــذي سلكوه، فلما كان في وسطه أطبقت عليه أمواج البحر هادرة فغرق.

أيقن بالهلاك وهو يهوي ويطفو، فأعلن إيمانـــه بالـــذي آمنـــت بـــه بنـــو إســـرائيل. وتفيـــد الآية أنه لعناده ما كان يتأمل، وهو في سلطانه وعتوه، الهدايـــة التـــي جـــاء بهـــا موســـى، والتي تقوم على أن خالق الكون واحد أحد هو إله الكون كلـــه. فلـــذلك عـــرف الإلـــه بأنـــه إله بني إسرائيل. مع أن الله سبحانه هو إلـــه الســـماوات والأرض وبينهمـــا، وإلـــه البشـــر جميعا.

91←92: ءالآن وقد عصيت...عن آياتنا لغافلون.

تفصل الآية مآل فرعون بعد أن أخذ البحر يبتلعه، وهـــو فـــي آخـــر لحظـــة ينـــادي: إنـــي آمنت بإله بني إسرائيل وأنا من المسلمين. وعندها يتوجـــه لفرعـــون نـــداء صـــادق كـــان آخر ما طرق سمعه. استفهام إنكاري عمـــا صـــرح بـــه. أفـــي هـــذا الظـــرف الحاضـــر تعلن إيمانك ؟ إنكار أن يكون ما صرح به ينقذه مـــن الغـــرق، أو يكتـــب لـــه بـــه النجـــاة. ذلك أن الإيمان لا تترتب عليه آثاره ولا ينفـــع صـــاحبه، إلا إذا كـــان عـــن اختيـــار. بـــل إن كل ما يصدر عن الإنسان في الحياة من أفعـــال لا ترقـــى إلـــى درجـــة القبـــول إلا إذا صدرت عن صاحبها وهو مختار لا مضـــطر. وبالجملـــة فالاضـــطرار وســـلب الاختيـــار هو خروج بالإنسان عن دائرة التكليف في الخير أو فـــي الشـــر، وتَتَكَّـــر إذا كـــان بـــالقوة القاهرة، لما أراده الله من استخلاف الإنسان فـــي الأرض. وأضـــاف الصـــوت الـــذي بلـــغ دخائل سمعه، وما بقي من وعيه، مؤنبا له عما قدم يـــوم كـــان بيـــده الحكـــم، لقـــد ســـرت على العصيان قبل هذه اللحظـــة، وأضـــفت إلـــى عصـــيانك أنـــك كنـــت تمكـــن للفســـاد بالسيطرة مع الملأ الذين كانوا حولـــك. ظلمـــت النـــاس، وحلـــت بيـــنهم وبـــين الإيمـــان، وقويت السحر والتمويه بما أفسد عقول شعبك. إنك إن كنـــت تهـــدف مـــن إقـــرارك هـــذا النجاة، فقدتم لك ذلك، ولكـــن ننجيـــك ببـــدنك، ونحـــتفظ بجثتـــك،و نســـلمها مـــن نهـــش الأسماك، وندفعها إلى الشاطئ لتكون لمن يأتي من بعـــدك مـــن الفراعنـــة والأتبـــاع وكـــل من يعلم بمصيرك، دليلا على أن قدرة الله لا تغلـــب، وأن مـــآل الجبـــابرة إلـــى الهـــلاك والخزي، وأن ما يدعيه الناس لفرعون من كونـــه مـــن نســـل الآلهـــة وأنـــه مخلـــد، وأن روحه تعود إلى جسمه لتستمتع بما كان يفضـــله فـــي حياتـــه، ممـــا تـــدل عليـــه الآثـــار

الفرعونية في الأهرام التي بنوها على هذا التصور؛ كل ذلك أوهام يقوم إلقاء البحر لجثتك، على زيفها. إن آيات الله الداعية للتأمل فيها والاتعاظ بها محققة للمراد منها، إذا نظر فيها الإنسان وتعمق فيما تدل عليه، ولكن التقصير من كثير من الناس بالغفلة عنها، هو الذي حجبهم عن الإفادة منها.

93-ولقد بوأنا بني إسرائيل...فيه يختلفون.

بكل تأكيد أنعم الله على بني إسرائيل بعد أن اجتازوا البحر، ونجوا من فرعون وملئه، فأسكنهم في مساكن آمنة بعيدة عن الاضطراب والخوف. وزادهم نعمة بتوسيع الأرزاق، ومكنهم من طيبات الأطعمة، فهم لم يخشوا جوعا ولم يضطروا إلى شظف العيش والمنكر من الغذاء.

ثم مضوا على هذا الحال مدة، كلمتهم واحدة وحياتهم رخية آمنة. إلى أن توالت عليهم التكاليف التي حددت لهم ما يقبلون عليه، وما ينصرفون عنه. فجاءهم التشريع المفصل لعلاقة الإنسان بمتنوع مظاهر الحياة المدنية، وعندها اختلفوا. لم يفصل القرآن ما اختلفوا فيه وما تفرقت عليه كلمتهم، ولكنه نبه المؤمنين أن عليهم أن يتخذوا من التشريع ما يوحد الكلمة ويقوي أواصر الاتصال بين المخاطبين به. كما نبه إلى أن الاختلاف إذا تمكن فإنه سيستمر، ومن الاختلاف البسيط يدخل الشيطان ليفرق ويقوي التحزب، ويصرف عن إتباع الحق والرضوخ له إلى محاولة الغلبة والانغماس في التأويل. وقرر القرآن أن الله سيحكم بينهم فيما اختلفوا فيه يوم القيامة، فيجازي من كان همه إتباع ما يظنه الطريق الذي يرضي الله جزاء مضاعفا إن هو وصل إلى الحق، ويجزيه عن اجتهاده إن هو صدق في اجتهاده ولم يوفق إلى الحق المقرر عند الله. ويعاقب من عرف الحق وكتمه وحاد عنه، أو من كان جاهلا معاندا متظاهرا بالعلم.

فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾

بيان معنى الألفاظ:

الامتراء : هو الشك فيما لا شبهة تبرر الشك فيه.

حقت: ثبتت.

كل آية : آيات كثيرة.

بيان المعنى الإجمالي :

إذا كنت تعجبت من اتباع فرعون وجنوده لموسى حتى دخلوا الطريق الذي سلكه وسط البحر، وأخذت تتساءل كيف يصل به الغباء إلى هذا الحد، فاسأل الذين يقرأون التوراة، فإن القصة معلومة عندهم. فاهنأ بما يسره الله لك من معرفة الحق.
ثم توجه الخطاب لكل فرد ممن يبلغه كلام الله أن لا يكون من الواقفين عن تقبل حقائق الوحي. وثنى بالنهي عن التكذيب بالأدلة الآتية من ربك، فإن من كذب بها يكون من الخاسرين الذين ذهب كل ما عملوا من خير هباء.

إن الذين علم الله تصميمهم على الكفر وأنهم لا ينظرون في الآيات التي تبلغهم، ويعرضون عن كل تعليم أو تذكير، هم الذين ثبت ما سبق في علم الله، أنهم لا ينفتحون للإيمان، ولو توالت عليهم الآيات المتتابعة الكثيرة. ولا يؤثر فيهم ذلك، ولا ينقادون للحق إلا بعد أن يذيقهم الله العذاب الأليم.

بيان المعنى العام :

94←95: فإن كنت في شك...فلا تكونن من الممترين.

هذه الآية إن فهمت على ما يقتضيه ظاهرها كانت مشكلة.

أولا: لأنه ثبت يقينا بأدلة العقل والنقل أن النبي ﷺ بلغ إيمانه درجة من الوضوح واليقين والحضور في الروح والمشاعر بصفة دائمة، ما لم يصل إلى مستواه أي فرد من البشر. وهذا أمر لازمه ولم يفارقه لا في يقظة ولا في منام. وفي آخر لحظة من حياته كما روته عائشة رضي الله عنها قال: مع الرفيق الأعلى.

ثانيا: صياغة الآية جاءت بشكل الخطاب للنبي ﷺ إن كنت في شك، مما أنزلنا إليك، **فاسأل**، من قبلك، جاءك. مما يقتضي ظاهره أنه خوطب بتعريفه بالطريقة التي يزيل بها شكه إن وقع.

وبناء على ذلك فزع المفسرون إلى الخروج بالكلام عن ظاهره، دفعا للتناقض الذي يقتضيه ذلكم الظاهر. وقد اعتنى الإمام الرازي فخرجه على طريقتين:

الطريقة الأولى: أن الضمائر موجهة إلى النبي ﷺ والمقصود غيره. وهذا نظير قوله تعالى لمحمد: لئن أشركت ليحبطن عملك، وقوله لعيسى: أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين. ومن الأمثلة المشهورة: إياكِ أعني واسمعي يا جارة. وهذا من باب التعريض.

ووجه الخروج عن الأصل إلى الخطاب بسبعة أوجــه. فــي كثيــر منهــا مظــاهر ذكــاء وتمحل. وفي تتبعها ما يخرجنا عن المنهج الذي التزمناه.

الطريقة الثانية: الخطاب ليس مع الرسول، ولكن مــع الشــاكين: إن كنــت أيهــا الإنســان في شك مما أنزلناه إليك.[1]

و خرج الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور على احتمالين:

الأول: أطلق الشك وأريد به أصحاب الشك، أي فإن كنــت فــي قــوم أهــل شــك ممــا أنزلناه إليك، فاسأل اليهود يخبروك عما عنــدهم وهــو عــين مــا أخبــرتَهم بــه. فتكــون الآية ملجئة للمشركين ليعترفوا بصدق الرســول. باعتبــار أن التوافــق بــين مــا أنــزل عليك وما هو موجود في التــوراة بشــهادة أهــل الكتــاب قــاطع لمعــذرتهم. إذ لا يشــهد اليهود بما يصدقك وهم لا يؤمنون بك.

الثاني: أن يكون الكــلام صــيغ صــياغة التعــريض، فالمقصــود هــم المشــركون فــي الحقيقة، وظاهر الكلام موجه إلى النبي ﷺ.

والذي فهمته من الآيــة أن الآيــة الســابقة أثبتــت أن فرعــون وجنــده اتبعــوا موســى وقومه، ودخلوا من المسلك الذي ســلكه بنــو إســرائيل، وهــو مســلك يعــرف فرعــون ومن معه أنه في وسط البحر المتلاطم الأمــواج. وكيــف أن فرعــون الــذي كــان يــدبر ملك مصر بدهاء واستبداد، كيف يسلك هذا المســلك الــذي لا يرمــي بنفســه فيــه حتــى أشد الناس غباء ؟ أخذ النبي ﷺ يتدبر فيمــا أنــزل إليــه، ويعجــب مــن الحادثــة، إذ أن الذين سحقوا بالعذاب العاجل من المشــركين فــي تــاريخ البشــرية، مــن الــذين قــص علينا القرآن مآلاتهم، كان العذاب مسلطا عليهم بقــوة قــاهرة، أمــا فرعــون وقومــه فقــد هلكوا باختيارهم ما لا يختاره من له مسكة من العقــل، ففــي هــذا التــدبر الــذي يفــرض الفروض لتصور الحادثة، والذي يرقى به الإيمــان ببحثــه عمــا يزيــل العجــب، جــاءه الوحي ينير له ما ينفي تعجبــه، باعتبــار أن ذلــك أمــر معــروف عنــد الــذين يقــرأون التوراة. ويثبت أن ما نزل عليه في هذه القصة من الحــق الــذي بلغــه مــن ربــه، وأنــه حق لا شك فيه. فالمقصود والله أعلم أن هذه الآية متعلقــة فقــط بقصــة غــرق فرعــون، لا بكل ما أنزله الله عليه من القرآن.

وعلى هذا النسق من الحق الثابت في كل ما أوتيه النبــي ﷺ مــن الــوحي، يترتــب عليــه أن على كل مخاطب أن لا يكون شاكا في أي ممــا عرضــه. وثنــى بــالنهي نهيــا عامــا

[1] التفسير الكبير ج 5 ص 28/26

عن التكذيب بآيات الله، ذلك أن المكذب بآيات الله لـيس لـه إلا مـآل واحـد وهـو أنـه سيكون مقرونا لزمرة القـوم المفلسـين مـن الخيـر الـذين خسـروا كـل شـيء، فـلا ينتفعون بأي عمل من أعمالهم ولو ترتب عليه نفع في الظاهر، إذ هو عمل محبط.

96←97 : إن الذين حقت عليهم ...العذاب الأليم.

من الناس من إذا جاءه أمر جديد تأمل فيه ووزنه بميـزان عقلـه وتجاربـه، ومـنهم مـن يقوم في عقله سد يمنعه من النظر، ويحجبه عـن التـدبر. إن النـوع الثـاني هـم الـذين تمسكوا بالرفض لكل ما جاء به النبي ﷺ، ولـو تكـاثر ورود الآيـات الواضـحة الدلالـة على عقولهم ما انتفعوا. لقد سبق في علم الله اختيار هـؤلاء لهـذا المـنهج فـي حيـاتهم ؛ فهم لا يؤمنون حتى يسلط الله عليهم عذابه الأليم كما وقع لفرعون عند غرقه.

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَٰنُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾ فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

كشفنا عنهم : رفعنا عنهم فلم نصبهم.

الخزي : المهانة والذل.

الإكراه :الإلجاء وفرض إرادة الشخص على غيره.

الرجس : الخبث والفساد، وهو الكفر في الآية.

الأيام : ما يقع فيها من الأحداث العظيمة القاهرة.

بيان المعنى الإجمالي :

تسجل الآية اللوم والتخطئة لكل قرية من القـرى السـابقة التـي دعاهـا رسـولها إلـى طريق الله، لتنتفع بإيمانها، وواصـلت العنـاد إلـى أن حـل عليهـا العـذاب، إلا قـوم

يونس من الذين تابوا وآمنوا قبل أن تحل علـــيهم النقمـــة. فرفـــع الله عـــنهم العـــذاب بعـــد أن تهيأوا له، ومتعهم بنوافل فضله في الحياة الدنيا.

هذا قانون الله الذي أجرى عليه خلق البشـــر، أن كـــل فـــرد ممكـــن مـــن الخيـــر والشـــر والإيمان والكفر، ولو شاء الله أن يؤمنوا كلهم لآمنوا ولمـــا وجـــدتَ كـــافرا. فهـــون عليـــك فإنك لا تستطيع أن تجعل الناس كلهم مؤمنين.

إنه لا يستطيع أي فرد أن ينفتح للإيمان إلا بـــإذن الله، فيطـــوع عقلـــه للإيمـــان تبعـــا لمـــا يحيطه به من العون ويصرفه عنـــه مـــن الصـــوارف. ويســـلب الله العـــون عـــن الـــذين اختاروا الكفر فأقفلوا عقولهم حتى استووا مع غير العقلاء.

كتاب الكون أمامكم فانظروا مـــا تحويـــه الســـماوات والأرض مـــن دلائـــل تنـــادي بأنهـــا مخلوقة لله، وأن الله هو المتصرف فيها. ولكن الأدلة الناطقـــة لا تفيـــد مـــن أطبـــق الكفـــر على عقله، كما لا تفيدهم الزواجر ولا الوعيد.

بعد هذا الإيقاظ لما يقتضيه العقل، ولما تقوم عليه شواهد النظـــام فـــي الكـــون، مـــا الـــذي ينتظره الكافرون ؟ هل ينتظرون أن يحل علـــيهم العـــذاب الـــذي ســـلط علـــى مـــن كـــان قبلهم؟ قل لهم انتظروا ما ســـيتحقق فـــي المســـتقبل؛ فـــإني منتظـــر تحققـــه معكـــم. أنـــتم تنتظرون أن يحل عليكم غضـــب مـــن ربكـــم وذلـــة، وأنـــا أنتظـــر أن ينصـــرني ربـــي. ويعلن الله أنه ينجي رسله والمؤمنين من العذاب الذي ســـيأتيهم. فإنـــه علـــى هـــذا النحـــو من قصر العذاب عليهم، وحماية المؤمنين جرى قدره.

بيان المعنى العام :

98-فلولا كانت قرية ...إلى حين.

صيغت هذه الآية صياغة خاصـــة، تـــدعو المتطلـــب لفهمهـــا أن لا يعجـــل، وأن يتتبـــع الطريقة التي صيغت بها بتأمل، وبتدقيق للاســـتعمال العربـــي فـــي الأدوات التـــي دخلـــت في تركيبها.

افتتحت الآية بقوله تعالى (**فلولا**) وهذه أداة، الأصل فيهـــا أن تفتـــتح بهـــا الجمـــل لتكشـــف عن قصد المتكلم حث المخاطب على الاســـتجابة لمضـــمون كلامـــه، وهـــي قريبـــة مـــن (هلّا).وذلك عندما يكون الكلام للزمن المستقبل كـــأن تقـــول للتلميـــذ: لـــولا تجتهـــد أكثـــر لتتفوق في الامتحان. أمـــا إذا كـــان مـــدخولها ماضـــيا فالحـــث منتـــف، وتكـــون عنـــدها للدلالة على أن المخاطب وقع في خطأ يـــلام عليـــه ويـــوبخ. كـــأن تقـــول لمـــن سُـــرِقَتْ داره: لولا أحكمت قفل بابـــك مـــا تمكـــن الســـارق مـــن الـــدخول إلـــى منزلـــك. والآيـــة متمحضة للمضي، إذ مضمونها: التشـــهير بـــالغلط الـــذي وقعـــت فيـــه القـــرى الماضـــية

التي جاءها المرسلون وعرفوهم بهداية ربهم فصـــمموا علـــى الإعــراض، ولـــو آمنـــوا لانتفعوا بإيمـــانهم ولـــم يسـلط علـيهم العـذاب. فهـو تـوبيخ لجميـع القـرى السـابقة المعرضة عن قبول الهداية إلى أن حل عليهم العذاب. وقـد سـبقت قصصـهم فـي هـذه السورة وآخرها قصة فرعون.

واستثنت الآية من القرى التي واصلت رفضـها إلـى أن انـتقم الله منهـا، اسـتثنت قـوم يونس ؛ الذين أنذرهم نبيهم عاقبة التمادي على الكفر، وهـددهم بمـا أخبـره الله بـه مـن العذاب الذي سيحل بهـم إن لـم يؤمنـوا ويصـلحوا أمـورهم ويتبعـوا شـريعة ربهـم. ووصل الأمر بيونس إلى أن عاجله اليـأس مـن صـلاحهم وغـادرهم. وتفطنـوا عنـدما لم يجدوه بين أظهرهم أنه ما خرج من قـريتهم، نَيْنَـوَى بـالعراق علـى ضـفاف دجلـة، إلا أن العذاب يوشك أن ينزل بهم، فأنابوا إلـى ربهـم، وآمنـوا وطبقـوا مـا شـرعه الله لهم، فرفع الله عنهم العذاب ؛ ويسر لهم معيشتهم فلـم يؤاخـذهم، كرمـا منـه، بمـا سـبق منهم من التكذيب والعصيان. يسر لهم من متـاع الـدنيا الـذي ينقضـي بانقضـاء أجـل كل واحد منهم. وأما وضـعهم يـوم القيامـة فإنـه يجـري علـى العـدل الإلهـي الـذي سيقضى به على جميع البشر.

وسيتعرض القرآن في سورة الإسراء إلى تفاصيل أوْفَى عن يونس عليه السلام.

وهذه الآية تحريض لمشركي مكـة كـي ينقـذوا أنفسـهم ويؤمنـوا، كمـا فعـل أهـل نينوى، قبل أن يتحقق فيهم الوعيد.

99-ولو شاء ربك ...يكونوا مؤمنين.

تنتظم هذه الآية مع أخواتها في القرآن الكريم لتؤكـد: أن الله فطـر النـاس ممكنـين مـن الاختيار، وأنه أعطى لكل فرد القوى العقلية التي بهـا يميـز بـين الخيـر والشـر. هـذه مشيئته وما شاء وقـع ولا يمكـن أن يقـع غيـره. فلـو شـاء أن يجعـل النـاس كلهـم منصرفين إلى الخير وإلى الإيمـان لكـانوا مـؤمنين، ولا تجـد تبعـا لـذلك أي رافـض للحق، ولكنه لم يشأ أن يجعل البشر نمطا واحدا.

وتخفف هذه الآية وتسلي رسـول الله ﷺ، إذ شـديد حرصـه علـى إنقـاذ البشـرية مـن الكفر، وغرس الإيمان في قلوبهم، جعله يحمل هـذا الهـم ويـود لـو وجـد السـبيل إلـى النجاح في انتشالهم من الكفر، فكأنـه لشـدة حرصـه يعمـل علـى حمـل النـاس علـى الإيمان حملا ولو بالقوة. وفي هذا تنويه بالنبي ﷺ، بما يحملـه فـي نفسـه الكريمـة مـن حب الخير للبشرية جميعا.

100-وما كان لنفس ...الذين لا يعقلون.

تعمق هذه الآية مضمون ســابقتها بتقريــر أن أي نفــس لا تســتطيع أن تحقــق إيمانهــا في الوجود إلا إذا أذن لها الله بأن تؤمن . ومعنـــى ذلـــك، أنهـــا لا تســتطيع أن تـــؤمن إلا إذا أيدها الله بالألطاف التـــي تأخـــذ بعقلهـــا إلـــى طريـــق الإيمـــان، وأن يصـــرف عنهـــا المعوقات التي تحول بينها وبينه. مـــع بقـــاء الاختيـــار للإنســـان فـــي الإيمـــان أو الكفـــر، وفعل الخير أو فعل الشر. فـــإذا أذن الله فـــي إيمانهـــا انســـاقت لهـــا الظـــروف الداخليـــة والخارجية للإيمان فيحصل الإيمـــان دون أن يتعطـــل العقـــل أو يحجـــب عـــن الاختيـــار. وفي المقابل فإن الله يمنع ألطافه وتأييده للـــذين فســـدت عقـــولهم فيتـــركهم إلـــى نفوســـهم فيختارون الكفر المسؤولون عنه. خذ لذلك مثلا: كون الإنســـان يولـــد فـــي بيئـــة مؤمنـــة، وييسر له الاتصال بأهل الخير والفضـــل الـــذين يـــؤثرون فيـــه التـــأثير الصـــالح، وينشـــأ عقله على تغذيته بما يعينه على الاستقامة في النظر، ويكـــون عقلـــه محصـــنا مـــن الزيـــغ أو من تقبل التشكيك. هذه أمور لا تسلبه الاختيار الـــذي هـــو مســـؤول عنـــه وهـــي بـــإذن الله، وهي التي يتبعها الثبات على الإيمان.

فإذا انحرف العقل انساق إلى الضلال والفساد وبالتـــالي إلـــى الكفـــر، إذ تعطلـــت ملكـــاتهم العاقلة، فهم لا يعقلون، ولو استقامت عقولهم ما كفروا.

101-قل انظروا ...قوم لا يؤمنون.

قل لهم: افتحوا أبصاركم، وافتحوا بصائركم للتأمل العقلـــي فيمـــا حوتـــه الســـماوات، ومـــا استقر في الأرض. إن ما ينقله لكـــم البصـــر ممـــا تحويـــه الســـماء مـــن كواكـــب ومـــن سحب وأمطار إلى آخر ما يقع تحت المشاهدة، وإن ما تثيـــره تلكـــم المشـــاهد فـــي العقـــل من دعوة للتأمل في القوانين المســـيرة والتنســـيق المحكـــم والنظـــام الـــدقيق. وكـــذلك مـــا تتلقونه من مشاهد الأرض، التـــي تســـيرون فـــي مناكبهـــا، بأبصـــاركم أو عقـــولكم، هـــو كتاب الكون الذي يقوم دليلا وشاهدا يوصـــلكم إلـــى الإيمـــان. إن الظلاميـــين مـــن الـــذين ينكرون الخالق، الذين وسموا أنفسهم بالعلمـــانيين، ووهمـــوا وأوهمـــوا أنهـــم لا يحكمـــون إلا العقل، لو سألتهم فقلت لهـــم :إن النظـــام كمـــال، والفوضـــى نقـــص، ونحـــن جميعـــا نشاهد هذا النظام فمن أحكمـــه؟ قـــالوا: الطبيعـــة. وإذا ســـألتهم مـــا هـــي هـــذه الطبيعـــة الفاعلة التي يسندون إليها التأثير؟ لا يزيدون عـــن تـــرداد: الطبيعـــة. فهـــم خرجـــوا مـــن نور العقل والإيمان إلى ظـــلام الطبيعـــة والكفـــر. إنهـــم لـــم يفيـــدوا مـــن هـــذه الآيـــات المبثوثة في الكون ما تنطق به مـــن الـــدلائل. كمـــا لـــم يســـتفيدوا مـــن تنبيـــه المرســـلين والمصلحين إلى ما يترصدهم من خسارة مآلهم تبعا لكفرهم بالله.

102←103: فهل ينتظرون ...ننج المؤمنين.

إنه بعد التـــذكير، ولفــت الأنظـــار إلـــى مشـــاهد الكـــون الناطقـــة بمـــا وراء نظامهـــا، وإحكام خلقها من القدرة الإلهيـــة، يثـــور ســـؤال: أي شـــيء ينتظـــرون قدومـــه ليؤمنـــوا ويقلعوا عن الكفر ؟ويأتي الجواب مضمنا فـــي الســـؤال، ينتظـــرون أن يحـــل بهـــم مثـــل الأحداث العظيمة التي حلت بمن سبقهم من المعانـــدين؟ ثـــم توجـــه الخطـــاب لرســـول الله ليقول لهم: ترقبوا مثل تلكم الأيام، فإني مترقب مثلكم مـــا يقضـــي بـــه الله. علـــى معنـــى: إنكم تترقبون حلول العذاب بكم، وأنا أترقب التأييد من الله.

وتصرح الآية بأن حلـــول العقـــاب بهـــم ونـــزول العـــذاب علـــيهم، يقصـــره الله علـــيهم وينفردون بخزيه؛ ويتولى الله إنجاء الرسل والمـــؤمنين كقاعـــدة ســـبقت وتســـتمر، إن مـــا أوجبه الله على نفسه أنه يحفظ المـــؤمنين مـــن مواقـــع الإذلال والعـــذاب والمهانـــة التـــي يسلطها على الكافرين.

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ ۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَـٰكِمِينَ ﴿١٠٩﴾

بيان معنى الألفاظ :

يمسك : يصبك.

الضر : كل ما يكره الإنسان حصوله لنفسه أو لمن يحب.

بيان المعنى الإجمالي

أمر لرسوله أن يعلم كل إنسان وجد عند نزول الآيـــة أو ســـيأتي مـــن بعـــد، يعلمـــه بأنـــه إن كان قد احتواه الشك في ديـــن الإســـلام، فـــإني رافـــض لمـــا تعبـــدون مـــن دون الله، سواء أكان صنما أو هوى. ولكني أفرد الله بالعبـــادة الـــذي يتصـــرف فـــيكم فيميـــتكم فـــي الوقت الذي حدده لوفاتكم. وإني مأمور بأن أكون في موكب المؤمنين.

كما أمرت أن أخلص جميع كياني للدين، منصــرفا عــن كــل التصــورات المخالفــة لمــا قرره، وأن أبتعد عن مجموعة المشركين بالله، فكل صلة بهم مقطوعة.
هذا الإخلاص في التوحيد يقتضي مني أن لا أســتعين بالعــاجزين عــن نفعــي كعجــزهم عن الإضرار بي، فأنا لا أتقرب ولا أتوسل إلــيهم، لأن مــن يفعــل هــذا ويــربط آمالــه بغير الله يكون ظالما لنفســه، إذ علــق التحصــيل علــى النفــع أو دفــع الضــر بمــن لا يستطيع عونه ولا التأثير في الواقع.
إنه إن يصبك الله المتصرف وحده في الكــون، بمــا يضــرك فــلا تســتطيع أي قــوة أن ترد قضاءه، وإن تعلقت إرادته بأن يمنحك مــا ترغــب فيــه مــن الخيــر، فــإن فضلــه سيأتيك ولا تستطيع أي قوة رده. إن فضله يُمَكَّــن منــه مــن يشــاء مــن عبــاده، وهــو فضل منه، يتجاوز ربنا عن تقصيرنا وقصورنا، لأنه هو الغفور الرحيم.
قل للناس جميعا مقالا يتردد ما بقي الزمن: لقــد بلغكــم القــرآن وشــرع الله، فمــن أخــذ بما جاءه، وأذعن له، فإنما نفع نفسه لما يرجوه مــن رحمــة الله، والوقايــة مــن عذابــه.
ومن حاد عن طريق الحق، فكفر بالله ورفض شريعته فإنمــا أوقــع الضــر علــى نفســه.
وإني مبلغ عن ربي وقد بلغت، ولست ملزما أحدا بما بلغته قهرا.
و بعد هذا: واصــل اتبــاع الطريــق المســتقيم الــذي أنــت عليــه، واصــبر علــى أذى المشركين، حتى يحكم الله بينــك وبيــنهم بنصــرك علــيهم وظهــور الإســلام. والله هــو الحاكم القوي الذي لا يرد حكمه ولا يجور فيه.

بيان المعنى العام :

104-قل يا أيها الناس...من المؤمنين.

أمر من الله لرسوله أن يقول لمن لم يبلغ درجــة اليقــين مــن صــدق مــا أتــى بــه: إن كنتم لم تطمئنوا إلى أحقية ما أتيت به من ديني الذي أنا واثــق مــن كونــه مــن عنــد الله، برأني الله من الشك فيه، وقد خالط قلبي ومشــاعري حتــى صــار جــزءا منــي. فلــذلك نسبه القرآن لنفس محمد (ديني). وإذا كان الشك ينخــر عقــولكم، فــإني علــى يقــين مــن صدق ما أتيت به، وأن ما تدينون بــه باطــل فاســد وغيــر صــادق، فأنــا لا أتبعــه ولا أعبد ما تعبــدون. ولكنــي أعبــد الله الواحــد الأحــد الــذي يتصــرف فــيكم تصــرفا لا تستطيعون الانفلات منه. فهو الذي يميــتكم فــي اللحظــة التــي قــدر أن يتوفــاكم فيهــا.
ومن حكمة القرآن أن اختار للتدليل على تفــرد الله بالتصــرف تقــديره وتنفيــذ مــا قــدره في أجل كل نفس؛ فإن الحياة أقرب ما يملكــه الإنســان ظــاهرا، فالتنصــيص علــى أنــه واهم غير مالك لها في الحقيقة، لأن الله يقبضها إليــه متــى شــاء، لأظهــر دليــل علــى

فساد معتقداتهم. والعقيدة الواضحة الصحيحة: هي ما أمرنـــي بـــه ربـــي أن أكـــون ســـائرا في موكب الإيمان المهتدي في الكون.

105 ←106، وأن أقم وجهك...من الظالمين.

و أمرت بتخصيص عقلـــي ومشـــاعري ومـــداركي للتمســـك بالـــدين الإســـلامي المتفـــرد بمنهجه وغايته عن غيره، وأن أجعلـــه وجهتـــي الوحيـــدة، فـــي العقيـــدة والســـلوك، فـــلا أتبع في قليل أو كثير غير ما جـــاء فيـــه. ولتحقيـــق هـــذا المعنـــى عطـــف عليـــه النهـــي المؤكد عن اتباع الشرك وجماعته.

ثم إن كل إنسان يشعر بضعفه عندما يريد تحصـــيل المرغـــوب فيـــه ويخشـــى أن يفوتـــه، أو يخشى ضرا يصيبه ولا يستطيع أن يكـــون لنفســـه مناعـــة منـــه، فتجـــده يطلـــب مـــن يسعده بالعون، فيتوجه بالدعاء للقوة القـــادرة التـــي بيـــدها ذلـــك. ولا يوجـــد مـــن يملـــك الأمر كله إلا الله . فَلاَ تَـدْعُ أحـــدا غيـــره لعونـــك علـــى الفـــوز بمـــا ترغـــب فيـــه، أو لحمايتك مما تخشاه. إنك إن استعنت بغيره تكـــون فـــردا مـــن القـــوم الظـــالمين الســـائرين في عماية من الذين ظلموا أنفسهم فخرجـــوا بهـــا عـــن الطريـــق المبلـــغ للمقصـــود إلـــى الطريق المسدود في نفق مظلم لا نور فيه.

و مما يحقق ذلك أنك إذا أصبت بضر في نفسك أو فـــي مالـــك أو فيمـــا يحزنـــك ضـــره، فإنه لا يكشف ذلك ويزيله إلا الله. وفي المقابل إذا أراد الله لـــك الخيـــر ممـــا ترغـــب فيـــه لنفسك أو لمن تحبه.

وفي هذه الآية تحذير شـــديد مـــن الاســـتعانة بغيـــر الله، فإنـــه إذا فـــرض كمـــا يفـــرض المحال أن الرسول ﷺ على جلالته قدره عند ربه، فعل ذلك يكون من الظالمين.

107-وإن يمسسك الله بضر...الغفور الرحيم.

ومما يحقق ما ورد في الآية السابقة أنك إذا أصبت بما تكـــره فـــي نفســـك أو فـــي مالـــك أو فيما يحزنك ضره، فإنـــه لا يكشـــف ذلـــك ويزيلـــه إلا الله. وفـــي المقابـــل إذا أراد الله لك الخير مما ترغب فيه لنفسك أو لمن تحبه لـــه، فإنـــه لا تســـتطيع أي قـــوة أن تحجـــب عنك ما أراده الله لك منه. فإذا تعلقت الإرادة الإلهية بإنجـــاز أمـــر فـــي الوجـــود عجـــزت كل القدرات أن تعطل ما تعلقت به الإرادة قبل حصـــوله فضـــلا عـــن تعطيلـــه بعـــد. إنـــه لا راد للخير الذي يحصل لك والذي هو من فضله ولـــيس كفـــاء لعملـــك. هـــذا الفضـــل الذي يمكن منه مـــن يشـــاء تبعـــا لحكمتـــه. وربنـــا ســـبحانه لا يحاســـب النـــاس علـــى تقصيرهم، فيحرمهم فضله ولكنه غفور رحيم، رحمته وســـعت كـــل شـــيء ومنهـــا ذنـــوب

المـذنبين ونقصـــير المقصـــرين. فهـــو راحمهـــم وإن تفاوتـــت مـــراتبهم فـــي الكمـــال، ماداموا لم يشركوا به ولم يبدلوا شريعته.

108-قل يا أيها الناس ...وما أنا عليكم بوكيل .

تكرر الأمر بكلمة (قـل) أربعـا وعشـرين مـرة فـي هـذه السـورة، وختمـت بهـذا الإعلان المفتتح بها. فكانت جامعة في عميق مدلولها كـل مـا جـاء مـن بيـان ومحاجـة ودعوة، وكانت وجهة للناس جميعا مضمونها: أن الله الـرؤوف بكـم الـذي يبغـي لكـم الهدى والرشاد (ربكم) قد اعتنى بكـم فـبلغكم عـن طريـق رسـوله، الحـقَّ الـذي لا يشوبه باطل، فأخرجكم به مـن الحيـرة والضـلال. ثـم إنكـم مختـارون لا مجبـرون، فمن أعمل عقله ونظره ووصل إلى الالتزام بمـا جـاءه مـن ربـه، فـإن اهتـداءه ومـا يترتب عليه من خير في الحاضر والمآل هـو غـنم لنفسـه، بمعنـى أن عليـه أن يحمـد الله على مـا هـداه؛ وتعـالى الله أن يعـود لـه نفـع مـن إيمـان المـؤمنين وصـلاح الصالحين. كما أنه في المقابل، من ضل الطريق فكفـر بـالله ورفـض مـا جـاءه علـى لسان رسوله، فإن جريرة ضلاله لا تقع إلا علـى نفسـه. إنـه بعنـاده وإعراضـه أهلـك نفسه في الحاضر والمآل، ولن يضـر كفـره النبـي ﷺ. وقـل لهـم إنـي لسـت مـوكلا بهدايتكم ولا أتحمل ضلالكم.

109- واتبع ما يوحى...وهو خير الحاكمين.

إنك على الهدى الكامل، وعلى الصراط المستقيم المأمون عاقبتـه. هـو طريـق بينـه لـك ربك بما أوحاه إليك، فاتَّبِعْهُ وواصلْ مسـيرتك فـي الحيـاة عليـه مـع الوثـوق الكامـل والطمأنينة التامـة، واصـبر علـى أذى المشـركين والمعانـدين ولا تضـجر إن تـأخر النصر، وثابر على ذلك حتى يحكـم الله بينـك وبـين الكـافرين بحكمـه العـادل، فهـو ناصرك، والله في عظمته لا يـرد حكمـه. فهـو الحـاكم الكامـل، وكـل حـاكم سـواه ناقص، فهو بذلك سبحانه خير الحاكمين.

2011/06/05

ســورة هـود

بهذا الاسم عرفت في المصاحف وكتب التفسير والسـنة. وقـد تكـرر ذكـر اسـم سـيدنا هود فيها خمس مرات. نزلت علـى رسـول الله ﷺ بمكـة. رتبتهـا الثانيـة والخمسـون حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سـورة يـونس وقبـل سـورة يوسـف. وهـي السـورة الحادية عشرة حسب ترتيب المصحف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ
إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا
إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ
كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ
لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ
بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٥﴾ ۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا
وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٦﴾

بيان معنى الألفاظ :

أحكمت : الإحكام الإتقان.

الاستغفار : طلب المغفرة والصفح عن الذنوب.

التوبة : الإقلاع عن الذنب والعزم على عدم العود.

يمتعكم : يمكنكم مما تنتفعون به وتجدون فيه متعة.

متاعا حسنا : حياة طيبة.

الفضل : الأول: العمل الصالح، والثاني فضله، ثوابه في الآخرة.

الاستخفاء : الاختفاء البليغ.

الاستغشاء : التستر .

ذات الصدور : ما استقر في عقولهم.

الدابة : ما يتحرك من الحيوانات الأرضية.

الرزق : ما به قوام حياة الدواب.

بيان المعنى الإجمالي :

ينوه الله في فاتحة السورة بالقرآن، أخبر عــن آياتــه، بأنهــا محكمــة بلغــت الغايــة مــن الدقة، وأنها بينة واضحة لا يدخلها التردد. الــذي أنزلهــا هــو الموصــوف بالحكمــة، فــلا بد أن يكون كلامه حكيما، وهو الذي بلغ علمه دقــائق الأمــور فــلا تكــون آيــات كتابــه إلا مستوفية للمعاني المقصودة بوضوح.

أفردوا الله بالعبادة، تفضل بإرسالي إلــيكم أُبَشِّــر المــؤمنين وأنــذر المعانــدين ليقلعــوا. فاطلبوا من ربكم المغفرة لما سلف منكم من كفــر ولــتكنْ تــوبتكم تامــة بــإقلاعكم عمــا كنتم عليه، عازمين على عدم العودة إليه. إنــه بــذلك يمكِّنكم ربكــم مــن حيــاة آمنــة طيبة، ويوفر لكم يوم القيامة من فضله ما تنعمون بــه فــي آخــرتكم. واحــذروا؛ إنــه إن أعرضتم فإني أخاف عليكم أن يسلط الله عليكم عذابه فــي يــوم كبيــرٌ عقابُــه. واعلمــوا أنكم لا تنفلتون من العودة إلى ربكم فالله قدير على كل شيء.

من غباء الكافرين أنهم يظنون أن الله لا يعلــم مــا يجــري فــي عقــولهم إذا هــم انثنــوا فأخفوا صدورهم. لينتبهوا أنه سبحانه يعلم كــل مــا يعلنونــه ومــا يظهرونــه، وإن غلفــوا أنفسهم بثيابهم، فإن الله عليم بما تكنه العقول ما جهرت به أو ما أخفته.

إن علم الله الواسع وقدرته العظيمة، لا يخــرج عنهمــا أمــر البشــر ولا أمــر الــدواب، فكل ما يتحرك في الأرض يمكنه الله من رزقــه، يعلــم المكــان الــذي هــو فيــه، ويعلــم تكاثره، فيوفر له في كل حال ما يبقي على استمرار الأنــواع. وكــل ذلــك مســطور فــي علمه لا يتبدل، شأنَ الأمور الموثقة بالكتابة.

بيان المعنى العام :

1 -الر كتاب أحكمت آيته ....من لدن حكيم خبير.

ما ذكرنا في فاتحة ســورة البقــرة وفــي الســور المفتتحــة بحــروف غيــر متواصــلة يجري فيما افتتحت به هذه السورة (الر).

والكتاب هو القرآن، أخبر الله عنه بأنه قــد أحكمــت آياتــه؛ أي إن آيــات القــرآن بلغــت الغاية في الإتقان، سواء مــن ناحيــة المضــمون لا يخطئهــا الصــدق والمطابقــة للحــق والواقع، أو من ناحية الصياغة، لكــل كلمــة فيهــا وقعُهــا الخــاص، لا تقبــل غيــر مــا نطقت به إلا على ضــرب مــن الــنقص فــي البيــان. وفــوق ذلــك تناولــت بالتفصــيل الموضّح ما ينفي الإبهام وحيرة المخاطب لفهم المقصود منها.

إن ما اختص به القرآن، لا غرابة في أن يكون على هذه الحـال، لأنـه صـادر مـن نبـع الحكمة، إذ هو كلام الله الحكيم، ولا يصـدر عـن الحكـيم كـلام إلا وهـو موصـوف بالحكمة. وهو العليم بخفايا الأمور لا يغيب عن علمه شـيء، فلـذا كـان كلامـه مفصـلا كاشفا عن المقصود بلا التواء ولا تعمية.

2-ألاتعبدوا إلا الله إنني لكم منه نذير وبشير.

وجماع الإحكام والتفصيل يرجع إلى القاعدة الأساسـية التـي بُنِـيَ عليهـا الـدين. وهـي إخلاص العبادة لله .بإيجاب عبادة الله وحده والنهي عـن عبـادة غيـره. والإخـلاصُ فـي العبادة ليس متروكا للإنسان يطبقه حسب تصـوره وإلهامـه، ولكنـه هـو المـنهج الـذي جاء به رسوله، يبشر المستقيمين على الطريقة التي بينهـا برضـوان مـن الله بمـا يتبعـه من الفوز في الدنيا والآخرة، وينذر المعرضين عنـه بمـا يترصـد هـم مـن سـخط الله وعذابه .

3-وأن استقيموا إليه...فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير.

من التفصيل في آيات القرآن، ما ورد في هذه الآية: وهـو أمـره للبشـر أن يطلبـوا مـن الله مغفرة ما سلف منهم مـن الكفـر قبـل إسـلامهم. وأن يقرنـوا بـين طلـب المغفـرة والتوبة بالندم على ما فات منهم، على معنـى أن تسـتيقظ فـي بـواطنهم نـوازع الخيـر فيجدون اشمئزازا مما فرط منهم من كفر أو من ذنب.

إن طريق التوبة والاستغفار يتبعه قبول الله لعبـده المسـتغفر التائـب، فيـنعم عليـه بـأن يمكنه مما يجد فيه متعة في حياتـه الـدنيا، تتواصـل ولا تنقطـع إلـى أن يبلـغ الأجـل الذي قدر له في الحياة. وإنهـا لمتعـة خالصـة مـن المكـدرات، فتكـون الحيـاة الـدنيا للتائبين المستغفرين حياة طيبة. كما أنه سيمكن كـل مـن عمـل صـالحا، وهـو صـاحب الفضل، من فضل الله وهو الجزاء الأخروي.

وفي المقابل فأخبِرْهُم أنهم إن أعرضوا ولم يؤمنـوا، بأنـك تخـاف علـيهم أن يسـلط الله عليهم عذابا شديدا في يوم تكون النقمة فيه عظيمة، فـي الـدنيا بتفريـق كلمـتهم وقهـرهم بالقتل والتنكيل، وفي الآخـرة بالعـذاب الشـديد. فكمـا كانـت البشـارة شـاملة للـدنيا والآخرة بالنسبة للمؤمنين، فكذلك الإنذار للمعرضين الكافرين.

4 –إلى الله مرجعكم وهو على كل شيء قدير.

إنكم لا تنفلتون من قبضة الله وتصرفه فيكم، سـواء فـي حيـاتكم الـدنيا أو بعـد مـوتكم أمركم بيده. وتأكدوا أنكم لا تستطيعون حماية أنفسـكم لا بشـفيع ولا بقـوة لأنـه سـبحانه هو القادر، العظيمة قدرته على كل شيء .

5 – ألا إنهم يثنون صدورهم ...بذات الصدور.

هذه الآية تفضح غبـاء الكـافرين، فتعـرض تصـورهم السـاذج: إنهـم يثنـون قـامتهم فتختفي صدورهم وهم ينثنون، ظنا منهم أنهـم أخفـوا علـى الله مـا يجـري فيهـا مـن الكفر والشر. وهم يظنون أيضا أنهم إن استتروا بثيـابهم فتغطـوا بهـا إلـى رؤوسـهم أن الله لا يعلم ما يفعلون وما يمكرون.

وتبين الآية ضـلالهم وسـخافتهم، لأن الله يسـتوي علمـه بمـا يعلنونـه ومـا يخفونـه. وتؤكد الآية الحقيقة التالية: إن الله عليم بما احتوته العقول ومـا اسـتقر فيهـا مـن أمـور، وإذا كان الله يبلغ علمه التفصيلي لما تخفيه عقولهم مما لـم تتحـدث بـه ألسـنتهم، فمـن باب أولى وأحرى أن لا يخفى عنه ما يعملون.

6- وما من دابة إلا على الله رزقها...في كتاب مبين.

مظهر من مظاهر عظيم قدرته وواسع علمه وتصرفه أثبتتـه هـذه الآيـة: ذلـك أن علـم الله وقدرته يتعلقان بالدواب تعلقهما بالبشر.من ذلـك أن كـل دابـة تسـكن الأرض علـى سطحها أو في جوفها في اليابسة أو في المـاء، تكفـل الله برزقهـا فـلا يضـيعها، ويبـدو ذلك في بقاء الأجناس وتوالدها، رغم تفـاوت قواهـا وتعـرض بعضـها للافتـراس مـن غيرها. إنه الرزق الذي أخبر أنه سيمكن منه كل نـوع مـن أنـواع الـدواب. إنـه يعلـم مكانها التي هي فيه فيمكنها من الرزق المقدر لهـا. وهـو يعلـم وضـعها قبـل أن تتكـاثر بمختلف أنواع التكاثر من الانقسـام وغيـره، فيحيطهـا برعايتـه ويمكنهـا مـن رزقهـا لتستمر سلسلة الحياة في الأنواع. كل ذلـك لا يـأتي عـن طريـق الصـدفة، وإنمـا هـو مرتب موثق في علم الله شأن ما هو مكتوب لا يزيد ولا ينقص.

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِلَىٰٓ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ ۗ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ

ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓۚ إِنَّهُۥ لَفَرِحٞ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

ليبلوكم: ليختبركم.

أمة معدودة: فترة قليلة.

يحبسه: يمنعه.

حاق: أحاط.

أذقنا: مكناه من إدراك الرحمة.

بيان المعنى الإجمالي :

ذكَر القرآن بالقدرة العظيمة والإحكام لله في خلقه للسماوات والأرض في ستة أيام. وأضاف على ما سبق في الآيات الأخرى أن عرشه كان على الماء. وتصوُّرُ كيفية ذلك حسب مقاييس الحياة الدنيا وعقل الإنسان وحواسه الحادثة مضلٌّ، فنؤمن بذلك ونكل الكيفية إلى الله سبحانه. إن حظ الإنسان من هذا الخلق العجيب أنه مختبر لتظهر استقامته وحسن عمله فيجازَى تبعا لذلك. وإذا نبهت الناس إلى أنهم سيبعثون بعد الموت للجزاء، لكان رد المعاندين إن عودة الحياة للإنسان بعد موته ضرب من السحر الواضح لا حقيقة له.

و الله يسلط عذابه على الكافرين في الأجل الذي حدده، فإذا تأخر عنهم العذاب بعد إنذارهم به، كان قولهم: ما الذي منع العذاب ؟ قل لهم: إن كل أمر هو مقدر عند الله ففي الزمن المحدد المقدر يأتيهم ولا منجَى لهم منه، سيحيط بهم العذاب الذي كانوا يسخرون منه.

ومن طبع الإنسان أنه إذا شملته النعمة من الله، ثم صرفها عنه، يُطْبِقُ عليه اليأس ويستحوذ عليه الكفر برحمة الله. وإذا من عليه بالنعمة بعد الضر يفتخر بما تحقق، ويبالغ في الانغماس في اللذة ناسيا كل خير لنفسه كافرا بنعمة الله عليه. ولا يخلص من هذا الانحراف إلا الذين صبروا على النعمة وعلى الضر، ففي حال النعمة هم شاكرون، وفي حال الضر هم متضرعون آملون. إنهم في رعاية ربهم الذي وعدهم بالمغفرة إذا قصروا، وبالثواب غير المحدود.

بيان المعنى العام :

7 – وهو الذي خلق السماوات والأرض ...إن هذا إلا سحر مبين.

أكدت هذه الآية في الجزء الأول منها ما أثبتـه القـرآن مـن خلـق السماوات والأرض في ستة أيام، وقد بسطنا القول في شرح هذا المضمون فـي الآيـة الرابعـة والخمسين من سورة الأعراف. وأضافت أن عرشه كان علـى المـاء. والـذي نـؤمن بـه أن اللغـة تقصر عن التعبير عن الأمور الغيبيـة المتعلقـة بالـذات الإلهيـة، كمـا تقصـر مـداركنا عن تصور ذلك تصورا حقيقيا. ولذا فالأسلم فـي تنـاول هـذه الآيـة وأمثالهـا الطريقـة التالية:

نجزم بأن عرش الله لا نحـده ولا نكيفـه،وننفـي عنـه كـل تصـور بشـري مجسـم أو مجرد. . مقارنته بالعروش الدنيوية خطأ وضـلال. أطلـق القـرآن عليـه العـرش فنثبتـه كما أثبته القرآن، ونَكِلُ المراد منه لله. إنه تجري فينـا الـروح فنثبتهـا لأنفسـنا ولغيرنـا، وننفيها عن الأموات. والروح التي بـه قـوام وجودنـا وإدراكنـا، تسـمو عـن إدراكنـا لكنهها. وعجزُنا عن إدراك كنهها لا ينفي وجودَها.

وكذلك كون هذا العرش على الماء، نـؤمن بصـدقه ومـن السـخافة أن نتصـوره شـيئا يطفو على سـطح المـاء. فـالحق أن نثبـت مـا أثبتـه القـرآن والله أعلـم بمـراده. ولا يضيرنا عجزُنا عن إدراكه حسب القـدرات البشـرية فـي الإدراك. والله يقـول : **(ومـا أوتيتم من العلم إلا قليلا)**[1]

ليبلوكم ليختبركم بمعنى ليظهر في الواقع ما سـبق فـي العلـم، فيتبـين المحسـنون مـن غيرهم الأحسن عملا: الأحسن عملا عقليـا بالتـدبر فـي ذلكـم الخلـق العجيـب؛ كمـا أشرنا إلى بعـض مـا يـدل عليـه فـي الآيتـين [190/191] مـن سـورة آل عمـران.

والأحسن عملا في الاستخلاف فـي الأرض، حتـى تكـون عمـارة الكـون أتـم وأكمـل بالعمل الجاد المراعي للقيم الدينية والخلقيـة. والأحسـن عمـلا فـي العلاقـات الإنسـانية حتى ترتقي الحياة الإنسانية بنشر الخيـر والفضـيلة واجتثـاث الشـر والرذيلـة. وفـي هذه الميادين الثلاثة يتفاوت البشـر. صـلاحهم بمقـدار استحضـارهم ومراعـاتهم للمـآل الذي سيصيرون إليه يوم القيامة.

وهذا الملحظ هو الذي يعمل الكافرون علـى نسـيانه وعلـى إنكـاره، فإنـك إذا نبهـتهم إلى أنهم سيبعثون من قبـورهم للحسـاب والجـزاء، يعبـرون عـن إنكـارهم، بـأن مـا تهددهم به من عودة الأرواح إلـى الأجسـام، أمـر لا حقيقـة لـه، هـو سـحر واضـح، تخييل لا أساس له.

---

[1] سورة الإسراء آية 85

8 -ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة...ما كانوا به يستهزئون.

وإذا هددتهم بالعذاب الذي سيتعرضون لــه بكفـرهم، وتـأخر تسـلطه علـيهم وسـيأتيهم عند أجله المضبوط في علم الله ضبطا محسوبا، لقالوا بعنـادهم، لـو كنـت صـادقا فيمـا تهددنا به، لوقع علينا العذاب، على معنى أنك تهددنا بالعـذاب القريـب تبعـا لـرفض مـا جئت به، ولو كنت صادقا في تهديـدك لوقـع العـذاب، فعـدم وقوعـه ينبـئ بـأن مـا تدعيه غير صادق.

أجابهم القرآن بتأكيد أحقية المضـمون بتقـديم أداة الاسـتفتاح: ألا- وتقـديم الوقـت فـي أول الكلام (يوم) للدلالة على أن ما قدر لهم مـن العـذاب مضـبوط أجلـه تبعـا لحكمـة التقدير في هذا الوقت المحـدد مقـدما. وتـأخيره لا يترتـب عنـه انفلاتهـم منـه، فإنـه سيحيط بهم إحاطة لا مخرج لهـم منـه، وكـان إطباقـه علـيهم بسـبب اسـتهزائهم بمـا أخبرهم به الرسول من انتقام الله منهم.

9 -ولئن أذقنا الإنسان منا .....ليؤوس كفور.

تبرز هذه الآية طبيعة الإنسان إذا لـم تتهـذب بالتربيـة الدينيـة. فالإنسـان إذا مكنـه الله من الاستمتاع برحمة من رحماته في بدنه فعافاه، أو فـي مالـه فـوفره، أو فـيمن يحـب فأجرى عليه نعمته، واستمر هذا الفضـل إلـى الأجـل المقـدر لـه دون أن يشـعر بـأن حظه فيما أوتيه ليس كل شيء، وأن الذي يسّر له ما يسـر هـو الله المالـك الحـق ؛فـإذا سلبه ما مكنه منه من نعم، أسرع إليه اليأس والتبـرم مـن وضـعه، ولا يصـدر منـه إلا ما ينبئ عن كفر بما سبق أن ناله من نعم، وإنكار لفضـل الله عليـه، فهـو منقطـع عـن الماضي، ومنقطع عن المستقبل غير آمـل، وهـي التعاسـة التـي يعـيش فيهـا الكفـرة الملحدون.

10←11: ولئن أذقناه نعماء...وأجر كبير.

وتلك الصورة للإنسان في حالتي النعمة والسلب بعـد العطـاء، يكمّلهـا القـرآن بصـورة أخرى كاشفة عن وضعه إذا أوصل الله إليه النعمة فاسـتمتع بهـا بعـد مـا أصـابه مـن ضر. هو في هذا الوضع أيضا كافر بنعمـة الله عليـه، يـدعي أن ذهـاب السـوء عنـه، وعودة الخير إليه، كان نتيجة لما أوتيه مـن ذكـاء وفطنـة وقـدرة علـى الخـروج مـن الأزمات والمغالق. فينغمس في الاستمتاع بما أُوتيَهُ من اليسـر بعـد العسـر، ويبـالغ فـي الانتشاء بوضعه الجديد المساعد، ويفتخر بمكتسـباته، غيـر ذاكـر لنعمـة الله عليـه ولا مقدر لما يتحتم عليه من الشكر ومن الاستقامة.

إن هذه الطبيعة للإنسان التي صورها القرآن في الآيتين، فـي حالـة يسـره ثـم عسـره، وفي حالة يسره بعد عسره؛ صوره على أنه مُنْبَتٌ عـن الله غيـر سـعيد السـعادة الحقـة في جميع أوضاعه ؛ فلذلك استثنى القـرآن الـذين صـبروا الصـبر الإيجـابي، الـذين إذا مستهم السراء لم تشغلهم عن صـلتهم بـربهم وبـإخوانهم وبـالكون كلـه؛ كمـا أنهـم إذا مستهم البأساء لا تضعف ثقتهم في ربهـم فهـم آملـون فـي رحمتـه وعونـه. بشّـرتهم الآية تبعا لهذه الصلة الرفيعـة بيـنهم وبـين الله بالوعـد الكـريم الجـامع بـين المغفـرة لتقصيرهم، والثواب الكبير غيـر المحـدود، إنـه عطـاء مـن وسـعه ملكـه السـماوات والأرض.

فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُواْ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

ضائق به صدرك : الغم والأسف.

الافتراء : الكذب المفضوح الذي لا شبهة للكاذب فيه.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤيد القرآن النبي ﷺ في مواجهة إصـرار المشـركين وعنـادهم، فيقـول لـه: لا تحـزن ولا تهتم ولا تأسف، وواصل الدعوة بجـد دون أن تفتـر .نعـم إن مقترحـاتهم المتعنتـة قد تترك في نفسك حرجا، إذ هـم يطلبـون مـثلا أن ينـزل عليـك ذهـب وفضـة مـن السماء، أو أن يصحبك ملك يؤيدك. إن مقترحاتهم لـو تحققـت لخرجـت بالإنسـان مـن دائرة الاختيار والتكليف إلى دائرة الإلجاء على الخيـر، ومـا خلـق الإنسـان إلا ليختبـر ويثاب أو يعاقب على اختياراته. فدَوْرُكَ هو إنذارهم سـوء العاقبـة إن هـم لـم يؤمنـوا . أما الذي بيده التحكم في البشر فهو الله الواحد الأحد.

ونوع آخر من العناد يتمثل في رميهم النبي ﷺ أنـه افتـرى القـرآن ولـم يتلـق الـوحي به عن الله. ورد القرآن عليهم: إنكـم فـوارس البيـان وأئمـة الفصـاحة، فقـدموا كلامـا يساوي القرآن في عشر سور من سوره، واستعينوا بمن شـئتم مـن البشـر ؛ فـإذا تبـين

عجزكم وهو فعلا ما استمر مع الأعصار، فقــد قامــت علــيكم الحجــة أنــه منــزل بعلــم الله، وعليكم أن تعلنوا إسلامكم، فهل أنتم مسلمون بعد هذا التحدي ؟

بيان المعنى العام :

12-فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك...والله على كل شيء وكيل.

هذه الآية تصــور إصـــرار مشــركي مكــة علــى رفــض الــدعوة الإســلامية، وعمــق عنادهم، فجاءت الآية في صورة تحذير النبي ﷺ أن يبلــغ بـــه الأمــر إلـــى اليـــأس مــن استجابتهم لدين الله فيترك تكرار عرض مـــا يـــوحى بـــه إليـــه علـــيهم. إن هـــذا التوقـــع يقصد منه ما وراءه، وهـــو تقويـــة الرســـول ﷺ علـــى متابعـــة التبشـــير بـــالقرآن دون أن يفل في عزيمتـــه إصـــرارهم علـــى الـــرفض، أو اســـتهزاؤهم بـــه أو اقتـــراحهم تأييـــده بمعجزات على مقاييسهم. يقوّي القرآن عزيمتـــه حتـــى لا يغـــتم ولا يأســـف؛ وإن كانـــت مقترحـــاتهم وعروضـــهم عليـــه هابطـــة عـــن المســـتوى الـــذي طبعـــت عليـــه الـــدعوة الإسلامية. قالوا: لولا أنزل عليه من السماء كنـــز، يعنـــون ذهبـــا وفضـــة ممـــا شـــأنه أن يخفى فلا يطلع عليه غير صاحبه الذي يـــدخره ويعمّـــي علـــى مكانـــه. كمـــا اقترحـــوا أن يصحبه ملـــك ينـــادي: هـــذا رســـول الله صـــادق فيمـــا يقولـــه. ويـــرُدُّ القـــرآن علـــيهم مقترحاتهم: بأن مهمة محمد أن ينذرهم حلول العذاب بهـــم إن هـــم لـــم يتبعـــوا هدايـــة الله التي يبلغها لهم. والإنذار غير الإلجـــاء والقهـــر ولكنـــه تعريـــف الإنســـان بالعاقبـــة التـــي يختارها بعقله ومواهبه. وما اقترحوه ينفي الاختيـــار الـــذي هـــو منـــاط الثـــواب والعقـــاب. وأن المتفرد بالقدرة التامة والتصرف في المخلوقات هـــو الله، فهـــو الوكيـــل علـــى البشـــر قادر على أن يصرفهم للخير بإحاطتهم بالمســـاعدات، أو أن يصـــرفهم عنـــه إلـــى الشـــر بحجبه العون وترك الإنسان لنفسه.

13←14: أم يقولون افتراه ...فهل أنتم مسلمون.

وصورة أخرى من عنادهم: أنهم يواجهون الحـــق الـــذي لا يســـتطيعون رفضـــه بـــالمنطق السليم، فيرمونك بالافتراء ونسبة القرآن إلى الله مـــع أنـــه مـــن عنـــدك. ويتـــولى القـــرآن تلقين الرسول ما يهدّم به مواجهتهم: إذا كان هـــذا القـــرآن ممـــا يمكـــن أن يفتـــرى فـــإني أتحداكم أن تأتوا بعشر سور مماثلة للقرآن في بيانه ومضـــامينه. ثـــم يبـــالغ فـــي تحـــديهم أن لهم أن يستعينوا بمـــن شـــاؤوا مـــن البشـــر، ولهـــم أن يؤلفـــوا فريقـــا مـــن أصـــحاب الاختصاصات المختلفة لتحقيق ذلك.

وهذا التحدي للمنكرين أن القرآن من عند الله، قد تكرر في القرآن، فقد وقع تحديهم بأن يأتوا بسورة مِثْلِهِ كما هو نص سورة البقرة وسورة يونس، أو بعشر سوركما هو في هذه السورة،

أو بالقرآن كله كما في سورة الطور. وما استطاعوا ولن يستطيعوا. وفصل القرطبي رحمه وجوه إعجاز القرآن التي تحدى بها المشركين في مقدمة تفسيره ص78/73 فأجاد. ثم أعلن القرآن أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله، لا في سورة ولا في عشر سور ولا بما يساوي جميعه، ويقوم عجزهم مع أنهم معروفون بالإجادة في القول، والقدرة على حسن النظم، وجمال الأسلوب والتوفيق في البيان. فإذا كان هذا معلوما عنهم وعجزوا واستمر عجزهم، فإن ذلك يقوم مناديا بأنه منزّلٌ من مَعينِ العلم الإلهي الفائق للقدرات البشرية. وأن الله واحد لا شريك له، وكلامه واحد لا يتأتى لأي فرد ولا جماعة من البشر النسج على منواله بما يساويه.

وإذ تبين العجز بعد التحدي ناداهم القرآن: ارتفع عذركم وموجبات الشك في صدقه، وما بقيت لكم أي تعلة، فهل أنتم مسلمون؟

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُوْلَـٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

التوفية : إعطاء الشيء كاملا غير منقوص.

لا يبخسون : لا يظلمون بالتنقيص من حظوظهم.

الحبط: البطلان والانعدام، وحرمان الثواب .

صنعوا : عملوا.

الباطل : ما يذهب ضياعا وخسرانا.

البينة : الحجة الواضحة.

الأحزاب : جمع حزب، القوم الذين يجمعهم تصور واحد.

موعده: مصيره .

المرية : الشك.

بيان المعنى الإجمالي :

منهجان في هذه الحياة الدنيا لا ثالث لهما: منهج المؤمنين الذين تعلقوا بهداية ربهم وأملوا في رضاه فهم يزنون أعمالهم بميزان الشرع. ومنهج الذين انحصر همهم في

اغتنام متاع الحياة الدنيا ومباهجها والتعلق بزينتها. وهذا القسم الثاني مع ضلالهم لا يحرمهم الله من الحظوظ الدنيوية التي عملوا على تحصيلها، ولا يَنْقُصُهم شيء منها بسبب كفرهم. ولكن مآلهم في الآخرة العذاب المهين في النار، ولا يجدون أي ثواب عن أعمالهم الحسنة، لأنها انهارت آثارها بانقطاعها عن الله. وخلاصة الأمر تتضح بهذه المقارنة؛ بين من كان متمكنا من هدي ربه، متأيدا بالقرآن الذي يشهد لذلكم الهدي وهو منه، كما يشهد له من قبل القرآن التوراة كتاب موسى الجامع بين كونه مرجعا كما أوصى به عيسى ﷺ، وكونه رحمة بما تضمنه من صحيح العقيدة وقَيِّم التشريع، وبين من ضل وأعرض عنها. ونهى البشر جميعا نهيا مؤكدا عن الشك في صدق القرآن. بكل تأكيد هو الحق من عند الحق نزل بالحق، ولكن أكثر الناس رغم نور الحق المتلبس به اتبعوا شهواتهم وأعرضوا عن الإيمان به.

بيان المعنى العام :

15 –من كان يريد الحياة وزينتها ....لا يبخسون.

تؤكد هذه الآية مبدأ الاختيار الذي خلق الله عليه الإنسان وجعله به مكلفا. فهو سبحانه لا يلجئه، ولكن يمكنه من الاختيار في حياته الدنيا ليسلك الطريق الذي ينتهي به إما إلى السعادة، وإما إلى الشقاء. فمن كان همه ما تقَدّمه له الحياة الدنيا مما يشبع غرائزه ويلبي شهواته، وتأخذه مسحة جمالها فيحتضنها وتحتضنه، ويوغل في العبِّ من المتعة، دون أن يعكر عليه صفو ذلك مراعاة الحدود التي حددها له الخالق أو تذكره، فإن الله لا يجازيه في الدنيا بحرمانه مما سعى إليه وسلك إليه السبيل الموصل؛ وإن فاته شيء من ذلك فمرده إلى عدم توفقه في اختياراته لتحقيق ما يسعى إليه. فأكدت الآية أن الله لا يحول بينه وبين شهواته من ناحية، ومن ناحية أخرى لا يختلط بتمتعهم تكاليف الإيمان، فإن تلكم التكاليف واستحضار المحاسبة ينقص من استمتاعهم بما يقترفونه من آثام.

والآية تشير من ناحية ثانية إلى من يعمل عملا حسن في ظاهره لا يصحبه منه القصد الصالح والامتثال إلى الله، فهو وإن كانت له قيمة دنيوية، إلا أنه والحالة تلك لا يرقى ليكون عملا صالحا مجزيا عنه من الله، إذ أن فاعله لم يقصد بعمله وجه الله، وقطعه عن مفيض العون؛ فلا يرجو أن يناله جزاء منه.

16- أولئك الذين ليس لهم....وباطل ما كانوا يعملون.

أولئك : الذين وصفوا في الآية السابقة بالإقبال على متع الحياة صالحها وطالحها دون مراعاة أعمالهم لما قرره ربهم من أحكام، لا ينتظرون بعد ما نعموا بجزائهم في الدنيا، لا

ينتظرون إلا شيئا واحدا، وهو أن يعذبوا بالنار؛ ولا يجدون في مدخراتهم شيئا من الأعمال التي فيها جانب من الخير، لأنها قد بطلت فلا ثواب لها، لما انفصلت عن الله، ولم يقصد أصحابها جزاء منه. فمن العدل أن يحرموا الجزاء الصالح.

17-أفمن كان على بينة من ربه ....ولكن أكثر الناس لا يؤمنون .

هذه الآية تتضمن معادلة ذُكِر أحد طرفيها ويقدر الآخر. فيكون المعنى: أفمن كان على بينة من ربه.....كمن ضل عنها فكفر باللهو برسوله.

و بعدُ فإن هذه الآية قد كثرت فيها الضمائر واختلفت معاداتها مما تبعه إشكال في تدقيق المراد منها، وقد أحس بذلك معظم المفسرين، واختلفوا تبعا لذلك في ضبط المراد من تفاصيلها. والذي فهمته منها والله أعلم.

افتتحت الآية بهمزة استفهام سبقت الفاء لكونها مستحقة للتصدير في الكلام (أ) مع أن الآية معطوفة على ما سبق من مجادلة الكافرين، واعتراضاتهم وتحدي القرآن إياهم. فقابلت الصورة السابقة من الكفر والعناد، بهذه الصورة الوضيئة، صورة من التزم التزما قويا وتمكن من البينة التي جاءته من ربه، والبينة هي الهداية التي جاء بها محمد ﷺ. والتعبير بها هو نظير قوله تعالى **(لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البينة رسول من الله يتلو صحفا مطهرة)**[1]

المقطع الأول: **(أفمن كان على بينة من ربه)** أفاد أنهم كانوا متمكنين من الهداية الربانية التي وصلتهم من رسول الله ﷺ **(ويتلوه شاهد منه)** ويتبع الهدي المحمدي شاهد هو القرآن من نفس الهدي، ومُؤيّد بما نزل قبل القرآن على موسى عليه السلام، **(ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة)** وهي التوراة التي نزلت فيها البشارة بالنبي ﷺ ونوه القرآن بالتوراة بأنها مأمور بإتباعها فهي بذلك إمام، جعلها عيسى عليه السلام المرجع لأتباعه، ورحمة من الله لعباده بما بينته من تشريع هاد ومن تفصيل للعقيدة الحق.

أولئك ممن كان على دين اليهودية أو النصرانية أو المشركين من العرب، الذين يؤمنون بالقرآن، هم أهل للتنويه بهم وجعلهم في مقابل الرافضين.

و من يكفر بالقرآن من مختلف الفرق فجزاؤه: أن مصيره إلى النار. وهو ما يحتم اعتقاد كونه حقا منزلا من عند الله لم يدخله تحريف بنقص ولا بزيادة. وأيقظ المنزل لهم تبعا لذلك أن يبتعدوا عن الشك في مضامينه وعن الشك في كونه حقا

---

[1] سورة البينة آية 1/2

وصل إلى البشر محميا من كل تغيير عن الوجه الـذي أنزلـه ملـك الـوحي جبريـل عليه السلام على قلب محمد ﷺ. والقرآن هـو الحـق نـزل مـن الحـق سـبحانه، بـالحق الهـادي للبشرية إلى الطريق المستقيم من عنايـة ربـك بخلقـه. ورغمـا عـن ذلـك فـإن أكثـر الناس يتمادون على كفرهم ولا يؤمنـون، يتبعـون شـهواتهم، ويخشـون إن دخلـوا فـي الإيمان أن يفطرهم الالتزام الديني عنها، ويحولهم عـن اتبـاع غرائـزهم إلـى الاسـتقامة في سلوكهم، وإلى المنهج العقلي في عقائدهم.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۚ أُولَٰٓئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٨﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَٰٓئِكَ لَمْ يَكُونُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۚ مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ وَمَا كَانُوا۟ يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَخْبَتُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِ ۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

اللعنة : الإبعاد.

يصدون : يمنعون.

سبيل الله : شريعته.

يبغونها: يطلبون لها.

عوجا : انحرافا يؤدي إلى الفساد.

معجزين : منفلتين فلا يقدر عليهم.

الأرض : الدنيا.

خسروا أنفسهم : لم ينتفعوا بها.

الضلال : تبعوا طريقا غير موصل، فلم يحصلوا على ما أمّلوه.

لا جرم :لا محالة، جزما مؤكدا.

الإخبات : الخضوع والتواضع.
مثل : حالة.
الفريق : الجماعة التي يخالف حالها حال جماعة أخرى.

بيان المعنى الإجمالي:

أقبح الظالمين من اختلق تصورات من عنده ونسبها إلى الله كذبا، كعبادة الأصنام وتحليل المحرم وتحريم الحلال. عاقبتهم أنهم يوقفون أمام ربهم فيشهد عليهم ملائكته: أنهم هم الكاذبون على ربهم، ولعنة الله عليهم وعلى من كان على نهجهم من الظالمين. من ظلمهم أنهم يحولون بين الناس وبين الدخول في الإسلام، ويحبون أن يكون طريق الضلال غالبا، يكفرون بالآخرة فيقصرون تصورهم على أيام الدنيا. إن الله قادر على إنزال العذاب بهم في الدنيا عقابا لهم. لا يجدون من ينصرهم أو يشفع لهم إذا تعلقت إرادته سبحانه. سيكون عذابهم عذابا مضاعفا، لأنهم أصموا آذانهم عن الاستماع للوحي ولم ينظروا في ما تدل عليه مشاهد الكون من حكمة. فهم بما جمعوه من فساد قد خسروا خسارة أهلكت ذواتهم، ولم يجدوا ما توهموه نصيرا. إنها حقيقة ثابتة أنهم هم الأشد خسارة يوم القيامة .
وفي المقابل، فإن الذين آمنوا وعملوا حسب ما يقتضيه إيمانهم فطبقوا شرع الله وأخلصوا له، تميزوا بأنهم سيُخلّدون في جنات النعيم. ثم ضرب القرآن مثلا يقرب به الحقائق التي بسطها، فقال إن مثل جماعة الكفر كمثل الأعمى الأصم يلفه الظلام وفقدان الإحساس بما حوله، ومثل فريق الإيمان كمثل السليم البصر السليم الحواس يتفاعل مع ما حوله ويدركه. فإذا كان الفريق الأول لا يدري مكانه ولا إلى أين يسير، فإنه على العكس من ذلك يتميز المؤمنون بوضوح الرؤية وإدراك منزلتهم في الكون. مالكم أيها الكافرون لا تتأملون ولا تتدبرون!

بيان المعنى العام :

18- ومن أظلم ممن افترى على الله...الا لعنة الله على الظالمين.

سؤال لا يستدعي جوابا افتتحت به الآية، إذ المقصود نفي تصور وجوده والباحث عنه يائس منه. فمعنى الآية: إنك لو بحثت عن ظَلَمةٍ بلغوا من الظلم أقصاه، ما وجدت أشنع ظلما ممن بلغت بهم الجراءة أن نسبوا لله دينا زائفا، وتشريعا من خيالهم، كقولهم عن أصنامهم إنهم شفعاء، وكتحريمهم ما أحله الله وتحليل ما حرمه الله. وإذ تحقق فسادهم العظيم، فالجزاء الذي يستحقونه : أنه يتم إحضارهم أمام ربهم الذي توالت عليهم مننه وجحدوها. ولذا ناسب أن يبكّتّوا فيقوم الشهداء عليهم

من ملائكة الرحمن فيعلنون في المــلأ: هــؤلاء الظلمـــة الواقفـــون للحســـاب هـــم الـــذين بلغت بهم الوقاحة أن كذبوا على ربهــم، فتحقــق مـــنهم الكفــر عقيــدة وعمــلا، ولا أشـــد ظلما من الكفر بآيات الله والافتراء عليه، لعنهم الله لعنة مجلجلة بسبب ظلمهم .

19- الذين يصدون عن سبيل الله ...هم كافرون.

فضحت الآية صورة مـــن ظلمهـــم: إنهـــم كـــانوا يقفـــون حـــاجزا مـــانعين النـــاس مـــن الاهتداء إلى الطريق السالك الآمن الـــذي بينـــه الله علـــى لســـان رســـوله، بـــل تجـــاوزوا منع الناس من الاهتداء، ففســـدت نفوســـهم حتـــى أصـــبح العمـــل علـــى انحـــرافهم عـــن الطريق المستقيم طريق الحق (ويبغونهـــا عوجـــا) مقصـــدا أساســـيا لهـــم. وتجـــذّر فـــي أعماقهم الكفر بيوم القيامة.

20- أولئك لم يكونوا معجزين...و ماكانوا يبصرون.

إن تأجيل حسابهم إلى يوم القيامـــة لا يُحْمَـــلُ علـــى أن لهـــم قـــوة تمـــنعهم مـــن تســـليط المهانة والعذاب عليهم في الدنيا، فـــالله لا يعجـــزه شـــيء ولا يحـــول بينـــه وبـــين تنفيـــذ مراده معوّق. فلا مكان يحمـــيهم يلجـــؤون إليـــه ولا قـــوة يســـتندون إليهـــا تقـــيهم مـــن عذابه. فما اتخذوه من الأصنام على أنها أوليـــاء يســـتندون إليهـــا ويتقربـــون، لا يحصـــل لهم منه أي نفع.

ثم أعلنت الآية عما يحل بهم يوم القيامـــة: أنهـــم يعـــذبون عـــذابا يتضـــاعف فـــي شـــدته وفي أثره جسميا ونفسيا. كما أعلنـــت عـــن تعمُّـــدهم الضـــلال وقـــوَّة عنـــادهم. فهـــم وإن مكنهم الله من حاسة السمع التي تنقل إلى أدمغـــتهم آيـــات القـــرآن ومـــواعظ الرســـول ﷺ، إلا أن عنـــادهم قـــوّى إرادتهـــم فـــي الانصـــراف عـــن الـــوحي، فتعطـــل ســـماعهم لـــه بالإعراض عنه والاشتغال بغيره. كما أنهم لـــم يتـــأملوا فيمـــا تنقلـــه لهـــم أبصـــارهم مـــن آيات الله في الكون التي تنادي بتفرد الله بالخلق والتـــدبير. فكـــأن تلكـــم المشـــاهد العجيبـــة لا تنقلها أبصارهم، فهم يستوون مع العُمْيِ .

21←22، أولئك الذين خسروا... أنهم في الآخرة هم الأخسرون.

أبرزهم ليلقي علـــيهم الحكـــم غيـــر مختلطـــين بغيـــرهم (أولئـــك) إنهـــم خســـروا أعظـــم خسارة، خسروا أنفسهم، فَشَلُهُم أشد أنواع الفشـــل، فالتـــاجر يرجـــو مـــن تجارتـــه ربحـــا فإذا فاته الربح فقد خسر، وهـــؤلاء الكفـــرة الـــذين حـــددت ملامحهـــم الآيـــات الســـابقة، خسروا أنفسهم فأردوها في المهانة والعذاب، كما أنهم لم يجـــدوا مـــا كـــانوا يأملونـــه مـــن أصنامهم فذهبت آمالهم فيها ضياعا.

إنه من المؤكـد أبلـغ تأكيـد، أن خسـارتهم كانـت أعظـم خسـارة، يـوم القيامـة، إذ يواجهون العذاب، وقد تحولت أعمـالهم التـي فيهـا ظـواهر مـن الحسـن إلـى هبـاء، وآلهتهم التي يعتزون بها إلى ذلة وصـغار، ولا يجـدون ملجـأ يلجـؤون إليـه ولا قـوة تشفع لهم فتخفف عنهم مما قدر لهم من العذاب في جهنم.

23-إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات....فيها خالدون.

بعد أن توسع القرآن في تتبع ملامـح المعانـدين وجـزائهم، ذكـر مقـابلهم، وهـم الـذين تحقق منهم صفاء العقيدة وقوتها، وضموا إليهـا صـلاح أعمـالهم بمطابقتهـا للضـوابط والأحكام الشـرعية المنزلـة، وبمصـاحبتها للقصـد الصـالح الـذي سـما إلـى حالـة الخضوع والطاعة لربهم. فتميزوا بـأنهم الملازمـون للجنـة، الـذين لا يفارقونهـا، وهـم خالدون فيها أبدا.

24-مثل الفريقين كالأعمى و الأصم والبصير و السميع...أفلا تذكرون.

بعد أن استوفت الآيـات السـابقة خصـائص الكفـرة وعـاقبتهم، وخصـائص المـؤمنين وعاقبتهم، انثنت بتقريب تمايز أحوال الفريقين بضرب مثل مجسم لما تضمنته.

إن مثل الكافرين: مثل الذين يسيرون في الحياة وقد فقدوا حاسة البصر فهم لا يعرفون الطريق المبلغ، تستوي عندهم الضلالة والهدى، والخطأ والصواب، إذ المسالك يغشيها الظلام، وهم مع ذلك صم لا يسمعون فلا يهتدون بالأصوات التي يمكن أن تدعوهم للتحول عن الطريق الذي يسيرون فيه. فلا مشاهد الكون تهديهم لمعرفة طريق الله، ولا الوحي المنزل يقرع أسماعهم ليوقظهم إلى ما هم عليه من ضلال.

وفي المقابل فمثل المؤمنين مثل الذين سلمت أبصارهم فنقلت لهم من مشاهد الكون وعجائب الخلق، والجزئيات الصغيرة والكليات الحاوية العظيمة، ما يوقفهم على القدرة المبدعة للخلاق العظيم فتعمّق إيمانهم واطمأنوا. ومع ذلك سلمت أسماعهم فبلغت إلى عقولهم كلمات الوحي الهادي والمعجز . فاقتنعوا بصدقه وسلكوا ما أمرهم به.

هما صورتان يبعد كـل البعـد أن تكـون إحـداهما مسـاوية للأخـرى. صـورة الكفـر بظلامه وفقدان الحس، وصورة الإيمان البصـير المنفـتح علـى مشـاهد الكـون وآيـات الصدق. ثم تهزهم الآية هزًا عنيفا ليتـذكروا مـا فـي هـذا المثـل مـن الصـدق، ومـن التجسيم للحق.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا

بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ
عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى
وَءَاتَىٰنِى رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَٰرِهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَٰقَوْمِ
لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم
مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَٰقَوْمِ مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ ۚ
أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّى
مَلَكٌ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِىٓ أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْرًا ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِىٓ
أَنفُسِهِمْ ۖ إِنِّىٓ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ :

النذير : الموقظ من الغفلة التي يتبعها شر.

الملأ: سادة القوم .

الأراذل : جمع أرذل، وهم سفلة الناس.

بادي الرأي : في ظاهر الرأي.

فضل: قدر زائد من الكمال.

البينة : الحجة الواضحة.

الرحمة : نعمة النبوة.

الطرد : الإبعاد عن مكان الحضور تحقيرا، أو زجرا.

الخزائن : جمع خزانة وهو ما يحفظ في المال ويقفل عليه بباب.

الازدراء : الاحتقار.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله سيدنا نوحا إلى قومه فأعلمهم: أنه يحذرهم ببيان لا غموض فيه، يحذرهم من الشرك وأن يخلصوا لله في العبادة، وأنه يود لهم الخير ويخشى أن يعاجلهم الله بالعذاب إذا هم لم يقلعوا عن الإشراك بالله.

تقدم له الكافرون من قومه معلنين أعراضهم عما جاء به، معتلين بأنه في نظرهم لا يعدو أن يكون بشرا مثلهم، والبشر لا يصلح لتحمل الرسالة. وأن الذين اتبعوه لا وزن لهم في المجتمع، فهم في نظرهم من السفلة، وقد انتفى أن يكون لك فضل أو لمن اتبعك، حتى تكون أهلا لاتباعك؛ والخلاصة أنا لا نصدقكم ونجزم بأنكم كاذبون.

أجابهم سيدنا نوح: ما ذا ترون من فائدة لاعتراضكم ؟ فـإني واثـق الوثـوق كلـه أنـي متمكن من الحجة البينة التي جاءتني من ربـي، وأنـه أكرمنـي بـالنبوة الرحمـة التـي عمرت فكري وقلبي، وأنه لا ينقص من قيمتها خفاؤهـا علـيكم. وإننـا لا نقهـركم علـى اتباعها مع كراهتكم لها. وإني لا أكلفكم يا قـومي أن تـدفعوا لـي مـالا علـى هـدايتي لكم، إن أجري تكفل بـه الله الـذي أرسـلني .ومـا عرضـتموه مـن طـرد المـؤمنين برسالتي مرفوض، إذ أنهم قوم قويت صـلتهم بـربهم وأنهـم سـيعودون إليـه وينصـفهم ممن يظلمهم. ولكن الذي سوغ لكم مثل هذا الطلـب هـو جهلكـم بكـونهم علـى الحـق. انتبهوا فإنني لا أجد من ينصرني بين يدي ربي لـو طـردتهم وهـم علـى الحـق؛ مـالكم لا تنتبهون إلى العواقب !

ومن ناحية أخرى فإني واضح في رسالتي لا أدعـي مـا لـيس بحـق: فـلا أقـول لكـم إني أتحكم فيما عند الله من خزائن ملكـه الـذي يتصـرف فيهـا وحـده حسـب حكمتـه، وكذلك لا أعلم إلا ما علمني ربـي، فـلا أخبـركم إلا بـالحق الثابـت، وكـذلك لا أقـول للمؤمنين الذين تحتقرونهم أن جزاءهم سيكون حرمانـا لهـم مـن الخيـرات حسـبما مـا تقدرونه بضلالكم. إن الذي يتولى جزاءهم هو ربهـم وهـو العلـيم بمـا تنطـوي علـيهم نفوسهم. ولو تجاوزت حدودي فـإني أكـون مـن القـوم الظـالمين، وقـد طهـر ربـي أخلاقي من الظلم.

بيان المعنى العام :

25←26: ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه....عذاب يوم أليم.

من القصص اليقينية وإن تباعد زمنها قصة سيدنا نوح مع قومـه التـي أكـد القـرآن أنـه أرسل نوحا إلى قومه. فلنتابع هذه القصة.

المشهد الأول: يخاطب نوح قومه مقدما لهم محتوى رسالته والحامل له على متابعة تبليغها رغم العراقيل المثبطة. فقال: إن مهمتي أن أحذركم ببيان واضح بعيد عن الاحتمال والشبه. خصوا ربكم بالعبادة ولا تعبدوا أحدا غيره واطرحوا كل معبود سواه. وذلك أني أخاف عليكم إن واصلتم الإشراك بالله، أن يسلط عليكم عذابه الأليم في الدنيا بما يردعكم عن الشرك. فأنقذوا أنفسكم قبل أن يأتيكم العذاب. وربط العذاب بيوم لينبههم إلى أن العذاب يشتد حتى ينقلب الزمن في نفسه إلى عذاب.

27- **المشهد الثاني:** أسرع كبراء قومه الكافرون به الرافضون لدعوته وقالوا مقدمين لما تخيلوه سندا لرفضهم:

أ) إنك بشر مثلنا، لا تختلف عنا في شيء من الخصائص الجسمية الإنسانية. ظنوا أن الرسول لا بد أن يكون من غير جنس البشر، أو أن يكون له من الكمالات الجسمية الظاهرة ما يتفرد به عن بقية أفراد الجنس.

ب) إن تأثيرك ضعيف فلم يتبعك إلا ضعفاء القوم الذين لا مال لهم ولا منزلة اجتماعية مرموقة، واعتبروهم لذلك من السفلة الذين لا شأن لهم في المجتمع. وبالغوا في احتقارهم بأن منزلتهم الاجتماعية المنحطة معروفة بداهةً دون نظر وبحث في سيرتهم. وهذا خطأ ثان منهم إذ جعلوا القيمة التي بها يتمايز البشر، ثراؤهم ومكانتهم الاجتماعية. وأهملوا من سلم القيمِ القيمَ الحقيقية، رجاحة العقل، وطهارة النفس وجمال الخلق.

جـ) إنه لا فضل لكم يوجب اتباعكم والانتماء إليكم. تأملنا في كل ما يحيط بكم وما أنتم عليه، فلم نجد لكم أي ظاهرة تفضّلون بها علينا فلماذا نتبعكم.

د) إنه تبعا لذلك، لا نطمئن إلــى أنكــم صـــادقون، لا فــي ادعائــك الرســالة، ولا فــي ادعاء أتباعك اقتناعهم بما جئتهم به.

28←31: قال يا قوم أرأيتم إن كنت...إني إذا لمن الظالمين.

المشهد الثالث: تصور الآيات نوحا عليه السلام هادئ الطبــع رفيقــا بهــم، رغــم مــا أســمعوه من غليظ الرد. افتتح خطابه بقوله يا قــوم، فهــم منـــه بالمنزلـــة التـــي لا يبغـــي لهـــم إلا الخير، وصلته بهم حاضرة في ضميره تؤكد سعيه إلى مـــا يجلـــب لهـــم النفـــع ويحمـــيهم من الضر. يقول لهم: فكروا في الملابسات المحيطـــة بـــدعوتي إلـــيكم. أولا: إنـــي واثـــق تمام الوثوق من أني سائر على طريق واضـــح تمـــام الوضـــوح، وبرهـــان لا شـــك فيـــه ما اخترعته وإنما هداني إليه ربي، الـــذي مكننـــي مـــن رحمتـــه بالرســـالة التـــي حمّلنـــي إياها التي تجدون شواهد صـــدقها فـــي مضـــامينها، ولكنهـــا خفيـــت علـــيكم وخفاؤهـــا لا يبرر رفضكم الســـريع لهـــا، ولكـــن يحـــتم علـــيكم أن تتـــأملوا فيهـــا. إنـــه لا يقيـــل أن نخضعكم أنا وأتباعي لقبولها في الوقت الـــذي أنـــتم لهـــا رافضـــون كـــارهون. فالـــدين لا يكون بالإكراه. وما أذن لي ربي بإرغام أحد على الإيمـــان بـــي. فأعيـــدوا نظـــركم فيمـــا دعوتكم إليه.

إن ما يؤكد إرادة الخير لكـــم ولا شـــيء وراء ذلـــك: أنـــي لا أطلـــب مـــنكم أن تعطـــوني شيئا من أموالكم، فأثقل عليكم بذلك، فأنا لا أســـألكم أجـــرا علـــى الهدايـــة ولكنـــي أســـأل ربي أن يتولى ثوابي بقبول ما محضت له كل جهدي مـــن فـــتح بصـــائركم علـــى الحـــق. وإن ما نجحت فيه بهداية الذين آمنوا بما بعثني الله بـــه، ممـــا أنتظـــر ثوابـــه منـــه علـــى ذلك، لا يتصور أن أطردهم عن مجالسي أو أبعـــدهم عنـــي. ألا تعلمـــون أنهـــم يجـــدون

في مجالسي ما يزيدهم قربا من ربهم بمـا يتلقّونـه مـن الـوحي المتواصـل، كمـا أنهـم سيلقَوْن ربهم يوم الحساب فيسألهم عن علاقـاتهم وينصـفهم ممـن ظلمهـم. ولكـن غلبـة الجهل عليكم جعلكم لا تدركون تبعة طردهم.

ثم أعاد استمالتهم إليه بأنه ذاكر دائما صلته بهم وأنهـم قومـه، نـاداهم يـا قـوم :إن مـا اقترحتموه علي من طرد المؤمنين بي خطيـر جـدا، سـيكونون خصـمائي عنـد ربـي، ومن ينصرني من الله إن أقدمت على طردهم بـدون موجـب، علـى معنـى الإنكـار أن يوجد له نصير على ذلك، مالكم لا تتأملون تأملا يبصركم بالعواقب.

ثم عرض عليهم حقيقة أمـره ممـا ينفـي كـل الخيـالات التـي عشّشـت فـي عقـولهم فانحرفوا بها عن إدراك الواقـع. اعتـرف بحـدوده البشـرية التـي لا تنـزل بـه عـن التكليف بالرسالة، خلافا لمـا يتوهمـه قومـه مـن أن الرسـالة تقتضـي أن يكـون لـه طاقات تفوق البشر تجعله يتحكم فـي كـل شـيء. إن ملـك الله بيـده لا يتصـرف فيـه رسول ولا أي كائن خارج ما يـأذن بـه. فخـزائن الله التـي يمكّـن منهـا البشـر بقـدَرٍ حسب حكمته، أو يرسل ما يرسـله ليمحـق بـه مـن يشـاء ؛ كـالريح العاتيـة والمـاء المغرق والحركـة المزلزلـة، كـل ذلـك بيـده سـبحانه، وبوصـفي رسـولا لا أملـك التصرف لا في قليل ولا فـي كثيـر مـن خـزائن الله. كمـا أن علمـي لا يتجـاوز مـا يعلمني ربي. فما غاب عن إحساسي وعن إدراكي ممـا لـم يعرفنـي بـه ربـي (الغيـب) لا أعلمه. وطبيعتي طبيعة البشر لست ملَكًا. وكـأنهم سـألوه كمـا سـألت قـريش النبـي ﷺ ما نفاه نوح عليه السلام عن نفسه. كما نفى عن نفسه نفيا يقطـع كـل أمـل لهـم فـي طـرد المؤمنين به من الضعفاء، ولا أن يدخل اليأس في قلوبهم بـأن يصـرح لهـم بمـا يظنـون أن الله لما لم يَجُدْ عليهم من واسع رزقه فـي الـدنيا أنـه لـن يمكـنهم مـن الخيـر يـوم القيامة. ذلك أن نوال الحظوظ الأخروية والنعيم والكرامـة يـوم القيامـة مـرتبط بصـلاح الباطن، والله هو وحده الذي يتولى السـرائر . تنبهـوا فـإني مـدرك لمـا يترتـب عـن مواقفي وعن أعمالي، فلـو تجـاوزت حـدودي أكـون إذن مـن الظـالمين الـذين يحـق عليهم جزاء الظلمة.

قَالُواْ يَـٰنُوحُ قَدْ جَـٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِىٓ إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ ٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ۚ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾

بيان معنى الألفاظ :

المجادلة : المخاصمة بالقول مع الاحتجاج .

بمعجزين : منفلتين من العقوبة.

يغويكم : يضلكم عن الحق.

الإجرام : ارتكاب الجرم، الإثم.

بيان المعنى الإجمالي :

سئمنا يا نوح من الاستماع لما تقيمه علينا من الحجــج المتواليــة لــدحض كــل مــا نتأيــد به. فأنزِلْ علينا العذاب الذي كنت توعَّدْتنا به وكفى. قــال نــوح: العــذاب يــأتيكم بــه الله لا أنا، متى شاء وعلى المستوى الذي يريد، ولكن المؤكــد أنكــم لا تفلتــون مــن العــذاب. أنتم لا تنتفعون بنصحي لأن إصراركم على العناد حــرمكم كــل تأييــد مــن الله فــأوكلكم إلى نفوسكم فاتبعتم شهواتكم وخيالاتكم فــوقعتم فــي الغوايــة والضــلال، وابتعــدتم عــن منهج ربكم الذي ستعودون إليه ليحاسبكم.

وتوجه القرآن إثر هذه المقاطع من قصة نوح ليــرد علــى المشــركين مــا يرمــون بــه النبي ﷺ من نســبة القــرآن لله بــاطلا، فقــال لهــم: إنــي مــدرك تمــام الإدراك لمقــام الألوهية، فلا يتصور مني أن أكذب علــى الله، وإثــم ذلــك أتحملــه وحــدي، كمــا أنكــم تتحملون إثم تكذيبي ولا أتحمل شيئا منه.

بيان المعنى العام :

32←34 : قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت...وإليه ترجعون .

المشهد الرابع: يبرز في هذا المشــهد طرفــان تقــابلا فبلغــا النهايــة؛ نــوح عليه السلام مــن ناحية، وقومه من ناحية أخرى.

أما نوح فالظاهر أنه واصل دعوته لقومه، وتابع الرد علــى شــبهاتهم، كمــا قــال تعــالى **فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامــا**، علــى النســق الــذي فصــلته الآيــات الســابقة، يدعوهم بالحكمة والموعظة الحسنة، وكلمــا قــدموا لــه حجــة، بــين لهــم زيفهــا وأنهــا باطل لا تقبل عقلا.

تمكن منهم العناد والرفض لما جاء به نــوح؛ وســئموا مــن مواصــلة الحجــاج معــه، إذ كلما قدموا ما يخالونه حجــة أجهــز نــوح عليهــا ونقضــها وظهــر علــيهم بــالمنطق والوضوح زيف ما عرضوه. فقــالوا كفــى! ائتنــا بالعــذاب الــذي كنــت وعــدتنا بــه؛ فأدمغتنا توقفت عن المتابعة، إن كنت صادقا فيما أخبرتنا به من أول الأمر.

رد عليهم نوح بتصويب ما وقعوا فيه من أخطاء في صيغة سؤالهم.

أولا: أن إنزال العذاب عليهم ليس من شأنه، وإنما الأمر بيد الله وحده (**إنما يأتيكم به الله**)
ثانيا: أن إنزال العذاب عليهم مرتبط بمشيئة الله إنزاله عليهم في الوقت وبالمقدار (إن شاء)
ثالثا: أنه لا يستطيع أي فرد منهم أن يفلت من العذاب أو يجد ملجأ يلجأ إليه فيحميه فلا نجاة لكم **(وما أنتم بمعجزين)**

ثم علق على طلبهم قطع الحوار معـــه، أنـــه اختيـــار غيـــر صـــائب، إنكـــم لـــم تنتفعـــوا بنصحي لكم وأقفلتم عقولكم عن التأمل فيما دعوتكم إليــه. إن مـــا دعـــوتكم لـــه بلـــغ مـــن الوضوح والمعقولية ما يوجـــب الأخـــذ بـــه؛ ولكـــن الله حـــرمكم تبعـــا لعنـــادكم تأييـــده، وأوكلكم إلى غرائزكم وشهواتكم التي تقودكم إلى الضلالة والهلاك.

واعلموا أن الله ربكم، يشير إلى أنه لطيف بعباده الـــذين يهيئـــون أنفســـهم لقبـــول الرشـــاد لا الذين يغلقون عقولهم وقُوَى إدراكهـــم عـــن النظـــر. ثـــم إنكـــم تحشـــرون إليـــه يـــوم القيامة فيجازيكم عن تقصيركم، وغلق منافذ المعرفة حتى لا تصل إليكم.

التعليق :

لا يقصد القرآن من القصص التـــي تتخلـــل بيانـــه تلهيـــة البشـــر بســـرد مـــا وقـــع فـــي التاريخ، وخاصة البعيد منه. ولكن يقـــيم مـــن تلـــك القصـــص حجـــة علـــى أن الرســـول صادق. فتفاصيل ما وقع لنوح مما سبق من الآيات ومـــا ســـيتلو بعـــد هـــذا التـــذكير، مـــا كان له أن يخبـــر بـــه اعتمـــادا علـــى ذكائـــه، فهـــي أمـــور طواهـــا التاريخ.وتفاصـــيلها ودقائقها لم ترو في المجتمع العربي، بل حتى مـــا بقـــي مـــن التـــوراة والإنجيـــل لا يبلـــغ في الصحة والدقة ما سجله القرآن. ومع هذا فـــإن المشـــركين يتهمونـــه بأنـــه نســـبه إلـــى الله كذبا (افتراه) لقن القـــرآن الحجـــة لمحمـــد ﷺ، قـــل لهـــم: إن كـــذبت علـــى الله فأنـــا أتحمل وحدي إثم الجريمة العظمى ولا تتحملون شيئا مـــن إثـــم جريمـــة الافتـــراء الـــذي رميتموني به كذبا وبهتانا. كما أنـــي لا أتحمـــل شـــيئا مـــن إثـــم تكـــذيبكم لـــي بالباطـــل واتهامي بما ليس بحق . فأقحم في الجواب قاعدة المسؤولية في دين الإسلام .

وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟
يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم
مُّغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن
تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ
يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن

كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَا ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا تبتئس : لا تهتم ولا تحزن.

بأعيننا : بمراقبتنا بما ينفي الخلل والخطأ في الصنع.

السخرية :استهزاء بِعَدِّ المستهزئ به أحمق.

يخزيه : يهينه.

مقيم : لا ينقطع.

جاء أمرنا: تم أمرنا بالطوفان.

فار: انبعث بقوة.

التنور : موقد النار لإنضاج الخبز .

أهلك : قرابتك .

سبق عليه القول : سبق الحكم عليه بالكفر.

بيان المعنى الإجمالي :

أعلم الله نوحا أنه قد انتهى ما كلف به من دعـوة النـاس إلـى الإيمـان، لأنـه لا مطمـع له في هداية من بقي على كفره. ومواساة له طُلِب منـه أن لا يحـزن فـإن ذلـك كـان نتيجة أعمالهم.

و أمره أن يصنع سفينة يسعده ربـه فـي إنجازهـا بالرعايـة والتسـديد، ويـوحي إليـه طريقة صنعها لتكون صالحة للقيام بوظيفتها.

شرع في العمل وكان عمله لافتا للأنظار، فكلما مر عليه كبار قومه، وهو يجهد نفسه في القيام بما أمر به، يسخرون منه، ولا يَرْعَوُونَ عن الإفصاح بما تفيض به أنفسهم المريضة من الاستهزاء. وكان رد نوح عليهم إنكم إن استهزأتم بعملنا فإنا نسخر منكم يوم يسلط عليكم عذاب ربكم كما سخرتم منا . وهددهم بأنه سوف يظهر من تكون عاقبته سليمة، ومن يسلط عليه عذاب يهينه ويجب له عذاب دائم لا يرفع ولا ينقطع.

ثم أمره أن عليه أن يلاحظ الأمارات الدالة على الوقت الذي اختاره الله لإنزال عذابه (الغرق) بهم .وذلك إذا تدفق الماء من التنور.

وعندها هو مأمور بأن يحمل معه في السـفينة، مـن كـل نـوع مـن أنـواع الحيوانـات ذكرا وأنثى، وأن يحمل معه قرابته الذين آمنوا بـه، وأن يتـرك مـن كـان كـافرا مـنهم، وأن يحمل فيها كذلك الذين آمنوا به وثبتوا على إيمانهم. وما كان عددهم كثيرا.

بيان المعنى العام :

36←37، وأوحي إلى نوح أنه....إنهم مغرقون.

تبع القطيعة التي سألها الكفرة من قــوم نــوح، إعــلامُ الله لــه بــأن البــاقين مــن قومــه الذين لم يؤمنوا سيستمرون على كفــرهم ولا مطمــع فــي هــدايتهم. وفــي ذلــك أمــران هامان:

الأمر الأول: أن نوحا قد انتهت مهمته فلم يبق مطالبا بدعوة قومه للإيمان.

الأمر الثاني: أن إعلامه بأن كل من لم يــؤمن بــه لحــد اليــوم الــذي خاطبــه الله بهــذا الخطاب لا رجاء في إيمانهم، كان هذا الإعــلام شــديدا علــى نفســه. إذ شــأن المرســلين أنهم يوالون الدعوة ويتحملون في سبيلها ما يتحملون مــن المكــاره، ويجــدون فــي ذلــك رضا، شعورًا منهم بشرف الأمانة الموكلة لهم.

ولذا قواه ربه فقال له: لا تحزن عليهم فــإن مــا ســيلقونه هــو بســبب إصــرارهم علــى الكفر.

ثم أمره أن يصنع سفينة، وهي أول سفينة صنعت في العــالم. فهــو ينجزهــا علــى غيــر مثال سبق. ولذا قرن الأمر بأن الله سيكون ملهما له ومســاعدا حتــى لا يقــع منــه خطــأ في الصنع، كما أنه سيؤيده بوحيه لطريقة العمــل حتــى تقــوم الســفينة بوظيفتهــا التــي من أجلها هو مأمور بصنعها. وأعلمــه أن الحكــم بنــوع العــذاب الــذي سيســلط علــى قومه قد اتخذ، فلا يتقدم بالشفاعة فيهم أو تخفيف العــذاب علــيهم، حكــم الله ســينفذ فــيهم (إنهم مغرقون)

38←40، ويصنع الفلك وكلما ....وما آمن معه إلا قليل.

المشهد الخامس: يتحول الرسول من داع إلى منهج الله الذي أوحاه له ليبلغه، يتحول إلى صانع ماهر، هداية الله تسوقه، ووحيه يحدد له الطريقة والأدوات التي تساعده على إنجاز السفينة. هو في محل عمله المفتوح يقوم بأعمال لا عهد للناس بها.

يمر عليه أكابر القوم وهو منكب على عمله بجــد، ينجــز مــا لا يــدرون لــه فائــدة ولا أنه يحقق غاية. فكانت أرجاعهم أنهم يســخرون مــن نــوح ويســتهزئون مــن ســخافته: أمامه ركام من الألواح ومســامير، وهــو لا يصــنع بابــا ولا كرســيا ولا مــا شــأنه أن ينتفع به صانعه .وتفيد الآية أن من المؤمنين به مــن كــان معــه يســاعده ويعينــه، أفهــم هذا من قوله تعالى :**إن تسخروا منا**، ولم يقل مني.

تهكموا عليه ووجهوا له من سخف الخطاب مــا لا يصــدر إلا مــن فاقــد التربيــة عــديم الأدب. فرد عليهم إني لا أبادئكم بالسخرية ولكنــي أقــول لكــم: إنكــم إن تســخروا منــا

لما نعمله والذي ندرك الغاية منه، فإنا نقابل سخريتكم منا بسخريتنا منكم، من سفه عقولكم وإعراضكم عن خالقكم. مما يومئ إلى أن استهزاءهم بعمله سيعلمون فائدته له ولمن آمن به، فيتضاعف أساهم. وأعاد تهديدهم بأنهم سوف يتيقنون من هو الناجي ومن هو الخاسر، ومن يتسلط عليه العذاب المهين الملازم الذي لا ينقطع في العاقبة يوم القيامة.

40- واصلْ عملك في إعداد السفينة إلى أن يحصل أمرنا بحدوث الطوفان، وجعل الله لنوح أمارة على تعلق القدرة بإحداث الطوفان تبعا للإرادة والعلم. هذه الأمارة هي فوران التنور. وهي أن ينبع الماء من موقد إنضاج الخبز.

و حكى القرآن أن الله أمره أن يحمل في سفينته من كل أنواع الحيوانات ذكرا وأنثى، بما يحفظ استمرار النوع بعد ذلك بواسطة التوالد. وأن يحمل معه قرابته المؤمنين، إلا الذين سبق أن قدر الله عذابهم ممن آثروا البقاء على الكفر، كإحدى امرأتيه التي خانته فلم تؤمن المذكورة في سورة التحريم، (**ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانت تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما فلم يغنيا عنهما من الله شيئا وقيل ادخلا النار مع الداخلين**)[1] - وابنه الذي سيأتينا خبره بعد. وأن يحمل معه كذلك من آمن به من قومه الذين كان عددهم قليلا.

۞ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرٜىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبۡنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعۡزِلٖ يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ وَحَالَ بَيۡنَهُمَا ٱلۡمَوۡجُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُغۡرَقِينَ ﴿٤٣﴾ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾

بيان معنى الألفاظ:

مجراها ومرساها: عند سيرها السريع، وعند وقوفها على الشاطئ.

معزل : مكان منفرد به عن أهله.

سآوي :سألجأ.

---

[1] التحريم آية10

يعصمني : يحميني.

ابلعي : البلع أصله دخول الطعام من الفم إلى الجوف، والمراد هنا دخول الماء في جوف الأرض.

غيض الماء: نضب وذهب.

قضي الأمر: تم وانتهى.

الجودي : مكان نزول السفينة.

بيان المعنى الإجمالي :

كان نوح يرفق بالذين حملهم معه في السفينة، وقف عليهم ودعاهم أن يستصحبوا بركة الله وعنايته عند سيرهم وعند نزولهم، وأن الله غفور لتقصيرهم رحيم بهم. ولاحظ نوح ابنه منعزلا عن أهله فناداه ليلتحق بهم ويخلص إيمانه لله. ولكن الابن، وقد غلب عليه الشقاء، صدَّ عن الاستجابة لدعاء والده، وأظهر عدم خوفه مما توعد به نوح قومه، وقال: لا أخشى الطوفان فإني سألجأ إلى جبل عال لا يبلغ الماء قمته. قال له أبوه: إنه لا منجى اليوم إلاّ لمن قدر الله له رحمته من المؤمنين. وما إن تم الحوار بينهما حتى أخذته الأمواج فأغرقته. وأخذت السفينة طريقها بين أمواج تتدفق كالجبال. وتم ما أراده الله من إهلاك القوم الكافرين فصدر الإذن الإلهي للأرض بأن تفتح أفواهها لابتلاع الماء وللسماء بأن تتوقف عن إنزال الأمطار. وبسرعة ذهب الماء وتطهرت الأرض من الكافرين واستقرت السفينة في المكان المقدر لرسوها. ونودي في الكون: بُعْدًا وهلاكا ولا رجعة للقوم الظالمين.

بيان المعنى العام :

41←43: وقال اركبوا فيها ....فكان من المغرقين.

المشهد السادس: نوح عليه السلام، وقد ظهرت العلامة التي أعلمه الله بأنه سيليها تنفيذ الوعيد، يأمر من سيأخذه معه في السفينة بالركوب، ويرشدهم أن يذكروا اسم الله مستعينين بألطافه في حالة جري السفينة وفي حالة وقوفها. يطمئنهم بقوله: إن ربي غفور لتقصيركم السابق، رحيم بكم رحمة تظهر فيما مكنكم من النجاة، وفيما سيتلو ذلك من متتابع فضله عليكم .

ساء نوح بما تحمله روحه الكريمة من ود وحب وعطف، أن لا يكون ابنه معه ناجيا من الطوفان، ومن غضب الله . ناداه يا بني تعال ! اركب معنا وأسلم وجهك لله ولا تكن مع الكافرين. ولكن ابنه كان شقيا لم يفد فيه رفق والده، ولا تأكيده عليه بمحركات رابطة الأبوة والبنوة (يا بني) بما توحيه كلمة بني بالتصغير من

التذكير بالرعاية والحنان اللذين كانا يلقاهما في حجر الوالد الكريم من أول يوم من حياته. وتسمع رد الولَدِ الشقي: لا أخشى الطوفان وارتفاع المياه، فإني سألجأ إلى جبل عال يحميني من الماء. وتنتهي المحاورة سريعا فيأخذه الموج إلى قاع البحر ويلتحق بالغرقى الكافرين.

أخذت السفينة تجري في بحر هادر تعلو أمواجه كأنها الجبال؛ فقد انشقت الأرض عن منابعها، وتدفقت العيون، وأمطرت السماء المطر المتدارك كأشد ما يكون التدفق، وتحركت البحار بما ورد عليها من تيارات متلاحقة. وإنه لمظهر عجيب رهيب؛ علت المياه الأرض كلها فغطتها، وانفردت سفينة نوح تمخر البحر بقدرة الله وألطافه وركاب السفينة يغمرهم روح من السعادة بعناية الله بهم.

44-وقيل يا أرض ابلعي ماءك ....وقيل بعدا للقوم الظالمين.

المشهد السابع: بهذا المشهد تبلغ القصة نهايتها، بغرق الكافرين المكذبين من قوم نوح، وصدور الأمر التكويني الإلهي ليعود الكون كما كان عليه قبل الطوفان.

فصدر الأمر الإلهي:

أوّلاً للأرض لتنفتح، فامتصت تجاويفها ما كان فوقها من الماء.

ثانيا للسماء لتتوقف سحبها عن إنزال المياه.

وبسرعة تم الإذعان للقادر الواحد الأحد، ذهب الماء وعادت الأرض كما كانت، وتم ما أراده الله من إهلاك الكفرة المكذبين. فاستقرت السفينة على الجودي وقد أكملت مهمتها، وفي ضبط المراد من الجودي ومكانه أقوال كثيرة ليس لأحدها سند صحيح يُطمأن إليه. وبما أن تعيينه لا يتعلق به كبير اهتمام، ولا يزيد تأثيرا للقصة معرفته ولا ينقص جهله، فلنفوِّضْ حقيقته إلى الله. وينتهي المشهد بصوت مُدَوٍّ يعقله كل السامعين: بعدًا للقوم الظالمين: هلاكًا وعدم عودة. وهذا تعبير عن تفاهة القوم الظالمين الهالكين، لا يرغب أحد في عودتهم، وليس لهم ذكر في نفوس الباقين.

وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ

يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾ تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ
أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَـٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

اهبط : انزل.

بركات: خيرات نامية.

أنباء الغيب: الأخبار المغيبة عن الناس.

بيان المعنى الإجمالي :

رست السفينة سالمة بعد رحلتها بين الأمواج المتلاطمة. وثارت العاطفة الأبوية في نفس نوح ﷺ، وقد بقي ابنه مع الكافرين فغرق وسيكون مع الغرقى يوم القيامة، فتوجه بالدعاء إلى ربه مقدما بين يدي ابتهالاته ما يقربه من الاستجابة لدعائه: رب إن ابني جزء مني، وفرد من عائلتي، وواحد من أسرتي، وإن وعدك محقق حصوله، وأنت وحدك ربي الحكَم الذي لا تنقض أحكامه. إن هذا الاستعطاف النابع من قلب والد رحيم ما كان ليغير الحق الذي يسيِّر الله به الكون. فنبه الله نوحا: أن صلة الأبوة تنقطع إذا اختلفت العقيدة، فهو ليس من أهلك لذلك، لأنه فاسد في عقيدته، وعمله القلبي وأعماله الأخرى. فلذا لا تطلب مني شيئا لا تتحقق أنه منسجم مع العدل الذي أحكم به الكون، وإياك أن تكون مع الجاهلين.

وقع التحذير من قلب نوح الموقع المؤثر فابتهل إلى ربه تائبا قائلا: ربي إني أحتمي بك من أسألك ما لا أعلمه. إني موقن أنه إن لم أفز بغفرانك لتقصيري، وحرمت من رضاك؛ فإني أكون مع القوم الخاسرين.

وتقبّل الله من نوح ابتهالاته، وأذِنه أن ينزل من السفينة مصحوبا بسلامٍ تكريمٍ من الله ووعد بمضاعفة الخيرات له ولمن معه ولمن سيتناسل منهم من الأمم التي تُواصل السير على منهج الله. وأما الأمم التي ترفض طريق الهدى فإن الله لا يعاجلهم بالعقوبة ولا يحرمهم متاع الحياة الدنيا، ولكن سيسلط عليه العذاب الأليم يوم القيامة.

ثم توجه الخطاب لرسول الله ﷺ ممتنًا عليه بما أعلمه به من تفاصيل قصة نوح، التي ما كان يعلمها هو ولا قومه ولا أهل الكتاب. إذ هي بتفاصيلها الواردة في القرآن من الأمور المغيبة عن علم البشر في وقته. وهي تعطيه صورة لعاقبة الصبر الذي تدرع به نوح والمؤمنون معه، فاصبر يا محمد ؛ بالتأكيد النهاية الطيبة تكون للمتقين .

بيان المعنى العام :

45←47: ونادى نوح ربه...وترحمني أكن من الخاسرين.

المشهد الثامن: برزت الأرض لنوح خالية بعد أن رست السفينة، وثار في نفسه ما يعتلج في قلب الوالد، حينما يتيقن هلاك ابنه وأنه غير ناج من غضب الله وعقابه يوم القيامة. ولا تسل عن حزنه وقد خسر ابنه حياته وخسر آخرته. وفي هذا الظرف الأليم لم يبق له من أمل إلا في الابتهال إلى ربه أن يعفو عن ابنه فتوجه إليه داعيا، مقدما بين يدي دعائه بالتعبير عن شدة ألمه للخاتمة التي ختم بها ابنه حياته فقال: يا ربي إن ابني جزء مني وفرد من أسرتي وواحد من أهلي الأقربين، إن ما يؤلمه يؤلمني، يا رب إني أعلم أن ما تَعِدُ بِهِ واقع لا ينقض، وأعلم أن حكمك ماض لا يرفع، ولا راد لما حكمت به وقضيته.

لم يرد في النص ما دعا به نوح، بل لا تدل الآية على أنه دعا، والاحتمال وارد: هل إنه دعا بالمغفرة لابنه وطوي دعاؤه لفهمه من المقام، أو إنه قدم ما قدم استعطافا واستئذانا؟ وعلى الوجهين فإن نوحا عليه السلام يود أن لو من الله على ابنه فغفر له ذنب الكفر الذي ختم به حياته.

أجاب الله نوحا بتصحيح ما وقع في نفسه من خطأ: إن قوله: إن ابني من أهلي كلام غير دقيق. ذلك أن الترابط بين البشر يجب أن يقوم على أساس التوافق في العقيدة لا على أساس القرب الدموي. وإذا اختلفت العقيدة انهدمت كل الصلات التي يمكن أن تكون معتبرة، وبين سبب انحلال الرابطة: أنه كافر لا يعمل عمل الصالحين، فسدت عقيدته وفسد تبعا لذلك كل ما يصدر عنه من فِعال.

ثم عاتب الله نوحا لجريان تفكيره بسؤال ربه المغفرة لمن مات على الكفر. فهو لم يتدبر فيما يترتب على استجابة دعائه من اختلاط بين الخير والشر والإيمان والكفر. ولو تأمل فعلم ما فكّر في السؤال. وأضاف عنايةً بنوح: أن الله تولى وعظه وإيقاظ عقله حتى لا يسلك مسلكا يوقعه فيما يقع فيه الجهلة الذين يخلطون بين ما ينبغي وما لا ينبغي.

وقعت تلك الموعظة من نوح موقعا هزّته إلى الاعتذار مع الالتجاء إلى ربه ليحميه من الوقوع فيما لا يرضيه. وصرح بأن كل همه أن يكون في حصن ربه يحوطه بالتوفيق، وأن يحميه من سؤاله ما لا يعلم مقدما رضا الله بالسؤال عنه. ثم أعلن عن ضراعته بسؤال ربه أن يغفر له ولا يؤاخذه بتقصيره، وأن يوالي عليه رحمته. معترفا أنه إن لم يتفضل عليه بالمغفرة والصفح، والرحمة والرضا، فإن يلتحق بالقوم الخاسرين للعاقبة.

48- قيل يا نوح اهبط بسلام...منا عذاب أليم.

المشهد التاسع: استجاب الله لضراعة نوح، فأذن له في النزول من السفينة مكرما بسلام من الله عليه، مصحوبا ببركات تبشر بمزيد من الخيرات نامية. وهل تجد ما يدل على رضا رب العالمين عنه أبلغ من هذا الخطاب لنبيه ولقومه الذي رعاهم في لجج البحر الهائج حتى وصل بهم إلى مستقر السلامة.

وشمل سلام التكريم الإلهي من كان معه من المؤمنين في السفينة، وعبر عنهم بأمم بالنظر إلى ما سيؤول أمر نسلهم من التكاثر فيتكون منهم أمم وشعوب. فالتكريم والبركات تشمل الأمم التي تتناسل من نوح، ومن المؤمنين المحمولين معه في السفينة، وهم الذين يلتزمون التوحيد لله وتطبيق شريعته. ولكن الأمم الذين يضلون ويكفرون بالله ورسله، فقد أعلم الله أنه لا يعاجلهم بالعقوبة ولكن يمهلهم فمن أصر على الكفر إلى خاتمة حياته الدنيوية سيسلط عليه عذابه الأليم يوم القيامة.

49-تلك من أنباء الغيب نوحيها....إن العاقبة للمتقين.

قصة نوح كما وقع تفصيلها في الآيات السابقة، من الوقائع التي طواها الزمن فعمي خبرها عن الناس. فما كان النبي ﷺ يعلمها قبل نزولها عليه، ولا كان قومه يعلمونها، ولا كان المخالطون لأهل الكتاب من قومه ولا أهل الكتاب يحيطون بجميع التفصيلات التي وردت فيها. وبذا فهي من الأخبار التي فقد من يرويها فانقطع سندها ولفها الجهل. فإعلام الله نبيه بها ينادي بأنه يتلقى الوحي من عالم الغيب الله رب العالمين.

ولتكن هذه القصة محققة لهدفها .فإن نوحا ومن آمن معه صبروا على التكذيب من قومهم وتمالأ الكافرون واستهزأوا بهم. وواصل نوح دعاءهم إلى النهاية التي أعلمه الله فيها أنه لا يؤمن أحد منهم بعد اليوم. فليكن نوح مثالا تقتدي به في الصبر على المواصلة. كما جاء في قوله تعالي **(أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده)**[1] – ومما يساعدك على الصبر ويفتح لك أبواب الأمل مشرعة: أن النهاية الصالحة تكون نصرا للمتقين الذين يخلصون لربهم.

وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٠﴾ يَٰقَوْمِ لَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِى فَطَرَنِىٓ ۚ أَفَلَا

[1] الأنعام آية90

تَعۡقِلُونَ ﴿٥١﴾ وَيَٰقَوۡمِ ٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِ يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا
وَيَزِدۡكُمۡ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمۡ وَلَا تَتَوَلَّوۡاْ مُجۡرِمِينَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ يَٰهُودُ مَا جِئۡتَنَا بِبَيِّنَةٖ وَمَا
نَحۡنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا
ٱعۡتَرَىٰكَ بَعۡضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٖۗ قَالَ إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ
﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ
مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٥٦﴾ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقَدۡ
أَبۡلَغۡتُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَيَسۡتَخۡلِفُ رَبِّي قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ
رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴿٥٧﴾

بيان معانى الألفاظ

يرسل السماء : ينزل المطر.

مدرارا : غزيرا.

لا تتولوا مشركين : لا تعودوا إلى الشرك.

اعتراك: أصابك.

آخذ بناصيتها: الناصية شعر مقدم الرأس، والأخذ بناصية الدابة معناه التحكم فيها.

التولي : الإعراض.

يستبدل : يزيلكم.

حفيظ : قادر قاهر.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله سيدنا هودا إلى قومه، فهو واحد منهم يعرفونه ويعرفهم.

مضمون رسالته: دعوته لعبادة الله وحده فلا إله غيره. وما هم عليه من عبادة الأوثان والشرك كذب على الله وعلى الحقيقة. وقرَّبهم لاتباعه بأنه لا يطلب منهم أجرا على هدايتهم. فالله الذي خلقه من لا شيء ثم أفاض عليه ما أفاضه هو الذي سيتولى تمكينه من أجره. فما لكم لا تنظرون بعقولكم فيما دعوتكم إليه. ثم ثنَّى بدعوتهم إلى الاستغفار مما سبق لهم من الشرك بالله، وأن يتوبوا إليه من ذلك الإثم العظيم. يقول لهم: إنكم إن صدَّقتم برسالتي وقمتم بما أوحاه الله لي وبلغتكم إياه، فإن الله سيرسل لكم الغيث النافع من السماء، ويضاعف قُوَاكم. وإياكم أن تعرضوا وتنقلبوا إلى التمادي على الإجرام بالشرك.

أجابوه : بأنا لم نجد فيما أتيتنا به أمـــرا بينـــا واضـــحا يـــرجح صـــدقك، ولا يتصـــور أن نترك آلهتنا لمجرد قولك، ولذا فنصارحك بأننا لا نؤمن بـــك. ونحـــن نقـــدر أنـــك تجـــرأت على أحد آلهتنا فانتقم منك بأن مسك في مداركك، فخرجت علينا بهذا الكلام.

أجابهم هود: إني أشهد الله الذي لا يغيب عن علمـــه شـــيء مـــن عملـــي ومـــن عنـــادكم، واشهدوا أني لا أتحمـــل شـــيئا مـــن ضـــلال شـــرككم، وإنـــي أتحـــداكم أن تتحـــدوا مـــع أصنامكم للكيد بي، بل إني أقـــول لكـــم عجّلـــوا بمـــا تـــدبرون مـــن الإضـــرار بـــي ولا تنتظروا. إن قوتي مستمدة من الله الذي أعتمد عليـــه وحـــده، وهـــو ربـــي وربكـــم، وكـــل ما يدب على الأرض هو في قبضته لا يخرج عـــن ســـلطانه. وإنـــه ســـبحانه عـــادل أتـــم العدل لا يُسلِمُني إليكم.

إنكم إن تتولوا وتثبتوا على كفركم فإني قد قمـــت بمهمتـــي وأبْلَغْـــتُكُمْ مـــا حملنـــي ربـــي، وإن الله قادر على محقكم وإنشاء قوم آخرين يحلـــون محلكـــم يعبدونـــه ولا يشـــركون بـــه أحدا. والله حافظ لجميع الكائنات لا يســـتطيع أحـــد أن يصـــل إلـــى محفوظـــات ربـــي إلا بإذن منه سبحانه .

بيان المعنى العام :

50←52: وإلى عاد أخاهم هودا...ولا تتولوا مجرمين.

أعقب القرآن قصة نوح بقصة هود عليهما السلام. كما تقـــدم لنـــا فـــي ســـورة الأعـــراف من الآية 64 إلى الآية71.

حمّل الله هودا أمانة الرسالة، وأرسله إلى قومه، وهو واحد منهم يشاركهم في نسبهم، يعلمون سيرته وصلاحه ونبل خلقه، عبر القرآن عن ذلك بقوله (**أخاهم هودا**)

- كيف عرض هود رسالته على قومه المبعوث هو إليهم؟

- قال: يا قومي ؛ ناداهم بما يجمعهم به من صلة النســـب التـــي مـــن شـــأنها أن تجعلـــه لا يسعى إلا لما ينفعهم، ليؤكد الثقة التـــي تَلِـــين بهـــا نفوســـهم لاتباعـــه، وترفـــع صـــدمة المواجهة بما يناقض مألوفهم. وأيد الحقيقة التي يـــدعوهم إليهـــا، بـــأنهم إذا تـــأملوا، فـــإنهم لا يجدون من يستحق وصف الربوبية غيـــر الله .وإذا كـــان هـــو حـــده المســـتحق لـــذلك فما عظمتم وعبدتم ونسبتم إليه الألوهية، هو كذب محض وتزييف للحقيقة.

-ثم أزال ما يمكن أن يـــدخل فـــي نفوســـهم مـــن عـــوارض الشـــك فـــي دعوتـــه، مـــن تصورهم أنه يبغي منها أن يحصل على أجر مـــنهم مقابـــل عنايتـــه بهـــم وصـــرفهم عمـــا كانوا يعبدونه، وتعليمهم المنهج الذي ينبغي أن يســـلكوه فـــي حيـــاتهم؛ فصـــرح بوضـــوح كامل: أنه ما ينتظر الأجر إلا من الذي أنشأه بعد عـــدم، وأفـــاض عليـــه مـــن العنايـــة مـــا

سما به إلى مرتبة النبوة. مالكم لا تحركون مــداركم، ولا تنظـرون بقـوة عقـولكم التـي تخرق حجب اللبس، وتكشف الحق واضحا. على معنى أن مــا قدمــه مــن كونــه واحـدا منهم، لا يبغي منهم مقابلا، وأنــه لا يتصــور العقـل أن يكـون إلــه غيـر الله، وأن مــا عبدوه من دون الله ليست له حقيقةوكذب محض.

-ثم أضاف إلى إفراد الله بالعبــادة المرتبــة التاليــة لــذلك: وهــي أن يتوجهــوا إلــى الله طالبين منه أن يغفر لهم ذنوبهم، بأن يمحو مــا تلوثــت بــه نفوســهم مــن الشــرك بــالله، وأن يصمموا على عدم العــود إلــى مــا كــانوا عليــه، فــلا يكـون اسـتغفارهم حالــة عارضة، بل عزيمة صارمة تنفر مما كانــت عليــه. ثــم أنبــأهم بــأنهم يجمعــون بــذلك بين صلاح بواطنهم، ورضا الله عنهم فيسعدهم بألطافه بهــم؛ التــي منهــا أنــه يضــاعف محصولهم الفلاحي، بما يرسله لهم مــن الأمطــار المتتابعــة، التــي يزكــو بهــا الــزرع، وتصلح الثمار؛ والتي منها أن يزيد إلى قوتهم قوة فــي صــحة الأجســام، والحمايــة مــن الأوبئة، ووفرة النسل، وسعة الرزق. ثم خــتم دعــوتهم بنهــيهم عــن الرجــوع إلــى مــا كانوا عليه من الشرك، الذي هو أعظم ما يمكن أن يقترفه الإنسان من الإجرام.

فيما عرضه هود على قومه، مــا يشــير إلــى أنهــم كــانوا أصــحاب مــزارع، تتميــز أراضيهم بالخصب ووفرة المحصــول، ممــا لا يتحقــق إلا بغيــث الســماء، وأن بنيــتهم كانت قوية تبعا لذلك. وأنهم كانوا يخشون انحباس الأمطار المدمر لحياتهم.

53←56؛ قالوا يا هود ما جئتنا ببينة....إن ربي على كل شيء حفيظ.

بعد أن بسط هود ﷺ عرض ما يدعوهم إليه، وما يســتند إليــه، سـجل القــرآن الحــوار الذي دار بينه وبين قومه.

رفضوا ما دعاهم إليه وقدموا مبررا لرفضهم: أنهم نظــروا فيمــا أيّــد بــه رســالته، فمــا وجدوا أمرا بينا واضحا يفرض قبوله على ســامعه لنصــاعة الحــق الــذي يتضــمنه. وإذ تجردت دعوته عما يؤيدها، في زعمهــم، فــلا يتصــور مــنهم أن يتخلــوا عــن آلهــتهم التي يقدسونها بسبب قول مجرد صادر منــه، ومــن الطبيعــي تبعــا لــذلك أن لا نتوقــع أن نؤمن برسالتك.

وتأييدا لكفرهم ورفضهم قدموا تأويلا، جعلوه الســبب، فــي ظــنهم، الــذي حمــل هــودا على عرض ما عرضه عليهم. هو أنه يمكن أن يكــون هــودا قــد تجــرأ علــى بعــض آلهتهم فسلبوه عقله حتى أصبح يقول ما يقوله من حصل له مسٌّ في مداركه.

رد هود على ما قدموه ردا مبناه: أنــه شــديد الاتصــال بربــه مستحضــر أنــه معــه لا يغيب عنه شيء من أفعاله. فهو يشهد الله سبحانه على ما بذلــه مــن جهــد لإقنــاعهم بمــا

أوحاه إليه، وعلى عنادهم ورفضـــهم وعلـــى تـــأويلاتهم الباطلـــة. وثنـــى بإشـــهادهم علـــى تبريه مما يعبدونه من الأصنام التي يعتقـدون أنهـا شـركاء لله. وثنّـى بتحـديهم تحـديا يظهر عجزهم وعجز آلهتهم معهم أن يصلوا إليـه أو يتمكنـوا مـن تحقيـق مـا يـدبرون له من سوء. وبالغ في التحدي بأن ينفذوا مكـرهم وكيـدهم سـريعا إن كانـت لهـم قـدرة على الإضرار به.

أعلن هود أن هذه الثقة الكبيـرة فـي سـلامته وعجـزهم عـن الوصـول إليـه بسـوء، مؤسسة على صادق توكله على الله الذي تولاني كما تـولاكم بألطافـه، فمـا كـان لـي أن أبلغ المستوى الذي أنا عليه، وما كان لكـم أن تصـلوا إلـى المسـتوى الفكـري والقـوة والسعة في الأموال إلا بألطافه. كما أنه سبحانه هـو القـادر وحـده علـى كـل الخلائـق قدرة مثّلها بالأخذ بالناصية، وهي المسـك بشـعر مقـدم الـرأس إمسـاكا يشـل الحركـة ويتبعه الخضوع. فهو سبحانه مالك لكل واحد من الـدواب، مـن البشـر والحيـوان مهمـا بلغت قوته، لا يعجزه أي منها ولا ينفلت من تصرفه .

إن تصرفه سبحانه يجري حسـب الحكمـة البالغـة والعـدل، فربنـا لا يظلـم أحـدا ولا يهمل أولياءه، وبهذا يشير هود إلى سر ثقته في توكلـه علـى الله، فهـو لقدرتـه وحكمتـه سيحميه من كيدهم .

ـو إن تولوا. أصله وإن تتولوا، وحذفت إحدى التـاءين شـأن مـا بـدئ بتـاءين. يقـول ابن مالك:

وما بتاءين ابتدي قد يقتصر *** فيه على تا كتبين العبر

وهذا خطاب من هود ﷺ لقومه في النهاية يقول لهم، إنكم إن تنقلبوا معرضين فإني أسجل عليكم: أني قد أبلغتكم ما أنزل علي من ربي ولا تبعة علي من كفركم؛ ثم يهددهم بأن الله قادر على إفنائكم جميعا، ويخلق غيركم يعبدونه ويطيعونه. وإنه يمحقكم دون أن تستطيعوا أن تضروه بشيء.

و حمله بعض المفسرين على أن هذا الخطاب من رسول الله ﷺ لقريش. فبعد أن قص عليهم قصة هود التي من شأنها أن تَعِظَهم فلا يسيروا على خطاهم، ويهددهم بمحقهم واستبدالهم بقوم غيرهم.

والتخريج الأول أوفق، لأن القصة لما تنته بعد، لأن عذاب قوم هود سيأتي في الآية التالية.

و تختم الموعظة بأن الله حافظ لكل شيء، وشـأن الحفـظ التـام أن لا يـتمكن أحـد مـن الوصول إلى المحفوظ. فالله ممسك لكل الكائنات، لـه وحـده القـدرة عليهـا ولا يسـتطيع غيره أن يشاركه في تصرفه فيها.

وَلَمَّا جَا أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ عَادٌ ۖ جَحَدُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا۟ رُسُلَهُۥ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ عَادًا كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

أمرنا: أثر أمرنا، وهو العذاب.

الغليظ : الخشن، بمعنى الشديد

الجحد : الإنكار الشديد.

الجبار : المتكبر.

العنيد : المكابر الذي يرفض المعقول.

اللعنة : الطرد المصحوب بالإهانة.

بيان المعنى الإجمالي :

إنه عندما قارب نزول العذاب بقوم عاد تبعا لتصميمهم على الشرك، يسر الله لهود وللذين آمنوا معه النجاة من الريح المهلكة، كما أنجاهم من العذاب الشديد يوم القيامة.

هذه عاد التي أنكرت أشد الإنكار الآيات التي تأيد بها هود، وعصوا رسل الله جميعا وتمسكوا بالشرك، وقلدوا أمورهم كل ظالم متغطرس يرفض الحق الواضح، ويكابر. جزاؤهم أن لعنة الله تتابعهم في حياتهم الدنيا ولا تنفك عنهم يوم القيامة. ألا إن عادا عصوا ربهم. أبعدهم الله ممقوتين.

بيان المعنى العام :

58- ولما جا أمرنا نجينا....ونجيناهم من عذاب غليظ.

إنه عندما قرب تحقق إنزال العذاب بقوم هود لاستمرارهم على الشرك وتكذيب هود، نجى الله هودا ومن آمن معه قبل نزول العذاب الماحق لقومه. وذلك الإنجاء كان بسبب رحمة من الله. فبفضله تمت نجاتهم من الاستئصال بالريح التي أهلكت كل شيء كما جاء وصفها في سورة الذاريات: (**وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم**)[1] وفي سورة الحاقة: (**وأما**

[1] سورة الذاريات آية41

عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية)[1] – وكما نجى الله هودا ومن آمن معه من ذلك العذاب قدر إنجاءهم من العذاب الغليظ الشديد يوم القيامة .

59←60، وتلك عاد جحدوا بآيات...ألا بعدا لعاد قوم هود.

حصرت الآية عادا في إطار يميزها بما سيلحقها من ذم وتشنيع. فذكرت أول ذم لها: أنها أنكرت إنكارا شديدا مبنيا على العناد، دعوة هود وما قارنها من المؤيدات الواضحة، حتى رفضت الحق البين الذي جاء به وهوّنت من قيمة المعجزات المؤيدة له. وثانيا أنها عصت رسل الله. وعاد وإن كانت في الظاهر لم تعص إلا هودا، إلا أنها لما تعلقت بالأصنام وتمسكت بالشرك فقد كان موقفها موقفا مضادا لهدايات الرسل أجمعين، لأنهم جاؤوا جميعا بالتوحيد. وثالثا لأن قوم هود أطاعوا كل جبار عنيد، متكبر مغلق عقله عن الحجة، لا ينصاع للحق الواضح بل يعاكسه بكل غباوة. ومن لازم خلقه أنه لا يأمر بخير ولا يدعو إلا إلى باطل. فهم قد قدموا لقيادة مجتمعهم الظلمة المستبدين المعاندين الذين لا تفيدهم الحجة ولا ينفذ إلى عقولهم الحق وإن كان واضحا كأشد ما يكون الوضوح.

وعقبت ذلك، بأن عادا تبعتها لعنة الله في هذه الدنيا، بحرمانها من رحمته، مع إهانتها في وضعها السيء التي اختارته لنفسها. وسيصحبها هذا الطرد المهين يوم القيامة.

وختمت الآية والقصة بخاتمة تقريرية موجزة جامعة .ألا إن عادا عصوا ربهم وكفروا به .أبعدهم الله مكروهين ممقوتين تلازمهم المهانة والحقارة.

۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ هُوَ
أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ
﴿٦١﴾ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ۖ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا
وَإِنَّنَا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ
مِّن رَّبِّى وَءَاتَىٰنِى مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُۥ ۖ فَمَا تَزِيدُونَنِى غَيْرَ
تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَٰقَوْمِ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ

---

[1] سورة الحاقة آية 7/6

ثَلَـٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعۡدٌ غَيۡرُ مَكۡذُوبٖ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمۡ يَغۡنَوۡاْ فِيهَآۗ
أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمۡۗ أَلَا بُعۡدٗا لِّثَمُودَ ﴿٦٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإنشاء : الإيجاد والإحداث.

استعمركم : جعلكم معمرين للأرض بالزرع والغرس والبناء.

مجيب : إعطاء السائل ما سأل .

تمتعوا : انتفعوا بمتع قريب زوالها.

داركم : بلدكم .

وعد غير مكذوب : صادق غير مختلق.

الخزي : الذل.

الصيحة : الصاعقة.

كأن لم يغنوا فيها : كأنهم لم يقيموا فيها.

جاثمين : باركين على ركبهم.

بيان المعنى الاجمالي :

أرسل الله لقبيلة ثمود صالحا رسولا منهم يعرفون كمالاته ؛فدعاهم إلى ما يدعو إليه جميع المرسلين :أن يفردوا الله بالعبادة، وأنه لا إله غيره. وأن دليل وحدانيته يجدونه في نفوسهم فقد أنشأهم من الأرض، ومكّنهم من تطويرها. ولذا فالواجب عليهم أن يطلبوا من ربهم مغفرة تقصيرهم، وأن يتوبوا إليه مما وقعوا فيه من أخطاء، والله قريب من عباده يجيب سؤالهم.

كان جوابهم عن تلكم الدعوة البينة الرفيقة: خيبت آمالنا فيك. كنا نتوقع أن تبلغ الزعامة فينا، فكيف تنهانا عن عبادة ما عبده آباؤنا وسرنا عليه قرونا. ولذا فإنا نشك في صدقك شكا يجعلنا نرتاب فيما أتيتنا به.

أجابهم: تأملوا إني كنت واثقا أشد الوثوق مما أوحى به إلي ربي، ورحمني بالرسالة الهادية إلى طريقه المستقيم، فكيف يكون حالي إن عصيته. إنكم ما تريدون بكلامكم وعنادكم إلا خسرانا.

ثم عرض عليهم معجزته: ناقة تخلق لا مــن أم، شــاهَدُوا خروجهــا تامــة الخلــق، فهــي من خلق الله لم تتوسط رحم في إيجادها. فاتركوهــا ترعــي فــي أرض الله وأنهــاكم عــن إذايتها بسوء. إنكم تعرضون أنفسكم، إذا اعتديتم عليها إلى عذاب عاجل لا يبطئ.

تحدَّوْا نهيه وعقروا الناقة. فحق عليهم العذاب وقــال لهــم صــالح: أنــتم مؤجلــون ثلاثــة أيام لا تستطيعون الخروج من دياركم؛ هذا وعيد صادق تَحَقُّقُهُ.

أنجى الله صالحا ومن آمن معه برحمته تعــالى مــن العــذاب ومــا صــحبه مــن ذل. إن ربك يا محمد هو القوي الذي لا يثقل عليــه أي شــيء، العزيــز الــذي ينصــاع لــه كــل شيء.

أهلك الظالمين بالشرك والتكذيب بصحية قويــة تــركتْهُم بــاركين فــي أمــاكنهم. امحــت آثارهم كأنهم لم يعمِّروا تلك الأماكن. ألا إن ثمودا عصــوا ربهــم وكفــروا بــه. فليــذهبوا خزايا ممقوتين.

بيان المعنى العام :

61-وإلى ثمود أخاهم صالحا...إن ربي قريب مجيب.

عطف القرآن قصة ثمود مع قومه على قصة هــود مــع قومــه. وكانــت بدايــة دعوتهمــا واحدة: بالتأكيد على المقوم للصلاح والنجاح: تــرك الشــرك وإفــراد الله بالعبــادة، وأنــه لا إله لهم يدبر شؤونهم غيره.

ثم لفت أنظارهم إلى حقيقــة لا يســتطيعون أن يجــادلوا فيهــا أو أن ينكروهــا. هــي مــا يقتضيه التأمل في إيجاد البشــر وتكــوينهم بتحــولات عجيبــة، فهــم مــن الأرض خلقــوا سواء أنظرت إلى خلق أبيهم آدم، أم نظرت إلى ما يــدخل فــي تركيــب الــذكر والأنثــى (الزوجين) من عناصر أرضية بها توجد الخلية الأولــى منهمــا، وتنمــو بمــا تتغــذى بــه من الأرض عن طريق الوريد السري الذي يمر منه إلــى الجنــين مــا تبلــغ بــه الخليــة في كل مرحلة من مراحل وجودها المستوى الذي تكون بــه خلقــا آخــر . وملحــظ آخــر لفت إليه الأنظار، أن كل إنسان وإن كــان قــد خلــق مــن الأرض، فإنــه بعــد أن يولــد ويشتد عوده، هو ممكن مــن التــأثير فيهــا بمــا يحققــه مــن منجــزات فــي الزراعــة والغراسة والبناء، بما يكون به معمِّرا للأرض محصلا للخيرات منها.

وإذ اتضح أن المدبِّر لخلق الإنسان، والممكــن لــه فــي الأرض هــو الله، وأن ســعيه فــي أرض الله قد يقارنه تقصير أو تجاوز للحدود، وتعــد مــن المســتخلف فــي الأرض علــى ما سطره خالقهما من حــدود التصــرف التــي يرضــى عنهــا، دعــاهم صــالح عليه السلام أن يغسلوا ما تلوثوا بــه فــي نشــاطهم مــن الآثــام، أن يغســلوها بطلــب المغفــرة، لســتر

آثامهم،وأن يقرنوا دعاءهم بيقظة باطنية تتمثل في النـدم علــى مــا ارتكبــوه مــن آثــام، والعزم البصير على عدم العودة للشر.(فاستغفروه ثم توبوا إليه).
إن الذي يحرض الإنسان المتجاوز على الاستغفار والتوبــة، هــو مــا تحقــق مــن أن الله رحيم بعباده يقربهم إليه كلما ابتعدوا عن صراطه فــأقلعوا وتوجهــوا إليــه، وهــو بفضــله يجيب دعاء الداعين المخلصين التوابين، ويحقق لهم مطالبهم.

62 ←68: قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا...ألا بعدا لثمود.

يصل القرآن هذا العرض الواضح الجميل، بالحوار الذي دار بين صالح وقومه.
أولا: أنكروا عليه ما دعاهم إليه،وعبروا عن ذلــك بخيبــة آمــالهم فيــه فقــالوا :قــد كنــا نرى فيك الشاب النابه الــذكي الجــامع لخصــال النباهــة، و نأمــل أن تبلــغ فينــا مكانــة السيادة ؛ وثنّوا بلومه والإنكار عليه أن يــدعوهم لمــا دعــاهم إليــه، تلــك الــدعوة التــي تقطعهم عما استقر عليه أمــر آبــائهم مــن عبــادة الأصــنام .يشــيرون إلــى الاعتــزاز بسلوكهم في عقيدتهم مسلك آبائهم. ثم حققوا مصــرحين بمــا يترتــب علــى ذلــك: أنهــم شاكون في صدقه شكا قويا يمكن للريبة في قلوبهم.
ثانيا: رد عليهم صالح بتذكيرهم بالرابطة التي تربطه بهــم (يــا قــومي)، والتــي تقتضــي لمن كان في مقامه الخلقــي الرفيــع أن لا يكــون إلا ناصــحا لهــم ســاعيا فيمــا يصــلح أمرهم. تأملوا بما يرفع عــنكم اللــبس: إنّــي كنــت علــى يقــين بــالغ أعلــى درجــات الوضوح مما أُوحِي إلي من ربي، وآتاني النبوة الرحمة المهــداة مــن فضــله، أيُــؤثِّرُ فــي شككم أو يضرني تكــذيبكم، أو يحميني مــن عذابــه إن اتبعــتكم . لا أحــد يســتطيع أن ينصرني أو يدافع عني إن عصــيته وقصّــرت فــي تبلــيغكم مــا أمــرت بتبليغــه. فمــا تعرضونه علي وتدعونني إليه لا يحصل منه إلا خسراني.
ثالثا: أيقظهم بالنداء: يا قومي، ليكونوا واعين لمــا يقولــه لهــم وليحــذروا مــن التهــاون بمضمونه ؛ فقال لهم: هذه الناقة هي ناقة الله، أنشأها إنشــاء علــى غيــر مــا عهــد فــي غيرها من النوق، لم تلدها أم. هي معجزة لتأييدي ولتُــريكم قــدرة الخــلاق العظــيم. مــا تناسلت مما يملكه أحد، بل خلقها الله خلقا بــدون واســطة فهــي ملــك خــالص لــه، لــذا نسبها إليه (هذه ناقة الله) لا تكلفكــم شــيئا إلا أن تمكنوهــا مــن الرعــي فــي أرض الله، ولا تعتدوا عليها، إنكم إن تهاونتم بحقها في الحريــة وفــي الســلامة يســلط علــيكم عــذابا سريعا، لا إمهال فيه.
رابعا : قابَلوا تحذيرهم من الاعتداء عليهــا، بعقرهــا، فأصــابوها فــي المنحــر وســقطت جثة هامدة .وعندها أعلن لهم أنه بقي لهم ثلاثة أيام يتمتعــون فيهــا بالحيــاة فــي بلــدهم

لايتمكنون من الخروج منه، وقال لهم :إن هــذا وعيــد صـــادق لا تتوقعــوا أن يخلــف أو أن يقع التراجع فيه.

خامسا : تحقق الوعيد الماحق، ولكن قُبَيْل حلوله أنجــى الله صـــالحا والـــذين آمنـــوا معـــه كما أنجى هودا ونوحـــا، بـــأن أدخلهـــم فـــي رحمتـــه التـــي تحصّـــن مـــن كـــل مكـــروه ويصحبها التكريم. ولذا أكد تكريمه لهم بأنـــه أنجـــاهم أيضـــا مـــن الـــذل الـــذي صـــحب عذاب ثمود . والتفت القرآن إلى خطاب النبـــي ﷺ بالتـــذكير بـــأن ســـحق شـــعب كامـــل في لحظة هو أمر هين في جانب القدرة الإلهية فإن الله هـــو القـــوي الـــذي ينفـــذ مـــراده مع سلب الهالكين أي قدرة على المقاومـــة. وهـــو العزيـــز الـــذي لا يغلـــب. وفـــي ذلـــك إيماء بالوعيد لكفار قريش أن مصيرهم قد يكون نفـــس مصـــير ثمـــود لاشـــتراكهم معهـــم في العناد والمكابرة.

ثم عرض القرآن صورة تنفيذ الوعيـــد: أخـــذتهم مـــن مكـــامنهم صـــيحة قويـــة مفزعـــة كأشد ما يكون القوة والفزع، تجاوزت حدود طاقـــاتهم، عقبهـــا أنهـــم انقلبـــوا فـــي ديـــارهم جثثا هامدة جاثمين علـــى ركـــبهم مغروســـة رؤوســـهم فـــي الأرض، لـــم يســـتطيعوا أن يفروا ولا أن يتحركوا؛ كأنهم لم ينعموا في حياتهم الســـابقة بمـــا نعمـــوا بـــه مـــن خفـــض العيش ووفرة الأرزاق.

ويعلق القرآن على القصة بأكملها: إن ثمودا عصـــوا ربهـــم وعانـــدوا وواصـــلوا الثبـــات على الكفر. أبعدهم الله مذمومين مخذولين .

وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ ۖ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۚ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٠﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾ قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

رسلنا : ملائكتنا الموكلون بأمر منا.

البشرى : البشارة .

السلام : التحية.

فما لبث : عَجِّلَ ولم يُبطئ.

حنيذ : مشوي بطريقة خاصـــة أن يغطـــى بحجـــارة أو رمـــل محمـــي أو بحائـــل بينـــه وبين النار.

أوجس منهم خيفة : أحس بالخوف منهم.

يا ويلتا : صيغة تستعمل في مقام التعجب.

البعل : الزوج.

بيان المعنى الإجمالي :

جاءت ملائكة الله لإبراهيم حاملين البشارة، فسـلموا عليـه ورد علـيهم السـلام بمـا هـو أحسن. وعجل باستضافتهم فهيـأ لهـم عجـلا مشـويا قدمـه لهـم. واسـتوحش إبـراهيم منهم، لأنه لاحظ أنهم لم يتناولوا شيئا مـن الطعـام الـذي أكـرمهم بـه .وإذ بـدا عليـه الحيرة من أمرهم، أعلموه بأنهم رسل من الله لإنزال العذاب على قوم لوط الفجرة.

كانت امـرأة إبـراهيم حاضـرة مستبشـرة، وضـحكت ممـا رأت وسـمعت. فبشـرها الملائكة أنها ستحمل من إبراهيم بنبي الله إسـحاق، وأنهـا سـتبقى إلـى أن تـرى ولـده يعقوب. تعجبت أشد العجب مما سمعت وقالـت: كيـف أحمـل وقـد أصـبحت عجـوزا جاوزت بكثير السن الذي تحمل فيه النساء عادة، وكذلك زوجـي كمـا هـو أمـامكم شـيخ كبير السن، إن ما أخبرتموني به يدعو للعجب !

طمأنها الملائكة وبددوا حيرتها لما قالوا لها: كيـف تعجبـين مـن نفـاذ قـدرة الله، فهـو القادر على خـرق العـادات كقدرتـه علـى إمضـاء سـنن الكـون. ولا تعجبـين مـن تخصيصكم بهذا الفضل فإنكم أهل بيـت عمـتكم رحمـة الله وظهـرت عنايتـه بكـم، إن الله بما يتوالى من فضله وبما اختص به مـن كمـال حقيـق بـأن يحمـد، وهـو المجيـد سبحانه الموصوف بأسمى الصفات وأنبلها.

بيان المعنى العام :

هذه قصة أدمجت فيها قصة رسولين عاشا في زمـن واحـد سـيدنا إبـراهيم وابـن أخيـه سيدنا لوط. فلنتابع القصة كما عرضها علينا القرآن:

69 ←70: ولقد جاءت رسلنا إبراهيم ...ومن وراء إسحق يعقوب.

قَدِمَتْ على سيدنا إبراهيم رسل مـن ملائكـة الله يحملـون البشـارة. يحتمـل أن تكـون البشارة ما ستعرف به الآية التالية: إعلامه بأنه سيولد لـه مـن زوجـه سـارة بعـد كبـر سنهما نبي يخلفه نبي، ويحتمل أن تكون البشـارة إهـلاك قـوم لـوط الفاسـدين وتبشـيره بإنجاء لوط. وكلا الأمرين مما يبتهج به إبراهيم.

قدم الملائكة المبعوثون من الله على إبراهيم في صورة لا تـدل إلا علـى أنهـم بشـر قـد يكونون في تصوره مـن المسـافرين الـذين يقطعـون الأرض متنقلـين. افتتحـوا لقـاءه بتحيته، بالسلام عليه، ورد عليهم بأحسن مما سمع منهم .

كان إبراهيم ﷺ كريما، وتوقع أن ضيوفه قد يكونـون فـي حاجـة إلـى الطعـام، فأسـرع إلى بقره، وأخذ عجلا سمينا أنضجه بين نـارين مـن أسـفله ومـن أعـلاه، وأقبـل بـه يقطر دهنه وقدمه إليهم.

كان يتوقع أن يتناوله الضيوف بشراهة، ولكنهم لم يمـدوا أيـديهم إليـه. فأدخـل مـوقفهم هذا حيرة في نفسه، بعد الاستئناس بهم ضيوفا فـي بيتـه، وقـد وجـد لـذة نفسـية فـي إكرامهم. وسرى الخوف منهم إلى قلبه وظهرت ملامحـه علـى وجهـه. ذلـك أن العـادة جرت أن المشاركة في الطعام يتبعها أمـنُ كـل واحـد إلـى صـاحبه فإعراضـهم عـن الأكل قد يكون نذير شر.

وهنا يرتفع الغموض : طمأنوه وقالوا له: لا تخف منـا. إنـا لسـنا بشـرا ولكننـا ملائكـة أرسلنا الله، بمهمة ننفذها، إلى قوم لوط.

71-وامرأته قائمة فضحكت ...ومن وراء إسحق يعقوب.

تدخل في المشهد امرأة إبراهيم التـي كانـت حاضـرة واقفـة تسـمع كـل مـا دار بـين زوجها وضيوفه. ويسـجل القـرآن أنهـا ضـحكت، وشـأن الضـحك أن يصـدر عـن الإنسان إذا سُرَّ بمـا سـمعه، أو تملكـه شـعور ممـزوج مـن التعجـب والاسـتغراب.

واختلف المفسرون في توجيه سبب ضحكها اختلافا كثيـرا، حتـى حملـه بعضـهم علـى أن الضحك هو إحساسها بالعادة الشهرية. وهو محمل بعيـد لغـة ومعنـى. والـذي أفهمـه من الآية أنها كانت مسـرورة. قـد يكـون سـرورها لمـا علمـت أن ضـيوفها ملائكـة وكلهم الله بالانتقام من قوم لوط الفجرة. وقـد يكـون لمـا ذكـر فـي الآيـة، وهـذا ممـا جبلت عليه النساء، سـرورهن بالحمـل ينشـر فـي نفوسـهن البهجـة. أو بـأمر آخـر مطوي، ولا يهمنا في حبك القصة معرفته على وجه الدقـة، فلننصـرف عـن ذلـك إلـى ما سيأتي واضحا في مراحل القصة.

كانت سارة زوج إبراهيم منشرحة، كأنها مهيأة لحدث سار، ويأتي هذا الحدث أيضا فتبشّرها الملائكة أنها ستحمل بإسحاق وأنها سترى من ابنها هذا حفيدها يعقوب أيضا.

72←73، قالت ياويلتا ءالد ...إنه حميد مجيد.

البشارة صادقة لا تشك في تحققها، ولكن هـذه البشـارة كانـت غريبـة نظـر للظـروف المصاحبة التي عبرت عنها سارة في تسـاؤلها. وصـرحت بـذلك فـي قولهـا: ياويلتـا!

صيغة تدل على التعجب الممزوج بالشعور بالصـدمة. كيـف ألـد بمعنـى كيـف يتـأتى مني الحمل، وأنا قد تجاوزت السن الذي تحمل فيه النساء أجنـة! لقـد بلغـت سـن اليـأس وأصبحت عجوزا مسنة. وزوجـي كبـر وأصـبح شـيخا طاعنـا فـي السـن. فكونهـا عجوزا، وكون زوجها شيخا، حسب المعروف من سـنن الحيـاة أنهمـا قـد جـاوزا سـن الإنجاب، فكيف تتحقق هذه البشارة ؟

-أجابها الملائكة بما يرفع حيرتها ويزيل تعجبهـا قـائلين: **أتعجبـين مـن أمـر الله** (نفـاذ قدرة الله) أليس هو القادر إذا أراد شـيئا يـأمره فيسـتجيب. ولا عجـب أن يصـدر هـذا من الله، ولا عجب أيضا في تخصيصـكم بخـرق العـادة، لأن تعلـق إرادتـه بإعطـائكم الولد في مثل هذا السن هو رحمة وبركة، وأنتم أهل للرحمـة والفضـل يـا أهـل البيـت. وتختم الآية بأن الله حميد، لا يسـع المتأمـل فـي كمالاتـه إلا أن يثنـي عليـه بمـا هـو أهله، وأنه مجيد: متصف بأوصاف العلو الذي لا يشاركه أحد فيها.

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الروع : الفزع والخوف.

المجادلة : المقابلة في القول والحجج، المحاورة.

الحلم : كمال العقل مع أناة واحتمال.

أواه : كثير التوجع والاهتمام بشؤون غيره من الناس.

منيب: كثير الرجوع إلى ربه.

بيان المعنى الإجمالي :

اطمأن إبراهيم لمّا تحقق أن الذين قـدموا عليـه ملائكـة الـرحمن، ولمّـا تتابعـت عليـه البشائر. ثم أخذ يسأل الإمهـال لقـوم لـوط لعلهـم يرتـدعون. وذلـك لأن مـن طبيعـة إبراهيم ومن مزاياه أنه راجح العقـل يتحمـل الأذى ولا يسـرع بـالرد، كثيـر التأسـف على كل من يصيبه مكروه، وهو في حضرة ربه يعود إليه بصفة دائمة.

و ناداه ربه: يا إبراهيم أعرض عن توسلاتك فيهم؛ إنـه قـد حـق علـيهم الوعيـد، وإنـه سيلحق بهم العذاب الذي لا مرد له.

بيان المعنى العام :

74←75: فلما ذهب عن إبراهيم الروع....أواه منيب.

بعد أن اطمأن إبراهيم وذهب عنه ما وجده من خوف وريبة من الضيوف الذين امتنعوا من تناول ما قدمه إليهم، وتبين له أنهم ملائكة الله أتوا ليبشروه بامتداد نسله، وبنجاة لوط من العذاب الذي سيحل بقومه. وبعد أن تأكد من أن القضاء المبرم سيحل قريبا بالقوم المفسدين، أخذ يدعو ربه ويعتذر لقوم لوط ويسأل لهم الإمهال علهم يقلعوا عن السوء الذي انتشر فيهم وتمكن منهم.

وتسجل الآية ما كان عليه إبراهيم من كمال خلقي، قام بموجبه سائلا الصفح عن قوم لوط، هذا الخلق يتمثل في أنه امتلأ حلما، مما يبين عن عقل راجح، وتحمل للأذى، وصفح عمن ظلمه. وأنه كان رقيق المشاعر قوي الإحساس يكثر من التأوه إذا رأى الانحراف عن منهج الله، يتوجع لانصرافهم عن الطريق المستقيم، ويهتم لما يصيبهم من هموم. وإن رجوعه إلى ربه يلزمه بصفة متتابعة يحاسب نفسه ويعيش في ظل القرب من ربه.

76-يا إبراهيم أعرض عن هذا.. غير مردود.

وبينما إبراهيم يسأل لقوم لوط الإمهال والتوفيق، يأتيه الخطاب القاطع: يا إبراهيم انقطع عن توسلاتك، إنه قد آن أوان تنفيذ الوعيد حسب القدر السابق الذي لا يبدل. وإن قوم لوط سيسلط عليهم عذاب لا يمكن الحيلولة بينهم وبينه.

وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾
وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى
هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ ۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا۟
لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ
ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ ۖ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ
بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ
مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا
وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ
ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

سيء بهم : حصل له السوء بسبب قدومهم عليه.
ضاق بهم ذرعا: ضاق ذراعه فلا يستطيع مده إلى غايته. أي لم يجد حيلة في الخروج من الأمر الذي ألم به.
عصيب : شديد فيما لا يرضي.
يهرعون : مقبلون بشدة كأنهم مدفوعون من خلفهم.
ولا تخزون : ولا تذلوني بالاعتداء على ضيوفي.
من حق : من رغبة.
ركن شديد : قوة تمنعني.
قطع من الليل : جزء من الليل.
سجيل : من واد من جهنم .
منضود : متتابع.
مسومة : عليها علامة تفرزها عن غيرها.

بيان المعنى الإجمالي :

انتقلت القصة من إبراهيم إلى لوط، بتحول الملائكة إليه في صورة بشرية، فاستاء من قدومهم وشعر بالضعف والحرج، وعبر عن ذلك بأنه في يوم شديد. وبمجرد ما سمع قومه بقدوم ضيوف جدد على لوط أسرعوا إلى بيته على ما هو عادتهم من ربط علاقة شذوذ جنسي مع كل قادم. رجاهم لوط أن يحترموا ضيوفه، وعرض عليهم أن يزوجهم من فتيات هن أفضل من الذكور استمتاعا وطهارة. وحضهم على تقوى الله التي تحصنهم من الإثم الذي تعودوا عليه. ونهاهم أن يهينوه بالتعدي على ضيوفه، وتعجب أن لا يوجد فيهم رجل رشيد يحسن التدبير.

أجابوه بكل وقاحة: لما ذا اللف والدوران، إنك تعلم ما نريد من ضيوفك ولا نرغب في بناتك. قال لوط عند ذلك مظهرا الحرج الكبير الذي هو فيه بتمنيه أن لو كانت له قوة يستطيع بها أن يوقف فسادهم، أو لو كان في المنطقة رجل قوي يأوي إليه ويحميه ويمده بالتأييد ليحميه من فساد قومه، وعزمهم التعدي على ضيوفه.

عند بلوغ اليأس بلوط هذا الحد كشف له الملائكة عن حقيقتهم وقالوا له نحن ملائكة الله. فكن مطمئنا. إنهم عاجزون عن النيل منك أو منا. وإنهم قد حق عليهم ما قُدِّر لهم من عذاب. فاخرج مع أهلك في الليل وسر بهم مبعدًا عن القرية، ولا يلتفت منكم أحد إليها، واستثنوا امرأته التي ستهلك مع الهالكين. إن موعدهم المهلك مع الصباح، والصبح قريب انبلاجه.

لما حصل الأمر التنجيزي انقلبت القرية بما تحويه فأصبح عاليها سافلها، وتتابعت عليهم حجارة من نوع خاص لا ينجو منها أحد. وهي تصل إلى الظالمين أينما كانوا.

بيان المعنى العام :

77-ولما جاءت رسلنا لوطا سيء بهم ....يوم عصيب.

انتقل الملائكة المرسلون من إبراهيم، بعد أن أكملوا ما كلفهم الله به من البشارة ومن إخباره أن قوم لوط قد حق عليهم كلمة العذاب، انتقلوا إلى سيدنا لوط فقدموا عليه في صورة بشرية. ويصف القرآن الموقف الحرج الذي كان عليه، لقد ساءه قدومُهم، ووجد نفسه في ضيق، خشية من قومه الذين شاعت فيهم الفاحشة شيوعا جعلتهم لا يتورعون من الوصول إلى فعلتهم النكراء طوعا أو كرها . ووجد مجال حفظ ضيوفه وحمايتهم مجالا ضيقا. عبر عنه بأن ذراعه أصبح محصورا لا يستطيع أن يقوم بدوره من المدافعة. وفاض صدره بما يدل على الكرب الذي استولى عليه، فقال: هذا يوم عصيب، بالغ الشدة بما ينذر به من مكروه لا يستطيع دفعه، إذ هو يتجاوز قدراته.

78- وجاءه قومه يهرعون....أليس منكم رجل رشيد.

وشاع الخبر في البلد، وتسابق نحو بيته الذي يأوي الضيوف باندفاع، جماعة من قومه، كأنما قوة من خلفهم تدفعهم، قصدُهم ما هو دأبهم من فعل الفاحشة والتعدي على الضيوف إشباعا لعرامة شذوذهم الجنسي.

بلغ الحرج بلوط أقصاه، وحاول أن يصدهم بالإقناع عما عزموا عليه فقال لهم: يا قومي ! مقربا لهم بما يربطه بهم من النسب الذي من شأنه أن يصرفهم عن إيذائه. ثم فتح لهم باب الانصراف عن الفاحشة بأنه يُمكِّن من يرغب في إشباع شهوته المتهيجة بالزواج من بنات قومه. أقدم على هذا العرض باعتبار أنه النبي فيهم، فبنات قومه كبناته. وحرضهم على قبول عرضه بأن الزواج بين الرجل والمرأة، أطهر من الفاحشة بين ذكرين شرعا وذوقا. وأضاف تذكيرهم، آمرا لهم بتقوى الله الذي يمقت فعل الفاحشة. ثم جسم لهم الوضع الحرج الذي هو فيه سائلا أن لا يذلوه وأن لا يهينوه بإهانة ضيوفه، فإن من كرامة المضيِّف أن تحترم ضيوفه، يجدون في حماه العزة والمنعة. وسألهم في الختام متعجبا: ما لكم قد اتفقتم على الفساد واختلت القيم عندكم ؟ ألا يوجد من بينكم رجل رشيد في مداركه يحسن التدبير، عاقل ذو بصيرة في تقييم الأمور، يكشف لكم سوء ما أنتم مقدمون عليه، ويردعكم عن المضي في الفساد.

79←80: قالوا لقد علمت ما لنا ...إلى ركن شديد.

بلغت الأزمة أشدها. وتحول الحوار بين لوط وقومه إلى حوار الصم. فما نفذ تذكيره ولطفه وحسن تأتيه في المحاورة إلى عقولهم، ولا حرك فيهم داعية الخير والرجوع إلى ما هو حق بين. وقالوا له: ما لك تتجاهل ما أنت عالم به، إنك تعلم من سلوكنا ومن قيمنا الاجتماعية أنا لا نرغب في النساء اللاتي عرضتهن علينا، ثم أكدوا في وقاحة: إنك يا لوط تعلم ما نريد أن نحصل عليه، فنحن مصممون على النيل من ضيوفك فلماذا الدوران؟

بلغت الحيرة من لوط أشدها، وانكشف له أن قومه جمعوا بين الوقاحة والتحدي. فرجع إلى نفسه معبرا عما بلغه من اليأس: ليت لي قوة ذاتية أمنع بها ضيوفي منكم، بما يوحي أن كثرتهم كانت تفوق قدراته الذاتية. أو ليت لي قوة خارجية أستند إليها تمنعني. قوته الذاتية أضعف من أن تقاوم هذا الرتل المتتابع من قومه، ولا يوجد في محيطه من يحمي الحق أو يسنده. فالتعبير يوحي بأن اليأس استولى على مشاعره، وضاقت به الحيل التي تخرجه من المأزق الذي هو فيه.

81←83: قالوا يا لوط إنا رسل ربك ... وما هي من الظالمين ببعيد.

جاء الفرج بعد الشدة فسجلت الآيات الثلاث الألطاف التي تدارك الله بها لوطا.

-حضر الملائكة ما دار بين لوط وقومه، وشهدوا إصرارهم على الفساد فتم تسجيل ذلك عليهم. ولما يئس منهم لوط ويئس من وجود قوة تساعده في محنته، صرح له الملائكة بما يخرجه من الضيق الذي هو فيه .قالوا له : لسنا بشرا، ولكنا ملائكة الله أرسلنا إليك . إنهم عاجزون عن الوصول إليك أو عن النيل منا. فقد أعمى الله أبصارهم كما جاء في سورة القمر: (**ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم**)[1] - فكن مطمئنا يا لوط. وأنت مأمور بأن تخرج مصاحبا أهلك ليلا وتسير بهم، واقطعوا علاقتكم بالقرية الظالمة الفاسدة، فلا تلتفتوا إليها. ولم يبين القرآن السر في هذه الوصية. ويحتمل أن لا يبقى في نفوسهم تعلق بها، كما يحتمل أن العذاب الذي سينزل بها مما لا تتحمل الطاقة البشرية مشاهدته. ولا تأخذ امرأتك معك، أو إن امرأتك ستلتفت فيصيبها ما أصابهم. وعلى التقديرين فزوجته هالكة ولا بد. وسينزل بهم العذاب مع الصباح .ومن المؤكد أن وقت حلول الصبح قريب وليس ببعيد.

---

[1] سورة القمر آية 37

النهاية: لما آن الموعد الذي حدده الله في سابق علمه لإهلاك قوم لوط، في لحظة انقلبت القرية فأصبح أسفلها أعلاها. وتتابع عليهم من السماء القذف بحجارة محماة قد تكون من واد بجهنم، وقد يكون ذلك على التشبيه كأنها من ذلك الوادي، وهي حجارة ليست كالحجارة تتميز بعلامتها التي تفرزها عن غيرها من أحجار الأرض بتقدير من ربك يا محمد.

ثم التفت القرآن إلى المشركين يهددهم، بأن آثار الخسف والعذاب قريبة منهم وليست بعيدة عن الظالمين وهم ظالمون بالشرك، فليرتدعوا عن الشرك. كما يحتمل المعنى أن إصابة قوم لوط بالحجارة من سجيل ليس بعيدا عن الظالمين.

۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخير : حسن الحالة، ومنه وفرة الخير او رخص الأسعار.

محيط : يحيط بكم فيه العذاب.

القسط : العدل.

البخس : النقص.

تعثوا: تسعون في الفساد.

بقية الله : ما يبقيه الله لكم ويدوم. أو إبقاء الله خير لكم.

حفيظ: مجبر.

الحليم : صاحب العقل الراجح.

الرشيد :الموفق في التصرف في الأموال.

بيان المعنى الاجمالي :

أرسل الله إلى قبيلة مدين رسوله شعيبا، وكان فردا من أفراد القبيلة ليس غريبا عنها. طلب منهم أن يفردوا الله بالعبادة، وأن لا يحتالوا على المتعاملين معهم

بالتنقيص من الكيل أو من الميزان. وذكــرهم بــأن وضــعهم المــالي وضــع ميســر فهــم بخير، الأمر الذي لا يجدون معه عــذرا لمــا يقومــون بــه. وحــذرهم مــن اليــوم الــذي يحيط بهم العذاب فلا يجدون منه مخرجا، وأمــرهم أن يحكمــوا العــدل فــي تعــاملاتهم، وأن لا يحطموا أمل العارضين للسلع بإظهــار عيــوب موهومــة وانتقــاص فــي القيمــة ليستولوا عليها بثمن دون قيمتهــا الحقيقيــة. وأن يتــذكروا دومــا أنهــم مســتخلفون فــي الأرض فلا يفسدوا فيها. وإن تطبيقهم لما عرضه علــيهم هــو طريــق الخيــر فعلــيهم أن يلتزموه إن كانوا مؤمنين. وختم موعظته: بأنه لا يجبرهم على اتباع ما دعاهم إيه.

كان جوابهم الرفض لمــا تضــمنته رســالته، وتــأولوا أن مــا جــاءهم بــه إن هــو إلا تصورات نشأت من الصلوات التــي شــاهدوه ملازمــا لهــا، وإلا فكيــف ينهــاهم عــن عبادة ما استقر عليه آباؤهم! ثم إن الأمــوال التــي تَــدَخَّلَ فــي طريقــة التصــرف فيهــا بتحريم التطفيف ونحوه، هي أموالهم التي حصلوا عليهــا بجهــدهم، فــلا يقبــل أن يتــدخل أحد في تصرفاتهم، وهي الحرية الفوضوية التي ما تــزال إلــى اليــوم حجــة مــن فقــدوا الإيمان. ثم ختموا تعجيبهم بأن ما صدر منه لا ينسجم مع مــا عرفــوه مــن كمــال عقلــه، ومن حسن تصرفه في الاستثمار.

بيان المعنى العام:

84←86: وإلى مدين أخاهم...عليكم بحفيظ.

أرسل الله إلى مدين رسولا منهم كما أرسل نوحا وهودا وصالحا، مما يبين أن الله، بفضله ورحمته، يساعد البشر على الاهتداء، فيرسل رسله من نفس الأقوام المرسل إليهم، يكونون قد خبروهم واطمأنوا قبل دعوتهم إلى صدقهم وكمال أخلاقهم .

ومدين قبيلة منسوبة إلى جــدهم مــدين. كانــت مــواطنهم بــين الحجــاز وخلــيج العقبــة بقرب ساحل البحر الأحمر. وما روي في نسبهم لا يطمأن إليه .

بعث الله إليهم شعيبا ليهــديهم بعــد ضــلال كبيــر فــي العقيــدة واخــتلال فــي بنــائهم الاجتماعي. فدعاهم:

أولا: إلى توحيد الله وإفراده بالعبــادة، وهــي الــدعوة التــي انطلــق منهــا كــل رســول لتوجيه المرسل إليهم إلى الحــق الــذي تبنــى عليــه العقيــدة والســلوك. وأن الانحــراف عنه هو الضلال والضياع. يترتــب عنــه فســاد فــي التصــور، وفســاد فــي العلاقــات الاجتماعية، وفساد في ارتباط الإنسان بالكون الذي يعيش فيه.

ثانيا: إلى الصدق في المعاملة والابتعاد عن الحيل التي يــتمكن بهــا أحــد الطــرفين مــن مغالطة الطرف الآخر والاستيلاء على حقه. فنهــاهم عــن تنقــيص حــق المتعامَــل معــه

من الوزن، أو الكيل، بإيهامه أنه أُعْطِيَ حقـه كـاملا، والمحتـال قـد غالطـه واسـتولى على ماله باطلا. وشنع على هذه الطريقة التـي شـاعت فـيهم، بـأنهم لا يجـدون مبـررا ولو وهميا لما يفعلونه، فهم يعيشون في سعة ووفـر مـن الخيـرات، ولـيس بهـم حاجـة لمثل هذه التصرفات. ونبههم من ناحية أخرى إلى أنهـم يعرضـون أنفسـهم إلـى عـذاب الله في يوم عظيم أخذُه، إما في الدنيا وإمـا يـوم القيامـة يـوم الحسـاب. هـذا العـذاب الذي يحيط بهم لا يجدون عنه مخرجا.

أكد شعيب هدايته تلك، بأن ثنـى مصـرحا بمـا يفيـده النهـي. فـأمرهم بإيفـاء الكيـل والميزان: أي إعطاء الطرف المقابل حقه كـاملا غيـر منقـوص، ووضـح ذلـك بربطـه بالعدل الذي لا يظلم فيه أي طرف الطرف الآخـر .وهـو معيـار مغـروس فـي الفطـرة البشرية.

ثم نهاهم عن نوع آخر كان فاشيا فيهم، وهـو أن يعـض أصـحاب المعرفـة يظهـرون ما ينقص من قيمة المعروض، ليستولوا عليه بـثمن نـاقص عـن قيمتـه، وهـو اسـتغفال للجالبين للسلع باعتبار أن الخبير مدرك للقيم وللجودة، فيكـون قصـده ممـا يظهـره مـن جوانب سلبية في السلعة، يرمي من ورائه أكل المال بالباطل.

ثم نهاهم نهيا عاما عن كل فسـاد فـي الأرض، فقـال: ولا تعثـوا فـي الأرض مفسـدين – ولا تعثوا أي : ولا تفسدوا في الأرض فسادا مخربـا. ذلـك أن غمـط حقـوق النـاس، كالاحتيال في الكيل والميـزان، وكـاختلاق العيـوب المنقصـة مـن قيمـة السـلع، هـي ونحوها مما يعطل النمو ويزهد النـاس فـي الإنتـاج، وذلـك إفسـاد فـي الأرض التـي استخلفنا الله فيها لنعمرها. والتعمير لا يكون إلا بالتنمية.

وواصل حظهم على الاستقامة بأن ما يبقيـه الله لهـم مـن البركـة فـي أرزاقهـم، ومـا يبقيه فيدخره لهم من الثواب على التزامهم بالصدق فـي المعاملـة، هـو خيـر لهـم ممـا يستعجلون الحصول عليـه بـالطرق الملتويـة. وإنكـم لتـدركون ذلـك إذا رجعـتم لمـا يقتضيه التأمل العقلي في الصلاح الاقتصادي، وما يدعو إليه الإيمان.

وختم موعظته بأنه مبين لهم، ومبلغ لهـم مـا أوحـي إليـه، ويبقـى كـل واحـد مـنهم مختارا مسؤولا عن اختياره، ولا أكره أي أحد .

87-قالوا يا شعيب أصلواتك ...الحليم الرشيد.

قابل قوم شعيب دعوته بالرفض. وذلك بفرض أن ما طلبت منا اعتقاده والتزامه، قد انتقش في عقلك بسبب ما نراك ملتزما به من الصلوات. كأنهم يعيبون عليه مواظبته على الصلاة، ولا يرون إلا أنها كانت سببا في تصورات هي حقيقة دعوته التي قامت:

أولا: على ترك عبادة ما عبده آباؤهم، يردون عليه بأن مخالفة الآباء على ما كانوا يقيمون عليه، والذي نجحوا به في حياتهم غير مقبول.

وثانيا: على التحكم المرفوض في طريقة تصرفهم في أموالهم. ذلك أن تلك الأموال جمعوها بجدهم؛ فلا يقبل أن تتدخل فينا.

و ختموا باستغراب أن تصدر هذه التعاليم عنه، فإنه معروف برجاحة العقل وحسن التفكير فلا يقبل منه أن يطرح ما ثبت عليه آباؤهم، وبأنه رشيد محسن للتصرف المالي، عارف بوجوه تنميته، فكيف ينهاهم عن التطفيف وما عطف عليه. وبه تنمو ثرواتهم؟

قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا
بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨) وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ
أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ (٨٩)
وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠) قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ
كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ
(٩١) قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَهْطِيٓ أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَآءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي
بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٩٢) وَيَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ
مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَٰذِبٌ ۖ وَٱرْتَقِبُوٓا۟ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣) وَلَمَّا جَآ
أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ
فَأَصْبَحُوا۟ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ (٩٤) كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ
ثَمُودُ (٩٥)

بيان معاني الألفاظ :

التوفيق : خلق القدرة والداعية إلى الطاعة.

توكلت : تقويت بعون ربي.

رهط الرجل : القرابة الأشد قربا منه.

رجمناك : قتلناك بالرمي بالحجارة.

ما أنت علينا بعزيز: لا يعجزنا قتلك وذلك هين.

ظهريا: وراء الظهر أي منسيا.

محيط : لا يخفى عنه علم أي عمل من أعمالهم.

بيان المعنى الإجمالي :

واصل القرآن تسجيل ما دار بين شعيب وقومه .قال لهم: يا قوم ما ذا تظنون أن يقع بي من السوء إذا أنا لم أبذل كل جهدي لإبلاغكم ما أوحي إلي، مع أني متمكن من هدي الله ورزقني النبوة خير ما يرزق .ولا أقصد من تذكيركم أن أظهر بمظهر المخالف لكم، بل ما أريد إلا الإصلاح على قدر طاقتي. وإذا وفقت فبفضل الله علي، ولأني معتمد عليه، وأعود إلى فضله ليؤيدني. وثنى بأن نهاهم عن أن يحملهم مضادة الحق الذي جاء به على العناد فيصيبهم من العذاب ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح، وقوم لوط قريبون منكم زمنا ومكانا. فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم . وتقربوا إلى ربكم بطلب المغفرة لما سلف منكم واندموا على ما فرط منكم، فإن الله رحيم بعباده إذا ما توجهوا إليه، ويحصلون على حبه رغم ما فعلوه قبل توبتهم من العصيان.

كان جوابهم: إنك لم تفلح في توضيح مرادك، وقوّمناك فتبين لنا أنك ضعيف لا تقدر على مقاومتنا، ولولا مكانتك عند أقاربك الأقربين لرجمناك بالحجارة، وما أنت بالرجل العزيز علينا.

أجابهم شعيب منكرا عليهم أن يقدّموا في رعايته أقاربه، وينسون أنه مبعوث من عند الله الذي هو حاميه، والله لا يغيب عنه أي عمل من أعمالكم.

وهددهم في النهاية بعد أن يئس منهم، فقال لهم: استمروا على فسادكم، وإني مستمر على صلاحي. سوف تتبين لكم العاقبة، من يهلك بالعذاب المذل، ومن هو كاذب وانتظروا حلول ما وعدتكم به فإني منتظره معكم.

ولما قرب الموعد أنجى الله شعيبا والذين آمنوا معه وشملتهم رحمته،وأخذ الله شعب مدين بصيحة قوية تجاوزت طاقة الإنسان فأصبحوا في ديارهم جاثمين على وجوههم لا حراك لهم، كأنهم لم يعمروا تلك الأماكن فلم يبق لهم أثر. أبعد الله مدين كما أبعد ثمودا تلحقهم الذلة والمهانة، وكلاهما هلك بالصيحة.

بيان المعنى العام :

88←90: قال يا قوم...رحيم ودود.

واصل القرآن تسجيل الحوار الذي دار بين شعيب وقومه:

قال شعيب: ما هو ظنكم إن كنت موقنا بأني متمكن من الحق البين الذي تلقيته عن ربي، وأكرمني بأن رزقني النبوة، وهي الرزق الحسن، وأسرعتم إلى تكذيبي ما ذا تكون عاقبتكم ؟ أليس من الحزم أن تصدقوني، خاصة وأن مضمون رسالتي إن تأملتم فيه لا تجدونه إلا محصلا لخيركم.

هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإني لا أريد أن أنهاكم عما نهيتكم عنه، ثم أعمل بخلاف ذلك في حياتي. فأنا ملتزم بتطبيقه، سائرٌ على ذلكم النهج. كما أني لا أقصد أن أظهر مخالفتي لكم، وما فرضتموه من أني أقصد إلى الخروج عن معتادكم وإظهار أني مخالف لكم، هو فرض خاطئ، فإني ما أريد إلا أن أصلح روابطكم الاجتماعية وتصوركم للكون وللخالق. وأعمل لبلوغ ذلك باذلا كل ما أملك في حدود طاقتي.

ثم إن تحقيق ما أسعى إليه، وخروجكم من الضلال إلى الهدى، وتقوية روابطكم الاجتماعية، لا يتم إلا بفضل من الله. فإنه سبحانه الموفق للخير بتيسير الأسباب ورفع المعوقات. إني معتمد عليه في جعل دعوتي تحقق الآثار الطيبة. وإني أعود إلى ربي فهو المرجع الذي استقي منه الهداية، وييسر لي العون.

و يا قوم لا يجرمنكم. هذه عبارة تكررت في القرآن تفيد النهي عن التلذذ والعزم على العصيان مما يجعل الشخص يقرر القيام بفعل يستجيب لعواطفه مع أنه يعلم في باطنه أنه غير صالح. لا تحملنكم مخالفتي، واختياركم طريقا هو في شق وأنا في شق يقابله، من أن يفضي بكم ذلك إلى أن يسلط الله عليكم نكالا مثل ما أصاب قوم نوح، أو ما أصاب قوم هود، أو قوم صالح. وكانت عاقبة هذه الأقوام معروفة عندكم. ثم إن قوم لوط لم يمض عليهم أمد بعيد فيعمل النسيان في ستر ما أصابهم، بل عهدكم بهم قريب، وكذلك منازلهم قريبة من منازلكم.

وبعد أن فتح بصائرهم ليتقوا إصابتهم بمثل أصاب المعْرِضين عن هدايات الرسل السابقين، أرشدهم لما يرقق القلب، ويجلب رضوان الرب، إلى طلب المغفرة من الله بستر ما اقترفوه من ذنوب وما ارتكبوه من آثام، وأن يعلنوا إقلاعهم عن سيرتهم السابقة، ويظهروا الندم على ما فرط منهم، فيجددوا صلتهم بالله وترتقي أشواقهم إلى القرب منه .ومما يفتح آمالهم في القبول أن الله رحيم بعباده، يحسب لهم الخير وسلوك طريق الرشد.

91 -قالوا يا شعيب ما نفقه...بعزيز.

قابل قوم شعيب إفصاحه عن تقريبه لهم وإرادته الخير لهم وتذكيرهم أجمل تذكير وألطفه، قابلوا ذلك بقولهم:

إنا لم نفهم كثيرا من كلامــك، فلــم تفلــح فــي الإبانــة عــن مــرادك، ودعوتــك غيــر واضحة. ومن ناحية أخرى فتقويمنا لك كشف لنا عــن ضــعفك، فأنــت لا تتقــوى بحجــة ملزمة، ولا بقوة جسمية تحميك من بطشنا. وشيء واحــد راعينــاه فلــم نعجــل برجمــك بالحجارة، هو مكانتــك مــن أقاربــك الأقــربين الــذين نــوقّرهم، ولا نريــد أن نغــيظهم برجمك. وفي اختيار العقوبة بالرجم، مــا يفيــد شــدة نقمــتهم علــى شــعيب لأن الــرجم عقوبة فيها تحقير وإذلال. وصرحوا بهذا المعنى لمــا قــالوا لــه: مقامــك هــيِّن ولا عــزة لك، ونعلم أنك لا تجد من ينصرك منا.

92←93: قال يا قوم أرهطي ...معكم رقيب .

أجابهم شعيب عن وقاحتهم، وتهديداتهم، وســوء تقــديرهم لمقــام الألوهيــة، بقولــه: يــا قوم! إن أمركم لعجيــب، تــذكرون أنكــم قصّــرتم فــي إذايتــي تقــديرا مــنكم لرهطــي وقرابتي الأقربين، وأغفلتم لكفركم وضــلالكم أنــي معتــز بتأييــد الله لــي. أبلَغَــت بكــم الغفلــة أن نســيتم قــدرة الله، وجعلــتم الله وراء ظهــركم نســيا منســيا، لا ترقبونــه ولا تتفكرون في حضوره معكم في كل لحظــة وأوان. واعلمــوا أن علــم الله قــد أحــاط بكــم فلا تعملون عملا إلا والله شهيد علــيكم، مطلــع علــى مــا يصــدر مــنكم وعــن نيــاتكم الباطنة ولا يفلت شيء من علمه سبحانه.

ثم كرر نداءهم ليوقظهم مهددا لهم مظهرا يأســه مــن هــداهم فقــال: يــا قــوم اعملــوا على الحالات التي تعملون عليها، وامضــوا علــى الســيرة التــي تباشــرون بهــا الحيــاة العملية والعقدية. وفي المقابل إني مــاض علــى طريقتــي التــي دعــوتكم إليهــا فــأبيتم. سوف تعلمون علم اليقين الواقعي، من تكون عاقبته العــذاب المــذل، ومــن يفضــح بأنــه كاذب. وانتظروا حلول ما أنذرتكم فــإني معكــم مــن المنتظــرين. فهــو معلــن لهــم أن العذاب قريب منهم.

94←95: ولما جا أمرنا...بعدت ثمود.

بعد أن يئس شعيب من اهتداء قومه أعلن لهم مفارقته لهم، وأن عليهم أن ينتظروا تحقق ما أوعدهم به. ولما قرب الموعد ظهر في الواقع مصداق قوله ﷺ "وارتقبوا إني معكم رقيب" فأنجى الله شعيبا والذين آمنوا معه بسبب ما قدره لهم من الدخول في رحمته، واستولت على الذين ظلموا بشركهم وعنادهم صيحة انقلبوا بها جثثا هامدة، فما قدم الصباح إلا وهم منكبون على وجوههم لا حراك لهم. امّحى تاريخهم في لحظة كأنهم لم يعمروا تلك الأرض ولم يقيموا فيها. ذهبوا يلحقهم الخزي وتتبعهم المهانة فهلكوا كهُلك ثمود. وتشابه العذابان إذ كان كل منهما هلك بالصيحة.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱتَّبَعُوٓاْ أَمْرَ فِرْعَوْنَ ۖ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

السلطان : البرهان.

رشيد : الرأي الرشيد هو المعبر عن الصواب.

الورد : أصله الماء الذي يقصد إلى الارتواء منه.

يقدم : تقدم.

الرفد : ما يرفد به، أي يعطى.

بيان المعنى الإجمالي :

أرسل الله سيدنا موسى مؤيدا بالمعجزات الظاهرة وبالحج الواضحة البالغة، إلى فرعون وأكابر القوم الذين كانوا يقودون الدهماء إلى حيث يريدون. فجروا على عادتهم، وما هي إلا إتباع ما يأمرهم به فرعون .وما كان فرعون ذا رأي سديد ولا فكر رشيد .يتبين ذلك من العاقبة التي يصيرون إليها، فقد أدخلهم النار، وبئس المصير .وحلت عليهم اللعنة والعذاب والهوان في الدنيا، وتتابع ذلك يوم القيامة وبئس ما غنموا من إتباعه ومالحقهم.

بيان المعنى العام :

96←99 : ولقد أرسلنا موسى ...الرفد المرفود.

أتبع القرآن قصة شعيب وقومه بقصة موسى عليه السلام مع فرعون وقد أظلهما زمن واحد، إذ تزوج موسى بنت شعيب.

ذكر من قصة موسى أن الله بعثه مؤيدا ببراهين قوية وواضحة لا تقبل الرد. أرسله إلى فرعون وأصحاب الجاه الذين كانوا يدبرون أمر الدولة مع فرعون. وبقية أفراد الشعب كانوا يأتمرون بما يأمرونهم به، ولا يخرجون عن طاعتهم. ولذلك نصت الآية على فرعون وملئه.

أسرع فرعون بتكذيب موسى واتبعه من كان حوله فقدموا رأي فرعون على رسالة موسى. وكان فرعون سفيه الرأي بعيدا عن الرشد في التفكير.

ويحشرون معه يتقدمهم ويقتفون أثره. فكان قائدهم إلى النار. وما أسوأها من قيادة رمت بهم في الجحيم. وتبعتهم اللعنة في الدنيا فأغرقوا مهانين، وتتبعهم اللعنة يوم القيامة. وما أسوأه من مصير. وأصل معنى الرفد ما يعطى بقصد الإعانة من

مال(رفد) المرفود المتبوع. فهم قد لعنوا في الـــدنيا، وأضـــيفت إلـــى لعنـــة الـــدنيا لعنـــة الآخرة.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّهُۥ عَلَيْكَ ۖ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠٠﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ۚ فَمِنْهُمْ شَقِىٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُوا۟ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُوا۟ فَفِى ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۖ عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّمَّا يَعْبُدُ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُهُم مِّن قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنقُوصٍ ﴿١٠٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأنباء : الأخبار.

قائم : باق آثارها.

حصيد : ذهبت آثارها.

تتبيب : خسرانا.

الشقي: من أحاط به السوء.

السعيد : من جمع الأحوال الحسنة.

مجذوذ : مقطوع.

مرية : شك.

التوفية : إكمال الشيء.

بيان المعنى الإجمالي :

إن القصص التي تتابعت في هذه الســـورة مـــا كـــان لـــك أن تعلـــم تفاصـــيلها لـــولا مـــا مكناك منه من الوحي. لقد نفذ فيهم الوعيد فبعض القـــرى درســـت ولـــم يبـــق لهـــا أثـــر،

وبعضها ما يزال شيء من آثارها ثابتا. إن ما حـــل بهـــم لا ظلـــم فيـــه. ولكـــن الكـــافرين الهالكين هم الذين ظلموا أنفسهم بالتصميم علـــى الكفـــر وتعليـــق آمـــالهم بالأصـــنام، فمـــا استطاعت آلهتهم التي عبدوها أن تصـــرف عـــنهم الـــبلاء عنـــدما قـــدر الله إنزالـــه بهـــم. وبذلك تكون تلك الآلهة ما زادتهم إلا خسرانا على خسران.

وعلى ذلكم النحو يهلك ربك الأمم الظالمة المكذبـــة وينفـــذ عقابـــه يصـــحبه الألـــم الشـــديد الذي يحيط بالظالمين فلا يستطيعون أن ينفلتوا منه.

إن في تلكم القصص الصادقة ما يقوم دليلا على تحقـــق العـــذاب للظـــالمين يـــوم القيامـــة الأمر الذي يحمل الصالحين على الحذر منـــه. إن يـــوم القيامـــة ســـيجمع الله فيـــه جميـــع الناس، وهو يوم يحضره كل إنسان. إن تـــأخير ذلـــك اليـــوم هـــو بقـــدر الله الـــذي رتـــب منذ الأزل الموعد الذي ستحشر فيه الخلائق فلا يتقدم ساعة ولا يتأخر لحظة.

إن الناس على قسمين يوم القيامة: قسم شقي، وقسم سعيد.

فأما الأشقياء فتأخذهم نار جهنم لا يخـــرج نفســـهم مـــن صـــدورهم إلا بجهـــد (زفيـــر)ولا يستنشقون نفسا جديدا إلا مع عذاب (شهيق) وقد كتـــب الله للأشـــقياء الخلـــود فـــي العـــذاب خلودا أبديا. وهذا الخلود لا يستعصي على القدرة الإلهيـــة إنهـــاءه إذا مـــا تعلقـــت إرادتـــه. إن إرادته لا يعوقها شيء

وأما السعداء فهم خالدون في نعيم الجنة خلـــودا أبـــديا إلا مـــا شـــاء الله، علـــى معنـــى أن مشيئة الله لا يعوقها شيء. إنه عطاء لا ينقطع.

وخاطب القرآن كل من يصح أن يتوجه إليه الخطـــاب، أن لا يشـــكوا فـــي مـــآل مشـــركي مكة؛ فإنه سيلحقهم ما لحق المكذبين السابقين، إذ لم تَتَبَيَّن عبـــادتهم علـــى حـــق وإنمـــا هـــم مقلدون لضلال آبائهم. وسينالون جزاء مـــا عاكســـوا الإســـلام وآذوا المســـلمين وفتنـــوهم الجزاء العادل.

بيان المعنى العام :

100←102: ذلك من أنباء الغيب...إن أخذه أليم شديد.

يمثل هذا المقطع نظرة عامة على العبرة التي يســـتفيدها القـــارئ المتأمـــل فـــي القصـــص السابق من نوح إلى موسى.

أولا: اعتبر بما قصصناه عليك من أحوال الرســـل مـــع أممهـــم، ومـــا انتهـــى إليـــه أمـــر تلك الأمم لما نفذ فيهم الوعيد فهلكوا، وإن كانـــت بعـــض مـــن مســـاكنهم قـــد درس ولـــم يبق له أثر، وبعضها ما تزال آثارها قائمة. وما كان لـــك لـــتعلم تفاصـــيل مـــا جـــرى فـــي تلك الأزمنة الغابرة مما هو غيب لولا الوحي الذي خصصتك به.

إن هذه الصورة من الفناء والخراب كانت جـزاء وفاقـا لمـا قـابلوا بـه رسـل الله، ولا يعتبر سحقهم ظلما، فإن الله لا يظلم أحدا من خلقـه. ولكـنهم هـم الـذين ظلمـوا أنفسـهم فسلكوا بها المسالك المهلكة، وانصـرفوا عـن الطريـق المنجـي. لقـد تعلقـوا بالأصـنام فعبدوها وتخيلوا أنها تنصرهم عند الشدائد، فما وجدوا لها مـن غنـاء ولا دفـع لمـا حـل تنفيذ ما قدره الله لهم من العـذاب جـزاء كفـرهم وتكـذيبهم وإصـرارهم علـى العنـاد. فآلهتهم عاجزون عن الدفع عنهم، ما اسـتفادوا مـن عبـادتهم إلا الخسـران المبـين. مـن سفاهة عقـولهم تصـورهم أن لأصـنامهم مكانـة تشـفع لهـم عنـد الله عمـا اقترفـوه. وتصوروا أنها تحميهم من كل مكروه. فكان اعتقـادهم ذلـك صـارفا لهـم عـن التأمـل في الآيات التي لفت أنظارهم إليها رسل الله، فما زادتهم آلهتهم إلا خسرانا مبينا.

إنه على هذا النحو من الاستئصال والقضاء المبـرم، يهلـك ربـك القـرى الظـالم أهلهـا فلا ينفلت أحد منهم من عذاب الله عند حلوله. إن نفـاذ عقابـه ألـيم يحـس بـه الظـالمون عميق الإحساس، وإنه لشديد مدمِّر.

وفي ذلك تهديد لأهل مكة الممعنين فـي كفـرهم المنصـرفين عـن هـدي سـيدنا محمـد ﷺ؛ إنه سيجري عليهم ما جرى على المكذبين من الأمم السابقة.

103←108: إن في ذلك لآية...غير مجذوذ.

إن ما ورد في القصص السابقة من تنفيذ الله وعيـده، يقـوم دلـيلا علـى أن يـوم القيامـة آت لاريب فيه. لقد أنذرت الرسل عليهم السلام أقوامهم ما سـيحل بهـم مـن عـذاب فـي الدنيا، وقد تحقق، فكذلك سيتحقق ما أوعدوهم بـه مـن بعـث للحسـاب والجـزاء. كمـا يقوم ذلك دليلا إضافيا للمؤمنين الذين يخـافون عـذاب الآخـرة فيحفـزهم لفعـل الخيـر والاستعداد له بما يرضي الله.

إن يوم القيامة يوم سيجمع الله له البشـر جميعـا فـلا يتخلـف أحـد عـن الوقـوف بـه. وسيشهده كل فرد شهود الشيء المهول المحقق الذي لا مرية فيه.

أنكر الكافرون هذا اليوم، وعللوا أنفسهم بأنه لو كان حقـا لـم يتـأخر. فحققـت الآيـة أن هذا اليوم قد حدد الله وقت حلوله في أجل لا يتقدم ولا يتـأخر. فالعـالم كلـه مبنـي علـى نظام دقيق قدره رب العزة مـن الأزل. فقـدر زمـان إيجـاده كمـا قـدر وقـت نهايتـه والوقت الذي يبعث فيه البشـر. وربطـه بحسـاب مضـبوط، فـلا يـأتي إلا عنـد بلـوغ الحساب تمامه.

اعتنى القرآن بتفصيل هول يوم القيامة؛ فبـين أن النـاس علـى قسـمين متمـايزين: قسـم شقي الشقاء الذي ليس بعده سعادة، وقسم سعيد سـعادة لا تتحـول إلـى شـقاء. هـو يـوم

يبلغ من هوله أنه يعقد على الألسنة فلا يستطيع أحد أن يتكلم إلا بعد الإذن له من مالك ذلك اليوم رب العالمين. ثم أخذ القرآن في تفصيل بعض ما يلقاه كل فريق:

أما الأشقياء فإن مستقرهم النار، التي يتقلبون فيها بين زفير، يتم الضغط على صدورهم وتنحبس أنفاسهم فلا تخرج إلا بزفرة دافعة بقوة؛ فهم في شدة عندما يخرجون أنفاسهم، وفي المقابل فهم لا يستطيعون أن يأخذوا الهواء لصدورهم إلا بعسر يتمثل في شهيقهم. وإن ذلك يمثل نوعا من أكدار المعذبين في جهنم. إن جري النفس بلطف في الحياة نعمة قد يغفل عنها كثير من الناس، وعسر التنفس إدخالا وإخراجا يلهي المصاب عن كل شيء ويفقد معه أساس الراحة. ويصاحبهم هذا العذاب وهم في النار، ويتواصل تواصلا لا انقطاع له. فليس المقصود أنه عندما تنتهي السماوات والأرض سيخفف عنهم ما يلقونه، كلا بل هو تجسيم لاستمرار العذاب إلى أبد الآبدين. وقد استثنى القرآن من أزمنة خلود الأشقياء في النار الزمان الذي يشاء الله أن ينقطع فيه العذاب عنهم. ومعنى ذلك والله أعلم: أن العذاب المسلط عليهم سيتواصل بإرادة الله وأنه لا يجب على الله شيء، فلو تعلقت مشيئته بتفريج كربتهم لفعل، وإن كان سبحانه قد أخبر أنهم خالدون بإرادته لا يخرجون من النار .

وأما الذين سعدوا برضوان ربهم فمصيرهم إلى الجنة ينعمون فيها بأنواع الكرامة التي كتبها الله لعباده الصالحين فيها، لا يخرجون منها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء الله، يفهم التعبير كما فهم التعبير السابق. وينفي القرآن احتمال تصور انقطاع الكرامة، بقوله: عطاء غير مجذوذ أي غير منقطع .

109-فلا تك في مرية مما يعبد...غير منقوص.

ثم توجه القرآن إلى كل تال للقصص السابقة أن يتأمل فيها ويتعظ بها، وأن يكون على يقين من أن مشركي مكة سيلقون ما لقيه المشركون في أحقاب التاريخ . وأن لا يدخله الشك في ذلك. إنهم عبدوا ما ليس حقيقا بالعبادة، وما بنوا صلتهم بمعبوداتهم على أساس من النظر والتفكير، ولكنهم هم مقلدون لآبائهم الضالون.

والعدالة الإلهية تسري عليهم، فهم قد وقفوا في وجه الدعوة الإسلامية بناء على الاتباع التقليدي الغبي، وآذوا المؤمنين، فسيُوَفَّوْنَ جزاء ما عملوا جزاء هو كفاء ما قدموا من ظلم وغمط للحق.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ
وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا يَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ ﴿١١١﴾ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا۟ ۚ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ
لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَىِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ
ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

كلمة :ما حكم به في الأزل من ترك الاجتهاد للبشر.

لقضي بينهم : لأزال الخلاف.

لا تطغوا : لا تجاوزوا الحدود.

الكون إلى الشيء : الرضا به.

طرفا النهار : أوله وآخره.

الزلف: جمع زلفة، وهي الساعة القريبة من أختها .

بيان المعنى الإجمالي:

أنزل الله (الكتاب) التوراة على موسى عليه السلام. ولكن اليهود لم يستطيعوا أن يحتفظوا بسلامة نصه، فاختلفوا في نصه كما اختلفوا في مضامينه. ولولا أن الله قضى في الأزل أن يكون المرسل إليهم مكلفين بالاجتهاد مجزيين عليه، لولا ذلك لرفع الله الخلاف بينهم بإظهار التصور الصحيح والتنصيص على التصورات الخاطئة . واليهود مغرقون في الشك مما انقلب معه دينهم إلى شك وريبة.

اثبتْ يا محمد مواصلا الاستقامة على المنهج الذي أمرت به. وليكن المؤمنون الذين اتبعوك وتابوا من الكفر ملازمين للاستقامة. وإياكم والخروج عن الحدود التي حددها الله.

ولا تميلوا إلى الذين ظلموا بالكفر والعصيان، فالميل إليهم داعية للتأثر بهم وإصابتكم بعذاب النار. وإنكم لا تجدون من يقبلكم إذا التجأتم إليه غير الله، كما لا تجدون نصيرا ينصركم سواه.

وَأَدِّ صلاتك على أكمل الوجوه في أول النهار (صلاة الصبح) وفي آخر النهار (صلاة العصر والمغرب)وأوقاتا متقاربة من الليل (صلاة العشاء) وأبشر فإن فعل

الصالحات يتبعها ثوابها من ناحية، وتمحــو الصــغائر مــن الــذنوب .إن فــي ذلــك مــا يؤكد التذكر واليقظة لمن شأنه أن يتذكر، ولا يمــر مــرور الغــافلين. وعليــك أن تتقــوى بالصبر عما نهى الله عنه، والمداومــة علــى فعــل الخيــرات. إن الصــابرين محســنون، والله قد ثبَّت أجرهم فلا يُضيع شيئا من صالح سلوكهم.

بيان المعنى العام :

110←111: ولقد آتينا موسى الكتاب ...يعملون خبير.

أفادت القصص التي تتابعت في هذه الســورة تثبيــت النبــي ﷺ بعــرض مقابلــة الشــرك لهدايات الله. وعطف على ذلك في هــذه الآيــة، أن الله بعــث ســيدنا موســى عليه السلام مؤيــدا بكتاب هو التوراة التي نوه بها القرآن، بأن فيها هــدى ونــورا، ومــع ذلــك فقــد اختلــف قومه فيها اختلافا بينا بالزيادة والــنقص والتحريــف وســوء التأويــل. فــلا يحزنــك يــا محمد موقف المشركين من القرآن.

إن إظهار الحق إظهارا ملجئا ليس من ســنن الله التــي أجــرى عليهــا التكليــف. ولكنــه سبحانه ترك الناس لاجتهادهم، ينظــرون ويعمقــون التأمــل فيهتــدون، فيجــزون جــزاء مضاعفا على اجتهــادهم الموفــق. ويجتهــدون فيخطــئهم الصــواب فــي غيــر العقيــدة ويؤجرون لاجتهادهم. ويقتحمون بالتأويل المبنــي علــى التحريــف والاســتجابة لــدواعي الهوى فيأثمون. وقد تتصارع الأفكار. ولم يكــن مــن ســننه ســبحانه أن يحســم الأمــر حسما يرفع النزاع. هذا هو قدره. ولو شاء أن يلجئهم إلــى الــرأي الحــق لفعــل، ولكنــه لم يرد ذلك فلا يتحقق.

ولو حسم الله الأمر حسما يرفع كل اجتهــاد وتأويــل لقضــي بيــنهم باستئصــال مــن لــم يكن على حق، ولكنه أراد أن تبقى سنة الاجتهــاد فــي الاتصــال بــالنص، حتــى يبقــي على جدته وقوته.

ثم عرفت الآية بوجه من الاختلاف حمى الله منــه القــرآن، وهــو الاخــتلاف فــي نــص الكتاب. فاليهود لم يسلم لهم نص التــوراة فبلــغ الاخــتلاف بيــنهم فــي ضــبط الــنص، وأدى ذلك إلى تأصل الشك فيه شكا أدخل في عقيدتهم الريب والشك.

إن ذلك الاختلاف ودوافعه المتباينة بــين قصــد الخيــر وقصــد الإضــلال، ومــا ينبنــي على ذلك من سلوك، كل ذلك سينال بــه كــل فــرد جــزاء عملــه. والله وهــو المتصــف بالعدل الكامل يجزي كل فرد حسب ظاهر عملــه وباطنــه، لأنــه الخبيــر، الــدقيقُ علمــه بكل ما يصدر من الإنسان.

112-فاستقم كما أمرت...بما تعملون بصير.

توالى عرض أحوال الأمم السابقة، وانتهى البيان إلى اخـتلاف اليهـود فـي كتـابهم بـين الانحراف الكامل وبين الوفاء لنصـه وروحـه، فناسـب أن يتوجـه القـرآن لرسـول الله ﷺ ليواصل ثباته على المنهج المستقيم الـذي لزمـه فـي حياتـه وفـي شـجاعته فـي القيام بالدعوة إلى الإسلام، رغم ما كان يلقاه من الأذى والعنـاد مـن أهـل مكـة. والآيـة مكية كالسورة. والاستقامة تقتضي أن يكون مطبقـا تطبيقـا كـاملا لمـا جـاءه مـن ربـه في العبادة والمعاملات والعلائق البشرية. ومجموعها يمثـل الكمـال النـاتج عـن اليقظـة لاتصـال الفـرد بربـه، والإرادة الحازمـة لتطبيـق ذلـك، مهمـا اختلفـت الظـروف والأوضاع. والنبي ﷺ هو في المستوى الأرفـع والأكمـل فـي الالتـزام، بـل إنـه يجـد لذته في طاعة ربه على ذلكم المسـتوى. وأمـر المـؤمنين بـأن يسـيروا علـى نهجـه، وعبر عنهم بمن تاب باعتبار أنهم في الظرف الذي نزلت فيـه الآيـة كـانوا تـائبين مـن الشرك عائدين إلى الفطرة، دين الإسلام. وتأكيدا للاسـتقامة نهـى عـن الطغيـان المخـل بالاستقامة، إذ هو مجاوزة الحدود التي حددها الله، وعدم مراعاة أوامره ونواهيه.

113- ولا تركنوا...ثم لا تنصرون.

إنه إذ تبين لكم طريق الإسلام بصـفة واضـحة لا لـبس فيهـا، وأمـرتم بالثبـات عليـه وعدم الخروج عن الحدود التي حددها، فاعلموا أنه يتكون مـن ذلـك مـنهج فـي العقيـدة والتعامل والسلوك يختلف عن منهج القـوم الظـالمين بشـركهم أو بفسـادهم. فـلا تميلـوا إليهم، ولا تظهروا الرضا بسـلوكهم، ولا بطـريقتهم فـي الحيـاة. إنهـم منحرفـون عـن الاستقامة، فالمقترب مـنهم بصـدد إتبـاعهم والتـأثر بهـم، وبالتـالي الخـروج عـن الاستقامة. نحذركم من الركون إليهم لئلا يصيبكم عـذاب النـار. وفـوق ذلـك لا تجـدون من له مكانة يصلح بها أن يكون لكم سندا، كما لا تجـدون مـن ينصـركم فيحـول بيـنكم وبين عذاب النار أو يستطيع إخراجكم منها.

وهذه الآية من جوامع الكلم التي تضـيء للسـالكين طريـق النجـاح والخـلاص .فبقولـه تعالى : **فاستقم ...و لا تطغـوا**- يتميـز طريـق الهـدى بمعالمـه لا ميـل ولا تجـاوز. وبقوله **ولا تركنوا** – استقلال المجتمع المسـلم عـن غيـره مـن المجتمعـات بـالاعتزاز بالانتساب إليه وعدم الاهتمام ولا الرضوخ للمغريات التـي ربمـا تكـون عليهـا ظـواهر المجتمعات الأخرى المنصرفة عن الله.

114←115: وأقم الصلاة ...أجر المحسنين.

إن الاستقامة على الطريـق الـذي شـرعه الله فعـلا للمـأمورات واجتنـاب للمنهيـات، وارتباط القلب بالله في كل الأوقات، يحتـاج إلـى تـرويض الـنفس علـى الخيـر حتـى تحبه وتقبل عليه عن داعية، وعلى الاشمئزاز من الشر لتجتنبه وتبغضه.

إن من أبلغ ما يساعد المؤمن علــى الاســتقامة واليقظـــة الروحيـــة، مـــا شـــرعه الله مـــن الصلاة. فأكدت هـــذه الآيـــة فـــرض الصـــلاة علـــى رســـول الله ﷺ، وعلـــى المـــؤمنين، وأمروا بإقامتها على معنى أدائها على الوجـــه الأكمـــل فـــي الطـــرف الأول مـــن النهـــار (صلاة الصبح) وفي الطرف الأخير منـــه (صـــلاة العصـــر، وكـــذلك صـــلاة المغـــرب) وزلفا من الليل أوقاتا متقاربة منه(صلاة العشـــاء). وقـــد تكفلـــت الســـنة القوليـــة والعمليـــة بضبط أوقات الصلوات الخمس وببيان شروطها وأركانها.

واعلموا أن الله تفضل عليكم بكرمـــه وعفـــوه، فجعـــل الحســـنات التـــي أهمهـــا الصـــلاة يتبعها ثوابها من ناحية، وتمحو أثر السيئات من الذنوب التـــي لـــم تبلـــغ درجـــة الكبـــائر، من ناحية أخرى. كما أن الصلاة تُكَـــوِّن فـــي المـــؤمن مناعـــة تحفظـــه، إذا أداهـــا علـــى وجهها، من اقتحام المعاصي. **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.**

ذلك ذكرى، أي ما بينته الآية من تـــأثير الصـــلاة فـــي الـــروح بغســـلها مـــن الصـــغائر، ومن تكوين قوة تحمي من الوقوع في الآثام، هو ذكـــر عظـــيم لمـــن شـــأنه أن يـــتعظ بمـــا يلقى إليه وأن ينفعل لداعي الخير.

وتوج التوصية بالأمر بالصبر على دواعي شهوات الـــنفس، وعلـــى المغريـــات مـــن متـــع الحياة الدنيا، والصبر ممـــا يتقـــوى بـــه المـــؤمن فيقـــدم حظـــه مـــن رضـــوان الله علـــى الحظوظ العاجلة. ففي الصبر الإيجابي خير كثيـــر. وكفـــاك تنويهـــا بـــه مـــا ختمـــت بـــه الآية بأن الصابرين محسنون وأن الله يكتب لهم أجورهم، ولا يضيع منها شيئا.

فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا
مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا
كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ
ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ
وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ
مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِي هَٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ
لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓاْ
إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ
وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

بقية الناس : أهل الفضل.

الفساد : المعاصي.

أترفوا : توسعوا في الإقبال على الشهوات.

أمة واحدة : متفقون على اتباع الهدى.

نثبت : نرفع الاضطراب.

الفؤاد : الإدراك.

بيان المعنى الإجمالي :

صياغة فيها تحذير للحاضرين وأسى على ما انتهي إليه أمر الماضين. فهلا كان في الأمم السابقة بقية من أهل الفضل والعلم يقومون بالنهي عن العصيان والفساد في الأرض ولكن قليلا قاموا بهذا الواجب فكتب الله لهم النجاة.ولم يستفد منهم المتبعون لشهواتهم الذين تعلقوا بالترف والتوسع بلا حد في المتعة فكانوا بذلك محرومين لعدم شكرهم وعدم مراعاتهم لحدود ربهم.

أهلكهم الله وما ظلمهم. ولكن جريا على ما كتبه على نفسه: أن لا ينتقم من أهل القرى الصالحين، فالله لا يظلم أحدا، وإنما يجزي المجرمين بما فعلوه من فساد.

واعلم أن الله قادر على جعل الخلق على نمط واحد متمحضا للطاعة، ولكنه خلقهم خلقا مختلفا ينساق كل فرد إلى الدواعي الخاصة به، وعلى هذا هم سائرون، لكن الذين شملتهم الرحمة لا يختلفون في الحق، ويلتزمون به في تفكيرهم وفي سلوكهم . وبذلك تحقق ما قدره الله في الأزل وكتبه في اللوح المحفوظ : أنه سيملأ جهنم من الجن ومن البشر المنحرفين الكافرين.

إن ما قصه الله على رسوله في هذه السورة من أخبار الرسل، شأنه كشأن ما قصه من قبل : أنه حق لا زيد فيه ولا نقص. أنه يثبت قلبه ويزيده قوة على الصبر والمواصلة والاحتمال، وأن فيها عبرة وموعظة للمؤمنين.

وبعد أن والى القرآن الحجج والوقائع التي حدثت في الكون المؤيدة للدعوة، وبعد ذلك جاء الأمر، قل للذين انصرفوا عن الإيمان وثبتوا على الكفر مهددا: واصلوا عملكم الضال فإنا ملتزمون بالثبات على صالح عملنا، ثم انتظروا العقاب الذي سيحل بكم، فإنا منتظرون فضل الله علينا، وتسليط عذابه عليكم.

والله وحده هو العالم بما غاب عن البشر مما لم يُقِم عليه دليلا ولا أمارة، لا من العقل ولا من المادة، وإن تحقيق جميع الأمور على الوجه الذي سبق في علمه

الشامل، هو راجع إليه لا يشاركه في ذلك أحد. فهـو وحـده الحقيـق بـأن تتوجـه إليـه بالعبادة وتستند إليه ليعينك على قضاء أمرك. والله علـيم بحقيقـة مـا تعملونـه وبنيـاتكم التي بها تكتسب الأعمال قيمتها الحق.

المعنى العام :

116←117: فلولا كان من القرون...وأهلها مصلحون.

لولا حرف للتحضيض أي لحث المخاطـب علـى الفعـل، ولمـا كـان مضـمون الآيـة متعلقا بالأمم السابقة وقد ذهبت، ولا معنى لحثهـا، كـان المقصـود تحـذير مـن يـأتي بعدها. ففاتحة هذه الآية صرفت المقصود منها إلـى التحـذير مـن الوقـوع فيمـا وقعـت فيه الأمم السالفة التي لم تقم بواجب إنكار المنكر.

فهلا كان في الأمم التي خلت قبلكم جماعة مـن أهـل العلـم بالشـريعة والحـرص علـى سيادة الخير ممن يعتبرون البقية من أهل الفضـل والكمَّـل مـن النـاس، يقومـون بنهـي المقتحمين للمعاصي، ويحذرونهم مـن الاسـتهتار بعمـل السـوء، حتـى تصـلح أحـوال الأمة ويعمرون الأرض، فيتغلب الخير على الشر.

وقوله تعالى: **إلا قليلا ممن أنجينا مـنهم.** هـذا الاسـتثناء هـو اسـتثناء منقطـع بمعنـى لكن، أي لكن قليلا من أهل القرون الماضية مـن الـذين أنجـاهم الله مـن النـار كـانوا يقومون بواجب النهي عن المنكر، ويـؤثِّرون فـي أقـوامهم، فـلا يعـم الفسـاد الأرض بما يتبعه من الاستئصال العام.

ولكن تأثيرهم لا يشـمل الجميـع فيبقـى الـذين تعلقـوا بالتوسـع فـي حظـوظ الـنفس والشهوات، وهم المترفون، الذين اتبعوا مـا تزينـه لهـم نفوسـهم بـدون حـد، فكـانوا بسبب هذا التعلق من المجرمين، لا يشكرون الله علـى نعمـه، ولا يقفـون عنـد حـدوده، فحق عليهم الهلاك.

و بذلك يتحقق ما سنه الله وكتبه على نفسه: أنـه لا يسـلط عذابـه علـى أهـل القـرى إذا كانوا على صلاح واستقامة. فما يسلطه من عذاب لا يلتـبس بـالظلم، وإنمـا هـو جـزاء عن عصيانهم وارتكابهم لما نهوا عنه، وما ربك بظلام للعبيد.

118←119: ولوشاء ربك ...و الناس أجمعين.

إن وضع بني الإنسان من الاخـتلاف بيـنهم وضـع قـدره الله فـي طبيعـة البشـر لـم يخلقهم نمطا واحدا يسيرون على نهج واحد لا يتبـدل ولا يتحـول، خلقهـم وكـل واحـد منهم متميز عن غيره في مواهبـه وفـي عواطفـه، وفـي اختياراتـه، وفـي الظـروف المتحولة التي تحيط به وتؤثر فيـه. مـنهم مـن يـؤثر الخيـر والصـلاح والاسـتقامة.

ومنهم من يؤثر الاستجابة لدواعي الشـهوة والاسـتئثار والتسـلط والفجـور، مـنهم مـن يتعلق بالله ويعمل، تبعا لذلك، مـا يرضـيه، ويرجـو الآخـرة، ومـنهم مـن يـؤثر متـع الحياة الدنيا وينسى ربه ويسقط من حسابه يوم الجزاء. ورحمهـم بمـا أرسـل إلـيهم مـن الرسل وما ألهمه الصالحون من الدعوة إلى الخير وتذكير النـاس بـالحق، كمـا أنـه لـم يمنع الشيطان وحزبه من التأثير في عواطف البشـر، ومـن العمـل علـى حجـب القـوة العاقلة عن قيادة الإنسان في حياته. ولـذلك كـان الاخـتلاف بيـنهم فـي التفكيـر وفـي السلوك اختلافا مسترسلا مع الجنس البشري.

و لذلك المفهوم من تمكين الإنسان من حرية الاختيـار، ومـن التكليـف والحسـاب عليـه، ثم الجزاء العادل مع ما يخالطه من الرحمـة. خلـق الله البشـر غيـر مقصـورين علـى الطاعة ولا منصرفين حتما إلى المعصـية، بـل هـم مختلفـون بـين صـالحين وعصـاة طالحين، طائعين وفسقة، مؤمنين وكفار.

وتحقق في الوجود الفعلي تقدير الله، وما كتبـه فـي الأزل مـن كـون الإنسـان محاسـبا عن أعماله ملاقيا جزاءه. وجسم ذلك بأن الجنـة سـتمتلئ بأهـل الصـلاح مـن الإنـس والجن، وكذلك النار ستمتلئ بالأشقياء من النوعين.

120- وكلا نقص عليك من أنباء الرسل...وذكرى للمؤمنين.

نقص عليك يا محمد كل نبأ وخبر من أخبـار المرسـلين قبلـك، ممـا نثبـت بـه قلبـك وعقلك، ونزيح عنك كل قلق واضطراب، فتـأنس بتلـك القصـص، وتـرى فيهـا سـنن الله في الخليقة، وتتعرف على الطريقة التي واجهت بهـا الأمـم أنبياءهـا الـذين يعملـون على هدايتهم وتبصيرهم بالحق. إن العرض الـواقعي مـن الـوحي علـى قلـب رسـول الله، وما عاناه الرسل من المكذبين يزيد الرسـول إصـرارا علـى الـدعوة إلـى ديـن الله ويقوي قدرة احتمالـه لمـا يسـلطه المشـركون عليـه مـن الأذى المعنـوي بالتكـذيب والاستهزاء، والأذى المادي بمختلف أنواعه. وقد صبر النـبي ﷺ علـى كـل ذلـك حتـى انتصر الدين، وذلك بما طبع عليه من كمـالات، وبفضـل مـا يـوالي عليـه ربـه مـن تأييد، ومن ذلك قصص الأنبياء مع أقوامهم.

وأكد القرآن أن ما ذكره في قصص هذه السورة حـق، كالشـأن فـي القصـص السـابقة، وأن الهدف منها هو تذكير المؤمنين بما يـنفعهم ومـا يـوقظهم مـن الغفـلات، وهـي الموعظة التي ترقق القلوب وتقرب الإنسان من الخير.

121—، 122وقل للذين لا يؤمنون ...إنا منتظرون.

بعد أن استوفى القرآن خطـاب الرسـول ووعـظ المـؤمنين بمـا جـاء فـي القصـص السابقة، أمر الرسول بتهديد الذين خلت قلوبهم من الإيمـان ولزمـوا مـا هـم عليـه مـن

الكفر، ولم يتعظوا بما جرى على الأمم السابقة، قل لهم مهددا: واصلوا عملكم على النحو الذي أنتم عليه، فلنا منهجنا وطريقتنا في العمل، ولكم منهجكم وطريقتكم، لا نرضى بما أنتم عليه، ونحن ماضون على الحق، وأنتم ماضون على الباطل، وانتظروا ما سيحل بكم من مقت الله وعقابه. ونحن ننتظر عقابه لكم. وإكرامنا بعفوه وفضله. وشتان ما بين الانتظارين.

123- ولله غيب السماوات...وما ربك بغافل عما تعملون.

ختم القرآن سورة هود بهذا البيان الجامع الذي ينعطف على كل ما جاء فيها فيؤكده، ويثبت أن عِلْمَ البشر لا يتجاوز الظواهر المحدودة التي مكنهم الله من علمها، أما ما هو ثابت، ولكنه مغيب عن حواسنا ومداركنا ولم يقم عليه ما يبلغنا إدراكه، فهو خاص بعلم الله لا يشاركه فيه غيره. وشمول علمه سبحانه يدل على أن ما اتخذوه من دونه من آلهة ضلال، لأن الجاهل لا يصلح أن يكون معبودا، ويجانب العلم فإن تعلق العلم بإنجاز المعلوم مصروف عنه كل الكائنات، فإن إحاطة الإنسان بجميع الظروف التي يتم بها إنجاز الخلق لا تعود إلى الخلق ولكن الله سبحانه هو الذي يوفر الأسباب ويصرف المعوقات، فما تعلقت إرادته بإنجازه ينجز، وما تعلقت إرادته بتعويقه يعوق، ومن أراد نصره ينتصر، ومن أراد خذلانه يخذل. فمن الادعاء الباطل أن يدل الناجح بقوته الذهنية وذكائه في تحقيق ما تحقق، ولا بدأبه وعمله، ولكن التوفيق الإلهي هو الذي هداه إلى الطريق الموصل، وصرف عنه المعوقات الداخلية والخارجية، فالأمر لله والإنسان مسؤول.

إنه إذا كان المتصرف الحق في الكون وفي كل ما يحدث فيه من صغير أو كبير وعظيم أو تافه، هو من أثر تعلق الإرادة، فتَوَجَّهْ إليه بالعبادة، فإنه وحده الحقيق بأن يتقرب إليه المتقربون، واعتمد عليه وحده ليسعدك بالتوفيق والعون.

واعلم علم اليقين أن الله لا يغيب عنه أي عمل تعملونه من شر أو خير، ويرتبط بذلك الجزاء الذي لا ظلم فيه، فليحذر الضالون من حسابهم عن سوء أعمالهم، وليفرح المؤمنون بما يترقبونه من حسن الثواب.

أتممت سورة هود بعون الله وفضله يوم الخميس 13 شعبان 1432 14/7/2011-

أسأله ضارعا أن ييسر لي إكمال ما بقي كما يسر لي ما قمت به إن وليي الله.

ســــورة يــوسف

سورة يوسف هي السورة الثانية عشرة في ترتيب المصحف. وأجمعوا على تسميتها بهذا الاسم .نزلت على رسول الله ﷺ بمكة. رتبتها في النزول الثالثة والخمسون. نزلت بعد سورة هود وقبل سورة الحجر. اختصت بأنها تضمنت أطول قصة في القرآن .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓر تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ
نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ
لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ
وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟
لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ
مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ
مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

المبين : الموضح التوضيح الكامل.

القصص : الإخبار بما جرى من الأمور.

الغفلة : انتفاء العلم نتيجة عدم توجه الذهن.

يا أبت : يا أبي مع دلالة على تمكن القرب والود.

الكوكب : النجم.

يا بني : بني تصغير ابن، صيغة تستعمل للدلالة على ما في نفس المتكلم من حب وشفقة.

لا تقصص رؤياك : لا تخبر برؤياك

الكيد : إخفاء عمل مضر.

يجتبيك : يصطفيك ويختارك.

الأحاديث : جمع حديث بمعنى الشيء الحادث، أو الشيء المتحدث به.

إتمام النعمة : جعلُها كاملة لا يعقبها سلب.

بيان المعنى الإجمالي :

يلفت القرآن إلى خصائصه:

هو مجموع في كتاب مبين لما أراد الله أن يبلغـه إلـيكم. لـم يكـن لأحـد مـن الكائنـات دور في ألفاظه ولا في تراكيبه بـل أنزلـه مـن العـالم العلـوي، يقـرأه البشـر باللغـة العربية التي طوعها لتحمل الوحي. رجاء أن ينفـذ إلـى عقـولكم فتـزداد معـارفكم بمـا تضمنه سعة ودقة ويفيض في عقولكم قوة.

إننا بعظمتنا نُعْنَى بـك ونقـص عليـك أكمـل القصـص وأحسـنها، لصـدقها، وجمـال عرضها، وتنوع الحِكَمِ المستقاة منها. والحال أنك كنـت قبـل أن ينـزل عليـك الـوحي لا تعلم شيئا من ذلك.

ثم يعرض القرآن مقدمة للقصة الطويلـة التـي تخـص يوسـف ﷺ، فيتحـدث القـرآن عن مجلس ضم يعقوب وابنه. يحدث الغلام أبـاه: أنـه رأى فـي المنـام رؤيـا عجيبـة، رأى أن أحد عشر نجما ومعها الشمس والقمر حيته ساجدة له.

و أول رد فعل للوالد النبي الصـالح أنـه ارتسـم فـي ضـميره أن هـذه الرؤيـا رؤيـا صالحة منبئة عن مستقبل يسمو فيه ابنه إلى مقامـات عليـة يحسـد عليهـا. وبنـى علـى ذلك أن نصحه بكتم هذه الرؤيا عن إخوته ولا يحدثهم بها. وبـين لـه أنـه معـرَّض بـذلك للحسد منهم وما يترتب على الحسد مـن تـدبير مـا يلحـق بـه السـوء. وإن الشـيطان يغري إخوته بالإضرار به على ما هو شأنه من العداوة المستحكمة فيه للبشر.

ثم طمأنه على أنه يستقبل خيرا كبيرا. وسيختاره ربـه لتحمـل مهـام رفيعـة، ويتـولى تعليمه ما يُقِرُّ به الحكمة في قلبه، وما يمكنه مـن تأويـل الـرؤى. ويكمـل عليـه إنعامـه إكمالا يحميه من الخسران. ويرتفع به مع أسرة والده يعقوب مـن مقـام إلـى مقـام أعلـى منه. فإنه على هذا النحو جرت عنايته بأصوله إبـراهيم وإسـحاق. إن ربـك ينفـذ ذلـك، تبعا لعلمه المحيط بحقائق القلوب ودخائل النفوس، فهـو يمكـن الصـالحين الطيبـين مـن المراتب السنية، وذلك هو مقتضى الحكمة الربانية.

بيان المعنى العام :

1←2: ألر تلك آيات الكتاب...لعلكم تعقلون.

افتتحت سورة يوسف كما افتتح غيرها من السـور، بـالحروف المقطعـة التـي بيَّنًـا مـا يتعلق بها في سورة البقرة.

نوه القرآن بما فيه من كمـالات تتحقـق بهـا هدايـة البشـر، وتمكـنهم فـي يسـر مـن الانتفاع به. إنه كاشف عن المعاني الجليلة التـي تضـمنها، بيَّنهـا بـلا غمـوض. أنزلـه رب العزة على قلب محمد كلاما يقرأ مجموعـا فـي كتـاب. يسـمو بـتلكم المزايـا فـلا يدانيه أي كلام آخر، ولا يعرف كتاب جـامع للعـرب قبـل القـرآن. وكـل مـا عنـدهم حكم تعتمد الرواية اللفظية أو شعر ينتقش في ذاكرتهم ويستمتعون بسماعه وإنشاده.

تخير الله أن يكون القرآن بلغة العرب التـي طوّعهـا لمـا فيهـا مـن خصـائص لحمـل كلامه بما يشتمل عليه من عقيـدة، وتشـريع، وتحريـك للقلـوب، وإخبـار عـن الغيـب الذي سيحصل يوم القيامة، وعـن المغيبـات مـن الأحـداث التـي تمـت فـي التـاريخ وطواها النسيان أو دخلها الزيد والتحريف والتبـديل. وذلـك بنعمـة الله وفضـله، رجـاء أن تصبحوا به عالمين علما يقبله العقل ويضم عليـه جوانحـه. فتجمعـون بهـذا القـرآن بين العلم وسعة المعارف والسمو العقلي.

3- نحن نقص عليك أحسن القصص...لمن الغافلين.

نقص عليك يا محمد في هـذا القـرآن الـذي أنزلنـاه عليـك أكمـل القصـص، وأتمهـا، وأبلغها جودة، لقد كانت أحسـن مـا سَـمِعَتْهُ آذان البشـر، لصـدقها وجمـال أسـلوبها وبلاغ تأثيرها، وجمعها بين العبر والحكم، ولفـت الأنظـار إلـى سـنن الله فـي الكـون، وإيقاظ السامعين بتحريك عقولهم وعـواطفهم وأذواقهـم الفنيـة وهـم يتـابعون قصصـه الواقعية التي ليست من نسج الخيال. وذلك من مـنن الله عليـك، فالحـال أنـك كنـت يـا محمد قبل إنزال القرآن عليك من الغافلين عما جاء فيـه، لا تعلـم منـه شـيئا. وفـي هـذا رد على الذين يزعمون أن قصص القـرآن يتلقاهـا الرسـول ﷺ مـن معاصـريه الـذين كان لهم علم بالكتب السابقة.

4 -إذ قال يوسف لأبيه ....رأيتهم لي ساجدين.

تبدأ القصة بمجلس ينفرد فيه يوسف عليه السلام بأبيه يعقوب بـن إسـحاق بـن إبـراهيم علـيهم السلام. وقد تمكنت العلاقة بين الوالد النبي الصـالح، وبـين ابنـه الصـغير لمـا اسـتقر في قلبه من صلاح الغلام منذ بـواكير صـباه. فكـان الامتـزاج بينهمـا امتزاجـا قويـا، تآلف مع عاطفة الأبوة الطبيعية ما جمعه يوسف مـن كمـالات خِلْقِيـة وخُلقيـة. يعـرض يوسف في هذا الظرف الذي اختلى فيه بأبيه ما رآه فـي النـوم مـن أمـر عجيـب. رأى أحد عشر نجما من نجوم السـماء ومعهـا الشـمس والقمـر قـد أدت لـه تحيـة وهـي خاضعة له ساجْدة.

من بداية القصة تتحدد ملامح يوسف . فصفاء روحـه ومـا هيـأه الله لـه مـن الكمـالات النفسية ارتقت به من الصلات الأرضية التي هي ميـدان الـرؤى المناميـة فـي العـادة،

إلى العوالم العلوية الكواكب والشمس والقمر. ولا شك أن الوالـــد النبـــي قـــد غمـــرت قلبـــه أحاسيس الإعجاب والتنبؤ بما سيكون لولده من مكانـــة عاليـــة. وقويـــت خشـــيته أن يُصَـــدَّ عن بلوغ الغايات التي هو مهيأ لها.

5 –قال يا بني لا تقصص رؤياك...عدو مبين.

وتقدم الوالد بنصحه لولده بعد أن اســـتمع إليـــه فقـــال: يـــا بنـــي لا تخبـــر بهـــذه الرؤيـــا إخوتك؛ الذين كانوا أكبر منه سنا وأقوى أجســـاما. ولهـــم نفـــس المنزلـــة الاجتماعيـــة بمـــا لهم من شرف النسب إلى بيت إبراهيم ومـــا تناســـل منـــه. وقـــرن نهيـــه عـــن إخبـــارهم برؤياه معرفا له بالمعطيات التي بنى عليها ذلكـــم التحـــذير. إنـــه يخشـــى عليـــه أن يثـــور في نفوسهم الحســـد ليوســـف. والحســـد داء يـــدفع الحاســـد إلـــى العمـــل علـــى حرمـــان المحسود من الخير. ولذا تجد الحاسدين يدبرون في الخفـــاء مـــا يضـــر بمـــن يحســـدونهم وهو الكيد، ولا يتورعون عن أي فعل يطفـــئ النـــار التـــي تشـــتعل فـــي بـــواطنهم . كـــل همهم الحيلولة بين المحسود وبين الخير الذي هـــو فيـــه. والحســـد مـــدخل مـــن مـــداخل الشيطان، فما يزال يحرك نقمة الحاســـد علـــى المحســـود ويـــزين لـــه الخطـــوات التـــي تقطع صلته به، وتهيئه لانتظار نزول البلايا بـــه، حتـــى تـــتمكن العـــداوة ويهشـــم الوحـــدة الإنسانية والإيمانية، وهو رشح العـــداوة للبشـــر، التـــي صـــرح بهـــا الشـــيطان المصـــمم على المضي على ما تقتضيه. فعداوته للجـــنس البشـــري عـــداوة واضـــحة بينـــة .وهـــذا المقطع يلفت النظر إلى الطريقة الصالحة في التربية: هـــي ليســـت أوامـــر ونـــواه حازمـــة جافة، ولكن يصدرها المربي في قالب من التقريـــب والـــود، يـــا بنـــي، ويصـــل التوجيـــه بالتعليل المعقول الذي يقنع، فيثبت في النفس التوجيه .

6- وكذلك يجتبيك ربك...إن ربك عليم حكيم ..

أردف يعقوب على نصيحته، ما يثبّت في نفس ابنه الثقـــة بمكانتـــه وعلـــو قـــدره، إذ فهـــم الأب الصالح من الرؤيا، أن الله قد اختـــار ابنـــه ليقـــوم بأشـــرف الوظـــائف التـــي تقربـــه منه . فعلى ذلكم النحو من الرؤيا الصالحة ستمضي علاقتـــه بربـــه، وســـتبلغ العنايـــة بـــه منتقلا من رتبة إلى مرتبة أسمى في الحكمة والتعقـــل حتـــى يصـــل إلـــى الاقتـــدار علـــى إدراك أسرار الحوادث في الكون ومآلاتها وما تـــدل عليـــه، وهـــي الحكمـــة التـــي يبلغهـــا الأنبياء بالوحي، وهو معنى يعلمك مـــن تأويـــل الأحاديـــث، كمـــا يطمـــح أن يســـمو إلـــى بعض منازلها الحكماء في تفسيرهم للوجود ومظـــاهره. كمـــا يمكـــن أن تـــدل الآيـــة مـــع ذلك على صفاء روحه ونور عقله حتى يســـتطيع أن يفســـر الـــرؤى المناميـــة ومـــا تـــدل عليه في عالم اليقظة مستقبلا تبعا لما يحل في القلب والـــروح مـــن توفيـــق علـــى كشـــف الحجب عن تلكم المآلات.

ثم أفرغ في قلبه ما يمكّن البشرى التي قدمها، بأن الله سيتم عليه نعمته فيبلغ بها إلى درجات علية من الكمال دون أن يخشى سلبها، منسحبة عليه وعلى أسرته، والده وإخوته ومن اتصل بهم من الصالحين، كما انبثقت في الشجرة النسبية التي هو فرع منها: إبراهيم وإسحاق.

وتختم الآية بما يُعد ما ورد فيها إلى ما يحققه: إن الله عليم لا يخفى عليه حقيقة النفوس الكريمة الطاهرة والأرواح الصالحة الطيبة، وأنه تبعا لعلمه يخص هذا النوع بما يشرفه من الكمالات وتولي المهام العالية. فيضع النعم في المواضع المناسبة، وهو الحكمة.

﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضٗا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمٗا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الآيات : جمع آيةوهي الدليل على ما تتطلب معرفته.

عصبة : جماعة تفوق العشرة.

غيابات : جمع غيابة وهو ما غاب عن البصر.

الجب : البئر التي حفرت وبقيت على حالتها دون أن تشد بالبناء.

بيان المعنى الإجمالي :

في قصة يوسف وأخيه دلائل ترشد إلى حكم عديدة، وتوجيه رشيد لمن يسأل من الناس عن أخبارها. تفتح القصة بتدبير مؤامرة من إخوة يوسف، الذين حملتهم الغيرة من شدة حب أبيهم لأخيهم يوسف، إذ كان يخصه بمزيد عناية، لما يصدر عنه عند اللقاء العائلي من ذكاء وبعد نظر يسمو به بعيدا عنهم. ولكنهم بناء على حسدهم له أسقطوا كل تلكم المزايا، وقالوا: إن يوسف وأخاه ما يزالان صبيين لا تنتفع منهما الأسرة بشيء لا مكاسب مادية ولا دفاعا عنها، ولا يشاركان في تحمل أعباء الأسرة التي ينفردون بحملها وحدهم، وحكموا على أبيهم تبعا لذلك بالخطأ البين، لتفضيلهما في الرعاية والحب عليهم. وساقهم هذا التحليل إلى أنه يتحتم إبعاد يوسف من الساحة. وقلبوا وجوه النظر التي تبلغهم هذه الغاية. فقال بعضهم: اقتلوا

يوسف، أو اطرحوه في أرض بعيدة لا يستطيع أن يعـود منهـا إلـى أرض قومـه. وأيـد نظريته بأن هذا يحقق لهم ذهاب يوسف ذهابا لا رجعـة بعـدها، فننفـرد بأبينـا، وتكـون حياتنا أصلح بعد ذلك.

وعرض آخر وكان أقـل نقمـة علـى يوسـف: أن لا يقـدموا علـى القتـل والتصـفية الجسدية، ولكن يلقونه في قعر بئر على الطريق التـي تمـر عليهـا القوافـل، الـذين مـن شأنهم أنهم يرتووا من الآبار التي في طريقهم، وبهذا تتـولى القافلـة أخـذه والابتعـاد بـه إلى بلدها، وهذا خير إن كنتم مصممين على إبعاده عن الأسرة.

بيان المعنى العام :

7- إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب...لفي ضلال مبين.

الآيات السابقة كانت مقدمة لقصة يوسف،وإطارا محددا لمسارها.

و من هذه الآية كانت البداية في إبـراز تفاصـيل القصـة، فافتتحـت بالإشـارة إلـى مـا فيها من حكم ودلائل على عبـر تعـرّف المتتبعـين لأحـداثها بعظـيم صـنع الله وحكـيم تقديره، وأن العاقبة للصابرين. ففي قصة يوسف عليه السلام دلائـل علـى قـيم رفيعـة تكشـف خفاياها لكل من يسأل عنها، وتؤثّر فـي النـاظرين تـأثيرا يمكـن الخيـر فـي نفوسـهم، وينفرهم من الباطل ومن الملوثات العاطفية.

8- تؤكد الآية على حقيقة ما سيرد فيهـا مـن تفاصـيل، وأنهـا قصـة واقعيـة لـيس للخيال مدخل فيها. والمتأمل يجد في كل حـدث مـن أحـداثها ارتباطـا بالمقدمـة إذا مـا استحضرها في نفسه، وأجاد فيها النظر وتعمّق.

أول حدث: اجتماع لإخوة يوسف عرضـوا فيـه قضـية أهمـتهم جميعـا علـى درجـات مختلفة بينهم في طريقة علاجها.

نشأت أحداثها من إحساسهم أن أباهم يعقـوب عليه السلام يحـب يوسـف وأخـاه بنيـامين حبـا يفوق ما يحمله من حب لهم .وأنـه لا مبـرر لهـذا التفضـيل فـي نظـرهم، والحـق أن يكون تعلق الوالد بهم وتقريبهم أشد من أخويهم. إذ أنهما مـا يـزالان يـدرجان فـي سـن الصبا ولا يغنيان عن الوالد ولا عن الأسـرة شـيئا. وأنهـم هـم الـذين ينفـردون لكثـرة عددهم وقوتهم (عصبة) بالدفاع عن الأسرة عند الشـدائد، ويسـهمون إسـهاما كبيـرا فـي تيسير أمور حياتها. وبهذا وصلوا إلى اقتناع بـأن أبـاهم أخطـأ الصـواب وتحيـز إلـى يوسف وأخيه استجابة لـداعي عاطفتـه لا لتحكـيم عقلـه. ورأوا أن هـذا أمـر بـين لا غبار عليه. ولم يقدّروا ما ليوسف من كمـالات، ومـا يبـدو منـه مـن مخايـل التفـوق وحسن الاهتداء على صغر سنه. وهـذا شـأن البشـر إذا حسـدوا انطلقـوا فـي تقـدير

الأمور من قصد إلى تبرير الحاصل النفسي الأول دون سبره والتأمل فيه، ذلك أن يعقوب وهو النبي المبشِّر به إبراهيم عليه السلام لا يقدّر الأمور بالنفع المادي العاجل، ولكن يتأثر بالمزايا الرفيعة في النباهة والصلاح .

9←10:اقتلوا يوسف أو اطرحوه .....إن كنتم فاعلين.

بعد أن هيأوا أنفسهم للانتقام من يوسف، وكان ما دار في نفوسهم محرضا لهم، أخذوا يقلبون الفرضيات التي تحقق لهم غرضهم، وما يحصل إثر كل واحدة منها، على أن المهم في نظرهم: أن ينفردوا بأبيهم بعد ذهاب يوسف وإياسه من الالتقاء به من جديد بعد تنفيذ ما دبروه.

كان الرأي الأول الأشد: قتل يوسف وإنهاء حياته مرة واحدة، أو إلقاءه في أرض بعيدة عن منازلهم لا يتصور أنه يتمكن مع صغر سنه من العودة إلى بيت أبيه. وبهذا ينفردون بأبيهم ولا يقاسمهم أحد النظر إليه والحديث معه. ثم أبرز النتيجة واضحة أنهم سيكونون بعد تنفيذ هذا الرأي قوما صالحين لا يعكر عيشهم مع أبيهم هذا الحب العارم ليوسف. أو أنهم برروا الإقدام على القتل بالعزم على التوبة منه بعد تنفيذه، فيتم الجمع بذلك بين الاستراحة من يوسف ومن العودة إلى الله بالتوبة، بما يحقق لهم الصلاح الدنيوي والأخروي.

و يفهم من القصة أن هذا الرأي الشديد لم يلق قبولا. فعرض أحدهم رأيا آخر افتتحه برفض قتل يوسف، وذلك بأن يلقوا يوسف في بئر لا يستطيع الخروج منها بمفرده، ويتخيرون بئرا على الطريق السالك للقوافل الذين من شأنهم أن يستقوا من الآبار التي تعترضهم في طريقهم، فيتولون إخراجه ويبتعدون به عن أرض قومه، ويستريحون منه دون أن يرتكبوا جناية قتل أو تعريض للهلاك.

و تشير الآية إلى أن الذي عرض هذا الرأي ما كان متحمسا لتصفية يوسف أو إبعاده فأنهى كلامه بقوله: إن كنتم مصممين على فعل يريحكم منه. كأنه يرشدهم إلى التريث وعدم التسرع .

قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأۡمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرۡسِلۡهُ مَعَنَا غَدٗا يَرۡتَعۡ
وَيَلۡعَبۡ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ
ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ لَئِنۡ أَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَنَحۡنُ عُصۡبَةٌ إِنَّآ إِذٗا

لَّخَسِرُونَ ﴿١٤﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ
لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

النصح : قول أو عمل فيه نفع للمنصوح.

نرتع: نشارك الأنعام في السير والحركة، فتتفتح بذلك شهيتنا للأكل.

الخسران : عدم النفع المرجو منهم.

أجمعوا : صمموا على التنفيذ.

بيان المعنى الإجمالي :

عملوا على تنفيذ ما دبروه من الكيد ليوسف، وتغلبوا على العقبة الأولى بإظهارهم الود والحرص على ما ينفعه، فقالوا لأبيهم عجب لك لماذا لا تأمنا على يوسف أخينا الذي نحبه ونقدم له ما ينفعه قولا وعملا. رَخِّصْ له في خروجه معنا غدا للبرية نجري في فضائها الرحب بما يقوي أبداننا ويفتح شهياتنا للأكل، ونلعب بما يرفع السآمة عنا وينشِّط عقولنا .وثق بحرصنا على حفظه.

صدقهم فيما تقدموا به وقال لهم: إني أُلِفْتُ بقاءه إلى جانبي، وبعده عني يحزنني، وأخاف عليه من أن يعدو عليه ذئب فيأكله. قالوا له مبعدين هذا الفرض: كيف يأكله الذئب ونحن جماعة كثيرة العدد قوية البنية. إننا نفقد فتوتنا إذا حصل ذلك. وأذن يعقوب ليوسف فخرج معهم، فلما ابتعدوا به ووصلوا بجانب البئر رموا به في قعره وحيدا. وأسعفه ربه فآنسه بوحيه، وألقى في روعه أنه لا يناله أذى وأنه سيخبر الذين اعتدوا عليه بما فعلوه وهم لا يشعرون بأن الذي ينبئهم هو يوسف.

بيان المعنى العام :

11←12: قالوا يا أبانا ما لك لاتأمنا على يوسف ...لحافظون .

بعد أن دبروا المكيدة ليوسف وصمموا على التخلص منه، أخذت القصة تعرض الطريقة التي تم بها التنفيذ.

1) العقبة الأولى كيف يتمكنون من الانفراد بيوسف بعيدا عن يعقوب، فتقدموا لأبيهم بعرض ظاهرُه شدة حبهم ليوسف، وقالوا له: إنهم ما فهموا لماذا رغم شدة تعلقهم بأخيهم، لما ذا لا يستثيقهم عليه، ولا يُمكِّن لصلتهم به، ولا يجعله تحت رعايتهم. ونؤكد لك أنا نسعى بأقوالنا وأفعالنا إلى ما يجلب الخير له. إنا سنخرج غدا إلى البرية لرعي أنعامنا، وفي الفضاء الرحب نجري ونتحرك وننشط وتتفتح

شهيتنا للأكل وتقوى أجسامنا، ونلعب اللعب الـذي بـه تنشـرح الـنفس ويـذهب عنهـا الكلال. فأرسل معنا يوسف يستفيد مما تتيحه هذه السياحة فـي البريِّـة. وثـق أنـا نحفظـه من كل ما يمكن أن يتعرض إليه من سوء فلا تخش عليه.

وهكذا يفعل الحاسدون المتـآمرون فيظهـرون اللـين والنصـح ويتخفَّـوْن تحـت سـتار الحب والنصح وتحمل مسؤولية الحفظ .

13←14: قال إني ليحزنني أن تذهبوا به...إنا إذا لخاسرون.

2) تشير القصة إلى أنهم استطاعوا أن يخففـوا مـن حـذر يعقـوب، وأسلسـوا لـه مـا جعله يصارحهم بنفي الشك فيهم. ولكنه يحزن لبعده عنـه فيفقـد مـا ألفـه مـن الأنـس به، ويخشى على يوسف وهو الغـلام الـذي لا يسـتطيع أن يـدافع عـن نفسـه أن يعـدو عليه ذئب فيفترسه في غفلة مـنهم عنـه. وبهـذا انحلـت العقبـة الأولـى بهـذا الغطـاء الكاذب والتملق، وبقيت عقدة الخوف عليـه مـن الـذئب لا مـنهم. فأبعـدوها مـن نفسـه بأن عددهم وقوتهم التي يعرفها منهم، تطمئنه علـى أنهـم قـادرون علـى حمايتـه؛ إنـه لو تمكن الذئب منه وعجزوا عن حفظه، فهـم يشـهدون علـى أنفسـهم أنهـم خاسـرون في حياتهم، فاقدون للفتوة والشجاعة محكوم علـيهم بالخسـران. فكـان مـا قـدموه مؤذنـا بتحملهم لمسؤوليتهم كاملـة، وأنهـم لا يرضـون لأنفسـهم أن يسـقطوا عـن مسـتواهم القوي الذي يعتزون به.

وهكذا يصنع المتآمرون كلما برزت عقـدة حلوهـا بمكـر يهـدِّم كـل سـياج للمناعـة. فتمكنوا من اصطحاب يوسف ينفردون به، ولا مغيث له من مكرهم.

15-فلما ذهبوا به وأجمعوا ...وهم لا يشعرون.

3) تمكنوا من الخروج بـه بعـد تـرويض والـدهم فـائتمنهم عليـه، وأخـذوه معهـم وخرجوا به إلى البرية .وعندها خلا لهم الجو لتنفيذ ما دبـروه مـن مكـر. عزمـوا علـى التنفيذ بكل قسوة وبدون رحمة ولا شفقة. وتـرجح عنـدهم الـرأي الأخيـر: إلقـاؤه فـي الجب. فرموه في قعره، وانصرفوا يظنون أنهـم قـد نجحـوا فـي إبعـاد يوسـف عـن الأسرة وعن أبيهم بعدا لا رجوع بعده.

وفي هذا الظرف الصعب بعد العنـف الـذي صـحب رميـه فـي البئـر وذهـابهم عـن المكان وفقد الأنيس، يسعفه ربه بالوحي، الذي لـم يفصـل القـرآن طريقتـه ولكـن قـذف في قلبه الطمأنينة وأزال عنه الخوف، بما حاصـله :أنـه سـيخرج سـالما، وأنـه سـيعلو عليهم وينبئهم بما صنعوا به. وما شعر أحد مـنهم بهـذا الـوحي لمـا جـاءه، أو المعنـى أنه سينبئهم بما صنعوا وهم غافلون عـن كونـه يوسـف الـذي رمـوا بـه فـي الجـب.

وعلى الاحتمالين فالقصد ظاهر أن الله يؤيد الصالحين فـــي النهايـــة وتكـــون لهـــم العاقبـــة الطيبة.

وَجَآءُو أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٍ كَذِبٍ ۚ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

نستبق : نتغالب في الجري

بمؤمن لنا : بمصدق لنا.

كذب : مكذوب .

التسويل : تسهيل النفس وتزيينها ما تحرص على حصوله.

صبر جميل : الصبر الذي لا يصحبه شكوى.

المستعان :المطلوب منه العون على تحمل الصبر.

بيان المعنى الإجمالي :

عادوا إلى أبيهم بعد أن أطبق الظلام بـــاكين ليوهمـــوه أنـــه تملكهـــم الحـــزن لمـــا جـــرى، وأعلنوا ناسجين من خيـــالهم قصـــة موتـــه، وأنهـــا تمـــت علـــى النحـــو الآتـــي: ذهبـــوا يتسابقون في الجري وأبعدوا، وتركوا يوسف بجانب ما حملـــوه معهـــم إلـــى البريـــة مـــن الزاد والمتاع. وعدا عليه الذئب لما كان وحيـــدا فأكلـــه. وليبـــالغوا فـــي التمويـــه أضـــافوا إنا نقدر أنك لا تصدقنا لفرط حبك ليوسف، مع أننا نؤكد أنـــا صـــادقون. نقلنـــا مـــا حـــدث بكل أمانة. وعرضوا قميصه الممزق الملـــوث بالـــدم زاعمـــين أنـــه دمـــه بعـــد مـــا أكلـــه الذئب. وفاق جلَد يعقوب وصبره قوة الصدمة، فعبر عـــن شـــكه فـــي روايـــتهم، وأن مـــا عرضوه هو مما زينته لهم نفوسهم، وأنـــه يتـــدرع بالصـــبر الـــذي لا تصـــحبه شـــكوى. وأن يطلب من الله العون على تجاوز ما وصفوه.

بيان المعنى العام :

16←18: وجاؤوا أباهم عشاء يبكون ...والله المستعان على ما تصفون.

4) بعد أن ألقوه في الجب تمهلوا في الرجوع إلى أبـــيهم فلـــم يصـــلوا إلا عنـــد مـــا أظلـــم الليل، عند العشاء. وأحكموا تلفيق قصـــة وهميـــة أعطوهـــا ببكـــائهم صـــورة تقنـــع فـــي

ظنهم أباهم: أن يوسف قد افترسه الذئب، وقالوا: إنـا كنـا نتسـابق جريـا علـى الأقـدام حسبما يتم بين الفتيان ليروضوا أنفسهم، يبتعدون بـذلك عـن المنطلـق.وأن يوسـف لمـا كان، لصغره، لا يستطيع أن يتسـابق معنـا فـي الحلبـة تركنـاه يحـرس متاعنـا. وأن الذئب وجده منفردا فافترسه. ومبالغة في التمويه قرنـوا تصـويرهم للواقعـة مـع بكـائهم بأمرين:

أولهما: أنهم قالوا لأبيهم: إنك لفرط حبـك ليوسـف لا تصـدق مقالتنـا، مـع أننـا نجـزم ونؤكد أننا صادقون فيما رويناه، فلا تتهمْنا.

ثانيهما: أنهم أحضروا قميص يوسف مخرقا ممزقـا ملطخـا بالـدم الكـاذب، الـذي لـيس بينه وبين دم يوسف أي صلة، عضدا لروايتهم التي أحكموا نسجها الباطل.

صدم يعقوب بما لفقوه، وأدرك مـن المقارنـات التـي حفـت بـالخبر، وبحـديث قلبـه الصافي، أن يوسف لم يأكله الذئب، وأن ما أكدوه هـو تلفيقـات لا أسـاس لهـا لـم تقـع في الوجود. فواجههم بأن نفوسهم المريضة قد سـهلت لهـم تزييـف الحقيقـة، وحسـنت لهم اختلاق صورة باطلة بعد أن استدرجتهم إلـى فعـل منكـر مـذموم أخفـوه. وأنـه لا ينهار لهول المصاب، ويتذرع بالصبر، وأنه يلتجئ إلـى الله يطلـب منـه العـون علـى التحمل وعلى فتح أبواب الفرج. ويومئ قوله (**المستعان علـى مـا تصـفون**) إلـى أنـه غير مصدق لهم. إذ لم يقل على ما وقع، أو علـى مـوت يوسـف، ممـا يشـير إلـى أن الحقيقة مستورة، ويطلب من الله العـون ليوسـف فـي وضـعه الخفـي، ولنفسـه علـى التحمل.

وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ قَالَ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍۭ بَخْسٍ دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الوارد : الذي يرد الماء.

أدلى دلوه : أرسل دلوه إلى قاع البئر ليستخرج الماء.

يا بشراي : يا فرحتي.

أسروه : أخفوا خبره.

بضاعة : عرض تجارة.

شروه : باعوه.

بخس : ثمن نازل عن قيمته.
الزاهدين : الذين لا رغبة لهم في الشيء.

بيان المعنى الإجمالي :

لم يمكث يوسف زمنا طويلا في قاع البئر حتى مرت، حسب المتوقع من إخوته، قافلة تسير قاطعة مسافات الصحراء. وقفت بجانب البئر وأرسلت أحد أفرادها يمتح لها الماء من الجب. وما إن جذب دلوه حتى وجد فيه يوسف فصاح فرحا يا للبشرى! هذا غلام. أخفوه عن الأنظار حتى بلغوا سوق النخاسة في مصر وباعوه بثمن قليل بعيد جدا عن قيمته وما كانوا يدركون قيمته.

بيان المعنى العام:

19← 20: وجاءت سيارة فأرسلوا ....من الزاهدين.

من هذه الآية يفرد القرآن الحديث عن المسار الذي سار فيه يوسف بعد أن رماه إخوته في البئر وانصرفوا إلى منازلهم، وينقطع الحديث عن الإخوة وعن يعقوب.
كما توقع إخوته لم يمض عليه زمن طويل في البئر حتى مرت قافلة قريبا من البئر، وأرسلوا أحدهم يجلب لهم الماء. وقف الوارد على البئر وأنزل دلوه فتعلق به يوسف، وما أشد فرحته إذ وجد بين يديه غلاما وصاح يا لَلبشرى! هذا غلام.
يطوي القرآن ما دار بين يوسف وبين القافلة، ويكتفي بالنتيجة: وهي أن القافلة اعتبرته سلعة، رقيقا يبيعونه ويأخذون ثمنه. وما كانت معاملتهم له معاملة حسنة كما يشير إليه قوله تعالى: **والله عليم بما يفعلون**. كان من الواجب أن يسألوه عن سبب سقوطه في البئر وعن أهله وعن مكانهم، ويعملوا على مساعدته على العودة إليهم.
ولكن شدة حرصهم على استرقاقه والفوز بثمنه، سوغ لهم أن يقوموا بأعمال غير صالحة نحوه ليصلوا به في خفية إلى سوق العبيد قبل أن يفتضح أمرهم. وفي سوق النخاسة باعوه مسرعين بثمن قليل بالنسبة لنفاسته، مقدر حسب قيمة وقت النازلة بدراهم غير كثيرة تُعَدُّ، شأنَ ما هو قليل. وسبب ذلك أنهم ما كانوا حريصين على التمسك به، ولعل ذلك خوفا من أن يلحق بهم من يعرفه فينتزعه.

وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ۚ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُۥ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ

أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

مثواه : مكان إقامته .في مكان نومه وطعامه ومجلسه.

أشده : استكمال قوته.

حكما : حكمة بسداد النظر.

علما : تأويل الأحاديث.

بيان المعنى الإجمالي :

كان الذي اشتراه ذا فراسة عالية، فتبين له أن ليوسف شأنا، فأوصى امرأته أن تعامله معاملة كريمة تليق بما يتوقع له، فهو يأمل أن ينتفع وزوجته بإمكاناته العالية، أو أن يتخذه ولدا إن تواصل عدم إنجابهما للذرية. وروي أن اسمه فوطيفار وأنه كان رئيس الشرطة وبتعبيرنا وزير الداخلية. وسأقتصر على التعبير عنه باسم عزيز مصر كما جاء في القرآن، ويبدو لي أن لقب العزيز يخاطب به كل من كان ذا منصب عال في الدولة، ولذا سيأتينا أن إخوة يوسف عليه السلام خاطبوه بيا أيها العزيز قبل أن يعرفوه. وامرأة العزيز ذكر أن اسمها زليخا، وهي في كتب اليهود راعيل . وسألتزم في التعبير عنها بامرأة العزيز كما ذكرها القرآن بهذه الإضافة ولم يسمها، ولا ثقة لي بما وراء ذلك.

وعلى هذا النحو من الرعاية ابتدأ تمكين الله ليوسف في أرض مصر، فيسر له أن يربى في وسط يزيده قدرة على إدراك الغايات البعيدة المغيبة عن الناس. وليلحظ فينتفع بالإجراءات وطرق الحكم التي كان يتحدث بها في قصر العزيز. وإذا أراد الله شيئا فإنه يتمه ولا تستطيع أية قوة أن تعوقه. ولكن كثيرا من الناس لقصر نظرهم لا يدركون هذه الحقيقة. ثم إنه لما بلغت قواه البشرية مستوى النضج، أنزل الله في قلبه الحكمة، وفتح له أبواب العلم؛ وهذه هي سنة الله مع المحسنين من عباده يُكْرِمُهُمْ بأنواع من الفضل.

بيان المعنى العام :

21-وقال الذي اشتراه من مصر....ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

تسير القصة على السنن التي قدر الله أن تجري عليها تقلبات الحياة، يسر يعقبه عسر والعكس. فبعد تلك المحن من قذفه وحيدا في بئر، يشتريه رجل من رجال

الدولة في مصر قوي الفراسة أدرك من اللحظة الأولـــى أنـــه ملـــك غلامـــا نفيســـا عـــالي المواهب صالحا لأن يكون بينه وبينه وثيق الصـــلات. أســـكنه معـــه فـــي نفـــس البيـــت، وقال لامرأته: أنت مؤتمنة على هذا الغـــلام، لـــتكن معاملتـــك لـــه معاملـــة التكـــريم، ولا تعامليه معاملة العبيد. إني لأرجـــو أن ينفعنـــا هـــذا الغـــلام فـــي مســـتقبل أيامنـــا، وثنـــى بإمكانية أشد قرابة: هي أن يتبنياه ولدا لهما. وكأنهما قد قاربا اليأس من الإنجاب.

وعلى ذلك النحو من العناية التي صاحبت يوسف من تـــاريخ إلقائـــه فـــي الجـــب إلـــى أن قربه عزيز مصر ذلكم التقريب، ابتدأ تمكين يوسف فـــي أرض مصـــر علـــى مـــا ســـيأتينا في قوله تعـــالى : **وكـــذلك مكنـــا ليوســـف فـــي الأرض يتبـــوأ منهـــا حيـــث يشـــاء** [1] – وليضيف من منن الله عليه تكاملت معارفه واقتداره على تأويـــل مـــا ترمـــز إليـــه الـــرؤى المنامية، وعلى تجاوز الظواهر إلى ما وراءها مـــن الـــدلالات .والله ســـبحانه يحقـــق مـــا تعلقت به إرادته، ولا يحول بينه وبـــين ذلـــك أي قـــوة، فكلهـــا مهزومـــة أمـــام ســـلطانه. ولكن أكثر الناس تغيـــب عـــنهم هـــذه الحقيقـــة الثابتـــة التـــي تعـــددت الشـــواهد الناطقـــة بصدقها.

22- ولما بلغ أشده واستوى ....نجزي المحسنين .

تتابعت عناية الله بيوسف، ينقله من مرتبة إلى مرتبه أســـمى. فصـــرحت الآيـــة بأنـــه لمـــا بلغ كمال قوته البدنية، أحل الحكمة في عقله، فبدت لـــه الحقـــائق جليـــة، وقامـــت المـــآلات في نفسه واضحة فرشد ســـلوكه وصـــلح عملـــه. وأعطـــاه قـــدرة علـــى تعبيـــر الـــرؤى المنامية وهو معنى قولـــه تعـــالى : وهـــذه ســـنتنا مـــع المحســـنين مـــن البشـــر نتـــولاهم ونسعدهم بالتوفيق وبلوغ مراتب الكمال .

وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ قَالَ
مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ
وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ
عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا
ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ
هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ

[1] سورة يوسف آية56

فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ
﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

راودته : لاطفته لتسوقه إلى غرضها.

عن نفسه : عن عفافه بتمكينها منه لما تريد.

غلقت الأبواب : أحكمت غلقها.

هيت لك : بادر أنت وأقبل.

معاذ الله : أعوذ بالله. أعتصم به مما تحاولين بلوغه.

أحسن مثواي : أحسن العناية بي وأكرم كفالتي .

الهم : العزم على الفعل.

البرهان : الحجة البينة التي صرفته عنها.

السوء: خيانة من ائتمنه.

الفحشاء : الفعلة القبيحة الزنا.

قدت : خرقت قميصه طولا، من خلف.

ألفيا: وجدا.

سيدها : زوجها.

قبل: من الجهة الأمامية.

كيد: مركب من الخداع والاحتيال والمكر.

الخاطئ : فاعل الخطيئة.

أعرض عن هذا : اكتمه.

بيان المعنى الإجمالي :

كان يوسف عليه السلام بارع الجمال، قوي البنية، بلغ أشده في بيت عزيز مصر، فتعلقت به امرأته وحاولته ليتصل بها جنسيا، ولما بلغ تعلقها به حده الأقصى، انفردت به وأحكمت إغلاق الأبواب، ودعته بقولها: هيت لك، تعال أقبل، أخاطبك أنت لا غيرك .وترفَّعَ أن يقع في الخطيئة فقال لها: إني أتحصن بالله من أن أنزل إلى مستوى أخون فيه زوجك الذي رباني وائتمنني . إني لو خنته في زوجته أكون ظالما له. والظالمون مآلهم الخسران.

لقد كان تعلقها بيوسف شديدا، فهامت به وظنت أنهـا إذ تنازلـت عـن كبريائهـا وقامـت هي بالخطوة الأولى، أنه سيتحقق لها الوصل الـذي طالمـا حـدثت نفسـها بـه وحلمـت به. كانت على حظ مـن الوسـامة. فيوسـف عليه السلام لـم يرغـب عنهـا ويستعصـم بـالله لضعف في أنوثتها ونقص في وسامتها، ولكن صورتها فـي نفسـه هـي صـورة المـرأة الناضجة المؤثرة. ولكنه رأى دلـيلا أسـعفه بـه الله فـي سـاعة المحنـة فصـد عنهـا وتمسك بعفافه، وبذلك أبعده الله عن الخيانـة لزوجهـا وعـن الزنـا .كـان ذلـك جـزاء إخلاصه، والإخلاص يسـمو بأصـحابه إلـى مراتـب الكمـال التـي تقـربهم إلـى الله، ويوسف من زمرتهم.

جرى يوسف نحو الباب فحل قفله، ولحقـت بـه امـرأة العزيـز وجذبتـه مـن قميصـه لتمنعه من الخروج فمزقته، وفوجئا بـالزوج عنـد البـاب ومعـه أحـد أقاربهـا. وكانـت ماكرة حاضرة البديهة، فتوجهت إلى زوجها ملقية التهمـة علـى يوسـف قائلـة: مـا هـو الجزاء المناسب لمن حـاول الاعتـداء علـى أهلـك ؟ مـا أراه إلا أن يسـجن أو يعـذب العذاب المؤلم. ونفى يوسف عن نفسـه التهمـة جازمـا أنهـا هـي التـي راودتـه عـن نفسها. وتدخّل قريبها فقال: إن كان القمـيص خـرق مـن الأمـام فـذلك دليـل علـى أن يوسف هجم عليها ونازعته من أن ينال منهـا فخرقـت ثوبـه، وإن كـان قميصـه خـرق من خلف فذلك دليل على أنه فر منها وأنهـا لحقتـه وجذبتـه بقـوة مـن رقبـة قميصـه فتخرق. وقام الدليل على كذبها وصدقه، فالتفـت إليهـا زوجهـا قـائلا: هـذه مكيـدة مـن المكائد التي تتقنها النساء. إن كيدكن عظيم. والتفـت إلـى يوسـف وطلـب منـه أن يكـتم الأمر ولا يشيعه. ثم توجه إليها من جديـد مرشـدا لهـا أن تسـرع بطلـب العفـو وأن لا تعود، وأثبت أنها كانت مخطئة كشأن الخطائين من البشر.

بيان المعنى العام:

23←24:وراودته التي هو في بيتها...إنه من عبادنا المخلصين.

خرج يوسف من المحن السابقة تحوطه العناية الإلهيـة حتـى اسـتقر فـي قصـر عزيـز مصر موصى بتكريمه، وكرم فعلا، ونما فـي حجـر النعـيم حتـى اكتمـل فبلـغ أشـده. جمع بين الجمال والوقار والقوة الجسدية ممـا يجعـل العـين الـذي تنظـر إليـه تعجـب بمظاهر الرجولة والفتوة فيه.

وفي قصر العزيز ما كان يعيش مع الخدم، بل كان يعيش مع أسرته حسب الوصاية به من أول يوم حل فيه. وكانت امرأة العزيز تلحظ كماله وجماله، وتحدثها نفسها وتشغلها به إلى أن غلبتها نوازع الشهوة فدفعتها إلى مراودته، فلاطفته وللنساء قوة طبيعية في الإغراء.

و قالوا لهــا هذا حبيبـــك معرض *** فقالت ألا إعراضه أهون الخطب

فما هي إلا نظرة وابـــتسامـــة *** فتصطك رجـــلاه ويسقط للجـــنب

لا يفصل القرآن المقدمات التي مرت بها إلـــى أن وصـــلت إلـــى التصـــريح بهيامهـــا بـــه وإرادتها القوية لتستولي على عفافه فينساق معها إلـــى الاتصـــال الجنســـي بهـــا، وتفـــرغ شحنة تضخمت مع الـــزمن فهزمـــت كبرياءهـــا ومكانتهـــا الاجتماعيـــة. ثـــم قامـــت فـــي الوقت الذي استولت عليها الشـــهوة واســـتبدت بهـــا الغلمـــة، فأحكمـــت إغـــلاق الأبـــواب حتى تطمئنه على أنه لا يفاجئهما أي كـــان وقالـــت: هيـــت لـــك. تعـــال أقبـــل. واختـــار القرآن أن يعبر عن دعوتها له بهـــذه الكلمـــة التـــي ليســـت مـــن أصـــل عربـــي ليكـــون جرسها معبرا عن أنفاسها اللاهثة في هـــذه اللحظـــة، ووصـــل هيـــت بكلمـــة لـــك لإفـــادة شدة الاتصال كما تقول العرب شكرا لك على أن الشـــكر متصـــل بـــك وهـــو أقـــوى مـــن قولك أشكرك، كأنها تقول كل كياني لك يا يوسف. اجتمعت كـــل الظـــروف ليـــتم لهـــا مـــا أرادت. وما أشدها محنة يمر بها. كـــان جوابـــه جازمـــا قاطعـــا لكـــل محاولاتهـــا : إنـــي أعتصم بالله من مواقعتك. إن زوجك هـــو ســـيدي الـــذي ربـــاني وأكرمنـــي فـــي مقـــامي عنده وقربني منه فلا أخونه فـــي زوجتـــه. إن خلقـــي وخشـــيتي مـــن الله أن ينـــزل بـــي غضبه تمنعني من ظلم العلاقة التـــي تربطنـــي بزوجـــك. إن الـــذين يتجـــاوزون الحـــدود ويظلمون مآلهم خاسر.

وتأتي في العرض لمسة تبعد ما يمكن أن يتصور به أن الصـــارف لـــه عنهـــا، أنهـــا مـــا كانت على حظ من الإغـــراء والجاذبيـــة والأنوثـــة الصـــارخة، فيصـــرح القـــرآن بخفايـــا نفسيهما، لقد همت به في ملاطفتها له، جادة فـــي تحقيـــق غرضـــها مـــن الاتصـــال بـــه، معجبة به أتم الإعجاب وأكمله .وكان هـــو معجبـــا بجمالهـــا ورقتهـــا ومـــا تمتلكـــه مـــن مزايا مغرية بها. ولكن الذي حال بينـــه وبـــين المضـــي إلـــى النهايـــة، أنـــه رأى برهانـــا استقر في يقينه وملّك عليه أرجاءه وأحاسيسه وغرائـــزه، يبعـــده عـــن الزنـــا وقـــام فـــي باطنه ذلكم الدليل الذي جاءه من هداية ربه الذي يرعـــاه ويحوطـــه بألطافـــه، فتمثـــل لـــه الزنا قذارة تقزز منها، وطار مـــا كـــان يقتضـــيه إعجابـــه بمفاتنهـــا مـــن المضـــي إلـــى النهاية الفاجرة .

على هذا النحو حفظنا هو أبعدنا عنه السوء الذي هو خيانـــة مـــن ائتمنـــه، وعـــن الفحشـــاء الفعلة القبيحة: الزنا .وذلك لأنه من عبـــاد الله الـــذين قـــربهم ونســـبهم لنفســـه وأخلصـــهم لذاته العلية وأخلصوا له في عبادتهم، فكانـــت علاقـــتهم بـــه علاقـــة قـــرب تتلقـــى أنـــوار الهداية مباشرة قوية التأثير.

25←29، واستبقا الباب وقدت ....إنك كنت من الخاطئين .

حاول يوسف أن يبتعد عنها ففر نحـــو البـــاب، وحاولـــت أن تسـبقه إليـــه لتحـــول بينـــه وبين الخروج. وطوى القرآن حلقـــة لا بـــد منهـــا لتصـــور المشـــهد، لعلهـــا أن يوســـف تمكن من فتح القفل الذي أحكمت غلقه، فأنشبت يديها فـــي طـــوق قميصـــه فتخـــرق مـــن خلف. وتظهر المفاجأة التي ما كان أي منهما يتوقعهـــا. حضـــر ســـيدها صـــاحب البيـــت زوجها في تلك اللحظة والباب قـــد ذهـــب قفلـــه، فارتسـم المشـــهد أمـــام نـــاظره: هيئـــة زوجته مسترابة في لباســـها وفـــي لهـــث أنفاســـها، ويوســـف واقـــف معهـــا فـــي خلـــوة وقميصه ممزق.

لقد كانت على حظ كبير من سرعة البديهـــة، وقـــوة المكـــر، فحاولـــت أن تنقـــذ نفســـها وتلقي بالتهمة على يوسف فتوجهت لزوجها بدون تلعـــثم قائلـــة : مـــا هـــو الجـــزاء الـــذي يكون حقيقا به من عزم على النيل من زوجتك ؟ ثـــم أردفـــت : إمـــا أن تكـــون غياهـــب السجون مأواه، وإما أن تسلط عليه من أنواع التعذيب القاسية ما يكافئ خيانته.

كان يوسف واقفا يسمع إلى بهتانها متعجبـــا، وقبـــل أن يطلـــب منـــه ســـيد البيـــت جوابـــا نطق عليه السلام مفندا كلامها في براءة: هي راودتني عن نفسي.

ويظهر في المشهد رجل هو من أهلها قـــدم مـــع زوجهـــا، فســـبق ليـــدلي بشـــهادته التـــي تظهر الحقيقة. ما كان معهما حتى تكون شهادته مبنية علـــى حكايـــة مـــا أبصـــره، وإنمـــا اعتمد القرائن التي تعطـــي نوعـــا مـــن المعقوليـــة لتسلســـل الأحـــداث. رأى أن يوســـف يضم أطراف ثوبه الممـــزق، فَهَدَتْـــه فطنتـــه أن طريقـــة تمزيـــق الثـــوب تشـــهد لهـــا أو عليها. وتقدم قائلا: إن كان القميص قد من قبل فإن ذلك يدل علـــى أنـــه قـــد هجـــم عليهـــا وأنها دافعت عن نفسها فتخـــرق ثوبـــه، ولا يكـــون إلا مـــن الجهـــة الأماميـــة. وأنـــه إذا تخرق ثوبه من الوراء فذلك يدل علـــى أنـــه فـــر منهـــا ولحقتـــه فجذبتـــه مـــن قميصـــه فتخرق من الخلف. وكان حكمه بـــالقرائن مقنعـــا. فلمـــا شـــاهد الـــزوج تخـــرق القمـــيص من خلف، توجه إلى امرأته وخاطبهـــا بقولـــه: إنـــه تـــدبير منـــك مركـــب مـــن الخـــداع والمكر والاحتيال، وإنك أنثى كسائر النســـاء مقـــدرتكن علـــى الكيـــد عظيمـــة. وقـــع فـــي نفسه صدق يوسف وكذبها. والتفت إلـــى يوســـف ودعـــاه إلـــى أن يكـــتم مـــا حصـــل ولا يشيعه. وعلى هذا النحو في القـــديم والحـــديث تعـــالج الفضـــائح الجنســـية فـــي الأوســـاط التي أتخمتها الحضارة، وأفسدها الارتخاء الخلقي.

ثم التفت إلى زوجته وأرشدها أن تطلب الصـــفح عمـــا وقـــع. وأن تســـقطه مـــن ذاكرتهـــا بعدم العود إليه.

۞ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

شغفها : فعل مأخوذ من الشغاف وهو غلاف القلب، أي تمكن حبه من قلبها أفضل تمكن.

ضلال مبين : خرجت عن الصواب بصفة واضحة.

المتكأ : محل الاتكاء .والاتكاء جلسة بين القعود والاضطجاع.

أكبرنه : أعظمن جماله.

قطعن : ذهلن بجماله فجرحن أيديهن.

حاش لله :جملة تقدم للدلالة على الاستبعاد والنفي.

استعصم : امتنع امتناع من يعد مضاجعتها يناقض عصمته.

الصاغر : الذليل.

أصبو إليهن : أميل إليهن.

من الجاهلين: من الذين لا يراعون حدود الله.

بدا: ظهر لهم وترجح.

بيان المعنى الإجمالي:

تحدثت النساء المتصلة بقصر العزيز بالحادثة، وحمّلن امرأته التهمة، وأنها قد أحبت غلامها حبا استولى على قلبها ومشاعرها. وصرّحن بلومها على موقفها وأنها أخطأت خطأ بينا.

لما بلغها ما تحدثن به وهو ما يعرضها إلى تحميلها المسؤولية وما يمكن أن يتبعها من عقاب وانحطاط منزلة، دبرت أمرها لتسكت تلك الأفواه ؛ فدعتهن ضيفات عليها، ورتبت لقاءها بهن على مستوى عال من التكريم، فلكل ضيفة مكانها

المريح الفسيح، وأعدت لهن صنوفا مــن الأطعمــة وأمــرت أن يصــحب الطعــام ســكينة لكل واحدة منهن.

استراحت الضيفات لحسن القبـول والاسـتعداد، وأخــذن فــي تنــاول الطعــام، وأمــرت يوسف أن يخرج عليهن من المكان الذي هو فيه، وفـوجئن بـالفتى الــذي طلــع علــيهن: أذهلهن جماله، وأعظمن بهاءه، وملك مشـاعرهن وإحساســهن حتــى جرحــت الســكاكين أيديهن، وهن من علية القوم أيديهن لطيفــة، ومــن شــأن ســيدات القصــور أن لا يعملــن بأيديهن، ويتولينها بالمراهم التي ترقق الجلــد وتلــين الملمــس، ولــذا بمجــرد مــا غفلــن عن السكاكين وشغلن بيوسف وجرحت أيديهن ســال الــدم فعبــر القــرآن مجســما لــذلك بقوله : (**وقطعن أيديهن**) وقلن: لا يتصور أن يكون هــذا الــذي أمامنــا بشــرا، إن هــو إلا من جنس الملائكة، ملك مــن المســتوى الرفيــع. وتحققــت الغايــة التــي مــن أجلهــا جمعتهن، فصرحت: هو الفتى الذي سبقتن بلومي في حبه، نعــم لقــد راودتــه عــن نفســه فأبى متمسكا بعصمته. وإن لم يفعل ما آمره بــه ويطفــئ حــرارة حبــي لــه بالوصــال، ليدخلن السجن، الذي يذهب بكبريائه وليكونن من الأذلاء.

ولما سمع كلامها وتبين له تصميمها، إذ لم تسـتح مــن التصــريح بــه لضــيفاتها، قــوي إدراكه للخطر فتوجه لربه يطلب منه العون. قــال رب الســجن الــذي تهــددني بــه هــو خير لي من حياة القصور مع الفجور. إنك ربي إن لم تسـعفني فتبعــد عنــي كيــدهن قــد تتهاوى مقاومتي لإغرائهن، وأميل إليهن وأنتهــي إلــى ارتكــاب الخطيئــة التــي يعــيش عليها الجاهلون الفاسقون.

استجاب ربه الراحم لدعائه، وهو السامع لتضــرعه وابتهالاتــه، فأبعــد عنــه كيــدهن، إن الله هو السميع لدعاء الداعين وابتهالات الضــارعين، العلــيم بمــا يجــري فــي نفوســهم فلا يردهم عن بابه خائبين.

ثم قر قرارهم رغم ما شاهدوه من الأدلة الناطقة ببراءته، أن يدخلوه السجن إلى أمد لم يحدد.

بيان المعنى العام :

30-وقال نسوة في المدينة...في ضلال مبين.

رغم حرص زوجها على كتمان الحادثة، فقد خرج الخبر من السر، وتحدثت به بعض النساء المتصلة بالقصر، إذ لفظ [نسوة] يدل على قلة عددهن. وبلغ امرأة العزيز ما يتهامسن به من الإنكار عليها وما يتحدثن به في مجالسهن: إنها علــى رغــم مســتواها الرفيــع ومنزلتهــا الاجتماعية العالية، نزلت إلى مراودة غلام من التابعين في القصر، راغبة في مضاجعته؛ قــد بلغ حبها له وهيامها به أن استولى على قلبها: لقد انحرفت وسارت في طريق الخطأ البين.

31←32: فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن....من الصاغرين.

سمعت امرأة العزيز ما يجري من تهامس وتعليق على الحادثة. واعتبرت ذلك بما خالطه من لوم وإنكار، أنهن يحمّلنها الخطيئة، وأن شيوعه على هذا النحو قد يترتب عليه من السوء ما يترتب. فقد يحدثن به أزواجهن، وقد يثار بينهم وبين زوجها ما يدفعه لمعاقبتها أو الانفصال عنها. والمرأة شديدة الحساسية في كل ما من شأنه أن يهدم حياتها الزوجية، خاصة إذا كان الزوج يحتل مستوى رفيعا في الدولة، فعبر القرآن عن ذلك بقوله:(**فلما سمعت بمكرهن**)

و كما أشرنا إليه سابقا، لقد كانت على قدر كبير من الفطنة والذكاء، فعملت على إقحامهن إقحاما بسكت إنكارهن. فدعتهن لبيتها ضَيْفَاتٍ عليها، ورتبت في إكرامهن ما يليق بمقامها ومقامهن على العادة المتبعة في قصور عظماء رجال الدولة.

مجلس وثير رحب، لكل واحدة من ضيفاتها متكأ تترفق به، وأمرت الخدم بإحضار ما اختارته من المأكولات، وأن يقدموا مع الأطباق السكاكين التي يقطعن بها الطعام حسب المستوى الحضاري الذي بلغته مصر في ذلك العصر، أن الطعام يقطع بالسكين ولا ينهسن اللحم ولا ينهشن الفواكه وغيرها.

وراق المجلس، وأخذت كل واحدة منهن تتناول مما قدم لها تحاوله بالسكين. وفي هذه اللحظة، كان مما رتبته أن يكون يوسف في غرفة ملاصقة تفتح على قاعة الجلوس، وأمرته أن يخرج على الحاضرات مفاجأة، إذا سمع أمرها له بالخروج.

وحرك سمعه، وهو ينتظر، الأمر بالخروج، فأطاع. وإذا بيوسف وسط النسوة من علية القوم، فشغلن بالنظر إليه والتمتع بالتثبت في محاسنه، وبهرهن ما جمع من جمال ووسامة وفتوة، حتى نسين أنهن يمسكن بالسكاكين في أيديهن فانفلت الحذر وجرحن أيديهن دون أن يحسسن بألم الجراح، وهن من علية القوم، وشأن أمثالهن أن لا يعملن بأيديهن، وأن يعتنين بتليينها بالمراهم فتزداد نعومة ورقة. ولذا فإنه بمجرد ما جرحت، سال منها الدم كأنها تقطعت، فتجسيما لهذا المعنى قال تعالى: **(وقطعن أيديهن)**. وقلن بصوت واحد معبرين عن شدة إعجابهن ومنفِّسين عما استقر في بواطنهن من المشهد الذي ما كان الخيال يسعفهن بتصويره: لا يكون هذا الفتى الذي جمع كل هذه المحاسن، من جنس البشر. هو من جنس آخر، هو من الملائكة الذين سموا عن البشر، في تصورهم، فتنزهوا عن النقص والعيب.

نجحت امرأة العزيز فبلغت ما أرادت، وقد أصبحت النسوة يشاركنها الإحساس بقوته الجمالية والرجولية الغازية لقلوب النساء. وهنا أعلنت لهن هذا الفتى بجماله

الأخاذ هو الذي سبقتن للومي في حبه قبل أن ترينــه، وقبــل أن يهــز قلــوبكن كمـــا هـــز قلبي. نعم قد راودتُهُ عن نفسه بعد أن هممـــت بــه، فانحـــاز إلـــى العصـــمة مـــن الزنـــا وامتنع من إطفاء الحرارة التي تلتهب في كيـــاني. وقــد عقــدت العـــزم علـــى أنــــه بـــين خيارين: إما أن يرضخ لإغرائـــي ويكـــون طـــوع أوامـــري، وإمـــا أن يرمـــى بـــه فـــي غياهب السجون فتذهب كبرياؤه وينقلب ذليلا من الصاغرين.

33←35: قال رب السجن أحب إلي...ليسجننه حتى حين .

ربحت الجولـــة. وقـــد أصـــبحت نســـاء الطبقـــة العاليـــة يشـــاركنها الإعجـــاب بيوســـف، ويعذرنها في حبها له وتعلقها به. وكان يوســـف يســـمع كلامهـــا ويحـــس بمشـــاركة بقيـــة النسوة لها. وقد أحكم عليه الطوق إذ تعـــدى الإعجـــاب بـــه والرغبـــة فـــي القـــرب منـــه امرأة العزيز إلى غيرها، ولكل واحدة منهن قدرتها على الضـــغط عليـــه لـــو أتيحـــت لهـــا الفرصة. فتوجه طالبا العون من ربه ليســـاعده علـــى مـــا ألـــزم بـــه نفســـه مـــن التقـــوى والابتعاد عن المحرمات. وأن حياة السجن عنده أحب و أفضـــل ممـــا يدعونـــه إليـــه؛ إنهـــا المنقذ المادي له. إني أخشى أن أنهار أمام مواصلة الضـــغط علـــي إن لـــم تتفضـــل ربـــي بصرف كيدهن عني. (يبدو أنه واثـــق مـــن مواصـــلة كيـــدهن، وأنـــه كلمـــا خـــرج مـــن أحبولة ستنصب له أحبولة أخرى) ولعلني بضعفي البشـــري ســـأنتهي إلـــى الميـــل إلـــيهن فأكون من جملة الجاهلين السفهاء الذين لا يرْعَوْن حـــدود الله. فكـــان تعبيـــرا مـــن عميـــق الشعور بأنه لا حول ولا قوة إلا بالله.

تلت هذه الابتهالات الخاشعة أن أجاب الله دعـــاءه، فصـــرف عنـــه آثـــار كيـــدهن، وثبَّتـــه على مواصلة المسيرة الطاهرة في سلوكه، وقواه فمضـــى علـــى طريـــق العصـــمة. بكـــل تأكيد: إن الله يسمع نداء الداعين والمبتهلين، وهو العلـــيم بمـــا تكنـــه صـــدورهم وتنطـــوي عليه ضمائرهم ولا يخفى عليه صدق الصادقين.

ثم تمر فترة من الزمن، لم يتعرض القـــرآن إلـــى تفاصـــيلها. كانـــت تتـــأرجح بـــين قـــوة تأثير امـــرأة العزيـــز علـــى دفـــع التهمـــة عـــن نفســـها والإقنـــاع ببراءتهـــا، ومواصـــلة إغراءاتها ليوسف، حتـــى يئســـت مـــن هـــزم صـــلابته فـــي التمســـك بعصـــمته، وبـــين الظواهر الناطقة ببراءة يوسف. ولكن فـــي تبرئتـــه ســـقوط امـــرأة العزيـــز وتحميلهـــا التهمة. وتغلبت كفة الكيد على كفة الحق، فتم اتخاذ القـــرار بســـجنه ســـجنا يطـــول، إلـــى أمد مجهول.

وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ۖ قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا ۖ وَقَالَ ٱلْـَٔاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ
أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ۖ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ ۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾
قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ ذَٰلِكُمَا مِمَّا
عَلَّمَنِى رَبِّىٓ ۚ إِنِّى تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱتَّبَعْتُ
مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ
مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾ يَـٰصَـٰحِبَىِ
ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ
أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَـٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ
أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾
يَـٰصَـٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْـَٔاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ
ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ
مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ
سِنِينَ ﴿٤٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الملة : الدين .

تركت : لم آخذ مع إمكان الأخذ.

السلطان : الحجة.

القيم : المستقيم

قضي : تم القضاء ولا مبدل له.

بضع: يقال للعدد بين ثلاث وسبع.

تستفتيان : تطلبان ما يزيل الإشكال بالفتوى.

بيان المعنى الإجمالي :

نفذت امرأة العزيز مـا أرادت، وأدخلـت يوسـف عليه السلام السـجن، ودخـل معـه السـجن فتيان من فتيان الملك. كانت صلتهما في السـجن بيوسـف قويـة، فعرضـا عليـه رؤيـا

في منامهما ليعبرها ثقة منهما بما شاهداه من اســتقامته وكمالاتــه، إذ لاحظـــا أنـــه يســـير في جميع شؤون حياته على الوجه الحسن. قـــال لهمـــا يوســـف: ســأعبر رؤياكمـــا قبـــل موعد تناول المساجين للطعام. وإن تعبيري هو مـــن فضـــل ربـــي الـــذي خصـــني بهـــذا العلم. إني لم ألتفت للدين الذي كان عليه القـــوم الـــذين لا يؤمنـــون بـــالله وينكـــرون يـــوم القيامة. والتزمت في حياتي الدين الذي سار عليـــه آبـــائي مـــن قبلـــي إبـــراهيم وإســـحاق ويعقوب. نوحد الله ولا نشرك به أي شـــيء. إن هـــذه الهدايـــة حصـــلت لنـــا وللمـــؤمنين أمثالنا بفضل من الله . والعجب أن كثيرا مـــن النـــاس يقـــابلون نعـــم الله وفضـــله بـــالكفر ولا يشكرونه.

ثم قدم لهما حجة تقنعهما بالتوحيد. ارجعا إلى ما تحكـــم بـــه فطرتكمـــا، أيهمـــا أفضـــل أن تعبدوا آلهة متفرقين لا صـــلة بيـــنهم، هـــذا للنـــور وذاك للظلمـــة، وهـــذا للخصـــب وذاك للقحط، وهذا للغنم، وذاك للمطر وهكـــذا، وكـــل إلـــه لا يتصـــرف إلا فـــي ميدانـــه وهـــو عاجز عن الدخول في ميدان غيره من الآلهة؛ أو أن تعبـــدوا إلهـــا واحـــدا يتصـــرف فـــي الكون كله ويجريه على نظام متناسق. إن الـــذين تعبـــدونهم مـــن دون الله لا حقيقـــة لهـــم، أنتم الذين أطلقتم عليهم أسماء الألوهية، وجعلتمـــوهم آلهـــة ولا حجـــة لكـــم. إنهـــم عجـــزة والحكم لله وحده الذي أمركم، وأمـــره يجـــب أن يطـــاع. أمـــركم أن تفـــردوه بالعبـــادة. إن ذلك هو الدين المستقيم الذي يبلغكم سلامة العاقبـــة. وانصـــراف النـــاس عـــن هـــذا الـــدين هو بسبب جهلهم.

ثم أعلمهما بتأويل رؤياهما فقال: الذي رأى أنـــه يعتصـــر الخمـــر ســـيخرج مـــن الســـجن ويقربه الملك ليتولى سقايته وحضور مجالس أنســـه، وأمـــا الآخـــر فســـينفذ فيـــه العقـــاب بقتله وصلبه وانقضاض الطيور الكاسرة عليه تأكـــل مـــن رأســـه. انتهـــى الأمـــر وقضـــى الله بما قضاه وهذا تأويل رؤياكما.

وقال يوسف للساقي الذي يظن ظنا مؤكدا أنه سيتحقق له فـــي المســـتقبل مـــا أخبـــره بـــه، قال له: اذكرني بما علمته مني وبظلامتي عند الملك. ونســـي الســـاقي بعـــد خروجـــه مـــن السجن وصية يوسف، فبقي يوسف في ظلام السجن حوالي سبع سنوات.

بيان المعنى العام :

36-ودخل معه السجن فتيان....إنا نراك من المحسنين.

تم لامـــرأة العزيـــز مـــا أرادت، وأدخـــل يوســـف ﷺ الســـجن ليقضـــي فيـــه أعوامـــا. وصـادف أن دخل معه السجن فتيـــان كانـــا يعمـــلان فـــي قصـــر الملـــك. ومـــا إن وقـــع نظرهما على يوسف حتى أنسا به، وتقربا منه، وتفرسا فـــي ملامحـــه فوثقـــا بمزايـــا هـــو

بكمالاته. واقتصر القرآن على ذكر هذه العلاقة لأنه كــان لهــا دور فــي مســتقبل حياتــه ﷺ.وإن كنا نجزم أن إقامته في الســجن أدخلــت علــى الســجن جــوا جديــدا، بلطفــه وحسن معشــره، وســمو أخلاقــه، وتخفيفــه كــرب المكــروبين، فكــان ﷺ مســتودع أسرارهم، وملجأ لهم يخفف عنهم وحشة السجن وقساوته.

و كل سجين يفكر في اليوم الذي يخرج فيــه مــن الســجن، ويتعلــق بكــل بارقــة أمــل، ويرغب في تطلع الغيب ومــن ذلــك تأويــل أحلامــه. وكــان مــن هــذين الغلامــين: أن أحدهما رأى في منامه كأنه يعصر العنب ليحوله إلــى خمــر، ورأى الآخــر أنــه يحمــل فوق رأسه خبزا والطير تتبعه تنقر مما يحمله.

وقص كل واحد منهما رؤياه على يوسف ليؤول لهما مــا رأيــاه، وتلطفــا فــي مخاطبتــه قبل أن يعرضا عليه قالا له: إنا نعتقــد أنــك مــن المحســنين، الــذين صــفت أرواحهــم وسمت نفوسهم الذين يُمْكِنُ لهما النفاذ إلى ما وراء الظــواهر. فهــذه رؤيانــا فعبرهــا لنــا لعلنا نرى فيها خيطا من أمل.

37←40، قال لا يأتيكما طعام ترزقانه....أكثر الناس لا يعلمون.

و جد يوسف من الغلامين شدة تعلق بــه، وأنــه يمكنــه أن يهــديهما إلــى الــدين الحــق. فطمأنهما أولا: بأنه سيفسر لهما ما رأيــا ه ويؤولــه قبــل الوقــت الــذي مــن المعتــاد أن يوزع الطعام فيه على المساجين. وأدمــج أن قدرتــه علــى التأويــل آتيــة مــن أن ربــي علمني تأويل الرؤيا ورزقني هذا العلم الــذي اســتقر فــي عقلــي. وبهــذا تمكــن يوســف بحكمته أن يزيد إقبال الغلامين وقبولهما لمــا يعرضــه عليهمــا. فمــا هــو تفصــيل هــذه الحكمة في الدعوة ؟

أولا: أخبرهما بأن الشركَ منتشر في الدنيا، وأنه لم يأخذ ولــم يتبــع ملــة القــوم الــذين لا يؤمنون بالله الذين قصروا أنظارهم علــى الحيــاة الــدنيا، وكفــروا بــاليوم الآخــر الــذي يجازَى فيه كل إنسان على ما قدمه في حياته.

ثانيا: إني التزمت في عقيدتي نفس الطريق والصورة التــي كــان عليهــا آبــائي إبــراهيم وإسحاق ويعقوب. ثــم وضــح ذلــك بأنهــا عقيــدة تنفــي أي شــريك لله فــي ألوهيتــه. الوحدانية الكاملة التي لا شائبة فيها. إن اهتــداءنا للتوحيــد فضــل مــن الله علينــا وعلــى من كان على نهجنا من الناس. والعجــب أن أكثــر النــاس لا يشــكرون نعــم الله علــيهم فيكفرون به وينسبون ما حصلوا عليه من الخير إلى غيره.

ثالثا: أقام لهما دلــيلا يناســب مســتواهما الفكــري وفطرتهمــا ورقــق فــي مخاطبتهمــا، فناداهما: يا صاحبي السجن، كأنه يقول لهمــا إن مــا أنتمــا فيــه مــن الســجن والعــذاب

حصل من المشركين بالله، ونحن هنا نمثل وحـدة تـرفض مـا هـم عليـه. ارجعـا إلـى الفطرة، هل الأفضل أن تكونا تـابعين لآلهـة متفرقـة، كـل واحـد منهـا عـاجز عـن التدخل في ميـدان الآخـر، ويتصـرف فـي ميدانـه الخـاص، أو الأفضـل أن تكونـا عابدين لإله واحد يقهر الظلم والاستبداد ولا يرضى بالفوضى.

رابعا: إن الآلهة التي تعبدونها لا حقيقة لهـا ولا يوجـد فيهـا خصـائص الألوهيـة. هـي أسماء أطلقتموها أنتم على ما لا صلة له بالربوبية، لـم يقـم خـالق الكـون عليهـا حجـة توجب عبادتها أو التقرب إليهـا. انتبهـوا فهـي لا تتصـرف ولا تحكـم فـي الكائنـات، والذي انفرد بالتحكم في كل شيء هـو الله .والمـتحكم فـي الكائنـات هـو الحقيـق بـأن يعبد وبذلك أمر سبحانه. إن الدين الذي هـو علـى هـذه الصـورة هـو الـدين المسـتقيم السائر مع العقل والبديهة، الذي لاعوج فيه، والـذي ينتهـي بكـم إلـى سـلامة العاقبـة. ولكن غلبة الجهل على الناس صرفتهم عن عبادة الله وحده وتعلقوا بالشركاء.

40- يا صاحبي السجن أما أحدكما....فيه تستفتيان.

ثم وفى لهما بما وعده من تفسير رؤياهما، وأولها لهما على النحو الآتي:

أما الذي رأى نفسه يعصر، فسيكون ساقي الملك يحضـر مجـالس ندمائـه. وأمـا الـذي رأى الطير تأكل من الخبز الذي يحمله فـوق رأسـه، فسـيقتله الملـك ويصـلبه، وتـأتي كواسر الطير فتأكل من رأسه. تم القضـاء بمـا أخبرتكمـا فـلا يقـع فـي المسـتقبل إلا ذلك.

41-وقال للذي ظن أنه ناج منهما...بضع سنين.

ثم أردف يوسف ﷺ طلبًا توجه به إلى السـاقي، الـذي يظـن ظنـا قويـا أنـه سـينجو، وأنه يكون قريبا من الملك وخاصة في أوقات فراغـه وانشـراحه. طلـب منـه أن يغتـنم فرصة يذكُر فيها للملك ما عرفه في السجن عن يوسف، ويرفع عنده مظلمته.

خرج الساقي فعلا من السجن، وكان قريبا مـن الملـك يحضـر مجـالس أنسـه. ولكنـه نسي وصية يوسف ﷺ. وما كان تَفَقُّدُ المساجين وتجديـد النظـر فـي أمـورهم مرعيـا في ذلك العصر. بل يُنسى السجين في كثير من الأحيـان حتـى يمـوت. ونسـي السـاقي عرض قضية يوسف على الملك، فاستمر سـجنه حـوالي سـبع سـنوات. وإذا كـان كـل أمر يحدث في الكون هو بقدر الله وحكمته، فـإن بقـاء يوسـف وتسـلط الشـيطان علـى الساقي حتى جعله ينسى يوسف الذي كان معجبـا بـه ومرجعـا لـه، عللـه كثيـر مـن المفسرين بأن يوسف علق آماله بنظر الملك في شـأنه، وكـان كمالـه يقتضـي أن يـدعو الله ويعلق آماله على استجابة دعائه. ولهـذا الكـلام وجـه مـن النظـر. ولكـن الـذي

ترجح عندي أن حياة السجن حياة ينقطع فيها الملهمون من البشر إلى التأمل، وينضج تفكيرهم نضجا يؤهلهم لتحمل مسؤوليات القيادة في الدولة. وقد كان النبي ﷺ قد حبب إليه الخلاء والانقطاع عن الناس، فأعده ذلك لقيادة الأمة سياسيا كما أسعده الوحي بقيادتها دينيا. وسوف يأتينا أن يوسف تولى تصريف خزائن مصر في سني العسر واليسر، وكان طول إقامته في السجن واختلاؤه بنفسه للتأمل أنضج قواه القيادية، ونجح فعلا في تسيير المهام التي أوكلت إليه بعد أن أخرج من السجن.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِى سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ

سمان : سمينة.

عجاف: جمع عجفاء، الشديدة الهزال.

الملأ : أعيان الناس وعلية القوم .

عبر الرؤيا : فسر ما تدل عليه، أبان إشاراتها ورموزها.

أضغاث : مفرده ضِغث، الحزمة من أخلاط النبات، وأعواد الشجر.

الأحلام : جمع حُلم ما يراه النائم.

بعد أمة : بعد زمن غير قصير.

الصديق : لقب لمن جمع صفات الكمال الخلقي والاستقامة.

أرجع إلى الناس : ارجع إلى الملك وأهل مجلسه.

دأبا: استمرارا على العادة.

شداد: جمع شديدة بسبب الجدب.

يأكلن : يُفْنِين

الإحصان: الادخار بالوضع في الحصن، مكان الادخار.

يغاث الناس : تنزل فيه الأمطار وينتشر الخصب.

يعصرون : تثمر أشجار العنب ما يعتصرون منه الخمور.

بيان المعنى الإجمالي :

رأى الملك رؤيا في منامه عرضها على حاشيته ورجال الدولة ليعبروها له. قال: إنه رأى سبع بقرات سمان يتسلط عليهن سبع بقرات هزيلة فيأكلنها. وسبع سنبلات خضر، وسبع سنبلات يابسة. فأشكل فهمها عليهم وقالوا: أحلام لا نسق بينها تراكمت واختلطت، ونحن جاهلون بتأويل الأحلام المعقدة المختلطة. وتنبه الساقي الذي نجا من العقاب فتذكر يوسف بعد سنوات، لما سمع ما دار بين الملك وعلية القوم. فتقدم للملك وقال: أنا أستطيع أن أخبركم بتأويل رؤياكم، فأذنوا بإرسالي .

أذن الملك بإرساله فتوجه إلى السجن، وبادر يوسف ﷺ بالتنويه بخلاله وكمالاته (أيها الصديق) وعرض عليه الرؤيا كما تحدث بها الملك، وأن الناس تحيروا في تأويلها، وينتظرون بيان ما فيها من غموض.

قال له يوسف: تقومون بزراعاتكم سبع سنين على ما هو معتادكم. وستكون سنوات خصب، لكن عليكم أن تقتصدوا في التمتع بما تنتجونه فيها، وأن تدخروا الزروع الفائضة عن القليل الذي تأكلونه في السنابل بدون دراس. ثم يتبع السنوات السبع هذه سنوات سبع شديدة قاحلة لا تنبت الأرض فيها شيئا؛ تأكلون فيها ما ادخرتم ولا يبقى إلا شيء قليل. ثم في السنة التالية للسبع يأتي عام خير وخصب فتنزل الأمطار ويجري الري في الأشجار فتعتصرون من ثمارها ما تعتصرونه في سني الخصب.

بيان المعنى العام :

43←45؛ وقال الملك إني أرى سبع.....فأرسلون.

بقي يوسف في السجن إلى أن أخذت بوادر الفرج تظهر إثر رؤيا رآها ملك مصر الذي هو أحد ملوك العمالقة في مصر السفلى، وليس من ملوك القبط الفراعنة. رأى في المنام رؤيا حيرته لتناقض مقوماتها. رأى أن سبع بقرات سمان قوية البنية، تتسلط عليهن سبع بقرات هزيلة ضعيفة البنية فيأكلنها، وسبع سنابل خضراء

وبجانبها سبع سنابل يابسة .وتوجه إلى حاشيته والمقـربين منـه وخاصـة الكهنـة الـذين كان لهم اختصاص في تعبير الرؤى، عارضا عليهم ما حيـره مـن رؤيـاه، طالبـا مـنهم أن يقدموا له تفسيرا لما رآه إن كان لهم علم بتعبير الرؤيا.

و تحير كبار القوم والكهنة من الحاشية الملكية في فهم مـا ترمـز إليـه هـذه المجموعـة المتناقضة، وكان جوابهم: هذه تراكمات من الأحـلام مختلطـة ومتداخلـة غيـر واضـحة ولم نجد ما يزيل الإشكال.

وهنا تنبه الساقي، وثار في نفسـه مـا نسـيه بعـد سـنين طويلـة وتـذكر يوسـف ﷺ وكيف أفتاهما في رؤياهما.وقد صدق تفسيره وتم فـي الواقـع مـا أخبـر بـه. وتوجـه إلى الملك مخاطبا له خطاب التعظيم: أستأذنكم في الـذهاب إلـى الشـخص الـذي ينبـئكم بتفسير رؤياكم.

أذن له الملك، فجرى نحو السجن، ودخله دون أن يعترضـه أحـد فهـو رسـول الملـك، وتمكن سريعا من الاتصال بيوسف ﷺ وخاطبـه بكـل أدب معبـرا عمـا عمـرت بـه نفسه من تقدير قائلا: يا يوسف، يا أيها الصـديق (الرجـل الكامـل فـي صـفاته، النقـي في سلوكه، الوفي للقيم العليا التـي يحملهـا) أزل عنـا الإشـكال فـي رؤيـا. وعـرض عليه ما رآه الملك بدون زيد ولا نقص. وأنهى كلامه بأنـه: بفضـل فتـواه سـيعود إلـى الملك وحاشيته فيزيل حيرتهم ويعلمون تأويل الرؤيا.

47←49: قال تزرعون سبع سنين دأبا...وفيه يعصرون.

بما علَّم الله يوسف مـن تأويـل الرؤيـا، وإزالـة الغمـوض المنسـحب عليهـا، عـرَّف الساقي السائل، بما يؤول إليه كل عنصر من عناصرها، فقال:

أولا: تزرعون سبع سـنين علـى العـادة التـي تسـيرون عليهـا فـي فلاحـة الأرض، وسيكون نتاج أرضكم وافرا. وتنبَّهُوا فإن عليكم أن تبقـوا مـا زاد علـى قـوتكم فـي كـل سنة مما تحصدونه في سنابله، وأن تقتصـدوا ولا تُبَـذِّروا، وعلـيكم أن تقتصـروا علـى الحد الأدنى لقوتكم في تلكم السنوات، وأن تدخروا الباقي.

ثانيا: سنوات الخصب ستُتبع بسبع سنوات يعم فيهـا الجـدب، تقسـو فيهـا الأرض علـى أهلها فلا نبات ولا زرع. يقتات النـاس ممـا ادخـروه فـي سـني الخصـب، ولا يبقـى بأيديكم إلا قليل مما تدخرونه .

ثالثا: بعد السنين الشداد القاحلة يأتي عام تتـابع فيـه الأمطـار ويعـم الخصـب ويجـري الماء في النبات والشجر. فتعصرون من أعناب الكـروم خمـورا، ومـن قصـب السـكر ما يجري بين أليافه، ومن بقية الفواكه ما كنتم تعتصرونه قبل الجفاف.

فتبين أن البقرات العجــاف اللاتـــي يـــأكلن البقـــرات الســـمان: البقـــرات الســـمان الســـبع المأكولة هي سبع سنوات من الخصـــب متواليـــات. والبقـــرات العجـــاف الهزيلـــة الآكلـــة: هي سنوات سبع يعم فيهـــا القحـــط ويأكـــل النـــاس مـــا ادخـــروه مـــن ســـني الخصـــب. والسنابل الخضر السبع: هي ما يحصلون عليه مـــن الـــزروع فـــي ســـنوات الخصـــب، والسنابل اليابسة هي السنابل المدخرة.

وقد جمعت فتواه بين بيان الغمـــوض، وبـــين التـــدبير الحكـــيم للتعامـــل مـــع المحاصـــيل الوافرة في سنوات الخصب السبع، من الاقتصاد وعـــدم التبـــذير، ومـــن ادخـــار الحصـــاد في السنابل حتى لا يسرع إليه السوس. وببين بيـــان أن ســـنة الله جـــرت علـــى أن يعقـــب العسر اليسر.

وَقَالَ ٱلۡمَلِكُ ٱئۡتُونِي بِهِۦۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعۡنَ أَيۡدِيَهُنَّۚ إِنَّ رَبِّي بِكَيۡدِهِنَّ عَلِيمٞ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطۡبُكُنَّ إِذۡ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفۡسِهِۦۚ قُلۡنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمۡنَا عَلَيۡهِ مِن سُوٓءٖۚ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡـَٰٔنَ حَصۡحَصَ ٱلۡحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخطب : الشأن الهام من حالة أو حادثة.

حاش لله : صيغة يراد منها المبالغة في النفي والتنزيه.

حصحص : ثبت واستقر.

بيان المعنى الإجمالي :

لما بَلَّغ الساقي تفسير يوسف عليه السلام للملك وحاشيته، أكبر علمه ورجاحة عقله وحسن تدبيره. فأمر بإخراجه من السجن وأن يحضر لديه. وتوجه رسول من القصر الملكي ليوسف حتى يقبله الملك. وامتنع يوسف من الخروج من السجن وقال للرسول: اذهب إلى الملك واطلب منه أن يسأل النسوة اللاتي حضرن مجلس امرأة العزيز وجرحن أيديهن ماذا علمن وما شاهدن ؟ إن ربي لا يخفى عليه شيء من كيدهن لي.

جمعهن الملك وسألهن عن الأمر الـــذي حصـــل عنـــد مـــراودتهن يوســـف عـــن نفســـه، فأجمعن على التنصل من اتهـــام يوســـف بريئـــة وأنـــه بـــريء. وكانـــت امـــرأة العزيـــز

حاضرة، فصرحت: الآن بان الحق وظهر؛ أنا تعلقـت بيوسـف وراودتـه ليتصـل بـي، وإنه لصادق فيما ذكره من براءته من مراودتي.

كان يوسف ﷺ يهدف مـن إحضـار النسـوة إلـى تحقيـق أمـرين: أن يثبـت بـراءة عرضه مما اتهم به، وأن يثبت يقينيا للعزيز أنه لم يخنـه فـي زوجتـه عنـد مغيبـه، لأن الله لا يساعد الخائنين بما يحجب الحقيقة إلى الأبد.

ثم توجه معلنا: أن ثباته على الطهارة هو تبع لما صـحبه مـن ألطـاف، وأنـه لا يـدعي أن نفسه نفس تسمو عن الضـعف البشـري، بـل كـل نفـس تنزلـق إلـى الإثـم إلا إذا رحمها الله وثبتها على الطهر والسمو. إن ربي غفور للمذنبين التائبين، رحيم بهم.

بيان المعنى العام :

50 -وقال الملك ائتوني به....إن ربي بكيدهن عليم.

رجع الساقي إلى الملك وحاشيته، ونقل إليهم نقلا أمينـا مـا سـمعه مـن يوسـف. فكـان لذكي تفسيره ولما أدمجه من التوجيهات فـي مقابلـة الخصـب والجـدب، وفـي طريـق خزن الزروع، وما أضافه من تعقيب السـنين الصـعبة بسـنة خصـب ووفـر خيـرات، كان لكل ذلك موقع التقدير لمواهب يوسف ﷺ عنـد الملـك، وقـال مـا محصـله: هـذا الرجل ينبغي أن يكون إلى جانبي يساعدني على تصـريف أمـور الدولـة، ائتـوني بـه.

وتوجه من القصر الملكي رسول الملك يـزف البشـرى ليوسـف: إن الملـك عفـا عنـك. فما كان موقف يوسف وقد تـولى الملـك بنفسـه الأمـر بإخراجـه مـن سـجنه وبعـث رسوله إليه؟ كان يوسف لما دخل السجن بريئـا عنـد الله، متهمـا بالخيانـة عنـد الـذين بلغهم خبره مع امرأة العزيز. فما كان منـه لحكمتـه وبـالغ صـبره إلا أن قـال للرسـول الذي كان يظن أن يوسف سيسرع بـالخروج معـه: ارجـع إلـى سـيدك الملـك (ربـك) فاسأله سؤالا يزيل الشبهة ويبرئني مما اتهمـت بـه. قـل لـه: يقـول لـك يوسـف: مـا حقيقة أمر النسوة اللاتي جرحن أيديهن في مجلس امـرأة العزيـز؟ إن ربـي الـذي أنـا مستمسك برعايته عليم بكيدهن. ولقائل أن يقول ما هـو كيـدهن؟ فـإن التـي كـادت لـه هي امرأة العزيز. واستشعر المفسرون هذا السؤال وأجـابوا عنـه بأجوبـة غيـر مقنعـة. والذي ترجح عندي: أن النسوة عذرن امرأة العزيـز فـي حبـه وعملهـا علـى وصـاله، وأن ما وقعن فيه من إعجاب بشمائل يوسـف يخفـي مشـاركتهن الرغبـة فـي سـقوط يوسف في حبال المضيفة، وما يمكن أن يتبعه مـن وصـالهن، فـأخفوا الحقيقـة وأيـدوها فيما اقترحته من سجنه، ومن شـأن الظـالم أن يتلهـف لوجـود مـن يبـرر لـه ظلمـه، فيمضي فيه.

51 –قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف....وإنه لمن الصادقين.

حمل الرسول رسالة يوسف إلى الملك، فـأمر بـدعوة الحاضـرات فـي ضـيافة امـرأة العزيز، وأتين إلى مجلس الملك، وألقى عليهن السـؤال التـالي: مـا هـي حقيقـة الأمـر الذي تم عندما راودتن يوسف عـن نفسـه، هـل استجاب للإغـراء ؟ وكـان جـوابهن واضحا نافيا للقالة التي تُحُدِّث بها فـي المجـالس. حـاش لله! نبـرأ إلـى الله مـن اتهـام يوسف، ما علمنا على يوسف خروجا عن العفة أو سقوطا في الرذيلة.

كانت امرأة العزيز حاضرة في مجلس الملـك فوقفـت معلنـة: فـي هـذه اللحظـة ثبـت الحق واستقر، وسقط كل ما كـذبت فيـه علـى يوسـف: أنـا فـي ضـعفي تعلقـت بـه فراودته عن نفسه طمعا في وصاله. وبصفة مؤكدة: هو على الحق من الصادقين.

52←53: ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب ... إن ربي غفور رحيم .

الذي أفهمه من الآيتين: أن يوسف ﷺ طلب إحضـار النسـوة اللاتـي حضـرن مجلـس امرأة العزيز لغرضين:

أولا: غرض رفع كل تهمة علقت به من قبل حتى يكون عرضـه نقيـا عنـد النـاس كمـا هو في الواقع، وبهذا لا يجد حساده مغمزا في سيرته ينفذون منه إلى الإيقاع به.

ثانيا: ليعلم عزيز مصر علما يقينيا أنني لم أخنه فـي غيبتـه، ولـم أعتـد علـى شـرفه، وأن الله سبحانه لا يؤيد ما يكيـد بـه الخـائنون لبلـوغ مقاصـدهم الخبيثـة إلـى مـا لا نهاية، بل يكشف أمرهم ولو طال الزمان.

و ختم كلامه متواضعا لله، مظهرا ضـعفه حتـى لا يفهـم منـه أنـه نجـا وعـف لقـوة إرادته. فقال: إني لا أدعي براءتي من المعصـية ونزاهـة نفسـي وبعـدي عمـا رميـت به لمزايا الذاتية، فإن كل نفس قد تنزل وتـنحط وتـأمر ملحـة صـاحبها بالإقبـال علـى الشهوة والخطيئة والإثم، وأن الذي يعصـم الإنسـان هـو رحمـة الله التـي تحـوط بـه فتفتح بصيرته، فتصفو سريرته، وينفر مـن الخطيئـة والإثـم. وفـوق ذلـك فـإن ربـي غفور لزلات التائبين رحيم بعباده الذين يتعلقون برحمته.

وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۚ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَأَجْرُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

أستخلصه لنفسي: أجعله خالصا لي لا يشاركني فيه أحد.

مكين : ذو مكانة ومرتبة عظيمة.

أمين : موثوق به لايخون.

يتبوأ : ينزل ويتصرف.

نصيب : نعطي عطاء الفضل.

بيان المعنى الإجمالي :

لمـا ظهـرت بـراءة يوسـف ﷺ وأدرك الملـك مسـتواه الرفيـع فـي العلـم والأدب والحكمة، أصدر أمره بان يخرجوه من السجن ويحضروه بمجلسه.

تحدث الملك إليه فكان ما سمعه منه ملأ نفسه إعجابـا بكمالاتـه وجمـع مـا اسـتقر فـي نفسه بقوله: إن لك المنزلة القوية في الدولة وإنك لأمين يطمـأن إليـك، فتـول مـا شـئت من أمور الدولة فأنا أثق فيك.

عرض يوسف على الملك أن يسند إليه الحفـاظ علـى أمـوال الدولـة ومـا تملكـه مـن الأرزاق، موجها طلبه بأنـه يحفـظ الأمـوال بحسـن التصـرف فيهـا وتثميرهـا، وأنـه يباشر عمله حسب القوانين العلمية التي لا مكـان فيهـا للعواطـف والارتجـال. وأعْطِـيَ ما طلب، فمكنه الله من أرض مصر ينتقل في أقاليمهـا يسـدد المسـيرة ويباشـر الأمـور من قرب، وتجري الأمور حسب إرشاده وتوجيهه.

إن الله يعطي موجبات رحمته لمن يشاء، ويـوفي للمحسـنين فـي سـلوكهم أجـرهم دون أن يضيع منه شيء. وفوق ذلك الأجر الذي أعده في الآخرة للمؤمنين المتقين

بيان المعنى العام :

54←55: وقال الملك ائتوني به أستخلصه ....حفيظ عليم.

لما أبلغ الرسول جواب يوسف وظهرت براءته تبعـا لمـا طلبـه مـن إظهـار الحقيقـة؛ عندها قال الملك: ائتوني بيوسف أجعله خالصا لنفسـي، يكـون مقربـا منـي، يسـاعدني على تسيير أمور الدولة، ولا يهتم بشيء آخر.

تحدث الملك مع يوسف، فزاد إعجابـا برجاحـة عقلـه، وحسـن منطقـه، وكمـال أدبـه، وعلو أخلاقه، ووجد فيه الرجل الذي يحـق أن يسـتعين بـه فـي تسـيير أمـور الدولـة، فعبر له عما تقتضيه هذه الثقة وذلكم الإعجاب بقولـه: إنـك اليـوم فـي مرتبـة رفيعـة، ثقتنا فيك تامة لأمانتك وسمو أخلاقك.

فهم يوسف من تصريح الملك: أنه يريد أن يستكفي به فـي بعـض المهـام، فقـال للملـك: ولِّني التصرف في خزائن الدولة. والـذي أفهمـه مـن ذلـك حسـب تعبيرنـا اليـوم أن يوليه وزارة المال بمـا يشـمل الأمـوال والمنتجـات الزراعيـة، يتصـرف فيهـا تنميـة وتوزيعا. وبرر طلبه هذا بأنه مؤهل لذلك لجمعه بين صفتين:

الأولى: قدرته المتميزة على حفظ الأمـوال بتثميرهـا وحسـن التصـرف فيهـا، وأمانتـه في إعطاء الناس حقوقهم وعدم ظلمهم.

ثانيا: مستواه المعرفي الذي يتصرف بـه فـي الأمـوال تصـرفا مسـتجيبا لمـا يقتضـيه العلم الكاشف عن الوجـوه الصـالحة للتصـرف فيـه، الـذي لا دخـل فيـه للعواطـف والمحسوبية والارتجال.

56←57: وكذلك مكنا ليوسف في الأرض...وكانوا يتقون.

وعلى هذا النحو من التأييد يسرنا ليوسف ما بلـغ بـه المكانـة العليـا فـي أرض مصـر. دخلت الأراضي والعاملون فيها تحت قيادتـه وتوجيهاتـه؛ ومـا نـزل فـي أي مكـان إلا كانت دواليب الاقتصاد تحت إمرته، بعد أن أحكم تنظيمهـا وربـط بينهـا، فقولـه تعـالى **(يتبوأ منها حيث يشاء)** تدل علـى أصـل عظـيم مـن أصـول النجـاح فـي التسـيير الاقتصادي، الذي هو إحكام التواصل بين الأقاليم.

وعطفت الآية بإبراز قاعـدة عقديـة أساسـية، أن الله يمكـن مَـن يشـاء مِـن موجبـات رحمته .ويتفضل بتوفير أجرهم على مـا أجـرى علـى أيـديهم مـن صـلاح وخيـر. وفوق ذلك، التكريمُ والثوابُ في الآخرة، ذلكم التكـريم الـذي يخـص بـه عبـاده الـذين صفت أرواحهم بالإيمان وصلحت أعمالهم بسلوك مسالك التقوى.

وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ۚ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

منكرون : جاهلون أتم الجهل أنه يوسف.

الجهاز : ما يحتاج إليه المسافر .

بضاعتهم : ما قدموه ثمنا للطعام.

رحالهم : جمع رحل وهو ما يوضع على البعير من متاع الراكب.

الانقلاب : الرجوع.

سنراود: سنحاول.

بيان المعنى الإجمالي :

أخذ يوسف ﷺ في تسيير المهام بحكمته، وأعقبت سنوات الجدب سنوات الخصب. ووقعت أسرته في ضيق، فجاء إخوته يرغبون في شراء الطعام. وأدرك يوسف لما رآهم أنهم إخوته بينما هم لم يتفطنوا أنه يوسف. وبعد أن سلم لهم ما اشتروه قال لهم: اصطحبوا في المرة القادمة أخاكم للأب، واعلموا أنه إذا لم يأت معكم فلا أبيع لكم شيئا من الحبوب، ولا أقبلكم. أجابوه بأنهم سيحاولون أباهم ليصطحبهم، وأنهم يبذلون قصارى جهدهم .ومن حكمته أن أذن عماله بأن يجعلوا ما قبضوه منهم في رحالهم، رجاء أن يعرفوها عندما يصلون إلى منازلهم، فيكون ما وجدوه من الأثمان الراجعة إليهم محرضا لهم على العودة لشراء الأقوات. ولا يحول الفقر بينهم وبين العودة إلى مصر.

بيان المعنى العام :

58←62: وجاء إخوة يوسف فدخلوا....إلى أهلهم لعلهم يرجعون.

استقر يوسف ﷺ مباشرًا لمهامه. وتتابعت السنون فجاء الخصب سبع سنين تصرف فيها بالحكمة حسب الخطة التي قدمها في تعبير الرؤيا. ثم توالت سنوات الجدب، وعمت أرض مصر وما جاورها من أرض فلسطين حيث منازل أبيه وإخوته. وأصاب يعقوب وبنيه وأهله ما أصاب المنطقة من الشدة .وطوى القرآن تفاصيل الأحداث التي تلت قيام يوسف ﷺ بمهامه، لأنها أحداث طبيعية لاعبرة خاصة فيها. ويتصورها التالي لكتاب الله كما يشاء دون أن يدخل خلل في العبر التي أحكمتها محطات القصة.

تناولت هذه الآية مبدأ ارتباط آخر القصة بأولها. فقد تتبع القرآن ما حدث ليوسف ﷺ بعد إلقائه في الجب إلى أن أصبح الرجل الأول في دولة الكنعانيين بمصر، ولم يتحدث عن أبيه وإخوته. ولكن من هذا الموقع عاد الارتباط بين يوسف وأسرته. ذلك أن الجدب الذي عم المنطقة كلها، وقد علم الناس أن الدولة قد استعدت لإسعاف الجياع بالأقوات. فوجه يعقوب بنيه بما عندهم من بضاعة يقدمونها ثمنا لما هم في حاجة إليه من الأقوات.

جاء إخوة يوسف إلى مركز بيع الأقوات، وقد كان يوسف يتولى مراقبة مركز البيع مراقبة حازمة ومتتابعة، فلما دخل إخوته لشراء ما هم في حاجة إليه، رمقهم يوسف وعرفهم، بينما استمر إخوته في ذهولهم عن تصور أن الذي يتحكم في أقوات المنطقة هو أخوهم. وطوى القرآن ما دار من حديث بين يوسف وإخوته، ويفهم من قوله أئتوني بأخ لكم من أبيكم، أنه ﷺ استدرجهم للحديث، ووصل بفضل لقانته من تحقيق ما أراده من محادثتهم دون أن يتفطنوا لمراده. ولما كانوا يريدون شراء طعام يكفي لأسرتهم فقد يكون أنه سألهم عن عدد أفرادها، وأعلموه أنهم إخوة أشقاء، ولهم أخ من أبيهم لم يصحبهم في سفرتهم. ولعل يوسف نظم توزيع الأقوات على عدد الرؤوس التي تتكون منها العائلة. فلما مكنهم من حصة أخيهم الذي لم يحضر معهم طلب منهم أن يحضروه في المرة القادمة، وأنهم إن لم يأتوا به معهم فلا يتوقعوا أن يحصلوا على شيء، بل إنه لا يسمح لهم بقربه ولا بتقديم أي عذر. ثم حركهم لقبول طلبه بأنه ملتزم في تسيير الأمور بالعدل والشفافية، ولفت أنظارهم إلى ما شاهدوه في ناحيتين: أولا: أنه يوفي الكيل ولا ينقص من حقوق المشترين شيئا، على أن الظرف تبعا لشدة الحاجة قد يجعلهم يقبلون بما يعطيهم ولو كان أحط من حقوقهم .وثانيا: أنه يستضيف المشترين ويكرمهم إكراما على خير الوجوه، فإذا قدموا مع أخيهم فإنه سيستضيفهم جميعا.

تيقنوا من جدية يوسف، وقالوا له: سنحاول أباه، بكل تأكيد، ليتركه يخرج معنا في المرة القادمة.

ثم إنه تبعا لشدة ذكائه، أمر الفتيان المشتغلين بعمليات البيع وقبض الأثمان تحت إمرته، أن يضعوا ما قبضوه من إخوته في رحالهم، وذلك، لعلهم إذا رجعوا إلى أبيهم وجدوا الأثمان التي دفعوها قد عادت إليهم، فلا يتخلفون عن العودة إلى الشراء من جديد، إذ كانت هيأتهم تدل على ما هم عليهم من الفقر والخصاصة.

فَلَمَّا رَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمۡ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَآ أَخَانَا نَكۡتَلۡ وَإِنَّا
لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ فَٱللَّهُ
خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُواْ مَتَٰعَهُمۡ وَجَدُواْ بِضَٰعَتَهُمۡ رُدَّتۡ
إِلَيۡهِمۡۖ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبۡغِيۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتۡ إِلَيۡنَاۖ وَنَمِيرُ أَهۡلَنَا وَنَحۡفَظُ أَخَانَا
وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖۖ ذَٰلِكَ كَيۡلٞ يَسِيرٞ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنۡ أُرۡسِلَهُۥ مَعَكُمۡ حَتَّىٰ تُؤۡتُونِ مَوۡثِقٗا

مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأۡتُنَّنِي بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمۡۖ فَلَمَّآ ءَاتَوۡهُ مَوۡثِقَهُمۡ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ
وَكِيلٞ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَٰبَنِيَّ لَا تَدۡخُلُواْ مِنۢ بَابٖ وَٰحِدٖ وَٱدۡخُلُواْ مِنۡ أَبۡوَٰبٖ مُّتَفَرِّقَةٖۖ وَمَآ أُغۡنِي
عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٍۖ إِنِ ٱلۡحُكۡمُ إِلَّا لِلَّهِۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَعَلَيۡهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ
ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الميرة : الطعام المجلوب.

موثق من الله: يمين، الله شاهد على ما التزموا به.

أن يحاط بكم : تكونون في مأزق لا حيلة لكم في الخروج منه.

وكيل : رقيب على تنفيذ ما التزمنا به.

لا أغني عنكم : لا أجزي ولا أدفع، فلا أكفيكم .

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآية تفصل المشهد الذي حصل إثر رجوعهم من عند يوسف. بادروا قبل أن ينزلوا رحالهم بعرضهم على أبيهم ما تم بينهم وبين العزيز الذي انتهى إلى حرمانهم من الطعام إن لم يصحبوا أخاهم وأنهم يرغبون في الإذن له بالسفر معهم ووعدوه بحفظه. وأجابهم بإشارة لاذعة، مذكرا لهم بما انتهى إليه حفظهم ليوسف، وإن حفظ الله له خير من حفظهم. ثم قاموا إلى رحالهم لإنزال الطعام الذي جلبوه، وكانت مفاجأتهم كبيرة، إذ وجدوا المتاع الذي قدموه ثمنا عاد إليهم. فكرروا طلبهم أن يصحبهم أخوهم نظرا لهذا المعطى الجديد. إذ ثمن الطعام حاضر. فلنذهب لنأتي بالميرة لأهلنا، ونرعى أخانا رعاية تضمن سلامته، وينال أخونا ما يعطيه العزيز لكل فرد، فنضيف ما يكال لبعيره، وتحصيلنا عليه أمر يسير لكرم العزيز. قال لهم أبوهم لا آذن له بالسفر معكم إلا إذا أقسمتم لي بالله موثّقين بذلك وعدكم من رجوعكم ببنيامين إلا إذا حال بينكم وبين البر بقسمكم موانع تفوق طاقتكم. وزادهم تأكيدا محذرا بأن الله هو الوكيل على ما عقدناه.

وأردف ناصحا لهم أن يتوزعوا عند دخولهم لمدينة العزيز، وأن يتفرقوا لينفذوا من عدة أبواب، حتى لا يلفتوا إليهم أنظار الحرس والقائمين على الأمن، مبينا لهم أنه لا يستطيع أن يدفع عنهم الأذى، فإن التصرف والتنفيذ هو بيد الله. على الله توكلي وعليه وحده سبحانه فليتوكل الصالحون المتوكلون.

بيان المعنى العام :

63←64، فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا....وهو أرحم الراحمين.

لما رجع إخوة يوسف إلى منازلهم دخلوا على أبـيهم وقصـوا عليـه مـا وقـع لهـم مـع عزيز مصر المتحكم في الأقـوات. والعقـدة الكبـرى أن العزيـز أخـذ قـراره: أنـه لا يمكنهم من الطعام فـي المسـتقبل ولا يتحـدث إلـيهم ولا يقبـل أي عـذر مـنهم، إلا إذا اصطحبوا أخاهم .وطلبوا من أبيه أن يأذن لهم في أخـذ أخـيهم معهـم حتـى يسـتطيعوا اشتراء الطعام وتسلم الكيل الذي يقابل الثمن الـذي يبذلونـه. وأكـدوا لـه أنهـم يقومـون بحفظه ويرعونه في سفرهم حق الرعاية.

كان جواب يعقوب دقيقا، فقال لهم : قدمتم أنكـم ترغبـون منـي أن أئتمـنكم عليـه، وأي ائتمان هذا ؟ هل هو كما ائتمنتكم من قبـل علـى أخيـه يوسـف ؟ يشـير إلـى التجربـة الأولى التي أعقبها ضياع فلذة كبده يوسف. وقالوا لـه: إنهـم سـيحفظونه، ثـم والـى إن حفظ الله خير من حفظكم. إن ربي أرحم الراحمين. قـد يشـير إلـى قسـوة قلـوبهم لمـا فرطوا في يوسف. وفي صيغة جوابه أنه يتوكل على الله فـي حفـظ ابنـه الـذي يتـولاه بأفضل مما يبذلون من الرعاية، مما يفهم منـه أنـه غيـر مصـمم علـى عـدم إرسـاله معهم. يبدو أن ذلك كان تبعا لحرج الموقف في الاختيار بـين منـع بنيـامين مـن السـفر معهم، وبين توقف استمرار حياة العائلة على ما يجلبونه من الطعام.

65←67، ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم...فليتوكل المتوكلون.

بعد أن بادروا بالحديث مع أبيهم عن سفرتهم ومـا حصـل فيهـا مـن قـرار حرمـانهم في المستقبل مـن الطعـام إن لـم يصـحبوا أخـاهم، رجعـوا إلـى رحـالهم فأنزلوهـا وفتحوها. ولَشَدَّ ما كانت دهشتهم إذ وجدوا البضاعة التي قـدموها ثمنـا لمـا اشـتروه قـد رجعت إليهم. فانحلت بذلك مشكلة ما يقدمونـه مـن ثمـن لمـا يشـترونه مـن أقـوات. فقالوا لأبيهم: يا أبانا انحلت المشكلة، هذه البضـاعة التـي كنـا دفعناهـا لعزيـز مصـر قد عادت إلينا، فلنسافر إلى مصر بها، ونصحب أخانا فـي سـفرنا، ونتـولى العنايـة بـه وحفظه من كل مكروه، ونضيف إلى ما أتينا به مـن الطعـام حمـل بعيـر آخـر؛ لعلهـم يقصدون أن عزيز مصر سيمكن أخاهم من حمل بعيـر مـن الطعـام، وذلـك حسـب مـا عرفوه من كرم العزيز، أمر يسير مظنون حصوله.

يبدو أنه قد اجتمع من الظـروف المسـاعدة مـا أثـر علـى يعقـوب عليه السلام تـأثيرا جعلـه يسمح بخروج بنيامين أخي يوسف معهم في رحلتهم إلـى مصـر. ولكـن اشـترط علـيهم أن يحلفوا له يمينا مؤكدة يشهدون الله فيها على أنفسـهم، توثـق التـزامهم بـأن يحـافظوا

على أخيهم من تاريخ خروجه معهم حتــى يعــودوا بــه إلــى أبيــه ســالما. ولمــا كــان المستقبل مجهولا، وما يحصل فيــه مــن المعوقــات لا يعلمهــا إلا الله، حللهــم مــن هــذا الالتزام إذا وجدوا في أنفسهم في مأزق يحول بيــنهم وبــين الوفــاء بــالتزامهم لا يجــدون حيلة ولا قدرة لهم على الخروج منــه. وأقســموا لأبــيهم هــذا القســم المغلــظ، ثــم زاده تأكيدا بقوله: إن الله رقيب عليكم في تنفيذكم ما التزمتم بــه، كأنــه يشــير إلــى مــا بقــي في نفسه من الشك فيما ادعوه من عدوان الذئب على يوسف.

وأوصاهم وصية استندت إلى تجربتــه الطويلــة، فقــال لهــم: إذا دخلــتم مدينــة العزيــز فتوزعوا على أبوابها ولا تدخلوا من باب واحد: ووجه بعضــهم ذلــك علــى أنــه حمايــة لهم من أن تصيبهم عين حاسدة، إذ قافلة من أحد عشــر رجــلا أخــوة، تتشــابه قســماتهم، وهم على حظ من الجمال والمهابــة، قــد يثيــر بعــض النــاظرين الــذين ينقــدح مــن عيونهم ما يضر المنظور إلــيهم. فحمايــة لهــم مــن ضــرر العــين أوصــاهم بالــدخول مفرقين من أبواب عديدة. ووجهه آخرون مــن أن دخــولهم مجتمعــين قــد يثيــر الريبــة في الحرس القائمين على الأمن، فربمــا ضــيقوا علــيهم أو أوقفــوهم للتحقــق مــنهم إذا دخلوا مجتمعين، ولا يثيرون الشبهة إذا توزعوا على أبواب المدينة.

ثم عرفهم أن العمل بوصيته لا تــرد قضــاء مبرمــا قــدره الله وتعلقــت إرادتــه بتنفيــذه. ذلك أن الحكم الذي ينفذ في النهاية ويقــع فــي الوجــود هــو مــا حكــم بــه الله فتعلقــت إرادته بإنجازه. فمجموع كلامه يهــدف إلــى تقريــر تصــوره لمــا يحــدث فــي الكــون ومسؤولية الإنسان فيه. فالإنسان مطالب بأخذ الأسباب وهــو محاســب علــى ذلــك، وأمــا تحقيق ما قصده مما تكون العادة تحققه فليس ذلك بواجــب، بــل المــتحكم فــي الحــوادث هو المنظم لهذا العالم الله رب العالمين، فكم مــن مجتهــد بــذل عنايتــه وأخــذ بالأســباب، ولم يصل إلى مبتغاه. يوضــحه أن الأســباب المنتجــة للمقصــود ليســت كلهــا خاضــعة لإرادة الإنسان وسعيه، بــل قــد تكــون أســباب أخــرى للنجــاح خفيــت عــن العامــل. وقدراته الفكرية لا تبلــغ الإحاطــة بجميــع المــؤثرات ولا الــتحكم فيهــا. وهــو معنــى التوكل على الله الذي أخبر بنيه بأنــه ملتــزم بــه، وأنــه المــنهج الصــائب الــذي عليــه الصالحون من البشر؛ عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون.

وَلَمَّا دَخَلُواْ مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَىٰهَا ۚ وَإِنَّهُۥ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَٰهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا

تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ
أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا
تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ
﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا
جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَٰلِكَ
نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَاءِ
أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ
دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

ما كان يغني عنهم من الله من شيء : ماكان يستطيع أن يرد عنهم القضاء.

قضاها :قام بها.

آوى أخاه : قرب إليه أخاه.

فلا تبتئس : لا تهتم، و ابتهج.

السقاية : إناء كبير يسقى به الماء والخمر.

الصواع : الصاع وعاء مضبوط للكيل.

التأذين : النداء المكرر.

العير :المجموع من المركوبات وأحمالها وأصحابها.

أوعيتهم : جمع وعاء وهو الظرف الحاوي للشيء.

الكيد : فعل يتوصل بظاهره إلى أمر آخر خفي.

بيان المعنى الإجمالي :

سافر أبناء يعقوب ومعهم أخوهم الصغير إلى مصر للميرة، ونفّذوا وصية أبيهم فتفرقوا على أبواب المدينة عند دخولها. وما كان يعقوب بوصيته تلك يرد عنهم ما سبق به القضاء، ولكنه أراد أن يعلمهم أن يأخذوا بالأسباب التي هي في مقدورهم، وهو الحزم، ومع ذلك أن يحسنوا التوكل على الله. وهذا التأديب هو عمل بما استقر في نفسه من علم علّمه الله إياه، وقام به، ولكن أكثر الناس لا يعلمون الجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب .

ولما دخلوا على يوسف تلطف فقرب أخاه منه، وسارّه بأنسه أخـوه يوسـف الـذي أشـاع إخوته عنه أنه أكله الذئب. وأوصاه أن يغسل ما في صـدره مـن حـزن علـى مـا كـان إخوته يقترفونه من تجاوزات .

مكنهم من الطعام الذي جاءوا لشرائه، وبمجـرد مـا حزمـوا أمتعـتهم وهمـوا بالسـفر، صاح بهم أحد أتباع العزيز: أيتها القافلة قفوا إنكم سارقون.

ولشد ما كانت دهشتهم برميهم بهـذه التهمـة؛ فسـألوا المنـادي مـا ذا فقـدتم ؟ أجـابهم فقدنا المعيار الذي كنا نكيل به الطعام، وهو صواع الملـك (السـقاية) الـذي يشـرب منـه الماء والخمر، واعلموا أني ضامن لمن يأتي به ما يمكـن أن يحملـه بعيـر مـن الطعـام. فأقسم أبناء يعقوب: تالله، كما علمتم من حالتنا وسلوكنا، مـا جئنـا لنرتكـب مـا يوجـب قلاقل في أرض مصر. وإننا لأبعد الناس عن السرقة.

أجابهم الصائح ملزما لهم: ما هم حكمكم علـى السـارق عنـدما نكتشـفه ؟ ولثقـتهم فـي براءتهم قالوا يسترقه العزيـز جـزاء مـا اقتـرف. لأنـه ظـالم والظـالم يسـتحق هـذا الجزاء. أوحى يوسف للمفتش أن يبدأ بأوعية الإخـوة قبـل وعـاء بنيـامين، تـم الأمـر وفي النهاية وجدوا السقاية في متاع بنيامين. ونفذ الحكـم فيـه الـذي رضـوا بـه مقـدما، فأصبح رقيقا عند يوسف. وتم ذلك، بعون مـن الله، فحقـق يوسـف مـا رتـب لـه مـن الحيلة لضم أخيه لنفسه، وليتابع الخطوات التاليـة لجمـع الشـمل. إذ لـولا ذلـك التـدبير وإسراع إخوته بالحكم ما كان يوسف يستطيع أن يسـترق أخـاه حسـب القـانون الملكـي في مصر. على معنى أن السارق لا يسترق في القانون المصري في ذلك الوقت.

والله يرفع في مقامات السمو من يشاء مـن عبـاده فرفـع يوسـف إلـى مقامـات العـز وتحقيق ما يريد.

وكان ما بلغ به يوسف غايته هو اتباع منهجية علمية وصـلت بـه إلـى النجـاح. ومـن سنن الله التي بنى عليها الكون أن العلم لا يقف عند حد ففـوق كـل مَرْتَبَـةٍ مَرْتَبَـةٌ أعلـى تدعو الإنسان لمواصلة البحث والاجتهاد حسـب منهجيـة منتجـة. وبـالطبع فكـل عـالم يوجد من هو أعلم منه في الحاضر أو في المستقبل.

بيان المعنى العام :

68- ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم...أكثر الناس لا يعلمون.

تجهز إخوة يوسف للسفر إلى مصر وصحبوا أخاهم فـي سـفرهم. ولمـا بلغـوا المدينـة المصرية طبقوا ما أوصاهم به أبـوهم يعقـوب، فتوزعـوا فـي الـدخول بـين أبوابهـا. وما كانت وصية يعقوب لهم لتبعد عـنهم جميـع الأخطـار، ولكـن عطفـه علـى أولاده

حمله على النصح لهم، فقام تحت داعية حنـــان الأبـــوة، وبموجـــب مـــا اختزنـــه الله فـــي قلبه من حكمة، فأبلغهم ما هو خير لهـــم. ونـــوه القـــرآن بيعقـــوب ﷺ: إنـــه علـــى حـــظ كبير من النفاذ إلى غايـــات العلـــم الـــذي علمـــه الله، فهـــو قـــد علَّـــم أولاده أن لايهملـــوا الأسباب الواقية من المصائب، وعلمهـــم أيضـــا أن ذلـــك لا يضـــمن لهـــم الســـلامة مائـــة بالمائة، فليحسنوا التوكل علـــى ربهـــم. ولكـــن أكثـــر النـــاس لا يعلمـــون هـــذه الحكمـــة العزيزة من الجمع بين التوكل والأخذ بالأسباب .

69 –و لما دخلوا على يوسف آوى.... بما كانوا يعملون.

بعد أن وصلوا إلى المدينة توجهوا إلى مجلس العزيـــز فـــدخلوا عليـــه. لاحـــظ يوســـف أن ما دبره قد حقق غايته. فها هو أخوه بنيـــامين معهـــم أمامـــه، فتلطـــف حتـــى قربـــه منـــه وأسرَّ له: إني أنا أخوك يوسف، فأزل مـــا كنـــت تجـــده مـــن كـــدر علـــى مـــوتي، ومـــن حزن على ما كانوا يعملون تبعا للغيرة مني ومنك، وَابْتَهِجْ بتلاقينا.

70← 76: فلما جهزهم بجهازهم ...وفوق كل ذي علم عليم.

أذن يوسف ﷺ العمال المكلفين بتسليم الأقـــوات للمشـــترين، وأمـــر مـــن يثـــق بكتمانـــه السر أن يجعل السقاية، التي كانت وسيلة الكيل، فـــي متـــاع أخيـــه بنيـــامين. وتســـلم كـــل واحد من أبناء يعقوب نصيبه، واستعدوا لمغـــادرة المكـــان للســـفر. وبينمـــا هـــم يقيمـــون رواحلهم لينطلقوا إلى أبيهم، أخذ أحد عمـــال العزيـــز ينـــادي مكـــررا: قفـــوا ! يـــا أيتهـــا القافلة إنكم سارقون.

وقفوا مشدوهين سائلين ما ذا فقـــدتم وعمّـــاذا تبحثـــون؟ كـــان الجـــواب واضـــحا فقـــدنا صواع الملك، ونضمن لكم أن من أتانـــا بـــه نجازيـــه بمـــا يحملـــه بعيـــر مـــن الطعـــام. وصواع الملك هو السقاية التي كـــان يشـــرب منهـــا الخمـــر والمـــاء، واتخـــذت علـــى أن تكون معيارا معلوما للكيل يوفى به كل مشـــتر حقـــه. ولا شـــك أن الملـــك لا يشـــرب إلا من سقاية ثمينة. ولذا عرضوا جزاء من يأتي بها حمل بعير.

كانوا متحققين من براءتهم فقالوا: تالله، والتاء الداخلـــة علـــى اســـم الجلالـــة هـــي كـــالواو فهي وزان والله، تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فـــي الأرض، ومـــا كنـــا ســـارقين. أقســـموا على براءتهم أنهم جاؤوا للميرة لا لينشـــروا الفســـاد فـــي أرض مصـــر، أي إننـــا لســـنا عصابة سوء تقوم بما يترتب عنه فساد في المجتمع، فـــإن ضـــياع صـــواع الملـــك يتبعـــه قطعا تفتيش عام واتهام الأبريـــاء، واضـــطراب يزعـــزع الاســـتقرار، وأيضـــا فبالتحديـــد نحن أبعد الناس عن السرقة وسفالتها. وأسندوا براءتهم إلـــى علـــم أتبـــاع العزيـــز بـــذلك. وفرض المفسرون فروضا تكشف عـــن مصـــدر علمهـــم ببـــراءتهم واســـتقامتهم، فقـــالوا:

إنهم لما قدموا للميرة في المرة الثانيــة أخبــروا: أنهــم وجــدوا بضــاعتهم فــي رحــالهم فكان ذلك شاهد صدق على تورعهم عن مــال الغيــر، كمــا فرضــوا أنهــم اتهمــوا فــي المرة الأولى بالجوسسة وظهرت بــراءتهم. وهــي فــروض لا يقــوم عليهــا دليــل مــن قريب أو من بعيد من النص القرآني. ولذلك فإن الــذي تــرجح عنــدي: أنــه نــوع مــن الإلزام الخطابي لنفي التهمة، مستند إلى ما شــاهدوه مــنهم فــي التعامــل وفــي السـلوك العام من خلق رفيع وأدب ربوا عليه في بيت النبوة.

وأمام هذا الجواب الحاسم ألزمهم المكلفون بالبحث عن الصواع بأن يصدروا حكمهم على من وجد عنده الصواع حتى لا يتنصلوا من العقوبة لو وجدوه عند أحدهم .

وتحقق ليوسف المرحلة الثانية من تدبيره بحكمهم: أن مــن وُجِــد الصــواع فــي رحلــه يصبح عبدا رقيقا للعزيز جزاء ما قام به، وعللوا حكمهم ورضــاهم بــه بــأن مــن أخفــى الصواع عنده مُتَعَدٍّ ظالم، وعلى هذا النحو ينبغي أن يجزى الظالمون.

ثم بدأ التفتيش، فكان من حبك ما قصده يوســف أن أوحــى لعمالــه بــأن يبــدؤوا بتفتــيش أمتعة الإخوة ويتركوا أمتعة بنيامين إلى الآخر، وكلما أتمــوا الكشــف عــن متــاع أحــدهم برأوا صاحبه، وفي النهاية استخرجوا الصواع من وعاء بنيامين.

و نفذ الحكم فيه فأخذ على أنه عبد من عبيد العزيز.

و يعلق القرآن على ما انتهى إليــه الأمــر: إن الله يســر ليوســف الأســباب كلهــا التــي بلغت بتدبيره غايته التي كان يرمي إليها. فقــد جمــع الله بينــه وبــين أخيــه جمعــا كــان بحكم إخوته الذين قصدوا أن يبالغوا في الدلالة علــى بــراءتهم مــن تهمــة الســرقة.ولولا ما حكموا به ما كان يوسـف ليــتمكن مــن أخــذ أخيــه، لأن شــريعة ملــك مصــر: أن العقوبة التي تنزل بالسارق لا تصل إلى حد استرقاقه.

و الخاتمة: أن الله هو الرافع الخافض، فمــن أراد أن يســمو بــه ويحقــق لــه مــا يريــد، ييسر له الأسباب التي تبلغه المقام الرفيع. وإن العلم الــذي هــو أســاس النجــاح والرفعــة هو بالنسبة للعلــم البشــري تطــور متتــابع، كلمــا حقــق البشــر مســتوى فتحــت لهــم منجزاتهم أبوابا للسمو إلى ما هو أرفع، فعلــى البشــرية أن تواصــل البحــث والاجتهــاد ليكون كل كشف وراءه كشف أسمى منه. ومن ناحية أخــرى فــلا يظــن أحــد أنــه بلــغ القمة من العلم. ففوق كل مستوى لعالم مستوى أرفــع مكــن الله منــه أحــد معاصــريه أو سيمكن غيره من ذلكم المستوى الأرفع في المستقبل.

۞ قَالُوٓاْ إِن يَسۡرِقۡ فَقَدۡ سَرَقَ أَخٞ لَّهُۥ مِن قَبۡلُۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفۡسِهِۦ وَلَمۡ يُبۡدِهَا لَهُمۡۚ
قَالَ أَنتُمۡ شَرّٞ مَّكَانٗاۖ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبٗا
شَيۡخٗا كَبِيرٗا فَخُذۡ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن
نَّأۡخُذَ إِلَّا مَن وَجَدۡنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّظَٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا ٱسۡتَيۡـَٔسُواْ مِنۡهُ
خَلَصُواْ نَجِيّٗاۖ قَالَ كَبِيرُهُمۡ أَلَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ أَبَاكُمۡ قَدۡ أَخَذَ عَلَيۡكُم مَّوۡثِقٗا مِّنَ ٱللَّهِ
وَمِن قَبۡلُ مَا فَرَّطتُمۡ فِي يُوسُفَۖ فَلَنۡ أَبۡرَحَ ٱلۡأَرۡضَ حَتَّىٰ يَأۡذَنَ لِيٓ أَبِيٓ أَوۡ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ لِيۖ وَهُوَ
خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرۡجِعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيكُمۡ فَقُولُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبۡنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدۡنَآ إِلَّا
بِمَا عَلِمۡنَا وَمَا كُنَّا لِلۡغَيۡبِ حَٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ
أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾

بيان معنى الألفاظ :

أسرها : أخفى الكلام في نفسه.

شر مكانا : حالتكم شرمن بنيامين وأخيه.

مكانه : عوضه.

معاذ الله: نلجأ إلى الله أن يحمينا من الأخذ بعَرْضِكُمْ.

استيأسوا : يئسوا يأسا قويا.

خلصوا: انفردوا.

نجيا: يتحدثون سرا فيما بينهم.

يحكم الله لي : يقدر لي ما ينفعني.

للغيب : للأمور المغيبة عنا عالمين.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن ظهرت الفضيحة، وأن أحدهم كان سارقا ونفذ فيه الحكم بالاسترقاق، قالوا، رغبة منهم في تخفيف شيء من العار الذي لصق بهم: إن يسرق بنيامين فقد سرق أخوه من قبل، كأنهم يلصقون المعرة بأخويهما من الأب يوسف وبنيامين، أما هم فهم أشرف من أن يسرقوا. قالوا هذا بدافع الكراهية المتولدة عن الغيرة من يوسف وأخيه، فوجدوا مدخلا لينفسوا عما تضطرب به عاطفة المقت لأخويهم. ولا يقتضي ذلك أن يكون ما رموا به يوسف من السرقة أمرا واقعا حتى يبحث له عن مخرج.

كان كلامهم هذا بمحضر يوسف وبمسمع منه. تحمــل يوســف هــذه الإذايــة لــه ولأخيــه ولم يظهر غضبه من مقالتهم، وقال في نفســه: أنــتم أســوأ حــالا وأحــط مــن مســتوانا. والله أعلم بما وصفتم من كذب وافتراء أو من صــدق. يشــير إلــى كــذبهم عنــه وعــدم إدراكهم لحقيقة الأمر بالنسبة لبنيامين. هــذا العلــم الحــق هــو عنــد الله الــذي لا يغيــب عنه شيء ولا تلتبس عليه الأمور.

بيان المعنى العام :

78←80: قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا.... وهو خير الحاكمين.

بعد أن تم استرقاق بنيامين عند يوسف، استشــعر إخوتــه قــوة الصــدمة التــي ســتنزل على أبيهم عند علمه بالخبر. فحاولوا إنقــاذ بنيــامين وتوســلوا ليوســف أن يمكــنهم منــه وأن يعوضوه بأحد منهم يكون رقيقا بدله. وتوسلوا لذلك: بأن أبــاه مــا يــزال حيــا وهــذا أصغر أولاده فرقته عليه وحنانه يتبعهما قوة أسفه الذي ربما يضــر بــه، وهــو مــع ذلــك هو شيخ، وتقدمه في السن يضاعف من رقة عواطفه، وثالثــا هــو كبيــر إمــا بمعنــى أن شيخوخته في مراحلها المتأخرة فضعفه أشد، أو علــى معنــى أنــه كبيــر قومــه، ومــن شأن العلاقات الدولية أن تقع فيها مراعاة الكبراء مراعاة خاصة.

كما توسلوا له، بأنه حسبما شاهدوه من معاملتــه للنــاس ومــن كمــال خلقــه، أنــه مــن القوم المحسنين الذين هم أبعد ما يكون عن الشدة والصرامة الحديدية.

كان جواب يوسف حاسما: ابتدأه بأنه يتحصن بالله ويلتجــئ إليــه مــن أن يأخــذ البــريء بذنب المجرم، وأن يطلق السارق الذي وجد الصواع فــي حوزتــه، ويســترق مــن ثبتــت براءته بعد التفتيش. إن ما يلتمسونه ظلم، وأنه ما كان من الظالمين.

81←82 : ارجعوا إلى أبيكم فقولوا...وإنا لصادقون.

يئسوا من التأثير على يوسف، وأيقنوا أنه لا فكاك لأخــيهم مــن يــده، وأنهــم ســيواجهون والدهم بالكارثة التي حصلت ؛ فانفردوا فــي مكــان يــدبرون الأمــر ويقلبــون الوجــوه في المرحلة القادمة. سجل القرآن مــا قالــه كبيــرهم: ذكَّــرهم بالميثــاق الغلــيظ المؤكــد برقابة الله عليه الذي أخذه أبــوهم علــيهم، كمــا ذكــرهم بــأنهم آذوه أشــد الإذايــة فــي يوسف. وأضاف، لذا فإني قررت أن أبقى فــي مصــر ولا أعــود معكــم، فــإني اســتحي من مقابلة والدي في هذا الوضع الذي حرم فيه مــن ابنيــه الصــغيرين علــى شــدة حبــه لهما وعطفه عليهما، أو أن يتحقق فيَّ قضــاء الله وحكمــه ممــا هــو مخبــوء فــي قــدره سبحانه. وإني راض بما يحكم به الله علي، فإنــه ســبحانه عــادل لا يظلــم، ولا يســتطيع أحد أن ينقض حكمه.

ارجعوا وحدكم، واعرضوا عليه ما وقع عرضـــا أمينـــا، قولـــوا لـــه: يـــا أبانـــا إن ابنـــك سرق، وهذه الشهادة بسرقته مستندة إلى علمنـــا الـــذي شـــاهدناه مشـــاهدة لا ريـــب فيهـــا. وما كنا مطلعين على الغيب، حافظين لما سيقع عند ذهابنا بأخينا للميرة.

ثم لقنهم أخوهم هذا أن يقولوا لأبـــيهم : لتحقـــق ممـــا قلنـــاه لـــك، فاســـأل أهـــل القريـــة المصرية التي شاع فيها خبر ضياع السقاية ووجودها عنـــد بنيـــامين، فـــإن الخبـــر تناقلـــه العموم حتى أصبح معروفا عند الجميع. وأقرب مـــن ذلـــك اســـأل رفاقنـــا الـــذين جـــاءوا معنا من مصر وسمعوا وشهدوا ما أخبرناك به.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَٰبَنِيَّ ٱذْهَبُواْ فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾

بيان معاني الألفاظ :

سولت: زينت وسهلت.

صبر جميل: صبر لا شكوى معه إلى بشر، ولا ضجر من قضاء الله.

كظيم: يكتم حزنه في نفسه ولا ينفسه بالشكوى للناس.

تفتأ: تفتر .

حرضا: شدة المرض المقرب من الهلاك.

بثي: همي الشديد.

التحسس: شدة التطلب للتمكن من المعرفة.

روح : الرحمة وكشف الكرب.

بيان المعنى الاجمالي :

كان رد يعقوب على الرواية التي قدموها له حسبما أشار عليهم كبيرهم، أن قال: زيَّنَتْ لكـــم أنفسكم حرماني من ابني الذي أمنتكم عليه، فأمري هو الصبر الذي لا أشكو معه حزني لأحد ولا أيأس من رحمة الله. فإني أرجو أن يأتيني الله بأبنائي، إنـــه العلـــيم بحـــالي وأحـــوالهم، المصرف للأمور بحكمته فيردهم علي في الوقت الذي قدره وقضاه.

ثم انصرف عنهم قائلا: يا أسفى على يوسف، وأقـام علــى الحــزن يعتصـر قلبــه حتــى أثر في قواه فابيضت عيناه من ذلك، إنه يختزن في قلبه من الحزن أقساه.

استمر على ذلكم الوضع حتى خشي عليه أبنــاؤه، رجـوه أن يـرأف بنفســه، وقــالوا لــه إنك تواصل تذكرك ليوسف حتى وصلت إلى هذه الحــال، وسيصــل بــك الأمــر إلــى أن تبلغ من الهزال ما به تنهد قواك، فتنقلب مريضــا لا تقــوى علــى شــيء وربمــا يصــل بك الأمر إلى الموت.

أجابهم: إني أشكو همي المقيم وحزني على ما ذهب مني إلــى ربــي، وإنــي لغنــي عــن نصحكم فإني أعلم من الله علما مستواكم بعيد عن إدراكه.

ثم إنه بعد مدة أشار إليهم إشارة مما استقر فــي يقينــه مــن الإلهامــات الإلهيــة، فطلـب منهم بكل حنان أن يسافروا إلى مصــر وأن يبــذلوا جهــدهم لتتبــع كــل المســالك التــي تمكنهم من التعرف على وضع يوســف وأخيــه وأن لا يكونــوا يائســين مــن رحمــة الله في كشف الكرب كما هو مقتضى الإيمــان، فــإن اليــأس لا يلــف بحجابــه إلــى علــى قلوب القوم الكافرين.

بيان المعنى العام :

83←84: قال بل سولت لكم أنفسكم ....فهو كظيم.

رجعوا إلى أبيهم بعد أن استقر رأيهم فــي معالجــة المشــكلة عنــد أبــيهم علــى الــرأي الذي قدمه كبيرهم. وأعلموه بما تــم فــي ســفرتهم وأن ابنــه بنيــامين بقــي عبــدا عنــد عزيز مصر، وأن ابنه الأكبر عزم على البقاء فــي مصــر غريبــا لا يبرحهــا إلا أذنــتَ له، أو حدث ظهور قضاء من الله يخصه.

لقد ذهبت ثقة يعقوب فيما يقدمه له أولاده من روايات بعد الصورة التي قدموها له عن أكــل الذئب ليوسف، وقد بقي يجد في باطنه، بنوع من إحساس الملهمين، أن يوسف حــي. ولهــذا هو لم يصدقهم في هذه كما لم يصدقهم في المرة الماضية. فــواجههم بعــدم اطمئنانــه لمــا يقولونه؛ وقال لهم: لقد زينت لكم أنفسكم تغييب بنيامين عني، فأنا أتدرع بالصــبر الــذي لا أشكو فيه مصيبتي لأحد، ولا أعترض على قضاء الله. ورجائي فــي الألطــاف الإلهيــة أن تشملني فترد علي أبنائي الثلاثة: يوسف وبنيامين والابن الأكبر. وأكد رجاءه بأنه متعلق بــالله الذي لا يخفى عليه حاله كما قال أحد الصالحين في ابتهالاته: علمــه بحــالي يغنينــي عــن سؤالي. وهو الحكيم الذي يرتب الأمور ترتيبا دقيقا.

ثم انصرف عنهم بعد هذه الكلمــات التــي تمثــل يقــين الأنبيــاء وأدبهــم فــي مواجهــة المشاكل التي تخصهم، وسعة رجائهم فيما عنــد الله. وقــام الحــزن فــي نفســه يعتصــر

قلبه وأحاسيسه، ويجدد له ذكرى ولديه اللذين فقدهما، وخاصة يوسف الذي كان فقده أشد عليه لسببين: أحدهما أنه قُدِّمَ فَقْدُهُ على أنه مات وأكله الذئب، وإن كان يشك في هذه الرواية، وثانيهما أن يوسف ملأ عليه حياته لما جمع الله فيه من كمالات خِلْقِية وخُلُقيّة، ولذا سجل القرآن ذكره لأساه وأسفه على فقد يوسف(**يا أسفى على يوسف**)، لتلك الاعتبارات لا على أنه غير حزين على فقده للآخرَيْن. كان فقدهم يتجدد في كل لحظة، وكان يختزن أساه في نفسه حتى أثر ذلك في أعصابه البصرية فابيضت عيناه. ويمكن حمل بياض عينيه على العمى: أي عمي، ويمكن أن يفهم على أنه ضعف بصره حتى تغير لونهما إلى ما يقارب البياض. ونوه الله بصبره وعدم شكواه فقال إن يعقوب كظيم لحزنه يتفاعل في باطنه ويتأثر به قواه الفكرية والعاطفية، ولا يظهره للناس.

85←87، قالوا تالله تفتأ تذكر يوسف...إلا القوم الكافرون.

لزم يعقوب عزلته ومتابعة تفكيره في أبنائه المفقودين، ووهنت قواه وخشي عليه أولاده فقالوا له إشفاقا عليه: قسما بالله إنك لا تنقطع عن تجديد حادثة فقدك ليوسف حتى يفضي بك حزنك المقيم هذا، إما إلى المرض الشديد أو إلى الموت. أجابهم: بأني متعلق بالله، أشكو إليه وحده لا إلى غيره، أشكو إليه بثي أي همي الشديد، وتواصل تفكيري في أبنائي وحزني المقيم على ما فات عني منهم. وأشار إليهم إشارة لطيفة بأن قربي من الله يفتح علي سبحانه أحاسيس تقصر عقولكم عن إدراكها. ويبلغ ذلك أن يستقر في يقيني علم لا تعلمونه ولا يمكنكم الوصول إليه. مرَّ زمان غير قليل على يعقوب وهو على هذه الحال من الانصراف عن الناس، وما ابيضت عيناه من الحزن في أيام قليلة، وما بلغ ما بلغ بأبنائه من الإشفاق عليه إلا وقد طال انعزاله وطغيان الهم والحزن عليه.

ثم كاشفهم ببعض ما هو حاصل في نفسه: من أن يوسف لم يمت وأنه سيعود إليه، فقال لهم: يا بني، نداء فيه شفقة وحنان يحرضهم على تنفيذه، اذهبوا إلى مصر وابذلوا جهدكم في تتبع كل ما يمكن أن يوصلكم لمعرفة وضع يوسف وأخيه، تحسسوا، كأن المتتبع يعمل على أن يحس بكل خصائص ما يلمسه، فيهتدي مثلا إذا انغرست شوكة صغيرة إلى مكانها. وربط هذا التوجيه بأن يكونوا واثقين من النجاح، وهذا دواء نفسي، ذلك أن الآمل يواصل طريقه ويتابع بحثه، بخلاف اليائس من المنطلق أن يفتر عن المتابعة. فأرشدهم إلى أن يكونوا متفائلين غير يائسين، فإن من حرم الإيمان هو الذي تنسد الأبواب أمام ناظره، ولا يتوقع كشف كربه

فيحرم الأمل ويستولي عليه اليأس. إن المؤمن ينتظر الفرج من الله في أشد الظروف وأبلغها قسوة. وإنه وإن طال أمد غياب يوسف، فإن الله إذا شاء تفريج كربة هيأ لذلك الأسباب فتنفرج.

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ (88) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ (89) قَالُوا أَإِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (90) قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ (91) قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (92) اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (93)

بيان معاني الألفاظ :

مسنا الضر : أصابنا الضر.

مزجاة : قليلة غير مرغوب فيها.

الإيثار : التفضيل بالعطاء .

الخاطئ : فاعل الخطيئة عمدا، والمخطئ من قصد الصواب فأخطأ.

التثريب : التوبيخ والتقريع.

بيان المعنى الإجمالي :

توجه الإخوة إلى مصر ليبحثوا عن أخبار يوسف وأخيه، وليجلبوا الطعام وقد قسا الوضع بالجدب المتواصل .فلما دخلوا عليه بادروا بمخاطبته خطابا يليق بمركزه: يا أيها العزيز، وبسطوا شكاتهم من الخصاصة ومن وضع أبيهم، وأنهم قد قدموا بسلعة، يعلمون أنها غير مرغوب فيها يدفعها جالبها دفعا، ثمنا للميرة التي يريدون الحصول عليها، كان ذلك تقدمة لطلبهم أن يوفي لهم الكيل كما لو كانت السلعة المقدمة منهم للشراء جيدة. ورجوه أن يتفضل عليهم ويتصدق فإن الله يجزي المتصدقين.

رق يوسف لحالهم فتوجه إليهم مذكرا وموبخا: أنتم تذكرون ما صنعتم بيوسف في الوقت الذي كنتم فيه جاهلين.

أيقظهم كلامه فسألوه أنت حقا يوسف ؟
فأجابهم أنا يوسف وهذا أخي، إنه مـــن يتـــق الله ويصــبر علـــى الشـــدائد فإنـــه محســـن. والله يمكن المحسنين من أجورهم
قالوا: نقسم بالله إن الله ميزك علينا، وإننـــا كنـــا خـــاطئين. رحمهـــم يوســـف وقـــال لهـــم بدون لوم ولا توبيخ: يغفر الله لكم اليوم لمّا تبتم فإنه أرحم الراحمين.
ثم ناولهم قميصه وقال لهم خذوا قميصي هذا، وَضَـــعُوهُ علـــى وجـــه أبـــي يعـــود صـــفاء بصره، ويأتيني معافى، واحملوا أهلكم جميعا إلى مصر .

بيان المعنى العام :

88-فلما دخلوا عليه قالوا يا أيها العزيز...يجزي المتصدقين.

قرر الإخوة أن يسافروا إلى مصر لغرضين:
أن ينفذوا ما طلبه منهم أبوهم من البحث الدقيق عن كـــل مســـلك يمكـــن أن يوصـــل إلـــى معرفة وضع يوسف ﷺ.
وأن يأتوا بالميرة لأهلهم وقد توالت ســـنوات الجـــدب وتفـــاقم الأمـــر. ويبـــدو أن الفتـــرة بين بقاء بنيامين وكبير الإخوة بمصر، وبين ســـفرتهم هـــذه، قـــد طالـــت بعـــض الشـــيء كما يستفاد من وصف الحالة التي كان عليها يعقوب ﷺ.
بمجرد ما وصلوا إلى مصر استأذنوا للدخول على يوســـف فـــأذن لهـــم، وبـــادروه برفـــع شكواهم من الوضع الذي هم عليه فنـــادوه بقـــولهم: يـــا أيهـــا العزيـــز، وتلقيبـــه بـــالعزيز خرجه كثير من المفسرين على أن عزيز مصر الذي اشـــترى يوســـف قـــد مـــات وتـــولى يوسف مهامه، وذكروا روايات كثيرة متصـــلة بـــذلك، والـــذي يتـــرجح عنـــدي أن كلمـــة العزيز عرف في مخاطبة أصحاب المسؤوليات الكبـــرى فـــي الدولـــة فـــي ذلـــك العهـــد. كما يقال اليوم : معالي، وصاحب المعالي، ودولة الرئيس، ونحو ذلك.
عرضوا عليه الحالة التي وصلوا إليها بتوالي سني الجـــدب، وقـــالوا: قـــد أصـــابنا الضـــر المسغبة وأمر أخيهم، وبلغت منا الخصاصة مبلغهـــا، وجئنـــا طـــالبين الميـــرة، وبضـــاعتنا التي نقدمها مزجاة :قليلة وغيـــر مرغـــوب فيهـــا، يعنـــون أن قيمتهـــا ضـــعيفة. فأعطنـــا الطعام وافيا غير ناقص، وزدنا من فضلك ما تتصدق بـــه علينـــا، وأوكلـــوا جـــزاءه عمـــا يفعله معهم من جميل إلى الله الكريم الذي يجزي المتصدقين.

ملحظ هام :

التزم التعبير عن الثمن المقدم: بالبضاعة ولـــم يـــذكر أنـــه نقـــود، وقـــال لفتيانـــه اجعلـــوا <u>بضاعتهم</u> في رحالهم آية62- ولما فتحـــوا متـــاعهم وجـــدوا<u>بضـــاعتهم</u> ردت إلـــيهم آيـــة

65- قالوا يا أبانا ما نبغي هذه **بضاعتنا** ردت إلينا آيــة 65- وجئنــا **ببضــاعة** مزجــاة آية 88- فأينما ذكر الثمن عبــر عنــه ببضـــاعة. وفـــي هـــذه الدقـــة التعبيريـــة إعجـــاز قرآني. ذلك أن التعامل بالنقود حصل فـــي القـــرن الثـــامن قبـــل المـــيلاد، وكـــان النـــاس يتعاملون قبل ذلك بتبادل السلع حسبما حققه الـــذين كتبـــوا فـــي تـــاريخ النقـــود. ويوســـف عليه السلام عاش في أواخر القرن الثامن عشـــر قبـــل المـــيلاد والقـــرن الســـابع عشـــر. وهـــذا، والله أعلم، سر الالتزام في التعبير عن الثمن المقـــدم بالبضـــاعة التـــي هـــي الســـلعة ولـــم يكن ما يقدم ثمنا نقدا وإنما كان سلعة(بضاعة)

نعم قد جاء في أول السورة أن الـــذين التقطـــوا يوســـف مـــن البئـــر أخفـــوه علـــى أنـــه بضاعة، ثم باعوه بثمن بخس دراهم معـــدودة، فوقـــع التعبيـــر بالـــدراهم، لكـــن المتأمـــل يجد أن المقصود هو لفت النظر إلى قلـــة الـــثمن الـــذي قبضـــوه، وهـــذه أفضـــل طريقـــة لإبلاغ المعنى المقصـــود للتـــالين لكتـــاب الله فـــي وقـــت التنزيـــل، فعبـــر عـــن قيمـــة المقبوض بالدراهم لا بالدنانير وأن هذه الدراهم قليلـــة لا كثيـــرة، فهـــو تصـــوير لتفاهـــة ما باعوه به وسرعة قيامهم بذلك حتى يقبضوا ثمنه قبـــل أن يفتضـــح أمـــرهم بقـــدوم مـــن يعرفه فيأخذه من أيديهم .فالكلام على أنه باعوه بشيء قيمتـــه ضـــعيفة، ولـــو عـــين ذلـــك الشيء لكان غير واضح الدلالة علـــى تفاهـــة القيمـــة كمـــا يـــدل عليـــه: بـــدراهم قليلـــة معدودة غير موزونة في وقت التنزيل. نظير ذلك أن تقـــول لشـــخص مـــن غيـــر المملكـــة العربية السعودية: البنزين رخيص في المملكة ثمـــن القـــالون يســـاوي بعـــض المليمـــات. فأنت لا تقصد أن العملـــة الســـعودية تتجـــزأ إلـــى المليمـــات، ولكـــن قصـــدك أن الـــثمن رخيص.

89←93: قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه ..بأهلكم أجمعين.

كان رد يوسف على عرضهم وبيان وضـــعهم المثيـــر للشـــفقة، أن تحـــول إلـــى العطـــف عليهم وتفريج كربهم.

ابتدأ إجابته بقوله: هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيـــه، وهـــل، تفيـــد معنـــى، قـــد، مضـــافا إليها الاستفهام الإنكاري. فيكون المعنى قد علمتم ما فعلـــتم بيوســـف وأخيـــه ممـــا أنكـــره عليكم .فقد حسدتم يوسف، وألقيتموه في الجب وحرمتمـــوه مـــن والـــده ومـــن أهلـــه، ولـــم ترفقوا ببنيامين ولم ترحموا صـــغره، فـــي الوقـــت الـــذي كنـــتم فيـــه جـــاهلين، أي كنـــتم عاصين أو كنتم شبابا لم تبلغوا سن النضج وعمق التجربة.

أيقظهم كلام يوسف، ففتح أعينهم وتأملوا في ملامحـــه، فصـــاحوا: أئنـــك لأنـــت يوســـف؟ كانت المفاجأة سريعة وقوية، بين وضع يوســـف فـــي نظـــرهم أول الأمـــر، وهـــو الـــذي

يرجون منه أن يعطف عليهم، وأن يرحمهم ويتصدق علـيهم، وبـين مـا يفيـده تـذكيرهم بفعالهم مع الإنكار عليهم مما لا يعرفـه إلا يوسـف، كانـت النقلـة كبيـرة جـدا فقـالوا كأنهم يبغون التثبت، هل أنت يوسف؟ وأسرع بالإجابة فقـال: أنـا يوسـف، وهـذا أخـي. وتبدد الغموض. فوصل يوسـف كلامـه بقولـه قـد مـن الله علينـا، أي توالـت علينـا الألطاف من فضله، ثم أبرز العبرة فـي محنتـه التـي تشـمل إخوتـه وتشـمل البشـرية كلها فقال: إن الذي يتقي ربه فيتغلب على دواعي الشـهوة، ويخلـص لـه فـي مناجاتـه ودعائه وعبادته، ويقرن إلى ذلك الصبر عنـد الابـتلاء، إن الله لا يهملـه، إنـه بإحسـانه في اختيار المواقف المعبرة عن عميق الإيمـان وصـادق التوكـل ينضـم إلـى موكـب المحسنين الذين تكفل الله بإيصالهم الثواب الذي كتبه لهم.

قال إخـوة يوسـف بعـد أن ارتسـمت صـورتان شـتان مـا بينهمـا، صـورتهم فـي خصاصتهم وشعورهم بالذنب والخطيئة، وصـورة يوسـف وهـو المـتحكم فـي أقـوات مصر وما حولها مع السؤدد والعزة، قـالوا: قسـما بـالله، لقـد ميـزك الله علينـا فهـداك إلى معالي الأمور وأنعم عليك فجـازاك، فهنيئـا لـك مـا أغـدق عليـك مـن تفضـيله، نعترف بأننا كنا خاطئين في كل ما فعلناه معك ومـع أخيـك، ومـا سـببناه لوالـدنا مـن الأسى والحزن.

تحققت توبتهم وظهر ندمهم على مـا صـنعوا، ولا شـك أن مظهـر الانكسـار أضـاف على وضعهم الذي عبروا عنه فـي بدايـة اللقـاء تراكمـات تنـادي مـن وراء قسـمات وجوههم بالأسى الذي بلـغ مـنهم مبلغـه. وأخـلاق النبـوة تسـمو عـن الإمعـان فـي الإذلال، فخاطبهم يوسف عليه السلام رافعـا معنويـاتهم بقولـه: لا لـوم علـيكم ولا تـوبيخ ولا تقريع. اليوم وقد تطهرت نفوسكم داخليا بالتوبـة والإنابـة يغفـر الله لكـم، فـالله متصـف بالمغفرة وهو التواب مما يبشر التائبين بقبـول تـوبتهم. والله أرحـم الـراحمين فبرحمتـه يتعلق البشر كلهم وتنالهم رحمته ولا ييأس مؤمن من أن تشمله.

ذكر ابن عطية والرازي وابن حجر في الإصابة: أن أبا سفيان بن الحارث وعبد الله بن أميـة لما وردا مهاجرين على رسول الله ﷺ أعرض عنهما لقبح فعلهما معه قبل .فشق ذلك عليهمـا وأتيا أبا بكر رضي الله عنه فكلفاه الشفاعة، فأبى، وأتيا عمر رضي الله عنه فكذلك، فذهب أبو سفيان بن الحارث إلى ابن عمه علي رضي الله عنه، وذهب عبد الله إلى أخته أم سلمة، فقـال علـي رضي الله عنه: الرأي أن تلقيا رسول الله ﷺ في الحفل فتصيحان به: **(تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنـا لخاطئين)** فإنه لا يرضى أن يكون دون أحد من الأنبياء، فلابد لذلك أن يقـول: **(لا تثريـب عليكما)** ففعلا ذلك، فقال لهما رسول الله ﷺ: **(لا تثريب عليكما)** الآية.

بعد أن طمأن إخوته بصفحه عنهم، وكشف لهم أن تعلقهم بفضل الله ومغفرته يذهب عنهم أوزارهم، حضر وقت العناية بذلكم الشيخ الحزين، فناول قميصه لإخوته وقال لهم: خذوا قميصي وألقوه على وجه أبي، وكشف لهم عن السر: أنه بمجرد ما تعم رائحة يوسف وجه أبيه تنشرح ملكاته ويذهب ما غشى بصره من ضعف. وأدمج في ذلك أنه يأتيه إلى مصر سليم البصر. وبرًّا بأهله ووصلا لرابطة القربى أمرهم أن يصحبوا أهلهم جميعا ليقاسموه النعم التي أنعم الله بها عليه.

وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلۡعِيرُ قَالَ أَبُوهُمۡ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَۖ لَوۡلَآ أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾ قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٩٥﴾ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلۡبَشِيرُ أَلۡقَىٰهُ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ فَٱرۡتَدَّ بَصِيرٗاۖ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا ٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوۡفَ أَسۡتَغۡفِرُ لَكُمۡ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الريح : الرائحة.

تفندوني: تنسبونني إلى ضعف العقل.

الضلال : الخطأ.

القديم: الذي طالت مدته معك.

البشير : المبشر بإبلاغ الخبر السار.

ارتد: رجع.

بيان المعنى الإجمالي :

أخذت القافلة طريقها إلى منازلهم بفلسطين. وكان يعقوب جالسا صابرا مع بعض قرابته، وإذا به يخبرهم أنه يحس برائحة يوسف قريبة منه، وهذا أمر واقع إلا أن تنسبوني للخرف. فأقسموا أنه باق على تصوراته الخاطئة التي لازمته منذ زمن طويل.

و وصلت القافلة وتقدم البشير حاملا قميص يوسف وغطى به وجه يعقوب فرجع له بصره وقال لهم مذكرا: ألم أقل لكم إنه يحصل في يقيني من إلهامات ربي ما لا تعلمون.

ندم إخوة يوسف على ما صنعوه، وطلبوا من أبيهم النبي المقرب أن يتوجه إلى الله ليغفر لهم ذنوبهم، فأجابهم أنه سيواصل لهم الاستغفار، وأمّلهمْ في عفو الله الذي هو وحده الغفور للذنوب الرحيم بعباده.

بيان المعنى العام:

94←98: ولما فصلت العير قال أبوهم ...إنه هو الغفور الرحيم.

أخذ إخوة يوسف القميص وارتحلوا به إلى منازلهم. ولما ابتعدت القافلة عن منطلقها، وجد يعقوب أن رائحة يوسف تهب عليه وتملأ شمه، فأخبر الحاضرين الذين كانوا حوله قائلا: إني أجد رائحة يوسف لولا أن تنسبوني إلى الفند وهو الخرف. فأقسموا له أنه ما يزال على الخطأ الذي لازمه منذ زمن طويل في اعتقاده أن يوسف لم يمت وأنه سيجتمع به.

وصلت القافلة، وتقدم المبشر بالخبر الذي كان ثوب يوسف معه، فغطى به وجه يعقوب. وإذا بالخلل الذي أصاب بصره يزول، فأصبحت عيناه تنقلان له ما حوله، كرامة من الله لنبيه الصابر المحتسب. وعندها ذكّر الحضور بما كان أخبرهم به من قبل، مما استقر في روحه وعقله بإلهام إلهي، بلغ به مبلغ اليقين: إني أعلم من الواردات عليّ مباشرة من الله ما لا تعلمون.

كرامات توالت، وعجائب من صنع الله تتباعت. وجد إخوة يوسف أنهم أخطأوا خطأ كبيرا، واستبانت لهم الحقيقة، وندموا على ما فرط منهم، فطلبوا من أبيهم النبي الصالح أن يطلب لهم من الله أن يغفر لهم التجاوزات التي وقعوا فيها، وأن يمحو ذنوبهم .فأجابهم :أنه سيفعل ذلك. ولا حظ المتتبعون للتعبير القرآني أنه لم يستجب لهم بطلب مغفرة ذنوبهم في الحال، ولكنه سيفعل ذلك في المستقبل على ما تفيده السين الداخلة على أستغفل. وخرّجوا المعنى على أن يلازم الاستغفار لهم حاضرا ومستقبلا، لعظم الفساد الذي ترتب على صنيعهم. وبسط لهم الأمل بأن الله هو الغفور الرحيم. ويترجح عندي: أنه لا يقدم على الاستغفار إلا بعد أن يحصل له الإذن من ربه في ذلك.

فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾
وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ
جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ
أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ
﴿١٠٠﴾ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾

بيان معاني الألفاظ :

آوى : ضم مظهرا الحفاوة.

آمنين : جمع آمن وهي الحالــة التــي يكــون فيهــا الإنســان مطمئنــا لا يخشــى مــالا يلائمه.

العرش : السرير المرتفع الذي يجلس عليه

السجود : وضع الجبهة على الأرض قصد التعظيم.

خر: تصوب نحو الأرض.

أحسن بي : أحسن إلي.

البدو : ضد الحضر.

النزغ : إدخال الفساد في النفس.

فاطر : خالق.

الولي : القائم بأمري الكفيل بنصرتي ورحمتي.

ألحقني : اجعلني مدركا من سبقني.

الصالحون : المتصفون بالصلاح ويعني الأنبياء.

بيان المعنى الإجمالي :

ارتحل يعقوب من الشام إلــى مصــر، ولمــا دخلــوا علــى يوسـف قــرب إليــه أبويــه ورفعهما على العرش الذي يجلس عليه. وحياه الجمــع بالتحيــة التــي كانــت ســائدة فــي ذلك العصر بالسجود له. وقال لأبيه مذكرا: تحقّقَ تأويــل الرؤيــا التــي كنــت عرضــتها عليك في صباي. وأردف لقد أحســن الله إلــي وأكرمنــي برعايتــه، فقــد أخرجنــي مــن ظلمات السجن، وأكرمني بجمع شملي بكم فــأتى بكــم مــن البــدو، وبســر لكــم الحيــاة الحضرية، وذهب ما أفسده الشيطان فــي تفكيــر إخــوتي. إن ربــي ييســر ألطافــه لمــن يشاء من عبيده، إنه هو العليم الذي لا يفوته ما يحدث فــي الكــون، وهــو الحكــيم الــذي يتصرف في الحوادث تصرفا متصفا بالحكمة البالغة.

ثم توجه مبتهلا إلى ربه فقال: رب أكرمتني فيسرت لي مــن الملــك مــا أقــيم بــه أمــر الناس على العدل الذي يرضيك، وعلمتني ما أســتطيع بــه تأويــل الأحــلام، وأنفُــذَ مــن الظواهر إلى ما وراءها من الحقــائق التــي تخفــى علــى النــاس، يــا خــالق الســموات والأرض ثبتني على الإسلام إلى أن تتوفاني عليه، وألحقني بالصالحين.

بيان المعنى العام :

99←100: فلما دخلوا على يوسف ... إنه هو العليم الحكيم.

تجهز يعقوب للرحيل وسار إلى مصر حتى بلغها. ولـم يُعْـنَ القـرآن بتفاصـيل السـفرة، لأنه لا يتعلق بها غرض في القصة.

لما دخل يعقوب وأهله على يوسـف قـرَّب إليـه أبويـه مكرمـا لهمـا ورفعهمـا علـى السرير الذي كان يجلس عليـه. واختلـف الـرواة فـي زوجـة يعقـوب هـل كانـت أم يوسف، أو كانت خالته التي تزوجها يعقـوب بعـد وفـاة أمـه ؟ فعلـى الروايـة الأولـى يكون قوله تعالى: أبويه تغليبا لجانب الأبوة علـى الأمومـة فـي التثنيـة، وعلـى الثـاني يكون تغليبا لعلاقة الأبوة على علاقة الخالة.

وعندما ارتفعا إلى العرش حيّوْهُ مع بقية الأهـل التحيـة التـي كـان يحيـى بهـا الملـوك وكبار رجال الدولة، فسـجدوا لـه بوضـع جباههم علـى الأرض. والتحيـة بالسـجود حرمها الإسلام لما ارتفع بالكرامة الإنسانية إلى المستوى الـذي وحَّـد فيـه بـين البشـر في القيمة الإنسانية، فاختص الله سبحانه بالسجود دون غيره.

وقال لهم: ادخلوا أرض مصـر آمنـين إن شـاء الله. هـو ترحيـب بهـم فـي مـوطنهم الجديد الذي سيقيمون فيه، موفورٌ أمـنُهم مـن جميـع النـواحي، بمـا تطيـب لهـم بـه الإقامة، ولما كان دوام ذلك في المسـتقبل مرتبطـا بفضـل الله وعنايتـه، وتأدبـا مـع الله وتبركا أُلْحَقَ بقوله ذاك (إن شاء الله).

ثم ذكر أباه مستحضرا الظرف الذي قص فيه عليه رؤياه فـي صـباه، رابطـا بـين مـاتم مناما وما تحقق واقعا. نعم جعل ربي الرؤيا رؤيـا حقًّـا. كاشـف بهـا سـبحانه السـروح بالحوادث المغيبة، فأتت أقرب ما يكون إلـى الصـورة الواقعيـة بعـد أزمـان، وليسـت أضغاث أحلام. ثم ذكر أهم منن الله عليه التي أحسن بها إليه، وعدد منها:

1) إخراجه من السجن بما يصحبه مـن عـذاب نفسـي يحـرم السـجين مـن علاقاتـه الاجتماعية ويقهر إرادته؛ مع إظهار براءته ونصاعة عرضه.

2) اجتماع شمل الأهل، مع الانتقـال مـن حيـاة البـداوة القاسـية إلـى خفـض حيـاة الحضارة الناعمة.

3) رجوع اللحمة بينه وبين إخوته بعد إساءتهم إليه. وخفف مسؤوليتهم بنسبة الإفسـاد إلـى الشيطان. وتكرم فلم يفصل ما كادوا به إليه، وذلك من سمو أخلاق النبوة، ونظيره مـا جـاء في قوله تعالى: (**فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض**)[1] ليكون ذلك نبراسا يسير عليه المهتدون بأخلاق النبوة السامية.

---

[1] سورة التحريم آية 3

وختم كلامه بأن الله يقدر ما يلائم لمن يشاء ويبعد عنه ما يسبب له الحرج، وقد فعل بي كل ذلك فضلا منه ونعمة. إنه العليم الذي لا تخفى عليه خافية، فكلما وقعت في ضيق وكرب أسعفني، وأزال كربتي، وحول ضيقي إلى فرج .وهو ربي الحكيم الذي يجري الأمور حسب حكمته العالية.

101- رب قد آتيتني من الملك ... توفني مسلما وألحقني بالصالحين.

ألحَق تعداد نعم الله عليه وعلى أهله بالابتهال إلى عزته بهذه المناجاة الرفيعة الصادرة من توقد الشعور المتصل بالله فقال: يا رب قد تفضلت وأنعمت فيسرت لي ما يسرته لي من الملك، ومن أمر التصرف في شؤون الناس وإقامتهم على العدل. وأنعمت علي بالعلم الذي استطعتُ به تجاوز القريب إلى ما وراءه في الأحلام وفي النظر للأحداث. سبحانك ربي أنت الخالق للسماوات والأرض وأنت القائم بأمري الكفيل بنصرتي ورحمتي. أسألك ربي أن تكمل علي نعمك بأن تثبتني على الإسلام وتتوفاني عليه، وأن تلحقني بالصالحين من أنبيائك المكرمين، أي في جنات النعيم.

ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا تَسْـَٔلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أنباء الغيب : أخبار ما غاب عن الناس.

الحرص : شدة الطلب.

بيان المعنى الإجمالي :

تمت القصة العجيبة عن يوسف بتفاصيلها وعِبَرها، وهي من الأخبار المغيبة التي لم يعلمها رسول الله إلا بفضل الوحي الذي جاءه من ربه. ولفت النظر إلى الجزئيات التي وردت في القصة وهي من حديث النفس أو من التآمر الخفي والمكر التي لا يمكن أن يطلع عليها إلا الله. ورغم ما في هذه القصة من الدلائل على صدقك فإن أكثر الناس وإن حرصت على إيمانهم وبذلت غاية جهدك لا يؤمنون. مع أن ما تبذله من جهود، وتواصله من سعي لهدايتهم لا تطلب منهم أجرا على ذلك. إذ قد انحصرت الغاية من القرآن أن يكون ذكرا يوقظ العالمين جميعا إلى طريق الرشد والخير.

بيان المعنى العام :

102←104: ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ...إلا ذكر للعالمين.

بعد أن أتم القرآن القصة بما تضمنته من أحـوال عجيبـة ومـا ورد فـي تفاصـيلها مـن حقائق غطاها الزمن البعيد. وبما نفذت فيه إلـى أغـوار النفـوس وإعلانهـا مـا دبَّرتـه، وتصارع الشر والخير. والعاقبة للخير الـذي ينتصـر فـي النهايـة فينهـزم الشـر. كـل ذلك يجمعه القرآن ويشير إليه باعتبار أنـه حاضـر فـي قلـب كـل مـن تتبـع مراحـل القصة. كل ذلك هو من أخبار الغيب الذي ما كنت تعلمـه أنـت ولا قومـك، علمتـه عـن طريق الوحي الذي نفتح لك به الآفـاق الفسـيحة. وتجسـيما لهـذا المعنـى يخاطـب الله نبيه فيقول له: إنك ما كنت حاضرا قريبا منهم إذ عزمـوا فـي خفـاء، ودبـروا وقـرروا ما رجحوا، ونفذوا ما أرادوا، سواء في ذلك إخوة يوسـف فـي جميـع مراحـل مـراودة أبيهم إلى إلقائه في الجب، والسيارة الذين أخفـوه حتـى بـاعوه، وشـأن امـرأة العزيـز والنسوة، وسبق إخوة يوسف بإعلانهم عن حكم السارق إلـى آخـر تلـك الجـولات فـي أعماق النفس البشرية. إن في الإخبار عن هـذه المغيبـات التـي طواهـا الـزمن البعيـد بكامل الدقة ما يقوم دليلا على كون القرآن كتابا منزلا من عند الله.

إن ذلك من شأنه أن يؤثر في العقول تأثيرا يجعلهـا مُقَـدِّرة لصـدق هـذا الـوحي، وأنـه من عند الله، إذ أنه ما يمكن لمحمد أن يخبر بهذه الأخبار بتلكم الدقـة، مـع أنـه مـا كـان العرب يعلمون شيئا منها. ولكن أكثر النـاس لا يؤمنـون رغـم حرصـك علـى إيمـانهم ،وتقديم الأدلة المتتابعة والمحـاولات المتتاليـة وصـبرك علـيهم. كمـا يمكـن أن تـدل الآية على أن أكثر الناس، رغم حرصـك علـى تبليـغ مـا جـاءك مـن وحـي ربـك، يرفضون التأمل في الحقائق التي عرضتها عليهم، فهم لذلك غير مؤمنين .

إنهم لا عذر لهم في تصميمهم على الكفر، فأنـت تقـدم لهـم القـرآن حبـا فـي إنقـاذهم، وليس إيمانهم به أجرا على صـنيعك. إن القـرآن هـو ذكـر للعـالمين فقـط ومـا كـان ليكون أجره إيمانهم.

وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوٓاْ أَن تَأْتِيَهُمْ غَـٰشِيَةٌ مِّنْ عَذَابِ ٱللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ هَـٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الآية : العلامة الدالة على توحيد الله.

يمرون عليها : يرونها.
غاشية : من الغشي بمعنى الإحاطة من كل جانب.
بغتة : فجأة.
البصيرة : الحجة الواضحة.

بيان المعنى الإجمالي :

إن الأدلة المثبتة لوحدانية الله منبثة في الأكوان بدون حساب، تجدها في السماوات وفي الأرض. ولكن كثيرا من الناس رغم أنهم يشاهدونها لا يتأثرون بدلالاتها كأنهم معرضون عنها. ثم إن أكثر الناس يدعون أنهم موحدون وهم في الحقيقة مشركون، فالعرب يقولون إن الله خالق الأكوان، ويؤمنون بآلهة تكون وسيطة بينهم وبينه، والنصارى تقوم عقيدتهم على التثليث، وكثير من فرق اليهود هم على شرك. إن أمرهم لعجيب، كأنهم آمنون من أن يسلط الله عليهم عذابا يحيط بهم لا يجدون منه مفرا. أو تقوم عليهم الساعة بغتة فجأة دون أن يشعروا بقدومها فلا يكون لهم وقت يتوبون فيه.

وجماع القول، قل لهم: إن مهمتي هي الدعوة إلى الله معتمدا على الحجج البينة، ومنزها له عن كل نقص، وليس بيني وبين المشركين أي صلة، والدعوة إلى الدين هي مهمتي التي اسعى لترسيخها في قلوب المؤمنين بي.

بيان المعنى العام :

105←107: وكأين من آية ....و هم لا يشعرون.

الكون كله شواهد ناطقة بأن خالقها واحد أحد؛ فسواء أنظرت في السماء وما عمرت به من كواكب منتظمة في سيرها وفي مكوناتها، وفي الترتيب العجيب في علاقاتها، أم نظرت في الأرض وما عليها من أجناس وأنواع مختلفة، من البشر والحيوان والنبات والجماد، وفيما اختص به كل فرد من خصائص تميزه عن غيره وتجمعه إلى نوعه وجنسه في آن واحد، إنها آيات وعلامات تنادي بأن الذي سير كل هذه المخلوقات بقوانين ثابتة على ميزان واحد في الأجرام السماوية العظمى، وفي الذرة الضئيلة. إن ذلك ينادي الإنسان العاقل ليشهد بأن خالقها ومسيرها هو الله الكامل الكمال المطلق. ولكن كثيرا من الناس يشاهدون هذا التنظيم المحكم دون أن يتأملوا فيه، هم معرضون عنه لا يلتفتون إليه. وحتى الذين يدعون أنهم مؤمنون بالله فإيمانهم غير سليم من لوثة الشرك، سواء في ذلك العرب الذين يقولون إن الله هو الخالق، ثم يضيفون إليه آلهتهم مدعين أن لها حظا من الألوهية. أو النصارى بإيمانهم بالتثليث .

إن من عجيب الأمر أن هذه الأدلة التي من شأنها أن تحرك العقول فتذكر الإنسان بضعفه الشديد أمام قوة الخالق، ليحذر بطش الله، يشاهدها كثير من الناس، دون أن تحرك فيهم المهابة والخوف من الله، كأنهم آمنون من أن يسلط عليهم عذابا قويا يحيط بهم من كل جانب لا يجدون منه ملجأ ولا مفرا، أو تقوم عليهم ساعة القيامة وهم غافلون فلا يجدون وقتا للتوبة والإنابة.

108- قل هذه سبيلي...وما أنا من المشركين.

قل لهم يا محمد: هذا الذي بلغتكم وشرحته لكم وأقمت عليه الحجج، هو سبيلي الذي ينتهي بي إلى رضوان ربي ووفائي بما حُمِّلْتُهُ. ثم وضح سبيله: أنه يدعو إلى الله متمكنا من الحجج التي تنفي عن هذا الدين كل شائبة شك أو دخيلة شرك، مع التنزيه الكامل لله معلنا أنه لا صلة بينه وبين المشركين. فمُهمَّتُه الأولى ﷺ هي الدعوة إلى الله، وكذلك هي مهمة المؤمنين به، وقد فرض على الصحابة فرض عيْنٍ دعوة الناس للإسلام، ثم أصبح بعد ذلك خاصا بالفرقة التي تفقهت في الدين قال تعالى: **فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون** [1].

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰ إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۗ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

استيأس الرسل : يئسوا يأسا قويا.

بأسنا : عذابنا .

القوم المجرمون : المكذبون للرسل.

أولو الألباب : أصحاب العقول المستقيمة.

[1] سورة التوبة آية 122

الذي بين يديه : الكتب الإلهية السابقة .
التفصيل: التبيين.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه سنة الله في الهداية. كل الذين أرسلهم الله على مـر التـاريخ، هـم رجـال مـن أهـل المجامع السكنية عاشوا مع أقوامهم قبل أن يوحى إلـيهم ثـم أوحـي إلـيهم. وأن المرسَل إليهم صمموا على الكفر فبقيت آثارهم دالة علـى مـا انتهـوا إليـه. ألـم يسـافروا فـي أنحاء الأرض ليشاهدوا تلك الآثار ناطقـة بمـآلهم. وهـو مـا يؤكـد أن ثـواب الآخـرة خير من الدنيا، مالكم لا تنظرون نظر من له عقل فيحمي نفسه من المآل الخاسر ؟

لقد واصل أقوامهم تكذيبهم رغم حرصهم على هـدايتهم حتـى بلـغ الأمـر بالرسـل أن يئسوا من اهتدائهم. وحتى ظنوا أن الكافرين كذبوهم تكـذيبا لا رجعـة فيـه، عنـدما يبلـغ الأمر هذا الحد يأتي نصر الله لرسله، فينجـي الله الصـالحين المـؤمنين، ولا يـرد نقمـة الله على القوم الكافرين أي راد.

إن في قصص القرآن في سورة يوسف وغيرها ما يثير الذهن الـذكي ليتخـذ مـن وقـائع القصص عبرا يتجاوز بها الواقع إلى تبين الحلول لما يأتي بـه المسـتقبل. إنهـا قصـص مستخلصة من الواقع لا من اختراع الخيال. ويمثل القرآن خيطا واصلا بالكتـب السـابقة فيصدقها. وتفصل القصص من أمور العقيدة والسلوك وصنع الله في الحوادث ما يهتدي بـه التالي، فكان بذلك رحمة للمؤمنين يهديهم إلى الصراط المستقيم

بيان المعنى العام :

109- وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا...أفلا تعقلون.

تضمنت الآيات السـابقة إصـرار المشـركين علـى تكـذيب الرسـول ﷺ رغـم تـوفر الآيات المصـدقة والحـرص الشـديد علـى إظهـار مقومـات الإسـلام. والتعلّـة التـي يبررون بها رفضهم أنك رجل مثلهم. ففند القـرآن هـذا التشـغيب بـالرجوع إلـى سـنة الله في بعث الرسل الذين حملوا وحيه للبشرية. فمـا أرسـلنا مـن أول أمـر الإرسـال إلا رجالا مثلك اخترناهم فأوحينا إليهم، فكذبهم أقوامهم ورفضـوا الاهتـداء بمـا جـاءوا بـه، فسلط عليهم عقابه، وما تزال آثار تدميرهم باقيـة .كـان أولئـك الرسـل معـروفين فـي المجتمعات التي بعثوا فيهـا. ثـم توجـه السـؤال للمكـذبين، مـالهم يقابلونـك بالتكـذيب ويتعللون بما قدمناه؟ ألم يسيروا في الأرض فتقوم لهم شـواهد مـن آثـار الـذين مضـوا في الحياة قبلهم. مما يشير إلى أن عاقبة المكذبين برسـالتك سـيكون نظيـر مـا آل إليـه أمر المكذبين للرسل من قبلك.

ثم بشرت الآية الرسول ﷺ ومن آمن به، بأن ما أعـد مـن الكرامـة يـوم القيامـة لمـن لزم التقوى مستحضرا في مختلف ظـروف حياتـه صـلته بربـه مقـبلا علـى الطاعـة ومبتعدا عن المعاصي، وذلك خير من الدنيا ومـا فيهـا. إن هـذه الحقيقـة ينسـاق إليهـا العقل بطبيعته. فمالكم منحرفون عن التقوى، أليس لكم عقل تنظرون به فيهديكم!.

110- حتى إذا استيأس الرسل وظنوا....بأسنا عن القوم المجرمين.

وصفت هذه الآية المآل الذي انتهى إليـه أمـر الإصـرار علـى العنـاد، بلـغ الأمـر أن الرسل رغم حرصهم وطول نفسهم فـي الـدعوة، أن ييئسوا مـن إيمـان قـومهم، إذ مـا من باب من أبواب التأثير إلا سلكوه بصبر كبير وذكـاء فـي التـأتي، وهـذا الاسـتمرار جعل أتباع الرسل يظنون أن رسلهم قـد كـذبهم المعانـدون تكـذيبا لا رجعـة فيـه. فـي هذا الظرف الحرج يسعف الله رسله بنصره، وينجي من يشـاء إنجـاءه مـن الـذين ثبتـوا على الإيمان ويسلط عقابه على المعاندين على القوم الكافرين.

111-لقد كان في قصصهم عبرة ....ورحمة لقوم يؤمنون.

أكملت هذه الآية السورة، فكأن هذه الخاتمة تنظر إلـى الوحـدة التـي عرضـتها منوهـة بما جاء فيها من عميق الدلالات، ومن حسن السـبك، ومـن الصـدق فـي التعبيـر عـن الواقع، وبما أيقظته في عقول التالين ومشـاعرهم مـن الألطـاف الإلهيـة، ومـن تغلـب الخير على الشر، مع بناء كل ذلك علـى الواقـع لا علـى الخيـال المجـنح. فقـد كانـت قصة يوسف مع نظائرهـا فـي القـرآن مشـحونة بـالعبر، الـذي إذا تأملهـا المتأمـل صاحب العقل المستقيم، فتحت له أبوابـا، يتجـاوز بهـا الوقـائع السـابقة إلـى نظيرتهـا التي يمكن أن تحدث في الوجـود؛ فيجـد صـنع الله فـي تسـيير الكـون محرِّضـا لـه ومطمئنا على أن سلوك مسلك الاستقامة والرشد حسبما جـاء فـي تلـك القصـص هـو الذي ينتهي به إلى النجاح والصلاح.

إنه ما كان كلاما غير ملتزم بالصدق أومن نسـج الخيـال، ولكنـه متصـل بمنـابع الحـق فيما تقدمه من كتب الله مؤكد لمضـامينها، ويبـين أمـورا كثيـرة مـن أحـوال الـنفس، وعاقبة المتقين والفاسـقين، ويثبـت أن المتصـرف فـي الأكـوان هـو الله تعـالى، وأن التقوى هي الحصن الحافظ للإنسان في الحياة الدنيا وفـي الآخـرة. وبـذلك تتفـتح مـن هذه القصص المسـالك التـي تشـمل بهـا الرحمـة الإلهيـة المتـدبرين لهـا الآخـذين بدلالاتها، وهم الذين صفت عقيدتهم وطردوا كل شـائبة شـك أو شـرك، وأنـار الإيمـان بصائرهم وهداهم إلى الصراط المستقيم.

16 رمضان 1432-2011/8/16

ســورة الرعــد

سورة الرعد هي السورة الثالثة عشرة في ترتيب المصحف. بهذا الاسم (سورة الرعد) أثبتت في المصاحف وفي الروايات. واختلف في تاريخ نزولها فقيل نزلت كلها بمكة، واستثنى بعضهم آيات منها، وقيل نزلت بالمدينة. والقائلون بأنها مكية ذكروا أنها نزلت بعد سورة يوسف وذكروا بعدها سورة إبراهيم. والذين ذكروا أنها مدنية جعلوا رتبتها في التنزيل السابعة والتسعين بعد سورة القتال وقبل سورة الرحمان.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يُؤۡمِنُونَ (1) ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ
ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ
رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ (2) وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ
جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ (3) وَفِي
ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٖ وَنَخِيلٖ صِنۡوَانٖ وَغَيۡرِ صِنۡوَانٖ تُسۡقَىٰ
بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ
يَعۡقِلُونَ (4)

بيان معاني الألفاظ :

عمد : اسم جمع عمود، وهو ما يقام عليه سقف القبة أو البيت.

الجري : السير السريع.

المسمى : المحدد.

يدبر الأمر : يبرم وينفذ.

مد الأرض : وسع فيها.

الرواسي : جمع راس، الثابت المستقر.

قطع : جمع قطعة وهي الجزء.
صنوان : جمع صنو وهي النخلة التي تنبت مع أختها من أصل واحد.
الأكل : المأكول.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت هذه السورة بحروف يتلى كل واحد منها منفردا – ألف – لام – ميم – ر – ويتعلق بها ما أثبتناه في سورة البقرة. أعقبت بالإشارة إلى آيات القرآن الموصوفة بأنها منزلة من عند الله، وأنها انفردت بالحق الذي لم يختلط بباطل، ولم يلحقه شك ولا تحريف. ولكن أكثر الناس رغم هذه الشواهد على صدقه حرموا من الإيمان.

تفرد الله بأنه هو الذي رفع السماوات دون أن تكون معتمدة على أعمدة، وفوق ذلك استوى على العرش بغير ممارسة ولا تحديد، وطوَّع الشمس والقمر فلا تخرجان عما قدر لهما، وتسرعان إلى مآلها الحتمي الذي هو نهايتهما وزوالهما. وكل ما يجري عليهما من التركيب والتحول والسير خاضع للتقدير المحكم. يبرز الله لكم تلكم الأدلة رجاء أن يحصل في قلوبكم اليقين بقدرة الله وتصرفه الحكيم في الأكوان، وأنكم ستعودون إليه يوم القيامة.

بسط الله الأرض وجعل فيها جبالا ثابتة وأجرى فيها الأنهار، وجعل فيها من جميع أنواع الثمرات، وقدر لتلقيحها في مراحل بروزها الأولى ما يتم به خلقها، وجعل من أنواع الحيوان ذكورا وإناثا، بذلك يتم التكاثر. وكل هذه الكائنات التي جعلها يلفها الليل والنهار فتصل إلى غاية مداها، وينعم بها البشر في جملة المرافق التي يسَّرَها الله لهم. إن التأمل في هذا الخلق وفي التنظيم المحكم لمساره في الحياة، يعطي دليلا للقوم الذين لا يمرون على مشاهد الحياة غافلين بل يتفكرون في أسرارها تفكيرا يلقي في قلوبهم اليقين: أن الله هو المتصرف في هذا الكون.

تأملوا في الأرض فهي في ظاهرها قطع متشابهة ومتجاورة، ومع ذلك فإن العناصر التي تتركب منها كل قطعة تتميز بخصائص، لها أثرها في النماء وفي الإنتاج. على هذه القطع المتجاورة تنتشر جنات من أعناب مختلفة الأشكال والألوان، وتنبت في أرضها زروع متنوعة، وتعلو النخيل فيها. ومن عجيب خلق الله أن بعضها تكون النخلة وحيدة وبعضها تنبت في جذعها نخلة أو نخلات (صنوان) تسقى تلكم الأشجار بماء واحد من السماء أو من الآبار أو من الأنهار، ومع ذلك تجد اختلافا بينها في الطعم والمذاق. يكون بعضها أفضل من بعض. إن الذين يعملون عقولهم ولا يمرون على مشاهد الكون مرور الغافلين، يجدون فيها أدلة وبراهين على تفرد الله بالتقدير والخلق والتسيير.

بيان المعنى العام :

1-ألر تلك آيات الكتاب ...ولكن أكثر الناس لا يؤمنون.

افتتحت هذه السورة بحروف تقرأ منفصلة - ألف - لام - ميم - ر- على النحو الذي افتتحت به سورة البقرة وغيرها من السور التي استهلت بحروف لا توصل عند القراءة. وقد بينا ما يتعلق بها في سورة البقرة.

ثم تشير الآية إلى ما سبق نزوله من آيات القرآن الكريم إشارة تدل على سمو آياته، باعتبار أنها تقوم معجزة للنبي ﷺ دالة على صدقه، وبأنها تتضمن من المعاني العالية ما ينادي بما لها من فضل لا يدانى في الهداية، فالكتاب هو القرآن. وثنى بإبراز مزيتين لذلك الكتاب:

أولا: أنه منزل من عند الله جرى على لسانك بعد تلقيك له عن طريق الوحي.

ثانيا: أنه الكتاب الوحيد الذي طبع على الحق، فغيره من الكتب إما أن يكون من إنشاء البشر، وإما من الكتب المنزلة إلا أن المنزل عليهم وأخلافهم لم يستطيعوا حفظها من الباطل الذي أدمجوه في ثناياها استجابة لشهواتهم، أو لتقصيرهم .

إنه بالرغم عن مزاياه فإن أكثر الناس يعاندون ولا يؤمنون به. ومن هنا ترتبط السورة بأواخر سورة يوسف (**وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين**)[1] مما يرجح أيضا أن تكون مرتبتها في التنزيل. الرابعة والخمسين.

2←3: الله الذي رفع السماوات بغير عمد...لقوم يتفكرون.

تصرح الآية بأعظم ما تدل عليه آيات الكتاب من الحق، وهو تفرد الله بالتأثير في الكون كله، ويلفت الأبصار والبصائر إلى ما يشاهده الإنسان في أي موقع له من الكون. يشاهد أن الله وحده هو الذي رفع السماء بما تحويه من كواكب ومجرات ومخلوقات بترتيب قدره فأحكم تقديره. لها منازلها في تلكم القبة العظيمة المترامية الأطراف إلى أبعاد لا يعلمها إلا الله . قدرها بعض العلماء فيما وصلوا إلى معرفته بالسنوات الضوئية؛ ومع ذلك فلا ترى أعمدة تحميها من السقوط. وأزالوا بعض الغموض بواسطة دراسة الجاذبية المضبوطة ضبطا، لو قوي أو ضعف عما هو عليه ما كان لهذا الكون أن يبقى ولو لحظة.

وفوق ذلك فإنه سبحانه قد استوى على العرش وقد أشرنا إلى ما يتعلق بذلك المفهوم في الآية (54) من سورة الأعراف.

---

[1] سورة يوسف الآية (103)

وفَصَّلَ القرآن مما اشتملت عليه السماوات، فَصَّلَ الشــمس والقمــر، نظــرا لقــوة ارتبــاط الإنسان بهذين الكوكبين في حياته. فــنص علــى أنهمــا مســخران لتقــديره يســير كــل واحد منهما سيرا سريعا جدا، وسيبلغان مــع بقيــة الكواكــب غايــة المــدى المحــدد لهــا في الوقت الذي قدره وأحكمه في سابق علمه. وعنــد ذلــك تقــوم القيامــة وينتهــي عمــر الكون.

إن هذا الكون بجميع ما يحويه مع تحولاته المتلاحقــة فــي تسلســل الوجــود، مــا يعــود منها إلى الوضع المادي، أو إلى العقل والــنفس، هــو بتــدبير الله فــي كــل لحظــة مــن اللحظات. فمع كل نَفَس وخلجة وتطور في كل كــائن يتنــزل التــدبير الإلهــي ينفــذ مــا جرى به القدر، ثم يقيم ذلك شاهدا ودليلا يهــدي الإنســان إذا مــا تأمــل واستبصــر إلــى أن هذا التغير المتلاحق وعدم الاستقرار، حتــى فيمــا يظــن حســب الظــواهر الخادعــة أنه مستقر، ينادي بأن الفناء لازم مــن لــوازم الحيــاة الــدنيا، وبــأن الخلــق علــى هــذا النحو من الحكمة، من الواجب الحتمي أن ينتهــي إلــى الخــالق للجــزاء. إذ بــدون ذلــك يكون الخلق عبثا. واليقين بالتنظيم المحكم والربط بــين أجــزاء الكــون فــي كــل لحظــة يناقض العبث. فلذلك كان التأمل دليلا على البعث الــذي يلقــى فيــه كــل إنســان جــزاءه من ربه عما قدمه من خير أو شر.

بعد أن لفت القرآن إلى الكون كله في انتظامه وفي خلقه، ثنى بدعوة الإنســان للتأمــل فــي حكمة الله في خلقه للأرض. فقد بسط الأرض ووسع فيها فَيَسَّرَ عمارتها واستثمار ما تحويــه من خيرات. وثبّت في الأرض جبالا راسيات مستقرة ترتفع أعلى قمة فيها إلى 8848 مترا.

وأجرى خلال الأرض الأنهار التي تحمل الماء والطمي. وجعل فيها من كل الثمرات، ما هو موجود وقت نزول الوحي وما يحدث في المستقبل، وما ينقطع بعد وجوده. وقولــه تعــالى: **"جعل فيها زوجين اثنين"** يحتمل عوده إلى الثمرات، على أن الثمرات نتيجة لقاح يحدث بــين نوع الأنثى فيها ونوع الذكر، ويتم هذا التلقيح تارة بتوسط الإنســان أو بــالريح أو بــبعض الحشرات كالنحل، وفي كل ذلك حكمة ومنة. ويحتمل أنه تذكير بمنة خلق الحيوانات التــي لا يتم التكاثر فيها إلا بوجود النوعين الذكر والأنثى. ثم إن جميع هذه الكائنات الأرضــية يلفهــا في دورات متعاقبة وبانتظام لا يختل الليل والنهار، وفي تعاقبهما مع ما لفتت إليه الآيــة مــن مظاهر كونية عجيبة، ما يقوم من كل مظهر من تلكم المظاهر آيات وبــراهين يؤلــف منهــا أصحاب الفكر النير المستقيم أدلة على القدرة البالغة والحكمة العالية لخــالق الكائنــات. وأن الله هو المتفرد سبحانه بتصريف ذلك تصريفا بعيدا عن الفوضى.

4- وفي الأرض قطع متجاورات وجنات ...لقوم يعقلون.

وظاهرة أخرى في الأرض تقسيم الدليل على أن كل أحوال الأرض مستندة إلى الاختيار والإرادة الحكيمة، فالأرض أجزاء متجاورة، والتركيب الذي عليه كل جزء يختلف عنه الجزء المجاور له، وتؤثر تلكم العناصر في سرعة نمو النبات وفي جودة ومذاق ما تنتجه. وعلى وجه الأرض تقوم جنات من نخيل وأعناب وتتخللها زروع تسقى بماء واحد نازل من المطر أو من الآبار أو الأنهار، ومع ذلك فلكل شجرة مذاقها ونكهتها، وتتفاضل فيما بينها باعتبارها مأكولا للإنسان، وتَنْبُتُ النخيل من أصل واحد وبعضها يستمر على ذلك، وبعضها قد يلتصق بالنخلة الأولى نخلة ثانية فهما صنوان بدون تنوين، وبعضها يلتصق بها أكثر من واحدة فهي صنوان منونة. إن الإنسان العاقل يفضي به هذا الاختلاف المدرك مع وحدة الأرض والماء والطقس إلى الجزم بأن هذا الاختلاف لا يقبل أن يكون وليد الصدفة. ويعتقد أن إرادة الخالق هي التي ميزت بينها وأوجدت ما أوجدت بجميع الخصائص. وأن علمه وإرادته وقدرته لا تقتصر على الكليات بل هي تتناول كل الكائنات الجزئية أيضا.

❁ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿٥﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

المثلات : العقوبات المنكلات.

الأغلال : جمع غُل، طوق من حديد أو جلد يجعل في عنق الأسير.

السيئة : الحالة السيئة، المصيبة.

المثلات : جمع مثلة وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثالا في الشدة.

بيان المعنى الإجمالي :

من أعجب العجب، أحوال المشركين المنكرين للبعث، الذين يقولون تبريرا لاستبعادهم لبعث الأجساد بعد موتها: كيف تعود إلى الحياة من جديد بعد أن تحللت عناصرها واندمجت في التراب ؟ منشأ ضلالهم هو كفرهم بربهم الذي أوجدهم من

عدم، ووالى عليهم ألطافه حتى بلغوا كمالهم. ولكن الكفر كان قيدا في أعناقهم يلويها عن التأمل، ويسوقهم في النهاية إلى الخلود في عذاب النار.
ومن فساد تفكيرهم أنهم يطلبون منك أن يعجل الله بتسليط العذاب الذي أوعدتهم به قبل أن يطلبوا التعجيل بالخيرات التي عند الله، وذلك لأنهم يستبعدون أن يسلط الله عليهم عذابه، مع أن الأقوام الذين انتقم الله منهم لكفرهم حاضرة أخبارهم في أذهانهم ومشاهدة آثارهم. ولكن الله لا يعجل العقوبة بل يمهل الناس مع كونهم ظالمين علهم يعودون إلى التمسك بالحق. إن هذا الإمهال لطف منه فإذا أصروا على الضلال فإن الله يعاقبهم أشد العقاب.
وسجل القرآن على الكافرين تشغيبهم باقتراحهم على الرسول أن يأتيهم بمعجزات من وحي خيالهم. فأوقفهم القرآن ببيان حقيقتهم. أنهم قوم ضالون جاءهم الرسول لينذرهم ما هم صائرون إليه، وأن دور الرسول كشأن الرسل السابقين أنه يساعد البشر على الاهتداء إلى الصراط المستقيم .

بيان المعنى العام :

5-وإن تعجب فعجب قولهم...أصحاب النار هم فيها خالدون.

عنيت الآيات الأولى من هذه السورة بقضية التوحيد وقضية القدرة النافذة في الكون. وثنى القرآن بالتوجيه إلى قضية كبرى في إصلاح البشرية هي قضية البعث يوم القيامة. توجه القرآن مؤكدا على قضية البعث والجزاء في مناسبات عديدة باعتبار أنها ركن من أركان العقيدة. وتمثل هذه العقيدة بالنسبة للمشركين والكفرة وأهل الضلال والفساد القضية التي يعملون على إنكارها، لأن التفكير فيها يفسد عليهم متعهم وإسرافهم وظلمهم. ولأنها إحدى القوى التي تبعث في المستضعفين الأمل وتحرضهم على الصمود.
شأن الإنسان أن يعجب من كل خارج عن المعتاد خروجا لافتا للنظر، ومن أحق ما يكون مدعاة للتعجب ما يصرح به الكفرة: إننا ننكر مستبعدين أننا سنعود خلقا جديدا كما كنا، بعد الموت وما يعقبه من تدخل عوامل الفناء تُفَتِّتُ أجزاءنا وتخلطها بالتراب. وعقَّب ذلك بثلاث نواح :
أولا: أولئك الكفرة النافون للبعث أوقعهم في ضلالهم، كفرهم بربهم الذي تولاهم بعنايته وألطافه في تحولاتهم الكبرى من نطفة من ماء مهين في أرحام الأمهات إلى اشتداد عضلاتهم وقدراتهم الذهنية وما يسر لهم من الأرزاق، وما يعتورهم بين الحين والآخر من اهتزازات وضعف تنبئ من استبصر أن مظاهر السلامة بعد العطب مؤذنة بأن القادر على ذلك قادر على البعث.

ثانيا: أن كفرهم ضيق عليهم مساحات تأملهم فهــم لا ينظــرون إلــى مــا وراء الحاضــر أمامهم. كما تشير الآية إلى أنهم سيحشــرون يــوم القيامـــة، التــي أنكــروا تحققهــا، أذلاء شأنهم شأن الأسرى الذين طوقت أعناقهم بالأغلال فهــم يســيرون إلــى حيــث قــدر لهــم من العذاب والمهانة.

ثالثا: التصريح بأن ما قدر لهم: أن صلتهم بالنار تكون ملازمـــة لهــم كــأنهم والنـــار فـــي علاقة صحبة لا تنقطع وأي صحبة أعاذنا الله. فأكد هذا المعنـــى بقولــه تعــالى هــم فيهــا خالدون.

6-ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة...لشديد العقاب.

بلغ بهم العناد إلى نوع من التحدي الســخيف، فلمـــا أخبـــرهم النبـــي ﷺ بالوعيـــد الـــذي سيسحقهم إن هم واصلوا كفــرهم، طلبـــوا منـــه أن يعجِّـــل هـــذا الوعيـــد اســـتخفافا بـــه، وإنكارا لإمكان حصوله. فمن فساد تفكيـــرهم أنهـــم طلبـــوا أن يعجـــل الله تســـليط العـــذاب عليهم وما يسوؤهم قبل أن يطلبوا أن ينعم علـــيهم بـــالخيرات، والحـــال أن انتقـــام الله مـــن المعاندين قد سبقت شواهده، وآثار ذلك معروفة عنـــدهم. وهـــذه ســـنة فـــي الطغـــاة مـــن الكافرين ومن المستبدين المتســـلطين علـــى شـــعوبهم. فهـــم يواصـــلون الظلـــم والكفـــران بنعمة الله، وهم مطمئنون إلى أنه لما لـــم يســـلط علـــيهم العـــذاب عـــاجلا، فمعنـــى ذلـــك أنهم آمنون.

إن تأخير إنجاز الوعيد مبناه أن الله سبحانه هو أعلى من أن يكون منتظرا ما يخرج به الجاهلون عن طاعته ليوقع عليهم عذابه في الحال. ولكنه غفور يمهل العصاة إمهالا يفسح لهم المجال ليتحولوا من الشر إلى الخير، ومن الكفر إلى الإيمان. فهم مع ظلمهم الذي لا يخفى عن الرقابة الإلهية يؤجلهم إما إلى الأجل الذي حدده في سابق علمه في الدنيا، وإما إلى يوم القيامة. وليعلموا أن عدل الله سيوقع بهم جزاء فسادهم في العقيدة والعمل جزاء لا تصحبه رحمته، فيكون أشد ما يتصور.

7-ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه....ولكل قوم هاد.

تسجيل آخر لمقالات الكافرين، وهم يتلوَّنون كل مـــرة بطلـــب أشـــياء لا يقصـــدون منهـــا حصول اليقين وطرد موجبات التـــردد، ولكـــن ليظهـــروا أن مـــا يطلبونـــه يتوقـــف عليـــه إيمانهم. فإذا لم يستجب لطلباتهم، استنتجوا منه أن مـــا جـــاء بـــه لـــيس مـــن الحـــق فـــي شيء. فهـــم يغمضـــون أعيـــنهم عـــن المؤيـــدات الحاصـــلة، وعـــن الإعجـــاز القرآنـــي، ويقترحون الاقتراح تلو الاقتراح يبغون من ذلك التعجيـــز، والـــتحكم فـــي التقـــدير الإلهـــي حتى يكـــون طـــوع مقترحـــاتهم. طلبـــوا أن ينـــزل الله علـــى رســـوله معجـــزة حســـبما

يقترحونه، أوان يرقى في السماء وهم يشاهدون رقيه ثم يأتي معه بكتاب مجسم يعرضه عليهم لقراءة نصه، وقالوا: لولا أنزل عليك ملك. إلى آخر أنواع التعنت التي فضحهم القرآن باقتراحها. فردَّ عليهم القرآن ردا قاطعا بين مكانتهم ودور الرسول ﷺ. أما مكانتهم فهم ضالون عن الحق، غير واعين بالمآل، إذ لا تصل بهم عقيدتهم ولا سلوكهم إلا إلى الخسران المبين. وأما دور الرسول ﷺ فهو أن ينذرهم سوء العاقبة التي تترصدهم، وأن يعمل على إنقاذهم مما هم صائرون إليه. وهذه سنة الله في إرسال رسله، أنه يبعث لكل قوم هاديا يهديهم، أي إن إنذارهم سوء العاقبة يصحبه تبيان طريق الهدى والرشد.

ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الغيض : يستعمل في الدلالة على النقص.

الكبير : العظيم.

المتعالي : المترفع، العزيز العزة الكاملة.

سواء : مستو، لا يفضل واحد عن غيره.

المستخفي : المبالغ في الاختفاء.

السارب : المنتقل السائر. فهو يتصرف كيف شاء دون حذر.

معقبات : جمع مُعَقِّبة. ملائكة يتبعونه ويلازمونه.

يحفظونه : يراقبونه.

التغيير : التبديل بمغاير.

وال: الوالي هو الذي يشتغل بأمر غيره اشتغال تدبير.

بيان المعنى الإجمالي :

تنص الآيتان الثامنة والتاسعة على ما يحقق عقيدة الوحدانية وعقيدة البعث. فالله هو المتفرد بعلم ما تحويه الأرحام علما شاملا، للخصائص المادية لكل فرد، ولمواهبه

العقلية والنفسية. ويعلم أوضاع الرحم الحامل، مقدرا لكل فتـرة مـن فتـرات الحمـل مـا يمكِّن النسل الجديد من بلوغ المستوى الذي يستقل به بعد ذلـك فـي الحيـاة. وكـل ذلـك يقوم دليلا على عظمة الباري سبحانه، وعلـى خضـوع الكائنـات لتقـديره فهـو العزيـز المتعالي.

علم الله علم واحدٌ وشاملٌ ولا يتغيرُ، ولا تؤثر فيه الظروف التي يتخفى فيها الإنسان، أو يظهر .فما جرى في ضميره دون أن تنبس به شفة وما جهر به، ما عمله تحت جنح الظلام بعيدا عن الناس، وما صنعه في وضح النهار وملأ من الناس، كل ذلك سواء في علم الله .وليس علمه بإحدى الصورتين أوضح أو أتم من الأخرى.

أقام الله على كل إنسان حفظة من ملائكته يسجلون كل ما يصدر عنه من قول أو فعل. وطريقة ذلك التسجيل والمتابعة هي من ترتيبات الله التي تفوق مدارك البشر..

وإن نعمة الله على عبيده تقيدها الطاعة والشكر، ويترتب عن كفرها والانغماس في المعاصي زوالها. وإذا أراد الله أن يوقع على عبده عقابه فإرادته نافذة ولا يجد ناصرا يحميه أو يدبر له طريق نجاة.

بيان المعنى العام :

8←9: الله يعلم ما تحمل كل أنثى ....الكبير المتعال.

تَتَمُّ الآيتان ما عرضته السورة من بدايتها، فتبسـط مـا يـدل علـى الوحدانيـة والتفـرد بالخلق والتدبير، وتؤكد أحقية البعث وتقربه للأذهان الغافلـة عـن دقيـق صـنع الله. فـتم التعرض أولا لقانون التكاثر في الحيوان والإنسـان الـذي يجريـه الخـالق علـى ترتيـب ونظام لا يحيط بعلمه إلا هو. فالآية تشير أولا إلى أن مـا يحـدث فـي كـل لحظـة مـن حمل كل أنثى في عالم الحيوان أو الإنسان هو مما اختص بـه علـم الله، ثـم تتَنـزل مـن هذه النظرة الكلية إلى مرتبة أدنى، هـي أن الله وحـده يعلـم بمجـرد مـا تعلـق اللقيحـة بالرحم الخصائص التي أودعهـا فـي الخارطـة(الجينوم)، إن البرنـامج المكتـوب فـي رأس كل لقيحة، الضابط لكل جزئية من الجزئيـات التـي سـتظهر، محـدّدة مـا يكـون عليه الكائن الإنساني أو الحيواني فـي المسـتقبل، والتغييـرات التـي تحـدث والأسـباب المؤثرة في ذلك وجودا أو عدما، هو ما تفـرد الله بعلمـه. وإن حصـر الـنص الواسـع الآفاق **(يعلم ما تحمل كل أنثى)** في كـون مـا حوتـه الأرحـام مـن جـنس الـذكور أو جنس الإناث، تضييق مستند إلـى تصـور قاصـر تبعـا لتعلـق الأبـوين، وقـد تكـون الأسرة مهتمة بالبحث عن كون الجنين ذكرا أو أنثى. وهـذه جزئيـة مـن مئـات ملايـين من الجزئيات التي يحيط بها علم الله في اللقائح التـي تتحـول إلـى أجنـة. وهـذا مـا لا

يصل إليه علم أحد لا بوصـف الفرديـة ولا الشـمولية . ويخـتص بـه العلـم الإلهـي . وإن تصور الفكر البشري لهذا العلم الرباني في أبعاده اللامتناهيـة لمـا يحـدث فـي كـل لحظة في عالم الإنجاب، ليقوم دليلا علـى إمكانيـة بعـث هـذه الكائنـات التـي أحـاط علمه بها في بداية التكوين وأحكم مسـارها. ولا يعقـل إنكـاره أو الشـك فيـه أو طلـب الدليل عليه .فكانت هذه الجملة الأولى محققة لصدق كل ما سـبق فـي هـذه السـورة مـن وحدانية الله ومن البعث.

عطف القرآن على ذلك: **(وما تغيض الأرحام ومـا تـزداد)** اختلـف المفسـرون اختلافـا كبيرا في تأويل المراد بنقصان الأرحام وزيادتها .

والذي ترجح عندي بعد التأمل، أن صدر الآيـة تحـدث عـن خصـائص الجنـين الـذي استقر في رحم الأم، وأن هذا المقطع لفـت النظـر إلـى التحـولات التـي تحـدث فـي الرحم ذاته، فبمجرد ما يعلق الجنين بجـدار الـرحم، تتغـذى العلقـة مـن دم الأم لتأخـذ في الانقسام والنمو، ويتم تحول فـي الهرمونـات، وبهـذا تغـيض الأرحـام ممـا كانـت تمتلئ به من الدم، ويـدخل دم الأم فـي تكـوين الجنـين، فينمـو وتظهـر شـيئا فشـيئا مكوناته ويزداد وزنه إلى أن يبلغ الوقت الـذي ينـزل فيـه إلـى الأرض كائنـا يحمـل خصائص النوع . فمعنى تغيض الأرحام: نضـوب الـدم كمـا تقـدم فـي سـورة هـود: وغيض الماء آية 44- وزيادتها بزيادة وزن الجنين الذي نما من ذلك الدم.

ثم عطف على ما تقدم، مبينا أن كـل شـيء يحـدث فـي الوجـود لا يـتم بلوغـه إلـى مستوى الحدوث إلا بعد مروره بمراحل مضـبوطة ومحـددة بدقـة بالغـة، ويـدخل فـي هذه القاعدة الكلية التكاثر الحيـواني والإنسـاني. فكـل مرحلـة مـن مراحـل التطـور، وفي كل لحظة زمنية منها، تتولى العناية الإلهية إمداده بمـا هـو فـي حاجـة إليـه مـن الغذاء نوعا وكما، فلو زاد ما يصير إليـه عـن الحاجـة أو نقـص كـان الخلـق مشـوها غير قادر على الحياة. وبهذا اللفت يقوم دليـل قـاطع علـى البعـث فـإذا كـان التقـدير الإلهي قد يسر للجنين بلوغ المستوى الذي يصل بـه إلـى الحيـاة المسـتقلة، أفـلا يقـوم هذا دليلا واضحا على إمكان إعادة خلقه ليبعث من جديد ؟

ويدخل كل ذلك تحت قبة العلم الإلهي الذي لا تخفى عليه خافية، سواء أكان ذلك من عالم الغيب الذي لا تصله معارف الناس، أو من المشاهدات التي تختلف أحجامها فتدق حتى لا يستطيع الإنسان إدراكها بحواسه المجردة، أو تعظم على مستويات مختلفة.

هو سبحانه العظيم الذي لا يدانيه في عظمته شـيء. وهـو العزيـز الـذي يخضـع كـل شيء لإرادته.

10-سواء منكم من أسر القول ومن جهر...وسارب بالنهار.

يتفاوت إدراك البشر لما حولهم تبعا لعلو المستوى الصادر منه أو ضعفه، فبعضها يهز الإنسان هزا وبعضها ينزل إلى المستوى الذي تمر آثاره دون أن يشعر بها. ولذا كان من يرغب في كتمان أقواله وأفعاله يقوم بها في سر، ويتخذ جنح الظلام له ساترا حتى لا يطلع عليه أحد. ولكن الله سبحانه يعلم كل ما يصدر عن الإنسان علما يستوي فيه ما أعلنه صاحبه وما كتمه في قلبه فلم تتحرك به شفة، لا تفاضل بينهما، وعلمه بالحالتين سواء. كما أن من يقوم بعمل من الأعمال ويتخير له جنح الظلام ويبالغ في تحري البعد عن عيون الناس، ومن يقوم به وهو يسعى في وضح النهار فيلفت الأنظار إليه بحركته وينكشف بالضوء، هما سواء بالنسبة لعلم الله إذ لا يتوقف علمه على سبب مساعد يضعف عند فقده، وهذا هو الفارق بين العلم الكامل الذي لا يتوقف على شيء، والعلم المحدود المرتبط بقوانين المعرفة.

11- له معقبات من بين يديه...و ما لهم من دون من وال.

لله ملائكة يتابعون الإنسان في جميع أحواله، ويقيدون كل ما يصدر عنه من خير أو شر في سر أو إعلان. يحيطون به من أمامه ومن خلفه ومن جميع جهاته فلا يغيب عنهم أي فعل أو قول منه. ولا تسأل عن الطريقة التي يتم بها توثيق كل ذلك ولا عن المراقبة كيف تتم، فكل ذلك من أمر الله: من الترتيبات التي أحكمها الله وهي فوق المدارك البشرية، كقوله تعالى، **قل الروح من أمر ربي**[1]. وروى مالك والبخاري ومسلم بسندهم إلى أبي هريرة واللفظ لمالك: يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي ؟فيقولون: تركناهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون. – ح 472 ج 1 ص241–

و يمكن أن نفهم الآية على أن لكل إنسان في جميع أحواله التي تقدمت في الآية السابقة حفظة يحفظونه تتم بهم صيانته من العوادي الحيوانية ومن أشرار البشر. فتكون الآية منبهة على الألطاف المحيطة بالإنسان. ويكون معنى من أمر الله: أي يحفظونه من كل ما جرى القدر به، فإذا حل المقدور أُسْلِمَ المرء إليه.

ونبه القرآن بعد أن قرر أن لله حفظة يراقبون أعمال البشر ويسجلون ما قاموا به، أو أن الله يحفظ البشر حسبما جرى به القدر، ثنى ببيان أن الله إذا أنعم نعمة على

[1] سورة الإسراء آية 85

عبده فإن صاحبها يُقَيِّدها فتلزمــه إذا شــكر واســتقام، وأن الإنســان إذا غيــر ســلوكه، فاستعان بالنعمة على المعاصي، فإن الله يسلبه تلــك النعمــة ويحــول حالــه مــن النعمــة إلى النقمة ومن الرخــاء إلــى البــؤس. وفــي هــذا تحــذير للــذين رحمهــم الله مــن أن تبطرهم النعمة فيظنون أنها مصاحبة لهم دائما.

و إن الله العظيم قدرته إذا أراد تغيير أوضــاع المتجــاوزين لحــدوده مــن الرخــاء إلــى العسر والشدة، تبعا لســوء صــنيعهم، فإنــه لا تقــوم قــوة تحــول دون تنفيــذ مــا أراده. وبالتالي لا يجدون من يدبر لهم ما ينقذهم به من تنفيذ عدل الله فيهم.

هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

يجادلون : يخاصمونك.

المحال : القوة، والإهلاك.

ضلال: ضياع.

الغدو : الوقت الذي يخرج فيه الناس لقضاء حوائجهم .

الآصال : جمع أصيل وهو وقت اصفرار الشمس.

بيان المعنى الإجمالي :

الظواهر الكونية كتاب مفتوح يقرأ فيه المتأمــل شــواهد تثبــت أن الله هــو الواحــد الــذي لا شريك له وأن الخلائق صائرة إليه. فظــاهرة الســحب تتكــرر، ويلمــع فــي بعضــها البرق الذي يكاد يخترق الأفق من أقصاه إلى أقصــاه ويأخــذ الأبصــار، ويتــأثر الإنســان به بين الخوف من الصواعق وبــين الأمــل فــي نــزول الأمطــار وانتشــار الخصــب. والسحب قد تكون خفيفة سريعة التنقل وقد تتراكم وتثقل.

وظاهرة الرعد التي تصحب البرق هي تســبيحة مــن تســبيحات الكــون لله تنزهــه عــن الشريك فلا مؤثر فيها غير قدرته وإرادته ولســان حالهــا يثنــي عليــه بمــا أودع فيهــا

من نظام. وكما ينطلق التسبيح من لسان الكون بلغتــه التـــي عِلْمُهَـا عنـــد خالقــه، فكـــذلك يصدر هذا التنزيه من ملائكة الله وهم يخشونه أشد الخشية.

ويرسل الصواعق متـــى أراد لتصـــيب مـــن أراد إهلاكـــه. والعجـــب مـــن الكفـــرة أنهـــم يجادلون في تفرد الله بالتصـــرف والتـــأثير، مـــع أن مكـــره ســـبحانه بالمنصـــرفين عنـــه، قوي شديد مشاهد لديهم.

خضع العباد لله فهو وحده الذي يتوجه له الداعون بابتهالاتهم الصادرة عن شعورهم بالحاجة الحق لعون ربهم وهو القادر على إسعافهم بمطالبهم. وأما الكافرون فيدعون دعاء صادرا عن عقيدة باطلة فيكون ضياعا غير منتج. مثلهم كعطشان بسط كفيه إلى الماء يبغي أن يصل الماء إلى فمه ولن يبلغ فمه وهو على هذا الوضع.

خضعت الكائنات كلها لله وانقادت عن رضـــا، أو مكرهـــة. فســـجد لـــه المؤمنـــون حبـــا فيه وشوقا إليه، وسجد المنـــافقون كرهـــا وهـــم أذلاء، وســـجدت الظـــلال مـــع الســـاجدين واضحة وضوحا أفضل في فترتي الصـــباح والعشـــي تبعـــا لامتـــدادها المـــرتبط بوضـــع الشمس في السماء. وكـــل الكائنـــات تجـــري عليهـــا قوانينـــه وتقـــديره مـــن الســـماوات والأرض وما احتوته.

بيان المعنى العام :

12←13: هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا...وهو شديد المحال .

مما يلفت أنظارنا في كل آية من الآيات التي سبقت في هذه السورة التقابل ففـــي الآيـــة (1) بين الإيمان والكفر، وفي (2) الوجود والفناء، وفي (3) زوجان والليل والنهـــار، وفـــي (4) الوحدة مع اختلاف النتائج، وفي (5) الآيات الدالة على البعث وإنكاره، وفي (7) الاســـتعجال بالسيئة قبل الحسنة، والغفران والعقاب، وفي(8) الإنذار والهداية، وفي (9) نقصان الأرحـــام وزيادتها، وفي (10) علم الغيب وعلم الشهادة، وفـــي(11) الســـر والجهـــر، وفـــي (12) التمكين من النعمة وسلبها.

وفي كل ذلك براهين متتابعة على الوحدانيـــة والقـــدرة الكاملـــة. وفـــي الآيـــة 12 يحـــرك القرآن انتباهنا للتأمل في ظـــاهرة الســـحب المتراكمـــة والبـــرق الـــذي يصـــحبها تـــارة، يخترق البرق السحب بسرعة الضوء ويمتد نوره الخـــارق أو يقصُـــر. نشـــاهده فـــإذا أثـــر المشاهدة بقوته التي تكاد تخطف الأبصار إحســـاس بـــالخوف ممـــا يمكـــن أن يتبعـــه مـــن الصواعق، وإحساس بالأمل بنزول الأمطـــار عقيبـــه. فالظـــاهرة واحـــدة وتـــأثر الإنســـان بها من الضد إلى الضد، مـــن الخـــوف إلـــى الاستبشـــار والأمـــل. ثـــم إن تفســـير هـــذه الشحنة الكهربائية وأسباب تفريغها، لمـــاذا تحـــدث فـــي بعـــض الســـحب، وتمـــر ســـحب

أخرى دون أن يتخللها أي برق؟ كل ذلك ينادي بأن الله هـو وحـده الـذي يتصـرف فـي الكون ومنه السحب فينشئها على النحو الذي يختـاره، وتقصُـر قوانـا الفكريـة ومعارفنـا عن تبين سبب ترجيح إبراز ظاهرة عن غيرها.

و يتْبَعُ لمع البرق صوت الرعد، ومع أنهما يصدران في وقت واحد تختلف سرعتهما، فيختلف الإحساس بوجودهما. كما تختلف الاهتزازات المصاحبة ضعفا أو شدة تكاد تصم الآذان. إنها تسبيحة من تسبيحات الكون للخالق المتصرف الواحد القهار. هو الذي أحدثها على المستوى الذي أراد وقدر. ولكن لا نفقه تسبيحها، وصدق الله فيما أخبر به. وتقترن بتسبيحة السحب وما يصحبها تنزيه الملائكة لله عن كل نقص، وهم مستحضرون عظمته على أكمل وجه، مما يجعلهم يخافون عقابه.

قد تنفلت من السحب صواعق حارقـة تنفـذ إلـى الأرض يصـيب الله بهـا مـن يشـاء ويصرفها عمن يشاء. انطلق اللاعبـون فـي ميـدان اللعـب، وتراكمـت السـحب ولمـع البرق وزمجر الرعد ونزلت صاعقة صعق بها لاعب واحـد مـن بـين اللاعبـين. مثـل هذه الحادثة تتكرر في الوجود وتقـوم دلـيلا علـى أن المتصـرف فـي الكـون هـو الله وحده، ومع ذلـك فـالكفرة يجـادلون الرسـول والمـؤمنين فـي تفـرد الله بالتـأثير فـي الكون، ويثبت بما لا مجال للشـك فيـه أن القـوة العظمـى التـي لا تغالـب ذات الأثـر الشديد، هي لله وحده.

14- له دعوة الحق والذين يدعون من دونه... الكافرين إلا في ضلال.

تبين من الآيـات السـابقة، أن الله هـو الواحـد الأحـد، وهـو وحـده القـادر المـؤثر، ويكون موقع هذه الآية تأكيد ذلكم المفهوم. فـإن تفـرده بالألوهيـة والقـدرة يتبعـه حتمـا أن من يرفع يديه بالدعاء، ويتوجه قلبه طلبا للعـون والرعايـة والغـوث والنعمـة، يكـون توجهه صادرا عن حق إذا كان منبعثا عن عقيـدة حـق لا عـن عقيـدة باطلـة. فالـدعاء في حقيقته هو نتيجة ما يحصل فـي الضـمير مـن حاجـة إلـى أن يتـولى الله سـبحانه بقدرته الداعي فييسر له خيرا، أو يصرف عنـه ضـرا. فصـدور الـدعاء يكـون بـذلك صادرا عن عقيدة حق لا عن تصور باطل.

ثم زادت الآية هذا المفهوم بيانا بالتنصيص على فسـاد مقابلـه، وهـم المشـركون الـذين يدعون آلهتهم من دون الله، وجسَّـمت ذلـك الفسـاد بتمثيلـه بالظمـآن المحتـاج لشـرب الماء فيبسط كفيه إلى الماء ليبلغ الماء فمه، وطريقتـه تلـك لا يبلـغ بهـا المـاء إلـى فمه أبدا. وبهذا فإن دعاء الكافرين لآلهتهم دعوة ضـائعة لا يترتـب عليهـا جلـب منفعـة ولا دفع ضر.

15- ولله يسجد من في السماوات والأرض...بالغدو والآصال.

تفيد هذه الآية أن الذي تخضع له الكائنـــات جميعهـــا، ويتصـــرف فيهـــا بحكمتـــه وتنقـــاد إلى الغاية التي حددها لها هو الله سبحانه .

و السجود له معنيان: الوضع الخاص الـــذي يضـــع فيـــه الســـاجد جبهتـــه علـــى الأرض؛ والسجود بمعنى الانقياد. فتثبـــت الآيـــة المعنيـــين معـــا، بالنسـبة للإنســـان علـــى ســـطح الأرض يسجد المؤمنـــون الصـــالحون فـــي صـــلواتهم عـــن حـــب ورغبـــة وطواعيـــة، ويجدون لذة في قربهم من ربهم: أقرب ما يكون المرء مـــن ربـــه وهـــو ســـاجد. ويســـجد المنافقون عن كره وغـــش. والســـجود بهـــذا المعنـــى لا يتحقـــق إلا فـــي بنـــي الإنســـان؛ والآية عامة لمن في السماوات والأرض. ولـــذا تحمـــل الآيـــة علـــى مـــا يعـــم الســـجود بالمعنيين لينطبق المفهوم على نص الآية، فيكـــون ســـجود البشـــر هـــو مـــا قـــدمناه، مـــع السجود الذي يعم الكائنات جميعا بمعنـــى خضـــوعهم للقـــوانين التـــي أجـــرى الله عليهـــا خلق كل كائن وكل نـــوع وكـــل جـــنس. علـــى معنـــى أنـــه لا يســـتطيع أي فـــرد مـــن المخلوقات أن يتمرد على قوانين الخلـــق المحكـــم. فمـــثلا، إذا كانـــت الحيوانـــات البريـــة تتنفس الهـــواء، ولا تحيـــى بدونـــه، والأســـماك البحريـــة المـــاء عنصـــر أساســـي فـــي استمرار حياتهـــا، فكـــل الكائنـــات خاضـــعة لـــتلكم القـــوانين، فـــالمؤمنون يشـــكرون الله ويحمدونه على ما لطف ودبـــر مـــن تلكـــم القـــوانين. وغيـــر المـــؤمنين تجـــري علـــيهم قوانينه و إن كرهوا. ويصاحب سجود الذات بـــروز صـــورتها فـــي ظلهـــا وقـــت وجـــود الشمس. واختار القرآن الظلال في الصباح وفي العشـــي، لأن الظـــل فـــي هـــذين الـــوقتين يمتد امتدادا أطول من بقية ساعات النهار.

و هذه الآية هي موضع السجود الثاني في القـــرآن حســـب ترتيـــب المصـــحف. والســـجود عند قراءة قوله تعالى: والآصال – متفق عليـــه- وعلـــى التـــالي والســـاجد أن يستحضـــر أنه ممن يسجد لله طوعا امتثالا لأمره، رجاء في فضله.

قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَـٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَـٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴿١٦﴾ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ

يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى
ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ
لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ
لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا يملكون : لا يقدرون.

القهر : الغلبة.

أودية : جمع واد، الحفير الممتد الذي يسيل فيه ماء المطر .

قدَر : تقدير .

الزبد : ما يعلو الماء المتدفق من رغوة، يحمله السيل ويرمي به على ضفتيه.

رابيا: منتفخا، الذي قد ربا.

الحلية : المصوغ الذي يتزين به .

يضرب : يبين بالمثل.

الجفاء : ما يطرح ويرمى به لكونه لا قيمة له.

الحسنى: العاقبة الحسنة.

المأوى : المنزل الذي يذهب إليه الإنسان للسكنى فيه.

المهاد : ما يفترش ويمهد للجلوس والرقاد.

استجابوا : أجابوا مع رغبة، محافظة على التطبيق.

بيان المعنى الإجمالي :

اسألهم من رب السماوات والأرض الذي أبدعها ونظم شؤونها وأقامها على ميزان لا يختل؟ باغتهم بالإجابة، فهم لترددهم تتلعثم ألسنتهم ولا يسرعون بالإفصاح عن الحقيقة، قل لهم: هو الله. ووبِّخهم وقل: لما ذا اعتمدوا وعبدوا من دون الله آلهة عجزة، لا يقدرون على جلب نفع لأنفسهم أو دفع ضر عنها، فضلا عن تأثيرهم في غيرهم. وعرِّفهم بالمنزلة الهابطة التي هم عليها. فهم مع عماهم ومع إطباق الظلام على عقولهم، لا يستوون مع المؤمنين الذين هداهم الله فعرفوا الطريق المستقيم وجاءتهم أنوار الوحي فأدركوا ما وراء الظواهر من حقائق.

أجعلوا لله شركاء تساووا معه في الخلق، وخلقوا كخلقه، فكان ذلك معرضا لهم للاشتباه والحيرة ؟قل لهم وأخرجهم من ضلالهم، قل لهم: الله هو المتفرد بالخلق،

وما عداه مخلوق له سبحانه. والله هو الواحد الذي لا شـريك لــه فــي تصــرفه بــالخلق، وهو الغالب الذي تخضع له كل الكائنات.

ثم ضرب القرآن مثلين يقربان ما تضمنته الآيتان قبله:

المثل الأول: أن الله أنزل الماء من السـماء فسـالت منــه الميــاه لتتجمــع فــي الأوديــة ويأخذ كل واد منها حسب سعته، ويعلو سطحها زبد منــتفخ يلقيــه السـيل علــى جانبيــه، يذهب أثره وتختزن الأرض الماء الصالح للحياة. وذلك مثــل مـــا ينزلــه الله مـــن الهــدى فينتفع به أقوام علـــى قـــدر ســـعة مـــداركهم وصـــفاء أرواحهــم ويســـتمر عطـــاؤه فـــي العالمين، ويهيج مـــن الحـــق النـــازل الكفـــرة المعانـــدون. فيكـــون شـــغبهم وتضـــليلاتهم كالزبد الذي يتبدد في النهاية ولا يبقى له أثر.

المثل الثاني: المعادن التي يُحمّى عليهـــا فينـــزل المعـــدن الصـــالح للزينـــة مـــن الـــذهب والفضة، أو من الحديد والنحـــاس ونحوهـــا التـــي يعمـــل منهـــا الصـــناع آلات ومرافـــق للناس، ويعلو الزبد الذي لا نفع فيه فيلقى به. وكـــذلك مـــا ينزلـــه الله مـــن الهـــدى علـــى نحو ما ذكر في المثل الأول.

ويصرح القرآن ختاما بالنتيجة: هي أن الذين قبلوا ما جاءهم من الوحي برغبة وتعلق كبيرين، يجزيهم ربهم بالحسنى المتمثلة في ضروب ألطافه التي لا تحصر، ونصرهم على أعدائهم وإحلال الأمن في نفوسهم والرضا. وفي المقابل فإن الذين رفضوا الهدى يكون مآلهم أنه يبلغ بهم اليأس: أن يودّ أحدهم لو يفتدي من سوء وضعه بما حوته والأرض بل بضعف ذلك، فتتضاعف حسراتهم النفسية ويحاسبون حسابا لا رحمة فيه، يناقشون في كل كبيرة وصغيرة. وتكون الدار التي ينتهون إليها هي جهنم يفترشون نارها، وما أسوأه من فراش.

بيان المعنى العام :

16- قل من رب السماوات والأرض ....وهو الواحد القهار.

تكرر الأمر بالقول في الآية الأولى خمس مرات (قـــــل) .

تتابعت من مفتتح السورة البراهين والمشاهد المثبتة للوحدانية، وتوجت بتسجيل حقيقة يذهل عنها الكافرون: إن الله يسجد له ويخضع لقدرته وإرادته الكون كله.

وتهيأوا تبعا لذلك لمخاطبتهم خطاب التوبيخ والتقريع، وإظهار هوانهم وضعف تفكيرهم. ولا شك أن ذلك يكون وقعه أقوى إذا صدر عن الله، فتكرر الأمر بقل ليتوجه إليهم مضمون القول توجيها يبكتهم.

بادرهم بالسؤال من تـــولى العنايـــة بالســـماوات والأرض فـــنظّم أمورهـــا أكمـــل تنظـــيم وأدقه؟ وهذا ما تفيده كلمة رب. وهذا الســـؤال لا يقصـــد منـــه أن ينتظـــر إجـــابتهم، لأنـــه

ليس له إلا جواب واحد هو الحق وما عداه زيــف و باطــل. فــأمر الله ســبحانه نبيــه ﷺ أن يعرفهم بــالجواب فيقــول لهــم: الله، رب الســماوات والأرض. ورتــب علــى ذلــك توبيخهم على عنادهم ومواصلة الكفر به فأورد علــيهم ســؤالا إنكاريــا توبيخيــا، أكفــرتم به فاتخذتم آلهة من دونه .تلك الأصنام الممثلة للعجــز والهــوان التــي بلــغ مــن ضــعفها أنها لا تقدر على جلب أي نفع لنفسها أو أن تدفع عنها ضرا يؤذيها .

ثم ثنى مشوها لحالهم، والمدى البعيد الــذي يفصــلهم عــن المــؤمنين، مــن الضــد إلــى الضد ومن الرفعة والإيجابية، إلى الانحطاط والسلبية. قــل لهــم: إن حــالهم كحــال مــن فقد بصره ففاته إدراك ما هــو حاضــر أمامــه فــأنكر وجــوده. أو كمــن أطبــق عليــه الظلام فهو لا ينتفع بحاسة النظر فهو لا يــرى شــيئا. وشــتان مــا بــين وضــعهم مــع العمى أو الظلمة المطبقة، وما بين وضع المؤمنين وقد جــاءهم نــور مــن ربهــم فاهتــدوا إلى حقائق الوجود ومآلات الكون، وتمكنــوا مــن الهدايــة الربانيــة فــإذ الكائنــات كلهــا داخلة تحت أبصارهم مؤذنة بمــا وراءهــا مــن يــد الإبــداع وكمــال التــدبير، زاهيــة بالتناسق المؤلف بينها.

كلمة [أم] التي تفيد من البداية قصد الانتقال من الكــلام الســابق إلــى كــلام جديــد يعبــر عنه (بالإضراب) عن الكــلام الســابق وتوجيــه العنايــة للكــلام اللاحــق. فتــورد الآيــة عليهم سؤالا محرجا: أجعلوا لله أربابا مساوين لــه فــي ألوهيتــه وقدرتــه. تمكنــت تلكــم الآلهة أن تخلق وتحدث مخلوقــات علــى النحــو الــذي تصــرف بــه الله فــي الإيجــاد، فأوقعهم ذلك التشابه في حيرة ما هو خلــق الله ومــا هــو خلــق الآلهــة ؟ ثــم مــا هــو الفرق بين الله وبين آلهتهم ؟إن هذه الصورة تثير الســخرية مــن لــوازم عقائــدهم. ولــذا أعقبها بأمره لمحمد ﷺ (قل)إن الله هو المتفرد بالخلق وآلهــتهم لا تخلــق شــيئا بــل هــي مخلوقات. والله هو الواحــد الــذي لا يشــاركه أحــد فــي ذاتــه ولا فــي خلقــه فجميــع الموجودات مخلوقة له. وأيضا هو الغالب الــذي يخضــع لــه كــل شــيء. فــلا يصــعب عليه إيجاد المادة ولا الصورة التي يتم عليها الإيجــاد. وآلهــتهم لا تقــدر علــى خلــق أي كائن مهما ضؤل. فهي آلهة زائفة.

17- أنزل من السماء ماء فسالت أوديـ...يضرب الله الأمثال.

تضمنت الآية تمثيلين، كل منهما يؤدي ما يؤديه الآخر، ليعم التوضيح للناس جميعا من يدرك التمثيل الأول ومن يدرك التمثيل الثاني، ومن يدركهما جميعا. فلنتابع ذلك:

التمثيل الأول: أن الله أنزل من السماء مطرا متداركا، فســال فــي الشــعاب وتجمــع فــي الأودية على قدر سعتها، وإنك لتشــاهده مســيره فــي المســيل تعلــوه رغــوة منتفخــة،

فتذهب تلك الرغوة غير منتفع بها ويبقى الماء الذي ينفع العباد، وينشر الخصب وينبت الزرع وتسري به الحياة في الأرض.

سالت أودية بقدرها، جرى في كل واد من مياه الأمطار المتجمعة ما يملأ جوانبه، وكل واد يحمل من الماء على قدر سعته. وسرعة حركة المياه تبعا لانحدارها من الجبال والروابي، مع ما تأتي عليه من الهشيم تتكون منه رغوة تعلو سطحها (الزبد) ومن شأن الزبد هذا أن يكون منتفخا لما يتخلل تركيبه من فقاقيع الهواء.

التمثيل الثاني: المعادن على الصورة التي استخرجت من مقاطعها، يتناولها الصناع فيوقدون عليها النار، لاستخلاص المعدن الصالح من الذهب والفضة لصنع الحلي والنقود، أو من المعادن الأخرى كالحديد والنحاس والرصاص التي يوقدون عليها النار ليستخلصوا منه الفلز وليتخذوا منه صفائح لصنع المواعين والآلات المختلفة للارتفاق بها.

هذان المثلان ضربهما الله ليعتبر بهما الناس وليتخذوا منهما نظيرا يكشف لهم بصفة أقرب مضمون ما يشيران إليه، هما مثلان للحق والباطل فلنتتبع مراحل التمثيل:

أولا : تتابعت الأمطار على ما وصفناه أخذا من الآية، والماء النازل من السماء به دوام الحياة، وتكونت منه سيول تداخل فيها ما ليس من الماء ولكنه لصيق له في جريانه، ولا نفع فيه، بل إنه ارتفع فوق سطح الماء وانتفخ وهو الزبد الذي لا يبقى طويلا بل يقذفه السيل على جنباته، وتتفرقع فقاقيعه ويبقى الماء الأصيل يروي الأرض وينبت الكلأ والعشب والثمار وينفذ إلى أعماق الأرض فتختزنه بين طبقاتها.

ثانيا: مثل الماء النازل من السماء كمثل القرآن أنزله الله هاديا للقلوب ينشر في العقول نور الإيمان فتطمئن، ويوجه الأعمال إلى الخير فترقى الحضارة، ويأمن الناس. فيتكون منه منهج متكامل يأخذ طريقه في إصلاح الحياة كما يأخذ الماء طريقه. ثم إن المتلقين له على درجات في التأثر والانتفاع بهداه على مقدار ما لهم من قوة إيمان ورغبة في صالح الأعمال كما يأخذ كل واد من الماء ما تتسع له جنباته، ويتواصل النفع به كما يتواصل النفع بالماء الذي سارت به الأودية. ويمر على أسماع الكافرين فيهيجهم لمعارضته ويكون لهم صوت مرتفع، ولكنه مهزوم في النهاية شأن الزبد الذي ينتفخ ويعلو على سطح الماء يلقى به دون أن يكون له أثر.

ثالثا: مثل آخر من المعادن: يوقد الصناع والصواغون النـار علـى المـادة الخـام فيسـيل المعدن الصافي من الذهب والفضـة والحديـد والنحـاس والرصـاص متميـزا، وينفصـل ما خالطه فتقذفه النار الحامية زبدا كمـا يقـذف الـوادي الزبـد علـى جانبيـه. وينتفـع الناس من الذهب والفضة حليا ومن المعدن متاعا لقضاء حاجاتهم.

ضرب الله ذلك مثلا للحـق والباطـل؛ فيكـون المـاء الـذي تحملـه الأوديـة وتتشـربه الأرض فتنتفع هو كالحق النازل من عند الله المستند إلـى الـوحي، والزبـد الـذي يربـو مثلا للباطل. وكذلك ما يخلـص مـن المعـادن مـن ذهـب أو فضـة وحديـد ونحـاس ونحوهما هو كالحق ينتفع به الناس، وما تقذفه النار إلى الخارج كالباطل.

وعلى هذا النحو يضرب الله الأمثال لتكون مؤكدة ومبينة ومقنعة للناس.

18-للذين استجابوا لربهم الحسنى...وبئس المهاد.

يدعو النبي ﷺ الناس فيبلغهم ما أحي إليه مـن ربـه مـن العقيـدة والتشـريع والإرشـاد، يكون المتلقون له على نوعين:

النوع الأول: المؤمنون الذين قبلوا ما جـاءهم مـن ربهـم بعقـول منفتحـة ورغبـة فـي العمل به، ثم يلتزمون بعزيمة صادقة وقوية تطبيـق ذلـك، ويعملـون بـه فعـلا. هـؤلاء وعدهم الله الحسنى: ينزل عليهم رضوانه فـي الـدنيا، ويلطـف بهـم، وينصـرهم علـى أعدائهم، ويمكن لهم ويلحـق بهـم ذريـاتهم. وييسـر حسـابهم فـي الآخـرة، ويكـرم جزاءهم في منازل الرضوان في الجنة دار القرار.

النوع الثـاني الكـافرون: الـذين يرفضـون مـا دعـاهم إليـه رسـول الله ﷺ عقيـدة وسلوكا، هم آيلون إلى وضع من اليـأس، يبلـغ بهـم النكـال أنهـم يكونـون فـي أسـوأ وضع: يودون لو يجدون مـا يقدمونـه لإنقـاذ أنفسـهم مـن الهـوان والعـذاب المـاحق المحيط، ولو كان ذلك بتنازلهم عن الأرض ومـا فيهـا، بـل ضـعف مـا فـي الأرض، وأنى لهم أن يتحقق لهم ما يتمنونه فلا هم يملكون من ذلـك شـيئا. فتكـون أمـانيهم مـن الأماني الخيالية تضاعف حسراتهم.

أولئك الكفرة الرافضون، جزاؤهم الحساب السـيء الـذي لا يتجـاوز فيـه عـنهم لا فـي صغيرة ولا في كبيرة، ومصيرهم جهنم يفترشون نارها وما أسواه من فراش.

۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ

وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ
وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ
عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ
بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

يصلون : الوصل ضم شيء إلى شيء، واشتهر في الإحسان والإكرام، ومنه صلة الرحم .

خشية : خوف ناشئ عن تعظيم من يخافه.

ابتغاء وجه ربهم : طلب رضاه.

الدرء: الدفع والطرد.

العاقبة : الخاتمة.

عدن : الإقامة، والاستقرار، والثبات.

نقض العهد : إبطاله وعدم الوفاء به.

بيان المعنى الإجمالي :

فريقان لا يجمع بينهما جامع: من يوقن بأن الحق الواضح، هو ما أنزله ربك إليك، لا شبهة فيه ولا تناقض، منسجم مع الفطرة. والفريق الذي حجب عقله عن النظر فعمي عن الحق الذي بلغتهم إياه. إنه لا يتأمل فينتفع إلا من كان أصيل الرأي واضح التفكير وهم أصحاب العقول المستنيرة. ولكن ما هي ملامح أصحاب العقول المستنيرة ؟

أولا: هم الذين يوفون بما عاهدوا عليه الله من توحيده وتطبيق شرعه، ويحترمون التزاماتهم، فيأمنهم المتعاملون معهم.

ثانيا: هم يصلون أرحامهم ولا يقطعون العلاقات الرابطة في جميع المستويات.

ثالثا: هم يستحضرون دوما أن الله مطلع عليهم، فيخافون من كل عمل يتجاوز به العامل حدود ه. كما يخافون من الحساب الذي يفتضح فيه المحاسَب وتعلن أعماله السيئة.

رابعا: هم ملتزمون بخلق الصبر الإيجابي رغبة في رضوان ربهم.

خامسا: هم يحافظون على أداء صلواتهم على الوجه الأكمل.

سادسا: هم ينفقون مما رزقهم الله في السر و العلن.

سابعا: يدفعون آثار ما عملوه من سيئات بالقيام بالحسنات.

أعلنت الآية جزاءهم: أنهم يختصون بأن العاقبة الخيرة في الآخرة هي لهم وحدهم. يتفضل الله عليهم بتمكينهم من الإقامة السرمدية في جناته. ويلحق بهم أهليهم من الآباء والأمهات والأزواج والذرية، وإن كانوا دون مرتبتهم. ومن مباهج الجنة أن الملائكة يدخلون عليهم زرافات ووحدانا يهنئونهم بما أنعم الله عليهم، يسلمون ويذكّرونهم بما كانوا عليه من كمالات، وخاصة الصبر على العبادة، وعلى مقاومة دواعي الشهوة والشيطان. وينوهون بالمآل السعيد في دار إقامتهم النهائية.

وفي المقابل فإن الذين ينقضون ما عاهدوا الله عليه من التوحيد بعد ما أكده وأقره في فطرتهم، وعلى خلاف الفريق الأول يقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويتجاوزون الحدود فيفسدون في الأرض، أولئك ملعونون مطرودون من رحمة الله. ويختصون بأسوأ مآل في أسوأ مستقر.

بيان المعنى العام :

19-أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق ...يتذكر أولوا الألباب.

تقرر هذه الآية عدم التسوية بين فتح من عقله لقبول ما أنزله الله إليك من الهدى، وبين من أقفل قلبه عن النظر فيه. وتمت صياغتها على طريق الاستفهام لتحرك السامع للنظر في مضمونها، شأن السؤال في إيقاظ الذهن.

فالفريق الأول: هو من تيقن أن ما أوحاه الله إليك من العقيدة والتشريع والغيب والقصص، هو الحق الذي لا مدخل للباطل فيه؛ وبما أن اليقين يتبع الوضوح الذي لا شبهة فيه، والبيان التام الذي لا يلابسه غموض، فإنه ناسب أن يطلق على الفريق الآخر (الأعمى) إشارة إلى أن رفضه ليس له مبرر إلا أنه عطل قواه الفكرية، فأصبح كالأعمى الذي لا يرى الأشياء الماثلة أمامه، والعيب في بصره لا في الكائنات المعروضة.

ثم أظهرت الآية أنه لا يستطيع أن ينتفع بالبينات إلا من رُزِق عقلا صالحا. وهم أولو الألباب. وفي هذا إشارة إلى أن إعراض الكفار عن الوحي ناشئ عن غبائهم .

20←22: الذين يوفون بعهد الله ....أولئك لهم عقبى الدار.

ولتمييز أولي الألباب أكمل تمييز واصل القرآن عرض صفاتهم النبيلة، التي تفيد أن الكافرين فاقدون لتلك الكمالات.

الصفة الأولى: وفاؤهم بما عاهدوا الله عليه، وهذا العهد يشمل ما ذكر في سورة يس من إفراد الله بالعبادة ورفض ما يدعو إليه الشيطان (**ألم أعهد إليكم يا بني**

آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عــدو مبــين وأن اعبــدوني هــذا صــراط مســتقيم)[1]
وانغرس هذا العهد في الفطرة، وقد يحجبه التــأثير الشــيطاني والتقليــد. كمــا يشــمل مــا يقتضيه عهد الإسلام من الالتزام الصادق بكل ما فصله من تشريع.
و عطف على الوفاء بالعهد عدم نقض الميثاق. وهذه صــفة أعــم مــن الوفــاء بعهــد الله، إذ تجمع إلى الوفاء بعهد الله احترام المواثيق والالتزامات التــي التــزم بهــا المــؤمن مــع غيره من الناس.
الصفة الثانية: وصل ما أمر الله أن يوصل. وهذه قاعــدة اعتنــت بهــا الشــريعة لبنــاء المجتمع المتماسك .فــأولو الألبــاب يصــلون أقــاربهم، ويصــلون إخــوانهم المــؤمنين، وخاصة عند المناسبات الداعية للاتصال، كالأفراح والأحزان والأعياد والمرض.
الصفة الثالثة: خشية الله، وهي الخوف من غضــبه وعقابــه ومــن حجــب ألطافــه. ذلــك أن أصحاب العقول الذكية يستحضرون بصفة مســتمرة، ولا يغفلــون، عــن كــونهم فــي كل لحظة من لحظات حياتهم، في قبضــة الله يفعــل بهــم مــا يشــاء. يعجــل العقوبــة أو يمهل، أو يغفر ويرحم. وهذا الاستحضـــار يكســب الإنســان يقظــة زائــدة تيسّــر عليــه الالتزام بالاستقامة في حياته.
الصفة الرابعة: الخوف من الحساب الســيء، الــذي يفتضــح فيــه المحاسَــبُ، ويجــازى عن كل صغيرة أو كبيرة من أعماله السيئة، وهو مــا يقــوي العــزم علــى فعــل الخيــر والابتعاد عن الشر.
الصفة الخامسة: هم الذين تحلوا بالصبر الإيجابي، رجاء أن يفوزوا برضا ربهم. فصبرهم ليس استسلاما، وليس رياء، ولا حبا في الظهور بمظهر القوة كما يقول الشاعر:
وتجلدي للشامتين أريهم *** أني لريب الدهر لا أتزعزع.
فأولو الألباب يصبرون ليفــوزوا برضــوان الله، جــزاء امتثــالهم لمــا أرشــدهم إليــه وأوصاهم به. ولا يقترن صبرهم بشكاة ولا تبرم ولا يأس.
الصفة السادسة: هم ينفقون أموالهم سرا وعلانية، بمــا يفيــد أنهــم اقتلعــوا جــذور الشــح فحلت السماحة في قلوبهم، وأكدوا بذلك وثيق الصلات بالمجتمع.
الصفة السابعة :هم يدرؤون بالحسنة الســيئة. إنهــم إن غلــب علــيهم ضــعفهم البشــري فقارفوا الســيئة تيقظــوا، وتحركــت الــنفس اللوامــة، فــأتبعوا الســيئة بالعمــل الحســن المرضي عنه، قال ﷺ: وأتبــع الحســنة الســيئة تمحهــا. وتنســحب هــذه الصــفة علــى

---

1 سورة يــس ، آية 59-60

الاستعداد النفسي لطرد وساوس الشيطان ودواعي الشهوة. وكذلك الصفح بعدم مقابلة الشر بالشر. فدفع السيئة بالحسنة باب واسع لتوثيق الصلات الاجتماعية، والتسامي عن النزول إلى مراتب الساقطين، كالعفو عن المسيء والإحسان إليه، والعدول عن السيئة بعد الهم بها، ويدفعون من رأوا منه منكرا بالطريقة التي هي أحسن لينكف ولا يعاند.

هذه الباقة ضمت العناصر الذاتية، التي بها يسلك صاحب العقل الراجح عند ورود مقتضاها، العمل على ما بينته الآية، فهو اتصاف بالقوة. أولئك هم جديرون بأن تتحقق لهم الخاتمة السعيدة فيختصون عن جدارة بأن لهم العاقبة في الدار الآخرة.

23- جنات عدن يدخلونها ومن صلح...من كل باب.

صورت الآية العاقبة التي خُص بها أولو الألباب تصويرا يضاعف الشوق إليها، ويساعد بالتالي على الالتزام بالمنهج السالك إليها:

أولا: هي جنات يقيمون فيها إقامة سرمدية لا تنقطع. فتمتُّعُهم بنعيمها يختلف عن النعيم الدنيوي الذي يعكر صفوه خوف انقطاعه.

ثانيا: الابتهاج بصحبة الأهل من الآباء والأزواج والذرية. يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: وفي هذه الآية بشرى لمن كان له سلف صالح، أو خلف صالح أو زوج صالح ممن تحققت فيهم هذه الصفات، أنه إذا صار إلى الجنة لحق به صالح أصوله وفروعه وزوجه. وما ذكر الله هذا إلا لهذه البشرى كما قال تعالى: "**والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء**" [1]– لكن آية الرعد أشمل من سورة الطور التي اقتصرت على ما ينفع الذرية من الأصول.

ثالثا: مشهد التهاني من الملائكة الوافدين يقدمون تهانيهم. يأتون زرافات ووحدانا من كل باب. وسجل القرآن صيغة التهاني: سلام عليكم، هنيئا لكم الأمن الذي حل في قلوبكم وفي محيطكم. فهو سلام شامل سابغ، ويضيفون التنويه بصبرهم على الطاعة، وتجلدهم لقمع دواعي النفس وتزيين الشيطان؛ ويظهرون إعجابهم بما آتاهم الله من فضل لا يشوبه نقص بكلمة جامعة (نعم عقبى الدار) دار عاقبتكم .

26-والذين ينقضون عهد الله....لهم اللعنة ولهم سوء الدار.

هذه الآية تفصل حالة أضداد الذين يوفون بعهد الله. فصرحت مشنعة عليهم أنهم ينقضون ما عاهدوا الله عليه وما التزموا به، ولو كان موثقا ومؤكدا. وتقوى فيهم

---

[1] التحرير والتنوير ج 13ص 131

دواعي الأنانية إلى درجة أنهم لا يرعون الصـلات الإنسـانية التـي يقـوم عليهـا البنـاء الاجتماعي في جميع درجاته الأسرية وما فوقهـا، فـلا يهمهـم أمرهـا. وبالتـالي تكـون اختياراتهم ناظرة دائما إلى مصالحهم الخاصة، لا يمتـد تفكيـرهم إلـى الغايـات البعيـدة النافعة، ولا يقدرون حقـوق الآخـرين ولا ضـوابط الاسـتخلاف المسـؤول عنـه كـل مكلف . فيفسدون في الأرض بتجاوزاتهم، وهذا مظهـر مـن مظـاهر الحضـارة الماديـة المنحرفة، التي عم فسادها البر والبحر والجـو، فبلـغ حـدا أضـر بالإنسـان وبـالحيوان والنبات، مما يهدد بتحولات بيئية تكون كارثة على الأرض ومن عليها.

ثم يأتي الحكم العادل فيهم: قُضِي بـأنهم مبعـدون عـن رحمـة الله وفضـله، ومـن كـل خير يرغب الإنسان في حصوله، وأن مـآلهم يـوم القيامـة المـآل السـيء الجـامع بـين المهانة والعذاب .

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾ كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

البسط : الكثرة والدوام.

يقدر : هو عكس البسط، يضيق.

المتاع : ما يتمتع به ولا يدوم .

الإنابة : الرجوع.

الاطمئنان : السكون بحصول اليقين وانتفاء الشك.

طوبى : حسن.

ذكر الله : يشمل القرآن وذكر الله باللسان.

المتاب : التوبة

بيان المعنى الإجمالي :

تقرر الآية أن التوسعة في الرزق غير مرتبطة بالصلاح، ولم يطلعنا المولى على الحكمة التي يبسط بها الرزق أو يضيقه، وقد يبسط الرزق للكافرين ليزدادوا إثما ثم يكون عليهم حسرة. وقد يبسط الرزق للصالحين لترقى مراتبهم بالشكر والإنفاق. وقد فرح الكفار بما جمعوه من أموال ظنا منهم أن ذلك هو الغاية التي ليس وراءها غاية. وذهلوا عن كون متاع الحياة الدنيا يسرع إليه الفناء ولا يخلو عن نقص وكدر.

يقترح المشركون على رسول الله أن يأتيهم بمعجزات تقنعهم بأنه رسول من عند الله كإحياء آبائهم أو نسف جبال مكة نسفا لتتحول الأرض إلى سهول. رد عليهم القرآن: بأن الهداية أو الضلال لا ترتبط بالآيات، ولكن من فتح عقله وقلبه للآيات الواردة آمن، ومن أغلق عقله وقلبه يحرمه الله ألطافه فيستمر على كفره.

ونوهت الآية بالمؤمنين الذين آمنوا إيمانا لا يداخله ريب ولا شك فسكنت قلوبهم لما آمنوا به. وزادهم القرآن وذكر الله بألسنتهم طمأنينة ورضا، إن ذكر الله تطمئن به القلوب.

إن الذين جمعوا بين الإيمان والاستقامة، فصلحت أعمالهم، يهنأون بالمنزلة الحسنة، وبالعاقبة الطيبة.

إنا أرسلناك إلى أمة الدعوة الشاملة لجميع البشر في جميع الأعصار، على السنة التي بعثنا بها رسلا إلى أممهم في القرون الماضية. وذلك لتتلو على البشر آيات القرآن الذي أوحيناه إليك. ومن تضليل المشركين كفرهم بالرحمن مدعين أن الله والرحمن شيئان. قل لهم: الرحمن هو ربي الواحد الأحد لا شريك له، أعتمد عليه وحده في هدايتي وتسيير أموري، وإليه سبحانه أعود بالتوبة.

بيان المعنى العام :

26-الله يبسط الرزق لمن يشاء ....الدنيا في الآخرة إلا متاع.

لما صرحت الآية السابقة بغضب الله على الذين لا يوفون بما عاهدوا الله عليه، مع أنه يلاحظ أن بعضا منهم قد وسع عليهم في الحياة الدنيا بوفرة الأموال وما يصحبها من نعيم. رفعت هذه الآية هذا اللبس بتصريحها بالقانون الإلهي في التوسعة في الأرزاق أو التضييق فيها؛ فبينت أن فيض المال على الإنسان غير مرتبط بالاستقامة، وليس جزاء عنها. كما أن حبسه غير مرتبط بالغضب ولا هو جزاء عنه. ولكن الله يتصرف بحكمته التي حجب عنا أسرارها. فقد يبسط الرزق للعصاة لتتضاعف آثامهم، ويبسطه للصالحين فتسمو منزلتهم بالشكر وأداء حقوقه،

ويضيِّق الرزق على بعض الصالحين لينالوا ثـواب الصـبر. وفـرح الكفـار بـالأرزاق التي يَسَّرها لهم، فطغوا بما نـالهم، وحسـبوا أن نعـيم الـدنيا هـو الغايـة التـي لـيس وراءها غاية أسمى منها. وما أقصر نظرهم فإن ما ينعم بـه الإنسـان فـي الحيـاة الـدنيا إذا قيس بنعيم الآخرة يبدو تافها، إذ أن نعيم الـدنيا محـدود زمنـه يسـرع إليـه الفنـاء، مشوب بنقص وكدر، أما نعيم الآخرة فقد جمع بين الدوام والكمال.

27←29: ويقول الذين كفروا لولا أنزل ...وحسن مآب.

يسجل القرآن اعتراضات الكـافرين لـيقمعهم بالحجـة البينـة. كـرروا طلـب خـوارق للعادة مدعين أنهم بذلك يتيقنون أن محمدا ﷺ مرسـل مـن ربـه. طلبـوا أن يحيـي لهـم آباءهم، أو أن يحول أرض مكة إلى سـهول كسـهول الشـام صـالحة للزراعـة، ونحـو ذلك من المقترحات التي هي في الحقيقـة قلـب للأوضـاع ونقـض للمنطـق السـليم. ان الله لما بعث رسوله أيده بالمعجزات التي تبقـى مـع الـزمن ولا تنحصـر فـي بيئـة ولا زمن معيَّن. والله في عزته وجلالـه يؤيـد رسـوله بمـا يحصـل بـه اليقـين بصـدقه. وتعالى أن ينتظر ما يقترحه المعرضون عنه ليلبِّـي مـا يطلبـون. ومـن ناحيـة أخـرى فإن الإيمان أو الضلال غير مـرتبطين بـالمعجزات، كمـا قـال تعـالى : "**لقـالوا إنمـا سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون**"[1] ولكن حصـول أحـدهما تـابع للتقـدير، فمـن شاء أن يضله منع عنه ألطافه، فيقوم على عقله وبصـيرته حجـاب يصـده عـن اتبـاع الحق. ومن شاء له الهداية أسعفه بألطافـه فينفـتح قلبـه وعقلـه وروحـه فيسـرع إلـى ربه. ويعود إلى هدايته يستلهم منها ما يزيده ضياء في يقينه ورشدا في سلوكه .

29- الذين آمنوا وعملوا الصالحات....وحسن مآب.

في مقابلة المشركين الذين ضغطت علـيهم الشـكوك وأخـذوا يقترحـون الآيـات المبـددة لحيرتهم، ينوه القرآن بالذين آمنوا وتتابعـت علـى عقـولهم الآيـات فأكسـبتهم طمأنينـة وسكونا، وأكدت يقينهم صارفة وسـاوس الشـياطين. كـان هـذا الحاصـل نابعـا مـن دراسة القرآن والتأمل في مضامينه والأنس بأسلوبه العـالي؛ نعـم تكتسـب القلـوب فعـلا برد اليقـين بمخالطـة القـرآن. فتسـتجيب النوايـا والأفعـال لهديـه وتـتمحض للعمـل الصالح الذي يطبق ما نزل عليهم صـورة وضـمونا. وتعلـن النتيجـة مصـرحة بـأنهم نالوا الخير الكامل الذي ارتبط بهـم (طـوبى لهـم) وعـاقبتهم العاقبـة الحسـنة التـي ترضيهم، وليس فوق الرضا منزلة.

---

[1] سورة الحجر آية 45

30- كذلك أرسلناك في أمة قد خلت ....وإليه متاب.

على هذا النحو أرسلناك إلى أمة الدعوة الشاملة للبشـرية فـي عصـره ومـا يتلـوه مـن الأعصار. وإنك لست بدعا من الرسل فقـد أرسـلنا قبلـك رسـلا مضـوا فـي التـاريخ. إنك مكلف بأن تتلو عليهم القـرآن الـذي أوحينـاه إليـك، والـذي هـو حجتـك الدائمـة ومعجزتك العابرة للزمن. والذي بلغ من الوضوح والبيـان أقصـى غايـات البيـان. ومـع ذلك يواصل المشركون الكفر بالله الذي رحمهم برسالتك.

و من شغب المشركين قولهم: إن محمـدا يـدعو إلـى التوحيـد وفـي الآن نفسـه يـدعو لعبادة الله ولعبادة الرحمن. يـرد القـرآن علـيهم، ويلقـن الله نبيـه مـا يفضـحهم ويـرد شغبهم، قل لهم: هو الرحمن ربي الـذي تـولاني بألطافـه وهـو واحـد لا إلـه إلا هـو، فالله هو الرحمن، لا أعتمد إلا عليه. وإليه وحده أتوب، فهو الذي يقبل توبتي.

وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ :

قطعت به الأرض : ضاقت مسافات الأسفار.

الأمر : التصرف الذي به تتكون الأشياء.

ييأس : يوقن ويعلم .

القارعة : الرزية المباغتة التي تقرع قلب صاحبها لفظاعتها.

بيان المعنى الإجمالي :

هذا القرآن هو أسمى الكتب المنزلة من الله، وهو جار على سنة الكتب السابقة في تضمنها لوحي الله، الذي من شأنه هداية الناس للحق. ولو كان كتاب من الكتب تحولت به الجبال من أماكنها أو قربت به المسافات أو قام به الموتى من أجداثهم فتكلموا لكان هذا القرآن أولى بذلك، لكن هذا ليس من مهمة الكتب المنزلة. بل إن المتصرف في الكون هو الله وحده. فليبق المؤمنون على يقينهم أن الله لو أراد أن يهدي بالقرآن جميع الناس في قسرهم على الإيمان لفعل. ولكن إرادته تعلقت بأن يكون البشر مكلفين يسعدون باختيارهم طريق الهدى، أو يشقوْنَ باختيارهم طريق الضلالة.

سنتواصل علــى المشــركين الكــوارث بســبب كفــرهم وصــدهم عــن طريــق الله، أو تزعجهم بحلولها قريبا من مكان إقامتهم، وسيتواصــل هــذا الانزعــاج حتــى يــأتي وعــد الله بالقضاء على الشرك. إن الله إذا وعد فوعده آت لا ريب فيه.

بيان المعنى العام :

31- ولو أن قرآنا سيرت به الجبال ....إن الله لا يخلف الميعاد.

أعلن القرآن في الآية السابقة أن على البشر أن يخضــعوا لمــا يــأتيهم مــن ربهــم، وإنــه من قلب الأوضاع أن يتحول العبيد إلــى مقتــرحين للأدلــة الماديــة التــي ربطــوا بهــا الإيمان. وتؤكد هذه الآية ذلك المعنى إذ تتضــمن: أنــه لــو وجــد قــرآن يســير الجبــال فيحولها من أمكنتها، ويحولهــا إلــى ســهول تتســع للزراعــة والرعــي. أو يــؤثر فــي المسافات فيختصرها ويقرب الأبعاد. أو يحيــي المــوتى فيكلمــون أخلافهــم. لكــان هــذا القرآن محققا لذلك. لكن ذلك لــيس مــن مهمــات الكتــب المنزلــة علــى الرســل. فــإن التصرف في الكون قام على سنن ضبطها رب العــالمين وأجــرى عليهــا ســير الكــون، ولا تتحول أي سنة من تلك السنن إلا بتحويله سبحانه .

فليطمئن المؤمنون لإيمانهم. ثم اســتفهم القــرآن اســتفهاما إنكاريــا لانتفــاء يقــين الــذين آمنوا: أي إن يقينهم ثابت لم يتزعــزع، إن الله قــادر علــى هدايــة النــاس جميعــا بــأن يقسرهم على الإيمان. ولكنه تعالى لم يرد أن يكون الإيمــان قســريا. لأنــه مخــالف لمــا قدره من التكليف الذي لا يتحقق إلا مــع الاختيــار. وبالاختيــار يتفاضــل البشــر فيكــون منهم الشقي والسعيد. فكلمة ييأس مع أن مستعملة اســتعمالا اشــتهر حتــى أصــبح ســابقا إلى الأذهان في معنى اليقين. والاستفهام الإنكــاري الــداخل علــى النفــي يحصــل منــه الثبوت بطريقة مؤكدة. إنكار عدم يقين المؤمنين، يساوي يقينهم يقينا قويا.

سيستمر الخوف في قلوب المشركين، فكلما خرجــوا مــن مصــيبة حلــت بهــم مصــيبة أخرى، أو تحل قريبا من دار قــرارهم، فينزعجــون لهــا ويتعمــق خــوفهم، والمصــائب متنوعة تزيل عن المشركين الطمأنينة، كــالقحط والأمــراض والإحســاس بفقــدان الأمــن والمناعة. وسيستمر الأمر بهم على هذا النحو إلــى أن يــأتي وعــد الله بنصــر المــؤمنين نصرا يقلع دابر الشرك ويعلي كلمة التوحيد. إن الله إذا وعــد فــإن تحقــق وعــده مؤكــد ولا يخلَف ميعادُه، إذ هو القادر المتصرف في الكون كله.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ

تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ﴿٣٣﴾ لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٖ ﴿٣٤﴾ ۞ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ أُكُلُهَا دَآئِمٞ وَظِلُّهَاۚ تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۚ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الاستهزاء : مبالغة في الهزء والسخرية.

الإملاء: الإمهال.

قائم: رقيب بما يشمل الحفظ والعلم الدقيق.

مكرهم : إخفاء وسائل الضر.

الواقي : الحائل دون بلوغ الضر.

مثل : صفة . كقوله تعالى وله المثل الأعلى أي الوصف الأعلى.

أكلها : ما يؤكل فيها.

العقبى : حال تتلو أخرى قبلها.

بيان المعنى الإجمالي :

يسلي الله نبيه بأن ما يطلبه المشركون من الآيات، هم يعلمون أن الرسول لا يجيبهم إليها، ولكن طلبوها استهزاء به وطعنا في نبوته، يسليه بأن هذا أمر جرى عليه الكافرون مع المرسلين السابقين، وأن الله يمهلهم ثم يسلط عليهم عذابه السريع الماحق، فاعجبوا من قوة أخذه .

وبعد أن تجلى الأمر بقوله تعالى: وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب، كشف القرآن عن تنكرهم ومخالفتهم لما هو بديهي فسألهم منكرا عليهم: أتشركون بالله الذي يطلع على ما يجري في كل نفس من خير أو شر ويجازي عنه، وهو الذي خلقها ويسر لها بقاءها ورزقها، تشركون به أصناما جامدة لا تضر ولا تنفع ؟ قل لهم يا محمد سموهم شركاء فالتسمية لا تخرجهم عن حقيقتهم .

أم أنتم تريدون إنباء الله بما لا يعلم له سبحانه وجودا في الأرض، وهو العليم بكل صغيرة وكبيرة، فعدم علمه سبحانه بهؤلاء الشركاء ينفي وجودهم؛ أم تريدون إثبات

الشركاء بظاهر كلامكم المنافي للحقيقة، والظواهر غيـر مثبتـة. ولكـن الســر الخفــي أن رؤساء المشركين قد ضللوا أتباعهم ليتمكنوا من قيادتهم والتسلط عليهم.

وبذلك استحق التابعون والمتبوعــون أن ينــزل علــيهم العــذاب فــي الحيــاة الــدنيا ذلــة وهزيمة وقلقا، وسيكون عذابهم في اليوم الآخر أعظم مشــقة مــع يــأس مــن وجــود أي وقاية تحميهم من عذاب الله.

إن الصورة التقريبية للجنــة التــي وعــد الله بهــا عبــاده المتقــين، أن الأنهــار الجاريــة الصافية تتخللها، وأن ثمارها لا تنقطع، كلما تناول منهــا المــنعَّمُ شــيئا خلفــه فــي الحــال غيره، وأن ظلالها غير منقطعة. تلكم الجنات هــي عاقبــة المتقــين . وفــي المقابــل فــإن عاقبة الكافرين النار.

بيان المعنى العام:

32- ولقد استهزئ برسل من قبلك ....فكيف كان عقاب.

هذا أمر محقق، حاصله أن الرسل السابقين لما قاموا بتبليغ ما أنزل إليهم قابلهم المشركون بالسخرية والاستهزاء، جرى هذا مع نوح ومن جاء بعده .قال تعالى في نوح: **كلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه**، ومع موسى لما قارن فرعون نفسه به فقال: **أم أنا خير من هذا الذي هو مهين ولا يكاد يبين**. فأراد الله أن يسلي نبيه ويثبته حتى لا يتأثر بما يقوم به المشركون من إيرادات لا يقصدون تحقيقها، لكن يرمون إلى الاستهزاء به بإظهار عجزه عن تلبية مطالبهم.

والله مع رسله يؤيدهم، فيمهل الكافرين ولا يعجل لهم بالعقوبة، ثم يستأصلهم فيأخذهم أخذا سريعا لا ينفلتون منه، ودعا كل سامع لاستحضار عذابه ليتعجب من شدته وإحاطته.

33-أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت ...و من يضلل الله فما له من هاد.

كان الجواب الذي أمــر رســول الله ﷺ أن يواجــه بــه المشــركين قاطعــا، فــي الآيــة السابقة: **وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هــو عليــه توكلــت وإليــه متــاب.** المتضمن شقين تسجيل كفرهم، وتسجيل ما اســتقر فــي قلــب رســول الله مــن الحقيقــة: أن ربي هو الذي تتابعت عنايته بــي، بمــا تفيــده كلمــة ربــي مــن الرعايــة والعنايــة والألطاف، وأنه واحد لا شريك له، وأن تعلقه به هــو تعلــق بصــاحبه فــي نشــاطه، ولا ينفك عن العودة إليه. ومن آثار ذلك ما تلقــاه مــن القــرآن ومــن الــوحي الهــادي إلــى سواء السبيل.

وأتبع القرآن هذا بإظهار فساد تفكير المشــركين، وذلــك بإيقــاظهم بســؤال مرتــب علــى الجواب القاطع السابق، بالمقارنة بين[رب محمد المطلــع علــى كــل كبيــرة وصــغيرة

العالم بما يجري فـــي نفــس الإنســان، مشــاعره وإراداتـــه ومقاصـــده، يتـــولاه بـــالحفظ ويمده بالإمدادات المتنوعة الحافظة لكيانه النفســي والجســمي والروحـــي. وهـــو الخـــالق الرازق، الشامل قيامه على الإنسان في دنياه بما ييســره لـــه مـــن عـــون وألطـــاف، وفـــي آخرته بجزائه عما قام به؛ ولا يخرج عن علمه شـــيء مـــن ذلـــك، فهـــو الـــرب العـــادل يبشر بقوله: **(القائم على النفس بما كسبت)** الصـــالحين بحســـن الثـــواب، ويهـــدد ويوعـــد الضالين بما هم أهل له من سوء العقاب] وبـــين أصـــنامهم ومعبـــود اتهـــم العـــاجزة عـــن رعاية نفسها فضلا عن حماية مـــن يلـــوذ بهـــا. وهـــذه المقارنـــة تظهـــر ســـفه عقـــولهم باتخاذهم شركاء لله في ألوهيته، قل لهـــم :ســـموهم آلهـــة فإنـــه لـــيس لهـــم مـــن الكمـــال والقدرة والخلق أي شيء، ليس لهم إلا تسميتكم لهـــم آلهـــة، تســـمية لا حقيقـــة لهـــا. ومـــا كانت الأسماء موجدة لما لا وجود له فـــي الواقـــع. أم تقصـــدون إلـــى إنبـــاء الله بوجـــود شركاء، والله المحيط علمه بكل مـــا حوتـــه الأرض، لا يعلـــم أن لـــه شـــريكا، وهـــو مـــا ينفي وجود الشريك إذ لو كان موجودا لعلمه. كمـــا تقـــول لآخـــر: إنـــك تملـــك دارا فـــي مكة، فيجيبك لو كنت أملكها لعلمت، مما يفيد نفي التملك.

أم تريدون إثبات الشركاء بقـــول ظـــاهره مخـــالف لمضـــمونه؛ وإذا كـــان ظـــاهر الكـــلام يناقض مضمونه فذلك أصرح ما يثبت كذبه وبطلانه.

وإنك إذا تعمقت ليتضح لك أسباب اتخـــاذهم شـــركاء لله، فإنـــه يتبـــين لـــك أن رؤســـاءهم زينوا لهم عبادتها والتقرب إليها، ليذهبوا بمـــا عنـــدهم مـــن عـــزة، فيكـــون الـــتحكم فـــيهم سهلا. ولذا تجد أول هدف للمســـتبدين الحيلولـــة بـــين أتبـــاعهم وبـــين عقيـــدة التوحيـــد، فيحرضون على التعطيل وعلى انتشار الخرافة، وعلى التعلق بالمادة والهوى.

وسجل القرآن في النهاية ما بلغوه من الفســـاد أنهـــم وقفـــوا حـــاجزا بـــين النـــاس وإتبـــاع سبيل الهداية والأخذ بالصراط المستقيم.

لقد حرمهم الله ألطافه، وتمسكوا بما يعتقدون أنه يجلب لهم النفع العاجل فضلوا،

34- لهم عذاب في الحياة ....وما لهم من الله من واق.

وإذ بين القرآن عمل الرؤســـاء علـــى إضـــلال تـــابعيهم، وانقيـــاد التـــابعين للضـــلالات فأشركوا بالله، والشرك ظلم عظـــيم، أومـــأ إلـــى اســـتحقاقهم ســـوء الجـــزاء فـــي قولـــه تعالى:" **ومن يضلل الله فما له من هاد**" ثم صرح بـــه فـــي هـــذه الآيـــة: أن الله خصـــص لهم عذابا في حياتهم الدنيا من القلق والحيـــرة والذلـــة والهزيمـــة، وذلـــك العـــذاب النـــازل بهم هو عذاب هين بالنسبة لما يترصدهم من عـــذاب الآخـــرة. ولا يجـــدون واقيـــا يقـــيهم منه فيجمع لهم اليأس والنكال.

35- مثل الجنة التي وعد المتقون ...وعقبى الكافرين النار.

أمور الآخرة من نعيم أو عذاب نمط غير ما نعلمه في الدنيا، ولكن القرآن قرب إلينا حسب مداركنا ما يلقاه البشر يوم القيامة ليحرض الصالحين على مواصلة تقوى الله والعمل بما يرضيه، وليهدد الكفرة حتى يقلعوا عن فسادهم.

و هذه الآية أتت على تلكم الطريقة، فمثلُ الجنة التي وعدها الله المتقين ووصفُها: أنها تتخللها الأنهار الصافية الجارية، وإنتاجها غير منقطع على خلاف ما عليه الإثمار في الدنيا، إذ كل ثمرة تقطف لا يخلفها إلا بطن آخر عند أمده. وأشجارها كثيفة ملتفة فتكون ظلالها متصلة، وهو عزيز وجوده في الدنيا، وأتم ما تكون عليه الجنات، إذ لا تكون على مساحات كبيرة.

وإذ تهيأت الصورة وقُرّبت لاستحضارها، تؤكد الآية أن هذه الجنة، هي العاقبة التي سيكون إليها مآل المتقين. وفي المقابل فإن عاقبة الكافرين نار جهنم بما تجمعه من عذاب جسمي ونفسي، أعاذنا الله منها بفضله وكرمه.

وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ
بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾
وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيًّاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ
مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا
وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾ يَمۡحُواْ
ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأحزاب : جمع حزب، جماعة فيها غلط وتعصب.

مآبي : رجوعي.

حكما : ما تضمنه القرآن من الحكمة والمعاني.

الولي : النصير.

الواقي: المدافع الحافظ.

الذرية : النسل.

أجل : وقت محدد.

كتاب : مكتوب مضبوط موثق.

يمحو : المحو الإزالة، وتطلق على التغيير والتبديل.
التثبيت : ضد المحو.
أم الكتاب : أصل الكتاب، العلم الإلهي بالنهايات.

بيان المعنى الإجمالي :

اختلف تأثير القرآن في أصحاب الكتاب اليهود والنصارى، فبعضهم فرح بما أنزله الله عليك، هذا الحق الذي نفى التغييرات التي حرفت الديانتين فابتعدت بهما عن المنهج الذي جاء به موسى وعيسى فاطمأنوا. وبعضهم تعصب وكون كتلة رفضت الحق الذي جئت به. قل لهؤلاء: لم يأمرني ربي إلا بتركيز الأصل الذي يقوم عليه الدين وهو تخصيص الله بالعبادة، فأنا لا أدعو إلا إلى الإخلاص له سبحانه، وإني أعود إليه دائما.

و على هذا النحو من الإنزال أنزلنا عليك القرآن حالة كونه جامعا لمنهج الحكمة ولأصولها، وحالة كونه بلسان عربي، لما في هذه اللغة من مزايا، بها جمعت بين الثبات والتطور. واحذر أن تستجيب لمقترحاتهم الصادرة عن هواهم فتطلب مني أن أؤيدك بما يطلبونه من الآيات، إن الأمر خطير تفقد به النصير والحامي. وهو في الآن نفسه تحذير للمؤمنين: أيها المؤمنون احذروا أن يستنزلكم الكافرون لتتراخى مقاومتكم لما يدعونكم إليه من هواهم، فإن من يتراخى فيتبعهم لا يجد نصيرا ولا حاميا من دون الله.

و من شغب المشركين في مقاومتهم للدعوة أن اعترضوا على كون محمد مرسلا من ربه، لأنه تزوج ولأنه أنجب. فرد الله عليهم بأنه قد تتابعت رسل الله للبشرية في التاريخ، وأنهم كوّنوا أسرا فتزوجوا وأنجبوا، فأنت لست بدعا من الرسل. وإذا كان عيسى لم يتزوج ويحيى كان فاقد الرغبة في الاتصال بالنساء فذلك استثناء وليس القاعدة.

عود إلى رد ما اقترحوه من الآيات، فأثبتت الآية أن كل رسول يقدم المعجزة التي تأيد بها من الله ولا يستطيع أن يأتي بغيرها. وإظهار أي معجزة إنما يتم في الأجل المقدر سابقا بالخصوصيات الذي أرادها الله. وعلى هذا النحو تجري جميع المظاهر في الكون؛ فالله يتصرف بحكمته فيثبت ما شاء تثبيته ويمحو ويزيل ما يشاء إزالته، فعلم البشر أو الحفظة لا يبلغ النهايات التي هي بيد الله وحده وتحت تصرفه. وهذه النهاية هي محفوظة في أم الكتاب الذي هو علمه الأزلي.

بيان المعنى العام :

36- والذين آتيناهم الكتاب ....وإليه مآب.

دعا النبي ﷺ البشر جميعا إلى الدين الذي أوحاه الله إليه، فـآمن بـه مـن المشـركين مـن يسر الله له الاهتداء، وقد وضحت أمرهم الآيـات السـابقة؛ وواصـل بعـض المشـركين ما هم عليه، وقد ناقشتهم الآيات السابقة وهددتهم.

و دعا أهل الكتاب، فمنهم من آمن به ووجد فـي نفسـه انشـراحا، بعـد مـا كـان يلفهـا القلق من التغييرات التي أدخلها رجال الدين على صـفاء العقيـدة بعـد نزولهـا. فوجـدوا فيما أنزل على رسول الله ﷺ ما خلّص العقيـدة مـن التراكمـات التـي أبعـدت اليهوديـة والنصرانية عن وضوح الوحدانية. وبعض أهـل الكتـاب تعصـبوا للصـورة التـي هـم عليها كاعتقاد النصارى أن عيسـى عليه السلام ابـن الله، واعتقـاد اليهـود أنـه كـاذب ولـيس رسولا، وتمسكهم بما ورد في التوراة من تجسيم الله.

قل لهم يا محمد قولا واضحا يكشف عن منهجك ويبين العقيـدة التـي تـدعو إليهـا: إنـي لم أؤمر إلا بشيء أصلي هو قـوام دعـوتي، أن أفـرد الله بالعبـادة، وأنفـي أن يكـون له شريك لا في ذاته ولا في ملكه ولا في تصـرفه، إليـه وحـده أدعـو البشـر جميعـا للإيمان به ولتطبيق ما ورد في كتابـه، وإليـه أرجـع فـي كـل أمـر وملمـة أسـتغيثه لينصرني ويثبتني.

37- وكذلك أنزلناه حكما عربيا....من ولي ولا واق.

إنه على هذا النحو من العناية فـي الإنـزال، أنزلنـا القـرآن حالـة كونـه متضـمنا أولا للحكمة، ترتقي به عقول الناظرين فيه، ويعطيهم منهجـا فـي الفكـر يمكـنهم مـن إدراك الحقائق والفهم الصحيح العميق لما يعترضهم فـي حيـاتهم. وثانيـا عربيـا فـي لسـانه، هذه اللغة التي بفضـل خصائصـها الذاتيـة ومرونتهـا اسـتطاعت أن تتحمـل كـلام الله وأن تبلغه للناس، وأن تبقى قدراتها البيانية مع الـزمن. وفيـه إيمـاء إلـى المشـركين أن الله أعزهم لما اختار العربية لغة لقرآنه، فكـان مـن واجـبهم أن يسـرعوا إلـى الإيمـان به ونصرة نبيه." **لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون**"[1] .

وتختم الآية بتحذير المؤمنين على أبلغ وجه من التساهل في الثوابت مع المشركين، لتقريبهم من الإسلام، فإنهم يكيدون لهذا الدين، ويقدمون طلبات يعلقون عليها دخولهم في الدين، ويوهمون المسلمين أنهم إذا تنازلوا فقبلوها ستتوحد الكلمة ويقوى الدين بذلك. وما يعرضون إلا أهواء نابعة من الباطل وسائرة مع الضلال، بعيدة عن الحق. وللتحذير التحذير البالغ

[1] سورة الأنبياء آية ١٠

أسند الاتباع إلى رسول الله المعصوم، ليظهر القرآن أنه إذا كان الرسول على جلالة قدره ومكانته لا يغفر له اتباع أهوائهم فكيف بغيره.

وحمله بعضهم على أن الخطاب مقصود به النبي ﷺ قصـــدا أوليـــا، حتـــى لا ينســـاق إلـــى طلب ما اقترحوه من الآيات. اعلم يا محمد أنك، لشـــدة حرصـــك علـــى انتشـــار الإيمـــان، لو اتبعت مطالبهم النابعـــة مـــن الهـــوى، فتوجهـــت بالطلـــب مـــن الله أن ينـــزل علـــيهم الآيات التي اقترحوها، فإنك لا تجد نصيرا ينصرك ولا مـــن يقيـــك مـــن عاقبـــة دخولـــك في ذلك الأمر. وينســـحب المفهـــوم علـــى المـــؤمنين حتـــى لا تتراخـــى عـــزائمهم فـــي مواجهة الكفر الذي لا يضمر للإسلام إلا الشر.

38←39: ولقد أرسلنا رسلا من قبلك....وعنده أم الكتاب.

كانت المعركة مع الشرك معركة شرسة، يعملون بكل وســـيلة علـــى تشـــكيك النـــاس فـــي صدق الرسالة، ويحاولون أن يختلقوا أشياء موهومة ليـــؤثروا بهـــا علـــى الـــدهماء. فكـــان مما اعترضوا به: أن النبي ﷺ كون أســـرة فلـــه زوجـــة هـــي أولا: أم المـــؤمنين الســـيدة خديجة رضي الله عنهـــا، وأنجـــب منهـــا. وقـــالوا إن مقـــام النبـــوة يتنـــافى مـــع تكـــوين الأسرة. فرد الله عليهم بأن ما قدموه هو كـــلام فاقـــد لكـــل أصـــل، ولكـــل منطـــق. إذ أن سنة الله في بعثة الرسل: أنه يأذن لهم فـــي الـــزواج وينجبـــون، وإن المعترضـــين عربـــا ويهودا ونصارى ينتسبون إلـــى إبـــراهيم. ولـــولا أن إبـــراهيم تـــزوج أكثـــر مـــن امـــرأة وأنجب لما كان لهم وجود ولا لبني إسرائيل، وما عيسى إلا واحد من ذريته عليه السلام.

ثم رد القرآن على اقتـــراحهم الإتيـــان بآيـــة حســـب مقاييســـهم؛ إن ســـنة الله أيضـــا فـــي الرسل أنهم يقدمون معجزاتهم التـــي أيـــدهم الله بهـــا، ولا يســـتطيعون أن يتأيـــدوا إلا بمـــا قدره الله من خصوصية الآية التي عينها وأنجزها، هـــذه الآيـــة التـــي يظهرهـــا الرســـول تبعا للإذن الإلهي له، ويعرضها على البشر ليثقوا في صدقه ويتبعوه.

ثم أظهر القرآن قاعدة من قواعد التصرف الإلهـــي فـــي الكائنـــات ســـواء أكـــان إظهـــار المعجزة المؤيدة أو ظهور أي أثر فـــي الوجـــود: حاصـــل ذلـــك أن لكـــل حـــادث أجـــل مضبوط لا يتقدم عنه ولا يتأخر، قد وثـــق توثيقـــا لا يتصـــرف فيـــه بإظهـــاره أو إزالتـــه إلا الله سبحانه. ثم فصل هذه القاعـــدة: أن الله يمحـــو ويزيـــل مـــا شـــاء إزالتـــه، ويثبـــت ويبقي ما شاء إبقاءه. على معنى أن ما يحدث من الحـــوادث تبعـــا للعلـــم الإلهـــي تترتـــب عنه نتـــائج، والنتـــائج مثبتـــة فـــي علـــم الله، ثـــم إن اســـتمرار تلـــك النتـــائج أو قطـــع استمرارها هو أيضا في علم الله وينفذ بقدرته. خذ لـــذلك مـــثلا، ينـــزل الله حكمـــا فيبقـــى ثابتا إلى الوقت الذي قدر فيه انتهاء العمـــل بـــه فيمحـــوه مـــن التشـــريع، ويعمـــل المـــرء

عملا سيئا فتثبت نتائج عصيانه في صحائفه، ثم يهتدي فيستغفر ويفعل الخير فيمحو الله عنه سيئاته، ويعمل الإنسان بعمل أهل النار عقيدة أو سلوكا، فيكون ما يعلمه الملائكة والحفظة أنه من أهل النار، ثم يهتدي ويتوب ويصلح ما أفسد فيكتب أنه من أهل السعادة. وكذلك العكس. ولا تغير في علمه سبحانه، وإنما يظهر أثر علمه في الأجل الذي حدده مسبقا. وهذا ينسحب على جميع الظواهر الكونية والتشريعية. فقوله ما يشاء عام عموما واسعا لا يستطيع أحد حصره ولا الإتيان على مضامينه.

وعنده سبحانه، مخزون في علمه ما سيثبته وما سيغيره في آجاله، وهي النهايات التي لكل ظاهرة، وذلك لا يقبل التبديل ولا التغيير بل ينفذ حسبما هو مثبت في أم الكتاب يختص الله به ولا يطلع عليه أحدا، والذي هو على أفضل التفاسير: علم الله الأزلي بما سيتغير وما يثبت في النهاية.

وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا معقب : لا راد ولا مناقض

بيان المعنى الإجمالي :

تضمنت الآية وعدا لنبيه بأن الله ناصره ووعيدا للمشركين: أنه سيهزمهم. وأن الله سيقر عينك ببعض الانتصارات، وذلك تحت مظلة قوله تعالى **لكل أجل كتاب**، فما لم يتحقق من الانتصارات في حياتك فذلك لا يزعجك ولا يسبب لك أسفا، لأن مهمتك هي إبلاغ الوحي، أما حساب الكافرين حسابا يكون جزاء عن كفرهم فذلك مما اختص به الله ينفذه حسبما قدره.

و العجب من المشركين أنهم يرون بأعينهم أن الخناق يضيق عليهم، وأن ما حولهم من سكان الأراضي يدخلون في الإسلام ويتخلون عن الشرك. إن الله قد حكم بنصر

دينه، وخذلان الشرك، وما حكم به الله لا يوجـد مــن يســتطيع نقضــه، وتنفيــذه ســيكون سريعا في الأجل الذي قدره لا تردد فيه.

وتلك هي الطريقة التي جرى عليها الكفرة من الأمم التي مضت، عندما يطبق عليهم العناد، أنهم يلجؤون إلى المكر والتدبير الخبيث لصرف الناس عن الهدى. إن مكرهم سيحبطه الله ويظهر الحق، سينقلب مكرهم عليهم بقدرة الله التي لا تغلب؛ من شأن الماكرين أنهم يحبكون دسائسهم في خفية حتى لا يتيقظ لها من أرادوا إضراره، والله مطلع على سرائرهم، عليم بمكرهم، سيحاسبهم عليه وسينكشف لهم في النهاية من يفوز بالعاقبة الحسنة، سيتأكدون من خسرانهم، وسوف يعلمون ويشاهدون عاقبة المؤمنين في الدار الآخرة.

ومن مكرهم أنهم يضللون الدهماء بادعائهم أنهم لم يؤمنوا بمحمد لأنهم تأملوا فوجدوه ليس رسولا، ولو ثبتت رسالته لاتبعوه. وفي الحقيقة إن الذي أضلهم هو العناد وعدم التأمل في معجزاته. ويرد عليهم القرآن ردا قاطعا فيأمر الرسول أن يقول لهم: يكفيني الله الذي يشهد لي بصدقي، فإنه من كذب على الله لا بد أن يفتضح ويخيب، كما يشهد سبحانه بفجوركم وضلالكم وتمردكم على الحق. كما أنه يشهد لي العلماء الراسخون الذين درسوا الكتب السماوية السابقة ووجدوا فيها نعتي وبالتالي صدق رسالتي.

بيان المعنى العام :

40- وإن ما نرينك ...وعلينا الحساب.

ترتبط هذه الآية بقوله تعالى: لكل أجـل كتـاب فتثبـت أن مـا وعـد الله بـه نبيـه مـن النصر والتأييد وما أوعد بـه المشـركين مـن الهزيمـة والعـذاب آت لا محالـة. ولكـن الأمد الذي سينفذ فيه الوعد أو الوعيد هو فـي علـم الله لا يتقـدم عـن أجلـه ولا يتـأخر عنه كما تقتضيه الآية **لكل أجل كتاب**. إن الله يقر عينك بتحقـق بعـض مـا أوعـد الله بـه المشركين فتشاهد بعضا من هـزائمهم فـي الحـرب، وسـيحرمهم الله مـن ألطافـه ممـا يعرضهم إلى أنواع من النكبات في أموالهم وفي أبـدانهم، وسـينفذ الـبعض الآخـر مـن الوعيد بعدك، فلا تأس. ذلك أن مجال مهمتك الشـريفة التـي تتحملهـا هـي إبـلاغ مـا أو حيناه إليك وقد قمت بذلك، وأما عقابهم علـى جميـع مـا قـدموا وحسـابهم الحسـاب الشديد على كفرهم وسوء فعالهم فهو لله ينفذه متى شاء كما يشاء.

42– لقد حجب العناد عن أبصـارهم مـا هـو مشـاهد حاضـر أمـام أعيـنهم، فسـألهم سؤال إنكار ليوقظهم مما ران عليهم من الغفلـة عـن إدراك الواقـع والاعتبـار بـه. ألـم يروا ما أيد الله به الإسلام الذي أخذ ينتشر ويضـيق الخنـاق كـل يـوم علـيهم، وتخـرج مساحات من الأرض من سلطانهم وتنضم إلـى سـاحة الإسـلام ؛ ممـا ينبـئ مـن لـه

بصيرة أن ما حل بجيرانهم سينتهي إلـيهم، وأن الإسـلام سينتصـر وتكـون لـه وحـده الكلمة. بهذا حكم الله، وحكمه ثابت لا يقبل الـنقض ولا تسـتطيع أيـة قـوة الاعتـراض عليه أو التدخل لتحويلـه أو الشـفاعة فيـه. وأن حسـاب رب العـزة سـريع، فإمهـالهم إنما هو لأجل قريب جدا إذا قيس بعمر الكون. وإن يومـا عنـد ربـك كـألف سـنة ممـا تعدون.

42-وقد مكر الذين من قبلهم...لمن عقبى الدار.

منهج الكفر لما انفصل عن الحق واعتمد الهـوى، مـنهج واحـد لا يختلـف فيـه وضـع من مضى عن وضع المشركين مـن العـرب. مضـت أمـم قـابلوا دعـوات المرسـلين بالتصدي لهم بأنواع من الحيل والكذب والمراوغـة، قـاوموهم فـدبروا الاعتـداء علـيهم وعلى أتباعهم جسميا ونفسيا. إن مكرهم ضـعيف محـدود، هـددهم القـرآن بـأن المكـر المحيط بهم الذي لا يجدون منه فكاكا، هو المـآل الـذي قـدره لهـم حسـب مـا تكنـه أنفسهم، إن ما يجري في بواطنهم من مكـر يظهرونـه تـارة ويخفونـه تـارة أخـرى لا يغيب منه شيء عن الله فهو مطلع عليـه، وسـيجزيهم بـه جـزاء وفاقـا. وعنـدها يعلـم الكافرون علم اليقين من يفوز في الدار الآخـرة، بمعنـى أنهـم سـيتحققون أن الخسـران سيحل بهم، وأن السلامة والكرامة للمؤمنين يوم القيامة.

43 -ويقول الذين كفروا ....علم الكتاب.

من مكر المشركين الذي ألحقهم بمن قـبلهم مـن الضـالين فـي الآيـة السـابقة وهـددهم بسببه، ما دلت عليه هذه الآية التي تتضمن أن المشـركين يزعمـون أنـك لسـت رسـولا من عند الله، على معنى أنهم لو تحققوا أنـك مرسـل مـن عنـد الله لآمنـوا بـك. وهـم يقصدون إلى التأثير على الدهماء حتى لا يتبعوا ما أنـزل إليـك، وإن كـانوا فـي بـاطن الأمر هم أعرضوا عن التدبر في القـرآن وعـن النظـر فيمـا جئـت بـه مـن الحكمـة والآيات البينات الشاهدة بصدقك، إن العنـاد قـد حجـب بصـائرهم عـن الهـدى، ومـا تخفي صدورهم أكبر. ولـذلك تـولى القـرآن إجـابتهم فـأمر النبـي ﷺ أن يقـول لهـم :يكفيني الله الذي لا تخفى عليه خافية، الذي لا يهمـل مـن تجـرأ وكـذب عليـه، كمـا لا يهمل من رفض الحق وعمل علـى سـيادة الباطـل، يكفينـي سـبحانه أن يكـون شـاهدا بيني وبينكم. ومع شهادة الله شهادةٍ من تعمق فيما أنزلـه الله مـن الكتـب السـابقة، وعلـم محتواها، وما تشير إليه وما بشـرت بـه مـن رسـالتي، هـؤلاء العلمـاء الـذين كنـتم تعودون إليهم لمعرفة أسرار الكتب المنزلـة، وتسـتنبئونهم عـن مضـامينها؛ واليـوم لمـا

شهدوا بما علموا كـذبتموهم وكفـرتم، فشـهادتهم فضـحت سـرائركم وتشـويهكم للحـق النازل من عند الله على لساني.

وفي ختام السورة تنويه بالعلم والعلماء الصـادقين. فالرتبـة التـي أحلهـم القـرآن إياهـا قد سـمت إلـى مسـتوى أن الرسـول تأيـد بشـهادتهم. وفيـه إشـارة ذكيـة للمـؤمنين المتمسكين بالحق ليعتمدوا على ما يرشدهم إليه العلماء ويخبرونهم به.

ســـورة إبراهيـــم

سورة إبراهيم هي السورة الرابعة عشـرة فـي ترتيـب المصــحف. وأجمـع المفســرون وكتاب المصاحف على تسميتها بهذا الاسم. نزلـت علـى رسـول الله ﷺ بمكـة. عـدت رتبتها في النزول السبعين. نزلت بعد سورة الشورى وقبل سورة الأنبياء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓر ۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْءَاخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

الإذن : الأمر بفعل يتوقف على رضا الآمر.

الويل :الهلاك وما يتصل به من موجباته من شدة وبلاء.

يستحبون : يحبون حبا شديدا، يقصد منه أنهم يؤثرون.

يصدون عن سبيل الله : منع الداخلين في الإسلام.

ضلال بعيد : تعمقوا فيه تعمقا لا مطمع في خروجهم منه.

بيان المعنى الإجمالي :

نوه الله بما جمعه في القـرآن مـن مزايـا، فهـو منـزل مـن العـالم العلـوي لا دخـل للرسول في كلمة ولا آية ولا سورة منه، وأنه وكَل نبيـه الـذي انتخبـه مـن بـين البشـر لتبليغه وبيانه. وأن الغاية المقصودة من إنزاله، هي إخـراج النـاس مـن الظلمـات التـي كانت مطبقة عليهم من الشرك ومن الحيرة في المبـدأ والمصـير، وفـي نظـام العلاقـات الأسرية والاجتماعية، ومع الكون، إخـراجهم إلـى طريـق بـين واضـح هـو مـنهج الله العزيز الذي لا يغلبه شيء، المتفرد بالحكمة البالغة، فكـان صـراطه الـذي بينـه صـالحا لكل زمان ولكل مكان وللبشرية جميعها على اختلاف مستوياتها الفكرية وبيئاتها.

والهلاك للكافرين الذين سيحل بهم من العذاب الشـديد. إن هـذا العـذاب هـو جـزاء مـا اختاروه لأنفسهم من إيثـار الحيـاة الـدنيا وتقـديم مغرياتهـا علـى الفـوز فـي الحيـاة

الآخرة. هم يجتهدون لمنــع الــراغبين فــي الإســلام بمــا يقــدرون عليــه مــن تضــليل وتأثير. إنهم يعادون الطريــق المســتقيم طريــق الله، ويعملــون علــى أن تسـير حيــاتهم الخاصة والحياة بصــفة عامــة علــى اتبــاع الشــهوات والأنانيــة والبغــي. لقــد تمكــن الضلال من قلوبهم وعقولهم.

بيان المعنى العام :

1←2:الر كتاب أنزلناه إليك ....للكافرين عذاب شديد.

افتتحت السورة بالحروف المقطعة التي ســبق مــا يتعلــق بهــا فــي أول ســورة البقــرة. وأتبعت بالتنويه بالقرآن بذكر بعض من خصائصه:

1) هذا كتاب، ضبطت ألفاظه وحروفه ووثّقت. فكان النبــي ﷺ كلمــا نــزل عليــه شــيء من القرآن دعا كتبة الوحي وأمــرهم بتوثيــق مــا أنــزل عليــه كتابــة، فــاجتمع لتحقــق سلامته من التغيير أمران: الحفــظ فــي الصــدور، والكتابــة. وهــو مــا لــم يتــوفر لأي كتاب منزل قبلــه، فتعرضــت للتغييــر والتبــديل، وســلم القــرآن. ذلــك أن الله أراد أن يكون القرآن الخاتم لوحيه والحافظ له، المخاطب به البشرية إلى يوم الدين.

2) أنزلناه: هو وارد من العالم العلوي، وليس للرســول ولا لغيــره أي أثــر فــي نصــه. وأن المنزّل له هو المتفرد بالعظمة (نا) نحن.

3)إليك: للإشارة من أول الأمر علــى أن النبــي ﷺ هــو الــذي يتــولى بيانــه والصــورة العملية لهداه. ولذا قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كان خلقه القرآن.

4) تحديد الهدف من إنزاله: إخراج الناس مــن الظلمــات إلــى النــور. ذلــك أن القــرآن قد ساعد الإنسان على الخروج من ظلمات الجهل وما يصــحبه مــن حيــرة وتخــبط، بمــا ركزه من عقيدة التوحيد، والكشــف عــن المبــدأ والمصــير، وتوحيــد التشــريع المــنظم للحياة في جميع شعبها. فحــدد موقــع الإنســان فــي الكــون، وصــلته بخالقــه وبالبشــر وبالكون جميعا، وكشف له عن مصيره بعد موته. وهــذه كلهــا أســئلة محيــرة تــاه فيهــا العقل البشري، وانتهى إما إلى تصــورات خياليــة لا ســند لهــا، وإمــا إلــى الاعتــراف بالحيرة والغموض. وقــام القــرآن بــإخراج النــاس مــن تلكــم الظلمــات إلــى الرؤيــة الواضحة المنسجمة، وسما الإنسان لما اختلط بالقرآن، فأشــع فــي عقلــه ومشــاعره نــورا يبدد الغموض، ويعطيه منهجا متناسقا.

3-الذين يستحبون الحياة الدنيا ...في ضلال بعيد.

إن الصراط المنوه به هو صراط الله المالك لما حوته الســماوات، ولمــا هــو فــي بــاطن الأرض ولما هو على ظهرها. وإن مــن يتأمــل فــي القــوانين التــي أحكمــت مســارها

والعلاقات فيما بينها، ليقتنع بأن الصراط الذي هدى إليه عباده هو الصراط الذي يضمن لهم السعادة في الدارين. إذ هو صراط العليم الذي شمل علمه كل شيء. الحكيم الذي ظهرت حكمته في بناء الكون. قد قصرت المعارف البشرية أن تدرك أي جزئية في هذا الكون وفي الإنسان إدراكا تتضح به كل الجوانب الظاهرة والخفية. وكلما تقدم العلم البشري تأكد الاقتناع بقوله تعالى: **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا**. العلم المبني على الحكمة والنظام لا على الصدفة والفوضى.

إنه إذا كان صراط الله على الحال الذي وصفناه، فإن الكافرين الذين رفضوا إتباعه أحقاء بأن يسلط عليهم ما يهلكهم، أو أن يسلط عليهم الدعاء بذلك. وفسرت الآية الويل: بأنه العذاب الشديد الذي يذهب السامع في تصور قوته وإذايته كل مذهب. ثم إن هذا الجزاء أو الدعاء ما كان ليلحقهم إلا لاختلال المعيار في اختيارهم ثم المضي فيما اختاروه. لقد آثروا الحياة الدنيا على الآخرة إيثارا جعلهم كلما تقابلا يقدمون الحياة الدنيا ومطالبها على الحياة الآخرة ومقتضياتها. ثم إنهم يعملون كل أنواع المكر ليمنعوا من تفتحت عقولهم وقلوبهم للإيمان. هذ فهم وطلبهم أن تسير الحياة على منهج مُعْوَجٍّ وطريق غير مستقيم. ذلك أن الكفر يدعو إلى اتباع الشهوات وتحكيم الغريزة، وإيثار الأنانية والمصلحة العاجلة، وهذه لا تتحقق إلا بالمراوغة، وطمس الحقيقة، والحيلة، وعدم التقيد بالقيم الخلقية الرفيعة.

إن الكفار قد انغمسوا في الضلال، وتمكن منهم فساروا في مسالكه إلى أقصى غاية، مما يحول بينهم وبين الخروج منه.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

اللسان : اللغة التي يتم بها التخاطب.

القوم : الأمة والجماعة الذين يتكلمون بلغة واحدة.

أيام الله : هي الأيام التي يسلط فيها عذابه أو ينعم فيها بخيراته.

يسومونكم سوء العذاب : يبغونكم العذاب السيء.

بلاء: اختبار، ويكون بالخير والشر، أكثر ما ورد في الشر.

تأذن : أعلن.

الغني : الذي لا يحتاج إلى شيء.

الحميد : المحمود فعلا حمدتموه أو لم تحمدوه.

بيان المعنى الإجمالي :

من سنن الله في بعثة الرسل، أن الوحي الذي يتنـزل علـيهم فيبلغونـه لا يكـون إلا بلغـة قومهم، ويردفون إلى التبليغ البيان بما يُحَصِّـل الاقتنـاع. ثـم إن أقـوامهم يفترقـون بعـد ذلك، فمنهم من يغلق عقله عن التدبر فيمـا جـاء بـه المرسـلون، وبالتـالي رفـض كـل المعجزات، فيحرمهم الله عونه ويغلق عليهم الضلال أبوابه فـلا يجـدون منـه مخرجـا.
ومنهم من يقبل على ما جاءه من ربه على لسـان رسـله بقلـوب متفتحـة، متأملـة فـي الحق مذعنة له فيفتح الله عليهم من ألطافـه مـا يثبـتهم علـى الحـق. وقـدرة الله علـى التصرف في المخلوقين لا يعوقها شيء لأنـه العزيـز الـذي لا يغلـب، وقدرتـه تسـير البشر والعوالم بحكمته الكاملة.
أرسل الله موسى ﷺ مؤيدا بالمعجزات، كمـا أرسـل محمـدا مؤيـدا بمعجـزة القـرآن. وأمره أن يحقق الغاية التي من أجلها بعـث، وهـي إخـراج قومـه مـن ظلمـات الكفـر والحيرة، إلى نور الإيمان. وأن يثبت الخير في نفوسـهم بتـذكيرهم، بالأيـام التـي سـلط عليهم فيها بلاءه الذي لم يسـتطيعوا لـه ردا، وصـبروا عليـه فأعقبـه الفـرج، وبالأيـام التي بسط عليهم فيها خيراته ونصره، فنطقت بـه ألسـنة الشـاكرين معتـرفين بالفضـل. فكان الابتلاء بالخير والشر، في كل منهما آية ودليل على تفرد الله بالتدبير.

واذكر يا محمد الظرف الذي قال فيه موسى لقومـه: يـاقومي كونـوا ذاكـرين ولا تنسـوا نعمة الله التي تفضل بها عليكم، تلكم النعمة الكبـرى يـوم أنجـاكم مـن جيـوش فرعـون التي لحقت بكم تبغي استئصـالكم. وقـد تنكـل بكـم فرعـون وملـؤه، لمـا كنـتم بـين أظهرهم. يبغونكم العذاب الجامع بين الإذايـة الماديـة والإهانـة. كـانوا يقتلـون الـذكور منكم ويبقون على حياة الإناث للخدمة والاستمتاع؛ وفـي ذلكـم العـذاب والتسـلط القـاهر

بلاء من ربكم ليختبر صبركم ولترتـــدعوا عـــن الكفـــر الـــذي أنســـاكم وصـــية إبـــراهيم ويعقوب من التمسك بالإسلام إلى الموت.

واذكر في القرآن الظرف الذي أعلن فيـــه الله أنـــه يجـــزي الشـــاكرين لنعمـــه بتواصـــلها والبركة فيها، والشكر يكـــون بـــالإخلاص لله ونســـبة الخيـــر إليـــه وعبادتـــه كمـــا أمـــر. وصرف النعمة فيما خلقت له. كما أنه يجزي من كفـــر نعمتـــه بالعـــذاب الشـــديد. والكفـــر يشمل الشرك وكفر النعمة بصرفها في نقيض ما خلقت له.

وقال موسى أيضا لا تمتنُـــوا بالطاعـــة، ولا تظنـــوا أن المعصـــية تـــؤثر فـــي التصـــرف الإلهي أو تضيره سبحانه .فإنه سبحانه غنـــي عـــن طاعـــاتكم، حقيـــق بـــأن يحمـــد علـــى كمالاته وأفضاله.

بيان المعنى العام :

4-وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه....وهو العزيز الحكيم.

هذه قاعدة من قواعد التصرف الإلهي أنبأت بهـــا الآيـــة، وهـــي أن الله لا يبعـــث رســـولا من رسله إلا وهو يتكلم ويفصح عـــن مـــراده ويبلـــغ الـــوحي، فيحـــدث المبعـــوث إلـــيهم باللغة التي يتكلمون بها. لأن مهمته هي بيان مـــا أوحـــي لـــه بـــه، ولا يتـــأتى البيـــان إذا كانت لغة الوحي ولغة البيان تتم بغير مـــا يفهمـــه النـــاس المبعـــوث فـــيهم. وكـــان مـــن أوهام الكفرة أن لغة الـــوحي لا تكـــون إلا باللغـــة العبرانيـــة أو الســـريانية، وأن الرســـول يترجم ما تلقاه من وحي إلى اللغة التي يفهمها قومـــه. ومـــع أن هـــذا الـــوهم خطـــأ، هـــو مخالف لمنطق الحياة، فالرسل مصـــلحون وقـــادة ولا يكـــون القائـــد ناجحـــا إلا إذا كـــان يحدث قومه بلغتهم. وقد اختار الله اللغة العربية لتحمـــل الـــوحي، لمـــا اجتمـــع فيهـــا مـــن خصائص الدقة، والقدرة علـــى أداء المعـــاني المشـــاهدة والغيبيـــة، ومـــا يتعلـــق بالعقيـــدة والسلوك والحقوق. وما كانت لغة تساويها أو تقرب منها في ذلك.

ثم إن الرسل بعد تبليغهم الـــوحي والقيـــام بتوضـــيحه قـــولا وعمـــلا، والاســـتدلال علـــى مضامينه بما يقنع، تكون الاســـتجابة مختلفـــة، فـــبعض المرســـل إلـــيهم يصـــممون علـــى العناد ورفض ما جاء به المرســـلون، ويبـــذلون جهـــدهم لمقـــاومتهم وصـــد النـــاس عـــن اتباعهم، فهؤلاء يتركهم الله لما اختاروه، ولا يســـعفهم بألطافـــه، فيســـيرون ســـادرين فـــي الضلال. وفي المقابل يُسعد الذين فتحوا عقولهم للتأمـــل فـــي الـــوحي، وتحركـــت قلـــوبهم لاتباعه، يسعدهم بالتأييد للمضي في طريـــق الهدايـــة الـــذي اختـــاروا الســـير فيـــه. إن الله هو العزيز الذي لا يغلبه شيء فيمنعـــه مـــن تنفيـــذ مـــا أراده، هـــذه الإرادة النابعـــة مـــن الحكمة الكاملة. وحكمة الله هي الحكمة الكاملة الشاملة لكل ما يقضيه وينفذه.

5-ولقد أرسلنا موسى بآياتنا....لكل صبار شكور.

هذه حقيقة مؤكدة أن الله أرسل موسـى عليه السلام إلـى بنـي إسـرائيل، وأيـده بـالمعجزات الواضحة، فأمْرُهُ لا يختلف عن أمرك، كلاكما مرسل مؤيـد بالأدلـة البينـة التـي يـذعن لصدقها من سلمت فطرتهم، وكلاكما خاطب قومه باللغـة التـي يتحـدثون بهـا، وكلاكمـا مكلف بإخراج قومه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمـان. لقـد امتـزج بنـو إسـرائيل بعـد يوسف عليه السلام بسكان مصر، فتـأثروا بهـم فـي عقيـدتهم وأخلاقهـم، ونسـوا حظـا مـن شريعة إبـراهيم ويعقـوب ويوسـف، فانقلـب تفكيـرهم وتصـورهم للكـون، بمحاكـاة المصريين، إلى ضروب مـن الأوهـام، فـأمر الله موسـى أن يأخـذ بأفكـارهم وقلـوبهم فيخرجهم من ظلمات الباطل والحيرة إلى مسـتقر الإيمـان. وكـذلك كـان العـرب علـى دين أبيهم إبراهيم ثم توالت عليهم القرون، فتـراكم علـى عقيـدة إبـراهيم وشـريعته مـن التصورات الجاهلية ما قطع الصلة بيـنهم وبينـه. وبهـذا تظهـر المناسـبة بـين الآيـات السابقة وهذه الآية.

أمر الله موسى لتستقر شريعته في ذهن بني إسـرائيل، أن يـذكِّرهم فيبـرز إلـى الـوعي ما سبق أن أنفذه الله فيهم في أزمنة مختلفة من مظاهر قدرتـه، سـواء منهـا أيـام بطشـه ليرتدعوا، أو أيام نصره وإعزازه ونشر خيراته.

وبذلك يكون ما يبتلي بـه الله البشـر مـن الخيـر أو الشـر، يـؤدي دوره فـي إصـلاح النفوس وتقويم السلوك، يستفيد مـن القـوارع الصـابرون مـنهم، الواثقـون مـن عدالـة ربهم، الراجعون على أنفسهم بالتقويم والتسـديد؛ كمـا يسـتفيدون مـن الخيـر مـا يؤكـد معرفتهم بفضله، فيزدادون قربا منه واعترافـا بفضـله، فتنطلـق ألسـنتهم بالشـكر علـى نعمه.

6-وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله ....بلاء من ربكم عظيم.

أمر الله موسى في الآية السابقة بتـذكير قومـه بأيـام الله، وتبييـنا لمـا تـم مـن ذلـك وردت هذه الآية تقول للنبي ﷺ: واذكر قول موسـى لقومـه، فمـاذا قـال موسـى لقومـه ؟: قال لهم يا قومي لا تنسوا وليكن حاضرا في وعـيكم النعمـة الكبـرى التـي أنعـم الله بها عليكم. يوم بلغ الخوف بكـم مبلغـه لمـا نظـرتم فوجـدتم أن فرعـون وجنـوده قـد لحقوا بكم، وأنتم لا قبـل لكـم بهـم ولا تسـتطيعون الوقـوف أمـامهم ولا الـدفاع عـن أنفسكم كما سجله القرآن:(**قال أصحاب موسى إنـا لمـدركون قـال كـلا إن معـي ربـي سيهدين**)[1] – أنجاكم الله من الاستئصـال فـي ذلكـم اليـوم كمـا أنجـاكم مـن العـذاب

[1] سورة الشعراء الآيات 61/67

السيء الذي كان فرعون وملؤه يقصدون بــه إيلامكـم وإهــانتكم. نعـم إن العــذاب كلــه سيء ولكنه على مراتب. وأسـوؤه مــا اقتــرن فيــه العــذاب المــادي بالإهانـــة والإذلال النفسي. ولذا عطفت الآية على – سوء العــذاب – بعضـــا مـــن مظـــاهره. كـــان فرعـــون وأكابر قومه يعمدون إلى قتل الذكور مـــن بنـــي إســـرائيل، ويبقـــون علـــى حيـــاة الإنـــاث ليكن خدمة لهـم فـي البيـوت أو للاسـتمتاع. وبـذهاب الـذكور يطوعـونهن للإشـباع الجنسي. إن ما وصل إليه الظلم والاستبداد الفرعوني فيــه بــلاء مـن ربكـم عظـيم، لـم يحمكم منه، جزاء انحرافكم عن دين إبــراهيم وغفلـتكم عـن وصـينه ووصـية يعقـوب، وعن منهجهما وعبادتكم لآلهة المصــريين(**يــا بنـي إن الله اصـطفى لكـم الـدين فـلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)**[1] – فجمعت الآيــة بـين التـذكير بنعمـة الإنجـاء وبحرمـانهم من الألطاف حتى لا يعودوا إلى الكفر بعد الإيمان.

7←8: وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم ....فإن الله لغني حميد.

و اذكر يا محمد الظـرف الـذي أعلـن فيـه الله لموسـى بمسـمع مـن بنـي إسـرائيل، الإعلان الذي يجري عليه تصـرفه فـي الشـعوب وفـي بنـي إسـرائيل و فـيمن يـأتي بعدهم: أنه يتفضـل كرمـا منـه بجـزاء الشـاكرين مزيـدا مـن الخيـرات والألطـاف والعون. إن الشكر على النعم واجـب علـى المـنعَم علـيهم، ويتحقـق الشـكر باللسـان وبالعمل الصالح. وأداء الواجب لا يستحق عليه صـاحبه جـزاء ولكـن الفضـل الإلهـي جمع للشاكرين بين الرضا النفسي بالاستقامة وبين تواصل خيراتـه التـي منهـا مـا يفـتح به بصائرهم وينمي مداركهم كما جاء في قولـه تعـالى: **(والبلـد الطيـب يخـرج نباتـه بإذن ربه والذي خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نفصل الآيات لقوم يشكرون)**[2] –
كما أنه يجزي من كفر بالنعمة، التي أسـعده بهـا رب العـالمين، بالعـذاب الشـديد الـذي يتجاوز طاقة الأبدان والنفوس. وفي هذا تهديد وتحـذير مـن مقابلـة النعمـة بالمعصـية، وصرف النعمة في غير ما أمـر الله أن تصـرف فيـه. ولا شـك أن الكفـر بـالله أشـد أنواع الكفر.

وقال موسى لقومه أيضا: اعلموا أن شـكركم للـنعم لا يسـتفيد منـه الله سـبحانه شـيئا، كمـا أن كفـركم لا يضـره سـبحانه. ولا تحسـبوا أن سـبقكم للطاعـة يعـزز جانـب المرسلين، ولا تتخيلوا أن حرصهم علـى اهتـدائكم مبعثـه حـب النجـاح. إن الله غنـي

[1] سورة البقرة آية132
[2] سورة الأعراف آية57

عن عبادتكم فكماله كمال ذاتي، لا تؤثر فيـه طـاعتكم بزيـادة، ولا عصـيانكم وكفـركم بنقص. وهو المستحق للحمد. المحمود فعلا سواء أقررتم بنعمه أو جحدتموها.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ ۛ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۛ لَا
يَعْلَمُهُمْ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرَدُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فِىٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا۟ إِنَّا كَفَرْنَا
بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ
شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ
أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ
ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ
ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَمَا كَانَ لَنَآ أَن نَّأْتِيَكُم بِسُلْطَٰنٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ
وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا
سُبُلَنَا ۚ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

فاطر : مخترع لا على مثال سبق.

يدعوكم : يناديكم بأوامره ونواهيه وإرشاده.

السلطان : الحجة التي لا مرد لها.

التوكل : الاعتماد وتفويض التدبير إلى الغير ثقة بعلمه بما يصلح.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن أن مشركي مكة قد أتـتهم أخبـار مـا تـم لقـوم نـوح، إذ قصـة الطوفـان تكررت على الأسماع فلا يشك فيها أحد. وكـذلك هـم يمـرون علـى آثـار قـوم عـاد وثمود ويشاهدون خراب ديارهم بسبب تكـذيبهم لرسـلهم. وكمـا سـلط الله نقمتـه علـى الثلاثة عاقب أمما أخرى طـوى ذكـرهم أبعـادُ الزمـان، فـأنتم لا تعلمـونهم وتفـرد الله بعلم أخبارهم. وسنة الله في القوم الكـافرين جـرت علـى نسـق واحـد. إن تلكـم الأمـم جاءتهم رسلهم مؤيدين بالحجج البينة والمعجـزات الظـاهرة، فأشـاروا لأنبيـائهم إشـارة تفيد: واصلوا كلامكم فإنه غير مؤثر ولا صـادق. وإنـا شـاكون فـي كـل مـا تـدعوننا إليه. كان جواب الرسل جوابا هادئا رفيقا. أتَشُـكُّون فـي الله، فـي وجـوده وفـي قدرتـه وفي حكمته، والكون كله بسمائه وأرضه يشهد بأنه هـو الـذي خلقـه علـى غيـر مثـال

سبق. إنه رب كريم يدعوكم إلى الإيمان والعمل الصالح ليغفر لكـم مـا أنـتم عليـه مـن الشرك وما اقترفتموه من الآثام، ثم يفسح لكم فـي حيـاتكم لتحيـوا حيـاة آمنـة مطمئنـة إلى الأجل الذي حدده لكم في هذه الدنيا.

كان جواب الكفرة جوابا رافضا رفضًا قاطعا للاستجابة لهـم. بنَـوْهُ علـى أنـه لا فضـل للرسل عليهم، لأنهم مسـتوون معهـم فـي البشـرية. وزعمـوا أن وراء دعـوة الرسـل قصد غير خاف عنهم، إذ كل هَمِّ الرسل أن يمنعوهم مـن اتبـاع مـا كـان عليـه آبـاؤهم بما له من قداسة. ثم قالوا لرسلهم: إذا كنـتم صـادقين فأتونـا بمعجـزة وحجـة بينـة لا تقبل الاحتمال ولا الرد.

أجاب المرسلون: نعم نستوي معكم في البشـرية ولكـن البشـر مـا كـانوا نمطـا واحـدا كما تخرجه المعامل، بل هم متفاوتون تبعا لمـا يتفضـل الله بـه علـى بعضـهم، ويحـرم منه البعض الآخر. ثم إننا لا نسـتطيع أن نـأتيكم بآيـة علـى المقـاس الـذي اقترحتمـوه لأن الله هو المتفرد وحده بإنزال البينات في الوقـت الـذي يريـد. والمؤمنـون مـأمورون بالتوكل على الله وحده. فهو الذي يهديهم سبيل النجاح ويؤيـدهم .ثـم أعلـن الرسـل أنـه لا يوجد ما يحول بيننا وبين التوكل على الله، خاصة وقـد لطـف بنـا فهـدانا إلـى سـبل النجاح والأمن. ثم أعربوا عن تحديهم للكفرة الـذين عملـوا علـى إذايـتهم لصـدهم عـن مواصلة ما يقتضيه الإيمان، فقالوا إننـا صـابرون علـى الإذايـة، وطَنَّـا أنفسـنا علـى الثبات على الحق. وتأكد في ختام الآية الأمر بالتوكل علـى الله وحـده، فعلـى كـل مـن أراد أن يستعين بالمعين الحق فليتوكل عليه.

بيان المعنى العام :

9-ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم....ما تدعوننا إليه مريب.

لا يقصد القرآن من التذكير بمـا وقـع للرسـل مـع أممهـم أن يشـغل النـاس بسـماع أخبارهم فقط. وبناء على هذا فتذكيرهم ببعض ما تم لموسى مـع قومـه أتـي بـه لإنفـاذ الدعوة المحمدية في عقـولهم بالاعتبـار بقـوم موسـى. ولـذا عَقَّـب ذلـك بالاسـتفهام الإنكاري الذي مضمونه أنه قد نقلت لكم أخبار قوم نوح، فـإن خبـر الطوفـان قـد شـاع وذاع وتناقلته الأمم قرنا بعد قرن، وكذلك أخبار قوم عـاد وثمـود الـذين كانـت منـازلهم في جزيرة العرب وأنتم تشـاهدون آثـار إهلاكهـم. لقـد علمـتم مصـيرهم فاحـذروا إن واصلتم رَدَّ دعوة الإسلام أن ينتهي أمركم إلى ما انتهى إليه أمرهم .

ولم يكن تنفيذ الوعيد محصـورا فـيهم، بـل إن سـنة الله فـي الانتقـام مـن المعانـدين المكذبين، حصدت أقواما كثيرين كذبوا رسلهم، وطـوى الـزمن ذكـرهم، فـلا يعلمهـم إلا الله.

ثم استحضر القرآن عرض رســلهم علــيهم مــا كلفــوا بــه مــن هــدايتهم إلــى الحــق وإخراجهم من الشرك إلى التوحيد، وما قابلوا به رسلهم.

جاءتهم الرسل مؤيَّدين بالمعجزات البينــة الواضــحة التــي ينقــاد لوضــوحها ولتحــديها من لم يغلق العناد والكبر عَقْلُهُ. ودعــوهم إلــى توحيــد الله والإيمــان بمــا أنــزل إلــيهم والعمل به. عبَّر القرآن عن رفضهم بقوله: ردوا أيــديهم فــي أفــواههم. وهــذا التركيــب تركيب قرآني لم ينقل مثله من كلام العرب. ولذا اختلــف المفســرون فــي بيــان المــراد منه، والذي رجحه الشيخ محمد الطاهر ابــن عاشــور تبعــا للزمخشــري أنهــم وضــعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك مــن كــلام الرســل، كراهيــة أن تظهــر دواخــل أفواههم. وذلك تمثيل لحالــة الاســتهزاء بالرســل. التحريــر ج13 ص196- ويبعــده أن يكون لهم بقية من أدب حتى يكرهوا أن تظهر لهواتهم عنــد إغــراقهم فــي الضــحك مــع شدة وقاحتهم في المحاجة وتعصبهم لما هم عليه.

فلعل المعنى أنهم لما قــرع أســماعهم دعــوة الرســل وعــرض حججهــم ومعجــزاتهم، وضعوا أيديهم على أفواههم إشــارة إلــى أنهــم لا يقطعــون الكــلام علــى الرســل مــع الإيماء إلى أنهم رافضون له، حتى إذا ما أتــم المرســلون كلامهــم أجــابوهم بمــا ذكرتــه الآية لاحقا، ويكون التركيب دالا على هــذا المفهــوم وإن اختلفــت طــرق التعبيــر عنــه باختلاف عادات المرسل إليهم في الإفصاح عن ذلك.

ثم قالوا لهم ما مضمونه: إنا كفرنا بما أرســلتم بــه جملــة وتفصــيلا، رفضــا قاطعــا لا رجوع عنه وإن مــا عرضــتموه علينــا لا يرتفــع إلــى درجــة إقناعنــا بوجــود الله ولا بكونكم مرسلين من عنده، ولا أن ما تــدعوننا إليــه صــادق يقينــا. بــل إنــا نشــك فــي الأمرين معا، وشكنا قوي جدا.

10←12: قالت رسلهم أفي الله شك...فليتوكل المتوكلون.

هذه الآيات تسجل المحاورة التي تمت بين المرسلين وبين أقوامهم المكذبين.

أولا: أنكر المرسلون عليهم جــراءتهم بشــكهم فــي وجــود الله وتصــرفه فــي الكــون، وأبرزوا هذا الإنكار في صيغة الاســتفهام (أفــي الله شــك) ويتضــمن الإنكــار التعجــب من نفيهم من قامت الشواهد علــى تفــرده بالتــأثير، فــأعقبوا الاســتفهام بالآيــات الدالــة على وجوده وتصرفه. وهي الكون كلــه: الســماوات والأرض، التــي يشــهد العقــل أنهــا لتغيرها وتحولاتها ناطقة بأنها محدثة مــن عــدم، وأن المحــدَث لا يســتغني عــن المــؤثر المحدِث. خاصة وأنها وجدت من غير أن يكون لها مثال ســابق عليهــا؛ ممــا يــدل علــى كمال علمه. ومن رحمته بكم أنــه أولاكــم عنايتــه، فــدعاكم بواســطة المرســلين الــذين

أرسلهم إليكم وبما تضمنته رسالاتهم مــن بيــان التوحيــد ومــن أوامــر ونــواه وإرشــاد، هذه الدعوة التي رتب عليها غفران ذنوبكم التي اقترفتموهــا قبــل مجيــئهم ثــم يمــد فــي أعماركم لتنعموا بحياة الاستقامة إلى الأجل الذي قدره لكم في الدنيا.

ثانيا: بعد هذا البيان العاقل الرفيق، كــان جــوابهم جوابــا قاطعــا لحجــج المرســلين فــي ظنهم، إذ بنوا ردهم علــى أنــه لا ميــزة تميــز المرســلين حتــى يكونــوا رســلا هــداة مبعوثين من عند الله. لأنهم بشر مثلهم لا فارق بينهم حتــى يكونــوا أكثــر قربــا مــن الله. ثم عطفوا على ذلك إظهار السبب الخفي في زعمهــم الــذي دعــا المرســلين إلــى القيــام بالدور الذي يحتجون للإقناع به. وهو أنهم يرغبــون فــي الحيلولــة بيــنهم وبــين الــدين الذي كان عليه آباؤهم، على معنى أنه الدين الذي جــرب فصــح، واكتســب القداســة مــن السلف. ثم طلبوا من الرسل أن يقدموا لهم حجــة لا تقبــل الــنقض ولا الجــدال. مــع أنــه ما من رسول إلا هو مؤيد بمعجزة تحداهم بها فعجزوا.

ثالثا: أجابهم المرسلون، نعم! نحن نقر أننا بشــر نســتوي معكــم فــي الإنســانية، ولكــن البشر وإن اتحدوا في الخصائص التي كــانوا بهــا بشــرا إلا أن قيمــتهم ليســت واحــدة، فإن الله يتفضل بمنه على بعضهم فيمكنــه ممــا حــرم منــه غيــره. ألا تــرون أنــه وإن كانت القوة العقلية قدرا مشتركا بــين البشــر إلا أنهــم متفــاوتون فــي الــذكاء وحضــور البديهة وقوة الإفصاح والإقناع، وكذلك فــي حــظ كــل مــنهم مــن الجمــال والوســامة، كذلك في القوة البدنية إلى آخر الفوارق بيــنهم .وكلهــم عبيــده يتصــرف فــي حظــوظهم بحكمته وعدله وإن كان قد يخفى عنا موجبات ذلك.

طلبتم منا أن نأتيكم بحجة قاطعة، ومعجــزة قــاهرة تخضــعون لهــا حــالاً. وهــذا مــن صلفكم وعنادكم، فإن طلبكم هذا فيه قلب للمــوازين. إن المتصــرف فــي الكــون هــو الله وحده، وهو ينزل ما يشاء في الوقت الذي يشــاء، ولــيس فــي مقــدورنا أن نــأتيكم بآيــة كما ترغبون إلا إذا أذن الله لنــا وآتانــا مــا يؤيــدنا بــه. فــاقتراحكم معجــزة تحــددون مواصفاتها وتضبطون وقتها، هو تعبيــر عــن تجــاوز لقــدركم، ومقابلــة لنعمــة الهدايــة بالرفض والمكابرة.

ثم واصل الرسل بالإعلان عن صلتهم بالله بأنها صــلة مــن يعتمــد علــى الله فــي تــدبير أموره لتفرده سبحانه بالعلم الصادق في الحاضر والمــآل، وهــذه الطريقــة هــي الطريقــة المأمور بها المؤمنون، تشملهم هم كما تشمل المؤمنين برسالتهم .

إن التعمق في طلب الحقيقة أكد لنا أنه لا طريق إلا طريــق التوكــل عليــه، ولــذا تجــدنا لا نخرج عن هذه السبيل. وقد قامت شواهد تُمَكِّــنُ فينــا هــذا الاختيــار، فقــد هــدانا الله للسبل التي لاشك أنها سبل الفوز والنجاح والأمن.

ثم أشاروا إلى أن ما صدر عن الكافرين من الإذاية والتحرش بهم، طمعا في التأثير عليهم ليتخلوا عن الدعوة التي يحملونها، لا يحقق لهم أي شيء. فقمعوا بهذا كل آمالهم وأعلنوا أنهم قد تدرعوا بالصبر. وأن الضغط عليهم لا يزيدهم إلا إصرارا على الإيمان وتطبيق ما جاءهم من ربهم. وختمت الآية بالدعوة إلى التوكل على الله على أنه المسلك الوحيد المفضي للفوز.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَٱسْتَفْتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الملة : الدين.

الاستفتاح : طلب الفتح، والفتاح الحاكم.

خاب : خسر.

الجبار: المتعظم في نفسه المتكبر، الذي لا يرى لأحد عليه حقا.

العنيد : المعاند للحق .

غليظ : قوي شديد.

ورائه جهنم : ينتظره عذاب جهنم.

صديد : السائل الذي يخرج من الدمل.

بيان المعنى الإجمالي :

انتقل الكافرون من المحاجة إلى التهديد، فعرضوا على الرسل وأتباعهم أن يختاروا بين أمرين: إما الخروج من الأرض التي يجاورونهم فيها، وإما أن يقلعوا عن دينهم ويعودوا إلى إتباع ملة الكفر. أنزل الله على رسله ما يثبتهم فأوحى إليهم: أني سأستأصل الظالمين وأهلكهم. وأن هذا التأييد هي سنته مع الذين يستشعرون دوما الخوف من حساب الله يوم القيامة، كما يخافون وعيده الذي يوقنون أنه لا راد له، وهم المتقون الصالحون.

طلب الرسل من الله أن يفتح عليهم بنصره الذي وعدهم إياه، وبشرهم بأنه سيحقق الخيبة والخسران لكل مستكبر عنيد. وأنه بعد الانتقام منه في الدنيا سيصلى نار

جهنم، التي من بعض خصائصها أن الداخل إليها يلهب كبده من العطش، فلا يجد أمامه إلا سائلا من الصديد، وهو ما يسيل من الدمل، يحاول رغم قذارته أن يشرب منه فلا يستطيع أن يبتلعه. ثم يحس بسكرات الموت وآلامه تدخل في شعابه ولكنه لا يستريح بقدوم الموت فعلا. وبعد ذلك من عذاب شديد لا يعلم كنهه إلا الله.

بيان المعنى العام :

13←14: وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم...وخاف وعيد.

تابع القرآن عرض تحدي الكافرين للرسل وتهديدهم، وأعلموهم أنهم بين خيارين. إما الخروج من أرضهم. هددوهم بأنهم سيلجئونهم إلى ترك ديارهم وأرضهم ومغادرتها قسرا. على معنى أن لهم من وسائل الضغط ما يجبر الرسل وأتباعهم على الفرار من الأرض التي يعتبرونها ملكا لهم وحدهم. وهذا من طبائع الاستبداد كما نشاهده اليوم في معاملة اليهود للفلسطينيين؛ وإما أن تعودوا إلى إتباع ديننا وتعرضوا عما تدعوننا إليه. وإذا كانت كلمة تعودوا تفيد حسب أصل الاستعمال أنهم كانوا على ملة الكفر فخرجوا منها ويطلب منهم العودة إليها. وما كان الرسل على ملتهم حتى يعودوا إليها؛ فيحمل الكلام على أن الرسل ما كانوا قبل مجيء الوحي يتعرضون للكفرة بإنكار ما هم عليه، فحملوا سكوتهم عنهم قبل ذلك على أنهم كانوا موافقين لهم. أو أنه لما كان الكلام موجها في الحقيقة للرسل وللذين آمنوا معهم، فتغليب المؤمنين في الخطاب الذين كانوا فعلا على ملتهم، سوغ قولهم أو لتعودن في ملتنا.

إن هذا الاستكبار والتهديد قابله التأييد الإلهي للرسل، بالوعيد والوعد: أوعد المستبدين الظالمين أنه سيستأصلهم ويهلكهم، ووعد المؤمنين أنه سيمكنهم من الأرض، التي توعدهم الكافرون بإخراجهم منها، بالسكنى فيها بعد إهلاك الظالمين وإما بدخولها تحت سلطانهم. ثم ثبت القرآن هذه النهاية بأنها سنة الله مع الذين يخافون ربهم، والخوف من الله حالة تنشأ في النفس عندما يستحضر الإنسان موقفه من ربه المطلع على ما يخفيه عن أعين الناس وعلى ما يظهره، وخاصة عندما يقف بين يديه للحساب. كما يخاف نفاذ وعيده في الدنيا والآخرة. إنه لا يحصل هذا الخوف المزكي للنفس إلا في قلوب المتقين الصالحين.

15←17: واستفتحوا وخاب كل جبار....عذاب غليظ.

هذه الآيات تحتمل أن تكون مرتبطة بالمرسلين، وأن تكون مرتبطة بالكافرين.

فإذا فهمناها على أنها مرتبطة بالمرسلين وأن الضمير في قوله تعالى: **واستفتحوا** يعود على المرسلين، يكون حاصل المعنى أن المرسلين طلبوا من الله أن يفتح

عليهم نصره، وأن ينجز لهم وعده الـذي نصـت عليـه الآيـة السـابقة. وتأكـد النصـر بتحقق خيبة وخسران كل جبار مسـتكبر، دأبـه العنـاد وإغـلاق منافـذ التفكيـر معـاداة للحق.

وإذا فهمناها على أنها مرتبطـة بالكـافرين، كـان المعنـى أنهـم طلبـوا النصـر علـى الرسل، فخابوا لأنهم جبابرة معاندون. ولا تقتصر خيبتهم علـى مـا سـينالهم فـي الـدنيا، بل تتجاوز ذلك إلى يوم القيامة فوراء عقاب الدنيا عقـاب الآخـرة الـذي فصـل بعضـه: أن جهنم تنتظر كل جبار عنيد. فوراء عذاب الـدنيا عـذاب جهـنم، الـذي وصـف شـيئا من فظاعته، بأن فؤاده يلهب ويطلب السقيا، فيسقى من سـائل هـو الصـديد القـذر الـذي يسيل من الدمل. يحاول رغم ذلك أن يشرب منـه، لعلـه يطفـئ عطشـه اللاهـب؛ فـلا يمر إلى حلقه ولا يستسيغه. وهنا يأخذ الموت بسـكراته وآلامـه يهـد كيانـه .فـلا يبقـى جزء منه إلا وهو معـذب بعـذاب المـوت، ولا يسـتريح بـالموت. ووراء ذلـك عـذاب قوي شديد يتجاوز التصور. ذلك أنه مـن شـؤون الآخـرة الفائقـة علـى كـل تصـور. سواء في ذلك النكال والعذاب، أو النعيم والفضل.

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَـٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ لَّا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُواْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَـٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُواْ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَـٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُواْ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَـٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأُدْخِلَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ ۖ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَـٰمٌ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

عصفت الريح : إذ اشتدت فحطمت ما هو في طريقها وفتته.

برزوا : خرجوا من مكان كان يحجبهم، وهي القبور.

الضعفاء: الأتباع.

المستكبرون : المبالغون في الكبر .

تبعا : جمع تابع.

مغنون : تدفعون.

الجزع : حزن يخالطه اضطراب.

المحيص : المنجى.

مصرخكم : مغيثكم .

بيان المعنى الاجمالي :

قرَّبت الآية ضياع أعمال الكافرين التي ربما نفعت بعضــا مــن النــاس فــي الــدنيا، بأنــه كحال كدس من الرماد تحركت ريح قوية شــديدة فــي يــوم رياحُــه عاصــفةٌ، فتطــايرت به ونشرت أجزاءه بصــفة لا يبقــى منــه شــيء محســوس يمكــن أن يجمــع. فكــذلك أعمالهم التي اكتسبوها وفقدت أساس الإيمــان تكــون ضــياعا لا ينتفعــون منهــا بشــيء، وذلك هو الضلال الذي تعمَّق فذهب بصاحبه إلى مسافات بعيدة أشد البعد ومتنافرة.

ألم تعلم أيها الناظر أن الله تفرد بخلــق الســماوات والأرض، وأجراهمــا علــى الحكمــة التي لا تختل. ألا يــدل ذلــك علــى أن الله قــادر علــى إفنــاء الجبــابرة والمســتكبرين، وعلى أن يُمَكِّنَ خلقا آخر من أرضهم يكونون بــالطبع مــؤمنين صــالحين، وأهــون مــن ذلك ضياع ثواب صالح أعمالهم.

أهلكهم الله وخرج السادة والأتباع من قبورهم، وجرت بينهم المحاورة التالية: قال المستضعفون للمستكبرين القادة: إنا كنا تابعين لكم في الدنيا مقلِّدين، نطبق ما تشيرون به علينا. فهل تستطيعون اليوم أن تكفونا شيئا من عذاب الله؟ أجابهم المستكبرون معتذرين عن التغرير بهم بأنهم ما قصدوا توريطهم، إذ هم مشتركون في العذاب، وأنهم يائسون فقالوا: سواء علينا أظهرنا الجزع والتبرم والحزن، أم صبرنا وتحملنا بدون شكوى، فإن حالتنا تتواصل على ما هي عليه وليس لنا مخلص.

وينضم إلى المشهد الشيطان الذي كــان عمــدة رؤســائهم فــي إضــلالهم. يبــرز محمــلا للكفرة المسؤولية عن ضلالهم فقال لهم بعد أن نفــذ الله حكمــه العــادل فــي البشــر يــوم القيامة : إن الله وعدكم وعــدا صــادقا لا يخلــف، أنــه يكتــب الســعادة لمــن أطاعــه،

ووعدتكم بفوزكم بالسعادة إن أطعتموني فأخلفت وعـدي. ولكـن مـا كانـت بـين يـدي سلطة تجبـركم علـى اتبـاعي. دعـوتكم لاتبـاع شـهواتكم والكفـر بـالله فاسـتجبتم. فتوجهوا باللوم لأنفسكم ولا تلقـوا علـي بالملامـة. لأنـي لـم أجبـركم علـى إتبـاعي ولكنكم اخترتم لأنفسكم ما تـدعو إليـه شـهواتكم . إننـي لا أسـتطيع اليـوم أن أغيـثكم ولا تستطيعون إغاثتي. إني كافر بما دعوتكم إليـه مـن الإشـراك بـالله وإتبـاع الهـوى من قبل هذا اليوم، أي في الدنيا. إن من اتبـع الشـيطان فكفـر هـو ظـالم، والظـالمون حقيقون بأن يسلط عليهم العذاب الأليم .

وبالمقابـل أدخـل الله المـؤمنين الملتـزمين بالعمـل الصـالح جنـات تتخللهـا الأنهـار الجارية، آمنين من انقطاع ما هم فيه من نعيم، هـو نعـيم دائـم بـإذن ربهـم الإذن الـذي لا مثنوية فيه. يُحيُّوْن من الملائكة ومن بعضهم لبعض بالسلام والأمن الدائم.

بيان المعنى العام :

18- مثل الذين كفروا بربهم ....ذلك هو الضلال البعيد.

هذه الآية صيغت على طريقة تجسـم المعنـى بتنظيـره بمـا هـو مـادي، وهـو المـراد بالمثل. إذ مثلت أعمالهم الخيرة في ظاهرها وعدم انتفـاعهم منهـا بالرمـاد الـذي تفرقـه الرياح العاصفة. مضمونها أن الكـافرين كـانوا يقومـون تـارة بأعمـال صـالحة مفيـدة للمجتمع تتجاوز مصالحهم إلى نفع الآخـرين. فهـي أعمـال فـي ظاهرهـا جـديرة بـأن توصف بالحسن والخير وأن يكونـوا علـى رجـاء مـن ثوابهـا. ولكـن تلكـم الأعمـال بفقدانها للأساس الذي يثبت آثارها ويبقيهـا لصـحابها، أعنـي العقيـدة الصـحيحة، كانـت كالرماد المتجمع بعد أن أتت النار على المـادة المشـتعلة فأذابتهـا وصـيرتها كدسـا مـن الهباء؛ فتحركت الرياح واشتدت وكانت رياحا تعصف بكـل شـيء فتكسـره ثـم تفتتـه، فتنشره متفرقا كأشد ما يكون التفرق، هذا فيمـا كانـت لـه صـلابة فكيـف يكـون حـال الرماد الذي يفرقه النسيم. وبذلك هـم لا ينتفعـون بشـيء منهـا، ثـم أكـدت الآيـة فـي خاتمتها خسران الفاقد للإيمان بـأن ذهـاب حسـناته هـو الضـلال القـوي كأنـه ابتعـد بصاحبه إلى مسافات تقطعه عما فيها من خير وبالتالي عن ثوابها.

19—20: ألم تر أن الله خلق السماوات.....على الله بعزيز.

إن ما توجهت العناية إليه في الآية السابقة من محو ما قام به الكفرة من أفعال حسنة في ظاهرها، المجسم ذلك بالمثل، قد أتبعه القرآن بالدليل. هذا الدليل الذي ابتدأه بسؤال موجه إلى كل من يمكن منه العلم، فقوله تعالى : ألم تر – ألم تعلم أن الله خلق السموات والأرض خلقا ملتبسا بالحق والحكمة، فسارت على نظام لا يختل. وهذا أمر مشاهد لا يقبل الاختلاف

فيه، مما يدل على عظيم القدرة، وينبه إلى أن إفناء الجبابرة والكفرة، والإتيان بالمؤمنين يخلفونهم، أمر أيسر من خلق السماوات والأرض بمقاييس البشر، وأهون من ذلك إحباط أعمالهم الصالحة وزوال آثارها. وأكد تحقق تلكم المفاهيم بأنها سهلة هينة عليه سبحانه. وما ذلك على الله بعزيز.

21←22، وبرزوا لله جميعا فقال...لهم عذاب أليم.

تضمنت الآية السابقة أن الله قادر علــى إهــلاك الكفــرة، وقــد أهلكهــم فعــلا، فخــرج السادة والأتباع من قبورهم، وستجري بيــنهم المحــاورة التاليــة كمــا ســتجري محــاورة بينهم وبين الشيطان، عبر عن ذلك بصيغة الماضي لتحقق الوقوع.

وقف الأتباع الذين مــا كــان لهــم حــظ مــن الاســتقلال فــي الــدنيا، وكــان الســادة المتعاظمون بالكبرياء يقــودونهم فــي ديــنهم وفــي تصــوراتهم. وقفــوا يســألونهم يــوم القيامة، بما أنا كنا تابعين لكم في الــدنيا نســير فــي الخــط الــذي ترســمونه لنــا، فهــل تستطيعون أن تظهروا مكانتكم عند الله فترفعوا عنــا شــيئا مــن العــذاب؟ والظــاهر أنــه سؤال تقريع وتوبيخ إذ يوم القيامة يستوي الجميع فــي إدراك حظــوظهم وأنــه أبعــد مــا يكون، أن يشفع عند الله المجرمون.

واعتذر المستكبرون بأنهم ما قصدوا تــوريطهم بــدليل أن وضــعهم لــيس بأحســن مــن وضعهم. ثم أضافوا: اليأس من تبــديل حالنــا اســتولى علينــا، فســواء أظهرنــا الجــزع والتشكي والتخبط، أو التزمنا الصبر وإظهــار التحمــل بــدون شَــكَاةٍ، فإنــه لا مخلــص لنا ولا ينفعنا شيء ولا نجاة لنا.

ثم يبرز الشيطان في المشهد لأنه كان قائد القــادة ومضــل المضــللين. كمــا هــو شــأنه في الدنيا كان يسترق السمع، فأعد نفسه للدفاع عن توريطــه، وقــد قُضِــي الأمــر، ونفــذ الله ما أعده للبشر، وتميز الســعداء بالكرامــة، والأشــقياء بالعــذاب والمهانــة. ثــم قــال لهم: إن الله وعدكم بالسعادة إذا أنــتم عملــتم بمــا جــاءكم منــه، ووعــدتكم بالســعادة إذا اتبعتم الطريق الذي أدعوكم إليه، وأخلفت وعدي. وإني لم أكــن مجبِــرًا لكــم علــى تــرك ما دعاكم إليه الله وإتباع طريقي. ولكنكم كنتم مختارين فملــتم لمــا تهــوى أنفســكم، فــلا تلوموني على إغوائكم. ولكن لوموا أنفسكم إذ لم تتفطنوا بتغريــري بكــم. إننــا اليــوم فــي الهوان سواء. فلا أستطيع أن أغيثكم، كما أنكــم لا تســتطيعون إغــاثتي. ثــم أردف إمعانــا منه في تَبَرُّئِه وتحميلهم المسؤولية. إني كفرت بإشراككم لــي فــي الــدنيا مــن قبــلِ يــوم القيامة، على معنى إني لما دعوتكم إلى ما دعوتكم إليه كنــت متيقنــا أنــي أدعــوكم إلــى باطل، وأن شخصي لا يمكن أن يكون شريكا لله يــأمر فيطــاع. وقــد جربــت عصــيان

ربي فكتب علي الخسران الأبدي. هو تصريح منه بأنه أضـــلهم فـــي الوقـــت الـــذي كـــان معتقدا أن ما يدعوهم إليــه هــو الضـــلال، فاتبـــاعهم لـــه وانتمــارهم بـــأمره يتحملــون مسؤوليته، وهم بذلك ظـــالمون. وختمــت الآيــة بقــول إبلــيس: إن الظـــالمين يســتحقون العذاب الشديدُ ألمُه. ويحتمل أن يكون هذا من كلام إبلــيس، كمــا يحتمــل أن يكــون مــن كلام الله، على أنها حقيقة أطلقها لتكون خاتمة. وفــي هــذا العــرض القرآنــي مــا يــوقظ البشر إلى شر الشيطان وعمله على إغواء البشــر ثــم تبــرُّؤه مــنهم يــوم القيامــة، ممــا يضاعف أحزانهم على تراخي عزائمهم وإتباعهم لإغوائه.

23- وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات....فيها سلام.

هذا هو شأن القرآن في هدايته يقرن بين البشارة والنذارة، وبين التهديد والوعد الجميل. فبعد أن عرض عرضا وافيا مشخصا خاتمة الكفرة، أتبع ذلك بما حققه للمؤمنين الذين جمعوا إلى الإيمان العمل الصالح، فثبتت أعمالهم وأثمرت، على عكس الكفرة الذين ذهبت أعمالهم هباء كرماد عصفت به الرياح. فجازاهم ربهم بأن أدخلهم جنات جمع لهم فيها الخصب: تتخللها الأنهار، والأمن بامتداد النعيم إلى أبد الآبدين. وتأكيد الكرامة، فهم يلقون من الملائكة أينما حلوا تحية بالسلام والأمن كما قال تعالى: **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار**[1].

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الطيبة : النافعة.

الأصل : الجذر.

الفرع : الغصن الممتد.

في السماء : مرتفع، عال.

الأكل : ما يؤكل.

---

[1] سورة الرعد آية 25

كل حين : كل وقت أريد فيه جَنْيُهَا.

اجتثت : قطّعت.

القول الثابت : الكلام الصادق.

بيان المعنى الإجمالي :

قرب الله للبشر أثر كلمـة التوحيـد لا إلــه إلا الله محمـد رسـول الله، فنظّرهـا بشـجرة نافعة قوية، امتدت عروقها في الأرض الصـالحة، فـتم لهـا الغـذاء الـذي ارتفعـت بـه فروعها إلى علو مبهج، يتناول منها صاحبها ثمارهـا كلمـا قصـد إلـى جنيهـا بتقـدير محكم من الله. وكذلك كلمة الإيمان إذا استقرت فـي العقـل والضـمير فإنـه يتبعهـا قـوة صاحبها وثباته. وتتبع من كلمة الإيمان الأعمال الصالحة التـي يجـد ثمارهـا زكيـة فـي حياته وفي الحياة الآخرة. وهكـذا يضـرب الله الأمثـال للنـاس رجـاء أن يتـأملوا فيهـا ويتفكروا في مدلولاتها فيثبتوا على التوحيد.

و بالمقابل فإن كلمة الكفر وما يتبعها مـن قـول السـوء الـذي لا يحبـه الله، مثّـل ذلـك كالشجرة التي لا نفـع فيهـا لا بظـل ولا بثمـرة. لإثبـات لهـا فـي الأرض ولا قـرار تعصف بها الرياح فتجتثها من أصولها. فكلمـة الكفـر تثبـت القلـق والحيـرة لصـاحبها وتفسد عليه أعماله ولا تحول بينه وبين الفساد فـي القـول والسـلوك، فتعصـف بجميـع أفعاله فلا يجد أثرا حتى لما كان منها نافعا للناس.

ويثبت الله المؤمنين بالقول الصادق الـذي لا يتخلـف توجيهـه إلـى الخيـر فيجـد فيـه المؤمن الطمأنينة في الحياة الدنيا، كما ينتفـي عنـه الخـوف فـي الحيـاة الآخـرة بتبـين مصيره حسب ما جاءه وآمن به من كـلام ربـه. وفـي المقابـل يوغـل الظـالمون فـي الضلال. والله يفعل ما يشاء فيرتـب للصـالحين درجـاتهم مـن النعـيم حسـب حكمتـه وعدله، ويعمق ضياع الكافرين تبعا لما قدموه من سوء بحكمته وعدله أيضا.

بيان المعنى العام :

24←26: ألم تر كيف ضرب الله مثلا...من قرار.

هذه طريقة قرآنيـة تحقـق إقنـاع النـاس علـى مختلـف مـداركهم بمضـامين الآيـات القرآنية وهـداها. إذ المثـل عبـارة عـن تقريـب المجـردات بتنظيرهـا بالمحسوسـات فيتضح ما خفي عن البعض، ويزداد رسوخا بالنسبة للبعض.

النظير من الواقع المحسوس شجرة لهـا المواصـفات التاليـة: النفـع والصـلاح (**طيبـة**) متجذرة في الأرض ثابتة ثبوتا يمكنها في منبتهـا، فـلا تـؤثر عليهـا العواصـف، وتمتـد عروقها في باطن الأرض مما يوفر لها الغـذاء مـن مسـاحات شاسـعة يكسـبها القـوة.

(أصلها ثابت) انتفعت بما توفر لها من مـــواد الأرض فامتـــدت أغصــــانها مرتفعـــة تـــبهج الناظر إليها **(وفرعها في السماء)**. تجمع إلى ذلـــك أنهـــا شـــجرة مثمـــرة وثمارهـــا غيـــر منقطعة فكلما قصدها صاحبها وجد من ثمارها مـــا يجنيـــه بتقـــدير مـــن الله الـــذي عنـــي بها **(تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها)**.

المجرد الذي قصـــد تقريبـــه وتأكيـــده: كلمـــة الإيمـــان والتوحيـــد: لا إلـــه إلا الله محمـــد رسول الله. فهذه الكلمة متى استقرت في الـــنفس ورســـخت لا تزعـــزع بمـــا يـــرد علـــى صاحبها من تشكيك، ثم هي تمتد آثارها مرتفعـــة بأعمـــال صـــاحبها التـــي تكـــون زكيـــة بعامل التوحيد. نافعة له ولغيره، صالحة في الدنيا والآخرة.

وفي المقابل شـــجرة خبيثـــة المنظـــر والرائحـــة، فاقـــدة لمقومـــات الثبـــات والاســـتقرار، مقطوعة من الأرض. ونظيرها كلمة الكفر وما كان قريبا مـــن ذلـــك مـــن ســـيء الكـــلام، التي ما استقرت في النفس حتى يكون وضـــع صـــاحبها الوضـــع الخبيـــث الســـاعي إلـــى الرذيلة والفساد لا يردعه عن السوء رادع. تذهب أعماله ضـــائعة كمـــا جـــاء فـــي الآيـــة السابقة رماد تذروه الرياح.

ثم إنه وقع في كلام المفسرين اختلاف في تعيين الشـــجرة الطيبـــة، وفـــي تعيـــين الشـــجرة الخبيثة. فقال بعضهم: هي النخلة اعتمادا على مـــا رواه البخـــاري وغيـــره، فـــي تشـــبيه الرسول ﷺ المؤمن بالنخلة في أكثـــر مـــن مناســـبة. وقـــالوا: إن الشـــجرة الخبيثـــة هـــي الحنظل. ويترجح عندي ما ذهب إليه ابن عباس رضـــي الله عنهمـــا: هـــذا مثـــل ضـــربه الله ولم يخلق هذه الشـــجرة علـــى وجـــه الأرض. يقـــوي هـــذا أن الله ذكـــر مواصـــفاتها بدون تعيين اسمها، ولـــو كانـــت شـــجرة معينـــة لـــذكرها باســـمها فيتبـــع ذكـــر اســـمها استحضار مواصفاتها.

27- يثبت الله الذين آمنوا...ما يشاء.

فَقْدُ الطمأنينة من أسوأ ما يعرض للإنسان في حياتـــه الـــدنيا. فـــالقلق والحيـــرة والأســـئلة التي تتحرك في النفس ولا تجد جوابا ولا تفسيرا، تفســـد علـــى الإنســـان حياتـــه وتصـــيبه بالقلق المهدم. إن الذي يطرُد كل ذلك هو ما يـــنعم الله بـــه مـــن التأييـــد للإنســـان بهدايتـــه وخاصة القرآن الذي يجد تاليه المتدبِّر في آياته سلاما نفســـيا وراحـــة كمـــا قـــال تعـــالى: **(ألا بذكر الله تطمئن القلوب)**[1] فالله قد أنعـــم علـــى البشـــر بمـــا يثبِّـــتهم بـــه مـــن آيـــات كتابه، هو القول المتصف بالثبوت في مضمونه وفي ألفاظـــه. فينعمـــون بـــه فـــي حيـــاتهم الدنيا. يضـيء لهم المســـالك المنجيـــة ويـــدفع عـــنهم موجبـــات الحيـــرة والشـــك القاتـــل.

---

[1] سورة الرعد آية 28

وكذلك يجدون من آثار ملا زمتهم للعمل بما جـاء فـي القـرآن طمأنينـة راضـية. وقـد أذهب عنهم تمسكهم بالقرآن الخوف.

ثم ثنّى القرآن بما يثبت مضمون هذه الآية بـأن الله يتصـرف فـي الظـالمين المشـركين فيجعلهم في حيرة وارتابك. شأنهم شأن التائه الـذي لـم يتبـين الطريـق السـالك لغايتـه، فكلما سار في اتجاه عاجله الشك فيه. وذلك عاقبة الشـرك الـذي اختـار الضـال التزامـه وأعرض عما كشفه له الله من سوء العاقبة.

والله يفعل ما يشاء فعله لا راد لقضائه . فيسمو بـالمؤمنين إلـى درجـات متفاوتـة فـي النعيم والفضـل والتزكيـة، ويهـوي بالمشـركين إلـى دركـات مـن العـذاب والنقمـة والإذلال تبعا لحكمته وحسن تقديره.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِهِۦ ۗ قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٣٠﴾ قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَـٰلٌ ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ :

كفرا: كفران النعمة المقابل لشكرها. ومنه الشرك بالله.

أحلوا قومهم : كانوا سببا في نزول قومهم.

دار البوار : دار الهلاك والخسران جهنم.

القرار : موضع استقرار الإنسان.

الأنداد : جمع ند وهو المماثل في المجد والرفعة.

سبيل الله : كل عمل يجري على ما يرضي الله.

الخلال : مصدر من خالّك إذا وادك وصافاك.

بيان المعنى الاجمالي :

عجب من كل من يمكنه الرؤية إذا لم ينتبـه إلـى رؤوس الكفـر الـذي بلـغ مـن سـوء عملهم وكفرهم، أنهم قابلوا نعم الله علـيهم مـن رسـالة النبـي ﷺ، ومـن أمـن بلـدهم، وتقدير العرب لمنزلتهم. قابلوا كل ذلك بكفر النعمـة التـي أشـدها شـناعة الشـرك بـالله ومقاومة دعوة الإسلام. وأثروا على قومهم فقـادوهم إلـى دار الخسـران، جهـنم. وهـي أسوأ قرار ينزل به الإنسان. ثم إنهم أقاموا من خيـالهم أصـناما قدسـوها حتـى جعلوهـا مساوية لله. وما حققوا بذلك إلا هـدفا واحـدا هـو أنهـم أضـلوا النـاس عـن الطريـق

المؤدي لمرضاة الله. قل لهم تهديدا لهم: تمتعوا بما أتيح لكـم فـي الحيـاة فـإن مصـيركم إلى النار.

قل يا محمد للمقربين من البشـر إلـيَّ: عبـادي: واصـلوا أداء صـلواتكم علـى الوجـه الأكمل، وواصلوا الإنفاق من الأموال التـي رزقـتكم إياهـا، وبـادروا بـذلك قبـل يـوم القيامة. ذلك اليوم الذي لا يملك أحد مـا ينفقـه لترتفـع درجاتـه، كمـا لا يجـد خلـيلا يشفع له أو تسمو به مكانته عند الله.

بيان المعنى العام :

28←29: ألم تر أن الله...وبئس القرار.

تحريك كل من يصح منه الرؤية لاستحضار ما دخل عليه قوله: **ألم تر**، فكأن مدخول الرؤية أمر محسوس منظور إليه، والعجب كل العجب ممن لم يشاهده. ذلك أمْرُ الذين بدلوا نعمة الله كفرا؛ أتتهم النعم من الله من بعثة النبي ﷺ التي هي أكبر النعم وأجلها مقدارا، وحصانة بلدهم فتحققت لهم الحياة فيه آمنين في الوقت الذي كانت الحروب تشتعل في الجزيرة العربية (بلد آمن ويتخطف الناس من حولهم) وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم، فكانت الأرزاق تأتيهم من كل مكان. فعوض أن يشكروا هذه النعم بقبول الحق الذي نزل إليهم ويخلصوا العبادة لمسديها، عبدوا الحجارة، وكذبوا الرسول ﷺ، وآذوه وآذوا المؤمنين به. هؤلاء هم رؤساء الكفر من قريش، استكبروا في مكة بغير الحق، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات، وصرفوا كثيرا من القادمين على رسول الله ﷺ. صرفوهم عن الإيمان والانضمام لجماعة المسلمين .وأثَّروا بالتالي في الضعفاء من قومهم، وحتى في بعض كبار القوم؛ كما فعلوا مع عم الرسول أبي طالب بإثارة نعرة النخوة بما كان عليه آباؤه والكبرياء بنسبه إليهم. فكانت الغاية التي حققوها لقومهم: أنهم أنزلوهم في النهاية دار الهلاك والخسران. وما هي هذه الدار ؟ الأقرب لنسج الآية هو ما جاء في قوله تعالى بعد: جهنم يصلونها، فيكون الخسران متعلقا بحالة قومهم يوم القيامة. وحمله بعضهم على النكاية التي حلت بقريش في واقعة بدر التي قتل فيها عدد غير قليل من رؤوس الكفر .ويكون الكلام ينتهي بقوله تعالى (**دار البوار**) ثم يستأنف القرآن أن عاقبتهم جهنم .

وجهنم هي أسوأ قرار يكون فيه الإنسان، أعاذنا الله منها بفضله وكرمه.

30-وجعلوا لله أندادا...مصيركم إلى النار.

رؤساء الكفر والمستكبرون الطغاة مـن مشـركي أهـل مكـة، اخترعـوا مـن خيـالهم أصناما أسبغوا عليها من التقديس الشيء الكثيـر. وطوعـوا النـاس ليعتقـدوا فيهـا النفـع والضر، حتى جعلوها مساوية لله في المجـد والعظمـة، يؤمنـون بهـا ويتقربـون إليهـا.

وما هو الدافع لهم في ذلك؟ أجابت الآية أنهم مــا فعلــوا شــيئا إلا أنهــم أوقعــوا قــومهم في الضلال والضياع، والبعد عن طريق الله، فضلوا وأضلوا.

قل لهم يا محمد: تمتعوا بمغريات الحياة الدنيا، وواجههم بعــد ذلــك مهــدِّدًا لهــم بالكشــف عن مصيرهم الوحيد الذي سيؤولون إليه يوم القيامة، مصيرهم إلى النار.

31 - قل لعبادي ...ولا خلال.

أمر ﷺ في خاتمة الآية السّــابقة أن يهــدد المشــركين فــي مواصــلتهم العــبَّ مــن متــع الحياة بأن مصيرهم إلى النــار. وبالمقابــل أمِــر أن يخاطــب المــؤمنين بوصــفهم هــذا: الإيمان. ليواصلوا أداء الصلوات على أكمل وجــه وأتمــه، وأن ينفقــوا ممــا يسَّــر لهــم ربهم من الأرزاق سرا، بكيفية لا يعلم غير المنفق أنــه يســمح بأموالــه تخفيفــا للحاجــة، وعلانية إنفاقا ظاهرا يدركه النــاس. وأتبــع الإنفــاق بــالتحريض عليــه ســرا وعلانيــة لطرد ما يمكن أن يُظَنَّ أن الإنفاق علانية لا ثــواب فيــه. نعــم ! إن تقــديم الســر علــى العلانية يشير إلى فضل الصدقة المخفية على الصــدقة المعلنــة، لمــا فــي الإخفــاء مــن الإبقاء على كرامة المحتاج.

وفي نظم الآية أسرار يكون من الخير إبرازها:

أولا: صرح الأمر الإلهي بالتوجه للعبــاد منســوبين لــه، وهــو أعظــم شــرف للإنســان عندما ينسب إليه (**قــل لعبــادي**) وفــي ذلــك إيمــاء إلــى أن المشــركين بشــركهم قــد انفصلوا عن ربهم.

ثانيا: أنهم لم يُطلَبوا بصيغة فعل الأمر التي لا تستعمل إلا لإيجــاد مــا لــم يتحقــق بعــد في الخارج، أما استعمال الفعل المضارع مــع الــلام المقــدرة يفيــد مواصــلة مــا هــم ينجزونه فعلا، وفيه تسجيل: أن الله مطلع على ما قاموا به من خير .

ثالثا: إظهار متعلق الإنفاق، أنه مما رزقنــاهم، ليكونــوا عنــد الإنفــاق مستشــعرين منــة الله عليهم الذي مكنهم مما ينفقون.

ثم حضهم على المبادرة بإقامة الصــلاة والإنفــاق قبــل انقضــاء العمــر، الــذي لا يعلــم ميقاته إلا الله. قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا يجد فيــه أحــد ملكــا يملكــه حتــى ينتفــع بالإنفاق منه. فعبر عن نفي التملك والتصــرف فيــه، بنفــي البيــع. وكمــا لا ينتفــع فــي ذلك اليوم بمال يتصدق منه،كذلك لا ينتفع بصداقة تشفع له.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾

وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ
مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الرزق : القوت.

التسخير : التذليل، والتطويع.

الأمر : الإذْن.

دائبين : على حالات لا تختلف.

إن تعدوا : إن تحاولوا العد.

لا تحصوها: لا تضبطوا عددها.

بيان المعنى الإجمالي :

كتاب الكون أمامكم فانظروا فيه. تجدوا أن الله هو المتفرد بخلق السماوات والأرض. ثم لطف بكم فيسر لكم في الأرض ما يمكنكم به من عمارتها، فأنزل الماء من السماء، وقدر أن يجري في باطن الأرض يتواصل مدده بعد نزوله، لتتولد منه الثمار والأقوات. وألهمكم الاستفادة من قوانين الكون لتتيسر بذلك حياتكم، فصنعتم الفلك، عليها تسافرون وتحمل أمتعتكم. وسخر لكم الأنهار تخصب الأراضي وتبعث بمياهها إلى مخزون المائدة المائية. وربط بينكم وبين الشمس والقمر تتعاقبان عليكم، تنتظم بتعاقبهما أمور الحياة وكذلك الليل والنهار. والنعم على كثرتها وتنوعها التي يحتاجها الإنسان، آتاكم الله إياها، فأخذ كل إنسان حظه المكتوب له منها. وهي نعم تعجزون عن عدها. ولكن الإنسان إذا لم يُنِرْ قلبه وعقله الإيمان يكون ظلوما جاحدا شديد الكفر، لا يتوجه بالشكر على الخيرات التي توفرت له.

بيان المعنى العام :

32←34: الله الذي خلق السماوات...لظلوم كفار.

بعد أن سجلت الآيات السابقة موقف الكافرين وفساد أعمالهم ومعتقداتهم ومصيرهم القريب والبعيد، وبينت مواقف المؤمنين والمنهج الذي أمروا بإتباعه، وما ينتظرهم من جزاء في الدنيا والآخرة، اعتنى القرآن بالتذكير بما يعتبر قوام الدين الإسلامي، أعني تفرد الله بالتصرف في الكون وفضله على البشر. وفي التذكير بذلك ولفت الأنظار للأدلة الناطقة بصدقه، ما يرفع حجاب الغفلة عن تلكم الأدلة، ويحييها في

العقل والضمير، حتى يكون الإنسان شاعرا بهـا، فـي منطقـة التجلـي الواضـح، تهديـه وتقوِّم مسيرته في الحياة.

استُخلِصَتْ مادة هذا التذكير من كتـاب الكـون. فلفـت الأنظـار لحقيقـة يُقرِّبهـا حتـى المشركون، وهـي أن الله هـو المتفـرد بخلـق السـماوات والأرض. ولا يـدعي عبـدة الأصنام أن آلهتهم خلقت شيئا منهما. وفي هذا الكـون يعـيش الإنسـان الـذي يسـره الله الذي خلقه، لتتم فيه الحياة والتعمير من البشـر. ثـم بعـد الخلـق العـام للكـون تابعـت الآيات تصرف الله فيه بما ينفع الناس. فعدَّد الـنعم الكبـرى التـي بـدونها تتعـذر الحيـاة أو تكون عسيرة .

أولا: إنزال الماء من السحب المرتفعـة حـول المحـيط الأرضـي، التـي تحبـل الأرض بمتنوع الخيرات التي بها تستمر الحياة. فأخرج الثمـار مـن الأشـجار، وأخـرج النبـات الذي ترعاه الأنعام. ومن ذلـك يتـوفر للإنسـان قوتـه الـذي يعوضـه عـن الوحـدات الحرارية التي تحترق بالعمل والكد. فميـاه الأمطـار، وتقبـل الأرض لهـا ثـم اختزانهـا لتروي عروق الأشجار والنبات على قدر ما هي فـي حاجـة إليـه، وكـون مـا يتحـول من عناصر التراب والماء إلى ثمـار وحبـوب ومراعـي للحيوانـات التـي يـدخل فـي تركيب إنتاجها جميعا ما يتفق وطبيعة الإنسان، مما يشير إليـه قولـه تعـالى: رزقـا لكـم – آيات تنادي بالقدرة والحكمة والوحدانيـة. وهـذه نعـم تصـل مـن الله إلـى الإنسـان ولادخل له فيها.

ثانيا: إقدار الإنسان على الاستفادة من قوانين الكـون بمـا يمكنـه مـن تطويعهـا للتغلـب على الصعوبات التي تعترضه. ومن ذلك ما هداه إليه مـن صـناعة السـفن التـي مكنتـه من السفر بها واختصـار المسـافات الفاصـلة بـين أقطـار الأرض وتحميلهـا بالسـلع، وغير ذلك من المنافع التي تظهر مـع الـزمن صـور جديـدة لهـا. وكـل ذلـك بإذنـه سبحانه في ترتيب القوانين التي باكتشافها تم للبشرية تحقق فوائد هذه النعمة.

ثالثا: الأنهار الجارية بما تحملـه مـن ميـاه ومـا تنشـره مـن طمـي يخصـب الأرض ويضاعف خيراتها، وتمكين الإنسان من الـتحكم فـي مجاريهـا والطاقـات المتولـدة مـن السدود التي تبنى عليهـا. ونفـاذ مياههـا إلـى بـاطن الأرض تـروي المائـدة المائيـة، فتختزن في باطن الأرض. ألْهَمَ البشر طريقة استخراجها والتحكم في الري بها.

رابعا: تعاقب الشـمس والقمـر، وتعاقـب الليـل والنهـار علـى الأرض وسـاكنيها. إن المنافع والألطاف التي تيسرت للإنسان بهـذا التعاقـب لا تكـاد تحصـى، بـل إن الحيـاة لا يمكن لها أن تحدث ولا أن تستمر لولا هذا التعاقب المنتظم.

وبصفة عامة تفضل عليكم ويسر لكم فمكنكم من كـل مـا سـألتموه. ولـيس معنـى هـذا أن كل إنسان استحوذ على جميع ما تفضل بـه الله، ولكـن أخـذ كـل فـرد مـن البشـر حظه من الخيرات التي سألها الإنسان بلسان حاله أو بلسان مقاله.

ثم انسحبت الآية على ما تقدمها لتعطي مفهوم التعمـيم لفضـل الله علـى البشـر وتفـرده بذلك. بأنكم لو حاولتم تعـداد نعـم الله علـيكم لعجـزتم عـن ضـبط أعـدادها. إن نعمـا كثيرة لا يشعر بها الإنسان إلا إذا ذكـر بهـا. لقـد ذكّـرت المـؤمنين مـرة بنعمـة الله على كل فرد منهم، وما سمعت أحدا يذكر تلكم النعمة، هي أنـه يعـرف نسـبه وأنـه ابـن فلان وفلانة. ولا يذكر هذه النعمة ولا يقدر حق قـدرها إلا فاقـدها. إن كـل نَفَـس يمـلأ رئتيك أو يخرج منهما، وكل جرعة مـاء تمـر عبـر مسـلكها، وكـل لقمـة تنفـذ إلـى مكانها. نعم تتكرر ولا تلتفت إليها ولا تشعر بها، ولو فقـدت واحـدة منهـا لهـان عليـك في استرجاعها كل ما ملكت يمينك.

ولكن الإنسان الذي لم يستقر الإيمان فـي قلبـه، ولـم يضـئ جوانـب روحـه، يمضـي ذاهلا عن أخص خصائص نفسه، فيندفع إلى تجـاوز حـده. وأكبـر ذلـك الظلـم الشـرك بالله مسدي النعم. وتأتيه النعمة فيصرفها فـي عكـس مـا كـان عليـه أن يصـرفها فيـه حسب قانون الحكمة والعدل، فيقوده كفره بها إلى التمرد والاستكبار.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ
إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ
﴿٣٦﴾ رَّبَّنَا إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟
ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِيٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ
﴿٣٧﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ ۗ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي
ٱلسَّمَآءِ ﴿٣٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

اجنبني : من جانبه باعده عنه. أي امنعني.

الصنم : المنحوت على خلقة البشر، وما كان على غير خلقة البشر، وثن.

الأفئدة : القلوب والعقول والمشاعر.

تهوي : تسير بجد وقصد إليه.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يا محمد وانشر على أسماع قريش وعلى أسماع البشرية إلـــى يـــوم الـــدين مـــا دعـــا به وابتهل به إبراهيم عليه السلام. ابتهل إبـــراهيم لربـــه داعيـــا: رب اكتـــب الأمـــن لمكـــة هـــذا البلد الذي أسكنت فيه ولـــدي وأمـــه. واحمنـــي وابنـــيَّ إســـماعيل وإســـحاق مـــن عبـــادة الأصنام. قد عظم خوفي لما رأيت كثرة العابدين لهـــا. إن مـــن تبـــع منهجـــي فـــي العقيـــدة والسلوك هو مرتبط بي نَكُوْنُ معـــا وحـــدة. ومـــن عصـــاني فـــأمره إليـــك ربـــي. أنـــت الغفور الرحيم فقد تهديه برحمتك وتغفر له ما ســـلف مـــن أمـــره بفضـــلك. ربنـــا إننـــي، تبعا لأمرك، أسكنت بعـــض ذريتـــي، إســـماعيل ومـــن تناســـل منـــه بهـــذا الـــوادي بـــين الجبال، أرض صخرية لا تصـــلح للزراعـــة ولا للغراســـة، حـــول بيتـــك الـــذي حرَّمتـــه فمنعته عن المعتدين، وشرعت من تقديسه مـــا بـــه حميّتـــه. ومقـــامهم فـــي هـــذا المكـــان يصرفهم لعبادتك وإقامة شعيرة الصلاة على أفضـــل وجوههـــا؛ فيســـر لهـــم الحيـــاة بمـــا تغرسه من حب وشوق في عقول ومشاعر قســـم مـــن النـــاس، فيســـرعون إلـــيهم رغبـــة في جوارهم وتعلقا ببيتك. وألهمهم شكر نعمتك. ربنا إنـــك العلـــيم بإخلاصـــنا، فمـــا نعلنـــه وما نخفيه سواء عندك، إنه لا يخفى عليك شيء في الأرض ولا في السماء.

بيان المعنى العام :

35←38: وإذ قال إبراهيم ...من شيء في الأرض ولا في السماء.

بعد أن لفت الأنظار إلـــى مظـــاهر القـــدرة الإلهيـــة، ومختلـــف أنـــواع الفضـــل الإلهـــي ليجلب أهل مكة إلى الدخول فـــي الإســـلام. عقـــب ذلـــك بالتـــذكير بابتهـــالات إبـــراهيم، وهو أبوهم الذي يجدون في الانتساب إليـــه، والقيـــام علـــى البيـــت الـــذي بنـــاه شـــرفهم، وذلك مما يؤكد الوفاء بالنهج الذي كـــان حريصـــا عليـــه أشـــد الحـــرص. المـــنهج الـــذي أحياه رسول الله.

اذكر يا محمد ذلك الظرف الذي قام فيه إبراهيم داعيـــا ضـــارعا إلـــى ربـــه، وقـــد تـــرك إسماعيل وأمه بمكة لا أنيس لهما إلا رعاية الله. فلنتبع ما حفظه القرآن وذكر به.

أولا: رب اجعل هذا البلد آمنا. دعا مستنجدا مستحضـــرا أنـــه يـــدعو مـــن توالـــت عليـــه ألطافه وتكريمه، بما تفيده كلمـــة الـــرب تبعـــا لأصـــلها (التربيـــة) مـــن الرعايـــة وقـــوة الارتباط بين المربِّى ومن تولى تربيته. أشار إلى المكـــان القفـــر الـــذي هـــو فيـــه وســـماه بلدا، اعتمادا على ما تلقاه مـــن الله مـــن وحـــي يطمئنـــه بعمـــران ذلكـــم المكـــان. ومـــن حكمته عليه السلام أن طلب أولا الأمن الذي به يتواصـــل العمـــران، وفقدانـــه مـــؤذن بـــالخراب.

أجاب الله دعاءه حتى إنه في العصر الجاهلي الـــذي فقـــد الأمـــن فـــي الجزيـــرة العربيـــة،

أقرَّ الله في قلوب العرب حرمة مكة فقال تعالى: (**ألم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم**)[1]-

ثانيا: واجنبني وبني أن نعبد الأصنام رب إنهن أضللن كثيرا من الناس-دعا أن يحميه ويحصنه مع بنيه من عبادة الأصنام . وبنوه يوم دعائه إسماعيل عليه السلام جد محمد ﷺ خاتم الأنبياء، وإسحاق جد موسى وعيسى وأنبياء بني إسرائيل عليهم السلام.

والأصنام منحوتات على شكل البشر تقام لتعبد من دون الله. وأتبع دعاءه بحمايته من عبادة الأصنام بإظهار حذره من التحول عن عبادة الله إلى عبادة الأصنام، وإن كان عليه السلام رسولا كريما جاهد في سبيل التوحيد جهادا متميزا. وذلك لإبراز اشمئزازه الشديد من الضلال الذي شاهد كثيرا من الناس في عصره سقطوا فيه. روي عن إبراهيم التيمي رضي الله عنه قوله: من يأمن على نفسه بعد خوف الخليل على نفسه من عبادة الأصنام؟ والذي أفهمه أنه من التعاليم التي سنها إبراهيم أن يكون الناس على حذر من سوء العاقبة. كتب الله لنا ولكم الموت على حسن الخاتمة.

ثالثا: فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم - أعلن أنهما منهجان: منهجه القائم على التوحيد الخالص، وبه تتكون من المؤمنين جماعة واحدة يؤلف بينها العقيدة وتشرف بانتسابها إليه. ومنهج الشرك وعبادة الأصنام ويتبرأ منهم ويُوكِلُ عاقبتهم إلى الله الذي يحكم ولا معقب لحكمه. ومن صفته الغفران والرحمة. وليس معنى تعقيبه هذا أنه يرجو لعبدة الأصنام المغفرة لأن الله يقول: (**إن الله لا يغفر أن يشرك به**)[2]، ولكن على معنى أن يفتح على بصائرهم فيهتدوا لترك عبادة الأصنام وتوحيد الله كما قال تعالى. **قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف**)[3] - وذلك تبعا لقلبه الكريم الذي يحب الخير للبشرية .

رابعا: **ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون** -

واصل ابتهالاته بعرض الوضع الذي ترك فيه إسماعيل وأمه في ذلك الوادي الذي لا نبات به ولا زرع. والله يعلم المكان الذي امره أن يسكنهما، ولعل ذلك إظهارا

---

[1] سورة العنكبوت آية 67

[2] سورة النساء آية 116/48

[3] سورة الأنفال آية 38

للتضرع وقوة الحاجة للتأييد، فـــإن مقومـــات الحيـــاة والعمـــارة معدومـــة، فَـــذَكَرَها عنـــد ابتهاله استنزالا للرحمة التي تطمئنه عليهما، ولا مورد لها إلا من ذلكم الباب.

وقرن خصائص المكان بأنه جمع بـــين كونـــه قحـــلا لا يصـــلح للزراعـــة ولا للغراســـة، وبين رفعة المقدار بجوار البيت الذي حرَّمـــه الله فمنـــع المســـتبدين مـــن الاســـتيلاء عليـــه أو تحويله عن وضعه، أو الإضرار بساكنيه إضرارا يلجـــئهم إلـــى الهجـــرة منـــه فيســـرع إليه الخراب. وعلل مظهرا ما كشفه الله لـــه: بـــأن إقـــامتهم فـــي ذلـــك المكـــان تســـاعدهم على إقامة الصلوات تقربا إلى الله، بقلة الشواغل الصارفة عنها.

ثم ابتهل إلى الله أن يعوِّضهم عن فقر أرضهم، بحب النـــاس لهـــم وشـــوقهم إلـــى بلـــدهم، فيسرعون إلـــيهم بعوامـــل نفســـية وروحيـــة. وتنســـاق إلـــيهم مـــع الوافـــدين المَشُـــوقين الخيرات، رجاء أن يقدروا النعمة حق قدرها فيقوموا بواجب الشكران.

خامسا: ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن وما يخفـــى علـــى الله مـــن شـــيء فـــي الأرض ولا في السماء -

وَصّلَ لدعائه بما تتنزل به الرحمات وتتحقق الإجابـــات، وهـــو التعبيـــر عـــن الإخـــلاص الذي لا يطلع عليه إلا رب العالمين، باعتباره مما يجـــري فـــي بـــاطن الـــداعي. وبمقـــدار صفائه يقوى الرجاء في الإجابة التي كان إبـــراهيم عليه السلام شـــديد الحـــرص علـــى تحققهـــا. وأتم بالتذكير بالقاعدة الإيمانية التي تفيد تفرد الله بسعة العلـــم وشـــموله لكـــل مـــا يجـــري في الكون. وفيه تعليم لذريته ومتبعي منهجه.

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ :

مقيم الصلاة : أؤدي الصلاة بصفة مستمرة، وعلى أكمل الوجوه.

يقوم الحساب : يتحقق الحساب. ويبعث الناس من قبورهم ليوقفوا فيحاسبوا.

بيان المعنى الإجمالي :

ابتهالات زكية سجلها القـــرآن صـــادرة عـــن إبـــراهيم عليه السلام افتتحهـــا بالثنـــاء علـــى الله، وذكر نعمه عليه اعترافا بها، والتي منها أنه وهـــب لـــه، بعـــد أن تجـــاوز الســـن المعتـــاد للإنجاب، النبيين الكريمين إسماعيل وإســـحاق. وأعلـــن عـــن ثقتـــه فـــي قـــرب الله مـــن عبيده يسمع دعاءهم ويجيب طلبتهم .وواصـــل ابتهالاتـــه بـــأن ييســـر لـــه الـــدوام علـــى

إقامة الصلاة، وأن يلحق به من ذريته في ذلـك. وأكـد التوجـه بقبـول دعائـه، وخـتم ابتهالاته بطلب المغفرة له ولوالديه وللمؤمنين.

بيان المعنى العام :

39←41: الحمد لله الذي وهب..يوم يقوم الحساب.

هذا من الأدب الذي هُديَ إليه إبراهيم عليه السلام، ليكون بـذلك قـدوة للمـؤمنين بعـده. وهـو أن يعقب الدعاء بالثناء على الله، وبذكر النعم التي تفضل بها عليه.

قال إبراهيم: الثناء الأتم الأكمل لله الذي تفضل عليَّ فلـم يجعلنـي مقطـوع النسـل، ولـم يقطع أملي فوهب لي، رغم تقـدم سـني إلـى الأمـد الـذي يتوقـف فيـه البشـر عـن الإنجاب، ولدين صالحين إسماعيل وإسحاق. وتشير الآيـة إلـى أن إبـراهيم كـان يـدعو ربه: أن يمتد نسله في الإيمان، وأن يخلفه من ولده مـن يواصـل الـدعوة إلـى التوحيـد. إن ربي سميع لدعائي، أجابني بتحقيق طِلبتي.

ثم عبر عما ألفه وأحبه ويرغب رغبة أكيدة في مواصـلة القيـام بـه، وهـو أن يواصـل في حياته إقامة الصلاة بأدائها على أتـم الوجـوه المقربـة للمـرء مـن ربـه. وأن يمـن على بعض ذريته بذلك فتستمر فيهم عبادة الله بإقامة الصـلاة. وأكـد الـدعاء لتحقيـق مـا ابتهل به: إن ربي سميع الدعاء، أي مجيب لمـن أخلـص فـي دعائـه. وألْحَـق بدعائـه المذكور في الآية أن يتولاه بالمغفرة، لما قصَّـر فيـه، وأن يسـحب هـذه المغفـرة علـى والديه وعلى المؤمنين يوم يقوم النـاس، وينهضـون مـن قبـورهم ليحاسـبوا علـى مـا قدموا. أما المؤمنون فقد تقدم قوله، فمن تبعني فإنـه منـي، وأمـا أبـوه فقـد تقـدم فـي سورة التوبة آية ١١٥ أن إبراهيم تبرأ من أبيه لما تيقن عدوانه للتوحيد.

في ختام هذه الابتهالات ما ينادي بقيمة الصـلاة فـي حيـاة الإنسـان، التـي قـال فيهـا النبي ﷺ: وجعلت قرة عيني في الصلاة.

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ
فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ
﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن
زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا

بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن
كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الغفلة : الذهول.

تشخص الأبصار : ترتفع الأبصار.

الإهطاع: إسراع المشي مع مد العنق

إقناع الرأس : طأطأته من الذل.

الطرف : تحرك جفن العين.

الهواء : الخلاء.

إتيان العذاب : وقوع العذاب.

قريب: قليل.

المكر : إضمار فعل السوء بالغير.

بيان المعنى الإجمالي :

إن ما يرفل فيه المشركون المتمردون الظلمة من نعيم، هو نعيم زائل وقليل، ولا تظنوا أن الله غافلا عن قبائح أفعالهم وسوء عقيدتهم. كل ما في الأمر أن الله أمهلهم ليجزيهم عما قدموا. تراهم في يوم الجزاء وقد أحاط بهم هول العذاب من جميع الجوانب فشخصت أبصارهم، فلا تتقلب من شدة الهول. يسرعون ورؤوسهم ممتدة يغشاها الذل، توقفت جفونهم فلا يستطيعون إغماضها. وقلوبهم وعقولهم فارغة خاوية ذهب كل ما كان يعمرها من قبل. أنذرْهم منبها بأنهم عندما يحين يوم العذاب يتوجه الذين ظلموا، بالشرك والتعدي على حقوق البشر، إلى الله بالسؤال أن يمهلهم بإرجاعهم إلى الدنيا وقتا قليلا يظهرون فيه إيمانهم وإجابتهم للدعوة التي بلغها إياهم رسول الله ﷺ . وسيكون الجواب: ألم تكونوا أقسمتم من قبل في الدنيا وأكدتم أنكم لا تخرجون من قبوركم. وبلغ من عنادكم أنكم حللتم في مساكن الذين دمرناهم من الأمم السابقة وأقمتم فيها، وتبين لكم بجلاء كيف انتقمنا منهم، وضربنا لكم على لسان رسولي في القرآن الأمثال الموقظة للعقول والقلوب، فأعرضتم عن كل ذلك.

ثم ثبت الله نبيه والمؤمنين، بأن المشركين قد دبروا لهم ما يؤذيهم في خفاء، والله عليم بما يمكرون، وما كان مكرهم ليؤثر في الجبال فيهدها، إن مكرهم ضعيف يتحطم على صلابة الرسول والمؤمنين الذين هم كالجبال.

بيان المعنى العام :

42←43: ولا تحسبن الله غافلا...هواء.

– تمرد مشركو مكة، وقد بسط الله لهم فـــي الـــرزق والقـــوة، وكانـــت حظـــوظ زعمـــائهم موفورة من المال والجاه، فخيل إليهم أن الخير الذي هـــم فيـــه لا ينقطـــع ويصـــاحبهم فـــي حياتهم وبعد موتهم. فهددهم القرآن بأن الله يمهلهـــم ولا يهملهـــم، إنـــه غيـــر ذاهـــل عـــن أفعالهم، مطلع على ظلمهم الفظيـــع بالشـــرك بـــالله. فيكـــون المعنـــى لا تظـــنن أن عـــدم تعجيل العقوبة للمشركين الظالمين غفلـــةً عـــن جـــزائهم بقبـــيح فعـــالهم. ولكـــن الله قـــدر لكل شيء أجله، فهو تبعا لحكمته قدر تأخيرهم ليوم مهول: من صفة هذا اليوم:

أولا: أن أبصارهم تكون واقفة لا تتحرك من شـــدة الهـــول، يلهـــيهم مـــا هـــم فيـــه عـــن تقليب النظر وتحويل البصر. وضع أبصـــارهم كوضـــع العيـــون فـــي حالـــة الاحتضـــار. إن دلالة العيون على الوضع النفسي دلالـــة مؤكـــدة لا تكـــاد تتخلـــف. فـــالحزن والتفـــاؤل والفرح والذهول والحيرة ونحوها، تنبئ عنها أوضاع البصـــر، فمـــن الدقـــة القرآنيـــة فـــي استحضار صورة المشركين يوم القيامة لفت الأنظار لوضع أبصارهم .

ثانيا: يسرعون في المشي مع مد العنق إلى الأمام بذلة واستكانة، كإسراع الأسير الخائف.

ثالثا: مقنعي الرؤوس: رؤوسهم مطأطاة من الذل.

رابعا: لا يرتد إليهم طـــرفهم: لا يقـــدرون علـــى تحريـــك جفـــونهم، فتبقـــى ثابتـــة فـــي وضعها لِما داهمهم وما شاهدوه من الهول.

خامسا: أفئدتهم هواء: عقولهم خاوية ذهب منهـــا كـــل مـــا تحويـــه، مـــن شـــدة الموقـــف الذي أحاط بهم هوله من كل جانب.

إن ما مكنهم الله منه من نعم زائلـــة فـــي الـــدنيا، لا تســـاوي لحظـــة مـــن لحظـــات هـــذا الموقف المفزع الذي حددت بعض ملامحه الآيتان.

43←45: وأنذر الناس يوم يأتيهم...وضربنا لكم الأمثال.

الآيتان السابقتان كشفتا عـــن الوضـــع النفســـي وعـــن حالـــة حـــواس المشـــركين يـــوم القيامة. وأردفت هذه الآيات صورة قمعهم ورفـــض توســـلاتهم وتقـــريعهم ليكونـــوا علـــى بينة من مآلهم فيقلعوا عن مواصلة الكفر ورفض الـــدعوة الإســـلامية. فالغايـــة مـــن هـــذه الآيات الثلاث إنذارهم لتغيير موقفهم.

مضمون الإنذار: أن المشركين الذين ظلمـــوا بشـــركهم، وظلمـــوا المـــؤمنين، ومـــا كـــان يردعهم عن الظلم رادع، أنذرْهم منبئا لهم بموقفهم يـــوم القيامـــة، يـــوم يشـــاهدون أهوالـــه التي فُصّل شيء منها فـــي الآيتـــين، فيتوســـلون إلـــى الله أن لا يعـــاجلهم بالعقوبـــة، وأن يؤخرهم قلـــيلا قبـــل حســـابهم وجـــزائهم، ليعبـــروا عـــن اســـتجابتهم للـــدعوة بالإيمـــان، ويَتّبِعُوا ما يأمرهم بـــه المرســـلون فيمـــا يقبلـــون عليـــه ومـــا يدعونـــه مـــن الأعمـــال.

وهيهات يكون قمعهم وحرمانهم من قبول توسلاتهم بتـذكيرهم بمـا كـانوا أقسـموا عليـه في حياتهم الدنيا وأكدوه تأكيدا بالغا: أنهم لا ينتقلـون مـن قبـورهم إلـى الحشـر(**مـالكم من زوال**) على معنى إنكارهم الشديد للبعث.

ويتواصل تقريعهم وتوبيخهم، بأنهم لما كـانوا فـي الـدنيا كـانوا يمـرون فـي رحلاتهـم إلى الشام على ديار ثمـود، ويمـرون علـى ديـار عـاد فـي رحلاتهـم إلـى الـيمن، ويحطون رحالهم في منازلهم الخربة، ويشاهدون ويـروون مـا حـاق بهسم مـن العـذاب الذي استأصلهم. فقد تبينوا بذلك تبيُنا يقينيا ما حـل بهـم مـن العـذاب. ومـع ذلـك فقـد أرسل الله لهـم رسـوله يعظهـم ويـذكرهم بمختلـف أنـواع التـذكير. (**و ضـربنا لكـم الأمثال**) نعم تكررت الأمثال الموقظة للعقول الكاشـفة عـن سـنة الله التـي يجريهـا فـي القوم الظالمين، ولكنهم واصلوا التكذيب والصد عن سبيل الله.

46- وقد مكروا...منه الجبال.

لقد هيأ المشركون ما يدفعون به الـدعوة بخبـث كبيـر. ودبـروا فـي الخفـاء ضـروبا ظنوا أنها ستوقف المد الإسلامي، وظنوا أن الله غيـر مطلـع علـيهم، فـواجههم القـرآن بالتأكيد على أن الله عليم بما يمكرون. ثـم هـوَّن علـى رسـوله وعلـى المـؤمنين مـا يبيتونه لهم، فقال تعـالى: (**وإن كـان مكـرهم لتـزول بـه الجبـال**) – إن– أداة نفـي، على معنى وما كان مكرهم لتزول منـه الجبـال، أي إن مكـرهم ضـعيف لا يسـتطيع أن يزيل الجبال الراسيات. فالرسول والمؤمنون صـامدون واثقـون، ومـا دبـره المشـركون لا يؤثر فيهم، وفيه إيماء للاستخفاف بهم وللتنويـه فـي المقابـل بصـلابة المـؤمنين فـي دينهم، وأنه لا يزعزعهم مكر المشركين.

فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

التبديل : التغيير.

برزوا : ظهروا بين يدي الله لا يواريهم بناء ولا حصن.

التقرين : الجمع بين اثنين بحبل كما يجمع بين الثورين.

الأصفاد : جمع صفاد وهو القيد والغل.

سرابيل : جمع سربال وهو القميص.

القطران : دهن أسود معروف، للنار فيه اشتعال شديد.

بلاغ : تبليغ وإيصال.

بيان المعنى الاجمالي :

تيقَنْ أن الله سيتم وعده الذي وعدك، سيحقق لك نصــره، وظهـور الإسـلام علـى الـدين كله. إن إمهال الكافرين وعدم تعجيل العقوبة، هـو تـابع للتقـدير الإلهـي. ويؤكـد ذلـك: أن الله عزيز لا يمكن أن يرد حكمـه راد، بـل ينفـذ مـا أراد كمـا أراد. وهـو القـادر القدرة الكاملة على الانتقام، من الكافرين والطغاة.

وذكِّرهم باليوم الذي تتغير فيه الأرض والسـماوات، فـلا تكـون خصائصـها علـى مـا تشاهدونه في الدنيا. وفي هـذا اليـوم يظهـر المجرمـون مكبلـين ومجمـوعين بـالقيود والأغلال. يغطي القطران أجسامهم، تلكم المادة التـي تختـزن الحـرارة فترتفـع درجتهـا وتلتصق بالجلود فتمزقها، وتغطي النـار وجـوههم فتسـتوعبها. وهـو يـوم يظهـر فيـه العدل الإلهي فتُجزَى كل نفس بما اختـارت ونفـذت مـا اختـارت. وجـزاء البشـر بمـا قدموا يتم في سرعة تفوق التصور. إن الله سريع الحساب.

استحضر القرآن في خاتمة سورة إبراهيم مجموع ما جاء فيهـا، فأشـار إليـه بأنـه أمـر أراد الله إبلاغه للناس ليستيقظوا، ولينذرهم به مـن عاقبـة التهـاون بـه، وليعلمـوا علـم اليقين أن الله واحد لا شريك لـه، وليتـدبر فيـه أصـحاب العقـول الناضـجة فيرشـدوا فكرا وعملا.

بيان المعنى العام :

47- فلا تحسبن الله مخلف...ذو انتقام.

قاوم المشركون الدعوة الإسلامية، وآذوا المـؤمنين، ولـم يعـاجلهم الله بالعقوبـة. وكـل أمر مرتب عند الله في أجله لحكمة يعلمهـا. سـلّى النبـي ﷺ فخاطبـه مؤكـدا: إن الله لا يُخْلِفكَ يا محمد ما وعدتك من النصر، وأنـت فـي هـذا علـى سـنن المرسـلين. ولـذلك جمع لفظ الرسل والمقصود محمـد ﷺ. إن الله الـذي وعـدك بالنصـر والتأييـد وإظهـار دينه عزيز قادر لا يحـول بينـه وبـين مـراده أي شـيء، جـرت سـنته فـي التـاريخ البشري أنه لا يهمل المفسدين الظلمة، وينتقم منهم في النهاية انتقاما لا مفر لهم منه.

48←51: يوم تبدل الأرض غير الأرض...سريع الحساب.

ظن المشركون أن أوضاع الحياة الآخـرة كأوضـــاع الحيـاة الـدنيا. وأن القـوانين هـي عينها . ولذا سجل عليهم أنهم ينتصرون بشـفعائهم (**مـا نعبـدهم إلا ليقربونـا إلـى الله زلفى)**[1] – وأن أموالهم سـتحميهم مـن العـذاب الموعـود بـه، وأنهـم يعتمـدون علـى أتباعهم وعلى كثرة أولادهم، **(وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى)**[2]

إن أوهامهم تلك منقوضة إذ استندت إلـى أن أوضـاع الآخـرة كأوضـاع الحيـاة الـدنيا. هدَّمت الآيـات الـثلاث تصـوراتهم، وصـرحت بـأن الأرض غيـر الأرض، والسـماء غير السماء ؛ يؤثر الله فيهـا فيغيرهـا ويبـدلها. ويحقـق القـرآن أنهـم يخرجـون مـن الكوامن التي كانت تحويهم، يبرزون منها ظـاهرين سـواء أكانـت قبـورا أم ذرات مـن هباء أجسامهم. وإلـى مـن يبـرزون ؟ يبـرزون لله الواحـد الأحـد، لا رب غيـره ولا مالك في ذلك اليوم سواه، هـو قـاهر الجبـابرة والطغـاة والمسـتكبرين، يبـرزون أذلاء تحت سلطان قهره.

و يكشف الله المجرمين، ويرفع عنهم سـتره، فيـراهم كـل مـن يتصـور منـه الرؤيـة أسرى مقرونين بحبال تشدهم إلى بعضـهم، وقـد صُـبَّ الـذل علـيهم صـبا، يـرونهم وعليهم ثياب من قطران. تلكـم المـادة التـي تختـزن الحـرارة فتقـوى فيهـا، وتتمـزَّعُ جلود من صبت عليه، ويلتصق بهـا القطـران فيتضـاعف عذابـه، وقـد غطـت النـار وجوههم واحتوتها.

إن الله يجمع الناس يوم القيامة ليجزي كل نفس بما فعلتـه، بعـد أن اختارتـه ثـم أرادتـه ووجهت له قصدها. وهنا يكون الجزاء وفق مـا كـان عليـه العمـل مـن خيـر أو شـر وحسن أو سوء. ولا تظنـوا أن أمـر الآخـرة كـأمر الـدنيا. يقتضـي أزمانـا لا تحـد لإيقاف كل صالح على أعماله ثم تحقيق ما يسـتحقه مـن جـزاء، وإيقـاف كـل شـرير على أعماله واعترافه بها ثم تسليط العقوبة العادلة عليـه. إن الأمـر مختلـف عـن ذلـك تماما. إنه يتم الحساب يوم القيامة بأمر الله في سرعة تفوق التصور.

52-هذا بلاغ للناس...الألباب.

هذا المذكور في سورة إبراهيم حقائق منزلـة عليـك لتبلغهـا للنـاس قاطبـة، وفـي هـذا التعقيب ما يرشد المؤمن إلى التأمل العميق فيما حوتـه. فقـد أظهـره الله للعـالمين قصـد أن تحتل مضمونات هذه السورة مراكز تفكـرهم ليسـتيقظوا مـن غفلاتهـم، ولينفـذ إلـى قلوبهم ومداركهم، فتنكشف لهم العواقب فيسـتقيموا فـي حيـاتهم **(ولينـذروا بـه)** ولتقـوم

---

[1] سورة الزمر آية 3

[2] سورة سبأ آية34

الأدلة التي لا تقبل النقض ولا التشكيك، فيحتل العلـم اليقينـي عقـولهم بـأن الله واحـد لا شريك له. وليكون في بيانها، وما ضرب فيها مـن الأمثلـة مـا يلفـت أنظـار أصـحاب العقول السـليمة والنابهـة، ليتـذكروا ويتـأملوا فتكـون لهـم مسـالك للإيمـان برسـالة الإسلام. وبهذا تومئ الخاتمة إلى منزلة المـؤمنين مـن الصـحابة ومـن يـأتي بعـدهم، بأنهم الأحقاء بوصف العقل الناضج **(ذوي الألباب)**.

3 ذو القعدة 1432–2011/9/30

سورة الحجر

سورة الحجر هي السورة الخامسة عشرة في ترتيب المصحف. أجمع المفسرون وكتاب المصاحف على تسميتها بهذا الاسم. أخذ اسمها من خبر أصحاب الحجر الذي لم يذكر إلا فيها. نزلت على رسول الله ﷺ بمكة. عدت الرابعة والخمسين حسب ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يوسف وقبل سورة الأنعام.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴿١﴾ رُّبَمَا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ كَانُواْ مُسۡلِمِينَ
﴿٢﴾ ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ
إِلَّا وَلَهَا كِتَابٞ مَّعۡلُومٞ ﴿٤﴾ مَّا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكتاب : هو القرآن لأنه مأمور بكتابته لتوثيقه توثيقا يحفظه من التحريف والنسيان. وسمي كتابا قبل أن يتم إنزال جميعه.

مبين : معجزاته واضحة بينة.

ذرهم : فعل أمر لم يسمع ماضيه، بمعنى اترك.

يلهيهم الأمل : يستولي عليهم الأمل فينسيهم ما حقهم أن يتذكروه.

القرية : التجمع السكني من المباني اتسع كثيرا أو لا.

تسبق أجلها : تعدم قبل حلول الأجل المقدر لإهلاكها.

بيان المعنى الإجمالي :

أشار القرآن إلى الآيات المنزلة من القرآن باعتبار أنها حاضرة في ذهن المخاطبين. إنها في مجموعها تمثل الكتاب الذي أمر الله بكتابة نصه وقراءته قراءة يتبعها حفظه في الصدور. إنه كتاب مبين واضح، الدلالة على صدقه من ذاته .إن المكذبين به قد يندمون على تكذيبهم به ويودون أن لو كانوا قد انضموا إلى الأمة الإسلامية. لا تأسف على عنادهم واتركهم في ضلالهم فإنهم يعيشون عيشة الأنعام، همُّهم في بطونهم وفي متاع الحياة الدنيا القصير أجلُه السريعُ الفناء، وهدِّدْهم بأنه سيعلمون العذاب الذي سيسلط عليهم.

سنهلكهم كما أهلكنا القرى التي كفرت من قبلهم، ولكن لكـل قريـة أجـل مكتـوب معلـوم لا يتغير عن موعده فلا يتقدم ولا يتأخر.

بيان المعنى العام :

1←2: ألر تلك آيات الكتاب وقرآن مبين ...لو كانوا مسلمين.

افتتحت هذه السورة بما افتتحت به سـورة يـونس مـن قبـل. والكـلام علـى الحـروف المقطعة تقدم بيانه في أول سورة البقرة.

استحضر القرآن ما تم إنزاله على رسول الله ﷺ وبلغه للنـاس مـن القـرآن. ولمـا كـان ذلك حاضرا أشار إليه بقوله تلـك آيـات الكتـاب، فـإن الآيـات المنزلـة لـدخولها فـي العقول والمشاعر وفي إرشادها للنشاط الفكري والعملـي والعقـدي، حاضـرة يشـار ليهـا في كل وقت كالشيء المشاهد. وأضاف لفظ الآيات للقـرآن ذاكـرا لـه، بكونـه قرآنـا، وبكونه كتابا. وإن كان المراد بـالقرآن والكتـاب واحـدا، إلا أن هـذا الجمـع هـو فـي نظري، والله أعلم، لإبراز الميزة التي اختص بها القـرآن مـن بـين الكتـب السـماوية. إن بقية الكتب التي أنزلها الله على رسله، قدر أنها تعتمـد إلـى الأجـل الـذي يتلـوه كـل رسول لمن سبقه، فيعتمد البشر الكتاب الأخير. واعتمـد المرسـل إلـيهم علـى مـا وثـق كتابةً فقط أو بـالحفظ، ومـع تطـاول الـزمن وانتشـار الأميـة، أدمـج القـائمون علـى التوجيه الديني بعد الرسل زيادات ونقصوا مـا كـان مخالفـا لأهـوائهم أو مـا لـم تَـرْقَ عقولهم لفهمه، وتراكم ذلك حتى كان كـل كتـاب ينعـدم مـن الوجـود أو يتغيـر تغيـرا يفقد الثقة به مع الزمن. ولما أراد الله أن يكـون الإسـلام خـاتم رسـالاته إلـى البشـر، يسر لحفظ القرآن عاملان، بهما يتم التقابل والثقة:

العامل الأول: هو كتابة كل نص ينزل علـى رسـول الله ﷺ بمجـرد نزولـه، فقـد كـان للنبي ﷺ كتبة للوحي معروفون بأسمائهم. ثم إنه فـي عهـد أبـي بكـر الصـديق رضـي الله عنه جمع ما كان مكتوبا مرتبا حسب ما كان يأمر بـه النبـي ﷺ بقولـه اكتبـوا هـذه الآية في مكان كذا، أي قبل آية كذا وبعد آيـة كـذا. وبقـي المصـحف مجموعـا تحـتفظ به أم المؤمنين حفصة إلى عهد عثمان رضي الله عنه، فـأمر بنسـخ نسـخ منـه وزعـت على مراكز العالم الإسلامي. فما يـذكره بعـض الجهلـة مـن أن الجـامع للقـرآن هـو عثمان غير صحيح. وإنما مزية عثمان رضي الله عنه وهـي مزيـة لا تنكـر، أنـه نشـر القرآن في نسخ مجموعة على جمع أبي بكر. أي إن أبـا بكـر رضـي الله عنـه الخليفـة الراشد ألهمه الله مع الصحابة إلى الإسراع بجمـع القـرآن مرتبـا علـى الترتيـب الـذي هو عليه الآن في السنة الأولى التالية لانتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

العامل الثاني: هو حـــرص الصـــحابة رضـــوان الله علـــيهم علـــى حفـــظ القـــرآن فـــي ذاكرتهم حفظا جيدا. وكان الحفظـــة للقـــرآن كلّـــه معـــروفين فـــي ذلـــك العهـــد، وإلـــيهم المرجع في إقامة القراء له على النص القرآني كمـــا أنـــزل. وبقيـــت هـــذه الســـنة أعنـــي العناية بحفظ القرآن كله في الذاكرة وتعهده حتـــى لا ينفلـــت منـــه شـــيء، ظـــاهرة تتميـــز بها الأمة الإسلامية. ومن مظاهر ذلك تلاوته في محاريـــب المســـاجد مـــن حفـــظ الأئمـــة في صلاة التراويح في شهر رمضا ن. وقد شاهدت عبـــر شاشـــة التلفـــاز بابـــا الكاثوليـــك الذي يعد العالِم الأول في الدين المسيحي، أنه كلمـــا أراد أن يستشـــهد بـــنص مـــن الكتـــاب المقدس يقدم له تابع بين يديه النسخة ليتلو منها ما يريد تلاوته.

فبالجمع في حفظ القرآن بين التوثيق بالكتابة، والحفظ فـــي الصـــدور، يكـــون قـــد اجتمـــع بذلك للقرآن عاملان للحفظ يدفعان عنه كل تغيير بالزيـــد أو النقصـــان. **إنـــا نحـــن نزلنـــا الذكر وإنا له لحافظون.** فحفظه رب العـــزة بقـــوانين فـــي الحفـــظ التـــي لا يســـتطيع أن يجادل فيها أي عالم. زيادة عن اليقين بتحقق مضمون الآية عند المؤمنين.

و أتبعت الآية بوصف الكتاب بأنه مبـــين، للدلالـــة علـــى أن شـــاهد إعجـــازه مـــن نفســـه، فهو في ذاته كاشف عن صدق الرسول مبين لذلك ومعـــرف لكـــل مـــن يتأمـــل فيـــه أنـــه من عند الله. ليس لرسول الله ﷺ دخل في نظمه، بلَّغه كما أوحـــي إليـــه بـــه مـــن عنـــد الله عن طريق ملك الوحي جبريل عليه السلام.

وإذ كان القرآن واضح البيان؛ إعجـــازه مـــن ذاتـــه، فعنـــاد المشـــركين وإعراضـــهم عنـــه يكون جالبا لندمهم يوم لا ينفع ندم. قـــد يـــودون أن لـــو كـــانوا منـــدمجين فـــي الجماعـــة الإسلامية. ثم إن هذا التمني الذي دلت عليه كلمة – لو– هل هـــو تمـــن فـــي الـــدنيا عنـــد حلول الهزائم بهم، عنـــدما يحـــاربون المســـلمين بالســـلاح ويحقـــق الله نصـــر المســـلمين عليهم، أو هو عند حلول العذاب بهم يوم القيامة فـــي جهـــنم، والتفضـــل علـــى المـــؤمنين بالنجاة من النار وإدخالهم الجنة؟ الآية تحتمـــل الـــوجهين، وقـــد ذهـــب إلـــى كـــل منهمـــا بعض المفسرين، وإن كنت أرجح الوجه الثـــاني لأنـــه هـــو الحالـــة التـــي تعـــم جميـــع الكفرة .

3- ذرهم يأكلوا ويتمتعوا....فسوف يعلمون.

هذه الآية قصد بها تهديد المشركين، ولـــذا يجـــب أن تفهـــم صـــياغتها علـــى مـــا يـــؤدي إلى ذلك القصد. افتتحت بقوله تعالى: **ذرهم** – هو صـــيغة أمـــر لـــم يســـمع ماضـــيه فهـــو متروك الاستعمال فـــي اللســـان العربـــي ومعنـــاه: اتـــركهم، ولا تهـــتم بشـــأنهم اهتمامـــا يُحْزِنك. وقد نزلت الآية بمستواهم إذ ألحقتهم بالأنعام الـــذين لـــيس لهـــم هـــم فـــي الحيـــاة

إلا الأكل والشرب، والتمتع بالشـهوات. وتسـتولي علـيهم الآمـال التـي يتابعونهـا فـي لهفة على تحققها. وما كان لهـا أن تتحقـق لأنهـا سلسـلة يولـد كـل أمـل أمـلا آخـر فيجري وراءها الكفرة لاهثين. والخيبة تترصدهم بمقـدار مـا تتسـع آمـالهم. وينسـون، بقوة اتساع آمالهم، ما كان يجب عليهم أن ينظروا فيه ويكونون على ذكر منه.

وقوله تعالى: "**فسوف يعلمون**"، هي صيغة كثـر اسـتعمالها فـي التهديـد بسـوء العاقبـة وأنه سيحل بهم ما لا يتصورون فظاعته.

4←5: وما أهلكنا من قرية ...وما يستأخرون.

لما هدد القرآن الكافرين في الآيـة السـابقة بقولـه فسـوف يعلمـون، علـى أن تحقـق الوعيد سيأتي في المستقبل، بينت الآيتان سـنة الله فـي تسـليط العـذاب علـى الكـافرين، وإبادة مدنهم التي يتجمعون فيها. بينت ذلـك علـى أن الوعيـد لا يكـون صـدفة، وإنمـا هو محدد الأجل مُثْبَت مكتوب عند الله ميعـاده. فـلا يحـل العـذاب بأمـة مـن المهلكـين قبل الأجل الذي كتبه الله وضبطه في سابق علمه، كمـا لا يتـأخر العـذاب عـن أي فـرد ممن قدر لهم الهلاك.

وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ﴿٦﴾ لَّوۡ مَا تَأۡتِينَا بِٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَمَا كَانُوٓاْ إِذٗا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الذكر : الكلام الموحى به ليتلى ويكرر.

المجنون : الذي اختل عقله حسب تصورهم من أثر مس الجن.

لوما : حرف تحضيض.

النزول : الانتقال من علو إلى سفل.

الحق : المقضي.

الإنظار التأخير.

بيان المعنى الإجمالي :

زعم الكفار أنه من المستحيل أن ينزل الله وحيـه علـى رسـول الله ﷺ، وأن ادعـاءه أنـه موحى إليه يقوم شاهدا على أن به مسًا بعقله من الجـن. ثـم حرضـوه ليـأتي بالملائكـة تشهد بصدقه إن كان من الصادقين حقيقـة. ورد علـيهم القـرآن بـأن الملائكـة لا تنـزل

على غير رسل الله إلا منفذة للعذاب الســاحق المقـدَّر للمكــذبين الفاســقين. فلــو نزلــت عليهم الملائكة لما أُجِلُوا، ولحل عليهم العذاب الماحق حــالاً، وسُـد علــيهم البــاب الــذي يرجى لهم من الهداية.

ثم ذكر سبحانه خاصية من خصائص القرآن تؤكـد أنــه نــزل مــن عنـد الله .هــي أنــه سبحانه قد تكفل بحفظ القرآن من التغيير . وبهذا خــالف جميــع مــا يصــدر عــن البشــر لأنه معرض ولا بد للتغيير.

بيان المعنى العام :

6←7؛ وقالوا يا أيها الذي نزل عليه... إن كنت من الصادقين.

بعد أن هددت الآيات السابقة المشــركين بصــفة عامــة، أخــذت هــذه الآيــات تناقشــهم وترد ما اعترضوا به، وما توهموه من سند لهم في كفرهم بالرسالة.

واجهوا الرسول ﷺ بكل وقاحة فقالوا له: من المؤكـد أنــك مجنــون، علــى معنــى: إنــك في ادعائك أنك مرسل من عند الله ما يقــيم الــدليل أن بعقلــك مســا مــن الجنــون، تبعــا لاعتقادهم الفاسد أن ادعاءه تلقيه للوحي من الله لا يقول به عاقل سليمةٌ مداركه.

وَدَعَوْهُ بأنه الذي نزل عليه الذكر استهزاء بــه. أخــذوا هــذا المعــرف مــن كلامــه ﷺ، وليس عقيدة لهم. والذكر الذي وصف به القرآن والوحي يفيد أمرين:

أولهما: أنه نزل ليتلى ويكرر، على ما تفيده التلاوة مــن الــذكر والإعــادة للحقــائق التــي تضمنها من العقيدة والتشريع والإرشاد.

وثانيهما: أنه بما أنزل عليه من الوحي ينتشــر ذكــرهم فــي العــالمين، ويســمو مقــامهم، قال تعالى: (**لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون**) [1]−

و عرضوا عليه ملجئين له، يحثونه أن يــأتي بالملائكــة، يشــهدون لــه بأنــه مــن زمــرة الصادقين، الذين التزموا بالصدق في أقوالهم. ولــيس غرضــهم ســماع شــهادة الملائكــة، ولكن ليقيموا عليه الدليل حســب زعمهــم: أنــه لــيس رســولا. ومــن ســوء أدبهــم أن شككوا في كونه من الصادقين بفرض ذلك مــع حــرف إن (إن كنــت) التــي خصصــت في الكلام العربي بدخولها على الفرض القليل المستبعد وقوعه.

8←9؛ ما تنزل الملائكة إلا بالحق ...وإنا له لحافظون.

سأل المشركون في الآية السابقة أن تتنزل علــيهم الملائكــة شــاهدة للرســول بأنــه مــن الصادقين. فعرفهم القرآن بأن إنزال الملائكة علــى الأقــوام لا يكــون إلا لتنفيــذ العــذاب

---

[1] سورة الأنبياء آية 10

المقدر لهم. ذلك أن الملائكة ينزلون على الرســل حــاملين للــوحي هدايـــة الله للبشـــر، وينزلون على المكذبين للرســل المتجــاوزين لحــدود الله لينفــذوا العــذاب الــذي أمـــروا بتسليطه عليهم؛ فما ينزلون علـــى غيـــر الرســل والأنبيـــاء إلا بالعــذاب المــاحق الــذي يستأصل المنزل عليهم. إنه لو نزلت الملائكة، فـــإن معنـــى ذلــك أنهــم يســـحقون حـــالا ولا يؤخرون رجاء إقلاعهم عن الكفر. فما سألوه لو أجيبوا إليه لكان فيه إبادتهم.

هذا وقد سبق في محاوراتهم أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: يا أيهــا الــذي نــزل عليـــه الــذكر، يقصدون الاستهزاء به؛ فتولى الله إفحامهم بأن هــذا الكتــاب الــذي يشــككون فيـــه هـــو منزل من عنده، وأنه بالمكانة التي تولى حفظه بنفســه حفظـــا ميـــزه بـــذلك عـــن جميـــع الكتب السماوية. فكان حفظ القرآن من تاريخ نزوله إلى اليـــوم وإلـــى أبـــد الآبـــدين دلـــيلا على كونه من عند الله. إذ لوكا ن نصا، للبشر يد فيـــه، لجـــرى عليـــه مـــا يجـــري علــــى جميع الآثار البشرية. ذكر القاضي عياض فـــي المـــدارك أنـــه ســـئل القاضـــي إســـماعيل عن السر في تطرق التغيير للكتب السالفة وســـلامة القـــرآن مـــن التغيـــر، فأجـــاب بـــأن الله أوكل للأحبار حفظ كتبهم فقال تعالى: **(بمـــا اســـتحفظوا مـــن كتـــاب الله)** وتـــولى حفظ القرآن بذاته: **(إنا نحن نزلنـــا الـــذكر وإنـــا لـــه لحـــافظون)** المـــدارك ج4ص283- باب جمل أخباره.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي شِيَعِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١١﴾ كَذَٰلِكَ نَسْلُكُهُۥ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٢﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الشيع : جمع شيعة وهي الجماعة التي أمرها واحد.

الأولين : القرون الماضية.

نسلكه : السلك الإدخال.

المجرمون : كفار قريش.

السنة : العادة المكررة حتى صارت مألوفة.

لظلوا : فعل ظل يدل على الدخول في النهار أي مع شدة وضوحه.

يعرجون : يصعدون

سكرت : غُيِّرت أبصارنا عما كانت عليه.

بيان المعنى الإجمالي :

من المؤكد أن الله أرسل رسلا تتابعوا عبر القـرون إلـى الأمـم الخاليـة. وأنهـم قـابلوا رسل الله إليهم بالتكذيب ثم الاستهزاء. ثم إنـه علـى هـذا النحـو مـن النفـاذ وتحريـك العقول يدخل الله القرآن في عقولهم فيدركوا خصائصـه العاليـة التـي لا تكـون إلا مـن قدرة فوق قدرة البشر، فيكفر المجرمون به وتقوم علـيهم الحجـة. ومضـى الأمـر علـى هذه السنة والطريقة من نفاذ الوحي إلى عقول المرسـل إلـيهم، ورفضـهم قبولـه عنـادا، ثم إنزال العذاب بهم. إن عنادهم لشديد، وأمره عجيـب، فـإنهم لـو فـتح الله لهـم بابـا في السماء وفي وضح النهار، وأخـذوا يعرجـون فيـه زرافـات ووحـدانا ليكـون ذلـك دليلا على أني أرسـلتك وأوحيـت إليـك، لقـالوا: خُـدِعت أبصـارنا فلـم تعـد تقـوم بوظيفتها كما كانت تفعل من قبلُ من أثر السحر.

بيان المعنى العام :

10←11: ولقد أرسلنا من قبلك في شيع.....إلا كانوا به يستهزئون.

يُحْزِنُ الرسول ﷺ، عنادُ المشـركين وإصـرارهم علـى رفـض الـدخول فـي ديـن الله، والله معه يؤيده ويسليه. والآيتان تسـيران فـي هـذا السـياق بعـد اسـتهزاء المشـركين وطلبهم نزول الملائكة ليشهدوا له. فتضمنتا أن الله قد أرسـل قبلـه رسـلا إلـى البشـرية تتابعوا عبـر القـرون يحملـون هدايـة الله إلـيهم. وقـد كـان أمـر المكـذبين واحـدا، يستهزئون بالرسل ومحضوا خبـثهم ليحزنـوهم بمختلـف أنـواع السـخرية، وقومـك لا يختلفون عمن سبقهم. كما قال تعالى: **فلا يحزنك قولهم.**

12←13: كذلك نسلكه في قلوب المجرمين....وقد خلت سنة الأولين.

وعلى هذا النحو المشاهد من موقف الكفار مـن القـرآن المنـزل عليـك، نـدخل القـرآن في عقول المجرمين، يسمعونه ويفهمونـه ويـدركون مزايـاه، يهـزهم ويحـركهم، ولكـن ما عزموا عليه من العناد والـرفض ينتهـي بهـم إلـى عـدم الإيمـان بـالقرآن. وبهـذا يكونون قد عرضوا أنفسهم للعذاب والهوان تنفيـذا للقـدر العـادل فـيهم. وهـذه سـنة الله مع المجرمين المكذبين من الأزل، أنه بعـد دعـوتهم للحـق، وإقامـة الحجـج الواضـحة عليهم، فإن من تمادى منهم على رفضه لمـا أنزلـه الله يلقـى الخـزي والعـذاب. وفـي ذلك تهديد محقق للمشركين من كفار قريش.

14←15: ولو فتحنا عليهم بابا من السماء ....بل نحن قوم مسحورون.

جسمت الآيتـان مبلـغ عنـاد المشـركين، وأن مـا طلبـوا تحقيقـه مـن المقترحـات لا يقصدون من ذلك الاهتداء إلى الإيمان، ولا تصـديق الرسـول إذا تـم مـا حصـول مـا

طلبوه، ولكنهم يبغون أن ينفلتوا من الإذعـــان للحـــق بمختلـــف المعـــاذير. يقـــول القـــرآن :إنه لو فتح الله عليهم بابا من الســـماء فظلـــوا فـــي وقـــت ســـطوع ضـــوء الشـــمس فـــي النهار، الوقت الذي تتميز فيـــه الأشـــياء للنـــاظر تمـــام التميُّـــز، تبعـــا لوضـــوحها بشـــدة الإشراق، وصعدوا إلى السماء فقاموا بالتجربـــة المحسوســـة، لـــو وقـــع هـــذا كلـــه لكـــان تأويلهم أن يقولوا: إن أبصارنا قد خُدِعَتْ فلم تعطنا حقـــائق الأشـــياء كمـــا كانـــت تعمـــل. وقد سُحِرنا فاختلط علينـــا الأمـــر حتـــى أصـــبحنا نشـــاهد أشـــياء لا حقيقـــة لهـــا شـــأن المسحور.

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَـٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَـٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

البروج : جمع برج. وسيأتي معناها في الشرح.

الرجيم : المبْعَدُ لذله.

الشهاب : الشعلة الساطعة من النار.

مبين : من أبان بمعنى فَصلَ وأبعد.

رواسي : جبال ثابتة .

خزائنه : المواضع الحاوية.

ننزله : نمكن منه.

بقدر معلوم : بتقدير معلوم مقدما.

اللواقح : تصرفات هذه الكلمة تدل على الإخصاب وما يتبعه كاللبن[1]

بيان المعنى الإجمالي :

من الثابت الذي لا مراء فيه، أن الله تفرد بخلـــق الســـموات، وبناهـــا علـــى نظـــام محكـــم تبين للناس منه مجموعات من النجوم الثوابت التـــي تعـــرف كـــل مجموعـــة منهـــا عنـــد

[1] انظر تاج العروس ج7 ص91/100

رصدها في الليل، مع نسبة موقع الشمس منها في النهار مما عرف في علم الأرصاد **بالبروج** التي يعرف بها عدد الشهور وتحول الفصول. كما حفظ السماء من رجس الشياطين، لكن من يحاول من الشياطين استراق السمع يلحقه سريعا شهاب ناري يبعده ويقضي عليه، فاحتفظ العالم العلوي بأسراره. وقد بسط الله الأرض بسطا يسَّر به للإنسان الحياة بدون كبير مشقة. وثبتها بالجبال التي حصل بها التوازن، وأنبت فيها من أنواع النبات التي دبَّر تركيبه على نسب، أمكن للنبات أن يكون ما هو عليه. وقد جعل الله في الأرض ما يعيش به البشر، وكذلك ما يعيش منه. أنواع كثيرة تصل بنفسها ولا مدخل للبشر في إطعامها. وبصفة عامة فإن كل شيء نافع هو من تقدير الله وخلقه، وهو المالك لجميعه، ويُمَكِّنُكُمْ مما شاء تبعا لما قدره في علمه سبحانه.

الله هو الذي يحرك الهواء المحيط بالأرض بكيفية يكون ريحا يحمل اللقاح من الزهور الذكران إلى الزهور الإناث، ويحمل الرطوبة فيثقل السحب بالماء الذي ينزل من السماء فيسقي الناس والأرض والحيوان. وعلى شدة حاجتكم للماء فإنكم لا تستطيعون خزنه فتنزلونه عند ما ترغبون في إنزاله.

بيان المعنى العام :

16←18: ولقد جعلنا في السماء بروجا...فأتبعه شهاب مبين.

أظهرت الآية السابقة أن المكذبين لو فتح لهم باب في السماء وتمكنوا من العروج وولوج المناطق العلوية لاختلقوا من المعاذير ما يواصلون به رفضهم للحق. وهذا الفرض الذي قصد منهم كشف عنادهم، لا إمكان التحقق، كان مناسبة للتنبيه على ما في خلق السماء والكون ونظامه، من أدلة تغنيهم عما اقترحوه من الأدلة على صدق الرسول.

بكل تأكيد، إن الذي نظم خلق السماء على قوانين محكمة وثابتة، بها تم سيرها في الكون هو الله سبحانه، ولا يدعي أحد أن له شريكا في ذلك، إلا الملاحدة الذين يزعمون أن خلْقها تم عقب الانفجار الكوني، وهي فرضية كسوها ثوب الحقائق العلمية؛ ينقضها شاهد العقل. ذلك أن الانفجار لا يكون إلا فوضويا، والنظام الكوني بلغ من الدقة كما تشهد به المكتشفات العلمية والمراصد العملاقة أبلغ المستويات من الحكمة. ولو لم يكن بناؤه على تقدير محكم ما استطاع العلم أن ينفذ إلى بناء الكون والعلاقات بين مكوناته، ولا أن يتقدم خطوة.

أثبتت الآية 16 أن الله نظم السـماء فجعلهـا مقسـمة إلـى بـروج. والبـروج هـي مـا وصلت إليه ملاحظة البشر في نجـوم السـماء فـي الليـل ملاحظـة بصـرية تتباعـت، اهتدوا بها إلى وجود مجموعات مـن النجـوم ثابتـة ومترابطـة، ومتناسـقة بحيـث لـو ربط ما بينها بخطوط لتجمع منها مـا يشـبه صـورة حيوانيـة كالأسـد والعقـرب، أو آلة كالميزان والقوس .ثم قارنوا بين سمتها في الليـل وبـين سـمت الشـمس فـي النهـار فوجدوا أن الموقع يتغير كل شهر تبعا لدوران الأرض. وبنـوا علـى ذلـك تقسـيم السـنة إلى اثني عشر شهر او فصول السنة إلى أربعة فصـول. وسـموها بروجـا .ابتـداء مـن الربيـع – الحمـل، والثـور، والجـوزاء، والسـرطان، والأسـد، والسـنبلة – الميـزان، والعقرب، والقوس–والجدي، والدلو، والحوت .

إن هذا البناء الذي لم يختل على طول الملاحظة، والـذي شـارك المشـركون فـي تتبعـه والاعتراف بدقة نظامه، هو شاهد على أن هـذا الكـون تـم إيجـاده وتسـييره بقـدرة الله وحده. وإذا ثبت أنه من خلق الله انتفت ألوهيـة الأصـنام. وإذا انتفـت ألوهيـة الأصـنام وتفرد الله بالخلق فإن مما يقتضيه تفـرده بـالخلق أن يفـرد بالعبـادة. والعبـادة لا تكـون إلا حسبما يرتضيه المعبود، وسبيل معرفـة ذلـك إرسـال الرسـل مؤيـدين بـالمعجزات، وكفى بالقرآن معجزة لمحمد ﷺ.

ثم أردفت الآية أن الخلق المحكم لم يقتصر على الدقـة والنظـام، بـل أضـاف إليـه أنـه سبحانه أراد أن يسبغ على ذلكم الخلق العظيم جمـالا يـبهج الـنفس ويمتـع النـاظر. لقـد حُجِبت السماء عنا بالتلوث، فلم نعد نستمتع بجمالهـا الأخـاذ. كنـت مسـافرا بـين جـدة والمدينة، وطلبت من سائق السيارة أن يتوقف فيمـا بينهمـا، ونزلـت وركـزت بصـري في السماء وكان الجو صحوا لا تحجـب السـماء غمامـة ولا تلـوث ولا غبـار، وبـدت لي قبة السماء مرصعة بالنجوم في منظرٍ ما زلت أتمـلاه إلـى اليـوم وأرجـع بـذاكرتي لاستحضاره فأجد من المتعة ومن اليقظة الروحيـة مـا لا تسـعفني اللغـة ولا تسـاعدني قدراتي التعبيرية على تصويره تصويرا يأتي علـى تفاصـيله فيجسـمه للقـارئ. إلا أنـي أدعو كل مؤمن أن يتأمل في قبة السماء في الليلـة الصـحو بعيـدا عـن المـدن ليـذكر بقلبه ولسانه: **تبارك الله أحسن الخالقين .**

17– تفيد هذه الآية سرا من أسرار السماء، في هـذه المسـافات التـي لا يعلـم مقـدارها إلا خالقها، ولا يعلم مكوناتها إلا هو، من المجـرات السـابحة فـي أفلاكهـا وراء مجـرة الشمس التي نحـن نعـيش فـي الأرض إحـدى وحـداتها، ولا تقـاس الأبعـاد بينهـا إلا بالسنوات الضوئية، هذا السر هو أن الله طهر تلكم المجـرات مـن رجـس كـل شـيطان

حقير لقول الله تعــالى: (**إن الشــيطان كــان للــرحمن عصــيا)**[1] فهــي محفوظــة مــن العناصر الخبيثة التي تأتمر بأمر الشيطان.

والشيطان من جنس الجن لقوله تعالى: **(إلا إبليس كــان مــن الجــن ففســق عــن أمــر ربه)**[2] والشيطان وذريته كفرة يعملون على إغــواء البشــر **(إن الشــياطين أوليــاء للــذين لا يؤمنون)**[3]. وأما الجن فإن منهم من هو كافر ومــنهم مــن هــو مــؤمن قــال تعــالى :(**قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن فقــالوا إنــا ســمعنا قرآنــا عجبــا يهــدي إلــى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا)**[4] –

والذي يجب أن يعتقــده المســلم أن الله كمــا خلــق البشــر خلــق الجــن، وطبيعــة هــذه المخلوقات تختلف عن طبيعة الإنســان، وهــي مكلفــة مســؤولة، وخصائصــها الخلقيــة يعلمها خالقها. وإذا كان عالمنا الأرضي يحتوي على عناصــر وقــوى مــا تــم اكتشــاف بعضها إلا في أواخر القرن الماضــي. ولــو عــرض علــى البشــر فــي القــرن التاســع عشر أن أحدهم يكون في بيتــه وراء الأبــواب فيســتطيع أن يــرى وأن يتبــادل الحــديث مع محاوره البعيد منه بعشرات آلاف الأميــال، لاعتبــر ذلــك خُرقــا وخيــالا ولا يمكــن أن يتحقق في الواقع. وقام الدليل أن العلــم النظــري يفــتح أبــواب الإدراك كمــا تفتحهــا الحواس. فالله وهو الذي خلق الكون وهو العلــيم وحــده بمكوناتــه، وقــد أخبرنــا الــوحي بوجود الجن، ولذا فإنه يجب الإيمان بوجــود هــذه المخلوقــات ولا يــدخل فــي الإيمــان تحديد مواصفاتها، فمن نفاه فقد كفــر بمــا ثبــت يقينــا بــالوحي. ومــن ادعــى اســتحالة وجوده فقد ادعى استحالة ما هو ممكن وخالف مقتضيات العقل.

فأفادت الآية أن الله حفظ السماوات مــن رجــس الشــياطين، لكــن مــن حــاول الصــعود إلى مستويات من العالم العلوي، من الشياطين تبعا لعــدم كثافــة مكونــاتهم، قــال تعــالى: **(وخلق الجان من مارج من نار)**[5] – والشــياطين مــن الجــن، فإنــه يُصَــدُّ عــن بلــوغ مستوى يستطيع فيه أن يســمع محجوبــات الغيــب، فتكــون محاولتــه فاشــلة، ويُقــذف بشعلة من نار تبيده وتسحقه. فتم حفظ العــالم العلــوي ولا يطلــع علــى أســراره بقدراتــه إنس ولا جان.

19←22، والأرض مددناها وأنبتنا...وما أنتم له بخازنين.

[1] سورة مريم آية44

[2] الكهف آية 50

[3] سورة الأعراف آية 27

[4] سورة الجن آية 2/1

[5] سورة الرحمن آية 15

ثم انتقل القرآن من العالم العلوي إلى الأرض التي علـى ظهرهـا يعـيش البشـر، فلفـت الأنظار إلى بعض أسرار الخلق المحكم فيها.

1) أنه يسر للإنسان ببسطها، الانتقال بين أجزائها، وجعـل فيهـا جبـالا راسـخات تثبتهـا وتحفظ التوازن بين أجزائها، ويسر إخـراج النبـات منهـا، وعـرّف أن تركيـب النبـات كان تركيبا موزونا على نسـب دقيقـة، بحيـث لا يمكـن للنبـات أن يكـون مـاهو إلا بفضل تحقق تلك النسب، فلو زاد أي مكون أو نقص ما وجد النبات.

2) كما جعل الله بكمال تقديره للناس كافة، ما يحفـظ لهـم حيـاتهم ممـا تخرجـه الأرض – معايش – جمع معيشة ما يتعيش منه. وكـذلك تخـرج الأرض مـا يقـيم حيـاة كثيـر من الكائنات تقتات من الأرض بنفسها دون أن يكون للناس دخل في ذلك.

3) ولا يوجد أي شيء نافع في الدنيا إلا وهـو مـن تفضـل الله علـى العـالم بـه، ومـا يصلكم إلا ما قدَّر الله أن يصل إلـيكم منـه، لأن المالـك لـه هـو الله، يوجـده بقدرتـه وإرادته بأمره التكويني، أو يتحول بقدرته وإرادتـه مـن صـورة لا نفـع فيهـا إلـى مـا ينفع الناس، فكأن كل ذلك مخزون عنده يخرج مـن خزائنـه ثـم يمكـنكم مـا شـاء منـه حسب تقديره وحكمته. لا مدخل للصـدفة فيمـا يصـل إلـيكم منهـا لأنـه معلـوم عنـده مقدما .

4) ثم لفت الأنظار الى الكتلـة الهوائيـة المحيطـة بـالأرض، كيـف يحركهـا سـبحانه لتكون مخصبة، فيتولد عن حركتها الخصـب والخيـر، إذا قـدر الله ذلـك، فتَنْقُـل اللقـاح بين الزهور بما يتولد عنه تكون الثمار، وتخصب السحب بمـا تنقلـه مـن رطوبـة فتثقـل السحب وتنزل الأمطار، وكل ذلك بتقـدير عجيـب فتنـزل الأمطـار التـي مـن مائهـا يسقى البشر وتسقى الأشجار والنباتات. وذلـك مـن فضـل الله. وهـو وحـده المتصـرف فيه فينزله في الوقت المقدر لإنزاله. ولا تملكـون التصـرف فـي خزائنـه التـي هـي لله وحده.

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ
عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـْٔخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا
ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الوارثون : الإرث بمعنى البقاء .

المستقدمون : الذين سبقوا من الأجيال.
المستأخرين: الذي سيأتون من الأجيال .
الصلصال : الطين الذي ترك حتى يبس.
الحمأ: الطين إذا اسود فكانت رائحته كريهة.
المسنون : الذي طالت مدة مكثه.
السموم : الريح الحارة .

بيان المعنى الإجمالي :

تكشف هذه الآية عن المتصرف في الحياة والموت، فتؤكد أن الله هو المتفرد بذلك ينشئ الحياة في الكائن متى أراد، ويسلبها منه متى أراد. وينفرد الله أيضا بالبقاء يوم يفنى الأحياء. وقد أحاط علم الله بالأجيال التي سبقت ومضت في التاريخ، وعلى نحو علمه ذاك يعلم الأجيال التي ستوجد في المستقبل. وقد تأسست حياة البشر على قاعدة المسؤولية التي تقتضي أن ينال المحسن جزاءه من التكريم، والمسيء جزاءه من العقاب. وهذا قد يحصل في الدنيا وقد لا يحصل، فاقتضت الحكمة الإلهية أن يبعثهم يوم القيامة ليقضى فيهم القضاء العادل لأن الله حكيم. ولا يفلت أي إنسان ولا يغيب أي فعل من أفعال البشر عن الله لأن الله العليم العلم الكامل.

ثم كشف القرآن عن المادة الأصلية لخلــق الإنســـان التــي لا يعلمهـــا إلا الله. لأنـــه هـــو الخالق، فقال: إني خلقت الإنسان من صلصال طـــين يـــبس حتـــى إنـــك إذا نقرتـــه طـــن، هذا الصلصال أصله طين طال مكثه حتى اســـود ونـــتن. وقبـــل الإنســـان خلقـــت الجـــن من ريح حار.

بيان المعنى العام :

23- وإنا لنحن نحيي ونميت ونحن الوارثون.

عطف القرآن على ما اختص به الله في الآيات السابقة مما يدل على تفرده بالألوهية، عطف على ذلك اختصاصه بالإحياء والإماتة. فالله سبحانه هو المتفرد بإنشاء الأحياء، وهو القادر على إحيائها بعد موتها، إذ القادر على إنشاء الحياة ابتداء، قُدرَتَهُ على إعادتها أولى وأحرى. ثم إن هذه الكائنات التي يبث فيها الحياة ثم يسلبها منها، يقتضي ذلك أن يكون المتصرف فيها هذا التصرف هو الباقي بعد فنائها.

24←25: ولقد علمنا المستقدمين منكم ...إنه حكيم عليم.

الآيتان، مع شدة اتصالهما بالآية السابقة لتنـــاول مضـــمون الثلاثـــة مـــا يتصـــل بالحيـــاة والموت، يضيفان لمـــا تقـــدم: أن التصـــرفات الإلهيـــة منبثقـــة عـــن العلـــم الكامـــل. إنـــه

سبحانه يعلم كل ما فعله الذين تقدموكم في الحياة من الأجيــال التــي أحياهــا ثــم أماتهــا، وكذلك يعلم ما سيأتي بعدكم من الأجيــال التــي يُحييهــا ثــم يميتهــا. وإن تصــرفه هــذا وصدوره عن العلم الدقيق لكل حدث منهم، ينتهــي إلــى حشــرهم جميعــا يــوم القيامــة ليحاسبهم عما قدموه . ويقوم دليلا على ذلك أنــه حكــيم لا يفعــل مــا هــو عبــث، فــإذا كان إيجادهم في الدنيا واختلاف سعيهم فيهــا ثــم إمــاتتهم، إذا كــان ينتهــي إلــى فتــرة يقضيها البشر في الحياة ثم تنتهي حياتهم علــى مــا بيــنهم مــن الاخــتلاف فــي التــأثير والعمل من الخير إلى الشر ومن النفع إلى الضر ومن الطاعــة إلــى العصــيان، بــل قــد يكون بعض المجرمين قد نال مــن نعــيم الحيــاة الــدنيا حظــا موفــورا، وربمــا حــرم بعض الصالحين فلم ينل من الرفاه إلا حظا قليلا. لــو كانــت الحيــاة الــدنيا هــي نهايــة مرحلــة الوجــود، لاســتوى الخبيــث والطيــب، والله يقــول: **قــل لا يســتوي الخبيــث والطيب**. ولما كان للمســؤولية، التــي هــي شــرف الكــائن البشــري، الأثــر الحتمــي. فحكمة الله توجب البعث، وعلمه يقتضي أن لا يغيــب عنــه أي عمــل قــام بــه الإنســان في الحياة الدنيا، كما لا يفلت أي إنسان من حضوره يوم البعث.

26←27: ولقد خلقنا الإنسان من صلصال... من نار السموم.

خلق الإنسان سر لا يعلمه على حقيقته إلا الله. وهو سر مثيــر، لِمَــا فــي خلــق الإنســان من خصائص عجيبة. فهو على محدوديــة قــواه الجســمية اســتطاع أن يتصــرف فــي الكون، وأن يخضع القــوى العنيــدة لمصــالحه ويــتحكم فيهــا، ويســع عقلــه الحاضــر، ويتتبع ما مضى فيتصوره تصورا يكاد يكون مطابقا لمــا وقــع، ومــا يــزال يبنــي علــى ما وصل إليه من اكتشافات ومــا وصــل إليــه غيــره فيتقــدم بالمعرفــة أشــواطا. وهــو حادث ولكل حادث بداية، فكيف تمت بداية الإنســان ؟ قامــت افتراضــات رضــيها كثيــر من العلماء في القرنين الأخيرين. وهدمها مــا وصــل إليــه العلــم بعــد دراســة الجينــوم البشري، الذي أثبت حسب قول العلماء تفــرد السلســلة البشــرية واختلافهــا عــن جميــع المخلوقات الأخرى .وبقي السؤال بدون إجابة عند من لم يؤمن برسالة الإسلام .

ولما كان الله هو الخالق للبشر، وأنه المتحكم في وجــودهم وفــي مصــائرهم كمــا جــاء في الآية السابقة، أراد سبحانه أن يكشف للبشر شيئا عــن ســر الوجــود البشــري ليكــون دليلا على القدرة الكاملة والحكمة. فأعلم في هذه الآيــة أن الإنســان خلقــه الله مــن مــادة: هي صلصال، طين ترك حتى يبس وصار يطــن إذا نقــر، هــذا الطــين هــو طــين قــد اسود من طول المكث، وتغيرت رائحتــه إلــى رائحــة كريهــة. إن مــا كشــفه القــرآن يضاعف العجب. ويقوم في آن واحد مناديا بكمال القدرة الإلهيــة، كيــف كــان هــذا هــو

أصل خلقة الإنسان المتميز المستخلف في الأرض. ويبــرز مــن جانــب آخــر أن أمــره سبحانه في التصرف: أنـــه إذا أراد شــيئا أن يكــون، يــأمره فيكــون. ولا يتوقــف تنفيــذ إرادته على أن يكون الإنسان من معادن نفيسة لها خواص تفوق بقية العناصر.

ولما تسلط على الإنسان الأول، الذي خُلق من صلصال مــن حمــأ مســنون، تســلط عليــه الشيطان فأغواه وأفسد عليه حياته وما يــزال يواصــل إضــلاله. والشــيطان مــن الجــن. فناسب أن يظهر للبشر القدرة الإلهية في أصل خلق الجــن، فقــال: والجــان خلقنــاه قبــل خلق الإنسان من حرارة مختلطة بهواء، من نــار الســموم. وبقيــت، رغــم الكشــف عــن الأصل، التحولاتُ التي وصل بها الإنسان إلى مــا هــو عليــه اليــوم، والتحــولاتُ التــي طرأت على نار السموم حتى تكوَّن منها الجان مــن أســرار العلــم الإلهــي. فتبــارك الله أحسن الخالقين، الذي أحسن كل شيء خلقه.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

سويته : التسوية تعديل ذات الشيء.

نفخت : أحدثت قوة خفية لطيفة السريان قوية التأثير.

رجيم : مطرود.

عليك اللعنة :اللعنة الطرد والإبعاد على طريــق الســخط. وهــو دعــاء بالســب وتحقيــق لوقوعه عليه.

يوم الدين : يوم الجزاء.

الإنظار : الإمهال والتأخير.

بيان المعنى الإجمالي :

أعلم الله ملائكته بما سينفذه من خلق بشر إنسان، مادة خلقــه طــين يــبس وجــف بعــد أن مر عليه زمن طويل اسود فيه ونتن ريحــه. وأن علــيهم بمجــرد مــا يــتم خلقــه ويبلــغ كماله بنفخ الروح المملوكــة لله فيــه، علــيهم أن يســجدوا لــه تحيــة إكبــار وتقــدير، لا

عبادة وتأليه. وقام الملائكة بما أمروا بــه فســجدوا لـــه إلا إبليـس الـذي كـــان مخاطبــا معهم فإنه امتنع أن ينضم إلى الســاجدين المطيعــين لأمــر الله. وســأله الله عـــن الســبب الذي من أجله لم ينضم للساجدين وتفــرد بـــالخلاف. كـــان جوابـــه فيـــه اعتـــراض علـــى الأمر ومناقشة لمعقوليته.

بيان المعنى العام :

وصفت هذه الآيات ما اقتــرن بخلــق آدم ﷺ، وقــد مضـــى قريـــب منـــه فـــي ســـورة البقرة، ونظرا لما في قصة خلق آدم وما اقترن بها مـــن العبـــر أعيـــد ذكرهـــا أكثـــر مـــن مرة في القرآن. وتجد في كل مرة فوائـــد جديـــدة، وصـــياغة بخصـــائص تعبيريـــة لهـــا وقعها. فلنتابع الطريقة التي عرض بها القرآن قصة الخلق في هذه السورة:

28- وإذ قال ربك للملائكة إني خالق....من حمأ مسنون.

أولا: أعلم الله ملائكته أنه قدَّر خلق بشر(إنســـان) والمـــادة التـــي ســـيتم منهـــا إحداثـــه: صلصال، كان قبل ذلك طينا مضى عليه من الـــزمن مـــا تغيـــر بـــه لونـــه إلـــى ســـواد، وأثَّر ذلك في رائحته فهي تبعا لذلك نتنة.

29- فإذا سويته ونفخت فيه من روحي... فقعوا له ساجدين.

ألزم الله ملائكته أن يسجدوا لآدم عند إتمام خلقه المتكون من أمرين:

أ-عندما تجتمع العناصر التي بها يتم تميزه، من الصـــورة والمـــواد الأساســـية فـــي بنائـــه الخاص، فيكتمل.

ب -وعندما يتم نفخ الروح فيه، أي عندما يتحول مـــن صـــورة ماديـــة وشـــكل خـــاص لا حياة فيه إلى كائن يتحرك وتعمل حواسه وفكره ومشـــاعره. فلـــيس نفـــخ الـــروح عبـــارة عن هواء ولكنه عبارة عن سريان مقومات الجنس البشري التـــي بهـــا يتميـــز عـــن بقيـــة الكائنات. أما كيف يتم ذلك فهو من سر الخلـــق والحيـــاة الـــذي لـــم تكشـــف عنـــه الآيـــة. وذلك لأن المستوى الفكري للإنسان لا يســـتطيع أن يفهـــم ســـر الـــروح. ونســـبة الـــروح إلى الله هي إضافة خلق وملك.

والسجود هو سجود الملائكة الذي يختلف عن هيئة السجود التي يقوم به الناس. وذلك لأن سجود البشر بوضع الجبهة على الأرض على هيئة مخصوصة يكون عليها الساجد. وخلقة الملائكة شيء آخر بعيد كل البعد عن خلقة الإنسان، فليس لهم جباه ولا أعضاء. وبهذا يرتفع الإشكال: كيف يسجد الملائكة والسجود محرم لغير الله؟ فنقول إن السجود تحية من الملائكة تحية تقدير لآدم عبر عنها بالسجود. والسجود الممنوع هو ما يمكن أن يدل على الخضوع الكامل والائتمار بأوامر المسجود له على وجه التعظيم .

30←31: .فسجد الملائكة كلهم أجمعون ...أبى أن يكون مع الساجدين.

ثانيا: أطاع الملائكة الأمر. فبمجـرد مـا ظهـر آدم بشـرا سـويا، قابلـه كـل الملائكـة بالسجود له كما أمرهم ربهم، ولكن خرج عـن الجماعـة فـرد واحـد لـم يسـجد، هـو إبليس فقد امتنع عن قصد وإصرار، وأبى أن يسجد مع الساجدين.

32-قال يا إبليس مالك ....ألا تكون مع الساجدين.

ثالثا: أوقف الله إبلـيس ليسـأله، لمـا ذا لـم تسـجد وقـد شـملك وبلغـك الأمـر العـام بالسجود. ولم يدخل في زمرة الطـائعين للأمـر الإلهـي. ويقينيـا إن الله يعلـم الأسـباب الخفية التي حاكت في نفس إبلـيس، فلمـاذا يوقـف ويسـأل ؟ أرى أن فـي ذلـك تعليمـا للناس حتى لا يستند القاضي لعلمه ويرتب عليـه الحكـم. فإنـه إذا كـان الله يعلـم مقـدما ما يجيب به إبليس، فإنه مع ذلك أوقفه وسجل عليه جوابه.

33-قال لم أكن لأسجد لبشر...من حمأ مسنون.

رابعا: كان جواب إبليس أنه لا يتصور منه بحال مـن الأحـوال (**لـم أكـن لأسـجد**) أن يسجد بتحية التقدير لآدم عليه السلام. وصرح بأنـه أعلـى مـن أن يسـجد لبشـر خلقتـه مـن صلصال من حمأ مسنون حسبما أعلمهم الله لمـا أمـرهم بالسـجود .جمـع إبلـيس بـين عصيان الله، والاستكبار، ورميه رب العزة بـالنقص وعـدم الحكمـة، إذ رفـع الوضـيع حسب ظنه (آدم) وحط من قيمة الرفيـع (إبلـيس) وبمجمـوع ذلـك انحـط إبلـيس إلـى درك الكفر. وخلع ربقة العبودية لله، وجعل ظنونه مقدمة على الطاعة.

34←35: قال فاخرج منه فإنك رجيم...إلى يوم الدين.

خامسا: عاجله العقاب ولم يهمله، فأمره أن يخرج مـن المقامـات التـي كـان فيهـا. قـد تكون الجنة، وقد تكون ظروف مقدسة كان يعيش فيها مـع الملائكـة. وأنـه أُبعِـد إبعـاد إهانة شأنه شأن الطريد الذي يلحقه الاحتقار والـذل. وأنـه ملعـون طريـد يتـوالى عليـه الدعاء بالطرد. ويتحقق عليه الهوان والخزي فـلا ينفصـلان عنـه، وأن ذلـك سيصـحبه ويتوالى عليه إلى يوم البعث، اليوم الـذي سـيلقى فيـه جـزاء كفـره واعتراضـه علـى الحكم الإلهي. ولعذاب الآخرة أشد.

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ عِبَادِي

لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

التزيين : التحسين بما يثير الميل.

موعدهم : مصيرهم إلى الله.

بيان المعنى الإجمالي :

طلب إبليس من الله أن لا يعجّل عليه العقوبة التي يتسحقها، وأن يؤخره إلى اليوم الذي يبعث فيه البشر يوم القيامة. أعلمه الله أنه قرَّر إنظاره إلى يوم الوقت المعلوم عنده في الأزل. ثم قال إبليس: ربي بسبب إغوائك لي، فإني سوف أمحض كل خبثي ومكري لأزين للناس أجمعين الباطل والرذيلة، إلا عبادك المخلصين فأنا لا أضلهم . قمعه الباري بأن انقسام البشر لصالحين وغاوين أمر قد قدره، وصراط مستقيم قرره في الأزل. فتسير فيه البشرية مقسمة إلى ضالين ومخلصين. وأن إبليس أحقر وأخزى من أن يكون له سلطان على البشرية يسيرها في المنهج الذي اختاره. ويقول الله وزيادة على ذلك فإن موعد الغاوين، وإبليس وجنوده منهم، هو إلى جهنم التي لا تفلت أي واحد من الغاوين. يتوزعون على مداخلها من الباب الذي قدر الله لكل داخل دخوله منه.

بيان المعنى العام :

36←38: قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون....إلى يوم الوقت المعلوم.

طلب إبليس من ربه، وقد علم الحكم المسلط عليه وأيس من العودة إلى المقامات التي كان يعيش فيها، طلب منه أن يؤخره ولا يعجل بالقضاء عليه وأن يبقيه إلى يوم البعث.

أعلن الله أنه سيبقيه إلى يوم محدد أجله، هو وقت ثابت في علمه لا يتأخر ولا يتقدم، والذي يستروح من الآية أن الله أعلن ما قدره في الأزل من أنه سينظره إلى الأجل المحدد، وليس ذلك استجابة لدعائه، فهو أهون من أن يستجاب له دعاء، شأنه شأن المغضوب عليهم الفسقة الضالين.

39←40: قال رب بما أغويني ....إلا عبادك منهم المخلصين.

ما كان هذا الإنظار لإبليس استجابة لدعائه، ولكنه تنفيذ للقدر الذي رتبه الله: أن البشر الذين سيستخلفون في الأرض مكلفون وغير معصومين، وسيتأثرون بجملة

من المؤثرات، وأنه قدر أن يسلط إبليس لإغواء من ألان قلبه وعواطفه لإغوائه. فبقاء إبليس يساير حياة النوع الإنساني على وجه الأرض من القدر السابق في علم الله .

وإذ تبين لإبليس أنه سيُعَمَّرُ في الدنيا ليشفي حقده الناشئ عن حسده لآدم ولذريته من بعده، خاطب عندها ربه رب العالمين كاشفا عن الشر الذي امتلأ به قائلا: رب بسبب ما خلقتني عليه من الغواية والإضلال، فإني سأبذل كل طاقتي وأمحض نشاطي بإلهاء البشر عن الحق، والميل إلى النواحي المؤثرة فيهم التي أغرس في قلوبهم حبها لما فيها من الزينة التي تأخذ بعواطفهم، فأحسنها لهم، بما يجعلها راجحة في اختياراتهم، فتلهيهم عن الواجبات وعن الحق، وتقرب الرذيلة منهم. وأدمج حسرته بسبب أن كيده مفلول، وتزيينه يعرض عنه عباد الله الذين أخلصوا دينهم لله، وتعلقوا به، الذين استقر في قلوبهم أن متاع الحياة الدنيا وشهوات النفس تتهاوى، أمام ما اهتدوا إليه من حب للفضيلة وتعلق بربهم، فاستثناهم على أنهم خارج نطاق تأثيره.

41←44: قال هذا صراط علي مستقيم ...منهم جزء مقسوم.

وضع الباري سبحانه الأمور في نصابها. وصفع إبليس لما حقق سبحانه أن عباده المخلصين لا سلطان له عليهم، وأن إغواءه لغير المخلصين هو ما قدَّره أن يكون عليه الأمر في الأزل، فهذا هو الصراط المستقيم الذي جرى عليه أمر التقدير، وعلى الله تحقيقه بإرادته وقوته.

و الشيطان وإن كان خبيثا شرِّيرا يعمل على إضلال الناس وصرفهم عن الهدى وطريق النجاة، هو أضعف وأحقر من أن يكون له سلطان على البشر بقوته ومكره وخبثه. وأن عباده سبحانه لا يتسلط عليهم سلطان الشيطان لأنهم بشر. على معنى أن البشر ليسوا مفطورين على الشر، ولكن الذين يميلون عن هداية الله ويتبعون ما يملي عليهم الهوى وحظوظ النفس الأمارة، هم الذين يجد طريقا لمضاعفة انحرافهم ويتسلط عليهم، فهم غاوون قطعوا صلتهم بالله وبالفضيلة. ويجد الشيطان في هذه النفوس الضعيفة تبعا لوهن عزائمها البيئة الرخوة التي تنسجم مع ما يزينه لها من الفساد. وبالمقابل فإن الذين أخلصوا دينهم لله، وكانت صلتهم به حاضرة ومشرقة في قلوبهم، فإنهم يستحضرون عند وسوسته الأولى نِعَمَ الله عليهم وجمال الطاعة وقبح المعصية، ويثور في نفوسهم تبعا لما روَّضوها به من حب الفضيلة والخير والاشمئزاز من الرذيلة والشر، يثور في بواطنهم ما يهدم وسوسته ويطرد تسلطه. فلا يكون له عليهم سلطان.

و كشف القرآن عن مصير الغـــاوين الـــذين اتبعـــوا شـــهواتهم وانغمســـوا فـــي الرذيلـــة، وفسدت عقائدهم فأشركوا بالله، وتأثروا بوسوســـة الشـــيطان وبمـــا زيـــن لهـــم فانخـــدعوا. إن مصيرهم إلى جهنم يـــوم القيامـــة يـــدخلونها أجمعـــين لا ينفلـــت أحـــد مـــن العقوبـــة. وصف القرآن جهنم بأن لها سبعة أبواب، وهذا مـــن أمـــر الآخـــرة الـــذي لا يقـــاس بمـــا هو معروف في الـــدنيا. فليســـت الأبـــواب ذات مصـــاريع، وليســـت لهـــا أقفـــال كأقفـــال الأبواب في المنازل، ولا هي مما يدرك سعته بمقاييس الـــدنيا. ولكننـــا نفهـــم مـــن الـــنص القرآني أنها سبعة مداخل أو مداخل متعـــددة، وأن كـــل داخـــل ممـــن غضـــب الله عـــنهم يصرف إلى الباب المقدر له الدخول منه. فليس مـــدخل المشـــركين العتـــاة الـــذين قـــاوموا الرسل وآذوهم وحالوا بين أتباعهم وبين الدخول في ديـــن الله، كمـــدخل مـــن قصَّـــر فـــي النظر فكفر .والظاهر أن هناك تناسبا بين كـــل بـــاب ونوعيـــة الفســـاد الـــذي ســـيق مـــن أجله الغاوي إلى الدخول منه إلى جهنم. أعاذنا الله منها بمن ه وكرمه.

إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلٍّ إِخۡوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾ لَا يَمَسُّهُمۡ فِيهَا نَصَبٞ وَمَا هُم مِّنۡهَا بِمُخۡرَجِينَ ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

العين : المكان الذي يخرج منه الماء من باطن الأرض.

آمنين : لا يشعرون بالخوف أبدا.

الغل : البغض والحقد.

سرر: جمع سرير محمل مرتفع يمكن الاضطجاع عليه.

متقابلين، كل واحد قبالة الآخر يأنس به.

المس : الإصابة.

النصب : التعب.

بيان المعنى الإجمالي :

وصفت الآية ما أعده الله للمتقين من ضـــروب التكـــريم يـــوم القيامـــة. منـــازلهم جنـــات، ظاهرة الخصب فيها بينة. يتدفق ماء العيون الجاريـــة خلالهـــا. ويتجـــاوز النعـــيم الجانـــب المادي إلى الجانب الروحي والنفســـي، فيتلقـــون التحيـــة بالســـلام مـــن ملائكـــة الـــرحمن عند دخولهم، وتُصفَّى قلوبهم مـــن آثـــار الحقـــد. فكـــل واحـــد يشـــعر بـــالأخوة والمحبـــة الجامعة بينه وبين إخوانه من المؤمنين، تتابع اجتماعاتهم وهـــم فـــي أنـــس وراحـــة علـــى

سررهم، يجد كل واحد منهم وهو يستمع إلى أخيـه الكـلام الرفيـع الـذي يـبهج العقـل والسمع، فيقبل على أخيه في شغف. لا يلحقهم الإعيـاء ولا يحـل الخـوف مـن انقطـاع ما هم فيه، أمنوا البقاء فيها وعدم الخروج منها.

بيان المعنى العام :

46←48: إن المتقين في جنات وعيون....وما هم منها بمخرجين .

هي طريقة القرآن في التأثير على البشر ليستقيموا ويؤمنـوا، فهـو يـزاوج بـين التهديـد ووصف جزاء الكافرين، وبين التبشير ووصف نعيم الآخـرة. وهـو فـي الحـالين يحـرك العقول والمشاعر ليقبلوا على هدي الله الذي تعقبـه سـعادتهم فـي الـدنيا والآخـرة. فبعـد أن ذكر شيئا من هول جهنم التي تنفتح أبوابها فلا يفلت أحـد كتـب عليـه العـذاب مـن دخول الباب الذي قدر له الدخول منه ؛ بعد ذلك أخذ القـرآن يصـف شـيئا ممـا ادخـره الله للمتقين من عباده المخلصين، فذكر مـن النعـيم المـادي أن منـازلهم جنـات عديـدة، ينعم كل فرد من المتقين بما خصه الله به من تلكم الجنات التـي تلبـي كـل مـا يمكـن أن يحب أن يجده .وهي تتفق فيما بينها في الناحية الماديـة فالخصـب ظـاهرة شـائعة فيهـا تتدفق خلالها العيون الجارية. كما تتفق فـي الحالـة التـي عليهـا المكرمـون بـدخولها، فهم:

أولا: يكرمون عند دخولها بالسلام عليهم: التحيـة التـي هـي شـعار أهلهـا، كمـا قـال تعالى: **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سـلام علـيكم.** ويحـل فـي قلـوبهم الأمـن ويذهب الخوف وهو ما يحقق السعادة، إذ لا سعادة مع حلول الخوف في النفوس.

ثانيا: أن الله ينزع من قلوبهم ما كان عالقا بها في الـدنيا مـن الحقـد والـبغض، فتنشـرح مشاعرهم بالمحبة، وتعمر عواطفهم بأنس الأخـوة الجامعـة ؛ وتظهـر آثـار ذلـك فـي اجتماعاتهم، فهم في راحة تامة هيئت لهـم السـرر التـي يجـدون فيهـا كامـل الراحـة، ويجري بينهم من الأحاديث التي لا لغو فيهـا ولا سـقط، ممـا يجعـل كـل واحـد مـنهم يجد لذة الإقبال على أخيه يسمع منه، فيحصـل فـي عقلـه اللـذة التـي يجـدها العلمـاء الصالحون في محاوراتهم السامية.

ثالثا: أن نشاطهم لا يلحقه الإعياء، فهم في حيوية متدفقة ومتواصلة.

رابعا: أن الحذر من لحوق أمد يفنـى فيـه مـا خصـوا بـه مـن نعـيم لا يـدخل فـي حسابهم، أمنوا من الشعور بالحرمان، ومن الخروج من منازلهم في الجنة .

۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾ وَنَبِّئْهُمْ عَن ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٥١﴾ إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَٰمًا قَالَ إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُواْ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

نبئ: أمر من نبأ إذا أخبر بخبر فيه فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظن.

الوجل : الخوف.

الغلام : هو إسحاق عليه السلام.

عليم : أفتح عليه ما يحصل له به العلم الواسع، فهي صيغة مبالغة.

قنط : يئس.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه آية كاشفة عن مسؤولية الإنسان، ذلك أن من صفات الذي استخلفه أنه غفور رحيم لمن أناب واستغفر. وأنه شديد العقاب لمن أصر واستكبر. وأعلمهم بهذا الخبر الهام الذي تم بين إبراهيم والملائكة الذين قدموا فبادروه بالسلام ليذهبوا وحشته منهم. وعرفهم بأنه كان خائفا منهم. قالوا له: لا تخف إنا نبشرك بأنك ستكون أبا لغلام يُعَلِّمُهُ الله فيبلغ به مستوى راقيا (عليم). كانت البشارة بعد أن تقدمت سنه ومثله في ذلكم العمر لا يولد له فسأل سؤال تثبُّت، هل تقصدون من بشارتكم إياي أنه سيولد لي غلام فعلا، أو هي بشارة تؤول على معنى خير سيتفضل به علي رب العالمين ؟ أجابوه: فعلا سيولد لك غلام ونحن نريد الحقيقة، فلا تجعل معطى تقدمك في السن سببا لدخول اليأس في نفسك، مما يدعو للتأويل تبعا لما جرت عليه العادة. نفى إبراهيم عليه السلام أن يكون مبعث سؤاله القنوط واليأس، وأخرج جوابه في صورة سؤال إنكاري، لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون، أي إنه على هدى من ربه، إذا كان عليه السلام من أوضح الناس إيمانا.

بيان المعنى العام :

49←50: نبئ عبادي إني أنا الغفور الرحيم ...هو العذاب الأليم.

أعلم يا محمد عبادي بهذا الخبر الصادق الهام. أني أنا الله المتصرف في الكون العليم بكل ما يجري فيه. إني أغفر الذنوب وأمحو آثارها وإني عظيم المغفرة، فلا ييأس عبادي من مغفرتي متى ما أنابوا إلي، وتعلقوا بواسع رحمتي. ولذا قرن سبحانه وصف الغفور بالرحمة، للدلالة على شدة الاتصال بينهما على أن المغفرة وستر الذنوب مرتبط بالرحمة الواسعة. قال تعالى: **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** [1]. فكانت هذه الآية ونظائرها فاتحة لباب الأمل في القلوب، طاردة لليأس، داعية المذنبين إلى الإنابة. إن الغفور الرحيم إذا ستر ذنوب عباده في الدنيا، فإنه بذلك ينبئهم أن فضله سيتواصل عليهم يوم القيامة. فلا ييأس من رحمة الله المذنبون التائبون. إذ اليأس دافع للتمادي في المعاصي. والله يحب أن يتوب عباده قال تعالى: **إن الله يحب التوابين** [2].

وقد أراد الله عندما خلق آدم أن يكون هو وذريته مسؤولين عن أعمالهم، مسؤولية لا تخرجهم من الأمل إلى القنوط. فصدَّر بعظيم مغفرته وواسع رحمته، وثنى بإيقاظهم إلى ما يترتب عن العصيان من مؤاخذة وعذاب أليم. فكانت التربية القرآنية تجمع بين طرفي الرجاء والخوف، فلا يغلب عليهم الرجاء حتى تنحل عزائمهم ويتبعوا شهواتهم فيفسدوا في الأرض ويخيبوا في مهمة الاستخلاف. ولا ييأسوا ويطبق عليهم الخوف فيقعدوا عن فعل الخير.

51←56: ونبئهم عن ضيف إبراهيم ... إلا الضالون.

إن تلكم الحقية التي قررها القرآن من المغفرة والرحمة، والعذاب الأليم لمن رفض العمل على ما يدخله في المغفرة والرحمة، أتبعها بقصتين من واقع الحياة، لتؤكد للناظرين ما تضمنه التعريف الإلهي. هما قصة إبراهيم وقصة لوط عليهما السلام.

فتضمنت قصة إبراهيم:

أولا: أنه دخل على سيدنا إبراهيم عليه السلام ضيوف لا يعرفهم، ابتدأوه بالسلام ليطمئن لهم ولا يأخذ حذره منهم. وكشف لهم عما حاك في صدره من مباغتتهم له، وأنه خاف منهم لولا مبادرتهم بالسلام.

ثانيا: مضاعفة في تأمينه أبلغوه ما أمروا به من تبشيره بأنه سيولد له غلام، وأنه ينشأ في رعاية الله فيتولاه ربه حتى يصبح عالما كبيرا بالحقائق والتشريع .وقد تقدم في سورة هود ما تبع ذلك من استغراب زوجته وما رفع به الملائكة عجبها.

---

[1] سورة الزمر آية 50

[2] سورة البقرة آية 222

ثالثا: أضافت هذه الآية أن سيدنا إبراهيم شـارك امرأتـه متعجبـا مـن البشـارة، ذلـك أنه يحس بأن تقدمه في العمر أثر فيه ضعفا، فـراجعهم ليتبـين مقصـدهم مـن البشـارة، هل يقصدون أنه سيولد له فعلا غلام، أو هو من الكـلام الـذي يـؤول علـى أنـه خيـر قادم؟ ولذلك عقب سماعه للبشارة بقوله: فبأي شـيء تبشـروني، أفصـحوا عـن مـرادكم ؟ كان جوابهم رافعا لكل احتمال: بشرناك بشـارة ملابسـة للحـق لا تأويـل فيهـا، فـلا تكن قانطا من فضل الله عليك جريا على ما ألفه الناس في مثل عمرك.

ونفى إبراهيم أن يكون موجب سؤاله هو اليأس مـن رحمـة الله، وأعلـن ذاكـرا الحقيقـة التي صاغها في صيغة قاعدة كليـة علـى طريـق الاسـتفهام الإنكـاري: لا ييـأس مـن رحمة الله إلا القوم الضالون عن الهدى وعن واضح الإيمان. وأنا مؤمن.

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُواْ بَلْ جِئْنَٰكَ بِمَا كَانُواْ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَٱتَّبِعْ أَدْبَٰرَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَٱمْضُواْ حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخطب : الأمر والشأن، وغلب استعماله في الأمر الشديد.

الغابرين : الذاهبين الهالكين.

منكرون : لانعرفكم.

يمترون : يشكون، وهو العذاب .

بالحق : الخبر الصادق .

أسر: سِرْ بهم ليلا.

القطع : الجزء الأخير من الليل.

اتبع أدبارهم : اجعلهم أمامك.

إلى حيث تؤمرون : إلى المدينة التي سوف تعين لكم.

وقضينا : حتّمْنا.

دابر : أصله آخر، والمعنى من أولهم إلى آخرهم.

بيان المعنى الإجمالي :

سأل إبراهيم عليه السلام الملائكة عن المهمة التي أوكلت إليهم، فأخبروه: إنا أرسلنا إلى قوم استقر الإجرام في نفوسهم، لنرسل عليهم العذاب المقدر لهم. وهم القوم الذين دعاهم لوط إلى الإقلاع عن الفاحشة، فأعرضوا عن دعوته، وواصلوا قبيح فعالهم. ولكن نمكن آل لوط من النجاة، إلا امرأته فقد قدرنا أن تكون مع المهلكين.

ثم دخل الملائكة على لوط عليه السلام، فنكرهم وعبر لهم عن ذلك مستفسرا عن نسبهم. فعرفوه أنهم ملائكة الله جاؤوا ليحققوا ما كان قومه يشككون فيه من نزول العذاب بهم، مؤكدين بقولهم أتيناك ملا بسين للحق وإنا صادقون فيما أخبرناك به. فاخرج وأخرج معك أسرتك في آخر الليل وكن أنت وراءهم، ولا ينظر أحد منكم إلى المنازل التي خرجتم منها، وواصلوا سيركم إلى المكان الذي سوف تؤمرون بالنزول فيه. وأوحى الله إلى لوط أن العذاب سيتأصلهم جميعا من أولهم إلى آخرهم مع وقت الصبح وشروق الشمس.

بيان المعنى العام :

57←60: قال فما خطبكم أيها المرسلون...قدرنا إنها لمن الغابرين.

أنس إبراهيم عليه السلام بحديثه مع الملائكة وزال ما وجده من نكارة أول الأمر، فتوجه إليهم بالسؤال: ما هو شأنكم أيها المرسلون، وما هي المهمة التي أوكلت إليكم ؟ لأنه يعلم أن الملائكة لا ينزلون على الأمم إلا وهم موكلون بأمر عظيم تنفيذا لأمر الله .

أجاب الملائكة: بأنهم أرسلوا إلى سدوم القرية التي كان لوط يدعو فيها قومه ليصرفهم عن الفاحشة التي ألفوا إتيانها، وتمكن الإجرام منهم وشاع فيهم المنكر، وواصلوا معرضين عن دعوة سيدنا لوط متألبين عليه. أرْسِلنا لننزل بهم العذاب المقدر لهم، لكن سننجي آل لوط أي أسرته من العذاب النازل، ولا ينسحب هذا الاستدراك على امرأته إذ قدرنا أنها من الهالكين، أي الباقين في العذاب.

61←66: فلما جاء آل لوط المرسلون ....مقطوع مصبحين.

بعد استقبال إبراهيم عليه السلام للملائكة وما أكرم به من البشارة، وإخبارهم إياه بأنهم ماضون إلى سيدنا لوط عليه السلام لتنفيذ ما قدر لقومه المجرمين من العذاب، واصل الملائكة سيرهم نحو لوط ولما دخلوا عليه تفرس فيهم فأنكرهم لاختلاف سماتهم عن سمات قومه، وأظهر لهم ذلك. عرفوه بقولهم :إنا ملائكة الله أرسلنا بتحقيق العقاب الذي كان قومك يشكّون فيه، مؤكدين ذلك :إنا أتيناك ملابسين للحق الذي لا

مراء فيه. وإنا لصادقون فيما أخبرناك به. ثم أمــروه أن يخــرج مــع أهلــه فــي آخــر الليل، وأن يقدمهم ويسير وراءهم، وأن ينــبههم بــأن لا يولــوا وجــوههم أثنــاء ســيرهم إلى منازلهم التي خرجوا منهــا. ثــم تــابعوا ســيركم إلــى المكــان الــذي ســيعين لكــم وتؤمرون بالنزول فيه.

وأوحى الله إليه أنه قرر استئصال قومه المجرمين مع الصــباح، وهــو مــا يفيــده قولــه: (أن دابر هؤلاء مقطــوع). فيكــون معنـــى التركيــب أنهــم مهلكــون مــن أولهــم إلــى آخرهم.

وَجَاءَ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ضَيْفِى فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِىٓ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٧١﴾ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ ﴿٧٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

يستبشرون :يفرحون.

الفضيحة : شهرة حال شنيعة.

الخزي : الذل والإهانة .

لعمرك : أقسم بحياتك يا محمد.

السكرة : ذهاب العقل .

يعمهون : يتحيرون ويرتبكون.

الصيحة : صعقة شديدة في الهواء.

مشرقين : عند طلوع الشمس.

آيات : أدلة.

المتوسمون : المتأملون.

سبيل مقيم : طريق بقيت فيه آثارهم ولم يمحها الزمن.

بيان المعنى الإجمالي :

سمع قوم لوط بقدوم ضيوف عليه، فتســارعوا نحــو بيتــه فــرحين، طــالبين أن يمكــنهم من قضاء شهوتهم منهم. شعر لوط بالحرج الشــديد وخــاطبهم مثيــرا فــي نفوســهم مــا

يلحقه من فضيحة ومهانة إذا هم اغتصبوا ضيوفه، فكان جـــوابهم: لقـد كنـــا نهينـــاك عـــن حمايـــة أي وارد عليـــك مـــن العـــالمين. أرشـــدهم إلـــى أن طريـــق الاتصـــال الجنســـي المشروع والجاري علـــى الفطـــرة إن كـــانوا يريـــدون ذلـــك، أن يتزوجـــوا مـــن بناتـــه، باعتبار أنه نبي قومه والذكور بمثابة بنيه والإناث بمثابة بناته.

و حياتك يا محمد لما ثار داعي الغريزة الشـــاذة فـــيهم كـــأنهم ســـكارى حجبـــت عقـــولهم، متحيرون لا يُقَدِّرون عاقبة ما يفعلونه حق قـــدرها. إنهـــم وهـــم علـــى تلـــك الحالـــة مـــن الاضطراب اقتلعتهم صيحة من السماء زلزلت كل مـــا يحـــيط بهـــم، فانقلبـــت البنـــاءات، هوت سقوفها تحت قواعـــدها، وتتابعـــت علـــيهم كـــالمطر المتـــدارك حجـــارة مخلوطـــة بطين محمية لا تصيب شيئا إلا حللته ومزقته شر تمزيق .

ما سبق أن قصه الله علينا، فيه آيـــات لليقظـــين المتـــأملين. وإن آثـــار قـــوم لـــوط يمـــر عليها أهل مكة في طريقهم إلـــى الشـــام. تحكـــي أخـــذ الله الشـــديد للمكـــذبين المجـــرمين. وهو آية للمؤمنين الذين يربطون بين الأحداث ومحدثها رب العالمين.

بيان المعنى العام :

66←77، وجاء أهل المدينة يستبشرون...إن في ذلك لآية للمؤمنين.

شاع الخبر في القرية أن لوطا قدم عليـــه ضـــيوف، فتجمـــع ذكـــورهم وأتـــوا إلـــى بيتـــه مستبشرين فرحين، طمعا منهم في الاعتـــداء بالفاحشـــة علـــيهم. وســـواء أكـــان قـــدومهم قبل أن يخبر الملائكة لوطا بما جاؤوا من أجله أو بعد ذلـــك، فإنـــه قـــد وجـــد نفســـه فـــي موقف حرج جدا. هؤلاء الفسقة المجرمون عقدوا العـــزم علـــى الاعتـــداء علـــى ضـــيوفه، والضيوف لهم حرمة عند فضلاء النـــاس، فرجـــاهم أن يعرضـــوا عمـــا عزمـــوا عليـــه، وقال لهم: إن هؤلاء ضيوفي فـــلا تفضـــحوني وتوقعـــوني فـــي وضـــع شـــنيع: أنـــي لـــم أستطع أن أحمي من استجار بي وقدم علي آملا في رفـــدي والنيـــل مـــن إكرامـــي . إنهـــا إهانة وإذلال لي إذا اغتصبتم ضيوفي.

- كان جوابهم بالغا غاية الوقاحة فقالوا له: ألم نتقـــدم لـــك مـــن قبـــل أن لا تحمـــي أحـــدا من العالمين. ذَكَّروه بأنهم نهـــوه عـــن الحيلولـــة بيـــنهم وبـــين اغتصـــاب أي فـــرد مـــن البشر، ومن أي قبيلة كان، قدم على قريتهم.

- عرض لوط عليهم إذا كانت الغُلمة قد اســـتبدت بهـــم، والرغبـــة فـــي إشـــباع شـــهوتهم الجنسية عارمة، إن كنـــتم ولا بـــد فـــاعلين مـــا يقضـــيها، أن ينكحـــوا بناتـــه فيفرغـــون شهوتهم فيما هو الفطرة والأصل في الاتصال الجنسي. وفـــي التعبيـــر ببناتـــه وقفـــة لمـــا يفيده ظاهر القول من عرض بناته علـــى الفســـقة المجـــرمين. وتأويلـــه يكـــون علـــى أن

الرسول في الأمة التي كلــف بهــدايتها هــو بمثابــة الأب يحنــو علــيهم ويهمــه أمــرهم فيكون الذكور معتبرين أبناء له والإناث بنــات. ويكــون المــراد حوّلــوا قضــاء شــهوتكم من الذكور إلى الإناث من قريتكم. وخرجــه بعضــهم علــى أن الاعتــداء علــى ضــيوفه شنيع جدا أعظم من شناعة الاعتداء على بناته، كمــا تقــول لمــن اراد أن يقتــل شخصــا: اقتلني ولا تقتله. فليس المراد الإذن بقتل القاتل ولكن صرف القاتل عن القتل.

- لما بلغت بهم الوقاحة هذا الحد، وجــرهم خبــثهم إلــى العــزم علــى فعــل الفاحشــة بضيوف نبيهم، وتعللوا بأنهم قد قدَّموا له، ونبهــوا عليــه، أن لا يجيــر ولا يحمــي أحــدا من الناس، على معنى أنهم لا يحترمــون جــواره، ولا يصــدهم عــن فســادهم نكرانــه. تهيأوا بذلك لتسلط العذاب الموعود به من قبل لوط عليهم.

- قطع القرآن تواصل الأحداث، وتوجه إلى الرســول ﷺ، ليكــون فــي القصــة تهديــد للمشركين الذين تمالأوا على رفض الدعوة وواصــلوا تحكــيم شــهواتهم. توجــه القــرآن لرسول الله مكرما له أنبل تكريم وأعــلاه، فأقســم بحياتــه، لعمــرك صــيغة قســم: أقســم بحياتك، وهذا أسمى ما يبلغه الخطاب المرعي فيــه التكــريم والتقريــب مــن رب العــزة إلى بشر. أقسم بحياتك إن فطرتهم قد انحرفــت، وأخــذت الشــهوة علــى عقــولهم كحــال السكارى الذين تبعث فيهم نشوة الخمر دفعــا للغرائــز بمقــدار مــا تضــعف فــيهم القــوة العاقلة. وهكذا أصبحت حياتهم مضطربة حــائرة لا قــرار لهــا. وشــأن الغرائــز عنــدما تثور وتعنف، وتقصي العقل مــن القيــادة، أن يكــون صــاحبها حــائرا مضــطربا بعيــدا عن الهداية والرشد.

- يعود الكلام بعد ذلك إلى قوله تعالى: **فأخــذتهم الصــيحة مشــرقين**. ليكشــف القــرآن كيف تم تسليط العذاب عليهم عند طلــوع الشــمس. تــم ذلــك بصــيحة عظيمــة لا يقــوم لشدتها قائم. اندكت الأرض ومــا فوقهــا. وانقلــب أعلاهــا إلــى أســفلها وعــلا أســفلها وتتطاير شظايا كل بناء. وتتابعــت الحجــارة مــن الســماء تــرجم كــل شــيء فتســحقه سحقا. إنها حجارة خاصة من سجيل، خلطت بطــين وأحمــي عليهــا، تســحق كــل مــن أتت عليه وتفككه فينقلب كأنه عظم منخور بال.

- في كل ما عرضــه القــرآن ممــا ســبق، لَأدِلَّــةٌ موقظــة للمتــأملين الــذين يعتبــرون بالحوادث، ويربطــون المســببات بأســبابها، ولا يمــرون عليهــا وهــم غــافلون، وهــم المتوسمون. وآثار التدمير الماحق ما تــزال شــاهدة علــى عاقبــة المجــرمين الرافضــين لهداية الله، إن أهل مكة يمــرون عليهــا فــي طــريقهم إلــى الشــام. فمدينــة قــوم لــوط المدمَّرة بقيت آثارها ناطقة بعاقبة القوم المجرمين.

- والتصرف الإلهي العادل الذي كانت فيـه أدلـة علـى الحكمـة الإلهيـة التـي يـدركها المتوسمون، مما وقع لإبراهيم عليه السلام، وما تم في قصـة قـوم لـوط مـن مجـيء الملائكـة وجراءة قومه عليـه وعلـيهم، ثـم الانتقـام مـنهم وتـدميرهم، وبقـاء آثـارهم موقظـة للناظرين. إنها آيات متتابعـة ينتفـع بهـا المتيقظـون. والمتيقظـون هـم الـذين يبعـث الإيمان في مداركهم إحساسا بأن كل تصـرف فـي الكـونْ يثبِّـت إيمـانهم ويقـوم دلـيلا على صنع الله في العالم فتكون مساكن قوم لوط آية بينة من آيات الله.

وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأيكة : المكان الملتف الشجر.

الظالمون : المشركون.

الانتقام : العقوبة الشديدة لأجل الذنب.

الإمام المبين : الطريق الواضح البين غير المندثر.

الحجر : وادي القرى بين المدينة والشام، على الطريق من خيبر إلى تبوك.

النحت : العمل بالإزميل في الصخر ليخرج من ذلك ما ينتفع به.

بيان المعنى الإجمالي :

أصحاب الأيكة هـم قـوم شـعيب عليه السلام، دعـاهم لتوحيـد الله والاسـتقامة فـي تعـاملهم، فتحدوه وأقاموا على الشرك، فـانتقم الله مـنهم. وإن خـراب منـازلهم وخـراب منـازل قوم لوط على الطريق التي تسلكها القوافل التجاريـة مـن مكـة إلـى الشـام، لـم تنـدثر آثارهما. وعطف على قصة قوم شعيب قصـة ثمـود قـوم صـالح. وكلتـا القصـتين لـم يُعْنَ القـرآن فـي هـذا الموقـع بتفصـيل أخبارهمـا. فـذكر أن ثمـودا كـذبوا الرسـل وأعرضوا عن المعجزات التي تؤيدهم. ووجهوا كـل همهـم للحيـاة الـدنيا. برعـوا فـي نحت الحجارة واتخذوا من صخور الجبـال بيوتـا ظنـوا أنهـا تـؤمنهم أمانـا لا خـوف معه. فأهلكوا بالصيحة القوية مع الصباح، فما حماهم ما خططوه وعملوه.

بيان المعنى العام :

78-وإن كان أصحاب الأيكة لظالمين.

عطف القرآن قصة أصحاب الأيكة على قصة لوط باعتبار أن منازلهما على طريق القرشيين في تجاراتهم .يشاهدون آثار الدمار الذي حل بهما. وأكد النص القرآني من البداية أنهم كانوا ظالمين، أي مشركين. وجاء التأكيد ب- إنْ- المخففة من الثقيلة إنَّ.

كان أصحاب الأيكة قوما مشركين ينزلون بأرض تغطيها أشجار كثيفة ملتفة، بعث الله إليهم سيدنا شعيبا فدعاهم إلى التوحيد والعدل في التعامل، فكذبوا رسولهم وتحدوه، فانتقم الله منهم. وأخذهم عذاب يوم عظيم هو عذاب يوم الظلة. وسيفصل القرآن خبرهم في سورة الشعراء الآيات 176/190-

79- فانتقمنا منهم وإنهما لبإمام مبين.

أكدت الآية أن منازل قوم شعيب ومنازل قوم لوط على طريق واضح بين، تسلكه قوافل التجار، ويشاهدون الدمار الذي لحق بهما.

80←84: ولقد كذب أصحاب الحجر...ما كانوا يكسبون.

عطف القرآن على قصة اصحاب الأيكة قصة أصحاب الحجر. ثمود الذين بعث الله لهم سيدنا صالحا. دعاهم إلى توحيد الله. وأيده بمعجزة هي الناقة وسيأتي تفصيل أخبارهم في سورة الشعراء الآيات (141/150).

سجّل عليهم في هذا النص: أنهم كذبوا رسولهم، وأعرضوا عن التأمل في الدليل الآية التي كانت معجزة له. ألهاهم الإقبال على متاع الحياة الدنيا عن قبول ما جاءهم به صالح. برعوا في النحت فكانوا ينحتون في صخر الجبال بيوتهم، ويتخيلون أنها تحقق لهم الأمن. فأهلكهم الله بالصيحة القوية مع دخولهم في الصباح، وما نفعهم ما كانوا يقومون به من الاحتياطات، وما يدبرونه لحماية أنفسهم.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّىٓ أَنَا ٱلنَّذِيرُ ٱلْمُبِينُ ﴿٨٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الصفح الجميل : العفو عنهم مع عدم العتب.

لا تمدن : لا تحدق نظرك إعجابا بما أوتوه من النعيم الدنيوي.

النذير : المَعْلِمُ بحدث فيه ضر.

المبين : المصرح و الموضح.

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن أن الله أجرى خلق السـموات والأرض ومـا بينهمـا ومـا اشـتملا عليـه، حسب قوانين مضبوطة تنسحب على كل كبيـرة وصـغيرة . فـلا مجـال للمصـادفة ولا لعدم المعقولية فيما يحدث فيهما. وإن من ملابسة الخلـق بـالحق مـا يقتضـي أن يكـون البشر المستخلفون في الأرض مسؤولين عن اسـتخلافهم فيهـا، وأن يبعثـوا يـوم القيامـة ليجزوا بما عملوا. فقابل يا محمد صدهم عـن الحـق بالصـفح عـنهم الصـفح الـذي لا لوم معه ولاغلظة. واعلم أني أنا ربك الخلاق العليم بمـا أخلقـه وتطوراتـه ومـا يحـدث منه. وإنك في رعايتي، فقد آتيتك سورة الفاتحة والقرآن العظيم، وذلك أكبر منة.

وما جمعته من الخير يقلل في نظرك مـا يتمتـع بـه المشـركون رجـالا ونسـاء، فـلا تنظر إلى ما بين أيديهم من النعيم، فإنه نعيم زائل وما عنـدك بـاق مسـتمر فـي عطائـه صلاح البشرية إلى يوم القيامة.

ولا تحزن لكفر من كفـر، ولا لمـا يصـيبهم. وإن قلبـك الكبيـر يحـب الخيـر للبشـر جميعهم. وواصل ما جبلت عليه من نبيـل الأخـلاق مـع المـؤمنين، وحنـوك علـيهم. وقل للمشركين إني نذير لكم أنـذركم عـذابا سـينزل علـيكم، بينتـه لكـم، وفيمـا تـلاه القرآن عليكم من مآلات المكذبين ما يكون رادعا واضحا لكم عن رفض الإيمان.

بيان المعنى العام :

85←86: وما خلقنا السماوات والأرض ...إن ربك هو الخلاق العليم.

تنعطف الآيتان على ما سبق في السورة من تمرد المشركين، وما لحقهم في النهاية من العذاب الذي استأصلهم فتصرح بقاعدة عامة بنى الخلاق العليم عليها الكون: السماوات والأرض وما بينهما، ما يحدث فيهما ظاهرا وباطنا، بما يشمل الإنسان والحيوان والنبات والجماد وكل العناصر الكونية، تثبت أن الله خلق هذه العوالم ملتبسة بالحق، تجري على الحق ولا مدخل للباطل فيها. والحق يعني النظام والدقة والحكمة، والربط بين الأسباب والمسببات. هي قوانين ثابتة معقولة لا يخرج عن صارم ضبطها صغيرة ولا كبيرة، ولا يختلف في ذلك كسب الإنسان وجزاؤه عن قوانين العقل وعن قوانين المادة.

نعم !إن الطاقة العقلية للإنسان تقصر عن إدراك جميـــع تلكـــم القـــوانين، وعـــن تفاصـــيل انطباقها في الوجود. ولكن الخلاق العليم هو الذي قـــدرها فـــي مواقيتهـــا بحكمتـــه. وبهـــذا يكون الربط بين الفعل والجزاء، وبين الكسب ومـــا يترتـــب عليـــه مـــن ثـــواب أو عقـــاب هو أمر ثابت لا شك فيه. ولكن إظهـــاره فـــي الخـــارج مرتـــب فـــي علـــم الله، فإمـــا أن يُظهِر بعض آثاره في الدنيا. وإما أن يتحقق ذلك عند البعـــث عنـــد قيـــام الســـاعة. فبهـــذا يكون البعث للحساب والجزاء يوم القيامة ضـــرورة عقليـــة مســـتندة إلـــى الارتبـــاط بـــين الأسباب والمسببات. إذ الصلاح وفعل الخير ســـبب للثـــواب والتكـــريم، والفســـاد والشـــر سبب للعقاب والإهانة. فإن لم تظهر بعض الآثار في الـــدنيا تكـــون الحيـــاة الآخـــرة أمـــرا حتما لتحقق المسببات. وهذا ما ورد في أثناء القصص الســـابقة فـــي الســـورة مـــن تكـــريم أو استئصال، مرتبط كل ذلك بكسب الإنسان.

وترشد الآية النبـــي ﷺ ليتســـع صـــدره ولا يحـــزن ولا يضـــيق بمـــا يمكـــر بـــه أعـــداء الإسلام، فإن ذلك هو شأنك على ما خلقتك عليه مـــن كمـــال نفســـي وخلـــق رفيـــع ســـداه الصبر ولحمته الترفع عن الجاهلين.

والتأمل في تلكم القوانين تؤكد للنـــاظر فيهـــا أن ربـــك هـــو الخـــلاق لا خـــالق غيـــره، لقصر قدرات غيره عن الإحاطـــة، وضـــعفها عـــن بلـــوغ الحكمـــة الشـــاملة، وأنـــه هـــو العليم، لما يكشف عنه النظر فـــي الخلـــق. إن ربنـــا لـــم يهمـــل صـــغيرة ولا كبيـــرة، ولا يتيسر النظام إلا مع العلم الدقيق الشـــامل. وقـــد قـــدر ســـبحانه أن لا يعجـــل باستئصـــال مشركي مكة، وقد ظهرت الحكمة في ذلك من بعد، فقد قـــام بعضـــهم ومـــا تناســـل مـــنهم بنشر دين الله في الآفاق.

ونلفت النظر إلى تعبير القرآن: **إن ربك** - ففي إســـناد الـــرب ســـبحانه، وهـــو رب كـــل شيء، إلى النبي ﷺ ما يشير إلى عنايته به وتســـليته عمـــا يلقـــاه مـــن المشـــركين، وأنـــه لا يغيب عن علمه شيء وسيجزيهم. فإنه كما خلقهـــم هـــو أعلـــم بفعـــالهم. وهـــو ســـبحانه الذي يقدر لكل شيء أجله. وقد يكون في عـــدم معـــاجلتهم بالعـــذاب مـــا يشـــرح صـــدره ويحقق له ما يرغب فيه.

87- ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم.

هيأت الآيات السابقة، في قوله تعالى : لعمـــرك الآيـــة، وفـــي قولـــه تعـــالى قريبـــا: **إن ربك** هو الخلاق العليم، لتأكيد المنن التي خُـــصَّ بهـــا النبـــي ﷺ، فوقـــع التصـــريح بـــذلك في هذه الآية. **لقد آتيناك سبعا من المثاني والقـــرآن العظـــيم.** المنـــة أوصـــلها الله لنبيـــه مع كامل الرفق والتكريم، لما توحي به كلمة الإيتاء بجرســـها النـــاعم الـــذي هـــو ألطـــف

من أعطيناك. وقد آتاه الله- سبعا - مــن المثــاني- والقــرآن- أمــا كلمــة السـبع فهــي نص في دلالتها على المعدود لا تحتمــل مــا هــو أكثــر ولا مــا هــو أقــل. والمعــدود المثاني جمع مثناة، اسم مشتق من اثنين أصــله ثنــى الشــيء فجعلــه اثنــين. وعلــى أي شيء تدل كلمة مثاني؟ ذهب معظم المفســرين إلــى أن المقصــود بهــا ســورة الفاتحــة اعتمادا على الحديث الذي أخرجه البخاري، وعلى مــا أخرجــه مسـلم، وقـد بينــا ذلــك في سورة الفاتحة. وإطلاق المثاني على سورة الفاتحة بــالنظر إلــى أنهــا تقــرأ فــي كــل ركعة من ركعات الصلاة. فأطلقت عليهــا بــذلك الاعتبــار، كمــا أطلــق لفــظ المثــاني على القرآن كله، كما جاء في قوله تعــالى (**الله نــزل أحســن الحــديث كتابــا متشــابها مثاني**)[1] - نوه الله بالقرآن كله بأنــه كــرر مضــامينه بأســاليب مختلفــة بمــا يضــمن تثبيتها واستيفاء جميع جوانبها بطريقته الخاصــة البالغــة حــد الإعجــاز، إذ تــم التكريــر بطرق متنوعة، يكشف المتأمل كل مرة أعيــد فيهــا المضــمون جوانــب لــم تــذكر مــن قبل، وطريقة تعبيريــة متميــزة، ووحــدة لا اخــتلاف فيهــا. وبمــا أن ســورة الفاتحــة تضمن التخطيط العام لكل ما عني به القرآن أطلق عليها السبع المثاني.

وبناء على ما ذكرناه تكون من فــي قولــه تعــالى مــن المثــاني تــدل علــى أن الســبع المثاني التي امتن بها الله على رســوله هــي بعــض القــرآن أبــرزت بصــفة خاصــة لتكون مزاياها متحدة مع مزايا القرآن وتزيد عليه.

ويسوغ عطف القرآن العظيم عليها، بالنظر إلــى المغــايرة بــين المعطــوف والمعطــوف عليه بالكلية والجزئية.

88←89: لاتمدن عينيك إلى ما متعنا...إني أنا النذير المبين.

إن ما آتاك الله من القرآن والسبع المثاني، وما خصك به من الوحي والهداية والرعاية، وما اصطفاك به لتكون أمينا على وحيه خاتما لرسله، هي مِنَنٌ لا تقاس بما أوتيه المشركون من المال والجاه والأولاد وقوة الأبدان، فما ذلك إلا متاع الحياة الدنيا، زائل غير ثابت، فلا تكن معجبا به، ولا تنظر إليهم نظر الإكبار لما خصوا به من نعيم الدنيا. وقوله تعالى: **أزواجا منهم**: الرجال والنساء، أو أصنافا منهم ممن انبسطت لهم أسباب النعيم دون من كانوا في خصاصة. إذ أن المشركين لم يكونوا جميعا مبسوطٌ لهم في الرزق، بل كان بعضهم في ضيق فجمعوا بين الخسارتين. والخطاب وإن كان للنبي ﷺ فإنه يشمل أمته حتى لا يشتغلوا بزهرة الحياة الدنيا إيثارا لها على ما آتاهم الله من الهداية ورزقهم من التوفيق لاتباع دينه.

---

[1] سورة الزمر آية 23

ثم أرشد رسوله ليخفف عن نفسه من حرصه على إيمـــانهم. هـــذا الحــرص الــذي جعلـــه يحس بالحزن والأسى لعدم اهتــدائهم وإصـــرارهم علـــى الكفــر. فهــداه إلـــى أن يخفـــف عن نفسه التي تشفق على البشر جمـــيعهم حتـــى الكـــافر مـــنهم. ولا يفهـــم مـــن هـــذا أن يحول عواطفه النبيلة إلى قسوة وشدة ويكون غيـــر آبـــهٍ بمـــا يمـــس غيـــره مـــن ســـوء، فقال تعالى ما معناه: وارفـــق بـــالمؤمنين مجســـما هـــذا الرفـــق والعنايـــة بحالـــة الطيـــر عندما يحتضن صغاره فيرخي جناحيه عليها: "واخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ"

وقل للكافرين المعاندين قولا فصـــلا: اعلمـــوا أن مهمتـــي هـــي إنـــذاركم بـــإعلامكم مـــا يترصدكم من سوء المصير إن أنتم أعرضتم عما جئتكم بـــه، وأن أبـــين لكـــم ذلـــك بيانـــا واضحا لا يبقي لكم تعلة تتعللون بها تبريرا لعدم الاستجابة.

كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى ٱلْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴿٩٥﴾ ٱلَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

المقتسمين : يحتمل أن يكون المراد به الذين قَسّـــموا القـــرآن أجـــزاء لا رابـــط بينهـــا، أو الذين حلفوا.

عضين : جمع عضة بمعنى مجزأ إلى حق وباطل، ومقبول ومرفوض.

الصدع : الجهر والإعلان.

ما تؤمر : الدعوة إلى الإسلام.

أعرض : كن أقوى من أن تتأثر بمكرهم.

كفيناك : تولينا أمر المستهزئين بك فننتقم منهم، ونمحي آثار استهزائهم.

بيان المعنى الإجمالي :

أفادت الآية السابقة أن الله أمر نبيه بأن يعلن أنـــه النـــذير المبـــين، ينـــذر الصـــادين عـــن دين الله بالعذاب، هذا العذاب هـــو كالعـــذاب المســـلط علـــى الـــذين بلـــغ بهـــم العنـــاد أن قسموا القرآن أقساما قبلوا بعضه مما وجـــدوه لا يخـــالف وجهـــة نظـــرهم، ورفضـــوا مـــا يناقض تصورهم ومعتقداتهم. كما جعلوا القـــرآن مقســـما إلـــى شـــعر وكهانـــة وأســـاطير

الماضين وكلام مجنون. وهؤلاء هددهم القرآن في أكثر من مناسبة بما يترصدهم من العذاب.
ثم أقسم بمحمد أنه سيسألهم يوم القيامة سؤال فضيحة عما كانوا يعملون في الدنيا فيجازيهم.
ثم أمر رسوله بأن يعلن بالدعوة، وينشرها دون تَخَـفٍّ، وأن لا يأبه بما يقاومه به المشركون من إذاية لفظية أو فعلية. وطمأنه بأنه سبحانه تولى إجهاض استهزاء المستهزئين، هؤلاء الذين فسد تفكيرهم كفساد سلوكهم. فهم قد جعلوا مع الله آلهة أخرى لا حول لها ولا قوة، فجراءتهم على الله وعليك تُعَرِّضُهم إلى أشد عقوبة، وسيعلمون النكال الذي سوف يحل بهم، وهو تهديد شديد بسوء مصيرهم.
و يواسيه بأن الله ليس غافلا عما يرهقك به المشركون، ومن تحرجك من كلامهم. وسوف تظهر لك الحكمة من إمهالهم. ويرشده كما يرشد المؤمنين في الأوقات الحرجة أن يستعينوا بتسبيح الله مع الحمد، والصلاة.
و ختاما عليه أن يواصل ما يقوم به من عبادات يتقرب بها إلى الله ولا ينقطع عنها إلى أن تنتهي حياته، وهذا ما على كل مؤمن صادق أن يلزمه في حياته.

بيان المعنى العام :

90←91ـكما أنزلنا على المقتسمين الذين...جعلوا القرآن عضين.

كانت صياغة هذه الآية على طريقة التشبيه: أداة التشبيه الكاف في قوله تعالى: **(كما)** والمشبه به **(ما أنزلنا على المقتسمين الذي جعلوا القرآن عضين)** والمشبه يحتمل أن يكون المفعول المقدر في قوله تعالى :**(وقل إني أنا النذير المبين)** أي أنذركم عذابا كالعذاب الذي أنزلناه على المقتسمين. فيخلص المعنى هكذا: وقل إني أنذركم عذابا كالعذاب الذي أنزلناه على المقتسمين الذين جعلوا القرآن الكريم مقسما إلى حق وباطل، ومقبول وغير مقبول.
و بعد أن قدمت بهذه المقدمة أريد أن أقرر نفي بعض الاحتمالات التي قال بها بعض المفسرين، ثم أتعمق قليلا في نظم الآية بتتبع ألفاظها.
الرأي الأول: قال بعض الناظرين في كتاب الله: إن المقتسمين هم الذين ذكرهم الله في قصة صالح: **(قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون)** سورة النمل آية 51 – فحملوا كلمة المقتسمين على معنى الحالفين استنادا إلى قوله تعالى: **تقاسموا بالله** – وهذا التفسير لا يصح حمل هذه الآية عليه .ذلك أن القرآن أتبع كلمة المقتسمين بما يوضحها **(الذين جعلوا**

القرآن عضين) وقوم صالح مكــروا ودبــروا طريقــة للقضــاء علــى صـــالح ، ولا صلة لهم بالقرآن.

الرأي الثاني: أن المقتسمين هم أهل الكتاب الـذين قسـموا مـا تلقـوه مـن الكتـب عـن رسلهم إلى ما يوافق القرآن فقبلوه، وإلى مـا يخالفـه فرفضـوه، ويكـون معنـى القـرآن عضين، أي كتـابهم المقـروء (التـوراة أو الإنجيـل) مقسـما. وإطـلاق القـرآن علـى كتابهم اعتمادا على الاشـتقاق اللغـوي، لا أراه مقبـولا. لأنـه قـد تكـرر إطـلاق لفـظ القرآن سبعا وستين مرة في غير هذا الموضـع وكلهـا بمعنـى الكتـاب المعجـز، الـذي أنزله الله معجزة لمحمد ﷺ. وهو ما حول المعنى اللغـوي إلـى المعنـى العَلَمِـي فيكـون تبعا لذلك هو السـابق للأفهـام، ولا يحمـل علـى المعنـى اللغـوي بمعنـى القـراءة إلا بقرينة صارفة، ولا وجود لقرينة.

الرأي الثالث :وقل للمشركين ولأهل الكتاب إني نـذير لكـم، أنـذركم عـذابا لا تجـدون منه ملجأ ولا مفرا، هو يشبه العذاب الذي أنزلنـاه علـى المكـذبين مـنكم، الـذين قسـموا القرآن إلى حق يأخذون به وباطل ينكرونه ويرفضـونه . فكلمـة عضـين جمـع عضـة بمعنى جزء وقسم، أصله عضو فقلبت الواو الآخـرة هـاء. وهـذا التقسـيم صـدر مـن المشركين في طعنهم علـى القـرآن، قـالوا: إنـه سـحر، وأسـاطير الأولـين، وشـعر، وكلام مجنون، وكهانة. كما صدر من أهـل الكتـاب، إذ قبلـوا مـا صـدق كتـبهم ومـا يبقيهم على دياناتهم، وكذبوا بما نسخه من أحكام وما صـححه مـن التبـديل الـذي حرفـوا به وحي الله إليهم.

و لما كان شأن التشبيه أن يكون محققا ومقربـا للمشـبه بوصـله بالمشـبه بـه المعـروف لدى المخاطب معرفة أوضح، فإن هذا العذاب المشـبه بـه غيـر مـذكور علـى التعيـين، كما لم أجد ما يثلج الصدر في تعيينه. ذلك أن ما قدمه المفسـرون أنـه نكـال يـوم بـدر، ويوم بدر في السنة الثانية من الهجرة، والآيـة مكيـة قبـل الهجـرة فكيـف يـتم التشـبيه بشيء لم يحدث بعد ولم يـدخل فـي تصـور المخـاطبين. غايـة مـا أطمـئن إليـه أن المخاطبين استحضروا ما يدل عليه التشبيه، ولم ينقل إلينا.

92←93: فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون.

هذا وعيد للكافرين أكده بالقسم (فوربك) وفـي إقسـام الله بـرب محمـد، مـن التقريـب والتنويه بعلي مقامه ﷺ عند ربه ما لا يخفى. إذَنْ أقسـم الله بذاتـه العليـة، فعلـى مـا ذا أقسم؟ أقسم مؤكدا مضمون القسم بـالحلف وبعلامـة التأكيـد لنسـألـنهم بالمقسـم عليـه وهو: سؤال المنذَرين جميعا لا يفلت مـنهم أحـد، سـؤالهم سـؤال فضـح وتقريـر عمـا

كانوا يعملونه في الدنيا .هذا السؤال لا يتطلب جوابا، ولكنه إيماء للجزاء المترتب على سوء أعمالهم، في قوة لَأُعَاقِبَنَّهُمْ على أفعالهم، فتكون هذه الآية تفننا في التعبير عن مضمون الآية السابقة.

94←96: فاصدع بما تؤمر...كفيناك المستهزئين.

هذه محطة من المحطات الكبرى في مسيرة الدعوة الإسلامية. هي التالية لتلقي الوحي الأول (**اقرأ باسم ربك الذي خلق**) لِمَا تلقاه وأُمِرَ بتبليغه لعشيرته الأقربين. ونجح ﷺ في هداية عدد من أهل مكة الذين كانوا يجتمعون ويعبدون الله في دار الأرقم بن الأرقم، ويتخفّى من كان بعيدا عنها فيقيم صلاته في بعض الشعاب. ومع ذلك فإنهم كانوا لا يسلمون من أذى المشركين. وتحول الوضع من يوم نزول هذه الآية التي تلزم النبي ﷺ بأن يجهر بالدعوة، ويعلو صوته بالحق الذي أنزل إليه ليخرق الأسماع، ويبلغ العقول والقلوب. تكليف جديد أثقل من التكليف الأول، إذ عليه أن يدبر المسالك التي تكون أنجع لِيَنْفُذَ منها إلى البشر جميعا. ويتأكد عليه أن يخطط ما يكفل له الوفاء بهذه المهمة، وهو عالم صلَف قريش، وكبْرها، وشدة تمسكها بآلهتها. إنه الأمر من رب العزة لمحمد الذي لا يدخر جهدا في القيام بالمهمة التي أوكلت إليه. وكل سعادته أن يفوز برضوان ربه، كلفه ذلك ما كلفه. ويزيد هذا التحول ثقلا بأن عليه أن لا يُراعِيَ ما ألفه المشركون في عباداتهم وتعاملاتهم، بل يصدع بكل ما نزل عليه. فاصدع بما تؤمر بدون ذكر متعلق تؤمر ليعم العقيدة والشريعة والسلوك. لتكن شجاعتك على مستوى ما أنت مقدم عليه، فلا يهمك مواقف المشركين وما يعدونه في طريقك من معوقات. فمعنى أعرض عن المشركين، لتكن أصلب وأقوى في مواجهة المشركين فلا تبتئس بما يقومون به لتثبيطك وإذاية المؤمنين.

و تبقى الحرب النفسية التي يتفنن فيها السفلة من المشركين، التي منها الاستهزاء بالدين والقرآن ومظاهر الإسلام. وإن كان الاستهزاء لا يصد عن الدخول في الإسلام، إلا أنه يجرح كبرياء المؤمنين المعتزين به ويؤذيهم، إذ يعمد السفهاء إلى المقدس فيعبثون به.

كانت هذه الناحية مما أهمَّتْ الرسول ﷺ، فأعلمه الله أنه كفاه أمر المستهزئين، أي توليت مكانك الانتقام منهم، وجعلت استهزاءهم مسلوب التأثير. وعن عروة بن الزبير وسعيد بن جبير هم خمسة نفر: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل،

والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحـــارث بـــن الطلاطلـــة. وكلهـــم هلكـــوا بمصائب حققت فيهم كفاية الله لنبيه.

ثم أكدت الآية في خاتمتها استحقاق المســـتهزئين للانتقـــام الـــذي يترصـــدهم، ولا منـــاص لهم منه، لأنهم تجاوزوا الحدود، وجعلوا مـــع الله آلهـــة أخـــرى لا تملـــك مـــن خصـــائص الألوهية شيئا. فشنعت الآية بتفكيرهم، وأن ما وصل به فســـاد التفكيـــر إلـــى اتخـــاذ آلهـــة مع الله يجعل كل ما يفعله بعد ذلـــك أقـــل شـــناعة. وإذ قـــد جمعـــوا بـــين الشـــرك بـــالله والاستهزاء بالرسول ﷺ فهم بـــذلك حقيقـــون أن ينـــالوا جـــزاءهم الـــذي أبْهِـــمَ لتـــذهب النفس في تصوره كل مذهب يتناسب مع عظم جرمهم.

97←98، ولقد نعلم أنك يضيق صدرك...وكن من الساجدين.

قوت الآيتان السابقتان عزيمة رسول الله ﷺ (فاصدع، وأعرض) (إنا كفيناك المستهزئين) ولا شك أن النبي ﷺ كان على مستوى رفيع من شدة الإحساس ورفض التعدي. فهو قد آزره ربه فصمد، ولم ييأس ولكنه مع ذلك كان يتألم لكفر قومه بما أنزله الله إليه، وإقامتهم على الشرك وعبادة الأصنام، ويتألم لمقابلتهم ما هو عليه من الجد بالاستهزاء والسخرية. فآنسه ربه بهذه الآية، كن واثقا يا محمد أن الحالة التي أنت عليها هي تحت رعايتي، لا يخفى علي ما تقاسيه وما يحز في نفسك الكريمة، ويشير سبحانه بهذا إلى أن في ذلك حكمة عند الله في عدم استئصالهم.

ويرشد نبيه إلى المنهج الذي يخفف عنه هذا الكدر النفسي:

أولا : يذكره بأنه يجد في الإعلان بتسبيح الله مســـلاة لهمـــه ورَوْحًـــا يفـــرج عنـــه. فهـــو إذا سمع منهم عبارات الشرك، وتمجيد الآلهـــة، والســـخرية مـــن القـــرآن والإســـلام ممـــا يقصدون به الإذاية، عليه أن يجري على قلبه، التســـبيحَ المنـــزه لله عـــن أقـــوالهم. وعلـــى لسانه ذكر ما استقر في قلبه قارنا لحمـــده علـــى مـــا أفاضـــه عليـــه مـــن نعمـــة الهدايـــة للصراط المستقيم وتقريبه التقريب الذي رفعه إلى مقام الائتمان على وحيه.

ثانيا: أن يفزع إلى الصلاة، فعبر عن الصلاة بالسجود، الذي هو كما شرع في الإسلام، المظهر الأكمل للخضوع لله. روى الإمام احمد وأبو داود عن حذيفة بن اليمان :أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه (نزل به هم أو غم) صلى. كما أخرج الإمام أحمد تطبيقا لهذه الآية بسنده إلى عبد الله بن جعفر كان إذا حزبه أمر قال: لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين. علق عليه المناوي (فائدة) أخرج النسائي عن الحسن بن الحسن بن علي كرم الله وجهه أن سبب هذا أنه لما زوج عبد الله بن جعفر بنته قال لها: إذا نزل بك أمر فاستقبليه بأن تقولي: لا إله إلا الله الحديث ...فإن المصطفى ﷺ

كان يقوله. قال الحسن فأرسل إلي الحجاج فَقُلْتُهُنَّ، فقال: والله لقد أرسلت إليك وأنا أريد قتلك، فأنت اليوم أحب إلي من كذا وكذا فسل حاجتك. وهو في مسلم بنحوه من حديث ابن عباس [1].

99- واعبد ربك حتى يأتيك اليقين.

ثلث الله وصيته لنبيه بأن يواصل القيام بعبادة ربه مستحضرا عنايته به إلى آخر نفس من حياته. إلى أن يأتيه ملك الموت. فأطلق اليقين على الأمر الثابت المتيقن الذي لا شك فيه، وهو أن كل نفس ستبلغ أجلها الذي أجل لها وتخرج من الدنيا. وذلك نظير قوله تعالى: **(وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين)** [2]

و قد كان عرض علي بعض أصحاب السلطة أن قوله تعالى: **(واعبد ربك حتى يأتيك اليقين)** أنه إذا حصل اليقين عند الإنسان فذلك مغن له عن العبادة. وحسب ما ذكر لي أنه عرض رأيه هذا على أساتذة من خريجي السربون فاستحسنوه وأيدوه . فعرفته أولا: أن الخطاب موجه أولا إلى النبي ﷺ ثم إلى أمته، فهل كان النبي ﷺ لم يبلغ اليقين فأمره بالعبادة حتى يصل إلى اليقين ليترك بعد ذلك العبادة ؟هذا تصور لا يمكن أن يتصوره رجل مسلم.

ثانيا: أن هذه الآية لها نظير في سورة المدثر وتلوت الآية فهل معناها: وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين بالتكذيب؟ فسكت بعد ذلك.

أكملت بحمد الله وحسن عونه تفسير هذه السورة يوم الجمعة غرة شهر ذي الحجة 1432- بعد أن توقفت أياما تبعا لعملية جراحية أجريت على عيني والحمد لله المان باللطف والشفاء. وأسأله سبحانه أن يعينني على بلوغ التمام، وأن يجعل عملي خالصا لوجهه ينتفع به المؤمنون.

---

[1] فيض القدير ج5ص 120

[2] سورة المدثر آية 46/45

ســــورة النّحـــل

هذه هي السورة السّادســة عشـرة فـي ترتيـب المصـحف. عرفـت بهـذا الاسـم فـي المصاحف وفي كتب التفسير. وروي عن التـابعي الجليـل قتـادة الدوسـي أنهـا تسـمى أيضا سورة النعم جمع نعمة، إشارة إلى النعم العديـدة المـذكورة فيهـا. وأخطـأ بلاشـير في قراءتها ظانا أن النون مفتوحة فترجمها على أنها النَعَم.

و عند معظم المفسرين هي مكية، واختلف فـي بعـض الآيـات منهـا، فـذهب بعضـهم إلى أنها مدنية، وأن النبي ﷺ أمر كتبة الـوحي أن يضـعوها فـي مكانهـا مـن السـورة. وسنتعرض لها عند تفسيرها إن شاء الله .نزلت بعـد سـورة الأنبيـاء وقبـل سـورة ألـم السجدة فهي بذلك الثانية والسبعون حسب ترتيب تاريخ النزول.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ
مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الاستعجال : طلب تعجيل حصول شيء.

الملائكة : هو جبريل عليه السلام.

الروح : الوحي.

من أمره : من مقدوراته التي يستأثر بها.

بيان المعنى الإجمالي :

تحقق بما لا يبقى معه مجـال للشـك أن مـا قـدره الله، مـن حلـول النقمـة بالكـافرين ونصر المؤمنين، سيقع في المستقبل في الوقت الـذي حـدده. فاسـتوى فـي التحقـق مـا سيأتي بما قد نفذ فعلا. ولذا فلا تطلبوا سرعة حلـول الوعيـد بالنسـبة للكفـار أو الوعـد بالنسبة للمؤمنين، لأن تقدير الله مؤسس على الحكمة التـي لا تتبـع مـا يرقبـه النـاس أو يسألونه. تنزه سبحانه عما يشرك به الكفرة الجاحدون.

و من مظاهر الألوهية التي لا يشاركه فيهـا أحـد عنايتـه بخلقـه، فقـد أنــزل ملائكتــه محملين بالوحي لرسله الذين اختارهم، وهــو العلـيم، لينــذروا البشــر أن لا إلـه يسـتحق العبادة والتقرب إليه إلا الله. فعليهم أن يكوّنوا وقاية لأنفسهم من التعرض لنقمته.
كما أنه تفرد بخلق السموات والأرض التي تقوم بما هــي عليــه مــن نظــام، دلــيلا علــى أنها من خلق الله وحده، ولا يتصور لها خالق سواه. إذ قامــت فــي خلقهــا علــى الحكمــة والدقة لا على العبث والفوضى.

بيان المعنى العام :

1-أتى أمر الله فلا تستعجلوه.

استبطأ المشركون ما أوعدهم الله ورسوله من الكــوارث والبلايــا فــي الــدنيا، وحملهــم ذلك على التكذيب والاســتهزاء. وكــذلك اســتبطأ المســلمون النصــر، وهــم يشــاهدون المشركين يتطاولون مكذبين، تتضاعف مقاومتهم ويضــيّقون علــيهم فــي حيــاتهم. فكــان المشركون يستعجلون النبي ﷺ أن يــأتيهم بمــا أوعــدهم، وكلمــا توســع أمــد الإمهــال كانت مقاومتهم أشرس وأعنف، وكان التكذيب أشــد وأقــوى، ويجــد اســتهزاؤهم مــددا من عدم مشاهدتهم لبطش الله. وكذلك حال المــؤمنين، ولعلهــم فــاتحوا النبــي ﷺ ســائلين أن يعجل الله لهم بالنصــر، ويكبــت أعــداءهم ويعلــي رايــة الإســلام، دون أن يــدخلهم شك في صدق الرسالة. ولكنها الطبيعــة الإنســانية العجِلَــى التــي ينتابهــا الضــجر مــن التأخير الذي لم يُكْشَفْ عن حكمته وبقي سرا من أسرار القدر المحجوب .
ولذا ورد الرد على صياغة فاصلة جازمة، أتى أمــر الله. تحقــق إتيــان أمــر الله، كأنــه صدر في الوجود وتم ظهوره، فنفى الارتيــاب فيــه بــالتعبير عنــه بالفعــل الماضــي. إن ما قدره الله من نصر المؤمنين وتســليط الجــزاء العــادل علــى الكــافرين أمــر ثابــت، ولشدة ثبوته عبر ب [أتى] عوض ســيأتي. وإذا كــان محققــا لاشــك فيــه، فــاعلموا أن خروجه من التقدير القديم إلى الوقوع المنجز، يتم وفق الحكمــة التــي أجــل بهــا ســبحانه حوادث الكون منذ الأزل. ولذا نُهوا جميعــا أن يســتعجلوا عــذاب الله للكــافرين ونصــره للمؤمنين، لأن استعجالهم لا يقدم ولا يــؤخر. ولا تتبــع الإرادة الإلهيــة رغبــات النــاس. تعالى الله وهو العظيم، وتنزه وتقدس عــن أن يُشْــرَك بــه أحــد، أو أن يعبــد غيــره، أو أن يتقرب لأحد سواه.

2-ينزل الملائكة بالروح ...لا إله إلا أنا فاتقون.

أثبتت الآية السابقة تعاليه وتنزهــه عمــا يدعيــه المشــركون. ومــن مظــاهر الوحدانيــة وزيف الشركاء، أنه سبحانه هــو الــذي تتــابع عنايتــه بخلقــه فيحمــل ملائكتــه وحيــه،

وأطلق على ما يوحي به بالروح، لأنه بالوحي تستقيم العقول فتدرك الحق وتسمو إلى خالقها متقربة منه بالعبادة، فحياة العقول تتحقق بالوحي، كما تتحقق حياة الأجسام بحلول الروح فيها. ولو حرمت الوحي لكانت عاجزة عن قيادة الإنسان إلى ما فيه نفعه وخيره، ويخسر تبعا لذلك حاضره ومصيره.

وهذا الوحي متضمن لأمور اختص الله بعلمها، يوحيها لأنبيائه ليبلغوها للناس فتستقيم بذلك حياتهم الدنيوية والأخروية. إنه يختار للتبليغ من له الكفاءة للقيام بهذه المهمة النبيلة العظيمة، بما أودع في كل منهم من الخصال الرفيعة، التي بها سَمَوْا على بقية البشر، وتهيأوا لوعي ما يتلقونه من الملك. قال تعالى: (**الله أعلم حيث يجعل رسالاته**) [1].

إنه سبحانه يتخير من عباده من هو أهل لمهمة إنذار الناس وتنبيههم إلى الحقيقة الكبرى التي هي أصل الصلاح في الكون: أنه لا إله إلا الله. هو الحقيق بأن يخضع له كل إنسان، فيقوم عن رضا بجميع ما يأمر به ويجتنب ما ينهى عنه. وأن تثبت صلته بربه حلولا مستمرا يهديه إلى مواصلة الخير والبعد عن الشر.

3-خلق السماوات والأرض بالحق تعالى عما يشركون.

تتابع الآيات لافتة الأنظار للمشاهد التي تقوم ناطقة بأن الله هو المتفرد بالألوهية، إذ هو وحده الخالق، ولا يدعي أحد غيره أنه يخلق شيئا. والمخلوق لا يصلح أن يكون إلها. فعرضت:

أولا: إثبات قضية لا يستطيع أي عاقل أن يجادل فيها. هي أن الله هو الذي خلق السماوات والأرض، وأن خلقه لها كان ملتبسا بالحق لا بالباطل، وبالحكمة لا بالعبث. إنه وإن اختلف إدراك البشر للأسرار في ذلكم الخلق المحكم العجيب، إلا أنهم يشتركون في الإقرار بالنظام المحكم لسيرها وانضباط أحوالها. ولا يستطيع أي كان أن يدعي أنه خلقها أو أوجدها، إذ كل ما سوى الله مما هو مدرك للبشر لا تبلغ قوته مستوى السماوات والأرض.

نعم إن الملاحدة يدعون أنها خلقت بالانفجار الكوني الذي حدث في لحظة من الزمن البعيد. وهذه فرضية لم يقم عليها دليل علمي من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن هذا الانفجار المدعَى فوضى لا نظام، والمشاهد أن كل مكوِّن من مكونات الكون يسير على نظام بالغ الدقة. غاية ما يطمح إليه العلم أن يدرك القوانين التي

---

[1] سورة الأنعام آية 124

تحكم كل كوكب في تركيبه وفي علاقاته. ورغـم التقـدم العلمـي الـذي بلغتـه البشـرية اليوم فإنها لم ترم بنظرهـا إلـى مـا وراء المجموعـة الشمسـية، مـن مجـرات تقـدر أبعادها بالسنوات الضوئية.

إن ما عشش في عقول الكفرة من فساد قـادهم لاتخـاذ آلهـة مـن دون الله، لا يضـر الله شيئا فإنه تعالى وتقدس عما يشركون، وهو ما ينادي به إحكام خلقه.

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ ۚ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

خصيم : كثير الخصام.

الأنعام : الإبل والبقر والغنم والمعز.

الدفء : ما يتدفأ به فيقي الإنسان من البرد.

تريحون : حين تعودون بها إلى المكان الذي خرجت منه للرعي صباحا.

تسرحون: تخرجون بها إلى المراعي.

الأثقال : جمع ثقَل، وهو ما يثقل على الناس حمله بأنفسهم.

شق : المشقة.

السبيل :الأعمال المبلغة إلى الجزاء يوم القيامة.

قصد السبيل : السبيل المستقيمة.

جائر : مضلل حائد عن الاستقامة الموصلة إلى المقصود.

الذرء : الخلق والتكثير.

الرواسي : الثوابت من الجبال.

الميد : الاضطراب.

بيان المعنى الإجمالي :

حقيقة ثانية لفت إليها القرآن الأنظـار: هـي التحـول المفـاجئ فـي الإنسـان المشـرك، خلقه الله من نطفة من ماء مهين على أشد مـا يكـون مـن الضـعف، فأحاطـه بألطافـه

حتى اكتملت مواهبه العقلية، فإذا هو يصـــرف النعمـــة الكبـــرى (العقـــل واللســـان) فـــي إنكار الخالق وإثبات شركاء له.

وصل القرآن تلك الظاهرة الغريبة بلفــت الأنظـــار إلـــى ظـــواهر أخـــرى تلهـــم الإنســـان إلى الاعتراف بالخالق المدبر للكـــون. مـــن ذلـــك أن الله خلـــق الأنعـــام: الإبـــل والبقـــر والغنم والمعز. يتخذ الإنسان من أصوافها وأوبارها وأشـــعارها مـــا ينســـج منـــه لباســـا أو سقفا للخيمة يمكنه من الدفء ويقيه مـــن البـــرد. ويأكـــل مـــن لحومهـــا مـــا يعـــوض مـــا أذهبه العمل من قواه. ومع ذلك هـــي تُـــدخل علـــى نفســـه البهجـــة والإحســـاس بجمالهـــا حين تعود مـــن المراعـــي ممتلئـــة البطـــون حافلـــة الضـــروع. أو تخـــرج للســـرح فـــي الصباح نشيطة متداخلة. كمـــا ســـخرها لتســـاعد الإنســـان علـــى الضـــرب فـــي الأرض والتحول بمتاعه وتجارته، فتحمل الأثقال وتسير بها إلـــى المكـــان الـــذي يقصـــده، الـــذي ما كان له أن يبلغه بدون الإبل إلا بجهد عظيم ومشـــقة كبـــرى. أفـــلا يقـــوم ذلـــك دلـــيلا على أن ربكم الذي تولاكم بعنايته رؤوف بكم رحيم بضعفكم.

وعرض القرآن أيضا ما خلقـــه الله مـــن الخيـــل والبغـــال والحميـــر، لافتـــا النظـــر إلـــى منافعها التي مـــن أبرزهـــا اتخاذهـــا مطايـــا ليطـــوي بهـــا الراكـــب المســـافات القريبـــة والبعيدة، ويستعين بالخيل على الصيد والقنص. ومنـــة أخـــرى فيهـــا، أنـــه خلقهـــا علـــى صورة فيها جمال يمتع البصر. فهـــي زينـــة فـــي الأرض وزينـــة لمـــن يركبهـــا. ونبـــه القرآن على أن تلكم المذكورات وراءها خلـــق لا يوجـــد فـــي البيئـــة العربيـــة ولا يعرفـــه المخاطبون. وبعد هذا وذاك ما ســـيلهم الله إليـــه الإنســـان ليُكَـــوِّن منـــه مراكـــب وآليـــات تنقله وتنقل أمتعته وتخترق به أجـــواء الســـماء. والله هـــو الملهـــم الـــذي خلـــق القـــوانين وخلق الطاقة التي تسير تلكم الأنـــواع المختلفـــة مـــن الطـــائرات والســـيارات والرافعـــات والصواريخ.

وفوق كل ذلك، فإن الله هو وحـــده الـــذي مكـــن الإنســـان بفضـــله وإرادتـــه، مـــن العقـــل الراشد إلى طريـــق الهـــدى وحصـــنه برســـالاته، فـــتم تبـــيُّن الطريـــق الســـالك للغايـــات المحصنة له من الضلال. وبجانـــب طريـــق الهـــدى طريـــق الضـــلالة المنحـــرف عـــن الصراط المستقيم. والإنسان مختار يسلك مـــا يشـــاء. ولـــو شـــاء الله أن يقصـــركم علـــى الهدى لفعل، ولكن هذا يرفع التكليف. والله أراد أن يكون الإنسان مكلفا مختارا.

ثم واصل القرآن لفت الأنظار إلى ظـــواهر تثبـــت تفـــرده بالألوهيـــة والقـــدرة والحكمـــة، لفت الأنظار إلى الماء النازل من السماء، في إنزالـــه حكمـــة وفـــي ربـــط حيـــاة الإنســـان به في شرابه وفي فلاحته، وفـــي تحويـــل الأرض الجـــرداء بـــه إلـــى مراعـــي، وفـــي

تمشيه في باطن الأرض حتى تحول مـــع عناصـــر الأرض إلـــى زروع وزيتـــون ونخـــل وأعناب، إلى ثمرات مما هو معروف عنـــد المخـــاطبين وممـــا هـــو منبـــث فـــي أقطـــار الأرض. كل ذلك يقوم دليلا واضـــحا لمـــن يتفكـــر فيمـــا تنقلـــه إليـــه حواســـه ليستـــلهم الصور فيدرك الحكمة التي وراءها.

كما لفت الأنظار إلى الليل والنهار والشـــمس والقمـــر كيـــف ســـخرها فكانـــت مســـاعدة لاستخلاف الإنسان في الكون. والنجوم على كثرتهـــا التـــي مـــلأت أرجـــاء السمـــاء قـــدر لها مسارها أو تمركزها ثابتة في مكانها مستجيبة لقـــوانين خلقهـــا. وكـــل ذلـــك فيـــه أدلـــة على ارتباطها بخالقها للقوم الذين يُعملون عقولهم.

وما خَلَقَهُ ونَشَرَهُ في الأرض من الحيوان والنبات، يتحد أصله وتختلف ألوان ما تفرع منه، يتضمن أيضا أدلة منادية لقوم يتأملون في الظواهر ويعملون فيها عقولهم.

وســـخر كـــذلك البحـــر للإنســـان، فكـــان مخزنـــا للأســـماك يأكـــل الإنســـان لحومهـــا بخصائصها مـــن طـــراوة وجـــدة. ومـــع هـــذا يســـتخرج الإنســـان مـــن البحـــر اللؤلـــؤ والمرجان يتزين بهما. كما سخر البحر لتجري فيـــه الفلـــك للأســـفار وللتجـــارة، إنـــه إذا تأملتم في نعمة الله تلك يرجى أن تقودكم إلى لشكر.

ثم حول الأنظار لنظام في الأرض خفي، وهـــو أنـــه ســـبحانه ألقـــى فـــي الأرض جبـــالا راسية ثابتة تحفظ استقرارها وعدم اضطرابها. وأجـــرى فيهـــا الأنهـــار الناقلـــة للخصـــب إلى الأماكن التي لم تروها الأمطار. ويسَّر في الأرض اتخـــاذ الطـــرق التـــي ينتقـــل فيهـــا الإنسان من مكان إلى آخر. وقـــدر أن يكـــون ســـطحها مختلـــف المظـــاهر لتكـــون تلكـــم الاختلافات علامات يهتدى بها لبلوغ المكان المقصود بـــدون اشـــتباه. كمـــا جعـــل النجـــوم علامات في الليل يهتدي بها السُّـــراة فـــي الوقـــت الـــذي لا تتبـــين فيـــه المعـــالم الهاديـــة وكذلك في البحر.

وختمت تلكم التنبيهات بسؤال ينكر على المشركين ضـــلالهم، هـــل يســـتوي الـــذي يخلـــق بالعاجز الذي لا يستطيع أن يخلق شيئا ؟

ثم أيقظ العقل والحس إلى ما يأتي من نعـــم الله وفضـــله. فأكـــد أن الإنســـان عـــاجز عـــن حصر نعمه، وما يتنبه له هو قليـــل بالنســـبة للـــنعم التـــي هـــو ذاهـــل عنهـــا، والتـــي لا يحصرها التعداد. ومن أفضل الـــنعم أن الله يغفـــر للمـــذنبين تجـــاوزاتهم، ويـــرحمهم فـــلا يعاجلهم بالعقوبة.

بيان المعنى العام :

4- خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين.

ثانيا: يتبع القرآن خلق السماوات والأرض، وما في خلقهما من دلالة على الوحدانية لله، إذ لا يستطيع أن يتصور لعظمهما أن يكون لهما خالق غيره، يتبع ذلك بلفت الأنظار لخلق الإنسان. ففي ومضة سريعة ينتقل القرآن بالناظرين من نقطة البداية في تكوينه إلى اكتمال قواه الباطنية، وقدراته على البيان والتأثير، اللذين يتفرد بهما عن غيره من بقية الكائنات الأرضية. ويبدو في هذه النقلة العجيبة البون الشاسع بين المبدأ والوضع الذي آل إليه.

فمبدأ الإنسان قضية لا خلاف فيها، هي النطفة: البييضة الملقحة العالقة بجدار الرّحم. والتي هي الخلية الأولى التي لا ترى إلا بالمجهر. وسواء أنظرت إلى حجمها أو وزنها أو صلابتها، فإنك تجد شيئا حيا صغيرا جدّا. أودع الله في هذا الكائن التافه برنامجا كاملا ودقيقا لتطوره، وأحاطه بألطافه لينمو ويكتمل حتى يظهر ما كان كامنا فيه. وإذا هو إنسان تنوعت مداركه، ونما عقله، ويستطيع أن يُبَلِّغ ما يريد أن يبلغه بلسانه وأن يؤثر في مخاطَبيه، كما يتلقى منهم رسائلهم. ولم يقصره خالقه على قول الحق والتزام الصدق، بل ترك له الحرية في تصريف قواه ومداركه وقوته البيانية في الخير أو في الشر. والعجب من الإنسان كيف ينحرف فيستعمل أداوته تلك في تقرير الباطل ويخاصم فيه، ويكد عقله وفصاحته وبيانه ليقلب الحقائق ويدافع عن الشرك، ويطمس الفضيلة. كأن هذا الانقلاب أمر مفاجئ إذا جمعت بين مبدئه وبين وضعه الحالي الزائغ.

5-والأنعام خلقها....ومنها تأكلون.

ثالثا :خلق الأنعام: الإبل والبقر والغنم والمعز. وهي تجتمع مع الإنسان في كونهما من جنس واحد، هو جنس الحيوان. وتبرز النعمة في القصد من خلقها، الذي هو عون الإنسان على الحياة(لكم) فعدد من ذلك.

أ-الدفء، الذي يحمي الطاقة الحرارية في الجسم من النزول بلذع البرد، وذلك بما يتخذه من أصوافها وأوبارها وأشعارها من نسيج للكساء وسقف للخيام.

ب – مصالح متنوعة عبر عنها بالمنافع كالألبان، والسماد لتخصيب الأرض.

ج – الأكل من لحومها فتعوض الإنسان عما احترق من الوحدات الحرارية.

6-ولكم فيها جمال .....و حين تسرحون.

رابعا: يغذي الإنسان ذوقه ومشاعره بالجوانب الجمالية في الكون، كما يغذي جسمه بالوحدات الحرارية التي يجدها في أنواع الأطعمة. والأنعام يجد فيها صاحبها عندما تعود من مراعيها تتهادى وقد امتلأت بطونها بما رعته من النبات، وحفلت

ضروعها باللبن، ما يسر نظره ويملأ نفسه بالبهجة. وكـذلك فـي تـزاحم القطعـان مـن الأنعام، وهي منصرفة إلى المراعي في خفـة، منظـر لا يخلـو مـن جمـال، وإن كـان عودتها أتم في ذلك. ولذلك قدم القرآن الرواح على السرح.

وفي الامتنان بالناحية الجمالية ما يهدي إلى أن الـدين الإسـلامي ديـن لا يقمـع دواعـي الفطرة السليمة، بل يعززها. فعناية المسلم بالنواحي الجماليـة التـي تهـذب ذوقـه وتلبـي الأحاسيس الرقيقة فيه منسجم مع عمق التدين، سـواء أكـان ذلـك فـي مأكلـه أو ملبسـه أو مسكنه، أو في تعبيره وبيانه.

7- وتحمل أثقالكم إلى ...لرؤوف رحيم.

خامسا :أذن للإنسان أن يمشي في مناكب الأرض وهُـدِي إلـى التحـرك فـي أرجائهـا. ولما كان ما يملكه وما يتصرف فيه يتجـاوز نقلـه طاقاتـه البدنيـة، سـخر لـه الإبـل تحمل متاعه وتجارته، وتبلغه البلـد الـذي يريـده، وإن كانـت المسـافة بعيـدة لا يبلـغ الإنسان قصده إليها إلا بمشقة وتعب شديدين.

وإنك لتلحظ فضل تسخير الله تلكـم الحيوانـات للإنسـان، فتـرى الطفـل يأخـذ بخطـام بعيره ويركبه ويسوقه إلى حيث شاء. أفلا تقوم هذه النعم مناديـة بمـا اتصـف بـه ربنـا من رأفة بعباده، يسـعدهم بمـا يُهَـوِّنُ علـيهم المشـاق، وبمـا يعيـنهم علـى تحقيـق أغراضهم الصالحة في الحياة. وذلك من رحمته التي وسعت كل شيء.

8- والخيل والبغال والحمير ..و يخلق ما لا تعلمون.

سادسا: خلق سبحانه الخيل والبغال والحميـر وسـخرها للإنسـان. وامـتن علـى البشـر بأن مكنهم من ركوبها لقطع المسافات، والطـرد والقـنص، والـدفاع والغـزو. كمـا أنهـا زينة تقر عين مالكها وراكبها والناظر إليها. وما يزال النـاس إلـى اليـوم يعنـون بهـا وخاصة بالخيول، ويبذلون في الجيد منها أثمانـا عاليـة ربمـا تفـوق أفضـل السـيارات نقانة. وتختص البغال مع جمالها وصلابتها بالقدرة علـى تسـلق الجبـال، وهـي أفضـل ما يستعين به سكان المناطق الوعرة. والحمير المذكور فـي الآخـر منزلتهـا فـي الواقـع دونهما، ولكنها أوسـع انتفاعـا إذ يمكـن للفقيـر أن يملكهـا. كمـا أن سـيرها لا يتعـب الراكب فيتروح عليهـا فـي الأسـفار البعيـدة. ولمـا قصـرت الآيـة الامتنـان علـى الركوب والزينة فإنه قد أخذ منه بعض الفقهاء أنه لـو كانـت الخيـول والبغـال والحميـر يجوز أكل لحومها لبينته الآية. وحاصل الفقه في أكل لحومها:

أما الخيل فقد حرم مالك وأبـو حنيفـة وأصـحابهما وكثيـر مـن الفقهـاء أكـل لحومهـا اعتمادا على ما ذكر قريبا. وذهب الجمهور مـن الفقهـاء والمحـدثين إلـى جـواز أكـل

لحومها. وهو الأرجح في النظر. لأن الاقتصار على بعض المنافع في مقام الامتنان لا يفيد قصر حلية الانتفاع على ما ذكر، فإن البقر يستعان بها في الحرث وكذلك الإبل، وتركب أيضا ولم يذكر ذلك في الآية. ولا قائل بحرمة ذلك لعدم ذكره في معرض الامتنان.

ب:وأما البغال فلما كانت نوعا مركبا من نطفة ذكر الحمير والفرس، فمن حرم أكل لحومهما حرم أكل لحوم البغال، وأما من أحل أكل لحوم الخيل فقد غلب في البغال صلتها بالحمار فحرم أكلها أيضا، إلا ما روي عن عطاء أنه يجيز أكل لحوم البغال، وهو قول تفرد به.

ج – أما الحمر فالقول بتحريم أكل لحومها يقرب من الإجماع.

و تختم الآية بتثبيت قاعدة، هي أن علم الإنسان قاصر حتى فيما سبيله المشاهدة. إذ تثبت الآية أن الله يخلق في الحال والمستقبل ما لا يعلمه المخاطبون بالآية عند نزولها. فهو سبحانه قد خلق من الحيوانات التي يستعين بها الإنسان وتيسر له حياته في بيئته ما لا يعلمه العرب، كالحيوانات التي تجر مراكب البشر في القطب المتجمد، وكالفيلة التي تعتمد في كثير من حاجات الإنسان في بعض المناطق، والحيوانات التي ظهرت في القارة الأميركية.

كما تفيد الآية أن الله سيلهم البشر اكتشاف قوانين الطاقة التي يسيرون بها الطائرات ورافعات الأثقال، والسيارات بمختلف أحجامها وأشكالها، والسفن العملاقة، والصواريخ العابرة للفضاء، وغير ذلك، مما عوض الطاقة الحيوانية وتقدمت به الحضارة أشواطا. كما يشمل ما هو في علم الغيب مما هو مفتوح للبشر معرفته.

9 - وعلى الله قصد السبيل ....لهداكم أجمعين.

الإنسان ممكن في الدنيا من اتباع طريق الخير أو طريق الشر. وتعهد الله سبحانه تفضلا منه ورحمة ببيان طريق الهدى بأمرين:

أولهما: ما رزقه الإنسان من عقل يميز بين الصالح والطالح والحسن والقبيح، والخير والشر، ويتصور العواقب التي ينتهي إليها إذا هو سلك سبيل الهدى، والعاقبة السيئة إذا هو انحرف وغلّبَ النفع الضئيل القريب على الخير الكثير المضمون في النهاية.

ثانيهما: ما تفضل به سبحانه من إرسال رسله لتقويم مسار الإنسان وللكشف عما يمكن أن تكون الشهوات والعواطف، والعادات السيئة، قد حجبته عن العقل المجرد.

إن قوله تعالى: **ومنها جائر**، أي سبيل غيــر موصـــل للمقصـــود، إلـــى الخيـــر، الضـــامن لسلامة الإنسان في الدنيا والآخرة. وضـــلال ذلكـــم الطريـــق هـــو مســـبب عـــن اختيـــار الإنسان وترجيحه طريق الضلالة على طريق الهدى.

وتختم الآية بالتأكيد على أن الله خلق الإنسان خلقـــا جعلـــه بـــه حـــرا مختـــارا. وهـــذه إرادة الله. ولو شاء سبحانه أن يخلق الإنسان مطبوعـــا علـــى الخيـــر عـــاجزا عـــن الشـــر لخلقه كذلك، ولكنه لا يكون إنسانا ولا مكلفا ولا مستخلفا في الأرض.

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗۖ لَّكُم مِّنۡهُ شَرَابٞ وَمِنۡهُ شَجَرٞ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾
يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ
وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ
لَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ
ٱلَّذِي سَخَّرَ ٱلۡبَحۡرَ لِتَأۡكُلُواْ مِنۡهُ لَحۡمٗا طَرِيّٗا وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ تَلۡبَسُونَهَا
وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِهِۦ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلۡقَىٰ
فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٖۚ
وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّواْ
نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

تسيمون : تطلقونها للرعي.

آية : دليل على أن الله هو الخلاق وحده.

ذرأ: أوجد وخلق بواسطة التناسل.

البحر : الجزء الواسع من الأرض المملوء ماء حلوا أو مالحا.

الطري : اللين الغض.

الحلية : ما يتزين به

المخر : الشق.

الرسو: الثبات بالمكان.

السبل : جمع سبيل وهو الطريق الذي يسلكه المسافرون.

علامات : أمارات يتخذها الإنسان فتحميه من الضلال.

بيان المعنى الإجمالي :

الله هو وحده الذي أنزل الماء مـن السـماء وفـي ذلـك دليـل علـى تفـرده بالألوهيـة والخلق سبحانه. ثم في تتبع ما يترتب على هذا الماء دلائـل أخـرى لمـن يتأمـل . يـدخل الماء في تركيـب الإنسـان وحاجتـه ليرتـوي منـه. حاجتـه إليـه أكيـدة، يسـتطيع أن يستغني عن الطعام أيامـا ولكنـه لا يصـبر علـى المـاء، ويسـري المـاء فـي الأرض فتنبت به الأشجار والكـلأ فترعاهـا الأنعـام، وتـدخل لحومهـا وألبانهـا فـي تركيـب الإنسان. وخلق في الإنسان القدرة على معرفة قـوانين الفلاحـة، والمـاء عنصـر أسـاس في الزراعة وفي نمـو الأشـجار المثمـرة مـن الزيتـون والنخيـل والأعنـاب، ومـا لا يحصى من الأنواع المثمرة مما يتناسب مع كل إقلـيم. كـل ذلـك يشـرح صـدور الـذين ينفذون بتفكيرهم إلى معرفة تلكم القوانين في قـوى إيقـانهم بـأن الله وحـده هـو الخـلاق العظيم. كما سخر سبحانه الليـل والنهـار لـيلائم الوضـع البشـري، وسـخر والشـمس والقمر تسخيرا للإنسان لا يعوقه عن القيام بـدوره فـي الكـون. وكـذلك النجـوم التـي ملأت قبة السماء، أودع فيها ما جعلها تسبح فـي الكـون وتسـير فـي مسـاراتها، وفيهـا دلائل على الحكمة الإلهية وعلى تفرده سبحانه بالتأثير.

بيان المعنى العام :

10-هو الذي أنزل من السماء ...فيه تسيمون.

سابعا: المنة الكبرى ذات الآثار المتداخلة العجيبة.

بين أولا: أن الإنسان مرتبط بالماء النازل من السماء بتقدير إلهي وفضل منه، نتبين ذلك من قوله مقدما (لكم) إظهارا لشدة الارتباط بين البشر وهذا الماء النازل من السماء.

وثانيا: أن من هذا المـاء شـرابه، يـدخل المـاء فـي كيانـه ليعـدل مكونـات الجسـم، ويصفيه من كثير من الفضلات.

وثالثا: أنه يتمشى في باطن الأرض فيخـرج مـن اختلاطـه بعناصـر الأرض الأشـجار بما تحمله من أوراق، والمراعي التي يطلقـون فيهـا أنعـامهم فتقتـات مـن الكـلأ، كمـا تتناول ما تصل إليه مـن أوراق الشـجر. وإذا بالمـاء النـازل مـن السـماء يتضـاعف خيره فتنمو به الأنعام حتى يصبح قوتا للناس في اللحوم والألبان.

11-ينبت لكم ....لقوم يتفكرون.

ثم بين رابعا من عجائب القدرة، كيف أن الماء النـازل مـن السـماء يـرتبط بمـا ألهـم إليـه الإنسـان مـن فـن فلاحـة الأرض، فينبـت منـه الـزروع والزيتـون والنخيـل

والأعناب . إن الفارق بين هذه الآية والتي سبقتها أن الآية السابقة تولد فيها عن الماء مراعي وأشجارا لا مدخل لمجهود الإنسان فيها، وهذه الآية تدل على ما يبذل فيه الإنسان مجهودا، فيحرث الأرض، ويلقي بالزريعة في الأرض على طريقة مخصوصة، وكذلك نبتة الزيتون وفسيل النخل، وغصن العنب؛ فهذه الثلاثة عمرت بها المزارع في الجزيرة العربية وما حولها من أرض الشام والعراق. والإنسان يحرث ويزرع ويغرس ويتابعها بالرعاية لتنمو وتثمر، وكلها مرتبطة بالماء النازل من السماء. ووراء ذلك أنواع عديدة تبعا لما في كل قطر من أقطار الأرض من خصائص في التربة والمناخ، تمنح الإنسان صنوفا من الثمرات.

عرض القرآن ما عرضه ولفت الأنظار إليه ليجد فيه من كان له عقل بتأمل ولا يقنع بالظواهر، يجد فيما ترتب على نزول الماء من السماء دليلا على أن الله هو المتفرد بالخلق. ذلك أنه ليس للإنسان أي دخل لا في إنزال الماء من السماء، ولا في الآثار المترتبة عنه، حتى ما يقوم به من مجهود في الزراعة أو الغراسة لا نُجْحَ يتبعه إلا بفضل من الله.

12-وسخر لكم الليل والنهار...لقوم يعقلون.

ثامنا : بيَّن من عجائب القدرة كيف طوَّع سبحانه الليل والنهار والشمس والقمر للإنسان. والذي يظهر أن تسخير الليل للإنسان يبرز تحققه في الملاءمة بين الوضع البشري وبين تعاقب الليل النهار، فلو استمر الليل على الكرة الأرضية أو النهار، لكانت الحياة صعبة جدا إن لم نقل مستحيلة. فتواصل الليل يصحبه نزول الحرارة، المؤثر سلبا على حياة الإنسان والحيوان والنبات وفقد الإنسان السكون الليلي الذي يريحه من عناء العمل بالنهار. وكذلك العكس، لو استمر النهار لارتفعت الحرارة إلى درجة تفسد الحياة. وكذلك الشمس في جاذبيتها للأرض وما تبعثه في الكون من الضوء والحرارة بمقدار تسير معه حياة الإنسان بصفة ملائمة. ومثلها القمر وتأثيره في المد والجزر، وجاذبيته للأرض بما يمكنها من الاستقرار في مدارها؛ كل ذلك تجده مراعى فيه وضع الإنسان والخواص التي تيسر عليها الحياة.

و من الإعجاز القرآني أنه لما تعرض للنجوم فصلها عن بقية الظواهر، ذلك أنها كثيرة كثرة لا يَعْلَمُ على وجه الدقة خصائصها إلا خالقها. وتحكمها قوانين صاحبتها عند التكوين المعبر عنه بالأمر. ثم إنه حرض العقل الإنساني لينفذ إلى تلكم العوالم، وأشار إلى أنه واجد في اهتمامه ذاكم أدلة متنوعة على تفرد الله بالألوهية والتأثير. فهي ليست محجوبة لا تتكشف للقدرات العقلية للبشر إذا هم ساروا حسب مناهج البحث المولِّدة.

و يلاحظ أن الآية السابقة (11) ختمت بـأن فـي ذلـك آيـة، وختمـت هـذه الآيـة (12) بأن في ذلك لآيات. وذلك لأن ما تم تعداده في الآيـة الأولـى منبثـق مـن شـيء واحـد هو الماء ظهر بمظاهر متعددة فعبر عنه بآية، أمـا الآيـة الأخيـرة فهـي ظـواهر تقـوم كل واحدة منها بنفسها وتستقل بدلالتها.

13- وما ذرأ لكم ...لقوم يذكرون.

تاسعا: لفتت هذه الآية الأنظار إلى ظاهرة الألوان المختلفـة فـي الكـون، نجـد اختلافهـا في النوع الواحد وما في كل لـون مـن جمـال. اعتبـر ذلـك فـي الخيـل والعصـافير والطيور، فقد اختلفت الألوان مع أنها وجـدت ونمـت فـي بيئـة واحـدة وغـذيت بمـاء واحد واتحد الأبوان. وبتفسير ذلك بأن الجينوم ظهـر فـي الحصـان الأول فكـان أشـقر وظهر جينوم آخر في أخيه من قبله أو مـن بعـده فكـان أدهـم أو أبـيض. مـن الـذي جعل الجينوم الخاص المحمول فـي الخريطـة يكـون فـاعلا أو معطـلا؟ إنهـا قضـايا تدعو إلى التأمل مع استحضار مختلف الظواهر لتبين القدرة المؤثرة بالفعل.

14-وهو الذي سخر البحر ...ولعلكم تشكرون.

البحر قوة عظيمة، عندما يهيج يهلك كل مـا يـأتي عليـه. نقلـت لنـا وسـائل الإعـلام المرئية صورة من زحف البحر على مناطق من شـرق آسـيا وشـاهدنا الكـوارث التـي تبعت تدفق مياهه. وابتلع قاعـه مراكـب كثيـرة عبـر التـاريخ. والغواصـون المهـرة يتولون في فترات إخراج بقايا السفن الغارقـة، وفـي ذلـك مـا يحسـس بنعمـة تسـخير البحر للبشر.

عاشرا : إن هذه القوة العظيمة طوّعها الله للإنسـان. هـداه إلـى صـناعة السـفن التـي ما تزال تتطور حتى أصـبحت أفضـل وسـيلة لنقـل السـلع، ورواج التجـارات، ومـا يترتب على ذلك من توفر فرص العمل، وتبادل الخيـرات بـين العائلـة البشـرية ونمـو الثروات. وينعم الإنسان بالسـباحة فـي ميـاه البحـر الـذي يحتضـنه، ويلطـف شـواطئ الحر. ومن مياهه اهتدى إلى الخطـوات الأولـى لتحويلـه إلـى مـاء صـالح للشـراب وري الحيوانات والأشجار والنبات. كما تقوم مياهه علـى تمكـين أجهـزة مـن المصـانع للعمل. فمنافع البحر بعد تسخيره لا تحد. ولـو جعلـه هـادرا مضـطربا لتعطـل معظـم الكرة الأرضية وخرج عن خلافة الإنسان.

و من تسخيره سبحانه البحر أن جعله بيئة صالحة لحيـاة الأسـماك التـي تعتبـر مقومـا غذائيا جيدا للإنسان، بما يحتوي عليه تركيبها مـن بـروتين وكلسـيوم وأمـلاح عديـدة. وعدد القرآن من المنة أنه قدّر أن تكـون لحـوم الأسـماك غضـة علـى خـلاف لحـوم

الأنعام، والتعبير في المنة بالطري فيه إدماج مرشـد إلـى أكلهـا جديـدة، ممـا ينبـئ أن خزنها يقتضي أخذ احتياطات خاصة.

ومنة أخرى أن الله كوَّن في البحر أنواعا من الأصـداف يسـتخرج منهـا اللؤلـؤ الـذي تفنن الإنسان في نظمه فكان حليا يضيف إلـى وسـامة الإنسـان جاذبيـة، كمـا يسـتخرج من البحر المرجان الذي كان مجالا للنحت ثـم تكـوين حلـي منـه أيضـا. وأفهـم مـن إسناد اللباس في الحلية إلى ضمير جمع المذكر (تلبسـونها) مـع أن الغالـب فـي لبـاس الحلي هو للنساء، إشارة إلى أنه غير محـرم علـى الرجـال التـزين بـالحلي مـن غيـر الذهب أو الفضة، وأن لبس خاتم للرجال من فضة لا مـن ذهـب بـه فـص مـن لؤلـؤ، أو من مرجان، حلال.

ومن نعم تسخير البحر، أن هـدى الإنسـان لقـوانين الطفـو علـى سـطح المـاء فاتخـذ الفلك التي تحمل الأثقال وتشـق البحـر رابطـة بـين البلـدان، ميسـرة لنقـل خيـرات الأرض، وكل ضروب السلع مـن مكـان إلـى آخـر. والتعبيـر بابتغـاء الفضـل كثـر إطلاقه في القرآن على التجارة .كما أشرنا إليه آنفا.

وإذ افتتح نعمة إجراء الفلك في البحر، بأنهـا نعمـة ظـاهرة يـدركها كـل راءٍ (وتـرى الفلك فيه مواخر) ناسـب أن تخـتم بـأن هـذه المشـاهدة تقتضـي أن يتوجـه الإنسـان بالشكر لربه على ما يسر وأعان، وفي ذلـك تعـريض بالمشـركين الـذين لغلـظ حسـهم وظلام قلوبهم لم تفدهم حتى الأدلة الواضحة الظاهرة.

15←16: وألقى في الأرض ...هم يهتدون.

ظواهر أربعة جمعها القرآن على أن القدرة الحكيمة هي التي ألقتها على سطح الأرض، فكأنها ظواهر حدثت بعد التكون الأول لها، كما تشير إليه كلمة (ألقى) – الجبال –الأنهار – السبل – العلامات – فلننظر كل ظاهرة من هذه الظواهر: عبَّرت الآية عن الجبال بالرواسي، وكشفت الآية عن الحكمة في ذلك: أن دور الجبال فوق سطح الأرض، وتوزيعها على النحو التي هي عليه حقق توازنا في الكرة الأرضية يحميها من الاضطراب. وهو ما مكن الإنسان من الاستقرار، الشرط الأساسي للعمران، والممكن أيضامن إقامة المشروعات السكنية والانتاجية.

٦) الأنهار: تتجمع فيها المياه وتنساب على الجنبات فتسقي أراضي شاسعة ما نزل عليها المطر كوضع النيل في مصر، وتمخرها السفن كالبحر، وتتوالد فيها الأسماك، وغير ذلك من المنن.

2) السبل: لا يستغني الإنسان عن التنقل في أرض الله، كما لا تتم الحضارة إلا بالضرب في الأرض. ويسر الله الأرض فبسطها بشكل يمكن للإنسان أن ينتقل بين أرجائها في يسر.
وأتبعت الأنهار والسبل بقوله تعالى: "لعلكم تهتدون"، أي رجاء أن تحصل لكم الهداية المادية التي تبلغكم الغايات التي تقصدونها. كما أنها وسائل تصلون بالتأمل فيها إلى الاهتداء إلى إبداع الصنع الإلهي في الكون فتتمكن الهداية الإيمانية منكم.
3) العلامات. لو كانت الأرض صفحة واحدة لا اختلاف فيها ولا خصائص لأجزائها، لتاه الإنسان في فضائها الواسع البعيد الأرجاء، ولكن حكمة الله جعل لمناطقها خصائص بها تتميز تعرّف الإنسان بالمنطقة التي هو فيها. كما ألهمه أن يقيم معالم يعرف بها الطريق السالك، ولا يختلط عليه سبيل العودة. وهذه نعم مثبِتَةٌ أن كل دقيقة في الكون آية دالة على الحكمة التامة، وإن كان كثير من الناس قد يغفلون عنها.
4) وخص بعض النجوم بخصائص يهتدي بها البشر في سراهم، في الوقت الذي يطبق فيه ظلام الليل على المعالم، كما يهتدي بها المسافرون في البحار ولا معالم. كما ينتفع من ظهور بعضها تغير الفصول، فيعتمدون على ذلك في الزراعة. وبالجملة فإن ما عمرت به السماء من نجوم يكون هداية لفريق من الناس، هم جزء من الجماعة الإنسانية وفضل نشاطهم تنتفع به المجموعة البشرية.

17-18، أفمن يخلق ....لغفور رحيم.

تتابع في هذا المقطع لفت الأنظار إلى النعم التي هي من فضل الله ولطفه بالإنسان. وحرك العقول والمدارك لاستحضارها وللانتقال منها إلى مبدعها، والتركيز على أنه لا يستطيع أن يدعي أحد أن له شركا في إيصالها للبشرية، ولا في تنظيمها التنظيم التي هي عليه.

فاستفهم القرآن استفهاما ينكر فيه على المشركين ضلالهم، إذ ادعوا أن لله شركاء، مما ينبئ عن غبائهم في تسوية من هو عاجز عن خلق أي شيء مما ذكرته الآيات وأقامته دليلا على تفرد الله بالتأثير، تسويته بمن تفرد بالخلق والتقدير والحكمة في خلقه. ثم يقرّعهم على اختلال تفكيرهم ويسجل عليهم بأداة التحضيض أنهم لا يتفكرون فيما هو مشاهد أمامهم.

تفرد الله سبحانه بالخلق بمعناه الحقيقي الكامل الخلق الذي قدر خصائصه وآثاره. هو الخلق الذي لا يتوقف على وجود مادة سابقة، إذ هو منبثق عن العلم الدقيق الشامل لجميع الجزئيات الظاهرة والكامنة، و عن القدرة النافذة، وعن الإرادة الحرة. يستجيب فيه المخلوق لإرادة الخالق وحكمته. فيبرز للوجود حسب التقدير السابق ولا أثر للمصادفة.

وليس لأحد سواه أي أثر في الخلق بهذا المفهوم الدقيق لا في حال إيجاده، ولا لآثاره بعد إنجازه ولا لعلاقاته بعد إنجازه في الحاضر والمستقبل القريب والبعيد.

فدعوى بعض الواهمين أن لهم قدرات علـــى الخلـــق دعـــوى كاذبـــة، وزيـــف بعيـــد كـــل البعد عن الحقيقة.

ردد بعض خريجي "الصربون" الفرنسي مُنَـــوّهين "بـــالفكر الخـــلاق" ولـــيس للفكـــر مهمـــا توقد وصفا أن يخلق شيئا. وغاية ما يصـــل إليـــه الانكشـــاف المطـــابق للحقيقـــة. فليتأمـــل البشر جامدين ما منحهم الله من قوى التفكيـــر ليـــدركوا صـــدق هـــذه الحقيقـــة: الخلـــق لله وحده. **أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون.**

ويُخْتَمُ العرض بقاعدة جامعـــة عامـــة، تحـــرك العقـــل ليتأمـــل، والمشـــاعر لتنطلـــق فـــي الاتصال بالكون، بما يصحبه من تتبع لـــنعم الله علـــى الإنســـان. ويفجـــأ الـــنص القرآنـــي بتلكم الصورة البديعة: أن الكثرة الكاثرة من الـــنعم التـــي لـــم تتـــرك جانبـــا مـــن جوانـــب الوجود، ولا حظا من حظوظ البشر، ولا تنظيما وألطافا مقترنـــة فـــي ســـير الحيـــاة، هـــي كثيرة كثرة يتجاوز حصرها وتعدادها قدرات الطاقـــات البشـــرية. وفـــوق ذلـــك كلـــه، إن الإنسان لضعفه قد يقع في المعصية ويســـتعين بفضـــل الله عليـــه علـــى ارتكـــاب الإثـــم، ويذهل عما توجبه النعم من الشكر. ويظهر القرآن نعمـــة هـــي أجـــل الـــنعم ويـــذكر بهـــا: إن الله لغفور رحيم، يمحو ذنوبهم ويسعفهم برحمته التـــي وســـعت كـــل شـــيء. اللهـــم لا تحرمنا مغفرتك وأدخلنا ربنا في رحمتك.

وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ۖ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

أيان : اسم استفهام، مركب من (أي) و(آن) بمعنى أي وقت.

البعث : الإرسال، والمقصود به في اصطلاح القرآن إحضار الناس للحساب.

منكرة :جاحدة.

لا جرم : لابد، حقا.

بيان المعنى الإجمالي :

أفضت الآيات المعددة للنعم إلى إثبات تفرد الله بـــالخلق، وأنـــه غفـــور رحـــيم. وواصـــل القرآن مفصلا بعض ما يوضح العقيـــدة الحـــق، التـــي منهـــا إثبـــات أن الله هـــو المتفـــرد بعلم الظواهر والخفايا. وعلمه الكامل يتبعـــه حتمـــا أن يكـــون هـــو وحـــده الخـــالق، وأن آلهتهم عاجزة عن خلق أي شـــيء ولوكـــان تافهـــا، بـــل هـــي مخلوقـــة فالحجـــارة التـــي نحتت منها الأصنام مخلوقة لله. وليس لها روح ولا حركة فهـــي ميتـــة لا تعلـــم مـــا هـــو

محيط بها، وكذلك عبدتها لا يشعرون بالوقت الــذي ســيقومون فيــه مــن قبــورهم إلــى البعث.

ثم صرح القرآن بالحقيقــة التــي تميــز المســلمين، هــي اعتقــادهم أن إلههــم واحــد لا شريك له. وأن الكفرة الذين من أخــص صــفاتهم إنكــار البعــث، الــذي يحملهــم علــى مراقبة سلوكهم. قد استحوذ الإنكار والعنــاد علــى قلــوبهم فلــم يبــق فيهــا منفــذ لنــور الهداية، وجرهم ذلك للاستكبار. وحقــا لا شــك فيــه أن الله يعلــم ســرهم كعلمــه بمــا يظهرونه، مما يشير إلى أنه سيحاسبهم ويجازيهم عــن كفــرهم وعــن مــؤامراتهم، وعــن خبيث فِعالهم، جزاء سيلحقهم وهــم محرومــون مــن رحمــة الله لأنــه ســبحانه يمقــت المستكبرين ولا يحبهم.

بيان المعنى العام :

19-والله يعلم ما تسرون وما تعلنون.

امتزج في هذه الآيــة بيــان حقيقــة مفادهــا: أن علــم الله علــم ذاتــي حاصــل بــدون أسباب، على معنى أن علمه بالبواطن الخفية ممــا يُسِــرُّه الإنســان فــي نفســه ويجــري في باطنه ولا يعبر عنه بلسانه ولا بفعله، هو كعلمــه بمــا تصــدر آثــاره عــن صــاحبه بالكلام أو الفعل فتشاهد في الخارج . كما هــو تهديــد للمشــركين أن مــا يكتمونــه هــو كما يعلنونه ســينالون جــزاءه. وبــذلك يكــون كــل مــا أعــدوه مــن مكــر بالمســلمين سيعاقبون عليه وإن لم يتيسر لهم تنفيذه.

20- والذين تدعون...وهم يخلقون.

صرحت الآية بعجز الأصنام التي يعبدونها، ويتقربون إليهــا عــن الخلــق، يســتوي فــي ذلك التافه والعظيم من الكائنات. ثم أكد عجز تلكم الأصــنام بــإبراز الــدليل علــى ذلــك، إنهم مخلوقون من الحجارة التي نحتوا منها. وما كــان مخلوقــا لا يُقبــل عقــلا أن يكــون خالقا، لما في ذلك من قلب الحقائق. ولإذلالهــم لــم يــذكر الفاعــل الــذي خلقهــم، وبقــي معلوما من المقام.

21-22، أموات غير أحياء...وهم مستكبرون.

إن الأصنام جامدة لا تتحرك، فهي ميتة لا روح لها ولا شعور ولا إدراك، وأكدت الآية هذه الحقيقة لشدة غفلة المشركين عنها، فأضافت إلى وصف الموت أنهم غير أحياء.

ثم إن عبدتها لا يعلمون متى يبعثون من قبورهم ليلقَوْا جــزاءهم. وفــي هــذا إشــارة إلــى أن البعث آت لا ريب فيه. وعدم شعورهم بتــاريخ قيــام الســاعة ، وأنهــا تبغــتهم تهديــد لهم بما سيلقونه بعد البعث . فاستوى جهل المشــركين بــين الحاضــر الــذي أثبتــوا فيــه لله شركاء، وبين المستقبل الموعود به فنفــوه. ولا يقــال إن المــؤمنين أيضــا لا يعلمــون متى تقوم الساعة، وذلك للدقة في التعبير الذي تــم عليــه صــياغة الآيــة، قــال تعــالى : **وما يشعرون** فأمر الساعة لم يدخل في شعورهم أصــلا لا فــي حقيقتــه ولا فــي زمنــه،

أما المؤمنون فكما وصــفهم القــرآن: **والــذين آمنــوا مشــفقون منهــا ويعلمــون أنهــا الحق**[1] فهي حاضرة في مشاعرهم يتفكرون فيها فتقوى خشيتهم وتصلح أعمالهم.

22- إلهكم إله واحد...وهم مستكبرون.

صرحت الآية بما مهدت لــه الآيــات الســابقة التــي هــدمت مــا يقــوم عليــه الشــرك. والحقيقة التي تستخلص مما تقدم: أن إلهكم واحد لا شــريك لــه. فــأنتم أصــحاب العقيــدة الحق. وتصوركم يقوم على أساس الوحدانية المعنــى النفــيس الصــادق الــذي ضــل فيــه كثير من الأمم. قال تعالى : **وما يؤمن أكثرهم بــالله إلا وهــم مشــركون**[2] وفــي مقابلــة المؤمنين، الذين شرفهم الله بالخطــاب (إلهكــم)، الكفــرة الــذين ذكــرتهم الآيــة بــأنهم لا يؤمنون بيوم القيامة، تعمّق في قلوبهم الكفر حتــى أصــبحت تنكــر هــذا الــدين، وتمكّــن الجحد لحقائقه فيها فتحول إلى عنــاد ورفــض وعــدم نظــر فــي محتوياتــه، وأصــيبوا بالداء الخبيث النفسي، داء الاعتداد بما عندهم والترفع عن الحق .

23-لا جرم أن الله يعلم ...لا يحب المستكبرين .

وإذ عرّت الآية 22 التركيب النفسي الفاســد للكفــرة، أفــادت هــذه الآيــة أنــه لا جــرم. وهذه الصيغة تفيد التحقق لما يرد بعدها تحققــا لا يدخلــه الشــك. أن الله يعلــم مــا يتبــع كفرهم من الضلالات التــي يســرونها ولا يعلنونهــا، ومــن المنــاكر والأفعــال القبيحــة التي يبدونها ويظهرونها . وفي ذلك وعيد شديد مقــرون بالعــدل، إنــه إذا كــان الله يعلــم ما يبطنونه وما يهيئونه في السر لتوقيف مد الــدعوة الإســلامية، ولا يخفــى عليــه شــيء من المؤامرات التي يعقدونها فــي الخفــاء للمكــر برســول الله صــلى الله عليــه وســلم وبالمؤمنين، كعلمه تعالى بما يسلطونه من تعذيب علــى المــؤمنين لفتنــتهم عــن ديــنهم ، فإن في معنى علمه تعــالى بــذلك أنــه ســيجازيهم علــى فســادهم وظلمهــم واحتقــارهم للإسلام وأهله . وإنه سبحانه مع أنــه الــرحيم الــرحمن لا يــرحمهم، لأنهــم اســتكبروا والله يمقت المستكبرين ولا يحبهم .

وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ
مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن
فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ
شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ

[1] سورة الشورى آية 18

[2] سورة يوسف آية 106

وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡۖ فَأَلۡقَوُاْ ٱلسَّلَمَ
مَا كُنَّا نَعۡمَلُ مِن سُوٓءِۭۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ
جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَلَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

أساطير : جمع أسطورة وهي القصة.

الأوزار : جمع وزر بمعنى الثقل، وقصد به الذنب.

مكر: ألحق الضر بغيره مع خداعه بأنه له ناصح.

القواعد : الأسس والأساطين.

خر : سقط.

المشاقة : الاشتداد في الخصومة.

الخزي : الإهانة .

ألقوا السلم : خضعوا بمذلة مظهرين الاستسلام.

المثوى : موضع الإقامة .

بيان المعنى الإجمالي :

عمل مشركو مكة على صد الناس عن الدخول في دين الله، فكانوا إذا سئلوا عن طبيعة دين الإسلام، أجابوا بأنها أساطير وقصص، ليس فيها شيء من الحكمة ولا السمو .

وما ذا كانت نتيجة إضلالهم للذين طلبوا منهم أن يساعدوهم على إدراك الحقيقة؟ النتيجة: أنهم يأتون يوم القيامة محملين بأثقال الذنوب التي ارتكبوها، وبأثقال ذنوب الذين أوقعوهم في الضلال. وما أسوأ وضعهم وهم يرزحون تحت أثقال الذنوب المضاعفة !

يثبت الله نبيه بأن مكر مشركي مكة بمغالطة من يرغب في الدخول في الإسلام سينتهي بهم إلى ما انتهى إليه الصادون عن الإيمان في الأمم السابقة . سيمحقون محقا لا يجدون منه نجاة. مثلهم كمثل من اتخذ بيتا قوّى أركانه وأقام سقفه على أعمدة صلْبة، وفي لحظة ترتج الأرض وتتناثر الأركان وتتكسر الأعمدة ويهوى السقف فوق الرؤوس، ويسحق من كان يظن أنه محمي بذلكم البناء، دون أن يشعر الجهة التي جاء منها التدمير .

ثم يعرض القرآن ما يلقـاه المشـركون، فيثبـت أن الله يـذلهم، ويـوبخهم علـى رؤوس الأشهاد فيسألهم أين الشركاء الذين تعلقتم بهم تعلقا كبيـرا، فجعلتمـوهم فـي شـق وأنـا في شق ؟ وينطق الذين منحهم الله العلـم فأضـاء فكـرهم وروحهـم فيقولـون إن الذلـة والعاقبة السيئة حقيق بأن تنصبا على الكافرين .

إن النكال المسلط على الذين ظلموا أنفسهم بالشرك يصـحبهم مـن اللحظـة التـي تـأتيهم فيها الملائكة لقبض أرواحهـم . إنهـم يستسـلمون وتتزعـزع ثقـتهم بنفوسـهم فيقولـون كما يقول كل مجرم عند القبض عليـه : لـم أفعـل سـوءا .ويبطـل الملائكـة كلامهـم بإثبات جريمة شركهم بالله، والله سـبحانه لا يخفـى عليـه شـيء ولا يُضـيع مـا سـجل عليكم من سوء أعمالكم .ويقال له يوم القيامة : ادخلوا أبـواب جهـنم ذلـك مـآلكم فـأنتم مخلدون فيها، فيتضاعف عذابهم باليـأس مـن توقـع رفـع العـذاب عـنهم. ومـا أسـوأ عاقبة المتكبرين الذين قادهم كبرهم إلى سوء المصير.

بيان المعنى العام :

24- وإذا قيل لهم ....قالوا أساطير الأولين .

لا شك أن الـوحي المنـزل علـى رسـول الله ﷺ، قـد حـرك العـرب، وكـان حـديثَ مجالسهم. روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قـال: لمـا بلـغ أبـا ذر مبعـثُ النبي ﷺ قال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي فاعلم لـي علـم هـذا الرجـل الـذي يـزعم أنه نبي يأتيه الخبر من السماء، واسمع من قوله ثـم ائتنـي . فـانطلق الأخ فلقيـه وسـمع من قوله، ثم رجع فقلت ما عندك؟ فقال: والله رأيـت رجـلا يـأمر بـالخير وينهـى عـن الشر. فقلت له: لمْ تشفني من الخبر، قال : فأخذت جرابـا وعصـا ثـم أقبلـت إلـى مكـة فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه وأشرب مـن مـاء زمـزم وأكـون فـي المسـجد قال فمر بي عَليٌّ فقال : كأن الرجـل غريـب .قـال قلـت : نعـم، قـال فـانطلق إلـى المنزل، قال فانطلقت معه لا يسـألني عـن شـيء، ولا أخبـره، فلمـا أصـبحت غـدوت إلى المسجد لأسأل عنه، وليس أحد يخبرني عنه بشيء فمر بـي علـي فقـال : أمـا نـال الرجل أن يعلم منزله بعد؟ قال: قلت : لا قـال انطلـق معـي، فقـال مـا أمـرك ومـا أقدمك هذه البلدة ؟ قال: قلت له: إن كتمت عليَّ أخبـرك. قـال فـإني أفعـل. قـال: قلـت له: بلغنا أنه خرج هاهنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخـي ليكلمـه فرجـع ولـم يشـفني من الخبر فأردت أن ألقاه. فقال له : أما إنك قـد رشـدت، هـذا وجهـي إليـه فـاتبعني، ادخل حيث أدخل. فإن رأيت أحدا أخافه عليك قمـت إلـى الحـائط كـأني أصـلح نعلـي، وامض أنت. فمضى ومضيت معه حتى دخل عليـه ودخلـت معـه علـى النبـي صـلى

الله عليه وسلم، فقلت له اعرض علـــيَّ الإســـلام، فعرضـــه، فأســـلمت مكـــاني. فقـــال لـــه النبي صلى الله عليه وسلم: ارجع إلى بلدك، فإذا بلغـــك ظهورنـــا فأقبـــل. فقلـــت: والـــذي بعثك بالحق لأصرخن بها بين أظهرهم. فخرج حتى أتـــى المســـجد وقـــريش فيـــه، فقـــال: يا معشر قريش: بأعلى صـــوته إنـــي أشـــهد أن لا إلـــه إلا الله وأشـــهد أن محمـــدا عبـــده ورسوله. فقالوا: قوموا إلى هذا الصـــابئ، فضُـــربت لأمـــوت، فـــأدركني العبـــاس وأكـــب علي ثم أقبل عليهم فقال ويلكم: تقتلـــون رجـــلا مـــن غفـــار. ومتجـــركم وممـــركم علـــى غفار ! فأقلعوا عني. فلما أصبحت الغد رجعـــت فقلـــت مثـــل مـــا قلـــت بـــالأمس فقـــالوا قوموا إلى هذا الصابئ، فَصُنع مثل ما صُـــنِع بـــالأمس، وأدركنـــي العبـــاس فأكـــب علـــي وقال مثل مقالته بالأمس.[1]

بمقدار ما كان النبي صلى الله عليه ثابتا على دعوة النـــاس لـــدين الله، بمقـــدار مـــا كانـــت قريش تصد الناس عنه. فكانوا يتعرضـــون للـــواردين إلـــى مكـــة ليقـــذفوا فـــي أفكـــارهم الأباطيل. من ذلك أنهم يضللون من يسألهم عـــن الـــوحي الـــذي جـــاء بـــه رســـول الله ﷺ فيزعمون: أن ما جاء به إن هو إلا مجموعـــة مـــن القصـــص وأخبـــار الأمـــم الماضـــية. على أن المنزل من عند الله لا يكون أخبارا وقصصا.

25-ليحملوا أوزارهم ...ألا ساء ما يزرون.

فما كان مآل ما يروجونه من افتراءات وتضليل ؟ مـــآلهم أنهـــم أضـــافوا إلـــى مـــا هـــو مسجل عليهم من جميع الآثام بسبب كفرهم، وما اســـتحقوه عليهـــا مـــن العـــذاب، أضـــافوا إلى ذلك أن آثام الذين أغووهم وضللوهم فـــانحرفوا عـــن الصـــراط المســـتقيم، ســـيحملون مثل آثامهم دون أن ينقص من آثامهم شيء. وعلى هـــذا النحـــو مـــن الخســـران يقـــدمون يوم القيامة تحت ثقل الآثـــام. نعـــم كـــان إضـــلالهم للـــذين استرشـــدوهم وطلبـــوا مـــنهم الهداية ناشئا عن جهلهم وبعدهم عن المعرفة الصحيحة.

وإذ قد جسمت الآية وضعية المشركين المضـــلِلين، بـــأنهم يرزحـــون يـــوم القيامـــة تحـــت أثقال آثامهم، وآثام الـــذين ضـــللوهم، كـــان موقـــع التعليـــق، علـــى وضـــعهم ذاك، بأنـــه وضع سيء، كان موقعًا رشيقا .

26-قد مكر الذين من قبلهم ...من حيث لا يشعرون.

تذكير بسنة الله التي يستأصل بها الـــذين يصـــدون النـــاس عـــن الإيمـــان لابســـين ثـــوب النصيحة ليغرُّوا من يسألهم. مضـــى فريـــق مـــن المـــدعوين إلـــى الإيمـــان علـــى أيـــدي

---

[1] فتح الباري ج9 ص362/360

الرسل السابقين، على طريقة الخداع لمن يسألهم عــن مضــمون مــا جــاء بــه الرســول، فيظهرون لهم أن ما جاء به ليس له حقيقة، وأنهــم يخشــون علــيهم مــن أن يقعــوا فــي الضلال. لقد كانت سنة الله معهم أنه استأصلهم استئصــالا لــم يســتطيعوا التحصــن منــه. جسم القرآن العذاب الساحق الذي يفنيهم، فصــوره فــي صــورة مــن اتخــذ بيتــا قــوّى بنيانه بقواعد ضاربة في عمق الأرض، وأقام أعمــدة ثابتــة رفــع عليهــا الســقف، وفــي لحظة ينفذ القضاء فتهتز القواعــد وتتهــاوى الأعمــدة ويســقط الســقف فــوق رؤوســهم فيسحقهم، ويتسلط عليهم العذاب المقدور من جهــةٍ، مــا كــانوا يتوقعــون أنهــم يعــذبون من قبلها. فهو عذاب باغت يزلزل المعذَّب ويكــون أشــد ايلامــا لــه . ذلــك أن العــذاب إذا كان تدريجيا فإن الــنفس تتعــود عليــه وتتهيــأ لمــا ينتهــي إليــه بخــلاف العــذاب الباغت.

وتحقق الآية أمرين:

أولهما : تثبيت للنبي ﷺ وتوهين مكر مشركي مكة، على أن مآلهم الهلاك والخسران .

وثانيهما: تهديد للمشركين أنه سيحيق بهم العذاب، وسيلقون ما لاقاه أمثالهم في الأمم السابقة.

27-ثم يوم القيامة يخزيهم...والسوء على الكافرين.

إنه مع العذاب الناجز المقدر لهم، سيمقتهم الله يوم القيامــة ويهيــنهم، ولــم تفصــل الآيــة نوع الخزي الذي سيحل بهم، إذ هو شأن من شؤون الآخــرة أشــد نكــالا وأعظــم إهانــة من كل ما هو معروف في الدنيا .

وينضاف إلى خزيهم فضحهم على رؤوس الأشــهاد، أنهــم يســألون ســؤال تــوبيخ أيــن الشركاء الذين كنتم تعبدونهم، و تجعلــونهم مســاوين لــي .تصــورونهم علــى أنهــم فــي شق أهْلٌ أن يعبد، وأنا في شق آخر مهمل .

إنه سؤال يفزع منه كل متبصر وكل مؤمن، ويرتفــع مــن حنــاجر أهــل العلــم صــوت صادق فيعلنون : أن المسؤولين قد أهلكوا أنفسهم، وأنهــم مؤهلــون لينــزل بهــم العــذاب ويكونوا في أسوأ الأحوال . الكلام في قوة أنهم يتبــرأون ممــا ســمعوا ويثبتــون أنهــم لا صلة بينهم وبين هؤلاء الكفرة المسؤولين. وأنهم حقيقــون بمــا ســينفذ فــيهم مــن الــذل والمهانة، وأنه هو العدل .

28-29: الذين تتوفاهم ...مثوى المتكبرين.

واصل القرآن بيــان خــزي الكــافرين، ببيــان أن عــذابهم يبــدأ يــوم تنــزع الملائكــة أرواحهم. الذي فهمته من الآيــة أن رحلــة العــذاب تنطلــق مــن اللحظــة التــي تقــبض الملائكة أرواحهم في الدنيا، ثم تتواصل إلى أن يدخلوا فــي مســتقرهم الــذي تقــرر لهــم

(جهنم). وقد أكد القرآن في أكثر من مناسـبة أن الكفـرة الأشـقياء، يكـون وقـت النـزع هو أول مراحل العـذاب قـال تعـالى **(ولـو تـرى إذ يتـوفى الـذين كفـروا الملائكـة يضـربون وجـوهم وأدبـارهم وذوقـوا عـذاب الحريـق)**[1] – **(فكيـف إذا تـوفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم)**[2] – ويكـون شـأنهم كشـأن المجـرم وقـت إلقـاء القبض عليه، يُسْرِع بالتبرؤ من فساده ويظهر نفسـه بمظهـر المستسـلم الـذي لـم يـأت منكرا .

نَسْجُ الآية : أن الذين ظلمـوا أنفسـهم بالشـرك بـالله، والشـرك أعظـم أنـواع الظلـم، تقبض الملائكة أرواحهـم قبضـا مقترنـا بالشـدة والعـذاب، فيستسـلمون فـي ذل، ثـم يعبرون في استكانة بأنهم عباد صالحون ما عملـوا سـوءا فـي حيـاتهم . ويلقـون الـرد السريع الذي يبطل دعواهم، بقول الملائكة: بلـى، الدالـة علـى إبطـال كلامهـم ونـزع الصدق عن مضمونه. أي إنكم عملتم السـوء. واليـوم لا يفيـدكم الإنكـار، لأن الله علـيم بكل ما صدر منكم . سجله علـيكم ولا يعـزب عـن علـم الله صـغيرة ولا كبيـرة مـن أعمالكم. أي إننا موكلون حسبما أعلمنـا الله بمـا كنـتم تعملـون، نعـاملكم علـى نفس النسق الذي عاملنا به الذين تقدموكم من المشـركين .ويقـال لهـم يـوم القيامـة : ادخلـوا أبواب جهنم، فينساق كل واحد إلى الباب الذي قـدر لـه الـدخول منـه، ويلقـى العـذاب الذي كتب له، ويحل في قلبـه اليـأس مـن تحولـه عـن وضـعه، إذ يصـحب دخولـه لمستقره إعلامه أنه خالد في منزلته المشؤومة خلودا أبديا سرمديا .

وإذلالا لكل داخل لجهنم يسمعهم رب العزة: ما أسوأ مقام المتكبرين. وقد ربط جزاء الكافرين بما كانوا عليه في الدنيا من استيلاء الكبر عليهم. وفي ذلك إشارة إلى مساواتهم لإبليس الذي عصى ربه ولم يسجد بسبب تكبره، فلحقته اللعنة إلى يوم الدين.

وفي تتبع أحوال المشركين هذا التتبع وربطه بـالتكبر، مـا يحـرك كـل مـؤمن ومؤمنـة ليكون يقظا حذرا من داء الكبر الـذي يعمـي البصـيرة، ويشـجع علـى الشـر، ويقطـع أواصر المجتمع فيتخلخل البناء الاجتماعي.

۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡۚ قَالُواْ خَيۡرٗاۗ لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۚ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞۚ وَلَنِعۡمَ دَارُ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٣٠﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا تَجۡرِي مِن

[1] سورة الأنفال آية 51
[2] سورة محمد آية 27

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْزِى ٱللَّهُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ
ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٢﴾ هَلْ
يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا
ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟
وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

طيبين: جمع طيب وأصله حسن الرائحة، ويستعمل للدلالة على الحسن والكمال.

ينظرون : ينتظرون.

حاق : نزل وأحاط.

بيان المعنى الإجمالي :

قطع القرآن بسط ما يتعلق بالمشركين وعجل ببشارة المؤمنين المتقين، هؤلاء الذين استقر القرآن في نفوسهم ورضوا به رضا جعلهم يجيبون من يسألهم عما بلغه رسول الله ﷺ منزّلا من ربه، يجيبون بأنه الخير الكامل في كل ناحية من نواحي الحياة الدنيا والحياة الآخرة .ويقر القرآن أن جزاء المحسنين من جنس ما قدموا حسنة في الدنيا، وحسنة في الدار الآخرة هي أفضل مما يلقونه من جزاء في الدنيا .ويقال فيها: نعم الدار دار المتقين. هي جنات، ظاهرةُ الخصبِ واضحة فيها، تتخللها الأنهار الجارية. من كرامتهم على ربهم أنهم كلما هموا بكسب شيء وجدوه حاضرا. وعلى هذا النسق يجزي الله المتقين.

تبدأ كرامتهم عند النزع بتطهيرهم من جميع الأدناس والآثام. تتقدم الملائكة إليهم بالسلام المثبت للطمأنينة . ثم يؤذن لهم يوم القيامة بدخول الجنة، ومبالغة في إكرامهم يعلن أن ما نالوه هو جزاء صالح أعمالهم في الدنيا .

عود إلى تهديد الكفرة . إنهم لا يترقبون إلا أحد أمرين: إما قبض أرواحهم من ملائكة العذاب، أو أن يأتيهم عذاب يستأصلهم. وهي سنة الله مع المكذبين من الأمم السابقة الذين فعلوا مثل فعل مشركي مكة . حقت عليهم كلمة العذاب . وكان ذلك جزاء عادلا. لم يظلمهم الله، لأنه بعث لهم الرسل وأقام لهم الدلائل على طريق الهدى، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالعناد والإشراك بالله. فجازاهم الله في الدنيا بسيئات أعمالهم، وأطبق عليهم عاقبة استهزائهم بآيات الله وبرسله .

بيان المعنى العام :

31/30-وقيل للذين اتقوا....يجزي الله المتقين.

لما بسط القرآن القول في بيان وضع المشركين ومـآلهم، عجـل بالحـديث عـن القسـم المقابل الذين آمنوا برسول الله ﷺ وبما جاء به، ثـم طبقـوا وعاشـوا هـذا الـدين فعبـر عنهم بالمتقين . فوضعَهم أولا فـي إطـار عـام، هـو إطـار الرضـا والاقتنـاع بـأن وضْعهم بهذا الدين هو أحسن وضع، وفعل القرآن فـي حيـاتهم وفـي مشـاعرهم أفضـل فعل وأتمه وأحسنه. وإذا كـان الكـافرون عنـدما يسـألون عـن القـرآن يجيبـون بأنـه أساطير، فإن المؤمنين عندما يسألون عـن القـرآن وعمـا جـاء بـه النبـي ﷺ يجيبـون الجواب العام الذي يجعل السائل كلمـا فكـر فـي جانـب مـن الجوانـب يجـد صـياغة الجواب توضحه. فقـولهم: (خيـرا) كلمـة جامعـة لكـل مرتبـة مـن مراتـب الكمـال والفضل والحسن، في الحياة الدنيا وفي الحياة الآخرة.

ويعقب القرآن على رضاهم وعلى إجابتهم بعرض قاعدة عامة فيما يلقونه، تتناسب مع ما انطوت عليه ضمائرهم وما جرى عليه عملهم: إن للذين أحسنوا في هذه الدنيا عقيدة وعملا، يلقون جزاء من جنس عملهم. هو الحسنة في الدنيا والآخرة. يوضح هذا ما أخرجه مسلم وأحمد واللفظ له : عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله لا يظلم المؤمن حسنة، يثاب عليها الرزق في الدنيا، ويجزى به في الآخرة، وأما الكافر فيعطى بحسناته في الدنيا ، فإذا لقي الله عز وجل يوم القيامة لم تكن له حسنة يعطى بها خيرا)[1] -ويدقق القرآن بالتنبيه على أن جزاءهم في الآخرة هو أفضل وأكمل وأحسن، ويعبر بدار الآخرة خلافا لتعبيره عن مآل المشركين بأنه مثوى . وذلك لما بين المنزلين من اختلاف، فمقام المنعمين في الجنة مقام راحة واستقرار وأمن كما هو ظلال كلمة الدار في الاستعمال. بينما الكفار يُلْقَوْن في جهنم باعتبارها قرارا لهم لا يجدون فيها راحة ولا سعة فعبر عنها بكلمة مثوى. تختم الآية بإنشاء التفضيل المثير للتعجب من الخير الذي هم فيه، ولنعم دار المتقين .

هذه الدار هي جنات عدن وإقامة مهيـأة لهـم يـدخلونها دخـول الكرامـة ولا يبرحونهـا. جمعت أنواع التكريم، يعم الخصـب جنباتهـا، وتتخللهـا الأنهـار الجاريـة . ولا يـنقص من نعيمهم الحرمان من أي شيء، فكلما تاقـت نفوسـهم لشـيء ورغبـوا فيـه وجـدوه حاضرا. إنه على هذا النحو من الجزاء يكون جزاء المتقين.

[1] ج 3 ص125

32-الذين تتوفاهم ...بما كنتم تعملون.

وتختم هذه الآية بالتقابل بـين الوضـعين، وضــع الكــافرين: الــذين تتوفــاهم الملائكــة ظالمي أنفسهم، ووضع المــؤمنين المتقــين الــذين تتوفــاهم الملائكــة طيبــين. وصــفتهم الآية بالطيبين، وإذا كان أصل كلمة الطيب تسـتعمل فــي الرائحــة الحســنة التــي تميــل إليها النفس فإنه قد توسع فيها فأصبحت تــدل علــى الوضــع الأكمــل المرغــوب فيــه، مما يعني أن الله يكرمهم فينقــيهم مــن جميــع النقــائص ويكونــون علــى أكمــل حالــة إنسانية، ثم يرفعون عنهم الانزعــاج مــن المــوت فيحيــونهم بالســلام، فيفــارقون الــدنيا وهم في أمن . ثم يوم القيامة يكرمــون بتوجــه الخطــاب بــالإذن فــي دخــول الجنــة . ومن بالغ الفضل وعظيم التكريم أن يخــاطبوا بــأن الجنــة التــي تــدخلونها هــي جــزاء أعمالكم. واعتبرنا هذا تكريما مضاعفا، لان الجنــة هــي بفضــل الله وتتقاصــر الأعمــال عن الفوز بها، والمنة الكبرى من ربهم خطــابهم بتقــدير أعمــالهم تقــديرا جعــل الجنــة جزاء لهم بها . والله ذو الفضل العظيم .

34/33-هل ينظرون ...ما كانوا به يستهزئون.

بعد أن طمأن القرآن المتقين وعرض ما سيلقونه من حسن الجزاء في الدنيا والآخرة، توجه إلى المشركين ليشنع بهم، يفضح دخائلهم . فقال تعالى : إنهم لا ينتظرون ولا يترقبون إلا أحد أمرين : ما سبق أن قرره القرآن من نزع الملائكة أرواحهم أول مراحل العذاب والنكال، أو أن ينزل بهم ما قدره الله لهم من الاستئصال على ما تقدم قريبا من التهديد في قوله تعالى : **فأتى الله بنيانهم من القواعد فخر عليهم السقف من فوقهم وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون.**[1] – وحقق القرآن ذلك بأن هذه سنة الله مع الكفرة الذين مضوا من الأمم السابقة. وذكر القرآن بأن ما نالهم هو جزاء عدل لكفرهم وثباتهم على الضلال، فتسليط العذاب عليهم كتسليطه على الذين من قبلهم لا ظلم فيه، ولكن السابقين والحاضرين هم الذين ظلموا أنفسهم باختيارهم طريق الضلالة والكفر بآيات الله، وصدودهم عن التدبر في الآيات التي جاءتهم من عنده . وبعد تنبيههم من قبل رسل الله على ما ينتظرهم من سوء المصير . إنهم صمموا على رفــض الهــدى، ومضــوا فــي الحيــاة مُتَحَــدِّين للأوامــر والنــواهي الإلهية، فأصابهم جزاء سيئات أعمالهم، وأحــاط بهــم العقــاب إحاطــة لا يجــدون منــه مفرا، بسبب إقامتهم على مقابلة جدّ الرسالة بالاستهزاء .

---

[1] آية 26

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا
حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا
ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ
ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ
فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَىٰهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا
يَهْدِي مَن يُضِلُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

البلاغ المبين : الإبلاغ الواضح الموضح.

الطاغوت : ما عبد من دون الله من إنسان راض بذلك أو حيوان أو جماد.

الحرص : الإرادة القوية في الشيء

بيان المعنى الإجمالي :

يسجل القرآن فساد تفكير المشركين ومحدودية فهمهم، فقد تخيلوا أنهم أتوا بحجة قاطعة تبرر ما هم عليه .قالوا: إن الله يعلم ما نعتقده وما نفعله وما نُحِلُّه وما نحرمه نحن وآباؤنا، فلوكان غير راض به لمنعنا منه، وهو القدير على كل شيء كما يقوله محمد. رد عليهم القرآن بأن هذه مقالة ليست جديدة، بل قالها من كان قبلهم، وسلط الله عليهم العذاب الذي استأصلهم فلو كان ما اعترضوا به صالحا لما نال المشركين من الأمم قبلهم العذاب. ثم إن طبيعة الرسالة : أن المرسلين يبلغون ما أنزل عليهم من ربهم ويوضحونه للناس ولا يجبرون أحدا على اتباعهم .

ثم فصل القرآن: وما على الرسل إلا البلاغ المبين: أنه تعالى بعث في كل أمة رسولا يبلغهم ويبين لهم، وأول همه عبادة الله وحده والبعد كل البعد عن عبادة البشر والحيوانات والأشياء. وأن من البشر من اهتدى فكانت هدايته من الله بفضل بيان الرسل وإعمال العقل حسب القوانين المنتجة. وأن منهم من اتبع هواه وأقام على ما كان يعتقده ويسير عليه، فأعرض عن هداية المرسلين وثبت على غوايته . ثم فتح بصائر المخاطبين بأمره لهم أن يسيروا في الأرض ليشاهدوا عاقبة الذين أعرضوا عن هداية الله كيف حل عليهم من العذاب ما استأصلهم. ثم يخاطب الله نبيه أنه وإن كان حريصا أشد الحرص على هداية قومه فإن الله قدر أن لا يكون الناس مؤمنين جميعا، ومن قدر له الضلالة لا يؤمن. ومعنى ذلك أن من علم الله

منه أنه لا يعمل عقله ويـرفض مقـدما النظـر فـي الـوحي وصـمم علـى التقليـد، لا يستطيع النبي صلى الله عليه وسلم أن يهديه. وأن هذه الفئة لا تجد نصيرا ينصرها.

بيان المعنى العام :

35-وقال الذين كفروا لو شاء الله ...إلا البلاغ المبين .

سجل القرآن مجادلة الكفرة لرسول الله ﷺ، لما قدموا هـذا الاحتجـاج الـذي ظنـوا أنهـم سيفحمونه به. عرض القرآن حجة المشركين أنهم قـالوا: إذا كـان الله، حسـب مـا يثبتـه القرآن وشريعة الإسلام، قادرا على تنفيذ إرادتـه، ومطلعـا علـى كـل مـا يجـري فـي الكون، فإنه لو كنا نحن وآباؤنا علـى ضـلال فـي عبادتنـا الأصـنام، وهـو لا يشـاء عبادتنا لها، لحال بيننا وبين ذلك. كمـا أنـه لـو شـاء أن لا نحـرم مـا حرمنـاه مـن البحيرة والسائبة والوصيلة والحامي على ما بينه القـرآن – **لمنعنـا بقدرتـه مـن تحـريم ما حرمناه** [1].

وهذه الشبهة من أقوى الشبه المضللة التي يدخلها الشـيطان فـي عقـول الكفـرة وكـذلك المتخاذلين عن تطبيق شرع الله، وإن كـانوا يـدعون أنهـم مسـلمون. يجيبـك أحـدهم إذا دعوته ليقوم بما أوجب الله عليه من صلاة وزكاة، أنـه لوشـاء الله أن أفعـل مـا أمرنـي به لهداني . وقد رد عليهم القرآن بوجهين :

الوجه الأول : أن الله سلط عقابه على الذين كانوا مـن قـبلهم بمـا استأصـلهم وأبـادهم، وبقيت ديارهم خرابا .فلو كان الله يرضى بكفرهم أو بتهـاونهم لمـا سـلط عقوبتـه علـى أمثالهم. وأن المتخاذلين من المؤمنين بـأمور العبـادة المفروضـة يقـرأون القـرآن وهـو يهدد المرتكبين للآثام، فهم بين رفض مـا أكـده القـرآن فيكفـرون، وبـين الإقـرار بـه فتسقط حجتهم وتتهاوى تعِلّاتهم .

الوجه الثاني : أنهم أسقطوا الأساس الذي بنى الله عليه أمر هذا الكون لمّا استخلف الإنسان فيه، ومكنه من فعل الخير أو الشر ليكون مسؤولا عن أعماله . نعم لو أراد الله أن يخلق الإنسان مفطورا على فعل الخير فقط لتحقق ذلك، ولكن لا يكون إنسانا بل يكون شيئا آخر. إن الحرية من أعز ما فُضّل به الإنسان. والحرية والمسؤولية صنوان يسيران معا. وشرف الإنسان يكمن في حريته. ولذا كان سلب الحرية والتسلط بالقهر لإخضاع البشر بالتعسف مما فطر البشر على مقاومته، ويقبلون التضحية بأرواحهم في سبيلها. فالحياة بدون حرية ذل ينزل بالإنسان إلى درك الحيوان غير العاقل أو الشيء الفاقد للروح.

[1] سورة المائدة آية – 103

وتأكيدا لهذا المفهوم ختمت الآية بقوله تعـالى: **فهـل علــى الرسـل إلا الـبلاغ المبـين.** تقول الآية: إن مهمة رسل الله محصـورة فـي نطـاق لا تتعـداه، هـو إبـلاغ البشـرية هداية الله التي يوحي بها لرسله رب العالمين، الـذين يقومـون مـع إبلاغهـا بتوضـيحها توضيحا يقنع الباحثين عن الحقيقة غيـر المعانـدين. ولا تتجـاوز مهمـتهم إلـى إجبـار الناس على قبول ما كلفوا ببيانه. والمرسلون من عهـد نـوح عليـه السـلام إلـى محمـد ﷺ ملتزمون بهذه المنهج.

36- ولقد بعثنا في كل أمة رسولا...فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين.

تفصل هذه الآية قوله تعالى في الآية السـابقة: فهـل علـى الرسـل إلا الـبلاغ المبـين. فتحقق بأبلغ تأكيد أنه قد تعاقب لطف الله بخلقـه فـي تـاريخ البشـرية . بعـث سـبحانه في كل أمة رسولا، همُّـه الأول: إفـراد الله بالعبـادة وطـرح الشـرك وعبـادة الأصـنام وكل ما يقدمه الخيال الفاسد على أنه ذو سـلطة يسـتحق بهـا أن يعبـد ويطـاع. ثـم إن الناس انقسموا بعد أن وصلتهم الهداية.

قسم هداهم الله، فأقبلوا على ما جاءهم من ربهم إقبال التأمل، وأعملوا عقولهم ومداركهم في مضمون الرسالة فتبين لهم أن النفع والخير في تنفيذ ما أمروا به، وأنه يجلب لهم الصلاح وتستقيم به أمورهم . وفي المقابل يتحقق الفساد واضطراب الأحوال فيما نهوا عنه، فاستجابوا لرسالة المرسلين. فالله هو الذي أعطاهم عقولهم التي نظروا بها، وهو الذي بعث الرسل ليبينوا طريق الرشاد وليكشفوا لهم ما يغطيه الهوى من الفساد. فكانت الهداية الحاصلة بفضل ما آتاهم الله ؛ فنسبت الهداية إليه .

وقسم صمموا على رفـض مـا جـاءهم مـن الهـدى، وحكمـوا فـي عقـولهم هـواهم، فعطلوا ما مكنهم الله من آلات تبين لهـم السـبيل الموفـق للنجـاة، وسـاروا معرضـين عن معالم الطريق، ورجحـوا مـا ورثـوه مـن ضـلالات . ولا تكـون النتيجـة بهـذا الاختيار إلا الثبات على الضلالة، وهو معنى: ومنهم مـن حقـت عليـه الضـلالة . فهـي من كسبهم ومن نتاجهم الخاص .

ولما كان القرآن يرمي إلى إصلاح البشـر وهـدايتهم ختمـت الآيـة بمـا يـوقظهم مـن غفلاتهم، فطلب منهم أن يسـيروا فـي أرض الله ليشـاهدوا بـأعينهم عاقبـة المكـذبين الذي استأصلهم العذاب بسبب كفرهم .

37-إن تحرص على هداهم ...وما لهم من ناصرين .

هذه الآية تنادي بما جمع الله في رسـوله مـن سـامي الأخـلاق. إن قومـه رغـم شـدة مقاومتهم له، ومجاهرتهم له بالعداء، هو حـريص أشـد الحـرص علـى هـدايتهم يتـألم

من استمرارهم على عبادة الأصنام، لا ينِي من معاودة تذكيرهم وتقديم النصح لهم، لا يصده عن مواصلة مهمته أي عائق، هو نافذ العزيمة صابر على المضي. فيقول الله له مسليا : إن شدة حرصك على إيمانهم لا يبلغك أن تُسَرَّ بإيمانهم .ذلك أن من سبق في علم الله أنه ثابت على ضلاله، لأنه أصم أذنيه وصرف ملكاته عن النظر، ورضي بالتقليد الأعمى، لا تستطيع أن تهديه. وهذه الطائفة من المصممين على الكفر وعبادة الأوثان لا يجدون نصيرا يوم القيامة. وقراءة الجمهور: لا يُهدى من يضل بضم ياء المضارعة. فحذف الفاعل وبني الفعل لنائب الفاعل، وذلك لتقدير الفاعل عاما يتناول كل من يحاول هداية هؤلاء الذين اختاروا الضلالة على الهدى، أي لا يجد أي هاد طريقة يهديه بها.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

جهد أيمانهم : أغلظ الأيمان وأوثقها.

يبعثون : يحضرون لمحاسبتهم عما قدموا.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم المشركون قسما مغلظا: أنه يستحيل أن يُبْعَثَ الموتى بعد أن تتحلل أجسامهم، وتتناثر أجزاؤهم في الكون. وكذبهم القرآن فأثبت أن البعث حقيقة لا شك فيها. وأنه وعد صادق التزم الله به، ووعده لا يخلف. وكل ما في الأمر أن المشركين وهم أكثر الناس وقت نزول الآية جهلة لا يعلمون الحقائق.

وسيكون يوم القيامة مبينا للناس وجه الحق ووجه الباطل فيما كان يحدث من خلاف حولهما في الدنيا، ليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين في نفيهم لإحياء الموتى وليوم الجزاء .

استبعد الكافرون البعث لتصورهم أن الأجسام إذا تحللت وانتشرت أجزاؤها في الكون يستحيل أن تعود إليها الحياة. فأعلن القرآن عن حقيقة تشمل البعث وغيره، هي أن إرادة الله تنفذ محدِثَةً ما سبق أن تقرر في علم الله . ويتم الإحداث بصفة لا يكون للمُحْدَثِ أي ممانعة بمجرد ما تتعلق الإرادة بالإحداث يتم في الحال، كالقول للشيء كنْ، فيكون موجودا حالا .

بيان المعنى العام :

38- وأقسموا بالله جهد أيمانهم ...لا يعلمون.

لا يترك المصممون على الكفر أي وسيلة لـرفض الـدعوة إلا استعملوها، فزيـادة علـى التكذيب الصريح، والاستهزاء، والاختلاق، هـم فـي هـذه الآيـة يحـاولون الإقنـاع بالحلف بالأيمان المغلظة، ويقسمون باسم الله، الذي جعلـوا لـه شـركاء، ولكـن تخيـروا الحلف به، لما يعلمون من تصديق مخاطبيهم بمـا يقسـم عليـه باسمه العظـيم. كـان مضمون قسمهم أن الله لا يحيي مـن يمـوت وتخـرج منـه الـروح ليحاسـب، استبعادا منهم لعودة الحياة بعـد المـوت، وقـد تحللـت الأجسـاد. كمـا سـجل علـيهم القـرآن: (**يقولون أئنا لمردودون في الحافرة أءذا كنـا عظامـا نخـرة**)[1] . وكـان الـرد علـيهم بكلمة (بلى) التي تفيد نقض ما صرحوا به، أي يبعـث الله مـن يمـوت .ثـم أكـد أمـر البعث بأن الله وعد بذلك وعدا حقـا صـادقا، كأنـه أمـر التـزم بـه، ووعـده سـبحانه يستحيل أن يتخلف .

ومع التحقق الكامل ونفي كل شك: أن بعث الله المـوتى سيحصـل لامحالـة فـي الوقـت الذي قدره سبحانه في سابق علمه. ولكـن أكثـر النـاس، وهـم المشـركون فـي وقـت نزول الآية لا يعلمون هذه الحقيقة وينكرونها، والإنكار لا ينفي الواقع.

39- ليبين لهم الذي يختلفون فيه...كانوا كاذبين .

من حكمة الله في خلق الإنسان أن جعله قابلا للمعرفـة، ومكنـه مـن الطـرق التـي يبلـغ بها الوصول إلى معرفة الحـق، بحواسـه، وبعقلـه، وبـالوحي المنـزل. إنـه إذا اعتمـد هذه الطرق وجرى على قوانين المعرفة التي نظـم بهـا الله أمرهـا، فإنـه سيصـل إلـى الحق. ولكن بعض الناس يسـلكون السـبيل الموصـل، وبعضـهم يسـلك السـبيل الـذي يبعد به عن إدراك الحق، بإهمالـه بعـض الطـرق، أو بإجرائهـا علـى غيـر القـوانين الصحيحة. وبناء على ذلك كان الاختلاف بـين مـن أدرك الحقيقـة وعمـل بهـا، وبـين من أدركها ولم يعمل بمقتضاها، وبين من ضل فغابـت عنـه. والغايـة التـي مـن أجلهـا أوجد خالق الكون النظام الموصـل لـم تتحقـق فـي الـدنيا؛ فكـان يـوم القيامـة يـوم الانكشاف والتمييز بين الحـق والباطـل فـي المـدارك، وفـي الـدعاوى فـي الحقـوق المادية، وارتفاع الحجب التي كانت تغطي الحق في الدنيا.

---

[1] سورة النازعات آية 11

ومن ذلك أن الذين كفروا بـــالله وكـــذبوا بـــاليوم الآخـــر والحســـاب، ســـيواجهون بالبعـــث واقعا يكذب دعاويهم في الدنيا : أنه ليس بعد الحياة الدنيا حياة أخرى .

40-إنما قولنا لشيء ...كن فيكون.

هذه الآية توضح أن تصور المكذبين بالبعث تصور ساذج، وأنهـــم علـــى حـــظ كبيـــر مـــن الجهل. لقد استبعدوا أن تعود الحياة إلى الأجساد بعـــد تحللهـــا وتفـــرق أجزائهـــا. توهمـــوا أن الإيجاد لا يتم إلا بالتغلب على امتناع موضـــوع الخلـــق، فـــإن التـــأثير حســـب قـــانون الكون يتم بعد تغلب المؤثر علـــى عصـــي مقاومـــة الموضـــوع القابـــل للتـــأثير. فالحـــداد مثلا إذا أراد أن يكـــون شـــكلا، لا يحقـــق إرادتـــه إلا بالتغلـــب علـــى الحديـــد بإحمائـــه وطرقه، أو إدخاله تحت ضغط الآلات التي تعطيه الصـــورة التـــي يريـــدها الصـــانع. ثـــم لا بد قبل هذا أن تكون مادة الحديد موجـــودة وقابلـــة حســـب خصائصـــها للصـــورة التـــي يريد أن تكون عليها. ومرجـــع ذلـــك هـــو عجـــز الإنســـان أن يحقـــق إرادتـــه إلا باتبـــاع القوانين التي بني عليها الكون. فكانت هذه الآيـــة كاشـــفة عـــن اخـــتلاف الحـــادث عـــن الخلاق القديم القادر التـــي لا تحـــد قدرتـــه ولا يعترضـــها شـــيء .والســـماوات والأرض وما فيها خاضعة تستجيب للإرادة الإلهية بطبعها .إنـــه إذا كانـــت بطبعهـــا عصـــية عـــن المؤثر الحادث، فهي بطبعها طائعة للمؤثر القديم .

عبر عن هذا المعنى القرآن الكريم بتحميل اللغة في وُسْـعِ قـــدراتها مـــن ناحيـــة، والعقـــل البشري من ناحية أخرى . إنمـــا قولنـــا المعبـــر عـــن إرادتنـــا لإحـــداث أي شـــيء : أن تتوجه إرادتنا لإبراز ما أردناه مـــن العـــدم إلـــى الوجـــود أولا، وعلـــى الصـــورة التـــي سيكون عليها ثانيا، وفي الظرف الزماني والمكـــاني اللـــذين خصصـــناهما ثالثـــا. فيحـــدث ما أردناه دفعة واحدة أو على مراحـــل كـــل مرحلـــة هـــي اســـتجابة لإرادتنـــا . إن إرادة الله قديمة وليس بينها وبين العلم خلاف بـــل هـــو التوافـــق الكامـــل. فمـــا علمـــه الله منـــذ الأزل يكون داخلا تحت سلطان الإرادة حسب العلـــم القـــديم، يـــتم إنجـــازه عنـــدما تتعلـــق الإرادة بإنجازه وتحقق القـــدرة مـــا تعلقـــت بـــه الإرادة دون فصـــل بينهـــا. وعبـــر عـــن طواعية جميع ما يراد خلقه في الدنيا أو فـــي الآخـــرة بصـــدور الأمـــر (كـــن) لِتَحْـــدُثْ لِتَخْرُجَ إلى الوجود، فيتم ذلك بدون تصور للتخلـــف أو أي فاصـــل زمنـــي . وهكـــذا أمـــر البعث . فإنه في الزمن والمكان الذي أراده الله تتجدد الحيـــاة فـــي كـــل مـــن عـــاش علـــى ظهر الأرض ثم مات عند حضور أجله.

وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

المهاجرة: متاركة الديار .

لنبوئنهم : لنسكننهم ما يجزيهم الجزاء الحسن عن مهاجرتهم .

حسنة: عامة في كل أمر مستحسن يناله ابن آدم .

بيان المعنى الإجمالي :

تنوه الآية بالمهاجرين الأولين إلى الحبشة، وكذلك الذين سبقوا إلى الهجرة إلى المدينة بعد أن ظلمهم المشركون أشد الظلم فثبتوا على دينهم، كما تتناول كل من يهاجر ابتغاء مرضاة الله فيما يستقبل من الأزمان، وتعدهم بحسن الجزاء في الدنيا وأكبر منه وأتم في الآخرة . إنهم صبروا وصمدوا ولم تهِنْ عزائمهم في الماضي، وهم معتمدون على الله في مستقبل حياتهم.

بيان المعنى العام :

42/41- الذين صبروا...وعلى ربهم يتوكلون.

تحدثت الآية عن حُظوة المهاجرين، والسورة مكية، فلذلك حملها المفسرون على الذين هاجروا إلى الحبشة، وحملهما بعضهم على المهاجرين الذين سبقوا إلى المدينة قبل خروج النبي صلى الله عليه وسلم إليها. وهي تتضمن وعدا صالحا لكل مهاجر تحققت فيه المواصفات التي بينتها الآية.

يقول القرآن : إن الذين تركوا ديارهم وتحولوا عن مواطنهم، هجرة سامية عن الأغراض الدنيوية، ورغبة في التحصيل على مرضاة الله، وإيثارا لما عند الله على ما هو بين أيديهم من المال ، ومن المتاع، ومن الإلف لمرابع الصبا، وقاموا بهجرتهم تلك بعد أن سُلِّط عليهم الظلم فلم تهن عزائمهم ؛ هؤلاء المحصورون في هذا الإطار، أؤكد وأنا الله العزيز الحكيم، أني سأعوضهم عما فاتهم من حظوظ في الدنيا والآخرة .

أما في الدنيا فسأيسر لهم مساكن يرضونها، ونجاحا شاملا في بيئتهم الجديدة، سأعوضهم عما فاتهم من مال ومن أهل، ومن تعلق فطري بموطنهم، فزيادة على الغنائم التي كانت أثر نصر الله،سأبارك في ذرياتهم، وأجعلهم يأنسون بسكنى المدينة المنورة .

وأما في الآخرة فهو فوق ذلك بكثيـر، هـو الجـزاء الـذي لا تحـده حـدود، ولا يعلـم مقداره إلا مسديه رب العالمين.

يمكن أن يحمل المعنى ولكن لا يعلمون على معنـى، أن المهـاجرين لـو كـانوا يعلمـون ما قدره الله لهم من حسن الجـزاء، لمـا حزنـوا أول الأمـر علـى مفارقـة مكـة. كمـا يحتمل أن الكفرة لم يلحقوا بهم لأنهم لا يعلمون ما أعد الله للمهاجرين.

ثم نوهت الآية بالمهاجرين وأبرزت خصلتين عظيمتـين: إحـداهما مـا تحلـوا بـه مـن قوة العزيمة والصبر على الأذى، والثبات علـى نصـرة الـدين، والثانيـة هـي الاعتمـاد على الله الاعتماد الذي جعلهم يأخذون بالأسباب. ويشـعرون أنهـم فـي جميـع المراحـل يجدون الثقة في قلوبهم بعون الله وتأييده .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ ۚ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤) أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٤٧)

بيان معاني الكلمات

أهل الذكر : أصحاب كتب الشريعة.

الزبر : الكتب التي سجلت الوحي.

أنزلنا إليك الذكر: أنزلنا إليك الكلام الذي من شأنه أن يتلى.

لتبين : لتوضح.

مكروا : أعدوا في خفية ما يضر.

يخسف : يحدث زلزالا شديدا تبتلع به الأرض ما فوقها.

من حيث لا يشعرون : يأتيهم بغتة لا يستطيعون له دفعا.

يأخذهم : يهلكهم.

التقلب : السعي في شؤون الحياة.

التخوف : التنقص، أو الخوف .

معجزين : منفلتين من العقاب

بيان المعنى الإجمالي :

يؤكد القرآن على حقيقة :هي أن سنة الله في إصـــلاح البشـــر ، أن يرســـل إلـــيهم رســـلا رجالا يبلغونهم وحيه .واسألوا علماء يهـــود وقساوســـة النصـــارى هـــل بلـــغ رســـالة الله غير الرجال؟ أرسل رسله مصحوبين بالأدلـــة البينـــة ممـــا تقتضـــيه العقـــول الصـــالحة، وبالكتب المدونة للشرائع . وتوجه إلى الرسول الأكـــرم صـــلى الله عليـــه وســـلم مخاطبـــا له بأنه نزل عليه الكتاب الـــذي يتلـــى ليثبـــت مفاهيمـــه فـــي العقـــول والمشـــاعر، فتـــتم الاستجابة له بالعمل والتطبيق.

والعجب من الغفلة التي عليها الذين يدبرون فـــي خفـــاء مـــا يســـيء ويضـــر المـــؤمنين، مع أنهم يعلمون ضـــعفهم وأنهـــم لا يقـــدرون علـــى حمايـــة أنفســـهم مـــن أن يزلـــزل الله الأرض تحت أقدامهم فتبـــتلعهم ومـــا يملكـــون، أو أن يـــأتيهم عذابـــه فيستأصـــلهم، دون أن يتوقعوا الجهـــة التـــي أتـــاهم منهـــا، أو أن يأخـــذهم وهـــم ناشـــطون مقبلـــون علـــى تجاراتهم وفلاحتهم ولهوهم، أو يهلكهم شيئا فشيئا كلما نقـــص مـــنهم جانـــب تبعـــه جانـــب آخر وهم مستسلمون لا يعرفون كيف ينقذون أنفسهم، إلى أن يهلكوا جميعا.

ثم يدعوهم إلى أن يقلعوا عن العناد والكفر، فـــإنهم إن فعلـــوا ذلـــك فـــإن الله يـــرأف بهـــم فيسعدهم بعونه، ويرحمهم فيكفر عنهم ما سبق من آثامهم .

بيان المعنى العام :

44/43-وما أرسلنا قبلك إلا رجالا...ولعلهم يتفكرون.

لا يقلع المشركون عن تكرار اعتراضاتهم علـــى رســـالة النبـــي ﷺ . ويعملـــون جاهـــدين على إدخال الشك في قلـــوب الســـابقين إلـــى الإســـلام . ومـــن اعتراضـــاتهم قـــولهم: إن الرسول الذي يتلقى الوحي من الله ويكلفـــه بـــإبلاغ شـــرعه للعـــالمين لا يصـــح أن يكـــون إنسانا تتحقق فيه خصائص البشرية. ولذلك نزلت هـــذه الآيـــة مؤيـــدة للرســـول صـــلى الله عليه وسلم أولا موجهة إليه الخطاب، ليكون دعمـــا لحجتـــه فـــي رد مـــا يقولـــون، فثبتـــه الله بقوله :إن سنة الله في بعثة الرسل إلى البشرية أنـــه لا يكلـــف بمهمـــةِ تَقَبُّـــل الـــوحي ثم إبلاغه إلا رجال من البشر .

ثم توجه القرآن إلى الكفرة المشاغبين فقال لهم: أسألوا أهـــل الكتـــب الســـابقة مـــن علمـــاء اليهـــود والنصـــارى، إن كنـــتم جـــاهلين بجـــنس الـــذين أرســـلهم الله، أكـــانوا رجـــالا أم ملائكة؟ وهؤلاء لا يستطيعون أن يخبروا إلا بأنهم كـــانوا بشـــرا؛ فمقالـــة الأحبـــار حجـــة على الكفرة لأنهم يصدقونهم، ولا يتهمـــونهم بالانحيـــاز للمســـلمين لأن عـــداوتهم للإســـلام .

متأصلة، فلا دلالة فيه على أنا افتقرنـــا لشـــهادتهم. وقـــد ثبـــت أن قريشـــا أرســـلت إلـــى أحبار اليهود يسألونهم.

وقوله تعالى : **بالبينات والزبر**، كأنـــه جـــواب ســـؤال مفهـــوم مـــن الكـــلام تقـــديره والله أعلم: بِمَ أُرْسِلُوا ؟ أرسلناهم مصحوبين بالبينات والزبـــر . أمـــا البينـــات فهـــي مـــا يـــدل على صدقهم من شـــواهد العقـــل، وكـــذلك المعجـــزات الواضـــحة أن مخالفتهـــا للعـــادة لا تكون إلا من خالق العادة، أقامها مؤيدة للرسول شاهدة بصدقه.

وأما الزبر، فهي الكتب التي وثقت ما أوحاه الله لرســـله، كقولـــه تعـــالى : **(إن هـــذا لفـــي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى)**[1]، وكـــذلك مـــا ســـجله الحواريـــون مـــن كـــلام عيسى عليه السلام بعد رفعه . فبعض الرسل تم تأييـــده بالبينـــات، وبعضـــهم جمـــع إلـــى البينات الكتاب.

وسيدنا محمد ﷺ أيده الله بمعجزات كثيـــرة اعتنـــى بهـــا وجمعهـــا القاضـــي عيـــاض فـــي الشفاء. ومعجزته الكبرى القرآن . فنوهت الآيـــة بـــه، علـــى أنـــه أنـــزل عليـــه القـــرآن الموصوف بأنه ذكر، يتلى وتعاد تلاوته لتكـــون معانيـــه ودلالاتـــه حاضـــرة فـــي عقـــول الناس. وإن من أهداف المنزل أنه يتم به بيـــان مـــا نزلـــه الله إلـــى النـــاس مـــن الشـــرائع التي أرسل بها النبي ﷺ . ولما كان المبلـــغ للتبييـــن والموضـــح للمشـــكل والرافـــع لغيـــر المراد والهادي إلى الغاية والمفصل للأحكام هو الرسول ﷺ أسند إليه التبيين .

ويؤكد القرآن على إيقاظ العقول لتتأمل ثم تفكر فيما أنزل، ليبلغوا بتأملهم وضوح العقيدة، ولتتعمق الهداية في قلوبهم فيلتزموا في سلوكهم الصراط المستقيم المحقق لرضوان الله، والمساعد على النجاح في الاستخلاف في الأرض . والبعد عن الفساد والشر. وليتأملوا في بيانك فتتشربه عقولهم ومشاعرهم. فيكون بيان الرسول بالإبلاغ ليتأملوه بأنفسهم، وبالكشف عنه وتوضيحه، وهما جناحا الفوز في الدنيا والآخرة.

45←47: أفأمن الذين مكروا... لرؤوف رحيم.

هذه الآيات تهز الكفرة هزا شديدا، وتـــوقظهم معتبـــرة أن الغفـــلات قـــد أحكمـــت حجـــب المآلات عن تصورهم، إنهم دبـــروا وهيـــأوا . إنهـــا تنـــبههم علـــى أنهـــم مســـتعدون لأن ينزل بهم وجه من وجوه الانتقام . فما أشـــد غفلـــة هـــؤلاء الـــذين هيـــأوا مخـــادعين مـــا يلحق الضرر بالمسلمين، ففعلوا الأفعال السيئة وظنوا أنهـــم فـــي مـــأمن لا يلحقهـــم ضـــر، مع أنه قد تنزل بهم نقمة من النقم الآتية :

[1] سورة الأعلى آية 19/18

1)أن تتزلزل بهم الأرض وتنشق عن فراغ عظيم يبتلعهم، ثـم تطبـق علـيهم فـلا يبقـى لهم أثر على ظهرها. إنهـم لا يملكـون ثبـات الأرض التـي تحـت أقـدامهم، فكيـف لا يحصنون أنفسهم بالتوبة إلى الله من هذا الاحتمال الذي وقـع فـي الكـون ودمـر الله بـه المفسدين، كما وقع لقارون قال تعالى: **(فخسفنا به وبداره الأرض)**[1]

2) أن يصابوا بعذاب في أبدانهم فيقـيم فـيهم الألـم الـذي لا يبـرح أجسـادهم، ويـأتيهم من ناحية لا يشعرون أنه يأتيهم منها. علـى معنـى أنهـم لا يسـتطيعون لـه دفعـا، ولا يكون في طوقهم التوقّي منه.

3) أن يهلكهم الله في الوقت الذي يكونون على حـظ كبيـر مـن النشـاط والحركـة، فـي تجاراتهم، أوفي مزارعهم، أوفي تجمعات لهـوهم ومـرحهم، ولشـد مـا تكـون دهشـتهم إذ يباغتون بالعذاب فلا يجدون منه حماية.

4) أن يسلط عليهم متتابع النقم فيهلكون شيئا فشيئا حتـى يـتم تـدميرهم، فمعنـى علـى تخوف: على تنقص، تتوالى عليهم المحن ولا يجـدون منهـا مخلصـا، وهـذا مـن أشـد العذاب، إذ لا يقضى علـيهم قضـاء واحـدا، ولا يجـدون مـا يـدفعون بـه المصـائب المتتابعة التي تصيبهم في أنفسهم وفي أموالهم وفـي حيـاتهم بصـفة عامـة . أو يأخـذهم وقد تحققوا نزول العذاب بهم، وأخذوا ينتظـرون حلولـه وهـم خـائفون. ويكـون معنـى على تخوف: على خوف.

وختمت الآية بتحريضهم على ترك العناد والإقبال على الإسلام، ذلك أن الله قد اتصف بالرأفة والرحمة، فمن رجع إليه وأقبل على شرعه الذي أنزله، فإنه يلقى من رب العالمين ما تقتضيه صفة الرأفة بالمستضعفين فيمكنهم بفضله ما يرقون به إلى منازل المهتدين، وصفة الرحمة التي تشمل كل شيء، تبدو مظاهرها في الدنيا والآخرة .

أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الكلمات

يتفيأ : عود الظل بعد أن أزاله ضوء الشمس،

داخرون : خاضعون، متصاغرون، متواضعون .

[1] سورة الروم آية81

بيان المعنى الإجمالي :

ما لهؤلاء الكفرة لا يتأملون فيما يرونه بأبصارهم من مظاهر الكون الدالة على خضوع كل ما خلق الله من الأجسام على وجه الأرض، رغم أنه يتكرر كل يوم !كل الأجسام التي على وجه الأرض تلقي ظلالها في الجهة المعاكسة لأشعة الشمس تبدو ممتدة عند مشرقها . ثم تأخذ في الانحسار فتمحي عند الزوال، لتعود منطلقة في الجهات المقابلة بعد ذلك إلى مغيب الشمس. كلها ساجدة لله مطيعة لقوانينه خاضعة لذلك.

إنه لله وحده تسجد جميع الكائنات العلويـــة الســـماوات بمـــا فيهـــا مـــن أجســـام عظيمـــة وكائنات صغيرة جدا، وسجودها بسيرها في المسار الـــذي حـــدده لهـــا مـــن بـــدايتها إلـــى فنائها. خاضعة لكل ما قدره لها في الأزل. وكـــذلك مـــا علـــى الأرض مـــن الـــدواب،فلكل نوع من أنواع الدواب تسبيحة هي سجودها لخالقهـــا، قصـــرت إمكاناتنـــا عـــن الإحســـاس بها، أخبرنا رب الخلائق بأنه يتلقاها منها .

وكذلك ملائكة الرحمن يسجدون لله سجودهم اللائق المأمورون بالقيام به، مستشعرين الطاعة والبعد عن الكبر الذي أهلك إبليس، عندما دعوا إلى السجود لآدم. فمن طبيعة الملائكة أنهم ينفذون ما يؤمرون به في خوف من أن ينزلهم عن المكانة التي رفعهم إليها.

بيان المعنى العام :

48-أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء....وهم داخرون.

هذه الآية تنبه الغافلين ليتأملوا في أحد مظاهر الكون التي تدل على تفرد الله بالتصرف فيها، فتقوم منادية بعظيم حكمته. وهو مشهد يتكرر كل يوم، هي المخلوقات المجسمة من الجماد والشجر والحيوان والإنسان، تطلع عليها الشمس فتبدو صورتها في ظلالها متجهة إلى الجهة المقابلة لأشعة الشمس، وتنحسر تلكم الظلال شيئا فشيئا إلى أن يمحي الظل عند زوالها، ليعود إلى الجهة الأخرى. فما كان من هذا الأثر قبل الزوال فهو ظل، وما كان بعد الزوال هو فيء. يتفيأ ظلالها أي تعود ظلالها إلى جهة اليمين أو جهات الشمال إلى أن تغيب الشمس .وعبر عن الجهات باليمين مفردا والشمال جمعا تفننا في التعبير. وقد يكون مرد ذلك أن مستقبل الشمس بعد الزوال يكون الفيء المتجه إلى يمينه ثابتا في أصله ويتسع فالمكان المظلل لا يمحي الظل منه، وأما ما كان عن شماله فهو يتناقص، فهي مواقع مختلفة له فعبر عنها بالشمائل . والله أعلم .

إن الأجسام التي تظهر ظلالهـــا علـــى وجـــه الأرض كلهـــا خاضـــعة منقـــادة للتصـــرف الإلهي، أعطاها قوانين وجودها وتحولاتهـــا وقبولهـــا لأشـــعة الشـــمس وظهـــور ظلالهـــا على وجه الأرض، وتستجيب لتلكم القوانين خاضعة ذليلة طائعة أو مكرهة .

49←50- ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض....ويفعلون ما يؤمرون .

ولله لا لغيره يسجد كل شيء سجودا يختلف من جنس إلى جنس ومن نوع إلى نوع، فيعبر عنه بما يتلاءم مع خواصه . يسجد له سبحانه ما في السماوات من المجرات العظيمة، والمجموعات، وما في كل مجموعة ومجرة من وحدات، إنها تجري خاضعة معترفة بخالقها مسخرة للمسار الذي حدده لها، إلى أن ينتهي الأمد الذي قدر لوجودها . وكذلك ما تحويه الأجرام السماوية من كائنات دقيقة أو عظيمة قصُر العلم البشري عن إدراكها . وكذلك ما في الأرض من الدواب، فكل نوع من أنواع الدواب يعبر لخالقه بسجوده الذي يلائم قدراته مع إحساس بلذة في ذلكم السجود، قد تعبر عنه بأصواتها أو بحركاتها أو برقصاتها أو بوقفات لا ندركها فيها تسبيحة بجلال الخالق وخضوع له .

وكذلك ملائكة الله هم يسجدون لله سجودا يناسب خصائص خلقهم، شاعرين بفضل الله عليهم أن نزع منهم الكبر الذي ظهرت لهم آثاره في إبليس لما استكبر وكفر فلعن .

إن الملائكة على ما فطروا عليه من التجرد عن الهوى، وانغماسهم في الطاعة وتنفيذهم لما يؤمرون به على الوجه المرضي، هم يخافون ربهم المتصرف فيهم تصرف الاستعلاء، من أن يسقطوا عن المكانة التي بوأهم إياها، وهم يفعلون ما يؤمرون به بصفة دائمة، دون أن يشعروا أي يكون منهم أي تباطؤ أو تأجيل للتنفيذ.

وفي هذا إيماء لمنزلة المؤمنين الذين بتطبيقهم لما أنزل إليهم يرقون إلى منزلة الملائكة، وأن الكفرة الذين لا يسجدون لله، ويخضعون للأصنام، أنهم في درجة أقل قيمة من الحيوانات.

وهذه الآية، عند تلاوة القارئ: ويفعلون ما يؤمرون موضع سجود مجمع عليه.

۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنكُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكۡفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيۡنَٰهُمۡۚ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

ارهبوني : خافوني.

الدين : الطاعة.

واصبا : ثابتا دائما .

تجأرون : تصرخون متضرعين .

بيان المعنى الإجمالي :

نهت الآية عن عبادة إلهين اثنين كما ضلت القبائل العربية المجاورة لبلاد فارس فاتبعوهم في عبادة إله النور وإله الظلمة. والله واحد لا شريك له. من التناقض أن يوصف بالألوهية ثم يعتقد أنهما اثنان. فخافوني ولا تخافوا غيري. فأنا المتفرد بالنفع والضر. والنورُ والظلمةُ حالتان للأرض، والله مالك السماوات والأرض فلا يعقل أن يكون المملوك إلها. ومن مقتضيات الألوهية أن يتفرد بوجوب طاعته، وأن يتفرد بالتشريع وأن يكون مالك يوم الجزاء.

وهو سبحانه الذي تفضل عليكم بالنعم التي لا تحصون لها عدا، ولا تصل إليكم أي نعمة إلا منه. وفوق هذا فإنه إذا مسكم الضر ترفعون أصواتكم بالدعاء ملتجئين إليه ليكشف ما حل بكم، ثم إذا كشف ضركم، أعلن فريق منكم كفره بنعمة الله وعاد إلى ما كان عليه من الشرك.

كانت عاقبة ما أنعمنا به عليهم ولطفنا بهم فسلمناهم بعد الضر، أن بدلوا شكر النعمة بكفرانها، يهددهم القرآن بقوله : تمتعوا بالنعم التي رزقتم والعافية التي سلمتم بها بعد الضر مع كفركم، فسوف تعلمون العاقبة علم اليقين .

بيان المعنى العام :

51- وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ....فإياي فارهبون.

افتتحت الآية مصرحة بأن هذا القول صادر ممن يقول الحق ويبطل الباطل، وتهز السامع بذلك للانقياد لمضمون القول. فماذا قال الله ؟

اولا :لا تتخذوا إلهين اثنين .وخص النهي بعبادة إلهين إبطالا لما تسرب لبعض القبائل العربية المجاورة لفارس من محاكاتهم لهم في عبادة إلهين اثنين إله الخير وإله الشر (دين المزدكية) . وأفردهم بالنهي بناء على أنهم لا يدخلون في النهي العام لعباد الطاغوت، لأنهم لا يمثلون الإله في صورة مجسمة. إذ يعتقدون أن إله الخير هو النور، وأن إله الشر هو الظلمة. إن عبادة إلهين هو تناقض، لأن الإله لا يكون إلا تام القدرة ينفذ ما أراد، وإذا كان لا يتحكم في كل شيء فهو عاجز.

فالإقرار بالألوهية، ثم اعتقاد التعدد هو تناقض عقلي مرفوض. ولذلك صرح بعد ذلك تأكيدا لما فهم من قوله: لا تتخذوا إلهين اثنين من النهي عن اعتقاد التعدد : اثنين بمنطوق الكلام وما فوق ذلك بمفهومه .فهو الواحد الأحد، تعالى أن يكون له شريك له في الألوهية . وانبنى على ذلك حقيقة أخرى أتبع بها الحقيقة الأولى : هي دعوته للبشر جميعا : إياي فارهبوني: لا تخافوا أحدا إلا أنا .

52-وله ما في السماوات والأرض... أفغير الله تتقون .

تحقيقا لما تضمنته الآية السابقة بأنه هو الله الواحد الأحد، أثبتت هذه الآية ما يلزم عن ذلك: أنه المتفرد بملك السماوات والأرض. فمن الضلال اعتقاد النور والظلمة إلهين، مع أنهما حالتان من حالات الكون المملوك لله وهو خالقه. وإذ تفرد سبحانه بملك جميع المخلوقات وجب أن ينتفي وجود إله غيره . إذ لا معنى للألوهية بدون ملك. ولما كان هو الخالق المتفرد بالملك وجب أن يتفرد بوجوب الطاعة على جميع الأحوال. ولا مانع من أن يفهم تفرده بالدين، تفرده بالتشريع، أو تفرده بالتمكين من الجزاء. فيكون معنى الآية لله وحده الطاعة ثابتة، أو أنه هو المشرع الذي يجب أن يطبق ما شرع. أو أنه مالك الجزاء يوم القيامة ملكا ثابتا محققا. واختتمت الآية بالإنكار عليهم إنكارا توبيخيا خشيتهم من إله الشر وتقربهم إليه، فإن الفاعل المنجي من الشر هو الله، فعليهم أن لا يتقوا أحدا غيره.

53←54-وما بكم من نعمة...إذا فريق منكم بربهم يشركون.

واصل القرآن هدم العقيدة المزدكية بإثبات أن جميع النعم والخيرات التي يتمتع بها الإنسان هي واصلة من عطاء الله وفضله . وفوق هذا فإنه إذا أصابكم أي ضر من مرض أو سوء أو ضيق أو مشاكل عصيَّة، فإنكم لا تلتجئون إلا إليه، ولا ترتفع أصواتكم إلا بدعائه ليرفع عنكم ما نزل من بلاء . نعم قد استقر في نفوسكم أن الآلهة التي تدعونها من دون الله عاجزة عن تخليصكم من الوضع الحرج الذي دخلتم فيه.

أبطلت الآية عقيدة إله الخير وإله الشر. وأثبتت أنه لا فاعل في الكون إلا الله. وبعد هذه الألطاف التي شملت البشرية كلها من الخير والاستجابة لرفع الضر يرتقي القرآن مسجلا أنه إذا أزال ما لحقهم من ضر، وهذا يتكرر لأن الإنسان معرض لمختلف أنواع الأضرار من ميلاده إلى حين وفاته، إنه ما بقي أي فرد فاعلا في الحياة إلا بفضل ما أسعفه به ربه من اللطف الذي أزال ضره . فكما أن النعم تتابع من الإيجاد والحياة إلى من يعنى به حتى يكبر، بل في كل لحظة من لحظات حياته،

إنه لو تأمل، ما استطاع إحصاء ما أحاطه بــه الله مــن نعــم فــي كــل لحظــة، وكــذلك الأضرار، بالحماية منها أو بخروجه منهــا ســالما، يتكــرر ذلــك ولطــف الله هــو الــذي يبقي عليه .

ولكن فريقا من البشر إذا عــادت إلــيهم العافيــة، التــي هــي مــن عنايــة الله وتقــديره، يفجأوون بنكران الفضل ، ويعودون إلى التعلــق بــآلهتهم يشــركونها فــي الألوهيــة .إنــه مع أن الله يعلم علما أزليا ما يؤول إليــه هــذا الفريــق مــن الشــرك، إنــه مــع ذلــك لا يمنعهم ألطافه التي قدر أن تمس البشر جميعا.

55- ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون.

تحتمل وجهين من المعنى:

الوجه الأول: أن عاقبة ما رزقهم من العافية بعــد الضــر كــان الكفــر بنعمــة الله وعــدم شكرها. فهذا كقوله تعالى: (**فالتقطه، موسى آل فرعــون ليكــون لهــم عــدوا وحزنــا)**[1] فبينت أن عاقبة التقاطه انقلابه عدوا لهم، وسببا لكثيــر مــن الحــزن والأســى. وهــم لــم يقصدوا ذلك بالتقاطه. وعلى هذا النحو تفهم الآية.

الوجه الثاني : أن يكون المعنى على التهديــد، أي اكفــروا بمــا آتينــاكم فســوف تعلمــون العاقبة .

ومعنى الآية : أن القرآن يسجل على ذلك الفريــق الــذي لــم يشــكر نعمــة الله وتفضــله بإزالة الضر، وعاد إلى عبادة الأصنام ، يسجل عليــه كفــره بمــا آتــاه الله مــن فضــل. ونقول لهذا الفريق انتفعوا مما أنعمنا به عليكم من متــاع الحيــاة الــدنيا، ناســين المــنعم الحقيقي . فسوف تعلمون علم اليقين عاقبة أمــركم . ولــم تبــين الآيــة مــا ذا ســيعلمون، ليذهب التصور في فظاعته كل مذهب، وبذلك يكون التهديد أقوى .

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَٰهُمْ ۗ تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦٠﴾

[1] سورة القصص آية 8

بيان معاني الألفاظ :

يجعلون : يصيرون ويعطون.

ما لا يعلمون : الأصنام.

نصيبا : قسما.

ظل وجهه : صار وجهه صيرورة دامت معه.

مسودا : عابسا كئيبا.

كظيم : غاضب أشد الغضب.

يتوارى : يختفي.

هون : ذل.

يدسه في التراب : يدفنه في الأرض.

المثل : الحالة العجيبة .

بيان المعنى الإجمالي :

عددت الآيات صورا من ضــلال المشــركين. منهــا أنهــم يخصصـــون لآلهـتهم، التـــي يجهلـــون حقائقهـــا ويجهلـــون مآلهـــا، ولا يعلمـــون مِـــنْ أمرهـــا شـــيئا علمـــا واضــحا، يخصصون لها شيئا ممـــا رزقهـــم الله يتقربـــون بـــه إليهـــا. قســـما بـــالله يثبــت: أن الله سيوقفهم بين يديه ويسألهم عما قدموه ويجـــازيهم الجـــزاء العـــادل. ومنهـــا أنهـــم ينســـبون لله بناتا هي في نظرهم أحط من الذكران . وبالنسبة لهم تجـدهم يعتــزون بمـــا لهـــم مـــن بنين. وتوضيحا لذلك تذكر الآية التالية :أن أحـــدهم إذا بشـــر بـــأن زوجتـــه ولـــدت أنثـــى عد ذلك الخبر مصيبة، تظهر علـــى وجهـــه علامـــات الحـــزن والكآبـــة ويغضـــب أشـــد الغضب، يتباعد عن أنظار الناس، في حيرة من أمره ؛أيبقـــي علـــى المولـــودة بمـــا يتبـــع ذلك من هوان، أو يدفنها حية في الأرض ويستريح .هـــذا حكمهـــم العـــام، فمـــا أســـوأ مـــا حكموا به .إن الفاقدين للإيمان لا يتصـــورون إلا تصـــورا ســـيئا، ويجـــب أن يكـــون مـــا يرتسم في عقولكم عن الله الصورة الأعلـــى المنزهـــة عـــن كـــل نقـــص. كيـــف لا وهـــو العزيز الذي لا يغلب الحكيم في كل ما يصدر عنه.

بيان المعنى العام :

56- ويجعلون لما لا يعلمون نصيبا....عما كنتم تفترون.

يواصل القرآن تسجيل أوهام المشركين ليفضحهم بفساد تفكيرهم، وضحالة عقولهم فذكر:

أولا: أنهم عمدوا إلى ما رزقهم الله مـــن خيـــرات،،وهم لـــم يحصـــلوا عليهـــا لا بقـــواهم ولا بتدخل آلهتهم، أخذوا تلكم الأرزاق فقسموا قســـما منهـــا خصصـــوه لمـــن لا يعلمـــون

أن له حقا ولا منة ولا فضلا ؛ فهـذا المجهـول تـأثيرُه، المجهـول حقيقتُـه، ولا أسـاس لوجوده إلا الخيال والوهم والتقليد، خصصوا له مـن الـرزق الـذي أعطـاهم الله قسـما وتقربوا به إليه .

أنكر عليهم القرآن وهـددهم تهديـدا حققـه بالقسـم عليـه (تـالله) سيسـألكم الله يـوم القيامة عن هذا الكذب الذي اشـعتموه، وعضـدتموه بـتلكم القـرابين. معنـى ذلـك أنـه ينزل بكم من العذاب ما يتناسب مـع فظيـع كـذبكم. وفيـه إشـارة إلـى أن الله لا ينـزل عذابه إلا بعد أن يوقـف المجـرم ويقـرره بالسـؤال الـذي لا يسـتطيع أن يـراوغ فـي الجواب أو أن ينكر الحقائق .

57- ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون.

ثانيا : مقالة أخـرى منكـرة وعقيـدة سـخيفة، شـاعت فـي بعـض القبائـل العربيـة، فزعمت قبيلتا كنانة وخزاعة، أن الملائكة بنات الله مـن خيـار وشـريفات إنـاث الجـن، فهم قد جمعوا في مقالتهم هذه بين منكـرين : نسـبتهم إلـى الله التناسـل، وجعـل نسـله ملائكة هم بنات من نساء الجـن. ولـذلك عجَّـل القـرآن بقولـه سـبحانه، أي تنـزه الله تنزيها مطلقا عن افتراءاتهم . ثم شنَّع بقسبح عقيـدتهم هـذه، أن جعلـوا الله مـا يـأنفون منه، لأنهم يفضلون الذكور على الإناث، وجعلوا لله بناتا .

58←59-وإذ بشر أحدهم بالأنثى ...ألا ساء ما يحكمون .

ثالثا: ومن اختلال القيم عندهم، أن بعض العـرب يعتبـر البنـات، التـي ينسـبونها إلـى الله، مصيبة. فإذا جاء المخبـر لأحـدهم فـأخبره بـأن زوجتـه ولـدت أنثـى، تقطـب وجهه، وجلله الحزن كأنما غطي سوادا . وانطوى علـى غضـب شـديد. ثـم إن شـعوره في صلته بالناس يتحول إلى حياء وحذر من لقـاء قومـه. يختفـي عـن أنظـارهم بسـبب هذه البشارة. وإنها لبشـارة فـي الحقيقـة، وإن كـانوا يعتبرونهـا مصـيبة، إذ بالإنـاث يتواصـل الإنجـاب وتسـتمر الحيـاة، وتتسـع الأسـر بالمصـاهرة، ولا فـرق فـي الخصائص البشرية بـين الـذكر والأنثـى. ولا يفضـل عمـل الـذكر علـى الأنثـى ولا العكس، إذ القيمة في ذات المنتَج لا عمن صدر.

ثم إنه بعد ذلك تتفاعل الأوهام في نفسه، وتعظـم لـه مصـيبته، ويـرى أنـه قـد أصـبح مهينا بما ولدته زوجته، فيسول لهم ضيق التفكيـر ووسـواس الشـيطان أنـه قـد أطبـق عليه الهم، فهل يمسك البنت على مـا يصـحب إمسـاكها مـن ذل، أو يـتخلص بـدفنها حية في الأرض. هذه سلسلة مما اقتنع بـه الجـاهليون وحكمـوه فـي أنفسـهم مـن سـلم للقيم. تنبهوا فإن حكمهم هذا حكم سيء فاسد .

60-للذين لا يؤمنون بالآخرة ...وهو العزيز الحكيم .

تختم الآيات بالتعليق عليها ممن يعلم حقائق الأمور. فبعد أن توالى تسجيل فساد ما يعتقدون وانحطاط تفكيرهم، عقبه بأن الذين من صفتهم أنهم خلت عقولهم من نور الإيمان، هم أحرياء بأن لا يكون تصوركم لهم إلا تصورا جامعا للقبح والفساد والدناءة. وسما بكم سبحانه، فتصوركم لجلاله هو تصور أعلى وأكمل من كل ما يمكن أن يجري في العقول . كيف لا، وهو العزيز المتصرف في الكون تصرفا لا يغلبه عن مراده شيء ولا يعترض عليه معترض، نافذ ما يريده ؛ الحكيم الذي ثبتت حكمته التامة في كل شيء خَلَقَهُ وقدره .

وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ ﴿٦٢﴾ تَٱللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٤﴾

بيان معنى الألفاظ :

يؤاخذ : يجازي جزاء فيه شدة.

الظلم : الاعتداء على الحق وأعظمه الإشراك بالله.

الأجل : الزمن المحدود الذي يؤخر إليه الشيء .

المسمى : المعَين.

ساعة : اللحظة التي تأجل إليها العذاب.

لا جرم : حقا، لا شك فيه.

مفرطون : بالغون غاية الجراءة وارتكاب المعاصي.

زين لهم الشيطان : حسن لهم القبيح والسيء .

بيان المعنى الإجمالي :

إن ما بني عليه استخلاف الإنسان في الكون أنه مختار وأنه سيحاسب على ما قدم يوم القيامة، وأن الله لا يعجل له العذاب بمجرد ما يعصي . وإن أعظم معصية هي

الشـــرك. فتقـدير الله أنـــه لا يســحق المشـــركين وممتلكـــاتهم مــن دواب وغيرهـــا فـــي العاجل، ولكن يمهلهم إلى الأجل الذي قدَّره. إنــه عنــد حلــول الأجــل المقــدر والمحــدد في علم الله، ينفذ فيهم العذاب دون تقديم ولا تأخير.

ومن سوء عقيدتهم وفساد تفكيرهم، أنهم يخصصــون مـــا يكرهونـــه ولا يرضـــونه بـــالله، ثم يزينون بألسنتهم الكذب ليروج على الدهماء، أن الأمور الحسـنة هــي لهــم. إنـــه حقـــا لا شك فيه، أن لهم النـــار لا الحســنى، وأنهــم يســرعون إلـــى جهــنم. كـــأن عقيـدتهم وأعمالهم مغناطيس ينجذبون به إلى النار.

تأكيد بالقسم المغلظ: أن الله بعــث قبلــك للأمــم رســلا فكــذبوهم، وقـبَّح لهــم الشــيطان هداية الله وزين لهم الشـــرك والمعاصــي فـــاتبعوه وأعرضـــوا عــن هدايـــة الله. وكــذلك فعل المشركون من أهل مكة فاتبعوا الشيطان فهــو اليــوم ســندهم فـــاتبعوه. وعـــاقبتهم أن الله سيعذبهم العذاب الشديد الألم.

وتعقيبا على ما فصله من ضلال المشركين، أعلــن القــرآن الغايـــة مــن إنــزال القـــرآن وتأييد الرسول ﷺ به، هذه الغاية هي أن يكشف لهم الحــق ويفصـــل فيمـــا شــجر بيــنهم من خلاف من شـــرك ظـــاهر وخفـــي ، ومــن عبـــادة للشـــهوة والمـــال، ومــن طاعـــة لدواعي الأهواء، ليجدوا في هذا القرآن الهدايـــة لطريــق الســـلامة فـــي الـــدنيا والآخـــرة، وليرحمهم فيطمئنوا بعد الحيرة ويأتلفوا بعد الاختلاف .

بيان المعنى العام :

61-ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ...لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون.

اجتمع في هذه الآية أمران :

الأول: تهديد للذين سجلت الآيات السابقة فساد ما يعتقــدون، وقــبح مـــا يفعلـــون، فـــإن الله قادر على أن يسحقهم سحقا يقضي عليهم وعلى مكاسبهم.

الثاني: أن الإمهال لا يقتضي عدم المؤاخذة. فـــإن الله قــد أحســـن التقــدير فلكــل شـــيء أجله الذي تنفذ فيه القدرة الإلهية.

معنى الآية : مضت سنة الله فـــي جـــزاء المشـــركين: أنـــه لا يعجــل لهــم العقوبـــة، ولا يسلطها بمجرد ما يبدو منهم مظاهر الإشراك بـــالله ،فـــالظلم هنـــا معنـــاه الشـــرك، لأنـــه لو عاجل المشركين بالعقوبة لمـــا تـــرك علـــى ظهــر الأرض دابـــة تتحـــرك، ولقضـــى على الحياة في الأرض . وقد مضى الشـــرك فـــي الأرض، والحيـــاة باقيـــة، فثبــت بـــذلك ما تدل عليه الآية. وهذا قضاء عادل، لأن من جحد مـــن أعطـــاه الوجـــود أو أشـــرك بـــه فقد بلغ به الفساد الفكري ما يستحق به أن يسلب منه الوجود.

وإذ انتفى تعجيل العقوبة، فإن المؤاخذة علـى جريمـة الشـرك ثابتـة يـتم تنفيـذها فـي الأجل الذي قدره الله. وهو موعد مضبوط في علمـه ضـبطا يـتم فـي الوجـود بكامـل الدقة، فلا يتأخر لحظة عن أجله، ولا يتقدم.

62-ويجعلون لله ما يكرهون ....لا جرم أن لهم النار وأنهم مفرطون.

يتتابع في هذه الآية تسجيل القرآن علـى المشـركين ضـلالاتهم، وفسـاد عقيـدتهم، فقـد قسموا ما مكنهم الله منه، فجعلـوا القسـم الأحـط والأدون لله، وقـدموا لآلهـتهم الأجـود والأفضل، خصوا الله بأسوئها لأنهـم يخشـون آلهـتهم خشـية أشـد مـن خشـية الله . وأيضا هم يكرهون البنات فجعلوا لله نسلا من البنات . وقـد علـق أحـد الظرفـاء علـى توجيه كثير من الأسَرِ أولادهم الموهـوبين للدراسـة فـي المعاهـد العصـرية، وأولادهـم المحدودي الإمكانات إلى المعاهـد الدينيـة، بقولـه : ويجعلـون لله مـا يكرهـون. ومـع ذلك هم أهل فصاحة وبيان، فأطلقوا مـواهبهم اللسـانية، لتزييـف الحقيقـة، والاسـتهزاء بالرسالة المحمديـة وبالعقيـدة الصـادقة، وتمويـه الكـذب علـى الله مصـورين لكـذبهم بصورة تغطي ما فيه من باطـل وافتـراء، كقـولهم : **(وإن رجعـت إلـى ربـي إن لـي عنده للحسنى)**[1] -ومثله ما يتجـرأ بـه مـلا حـدة العصـر ممـا لا يسـمح بـه أدبـي وتوقيري أن أسجله ؛ وفي المقابل يبرزون أن الوضـع الأفضـل والحالـة الحسـنى هـي لهم .

ويرد عليهم القرآن بما يشاكل دعواهم : إنـه لا شـكّ ومـن المؤكـد أن مـآلهم النـار، وأنهم يسرعون إليها، يدفعهم دفعا شديدا إليها ما قـدموه فـي حيـاتهم مـن منكـر القـول وتضليل الناس والجراءة على الله .هـذا إذا قرأنـا الآيـة علـى أنهـم مفرَطـون بفـتح الراء وأما على قـراء ة وأنهـم مفرِطـون بكسـر الـراء أي متجـاوزون للحـد فـي المعاصي .

63-تالله لقد أرسلنا إلى أمم...ولهم عذاب أليم .

تأكيدا بالقسم المغلظ المبرز لصدق مضمونه ؛ هـذا المضـمون المقسـم عليـه : هـو أن الله بعث للأمم التي سبقت قبلك في التـاريخ، يـا محمـد، رسـلا قصـد إرشـادهم إلـى العقيدة الصحيحة، والتشريع الصالح لعمـارة الأرض . فـدعوهم إلـى الطريـق المسـتقيم ووضحوا لهم ما نزل إليهم، وبذلوا غاية جهـدهم لهـدايتهم، فرفضـوا عنـادا واسـتكبارا رسالة رسلهم وكذبوا . ذلـك أن الشـيطان خلـط علـيهم الميـزان فقـبح لهـم الحسـن،

[1] سورة فصلت آية 50

فأطاعوه واتبعوا غوايته. وكذلك المشركون بمكة زين لهم الشيطان الشرك وما جرت عليه حياتهم مما يرفضه العقل السليم والحكمة، فكان الشيطان وليّهم يعتمدون عليه ويركنون إليه في هذا الزمان. وستكون عاقبتهم لعصيانهم لك واتباعهم للشيطان أن ينزل بهم العذاب الأليم .

64-وما أنزلنا عليك الكتاب...ورحمة لقوم يؤمنون.

هذه الآية تعتبر النتيجة لما تقدم توضيحه في الآيات السابقة من ضلال المشركين، وما رتب عليه. فهي تأتي معلنة المهمة التي بعث بها النبي صلى الله عليه وسلم وما تأيّد به. إن الغاية الكبرى من تأييدك بالقرآن الذي أنزلناه على قلبك هي أن تبين للناس الطريق الذي يرضاه الله لعباده، الذي به يصلون إلى مرضاته، هذا الطريق الذي غمره كثير من الشبهات فاختلطت معالمه، وجرّهم عدم الوضوح إلى الاختلاف، شأنه شأن الباطل الذي تكثر مسالكه ؛ أما الحق فهو واحد ولا يكون أكثر من واحد . إن هذا الهدى الذي حمله القرآن للناس هو الهدى الكامل للبشرية المنقذ لها من طرق الضلال، وإنه رحمة للقوم الذي يؤمنون به، يخرجهم من الحيرة إلى الوثوق، ومن الشك إلى اليقين، ومن التيه إلى الطريق السالك الذي يجدون معه الأمن والرضا الباطني .

وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٥﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٦٦﴾ وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأنعام : اسم يجمع كل جماعة من أحد أصناف الإبل والبقر والضأن والمعز.

العبرة : الموعظة

البطون : جمع بطن بما يحويه من أجهزة الهضم.

الفرث: الفضلات التي يدفعها الجهاز الهضمي لتنحدر إلى المصير .

الخالص : الذي لا شوب فيه يكدر صفاءه.

السائغ : السهل مروره في الحلق .

السكَر: الشراب المسكر.

الرزق : الطعام.

بيان المعنى الإجمالي :

يلفت القرآن نظر الإنسان ليتأمل فـي كتـاب الكـون فيهتـدي، ويـذهب الخـلاف الـذي مزق البشرية. الله وحده هو الذي أنـزل مـن السـماء المـاء فبطـل الشـرك، وقـدر أن يحيي بذلكم الماء الأرض بعد أن كانـت جـرداء ميتـة، فتخـرج نباتهـا وينتشـر علـى سطحها. فثبت وجه من البعث بعد الموت. إن فـي هـذه الظـاهرة دلـيلا علـى تفـرد الله بالخلق وأن الحياة يمكن أن تعود بعد الموت.

ولفت نظر البشر إلى منة أخرى أصلها المـاء المنـزل مـن السـماء، الـذي تنبـت بـه الأعشاب، وترعاها الإبل والبقر والغنم والمعز، فتتحـول فـي بطونهـا تحـولات مقـدرة بضبط حكيم إلى لبن كان مختلطا بـالفرث الـذي تلقيـه الأنعـام مـن الفضـلات وبالـدم الذي يتحول إلى الخلايا فيغـذيها بمـا تسـتطيع بـه أن تباشـر وظائفهـا فـي الجسـم وكلاهما مستقذر. ويتميز اللبن بكونه خالصا لا قذارة فيه، يسهل شربه .

والمنة الثالثة من نزول المـاء مـن السـماء ، تحولـه باختلاطـه بعناصـر مـن الأرض تمر عبر عروق الشجر فتتولد الثمار مـن النخيـل والأعنـاب، تقطفونهـا فتـأكلون منهـا وتدخرونها تمرا وزبيبا وذلك الرزق الحسن ، وتتخذون من عصيرها سكرا .

وفي تحول ماء المطر إلى لبن وتحوله إلى ثمـرات النخيـل والأعنـاب مـا يقـوم دلـيلا على تفرد الله سبحانه بالخلق والحكمة .

بيان المعنى العام :

65- والله أنزل من السماء ماء ...لآية لقوم يسمعون.

هذه الآية وما تبعها قد سبق في صدر السورة من آيـة 10ـلـى آيـة 13 مـا يتفـق فـي الظاهر معها . ولكن لهذه الآيات موقع خاص في الارتبـاط بمـا سـبقها قريبـا. فالآيتـان 64/63– أهم ما ورد فيهما: أن الشـيطان أثـر فـي البشـر فأضـلهم بتـزيين الشـرك ورفض عقيدة البعث فاختلفوا، وأن القرآن يهدف إلـى إخـراجهم مـن الاخـتلاف، وفـي ذلك أعظم رحمة.

وتهدف هذه الآية إلى تأكيد الدور الذي قام به القـرآن بلفـت النظـر إلـى كتـاب الكـون الذي يحقق أن الله واحد وأن البعث حق. في كتـاب الكـون لا يجـادل أحـد فـي أنـه لا يُنزل الماء من السماء إلا الله. فكل ما عبـد مـن دون الله باطـل فهُـزم الشـرك. وهـذا الماء النازل مـن السـماء يسـري فـي بـاطن الأرض فـإذا الأرض الجـرداء الهامـدة تتحرك فتربو، ويتخلل الماء باطنها، فإذا الزريعـة تتفلـق وتحيـا بعـد أن كانـت ميتـة، فيمد النبات جذوره في الأرض ويشق رأسُه قشـرتها الظـاهرة ليشـارك الكائنـات الحيـة

في الوجود. وهذا يثبت أن البعث حق. وختمت الآيـة بقولـه تعـالى: إن فـي ذلـك لآيـة لقوم يسمعون –لارتباطها بالآية السابقة فإن القـرآن يـؤثر تـأثيرا عامـا فـيمن يسـمعه، وكذلك يؤثر فيمن يسمع هذه الآية ليستيقظ للتدبر في تلكم الظاهرة الكونية فيهتدي .

66-وإن لكم في الأنعام لعبرة....خالصا سائغا للشاربين.

عطف القرآن على الظاهرة السابقة التي تدل على تفرد الله بالألوهية وإمكان البعث، عطف هذه الظاهرة العجيبة الدالة على إحكام الصنعة الإلهية في الكون. وترتبط بالآية السابقة، إذ أن محل الاعتبار هو ما ينشأ عن إحياء الأرض بالنبات ورعي الأنعام له، ثم صيرورته لبنا، وما بين مرحلة الرعي والتحول إلى لبن يشربه الإنسان .

تقرر الآية: أن ظاهرة امتلاء الضروع باللبن بعد رعـي الأنعـام للنبـات، تجـدون فيهـا عبرة تتجاوزون بها الظاهرة إلى ما وراءها مـن بـديع صـنع الله ودقـة الخلـق. الـذي يقوم دليلا على الوحدانية.

وأول ما تواجه به الآية العقل لتهزه هزا، هو الربط بين ماء السماء والأرض والأنعام والإنسان ربطا، عاجلاً بأن الله هو الذي يسقيكم هذه الألبان التي تدرها الضروع.

وتوضح الآية مناطق التأمل في الصنع الـدقيق العجيـب : أن تلكـم الألبـان تخـرج مـن بطون الأنعام، بما تحويه من أجهزة دقيقة ، مـع ضـوابط محكمـة فـي عمليـة التحـول من أعشاب هضمتها المعدة وبعثت بها إلى أجهـزة أخـرى فـي الـبطن، فحولـت قسـما منها إلى دم به يتم النشاط، وحولت قسما آخر إلى لبن، وحولـت قسـما ثالثـا إلـى فـرث تقذف به إلى المِعَـى الغلـيظ . فضـلات تلقيهـا الحيوانـات لتنقلـب أسـمدة تضـاعف خصوبة الأرض .ويبدو التقـدير المحكـم فـي خصـائص اللـبن الـذي كـان مختلطـا بالفرث والدم . فالفرث لو بقي في الحيوان لأسرع إليـه المـوت، وهـو مسـتقذر، والـدم به يتم النشاط ويتحول إلـى عنصـر تغذيـة لكـل خليـة مـن خلايـا الجسـم، ولكنـه مستقذر. ومن بين هذين يمر اللبن إلى الضرع فيـدخل فـي بنيـة الإنسـان خالصـا مـن القذارة سهل التناول، يمر من الحلق إلى داخل الجسم.

67-ومن ثمرات النخيل والأعناب ...إن في ذلك لآية لقوم يتقون.

آية ثالثة من كتاب الكون تتبع نزول المـاء مـن السـماء، يمـتن الله بهـا علـى البشـر. أخرج الله لكم بسقي السماء للأرض من ثمـرات النخيـل والأعنـاب مـا تتفكهـون بـه، وتتخذون من تلكم الثمرات سكرا أي مسـكرا . والآيـة مكيـة والخمـر حـرم بالمدينـة. وعطف على السكر الرزق الحسن، وفي ذلك إيماء إلـى أن الـرزق الحسـن فـي هـاتين

الثمرتين هو الانتفاع بأكلها وقت القطاف أو بادخارهـا تمـرا وزبيبـا، ممـا يشـير إلـى أن اتخاذ الخمر منهما ليس بالرزق الحسن مما يفتح الباب للنهي .

ثم الإشارة بأن ذلك آية للقوم الذين يعقلون، فيهـا إعـداد آخـر لتحـريم الخمـر وقصـر المنة على الأكل، باعتبار أن الخمر يحجب العقل.

وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٨﴾ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

أوحى : ألهم.

يعرشون : ما يرفعونه في مكان مرتفـع علـى أعمـدة ويسـقف أعـلاه بجريـد النخـل ونحوه، فيستمتع صاحبه بظله وبالمشهد .

السلوك: المرور وسط الطبيعة.

ذللا: جمع ذلول بمعنى مسخرة .

شراب : العسل .

بيان المعنى الإجمالي :

ألهم ربك النحل يا محمد إلهاما عجيبا فأعملوا فيه فكركم. تأملوا في هذه الحشرة الصغيرة كيف غرس الباري في طبيعتها، أن تتخير الأماكن العالية من الجبال ومن الشجر ومن المعروشات لتتخذ منها مساكن على خلاف طبيعة الحشرات الأخرى، وذلك لارتباطها بالإنسان فيما تصنعه .ثم ألهمها أن تسلك الطرق التي يَسَّرَها للسلوك فيها دون أن تضيع عن الخلية التي خرجت منها . تنتشر في الطبيعة فتتناول مما تخرجه الأشجار من ثمار عند نوْرها وبعد نضجها ما تتمثله، فتحيله في المعمل الدقيق في بطنها إلى شراب حلو المذاق مختلف الألوان تبعا للمراعي والفصول، يشفي من كثير من الأسقام.

بيان المعنى العام :

68←69: وأوحى ربك إلى النحل....إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون .

وأوحى ربك إلى النحل. بهذا الافتتاح المثيـر يلفـت القـرآن الأنظـار إلـى مشـهد فـي كتاب الكون. ثـلاث كلمـات متتابعـة – الـوحي – ربـك – النحـل. فلنأخـذها واحـدة واحدة، ثم نعطف بالجمع بينها:

1)الوحي: أصله الكــلام الخفــي، والإشــارة الدالــة كغمــز العيــون، وتقطيــب الوجــه، وحركة خاصة في اليد. والمراد به هنا ما أودعه الله في النحــل مــن إلهــام غرســه فــي جينومه، فسار به النحل في حياته . هــذا الإلهــام العجيــب الــذي عكــف عليــه علمــاء متتبعين للضبط الدقيق من التخصيب، إلى تنــوع الانتــاج إلــى ذكــور وإنــاث وخنــاثى، إلى مراحل النمو، إلى توزع الأعمال والمهام ، إلى ما تفــرزه مــن عســل، إلــى انتفــاع الإنسان منه. كل ذلك يسير بحكمة الخلاق العليم ويستمر مــع الــزمن. كــل نحلــة تــرث خصائص جنسها وتنفذ مهامها، وتتابع الحياة في هذا النوع من الحيوان الصغير.

وأول الخصائص التي لفتت الآية نظرنا إليهــا بيــوت النحــل المعبــر عنهــا بالأجبــاح، التي ألهمت طريقة في بنائها على أشكال مسدســات هندســية لا تختــل مقاييســها وتلــتحم فيما بينها، فلا يتخللهــا فــراغ بخــلاف بقيــة الأشــكال فإنــه إذا التأمــت قــد لا يكــون التحامها محكما، وبذلك يتم تحصــينها مــن الحشــرات ومــن تســرب الميــاه وتحــولات الطقس، وبعد امتلاء المســدس مــن العســل،تغطي عليــه لحفظــه بمــادة تفرزهــا هــي الشمع نفس المادة التي غطت بهــا المســدس . وللفتحــات التــي تخــرج منهــا وتــدخل مكان مخصوص يحفظ الخلية.

2) اختار القرآن لفظة ربك فجمع بذلك بين أمــرين : أن الــذي ألهــم النحــل هــو الــذي تتابعت عنايته بمخلوقاته فلا يهمل صغيرة ولا كبيرة، من قليــل مــا علمــه النــاس ومــن كثير ما جهلوه، فإن الدقائق التي أودعها فــي النحــل تقــوم شــاهدا علــى بــالغ العنايــة وحكيم التقدير .

2)أسند لفظ الرب لمحمد، ربــك) ليزيــده وثوقــا بكمــال عنايتــه بــه صــلى الله عليــه وسلم. فإنه إذا كان الرب قد اعتنى بالنحلة الحشرة الصــغيرة عنايــة مــا تــزال أســرارها تتكشف مع البحث عبر الزمن، فإن عنايته بك أعظم وأعظم.

3) النحل، أنقل عن الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بعــض مــا ذكــره رحمــه الله فــي التحرير والتنوير. النحلة ذباب، جرمــه ضــعفي جــرم الــذباب المتعــارف. لــه أربعــة أجنحة، وتحت خرطومه شوكة يلسع بها للدفاع عــن نفســه، ســمها ضــعيف، تمــوت إذا انفصلت شوكتها منها. وهي ثلاثــة أصــناف ذكــر، وأنثــى، وخنثــى .وظيفــة الــذكور حماية الجبح تحوم حوله وتلقح الإناث لتلد به الإناث إناثا.

اليعسوب : وهي أضخم جرما من بقية النحل وهــي التــي تلــد الإنــاث إذا لقحــت وتلــد الذكور بدون تلقيح .وهي ملكة الخلية فهي واحدة فيها .

الخنثى : هي التي ترعى الزهور والثمــار وتفــرز العســل، وهــي أصــغر جرمــا مــن الذكور، وهي معظم سكان الخلية .

ومن الإلهام تخيُرها للأماكن الرفيعة لبنــاء بيوتهــا. مــن الجبــال، ومــن الشــجر، ومــن المعروشات التي يرفع عليهــا الفلاحــون الأغصــان لينعمــوا فيهــا بالظــل مــع حفــظ الثمرة.

– وفوق ما تقدم من تخير الأمكنــة الرفيعــة لبنــاء بيوتهــا، إبــراز مــا أُلهمتــه لبقائهــا والقيام بدورها في الكون. إذ سجلت الحكمــة الإلهيــة فــي جينومهــا تتبــع الثمــار مــن بداية نورها إلى تمام نضجها لتتمثل مــن رحيــق الأزهــار ومــن ســائل الثمــار المــادة التي تصنع منها العسل .

كما أعانها تبعا لطبيعة أجنحتها أن تتنقــل مــن زهــرة إلــى أخــرى ومــن شــجرة إلــى شجرة ومن مكان إلى مكان أبعد دون أن تُضــيع خــط ســيرها، لتعــود بعــد أن تمتلــئ من المادة التي تحولت في بطنها إلى عسل فتعمر به مسدسا من الجبح .

وقد سخر الله طرق سيرها. ورأيت لبعض العلمــاء أن النحلــة إذا كشــفت مرتعــا جيــدا أو أحست بما تريد أن تبلغه إلى أخواتها، تطير حســب حركــات وخطــوط مقــدرة، يفهــم منها بقية النحل الرسالة التي أرادت إبلاغها. وهو مــن التقــدير العجيــب الــذي لــم يبلــغ البشر إلى اليوم حل شفرته .

فأشارت الآية إلى الترتيب المحكم في تــرابط الكــون بتقــدير مــن خالقــه؛ فــإذا مــاء السماء يسري من الأرض إلى الأشجار، فتخــرج منــه الأزهــار والثمــار التــي ترعاهــا النحل، وإذا النحل يفرز من بطنه ما جمعه برعيــه عنــد ســيره فــي الطبيعــة، يفــرزه عسلا يتناوله البشر، فيجدون فيه شفاء من أسقامهم .

ومن الدقة في التعبير القرآني تنكير كلمــة شــفاء، فعــدم تعريفهــا يــؤذن بوجــود شــفاء غير عام لجميــع أنــواع الأســقام. وهنــا تــدخل عوامــل كثيــرة قــدرها رب العــالمين ليحصل التأثير، كمرعى النحل، ومزاج المتنــاول، والمقــدار الصــالح للتــأثير، والظــرف الزماني الذي يتم فيه التناول وغير ذلك.

وتختم الآية، بلفت الأنظار لتتبين ما نظمه الباري في حياة النحل وصلتها بالإنسان، حتى يتعمق في ذلك بواسطة تفكيره، فيجد فيه دليلا إضافيا على القدرة والإحكام، وما في بناء الكون من ترابط أوسع من أن يستطيع الإنسان جمع خيوطه.

وكان بعض المتملقين في مجلس المهــدي قــال : إنمــا النحــل بنــو هاشــم يخــرج مــن بطونهم العلم فقال له رجــل :جعــل الله طعامــك وشــرابك ممــا يخــرج مــن بطــونهم.

فضحك المهدي وحـدث بـه المنصـور، فاتخـذوه أضحوكة مـن أضـاحيكهم. وحقـق الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: أن الذي رد عليه الـرد المناسـب لتجرئـه علـى كتـاب الله، وتحميله ما لا يتحمل تقربا من السلطان، هو بشار بن برد.

وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ ۚ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾

يان معاني الألفاظ :

أرذل العمر : حال هرم البدن وضعف العقل. والرذالة أخس من الرداءة.

الراد : المعطي.

انفسكم : من نوعكم.

الحفدة : جمع حافد يراد به ابن الابن.

الطيب : الحسن الخالص من النكد.

بيان المعنى الإجمالي :

هو الله وحده الذي خلـق كـل إنسـان علـى وجـه الأرض دون أن يكـون للمخلـوق أي اختيار لا في إيجاده ولا في سماته الخاصة المميزة لـه عـن بقيـة أفـراد النـوع. وهـو الذي يسلبه الحياة في مرحلة من مراحل قوته، أو يمهلـه إلـى أن يغلـب عليـه الضـعف والوهن في بدنه وفي قواه العقلية حتى يكاد لا يـذكر شـيئا ممـا كـان يعلمـه. إن ذلـك أوضح دليل على اتصاف الله بالعلم الشامل والقدرة على إنجاز ما علم أنه سيوجد.

مما تفرد الله به من التصرف فـي قضـايا البشـر، أنـه هـو الـرازق لكـل نفـس مـا تحصل عليه، وتفضيله بعضهم على بعـض، فمـنهم غنـي وفقيـر. والفقـر والغنـى وإن كانا أثرا لأسباب بها تحققت التوسـعة أو التضـييق ، إلا أن الإحاطـة بهـا فـوق طاقـة البشر . وتخلصت الآيـة للاحتجـاج علـى انحـراف تفكيـر الكفـرة، فهـم يـدعون لله شركاء، مع أنهم لا يعطون عبيدهم مـن أمـوالهم مـا يشـركونهم بـه، فكيـف يشـركون بالله أصنامهم؟ والله وحده هو الـذي جعـل للرجـل امـرأة وللمـرأة رجـلا يـتم بينهمـا التكامل حتى يصبحا كأنهما نفس واحدة علاقتهمـا تتجـاوز الإشـباع الجنسـي إلـى بنـاء

أسرة تقوم على العواطف النبيلــة والــود والرحمــة . يســتمر هــذا الامتــزاج بالإنجــاب الموصول فيجد الزوجان في أحفادهما عونا عند الكبر والحاجــة، وأتــم منتــه بمــا يســره من مال وما وفره من مــأوى وطعــام ولبــاس ومــن رفاهيــة تتسـع أو تضــيق تبعــا لتقديره سبحانه .

والعجب من أمر الإنسان الذي يعتقد في الباطــل الــذي لا أســاس لــه ولا حقيقــة، يعتقــد في الأصنام ويتقرب إليها ويكفر بالله.

بيان المعنى العام :

70- والله خلقكم ثم يتوفاكم ....إن الله عليم قدير.

تتابع هذه الآيات كاشفة عن انفراده سبحانه بالتصــرف فــي ذات الإنســان وفــي رزقــه تصرفا ليس للإنسان فيه اختيار ولا تأثير . فلنتأمل في مضــمون الآيــة التــي كثيــرا مــا يغفل الإنسان عن التأمل والاعتبار به .

أولا : خَلْقُ الإنسان: خروجه للحياة بنفخ الــروح فيــه، صــفاته الخاصــة مــن طــول أو قصر، ومن لون، ومن جمال أو دمامة، ومــن ذكــاء أو غبــاء، وجنســه ذكــرا أو أنثــى إلى آخر ما يميز كل فرد عن غيره. فهل كان لأي فرد اختيــار فــي الوضــع الــذي هــو عليه . إن الله وحده هو الذي خلق . وكما دخــل الإنســان للحيــاة فكــذلك يخــرج منهــا بدون إرادته. وكيف يقضي الإنسان حياتــه ؟ يقضــي ردحــا مــن الــزمن وهــو مقبــل عليها مسرورا بها ومنعما راغبا أن تطول أيامه، ثــم ينحــدر فتتهــدُ قــواه شــيئا فشــيئا، وتضعف شهيته للأكل، وتيبس مفاصــله، ويضــعف بصــره وســمعه ، ويتتــابع ســقوط أسنانه، ويصيبه الوهن، وما يــزال النســيان وضــعف الــذاكرة يغــزوان بريــق فكــره حتى يكاد لا يرتسم في ذهنه شيء إلا ليسقط ســريعا. ومــن حكمــة القــرآن تخصيصــه لوضع الفكر من بين أعراض الهرم، لأن تميز الجنس البشري بعقله لا ببدنه.

إن من ينظر في تاريخ البشرية التي تواصل أفرادها من آدم إلى اليوم، لا يظفر بفرد هو نسخة مساوية لغيره من أعضاء العائلة البشرية. فمن قسم لكل حظه وخصائصه وحباه بألطافه إلى أن اشتد عوده وأسهم في خلافة الأرض، ثم هدَّم تلك القوى شيئا فشيئا إلى قبض روحه؟ أفلا يقوم هذا التدبر في خلق الإنسان شاهدا على تفرد الله بالعلم الكامل، والقدرة التامة على إنجاز ما ثبت في العلم إيجاده . وصدق الله: إن الله عليم قدير.

71- والله فضل بعضكم على بعض ...أفبنعمة الله يجحدون .

ثانيا: في نفس سياق الآية -70- تلفت النظــر إلــى تفــرد الله بالتصــرف، وتــدمج فــي اثناء الاستدلال توبيخا للمشركين .

تثبت الآية أولا: أن الله أعطى لكل كائن رزقه، ولولا رزقه لما سار لحظة في الوجود.
وثانيا: إن الأرزاق تضـيق وتتسـع تبعـا لتقـدير إلهـي تعجـز مـداركنا عـن كشـف الأسباب الحقيقية التي ترتب عنها الثراء أو الفقر. فهـو قـد فضـل بعضـنا فوسـع عليـه فيما آتاه من مال، وضيق على آخرين فهم يعانون مـن الخصاصـة .تجـد الـذكي العـالم يحارب الفقرُ سعادتَه، وتجد الغبيَ الجاهل يكثـر مالـه وتنمـو ثرواتـه، ويحالفـه الحـظ في معاملاته . وفي كثير من الأحـوال تجـدهما مـن أسـرة واحـدة اتحـدت تربيتهمـا، واتحدت البيئة التي يعملان فيها . أفلا يقوم ذلك دلـيلا علـى أن الموسـع والمضـيق هـو الله، وأن التصرف بيده تبعا لحكمتـه وإن كانـت إمكاناتنـا تقصـر عـن إدراك الأسـباب الخفية التي تحقق بها الأثر من الغِنَى أو الفقر . وينسب إلى الإمام الشافعي قوله:

ومن الدليل على القضاء وكونه *** بؤس اللبيب وطيب عيش الأحمق

ثم أدمجت الآية مفرِّعة على التفاوت في الـرزق وحـرص الإنسـان علـى مكتسـباته، أن الإنسان الموسع عليه في المال يمسك مالـه لنفسـه ولا يرضـى أن يشـاركه فيـه عبيـده الذين يتصرف فيهم، فقوله تعالى : [ما ملكـت أيمـانهم] تعبيـر يسـاوي كلمـة عبيـده، لما كانت العبودية المفيدة لملك السـيد تتحقـق بأحـد أمـرين: إمـا أسـر العـدو فينقلـب رقيقا. والأسر هو قهر أحد المتحاربين مـن يقاتلـه فيمسـك بـه بقـوة يمينـه، وإمـا أن يشتريه بدفع ثمنه الذي يكون عادة باليمين .

إن هؤلاء الأثرياء لا يرضون بأن يعطوا رزقهـم إلـى عبيـدهم حتـى يكونـوا شـركاء فيه متساوين. فكيف يثبتون لله شركاء يساوونه في ملكه؟ أفـلا يـدل هـذا علـى مناقضـة الشرك للعقل والفطرة.

وحق أن يتوجه لهم التوبيخ والتقريـع علـى مقـابلتهم الـنعم بكفرانهـا، فسـألهم سـؤال إنكار وتوبيخ أيجحدون نعمة الله عليهم ؟

72-والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا...وبنعمت الله هم يكفرون .

ثالثا: في نفس سياق الآيتين السابقتين يظهر النص القرآنـي منـةً ثالثـة وتـأثيرا مباشـرا لله وحده في حياة الإنسان يتمثل في :

أن الله جعل لكل من الجنسين ما يربطه بالجنس الآخر ربطـا أخـص مـن التوافـق فـي الخصائص الإنسانية، إذ هو ارتبـاط يقـوَى حتـى يكـون بـه الزوجـان كأنهمـا نفـس واحدة. إن هذا التكامل مع التمازج بلغ به التعبير القرآنـي (مـن نفـس واحـدة) صـفاء وشفافية تقتضي لبيان أبعادها كلاما مطولا وتفصـيلا، ولكـن الظـلال التـي يـوحي بهـا تفتح آفاقا واسعة، كلما أعاد التالي تمثلها غذته بلطيف المعاني وبديع الأحاسيس.

وهي نعمة من جعْلِ الله، ليس للإنسان فيهـا يـد. فلـولا تلكـم الرعايـة الربانيـة لكـان البحث عن الجنس الآخر يثور عند الشـبق الجنسـي، حتـى إذا خفتـت داعيـة الشـهوة انفصل كل واحد منهما عن الآخر، كما هو شأن الحياة الحيوانية.

ثم تحققت المنة، بجعْلٍ آخر مقرون بالأصـل :هـي الصـلة المسـتمرة مـع المسـتقبل في أولاد الأولاد (الحفدة)، منـة الأسـرة المحضـن الـذي يمتـد مـن الأبـوين إلـى الأولاد وإلى ما ينجبونه . إنه إذا ربيت الأسـر علـى الأصـول الإسـلامية فـإن الجـدود والجدات يجدون في الجيل الثاني أعوانا ومساعدين، وكلمـة الحفـدة أصـلها يـدل علـى الإسراع في الخدمة، فتشير الكلمة حسب بنائها إلى ما غـرس فـي الفطـرة مـع حسـن التربية من إسراع إلى الأخذ بأيدي الكبار من الصغار، وتيسير حياتهم .

و هذه النعمة يتم بها صلابة الارتباط النسبي . فيحمـل الأولاد اسـم العائلـة، ثـم يسـير به الأحفاد مع المستقبل. وكون الإنسان يعـرف نسـبه نعمـة كبـرى يغفـل عـن التنبـه إليها معظم الناس.

-إنه لا تتم السعادة والأنس في العائلة إلا بفضل ما يسَّره الله مـن مـال ومـا مكنهـا مـن أرزاق ؛ من المأوى إلى الطعام واللباس، إلى مـا يتـوفر مـن أسـباب الرفاهيـة علـى ما تم تقديره كما جاء في الآية-71-

وتختم الآية كما ختمت الآية السـابقة بسـؤال إنكـاري يـوبخ المشـركين كيـف يقـابلون هذه المنن باعتقادهم في الأصنام الباطلة، ويكفـرون بحـق المتفضـل علـيهم، حقـه فـي اعتقاد وحدانيته، وفي عبادته، وفي التقرب إليه.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا ۖ هَلْ يَسْتَوُۥنَ ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ ۖ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ ۙ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

يملكون : يقدرون.

مثلا : مماثلا.

العبد : المملوك الفاقد لحرية التصرف في نفسه وفي ماله.

الكل :العاجز عن القيام بشؤونه ويقوم بها عنه غيره .

مولاه : كافله .

يأمر بالعدل : يأمر بالحق والصواب.

الصراط المستقيم : الطريق الواضح الذي لا التواء فيه .

بيان المعنى الإجمالي :

ينكر القرآن على المشركين عبـادتهم لمـن لـم يسـتطع أن يعطـيهم أي شـيء لا مـن السماوات ولا من الأرض، ويصاحبهم العجـز فـي المسـتقبل، ممـا يـدل علـى فسـاد عقولهم . فإياكم أن تُقَرِّبوا ما اختص الله به، بمحاولة تشـبيهه بمـا يرتسـم فـي أذهـانكم. لا من الموجودات المادية ولا الخياليـة. فـإن علمكـم محـدود، وعلـم الله لا محـدود ولا يستطيع المحدود أن يدرك اللامحدود.

قرب الله الحقيقة بضرب مثل حاصله التنظير بـين رجلـين : الأول : عبـد فاقـد للحريـة عاجز لا يتصرف في نفسه ولا يملك شيئا، والثاني : حـر ذكـي رشـيد رزقـه الله رزقـا واسعا من خير ما يتنافس فيه أصحاب الثراء، لا أحد يحـدد لـه التصـرف فيمـا يملـك، ثم هو يستمتع برزقه ينفق منه بحكمة وذوق .فهـو محبـوب مـن عائلتـه مشـكور ممـن لحقهم سخاؤه . هل الرجلان مستويان؟ ولمـا كـان التنظيـر المقـرب فـي القسـم الأول هو للأصنام العاجزين، وفي الثاني مثل للتصـرف الإلهـي، فـإن اللسـان يسـرع بحمـد الله وشكره. وما صرفهم عن شكره وإخـلاص العبـادة لـه إلا جهـل كثيـر مـنهم وهـم الدهماء، والأقل يعلم الحقيقة ويخفيها إيثارا لمتاع الحياة الدنيا.

وضرب الله مثلا ثانيا يظهر عجز معبـوداتهم التـي مثلهـا القـرآن منظِّـرا لهـا برجـل أخرس لا ينطق ولا يستطيع أن يعبر عما في نفسـه، وهـو عـاجز عـن تـدبير أمـره، فيقوم مالكه بجميع شؤونه .ثم إن مالكه إذا أراد أن يسـتعين بـه فـي قضـاء حاجـة مـن حاجاته لا يأتيه بما طلبه منه لغبائه . هذا الرجل التي مواصـفاته مـا بينتـه الآيـة هـل يدعي من له عقل، أنه هو ومـن يكـون عـاقلا حكيمـا لا يغيـب عنـه أي جانـب مـن جوانب الحقيقة ويأمر بها. وهو سائر في طريق واضـح لا خفـاء فيـه ولا التـواء أنهمـا سواء ؟ وكذلك من يعبد الأصـنام التـي لا تسـمع ولا تبصـر ولا تغنـي عـن عابـدها شيئا، ومن يعبد الله المتفضـل علـى الإنسـان بتبيـين الحـق والهدايـة إلـى الصـراط المستقيم المنجي .

بيان المعنى العام :

73- ويعبدون من دون الله ما لا يملك...ولا يستطيعون .

سياق الآيات واحد، الدعوة لتوحيد الله ونفي الشرك، وتثبيته بالنعم التي اختص بإسدائها رب العالمين. فهذه الآية تنكر على المشركين عبادتهم للأصنام، والإعراض عن عبادة الله، مع أن تلكم الأصنام لم تقدر على إعطائهم أي مقدار من الرزق الذي ينعمون به من بدء إيجادهم إلى بلوغهم مستوى النضج والقوة. هي عاجزة عن تمكينهم شيئا من الرزق أيا كان مورده، لا من السماوات ولا من الأرض، وهي لا تستطيع أن تنيلهم شيئا في المستقبل، والآية تتضمن توبيخا مبطنا لما قادهم إليه سخافة تفكيرهم.

74-فلا تضربوا لله الأمثال...وأنتم لا تعلمون.

تتابعت الآيات السابقة معرفة بما اختص الله به من القدرة والحكمة والإنعام، وتأكد فيها أنه هو المتصرف في شؤون الخلق لا رب غيره ولا معبود سواه .ومن لوازم التفرد بالخلق أن يأمر عبيده ويوجههم إلى ما فيه خيرهم، وأن ينهاهم عن سلوك الطرق المضللة . فجاءت هذه الآية متضمنة نهي الناس جميعا أن يقيموا أي مقارنة بين الله وبين كل تصور يأتي من الواقع أو من الخيال. ويُقَرِّبُ هذا المضمون للأذهان ببيان علة النهي؛ إن الله تفرد بالعلم الشامل لما وجد ولما سيوجد وللواجب وللجائز وللمستحيل. وعِلْمُ البشر قاصر، لا يستطيع أن يبلغ في أي جزئية من عالم المشاهدة، فضلا عن غيره، الكشف الكامل الذي يتجلى به الموضوع تجليا لا يبقي أي غموض. فإذا كان علم الإنسان يحجبه عن إدراك حقائق الموجودات الحادثة حُجُب هو عاجز عن النفاذ لما وراءها، فمحاولته تمثيل الله ضلال مبين. لأنه من الحقائق العقلية أن القاصر والمحدود لا يصل إلى أن يسع الكامل واللامحدود.

75- ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر...بل أكثرهم لا يعلمون.

يواصل القرآن بطرق شتى إقناع البشر بحقيقة تَفَرُّدِ الله بالخلق والتصرف والرزق. فصيغت هذه الآية صياغة تمثل ذلكم المفهوم بما حاصله : يقرب الله لأذهانكم بالتنظير بين رجلين مختلفين اختلافا كبيرا .

الأول: عبد مملوك فاقد لحرية التصرف في ذاته، ولا يملك شيئا فضلا عن أن يتصرف فيه. أحاط به العجز فأفقده كل قدرة ؛ تصور ما شئت فيه من النقائص كالعمى والصمم والزمانة وفقدان العقل .وهذا ما يمثل أصنامهم، إذ هي حجارة منحوتة في الغالب .

الثاني : حُرٌّ مالك أمر نفسه، وسع الله عليه في رزقــه، فآتــاه المــال الكثيــر الجيــد مــن أفضل ما يتنافس فيه النـــاس ؛ ثــم إنـــه تبعــا لحصـــافة رأيـــه وحســـن ذوقـــه، ونبيـــل عاطفته، لا يختزن ذلك المال كحارس عليه، ولكنه يســـتمتع بـــه فيتصـــرف فيـــه تصـــرف العاقل السمح، ينفق منه حسبما يهديه إليه حسن تـــدبيره ينفـــق ســـرا وجهـــرا دون رقيـــب عليه .

يختم التنظير بين المثلين بسؤال، هل يستويان ؟ لا يســـتدعي الســـؤال جوابـــا لأنـــه لشـــدة وضوحه ليس له إلا جواب واحد، لا مساواة بينهما.

ولكن القرآن بإعجازه يحـــول الجـــواب إلـــى إعـــلان مـــا ترســـخ فـــي ضـــمير النـــاظر والتالي،" الحمد لله " تفرد الله بالحمد والثناء والشـــكر فهـــو الكامـــل المتفضـــل، وســـبحانه أن يكون له شريك .

ثم ختمت الآية بإعلان: أن أكثر المشركين ما ســـوغ لهـــم اعتقـــاد شـــركاء لله إلا ترســـخ الجهل فيهم؛ والتعبير بالأكثر جار علـــى الدقـــة القرآنيـــة، فـــإن بعـــض المشـــركين يعلـــم الحقيقة ولكن لا يظهرها ولا يعلن عنها تغليبا لحظوظهم الدنيوية.

76- وضرب الله مثلا رجلين أحدهما...وهو على صراط مستقيم .

أضاف القرآن للمثل الأول مثلا آخر تأكيدا للبيان والتوضيح. فضرب الله مثلا برجلين :

1) رجل أبكم، فاقد لما تميز به الإنسان باعتباره كائنـــا اجتماعيـــا، هـــذا الكـــائن الـــذي لا يمكنه أن يندمج في المجتمع إلا بفضـــل مـــا رزق مـــن النطـــق، ولـــذا عـــرف المناطقـــة الإنسان بأنه حيوان ناطق، والنطق قد يكـــون بالفعـــل؛ وهـــو الـــذي يســـتطيع أن يتحـــدث بالكلمات ويبلغ ما في نفسه بالكلمـــات والجمـــل، ويُســـمِعها غيـــره . وقـــد يكـــون بـــالقوة وهو الذي في لسانه حبسة أعجزته عن الـــتكلم بالصـــوت ولكنـــه يســـتطيع أن يبلـــغ مـــا في نفسه بالإشارة والكتابة والحركات. والقســـم الثالـــث هـــو العـــاجز عـــن التفاعـــل مـــع غيره لا بالصوت ولا بالإشارة. وهـــذا هـــو المـــراد بـــالأبكم الأخـــرس فـــي الآيـــة .لأن الأصنام المعبودة للمشركين هي كالنوع الأخيـــر. وهـــو مـــع ذلـــك عـــاجز لا يســـتطيع أن يقوم بأي شأن من شؤونه، بل هو يعتمـــد علـــى مالكـــه (**كَـــلٌّ علـــى مـــولاه**) لا يهتـــدي للخير أبدا. فكلما طلب منه سيده قضاء أمر لا يرجع إليـــه بمـــا طلبـــه، ومـــا أشـــد شـــقاءه بهذا العبد، وهو مثل للأصنام التي يجهـــد عُبّادهـــا فـــي نقلهـــا وتنظيفهـــا وحراســـتها ولا يستفيدون منها شيئا ولا تعقل عنهم شيئا.

2)أما المعادل فلم يبسط القرآن صـــفاته كمـــا تـــم فـــي الآيـــة الســـابقة تفننـــا فـــي تبليـــغ المقصود، واكتفى القرآن بالسؤال عن التسوية بين هـــذا المثـــل الســـيء وبـــين مـــن بلـــغ

من الحكمة أنه لا يأمر إلا بالعــدل، علــى أن الميــزان عنــده لا اخــتلال فيــه، فمعرفتــه بالصواب في كل أمر معرفة كاملة، ولا يتوقع أنه يغفــل عــن أي جانــب ممــا يمكــن أن يلابس ما أمر به . وبالجملة فهو متمكن مــن الســير علــى الطريــق الهــادي الواضــح، الطريق الذي تبدو غايته منذ البداية لا التواء فيه ولا عوج.

والمثل الأول المضروب يمثل وضــع المشــركين مــع أصــنامهم التــي لا تــدرك شــيئا وحاجتها إلى عُبّادها محققة وحاجة عُبّادها إليها معدومــة، وبــذلك تُمكــن فــي ضــلالهم، وتَنْزِل بهم عن المستوى الإنساني. والمثــل الثــاني لكمــال الله تعــالى فــي ذاتــه وفــي هدايته للبشرية وتــمكينهم من النعم الجليلة.

﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

غيب السماوات : ما هو موجود فيها ولا تستطيع مدارك الإنسان أن تصل إليه.

أمر الساعة : الشأن العظيم في لحظة فناء الكون كله .

لمح البصر :إدراك البصر للمرئي.

الفؤاد :العقل

بيان المعنى الإجمالي :

تفرد الله بعلم كل دقيقة من دقــائق مــا حوتــه الســماوات والأرض. والإنســان لا يــدرك إلا بعض الظواهر، وهو محجوب عن الإحاطة بكل ما حــواه الكــون .إنــه ممــا اخــتص الله بعلمه، وهو الغيب . هذا الكون الواسع الأبعــاد المتغيــر فــي كــل حــين، وُجِــدَ مــن عدم وسينتهي في الوقت المحدد لــه مســبقا الــذي لا يعلمــه إلا الله، ســيتم إعدامــه فــي لحظة وجيزة بمقدار ما ينقل البصر صورة ما يراه ، بــل أقــل مــن ذلــك وهــذا لــيس بعيدا لأن قدرة الله لا يعجزها شيء .

إنه بقدرة الله وإرادته خرج كل واحد منكم من بطن أمــه صــفحة بيضــاء لا يعلــم شــيئا من هذا الكون، والله هو الذي أودع فــيكم الحــواس الخمــس التــي بهــا اســتطعتم إدراك ما يجري حولكم، وجعل لكم عقــولا تختزنــون بهــا المحسوســات وتُركِّبُــون بهــا مــع المعقولات ما يمكنكم من الاستخلاف فــي الأرض وتوســيع المعــارف البشــرية. رجــاء أن تدركوا هذه النعمة فتنطلق ألسنتكم بشكر الخلاق العظيم .

بيان المعنى العام :

77-ولله غيب السماوات والأرض...على كل شيء قدير.

عِلْمُ الإنسان بما حوته الأرض وما حوته السـماوات محـدود جـدا، ومـا يجهلـه عنهـا أكثر مما يعلمه. والله لا يغيب عن علمـه شـيء، مـا كـان صـغيرا تافهـا ومـا كـان عظيما جدا كالمجرات .ومما هو مغيب عن علـم البشـر الوقـت الـذي حـدده الله لفنـاء الكون .إن فناء الكون أمر ثابـت لا شـك فيـه أخبـر بـذلك خالقـه، الله رب العـالمين. ويشهد العقل بذلك لأن التغيرات التي تجري علـى العـوالم تُثْبِـتُ بمـا لا مجـال للشـك حدوثها، وأنها خرجت من عدم، والقدرة التـي أوجـدتها لا تعجـزعن إنهـاء وجودهـا. وقدر الله أن يتم ذلك بغتة فلا يعلم أحد متى حدوث السـاعة، وفـي سـرعة كبيـرة جـدا، قَربَ ذلك بالزمن الذي يحصل فيـه ارتسـام صـورة أي شـيء فـي البصـر. وللتـدقيق فإن إفناء العالم يتم في لحظة أقل من ذلك. ومما يحقـق ذلـك وينفـي عنـه كـل بعـد أن الذي يفني العالم هو الله الذي لا يوجد ما يعاكس قدرته بل ينقاد كل شيء لما يريده.

78- والله أخرجكم من بطون أمهاتكم ....لعلكم تشكرون .

تحقق هذه الآيـة الألطـاف التـي انفـرد الله بإسـدائها لخلقـه. سـاعد الإنسـان علـى المعرفة، هذه المعرفة التي تنمو شيئا فشيئا، وتتكـون منهـا شـبكة متلاحمـة، هـي حـظ الإنسان المقدر له منها. يُذَكر القرآن كـل فـرد أنـه ولـد فنـزل مـن بطـن أمـه إلـى الأرض، وحواسه تكون غير ممرنة علـى الإدراك وقـت خروجـه. ؛ ثـم تحصـل لـه المعلومات الحسية ثم المعنوية شيئا فشـيئا. وأول قنـوات المعرفـة هـو مـا يـأتي عـن طريق الحواس الخمسة، التي من أقواها في المخزون المعرفـي مـا وصـل عـن طريـق السمع والبصر ولذلك خصت بالذكر. ثم إن هذه المـدركات الحسـية تختـزن فـي العقـل الذي يولد منها ومن المجردات معارفه التـي تضـيق أو تتسـع تبعـا لتجاربـه، و نباهـة فكره، وقدرته على التركيب من الأوليات النتائج التـي فيهـا يتمـايز البشـر بمقـدار مـا يبلغون من صواب الاستنتاج .

وهذه النعمة التي سمت من الحـواس إلـى العقـل ناسـب أن يتبعهـا رجـاء أن يقـدرها البشر حق قدرها فيشكرون الله على ما أنعم ويقبلون على الإسلام .

أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ
لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ
ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا

وَأَشْعَارِهَا أَثَثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ
ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ
كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ
ٱلْمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الجو : ما يلي الأرض من السماء .

يمسكهن : يحميهن من السقوط .

سكنا : مكانا للسكنى والاستقرار .

تستخفونها : تجدونها خفيفة .

الظعن : السفر.

الأثاث : ما يفرش في البيوت كالزرابي، والوسائد .

المتاع: ما يساعد الإنسان في حياته كالأعدال، وخطام البعير، واللبد .

أكنان : جمع كن، ما يقي من البرد والحر في الغيران والكهوف .

السرابيل : جمع سربال، القميص الواقي للجسد .

البأس : الشدة في الحرب.

التولي : الإعراض.

بيان المعنى الإجمالي :

ما بال البشر لا يتأملون في التقدير الإلهي العجيب، في تنظيمه لأمر الكون ؟ فتلك الطيور تسبح بين السماء والأرض، لا يمسكها في الجو إلا القانون الدقيق الذي ركبه الله عليها. إن في طيرانها وما يرتبط به من صنعة تم تدبير كل جزء منها ليقوم معرفا بالدلائل على تصرف الله وحده بالخلق وحكمته فيه، ويجد فيه المؤمنون الطمأنينة الراضية.

والله هو الذي هداكم للعمل فيما بين أيديكم، فاتخذتم منه بيوتا تسكنون فيها، كما هداكم لا تخاذ بيوت هي قباب من جلود الأنعام، أو من الخيام التي تنسجونها من الوبر والشعر والصوف، خفيفة الحمل سهلة الطي والنشر، في السفر والإقامة. كما هداكم لاعتماد أصواف الأنعام ووبر الجمال وشعر المعز لتتخذوا منها الأثاث كالزرابي والبسط والوسائد، وتنتفعون بها ما تكونون منه ما تستمتعون به متاعا هو إلى أمد محدود.

والله قدر أن تبسط المخلوقات القائمة ظلالها فتأوون إلى ظلالها لتلطف عليكم وهج الحر وأشعة الشمس الحارقة ؛ كما قدر أن تنفتح في الجبال كهوف تجدون فيها ما يحميكم من الأعاصير وتقلبات الطقس .كما ألهمكم اتخاذ اللباس الذي يقيكم الحر ويقيكم البرد، ونسج الحديد ليحصنكم من ضرب أعدائكم في القتال، هي نعم تجدون فيما تجمع فيها من ألطاف ما ينفذ إلى عقولكم فتكونون أقرب إلى اعتناق الدين الإسلامي .

لا تتأسف يا محمد ولا تحزن بسـبب عناد مـن لـم يسـلم فمهمتـك لا تتعـدى إبـلاغ الوحي وتبيينه، وقد قمت بمهمتك على أكمل وجه .

يسلي الله نبيه بإعلامه أن الذين لم يسلموا، بعضهم تبين له أنك على حق وعرف نعم الله، ولكنه أعرض معرضا ومنكرا لها في الظاهر خوفا على ذهاب حظوظه الدنيوية، والأكثرية من الدهماء لم يتأملوا فيما لفت الوحي إليه أنظارهم فثبتوا على الكفر.

بيان المعنى العام :

79- ألم يروا إلى الطير مسخرات...لقوم يؤمنون .

في كل صفحة من كتاب الكون مشاهد تنـادي بـأن وراء نظامهـا مـدبر حكـيم، ولكـن تَعَوُّدَ الإنسان بالمشهد، قد يحجب عنه ما فيـه مـن تقـدير عجيـب وتـدبير بـالغ أعلـى درجة من الإتقان. يلفت القرآن الأنظار ليكون ما تنقله إلـيهم حواسـهم ينفـذ إلـى العقـل فتسمو مداركهم عن إدراك الحيوانات. إن هـذا التأمـل مفتـاح للتقـدم العلمـي، ومفتـاح ليكون الإيمان أوضح وأشمل.

هذه الآية تُفْتَحُ باستفهام لتحرك التالي للتأمـل فـي الطيـور التـي يراهـا صـباح مسـاء تخترق الأجواء صاعدة نازلة فـي يسـر وحفـظ. إنهـا قـد اسـتطاعت أن تنفلـت مـن جاذبية الأرض، التي ما ارتفع جسم فـي السـماء بقـوة دافعـة، إلا وتُضْـعِفُ الجاذبيـة القوة التي رفعته شيئا فشـيئا حتـى يسـقط علـى الأرض. وتـرى الطيـور تعلـو فـي السماء حتى يبلغ بعضها أعلى قمم الجبال، ولا يمسـكها إلا القـانون الـذي خلقهـا عليـه بارئها . وتصرح الآية في خاتمتها بـأن فـي طيـران الطيـور دلائـل تزيـد المـؤمنين إيمانا، كخفة عظامها، والأجنحة والريش والـذنب، والإرادة التـي تحـرك أجهـزة معقـدة فتحركها الحركة التي تـدفع بهـا وتعلـو فـي الجـو وتسـير يمنـة ويسـرة وارتفاعـا وانخفاضا، وعودة إلى الأرض ثم الطيران من جديـد . فـي كـل جزئيـة مـن التركيـب المتقن للطائر الذي تمكن به من الطيران مـع تحقـق سـلامته، دليـل علـى أن الوضـع الذي عليه يستحيل أن يكـون مـن بـاب الصـدفة ؛ وأن الـذي رتـب تركيبـه هـو الله سبحانه الذي أحسن كل شيء خلقه .

80-والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ...ومتاعا إلى حين .

تواصل الآية لفت الأنظار لنعم الله على الإنسان؛ فمنها أنـــه ألهمـــه السـعي لتشـــييد بيـــت يجد فيه راحته، ويحفظه من تقلبات الطقس، وتجتمع فيـــه الأســـرة، وتتحقـــق بـــه رعايـــة الأصول لفروعها. وتتجاور البيوت فتنشأ المدن ومـــا يتبعهـــا مـــن التعـــاون ســـبيل التقـــدم الحضاري .

ونظرا للتركيب الإنساني الخاص الذي هو بين الإقامـــة والارتحـــال، ألهمـــه فـــي الحالـــة الأخيرة اتخاذ القباب من جلود الأنعام الحافظـــة للســـاكن داخلهـــا حفظـــا يقـــارب البيـــوت المبنية، أو اتخاذه الخيام ممـــا ينســـجه مـــن الـــوبر والشـــعر والصـــوف. وعلـــى هـــذين النوعين من المرافق التي عليها اعتمـــاد ســـكان البـــوادي الـــذين يتبعـــون مـــواطن الكـــلأ لأنعامهم. وكذلك الجيـــوش، وكـــذلك الفـــرق التـــي تبعـــد عـــن المـــدن لإنجـــاز بعـــض المشاريع العمرانية. إن هذه الأنواع من البيوت تحقـــق الحمايـــة للنـــازلين فيهـــا، ويســـهل نصبها عند النزول، كما يسهل طيها وحملها عند الارتحال.

كما ألهم الإنسان أن يتخذ مـــن الـــوبر والشـــعر والصـــوف أثاثـــا يبســـطه فـــي البيـــوت كالزرابي، والبسط والوسائد. كما يفتل من الـــوبر والشـــعر والصـــوف مـــا يســـتعين بـــه في شؤون حياته، ويتمتع به متاعا آئل إلى الزوال . إشـــارة إلـــى أن متـــاع الحيـــاة الـــدنيا هو إلى الأجل الذي قدره الله لبقاء الإنسان الخاص، ولبقاء الكون بصفة عامة .

81- والله جعل لكم مما خلق ظلالا...لعلكم تسلمون .

مواصلة لتعداد الألطاف الإلهية وعونه سبحانه للإنسان، من الأمور التي خلق الله عليها الكون، مع أن معظم البشر لا ينتبهون لها . فالله سبحانه هو الذي مد الظل الحاجب لقوة حرارة أشعة الشمس في الجهة المقابلة لمكانها، والسائر في الصحاري وفي الأوقات التي يشتد فيها حر الشمس يدرك جيدا قيمة هذه النعمة . كما أن الجبال لم يخلقها مصمتة بل جعل فيها مغاور وكهوفا يأوي إليها الإنسان فتحميه من الأمطار ومن الرياح العاتية ومن وهج الشمس، فتكون له سترا وحاميا يأوي إليها كما يأوي إلى بيته الذي بناه .

كما ألهمكم ستر أجسامكم بما تنسجونه من ثياب تقيكم حر الشمس وزمهرير البرد. وتحميكم من ضرب السيف وحد النبل بالدروع التي كان يلبسها المقاتل فيرتد عنها سلاح العدو، وكذلك الخوذات التي تحمي رؤوس الجنود اليوم من الشظايا والرصاص .

إنه على هذا النحو الذي إذا ما تأملتم فيه، يتبين لكـــم مـــا أكملـــه الله علـــيكم مـــن الـــنعم. إن إدراك هذه النعم من شأنه أن يجعل قبـــول الـــدين الإســـلامي واعتقـــاد مـــا جـــاء فيـــه قريبا جدا.

82- وبناء على أن النظر في كتاب الكون يفـتح للنـــاظر قبـول الـدين الإســلامي، وأن العناد هو الحائل بين الإنسان وبينـه، ولمـا كـان النبـي صـلى الله عليـه وسـلم شـديد الحرص على هداية الخلق وإنقاذهم من شـر الكفـر وسـوء عاقبتـه، وأنـه كـان يتـألم من إصرار قريش على الشـرك، تـولى القـرآن تسـليته عـن إعراضـهم، بتـذكيره أن مهمته التي ما قصر فيها، والتي أداها على أكمـل وجـه، هـي فقـط عـرض مـا أنـزل عليه على أكمل ما يكون من البيان والوضوح نقيـا مـن الشـبهات. ممـا يشـير إلـى أن الله راض عنه، وأنه لا يتحمل تبعات المعاندين.

83-يعرفون نعمت الله ... وأكثرهم الكافرون .

تصور الآية دخائل نفوس الكفرة . فعَـدَدٌ مـنهم كـانوا أصـحاب فطنـة وتيقنـوا بـأن واهب تلك النعم والهادي إليها هـو الله ؛ ولكـنهم فـوق ذلـك عـوض أن يقبلـوا علـى الإيمان بقلوب طائعة، وبالشـكر لمسـديها، اختـاروا إظهـار الشـرك تغليبـا للحظـوظ الدنيوية، من مال ورئاسة، التي يخشـون ضـياعها مـنهم إن هـم دخلـوا فـي الإسـلام. وأكثر الممتنعين من الإسلام من الدهماء كفرة انصرفوا عـن التأمـل فـي بـراهين الحـق فطبعوا على الكفر .

وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٤﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٥﴾ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

نبعث : نحضر.

الشهيد : الشاهد.

يستعتبون : الرضا بعد اللوم.

السلم : الاستسلام.

ضل عنهم : غاب عنهم.

بيان المعنى الإجمالي :

واذكر محذرا لهم، اليوم الذي يُحْضِرُ الله في المحشر من كل أمة شاهدا يشهد بالحق، يقتنع المشهود عليهم بصدقه، فيكشف مواقفهم في الدنيا، وفوق هذا تخرس أفواه الكافرين فلا يؤذن لهم في الكلام ولا يتوقعون أن يحصلوا على الرضا بعد تقريعهم. وبعد ذلك يرون مكانهم في جهنم وقد فُتِحَت أبوابها، فيسألون ربهم أن يخفف عنهم من عذابها أو يؤخرهم؛ ولكن يستقر في نفوسهم اليأس من قبول توسلاتهم ، فيكون ذلك العذاب النفسي .

ويُحضر الله ما عبد من دونه فيفجأ المشركين حضورها، ويخيل لهم أنهم يستطيعون أن يدافعوا عن أنفسهم بتحميل الشركاء جزءا من المسؤولية فيقولون: ربنا! هؤلاء الشركاء أغرونا بعبادتهم، وينطق الله المعبودات من دونه فيعلنون: إنكم كاذبون ما دعوناكم لعبادتنا. وعندها يستسلم الكافرون ويغيب عنهم كل ما افتروه على الله. وخُص الكافرون الذين كانوا يمنعون من يرغب في المبايعة على الإسلام بمضاعفة العذاب، لأنهم كانوا يفسدون على الراغبين في الإسلام ما تفتحت له قلوبهم .

بيان المعنى العام :

84-ويوم نبعث من كل أمة شهيدا ....ولا هم يستعتبون .

بعد أن لفتت الآيات السابقة الأنظار لما في مشاهد الكون من أدلة على تفرد الله بالخلق والتدبير والحكمة البالغة وختمت بأن الرسول قد قام بمهمته أتم قيام، وهو غير مسؤول عن كفر المعاندين، وعمن يعلم نعمة الله ولكنه ينكرها تقديما لحظوظ الدنيا ؛ واصل القرآن تنبيه المشركين إلى بعض مشاهد يوم القيامة كأنها حاضرة أمام أعينهم . واذكر يا محمد يوم تحضر الأمم إلى المحشر، وندعو مع كل أمة شهيدا يشهد عليهم يكشف عن موقفهم من رسالات الله، إنه لمشهد عظيم: البشر موقوفون، والشاهد الصادق الذي قد اقتنع بصدقه المشهود عليهم يعلن ما شاهده في الحياة الدنيا . وفي ذلكم مشهد لا يستطيع أحد أن يتكلم إلا لمن يأذن له رب العزة بالكلام . ولكنه في هذا اليوم لا يأذن للكفرة بالدفاع عن أنفسهم، ولا يطمع أي منهم أن يحصل على الرضا بعد ما يسمعون الشهادة، فليست شهادة يعقبها الرضا بعد اللوم، ولكنها شهادة تطأطئ الرؤوس وتذل المتكبرين .

و في يوم القيامة مواقف :

موقف تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وتقدم مــا تظــن أنــه ينفعهــا قــال تعــالى: (يــوم **تأتي كل نفس تجادل عن نفسها**)[1] – وموقف بعد ذلــك هــو مــا فصــلته الآيــة، يــدعو الله شهيدا يشهد على موقــف كــل أمــة مــن الأمــم مــن رســالة الله إليهــا، المــؤمنين والكافرين، وفي هذا الموقف تخــرس ألســنة الكفــرة فــلا يــؤذن لهــم فــي الكــلام ولا يطمعون في قبول المعاذير قبولا يصحبه الرضا . وهو معنى ولا هم (يستعتبون).

85-وإذا رأى الذين ظلموا العذاب ...ولا هم ينظرون .

بعد الموقف الذي خرست فيه ألسنة الكفار يــوم القيامــة بظهــور الحقيقــة الفاضــحة لهــم وانكشاف ظلمهم ، يحضــر أمــام أعيــنهم مــا أعــده الله لهــم مــن منــازل العــذاب، فينزعجون كأشد ما يكون الانزعــاج، وتنطلــق ألســنتهم بالســؤال أن يخفــف عــنهم، أو أن يؤخروا ولا يسرع بهــم إلــى جهــنم. وحقــق القــرآن أنــه لا يســتجاب لتوســلاتهم، فيكون عذاب اليأس هو أولَ عذابٍ يسلط عليهم بعد الموقف السابق المذل.

87/86-وإذا رأى الذين أشركوا....وضل عنهم ما كانوا يفترون.

يتابع القرآن عرض مشاهد يوم القيامة بالنسبة للكافرين. إنــه فــي ذلكــم اليــوم يحضــر الله الآلهة التي عبدها المشــركون مــن دون الله، ويفجــأ المشــركون حضــورها معهــم، وتسول لهم أنفسهم أنهم قد يجدون في حضــورها معهــم مــا يخفــف عــنهم المســؤولية، بتحميل الآلهة ذنب دعوتهم إلى عبادتها . فيقولــون: ربنــا هــذه الآلهــة هــي شــركاؤنا في الذنب أغرتنا بعبادتها، فكنــا نــدعوها مــن دونــك. وهنــا يلقــي الله علــى الأصــنام المعبودة قولا قاطعا يعلنونه: إنكــم أيهــا المشــركون كــاذبون، فمــا كنــا نــدعوكم إلــى الإشراك بالله، ولكنكم اتبعتم خيالاتكم فأســبغتم علينــا صــفة الألوهيــة. وبعــد أن كــذبتهم آلهتهم، ورأوا العجب من نطقها بالحقيقــة، يُظْهِــرُ الــذين كفــروا استســلامهم ؛ بمعنــى أنه لم يبق عندهم أي أمل فــي النجــاة، كحالــة الجنــدي المغلــوب المقهــور وقــد ألقــى سلاحه، ومد يديه للقيد . وغاب عــنهم فلــم يجــدوا شــيئا لــه حقيقتــه مــن افتــراءاتهم وكذبهم .

88- الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله...بما كانوا يفسدون.

إذا كانت الآية السابقة كشفت عن الخوف الشــديد الــذي أطبــق علــى المشــركين وقــد صاحبه اليأس من تخفيفه أو إنظارهم . فإن القــرآن فــي هــذه الآيــة قــد أضــاف إلــى الوصف السابق أن العذاب الــذي وَجِلــوا منــه فســألوا تخفيفــه أو إنظــاره، سيضــاعف

[1] سورة النحل آية 111

على الذين جمعوا بين الكفر وبين منع من حصل منه ميل للدخول في الإسلام. وقد روت كتب السيرة ما كان يقوم به مشركو مكة من الحيلولة بين الوافدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبين المبايعة على الإسلام، بالكذب وتصوير الإسلام بصورة مشوهة، وبالإذاية لمن رأوا منه عزما مؤكدا. وحق عليهم مضاعفة العذاب، لأنهم ما اقتنعوا بما هم عليهم من الفساد حتى تحولوا إلى نشر الضلالة والفساد.

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

بيان معاني الألفاظ :

التبيان : البيان الكامل.

بيان المعنى الإجمالي :

يطلب الله من نبيه أن يذكر الناس بما يحصل يوم القيامة من دعوة شهيد من أنفسهم لا يستطيعون الطعن فيه يشهد معلنا موقفهم من رسالة الله جل وعلا إليهم. وأنه ﷺ سيكون الشاهد على المؤمنين بما يسرهم، والشاهد على هذه الزمرة التي أشركت بالله وأعرضت عن هدايته. ومع ذلك يَذْكُرُ الله لنبيه ويخاطبه: إنني أنزلت عليك الكتاب القرآن فيه بيان كل شيء يحتاجه الإنسان في حياته الدنيا والآخرة. وهو الكتاب الذي يهدي المسلمين إلى الخير وإلى الصراط المستقيم، ويرحمهم بإعدادهم لفعل الحسن وبصدهم عن القبيح، ويبشرهم بحسن العاقبة .

بيان المعنى العام :

89- ويوم نبعث من كل أمة شهيدا عليهم ....ورحمة وبشرى للمسلمين .

هذه الآية متصلة بالآية 84 أعيدت فاتحتها ليبني القرآن عليها شهادة الرسول صلى الله عليه وسلم على الأمة التي بعث لهدايتها، وهي تتضمن تهديدا لمشركي مكة بشهادة الرسول عليهم، وقد استحضرتهم الآية بالإشارة إليهم . وهذا التهديد لا يقصر شهادته على من كان حاضرا يوم نزول الآية، بل شهادة الرسل على من بعثوا إليهم تنسحب على الحاضر والمستقبل. والشهادة هنا ليست على وزان الشهادة في الدنيا، إذ أن الشهادة في الآخرة تبنى على علم يقيني عند الشاهد، حصل له إما بالمشاهدة في الدنيا، وإما بما يلقيه الله في نفسه إلقاء يتم به استحضار ما وقع في

الدنيا كأنه يراه رأي العين، هذا من ناحية، ومـن ناحيـة أخـرى فـإن المشـهود عليـه لا يجد مطعنا يطعن به في الشهادة كما نصت عليه الآيتان السابقتان 87/84.

ومع تشريفه صلى الله عليه وسلم بأن شهادته هـي المظهـرة للحقيقـة فتُخْـرِسُ المكـذبين وتجلي صدق المؤمنين، نوهت الآية بكتاب الإسلام القرآن الـذي جمـع مـن المزايـا مـا لم يجتمع في أي كتاب آخر:

هو مبين أتم بيان وأكمله لكل شيء يرغب الإنسان في الوصـول إليـه ممـا اهتمـت بـه الشرائع السماوية. وهذا مما يتطلب بيانـا ولـو مختصـرا يـرد اعتـراض المعترضـين، فأقول: إن القرآن هو الـذي يرفـع حيـرة الفكـر فيجيبـه عـن تسـاؤلاته عـن المبـدأ والمصير، ويبين للإنسان منزلته فـي الكـون وصـلته ببقيـة الكائنـات، ويفـتح للـروح قبسا من النور يكسبها الطمأنينة والرضـا. إنـه يعمـق الإحسـاس بوحـدة الإنسـان مـع الكون، وبوحدة المؤمنين، وبالوحدة الإنسـانية بغرسـه للفضـيلة وقلعـه للرذيلـة، ونشـر القيم الخلقية الرفيعة وتقويم ما اعـوج مـن العـادات والسـلوك. والقـرآن يقـيم العدالـة ويقتلع الظلم والاستبداد، ويبين الحقوق بيانا يحميهـا بـه مـن الاخـتلاط. ويربـي البشـر على الفضيلة ويجعلهم يمقتـون الرذيلـة ويقاومونهـا بـالأمر بـالمعروف والنهـي عـن المنكر. بما يحقق بناء المجتمع الفاضل. ويقيم العقـل علـى المـنهج العلمـي الـدقيق **(ولا تقف ما ليس لك به علم)**[1] بما يفتحه هذا المـنهج مـن اقتـدار علـى السـمو بمـا هـو تحت تصرف الإنسان في الكون. إن تحليل مضمون هذه الآيـة أوسـع مـن هـذا المقـام ولكن في ذلك إشارة مجملة لبركات القرآن التـي لا يحـد عطاؤهـا. وخصصـت الآيـة من تلك الآفاق على ثلاثة أشياء :

1)الهدى : فإنه وإن كان داخلا تحت مظلة "بيانا لكل شيء " إلا أن المقصود الأهم من تشريع الشرائع هو هداية الإنسانية التائهة الضالة، والقرآن هو المنهج الكامل في هذا الباب، كما بينا شيئا من ذلك في قوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم) وبقية الرسالات بين رسالات بادت ولم يبق منها شيء، وبين رسالات حرفت يمعن متبعوها في الضلال .فالتنبيه على القرآن بكونه هدى يبرز هذه الصفة التي اختص بها القرآن، والتي هي أنفس ما تفضل الله به على الناس، وأحوج ما يكون الإنسان إليها.

2) الرحمة :من أحسن ما فسرت بـه الرحمـة وصـفا لله تعـالى، مـا جـاء فـي كـلام القاشاني الرحمة علـى قسـمين :امتنانيـة ووجوبيـة . فأمـا الامتنانيـة فهـي الرحمـة

---

[1] سورة الإسراء آية 36

المفضية للنعم السابقة على العمل، وهـــي التـــي وســـعت كـــل شـــيء، وأمـــا الوجوبيـــة فهي الموعودة للمتقين والمحسنين فـــي قولـــه تعـــالى : **(فســـأكتبها للـــذين يتقـــون)**[1] – وفي قوله تعالى :**(إن رحمـــة الله قريـــب مـــن المحســـنين)** [2]– ولمـــا كانـــت فـــي الآيـــة حديثا عن القرآن وهـــو كـــلام الله، فيكـــون المعنـــى: إن القـــرآن يعـــد الإنســـان للعمـــل الصالح الذي يسعده في دنيـــاه وأخـــراه . والقـــرآن رحمـــة بمـــا يحقـــق وعـــد الله علـــى تلاوته والعمل به من الثواب ورفيع المنزلة .

3) البشرى : ما يحصل للمتدبر وهو ينتقل بين الآيات الدالـــة علـــى حســـن ثـــواب الـــدنيا والآخرة للمؤمنين، وما يفتح مـــن الأمـــل الرحـــب فـــي فضـــل الله، ومـــا ينشـــرح بـــه الصدر كلما ألم به الحزن أو الضيق بما يجـــد فيـــه مـــن وعـــد الله بأنـــه مـــع المـــؤمنين وإن **مع العسر يسرا إن مع العسر يسرا**[3] .

وهذه الهبات القرآنية الثلاثة لا تحصل إلا للمسلمين.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ
وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا
تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا
تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ
أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ
وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً
وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟
أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

العدل : إعطاء الحق لصاحبه.

---

[1] سورة الأعراف آية 156

[2] سورة الأعراف آية 56

[3] سورة الشرح آية 6/5

الإحسان : مرتبة فوق العدل يكون بها العدل أتم.
ذوو القربى: من يجمعك به صلة نسب أو مصاهرة .
الفحشاء : ما عظم قبحه من العقائد والأفعال والأقوال.
المنكر : ما ترفضه الشريعة والفطرة السليمة وتستقبحه .
البغي : الاعتداء.
الوعظ : كلام يقصد منه التأثير في المخاطب ليبتعد عن الشر، ويفعل الخير.
التذكر : مراجعة ما استقر في النفس وحصلت غفلة عنه.
أوفوا: أنجزوا ما عاهدتم عليه.
العهد : الالتزام، وقد يؤكد باليمين .
نقض اليمين : إبطال المحلوف عليه .
بعد توكيدها: مع ما صحبها من توثيق.
الكفيل : الضامن والرقيب.
نقضت : حلت ما غزلته وأعادته على الحالة التي كان عليها قبل غزله.
الغزل : المغزول من الصوف أو الشعر أو القطن.
من بعد قوة: من بعد إحكام الغزل.
أنكاثا : جمع نكث بمعنى نقض .
دخلا: فسادا. ذريعة إلى الغدر.
أمة: طائفة مترابطة من الناس، أو قبيلة، أو ما هو أوسع منهما.
أربى : أزيد.
يبلوكم : يختبركم.
الزلل : انزلاق الرجل لعدم ثباتها وقد يعقبها السقوط.
تذوقوا السوء : تحسوا إحساسا قويا بالألم.
صددتم : أعرضتم.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآية تمثل ميثاقا غليظا، على كل مؤمن أن يواصل تذكره له، ويراجع نفسه دائما ليطمئن أنه عامل به. أول بند هو التزام العدل في علاقته بالله، وفي علاقته بأعضاء أسرته، وفي علاقته بمن يتعامل معه، وفي علاقته بالمحكومين إن كان حاكما من السلطة التنفيذية أو القضائية. وفي علاقته بالكون، وحتى في علاقته بنفسه. وثاني بند هو الإحسان أن يسمو إلى مرتبة في التعامل فترقى همته إلى ما هو فوق الواجب عليه. والبند الثالث أن تكون علاقته بأعضاء أسرته الأقرباء

والبعيدين، ممن تربطه بهـم آصـرة النسـب أو الصـهر، أن يكـون ذاكـرا لهـم ذكـرا ينيلهم من لين كلامه ومن ماله إنفاقا أو إهداء في حـدود مـا أنعـم الله بـه عليـه .حتـى يكون بناء الأسرة قاعدة البناء الاجتماعي قويا متماسكا .

كما نهت الآية عن ثلاثة أشياء معاكسة للثلاثـة المـأمور بهـا، مهدمـة للمجتمـع. فنهـت عن الفحشاء ما كان قبحه فظيعـا، إذ الإتيـان بمـا هـو مسـتفظع يفسـد الخلـق العـام ويتسفل المجتمع به .وكذلك المنكرات التي يرفضها العقـل والشـرع وتـؤثر فسـادا فـي الأفـراد وفـي المجتمعـات .والطامـة الكبـرى هـي البغـي والاعتـداء علـى حقـوق الآخرين. كان الدافع لذلك التسلط على النـاس بـالمركز السياسـي أو بـالقوة الماليـة أو البدنية، أو كان الدافع رد الاعتداء بما هو أشد عنفا وتسلطا.

ثم دعا القرآن إلى الالتزام بالوفاء بالعهود، ما كان منها بـين الإنسـان وربـه ومـا كـان بين البشر في تعاملاتهم. خاصة إذا تأكد العهد بالقسم بـالله الـذي جعلـه الحـالف شـاهدا عليه وضامنا لوفائه . وليعلم ناقض العهد المقسم عليـه أن الله يعلـم حقيقـة مـا تنطـوي عليه نفسه، والظروف التي تبعها نكـث العهـد. ولا يـروج علـى الله المعـاذير الكاذبـة، فإنه سيجزي الناكث، ولو استطاع أن يفلت من العقاب العاجل.

ثم شبه الناكثين بامرأة بلهاء كانت تجمع جواريها كـل صـباح فيغـزلن مـا بـين أيـديهن من الصوف أو الشعر أو الوبر إلى الظهر، ثم تـأمرهن بـنقض مـا غزلنـه ليعـود إلـى الحالة التي كان عليه قبل الغزل. وهذا هـو شـأن الـذي يـنقض عهـده ويجعـل أيمانـه الموثقة سببا لحصول القطيعة والخصـام. وقـد يحملـه علـى هـذا أنـه تـراءى لـه أن الجماعة التي يريد أن ينتسب إليها وينقض عهده ليرتبط بهـا أنفـع لـه، لقوتهـا أو كثـرة مالها أو عددها، من الجماعة التي نقض معهـا عهـده . إن فـي ذلـك اختبـارا مـن الله ليتبين الصادق العهد من الخـائن، وسـيجزى كـلا بمـا فعـل فيجـد الناكـث خسـارته والموفي حسن جزائه.

إنه لو شاء الله أن يخلق البشر على نمط واحـد مفطـورين علـى الخيـر عـاجزين عـن الشر لخلقهم كذلك، ولكنه بحكمتـه أراد أن يخلـق البشـر ممكنـين مـن الخيـر والشـر مختارين لا ملجئين. ولكن الله المتحكم في الكون كله وفيمـا يجـري فيـه يحـيط بألطافـه من شاء له الخير فيميل إليه ويسعى لتحقيقـه ويعقـب ذلـك إذنـه سـبحانه بإنجـاز مـا جمع له المكلف الأسباب التي في مقدوره . وبالعكس فإنه قـد يمنـع ألطافـه عمـن يشـاء فيسبق إلى المعصية فيقع ما يقع منـه مـن الشـر بخلـق الله، ويُحاسَـب الفريقـان، كـل على ما هيأ وأعد .وهو العدل والله لا يظلم أحدا.

ولليمين نفاذهـا وقوتهـا فـلا تتوسـلوا بهـا لإدخـال الفسـاد فـي نفوسـكم أولا وفـي مجتمعاتكم ثانيا. فإن نقض الأيمان يترتب عنه فساد فـي النسـيج الجـامع لكـم، ويكـون حال المستهين بما حلف عليه كحـال السـائر فـي الطريـق تتزلـق بـه قدمـه فيسـقط. والسقوط تتبعه مساوئ خاصـة إذا كانـت اليمـين علـى الالتـزام بشـرع الله، إذ يعتبـر المستهين بيمينه معرضا عن طريق الله، وخاتمته العذاب العظيم يوم القيامة .

بيان المعنى العام :

90- إن الله يأمر بالعدل والإحسان...يعظكم لعلكم تذكرون .

هذه الآية تمثل ميثاقا جامعا للفضـائل، مقـررا للمـنهج الـذي يرضـاه الله ويـأمر بـه المؤمنين ليلتزموه، شاملا لأصول الشـريعة . فقـد أمـرت المـؤمنين بثلاثـة أشـياء – العدل – الإحسان – إيتـاء المعـروف لـذوي القربـى– ونهـتهم عـن ثلاثـة أشـياء – الفحشاء – المنكر– البغي – ولما جمعتـه مـن أصـول الهـدى والخيـر، ومـن تحديـد واضح للمنهج الإسلامي الـذي يتحـتم علـى المـؤمنين أن يكونـوا ذاكـرين لـه، كتـب الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رضـي الله عنـه إلـى الخطبـاء أن يختمـوا خطـبهم يوم الجمعة بهذه الآية .

- بكل تأكيد يأمر الله، وأمره سبحانه واجب لا خِيَـرَةَ فيـه، بـأن يلتـزم النـاس فـي حياتهم الوفاء لما تضمنته الآية، فقدم العدل.

والعدل هو العدل الشامل لجميع علاقات الإنسان. فالعـدل فـي علاقـة الإنسـان بربـه أن يقر بأنه هو الله الواحد الأحد ولا يشرك به شـيئا، ويقابلـه الشـرك وهـو أعظـم الظلـم. وأن يخلص له في عبادته ألا لله الـدين الخـالص، والتقـرب لغيـر الله أو تعليـق الآمـال به انحراف عن الصراط السوي الذي هو العدل. والعـدل فـي علاقـة الإنسـان بأسـرته الوالدين والزوجـة والأولاد. وذلـك بمراعـاة مقتضـيات الكرامـة الإنسـانية، وتمكيـنهم من حقوقهم التي ضبطها الإسلام، وعـدم التمييـز بيـنهم تمييـزا يغـرس فـي نفوسـهم الحقد والفرقة. والعدل فـي علاقـة الإنسـان بأخيـه الإنسـان باحترامـه، وأن لا يظلمـه بالتعدي على ماله أو عرضـه ظلمـا مسـتندا إلـى القـوة، أو إلـى الخبـث والاحتيـال. والعدل في علاقة الإنسان بالكون بأن لا يسمح لنفسه بإفسـاد مـا فـي هـذا الكـون مـن جمال ومن توازن، ومن خيرات ينتفع بها ولا يبـددها، كمـا لا يكتنزهـا لنفسـه ويحـرم البشرية مما أفاء الله عليه. والعدل فـي علاقـة الحـاكم بـالمواطنين فـلا هـو يظلـم أي فرد منهم أو ينتقص من حقوقه، أو يميزه تمييزا يغمـط بـه حـق غيـره .كمـا لا يظلـم المواطنون من ولي الحكم فيهم بالطعن فيه أو العمل علـى الانتقـاض عليـه مـا دام يقـيم

العدل فيهم. وعلى هذا النسق يفهم العــدل . وإن مــا تتغنــى بــه البشــرية اليــوم مــن الديموقراطية لا يكون بها العالم سعيدا إذا لم يُحْتَــرَم العــدل احترامــا صــارما لا تهــاون فيه.

وثنى بالإحسان: وهو مرتبة أرقى من العدل، ذلك أن العدل هــو الحــد الفاصــل بــين مــا يحل للإنسان عمله، وكسر ذلك الحد حرام منهــي عنــه، صــاحبه غيــر مطبــق لشــرع الله. فالإحسان أن تسمو بالعدل إلى مرتبــة مــن الســماحة والرفعــة، فيتنــازل المحســن عن بعض حقوقه، أو يحمل نفسه مرتبة أرفع هي غيــر واجبــة عليــه رغبــة فــي نيــل درجة الإحسان. فالإحسان في علاقة الإنســان بخالقــه مــثلا: أن يكــون مستحضــرا فــي وعيه أن الله معه في كل لحظة وفي كل عمل يقــوم بــه، وفــي عبادتــه بصــفة أخــص، قال صلى الله عليه وسلم: الإحسان أن تعبد الله كأنك تــراه. ومــن الإحســان فــي الأســرة أن يربيها على الحب وينفق عليها بسماحة في غيــر ســرف. وعلــى هــذا النحــو يــذهب العقل في تصور سيرورة الإحسان في كل شيء، حتــى فــي ذكــاة الحيــوان بــأن تشــحذ السكين ليكون ذبح الحيوان أقل إيلاما .وقــد قــال صــلى الله عليــه وســلم: إن الله كتــب الإحسان على كل شيء فإذا قتلتم فأحســنوا القِتلــة وإذا ذبحــتم فأحســنوا الذِبحــة. وليحــد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته. رواه مسلم وأحمد عن شداد بن أوس[1].

وثلث بإيتاء ذي القربى، أي إعطاؤهم المال عــن ســماحة. وخــص القرابــة نظــرا مــن القرآن إلى تمتين بناء الأسرة، فأمر سبحانه أن يذكر كــل واجــد أعضــاء أســرته الــذين لا يجب أن ينفق عليهم، وهم في حاجة بــل حتــى الــذين يملكــون الكفــاف يهــدي لهــم، وبذلك تقوى لحمة القرابة والنسب . ويكون البناء الاجتماعي بناء متماسكا.

ثم عطف القرآن على المقومات الإيجابية الثلاثة ما يحصــنها بــالنهي عــن مفاســد ثــلاث هي: الفحشاء – المنكر – البغي –

أما الفحشاء فهي كلمة يدخل تحت مدلولها كل عمــل أو قــول تســتفظعه الفطــرة، فيســقط صاحبها إلى المنازل الســاقطة فــي نظــر الجماعــة. كالزنــا والقــذف والتطــاول علــى الصالحين وأهل العلم، وترويج الشائعات المحيرة، وقطع الطريق .....

وأما المنكر فهو ما ترفضه الفطرة الســليمة وتكرهــه الشــريعة مــن الأفعــال والأقــوال. ومن المنكرات مــا هــو محــرم كشــرب الخمــر والقمــار والكــذب، وكاللبــاس الــوقح الكاشف ونحو ذلك مما نهت عنه الشريعة ورفضته الفطرة والعقل.

---

[1] فيض القدير ج2 ص245 ح1761

وأما البغي الذي هو الاعتــداء علــى الآخــر. فإنــه قــد يكــون ابتــداء دون إثــارة مــن الطرف المقابل، كشأن الشطار والبلطجية الــذين يقصــدون بــث الإرهــاب فــي النفــوس ليطوعوا أكثر ما يمكن لإرادتهــم الشــريرة . وكشــأن الحكــام الظلمــة الــذين يقرنــون الظلم بالتخويف من الــبطش والإهانــة. وكقطــاع الطــرق. ومنــه مــا يكــون رد فعــل فيبالغ المعتدى عليه في الانتقــام فينقلــب معتــديا، قــال تعــالى :**(فمــن اعتــدى علــيكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين)**[1]

إن ما جمعته الآية من الأوامر، وما ساقته من النــواهي، كلــه يســتجيب للفطــرة وللعقــل المستنير وللميزان الذي يقوم عليه نظــام المجموعــة البشــرية، وباختلالــه يختــل البنــاء الاجتماعي، وتنتشر الفوضى . فلذلك ختمت الآيــة بــأن المقصــود ممــا ذكرتــه أن تنفــذ إلى القلوب فتحركها لتكتسب حماية من السقوط فــي الســفالة، وتبقــى فــي منزلتهــا مــن الكمال النفساني المقترن بالتزام ديــن الله. إنــه بتنزيــل هــذه الآيــة، وبمــا أن المــؤمنين يلتزمون تلاوة القرآن، فإنه يترتب على ذلك أن يكونوا ذاكــرين لمــا أمــرهم بــه القــرآن وبما نهاهم عنه ذكرا فاعلا في عقولهم ثابتا في نفوسهم.

91-وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ....إن الله يعلم ما تفعلون .

يواصل القرآن تفصيل الميثاق الخلقــي، فيــأمر مــن التــزم التزامــا وثقــه علــى نفســه باختياره مما هو غير منهي عنه، يــأمره بــأن يــوفي بمــا التزمــه . وهــذه الالتزامــات على مراتب: الالتزام بما عاهد عليه المــؤمن ربــه. وقــد أخــذت هــذه العهــود علــى المؤمنين الأولين بالطاعة للتشريع والآداب ونصر الــدين، ممــا يــبلغهم إيــاه رســول الله صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك ما بــايع عليــه المســلمون تحــت الشــجرة، ومــن ذلــك أيضا ما ذكر في سورة الممتحنة مــن مبايعــة المهاجرات.....ويســري هــذا علــى كــل مسلم إلى يوم القيامة. فــإن الإســلام معنــاه الالتــزام بشــرع الله المبنــي علــى عقيــدة التوحيد. وكذلك ما يلتزم به المؤمن من العقود والمواثيق بينــه وبــين مــن يتعامــل معــه. إن الطمأنينة في ساحة المعاملات هــي قاعــدة النجــاح الاقتصــادي، بمــا يصــحبه مــن وفرة فرص العمل، وهي من ناحية أخرى داعية للدخول فــي ديــن الإســلام، فــإن غيــر المسلمين إذا استقر في نفسوهم وفاء المسلمين لعهــودهم، فإنــه ينتهــي بهــم الأمــر إلــى أمرين : أحدهما مؤكد مواصلة التعامل وتقدير أخــلاق الإســلام، وثانيهمــا الــدخول فــي دين الله تقديرا لما وجدوه من المسلمين من الثقة بهم.

---

[1] سورة البقرة آية194

وقد تكون العهود موثقة بالقسم على الوفاء، فيكون عـدم الوفـاء بهـا جامعـا لمنكـرين : منكر إخلاف العهد، ومنكر الاسـتهانة برقابـة الله التـي جعلهـا الحـالف موثقـة لوفائـه وبضمانه سبحانه الضمان الذي رضي المتعامـل بـه وثيقـة فـي تحقـق مـا تـم عليـه الاتفاق . وليتيقن كل معاهد حالف بالله أن الله يعلم حقيقـة مـا يفعلـه المعاهـدون. وفـي هذا إشارة إلى أن بعض ناقضـي العهـد قـد يقـدمون مـن المعـاذير الكاذبـة، والتـي يحسنون تزويقها فتروج عند الطرف المقابـل، ولكـن الله يعلـم بـواطن الأمـور . وإن استطاعوا خداع البشر فإن الله لا يخدع وسيحاسب المعاهد الناكث على فعله.

92-ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها....ما كنتم فيه تختلفون.

تشوه الآية صورة الناكثين بما يشمئز منه كـل كـريم طبـع مسـتقيم الفكـر. تعـرض الآية حال امرأة قرشية معروفة بالبله وقت نـزول الآيـة، قيـل اسـمها ريطـة التيميـة، ولم يذكر القرآن اسمها بل عرفها باسم الموصـول [التـي نقضـت غزلهـا] لاستحضـار خرقها واختلال مداركها . كانـت تجمـع جواريهـا عنـد الصـباح لغـزل الصـوف أو الشعر غزلا محكما، حتى إذا جاء وقت الظهيـرة أمـرتهن بـنقض مـا غـزلن وإعادتـه إلى ما كان عليه. وهكذا كان شأنها كل يوم .

إن الناس يتعاملون فيما بينهم فيحصل من ذلك نسـيج اجتمـاعي يقـوي الـروابط بيـنهم، وكذلك يدخل الناس في دين الله فتتمـتّن روابطهـم بالعقيـدة ويصـبحون إخـوة .فيكـون الذي ينقض العهد الإيماني، أو المواثيق التي أخـذها منـه المتعامـل معـه، شـبيها بهـذه المرأة الخرقاء التي كلما تحولت المادة التي عملت فيهـا مـع جواريهـا إلـى مـا يَصْلُحُ لحمة أو سَدى تعيده منقوضا على الحالة التـي كـان عليهـا قبـل أن بـذلن فيـه الجهـد طيلة الفترة الصباحية.

ثم رفعت الآية إلى السطح أثر ذلك وعلتـه. فأمـا الأثـر فهـو أن نقـض العهـد يفضـي إلى انقلاب الصلات الاجتماعية إلى وضع من الفساد ترتفـع بـه الثقـة والطمأنينـة وهـو غدر بمن أخذ العهد واطمأن يفضي إلى الخصام . فارتفاع الثقـة بـين النـاس فيـه فسـاد كبير[**دخلا بينكم**] وأما العلة، فهي أن النـاقض للعهـد قـد يكـون يبغـي مـن ذلـك أن يحقق ارتباطه بأمة لها مكانة أرفـع، أو ثـراء أوسـع، أو قـوة أظهـر، ويبطـل عهـده لأجل ذلك مع من سبق أن عاهده ووثق ارتباطـه بـه . وقـد كـان فاشـيا فـي العـرف الجاهلي أن يفسخ المعاهد عهده إذا دعته قبيلة يرى أن انقلابـه علـى عهـده مـع الأولـى خير له. ثم حذرهم من الانسياق مع العواطـف، التـي مـن أخسـها وأسـونها، الافتتـان بما كان عليه بعض المشـركين مـن ثـراء وقـوة، وأعلمهـم أن تلكـم المظـاهر هـي

اختبار يتميز به الصادقون من الكاذبين . ثم إن الله مظهر يـوم القيامـة مـا اختلفـتم فيـه في الدنيا، يظهر سبحانه صلاح عاقبة الثابتين على عهودهم وسوء مآل الناكثين.

93- ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة...ولتسألن عما كنتم تعملون .

لقد مضى شأن البشر مع المواثيـق والعهـود علـى منهجـين : مـنهج المتمسـك بعهـده الثابت عليه، له ميزان واحـد هـو الوفـاء ؛ ومـنهج الـذين لا أيمـان لهـم ولا عهـود يبحثون عـن مصـالحهم العاجلـة فـلا يعيـرون لأيمـانهم وعهـودهم أي قيمـة، بـل يطرحونها كأن لم تكن، ثم يندمجون مع من يظنون أنه يحقق مصالحهم العاجلة .

إنه لو شاء الله أن يكون البشر نمطـا واحـدا مـن الخيـر والوفـاء بـالعهود والأيمـان، لركب خلقتهم تركيبا لا تستطيع معـه أن تخـرج مـن الفضـيلة إلـى الرذيلـة ولا مـن الوفاء إلى الغدر. ولكن خلقهم مـؤهلين للمنهجـين يختـارون مـا يشـاؤون دون ضـغط عليهم أو إلجاء، وإن الله بحكمته، التـي يعجـز البشـر عـن إدراكهـا إدراكـا حاصـرا وكاملا، يحيط سبحانه البعض بالألطاف التي بهـا يسـبق إلـى الإيمـان وإلـى الأعمـال الصـالحة، فتتعلـق إرادة الفـرد بالثبـات علـى الطريـق المسـتقيم، ويجاهـد وسـاوس الشيطان، وتعظم أشواقه إلى الطاعـة و يشـرق فـي قلبـه حـب الخيـر. كمـا يحـرم البعض الآخر من تلكم الألطاف فإذا هو يجنح إلى الإلحاد وما يتبعه من فساد.

إنه إذا ما اختار الإنسان طريق الهدى وكـل عمـل جزئـي يـدخل فـي نطاقـه وتوجـه إليه، فإن الله يقدره عليـه ولا يحـول بينـه وبـين مـراده ويـأذن الله بتحقـق مـا أراده المُوَفَّقُ . كما أنه في الجهة المقابلة إذا اختار مسلك الضـلالة وكـل عمـل جزئـي يـدخل في نطاقها فإن الله لا يحـول بينـه وبـين مـراده ويـأذن بتحقـق مـا أراده المَخْـذُولُ .

وحسبما أفهم ختمت الآية بالتأكيد على أبلغ وجه أن الإنسـان مسـؤول عـن أعمالـه فـي الدنيا. ويتحقق من ناحية أخرى العدل الإلهي. لقد نفـى الله عـن نفسـه خمـس مـرات في القرآن أن يكون ظلاما للعبيد.

94-ولا تتخذوا أيمانكم دخلا بينكم ...ولكم عذاب عظيم .

أولى القرآن عناية شديدة بالوفاء بالعهود والحفـاظ علـى الأيمـان وعـدم نقضـها؛ فـأمر بذلك في الآية91 أمرا أحاطه بتأكيـدات متنوعـة، ثـم صـور فـي الآيـة 92 بشـاعة الناكثين المتحللين. وفي هذه الآية صرح بالنهي عـن نقـض الأيمـان قارنـا للنهـي بمـا يؤثر في التالين تأثيرا يبلغ بهم حد الاشمئزاز من عدم الوفاء بالأيمان .

إياكم أيها المؤمنون أن تتوسلوا بالأيمان إلى إدخال الفسـاد فـي بنـائكم الاجتمـاعي، لمـا يعقب نقض الأيمان من البغض والكراهية والنزاع، وبالتـالي ارتفـاع الثقـة فيمـا بيـنكم.

إن اتخاذ الأيمان سبيلا للخداع والغش يزعزع قبل كــل شـــيء ضـــمير المخـــادِع فيجعلـــه غير واثق من نفسه متقلقلا غير ثابت، ومـــن إعجـــاز القـــرآن أنـــه مثـــل المخـــادع بمـــن يسير ثابتا في الطريق فتزل قدمـــه، ويفقـــد توازنـــه. وهـــذه الصـــورة الحيـــة المتحركـــة تثير في الخيال ما ينفر منها، إذ زلل القدم بعد ثبوتهـــا كثيـــرا مـــا يعقبـــه تهشـــم العظـــام وتسلخ الجلد وتلوث المظهر العام، إن نقض الأيمان نهايتـــه إحســـاس شـــديد بـــالألم لمـــا يصحبه من تفكـــك الـــروابط وتقلـــص المعـــاملات، ويتبعـــه خـــراب اقتصـــادي ووفـــرة البطالة في الدنيا، وخاتمته اعتبار النـــاكثين مـــن المعرضـــين عـــن طريـــق الله، خاصـــة إذا كانـــت العهـــود والأيمـــان علـــى الالتـــزام بالإســـلام وتطبيـــق شـــرع الله. وإنـــذار بالخسران العظيم يوم القيامة، بأن المآل هو عذاب عظيم لا يقدر قدره إلا الله.

وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓا۟ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

ثمنا : عوضا.

ما عند الله : ما ادخره الله للمسلمين في الدنيا والآخرة .

ينفد : ينقرض ويفنى.

باق : مستمر لا يفنى.

بيان المعنى الإجمالي :

تواصلت عناية القرآن ليكون المســـلمون أوفيـــاء لعهـــودهم وخاصـــة مـــا عاهـــدوا عليـــه رسول الله ﷺ من الالتزام بعقيدة الإســـلام وبشـــرعه. وكـــان المشـــركون يعملـــون علـــى فتنة بعض المسلمين، ويُغْـــرُونَهُمْ بشـــيء مـــن أعـــراض الحيـــاة الـــدنيا. فنهـــاهم الله أن يدخلوا في هذه الصفقة الخاسرة وأن يبيعوا مـــا رزقهـــم الله مـــن نفـــيس الهدايـــة للإيمـــان بثمن قليل مؤكدا: أن ما ادخره الله للمؤمنين هو خير مـــن كـــل مقابـــل يبـــذل فـــي ســـبيل التفريط فيه. يتضح لكم ذلك أن ما يملكه البشر يزول ويفنـــى قريبـــا. أمـــا مـــا ادخـــره الله وما يملكه سبحانه فهو باق لا يفنى . وإنـــه ســـبحانه لكرمـــه ســـيجزي الصـــامدين الـــذين أقاموا على ما عاهـــدوا الله عليـــه، ســـيجزيهم جـــزاء علـــى جميـــع أعمـــالهم الصـــالحة ويكون الجزاء لكل عمل على مستوى أحسن الأعمال .

ويؤكد القرآن أن مـن يتوجـه إلـى صـالح الأعمـال بميـزان الشـرع، يكتـب الله لـه جزاءين، جزاء في الدنيا هو الشعور بالسعادة والرضـا . وجـزاء فـي الآخـرة بتسـجيل جميع أعماله بميزان أحسن الأعمال، فضلا من الله، يستوي في ذلك الذكر والأنثى.

بيان المعنى العام :

96/95- ولا تشتروا بعهد الله ثمنا قليلا ...أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون.

يواصل القرآن حث المـؤمنين علـى الوفـاء بـالعهود التـي يقطعونهـا علـى أنفسـهم، وأهمها العهد على الإسلام.

بذل المشركون بمكة كل طاقاتهم لتحويـل مـن أسـلم عـن الإيمـان، وكـانوا يعتمـدون الإغراء تارة، والتهديد تارة، والتعذيب تارة أخرى، حسـب مـا يظنـون أنـه يـؤثر فـي الشخص الذي يرومون فتنته . فكـانوا يغـرون ضـعفة المسـلمين بالمـال أو المسـاعدة في نشاطه إن هـو أقلـع عـن الإسـلام وعـاد إلـى الشـرك .فاهتمـت الآيـة بهـؤلاء المُعَرّضين للفتنة وأيقظتهم بالنهي أولا عن نقـض العهـد، وثانيـا بتنبـيههم أن مـا يبـذل لهم من المشركين هو عوض قليل تافه لا قيمة لـه مهمـا غـلا فـي مقابـل مـا يبغونـه منهم من الكفر، لأن المبذول يخرجهم مـن رحمـة الله ومـا يـنعم بـه المؤمنـون مـن خيرات وفضل من ربهم . وأخرج النهي في صورة صفقة خاسـرة لمـن بـذل دينـه فـي مقابل إغراءات المشركين .

إنه إذا حركتم عقولكم ونظرتم نظرة معمقة فإنـه يحصـل لكـم العلـم اليقينـي بـأن مـا ادخره الله للمؤمنين خير لا يقارن بمـا يبذلـه المشـركون. إنـه الوعـد المـبطن بنصـر دينه وانهزام الشرك، والفوز يوم القيامة. وَجَلَتْ الآية96 ذلكـم المفهـوم بـأن مـا عنـد المشركين هو محدود يسرع إليه الذوبان والفنـاء، وأمـا مـا ادخـره الله لكـم فهـو بـاق مستمر لا ينفد. إنه عطاء الـدنيا بمـا وعـد الله بـه مـن نصـر دينـه وهـزم الشـرك والقضاء عليه، وإنه الفضل الإلهي الـذي يـنعم بـه المؤمنـون فـي الحيـاة الـدنيا بمـا يسكبه في بواطنهم من السكينة والطمأنينة والرضـا، وفـي الآخـرة بـالنعيم المقـيم فـي جنة الخلد . وكل ذلك نعيم باق مستمر. وتؤكد الآيـة فـي نهايتهـا تأكيـدا بالغـا الوعـد الإلهي وتفصله: إن الله سيجزي الذين صـبروا علـى الوفـاء بعهـودهم وصـمدوا لفتنـة المشركين بأحسن ما قدموه من أعمال . إنـه لا شـك أن الأعمـال الخيـرة تتفـاوت فـي قيمتها من حيث الإخلاص وتبعا للآثار الطيبة المترتبـة عليهـا. وفضـل الله عظـيم، إنـه يجزي المؤمنين عـن جميـع أعمـالهم بمقيـاس الأعمـال البالغـة درجـة الكمـال فـي الحسن.

97-من عمل صالحا من ذكر أو أنثى...ما كانوا يعملون .

هذه قاعدة من القواعد التي يمضي عليها الله جـزاء مـن صـلح عملـه مـن المـؤمنين صرحت بها الآية. قضية عامة تتناول كل ذكر وأنثى، تفيـد التسـوية التامـة بيـنهم فـي ما ينالهم عن صالح أعمالهم. إن جزاءهم يتحقـق فـي تيسـير الله لهـم الحيـاة الرضـية الآمنة في الدنيا. هي الحياة التي يشعر فيهـا صـاحب العمـل الصـالح بالرضـا وذهـاب اللهفة على المفقود. نعم إن ما يرزقـه الله للمـؤمنين يتفـاوت فـي متـاع الحيـاة الـدنيا. والهناء والسعادة الحقيقيّان، محصوران فـي القناعـة بمـا يحصـل الإنسـان عليـه. إن المؤمنين الذين صلحت أعمـالهم بمراقبـة الله وتطبيـق شـرعه، وتعلقـت أشـواقهم بمـا ادخر لهم في الآخرة من كرامة في جناته، لا تجد الغَنِـيّ مـنهم أسـعد مـن الفقيـر، ولا من يسكن القصر أبلغ هناء ممن يسكن الكـوخ، تجـد الاسـتقرار يسـري فـي بـواطنهم فلا هم يشعرون بالنقص المؤلم، ولا بدوافع الحاجـة الحارقـة ولا بـالنهم الـذي لا يشـبع صاحبه. فهذه هي الحياة التي يجد صاحبها من نفسه أنه مـنعم. وفـوق ذلـك أن مـا أعـد لهم من الأجر هو أجر مضاعف بتقـديره علـى ميـزان أحسـن الأعمـال وأتمهـا. والله ذو الفضل العظيم. وهذه الآية تفيد أولا أن العدل فـي الجـزاء عـن الأعمـال، فالعمـل لا تتأثر قيمة جزائه بالجنس، فـأجر الـذكر وأجـر الأنثـى واحـد مـا دام العمـل المقـدم واحدا. كما تثبت ثانيا أن السعادة فـي القناعـة، وأن التكالـب علـى جمـع الثـروات الكبيرة يسبب لصاحبها التعاسة ما دام محروما من القناعة .

فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

استعذ : اطلب التحصين.

سلطان : التسلط والتصرف المكين.

يتولونه : يتخذونه وليا ونصيرا، يطيعونه .

بيان المعنى الإجمالي :

خلق الإنسان ضعيفا ؛ إنك إذا وزنـت قوتـه البدنيـة، وجـدت أن جرثومـة لا تـرى إلا بالمجهر تهد قواه بل قد تقضي بإذن الله على حياتـه . وكـذلك الأمـر فـي قـواه العقليـة

وتحكمه في مداركه. يتسلط عليه الشيطان فيذهله عما هو فيه، يفرق بينه وبين كتاب الله. فأمرت الآية المؤمنين ليتحصنوا من وسوسته، ويهزموا سلطانه وقوته على النفوس بأن يفتتحوا تلاوة القرآن بقولهم : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

إن الشيطان مهزوم بقوة الإيمان، يرتد خاسئا حقيرا ذليلا إذا ما كان المؤمن صادق التوكل على الله، وإعلانُه بالاستعاذة مظهرُ حسن توكله. إن الشيطان ليس له سلطان يتحكم به في النفوس، إلا النفوس التي وجد منها ميلا لإغوائه وإسلاس القيادة لما يزينه من الشهوات، وكذلك النفوس الذين بلغت بهم طاعته إلى الشرك .

بيان المعنى العام :

98-فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم .

ترتبط هذه الآية بقوله تعالى: **ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين**-89- والتي أتبعت بما يؤكد مضمونها في الآية الجامعة-90- **إن الله يأمر بالعدل** .... كما أكد مضمونها بالتشديد على الوفاء بالعهد الذي فصله القرآن واهتم به. وإنه إذا أرادت معرفة ما يعينك على أن تنفتح روحك فتتأثر بما تضمنه القرآن من البيان والهدى والبشرى، فاستعد بتطهير نفسك، وتحريك انتباهك، واستعن لذلك بأن تقول عند إرادة قراءة القرآن: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. فقوله تعالى فإذا قرأت، أي: إذا أردت قراءة القرآن. هو على وزان قوله تعالى: **إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا**: أي إذا أردتم القيام. ونحوه كثير في القرآن. وكقولك إذا أحرمت فاغتسل .

استعذ بالله: أي تحصن بقدرة الله، واطلب منه أن يسعفك بتأييده ليحميك من وسوسة الشيطان الصارفة لمداركك عن التأمل فيما تتلوه، وعن الذهول عن إرشاده وأوامره ونواهيه . قد تجد القارئ إذا لم يصحبه عون من الله على التغلب على وساوس الشيطان يتحرك لسانه ولا ينفعل عقله ومشاعره، لا بالوعد ولا بالوعيد، ولا بالبشارة ولا بالنذارة، ولا بما في القصص من عبر زيادة على ما فصل فيها من صادق الخبر، إلى غير ذلك من محتويات القرآن التي لا يحد عطاؤها. وقد قدمنا بعض ما يتعلق بالشيطان الرجيم في الآية 17 من سورة الحجر.

والاستعاذة مأمور بها عند إرادة قراءة القرآن، في غير الصلاة، وأما في الصلاة فالذي عليه الإمام مالك أنها غير مندوبة، ذلك أن الصلاة قد جمع المصلي لها فكره وقلبه بالإقامة فلا تندب الاستعاذة. وبعض العلماء ندب إليها في كل ركعة وبعضهم ندب إليها مرة واحدة في الصلاة. وحمل الإمام الثوري الأمر على الوجوب في الصلاة وفي غيرها.

100/99-إنه ليس له سلطان ... وعلى ربهم يتوكلون .

عللت الآية الأمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، بأنهـا تصـرف الشـيطان فـلا يـتمكن من التسلط على الذين آمنوا بالله وتوكلوا عليـه .وإفصـاح المـؤمن بقولـه : أعـوذ بـالله من الشيطان الرجيم تصـريح بالتوكـل . وقـد ضـمن الله بفضـله منـع الشـيطان مـن التسلط بالتشـويش علـى المـؤمن لفكـره وروحـه وتركيـزه، إذا هـو افتـتح قراءتـه بالاستعاذة. وفي المقابل فـإن الشـيطان لا يكـون لـه سـلطان وتـأثير إلا علـى الـذين يطيعونه و يتخذونه وليا، من أهل الكتاب ومـن الفسـقة، وكـذلك الـذين اسـتولى علـيهم فأصبحوا مشركين بسبب إغوائه .

وَإِذَا بَدَّلْنَا ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٢﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الآية : الكلام الموفي بالغرض من القرآن.

المفتري : المختلق للكلام .

روح القدس : جبريل .

القدس :المطهر.

يلحدون : مضارع ألحد بمعنى مال.

لسان : كلام.

الأعجمي : الذي لا يبين عن مارده .

بيان المعنى الإجمالي :

يتصيد المشركون الشبهات ليشككوا بها في القرآن يهـدفون مـن وراء ذلـك إلـى تكـذيب رسول الله ﷺ ، فإذا بدل الله حكما رعاية لمصلحة البشـر ولطفـا بهـم، أعلنـوا أن ذلـك دليل على أن القرآن من تأليف محمد وليس من عنـد الله. ولله حكمـة فيمـا ينزلـه مـن الحُكم الأول والحكم الذي حوله إليه. ولكن أكثـر المشـركين جهلـة تغيـب عـنهم حكمـة

الله في ما ينزله. ولذا أمر الله رسـوله أن يـرد علـيهم وأن يجـاهرهم : إن الـذي أنـزل القرآن على قلبك وأتى به من عند ربك مصاحبا للحـق الـذي لا باطـل فيـه هـو ملـك الوحي المطهر جبريل عليه السلام . وأن نظم القـرآن وترتيـب مـا يـأتي بـه وتوقيتـه كل ذلك ملتبس بالحق لا باطل فيه، يثبت المسلمين علـى الإيمـان، ويمكـن للهدايـة فـي نفوسهم، ويبشرهم تبعا لذلك بحسن العاقبـة. ومـن الباطـل الـذي روجـه المشـركون أن النبي صلى الله عليه وسلم يتعلم القرآن من غـلام رومـي مسـيحي، وزيـف القـرآن مـا روجوه .ذلك أن هذا الغلام كان غير فصـيح فكيـف يمكـن أن يصـدر القـرآن البـالغ أعلى درجات الفصاحة عن رجل عَيِيٍّ لا يكاد يستطيع إبلاغ مراده .

ثم بالغ القرآن في الرد على المشركين بـأنهم هـم وحـدهم الـذين يفتـرون الكـذب ولا يقصرون عن ترويجه، لأنـه لا ينشـئ الكـذب ويروجـه إلا الـذين خـلا قلـبهم مـن الإيمان بآيات الله، وهم وحدهم الكاذبون . فالكذب مقصور عليهم .

بيان المعنى العام :

101-وإذا بدلنا آية مكن آية ...بل أكثرهم لا يعلمون.

في هذه الآية إبطال لما كـان يقولـه المشـركون فـي القـرآن إذا حصـل مـا ظـاهره الاختلاف فيه، وإن كان هذا الظاهر مرده إلى قصـر النظـر وقلـة التأمـل، مـع أنـه لا اختلاف فيه لمن كان يرغب في الوصول للحقيقة، ويتعمق .

إن القرآن يربي أمة، ويوجـد تشـريعا، ويبنـي عقيـدة . أمـا العقيـدة فهـي واحـدة لا تراعي ظروفا ولا تنتقل بالمرسل إليهم من مرتبـة إلـى مرتبـة أعلـى منهـا، إذ الحـق العقدي واحد، ولم يتبدل ما أنـزل علـى رسـول الله ﷺ فـي هـذا البـاب لا قلـيلا ولا كثيرا. وما كان بالتشريع فإن معظمه ثابت، وتـارة يكـون تحويـل المرسـل إلـيهم ممـا كانوا عليه إلى التشريع الجديد فيه نوع مـن الصـعوبة، فيـتم التشـريع علـى مراحـل، تصل بالمؤمنين من درجة إلى درجة أكمل. ومـا كـان مـن بـاب التربيـة فقـد يكـون بواسطة القصص القرآني. وطريقة القرآن فـي قصصـه أنـه يعيـد القصـة وفـي كـل مورد يكون العرض غير العرض السابق يحقـق موعظـة ويفصـل حـدثا يتناسـب مـع الجو العام للنسق الذي ورد فيه. فاعترض المشـركون علـى هـذا واتهمـوا الرسـول ﷺ ، بأنه يختلق القرآن من عنـده، إذ لا يمكـن أن يكـون الاخـتلاف فـي كـلام الله. فـرد القرآن عليهم: بأن الذي نزله على قلب رسـول الله هـو الله، والله أعلـم بمـا ينـزل لهـم فيصلحهم به، فيراعي ظروفهم شيئا فشيئا حتـى يبلغـوا فـي النهايـة درجـة مـا أراد الله أن يثبت عليه التشريع. وعند ذلك لا يقع التبديل. كمـا أن القـرآن لـيس كتـاب قصـص

حتى يكون نسج قصصه واحـدا، بـل يحقـق أمـرين : أولهمـا أن لا يخـالف الحقيقـة، وثانيهما: أنه يبرز في كل مناسبة المقطـع الـذي يـتلاءم . فتجـرأ المشـركون لقصـر نظرهم على رسول الله وقالوا هذا اختلاف، والقرآن مـن عنـدك ولـيس مـن عنـد الله . مع أن التغيير في التشريع هو لمصلحة الناس الـذين يسـمو بهـم شـيئا فشـيئا إذا انتقـل التشريع من الأخف إلى الأشد، أو لإظهار الفضـل والرحمـة الإلهيـة بتحويـل التشـريع الأشد إلى الأخف بعد أن تبين المسلمون ثقل التشـريع الأول الـذي كـانوا لقـوة إيمـانهم يرغبون فيه .

وحقق القرآن أن أكثـر المشـركين جهلـة لا يعلمـون، فاسـتندوا لجهلهـم ونسـبوا لـك الافتراء، وفي التعبير، بـأكثرهم. مـا يفيـد أن بعـض المشـركين يجـدون فـي قـرارة نفوسهم أنهم يشاغبون وأن ما رفعـوه كـاختلاف هـو لا اخـتلاف فيـه، ولكـنهم فعلـوا ذلك مكابرة منهم .

102-قل نزله روح القدس من ربك بالحق ...وبشرى للمسلمين .

قل لهم قولا يرد شغبهم ويقمعهـم ويرفـع تلبيسـهم: الـذي نـزل بـالقرآن فبلغـه هـو جبريل (روح القدس) وسـمي جبريـل بـروح القـدس، المضـاف "روح" باعتبـار أن الله فضله فجعل مكانتـه مـن الملائكـة مكانـة الـروح مـن الجسـد، وأضـيف الـروح الموصوف إلى "القدس " الصفة أي المطهـر بـإطلاق . مقترنـا وملابسـا بـالحق الـذي لا باطل فيه . فالمنسوخ حق وقـت نزولـه، وكـذلك الناسـخ. ومـا اقتصـر عليـه مـن مقاطع القصص حق. ومما يمتع التالي قولـه تعـالى " **مـن ربـك** "فهـذا التعبيـر جمـع بين الإفصاح عن عنايـة الله برسـوله بمـا تـدل عليـه كلمـة الـرب حسـب اشـتقاقها الأصلي، وبين قوة الارتباط بين الله ورسوله بإضافة الـرب إليـه، وبـين الإشـارة إلـى ما يقتضيه اسم الرب من مراعاة الصلاح في التبديل والاقتصار .

ونبهت الآية إلى أن ما اعترض به المشـركون وقـدروه نقصـا فـي القـرآن هـو علـى العكس من ذلك، فإنه يثبت الذين آمنوا بما في التـدرج مـن تـأليف بـين المـؤمن وبـين ما هو مطالب به من ربه، ويقوى إيمانه بأن الله يرعـى مـا يصـلح بـه . وهـو أيضـا تيسير لاتباع الهدى والتمكن من السير علـى طريقـه . ولا شـك أنـه بحصـول الثبـات واتباعه بيسر ورغبة تتحقق البشارة بحسن العاقبة .

103- ولقد نعلم أنهم يقولون ...لسان عربي مبين .

نوع آخر من التزييف والشغب الـذي يقـوم بـه المشـركون ؛ ذلـك أنهـم أشـاعوا أن النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ القرآن عـن غـلام رومـي مسـيحي يحفـظ شـيئا مـن

الأدعية التوراتية . وكان هذا الغلام قد مال إلى لإسلام فكان النبي ﷺ يعلمه عقيدة الإسلام وأحكامه. فرد القرآن عليهم ما روجوه بأنه سخيف يرفضه كل عاقل متبصر. إذ الغلام المسيحي كان معروفا ببعده عن الفصاحة، ضعيف البيان عن مراده، والقرآن قد بلغ أسمى مستوى في البلاغة، فلا يعقل أن يصدر عن رجل عيي، والقرآن قد تحداهم بأن يأتوا بمثله فعجزوا .

105-إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون ...هم الكاذبون.

ردت هذه الآية على المشركين ردا فألبستهم خزي ما رموا به الرسول ﷺ، وذلك بذكر قاعدة حاصلها : أنه لا يفتري الكذب، ولا ينشئ كلاما غير صادق يزوره ويشيعه إلا الذين خلت قلبهم من نور الإيمان وأظلمت بالكفر ورفضوا النظر في آيات الله التي تستجيب لها الفطرة السليمة، إنهم هم المنفردون بالكذب، ويفهم من ذلك انتفاء الكذب عن رسول الله ﷺ.

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١١٠﴾ ۞يَوۡمَ تَأۡتِي كُلُّ نَفۡسٖ تُجَٰدِلُ عَن نَّفۡسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإكراه : هو الضغط على الإنسان لكسر إرادته ضغطا فيه إيلام كالسجن والقيد.

الغضب : هو الانتقام إذا اسند إلى الله.

الطبع : حجاب مختوم بختم بحيث لا يصل إليه أي خارج عنه.

لا جرم : لا محالة، لابد.

هاجروا : خرجوا من موطنهم محافظة على دينهم.

فتنوا : الفتنة العذاب والأذى المتكرر الذي يتجاوز حدود الصبر عليه.

المجاهدة : المقاومة بكمال الطاقة .

الصبر : الثبات على الأمر مع تحمل المكروه.

تجادل : تدافع. وتُطْلَقُ بمعنى تناقش.

توفى: تعطى شيئا كاملا غير منقوص.

بيان المعنى الإجمالي :

قاوم المشركون الإسلام كما دلت عليه الآيات السابقة، وتسلطوا على المسلمين الذين ليس لهم قوة عصبية تمنعهم من بطش الكفرة. فمنهم من قاوم وصمد وتحدى، ومنهم من خلص نفسه بكلمة كفر ترفع عنه العذاب، ولكن قلبه مطمئن بأن الإسلام هو الدين الحق. فبينت الآية أن من كفر بلسانه لا بقلبه، ليخلص نفسه من العذاب، فإنه لا يأثم على ما نطق به وهو ناج عند الله .ولكن من ارتد وعانق الكفر واطرح الإسلام ظاهرا وباطنا فإن مقت الله سينزل به وله عذاب عظيم . إنه جزاء عدل لأنه أحب حبا شديا نعيم الحياة الدنيا ورفاهية العيش وقدمه على الآخرة . وسيهمله الله فلا يفتح له شيئا من ألطافه التي تعيده إلى الحق. لأن الله يحرم الثابتين على الكفر من الألطاف المساعدة. إن هؤلاء قد طبع الله على قلوبهم فانقلبت لا ينفذ إليها شيء من الهدى على قوته ونصاعته، وكذلك على سمعهم فلا ينقل لهم المسموعات من القرآن والسنة ما يحرك القلوب والأرواح إلى الخير، وكذلك أبصارهم طبع عليها فلا تنقل المبصرات التي تبعث في العقل التأمل الذي يعقبه الاهتداء . ولا محالة أنهم كانوا في الآخرة أعظم الناس خسرانا. ثم إن ربك يا محمد ضمن لمن أسلم وفتنه المشركون بأنواع التعذيب فقاومهم ودافع ليثبت على إيمانه وصبر على تحمل المشاق والأذى، وترك دياره وأهله وماله وخرج بعد فتنته فخرج مهاجرا إلى أرض الحبشة ليسلم له دينه، إن ربك بعد تحقق الهجرة منهم ضامن مغفرة ذنوبهم ورحمتهم . يجدون فضله يوم القيامة وهو اليوم الذي يمكن الله كل إنسان من الدفاع عن نفسه، الذي ينتهي بإدراك الكافرين والمذنبين بكفرهم وذنوبهم عدالة ما يحكم به عليهم. ويدرك المؤمنون فضل الله عليهم وحسن جزائه .

بيان المعنى العام :

106- من كفر بالله من بعد إيمانه ... ولهم عذاب عظيم .

يضاف إلى ما تقدم من محاولة المشركين فتنة المسلمين بالتكذيب وترويج الباطل وتزييف الحقائق، يضاف إلى ذلك التجاوزهم إلى إكراه من هو تحت سلطانهم كالمستضعفين من المؤمنين الذين ليس لهم قبيلة تحميهم أو الأرقاء الذين كانوا في

ملكهم. كان لما روجه المشركون مـن تشـكيك قـد أثـر فـي الـبعض فاسـتجاب لهـم وارتد عن الإسلام، وهؤلاء قد بين القرآن مآلهم، كما سنشرحه في ختام الآية .

وطائفة أخرى من المـؤمنين تسـلط علـيهم المشـركون فـأكرهوهم علـى العـودة إلـى الكفر، فمنهم من تحدى التعذيب وصبر، وكانت إرادتـه أصـلب مـن أن يهزمهـا الألـم، ومنهم من نطق بما أكرهه عليه المشركون. فبينت هذه الآيـة أن مـن أكـره علـى قـول كلمة الكفر، لكن قلبه مطمئن بالإسلام غير رافـض لدينـه، فـإن الله، بفضـله ورحمتـه بعباده المؤمنين، أعلم أنه لا يؤاخذ من لـم ينفـذ الكفـر إلـى قلبـه وبقـي قلبـه مطمئنـا بالإيمان وبصدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم .

ولكن الذين ارتدوا ونطقوا بكلمة الكفر رافضين للإسـلام، وعقـدوا قلـوبهم علـى الكفـر، سواء أكـان ذلـك تحـت التعـذيب أم بمجـرد الخـوف منـه أو بـإغراء الكـافرين أو بتلبيسهم، فإن الله يؤاخذهم بما استكانت إليه قلوبهم ورضوا به، وذلك بانتقامه منهم.

والغضب إذا أسند إلى الله فالمراد منه الانتقـام لا غيـر، كمـا حققـه الراغـب. وأكـدت الآية الغضب بأن الله سيعذبهم العذاب العظيم.

وهذه الآية أثبتت رفع الإثـم عمـن أكـره بالتعـذيب الجسـمي أو السـجن أو التقييـد، أو كشف عورته ونحو ذلك. ومـن أكـره علـى فعـل مـا يعـد كفـرا كالسـجود للصـنم فالجمهور على أن الفعل والقول سواء إذا كـان قلبـه رافضـا لمـا فعلـه، ورأى بعضـهم أن الإكراه يسلم به الفاعل بينه وبين الله، ولكن تجـري عليـه أحكـام الكفـر فـي الـدنيا فلا يرث أباه المسلم مثلا ولا يصلى عليـه إن مـات ولا يـدفن فـي مقـابر المسـلمين . ومن أكره على قتل غيره فإن الإكراه لا يرفـع عنـه الإثـم ولا الحـد. وأحكـام الإكـراه مفصلة في كتب الفقه.

107- ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا ....لا يهدي القوم الظالمين .

تعليل وتوجيه لما تضمنته الآية السـابقة : إنهـم اسـتحقوا الانتقـام والعـذاب العظيمـين، لأنهم بانشراح قلوبهم للكفر قد أحبـوا حبـا كبيـرا متـاع الحيـاة الـدنيا، فتحولـوا عـن التعلق بالحق، وعما يوجب النجاة يوم القيامة، إلى مـا يجلبـه إلـيهم الكفـر مـن رفاهيـة العيش في الدنيا .ثم هددتهم الآيـة بـأنهم لا يترقبـون أن يسـعفهم الله بألطافـه ليعـودوا إلى الإيمان، بل يتركهم لأنفسهم التي انحرفت فضلت .

109/108- أولئك الذين طبع الله على قلوبهم ...هم الخاسرون.

هؤلاء الذين اختاروا الكفر على الإيمان بعد أن آمنـوا، والـذين هـم بـذلك أسـوأ حـالا من المستمرين على الكفر، لأنهم قد عاشوا مع الإيمـان وجربـوا مـا فيـه مـن صـلاح،

ثم أعرضوا عنه ترجيحا لمصالح دنيوية على النعـيم الأخـروي. هـم فـي الحقيقـة قـد كونوا على قلوبهم حجابـا لا يفـتح ولا ينفـذ إليـه شـيء مـن نـور الهـدى؛ فقلـوبهم كالرسالة التي يكتبها صاحبها ثم يطويها ويضع عليهـا شـمعا يطبعـه بطـابع حتـى لا يتجرأ أحد على فتحها. فالقلب المطبـوع هـو قلـب لا ينفـذ إليـه شـيء مـن الإيمـان وأدلته. فقلوبهم لا تعقل شيئا من الحـق الـذي جـاء علـى لسـان رسـول الله، ذلـك أن العقل إذا أغلقه صاحبه عن التأمل، وصـرفه لمعـاداة الـدين، فإنـه ينتهـي بـأن لا ينفـذ إليه شيء من الوحي ولا يلتفت إلى النذر. وكذلك السـمع، فـإن السـمع حاسـة لا تعقـل المسموع إلا إذا وجه العقل الحاسة للإحساس، ولـذلك تجـد اللاهـي يحـدث حولـه مـن الأصوات والكلام ما يحدث، ثم إذا سألته عما كان يضج حولـه يجيبـك بأنـه لـم يسـمع شيئا. فهم بإعراضهم عـن اسـتماع القـرآن وهـدي الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم يكونون قد أقفلوا سمعهم، وكذلك الأبصار لا تنقل لهـم مـا وراء المبصـرات مـن نظـام ودلائل يعقولهم. ومن إعجـاز القـرآن قصـر الغفلـة علـيهم، إذ الغافـل لا يـدرك مـا حوله: أولئك هم الغافلون. ولا بد أن يكـون حظهـم فـي الآخـرة الحـظ الأعظـم مـن الخسران.

110-ثم إن ربك للذين هاجروا...بعدها لغفور رحيم .

كان للبشر من الرسالة المحمدية في مكة مواقف مختلفة :

1)الكافرون الرافضون وقد فصلت آيات من هذه السورة تركيبهم الفكري وعنادهم.

2)من أسلم ثم فتنه المشركون فارتد ورضي الشرك دينا.

3) من أسلم وكان له من مكانة قومه ما دفع عنه أذى المشركين.

4)من أسلم وعذبه المشركون وصبر على الأذى وهو صامد لم يتزحزح.

5)من أسلم وعذبه المشركون، فقال كلمة الكفـر لينقـذ بهـا نفسـه مـن العـذاب وقلبـه مطمئن بالإيمان.

وهذه الأنواع الخمسة قد فصلت الآيات أحـوالهم . وبقـي صـنف سـادس اعتنـت بـه هذه الآية. وهم الذين أسـلموا وحسـن إسـلامهم وفتـنهم قـومهم بـأنواع مـن العـذاب والأذى والمقاطعة، ولم يلينوا لإرضاء المشركين بلسـانهم وبقيـت عقيـدتهم ثابتـة علـى دين الله. ولكنهم لدرء الفتنة المتواصـلة مـن قـريش، تركـوا مـوطنهم وخرجـوا إلـى الحبشة ليعيشوا الغربة عن الأهل ومرابع الصـبا، ويقيمـون ديـنهم فـي أمـن . فعطفـت الآية هذه الفئة بما يدل على علو مرتبتها. والمعنـى إن ربـك يـا محمـد محقـق رعايتـه بواسع المغفرة وعظيم الرحمة للـذين هـاجروا فتركـوا ديـارهم وأمـوالهم ليسـلم لهـم

دينهم من بعد مــا فتــنهم المشــركون، وقــاوموا الكفــر بمــا أوتــوا مــن قــوة وجهــد (وجاهدوا) وأحبطوا كل المؤامرات التي أعدها المشــركون ليفتنــوهم عــن ديــنهم ابتغــاء مرضاة الله . وليس الجهــاد بالجهــاد الحربــي، لأن الآيــة مكيــة ولــو يشــرع الجهــاد وقتها. وقد تحلوا بالصبر علــى تحمــل المكــاره والمشــاق، والعزيمــة علــى المضــي على إيمانهم . إن ربك من بعد الهجرة، التــي كانــت مظهــرا واضــحا علــى التــزامهم السير على الصراط المستقيم، لغفور رحيم.

111-يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها...وهم لا يظلمون.

هذه الآية مرتبطة بما ختمت به الآية السابقة، أي إن الله لغفــور رحــيم يــوم تــأتي كــل نفس تجادل عن نفسها. فتكون هــذه الآيــة مبشــرة للمهــاجرين إلــى الحبشــة أن ربهــم سيكون غفورا لذنوبهم رحيما بهم يوم القيامة، إذا كل إنســان مهمــا كــان صــالحا لا بــد له من فلتات، فيقدمون على ربهم في ذلــك اليــوم وقــد امحــت ذنــوبهم ودخلــوا تحــت مظلة غفران الله ورحمته .

وتفيد الآية: أن كل إنسان مؤمن أو كافر يُعْــرَضُ علــى ربــه يــوم القيامــة، ويمكنــه الله من الدفاع عن ذاته. وينتهي الدفاع بــإقرار المشــرك بشــركه والكــافر بكفــره والمــذنب بذنوبه، ولا يبقى له حجــة. وعنــدها يعطــي الله لكــل نفــس جزاءهــا المقــرر الجــزاء العادل الذي لا يشوبه نقص من الإكرام أو زيــادة مــن العــذاب والمهانــة. والله لا يظلــم أحدا. والشعور بالعدالة الإلهية في ذلك اليوم يقتنع بــه مــن اســتحق العــذاب، فيجــد فــي نفسه أن الله لم يظلمه ولم يعذبه إلا العذاب الذي هو جزاء عــادل لمــا قدمــه فــي الــدنيا. كما يقتنع به المنعمون الذين يضــفي علــيهم ربهــم مــن فيــوض رحمتــه وغفرانــه مــا ترتفع به درجاتهم.

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأمن : السلامة من تسلط العدو.

مطمئنة : غير خائفة مطمئنة البال.

رزقها : أقواتها.

رغدا : وافرا هنيئا.

أنعم : نعم .

أذاقهم : أصله الإحساس بالطعم. والمقصود بها هنا الإحساس بالألم .

لباس : أصله ما يلبس من الثياب. والمقصود به المحيط الملازم.

الأخذ : الإهلاك

الحلال : المأذون فيه شرعا.

طيبا : تميل له النفس لملاءمته للذوق .

بيان المعنى الإجمالي :

في هذه الآية إيقاظ لأهل كل بلد ليتأملوا في هذا المثل الذي قدمه القرآن للناس كي يتعظوا به. قرية تفضل الله عليها بالأمن، وهناء العيش فلا خوف ولا قلق، وحقق لها الأمن الغذائي الذي يأتيها واسعا من مختلف الأماكن ؛قابل سكانها النعم بالكفر وجحود الفضل الإلهي، فسلط الله عليها الجوع فتمكن منهم وأحسوا به إحساسا بليغا وبدل أمنهم خوفا .فكان جزاء عادلا بسبب ما صنعوه بأنفسهم . ومع ذلك فقد بعث الله لهم رسولا منهم يعرفونه وكان قبل بعثته محل تقدير لكمالاته الخلقية، فلما دعاهم لما أمره الله أن يدعوهم إليه، بادروا بتكذيبه، فأهلكهم الله بالعذاب، وهم منغمسون في ظلمهم .

أذن الله بأن يأكل الناس مما رزقهم إذا كان حلالا في ذاته وكسبه لا قذارة فيه، وأن يشكروا الله على نعمه فإن الشكر قرين العبادة.

وبين القرآن ما هو محرم وقت نزول الآية في العهد المكي، فعدد المحرمات في ذلك الوقت: الميتة والدم ولحم الخنزير وشحمه وغضاريفه وجلده، وكذلك ما ذكر عليه عند تذكيته غير الله تعالى. ولما كان الإسلام مبنيا على التيسير فإنه رفع الإثم عن المضطر الذي يخشى على نفسه الهلاك أن يأكل من هذه المحرمات ما دام مضطرا

بيان المعنى العام :

112- وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة ...بما كانوا يصنعون .

تعرض الآية صورة تتبع القرآن جزئياتها وتفاصيلها، وأحكم نسجها لتكون مجسمة لمضمونها، تنفذ إلى المشاعر وتحرك الحس، وتجلي ما قصد بها جلاء معجزا .

هي قرية لم يعينها القرآن فالأولى أن تبقى منكرة غيـــر معينـــة، إذ تعيينهـــا لا يزيـــد فـــي الموعظة شيئا. خلافا لما اعتمده كثير من المفســرين أنهـــا مكـــة . قريـــة كانـــت الســـعادة تغمر سكانها، أنعم الله عليها بالأمن على مالهـــا وعلـــى حياتهـــا، لا تخـــاف غـــزو عـــدو، والأمن هو الركن الأول للتنعم بالحياة. ومع الأمن حلـت الطمأنينـــة فـــي قلـــوب ســـكانها، والطمأنينة بما تدل عليه من ذهاب القلق والخوف، وقـــد اســـتقر النظـــام الاجتمـــاعي بمـــا يوفر راحة البال، وذلك نعمة فوق نعمة الأمن وإن كانـــت لا تحصـــل إلا تبعـــا لـــه. وقـــد تحقق لها الأمن الغذائي، فترد عليها ما تحتاج إليه من الطعـــام وافـــرا هنيئـــا، بمـــا يـــذهب اللهفة وتوقع الجوع والخصاصة. ليـــذهب الفكـــر فـــي تصـــور نعمـــة الحيـــاة فـــي هـــذه القرية كل مذهب. ويعقب هذا النعيم المتعدد الجوانـــب فســـاد روحهـــا وعقلهـــا، إذ قابلـــت ذلكم الفضل بجحدها لنعم الله عليها، فبرز في المشـــهد جانبـــان متناقضـــان، جانـــب كلـــه إشراق وخيرات متتابعة، جانب كالح هو كفر وجحود .

ويتم المشهد بإبراز نتيجة ذلكم التناقض المقيت. إن الله رفع مـــا كـــان يرســـله إليهـــا ممـــا تقدم في الصورة الأولى، فأثر فيها الجـــوع وأحـــاط بهـــا ولازمهـــا كمـــا يحـــيط اللبـــاس بصاحبه وهو على مقاسه. واستولى الخـــوف علـــى النفـــوس والمشـــاعر. وتؤكـــد الآيـــة مظهرة أن ذلك كـــان نتيجـــة لمـــا صـــنعوه، ومـــن شـــأن النتيجـــة أن لا تتخلـــف عـــن المقدمات فهي نتيجة ملازمة لهم .

113- ولقد جاءهم رسول منهم ....وهو ظالمون.

وواصل القرآن تشنيع أهـــل هـــذه القريـــة. ذلـــك أن الله بعـــث لهـــم رســـولا يعرفونـــه، خبروه قبل دعـــوتهم لـــدين الله، فكـــان محـــل تقـــدير لكمالاتـــه الخلقيـــة واســـتقامته، لـــم يجربوا عليه كذبا ولا موقف خسة . ومع ذلك فإنـــه بمجـــرد مـــا دعـــاهم لاتبـــاع الـــدين الذي يرضاه الله لهم، سارعوا بتكذيبه ورفـــض مـــا يـــدعو إليـــه. فـــأهلكهم الله بالعـــذاب، في الوقت الذي هم فيه مقيمون على ظلمهم.

إن هذا المثل ينطبق تمام الانطباق علـــى أهـــل مكـــة دون أن تكـــون قاصـــرا عليهم، ففيـــه لذلك أشد التحذير لهم من مواصلة الإعـــراض عـــن الاســـتجابة للإســـلام، وأن مصـــيرهم إذا لم يتوبوا ويقلعوا عن عنادهم، هو مصير أهل تلكم القرية.

114-فكلوا مما رزقكم الله حلالا....إياه تعبدون .

بعد أن تابع القرآن مراحل القرية المنعمـــة التـــي مـــن الله عليهـــا فيمـــا مـــن بـــه الأمـــن الغذائي، وأنها انتهت إلى الكفر بنعم الله وحل عليهـــا العقـــاب. أتبـــع ذلـــك بالتأكيـــد علـــى أن التنعم بما يتفضل به الله من الخيرات مأذون فيـــه بشـــرط أن يكـــون حـــلالا فـــي ذاتـــه

وكسبه، وأدمج في التوجيه أن لا يكون مستقذرا بقولــه (طيبـا) وكـان هـذا الإذن مـدخلا للمقصود من الآية، فأمر المنتفعين بما يتفضل الله بـه علـيهم مـن الحـلال الطيـب أن لا يغفلوا عن شكر الله على نعمه . وأول مراحل الشـكر الاعتـراف للمـنعم بفضـله علـى ما يسره ومكن منه، وحرض على الشكر بأنـه مـن موجبـات العبـادة الحـق لله، وأنـه مقترن بها، ومن يغفل عن شكر ربه فهو غافل عـن حقـوق المعبـود علـى العابـد. قـال تعالى: **وسنجزي الشاكرين**[1] –

115-إنما حرم عليكم الميتة ...فإن الله غفور رحيم .

هذه الآية شديدة الاتصال بالآية التي قبلها. إذ كانت الآيـة سـابقة تتضـمن إذنـا مـن الله تعالى في أكل الحلال الطيب، ولما كان الحلال هـو القاعـدة فيمـا رزقنـا الله، حصـرت هذه الآية المحرمات، ليبقى ما سواها في نطاق الحلال على سعته.

المذكور في هذه الآية من المحرمات نوعان: ما كان تحريمه لأنه خبيث مضر للإنسان بخلقته؛ الميتة وهي ما مات من الحيوان البري الذي له نفس سائلة (ترتبط حياته بالدورة الدموية) وذهبت حياته بغير تذكية. وكذلك الدم الذي يسيل من الحيوان عند ذبحه أو يخرج منه أومن الإنسان إثر الجراحة . ولحم الخنزير وعظامه وغضاريفه وجلده. وقد قدمنا تفصيلا أوفى . انظر الآية 173 سورة البقرة والآية 4/3 من سورة المائدة– والنوع الثاني ما كان تحريمه بسب التوسل به لغير الله. وقد قدمنا أيضا في سورة المائدة ما يتعلق بخبث تناول هذا النوع من اللحوم.

ونذكر بأن هذه السورة مكية، وأن الاقتصار علـى هـذه المحرمـات معنـاه أن لا يوجـد محرم غيرها عند نزول الآية، والتشريع الإسلامي يرتقـي بالمسـلمين مـن مرتبـة إلـى مرتبة أسمى منها. فإذا أبقى ما عدا المذكور فـي هـذه الآيـة علـى الإباحـة الأصـلية، فإنه يتمم بقية المحرمات في الوقت المقدر لتحريمهـا وعنـدها ترتفـع الحليـة. فاحتجـاج بعض الفسقة أن الخمر ليس محرما بنـاء علـى أنـه لـم يـذكر تحريمـه فـي الآيـة ضلال وفسق ينتهي بصاحبه إلـى الكفـر لأنـه يحـل مـا ورد تحريمـه فـي نصـوص أخرى؛ فكان مسلكه مسلك اليهود الـذين قـال الله فـيهم : (**أفتؤمنـون بـبعض الكتـاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلـك مـنكم إلا خـزي فـي الحيـاة الـدنيا ويـوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون**)[2] .

---

[1] سورة آل عمران آية 145

[2] سورة البقرة آية84

وعقب الآية بتقرير التيسير في الإسلام على الإنسان الذي كان في ظروف حرجة جدا: إما أن يأكل من المحرمات ما يبقي به على حياته، وإما أن يموت جوعا، فرخص له القرآن أن يبقي على حياته، وأن تناوله من المحرم لا يترتب منه عليه إثم . وقد قدمنا في سورة البقرة والأنعام تفصيل المراد من قوله تعالى **غير باغ ولا عاد،** في المرجع المذكور أعلاه مما يغني عن إعادته.

وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

لما تصف ألسنتكم : عن الذي تذكرونه مفصلا بألسنتكم.

لا يفلحون : لا يبلغون آمالهم.

بجهالة : ملتبسا بعدم علم، أو بالتحدي وركوب الرأس .

بيان المعنى الإجمالي :

نهى الله المشركين أولا ويسري النهي لجميع الناس بعدهم، أن يحكموا بحرمة أو تحليل مأكول أو مشروب، وأن يعبروا عن ذلك بأقوال لا تستند لحقيقة، وإنما هو اختلاق. إن الذين يفترون تلكم الأحكام ويروجونها مآلهم الخسران. ولا يغرنكم ما تمكنوا منه من خير فإن ذلك هو نفع زائل غير ثابت، خصهم الله بعذاب أليم .

ولا يصح الاستناد في التحريم على شريعة موسى لبني إسرائيل مما ذكر القرآن أن الله حرمه عليهم. لأن ذلك التشديد القصد منه تربيتهم لتلين قلوبهم بعد قسوتها، فهم الذين ظلموا أنفسهم بتمردهم على نبيهم فشدد الله عليهم، وما ظلمهم الله.

ويخاطب الله نبيه مخاطبة الإيناس إظهارا لفضله على البشرية فيعلمه : أن الذين عملوا عملا سيئا من قول أو فعل، وكانوا عند اقترافهم للإثم جاهلين لم يعلموا أو متحدين مستكبرين، ثم استيقظوا بما أتاهم عن طريقك، فأصلحوا أنفسهم وأصلحوا أعمالهم وتابوا راجعين إلى الله، فإن الله الكريم يتفضل عليهم أولا بستر ذنوبهم كأنها لم تصدر عنهم، ويرحمهم بفضله ثانيا بما يغدق عليهم من خيرات .

بيان المعنى العام :

116-117-ولا تقولوا لم تصف ألسنتكم الكذب ...ولهم عذاب أليم .

لما حددت الآية السابقة ما حرمه الله، ويفهم مـن ذلـك أنهـا أبقـت سـوى مـا نصـت عليه على حكم الأصل، وهو جواز الأكـل منـه ؛ جـاءت هـذه الآيـة موضـحة لهـذا المفهوم مبينة حكم التعدي بتغيير الحكم الذي حكم الله به .

فنهى سبحانه كل إنسان أن يغيـر مـا حكـم الله بتحريمـه فيحلـه، أو مـا حكـم بحليتـه فيحرمه، ذلك أن الحكم على الأشياء هو من خصائص الخـالق، فهـو الـذي خلـق وهـو الذي يبيح ما يشاء ويحرم مـا يشـاء تبعـا للحكمـة التابعـة للعلـم المحـيط بالماضـي والحاضر والمستقبل .ولما كان علـم الإنسـان قاصـرا لا يبلـغ إدراك جميـع الجوانـب التي يعتمدها ليكون حكمه صالحا وصحيحا ومـؤثرا، حُـرِمَ عليـه تغييـر مـا حكـم الله به. وليس النهي منصبا على الأكل، ولكنه علـى إعطـاء حكـم موهـوم للأكـل، مفصـح عنه بتوضيح وبالغ بيان، كأن المتكلم بـه يصـفه وصـفا يخيـل لمـن توجـه إليـه أنـه حقيقة، ولكنه وصـف كـاذب، فقولـه تعـالى:" **الكـذب**" مُسَـاوٍ : لتصـف ألسـنتكم. ولا تقولوا قولا منمقا هو كذب، عن أي شيء يمكن تناولـه بالأكـل أو الشـرب، هـذا حـلال أو هذا حرام. لأن الوصف بالحلية أو الحرمة هو لله ولـيس لأحـد غيـره، فمـن تجـاوز قدره وحلل أو حرم بقوله قـد حصـل منـه الكـذب علـى الله. ويؤكـد القـرآن أن مـآل هؤلاء الكذبة المفترين :الخسران، لا يفلحـون . ولا تعجـب مـن نجـاح بعضـهم فإنمـا هو نفع قليل أمد الانتفاع به، سيزول عن قريب، وقد اختصوا بعذاب أليم .

118- وعلى الذين هادوا حرمنا....كانوا أنفسهم يظلمون .

نفت الآية صحة اعتماد التحريم على ما هو محرم علـى اليهـود واتبـاع الأحكـام التـي خصوا بها . فقد حرمنا على بني إسرائيل ما ذكر في سـورة الأنعـام فـي قولـه تعـالى: **وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفـر.....**[1] – فمـا حرمنـاه علـيهم لـيس مـن سـنة إبراهيم، ولا من الأحكام التي أردنا أن يكون معمولا بها أبـد الـدهر. ولكـن كـان تأديبـا لهم، فأردنا تقويمهم بسبب ظلمهم لأنفسهم وتمردهم علـى التـوراة وعلـى نبـيهم موسـى ﷺ . والله لا يظلم أحدا، فهو الذي يعلم انحراف البشر ومـا هـو أفضـل ليعـودوا إلـى الصراط المستقيم. ولذا كان مـن مهـام المسـيح ﷺ أن يخفـف علـى بنـي إسـرائيل بعض الأحكام التي شددت عليهم لتلين قلوبهم بعد قسوتها.

[1] سورة الأنعام آية 146

119-ثم إن ربك للذين عملوا...من بعدها لغفور رحيم .

لقد شددت الآيتان -118/117-التحذير من القـول علـى الله بغير علـم فـي التحليـل والتحريم، وأبـرزت صـورة مـن معاملـة اليهـود المتمـردين معاملـة شـديدة تكسـر عنادهم، وشأن القرآن أنه يصحب التحـذير بالترغيـب، والشـدة بالتيسـير، بـل يؤكـد في التيسير ليجلب الناس إلى الخير ويحولهم عـن الفسـاد إلـى الصـلاح . وهنـا يلـين الخطاب فيأتي بكلمة الرب، بما توحي به من العنايـة والألطـاف، ويسـندها إلـى النبـي ﷺ إبرازا لإكرامه وأنه سـبب الخيـر للنـاس، إذ كـان عِلْمُهُـمْ قبـل بعثتـه بـالحلال والحرام غير مستند إلى أصل، كما أن تركيبهم النفسي فيـه كثيـر مـن التحـدي وعـدم الانصياع للحق ؛ فألان الله من غلظ تلكـم الطبـاع، وقـرر مـا هـو ديـن يرضـى الله عنه، فأزال عنهم الجهل بمعنى عدم المعرفة، وأزال عـنهم الجهـل بمعنـى الجهالـة؛ ثـم إن الذين عملوا ما هو سيء من قول أو من فعل، عن جهـل أو عـن جهالـة، ثـم أعقـب ذلك بتيقظه لسوء فعله، وعدم رضاه به، وأصـلح سـلوكه فـي المسـتقبل، وسـار فـي طريق الخير وتنكب طريق الشر، تؤكد الآية تأكيدا بالغا: إن ربـك يـا محمـد بعـد ذلـك التحول من الضلال إلى الهدى غفور للـذنوب السـالفة، ينـزل رحمتـه العظيمـة علـيهم فيسعدهم بحسن المآل .

إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

أمة : كمالاته كثيرة كأن جمع منها ما تفرق في أمة .

قانت : مطيع.

حنيف : مائل عن الباطل إلى الحق.

أنعمه : نعمه.

اجتباه : اختاره.

بيان المعنى الإجمالي :

أثنى الله على إبراهيم ثناء يبطل كل ما ألصقه المشـركون بـه. أثبـت أنـه كـان جامعـا لأوصاف النبل والفضل فكأنه ضم ما تفرق في أمـة، مقـدما لطاعـة ربـه خاضـعا لـه، مائلا عن الطرق الضالة التي كانت عليها البشرية في عهـده منفـردا عـنهم، مـا تلـوث بالشرك، ومبعدا كل صلة له بالمشركين. كان يذكر نعم ربـه عليـه ويثنـي الثنـاء الـذي يستحقه واهبها. كل ذلك يشهد على أن الله تخيره من بين البشـر فـي زمنـه. حفـت بـه ألطافه فهداه إلى الصراط المستقيم المبلغ للغايـات الشـريفة الحـق مـن أقـرب طريـق. وجازاه ربه بأن يسر له الحياة الطيبة الآمنـة فـي الـدنيا وبـارك لـه فيهـا، وهـو فـي الآخرة في الزمرة الممتازة من عباد الله الصالحين.

بيان المعنى العام :

120←122 : إن إبراهيم كان أمة ....وإنه في الآخرة لمن الصالحين.

كان المشركون بمكة يدّعون أنهم على دين إبراهيم عليه السلام، ونسبوا ما صَوَّرَتْه خيالاتهم وأوهامهم الدينية إليه. وقد وجد النبي صلى الله عليه وسلم داخل الكعبة صورة إبراهيم وهو يستقسم بالأزلام، كما نسبوا بعض ما حرموه إليه عليه السلام. فَلِيَتضح الأمر اتضاحا كاملا بين القرآن ما حرمه على اليهود وأن ما حرمه عليهم لا يسري على من بعدهم، وأن عيسى عليه السلام خفف كثيرا مما شدد الله به عليهم ؛ وإذ انتفى الاقتداء باليهود فيما حلل وحرم، فكذلك تَحَتَّمَ نفي ما نسبوه إلى إبراهيم عليه السلام. فعرض القرآن ما يتميز به إبراهيم وأن سنته عليه السلام إنما أقامها محمد ﷺ.

وصفت الآيات وأثنت على إبراهيم :

أولا: إن إبراهيم كان أمة، وأصل الأمـة الجماعـة الكثيـرة مـن النـاس التـي تجمعهـا رابطة، والمقصود أنه كان جامعا لكمالات كثيـرة، فيصـدق مـن يصـفه أنـه جمـع مـا تفرق في أمة كاملة من الفضل والخيـر والفتـوة . كمـا تقـول رجـل كـألف. كمـا أن جهاده لتقرير التوحيد وثباته رغم ما لاقاه من المشركين مـن إذايـة وتـألبهم عليـه كـان بمثابة جهود أمة كاملة .

ثانيا : قانتا مطيعا لربه خاضعا له . فليس إبراهيم هـو الـذي صـوره المشـركون علـى صورة من يستقسم بالأزلام، ولكن حضوره مع ربه كـان حضـورا ملازمـا لـه، يـربط كل فعل وحركة وكل جسم وكل ما هو مبثوث في الكون بالله.

ثالثا: حنيفا أي منحرفا عن كل المـذاهب التـي تاهـت وضـلت فـي عقيـدتها. فالآيـة تكذب المشركين في دعواهم أنهم على ملة إبراهيم.

رابعا: وتأكيدا لكذبهم في دعواهم لصلتهم بإبراهيم صرح القـرآن بأنـه عليـه السـلام لـم يكن بينه وبين المشركين أي صلة، وذلك أبلغ من: لم يكن مشركا.

خامسا: شاكرا؛ مدركا فضـل الله مثنيـا عليـه، لا يحجـب عـن بريـق ذهنـه تواصـل النعم، رغم أن النعم إذا ما تتابعت خف الشعور بهـا. أمـا إبـراهيم فـإن صـلته القويـة بالله جعلته يقظا لأنعم الله عليه يواصل شكره وثناءه.

إن تجمع تلكم المزايا كان شاهدا على أن الله قد اختاره فوفر فيـه مـا تفـرق فـي غيـره من معالي الأمور، والله أعلم حيث يجعل رسـالاته. وفـوق ذلـك أحـل الله الهدايـة فـي قلبه فأسرع إلى التوحيد، وسلك الطريق الذي يرضى الله عن سالكها فلم يحد عنه.

وأتبع ذلكم الثناء ببيان ما أغدق الله علـى رسـوله إبـراهيم مـن حسـن الجـزاء، فقـال تعالى: لقد آتيناه في لطف ويسر الحسنة في الـدنيا بمـا يشـمل طمأنينـة القلـب وكفايـة الرزق، وصلاح الذرية، وجمال الذكر، وتعلـق النـاس بـالقرب منـه علـى أنـه مثـال الخير والتقوى والفضل . وهو في الآخرة منضم إلـى زمـرة الصـالحين المقـربين مـن الله، وأجـاب دعـاءه الـوارد فـي سـورة الشـعراء (**رب هـب لـي حكمـا وألحقنـي بالصالحين**) [1].

ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

اتبع : أصل الاتباع في السير على خطى السـابق، والمقصـود بهـا العمـل علـى الـنهج والطريقة التي سار عليها إبراهيم.

الملة : الطريقة العقدية .

بيان المعنى الإجمالي:

مزية هي أعظم من المزايا السـابقة لإبـراهيم أن أوحـى الله لمحمـد ﷺ الحقـائق التـي أحيت صفاء العقيـدة الإبراهيميـة والمـنهج الـذي سـار عليـه فـي الاحتجـاج علـى الوحدانية لله. فإن العقيدة التي كان يدعو إليها إبراهيم كانـت سـائرة علـى نهـج مخـالف لجميع المناهج المعروفة في عصره (**حنيفا**) وهـو أبعـد مـا يكـون عـن الشـرك فلـم يخالط الشرك قلبه ولا دعوته من يوم عقل إلى أن توفاه الله.

---

[1] سورة الشعراء الآية 83

بيان المعنى العام :

123-ثم أوحينا أليك أن اتبع ملة..وما كان من المشركين .

كلمة ثم، أصلها أنها تعطف لاحقا على سابق متراخيا عنه، تقول جاء محمد ثم صالح، فيفيد العطف بكلمة ثم أن مجيء صالح كان بعد مدة زمنية من مجيء محمد. وقد تكون للتفاوت في الرتبة فتدل على أن ما عطف بها هو أعلى مرتبة. وبناء على ذلك فقوله تعالى **ثم أوحينا إليك** يقتضي أن فوق المزايا التي ذكرت في الآيات السابقة، والتي خص الله بها إبراهيم: أن أوحيت لك يا محمد التشريع الذي يقوم في أصوله على ما يوافق أصول ملة إبراهيم. فيكون إحياء ملة إبراهيم إحياء يمضي مع الزمن دون أن تفسده شبهات أو تحريف، لم يتحقق إلا في الإسلام الذي حُمّلت نشره في العالمين، وهذه مزية لإبراهيم فوق المزايا التي سبقت إذ كان الذي خلص ملته مما اختلط بها عبر الأزمان، وصفاها تصفية لا يلحقها بعد ذلك أي خلط، هو محمد بما أوحى الله إليه. وليس معنى ذلك أن التشريع الذي أوحى الله لإبراهيم هو عين التشريع الإسلامي، ذلك أن تشريع الإسلام هو التشريع الذي ارتضاه للبشرية من عهد محمد إلى قيام الساعة. ولكن الاتفاق هو في ناحية العقيدة التي انحرفت من بعد عهد إبراهيم، فاليهود حرفوا التوراة تحريفا وصل بهم إلى أن جسموا الله تجسيما قريبه من البشر، والنصارى حرفوا الإنجيل وجعلوا الله أبا. فأوحي الله لنبيه محمد أن يعلن في العالم التوحيد صافيا كما أعلنه إبراهيم من قبل وأن يؤيده بالأدلة والبراهين تأييدا ينفي كل شرك لله . وأكد ذلك بقوله: **وما كان من المشركين**، بما يقتضيه من نفي أي صلة في تصور مفهوم الألوهية بين إبراهيم وبين اليهود والنصارى والعرب، فقد لصق بكل واحد منهم لوثة من الشرك.

إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبۡتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

السبت : يوم السبت .

اختلفوا فيه : في الطريقة التطبيقية لاحترامه.

بيان المعنى الإجمالي :

ادعى اليهود أن تقديس السبت من الثوابت العقدية التي كان عليها إبراهيم. فرد القرآن زعمهم هذا بأن تقديس السبت فرض على اليهود الذين اختلفوا في ما يجب

لتقديسه. وبقي الأمر مشتبها عليهم .وسيكشف الله لهم الحقيقة يوم القيامة لترتفع الأوهام وينجلي الحق .

بيان المعنى العام :

124-إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه...كانوا فيه يختلفون .

تحقيقا لما تضمنته الآية السابقة: أن أعظم مزايا إبراهيم عليه السلام هو وحي الله لمحمد صلى الله عليه وسلم أن يكون متبعا لصافي العقيدة التي دعا إبراهيم عليه السلام البشر إليها. وجاءت هذه الآية ترد مزاعم كان اليهود يشغبون بها على المسلمين، بيان ذلك :أن اليهود يزعمون أنهم ورثة الشريعة الإبراهيمية، وأن من القضايا الأساسية التي جاء بها تعظيم السبت، وهم ما يزالون ثابتين عليه إلى اليوم، ويقولون :لو كان محمد وارثا لدين إبراهيم لعظم السبت كما يعظمونه . فكان الرد عليهم بهذه الآية :إن تعظيم السبت لم يكن من شريعة إبراهيم، وما كان دعامة من دعائم العقيدة، وإنما جعله الله على بني إسرائيل الذين اختلفوا في تطبيق تقديسه، إذ كان منهم من استعمل الحيل لينتفع بحاصل ما يأتيه يوم السبت مما أعد له يوم الجمعة، ومنهم من نهى عن التحيل، ومنهم من اعترض على النهي عن هذا المنكر. واختلف أهل القرية في وعظ هؤلاء المتحيلين، حتى انتهوا إلى نسيان ما ذكروا به كما فصل ذلك في سورة الأعراف 163/166- فتقديس السبت فرض على اليهود واختلفوا في الطريقة العملية في تقديسه، وليس من شريعة إبراهيم في شيء، وليس تقديسه من ثوابت العقيدة كما يدعيه يهود. وتكون الآية متصلة بسابقتها وبالآية 118- ثم إنه سيكشف الله يوم القيامة الحقيقة التي اختلفوا فيها، إذ في ذلك اليوم ترتفع الشبه وينجلي الحق غير مختلط بالأوهام والظنون الكاذبة.

ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُ فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

سبيل الله : كل عمل من شأنه أن يوصل إلى رضا الله، وهو دين الإسلام.

الحكمة : المعرفة الصواب، الذي لا يشوبه خطأ.

الموعظة الحسنة: القول اللين الذي يخاطب المشاعر فيساعدها على عمل الخير.

المجادلة : عرض الحجة ليثبت الرأي ويسقط رأي المخالف.

المعاقبة : الجزاء على فعل السوء بما يردع المسيء.

الضيق : الجزع والكدر .

بيان المعنى الإجمالي :

هدت الآية للمنهج في الدعوة المحقق لنجاح الداعي في نشر الإسلام وإقامة الناس على طريق الصلاح. فأمر الرسول ﷺ وأمر المسلمين أن يكون القصد الأول للداعي هو الهداية للطريق المستقيم، وأن لا يراعي حظ نفسه ولا حظ قومه، وإنما يخلص قصده لسيادة السبيل الموصل لمرضاة الله. فيعتمد الحكمة المبنية على العلم، ومراعاة حال المدعو والطريقة الأمثل للتأثير فيه، ويعتمد الموعظة التي ترقق القلوب وتحرك الروح، وإن حصل جدال فليلتزم الجدال بالتي هي أحسن، فإن الغلظة تفصل بينهما وتثير إصرار الطرف المقابل على ما هو عليه. وعلى الداعي أن لا ييأس وليواصل هدايته للخير، فإن العاقبة لا يعلمها إلا الله، فعسى أن ينتهي المدعو بعد رفضه الأول إلى اتباع الطريق المستقيم .

وإن أوذيتم فترجح لديكم أن الخير في ردع المعتدي بمعاقبته، فتحروا أن لا تبلغوا بالعقوبة أكثر مما عوقبتم به . والصبر خير إن كان مآله افضل عاقبة

وأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالصبر وأعلمه أن الله ثبت قلبه وقواه بعون منه فقدرته على التحمل تفوق الطاقة البشرية. وسكب في قلبه الأمن والتفاؤل فلا يحزن عليهم إذا هم مردوا على العناد والكفر وتدبير المكائد له .

وقوى المؤمنين الداعين للإسلام بأن الله ناصر ومؤيد للذين تمكنت التقوى من قلوبهم، وثبت الإحسان في فعالهم وعزائمهم وقلوبهم.

بيان المعنى العام :

125- أدع إلى سبيل ربك بالحكمة....وهو أعلم بالمهتدين .

ترتبط هذه الآية بمطلع السورة التي افتتحت بأن ما قدره الله من نصره دينه حاصل لا ريب فيه، يحققه سبحانه في أجله فلا تستعجلوه . ومهمة الرسول صلى الله عليه وسلم ومهمة كل مسلم قادر على تبيين الهدى لغيره أن يسير في الدعوة إلى الحق على هذا المنهج الذي حددته الآية .

يتوجه الخطاب في البداية إلى رسـول الله ﷺ إذ هـو الـداعي الأول للإسـلام. وينسـحب على المؤمنين الذين لهم من العلم ما يستطيعون معـه نشـر ديـن الله فـي آفـاق الكـون. فلنتتبع هذا المنهج كما فصلته الآية :

أولا : أن يكون القصد من الدعوة هدايـة المـدعوين إلـى الطريـق الـذي يرضـي الله، **(ادع إلى سبيل ربك)** وهو دين الإسلام. لاحَظَّ لشـخص الـداعي ولا لقومـه فيمـا يقـوم به، تذوب شخصية الداعي لتسمو إلى أفق رفيـع هـو لسـان الحـق يـؤثر فـي البشـر فيهديهم ويُكوّن معهم صلة الأخوة في الدين .

ثانيا : اعتماد الحكمة فتكون الحكمة ملابسة للداعي، فلا يـدعو إلا بمـا يتقـين أنـه حـق لا لبس فيه ولا شك، يراعي إصلاح حال المخاطب واعتقاده إصلاحا مستمرا.

ثالثا: بالموعظة الحسنة في مقامات الموعظـة . والموعظـة هـي الطريقـة التـي يعتمـد فيها الواعظ تليين القلوب وتحريك المشاعر، اللطـف سـبيلها، والتـأثير الصـالح هـدفها، وتقريب الموعوظ من الواعظ مسلكها. وإتبـاع الحكمـة بالموعظـة الحسـنة فيـه إرشـاد إلى أن الوعظ ليس نمطا واحدا، ولكن الواعظ النـاجح هـو الـذي يعمـل علـى معرفـة من يقصد إصلاحه أولاً، والنفوس مختلفـة فيمـا تتـأثر بـه، فليعمـل الـواعظ علـى أن تكون موعظته مناسبة للتركيب النفسي للشـخص الـذي يعظـه. وبصـفة عامـة ترقيـق القلوب واللين في الخطاب، والبعد عما يجرح وعن المواجهـة بمـا يكـره، هـي قواسـم مشتركة تهدي للموعظة الحسنة .

رابعا: المجادلة بالطريقة التي هي أحسن، فإذا كان الغـرض مـن إقامـة الحجـة يتحقـق بطريق حسن وهناك طريق أحسن فالداعي مطالـب بـأن يسـلك الطريـق الأحسـن مـن غيره. إن المجادلة تعني أن يبرز الداعي شـبه الطـرف المقابـل ليبطـل حجتـه ويظهـر تهافتها، وقد يصرح بقوله مـثلا أخطـأت، وكلامـك متنـاقض، وينفـي مـا تقـول كـذا وكذا، ونحو ذلك مما يثير الطرف المقابل ويحمله علـى الـرد بكـل وسـيلة دفاعـا عـن ذاته . ويتحول الأمر من الاستدلال بما يحكـم بـه العقـل إلـى التمسـك بإثبـات الـذات، ومن الموضوعية إلى الشخصية . وهو ما يضـيع علـى الـداعي الهـدف الـذي يجـادل من أجله . وكذلك ما يصحب المجادلة من رفـع الصـوت، فـتحكم الـداعي فـي صـوته يجلب الخصم إلى الإذعان للحق. ورفـع الصـوت يثيـره ويضـيع الحـق فـي الجلبـة. وليس معنى ما قدمناه أن يجمع الداعي بين الطرق الثلاثة الأخيـرة فـي كـل مقـام، بـل الرشد أن يعتمد في كل موقع ما يناسـبه، جـاعلا قصـده أن يعلـي الحـق لا أن يظهـر قدرته.

وصدر الآية يقتضي الأمر بالدعوة إلى الإسلام، وخاتمتها تقتضي مواصلة الدعوة وعدم اليأس. فالداعي مطالب بأن يواصل الهداية إلى الإسلام وإلى السلوك الصالح، وإعراض المدعو في أول الأمر لا يعتبر مبررا للتوقف عن القيام بواجب التذكير والتنبيه والدعوة، ذلك أن العاقبة مجهولة لا يعلمها إلا الله، والوقت الذي تتفتح فيه الروح للهداية وللسلوك الراشد غير معلوم فالله هو وحده العليم بمن يلازم الضلال عن سبيله، ومن سيهتدي إليه .ولما كان العلم المستند إلى القرائن ليس علما يقنيا وصف الله بأنه أكمل علما لأن علمه علم ثابت لا يتغير، والحاصل الذهني لغيره علم قد يثبت وقد لا يثبت .

126-وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ....لهو خير للصابرين .

موقف المسلم من المخالفين له في الدين هو ما فصلته الآية السابقة مِن الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن. ولكن بعضا من المخالفين قد تحملهم العنجهية على استعمال العنف ومحاولة إخضاع المسلم لإرادتهم الخبيثة فيعتدون، والعنف المادي يصحبه غالبا قصد إذلال وسحق للشخصية، والمؤمن عزيز فيأذن له ربه إما، أن يرد الاعتداء بالمثل ولا يفرط في العقاب عند القدرة، ولا يتجاوز فينقلب معتديا . كما يرشده إلى الصبر على الأذى إذا كان يعلم أن صبره سيترتب عليه ما هو خير وأفضل عائدة. كما جاء في قوله تعالى (**ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**)[1] – والمعول عليه في التفضيل بين رد الاعتداء بمثله أو الصبر والتجاوز، النظر في المآلات فإذا علم المعتدى عليه أن رد الاعتداء بمثله هو الطريق الأمثل لإيقاف الاعتداء، وتثبيت المهابة فليفعل، وإن ترجح عنده أن الصبر ينتهي إلى تأليف القلوب ولا يفهمه المعتدي على أنه ضعف وخوف فليصبر والصبر يكون خيرا .

127- واصبر وما صبرك إلا بالله ....في ضيق مما يمكرون .

الآية السابقة كما قدمناه تتناول النبي ﷺ وتنسحب على كل من تصدر للدعوة. سواء فيما يخص المنهج أو رد الفعل. وهذه الآية تخص النبي صلى الله عليه وسلم، وهو الذي كانت حياته تمثل الدعوة إلى الله. ولذا فإن ما لقيه النبي ﷺ من الأذى المعنوي والمادي من قومه كان على وزان المهمة التي كلف بها، ولم يتحملها غيره. وقد ذكر القرآن، كما فصلت كتب السيرة قوة شخصيته ﷺ ومواصلته للدعوة، ومثابرته

[1] سورة فصلت آية 34

على إبلاغ ما أوحي إليه ؛ بالرغم مـــن عنـــاد قـــريش وتفنـــنهم فـــي إذايتـــه . إن المهمـــة مهمة ثقيلة لو لم يؤيد بتوفيق من الله، وتقوية لعزمه، ومـــا ركـــزه فـــي قلبـــه مـــن يقـــين بأن كل ما يلقاه في سبيل نشر الإسلام وتركيـــز التوحيـــد يهـــون عليـــه كـــل ذلـــك، وأن مهمته أعظم وأنبل من أن يؤثر فيها المشـــركون بوقـــاحتهم وصـــلفهم وكبريـــائهم . إنـــه الصبر الذي أفرغه الله في قلبه، فكلما ضاعفت قـــريش مـــن إذايتهـــا زاده ذلـــك تصـــميما وصلابة وقوة . إنه يجد في نفسه الشريفة مدد هذا التأييد فأكـــد لـــه القـــرآن ذلـــك بقولـــه: **(وما صبرك إلا بالله)** بعـــون مـــن الله. وكـــان هـــذا التأييـــد الـــذي يحـــس بـــه ضـــاعف إحساسه وحبه لدخول المدعوين كلهم فـــي ديـــن الله، وكـــان يأســـف شـــديد الأســـف إذا تغلب العناد على ما يبشر به من حق، فسلاه ربـــه ودعـــاه أن لا يبلـــغ بـــه التـــأثر علـــى كفر من كفر مبلغ الحزن المقيم، وأن لا يجزع ولا يتكـــدر بســـبب مـــا يطلـــع عليـــه مـــن مخططاتهم التي يُعِدُّونها لتعطيل ما حققه من نجاح فـــي الـــدعوة إلـــى الله ، المعبـــر عنـــه **ولا تك في ضيق ممـــا يمكـــرون** . علـــى معنـــى أن عليـــه مواصـــلة الـــدعوة بقـــوة وأن الهداية في النهاية مرتبطة بألطاف هي من حكمة القدر الإلهي.

128-إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون.

تنعطف هذه الآية على ما سبقها تؤكـــده وتثبتـــه، وتســـكب فـــي قلـــوب الـــدعاة، وعلـــى رأسهم رسول الله ﷺ، الثقة بالنصر والتأكد مـــن أن العاقبـــة لهـــم. ذلـــك أن الله ينصـــر ويؤيـــد الـــذين تحقـــق مـــنهم تقـــوى الله، وكـــانوا ملتـــزمين بالإحســـان فـــي ســـلوكهم وضمائرهم .

أكملت بحمد الله وحسن عونه وجميل توفيقه مـــا فتحـــه علـــي بمنـــه وفضـــله فـــي بيـــان سورة النحل هذه. أسأله في ضراعة أن يوفقني لإكمال بيـــان مـــا يشـــرح لـــه قلبـــي مـــن فهم لآيات كتابه – وذلك يوم الثلاثاء 20 صفر الخير 1433- 2011/12/27.

ســـــورة الإســـراء

لهذه السورة أسماء – كتبت سورة "الإسراء" فـي المصـاحف، واشـتق لهـا هـذا الاسـم من افتتاحها بذكر إسراء النبي ﷺ من المسجد الحـرام إلـى المسـجد الأقصـى الـذي لـم يذكر في غيرها من سور القرآن. كما سميت بسورة "بنـي إسـرائيل" إذ ذكـر فيهـا مـن أحوال بني إسرائيل ما لم يذكر في غيرهـا. وسـميت أيضـا بسـورة "سـبحان " لافتتـاح السورة بذلك. هي السـورة السـابعة عشـرة فـي ترتيـب المصـحف. وعـدت حسـب ترتيب النزول السورة" الخمسين ". نزلت بعـد سـورة القصـص وقبـل سـورة يـونس. وهي من السور المكية عنـد الجمهـور. واسـتثنى بعضـهم آيـات نتعـرض لهـا عنـد شرحها إن شاء الله تعالى .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ﴿١﴾

بيان معاني الألفاظ:

سبحان: أصل سبحان أن تكون للدلالة على التنزيه من النقائص.

أسرى : سار في الليل.

بعبده : بمحمد ﷺ.

باركنا : البركة نماء الخير والفضل في الدنيا والآخرة.

حوله: تفيد سعة بركته إذ تتعدى المسجد إلى ما يحيط به.

بيان المعنى الإجمالي :

تنزه الله أن يعترض قدرته معوّق، فهو الفاعل لمـا يشـاء. وقـد شـاء أن يحـيط محمـدا بألطافه فيحقق له السرى في جزء قليل مـن الليـل ليصـل مـن المسـجد الحـرام إلـى المسجد الأقصى بأرض فلسطين ثم يعود إلى فراشه قبـل أن يبـرد. وعبـر عـن محمـد بعبده فأضافه لنفسه تشريفا له.

وفي جمعه في وقت قليل مـن الليـل، بـين المكـان الـذي انطلقـت منـه الـدعوة إلـى التوحيد على لسان إبـراهيم وإسـماعيل، وبـين المكـان الـذي تجـددت فيـه الـدعوة

للتوحيد وعميت على الناس بعدهم، ثم العـودة إلـى المنطلـق الأول مـا يشـير إلـى أن الله جمع لمحمد الكمالات التي تفرقـت فـي غيـره والتـي مكنـه مـن تثبيتهـا تثبيتـا لا يلحقها بعده اختلاط. فقد صاحبته عنايـة الله وألطافـه فـي هـذه الرحلـة الليليـة ليطلعـه على مغيبات تجمع بين كونها أدلة وبراهين علـى صـدقه، كإخبـاره عـن قافلـة قـريش ووقت بلوغها مكة، ووصف بيت المقـدس لقـريش فلـم يجـدوا فـي وصـفه أي خلـل، وإمامته المرسلين في بيت المقدس، وما كشف له مـن أحـوال يـوم القيامـة .وفرضـه الصلاة عليه في السماء خمسين صلاة، ثم اسـتجابة الله سـؤاله التخفيـف فكانـت خمـس صلوات في اليوم، يتضاعف ثوابها عشر مرات فتساوي الخمسين المفروضة أولا.

بيان المعنى العام :

1-سبحان الذي اسرى بعبده ليلا ... هو السميع البصير.

افتتحت السورة بقوله تعالى : "**سبحان**" والشأن أن يـرد لفـظ التسـبيح لرفـع التبـاس أو وهم يتعلق القصد بنفيه كقول الملائكة في سـورة البقـرة: **(سـبحانك لا علـم لنـا إلا مـا علمتنا)**[1] – لنفي ما في إجابتهم السابقة أتجعل فيها مـن يفسـد فيهـا مـن التعجُّـل فـي الحكم على خلق آدم .وكقوله تعالى: **(وقـالوا اتخـذ الله ولـدا سـبحانه)**[2] إبطـال اتخـاذ الولد لمنافاته للتنزيه . أما افتتاح السورة بـ" سبحان" فنبينه فيما يلي:

أولا: قال سيبويه: سبحان، علم على التنزيه: أي إنـه كثـر اسـتعماله فـي الدلالـة علـى التنزيه حتى تفرد بالدلالة على ذلك المعنـى شـأنه شـأن الأعـلام كمحمـد وصـالح ولا يلحقه التنوين لاجتماع الألف والنـون فـي آخـره مـع العلميـة . فافتتحـت الآيـة ب " سبحان " دون أن يتقدم ما يقصد نفيه.

ثانيا: لما لم يتقدم لفظ "سبحان" شيء فقد خرجـه فـي التحريـر والتنـوير علـى أنـه للتعجيب من خبر الإسراء .

ثالثا: إن الذي ترجح عندي : أن الإعـلان بالإسـراء وإشـاعته فـي المجتمـع القرشـي يوم وقوعه، ثم إثباته قرآنا يتلى ليستقر في العقـل البشـري، كـان وسـيبقى للنـاس منـه موقفان :

أحدهما: الرفض له على أنه من المستحيل أن ينتقـل الإنسـان فـي لحظـات مـن الليـل من المسجد الحرام إلى فلسطين ثم يعـود مـن حيـث خـرج. والاشـتباه الـذي جعلهـم يسرعون بالرفض هو الخلط بين المستحيل عقـلا والمسـتحيل عـادة. إن العقـل لا يمنـع

---

[1] سورة البقرة آية32

[2] سورة البقرة آية116

انتقال الإنسان من مكان إلى آخر بسرعة تتجاوز سرعة الضوء. ولكن الذي يمنع من ذلك هي القوانين العادية التي يظهر في الحياة تمكّنُ الإنسان من التغلب على بعضها بقوانين أخرى. خذ لذلك مثلا رؤية ما وراء الحواجز الكثيفة والكثيرة والمسافات البعيدة، وسماع الأصوات الصادرة عنها . كان ذلك مستحيلا عادة وأصبح اليوم واقعا في أجهزة التلفاز، والسكايب .و سينبئنا العلم مستقبلا عن أمور هي الآن من فروض الخيال . ولكن العلم لا يأتي بما يناقض العقل ويقلب المستحيل عقلًا جائزا، وإلا لَفَقَدَ ذاتَـهُ. إن أولئك الذين وقفوا من الإسراء موقف الرفض، عجّل لهم القرآن في مفتتح السورة بتنزيه الله سبحانه عن العجز، أو أن تكون قدرته محدودة بما تعارف عليه الناس، ليكون هذا المفهوم هو المنطلق للنظر فيما يأتي بعد مما أكرم به نبيه . وعندي أيضا في قدرة انطلاق الفكر من حدود الزمان والمكان الضيقة ما يفتح له تصور الإسراء. تجد أحدنا وهو في بيته يتابع عرضا لوقائع بعيدة عنه في الزمان والمكان من كتاب في التاريخ، ومع ذلك هو يستطيع أن يعيش مع تلكم الأحداث كأنه يراها بمقدار ما وُفّق الكاتب في حسن العرض. فانطلاقة العقل إلى الأبعاد الفسيحة زمانا ومكانا يرينا إمكان انتقال الإنسان متى توفرت المساعدات.

ثانيهما: أن المؤمنين زادهم خبر الإسراء إيمانا بصدق رسول الله. ذلك أن النبي ﷺ، لما أراد الخروج من بيت أم هانئ إلى المجتمع القرشي ليخبرهم، مسكته أم هانئ من طرف ثوبه متوسلة أن لا يخبر قريشا فيتخذوا ما يحدث به مطعنا في نبوته ؛ وذلك ما تم فعلا فإنه بمجرد ما دخل جلس إليه أبو جهل فأخبره رسول الله ﷺ بحديث الإسراء . فقال أبو جهل : يا معشر بني كعب بن لؤي هَلُمّ! فحدثهم فمن بين مصدق وواضع يده على رأسه تعجبا وإنكارا، وارتد ناس ممن كان آمن به، وسعى رجال إلى أبي بكر فقال: إن كان قال ذلك: لقد صدق. قالوا أتصدقه على ذلك ؟ فقال: إني لأصدقه على أبعد من ذلك فسمي الصديق رضي الله تعالى عنه[1]. وهذا من فيض النور الذي غمر روح أبي بكر. فإن قطع المسافة بين المسجد الحرام وفلسطين أقل قيمة بكثير من تلقي الوحي عن الله، فتلقي الإنسان الوحي عن الله أعظم درجة، وأبعد منالا، ولم يتأتّ لأحد بعد رسول الله ﷺ . أما قطع تلك المسافة في جزء من الليل فقد أصبح اليوم واقعا . فيكون الافتتاح بكلمة "سبحان"

---

[1] البحر المحيط ج5ص9

تعبر عما مكنته حادثة الإسراء مـن نصـاعة إيمـان المـؤمنين الصـادقين. وتنزيـه الله من أن يحول بينه وبين تنفيذ إرادته أي معوق مـن المعوقـات التـي تحـول بـين البشـر وتحقيق ما يريدونه.

وأضيف "سبحان" إلى اسم الموصول وصلته سـبحان الـذي أسـرى دون " الله" فلـم يقـل "سبحان الله " للتعجيل بموجب التنزيه.

والذي أسرى مساوية لسرى، وزان ذهب به ليلا، وأسـرى أعمـق دلالـة علـى العنايـة الربانية، فإنه لو قيل سرى عبذه فإنه يفوت ما يدل عليـه التعبيـر القرآنـي" بعبـده"، مـن أن سراه ﷺ صحبتْه فيها ألطاف الله ورعايته. ومن أكرم مـا يـدل علـى ذلـك إضـافة الرسول ﷺ إلى نفسه إضافة تشريف[بعبده].

والسرى لا يطلق إلا على السفر ليلا، فيكون التصـريح بقولـه " لـيلا" منكـرا يفيـد أنـه وقع في جزء من الليل قليل .

وعين مبدأ السرى ومنتهاه . فالإسراء مبدؤه المسـجد الحـرام؛ والنهايـة كانـت بـأرض فلسطين في موقع المسجد الأقصى اليوم. ثم تمـت العـودة فـي زمـن غيـر طويـل؛ إذ ذكر في السيرة أنه عاد قبل أن يبرد فراشه.

والمسجد الحرام هو الكعبة ومـا حولهـا. سـمي مسـجدا لأنـه المكـان الـذي ميـز الله الصلاة فيه بمضاعف الثواب ممـا جعـل المسـلمين يتنافسـون فـي أداء الصـلاة بـه. وتحصل تلك المزية إلى الحدود التي يتسع إليها. وقد كـان عمـر بـن الخطـاب رضـي الله عنه أول من حوط المسجد الحرام بجدار يحفظه سـنة سـبع عشـرة مـن الهجـرة . وَوُصِفَ المسجد بالحرام تنويها بشـأنه ومنعـا مـن الاعتـداء فيـه بالقتـل أو الغـزو أو عمل السوء. إذ تتضاعف عقوبة من ينتهك حرمته. ويقـول الشـيخ محمـد الطـاهر ابـن عاشور: ولا أعرف أنه كان يعرف في الجاهلية بهذا الاسم.

والمسجد الأقصى هو المسجد الذي بناه سليمان عليه السلام ببيـت المقـدس، فـي المكـان الـذي بناه فيه إبراهيم. ثم إن نبـي الله داود عليه السلام تـوخى أن يضـع عليـه الخيمـة ، وأوصـى ابنه سليمان عليه السلام أن يبني عليه المسجد . ثـم إن الملكـة هيلانـة أم إمبراطـور بيزنطـة قسطنطين لما تنصرت، وزارت مدينـة أورشـليم، وكانـت متعصـبة لـدينها ومتعصـبة ضد اليهود لاعتقادها أنهم قتلـوا المسـيح عليه السلام، أمـرت بهدمـه ونقـل أسـاطينه إلـى الموضع الذي ظنت أن المسيح دفـن فيـه، وبنـت فيـه معبـدا سـمته : كنيسـة القيامـة .ومبالغة في النكاية باليهود أمرت أن يحول موضع المسـجد إلـى مجمـع أزبـال البلـد . ولما عقد عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصلح مـع أهـل تلـك المدينـة، وكـانوا نصـارى قـال

لبطريق لهم اسمه (صفرونيوس) : دلني على مسجد داود، فانطلق به حتى انتهى إلى مكان الباب وقد انحدر الزبل على درجه ؛ فتجشم عمر حتى دخل، ونظر وقال : الله أكبر، هذا والذي نفسي بيده مسجد داو د الذي أخبرنا رسول الله أنه أسري به إليه . ثم أخذ عمر والمسلمون يكنسون الزبل عن الصخرة حتى ظهرت كلها، ومضى عمر إلى جهة محراب داود فصلى فيه . ثم إن عبد الملك بن مروان أمر بابتداء بناء القبة على الصخرة وبناء المسجد، ووكل عليه رجاء بن حيوة الكندي سنة ست وستين وكان الفراغ منه سنة ثلاث وسبعين [1].

والمسجد الأقصى هو ثاني مسجد بناه إبراهيم عليه السلام ففي الصحيحين أن أبا ذر قال: قلت: يا رسول الله أي مسجد وضع في الأرض أولُ؟ قال: المسجد الحرام؛ قلت: ثم أي؟ قال: المسجد الأقصى. قلت: كم بينهما؟ قال: أربعون سنة[2].

وحسب قواعد اللغة فإن الأقصى صيغة تفضيل، فالمبدأ هو المسجد الحرام، والنهاية المسجد الأقصى، وذلك يقتضي أن يكون هناك مسجد بينهما هو القصيُّ. ووقت نزول الآية لم يكن هناك مسجد آخر، فعد هذا التعبير من إخبار القرآن بالغيب، إذ بني مسجد رسول الله ﷺ بعد ذلك بينهما فكان المسجدَ القصي، ومسجد فلسطين المسجد الأقصى. وقد يكون من الحكمة في جعل طرفي الإسراء المسجد الحرام والمسجد الأقصى الإيماء إلى أن الإسلام جدد شرائع التوحيد من عهد إبراهيم عليه السلام، الذي بنى المسجد الحرام كما بيناه في سورة البقرة 124/134- ثم تتابعت الأنبياء بأرض فلسطين. فقد هدى الله البشر إلى الحنيفية ببعثة إبراهيم وابنه إسماعيل، ثم تأكدت بالرسل الأكرمين عليهم السلام الذين قاموا بذلك في أرض فلسطين ثم عادت إلى منبعها الأول على يد خاتم الرسل سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه .

والبركة التي أنزلها الله حول المسجد الأقصى تدل على أن البركة تشمل المسجد الأقصى أولا، وكذلك ما حوله، والبركة هي ما أنزل في تلكم الأرض من الوحي على رسله، وما خص الصلاة فيه بمزيد من الثواب. فإن جميع الأماكن تتساوى في الثواب على الصلاة فيها إلا المسجد الحرام أفضلها، ثم مسجد رسول الله بالمدينة المنورة، ثم مسجد بيت المقدس .

---

[1] التحرير والتنوير ج15ص 19/14، والبداية والنهاية ج9 ص655/657-

[2] اللؤلؤ والمرجان ح 298-

وحِكَمُ الإسراء، وما نال النبي ﷺ من عناية وتقريب، خُـص ذلـك بعنايـة العلمـاء الـذين توسعوا فيه وكشفوا أبعاده. ونصت الآية على أن الله تفضل علـى نبيـه فـأراه فـي تلكـم الليلة من الآيات الشيء الكثير، الدالة على تقريبـه وتكريمـه ، فقـد أمَّ الرسـل، ومكنـه من الرقي إلى السماوات العلى وفرض عليـه وعلـى أمتـه الصـلاة، وكشـف لـه عـن مآلات الصالحين، وعن بعض ما يلقـاه المشـركون والمسـيؤون ممـا هـو مـن أحـوال يوم القيامة . وأطلعه على ما هو خارج عن مقدور البشـر، فكـان الإسـراء معجـزة لـه. إذ أن قريشا لما طلبت منه أن يصف لها مسراه وبيـت المقـدس، رفعـه الله أمامـه فأخـذ يفصل جزئياته المميزة، وطلبت منه أيضا أن يخبرهـا عـن قافلتهـا العائـدة مـن الشـام، فأخبرهم أن عيرهم ستصل إلى مكة عند شـروق الشـمس يتقـدمها جمـل أورق، وكـذلك كان .

وإذ انتقل الرسول ﷺ في تلك الليلة إلـى مشـاهد تفـوق الطاقـة البشـرية، فـإن وعيهـا وتقررها في سمعه وبصره ﷺ، كان بإقدار الله له بجعل بصـره وسـمعه يسـجل كـل مـا رأى وما سمع في تلكم الليلة .

وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكتاب : التوراة.

الوكيل :من يفوض له الأمر. والمعنى لا تتخذوا شريكا

قضينا : حكمنا وقدرنا مع تبليغ.

لتعلن : العلو بمعنى الطغيان في العصيان.

بعثنا عليكم :سيرنا من يتسلط عليكم .

أولو بأس : أصحاب قوة في الحرب .

جاسوا : تتبعوا المهزومين في كل مكان في الطرق والأزقة والمنعطفات، وهوما يعبر عنه في لغة العصر بالتمشيط.

خلال الديار : جميع المسالك المؤدية إلى الديار .

رددنا لكم الكرة : أعدنا لكم الغلبة.

النفير : المسرع للمساعدة في الحرب.

تبر : أهلك وأفسد.

ما علوا : ما تغلبوا عليه.

الحصير : المكان الذي يحصر فيه

بيان المعنى الإجمالي :

اعتنى الله بمحمد ﷺ فأسرى به وأراه من الآيات التي ما لم يطلع عليه نبي ولا رسول في حياته. وآتى موسى عليه السلام كتاب التوراة الذي جعله القبس الذي يقتبس منه بنو إسرائيل الهداية، ويقيم من يعمل منهم بما جاء فيه على الصراط المستقيم .ونبه إلى أن أهم ما تضمنته التوراة أن يخلصوا لله في العبادة ولا يتخذوا من دون الله شريكا يعتمدون عليه. ثم حركهم بندائه لهم مذكرا لهم أنهم من ذرية نوح عليه السلام الذي أخذ أباهم سام معه في السفينة، في الوقت الذي أهلك الله من كان على الأرض من الذين اتخذوا شركاء من دون الله. نوح هذا النبي الذي كان شعوره بأنه عبد لله شعورا حيا قويا جدا، فاهتدى إلى شكر الله على كل نعمة أنعم بها عليه.

أخبرهم الله في التوراة أنهم سينحرفون عن التعاليم التي بلغها إياهم موسى عليه السلام، وأنهم سيطغون في الضلال طغيانا كبيرا. فتذوب مقومات القوة والمناعة، ويصبح وضعهم قابلا للغزو والتنكيل، وأنه سيسلط عليهم بسبب مروقهم من الدين وفساد سلوكهم المشين مخلوقات لله تمرسوا بالقتال وعمرت قلوبهم بشجاعة لا تعرف سوى الإقدام، وخبرة قتالية قاسية ؛ فيدخلون دياركم ويتبعون فلولكم المهزومة في كل مكان ويخربون مبانيكم، ويتمكنون منكم أشد تمكن .وسيتم ذلك فعلا في الأجل المحدد . وكذلك كان فبعد الدمار الشامل لمدينتهم أخذ الأشوريون الغزاةُ البقيةَ الباقية منهم أسرى إلى بابل، وهناك ضاعت جميع مقوماتهم حتى اللغة العبرية التي كانت التوراة مكتوبة بها اختلطت بالبابلية، فأصبحت لغتهم لغة هجينة هي أصل

اللغة العبرية التي يتحدث بها اليهود في عصرنا، وتبعـا لـذلك حرفـت التـوراة بعـد أن عم الجهل باللغة العبرية القديمة التي كتبت بها.

ثم إنهم بعد هذا القهر أصـلحوا مـا فسـد مـن سـلوكهم واسـتقاموا، فكثّـر الله نسـلهم وبارك في أرزاقهم، ويسَّر الله من أخذ بيدهم فتغلب ملـك الفـرس علـى البـابليين ومكـن اليهود من العودة، وعمارة فلسطين في سـنة 530 قبـل المسـيح.. وممـا قضـاه معلمًـا به في التوراة، أن ذكرهم بسـنة الله: أنهـم إن أحسـنوا غنمـوا نتـائج إحسـانهم فكانـت لهم، وأنهم إن أساؤوا فإن شر فسادهم سيكون علـيهم . كمـا أعلمهـم أنـه تحقيقـا لهـذه السنة فإنه بعد رجوعهم وقيام حضـارتهم فـي أرض فلسـطين أنهـم سيفسـدون فيسـلط الله عليهم كما سلط عليهم في المـرة الأولـى مـن يقهـرهم فيظهـر أثـره البـين علـى وجوههم كآبة وذلة، وليدمروا مسجدهم، ويخربوا كل مـا تغلبـوا عليـه تخريبـا مظهـرا استئصالهم من بيت المقدس فيتشتت البـاقون مـنهم فـي أرجـاء الـدنيا . والرجـاء فـي ربكم أن يرحمكم، وستمضي سنته فـي الاجتمـاع أن العـزة والأمـن، مرتبطـة بقوانينـه فإن عدتم إلى الخير عدنا لكم بالتأييد، وإن فسـدتم وغلـب شـركم خيـركم انتقمنـا مـنكم في الدنيا. وفي الآخرة يكون مصيركم مع مصير أمثـالكم فـي جهـنم التـي لا يجـد مـن دخلها منفذا للخلاص. (**وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا**).

بيان المعنى العام :

2- وآتينا موسى الكتب وجعلناه هدى... من دوني وكيلا.

هذه الآية معطوفة على ما يفهم من الآية السابقة، التي هـي فـي قـوة : أسـرينا بعبـدنا، وآتينا موسى الكتاب . وعطفت على ما تضمنته الآية الأولى بجامعين:

الجامع الأول: أن الآية (1)ذكر فيها المسـجد الأقصـى وقـد ارتـبط بـه موسـى عليـه السلام، إذ قال لقومـه ادخلـوا الأرض المقدسـة، وأنهـم تمـردوا علـى موسـى فبقـوا تائهين في صحراء سيناء. وأنهـم عاشـوا فـي جـواره بعـد ذلـك، ثـم أخرجـوا مـن فلسطين على ما ستفصله السورة.

الجامع الثاني: أن الله قد امتن على موسى بإيتائه الكتـاب (التـوراة) فـي المقـام الـذي ابتدأ بالامتنان على محمد بالإسراء .والمقابلة بين المِنَّتـيْنِ تبـرز مـا حظـي بـه محمـد من فائق العناية، ومضاعف المنن، التي أشير لها بقوله تعالى : **لنريه من آياتنا.**

تفيد الآية أن الله أوحى بالتوراة لموسى عليه السلام، وجعل ذلك الكتاب سببا لهدى بني إسرائيل، باتخاذ نصوصه أساسا للعقيدة، ودليلا على أحكام المعاملات ومنهجا للسلوك. وفي جعل

الاهتداء به قاصرا على بني إسرائيل ما ينبه إلى مزية ثالثة لسيدنا محمد ﷺ: إذ شريعة موسى قاصرة على بني إسرائيل، بينما الإسلام هدى للبشرية جميعا.

ثم وقع التنصيص على أهم ما جاءت به التـــوراة، وهـــو التوحيـــد الخـــالص : **ألا تتخـــذوا من دوني وكـــيلا** ؛ المفتتحـــة بـــأنْ المدغمـــة فـــي "لا"، أن لا، فتكـــون أن مفســـرة لمـــا تضمنه (الكتاب) تسجيلا لما بالغ موسى ﷺ في التأكيـــد عليـــه، ذلـــك أن بنـــي إســـرائيل قالوا لما أتوا على قوم يعبدون أصناما لهم: **يا موسى اجعـــل لنـــا إلهـــا كمـــا لهـــم آلهـــة.** سورة الأعراف آية 138-وعبدوا العجل لما ذهب موســـى للميعـــاد. ممـــا يـــدل علـــى أن تربيتهم طبعتهم على التعلق بالمحسوسات فـــلا يرتفعـــون بســـهولة، إلـــى عقيـــدة التوحيـــد المبني على التجريد، ولذلك فســـرت مهمـــة التـــوراة الأولـــى أن لا يتخـــذوا أحـــدا غيـــر الله يعتمدون عليه، ويفوضون له أمرهم .

3- ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا.

راعت الآية غلظ قلوب بني إسرائيل من شدة تعلقهـــم بالمحســـوســـات كمـــا بينـــاه، فنـــادتهم بوصف عَلَّهُ يحركهم فيخلصوا في توحيد الله والتعلـــق بـــه ؛ فقولـــه تعـــالى : **ذريـــة مـــن حملنا مع نوح**، منادى حذف منه حرف النداء أي يا ذرية مـــن حملنـــا مـــع نـــوح وهـــو سام بن نوح . وأدمج في النداء تذكيرهم بـــأنهم تناســـلوا مـــن نـــوح ﷺ الـــذي نجـــاه الله من الغرق وبارك في نسله لإخلاصـــه فـــي عبـــادة الله أولا، وثانيـــا لأنـــه كـــان شـــاعرا شعورا ملازما، بأنه عبد لله، شرَّفَهُ في هذه العبوديـــة، وأن شـــعوره هـــذا وقـــوة إحساســـه به جعله لا يغفل عن شكر ربه عن كل نعمـــة باللســـان وبالعمـــل .إذ كمـــال الشـــكر فـــي صرف النعمة فيما خلقت له .ولذا فالآيـــة تحـــرك بنـــي إســـرائيل ليســـيروا علـــى الـــنهج الذي سار عليه أبوهم نوح مـــن التوحيـــد الخـــالص الـــذي ضـــعفت التـــوراة بمـــا أدخـــل عليها من تحريف عن الوفاء به، ومن لوازم ذلـــك أن يـــدخلوا فـــي ديـــن الإســـلام الـــذي جلَّى التوحيد وقام على بيانه قياما تفرد به، وهو ديـــن الفطـــرة التـــي كـــان عليهـــا نـــوح أبو البشرية الثاني، ومن شأن النفوس الزكية أن تلازم المنهج الصالح لأصولها .

4←5، وقضينا إلى بني إسرائيل .....وكان وعدا مفعولا.

مع إيتاء موسى التوراة، كَشَفٌ من الله في هذا الكتاب إلـــى بنـــي إســـرائيل (اليهـــود) مـــا سيؤول إليه حالهم من الفساد وما سينالهم من العقاب أولا وثانيا.

فقد سجلت التوراة على اليهود أنهم سيفسدون في أرض فلسطين مرتين.

أما المرة الأولى فسيبلغ بهم العصيان مـــا تقســـو بـــه قلـــوبهم، ويـــتمكن مـــنهم الطغيـــان والإسراف في اقتحام حدود الله مبلغـــا كبيـــرا. ثـــم فصـــلت مـــا يلحقهـــم مـــن العقـــاب .

فعندما يحل الأجل الذي يمهلهم الله إليه في هذه المــرة، يسـلط الله علــيهم مــن مخلوقاتــه أصحاب شدة في الحرب ومران علــى القتــال، وشــجاعة عظيمــة، فــلا يسـتطيعون أن يوقفوا زحفهم . أقدرهم علــى القيــام بمعــاقبتهم فهزمــوهم وتتبعــوهم فــي كــل مكــان، واستباحوا ديارهم وأمــوالهم، وهــدموا المســجد، وأخــذَهُم بختنصــر القائــد الأشــوري أسرى. ونقلهم إلى بابل. وفي مــدة أســرهم اختلطــت لغــتهم باللغــة البابليــة وأضــاعوا اللغة العبرية التي كتبت بها التوراة. وحرفت التــوراة تبعــا لــذلك كلــه، وانقطــع الســند بينهم وبــين موســى ﷺ. فــدمرت حضــارتهم، ومعابــدهم، وانقطعــت صــلتهم ببيــت المقدس.

6←7، ثم رددنا لكم الكرة عليهم ...وليتبروا ما علوا تتبيرا.

وأعلمهم الله في التوراة أنهم بعد تدميرهم في المــرة الأولــى، سينهضــون مــن كبــوتهم وأنهم ستكون لهم الدولة علــى الــذين أخرجــوهم. وعبــر عــن هــذا الطــور بالماضــي "رددنا" دون "نرد" مع أن الأمر لم يقــع بعــد باعتبــار أنــه إخبــار بمــا فــي علــم الله، ويستوي في علمه سبحانه الماضي والحاضر والمســتقبل فــي مفاهيمنــا . وقــدتم فعــلا ذلك، إذ أن ملك الفرس (داريوس) غزا بابل وانتصــر علــى ملكهــا، وقــد كــان اليهــود أعوانا لجيشه في غزوهم للبابليين. ويفهم مــن الــنص أن اليهــود بعــد أذلهــم البــابليون غيروا ما فسد من سلوكهم، واستقاموا فأنزل الله البركة فــي أمــوالهم وفــي بنــيهم وأكثــر عددهم، وربوا بنيهم تربية حربيــة يســرعون إلــى نصــرة الــداعي لهــم مــن قــومهم، فتجمعت الممهدات لعودتهم إلى بيــت المقــدس، وفعــلا أذن لهــم كــورش بــالعودة إلــى بيت المقدس سنة 530قبل المسيح.

وذكر في التوراة خطاب الله لهم عقب عودتهم إلــى بيــت المقــدس بقولــه : **إن أحســنتم أحسنتم لأنفسكم**، على معنى أن الإحســان يتوجــه مــنكم إلــى ذواتكــم، ذلــك أن أصــل الإحسان أن يمضي من المحسن لغيره، ولكن الله حــرك بنــي إســرائيل ليســمو إدراكهــم فيعلموا أن الإحســان والعمــل الصــالح ينتفعــون بــه فكــان ســببا لعــودتهم واســتقرار أحوالهم بعد الشتات والقهر . وكــذلك بالمقابــل إن أســأتم وتمــردتم علــى النظــام الــذي كلفتم باتباعه وبالحفاظ عليه أســأتم لأنفســكم . فــدل التعبيــر القرآنــي علــى أن الــنفس تصبح فاعلة ومنفعلة، وهو من بالغ التحريض على الامتثــال. وأفهــمُ مــن هــذا: تكــذيب اليهود فيما يشيعونه من أنهم شعب الله المختار وأنهم أحبــاء الله. فــأظهر مــا قضــاه فــي التوراة وأنبأهم به: أن سنة الله في الاجتماع واحــدة، وأنهــم إن أحســنوا جنــوا ثمــرات إحسانهم، وإن أساؤوا خسروا بسبب إساءتهم.

كما أعلمهم أنهم سيعودون بعد الفرج إلى ما كانوا عليه من الفساد وطغيان الشر فيهم، كما أشار إليه قوله : **(وإن أسأتم فلها)**. وأن الله سيسلط عليهم في المرة الثانية من عباده الذين لهم من صفات القوة وشدة البأس مثل ما كان في المرة الأولى**(فإذا جاء وعد الآخرة)** من يذلهم ويخزيهم ويقتلعهم من بيوتهم ويشردهم. وجسم القهر: أنه سيظهر على وجوههم كآبة وحزنا وذلة، وأن القاهرين سيدخلون المسجد كما دخله من قبلهم ويخربونه، وأنهم سيُهلكون ويفتِّتون ما استولوا وغلبوا عليه من ممتلكات اليهود ومعالمهم الحضارية فيدمرونها تدميرا. وتم تدمير بيت المقدس وإجلاء جميع اليهود منها سنة 155بعد الميلاد على يد الامبراطور الروماني أدريانوس، وبقيت تحت سلطان الرومان إلى أن فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب ﷺ.

8-عسى ربكم أن يرحمكم.... وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا.

لم يذكر في التوراة أنه من بعد تشريدهم وتخريب عمارتهم، أن الله سيمكنهم من العودة إلى ما كانوا عليه، وغاية ما ورد في القضاء في الكتاب، التحذير من أنهم إن فسقوا وفسدوا، في البلدان التي تأويهم، أنه سيسلط عليهم من ينتقم منهم كما تم في المرتين الأولى والثانية . فتضمَّن ختام الآية إعلان رجاء أن تشملهم رحمة الله فيعيشوا في الأماكن التي يقيمون فيها عيشة عادية لا خوف فيها. وأنهم إن فسدوا وطغوا في الشر فإن القهر يترصدهم وسيحل بهم ما مثل ما سلطه الله عليهم لما عمروا بيت المقدس . وقد تمردوا وحبكوا المؤامرات بعد ذلك فكان آخر ما أوعدهم الله أن سلط عليهم في النصف الأول من القرن العشرين الحكم النازي، الذي ضخموه بعد الحرب العالمية الثانية، واستدروا عطف العالم عليهم، ورجعوا إلى إجرامهم واستلبوا أرض فلسطين من أهلها وشردوهم، وحرموهم من العودة إلى ديارهم، ومكنوا كل يهودي من الاستقرار في ممتلكات الفلسطينيين، ومنعوهم من تكوين دولتهم، ثم تابعوا التنكيل بهم والتقتيل والاغتيال، وتسلطوا على العالم بقوة إعلامية خبيثة، فصاغوا العقول صياغة منحرفة تخدم مخططاتهم .وسينفذ الله ما أوعدهم لا محالة . هذا في الدنيا، وأما في الآخرة فالمآل هو ما جعله•الله من أن جهنم ستكون جامعة حاصرة للكافرين لا يجدون عنها مخرجا. وهم قد كفروا برسل الله في تاريخهم، واستباحوا دماء بعضهم، ثم كفروا بمحمد، فختام الآية يشملهم أولا وينسحب على من كان مثلهم.

إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٠﴾

معاني الألفاظ :

للتي هي أقوم : للطريقة للتي هي أقوم.

الأجر الكبير : هو الجنة أولا ويصحب ذلك الرضا في الدنيا والآخرة .

أعتدنا : أحضرنا وأعددنا

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد إن القرآن الحاضر في قلوبكم المستمكن هـداه فـي بصـائركم الـذي لا يشـتبه بغيره، يسير بكم إلى الطريقة التي هي أقوم مـن جميـع الطرائـق .وينبنـي علـى ذلـك تقديم البشارة للمؤمنين الملتـزمين بالعمـل الصـالح بـأن الله كتـب لهـم أجـرا لا تحـد حدوده. ويبشرهم بأن الذين يسيرون فـي طريـق معـاكس فيكـذبون بالبعـث أن الله هيـأ لهم عذابا يحسون بألمه العظيم .

بيان المعنى العام :

9←10:إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم... أعتدنا لهم عذابا أليما.

ذُكِرَتْ التوراة في الآيات السابقة، وسجل القـرآن بعـض مضـامينها، وقـد نبهنـا فيمـا مضى أن الله ادخر للإسلام ولنبيه من المزايا ما لـم يجمعـه لأحـد قبلـه. وجـاءت هـذه الآية معلنة بما استنبطناه، فأحضر القـرآنَ حضـور المشـاهد المرئـي الـذي لا يخـتلط بغيره (**إن هذا القرآن**) وأجرى عليه الأوصاف المميزة:

أولا: هو يرشد البشر، جميعهم من حضر منهم زمن الوحي ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة، ويدعوهم إلى الطريقة التي هي أقوم الطرق، وأبلغها سدادا وخيرا. ومعنى تفضيلها (أقوم) أي من كل الطرق الأخرى. فتلألأ القرآن مفضلا مشرقا وهاجا تلألؤ النجوم التي تهدي السائرين أينما كانوا. وتزداد المقارنة بين القرآن وبين التوراة وضوحا باعتبار أن القرآن يحمل إلى المؤمنين به الذين يعملون الصالحات بشارة هي أجلُّ من أن توصف أو تحدد أبعادها، هي أجر وثواب كبير. واستحضرْ أيها التالي ما قُضي به في التوراة: **وقضينا لبني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ... وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا.** تكشف لك المقارنة بُعْدَ ما بين الأمة الإسلامية وبني إسرائيل.

وما ذكر في الآية (9) هو بشارة للمـؤمنين، إذ أعلـن القـرآن عاقبـة الـذين يقصـرون تصورهم للحياة على الحياة الدنيا، الذين يتسـاندون فـي قيـادة موكـب الشـر والفسـاد،

ويتجهون إلى الشــهوة واللــذة ولا يقيمــون للبعــث حســابا، يبشــر الله المــؤمنين بــأن هؤلاء الذين يسيرون في خط معاكس لهم أن الله قد أعــد لهــم عــذابا أليمــا، هــم نــاجون منه .

وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا

بيان معاني الألفاظ :

دعا بالشيء : طلب إحضاره.

المحو : الطمس بمعنى انعدام النور.

مبصرة : مساعدة على إدراك المبصرات .

التفصيل : التبيين والتمييز .

طائره : حظه، وما قدر له .

كتاب : ما سجل من عمله.

الحسيب : الحاسب.

تزر : تحمل ثقل تباعة المعصية أي الإثم .

بيان المعنى الإجمالي :

رغم أن القرآن يهدي للتي هي أقوم، فإن العجلة التــي خلــق عليهــا الإنســان، تجعلــه لا يتريث في أخذ قرار الاختيــار ولا يعمــق النظــر فيمــا يريــد أن يحصــل عليــه بتبَــيُّنِ المآلات البعيدة في الدنيا والآخرة. فتدفعه السرعة إلى العمــل علــى تحقيــق مــا يطلبــه، فيستولي عليه عامل الجهل بالعواقــب وعامــل الســرعة، فينتهــي إلــى أن يكــون طلبــه للخير مساويا لطلبه للشر في المــآل. وجعــل الله الليــل والنهــار يتعاقبــان علــى الكــون وفي كل منهما دليل على الحكمة والدقــة ورعايــة مصــلحة الإنســان فــي الوجــود. إن الليل يستر الكون بظلامه وتسكن فيه الحركــة ســكونا يُمكِّــنُ الإنســان مــن الاســتجمام،

ومن التأمل العقلي والروحي في عمــق وهــدوء، والنهــار تكــون قدراتــه علــى العمــل والحركة والإنجاز أتم وأكمل.

ومن أسرار هذا التعاقب بين الليل والنهار، أن ملاحظتهمــا مكنــت الإنســان مــن ضــبط المواقيت والآجال في المعاملات وفي الزراعة وفــي التقــديرات بمختلــف أنواعهــا، كمــا ارتقى بتلكم الملاحظة إلى اكتشاف قــوانين الحســاب التــي مــا تــزال تتطــور تطــورا جعلها الركن في كل تقدم للعلوم الصحيحة، وما تبعها من خيرات .

ويثبت القرآن أن حظ كل إنسان من العمل الصالح أو مــن عمــل الســوء ومــن الطاعــة أو المعصية ثابت في علم الله، وعلم الله لا يقبل التبــديل فــذلك الحــظ كــالقلادة المحيطــة بالعنق، لازمة له خاضع لها خضوع مــن يُمْسَــكُ مــن عنقــه. هــذا فــي الــدنيا، وفــي الآخرة سيجد كل ما قدمه حاضرا أمام عينيه بينا واضــحا، فــيحكم علــى نفســه؛ إنــه لا يوجد حساب مقنع كحساب الإنسان نفسه. ومن ألطافــه ســبحانه أنــه كتــب علــى نفســه أنه لا يعذب البشر بالعذاب الماحق على كفرهم، إلا بعــد أن يــبلغهم وحيــه عــن طريــق رسله. فله الحمد والشكر على ألطافه.

بيان المعنى العام :

11-ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا.

هذه الآية مثار تساؤل من المفسرين في موقعها وفــي المــراد منهــا. يقــول الشــيخ ابــن عاشور: موقع هذه الآية غامض، وانتــزاع المعنــى مــن نظمهــا وألفاظهــا أيضــا. ولــم يأت المفسرون بما ينشرح له الصدر [1].

قد يكون ذلك تابعا لفهم الكلمة التي افتتحت بهــا الآيــة "يَــدْعُ" المكتوبــة بــدون واو تبعــا لخط المصحف الأول. إذ حملوها علــى الــدعاء بمعنــى الطلــب مــن الله . ولا أريــد أن أطيل بجلب كلامهم، ولكني أعرض ما لاح لي في الآية.

جاء في تاج العروس: ودعــا بالكتــاب :استحضــره [2] فيكــون المعنــى : إن مــن شــأن الإنسان أنه يدعو، يطلب تحصيل ما ليس عنــده، وهــذا المغيَّــب عنــه قــد يكــون فيــه الخير وقد يكون فيه الشر، فهما مستويان فــي علمــه لجهلــه بالعاقبــة، وإن كــان الأمــر معلوما على الحقيقة عند الله. ولما كان من طبع الإنســان أنــه حــريص علــى الوصــول سريعا إلى ما مال إليه. فإن هذا الحرص الذي جبــل عليــه البشــر مــن العجلــة يجعــل

---

[1] التحرير والتنوير ج15ص41

[2] ج38ص52

تأملهم قاصرا في موضوع ما هو مفقود عنـدهم ومطلـوب لهـم، تغلـبهم الشـهوة لنيلـه فلا يتبينون المآلات البعيدة، فيستوي الشر والخيـر. وقـد أَلْمَـسُ أن داعيـة هـذه العجلـة مترتبة عن استحضار الإنسان قصـر عمـره فـي الكـون، وأن كـل لحظـة تـذهب لا تعود، وأن الفناء يلاحقه. فإذا أردنا ربـط هـذا المفهـوم بالآيـة السـابقة يلـوح لنـا: أن الآية السابقة حققت أن القرآن يهدي للتي هي أقـوم، أي للمسـلك الـذي هـو أقـوم مـن جميع المسالك الأخرى، ويتفرد بأنه يقيم التفكيـر البشـري علـى الموازنـة بـين الـدائم الباقي من رضا اللهوبين البـرّاق الفـاني الـذي تـدفع إليـه العاطفـة والشـهوة. فيـدعو القرآن بذلك اتخاذ قرار الاختيار على التأمـل والنظـر البعيـد، والتـؤدة لا علـى العجلـة ويحذر منها. فتكون هذه الآية متممة لمضـمون سـابقتها، تكملهـا مـن حيـث أن القـرآن إذا كان يهدي للتي هي أقوم، فما يقع الناس فيـه مـن شـر رغـم هدايـة القـرآن، هـو مسبب عن اندفاعهم لتحصيل ما يطلبونـه بسـرعة، دون أن يتريثـوا حتـى يتبـين لهـم ما يكمن فيما يطلبونه من عواقب مشتملة على شر توجب انصرافهم عنه.

12- وجعلنا الليل والنهار آيتين ....فصلناه تفصيلا.

التقابل في بناء الكون كالتقابل في قيم الأشـياء، يهـدي القـرآن لتبـين كـل ذلـك. كـان القرآن هاديا للإنسان هداية عامة، وأنه إذا تُرِك لنفسـه قـد يخـتلط عليـه الخيـر بالشـر. وعلى هذا الوزان ظاهرة تقلب الليـل والنهـار. تـوالي الليـل والنهـار جعـل الإنسـان يغفل عما في ذلك من صنع الله العجيـب. وعمـل القـرآن علـى إيقـاظ الـذهن وتكـرَّرَ لفت النظر إلى هذه الظاهرة ليقوده النظر إلى الإيمان بالخالق وحكمته.

الليل والنهار وهما يتعاقبان على الإنسان والكون: التأمـل فيهمـا يقـيم دلـيلا علـى بـديع الصنعة والتقدير المحكم. فإذا تأملت أيها الإنسان في الليـل تجـده يلـف الكـون بظلامـه، فتتأثر علاقتك به، ويحجبه عنك فيختفي كأنه غيـر موجـود. فيكـون الليـل مـؤثرا فـي الكون وفي علم الإنسان به في وقت واحد. وبالمقابـل فـإن النهـار يجعلـك تحـس بمـا أودعه الله في هذا الكون حسب قانون الرؤيـة الـدقيق. فتبصـره ويصـل بينـك وبينـه. ومن بالغ الهداية القرآنية إظهار الغاية من تقلب الليل والنهار في قوله:

أولا: **لتبتغوا فضلا من ربكم** – ففـي النهـار ينشـط الإنسـان ويُولِّـد بعملـه الخيـرات، وذلك فضل، وفي الليل يستريح فتتجدد طاقاتـه مـن ناحيـة، ويجـد العـالِمُ فـي سـكونه عونا على التعمق في النظر، وكثيـرا مـا تفـتح لـه مغـالق كـان بـاب الولـوج إليهـا مسدودا. وفي قيام الليل فضل عظيم لمن يوفقـه الله وييسـره لـه. ولـذا فـإني أرجـح أن يكون التعليل (**لتبتغوا فضلا من ربكم**) في النهار والليل.

وثانيا: لتعلموا بمتابعة التحول بين الليـل والنهـار علـى نظـام دقيـق لا يختـل، تعلمـوا عدد السـنين، أي والشـهور والأيـام، فتضـبطوا أعمـالكم وتربطـوا علاقـاتكم بمسـار الكون كله. وهو باب مادي ملحوظ تجاوزه الإنسان إلـى التجريـد، فبلـغ علـم الحسـاب الذي طوره الإنسان عبر الأحقاب، وما يزال البشـر يكتشـفون مـن قواعـده مـا ينفـذون به إلى المعرفة الصحيحة لا التقريبية.

وما لفت إليه الأنظار يدخل تحت قاعـدة أساسـية تـربط تلكـم المظـاهر كلهـا بالنظـام الصارم الذي لا تداخل فيه، فَصَّلَهُ متميزا صادرا عـن علـم. وتجـد فـي القـرآن منهجـا يحقق لهذا التفصيل بلوغ الغايات التي ترقى بها المعرفـة، ولا يعزلهـا عـن خالقهـا ممـا يتبعه نجاح الإنسان في خلافته. فارتبطت الآيـة بقولـه تعـالى: **إن هـذا القـرآن يهـدي للتي هي أقوم**.

13←14: وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه... عليك حسيبا.

وهذا من هداية القرآن، إذ كشف لكل فرد أن عمله في الـدنيا وحظـه مـن الأجـر علـى صالح عمله والإثم على ما قارفه من سيئات، موثـق مـلازم لـه لا يفارقـه. هـذا هـو معنى الجزء الأول من الآية . ولـربط هـذا المعنـى بصـياغة الآيـة أقـول :إن كلمـة طائر مرتبطة بما جرت عليه الحياة العربيـة، إذ كـانوا كلمـا أرادوا سـفرا، أو رغبـوا في التعرف على الغيب، نظروا في أول طائر يأتيهم فإن كـان مـن جهـة اليمـين تيمنـوا بذلك ومضوا، وإن أتاهم من جهة الشمال تشـاءموا وأعرضـوا . وكـذلك كـانوا يفعلـون إذا اقتسموا ما هم فيه شركاء رمـوا بقـراطيس مكتـوب فـي كـل واحـد منهـا اسـم صاحبه، ثم يرمون بها، فكل واحد يأخـذ السـهم الـذي وقـع عليـه القرطـاس المرقـوم باسمه. وقد يفعلون ذلك بسهام مكتـوب عليهـا فيطيـر السـهم الـذي ركـب فـي قناتـه الريش ليساعده على الطيران . ومن ذلـك توسـعوا فـأطلقوا علـى حـظ الإنسـان مـن خير أو شر طائره. وقوله: في عنقه يقصد منه عـدم مفارقـة حظـه لـه، هـو كـالقلادة المحيطة بالعنق فما عمله من خيـر أو شـر ثابـت مقـرر لا يسـقط بحـال. ثـم إن مـا تطوق به عنقه، سينكشف في كتاب يقرأه صـاحبه، سـواء أكـان أميـا أم قارئـا، يظهـر فيه جميع أعماله خيرها وشرها. وإن كان التعبير بكتـاب فـإن الـذي أرجحـه أنـه لـيس من نوع الكتابة المعروفة في الـدنيا بحـروف فـي قرطـاس، ولكنـه ثبـت مـن أمـور الآخرة يختص بالشمول والوضوح، يجده كل إنسـان حاضـرا بـين يديـه، فينظـر فيـه فيتبين كل عمل قام به في الدنيا. وأطلق النشر: منشورا لتأكيد مـا فهمتـه مـن أنـه لـيس قرطاسا يطوى أو يمكن إخفاء صفحة من صفحاته. ثـم يقـال لـه: اقـرأ كتابـك وتثبـت

فيه وكن حاسبا لنفسك ما قدمت من خير أو مــن شــر. ومحاســبة الإنســان لنفســه بنــاء على الثبت المنشور أو ضح محاسبة فلا مراوغة ولا معاذير.

15-من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ...حتى نبعث رسولا.

عقبت الآية السابقة بما يؤكد مضمونها فــي صــورة قاعــدة عامــة توقــف كــل إنســان أمام مسؤولياته مع جريانها على العدل الإلهي .تقــول الآيــة : مــن ســار علــى طريــق الهدى والتزم مطبقا ما بلغ إليه عن طريق رسله، ولــم يطــع هــواه وحكــم شــرع الله ، فإن صلاحه ينتفع به، زكاءً في نفسه وطمأنينة في قلبه وراحــة فــي ضــميره، ثــم ثوابــا في الآخرة، ورضوان من الله أكبر . وفي المقابــل فمــن أضــاع طريــق الهــدى وســار في منهج الضلال من الكفر والمعاصي، فإن ضلاله ســيجد نتائجــه فــي الــدنيا والآخــرة عكس ما يلقاه المهتدي. إن العدل الإلهي فوق ذلــك : قضــى الله أن لا يحمــل أحــد ثقــل الإثم الذي يرتكبه غيره، وكل إنسان مسؤول عن عملــه .نعــم مــن تســبب فــي الشــر ونهج للناس طريق الفســاد وضــللهم، فإنــه يتحمــل وزرهــم باعتبــاره متســببا . وفــي المقابل فإن الإنسان لا ينتفع من أجر ما عمله غيره مــن خيــر إلا إذا كــان متســببا فيــه، كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم والترمذي عــن أبــي هريــرة رضــي الله عنــه : إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جاريــة، وعلــم بثــه فــي صــدور الرجــال وولد صالح يدعو له[1].

وختمت الآية بإعلان اللطف الإلهي الذي اقتضــى أنــه ســبحانه لا يســلط عذابــه علــى البشر عذاب استئصال في الدنيا، وعذاب جهــنم فــي الآخــرة إلا بعــد أن يبعــث رســله ويبلغ وحيه للذين أرسل إليهم.

وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَـٰهَا
تَدْمِيرًا ﴿16﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ
خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿17﴾ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ
جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿18﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا
وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿19﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ
عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿20﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

[1] إكمال الإكمال ج 5 .

وَلَلْأَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴿٢١﴾ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولاً ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

قرية : المجتمع السكاني الذي يسكن الدور المبنية.

المترفون : أهل النعمة وسعة العيش.

فسقوا: خرجوا عن المنهج المسطر لهم.

القول : الوعيد الذي أنذرهم به رسولهم.

التدمير : أصله هدم البناء وإزالة آثاره، والمراد به الاستئصال.

العاجلة : متاع الحياة الدنيا.

ما نشاء : ما نختار إعطاءه .

يصلاها : يحترق بها.

مدحورا : مطرودا.

السعي : أصله، مرتبة في المشي أقل من العدو. والمقصود: مواصلة العمل.

الإمداد : استرسال العطاء وتتابعه.

محظورا : ممنوعا.

النظر: الرؤية البصرية التي يعقبها التدبر فيما وراء المبصرات.

الدرجات : مراتب المؤمنين في الجنة.

المذموم: المذكور بالسوء والعيب.

مخذولا : الذي تخلى عنه ناصره.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه هي سنة الله: أنه يبعث الرسول لأهل أي قرية من القرى ليهديهم إلى التوحيد ويقرر التشريع الذي يصلح الأفراد والمجتمع، فيقابله المترفون الذين أفسد فطرتهم النعيم بالرفض ويتبعهم الدهماء. وبعد أن كانوا غير عالمين بالحلال والحرام والصلاح والفساد، ينقلبون بما بلغهم الرسول مكلفين بما جاءهم عن ربهم، فمن أطاعه كان صالحا ومن عصاه كان فاسقا. فإذا ظهر الفسق في القرية وعم واستشرى الفساد، يحقق الله ما أنذروا به، فتتعلق الإرادة الإلهية بإنجاز إهلاكهم فيدمرهم تدميرا يأتي على جميعهم. ويحقق القرآن أن هذه سنة الله مضت مع القرون التي تتابعت بعد نوح، فكلما تمرد قرن على رسوله تعرض للانتقام. وربك

يا محمد يكفيك شرهم فلا حاجة لك بمن ينصرك، إنــه يعلـم مـا تكنـه صـدورهم ومـا يقومون به من أعمال شريرة يحصيها عليهم، ليجـري علـيهم سـنته فـي القـرون التـي أهلكها قبلهم.

إن القانون الذي بنى عليه الله أمـر الخلـق أنــه جعلهـم مختـارين. فمـن اختـار متـاع الحياة الدنيا، وقصر همه على المنظور القريب من ذلك، فـإن الله يُقَـدِرُ مـن يشـاء ذلـك ولا يجعله عاجزا عن تحصيل مـا لا يريـد الله منعـه منـه، وسـتكون عاقبتـه عـذاب جهنم مع ذمه وطرده من رحمة الله . وبالمقابل فـإن مـن تعلقـت همتـه بـالفوز فـي الحياة الآخرة فآمن وعمل بما يقتضيه الإيمان فإنه ينـال جـزاءه ثنـاءً علـى عملـه فـي الدنيا والآخرة.

إن رحمة ربك يا محمد يتتابع بها إمداد من وقف حرصه علـى متـاع الحيـاة ممـا قـدره له، ويواصل إمداد المؤمنين بخيرات الـدنيا والآخـرة. إن سـعة رحمتـه لا يحـرم منهـا كافر ولا مؤمن. كل ينال حظه منها حسبما قدره ونظمه بعلي حكمته.

انظر يا محمد متدبرا فيما يجري في الكون أمامـك، تجـد مؤمنـا صـالحا موسـعا عليـه وآخر مضيقا عليه، وإن كان نشاطهم واحـدا. وكـذلك مقابلـة رزق الكـافر بـالمؤمن أو بالكافر. مما ينادي أن ما يمكّن الله منه الإنسان مـن حظـوظ الـدنيا هـو مـن صـنع الله وحكيم تدبيره. يعجز البشر عن إدراك أسراره. ولكـن الأمـر فـي الآخـرة تتفـاوت فـي الدرجات التي يرقى إليها أهلها، كمـا يختلفـون فـي الفضـل الـذي يتفضـل بـه ربهـم عليهم، وللصلاح أثر في ذلك.

ثم توجه القرآن لكل من يمكن أن يتخـذ إلهـا مـن دون الله ناهيـا لـه أن يفعـل ذلـك، مبينا العاقبة: أنه سيكون أسير الـذم مـذكورا بسـوء تـدبيره وخسـة عقلـه، وأن مـن اتخذه إلها فعبده لا يعينه ولا يدفع عنه سوءًا ولا يجده عند الأزمات .

بيان المعنى العام :

16- وإذا أردنا أن نهلك قرية...فدمرناها تدميرا.

هذه الآية تعطي صورة تطبيقية لما جاء في الآيـة السـابقة -15- وحاصـل مـا تفيـده:

أن الله إذا أراد أن يهلك أي قرية فلا دافع لمـا أراد. فكيـف يتحقـق ذلـك فـي الوجـود وما هي سنته في ذلك؟ إن الله يبعث من يبلغ رسـالته التـي يعلـن المترفـون مـن أهـل القرية، وهم الأغنياء الـذين انغمسـوا فـي ملـذاتهم واتبعـوا شـهواتهم، يعلنـون عـن رفضها ويؤثرون في أتباعهم وفي الـدهماء ليسـيروا علـى طـريقتهم، فيصُـمُّ المترفـون وأتباعهم آذانهم عن قبول مـا جـاء علـى لسـان الرسـول، ويرفضـون الإيمـان بـالله

وباليوم الآخر وبالحساب، ويعلو المنكــر ويسـتفحل، ويعــم الفســاد وانحطـــاط الأخـــلاق، وعند ذلك يحين أجل مـــا أنـــذرهم بــه الرســول فتتعلــق إرادة الله بإنجـــاز مـــا أوعـــده، ويدمر القرية تدميرا لا يبقي لها أثرا.

فالإرادة معناها تعلق إرادة الله بإنجاز وعيده وتحقيقه مـــن إهـــلاك القريـــة التـــي عصــت وأعرضت عن قبول ما جاء به الرسول.

أمرنا مترفيها : هو الأمر باتباع كل مـــا جـــاء بـــه الرســول، وهـــو فـــي الحقيقـــة أمــر لجميع سكان القرية، ولكن الذين يتقدمون لمحاجة الرســول وتحديــه، هـــم الـــذين أفســدهم النعيم ووفرة المال، وبرزوا في المجتمــع قـــادة يُتَّبَعُـــونَ، لأن شـــأن الاجتمـــاع البشـــري أن الدهماء لا يسبقون بعرض آرائهم ولا يعلو صـــوتهم بـــالرفض فـــي البدايـــة، إذ يقــوم بهذا الدور أصحاب الثراء المنهمكون في اتبـــاع شـــهواتهم، الـــذين يشـــرِّع الرســـول مـــا يلجمهم عن الاستمرار، ويقيِّد حـــريتهم الفوضـــوية بقـــانون الـــوحي المحقـــق للمصـــلحة . ثم يتبعهم الضعفاء .

ولما كانوا غير مسؤولين عن أعمـــالهم قبـــل بعثـــة الرســـول، لقولـــه تعـــالى فـــي الآيـــة السابقة: **وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا-** فإنهم بعـــد بعثتـــه وقيامـــه بتبليـــغ شـــرع الله يعتبر من لا يطبق ما أمر به فاسقا : أي خارجا عـــن هـــدي الله . ويعمـــل الرســـول فـــي صبر على إقناعهم، وتوضيح أن صلاحهم هو في التحـــول عـــن الرذيلـــة إلـــى الفضـــيلة، وعن الكفر إلى الإيمان. ولكنهم في النهايـــة يصـــرون علـــى مـــاهم عليـــه ، فيعـــاجلهم الله بما أوعدهم وتدمر مساكنهم ويستأصلهم العذاب استئصـــالا لا قيـــام بعـــده . فقطـــع دابـــر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.

17- وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح...خبيرا بصيرا .

تأكيدا لسنة الله في تدمير قرى الفاســقين المتمـــردين بعـــد الإنـــذار، يـــذكر القـــرآن أن الله قد أهلك أقواما في قرون كثيرة متلاحقة، بعد أن أهلـــك قـــوم نـــوح بالتـــدمير الـــذي أتـــى على الأرض كلها فأغرقها ومحق الكافرين منهـــا. فقولـــه وكـــم أهلكنـــا: يفيـــد أن الـــذين سُلِّط عليهم التدمير بعد نوح كانوا كثيرين فـــي قـــرون عديـــدة؛ والقـــرن المـــدة الطويلـــة اختلف في تقديرها من أربعين سنة إلى مائة وعشـــرين. ولكـــن معناهـــا فـــي الآيـــة مـــدة طويلة غير محددة بعدد من السنين.

وختمت الآية بما جرى عليه القرآن فـــي مناســـبات كثيـــرة مـــن إظهـــار عنايـــة الـــرب برسوله وتثبيته. إنه سبحانه عليم بما تكنه صدور الكـــافرين، ومـــا يدبرونـــه فـــي خفـــاء، وما يقومون به من الأعمال الخبيثـــة لتوقيـــف مـــد الـــدعوة .لا يغيـــب عـــن علمـــه مـــا

يجري في بواطنهم، ولا يخفى عنه أي شــيء صــدَر للوجــود .إن ذلــك التأييــد يكفيــك عن طلب العون من غيره سبحانه، فأنت غير محتــاج لمــن ينتصــر لــك ويــدافع عنــك، فقد تولى أمرك ربُك. وفي ذلك تلــويح بالتهديــد للمشــركين بــأنهم معرضــون لتنســحب عليهم سنة الله في القرون المكذبة التالية لعهد نوح.

18←19:من كان يريد العاجلة عجلنا له...سعيهم مشكورا.

بين القرآن من الآية13 عاقبة المكلفين تبعــا لصــلاحهم أو فســادهم، وصــرح فــي هــذه الآية بحقيقة: هي أن الإنسان مختار لا مجبر. وأنــت إذا تتبعــت أحــوال الخلــق وجــدتهم على نوعين :

النوع الأول: الذين اختاروا نعيم الحياة الــدنيا، وجعلــوه كــل همهــم والمقــدم علــى مــا سواه، ونفوا من تقديرهم ومن سلم قــيمهم مــا يتعلــق بمــا وراء الحيــاة العاجلــة التــي يعيشونها. هــؤلاء لا يحققــون طموحــاتهم الدنيويــة بقــدراتهم، ولكــن الله هــو الــذي، لحكمة مستورة عنا، يعطي من متــاع الــدنيا لــبعض أحبــاء الــدنيا مــا قــدر أن يصــل إليهم. فهم لا يحققون من طموحاتهم تلــك إلا مــا قــدر الله أن لا يحــول بيــنهم وبينهــا. ثم هم في النهاية يوم القيامة سيصلون نــار جهــنم مــذمومين، تُعْلَــنُ مخــازيهم ويُــدْفعون عن منازل الكرامة.

النوع الثاني: الذين تعلقــت همــتهم ســامية إلــى الفــوز بالســعادة فــي الــدار الآخــرة. يتمتعون بعزيمة ماضية، تقاوم مغريات الحيــاة الــدنيا، ونــوازع الشــهوة، وتعمــل بجــد ملتزمة بتطبيق شرع الله، وتجد لذتها في جمال الطاعــة. هــم يســيرون ســيرا موصــولا بدون إبطاء، السير الموصل لمــا يحقــق الفــوز فــي الحيــاة الآخــرة. الإيمــان الفاعــل واضح في عقولهم وأرواحهم. ولــيس الإيمــان بــالتمني ولكــن الإيمــان المحــرك لفعــل الخير والابتعاد عن الشر، هو معنــى وســعى للآخــرة ســعيها، الخــاص بهــا الــذي لا تغشاه لوثة من الغرور والفساد والرذيلة. هم متميــزون إذن، ولــذلك أشــير إلــيهم بقولــه تعالى: **أولئك كان سعيهم مشكورا.** سعيهم مقوَّم بقيمة الشــكر عليــه والرضــا عنــه مــن مَبْدئه في الدنيا إلى يوم القيامة.

20- كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا.

هذه الآية مؤكدة لمضــمون الآيتــين الســابقتين لطــرد أي تصــور ينــافي مضــمونيهما فبالنسبة للنوع الأول، فإنه وإن كان منحرفا عــن طريــق الهــدى، تغلــب عليــه الأنانيــة والنظرة القصيرة، ويشيع الفساد بسلوكه ؛ فــإن الله رغــم ذلــك يواصــل إمــداده حســبما

قدره وثبت في سابق علمه فلا يحول بينه وبين التحصيل على متع الحياة الدنيا، ولا يعاجله بقطع الأرزاق.

وكذلك النوع الثاني هو يستمد من فضل الله أيضا سعادة في الدنيا، وسعادة في الحياة الآخرة. إن عطاء ربك يا محمد وفضله على خلقه عام شامل لا يحرم منه أحد حرمانا كاملا. ولا مقايضة في الحياة الدنيا ونعيمها بين فعل الخير والتفضل، وبين فعل الشر والحرمان. إنه لوكان الأمر كذلك لترتب عنه انتهاء التكليف والاختيار، لأنه إذا كان كل من ضل الطريق يحرم سريعا حظه في الدنيا، وكل من يفعل الخير يعطى العطاء الوفير في الدنيا، لكان البشر كلهم يسعون إلى الخير .

21-انظر كيف فضلنا ...وأكبر تفضيلا.

أمر الله رسوله أن يستعرض أحوال الناس استعراضا يفضي إلى إدراك ما جاء في الآية السابقة. راقب ما تفضل الله به على البشر تجد أنه لا يوجد محروم، وأن حظوظ الناس مختلفة، فبعض المؤمنين قد وسع الله عليه وبسط له في الرزق، وبعضهم قد ضيق عليه، وكذلك عندما تقارن بين الكافرين فيما بينهم وفيما بينهم وبين المؤمنين. مما يخلص منه الناظر إلى أن الغنى أو الفقر على مختلف درجاتهما لا يرتبط شيء من ذلك بالصلاح أو الفسق.

وينطلق التدبر في ذلك إلى قضية من قضايا الآخرة التي يظهر فيها التفاضل المرتبط بالتقوى وبالعمل الصالح. فجزاء الآخرة وما يناله كل فرد من نعيم الجنة تختلف فيه درجات النعيم بصفة أكبر، كما تكون مراتب الفضل التي يعطيها الله متفاوتة تفاوتا عظيما. أخرج البخاري ومسلم بسندهما إلى أبي سعيد الخدري رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : إن أهل الجنة ليتراءون الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدري الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم .قالوا :يا رسول الله تلك منازل الأنبياء . قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا وصدقوا المرسلين [1].

22-لاتجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا.

قرر معظم المفسرين أن الخطاب أولا لرسول الله ويتناول كل البشر. والذي اطمأننت إليه أنه خطاب لكل من يتأتى خطابه ويسمع هذا النص القرآني . كقولك لا تكثر الكلام فيكثر سقطك، وعلى هذا تجري صياغة النصح .

---

[1] إكمال الإكمال ج 7 ص211

فالآية نهي لمن يمكن أن يتأتى منه فعل المنهي، أي الإشراك بالله وإعطاء صفة الألوهية لغيره سبحانه. لأن ذلك مما يتبعه أن يتسلط عليك تسلطا لا تستطيع الانفكاك عنه، اللوم والخذلان. أما اللوم فهو الذم وما يصحبه من استهزاء بمن أشرك بالله ما لا يبصر ولا يسمع وهو أضعف من أن يدفع السوء عن نفسه. وأما الخذلان فإن من أشرك بالله واتخذ إلها من دونه فقد اعتمد على من لا يقدر على نصره، ولا يسعده بالعون عند ضعفه.

۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ
أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ﴿23﴾
وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿24﴾
رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمۡۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلۡأَوَّٰبِينَ غَفُورٗا ﴿25﴾
وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ﴿26﴾ إِنَّ ٱلۡمُبَذِّرِينَ
كَانُوٓاْ إِخۡوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِۖ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورٗا ﴿27﴾ وَإِمَّا تُعۡرِضَنَّ عَنۡهُمُ ٱبۡتِغَآءَ
رَحۡمَةٖ مِّن رَّبِّكَ تَرۡجُوهَا فَقُل لَّهُمۡ قَوۡلٗا مَّيۡسُورٗا ﴿28﴾ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ
وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ﴿29﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ﴿30﴾ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُمۡ خَشۡيَةَ إِمۡلَٰقٖۖ نَّحۡنُ
نَرۡزُقُهُمۡ وَإِيَّاكُمۡۚ إِنَّ قَتۡلَهُمۡ كَانَ خِطۡـٔٗا كَبِيرٗا ﴿31﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ
وَسَآءَ سَبِيلٗا ﴿32﴾ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظۡلُومٗا فَقَدۡ
جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا فَلَا يُسۡرِف فِّي ٱلۡقَتۡلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورٗا ﴿33﴾ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ
ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ
مَسۡـُٔولٗا ﴿34﴾ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ إِذَا كِلۡتُمۡ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ
تَأۡوِيلٗا ﴿35﴾ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ
عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا ﴿36﴾ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ وَلَن تَبۡلُغَ

ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ
رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾

بيان معانى الألفاظ :

قضى : أمَرَ أمْرَ إلزام.

أف : اسم فعل يدل على الضجر أو التقذر.

النهر : إظهار الغضب في الصوت، أو في صيغة الخطاب.

القول الكريم : الجامع بين اللين وجمال اللفظ والمعنى.

جناح الذل :لا تتعاظم عليهما، بل ليكن مظهرك مظهر الذليل الراحم لهما.

صالحين : الصلاح في هذه الآية يدل على الامتثال لما سبق بسطه في الآية.

أواب : كثير الأوبة بمعنى الرجوع إلى الله.

التبذير : إنفاق المال في غير الوجوه النافعة الصالحة.

الإعراض : ضد الإقبال قصد به عدم الإيتاء.

الميسور : اليسر بمعنى اللين المقبول .

مغلولة : مقيدة بالغل وهو السير الذي تقيد به يد الأسير.

المحسور : المنهوك القوى .

يبسط الرزق : يوسع فيه.

يقدر : ضد يوسع: يضيق.

الإملاق : الفقر.

الخِطْءُ : الإثم .بالحق : بالعدل .

سلطانا: قوة .

السرف : الزيادة على ما يقتضيه الحق .

أشده : قواه في العقل والتجربة والنظر لنفسه.

وفى: أعطاه كاملا غير ناقص.

القسطاس : آلة الوزن .

المستقيم : السوي. المعتدل .

لا تقف : لا تتبع.

مسؤول : محاسب.

مرحا: مشية تنبئ عن زهو المر بنفسه، وتكبره .

تخرق : لن تمزق أديم الأرض.

الحكمة : معرفة الحقائق معرفة عميقة كاشفة لا خطأ فيها.

تلقى : تطرح في الأسفل مهانا.
مدحورا : مبعدا من رحمة الله.

بيان المعنى الإجمالي :

لقد ألزمكم ربكم بأمور لا مثنوية فيها تشمل :
أولا: إفراده بالعبادة فلا تعلَّق الآمال إلا به ولا يخضع أحد إلا لشرعه.
وثانيا طاعة الأبوين ومعاشرتهما بالطريقة التي هي أحسن من غيرها. وخاصة عندما يبلغ الكبرَ أحدهما أو كلاهما، فيضعف الكبير عن القيام بما كان يستطيع أن يستقل به قبل ذلك. فلا يباشرهما بكلمة أو إشارة تدل على التضجر أو خارجة عن حدود الاحترام. وليتلطف في توجيههما إلى التي هي خير فلا ينهرهما، وليختر من الصيغ ما يعتبر من الأدب في عرف التخاطب. وليكن لينا معهما غير متغطرس تبدو الرحمة من مجلسه وخطابه وطريقة تعامله. ثم إنه يدعو لهما بالرحمة، الرحمة الصادرة عن الطبع كما ربياه ورحماه عندما كان صغيرا. والله يعلم ما هو كامن في صدوركم أكثر من علمكم به . وأنه سبحانه لعظيم فضله يقبل من التوابين العائدين إلى السلوك الراشد ويغفر لهم تقصيرهم. ويشمل هذا حالات التقصير مع الأبوين وحالات الانحراف الأخرى عن الجادة.
ثالثا: مساعدة الأقرباء، الواجب منها كالإنفاق على الوالدين والزوجة والأولاد، والمندوب إليه ممن تتصل بهم بنسب أو قرابة.
رابعا : مساعدة المساكين والمسافرين المنقطعين عن أموالهم.
ويتولى القرآن إرشاد المؤمن إلى المسلك الذي عليه أن يتبعه في بعض الظروف الاستثنائية. في صورة ما إذا كانت إمكاناتك لا تقدر معها أن تقوم بما ينبغي نحو ذوي القربى والمساكين، فلتكن راجيا أن يسعدك ربك من رحمته الواسعة بفضله، وخاطبهم بالقول اللين الذي يفسح في أملهم ويعوضهم عن مرارة الحرمان من العطاء بالأمل في المستقبل .
خامسا: التوسط في التصرف في المال بين الشح والتبذير. إياك أن يستولي الشح على قلبك فتكون صورتك صورة الأسير المقيدة يده إلى عنقه، فينصب عليك اللوم بما لا تجد له مدفعا. ولا تبذر مالك تبذيرا فتنتهي إلى وضع تعجز فيه عن القيام بحاجاتك .
ولتعلم أن الشح لا يغنيك، وأن التبذير لا يقلب من تتولى عطاءهم إلى أغنياء غنى لا تلحقهم الحاجة بعده ؛ ذلك أن الغنى والفقر والعطاء والمنع، بيد الله وحده

يصرّف ذلك بحكمته، فهو العلــيم أزلا بمـــا يخفـــى علــيكم، البصـــير بكـــل حالـــة علـــى الوضع الذي تتم فيه قبل حصولها.

سادسا: النهي عن قتل الأولاد خـــوف الفقـــر. إن احتـــرام الحيـــاة والحفـــاظ عليهـــا مـــن الأسس التي جعلها الإسلام في مقدمة ما اعتنى به. والنهـــي قـــوي رادع لمـــن قســـا قلبـــه فحدثته نفسه بقتل ولده خوفا من الفقر، إن الله واسع الرحمـــة كبيـــر الفضـــل فهـــو يـــرزق الولد كما يرزق والديه وليس رزقه مكفولا من والـــده، فـــالله أرحـــم بعبـــاده ممـــن تحجـــر قلبه .إن قتل الولد خطيئة عظيمة .

سابعا : تحريم الاتصال الجنسي غير المشروع - فنهى القـــرآن فـــي أكثـــر مـــن مناســـبة عن الزنا وأدخله في هذا الميثاق وعلل النهـــي بـــأن الزنـــا قبـــيح جـــدا منـــاقض للفطـــرة وهو أسوأ طريقة للإشباع الجنسي.

ثامنا: المحافظة على الحياة: نهت الآية عن قتل الـــنفس التـــي أعزهـــا الله فحـــرم التعـــدي عليها بغير حق. والحق المسوغ لذلك هو لســـلطة القضـــاء وحـــدها، وهـــو مفصـــل فـــي كتب الفقه. ثم إن ولي المقتول ظلما قد مكنـــه الله مـــن المطالبـــة بالقصـــاص، أو الرضـــا بالدية. ولما كان مُمكنًا من رفع الأمر للقاضي الـــذي يتـــولى الإثبـــات ويقـــتص لـــه مـــن الظالم الذي قتل وليه، فلا يتعدى ما مكنه منه الإسلام فيعمـــل علـــى قتـــل القاتـــل وغيـــره لوهم أن المقتول له مكانة اجتماعية أرفع من قاتله.

تاسعا: حفظ مال اليتيم. أمر القرآن بالحفـــاظ علـــى مـــال اليتـــيم، ولا يتصـــرف فيـــه إلا بالوجه الذي هو أفضل لليتيم، لينميه له حتى يصل إلى سن الرشد المفصلة في الفقه

عاشرا: الوفاء بالالتزامات الموثقة . أمـــر بالوفـــاء بـــالعهود التـــي وثقهـــا المـــؤمن مـــع غيره وأنه مسؤول عن الوفاء بها فـــي الـــدنيا والآخـــرة . إن الحفـــاظ علـــى العهـــد إذا أصبح ظاهرة عامة نجحت الأمة خلقيا واقتصاديا.

حادي عشر: إيفاء الكيل والميـــزان. يتلاعـــب بعـــض النـــاس بحـــق المتعـــاملين معهـــم، فيُنْقِصون بحيل متنوعة ما يجب عليهم دفعه لهـــم. فنهـــت الآيـــة نهيـــا مؤكـــدا عـــن هـــذا الخلل في التعامل وعن غش الطرف في الآخـــر بإعطائـــه أقـــل ممـــا يســـتحق، وتخييـــل أنه اقتضى حقه كاملا . يدفع إلى هذا الفساد اســـتعجال الـــربح، فنبهـــت الآيـــة الناشـــطين في هذا الميدان إلى أن إعطاء المكيل والموزون وافيا غير منقـــوص هـــو خيـــر لهـــم فـــي الحقيقة ؛يـــدركون هـــذه الخيريـــة ببركـــة وإقبـــال مـــن الحرفـــاء وطيـــب ســـمعة لهـــم ولوطنهم، كما أن مآلهم في الآخرة مآل حسن.

ثاني عشر: ليكون المؤمن يقظا لمسؤوليته فيما يتخذه مـن قـرارات بنـاء علـى حاصـل ذهنـي أو سـمعي أو بصـري. فـالمقوم الأول العلـم بـأن لا يعتمـد المـؤمن الأوهـام والخرافة والخيالات فـي الميـادين العلميـة والتجريبيـة والقضـائية. والمقـوم الثـاني، تقويم أعماله بعد اليقين بميزان المسؤولية ومآلات أفعاله.

ثالث عشر: التواضع والنهي عن التكبر. وجلـب القـرآن الصـورة المقيتـة أن يتصـور الشخص نفسه أعظم مـن النـاس، فيمشـي مِشْـيَة فيهـا خـيلاء وتحـد واحتقـار .هـذا المغرور وهو يطـأ الأرض بشـدة واهـمٌ، لأنـه لا يسـتطيع أن يخـرق أديـم الأرض، يَمُرُّ عليها كما سيمر عليها من يأتي بعـده، ويرفـع رأسـه معرضـا عـن النـاس، وهـو قزم بالنسبة للجبال .

كل ما بيَّنه هذا الميثاق مما نهى الله عن إتيانه أو عـدم القيـام بـه، يتحـتم الابتعـاد عنـه بترك المنهي وفعل المأمور به. وينبه القرآن إلى أن التهـاون بـأي منهـا يُحْصَـى علـى صاحبه ويسجل في كتابـه عمـلا سـيئا ومكروهـا عنـد الله يترتـب عنـه البعـد عـن رحمته.

إن تلكم الوصايا التي وردت في الميثاق هـي مـن الحكمـة الكاشـفة عـن الحقيقـة فـي أعمق أبعادها، ما كان للأميـين أن يـدركوها إلا بفضـل الـوحي الإلهـي إلـى رسـول الرحمة ﷺ . وإياك أيهـا الإنسـان أن تتخـذ إلهـا مـن دون الله فإنـك ستقضـي علـى مستقبلك قضاء مبرما، وتُلقى في جهنم يوم القيامة مذموما مبعدا من رحمة الله .

بيان المعنى العام :

23←24: وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه.... كما ربياني صغيرا.

هذا المقطع من القرآن يهدف إلى بيان الأسـس التـي يُبنـى عليهـا المجتمـع الإسـلامي، المجتمع النظيف القوي الذي يستطيع أن يقوم بـدوره فـي الخلافـة بنجـاح فـي الأرض. ويتواصل التركيز على تلكم الأصـول مـن هـذه الآيـة إلـى الآيـة 39. وهـو بمثابـة الميثاق الاجتماعي العام الذي يتعين على كل مسلم مراعاتـه، ويتعـين علـى مـن يتـولى أمور الأمة الإسلامية أن يكون منه علـى بصـيرة يصـدر منـه ويعـود إليـه، ويحمـل تربية الأمة على منهاجه الراشد. فلنتتبع ما تضمنه الهدي القرآني في هذا المقطع:

-أولا: أمرك ربك أيها الإنسان أمرا مؤكـدا لازمـا لـزوم القضـاء الواجـب التنفيـذ، أن تفرده بالعبادة. وأتت صياغة هذا الأمـر علـى صـورة فـي الكشـف عنهـا مـا يثبتهـا ويبرز بلاغتها المعجزة. تخير القـرآن لفـظ (ربـك) ليحـدد مـن أول العـرض المسـار الذي تهدف إليه هذه الأوامر الملزمة. إنهـا صـادرة مـن ربـك الـذي أحاطـك بألطافـه

وعونه ونمّى قدراتك ويسر لك ما بلغت به الدرجة التـي تسـتمع بهـا إلـى هـذا الأمـر، وكل ذلك مما يوجب علـى المخاطـب الطاعـة والامتثـال. أمـرك أن تفـرده بالعبـادة، وإفراد الله بالعبادة مرتبة فوق العقيدة بالوحدانيـة، ذلـك أن العبـادة هـي المظهـر لمـا يجري في الفكر من تصور لمنزلة الإنسان في الكـون، وهـي الصـورة العمليـة للعقيـدة الباطنة، وهي المطوّعـة للسـلوك . **إن الصــلاة تنهـى عـن الفحشـاء والمنكـر**[1] إن الفكر الذي يخضع لغير الله ويعبده هـو فكـر مختـل، أسـند العبـادة لمـن لا يسـتحقها وليس له على الفرد أي مزية تدعو للخضوع لـه. وإفـراد الـرب بالعبـادة يتبعـه القيـام بكل ما جاء من تشريع وأدب وعلاقات اجتماعية وإنسانية.

ثانيا بناء الأسرة. المجتمع المتماسك الصالح للحياة، هو المجتمـع الـذي يكـون فيـه بنـاء الأسرة بناء قويا، تقوم العلاقة فيه على قـيم خلقيـة. والأسـرة تتكـون أولا مـن الأبـوين فأمرت الآية بالإحسان لهما، وفي اختيار التعبير عـن الأبـوين بالوالـدين حكمـة التـذكير بمنتهما عليك، فكما أن الحياة التي هي أعـز مـا يملكـه الإنسـان هـي عطيـة الـرب الذي يرعاك في جميع تقلباتك، فـإن الواسـطة لحياتـك الوالـدان. فيختـار فـي التعبيـر عنهما بما يربط بين الإنسان وبينهما (الولادة) وهنـا يكـون الأمـر بالإحسـان الـذي هـو مرتبة فوق القيام بالواجب. فأنت مطالب في كل مناسـبة، بالتعامـل الـذي هـو أحسـن . وهنا يدخل الاجتهاد في التطبيق لينساق إلى الأفضل والأكمـل. ولمزيـد مـن البيـان فـي هذا الركن يعرض القرآن أوضاعا قد تذهل الولد فـلا يـوفي فيهـا بحقهمـا. فمـن ذلـك حالة الضجر، سواء أكان ذلك مسببا عـن ضـعفهما كحالـة الكبـر التـي تقتضـي مـن العناية بمقدار ما ينتاب المعمَّر من الأسقام، وضـعف الـذاكرة، ووهـن العظـام وتراخـي المواسك. أوعن أحوال غير طبيعية في الولـد كالضـغوط النفسـية مـن متاعـب الحيـاة، فينبهه القرآن إلى أن لا يبلغ به الضجر التصـريح بمـا يـدل علـى عـدم احتمالـه لهمـا ككلمة : أف- ونحوها مما يؤذيهما نفسيا، ومن بـاب أولـى وأحـرى مـا كانـت الإذايـة أشد .

-كما صرحت الآية بتحريم زجرهمـا، إن رأى مـن أي منهمـا مـا هـو غيـر مقبـول، فإن ذلك لا يبرر العنف في النصح بقوة، وإن ظـن أنـه يحقـق الـردع. وجسـم حسـن المعاملة بتصوير العلاقة بين الولد وأبويه بالطـائر الـذي يخفـض جناحـه أمـام الطـائر الذي هو أقوى منه. وهذا التذلل لهمـا لـيس ناشـئا عـن الخـوف أو المداهنـة، ولكنـه

---

[1] سورة العنكبوت آية45

وليد الرحمة لهما والعطف عليهما. وهو ما يدعو الولد إلى الترحم عليهما والدعاء لهما بعد موتهما، وبر أصدقائهما. والدعاء من الولد لأبويه بالرحمة بعد وفاتهما مرجو القبول، لأن الله أذن فيه وأمر به: **وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا**- ولما أكده حديث رسول الله ﷺ، أن دعاء الولد الصالح لوالديه يصل إليهما بعد موتهما. وبقيام الولد بذلك ينتفع الوالدان بالدعاء وينتفع الولد الداعي بامتثاله للأمر الإلهي.

25- ربكم أعلم بما في نفوسكم...للأوابين غفورا.

لا شك أن العناية الكبيرة بشأن الأبوين التي أمر بها القرآن، والبساط التي ذكرت فيها، وقرنُها بعبادة الله، ثم ما يلحق الإنسان من الضعف في حسن القيام على أبويه، خاصة إذا كان في طبعهما أو في طبع أحدهما حزونة، وسرعة انفعال، فقد مهدت هذه الآية إلى أن ما يبدر من الولد نحو أبويه قد يكون ناشئا عن ضعف بشري، ولكنه يكن لهما الحب والتوقير، فتلطفت الآية ببيان أن الذي يحاسب عليه الإنسان أولا وبالذات في هذه العلاقة هو ما وقر في قلبه من تقدير واعتراف بفضلهما. فربكم لا يخفى عنه شيء مما انطوت عليه نفوسكم وهو أعلم بها منكم، وإنه لعظيم وفضله يغفر ذنوب من تاب فآب ورجع إلى ربه وتذكر تقصيره وتفريطه، فعمل على تدارك ما فات واهتدى بهدي القرآن. وهذه الخاتمة تعم التقصير الذي وقع فيه المكلف في علاقاته مع أبويه، أو في التزامه بشرع الله.

26←27، وآت ذا القربى حقه والمسكين....وكان الشيطان لربه كفورا.

في إطار العناية بالأسرة يطلب القرآن من المكلف أن يعطي لكل قريب حقه بموجب القرابة. وحقوق الأقارب تشمل الحقوق المادية والحقوق المعنوية، وتشمل الواجب والمرغب فيه. فمن الحقوق الواجبة ماديا النفقة على الوالدين والزوجة والأولاد في الحدود التي حددتها الشريعة، ودَوَّنَ تفاصيلها الفقهاء.

ومن المرغب فيه الإحسان لمن تربطك به آصرة قرابة أو نسب بما يشمل العون المادي للمحتاج والهبة للغني والفقير. وللصلة المادية أثر كبير في تمتين العلاقات وتعميق الود. ومن مجموع الوصاية بالوالدين، وبر ذوي القربى، يبرز حرص الإسلام على تمتين الروابط في قاعدة البناء الاجتماعي "الأسرة" وهو المقوم الثاني للميثاق الاجتماعي.

ثالثا: السماحة بإعطاء الفقراء والمحتاجين ما يساعدهم على تجاوز الظرف العسير الذي هم فيه. والإيتاء إعطاء عن طواعية وسماحة نفس وشعور بالتضامن بين

الغني المرفه، والمحتـــاج الـــذي عضـــه الفقـــر. وفـــي ذلـــك قـــوة للمجتمـــع باستئصـــال مرضين خطيرين من الأمراض الموَهِّنة لـــه : مـــرض الحســـد مـــن الفقـــراء، ومـــرض القسوة وعدم الإحساس بآلام المحاويج من قلوب الأغنياء .

رابعا: يكاد التشريع الإسلامي ينفـــرد بالتأكيـــد علـــى حـــق المســـافر الـــذي تقطعـــت بـــه السبل وبعد عن بلده وأهله وعشيرته، ولم يكن معـــه مـــن المـــال مـــا يســـتطيع بـــه تلبيـــة مطالبه الحياتية ليواصل سفره ويعود إلى موطنـــه، وإن كـــان غنيـــا فـــي بلـــده. فيعطـــف القرآن هذا النوع من الناس على ذوي القرابة والفقـــراء، مؤسســـا مفهـــوم التواصـــل بـــين أعضاء المجتمع الإسلامي، الداخل تحت قوله تعـــالى: **إنمـــا المؤمنـــون إخـــوة**[1]. فـــأخوة الإيمان دائرةٌ وراء دائرة الرابطة الموطنية التي تتلو دائرة الأسرة.

-خامسا: النهي عن الإســـراف فـــي الإنفـــاق. وهـــو أحـــد الأســـس فـــي بنـــاء النظـــام الاجتماعي في الإسلام . نعم تختلف طبائع الناس فـــي تصـــورهم للمـــال، فبعضـــهم يشـــح بالقليل فضلا عن الكثير، ويحرم نفسه ويحرم أسرته ممـــا آتـــاه الله، ويقـــدم المـــال علـــى صلته بأقرب الناس إليه، وكثيرا ما تجـــدونهم ينتظـــرون موتـــه . وبعضـــهم يـــرى المـــال وسيلة لإشباع الرغبات في توسع مفرط، فلا يعطـــي للمـــال أي قيمـــة، ويشـــعر بالراحـــة واللذة عندما يسرف في الإنفاق. إنـــه إذا كـــان التقتيـــر ينقلـــب بـــه الموســـع عليـــه إلـــى حارس لئيم، فـــإن الإســـراف يـــؤول بصـــاحبه إلـــى أن يكـــون حليـــف الشـــياطين .إذ الإسراف يقترن بتراخي العزيمة، والضعف عـــن إلجـــام الشـــهوة وإدخالهـــا تحـــت التقيـــد بميزان المصلحة والخير . والمسرف تطغى شـــهواته وتكـــون لهـــا القيـــادة وينتهـــي بـــأن يصبح الإسراف له خلقا والشهوة العارمـــة قائـــدا. إن البـــاب الـــذي ينفـــذ منـــه الشـــيطان فيقود بوسوسته إلى الشر والرذيلـــة، هـــو العاطفـــة لا العقـــل، فبتنـــويم صـــرامة العقـــل والروح، يجد إبليس مسرح التأثير بدون حارس، والمقاومـــة للشـــر هزيلـــة، فتنعقـــد بينـــه وبين الغاوي المسرف المتراخـــي صـــلة فيهـــوّن عليـــه الخـــروج عـــن حـــدود الله. وإذا انزلق المرء في المهواة فكل مرحلة سوف تتبعها مرحلـــة أشـــد فســـادا . ويبلـــغ التحـــذير أرقى مداه بالتذكير بأن الشيطان الذي آخاه المســـرف وأســـلس لـــه قيـــاده، وانســـاق إلـــى مسارح فساده، هذا الشيطان هو كفور شديد الكفر. لعـــن منـــذ الأزل وحقـــت عليـــه كلمـــة الطرد والخسران. فأي رفيق اتخذه المسرف !

---

[1] سورة الحجرات آية10

تبتلى بمرض الإســراف الــدول والقــائمون علـــى توجيــه الاقتصـــاد كمـــا يبتلـــى بــه الأفراد. أخذت الدول الغنية بسياسة التوسع المفرط فـــي الإنفــاق مبـــررة سياســـتها تلـــك بأنه بذلك تدور عجلة الاقتصاد، ويـــتم اســـتيعاب اليـــد العاملـــة ، وكـــان لهـــذه السياســـة التأثير السلبي على الوضع المالي العالمي، ثم تـــأثر بـــه الاقتصـــاد تبعـــا .ودخـــل العـــالم في أزمة شـــديدة لمَّـــا يظهــرْ نفــق الانفــراج إلـــى اليـــوم، واهتـــزت أنظمـــة وتخلخـــل الاستقرار، وذهبت الطمأنينة، وبصفة عامة لـــم يســـتطع هـــذا التوجـــه أن يعمـــر طـــويلا. ثم تعرَّض القرآن لأوضاع استثنائية وبـــين طريقـــة معالجتهـــا لتحقيـــق مـــا اعتنـــت بـــه الآيات السابقة من تماسك المجتمع.

28-وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك....قولا ميسورا.

شأن السائل أنه يعتمد المظاهر فهو يتوجه لمن مظهره يدل علـــى أنـــه واجـــد قـــادر علـــى مساعدته. ورده بدون شـــيء قـــد يـــؤثر فـــي نفســـه انكســـارا وبالتـــالي انفصـــالا عـــن المسؤول، ووهن في العلاقة . فوجه القرآن من كـــان وضـــعه لا يســـمح لـــه بـــالعون أن يتخير عند الرد القول اللين الميسور الـــذي يجبـــر انكســـار الـــرد، ويبعـــث الأمـــل بأنـــه مستعد في ظروف أخرى ينتظر فيها مـــن ربـــه أن يوســـع عليـــه برحمتـــه .فـــالإعراض في الآية معناه عدم الاستجابة للسائل، أو عدم إيتـــاء مـــا تعـــودتَ إيتـــاءهم مـــن الهـــدايا، وأن هذا الإعراض ليس مسببا عن شح مطاع، ولكن هو نتيجـــة عـــدم الوَجـــد، مـــع أنـــك آمل في رحمة الله أن تمكنك من القيام بمـــا يُمَـــتِّنُ روابـــط القرابـــة والأخـــوة الإســـلامية لمن قربت داره أو بعدت.

ولا تغفل أيها التالي إلى ما تشـــير لـــه الآيـــة **(ابتغـــاء رحمـــة مـــن ربـــك ترجوهـــا)** أن تكون في حالات العسر آملا فـــي رزق الله، وأن تتفقـــد أحـــوالهم إذا مـــا تفضـــل عليـــك ربك فأجرى لك من الرزق ما كان أحد أسبابه حسن أدبك، ورجاءك في فضله.

29←30؛ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك....بعباده خبيرا بصيرا

ان قضية السماحة بالمال في حدود التوســط قضـــية أعـــاد القـــرآن العنايـــة بهـــا ليقيمهـــا على العدل في الآيتين 30/29– فـــتوجه الخطاب مباشرة لكـــل مـــن يتـــأتى منـــه ســـماعه بالنهي عن طرفي التفريط والإفراط في التصرف في المال.

الطرف الأول المنهي عنه: التقتير ومَثَلُهُ: أن المقتـــر جعـــل يـــده، وســـيلة الإنفـــاق التـــي تتولى البذل، كأنها شدت بقيـــد إلـــى العنـــق، فتعطَّلـــت ولا تســـتطيع مـــدها إلـــى غيـــرك بالعون والمساعدة، وهي صورة بشعة يزيد فـــي بشـــاعتها أنهـــا صـــورة الأســـير الـــذي فقد الحرية وربطت يده بسير من جلد إلى عنقه .

والطرف الثاني المنهي عنه: الإسـراف الـذي مثلـه بمـن بسـط يـده بسـطا كـاملا لا يستقر فيها شيء وفتحها فتحا لا تمسك معه لا ماء ولا مالا.
ثم جسمت الآية عاقبة كل منهما، فصورت مآل المقتر بهيئـة زريَّـةٍ :أنـه يكـون قاعـدا ينصب عليه اللوم والعتاب وتهـون مروءتـه . وصـورت المسـرف بالقاعـد المنهـوك القوى، غير القادر على القيام بشؤونه.
ولتثبيت هذه الهداية في ضمائر البشر، عـرَّف القـرآن أن الشـح لا يحقـق السـعة فـي الرزق والوفر في المكتسبات ولا يجلب الغنى لصـاحبه. وكـذلك الإسـراف فـي الإنفـاق لا يقلب الذين يتوسع في تمكيـنهم مـن العطـاء أغنيـاء، ولا يرفـع عـنهم الخصاصـة رفعا أبديا. ذلك أن ربك المتولي لرعايتـك أيهـا الإنسـان، الـذي حولـك مـن الوضـع الأول الذي ولدت عليه بفضل ألطافه، لا يـتحكم أحـد فـي أرزاق النـاس سـواه، فهـو الذي يوسع على من يشاء، ويحرم من يشـاء . وكـل ذلـك تـابع لحكمتـه لأنـه الوحيـد الذي يعلم بواطن الأمور ومآلاتها . فهو يعلـم مقـدما الأشـياء علـى حقيقتهـا علـم مـن امتحن الشيء حتى انكشف له تمام الانكشاف، وهـو البصـير فـلا يخفـى عنـه شـيء. فكل ما يتم وجوده هو ثابـت فـي علمـه بالصـورة التـي سـيتم وجـوده عليهـا فـي المستقبل.

31-ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق...كان خطئا كبيرا .

سادسا: تحريم قتل الذرية وخاصة الأنثى خوف الفقـر. وحملـه جميـع المفسـرين علـى أن الآية تعالج وضعا مقيتا كان عليه أهل الجاهلية: أنهـم كـانوا يقتلـون البنـات ويبقـون الذكور، لأن البنت عندهم لا تعين علـى القيـام بتـوفير أرزاق الأسـرة، وهـي مظهـر ضعف لا تستطيع الدفاع عن نفسها، وخوف عار لو سُبِيَتْ . يقول أحدهم :

أحب بنيتـي وأود أني *** دفنـت بنيـتي في قعـر لحـدي
ومـا هذاك عن بغض ولكن *** مخـافة أن تذوق الـذل بعدي
فربتمـا تزوجـها لئـيـم *** فيلعن والـدي ويـسب جـدي
وربتمـا يموت الزوج عنهـا*** فترجع بيتهـا وتذوق فقـدي
دعوت الله أن تكسى بلحـد*** ولو كـانت أعز الخلـق عنـدي

هكذا تصوروا الأناث أحط قدرة من الذكور، عـاجزة لا تسـتطيع القيـام بأمرهـا خِلْقيـا، وما دروا أن تربية الأسرة، وكذلك المجتمع، هومـا صـيرها إلـى الوضـعية التـي هـي عليها .

والذي ترجح عندي أن الآية عامة في الذكور والإناث، وأنهـا غيـر قاصـرة علـى أهـل الجاهلية، ولكنها تعالج انحرافات تتشكل في كـل عصـر بحسـبه، ففـي عصـرنا هـذا تحللت الأخلاق، وتضاءلت قيمة العفاف عنـد الـذكور والإنـاث، فـبعض الزانيـات إذا حملت تقتل ولدها بمجرد ما تضعه خوف انتقام الأسـرة، وبعـض النسـاء تبعـا للأنانيـة المفرطة، وعدم تقبلهن متاعـب الحمـل والتربيـة، أو للفقـر وضـيق المسـكن، تسـقط الجنين. والجنين إنسان يحمـل جينومـه مـن أول يـوم تلقحـت فيـه البييضـة، جميـع الخصائص الخلقية والنفسية، والذي يتحقق بعد إنمـا هـو ظهـور مـا هـو كـامن. فـوأد البنات صورة من صـور التعـدي علـى حيـاة الأولاد. ومـا يجعلنـي أكثـر اطمئنانـا للتعميم أن الله عبر بالأولاد الشامل للجنسين، ولم يقل بناتكم.

ولدفع الخوف من الفقر، نبه الله الأبوين :أنه سـبحانه تكفـل بـرزق المولـود كمـا تكفـل برزق الأبوين . وهـذا المفهـوم وإن كـان سـبق فـي سـورة الأنعـام: نحـن نـرزقكم وإياهم. فإنه من بلاغة القرآن: أن العبـارة فـي سـورة الأنعـام نحـن نـرزقكم وإيـاهم، وفي هذه السورة نحن نرزقهم وإياكم. والسر فـي ذلـك أن سـورة الأنعـام كـان الفقـر حاصلا للأبوين فقدم إيصال الرزق لهما وعطف المولـود، وفـي هـذه الآيـة لـم يتحقـق الفقر بعد ولكنه الخوف من حصـوله، فكـان التعبيـر أن رزق المولـود علـى الله، فـلا موجب للخوف.

32-ولا تقربوا الزنى إنه كان فاحشة وساء سبيلا.

سابعا : تحريم الزنا تحريما صريحا معلـلا بمـا لا يقبـل أن يكـون فيـه اخـتلاف، إذ ورد النهي عن القربان منه، على أنـه فعـل مسـتقذر يتحـتم البعـد عـن القـرب منـه بالنهي عن الدائرة المحيطة به حتى يتم التحصن مـن الوقـوع فيـه . ثـم قـوّى التأكيـد ببيان وجوه رفضه:

أولا أنه استقر استقرارا ثابتا كونه عمـلا قبيحـا شـديد القـبح (**فاحشـة**) وهـو أمـر مركوز في الفطرة، ولكن قوة الشهوة قد تغطي علـى الزّانـي قـبح فعلتـه . روى الإمـام أحمد بسنده إلى أبي أمامة قال : إن فتى شابا أتى النبـي ﷺ فقـال : يـا رسـول الله ائـذن لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه، وقـالوا مـه ! مـه ! فقـال : ادنه،فـدنا منـه قريبـا فجلس حتى قال : أتحبـه لأمـك؟ قـال: لا والله جعلنـي الله فـداءك . قـال: ولا النـاس يحبونه لأمهاتهم .قال : أفتحبه لابنتك ؟ قـال: لا والله يـا رسـول الله جعلنـي الله فـداءك .قال : ولا الناس يحبـونهم لبنـاتهم قـال : أتحبـه لأختـك ؟ قـال : لا والله جعلنـي الله فداءك .قال : ولا الناس يحبونه لأخواتهم . قـال أتحبـه لعمتـك ؟ قـال :لا والله جعلنـي

الله فداءك .قال : وكذلك الناس لا يحبونه لعمـــاتهم .قــال: أتحبـــه لخالتــك ؟ قــال: لا والله جعلني الله فداءك . قال : ولا الناس يحبونه لخــالاتهم . قــال: فوضـــع النبـــي صــلى الله عليه وسلم يده عليه وقال: اللهم اغفر ذنبه وطهر قلبه، وحصـــن فرجـــه. فلـــم يكـــن بعـــد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[1]. ثانيا : أنه طريق سيء وسلوك مرفوض لقبحه .

إن الزنا من أكبر الكبائر وأقبح الآثـام المنـاكر وأشـدها تـأثيرا فـي اخـتلال المجتمـع .لأنه إذا كان مع متزوجـة فهـو عرضـة لاخـتلاط الأنسـاب، ومعـرض للـذود عـن الشرف بما يصل إلى القتـل، وفسـاد العلاقـة بـين الـزوجين وهـدم البيـت والأسـرة، ولصق عار بذريتها. وإن كـان مـع عَزَبَـةٍ فإنـه قضـاء شـهوة لحظـة يتبعهـا عـار يصاحبها كامل حياتها، وإثارة للذود عن الشرف مـن أهلهـا، وكثيـرا مـا أزهقـت فيـه أرواح. وقد ينشأ عنه حمل تكون جناية الزانيين عليه لاتقـف آثارهـا السـيئة عنـد حـد، فقد يقتل بمجرد ولادته، وقد يرمى بـه، وهـو البـريء، فـي القمامـة أو فـي أي مكـان للتخلص منه ويلقى حياة نكدة .

33-ولا تقتلوا النفس التي حرم الله .....إنه كان منصورا.

ثامنا : حفظ الحياة وتحريم القتل وتفظيعـه . هـذا التشـريع مـن أعظـم مـا اهـتم بـه الإسلام . كانت الحياة رخيصة في الجاهليـة فشـاع الإقـدام علـى القتـل بمـا يتـراءى للقاتل أنه حق له .وقد تكون صـلة بـين القاتـل وشـخص آخـر مبـررة لقتلـه. وقـد يستبيح القاتل دم المقتول بسبب كلمة. وجرى المسـتبدون الظلمـة بعـد العصـر الجـاهلي على بسط سلطانهم بالقتل والإرهاب منـه. نهـت الآيـة عـن ارتكـاب جريمـة التسـلط على الغير بسلب حياته هذه الحياة التي هـي مـن خلـق الله هـو الـذي أعطاهـا، وهـو الذي يسلبها متى شاء، هي النفس التي حـرم التعـدي عليهـا (**التـي حـرم الله**) فكـان نهيا مستمرا عاما، واستثنى من ذلـك القتـل الملتـبس بـالحق. وقـد بـين رسـول اللهﷺ الحالات التي يكون الإعدام فيها حقا . روى البخـاري ومسـلم واللفـظ للبخـاري بسـنده إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنـه قـال :قـال رسـول الله ﷺ : لا يحـل دم امـرئ مسلم يشـهد أن لا إلـه إلا الله وأنـي رسـول الله إلا بإحـدى ثـلاث : الـنفس بـالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الـدين التـارك للجماعـة [2].- ولا ينفـذ حكـم القتـل بهـذه الموجبات إلا القضاء، بعد التثبت التام مائة في المائة، وأدنـى شـك يحـرم معـه الإقـدام

---

[1] المسند ج5ص257

[2] اللؤلؤ والمرجان ح1091ص417

على القتل لقوله ﷺ :ادرؤوا "ادفعــوا" الحــدود بالشــبهات. ونيـــة القتــل أو الإعــداد لـــه دون تنفيذ لأي حائل كان، لا يحل قتل المُعِدُّ لذلك.

وقد جعل الله لولي القتيل الحق الذي يتحتم تنفيذه تبعا لاختيــاره. والــولي هــو مــن ولــد القتيل أو ولده أو جمعه وإياه أب علـــى تفصـــيل عنـــي بـــه الفقهـــاء وضـــبطوا مـــا هـــو مجمع عليه وما هو مختلف فيه. فلولي القتيل ظلمـــا أن يطلـــب بالقصـــاص مـــن الجـــاني، ويقتل بعد الإثبات من طرف القضاء. كما له الحق في العفـــو عـــن الجـــاني وأخـــذ الديـــة. جعل الشرع لـــه هـــذا الســلطان بالمطالبـــة بالقصـــاص أو الرضـــا بالديـــة. وإذا رضـــي بالقصاص فلا يتجاوز فيه ويقتل غيـــر القاتـــل، أو يتعلـــل بشـــرف القتيـــل وأنـــه يســـاوي أكثر من شخص واحد فيطلب تنفيذ الحكم فـــي القاتـــل وفـــي مـــن لـــه صـــلة بـــه، أو أن يعجل بالقتل قبل أن يحكم به الحاكم. ولمـــا كـــان التشـــريع قـــد ضـــمن القصـــاص مـــن القاتل، فهو قد نصر الولي، وكفاه ما يجده من اعتداء القاتل.

وقد ظن بعض المفسرين أن هذه الآيـــة مدنيـــة لمـــا جـــاء فيهـــا مـــن تفصـــيل للتشـــريع الملائم فقـــط حســـب ظنـــه للمجتمـــع الإســـلامي بعـــد أن بـــرزت الجامعـــة الإســـلامية المستقلة. وهذا التوجيه لا يوجب الحكم عليهـــا بكونهـــا مدنيـــة لأن الســـورة نزلـــت بعـــد الإسراء وبعد أن كثر المسلمون وتاقت نفوسهم لمثل هذا البيان التشريعي.

34-ولا تقربوا مال اليتيم ....إن العهد كان مسؤولا.

تضمنت هذه الآية نهيا، وأمرا:

تاسعا: النهي داخل تحـــت مقـــوّم حفـــظ المـــال الضـــروري للاجتمـــاع البشـــري. وهـــذا يتصل بما سبق في الآيتين 27/26– من النهي عن التبـــذير. وتخـــتص هـــذه الآيـــة بنـــوع آخر من حفظه. وهو حفظـــه لمـــن يملكـــه ويضـــعف عـــن منـــع الأيـــدي الظالمـــة مـــن الاستحواذ عليه. هو وضع اليتيم الذي فقد الوالـــد الراعـــي والحـــامي، كـــانوا يستســـيغون قبل البعثة، أن يستحوذ بعض أقارب اليتيم علـــى مالـــه زمـــن صـــباه، ويسّـــر لهـــم ذلـــك فقدان من يفضح الخائن والسارق فـــلا يجـــدون حاميـــا ولا لهـــم وازع بـــاطني يُقصـــيهم عن الظلم لليتيم. فأقام الإسلام هذا الـــوازع البـــاطني المســـتند إلـــى النهـــي الإلهـــي فـــي جملة الميثاق .وكان النهي عن قربان مال اليتيم فضلا عـــن أخـــذه، مبالغـــة فـــي التشـــنيع على الذين يستسيغون الاستحواذ على أموالهم . ولمّا كان لا بـــد لمـــن يتـــولى أمـــر اليتـــيم أن يتصـــرف في ماله تنمية وإنفاقا حـــدد القـــرآن ذلـــك التصـــرف بـــأن يكـــون بالطريقـــة التي هي أحسن من غيرها، حتى يبقى له ماله عندما يشـــتد عـــوده ويرشـــد. وبنـــاء علـــى

ذلك فإن عليه أن يثمِّره حتى لا تأكلـــه الزكـــاة، ولا يحـــبس منـــه شـــيئا ينتفـــع بـــه . ثـــم يسلمه له عند رشده.

عاشرا : الأمر بالوفاء بالعهد ؛كل مـــؤمن مســـؤول عـــن الالتزامـــات التـــي عقـــدها مـــع الآخرين .وتوجه الطلب للجماعة لما في حفظ العهود علـــى نطـــاق الجماعـــة مـــن ائتمـــان الأمة والتعامل معها بثقة، يتبعهـــا نَفـــاق تجاراتهـــا وصـــناعاتها وازدهـــار اقتصـــادها . كما أن اللحمة بين أعضاء الأمة تقْوَى بحفظ العهد وتتراخـــى حتـــى تبلـــغ حـــد الانفصـــال بعدم احترام العهود.

35-وأوفوا الكيل ...وأحسن تأويلا.

حادي عشر: احترام المقاييس التي يتم بها التبادل، والتـــي تكـــون المعيـــار لحـــق الطـــرف المقابل، وهي الموازين والمكاييـــل . والمكاييـــل تشـــمل المقيـــاس المتعـــارف عليـــه فـــي نوع السلعة كاللتر والصـــاع، فـــي الحبـــوب والزيـــوت ونحوهـــا، وكـــالمتر والقـــدم فـــي الأقمشة والأرضين ونحو ذلـــك . فـــأمرت الآيـــة جميـــع المـــؤمنين أن يعطـــوا الطـــرف المقابل حقه بالمعيار الذي يتم به التبادل . ومـــن الضـــبط القرآنـــي مـــا وصـــف بـــه آلـــة الوزن بالحرص أن تكون مستقيمة لا خلـــل فيهـــا. وتـــم التحـــريض علـــى الالتـــزام بـــأن عدم التطفيف خير للوازن في الـــدنيا، يتمثـــل هـــذا الخيـــر فيمـــا كتبـــه الله مـــن البركـــة للمحافظ على الميزان العادل، وما يترتب عليه من الثقـــة فيكثـــر زبائنـــه وتنفـــق تجارتـــه. وخير في الآخرة بما سيجده مـــن كـــرم الله وفضـــله فـــي الآخـــرة. وهـــو معنـــى قولـــه تعالى: **وأحسن تأويلا**. نعـــم قـــد اســـتعجل فاقـــدو الثقـــة مـــا يـــوفره لهـــم أكـــل أمـــوال المتعاملين بـــالطرق الخبيثـــة والاحتيـــال بـــالتطفيف ؛ وهـــم خاســـرون فـــي المـــآل، لأن التطفيف يمحق البركة، ويطرد المتعامل معهم فـــلا يعـــود، ويقلـــل الثقـــة فـــي المجموعـــة فيؤول أمرها إلى كساد، فتنتشر البطالة .

36- ولا تقف ما ليس لك به علم ....كل أولئك كان عنه مسؤولا.

ثاني عشر: هذه الآية تمثـــل مـــنهج فكـــر ومـــنهج حيـــاة. العقـــل فـــي نشـــاطه الـــدائم، والحواس في علاقتهـــا الموصـــولة بـــالكون، يمثـــل هـــذا وذاك مبـــاني للقـــرارات التـــي يتخذها الإنسان. وينجز تبعا لها ما استقر عليه نظره فيها.

إن الحاصل الذهني قد يكون مبنيا على أوهام وخيالات، يتكرر استحضارها إلى أن تستولي على العقل فتدفعه إلى مواقف والقيام بأعمال، ثم ينكشف فسادها وزيفها بعد التنفيذ.

وكذلك ينقل السمع للدماغ مسموعات، فتتركز فيه، ثـــم يتحـــرك بنـــاء علـــى مـــا اســـتقر فيه إلى اقتناع، فيسلك مسالك يمليها عليه فكره بناء على الحاصل السّمعي.

وكذلك يبصر أشياء فيجري الأمر على نفس الطريقة في السمع.

السؤال المطروح :هل ترتفع المسـؤولية عـن الإنسـان فـي سـلوكه إذا اتبـع الحاصـل الذهني، أو السمعي، أو البصري ؟

أجابت الآية عن هذا السؤال، فبينت أنه لا يرفع المسـؤولية عـن الإنسـان إلا مـا قبلـه أولا بناء على يقين لا على وهم، وثانيـا بنـاء علـى شـعور بالمسـؤولية عمـا يترتـب على أفعاله .ولا يعتبر الحاصل المستقر مبررا رافعا للمسؤولية .

إن الحاصل الذهني إذا لم يكن نتيجة علم ويقـين يجـب طـرده مـن الـذهن علـى أنـه وساوس وخيالات. يبين هذا أن كثيرا من العواطـف تـدفع إلـى مواقـف مـن الحـب أو البغض وتنمو مترددة داخل العقل الباطن حتى تنقلـب حقـائق يـؤمن بهـا صـاحبها ثـم تسوقه إلى نوع من السلوك يعقبه الندم . قال تعـالى: **وعسـى أن تكرهـوا شـيئا وهـو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شـر لكـم** [1]- وقـال تعـالى :**وعسـى أن تكرهـوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا** [2]- إذن فالتثبـت وإدخـال البارقـة الأولـى فـي مخبـر النظر تحصّن المؤمن من الخرافة والأحكـام السـطحية المضـللة، وتفضـي فـي ميـدان العلوم والتجارب إلى الظفـر بالمعلومـة الصـحيحة وفـي ميـدان القضـاء إلـى الحكـم الصحيح العادل .

وكذلك السمع : إن من أشـد مـا يفسـد المجتمـع وينشـر فيـه الخـوف وعـدم الثقـة الإشاعات التي تتناقلها اللهوات فتكتسـب مـن الشـيوع قبـولا واطمئنانـا. ترشـد الآيـة مؤكدة أن الواجب على مـن يسـمع خبـرا، أن لا ينقلـه إلا بعـد أن يثـق بصـدقه، ولا ترتفع المسؤولية بذلك فقط، بل حتى يطمئن إلـى أن نقلـه لا يترتـب عنـه ضـرر. قـال تعالى: **وإذا جاءهم أمر من الأمـن أو الخـوف أذاعـوا بـه ولـو ردوه إلـى الرسـول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الـذين يسـتنبطونه مـنهم**[3] -ومـن الأحكـام المقـررة أن من سمع بأن فلانا وفلانة بينهما علاقة مشبوهة، ثم أشاع ذلـك أنـه يجلـد ثمـانين جلـدة ويسقط سقوطا لا تقبل بعده شهادته. وكذلك البصر لا يعتمد مـا لـم يتحقـق تحققـا يقينيـا وكم من شخص شهد برؤية الهلال دون أن يتحقـق، فـأفطر النـاس بشـهادته أو صـاموا أو بنوا عليها ووقفوا بعرفة في اليوم التاسع من شهادته، فتحمل وزرا عظيما.

---

[1] سورة البقرة آية 216

[2] سورة النساء آية 19

[3] سورة النساء آية 83

37-ولا تمش في الأرض مرحا...ولن تخرق الجبال طولا.

ثالث عشر :أسست الآيــة الســابقة للواقعيــة باعتمــاد الإنســان علــى صــحيح العلــم، وتقويم المبصــرات والمســموعات بميــزان الآثــار العمليــة المترتبــة عنهــا، وإبطــال الأوهام، ومن الأوهام ما يحصل في نفوس بعض الناس مــن كبْــرٍ وزهــو بمــا جمعــوه من مال أو سلطان، أو أتباع، يؤثر ذلك فــي تفكيــره كمــا يــؤثر فــي ســلوكه وطريقــة حياته، وصورت الآية مظهرا مــن ذلــك فــي المشــي الــذي يصــحبه خــيلاء ونظــرة متعالية لمن يلقاهم من النــاس وبعضــهم تصــل بــه ســخافة تفكيــره إلــى التمايــل . إن إظهار الكبر على البشر يعبــر عــن احتقــار للآخــرين وتحــد، وهــو جنــون بالعظمــة وتصور زائف، لا يزيد المتكبر إلا انفصالا عــن المجتمــع، وشــماتة بــه عنــد ســقوطه. والضــعف يصــاحب الإنســان، وإن حــاول إخفــاءه، فــأديم الأرض ثابــت لا يســتطيع خرقه وهو يمر هو عليه، ويمر من يــأتي بعــده كــذلك. وقامتــه تتضــاءل أمــام طــول الجبال . وفي الإشارة إلى هاتين الناحيتين نوع من الــتهكم والســخرية مــن هــذا الــنمط من الناس .

38- كل ذلك كان سيئة عند ربك مكروها.

تمثل هذه الآية فذلكة للنواحي الثلاث عشرة التي مضت فــي تلكــم الآيــة الجامعــة، فكــل ما تقدم من نواهٍ، أو من أوامر تدل على النهي عن ضــدها، نهــي عنــه زيــادة علــى مــا فيه من المفاسد، لأنه سيئة حسب تقويمــه عنــد الله الــذي يمســك بــالميزان الحــق. والله يكرهه ، وكراهة الله للأشياء تدل على أنها تُهَوِّن صاحبها وتبعده عن الله.

39-ذلك مما أوحى إليك ربك...في جهنم ملوما مدحورا.

لقد تجمعت صورة مرتبة من الأوامر والنــواهي تمثــل كمــا قلنــا ميثاقــا، فمــن بلاغــة القرآن أنه ختمها بلفت النظر إلى نفاســتها، ليتأمــل فيهــا المــؤمن تــأملا يوجــب تفهــم أبعادها وتطبيقها عمليا، فهي من الحكمة التــي أنزلهــا الــذي يعلــم الســر، ولا يــدركها الأميون لولا فضل الله عليهم بإرســال ســيدنا محمــد ﷺ برســالة الإســلام التــي تســمو بمعتنقيها وترفع مداركهم . وإن أحط ما ينزل إليــه الإنســان هــو الشــرك بــالله، فنهــى القرآن في الختام نهيا عاما لجميع البشر موجها لكــل فــرد بخصوصــه أن لا يتخــذ إلهــا آخر، وليحذر العاقبة المهينة الســيئة للمشــركين، التــي لا مفــر منهــا، والتــي لا تقبــل غفرانا ولا عفوا، إنه سيطرح مهينا في جهنم يتبعه التشنيع، و البعد عن الرحمة .

أَفَأَصْفَىٰكُمْ رَبُّكُم بِٱلْبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ
ءَالِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا
يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ يُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا
يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أفأصفاكم: جعل البنين خالصين لكم .

عظيما : قوي الفساد.

صرفنا : نوعنا البيان.

النفور : شدة الإعراض .

بيان المعنى الإجمالي :

اعتقد بعض العرب أن الله اتخذ بنات من الملائكة، وهذا نوع من الشرك بالله يدل على غباء قائله، وجراءته، إن هؤلاء المعتقدين لذلك يقدرون أن الذكور أفضل من الإناث ويخصون أنفسهم بالذكور ويجعلون الصنف الأدون لله . ومن ناحية أخرى فإن ابتغاء النسل لا يكون إلا ممن يخشى من العَدَم أن يلحقه، فهو يريد أن يبقى في نسله لما كان هو فانيا.

نوع الله سبحانه في القرآن بيان الحقائق بمختلف ضروب البيان، فارتفع الغموض واللبس، وذلك ليساعد البشر على الإدراك الصحيح لمفهوم الألوهية وما تقتضيه، وليذكروا ما نزل إليهم، والعجب أن المشركين مع ذلك مقيمون على شركهم كأنهم دواب كلما حُرّكوا أمعنوا في النفار وتملكهم الخوف والجزع.

قل لهم يا محمد إنه لو وجد مع الله آلهة، كما تقولون دون روية ولا نظر، فإن هذه الآلهة المزعومة لو وجدت لسعت إلى التقرب من الله والخضوع له. إنه يترتب على افتراض المستحيل الذي تدعون أن تكون تلكم الآلهة خاضعة له. سبحانه تنزه تنزها عما نطقت به ألسنتهم وهو أعظم وأسمى من أقوالهم السخيفة .

كيف لا، وكل الكائنات الحيوان، والجماد الكبير جدا الذي لا تبلغ معرفة حدوده الطاقة البشرية، والتافه الذي لا تدركه الحواس، كلها تنطلق في موكب واحد بتسبيح الله وتنزيهه عن كل نقص ومنها الشرك. ولكن مداركم عاجزة عن إدراك ذلكم

التسبيح. ولم يعاجل المشركين بالعقوبة لأنه يمهل تبعا لأنـــه حلـيم، ومــع قــولهم المنكــر فإن الله يغفر الذنب لمن تاب.

بيان المعنى العام :

40- أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ .....قولا عظيما.

هذه الآية مفرعة على إفراد الله بالألوهية . فإن بعض العــرب ذهــب بــه خيالــه إلــى أن الله اتخذ الملائكة الإناث في زعمهم بناتا له .وهذا الزعم يدل على سذاجة وغباء.

أولا: إنه حسب سلم القيم عند العرب، البنون أفضل مــن البنــات، والأنثــى أحــط رتبــة من الذكر كما بيناه في الآية (31) فمن الغبــاء أن يــدَّعوا اختصاصــهم بــالبنين الجــنس الأفضل، وأن الله يختص بالإناث فقط الجنس الأسفل .

وثانيا: إن تصور بنات لله مــن الملائكــة تصــور فيــه تجســيم واســتنقاص، لأن ابتغــاء النسل لا يكون إلا ممن كان مجسَّـما، مركــبٌ فيــه داعيــة التناســل، وإلا ممــن يلاحقــه الفناء، وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فإن مقــالتهم تلــك التــي لا ترتفــع إلــى مســتوى أرفع من الهذيان اللفظي (قولا) هي مقالة قوية الفساد والبطلان .

41-ولقد صرفنا في هذا القرآن ...وما يزيدهم إلا نفورا .

إن أمر المشركين لأمر عجب، فقد بين الله في القرآن بيانا نوعه بمختلف ضروب التوضيح، لينفي كل لبس وغموض وليساعدهم على التأمل وعلى تذكُّر ما أفهمهم إياه من اختصاه بالوحدانية، ومع ذلك فهم ما يزالون يكررون مقالاتهم الزائفة، فكأن البيان القرآني زادهم بعدا ونفورا من الحق . هم كالدواب الذين إذا حصل ما يحركهم أسرعوا إلى الفرار وقد تملكهم الخوف والجزع . هم يخشون أن يغلبهم على عقائدهم الفاسدة.

42-قل لوكان معه آلهة كما تقولون ....ذي العرش سبيلا.

الله رحــيم بعبــاده، ولا يرضــى لعبــاده الكفــر، فهــو يــوقظهم إلــى إدراك الحقيقــة والتزامها بمتنوع الأدلة التي تثير الفكر والضــمير والمشــاعر. ينبــه المشــركين إلــى أن ما اتخذوه من آلهة لو كانوا آلهة لسعوا ليتقربوا مــن الله، وعبــر عنــه بصــاحب العــرش لإفادة أنهم يدركون أنه المتصرف فــي الكــون، فهــم علــى فــرض المحــال لا يقــدرون على الاستغناء عن التقرب إليه. ويمكن حمل الآية على أنه لــو كــان معــه آلهــة لقــاموا بمقاومته، فيشتغل بمحاربتهم ويشتغلون بمحاربتــه عــن تــدبير الكــون، كمــا هــو شــأن القائمين حول ملك الملوك في الأطــراف، همهــم فــي انتقــاص ملكــه والاســتبداد بمــا يمكنهم الاستبداد به . وسيرُ العالم بانتظام كامل لا خلل فيه ينــادي بــأن مــا عشــش فــي أذهان المشركين من وجود آلهة مع الله فــرض لا أســاس لــه. وهــذا التركيــب المفتــتح

بكلمة (لو) يفيد أن الجواب غير متحقق، لأنه مرتبط بمــا بعــد - لــو- الــذي هــو غيــر متحقق .فقولك: لو طلعت الشمس لعم الضياء. يفيــد الكــلام أن الضــياء لــم يتحقــق لأن الشمس لم تطلع. فهم لم يبتغوا طريقا إلى ذي العــرش (الله) علــى فــرض التقــرب إليــه مما يفيد عجزهم وعدم ألوهيتهم، أو علــى فــرض محاربتــه ممــا يقــوم انتظــام الكــون على نفيه، فعلى الفرضــين فــي فهــم (**إذن لابتغــوا إلــى ذي العــرش ســبيلا**) منتــف فانتفى أن يكون معه آلهة كما يقولون .

43- سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا.

تنزه الله عما تلوكه ألسنتهم، من أن يكون لــه شــركاء، فهــو المتعــالي الرفيــع المقــدار الذي هو فوق أن يتصور له شريك، إن البعد بين ما نسـبوه لله وبــين مــا يجــب لله مــن الوحدانية والتفرد، البعد بينهما بعد ينفي ما قالوه.

44-يسبح له السماوات السبع....إنه كان حليما غفورا.

التنزيه الذي افتتحت به الآية السابقة يجد توضــيحه فــي هــذه الآيــة. يثبــت القــرآن أن السماوات والأرض، وكل كائن علــى ســطح الأرض أو كــامن فــي طبقاتهــا أو فــي أي مجرة من مجرات السماوات، ما كان عــاقلا ومــا كــان غيــر عاقــل، مــا كــان حيــا متحركا وما كان جمادا، ما كان كبيرا جدا ومــا كــان ضــئيلا يــدرك حســابيا لا حســيا، الكل يسير في موكب واحد يسبح لله وينزهه .ذهــب بعضــهم إلــى أن كــل كــائن يهــدي بالتأمل فيه إلى أنه مخلــوق لله، فيــه مــن الإبــداع والإتقــان مــا يــدعو المتأمــل إلــى التسبيح، وخص بعضهم التسبيح بالنامي كالنبــات والحيــوان. وذهــب فريــق آخــر إلــى أن كل الكائنات الجامدة والمتحركة تنطلق في موكب تمجــده وتنزهــه عــن كــل نقــص. وهو ما أميل إليه. إني أعتبر أن هذا من الأســرار التــي أطلعنــا الله عليهــا ونبهنــا إلــى أن قوانا تضعف عن إدراك هذه التسبيحة، لكــن لا تــدركون هــذا الســر الخفــي. وهــذا التنزيه ملتبس بإعلان حمده. فكل الكائنات مسبحة حامــدة. وهــذا الفهــم يتلاقــى مــع مــا مر لنا في قوله تعالى: **ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته** [1].

وانفرد المشركون والكفار عن الموكــب، ولــم يعــاجلهم الله بالعقوبــة لأن مــن أوصــافه الثابتة الدائمة أنه حليم فلا يعاجل بالعقوبة. غفور يقبل توبة من أخلص في توبته.

---

[1] سورة الرعد آية14

وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا
﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى
ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ
يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا
﴿٤٧﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحجاب : الساتر عن الأعين .ومعناه في الآية الحيلولة بينه وبين الإضرار به.

أكنة : جمع كنان وهو ما غطى الشيء .ومنه كنانة النبل .

الوقر : الثقل المانع من السمع، الصمم.

النجوى : الحديث بين القوم سرا.

ضربوا لك الأمثال : حاولوا أن يقارنوك بما يجسم حالك.

فضلوا : تحيروا ولم يهتدوا.

بيان المعنى الإجمالي :

صور القرآن شدة إعراض المشركين، الذين لا يؤمنون بيوم القيامة، عن القرآن، وأن الله جازاهم بما وطنوا نفوسهم عليه، فَجَعَلَ منه سبحانه كونًّ حجابا فاصلا بينهم وبين النبي ﷺ، وأن هذا الحجاب يؤثر في حواسهم وقد ستره الله عن أعينهم. وكما منع حواسهم فكذلك حرم قلوبهم من التعمق في هديه، فكأن عليها غلافا صفيقا لا يستطيعون معه أن يفهموا أسراره. وكأنهم صم لا تتحرك قلوبهم بما يتلوه ﷺ. كان الظالمون الكفرة يجلسون حول البيت في الوقت الذي كان فيه الرسول يدعو إلى الإسلام ويتلو القرآن، وكان ما يسمعونه من هديه يحرجهم فيتهامسون فيما بينهم، قولوا للذين يتبعونه: إنكم تتبعون رجلا اختلط عقله بعد أن سحر فابتعدوا عنه.

افتضح أمرهم وتجسم كأنه مشاهد لك، إنهم حاولوا أن يقرنوا بينك وبين ما تخيلوه من قلب حقيقتك، فتحيروا ولم يجدوا طريقا يبلغهم ما أرادوا، وكلما ضربوا لك مثلا كان زيفه مكشوفا لا يؤثر ولا يضرك فهم لا يستطيعون أبد أن يشككوا الناس في صدقك .

بيان المعنى العام :

45- وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك ....حجابا مستورا.

بينت الآية السابقة أن تسـبيحة الكـون تنطلـق دون أن يـدركها النــاس، و قريـب مـن ذلك، أنك يا محمد عندما تقرأ القـرآن، أمنّــاك مـن اعتــداء المشـركين، وجعلنـا بينـك وبينهم حاجزا يحجبك عـنهم، ويحجـبهم عـن إدراك ذلكـم الحــاجز. أفــلا يقـوم هــذا مساندا لما بيناه في الآية السابقة أن الكون كله ينطلـق فـي موكـب تسـبيح لله وتنزيـه لا ندركه، وعدم إدراكنا له لا يدل على نفيـه كمـا أن الله حجـبهم بحجـاب عنـدما يقـرأ الرسول ﷺ القرآن، وحجبهم عن الإحساس بذلك الحجاب .

46-وجعلنا على قلوبهم....ولوا على أدبارهم نفورا.

بينت هذه الآية وجه عدم تـأثر المشـركين بـالقرآن علـى شـدة وضـوحه، وإعجـازه. فبينت أن الله حرمهم ألطافه التي بسـببها يسـتمعون للقـرآن سـماعا يتـدبرون بـه فـي مضامينه؛ فكأن قلوبهم قد غطاها غطاء مـانع مـن حركـة التـدبر والتفكـر فـي آياتـه تفكرا يفضي بهم إلى إدراك ما انطوى عليه مـن المفـاهيم. وكـأن آذانهـم قـد أصـيبت بالصمم، فتمر الأصوات المرتلة له دون أن تحـرك فـيهم داعيـة التأمـل والتـدبر. إنهـم لا يسمعون. لقد نفذ الشرك إلى قلوبهم فتأصل، وأثـر فـي أرجـاعهم فهـم لا يتحملـون سماع ما ينفي ذلك الباطل .صور القرآن هـذا، بـأنهم إذا نفـذت إلـى أسـماعهم الآيـات المثبتة لتوحيد الله المحطمة للشرك الرافعة للشبه لـم يصـبروا علـى الاسـتماع وفـروا نافرين كما تنفر الدواب من أي منفر لها .

47- نحن أعلم بما يستمعون به ....إن تتبعون إلا رجلا مسحورا.

كان المشركون يأخذون منازلهم في المسجد الحرام حول البيت، وكان النبي ﷺ يُعَلِّمُ المؤمنين ويتلو عليهم ما نزل عليه من القرآن. وكانوا يتهامسون فيما بينهم في أكبر أمر أهمهم، وهو ما دعا إليه الرسول ﷺ من التوحيد ونقض أسس الشرك، وإثبات البعث والحساب. وكان عُظْمُ همهم نقضَ دينِ الإسلام، ولكنهم قد عجزوا عن ذلك، لأن الإسلام يقوم على ما يؤيده العقل والمنطق . فولّوا اهتمامهم إلى الطعن في الرسول والتشكيك في أنه سما سموا بلغ به نقل خبر الله إلى البشرية. كانوا يتحدثون سرا فيما بينهم، والله مطلع على ما يتحدثون به، وإن كان لم يبلغ صداه مدى أوسع من الحلْقة المتناجية. تقول الآية: نحن على تمام العلم بالطريقة التي يستمعون بها إليك، على معنى أنها طريقة تهدف إلى التشكيك لا إلى المعرفة، كما تقول: فلان يستمع باستخفاف. هذا الاستماع الحاصل وهم يتناجون فيما بينهم سرا. ولما لم يجدوا مطعنا في القرآن يمكن أن يروجوه لينفروا الناس منه، حولوا مكرهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال الظالمون بالشرك، وبالاعتداء عليك باطلا : نعلن أن المؤمنين إن يتبعون إلا رجلا خلط السحر عقله فأتى بما لا يقبل .

48-انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلا.

تبدأ الآية بقوله تعالى: انظر. إن الذي يروجونـــه فيـــك، بلـــغ حـــدا مـــن ظهـــور فســـاده ووضوح كذبه، أن أصبح وكأنــــه شـــيء مجســـم ينظـــر إليـــه النـــاظر فيـــراه ببصـــره. افتضحوا في محاربتك فحاولوا تشبيهك ومقارنتك بأمثـــال لـــم يســـتقم لهـــم منهـــا واحـــد؛ فضربوا لك المثل بالمسحور فـــي الآيـــة الســـابقة، وبالكـــاهن وبـــالمجنون فـــي أخـــرى، وبأن القرآن أساطير الأولـــين، وبالشـــعر المتخيـــل. فكـــان شـــأنهم شـــأن الضـــائع فـــي الصحراء وقد عميت عليـــه المســـالك، فـــلا يـــدري الطريـــق الـــذي يبلغـــه قصـــده. ولا يستطيعون أبدا أن يؤثروا بأقوالهم الزائفة السخيفة، أن يؤثروا فيمن يستمع إليهم.

وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ ۞ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ ۖ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

البعث : إحياء الموتى .

رفاتا : فتاتا .

الخلق : المخلوق .

يكبر : يعظم.

الإنغاض : تحريك الرأس نحو الغير كالمتعجب منه استهزاء.

يوم يدعوكم : يناديكم بواسطة ملائكته فتساقون إلى المحشر .

تستجيبون : مطاوعة الدعوة.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن ما كان يلاقيه الرســـول ﷺ مـــن ضـــروب التكـــذيب والمحاجـــة بالباطـــل، فقالوا: إنك تدعي أننا سنبعث من جديد يوم القيامـــة . أيكـــون ذلـــك بعـــد أن تحولنـــا إلـــى عظام ثم تفتّتْ عظامنا وأصـــبحْنا هبـــاء؟ وتـــولى الله إفحـــامهم فـــأمر رســـوله أن يقـــول لهم: سواء أتحولتم إلى تراب أو إلى حجارة صلبة، أو إلـــى حديـــد صـــلب، أو إلـــى مـــا تتخيلونه أكبر من ذلك، فإن الله الـــذي خلقكـــم أول مـــرة بـــأمر التكـــوين قـــادر علـــى أن يعيدكم كما كنتم. والإعادة أيسر حســـب العـــرف. وإن كـــان ذلـــك بالنســـبة لله ســـواء. إن

هذا الجـواب أفحمهـم ولكـن بقـي العنـاد مسـتوليا علـيهم فهـزوا رؤوسـهم إنكـارا واستهزاء. وإمعانا في العناد بعد أن أُفْحِمُوا. يقولون متـى يحِل موعـد البعـث ؟ وكـان الجواب حاضرا :يوم يدعوكم الله بواسطة ملائكتـه إلـى المحشـر فـلا يسـتطيع أحـد منكم أن يتخلف عن تلبيـة النـداء، سـتلبُّون الـدعوة وتسـتجيبون لهـا حامـدين الله، إذ تنتفي في ذلك اليوم كل الشبهات ويظهر الحق جليا لاشك فيه.

بيان المعنى العام :

49-وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا جديدا.

مما ظنوا أنهم قد ظفروا به لمواجهـة الـدعوة المحمديـة، قضـية البعـث يـوم القيامـة وإحياء الناس للحساب والجزاء. وإذا كان ادعـاء كونـه مسـحورا ممـا يتهامسـون بـه، فإن إنكار البعث مما أعلنـوه وصـرحوا بـه، ولـذلك فصـلت هـذه الآيـة عـن الآيـة السابقة. قالوا منكرين معلنين: إذا تحولنا إلـى عظـام متفرقـة وانحـل الهيكـل العَظْمِـي، ثم تفتت عظامنا فاختلطت بالتراب، أبعد هذا الوضع مـن التحلـل نُخْلَـقُ مـن جديـد ؟ إن هذا أمر لا يقبل.

50←52: قل كونوا حجارة أو حديدا...قل عسى أن يكون قريبا.

تولى القرآن هدم ما اعترضوا به مـن بعـث ذرات العظـام، ظـانين أنـه لقوتـه مفحمـا ،فتوجه الخطاب لرسول الله ﷺ أن يقول لهم: كونـوا حجـارة أو حديـدا أو أي نـوع مـن أنواع المخلوقات التي تتصورونه عظيما عصـيا عـن التـأثير فيـه، فـإن عـودتكم إلـى الصورة التي كنتم عليها في الدنيا ممكنة. ومعنى كونـوا تصـوروا أنفسـكم بعـد مـوتكم كما تشاؤون ذرات من العظام أو حجارة صـلبة أو حديـدا شـديد البـأس فـإن أي حالـة ستكونون عليها يتحقق معها عودتكم إلى الحياة مـن جديـد. وإذ يواجَهـون بهـذا التحـدي سيقولون: من الذي يسـتطيع أن يعيـدنا إلـى الحيـاة مـع جميـع خصائصـنا؟ وكـأنهم يستبعدون وجود قدرة تُنفِّذ هذا الأمر المسـتحيل فـي مجـاري العـادة ؟ ويـأتي الجـواب من الله جاريا على النسق العقلي: إن الذي أوجـدكم مـن عـدم وصـوركم علـى الهيئـة التي أنتم عليها الآن، هو الذي سيتولى إعادتكم للحيـاة مـن جديـد. ولا شـك أن الإعـادة أقرب في مجرى العادة وفي نظام العقل. والنقطة التـي انبنـى عليهـا الجـواب واضـحة معقولة ما كان ينبغي أن تخفـى . وهنـا لا يجـدون مـا يحاجونـك بـه إلا أن يحركـوا رؤوسهم حركة استهزاء واستبعاد .

ويتحولون إلى السؤال عـن الموعـد، سـؤالا يحتمـل الـتهكم، كمـا يحتمـل أن يكـون عنادهم قد اهتز . ويعاجلهم الله بالجواب مُلَقِّنًا رسـوله أن يقـول لهـم: أرجـو أن يكـون

الموعد قريبا. إنه اليوم الذي تدعوكم فيه ملائكته الــذين يســوقونكم إلــى المحشــر وأنــتم طائعون، وتتكشف لكم الحقيقة التــي كنــتم تجــادلون فيهــا فتنطقــون حامــدين لله مثنــين على كماله . وتحسبون أن مدة بقائكم فــي الأرض كانــت مــدة قليلــة ؛ ذلــك أن عمــر الأرض وعمر ساكنيها هو عمر قليل بالنسبة لأيام الله كما قــال تعــالى : **فــي يــوم كــان مقداره خمسين ألف سنة**[1] .

وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٗا مُّبِينٗا ﴿٥٣﴾ رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

ينزغ: يدخل بينهم ليفسد علاقاتهم .

الوكيل : المسؤول عنهم.

بيان المعنى الإجمالي :

قل يا محمد معلما عبادي ومربيا لهم على المنهج الــذي يقــوي رابطــة الأخــوة بيــنهم : أن يتخيروا في كلامهم الطريقة التي هــي أحســن مــن غيرهــا التــي بلينهــا وســماحتها وحسنها تجلب المخاطَب وتربط بين الطرفين علاقــة الــود .ذلــك أن الشــيطان يتــربص بالبشر أي منفــذ يــدخل منــه بيــنهم بالفســاد فيحرضــهم علــى القطيعــة والبغضــاء .واللسان هو أعظم باب يدخل منه ليقطع التقــارب بيــنهم. إن عداوتــه للجــنس البشــري عداوة ملازمة متأصلة في طبعه.

إن ربكم أيها المشركون الذي تولاكم بعنايته حتى اســتمعتم لمــا أنــذركم بــه محمــد هــو وحده الذي علِم خفايا صدوركم، وأنه هو الفاعــل المختــار حســب حكمتــه وعلمــه . إن يشأ بسبب رحمته أن يحيطكم بألطافه فتهتــدوا، وإن يشــأ أن يحــرمكم مــن ذلــك تبعــا لما وطنتم عليه أنفسكم من العصــيان فتعرضــوا ويعــذبكم. ولا تــأس يــا محمــد علــى خاتمة الضالين فإنك مرسل لتبلغهم وَحْيِي ولست مسؤولا عن اهتدائهم.

إن ربك يا محمد عالم العلــم الكامــل بجميــع الكائنــات فــي الســماوات وفــي الأرض، وتبعا لعلمه وحكمته يتخير من البشر من هو أقــدر علــى تحمــل مهمــة الرســالة، كــذلك

[1] سورة المعارج آية 4

يتخير من بين ملائكته من يقوم بالمهمــة علــى أفضــل الوجــوه. وكمــا فضــل الرســل على غيرهم من الناس، فكذلك فضل بعض النبيين على بعــض، وخــص محمــدا بمــا لــم يبلغ إليه غيره إذ ختمت به الرسالة، وكانت رســالته عامــة للعــالمين، وتــولى الله حفــظ الكتاب المنزل عليه. وما يدعيه اليهود من أن التوراة آخــر كتــاب لا حــقٌ بعــده، كــذب وتهويش. ذلك أن اليهــود يعترفــون بــأن الله بعــث ســيدنا داود ﷺ وأعطــاه الزبــور كتابا أدمجه اليهود في نص التوراة .

بيان المعنى العام :

53- وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن....عدوا مبينا.

يعمل المشركون بكل ما أوتوا من أساليب المكر ليقــاوموا المــد الإســلامي .ومــن أنجــع ما يخيبهم ويرد كيدهم في نحرهم، قوة مجتمع المــؤمنين. فطلــب القــرآن مــن الرســول أن يعلمهم ويحول التربية التي كانت ســائدة فــي المجتمــع الجــاهلي إلــى مــنهج جديــد يضمن وحدتهم وتكاتفهم، حتى يكونوا سدا في وجــه الشــرك العــاتي أولا، ويعطــي مــن جانب آخر صورة للإصــلاح. إن الإصــلاح يقــوم أساســا علــى تقــويم ســلوك الأمــة وتعميق روابط الأخوة، ومنع كل ما يمكن أن يفرق الكلمة.

لذا أمر القرآن النبــي ﷺ أن يــدعو المــؤمنين إلــى أن يكونــوا حراســا علــى ألســنتهم حراسة تحصنهم من البذاءة وقول السوء، وتمكــن فــيهم عــادة تخيــر القــول الأحســن . فكلما كان لطريق التخاطب وجه حسن ووجه أحســن فــالمؤمن مطالــب بمقتضــى إيمانــه أن يتخير الوجه الأحسن الجالــب للقلــوب المؤكــد للرابطــة الأخويــة . كــان المجتمــع الجاهلي في هذا يمثله قول الشاعر:

ألا لا يجهلن أحد علينا *** فنجهل فوق جهل الجاهلينا-

وكانوا يرون في اللطف والعفــو ضــعفا وخــورا. ولــذا كثــر القتــال بيــنهم، وتمــزق المجتمع إلى وحدات صغيرة قبلية لا تبنــي أمــة، ولا تســتطيع أن تحمــي نفســها، ولا أن تقــيم حضــارة. والإســلام عنــي بغــرس المبــادئ التــي تحقــق حضــارة إنســانية رفيعة،وتبني المجتمع على أساس السلم والتعــاون بــين أفــراده وشــعوبه ليتوفقــوا فيمــا أوكله الله إليهم من الخلافة الصالحة في الأرض .

لينتبه المؤمنون أن الشيطان يتربص الخلل الذي يســتطيع أن يــدخل منــه ليمــزق نســيج المجتمع، ويفرق بين الإخوة. وفي الكلمة النابيــة والقــول الســيء مــا يفــتح لــه المنافــذ ليضخم ذلــك ويحفــر هــوة الــبغض والكراهيــة، ولا يتبعهمــا إلا الشــر. اعلمــوا أن الشيطان قد محض كل خبثه، وهو الخبيث الــذي لــيس وراء خبثــه مــا يســاويه فســادا،

محض خبثه بناء على عداوته المتأصلة للبشر البينــة والواضـــحة، ليفســد علــيهم حيــاتهم في الدنيا وفي الآخرة.

54- ربكم أعلم بكم ...وما أرسلناك عليهم وكيلا.

ربكم الذي تولاكم فأعانكم بألطافه حتــى بلغــتم المبلــغ الــذي أنــتم عليــه، والأرجــح أن الخطاب للمشركين. يقول الله محركــا ضــمائرهم بإضـــافتهم إليـــه مـــن ناحيـــة، وليثبــت تبعا لذلك أنه لا يخفى عليه من أمرهم شيء. وأنه كما حـــولكم مـــن وضـــع إلـــى وضـــع حتى بلغتم المستوى الذي أنتم عليه الآن، فإنه عـــالم العلـــم الكامـــل بكـــم. وأنـــه يســـعدكم بألطافه إن شاء ذلك، تبعا لحكمته فيتيسر علــيكم برحمتـــه تلـــك طريـــق الاهتـــداء إلـــى الحق، كما يحرم من شاء منكم من تلكم الرحمة ويحجـــب تلكـــم الألطـــاف ويتـــرككم لمـــا وطنتم عليه أنفسكم، فتكونون مؤهلين للعـــذاب فيعـــذبكم . ولا تحـــزن يـــا محمـــد لمـــآل الصادين عـــن ســـبيل الله الممعنـــين فـــي العصـــيان، فمـــا أرســـلناك إلا مبلغـــا، ولســـت مسؤولا عن عدم اهتدائهم .

55-وربك أعلم بمن في السماوات ...وآتينا داود زبورا.

تتابعت الآيات من قوله تعالى: **وإن مـــن شـــيء إلا يســـبح بحمـــده** كاشـــفة عـــن علمـــه سبحانه الذي لا يغيب عنه أي شيء، وعـــن أســـرار لا يعلمهـــا إلا هـــو ســـبحانه، منهـــا جعله حجابا مستورا لا يدركه الجاحدون، وكون قلـــوبهم عليهـــا غـــلاف حاجـــب، وصـــفة استماعهم للقرآن، وبيان معقوليـــة البعـــث وكيـــف يـــتم، وطريقـــة الشـــيطان فـــي هتـــك النسيج الاجتماعي بـــين المـــؤمنين، وكيفيـــة التحصـــن منـــه بحفـــظ اللســـان، وعلـــم الله بأحوال النفوس هو علم ارتبط بحكمته فهدى من شاء وحرم من ألطافه من شاء.

وفي هذه الآية يتوجه الخطاب من الله إلـــى رســـوله رافعـــا لـــه إلـــى مرتبـــة التقريـــب، بربط رب العباد جميعا برســـول الله بصـــفة خاصـــة **(وربـــك)** ليعلمـــه بســـر غُـــمَّ علـــى الناس فلم يهتدوا لسره: ما هو السر في اختيار الـــذين اختـــارهم لتبليـــغ رســـالاته ؟ فكـــان ما يذيعه عليهم يذهب بالتساؤل والعجـــز عـــن الإجابـــة .حاصـــله : أن الله يعلـــم أســـرار مخلوقاته في السماوات، وأسرار مخلوقاته فـــي الأرض علمـــا دقيقـــا، فهـــو تبعـــا لـــذلك يتخير من بين عباده من يوكل إليه أمـــر إيـــلاغ وحيـــه، وشـــرحه، وهدايـــة النـــاس إلـــى المنهج الذي يرضى عنه. فتَخَيُّر شخص معـــين مـــن بـــين ســـائر البشـــر لـــيس اعتباطـــا ولكنه صادر عن علم. فكشف أن المختار هـــو أفضـــل النـــاس للقيـــام بالمهمـــة، وكـــذلك يصطفي من ملائكته من يوكله بإبلاغ ما يريد إبلاغه، وكل ذلـــك هـــو صـــادر عـــن علـــم كامل وحكمة، لا يدخلها زيـــغ. قـــال تعـــالى: **الله يصـــطفي مـــن الملائكـــة رســـلا ومـــن**

الناس[1]- فاعتراض المشـــركين علـــى اختيـــاره تعـــالى لمحمـــد ليكـــون خاتمـــا لرســـله اعتراض مبني على جهل بأسرار الاختيار التـــي لا يعلمهـــا إلا هـــو. وهـــو علـــى نفـس المستوى في اختياره الرسل الذين جاؤوا قبلـــه. وأدمـــج فـــي الآيـــة مـــع ذلـــك أن الله لـــم يجعل رسله على مرتبة سواء، بـــل فضـــل بعضـــهم علـــى بعـــض. فتفضـــيل محمـــد ﷺ بختم الرسالة وإرساله للعالمين جميعا، هو تـــابع أيضـــا لعلمـــه المحـــيط. ومـــا اعتـــرض به اليهود: إن آخر كتاب هـــو التـــوراة المنـــزل علـــى موســـى، اعتـــراض لا ســـند لـــه ودعوى كاذبة، لأن اليهـــود يعترفـــون بـــأن الله آتـــى داود الزبـــور وهـــو بعـــد موســـى ويعتبرون كتابه جزءا من التوراة.

قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَسْطُورًا ﴿٥٨﴾ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَـٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا يملكون : لا يستطيعون.

كشف: إزالة .

تحويل : نقله عن موقعه.

الكتاب : علم الله .

مسطور : ثابت لا يتبدل .

ما منعنا : الحكمة التي من أجلها لم نظهر ما طلبوه من الآيات.

نرسل : نظهر الآيات.

مبصرة : واضحة الدلالة.

[1] سورة الحج آية 75

بيان المعنى الإجمالي :

من الحجج التي مكن الله منها رسـوله ﷺ ليتحـداهم ويظهـر بصـفة واضـحة خطـأهم.
قل لهم يا محمد: ادعوا البشر والملائكـة الـذين زعمـتم أنهـم آلهـة ليكشـفوا عـنكم أي ضر يصيبكم، بكل تأكيد لا تجدون منهم جوابا أبدا. إن الـذين تـدعونهم هـم فقـراء إلـى الله يبتغون مرضاته، والأشد قربا منهم من الله يطلـب الوسـيلة التـي تزيـده قربـا منـه فكيف بغيرهم. وهم جميعا متعلقون برحمته التي هـي خيـر مـا يتمسـكون بـه للنجـاة، ويخشون عذابه، وعذاب ربك حقيقٌ بأن يحذره العارفون بجلاله وقدرته.
وليحذروا فإن كل قرية ظالمة سـيهلكها الله قبـل يـوم القيامـة، أو يسـلط عليهـا عـذابا شديدا. إن هذا الحكم ثابت في علم الله لا يتغير ولا يتبدل.
والحكمة التي من أجلها لم نستجب لما طلبـوه مـن الآيـات، أن الآيـات التـي يقترحهـا المصرون على الكفر لا تفيـد ولا تفـتح بصـائرهم إلـى الإيمـان. علـى هـذا جـرى المكذبون من الأمم السابقة. وقرى ثمود المـدمرة، التـي تمـرون عليهـا فـي رحلاتكـم إلى الشام، تكشف لكم نهاية من جاءته آيـة واضـحة فكـذب بهـا. فإنـا قـد أعطينـاهم الناقة آية مع أخيهم صالح عليه السلام فظلموها وعقروها.

بيان المعنى العام :

56-قل ادعوا الذين زعمتم من دونه...ولا تحويلا.

تتابعت الآيات السابقة من قوله تعالى : **قل لوكان معه آلهة** (42) وما بعدها تبطل الشرك بصفة عامة، أو تبطل مقالاتهم أوتبين إعراضهم عن الحق تعصبا. وانتهت إلى ضرب مجموعة من مقالاتهم ضربة واحدة، عندما بين في الآية السابقة أن تخير محمد والمرسلين من قبله كان مبنيا على علم شامل لمن في السماوات والأرض، وأن كل واحد في وقته هو أفضل من جميع معاصريه. ويتفق كل المرسلين على التوحيد، واقتلاع الأوهام التي عششت في العقول فأفسدتها. تولت هذه الآية ردا عاما شاملا لكل انحراف جعل من هؤلاء آلهة يعبدون؛ فقد ألَّهوا عيسى عليه السلام، وادعى آخرون أن عزير بن الله، واتخذ بعضهم الملائكة آلهة. فأفادت الآية السابقة أنهم عباد لله تخيرهم الله لتحمل ما حملهم إياه. وأفادت هذه الآية أنهم لضلالهم رفعوهم لمرتبة الألوهية وهم براء منها. بنفي ألوهيتهم أن عبَّادَ الرسل والملائكة كلما دخلوا في أزمة واستغاثوا بهم لم تفرج كربتهم، إذ ليست لهم قدرة تسعدهم بإزالة الضر النازل بهم عندما تضيق بهم سبل العلاج . وكلما دعوهم لِغَوْثِهِمْ ما من مجيب، بل لا يستطيعون حتى تحويل ما نزل بهم إلى موطن آخر. وبذلك انتفت الوهيتهم، لأن شأن

المعبود أن تكون له القدرة على إنقاذ عابديه من الضر النازل بهم إذا استغاثوا به . فإذ لم تتحقق منهم إجابة ولو مرة واحدة فهم ليسوا آلهة.

57-أولئك الذين يدعون يبتغون ...إن عذاب ربك كان محذورا.

بعد أن أبطلت الآية 56 كونهم آلهة، بدليل أنهــم لا يســتطيعون نصــرهم فــي الأزمــات عندما يدعونهم، تأتي هذه الآية مبينة لحقيقة أمر أولئــك المتميــزين مــن خلــق الله الــذين عبدوهم، فيقول القرآن لعَبَدَتِهم :إن الذين تدعونهم مــن دون الله، هــم يســيرون فــي خــط معاكس لتصوراتكم، فهم يعملون جاهــدين للظفــر بالوســيلة التــي يكونــون بهــا أقــرب إلى الله، هم عبيد لــه خاضــعون، وكــل همهــم أن يتفضــل الله علــيهم برحمتــه، وهــم يخشون عذابه. وكيف لا يخشون عذابه ! فــإن العــذاب الــذي يســلطه ربــك يــا محمــد عذاب يعرفون شدته ويحذرونه أشد الحذر.

وبنا أن نفصل في نسج الآية لرفع بعــض مــا يعتــرض التــالي مــن غمــوض، فــأقول: أولئك الأنبياء والملائكة الذين يدعونهم مــن دون الله، هــم يطلبــون راغبــين إلــى ربهــم بالوسيلة التي يرون فيها أنها تكسبهم رضــاه، يفعــل هــذا أي واحــد مــنهم هــو أقــرب منزلة من الله، وإذا كان هذا حال الأقرب فإن غيــره أشــد رغبــة فــي ذلــك . ويجمعهــم كلهم أنهم يرجون رحمته، لأنهم يدركون أتم الإدراك شــدة حــاجتهم لهــذه الرحمــة التــي لا يستغنون عنها، بل هي غاية ما يسعون إليــه . وهــم وجلــون مــن عذابــه، فــإن مــن يعرف مكانة المعبود من العابــد، ومكانــة الإنســان الضــعيف بالنســبة إلــى الله العلــي الأعلى الكامل القوي المتين، لا يكون إلا حــذرا مــن غضــبه وعقابــه. فاســتقام بــذلك حصْنُ ما استقر في تفكيرهم، مــن أن الملائكــة والأنبيــاء أحريــاء بــأن يقدســوا تقــديس العبادة. وفي هذا مــا يــدعو المســلمين أن يفــردوا الله بالتوجــه وأن لا يتخــذوا وســيلة إليه إلا دعاء هو الإخلاص في عبادته ، فهو الذي يجيب المضطر إذا دعاه.

58- وإن من قرية إلا نحن مهلكوها....في الكتاب مسطورا.

كل أهل قرية فشا فيها الظلم، وخرج أهلها عن حــدود الله، ولــم يحصّــنوا أنفســهم بمــا شرعه الله من التحصينات الخلقية والماديــة، يســلط الله علــيهم مــا يهلكهــم بشــرا أو بشرا ومباني . أو يسلط عليهم عذابا شــديدا . فلــيس المــراد مــن الآيــة إهــلاك جميــع القرى، فإن ذلك الإهلاك يكون عند قيــام الســاعة عنــدما تتعلــق الإرادة الإلهيــة بإفنــاء الأرض. والله يقول: **وما كان ربــك ليهلــك القــرى بظلــم وأهلهــا مصــلحون** [1]– هــذا

---

[1] سورة يونس آية 117

محقّق لا يتخلف، إنه مسجل في علم الله الأزلي الذي لا يتغيــر. وفـــي هـــذه الآيـــة تهديــد للمشركين بأن استئصالهم قد يكون محققا إذا هم لم يؤمنوا.

59- وما منعنا أن نرسل بالآيات....إلا تخويفا.

يواصل القرآن محاجة المشركين ونقض ما يستدلون بـــه. فمـــن ذلـــك أنهـم بــرَّرُوا عــدم إيمانهم بعدم الاستجابة لما طلبـــوه مـــن رســـول الله ﷺ : أن يـــأتيهم بمعجـــزات عيَّنُوهـــا كقولهم : لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا من الســـماء نقـــرأه حتـــى يكـــون لـــك بيـــت من زخرف . حتى يكون معك ملك. وهذا رشح شـــدة كفـــرهم وجهلهـــم بـــالعزة الإلهيـــة التي لا تنزل إلى استجابة المطالب التي يقترحونهـــا، كمـــا قـــال تعـــالى : (**ومـــا قـــدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر مـــن شـــيء)**[1] ولـــم يجـــبهم الله لمـــا طلبـــوه أيضا، لأن المعاندين شأنهم شأنٌ واحـــد فـــي الحاضـــر والماضـــي . وقـــد طلبـــت الأمـــم الرافضة من أنبيائهم معجزات لم تصرفهم عن كفـــرهم لمـــا جـــاءتهم . مـــن أمثلـــة ذلـــك قوم ثمود الذي يمر القرشيون على ديارهم الخربـــة المـــدمَّرة فـــي طـــريقهم إلـــى الشـــام. فقد أرسل الله إليهم صالحا عليه السلام وأيده بالناقة التي كانـــت آيـــة واضـــحة، فمـــا كـــان مـــنهم إلا أن ظلموها فعقروها ودُمِّرُوا إثر ذلك تدميرا.

لتعلموا أنا لا نرســـل آياتنـــا بإظهارهـــا إلا تخويفـــا بالعـــذاب المـــلازم لظهورهـــا وعـــدم الإيمان بها. والله قد قدَّر أن يُبْقِيَ على قريش، لأن مـــن حكمتـــه الأزليـــة قـــدَّر أن يلينـــوا للإسلام بعد عنادهم، ويكون منهم ومن ذرياتهم دعاة لـــدين الله ناشـــرين لـــه فـــي الآفـــاق، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ، وبشارة للمؤمنين معه وقت نزول الآية.

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ ۚ وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ ۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم

[1] سورة الأنعام آية 91

بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

أحاط بالناس : غلبهم فلا يستطيعون الانفلات مما قضى به عليهم.

الفتنة : اضطراب الرأي .

الملعونة : المذمومة. أو التي هي مكان ملعون لا يطعمها إلا الملعونين.

لأحتنكن : أصله لوضع الفارس اللجام في حنك الفرس ليتحكم في تسييره. كما يطلق على الاستئصال ومنه احتنك الجراد الأرض إذا أكل ما عليها.

موفور: كثير.

الاستفزاز: الإثارة إثارة تمنع التثاقل.

الصوت : الوسوسة.

أجلب : أجمع وألِّب.

الخيل : أصله الأفراس، والمقام يصرفه للقادة الذين هم تحت إمرتك.

الرجل : اسم جمع للرجال.

عدهم : أمر بتقديم الوعود التي تطمعهم.

الغرور: إظهار المكروه في صورة المحبوب

السلطان: الملكية والتغلب.

وكيلا: حافظا وقيما على هدايتهم.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يا محمد ما أخبرناك به: أن ربك أحاطت قدرته بالناس فهو يتصرف فيهم تصرفا لا يجدون عنه محيدا، فلا تأسف لما تلقاه منهم فإنهم في قبضتنا. وتسَلَّ ولا تحزن من تكذيبك لمَّا أخبرتهم بما أكرمناك به في الإسراء والمعارج، فقد جعلنا ذلك سببا لتعميق فتنتهم . وكذلك ما كشفناه في القرآن من شجرة الزقوم في جهنم واستبعادهم مكذبين أن تنبت النارُ شجرة وهي توقد بالشجر. فقد كشفنا عن ذلك لتخوفهم ليرتدعوا، ولكن لكون الكفر قد طبع على قلوبهم،فقد زادوا استكبارا وطغيانا شديدا.

وهذا الاستكبار انجر إليهم من إبليس الذي أمره الله بالسجود مع الملائكة لآدم فأطاعت الملائكة وعصى إبليس. وخاطب رب العزة وقد ملأت نفسه شحنةٌ من الحسد والاستكبار، فصرح معترضا كيف أسجد لمن هم مخلوق طينا! فأسقط ما

تميز به آدم من العقل والروح والتحولات التي دخلت فـي الطـين وحولتـه إلـى الخلقـة الإنسانية الجميلة، وواصل: أخبرني ما هي ميزة هذا المخلـوق التـي بهـا كرمتـه علـي! أؤكد تأكيدا كبيرا أنك إن لم تقض عليّ وأخرتني إلى يـوم القيامـة لأتسـلط علـى ذريتـه تسلطا يمكنني من التحكم فيهم وقيادتهم إلى حيـث أشـاء، إلـى الكفـر والعصـيان، كمـا يقود الراكب دابته بلجامها، وينفلت قسم قليل من قيادتي يكون صالحا.

أثِرْهم إثارة قوية يتبعونك بها بواسـطة وسوسـتك وبالناشـطين مـن أتباعـك المتمرسـين بالإغواء، وبرجالك، وليبلغ تأثيرك أن لا يتصـرفوا فـي أمـوالهم إلا فـي الوجـه الـذي يرضيك شأن الشريك مع شريكه، كـذلك اصْـرِف إنجـابهم لأولادهـم إلـى مـا ينـاقض صفاء الانتساب ويقربهم مـن الأصـنام .وأخـرجهم عـن الواقـع إلـى الخيـال فعـدهم الوعـود التـي لا تتحقـق، والوعـود التـي ظاهرهـا محبـوب وباطنهـا خـراب لهـم ولمجتمعهم . والشيطان لا يعد أتباعه إلا وعدا يَغرُّهُمْ به.

ويختم المقطع بمخاطبة إبليس ما يفيد أنه عـاجز عـن إغـواء مـن تعلـق بربـه تعلـق العابد بالمعبود، وأنه لا يتغلب على من عمَّر قلـوبهم ضـوءُ الإيمـان بـالله وتقـواه، وإن ذُهِلَ بعضهم لفترة قصيرة فإنه يستيقظ سريعا ويعـود إلـى ربـه تائبـا ضـارعا. وكفـى بربك يا محمد حافظا للمؤمنين.

بيان المعنى العام :

60-وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس.....إلا طغيانا كبيرا.

واذكر ما يخوف المشركين، أو كن ذاكرا، ما ثبتناه في قلبك: إن ربك أحاطت قدرته بالناس فلا يستطيع أي منهم أن ينفلت مـن نفـاذ مـا قـدره سـبحانه. وفـي ذلـك تأنيس لرسول الله ﷺ، وتقويةٌ لعزيمته على الصبر، وبشـارة بنصـره. فـلا تحـزن مـن مواقفهم التي فصلتها الآيات السابقة والتي أتت عليها من القواعد.

وبناء على أن الجملة الأولى ترمي إلـى تثبيـت النبـي ﷺ وتأكيـد نصـره، فقـد عطـف عليها ما لقيه النبي ﷺ بعد أن أخبر قريشا بإسرائه ومـا شـاهده عنـدما عُـرِج بـه إلـى السماء. اتخذ المشركون ما رآه وما أخبر به مغمـزا فـي صـدقه، وقـالوا : إن المسـافة بين مكة وبيت المقدس لا يقطعها التجـار إلا فـي شـهر ذهابـا وشـهر إيابـا، فادعـاء محمد أنه قطعها في فترة قليلـة مـن الليـل دعـوى لا يمكـن تصـديقها. وفُـتِنَ بعـض ضعفة الإيمان .فيقول الله لنبيه لقـد رأيـتَ رأي العـين مـا حققتـه لـك فـي الإسـراء والمعراج. وكانت هذه الرؤيا رؤيا في اليقظة لا في المنـام كمـا ذهـب إليـه المحققـون. ذلك أنها لو كانت رؤيا منامية فإنه لا موجـب لاسـتبعادها ولا للافتتـان بهـا . والقـرآن

يثبت أن المشركين فُتِنــوا وفَتَنــوا ضــعفة المــؤمنين. فمــا كانــت هــذه الكرامــة التــي أكرمناك بها إلا السبب في عمق فتنة المكذبين الكافرين.

وكذلك ما جاء في القرآن من إثبات أن شجرة الزقــوم شــجرة فــي جهــنم قــال تعــالى في وصفها (**أذلك خير أم شجرة الزقوم *إنــا جعلناهــا فتنــة للظــالمين *إنهــا شــجرة تخرج في أصل الجحــيم *طلعهــا كأنــه رؤوس الشــياطين**)[1] فأخــذ المشــركون هــذا الخبر مثارا للسخرية والتكذيب والاســتهزاء، ونســب إلــى أبــي جهــل أنــه قــال : إن محمدا يتوعدكم بنار تحرق الحجــارة، ثــم يــزعم أنهــا تنبــت الشــجر، والنــار تأكــل الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد، ثم أمر جاريــة لــه فأحضــرت تمــرا وزبــدا وقال لصحبه : تَزَقَّمُــوا، اســتهزاء . ووصــفت الشــجرة فــي هــذه الآيــة بالملعونــة، باعتبار أن مكانهــا مكــان اللعنــة، أو بــالنظر إلــى أنــه لا يأكــل منهــا إلا الملعونــون المطرودون من رحمة الله. وبالجملة فقد زادهم هذا الخبر من الغيب فتنة.

إن ما أخبر به القرآن من وصف النار ومــن بعــض أحــوال القيامــة، وممــا يترصــدهم من عذاب الدنيا والهوان إن هم لم يؤمنوا، الغرض منــه أن يكســر شــيئا مــن طغيــانهم، ويعرّفهم بما يخوفهم ليسرعوا إلى تحصــين أنفســهم بالإســلام. ولكــن العنــاد المتأصــل والكفر الشديد جعل قلوبهم قاسية لا تلين، بل كان إصرارهم يضاعف طغيانهم.

61←62، وإذ قلنا للملائكة اسجدوا.... لأحتنكن ذريته إلا قليلا.

لما ذكر في الآية السابقة أن تخويفهم مــا يزيــدهم إلا اســتكبارا وطغيانــا، وصــل ذلــك بأصل هذا الاستكبار، الذي سرى إليهم من إبلــيس. فــأمر نبيــه بــأن يــذكر لهــم قصــة إبليس التي قد تقــدمت فــي ســورتي البقــرة والأعــراف. ونخــص بالبيــان هنــا مــالم نتعرض له في الموقعين الســابقين. ســجل القــرآن أن إبلــيس عــزم علــى الاعتــراض على الأمر الإلهي بمجرد ما سمعه، وبوقاحة قبيحــة اســتفهم كيــف أســجد للــذي خلقتــه طينا، فمن شدة تغيظه واحتقاره لآدم لم يَرَ فيه إلا العنصــر الترابــي وتجاهــل مــا رُكِّــز فيه من سلامة الفطرة وتفتح الروح للسمو. ثم واصــل بقولــه أخبرنــي مــا وجــه تكــريم هذا الكائن وتقديمه علي؟ فهو يحتقره ولا يســميه باســمه ويشــير إليــه كشــيء لا قيمــة له ولا تميز. ثم يواصل: بكامل التأكيد لــئن لــم تقْــضِ علــيَّ وأمهلتنــي فســوف أقــود بالإغواء ذريته وأطوع الكثــرة الكــاثرة لمــا أريــده مــنهم مــن العصــيان والكفــر، أو لأستأصل منهم جوانب الخير، ولا يسلم منــي إلا القليــل .ومــا أعلنــه إبلــيس هــو مــا

---

1 سورة الصافات 62/65

سيقع فعلا، ولكن لا يُظَنُّ أنه مطلع على الغيب، فإنه أحقر من ذلك، ولكن العلم الإلهي: أن أغلب بني آدم سيضعفون أمام وسوسته الخبيثة، ويفضلون ما يدعوهم إليه، فألقى الله في نفس إبليس ما نطق به .

63-قال اذهب فمن تبعك منهم ... جزاؤكم جزاء موفورا.

افتتحت الآية بكلمة: اذهب التي هي بمعنى انصرف، وهي مضمَّنة معنى الطرد والاحتقار. يقول الله : قدَّرتُ أن من تبعك منهم وخضع لإغوائك، أن تكون عاقبته كعاقبتك وأن جزاءكم جميعا جهنم جزاء وافيا غير منقوص .

64- واستفزز من استطعت....وما يعدهم الشيطان إلا غرورا .

تسلطْ عليهم بكل قوتك وإمكاناتك، وفصل ذلك : أثِرْ مَنِ استطعت أن تتسلط عليه منهم إثارة تحركهم فيندفعون في متابعتك غير متثاقلين ولا مترددين، بوسوستك التي تبلغ أعماق شعورهم **(واستفزز من استطعت منهم بصوتك)** واهجم عليهم بالقادة من أعوانك وبأولي البأس منهم المدرَّبين الذين يحسنون الكر والفر، ويحيطون بهم من حيث لا يدرون .**(وأجلب عليهم بخيلك ورجلك)** تجسيم لمعركة شرسة بين ما استقر فيهم من الفطرة، وبين نوازع الشهوة وظلام العواطف. ووجِّهْهُمْ توجيها في التصرف في أموالهم، تطوعهم به تطويعا لايخرجون معه عما تحدده لهم كأنك شريك لهم، فتسلبهم الاختيار بين الإنفاق الصالح فيبتعدون منه، وبين الإنفاق الخبيث فيقدمون عليه . فيجعلون نصيبا منها لأصنامهم، ولقضاء شهواتهم، ولمقاومة الإسلام. وتشاركهم في أولادهم، فقد سَوّلَ إبليس للعربي الذي يرغب في نجابة الولد أن يمكن الفتى الذي يراه قد جمع صفات الرجولة من زوجته ويعتزلها حتى تحمل منه، ومن تيسير الزنا بالبغايا، وأن من ألحقت البغي مولودها به من الذين ضاجعوها التحق به . وسموا أولادهم عبد العزى وعبد اللات. ومن ذلك الوأد خوفا من العار، وقتل الأولاد خوفا من الفقر. فإبليس يوجههم إلى طريق الشر بقوة تأثيره فيهم فيتبعونه. وتسلط عليهم بسعة الأماني فيبتعدون عن الحياة الواقعية الخاضعة لصرامة التفكير. وتختم الآية بقولِ فصْلٍ من الله، يصلح أن يكون مثلا يجري على كل من كان غير واقعي[**وما يعدهم الشيطان إلا غرورا]**. فالشيطان يعدهم بما تكون عاقبته فسادا. فيحبب لهم القتل لشفاء غيظهم، والزنا لإشباع الشهوة، والغارة للاستيلاء على الأموال والنساء، فيغترون بالصورة الظاهرية المحبوبة، ويوقع بينهم بذلك البغضاء وسفك الدماء، والاستكبار، ونحو ذلك.

65- إن عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا.

هذه الآية تختم الخطاب الذي توجه به الله إلى إبليس ليقمعه، ويعلن رب العزة أن البشر الذين ربطوا عقولهم وأرواحهم بالله مستشعرين دوما أن شرفهم في كونهم

عبادا له، الذين لم ينقطع الخيط النوراني الــذي يصــلهم بخــالقهم. هــؤلاء أنــت عــاجز عن إغوائهم أو التغلب على مقاومتهم للرذيلــة وللكفــر. هــم متحصــنون بعبــوديتهم لــي فأنت مهزوم أمامهم. وكفى بربك يا محمد قيمــا علــى هــدايتهم. ولــيس معنــى هــذا أن عباد الله معصومون من الوقوع في الإثم، ولكــن معنــى ذلــك أنهــم يســتيقظون ســريعا إذا انجذبوا إلى وسوسته فيبادرون بالتوبة التــي تطفــئ ظلمــة الخطيئــة وغــبش الإثــم. قال تعالى : (**إن الــذين اتقــوا إذا مســهم طــائف مــن الشــيطان تــذكروا فــإذا هــم مبصرون**)[1]

رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَـٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ۙ ثُمَّ لَا تَجِدُوا۟ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا ﴿٦٩﴾ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَـٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

يزجي : يسوق سوقا بطيئا.

البحر : الماء الكثير بما يشمل الأنهار الجارية كالنيل.

الابتغاء : الطلب.

فضله : رزقه.

ضر البحر : خوف الغرق.

ضل : فقد.

أعرضتم :تركتم دعاء الله.

كفورا : جاحدا للنعم. غير شاكر.

الخسف : انقلاب ظاهر الأرض في باطنها.

الشق : الجانب .

---

[1] سورة الأعراف آية 201

الحاصب : الرامي بالحصباء .
الوكيل : المدافع عن موكله.
تارة : مرة .
القاصف : المكسر.
تبيع: من يتبع الأخذ بثأركم .

بيان المعنى الإجمالي :

لفت القرآن الأنظار إلى بعض المنن الإلهية وموقف بعض الناس منها. فمن ذلك أن الله هو الذي سخر لكم الفلك في البحر فسيَّرها سيرا هادئا رقيقا تساعدكم على نيل فَضْلِ الله عليكم من تجارة وتواصل بشري وأسفار. كان ذلك بفضله رحمته. وقد يهيج البحر فتخافون من الغرق، وتجأرون بالدعاء طلبا للألطاف وللعون ولا تجدون مجيبا لكم إلا الله . أما معبوداتكم فهي مغيَّبَة، تدركون أنها لا تستطيع مساعدتكم .وعجب لأمركم أنه بمجرد ما نزلتم إلى البر تركتم دعاء الله وعدتم إلى ماكنتم عليه . والإنسان من طبعه كفر النعمة التي تتردد بين السهو عن شكر مسديها وبين الإنكار له ولما يمنحه.

أجهلتم أن الله قادر على أن يخسف بكم الأرض التي ظننتم أنكم تكونون في أمن على ظهرها ؟. أو أن يرسل عليكم حصى من السماء يحصبكم بها فتمزقكم، ثم لا تجدوا من يدافع عنكم؟ هل تأمنون أن يجلبكم مرة أخرى للسفر في البحر فيرسل عليكم ريحا شديدة تكسر صواري سُفُنِكُمْ وتحطمها فيبتلعكم البحر وتذهبون لا قيمة لكم ولا من يتبع زوالكم يطالب بتعويضٍ عن ذهابكم .

لقد كرمنا بني آدم من خمسة أوجه : أنا كرمناهم، وجعلنا لهم حرمة تمنع إذلالهم، وسخرنا لهم البحر لتحملهم السفن، وسخرنا لهم ما يركبون من الحيوانات، ومكناهم من أطايب المأكولات والمشارب، وجعلناهم مفضلين على كثير من مخلوقاتنا . فهي منن تدعو إلى شكر المنعم باللسان، وبصرف النعم فيما خلقت له بالوجه الحلال.

بيان المعنى العام :

66- ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر...إنه كان بكم رحيما.

لَفْتٌ لأنظار الناس جميعا إلى نعمه المتنوعة، وألطافه الميسرة للانتفاع بما في الكون، فمن ذلك أنه بعنايته قدر الأسباب التي بها تسير الفلك على سطح البحار والأنهار سيرا هادئا ؛ وبذلك أوجد لكم طريقا من طرق طلب الرزق بالتجارة والاتصال بين القارات، وبلوغ مقاصدكم العبادية والدنيوية .إن ذلكم الترتيب الذي

شمل كل جزئية من جزئيات الرحلات البحرية، كدفع المــاء للنقــل الــذي تحويــه السـفن بمقادير محددة مضبوطة، والريــاح المســيرة والطاقــة المحركــة، والعلامــات الضــابطة للاتجــاه، وغيــر ذلــك، كــل ذلــك لتعلمــوا أن الله رحمكــم رحمــة تشــمل ماضــيكم وحاضركم ومستقبلكم.

67- وإذا مسكم الضر في البحر ...وكان الإنسان كفورا.

بعد أن بسط نعمة السير في الفلك، ذَكَّرَ البشــر بــأحوال اســتثنائية فــي ركــوب البحــر. ذلك أن ركاب البحر قــد يتعرضــون لهياجــه وتلاطــم أمواجــه، ويســري فــي قلــوبهم الخوف من الغرق. وفي هذه الحالة يُذَكِّرُ، بصفة خاصــة، المشــركين فيقــول لهــم: إنكــم تدعون الله وحده لكشــف كــربتكم، وغــاب عــنكم كــل الــذين تتوســلون إلــيهم عــادة. والعجب أنكم إذا أبْلَغْتُكُمْ ساحل النجاة ونزلتم إلى البر عــدتم لمــا كنــتم عليــه مــن دعــاء الأصنام. ركب في طبع الإنسان كفره بالنعم. هــذا الكفــر الــذي أدنــى درجاتــه نســيان النعمة ويتبع ذلك الذهول عن شكرها. وأعلى درجاته فــي الســوء الكفــر والعيــاذ بــالله . إن الإنسان لضعفه يكون شعوره حــادا بالنعمــة فــي أول أمرهــا، فــإذا اســتمرت معــه ضَعُفَ شعوره بها إلى حد نسيان شكر الله عليها. إنه مــن أعظــم المــنن علــى الإنســان نعمة الإيمان، ثم نعمة العقل، وتتوالى النعم فــي كــل لحظــة بمــا ييســره للإنســان مــن التنفس إلى استقامة الحواس إلى ما لا نُحْصِي له عــدا. ومــا منــا إلا وهــو غافــل عــن الفضل الإلهي بتفاصيله. فليُعَوِّدْ كــل مــؤمن نفســه علــى شــكر الله فــي جميــع أوقاتــه بلسانه وبصرف النعم فيما خلقت له. وصدق الله: **وقليل من عبادي الشكور**[1]–

68- أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر...ثم لا تجدوا لكم وكيلا.

نبَّههم إلى غفلتهم بظنهم أنه إذا بلغوا الساحل ونزلوا فقــد نجــوْا نجــاةً لا خــوف بعــدها ؛ نبههم إلى أن هــذا وهــم وســألهم ســؤال إنكــار : كيــف تــأمنون أن يخســف الله بكــم الرصيف الذي نزلتم به فتبتلعكم الأرض، فيكــون إهلاكهــم مــن الأســفل ؟ أم أمنــتم أن يسلط الله عليكم بَرَدًا شــديدا يضــربكم ضــرب الحصــباء المتتابعــة، وفــي الحــالتين لا تجدون وكيلا يدافع عنكم بما يحميكم من قدر الله؟

69-أم أمنتم أن يعيدكم فيه...ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعا.

بل هل أنتم في أمن من أن ييسر لكم الأســباب فتعــودون مــرة أخــرى لخــوض عبــاب البحر، وفي لحظة يرسل عليكم الــريح التــي تكســر الصــواري وتــدفع أمــواج البحــر

---

[1] سورة سبأ آية 13

دفعا يحطم سفنكم وتغرقون؟ إن غــرقكم ورفــع الألطــاف عــنكم هــو بســبب كفــركم، وأنتم في هذه الحالة عاجزون عن رد البلاء، كمــا أنــه لــيس لكــم مــن يأخــذ بثــأركم، فيبتلعكم البحر وتذهب آثاركم. هذا جزاء مــن يغفــل عــن النعمــة ولا يشــكر عنهــا ربَّ العالمين المنقذَ اللطيف الكريم.

70-ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم....ممن خلقنا تفضيلا.

عموم بعد خصوص إذ أبرزت الآيات السابقة تمكين الإنســان مــن قطــع البحــار فــي رفق ولين، وإنجائهم عند ما تتلاطم الأمواج وهم يستصــرخون ربهــم، ومــن لطفــه بهــم لم يخسف بهم الأرض بعد أن نزلوا إلــى البــر .وأدمــج تهديــد المشــركين بــأنهم فــي قبضة الله . أما هذه الآية فقد بســطت خمــس مــنن جليلــة أنعــم الله بهــا علــى البشــر جميعا:

أولا: تكريم الإنسان. ويشمل ذلك أمورا منها –أ- تحريم إذلاله نفسيا أو بدنيا – ب–الصورة التي خلقه عليها في شكله، فهو أجمل المخلوقات على الإطلاق – جـ–في تقلبه في الحياة في مشيه وأكله وشربه –د ـ في ذوقه ورقي حاسة الجمال فيه – هـ –في ارتقائه حضاريا في لباسه وسكنه وأثاثه وفي أنواع طعامه ، وفي نظافته ونظافة محيطه –و- في قدرته على المزج بين قوانين العقل وتجليات الروح، ونبل المشاعر وغير ذلك مما لا يحصى عدا.

ثانيا :الحمل في البر بتسخير الحيوانات ليركب ظهورها فتحمله وتحمل متاعه، ثم ما وَلَّدَ بفضل اكتشافه لقوانين القوة من أنواع المركوبات .

ثالثا: الحمل في البحر بإلهام قوانين بناء السفن، والطرق المساعدة على تسييرها من المجاديف إلى المحركات الصغيرة والعملاقة.

رابعا : ما يسره الله للإنسان من التعرف على مختلف أنواع المطعومات، التي تجتمع فيها لذة الطعم وطيب الرائحة المثيرة للشهية .

خامسا : تفضيله على كثير من المخلوقات التي تشرفت بخلقه سبحانه إياها، فجعل الإنسان أفضل منها يستطيع أن يتحكم فيها ويطوعها لتحقيق أغراضه .

وإن كان التكريم يشمل التفضيل، إلا أن التفضيل أخص من التكريم لأن التفضيل منظور فيه إلى جعل مرتبته فوق مرتبة بقية كثير ممن خلق الله. وفي التعبير بكلمة [كثير] تدقيق يشير إلى أن بعض مخلوقات الله قد لا يكون الإنسان مفضلا عليها. قد تكون مساوية له في التفضيل. وهذه الناحية تؤخذ من تنصيص الشارع إذ هو وحده الذي بيده التفضيل. والتعرض للتفاضل بين الملائكة والبشر أعتبره خارجا عن مهمة المفسر ولا دليل عليه يبلغ درجة اليقين.

يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ
كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَن كَانَ فِى هَٰذِهِۦٓ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ أَعْمَىٰ
وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢) وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا
غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا
قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا
(٧٥) وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ
خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)

بيان معاني الألفاظ :

الإمام : مبين الدين.

يظلمون : يُنقَصُ من جزاء أعمالهم.

الفتيل :الخيط في شق النواة، تمثيل للتافه.

في هذه أعمى: ضال عن الحق في الدنيا.

يفتنونك : الفَتْنُ معاملة يقصد منه إدخال ضر على النفس يعسر دفعه.

الخليل : الصديق الخالص.

ثبتناك : جعلنا اقتناعك ثابتا باقيا على ما أنت عليه.

تركن : توافق.

الضعف : المماثل للمقدار .

يستفزونك : يضيقون عليك ليخرجوك من مكة.

يلبثون : لا يستقرون في مكة.

خلفك : بعدك.

سنة : العادة التي جرى عليها الأمر.

تحويلا : تبديلا وتغييرا.

بيان المعنى الإجمالي :

يأمر الله نبيه أن يعرف البشر بشأن من شؤون يوم القيامة. ينادي المنادي كل الناس باسم قائدهم الديني الذي اتبعوه في الدنيا. فالمسلمون ينادون : يا أمة محمد، والنصارى، يا أمة عيسى، والزرادشتيون يا أمة زرادشت، والمزدكيون، يا أمة مزدك، والبوذيون يا أمة بوذا.

وهكذا ... ويتلقى كل مبعوث صحيفته، يلهم الصالحون تلقيها باليمين فيسرعون إلى قراءة ما هو مثبت فيها، فيجدون كل أعمالهم الصالحة جليلها وصغيرها مسجلا لم ينقص منه شيء.
وبالمقابل فإن القسم الآخر الذي عَمِيَ في حياته الدنيا فلم ينظر في الآيات البينات وصمم على الرفض، فإنه يجد عماه مصاحبا له يوم القيامة فهو في حالٍ من التردد والحيرة أشد مما كان عليه في الدنيا لا يأمل أن يجد منه مخرجا .
لقد قوي مكر المشركين بك فقاربوا في ظنهم أن يفتنوك عن بعض ما أوحاه الله إليك من الهدى فتحوله إلى ما يرضيهم مما يناقض صراحة الحق المنزل، قصد أن يتخذوك صديقا خالصا، يقربونك منهم وينتهي الجدل بينك وبينهم .
لقد كانت الشبكات التي دبروها لإنزالك على ما يريدون قوية جدا، ولكنك أقوى من مكرهم وتدبيرهم، فإنني أنا الله القوي العزيز، قد ثبتك فرددت مكرهم في نحرهم، ولولا هذا التثبيت فإن الناظر فيما دبروه يكاد يجزم أنهم سينالون مبتغاهم فتميل إليهم ميلا قليلا. ولكن عصمة الله كانت لها الكلمة العليا وسقط ما مكروا به .
ومصانعة الكافرين في الثوابت غير مقبولة، فلو ملت إلى ما يرغبون منك ولو قليلا لسلطنا عليك عذابا مضاعفا في الدنيا وعذابا مضاعفا أيضا يصحبك من الممات، والمقصود تنبيه المؤمنين أن لا يتهاونوا مع الكفرة في الدين، وأن لا يبرروا تخاذلهم بمبررات مرفوضة من رب العالمين. وفوق ذلك لا تجد نصيرا ينصرك ويخلصك من العذاب.
ومن تأييد الله لك أن مشركي مكة عملوا على إلجائك للخروج من مكة ضعيفا فريدا، فسلطوا عليك ضروب الإيذاء لينفد صبرك وتترك الدعوة وتترك لهم مكة . وما علموا أنه لو تحقق لهم ما أرادوا، لحل بهم الهلاك المدمر بعد زمن قليل من خروجك. ذلك أن سنة الله التي لم تتغير: أن كل الذين أخرجوا رسولهم الذي بعث فيهم قسرا، أنهم لا يبقون بعده إلا قليلا ليعاجلهم العذاب المستأصل .

بيان المعنى العام :

71- يوم ندعو كل أناس بإمامهم ...ولا يظلمون فتيلا.

تأتي هذه الآيات رابطة لمظاهر سلطان الله في الآخرة على مظاهر سلطانه تعالى في الدنيا.
فيقول القرآن لنبيه : اذكر يوم ينادي المنادي كل الناس مجموعات مجموعات باسم إمامهم الذي كانوا يتبعون هديه في تصوراتهم الدينية، فتدعى أمة الإسلام بأمة محمد، وبنو إسرائيل بأمة موسى، والبوذيون بأمة بوذا. والأحمديون باسم ميرزا أحمد . وبعد أن تنقسم الخلائق إلى مجموعات، يعطى كل فرد كتابه الجامع لأعماله في الدنيا وينقسمون إلى قسمين كبيرين:

القسم الأول: من يلهمه الله أن يأخذ كتابــه بيمينـــه، وأخــذ الكتــاب بــاليمين فيــه بشــارة أولى بإقدامه على تناول كتابه بقوة واطمئنان وبدون خــوف، شــأن الإنســان فــي تنــاول المحبوب بيمينه. ويميز الله هؤلاء(أولئك) بتكوين داعيــة فــيهم تُسْــرِعُ بفتحــه وقــراءة ما سجل فيه. وكم يعظم ســرورهم عنــدما يجــدون أن ربهــم ســجل لهــم كــل صــالح أعمالهم ولم يهمل حتى البسيط منها والتافه الذي لم يُلْقِ له صاحبه بالا في الدنيا!

72- ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا.

القسم الثاني هو مقابل القسم الأول، ولم يــذكره القــرآن بوصــف معــاكس لفظــا للقســم الأول، ولكن من بلاغة القرآن أن ذكره بوصــف معبــر عــن ســبب وضــعه الخاســر، وهو أنه كان في هذه الدنيا ضالا لم يبصر الحق الذي جــاءه مــن عنــد الله، فيكــون ذلــك دالا على أنه أوتي كتابه بشماله بسبب اختياره الإعــراض عــن الحــق، ويكــون وضــعه في الآخرة مناسبا لسلوكه الدنيوي، فهو أيضا أعمــى فــي الآخــرة .ولــيس عمــاه عمــى العيون ولكن ما ينشأ عن العمى مــن الحيــرة والتخــبط، بــل هــو أشــد ضــلالا فــي وضعه هذا من وضعه في سابق حياته الــدنيا؛ فتخــتلط عليــه الســبل وتتملكــه الحيــرة وبالتالي الخذلان، فعماه في الآخرة أشد مــن عمــاه فــي الــدنيا إذ يكــون عمــاه الســابق عمى يمكن له أن يرفع الحجاب، فيرى الصواب . وأمــا عمــاه فــي الآخــرة فهــو لازم، وهو النتيجة السيئة لعماه الدنيوي .

73- وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك ...خليلا.

تضيف هذه الآية لضلال المشركين فــي أنفســهم تطــاولهم بمــا مهــدتْ لهــم نفوســهم الخبيثة، أن يؤثروا في رسول الله ﷺبما يحوله عن الطريــق المســتقيم الــذي هــو ســائر فيه، وعن الخط الواضح البين الذي هو سالكه لا يحيــد عنــه . كــان قصــدهم أن يغــروه بمختلف الإغراءات ليتحــول قلــيلا عــن منهجــه، وأن يصــرح أو يفعــل مــا يرضــي شركهم وكبرياءهم. علموا أن كل هم النبي ﷺ أن يجلــب البشــر إلــى الــدين الإســلامي، فعرضوا عليه، أنه إذا فعل ما يقترحونه عليه يــدخلون فــي دينــه، فممــا روي :أن يبعــد ضعفة المؤمنين مــن مجلســه، إرضــاء لتعــاظمهم وكبريــائهم، أو أن لا يقبــل الحجــر الأسود إلا بعد أن يتمسح بــآلهتهم ليظهــر عظمتهــا وإقــراره بمكانتهــا، أو أن لا يــذكر الآيات التي تحطم قداسة آلهــتهم. وألحُّــوا فــي عروضــهم تلــك، وبــالغوا فــي اللــف والدوران حتى قاربوا في ظنهم أن يصرفوك عــن النــور الــذي أوحينــاه إليــك . لــيس معنى هذا أنهم قاربوا التأثير عليه ﷺ فعلا، ولكن هــو حاصــل مــا اســتقر فــي نفوســهم لقوة إغراءاتهم، ودخولهم عليه من الناحيــة التــي يعتقــدون أنهــا تــؤثر فيــه . هــم لــم

يرغبوا في الصدق، وإنما رغبوا أن يحولوك عما طُبِعْتَ عليه من الصدق والثبات، إلى مستواهم بالكذب على الله وتغيير ما أنزل عليك أو كتمانه أو الرضا بمنهج غير المنهج الذي أنت ملتزم به. ولو أثروا عليك فصرفوك إلى اللين بقبول بعض مقترحاتهم لأقبلوا على تقريبك تقريب الخليل الصديق القريب.

74←75: ولولا أن ثبتناك لقد كدت....لا تجد لك علينا نصيرا.

من الذي حمى محمدا من أن يلين ويضعف، أو أن يميل إليهم، ما الذي جعله يرفض كل الإغراءات كدخولهم في الإسلام، و إقامة السِّلْمِ بينهم وبينه واعتباره خليلا مصافيا لهم؟

جاء الجواب في هذه الآية؛ والمقصود الأول هو التأكيد على قوة الإغراء، وأن انتفاء تأثيره كان بتأييد من الله الذي بيده الأمر.

يقول الله تعالى: **لولا أن ثبتناك لقد كدت تركن:** معنى الآية والله أعلم لولا أنا معك نؤيدك ونثبتك ونحصِّنك من التأثر لاستطاع المشركون أن يقربوك منهم قربا قليلا. إن كلمة [لولا] في التعبير العربي تدل على أن جوابها لم يقع لوجود الشرط الملاصق لها. تقول : لولا الجفاف لنبت الزرع. فهي تدل على أن الزرع لم ينبت وسبب ذلك الجفاف. وفي الآية أن النبي ﷺ لم يمل إليهم ولم يركن، لأن الله معه ثبت عقله وفكره وعقيدته. فالمنفي الميل القليل، وهو ما يحقق أن إغراءاتهم لم تؤثر فيه ولم يعلَق بفكره ﷺ ما يؤثر في اختياراته ليحيد عن منهجه ولو كان ميلا قليلا، فكانت حصانته بفضل التثبيت الإلهي سدا منيعا من بلوغهم ما خططوا له ودبروا.

ثم يواصل القرآن التأكيد على التأييد مع تنبيه المؤمنين إلى أن الثوابت لا تقبل التهاون بها ولا النزول عنها مهما كانت الأسباب .

إنه لو مِلْتَ إلى ما يدعونك إليه، وتراخيت فقبلت تفريق مجالسك بين كبراء قريش والمستضعفين من المؤمنين، مبرِّرا أن الضعفة لا يحرمون من هدايتك، ولكن تكون لهم مجالس خاصة بهم فقط، أو أن تمسح بيدك على أصنامهم مع أن قلبك مبغض لهم محتقر غير راض، أو أن تُبْقِيَ في سرك بعض ما أنزل إليك من تقريعهم على الشرك، حتى يألفوا الإسلام ويستقر في قلوبهم فتعلن عندها ما كنت أخفيته. إن انهزامك بقبول شيء مما يتناقض مع ثوابت الدين بتعِلّات، يتبعه حتما العذاب المضاعف في الدنيا، فتتراكم عليك المصائب ويخطئك التأييد الذي وعدتك به من انتشار دعوتك، وحمايتك من أن يصل أعداؤك إلى الإضرار بك كما في قوله

تعالى: **واصبر لحكم لربك فإنك بأعيننــا**[1]- وكــذلك العــذاب المضــاعف عنــد الممــات، وعذاب الممات المضاعف يبدو في الكمد التــابع للانهــزام . وفــوق ذلــك لا تجــد مــن ينصرك من الغضب الإلهي، واليأس من الخلاص أقوى من العذاب الأول.

ولقد تحير بعض المفسرين في تأويل هــذه الآيــة. والــراجح عنــدي أن القــرآن يهــدف من تهويل عقاب الميل إلــى الكفــار بالإغضــاء عــن ثوابــت الــدين، وقبــول الحلــول الوسطى، إلى أنه أمر مرفوض قطعا، حتى إنك يا محمــد، علــى علــو منزلتــك وقربــك مني، لو فعلت ذلك لواصلت عقوبتك في الدنيا وعنــد الممــات وبعــده . فــالفرض يقصــد به تفظيع مثل هذا الاجتهاد، وتنبيــه المــؤمنين إلــى الخطــوط الحمــراء التــي لا يقبــل تجاوزها بأي مبرر كيفما كان حالــه . وكتنظيــر، ولله المثــل الأعلــى ولكنــه لتقريــب الفهم، كأن يقول الملك لوزيره إنــك لــو هادنــت عــدوي لعلقــت جثتــك حتــى تأكلــك الطيور الكاسرة، وهو لا يقصد ولا يخطر ببالــه أن وزيــره وصــفيَّه يقــوم بمثــل ذلــك، ولكن ليبين لكل فرد من أتباعه والداخلين تحــت ســلطانه المــآل الــذي ينتظــره إذا هــو خانه وهادن عدوه. وعلى هذا أفهم قولــه تعــالى : **ولــو تقــول علينــا بعــض الأقاويــل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الــوتين**[2]- أفهــم منهــا شــدة الزجــر وعــدم غفــران القول على الله بغير علم.

وقد رأينا في عصرنا هذا تغييــر الشــريعة والتســاهل فــي الثوابــت بــتعلات، كإعمــال قاعدة التيسير في غير مواضعها، وكاعتمــاد القــول بــاختلاف الأحكــام <u>كلهــا</u> بــاختلاف الزمان، حتى انقلبت الشريعة عند بعض المتفقهــين إلــى هيــولى قابلــة للتشــكل حســب الهوى .

76←77:وإن كادوا ليستفزونك من الأرض...ولا تجد لسنتنا تبديلا.

سجل القرآن ما عزم عليه المشــركون ومــا هيــأوا لــه مــن إلحــاق الأذى برســول الله ﷺ،حتى يضطروه لمغادرة مكة قسرا، بالتضــييق عليــه وعلــى أصــحابه، ومنعــه بكــل الوسائل أن يقوم بمهمة التبليغ .وقد تفنن المشــركون فــي ذلــك مــا شــاء لهــم التفــنن. وثبّت الله نبيه فغرس في عالي نفســه التصــميم علــى تحــدي الشــرك والمثــابرة، ولــم يستطيعوا أن يخرجوه كما أرادوا مضطرا بدون ترتيــب لمــا يســتقبله مــن أمــره. إنهــم لو أخرجوك منها مضطرا مدفوعا، مــا بقــوا بعــدك فــي مكــة إلا قلــيلا مــن الزمــان ويستأصلهم الله بعد خروجك. على هذا مضــت ســنة الله فــي المرســلين مــن قبلــك، أن

---

[1] سورة الطور آية 46

[2] سورة الحاقة آية 46

المبعوث إليهم كلما ضيقوا على رسول وأخرجوه إلا وتبـع ذلـك إهلاكهـم، وهـذه السـنة هي سنة ماضية طريقة مسترسلة وعادة لا تتخلف، ولا تتحول.

إن هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة ليست الخروج الـذي تحـدثت عنـه الآيـة. ذلـك أن الخروج الذي كانوا يسعون لتحقيقه بمختلـف أوجـه الضـغط أرادوه خروجـا قسـريا، فيغادر مكة وهو ضائع لا يدري ما يفعل، خروجا يقف معه مـد الـدعوة . وهـذا مـا لـم يحدث، ولذلك لم تعقب هجرته ﷺ إلى المدينة بإبـادة قـريش. لقـد كانـت الهجـرة إلـى المدينة تحولا راشدا فـي مركـز الإشـعاع الـديني، فقـد انـتظم أمـر المسـلمين بهـا وأصبحوا قوة ولم يكونوا مشردين ضعفاء.

ولذا فإن ما ذهب إليه بعضهم من أن الآية مدنية بعيد عن مضمونها الحقيقي.

أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا ﴿٨٠﴾ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۙ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّـٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الإقامة : الأداء على الوجه الأكمل، مع المواظبة.

الدلوك :حالة من حالات مسير الشمس، تطلق بمعنـى ميـل الشـمس عـن كبـد السـماء بما يتبعه من زوال الظل، و تطلق بمعنى وقـت بلـوغ ظـل كـل شـيء مثلـه، وتطلـق بمعنى غروبها .

الغسق : الظلمة، عند انقطاع شعاع الشمس.

التهجد : الصلاة أثناء الليل.

نافلة : زيادة في الأمر المحبوب.

المقام المحمود : المكان الذي تميز بخلوص الثناء للقائم فيه.

المدخل والمخرج : مكان الدخول ومكان الخروج.

صدق : هو أكمل ما يكون عليه في نوعه. فيرتفع الذم ويعم المدح.

السلطان : يجمع السلطة، والحجة، والقيادة.

النصير : القوي النصرة.

الحق : كل ما جاء على لسان الرسول من الهدى .

زهق : اضمحل.

الباطل : ضد الحق مما محض النبي ﷺ جهده لهدمه.

شفاء : ذهاب الداء الجسدي، ومثله الداء العقدي والتصوري.

الظالمين: المشركين.

بيان المعنى الإجمالي :

أوجب الله على الأمة خمس صلوات في اليوم وذلك ليلة الإسراء، وبينت هذه الآية أوقات الصلوات. فجمعت أوقاتا لثلاث صلوات هي الظهر والعصر والمغرب، من دلوك الشمس، أي من ميلانها عن وسط السماء إلى أن تغيب في الأفق الغربي . ووقت العشاء عندما تتم ظلمة الليل بمغيب الشفق (غسق الليل) ووقت الصبح عند طلوع الفجر وعبر عنها بقرآن الفجر، لطول القراءة فيها وكثرة من يحضرها مع نشاط يستقر به القرآن في نفوسهم. وهو وقت يشهده ملائكة الليل وملائكة النهار. وأمر ﷺ أن يتهجد في وقت من الليل. والتهجد واجب عليه ﷺ، مرغب فيه لأمته، وَوَعَدَهُ جزاء على صلاة الليل: أنه سيبعثه يوم القيامة في المقام الذي يحمده البشر جميعا ويثنون عليه من آمن به في الدنيا ومن لم يؤمن . من جاء معه ومن يجيء بعده، ومن مضى قبل ذلك في تاريخ البشرية، عندما يشفع فيهم فينتقلون من المحشر إلى الحساب بعد العناء الشديد من طول الانتظار.

ويلقن نبيه دعاء جامعا للخير : أن يؤيده كلما دخل مكانا وكلما خرج منه ليكون في رعاية الله وتيسر أمره حتى يلازم الحق. وأن يقوي جانبه في الهدى وينصره فيمكنه من نشر الإسلام والنجاح في مهمته الشريفة. وقل معلنا في وثوق: إن جولات الكفر وما يقوم عليه قد انهزم، وإن الله أظهر الحق الذي جئت به. وهذه سنته في الكون: أنه كلما نشبت المعركة بين الحق والباطل وقام أهل الحق بحقهم، أن يتغلبوا على الباطل ويهزموه. لأن الباطل هو عكس لطبيعة الكون فلا يستقيم له وجود إلا بقوة خارجية، فينحل ويذهب بمجرد ما يضعف التأييد له. وبذلك يكون ما ننزله متتابعا عليك من القرآن يذهب الحيرة والشك والخوف من قلوب المؤمنين. وتشملهم من آياته الرحمة والطمأنينة. ويكون في المقابل زيادة في خسارة المشركين بتضاعف آثامهم وإغراقهم في الضلال.

بيان المعنى العام :

78- أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق ...كان مشهودا.

بعد الآيات التي أفادت عناية الله برسوله، توجه إليه الأمْر بالمواظبة على الصلاة، وأدائها على أكمل الوجوه، من الإقبال على الله، والطهارة الجسمية والمكانية، وإتمام أركانها وشرائطها، ليزداد بها سموا وقربا من الله. وكل خطاب توجه به القرآن إلى النبي ﷺ، هو شامل لأمته إلا ما قام الدليل على أنه من خصائصه.
والصلاة فرضت ليلة الإسراء، وبينت هذه الآية أوقاتها بعد الأمر بها:
أولا : دلوك الشمس، وهو ميلان الشمس إلى أن تغرب في الأفق وقسم هذا التوجه إلى الغرب بثلاثة مراحل :
المرحلة الأولى: عندما تزول الشمس عن كبد السماء، وهو الوقت الذي تبدأ فيه مسارا عكسيا لوقت شروقها، وهذا وقت الظهر.
المرحلة الثانية: من الزوال إلى أن يبلغ ظل ما على الأرض مثله، وهو وقت العصر.
المرحلة الثالثة: عندما يختفي الحاجب الأعلى لقرص الشمس، وهو وقت صلاة المغرب. فشمل قوله تعالى لدلوك الشمس أوقات ثلاثٍ من الصلوات حسبما بينه النبي ﷺ قولا وعملا. وإن اتفقت كلمة علماء السنة على وقت الظهر والمغرب، فإنه في ضبط دلوك الشمس الذي يدخل به وقت العصر خلاف.
ثانيا: إلى غسق الليل. وغسق الليل هو اشتداد ظلامه بمغيب الشفق، وهو وقت دخول صلاة العشاء، المعبر عنها بصلاة العَتَمة.
ثالثا: وقرآن الفجر. أي أقم قرآن الفجر. وهو وقت دخول صلاة الصبح. وأسندت صلاة الصبح للقرآن لما اختصت به من عدم الإسرار بالقرآن فيها، ولأن السنة إطالة التلاوة فيها.
وشهوده، يفسره ما رواه مالك والشيخان وأحمد وغيرهم، واللفظ لمالك عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة العصر وصلاة الفجر، ثم يعرج الذين أتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم : كيف تركتم عبادي ؟ فيقولون تركناهم يصلون وأتيناهم وهم يصلون[1]
ولأن الصفاء الروحي الذي يكون عليه المصلون بعد أن استجموا بالنوم، يجعل استقرار القرآن المجهور به والمطول في صلاة الصبح أكثر نفاذا وتأثيرا.

79- ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا.

عطف بالأمر بالتهجد على الأمر بالصلاة في أوقاتها الخمسة . وأبرز القرآن من أول الآية الوقت (بعض الليل) لأنه وقت يدفع فيه النبي ﷺ وكذلك من يتهجد من

[1] ح 472-ج 1 ص 241

المؤمنين، يدفعون داعية النـــوم القويـــة وينشـــطون للقيـــام بالصــــلاة. فالتهجـــد إذن تـــرك الهجود أي النوم والتقرب إلى الله بالصلاة. وهـــذه صـــيغة فـــي اللغـــة العربيـــة نظيرهـــا تحنث أي ترك الحنث، وتأثم ترك الإثم، وتحرج تـــرك الحـــرج. والتهجـــد واجـــب علـــى النبي ﷺ، مرغب فيه للمسلمين.

وقوله تعالى: **عسى أن يبعثك ربـــك مقامـــا محمـــودا** – صـــيغة الرجـــاء مـــن الله تفيـــد الوعد، فهو في قوة أعدك أن يبعثك ربك. والبعـــث هـــو التوجيـــه إلـــى المقـــام المحمـــود الذي يكون من حل به محل الثناء والتقدير. وفســـر المقـــام المحمـــود بالشـــفاعة العظمـــى، وقد ثبت في الصحيح أن الناس يستشفعون بالمرســـلين واحـــدا واحـــدا فكـــل يحيـــل علـــى غيره حتى يستشفعوا بمحمد ﷺ فيؤذن ويقبـــل الله شـــفاعته فينتقـــل البشـــر مـــن المحشـــر إلى الحساب . فيثني عليه البشر جميعا .

80-وقل رب أدخلني مدخل صدق ...سلطانا نصيرا.

تتوالى عناية الله برسوله فبعد أن شرع له الصلاة التي بهـــا يســـمو إلـــى أعلـــى مقامـــات القرب كما قال الشيخ ابن أبي زيد ﷺ: والمصـــلي ينـــاجي ربـــه. أرشـــده للـــدعاء الـــذي يثبته في جميع الأحوال. قل يـــا محمـــد داعيـــا متوســـلا إلـــى ربـــك : رب أدخلنـــي .... إنه من شأن الإنسان أن تكون حياته سلسلة من التنقلات فـــي الأمكنـــة، فمـــا يـــدخل مكانـــا حتى يخرج منه إلى غيره. وكلما ضاقت مســـافة التنقـــل بـــين المـــدخل والمخـــرج فهـــو السجن أو المرض أو العجـــز. وكـــل مـــدخل مجهـــولٌ عاقبتـــه، فـــيلقن الله نبيـــه مـــوالاة الإنعام عليه أن يجعل تنقلاته مصحوبة بالألطاف الإلهيـــة والعنايـــة الربانيـــة ليكـــون مـــا يجده في كل مكان يدخله من الخير واليسر والنجـــاح أحســـن تقـــدير، ويجعـــل مـــا يجـــده في المكان الذي يخرج إليه نفس التوفيـــق والعنايـــة. وحقيـــق بـــالمؤمن أن يواظـــب علـــى هذا الدعاء، فهومن مجامع الكلم التي تتسع آفاق مشمولاته إلى الحياة كلها .

ويختم الدعاء بطلبه أن يهيء له من عنده مـــا يؤيـــده بســـلطان مـــن الحـــق، ومـــن قـــوة الحجة، ومن التمكين في الأرض بقيـــادة الأمـــة إلـــى مـــا يعـــزز جانبهـــا ويعلـــي ديـــن الإسلام وينصر جيوشه، فيبث الرعب في قلوب أعدائه .

81-وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا.

أمرٌ من الله لنبيه أن يعلن في وثـــوق أن الله اســـتجاب دعـــاءه، ونصـــر الإســـلام فعـــلا. وفي هذا الإعلان ما يثبت المؤمنين ويقـــنعهم بـــأن كلمـــة الله هـــي العليـــا ؛ وأن المعركـــة الدائرة بين ما أتى به النبي ﷺ من العقائد ومن التشريع أنـــه حضـــر حضـــورا ثابتـــا فـــي الكون، وبين ما عمل على هدمه ونقضه من العقائـــد والأحكـــام قـــد تـــم القضـــاء عليـــه .

وتختم الآية بإعلان إلهي هو سننه في الكون وفـــي الصـــراع الـــذي ينشـــب بـــين الحـــق والباطل؛ أن الباطل ينتهي بالاندحار والهزيمة ويتغلب الحق.

وهذه الآية هي التي كان ﷺ يرددها يوم فـــتح مكـــة، عنـــدما دخـــل الكعبـــة، فأســـقط كـــل الأصنام وأكبَّها على الأرض وهو يتلو هذه الآيـــة. لقـــد كانـــت تمثـــل مـــا أنعـــم الله بـــه عليه من نصر التوحيد والقضاء على الشرك.

82-وننزل من القرآن ما هو شفاء ...ولا يزيد الظالمين إلا خسارا.

إن حضور الحق وظهوره مستند أولاً وبالذات، إلى الـــوحي الـــذي أنـــزل مـــن الله علـــى قلب رسوله، وأعلاه القرآن . فتُثبِّت الآيـــة أن الله يواصـــل إنـــزال القـــرآن علـــى قلبـــك، الذي هو شفاء للنفوس مـــن انحـــراف الضـــلالات والأوهـــام، وتبديـــد للشـــكوك والقلـــق والخوف. فيجد تاليه من الحكم والتشـــريع والتـــذكير وإحيـــاء الـــروح وتوضـــيح المـــنهج ما يأنس به العقـــل والضـــمير . وبمقـــدار مـــا يـــزداد المؤمنـــون بـــه قربـــا مـــن ربهـــم وطمأنينة واستقامة، بمقدار ما تبعد الشقة بيـــنهم وبـــين المشـــركين فـــي ذلـــك، فيـــزدادون خسارة في دنياهم بعمق الضلال، وخسارة في آخرتهم بالخزي والعذاب يوم القيامة.

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴿٨٣﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴿٨٤﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٨٦﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٨٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

أنعمنا : مكناه من النعم الدنيوية .

أعرض : صد.

ونأى بجانبه :صد عن العبادة والشكر.

الشاكلة : الطريقة التي ألفها الإنسان في حياته .

الوكيل: المدافع والشفيع .

بيان المعنى الإجمالي :

بني الإنسان على ضعف يفقد معه التوازن فيخســـر إذا لـــم يتحصـــن بالإيمـــان . فهـــو إذا نال النعم أبطرته النعمة أعرض وصدَّ عن الســـبيل الرابطـــة بينـــه وبـــين الله، ومضـــى لا

يشكر ولا يعبد. وليس وضعه خيرا إذا مسه الشـــر وســـلبت منـــه النعمـــة، يحـــل اليـــأس في كيانه ويقنط وتضيق الدنيا في ناظره رغم سعتها. قل لهم يـــا محمـــد: كـــل فـــرد مـــن المؤمنين يسير في حياته على الطريقة التـــي اختارهـــا وألفهـــا، وهـــو مســـؤول، وربـــك عليم بالمنهج الصالح الذي بعث به رسله لهداية البشر.

سجل القرآن أنهم سألوا النبي ﷺ عـــن ماهيـــة الـــروح فـــأوحى الله لرســـوله: إن الـــروح مخلوق لله، ثم إن المستوى المعرفي للبشـــر فـــي ذلـــك الوقـــت لا يســـمح لهـــم بـــإدراك ماهية الروح إدراكا كاملا.

وكما أن معرفة ماهية الحياة متوقفة على مستوى علمي، فكـــذلك مـــا عنـــد الإنســـان مـــن العلم لا يستمر معه إلا بفضل من الله. ويقول القرآن إننـــا لـــو شـــئنا أن نرفـــع مـــن قلبـــك القرآن الذي أوحيناه إليك لفعلنـــا، ولا تجـــد مـــن يـــدافع عنـــك ليعيـــده. ولكـــن الرحمـــة العظيمة من ربك هي التي ثَبَّتَتْهُ في نفسك نصا وفهما. وإن فضل الله عليك لكبير.

بيان المعنى العام :

83- وإذا أنعمنا على الإنسان...يؤوسا.

يعتني القرآن بتحليل أحوال النفس الإنسانية، ليكون فـــي ذلـــك الكشـــف مـــا يوقظـــه إلـــى تحصين نفسه مما يضر به عن غفلة منـــه. والإنســـان يتقلـــب فـــي حياتـــه بـــين أوقـــات المسرات والتوفيق، وبين أوقات الشدة والبلايا. ينال مـــن نعـــم الله عنـــدما يفـــتح لـــه مـــن خيرات الدنيا وتنسيه ضروب الإنعام ربـــه الـــذي أنعـــم عليـــه. ويجســـم القـــرآن صـــورة إعراضه بالذي يلتفت سريعا بعد أن كان مقبلا، ويمضـــي إلـــى حـــال ســـبيله فـــلا تـــرى منه إلا جانبه. وهذا ضعف في الإنسان. ذلك أنـــه عنـــدما تأتيـــه النعمـــة تســـتولي عليـــه وتغطي عنه وضعه الحقيقي: أنه محتاج إلى واهبها ليـــوالي عليـــه فضـــله، ويمكنـــه مـــن الاستمتاع بما أنعم عليه، بشكر النعمة والعبادة. فيجمع بين البعـــد عـــن ربـــه وبـــين عـــدم القيام بما يقتضيه الفضل الإلهي من إخلاص العبادة والشكر.

وكذلك تضيق النفس الإنسانية إذا لم يعمِّرها الإيمان، فإنـــه إذا مســـه الشـــر وذهبـــت عنـــه النعمة لا يستيقظ بل يثقل عليه وضعه ويعمر اليـــأس قلبـــه. فهـــو فـــي الحـــالتين منفصـــل عن المدد الرباني الذي يمكن النفس من توازنها.

والنبع الذي ترتوي منه النفس ويشفيها من سقامها هو القـــرآن، فظهـــر بهـــذا صـــلة هـــذه الآية بقوله تعالى في الآية السابقة: **وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة.**

84- قل كل يعمل على شاكلته ....أهدى سبيلا.

هكذا افترق البشر إلى مؤمن تزيده النعمة إقبالا على ربـــه وشـــكرا لـــه، ويبتلَـــى فيقـــوى تعلقه بالرحمة ويعظم رجاؤه، فهو في الحـــالين أقـــرب إلـــى ربـــه . وإلـــى كـــافر بينـــت

علل نفسه الآية السابقة . فيوجه الله خطابــه لنبيــه ﷺ، قــل للنـــاس جميعــا : كــل فــرد يسير على الطريقة التي اختارها لنفسه، أي إنــه مســؤول عنهــا . والله هــو العلــيم بمــن كان سائرا على طريق الهدى، ومن كان ســائرا علــى طريــق الضــلالة. وتبعــا لعلمــه ولطفا بخلقه أرسل رسله لهداية الناس إلى الحق.

85- ويسألونك عن الروح ....وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.

يتابع القرآن الكشف عن طبيعة الخلــق الإنســاني. فيصــل مــا طبــع عليــه مــن بطــر النعمة وشدة الجزع من النقمة، وتأثير الإِلْفِ فيه، يصل ذلــك بــالجواب عــن ســؤال أهَــمَّ الناس ولم يجدوا له جوابا، وذلك تــابع لمــا فطــر عليــه الإنســان مــن حــب المعرفــة، وجهاده لينكشف له كل شيء. وهذه الفطــرة فــي الإنســان هــي ســر اســتخلافه، وبهــا استطاع أن يمضي فاتحا مجاهيل الكون، ثم يمضي بما حصــل عليــه مــن معلــوم لينفــذ إلى حقيقة المجهول عنده . فسجّل القرآن أنه ســئل ﷺ عــن الــروح، قَبِــلَ الســؤال ولــم يعنف السائل، ولكنه أجابه بما أتاه من ربه، ولنتابع النص الدقيق:

أولا: من السائل؟ اختلفت الروايات : فــذهب بعضــهم إلــى أن قريشــا اتصــلت بــاليهود في المدينة لمّا كان بين الفريقين مــن صــلات، وطلبــوا مــنهم أن يســاعدوهم بمغلقــات من العلم الذي عندهم ليسألوا عنه النبي ﷺ ليشــكِّكوا فــي صــدقه. وذهــب بعضــهم إلــى أن اليهود سألوه عن الروح في المدينة فأجابهم بما أنــزل عليــه فــي هــذه الآيــة. وهــذه الرواية تفهم على أن اليهود سألوه في المدينــة بعــد أن ســأله القرشــيون وأجــابهم بهــذه الآية، إذ الآية مكية. وفي إبهام السائل فــي الــنص القرآنــي مــا يغنينــا عــن تعيينــه إذ تعيينه لا يزيد ولا ينقص لا في تصور الواقع ولا في الجواب.

ثانيا : ما هي الروح المســؤول عنهــا ؟ وردت الــروح فــي القــرآن بمــا يفيــد القــوة الخفية المنبثة في الجسم التي تقترن بهــا الحيــاة بمــا يصــحبها مــن آثــار فــي الإرادة والحركة، وتسلب من الجسم فيفارق الإنســان الحيــاة . وأطلقــت الــروح أيضــا علــى أشراف الملائكة ومنه قولــه تعــالى : **يــوم يقــوم الــروح والملائكــة صــفا**[1]– **تعــرج الملائكة والروح إليه**[2] – وأطلقت على جبريل –ومنــه قولــه تعــالى : **نــزل بــه الــروح الأمين**[3] .

والأرجح أن السؤال كان عن ماهية الروح بالإطلاق الأول.

[1] سورة النبأ آية 38

[2] سورة المعارج آية 4

[3] سورة الشعراء آية193

ثالثا: ما هو الجواب الذي أجاب بـــه القـــرآن عـــن هـــذا الســؤال ؟ الجـــواب، قـــل يـــا محمد: الروح شيء مخلوق لله اختص بعلمه. ويكون القـــرآن لـــم يســـعفهم ببيـــان ماهيـــة الروح، ولكن الآية أفادت أن الروح ليس شـــيئا متخـــيلا، ولكنـــه حقيقـــة موجـــودة فعـــلا. ثم أضافت الآية قوله تعالى : **وما أوتيتم من العلـــم إلا قلـــيلا** . ومـــا اطلعـــت عليـــه مـــن كلام المفسرين في بيان المراد من ذلك لم ينثلج لـــه الصـــدر، ولـــم يصـــل إلـــى الكشـــف عن سره. والذي تفتّح لي من تأملي والله أعلـــم : أن القـــرآن يشـــير إلـــى مـــنهج علمـــي، حاصله أن الإنسان ممكن من المعرفة، ولكن بلوغه للتعـــرف علـــى مـــا هـــو مجهـــول لا يحصل دفعة واحدة، ولكنه بناءٌ متتابعٌ، تكـــون كـــل مرحلـــة تُعِـــدُّ لمرحلـــة أســـمى منهـــا وأعمق .وكلما بلغ العقل البشـــري مســـتوى تطلـــع إلـــى مـــا وراءه . خـــذ لـــذلك مـــثلا مجهود العلماء للتعرف على كوكب المـــريخ. خطـــت العلـــوم الفيزيائيـــة مراحـــل هامـــة، واندمج العلم الإلكتروني فـــي البحـــوث، ونجـــح المســـبار الأول فوصـــل إلـــى القمـــر، ونزل الإنسان على سطحه، فكان ما تحقق فعليا فاتحـــا للقيـــام بالتجـــارب للوصـــول إلـــى المريخ، ثم إنه بعد النزول عليه، وأخذ عينـــات منـــه وتحليلهـــا، ومتابعـــة تطوراتـــه، قـــد يصل العلم في يوم من الأيام للكشف عـــن جميـــع أســـراره. فـــأقول : إن الســـؤال عـــن ماهية كوكب المريخ كان مطمحا للعلماء منذ أكثـــر مـــن قـــرن. وجـــواب تســـاؤلاتهم فـــي بداية البحث: ما أوتيتم من العلم إلا قلـــيلا. ويكـــون الكشـــف عـــن أمـــر الـــروح، كـــذلك متوقفا على بلوغ مستوى علمي، وليس أمرا مستحيلا.

والذي أعتقده أيضا أن الروح ليس كائنا أزليا، بـــل هـــو مخلـــوق لله ؛ تـــاريخ خلقـــه مـــن عالم الغيب، وكذلك ما يجري على الروح قبل اتصـــاله بالجســـد وبعـــد فراقـــه لـــه مـــن عالم الغيب، ولا يمكن أن نجد تعبيرا أدق على كل هـــذا مـــن قولـــه تعـــالى : **مـــن أمـــر ربي**- فكل المحاولات لتجاوز مـــا هـــو فـــي مقـــدور الإنســـان بالمقـــدمات المبلغـــة هـــو تجديف وإسقاط للخيال الذي لا يقوم على أساس .

86←87، ولئن شئنا لنذهبن بالذي...إن فضله كان عليك كبيرا.

الذي ظهر لي في هذه الآية والله أعلم أنهـــا مـــع ســـابقتها تـــدعو العلمـــاء أن لا يزدهـــوا بما عندهم من العلم، وأن يتواضعوا، لأن ما آتاهم الله من العلـــم هـــو قليـــل بالنســـبة لمـــا يجهلونه. يتبين ذلك أن كل عبقري مختص في باب من العلـــم يـــدرك أفضـــل مـــن غيـــره أن ما يجهله أكثر مما يعلمه، ويقضي حياتـــه قبـــل أن يـــتمكن مـــن الإجابـــة عـــن جميـــع تساؤلاته. وإذا كان هذا حاله في ميدان اختصاصـــه، فـــإن جهلـــه ببقيـــة الفـــروع العلميـــة أظهر وأعظم. وفي السؤال عن الروح والإجابـــة عنـــه بالإجابـــة القرآنيـــة الحكيمـــة مـــا

يهدي إلى ما ذكرناه. ثم يزيد القرآن تأكيدا لهذه التربية التوجه بالخطاب إلى النبي ﷺ، وقد آتاه القرآن الذي ينقضي الكون ولا تنقضي عجائبه، فيقول لنبيه: إن ما عندك من علم الوحي ثبت في نفسك بفضل مني، ولو شئنا أن نحول بينك وبينه فلا تجد له أثرا في نفسك لفعلنا، وفوق ذلك لا تجد من يمكنه أن يدافع عنك فيعيد لك ما كنت مالكا له، ولكن الرحمة من ربك الذي تولاك هو الذي يثبته في صدرك.

وما أجمل هذا الامتنان الذي ختمت به الآية : **إن فضله كان عليك كبيرا**. فموقع كلمة كان تفيد دوام هذا الفضل.

وهذه النسق القرآني يتكرر أكثر من مرة، فيخاطب رب العزة رسوله بهذا النوع من الخطاب الوارد في هذه الآية : **ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك**- وكقوله: **ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين**[1] . والذي استقر في فهمي والله أعلم أنه محقق لهدفين :

الهدف الأول: أن يقضي على كل ظاهرة تطلع في الحاضر أو المستقبل تغلو في تقديس الرسول ﷺ تقديسا يرفعه إلى مقام العبادة أو الألوهية، فهي تأكيد لبشريته، وأن ما هو عليه من سامي المقام لا يخرجه عن كونه عبدا لله، وبهذا يتحقق النقاء في التوحيد، ولا تسقط أمته فيما سقط فيه النصارى.

الهدف الثاني: إبراز أن مضمون النصوص على تلك الطريقة من الصياغة تحقق عظم الأمر الذي يريد القرآن اجتثاثه، فهو مرفوض إلى درجة أن محمدا لو فعله لكانت عقوبته شديدة، وفي هذا أشد التحذير. وفي هذا المقام يقوم النص القرآني بتحسيس العلماء سوء آثار زَهْوِهِمْ بما عندهم، واستكبارهم بمعارفهم، لما يؤدي إليه من توقف سير العلم من ناحية، ولأنه يقطع الصلة بينهم وبين الناس فلا يؤدون دورهم في الإصلاح. ولهذا نجد الآية تختم بالتنويه بمقام رسول الله عند ربه .

قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ

[1] سورة الحاقة آية 45

يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

ظهيرا: تعاون الإنس والجن.

صرفنا : نوعنا في البيان.

لن نؤمن لك : لن نصدقك .

الأرض : أرض مكة.

تفجر : تحدث شقا كبيرا ينساب منه الماء بقوة.

كسفا : جمع كسف وهو القطعة من الشيء.

زعمت : قلت قولا نستبعده.

القبيل : الجماعة الذين هم من جنس واحد.

الزخرف : الذهب .

بيان المعنى الإجمالي :

أعلن الله في كتابه أن القرآن معجز سما لفظا ومعنى، وطاقات المخلوقات من الإنس ومن الجن عاجزة عن الإتيان بكلام مثل القرآن في نظمه ومضامينه. بل إنهم لو تركوا كل شيء وتعاونوا على معارضة القرآن بمثله لفشلوا فشلا ذريعا. فمما اختص به هذا القرآن، أنه عرض بمتنوع العرض للمقصد الواحد، فكان في كل موقع يأتي تعبيره بطريقة تتناسب مع الموضع الذي هو فيه ومع ما تقدم عنه أو تأخر، ويأنس التالي والسامع بما يسمعه .ومع ذلك فإن أكثر الناس امتنعوا من الإذعان لما جاء به ورفضوا كل شيء إلا الشدة في الكفر .

فما كان جوابهم عن حثهم للتأمل في القرآن والاهتداء به ؟ قالوا : لن نؤمن لك ولن نصدقك أبدا حتى تحقق لنا ما نعرضه عليك : أن تتشق الأرض فيتدفق منها نبع فياض لا ينقطع ماؤه. أو أن تنقلب طبيعة جبال مكة فيكون فيها جنة من نخيل وأعناب تتخللها المياه الجارية، نرضى بهذا وإن كنت أنت الذي تملكها. أو أن تنزل علينا، كما ادعيت، قطعا من السماء التي هددتنا بها. أو أن يأتينا وفد من الملائكة يصحبهم الله. أو أن تتميز علينا ببيت من ذهب مزين بأنواع الزخارف. أو أن تصعد إلى السماء، ولا نؤمن بأنك بلغت السماء إلا إذا عدت تحمل كتابا كاملا نستطيع أن نقرأ محتوياته.

أوحى الله لنبيه ما يجيبهم به جوابا بشقين:

أولهما: أنزه الله عما قلتم تنزيها من يأتي مــع الملائكـــة، أو أن يكــون تقــديره لمجــاري الأمور في الكون على مقياس ما تطلبون.

وثانيهما: إن ما دعوتكم إليه لا يعدو أنني بشر مرسل من عنـــده لأبــين لكــم مـــا ينقــذكم من الضلال ويهديكم سبل السلام.

بيان المعنى العام :

88- قل لئن اجتمعت الإنس والجن ..لبعض ظهيرا.

تفتتح هذه الآية مجموعة الآيات في هذا المقطع لتكــون المُتَوَّجَــةَ لــه .فــي هــذه الآيـــة تنويه بالقرآن بإثبات أنه من عند الله، لا مدخل لأي كان فــي نظمــه. ويقــيم دلــيلا علــى ذلك من أول الأمر فيقول : بأعظم تأكيد وأكملــه لــو اجتمــع كــل المكلفــين مــن البشــر ومن الجن وبذلوا كل طاقاتهم ليتغلبوا على جميــع المشــاكل ويحــاولوا أن يقــدموا نصــا يبلغ مستوى مماثلا لمستوى القرآن، ما اســتطاعوا أن يــأتوا بمثلــه فــي الــنظم والســعة في المضامين التي لا تقف عند حدود الزمان الذي أنــزل فيــه، بــل تمضــي مــع حيــاة الإنسان ليجد فيها كل جيل حلا لمشــاكله، وخطابــا غيــر بعيــد عنــه. إنهــم عــاجزون؛ ولو تعاونوا على ذلك الأمر فإن تعاونهم يؤدي بهــم إلــى الفشــل الــذريع. فصــدر الآيـــة يتعلق بإثبات العجز لجنس الإنس ولجنس الجــن بــدون تعــاون وخاتمتهــا تثبــت العجــز مع التعاون.

89- ولقد صرفنا للناس ....أكثر الناس إلا كفورا.

إعلان لبعض وجوه إعجاز القرآن؛ يبدو ذلك فــي ترديــد التصــوير للمقصــود بضــروب من البيان تكون خصائصها في موقعها أوفق وأكمل وأرشــق، بصــفةٍ لــو حاولــت تقــديم أو تأخير أو إبدال كلمة بأخرى لاختل الــنظم وســقط عــن حــد البلاغــة . ومــن ذلــك ورود مضمون القصة الواحدة في أكثر من سورة، وهي فــي كــل موقــع يــأتي نظمهــا وخصائصها التعبيرية متسقة مــع مـــا تقــدمها ومـــا لحقهـــا، دون أن تغمــط الحقيقـــة، أو تجد مللا من عودة عرضها .

ورغم هذه المعجزة الظاهرة التي تنادي بصدق الرســول ﷺفــإن أكثــر النـــاس امتنعــوا عن أي شيء إلا عن شيء واحد هو العناد والإصرار على الكفر.

90- وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا.

هذه الآية وما يتلوها محققة لمـــا ختمــت بــه الآيـــة الســابقة مــن أن إصــرارهم علــى الرفض جعل القرآن ما يزيدهم إلا كفرا، يوضــح ذلــك الإصــرار مـــا ســجلته الآيـــات التالية من المقترحات التي ربطوا إيمانهم بتحقيقها فقالوا له :

أولا: لن تطمع في الإيمان بما تدعونا إليه، ولــن نصــدقك فــي أنــك مرســل مــن عنــد الله، حتى تنشق لك الأرض فيتفجــر منهــا نبــع غزيــر متــدفق فــي الأرض لا ينقطــع نميره، في أرض مكة المعروفة بتضاريسها الجبلية وعدم وجود أي نهر فيها .

91-ثانيا: أو أن تحول شيئا من تضاريس الجبال إلى سهل، وإن كنت أنت الذي تملكه، فيكون لك منه جنة تتكاثف فيها أشجار النخيل والعنب، وتتخلل أرضها أنهار لا تنضب، تنساب خلالها فتسقي جميع الأشجار، مما يبقي على خضرتها ونضارتها. وكلا المقترحين يصب في معنى واحد، هو تحويل طبيعة أرض مكة إلى ما عرفوه في أرض الشام. وهما معا يدلان على شدة تعلقهما بالمادة والأرض. ومن ضعف مستواهم العقلي جعل الدليل على صدق الرسول ﷺ أنهارا تجري وجنات من نخيل وأعناب، التي هي منبثة في أرض الله، دون أن يكون لوجودها أثر في سمو البشر من المادة الميتة إلى آفاق التوحيد، والمبادئ السامية، والسلوك الذي يهدي البشر إلى حسن الاستخلاف في الكون .

92- أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا.

ثالثا: أو أن تحقق فعلا مــا زعمتــه، والــزعم يطلــق بمعنــى القــول المســتبعد صــدقه وتحققه، وأوعدتنا من إسقاط قطع من الســماء علينــا، كمــا جــاء فــي قولــه تعــالى :إن **نشأ نخسف بهم الأرض أو ننزل عليهم كسفا مــن الســماء**[1] . وهــذا الوعيــد المــذكور في الآية قد يكون أوعد به النبي ﷺ قبل نزول الآيــة إن كانــت ســورة ســبأ نزلــت بعــد سورة الإسراء كما هو عند البقاعي وغيره .

رابعا: أو أن تأتي بفوج من الملائكة مــع الله، يقــدمون علينــا ونــزاهم ويثبــت صــدقك بأنك مرسل من عند الله مؤيد بملائكته الذين منهم جبريل الذي ينزل عليك بالوحي.

93-أو يكون لك بيت من زخرف...هل كنت إلا بشرا رسولا.

خامسا: أو أن يكون لك بيت من ذهب، واختار القــرآن التعبيــر عــن طلــبهم بــالزخرف عوض الذهب، لأن الشأن في الــذهب أن لا تتخــذ ســبائكه علــى طبيعتهــا، بــل يعمــل فيها الفن أجود ما يؤثر به في المعادن لتقبله لــذلك، ولأن المهــرة مــن الفنــانين يجــدون من قيمة الذهب ما يضمن لهم وفاء قيمة صناعتهم .

سادسا: أن تخترق الأبعاد فترقى إلى الســماء. وادعــاؤك أنــك ارتقيــت إلــى الســماء لا نصدق به إلا إذا أتيتنا بكتاب كامل مــن الســماء نســتطيع قراءتــه. وفــي هــذا إظهــار لطعنهم في القرآن بأنه ليس من عند الله لَمّا نزل منجما.

---

[1] سورة سبأ آية 9

أجبهم يا محمد جوابا قاطعا للجاجهم وعنادهم: مفتتحا بتنزيه الله أن يكون طوع مقترحاتهم ينفذ ما يرغبون فيه، أو أن يتحرك كتحرك الناس ويضم إليه ملائكته فيقبل عليهم ويخاطبونه. ثم من ناحية أخرى أعرفكم بأني بشر كسائر البشر، طاقاتي هي الطاقات البشرية، والذي يأمر الأشياء فتستجيب لأمره هو الله وحده، ولكن الله فضلني على البشر بتحميلي رسالة الهداية إليكم.

وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا (٩٤)
قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
مَلَكًا رَّسُولًا (٩٥) قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا
بَصِيرًا (٩٦) وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ
وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا
خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا
وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) ۞ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا
كُفُورًا (٩٩) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ
ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا (١٠٠)

بيان معاني الألفاظ :

مطمئنين :غير مضطربين عليهم السكينة.

الشهيد : المخبر بالأمر الواقع كما وقع.

خبير : عليم بما يجري في بواطنكم.

بصير : لا يخفى عليه شيء من ذواتكم وأفعالكم.

أولياء : أنصارا.

الحشر : جمع الناس من أماكن متفرقة إلى مكان واحد .

مأواهم : منزلهم ومقرهم.

خبت النار: نقص لهيبها.

السعير : لهب النار .

الجزاء : العوض عن العمل.

يروا : يعتقدوا.

قتورا: شديد البخل .

بيان المعنى الإجمالي :

رغم ما يقتضيه النظر بعد التأمل في مضامين الرسالة المتناسقة مع العقل والفطرة يثور سؤال : ما الذي منع الناس قديما وحديثا من الإيمان؟ إنهم لم يقبلوا أن يكون الرسول بشرا مثلهم . ولوكان المرسلون غير بشر لكانوا ملائكة، والملائكة لا يستطيعون القيام بدور الرسالة التي تقتضي من الرسول أن يختلط بالناس ليبلغهم وليبين لهم وليكشف لهم الشبه التي تعترضهم، ويعيش معهم كما يعيشون ويتنقل كما يتنقلون . ولو كان الملك هكذا لما آمنوا به ووقعوا في لَبْسٍ هل هو ملك أو بشر؟ وفوق كل ذلك فإنه يكفيني أن يكون الله حاكما بيني وبينكم، فإنه سبحانه عليم بما تنطوي عليه الصدور، ولا يغيب عنه أي عمل يقوم به الإنسان. فهو يعلم المبطل من المحق والمصلح من المفسد. والناس قسمان مهتد وضال .أما المهتدي فهو الذي أقبل على ما جاءه من ربه فأعمل فيه عقله وسار فيه فرزقه الله ألطافه فكان هو المهتدي بحق. والضال هو الذي جاءه الهدى فأعرض عنه وجعل بينه وبين الحق حجابا من العناد والمكابرة فحرمه الله ألطافه فكان من الضالين لأنك لا تجد لهم نصيرا من دون الله يحولهم عما محضوا أنفسهم إليه . ثم يوم القيامة يحشرهم ماشين من كل مكان على وجوهم وقد فقدوا جميع حواسهم فهم عمي وبكم وصم، ينتهي بهم السير إلى جهنم التي من جملة وقودها جلود هؤلاء المحشورين. كلما خفتت نارها باحتراق الجلود يعيد الله لهم جلودا فيزداد لهيبها. إن جزاءهم هو الجزاء العادل يوازي كفرهم بالآيات والأدلة الواضحة، ولتصريحهم باستحالة البعث خلقا جديدا بعد أن تتحلل أجسامهم فينقلبون إلى كتل من العظام، أو إلى مسحوق متناثر.

وعجب من أمرهم ألـم يتـأملوا فـي حقيقـة يعترفـون بهـا، وهـي أن الله هـو خـالق السماوات والأرض على عظمها ودقـة قوانينهـا وانتظـام سـيرها، أفـلا يكـون قـادرا على أن يخلق مثلهم بعـد انحـلال أجسـامهم ؟ فـإن خلقهـم مـن جديـد أهـون بكثيـر بمقاييس العقل البشري من خلقها أوّلا. وثانيـا إن الله قـد جعـل لهـم أجـلا تنتهـي فيـه حياتهم، وهذا مما لا يرتاب ولا يشك فيه أحد، فإذا كانـت حيـاتهم التـي بـين جنـوبهم لا يتحكمون فيها ويسلبها الله متى يشاء فـإن إعـادتهم للحيـاة أمـر معقـول جـدا. ولكـنهم رفضوا كل شيء إلا أمرا واحدا هو التصميم على الكفر بنعم الله وعدم شكرها.

قل لهم يا محمد: إن نفوسكم طبعت على الشح حتى إنكـم لـو ملكـتم خـزائن رحمـة الله، لقام مرض الشح في نفوسكم فحملكم على الإمساك عن العطـاء خشـية مـن نقصـان مـا

تملكون بالإنفاق منه. فتخيلكم أن مــا اقترحتمــوه شــيء لا يمكــن تحقيقــه لكثرتــه هــو ناشئ عن النقص الذي جبلتم عليه، فإن الإنسان من طبعه أن يشح بما عنده.

بيان المعنى العام :

94- وما منع الناس أن يؤمنوا...أبعث الله بشرا رسولا.

يواصل القرآن الكشف عن أغوار النفس، وإظهار مــا كمــن فيهــا، ليجلــي الأوهــام ثــم ينفيها. إن المتأمــل ليعجــب مــن إصــرار المشــركين علــى شــركهم وانحــرافهم إلــى مقترحات لا تمت إلى جوهر الدين الــذي يبشــر بــه رســول الله ﷺ، والتــي لا تعــدو أن تكون قلبا لسنن الكون أو نقضا لمقتضيات العقــل. فمــا الــذي حــولهم عــن التأمــل فــي طبيعة ما يدعو إليه، ووزنه بميزان الفطرة والعقــل؟ أتــى الجــواب مــن القــرآن؛ بــأنهم يعجبون من تكليف بشر مثلهم يَحمِلُ رســالة الله إلــى العــالمين، ويقــدمون اســتبعادهم هذا في صورة سؤال إنكاري. هذه سنة الكافرين المكــذبين للرســل حكاهــا القــرآن عــن قوم نوح وعن كثير من الرسل الذين جاؤوا بعده .

95-قل لو كان في الأرض ملائكة...ملكا رسولا.

تولى القرآن تأييد رسوله بالجواب المفحم .يقول القرآن : إن الرسول إما أن يكون بشرا، أو يكون ملكا كما تتوهمون. إذ الرسول مهمته أن يتصل بالناس ويعرض عليهم وينفي الشبه التي تعلق بأذهانهم. ولا يقع هذا الاتصال والتمازج إلا إذا كانت الملائكة تعيش على سطح الأرض وتمشي مطمئنة ثابتة لا تجد فرقا بينها وبين الناس في حركاتها تمشي كما يمشي الناس. ومعنى هذا أن تتحول طبيعة الملائكة من الخلقة التي هم عليها إلى خلقة أخرى منافية لخصائصهم، وبهذا لا يكون الملك ملكا.

96-قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ...خبيرا بصيرا.

وحجة ثانية مؤيدة في الرد على مقترحاتهم وعنــادهم. قــل لهــم: يكفينــي دلــيلا علــى صدقي وعلى مخالفتكم لمــا تقتضــيه الفطــرة والعقــل، يكفينــي الله الــذي يحــق الحــق ويبطل الباطل حاكما لا ترد حكومته ولا يطعن فــي علمــه. إننــا جميعــا عبــاده، وهــو العليم بما يجري في النوايا وما يختلج في الضمائر، يعلم مــن هَمّــهُ نشــر الخيــر والحــق والعدل، ومن هَمّهُ المراوغــة واتبــاع الشــهوات، والمجادلــة بالباطــل لــدحض الحــق . وحكمه سبحانه حكم حق عادل لأننا جميع من خلقــه، هــو العلــيم العلــم الكاشــف عمــا تخفيه النوايا وعما تستبطنه العقول، ولا يخفى عنه شــيء مــن الفعــال ومتقلــب جميــع الأحوال.

97- ومن يهدي الله فهو المهتدي .زدناهم سعيرا.

ولما وسع علمه كل ما احتضنه الضمير من خير أو شــر، فــإن النــاس علــى قســمين : قسم جاءه الهدى من ربه فأعمل فيه عقلــه، وأرهــف ســمعه، ووزن مــا جــاءه بــالتعمق في مضامينه، فأسعفه الله بالألطاف المساعدة علــى تمكــن مــا هيــأ نفســه لقبولــه مــن الهدى، فكان المهتدي بما قام به مــن جهــود، وبعــون مــن الله علــى أن تكــون جهــوده منتجة. وقسم بمجرد ما جاءه الهدى أعرض عنه، وكوّنَ بينــه وبــين الحــق حجابــا مــن العناد والرفض، وعطل عقله فلم يتدبر شيئا ممــا جــاءه، فحرمــه الله ألطافــه ولــم يرفــع عنه ما اكتسبه، وخلّاه لما اختاره لنفسه مــن الضــلال، ومــن يخذلــه الله فلــن تجــد لــه نصيرا يأخذ بيده ويساعده على الإيمان . ثم إن هــؤلاء ســيجمعهم الله يــوم القيامــة مــن جميع الأمكنة الذين هم فيهــا، ويــأتون ماشــين علــى وجــوههم، فجمــع الله لهــم بــين الإهانة وبين العذاب، إذ الرجل تتحمل من الأرض مــا لا يتحملــه الوجــه اللطيــف فــي تركيبه، وكون المحشور ساقطا منكبا على وجهــه مظهــر إهانــة. وقــد ســأل الصــحابة رسول الله ﷺ : كيف يمشون على وجــوههم ؟ فقــال: إن الــذي أمشــاهم علــى أقــدامهم قادر أن يمشيهم على وجــوههم. وأضــافت الآيــة إلــى الحشــر علــى الوجــوه ســلبَ أبصارهم فيحشــرون عميــا حيــارى لا يميــزون طــريقهم، ولا ينفســون عــن آلامهــم بالنطق لأنهم بكم، ولا يتصلون بغيرهم لأنهــم صــم. فيكونــون فــي المحشــر مســلوبي الحواس، ثم يساقون إلى منزلهم المقدر لهم الذي كتــب لهــم الخلــود فيــه: جهــنم، هــي تضطرم نارا، كلما احترقت جلودهم فخمدت نــار جهــنم مــن وقــود الجلــود بــدلهم الله جلودا غيرها فتزداد تأججا واشتعالا.

98- ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا ...لمبعوثون خلقا جديدا.

يثبت القرآن العدل الإلهي الكامل، فــإن الــذين كفــروا بالآيــات الواضــحة واطرحوهــا، وقابلوا عناية الله بهم ببعــث الرســل إلــيهم وتأييــدهم بــالحجج والمعجــزات، بالإنكــار للحق ومواصلة الكفر، ثم نفوا نفيا قاطعا أن يحاسب الناس علــى مــا قــدموا ببعــثهم يــوم القيامة، مستبعدين ذلك بأنه لا يتصور أن تعود لهــم الحيــاة بعــد أن تحولــوا إلــى كتلــة من العظام أو إلى أجزاء دقيقة متنــاثرة . ممــا يفيــد حســب قصــورهم الفكــري عجــز الخالق على إعادة الخلق من جديد.

99- أولم يروا أن الله الذي خلق ....فأبى الظالمون إلا كفورا.

إن استبعادهم للبعث استبعادا بلغ درجة إنكارهم لــه قــد صــيرهم كحالــة النعامــة التــي تدس رأسها في التراب إذا أطبَق عليــه الصــيادون. عجيــب أمــرهم ألــم يقــنعهم مــا يوجبه النظر من أن الله خلق الســموات والأرض، وهــم لا ينســبون خلقهــا إلــى آلهــتهم

ويعترفون أنه من خلق الله .وخلق الســماوات والأرض بعظــم أحجامهــا ودقــة قوانينــه، وانتظام حركاتها انتظاما سائرا دون اختلال، إذا تأمل العقــل فــي ذلــك فإنــه لا يســتطيع أن يستبعد قدرة الله على أن يخلق عبــادا مــثلهم يحشــرون إليــه يــوم القيامــة . وكلمــة مثلهم تحتمل أنها مخلوقــات جديــدة لا تختلــف عــنهم(صــورة كالأصــل) ويحتمــل أن يخلقهم مما بقي من أجســامهم فيجمعهــا بــأمره ويعيــد لهــا الحيــاة، والأول أولــى فــي نظري. لأن بقاء أجزاء لا تفنى بعيد فــي نظــري ســواء أكــان عجــب الــذنب (أســفل عظم في العمود الفقري) أو غيره من الأجزاء .

هذا من ناحية، ودليل آخر لم يلحظــوه مــن أنفســهم: أن الله جعــل بتقــديره لكــل نفــس أجلا لا تتعداه، وزمانا تنتهي فيه الحياة. وهذا أمر لا شــك فيــه، إذ أنــه لا يعــرف أحــد متى يموت، فإذا كانت الحياة في ظاهر الأمــر ملكــا لصــاحبها ولا يــدري متــى تســلب منه، أفلا يدل ذلك على أن المالك الحقيقي لهــا لــيس صــاحبها وإنمــا هــو الله خالقهــا ؟ وإذا كانت مملوكة ومخلوقة له فلا ريــب أن تكــون طــوع أمــره فمتــى أراد أن يعيــدها للجسم أعادها إليه والبناء المادي هو أهون بالتقدير الإنساني من الروح.

ومع وضوح الدليلين وقوتهما في إثبــات البعــث، إلا أن المشــركين رفضــوا كــل دليــل وامتنعوا من قبول أي حقيقة إلا حقيقة واحدة وهــي الكفــر بــالنعم لا الاعتــراف بهــا ولا شكرها. وأقاموا على عبادة أصنامهم .

100-قل لو أنتم تملكون خزائن ...وكان الإنسان قتورا.

جواب جــامع لمــا عرضــه القــرآن مــن وجــوه عنــاد المشــركين وإســقاط شــبهاتهم واحتجاجاتهم، هو أن ما اقترحوه على رســوله كــان نابعــا مــن تصــورهم الفاســد ومــا طبعوا عليه من خوف الفقــر وحــب الكنــز فظنــوا أن مــا اقترحــوه لا يمكــن تحقيقــه ويعجز الرسول لأن ما اقترحوه شــيء كبيــر جــدا . فالأنهــار والجنــات والبيــت مــن الذهب المزخرف والاحتجــاج بخلــق الســماوات والأرض وإمــدادها بمــا تواصــل بــه مسيرتها، كل ذلك مبني على ما طبعوا عليه مــن خــوف الفقــر، الخــوف المستمكن مــن نفوسهم، حتى إنهم لو ملكوا خزائن الرحمة التي لا تنفد والتــي فــي تواصــلها مــن مبــدأ الخليقة حتى وصلت إليهم، وسينال منها من بعدهم شــاهد علــى ســعة الرحمــة الإلهيــة سعة لا يحيط بها الوصف ولا يحدها حتى الخيال . ومــع ذلــك فهــم لــو قــدر لهــم أن يملكوا خزائن الرحمة لأمســكوا عــن العطــاء، وخــافوا مــن الإنفــاق. فــأين الإنســان المبني على الشح وخوف الفقــر مــن ســعة الرحمــة الإلهيــة والفضــل الــذي لا تحــده حدود. وإنه من طبع الإنسان أنه شحيح شديد البخل.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ
إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم
مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟
ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ وَمَآ
أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

البصائر : الحجج المفيدة للعلم.

المثبور : الذي أصابه الثبور وهو الهلاك .

يستفزهم : يستخفهم ويقلقهم.

اسكنوا الأرض : أرض الشام.

وعد الآخرة : يوم القيامة.

لفيفا : الجمع المختلط الذي لف بعضه ببعض.

بيان المعنى الإجمالي :

إن ما اقترحته قريش من المعجزات ليؤمنوا، لا يحقق إيمانهم .ذلك أن موسى ﷺ أوقف فرعون على تسع آيات، ومع ذلك كان جوابه : أنك يا موسى مسحور مختلط العقل . إن بني إسرائيل يعلمون ذلك، فاسألهم إن أردت . كان جواب موسى: إنك يا فرعون متيقن من أن الآيات التي شاهدتها لا يمكن أن تأتي إلا من رب السماوات والأرض لأنها آيات واضح صدقها وإعجازها، لكنك يا فرعون مُهلَكٌ. فدفعه استكباره إلى التسلط على موسى وقومه، وأراد أن يقلقهم بإخراجهم من أرض مصر. فعاجله الله بالعقوبة وأغرقه مع جنوده، ونصر الله بني إسرائيل وأباح لهم سكنى أرض الشام، وأعلمهم بأنهم سيحاسبون على ما يفعلونه وسيأتي بهم جماعات لا يربط بينها نسب ولا قبيلة .

إن هذا القرآن الذي رفضه المشركون هو كتاب حق صدق لا باطل فيه ولا ريب ولاشك، هو منزل من عند الله. ومضامينه كلها حق تهدي إلى الصراط المستقيم، ولست بقاهر أحدا على الإيمان به، ولكنك تبشر به المؤمنين ليزدادوا طمأنينة وانشراحا، وتنذر به الكافرين حتى يكونوا على علم من مصائرهم الخاسرة.

بيان المعنى العام :

101←102: ولقد آتينا موسى تسع آيات...وإني لأظنك يا فرعون مثبورا..

قصة موسى مع فرعون مواصلة للرد على المشركين بطريقة أخرى، حاصلها : أن الخوارق والآيات على كثرتها لا تنشئ الإيمان في القلوب التي استكبرت عن الحق، وأبت النظر فيها . وهذه هي السنة الماضية مع المرسلين في أقوامهم . فهذا موسى ﷺ آتاه الله تسع آيات معجزات، ظاهرٌ أنها بتقدير الله لخروجها عن طوق البشر : 1 - بَيَاضُ يَدِهِ كلما أدخلها وأخرجها من جيبه -2-انقلاب العصا حية -3-الطوفان - 4- الجراد - 5- القمل - 6- الضفادع -7-الدم - 8-الرجز " الدمل "- 9- القحط .وقد تقدمت في سورة الأعراف . ونظمها الفيروزآبادي في قوله :

عصا، سنة، رجز، جراد، وقمل *** يد، ودم، بعد الضفادع، طوفان -

هذه المعجزات التسع قدم بعضها موسى دليلا على كونه مرسلا من عند الله، إلى فرعون وملئه من أول الأمر. وبعضها أخبر به قبل حصوله ليرتدعوا ويحذروا من التكذيب بآيات الله، وحصلت. وهي من الأمور التي ما يزال بنو إسرائيل يروونها متيقنين حصولها، فاسألهم إن أردت يخبروك بذلك . وفي هذا تعريض بهم، إذ أنهم عملوا على غش أهل مكة لما سألوهم عن نبوة محمد ﷺ، كتموهم الحقيقة وعملوا على الدس وتلقين الشبه والإمعان في التضليل.

إن تلكم الآيات التسع لم تهد فرعون، بل أمعن في المكابرة وقال: إني لأظنك يا موسى رجلا قد أثر فيك السحرة فاختلت مداركك، وهذا ما بدا لي فيك بعد التأمل فيما جئتَ به. أجابه سيدنا موسى ﷺ: لقد تيقنتَ يا فرعون أن المعجزات التي شاهدتها يستحيل أن تكون من تأثير السحرة، إذ لا يقدر عليها غير الله. والذي دفعك للقول: بأن تظن أني مسحور مغالطة. إنها حجج مفيدة للعلم اليقيني أنزلها المتصرف في الكون كله سماواته وأرضه، ولا تدخل تحت قدرة من قدرات المخلوقين .والذي أظنه أن الله سيهلكك، جزاء تضليلك نفسك واستكبارك عن قبول الحق النازل من الله . والظاهر أنه لم يجزم بأن الله سيهلكه بناء على أنه لم يتلق وحيا من الله بأنه هالك لامحالة، ولكن ظن موسى تبعا لسنن الله في الذين يستكبرون عن هداية الله أنهم آيلون إلى الدمار . وفي ذكر هذا وعيد مبطن للمشركين: أن سنة الله ستنفذ فيهم.

103←104: فأراد أن يستفزهم من الأرض ....جئنا بكم لفيفا.

أفحم موسى عليه السلام فرعون، وزال ما كان في نفسه من حـــذر مـــن بطشـــه، وواجهـــه بأنـــه مهلك. فاستشاط غضبا وعزم على إجلائهم مـــن أرض مصـــر . وتـــأتي النهايـــة عاجلـــة: أغرق الله فرعون وجنده الذين كان يتقوى بهم ولـــم يبـــق مـــنهم أحـــد. ثـــم إنـــه بعـــد أن طهرت الأرض من المتمردين المستبدين الذين أخـــافوا المـــؤمنين، توجـــه الخطـــاب لهـــم خطاب الأمن، كأنه تهنئة بالنصـــر فقـــال الله لهـــم: امضـــوا إلـــى أرض الشـــام واتخـــذوا منها سكنا وإقامة. ولا تظنوا أن ما أنعمت به عليكم يعفـــيكم مـــن الحســـاب يـــوم القيامـــة، إنا بعظمتنا نحضركم جماعات، لا تقوم بينها رابطـــة نســـب ولا قبليـــة، وســـيجزى كـــل فرد بما قدم .

وإذا كانت قصة بني إسرائيل وقصة موسى مع فرعون تكـــرر ذلـــك فـــي القـــرآن، ولكـــن الذي نلفت إليه الأنظار أن القرآن يصوغها فـــي كـــل مـــرة حســـبما يقتضـــيه المقـــام دون أن يكون بين مختلف طرق العرض أي تنـــاقض. بحيـــث تـــؤدي القصـــة الغـــرض الـــذي وردت من أجلـــه . وذلـــك مـــن إعجـــاز القـــرآن . وفـــي هـــذه الســـورة تهـــدد القصـــة المشركين الذين عزموا على إخـــراج الرســـول ومـــن معـــه مـــن مكـــة كمـــا تقـــدم فـــي قوله:(أو يثبتوك) بأن مصيرهم سيكون كمصير فرعون وجنده.

105-وبالحق أنزلناه وبالحق نزل ...إلا مبشرا ونذيرا.

ثم رجع الكلام إلـــى القـــرآن المنـــوه بـــه فـــي الآيتـــين 88/87- والـــذي أتبـــع بإنكـــار المشركين الاقتناع به مؤيدا ومنا قشـــتهم فـــي ذلـــك. فأثبتـــت هـــذه الآيـــة شـــدة ارتبـــاط القرآن بالحق من ناحيتين : الأولى أنه أنزله ملتبســـا بـــالحق،هو والحـــق شـــيء واحـــد، فلا شك فيه ولا ريب ولا مخالفة للواقع ؛ والثانية أن مضـــامينه هـــي الحـــق الـــذي ينفـــع الناس في الدنيا والآخرة . وهذا القرآن الـــذي أيـــدك بـــه لا يقهـــر النـــاس علـــى اتباعـــه، ولكنك تبشر من اتبعه باستقامة أمره فـــي حياتـــه وبحســـن العاقبـــة يـــوم القيامـــة، وتنـــذر الذين رفضوه بالخسران المبين في الدارين .

وَقُرۡءَانٗا فَرَقۡنَٰهُ لِتَقۡرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكۡثٖ وَنَزَّلۡنَٰهُ تَنزِيلٗا ﴿١٠٦﴾ قُلۡ ءَامِنُواْ بِهِۦٓ أَوۡ لَا
تُؤۡمِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِۤ سُجَّدٗا ﴿١٠٧﴾
وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ
وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ﴿١٠٩﴾ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ
ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ

ٱلَّذِى لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِى ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِىّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

مكث :متمهلا .

خروا : سقطوا سجدا، مع صوت هو التسبيح

وعد مفعول: وعد منجز .

بيان المعنى الإجمالي :

نزل القرآن ملتبسا بالحق، ونزله رب العزة مفرقا لا جملة واحدة لتتلو يا محمد آياته على الناس، لتقرأه مؤديا له حق الأداء في غير عجلة. وبعنايتنا نزلنا ه متتابعا.

والتفت القرآن إلى المشركين معرفا لهم حقيقتهم بقوله : سواء آمنتم بالقرآن أو لم تؤمنوا به، فإنكم جهلة لا وزن لكم، ولا يزيد إيمانكم القرآن قوة وصدقا ولا ينقص منه كفركم . وإن العلماء الذين تمكنوا من الكتب السابقة وتحقق عندهم ما وعد الله به من بعثة محمد ﷺ ومعه القرآن، إنهم إذا سمعوا القرآن امتلأت نفوسهم بهجة فيخرون ساجدين مسبحين تفيض ألسنتهم بالتسبيح لله والحمد له على ما أنعم عليهم، فبلغهم الوقت الذي ختم فيه رسالاته للعالمين، وتفيض عيونهم بدموع الفرح. ويواصلون تلاوته والتأمل فيه فيتضاعف خشوعهم به.

بيان المعنى العام :

106- وقرآنا فرقناه....ونزلناه تنزيلا.

ومع إنزال القرآن كما جاء في الآية –105 – فرقنا القرآن فرقناه، بحكمتنا أنزلناه منجما، لم ننزله عليك مرة واحدة، فاستطاع المسلمون أن يألفوه شيئا فشيئا، وأن يسيروا معه وأن يسير معهم في حياتهم، وأن يحولهم من الوضع الجاهلي الذي كانوا عليه، إلى وضع جديد في غير إرهاق، بنى صرحه العقدي والتشريعي والتهذيبي موزعا على السنوات التي قضاها ﷺ والتي سيقضيها بعد نزول الآية . فكان وعيهم له ميسرا، ومن ناحية أخرى لتقرأه عليهم وهم آخذون عنك طريقة أدائه، فتقرأه متمهلا بدون عجلة على النحو الذي ينبغي أن يتلى به، كما جاء في قوله تعالى: **(كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا)**[1] وبذلك يثبت في قلوبهم ويرسخ في حافظتهم. وكان تنزيله على ذلكم النحو بعنايتنا فنزلناه متتابعا.

[1] سورة الفرقان آية32

107←109: قل آمنوا به أو لا تؤمنوا...ويزيدهم خشوعا.

تتابعت الآيات تقيم الحجة علـى المشـركين بصـدق الرسـالة، ومزايـا القـرآن، وأنـه منزل من عند الله، وأنه والحق شيء واحـد، وأن تفريقـه هـو الحكمـة إلـى آخـر مـا فُصِّل. بعد ذلك تخاطب هـذه الآيـة الثـابتين علـى الشـرك : إن كفـركم لا يـؤثر فـي انتصار الإسلام ولا يُـوَهِّنُ مـن أمـر رسـالته شـيئا، فسـواء آمنـتم أو لـم تؤمنـوا لا يضرك يا محمد ولا يضـر الـدعوة، وإنمـا ضـرره علـى أنفسـكم أيهـا المشـركون . وماهي منزلتكم الفكريـة إن هـي إلا منزلـة تافهـة بالنسـبة للـذين أسـرعوا للإيمـان بالإسلام من الذين كان حظهم من العلم موفـورا، بـل إنهـم آمنـوا بـه بنـاء علـى مـا وجدوه في كتبهم، وما بشر به من قبل موسـى وعيسـى. والآيـة علـى الصـورة التـي عرضت بها يفهم منها تعريض بالمشركين بأنهم جهلة.

لقد غمر القرآن هذه الصفوة من العلمـاء بقداسـته، ونفـذ إلـى أرواحهـم فعظـم شـوقها إلى باريها، واهتزوا استبشـارا بحضـورهم مشـهد بعثتـه، فخـروا لله سـجدا تعطـرت ألسنتهم بتسبيحه مثنين على فضـله الـذي تـم ببعثـة النبـي ﷺ، لتمتـد الهدايـة الإلهيـة للعالمين. وابتهلوا معلنين ما استقر فـي نفوسـهم: إن وعـد الله لا يخلـف تحقـق فعـلا. وقد اشتد إحساسهم بالبهجة ففاضـت عيـونهم بـدموع الفـرح والرضـا. وفـي التعبيـر بالخرور الذي أصله السقوط مـا يشـير إلـى انـدفاعهم للسـجود انـدفاعا كـان متنفسـا طبيعيا عندما يكون المؤثر بالغـا مـن القـوة مسـتوى رفيعـا متسـاميا. وكـذلك قولـه للأذقان فالأذقان لا تمس الأرض، ولكنه تجسيم لـذلكم الانـدفاع مـن المشـاعر الباطنيـة الجياشة . وهم إلى جانـب ذلـك وجـدوا فـي القـرآن النهـر المتـدفق فعكفـوا عليـه، ليضاعف خشوعهم لله، إذ هو كلام ربهم الذي تطمئن بـه القلـوب وتخشـع. يـدل علـى هذا قوله تعالى ويزيدهم خشوعا، دون وزادهم خشوعا بل مستمر دفقه.

بإجماع العلماء يسن السجود عنـد تـلاوة قولـه تعـالى: **ويزيـدهم خشـوعا** – لينـتظم المؤمنون في مظهر واحد، مظهر السجود لله. وأقرب ما يكـون العبـد مـن ربـه وهـو ساجد.

قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَلَا تَجۡهَرۡ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتۡ بِهَا وَٱبۡتَغِ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلٗا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَمۡ يَتَّخِذۡ وَلَدٗا وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٞ فِي ٱلۡمُلۡكِ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلِيّٞ مِّنَ ٱلذُّلِّۖ وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا ﴿١١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الجهر : رفع الصوت بالكلام .

المخافتة : الإسرار

ولي : نصير

بيان المعنى الإجمالي :

هو الله الواحد له الأسماء الحسنى الدالة على الكمال والجلال، فادعوه بأي اسم من أسمائه التي أذن في ندائه بها. وخذ مستوى وسطا بين الجهر وخفض الصوت في صلاتك، إذ الإسلام يقيم المسلمين على التوسط . وقل الحمد لله، الذي تعالى أن يلحقه نقص، لم يكن له ولد كما يزعم النصارى، ولم يكن له شريك يصرف معه أي شيء من أمر الكون، وليس له نصير يدافع عنه ويرفع عنه الذل والحاجة، واعتقدْ أنه أكبر من كل شيء. وكبره تكبيرا كثيرا.

بيان المعنى العام :

110-قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن ...بين ذلك سبيلا.

قل لأمتك إن الله تميز بأسمائه الحسنى التي كنا بيناها في سورة الأعراف آية 180- والتي يجب الاقتصار على ما ورد منها، فإذا تحدثتم عن ذاته العلية، فسواء سميتموه في كلامكم (الله) أو سميتموه (الرحمن) فالكل سواء، لأنهما من أسمائه الدالة على الكمال والجلال. ومعظم المفسرين رأوا أن موقع هذه الآية هنا سببه :أن نزولها كان عقب نزول الآية السابقة . إذ كان النبي ﷺ يتهجد حول الكعبة وذكر في سجوده : " يا الله "يا رحمن " فسمعه أبو جهل وقال : إن محمدا يدعو إلى التوحيد وها هو يدعو إلهين. فنزلت الآية.

والذي وقع في قلبي :أن هذه الآية مرتبطة بفاتحة السورة التي ورد فيها أن الله أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وأراه من عظيم آياته مالم يبلغه أحد من رسله الأكرمين في حياتهم، فقد امتزج في المشهد آيات عظمة الله، واسم الجلال والعظمة هو" الله". ثم أنعم عليه بمظاهر التكريم فقدمه للصلاة بالأنبياء، وبلغه مدى لم يبلغه أحد من العالمين، وهذا أوسع مظهر من مظاهر الرحمة، والا سم الدال على هذه الصفة " الرحمن" فكان خاتمة السورة: قل ادعوا الله أو الرحمن .

واصلت الآية بالتوجيه إلى المستوى الصوتي في الصلاة، والإسلام مبني على التوسط، فقال تعالى: **ولا تجهر بصلاتك**، لا ترفع صوتك كثيرا في قراءتك، ولا تخفضه خفضا لا يسمع، بين الرفع والخفض اتخذ طريقك، وبهذا تُسْمع المؤمنين

الذين معك قراءتك، ولا يصِـل صـوتك للمشـركين الـذين يتخـذون كـلام الله هـزؤا . روي أن أبابكر رضي الله عنه كان يخافت بقراءته فسـئل لمـا ذا؟ فقـال: أنـاجي ربـي، وهو يعلم حاجتي . وكان عمر يجهر فسئل لمـاذا؟ فقـال: أنـا أطْـرُدُ الشـيطان، وأوقـظ الوسنان(من أخذه النعاس). فلما نزلت الآية قيل لأبي بكـر: ارفـع صـوتك قلـيلا، وقيـل لعمر: اخفض أنـت قلـيلا. والمناسـبة متصـلة بـأول السـورة أيضـا إذ أن الصـلاة فرضت ليلة الإسراء.

111- وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا...وكبره تكبيرا.

تكرر الأمر بالقول في هذه السورة واحدا وعشرين مرة. والأمـر بـالقول، مـع أنـه مـن المعلوم أن النبي ﷺ مكلف بالتبليغ وإعلام الناس بمـا ينـزل عليـه مـن الله، يـدل علـى شدة الاهتمام بما تبع " قل " وختمت السورة بكلمـة " قـل" فمـا هـو هـذا الأمـر المهـم الذي ختمت به الآية وأكد عليه بالأمر ؟ هـذا الأمـر هومـا تجـيش بـه الـنفس فتمتلـئ بالمعاني التي كثيرا ما يعجز اللسان عـن التعبيـر عنهـا، فـلا يبلـغ المسـتوى المـؤدي للمضمون. فأسعد الله المسلمين بتوفيقهم إلى تعبير يزيـد تلكـم المعـاني وضـوحا ونـورا ويثبتها في النفوس. ويتضمن أمورا :

الحمد لله : الثناء على الله المنـزل للقـرآن، والباعـث للرسـل، والـذي ختمهـا برسـالة محمد ﷺ وأنزل معـه القـرآن، الـذي نوهـت بـه السـورة أيمـا تنويـه، والمفـيض للألطاف التي بها يتم الاهتداء إلى الصراط المستقيم، زيـادة علـى الـنعم الدنيويـة التـي لا نحصي لها عدا .

التنزيه عما سوغه الخيال من إلحاق النقائص به سبحانه ممـا يظـن معـه أصـحابه أنهـم يمجدونه به ، كإثبات الولد عند النصارى الذين يقدسـون ولـده مبالغـة فـي تقديسـه، أو إثبات شركاء له يكونون هم الوسطاء بينـه وبـين عبـاده باعتبـار أن الإنسـان الملـوث بالآثام غير مؤهل للاتصال المباشر بـه، وكتقسـيم الآلهـة حولـه، يخـتص كـل واحـد منهم بناحية من النواحي كإله النور وإله الظلمة ونحـو ذلـك مـن التخـيلات الفاسـدة، أو ما جَنّح به الخيال المريض: أن لله أولياء يمنعونه من أن تتسـلط عليـه قـوة لبيقـى علـى عزته بهم، كالملك الذي يحمي ملكه بالجيش وقادتـه. وهـؤلاء أحـط المفكـرين فـي الله، إذ تفكيرهم يؤدي إلى أن الله ذليل غير عزيز بذاته، وإنمـا يكتسـب عزتـه مـن حماتـه، فلذلك قرنت الآية قولهم بلازمه : ولي من الذل .

واعتقدْ وانطقْ واملأ نفسك بعظمة الله التـي تتظلـل بهـا، وتـرى آثارهـا فـي كـل مـا يدخل تحت حواسك في هـذا الكـون المترامـي. فـإذا شـاهدت جمـالا متميـزا يخلـب

نظرك فقل : الله أكبر، وإذا نظرت في الســماوات ونظامهــا فقــل: الله أكبــر، وإذا كنــت عالما فانكشفت لك عجائب الخلق فــي كبيــرة أو صـــغيرة فقــل: الله أكبــر. وإذا كنــت في ساحة الجهاد فقل الله أكبر من كل القوى التــي يتقــوى بهــا عــدوك، والــزم التكبيــر هكذا كلما أردت أن تتقوى في جميع المشاهد فبــالتكبير يطــرد الضــعف. وكبــره تكبيــرا يليق بعظمته وكماله وجلاله.

اللهم لك الحمد كما يرضيك وكما يليق بفضلك وجلالــك، والله أكبــر كبيــرا والشــكر لــك على ما يسرت –

فقد أتممت ليلة الجمعة بعد صلاة العشاء بيان ما فتحته علــي فــي فهــم ســورة الإســراء 5 ربيع الأنور 1433-2012/1/27.

سورة الكهف

الاسم المشهور لهذه السورة **سورة الكهف** وهكذا كتبت في المصاحف وهذا الاسم هو المطابق لما أخرجه البخاري ومسلم والترمذي، وعند ابن مردويه "سورة أصحاب الكهف" وهي السورة الثامنة عشرة حسب ترتيب المصحف، وحسب ترتيب النزول السورة الثامنة والستون نزلت بعد الغاشية وقبل الشورى عند جابر بن زيد. وعند البقاعي بعد الغاشية وقبل النحل. وهي من السور المكية واستثنى بعضهم آيات منها نزلت بالمدينة.

ورد في فضلها أحاديث كثيرة. عن أنس بن مالك رضي الله عنه: من قرأ بها أعطي نورا بين السماء والأرض، ووقي بها فتنة القبر. وعن إسحق بن عبد الله بن أبي فروة، إن رسول الله ﷺ قال : "ألا أدلكم على سورة شيعها سبعون ألف ملك ملأ عظمها ما بين السماء والأرض لتاليها من الأجر مثل ذلك " قالوا : بلى يا رسول الله. قال : سورة أصحاب الكهف، من قرأها يوم الجمعة غفر له إلى الجمعة الأخرى، وزيادة ثلاثة أيام وأعطي نورا يبلغ السماء، ووقي فتنة الدجال[1].

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴿١﴾ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا
شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا
﴿٢﴾ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدٗا ﴿٣﴾ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنۡ
عِلۡمٖ وَلَا لِأٓبَآئِهِمۡۚ كَبُرَتۡ كَلِمَةٗ تَخۡرُجُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبٗا ﴿٥﴾
فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلۡنَا مَا
عَلَى ٱلۡأَرۡضِ زِينَةٗ لَّهَا لِنَبۡلُوَهُمۡ أَيُّهُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيۡهَا صَعِيدٗا
جُرُزًا ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكتاب : القرآن

---

[1] الجامع لأحكام القرآن ج10ص346

عوج : عدم استقامة.

قيم : صفة مبالغة من القيام. بمعنى موالاة التعهد والتوجيه.

ماكثين : مستقرين فيه.

كبرت : تعجب من عظم شناعتها.

كلمة: مقالتهم: اتخذ الله ولدا.

باخع : قاتل.

الأثر : ما يبقى بعد ذهاب صاحبه.

الحديث : القرآن.

أسفا: حزنا.

صعيدا: التراب.

جرزا: قاحلا أجرد.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت السورة بالثناء على الله، فله الحمد الكامل، توالت نعمه، وأجلها نعمة إنزال القرآن على قلب سيدنا محمد الذي بلّغه للعالمين. إنه الكتاب الهادي إلى الطريق المستقيم فالمهتدي به لا ينحرف عن الحق. وهو الكتاب الذي يكون مع الإنسان في جميع ما يعرض له، فيساعده على الفوز في الدارين. إنه يقيم الإنسان بين قطبين: قطب الخوف من الضلال بإنذاره العذاب الذي يوقعه الله فلا مفر منه، وبين قطب فتح الآمال بالبشارة بالنسبة لمن جمع بين الإيمان والأعمال الصالحة، وأن الله سيجازيهم بالأجر الحسن الذي لا سوء معه، الأجر الممتد إلى أبد الآبدين يحيط بهم من جميع الجوانب الروحية والجسدية. وينذر الذين قالوا : إن الله اتخذ ولدا، من مشركي مكة وكذلك من اليهود والنصارى. ما أشنعه من قول اختلقوه، وهو صادر عن جهل منهم ومن آبائهم، إن مقالاتهم عن الله أو عن الرسول، أوفي القرآن، أو في الدين الإسلامي أقوال كلها كذب وافتراء. هوّن على نفسك يا محمد ولا تحزن من إصرارهم على الكفر، أبْق على قواك لتواصل الدعوة إلى الله. إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها ليقبلوا عليها ويعملوا فيها، ونحن نختبرهم بذلك ليظهر المحسن من المفسد وسينتهي الكون وما فيه من جمال، وينقلب ترابا لا حركة فيه ولا حياة، ثم يوقّفون جميعا لمحاسبتهم على عملهم. فلا تحزن عليهم هي سنة الله ماضية فيهم.

بيان المعنى العام :

1←3: الحمد لله الذي أنزل على عبده...ماكثين فيه أبدا.

ترتبط فاتحة السورة بخاتمة سورة الإسراء (وقل الحمد لله) وتُذَكِّرُ من البداية بالتصور والتطبيق الذي يجب أن يعمر نفس المؤمن ويعيش به ومعه: الثناء على الله بما أنعم. وأفضل نعمه وأجلها وأبلغها أثرا في حياته القرآن المنوه به قريبا في الآيات -108/107/106/89/88- من سورة الإسراء. ولذا ربطت الآية بين حمد الله وبين أخص موجبات الحمد: إنزال القرآن على رسوله الذي شرفه بنسبته إليه عبدا. ومقام العبودية يَشْعُرْ بفضله المقربون من خلقه. قال تعالى: (**لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون**)[1] ثم إن هذا القرآن يختص بمزايا :

أولا: أنه الهادي إلى الصراط المستقيم، فلن تجد في هدايته انحرافا، فالملتزم لهداه يتضح له مساره، الآمن والواضح بدون منعطفات، في حياته الدنيا والآخرة "ولم يجعل له عوجا".

ثانيا: أنه يصحب البشر موقظا لهم، مما يجعله واقفا عليهم يحفظهم من الزلل والحيرة والشبهات. ويشجعهم على الاستقامة، ويردعهم عن اتباع سبل الضلال والفساد. "قيما"

ثالثا: أنه يزيل سجوف الغفلة عن مآلهم المحجوب عنهم في الحال، الذي هو حلول العذاب بهم في الدنيا بتسليط جند الإيمان عليهم يهزمونهم ويقيمون عليهم حدود الله، والعذاب الأخروي إذا هم لم يؤمنوا ويستقيموا. إنه عذاب شديد لا يقدرونه حق قدره الآن ولا يستطيعون له ردا، لأنه من لدن الله ذي البطش الشديد.

رابعا: أنه يبشر. والبشارة هي للذين جمعوا بين الإيمان الصحيح والقيام بالأعمال الصالحة، وبم يبشرهم ؟ يبشرهم بأن الله قد كتب لهم أجرا وثوابا لا نقص فيه ولا خلل يبهج النفس لحسنه وكماله، مع خلودهم فيه يحيط بهم من جميع الجوانب. عبر القرآن عن هذه الإحاطة التي تشمل النعيم المعنوي والنعيم الجسمي بقوله ماكثين فيه.

4←5، وينذر الذين قالوا اتخذ الله...إن يقولون إلا كذبا.

عود لتفصيل أحد موجبات الإنذار بالعذاب " لينذر بأسا شديدا من لدنه" وهو في الآن نفسه مرتبط بالآية التي ختمت بها سورة الإسراء " الذي لم يتخذ ولدا" تصرح الآية بأن من أقبح ما صدر عن المنذرين ادعاؤهم أن الله قد اتخذ ولدا. لما جمع هذا القول من ضروب النقص، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. والذين قالوا اتخذ الله

[1] سورة النساء آية 172

ولذا معظمهم عند نـــزول الآيـــة مشـــركو مكـــة، وتشـــمل مـــا ســـيقوله النصـــارى عنـــد مواجهتهم بالدعوة إلى الإســـلام، وكـــذلك اليهـــود، لأن القـــرآن لا تقتصـــر دلالتـــه علـــى الواقع عند نزوله، بل تمتد لما يصلح له الـــنص إلـــى أبـــد الآبـــدين. ثـــم يبطـــل القـــرآن قولهم المنكر هذا، وأنه اختلاق لا أساس له. إن مقـــالتهم تلـــك كانـــت رشـــح جهلهـــم. إن ما نسبوه إلى الله من الولد منفي لا أصل لـــه، ومـــا عنـــدهم ولا عنـــد آبـــائهم مـــن دليـــل قريب ولا بعيد عنه.

عظم قبح هذه المقالة وما أشنعها، تحركت فـــي لهـــواتهم دون أن تســـتند إلـــى شـــبهة ولا إلى فكر، ثم أخرجوهـــا مـــن أفـــواههم. إنهـــم فـــارغون لا يؤمنـــون بقـــيم ولا يراقبـــون ألسنتهم، فلا يقولون إلا أقوالا لا أصل لها، كاذبة، ســـواء فيمـــا صـــوروا بـــه الخـــالق، أو فيما يرمون به الرسول ﷺ ، أو فيما يروجونه عن الإسلام.

6-فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا.

تحذير للرسول من أن شدة حزنه وغمه من إعراض قومـــه عـــن الإيمـــان قـــد يصـــل بـــه ذلك إلى درجة الهلاك. فهو ينظر إليهم وقـــد تولـــوا عنـــه، تشـــهد آثـــارهم الدالـــة علـــى عصيانهم وإعراضهم، فيتجدد أســـاه لـــذلك. لقـــد كـــان ﷺ محبـــا للنـــاس حريصـــا أشـــد الحرص على هدايتهم، كل همه أن يحولهم من الجاهلية العمياء إلى نور الإسلام.

7←8:إنا جعلنا ما على الأرض زينة...صعيدا جرزا.

تفيد الآية لفت الأنظار إلى ما جعله الله علـــى ســـطح الأرض مـــن كائنـــات تشـــكل فيمـــا بينها صورة جميلة للكون، يظهـــر ذلـــك بالمقارنـــة بـــين ســـطح الأرض علـــى مـــا هـــو عليه، وبينما لو كان أجرد لا نبات فيـــه ولا حيـــوان. إنـــه فـــي الصـــورة الأولـــى حـــي أنيس تتكون من مجموعه صورة تستهوي الإنسان، فينفعـــل معهـــا. وهـــو فـــي الصـــورة المفترضة الثانية يمثل الموت والوحشة، ينفر منها ويبتعد عنها.

فإذن الصورة الأولى تغريه بالتأثير فيها، ويعمل فعلا. ولكـــن المهـــم لـــيس العمـــل كيفمـــا كان، ولكنه العمل الذي يؤديـــه علـــى الصـــورة الحســـنة الكاملـــة. وهـــذا الأداء المعتبـــر حسنا عند الله هو الأداء الذي يجمع بين تقدير الإنسان أنـــه محاســـب علـــى مـــا اســـتخلف فيه، من ناحيتين:

1) ربط ما يعمل فيه بمبدعه فيشكره على ما يسر له العمـــل فيـــه مـــن أجـــزاء الكـــون، ويتجنب الإسراف والفساد.

2) الالتزام بقيم خلقية في الانجاز مـــن التجويـــد والصـــدق وعـــدم الغـــش، والإخـــلاص ونحو ذلك.

يقول ابن عطية: أن والده رحمه الله كان يقول: أحسن العمـل: أخـذ بحـق مـع الإيمـان، وأداء الفرائض، واجتناب المحارم، والإكثار من المندوب إليه.

وقد يظن الإنسان أن تأثيره في الكون هو تأثير بـاق مسـتمر إلـى أبـد الآبـدين. وهـذا غرور وخطأ كبير، فإن كل ما علـى الأرض ومـا عمـل فيـه الإنسـان سـينتهي إلـى عدم، يزول كل شـيء فـلا النبـات ولا المبـاني ولا الحيوانـات بباقيـة. إذ قـدر الله أن يتحول سطح الأرض إلى تراب لا يعمره شيء خال من كل حركة حياة.

وقبل أن أنتقل إلى الآية التالية فإن سؤالا يثور، ما صلة هـذه الآيـة بسـابقتها؟ أجـد فـي نفسي صعوبة للإجابة عن ذلك، لم يكشفها من سـبق مـن المفسـرين كشـفا مقنعـا. وقـد أشار الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور إلـى ذلـك. وإن كـان تحليلـه ومـا تضـمنه مـن معان نفيسة جدير بالاهتمام، فإن الربط لم يتبين لي بعد التأمـل فـي كلامـه. ولعـل مـا انقدح في ذهني بعد التأمل هو أن النبي ﷺ كان متأثرا أشـد التـأثر لعـدم إيمـان قومـه، وأن ظاهر الآية السابقة تسلية له ﷺ. وهذه الآية تؤكد تلكـم التسـلية : هـذه هـي السـنة التي يسير عليها الكون، فقد جعلنا ما يحويه الكـون زينـة يتسـابق النـاس للنيـل منهـا. ولكن القيمة هي كون العمل حسنا أو سيئا. ولا يخرج قومـك عـن هـذا القـانون. فـنحن أنزلنا عليك الهدى كما جعلنا مـا علـى الأرض زينـة لهـا، والنـاس بـين مقبـل علـى هدايتك، وبين معرض عنها، كشأنهم في زينـة الحيـاة الـدنيا بـين محسـن ومفسـد. وأن الفناء سيلحقهم جميعا وتظهر النتيجة السارة لمن أحسن عمـلا والخيبـة لمـن أفسـد. فـلا تحزن عليهم.

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَـٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى
ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ
ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَـٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا
لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَـٰهُمْ
هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن
نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَـٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَـٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ
لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَـٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكهف : الغار الواسع في الجبل.

الرقيم : كتاب كان مع أصحاب الكهف.

أوى الفتية إلى الكهف : اتخذوه مسكنا.

أمرنا :حالنا.

الرشد : الخير.

ضربنا على آذانهم : جعل آذانهم لا تسمع الأصوات.

بعثناهم :أيقظناهم يقظة المفزوع.

الحزب : الجماعة الذين توافقوا على شيء واحد.

أحصى : أدق في تقدير الزمن.

نقص : نسرد عليك خبرهم مجموعا، لا مفرقا.

النبأ : الخبر المهم.

زدناهم هدى : قوينا الهدى فيهم.

ربطنا على قلوبهم : ثبتناهم ثباتا لا تردد فيه.

الشطط : الإفراط في مخالفة الصواب.

سلطان بين : حجة واضحة.

بيان المعنى الإجمالي :

إيذان من أول الآية بالانتقال من الغرض السابق لكلمة "أم" لتنبيه السامع كي يستعد لما يلقى إليه. أحسبت أيها المتعجب من قصة أصحاب الكهف والوثيقة الضابطة لشرعهم، أنه أمر عجب حق ؟ إن ما يجري في الكون من التصرف الإلهي لا يعد معه أمر هذه القصة مستغربا. استمع إلى ما تم في هذه الأمر: ذهب شبان أصحاب قوة ورأي وخلق ودين إلى كهف في الجبل واتخذوه مسكنا يأوون إليه، فرارا من فتنة التسلط الغاشم على الإيمان. توجهوا إلى الله أن يؤتيهم رحمة خاصة من عنده وأن ييسر لهم أسباب الخير في إقامتهم تلك. تقبل الله خالص دعائهم وسلب منهم اليقظة فناموا نوما عميقا قُطعت فيه مداركهم عن الإحساس بالأصوات. ثم إنه بعد المدة المقدرة بعثهم من نومهم فزعين، وسيترتب على ما تم اختلاف الناس في المدة التي قضوها نائمين فمنهم مصيب ومنهم مخطئ، والله يعلم، بمجرد إخبار كل فريق عن وجهة نظره المصيب الذي كان أضبط إحصاء.

أخذ الله بعزته وجلاله يسرد في قرآنه القصة الحقيقية لأهل الكهف فقال : إن أهل الكهف فتية أقوياء نبلاء على خلق رفيع، آمنوا بربهم إيمانا صحيحا وتفضل الله عليهم فزادهم إلى إيمانهم توفيقا في الرأي والعمل. يظهر ذلك عندما أعلنوا في شجاعة بعد أن قوّى الله عزائمهم وثبّتهم، ربُنا هو رب السماوات والأرض، لن ننادي ولن نتوسل ولن نطلب أحدا غيره، إننا ندرك مقدار الخطأ البين والمناقضة للصواب لدعوة غيره إلها.

ثم التفتوا إلى قومهم منفصلين عنهم مشيرين إليهم بقولهم هؤلاء قومنا جعلوا لأنفسهم آلهة لا تمت إلى الله بصلة. عجب أمرهم! إنه لم يستندوا في دعواهم إلى حجة واضحة ، بل كلامهم مخالف للواقع فهم كذبة، وإنه لا يوجد ظلم أقبح ممن يفتري الكذب على الله.

بيان المعنى العام :

9-أم حسبت أن أصحاب الكهف...من آياتنا عجبا.

افتتحت الآية بلفظ " أم "وهي كلمة يؤتى بها للإضراب أي الانتقال عن الكلام السابق إلى غرض جديد. وتُعِدُّ السامع لما يرد عليه بعدها، بإيقاظه إلى أن ما سيذكر أمر هام. وذلك يحتمل أحد أمرين :

الاحتمال الأول: الاستغراب من بحث الناس في لهفة عن خبر أهل الكهف واعتباره أمرا عجبا، مع أن ما يشاهدونه في الحياة ويتكرر على أنظارهم أشد إثارة للتعجب. ذلك أن أصحاب الكهف استصحبوا الحياة التي كانت فيهم زمنا طويلا، أي إنهم بقوا أحياء مدة طويلة، ومن القواعد المسلمة : الأصل بقاء ما كان على ما كان، إذ الاستمرار لا يقتضي سببا جديدا يحدث أثرَهُ، بينما الانتقال يبحث له عن سبب مؤثر. فاشتغال الناس بخبر أصحاب الكهف هو غفلة عجيبة منهم عما هو أمامهم من الآيات البينات عن قدرة الله بتصرفه في الكون بحكمته، وخاصة بالهدم والبناء. فيكون معنى الآية: أحسبت، المخاطب به كل من يصح أن يتوجه له الخطاب، أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا آية عجيبة من آياتنا. ففي الكون آيات أعجب.

الاحتمال الثاني: السؤال عن علمه بأن أصحاب الكهف والرقيم كانوا أمرا عجبا، أي إثبات أن أمرهم عجب. فيتهيأ لمتابعة خبرهم.

وأصحاب الكهف الذين لزموا الكهف (المغارة الواسعة في الجبل) زمنا طويلا، وكان معهم رقيم. قيل في معنى الرقيم أنه من الرقم، أي الكتابة، إثبات مرقوم عليه أصول دينهم، أو الشرع الذي تمسكوا به، أو أسماؤهم وتاريخ اختفائهم. وقيل هو

اسم مكان الجبل الذي كان فيه الكهف أو البلـد المجـاور إلـخ كمـا قيـل إن الـرقم كـان على لوح أو على لوحين من رصاص أو من حجـر. وكـل هـذه الاحتمـالات تصـورات ليس عليها دليل ظني فضلا عن كونـه يقينيـا. وتدقيقـه لا يزيـد العبـرة وضـوحا، ولا ينقص منها. فلنعتمد أنهم لجأوا إلى مغارة في جبل تحجـبهم عـن أعـين النـاس، وأنهـم كانوا يصحبون كتابا، مدونٌ فيه ما وصلهم من الحـق ليكـون مرجعـا لهـم يتدارسـونه. وكذلك هم جماعة من الأمم السالفة، قـد يكونـون نصـارى، وقـد يكونـون مـن أتبـاع الديانات السابقة الذين فروا من العسف ورضوا بالعزلة ليثبُتـوا علـى إيمـانهم فـي وقـت عمت فيه فتنة المؤمنين. ثم إنه لمـا جـرى فـي بعـض الأعـراف دفـن المـوتى فـي الكهوف، واشتهرت قصة أصحاب الكهف، أخـذ كثيـر مـن النـاس فـي مختلـف بقـاع الأرض ينسبون ما يعثرون عليه إلى هـؤلاء الفتيـة. فقـد رأيـت مغـارة فـي الأردن يجزم الناس هناك بأنها لأصحاب الكهف، ويقـول الشـيخ محـد الطـاهر ابـن عاشـور : يوجد مكان بضاحية سكرة قرب ضـاحية المرسـى كهـوف صـناعية حقـق لـه بعـض علماء الآثار من الرهبان النصارى بتونس: أنهـا كانـت مخـابئ لليهـود يختفـون فيهـا من اضطهاد الرومان القرطاجنيين[1] وكثرت ادعـاءات مكـان معـين لهـم مـن الأنـدلس إلى مملكة الروم الشرقية.

10-إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا....من أمرنا رشدا.

أخذ القرآن في ذكر قصة أصـحاب الكهـف، فافتتحهـا بقولـه: اذكـر إذ قصـد الفتيـة، عبر عنهم بالفتية، إشارة إلى أنه قـد اكتملـت فـيهم صـفات الرجولـة مـن قـوة البنيـة وصلاح التفكير، ونبل الأخلاق. وسجلٍ أول ما سـجل مـا يعبـر عـن صـفاء عقيـدتهم وحسن توكلهم على الله فقالوا : ربنا مكّنا من رحمة خاصـة عظيمـة تناسـب مـا هـديتنا إليه من التمسك بدينك، وقدِّر لنا الأحوال التي نكـون فيهـا آمنـين علـى ديننـا تتيسـر لنا الأسباب لتكون حياتنا حياة مطمئنـة، مـوفقين للحـق. يقـول ابـن عطيـة : وينبغـي لكل مؤمن أن يجعل دعاءه في أمر دنياه هذه الآية فقط، فإنها كافية.

11- فضربنا على آذانهم....سنين عددا.

تقبل الله دعاءهم، فأعقبه بتقدير ما يحقـق مـا طلبـوه مـن فضـله، بتـدبير حكـيم منـه سبحانه. وأول شـيء أن الله غطـى علـى حواسـهم بنـوم ثقيـل فصـل بيـنهم وبـين الأصـوات. وعبـر عنـه بالضـرب علـى الآذان بـالنظر إلـى أن الإنسـان توقظـه

---

[1] التحرير ج ١٥ ص265/264

الأصوات وينام عنــدما لا تبلغــه المســموعات. واســتمر وضـــعهم علـــى هــذا النحــو مستغرقين في النوم سنين كثيرة ومعدودة ستتكشف عند قيامهم من نومهم.

12- ثم بعثناهم لنعلم....لما لبثوا أمدا.

وبعد مدة طالت أيقظهم الله فزعين، شأن النائم الــذي أفــاق بعــد أن طـــال نومـــه، وهنـــا يأخذ الناس في تقدير زمـــن نـــومهم وانقطـــاعهم عـــن النـــاس فـــي كهفهـــم، ويختلفـــون ففريق على صواب في تقديره، وفريق بعيد عن الصواب، ممـــا يـــدل علـــى شـــدة اهتمـــام الناس بأمرهم، و قوة عنايتهم بتقدير الـــزمن الـــذي قضـــوه فـــي كهفهـــم منقطعـــين عمـــا تضطرب به حياة مـــدينتهم. ليظهـــر فـــي الوجـــود أي الفـــريقين المختلفـــين كـــان أشـــد إحصاء، وأضبط للتقدير الصحيح، وكل ما يقـــع فـــي الكـــون يعلمـــه الله فـــي الأزل، كمـــا يعلمه علما واقعيا عند حدوثه.

13-نحن نقص عليك نبأهم بالحق...وزدناهم هدى.

الخبر من الله الذي لا يغيب عن علمـــه صـــغيرة ولا كبيـــرة، وكـــل علـــم ســـوى علمـــه منقوص. فابتدأت الآية بكلمة " نحن " المفيـــدة لعظمـــة المـــتكلم، فاســـتمعوا للحـــق الـــذي تولينا تعريفكم به في قصة أهل الكهف. إن الجـــامع للحـــديث عـــنهم: أنهـــم فتيـــة تحقـــق منهم الإيمان الواضح النقي بـــأنهم مرتبطـــون بـــربهم الـــذي تـــولاهم وأســـعدهم بعونـــه " بربهم" وتفضلنا عليهم فأضفنا إلى إيمانهم توفيقا للرأي السديد والعمل الصالح.

14- وربطنا على قلوبهم إذ قاموا...لقد قلنا إذا شططا.

وثبتناهم ثباتا عصمهم من الشك والتردد، فنزعنـــا مـــنهم الخـــوف وقوينـــا قلـــوبهم علـــى الجهر بالحق. يبدو هذا التثبيت والتأييـــد والقـــوة فـــي الموقـــف الشـــجاع الـــذي وقفـــوه، فقالوا: ربنا الذي نعبده ونطيعه ونتقـــرب إليـــه: هـــو رب الســـماوات والأرض، هـــو رب الكون كله. نحن ثابتون على هذه العقيدة إلى أبد الآبدين، لـــن نحيـــد عنهـــا، ولـــن ننـــادي ولن نتقرب ولن نتوسل إلى أحد غيره. إننا ندرك مـــا نقـــول إدراكـــا بينـــا واضـــحا، لـــو خرجنا عن ذلك لكنا أفرطنا في القول الخطأ المخالف للحق والصواب.

15-هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة...ممن افترى على الله كذبا.

أشاروا لقومهم مستحضرين لهم باسم الإشـــارة "هـــؤلاء" لإظهـــار الفـــرق بيـــنهم، اتخـــذوا بخيالاتهم آلهة من دون الله، أي أصـــناما لا رابطـــة بينهـــا وبـــين الله. يقولـــون مـــا لهـــم انحرفوا إلى هذا الحد، إنه ليس لهـــم أي دليـــل مـــن العقـــل، العقـــل الـــذي بـــه البرهـــان والحجة. وانتفاء البرهان العقلي لا يبقى معه إلا أن إعطـــاء هـــذه الآلهـــة صـــفة الألوهيـــة

أمر مخالف للواقع كما هو مخالف للمعقول. وإن أشد الناس ظلما للحق من افترى كذبا على الله.

وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الاعتزال : التباعد عن الشيء.

ينشر لكم من رحمته : يشملكم برحمته.

مرفق : ما ينتفع به.

تزاور : تميل.

تقرضهم : تتصرف عنهم.

الفجوة : المتسع داخل الكهف.

المرشد : من يبين للحيران الطريق الذي يرفع حيرته.

الوصيد : العتبة عند مدخل الكهف.

اطلعت : وقع بصرك عليهم وأنت تشرف عليهم من مكان مرتفع.

ملئت رعبا: عمر مشاعرك الرعب والخوف.

بيان المعنى الإجمالي :

لما قررنا أن ننفصل عن قومنا وعما يعبدونه من دون الله، فلنذهب إلى الكهف نعبد الله فيه ونقيم شرعه، وربنا كريم سيعمنا برحمته، وييسر لنا الأسباب التي تكون حياتنا معها رضية ناجحة.

يصفهم القرآن وهم في الكهف كأنك تراهم، ووضع باب الكهف من الشمس وضع متميز يتقبل النور والدفء والتطهير، دون أن تنعكس أشعة الشمس على أجسامهم، تميل عنهم إلى جهة اليمين عند طلوعها وإلى جهة الشمال عند غروبها. هو وضع من آيات الله. لقد هداهم لاختيار هذا الكهف كما هداهم إلى العقيدة الصالحة

والتوفيق في الأعمال، فهم المهتدون. ومن لم يعنه الله بهدايتـه فهـو ضـال لا يجـد مـن يبين له طريق الهدى والرشد.

إنك تظنهم إذا رأيتهم من علو أنهم غير نائمين، والواقع أن النوم استولى عليهم، وتجدهم يتحركون فيتقلبون في وضعهم من اليمين إلى الشمال. ومن ناحية أخرى فإن كلبهم ساكن معهم في مدخل الكهف ماد ذراعيه. إنها صورة لو اطلعت عليها لتملكك الخوف ورعبت منها، ولم يكن لك إلا قرار واحد وهو أن تفر من ذلك المكان.

بيان المعنى العام :

16- وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون...مرفقا.

انتقل القرآن في بيان القصة إلى المستوى الذي تـم الانفصـال بيـنهم وبـين قـومهم بعـد أن سجلوا عليهم ضلالهم وكذبهم. عند هـذا الحـد خاطـب بعضـهم بعضـا بقـول هـو خلاصة ما انتهى إليه الأمر : إذ قـررتم قـرارا لا رجعـة فيـه أنكـم تنفصـلون عـنهم، وأن تقطعوا العلاقة معهم ومع مـا يعبدونـه مـن دون الله، فإنـه تبعـا لـذلك لـم يبـق وجه للمقام معهم، فلنتوجه إلى الكهـف ونحـن آملـون فـي عـون الله فتشـملنا رحمتـه، وتعمنا بصفة لا نخشى معها ضيقا ولا إشـكالا. وإنـه سيسـعدنا فـي حياتنـا بالأسـباب التي يصحبنا بها الرفق واليسر.

17-وترى الشمس إذا طلعت...فلن تجد له وليا مرشدا.

يعرض القرآن مشهدهم وهم في الكهف غيـر متبـع للتفاصـيل التـي لا أثـر لهـا فـي العبرة، جاعلا التالي كأنه ينظر إليهم، لم تفصله عـنهم القـرون المتطاولـة؛ تـراهم فـي كهفهم وضوء الشمس ينفذ إلى داخل الكهـف مـع ألطـاف، فـلا تنكسـر الأشـعة علـى أجسامهم فتؤذيها بحرها، ولكن تقـوم بوظيفتهـا المطهـرة للـداخل مائلـة إلـى اليمـين صباحا وإلى جهة الشمال مساء. ومـع الإضـاءة المطهـرة وغيـر المؤذيـة تـراهم فـي فسحة الكهف الداخلية "فجوة منه". ولما كان القصـد مـن القصـة لـيس التسـلية، وإنمـا الاعتبار والاطمئنان إلى أن رعاية الله تقـدر للصـالحين الخيـر والحفـظ، لفتـت الآيـة النظر إلى أمرين:

1)إن وضع باب الكهف من الشمس من آثار قـدرة الله وحسـن صـنيعه. وهـدايتهم إلـى هذا الكهف من آثار عنايته التـي تتعـدى النـواحي الماديـة إلـى التوفيـق إلـى طريـق الرشد والثبات عليه. إنها ألطاف تحف بالإنسـان فـإذا هـو يختـار مـا هـو أوفـق لـه وأفضل عاقبة، وإذا هو منعطف إلى الخير مشمئز مـن الشـر، يجـد راحتـه فـي طاعـة الله والتقرب منه. يسمو في مراتـب الكمـال بصـفة متتابعـة. وفـي المقابـل فـإن مـن

يحرم الهداية أي الألطاف المساعدة، ويُتْرَكُ لنفسه واختياراته لــن يُلفِـي فــي حياتـــه مــن يبين له طريق الرشد ويسعده على اتباعه.

18-وتحسبهم أيقاظا وهم رقود...ولملئت منهم رعبا.

يواصل القرآن عرض المشهد فيعرض صــورتهم فــي الكهــف؛ إنــك إذا ثبَّــتَّ بصــرك فيهم، تجد من عجيب أمرهم أنك تظن مــن ملامحهــم أنهــم فــي حــال يقظـــة وراحـــة، والواقع أنهم نائمون. فلقوة لطف الله بهم يخــدعك بصــرك. ومممــا يزيــد هــذه الصــورة بيانا، أنهم يتحركون مرة إلى اليمين ومــرة إلـــى الشــمال، لــئلا تتــأثر أجســامهم تــأثرا غير مناسب، إذا هي استمرت على وضع خاص. والكلــب مــاد ذراعيــه بمــدخل الكهــف على الهيئة التي يكون عليها الكلاب في وقت راحتهم. فالجو كله سكون وطمأنينة.

في هذا الجو الساكن الهادئ، يحرك التصوير القرآنـــي التـــالي المتتبــع للمشــهد، حركـــة سريعة تخرج به من الهدوء إلى التفاعل معـــه، فيقــول: إنــك لــو قــدر لــك أن تشــرف عليهم فتراهم على تلك الصورة لتملكك الرعــب وفــررت مــنهم. ولمـــاذا يرتعــد النــاظر إليهم خوفا ؟ يرى بعضهم أن صــورتهم قــد تغيــرت تغيــرا مرعبــا فطالــت أظــافرهم واسترسلت شعورهم. ولم يرتض المحققون هذا لأنهم لــو تحولــوا إلــى صــورة مرعبـــة لتفطنوا لأنفسهم لما استيقظوا على ما سيأتينا في الــنص، وهــو مـــا لــم يحصـــل. ويـــرى الشيخ ابن عاشور أن المطلع عليهم يظنهم جماعة مــن اللصــوص كمنــوا فــي الكهــف، لأن من شأن الشطار أن يختفوا في الكهوف، فيمتلئ المطلــع علــيهم رعبــا، ويفــر قبــل أن يتفطنوا له. ويرى ابن عطية: أن الله أنزل علــيهم مــن المهابـــة والخــوف مــنهم مــا يدخل الرعب على المطلع علــيهم ويفــر. وتخــريج ابــن عطيـــة أقــرب لــروح الــنص القرآني. وأزيد هذا التخريج بيانا فأقول : إن الجــو العــام بمــا فيـــه مــن ســكون وأخــذ النوم من جميعهم أخذا يجعل الناظر إلــيهم متحيــرا هــل هــم رقــود أو أيقــاظ، والكلـــب على مدخل الكهف لا يتحرك ولا يتفطن للمطلع، الكلب الــذي لـــه مــن قــوة فــي حاســة الشم ما يجعله ينتبه لكل وارد، ومع ذلك هــو هـــادئ ســاكن لا يتحــرك ولا ينــبح، هــذه صورة عجيبة لم يتعود بها الإنسان في حياته، تثير فــي نفــس المطلــع وهــو فــي مكــان غير آهل الخوف والرعب، فالاختيار الأوفــق: أن يفــر. وهــو تصــوير بــديع يتفاعــل به القارئ مع المشهد حتى لا يكون العرض القرآني المعجز تصويرا ميتا للمشهد.

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْۚ قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْۖ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٖۚ قَالُواْ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى

ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الورق : الفضة.

أزكى طعاما: أطيب طعاما.

وليتلطف : ليكن حذرا حتى لا يتعرفوا عليه.

لا يشعرن : لا يعلمن.

يظهروا عليكم : يغلبوكم.

الرجم: الرمي بالحجارة إلى تحقق القتل.

الملة : الدين.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد نومهم الطويل تحركوا متيقظين، وأخذوا يتساءلون كم مدة قضيناها نائمين، قدروها بيوم أو بعض يوم، ثم أعرضوا عن الاستمرار في الاهتمام بهذا الأمر وقالوا: الله أعلم مفوضين الأمر إليه. وتحولوا إلى ما يهمهم وقد أحسوا بالجوع. فاتفقوا على أن يبعثوا أحدهم بما معهم من فضة ليختار لهم طعاما جيدا، وأوصوه أن يكون حذرا فلا يحدث أي مشكلة في تعامله يتبعها إيقافه وبحثه، ولا أن يتكلم إلى أي شخص يلقاه عن أمرهم. وذكّروا بعضهم بأن الحذر متأكّد لأن الملك وزبانيته لو عرفوا مكانهم لقتلوهم رميا بالحجارة أو لأجبروهم على ترك دينهم والدخول في ملة الكفر بالله وعبادة الأصنام، وتلك هي الخسارة الكبرى التي ليس بعدها فلاح.

بيان المعنى العام :

19←20: وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم...ولن تفلحوا إذا أبدا.

على ذلكم النحو العجيب مما فصله القرآن في شأنهم، تم تحريك حواسهم فاستيقظوا ونهضوا من نومهم، ليكون هذا التحول مفضيا إلى التساؤل بينهم، فاللام في قوله تعالى "**ليتساءلوا بينهم** "يعبر عنها بلام الصيرورة وليست للتعليل، كقوله تعالى **فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا**[1] شأن النائم بعد فترة من يقظته يعود له

[1] سورة القصص آية 8

نشاطه الفكري، وأول ما يتساءل عنه ليتبينه، كم طال أمد نومه ؟ قد يكون هذا بين النائم وبين من كان نائما معه، أو مع نفسه. ويسجل الحوار الدائر بينهم، قال بعضهم لبثنا نائمين يوما كاملا، وقال آخرون :لا، بل لبثنا نائمين بعض يوم. ويشير التسجيل إلى جدية هؤلاء الفتية، إذ البحث في هذا أمر لا فائدة منه. وربكم أعلم بالضبط الدقيق للزمن الذي قضيتموه نائمين ؛ أي إن هذا أمر لا يترتب عليه نفع لنا، وهو ما يُلمِع إلى وثوق صلتهم بربهم، واستحضارهم أنه معهم وهو المحصي لما يتقلبون فيه.

ثم إنك تراهم أيها التالي لقصتهم أنهم أعرضوا عن مواصلة الحديث في مدة نومهم، وعنوا بما ينفعهم. قالوا: ليتوجه أحدنا حاملا معه شيئا من الفضة التي معنا إلى المدينة ليكون وكيلنا علينا لشراء ما نحن في حاجة له من القوت، ويبدو أنهم أحسوا جميعا بالجوع عندما استيقظوا. فاختاروا أحدهم، أو تطوع أحدهم للقيام بذلك؛ وأوصوه بثلاثة أمور: أن يتخير من القوت أجوده وأحسنه فيشتري منه ما يكفيهم - أن يتوخى اللطف في التعامل فلا يثير مشاكل قد تعرضه للمساءلة فيفتضحوا - أن لا يعلم أي أحد عنهم. لما توقعوه أن يلتقي بأحد من معارفه فيجره الحديث معه إلى إمكان اكتشاف أمرهم. وهذه الوصايا الثلاث بالتأمل فيها نجد أن أكبر همهم أن يسلموا من الطلب الذي يتوقعونه. ذلك أن شأن المستبدين في الحكم، أنهم لا يرضون إلا بالطاعة العمياء لما يقررون. فهم يعلمون أن الملك الكافر الظالم لا يرضى منهم إلا أن يكونوا مطبقين لما اختاره من عبادة غير الله. فلذلك كان ثلثا الوصايا التكتم عليهم والحذر من كشف أمرهم. وحققوا هذا المعنى بما صرحوا به وهم يتواصون بالحذر من السلطة الغاشمة : إنهم إن يتمكنوا منكم فمآلكم أحد أمرين لا ثالث لهما : إما أن يقتلوكم رميا بالحجارة، وإما أن يجبروكم على أن تعلنوا بصفة صريحة أنكم تركتم دينكم وعدتم إلى دينهم. وتلك هي الخسارة العظمى والدمار الأبدي.

<u>لطيفة :</u> ذكر الزركشي أن الفاء الأولى في قوله تعالى فليتلطف نصف حروف القرآن التي عددها 340740 حرفا. البرهان ج 1 ص250-

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ

وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ
قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ
فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيۡءٍ إِنِّي فَاعِلٞ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ
وَٱذۡكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

العثور : الظفر بالشيء بعد الطلب له.

وعد الله : إحياء الموتى.

التنازع : الجدال القوي.

رجما بالغيب: إلقاء للكلام من غير مستند.

لا تمار: لا تجادل.

الظاهر : الذي لا يوجب متابعة الاحتجاج.

الاستفتاء : طلب الفتوى بالإخبار عن أمر علمي يعلمه الخواص.

غدا: زمن مستقبل.

الرشد : الهدى والخير.

بيان المعنى الإجمالي :

وعلى ذلكم النحو العجيب الذي مكثوا في كهفهم نياما محفوظين بحفظ الله، تم أيضا انتباه الناس لأمرهم. وقد استفاد الذين عثروا عليهم علما تجريبيا واقعيا مفاده أن ما وعد الله به من بعث الأموات أحياء وعد حق. وأن يوم القيامة سيحصل في اللحظة المقدرة يقينا.

واذكر ذلك المشهد وقد اهتموا بهم اهتماما بالغا فكل يقدم الحل الأمثل في نظره في التعامل مع أهل الكهف، وقد غابوا عن الأنظار. فقال بعضهم: لنبن عليهم بناء يحفظهم، وقال أهل السلطة في البلد: نقيم عليهم مسجدا.

ثم اختلف الناس الذين تتبعوا القصة من القرآن في عددهم، فسيقول بعضهم هم ثلاثة رجال ورابعهم كلبهم، وسيقول آخرون خمسة رجال وسادسهم كلبهم، وهم كمن يأخذ حجرا فيرمي به هدفا بعيدا عنه لا يراه فقلما يصيبه. وسيقول آخرون سبعة وثامنهم كلبهم، ولا فائدة من تتبع ما سيقولونه، فالله وحده هو العليم بحقيقة أمرهم وعددهم. وقد يُطلع الله بعض المقربين على عددهم. ولذا فلا تدخل معهم في جدال لا فائدة من ورائه، إلا إذا كان ردا مسكتا واضحا كقولك: الله أعلم

بعددهم. والمشركون وأهل الكتاب سواء في جهلهم بعـددهم، فـلا تَعُـدْ لأي مـنهم تطلـب منه ما عنده من العلم إذ لا علم لهم. ومن الأدب الذي نـزل مـع هـذه القصـة مـا أمـر الله به نبيه المؤمنين أن يتبعـوا كلامهـم عـن الأمـور التـي سـيفعلونها فـي المسـتقبل بقولهم " إن شاء الله " وأن يذكروا الله إذا نسوا التصريح بالمشيئة.

وثنى القرآن بدعوة الرسول أن يقول أيضا: إني راج أن يواصـل ربـي مـا خصـني بـه من القيام بأمر إبلاغ رسالة الإسلام التي هي أقرب إلى الخيـر وإلـى نفـع البشـرية مـن معرفة قصة أهل الكهف. وإن كانت قد تضمنت قدرا غير قليل من الحق.

بيان المعنى العام :

21-وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا...عليهم مسجدا.

ينتقل المشهد من الحديث عن أهل الكهف إلى ما اتصل بـه بعـد أن بعثـوا أحـدهم إلـى المدينة. ويطوي القرآن ما وقع للوكيل الـذي قصـد المدينـة ليشـتري الطعـام. ويبـرز المشهد على غير ما كان متوقعا؛ يفجأ التالي أنه على ذلكـم النحـو العجيـب مـن صـنع الله فيهم بإيقاظهم بعد نوم طويـل، يـتم العثـور علـيهم مـن سـكان المدينـة. تعـددت الروايات التي حاول أصحابها الكشف عن الطريقـة التـي تـم بهـا الأمـر، ومـا وقـع لأصحاب الكهف بعد ذلك، وهـي روايـات تعطـي تصـورا لتسلسـل أحـداث القصـة، ولكنها لا تستند إلى نص ولا إلى وثيقة. ولـذلك أعرضـت عنهـا كمـا أعرضـت عـن كثير من التفاصيل التي عمرت بها كتـب التفسـير، واقتصـرت علـى مـا يـدل عليـه النص القرآني وحده.

إن الحديث عنهم تناقله أهل المدينة الأخلاف عـن الأسـلاف، وإذا بهـم يعثـرون علـيهم بصنع الله المتصرف في أحداث الكون. وتكون عاقبـة العثـور علـيهم مـا حصـل لهـم من علم مشاهد يقترن إلى ما استقر في عقيدتهم مـن إحيـاء المـوتى والبعـث " **ليعلمـوا أن وعد الله حق** " كما يعلمون بصورة من مشـاهدة أصـحاب الكهـف كيـف إن نـومهم المدة الطويلة وهم غائبون عن الحياة تبعه إحيـاؤهم ليرتـب علـى حيـاتهم الجديـسدة مـا رتبه سبحانه. فهو أمر قريب من قيام الساعة وبعـث النـاس لتكـون لهـم حيـاة أخـرى. وبذلك اجتمع لهم مع العقيدة اليقينية فـي البعـث، وضـوح التصـور للكيفيـة التـي مـا كانت واضحة عندهم. وهذا كما جاء في سـورة البقـرة مخاطبـا لإبـراهيم: **قـال أولـم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي** –آية260–

وفي هذا الظرف الذي عثر أهل المدينة على أهـل الكهـف اختلفـوا فـي شـأنهم. ويبـدو من النص أن أهل الكهـف بعـد العثـور علـيهم اختفـوا مـن المشـهد، ولا أسـتطيع أن

أجزم بضبط طريقة اختفائهم، إذ هي حسب فهمي من الأسرار التي طويت في القصة ولم يكشف عنها. ولكن الذي سجله القرآن هو اختلاف الناس حول الوضع الغامض وما يتحتم اتخاذه لعلاجه. فمما سجله القرآن من الحلول المقدمة قول بعضهم: ابنوا عليهم بنيانا يحفظهم ويحميهم من الفضوليين وممن لا يقدرهم حق قدرهم، والله أعلم بهم فلا نجزم في أمرهم ومقامهم عند ربهم برأي مؤكد. وتقدم أصحاب السلطة برأي أدق حاصله : أن يكون البناء على شكل مسجد، معبد، مكان مقدس بقداسة المدفونين فيه. وهذا ما جرى عليه النصارى وقبلوه.

ملاحظة : إن اتخاذ المساجد على قبور من يظن بهم الصلاح هو كما قلنا ثقافة نصرانية. وكذلك نجده في البوذية، وفي ديانات أخرى. والإسلام قطع مع هذه التقاليد. فقبر رسول الله ﷺ في غرفة عائشة لا في المسجد وبجواره قبر أبي بكر وعمر، وكذلك قبور العلماء كأئمة المذاهب والصالحين. فمالك مثلا، رضي الله عنه قبره بالبقيع كبقية المسلمين. ولكننا نجد معادلة في حياة المسلمين: أنه كلما زاد ضعف الفهم للتوحيد، انتشر بناء المساجد على القبور وظهرت القباب. بل أبلغ من ذلك أن حصل الظن ببعض المعتوهين والمختبلين ومن يسيل لعابهم على صدورهم، ظُن بهم درجات عالية من الصلاح، وبنى الجهلة على قبورهم مساجد، وتقربوا إليهم بالقرابين. ولا أقول هذا شرك، ولكنه إيمان مدخول ومرض في العقيدة. أخرج البخاري بسنده إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال في مرضه الذي مات فيه: لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. قالت: ولولا ذلك لأبرز قبره. غير أني أخشى أن يتخذ مسجدا. علق عليه ابن حجر بقوله : وهذا قالته عائشة قبل أن يوسع المسجد النبوي، ولهذا لما وسع المسجد جُعلت حجرتها مثلثة الشكل محددة حتى لا يتأتى لأحد أن يصلي إلى جهة القبر مع استقبال القبلة [1] – كما أخرج عن عائشة أيضا أن أم حبية وأم سلمة ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير، فذكرتا للنبي ﷺ فقال : إن أولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات بنوا على قبره مسجدا، وصوروا فيه تلك التصاوير، فأولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة[2]،وخرج مسلم بسنده إلى جندب ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ يقول : ألا، وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك[3] .

22-سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم...ما يعلمهم إلا قليل.

[1] فتح الباري ج 3ص444

[2] الفتح ج2 ص70/71

[3] إكمال الإكمال ج2 ص234

انتقل الحديث عن أهل الكهف في الزمن الذي تم فيه من أمرهم ما تم، إلى أثر القصة في السامعين لها بعد أن سجلها القرآن. فقد أكسبت بذلك رواجا في المجالس. وأخذوا يتحدثون عنهم، وتساءلوا عن عددهم، وعن الزمن الذي قضوه نائمين، وقدموا فروضا لا تستند إلى دليل فبعضهم سيقولون: هم ثلاثة من الرجال، والرابع الكلب في عدد الذين ضمهم الكهف. وعُد الكلب بالنظر إلى أنه جرى عليه ما جرى عليهم من النوم والحفظ. وسيقول آخرون: خمسة والسادس الكلب، وتقدير الفريقين لا يستند إلى دليل، ولكنه كلام يلقى، كما يرمي الراجم بحجر شيئا بعيدا عنه لا يراه فلا يصيبه إلا قليلا. والغيب مستور لا يعلمون من أمره شيئا. وقد أصبح هذا التعبير" رجما بالغيب مثلا يجسم التخرص. وسيقولون : سبعة وثامنهم كلبهم. ويرشد القرآن النبي ﷺ إلى الموقف الذي يتعين اتخاذه في هذه القضية وفي أمثالها. إن العلم الحق المضبوط هو العلم الإلهي، فالله هو المتفرد بعلم الأشياء على حقيقتها، وإن علم الناس المبني على التخمين لا قيمة له، فلا فائدة من مواصلة عرض أقوالهم. وهو سبحانه يُطلع من يشاء من عباده، وهم قلة، على العدد الصحيح.

22- فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا...منهم أحدا.

ولما كان الله لم يقم دليلا على عددهم، وضبطُه عند الله، وذلك لا ينقص من عبرتها جهله، ووقتك أثمن من أن تناقشهم فيما افترضوه أو ترد عليهم فيما احتجوا به، فأعرض عن متابعة لغطهم ولغوهم، وقف عند ما هو يقيني ظاهر، كقولك الله أعلم بعدتهم ؛ والمشركون يستوون في جهل عددهم مع أهل الكتاب فلا تعد لأحد منهم تسأله عما يعلم من شأنهم. وعلى ذلك تكون هذه الوصايا منهج الإسلام في كل ما لا دليل عليه من العقل أو النقل.

23←24:ولا تقولن لشيء إني....لأقرب من هذا رشدا.

في اتباع ما سبق من قصة أهل الكهف بهذه الآية توقف لإبراز الاتصال. وكل الذين تتبعت كلامهم مجمعون على أن الرابطة، هي أن المشركين لُقِّنوا من أهل الكتاب أن يسألوا النبي ﷺ عن خبر أهل الكهف، وسألوه فعلا فوعدهم: أنه سيخبرهم غدا. وأبطأ عليه الوحي ثلاثة أيام، أو خمسة عشر يوما، ثم أتاه جبريل فأنزل عليه سورة الكهف. فتكون هذه الآية على ما روي عتابا لجزمه بأن موعد الإجابة سيكون غدا. وهذا العتاب هو تعليم لأمته المنهج في الالتزامات: أن لا يلتزم المؤمن إلا بما يعلم أنه مُمَكّن من الوفاء به. فإن كان غير متيقن من ذلك فليقل إثر

كلامه : إن شاء الله. ويكون نسج الآية المبني على الإيجاز ينحل إلى :ولا تقولن لشيء إن فاعل ذلك غدا إلا، تقول : إلا أن يشاء الله. أي إلا مع ذكر المشيئة. وليس المراد من قوله تعالى "غدا" اليوم الموالي ليومك، ولكن هو دال على المستقبل قريبا كان أو بعيدا.

ووسع الله على نبيه وعلى المؤمنين أن يذكروا " إن شاء الله" بعد مدة إن غلبهم النسيان عن ذكرها مقارنة للكلام.

وذكرها بعد مدة ينحل إلى قسمين: قسم مجمع عليه، وهو أن ذكرها بعد مدة يحقق التزام المؤمن بالأدب مع الله المالك لما يستقبل من الأمور. فلا يجزمْ بفعل شيء في المستقبل ليس هو في ملكه ولا في طوقه. وقسم مختلف فيه وهو حل الالتزام إذا أتبع بقوله " إن شاء الله " وخاصة في الأيمان فالذي عليه الجمهور أن الاستثناء ينفع المستثنى وتنحل يمينه إذا وصله بالاستثناء. فإذا قال الحالف : والله سآتيك غدا إن شاء الله، تحلل من يمينه في الوقت. فغدا كأنه لم يحلف وبهذا قال مالك وأبو حنيفة والشافعي؛ وإن كان المروي عن مالك أن قوله هذا، ليس مستندا إلى الآية التي تنحصر دلالتها على ذكر الله عند طروّ النسيان على الإنسان، ومستند قوله من السنة. وفهم علماء آخرون أن الاستثناء تنحل به اليمين وإن انفصل عنها بزمن، قدره عطاء بحوالي، خمسة عشر دقيقة (قدر حلب الناقة الغزيرة) وعند قتادة: ما لم يقم من مكانه، وعند الإمام أحمد ينفعه ما دام لم يتحول عن الموضوع الذي كان يتحدث فيه عندما أقسم.

كما أمر النبي ﷺ بقول "إن شاء الله" فيما يعد به من الأمور المستقبلية، أضافت هذه الآية إرشادا آخر له ولأمته حاصله : أن ييسر له من أسباب الخير والهدى ما يكون أولى وأنفع. وارتبط هذا الأدب بقصة أهل الكهف التي دعا إليها وعدُه بإجابتهم عنها غدا، وفيها إيماء: أن الوظيفة التي كلف بها من هداية البشرية إلى العقيدة الصحيحة، والتشريع المحقق للعدالة، والأدب العالي في العلاقات البشرية، ذلك أبلغ في الخير من معرفة قصة أصحاب الكهف.

وَلَبِثُواْ فِي كَهۡفِهِمۡ ثَلَٰثَ مِاْئَةٖ سِنِينَ وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعٗا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثُواْۖ لَهُۥ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَبۡصِرۡ بِهِۦ وَأَسۡمِعۡۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيّٖ وَلَا يُشۡرِكُ فِي حُكۡمِهِۦٓ أَحَدٗا ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

غيب السماوات والأرض : ما غاب علمه عن الناس فيهما.

أبصر به وأسمع: ما أتم علمه بالمبصرات والمسموعات.

بيان المعنى الإجمالي :

كشف القرآن عن المدة التـي قضـاها أهـل الكهـف نيامـا، فحـددها بثلاثمائـة سـنة، وذكرت الآيـة أنهـم زادوا عليهـا ثلاثـين سـنة. ويـرى بعـض حـذاق المفسـرين أن ثلاثمائة من السنين هي بالحسـاب الشمسـي، وأن ثلاثمائـة وتسـعة هـي عـدد السـنين القمرية. وقل للذين يقدمون تقديرات تختلف عـن هـذا التحديـد: إن التحديـد الحـق هـو ما حدده القرآن، فالله العالم وحده بكل ما يجـري فـي السـماوات والأرض، فمـا أشـمل وما أوسع ما يعلمه الله من المبصـرات والمسـموعات. وإن المشـركين لـيس لهـم ولـي يعينهم من دون الله. فهو المتفرد بالتصـرف والحكـم فـي الكائنـات جميعـا، ولـيس لأي أحد نصيب في ما يحكم به وينفذه.

بيان المعنى العام :

25- ولبثوا في كهفهم...وازدادوا تسعا.

في مستوى قيام أهل الكهف من نومهم، تساءلوا عن المـدة التـي قضـوها فـي سـباتهم، وأنهم فوضوا ضبطه لله "لبثنا يوما أو بعض يوم* بـل ربكـم أعلـم بمـا لبثـتم" وهـذه الآية تفيد أنهم بقوا في كهفهم على الحالـة العجيبـة التـي كـانوا عليهـا ثلاثمائـة سـنة بزيادة تسع سنين. وفهم بعـض الحـذاق مـن هـذا التعبيـر القرآنـي المعجـز، أن مـدة مكثهم ثلاثمائة سنة بالحساب الشمسي للسنين، ولما كانـت السـنة القمريـة تـنقص أيامهـا عن السنة الشمسية، فإنه يضاف لكل مائة سنة ثلاث سـنوات، فكـان العـد إن نظـر فيـه للسنوات الشمسية ثلاثمائـة سـنة، وإن نظـر فيـه للعـام القمـري كـان تسـع سـنوات وثلاثمائة.

26- قل الله أعلم بما لبثوا...في حكمه أحدا.

لما حقق القرآن مدة لبثهم في الآية السـابقة أعقبـه بـرد مقـالات أهـل الكتـاب الـذين قدموا مددا أخرى. فأمر الرسول ﷺ أن يقـول بوضـوح كامـل : الله أعلـم بالمـدة التـي بقوا فيها نائمين. وكل أقوالكم المخالفة، أقوال باطلـة نشـأت عـن جهـل لاعـن علـم. والله سبحانه هو الذي تفرد بعلم كـل الكائنـات والأحـوال التـي حـدثت فـي السـماوات وفي الأرض. وإذا استحضر الإنسان سعة علـم الله لكـل حادثـة فـي السـماوات أو فـي الأرض، فإنه يعجب لاشَكَّ من سعة العلم الإلهي. فمثلا كـل ورقـة عنـد بروزهـا وعنـد

نموها وفي حركتها وعند سقوطها وعند تحولها فتاتـا فـي الأرض، لـم تغـب أي حالـة من تلك الحالات عن بصـر الله وسـمعه مـن بدايـة الكـون إلـى أن يـرث الله الأرض ومن عليها. فجاء التعبير القرآني عن ذلك في صـيغة تعجـب: أبصـر بـه وأسـمع: مـا أوسع معلوماته البصرية والسمعية ! وبهذا العلـم الواسـع وضـبط كـل جزئيـة تحـدث في كون الله، فإن المشركين ليس لهم رعايـة مـن غيـر الله. إن آلهـتهم التـي عبـدوها من دون الله لا تـدرك أنفسـها فضـلا عـن أن تـدرك غيرهـا وحاجاتـه، وأن تسـعده بالعون عند الاضطرار. ولا يوجد من يشركه الله فـي حكمـه، فهـو وحـده المتصـرف، لم يفوض شيئا من التأثير والخلق لغيره. وعلى هذا الأسـاس تفهـم قصـة أهـل الكهـف. كلها حدثت عن علم شامل ورعايـة لكـل جزئيـة ولكـل مرحلـة مـن مراحلهـا، وكـل لطف حف بهم هو من ولايته وفضله، لا شريك له.

وَٱتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ
مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ
وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن
ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن
وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟
يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

التبديل : التغيير بالنقص أو الزيادة، ومنه إخفاء بعضه.

التلاوة : القراءة.

ملتحدا : ملجأ، ينجيك من عقابه.

اصبر: احبس.

الغداة : ما بين طلوع الفجر وشروق الشمس.

العشي: المساء.

لا تعد عيناك عنهم : لا تعرض عنهم

أغفلنا: جعلناه غافلا.

فرط: ظلم واعتداء.

أعتدنا : هيأنا.

السرادق : كلمة أصلها فارسية تفيد الخيمة أو ما يحيط بها.

يستغيثوا : يطلبوا الغوث.

المهل : دردي الزيت.

مرتفق : ما هو رفق للإنسان.

بيان المعنى الإجمالي :

إن القرآن الذي أوحيناه إليك، عليك أن تواصل قراءتــه علــى النــاس كمــا أنــزل إليــك بدون زيادة ولا نقــص ولا إخفــاء ولا تحــوير، إن كــلام الله لا يتجــرأ أي كــان علــى تبديله. هو كلام من لا يجد أحد ملجأ ينجيه من عقابه.

واحبس نفسك يا محمد مع الذين طهرت عقائدهم مــن الشــرك، وأعمــالهم مــن الخبــث، وهم متعلقون بربهم يدعونه صــباح مســاء يبتغــون رضــاه. واعــص وارفــض دعــوة الذين طبعنا على قلوبهم فكانوا سادرين في غفلاتهــم لا يــذكرون ربهــم، يقــودهم هــواهم ويتبعون دواعي غرائزهم، وكانت كل حياتهم ظلما وسبقا إلى الشر.

وقُلْهَا صراحة تقمع بها أطماع المشركين أن يســتنزلوك: جــاءني الحــق الواضــح مــن ربكم، وكل ما سواه باطل. ولست مسيطرا علــيكم فمــن شــاء أن يتبــع مــا أنــزل إلــي من الهدى فباب الإيمان مفتوح، ومن اختــار الاســتمرار علــى الكفــر فلــه ذلــك. ومــع ذلك فلتعلموا أن ربنا أعد للظالمين بكفرهم نارا مــن صــفاتها أنهــا تحــيط بهــم إحاطــة الخيمة بساكنيها، تطبق عليهم فلا يستطيعون الخــروج منهــا. وتحتــرق أكبــادهم عطشــا فيستغيثون طلبا للري، فيســتجاب لاســتغاثتهم بمــاء ضــارب لونــه إلــى الســواد هــو كدردي الزيت كَدِرٌ تعلو حرارته على حراة الماء، يشــوي وجــوههم بمجــرد مــا تقتــرب شفاههم منه. ما أسوأه من شراب، وما أسوأ جهنم مكانا يرتفقون فيه ويستريحون!

بيان المعنى العام :

27-واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك...من دونه ملتحدا.

لهذه الآية تعلق بقصة أهل الكهف. بيان ذلــك أن الله يقــول لنبيــه: واصــل تــلاوة مــا أنزلناه عليك من القرآن، على النحو الذي تلقيته عــن جبريــل بــدون زيــادة ولا نقصــان، ولا تلق بالا لما يعرضونه عليك، ويطلبونه مــن إجابــة عــن أســئلتهم فــي قصــة أهــل الكهف وغيرها. فإن ما جاءك مــن القــرآن هــو مــا أردت إبلاغــه للنــاس بواســطتك، وكلامي لا يقبل التبــديل. فــلا تُضــف ولا تُــنقص ولا تكــتم ولا تحــور، إنــك لا تجــد ملجأ، ولا حاميا ولا من ينجيك سواه، فبلغ ما أنــزل إليــك بشــجاعة وعــزم كمــا أنــزل، سواء أرضي به المشركون أم سخطوا.

28- واصبر نفسك مع الذين يريدون وجهه...أمره فرطا.

يواصل القرآن تأييد رسول الله ﷺ وتثبيته، أُمِـر فـي الآيـة السـابقة بـأن يصـدع بمـا أنزل عليه مطابقا لما أنزل عليه، وفي هذه الآية يرشـده الـوحي إلـى حـبس نفسـه مـع الذين أنار الإيمان قلوبهم، وحرر عقولهم، فهـم يتصـلون بـربهم اتصـالا لا ينقطـع مـن الفجر إلى العشي. ولا أفهم من هذا أنهم منقطعـون عـن الـدنيا مشـتغلون بالـذكر فقـط، ذلك أن الإنسان ما دام يعمل في الـدنيا مستحضـرا رقابـة ربـه عليـه ملتزمـا بأحكـام الإسلام فهو في عبـادة. إن دواعـي الغريـزة والأنانيـة وحـب الخيـر لنفسـه تـدعوه بطرق عديدة من الإغراء ليسلك المسالك التي ترضـي الشـيطان، وتـدعوه رقابتـه لربـه وعمق إيمانه للاستقامة مستحضرا دوما أنه فـي حضـرة ربـه، يطّلـع عليـه، ويجزيـه بالطمأنينة والرضا والسكينة والعون. ولا يشغله عمله عـن القيـام بمـا يزيـده قربـا مـن ربه من القيام بالفرائض، والنوافل، وحضور مجالس العلم والذكر.

والذين هداهم الله فأسرعوا بالدخول فـي ديـن الله، مـنهم أصـحاب الحـظ الاجتمـاعي المرموق كأبي بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بـن عـوف رضـي الله عـنهم، ومـنهم الفقراء كسلمان وآل ياسر. وكـان المجتمـع الجـاهلي فارغـا مـن كـل القـيم إلا القـيم المادية كالثراء والقـوة والجـاه. وكانـت الطبقـة الفقيـرة مسـحوقة محتقـرة، تمـنعهم كبريـاؤهم مـن الجلـوس معهـم. فكـان مـن تعـلات رؤوس الشـرك أن مركـزهم الاجتماعي لا يسمح لهم بـالجلوس مـع المستضـعفين وطلبـوا مـن رسـول الله ﷺ : أن يبعدهم من مجلسه حتى يربط أول خيط بهـم. ولغلـظ حاسـتهم الاجتماعيـة مـا دروا أن الإسلام قد جاء ليقلب المـوازين التـي كانـت تسـود مجـتمعهم، جـاء ليعيـد للإنسـان كرامته وقيمتـه الإنسـانية، هـذه القيمـة التـي يتفـاوت فيهـا البشـر تبعـا لمـواهبهم، ولاستقامتهم، ولدورهم الصالح في المجتمع. فـلا يعلـو ثـري معـدم مـن الأخـلاق، ولا ينزل فقير من المال غني بخلقه وأدبـه. والرسـالة التـي جـاء بهـا محمـد هـي إقنـاع البشر جميعا بأنهم عباد الله، وأن أكرمهم عند الله أتقـاهم. فكـان مقتـرح المشـركين مـن قريش بإبعاد الفقراء من مجلسه مقترحا مناقضـا لأصـل الـدعوة ولقيمـة الإنسـان فـي الإسلام. فهذه الآية مع غيرها تؤكد تلكـم المفـاهيم. أمـر الله رسـوله أن يحـبس نفسـه ويلازم هؤلاء المـؤمنين الصـالحين، وإن كـانوا فقـراء مـا دام صـفاء أرواحهـم قـد برزت آثاره في إقبالهم على الله صباحا ومساء. ثم ضـاعف التأكيـد بـالنهي عـن ضـد موقف حبس النفس ومعهم، فنهاه عن مجـاوزة النظـر إلـيهم إلـى الـذين جمعـوا زينـة الحياة الدنيا، التي عرفها القـرآن فـي قولـه تعـالى : **(المـال والبنـون زينـة الحيـاة**

الدنيا)[1] فيؤول معنى لا تعْدُ عيناك، أي لا تعــرض عــنهم مفضــلا مــن كــان ذا مــال وعزة إذا كان خاويا من الفضائل. ولا تطع، واغضِ ولا تتبــع مــن كــان عقلــه وقلبــه لا يذكر الله أبدا، وعنى ذلك أن الأشــرار تــدعوهم الفطــرة فــي أول حيــاتهم للتفكــر فــي الله، ثم لا يزالون يواصلون طرد هذه الخــواطر الفطريــة عــنهم حتــى تغيــب تمامــا، ويصبحون في غفلة عنها، وعندما ينقطع خــيط اتصــالهم بــربهم ينطلــق مــارد الهــوى فيتولى قيادتهم وتنقلب حياتهم إلــى اللهــث وراء المتعــة الماديــة كيفمــا اتفــق، فيكــون أمركُلٍ فرد منهم فرطا، ظلما لنفسه وظلما لأســرته، وظلمــا لمــن يتعامــل معــه، إذ هــو مأسور لنفعه وشهواته.

29- وقل الحق من ربكم فمن شاء...وساءت مرتفقا.

أمر النبي ﷺ أن يعلن ويصرح تصريحا واضحا يقطــع علــى المشــركين كــل أطمــاعهم أن يستنزلوا النبي ﷺ ليذهب فيما يرغبون فيه. قــل: إن الــذي جــاءني مــن ربكــم هــو الحق، وكل ما سواه باطل. وإذ تبين الحق وجــلا فــإن إيمــانكم أو كفــركم بمــا جــاءني من الحق لا يغير موقفي مما جاءني، فــأنتم بالخيــار بــين قبولــه والإيمــان بــه، وبــين الإعراض عنه والكفر بــه. فكونــوا يائســين يأســا لا انتظــار بعــده أن أهــادنكم فيمــا ترغبون فيه من التنازل عما أمرنــي بــه ربــي فــي الأصــول أو الفــروع. واعلمــوا أن جزاء من أعرض فظلم نفسه، وظلم الحقيقة، مقرر ثابت هــو النــار التــي تطبــق علــيهم فتحيط بهم كما تحيط الخيمة وما حولها بساكنيها.

ثم عرجت الآية على فعل النار فيهم وهم " تهكما بهم " في السرادق الذي لا مخرج منه، تسمع صوت الاستغاثة منهم، لا تبحُ حناجرهم من تكرار النداء طلبا للغوث، لتمكينهم شيئا يخفف عنهم حر النار. وما بقي في أذهانهم من الحياة الدنيا أن الماء هو الذي يخفف النار ويطفئها، فتقع الاستجابة لاستغاثتهم بماء أشبه ما يكون بدردي الزيت في لونه الضارب إلى السواد، وفي خاصيته. تلكم الخاصية هي أن الماء مهما أوقدت النار تحته لا تزيد درجة حرارته عن مائة درجة، أما الزيت والدردي فحرارتهما تعلوان على مائة درجة، فيشويان وجوههم كما تشوى بالنار. وسلط الشيُ على الوجوه لأن الوجه أشد إحساسا بألم الحرق. وتستأنف الآية كصوت ينطلق في المشهد يعلن النكال بهم، ما أسوأه من شراب! وما أسوأ مكانهم في جهنم! يرتاحون فيها" تهكما بهم ". بئس شرابهم شرابا، وبئس جهنم وسادة يتكئون عليها.

---

[1] سورة الكهف آية 46

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ
وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ
وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا نضيع : لا نحرم أجر من أحسن عملا. أي نمكنهم منه.

عدن: إقامة.

أساور: جمع سوار حلي يحيط بالمعصم.

سندس : صنف من الثياب رقيق يلبس فوق الجلد.

الإستبرق : ثياب من حرير أغلظ من السندس، أو منسوجة من ذهب وحرير.

بيان المعنى الإجمالي :

إن من جمع بين الإيمان الواضح، والعمل الصالح، يحقق الله لــه بفضــله وعدلــه كتابــة جميع ما قام به من عمل حسن في صورته وقصده ويجزيه عنه.

يميزهم الله بأن جزاءهم سـيكون جنــات يقيمــون فيهــا إقامــة أبديــة، مــن صــفتها أن الأنهار تتخللها فترويها ريًّا متواصلا، يزيدها جمالا ولطفــا. ويكســوهم ربهــم ثيابــا مــن حرير ناعم رقيق " سندس" وفوقه ثيــاب خضــر مــن حريــر مخــتلط بالــذهب. وهــذا تقريب للبشر بما يعرفونه في الدنيا، ولكن ما أعدَّ لهم هــو فــوق مــا تــدل عليــه الألفــاظ بمدلولاتها المعروفة في هذه الدار الدنيا. والجو كلــه أنــس وراحــة، فهــم متكئــون فــي مجالس رائقة على الأرائــك. وبصــفة عامــة نعــم الثــواب الــذي حصــل لهم،ونعمــت الراحة التي يستمتعون بها.

بيان المعنى العام :

30-إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات...من أحسن عملا.

وصفت الآية السابقة جزاء الكافرين، وشأن القــرآن أن يــزاوج بــين التهديــد والرجــاء، وبين ذكر النقمة للكافرين، والتكريم للمؤمنين. وعلــى هــذا النســق فصــلت هــذه الآيــة جزاء المرضيِّ عنهم، فبينــت :إن الــذين جمعــوا بــين صــفاء العقيــدة فتحقــق مــنهم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخــر والقــدر خيــره وشــره، ثــم اســتقاموا فكانت أعمالهم مطابقة لما شرعه الله فقــاموا بمــا أمــروا بــه، وانتهــوا عمــا نهــى الله

عنه، وتخلقوا بما أرشدهم إليـه رسـول الله ﷺ مـن رضـيِّ السـلوك ؛ان الله قـد تكفـل بإحصاء ما قدموا إحصاءً لا يهمل شيئا منه، وكيف يهمل مـا هـو حسـن فـي صـورته بمطابقته لشرعه، وما كان حسنا في أصله، بصـدوره عـن صـفاء الإيمـان. والإحصـاء يدل على جزاء ما قدموه صغيرا وكبيرا.

31-أولئك لهم جنات عدن....وحسنت مرتفقا.

فصلت هذه الآية ما أجمل في الآية السابقة، فحققته في نواح ثلاث:

الناحية الأولى: المقر هو جنات يقيمـون فيهـا إقامـة لا تنقطـع " عـدن" ومقابلـة جمـع المؤمنين العاملين للصالحات بجنات عدن، يـدل علـى اختصـاص كـل مـؤمن بجنتـه. ومع الإقامة الأبدية، وصفت بالجمال والنضـارة تبعـا لمـا تخللهـا مـن أنهـار تسـقيها وتلطف جوها. وتمـلأ نفوسـهم رضـى إذ هـم ينظـرون إليهـا مـن مكـانهم المرتفـع الكاشف، لما تفيده من تحتهم من علوهم علوا تمتد بـه أبصـارهم إلـى الآفـاق الفسـيحة المتناسقة.

الناحية الثانية: المظهر العام للمنعمين في تلكم الجنـات. تلحـظ أيـديهم وقـد حلاهـا الله بأساور من ذهب، وترى لباسهم من حريـر أخضـر مطعـم بالـذهب فـوق لبـاس مـن حرير رقيق يلي الجلد.

الناحية الثالثة :حلت عليهم الطمأنينة والرضى فهم فـي مجـالس راحـة وأنـس، متكئـين على الأرائك وهو جمع أريكة، والأريكة سرير عليه قبة وستائر من نسيج.

وتختم الآية بنظرة عامة تنطق بما أوتوه من نعيم وفضـل بلـغ أقصـى مـا يطمـح إليـه الإنسان من جزاء. نعم الثواب صيغة مدح للثواب الـذي أعـده الله لهـم، وحسـنت تلـك الأرائك مرتفقا، عكس ما قدر لأصحاب النار في الآية السابقة : وساءت مرتفقا.

۞ وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلٗا رَّجُلَيۡنِ جَعَلۡنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيۡنِ مِنۡ أَعۡنَٰبٖ وَحَفَفۡنَٰهُمَا بِنَخۡلٖ وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمَا زَرۡعٗا ﴿٣٢﴾ كِلۡتَا ٱلۡجَنَّتَيۡنِ ءَاتَتۡ أُكُلَهَا وَلَمۡ تَظۡلِم مِّنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ وَفَجَّرۡنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدٗا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهَا مُنقَلَبٗا ﴿٣٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

حففناهما بنخل : أحطناهما بنخل.

أكلها : ثمرها.

لم تظلم : لم تنقص عما هو متوقع.

الثمر : المال الكثير.

الصاحب : الرجل الآخر في المثل.

الحوار : مراجعة الكلام بين متكلمين.

أعز : أعظم عزة. ضد الذل.

النفر : عشيرة الرجل الذين يؤيدونه، والمقصود هنا الأولاد.

ظالم لنفسه : مشرك.

تبيد : تهلك.

أبدا : أمدا طويلا كما يبقى أمثالها.

منقلبا : المكان الذي يرجع إليه.

بيان المعنى الإجمالي :

لفت القرآن عقول المخاطبين بما يقـرِّب لهـم العاقبـة بضـرب مثـل لـرجلين أحـدهما كافر مستكبر والآخر مؤمن واثق بربه دار بينهمـا حـوار. كـان الكـافر ثريـا مسـتغنيا بما يتصرف فيه من أملاك، له جنتان نمـت فيهمـا أشـجار العنـب وأحـاط بكـل جنـة أشجار النخيل، وبين الجنتين مـزارع للحبـوب والبقـول، أثمـرت كـل جنـة مـا هـو المأمول منها من غير نقصان. ومع ذلك آتاه الله أموالا كثيرة.

انتفخ كبرياء بما جمعه فخاطب صاحبه المؤمن بقوله: أنـا أكثـر منـك مـالا ولـي مـن الأولاد والأتباع ما يمكن لعزتي فلا يستطيع أحـد أن ينـال منـي. ودخـل جنتـه وهـو متغطرس محجوب عن الحقيقة بكفره فقال : أعتقـد أن هـذه الجنـة لا يمكـن أن تفنـى، ولا اعتقد في البعث ولا في يوم القيامة، وحتى علـى ظنـك لـو بعثـت فسـأجد جنتـين خيرا من هاتين الجنتين أتقلب فيهما.

بيان المعنى العام :

32←34: واضرب لهم مثلا رجلين....وأعز نفرا.

من أنواع البيان القرآني ضرب الأمثال المعبرة عـن واقـع متحقـق، أو صـورة قريبـة التحقق، ليكون ذلك أوقع في نفس المخاطبين وأشد تـأثيرا. فهـذا المثـل يمكـن أن يكـون موجها إلى المستكبرين الذين طمعوا في طرد ضـعفة المـؤمنين، كمـا يمكـن أن يكـون مقصودا به المؤمنين لتثبيتهم، والكافرين لتهديدهم.

هذا المثل يصور رجلين :أحدهما متغطرس بما جمع من مال، وما له من أتباع، كافر بالله والمعاد. والآخر مؤمن متعلق بربه. جرت بينهما محاورة. سجلها القرآن للعبرة. يسير العرض حسب المراحل الآتية :

أولا: يصف القرآن ثروة المستكبر: إنه يتصرف في جنتين قامت أشجار العنب فيهما، وكل جنة تحدق بأطرافها نخيل باسقة، وبين الجنتين مزارع تنبت مختلف الحبوب والبقول. ولنلاحظ دقة التعبير القرآني، جعلنا لأحدهما، وجعلنا بينهما، فهو يوحي من طرف خفي إلى أن الجنتين وإن كان يتصرف فيهما صاحبهما إلا أن هذا الخصب الواضح في الجنتين، هو من الجعل الإلهي ولا يملك المتصرف فيهما شيئا من التأثير الباطن الذي يَسَّرَ أن تكونا على ذلك الوضع.

ثم يضيف إلى الصورة الجميلة في تنظيم الجنتين، أن الخصب والإثمار ظاهرة فيهما، فقد أثمرت كل واحدة من الجنتين الإثمار المنتظر منهما، ولم تنقص شيئا عن ذلك المستوى شيئا، إذ انضم إلى خصوبة الأرض مياه متدفقة من نهر يمد العروق بما تتطلبه من رِيٍّ.

ومع هاتين الجنتين كان هذا الرجل يملك أموالا أخرى من الذهب والفضة وغيرهما " وكان له ثمُر "

ثانيا: يُثَنِّي القرآن بعد ذلك ببيان أثر هذه الثروة على صاحبها، فيصوره وهو يخاطب الرجل المؤمن الذي لا يرى قيمة للثراء، ومتاع الحياة الدنيا، وأن القيمة الحقيقية هي في رضا الله. فيلتفت الغني المتغطرس إلى الرجل الصالح، ويقول له في غلظة وكبرياء : أنا أكثر منك مالا، وأنا أعز منك بالعدد الوافر من أولادي وأتباعي الذين يقومون لنصرتي، فلا يلحقني ذل أبدا. وكأنه يشير إلى أن صاحبه مستضعف لا يجد من يدافع عنه ويتقوّى به إذا طلبه من يريد إذلاله.

35←36، ودخل جنته وهو ظالم...خيرا منهما منقلبا.

ثالثا : سجل القرآن بعد ذلك وقد عظم اعتزازه بما أوتيه وهو داخل لجنته التي ضاعفت إحساسه بثروته وزادت في كبريائه وغطرسته، وحجبه كفره الذي ظلم به نفسه فأعماه عن العاقبة :إني معتقد أن هذه الجنة التي توفر لها التربة الصالحة، والماء النمير، هي جنة باقية خالدة لا تفنى. وأفرد الدخول إلى " جنته" ولم يقل: إلى جنتيه لأن الدخول يكون من إحدى الجنتين. وأكد قِصَرَ نظره بنفي قيام الساعة وطرح هذه العقيدة من فكره، وتهكما من صاحبه أضاف : إنه لو فرض أننا سنعود بعد الموت إلى ربي (أي حسب معتقدك) فإن مآلي لا يختلف عن حاضري، فسأكون في مقام رغد أجد عنده جنتين خيرا من جنتي هاتين أتمتع بهما.

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّي وَلَآ أُشۡرِكُ بِرَبِّيٓ أَحَدٗا ﴿٣٨﴾ وَلَوۡلَآ إِذۡ دَخَلۡتَ جَنَّتَكَ قُلۡتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالٗا وَوَلَدٗا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤۡتِيَنِ خَيۡرٗا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصۡبِحَ صَعِيدٗا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ :

النطفة : اللقيحة التي لقحت فيها البييضة بالحيوان المنوي.

حسبانا : يطلق بمعنى هلاكا مقدرا، أو سهاما قصارا، أو اسم جمع يدل الصاعقة، أو الجراد. والمعاني الأربعة تتلاءم مع الآية.

زلقا : لا تثبت عليها الرجل عند المشي.

غورا: غارقا في طبقات الأرض لا يبلغ وجهها.

بيان المعنى الإجمالي :

رد المؤمن على عنجهية المشرك بثقة فقال له : عجبا لك كيف تكفر بالله الذي خلقك من عناصر التراب التي تحولت في داخل أبويك فأفرزاك نطفة من بييضة الأم ولقاح الأب، وامتزجتا ثم والى عليك عنايته حتى تطورت إلى رجل مكتمل الخلْق والقوة. لكني أنا، أنا مؤمن بأن الله هو ربي لا شريك له. ولا أشرك بربي أحدا من الكائنات. لقد كان الواجب عليك أن يمتلئ قلبك من عظمة الله وتفرده بالتدبير والتصرف، عندما انبهرتَ لجمال جنتك ،وأن تقول : ما كان لهذه الجنة أن تبلغ ما بلغت إلا بفضل مشيئة الله، فإنه لا قوة تؤثر في الكون إلا قوته.

وواصل إن كنت تعتبرني أقل منك ثراء وولدا، فإن هذا لا يضيرني، فأنا آمل في فضل ربي، أرجوه أن يرزقني جنة خيرا من جنتك، وأن يرسل على جنتك من السماء ما يسحقها سحقا فلا يبقي فيها شجرا ولا نباتا، تزلق الأقدام على أرضها ولا تثبت. وعسى أن يذهب الماء الذي كان يرويها في باطن الأرض، فلا تستطيع أن تطلبه فييبس كل ما فيها عطشا.

بيان المعنى العام :

37←41: قال له صاحبه وهو يحاوره....فلن تستطيع له طلبا.

بعد تسجيل القرآن على المشرك المتغطرس مقاله، ودخائل نفسه، ثنّى برد المؤمن في محاورته له الذي لم يسكت على الباطل، ولم يلِنْ في الحق، فقال له : عجبا لك كيف تكفر بالله، ألم تنظر في خَلْقِكَ ! لقد خلقك الله من عناصر من التراب تحولت إلى نبات وإلى لحوم وألبان ثم دخلت في تركيب والديك فكنت جزءا منها ببيضة من الأم وحيوانا منويا من الأب، تم التلقيح بينهما، ثم والى عليك عنايته وألطافه حتى بلغت مستوى الرجولة والقوة التي أنت عليها. لكن أنا أعترف بأن الله هو ربي، ولا أشرك به سبحانه أحدا في الخلق والتدبير والتصرف. وكلمة "لكنا" مركبة من كلمتين "لكن" أنا" فأدغمت الكلمتان وليست لكنَّ ألحقت بها ألف كما قد يتبادر. وتقرأ بدون ألف عند الوصل. ثم واصل كلامه محرضا له على تغيير موقفه منكرا عليه تصريحاته، معرفا له بما كان ينبغي عليه أن يصرح به لما دخل جنته، كان عليه أن يقول: ما شاء الله. هو من باب الاقتصار على معنى ما شاء الله كان. اعترافا بأن النضرة والخضرة، والأشجار المحملة بالثمار، والماء المتفجر الذي عَمَّ ريُّهُ للجنتين ما كان ليجتمع كل ذلك لولا أن الله شاء ذلك، فهو الميسر للأسباب. وإن قواك لتضعف عن إنشائهما، فالقدرة والقوة المسخرة هي قدرته سبحانه.

ثم أضاف: إن استكبرت علي فحسبتني، لما كنت أقل منك مالا وولدا، أقل شأنا منك، فإن ذلك لا يضرني، ولا أراه موجبا لتفضيلك علي. إن ما يعمر به قلبي من الإيمان والتعلق بالخير والتواضع لله هو فضل دائم يصحبني في حياتي وبعد مماتي، وأنا آمل منتظر فضل ربي علي فهو قادر على أن يرزقني جنة خيرا من جنتك. أما ما هزك الطرب لجمعه فأنت مهدد فيه، فالله قادر على أن يرسل على جنتك من الآفات ما يمحقها، صواعق من السماء أو قذائف متتابعة لا تبقي فيها لا شجرا ولا ترابا فتتحول إلى أرض لا تثبت الأقدام عليها. وأن يذهب الماء الجاري في أعماق الأرض بعيدا فتيبس الأشجار والنبات، مما أنت مُزْدَهٍ به. وتعجز عن استخراجه بعد أن ابتلعته الأرض في جوفها.

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أحيط بثَمُرِهِ : عم الفساد ممتلكاته.

خاوية : خالية.

العرش : السقف.

الفئة :الجماعة التي يلجأ إليها.

الولاية: الرئاسة. ومَنْ قرأها الوَلاية فهي بمعنى الموالاة والنصرة.

عُقْب :آخرة الأمر. ما يرجوه المرء من سعيه

بيان المعنى الإجمالي :

يبدو المشهد في سرعة وقد ذهب المال وخربــت الجنـــة، وهــو قــابع فـــي ركـــن يقلّـــبُ كفيه حسرة وندما، ويستحضر ما كان ينفقه فيهــا راجيــا مضـــاعفة أموالـــه، فتتضـــاعف حسرته وأساه، ويقول يا ليتني لم أنزلق إلى الشــرك وأتخــذ إلهــا مــن دون الله. ويتــراكم حزنه لما خاب ظنه في القوة التي كان ينتظر منهــا أن تحميـــه وتســاعده، لــم يجــد مــن النفر الذين تبجح بهم أحدا ينصره، لا أمل له في قريــب يــدافع عنـــه .فـــي هــذا المشـــهد يتحقق أنه لا ولي إلا الله الحق، وأن مــا عـــداه زائــف لا حقيقـــة لـــه، وأن ثوابـــه هـــو الثواب الحقيقي الدائم وكذلك العاقبة التي يمكن منهـــا الصـــالحين، هـــي العاقبـــة الحســـنة، وما عدا ذلك باطل وبهرج ليس له ثبات ولا دوام.

بيان المعنى العام :

42←43: وأحيط بثمره فأصبح يقلب...وما كان منتصرا.

بلغ المثل الذي ضربه الله أن كل واحد من الرجلين كشف عما في نفسه، وارتسمت صورة الكافر شامخا بأنفه مستكبرا لا يخشى الله ولا يقيم في حسابه وزنا للتصرف الإلهي. وبدون مقدمات يعم جنتيه وما يملكه من أموال فساد ماحق، فلم يبق له من ممتلكاته شيء. وإذا صورته صورة البائس الحسير الذي يقلب كفيه ندما على ما أنفقه في عمارة الجنتين. ينظر إلى الخراب وقد عم كل ما يملك، مُجَسّمًا كأنه السقف سقط على الأرض ثم انقلبت الجدران عليه. وبجانب منظر الخراب المفزع نفس تأكل ذاتها ندما على انحرافها وكفرها، ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا، حقّ عليه العذاب وذهب المال وعصفت العواصف بالأشجار والثمار فما بقي من ممتلكاته شيء، وغاب ما كان يتبجح به من كثرة أولاده ومواليه، لم يجد منهم جماعة تنصره وقد حلت الكارثة الماحقة. وما كان له أي طريق ينتصر به فهو مهمل للحسرات والكآبة والخسران.

44-هنالك الولاية لله الحق هو خير ثوابا وخير عقبا.

تتجمع الصورة فيشير إليها القـــرآن بقولـــه: هنالـــك. يبـــدو للنــــاظر المتتبــــع لمــــا ســــاقه المثل من تفصيل كأنه في مكــــان محصــــور، تظهـــر الولايـــة والنصـــرة مختصـــة بــــالله

الموصوف بأنه حق. بمعنى أن ما عداه زائف لا حقيقة لـــه، وهـــو أضـــعف مـــن أن يُمِـدَّ بمساعدة. فإن ثواب الله سبحانه أفضل وخيـــر مـــن جميـــع أنـــواع الثـــواب الـــواردة مـــن غيره، إذ هي منقوصة فـــي ذاتهـــا، لا دوام لهـــا ولا ثبـــوت. ومـــا يقـــدره للإنســـان فـــي عاقبته أفضل أيضا.

في هذا المثل ما يوقظ المشـــركين الـــذين طلبـــوا أن لا يشـــرك النبـــي ﷺ فـــي مجالســـه ضعفة المسلمين، وأن يصانع كبريـــاءهم فيطـــردهم مـــن مجلســـه، فيـــه تجســـيم للعاقبـــة الخاسرة للمستكبرين، وأن المال بيد الله يعطيه من يشـــاء وينزعـــه ممـــن يشـــاء، وســـيحل بهم من الخسران ما حل بهذا المشرك الغليظ المستكبر.

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَـٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَـٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَـٰقِيَـٰتُ ٱلصَّـٰلِحَـٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحياة الدنيا: الأمد الذي يبقى فيه نظام الكون. ومدة حياة كل فرد.

اختلط به نبات الأرض : وفرة النبات والتفاف بعضه على بعض.

هشيما : محطما مفتتا.

تذروه :يتفرق متطايرا.

الباقيات الصالحات : الأعمال الصالحة التي يبقى ثوابها.

بيان المعنى الإجمالي :

جبلت النفوس على حب الحياة الدنيا ونعيمها، وهذا لا مانع منـــه، ولكـــن ذلـــك قـــد يـــؤثر في تقدير الأمور تقديرا خاطئا يتبعه التعلق بالحياة الـــدنيا تعلقـــا يغفـــل بـــه الإنســـان عـــن ربه، فأيقظه القرآن بمقارنة بين الحياة الـــدنيا وبـــين المـــاء النـــازل مـــن الســـماء الـــذي يسري في الأرض فتصبح الأرض مخضرة، ومـــا يـــزال ينمـــو نباتهـــا وتتشـــكل ألوانـــه مع الخضرة بالزهور فيبهج النفس، ولكن بعـــد مـــدة لا تطـــول تجـــف العـــروق والأوراق والأغصان، وتفتت ويسفيها الريـــاح فتتطـــاير فـــي الجـــو هبـــاء منثـــورا. ويكـــون ذلـــك مظهرا من مظاهر القدرة الإلهية. وهكذا الدنيا بالنسبة للآخرة.

إن من أفضل مباهج الحياة الدنيا المال والبنون. فهي نعم تعطي للحياة زينة وجمالا. ولكنها نعم غير باقية تفنى الآمال فيها بفنائها. وفي المقابل فإن الأعمال الصالحة لا يضيع شيء من أجرها، ثوابها عند الله، وصاحبها على أمل العون من ربه في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام :

45- واضرب لهم مثل الحياة الدنيا....على كل شيء مقتدرا.

يشد الواقع الحاضر الفكر فيظنه باقيـا، ويمضـي علـى غفلتـه تلـك، فيوقظـه الـوحي بضرب المثل القريب ليؤلف منه نظيرا يقرب الحقيقـة التـي لـم ينتبـه إليهـا. إن الـذي يحجب العقل عن استحضار المآل هو ما يحيط به مـن نعـيم، فـيظن أن ذلـك النعـيم لا يزول. ولكنه زائل غير باق. فيقرب القرآن ما تقدمـه الحيـاة الـدنيا للبشـر مـن ترفيـه، وما يحضره من أنواع النعيم، بالماء النـازل مـن السـماء، يسـري فـي طبقـات الأرض فيخرج بسببه مختلف أنواع النبات، ومـا زال الـريُّ يجـري فـي العـروق حتـى ينمـو ويلتف بعضه على بعض ويكسو وجـه الأرض بخضـرته اليانعـة، وبزهـوره المشـكلة الألوان، فتراه يحدثك بالحياة وبالجمال.

وفي وجه آخر من هذا المشـهد الجميـل تـذهب الخضـرة، ويجـف الـرواء، وتتكسـر الفروع ثم تتفتت، فتطير هباء في الجـو. والحالتـان تمـثلان مظهـرا يـدل علـى كمـال القدرة الإلهية، والتصرف في الكـون بالبنـاء والهـدم، ويخضـع النبـات إلـى الـزوال والموت كما خضع إلى الحياة. وهكذا أمر البشر، نعيم الحيـاة بالنسـبة لكـل فـرد زائـل، والأرض وما عليها والسماوات وما تحويه أمرها إلى زوال.

46- المال والبنون زينة الحية الدنيا... وخير أملا.

إن الذي يغشي على بصائر المشركين هو ما جمعوه مـن مـال، ومـا رزقـوا مـن أولاد. وقد رأينا صورة ذلك في المستكبر صاحب الجنتين " **أنا أكثـر منـك مـالا وأعـز نفـرا** " وهذا يبين من ناحية أخرى ما ورد في الآيـة السـابقة التـي تمـت فيهـا المقارنـة بـين الحياة الدنيا وما تنبته الأرض. فلفتت هذه الآية النظر إلـى مقارنـة بـين المـال والبنـين من ناحية، وبين الأعمال الصالحة من ناحية أخرى. نعـم للمـال وللبنـين قيمـة إيجابيـة في الحياة، ولكنها قيمة ظاهرية غير نافـذة إلـى الهيكـل الحقيقـي، همـا زينـة يلفتـان النظر، محبوبان للـنفس، وخيـر منهمـا الأعمـال الصـالحة، ذلـك أن المـال والبنـين زائلان لا يتصفان بالبقاء السرمدي، ولا بالنفع الـدائم، بينمـا الأعمـال الصـالحة ثوابهـا مدخر عند ربك الذي لا تضيع الودائـع عنـده، ومـن المقـرر أن العـاملين للصـالحات سيلقون عونا في الدنيا ورضا من ربهم. قـال تعـالى: **مـن عمـل صـالحا مـن ذكـر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**[1].

---

[1] سورة النحل آية97

وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعُرِضُوا۟
عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا
﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا
ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا
يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

بارزة : ظاهر وجهها وقد فني كل ما عليها.

وعرضوا : أُحْضروا غير محجوبين بحاجب.

الزعم : القول الخاطئ والاعتقاد المخطئ.

موعدا :حياة بعد الموت.

مشفقين : خائفين.

لا يغادر : يسجل ولا يترك.

الإحصاء : العد.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يا محمد يوم نُفِّتت الجبال فتسير هباء، وترى، كأنك تشاهد، مظهر الأرض وقد زال كل ما كان على ظهرها من نبات وحيوان، وجُمع المشركون كلهم فلم يتخلف منهم أحد؛ ثم عرضوا صفا كحال المجرمين الحاملين لوثائق اعترافاتهم بما فعلوه وما اعتقدوه، ثم يخاطَبون من رب العزة خطاب التقريع والتنديم : ها أنتم قد جئتمونا مضطرين لا خيار لكم ولا قدرة، كحالتكم يوم خلقناكم أول مرة في الدنيا، إذ ما كان لكم اختيار في يوم خلقكم الأول ، بل إنكم كَذَّبْتُمْ بدعواكم أنه لا بعث.

ومن شؤون الآخرة أن الله يضع الكتاب المحصي على البشرية عامة ما صنعت، ويمكن كل مجرم من كتابه الخاص، فيرى كل من تمكن منه الرؤية على وجوه المجرمين الخوف مما حواه، ويقولون في حسرة وتعجب : ما الذي جعل هذا الكتاب بلغ من الدقة في التسجيل أنه لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا سجلها ووثقها ! وجدوا كل أعمالهم ناطقة بما صنعوه. والله لا يظلم أحدا، فقد بعث إليهم الرسل وبين لهم الخير والشر، وما سجل في صحائفهم إلا ما صدر عنهم فعلا.

بيان المعنى العام :

47- ويوم نسير الجبال وترى الأرض....فلم نغادر منهم أحدا.

الآيات السابقة تشير إلى الحياة الأخرى. وهنا تصـــريح بـــبعض مـــا يـــتم يـــوم البعـــث. اذكر يا محمد اليوم الذي نسير فيه الجبال مما يفيـد أنهـــا تنقلـــب هبـــاء تتحـــرك حركـــة كثبان الرمل، ولا يقف المشهد عنـــد الجبـــال التـــي كانـــت راســـية عاليـــة قممهـــا، بـــل الأرض كلها تبدو جرداء لا نبات ولا حيـــوان. والحـــال أننـــا حشـــرناهم وجمعنـــاهم مـــن الأماكن التي كانوا فيها، ولم نبق أحدا. دُعُوا فأجـــابوا الـــداعي، كمـــا يجلـــب المغنـــاطيس جزيئات الحديد إليه.

48-وعرضوا على ربك صفا لقد....أن لن نجعل لكم موعدا.

جُلبوا من مراقدهم ليتم عرضهم على خـــالقهم، كمـــا يعـــرض المجرمـــون علـــى القضـــاء يحملون وثائق اعترافاتهم. ثم يواجهون بخطـــاب مـــن الله، فيـــه تقريـــع وتهديـــد وإثـــارة للندم على ما اعتقدوه من أنهم غير مبعوثين. مع تذكير بأن خلقهـــم فـــي هـــذا اليـــوم هـــو كخلقهم يوم وجدوا في الدنيا، ويقع الإضـــراب عـــن الكـــلام الأول ليواجَهـــوا بمـــا كـــانوا يقولونه معتقدين له: أنه لا حياة بعد الحياة الدنيا.

49- ووضع الكتاب فترى المجرمين...ولا يظلم ربك أحدا.

يتلو الحشر العام والحضور في المجمع المقـــدر، وضـــع الكتـــاب العـــام الحـــاوي لجميـــع ما عمله البشر في حياتهم الدنيا. نســـخة مـــن الكتـــاب مســـجلٌ فيهـــا أعمـــال كـــل فـــرد، ويفتضح المجرمون فكل من تصح منه الرؤيـــة يشـــاهد الفـــزع الـــذي عليـــه المجرمـــون، وقد استولى عليهم الخوف مما تضـــمنه الكتـــاب الحـــاوي لأعمـــالهم، هـــم يقولـــون فـــي أسف وحيرة وتعجب :ما الذي جعل هذا الكتاب مختصـــا بتســـجيل كـــل أعمالنـــا، عجبـــا له لم يترك صغيرة من أعمالنا التي فعلناها فـــي الـــدنيا، ولا كبيـــرة، إلا حفظهـــا ووثقهـــا! ويحقق القرآن أنهم استوعبوا في سرعة عجيبـــة هـــي مـــن أحـــوال الآخـــرة، إذ وجـــدوا كل أعمالهم حاضرة أمامهم. ويأتي التعليق المقرر للحقيقـــة الســـرمدية التـــي ذكـــروا بهـــا في الدنيا فلم يذكروا : إن ربك يـــا محمـــد لا يظلـــم أحـــدا، أمَـــرَ ونَهَـــى وبعـــث رســـله، ويثبت في كتاب أعمالهم ونياتهم ويعرضها عليهم فيقروا بها.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ۞ مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ

عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

فسق: خرج عن الطاعة إلى المعصية.

الذرية : النسل.

الولي : القريب الصديق المعتمد عليه.

ما أشهدتهم : ما أحضرتهم.

المضلين: الشياطين.

العضد : العظم الذي بين المرفق والكتف. وشاع إطلاقه بمعنى المعين على العمل.

موبقا: مهلكا، مكان هلاك.

ظنوا : الظن هنا بمعنى التحقق.

مواقعوها : واقعون فيها.

المصرف : مكان للتخلص.

بيان المعنى الإجمالي :

تذكير بقصة خلق آدم. اذكر يا محمد مجددا ما تم يوم قلت للملائكة اسجدوا لآدم سجود تكريم بطريقة تناسب الملائكة، وليست بوضع الجبهة على الأرض إذ الملائكة ليست لهم جباه ولا مفاصل، ولكنه سجود يتناسب مع خلقهم ومع تنزيه الله سبحانه. وأن الملائكة أطاعوا وسجدوا، وأن إبليس الذي كان من الجن وليس من جنس الملائكة وشمله الأمر، عصى ربه ولم يسجد مستكبرا. وحسد آدم حسدا سرى في ذريته، وتمكنت عداوتهم للجنس البشري. فالعجب من الذين يتخذون الشيطان وذريته عمدة يتبعونهم ويأتمرون بأوامرهم، مع هذا العداوة المتأصلة المستحكمة. ما أسوأها صفقة يستبدلون فيها طريق الهدى بسلوك مسالك الضلالة.

كيف يعبدون الشياطين !والشياطين ما كانوا مخلوقين يوم خلق الله السماوات والأرض، وكذلك ما تسلسل من ذرية الشياطين تم خلقهم بقدرة الله وحده، إذ لا يتصور أن يكون الشيطان مصدر الشر والخبث، مساعدا لله مصدر الكمال والخير.

واذكر أيضا عارضًا، مشهدا من مشاهد يوم القيامة. يوم يقول الله يوم الحشر للمجرمين: اطلبوا من شركائي الذين ادعيتم باطلا أنهم آلهة فعبدتموهم في الدنيا

وتقربتم إليهم لنصركم والشفاعة لكم. وصـــدرت مـــنهم صـــيحة الفاقــد للنصـــير مســتغيثة بهم، ولشد ما كانت خيبتهم لم يسمعوا مـــنهم جوابـــا، بـــل جعـــل الله بيـــنهم فوهـــات مـــن النار. ثم ظهرت لهم نار جهنم تستعر فحصل لهـــم اليقـــين أنهـــم يقعـــون فيهـــا ويكونـــون جُزْءا منها تتوقد بهم، وحل اليأس محل الأمل، وأحيط بهـــم لـــم يجـــدوا عـــن جهـــنم أي ملجأ ولا مخلص.

بيان المعنى العام :

50-وإذقلنا للملائكة اسجدوا...للظالمين بدلا.

انقسم هذا التذكير في الآية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول: أمر الله ملائكته بالســـجود لآدم فأطـــاعوا وســـجدوا. وقـــد تقـــدم ذلـــك فـــي سورة البقرة. وكان الأمر شاملا لإبليس، باعتبـــار أنـــه كـــان يعـــيش مـــع الملائكـــة، وإن كان عنصره من مارج من نار، وعنصـــر الملائكـــة مـــن نـــور. وظهـــر الفـــرق بينهمـــا بخروجه من الطاعة إلى المعصية " **ففسق عن أمر ربـــه** " فـــتم تســـجيل موقـــف إبلـــيس الوقح، الموقف الذي زاد في شناعته أنه كان مـــدركا لوضـــعه : إن الـــذي خلقـــه وتـــولاه بعنايته هو الذي أمره "ربه" ومع ذلك خـــرج مـــن دائـــرة الطاعـــة إلـــى دائـــرة العصـــيان والاعتراض.

القسم الثاني :الإنكار على من يعتمد إبليس ونسله مع ما طبعـــوا عليـــه مـــن الشـــر ومـــن عداوة بني آدم، وخبثهم بالوسوسة مـــا يوقعـــونهم بـــه فـــي الضـــلال والكفـــر. يتبعـــونهم معرضين عن الاعتمـــاد علـــى هدايـــة الله، مـــع أن الله يـــدعوهم إلـــى الطريـــق الراشـــد الآمن الذي يسعدهم في الدنيا والآخرة.

القسم الثالث : التقويم لاتخـــاذهم الشـــياطين أوليـــاء مـــن دون الله : هـــو أســـوأ حاضـــرا وعاقبة، وضلال مبين باستبدال النور الـــذي يـــأتيهم مـــن الله باتبـــاع الشـــيطان وتزيينـــه. فما أسوأه بديل للذين ظلموا أنفسهم : بئس للظالمين بدلا.

51- ما أشهدتهم خلق السماوات...المضلين عضدا.

استدلال على مضمون الآية الســـابقة التـــي تنكـــر علـــى المشـــركين تعلقهـــم بالشـــياطين وانصرافهم عـــن هدايـــة الله التـــي تفضـــل بتـــوجيههم إليهـــا عـــن طريـــق رســـوله ﷺ. وحاصل ذلك : إن الشياطين الذين تتعلقـــون بهـــم وتـــأتمرون بمـــا يـــدفعونكم إليـــه مـــن الشرك والضلال، هم محدَثون سبق العدم عليهم، ومـــا وُجِـــدوا إلا بعـــد خلـــق الســـماوات والأرض، فما كانوا موجودين يوم نفذت الإرادة القـــدرة الإلهيـــة إحـــداثهما، فضـــلا عـــن مشاركتهم لله في الخلق، فما أشهدتهم تدل علـــى نفـــي مشـــاركة الشـــياطين فـــي الألوهيـــة

والخلق على أبلغ وجه. ومـــا كانـــت الشـــياطين بمســـاعدة لله علـــى خلـــق الشـــياطين ولا حاضرة، فهم غائبون، لا أثر لهم لا فـــي خلـــق الســـماوات والأرض ولا فـــي خلـــق مـــا يتتابع من نسلهم.

وكيف يكون الكامل في ذاته وفي تصرفه، الحكـيم الـذي يقـدم لعبـاده مـا يهـديهم إلـى الرشد والحق، كيف يكون مستعينا بمـن محـض نشـاطه للشـر والإغـواء ؟ومـا كنـت متخذ المضلين عضـدا. علـى معنـى أن مفـيض الخيـر لا يعقـل أن يسـتعين بمـن لا ينشط إلا في التضليل والإغـواء. إنـه لا يـتم التعـاون إلا بـين المتجانسـين تعـالى الله علوا كبيرا، الله هو الخير المطلـق والشـيطان هـو الشـر المطلـق. وتكـون الآيـة ردا على المشركين وعلى الطبيعيين وعلى كل متخرص يقول بغير علم ولا دليل.

52- ويوم يقول نادوا شركائي...وجعلنا بينهم موبقا.

واذكر أيضا مشهدا من مشاهد يوم القيامـة، هـذا المشـهد يخاطـب الله فيـه المشـركين بما يحدث فيهم داعية لمناداة شركائهم الذين كـانوا يسـتندون إلـيهم فـي الـدنيا، هـؤلاء الذين كانوا يزعمون أنهم شركاء لله في الخلـق، أحقـاء بالعبـادة والتقـرب والاسـتغاثة ؛ اطلبوا منهم أن يقبلوا عليكم لنصرتكم وليشفعوا لكـم. وتنطلـق حنـاجرهم مناديـة داعيـة مستغيثة، وتخيب آمالهم فلا من مجيب، ممـا يضـاعف حسـرتهم علـى الضـلال الـذي كانوا عليه. ويقترن بذلكم الألم النفسي أن الله يجعل بـين المشـركين وبـين آلهـتهم، إثـر دعائهم، فوهات من نار جهنم. سـتزيد الآيـة التاليـة تفصـيلا لمـا يتبـع هـذا الكشـف الحاصل إثر النداء.

53- ورأى المجرمون النار...ولم يجدوا عنها مصرفا.

انفتحت تلكم الفوهات مـن جهـنم، ورأى المجرمـون، بـالكفر والإعـراض عـن هدايـة الله، نار جهنم تستعر، وهي محيطة بهم مـن كـل جانـب، وبمـن كـانوا يعظمونـه مـن الآلهة وهم في مواقع الذل يحـيط بهـم مـا أحـاط بهـم. فتيقنـوا أنهـم سـيقعون فيهـا فتحويهم وينقلبون جزءا منها، كما قـال تعـالى: **وقودهـا النـاس والحجـارة** [1]– وعبـر عن تحققهم ذلك بالظن استهزاء بهم. ولم يجدوا فـي ذلكـم الموقـف الحـرج أي مخلـص ولا منفذا للنجاة " ولم يجدوا عنها مصرفا"

---

[1] سورة البقرة آية 24

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ۖ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

صرفنا : نوعنا ولم نجعلها نمطا واحدا.

الناس : اسم جامع لكل من يبلغه القرآن في الحاضر والمستقبل.

الجدل : المنازعة في القول، قد تكون بحق وقد تكون بالباطل عنادا.

الأولين : الضالين قبل عهد البعثة المحمدية.

سنة الأولين : الحالة المألوفة.

قبلا :جمع قُبُل بمعنى أنواع من العذاب.

دحض الحق : إزالته وإبطاله.

الهزؤ : السخرية.

أكنة: جمع كنان وهو الغلاف الساتر.

ما قدمت يداه : ما قدم من السوء عقيدة وعملا.

القلوب : المدارك.

الأكنة : جمع كنان بمعنى الغطاء الحاجب.

يفقهوه : يدركوا باطنه.

بيان المعنى الإجمالي :

نوع القرآن الأمثلة الواقعية التي تقرب هداية الإسلام إلى العقول وإلى القلوب، وبالنظر إلى طبيعتها فإنه كان من المفروض أن يقبلها المخاطبون بها، ولكن ما فطر عليه الإنسان من النزاع لتثبيت ما هو عليه ولو بالباطل، جعلهم يجادلون ويحاولون رد الحق الذي جاء به الإسلام عقيدة وتشريعا.

إن الذي منع الكافرين من الإيمان والـــدخول فـــي ديـــن الله، وإدراك أنهـــم علـــى ضـــلال يحتم عليهم طلب المغفرة، بعد مـــا وضــــح لهــم مـــن الهــدى بضــــرب الأمثـــال، وبيـــان الرسول والدلائل التي ترفع الشك في صدقه، إن الـــذي مـــنعهم هـــو انتظـــارهم أن يحـــل بهم ما حل بـــالأمم الســـابقة مـــن أنـــواع العـــذاب المستأصـــل الـــذي ذكـــره القـــرآن، أو يستقبلوا أنواعا أخرى لا عهد للبشرية بها.

وما بعث الله رسله إلا ليَعْرِضـــوا بـــأتم بيـــان وأوضـــحه مـــا يبشـــر بالســـعادة المتقـــين، وينذر بالعذاب الكافرين الرافضـــين. ومـــا بعثـــوا ليشـــغلوا أنفســـهم بالجـــدال مـــع الـــذين صمموا على الرفض، والجدال بالباطل، والعزم علـــى هـــدم الحـــق. وضـــموا إلـــى ذلـــك الاستهزاء بما توعدهم القرآن وما أنذرهم من سوء مصيرهم.

إنه لا يوجد ظلم أشد من ظلم الـــذين تفضـــل الله علـــيهم بعنايتـــه وأرســـل لهـــم رســـله، وعرض على عقولهم وحواسهم الآيات البينة، ومع ذلـــك أعرضـــوا عـــن الالتفـــات إليهـــا وتدبرها. وبلغ من غفلتهم أن ما قاموا بـــه مـــن ســـيء الأعمـــال أصـــبح نســـيا منســـيًّا لا تلومهم نفوسهم عليه. صمموا على الكفـــر والعنـــاد فجـــازاهم الله مـــن جـــنس تصـــميمهم أن جعل قلوبهم محجوبة بحجـــاب لا تســـتطيع أن تعقـــل أســـرار آيـــات كتابـــه، وأصـــم آذانهم عن الاستماع لدعوة رسوله. ولذلك فإنـــك وإن بالغـــت فـــي دعـــوتهم إلـــى الهـــدى فإنهم لا يهتدون.

بيان المعنى العام :

54-ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن...أكثر شيء جدلا.

غير بعيد عن هذه الآية ضرب القرآن مـــثلا واصـــل تفصـــيلاته مـــن آيـــة 32إلـــى آيـــة 43 وأتبعه بمثل آخر آية 44- وضرب الأمثـــال طريقـــة قرآنيـــة تســـاعد علـــى التـــأثير على السامعين بالبيان والخوف والرجـــاء. وهـــي متنوعـــة المواضـــيع مختلفـــة الأســـلوب في العرض تحرك مدارك غير المعاندين الرافضين لقبـــول مـــا يقصـــد إليـــه القـــرآن فـــي الغرض الخاص، أو في الهداية الشاملة لاتبـــاع طريـــق الحـــق. ونظـــرا إلـــى أن الأمثـــال منغرسة في الواقع تقيم مقارنة بـــين الواقـــع وبـــين الحقيقـــة التـــي يعمـــل القـــرآن علـــى تركيزها في العقول والقلوب، ونظرا إلـــى أنهـــا متنوعـــة، ونظـــرا إلـــى أنهـــا تكـــررت تكرُّرًا يغطي جوانب عديدة، فإنه كان من المنتظر أن يحصـــل الاقتنـــاع بمـــا يـــدعو إليـــه الإسلام من عقيدة وتشريع. ولكن لم ينفع فيهم تنويـــع الأمثـــال وتعـــددها، فثـــار فـــيهم مـــا فطر عليه الإنسان من غريزة الأنانية وحب الذات، الأمر الـــذي يدفعـــه إلـــى رفـــض مـــا يرد عليه مما يغير النمط الذي يسير عليه، فكان عامـــل الغريـــزة المنحرفـــة حاجبـــا عـــن

تبين ما في هذه الأمثال من تقريب لما ورد على لسان رســول الله ممـــا يغيـــر مـــا ألفـــوه. والمجادلة قد تكون حسنة مقبولة إذا كان هدفها إظهـــار الحـــق أو دحـــض الباطـــل، وبهـــا يقنع الصالحون المنحرفين وبها تتم هداية الضالين، وقـــد تكـــون ذميمـــة إذا كانـــت بـــدافع التصميم على الباطل ومحاولة دحض الحق.

55- وما منع الناس....أو يأتيهم العذاب قبلا.

تكميلا لما أفادته الآية السابقة تكشـــف هـــذه الآيـــة : أنــــه بـــالرغم مـــن تعـــدد الأمثـــال، وتنوع البيان، ومنطقية هـــذا الـــدين ومســـاوقته للفطـــرة واعتمــــاده قـــوانين العقـــل، فـــإن السؤال المحير الناشئ هو، ما الذي منع الكافرين من قبـــول الـــدين الإســـلامي ولمـــاذا لـــم تستيقظ ضمائرهم فيدركوا فساد ما هم عليه، ويُعجِّلـــوا بطلـــب المغفـــرة عـــن ذنـــوبهم؟ إن الذي منعهم هو الذي منع من كـــان قـــبلهم مـــن الأمـــم التـــي رفضـــت دعـــوة الرســـل وأعرضوا عما شـــاهدوه مـــن الآيـــات والـــدلائل القائمـــة علـــى صـــدقهم ؛ هـــو العنـــاد والاستكبار عن قبول الحق إلـــى أن يتســـلَّط علـــيهم العـــذاب. علـــى معنـــى أن الكـــافرين بالقرآن ليس لهم ما يبرر امتناعهم من قبول هدايـــة الله، إلا أمـــر واحـــد، هـــو أن تتحقـــق فيهم سنة الله في الذين كانوا قبلهم من المكـــذبين، أي إنــــه يستأصـــلهم بنـــوع مـــن أنـــواع ما سلطه الله على الأمم الســـابقة كالطاغيـــة، والعاصـــفة، والـــريح الصرصـــر، والغـــرق، والرجة، مما ذكره القرآن جزاء للمكذبين. أو يسلط علـــيهم أنواعـــا أخـــرى مـــن العـــذاب التي منها القتل كما تم في بدر.

56-وما نرسل المرسلين إلا مبشرين....وما أنذروا هزؤا.

الآيتان السابقتان كشفتا عن داء الجدل المستحكم من الكافرين، كلما قام برهان ورفعت الشُبَهُ وتجلت الحقيقة. ظهروا بمظهر استيلاء العناد عليهم والمكابرة وعدم الرضوخ للحق، مع أن رسل الله للبشرية لم يبعثهم ربهم للجدل ولا ليصرفوا جهودهم للمعاندين المصممين، وإنما بعث رسله لينبهوا الخلق بعاملي البشارة لمن اتبعهم وعمل صالحا، والإنذار من سوء العاقبة لمن أعرض عنهم وأساء. فوظيفتهم هي إخراج الناس من غفلتهم وبيان العقيدة والتشريع بيانا مقنعا. ولكن الذين كفروا يصرفون جهودهم للجدل، وتقديم أباطيلهم بضروب من التلبيس ليشغلوا الرسل عن مهمتهم، وليقلقلوا الحق الذي معهم حتى ينحرف عن مساره، إذ الدحض في أصل معناه، يقال في الرجِل إذا انزلقت ولم تثبت في المكان الذي تحولت إليه.

و يجمعون إلى جدلهم بالباطل لإزالة تأثير الهـــدى، اتخـــاذهم آيـــات القـــرآن ومـــا نـــزل فيه مـــن النـــذر الموقظـــة مجـــالا للســـخرية والاســـتهزاء والاســـتخفاف، ممـــا يصـــرف الدهماء والعوام عن الإيمان.

57- ومن أظلم ممن ذكر بآيات...فلن يهتدوا إذا أبدا.

تفتح الآية بالسؤال الإنكاري (من) فكانت صـياغتها مثيـرة للـذهن ليبحـث ويتأمـل فـي الساحة ويقارن بين أوضاع البشر ليتبين مـن أشـد النـاس إغراقـا فـي الظلـم، فينتهـي إلى الإقرار بأن أشدهم ظلما لنفسه وللحقيقـة، هـو الـذي تـم تحريـك ذهنـه ومداركـه بالأدلة والآيات البينات؛ فأسـرع لاتخـاذ موقـف غريـب هـو عـدم الالتفـات إليهـا، ورفضِ التأمل فيها. ووجه الغرابة أن ما جاءه مـن ربـه ينبهـه إلـى فسـاد مـا قدمـه وسوء عمله. فهي آيات توقظه وتكشف له مـآلات أفعالـه التـي كانـت محجوبـة عنـه. وشأن العاقل أنه إذا نُبه أن ينتبه، فإعراض المشركين عـن مراجعـة أنفسـهم عـن قبـائح أعمالهم ظلم لنفوسهم، فصورتْهُم الآية في صورة من بلغـت بـه الغفلـة بالناسـي، لذاتـه تقبيحا لشأنهم وتقريعا لهم.

إن هذا الموقف الرافض قد استولى عليهم فـأقفلوا عقـولهم عـن التـدبر فـي آيـات الله، وبمجرد ما يقرع أسماعهم صـوت رسـول الله يـدعو إلـى ربـه ويبلـغ آياتـه وهـداه، ينصرفون عنه. جازاهم الله عن تصـميمهم علـى الـرفض والعنـاد أن حـرمهم ألطافـه، وغطى على عقولهم بغطاء صـفيق لا يمكّـنهم مـن النفـاذ إلـى فهـم أسـرار القـرآن، وأصم آذانهم عن سماع صوت الحق.

إن من سنن الله في الخليقة، أنهم إذا عزموا على مـنهج فـي الحيـاة، وتواصـل تطبـيقهم له، والعمل به، وصمموا على الالتزام به وأصـروا علـى التمسـك بـه، فإنـه مـع هـذه الخلفية لا يتحولون بعد انغراس ذلك، بالاختيار والعمـل والتطبيـق. وعلـى هـذا النحـو يعلم الله نبيه ﷺ أن هؤلاء المشـركين لا يهتـدون لا فـي الحاضـر ولا فـي المسـتقبل، وستنتهي حياتهم الدنيا وهـم علـى ضـلالهم، فـلا تحـزن ولا تبتـئس، فتلـك سـنة الله الماضية في البشر.

وَرَبُّكَ ٱلۡغَفُورُ ذُو ٱلرَّحۡمَةِۖ لَوۡ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلۡعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوۡعِدٞ لَّن يَجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوۡئِلٗا ﴿٥٨﴾ وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الغفور : شديد الغفران لكثرة ما يغفر ولقوة غفرانه الذي لا يدع أثرا للذنب.

موئلا : منجى.

بيان المعنى الإجمالي :

إن ربّك الذي تولاك بعنايته، وواصـــل أمـــداد إنعامـــه عليـــك هـــو الكـــريم الـــذي يغفـــر ذنوب التّائبين مهما عظمت. و هو الـــرّحيم بعبـــاده تشـــمل رحمتـــه مـــا لا يحصـــى مـــن النّعم، من الخيرات التي يوصلها لهم، و مـــا يـــدفع عـــنهم مـــن الشـــرور والآلام. و مـــن عظيم رحمته إمهاله بعدم تسليط العقوبة فـــي الحـــال، عســـى أن يـــؤمن الكـــافر و يتـــوب العاصي.

و لولا رحمة ربّك لسحقهم بمجرّد مـــا يظهـــر مـــنهم مـــن الكفـــر أو المعاصـــي. دون أن يجدوا منجى ينجّيهم. و تقوم أمـــام أنظـــاركم شـــواهد مـــن القـــرى التـــي أهلكناهـــا مـــع ساكنيها لما صمّموا على الشّرك واستمرّوا عليه. تحقّق إهلاكهم في الموعد المقرر.

بيان المعنى العام:

58-وربك الغفور...لن يجدوا من دونه موئلا.

إذا كانت الآية الســـابقة حققـــت أن الله طبـــع علـــى قلـــوب المعانـــدين وأســـماعهم، فإنـــه سبحانه مع ذلك يتولى المـــذنبين فيســـتر علـــيهم ذنـــوبهم، ويمحـــو آثارهـــا الســـيئة مـــن صحائفهم، إذا هم أقلعوا وتابوا. إن مغفرة ربك يا محمـــد مغفـــرة عظيمـــة شـــملت عـــددا لا يحصى من المذنبين، وأنواعا مختلفـــة مـــن الـــذنوب والتجـــاوزات مـــا عـــدا الشـــرك بالله. وبهذا تكون هذه الآية مؤكـــدة لمضـــمون الآيـــة الســـابقة، أن مـــا حـــل بهـــم مـــن الطبع على قلوبهم وعلـــى أســـماعهم كـــان جـــزاء مـــا رغبـــوا فيـــه وعملـــوا عليـــه، إذ أعرضوا عن التعرض لمغفرته ورحمته. ومـــن ناحيـــة أخـــرى فـــإن موقـــع هـــذه الآيـــة جار على ســـنة القـــرآن فـــي الهدايـــة أن يقـــرن بـــين الترغيـــب والترهيـــب، والبشـــارة والنذارة.

ورحمته سبحانه شملت حتى الكافرين، فإنه ســـبحانه لـــم يعـــاجلهم بالعقوبـــة، بـــل أفســـح لهم المجال، ليقلعوا عن ضلالهم، وعندها يغفر لهـــم مـــا ســـبق. **"قـــل للـــذين كفـــروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد ســـلف"**[1] فإمهـــالهم محقـــق للرحمـــة، وقبـــولهم محقـــق لوصـــف الغفور.

و ليس الإمهال إلا رحمة منه، لا مطمع لهم فـــي النجـــاة والانفـــلات مـــن العقوبـــة، فـــإن الله قد ضرب لهم الموعد الذي يجزيهم فيه، عمـــا قـــدموا. وهـــو موعـــد لا يجـــدون منـــه نجاة ولا ملجأ يحميهم. يتحقق في الزمن الذي قدره وفي المكان الذي أعده للحساب.

---

[1] سورة الأنفال آية 38

59-وتلك القرى أهلكناهم...لمهلكهم موعدا.

يحقق ما جاء في الآية السـابقة، مـن أن المشـركين لا ينفلتـون مـن عـذاب الله. مـا جرى على أهل القرى الذين أهلكهـم الله ومحقهـم، وهـي معلومـة لهـم حاضـرة فـي أذهانهم، تبعا لما شاهدوه من خراب ديـارهم، ولمـا تكـرر علـى أسـماعهم مـن أهـل الكتاب عن أخبار قوم نـوح وفرعـون وغيـرهم. وحقـق أن استئصـالهم كـان بسـبب ظلمهم. وأن الله قد حدد لكل شيء أجله. وما حـدده لا يختـل ولا يتقـدم ولا يتـأخر عـن موعده.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفتى : الشاب، والمقصود به هنا التابع للخدمة.

لا أبرح : أواصل السير ولا أفك عنه.

مجمع البحرين : روايات عديدة في تحديده من أرض فلسطين قد يكون مصب نهر الأردن في بحيرة طبرية. أو ملتقى البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، أو هو مضيق جبل طارق.

أمضي : أسيرُ

حُقُبا : زمنا طويلا.

السرب : النفق.

الغداء : طعام النهار.

النصب : التعب.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر هذه القصة العجيبة إذ أعلم موسـى عليه السلام فتـاه وهمـا مسـافران: أن سـفرهما هـذا سيستمر حتى يصلا إلى مجمع البحرين. وإذا لم يبلغـاه عـن قـرب فسيواصـلان متابعـة الطريق حتى يصلا إليه. وبلغا فعلا مجمع ما بـين البحـرين دون أن يعلمـا أنـه الموعـد

الذي سيلقى فيه موسى الخضر عليه السلام الذي سيأخذ عنـــه العلـــم الـــذي فاتتـــه معرفتـــه. ونـــام موسى وبقي غلامه يقظان.

وتحرك الحوت في ذلك المكان وعادت لـــه الحيـــاة وســـلك طريقـــه إلـــى البحـــر وأخـــذ يعوم في الماء. نسي موســـى أن يتفقـــد الحـــوت، ونســـي الفتـــى أن يخبـــر موســـى بمـــا حصل. فأنشأ السير من جديد إلى أن لحق التعبُ موســـى عليه السلام مـــن الســـير، وقـــد ارتفـــع النهار، فطلب من غلامه أن يعد الغداء وقال له : لقـــد انهكتنـــا الســـير. وتـــذكر الفتـــى مـــا كان نسيه، فأعلم نبيه أنه لما اتخذا من الصخرة مكانا اســـتراحا فيـــه وأخـــذ موســـى فيـــه حظه من النوم، في ذلك المكان تحرك الحوت وخرج مـــن المكتـــل وتوجـــه إلـــى البحـــر وعادت إليه الحياة كاملة، وأخذ يسبح في البحر علـــى طبيعتـــه كأنـــه لـــم يفـــارق الحيـــاة أصلا. وواصل : إنه لأمر عجب.

بيان المعنى العام:

60- وإذ قال موسى لفتاه...أو أمضي حقبا.

اذكر للناس هذه القصة العجيبة التي تكشف عن نظـــام فـــي الكـــون الـــذي لا يبلـــغ إلـــى الإحاطة به إلا رب العالمين. قد يقربنا مـــن إدراك مشـــاهدها مـــا رواه الإمـــام البخـــاري رضي الله عنه في صحيحه. آثرت أن أنقله عنه.

روى البخاري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما أنه قـــال: حـــدثني أبـــي بـــن كعـــب أنه سمع رسول الله ﷺ يقـــول: إن موســـى قـــام خطيبـــا فـــي بنـــي إســـرائيل، فســـئل أي الناس أعلم ؟ فقال: أنا – فعَـــتَبَ الله عليه إذ لم يردَّ العلـــم إليـــه (أي لـــم يقـــل: الله أعلـــم) فأوحى الله إليه أن لي عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منـــك. قـــال موســـى: يـــا رب كيـــف لي به ؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله في مكتل فحيثمـــا فقـــدت الحـــوت فهـــو ثـــمَّ. فأخـــذ حوتا فجعله في مكتل، فانطلق وانطلـــق معـــه فتـــاه يوشـــع بـــن نـــون، حتـــى إذا أتيـــا الصخرة وضعا رأسيهما فناما، واضطرب الحوت في المكتـــل فخـــرج منـــه فســـقط فـــي البحر – **فاتخذ سبيله في البحر سربا** – وأمسك الله عـــن الحـــوت جِرْيَـــةَ المـــاء فصـــار عليه مثل الطاق. فلما استيقظ نسي صـــاحبه أن يخبـــره بـــالحوت، فانطلقـــا بقيـــة يومهمـــا وليلتهما حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه: **آتنا غداءنا لقـــد لقينـــا مـــن ســـفرنا هـــذا نصبا**.– قال: ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكـــان الـــذي أمـــر الله بـــه. فقـــال لـــه فتاه : **أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نســـيت الحـــوت ومـــا أنســـانيه إلا الشـــيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجبـــا**– قـــال : فكـــان للحـــوت ســـربا ولموســـى ولفتـــاه عجبا. فقال موسى : **ذلك ما كنا نبـــغ فارتـــدا علـــى آثارهمـــا قصصـــا** – قـــال : رجعـــا

يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسـجى ثوبـا، فسـلم عليـه موسـى. فقال الخضر: وأنى بأرضك السلام ! قال: أنـا موسـى. قـال موسـى بنـي إسـرائيل ؟ قال: نعم، أتيتك لتعلمني مما علمت رشدا- قال : **إنـك لـن تسـتطيع معـي صـبرا** - يـا موسى إني على علم من علم الله علّمنيه لا تعلمه أنت، وأنـت علـى علـم مـن علـم الله علمك الله لا أعلمه، فقـال موسـى - **سـتجدني إن شـاء الله صـابرا ولا أعصـي لـك أمرا**- فقال له الخضر :**فإن اتبعتني فـلا تسـألن عـن شـيء حتـى أحـدث لـك منـه ذكرا.** فانطلقـا يمشـيان علـى سـاحل البحـر فمـرت سـفينة، فكلمـوهم أن يحملـوهم فعرَفوا الخضر فحملوه بغير نول، فلما ركبـا السـفينة لـم يفجـأ إلا والخضـر قـد قلـع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى : **قـوم حملونـا بغيـر نـول عمـدت إلـى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها لقد جئت شيئا إمرا.** قال : **ألـم أقـل إنـك لـن تسـتطيع معي صبرا** -**قال لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني مـن أمـري عسـرا** -.قـال : وقـال رسول الله ﷺ، وكانت الأولى مـن موسـى نسـيانا قـال: وجـاء عصـفور فوقـع علـى حرف السفينة فنقر في البحر نقرة، فقال له الخضـر: مـا علمـي وعلمـك مـن علـم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هـذا البحـر. ثـم خرجـا مـن السـفينة فبينـا همـا يمشيان على الساحل إذ أبصـر الخضـر غلامـا يلعـب مـع الغلمـان، فأخـذ الخضـر رأسه بيده فاقتلعه بيده فقتله. قال له موسى: **أقتلت نفسا زكيـة بغيـر نفـس لقـد جئـت شيئا نكرا- قال ألم أقل لك إنـك لـن تسـتطيع معـي صـبرا** - قـال وهـذا أشـد مـن الأولى- **قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصـاحبني قـد بلغـت مـن لـدني عـذرا- فانطلقا حتى إذا أتيا أهـل قريـة اسـتطعما أهلهـا فـأبوا أن يضـيفوها فوجـدا فيهـا جدارا يريد أن ينقض** - قال : مائل، فقام الخضـر فأقامـه بيـده. فقـال موسـى : قـوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا - لو شئت لاتخـذت عليـه أجـرا - **قـال هـذا فـراق بيني وبينك** - إلى قوله - **ذلك تأويل ما لم تسـتطع عليـه صـبرا**- فقـال رسـول الله ﷺ : وددنا أن موسى كان صبر حتـى يقـص الله علينـا مـن خبرهمـا ؛ قـال سـعيد بـن جبير: فكان ابن عباس يقرأ -وكان أمـامهم ملـك يأخـذ كـل سـفينة صـالحة غصـبا - وكان يقرأ - وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين[1].

المشهد الأول: يخاطب موسى عليه السلام فتاه وهمـا يسـيران، فيعلمـه مـن أول الأمـر أنهمـا سيواصلان سفرهما إلى أن يبلغا مجمع البحـرين، أو أن يتابعـا السـير أزمانـا. ومجمـع

[1] فتح الباري ج10ص 25/24

البحرين مكان أوحى الله إلى موسى أنه يجد الخضر عنـده، وهـذا الرجـل الصـالح قـد حصل على علم من عند الله لا يعلمـه موسـى. والـذي فهمتـه مـن هـذه الآيـة أن الله أعلم موسى أنه سيجد الخضـر فـي مجمـع البحـرين، وأن موسـى عليه السلام لا يعلـم علـى وجه الدقة المسافة التي سيقضيها حتى يبلـغ ذلـك المكـان، وأن الله قـد أقـام لـه أمـارة عليه، هي أن تعود الحياة للحوت الذي تزود به، فيكـون المعنـى أنـه سيواصـل السـير إلى أن يبلغ مجمع البحرين الذي يحيا فيه الحوت، فـإن كـان غيـر بعيـد ظفـر ببغيتـه، وإن كان بعيدا واصل السير إلى أن يلقاه. وفي هذا المشهد من العبر:

1)أن علم الإنسان مهما بلـغ هـو علـم محـدود، وأن وراء كـل منزلـة منزلـة أسـمى تتحرك الهمم الرفيعـة لبلوغهـا، فـإن موسـى عليه السلام وهـو مـن الرسـل أولـي العـزم المقربين، تاقت همته العلمية إلى الاستزادة من المعرفـة، والسـفر ليلقـى الرجـل العـالم الذي يكشف له ما جهله.

2) أن السفر مساعد على تحصيل العلم. ذلك أن الله كما خـص كـل ناحيـة مـن نـواحي الكون بمنتجات لا تجـدها فـي غيرهـا، فكـذلك المعرفـة والـذكاء وزعتهمـا الحكمـة الإلهية في الكون، ونال كل قوم ما كتب لهم. والسفر يكشـف لطالـب العلـم مـا يضـمه لمخزونه المعرفي فيكتمل. وكانت الرحلـة فـي طلـب العلـم بابـا مـن أبـواب النبـوغ العلمي في الحضارة الإسلامية.

3) الأدب الذي يستفيده التالي في التعبير عن العلاقـات البشـرية، فالـذي كـان يصـحبه موسى عليه السلام هو معين خادم له سواء أكان عبـدا أو حـرا، بـدليل أنـه طلـب منـه أن يعد لهما غداءهما ممـا اسـتُحْفِظَ عليـه. وسـماه القـرآن فتـى : أي شـاب. ثـم إن موسى راعى كرامته البشرية، وأنه إنسان يصـحبه لا دابـة يركبهـا، فعرفـه بقصـدهما، ولم يقل احمل وسر ورائي.

61-فلما بلغا مجمع البحرين....في البحر سربا.

المشهد الثاني: موسى وفتاه يواصلان المسير، حتى توقفا عند صخرة على البحر. ويبدو في المشهد موسى، وقد هدهده النسيم اللطيف البحري فأثقل جفونه ونام. وبجانبه فتاه يقظان لم يأخذه ما أخذ سيده. ما كان أحدهما يظن أن ذلك المكان هو المكان المقصود.

و بينما هو نائم اضطرب الحوت في المكتل، وعادت له الحياة، واتخذ لنفسه طريقا إلى البحر فأخذ يعوم في الماء كشأنه قبل أن يكون زادا. ولما كانت حياة الحوت تمثل النقطة المرجعية في سفرهما، فإنه مع ذلك نسي موسى أن يتفقد الحوت بمجرد ما أفاق.ونسي غلامه أن يعلمه بما حصل.

62-فلما جاوزا قال لفتاه....من سفرنا هذا نصبا.

أفاق موسى عليه السلام، وما كان يظن أنه بلغ المكان الموعود، فنهض مواصلا سيره مع غلامه. وظهر على موسى الإعياء، وصَحِبَه الجوع وقد طلع النهار. فطلب من فتاه أن يعد لهما الغداء. وتلطَّف عليه السلام في مخاطبة غلامه معللا طلبه ذاك بأنه قد تعب من مواصلة السير.

63- قال أرأيت إذ أوينا إلى....في البحر عجبا.

أفاق الفتى من غفلته وخاطب سيده قائلا: أخبرني هل أبصرت تلك الصورة الغريبة عندما كنا على الصخرة، فقد استولى علي النسيان وذُهِلْتُ، فنسيت أن أخبرك بما حصل. لقد أثر في الشيطان بما ملأ به مشاعري من المشاغل، والتفكير فيما أحياه في نفسي من الأمور التي حركها لتستولي على مداركي، حتى نسيت أن أخبرك بما جرى للحوت، فقد اتخذ الحوت طريقه عائدا إلى البحر الذي تم اصطياده منه. وإنه قد تملكني العجب مما رأيت وشاهدت.

و قد يتساءل المتابع لهذه القصة كيف يمكن أن ينسى الفتى إخبار سيده بهذا الأمر العجب بمجرد ما أفاق؟ يوضح ذلك أن قانون التذكر قانون معقد. إن اشتغال الذهن اشتغالا يصرفه عن تذكر الأمر المهم غير مستبعد، قد تجد المسافر وقد حزم أمتعته وسار إلى المطار، فلما حضر للتسجيل وجد نفسه قد نسي تذكرة السفر.وقد وقع مرة بحضوري أن الأب دخل إلى المنزل ليلا، ولما سئل عن ابنه الذي يصحبه من المدرسة تفطن عندها أنه نسيه.

قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

ارتدا: رجعا من الطريق الذي سلكاه.

قصصا: يتابعون الطريق بانتباه حتى لا يخطئا.

آتيناه رحمة : رحمناه بتوفيقه، وجعلناه سبب رحمة للناس.

علما : وحيا يقينيا.

أتبعك : أصاحبك.

رشدا : خيرا.

تحط: تتمكن.

خبرا: علما.

ذكرا: أبين لك باللسان.

بيان المعنى الإجمالي :

لم يعنف موسى فتاه، وتهلّل وجهه للخبر، وقال إن المكان الذي عاد فيه الحوت حيا إلى البحر هو المكان الذي نريده. فلنعد ملتزمين الطريق الذي سلكناه بعد نومي، حتى نبلغ مجمع البحرين وسارا. فوجدا عنده رجلا صالحا تخيره الله،وأفاء عليه من القرب ما نسبه به إلى نفسه (من عبادنا) وميزه بما أعطاه من العلم الخاص الذي لم يمكن منه البشر بما أوتوه من قوى العقل والإدراك.

عرض موسى على هذا الرجل الصالح العالم، أن يصحبه ليأخذ عنه العلم الذي خصه به الله والذي فيه خير كثير.

كان رد الخضر: يا موسى إن الشرط الذي يبلغ به طالب العلم المعرفة الواضحة غير متوفر فيك، يا موسى إنه الصبر، وأنت لا تستطيع أن تصبر على أمور تراها أمام ناظرك، ولم يبلغ مستوى علمك إدراك كنهها. إذ شأن الإنسان أن تتحفز جميع قواه أمام المجهول وتنبعث غريزة حب المعرفة قوية دافعة حسب الطبع.

ولما كان موسى من الرسل أولي العزم، لم ير في جواب الخضر ما يحرمه من التعلم منه، فهو من أشد الناس صبرا. فقال له: كن مطمئنا فستجدني بفضل الله وعونه صابرا لا أشوش عليك متعجلا. وأيضا فسأكون لك مطيعا لا أعصيك فيما تطلبه مني، فقد جمعت بحمد الله الوصفين الأساسيين في التعلم " الصبر والطاعة "

كان جواب الخضر بعد هذا التأكيد: أن الشرط بيني وبينك: أنك تسكت ولا تبادر بالسؤال عن أي شيء أقوم به، وتنتظر الوقت الذي أراه أنا مناسبا لأبين لك سر عملي، عِلَلَهُ وغاياته.

بيان المعنى العام :

64- قال ذلك ما كنا نبغ ... آثارهما قصصا.

المشهد الثالث : قبل موسى عذر فتاه ولم يعنفه، بل صرح له أنها بشارة منه لمّا كان يطلبه وسافر من أجله، وبدت علامات الاستبشار على وجهه، لقد تحققت

الأمارة التي أوحى الله بها إليه : أن الخضر تجده في المكان الذي يعود فيه زادكم من الحوت إلى البحر حيا. وتبرزه الآية وقد ولى ظهره وقفل راجعا متبعا الخط الذي سار فيه متثبتا من ذلك حتى لا يخطئ المكان الذي خرجا منه بعدما أخذه النوم.

65- فوجدا عبدا من عبادنا....من لدنا علما.

المشهد الرابع: اللقاء المرتقب عند مجمع البحرين، بين موسى وبين الخضر، ويصوره القرآن بأنه عبد من عباد الله، كرّمه الله فنسبه لنفسه تشريفا له وتمييزا من عبادنا) وتفصل الآية شيئا من مزاياه أن الله أسبغ عليه رحمته فقدر أن يكون موفقا فيما يختاره، وينتفع به غيره من آثار تلكم الرحمة. ومع الرحمة في السلوك والاختيارات ونفع الناس به، علمه الله بوحي منه علما صادرا من مكنون العلم الإلهي الذي لا ينال بالحواس ولا بالعقل. وهو العلم اللدُنّي. وسيظهر لنا بمتابعة القصة خصائص هذا العلم.

66- قال له موسى هل أتبعك...مما علمت رشدا.

بعد التعرف المطوي في القصة، يفتتح التسجيل لما دار بينهما.

موسى: هل تسمح لي بأن أتبعك وأصحبك على أن أتعلم منك مما علمك الله من الخير، فمصاحبة موسى للخضر مشروطة بأن يعلّمه ولا يكتمه ما خصه الله به من العلم. هذا العلم الذي هو غير علم التشريع وإصلاح المجتمع الذي مكن الله منه موسى بما أوحاه إليه وبما تضمنته التوراة. وإنما هو علم آخر مغيَّب عن البشر لا يدرك سره إلا بتبصير من الله.

67-68: قال إنك لن تستطيع...على مالم تحط به خبرا.

الخضر: بكل تأكيد لن تستطيع أن تصبر على ما ستشاهده معي، يشير إلى شدة غرابته وخروجه عن المألوف المتعارف. ذلك أن موسى ﷺ يطبق الشرع الذي يحكم بالظاهر، فيقبل ويقر ما ظاهره معروف، ويرفض ما ظاهره منكر. والخضر مفتوح عليه، فقد يفعل ما هو في النظر الأول منكر وفي العاقبة حسن ومعروف، وبالعكس. ويبدو هذا التأكيد لفظا بكلمة (إنّ) وكلمة (لَنْ) ووصياغة بدخول النفي على صبرا المفيد أن كل رتب الصبر منفية. وواصل بأنك معذور إن كان صبرك لا يتحمل السكوت عما ترى. إذ كيف تستطيع أن تسكت صابرا على أمور لا تقرها عند حدوثها لكونها منكرة، ولا تعلم مآلاتها الصالحة إذ هي من الغيب المستور. فكيف تصبر على ما لم تبلغ العلم به ؟ ويؤول الاستفهام إلى: أنت لا تصبر.

69 - قال ستجدني إن شاء الله...ولا أعصي لك أمرا.

موسى: كن مطمئنا فإنك ستجدني ملتزما بالصبر، لا أغير عليك شيئا مما تقوم به. كان الخضر يخشى أنه إن صحب موسى، وهو مكلف بإنجاز ما يراه الأصلح من الأفعال الخفية مصلحتها عمن لم يحصل له العلم الذي علمه الله إياه، قد يفسد عليه أمره بالإسراع إلى الإنكار، خاصة وشخصية موسى عليه السلام كما قدمها القرآن في أكثر من موقف شخصية شديدة في الحق. وعطف موسى على التزامه بالصبر وعدم العجلة، أنه سيظهر منه في صحبته الطاعة له. فعبر موسى عن عزمه على أن يتعلم من الخضر" وهو من الرسل أولي العزم "، وأنه لذلك أظهر أنه ملتزم بالوصفين الأساسيين للتعلم، الصبر على تحصيل العلم، بعدم التسرع لإدراك الغايات من أول الأمر، وثانيا الطاعة للمعلم الصالح الذي يرعى ما يبلغ من يأخذ عنه العلم، مستوى التحصيل والاقتناع.

70- قال فإن اتبعتني...حتى أحدث لك منه ذكرا.

الخضر :أكد ما عرضه أولا، بعد سماعه ما يطمئنه من موسى أنه لا يفسد عليه بعجلته وتدخله فيما يقوم به، فبين ما يعنيه من قوله : **إنك لن تستطيع معي صبرا**- فقال : إنك إن صحبتني فلا تسألني عن أي شيء يحصل مني، وإن بدا لك أنه غريب وغير مقبول، وانتظر الوقت الذي أراه مناسبا لأكشف لك عن مبانيه وغاياته فأحدثك بما يعرفك بما قمت به ما يكشف غوامضه وعلله " لاحِظْ واسْكُتْ "

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخرق : الثقب والشق.

الإمر : الفظيع

ولا ترهقني : ولا تكن شديدا علي.

زاكية: طاهرة.

نكر: لا تقبله العقول وتستهجنه.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن قبل موسى شروط الصحبة، أخذا يسيران على سيف البحر، وكانت سفينة قريبة منهما فطلبا من نوتيتها أن يحملوهما معهم. وبمجرد ما ركبا انتحى الخضر ناحية وأحدث ثقبا فيها. سارع موسى بالإنكار عليه إن فعلتك هذه ستعرض السفينة وركابها للغرق فكيف تسيء إليهم، وهم قد أحسنوا إلينا، إن هذا أمر فظيع. ذكّره الخضر بما سجله عليه من أول الأمر: أنه لا يستطيع أن يصبر على ما يراه مما هو مرفوض بداهة. طلب منه موسى أن لا يؤاخذه، لأنه نسي وصاته، وأن لا يعامله بشدة.

صفح الخضر عنه وسارا معا حتى لقيهما غلام، فأسرع الخضر وقتل ذلك الغلام، لم يصبر موسى على كبيرة قتل غلام لم يقتل نفسا، وغير مكلف، وصفحته ما تزال غير ملوثة بالآثام. وصرح بأنه هذا أمر منكر.

بيان المعنى العام :

71←73:فانطلقا حتى....ولا ترهقني من أمر عسرا.

المشهد الخامس : بعد أن تم الاتفاق بينهما والالتزام من كل طرف للآخر: موسى بالصبر وعدم المبادرة بالسؤال، والخضر بالتعليم والبيان في الوقت الذي يراه مناسبا.

الصورة : اصطحبا وسارا على سيف البحر، ومرت بجانبهما سفينة فطلب الخضر من نوتيتها أن يحملاهما على سفينتهم. وبمجرد ما استقرا على ظهرها أخذ الخضر آلة حادة وأحدث بها ثقبا ؛ وموسى يشهد ويستغرب كيف إن أصحاب سفينة حملوهم معهم ولم يشترطوا عليهم مقابلا لحملهم، وأحسنوا قبولهم، والسفينة مورد رزقهم، كيف يحدث فيها ما يعرضها وركابها إلى الغرق والموت. وموسى رسول من رسل الله قويت فيه ملكة النهي عن المنكَر؛ فبادر بالاعتراض على الخضر وقال له في صيغة المنكر لفعله: إن ما فعلتَهُ غير مقبول كيف تخرق سفينة أكرمنا أصحابها، فتجازيهم بتعريضهم للغرق، إن هذا أمر فظيع غير مقبول.

وبمقدار ما كان يلوح على موسى من الغضب، كان في المقابل يبدو على الخضر الهدوء، فأجاب : أسألك لأثير ذاكرتك، ألم أخبرك عندما طلبت أن تصحبني، أنك لا تملك القدر من الصبر الذي تستطيع به عند مصاحبتي ومشاهدة ما أصنع، أن تسكت وتنتظر ؟

اعترف موسى بتسرعه، وطلب من معلمه الصفح وعدم المجازاة والمؤاخذة على تسرعه بالاعتراض، وعلى نسيانه ما التزم به، ففي مضمون كلامه ما يدل على أن

نسيانه قد يعرضه لإقصـائه عـن مصـاحبة الخضـر. لا تُضَـيّق علـي ولا تعـاملني بشدة.

74- فانطلقا حتى إذا لقيا....لقد جئت شيئا نكرا

المشهد السادس: قبل الخضر ما اعتـذر بـه موسـى، ونـزلا مـن السـفينة وواصـلا السير. ويعترضهما في طريقهما غلام، فَيُقْدِمُ الخضـر علـى لـي عنقـه وقتلـه. وتملـك العجب موسى من فعل الخضر. فهذا غلام مـا يـزال فـي بـواكير صـباه غيـر مكلـف وبالتالي لم يرتكب ذنبا، وما تزال صفحة أعمالـه نقيـة، ولـم يقتـل نفسـا حتـى يؤاخـذ بالقصاص. ولم يحتمل موسـى وهـو الرسـول الكـريم أن يُهْـدَرَ أصـل مـن أصـول شريعته وشرائع جميع المرسـلين (التعـدي علـى الحيـاة)، فبـادر بإنكـار هـذا الفعـل وخاطب الخضر بقوله : كيف سـمحت لـك نفسـك أن تقتـل نفسـا طـاهرة فـي غيـر قصاص ؛ إن ما فعلته أمر منكر. وعبر عن الأول بأنه "إمْـر"، وعـن هـذا بأنـه منكـر. فاختلف في أي التعبيرين كـان أشـد ؟ الأول خـرق السـفينة وهـي تسـير فـي البحـر بركابها فظيع " لأن فيه هلاك جماعة لا فرد" ولـم يتحقـق ضـرره ولكنـه متوقـع، وأمـا هذا الفعل قد تحقق ضرره في الخارج والقتيل واحد. فاختلفت الأنظار تبعا لذلك.

الفهـــــرس

ســــورة التوبة : 3
إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ .... لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (93←96): 3
الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ... خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (97←100) : 5
وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ ... فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (101←105): 8
وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (106←110): 11
إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ ... وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (111←112): 15
مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ ... وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (113←116): 19
لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ ... مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (117←121): 21
وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا ... بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (122←127): 25
لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ... وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ((128←129): 29

ســــورة يونس : 32
الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ... بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (1←4): 32
هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ... أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (5←10): 36
وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ ... لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (11←14): 39
وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ... سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (15←18): 42
وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً ... إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ (19←21): 45
هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ .... بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (22←23): 47
إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ ... هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (24←27): 50
وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ... وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (28←30): 53
قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ... إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (31←36): 55
وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ... وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (37←44): 60
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا ... أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (45←49): 64
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ ...هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (50←56): 67
يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ .... وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (57←60): 70
وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ ... إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61←65): 73
هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ ... بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (67←70): 77

وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ ... كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (71—←74):..............................80
ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ ... وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (75—←82): 82
فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ ... مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (83—←86):.................................86
وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ ... وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (87—←89):.........................88
وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ ... فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (90—←93):................................91
فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ ... حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (94—←97):...........................94
وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ ...كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ (98—←103):...................................97
قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ... حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (104—←109): 101

ســــــورة هود: 105
الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ... كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (1—←6):..105
وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (7—←11):..................108
فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى .... فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (12—←14):....................................112
مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ... وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (15—←17): 114
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (18—←24):.................................117
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ... إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (25—←31): 120
قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا ... وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (32—←35):.....................124
وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ ...وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (36—←40):......................126
وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا ... وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (41—←44): 129
وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ ... فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (45—←49): 131
وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ ...إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (50—←57): 134
وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ... أَلَا بُعْدًا لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (58—←60): 139
وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ ... أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ (61—←68):......................................140
وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى ... إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (69—←73):..............................144
فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ ...وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (74—←76): 147
وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا ... وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (77—←83): 148
وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ ... إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ (84—←87): 152
قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي ... كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ (88—←95):......................155
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا ... وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (96—←99):........................159
ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ ... وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ (100—←109): 160
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ... فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (110—←115):......................164
فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ ... وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (116—←123): 167

ســــــــورة يوسف:..172
الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ... إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (1←6):..........................172
لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ... إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (7←10): 176
قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ ... وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (11←15): 178
وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ... وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ (16←18):.........................181
وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ...وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ (19←20): 182
وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ ... وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (21←22):..............................183
وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ... إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ (23←29):......................185
وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ ... لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ (30←35): 190
وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ ...فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (36←42):...............................194
وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ ... وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (43←49):..........................198
وَقَالَ الْمَلِكُ ائْتُونِي بِهِ ... إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ (50←53): 201
قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ ...وَكَانُوا يَتَّقُونَ (54←57): 203
وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ... لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (58←62):...................................205
فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا ... وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (63←67):..........................207
وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ ... وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (68←76):...................210
قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ ... وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (77←82):...................................215
قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا ... وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (83←86):....................217
فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ ... وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ (88←93):.....................................220
وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ ... إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (94←98): 224
فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ...وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (99←101):.....................................225
وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ... وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (102←106): 228
أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ ... وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (107←108): 229
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ...هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (109←111): 231

ســــــــورة الرعد: 234
المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (1←4): 234
وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ... إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (5←7): 238
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى ... وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (8←11): 241
هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا ... بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (12←15):....................................245
قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (16←18):.......................248
أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ ... وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (19←25): 253
اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ ...هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (26←30): 258

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ ... إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (31):..261
وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ... وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (32←35):........................262
وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ ... يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (36←39):..................266
وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ ... وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (40←43):.............................270

ســــــورة ابراهيم:..274
الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ ... أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (1←3):..274
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ ... فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (4←8):..276
أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ... وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (9←12):........................281
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ ... وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (13←17):................................285
مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ... خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (18←23):..................287
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ ... وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (24←27):..291
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ ... أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (28←31):..............................294
اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (32←34):........................296
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا ... فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (35←38):................299
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي ... يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (39←41):..302
وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا... وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (42←46):..........................303
فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ ... وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (47←52):..306

ســــــورة الحجر:..310
الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ... وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (1←5):..310
وَقَالُوا يَا أَيُّهَا ... وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (6←9):..313
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ... بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (10←15):..315
وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا ... وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (16←22):..............................317
وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ ... وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (23←27):..........................321
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ ... وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (28←35):................................324
قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي ... لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (36←44):..326
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ... وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (45←48):................................329
نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ...إِلَّا الضَّالُّونَ (49←56):..331
قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ... أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (57←66):..........................333
وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (67←77):..............................335
وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ... مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (78←84):..338
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ (85←89):..............................339

كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ... وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (90←99): 343

سـورة النحل: 349
أَتَى أَمْرُ اللَّهِ ... عَمَّا يُشْرِكُونَ (1←3): 349
خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ... وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (4←9): 352
هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ ...إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (10←18): 358
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ... إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (19←23): 364
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ ... خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (24←29): 366
وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ... مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (30←34): 371
وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا ... وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (35←37): 375
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ... كُنْ فَيَكُونُ (38←40): 378
وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ ...وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (41←42): 381
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ ... فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (43←47): 382
أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ ... وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (48←50): 385
وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ ... فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (51←55): 387
وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا ... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (56←60): 390
وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ ... وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (61←64): 393
وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ... لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (65←67): 396
وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ ... لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (68←69): 399
وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ ... هُمْ يَكْفُرُونَ (70←72): 402
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (73←76): 405
وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (77←78): 409
أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ ... وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (79←83): 410
وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ... بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (84←88): 414
وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ... وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (89): 417
إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ...وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (90←94): 419
وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ... مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (95←96): 427
فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ... وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (98←100): 429
وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (101←105): 431
مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ ... وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (106←111): 434
وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً ... فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (112←115): 438
وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ... إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (116←119): 442
إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ ... وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (120←123): 444

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا ... فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (124):....................447
ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ... وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (125←128):..............448

ســــــــورة الاسراء :..453
سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى ... إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (1):..453
وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ...وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (2←8):....................................458
إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ...عَذَابًا أَلِيمًا (9←10):....................................464
وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ... حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا (11←15):...........................465
وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً ... مَذْمُومًا مَخْذُولًا (16←22):..469
وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ... مَلُومًا مَدْحُورًا (23←39):..................................475
أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ ... إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (40←44):..................................491
وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ ... فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (45←48):..494
وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا ... إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (49←52):..................................496
وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ... وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا (53←55):............................498
قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ... وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (56←59):...............................501
وَإِذْ قُلْنَا لَكَ ....وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (60←65):..504
رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ ... مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (66←70):..................................509
يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ... وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (71←77):............................513
أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ ... وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (78←82):...........................518
وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ ... إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (83←87):..............................522
قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ... إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (88←93):....................................526
وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا ... وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (94←100):....................................530
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ... مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (101←105):..535
وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ ...وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (106←109):..537
قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ ... وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (110←111):....................................539

ســــــــورة الكهف :..543
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ ...صَعِيدًا جُرُزًا (1←8):..543
أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ ... مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (9←15):..............................547
وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ... وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا (16←18):..................................552
وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا ... وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا (19←20):...................................554
وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا ... لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (21←24):...............................556
وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ ... فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (25←26):..................................561

وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ ... وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (27←29):................................ 563
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (30←31):................................ 567
وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ ... لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (32←36):................................ 568
قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ ... فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (37←41):................................ 571
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ... خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا (42←44):................................ 572
وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ... ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا (45←46):................................ 574
وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ ... وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (47←49):................................ 576
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا ... وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (50←53):................................ 577
وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ... وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (54←57):................ 581
وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ... وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (58←59):................................ 584
وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ ... وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (60←63):................................ 586
قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ ... حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (64←70):................................ 590
فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا ... شَيْئًا نُكْرًا (71←74):................................ 593

نهج البيان في تفسير القرآن

سماحة الشيخ محمد المختار السلامي

مفتي الجمهورية التونسية سابقا

الجزء الرابع

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
1436 هـ - 2015 م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية، أو أشرطة ممغنطة، أو وسائل ميكانيكية أو الاستنساخ الفوتوغرافي أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من المؤلف.

9789938141917

ISBN: 978-9938-14-191-7

I.R.A

مطبعة التسفير الفني
Imprimerie Reliure d'Art

الهاتف: 030 432 74 216+
الفاكس: 248 432 74 216+
البريد الالكتروني
reliure.dart@tunet.tn

۞ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾

بيان المعنى الاجمالي

ومرة ثانية يذكره الخضر بأنه سبق منه أن نبهه إلى أنه لا يستطيع الصبر على ما يراه معه. لم يستطع موسى أن يعتذر بالنسيان، واعترف بخطئه وبقبوله لما يترتب عن ضعفه عن الوفاء بالشرط؛ لكن ليمهله مرة أخيرة، ولو عاد ثالثة فإنه يكون محجوجا، ولا يقبل منه أي عذر.

بيان المعنى العام

75-76: قال ألم أقل لك ...قد بلغت من لدني عذرا.

وبنفس المستوى من الهدوء يجيب الخضر على اعتراض موسى: ألم أقل لك من أول الأمر: إنك لن تستطيع الصبر على ما تشاهده مما ظاهره أنه مرفوض بداهة. وكان جواب الخضر أشد من المرة الأولى إذ قوى رده بزيادة (لك) ذلك أن أصل المعنى بدون" لك" لا يختلف عن التصريح بها .ولكنها أشد بيانا في لصوق القول بموسى.

لم يجد موسى ما يعتذر به، وقد خالف الشرط الذي لم يرض الخضر بمصاحبته إلا على أساس الالتزام به. فكان جوابه: الاعتراف بأنه قد تكرر منه عدم الوفاء بالشرط مرتين، وطلب منه إمهاله وعدم الإسراع بترك صحبته. ثم أضاف قوله: إن عدتُ فاقطع صلتك بي وامض في حال سبيلك، فقد وصلتَ إلى أن تكون معذورا في مفارقتي.

ويبدو لي أن الخضر كان ينفذ ما أذن له فيه مستندا إلى تعليم إلهي، وأنه قد أحيط بحماية إلهية تجعله لا ينكشف أمره، وأن إنكار موسى عليه قد يلفت الأنظار إليه، خاصة إذا كان بصوت مرتفع.

فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

استطعما أهلها: طلبا منهم استضافتهما بتقديم طعام لهما.

أن ينقض: مال بما يظن معه قرب سقوطه.

التأويل: التفسير لشيء غير واضح.

بيان المعنى الإجمالي:

واصلا السير على الشرط الذي شرطه موسى على نفسه. فمرا بقرية وكانا جائعين فطلبا من أهل القرية، مدهما بطعام، وقد غلب الشح عليهم، فامتنعوا من مواساتهما. وعرض لهما جدار مائل قريب أن ينهدم ويسقط على الأرض. تقدم الخضر وأقام ميلانه ليثبت ولا يسقط. لم ير موسى في هذا الاختيار مبررا لشح القوم وعدم تكريمهم من ناحية، ولأنهم لا يملكون حتى ما يسدون به داعية الجوع من ناحية أخرى، فلو اتفق معهم على أجر قبل إقدامه على إقامة الجدار لكان أولى.

ذكره الخضر بما اشترطه على نفسه قبل المرحلة الثالثة. وقال هذا موعد الفراق، وحسبما ذكرته لك في أول الأمر أني أفسر لك ما غمض عليك في إبانه، فهذا موعده. فسأفصل لك الأسباب والغايات لما لم تستطع أن تراها وتسكت عنها .

بيان المعنى العام :

77-فانطلقا حتى إذا أتيا ....لو شئت لاتخذت عليه أجرا

المشهد السابع: واصلا السير على الشرط الجديد الذي اقترحه موسى، أنه ينفصل عنه إذا لم يستطع الصبر على ما يراه من فعل الخضر.

دخلا قرية وكان قد أنهكهما السفر، وألم بهما الجوع، فسألا أهل القرية أن يقدما لهما طعام الضيافة. وبالسؤال تبين أنهما لا يملكان طعاما ولا نقودا. ولكن أهل القرية قد استولى عليهم الشح، فامتنعوا من استضافتهما. ومرا على حائط مائل ينذر بقرب سقوطه على الأرض. فعمل الخضر على إقامته بما يحفظه من السقوط.

موسى عليه السلام: لائما الخضر على تبرعه بإصلاح الجدار بدون مقابل لقوم لِئَامٍ أبوا أن يقوموا بحق الضيافة، وهما لا يملكان ما يطعَمَانه. على معنى أنه كان من حسن التدبير أن لا يسدي لهما خدمة إلا بعوض، يمكنهما من شراء ما يسد جوعهما.

<u>تنبيه:</u> تتخلل القصص حوادث لها أحكام في الوقت الذي وقعت فيه. والتي هي تشريع لأمم قبلنا، والقاعدة التي عليها معظم علماء الأصول: أن تشريع من قبلنا هو تشريع لنا ما لم يعقبه تنصيص برفعه عنا ونسخ حكمه علينا.

وحكم الاستضافة حكم باق ينظر فيه حسب الظروف. فإذا كان طالب الضيافة يمر في موضع لا يوجد فيه مكان لإيواء المسافرين فالضيافة واجبة، وإن كان في الحواضر المجهزة بمؤسسات الإيواء، فالضيافة من مكارم الأخلاق. ويرى الإمام أحمد أن الضيافة لمن طلبها واجبة على من طلبت منه يوما وليلة. وإذا كان الطالب للضيافة مسافرا لا يملك مالا، فإنه يستحق من مال الزكاة ما يقيم به في المكان الذي بلغه وما يكفيه لبلوغ بلده.

78- قال هذا فراق بيني ... ما لم تستطع عليه صبرا.

الخضر عليه السلام: لنستحضر ما اشترطّه على نفسك يا موسى أخيرا. فها هو قد تحقق في الواقع، وبناء على ذلك فقد بلغت الصحبة بيننا أمدها. وحسبما التزمتُ به من أول الأمر، فإني سأوضح لك حقيقة الأمور وأسبابها التي لم نتبين لك في ذلك الوقت، ولم تستطع الصبر إلى الوقت الذي أراه مناسبا، وهذا وقت الفراق هو الوقت المناسب فاسمع مني.

ذكر المفسرون أن الخضر أقام الحائط بمعجزة إذ أشار إليه بيده فاستقام. وبنوا ذلك على بعض الآثار. ولا أستطيع أن أؤكده تأكيدا أقحمه في تفسير الآية، إذ لو كان كذلك لنص القرآن عليه، لأنه من عجائب ما قام به الخضر عليه السلام .

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلۡغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤۡمِنَيۡنِ فَخَشِينَآ أَن يُرۡهِقَهُمَا طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدۡنَآ أَن يُبۡدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيۡرٗا مِّنۡهُ زَكَوٰةٗ وَأَقۡرَبَ رُحۡمٗا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلۡجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيۡنِ يَتِيمَيۡنِ فِي ٱلۡمَدِينَةِ وَكَانَ تَحۡتَهُۥ كَنزٞ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحٗا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبۡلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسۡتَخۡرِجَا كَنزَهُمَا رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ وَمَا فَعَلۡتُهُۥ عَنۡ أَمۡرِيۚ ذَٰلِكَ تَأۡوِيلُ مَا لَمۡ تَسۡطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرٗا ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

المساكين: يقصد بهم هنا الذين يكدون لتحصيل عيش غير مرفه .

وراءهم :خلفهم.

يرهقهما: يكلفهما، بمعنى يلقيهما حبهما له في اتباعه.

الزكاة: شرف الخُلق والسكينة المنطوية على خير .

الرُحم: الرحمة.

أشُد : كمال الخلق والعقل .

بيان المعنى الإجمالي:

أخذ الخضر يبين لموسى ما خفي عليه، مما أفقده الصبر فلم ينتظر الوقت الذي يتقدم فيه بالتفسير لما وقع.

الأمر الأول السفينة التي خرقها: هي سفينة يكد في العمل عليها مساكين للتحصيل على مكاسب ضئيلة تكفيهم لعيش غير مرفهٍ. فأردت يا موسى أن أحدث بها عيبا، لأنه كان يتبعهم ملك ظالم يغتصب كل سفينة صالحة ويسخرها لمصالحه. فبذلك العيب القابل للإصلاح سلمت لهم سفينتهم.

الأمر الثاني: ذلك الغلام منحدر من أسرة مؤمنة لها تأثيرها في المجتمع، وكان هذا الولد حسب مداركه وقوة شهواته، ورفضه لما وراء المحسوسات، وقدراته الكبيرة على التأثير في أبويه، سيتطور إلى الكفر ويؤثر في أبويه فيجرهما إلى الظلم والإلحاد. فأذنَ للخضر أن يقتله ، والله يعطيهما عوضه غلاما أفضل منه خلقا وفيما يصدر عنه من خير ورحمة.

الأمر الثالث: الجدار، كان ملكا لصغيرين يتيمين، وقد أخفى والدهما الرجل الصالح قبل موته كنزا لهما تحت الجدار. ولو سقط قبل بلوغهما لانكشف الكنز وتعرض للاستيلاء عليه. وتعلقت إرادة الله لطفا بهما أن يحفظ الكنز إلى أمد بلوغهما، وقدرتهما على استخراجه. كل ذلك من رحمة ربك يا موسى. وما فعلت شيئا مما لم تصبر عليه بترجيح من ذاتي، ولكنه بإذن رباني.

بيان المعنى العام :

79←82-أما السفينة فكانت .....ما لم تسطع عليه صبرا.

المشهد الثامن: ها هو موسى أمام الخضر وقد انتهت الرحلة التعليمية، التي كان فيها المتعلم غير قادر على تلقي نوع العلم الذي اختص به الخضر. وبعد تعريض منه باللوم على عدم صبره، أخذ يشرح له ما خفي عليه، ولم يحتمل وقوعه أمام ناظره وهو ساكت.

كانت الوقائع الغريبة ثلاثا.

الواقعة الأولى: خرقه للسفينة التي نقلتهم بدون مقابل. قال الخضر لموسى مبادرا بتعريفه: إن السفينة كانت مورد رزق قليل يكِدُّ أصحابها للتحصيل عليه، وهم إن ذهبت سفينتهم حل بهم البؤس والشقاء. وإن الملك المستبد لتلك الجهة كان يسير خلفهم يلاحقهم، ويستولي على كل سفينة سليمة صالحة، فيغتصبها من أصحابها

ليسخرها لمصالحه الخاصة. فقصدت أن أحدث بها عيبا يصرف الملك عنها. فنجت سفينتهم من يده، وبقيت لأصحابها تحمل عيبا سهلٌ إصلاحه.

الواقعة الثانية: قتله للغلام الذي ما ارتكب ذنبا ولا كان مكلفا مسؤولا. إن ذلك الغلام كان ينحدر من أبوين صالحين، وقد يكون، أنه لإيمانهما وصلاحهما هما محل اقتداء وثقة من الناس، وكانت مدارك الغلام وعرامة شهواته، تتطور به إلى الكفر والفساد، وقدراته على التأثير في أبويه قد تصل إلى إغوائهما، فيكون في بقائه حيا تعريض لأبويه ولمن كان يثق في أبويه ويتبعهما إلى الوقوع في ضلال الكفر. ولما كانت مفاسده لم تظهر، عبَّر عن طريق التحوط أنه يخشى هو ومن كان مثله في زمنه الذين تحدثوا في أمر الغلام قبل أن يصحب موسى، فخشينا وأردنا، مقصود بالضمير - نا - الجماعة من المفتوح عليهم المنفذون لما يأمرهم به الله مما لا يطلع عليه بقية الناس. إذ علم الخضر أن هذا الغلام إن اشتد وكبر، أن يؤثر في أبويه فيزيغا، ويقلبُهما من الوداعة والخير إلى الظلم والكفر. فتعلقت إرادة الخضر وإرادة الجماعة أن يُقضَى على ذلك الغلام قبل أن يتحقق ما هو بصدد فعله لو كبر. وهو مأذون له في ذلك بناء على أن الحياة بيد الله. فلما أذِنَ له كان القتل تنفيذا لإرادة إلهية، وما الخضر إلا سبب ظاهري. ومع ذلك فقد أطلعهم الله على أنه قدر أن يعوض لأبويه الصالحين ولدا أفضل وأكرم خُلُقا وأمكن رحمة وحبا في الخير. وكل ذلك من الألطاف التي لا يتيسر الوصول إليها إلا ببنائها على مقتضيات من النص أو من المصلحة، وهما مفقودان بالنسبة لموسى، إذ الشرائع مبنية على الظاهر، لا على ما هو مغيب مما انطوت عليه الصدور. وهو ما علمه الخضر وأذِنَ له بالبناء عليه.

الواقعة الثالثة: الجدار الذي تبرع بإقامته وتسويته بما يحفظه من السقوط، مع أن أهل القرية لم يكرموهم ومنعوهم القِرَى. يقول الخضر في تفسير ذلك: إن الجدار ملك لصبيين يتيمين فقدا والدهما، وقد خبأ والدهما الرجل الصالح قبل موته ،تحت ذلك الجدار كنزا لولديه، ظانا أنهما سيعثران عليه عند كبرهما .وسقوطه سيعري الكنز، فيستحوذ عليه من يراه، والمال مال حلال لأن الأب وصف من الله بأنه رجل صالح صلاحا يفيد منه اليتيمان، فيحفظ مالهما إلى أن يبلغا السن الذي يستطيعان فيه الكشف عن الكنز والانتفاع به. وذلك يا موسى رحمة من ربك. واعلم أني فعلت ما فعلته بإذن الله وما هو عن اجتهاد مني. لقد بينت لك ما لم تستطع أن تصبر على معرفته وكشف أسراره بمجرد حدوثه. ولعل الخضر لم يؤذن له في الكشف عما فعله بمجرد ما قام به.

وهذا المشهد الثالث فيه إرشاد للناس: أن صلاح الآباء ينفع الذرية، إذ علل الخضر فعله بأن والد الصبيين كان رجلا صالحا. وذلك صورة من الواقع كما حدث مما تفيده الآية: **(وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا)**[1]

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾

بيان معاني الألفاظ :

التمكين: جعل الشيء متمكنا، أعطيناه القدرة على التصرف.

الأرض: في القطر الذي كان يحكمه .

السبب: ما يتوسل به إلى تحقيق المرغوب فيه من علم أو آلات.

اتبع سببا: اتبع طريقا.

مغرب الشمس: المكان الذي يتراءى فيه للناظر أن الشمس تغرب فيه.

أما من ظلم: أما من ثبت على الشرك.

نُكرا: وقرئ نُكْرا، وهو ما تنكره الأوهام لعظمه.

جزاء الحسنى: الحسنى بمعنى الجنة، أو بمعنى الأعمال الصالحة.

القول اليسر: الكلام الحسن، الذي يَسُر سامعه.

بيان المعنى الإجمالي:

سألوا رسول الله عن أمر ذي القرنين، سؤال استفسار وتطلع إلى المعرفة، أو سؤال اختبار لصدق نبوته. فأجابهم أنه سيخبرهم عن أمره خبرا حقا وقرآنا متلوا معجزا يتلى على مر الأزمان.

تضمن الجواب: أن ذا القرنين رجل يسر الله ملك الأرض التي افتتحها، وذلك بما جمع له من الأسباب التي تحقق النصر، فليست انتصاراته صدفة، وإنما كانت

[1] سورة النساء آية 9

باتخاذه ما يمكنه من الفوز، وابتعاده عما يسبب الانكسار والهزيمة. وأنه اتبع طريقا في فتحه بلغ به الطرف الغربي من الأرض المعروف في زمانه الذي خيل له أن الشمس تغرب فيه. وفي ذلك المكان وجد أمة من الناس مشركين ليسوا على شريعة صالحة. فخيَّره الله فيهم بين أن يقضي عليهم، وبين أن يتولى هدايتهم وإرشادهم، فبذل جهده لإصلاحهم. ثم إن من ثبت على العناد ولم ينقد إلى طريق الهدى أذن له بأن يسلط عليهم من العذاب في الدنيا ما هم أهل له، دون أن يكون عذاب الدنيا بمنج لهم من عذاب الآخرة. وأما من آمن وقرن بالإيمان صالح العمل، فإنه يستحق منه حسن المعاملة، والتكريم بالقول اللين السمح الحسن، وينال البشارة بحسن الجزاء عند الله على صالح أعماله.

بيان المعنى العام :

84- افتتحت الآية بأن مضمون ما أنزل فيها كان جوابا عن سؤال. يبدو أن هذا السؤال لم يتوجه به المؤمنون، ولكن عرضه المشركون على رسول الله مصاحبا لسؤالهم عن أصحاب الكهف، وتبعا لبعض الروايات، فإنه مما لقنه اليهود لأهل مكة، ظنا منهم أن ذلك مما لا يعرفه إلا علماء يهود، فيكون اختبارا لصدق نبوته.

كان السؤال عن ذي القرنين: ونصَّ القرآن على أن الله عرف نبيه بما يجيب به عن السؤال إجابة تظهر العبرة، ولا تنقلب إلى قصص تعنى بالجزئيات التي لا مدخل لها في العبرة، كقومه والزمان الذي وجد فيه والأمة التي ينتسب إليها. واختلفت الروايات في سبب تلقيبه بذي القرنين.

ذكروا أنه ضفر شعره إلى ضفيرتين، وضفيرة الشعر يطلق عليها قرن. كما افترض أن تاجه كان يحمل صورة قرنين. وكلها احتمالات لا تستند إلى وثيقة تثبتها. ولذا فإني أرجح أن هذه التسمية كانت دالة على الرجل المعنيِّ المسؤول عنه، والمذكورة قصته. فكيف صور القرآن ذا القرنين ومسيرته الجهادية في الحياة.

الأمر الأول: الذي رسمه القرآن لمن يتتبع قصته فيه: أنه رجل أيده الله بما ثبَّت ملكه، وأحاطه بالألطاف التي تَمَكَّنَ بها من الانتصار في معاركه التي خاضها، فكان ملكه ثابتا غير متقلقل في الأراضي التي تغلب عليها؛ وأنه رجل مؤمن بالله، وبهذا التحقيق القرآني انتفى أن يكون ذو القرنين الاسكندر المقدوني الذي كان ملحدًا .

الأمر الثاني: أن الله أذن لرسوله أن يعدهم بأنه سيتلو عليهم قرآنا، لا كلاما موحى به غير معجز. فعرْضُ قصته جامع بين كونه قرآنا ،وبين كون ما يتضمنه فيه ذكر

لهم وتنبيه، ووعظ لمن يتأمل. وأن ما يذكر لا يستوعب كل التفاصيل ولكنه مقتصر على البعض منها، كما يدل عليه قوله: منه .

الأمر الثالث: أن ما حققه من انتصارات وفتوح، ما كان يستند إلى الصدفة والحظ، ولكن. إلى ما وفر الله له من الأسباب الجارية على سنن الله في الكون والتي يتبعها النصر، الشاملة لحسن التدبير ،والعناية بالتنظيم، وأخذ الحيطة، والمشورة ، وعدم الاستبداد بالرأي، وتكريم المقاتلين إلى آخر ما يتوقف عليه النصر الدائم

85-فاتبع سببا .

الأمر الرابع: أن ذا القرنين خطط لغزوه، واتبع طريقا منطلقا من مكان تجمع جيشه، ولا شك أنه رتب ورود المدد عليه من منطلق خروجه، بدلالة قوله تعالى: **فاتبع سببا.**

86- حتى إذا بلغ مغرب ...تتخذ فيه حسنا.

الأمر الخامس :أنه سار في طريقه مغربا إلى المكان الذي يتراءى للناظر كأن الشمس تغرب فيه، وهو الأفق الذي يخيل فيه للرائي حصول التماس بين طرف الأرض وطرف السماء. ويرجح الشيخ ابن عاشور قائلا: إن الأشبه أن يكون ذو القرنين بلغ بحر الخزر وهو بحيرة قزوين فإنها غرب بلاد الصين. ويحتمل أيضا عندي أن يكون بلغ ساحل المحيط الأطلسي، إذ هو حد اليابسة في تصور البشر قبل اكتشاف القارة الأميركية. ولا يقبل تحديد المكان تحديدا يقينيا، وإنما هي افتراضات لا تزيد العبرة تأثيرا ولا تنقص منها. ويصف القرآن المكان بأنه في عين حمئة، أي ذات طين أسود، وفي قراءة أخرى عين حامية، أي حارة. ويجوز أن تكون العين حمئة وحارة في آن واحد .ومحاولة تأويل العين على أنها عين تنبع بالنفط الذي لم تكن خصائصه معروفة في ذلك الزمان إسقاط لتصور على النص بغير دليل، فالله أعلم بالمكان وبالعين المقصودة التي تحمل أن يكون قد أتى عليها من التحولات الأرضية ما لا يعلمه إلا الله .

وقف ذو القرنين على أحوال سكان ذلك المكان في الطرف القصي المغربي من الأرض. وتبين له أنهم حرموا الهداية، وما كانت عقيدتهم تربطهم بالله، وما كانت لهم شريعة تقيم لهم العدالة.

تلقى ذو القرنين وحيا من الله يخيره فيهم بين استئصالهم أو الاهتمام بإصلاحهم، أو أن الله قذف في قلبه ما أوجب توقفه للتأمل في أي الطريقين هو خير وأفضل.

وعلى الاحتمالين تبرز الآية أنه وفق للحل الأقوم، الذي يدل على ترجيحه طريقة التعبير عنه باتخاذ الحسن فيهم، كأنه مسك بالحسن فسلطه على معاملتهم .

87 ←88 -قال أما من ظلم...وسنقول له من أمرنا يسرا

الأمر السادس: حكم ذي القرنين في القوم الذين وجدهم ساكنين عند الغاية التي وصل إليها بجيشه. صرحت الآية أنه حكم فيهم الحكم الذي يعطي منهجا صالحا في الحكم:

أ-لم يعاجلهم بالعقوبة على كفرهم وفسادهم ولكنه دعاهم إلى الطريق الأقوم الذي يصلحهم في دنياهم وآخرتهم .

ب- أن من ثبت على إشراكه، وتمسك بما هو عليه من الضلال عنادا واستكبارا عن قبول الحق، فإنه سيسلط عليه العذاب الذي يستحقه في الدنيا جزاء لعناده. هذا العذاب الذي لا يعفيه من العذاب الأخروي عند الله يوم القيامة.

ج – أن من آمن بعد كفره، وترك ما كان يعبده من دون الله، وانضم إلى أمة الإيمان، فإن ذا القرنين سيعامله معاملة الصالحين من العباد، ويحسن له القول الذي يشمل مما يشمله البشارة برضوان الله.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا

بيان معاني الألفاظ:

ما لديه: ما عنده من الجند ومن الآلات.

خبرا: العلم المحيط .

الردم: السد المضاعف .

بيان المعنى الإجمالي:

بعد أن رتب الأمور في مغرب الأرض، حول وجهته إلى مشرقها، فبلغ أقصى غاية في ذلك، وَبَانَ له الأفق الذي تطلع منه الشمس الذي ليس وراءه شيء في نظره .

كان القوم الذين يسكنون ذلك الصقع همجا لا حضارة لهم، لم يوفقوا حتى لستر أنفسهم من أشعة الشمس لا بلباس ولا بمبان. وكانوا في فساد عقيدتهم كشأن أقصى المغرب. فسار فيهم على النحو الذي فعله مع أهل المغرب .

إن كل ما قام به ذو القرنين، وما دخل تحت سلطانه من الممالك، وما قاده ونظمه من جنود جرارة، وما أعده من سلاح وكراع، وما تصرف به في فتوحاته، كل ذلك قد أحاط الله به علما .

بيان المعنى العام :

89←91- ثم اتبع سببا...وقد أحطنا بما لديه خبرا.

الأمر السابع :بعد أن أقام ما فتحه على النحو الذي بيناه في الآية السابقة ،توجه بجيوشه، ومعداته، نحو الشرق مواصلا السير حتى بلغ أقصى نقطة من اليابسة ،فعندما وقف فيها وهو يرقب شروق الشمس لا يبدو له إلا الشمس وهي تطلع في الأفق البعيد. واستفدنا إقامته مدة رتب فيها أمور ما فتحه، بافتتاح هذه الآية بكلمة ثم الدالة على التراخي، أي إنه لم يعجل الانقلاب من المغرب إلى المشرق، بل مكث زمنا مع القوم الذين فتح بلادهم، وأصلح أحوالهم العقدية والمعاشية. وعرّفنا القرآن أن القوم الذين فتح بلادهم في أقصى الشرق كانوا بعيدين عن الحضارة، لم يوفقوا لا لبناء مساكن تقيهم أشعة الشمس، ولا لنسج ما يلبسون ويستترون به. وختم العرض بقوله كذلك، فيه تأويلات أقربها في نظري :أن أوضاعهم العقدية كانت منحرفة كأوضاع الذين ظفر بهم في أقصى المغرب. ويرجح هذا التأويل تعقيبه بأن الله أحاط علما بما لديه من القوة والسلاح والجنود، والتصرف في الأقوام الذين يفتح مواطنهم **(وقد أحطنا بما لديه خبرا)** مما يومئ إلى أن تصرفه فيهم كان تصرفا رشيدا ، إذ الأهم بالنسبة للمصلحين هو ما يتحقق على أيديهم من خير وإصلاح .

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ
فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى
خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ
قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ
مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

السد: تضم السين المشددة، وتفتح، والمثنى في الآية الجبل . والمفرد الحاجز.

يفقهون قولا: لا تفهم لغتهم .

خرجا: مجبى. أي أن يجمعوا له أموالا يقيم بها السد.

زبر: جمع زبرة القطعة الكبيرة من الحديد.
الصدفين: جانبي الجبلين أين سيقام السد .
القطر: النحاس المذاب .
الظهور: العلو.
النقب: كسر السد.
وعد ربي: الأجل الذي ينتهي إليه قيام هذا السد .
دكا: مدكوكا، مسوى بالأرض.

بيان المعنى الإجمالي:

بعد أن نظم أمور ما فتحه من أقصى المشرق، توجه بجيوشه في طريق وصل به إلى أرض قوم غريب أمرهم، لا يفهمون أي شيء من خطاب ذي القرنين، ولا يستطيعون أن يبلّغوا ما في أنفسهم. لغتهم غريبة حتى على المترجمين الذين صحبوه في فتوحاته. وأخيرا فهم عنهم: أن جيرانهم يتسلطون على مزارعهم وممتلكاتهم فيعيثون فيها فسادا، وعرضوا عليه أن يقدموا له خراجا من المال ليتولى إقامة سد بين الجبلين يحميهم من غاراتهم وفسادهم. تبين لذي القرنين أن حمايتهم مصلحة عامة، فأجابهم لسؤالهم، وطلب منهم أن يشاركوا في بناء السد بالأيدي العاملة، أما المال فلا حاجة له به لأن الله أغناه عن أموالهم. وخطط لبناء سد محكم قوي، طلب منهم أن يأتوه بقطع كبيرة من الحديد، فرتبها في مواضعها، ثم طلب منهم أن يحموا النار وأن يواصلوا النفخ فتأجج لهبها واضطرمت، ثم طلب منهم، أن يصبوا فوق ذلك نحاسا صهرته النار حتى أذابته وتداخل في الحديد. وارتفع السد فساوى الجبلين وكان صلْبًا متينا قويا تبعا لهندسته وللمواد الداخلة في تكوينه. وعجز المفسدون من ياجوج وماجوج عن بلوغ أعلاه ولا عن إحداث ثقب فيه ينفذون منه .

وقف ذو القرنين أمام السد وقال: هذا من رحمة الله بعباده، إذ أقدرني على إنجازه على هذا النحو من القوة والعلو. وله أجل معلوم عند الله سينهار فيه . وما ثبت في علم الله من أجل كل كائن، سيتحقق لا محالة.

بيان المعنى العام :

93/92-ثم اتبع سببا ....لا يكادون يفقهون قولا.

الأمر الثامن: بعد أن أقام ذو القرنين في المشرق ونظم أمورها كما رتب فتوحاته في المغرب، توجه في طريق غير الطريقين الأولين، يقول النص القرآني: إن هذا الطريق بلغ به مكانا بين جبلين ؛ عينه كثير من المفسرين على أنه بين أرمينيا

وأذربيجان، ورجح الشيخ ابن عاشور أن موقع السدين الشمال الغربي لصحراء(قوبي) الفاصلة بين الصين وبلاد المغول .وفي هذه القصة أضاف المفسرون إضافات كثيرة لتصور التحام أجزائها، وتُعْطيها حسب تصور كل منهم صورة متكاملة اعتمادا على روايات لا تتقوى بسند صحيح ولا عينات من الآثار. وظن بعضهم أن السد الذي بناه ذو القرنين هو جدار الصين. ولا أستطيع أن أقبل كل ما قيل على أنه جزم بمراد الله من العرض في قصة ذي القرنين. والذي أرجحه: أن ذا القرنين كان ملكا عادلا، آتاه الله من الفطنة ومن حسن التدبير في قيادة الجيوش، والسداد في التخطيط الحربي، ما أخضع به كثيرا من الأمم في شرق الأرض وغربها. وأنه كان يوجه عنايته في البلاد التي يفتحها إلى نشر الإيمان فيها واقتلاع الكفر والإلحاد. وأنه كان حازما لا يتردد في تنفيذ ما يراه الخير، وقد وفقه الله في اختياراته فتوالت عليه الألطاف الإلهية، وضرب الله به المثل لما يمكن أن يبلغ إليه الإنسان من النجاح.

لا يوجد بين أيدينا دليل يبلغ درجة اليقين ولا الظن القوي يعين النواحي التي انتصرت فيها جيوش ذي القرنين فرتب أمورها، ولا الزمن الذي عاش فيه. وعدم العثور على آثار هذا الفاتح لا يشكك في وجوده، خاصة وأن عمر الكون وما هز الأرض من زلازل، وما مر عليها من تقلبات مناخية، طمست كثيرا من الآثار أو ابتلعتها الأرض في باطنها. إن القاعدة التي أريد أن أثبتها: هي أن ما يكتشف من الآثار قد يكون وسيلة إثبات، وأن عدم العثور على آثار لا يصلح أن يكون دليلا على النفي.

-نعود إلى تتبع قصة ذي القرنين ؛ فإنه في هذا الموقع الذي بلغه وجد قوما يتكلمون بلغة بعيدة عن كل اللغات التي يتكلم بها الناس في مختلف الأصقاع التي فتحها، وقد كان من حكمته أنه اصطحب من يتولى الترجمة بينه وبين أهل البلاد التي يفتحها. أما هذا المكان القصي فقد وجد لغتهم ليس فيها ما يقرب من أي لغة من اللغات الأخرى، وبالطبع هم لا يفهمون ما يقال لهم، كما يصعب فهم مرادهم. وتشير الآية إلى أن ذا القرنين تغلب على هذه الصعوبة. لأن القرآن سجل ما دار بينه وبينهم من حوار

94-قالوا يا ذا القرنين ...أن تجعل بيننا وبينهم سدا.

الأمر التاسع: عرضوا على ذي القرنين مشكلة عجزوا عن حلها وأفسدت عليهم حياتهم. كانت الأمة التي تجاور أرضهم ياجوج وماجوج، أمة يفسدون في الأرض، قد أضروهم

بالظلم وتخريب العمران وسوء السلوك. طلبوا منه أن يقيم بينهم وبين هذه الأمة الظالمة المفسدة، حاجزا قويا يمنعهم من الوصول إليهم، ويكف عنهم شرهم. وعرضوا في المقابل أن يفرض عليهم إتاوة (خرجا) يلتزمون بصرفها إليه.

95-قال ما مكني فيه ...وبينهم ردما.

كان ذو القرنين ملكا صالحا، وفرت له فتوحاته من المال ما هو به في غنى عن أن يكلفهم إتاوات تثقل كاهلهم. وتبين له أن حمايتهم من فساد جيرانهم من المصلحة العامة الضرورية التي يجب إنجازها. فكان جوابه :

إن ما تفضل به علي ربي من الرزق ومن التوفيق والقوة، هو فوق ما ستقدمونه لي من خراج يرهقكم. ولكني سأساعدكم على إقامة الحاجز الذي يحميكم، ولتكونوا مشاركين فيه ؛ وفي هذا الجواب توفيق سياسي، إذ حول موقفهم من المطالب العاجز إلى المشارك الفاعل، وأن ما سيبذلونه ليس مالا يشح به البعض، ويقدمه البعض عن طواعية، ولكنه إسهام في حمايتهم يندفعون جميعا للإسهام فيه .

97/96-آتوني زبر الحديد ...وما استطاعوا له نقبا

الأمر العاشر: تنفيذ ما وعدهم به. بعد أن أعد الخطة الهندسية لإقامة الردم الفاصل، طلب منهم أن يأتوه بقطع من الحديد. استجابوا، ورتبها ترتيبا محكما على مقادير معلومة مقدما، وارتفع الردم حتى ساوى الجبلين. وقام المهندسون بتفقد تنفيذ الأشغال فرضوها. وإذ تم ترصيف الطبقات على النحو الذي به يتم بناء السد بناء يحقق الغاية التي من أجلها قام ذو القرنين بالأشغال. طلب منهم أن يشعلوا النار وأن يواصلوا النفخ عليها، ويسلطوا حرها على قطع الحديد اللاحمة، فحميت حتى أصبحت هي نارا. فأمرهم عندها بأن يأتوه بالنحاس المذاب (قطرا) وأن يفرغوه على الحديد اللاهب فامتزج به.

وصفت الآية السد الذي ارتفع شامخا بأنه بناء محكم سيؤدي وظيفته، ويمنع المتسلطين المفسدين من دخول أراضي القوم. وحققت الآية أن ياجوج وماجوج لم يستطيعوا أن يرتقوا فوق السد، وعجزوا عن كسره وثقب منفذ يصلون منه إلى ما كانوا يقومون به من الاستيلاء والتخريب.

98-قال هذا رحمة....وعد ربي حقا.

وقف ذو القرنين وهو ينظر إلى السد وقد أُحْكِمَ بناؤه، وحَمَى القوم من المفسدين فقال:

أولا: هذا السد رحمة من ربي. إنه سبحانه رحم هؤلاء القوم فيسر لي إقامته ليعيشوا في أرضهم آمنين. تطامن ولم ينفخ أوداجه بالإنجاز العظيم الذي قام أمام

ناظره شامخا، ونسب الأمر لله ربه الذي تـولاه بتأييـده وعونـه، الـرحيم بعبـاده. وهـذا المنهج في التصور الذي ارتسم في ذهن ذي القـرنين ينـادي الحكـام أن يقتفـوا خطـاه، فلا يعجبوا بإنجازاتهم إعجابا ينسيهم أن حظهم فـي كـل خيـر يقدمونـه لشـعوبهم هـو من فضل الله عليهم ولولا عون الله لعجزوا.

ثانيا: رغم ما دخل في بنائه من حديد ونحاس، وتجربته بالحيلولة بين المفسدين من ياجوج وماجوج، وبين الأرض التي حُمِيَتْ به، إذ لم يقدروا على الرقي فوقه ولا أن يخرقوا منفذا يدخلون منه للإفساد كما كانوا يفعلون، رغم ذلك فإن ذا القرنين نظر إليه مستشعرا أن كل ما على الأرض له أجل ينتهي إليه، وأن الفناء يلحق كل إنجاز مهما علا وعظم. وأن ما شيده سيجري عليه القانون العام فلا بد من بلوغ السد الأجل الذي سينهار فيه، وينتهي دوره المُحَصَّن. إن هذا الأجل ثابت في علم الله، يتحقق عندما تتجمع أسباب فنائه. والقاعدة العامة أن الآجال المكتوبة عند الله التي وسعها علمه، لا مدخل للباطل فيها ولا للنقض.

۞ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾
وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن
ذِكْرِي وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾ أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن يَتَّخِذُوا۟
عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا

بيان معاني الألفاظ:

يموج: يضطرب اضطراب أمواج البحر.

الصور: القرن الذي ينفخ فيه.

الغطاء: ما يحجب البصر، والمقصود به عدم انتفاعهم بأبصارهم.

عرض جهنم: إبرازها.

عبادي: كل ما عبد من دون الله من مخلوقاته كالملائكة والجن وعيسى...

أعتدنا: أعددنا .

نزلا: ما يكرم به الضيف من الطعام .

بيان المعنى الإجمالي :

أبقى الله ياجوج وماجوج محصـورين فـي أرضـهم، يتسـلط فسـادهم وظلمهـم علـى أنفسهم فهم متحيرون مضطربون.

ثم استحضر القرآن حالة البشر يوم القيامة يوم تتم فيـه دعـوة المـوتى جميعـا فيقومـون مسرعين كما يستجيب الجيش للنفيـر عنـد سـماعه أصـداء البـوق الـداعي للاجتمـاع.

ويوم العرض العام يكشف الباري للكافرين عن جهنم، ويلقي في روعهم أنهم سيدخلونها، ويستولي الرعب والخوف عليهم، جزاء من نوع التفريط الذي رضوه لأنفسهم في الدنيا. فقد كانت مشاهد الكون تقوم أمام أبصارهم منادية بوحدة الخالق وتصرفه وقدرته، فكانوا، عنادا منهم، لا يعتبرون بها كأنها غير موجودة. وكذلك كانت أسماعهم لا تصغي لنداء المرسلين والدعاة إلى الإيمان، كأن آذانهم فقدت القدرة على الاستماع .

هل ظن الذين كفروا أنهم لما اعتمدوا على ما خلقه الله من عباده، اعتمادا صرفهم عن الله، وتعلقوا بهم تعلقا يغنيهم عن الخلاق العظيم، أن ذلك سيكفيهم وينفعهم ؟ إن الله المحيط بكل شيء، هو المتصرف بحكمته قد أعد للكافرين نزلا ، يستضيفهم في جهنم ، لتكون المهانة ثم العذاب الأليم قراهم .

بيان المعنى العام :

99- وتركنا بعضهم يومئذ يموج ... فجمعناهم جمعا.

تحتمل الآية وجهين :

أ- أن تكون مرتبطة بحال ياجوج وماجوج، بعد أن تم بناء السد الحائل بينهم وبين ما كانوا يقومون به من الغارات والإفساد. فيكون المعنى: إن ياجوج وماجوج الذين كانوا يتسلطون على أراضي وممتلكات ما وراء السد، تحول فسادهم إلى أنفسهم ، وأصبحوا كالنار التي يأكل بعضها بعضا. فتكون الآية كاشفة عن وضعهم بعد أن حيل بينهم وبين ما كانوا يقومون به من إفساد.

ب- أن تكون معبرة عن وضع البشر يوم القيامة، وأن الله سيحشرهم مضطربين حيارى. فيكون قوله: **[يومئذ]** مرادا به يوم القيامة ومرتبطا بقوله تعالى في الآية السابقة: **[وكان وعد ربي حقا]** على أن الوعد هو يوم البعث. والذي سوغ هذا الاحتمال تناسق الآية بأن تكون كلها تتحدث عن شؤون يوم القيامة.

والاحتمال الأول يجري على أن القصة صرحت بالنهاية التي آل إليها ياجوج وماجوج بعد بناء السد، وهذا الاحتمال هو الأقرب في نظري .

وعلى هذا الاحتمال وقع التخلص من نهاية ياجوج وماجوج في الدنيا إلى نهاية البشر ببعثهم يوم القيامة. فقد انتهى أمر ياجوج وماجوج إلى حبسهم وراء السد لا يستطيعون الخروج منه، وكذلك البشر سيحشرون يوم القيامة يوم ينفخ في الصور.

والصور البوق الذي ينفخ فيه فيحدث صوتا قويا يبلغ صداه أفراد الجيش المنتشرين، فيستجيبون مسرعين. والذي نؤكده أن التعبير بالبوق الذي ينفخ فيه

للبعث للنشور يوم القيامة، ليس بوقا من قرن ولا على هيئة الأبواق التي ينادى بها الجيوش، ولكن ذلك تمثيل بما يقرب الحقيقة لما اعتاده الناس في الحياة . وكل أمور الآخرة لا يعلم حقيقتها إلا الله .

100←101- الذين كانت أعينهم ...وكانوا لا يستطيعون سمعا.

تتحدث الآيتان عن مشهد من مشاهد يوم القيامة: فنؤكد أن الله سيجمع البشر كلهم لا يغيب أي منادى عن الحضور للجمع العام، ولذلك أكد قوله: جمعناهم بقوله **[جمعا]** وفي هذا الجمع المضطرب المتحير يعرض الله جهنم للكافرين، فهم قبل أن يقضى عليهم بدخولها يلقي في قلوبهم القنوط والخوف لمَّا يكشف لهم عنها. وهذا الكشف هو كشف حقيقي لا خيالي ولذا أكده بقوله: "**عرضا**" عرضا حقيقيا. وهو جزاء من نوع الغفلة التي كانوا عليها في الدنيا. قامت شواهد الإبداع والنظام في الخلق أمام أبصارهم المنادية للعقل بالتحرك ليتيقن أنه من المستحيل أن يصدر هذا النظام المرتب والمترابط بنفسه، وأنه لا محالة مستند إلى خَلْق الله وتدبيره، ولكن أعينهم كانت محجوبة عن ربطه بالخالق، فلم تذكرهم المشاهد، ولم تحركهم. كان شأن أبصارهم كشأن أسماعهم، فقد دعتهم الرسل والمرشدون من العلماء، وبلغوهم ما أنزله الله من بيان يهدي للحق، لكنهم عنادا منهم ورفضا للتحول عما هم عليه من الشرك والفساد تابعوا منغمسين في الضلال، فقام عنادهم ورفضهم مانعا من وصول الوحي إلى أسماعهم .

102- أفحسب الذين كفروا...للكافرين نزلا.

كان حسابهم خاطئا، وتقديرهم باطلا، لما اعتمدوا على ما هو مخلوق لله ليكون نصيرا من دون الله . عبد بعضهم الملائكة، وعبد بعضهم الجن، وعبد بعضهم عيسى، وعبدوا أنواعا من الحيوانات كالفئران والبقر. ما الذي سوغ لهم عبادتها، أيظنون أنها تملك الانتصار لهم ؟ إنه السخف الذي يقابله أن تكون جهنم التي كانوا يظنون أنهم حموا أنفسهم من عذابها بما اتخذوه من أولياء، ستكون جهنم هي ما أعده الله لهم، نزلا، تهكما بهم هي ما يعد للضيف القادم من الطعام يتخير ما يعد تكرمة له، إمعانا في إذلالهم بالتهكم عليهم. كقول عمرو بن معدي كرب:

وخيل قد دلفت لها بخيل *** تحية بينهم ضرب وجيع

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ

فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الأخسرين أعمالا: الذين لا يجدون نتائج أعمالهم.

السعي: العمل

الذين ضل سعيهم: أخطأوا الطريق فتاهوا .

حبطت: بطلت بطلانا لا أثر صالحا له.

هزوا: استخفافا وسخرية واستهزاء.

بيان المعنى الإجمالي:

هل نُعْلِمُكم بالذين تصحبهم الخسارة الدائمة رغم أنهم يكدون في الحياة ؟ الذين ضلوا الطريق فاختلطت عليهم السبل في حياتهم الدنيا وتاهوا، ومع ذلك فهم سادرون في ضلالهم، دون أن يتفطنوا، بل يحسبون أنهم على صواب.

هم الجماعة الذين رفضوا ما جاءهم من الآيات في كتاب ربهم، وأنكروا البعث يوم القيامة الذي يحاسبهم فيه على أعمالهم. إنه بفقدهم الإيمان يبطل كل ما عملوه مما ظاهره خير وحسن. فيقدمون يوم القيامة بصحائف فارغة من صالح الأعمال، فلا يقام الميزان لوزن أعمالهم، إذ الوزن لمقابلة الحسنات بالسيئات وهؤلاء ليست لهم حسنات. ذلك الوعيد من حبط الأعمال جزاؤهم، ثم بين الجزاء بأنه جهنم بسبب كفرهم، واستهزائهم بما أنزله الله من الآيات وسخريتهم من رسل الله.

بيان المعنى العام :

103←104- قل هل أنبئكم بالأخسرين....يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

هل تريدون أن نعرفكم بأبلغ الناس خسارة في أعمالهم، الذين يكدون فتكون نتائج أعمالهم سالبة ؟ وفي افتتاح الآية بكلمة " **قل**"، وبالسؤال إيقاظ للسامعين إلى أنهم قد عمي عليهم الأمر وجهلوا. وأنهم كانوا أحرياء بأن لا يغيب عنهم من هم الأخسرون أعمالا، لأن هَمَّ كل عامل أن ينجح في عمله نجاحا يحقق له أفضل النتائج. ويمكن أن يفهم من النص أن السائل: الله تعالى، أو الله ثم رسوله بما يوحى إليه، أو الرسول والمؤمنون .

يأتي الجواب كاشفا: هم الذين يكدون في الحياة ويعملون، فسلكوا طريقا لا ينتهي بهم إلى غاية، ولا يحقق لهم نفعا، هم المشركون الذين تقربوا إلى آلهتهم فعبدوها، وعملوا على استرضائها؛ هم يظنون أنهم وُفِّقوا في اختياراتهم، وأحسنوا فيما صنعوا. وهي لا تفيدهم، بل يكون شركهم وبالا عليهم.

105-أولئك الذين كفروا...فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا .

تحصر الآية الأخسرين أعمالا، حصرا يشير إليهم وحدهم دون أن يلتبسوا بغيرهم، لتجري عليهم خصائصهم التي يتميزون بها، المتمثلة في أنهم رفضوا الأدلة التي جاءتهم من ربهم في كتابه وعلى لسان رسوله، وأنكروا البعث ووقوفهم بين يديه للحساب. وإذ قد بطلت أعمالهم وخسروا كل جهودهم الدنيوية، فبذلك يكونون تافهين لا قيمة لهم محقرين يوم القيامة.

106- ذلك جزاؤهم ...ورسلي هزؤا.

إشارة إلى ما ذكر من تفاهتهم، ببطلان أثر كل ما عملوه مما ظاهره خير، ذلك جزاؤهم، جهنم – فجهنم بدل من "**جزاؤهم** " موضح للجزاء. بسبب ما تحقق من كفرهم وإنكارهم للحق الواصل لهم، بل زادوا عنادا وفسادا فاتخذوا الآيات المنزلة من عند الله في كتابه ، وكذلك رسله إما جميع الرسل، وإما محمدا ﷺ تعظيما لشأنه باعتبار أن رسالته جامعة لما جاء من الحق على لسان من سبقه من المرسلين، استخفوا بكل ذلك وسخروا منه. فكانت جهنم جزاء عدلا لفسادهم .

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبۡغُونَ عَنۡهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الفردوس: الجنان الجامع لكل ما يكون في البساتين.

حولا: تحولا إلى غيرها.

المداد: الحبر .

المدد: ما يكون تعويضا عن النقص

بيان المعنى الإجمالي:

بكل تأكيد إن الذين جمعوا بين الإيمان وبين العمل الصالح كتبت لهم منذ الأزل جنات الفردوس، التي جمعت كل أنواع الثمار والفواكه، يقدم لهم ذلك ضيافة من رب العالمين. ويزداد هذا النعيم كمالا بكونه بلغ درجة رضي بها المَجْزِيُّون أفضل رضى، فهم لا يطلبون أن يتحولوا عما هم فيه، لأنه ليس فوق ذلك مقام أفضل منه. قل لهم يا محمد إن ما ثبت في علم الله لا يتناهى، ولو فرض أن البحر انقلب حبرا

ليسجل علم الله لجف البحر قبل أن يأتي على معلومات الله، ولو خلق الله بحرا آخر ليمد البحر الجاف بمائه فإن علم الله أوسع.

بيان المعنى العام :

107-إن الذين آمنوا ...جنات الفردوس نزلا.

هذا شأن القرآن في جمعه بين البشارة والنذارة، فبعد أن تتبع مآل الكافرين وكشف عن مآلهم وخسرانهم، عطف القول ليقدم للمؤمنين ما سيكرمهم به. فقال تعالى مؤكدا: إن الذين قرنوا بين قطبين: الإيمان المصفى من الشرك، والقيام بالأعمال الصالحة التي ظاهرها وباطنها الخير، قدر الله لهم من الأزل أن سيثيبهم ويجزيهم جنات جمعت كل ما يمكن أن تنتجه الجنات من الثمار والفواكه "**الفردوس**" ينالون منها ما يشاؤون، هي ما أعده لهم من مكرمات كما يُعَد القرى للضيف المبجل .

108- خالين فيها لا يبغون عنها حولا.

هي كرامة لا يلتصق بها ما يكدرها من الخوف من زوالها، كتب الله الخلود الأبدي لهم ولما بين أيديهم من أنواع النعيم. وفوق ذلك إن ما جمعه الله لهم من أنواع التكريم بلغ حدا أضحت نفوسهم معه لا يجول بها خاطر التحول عن منازلهم لأنه ليس فوق ذلك مطمح خير مما هم فيه.

109- قل لو كان البحر مدادا....ولو جئنا بمثله مددا.

هذا أمر مهم يتحتم أن تفتح له الأسماع وتعيه الألباب، وتعيد تعقّله ليقرب المفهوم المتعالي إلى الأذهان، افتتحت الآية بكلمة "**قل**" تحريضا على الانتباه. مضمون القول: لو فرض أن البحر انقلب مدادا ليخط ما حواه العلم الإلهي من حقائق يعبر عنها بالكلمات، وأخذ يخط ما حواه العلم الإلهي، لتواصل العلم الإلهي ونشف ماء البحر. إن معلومات الله لا تنتهي والبحر ينفد. ولو فرض أن الله يخلق بحرا آخر يعوض ما جف من البحر الأول، فإن علم الله أوسع من ذلك دائما. فما ذكر من قصص في السورة، وما أوعد الله به الكافرين من الخزي والعذاب، وما وعد به المؤمنين من أنواع التكريم، وما حواه عالم الدنيا وما جرى وما سيجري فيها، وما سيكون عليه أمر الآخرة، ونعيم الجنة الذي لا ينفد، وعذاب الكافرين الذي ليس له نهاية. وأسرار الكون وقوانينه، كل ذلك داخل في علم الله .

قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

يرجو لقاء ربه: تعلق باليوم الذي يتقبله ربه ويحقق له ما وعده.

بيان المعنى الإجمالي:

نادِ بهذه الحقيقة التي بها يبلغ صفاء التوحيد حقيقته. قل للناس جميعا: إني إنسان أجتمع معكم في الخصائص الإنسانية. فإياكم أن تنحرفوا كما انحرف النصارى فألهوا عيسى الذي هو أقرب رسول في الزمان من محمد صلى الله عليه وسلم. ومع كوني بشرا فقد اختارني لقبول وحيه وإبلاغه الذي يقوم على أساس توحيد الباري سبحانه في ذاته وفي صفاته .

أدلكم على ما يحقق رجاء الصالحين الآملين أن يلقوا من ربهم ما وعدهم: إن ذلك ينحل إلى عنصرين أساسيين :1- العمل الصالح -2-توحيد الله توحيدا ينفي كل شائبة شرك.

بيان المعنى العام :

110- قل إنما أنا بشر...ولا يشرك بعبادة ربه أحدا.

افتتحت هذه الآية الخاتمة للسورة على النحو الذي افتتحت به الآية السابقة بقوله (قل) لما نبهنا إليه فيها. وهي تتضمن:

أولا: التأكيد على أنه صلى الله عليه وسلم بشر جمع الخصائص البشرية التي يشاركه فيها بقية الناس. ففي هذا الجانب هو لا يختلف عنهم. وفي ذلك مقدمة لتحصين المؤمنين برسالته من أن يزيغوا فيرفعوه فوق مقام البشرية والعبودية لله.

ثانيا: أن الله تخيره من بين البشر ليوحي إليه ما يريد أن يبلغه للناس، فالله سبحانه قد صفى روحه وسما بها سموا مكنه من قبول الوحي، دون أن يخرج عن كونه بشرا. وبهذا فهو مؤتمن على ما يوحيه إليه ربه ولا يتجاوزه، ولا يدعي أن علمه محيط بكل شيء، فهو لا يعلم إلا ما علمه ربه .فسؤالهم عن أهل الكهف، وعن لقيا موسى للخضر، وعن ذي القرنين، تشغيب ومحاولة منهم لإخراج الرسالة عن مقصودها الأعظم. إنه وإن كان الله أوحى لعبده محمد ما يجيب عن أسئلتهم فإن ذلك لا يخرج به عن كونه عبدا موحى إليه.

ثالثا: إن المقصود الأعظم من رسالته هو تثبيت الوحدانية في عقول البشر، ونفي كل ما خالطها من الشبهات، الوحدانية التي اختلط بها ما زيفها وأفسد حقيقتها. كاتخاذ شركاء وسائل لرضى الله، وعبادة عيسى ونسبته إلى الله بعلاقة الأبوة والبنوة. ونحو ذلك مما ظهر من الزيغ عن عقيدة التوحيد الخالصة كالتقرب للأضرحة ،ودعاء من يعتقد فيه الصلاح من الموتى للعون على الشدائد، قال تعالى: **(وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)**[1] .

---

[1] سورة يوسف آية 106

رابعا: أنه بعث ليقيم أمة فاعلة للخير، تعمل وتتكل، لا تقعد وتتواكل، ولا تستند إلى ما استند إليه اليهود من أنهم شعب الله المختار مفضلون على الخلق، لا يعذبون إلا أياما معدودة، ولا تقول بما ذهبت إليه النصارى من أن إيمانهم بالمسيح كاف لنجاتهم يوم القيامة. المسلمون حقا يمثلون أمة فاعلة في الكون صلاحا لا فسادا ولا تخريبا. إنه بالإيمان النقي من كل لوثة شرك، وبالعمل الذي يرضى الله عنه الملتزم بما جاء على لسان رسوله، ينظر الإنسان إلى مصيره بين يدي ربه فتتفتح له أبواب الرجاء في الفضل الإلهي والرضوان.

وبهذا تكون خاتمة السورة منعطفة على فاتحتها. راجع الأركان الأربعة التي استفدناها من طالعة السورة.

اللهم ربي أرفع لعلي ذاتك وجميل فضلك آيات الحمد وجزيل الثناء على ما يسرت، وأسألك في ضراعة المخبتين الشاكرين أن تيسر لي إكمال ما شرعت فيه من خدمة كتابك، وأن تجعله حجة لي بحسن الاقتداء به .

أتممت تفسير سورة الكهف بعد صلاة العصر يوم الأحد 29 ربيع الآخر 1433- 2012/3/18.

ســــورة مريم

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به هذه السورة، وسـميت فـي صـحيح البخـاري بكهـيعص وهي السورة السادسة عشرة حسب ترتيـب المصـحف. وحسـب ترتيـب النـزول تعـد الرابعة والأربعون نزلت بعد سورة فـاطر وقبـل سـورة طـــــه. وهـي مـن السـور المكية.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا
﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ
رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن
لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

رحمة ربك : استجابة ربك.

نادى : دعا.

وهن العظم : ضعف الهيكل العظمي.

اشتعل الرأس شيبا : عم البياض شعر الرأس.

لم أكن شقيا: لم أكن محروما من رعايتك وفضلك. فكنت سعيدا بذلك .

الموالي : العصبة.

من ورائي : بعد موتي.

عاقر : لا تلد.

آل يعقوب : أهل الشرف من ذرية إسرائيل.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتح سورة مريم بـالأحرف التـي تنطـق مفصـولة. كمـا افتتحـت سـورة البقـرة وآل عمران. سيرد عليكم ذكر رحمة ربك يا محمـد التـي شـملت عبـده زكريـاء. وذلـك في الظرف الذي توجه بدعائه خفية لا جهـرة. قـدم لدعائـه بمـا يسـتجلب بـه القبـول فعبر عن قوة حاجته بشدة ضعف بدنه ووهـن هيكلـه العظمـي، وعـن مشـيبه ببيـاض

شعر رأسه، وذكر ما عوّده به ربـه مـن إسـعاده بقبـول دعائـه. وأنـه غيـر مطمـئن وخائف أن يموت ولا يجد لماله وعلمه وارثا، وزيادة عمـا ذكـر فـإن امرأتـه عـاقر لا تلد. وإنه طامع واثق في فضل الله عليه، يدعوه أن يرزقه ولـدا يبلـغ سـن الرشـد الـذي يحمل فيه علم والده ويرث ماله بعد موته، كما يـرث علـم النبـوة التـي تسلسـلت إليـه من يعقوب والمصطفين من ذريته. واجعله يا رب مرضيا عنه.

بيان المعنى العام:

1-افتتحت السورة بحروف تقرأ بأسمائها غير مجتمعة: كـاف، هـا، يـا، عـين، صـاد. وما ذكر في فاتحة سورة البقرة يغني عن إعادته هنا.

2←3: ذكر رحمة ربك عبده....نداء خفيا.

هذا ذكر رحمة ربك عبده زكرياء. وهذا الذكر هو أول موقـع تحـدث فيـه القـرآن عـن زكرياء ، ثم أعيد ثانية في سورة آل عمـران الآيـات 40/38 حسـب ترتيـب النـزول، في سياق قصة مريم .

المعنى : اذكر رحمة الله التي من مظاهرها ما رحم بـه ربـك يـا محمـد، وفـي إدمـاج الصلة بين الله وبين محمد والتعبير عن ذلك بكلمة **(ربك)** مـا يعلـن عـن فـائق التكـريم لرسول الله ﷺ، رحم ربك عبده زكرياء باسـتجابة دعائـه .وهـو مـا يفـتح فـي قلـوب المؤمنين أبواب الرجاء، ويطرد من نفوسـهم اليـأس، ويُعلمهـم التوجـه إليـه، ورحمـة الله أوسع من مطالـب البشـر جميعـا. وشَـرَّفَ زكريـاء بالتصـريح بكونـه عبـدا لله مملوكا له، وتأكيد الصلة والارتباط بين زكرياء والله تعد أعظم مزية لزكرياء.

شملته الرحمة:(استجابة دعائه) في ذلك الظرف الـذي صـرح بـبعض خصائصـه فـي هذه السورة: وصفه بكونه كان نداء خفيا لم يرفـع بـه صـوته، علـى صـورة المناجـاة. وفي سورة آل عمران أنه كان في المقام الـذي تنزلـت المواهـب الإلهيـة علـى مـريم بقوله تعالى : **هنالك دعا زكرياء ربه.** فتتكامل صـور الـدعاء بمـا ورد فـي السـورتين. ثم سجل القرآن الدعاء الذي دعا به ربه فسمعه وأجابه.

4←6: قال رب إني وهن العظم مني...واجعله رب رضيا.

انقسم الدعاء إلى قسمين: مقدمة الدعاء والتمهيد له، ونفس الدعاء

أما التمهيد فهو ما عرضه زكرياء بين يدي دعائه من:

1) إظهار ضعفه الذي جَسَّمَهُ بأمرين :

2) بوهن العظم: ضعف الهيكل العظمـي الـذي بـه تقـوم صـورة الإنسـان، و بقيـة الأجهزة تضعف قبل ضـعف العظـام، أي إن ضـعف الهـرم قـد اشـتد. وهـو مـؤذن بالحاجة وبالقرب من نهاية العمر .

أ- بانتشار المشيب في رأسه كأنه نار أكلت لون الشباب والقوة فلم تبق منه شيئا.
2) ذِكْرُهُ لما سبق من فضل الله عليه. فهو يتوسل إلـــى الله بمـــا ســـبق لـــه مـــن فضـــله عليه.(كما جاء في حزب التوسل للشيخ أبي الحســـن الشـــاذلي: اللهـــم إنـــي أتوســـل بـــك إليك). تكرمت ربـــي علـــي فكنـــت ســـعيدا بألطافـــك وعونـــك واســـتجابة دعـــائي فـــي الماضي، فقوله تعالى حكاية عن زكريا: **ولم أكـــن بـــدعائك ربـــي شـــقيا**، تســـاوي كنـــت بسبب استجابتك لدعائي سعيدا في الماضي.
3) تفصيل الوضع الذي هو عليه، والذي لا مطمع له في الخروج منه حسب القوانين المعروفة في الكون، والتي يعتقد أنها مسخرة لإرادة الله الذي يقول للشيء كن فيكون. يتمثل هذا الوضع في أنه قلق من المصير القريب وهو في آخر العمر، هو خائف من استئثار عصبته بميراثه. هذا الميراث الذي يشمل ما جمعه من مال، ولا غضاضة في ذلك فإن الإنسان يعمل ليوفر نصيبا من المال، وهو مفطور على حبه أن يرثه عنه أولاده من صلبه، كما يشمل ميراث النبوة التي كان لزكرياء حظ منه، انحدرت له من سلسلة أبائه الواصلة له من سيدنا يعقوب (إسرائيل). ومما زاد الأزمة استفحالا أن زوجته كانت عاقرا لا تلد. تَحَقق عُقْرُها بعدم إنجابها إلى أن بلغت سن اليأس. فاجتمع عاملان: عامل خاص بها، وعامل ثان هو تجاوزها وقت قبول الحمل.
وأما الدعاء: فهو قوله فهب لي منك وليا. يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا.
سأل الله أن يعطيه هبة من عنده غير جارية على ما عهد من الإنجاب عند البشر. طلب ولدا يهبه له الله هبة خاصة خارقة للأسباب العادية. رغم هرمه وعقر زوجته، وأن يبلغ هذا الولد سن الرشد الذي يمكنه من ميراث مخلف والده من العلم والمال، وأن يكون صاحب مؤهلات ترتفع به لحمل ميراث النبوة التي تسلسلت في المصطفين الأخيار من آل يعقوب. وأن يجعل هذا الولد رضيا مرضيا عنه، موفقا فينال رضاك.

يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ
أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ
كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾
قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

التبشير : الوعد بالعطاء.
السمي : المثيل.

أنى : كلمة تدل على التعجب.

الهين : السهل حصوله.

الكبر : الشيخوخة.

عتيا: يبس المفاصل .

بيان المعنى الإجمالي :

نادت الملائكة زكرياء أن الله يزف له البشارة، بأنه سيولد له غلام سماه الله يحيى، ولا يوجد لهذا الولد نظير من أب هرم يبست مفاصله وتراجعت قواه، وأم عاقر، ويكون معرضا عن النساء لا تلهيه غريزته الجنسية عما كلف به، ونبيا، ومبشرا بعيسى.

كان فرح زكرياء كبيرا، فأعاد على ذاكرته ما جمعه الله من الفضل في هذه البشارة مستعظما لها. إذ أن ما بشره به خارج عن المألوف. فأوحى الله إليه مع هذه الظروف التي ذكرتها فعلت وأنا القادر. ومن ذلك تعلم عظيم قدرتي، فقد خلقتك وقد كنتَ معدوما، فلا عجب أن أجمع في خلق إنسان غير ما ألفه الناس. عندها طلب زكرياء من الله وقد اشتد شوقه لمعرفة الزمن الذي تتحقق فيه البشارة . فكما أعاده لنفسه لإذهاب عجبه، جعل الآية من نفسه أيضا: أن يعجز عن النطق ثلاثة أيام كاملة بتمامها تعود له قدراته بعدها.

بيان المعنى العام:

7- يا زكريا إنا نبشرك بغلام...من قبل سميا.

سمع زكرياء نداء من الملائكة يبشره بقبول دعائه، وأن الله سيهب له الولد الذي طلب أن يرزقه إياه. كما جاء ذلك في الآية 39 من سورة آل عمران: **فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى** .

تضمنت البشارة: أن الولد سماه الله يحيى. وأنه لم يوجد له مثيل في السابقين زيادة في المنة. وذلك لأنه: 1- " أعطي النبوة وهو صبي -2- كان حصورا -3- ولد مع الشيخوخة المتقدمة لأبيه-4- من أم عاقر -5 -بعث مبشرا بعيسى ﷺ - فلم تجتمع هذه الخصائص لأحد من قبله مما ينبئ عن عظيم عناية ربه به .وهذا ما يؤكده ما جاء في الآية التالية: **قال رب أنى يكون لي غلام** ... وقد ضل في فهم الآية من جعل سميا بمعنى موافقا في الاسم. إذ اختصاصه باسم يحيى لا مزية فيه.

8- قال رب أنى يكون لي غلام...وقد بلغت من الكبر عتيا.

قال رب أنَّى يكون لي غلام. عبر زكرياء عن عظيم شكره بما يسَّره له من فضل خارج عن المعتاد، أن يرزقه الولد من نفس زوجته العاقر وبعد هرمه ويبس

مفاصله وضعف أجهزته. فكلمــة أنّــى وإن كــان أصــلها الاســتبعاد إلا أنهــا فــي هــذا المقام تنبئ عن الشــعور بعظــيم المنــة الإلهيــة، وتطلــق اللســان بــالاعتراف بعظــيم الفضل وكريم العناية .

9- قال كذلك قال ربك.... ولم تك شيئا.

ما عبر به زكرياء كان متضمنا شــعورا بعظمــة مــا يســره الله لــه ، وأنــه أمــر بعيــد تصور حصوله. فأعاده الله إلى الكشــف عــن حقيقــة القــدرة الإلهيــة التــي لا يعجزهــا شيء، كهذا الإنجاز نتصرف، قال الله: إن خلق غلام فــي الظــروف التــي عجبــت منهــا هو أمر سهل، فارتفع بتصــوراتك إلــى تصــور حقيقــة القــدرة الإلهيــة يــذهب عنــك العجب. ولا يختلف إجابتي لدعائك وحمل زوجتك منك عــن خلقــك أنــت بعــد أن كنــت معدوما. أليس خلقك بعد العدم مظهرا عجيبا من مظاهر القدرة الإلهية ؟

10- قال رب اجعل لي آية...ثلاث ليال سويا .

كان الوحي الذي تلقاه من ربــه إجابــة عــن تعجبــه، كاشــفا مُطَمْئِنــا مضــيفا لإيمانــه تصويرا قويا واضحا. وإذ قوي يقينه بأنه سيولد لــه، وكــان تعلقــه بتحقيــق ذلــك كبيــرا بادر بسؤال الله أن يجعل له علامة يتبين بها أن امرأته قد حملت.

كانت الإجابة أن الآية ستكون من ذاته: أن يفقد قدرته على النطق، ويصبح عاجزا عن مخاطبة الناس. يستمر هذا العجز ثلاثة أيام كاملة بلياليها، لا يستطيع النطق لا في الليل ولا في النهار. ليس هو داء الخرس، ولكنها علة ظرفية لمدة ثلاثة أيام ، ترتفع العلة بعدها ويعود له بيانه بعدها، بما يَفْهَمُ منه أن امرأته أصبحت حاملا بيحيى، وتحقق البشارة بالفعل.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾﴾

بيان معاني الألفاظ :

المحراب : المكان المخصص للعبادة.

أوحى : أشار إليهم إشارة مفهمة.

الكتاب : التوراة.

بقوة : بعزيمة ثابتة.

الحكم : الحكمة والنبوة.

الحنان : الشفقة.

زكاة : زكاة نفسه بتنقيتها من الإثم والخبائث.

برا بوالديه : مكرم لهما مطيع.

الجبار : المستخف بحقوق الناس .

عصي : بعيد كل البعد عن العصيان.

سلام : ثناء من الله عليه .

بيان المعنى الإجمالي :

بمجرد ما جاءته الآية بأن زوجته حملت خرج على قومه لا يستطيع النطق. وخرسه الوقتي دليل ما تم. فأشار إلى قومه الذين كان يتولى إرشادهم وهدايتهم إشارة فهموا منها: أن عليهم أن يسبحوا الله في الصباح والمساء شكرا لله على ما أنعم به على نبيهم، النعمة التي يجدون بها بعد وفاته من يواصل تعليمهم.

كبر يحيى قليلا، فمكنه الله من النبوة والحكمة وهو ما يزال في سن الصبا. وجمع فيه المؤهلات للقيام بمهمة النبوة فكان رؤوفا، طاهر النفس، تركزت التقوى في روحه، في أسرته هو بار بوالديه، وهو في المجتمع يرعى حقوق الناس ولا يتعسف، تظهر آثار السعادة عليه. وحل عليه من الله السلام والأمن والطمأنينة يوم ولادته، ويوم موته، ويوم يبعث يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

11- فخرج على قومه من المحراب...بكرة وعشيا.

تحققت الآية وخرس لسانه، ولما كان نبي بني إسرائيل، وكانوا على موعد معه في أوقات يخرج لهم فيها ليدعوهم للعبادة والذكر، فخرج لهم وقد احتبس لسانه من المكان الذي خصصه لعبادته، فأشار إليهم إشارة مفهمة: أن عليهم أن يسبحوا الله ،صباحا ومساء. ومن المحتمل أن يكون قد نبأهم بما جعله الله له آية على حمل زوجته، فلما خرج عليهم وهو حبيس اللسان فهموا أن عليهم أن يشكروا الله على استجابة دعاء نبيهم .وفي العناية بنبيهم تكريم لهم .

12←14؛يايحيى خذ الكتاب بقوة ...ولم يكن جبارا عصيا.

جاوز يحيى مرحلة الرضاعة والفطام، وبلغ في صباه القدرة على الاتصال بالتوراة قراءة وفهما. فأوحى الله إليه أن يتمسك بالتوراة، بأن تكون عزيمته قوية على مواصلة تفهم ما جاء فيها، والعمل به وليكون وارثا لوالده في القيام على تعليم بني إسرائيل ما تضمنه كتابهم. ولا تعجبوا من ذلك فقد آتاه الله النبوة ومكنه من الحكمة وهو ما يزال صبيا.

ثم أخذ القرآن في الثناء عليه بذكر ست صفات من صفاته العالية وأخلاقه الفاضلة هي مؤهلاته لتحمل عبء الوراثة؛ فذكر منها: أنه كان رؤوفا بعيدا عن القسوة يشفق على الناس ويحس بآلامهم، وهو بالغ الحنان، جاءه ذلك من عند الله صافيا كاملا. و أنه كان زكيُّ النفس، صاحبُ مروءة، سَمَتْ مواهبه فلا يقرب الخبائث ومنازل الهوان والضعة. وأنه كان مستحضرا لصلته بربه بصفة دائمة، هذا الحضور الذي غرس التقوى في ضميره ، بما يتبعها من سرعة الإقبال على الامتثال للأوامر والابتعاد عن النواهي. وأنه كان مطيعا لوالديه يسعى في مرضاتهما فهذه صفته في أسرته، وأنه كان لينا لا يقسو في لفظه وعمله وفي علاقاته بالناس وهذه صفته مع المجتمع، وختاما هو بعيد كل البعد عن العصيان.

15-وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا.

بلغ التنويه بيحيى مرتبة رفيعة . أنزل الله سلامه عليه في المواقف الكبرى الثلاثة التي يكون الإنسان أحوج ما يكون إلى رعاية خالقه: يوم ولادته، ويوم وفاته، ويوم البعث. وسلام الله عليه مؤذن بالأمن وبالرحمة والعناية والألطاف، وما يصحبها من الطمأنينة والفوز اللاحق بذلك .

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن
دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ
بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا
زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ
كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا
مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

بيان معاني الألفاظ :

انتبذت : اعتزلت وانفردت.

حجابا : حائلا يمنع من النظر إليها.

الروح : ملك من ملائكة الله.

تمثل : تشكل لها في صورة غير صورته الأصلية.

بشرا سويا : إنسانا تام الخلق.

أعوذ بالرحمن : ألتجئ وأحتمي بالله .

لم يمسسني بشر : ما وقعت بيني وبين أحد من البشر علاقة جنسية.

البغي : المرأة الزانية.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر في القرآن يا محمد قصة مريم ابتداء من الظرف الذي اعتزلت فيه قومها ، وانفردت في مكان من الجهة الشرقية لمقام أهلها. ثم حجبت نفسها بحجاب يحميها من الأنظار لتختلي فيه للعبادة. وأن الله أرسل إليها ملكا فتشكل في صورة إنسان وسيم. انزعجت من وجودها منفردة في معبدها وبجانبها رجل ما عرفته من قبل. فخاطبته بقولها: إني أحتمي بالله منك إن كان فيك تقوى تدرك معنى الاعتصام به. أجابها بأن الله أرسله إليها لتحمل بغلام زكي طاهر النفس والفِعال. وتضاعفت حيرتها إذ لم تر منه خروجا عن حدود الآداب مما جعلها تثق به، ولما تتيقنه من أن الحمل لا يكون إلا نتيجة لقاء جنسي، وهي ما مسَّها رجل يحل له الاستمتاع بها، وما كانت زانية. وعبرت له بلسانها عن ذلك. فأجابها الملك: ما ذكرتُه لك هو إذن إلهي، وتحقيقه أمر ميسور على الله الذي لا يعجزه شيء. وأنه يريد أن يكون ولادة عيسى من دون أب معجزة للناس تظهر القدرة الإلهية، وليكون رحمة لهم بما يهديهم من الوحي الذي ينزله الله عليه. وما أخبرتك به قد تم به القضاء فاستعدي لما يستقبل .

بيان المعنى العام :

16←17: واذكر في الكتاب مريم ....فتمثل لها بشرا سويا.

هذه قصة أخرى من قصص بني إسرائيل، عطفت على قصة زكرياء لما بينهما من وجوه جامعة. فكل قصة فيها خروج عن المألوف، وفيها أيضا تأكيد على أن الخروج عن السنن المعروفة هيِّن بالنسبة للقدرة الإلهية، وكل واحدة منهما متصلة بالإنجاب. وقصة مريم كقصة يحيى كانتا متصلتين في سورة آل عمران . والظروف الزمنية متقاربة.

اذكر يا محمد في القرآن قصة مريم التي تبدأ من هذا الظرف:

المشهد الأول: مريم الفتاة التقية العفيفة.

كانت مريم فتاة تقية اعتزلت أهلها وابتعدت عنهم في مكان شرقي إقامتهم، اتخذت ذلك المكان تختلي فيه للعبادة. وأقامت حوله حاجزا يمنع عنها الأنظار، و يُبقي على هدوئها، ويبعدها عما يشغلها.

المشهد الثاني: مريم تواجه رجلا في خلوتها.

بينما كانت في خلوتها تلك، إذا بها تجد أمامها رجلا وسيما، سوي الخلق لا عيب فيه. أسرع القرآن ببيان أنه ملك من ملائكة الله، فكلمة روحنا تدل على نسبة الملك إليه سبحانه . كقوله عبدنا، ورزقنا.

18-قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا.

المشهد الثالث: جزع مريم .

تملكها الحذر منه، ولقوة إيمانها في هذا الظرف المكاني التي هي وحيدة فيه، التجأت معلنة عن اعتصامها بالله واحتمائها به، ثم وجهت إليه الخطاب : أن عليه أن يعي قوة من اعتصمت به وقدرته إن كان فيه أثر من تقوى الله الذي يتحتم على كل إنسان أن يخشاه.

19- قال إنما أنا رسول ....غلاما زكيا.

المشهد الرابع : نبأ الحمل .

عمل على طمأنتها، وأن يبعد ما تصورته مـن أنـه رجـل شـر يـروم الاعتـداء علـى شرفها في عزلتها وبعدها عن الناس وقال :إنـي رسـول ربـك الـذي أنـت واثقـة بـه وتعوذتِ به ولستُ إنسانا، جئت أحمل إليـك مـا أمرنـي بـه، أن أعطيـك هبـة منـه: غلاما ذكرا سامي الروح منزها عن الإثم والفسوق.

20- قالت أنى يكون لي غلام ...ولم أك بغيا.

المشهد الخامس : مريم تحاور الملَك.

زاد كلامه في حيرتها، وراجعته وقد أصبحت يتنازعها أمران:

الأمر الأول :ما وجدت من مخايل صدقه، فقد ألقـى الله فـي روعهـا أنـه ملـك ولـيس رجلا فاسقا يريد أن ينال منها.

والأمر الثاني: أن الأنثى لا تحمل إلا بلقاء جنسـي مـع الـذكر. وهـي فـي حياتهـا لـم يمسها رجل بينها وبينه علاقة شرعية، ويوسف النجار هـو خطيـب ولـيس زوجـا. ولـم تكن في حياتها إلا الطاهرة العفيفة التي مازنـت ولا خالطـت الرجـال؛ وصـرحت بمـا جرى في نفسها قائلة: يبعـد أن أحمـل، إذ لـم يحصـل بينـي وبـين أي بشـر وصـال حلال، ولم أكن زانية. وهذا أمر يوقعني في حرج ليس وراءه حرج.

21- قال كذلك قال ربك هو علي هين...وكان أمرا مقضيا.

المشهد السادس: الملك يطمئنها .

أجابها الملك: إنه على النحو الذي أخبرتكِ صدر الإذن الإلهي. وحملك من دون لقاء جنسي ميسور على القادر الذي لا يعجزه شيء. ويكون من الحكمة في ذلك أن يجعل خلقه من أم دون أب معجزة تؤكد قدرة الله التي تخرق الأسباب العادية، ويكون ما ستحملينه رحمة من الله للناس، سيهديهم إلى طريق النجاة التي ينالون بها رضوان الله والفوز في دار الآخرة. وقُضِي الأمر ونُفِّذ ما أراده الله وليس لك اختيار في هذا يا مريم . فاستعدي للمستقبل .

سـؤال: لسائل أن يسأل: ما هي الحكمة في جعل جبريل واسطة عرّف مريم بما ستحمله؟ ولماذا فضل هذا الوجه على نفخ الروح في بطنها نفخا يتولد منسه عيسى بدون توسط جبريل ؟

وجوابا عن ذلك نقول: إن عقولنا تقصر عن جمع أوجه الحكمة فيما قدره الله ونفذه. وقد يكون من حكمة ذلك: أن مريم لو انتفخ بطنها وأحست بالجنين يتحرك في أحشائها دون أن تمر بما مرت به، لكان يمكن أن تحدث في نفسها هواجس لا تجد لها حلا، مما يؤثر على أعصابها وعلى الجنين. ولولا ذلك اليقين الذي استقر في نفسها لكان لها مواقف مع الجنين قبل ولادته، وبعد ولادته، قد تكون سيئة جدا. وأن ذلك أعطاها قوة على مواجهة اليهود الذين رموها بالزنا بعد ولادته.

۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

أجاءها : جاءها وهي ملجأة.

المخاض: ما يصحب خروج الولد من بطن أمه من تفاعلات.

الجذع: ما يحمل جريدا النخلة.

النسي : التافه الذي شأنه أن ينسى .

سريا: يطلق السري بمعنى العظيم من الرجال، وبمعنى الجدول.

الرطب : التمر قبل أن يجف.

جنيا : قريب الانفصال عن أصله

تساقط : تتساقط.

قري عينا : اهنئي بعيشك.

الإنسي : الإنسان

بيان المعنى الإجمالي :

تحقق ما أراده الله وعلق الجنين، فاعتزلت أهلها واستقرت في مكان بعيد عنهم، والنهاية معلومة أن يتم نمو الجنين في بطنها ويأتي وقت فصاله. كانت وحيدة

مستندة إلى جذع نخلة. تألمت أشد ما يكون التـألم، ألـم الـولادة، والوحـدة، والخـوف من قالة الناس بما يسيء إليها وإلى أسـرتها، والولـد الـذي وضعته لا يعـرف لـه أب. فنطقت عما تشابك في باطنها من الأحاسيس، وقالت يـا ليـت المـوت أخـذني قبـل أن أصل إلى الذي أنا فيه ، فكنـت شـيئا تافهـا ينسـى ولا يلتفـت إليـه. وتسـمع صـوت وليدها وقد نزل إلـى الأرض صـوتا فصـيحا لا بكـاءً كمـا هـو شـأن الأجنـة عنـد الانفصال عن الأمهات. ارفعي عنك الحزن، فـإن الـذي وَلَدْتِـهِ شـخص عظـيم . إنـك تحت مظلة العناية الإلهية، هزي الجذع الذي أنـت مسـتندة إليـه، فسـينزل عليـك منـه رطب حديث العهد بجنيه، اطرحي الأسى والحـزن، وكلـي منـه مـا شـئت واشـربي، ولتملأ السعادة نفسك. ولا تفكري في قالة المتطفلين عليـك، عـودي إلـى أهلـك وأنـت واثقة في نفسك، وانذري صوما عن الكلام، فإن اعترضـك أي فـرد مـن البشـر يسـألك عن ولدك، فلا تجيبي وأومئي بأنك نذرت الصوم فلا أكلم أحدا من الناس .

بيان المعنى العام :

22-فحملته فانتبذت به مكانا قصيا.

المشهد السابع: مريم تضع حملها .تحقـق حملهـا ونمـا الجنـين فـي بطنهـا وخافـت الفضيحة، فاعتزلت قومها وذهبت إلـى مكـان بعيـد عـنهم. ولا يهمنـا تعيـين المكـان الذي اختارته مُقاما لها حتى تضع حملها.

23-فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة...نسيا منسيا.

بلغ الجنين الوقت الذي ينزل فيه إلى الأرض وينفصل عن أمه. وحصل لها من التفاعلات الجسمانية ما جرت عليه السّنة في الأمهات عندما يضعن حملهن. تصورها الآية وهي تعاني انفصال حملها وحيدة مستندة إلى جذع نخلة. في هذا الجو من الوحدة، ومن آلام الوضع، ومن توقع هتك عرضها برميها بالزنا، والمولود والده غير معلوم، وهي من أسرة شريفة نذرتها أمها أن تكون قيمة على خدمة المعبد، ومن عواطف الأمومة الحانية على ما أنست به في بطنها كل مدة الحمل حسب الفطرة التي فطرت عليها كل أنثى .تتفاعل تلكم الأحاسيس فتقول: أتمنى لو حل بي الموت. الموت المبغوض من الإنسان تشتهيه، إذ هو خير لها من الوضع الذي هي فيه. وتتمنى أن لو كانت شيئا تافها لا يعتنى به ينسى دون أن يتفطن إليه

24-فناداها من تحتها ... قد جعل ربك تحتك سريا.

نزل المولود إلى الأرض، وسمعت صوته لـيس بكـاء كبكـاء المولـودين، كـان نـداء بصوت بين، وكلمـات واضـحة الدلالـة، إن الـذي ولدتِـه هـو عظـيم مـن عظمـاء الإنسانية (سريا) وأرجح هذا المحمل، لأنه يرفع ما قالتـه: و كنـت نسـيا منسـيا تافهـة لا يلتفت إلي. يقول لها كيف تكـونين تافهـة وأنـت ولـدت عظيمـا سـيؤمن بـه مـا لا

يحصى من البشر! فما ابتلاك به ربك هو سيزيد في مقـدارك. فيكـون هـذا أرشـق ممـا ذهب إليه أكثر المفسرين: أن سريا (جدولا) ليناسب قوله بعد (واشربي)

25←26: وهزي إليك بجذع النخلة تساقط...فلن أكلم اليوم إنسيا.

واصل عيسى بما يُمكن من الطمأنينة في قلبها، ويمسح مـا سـاورها مـن الخـوف مـن الفضيحة، فأظهر لها أنها تحت رعاية الله وعنايته الذي أمَّـن لهـا قوتهـا، وأرشـدها إلـى تحريك الجذع الذي تَقَوَّتْ بـه للتغلـب علـى آلام الوضـع، لينـزل عليهـا رطبـا علـى أفضل وضع، وهو الوضع الذي يكـون قريـب الانفصـال عـن الشـماريخ التـي كانـت تحمله. وشأن الرطب أن لا ينـزل بتحريـك الجـذع بـل بتحريـك العرجـون. اطمئنـي واقبلي على الحياة فكلي واشربي بدون خوف ولا وجـل، وانشـري فـي نفسـك الشـعور بالرضا والسعادة، واهنئي بالعيش الذي يسره لـك ربـك، وبمـا حبـاك مـن ولـد سـري ماجد. ولا تفكري فيما يشغب به عليك الناس، كـوني قويـة متحديـة لفضـولهم. انـذري صوما لله عن الكلام، ثم عودي إلى أهلك فإن اعترضـك أحـد مـن النـاس وسـألك عـن هذا المولود الذي تحملينه، فلـيكن جوابـك بالإيمـاء، بمـا يفهـم منـه: إنـي نـذرت لله صوما فلن أتكلم اليوم مع أي واحد من الناس .

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُواْ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

شيئا فريا : فعلت فعلا سيئا.

امرأ سوء : رجلا فاسد السلوك.

البغي : الزانية.

المهد : فراش الصبي .

الكتاب : الشريعة

المبارك : الذي تقارن البركة واليمن والخير أحواله، فهو نفاع ومعلم خير.

أوصاني : أمرني أمرا مؤكدا.

البر : السعي في الطاعة.

الجبار : المتكبر المتعظم.

الشقي :الخاسر الفاقد للسعادة.

بيان المعنى الإجمالي :

أخذت مريم وليدها، وقد اطمأنــت نفســها بمــا ســمعته مــن ابنهــا إثــر وضــعه ،ثــم توجهت إلى قومها . قدِمت عليهم وهي تحتضنه. تعــرض لهــا الفضــوليون قــائلين : يــا مريم لقد ارتكبت أمرا منكرا وفعلت فعلا ســيئا. رموهــا بالزنــا إذ الولــد فــي حضــنها وهي معروفة لديهم أنها غير ذات زوج. ثــم بــالغوا فــي الإنكــار عليهــا سُــقُوطَها فــي الزنا ،باعتبار أنها تنحدر من أسرة صالحة.

أشاروا أولا: أنها من نسل هارون من بنــي لاوي أخــي موســى، وثانيــا أن أباهــا كــان رجلا بعيدا عن مواقع الفساد، وأن أمها كانت امرأة عفيفة لا زانية.

لم ترد عليهم إذ هي نذرت الصوم لله، أشارت إليــه إشــارة مفهمــة أن علــيهم أن يســألوا الصبي فسيجيبهم. قالوا: كيف نطلب الجواب من ولد مــا يــزال فــي بــواكير صــباه لــم يفارق المهد. سألوا عيسى فأجابهم بلسان طلق: إنــي عبــد مــن عبــاد الله ولســت ملكــا ولا ابنا لله. أعطاني الله الكتاب الجامع للشريعة، وفوق هــذا جعلنــي نبيــا أتلقــى الــوحي عنه. وجعلني مباركا ففي جميع حــالاتي يصــحبني الفضــل والخيــر. وألزمنــي الحفــاظ على الصلاة والزكاة حفاظا يصــحبني كامــل أيــام حيــاتي. وأن أكــون بــارا بوالــدتي أطيعها وأكرمها. وجعلني متواضعا رفيقــا بعيــدا عــن الغطرسة والجبــروت. وجعلنــي سعيدا لا شقيا. والسلام من الله نازل علي في الأحــوال التــي لا يكــون لــي فيهــا حــول ولا قوة: يوم ولادتي، ويوم موتي، ويوم أبعث فيه للحشر يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

27-فأتت به قومها تحمله ....شيئا فريا.

المشهد الثامن: مريم في مواجهة قومها .

قدمت مريم على قومها تحمل ولدها، وقد وثقــت بنفســها وزال مــا كــان يســاورها مــن مخاوف من اتهامات الفضوليين الظانين ظن السوء.

تصدى لها بعضهم مصرحا بتهمتها في عفافها مؤنبا لها، بقولــه: يــا مــريم لقــد فعلــت فعلة سيئة شنيعة و غير مقبولة .

28-يا أخت هارون ما كان أبوك...بغيا.

ثم أضافوا : يا أخت هارون لقد خرجت عن المنهج المعـروف مـن أسـرتك، لقـد كـان أبوك رجلا صالحا ،وما كان ممن يرضى فعـل مـا هـو سـوء و منكـر، وكانـت أمـك طاهرة نقية بعيدة عن السقوط في البغاء والزنا.

وفي دعوتها بأخت هارون بعد دعائهـا باسـمها " مـريم " إشـارة إمـا إلـى أنهـا مـن اللاويين من سبط هارون، فتذكيرها بنسبها إلى النبـي هـارون إمعـان فـي نكـران مـا اتهمت به من الزنا. وإما أن يكون لها أخ صالح اسـمه هـارون. وقـد أخـرج الترمـذي عن المغيرة بن شعبة أن النبي ﷺ بعثه إلى نجـران فقـالوا: ألسـتم تقـرؤون "يـا أخـت هارون " وقد كان بين عيسى وموسى مـا كـان؟ قـال المغيـرة فلـم أدر مـا أجيـبهم . فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته. فقـال: ألا أخبـرتهم أنهـم كـانوا يسـمون بأنبيـائهم والصالحين قبلهم[1].

29- فأشارت إليه ...من كان في المهد صبيا.

نظرت إليهم نظرة الواثقة في نفسها المترفعـة عـن محـاورتهم، وقـد كانـت نـذرت أن تصوم فلا تتكلم ، ولكي تبهـتهم اكتفـت بالإشـارة إلـى المولـود الـذي كانـت تحملـه إشارة فهموا منها أن يكفوا عن سؤالهم لها، وأن يتوجهـوا بأسـئلتهم إلـى الصـبي الـذي تحمله. ولَشَدَّ ما كان إنكارهم لما أرادته منهم فقالوا: كيـف نكلـم مـن هومـا يـزال فـي بواكير صباه لم يبرح المهد بعد ؟

30←33: قال إني عبد الله آتاني ....قول الحق الذي فيه يمترون.

المشهد التاسع: المعجزة تظهر للناس.

كلموا عيسى وسألوه عن شأنه. فأجابهم بعرض صفاته الذاتية التي ميزه الله بها.

الصفة الأولى التي بادر بها: إثبات عبوديته لله. ألقى الله علـى لسـانه ذلـك فـي افتتـاح الكلام، نفيا لما سينحرف إليه النصارى من الغلو فيـه حتـى جعلـوه ابنـا لله. والعبوديـة لله شرف الإنسان، فليس هو شيئا مهملا، ولكنه متصـل بـالله اتصـال مـن يعـرف مقـام ربه ويعرف مقام نفسه، وينسجم بذلك مع المنظومة الكونية.

الصفة الثانية: الفقه في التشريع، ذلك أنه تلقـى علـم الكتـاب، إمـا التـوراة أو الإنجيـل، على معنى أنه وعى التشريع الثابت بما أنزله الله.

الصفة الثالثة: النبوة، أنه رزق فوق علم الكتـاب والتفقـه فـي التشـريع، أن الله فـتح لـه باب النبوة فسما إلى تلقي الوحي من الله.

---

[1] ح 3155 ج5 ص220

الصفة الرابعة: اقتران الخير بـــي، خيـــر الـــدنيا وخيـــر الآخـــرة. فهـــو النفّـــاع للنـــاس، يعلمهم الخير وينهاهم عن المنكر، ويسمو بأخلاقهم، وييسر عليهم ما شق عليهم.

الصفة الخامسة: عناية الله بي، فقد أكد علي أن أقـــوم بالصـــلاة وبالزكـــاة، قيامـــا يـــرتبط بهما فكري وعملي، كامل أيام حياتي لا أغفل عنهما، بل أجد الأنس في القيام بهما.

الصفة السادسة: الطاعة والإكرام لوالـــدتي. وفـــي التنصـــيص علـــى هـــذا الوصـــف مـــا يفصح عن مقام مريم عليها الســـلام ، فقـــد أخبـــر عيســـى أن الله أوصـــاه بثلاثـــة أمـــور اثنان منهما يعودان إلى صلته بربه في الصلاة والزكاة، والثالثة في البر بأمه .

الصفة السابعة: أني لـــين الجانـــب متواضـــع، فقـــد طهرنـــي مـــن التعـــاظم والكبريـــاء، والقسوة. فإن الجبارين لا يكونـــون إلا تعســـاء لـــبغض النـــاس لهـــم، وشـــماتتهم بهـــم إذا نُكبوا. وهم بمعرض النكبة لانقطاع الود بينهم وبين الناس.

وختم عرضه، بأن الله كتب له السلام والأمن والرضـــا فـــي الأحـــوال التـــي يكـــون فيهـــا الإنسان أحوج ما يكون إليها.

أولا يوم ولدت، وكذلك كان. فإن الله يسر لأمه عند ولادتـــه كـــل خيـــر، وكانـــت ولادتـــه تحولا في نفسها من الخوف إلى الأمن.

وثانيا يوم أفارق الحياة والإنسان على أشـــد مـــا يكـــون مـــن الضـــعف، لا نجـــاة لـــه ولا أمن إلا بفضل من الله وعناية، وثالثا يوم أبعث حيا يوم القيامة.

وفي تنصيصه عليه السلام على الأحوال الثلاثة، رد وتكذيب لما أشـــاعه اليهـــود فيـــه: أنـــه ولـــد من زنى، وأنه مات مصلوبا، وأنه يحشر مع الكفـــرة. فقـــد صـــحبه الســـلام الإلهـــي فـــي الأحوال الثلاثة.

ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ
مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي
وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ
لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ
ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

يمترون: يشكون.

الصراط المستقيم : الطريق الحق المفضي إلى المقصود الذي هو الهدى.

الأحزاب : أحزاب النصارى.

بيان المعنى الإجمالي :

ذلك الذي بينا حقيقته هو عيسى ابن مريم ، وليس ما يدعيه النصارى من كونه إلها ولا ما يدعيه اليهود من كونه ابن زنا هالكا لخروجه عن التوراة . وما نزلنا في القرآن هو القول الحق الذي اختلف فيه أهل الكتاب فضلوا. إنه لا يمكن أن يكون لله ولد تنزه عن ذلك، إذ كل الكائنات مخلوقة له. إذا تعلقت إرادته وقدرته بإيجاد شيء فإنه يوجد في الحال.

إن الله هو ربي وربكم ، تقتضي ربوبيته إفراده بالعبادة والتقرب بما شرعه. هذا هو التصور الصحيح المفضي إلى السلامة في الدنيا والآخرة. الموصل إلى السعادة كالطريق المستقيم الذي يضمن لسالكه ابتعاده عن الضياع والمتاهات. ثم إن النصارى تفرقوا إلى أحزاب واختلفوا، وساروا مع تصورات باطلة فالخزي لهم والحزن والعذاب عندما يحضرون راغمين ويشهدون اليوم العظيمُ عذابُه وفضائحه. ما أسمعهم وما أبصرهم اليوم لما أعد لهم من العذاب والمهانة! وقد كانوا في الدنيا غافلين أصموا آذانهم ، وأغمضوا عيونهم، في هذا اليوم الذي يقدمون علينا راغمين؛ ولكن الظالمين بالكفر والشرك ودعوى أن عيسى ابن الله ، هم في الدنيا سادرين في ضلالهم البين.

بيان المعنى العام :

34-ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون.

تهيأ للسامع وصف دقيق لحياة عيسى من الحمل إلى الكلام في المهد، فجمعته الآية لتشير إليه بتفاصيله، وليكون حاضرا في الذهن ليرتب عليه النتيجة المقصودة من هذه القصة. و أكدت مفاد ما يفهم منها بأنه القول الجامع للحق، المظهر للحقيقة، النافي كل التصورات الباطلة التي عششت في عقول الضالين من اليهود والنصارى. هذا القول الذي خفي على أهل الكتاب فأخذوا يختلفون في حقيقة عيسى بين مستنقص له، كذب على عيسى وكفر به وهو ابن زنا، وبين مغال فيه زاعم أنه لما ولد على خلاف ماجرت عليه سنة الإنجاب أنه لا بد أن يكون له والد فإذا لم يكن إنسانا فليكن ابنا لله .

35- ما كان لله أن يتخذ من ولد... يقول له كن فيكون.

والمقصود من القصة : أن الله لا ينبغي له أن يتخذ ولدا. فتصور أن الله له ولد منفي نفيا قاطعا بما يقتضيه النظر العقلي. تنزه عن ذلك "سبحانه" إذ اتخاذ الولد

يقتضي أن يكون الولد من جنس الوالد يحمل خصائصه ، وعيسى عليه السلام بشَرٌ حادث جرى عليه ما يجري على المخلوقات كلها. و إذا كان الله خلقه من غير أب، فغاية ما يفيده الحدث أنه مخلوق لله كسائر المخلوقات. والصورة التي يجب أن ترتسم في الذهن والتي هي من حقيقة الألوهية: أنه سبحانه إذا تعلقت إرادته ثم قدرته بأي أمر من الأمور، فإن الإخراج إلى الوجود يتبع بدون واسطة ما تعلقت به القدرة والإرادة. من الأمر التكويني .وليس المراد أن الله يقول كن، أن الشيء يوجد عندها. بل إن الممكنات تنشأ بمجرد ما تتعلق الإرادة بإيجادها.

36-وأن الله ربي وربكم فاعبدوه...صراط مستقيم.

ويتصل بكل ما سبق تقرير العقيدة : أن الله هو ربي وربكم، فاعبدوه، إذ هو الحقيق بأن يعبد ويتقرب إليه، يرجى فضله ويخشى سخطه وعذابه. إن إفراد الله بالعبادة ونفي كل ما عداه هو الاعتقاد الحق الموصل للسعادة في الدنيا والآخرة. شُبِّهَ الملتزم بالتوحيد في تصوره و أرجاعه، بالسالك طريقا مستقيما يصل به إلى غايته، وأن ما حول ذلك الطريق من فروع مضلل يرمي بسالكه في المتاهات والضياع. ويصح أن يكون هذا الكلام من كلام عيسى عليه السلام عند مخاطبة الفضوليين المتهمين لأمه. كما يصح أن يكون المخاطِب هو سيدنا محمد ﷺ .

36- فاختلف الأحزاب...من مشهد يوم عظيم .

إن الأحزاب ممن يدعون أنهم أتباع السيد المسيح عليه السلام، قد انحرفوا عن الصراط المستقيم الذي هو الوحدانية الخالصة لله، وأن ما سواه مخلوق له وعبد له. وفِرَقُ النصارى فرقٌ كثيرة ما تزال تنقسم وتتباعد مع الزمن، إذ أدخلوا التصورات البشرية في البحث عن مفهوم الألوهية وما يتبع ذلك. وهم منقسمون اليوم إلى الأقسام الكبرى: الأرثودوكس، والكاثوليك، والبروتستانت .وكل فرقة من هذه الثلاث منقسمة إلى شعب كثيرة.

إن جميع الفرق التي ألّهت عيسى قد استحقت مقرها في جهنم، هم قد تحقق منهم الكفر، لهم الهلاك والخسران. والخزي والحزن محقق عند حضورهم وشهودهم هول الحساب والجزاء في يوم القيامة .

38- أسمع بهم وأبصر...في ضلال مبين.

هذه صيغة تفيد التعجب نحو قوله ما أسمعهم وما أبصرهم. فيها إشراك السامع في استحضار المشهد المتعجب منه. والمعنى أن ما سينالهم من العذاب البالغ حدودا تتجاوز الوصف، العجب منهم كيف يطيقون السمع والبصر بما يكرهونه!

تعجبوا من وضع الكافرين من النصارى وعبـدة الأصـنام يـوم يـأتون قسـرا للحسـاب لدى رب العالمين، لا يستطيعون فرارا ولا عصيانا للأمـر الجـامع للبشـر جميعـا. إنهـم وإن كانوا اليوم ينعمون بما تجمَّع لهم من حظوظ دنيويـة، لكـنهم فـي الحقيقـة ظـالمون بالشرك وتصوير الذات الإلهية على غيـر مـا يجـب لهـا مـن التنزيـه سـادرون فـي ضلال واضح لمن له عقل .

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحسرة : الندامة الشديدة.

قضي : تم تنفيذ ما قدر.

الغفلة: الذهول عما ينبغي أن يعلم.

نرث : سيفنى كل من له تصرف في الأرض وينفرد الله بالتصرف فيها.

بيان المعنى الإجمالي :

خوِّف المشركين وأدخل الرهبة في قلـوبهم مـن اليـوم الـذي تتواصـل فيـه الحسـرات على ما فرطوا في الدنيا. هو اليوم الـذي ينفـذ فيـه القضـاء ولا مـرد لـه. و العجـب منهم أنهم في ذهول عن هذا اليوم، ماضون على الكفر وعدم الإيمان.

سيفنى الكون كلـه الأرض ومـن عليهـا، وسـينفرد الله وحـده بالتصـرف. وسـيعودون إليه لينالوا جزاء ما قدموا.

بيان المعنى العام :

أخبرهم بالمصير الذي يخوفهم حتى يأخذوا حذرهم منه. هـو يـوم الحسـرات علـى مـا فرطوا في دنياهم، ومشاهدة المهانة والعذاب، وقـد كـان يمكـنهم أن يقـوا أنفسـهم منـه بالتوحيد وبالعمل الصالح في الـدنيا. ذلـك اليـوم الـذي لا مـرد لمـا قضـاه الله فيـه . والعجب أنهم غافلون عن هذا اليوم مصرون على الكفر وعدم الإيمان

39-وأنذرهم يوم الحسرة...وهم لا يؤمنون.

أعلمهم بما يترصدهم مـن سـوء ليأخـذوا حـذرهم منـه، هـذا الـذي يترصـدهم هـو حضورهم في اليوم الذي تكون فيه الحسـرات متواصـلة. يـذكرون تفـريطهم ويحضـر أمامهم ما هم صائرون إليه، ويستفيقون إلـى أنـه كـان فـي إمكـانهم أن يقـوا أنفسـهم سوء المصير، فتتوالى حسراتهم ،حتى كـأن اليـوم كلـه حسـرة. والعجـب أنهـم فـي

ذهول عن هذا اليوم الذي يتم فيه القضاء، فيـأذن الله بتنفيـذ الموعـود .والعجـب مـنهم أنهم يواصلون ثباتهم على الكفر وعدم الإيمان.

40-إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون.

مع التأكيد الكامل سيفنى ما على الأرض من الكائنـات التـي لهـا وجـه تصـرف فـي كوكب الأرض، من الحيـوان والإنسـان. وتصـرف الله فـي الأرض ومـن عليهـا مـن الكائنات سينفرد به وحده بعد هـلاك كـل مـن عليهـا. وسـيعود الجميـع إلـى قبضـة الجبار ينفذ فيهم ما سبق في قضائه القضاء العدل. وما ربك بظلام للعبيد .

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الصديق: المتصف بالصدق بصفة بالغة في الامتثال لما كلف به .

النبي : من سما لقبول الوحي من الله.

يا أبت : يا أبي زيدت التاء في آخره .

العصي : المبالغ في العصيان .

وليا : صاحبا، مصيرهما واحد.

بيان المعنى الإجمالي :

أمر من الله لرسوله أن يذكر قصة إبراهيم في القرآن ونوه بـه بأنـه بـيّن الصـديقية فـي كمال الامتثال والصدق في ذلكم الظرف الذي دعا فيه أبـاه ليرشـده إلـى مـا ينقـذه مـن الضلال. دعاه أربع مرات بيا أبت ! مستفهما أولا: عـن عبادتـه إلهـا أصـم لا يسـمع، أعمى لا يرى، عاجزا لا يساعد لا على جلـب خيـر ولا علـى دفـع ضـر. وثانيـا: أن يطرح ما هو عليه وأن يتبع ابنه، وليس فـي ذلـك غضاضـة لأن ابنـه قـد تلقـى مـن العلم ما لم يحصل عليه أبوه، وبهذا العلم سـيهديه إلـى الصـراط السـوي المبلـغ للحـق والسعادة. وثالثا: موقظا له بأنـه يتبـع المسـالك التـي زينهـا الشـيطان متخفيـا دون أن يشعر أنه متبع للشيطان. والشيطان جبل علـى العصـيان للـرحمن .ورابعـا: إن اتباعـه

للشيطان الذي هذا شأنه سيفضي به إلى عاقبة يخشى عليه فيها أن يقع تحت طائلة العذاب من الرحمن الذي لا يرحم الشيطان وأتباعه ، ويرتبط مصيره به فيكون مصاحبا له .

بيان المعنى العام :

41- واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا.

عطف القرآن قصة إبراهيم على قصة مريم، واستويا في طريقة الافتتاح: واذكر ؛اذكر يا محمد في القرآن خبر إبراهيم، الذي أقام أول معلم للتوحيد: الكعبة بيت الله الحرام . وهذا الأمر والعناية مبناه، أن العرب ينسبون أنفسهم إليه، ويحجون إلى البيت الذي أسسه، ويرون أن شرفهم في القيام على شريعته. فذكر خبره على النحو الذي سيرد في الآية محرض لهم على ترك الشرك والإقبال على التوحيد.

افتتح القرآن الحديث عن إبراهيم بالتنويه بصدقه الذي بلغ مستوى رفيعا جدا، فكلمة "صديقا" تعبير عن منزلته ﷺ في الصدق، الذي يشمل صدق الحديث، والصدق في الامتثال فلا تجد في قيامه بما كلف به تهاونا ولا ترددا ولا نقصانا، كما سيأتينا في سرعة امتثاله لما أمر بذبح ولده. ثم أردف أنه كان مع صديقيته نبيا من أنبياء الله يوحى إليه.

42-إذ قال لأبيه يا أبت...ولا يغني عنك شيئا.

اذكر إبراهيم في الظرف الذي توجه لأبيه ناصحا. وفي تتبع قصة محاورته له عبر في الدعوة إلى الحق، وفي طريقة عرضه.

فاتح ابراهيم أباه بندائه شأن الولد مع والده في الاستغاثة به، و لفت نظره إلى ما هو في حاجة إليه، ليقبل عليه بدافع الفطرة. ثم ألقى عليه السؤال المحرك لعقله كأنه يقول له: ماهي العلة وما السبب الذي جعلك تعبد كائنا لا يسمع دعاءك إذا دعوته، ولا ابتهالاتك إذا توجهت إليه طالبا متقربا، ولا يراك في تقلبك في الأمكنة والأزمنة فلا صلة بينك وبينه، و مع هذا الانقطاع بينك وبينه لا يستطيع أن يسعفك بما أنت في حاجة إليه ولا أن يدفع عنك ضرا تتعرض إليه.

43-يا أبت إني قد جاءني....أهدك صراطا سويا.

ثم واصل مرتقيا متلطفا حتى لا يثير فيه تعالي الكبار على من هم دونهم سنا، فأعاد النداء " يا أبت " أخبرك أني قد وصلني حظ من العلم لا تعلمه أنت، وأنا أدعوك أن تتبعني فيما وصلني من المعرفة، فبفضل ما أوتيته أهديك طريقا مستقيما واضحا، يبلغك الحق الذي يقتضيه العقل. وهذا التقديم من إبراهيم مع ثناء الله عليه فيه دلالة على أن الحقيق بالاقتداء به هو العالم.

44-يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا.

ويواصل نداءه ثالثة بدعوته أن يقلع عن عبادة الشيطان الذي استقر في فطرة البشر أنه مضل للإنسان لا يقوده إلا للشر، ولكن قدرته على التضليل في خفاء تجعل المنحرف لا يتفطن إلى أن ضلاله جاء من الشيطان. فإبراهيم عليه السلام يوقظ أباه بفضل ما أوتيه من العلم أنه متبع للشيطان دون أن يتفطن. ويؤكد عليه أمر ابتعاده عما يدعو إليه الشيطان وما يوسوسه، بأن الشيطان قد استقر على عصيان الرحمن عصيانا لا يخالطه طاعة أبدا. فمن اتبعه فقد قطع ما بينه وما بين الرحمة العظمى ، ولذلك اختير لفظ الرحمن.

45- يا أبت إني أخاف أن يمسك...للشيطان وليا.

ثم يواصل نداءه رابعا ملحا: **يا أبت** – مظهرا التحسن والاهتمام بأبيه في الحاضر والمآل، إني أخاف عليك أن يعذبك الله على اتباع الشيطان فتكون رفيقا مصاحبا للشيطان، مآلكما واحد. التعبير بالخوف دون التيقن، مع أن من يتبع الشيطان خاسر لا محالة، لوحظ فيه أمران: أحدهما تأدبه مع الله إذ العذاب من أمره سبحانه فلا يحقق ما هومن أمر الله، وثانيهما لأنه يرجو أن يتوب أبوه فينقذ نفسه من العذاب .

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الرجم : القتل بالرمي بالحجارة.

الهجر : قطع المكالمة، والمعاشرة.

مليا : طويلا.

الحفي : الشديد البر والإلطاف .

أدعو ربي : أعبده.

اللسان : الذكر.

الصدق : ثناء الخير والتبجيل.

بيان المعنى الإجمالي :

إعراض أبيه وجفاؤه، وعبادة الأصنام، أجبره ذلك على الانتقال من الأرض التي بها قومه. ولم يظهر منه إلا ما عرف به من سمو خلقي بعيد عن الجفاء، فقال مودعا لوالده وهو كبير القوم: سلام عليك، الأمن عليك فسوف لا أقابل جفاءك وتهديدي بالمثل، وأطلب ربي أن يغفر لك ذنوبك، فإنه عودني قبول دعائي وإكرامي بالاستجابة لي. أتركم مع ما تعبدونه من الأصنام من دون الله، وأتوجه مخلصا بعبادة ربي، ورجائي أن يسعدني بقبول صلاتي ودعائي وابتهالاتي. ثم خرج متوجها إلى أرض الشام.

إنه لما فارقهم ورضي بالاغتراب تصحبه زوجته، ولم يكن لهما ولد في ذلك الوقت. آنس الله وحشته فوهب له من فضله إسحق وأنجب إسحق يعقوب، انضما إلى العائلة قبل أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى. وجعل كلا منهما نبيا سما إلى تلقي الوحي من الله.

ويتنزل شيء من الرحمة على هذه الأسرة بما أعد الله لها من الكرامة في الدار الآخرة. كما أكرمها في الدنيا بإطلاق الألسنة بالثناء على أعضائها ثناء رفيعا، فجمع لها بين سعادة الدارين فضلا من الله، والله ذو الفضل العظيم.

بيان المعنى العام :

46- قال أراغب أنت عن آلهتي ...واهجرني مليا.

بعد الدعوة التي جمعت بين اللطف والنصح وبيان العاقبة، تقدم الوالد العاتي الغليظ، فواجه ابنه مفتتحا بسؤال فيه إنكار، مقصود به التعجب من إعلانه عن رفضه لعبادة آلهة أبيه. وناداه (يا إبراهيم) إشارة إلى أنه في نظره مغرق في الذهول فيوقظه بالنداء ليعود إلى رشده وينتبه إلى خطئه. ثم أعلن عن تهديده له مؤكدا: أنه سيرجمه بالحجارة إلى أن يموت ويقضي على حياته الرافضة للخضوع للآلهة. وأضاف، أنه بين تنفيذ الرجم وبين زمن التهديد، أنه يقطع ما بينه وبينه، فلا يكلمه ولا يجلس في مجالسه، مهما طال الزمن. ومن الجفاء أنه عبر عن المقاطعة بقوله: اهجرني مليا للإشارة إلى أن هذا الهجر يقصد منه طرده احتقارا وتوهينا لشأنه ، وقد انقطع ما بينهما من صلات.

47←48:قال سلام عليك سأستغفر ...ألا أكون بدعاء ربي شقيا.

أمام هذا التصميم والعنف، كان موقف إبراهيم جاريا على ما أدبه به ربه من الكمالات ، وعدم مجاراة أبيه في غلظته . يبدو هذا الأدب والسمو في:

أولا: أن ودعه بقول سلام عليك. بما تدل عليه هــذه الصــيغة مــن أنــه يــود أن يــتمكن منه السلام والأمن. وفهمت من هــذا التوديــع أن إبــراهيم يرجــو أن يحــل الســلام فــي قلب أبيه بترك عبادة الأصنام والإخــلاص لله. و ممــا يقــرب هــذا أنــه أعقــب ســلامه بوعده: أنه سيواصل طلب المغفرة لأبيه، وأنه علــى رجــاء أن يغفــر لــه اعتمــادا علــى ما عوده ربه من تكريمه، وإسعاده بالألطاف.

ثانيا: أعلن أنه سيعتزل أباه وقومه، ولا يبقى فــي بلــد يعلــن فيــه الشــرك بــالله، ولــذا عطف على اعتزالهم والبعد عنهم، الانفصال عمــا يعبدونــه مــن الأصــنام مــن دون الله، التي كان تقديسها والإيمان بها السبب الذي من أجله اعتزلهم.

ثالثا: أنه سيواصل دعاء ربه الذي يعتز بانتسابه إليه فهــو يعبــده ويناجيــه ، وهــو آمــل راج أن يسعده بالقبول، وأن تكــون عاقبتــه صــالحة غيــر خاســرة علــى الشــأن الــذي عوده به ربه من قبول دعائه .

49- فلما اعتزلهم وما يعبدون...وكلا جعلنا نبيا.

خرج عن قومه وسار في أرض الله إلى المقام الذي هدي إليه بالشام. وإنه لما آثر الاغتراب عن قومه، ورفض آلهتهم التي يعبدونها ويقدسونها ويتوسلون إليها من دون الله، ترتب على ذلك أن الله آنس وحشته ورزقه بركة في عائلته، فولد له إسحق من زوجته هاجر ،وأكرم بولادة حفيده يعقوب في حياته. ونوه الله بإسحاق ويعقوب، على أن الله قدر السمو بهما إلى مرتبة النبوة. ولم يذكر في هذا المقام إسماعيل لأن الأنس العائلي الذي عوض له اعتزال قومه كان بما تركبت منه العائلة في ذلك الظرف: هاجر وما ربي في حجرهما. وأما إسماعيل فقد كتب الله له أن يعيش بعيدا عن والده عند أول بيت وضع للناس جميعا، إيذانا بأنه سيتناسل منه من برسله الله للناس جميعا محمد ﷺ . وسيأتينا التنويه به في الآيات 57/56 في هذا السورة وفي غيرها من السور. كسورة الصافات و (ص)

50- ووهبنا لهم من رحمتنا...لسان صدق عليا.

ثم أتبع التنويه بما تفضل الله به علــيهم، بــأن الله قــدر أن ينــالهم شــيئا مــن رحمتــه، تكون به حياتهم سعيدة ونسلهم مباركا فيه يرقى لحمــل النبــوة. وأن يلقــي الثنــاء علــيهم على ألسنة البشر اعترافا بفضلهم عليهم، ويضفي علــيهم مــن التبجيــل مــا أهلهــم لــه. وهو ثناء وتبجيل يبلغ كل منهما حد الكمال فــي نوعــه. فجمــع لإبــراهيم بــين التقــدير والسعادة في الدنيا بالنسل الصالح، والجزاء الأخــروي المــدخر للصــالحين، بمــا ســيناله من رحمة الله وحسن جزائه.

وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مُوسَىٰٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخۡلَصٗا وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥ مِن رَّحۡمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيّٗا

بيان معاني الألفاظ :

المخلص : الإخلاص هو النقاء من كل شائبة تكدر الصفاء.

ناديناه : طلبنا منه أن يقبل .

الطور : الجبل الواقع بين بلاد الشام ومصر. وهو طور سيناء

جانبه : ناحيته السفلى.

التقريب: تقريب اعتباري حتى اختص بسماع ما أوحي له.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يا محمد في القرآن موسى ﷺ ؛ اذكره بمزاياه التي منها إخلاصه في تحمل عبء الهداية. فقد كان رسولا في مرتبة من المراتب العليا للمرسلين. و طلبنا منه أن يقْبَلَ على وعي الوحي لما كان الطور في جانبه الأيمن. وسمونا بمداركه فأصبحت تتلقى عنا ما نريد إبلاغه بدون واسطة لا من الأذن ولا بملك. يتلقى عنا كلامنا مختصا بذلك كما يتلقى المناجي كلام نجيه. وأكرمناه بتأييده بأخيه هارون الذي ارتقى إلى درجة النبوة استجابة لدعاء موسى.

بيان المعنى العام:

51←53: واذكر في الكتاب موسى....أخاه هارون نبيا.

اذكر يا محمد في القرآن موسى مثنيا عليه بما له من مزايا. إنه كان مخلصا في إيمانه واعتماده على الله حتى في أشد الظروف التي مرت به. بذل غاية وسعه في تبليغ الرسالة، رغم شدة شغب بني إسرائيل ومعاكساتهم، وتوالي طلباتهم التي منها ما هو مناقض للتوحيد. قالوا: **اجعل لنا إلها كما لهم آلهة**[1].

وإنه كان رسولا نبيا . ومن المعلوم أن كل رسول نبي، إذ النبي موحى إليه، والرسول موحى إليه مع أمره بالتبليغ فلماذا عطف النبي على الرسول مع أن وصف الرسالة يغني عن وصف النبوة؟ خرجه الألوسي على أن النبي مشتق من النبوة بمعنى الرفعة .اهـ – يعني أن له مقاما رفيعا بين الرسل. وهو ما يشير إليه قوله تعالى: **تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله**[2] والكليم هو

[1] سورة الأعراف 138

[2] سورة البقرة آية 253

موسى. وإنه رفع ما بينه وبين ربه من أبعاد اعتبارية لا مكانية، في المنزلة التي سما بها عن خضوع الإدراك للحس. فكان يعي ما يخاطَبُ به من غير واسطة، وجسَّم هذا بما يقع بين الشخصين المتناجيين اللذين لا يسمع أحد ما يجري بينهما.

كان موسى عليه السلام في ذلك الموقع والطور على يمينه يتلقى من ربه كلاما استوعبه بدون لفظ ولا تموج هواء، ودون أن يمكن لأحد غيره إدراك ما وعاه.

كلف الله موسى بإبلاغ الرسالة، وهي أسمى مقام يمكن أن يصل إليه الإنسان، وهذا المقام يحدث في نفس الرسول رغبة أشد ما تكون الرغبة لينجح في مهمته.

فمثلا، كاد عناد قريش للنبي ﷺ ، الذي عطل انتشار الإسلام بالصفة التي كان ﷺ حريصا عليها، كاد هذا العناد أن يهلكه كما أخبر بذلك القرآن ، **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا**[1].

ولم يكن موسى عليه السلام من الفصاحة التي عليها أخوه هارون، فخشي أن يكون وضعه ذاك يقصر به عن إقناع المخاطبين. فسأل الله أن يعززه بأخيه، ليتحمل معه مهمة البلاغ. فأجاب الله دعاءه، فكان تحمل هارون ذلك العبء مع موسى هبة من الله واستجابة لدعائه.

وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

صادق الوعد : يفي بما يعد .

مرضي : رضي الله عنه فأنعم عليه بالنعم العظمى.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يا محمد في القرآن إسماعيل بن إبراهيم في موكب المرسلين، الذي طبعه الله على الوفاء بوعوده وشرفه بالرسالة وأعلى مقامه. و من فضله أنه كان شديد الحرص على أهله ليقوموا بما فرض عليهم من الصلاة والزكاة. ثم إن الله رضي عنه فأكرمه بكرامات عديدة، أعظمها أن سيدنا محمدا عليه السلام كان من نسله فختم به رسالاته إلى العالمين.

---

[1] سورة الكهف آية 6

واذكر أيضا في القرآن إدريس عليه السلام ، أول نبي أوحي إليه من البشـــر كـــان قبـــل نـــوح ، الذي كان صادقا في أقواله وفي أفعاله فبلغ درجة الصـــديقية، وكـــان نبيـــا أوحـــي إليـــه. ورفع الله مقامه إلى منازل عالية.

بيان المعنى العام :

54←55: واذكر في الكتاب إسماعيل ...وكان رسولا نبيا.

اذكر يا محمد إســـماعيل الابـــن الأول لإبـــراهيم عليه السلام . أفـــرده القـــرآن بالـــذكر لتفـــرده بإقامة الدين في بلد غير ذي زرع. واستمر الـــدين الـــذي نشـــره فـــي الجزيـــرة العربيـــة، إلى أن ختمت تلك الهداية بالعلَم الفرد محمد ﷺ . نوّه بمزايـــاه التـــي منهـــا: أنـــه كـــان إذا وعد وفى بما يعد. وأبقى هذا الخلق فـــي ذريتـــه. وتحمـــل الرســـالة فبلّـــغ الـــوحي الـــذي أتاه من ربه. وكان نبيا عالي القدر بين المرسلين. وكـــان حريصـــا علـــى قيـــام مـــن هـــم إلى نظره بما فرض عليهم من الصلوات ومـــا ألزمـــوا بـــه مـــن زكـــاة أمـــوالهم. وبـــذلك بلغ مقاما يطمح إليه الفضلاء ، مقـــام الرضـــى عنـــد الله فأكرمـــه بـــنعم كثيـــرة إذ بـــارك فيه وفي ذريته، وقدر أن يكون أشرف الرســـل مـــن نســـله ،فخـــتم الرســـالة بـــه لتكـــون شريعته هي الشريعة الباقية التي لا يرد عليها ما ينسخها.

56←57:واذكر في الكتاب إدريس ...ورفعناه مكانا عليا.

ختم العرض لموكب الأنبياء في هذه السورة بأمر النبي ﷺ أن يذكر في القرآن المتلو إدريس عليه السلام . قيل إنه جد لنوح فعلى هذا يكون أول رسول في العالم. وتقدم قريبا معنى الصديقية والنبوة. وتلت القرآن أن الله رفعه مكانا عليا، فرووا روايات عديدة عن رفعه إلى السماء الثانية أو الرابعة، وعن دخوله الجنة واطلاعه على النار. وهي روايات لا يوثق بها. لأن العلو المكاني لا يقتضي تشريفا. يقول الشاعر:

فالنار يعلوها الدخان وربما *** يعلو الغبار عمائم الأبطال

فالذي نرجحه أن الله أعلى قدره ومقامه بين الخلائق. والله أعلم .

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٖ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنۡ هَدَيۡنَا وَٱجۡتَبَيۡنَآۚ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُ ٱلرَّحۡمَٰنِ خَرُّواْۤ سُجَّدٗا وَبُكِيّٗا۩ ﴿٥٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

هدينا: هديناهم وهدينا بهم.

اجتبينا : اخترنا واصطفينا.

بيان المعنى الإجمالي :

أشارت الآية إلى جميع من تقدم ذكرهم في هـذه السـورة مـن النبيـين فجمعهـم تحـت جامعة الإنعام الإلهي، سواء أكانوا من ذريـة آدم كـإدريس ونـوح، أم مـن ذريـة نـوح كإبراهيم، أم من ذرية إبـراهيم كإسـماعيل وإسـحق ويعقـوب، أم مـن ذريـة يعقـوب كموسى وهارون وزكريـاء ويحيـى، مـن الـذين هـداهم الله إلـى الصـراط المسـتقيم واختارهم لتحمل شرف الوحي. أولئك الأخيار إذا تتلـى علـيهم آيـات الـرحمن ينفعلـون مع مضامينها فيخرون سجدا لله باكين من فرط التعظـيم والخشـية، والشـوق إلـى لقـاء الله.

بيان المعنى العام :

58- أولئك الذين أنعم الله عليهم....خروا سجدا وبكيا.

تميَّز موكب الأنبياء والمرسلين وتتـابعوا مـن زكريـاء إلـى إدريـس علـيهم السـلام، فجمعهم القرآن ليشير إليهم كلهم وقد أتم إحضـارهم فـي ذهـن التـالي بمـا رافـق كـل واحد منهم من بيانات مبرزة لمزايـاه. جمعـتهم مضـلة الفضـل الإلهـي علـيهم بعديـد صور الإنعام. كل واحد منهم حصل له من إرث النبـوة بواسـطة الاتصـال النسـبي مـا تبوأ به مكانة الهداية للناس .فمنهم مـن هـو يرمـي بطرفـه إلـى آدم كـإدريس، ونـوح عليهما السلام، ومن يعلو نسبه إلى نـوح كـإبراهيم عليه السلام ، ومـنهم مـن يتصـل بـإبراهيم إسماعيل وإسـحق ويعقـوب. ومـنهم لـه خـيط جـامع بإسـرائيل كموسـى وهـارون وزكرياء ويحيى ومريم عليهم السلام .

ثم أعلن القرآن عن نوع آخر مما خصهم به مشرفا لهـم، بـأنهم قـد اهتـدوا بهدايـة الله، وأن ما بلغوه كان تبعا لاصطفاء الله لهم واختياره. فـإن النسـب الشـريف منـة ونعمـة، وفوقه أن تتحقق الهداية بشـهادة خـالق الأكـوان، وأن يـنص علـى أنـه وهـو العلـيم بالظواهر والخفايا والحق من الزيف قد اختارهم ليكونوا حملة وحيه.

ومن مظاهر كل ما تقدم أنهم إذا سمعوا آيات الله تتلـى علـيهم، تتفاعـل معهـا مـداركهم وأرواحهم، فيخرون ساجدين لله باكين مـن أثـر قـوة الانفعـال المخـتلط بـين التعظـيم والخشية لله رب العالمين.

وعند قوله : **وبكيا**- يسجد التالي اقتداء بهم وبسجوده ﷺ .

وذكر القرطبي: المسألة الرابعة – قال العلماء ينبغي لمن قرأ سجدة يدعو فيها بما يليق بآياتها، فإن قرأ سورة السجدة "**ألم تنزيل**" قال: اللهم اجعلني من الساجدين لوجهك، المسبحين بحمدك ،وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك. وإن قرأ سجدة "**سبحان**" قال: اللهم

اجعلني من الباكين إليك، الخاشعين لك. وإن قرأ هذه الآية قال: اللهم اجعلني من عبادك المنعم عليهم، المهديين الساجدين لك. الباكين عند تلاوة آياتك.[1]

۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا ۖ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

خلف: بسكون اللام عقب السوء، وبفتحها عقب الخير.

أضاعوا : فرطوا.

الغي :جزاء الضلال.

لا يظلمون: يوفون أجورهم كاملة دون نقص.

عدن : إقامة وخلد.

الغيب: ما غاب عن المشاهدة الحاضرة.

مأتيا: يحصلون على هو مرتقب.

اللغو : فضول الكلام.

الرزق : ما يصل إلى أصحاب الجنة من طعام وشراب وكسوة وغير ذلك.

البُكرة : النصف الأول من النهار.

العشي : النصف الأخير من النهار.

نورث : نعطي عطية مدخرة كأنهم يرثونها.

بيان المعنى الإجمالي :

انحرف كثير من نسل هؤلاء الأنبياء الصالحين عن المنهج الذي سار عليه أسلافهم، ورثّهم آباؤهم إقامة الصلاة كنزا لا يفنى، يجدون به التأييد الإلهي والطمأنينة الراضية، ففرطوا في هذا الكنز وأضاعوا الصلاة ولم يقيموها، وانحدروا إلى اتباع ما تدعوهم إليه شهواتهم الهابطة، فاستحقوا العقاب المناسب لضلالهم. واستثنى الذين استفاقوا فتابوا وندموا على ما فرطوا وعملوا الصالحات؛ إن هؤلاء سيجزيهم

[1] الجامع ج 11 ص121

ربهم. إن هؤلاء التائبين سيدخلهم ربهم جنات يقيمون فيهـا إقامـة لا تنقطـع. هـي التـي وعد الرحمن بها عباده الصـالحين، فـآمنوا بهـا قبـل أن يروهـا. إن وعـد الله آت لا يخلف . جمع الله لهم بين النعيم الروحي فـلا يسـمعون فـي الجنـة أحاديـث السـفهاء التي تصطك منها أذواق الكمـل. ويحصـلون علـى مـا يبغونـه مـن المـلاذ الماديـة بصفة متواصلة غير منقطعة.

تلك الجنة التي تحدثت عنها الآيات يمكِّن الله منهـا المتقـين بـدون عنـاء، كمـا يحصـل الوارث على مال مورّثه.

بيان المعنى العام :

59-فخلف من بعدهم خلف...فسوف يلقون غيا.

موقع هذه الآية بديع جدا. فإذا كانـت الآيـة السـابقة ربطـت الذريـة الصـالحة التـي أوتيت النبوة بأصولها ، فإن العدل الذي بنـى عليـه الله مسـؤولية الإنسـان فـي الحيـاة ،يقتضي أن لا يسعد الإنسان بصلاح والديه إذا هـو لـم يسـلك سـبيلهم. كمـا لا يشـقى بضلالهم. فتُنبه هذه الآية ما تناسل مـن أولئـك الأنبيـاء والمرسـلين أن مقـام آبـائهم لا يغني عنهم شيئا ،وأنهم يجازَوْن حسبما قدموا، بـل إن الآيـة شـهرت بهـم وأوعـدتهم ، شهرت بهم إذ أنهم عوض أن يلتزموا بما يحفظ لهـم تـوازنهم النفسـي ويقـوي صـلتهم بربهم، فرطوا في القيمة العليا التي كـان يتمسـك بهـا آبـاؤهم ، حتـى نسـوها، وهـي الصلاة التي بلغ آباؤهم في نهاية الآية السابقة أنهم يخـرون للأذقـان سـجدا عنـد سـماع الآيات تتلى عليهم. وبتفـريطهم فـي الصـلاة التـي تحفـظ اليقظـة الروحيـة، قويـت شهواتهم فاتبعوها وأصبحت هي التي تقودهم في الحيـاة، ومـا الشـهوة إلا مركـب مـن الفساد والأنانية. فحَقَّ عليهم الوعيـد: أنهـم سـيلقون جـزاء ضـلالهم **(سـيلقون غيـا)** وهذه الآية عامة تشمل البشرية قاطبة من الذين تناسلوا من آدم إلى يوم الدين.

60-إلامن تاب وآمن ...ولا يظلمون شيئا .

على أساس العدل الذي قامـت عليـه السـماوات والأرض وحسـاب البشـر ، فـإن الله تفضل على من استيقظ من ضلاله ورجـع عـن غيـه، فأقبـل علـى الله معترفـا بذنبـه عازما على الاستقامة وعدم العود، فطهَّر نفسـه مـن اتبـاع الشـهوات وتـأثر بالتأنيـب الباطني، مما تظهر آثاره في التحول من عمل الشر إلـى عمـل الصـالحات ،عمـلا مـن أسسه أنه لا يفرط في واجب ولا يقبل على منهـي عنـه، فـإن الله يعفـو عنـه ويجزيـه بدخول الجنة، ويحفظ له أجر كل ما قام به من الصـالحات بعـد أن يمحـي عنـه سـيئاته بتوبته .

61- جنات عدن التي وعد الرحمان... وعده مأتيا.

وهي ليست جنة واحدة ولكنهــا جنــات لا يعلــم ســعتها ونعيمهــا إلا الله. تلكــم الجنــات التي لا ينقطع مدد نعيمها ولا يخرج منها داخلهــا. هــي الجنــات التــي وعــد الــرحمن ، الذي وسعت رحمته كل شيء، فلا تسل عن النعــيم وعــن الرضــا وعــن الفضــل فيهــا، فهي منتسبة إلى اسم الرحمن، وعدهم بهــا فــآمنوا بهــا وهــم لــم يشــاهدوها. والقاعــدة التي لا تتخلف: أن كل ما وعــد بــه الله آت لا محالــة، ســيلقاه الموعــود علــى النحــو الذي يليق بالواعد الكامل.

62-لا يسمعون فيها لغوا ...رزقهم فيها بكرة وعشيا.

يسبق النعيم الروحي والعقلي، في المنة لمن كتبــت لــه الجنــة. إن الكُمّــل مــن البشــر يؤذيهم في الدنيا ما يسمعونه من السفهاء مــن الكــلام الباطــل، والهــذيان الســاقط، فممــا قدره من نعيم لأهل الجنة أن ما يجري فيهــا مــن حــديث يســمو إلــى مســتوى المتعــة العقلية والروحية ولا يخالطه الهذر والسُّخْف .

ومع المتعة العقلية فإن أرزاقهم، على المستوى الــذي يرغبــون فيــه، تــأتيهم دون عنــاء ولا تفكير في طريقة تحصيلها، هــو مــدد إلهــي متتــابع لا يختلــف الوضــع فيــه فــي الصباح عن المساء.

63- تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا.

وصفت الجنة وصفا مميزا، يشتاق إليها التالي، كتب الله لنا ولكم الفوز بنعيمها، فاحضرها القرآن وأشار إليها ، تلك التي يظفر بها ميراثا بدون عناء، شأن المال الذي يصل إلى الوارث من مورّثه، كل من استقرت التقوى في قلبه، وظهرت في فعاله.

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك : عموم الجهات.

نسيا: صيغة مبالغة من النسيان.

الاصطبار : شدة الصبر على الأمر الشاق .

السمي : المماثل له .

بيان المعنى الإجمالي :

فتر الوحي مدة فاشتاق النبي ﷺ للقيا جبريل، وعبر له عــن ذلــك لمــا نــزل عليــه بعــد ذلك. فخاطب الله جبريل أن يقول لمحمد مــا نتنــزل عليــك إلا بعــد صــدور الإذن لنــا. إنه سبحانه المتحكم فــي المســتقبل والماضــي والحاضــر. ومــا يحويــه الــزمن مــن الكائنات والأحوال. وعلمه محيط بكل شيء لا يغيب عنه أي شيء في الأكوان.

وإنه سبحانه رب السماوات والأرض والأجواء التــي بينهــا، ومــا تحويــه مــن كائنــات، فاعبده فإنه بذلك حقيق بأن يعبــد. ووطِّــن نفســك علــى التغلــب علــى فتــرات الغفلــة والضعف في عبادته، يحتم عليك ذلك أنه لا مثيــل لــه يشــاركه فــي اســتحقاق العبــادة. فاسعد بعبادته.

بيان المعنى العام :

64-وما نتنزل إلا بأمر ربك...وما كان ربك نسيا.

موقع هذه الآية وارتباطها بمــا تقــدمها فيــه خفــاء. روى البخــاري بســنده إلــى ابــن عباس، قال النبي ﷺ لجبريل: مــا يمنعــك أن تزورنــا أكثــر ممــا تزورنــا؟ فنزلــت- **وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا ومــا خلفنــا**[1] وأن جبريــل أعلمــه بموقــع هــذه الآية من القرآن. فموقعها مبناه نزولها عقب الآية السابقة.

ورويت روايات مكملة لما أفــاده حــديث البخــاري، نظمــت ســلكا، مفادهــا أن جبريــل ﷺ أبطأ فلم يأت بوحي زمنا، فلمــا جــاءه بعــد الفتــرة ســأله، فــأوحى الله لجبريــل الكلام الذي تضمنته الآية، وأمر بتبليغــه لرســول الله ﷺ علــى أنــه كــلام مخاطــب بــه جبريل، وهو قرآن. ويكون معنى ومار بك نسيا: ومــا ربــك بتاركــك ،بــل عنايتــه بــك موصولة . كقوله تعالى: **والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى.**

ويرى بعض المفسرين أن هذه الآية مــن كــلام الاتقيــاء فــي قولــه تعــالى فــي الآيــة السابقة: **تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيــا**، الــذين يعبــرون بعــد دخــولهم الجنة قائلين: إنا ما تنزلنا في هذه المنزلة إلا بإذن ربك، فهــو الــذي أحلّنــا هــذا الموقــع، وهو المتحكم في كل شيء متحكم فــي ماضــينا ومســتقبلنا وحاضــرنا. وتعــالى ســبحانه أن ينسى شيئا من صالح أعمالنا، فقد وفانا أجرنا.

هذا ما وجدته للمتقدمين في تفسير الآية والله أعلم.

65- رب السماوات والأرض وما بينهما ...هل تعلم له سميا.

كل ما تدركه بحواسك أو تثبته القــوانين مــن الأرض التــي تســير عليهــا، والســماوات التي تعلوك وما يعمرها مــن الكواكــب والمجــرات، ومــا بــين الســماء والأرض مــن

[1] فتح الباري ج10ص44

الأجواء .سبحانه هو الذي يسير كل ذلــك ويــدبر أمــره ويحفظــه بعنايتــه، علــى مــا تقتضيه الحكمة ، مما يوجــب التوجــه إليــه بالعبــادة ،العبــادة التــي ترضــيه ،والتــي تصحب الإنسان باطراح ما يشغله عن القيام بحقهــا. وإنـــه لحقيــق بــذلك، وإنــك لمُلــزَم بتوطين النفس على الإخلاص في عبادته لأنه فرد لا مثيل له.

وَيَقُولُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَـٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

جثيا : على ركبهم وقد حل عليهم الهوان.

شيئا : موجودا.

النزع : إخراج شيء من غيره.

الشيعة : الفرقة المرتبطة بمذهب واحد المتعاونة فيه .

العتي : العصيان والتجبر.

صلي : تسلط عذاب النار عليه .

بيان المعنى الإجمالي :

إن البعث يوم القيامة مــن الحقــائق التــي أرهقــت أفكــار الكفــرة، وهــي التــي تقــض مضجعهم بما تنادي به من الحساب والجــزاء علــى مــا قــدموه فــي الــدنيا، ورأوا فــي نكران البعث ما يخفف الوخز الذي تــؤثر بــه هــذه العقيــدة، وبــرروا لأنفســهم نكــران البعث، أنه لا يتصور أن يعود الإنسان للحياة ويحاســب بعــد أن يمــوت ويتحلــل. وكــان الرد عليهم مفحما: كل كافر بالبعث ومستبعد له، كــان معــدوما، و لــم يكــن شــيئا. إنــه قد وجد من عدم على غير مثال، فإعادته بعد موته أيســر فــي العــادة مــن الخلــق الأول حسب مقاييسهم.

قسما بربك يا محمد سوف أحشرهم جميعا لا ينفلت مــنهم أحــد. ونجمعهسم فــي الحشــر مع الشياطين الذين كانوا يأتمرون بأمرهم، ثم يساق الجميــع إلــيَّ فيقبعــون حــول جهــنم جاثين على ركبهم تعلوهم الذلة. ثم لنخــرجن أولا الزعمــاء الــذين كــانوا أشــد عصــيانا لله واستكبارا وأنفذ في الإضلال. ولا يفوتنــا أي واحــد مــن هــؤلاء المســتكبرين فــنحن نعلم الذين هم أولى بعذاب النار والاحتراق بلهيبها.

بيان المعنى العام :

66- ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا.

بعد أن نوه القرآن بالذين تابوا وعملوا الصـــالحات، ووعـــدهم مـــن فضـــله الكرامـــة فـــي الدار الآخرة، تحدث في هذه الآية على الشق المقابـــل المنكـــر للبعـــث، فيشـــهر بالإنســـان الذي هذه صفته، الذي بلغ من العنـــاد أنـــه يصـــرح بقولـــه: كيـــف يقبـــل أن أعـــود إلـــى الحياة بعد الموت وأخرج إلى البعث حيا أحَاسَبُ ؟ إن هذا لا يقبل .

67-فوربك لنحشرنهم ...حول جهنم جثيا.

عجبا من هذا التفكير ومن هذا الغباء، ومـــن التجاهـــل لمـــا جـــرى علـــى كـــل قائـــل أو معتقد لهذه المقالة! مثار العجب أن كل قائل أو معتقـــد لهـــذه المقالـــة، قـــد كـــان معـــدوما، لم يكن شيئا موجودا له حقيقة خارجية، ثـــم وجـــد بمواصـــفاته الخاصـــة، دون أن يكـــون له مثال سابق قُدِّر على مقاييسه، فمن الذي خلقـــه مـــن عـــدم ؟ ألـــيس الخلـــق مـــن عـــدم أدل على القدرة الإلهية من إعـــادة الخلـــق. البديهـــة تقتضـــي أن الإعـــادة فـــي مجـــاري العادة أيسر، ولكن الأمرين سواء بالنسبة للقدرة الكاملة التي لا يعجزها شيء.

68- فوربك لنحشرنهم حول جهنم جثيا.

قسما بربك يا محمد لنبعثنهم ولنجمعنهم مع الشياطين الذين كانوا يطيعونهم في الدنيا ، وبعد ذلك تكون المرتبة التالية في المهانة أن تراهم جاثين على ركبهم ترهقهم الذلة، الآمر والمأمور سواء، تكشف لهم جهنم وهم حولها ينظرون إلى مآلهم فيها.

69- ثم لننزعن من ...أيهم أشد على الرحمن عتيا.

ثم إنه تحقيقا للعدل المبني على العلم الكامـــل، يميـــز الله رؤوس الكفـــر وقـــادة الضـــلالة، الذين كانوا مقدمين في كل جماعة بشدتهم فـــي الكفـــر، وبقـــوتهم علـــى إغـــراء الأتبـــاع، وتَجَبُّرِهم على أوامر الرحمن. وفي التعبيـــر بـــالرحمن مـــا يشـــير إلـــى فســـاد تـــركيبهم، لمقابلة المتصف بالرحمة الشديدة، بالابتعـــاد عنـــه والامعـــان فـــي عصـــيانه. إن هـــؤلاء المستكبرين المضلين يقتلعهم الله من بين كل جماعـــة مـــن الجماعـــات المحشـــورة جـــاثين على ركبهم حول جهنم، ليكونوا أول الداخلين للنار.

70- ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليا.

[ثم] تحصر الآية العلـــم الـــدقيق الـــذي ينفـــذ إلـــى تجلـــي الخفايـــا فـــي العلـــم الإلهـــي المصحوب بالعدل، فهو وحده سبحانه الذي يعلم الـــذين هـــم أحـــق بصُـــلِيِّ النـــار، فينفـــذ فيهم العقاب بدون ظلم ودون أن يخفى عنه أي فـــرد مـــن الـــذين تولـــوا إضـــلال الأتبـــاع واستكبروا في الأرض.

وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟
وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن
قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الورود : واصلون إليها.

نذر: نترك.

حتم : لازم.

المقضي : المحكوم به.

تتلو عليهم آياتنا : تقرأ عليهم آيات القرآن.

خير مقاما : خير حياة.

القرن : الأمة يجمعها العصر الواحد.

الأثاث : متاع البيوت الذي تزين به.

ريا : منظرا وهيئة .

بيان المعنى الإجمالي :

مع التأكيد الكامل، فإنكم جميعا سَتَرِدُونَ على جهنم، هذا أمر لازم قضى الله به، والمخاطب بهذه الآية هم الكافرون الذين اقتلع الله رؤساءهم في الآية السابقة وعجل بهم إلى النار. وقيل إن الخطاب شامل لجميع البشر مؤمنهم وكافرهم أنهم سيمرون على جهنم، بالنسبة للمتقين يكون مرورا لا يلحقهم منه عذاب، وبالنسبة للكافرين يَهْوُون به في جهنم ويلقون مصيرهم الأبدي. وقد كتب الله النجاة والسلامة للمتقين.

بلغ من إصرار المشركين على الكفر وتحديهم، أنهم إذا تطرق أسماعهم آيات القرآن المنوهة بالمؤمنين المهددة لهم المحتقرة لآلهتهم، يقول الكافرون للمؤمنين، وازِنُوا بين وضعكم ووضعنا ومن هو خير؟ فنحن أكثر ثراء، وأقوى نفوذا، وألين عيشا، ومن يحضر نادينا هم وجوه القوم والسادة. وحظكم ضعيف من كل ذلك. فلو كانت لكم منزلة في الآخرة لرزقتم في الدنيا حظا أفضل. ويبطل القرآن قياسهم وينسف تضليلاتهم، بأن الماضين من أهل القرون السابقة، كانت مساكنهم مؤثثة خيرا من أثاث بيوت المشركين وكانت مظاهرهم أفضل من مظاهرهم، ومع ذلك فإن الله أهلكهم وأبادهم بكفرهم .

بيان المعنى العام :

71←72: وإن منكم إلا واردها....ونذر الظالمين فيها جثيا.

بكل تأكيد لا يفلت أي واحد منكم من دخول جهنم؛ كان هذا المصير أمرا لازما سبق به القضاء الذي لا يتخلف ولا يردُّ.

والضمير في قوله منكم ضمير خطاب، فَمَنْ هُمُ المخاطبون؟ الذي يرجحه حذاق المفسرين أن المخاطب هم الكفرة الذين يعجل برؤسائهم إلى جهنم، ويُقتلعون من بين جماعتهم. فالقرآن يستحضر الأتباع ويخاطبهم بما يفيد: إنكم أيضا ستتبعون رؤساءكم لا ينفلت منكم أحد، وذلك قمعا لآمالهم في النجاة إذا دخل رؤساؤهم وبقوا هم خارج جهنم.

ويرى كثير من المفسرين أن الخطاب موجه لجميع البشر .فكل إنسان سيرد على جهنم صالحهم وطالحهم. ثم أولوا الآية بتأويلات عديدة بناء على مرويات تختلف ضعفا وقوة .

فتأول بعضهم الورود على أنه الاقتراب لا الدخول كما جاء في قوله تعالى عن موسى: **ولما ورد ماء مدين**[1] ، فهو لم يدخل الماء وإنما مر بجانبه . فتفيد الآية اطلاعهم على النار دون أن يتأذى بها الصالحون. وفي مشاهدتها عن قرب تحسيس بالكرامة والنعيم، لمَّا يقارنون نعيمهم في الجنة بما شاهدوه من حقيقة عذاب النار. وهذا الشعور في نظري لا يتوقف على المشاهدة الحسية .

وتأول فريق آخر أن ورود جهنم المرور فوقها، فتكون غير مضرة بالمؤمنين لأن طبيعة خلقهم يومها لا يتأثر بحر جهنم، فهم يمرون فوقها دون أن تضرهم ولا يجدون شيئا من حرها. وتجذب الكفار إلى قاعها. وإذا كان الأمر كذلك فأي حكمة في ذلك ؟

وتأول فريق ثالث: على أن المراد بورود المؤمنين النار الحمى التي تصيب المؤمن. و الحمى لا تصيب جميع المؤمنين، فأين التعميم المفاد من قوله " **وإن منكم**"

والذي يترجح عندي هو التخريج الأول، وأن ما روي من أحاديث يؤول بما يتناسق مع مبدأين:

المبدأ الأول: أن الآخرة دار جزاء وكرامة للمؤمنين لا دار اختبار و إعداد.

والمبدأ الثاني: أن حكمة الله في كل أمر يقينية. ولا تظهر حكمة في إدخال الصالحين النار، ولا في مرورهم عليها وهي خامدة هامدة لا لهب لها.

---

[1] سورة القصص آية 23

ويخبر الله بعد ذلك مبرزا لمرتبة تحقق العدالة يوم القيامة: أنه ينجي الذين تحصنوا بتقوى الله من كل كرب في ذلك اليوم، ويترك الكافرين مهملين أذلاء جاثين في جهنم.

73- وإذا تتلى عليهم آيتنا بينات ...وأحسن نديا.

تشهر الآية بموقف المكذبين، فهم إذا تليت عليهم آيات القرآن النازلة من عند الله، المتضمنة للأدلة البينة الواضحة، الرافعة للأوهام، كان موقفهم التصريح بقولهم للمؤمنين: انتبهوا ! فها هو القرآن ينوه بكم ويفردكم بحسن العاقبة، ولو كان ما يقوله محمد حقا لكنتم أسعد حظا منا في الحياة، فلوكان لكم الخير فَلِمَ لم يُعَجِّلْ لكم حظكم في الدنيا، بل أنتم أقل منا مالا وبنين وحظوة وسيادة . لا تنخدعوا وتثبتوا، فالأمر واضح أمامكم، نسألكم سؤال التقرير، هل نحن أحسن حالا منكم أم أنتم أحسن حالا منا، ومن منا يحضر في ناديه أصحاب المقامات العلية بما يبدو من مظاهر السؤدد والأناقة فيهم ؟

74-وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثاثا ورءيا.

ويسرع القرآن مخاطبا النبي ﷺ مبطلا قياسهم ومظهرا لضلالهم ببيان سننه في الكون، فكم من أهل قرون مضت أهلكناهم مبيدين لهم، ولو قايست بينهم وبين مشركي مكة لوجدت أن المُهْلَكِين من السابقين كانوا ينعمون بالمنازل الفاخرة الأثاث، مما لم يؤت القرشيون مثله، ومظاهر الرفاه عليهم أوضح وأتم من هؤلاء وهي بارزة للعيان.

قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

يمد له الرحمن مدا: يمهله إمهالا.

الباقيات الصالحات : الأعمال الباقي نعيمها.

المَرَدّ : عاقبة الأمر .

بيان المعنى الإجمالي :

قل لهم معلنا: أن من كان منغمسا في الضلالة فإن الرحمن سيمهله استدراجا، فيمضي سادرا في ضلاله حتى إذ وقفوا على عاقبتهم الحتمية التي هي أحد أمرين

إما العذاب العاجل في الدنيا ثم عذاب الآخرة، وإما تواصل الإمهال إلى لُقْياهم عذاب الآخرة. وعند ذلك سينكشف لهم من هو مغرق في شر الأوضاع، ومن هو ذليل لفقد النصير والمدافع.

والله بإمهاله الكافرين يزيدهم ضلالا، وبالمقابل يزيد المهتدين هداية. والنتيجة أن الأعمال الصالحة لموافقتها للشريعة ولحسن قصد أصحابها، يضيف الله لهم زيادة عن نجاتهم من العذاب الثواب الجزيل والعاقبة الأفضل من كل التصورات.

بيان المعنى العام :

75←76: قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدا....وأضعف جندا.

وجهت العناية لمضمون هذه الآية فافتتحت بكلمة: **قل** – وهو رد على الكافرين الذين قالوا: **أي الفريقين خير مقاما وأحسن نديا** – مستَخِفِّين بالمؤمنين وخاصة من كان منهم فقيرا أو غير منتسب لقبيلة لها شأن في الجاهلية. كان الرد نقضا لما توهموه، من أن متاع الحياة الدنيا والمكانة الاجتماعية هما المعيار، وبهما تعلو رتب الناس أو تسفل. فأظهرت الآية أن تصوراتهم باطلة، وأن ما رزقوا من النعم هو إمهال لا إكرام، وأن الله يستدرجهم عَلَّهُمْ يستيقظون ويرفعون غشاوة النظرة العاجلة، ويتأملون أن الإنسان الفاقد لرضا الله المنغمس في الضلالة، هو مغرور بإمهال الله له. فيكون معنى قوله تعالى: **فليمدد له الرحمن مدا.** إن الرحمان سيمهله إمهالا إلى الأمد القصير المقدر له في الحياة الدنيا. سينتهي هذا الإمهال لامحالة، وسيواجه الكفرة ما أوعدهم الله به. وما أوعدهم هو أحد أمرين إما عذاب الحياة الدنيا ثم عذاب الآخرة، وإما إمهالهم في الدنيا ليلاقوا عذاب الآخرة. وعند ذلك يعلمون من هو أشقى وأسوأ عاقبة. وسينكشف لهم من هو المحاط به الشر من كل جانب ردا لقولهم نحن خير مقاما، وسيرون ضعفهم باديا لا معين ولا نصير ويغشاهم الذل، وهو المقصود بقوله تعالى: **وأضعف جندا**، ردا لمقالتهم وأحسن نديا.

إنه بهذا الإمهال في الضلال، يزداد من كان في الضلالة ضلالا، ليُطْبِق عليه العذاب في المآل، وفي المقابل يحيط المهتدين بألطافه التي بها يواصلون خط مسيرهم فيضيفون إلى هداهم السابق هدى لا حقا.

والقاعدة العامة : أن الأعمال التي لا ينقطع أثرها الصالح، لحسن قصد أصحابها وموافقتها لما قرره الشرع ، هي خير من نعمة النجاة من العذاب، فالنجاة من العذاب معنى سلبي، والذي أفادته الآية أنهم سيلقون بعد النجاة النعيم الذي لا تحد حدوده ولا يبلغ التصور مداه .

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ
ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ
مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً
لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الغيب : كل ما كان غير مشاهد.

عهدا : أي إن الله عهد إليه أنه سيؤتيه مالا وولدا.

المد من العذاب : الزيادة منه.

نرثه : نسلبه.

ما يقول : ما دل عليه قوله من المال والولد.

اتخذوا : اعتقدوا اعتقادا لا أساس له.

عزا : العموم في النصرة والمنفعة والتأييد.

الضد : خلاف ما أملوه

بيان المعنى الإجمالي :

كان العاصي بن وائل السهمي أحد سادات قريش، فاستصنع سيدنا خباب بن الأرت سيفا ، ولما طلبه بثمنه قال له لا أقضيك حتى تكفر بمحمد فأجابه خباب: لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يميتك الله ثم يحييك، فرد عليه: إذا بعثت فسيكون لي مال وولد وعندها أقضيك . أخبر خباب النبي ﷺ فنزلت الآية مشهرة بوقاحة هذا المغرور. فهو قد كفر بآيات القرآن فجحد البعث، وقال سيكون لي مال وولد يوم القيامة. إنه الغرور الذي دفعه لهذا الكلام فمن أين له ما ادعاه، فهل أشرف على الغيب، ما سيتم يوم القيامة، فوجد أنه سيكون له مال وولد؟ أم إن الرحمن قد أعطاه عهدا أن يؤتيه ذلك، كلا الفرضين باطل. سنوثق ما قاله ونضاعف له العذاب تضعيفا هو كفاء غروره وتحديه، وسنهلكه فينفصل عن ماله وينفصل ماله عنه ، وستنقطع الصلة بينه وبين أولاده بدخولهم في الإسلام. وسيقدم علينا يوم القيامة ذليلا وحيدا بلا مال وبلا أهل.

ومن سوء تقديرهم، أنهم أقاموا بلا دليل ولا حجة ولا منطق، أقاموا آلهة يعبدونها وتركوا عبادة الخالق الواحد، ظنا منهم أن تلكم الآلهة سيكونون لهم عزا بنصرهم وتأييدهم. و لكنهم عندما تتكشف لهم الحقيقة سينقلبون على ما قدّسوه، وتكسون الآلهة التي استنصروا بها مخيِّبة لآمالهم.

بيان المعنى العام :

77←78: أفرأيت الذي كفر بآياتنا...أم اتخذ عند الرحمان عهدا.

تفتح الآية بالتعجيب من هذا الكـافر المسـتكبر الغلـيظ الجـافي، فتوجـه الخطـاب فـي قوله : **أرأيت** – إما إلى النبي ﷺ أو إلى كـل مـن يمكـن منـه الرؤيـة، إيمـاء إلـى أن الواقعة فاضحة يدركها كل من تتأتى منـه الرؤيـة. وهـذه الواقعـة هـي التـي تضـمنها الحديث الذي أخرجه البخاري رض بسنده إلـى خبـاب بـن الأرت ﷺ قـال: كنـت قَيْنًـا (حدادا) بمكة فعملت للعاصي بن وائل سـيفا فجئـت أتقاضـاه فقـال : لا أعطيـك حتـى تكفر بمحمد، قلت :لا أكفر بمحمد ﷺ حتى يميتـك الله ثـم يحييـك، قـال: إذا أمـاتني الله ثم بعثني ولي مال وولد فأقضيك. فأنزل الله أفرأيت ....[1]

فالآية تدعو إلى التعجب من هذا الموقـف الـوقح المتحـدي للعاصـي بـنِ وائـل، وهـو الذي كفر بآيات القرآن، وقال: بكل تأكيد سيكون لي مـال وولـد إن بعثـتُ يـوم القيامـة. وتدل الآية على سفاهته. إن بعده عن الحكمة هو الذي خـول لـه هـذا الـرد، فمـن أيـن له أنه سيكون له مال وولد يوم القيامة فهل أشرف علـى الغيـب فـرأى أنـه سـيكون لـه مال وولد ، وهو أحقر من أن يكون له اطـلاع علـى الغيـب. أم إن الله عهـد إليـه أنـه سيؤتيه مالا وولدا في وثيقة محفوظة عند الله ؟وهذا كسابقه .

79←80:كلا سنكتب ما يقول .... ويأتينا فردا.

افتتحت الآية بكلمة (**كلا**) الدالة على إبطـال مـا سـبقها، وتتضـمن أن المخاطـب بهـا ما كان من حقه أن يتكلم بالكلام التـي أبطلتـه. فهـي دالـة علـى النفـي عكـس قـول القائل: أجل، وإي، ونعم .فآل المعنى إلى إن ما ذكـر مـن إيتائـه المـال والولـد باطـل ومنفي. وكلامه ذاك موثق سيحاسب عليه. ونضـاعف عذابـه. ومـا يقـول فـي الآيتـين ما قاله من الإلحاد والتهكم بالإسلام، وما ذكـره مـن المـال والولـد. ونرثـه مـا يقـول، أي سنسلب ماله، إيماء إلى قرب هلاكه عقـب مقالتـه المعبـرة عـن الكفـر والتحـدي. ومعنى نرث ولده، أنهم يصيرون مسلمين، تنقطع صلتهم به، وهـذا مـا تـم فعـلا ، فقـد كان ابنه سيدنا عمرو بن العاص صحابيا جليلا أبلى فـي نشـر الإسـلام وضـبط أمـور الولايات التي وليها الـبلاء الحسـن، وكـذلك أخـاه هشـاما الـذي تـوفي شـهيدا يـوم أجنادين. رحمه الله ورضي عنه .

وسيأتي العاصي يوم المحشر وحيدا لا مال له وقد انقطعت صلته بولديه .

---

[1] فتح الباري ج10ص45

81←82: واتخذوا من دون الله آلهۃ ليكونوا لهم عزا.

و تقرير وتصريح بوضع المشركين، فهم قد تكلفوا جعــل الآلهــة متعلــق عقيــدتهم، وهــم يرمون من اعتقادهم في الآلهة دون الله أن يكونوا لهــم عــزا يُمَكِّــن لهــم مــن الكرامــة وينفي عنهم الذل. وأسرع القرآن بإبطال عقيــدتهم ومــا يأملونــه. فــإنهم ســينتهون إلــى الكفر بآلهتهم عندما يحشرون يــوم البعــث، وســتكون هــذه الآلهــة علــى خــلاف مــا يرقبونه منهم فعوض أن يتأيدوا بهم يتبرأون منهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

أرسلنا : سلطنا.

الأز: الهز والاستفزاز الدافع .

لا تعجل عليهم : لا تستبطئ عذابهم .

العد : الحساب .

الحشر : الجمع مطلقا ويكون في الخير كما يكون في الشر.

السوق :أصله في تسيير الأنعام .

الورد : أصله السير إلى الماء، تساق إليه الأنعام راهبة زجر الرعاة.

لا يملكون : لا يستطيعون .

بيان المعنى الإجمالي :

إنه من الواضــح أنــا ســلَّطْنا الشــياطين علــى الكــافرين يتحكمــون فــي اختيــاراتهم، ويدفعونهم دفعا شديدا إلى الشر والكفــر. كمــا يظهــر ذلــك مــن تتبــع ســيء أعمــالهم وفاسد عقائدهم. فلا تستعجل إنزال العــذاب علــيهم، فــإن أيــام إمهــالهم قليلــة معــدودة إنهم سيلقون جزاءهم في اليوم الــذي يجمــع فيــه المتقــين إلــى فضــل الــرحمن الــذي يعتبرهم وافدين عليه حقيقين بالكرامة. وفــي المقابــل يســاق المجرمــون بســوء أفعــالهم وفاسد عقائدهم سوق الأنعام السائرة في تــدافع وخــوف مــن ســائقها وشــوق إلــى ورود الماء، ولكن الماء الذي ينتظرهم وهم في لهــث يتــدافعون، هــو نــار جهــنم، لا ينقــذهم

منها ما قدموه ولا الشفاعة . لكن الشفاعة مفتوحـــة للـــذين اتخـــذوا عنـــد الله عهـــدا، وهـــم الأنبياء والملائكة والصالحون .

بيان المعنى العام :

83- ألم تر أنا ارسلنا الشياطين ...تؤزهم أزا.

مضمون هذه الآية صيغ في قالب يدل على أنه بلغ غاية الوضوح، فالعجب من عدم رؤيته، وذلك يفيد تحققه وثبوته بما لا مجال للشك فيه. مضمون الآية أن الله سلط الشياطين على الكافرين تسلطا استحوذوا به على قيادتهم ودفعوهم إلى ما يريدون فانقادوا. وإذا كانت الشياطين غير داخلة في مجال البصر، إلا أن سلوكهم واختياراتهم وتغليبهم شهواتهم وانحرافهم عن الهدى إلى مسالك الفساد، كل ذلك يقوم شاهدا على أنهم لم يستجيبوا للفطرة ولا لما جاءهم عن الله، وإنما حكموا الشياطين في حياتهم.

84- فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا.

فإذا انحصرت دائرتهم في اتباع الشياطين فـــلا تســـتعجل تســـلط العـــذاب علـــيهم ونـــزول هلاكهم، ولا تستبطئه، فإنـــا ونحـــن بيـــدنا القـــدرة التـــي لا تغالـــب، والحكمـــة التـــي لا تتخلف، فإنا قد ضربنا لهم أجلا قريبا، أيامُه معدودة، فينتهـــي مـــا قـــدر لهـــم مـــن نعـــيم، شأن المعدود لا يتعلق إلا بالقليـــل. وفـــي الآيـــة تهديـــد للمشـــركين، وإنـــذار لهـــم بـــأن عذابهم ليس ببعيد.

85-يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا.

ثبت في الآيات الســـابقة مصـــير الـــذين لا يؤمنـــون بآيـــات الله ويبغـــون العـــزة عنـــد آلهتهم، وأنهم سيخذلونهم ولا يجدون منهم ما يأملون. إن ذلـــك ســـيتم يـــوم الحشـــر، يـــوم يجمع الله البشر كلهم. ولما كان الحشر يعم البشـــر جميعـــا صـــالحهم وطـــالحهم مـــؤمنهم وكافرهم ، أدمج القرآن تمييـــز المـــؤمنين بـــأنهم سيحشـــرون قاصـــدين ربهـــم المتجلـــي باسم الرحمن وافدين عليه. واختير في التعبير في هـــذه الآيـــة اســـم الـــرحمن بمـــا يشـــير إليه من الألطاف والرحمة والتقريب. ولفـــظ وفـــدا بمـــا يشـــير إليـــه لفـــظ الوفـــادة مـــن التكريم والعزة، كما هو شأن الوفادة.

86- ونسوق المجرمين إلى جهنم وردا.

وإذ رق التعبير عن وضع المـــؤمنين يـــوم القيامـــة، تميـــز فـــي المقابـــل التعبيـــر عـــن المجرمين بسوء الأفعال، وفساد العقيـــدة ،بالقســـوة والإذلال، فهـــم يســـاقون كمـــا تســـاق الأنعام التي يدفعها راعيها من خلفها دفعا، وينتهي الدفع إلـــى جهـــنم لتكـــون هـــي الـــورد المقصود لا الماء الذي تتسابق إليه الأنعام.

87- لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا.

لا يستطيع المجرمون التقدم لنيل الشفاعة في ذلك اليوم، إن حرمانهم من ذلك المستوى الرفيع الذي يتوقون إليه، لمشاهدتهم عفو الله ينزل على من تمت الشفاعة لهم ، يكون ذلك إهانة لهم وقمعا لتطلعاتهم. لكن الله بفضله يكرم الأنبياء والملائكة والصالحين فيُمَكِّنهم من الشفاعة ويقبلها منهم بناء على وعد سابق منه تعالى عهد به إليهم ، والله لا يخلف الميعاد.

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗا ﴿٨٨﴾ لَّقَدۡ جِئۡتُمۡ شَيۡـًٔا إِدّٗا ﴿٨٩﴾ يَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
يَتَفَطَّرۡنَ مِنۡهُ وَتَنشَقُّ ٱلۡأَرۡضُ وَتَخِرُّ ٱلۡجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوۡاْ لِلرَّحۡمَٰنِ وَلَدٗا ﴿٩١﴾ وَمَا
يَنۢبَغِي لِلرَّحۡمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي
ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا ﴿٩٣﴾ لَّقَدۡ أَحۡصَىٰهُمۡ وَعَدَّهُمۡ عَدّٗا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمۡ ءَاتِيهِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ
فَرۡدًا ﴿٩٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإد: الأمر الشنيع.

التفطر: الانشقاق.

الخرور : السقوط.

الهد : هدم البناء.

دعوا : نسبوا .

ما ينبغي : ما يجوز.

بيان المعنى الإجمالي:

ما أقبح مقالة المشركين الذين نسبوا لله الملائكة بناتا، والنصارى الذين نسبوا له عيسى ولدا ! إنه لقول شنيع جدا. يبلغ من قوة باطله الصادم أن السماوات يكاد تركيبها يختل وتتمزق، وكذلك الأرض تشقّق وتنهار جبالها. لأنهم ادعوا أن للرحمن ولدا. ويستحيل أن يكون للرحمن ولد. يقوم دليلا على ذلك أن كل ما حوته السماوات من ملائكة وغيرها، وكل ما اشتملت عليه الأرض من الإنس والجن وغير ذلك، الكل منقاد لإرادته وتصرفه على أنهم عبيده الذين لا يملكون من أمرهم شيئا، ينفِّذ فيهم إرادته حسب ما سبق في علمه. أحصى سبحانه ذواتهم وأفعالهم ونواياهم، إحصاء مدققا جزئيا . ثم إنهم سيبعثون يوم القيامة فرادى و لا ينصر أحد غيره.

بيان المعنى العام :

88- وقالوا تخذ الرحمان ولدا.

الذين نسبوا إلى الله الولد هم مشركو مكــة لمــا زعمــوا أن الملائكــة بنــات الله، وكــذلك النصارى الذين ضلوا باعتقــادهم أن عيســى ابــن الله .فالفريقــان ســواء فــي الضــلال. وفي قولهم ذلك جراءة عظيمة. إنه لقول شنيع فــإن شــناعة مــن يثبــت لله ولــدا أعظــم من شناعة الكافرين بوجــوده. ذلــك أن دعــوى أن الله اتخــذ ولــدا هــي فــي حقيقتهــا ترويج لكونه سبحانه ناقصا يجري عليه مــا يجــري علــى البشــر مــن اتخــاذ الولــد، وإكمال النقص به. وهذه من أكبر خِـدَعِ الشــيطان إذ أنســه لمــا لــم يســتطع أن يعــاكس الفطرة التي غرس في أعماقها وجود الخــالق ســبحانه، وســوس مضــللا أن لــه ولــدا، وبذلك انحرفت كل القيم والمفــاهيم عنــد مــن يعتقــد ذلــك، فأصــبحوا يتقربــون للابــن ويدخلونه في مفهوم الألوهية ، ونزل الإلــه المتعــالي فــي كمالــه إلــى صــف البشــر، وترتب عن ذلك أن تحويل المشرك أو الــرافض للألوهيــة أيســر مــن تحويــل المــدعين لله ولدا. ومن بلاغة القرآن أن وقع التعبير عنــه فــي نفــي الولــد باســم الــرحمن ، لأن من شأن الرحمن عظيم الرحمة أن لا يكــون لــه ولــد، ينفــي وجــوده حاجــة المنســوب للرحمة.

89←90: لقد جئتم شيئا إدا ...وتخر الجبال هدا.

ولذلك صرح القرآن أولا بشناعة هذا القــول وفظاعتــه، إذ لا توجــد أدنــى شــبهة تبــرر القول به، وإنما هو أمر مختلق لا أســاس لــه. جــاؤوا بــه مــن عنــدهم تبعــا لنزغــات الشيطان. إن هذا القول لبطلانه يصــدم حتــى مــن لا يعقــل، فالســماوات تــرفض ذلــك حتى تكاد تضطرب فيختــل تركيبهــا وتنحلــل أوصــالها، وكــذلك الأرض تكــاد تتشــقق أيضا سهولها. وتنهد جبالها فتنهار كما ينهار البناء بحركة الزلازل.

92-أن دعوا للرحمن ولدا وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولدا.

زيادة تشهير بمقالتهم تلك، بإظهار ما سيحدث فــي الكــون منهــا فــي صــورة التعليــل، أي لأنهم نسبوا إلى الرحمن ولدا، وما يجوز أن ينسب للرحمن ولد.

93-إن كل من في السماوات والأرض...آتي الرحمن عبدا.

يتابع القرآن اهتمامه بنفي عقيدة البنــوة بإقامــة دليــل علــى بطلانهــا، حاصــل ذلــك أن السماوات وما حوته من ملائكة وغير هــا ممــا لا يعلمــه إلا الله ، وكــذلك الأرض ومــا حوته من مخلوقات ، كل ذلك خاضــع لــه ســبحانه لا يملــك شــيئا، وأمــره بيــد الله ، وصلة البنوة تنافي العبودية .فقارن ذلك بمــا هــو معلــوم عنــد المخــاطبين مــن وضــع

العبيد الذين لا يتصرفون في شـــيء إلا بـــإذن مـــالكهم . وإن كانـــت العبوديـــة لله أحكـــم وأتم، ويصحبها الرحمة فلا ظلم فيها ولا قهر فقال تعالى: **إلا آتي الرحمن عبدا.**

94- لقد أحصاهم ....عدا.

الآية تثبت العلم التفصيلي لكل جزئيـــة مـــن هـــذا الكـــون، يســـتوي فـــي ذلـــك الـــذوات والأفعال. جسم هذا المعنى بأن الله قد أحصى كل شيء فعلمـــه علـــى وضـــعه الـــذي هـــو عليه لا يخرج عن علمـــه كبيـــر ولا صـــغير ولا مـــا وقـــع جهـــرا ولا مـــا تخفّـــى بـــه صاحبه. ويزيد هذا المعنى توضيحا وتأكيدا بأنه عدً كـــل شـــيء عـــدًّا. هـــو علـــى نحـــو من يريد حصرما هو في ملكه فيجمعه، ثـــم يحســـب كـــل وحـــدة منهـــا، فتأخـــذ رقمهـــا الحسابي. وبذلك لا يفلت من علمه شيء.

95- وكلهم آتيه ...فردا

تثبت هذه الآية أن كل فرد من الذين حوتهم السماء والأرض، سيبعثون يوم القيامة ويأتي كل واحد منهم فردا. فالآية تنفي ما تصوروه من أن عبادتهم للملائكة تقربهم من الله ويشفعون لهم، وما قامت عليه عقيدة النصارى: أن الإيمان بأن الله يمحو سيئات البشر إذا اعتقدوا أن المسيح ابن لله، وأنه عذب ليكون ما سلط عليه من عذاب مكفرا لمعاصي المؤمنين بألوهيته وتعذيبه فهو شفيعهم المخلص لهم. فلا الملائكة يصحبون عبدتهم ولا المسيح يصحب من ألهوه. و كل إنسان يعرض يوم القيامة وحيدا لا ناصر له ولا شفيع.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا

بيان معاني الألفاظ :

وُدا : حبا عند عباده .

لدا : المبالغين في الجدل والخصام بالباطل.

القرن : الأمة .

الركز : الصوت الخفي .

بيان المعنى الإجمالي :

يعامل الله بفضله المؤمنين الذين يحرصون علـــى فعـــل الخيـــر وصـــالح الأعمـــال، بأنـــه سيجعل لهم يوم القيامة من يحبهم مـــن المقـــربين مـــن ملائكتـــه وأنبيائـــه فيشـــفعون فـــي تقصيرهم، كما يجعل لهم في قلوب خلائقه مودة ومهابة.

يَسَّرْنَا لك وعي الوحي القرآني بمـا أعطينــاك مــن قـوة علـى تحمــل ثقـل التنزيـل، وبصياغة مضامينه بلسان عربي. وبهـذا كنـت أقـدر علـى تبشـير المـؤمنين بحسـن العاقبة ليزدادوا إقبالا، وتنذر القوم المعانـدين الـذين مـا حـذقوا إلا الجـدل والخصـام. ستجري عليهم سنة الله التي ظهرت في التاريخ، فقـد أهلـك الله أممـا كثيـرة أعرضـت وجادلت بالباطل. إنك اليـوم لا تـرى لهـم أثـرا، ولا تحـس بوجـودهم فقـد انقرضـوا وذهبوا غابرين في التاريخ، ولا تسـمع لهـم أي صـوت. وعلـى هـذا النحـو سـيؤول لجاج المشركين المخاصمين .

بيان المعنى العام :

96- إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن ودا.

الآية السابقة حسب ظاهرها أفادت أن البشر كلهم يسـتوون فـي تفـردهم يـوم القيامـة ، وأنه لا يجد أحد عونا ولا شفاعة يوم القيامــة، فأتبعـت بهـذه الآيــة التـي مضـمونها أن المؤمنين سيجعل الله بفضله لهم مودة في قلوب ملائكتــه وأنبيائــه، تـدفعهم هـذه المـودة للشفاعة فيهم عند الله، كما جاء في قولــه تعـالى عـن الملائكــة: **(نحـن أوليـاؤكم فـي الحياة الدنيا وفي الآخرة)**[1] كما يأنس بعضهم ببعض.

كما تفيد الآية أن المؤمن إذا صلح عمله، واتقى ربـه فـإن الله ينـزل فـي قلـوب عبـاده محبة له ومهابة. أخرج البخاري بسـنده إلـى أبـي هريـرة ﷺ أن رسـول الله ﷺ قـال: إذا أحب الله العبد نادى جبريـلَ: إن الله يحـب فلانـا فأحبـه، فيحبـه جبريـل، فينـادي جبريل في أهل السـماء: إن الله يحـب فلانـا فـأحبوه ، ثـم يوضـع لـه القبـول فـي الأرض.[2]

97- فإنما يسرناه بلسانك...وتنذر به قوما لدا.

يقوِّي القرآن عزيمة الرسول ﷺ على مواصـلة الـدعوة، وإبــلاغ القـرآن للنـاس عامـة. إن إنزال القرآن عليك تمكنك من تلقيه عن طريـق الـوحي، مـا كـان ليحصـل لـولا أن الله أيدك تأييدا أصبح معه وعيك لما أنزل عليك ميسورا، ومـن التيسـير الـذي هـو مـن صنع الله ورفقه بك أن اختار اللغة الحاملة للقرآن لغتـك اللغـة العربيـة. أنزلنـاه عليـك لتبشر به المؤمنين فيزيدون إقبالا على الخيـر، وصـلاحا فـي الحيـاة، ولتواجـه الكفـرة بما يبطل عقائدهم ومفاهيمهم وتنـذرهم سـوء العاقبـة. هـؤلاء الكفـرة الـذين تمـردوا وتمسكوا بالجدال الباطل وموصول الخصام حتى كان ذلك الظاهرة التي تميزهم.

---

[1] سورة فصلت آية 31

[2] فتح الباري ج 7ص116

98-وكم أهلكنا قبلهم....أو تسمع لهم ركزا.

حطمت الآية استكبار الكافرين، وظنهم أنهم أصـــحاب قـــوة و بـــأس شـــديد، لا يــرهبهم الإنذار، فأعلنت الآية مذكرة بسنة الله فـــي الخليقـــة أنـــه يستأصـــل المتمـــردين ويهلكهـــم فلا يبقى لهم أثر تحس به، ولا تســـمع لهـــم صـــوتا ولوكـــان خفيـــا. وفـــي هـــذا بشـــارة للمؤمنين بأن الله سيفني أعداءهم ويطهر الأرض مـــنهم ويـــزول مـــا كـــانوا يلقونـــه مـــن لجاجهم في الكفر ومقاومة الدين.

تم بحمد الله وحسن عونه تفسير معـــاني ســـورة مـــريم وذلـــك يـــوم الأربعـــاء12جمـــادى الأولى 1433- 4 أفريـــل 2012 نســـأله ســـبحانه أن يتقبلـــه وينفـــع بـــه المـــؤمنين وأن ييسر لنا إتمام باقي سوره وآياته .

سورة طــه

هذا هو الاسم الذي اشتهرت بــه هــذه الســورة . وذكــر الســيوطي فــي الاتقــان عــن السخاوي أنها تسمى أيضا : سورة الكليم – وهي ســورة مكيــة. رتبتهــا فــي المصــحف العشرون. وحسب ترتيب النزول الخامسة والأربعــون نزلــت بعــد ســورة مــريم وقبــل سورة الواقعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الشقاء : مقابل السعادة.

التذكرة :حضور المنسي بالذهن.

الثرى : التراب.

ما تحته : باطن الأرض.

وأخفى : ما يجري في الذهن دون أن ينطق به اللسان.

الأسماء : الكلمات الدالة على الذات الخاصة.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت السورة بحرفين يقرآن هكذا – طا– ها– ومــا ذكــر فــي ســورة البقــرة يجــري هنا أيضا.

يتوجه الخطاب من الله إلى النبــي ﷺ، وقــد وجــد مــن صــدود المشــركين عــن قبــول الدعوة، ومن الجدال بالباطل ليتغلبوا على الحــق، مــا أثّــر فــي نفســه الشــريفة وأغمــه وكدره. يُسَلِّيهِ ربه: إني لم أنزل عليك القــرآن إلا لتكــون بــه أكثــر ســعادة، لا لتحــزن وتشقى ، إن مهمتك تنحصر في تذكير الذين لانت قلــوبهم لاتبــاع الحــق، وامــتلأت مــن

خشية الله. إن القرآن كتاب عظيم أنزله الـذي خلـق الكـون بأرضـه وسـماواته الذاهبـة في المنازل العالية المدى الذي لا يحد. هو الرحمن الـذي استوى علـى العـرش فتفـرد بالتصرف في الكون كله من يوم وجـوده، يقـوم علـى كـل تطـور فيـه إلـى الآمـاد المستقبلة التي لا يعلم نهايتها إلا هو. إنه المالـك الوحيـد للسـماوات ومـا حوتـه، ولـه وحده ما هو فوق الأرض من كائنـات، ومـا بـين السـماء والأرض، ومـا انـدس فـي طبقات الأرض. وهو العليم بما هو محسوس ظـاهر عنـد البشـر، ومـا خفـي علـيهم، وما لا يدخل من الموجودات في نطاق علمهـم. هـو الله الواحـد الأحـد لا إلـه إلا هـو، واحد في ذاته وواحد في صفاته لا يشاركه في ذاته أحـد ولا فـي صـفاته. ومـا يجـري من الصفات على المخلوقات يكون علـى مسـتوى نـاقص يتناسـب مـع حقيقـتهم. فـإذا قلنا فلان عالم أو مالـك ونحـو ذلـك، فهـو علـم محـدود، وملـك نـاقص، التصـرف الحقيقي فيه لله لا له. وإذا قلنا الله عالم فهو العلـم المحـيط الـذي لا يخفـى عليـه شـيء من المعلوم لا في ماضيه ولا في حاضره ولا فـي مسـتقبله ومصـيره. فكانـت أسـماؤه سبحانه مرتبطة بالكمال الذي لا ينبغي لأحد غيره، فكانت له الأسماء الحسنى.

بيان المعنى العام :

1-طـه .

افتتحت السورة بحرفين الطاء والهاء، وتقرأ هكذا – طا– ها– وما قيل في أول سورة البقرة يجري هنا. وذكر المفسرون توجيهات عديدة أخرى محتملة لا تبلغ درجة الظن.

2←3- ما أنزلنا عليك القرآن ....إلا تذكرة لمن يخشى.

أنزل الله القرآن على رسوله محمد ﷺ. وحمَّله أمانة التبليغ لهداية الناس إلى التوحيد وإقامة شرعه. فتحمَّل شرف هذه المهمة التي تخيَّره سبحانه من بين الخلائق جميعا من أول الكون إلى نهايته، ليكون ﷺ خاتم الهداية الربانية للعالمين. اختلطت الرسالة بعقله وروحه ومشاعره، ومحض جهوده لأداء المهمة الثقيلة، التي تلقاها معظم المرسَل إليهم أولا بالإعراض، وتفننوا في معاكسته وصده عن التبليغ. وأثر ذلك في نفسه الشريفة لأمرين:

أولهما: أنه يبغي رضوان ربه عليه وبعد النجاح في مهمته باب ذلك الرضا.

وثانيهما: لأن حبه للبشرية ملك عليه حياته فكان يحـس فـي نفسـه بأشـد الأسـى إذا هـم لم ينقذوا أنفسهم من الكفر باتباع هداية الله.

و محمد ﷺ سلم له المنزلة الرفيعة عند ربه فقد خاطبـه تعـالى بقولـه: **(فإنـك بأعيننـا)**[1] فتوجه إليه القرآن بقوله: ما أنزلنا عليك القرآن لتشـقى. مـا أنزلنـا عليـك القـرآن فـي

[1] سورة الطور آية 48

حال من الأحــوال إلا حــال التــذكرة لمــن يخشـــى. أي لا لتكــون تعيســا فـــي حياتــك مهموما بعنادهم وكفرهم، ولكن هــذا الــوحي ينبغـــي أن يزيــد فـــي إحساســك بالســعادة والوثوق من القــرب. ومهمتــك لا تعــدو التبليـــغ فتــذكر الــذين لــم تجمــد مشــاعرهم ،وتفتحوا على ما عند الله وحلت الخشية من ربهم فـــي قلــوبهم ، فهــم يتلهفــون لمتابعــة ما ينزل عليك ويجهدون أنفسهم لاتباع رشده. وقد تمكنتَ مــن هدايــة فريــق هــم حولــك يؤيدونك ويخشون ربهم .

4←6- تنزيلا ممن خلق الأرض...وما تحت الثرى.

بعد أن ذكر في الآية السابقة أن القــرآن منــزل مــن عنــد الله لينــذر مــن لــم تتحجــر مشاعره، أضاف تنويها بالقرآن وبيانــا لعظمتــه، بأنــه منــزَّل مــن الــذي خلــق الأرض والسماوات التي تذهب في علوها إلـــى أبعــاد لا يعلمهــا إلا هــو. إن وصــف الســماوات بالعلو، وإن كان معلوما إلا أن في التنصــيص عليــه إحضــارا للواقــع حتــى يستشــعره الإدراك ولا يغفل عنه، فتتكون من خلق الأرض والســماوات العلــى صــورة مــن القــوة والعظمة، هي مقترنة بالقرآن باعتبار أنَّ من خَلَقَ ما تعدونــه عظيمــا ،هــو الــذي تفــرد بإنزال القرآن الذي ليس لأحد دخــل فـــي نصـــه، لا الملــك الــذي حملــه، ولا الرســول المحول إليه ليقوم بتبليغه. ويتضاعف تقرير عظمــة القــرآن بــإجراء الأوصـــاف التاليــة على مُنزّله : هو الرحمن الذي وسعت رحمته كــل شـــيء، فــأنزل القــرآن بهــذا الاســم رحمة بعباده الذين يتذكرون به ويزيدهم خشية مــن ربهــم. وهــو مــع رحمتــه عظــيم. فالصورة التي يريد أن ينقشها القرآن في هذا المقطــع هـــي العظمـــة. وتجســيما للعظمـــة نصت الآية على أنه استوى علـــى العــرش. فأضـــافت الآيــة إلـــى تفــرده بخلقهــا أنــه تصرف فيها تصرفا لا يشاركه فيه أحد، إذ لا يقـــال اســتوى علـــى العــرش فـــي عــرف الاستعمال اللغوي إلا إذا كان الجالس على العــرش تفــرد بالســلطان. ولــذا فــإني أفهــم من الاستواء على العرش ذلك المعنى الــذي يســبق إلـــى فهــم المخاطــب إذا ســمع: إن الملك الفلاني استوى على العرش، أنه تفــرد بالســلطة. فعــرش الله هــو ســلطانه علـــى الكون بما يحويه. فهو خلقــه وتــدبيره ، وهــو المــتحكم فـــي واقعــه ومصــيره تطــورا وإفناء. وبعد ذلك فكل ما ورد فـــي الأخبـــار الصـــحيحة ممـــا يتعلــق بعــرش الــرحمن، نؤمن بما صح منه ، وننزه الله عن كل ما يفيد الجســمية والملاصـــقة، ونكــل ذلــك إلـــى علم الله الذي خلق عقولنا قاصرة عن إدراك حقيقته.

ثم أكد المفهوم مقررا له بأن كل ما تحويه السماوات من الكواكب والمجرات ما هو معلوم للبشر بحواسهم، أو بالأدلة العقلية، أو ما هو وراء ذلك، كذلك ما حوته الأرض على ظاهرها، وما هو كامن في باطنها إلى أبعد الأعماق، هو ملك له وحده.

7-وإن تجهر بالقول....وأخفى.

تثبت هذه الآية إحاطة علم الله، فهو كما أحاط ملكه بجميع الكائنات في السماوات وفي الأرض، فهو كذلك عليم بدقائق محتوياتها، ولما كان العلم بالمحتويات يشمل ما سبيله الحس ، فإن وراء ذلك إدراكا لغير المحسوس. فعبر القرآن عن هذا العلم العام الشامل بكونه سبحانه عالما بما هو مدرك بالحواس، وهو عالم أيضا بما يجري في الضمائر وتنضم عليه العقول فيجري في مجاريها دون أن يبرز إلى الوجود الفعلي ليكون له أثر محسوس. فتثبت الآية استواء علم الله بما يصدر منك جهرا بالكلام، واختير النطق لأنه خاصية الإنسان. ولذا قيل في تعريف الإنسان هو الحيوان الناطق .ويدل الإدراك للجهر من القول على إحاطة العلم بجميع المحسوسات الدقيقة والعظيمة، كما يدل السر وأخفى على ما لا يدرك بأثره اللافت للانتباه، ولكن بعلم اختص به الله. والسر قد يطلق على ما تحدثت به في خفية وقصد أن لا يطلع عليه إلا من تسارره ، ويطلق السر على ما لم يخرج من فكرك معبرا عنه بالحروف. والأخفى على المعنى الأول ما كان في نفسك ولم تنطق به، وعلى المعنى الثاني يكون الأخفى هو ما لا يدركه البشر أصلا. والمراد شمول علم الله للظواهر والخفايا.

8- الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى.

هذه الآية كأنها نتيجة لما جرى على الذات الإلهية في الآيات السابقة، فقد وصف بالعظمة، والملك ، والتصرف، والعلم. واتصافه بتلكم الصفات هو على مستوى الكمال المطلق الذي لا يشاركه فيه أحد. ولذلك افتتحت الآية بإثبات الوحدانية لله لا إله إلا هو. وإذ كان سبحانه فردا واحدا فإن أسماءه المشتقة من تصرفه هي في مفهومها على مستوى الوحدانية، الدالة على الكمال المطلق، وغيره إنما يسمى بتلك الأسماء على وجه من النقص بعيد عن الكمال .وبهذا ثبت لله الأسماء الدالة على الكمال الذي لا يخالطه ولا يلحقه نقص .انظر الآية 180 من سورة الأعراف.

وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا
لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ
﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ
فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ
لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾
فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحديث : الكلام الذي يخبر به عن أمر وقع في الخارج.

الأهل : الزوج والأولاد.

آنست : أحسست وأبصرت.

القبس : ما يؤخذ من النار ليُشعل به نارا.

اخلع نعليك : كن حافي القدمين.

الوادي : المفرج بين الجبال والتلال.

المقدس : المطهر.

طوى : طوًى بضم الطاء مقصورا اسم للبقعة. وقرئ طوًى مقدس مرتين.

بيان المعنى الإجمالي :

هل سمعت يا محمد بخبر موسى ؟ سؤال يثير السامع للانتباه ويقرب المسؤول من السائل. هل سمعت ما وقع له في ذلك الظرف الذي كان فيه مع أهله وقد لفهم الظلام في الصحراء، إذ أبصر نارا. طلب من زوجته وولده أن ينتظروه ولا يبرحوا مكانهم، وأنه سيقصد مكان النار، ليأتيهم منها بقطعة يوقدون بها النار ليتدفؤوا وقد أحسوا ببرد الصحراء في الليل. أو أن يجد عند موقد النار معرفة يهتدي بها لأفضل طريق يصل به إلى مصر. ولما وصل إلى النار ناداه ربه مباشرة إني أنا الذي أخاطبك، أنا ربك أقبل علي حافيا، إنك الآن في المكان المقدس المطهر طوى، وإني قد اخترتك من بين العالمين فكن واعيا لما يصلك مني.

بيان المعنى العام :

9-وهل أتاك حديث موسى.

تثير هذه الصيغة الاهتمام فجاءت صياغتها على شكل سؤال دون أن يتطلب السائل جوابا؛ لأن السؤال يثير الذهن فيزداد المسؤول إقبالا. فهي بذلك تؤكد العناية برسول الله ، وتقربه مُشَوَّقًا له بما سيقصه عليه.

10- إذ رأى نارا فقال لأهله....أو أجد على النار هدى.

الذي وقع لموسى في ذلك الظرف، أنه تبين له في ظلام الليل، نارا تتوقد. دعته النار المشتعلة للوصول إليها ومعرفة ما يجري حولها. قبل أن يتحرك نحو المشهد الذي أحس بداعية إليه، أعلم أهله(زوجه وولده) الذين كانوا يصحبونه، أعلمهم بما رأى وبما عزم عليه: إنه سيذهب نحو مصدر الضوء، وأن عليهم أن ينتظروه في مكانهم. وأنه يرجو أن يأتيهم بقطعة من النار يقتبسها ليوقد لهم ما يجتمعون حوله للدفء، وهم في الصحراء التي تنزل فيها درجة الحرارة بالليل بصفة واضحة، أو

أن يجد حول النار الموقدة من يهديه الطريــق الأحسـن للوصـــول إلـــى مصــر مقصَــدِه. وفي هذه المقطع أدب في العلاقات الأسرية، فرئيس العائلـــة يعــرض الأمــر الــذي يهــم الأسرة على أعضائها، ولا يكتمهم.

11←13: فلما أتاها نودي....فاستمع لما يوحى.

المشهد التالي الذي وقع الإعداد له وهو غير معين، وهو ما دلت عليه الآيات الثلاث.

وصل موسى إلى المكان الذي آنس منه النار. وبمجرد مــا وصــل ســمع صــوتا يناديــه باسمه، ويواصل النداء بقوله: **إني أنا ربك – فــاخلع نعليــك – إنــك بــالوادي المقــدس طوى – وأنا اخترتك فاستمع لمــا يــوحى.** هــذه أربــع جمــل، وعاهــا موســى وأدرك بكامل الوضوح مؤداها.

أولا : يرفع الله حيرته فيبادره معلما: إني أنا الــذي أكلمــك، ربــك الــذي خلقــك ووالـــى عليك ألطافه متتابعة كما سيصرِّح به فــي أثنـــاء القصـــة بأوســـع مـــن هـــذا. والمبـــادرة بتطمينه هي من رحمة الله به. ذلك أن موســى كــان وحــده فــي البريــة، وفــي ظـــلام الليل، ويسمع كلاما فيعيه بلا صــوت ولا حــرف مــا ســمع مثلــه مــن قبــل، ويحــس إحساسا يقينيا بصدقه وأنه لــيس تخــيلا، وأنــه كــلام يمــلأ الــنفس بهجــة، فكــان فـــي المبادرة لطف عظيم، وهذا هــو شــأن الله الــرحمن الــرحيم مــع رســله. وبصـــرح لــه بصلته به أنها صلة الربوبية، بما تشير إليـــه مـــن عنايـــة وألطـــاف. وأنــه مقــرب مـــن جلاله، بإضافة كلمة [رب] إلى موسى [ربك]

ثانيا: يواصل الصوت اخلع نعليــك، لــتكن حــافي القــدمين. فــالموقف موقــف رهيــب والمكان الذي أنت فيه، هذا الوادي الذي اسمه **(طــوى)** مكـــان مقــدس. وكيــف لا يكــون كذلك وقد حله التقديس بإيجاد كلام من عند الله فيـــه، يكــون بـــه موســـى أول مـــرة يعلــم بأنه مخاطب من الله.

ثالثا: تهيأ موسى للأمر العظيم ، فخلع نعليه وتطلع بكل أشــواقه لمــا ســيأتي، فــإذا هـــو إعلام له بأن الله ميزه من بين البشرية كلها في ذلــك العصـــر. إنـــي أنـــا الله العلـــيم بكـــل الناس قد اخترتك من بينهم وقربتك إلي، فاســتمع لمـــا يـــوحى إليـــك، وكـــن واعيـــا لـــه. والذي أوحي إليه في هذا المقام معاني. صيغت فـــي الآيـــة لنعرفهـــا، ولكـــن موســـى لـــم يتلقها من ربه على الصياغة القرآنيـــة، ولكنهـــا مســاوية لهـــا معنـــى. جاءتـــه مـــن رب العزة وعاها أتم وعي وفهم المراد منهـــا، وغمــره بالإحســـاس بهـــا وبمضـــامينها ســـعادة تفوق الوصف. وهي ليست بحروف ولكنـــه إدراك فـــوق ذلــك يتناســـب مـــع تنزيـــه الله عن الزمان والأحداث، سَمَتْ القدرة الإلهية بموســـى ليتلقـــى مـــن ربـــه مـــا تلقـــاه بـــدون واسطة ملك ،وفي اليقظة لافي المنام.

إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (14) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ
أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ (15) فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا
وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ (16) وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَىٰ (17) قَالَ هِيَ عَصَايَ
أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ (18) قَالَ أَلْقِهَا
يَا مُوسَىٰ (19) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ (20) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا
سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ (21) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً
أُخْرَىٰ (22) لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (23)

بيان معاني الألفاظ :

إقامة الصلاة : المداومة عليها وعدم الغفلة عنها.

الساعة : يوم القيامة .

أخفيها : أسترها.

تسعى : تعمل.

لا يصدنك : لا يصرفنك.

تردى : تهلك.

أتوكأ : اعتمد عليها .

أهش : أخبط بها الشجر ليسقط الورق طعاما لغنمي.

مآرب : جمع مأرب، أمور أخرى أستعين فيها بالعصا.

الحية : صنف من الزواحف السامة.

تسعى : تتحرك بسرعة.

سيرتها **الأولى** : طبيعتها الأولى، سنعيدها عصا كما كانت.

الجناح : العضد وما تحته إلى الإبط.

الضم : الإلصاق.

الكبرى : القوية الدلالة على قدرتنا.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن تهيأ موسى لقبول الوحي مع الحضور. كان أول ما أوحى الله له به أني أنا الله لا يشاركني أحد في اسمي. ولا يشاركني أحد في ألوهيتي، فكل ما اتخذه البشر من آلهة سواي هو باطل وزيف . وبناء على ذلك تحتم أن تفردني بالعبادة ولا تتقرب إلا إلي. ونص على الصلاة باعتبار أنها أفضل ما يتقرب به العابد من

المعبود. فأقم الصلاة وأدها على أكمل وجوهها لتكــون ذاكــرا لـــي بقلبــك ولســانك. وإن يوم القيامة آت لا ريب فيه. وأردت أن أخفي وقت حضـــور الســاعة فــلا تُعْلَــمُ بالضــبط إلا عندما يقوم الناس من قبورهم. وعندها تلقـــى كــل نفــس جــزاء مـــا قامــت بــه مـــن أعمال أو ما فرطت فيه من واجبات. فلا يصــرفَنَّكَ عـــن تـــذكرها واستحضـــارها دائمـــا، ما يقوم به المغرقون في الشهوات الــذين لا يؤمنـــون بهـــا مـــن إنكارهـــا وجعـــل تـــأخر حصولها باب شك في وجودها. احذر فتنتهم فـــإن الهـــلاك والخســـران مـــآل الغفلـــة عـــن الساعة. وبعد أن من الله على موســـى بإحساســـه أنـــه فـــي حضـــرة الله يخاطبـــه بـــدون واسطة وعلى غير ما ألفه من الإدراك. يتلقى سؤالا يطلـــب منـــه أن يعـــرّف مـــا يمســكه بيمينه. ما كان موسى ممسكا لشـــيء إلا لعصـــاه التـــي تلازمـــه. فأجـــاب بكـــل تلقائيـــة استجابة للأمر: هي عصاي، وتبعا لفطنتـــه أســـرع إلـــى مواصـــلة الحـــديث عـــن ســـبب صحبته للعصا، فقال هي عصاي أعتمـــد عليهـــا فتســـاعدني فـــي المشـــي، وأخـــبط بهـــا الشجر لتتساقط الأوراق التي يتغـــذى منهـــا غنمـــي. وتســـعدني علـــى تحقيـــق أغـــراض أخرى. والذي يتبادر من هـــذا الاطنـــاب أن موســـى يقـــوم فـــي باطنـــه عامـــل داخلـــي يستحثه ليطول الموقف في حضرة ربه. فإنه ما شـــعر فـــي حياتـــه الســـابقة، ولا يتصـــور أن يكون له فيما يســـتقبل موقـــف تغمـــره فيـــه الســـعادة والإحســـاس بالرضـــا والأنـــس كموقفه ذاك. فكل كلمة ينطق بها تطيل هذا اللقاء الســـامي العزيـــز ومناجاتـــه لربـــه التـــي تميز بها بين كل من سبقه من البشـــر. وانحصـــر ذهنـــه فـــي عصـــاه، فيأتيـــه الأمـــر أن يلقي بعصاه على الأرض. وما أعظم دهشـــته إذ فـــوجئ بـــانقلاب العصـــا حيـــة نشـــيطة تتحرك في قوة. ويطمئنه ربه بقوله : خذها بيدك ولا تخـــف منهـــا فـــإني ســـأعيدها إلـــى طبيعتها الأولى عصا كما كانت . وما إن طبع ذهنـــه بهـــذا التحـــول الـــذي جـــرى علـــى العصا يتلقى أمرا آخر: أدخل يدك فـــي جيبـــك حتـــى تبلـــغ جلـــدك تحـــت إبطـــك، ثـــم أخرجها. ويستجيب للأمر فإذا يده تخـــرج بيضـــاء نقيـــة شـــديدة الصـــفاء، وكـــان لونهـــا سمراء كلون بشرته. ويتلقى مـــن الله خطابـــا علـــى نفس النسق الـــذي حصـــل عنـــد استماعه للنداء الأول، فيقول الله، فعلنا ذلـــك لنريـــك بعـــض آياتنـــا العظيمـــة التـــي بهـــا نجري الوجود ونحوله كما نشاء، ونخرق ما تعود عليه البشر.

بيان المعنى العام :

14- إني أنا الله لا إله إلا أنا...لذكري.

استعد موســـى فخلـــع نعليـــه وصـــفت روحـــه للتلقـــي، وغمرتـــه الســـعادة بالاصـــطفاء والتقريب ولبلوغه لحظة ما تأتَّتْ للرسل من قبلـــه، فتهيـــأ لقبـــول الـــوحي الـــذي تواصـــل فكانت المجموعة الأولى منه مركبة مـــن أربعـــة أركـــان أولا: التعريـــف بالعقيـــدة التـــي

تقوم على الوحدانية .بالاعتراف بأن الله هــو الإلــه الحــق، وأن مــا يــدعى مــن دونــه باطل وهوس. فعلى نفي الشريك وتقديم هذا الــركن علـــى غيــره تتفــق كلمـــة المرســلين جميعا.

ثانيا: تخصيص الله بالعبادة والطاعـــة، فإنـــه لمـــا تفـــرد ســـبحانه بالألوهيـــة، وجـــب أن يتفرد بالطاعة والعبادة، فـــلا يتقـــرب إلا إليـــه، ولا يـــدعى إلا هـــو. وأن يخلـــص العابـــد للمعبود.

ثالثا: الأمر بالصلاة، اختصت من بين أنـــواع العبـــادة حتـــى كأنهـــا نـــوع خـــاص، لمـــا اشتملت عليه من صقل للروح وتغذيـــة للعقـــل، وتنبيـــه للمشـــاعر. يقـــف المصـــلي بـــين يدي ربه معرضا عن الدنيا متعلقا بربه متســـاميا عـــن دواعـــي الميـــول والغرائـــز. ولـــذا قال ﷺ: جعلت قرة عيني في الصلاة. وربطـــت الصـــلاة فـــي الآيـــة بقولـــه " **لـــذكري** " ويحتمل المعنى أقم الصلاة لتذكرني. أو عند الوقت الذي جعلته لذكري.

رابعا : الإيمان بالبعث. عبر عنه بـــأن الســـاعة (أي يـــوم القيامـــة) هـــذا الموعـــد آت لا ريب فيه. إنه هو الذي يحمـــل الإنســـان علـــى مراقبـــة أقوالـــه وأعمالـــه فيلتـــزم الخيـــر ويبتعد عن الشر، وهو المُظهر للمسـؤولية لمـــا كانـــت الـــدنيا لا يعجـــل فيهـــا الجـــزاء. وعقب الساعة بأمرين: ذكر وقتها، وما يحصل فيها. أما وقتهـــا فعبـــر عنـــه بقولـــه: أكـــاد أخفيها. ولما كانت لفظة " **أكاد**" تدل علـــى نفـــي مـــا بعـــدها وإن قـــارب الوقـــوع حـــاول المفسرون تخريج المعنى على ما يتفق مع اليقين في الأمـــر. بيـــان ذلـــك أنـــك إذا قلـــت كاد يقتله، أي قارب قتله ولم يقتله. وكذلك أكاد أخفيها قاربـــت الإخفـــاء ولـــم أخفهـــا. مـــع أن الساعة لم يعلم الله بها أحدا: **لا تأتيكم إلا بغتـــة**– فحمـــل بعضـــهم أكـــاد، علـــى أنهـــا زائدة. وادعاء الزيادة بدون مبرر لها لا تطمئن لـــه الـــنفس. وحمـــل بعضـــهم أن الهمـــزة للإزالة ، أي أزيل خفاءها فأظهرهـــا أي إن وقوعهـــا قريـــب. والـــذي اطمأننـــت إليـــه هو حمل الآية على ظاهرها. أي إني قاربت إخفاءها عـــن البشـــر، فهـــم يتســـاءلون عنهـــا ولا يجدون جوابا، وسأظهرها يـــوم تتعلـــق إرادتـــي بإظهارهـــا ، عنـــدها يعلمـــون بعـــد إتيانها أنها حق. فليس إخفاؤها إخفاء أبـــديا، ولكنـــه إخفـــاء ينتهـــي إلـــى معرفـــة قريبـــة. وقد جاء في القرآن: **(وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا)**[1]

وأما ذكر ما يحصل فيها، فهو تحقق الجزاء العادل عمـــا قـــام بـــه الإنســـان فـــي حياتـــه. نعم هو يسعى ويتحرك ويؤثر فيما حوله، وتأخذ أفعالـــه فـــي علـــم الله الصـــورة الحقيقيـــة

---

[1] سورة الأحزاب آية63

لها، وذلك بربطها بمنطلقاتها من النوايا. وكــذلك مــن يتهــاون بمــا هــو واجــب عليــه، فيلقى أيضا جزاء تفريطه.

16-فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى.

في هذه الآية تنبيه لموسى عليه السلام ليكون يقينه بأمر الساعة ثابتا وحاضرا، وأن يكون يقظا للذين يشككون في أمرها، ويعملون على رفضك اليقين بها تبعا لتراخي وقتها. مع أنهم لا شبهة لهم ولا موجب للشك فيها ولكن اتباعهم لشهواتهم وانقيادهم لهواهم هو الذي يصرفهم عن الإيمان بالآخرة لما يترتب عن تذكر إيقافهم للسؤال ثم الجزاء على سوء أفعالهم ما ينغص عليهم لذاتهم. إن تسيب المتبعين للشهوات لا يعكر عليهم لذاتهم إلا استحضار أنهم سيحاسبون عن الشرور والمفاسد التي ارتكبوها إرضاء لنزواتهم. احذر أن يفتنوك عن استحضار حصول يوم القيامة فإن الغفلة عنه مهلكة وخسران مبين.

17←18: وما تلك بيمينك ياموسى ...مآرب أخرى.

بعد ذلك المشهد المقدس المتعالي، وقد ارتسم فيه في سرعة خط التصور من البداية من مبدع الكون الواحد الأحد إلى النهاية يوم القيامة وما بينهما من الاستعداد الموصول، وعدم الغفلة عن أي جزء من تلكم الحركة، الإيمان بالله، عبادته، إقامة الصلاة، الحضور الإلهي في الروح والعقل ،الاستحضار للنهاية يوم القيامة. بعد ذلك يلقي الله على موسى سؤالا يخرج به من الجو الروحي الذي بلغ درجة من السمو والطهر والبعد عن المادة والطين حدا ما بلغه أحد من البشر من قبله. يعيد هذا السؤال موسى إلى الواقع فيسأله: ما تلك التي تمسكها بيمينك ؟ لاشك أن السؤال ليس عن ماهية ما بيمينه ، إذ هو واضح أنه يمسك عصاه التي لا تفارق الرعاة وقد كان يرعى غنم سيدنا شعيب . والسؤال من الله، وعلى موسى أن يجيب، فأجابه: إنها عصاي. وواصل إذ لعله قصد بالسؤال اختباره عن حاجته لأخذها معه، فقال :أتوكأ عليها: تعينني وأعتمد عليها في سيري، وأخبط الشجر بها لتتساقط منها الأوراق التي ترعاها غنمي، وتساعدني في القيام بوظائف أخرى.

19←20: قال ألقها ياموسى...حية تسعى.

قال الله: ألقها من يمينك على الأرض. ألقاها ويفاجأ موسى بأن العصا تنقلب حية نشيطة سريعة الحركة. ومن اللطف بموسى لم تنقلب العصا حية حتى انفصلت عنه وفارقت يده.

21- قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى.

تطوي الآية فزع موسى من الحية، ويشــير إليــه قولــه: **ولا تخــف**. يــؤمر بــأن يمســك بالحية، ويحس بالخطاب المطمئن الذي مــلأ كيانــه كلــه مــن ربــه امســكها ولا تخــش منها سوءا فسنعيدها إلى طبيعتها التي كانت عليها.

22←23: واضمم يدك ...لنريك من آياتنا الكبرى.

ويثني الرحمن بعرضه أمرا آخر خارقا للعادة. كان موسى ﷺ أسمر اللون، فبعد أن أمسك بالحية وعادت إلى طبيعتها يأمره أن يدخل يده من فتحة جيبه ويبلغ بها تحت إبطه فتمس جلده. ويستجيب للأمر منتظرا ما ذا سيحدث، ويخرج يده فإذا هي بيضاء نقية، مشرقة بصفاء لونها. فليس تحول اللون كما يحدث بالبرص والبهق . ويشاهد موسى الآية الأولى والآية الثانية. وإذا كان موضوع الآية الأولى عصاه المنفصلة عن ذاته، فإن الآية الثانية كانت في ذاته. ثم يلقي في سمعه وقلبه: نريد بما شاهدته أن نريك بعض آياتنا الكبرى التي تخرق العوائد. فما كانت العوائد التي استقرت لدى البشر إلا مسببة عن تكوين إلهي لها، وليست واجبة أن تكون على ما هي عليه، ولذا فإنه متى أردنا توقيف العادة وإبدالها بصورة مغايرة استجابت للإرادة والقدرة.

ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾

بيان معاني الألفاظ

طغى : جاوز الحد في فساده.

اشرح لي صدري : وسع لي في صدري حتى لا يضيق عليه الأمر في الأوقات الحرجة.

عقدة لساني : حبسة لساني.

يفقهوا: يفهموا.

الوزير: المعين القائم بوزر الأمور.

الأزر: أصله الظهر. والمراد به القوة.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن أعد الله موسى إعدادا سما به إلى درجة رفيعة من التقريب وبعد أن أظهر له من المعجزات الكبرى ما يقوي عزمه، أمره أن يذهب إلى فرعون ليحوله عن طغيانه. كان موسى يعلم استكبار فرعون واستبداده وكبْرَهُ، فسأل ربه أن يساعده على تحمل أمانة الرسالة التي أوكلها إليه. سأل ربه أن يشرح صدره فينزع منه الخوف، ويبصره بالحلول الموفقة للمشاكل تعترضه، وأن يمده بالعون والتوفيق

الذي يسهل عليه مهمته، وأن يمكنه من التعبير عن مـــراده بطلاقـــة لســـان حتـــى يفهمـــوا قصده فهما جيدا. وأن يجعل له معينـــا ومـــؤازرا مـــن أهلـــه يقـــوم معـــه بثقـــل المهمـــة، وسأل أن يكون هذا المؤازر أخاه هـــارون، يقويـــه ويقلّـــب معـــه أوجـــه الـــرأي للظفـــر بالحلول الناجحة. ونتشارك في القيـــام بـــدعوة فرعـــون. حتـــى نتعـــاون علـــى مواصـــلة تسبيحك، ونوالي ذكرك، فإنك العليم بحاجتنا لعونك وتسديدك.

أعلم الله موسى أنه أجابه لما سأل، ومكنه مما طلب.

بيان المعنى العام :

24←32: اذهب إلى فرعون ...وأشركه في أمري.

أعد الله موسى لتحمل الرسالة لأعتى ملـــوك الأرض فـــي زمانـــه، فقـــوّى نفســـه بكلامـــه وأكسبها عزة وثقة، وكشف له من آياته التي تحول العصـــا حيـــة والســـمرة بياضـــا، ممـــا يدل على أن تأييده له في مغالبة الصـــعاب علـــى النحـــو الـــذي رآه رأيَ العـــين. فتوجـــه له بالأمر الجازم والتكليف المشرف: أن يذهب إلى فرعـــون، ويُجْمِـــل المهمـــة فـــي لفـــظ واحد: إنه **طغى**: أي إنه جاوز الحدود، وتجبر. اذهـــب إليـــه لتحولـــه مـــن طريـــق الظلـــم والاستبداد إلى طريق العدل والرشاد.

ويستشعر موسى عليه السلام ثقل المهمة، وهو الذي ربي في حجـــر فرعـــون، وقـــد مـــرت بـــه صور كثيرة من طغيانه واستخفافه بـــالأرواح والحقـــوق. فطلـــب العـــون مـــن الله ليـــنجح في مهمته فسأله وهو في حضرته:

أولا : أن يشرح صدره فيتسع فكره لحـــل المشـــكلات التـــي تعترضـــه فـــي أداء مهمتـــه، ولا تنغلق مفاتيح حل الأزمات. ولا يستولي عليه الخوف الذي يشل الحركة والفكر.

ثانيا: أن يسعفه بعونه ليهوّن عليه أمر مهمتـــه، وقـــد رأى مـــن الآيـــات مـــا قـــوّى يقينـــه بقدرة الله على تيسير العسير.

ثالثا: لما كانت مهمته تعتمد وضوح الحجة والقدرة علـــى البيـــان والـــبلاغ، فـــإن اللســـان هو آلة الخطاب ، وقد كان موســـى عليه السلام يشـــكو حبســـة فـــي لســـانه، قـــد تكـــون عـــدم وضوح بعض الحروف على لسانه فيعســـر عليـــه إخراجهـــا مـــن مخارجهـــا فـــلا يبـــين، وقد تكون عدم مساعدة لسانه على الاسترسال فـــي الحجـــاج، فينحـــبس عـــن المواصـــلة. ويفشل قبل بلوغ الغاية من العرض. وعلـــى كـــل فإنـــه يحـــس مـــن نفســـه بعظـــم هـــذا المعوّق، ولذا نكر لفظ " عقدة" للدلالة على التعظيم. ووصـــل بـــأن الاســـتجابة تصـــل بـــه إلى أن يفهم عنه الفهم الجيد ما يريد أن يقنع به المرسل إليهم.

رابعا: أن يؤيده بأخيه هارون فيشركه في المهمة الموكلة إليه ،ويعينه برأيه . واسترسل مفصلا موجبات الاختيار على هارون، لأنه أخوه وشأن الأخ أن يكون مخلصا لأخيه، ولأنه قوي وفصيح فيكون وضعه معه كالحزام الذي يشد الظهر، ليكون شريكا له في المهمة يقلبان الرأي معا، فيحصل بينهما التكامل لتقليب وجوه النظر في المهمات وهو أعون على النجاح .

33←34: كي نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا.

وبرر طلب تعزيزه بأخيه بأن ذلك يمكنه بصفة أفضل من الامتثال لأول أمر تلقاه من ربه " **لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري**" فإن التعاون على مهمة الرسالة يمكنهما من وقت أوسع للعبادة، فيكثر تسبيحهما وتمجيدهما لله، وتكثر أوقات توجههما بالصلاة إليه. وفي ختم دعائه بربطه بأول ما تلقاه من ربه ما يؤكد انتقاش ما جرى فيه.

35: إنك كنت بنا بصيرا.

و ينعطف على كل ما سأله بأنه مفوض أمر إسعافه بطلبه إلى الحاجة التي لا يتمكنان منها إلا بفضله، وهو العليم بحاجتهما، لا يخفى عليه من أمرهما شيء.

36: قال قد أوتيت سؤلك يا موسى.

قال الله تعالى بعد أن أتم موسى دعاءه وبلغ بتضرعه مستوى القبول: قد تحقق لك نيل ما سألت، وناداه باسمه ليفرغ في روحه وثوقا وطمأنينة، يا موسى. وما ألذه من نداء من رب العزة، وأي تقريب أ حس به موسى!

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي
ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ
وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ
أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا
فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ
يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ :

أوحينا: ألهمناها إلهاما أحست بصدقه.

اقذفيه في التابوت : ضعيه في الصندوق.

اليم : نهر النيل.
الساحل : الشاطئ.
العدو : فرعون.
تصنع : تربى وتنمو.
على عيني : أراك وأرعاك .
تقر عينها : برؤيتك في حجرها.
لا تحزن : بتحقق سلامتك من الضياع.
الغم : الحزن.
الفتون : اضطراب الحال الذي يعرض للإنسان في مدة حياته.
قدر: تواصلت عنايتي بك إلى أن جئت هذا المكان بتقديري.

بيان المعنى الإجمالي :

كان موسى في حضرة الله يسمع بكل كيانه إلى ما يلقيه الله له. ذكره بالمنن التي والاها عليه. ذكره برعاية الله لمَّا وُلِدَ، إذ أدخل في فكر أمه حلا استيقنته ونفذته، ذلك أن من طغيان فرعون عزمه على قتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل، فأوحى إليها أن تسرع بإدخاله في صندوق قبل أن يتفطن له زبانية فرعون، ثم ترمي به في النهر، وقدرتُ أن يحملك الماء إلى ساحله في المكان الذي يأخذك فيه خدم فرعون ،عدوي بادعائه، الألوهية ،وعدوك في المستقبل. وجعلت فيك جاذبية يحبك من يراك، فبمجرد ما رأتك امرأة فرعون تعلق قلبها بحبك. ثم واليت عليك مننى ليتم تطورك في البيئة الصالحة تحت رقابتي، فأبعدت عنك كل ما يتبعه الانحراف. وإذ تكدرت امرأة فرعون لما عزفتَ عن قبول المراضع، فقبل بلاط فرعون نصيحة أختك أن بيتا صالحا يمكن أن يكفيكم أمر القيام عليه في أمد رضاعه. وقبلوا ذلك وعدتَ إلى أمك فقرت عينها سرورا بعودتك، وذهب ما كان يخامرها من الحزن خوفا عليك من الضياع أو الغرق في النهر. ومنة أخرى أنه لما قويت عضلاتك، وانتصرت لواحد من بني قومك فدفعت القبطي، الذي أراد التسلط عليه، دفعة مات منها. وقد أصابك الغم، ونجيناك من القصاص، وإن كنا فتناك بتلك الفعلة. بما أصابك من غم، وبمفارقتك لأسرتك وقومك، ومكثك عشر سنين مختفيا من فرعون. وفي تلك السنوات العشر التي قضيتها مع شعيب ﷺ ، تعمق في نفسك سلوك النبوة وطهارتها، ثم بعد ذلك أتيت إلى الطور في وقت قدرته تقديرا لا مجال للمصادفة فيه، وقد كنت أراعي تقلبك في كل فترة من فترات حياتك لتكون مكونا على ما أريده لتتحمل عبء رسالتي.

بيان المعنى العام:

37←39: ولقد مننا عليك مرة أخرى...ولتصنع على عيني.

وبكل تأكيد كانت عنايتي بك قد صحبتك من يوم ولادتك، أذكرك بالمنة الأخرى التي مننت بها عليك وأنت في المهد، في ذلك الوقت أوحيت إلى أمك وحيا هاما، فركزتُ في عقلها اقتناعا يذهب عنها كل تردد في اتخاذ القرار الخطير: الإسراع بوضعك في الصندوق بلا تردد. ثم إلقاء ذلك الصندوق في نهر النيل. وصدر الأمر التكويني منا أن يحمله الوادي إلى شاطئ معين ولا يذهب به إلى غيره. وسيأخذه من هناك عدو لي فرعون الذي جاهر بدعوى الألوهية، والذي هو عدو لك لو علم أنك من بني إسرائيل الذين عزم على قتل ما يولد لهم من الذكور، وسيكون عدوا لك أيضا عندما تعرض عليه رسالتك . ومن كمال المنة أني جعلت فيك جاذبية فمن رآك أحبك، هي محبة حلت عليه من عجيب صنع الله؛ على خلاف الشأن في تولد المحبة عن مخالطة وإعجاب أو انتفاع. ولذلك فبمجرد ما وقعت عين امرأة فرعون عليك أحبتك، وأقنعتْ زوجها بأن تكون مرعيا في قصره. وتولدت في نفسها الآمال أن تكون خير عون لهما. وكل ذلك من تصاريف القدر المساعد المصاحب لك من أول أمرك في الحياة.

40←41: إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم...واصطنعتك لنفسي.

واذكر إذ مننت عليك أيضا فجعلتك تنمو وتربى بعنايتي، وأنا أراك وأرعاك. وتفصيل ذلك أن أختك عرضت على الموكَّلين بك من قَوَمَةِ فرعون لما لم تقبل التقام أي ثدي قدم لك، عرضتْ عليهم أن تدلهم على بيت صالح يرعاه ويقوم على تربيته في أمد رضاعه، فاستجابوا، وعدت بصنع عجيب منا بعد زمن قليل إلى حجر أمك. فقرّت عينها بالنظر إليك في حجرها، ولا أبعد حنانا من عين الأم عندما تضم وليدها إلى صدرها، وانتفى الحزن الذي كان يعصر على قلبها، خوفا عليك من ضياعك في النهر أو غرقك. فإذا أنت سالم معافى في بيتها.

ومنة ثالثة انضافت إلى المنة الأولى التي هي إنجاؤك من شرطة فرعون الذين يأخذون كل مولود ذكر قسرا ليقتلوه فأقنعنا أمك بوضعك في الصندوق ثم إلقائك في النهر، وإلى المنة الثانية وهي أنك سلمت من الضياع أو الغرق وعدت عن قرب لأمك. أما المنة الثالثة، فهي أن موسى قتل قبطيا من قوم فرعون، اختصم مع إسرائيلي وكاد يبطش به، فاستغاث الإسرائيلي بموسى فوكزه موسى وكزة قتلته. وقد تجمع أمران يعرضان موسى للقتل، أحدهما أن موسى قاتل عمدا، والقاتل يقتل، وثانيهما ظروف التشديد إذ المقتول قبطي من قوم فرعون، وموسى إسرائيلي.

أدرك موسى بعد موت القبطـي الوضـع الصـعب الـذي هـو فيـه، واغـتم لعلمـه أن فرعون لا يمكن أن يتسامح فـي تعـدي إسـرائيلي علـى قبطـي، والمنزلـة الاجتماعيـة للأقباط أفضل من منزلة الإسرائيليين. وأنه سـيقتص منـه لامحالـة. ويُـذكّر الله موسـى أن القتل فظيع ،وأنه سبحانه لم يهدر دم القتيـل فهـي نفـس محترمـة ،وأن القتـل كـان سببا لفتنته فتونا، فابتُلي موسى بخروجه من بلده، وبعـده عـن عائلتـه وقومـه، وتحـرك ضميره المؤنب، وكـان وجـلا مـن أن يلحقـه الطلـب بالـدم، واجتهـد لطلـب العفـو والمغفرة من الله، ووالى ابتهالاته لينجو، ومكث يرعى غـنم شـعيب عشـر سـنين .فهـذا بعض ما يشير إليه قوله تعالى: **وفتناك فتونا**.

بقي موسى يخدم شعيبا عشر سنوات في مـدين. وهـو اسـم أحـد أبنـاء إبـراهيم عليه السلام. سكنت ذريته في مواطن تسمى الأيكة على شاطئ البحـر الأحمـر. وغلـب اسـم القبيلـة على الأرض وصار علما للمكان.

رعيناك في أطوار حياتك، وتوالت ألطافنا بك، كما أفـاده قولـه: تعـالى **ولتصـنع علـى عينـي**، وتم ذلك التكوين الروحي بمخالطتـه لسـيدنا شـعيب العشـر سـنوات الأخيـرة، فبلغ موسى بذلك المستوى الذي أهّلهُ ليتلقـى الـوحي، ويكلـف بالرسـالة. فكـان قدومـه إلى الطور مرتبا مقدرا لا مصادفة فيه .وتأكيدا لما سبق فـي تعـداد المـنن ختمهـا بـأن الله صنعه صنعا متقنا، كما هو شأن من يعد شيئا لذاته ، فهـو يبـذل فيـه كمـال العنايـة. واصطنعتك لنفسي.

ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا تنيا : لا تضعفا.

القول اللين : القول الذي يغلب عليه الترغيب.

يتذكر : ينظر نظر المتبصر.

يفرط : يعجل بمكروه فينا قبل تبليغه.
يطغى: يستكبر فيعاملنا بالتحقير والإهانة.

بيان المعنى الإجمالي:

توجهْ مع أخيك إلى فرعون، وكونا واثقين من أنفسكما لا تضعفا ولا يخالطْكما تردد في التبليغ. وإياكما أن يبلغ بكما الوثوق بالنفس حد الغلظة، بل لتكن دعوتكما له باللين والكلام السمح غير المنفر؛ فرجاؤكما في التأثير عليه مع اللين أقرب للتحقق، فربما يتبين له الحق فيقبله، وربما يحصل له الخوف من العناد فيطيع.
خاف موسى وأخوه لما يعلمان من استكبار فرعون، وأنه يسرع إلى إنزال العقوبة الشديدة بهما قبل أن يتأمل أو يحاور، أو أن يحتقرهما ويتجرأ على الخالق.
طمأنهما ربهما ، أن فرعون لا يفعل بهما ما دار في خاطرهما، فلا يخافا وليمضيا إليه، فإن الله مسندهما يسمع ويرى ما يحصل من فرعون، فيحُول بينه وبين ما تخوفا منه.
ودلهما على الطريقة التي لا تهيج غضبه ، وليكن خطابكما له على النحو التالي: قولا له أولا: إنا رسولان من عند ربك الذي لطف بك من صغرك إلى أن تمكنت من ملك مصر؛ وثانيا: إنك مطالب بأن تمكننا من بني إسرائيل فلا تحول بينهم وبين الخروج معنا، وارفع العذاب عنهم . قد أيدنا ربنا بمعجزة منه تقصر قدرات البشر جميعهم على فعل مثلها. وإن الله ينزل السلام والأمن على من لم يستكبر واتبعَ الهدى البين. ومن نا حية أخرى فإن الله أوحى إلينا أنه يسلط عذابه على من كذب بالحق الذي جاءه وأعرض عن قبوله .

بيان المعنى العام :

42- اذهب أنت واخوك بآياتي ولا تنيا في ذكري.

تم إعداد موسى عليه السلام لتحمل الرسالة، بما ملأ عقله وروحه من خطاب الله له وفي حضرته. وقوى إرادته بما ذكره به من النعم التي توالت عليه من يوم ولادته إلى خروجه إلى مدين ، وسما في أدبه بمعاشرته لشعيب عليه السلام ، وعيشه في بيت النبوة عيشا انتهى بالمصاهرة. وتأيد بإخبار الله إياه أنه قبل دعاءه وقواه بأخيه هارون. أصبح الجو ملائما لتحمل المهمة التي أعده الله لها، وقد صنعه على عينه. ولذلك خاطبه بقوله: اذهب أنت وأخوك مصحوبين بالآيات البينة التي جربتها أمامي، وعلمت أسرارها. وحذرهما أن يدخل الريب أو الضعف في قلبيهما، فليكن شعورهما بالقوة الباعثة على مواصلة المهمة موفورا، مهما اعترضهما من صعاب

43-اذهبا إلى فرعون إنه طغى.

يصح أن تكون هذه الآية توجه بها الله إلـى موسـى وهـارون بعـد أن خـرج موسـى إلى مصر ولقي أخاه، وأعلمه بما كلفا بـه، وأن الله خاطبهمـا إثـر ذلـك وهمـا معـا. ويصح أن يكون الخطاب موجها عند الطور إلـى موسـى، بـأن يكـون الله أمـر موسـى الذي هو مطلوب منه أن يأمر أخاه عندما يلتقي به.

و لكي يكونا على بينة مـن مهمتهمـا علـل سـب توجيههمـا لفرعـون، بأنـه تجـاوز الحدود، فليعملا على أن يقلع عن طغيانه.

44- فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى.

المهمة واضحة، والمقصود بالإصلاح: فرعون الطاغيـة ؛ ولنجاحهمـا فـي المهمـة قـدم لها بأن عليهمـا أن لا يضـعفا، وأن لا يبعثهمـا اعتقـاد كونهمـا علـى صـواب يقينـا والمبعوث إليه على خطأ يقينا، وأنهما مؤيـدان مـن الله، لا يحملهمـا ذلـك علـى الشـدة والإغلاظ ، والعنف والقوة ، بل عليهما أن يلينا فـي عرضـهما بعيـدا عـن الاسـتفزاز. بصفة يكونان معها على رجاء أن يسمع كلامهما ويتأملـه متـدبرا فيـه، أو أن تحـل فـي قلبه الخشية والخوف من الله فينصاع وتذهب كبرياؤه ويقبل ما يعرض عليه.

إنه المنهج في الدعوة إلى الله، يجمع الداعية:

أولا: بين الإيمان الذي لا يداخله شك أنه يدعو إلى الحق.

ثانيا: شكره لله أن وفقه للقيام بالدعوة إلى دينه.

ثالثا : أن يخفض جناحه للمدعو ولا يغلظ له ولا يظهر له أنـه علـى خطـأ سـيقوده إلـى النار وغضب الجبار ،بل يفسح له الأمل في التوبة والعفو وحسن المآل.

45- قالا ربنا إننا نخاف....أو أن يطغى.

عزم موسى وأخوه على القيام بما كلِّفا به، ومن شأن القائم الرشيد بالمهمة أن يقدّر كل العواقب التي يمكن أن تعوقه عن بلوغ النجاح. كانا يعلمان ظلم فرعون واستبداده، وتكبره، فخشيا أن يخيبا في مهمتهما، فتوجها إلى الله بعرض ما خامرهما : ربنا إننا نخاف أن يكون رد فرعون بمجرد ما نقدم عليه، ما عرف به من العجلة والاستخفاف بالأرواح فيأمر بقتلنا، أو بتسليط العقاب الشديد علينا قبل أن يسمع منا ،أو أن يتكبر فيحتقرنا ويهيننا، أو يتجرأ باستنقاص ذاتك العلية. ومؤدى كلامهما طب التأييد في الموقف الصعب.

46- قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى.

خاطبهما الله بما ينفي الاحتمالات التي سببت لهما الخـوف مـن فرعـون: لا تخافـا مـن عجلته ولا من طغيانه، فإني حافظكما مؤيد لكمـا ، أتابعكمـا متابعـة دقيقـة فـلا يـذهب

عني أي حدث، إني أرى وأسمع كل ما سيحدث وأنتما بحضـــرته. ممـــا يـــدل علـــى أنـــه لا يحدث أي شيء مما توقعاه .
أولا: عرّفاه بمنزلتكما، وأنكما ما قدمتما عليـــه باجتهـــاد، بـــل قـــولا لـــه قـــولا واضـــحا: نحن رسولان من ربك الذي تقلبت في رعايته وأعطـــاك مـــا أعطـــاك ومكنـــك مـــن ملـــك مصر

47- فأتياه فقولا إنا رسولا...والسلام على من اتبع الهدى.

تقدَّما وادخلا عليه واثقيْن، وقولا له قولا واضحا لا لـــبس فيـــه: نحـــن مـــا قـــدمنا عليـــك باجتهاد منا، ولكنا مبعوثان من ربك الـــذي تـــولاك مـــن صـــغرك إلـــى أن بلغـــت ملـــك مصر. إنا نطلب منك أن تمكننـــا مـــن بنـــي إســـرائيل فترسـلهم معنـــا، وترفـــع عـــنهم التسخير المعذِّب، إذ كان فرعون يكلفهم بالأعمـــال الشـــاقة مـــع الإهانـــة ويعتبـــرهم فـــي درجة إنسانية أحط من القبط ؛ وأمعن في ذلك باتخـــاذه قـــرار ذبـــح ذكـــرانهم واســـتحياء نسائهم. ونثبت لك أنا مبعوثان مـــن ربـــك باســـتعدادنا أن نعـــرض عليـــك معجـــزة مـــن صنع ربك، تقصر القدرة البشرية على الإتيان بها.
وختما رسالتهما مقدمين البشارة علـــى الإنـــذار فقـــولا لـــه: إن الأمـــن ثابـــت والإكـــرام محقق متمكن ممن اتبع طريق الهدى. ممـــا يـــومئ إلـــى أن الأفضـــل لفرعـــون أن يتبـــع الهدى ولا يستكبر عن قبول الحق. وموسى عليه السلام مكلف بأمرين:
أولهما: الدعوة إلى التوحيد، وهي دعوة عامة لا يجـــوز لـــه أن يـــرى مشـــركا ولا يهديـــه لعبادة الله الواحد الأحد. وهذا من أول مـــا خوطـــب بـــه: إننـــي أنـــا الله لا إلـــه إلا أنـــا-
ثانيهما : أن يخلي بينه وبين بني إســـرائيل ليبـــين لهـــم الشـــريعة التـــي تضـــبط حقـــوق الخالق في طريقة التقرب إليـــه بالعبـــادة، وحقـــوق المخلـــوق وواجباتـــه فـــي العلاقـــات البشرية من أسرة وتعامل مالي وأخلاق، مما يكـــون أمـــة تكـــون علاقاتهـــا بصـــفة عامـــة معلومة وبينة واضحة.

48- إنا قد أوحي إلينا أن العذاب على من كذب وتولى.

واصلا إبلاغ الرسالة بإنذاره. فبعد أن فســـح الله لـــه بـــاب البشـــارة بـــأن الســـلام يحـــل على من اتبع الهدى ولم يستكبر عن الحق، أبلغـــاه الإنـــذار أن العـــذاب سيســـتحوذ علـــى من كذب دعوة الرسل وأعرض عن قبول ما هدي إليـــه. وإلـــى هنـــا تـــم الـــوحي الـــذي أوحى الله به لموسى وهارون.
و طوي ما يفهم من المقام أنهما قاما بالمهمة، ودخـــلا علـــى فرعـــون وأبلغـــاه مـــا كلفـــا بإبلاغه. ولذا فستعرض القصة ما أجاب به فرعون بعد أن سمع رسالة ربه.

قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ
﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَـٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ
رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

خلقه : خصائصه الذاتية التي بها يتميز عن غيره.

ما بال : ما هو حال.

القرون الأولى : من مضى من أهل مصر الذين كانوا يعتقدون في ألوهية فرعون.

مهادا : ميسرة للسير فيها.

سلك لكم فيها سبلا: جعل لكم فيها طرقا تصل بكم إلى مقاصدكم.

أشتاتا: أنواعا متباعدة في الشكل واللون وأنواع الانتفاع.

النهى : جمع نهية وهي العقل، لأنه قوة تنهى الإنسان عن فساد في الفعل والتفكير.

بيان المعنى الإجمالي :

كان سؤال فرعون بعد أن أتما العرض، من هو ربكما الذي تدعونا لتنفيذ أمره؟ أجاب موسى: ربنا هو الذي أعطى لكل كائن خصائصه التركيبية التي بها يتميز، ثم ضبط له القوانين التي يسير عليها ليبلغ غاية مداه. وهو جواب لا يستطيع فرعون المجادلة فيه، فهو يعلم من نفسه أنه ما خلق أي شيء ولا سيره. فحوّل فرعون السؤال بطريقة خبيثة يترتب عنها إلزام يضعف موقفهما في ظنه. سألهما: ما هي أحوال من مات من آبائنا الذين ما كانوا على دينك الذي تدعو إليه ؟ أُلهِمَ موسى جوابا يقمع تشغيبه، فقال: علم مصيرهم عند ربي ، موثق لا يضيع منه شيء ، فربنا لا تختلط عليه الأمور، بل كل كائن مميز عمله ومصيره، كما أن ربنا لا يغفل عن أي فعل من الأفعال، على معنى أن كل مكلف سيجد كل أعماله موثقة، وسيجزى عنها.

من شأن القرآن أنه يدمج كلما وجدت المناسبة ما يوقظ العقول لتنتبه إلى الأدلة المبثوثة في الكون لتتأمل فيها بما يثبت الحق في نفوسهم. فالأرض التي نحيا على ظهرها قد يسر الخالق لنا العيش عليها فمهدها كما يمهد الفراش، ويسر السير فيها والانتقال بين أرجائها، فنشر فيها طرقا، وأعاننا على تمهيد طرق أخرى تتصل

بواسطتها البشرية ببعضـــها. وربـــط بـــين الســـماء والأرض فـــأنزل مـــن الســـماء مـــاء بتفاعل، فمكّن النبات من الحياة وطـــوع الأرض لتتشـــق لـــه وتســـاعده علـــى النمـــو، وإذا هي أنواع مختلفة الألوان متعددة الأشكال، منها ما هو للبشـــر، ومنهـــا مـــا هـــو للأنعـــام، ومنها ما هو للزينة والجمال. وامتن بالإذن بالانتفـــاع بمـــا أخرجتـــه الأرض نأكـــل منـــه، وتسرح فيه أنعامنا، ثم يتحول مـــا تأكلـــه الأنعـــام لحومـــا وألبانـــا تـــدخل فـــي طعامنـــا، وأصوافا ووبرا للباسنا، وجلودا تمكـــن مـــن أغـــراض عديـــدة. إن فـــي ذلـــك كلـــه أدلـــة لأصحاب العقول التي تتجاوز الظواهر إلـــى مـــا وراءهـــا، تقـــوم شـــاهدا علـــى القـــدرة والحكمة.

بيان المعنى العام :

49: قال فمن ربكما يا موسى.

بمجرد ما أتما عرض ما أمرهما الله بعرضـــه علـــى فرعـــون، ودعوتـــه ليســـتجيب لمـــا طلبا منه، توجه فرعون بالخطاب لهما أولا: مـــن ربكمـــا؟ وصـــيغة الســـؤال تـــدل علـــى رفضه الاعتراف بالربوبية لله. وانتهى بالإقبـــال علـــى موســـى فنـــاداه: ياموســـى -وقـــد تقدم لنا في سورة الأعراف أن فرعون عرف أن الـــذي أوتـــي الآيـــة وهـــو قـــادر علـــى إظهارها هو موسى وقال له:(**إن كنت جئت بآية فات بها**)[1].

50- قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

أجاب موسى عليه السلام ربنا الذي ندعوك للانصياع لمـــا يطلبـــه منـــك، وهـــو الـــذي أرســـلنا إليك، هو الذي أحكم خَلْقَ الأشياء فكل جزئية من أجـــزاء التكـــوين فـــي الكـــون أعطاهـــا خصائصها بحكمته، فلا تجد في الخلق إلا التكامل الـــدال علـــى العلـــم الشـــامل والـــدقيق، ثم إنه بحكمته أعطى لكل كائن الطريق الذي يسير عليه ليتطـــور تطـــورا يحقـــق مـــا هـــو مؤهل له. فما يتكون منه كل كائن مقدر ومنفذ حسب التقـــدير، ثـــم يتبـــع كـــل كـــائن بعـــد إيجاده قوانين الحياة العامة والخاصة المضبوطة بتقدير العزيز العليم.

51-قال فما بال القرون الأولى.

ما كان فرعون مستعدا لاتباع ما جاءا بـــه، فانتقـــل مـــن المحـــاورة التـــي تهـــدف إلـــى معرفة الحق من الضلال، والصواب من الخطأ، إلـــى التشـــغيب والإلـــزام الـــذي يســـتغله ليثير عليه الرأي العام. فقال له: مـــا بـــال القـــرون الأولـــى؟ أخبرنـــي ياموســـى عـــن وضعية الذين سبقوا وعاشـــوا علـــى اعتقـــاد أن فرعـــون رب مصـــر. مـــا مصـــيرهم؟ أتقول: إنهم كانوا على ضلال، وخسروا عاقبتهم باطمئنـــانهم علـــى عقيـــدتهم، وهـــم فـــي

[1] سورة الاعراف آية 106

العذاب لقولك: إن العذاب على مـــن كـــذب وتـــولى ؟ وهـــذا مـــا يثيـــر حفيظـــة أبنـــائهم فيتألبون على موسى وأخيه ويكونون عليـــه ضـــدا. أو تقـــول: إنهـــم نـــاجون . وإذا كـــان الأمر كذلك فلا فارق بينهم وبين فرعون، فهم على ملـــة وطريقـــة واحـــدة. فأســـقط بهـــذا السؤال حسب ظنه رسالة موسى وأخيه.

52- قال علمها عند ربي....ولا ينسى.

ألقى الله الحكمة على لسان موسى، فكـــان جوابـــه : الله أعلـــم بمـــا صـــاروا إليـــه، فـــإني ما جئت لتحاورني في أمر الماضـــين، وإنمـــا أطلـــب منـــك موقفـــك مـــن الحـــق ، ودَعْ أحوال القرون الأولى؛ فإن معرفة أحوالهم ومـــا صـــاروا إليـــه موثّـــق عنـــد ربـــي فـــي كتاب ،شأنهم شأنَ الأمر الذي يعنى به حتى لا يتغير، أنـــه يوثـــق كتابـــة لتكـــون الوثيقـــة المكتوبة المرجع الثابت. إن ربي لا يلحق علمه خطـــأ، فكـــل فـــرد سِـــجِله منفـــرد غيـــر مختلط بغيره، كما أنه شامل لكل ما صدر عنه، فلا يطوي النسيان أي شيء.

53-الذي جعل لكم الأرض مهادا....من نبات شتى.

يدمج القرآن بمناسبة طلب فرعـــون تحديـــد مفهـــوم الألوهيـــة عنـــد موســـى، مـــا يبـــين القدرة الإلهية وحسن التقدير للأمور.

أولا :التقدير الإلهي المحكـــم الـــرابط بـــين الإنســـان والأرض، فيثبـــت أن خلـــق الأرض راعى فيه سبحانه تيسير إعمارهـــا علـــى الإنســـان، فســـهلها للســـير فيهـــا والتنقـــل بـــين أرجائها. كل أجزائها متقاربـــة، فتســـتطيع العائلـــة البشـــرية أن تتبـــادل فيمـــا بينهـــا مـــا يُمكنها من الاستخلاف الأرشد .ولا تجد صعوبة في الحياة على سطحها.

إن طرق الأرض بعضها مهيـــأ فـــي خلـــق الله لـــه وتكوينـــه، وبعضـــها هـــدي الإنســـان لتعبيده، والكل يحقق الهدف الذي ذكرناه.

ثانيا: أن الله ربط بين السماء والأرض، ومن ذلك إنزاله من السماء ماء، طوع به النبات للحياة بماء السماء، وطوع الأرض لتمكن النبات من الظهور. واصل المنة ومظاهر القدرة: أن الله أخرج بالماء الواحد النازل من السماء ومن الأرض في مكان واحد أو أمكنة متعددة، أنواعا كثيرة من النبات، مختلفة في ألوانها وأشكالها ومنافعها.

54-كلوا وارعوا أنعامكم... النهى.

إذْنٌ في الانتفاع بما خلق، وإظهار للمنة بإباحة الانتفـــاع ، وإيقـــاظ للنـــاس بـــأن يتفكـــروا في القدرة والحكمة والمنة، ليحصل لهم بذلك أدلة واضـــحة علـــى ذلـــك كلـــه، فـــلا شـــك أن العقل الفقيه يتجاوز الظاهرة المحسوسة إلى مـــا وراءهـــا، الأمـــر الـــذي بـــه يســـمو الإنسان عن الحيوان .

۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ
ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ
﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ
مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

تارة : مرة.

موعدا : وعدا لازما في المقابلة زمانا ومكانا.

سوى : لا يبعد عنا وعنك، أو على أرض مستوية يمكن للناس مشاهدة ما يحدث.

الضحى : وقت ارتفاع الشمس.

بيان المعنى الإجمالي :

سيخرج الله الإنسان من الأرض بعد موته كما أخرج النبات من الأرض، وهو بين المرحلتين الخلق الأول والبعث تحتضنه الأرض .

ثم والى القرآن عرض ما وقع لموسى مع فرعون فذكر أن فرعون استكبر عن قبول الحق وكذب موسى رغم مشاهدته الحسية للآيات التسع التي لا تتأتى للإنسان. وقال له وهو بين الحذر منه وبين التحدي له: أنت ما جئت يا موسى إلا طلبا لتحل محلنا في ملك مصر، واعتمدت على السحر لتوهم الناس بسحرك أنك مقتدر على ما يقدر عليه الناس، فسنبطل دعواك ونأتيك بسحرة لهم مثل قدراتك السحرية، لينكشف أمرك للناس. فاختر موعدا: مكانا وزمانا، نلتزم به جميعا ولا يثقل الإتيان فيه على أي منا.

اختار موسى أن يكون الموعد يوم الزينة الذي يحتفل به أهل مصر، ويحضرون في مكان معين بأفخر لباسهم. وحدد أن يكون الاجتماع في وقت الضحى الذي تسطع فيه الشمس وقبل اشتداد حر الظهيرة.

بيان المعنى العام :

55- منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى.

نبهت الآية السابقة إلى ما في عجائب التصرف الإلهي في الأرض من تمهيدها إلى انفلاق الحب في باطنها، إلى خروجه نباتا متنوعا. أردفت هذه الآية مرتبة أسمى في التقدير، فذكرت أن الله خلق الإنسان من الأرض، كما جاء في خلق آدم: من طين. ثم إن نموه وتطوره مرتبط بغذائه المستمد من الأرض أيضا. فتواصل الخلق

الأول إلى الخلق المتوالي في جميع مراحل الحيــاة. وفــي الأرض يــدفن الإنســان ليعــود إلى حضنها بعد أن خرج منها. ولذا كانــت الفطــرة قاضــية بــأن يــدفن الإنســان فــي الأرض ، لا أن يحرق ويوضع رماده في قــارورة أو يــذرى فــي البريــة أو الأنهــار أو البحر ، أو يوضع في صناديق من رخــام أو غيــره فــوق الأرض، كــل ذلــك مخــالف للفطرة ولما هدت إليه الشريعة الإســلامية. وعــودة الإنســان إلــى الأرض هــي عــودة إلى أمد ليخرجه الله من بطنها مرة أخرى. (**كمــا بــدأنا أول خلــق نعيــده وعــدا علينــا إنا كنا فاعلين**)[1].

56-ولقد أريناه آيتنا كلّها فكذب وأبى.

بعد أن أيقظت الآيات الــثلاث 55/54/53- الفكــر للتأمــل فــي العجائــب الدالــة علــى القدرة والحكمة الإلهية في تصرفه فــي الكــون، واصــل القــرآن عــرض مــا تــم بــين موسى وفرعون. فاستأنفه بالتأكيد على تصلب فرعــون فــي كفــره، وقــوة عنــاده. فقــد عرض عليه موسى المعجزات التي أيده الله بها، أبصــرها ونظــر فيهــا، فكــذب موســى فيما دعاه إليه، وأبى الاعتراف بأن الله هو الخــالق الواحــد المالــك للكــون كلــه، تمســكا بالتسلط على قومه بوصف الألوهية. كلما عرض عليه موســى آيــة مــن الآيــات التســع (**ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات**)[2]

57←58- قال أجئتنا لتخرجنا....ولا أنت مكانا سوى .

سجل القرآن رد فرعون على ما شاهده من الآيــات الأولــى، هــذا الــرد المنبعــث مــن الحذر والتحدي.

أولا: بدا فرعون حذرا من موسى، إذ أول ما رد به أن الآيات سحر. قصدُه الوحيد أن يزيل ملك فرعون، وأن يحل مكانه كشأن الانتفاضات التي يرمي القائمون بها إلى الحلول محل صاحب السلطة. وكأنه يهدده بندائه: يا موسى ، يقول: أَفِقْ من هذا الذي تخيلته يؤثر في الجماهير، فبكل تأكيد سنرد عليك ما يمزق الشِبَاك التي نصبتها من السحر لتغر الناس، بما نأتيك به من السحرة الذين يساوونك في إحكام صناعة السحر. وإني أعرض عليك أن تحدد موعدا نلتزم به مكانا وزمانا. نعرفه نحن وأنت، وعلى بعد لا يثقل على أحدنا، أرضه مستوية منكشفا للناظرين لا يحجب أحد عن متابعة ما تعرضه، وما يعرضه سحرتنا.

---

[1] سورة الأنبياء 104

[2] سورة الإسراء آية101

59-قال موعدكم ....وأن يحشر الناس ضحى.

أجابه موسى في وثوق: الموعد سيكون يوم الزينة، فعين المكان الذي يجتمع فيه الناس عادة، والمعروف عندهم بيوم الزينة، ويفهم من لقبه أنه يوم يحتفل به المصريون ويلبسون أجمل ثيابهم ويجتمعون في مكان معين. قيل هو ساحة قصر فرعون. ويوم الزينة ضبط للزمان مع المكان، إذ هو اليوم السابق لفصل الخريف الذي يمتلئ فيه النيل، فينساب الماء في الترع التي تذهب بعيدا عن مجراه، فيزرعون بعد الري الواصل . وقد حدده الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور باليوم الخامس عشر من تشرين (سبتمبر) اقترح أن يكون الاجتماع وقت الضحى الذي يتم فيه إشراق الشمس، وقبل اشتداد حر الظهيرة. وفي قول موسى: وأن يحشر الناس، إيماء إلى رغبته في حضور أكثر عدد ممكن ممن يشهدون على ما يقدّمه.

فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

تولى : انصرف.
كيده : التدبير الذي يخفيه ويظن أنه يغلب به موسى.
الويل : اسم للعذاب والشر.
الافتراء : اختلاق الكذب .
فيسحتكم : يستأصلكم .
تنازعوا : تخالفوا في الرأي، ويعمل كل فريق على جذب الآخر لرأيه.
أسروا النجوى : أخفوا الحديث الدائر بينهم في تكتم.
طريقتكم المثلى : ما أنتم عليه ،وهو الأفضل والأكثر خيرا .
أجمعوا أمركم : كونوا متعاونين متفقين على رأي واحد.
صفا : مرتبين الواحد بجانب الآخر .
استعلى : حقق علوه وغلبته.
تنازعوا : تخالفوا في الرأي مع عمل كل صاحب رأي على إقناع الطرف الآخر.

النجوى : الحديث غير المعلن.

طريقتكم المثلى : سيرتكم الفضلى.

أفلح : ظفر وفاز

استعلى : غلب وظهرت مكانته العالية.

بيان المعنى الإجمالي :

بمجرد ما عرض موسى الموعد، أخذ فرعون يدبر المكائد التي يستطيع بها في ظنه أن يقمع موسى ويتغلب عليه، وأمضى زمنا في ذلك حتى جاء الموعد فحضر ومعه سحرته وشعبه. بمجرد ما رآهم موسى توجه إلى الجميع بصوت أسمعهم محذرا، يا عذابكم وأي شر سيحل بكم !لا تكذبوا على الله بتصديق فرعون في ادعائه الألوهية، ولا تظنوا أن السحر يوازي الآيات التي أسعدني الله بها ، احذروا أن يستأصلكم الله بعذابه ، فإنه قد جرت سنته في الخليقة أن كل من كذب على الله مآله الخيبة .

ارتج السحرة من تهديد موسى عليه السلام ، وانحازوا يتدبرون الأمر في خفية حتى لا يطلع أحد على ما دبروه، وتكون كلمتهم واحدة فيما قرروه.

بعد تقليب الأمر انتهوا إلى أن الأمر خطير جدا، فموسى يريد أن يستولي على الجماهير، ويبطل من ناحية أخرى مكانة السحرة، ومنهجهم الطاغي في الحياة. ولذا فإن الأزمة تدعو إلى تجميع كل طاقاتهم الكيدية، ويعدوا تصورا عمليا واحدا، وينظموا أنفسهم صفوفا يأتون إلى موعد اللقاء تعلوهم المهابة. فإن هذا اليوم يوم فاصل، بين مهزوم لا حظ له في المستقبل وبين منتصر يحقق الظفر والنجاح.

بيان المعنى العام :

60- فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى.

عقِبَ قبول موسى للتحدي وضربه الموعد، أسرع فرعون بإعداد العدة للتغلب على موسى، فدبر من المكائد التي يظن أنها تخفَى على موسى وتشوش عليه أمره وتفضحه أمام النظارة، ليقتلع ما انتشر في الرعية من المستوى الرفيع لموسى وقدراته العجيبة. وأمضى في إعداد مكره زمنا، ولما وثق من أمره، جاء للموعد ومعه السحرة، واجتمعت الجموع الحاشدة لتحضر هذا المشهد. وكل فرد يعتلج في نفسه سؤالا : ما هي النتيجة؟

61-قال لهم موسى ويلكم ...وقد خاب من افترى.

رأى من تصميم السحرة على المناظرة، أنهم واثقون من أن إلههم فرعون لا يمكن أن يغلب، وأن موسى وما أتى به شعوذة ستنهار أمام سحرهم العظيم، الذي بلغوا

فيه الغاية بعد تمرسهم بــه الســنين الطويلــة. فنــادى موســى بصــوت أســمع الســحرة والجموع الحاشدة ، لمَّا رأى منكرا تمالأ عليــه الحاضــرون جمــيعهم . يــا ويلكــم، وأي شر سيلحق بكم مما أنتم مصممون عليه من رفــض الــدعوة إلـــى الله، ومواصــلة العنــاد والإيمان بفرعون، وتصوركم التكافؤ بين الآيات الإلهية وبين الشعوذة والسحر.

إن الله سيستأصلكم بعذاب عظيم يسحقكم ســحقا. هــذه ســنته التــي جــرت مــع الأمــم الماضية: كل من افترى على الله كــذبا يمهلــه ولا يهملــه، وســيلحقه العــذاب لا محالــة. فثُوبُوا إلى رشدكم قبل فوات الأوان.

62- فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى.

كان لتهديد موسى ﷺ أثر في إرباك السحرة، إذ هو تــابع مــن الحــق ، وصــادر عــن خالص الحق لا عن أوهام، فارتجوا إثر ســماعه، وتشــاوروا فيمــا بيــنهم ، فتضــاربت آراؤهم وتنازعوا في الموقف الذي ينبغــي اتخــاذه، وحرصــوا أن يُسِــرُّوا فــي تــدبيرهم ولا يعلنوه ، حتى يكون ما ينتهــون إليــه صــادرا عــن إجمــاع محفوظــةٌ أســرارُه، ولا يطلع أحد على ما هو خفي من عُوَاره .

63←64: قالوا إن هذان لساحران.... وقد أفلح اليوم من استعلى.

انتهى بهم تقليب النظر إلى الاتفاق على التصور الآتي :

1)إن موسى وأخاه ساحران لا حقيقــة لمــا يدعيانــه، فصــناعتهما مــن نفــس الصــناعة السحرية التي يعتقدون أنهم أشد حذقا لها. وقد وقف المفســرون فــي إثبــات الألــف فــي قولــه تعــالى: **إن هــذان**. ومــن أفضــل التوجيهــات أن تكــون [إن] ليســت الناســخة لإعراب المبتدأ والخبر بل هي بمعنى:[نعــم] أي نعــم همــا لســاحران. وتأيــدوا بشــعر عبد الله بن قيس الرقيات :

و يقلن (أي الغواني) شيب قد علا *** كَ وقد كبِرت فقلت إنَّهْ – أي نعم

كما خرج على أن هذه القراءة جرت على لغــة كنانــة وبنــي الحــرث بــن كعــب ممــن يلزم المثنى الألف – رفعا ونصبا وجرا.

و مما رجح في نظري ذلك مراعاة التوافق بين جرس اللفظ والمعنى، فإن السحرة يريدون الإشارة مع امتداد الصوت المعبر عن خطرهما، فلو عبر بهذين لانكسر الصوت، ولم يتفق المعنى الحاصل في النفس مع جرس الكلمة. ولضاعت هذه المزية التعبيرية .

1) إنهما لا يقصدان إلا أمرا واحــدا، وهــو أن يــؤثرا فــي الجمــاهير ليســتوليا علــيهم، ويتحكما فيهم ، ويتوصلا من ســحرهما إلــى إبطــال مكانــة الســحرة ، ووثــوق النــاس بقدراتهم . فخطرهما مزدوج، على ســيادة فرعــون، وعلــى حظــوظ الســحرة أيضــا.

وأن المآل خطير، فما ســرنا عليــه مــن الطريقــة المثلــى الحســنة الجيــدة ، ســيتحطم وسيقضيان عليه بما قدماه .

دعا بعضهم بعضا بأن تكون عزيمتهم على دحض ما جــاء بــه موســى عزيمــة ماضــية لا تردد فيها. كما يمكن أنه دعا بعضهم بعضــا ليضــموا جهــودهم ومعــارفهم الســحرية، ويواجهوا بها موسى وأخاه. فقد أخذوا أنفسهم بالجد، وفي الاتحاد قوة.

2) أن يقدموا فــي صــورة ظاهرهــا المهابــة والقــوة، ينطلقــون إلــى مكــان العــرض منظمــين مصــطفّين، كمــا تجــري عليــه اليــوم الاستعراضــات العســكرية، يــأتي المشاركون في الاستعراض صفوفا منتظمــة، ممــا يزيــد فــي مهابــة الجــيش وإظهــار قوته .

3) صرحوا بأنه يوم فاصل، بين متغلب قــاهر للخصــم، ومهــزوم مقهــور لا قيمــة لــه في المستقبل، وقد أفلح اليوم من استعلى. فاز اليوم من كانت له الغلبة.

قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

أوجس : استشعر.

خيفة : خوفا.

تلقف : تبتلع.

بيان المعنى الإجمالي:

عرض السحرة على موسى أن تكون لــه الضــربة الأولــى، أو أن يتقــدموا بعــرض مــا أعدوه. كان جواب موسى: لكم البداية. فألقوا مــا أنــتم ملقــون. وكانــت المفاجــأة شــديدة إذ عرضوا على أعين النظارة ما هيــأوه مــن حبــال وعصــي ومــا ركبــوه فيهــا ومــا رتبوه، وتحركت الحبال والعصي حركة شديدة حتــى خيــل لموســى أنهــا ســرت فيهــا الحياة . وشعر بالخوف من المنظر المفزع ، وتــأثيره علــى النظــارة. ثبّتــه الله بقولــه لا تخف، فإنك أنت الغالب، وستحطم كل مــا أحكمــوا صــنعته، وألــق العصــا التــي فــي يمينك، تلك العصا التي شاهدت أسرارها في الطور، فســتبتلع كــل مــا صــنعوه وأعــدوه

من حبال وعصي وتقليبُها أثرا بعد عين. إن الـذي صـنعوه يـا موسـى حيـل لا حقيقـة لها، هي من السحر، والساحر خاسر مآله الخيبة في أي مكان كان .

بيان المعنى العام :

65-قالوا يا موسى ...أو أن نكون أول من ألقى.

أقبل السحرة وهم واثقون بأن مـا أعـدوه مـن السـحر سـحر عظـيم، امتزجـت فيـه تجاربهم ، فبادروا سيدنا موسى بتخييره بـين أن يبـدأوا بـالعرض، أو أن يتقـدم هـو . وفي ذلك إدلال بإحكامهم لما أعدوه ، وأنهم لا يخشون ما عنده .

66-قال بل ألقوا ...من سحرهم أنها تسعى.

أجابهم موسى: لكم ضربة البدايـة، حتـى يفـرغ مـا عنـدهم فيجهـز علـيهم بعـدها، ويبطل سحرهم ويظهر زيفهم. وأسرعوا عقـب كلامـه إلـى عـرض مـا أعـدوه. وقـد كانت المفاجـأة قويـة، الحبـال والعصـي التـي أحكمـوا اختيـار موادهـا، وطلاءهـا، وتركيبها، والنسب التي بينها، وأوضاعها من أشـعة الشـمس إذ الوقـت ضـحى، أخـذت تضطرب وتتحرك، وإذا المشهد كله حيات تتلمض وثعابين تتلوى.

67←68-فأوجس في نفسه ....ولا يفلح الساحر حيث أتى.

كان المشهد مؤثرا ومخيفا، حتى إن سـيدنا موسـى ارتـاع لمـا شـاهد ورأى، وإن بـدا ﷺ ، ثابتا لم يتجاوز الخوف أحاسيسه الباطنية، (في نفسـه خيفـة موسـى) وفـي هـذا المقام الحرج يُثَبِّته ربه فـيحس فـي نفسـه بـأن الله أودع الطمأنينـة فـي قلبـه، ورفـع هاجس الخوف، ويؤكد له أنه هو الأقدر في هـذا المشـهد: **لا تخـف إنـك أنـت الأعلـى**. ويأمره أن يُلْقِيَ ما في يمينه، وهي العصا التي أطلعـه الله علـى مـا فيهـا مـن أسـرار عند الطور ، ولهذا لم يقل له: وألق عصـاك، ليـذكِّره بخصائصـها التـي شـاهدها لمـا سأله : **وما تلك بيمينك يا موسى؟** ولـم يتركـه للتجربـة تُظْهِـر آثارهـا، فعرفـه قبـل إلقائها أنها ستلتهم كل تلك الحبال والعصـي التـي بلغـوا فـي صـنعها وترتيبهـا مبلغـا كبيرا من التمويه وإخفاء الحقيقة وإظهارهـا علـى نحـو بعيـد عـن واقعهـا. اعلـم يـا موسى أن الذي صنعه السحرة هو كيد سـاحر، حيـل قصـد بهـا القصـد السـيء مـن تغليط النظارة وإيهامهم حقا مـالا حقيقـة لـه. وستمضـي علـيهم سـنتي: أن السـاحر خائب، بعيد عن الفلاح ولا يظفر ببغيته، وحيث توجه هو خاسر .

فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَآمَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم

مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾
قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ
قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ
أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ
جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ
فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإلقاء : أصله الطرح على الأرض ، خروا سجدا على الأرض لله.

آذن لكم : أن أسمح لكم.

أقطعن : شدة التقطيع.

أصلبنكم : أصلبكم على الأعواد صلبا شديدا.

جذع النخلة :ساق النخلة التي تحمل الجريد والعراجين .

نؤثرك : نفضلك

المجرم : فاعل المعصية والفعل الخبيث.

تزكى : تطهر.

بيان المعنى الإجمالي :

عرف السحرة أن ما جاء به موسى ليس من جنس السحر، ولا هو من طوق البشر، فايقنوا بصدقه وخروا ساجدين لله الذي أيده . وصرحوا بقولهم: آمنا برب هارون وموسى القادر الفاعل لما يشاء.

كان هذا الموقف صاعقا لفرعون، وحول غضبه بمكر، إلى أنه لا يغفر لأي رجل من شعبه أن يختار ما لم يأذن له به. ثم لجأ إلى تهديد السحرة ليخوفهم ويخوف بقية الشعب، إنه سيقطع أيديهم وأرجلهم بصفة متتابعة، ثم سيصلبهم على جذوع النخل مشهّرًا بهم . وستدركون من الأنكى تعذيبا وتواصلا. ما أوعدكم موسى أو ما سأفعله بكم.

أجابوه إجابة قاطعة نا بعة من نور الإيمان، لن نفضل دينك يا فرعون على الحق الذي حل قلوبنا من الآيات التي أضاءت أرواحنا، ولن نفضل عبادتك على عبادة

الله الذي خلقنا. نتحداك في شجاعة: افعل ما أنـت عـازم علـى فعلـه فلـن نرتـد عـن إيماننا، إن بطشك لا يتعدى هذه الحياة الدنيا القصيرة المدى.
اعلم أننا آمنا إيمانا صادقنا بربنا راجـين أن يتفضـل علينـا فيغفـر لنـا الخطايـا التـي ارتكبناها يوم كنا نتبعك، وأن يغفر لنا ما أكرهتنا عليه مـن السـحر لنبطـل الحـق الـذي جاء به موسى، وما عند الله خير ممـا عنـد ك والله خيـر منـك، وفضـله موصـول لا ينقطع. ثم تابعوا: إنـا نعتقـد أنـه مـن يقـدم علـى ربـه يـوم القيامـة ملوثـا بـالكفر والمعاصي، فإن جزاءه سـيكون جهـنم يعـذب فيهـا عـذابا متواصـلا، لا يمـوت منـه فيستريح، ولا يرتفع عنه لحظة فيعـيش حيـاة سـوية. وفـي المقابـل إن الـذين يقـدمون على ربهم وقد اطمأنت قلوبهم بالإيمان، وأنجزوا فـي حيـاتهم الأعمـال الصـالحة، فـإن الله سيفضلهم بالدرجات العلـى ، ينعمـون فـي جنـات يقيمـون فيهـا ولا يبرحونهـا ، تتخللها الأنهار بما يصحبها من لطيف الجـو وجمـال المنظـر، لا تنقطـع حيـاتهم فيهـا، فهو الخلود الأبدي، سيحقق الله كل ذلك جزاء لمن تطهر من الكفر والآثام .

بيان المعنى العام :

70- فألقي السحرة سجدا...هارون وموسى.

ألقى موسى ﷺ عصاه فابتلعت كل ما أعده السحرة مـن عصـيٍّ وحبـال، ومـا طليـت به، وما كانت تموج به الساحة من صورة الحيات والأفـاعي، فبـدت فارغـة فـي لحظـة واحدة. وليس في الأمر تخييل، بل هـي الحقيقـة العاريـة المكشـوفة. أدركهـا السـحرة فنفذ بريق الحق إلى قلوبهم وخروا سجدا، ونفَّسـوا عمـا امـتلأت بـه أرواحهـم قـائلين: آمنا برب هارون موسى.

71- قال آمنتم له قبل أن آذن لكم....أينا أشد عذابا وأبقى.

صُدِم فرعون صدمة عنيفة بما انتهى إليه أمـر المنـاظرة. إن الـذين كـان يعـول علـيهم لينتصر بهم على موسـى وأخيـه، ويـتمكن بهـم سـلطانه أفضـل تمكـن، قـد خـذلوه بإسراعهم إلى الإيمان برب موسى وهـارون. وأسـعفه فـي هـذا الموقـف الحـرج مـا ربي عليه من الطغيان والمكر، فتوجه إلـى السـحرة معلنـا جـريمتهم التـي يسـتحقون عليها المقت والتعذيب: الجريمـة التـي لا يمكـن أن تغتفـر حسـب القـيم الاسـتبدادية: الحرية في الاختيار، والإعلان عـن الـرأي قبـل أخـذ الإذن مـن الحـاكم. ولـذلك لـم يتهدَّدْهُم بالعذاب لإيمانهم برب موسيِ وهارون، ولكـن للتعبيـر عـن رأيهـم قبـل أخـذ الإذن منه " **قبل أن آذن لكـم**" ثـم ثنـى بـإعلان الإرهـاب المعتمَـد مـن كـل الظلمـة المستبدين في الأرض قديما وحـديثا لإثبـات سـلطانهم وشـل كـل انتقـاض علـيهم. إذ بالإرهاب وتثبيت الخوف في النفوس يُؤَمِّنُون الرضـوخَ والطاعـة العميـاء مـن جميـع

أفراد الشعب، ويفتحون أبواب التزلف والنفـاق. صـرح بالعـذاب المرهـب الـذي قـرر تسليطه على السحرة بعد إيمانهم: تقطيـع الأيـدي والأرجـل مـن خـلاف، ثـم تثبيـتهم مصلبين على جذوع النخل. إن قطع الأيدي والأرجل بصـفة متتابعـة، اليـد اليمنـى ثـم الرجل اليسرى، ثم اليد اليسرى وإتباعها بالرجل اليسـرى، إمعـان فـي التعـذيب، وفـي التعبير بالتقطيع الشديد تخويف عـام، وكـذلك اختيـار أن يكـون الصـلب متمكنـا فـي جذوع النخل لا يستطيعون عنه فكاكـا هـو للإرهـاب أيضـا، ذلـك أن ارتفـاع سـوق الأشجار العارية من كـل الأغصـان، ممـا تنفـرد بـه جـذوع النخـل فيجتمـع علـى المصلوب التشهير والعراء. فحصن فرعـون ملكـه مـن متابعـة بقيـة الشـعب لموسـى وأخيه. ثم زاد في التهديد : إن الحكم فيكم سـينفذ بـلا تـردد، وسـتعلمون عنـدها مـن هو أقسى عذابا ، ومن سـيكون عذابـه مسـتمرا غيـر منقطـع . يرهـب الجميـع بـأن عذابه هو أقطع وأدوم من عذاب الله الذي حذر منـه موسـى السـحرة بقولـه: **ويلكـم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب.**

72←73: قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا...والله خير وأبقى.

مشهد رفيع، يتقابل فيـه الإيمـان بوضـوحه وسـموه، مـع التهديـد والوعيـد والـبطش الشديد، فيعلو الإيمان ويحطـم فـي عـزة وأنفـة الاسـتكبار والطغيـان، ويقطـع علـى المتجبر فرعون ما أمّله مـن خـوف السـحرة وخضـوعهم لـه وعـودتهم إلـى قبـول سيطرته. أعلَنوا على رؤوس الملأ: لن نفضـل أبـدا طاعتـك ودينـك علـى مـا حـل بقلوبنا وعقولنا من الأدلة البينة الواضحة، ولـن نقـدم الإيمـان بـك علـى الإيمـان بـالله الذي خلقنا وصورنا. ونحـن نتحـداك، فافعـل مـا توعـدتنا بـه، فَـاتَ وقـتَ الرهبـة والخوف، إن قوتك وبطشك لا تتجاوز هذه الحياة الدنيا القريبـة الـزوال، افعـل مـا أنـت فاعل فبدخول نور الإيمان قلوبنا أصبح كل عذاب مادي يهون أمام رضا ربنا.

و اعلم أن اختيارنا هذا هو نـابع مـن إيماننـا بربنـا، وكـل همنـا أن يغفـر لنـا ربنـا خطايانا التي كنت محرضا لنا على اقترافها، وأن يغفـر لنـا إقـدامنا علـى مـا أكرهتنـا عليه من محاولة تحدي آيات ربنا الصـادقة بالسـحر المتخيـل الباطـل. تطهـرت قلوبنـا من أرجاس الماضي ، وما نأمله من رضى ربنا خير مـن كـل مغرياتـك وأبقـى أثـرا. لقد علمنا أن ما عند الله هو البـاقي لا وعيـدك فـي قولـك ولـتعلمن أينـا أشـد عـذابا وأبقى.

74-إنه من يأت ربه مجرما...لا يموت فيها ولا يحيى.

هذه الآية تحتمل أن تكون من كلام رب العزة، تم التذكير بهـا هنـا لإكمـال مـا بسـطه السحرة التائبون. كما يمكن أن تكون مما ألحقه التـائبون مـن السـحر ممـا اقتنعـوا بـه وصرحوا به مما يغيض فرعون . فماذا قالوا ؟

فالوا إنه من يقدم على ربه يـوم القيامـة وهـو مصـر علـى إجرامـه ملـوث بـالكفر والمعاصي، ولم يغسل ذلك بالتوبة قبل المـوت، فـإن الله أعـد لـه جـزاءه فـي جهـنم، يتواصل عذابه، فلا هو يذوق سـكرات المـوت ويفنـي فيرتفـع إحساسـه بالعـذاب، ولا هو يحيى الحياة السـوية التـي لا يـألم فيهـا ولا يعـذب .والمقصـود تواصـل العـذاب وتواصل الإحساس به. وهذا بسط لمقام الخوف من عذاب الله .

75←76-ومن يأته مؤمنا...وذلك جزاء من تزكى.

وفي المقابل فإن من يقدم على ربه يوم القيامة جامعـا بـين الإيمـان وصـالح الأعمـال، بأن كان قلبه عامرا بالإيمان، وأفعالـه مسـتجيبة لمقتضـيات إيمانـه، فأولئـك المؤمنـون الصالحون يستحقون من فضل الله الدرجات العلى . فهو نعـيم مـادي ونعـيم أدبـي فيـه الرفعة والسمو، ينعمون فـي جنـات إقامـة تتخللهـا الأنهـار. وذلـك الفضـل والنعـيم والرفاهية جزاء من تطهر من الكفر والآثام.

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ

بيان معاني الألفاظ :

اسر: سر بهم ليلا.

اضرب لهم طريقا : اجعل لهم طريقا.

يبس : يابس .

درك : أن يدركك فرعون. الخشية شدة الخوف

فأتبعهم : تبعهم.

اليم : البحر .

غشيهم : غطاهم بما أغرقهم فيه .

المن : مادة صمغية يصنع منها الخبز.

السلوى : طائر لحمه لذيذ.

بيان المعنى الإجمالي :

أوحى الله إلى موسى، وقد أبصـــر أن فرعـــون وجنـــده يحثـــون السـير للحـاق بهـم ، ليجبروهم على العودة إلى مصر، أوحى إليــه أن يضــرب البحــر بعصــاه ليجعـل لهـم بذلك طريقا ممهدا يسيرون فيه، يابسا لا تسيخ فيــه الأقــدام ولا سـنابك الخيــل. وأعلمـه أن عليه أن يكون مطمئنا واثقـا لا يخـاف مـن أن يدركــه جنـود فرعــون، ولا يخشــى الغرق وهو سار في طريقه.

أبصر فرعون بني إسرائيل وهـم سـائرون فـي طريــق ممهـد، وأنهـم سـينفلتون مـن قبضته، فـأمر جنــوده أن يتبعــوهم فــي الطريــق المفتــوح. ومـا إن اجتمـع الجـيش وفرعون وسط الطريق حتى أطبق علـيهم البحــر مــن جانبيــه فـأغرقهم بســوء تــدبيره وعناده. كان فرعون مضلًلا لقومه موقعا لهم فـي الخسـارة والضـياع، مـا حصـل لهـم منه الهداية التي لوح بها لما قال: **وما أهديكم إلا سبيل الرشاد**[1].

ثم ذكر الله بني إسرائيل بــبعض نعمــه ليستحضــروها فــي مشــاعرهم ويكونــوا بــذلك يقظين لشكرها. فمنها أننا أنجينــاكم مــن بطــش عــدوكم فرعــون، وأكرمنــاكم بــإنزال التشريع المنظم لحياتكم لما وعدنا موسى أن يأتينـا إلـى جانــب الطـور الأيمــن، فـأتى وقبل ما أوحيت إليه. ولم نهملكم وأنــتم فــي الصــحراء فمكنــاكم مـن المــن والسـلوى وأحللناه لكم قوتا طيبا لذيذا. لا تغفلوا عــن الاعتــراف، نحــذركم ســوء العاقبــة إذا أنــتم استكبرتم فنسيتم أن كل ذلك هو من فضلي عليكم، ســينزل علــيكم غضــبي. ومــن حــل عليه غضبي فقد هلك.

و اعلموا أني أنا الله الغفور الرحيم، إني لعظــيم المغفــرة لمــن تــاب مــن ذنبــه، وشــع الإيمان في عقله وروحه، وواصل الاستقامة في حياته.

بيان المعنى العام :

77 – ولقد أوحينا إلى موسى ...لا تخاف دركا ولا تخشى.

أنهى القرآن الحديث عن السحرة بما تقدم في الآيــات الســابقة، وانتقــل لعــرض قصــة أخرى، وقد فَصَل بين القصتين مدة زمنية وأحداث.

أوحى الله لموسى عليه السلام وحيا مؤكدا يــأمره بــأن يجمــع بنــي إســرائيل ، ويخــرج بهــم ليلا ، والليل ساتر لمن يسير فيه، مما يفيــد أنهــم لا يــأمنون أن يمــنعهم فرعــون مــن الخروج من مصر .و قد فصلت سورة الأعــراف نكــث فرعــون بعهــوده فكلمــا نزلــت آية فيها بلاء وعد بتخلية سبيلهم ، ثم ينقض وعده.

[1] سورة غافر آية29

سار موسى عليه السلام يقدم قومه إلى أن وصل إلى البحـــر، فـــأوحى الله إليــه أن اجعــل لبنـــي إسرائيل طريقا يبسا وســط البحـــر، وضـــرب البحــر بعصـــاه فـــانفرج الطريـــق لبنـــي إسرائيل ومضوا سالكين ما بين الضفتين، وقــد ذهــب الوحــل وكانـــت الطريـــق ممهـــدة يابسة لا مشقة على بني إسرائيل من قطعهـــا. وكـــن واثقـــا مـــن أن فرعـــون لا يســـتطيع أن يدركك قبل أن تبلغ الضفة المقابلة فلا تخف. وكن مطمئنـــا فـــإن البحــر بعــد انشـــقاقه لبني إسرائيل لا يلتئم من جديد فلا تخش الغرق.

78←79:فأتبعهم فرعون بجنوده...وما هدى.

لما فطن فرعون بخـــروج بنـــي إســـرائيل دون أن يـــأذن لهـــم، أســـرع للالتحـــاق بهـــم وردهم للتسخير في مصر، وقد أعد العدة لـــذلك وجمـــع جيوشـــا لا يســـتطيع معهـــا بنـــو إسرائيل أن ينفلتوا.

لحقهم بعد أن انفتح لهم البحر، وساروا في الطريـــق الممهـــد الـــذي هيـــأه الله لهـــم. ولمـــا بَصُر فرعون بـــالطريق ســـالكة فـــي البحـــر، أمـــر جيوشـــه باتباعـــه والالتحـــاق ببنـــي إسرائيل. فأطبق عليهم البحر، وغرقـــوا بعـــد أن بلـــغ موســـى وقومـــه الضـــفة المقابلـــة ونجوا. وطفَت جثث فرعون وجنـــده علـــى ســـطح البحـــر. لقـــد دبـــر فرعـــون ورتـــب الأمور ظنا منه أنه سيمكن قومه مـــن الطريـــق الصـــالح المحقـــق لهـــم بلـــوغ الغايـــات الرشيدة ، ولكن تدبيره وصل بهم إلـــى الضـــياع واخـــتلاط الأمـــور، ومـــا هـــداهم إلـــى الطريق الأرشد المنجي في العاقبة . وكذب عليهم فـــي قولـــه: (ومـــا أريكـــم إلا مـــا أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد)[1]

80-يابني إسرائيل قد أنجيناكم .... المن والسلوى.

امتن الله على بني إسرائيل بعد أن أنجاهم من ملاحقة فرعون، إذ يسر لهم في إقامتهم الجديدة من نعمه وعنايته ضروبا متنوعة، فذكرهم ببعض منها. والتذكير بالنعم إيقاظ لداعية الاعتراف بالفضل، بما يتحتم أن يصحبها من الاستقامة والشكر. والتذكير بالنعم ينزع حجاب الغفلة الذي يغطي على النعمة بالتعود بها مما يُضْعِفُ الإحساس بها. ومن ناحية أخرى فإن التذكير بنعم الله يشعر المنعَمّ عليه بعناية الله به ورعايته له، وهو معنى عظيم يشع في النفس الاعتزاز ويملأها ثقة ويمكن من الاقتراب من المعبود المنعم .

توجه الخطاب بعد مدة من مجاوزتهم للبحر. فضمنه ما يلي:

1)تحققت لكم النجاة من طلب عدوكم فرعـــون ، فعلـــيكم أن تستحضـــروا الألطـــاف التـــي حفت بكم والعناية التي أيدتكم بها. فحررتكم من تسلط فرعون.

---

[1] سورة غافر آية 29

2) وعدتكم بإنزال الشريعة على رسولكم مفصلة للأحكـام التـي تؤلـف بيـنكم، وتضـمن إقامة الحق فيكم، وتفصـل لكـم المـنهج الهـادي فـي الحيـاة ببيـان القـيم الخلقيـة ، ووعدني موسـى بالحضـور فـي الموعـد لتلقيهـا، فتمـت المواعـدة بـين الله المنـزل للشريعة، وموسى القابل لها. في المكان المخصـص لهـا مـن سـفح جبـل الطـور فـي جانبه الأيمن. وهو الجبل الذي آنس في عودته مـن مـدين نـورا، وتلقـى فيـه الـوحي الأول، حسبما سبق في أول القصة.

3) كفيتكم أقواتكم بإنزال المن والسلوى كما تقدم في سورتي البقرة والأعراف.

4) أذن الله لهم بأن يأكلوا مما يعرض لهم مـن المـن والسـلوى، وهـذه نعمـة التحليـل مدمج فيها أنه طعام طيـب تسـتلذه الأذواق ولا تنفـر منـه. وأنـه رزق مـن الله سـاقه إليهم بدون جهد.

نحـذركم مـن الطغيـان فـي مقابلـة الـنعم ، بالاسـتكبار والانفصـال عـن الله بعـدم استحضار نسبة تلكم النعم لمسـديها رب العـالمين، وعـدم شـكره. ولتعلمـوا أن كفـران النعم سيعرّضكم للعذاب، فينزل عليكم غضبي نزول الجيش القاهر المدمر.

ومن ينزل عليه غضب الله فقد هلك وخسر خسـرانا لا قيامـة لـه بعـد. حالتـه كحالـة من زلت به رجله من شاهق جبل فاندفع إلى الهاوية.

والله رحيم بعباده فبعد التحذير من المآل المرعـب لمـن كفـر بنعمـه أو نسـيها، ينفـث في قلوب البشر الأمل بأنه سبحانه يغفر ذنـوب المـذنبين إذا اسـتيقظوا فنـدموا وأقلعـوا تائبين، وأحيوا نور الإيمان في أرواحهـم، الإيمـان الفاعـل الـذي يتبعـه القيـام بصـالح الأعمال، وفوق ذلك لزموا طريق الهداية ولم يرتدوا إلى ما كانوا عليه .

۞ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

أثري : لاحقون بي .

ملكنا : إرادتنا.

أوزارا : أثقالا.

من زينة القوم : ما اتخذ من الذهب والفضة للزينة.

قذفناها : طرحناها في النار.

جسدا : صورة مجسمة لها ظل وليست نقشا.

الخوار : صوت العجل.

بيان المعنى الإجمالي :

سأل الله موسى عليه السلام سؤال لوم عن عجلتـه، بقدومـه قبـل وقـت الميعـاد، وتـرك بنـي إسرائيل وراءه. مع أنه كـان عليـه أن لا يتقـدم علـى الميعـاد ولا يتـأخر عنـه، وأن يصحب قومه حسبما أمر به. أجاب موسـى أنـه وثـق مـن أن قومـه سـيتبعونه عـن قرب، وأن أشواقه لمناجاتك ربي حرّضتني علـى العجلـة ابتغـاء رضـوانك. أعلمـه الله أن عاقبة عجلته كانت فتنـة لقومـه، وأن السـامري أثـر فـيهم فـأخرجهم مـن طريـق الهدى إلى الضلالة .

رجع موسى مشحونا بالغضب على قومه، وبالحزن والألـم مـن صـنيعهم. توجـه إلـيهم معنفا، كاشفا لهم عن غبـائهم، ووالـى علـيهم الأسـئلة المبـرزة لعظـيم مسـؤوليتهم . ثلاثة أسئلة إنكارية محرجة لا جواب لهم عنها: هـل إن الله لـم يعـدكم أن ينـزل علـيكم شريعته الجامعة لأمركم، المبينة للمنهج الصالح في الحيـاة ؟ هـل مضـى علـيكم زمـن طويل تراخت فيه عزائمكم، أي إنكم ما زلتم حديثي عهـد بخـروجكم مـن مصـر ؟ هـل إنكم رضـيتم لأنفسـكم أن ينـزل الله علـيكم غضـبه، فلـم تثبُتـوا علـى العهـد الـذي وعدتموني بالحفاظ عليه؟

أجابوا جوابا لا يعدو أن يكون تنصلا من المسـؤولية، فقـالوا: مـا أخلفنـا الوعـد الـذي التزمنا به بإرادتنا. ولكنا لما خرجنا من مصـر خـدعنا الأقبـاط واسـتعرنا مـنهم حليـا، فقذفناها في النار التي أوقدها السامري . سهل لنا الأمر أنـه فعـل مثـل مـا فعلنـاه، ثـم إن السامري أتقن لهم صناعة شكل عجـل مـن الـذهب المصـهور فـي النـار بقوائمـه ورأسه وقرونه وجسده، ثم إنه رتب فـي تجاويفـه مـا جعلـه يصـوت ويخـور. فأقبـل عليه الدهماء، وقالوا هذا إلهكم وإلـه موسـى، ولكنـه غفـل عنـه وذهـب إلـى الطـور يبحث عنه.

بيان المعنى العام :

83- وما أعجلك عن قومك يا موسى .

تغير الأسلوب في مفتتح هذه الآية، فبعد أن كانت المقاطع السابقة تسرد أجزاء من قصة موسى ﷺ ، يتحول الأسلوب إلى افتتاح الجملة بالسؤال. ولما كان السؤال موجها من الله العليم بالخفايا، فإنه يتبع ذلك أن يكون غير مقصود به الإجابة عن المسؤول عنه. فالسؤال هنا هو سؤال لوم لموسى على استعجاله وحضوره إلى الطور قبل موعد المناجاة المحدد الذي سبق لنا في قوله تعالى: **وواعدناكم جانب الطور الأيمن**. والموعد هو لموسى ولبني إسرائيل، فموسى سبق قومه، وتركهم خلفه ليلحقوا به. ترتّبَ على عجلته أمران: أنه جاء قبل الوقت المحدد، وأنه لم يصحب قومه الذين أمر أن يحضروا معه. وفي هذا اللوم مع تغيير الأسلوب ما يلفت نظر التالي لقصة موسى للحكمة التربوية من هذه الحادثة. كان موسى عليه السلام حريصا على تلقي الشريعة التي وعدها ربه، ودفعه هذا الحرص إلى أن يترك بني إسرائيل ويسبق قبل الميعاد شوقا منه إلى المناجاة التي نعم بها في جانب الطور وهو عائد من مدين نعيمًا ملك عليه مشاعره، ولم ينعم بمثله، ولا بما يقاربه في جميع فترات حياته.

العبرة تبدو في تربية المؤمنين أن يضبطوا حياتهم بين العجلة المستجيبة للعواطف، والبطء المنبعث عن التراخي ووهن النفس. فالمناجاة لا تبرر العجلة التي لا يأخذ فيها العجول جميع الاحتياطات ويتروى في دقائق ما يمكن أن يترب على إسراعه .

84- قال هم أولاء على أثري...لترضى.

أجاب موسى عن الأمرين اللذين لم يَرْعَهُما:

أما عدم انتظاري لقومي ليحضروا معي، فقد ظننت أن عزمهم على اللحاق بي كاف، إنهم قادمون على أثري، سيلحقون بي عن قرب كأن خطواتهم تقع على آثار خطواتي.

وأما حضوري قبل الميعاد، فإن ذلك مبالغة مني في الاجتهاد لأحصل على رضاك ربي.

85-قال فإنا قد فتنا...السامري.

عرفه الله بما ترتب على عجلته فقال: إنا أوقعنا قومك في الفتنة، التي سيأتي تفصيلها ، بعد أن تركتهم وحدهم دون أن تتحوط . فأخرجهم من الرشاد إلى الضلال . ومن عبادة الله إلى عبادة العجل الوثن.

ويفهم إسناد الفتنة إلى الله " **فتنا قومك**" أن بني إسرائيل عندما رأوا العجل بخور اختلفوا واقتنع معظمهم بأنه إله وعملوا على إقناع الرافضين ، فكانوا بين ثابت

على إيمانه وبين قابل لتضليل السامري، فكانــت الفتنــة مــنهم ولــم يسـعفهم الله بألطافــه لينفوا ما أضلهم به السامري .تمكن السامري من التــأثير علــيهم بمــا صــنعه، وبالشــبه فأخرجهم من الرشاد إلى الضلال . ومن عبادة الله إلى عبادة العجل الوثن .

86-فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا...فأخلفتم موعدي.

لما أعلمه الله بأن قومه قد فتنوا وضــلوا، أســرع إلــى قومــه ليجتــث الضــلالة التــي أفسدتهم. كان وضعه النفسي مقسَّما بــين الغضــب ممــا انحرفــوا إليــه وأقــاموا عليــه، والغضب انفعال في النفس مزيج من الرفض والألم؛ وبــين الأســف وهــو مــزيج أيضــا من الحزن والانكسار .

بادر بني إسرائيل بتوبيخهم مناديا لهــم: بيــا قــومي، تشــنيعا علــيهم، لأن الأذى عنــدما يحصل من القريب يكون أبلغ إيلاما، وموجبا لشعور الملُــوم بقــبح مــا أقــدم عليــه. ثــم نفى أن يكون لهم أي مبرر للوقوع فيما انحرفوا إليــه. فســالهم ســؤالا توبيخيــا، هــل إن الله أهملكم ولم يعن بكم ولــم يعــدكم " الوعــد الحســن " أنــه ســينزل علــيكم الشــريعة الجامعة لكلمتكم الهادية لكم ؟ ثم زاد في تقريعهم ، كيف أقسدمتم علــى مــا أقــدمتم عليــه ألكم عذر ببعد العهد الذي عهده إليكم ، وطول الزمن الــذي يفصــل بــين كفــركم وبينــه، فتعتذرون بأن طول العهد أنساكم وتراخــت عــزائمكم ؟ أم تعلقــت إرادتكــم بــأن ينــزل الله عليكم غضبه ونقمتــه وعذابــه، فعملــتم علــى خــلاف مــا يقتضــيه الموعــد الــذي وعدتكم من إبلاغكم الشريعة؟ كل هذه الأســئلة يقصــد منهــا أن مــا وقعــوا فيــه مــن عبادة العجل غبــاء وارتــداد وفســاد وضــلال مبــين، لا يتصــور أن يقــوم بــه عاقــل حريص على نفع نفسه.

87- قالوا ما أخلفنا موعدك...فكذلك ألقى السامري .

ألجأهم موسى عليه السلام بأسئلته المحرجة التي ضيق بهــا علــيهم ، فحــاولوا الاعتــذار بعــذر بارد، مضمونه: أننا ما نقضنا ما التزمنا بــه بإرادتنــا واختيارنــا ، ومــا قصــدنا الوقــوع في الضلال، ولكن كنا حملنا معنا عند خروجنا من مصــر حليــا مــن معارفنــا الأقبــاط ، أوهمناهم أنا نستعيرها منهم لنردها علــيهم ، وســموها أوزارا لأنهــم يعلمــون أن فعلهــم هذا إثم ومنكر.

إذن كانوا يشعرون في باطنهم أن ما معهــم مــن الحلــي الــذي حصــلوا عليــه بخــداع الأقباط، هو حرام لا يحل لهم، وهذا ما ســهل علــيهم إلقــاءه فــي النــار التــي أوقــدها السامري ليتحول عن صورته الأولــى؛ مــع أن الســامري ألقــى حليــه أيضــا ليغــريهم باتباعه.

88-فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار...وإله موسى.

ثم إن السامري لمهارته في صياغة الحلي صور لهم من الحلي المذاب في النار عجلا أظهره مجسّدا بقوائمه في شكل جامع لخصائص العجول . ومن قدرته على التمويه ، رتب في صنع العجل من الحيل ما يجعل الهواء يدخل من مكان ويخرج من مكان آخر، فيحدث صوتا [خوارا] كأنه صوت عجل . وقد بينا هذا في سورة الأعراف آية 148-

يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: إن المصريين كانوا يعبدون العجل إيبيس، فلما رأى الإسرائيليون عجلا من ذهب، وهو يصوت كما يصوت العجول، استقر في عقولهم أنه هو الإله الذي يعبده موسى. ولذلك تنادى دهماؤهم بأن هذا هو الله الذي غفل عنه موسى، وذهب يبحث عنه في الطور، وها هو بين أيديكم .

أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

يرجع : يرد.

يملك : يستطيع.

عاكفين : ملازمين، وأصله الانحناء على الشيء من شدة الملازمة.

ترقب : تنتظر.

بيان المعنى الإجمالي :

ما أشد غباء الجمع من بني إسرائيل الذين عبدوا العجل، أفقدوا البصر فلم يروا أنه لا يتفاعل معهم في قليل ولا كثير، هو لا يسمع دعاءهم ولا يرد عليهم إن سألوه، وهو عاجز عن دفع ضر عنهم أو تحقيق رغبة لهم. ومع ذلك فإن هارون عليه السلام نبههم إلى أن السامري قد خلط عليهم وفتنهم بالعجل الذي صنعه. وحقق لهم هارون أن ربهم هو الرحمن الذي رحمهم فنجّاهم من تسلط فرعون، وأغرق

عدوهم، فاتركوا ما دعاكم إليه السامري واتبعوني، وأطيعوا ما آمركم به كما عهد إلي موسى قبل أن يذهب إلى المناجاة.

أجابوه بأنهم ارتبطوا بالعجل فهم مواصلون عبادته والالتزام بذلك إلى أن يعود لهم موسى.

استشاط موسى غضبا ورأى أن هارون قصر ،ولم يقم بالخلافة على الوجه الأمثل. فسأله أولا سؤال توبيخ مؤداه: أنه لا مانع يمنعك إذ رأيتهم صمموا على الضلال أن تتركهم وتلتحق بي، ولا تقعد مع القوم المشركين. مد موسى يده إلى لحية هارون وشعر رأسه معنفا. فقال له هارون يا ابن أمي مسترحما بتذكيره بأنه قد جمعهما رحم واحد ورضعا من لبان واحد، فك شعري من قبضتك، إني اجتهدت فخشيت أن أكون مسؤولا عندك إذا أنا تشددت مع بني إسرائيل، أن يفضي بهم تشددي إلى الفرقة واختلاف الكلمة بعد ما بذلته أنت من توحيدهم، وأن الواجب في هذه الأزمة أن لا أبادر باتخاذ القرار الحاسم. ولكن أنتظرك لترى رأيك.

بيان المعنى العام :

89-أفلا يرون ألا يرجع...ضرا ولا نفعا.

تشهر هذه الآية بغبائهم، وبتوجه السؤال مظهرا للعجب. أعَمُوا فلا يرون ولا يبصرون أن هذا العجل ظاهر، أمام أعينهم، أنه فاقد للإدراك، لا يسمع منهم خطابا، وبالتالي هو لا يرد عليهم لا بالنطق ولا بالإنجاز لما يطلبونه منه. وهو أمامهم جسد لا يتحرك ، عاجز لا يستطيع أن يدفع عنهم ضرا ولا أن يغضب فيلحق بهم ألما، ولا أن ينفعهم بتحقيق رغبة من الرغبات المسؤولة. فعبادتهم لهذا الجماد على صورة العجل تنادي بغبائهم وتبلد عقولهم.

90←91،ولقد قال لهم هارون ....حتى يرجع إلينا موسى.

لازموا عبادة العجل بالرغم من تيقنهم أنه لا يسمع ولا يتكلم ولا يستجيب لتوسلاتهم لا بدفع الضر ولا بتحقيق المرغوب، وبالرغم من أن هارون نبههم مصرحا بمجرد ما شاهدهم توجهوا للعجل معجبين به قائلين هذا هو إله موسى، هذا العجل ليس ربا ولكن السامري فَتَنَكُم به ، وأدخل الاختلاف في صفوفكم ، وزين لكم عبادة عجل جسدٍ لا يتحرك ولا ينفع ولا يضر، وإن ربكم هو الرحمن الذي تتعلقون برحمته التي شاهدتم آثارها في إنجائكم من فرعون، وفيما رزقكم به في الصحراء .أعْرِضُوا عن عبادة العجل واتبعوني لنلحق بموسى في الميعاد، أطيعوني ولا تعصوني كما أمركم موسى .

لم ينتفعوا بموعظة هارون، بـل زادوا إصـرارا علـى مواصـلة عبـادة العجـل، وزادوا أنهم ملازمون لعجل الذهب ملازمة مـن ينحنـي علـى الشـيء فـلا ينصـرف عنـه لا بجسمه ولا ببصره، إلى أن يعود إليهم موسى.

92←93:قال يا هارون ما منعك...أفعصيت أمري.

بعد أن وبخ موسى بني إسرائيل على عبادتهم العجل، وسُجل غباؤهم، وعصيانهم لهارون لما نهاهم، توجه موسى لأخيه هارون يلومه في صيغة سؤال إنكاري لموقفه الذي اتخذه في المشكلة فباشره ببيان الحقيقة والنهي عن الشرك. فقال له: ما الذي منعك من الالتحاق بي، واضطرك إلى أن لا تتبعني، بعد أن ظهر منهم الإصرار على اعتقاد الضلال والتمادي عليه؟ يشير موسى عليه السلام أن لا مانع لهارون أن يتخذ موقفا مغايرا بتركهم والالتحاق بموسى ليخبره بما تحول إليه أمر القوم . وبالغ في الإنكار بإظهار صورة ما فعله في صورة العصيان لمَّا أمره أن يكون خليفة له في قومه محافظا على ثباتهم على العقيدة التي تركهم عليها، قبل أن يذهب للمناجاة.

94- قال يا ابن أم لا تأخذ ...ولم ترقب قولي.

طوي هنا ما فصل في سورة الأعراف، من أن موسى اشـتد علـى هـارون وأخـذه مـن شعر رأسه ومن لحيته يجره إليه. وتمت الإشارة بـأن هـارون استعطف أخـاه موسـى مناديا بالرحم التي جمعتهما، يا ابن أمي ، ولم يقل يا أخـي ليحـرك فيـه عاطفـة الوحـدة في الولادة وفي الرضاع، وما يقتضـيه ذلـك مـن الرأفـة والـودّ لا الغلظـة والعنـف، طلب منه أن يخلي شعر رأسه ولحيته من يديـه القـويتين. واسـترحمه بأنـه اجتهـد وأن اجتهاده أداه إلى أنه إن اشـتد مـع بنـي إسـرائيل مـع مـا تبـين لـه مـن إصـرارهم وعنادهم، أن الشدة ستفضي بهم إلى التقاتـل وانقسـام الكلمـة، وتـذهب بالتـالي الوحـدة التي نجح فيها موسى، وجمع بني إسرائيل على كلمـة واحـدة. وأنـه رجـح أن ينتظـره في تلك المشكلة ولا يكون مسؤولا عن عدم ترقب رأيه الفاصل.

قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

ما خطبك : ما هو غرضك المكروه ؟

بصرت بما لم يبصروا : علمت ما لم يعلموا به.

قبضت : أطبقت أصابعي على ما أخذته في كفي.

التسويل : تزيين ما ليس بزين.

ظلت : داومت.

عاكفا : ملازما لعبادته.

لنحرقنه : نحرقه حرقا شديدا.

لننسفنه : تفريق مع إذراء .

اليم : البحر .

بيان المعنى الإجمالي :

توجه موسى إلى السامري مؤنبا ومقرعا، ما هو قصدك الخبيث الذي زين لك القبيح فأقدمت على ما أقدمت ؟ أجاب السامري معترفا بحقيقة ما فعل قائلا: إني علمت ما لم يعلمه بنو إسرائيل من التقنيات التي صغت بها من الحلي العجل ورتبته بطريقة فنية، ومبالغة في التمويه عليهم شاركت بقذف ما أملكه من حلي، وكان منتهى ما عندي من الشريعة جزء قليل من آثار الرسول، فتركته جانبا ومضيت في إضلال بني إسرائيل، وعلى هذا النحو اتبعت ما زينته لي نفسي.

عقّب موسى على اعترافات السامري بقوله :اذهب طريدا، وقد قرر الله لك عقوبة في الدنيا ، هي انفصالك عن الناس فلا يقربونك ولا تقربهم وتتحاماهم ويتحامونك. وعقوبة في الآخرة هي الموعد الذي لا يتخلف لتلقى الخزي والعذاب جزاءك يوم القيامة. ثم أعلن أنه سيأخذ العجل ويحرقه أبلغ التحريق حتى يتفتت ثم يذرو أجزاءه في البحر الأحمر إمعانا في إذلاله.

ثم توجه موسى إلى بني إسرائيل ليكونوا ذاكرين دوما حقيقة الألوهية ولا يقعوا فيما وقعوا فيه من الفتنة فقال: لا إله لكم يا بني إسرائيل إلا الله المتفرد بالألوهية والكمال المطلق. وهو العليم بكل صغيرة وكبيرة وما تسرونه وما تعلنونه، فاعلموا أنه يرقبكم، فأصلحوا عقيدتكم وأعمالكم .

بيان المعنى العام :

95←96- قال ما خطبك يا سامري...وكذلك سولت لي نفسي.

بعد أن سرح موسى هارون، ولعله قبل عذره. التفت إلى من كان سبب البلية وهو السامري ، الذي يشكك المفسرون في كونه واحدا من بني إسرائيل، فتوجه إليه

قائلا : ما خطبك يا سامري؟ ما الذي حملك على ما فعلت، وما هو قصدك السيء. والتعبير بما خطبك يطلق عادة في الشأن المكروه.

أجاب السامري بقوله: أدركت أمرا فعلمته ولم يتفطن له أحد غيري.

إن هذا الأمر الذي علمه ذهب فيه المفسرون إلى اتجاهين : أكثرهم ذهب إلى أن السامري، أراه الله جبريل راكبا فرسا ،فوطئت رجل فرسه مكانا فاخضر، فتفطن إلى أن موطئ فرسه يحيي الميت، فأخذ قبضة من أثر الحافر ، ونبذها في الحلي الذي صنع منه مجسّما على صورة العجل، فأصبح يصوت كما تخور العجول . وهذا التفسير حمل للتركيب على ما لا دليل عليه لا من السنة ولا من كتاب التوراة. والاتجاه الثاني لفريق من المفسرين ،حمْلُ الكلام كله على المجاز. فيكون المفهوم من الآية: أن السامري علم ما لم يعلمه بنو إسرائيل من الفنيات التي يصوغ بها عجلا يصوت. وأنه قد تلقى عن موسى علما قليلا" وهو أثر الرسول" لم يتعمق فيه ولم يبلغ اليقين الأيقن، فهو كمن قبض قبضة من شيء خارج عنه فلم تخالط كيانه. فنبذ معارفه تلك التي تلقاها من الرسول موسى ولم يعمل بها، وانخلع عنها إلى التحريض على الكفر وإحداث الشبه في عقول بني إسرائيل ، وعلى هذا النحو كنت مستجيبا لدواعي نفسي المضللة .

97-قال فاذهب فإن لك ...في اليم نسفا.

بمجرد ما أتم السامري جوابه الكاشف عن سوء قصده وعمله على إضلال بني إسرائيل ، صرفه صرف الأشياء الفاسدة التي لا يرجى لها صلاح، مع إهانة كقول القائل : اغرب عن وجهي فلا أراك . أي أنت أحط من تكون بمرأى مني. ثم صرح له بالعقوبة التي حلت عليه في الدنيا وفي الآخرة:

أما في الدنيا فإنه سيفقد خاصية الإنسانية التي هي فطرة التعلق بالمجتمع وحب الاندماج فيه والتواصل مع أفراده. عاقبه الله بأن أفسد فطرته فأصبح لا يطيق الاقتراب من أي كان، كلما لقي أحدا يقول له: ابتعد عني لا تمسني ولا أمسك، ولا تقترب مني، ولا أقترب منك. انقلبت حياته إلى حياة متوحشة، شأن الوحوش يفرون من الناس. فكانت عقوبته الدنيوية من جنس فساده، فكما كان يبغي أن يفرق بين بني إسرائيل ويدخل الشقاق فيهم ويصرفهم عن الإيمان الموحد لكلمتهم، عوقب بلفظ المجتمع له والفرقة الأبدية بينه وبين الناس .

وأما في الآخرة فأعلمه: إن الله قدر لك موعدا ثابتا ليس لك عنه محيد ،ولا تستطيع أن تتأخر عنه ولو لحظة ، هو موعد يوم البعث والجزاء سيحشرك وتلقى أنكى الجزاء بما أفسدت وأضللت. والله لا يخلف الميعاد.

وبعد أن أدب موسى هارون، وطرد السامري وعرفه بما سيلقاه من جزاء في الدنيا والأخرة. غير المنكر بيده وهو القوي الأمين، قائلا : إن إلهك، وليس له من سمات الألوهية إلا ما زعمته لنفسك، والذي عظمته وخدعت به بني إسرائيل لأذلنه بتحريقه كأبلغ ما يكون التحريق، فلا يبقى له جزء متصل بغيره ،ثم إمعانا في تحقيره لأذرو أجزاءه المفككة في البحر الأحمر. فلا يكون له مكان على وجه الأرض يعرف به.

98- إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما.

بعد أن أتم موسى عليه السلام تغيير المنكر، توجه إلى قومه ليثبت في عقولهم الحقيقة التي هي أصل الفلاح والنجاة. هي عقيدة التوحيد الخالص ليثبتوا عليها وتكون حاضرة واضحة في قلوبهم فقال: لا إله لكم إلا الله المتفرد بالوحدانية في ذاته وصفاته لا شريك له سبحانه، هو الكامل كمالا مطلقا المنزه عن النقص. وهو الذي تفرد بالعلم الشامل لكل شيء، لا يخفى عنه دقيق ولا جليل أحاط علمه بكل الكائنات. وبكل ما تسرُّونه في نفوسكم وما تعلنونه وتفعلونه ،فارقبوا ربكم رقابة تحصّنكم في عقيدتكم وفي أفعالكم ونواياكم .

كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾
مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا ﴿١٠٠﴾ خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا ﴿١٠١﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾
يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ
أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أنباء : جمع نبأ وهو الخبر.

وزر : إثم.

حمل : محمول .

الصور : بوق ينفخ فيه لجمع الجيوش في الحرب .

أمثلهم طريقة : أقربهم للصواب .

بيان المعنى الاجمالي :

على هذا النحو من الصدق نقص عليك بعض أخبار الأمم الماضية. وما نقصه عليك يهدف إلى التأمل والتدبر في سنن الله في الاجتماع في هذا القرآن الذي أنزلناه عليك للتذكر. إن من أعرض عن القرآن فلم يتأمل في مضامينه فإنه سيأتي

يوم القيامة يئن تحت ثقل ما قدر له مــن العقوبــة علــى إثــم الإعــراض، وســيخلد فــي العقاب. وما أقبح الحمل الذي حمله يتعب بحمل ثقل هو عذابــه. يتحقــق ذلــك فــي اليــوم الذي ينفخ فيه في الصور فيستجيب كل فرد مــن أفــراد البشــر إلــى النــداء، ويســرعون إلى أرض المحشر، وقد اختنقت أنفاس المجــرمين المشــركين فكســت الزرقــة أبــدانهم. وهم في هذا الكرب يتهامسون بينهم: يقول بعضــهم مــا مــر علينــا مــن يــوم موتنــا إلا عشرة أيام. وسواء أخفي حديثهم أم أعلن فإني أنــا الله أعلــم بــأقوالهم التــي أســروها. وفريق آخر من المجرمين ظن أنه أفضل اهتداء، تأمــل فقــال: بــين بعثنــا وموتنــا يــوم واحد، لما تبين له أن صورته لم تتغير .

بيان المعنى العام :

99←101: كذلك نقص عليك ...وساء لهم يوم القيامة حملا.

عقب القرآن عرض قصة موسى مــع قومــه بإظهــار المنــة، باطلاعــه نبيــه ﷺ علــى الأخبار التي طواها الزمن الماضي، فإنه على هــذا النحــو مــن الدقــة والصــدق نقــص عليك يا محمد بعض أخبار الأمم الماضية. والأحــوال التــي مــرت بهــا تلــك الأمــم. إن تلك القصص لا يقصد منها التلهية وتمضــية الوقــت، ولكــن التبصــر والاعتبــار بســنن الله في الاجتماع ،والحال أنا قد آتيناك قرآنا صادرا منا، وكفــاك بــذلك ثقــة بــه وتنويهــا بكماله ومنة عظيمة خصصنا بها المسلمين.

ثم حذر المشركين الذين أعرضوا عن التدبر في القرآن. بــأن مــن أعــرض عنــه فإنــه يلاقي المشقة من حمل عقاب الإثم الذي يلازمه ولا ينفك عنه إلى أبد الآبدين.

ثم علق على وضعهم وهم يئنون تحت ثقل الآثام :ما أســوأ مــا يحملــون .ذلــك أن شــأن العاقل أن يحمل ما يجد فيه فائــدة عاجلــة أو مترقبــة، أمــا أن يحمــل مــا فيــه هلاكــه ويعاني ثقله فهو أسوأ ما يمكن أن يحمــل فــي هــذا اليــوم الــذي يتحقــق فيــه جــزاء الأعمال . فلينتبه المعرضون عن القرآن إلى مآلهم.

102←104: يوم ينفخ في الصور ...إن لبثتم إلا يوما.

ما هو مآلهم، هو اليوم الذي ينفخ فيه في الصور. والنفخ فــي الصــور هــو تمثيــل لأمــر من أمور الآخرة قرب للأذهان بما يحدث عنــدما يلــتقم الموكّــل بجمــع الجيــوش بوقــا ينفخ فيه فيحدث عنه صوت عنيف يسمعه حتى البعيــد، يفهــم منــه الجنــود أن علــيهم أن يلتحقوا ســريعا بمــواقعهم ويســتجيبون. وهكــذا يكــون يــوم القيامــة ينبعــث البشــر فيخرجون سراعا إلى المحشر. إن أمــور الآخــرة تختلــف عــن طبيعــة الحيــاة الــدنيا

اختلافا كبيرا، ولكن يتم تقريب تلكم المفاهيم إلى تصورات البشر بما ألفوه في دنياهم.

في هذا اليوم العظيم الذي يستجيب فيه كل البشر الذين عاشوا على وجه الأرض لدعاء المنادي لهم بالحضور، وتنتشر فيهم الحياة من جديد، يلتقط القرآن في هذا المقام الصورة التي يكون عليها المجرمون: فالصورة العامة هي أن المجرمين يكونون زرقا. ذهب بعضهم إلى أن لونهم يكون أزرق وهو لون قبيح، وذهب بعضهم إلى أنهم زرق العيون، والعيون الزرق مكروهة عند العرب ، وقيل المراد بالزرق العُمْيُ .والذي ترجح عندي أن المراد بالزرقة لون الإنسان عندما يختنق فيتغير لونه إلى زرقة، ويعاني من ذلك أشد العناء، فدل ذلك على أن الكرب يلازمهم في المحشر من حين خروجهم مختنقين يطلبون النفس فلا يجدونه . فناسب الوصف الثاني وهو أنهم يتحدثون فيما بينهم بصوت خفي، وهو صوت المختنق.

سجل القرآن الوضع الذي سيكونون عليه يوم القيامة زرقا يتحدثون هامسين، وما هو حديثهم ؟ يقول بعضهم لبعض إن الفارق الزمني بين موتنا وبعثنا لا يكون أكثر من عشرة أيام، بناء على العقيدة التي ماتوا عليها: أنه إذا تحللت أجسامهم وأصبحت هباء لا يمكن أن تعود. وهنا يدخل صوت الحق ليعلن أن كل ما ينطقون به سرا لا يخفى عن الله العليم. ويبرز القرآن في صورة تهكمية من يظن نفسه أدق في التقدير ورأيه أولى بالقبول: أنهم ما لبثوا إلا يوما، أي إن الزمن الفاصل بين موتهم ويوم بعثهم يوم واحد. وذلك لأنه وجد أن حالته الجسدية لم تتغير عن آخر يوم له في الحياة، ولذلك اعتقد ووثق أنه مات بالأمس وبعث اليوم.

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا
تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ
ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَـٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ إِلَّا مَنْ
أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا
يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ
حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا
هَضْمًا ﴿١١٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

القاع : الأرض السهلة.

صفصفا : مستوية.

لا أمتا : لا نتوء فيها. وقد نسفت الروابي والجبال.

الداعي : هو إسرافيل الملك الموكل بدعاء الأموات للقيام من قبورهم أحياء.

الخشوع : الخضوع.

الهمس : الصوت الخفي.

عنت : خضعت ذليلة. والعاني يطلق على الأسير.

القيوم : القائم بتدبير الناس.

الهضم : النقص.

بيان المعنى الإجمالي :

تحير المشركون كيف يقضي الله على الكون بالفساد، مستبعدين أن تزول الجبال الشامخة ،فسألوا عن مصيرها ، فألهم الله نبيه ﷺ ما قضى به، قل لهم :إن الله يفتتها تفتيتا فتنقلب أماكنها إلى أرض سهلة منبسطة، يمتد بصرك فلا تجد بعد زوالها منعرجا ولا مكانا مرتفعا.

يوم القيامة يسمع كل فرد من البشر دعوة الداعي فينجذب إلى مصدر الصوت مسرعا غير متردد، وقد خشع الجميع لله فلا تسمع منهم إلا صوتا خافتا لا يقوى على أرفع من ذلك. هم في يأس فلا ينتفعون بشفاعة شافع، ولا يتقدم أحد للشفاعة إلا من صدر له الإذن بذلك من الرحمن الذي يضع رحمته حسب حكمته، ويهدي الله الشافع للقول الذي يرضيه فيرتب عليه قبول شفاعته.

إن الله يجري الأمور على العدل الكامل، فهو يعلم ما قدمه كل فرد من الأعمال والأقوال، وما انطوت عليه النفوس والنوايا. وإذا كان الله قد أحاط علمه بكل ظاهر وخفي ، فإن البشر يقصر علمهم عن العلم بذات الله وبصفاته علما محيطا، إذ أن الله سبحانه أزلي أبدي. وعلم الإنسان محدود بحدود الزمان والمكان.

يبدو الكفرة المجرمون يوم القيامة أذلة خاضعين، تعلو وجوههم آثار ما تنطوي عليه بواطنهم من المهانة. وفي هذا اليوم تتحقق خسارة وخيبة من انطوى على الظلم والكفر.

و في المقابل تظهر السعادة والبشر على وجوه الذين عملوا الأعمال الصالحة، وصدرت فعالهم عن إيمان نقي وقصد طيب. إنهم لا يخشون يوم القيامة فقد جزاء صالح أعمالهم، ولا أن ينقص منها شي فهم يجدون أجرهم وافيا.

بيان المعنى العام :

105←107: ويسألونك عن الجبال ...ولا أمتا.

أنذر القرآن المشركين بالبعث بعد فناء العالم. وعظم في تصورهم الساذج فناء الجبال الراسية. خاصة ومكة يحيط بها الجبال. فهدى الله نبيه ﷺ ليجيبهم عن سؤالهم ذاك: إن قدرة الله الذي خلق تلك الجبال لا تعجز عن تفتيتها تفتيتا تنقلب به هباء. ويقلب أمكنتها إلى أرض سهلة مستوية وغير صخرية. أينما نظرت يمتد بك البصر إلى أبعد نقطة، إذ قد انبسطت انبساطا ليس معه منعرجات، ولا نتوءات، ولا أماكن مرتفعة.

108-يومئذ يتبعون الداعي ...فلا تسمع إلا همسا.

يواصل القرآن بيان هول يوم القيامة. فبعد أن صور فساد عناصر الكون القوية الشديدة كالجبال، أعقبه ببيان حال البشر في ذلك اليوم. إنه يوم شديد يقوم الملك الموكل بدعوة الناس إلى المحشر، فتبلغ دعوته كل فرد من الناس، وينتهي الاختيار الذي كان مناط التكليف، فكل سامع يأتي قسرا ودون تردد ،منجذبا إلى مصدر الصوت في خط مستقيم . وفي هذا المشهد الرهيب لا يقدر أي إنسان أن يصيح أو يرفع صوته، فمن الهول يهمسون بما ينطقون، لا تسمع إلا وشوشة ضعيفة حذرة خائفة.

109-يومئذ لا تنفع الشفاعة ...ورضي له قولا.

يظهر القرآن إثر ذلك صورة أخرى من هول يوم القيامة، بعد أن بين حالة الكون، وحالة الإنسان المسرع إلى إجابة الداعي، هذه الصورة هي أن شأن الإنسان إذا أحاط به البلاء وتبين له عجزه، أنه يبحث عن المساعد الذي يشد أزره ويسعده بالعون لينقذه من موقفه الصعب، فينفي القرآن أن يجد أحد من نفسه القدرة على التوسط بين الخلائق وبين الخالق، ليخفف عنهم ما يقاسونه. فنفى أن ينتفع أحد بالشفاعة على معنى أنها لا تقع. واستثنى حالة الشافع الذي لا يتقدم لذلك إلا بعد صدور الإذن له من الرحمن. أي إلا إذا اقتضت رحمته التخفيف بناء على بالغ حكمته. وقد ورد في السنة أن النبي ﷺ يسجد سجودا يطول فيأذن الله له في الشفاعة فيشفع .جعلني الله وإياكم من المفوزين بشفاعته ﷺ . والعلم الشامل ينبني عليه أن الشافع ملهم من فضل الله، فيتكلم بالكلام الذي يرضى الله عنه رضى يستجيب به للشفاعة ، والكل من فضله سبحانه.

110-يعلم ما بين أيديهم ..به علما.

وذلك من أثر العلم الذي أحاط بما هو ظاهر من الأقوال والأفعال التي حصلت من المشفوع لهم في الدنيا " **ما بين أيديهم** "، كما أنه سبحانه عليم بما انطوت عليه سرائرهم مما هو مخفي عن الناس " **وما خلفهم** "

وتعالى الله في عظمته وكمالـــه أن يحـيط بــه علــم البشـــر القاصـــر المحـــدود، إذ هـــو سبحانه لا تحده حدود وليس لذاته ولا لصفاته بداية ولا نهاية.

111-وعنت الوجوه ...من حمل ظلما.

ثم أعطى القرآن صورة تجمـــع بـــين الوضـــع النفســـي والصـــورة الظـــاهرة للمجـــرمين الكفرة، فهو تكميل لقوله تعالى: "**ونحشر المجـــرمين يومئـــذ زرقـــا** " فـــذكر أن وضـــعهم وضع ذلة ومهانة، استقرت الذلـــة فـــي نفوســـهم وظهـــرت علـــى وجـــوههم، وخضـــعوا للحي الذي تؤكد هذه الصفة علمه الشامل الكامـــل، واطلاعـــه علـــى الخفـــي والظـــاهر، القيوم القائم بتدبير أمـــور الكـــون والبشـــر، فكـــل شـــيء يســـتمد منـــه حقيقـــة وجـــوده وموجبات بقائه وما يصدر عنه.

ثم ختم القرآن العرض السابق بقاعدة لا تتخلف، عليهـــا يجـــري النظـــام: أن مـــن انطـــوى على الظلم " **إن الشرك لظلم عظيم** " خاسر تلزمـــه الخيبـــة فـــي المـــآل، فـــلا يجـــد لمـــا قدمه في حياته الدنيا أي أثر ينفعه .

112- ومن يعمل من الصالحات ...ظلما ولا هضما.

وفي المقابل فإن من يعمل الأعمال الصـــالحة، ولا تكـــون صـــالحة إلا إذا صـــدرت عـــن نفس تطهرت وسمت بالإيمان، وارتبطت بالنيـــة الحســـنة والقصـــد الخيـــر، فليبشـــر بـــأن ما قدمه من صالح الأعمال لا يضـــيع مـــن جزائـــه شـــيء، فـــلا يظلـــم بإحبـــاط صـــالح أعماله ، لا يخاف أن ينقص له من أجره الموعود ولو قليلا.

وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

التصريف : التفنين والتنويع .

يتقون : يخافون فيطيعون.

ذكرا : تدبرا.

بيان المعنى الإجمالي :

على هذا النحو من الإعجـــاز أنزلنـــا القـــرآن بلغـــة متميـــزة فـــي الدقـــة وحســـن الأداء، ونوعنا فيه من ضروب الوعيد بالتحـــذير تـــارة، وبتجســـيم صـــنوفه، وبعـــرض المـــثلات التي مضت، وبذكر ما تحدثه الذنوب من فساد فـــي الفـــرد وفـــي المجتمـــع ونحـــو ذلـــك.

رجاء أن يتعظوا فيقلعوا عن الكفر والشر، ويؤثر فيهم تأثيرا يجعلهم مقبلين على الطاعة والتدبر. جل الله وسما عن كل نقص، هو الملك الحق، وكل مدع يحسب نفسه ملكا مخدوع واهم ومتبع للباطل. إذ ملكه سبحانه هو الملك الكامل لا يخرج عنه شيء أزلي باق لا ينقطع سلطانه.

ورغم شدة حرصك على وعي ما أنزل إليك فلا تعجل به قبل أن يتم إبلاغك ما كلف جبريل بإنزاله إليك. وحرصك على الاستزادة من علم القرآن محمود فادع ربك أن يزيدك علما.

بيان المعنى العام :

113- وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا...أو يحدث لهم ذكرى.

نوه الله بعنايته بهذه الأمة، ومما تمثلت فيه العناية القصص الحق عن الأمم السابقة ولفت الأنظار إلى سننه في الاجتماع للتذكر والاعتبار. في قوله تعالى: **كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق.** وثنى في هذه الآية بإنزال القرآن. وعلى هذا النحو الملحوظ أنزلناه، فسما به البشر إلى منزلة قدسية عالية، حالة كونه يتلى ويجد فيه القارئ سلاسة ويسرا ونظما عاليا يغذي العقل والروح والذوق. وتخيرنا لحمل مضمونه اللسان العربي، أقدر الألسنة على تحمل الوحي فيؤديه من غير نقص ولا اختلال . وقد مضى على إنزاله اليوم أكثر من أربعة عشر قرنا وما يزال في جمال أسلوبه ودقة بيانه وغزارة أبعاده يتحدى البشرية، ومن موجبات إعجازه ما في العربية من أسرار ارتقت بها لتكون أمينة على الشريعة الخاتمة.

ونوعنا في طرق التأثير بالوعيد لا لتيئيس البشر، ولا لسحق عزتهم، ولكن ليكونوا على رجاء أن يصلح بواطنهم، ويقوي في نفوسهم داعية الخير والعمل به ،ويجلبهم للطاعة ، ويحرك عقولهم للتذكر فينقيها من البلادة والعجز، بل تكون متحفزة للتأمل والتدبر.

114- فتعالى الله الملك الحق ...وقل رب زدني علما.

وقفة للتأمل فيما ساقته الآية من منن، دالة على الإعجاب بما أفضت إليه في النهاية من تحريك الطاقات الفكرية التأملية. أبرزت ذلك في الإعلان عن الثناء على منزل القرآن بما تبعه، تقدس وسما منزل القرآن الله الملك الحق ، وما يسمى به غيره من الملوك، هو زيف لا حقيقة له، ذلك أن من يلقب نفسه بالملك هو ناقص عاجز فان ، ملكه موقت بزمن ينفصل عنه شاء أم أبى. وملك الله ملك دائم لا ينقطع.

وإذا كان القرآن بتلك المنزلة التي نـــوه الله بهـــا، فـــإن إحســـاس النبـــي صـــلى الله عليـــه وسلم بتلك الخصائص، وتشبعه من أسرارها ، جعله شـــديد الحـــرص علـــى تقبـــل إنـــزال أكثر منه، والتعجيل بـــه . فأرشـــده ربـــه إلـــى التريـــث وعـــدم ســـؤال تعجيـــل الآيـــات القرآنية. فإن الله أحكم تفريق تنزيل آيات القرآن.

كما يحتمل معنى الآية أن النبي ﷺ كان شديد الحرص على حفـظ مـــا يصـــل إليـــه مـــن الوحي ،فيعجل في تلاوة ما سمعه من جبريـــل وتـــرداده تثبيتـــا للحفـظ، وتحصـــينا مـــن النسيان، فأرشده ربه أن يتريث ولا يســـرع بالإعـــادة قبـــل أن ينهـــي جبريـــل إلقـــاء مـــا أمر بتبليغه. والله قد ضمن حفظ القرآن قال تعـــالى: **(لا تحـــرك بـــه لســـانك لتعجـــل بـــه إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه)** [1].

ولما كان الدافع للنبي ﷺ التعلق الشديد بما ينزل عليه مـــن القـــرآن، ونهـــاه عـــن العجلـــة، فرق القرآن بين استعجال الوحي، وبين حب الزيـــادة مـــن العلـــم الـــذي يتحقـــق بـــالقرآن، فأكد له رضاه عن ذلك الحرص، بقوله وقـــل رب زدنـــي علمـــا. فالزيـــادة مـــن القـــرآن محمودة، بل هي الخير كله.

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

العزم : الجزم وعدم التردد.

تضحى : مضارع ضحي، أصابه حر الشمس.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد عهدنا لآدم أن يحتاط ولا يأكـــل مـــن الشـــجرة. وكـــان هـــذا العهـــد أول عهـــد ألزم به الله واحدا من البشر. ولكن آدم لم يحرص على تـــذكر العهـــد حتـــى نســـيه وفقـــد العزم الكابح له عن عدم مراعاة العهد.

[1] سورة القيامة آية19/16

واذكر إذ قلنـا للملائكـة اسـجدوا لآدم تكريمـا لـه بعـد أن ظهـرت مزايـاه وقدراتـه العلمية، واستجاب الملائكة فسـجدوا تنفيـذا للأمـر وعبـادة لله. وكـان إبلـيس مطالبـا بالسجود فامتنع وعصى الله.

قال الله لآدم : احذر، إن هذا الشـيطان مصـمم علـى عـداوتك وعـداوة زوجـك ، قـد امتلأ حسدا لكما، وهو يسعى للكيـد لكمـا فتنبهـا حتـى لا يصـل إلـى إخراجكمـا مـن الجنة فتذوق الشقاء بعد النعيم. لقد جمعت لـك فـي الجنـة ضـروب النعـيم والهنـاء. لا تحس بالجوع ولا حاجة بك إلى اللباس، ولا تحس بالعطش ولا بحر الشمس.

بيان المعنى العام :

115- ولقد عهدنا إلى آدم ....ولم نجد له عزما.

مع التحقيق الأكمل سبق أن عهـدنا إلـى آدم عهـدا موثقـا، يقتضـي أن لا يأكـل مـن الشجرة. كان هذا الالتزام من آدم أول العهود التـي أخـذها الله علـى البشـر. ولكـن آدم ضعف عن تحمل تذكر العهد والوفاء به إلى غاية مداه. ذلـك أن مـن عهـد إليـه بشـيء ليوفي به، فإنه تبعا لتداخل مشاغله وتعددها قد يـذهب مـا عهـد إليـه بـه مـن مقدمـة الاهتمام، ثم لا يزال يتراجع وينزل إلى أن تغمه اللواحـق ويسـقط فـي بـؤرة النسـيان. ولا يبقي على اليقظة له إلا عزم علـى الوفـاء يتجـدد، ويطـرد دواعـي النسـيان التـي بيّناها. فآدم عليه السلام ضعف عزمه عن تجديد تذكر العهـد. فبـدا كأنـه لا عـزم لـه حسـبما تفيده الآية، ولم نجد له عزما، إذ لو كان له عزم لَوُجِدَ.

وفي هذا المقطع تنبيه للمؤمنين حتـى لا تتراخـى عـزائمهم بالغفلـة وعـدم تـذكر مـا التزموا به لما دخلوا في دين الله وعاهدوا الله على تطبيق شرعه.

116- وإذ قلنا للملائكة اسجدوا...إلا إبليس أبى .

مفاد الآية تقدم نظيره في سورتي البقرة والأعـراف . وخلاصـة مـا تـدل عليـه الآيـة: اذكر ما تم عندما أمر الله الملائكة بالسـجود لآدم. علـى معنـى التحيـة، مـع تخصـيص الله بالخضوع، لأنه هو الذي طلب منهم السجود فتنفيـذه تطبيـق للأمـر الإلهـي إكرامـا لآدم لا عبادة له. وأن الملائكة استجابوا، وامتنـع إبلـيس مـن السـجود مـع أنـه كـان داخلا في الأمر.

117←119: فقلنا يا آدم اسكن ....ولا تضحى .

كشف الله خبث إبليس لآدم ونبهه بندائه " يـا آدم" اعلـم علمـا مؤكـدا أن هـذا الحقيـر " إبليس " قد أضمر العداوة لك ولزوجك. إنه حسـدكما لمـا رأى الملائكـة كلهـم يحيونـك ويسجدون عند إتمام خلقك وتعليمك، وعلى ما قدرته لكمـا مـن الاقتـدار علـى الانفـلات

من الجانب المادي والسمو إلـى آفـاق المعرفـة وكشـف أسـرار الكـون. إنهـا عـداوة مستحكمة تجعله يمحض كل مكره وحيله ليفسد عليكما حياتكما ويخرجكما مـن الجنـة التي مكنتكما من سكناها والتنعم بما احتوته من خيـرات دانيـة، وحصـنتكما مـن أتعـاب الحياة فيها. إياكما أن تركنا له وتستجيبان لمـا يزينـه لكمـا. إن طاعتكمـا لـه تخرجـان بها من الجنة، ولا يتبع ذلك إلا شقاؤك.

ثم عدد عليه النعم التي يسرها له فـي الجنـة، علـى معنـى أنـه بخروجـه مـن الجنـة سيفقدها، فهو تحليل لقوله: **فتشقى.** أنه قد كفـي فـي الجنـة مطالـب حياتـه الجسـمية، فهو لا يشعر بالجوع وبالتالي فـلا حاجـة إلـى إعـداد طعامـه، وهـو مسـتور سـترا جميلا، فلا يسعى ولا يفكر في لبـاس واق أو مـزين. ويجـري الـري فـي كيانـه فـلا يشعر بالعطش أبدا. وجو الجنـة منسـجم معـه انسـجاما كـاملا ينتفـع بـالنور دون أن يتأذى بوهج الشمس زمن الضحى وما يتلوه. وهـو يشـير أيضـا إلـى توافـق تـام بـين وضعه الجسدي والجو في الجنة كمسـتوى الضـغط، والنـور ومقـدار انتشـاره، وقـوة الأصوات إلى آخره، مما يجعل حياته في الجنـة الحيـاة السـعيدة التـي لا يجـري معهـا في تفكيره أي مطلب من المطلب .

فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ
﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ
وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ
ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ
هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا
وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا
﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى
مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

يخصفان : يلفقان بضم بعض الورق إلى بعض.

غوى : الغواية ضد الرشد، فهي عمل فاسد أو اعتقاد باطل.

اجتباه : اصطفاه.

هدى : أرشده إلى ما فيه نفعه.

ضنك : الضنك الضيق النكد الشاق.

أسرف: ضل في اعتقاده.

بيان المعنى الإجمالي :

ثم ما حذر الله منه آدم، فإبليس لتمكن عداوتـــه لـــه، أتـــاه مـــن مـــأتى خفـــي فـــألقى فـــي تفكيره حب الأكل من الشجرة ، وشوقه بتحريـــك غريـــزة حـــب البقـــاء، فـــأغراه بالأكـــل لأن هذه الشجرة تضمن له البقاء السرمدي ولا يفنـــى، وبغريـــزة حـــب التملـــك، علـــى أن من أكل منها يحصل له الملك الأبـــدي الـــذي لا يفنـــى. تراخـــت عزيمـــة آدم وأكـــل مـــع زوجه من الشجرة فتعريا فـــي الحـــين ممـــا كـــان يســـتر بـــدنيهما، والتجـــآ إلـــى أوراق الشجري يلفقان منها ما يغطي بـــدنهما. وبـــذلك عصـــى آدم ربـــه، وقـــام بعمـــل فاســـد سيقاسي نتائجه. ثم إن الله قبل توبته وتوسلاته فتاب عليـــه وغفـــر لـــه ذنبـــه وهـــداه إلـــى العمل الذي يرضى به عنه. وقال الله للثلاثة آدم وحـــواء وإبلـــيس لـــيس لكـــم مكـــان فـــي الجنة، انزلوا إلى الأرض، والعداوة مستحكمة بـــين إبلـــيس وذريتـــه وبـــين آدم وذريتـــه. وتوجه إلى آدم وذريته أنه إن جاءكم مني هدى، فـــإن مـــن اتبـــع هـــداي والتـــزم بـــالمنهج الذي تلقاه عن المرسلين، أمن ولا يقع في الضـــلال وبالتـــالي يكـــون ســـعيدا. وأمـــا مـــن أعرض عن الهدى الذي بلغه، فـــإن حياتـــه فـــي الـــدنيا ســـتكون حيـــاة نكـــدة عســـيرة، وسيبتلى يوم القيامة بفقدان بصره فيحشـــر أعمـــى يتخـــبط ويتعثـــر. ومـــن شـــدة الـــبلاء يسأل الله قائلا: لقد كان نظـــري فـــي حيـــاتي ســـليما فلمـــاذا أفقـــدتني بصـــري اليـــوم؟ إمعانا في إذلاله يتلقى الجواب: كذلك حشرتك أعمـــى لأنـــي مكنتـــك مـــن آيـــاتي الهاديـــة فأعرضت عنها، وجعلتها نسيا منسيا لا دخل لهـــا فـــي تخطـــيط حياتـــك. فعوملـــت اليـــوم بحرمانك كذلك من بصرك.

ولتحذروا أيها المستمعون للقرآن فإننا نجزي علـــى هـــذا النحـــو مـــن كفـــر ولـــم يـــؤمن بآيات ربه. وإن عذاب الآخرة أشد من عذاب الـــدنيا لأنـــه لا يهـــدأ ولـــو لحظـــة، وهـــو عذاب موصول أبدي لا ينقطع.

بيان المعنى العام :

120-فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم ...و ملك لا يبلى.

تمكن إبليس من أن يلقي في فكر آدم ما هيـــأه مـــن الكيـــد لـــه، وكـــان حاصـــل الكـــلام الخفي الذي أحس به آدم واقتنـــع بـــه: أحـــس بنـــداء فـــي باطنـــه يقـــول لـــه:" يـــا آدم " أعرض عليك أن أعرفك على شـــجرة عجيبـــة ، مـــن أكـــل منهـــا حقـــق لنفســـه الخلـــود

المرفه ،وذلك بتحقق الملك الأبـدي الـذي لا ينتـزع منـه. واقتنـع آدم بـذلك، وكانـت دوافعه الفطرية نومت حـذره. أتـاه الشـيطان أولا: مـن جانـب غريـزة حـب البقـاء فتأثر، وصادفت وسوسته رغبة فطرية في الجـنس البشـري؛ وثانيـا مـن غريـزة حـب التملك كذلك. ويبدو أن إبليس اختار أن يوسـوس لآدم، تبعـا لشـدة خبثـه إذ قـدر أن آدم إذا انصاع لوسوسته فإن زوجه ستتبعه على سنة الحياة البشرية.

121-فأكلا منها فبدت...وعصى آدم ربه فغوى.

تبعا للوضع الذي تحول إليه من الشوق الفطري للأكـل مـن الشـجرة التـي دلـه عليهـا إبليس ، تقدم مع زوجه وأكلا من الشجرة. وبمجرد مـا أكـلا تعريـا وذهـب مـا كـان يستر جسميهما، وافتضحا بالعري، فعملا علـى سـتر مـا يمكنهمـا سـتره بـورق مـن أغصان الشجر. وبذلك تحقق عصيان آدم لربه الـذي نهـاه عـن الأكـل مـن الشـجرة. وعصيان الله ليس بالأمر الهين، فتبعه أن اعتبر آدم غاويـا مخالفـا لمـا أمـر بـه غيـر متحصن من الزيغ عن اتباع طريق الرشد.

و لما كان آدم وهو في الجنة خارجا عـن عـالم التكليـف، فإنـه لـم يكـن يومهـا نبيـا وليست له عصمة. فلا دليل في الآية على عدم عصمة الأنبياء ولا على العكس.

122-ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى.

طوت القصة خروجهما من الجنة، وتوسـلات آدم التـي تلقاهـا مـن ربـه ممـا بينتـه سورة البقرة، وإشارة إلى تلك المرحلة عطفت الآية بكلمـة " ثـم " الدالـة علـى التراخـي والفصل بين ما قبلها وما بعدها. ثـم إن الله بفضـله ورحمتـه، اصـطفاه فحمّلـه شـرف النبوة وهداه إلى ما فيه الخير له ولذريته من التوحيد وما يتصل به.

123- قال اهبطا منها ...فلا يضل ولا يشقى.

صدر الأمر الذي لا رجوع فيـه لآدم ولإبلـيس: انـزلا مـن الجنـة جميعـا لا يتخلـف أحدكما عن انطباق الأمر عليـه، فقـد جعلـت الأرض محـلا لإقامتكمـا. وتتبـع حـواء زوجها في الهبوط. ومع هبوطكما من الجنـة فقـد تأكـدت عـداوة كـل منكمـا للآخـر. ويشير قوله تعالى **بعضكم لبعض عدو**، إلى أن العداوة سـارية فيمـا تناسـل منهمـا ولـذا جمع الضمير " بعضكم"

وواصل مبينا التحول الكبير الذي حصل فـي حيـاة آدم وحـواء، وفـي حيـاة ذريتهمـا، أصبحوا في عالم اختلط فيه الخير بالشـر والصـلاح بالفسـاد، مكلفـين مسـؤولين عـن كل عمل يعملونه، لا غنى لهم عن العـون بالهدايـة المبينـة لطـرق الرشـد والصـلاح التي تأتيهم مني أنا الله العليم بالغايات القريبـة والبعيـدة ، ومـا يجلـب للإنسـان الخيـر

وما يوقعه في الشر. وأنهم مطالبون باتباع ما يتلقونه من رسل الله، حتى يحصنوا أنفسهم من الوقوع في الضلالة، التي يتبعها الشقاء ولا بد، كالوقوع في التناقض بين الحقيقة التي يسلم بها وبين بعض الأفعال التي يقوم بها. بيان ذلك: أن الفصل بين الحياة وبين موجدها يؤول بالإنسان إلى التأثر بهواه وغرائزه في اختياراته، وهو المختار، دون شعور منه، والغرائز والهوى والشهوات تضرب بحجاب على العقل في بعض الأوقات على الأقل، وتحول بين نوره ولماع بريقه وبين النظر المستجيب لطبيعة الحق ولذلك لا تكاد تجد عبقريا من عباقرة العالم، وأشدهم ذكاء ونباهة، إذا لم يتحصن بالإيمان الحق، لا تجد سلوكه الخاص إلا ملوثا بسقطات وانحرافات قبيحة. وضلالات تشقيه حتما في آخرته وقد تشقيه في دنياه .

124 - ومن أعرض عن ذكري...يوم القيامة أعمى .

وبالمقابل فإن من أعرض عن الذكر الذي أنزلته، ولم يلق له بالا، وواصل حياته معرضا عما جاء به المرسلون، فإن الخسارة تلحق به أولا. ستكون حياته ضيقة مضروبة بالعسر. ذلك أن همه منحصر في الرفاه المادي. وكلما تعلق الإنسان بالمادة ضيقت عليه الخناق واستعبدته. فهو في ضنك الانقطاع عن الاتصال بالله، وضنك القلق والحيرة، فلا هو يدري من أين أتى ولا إلى أين يسير، وليس له في الشدة من ولي يرقب منه العون ولا نصير يأمل أن يأتيه منه الفرج. ويتواصل معه الحرمان يوم القيامة فيحشر أعمى لا يبصر شيئا، يتخبط وينساق إلى مصيره كما يساق من سينفذ فيه حكم الإعدام معصوب العينين إلى سوء مصيره.

125 -قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا.

يتوجه الأعمى لإعراضه عن النظر فيما أتى به الرسل، إلى ربه متوسلا: رب لما ذا أفقدتني حاسة النظر، مع أن بصري كان سليما في الدنيا. وشأن الإنسان أن تخف مصيبته إذا علم سببها، إذ معرفة السبب تعطيه الأمل بزوالها إذا ذهب السبب. ويأتي الجواب الذي يفرغ في قلبه شحنة اليأس من ناحية ، ويزيده كمدا بتحميله المسؤولية، فهو السبب، فيقول الله له: كنت ممكنا في الدنيا من النظر في آياتنا فأعرضت عنها إعراض الناسي لها ، وعلى ذلك النحو تنسى اليوم وتحرم فلا تجد طاقة بصرك. وهو جزاء من نوع الجريمة. فالجريمة عدم النظر في الدنيا والجزاء عدم البصر في الآخرة.

126←127:قال كذلك أتتك آياتنا ...ولعذاب الآخرة اشد وأبقى.

كما سلطنا على من أعرض عن ذكرنا الحرمان في الدنيا من سعة العيش وطمأنينة الضمير، نجزي من كابر في آياتنا وكفر، المهانة والحرمان من رحمتي

يوم القيامة. وإن عذاب الآخرة أشد لكونـه لا يهدأ ولا يسكن ألمه، ومع شدته هو مستمر لا ينقطع.

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ وَمِنْ ءَانَآئِ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

أفلم يهد لهم: أفلم يبين لهم فيرشدهم.

النهى : العقل .

الكلمة : التقدير السابق في مسيرة الكون.

لزاما : لازما.

مسمى : محددا.

آناء الليل : ساعاته.

ترضى : تثاب وتعطى ما يرضيك.

مد العينين : إطالة النظر.

زهرة الحياة : زينة مباهج الحياة وجمالها.

اصطبر : انحبس، أكثر من النوافل .

لا نسألك : ما كلفناك.

بيان المعنى الإجمالي :

عجب من هؤلاء المشركين يقيمون على الشرك مع أن الله بين لهم بيانا واضحا، عاقبة الذين أشركوا بالله كيف دمرهم، إنهم يمشون في الديار التي كانوا يسكنونها، يشاهدون أنه لم يبق من حضارتهم إلا آثار تنادي من له عقل أن يعتبر بمآلهم. إن الله لم يعجل بإهلاك المكذبين الكائدين للإسلام إلا لأنه سبحانه لا يعجل بالعقوبة، ولكنه تبعا لعلمه وحكمته يدمر في الوقت المناسب من قدر إهلاكه، ويستبقي من سيكون قوة للدين .

تدرع بالصـــبر فســيظهر الله أمـــره، ولا تكتـــرث بـــأقوالهم الفاســـدة والمؤذيـــة، وتَقَـــو بالإقبال على الصلاة قبـل طلـــوع الشـمس "صـــلاة الصـــبح " وقبــل الغـــروب "صـــلاة الظهر والعصر " وأوقاتا من الليــل " صــــلاة المغــرب والعشــاء " وكـــن متـــذكرا ربــك مسبحا بحمده في ساعات النهار. لا يشغلك العمل عـــن التســبيح. فإنــك ترجـــو بـــذلك أن يحصل لك الرضا النفسي والسعادة. ولا يعجبــك مـــا رزقـــوه مـــن نعـــم فتـــديم تثبيـــت بصرك فيها ، فما تلك النعم إلا زهـــرة الحيـــاة الـــدنيا، والزهـــرة وإن كانـــت جميلـــة إلا أنها سريعة الذبول، يفتن الكفار بها فتنة تـــذهب بهنــــائهم وتؤكـــد شـــقاءهم . فبإعراضـــهم عن شكر الله ســـلبوا مـــن النعمـــة حقيقتهـــا. وأمـــا المؤمنـــون فـــرزقهم مـــرتبط بـــالله بواسطة الشكر والاعتـــراف بفضـــل مســـديه، رزق ربـــك، يصـــحبه الأمـــن والطمأنينـــة والرضا، فهو خير، وسينضم لنعيم الدنيا فيه ثواب الأخـــرة علـــى الشـــكر وعلـــى الكســـب الحلال. وفي الختام يأتي الأمر بما يجعـــل جـــو بيـــت النبـــوة كلـــه صـــلاح وعبـــادة لله، فيأمر نبيه أن يحرص على مـــن يقـــيم معـــه ليقيمـــوا الصـــلاة، وأن يكثـــر مـــن التنفـــل. واعلم أنا لا نطلب منك رزقـــا كمـــا يفعـــل الجبـــاة الـــذين يجمعـــون الأمـــوال للرؤســـاء والقادة. إنني أنا الغنـــي أرزقـــك مـــا يكفيـــك، والخاتمـــة الصـــالحة هـــي خاصـــة بأهـــل التقوى، يستوي في ذلك حالهم فـــي الـــدنيا بالطمأنينـــة والرضـــا، وحـــالهم فـــي الآخـــرة بالفوز بجميع أنواع النعيم.

بيان المعنى العام :

128 -أفلم يهد لهم كم أهلكنا... لآيات لأولي النهى.

استفهام تعجبي من إقفال المشركين عقـــولهم عـــن الاعتبـــار بمـــا يشـــاهدونه مـــن آثـــار الأمم السابقة. فالتقدير أفلم يبين الله لهم من العبـــر مـــا ينتبهـــون بـــه إلـــى عاقبـــة الـــذين يكذبون رسل الله. إذ يمر العرب في رحلتهم إلـــى الـــيمن علـــى مســـاكن عـــاد، ويمـــرون في رحلتهم الشامية على ديار ثمود. وهـــي مســـاكن أقـــوام كانـــت لهـــم حضـــارة وقـــوة، وأرسل إليهم رسله لما انحرفوا وكفـــروا بـــالله، وحكمـــوا فـــي علاقـــاتهم أهـــواءهم. فلـــم يرتدعوا وعصوا الرسل، وتحدوا كما ســـبق فـــي تفصـــيل عصـــيانهم وتمـــردهم، فســـلط الله عليهم العقاب الذي دمرهم به، وأبقى آثارهم عبرة. إن فـــي تلـــك الآثـــار ومـــا بســـطه القرآن من مواقفهم وأحوالهم وأنواع عذابهم مـــا يقـــوم منـــه شـــواهد علـــى ســـنة الله فـــي الذين يرفضون الحق ويستكبرون. يـــتعظ بهـــا أصـــحاب العقـــول التـــي تتأمـــل فتحصـــن نفسها من عواقب السوء. والآيـــة تشـــير إلـــى أن المشـــركين كـــأنهم لا عقـــول لهـــم. إذ العقل الذي يغفل عن الشواهد المعروضة أمامه، ويمـــر مـــع ذلـــك كأنهـــا غيـــر موجـــودة عقل كالعدم.

129-ولولا كلمة سبقت ...وأجل مسمى.

هون الله على نبيه إعراض قــريش، ومواصـــلة صـــدهم النـــاس عـــن الإســـلام، ببيـــان هوانهم على الله، وأنهم في قبضـــته تنفـــذ فـــيهم أحكامـــه متـــى أراد. وعرفـــه أن العـــالم يسير حسب حكمته وتقديره الذي سبق في علمـــه، وعلمـــه ســـبحانه لا يتـــأثر بـــالظروف، ولكنه يمضي بما تتحقق معه الحكمة الأزليـــة التـــي لا تظهـــر فتـــدرك إلا فـــي ميعـــاد ظهورها ، فهو يمهل لحكمة في الإمهـــال ، وينجـــز لحكمـــة فـــي الإنجـــاز. ولـــولا ذلـــك لسلط العذاب عليهم بمجرد ما يؤذونك ويعترضـــون مـــد الـــدين. وفعـــلا فـــإن الله أمهـــل قريشا، ولم يعاجلهم جميعا بالعقوبة، بل ميز بين الذين علـــم أنهـــم مصـــرون علـــى الكفـــر ولو جاءتهم كل آية، فلقوا مصارعهم في غزوة بدر وهـــو الأجـــل المســـمى الـــذي عينـــه. وأمهل فريقا آخر فكان منهم المؤمنون الصـــالحون والقـــادة الـــذين فـــتح الله علـــى أيـــديهم أقطار الأرض ونشروا الإسلام وبذلوا في سبيله أرواحهم.

هذا هو الفهم الذي رجحـــه كثيـــر مـــن المفســـرين . وذهـــب بعضـــهم إلـــى أن الأجـــل المسمى هو الموت الذي يلقى فيه المصر علـــى الكفـــر أول مراحـــل العـــذاب الـــذي قـــدر له. وحمله بعضهم على أنه يوم القيامة.

130- فاصبر على ما يقولون ....لعلك ترضى.

لاشك أن النبي ﷺ يتأثر بما ينشره المشركون مـــن تحريـــف الحقيقـــة، وإذايـــة المســـلمين، والإشاعات المختلقـــة، وصـــور كثيـــرة مـــن الوقاحـــة، فأرشـــد الله نبيـــه إلـــى التحلـــي بالصبر، صبر من يثق بأن العاقبة له، وأن ربـــه مؤيـــد لـــه لا يتركـــه. ولا يحزنـــك مـــا يقولون ويتقولون ، والتجئ لتقوية عزيمتك ولتجد الطمأنينـــة وتفـــتح لـــك أنـــوار الأمـــل ، إلى التسبيح بحمد ربك، التسبيح الشامل لقول: سبحان الله، وللصلاة.

ذكرت الآية الأوقات التالية:

1) قبل طلوع الشمس: وهو وقت صـــلاة الصـــبح. وهـــو أول اليـــوم يفتتحـــه المـــؤمن بالتوجه إلى الله وتجديد الصلة به، وشحن روحه بطاقات نورانية تؤيده.

2) قبل غروب الشمس: وهـــو يشـــمل صـــلاة الظهـــر وصـــلاة العصـــر فكلتاهمـــا فـــي النصف التالي لـــزوال الشـــمس عـــن كبـــد الســـماء. فيحصـــن روحـــه مـــن أن يكـــون لمشاغل الحياة سلطان عليها، ويطرد بعض الغبش الذي علق بها.

3) ومن آناء: جمع إني وهـــو ســـاعات الليـــل، الشـــاملة لصـــلاتي المغـــرب والعشـــاء. وبذلك يكون المؤمن كلما أوغل في الحياة ومشـــاغلها، يقـــوم نـــداء الصـــلاة فـــي باطنـــه يحيى قيم الإيمان والشريعة والاستقامة في نفســـه، فتجـــده بواســـطة الصـــلاة علـــى ذكـــر دائم بالله. وهذا ما فسرته السنة النبوية .

4) وأطراف النهار: لقد تم بمـا حمـل عليـه المقصـود مـن الفـاظ الثلاثـة اسـتيعاب أوقات الصلوات الخمس، ويقوم سؤال إثر ذلك، وهـو علـى مـا ينبغـي أن يحمـل قولـه تعالى: **وأطراف النهار** ؟

حمله كثير من المفسرين على أنه تأكيد للحـث علـى صـلاة الظهـر باعتبـار أن قـوس الشمس يبلغ نصفه عند الزوال ، فيكـون عنـد الميلان ممـثلا لطـرفين طـرف سـابق وطرف لا حق فاستعمل المثنى استعمال الجمع " أطـراف النهـار" والتمحـل علـى هـذا التخريج باد.

الذي اطمأننت إليه هو ما ذكره ابن الكلبي : أطـراف النهـار :سـاعاته.[1] ويكـون الـنص القرآني قد شمل الصلوات الخمس أولا، ثم أرشـد إلـى تسـبيح الله تسـبيحا مكـررا فـي ساعات النهار.

وتختم الآية " **لعلك ترضى**" خطابـا للنبـي ﷺ : وبـذلك ترجـو أن يحصـل لـك الرضـا النفسي والأمن الروحي والسعادة الكبرى . وهذا الختام فيـه تصـريح بقـوة تعلـق النبـي ﷺ بربه وبالصلاة، فروحـه لا تبلـغ أقصـى تنعمهـا بـالروح والريحـان ويكتمـل لهـا الرضا إلا بالصلاة. وقد قـال ﷺ: وجعلـت قـرة عينـي فـي الصـلاة. رواه النسـائي والحاكم والبيهقي (قال بعض الصـالحين: مـا أخـاف مـن المـوت إلا مـن حيـث أنـه يحول بيني وبين قيام الليل، اللهم ارزقني قوة الصلاة في القبر .[2]

131-ولا تمدن عينيك ... ورزق ربك خير وأبقى.

يوالي القرآن عنايته برسول الله فيرشده بمـا يثبتـه علـى المـنهج الـذي ارتضـاه فـي حياته ، فليس الإرشاد في هذه الآية للفت نظره إلـى أمـر جديـد، لكـن ليواصـل ﷺ مـا التزمه ، وليكون نصا يعود إليـه المؤمنـون باعتبـار أنـه كمـال سـار عليـه رسـولهم وأُرشِد إلى متابعته. وحاصل ذلك: يا محمد لا يتملكـك الإعجـاب فتـديم النظـر لتتملـى المشاهد التي هي تحت نظرك من أنواع الـنعم التـي مكنـت منهـا أسَـرًا مـن الكفـرة "**أزواجا منهم**" بما يتمتع به كل قرين من قرينه وما رزقـوا مـن ذريـة وأمـوال وريـاش ومتاع. تلكم النعم إن هي إلا كالزهرة التـي لهـا زينـة وجمـال ورونـق يلفـت النظـر إليها، ولكن الزهرة تنتهي سريعا إلى ذبـول فسـقوط. وتلكـم المرافـق الحياتيـة عاقبتهـا اضطراب حال أصحابها "**لنفتنهم فيه**". تبدو هذه الفتنة فـي شـدة التعلـق بهـا والخـوف من زوالها، وفيما تشحن بـه قلـوب أصـحابها مـن اسـتعلاء فظلـم ثـم ذهـول عـن

---

[1] لسان العرب ج2 ص583

[2] فيض القدير ج 3ص371

المصير، وما تسببه من حسد بعضهم لبعض. وتتفاعـل تلكـم الفـتن لـتغم علـى الـنفس وتقضي على الطمأنينة والرضا. وهكذا يقـذف الله فـي قلـوب المفتـونين بمتـاع الـدنيا الغم والخوف.

نعم إن كل ما أوتوه هو من رزق الله، ولكنهم أدخلوا على النعم التي مكنهم الله منها فساد دخيلتهم، وقطعوا صلتهم بمانحها فأصبحت بانحرافهم معلقة مضطربة ومسببة لاضطرابهم.

وفي المقابل، فإن الرزق الذي يُنعِم به ربك على المؤمنين، وماهم عليه من الرضا بما رزقوا، وحمدهم وشكرهم لربهم على ما أعطاهم ، يكون هذا الرزق مُطَهّرا من الفساد ينعمون به خالصا، يزيدهم إيمانا، فيكون بذلك نيل المؤمن ما يرزقه ربه من نعم دنيوية ممزوجا بتجدد تعلقه بربه. ولذا فهو خير مما ناله الكافرون من ناحية القيمة المطلقة للرزق، وهو أبقى نفعا إذ نفعه يتجاوز الحياة الدنيا إلى ثواب الآخرة.

132- وامر أهلك بالصلاة واصطبر عليها...والعاقبة للتقوى.

كما أُمر ﷺ في الآية 130 بالقيام بالصلوات الخمس ليجـد الرضـا والسـعادة، أمـر فـي هذه الآية بأن يحـرص علـى أن يقـيم أهلـه: أزواجـه وبناتـه ومـن يعـيش معـه، الصلوات. وأمر أن يكثر من النوافل. وقـد تنـوع حـث النبـي ﷺ علـى النوافـل. قـال تعالى: (**يا أيها المزمل قم الليل إلا قلـيلا نصـفه أو انقـص منـه قلـيلا أو زد عليـه**)[1] وقال تعالى: **ومن الليل فتهجد به نافلة**)[2]

و ختمت الآية بأن الواجب نحو المنعم بكل ما يتقلـب فيـه الإنسـان مـن فضـل إلهـي، هو شكره بعبادته حق العبادة، والله هـو الغنـي الغنـى المطلـق لا يكلفـك أن تـدفع لـه رزقا، بل إنه هو الذي يرزقك. وفـي النهايـة لا يـنجح إلا مـن اتقـى ربـه. فبـالتقوى يضمن الإنسان لنفسه حسن العاقبة. وفيـه إيمـاء إلـى أن العسـر ينقلـب يسـرا بتقـوى الله. كما أن المآل السعيد يوم القيامة هو خاص بالمتقين.

وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

---

[1] سورة المزمل آية 4/1

[2] الإسراء79

بيان معاني الألفاظ :

البينة : الحجة .

الصحف الأولى : كتب الأنبياء السابقين.

الذل : الهوان.

الخزي : الافتضاح.

التربص : انتظار حصول خير أو شر.

الصراط : الدين وأصله للطريق.

بيان المعنى الإجمالي :

اقترح المشركون على رسول الله آيات قلبوا بها وضعهم، وقسام ما اقترحوه دليلا على عنادهم، إن وضعهم يقتضي النظر فيما أتاهم به رسول الله من عند الله وهم عبيده. فطلب دلائل معينة يريدون أن يؤيد بها ولا بد، ليؤمنوا به، انقلاب في الوضع، تحولوا به إلى حاكمين فيما يعتبر حجة .ما لهم ينكرون أن محمدا جاءهم بحجة هي القرآن الذي صحح ما جاء في الكتب السابقة مع أنه أمي، عاش في بيئة ليس لها علم بما جاءت به تلك الكتب.

وقطع الله ببعثة محمد ﷺ، ما يمكن أن يعتذر به المشركون، فإنه لو سلط الله عليهم العذاب بسبب كفرهم، لكانوا جديرين به وما ظلمهم، ولكنهم قد يعتذرون بأنهم ضعفوا عن طرد الشبه التي حصلت لهم، ولو أرسل إليهم رسولا هاديا لاهتدوا وما سلط عليهم الذل وما افتضحوا .فقطع الله عذرهم بإنزال القرآن حجة لا تدفع وبإرسال محمد ﷺ.

وأخيرا اسمعوا مني ما أنذركم به: إنكم بتصلبكم في الشرك آخر كلمتي لكم هي التالية :انتظروا المآل الذي لا يتخلف، مآلي ومآلكم ،إني منتظره بوثوق واطمئنان، وعند ظهوره سوف تنكشف لكم الحقيقة التي لا شك فيها، ستعلمون من كان سائرا على الطريق الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، من هو المهتدي البالغ كمال النجاح.

بيان المعنى العام :

133-وقالوا لولا يأتينا بآية...ما في الصحف الأولى.

تؤذن السورة بختامها ، فترتبط بفاتحها التي تحدثت عن تكريم الرسول بإنزال القرآن على قلبه ليكون للعالمين نذيرا، وليسعد به لا ليشقى. فتفيد هذه الآية أن الرافضين للدعوة يقترحون ما لا ينفعهم في الاهتداء لمضامين القرآن. فقالوا: لولا يأتينا بحجة واضحة صادرة مباشرة عن ربه.

ما هذا الإنكار للحقيقة ؟ ما لهم يتجاهلون وهم يعرفون أن محمدا مبشر به في الصحف الأولى، وأن القرآن الذي يتلوه عليهم يقرر ويصحح ما جاء في الكتب السابقة التي بلغها المرسلون ؟ إن اشتمال القرآن على ما ورد في الصحف الأولى، مع أن محمدا لم يتلق من أخبار المرسلين قبل القرآن شيئا، ولم ينشأ في قوم أهل كتاب، وهيمنته على الكتب السابقة بتصحيح ما ورد فيها من زيف وتناقض ، لهو أعظم آية وأبلغ حجة على أن القرآن من عند الله. زِدْ على ذلك ما طُبِع عليه نصه من بيان بلغ حد الإعجاز.

134- ولو أنا أهلكناهم بعذاب ....من قبل أن نذل ونخزى.

تبين هذه الآية فضل الله بإرسال محمد ﷺ، كما تفيد قطع معذرة الكافرين. فتفيد الآية أن الله لو سلط عليهم العذاب بسبب الشرك الذي هم مقيمون عليه ومتشبثون به لما ظلمهم، لأن دلائل نظام الكون وعجز آلهتهم التي جعلوها هم آلهة شاهدة ببطلان عقيدتهم واستحقاقهم العذاب. وقَطَعَ الله عذرهم لو أرسل عليهم العذاب بكفرهم ، في الدفاع عن أنفسهم بتبرير ما هم عليه، بأنه قد حصل لهم من الشبهات ما أضلهم، ولو أرسلت إلينا رسولا يهدينا لاهتدينا وأقلعنا عما نحن فيه ولا نصل إلى تسليط الذل علينا والفضيحة يوم القيامة. إن حجتهم الواهية تلك ترتفع من أصلها، فقد أرسلت إليكم رسولا فأعرضتم، وعاندتم واقترحتم الآيات حسب هواكم. فقد قُطِع عذركم، وأنتم أهل لما يسلط عليكم، وما ظلمناكم.

135- قل كل متربص فتربصوا...و من اهتدى.

بهذا يبلغ النص القرآني أبعد مستوى في إفحام المشركين مهددا لهم قامعا لتصلبهم، إن المستقبل سيكشف الحق، ونحن واثقون بأنكم ستلقون مصيركم فانتظروا الذل والخزي وخسران العاقبة، ونحن ننتظر ما وعدنا ربنا من النصر والتأييد وانتشار دينه في الآفاق. إنه سيظهر في الوجود من هم متمكنون من السير على الطريق السوي الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، من هم المهتدون الذين يبلغون ما يريدون أن يصلوا إليه. وفي عدم التصريح بمآلهم المفهوم من أنه عكس ما ينتظره المؤمنون إيماء إلى أنه أحقر من أن يذكر.

ويظهر بهذا الختام تأكيد قوله تعالى في مفتتح السورة "**ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى** " فأنت به سائر على الطريق السوي مهتد بهدايته. مأمون الحاضر والعاقبة.

أكملت بعون الله وفضله وتوفيقه وتأييده ما فتحه علي في فهم سورة طه، فله الحمد والمنة والشكر المتواصل وذلك يوم الأحد السابع من جمادى الآخرة 1433-التاسع والعشرين من شهر أفريل 2012- أسأله أن يعينني بكرمه على إتمامه، وأن يجعله خالصا لوجهه، وأن يغفر لي تقصيري ولوالدي وللمؤمنين، وأن ينفع به المؤمنين والمؤمنات. إنه ولي النعم .

ســـــورة الأنبيـــاء

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به. وذلك أنه ورد في آياتها اسـم سـتة عشـر نبيئـا. وهـي سورة مكية رتبتهـا فـي المصـحف الحاديـة والعشـرون. وحسـب ترتيـب النـزول: الحادية والسبعون نزلت بعد سورة حم السـجدة وقبـل سـورة النحـل. وعنـد البقـاعي نزلت تالية لسورة إبراهيم وقبل سورة المؤمنون .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ۖ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾ قَٰلَ رَبِّى يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ

بيان معاني الألفاظ:

اقترب : قرب قربا بليغا.

الغفلة : الذهول عن الشيء.

الإعراض : صرف العقل عن الاشتغال بالشيء .

ذكر : القرآن .

محدث : جديد.

أسروا : كتموا، بإخفاء الكلام إخفاء لا يكاد يسمع.

النجوى : الكلام الخفي.

أضغاث : جمع ضغث واصله الحزمة من الأعواد، وأريد منه تراكم أحلام .

بيان المعنى الإجمالي :

لم يبق بين المشركين وبــين عرضــهم للحســاب، ثــم مجــازاتهم عمــا قــدموا إلا أمــد قريب. والعجيب من أمرهم أنهم ماضون في غفلــتهم عــن المصــير الــذي يلقــون فيــه العذاب الموعود. وكان من آثار تصميمهم علــى الكفــر أنــه كلمــا كــرر إنــزال القــرآن البيان للحق والمواعظ بطرق مختلفة، وأســاليب متنوعــة، فــي مناســبات متتابعــة، فــإن موقفهم واحد أنهم يســتمعون إليــه بــآذانهم دون أن ينفــذ منــه شــيء إلــى عقــولهم، إذ عقولهم منصرفة إلى اللهو واللعب لا إلى حياة الجد التي ترفع من منزلتهم .

ثم إن رؤوس الكفر تناجوا فيما بيــنهم ليصــرفوا مــن ظهــر منــه ميــل إلــى الإســلام، فأجمعوا على صد هم بقولهم : محمد هذا الذي يــدعوكم مــا هــو إلا رجــل مــثلكم، لــه قدرات سحرية، سحر من اتبعه فأطاعــه، فــانتبهُوا ولا تتــأثروا بســحره، والحــال أنكــم تدركون بداهة ما يدعوكم إليه من باطل .

انقض نجواهم التي تناجوا بها ظانين أن الله لا يعلم مــا تنــاجوا بــه، فقــل لهــم إن ربــي لا يخفى عليه شيء فــي الســماوات ولا فــي الأرض مهمــا دق وخفــي . فقــد أطلعنــي سبحانه على ما تناجيتم به . والله هــو الســميع الــذي لا يغيــب عنــه أي صــوت مهمــا ضعف، وهو العليم بما أخفيتموه في صدوركم وصممتم على تنفيذه فسيجزيكم عنه.

وأكثر من ذلك أنهم قالوا ما يحدثكم به محمد من البعث والجزاء والجنة والنار، إن هو إلا أحلامه المتراكمة، بل هي أمور اختلقها لا أصل لها، بل هو شاعر يؤثر عليكم بسحر كلامه.

قولوا له: ائتنا بآية تصدقك على النحو الذي تأيد به من قبلك من المرسلين.

إنهم ما دروا أن من سنة الله في أهل القرى التــي يبعــث إليهــا رســله أنــه إذا جــاءتهم الآية المادية، أنهم يستكبرون، فيستأصلهم. وهــم لا يؤمنــون لتصــلبهم فــي الكفــر. فــلا تكون عاقبة إنزال الآيات المادية إلا هلاكهم.

بيان المعنى العام :

1- اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون.

افتتحت السورة بتقرير حقيقة متضمنة للتهديــد. الحقيقــة هــي أن محاســبة الكفــار عــن كفرهم سيتم عن قرب ولــيس بعيــدا. وهــو مــا ينكرونــه ويــزعجهم ذكــره . وقــرُبْ الحساب إما بالنظر إلى أن ما مضى من خلق الكون بالنســبة لمــا بقــي هــو قليــل. وقــد قال ﷺ : (بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار إلــى الســبابة والوســطى)[1] . وإمــا أن يكــون المعنى أنهم سيموتون قريبــا، إذ أيــام الحيــاة الــدنيا معــدودة، وسيحاســبون ويعلمــون مآلهم بمجرد ما يفارقون الحياة الدنيا.

[1] متفق عليه فيض القدير ج3ص202

وتتضمن تهديدا لمشركي مكة أن نهايتهم ثم محاسـبتهم عـن كفـرهم وفسـادهم سـيتحقق قريبا، على معنى أنهم سيلقون العذاب الموعود به، ولا يفصـلهم عنـه إلا أمـد قليـل فـي عمر الكون . وإن كان مشركو مكة، هـم المقصـودين قصـدا أوليـا، فـإن هـذا التهديـد ينسحب على جميع الكفار .

والغريب من أمرهم أنهم لم يسـتيقظوا لمـا يترصـدهم، بـل يتـابعون حيـاتهم غـافلين صارفين عقولهم عن التأمل في آيـات القـرآن، التـي تكشـف لهـم عـن مـآل الكـون ومآلهم فعطلوا مواهبهم عن إدراك تلكم الحقيقة .

2- ما يأتيهم من ذكر من ربهم ...وهم يلعبون.

زادت هذه الآية بيانا وتأكيدا لغفلتهم ولإعراضـهم. ذلـك أن القـرآن يهـدف إلـى هدايـة البشر وإخراجهم من ظلام الكفر إلى نور الإيمـان. وبنـاء علـى ذلـك يـذكرهم بمتنـوع الطرق والأساليب، ويلفت أنظارهم مكررا عرض الحقـائق التـي تُنجـيهم مـن الضـلال. ولكن الكافرين عوض أن يهزّهم ما يتجـدد مـن آيـات القـرآن المبينـة للعقيـدة الحـق، وما سيلقاه من أعرض عن عبادة الله الواحد الأحد وتطبيـق شـرعه، تجـد تلكـم الآيـات تمر على أسماعهم دون أن تبلغ الوعي المتأمـل المهتـدي بمـا يسـمع. إنهـم لا يأخـذون الحياة مأخذ الجد الـذي يتبعـه النظـر المتعمـق الـذي يتجـاوز الظـرف الحـال إلـى المآلات البعيدة، بما يطوع أفكارهم وسلوكهم إلى ما يكون أفضل عائدة لهم .

والذكر المحدث: يقصد منه القرآن المنزل في أزمنـة متجـددة متكـررا فوصـف القـرآن بمحدث هو بالنظر إلى وقت إنزاله للتذكر والاعتبـار. أمـا ذات القـرآن بمعنـى الكـلام النفسي القائم بالذات العليه فهو قديم .

3-لاهية قلوبهم واسروا...وأنتم تبصرون

إن عقولهم مشغولة بالشهوات وبالحياة القريبة. ويطلق لفـظ القلـوب فـي القـرآن ويـراد منه آلة الإدراك لا القلب النابض بالدم.

ثم إن تصميمهم على رفـض القـرآن، والإعـراض عـن هدايـة رسـول الله صـلى الله عليه وسلم، حملهم ذلك على الكيد للإسلام والتدبير لمنـع مـن ظهـر منـه ميـل لقبـول الدين. قلّبوا وجوه النظر في خفية حتى لا يطلع علـيهم المسـلمون فيكشـفوا مـا تحـدثوا به، وما نجواهم وإسرارهم إلا رشح الظلـم للحـق، فهـم ظـالمون بشـركهم وبصـدهم. وإلى ما ذا انتهوا بعد التآمر على الدعوة المحمديـة ؟ قـال الظـالمون لمـن يتوقـع منـه الإيمان: إن الذي يدعوكم لهذا الدين ما هـو إلا رجـل مـثلكم، لا يتميـز علـيكم بشـيء يرفعه لأن يكون متبوعا وأنتم تابعون له. وما هذا القـرآن الـذي يتلـوه علـيكم، وقدراتـه

على جلب الناس لدينه إلا ضرب مـن السـحر. أفيقـوا ولا تنخـدعوا ! كيـف تتـأثرون بسحره وعيونكم مبصرة تشاهدون أنه ليس لـه مـن المـؤهلات مـا يوجـب اتباعـه، إن البداهة تدعوكم لرفض دعوته .

4- قل ربي يعلم القول في السماء ...وهو السميع العليم .

هذه الآية تنقض ما تناجوا به، وما أوهموا به من أن الرسـول ﷺ سـاحر إلـى آخـر مـا وصلوا إليه فيما أسَرُّوا به بينهم، أبطل كل ذلـك بـاطلاع الله رسـوله علـى مـا تنـاجوا به . واجِهْهم يا محمد وقل لهم :ربي الذي أدعـوكم لعبادتـه، هـو الـذي يعلـم مـا فـي السماء المحجوبة عنكم كليا، ويعلـم مـا فـي الأرض التـي لا تعرفـون منهـا إلا قـدرا قليلا، وهو السميع لكـل حركـة وإن خفَّـتْ، ولكـل صـوت وإن عمـل صـاحبه علـى إخفائه إلى أبعد درجات الإخفاء، فهو الذي أطلعنـي علـى مـا دار بيـنكم ممـا تنـاجيتم به، وهو سـبحانه العلـيم بـالظواهر والعلـيم بالخفايـا فمـا انطـوت عليـه صـدوركم المريضة لا يخفى منه شيء علـى الله، وسيحاسـبكم علـى كـل ذلـك، ويجـزيكم عـن ظلمكم وعملكم على صد الناس عن الإسلام.

5- بل قالوا أضغاث أحلام ...كما أرسل الأولون.

ثم عرض القرآن شيئا مما تناجوا بـه، ومـا دبـروه لصـد النـاس عـن الـدخول فـي الإسلام. فقالوا تارة: إن ما يخبـركم بـه مـن الجنـة والنـار والجـزاء، وأهـوال يـوم القيامة، والتحليل والتحريم، ما هو إلا أحـلام تراكمـت فأشـاعها. بـل هـو كـلام مـن عنده افتراه لا أصل له ونسبه إلـى الله، بـل هـو شـاعر يقلـب أوجـه الكـلام بحـذق ليجلبكم إليه. ونحن نتحداه بأن يظهر لنا على يديـه معجـزة كمعجـزات الأنبيـاء الـذين سبقوه.

6-ما آمنت قبلهم من قرية... أفهم يؤمنون.

إنهم سألوا المعجزات من جنس المعجزات التي ادعوا أن الـذين مـن قبلـه تأيـدوا بهـا. إن أهل القـرى الـذين جعلـوهم مثـالا، ويوقفـون إيمـانهم علـى أن يعـرض علـيهم معجزات مثل المعجزات التـي جـاءتهم ؛ إن سـنتنا أنهـم إذا لـم يؤمنـوا بعـد نزولهـا يتسلط عليهم أرسال الإبادة والإهلاك .فهل إن كفـار مكـة يؤمنـون لـو جـاءتهم الآيـات المقترحة ؟ إنهم لا يؤمنون . وسيترتب علـى كفـرهم إهلاكهـم. وقـد قـدر الله بحكمتـه أن لا يستأصل قريشا، بل سيكون منهم ومن ذرياتهم مـن ينصـر الإسـلام ويجاهـد فـي سبيله.

وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَىٰ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾
ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ
إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

صدقناهم الوعد : حققنا لهم ما وعدناهم من النصر.

المسرفون : المبالغون في التكذيب، المصرون على الكفر.

كتابا : القرآن.

الذكر: كلمة تطلق ويراد بها، ما يشمل صلاح أمرهم، ما يترتب عنه السمعة

بيان المعنى الإجمالي :

أكدت الآية حقيقة هـي: أن جميـع رسـل الله كـانوا مـن البشـر رجـالا، اختـارهم الله وكلفهم بإبلاغ وحيه. وإن كنتم جاهلين فاسـألوا أهـل العلـم بالكتـب والشـرائع السـابقة. وكل الرسل كانوا بشرا ينبضون بالحيـاة، والحركـة الداخليـة والخارجيـة. ومـا كـانوا أجسادا لا يتحركون، غير محتاجين لأكل الطعـام، بـل كـانوا يـأكلون وتجـري علـيهم الأعراض البشرية التي لا يتبعها نقص، وأنهم يموتون ولا يخلدون في الدنيا.

ثم إن سنتي في الرسل أني أحقق لهم ما وعدتهم به مـن النصـر والتأييـد، وأنـي أهلـك مستأصلا المبالغين في التكذيب المسترسلين في الكفر.

بكل تأكيد أنزلنا إليكم كتابا عظيما معجـزا، يجيـبكم عـن كـل إشـكالاتكم، ويـنهج لكـم طريقا واضحا مأمونا في حياتكم الخاصـة والعامـة، فـي حيـاتكم الـدنيا وفـي حيـاتكم الآخرة. تجدون فيه ذكرا تستلهمون منه العقيـدة والتشـريع والأخـلاق ومقومـات الحيـاة السعيدة. كما أنه بالقرآن ستعلو قيمتكم فـي الكـون، وبعـد مـا كنـتم ممـزقين تـابعين، ستتحولون بالقرآن إلى قادة للعالم وللفكر. ما لكم لا تعقلون هذه المزايا؟

بيان المعنى العام :

7- وما أراسلنا قبلك ...إن كنتم لا تعلمون.

صرحت الآية السابقة أن المشركين قالوا: إن محمـدا بشـر مـثلكم، اسـتبعادا لأن يكـون رسولا، على معنى التنافي بين الرسالة والبشـرية. فشـنعت هـذه الآيـة بجهلهـم مبينـة: أن جميع الرسل الذين اختارهم الله فحملهم رسـالته إلـى أقـوامهم، جمـيعُهُم رجـال لهـم خصائص البشر، ميزهم الله بأن سما بهم إلـى مرتبـة يسـتطيعون معهـا تقبـل الـوحي.

وما عليكم لتتأكدوا مـن ذلـك إلا أن تسـألوا أهـل الـذكر، ويعنـي بـه علمـاء اليهـود والنصارى، إن كنتم لا تعلمون هذه الحقيقة.

وفي التصريح بكونهم رجالا هو سند الإجماع على أن الله لم يبعث أنثى رسولا.

8-وما جعلناهم جسدا ....وما كانوا خالدين.

تأكيدا لعدم المنافـاة بـين الرسـالة والبشـرية بجميـع خصائصـها: أن الرسـل الـذين تتابعوا في تاريخ البشرية كانوا بشـرا فـيهم جميـع مقومـات البشـرية، فمـا جعلنـاهم أجراما ذوي أبعاد لا حياة فيهم، في غناء عن الأكل، ومـا يتبـع الأكـل مـن الأعـراض. وقد شغبوا بقولهم : **(وقالوا ما لهذا الرسـول يأكـل الطعـام ويمشـي فـي الأسـواق)**[1] وإذا كانوا يأكلون الطعام وتجري عليهم سنة الهـدم والبنـاء والتحـولات، فإنـه يسـتحيل أن يكونوا باقين البقاء الأبدي .

9- ثم صدقناهم الوعد...وأهلكنا المسرفين .

تتضمن الآية ثلاثة أغراض مجتمعة:

أولا: تثبت سنة الله في معاملته لرسله: أنـه يحقـق لهـم مـا وعـدهم بـه مـن النصـر وإهلاك المفرطين في الكفر

ثانيا: في ذلك إيماء إلى أني أنا الله سأنصرك يا محمـد كمـا نصـرت مـن سـبقك مـن المرسلين. ونصرت من هو أهل للنصرة ممن آمن بهم.

ثالثا: في ذلك إنذار للمشركين من أهل مكة أنهم إن لـم يقلعـوا فسـيلقون نفـس المصـير الذي سلط على من قبلهم. وهو الإهلاك الماحق .

10- لقد أنزلنا إليكم ....أفلا تعقلون.

طلبوا في الآية السابقة أن يأتيهم محمد صلى الله عليـه وسـلم بمعجـزة ماديـة. فـذكرهم أن الله قد من عليهم منة لم تسبق في تاريخ الرسل، هـي أعظـم مـن كـل الآيـات التـي أنزلها تأييدا لرسله. لقد أنزلنا من عندنا ما قصـدنا إكـرامكم بـه، أنزلنـا القـرآن إلـيكم كتابا عظيما. فانتبهوا .إن فيه ما يذكركم فيفـتح لكـم معرفـة مـا يهـديكم إلـى الطريـق القويم الذي ينجيكم في دنياكم وفـي آخـرتكم، يصـحح العقيـدة، ويكشـف لكـم طـرق النجاح في حياتكم الخاصة والعامة، ويسعدكم بـالفوز فـي حيـاتكم الباقيـة .وهـو ذكـر دائم موثّق مرجع لكم مهما اختلفـت الظـروف والأحـوال. وهـو مـن ناحيـة أخـرى لا يقف مده على وقت إنزاله بل يمضي مع الزمن، وينتشـر فـي أقاصـي الـدنيا لترتفعـوا به بعد هوان ولتصبحوا به قادة للعـالم. إن الآيـات الماديـة يقـف تأثيرهـا علـى القـوم

[1] سورة الفرقان آية 7

الذين شاهدوها، أما القرآن فإنه شرف لكم أولا، وماض إلى أبـد الآبـدين ثانيـا. مـا لكـم لا تتدبرون بعقولكم في هذه المزايا لتدركوا منة إنزال القرآن إليكم ؟

وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّواْ بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَـٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَـٰهُمْ حَصِيدًا خَـٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

القصم : الكسر الشديد الذي لا يرجى بعد التئام.

أحسوا : أدركوا بواسطة الحس.

الركض : أصله لسرعة جري الفرس.

الترف : النعيم ورفه العيش.

الحصيد : المحصود من الزرع .

خامدين : خمدت النار إذا زال لهيبها.

بيان المعنى الإجمالي :

في تاريخ الكون تجدون: أنا دمَّرنا تـدميرا لا قيامـة بعـده أهـالي قـرى كثيـرة بسـبب ظلمهم، وبعد استئصالهم أنشأنا أقواما يخلفونهم، فـإهلاك الظـالمين لا يـنقص مـن ملـك الله شيء.

أولئك المهلَكون بمجرد ما أحسـوا نـذر العـذاب آتيـة لا مـرد لهـا، فـروا مسـرعين ركضا، كأنهم الخيل في جريها السريع. ظانين أنهم سيفلتون من العذاب.

يحسون وهم يركضون صوتا في داخلهم يسـتهزئ بهـم ويقـول لهـم : لا تركضـوا، ولا تسرعوا وارجعوا إلـى منـازلكم لتشـاهدوا أوضـاعها، لعلكـم تسـألون فتعرفـون مـا تجيبون به .

استفاقوا من غفلاتهم، فاستبد بهم الندم وقـالوا: يـا ويلنـا مسـتغيثين، إنـا نعتـرف بأنـا كنا سادرين في متاهات الظلم .

واصلوا تردادهم لتلك الجملة: يا ويلنا إنـا كنـا ظـالمين. دهشـوا فلـم يسـعفهم فكـرهم بغيرها، إلى أن تم استئصالهم. هـم كـالزرع الـذي كـان قائمـا علـى سـوقه يعجـب الناظرين، فحصـد وتراكمـت سـنابله بعضـها فـوق بعـض لا حيـاة ولا نضـارة. أو كالنار المشتعلة يستعر لهيبها ويعلو، ثم تنطفئ وتخمد فلا يبقى لها أثر .

بيان المعنى العام :

11-وكم قصمنا من قرية ....قوما آخرين.

الآيات السابقة تضــمنت تهديــدا للمشــركين " مــا آمنــت قــبلهم مــن قريــة أهلكناهــا" وأهلكنا المسرفين" فجاءت هذه الآية مؤكــدة بصــفة أصــرح، كأنهــا تقــيم الــدليل علــى نفاذ الوعيد فيهم . إذ افتتحت بلفظ [كم] الدال على الكثــرة وعلــى التكــرر. فقــد أخبــرت الآية بأن الله قد أهلك كثيرا من أهل القــرى. أبــادهم بســبب ظلمهــم، فقصــمهم قصــما، وكسر قوتهم وفتتها بحيث لا يرجى لهــا عــودة ولا اجتمــاع. وبهــذا تكــون الآيــة دالــة على قاعدة عامة هي سنة الله في معاملة الظــالمين. وهــو تهديــد للظــالمين مــن قــريش أنهم بصدد أن يحل بهم مــا حــل بأمثــالهم. ونكايــة بــالمهلكين أنشــأ الله مكــانهم قومــا آخرين . مما يدل على هوانهم، وأن الله القادر على إنشــاء قــوم آخــرين مكــانهم، ينــذر المعاندين من مشركي مكة إلى أن لهم نفس المصير .

13/12-فلما أحسوا بأسنا ...لعلكم تسألون .

واصلت الآية وصف ما حل بأهل القرى الــذين أهلكهــم الله؛ حــل الفــزع الــذي أعقبــه اليأس في قلوبهم، وبمجرد ما أحســوا مقــدمات التــدمير، تركــوا قــراهم وفــروا منهــا مسرعين كما تجري الخيل راكضة. إنهم يحســون فــي بــاطنهم صــوتا مؤنبــا مســتهزئا بهم، يقول لهم: لا تركضوا وارجعوا إلى ديــاركم وعيشــكم المرفــه فيهــا. إنــه بعــودتكم إلى مساكنكم ستشهدون ما آلت إليه .فلو ســألكم ســائل عــن قــريتكم وجــدتم الجــواب الصحيح بعد المشاهدة. وهذه الجملــة المعترضــة إمعــان فــي تعــذيبهم، إذ انقلبــوا بعــد الاستكبار والاعتزاز إلى موضع سخرية واستهزاء.

14-قالواياويلنا إنا كنا ظلمين .

يتابع النص الكشــف عــن وضــع أهــل القــرى المــدمرة وقــد حــاولوا الفــرار منهــا راكضين. وكما هو شأن اليائس الذي حلت به نتــائجُ مــا قدمــه مــن فســاد، يعــود إلــى نفسه متلهفا متحسرا على ما فــرط ؛ يقولــون فــي أنفســهم : يــا ويلنــا، اســتغاثة مــن العذاب الذي تحققوا أنه لا مناص لهم منــه، ويعترفــون بــأنهم كــانوا ظــالمين بكفــرهم وتمردهم على رسلهم.

15-فما زالت تلك...خامدين.

أحاط بهم العذاب، وغُمَّ على تفكيرهم، ودُهشوا، فأخــذوا يــرددون : **ياويلنــا إنــا كنــا ظالمين**. إلى أن أبيدوا ولهواتهم تخرج منهــا الحســرات متتاليــة بصــيغة واحــدة، إلــى أن تم استئصالهم استئصالا كاملا. جعلهــم الله كــالزرع الــذي كــان قائمــا علــى ســوقه

أخضر يعجب الناظرين، فعملت فيه المناجل فـإذا هـو ملقـى علـى الأرض متراكمـا لا حياة فيه ولا بهجة . أو كالنـار المشـتعلة الموقـدة بقـوة ضـرامها وشـدة لهيبهـا ثـم انطفأت وخمدت وذهب اللهيب وسكن الموقع .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

اللعب : القول أو الفعل الذي لا يقصد به تحصيل غرض صحيح .

القذف: أصله رمي جسم على جسم بقوة.

دمغ الباطل : محوه.

زاهق : مضمحل.

الاستحسار : التعب الشديد من العمل .

لا يفترون : لا ينقطعون .

بيان المعنى الإجمالي :

إن حكمة الله هي قانون خلق الكون، لا تجـد فـي هـذا الخلـق مـا هـو خـارج عـن التدبير المحكم الجاري على العلم الشامل بالكليات والتفاصيل. وكـل مـا خلقـه الله هـو لحكمة يعلمها، فالسماء والأرض وما بينهما خلقـت لغايـة مضـبوطة مقـدما، وليسـت عبثا ولهوا. إنه لو فرض كما يفرض المحـال أن يتخـذ الله لهـوا لجعـل مجالـه العـالم العلوي الـذي هـو منفـرد بالتصـرف فيـه، لا العـالم الأرضـي الـذي مكـنكم مـن الاستخلاف فيه . هذا إن فرض أنا فـاعلون شـيئا مـن اللهـو، فـدعوى المشـركين أن مسؤوليتهم بحدود حياتهم يصير بهم وجودهم عبثـا . والعبـث مرفـوض عقـلا عـن الله. بل إن شأننا أنا نقيم الحق، فهو واضح فـي خلـق السـماوات والأرض التـي رضـخت وتقدمت طائعة لربها، وبقي الإنسان الذي مكن مـن الحريـة، وقـد يسـيء التصـرف، فإذا عمل على إظهار الباطل، فإن الله يسـلط علـى باطـل البشـر قـوة الحـق المؤيـدة بصريح العقل وأدلته، وبقوة الصالحين فـي الكـون الـذين يزلزلـون الباطـل فيضـربونه

الضربة القاضية، فــإذا هــو مهــزوم وأثــر بعــد عــين. وانفــردتم أيهــا المشــركون باختصاصكم بالعذاب المهين بسبب وصفكم المتجني على الرسول وعلى القرآن.
تفرد الله بملك جميع مــا حوتــه الســماوات والأرض، وبملــك الملائكــة الــذين شــرفهم بقربهم منه. يجدون لذتهم في الخضــوع لــربهم وعبادتــه دون أن يتعبــوا لفــرط تعلقهــم بعبادته. إن تنزيه الله عن كل نقــص والتعبيــر عــن كمالــه المطلــق يصــاحبهم بالليــل والنهار دون انقطاع.

بيان المعنى العام :

16- وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين.

إن الله الموصوف بالحكمة البالغة لا يصدر عنــه شــيء إلا حســب مــا يقتضــيه علمــه المحيط بجميع الجزئيات والأوضاع . بالحاضــر والمــآل، بالعلاقــات التــي تقــوم بــين ما ينشئه وبين كل ماله اتصال به .
ومثال على ذلك خلق الســماوات والأرض ومــا بينهمــا، مــا يعلمــه الإنســان إجمــالا، وما مكنه الله من علم بعض تفاصيله. تنادي كــل جزئيــة مــن جزئيــات الكــون بــأن الله أحكم تقديرها، لا أثــر للمصــادفة فــي مكوناتهــا وفــي موقعهــا مــن الكــون الكبيــر. فسبحان الله يجب تنزيهه عن أي نقص هو أحســن الخــالقين. وعلــى هــذا الضــبط مــن الحكمة خلق الإنسان، فمكنه من اتباع طريق الخيــر أو طريــق الشــر، بمــا أودع فيــه من عقل وبما أرسل إليه من الرسل الذين يبينــون لــه طــرق الرشــاد ومآلــه فــي هــذه الحياة وفي الآخرة. وما ينــتظم بــه البنــاء الاجتمــاعي المحقــق للنجــاح فــي الخلافــة وعمارة الأرض . إنه لو كانت حياة الإنسان المســتخلف تَقِــفُ علــى أيــام وجــوده فــي الأرض، فيستوي المصلح والمخــرب، والعــادل والظــالم، والتقــي والفــاجر، لكــان هذا الخلق خلقا بلا هدف ولا غايــة، هــو لعــب ولهــو وقتــل للوقــت. وذلــك نقــص صارخ لا يليق بالكامل. وهذا ما يحقــق مــا ذكــر فــي الآيــات الســابقة مــن حســاب الظالمين المنقطعين عن الخالق الحكيم.

17- لو أردنا أن نتخذ...إن كنا فاعلين .

وللتدليل على قيام الحكمة في الخلق، وحســاب البشــر ونفــي اللعــب والعبــث، تقــول الآية: إنه لو تعلقت إرادتنا باللهو، وهو يفــرض كمــا يفــرض المحــال، لمــا صــلحت الأرض التي استخلفناكم فيها لتكون مجالا للهو، تبعا لمــا لكــم فيهــا مــن حــظ. وكانــت مجالات العالم العلوي الذي هو من اختصاصنا ولا شأن لكــم بــه. هــذا إن كنــا فــاعلين

للهو المنفي عنا لتناقضه مع كمالنـا وحكمتنـا. والمقصـود تأكيـد أن البشـر سيحاسـبون على أعمالهم، وفرض عدم محاسبتهم غير مقبول عقلا.

18- بل نقذف بالحق ...ولكم الويل مما تصفون.

إضراب لإبطال كل ما ادعاه المشركون ومـا زينـوه مـن تصـورات خياليـة، وإثبـات أن حكمة الله اقتضت أنه يقـذف بـالحق قـذفا قويـا يزعـزع الباطـل، ويصـيبه فـي المقتل، فإذا الباطل هالك لا أثر له. وذلك بمـا يؤيـد بـه الحـق مـن شـواهد العقـل، وبيان المرسلين. وتسليط عباده الناصـرين للحـق علـى المفسـدين المـروجين للباطـل. فبمجموع ما في الحق من قـوة ذاتيـة، واهتـزاز الباطـل ذاتيـا، وبقيـام المنتصـرين لسيادة الحق في الكون ينهزم الباطـل وأهلـه ويقمعـون. وهـذا مـا يلقـي فـي قلـوب المؤمنين الثبات على مواصلة الجهاد لإظهار الحـق، فسـنة الكـون تنـادي بـأن العقبـة لهم، والله معهم.

وتختم الآية بالتهديد لمشركي مكة : أن الله قرر عذابهم على ما يصفون به افتراء وكذبا، القرآن ومحمدا ﷺ. والويل كلمة دالة على العذاب المهين، فهم مختصون به .

19- وله من في السماوات والأرض...ولا يستحسرون.

إذا كانت الآية السابقة أفادت الحكمة المنبثة فـي خلـق السـماوات والأرض، فـإن هـذه الآية أفادت تفرد الله واختصاصه بملـك مـن فـي السـماوات ومـن فـي الأرض .فكـل الكائنات في الكون ما هو عاقل وما لا عقل له مملـوك لـه يتصـرف فيـه كمـا تشـاء حكمته . وإذا كان لفظ – من – مختصا بمن يعقـل، فإنـه أطلـق لفـظ مـن فـي الآيـة على العاقل وغير العاقل على طريقـة التغليـب. فـردت الآيـة علـى عقيـدة المشـركين من العرب الذين اتخذوا أصناما آلهة من دون الله وعلى عقائـد كثيـر مـن البشـر الـذين اتخذوا آلهة للخير وللشر وللمطر وللحب إلى آخر ما تخيلته العقول المنحرفة.

ويدخل في ملكه سبحانه المخلوقات العلويـة مـن الملائكـة، الـذين مـن صـفاتهم أنهـم يجدون لذتهم في الطاعة وهم لا يستكبرون استكبار مشركي مكة عن عبادة الله .

إن هؤلاء الملائكة يواصلون العبادة وتنفيذ مـا يطلـب مـنهم دون أن يلحقهـم إعيـاء أو شعور بالتعب.

20- يسبحون الليل والنهار لا يفترون .

إن ملائكة الله الذين شرفهم بعبادته دون انقطـاع ودون شـعور بالكلـل أو المـلال، سـمة تقربهم التسبيح لله، يحضر في عبادتهم وفـي أقـوالهم تنزيـه الله، هـو الشـعور الـدائم بكماله وتنزيهه، سواء في ذلك الليل والنهار لا يلحقهم فتور.

أَمِ ٱتَّخَذُوٓاْ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا
فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ
﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن
قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ
مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

لفسدتا: لفسدت السماوات والأرض باختلال نظامهما، ثم بانتفاء النفع.

لا يُسأل : سؤال محاسبة.

البرهان : الحجة الواضحة.

ذكر من معي : القرآن.

ذكر من قبلي : ما أنزل على الرسل السابقين.

بيان المعنى الإجمالي :

وأمر آخر قبيح بالعاقل أن يعتقده ويعرِّض صاحبه للسخرية . إنهم اتخذوا آلهة صنعوها بأيديهم من أجزاء الأرض. التي هي ملك لله كالحجارة والحديد والنحاس والخشب. وإذا كانت آلهة فيلزمهم اعتقادهم هذا أن تلك الآلهة تبعث عابديها للنشر والحساب وهذا إلزام لا يستطيعون الانفكاك منه لأنه من مستتبعات الألوهية . إنه لو تعددت الآلهة وكل واحد منهم كامل القدرة والإرادة لا يخرج شيء عن طاعته، فتتصادم إراداتهم وأفعالهم ويفسد الكون. والكون ماض على نظامه وتناسقه مما يقوم شاهدا من العقل والحس على أن الإله واحد لا شريك له.

ومن مقتضيات الألوهية أن الله الحق هو الكامل الذي يكون جميع ما يصدر عنه هو الكمال في التدبير، وإن خفيت الحكم لقصور البشر عن الإحاطة بالغيب . ومع تحقق الكمال لا يمكن أن يسأل سؤال حساب، إذ الحساب يكون لما يمكن أن يكون عليه المسؤول من نقص. وما سوى الله بما أنه غير كامل يكون معرضا للحساب عما فعل.

ثم انتقل القرآن فوجه سؤال إنكار عليهم باتخاذهم آلهة من دون الله، فطالبهم أن يثبتوا ما يدعون بنص من الذكر المنزل على محمد ومن معه أو بنص من الكتب السابقة. إنهم لا يجدون لباطلهم سندا، ولكن الجهل الذي سببه الإعراض عن التأمل

في كتب الله، هو الذي أعماهم عن الحق . وهـــذا شـــأن أكثـــرهم وبعضــــهم انتهـــوا إلـــى مصير الجهلة عنادا لا جهـــلا. إن جميـــع المرســـلين الـــذين أرســـلناهم قبلـــك وشـــرفناهم بوحينا أكدنا عليهم تأكيدا أوّليًا بأن يعتقدوا هم وأتبـــاعهم: أنـــي أنـــا الله الواحـــد الأحـــد لا شريك لي. وأن عليهم أن يخصوني بالعبادة والخضوع.

بيان المعنى العام :

21- أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون.

هذه الآية تشنع بالمشـــركين، وتكشـــف عـــن فســـاد تفكيـــرهم، وانخـــداعهم بأوهـــام لا حقيقة لها .تنكر عليهم اتخاذ آلهة حجارة أو نحاســـا أو خشـــبا، ونحـــو ذلـــك مـــن المـــواد الأرضية التي صـــنعوا منهـــا أصـــناما يعبـــدونها، هـــؤلاء الـــذين رفعـــوا أجـــزاء مـــن الأرض فعبدوها، معرضون للسخرية، لكونهم اتخـــذوا آلهـــة منهـــا، وتســـقط دعـــواهم بما جاء في الآية السابقة أن الأرض ملك لله . واستهزأت الآيـــة بهـــم مـــن ناحيـــة ثانيـــة، ذلك أن هذه الجمادات تبعث النـــاس أحيـــاء يـــوم القيامـــة، إذ الألوهيـــة تقتضـــي القـــدرة على الإحياء" **هم ينشرون**". والمشركون لم يدعوا لآلهـــتهم ذلـــك، ولكنـــه إلـــزام للـــتهكم بهم.

22- لو كان فيهما آلهة....فسبحانا الله رب العرش عما يصفون.

يتابع القرآن تناقضـــاتهم وإلـــزامهم بمـــا يترتـــب علـــى عقائـــدهم . إنـــه لـــو كـــان فـــي السماوات والأرض آلهة متعددة كما يدعون، وكـــل واحـــد مـــنهم قـــادر لا حـــد لقدرتـــه، مريد لا يعطل إرادته شيء، وخلق الســـماوات والأرض يمكـــن أن يـــأتي علـــى كيفيـــات وصور مختلفة، ولكن لا ينتظم أمرها وتسير علـــى توافـــق وتكامـــل بينهـــا إلا إذا كـــان بناؤها على تنسيق واحد، وكذلك اســـتمرارها فإنـــه فـــي كـــل لحظـــة كـــل جـــزء منهـــا معرض لتحولات، فإنه لا يخلو الأمر إمـــا أن ينفـــرد أحـــدهم بالتـــدبير وينجـــز الكـــون، ويدبر التحولات التي تتم في الكون، ويكون غيره معطـــلا لـــم يصـــدر عنـــه أي شـــيء، فلا يكون الإله إلا واحدا وهو الـــذي دبـــر وأنجـــز وأمســـك بإرادتـــه وقدرتـــه التحـــولات المتتابعة. وإما أن ينفرد كل إله بجزء مـــن الخلـــق والتـــدبير، ولا تـــدخل بقيـــة الآلهـــة في ميدانه فيفضي هذا إلى أن كل واحـــدمنهم عـــاجز عـــن التـــدخل فـــي ميـــدان الإلـــه الآخر، فيفضي أنهم عجزة كلهم . والإلـــه الكامـــل المعبـــود لا يكـــون عـــاجزا. وإمـــا أن يكون كل واحد منهم مطلق الحرية تنفذ إرادته وفعله في الكـــون كلـــه، ومـــع هـــذا فإمـــا بالاتفاق بينهم أو الاختلاف، فإن اتفقوا علـــى أن واحـــدا مـــنهم ينفـــرد كـــان هـــو الإلـــه ويكون تعدد الآلهة عبثا لا أثر له. وإن اختلفوا فكل واحـــد ينفـــذ حكمـــه فـــي الكـــون دون

أن ينتظر من الإله الآخر موافقة أو مخالفـة، فإنــه مــع الاخـتلاف تتضـارب الأفعـال ولا يمكن للكون لا أن يحـدث ولا أن يسـتمر. والمشـاهد أن الكـون يسـير علـى أتـم نظام لا اختلال فيه، مما يقوم شاهدا على أن الله واحد لا شريك له.

وتختم الآية بالتنصيص على الحق الذي يتحتم تثبيتـه فـي العقـول، ويبطـل مـا ادعـوه من تعدد الآلهة. فسبحان الله: تنـزه الله أن يكـون معـه إلـه، هـو رب العـرش النافـذة إرادته وقدرته في الكون كله، ما كان منه تافها كالذرة ومـا كـان واسـع الأبعـاد كبيـر الحجم كالكواكب والأرض والسماوات. تنزه عـن كـل مـا يُلحقـه بـه المشـركون مـن أوصاف تنافي عظمته كماله.

23-لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

يواصل القرآن رسم الصورة الكاملة لله التـي يجـب أن ترسـخ فـي العقـول والأرواح. إنه سبحانه الحكيم الكامل العليم بالحاضر والمـآل علمـا واحـدا لا يخفـى عليـه شـيء ولا يلحقه نفع ولا ضر مما ينجزه أو يمنعه، وبهذا التصـور فـلا يمكـن أن يسـأل عـن أفعاله فهي كلها عدل وحكمة. وما سوى الله علـى خـلاف مـا أثبتنـاه لله فهـو معـرض ليسأل سؤال حساب عما فعل .

كما أن السؤال المراد به الحساب لا يكون إلا ممن لـه سـلطة علـى المسـؤول، وكـل من في السـماوات الأرض آتـي الـرحمن عبـدا، لا يسـتطيع أن يخـرج عـن نطـاق العبودية، مخلوق لله، فلا يتصور أن يحاسب أحد رب العزة .

نعم يطلق السؤال بمعنى الدعاء، وهذا غيـر منفـي، وكـذلك مـا يسـأله العـالم طلبـا للظفر بالإجابة عن تحقق ما استقر يقينيا في علمه، أن كـل مـا يصـدر عـن الله حكمـة وعدل، فيبحث تبعا لذلك عـن الحكمـة فـي الفعـل أو التشـريع أو النظـام الكـوني، لا يسأل الله ولكن يسأل فكره ليتعمق في البحث عن الحكمة أو عـن سـر النظـام الـذي بـه يسير الكون.

24- أم اتخذوا من دونه ...فهم معرضون .

أفادت الآية السابقة : **(لوكان فيهما آلهـة إلا الله لفسـدتا)** حجـة عقليـة علـى تفـرد الله بالألوهية ونفي الشركاء . وأيدت هذه الآية نفس الغـرض، لكـن بـدليل نقلـي . فسـألهم سؤالا إنكاريا بعد الإضراب عما تقدم مـن بيـان فسـاد الشـرك وتهافتـه. أنكـر علـيهم ترك عبادة الله واتخاذهم آلهة من دونه. ثـم أوقفهـم ليسـألهم سـؤالا يفضـح جهلهـم. إن كل دعوى لا يؤيدها الدليل لا تـنهض ولا تصـح، فاعرضـوا علـي برهـانكم وحجـتكم التي استندتم إليها. ثم عـاجلهم بأنـه لا يوجـد بـين أيـديهم أي أثـر صـحيح يمكـن أن يُسندهم في دعواهم الشريك لله. فهـذا أولا القـرآن الـذي يتلـوه الـذين هـم معـي مـن

المؤمنين وهو المنزل من الله، وثانيا ما نــزل علــى جميــع المرســلين قبلــي ممــا هــو ذكر للبشر في كل عصر من عصــور الهدايــة، لا تجــدون فيهــا مــا يثبــت أن الله قــد اتخذ شريكا . وإذ سقطت دعواهم عقليا بالآية الســابقة ونقليــا بهــذه الآيــة، فمــا بقــي إلا أن مقالتهم صادرة إما عن جهل وهذا حــال الأكثريــة، بســب إعراضــهم عــن إعمــال نظرهم فيما بين أيديهم وخاصة القرآن .

وإما عن عناد وإصرار وهو وضع الأقليــة الــذين يعلمــون الحــق، ولكــن تصــميمهم على رفض الدعوة، جمعهم في النهاية إلى الجهلة المغرقين في الجهل.

25-وما أرسلنا من قبلك...إلا أنا فاعبدون .

تحدث الآية السابقة المشركين وبينت أن شركهم لا يســتند إلــى عقــل ولا إلــى وحــي وأنه معرى من كل مؤيــد. وجــاءت هــذه الآيــة مصــرحة تصــريحا محققــا، إن كــل رسول أرسلته من قبلك يا محمــد أوحيــت إليــه أنــه لا إلــه إلا أنــا فاعبــدني، فهمــا ركنان أساسيان في كل رسالة:

أ- توحيد الله توحيدا ينفي كل شــرك فــي الــذات، أو فــي التــأثير. ذلــك أن أول ركــن لصلاح الكون ومن فيه توحيد الله، وقطع دابر الشرك

ب-إفراده بالعبادة ، والخضوع لجلاله وتطبيق شرعه

إن ما عاناه العالم من الاســتبداد ومــن الحــروب ومــن الاســتعمار الظــاهر والخفــي، قاعدته الاستكبار وتقمص المستبدين أوصاف الألوهية، التي منهــا مــا جــاء فــي الآيــة الســابقة لا يســأل عمــا يفعــل وهــم يســألون. فجبــابرة الأرض تطــوروا فــي الظلــم والتعسف لما ظنوا أنفسهم فوق المساءلة التي هي من خصائص الربوبية

يقول الشيخ البشــير الإبراهيمــي رحمــه الله : والغالــب علــى الشــعوب البدائيــة فــي السياسة أن تكون على بقية من وثنية، أصــنامها الشخصــيات، ويكــون إحساســها تابعــا لإحساسهم وحركاتهم منوطة بتحريكهم، ولو إلى الضــياع والشــر. وهــذه هــي الحالــة السائدة في شرقنا، وقد تفطــن الغــرب لهــذه النقيصــة فينــا، بــل إلــى هــذه الثغــرة الواسعة في نفوسنا، فأصبحوا ينصبون لنــا التماثيــل مــن الرجــال، ويَحْكُموننــا بهــا ويصرفون حياتنا من ورائها لمصلحتهم[1] .

وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۚ بَلۡ عِبَادٞ مُّكۡرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ وَهُم بِأَمۡرِهِۦ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡ وَلَا

[1] آثار الإمام ج5ص131

يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ
إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الولد : النسل ذكرا كان أو أنثى.

لا يسبقونه: لا يتقدمون عليه.

مشفقون : حذرون تبعا لإيمانهم بأنه لا راد لما أراده.

بيان المعنى الإجمالي :

ضلالات عشِشت في عقول بعض المشركين، فزعموا أن لله ولدا وهي أبلغ ما صدر عن المشركين من الباطل، تنزه عن قولهم وما نسبوه له من النقص باتخاذ الولد. وما توهموه من أن الملائكة بنات الله، هو وهم من لم يعرف حقيقة الملائكة. إنهم عباد الله مخلوقون له، مستحضرون دائما هذه المنزلة التي جعلتهم لا يتكلمون إلا بعد أن يصدر لهم الإذن، ولا يعملون عملا إلا وهم متأكدون أنه موافق لأمر رب العزة. والله يعلم ما قدموه وما تسببوا فيه وما سيحصل منهم في المستقبل. وهم لا يشفعون لأحد إلا من رضي أن يُشفع فيه، وهم لصفاء معرفته بالله هم يخشونه أشد الخشية، حذرون جدا من أن يرفع عنهم ما خصهم به من الكرامة.

هذا وإن أعظم الظلم الذي لا يغفر ادعاء الألوهية. فلو فرض كما يفرض المحال، أن أحدا من الملائكة، على ما قدمه القرآن من مزاياهم، ادعى الألوهية فإن عاقبة هذا المدعي تكون حتما عذاب جهنم، وعلى هذا النحو يجزى كل من فتح بابا للشرك.

بيان المعنى العام:

27/26- وقالوا اتخذ الله...بأمره يعملون .

من الاعتقادات الضالة التي آمن بها بعض العرب، اعتقادهم أن الله له ولد. وهذه العقيدة شاعت في قبيلة خزاعة التي كانت تسكن ضاحية من ضواحي مكة، وتسربت هذه العقيدة إلى بعض القرشيين. يزعمون أن لله بناتا . وأعقب تسجيل قولهم الفاسد هذا بأنه ينافي الألوهية. فقوله " سبحانه" يبطل قولهم باعتبار أنه فاسد عقلا. إذ اتخاذ الولد ناشئ عن نقص تنزه الله عنه.

من البديهيات أن من لم ينجب، ففقد الولد يشعر بالنقص والتعاسة، وإن توفر له من المال والصحة والجمال حظوظ كبيرة. فالولد حاجة للأصل يجد فيه امتداده، ويستحضر أنه منقطع بدون الولد. وجل الله أن يكون في حاجة إلى ولد إذ هو الغني الكامل الباقي، تعالى أن يلحقه فناء.

ثم خصـص مـا اعتقـده المشـركون مـن أن الملائكـة بنـات الله، فصـرحت الآيـة بماهيتهم: إنهم مملوكون لله، عباده، فالعلاقة بـين الله والملائكـة هـي علاقـة المخلـوق بالخالق . وهذا لا ينـافي أن الملائكـة كـرَّمهم الله برضـاه عـنهم وسـما بهـم إلـى المنـازل الرفيعـة وحـال بيـنهم وبـين التمـرد، أو الخـروج عـن حـدود الأدب والاستحضار للعبودية في كل وقت، فهم مـن أجـل ذلـك لا يتكلمـون إلا بعـد صـدور الإذن لهم، ولا يعملون عملا إلا عملا يرضيه تطبيقـا لأمـره .وهـي الطاعـة الخالصـة يسّرَها الله لهم تفضلا منه .

28- يعلم ما بين أيديهم....وهم من خشيته مشفقون .

وتعريفا بما أراد الله اطلاعنـا عليـه مـن مميـزاتهم ذكـر القـرآن : أن الله يعلـم مـا قدموا من الأعمال، وما تسببوا فيـه فنشـأ عـن تـدخلهم، علـى نفـس المسـتوى مـن علمه بما يقومون به في المستقبل . وبذلك تكـون شـهادة الله فـيهم كاشـفة عـن الحقيقـة مبينة للواقع، دافعة لكـل تسـاؤل . كمـا ذكـر أنهـم مـع شـدة قـربهم مـن الله ومـا خصصهم به من المزايـا، فـإنهم لا يتقـدمون بالشـفاعة لأحـد إلا لمـن أطلعهـم أنـه يرضى عن طلب الشفاعة له . كما ألحق بهـم وصـفا ملازمـا، وهـو أنهـم رغـم مـا أكرمهم به، وهداهم إليه، وقربهم من المنـازل السـامية عنـده، وقـدر أنهـم ميسـرون للخير والطاعة لا للشر والعصيان، مـع ذلـك فـإن الله أقـر فـي نفوسـهم المعرفـة بعظمته وواسع قدرته وأنه لا راد لما أراده . فخشـيتهم وخـوفهم منـه كأشـد مـا تكـون الخشية. هم حذرون وجِلون من أن تحل بهم نقمته أو ترفـع عـنهم كرامتـه. وفـي هـذه الخاتمة تربية للمؤمنين حتى لا يطمئنوا بما هـدوا إليـه مـن اسـتقامة. وتحقيقـا لـذلك جاء قوله تعالى: **(فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)**[1]

29- ومن يقل منهم ...كذلك نجزي الظالمين .

هذه الآية تؤكد نفي ما اهتم به القرآن في الآيـات السـابقة مـن نفـي الشـريك عـن الله، وأنه أعظم الظلم الذي لا يغفر . أفـادت الآيـة : أن الملائكـة علـى مـا صـرحت بـه الآيات السابقة من سموهم، وتقريب الله لهم كما بينـاه فـي الآيـات السـابقة، فـإن لـو فرض، كما يفرض المحال، أن أحدهم ادعى الألوهيـة ونسـبها لنفسـه، ونفاهـا عـن الله الواحد، فإنه ليس له إلا جزاء واحد هو العـذاب والإذلال فـي جهـنم . وإن هـذ المـآل ينسحب على جميع الظالمين، والمقصود بالظالمين هنا المشركون .

[1] سورة الأعراف آية 99

أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

رتقا: الرتق الاتصال والتلاصق بين الأجزاء.

الفتق : الانفصال بين الأجزاء .

الرواسي : الجبال .

الميد : الاضطراب .

الفج: الطريق الواسع.

السبل : جمع سبيل، الطريق الواضح.

بيان المعنى الإجمالي :

أنكر القرآن على الكافرين ما أوقعوا فيه أنفسهم من جهل بإعراضهم عن القرآن، فلم يعلموا أن السماوات والأرض كانتا كتلة واحدة ففرق الله بين الأرض وأجرام السماء. وأن الله قد جعل من الماء كل شيء حي، فربط بين الماء وبين الحياة، فلا تقوم الحياة إلا به. ما لهم لا ينتهون إلى الإيمان.

لقد جعلنا في الأرض جبالا تحفظ توازنها، وأنشأنا السهول، والمنافذ الواسعة بين الجبال بما يمكن البشر من الطرق السالكة للتواصل والإعمار . وأحكمنا بناء السماء، ففي أي بقعة أنت من الأرض تجد السماء محيطة بك من الأعلى، وحفظناها من الاختلال فهي تحيط بالأرض دون أن تصدمها بشيء من مكوناتها . والكافرون عما حوته السماء من الآيات البينة معرضون عن التأمل والاعتبار. والله وحده هو الذي خلق الليل والنهار وخلق الشمس والقمر. ونظم لكل كوكب مساره في مداره يسير فيه دون أن يحصل اصطدام، كما يسبح السابح في البحر

بيان المعنى العام :

30- أولم ير الذين كفروا...أفلا يؤمنون.

توالى لفت البصائر من الآية –16– إلى هــذه الآيـــة علـــى تفـــرد الله بخلـــق الســـماوات والأرض وما حوته. وأنه هو الله الواحــد الأحــد عقــلا ونقــلا. وأنــه ســبحانه لا يغفــر لمن يشرك به . وأتمت هذه الآية بيان حقيقة ســندها الــوحي الإلهـــي، فمــن لــم يــؤمن به لا مطمع له في إدراكها وقــت نــزول الــوحي. هــذه الحقيقـــة أن الســـماوات والأرض كانتا كتلة واحدة، ثم إن الله فصـــل الأرض عـــن الســـماوات. تفيــد الآيـــة أن الكـــافرين في عهد الرسالة وما تبعه ركبهم الغـــرور، وحكمـــوا معـــارفهم المحـــدودة، وبنـــوا علـــى مستواهم المعرفي نفي أشياء، وما كان مستواهم المعرفـــي إلا محـــدودا جـــدا، كمـــا قـــال تعالى : **(وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)**[1] فهذه الحقيقة أن الكـــون كـــان كلـــه كتلـــة واحـــدة متلاصقة الأجزاء، ثـــم إن الله فصـــل بـــين تلـــك الأجـــزاء فاســـتقلت الأرض بجرمهـــا وموقعها، وكذلك بقية أجزاء الكون . هـــذه الحقـــائق التـــي ســـجلها القـــرآن تؤكـــد : أن علم الإنسان قاصر، ومعارفه مرتبطة بحواسه، حتى يـــأتي العقـــل فيكشـــف شـــيئا مـــن الأسرار، والعلم الكامل لله. فَلَفْتُ النظر إلى ما لم تصـــل إليـــه المعرفـــة البشـــرية يزيـــد الذين آمنوا إيمانا، ودفعا للبحث عن قانون الله في الخلـــق، ويجعـــل حـــظ الكـــافر كحـــظ النعامة التي تخفي رأسها في الرمل إذا أحـــاط بهـــا الصـــيادون، يخيـــل إليهـــا أنـــه لمـــا حجب عن بصرها الصيادون، أنهم غير موجـــودين. وأمـــا الإيمـــان فإنـــه يكـــون محركـــا للمعرفة. أما كيف كانت الســـماوات والأرض كتلـــة واحـــدة، ومـــا هـــي الأطـــوار التـــي مرت بها حتى وصلت إلى الوضع التي هـــي عليـــه الآن ؟ فـــذلك موكـــول إلـــى البشـــر، يبحثون وينظرون، وقد يصلون إلى بعض أجـــزاء الحقيقـــة، والحقيقـــة كلهـــا هـــي فـــي علم الله العليم بكل شيء. وإذا كان بعـــض الفرضـــيات العلميـــة تؤكـــد الانفجـــار العظـــيم الذي تولد عنه الكون، فإن ذلك لا يتجـــاوز حـــد الفـــروض العلميـــة تنبـــئ عـــن ذكـــاء وفطنة، ولكنهـــا لا تقـــدم حقيقـــة علميـــة يقينيـــة .ولا يصـــح حمـــل الآيـــة علـــى هـــذه الفرضية، لأن الفرضيات العلمية منهـــا مـــا يثبـــت بالتجربـــة أو بقيـــام الأدلـــة المبلغـــة لليقين فيقبل، ومنها ما يبقى تحت مظلة الفرضيات فهـــو ظـــن أو شـــك لا يصـــح حمـــل ما كان يقينيا عليه. ولذا فإن ما تهـــدينا إليـــه الآيـــة: أن الســـماوات والأرض كانتـــا كتلـــة واحدة، وأنه حصل الانفصال بعد ذلك، أما كيف تم ذلك فـــلا يوجـــد اليـــوم مـــا يفصـــل الطريقة التي تم عليها الحدث.

[1] سورة الإسراء آية 85

وهذا المحمل الذي اتبعناه والذي يساعد عليــه ظـــاهر نظــم الآيـــة، لــيس هــم المحمــل الوحيد، بل ذهب بعض المفسرين إلى أن المــراد إلـــى أن الرتـــق هـــو فـــي الســـماوات على حدة وفي الأرض على حدة. ثم فتقت السماوات وفتقت الأرض .

ورجح بعضهم أن المراد بـــالرتق مـــا يبصـــره الرائـــي: أن الســـموات تمثـــل وحـــدة وأن الأرض تمثـــل وحـــدة، ثـــم إن الفتـــق هـــو مـــا يشـــاهد مـــن نـــزول المطـــر والبـــرق والصواعق، وتخلخل الأرض بماء المطر، وخروج النبات والشجر من باطنها .

ولفتة ثانية تظهر الحكمة في الخلق والتقدير لتدل العالمين على سر من أسرار الخلق، هو الارتباط بين الماء والحياة. سواء أكان ذلك في خلق الإنسان، أو في خلق بقية الحيوانات، وفي ارتباط دوام الحياة بالرطوبة، فإذا ذهبت الرطوبة امحت الحياة .

ما بـــال النـــاس لا يتـــدبرون فيؤمنـــون بمـــا يشـــاهدونه مـــن أســـرار خلـــق الســـماوات والأرض، ومن تداخل الرطوبة في تولد الحياة . إن ذلـــك لـــيس ممـــا يقتضـــيه القـــانون العقلي، ولكن الواقع كشف عن ذلك، فمن الـــذي جعـــل المـــاء أساســـا للحيـــاة ارتبطـــت به وجودا وعدما؟ إنها مَشَاهِدُ الكون تنادي بوجود الخالق، فما للناس لا يؤمنون!

31- وجعلنا في الأرض رواسي ...لعلهم يهتدون.

لفتت الآية الأنظار إلى بعض مظاهر تركيب الأرض .

1)بث الله الجبال محققة لتوازنها، التـــوازن الـــذي يمهـــد لتكـــون حيـــاة الإنســـان علـــى سطحها ميسرة، إذ لو كان الاضـــطراب قـــانون بقائهـــا لمـــا اســـتقامت للإنســـان حيـــاة يطوِّع بها خيراتها ويمكنه من الاستخلاف فيها .

2) بسط الله بجانب الجبال السهول التـــي لا تعوقـــه عـــن الضـــرب فـــي الأرض، فخـــط منها طرقا يسلكها، وينتقل في أرجائها، ويتصل بإخوانه فـــي الإنســـانية فـــلا تضـــيق بـــه طبيعة الأرض عن القيام بعمارتها.

إن هذه النعم والألطاف، وحسن التدبير بوضع كل شـــيء فـــي مكانـــه، هـــي تنفـــذ إلـــى المدارك، فتكون مهيئة لرجاء أن يتأملوا فيها فتهديهم إلى الإيمان .

32-وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون.

يواصل القرآن استحضار مشاهد الكون حتى لا يمـــر الإنســـان عليهـــا غـــافلا، ذلـــك أن تكرر المشهد على بصره، في نظام لا اخـــتلال فيـــه بلـــغ حـــد الرتابـــة، تغطـــي صـــفة الاستمرارية فيه على ما فيه من عبر. منـــذ الصـــبا البـــاكر نشـــاهد هـــذه القبـــة الزرقـــاء فوق رؤوسنا، تظهر فيهـــا الشـــمس وتختفـــي، وكـــذلك القمـــر والنجـــوم والكواكـــب. تغطي كـــل جـــزء مـــن أجـــزاء الأرض، ســـقف محفـــوظ مـــن الاضـــطراب، والأرض

محفوظة من تلكم الكواكب السائرة في الفلك العظيم فكل له مساره، ثم إن الجاذبية التي بينها البالغة أقصى حدود الدقة تؤذن بالحكمة في تقديرها. إن فيها أدلة واضحة تنادي بأنها حدثت عن الله القادر الذي رتب كل شيء ترتيبا ينادي الإنسان للتأمل فيه، والعمل على معرفة أسراره حسب مقدرته العلمية. إنه لولا النظام في الخلق ما دعي الإنسان للتأمل وعدم الإعراض عن آيات الخلق. إن ارتباط حركة المد والجزر بالقمر، والنهار والليل بالشمس، وارتباط الفصول بكواكب تظهر وتختفي، والسحب والرعد والبرق والأمطار بالإنبات والخصب وغير ذلك، مما يدعو إلى الاقتراب من هذه الآيات الكونية، لينشرح الصدر للإيمان.

33-وهو الذي خلق...كل في فلك يسبحون .

بعد أن حرك الأنظار في الآيات السابقة لتعتبر بمشاهد الكون، ختم العرض بظاهرتين تشملان الأرض وما عليها، ويقع كل شيء تحت تأثيرهما : الليل الذي ينسحب على الأرض فيلفها الظلام، ويجد الإنسان في سكونه راحته المجددة لطاقاته، ثم النهار الذي يبعث فيه النشاط والحركة ويدفعه للسعي والتحصيل. وربط الظاهرتين بالشمس والقمر في السماء، فإذا الكون كله وحدة سماؤه وأرضه بينهما التفاعل المقدر. ولذا فتحت الآية بقصر ما تضمنته على خلق الله. " وهو الذي خلق " فقضية التفرد بالخلق هي الأهم والمقصود من الآية. ولفت النظر إلى أن ما حواه هذا الكون من الكواكب عَيَّنَ الله له مساره الذي يسير فيه، هو الفلك الذي يتبع فيه خطا دائريا، وأنه لا يجد في فلكه ذاك ما يعترضه، فتخير القرآن للتعبير عن ذلك قوله يسبحون .

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الخلد : استمرار الحياة إلى الأبد.

ذائقة الموت : تحس بآلامه عند النزع.

نبلوكم : نختبركم .

يتخذونك هزوًا : محلا لسخريتهم منك.

بيان المعنى الإجمالي :

من سخف المشركين وانحطاط مستواهم النفسي، أنهم يتمنون مشاهدة موتك. إن الموت ليس نقصا فقد مات جميع المرسلين من قبلك. ثم إنهم عللوا أنفسهم بالتشفي منك إذا ما مت، وهم غير خالدين، وسيحصد الموت المتمنين قبل أن يفرحوا بموتك. وقد حقق الله وعده لرسوله ووعيده للمشركين المتربصين. ثم إن كل نفس من البشر أو الحيوان ستموت، وتذوق عند النزع آلام الموت. وما يجري عليكم في حياتكم، من الخير الذي تحبونه، ومن الشر الذي تَتَوَقَّوْنَهُ هو ابتلاء لكم واختبار لصفاء إيمانكم، ثم ترجعون إلينا يوم القيامة لنجزيكم عن الشكر نعمة ورضا، أو عن الكفر نقمة وعذابا.

ومن سفه المشركين أنهم إذا رأوك حاولوا أن يستنقصوا من مقامك بقولهم لأتباعهم : هذا الذي ترونه هو الذي يستنقص آلهتكم ويذكرها بسوء، رأوا أن أصنامهم أعلى منزلة من جميع الكائنات. والغريب من أمرهم أنهم غافلون عن ذكر الرحمن بما هو أهله، وبالتعلق بالقرآن الذي أنزله .

بيان المعنى العام :

34 – وما جعلنا لبشر...فهم الخالدون.

تتابعت الآيات في هذه السورة، مقرعة للكافرين، مسقطة لشبهاتهم، مما ضاعف حقدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكَبَّر حسدهم، وعجزوا عن إلحاق الضرر به، فتمنوا أن يموت ليستريحوا منه، وتمني الموت هو رشح النفوس المهزومة المريضة. فرد القرآن عليهم من ناحيتين :

الناحية الأولى: هي التذكير بما أجريتُ عليه سنة الخلق جميعا حتى المقربين المكرمين بالرسالة الذين أرسلتهم من قبلك: أن الموت لحقهم، والموت ليس نقصا. فتمني الموت للتشفي ينبئ عن انهزام نفسي من العجزة .لأنهم من سخفهم يتمنون الموت الذي سيحصدهم أيضا، ولا مطمع لهم في البقاء بعدك، ليجدوا لذة تحقق ما رغبوا من مشاهدة موتك. وقد تم ذلك فإنه ما انتقل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى حتى حصد الموت رؤوس الكفر .

35- كل نفس ذائقة الموت ...وإلينا ترجعون.

إن بساط الآية السابقة هيأ للتصريح :

أولا: بهذه القاعدة التي أجرى الله عليها كل من انتشرت الحياة في ذاته، فكل نفس من البشر والحيوان غير مخلدة، وتستوفي أجلها المقدر لها لتلاقي الموت المحتَّم.

وانفصال الروح عن الجسم الـذي يـتم بـه المـوت يصـحبه سـكرات النـزع وآلامـه، لطف الله بنا وبكم وثبتنا علـى كلمـة التوحيـد، وبعـد المـوت ينتهـي الإحسـاس فـلا يذوق" يحس " الميت شيئا .

ثانيا: أن الله قدر في حياتكم أن يقترن الخيـر بالشـر، والسـلامة بالعطـب، والصـحة بالسقم، والفرح بالحزن، والغنى بالحاجـة، والنجـاح بالفشـل وهكـذا. هـذا قـدر الله، ولا راد له. هذا هو الجانب الأول، والجانـب الثـاني أن هـذه الأحـوال تجـري علـى الإنسان وله موقف منها . إما أن يتقبـل الحـدث بالرضـا المقتـرن بـالرجوع إلـى الله، بالشكر على ما أنعم، وبالصـبر علـى البلـوى. إذ الخيـر والشـر كـل واحـد منهمـا اختبار للإنسان نتيجته، إما تعميق الإيمان في روحه، وإمـا مـد فـي ضـلاله. فكلاهمـا فتنة واختبار ونجاح أو خيبة. ثـم لا يقـف أثـر ذلـك علـى الظـرف الـذي وقـع فيـه الاختبار، بل يكون مهيئا للحساب علـى مـا قـدم عنـدما يرجـع كـل فـرد إلـى الله. فانسحبت الآية على قانون نهاية الحياة، وعلى ما يلقاه كـل فـرد فـي حياتـه، وعلـى المصير يوم القيامة في أوجز لفظ وأوسع مدلول.

36- وإذا رآك الذين كفروا...هم كافرون .

يواصل القرآن الإفصاح عن علاقة الرسول صـلى الله عليـه وسـلم بالمشـركين، فبعـد أن ذكرت الآية السابقة أنهم ضاقوا ذرعا به وتمنوا مشـاهدة موتـه، عطـف علـى ذلـك موقفهم منه وهو ينشط في الدعوة إلـى الله، وقـد بلـغ تغـيُّظهم عليـه أن نزلـوا إلـى سفاهة السفهاء الذي يستنقصون الكمَّل مـن البشـر بالاسـتهزاء مـنهم . فـإذا مـر بهـم النبي صلى الله عليه وسلم، وقد كساه الله من المهابة ما لـم يعطـه أحـدا مـن العـالمين، تغامزوا عليه يرومون استنقاصه فـي أعـين مـن لـم يـؤمن ليصـدوهم عـن اتباعـه، ويقولون مستنقصين :هذا المار أمامكم يتجاسر علـى آلهـتكم فيـذكرهم بمـا يحـط مـن قيمتهم، كأنهم يعجبون من أن يتجرأ بشـر علـى ذكـر الآلهـة بسـوء. ومـن اخـتلال عقولهم أنهم غافلون عن ذكر الرحمان، وإجراء مـا يجـب لـه مـن التعظـيم، غـافلون عن كلامه القرآن المنزل على رسوله، كـافرون بحقـوق الـرحمن الـذي رحمهـم فـي جميع أطوار حياتهم حتى بلغوا المستوى الذي هـم عليـه قـال تعـالى: **(وإذا قيـل لهـم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن)**[1]. وفي التعبير عـن الـذات الإلهيـة باسـم الـرحمن إغاظة لهم، إذ هم ينكرون اسم الرحمن .

[1] سورة الإسراء آية 85

خُلِقَ ٱلْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ
مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ حِينَ لَا
يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ ٱلنَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٣٩﴾
بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

العجل : السرعة.

حين : وقت.

البغتة: فجأة.

تبهتهم : تحيرهم

بيان المعنى الإجمالي :

قدم القرآن حقيقة لا يعلمها إلا الخالق، كشف بها طبيعة خلق الإنسان، وأن حظه من الصبر محدود. وإن لم يكونوا على مرتبة سواء فبعضهم بما له من وفرة في عقله وتحكم في عواطفه وقوة في إيمانه يكون أكمل صبرا وأقل عجلة، وبعضهم يتقدم به العمر دون أن يفارقه الوضع الذي كان عليه في صباه. واستبطأ المؤمنون الوعد الذي وعدهم ربهم من النصر وعلو كلمة الدين، كما استبطأ ذلك الكافرون استهزاء .فختمت الآية بأن وعد الله حاصل لا شك، فلا تطلبوا مني تحقيق ذلك في الوقت الذي تريدون .

وإمعانا من الكافرين في التكذيب يقولون: إذن متى سيتم تنفيذ الوعد إن كنتم صادقين في وعدكم؟ ظنوا الإمهال التابع للحكم في التوقيت إهمالا لهم ونفيا للوعيد. مستبعدين صدقه.

لو يعلم الكافرون طبيعة العذاب الذي سيسلط عليهم ما استخفوا به ولا واصلوا التكذيب، إنه نار جهنم التي ستحيط بهم من أمامهم ومن خلفهم فلا يستطيعون حماية وجوههم ولا ظهورهم ، ولا يجدون نصيرا من الذين كانوا يزعمون أنهم سيكونون شفعاء لهم لو تحقق ما يوعد به القرآن .

إن ما هيء لهم من جزاء سيباغتهم بما يحيرهم ويذهب هوله بعقولهم، ولا يستطيعون إبعاده ولا حتى تأخيره عن موعده.

بيان المعنى العام :

37- خلق الإنسان من عجل ...فلا تستعجلون.

تمرد المشركون، وشاكسوا المؤمنين، وشككوا فيما أوعدهم به القرآن من النكال، كما أن المؤمنين استبطأوا حلول الوعيد بالكفرة مع اقتناعهم بأنه آت. إن ما يحدث في الكون مقدر في علم الله، طبيعته وزمن تنفيذه. ولكن الإنسان رُكِّز في خلقته السرعة، فهو يود أن يتحقق له ما يرغب فيه في أقرب وقت، كما يرغب أن يزول عنه ما حل به من شر سريعا. ولكل فرد حظه من الصبر يتفاوت بمقدار ما وفَّره الله له من قوة في عقله، ومن إرادة تعلو على الظروف الحاضرة ولا تتعجل، ومن وضوح الإيمان في قلبه، دون أن تكون عواطفه بَارِدَةً لا يلابسها أي قدْر من العجلة، إذ لكل فرد حظه منها كما جاء في الآية: أنها جزء من طبيعته مخلوقة معه لا تفارقه. ولما كان وعد الله ووعيده كلاهما حق لا ريب فيه، فستشاهدون تحقق ذلك، فلا تطلبوا أن يعجل الله لكم ما وعدكم، كما هي تهديد للكافرين بأن الوعيد سيحل بهم، ولكن الله ينزله في الوقت المقدر له.

38- ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين.

ويقول الكافرون استهزاء: متـــى يتحقــق هــذا الوعــد الــذي يعــده القــرآن للمــؤمنين؟ وأتبعوا سؤالهم بقــولهم: إن كنــتم صــادقين، بمــا يــدل عليــه لفــظ "إن" مــن الشــك والاستبعاد في صدق الوعد. فقد جمعــوا فــي مقــالتهم تلــك الاســتهزاء والإيمــاء لنفــي الوعد بالتشكيك، والتدليل على ذلك ببطء حصوله.

39-لو يعلم الذين كفروا...ولا هم ينصرون.

استعجلوا حصول الوعيد من شدة غفلتهم، ولو يعلم الذين كفــروا مــا ســينزل بهــم مــن العذاب والمهانة، لمّا استعجلوا ولما أقاموا على ما هــم عليــه مــن الكفــر والاســتهزاء. لو يعلمون الوقت الذي سينفذ فيهم الله مــا أوعــدهم بــه لحــاولوا إنقــاذ أنفســهم، هــو الوقت الذي من شدة عذابه ، أن النار تحيط بهم مــن كــل جانــب. وتجســيما لــذلك فإنــه من شأن الإنســان أن يتقــي بيديــه الخطــر المهــدد لوجهــه أولا، ولكــن لهــب جهــنم المحيط أمضى من أن يردوه عــن وجــوههم ولا عــن ظهــورهم، ولا يجــدون نصــيرا ينصرهم، فيبطل ما تخيلوه من أن آلهــتهم تشــفع لهــم، لا شــفيع يومهــا مــن الــذين كانوا يُعَوِّلون عليهم وصرحوا به .

40- بل تأتيهم بغتة ...ولا هم ينظرون .

حساباتهم كلها مغلوطة غير صحيحة، ظنوا أنهــم يســتطيعون الاســتعداد لــدرء الخطــر بمجرد ما يتوقعون قربــه. قاســوا وعيــد الله علــى مــا يحــدث بيــنهم مــن الحــروب والغــارات، ومــا دروا أن الــدواهي التــي تــأتيهم ســتكون مباغتــة، تفــوق طاقــات

التحمل، فيتحيرون، ويتبينون عجزهم عن دفعها، وحتـــى لـــو طلبـــوا التـــأخير فإنـــه لا سبيل إليه، الأمر محسوم لا يؤخر ولو لحظة.

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْىِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

حاق: نزل وحل.

بيان المعنى الاجمالي :

يؤنس القرآن النبي صلى الله عليه وسلم، والكفــر يشــتد، والاســتهزاء ينتشــر ويمتــد، فيقول له :لقد استهزئ بالمرســلين قبلــك علـــى هــذا النحــو، فأنزلــت علــيهم عــذابي بسبب استهزائهم . فكان استهزاؤهم سببا في إهلاكهم.

قل لهم قولا من شأنه أن يوقظ الغافلين: من يحفظكــم مـــن عــذاب الــرحمن، فـــي الليــل وما يصحبه من أنواع الضر، وكــذلك بالنهــار؟ لــيس لكــم ولآلهــتكم أي قــدرة علـــى حمايتكم. ولكنهم أقفلوا عقولهم وتمادوا معرضـــين عمـــا تـــذكرهم بـــه فـــلا ينتفعـــون بمـــا من شأنه أن يوقظ البشر.

بل قد يكون السبب في استكبارهم، استدراج الله لهم ببســط نعمـــه علــيهم وعلـــى آبــائهم بسطا طال أمده، حتى تمردوا مطمئنين. إنهــم واهمــون، فشــواهد عاقبــة المســتكبرين بينة في صحيفة التــاريخ، إن الله أخــذهم مـــن مواقـــع عـــزهم، فجعلهـــم أطرافـــا ثـــم أبادهم. ومع ذلك فإن باطلهم أبعد ما يكون عن الغلبة .

بيان المعنى العام :

41-ولقد استهزئ برسل ...ما كانوا به يستهزئون.

تطمئن هذه الآية النبي ﷺ وتؤنسه، وتقوي عزيمتـه علـى مواصـلة مواجهـة الكـافرين .يقول الله لنبيه إن هـذه سـنة المرسـلين مـن قبلـك، أنهـم كلمـا أفحمـوا المشـركين وكشفوا عن فساد عقيـدتهم، واخـتلال قـيمهم يواجهـونهم بالسـخرية . ولكـن الله مـنهم بالمرصاد فأنزل عليهم عذابه بسبب اسـتهزائهم برسـل الله، وسـيلقى مشـركو مكـة نفس المصير.

42-قل من يكلؤكم بالليل....عن ذكر ربهم معرضون.

صرِّحْ لهم بما يوقظهم من غفلتهم، واسألهم بمـا يحـرك الحقـائق فـي نفوسـهم لعلهـم يستحيون بهذا السؤال المقرِّع، فيرتدعون ويكفـون عـن كفـرهم. مـن الـذي يحفظكـم من المهالك ومما يؤذيكم بالليل والنهـار ؟ وقـدم الليـل لأن الضـر فيـه أكثـر وقوعـا، وعطف عليه النهار، فأفاد استيعاب الحفظ جميـع الأزمنـة . مـن يحفظكـم مـن عـذاب الرحمن وبأسه حفظا مستمرا، وفي ذكر الـرحمن إيمـاء إلـى أنـه برحمتـه يـتم ذلـك الحفظ، ففي كل لحظة إنزال العـذاب ممكـن لا يبعـده إلا حفظـه برحمتـه. وأضـرب عن الكـلام ليشـنع بغفلـتهم وإصـرارهم، إنهـم عـن ذكـر الله والاعتـراف بفضـله معرضون. ولا ينتفع الإنسان بالتنبيه إلا إذا لـم يغلـق مداركـه عـن الانتفـاع بمـا نبـه إليه. فمع العناد لا ينفع التذكير.

43- أم لهم آلهة تنصرهم ...منا يصحبون.

ثم أضرب القرآن إضرابا ثانيا، ليهزهم بسؤال لاحق يكشـف عـن زيـف مـا اعتمـدوه. اعتمدوا آلهة مـن دون الله تحصـنهم مـن المكـاره فـدانوا لهـم بالطاعـة والقربـات . فماهي حقيقة هذه الآلهة ؟ الصفة الغالبة عليها هي العجـز الكامـل، هـي آلهـة عـاجزة عن نصر أنفسها، ممن يعمـد إلـى إتلافهـا أو إهانتهـا. ولا هـي مؤيـدة مـن خـالق الكون. فكيف يؤلِّهون أصـناما، ويطمعـون منهـا أن تسـارع بنصـرهم عنـد الشـدائد، وهي لا تستطيع نصر أنفسها ولا تصحبها قوة من الله .

44-بل متعنا هؤلاء وآباءهم ...أفهم الغالبون.

إضراب ينتقل به التصوير مما ذكر في الآية السابقة إلى بسـط سـبب آخـر توهمـوا بـه استمرار ما هم فيه من نعمـة . ذلـك أن الله لـم يعـاجلهم ولا آبـاءهم بالعقوبـة وسـلْب الخيرات، وأمهلهم ممتعين استدراجا لهم، حتى طالت حيـاتهم وهـم يتقلبـون فـي نعـم الرحمن. فكان هذا سببا آخر في استكبارهم واطمئنانهم. أبْلَغَـتْ بهـم الغفلـة عـن التأمـل في سنن الله في الخليقة، فلم يـدركوا أن قـدر الله يـأتي علـى المتمـردين مـن سـكان الأرض، فينتهي أمرهم إلى الهلاك، وذهاب ما عمروه. وأنهـم بعـد مـا كـانوا وسـطا

بقوتهم ومستواهم الحضاري ينظر إليهم نظرة مهابة، يحـولهم إلـى طـرف بسـرع إليـه السقوط، ويذوب كأنه لم يكن. فهـل يسـتطيعون أن يغلبـوا الحـق، أو أن يوقفـوا مـد الإسلام ؟ كلا سيهزمون كما هزمت الجماعات المتمردة من قبلهم .

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾
وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٤٦﴾
وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ
مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الصم : غير المنتفعين بالإنذار كأنهم لا يسمعون.

الدعاء : الدعوة إلى الله.

المس : اتصال بظاهر الجسم.

نفحة : قدر القليل.

الويل :حلول الشر .

الوضع: حط الشيء في مكان.

القسط : العدل.

المثقال :ما يماثل شيئا في الثقل .

الخردل : حب دقيق لنوع من النبات

بيان المعنى الاجمالي :

واجِهْهم يا محمد وقل لهم: مهمتي قاصرة على إنذاركم بما تلَقَّيْتُـه مـن وحـي مـن ربـي حتى تقلعوا عما أنتم عليه من الشرك والفساد. واعلم أنهم تبعـا لمـا صـمموا عليـه مـن العناد، وضعهم كوضع الصم الذين لا يدركون الأصـوات، فـلا تحـزن علـيهم. وإنـه عندما يحسون بأول العذاب يستيقظون قـائلين، متحسـرين: إنـا كنـا ظـالمين بالشـرك. يعترفون بأنهم جديرون بما سلط عليهم من العذاب.

إنه في يوم القيامة نحاسب كل فرد حسـابا دقيقـا. يـوزن كـل عمـل صـغيرا كـان أو كبيرا، من الخير أو الشر، ويقوم العدل الإلهي الـذي لا جـور فيـه ولا ظلـم. ويقتنـع كل محاسَب بما يظهر في حسابه، ذلك أن كل ما قدمـه فـي حياتـه يظهـر ولـو كـان ضئيلا كحبة الخردل أو السمسم. وكفى الله الناس بعدلـه وشـمول علمـه بالأعمـال فـلا يتطلعون إلى حاسب آخر.

بيان المعنى العام:

45- قل إنما أنذركم بالوحي ...ما ينذرون.

تقوية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ليواجه عناد المشركين بتنفيذ أمر ربه، قل لهم قولا يقطع لجاجهم وما يقدمونه من مقترحات لا يقصدون منها الاقتناع بما أنزل عليك : دوري قاصر على إنذاركم بواسطة الوحي المنزل علي من الله، والمصير الذي سيحل بكم إن واصلتم الإعراض . وليست مهمتي أن أسعى لإجابة اقتراحاتكم النابعة من عنادكم.

ثم التفت الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وسلم مطمئنا له ومؤانسا : إن بيان ما أنزلناه إليك من الوحي، وطرد الشبهات، وعرض ما يترصد المعرضين من العذاب الدنيوي والأخروي، كل ذلك لا ينفع الذين صمموا على الرفض، فهم كالصم الذين تمر التموجات الصوتية داخل آذانهم فتجدها معطلة عن التأثر بها، ولا تنقلها إلى المناطق التي تدرك مدلولاتها.

46- ولئن مستهم نفحة ...إنا كنا ظالمين.

عرّفت الآية ما سيحل بهم يوم القيامة، فأول ما يعذبون به هو ما يوقظهم إلى ما فرط منهم، والعاقبة التي لا يمكنهم معها التدارك. ذلك أنه بمجرد ما يلحقهم أول درجات العذاب ويحسون به، يستيقظون نادمين قائلين : ياويلنا : متحسرين بأبلغ ما يكون التحسر لعدم القدرة على التدارك ، إنا كنا ظالمين لأنفسنا وللحقيقة بما كنا عليه من الشرك. والشرك ظلم عظيم.

47 – ونضع الموازين القسط ...وكفى بنا حاسبين.

أعقب القرآن مس العذاب الأول يوم القيامة بمحاسبة البشر في ذلك اليوم. وجسّم العدالة المطلقة التي يتم بها حساب كل فرد عما قدم، بأن الله يضع الموازين العادلة تزن الأعمال خيرها وشرها. وذكر المفسرون الميزان على أنه ميزان دقيق له كفتان ولسان. وقد جروا في تصوره على ما هو شأن الموازين في حياتهم. والذي ترجح عندي أنه تصوير يجسم العدالة كما وضعوا على قصور العدالة ميزانا بكفتين وذلك:

أولا: أن شان يوم القيامة هو غير شأن الدنيا، وما يذكر في القرآن هو تقريب للناس حسب أعرافهم ومستواهم الحضاري.

ثانيا: أن هذا الميزان لا يوزن به شيء مادي، بل هو لوزن قيمة الأفعال وما فيها من خير أو شر، وتلك أمور معنوية، مما يقتضي أن يكون الميزان يظهر القيمة المعنوية التي للشيء الموزون.

ثالثا: أنه في حياتنا الدنيا لنا ميــزان تــوزن بــه الحــرارة، وميــزان للضــغط الجــوي، وميزان لضبط ضغط الدم، ونحو ذلك، وليس شيء منها ذا كفتين ولسان.

فلنسر في فهم النص القرآني على أن الله يُعَرِّف تعريفــا دقيقــا قــيم الأعمـــال التــي قــام بها البشر في دنياهم من خير أو شر، تعريفا يقتنع به الفاعل ولا يجد مدفعا.

تقول الآية أن الله يُعَرِّف كل إنسان بقيمــة آثـــار أعمالــه الخيــرة أو الشــريرة، ويكــون ذلك على نحو دقيق جدا وشامل لكل ما صدر عنه. حتـــى إن العمــل التافــه يأخــذ حظــه من التقويم العام. وجسَّم ذلك بأن العمل الضئيل التافـــه كــوزن حبــة مـــن الخـــردل التـــي هي كحب السمسم يظهر في الحساب. مما يــدل علـــى ثلاثـــة أمــور: أن الإحصـــاء هـــو إحصاء لا يضيع شيئا.

وأن الجزاء شامل للكبيرة، وحتى الصغيرة تظهــر متميــزة، ممـــا لـــم يكـــن الإنســـان يلقي له بالا في حياته الدنيوية.

وأن العدل الكامل يسري على الجميع، مما يقتنع به كل فـــرد مـــن المحاسَـــبين أنــه لـــم يُظلَمْ شيئا. وختمت الآية بـــأن الله كفـــى النـــاس الحســـاب العـــادل فـــلا يتطلعـــون إلـــى حاسب آخر يقوم بالعدل كما يقوم به سبحانه. فعلـــى كـــل إنســـان أن يحـــذر مـــا يســـخط ربه، وأن يجتهد فيما يلقى به حسن الجزاء .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ ۚ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفرقان : كل ما يفرق به بين الحق والباطل

الضياء : أصله النور، والمقصود به العلم والهدى.

ذكرا: يحرك أذهانهم.

الإشفاق : أشد الخشية.

مبارك : شامل لأنواع الخير

بيان المعنى الإجمالي :

ما لهؤلاء المشركين يبادرون بتكذيب رسول الله صلى الله عليــه وســلم فيمـــا يـــدعو إليـــه ويحذر منه؟ أليس لهم في بعثة موســـى وهـــارون مصـــحوبين بـــالتوراة مـــا يقـــوم علـــى أنها سنة الله في عنايته بالبشرية؟ إن التوراة هـــي الكتـــاب الفـــارق بـــين صـــواب العقيـــدة

وبين فسادها، فقد أضاءت وذكّـرت المتقـين فحمـتهم مـن الغفلـة والنسـيان بواسـطة نصوصها المكتوبة مما جعلها مرجعا لهم يجدون فيهـا هـدى الله. للمتقـين: هـم الـذين يخشون ربهم، فحضور العقيدة في قلوبهم تحمـيهم مـن الوقـوع فـي الإثـم والرذيلـة، سواء أكانوا في ملأ من الناس أم كانوا وحدهم لا يطلـع علـيهم أحـد مـن البشـر. وهـم مع ذلك حذرون أشـد الحـذر مـن الحسـاب الـذي لا يغـادر صـغيرة ولا كبيـرة إلا أحصاها ويجازي عليها.

وجريا على فضل الله في عنايته بالبشر، أمـامكم اليـوم هـذا القـرآن الجـامع للبركـات من صلاح الدنيا وصـلاح الآخـرة .عجبـا لكـم ! أتنكـرون بركاتـه وهـي حاضـرة تشاهدون آثارها ؟

بيان المعنى العام :

48←50: ولقد آتينا موسى ....أفأنتم له منكرون.

تتنزل الآيات الثلاث منزلة الاستدلال على صدق الرسول، وتحقـق مـا أخبـر بـه مـن الغيب. بتنظيره بما هو مقطوع بـه مـن أن الله أوصـل إلـى موسـى وهـارون عليهمـا السلام الفرقان: التوراة المتضـمنة للعقيـدة التـي تكشـف عـن زيـف العقائـد الفاسـدة الأخرى، وتقيم دعائم العقيدة الصـحيحة الداعيـة للتوحيـد، وتضـبط التشـريع الممكّـن للأمة من التوحد في علاقاتها الاجتماعية وفي متنوع أوجـه النشـاط فـي الحيـاة. وهـي مع كونها فارقة هي ترسل بأشـعة النـور الموضـح للطريـق الهـادي إلـى مـا يحقـق النجاح في الدارين، فالمعتمِد على التوراة قبـل أن تحـرف، يكـون علـى بصـيرة فـي سعيه، واضحا في نفسه الطريق الذي يسلكه. ولما كـان نـص التـوراة مكتوبـا، كانـت نصوصها مذكرة للذين حلت التقوى قلوبهم. فهـم يرجعـون إليـه ليهتـدوا بـه، ولـيمكن من التقوى في قلوبهم. ومَنْ هم هؤلاء المتقون الذين يصـل انتفـاعهم بـالتوراة إلـى هـذا المستوى ؟ هم الذين حلت الخشية والخـوف الشـديد مـن سـخط ربهـم فـي خلـواتهم، فهم يراقبون الله في سرهم وفي الظروف التي يكونون فيهـا غـائبين عـن رقابـة عيـون الناس. وحل فيهم الإشفاق والخوف الشديد من أهوال يـوم القيامـة، فهـم يجتهـدون فـي الإعداد لذلك اليوم.

وهذا القرآن هو الحلقة الأخيرة في سلسلة وحي الله، أنزلـه علـى محمـد حالـة كونـه جامعا لضروب الخير، من توجيـه متبعيـه إلـى مـا يحقـق لهـم العـزة فـي الـدنيا، وراحة الضمير، ويربط البشر برباط يمكن لوحـدتهم، ويجعـل مجـتمعهم نظيفـا آمنـا، ويهديهم إلى ما يسعدهم في آخرتهم.

وإذا كان القرآن على هذه المزايا فإنـه مـن المنكـر أن يعرضـوا عنـه، فتوجـه لهـم بسؤال ينكر عليهم موقفهم منه ورفضهم لمضامينه.

۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الرشد : الهدى والرأي الحق.

التماثيل : جمع تمثال، الأصنام التي لا حقيقة لها وهي تمثل شيئا آخر موهوما.

عاكفون : ملازمون لعبادتهم.

اللاعبين : المازحين.

بيان المعنى الإجمالي :

نوه الله بإبراهيم عليه السلام في سلسلة الرسل الذين آتاهم رشده، فقد حقق القرآن أن الله مكنه من الهداية التي وضحت له طريق الحق واستقامة التفكير من قبل موسى، وهو أهل لذلك، لأن الله يعلم النفس الزكية التي كان يحملها إبراهيم بين جنبيه. واذكر الظرف الذي قال فيه إبراهيم لأبيه وقومه، وقد وجدهم ملازمين لعبادة منحوتات من خشب وغيرها يعبدونها، فقال لهم: ما حقيقة هذه المنحوتات الممثلة لأشياء، التي أنتم ملازمون لعبادتها ؟ لم يجدوا إلا جوابا واحدا: أنهم قلدوا آباءهم في عبادتها. وإذ فرّغهم من كل أساس منطقي قال لهم : إنكم أنتم وآباؤكم من قبلكم منغمسون في الضلال الواضح الذي لا شبهة فيه.

لشدة تعلقهم بالأصنام سألوه أهو جادٌّ في كلامه أو هو يمزح ؟ فرد عليهم ردا مبكّتا لهم، ربكم هو رب السماوات والأرض، فأنتم تعلمون أنه لا دخل لآلهتكم في خلقها، ولا فرق بينكم وبينها. فالله وحده هو الذي أبدعها، وأنا موقن بذلك شاهد عليه. ثم أقسم عليه السلام أنه سيحطم تلك الأصنام عندما يعودون إلى بيوتهم، ويجدها وحدها بدون حارس يقوم عليها.

بيان المعنى العام :

51- ولقد آتينا إبراهيم ....وكنا به عالمين.

أعقب القرآن التذكير بما أوتيه موسى وهارون اللذين كانــت شــريعتهما مــا تــزال قائمــة مبنية على ما اقتنع به اليهود من كتــاب التــوراة المنــزل عليــه . وذلــك معلــوم أيضــا عند العرب، إذ كانوا مخالطين لهم في جزيرة العــرب. أعقــب ذلــك بالتــذكير بالحــديث عن إبراهيم عليه الســلام، لأنــه وإن كانــت صــحفه قــد اندرســت إلا أن كثيــرا مــن العرب يعتقدون أنهم على دين إبراهيم، وتقوم الكعبة في مكــة واصــلة لهــم بهــذا النبــي الكريم. إذ هو الذي بناها بيتا للتوحيــد .افتــتح بالتأكيــد علــى مزيتــه العظمــى : أن الله آتاه رشدا تاما وهداية واضحة، ويزيده بيانا ما جاء فــي الآيــات التاليــة، حتــى أصــبح الرشد كأنه خاصا به بإضافته إليــه . وقولــه تعــالى مــن قبــل إبــراز لســنة الله فــي تواصل رشده لرسله وإيماء إلى أن موسى وهــارون ســارا علــى مــنهج إبــراهيم ﷺ. ثم نوه القرآن بإبراهيم بإظهار أن مــا أوتيــه مــن رشــد كــان جــديرا بــه، إذ أن الله العالم بالخفايا وبحقائق النفوس علم صفاء قلبه، وحسن طويته، وأنه أهل لما آتاه.

52- إذ قال لأبيه ...التي أنتم لها عاكفون.

ربط معظم المفسرين هذه الآية بقوله " **آتينا**" وعلى هــذا الــربط اخــتص إيتــاءه الرشــد بقوله : **ما هذه التماثيل** ... والذي ترجح عنــدي أن قولــه " إذ قــال " مــرتبط بمقــدر " واذكر" ليكون الرشد الذي آتاه الله لإبراهيم ليس خاصا بهــذا الظــرف، بــل هــو رشــد مصاحب له ومن ذلك قوله : ما هذه التماثيل ...

من هداية الله واستقامة تفكيره، أنه لما نظــر فــي حــال أســرته التــي يســيرها أبــوه، وتتبع ما عليه قومه في تصورهم للكون، رفــض مــا هــم عليــه مــن إســناد التصــرف فيه إلى الأصنام التي كانت من حجارة ومن خشــب ومــن مــواد أخــرى تمثــل أشــياء من بشر أو حيوانات. وبنــوا علــى ذلــك ملازمــتهم عبــادة التماثيــل والتقــرب إليهــا. رفض إبراهيم ذلك ولفت أنظارهم ليتأملوا في حقيقــة مــاهم عليــه، فســألهم : أخبرونــي ما حقيقة هذه التماثيل التي أنتم ملازمون لعبادتها والتقرب إليها؟

53-قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين.

لم يجدوا إلا جوابا واحــدا أنهــم مقلــدون لآبــائهم، الــذين كــانوا يعبــدونها، فتبعــوا آباءهم في تقديسها، وليس لهم رأي في ذلك.

54- قال بل ربكم رب السماوات ...على ذلكم من الشاهدين.

بعد أن فرّغهم من كل أساس حقيق بالاعتماد عليـه فـي عبـادتهم، وهـز مـا تواطـؤوا عليـه بـاعترافهم أن مبنـاه تقليـد آبـائهم فقـط ؛ أصـبحت حجتـه علـيهم صـادمة لمعتقداتهم ومحطمة لها منطقيـا، فصـرح لهـم بـأنهم انغمسـوا فـي الضـلال، وأن ضلالهم لا يحتاج لإقامة الدليل عليه فهو بين التهافت . يشـتركون فـي ذلـك مـع آبـائهم الذين رضوا بتقليدهم .

55- قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين .

صدموا بالرد الحـازم لإبـراهيم عليـه السـلام، ولـم يجـدوا إلا أن يسـتفهموه عـن كلامه: هل هو جادٌّ معبر عما يعتقد أنه الحـق، أو حملـه المـزاح علـى ذلـك. فـأطلقوا اللعب على الكلام غير الجاد الصادر من الإنسـان . لأنـه بنـاء علـى مـا اسـتقر فـي عقائدهم وألفوه، واجتمعوا عليه، لا يتصـور أن يسـتهين أحـد بالآلهـة المعبـودة، إلا أن يكون على طريق المزاح المرفوض.

56- قال بل ربكم رب السماوات ...وأنا على ذلكم من الشاهدين.

ردَّ عليهم مضربا عن كلامهم وما قـدموه مـن الاحتمـال، قـائلا: ربكـم الـذي تـولى خلقكم ووالى عليكم ألطافه حتى بلغـتم المسـتوى الـذي أنـتم عليـه، هـو الـذي أبـدع السماوات والأرض وأحاطها بحسن تـدبيره وقـدر فيهـا مقاديرهـا. وأنـا شـاهد مقـر بذلك، وليس لآلهتكم أي دور في نظـام هـذا الكـون. إننـي فـي زمـرة الـذين تيقنـوا وشهدوا أن الخالق المبدع هو الله وحـده. فأضـاف إبـراهيم إلـى حجتـه الأولـى حجـة ثانية منزوعة من كتاب الكون، مؤكدة بأنه مدرك لها شاهد بما تيقنه.

57-وتالله لأكيدن أصنامكم ....مدبرين .

وإذ خلخل عقيدتهم بما ينادي بـه كتـاب الكـون مـن تفـرد الله بالإبـداع، وأن آلهـتهم بمنأى عن أن يكون لها أي دور، انتقـل عليـه السـلام مـن مخـاطبتهم بمـا يقتضـي تغيير ما هم عليه من المنكر في عبـادة الأصـنام، انتقـل إلـى تغييـره وإعـلاء الحـق بالقوة، فشدَّ عزمه في اتخـاذ هـذه الخطـوة بالقسـم بـالله أنـه سـيدبر أمـره لتحطـيم أصنامهم، عندما تسنح الفرصة، بعودتهم إلى منازلهم وتركهم الأصنام منفردة .

فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا
بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ
﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ
هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ

يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمۡ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يَضُرُّكُمۡ ﴿٦٦﴾ أُفّٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

جذاذا: قطعا صغيرة .

نكسوا: النكس قلب الشيء من وضعه الأصلي إلى ما يناقضه.

أف : تدل على ضجر المتكلم لرفضه كلام الطرف الآخر .

بيان المعنى الإجمالي :

برًّا بقسمه تقدم إبراهيم عليه السلام، فحطم الأصنام لما خلى المكان من العُبَّاد والسدنة. وأبقى على كبيرهم، رجاء أن يعودوا إليه يسألونه فيتبينون من صمته وعجزه بطلان ما هم عليه . بمجرد ما اطلع قومه على المشهد الذي تناثر فيه فتات الأصنام، ثارت ثائرتهم وتساءلوا من الذي تجرأ على هذا؟ وحكموا عليه بأنه ظالم يستحق جزاء الظالمين . وتقدمت جماعة كانوا سمعوا إبراهيم وهو يتوعد فشهدوا: أنهم سمعوا فتى قوي البنية نشيطا يتوعد الآلهة يدعى: إبراهيم. وإذ انحصرت الظنون فيه قرروا أن يستنطقوه أمام الناس ليشهدوا عليه . وتم لهم ما أرادوا فجي بإبراهيم وسألوه: هل أنت الذي حطَّمت الآلهة يا إبراهيم؟ أنكر أن يكون هو الذي يتحمل تبعة تحطيم الأصنام، وقدم لهم فرضا ذُهِلوا عنه. وهو أن يكون الصنم الأكبر هو الذي فعل ذلك، وتثبَّتوا فاسألوهم إن كانوا ينطقون لتسمعوا منهم . ارتجوا من هذا الفرض، ورجعوا إلى التأمل في كلام إبراهيم، رجوعا أدى بهم إلى الاعتراف أولا بأنهم هم الظالمون بعبادة الأصنام . وبعد زمن ليس بالطويل تغلب على قواهم العقلية ما ألفوه من تقديس الأصنام، وأعانهم الشيطان على المضي في هذه السبيل، فتوجهوا إلى إبراهيم منكرين عليه حجته: أنت عالم بأن الأصنام لا تنطق فكيف تطلب منا أن نسألهم عمن قام بالتحطيم. وإذ قد بدا تهافتهم كر عليهم بالإنكار أن يعبدوا ما لا ينطق وبالتالي هو عاجز عن النفع والضر . واحتقرهم واحتقر آلهتهم كشأن الإنسان عندما يؤذيه شيء من القاذورات، فيقول " أف" وأنكر عليهم في صيغة سؤال كيف انحدروا إلى مستوى من لا يعقل .

بيان المعنى العام :

58- فجعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم لعلهم إليه يرجعون.

بَرَّ إبراهيم بقسمه، فبمجرد رجوعهم إلى بيــوتهم وخلــوِّ المكــان مــن البشــر، حطــم الأصنام ونقض هياكلها وجعلها قطعــا صــغيرة مفتتــة، وأبقــى علــى كبيــر الأصــنام. ومن هذا يتبين لنا دقة التعبير القرآني فــي قولــه تعــالى :" **لأكيــدن أصــنامكم** " إذ كــان ما قام به عليه السلام عملا مدبَّرا، وليس رد فعــل غاضــب. وفيــه أيضــا تعلــيم لمــن يقوم بتغيير المنكر أن يكون قصــده تحقيــق الخيــر وإزالــة الشــر، وأن الحكمــة تقــود أعماله وتوجهه. كان من حكمة إبــراهيم أنــه لــم يحطــم كبيــر الأصــنام، وإن كانــت ظاهرة الإذلال تدعو لذلك، فــدبَّر الإبقــاء عليــه ليكــون موقظــا لهــم مــن الضــلال، فإبقاء الصنم الأكبر سليما داعية لهم ليعودوا إليه يسألونه. فيَتَبَــيَّنُ لهــم مــن ســؤالهم أنــه عاجز عن الإجابة كما كان عاجزا عن حماية أتباعــه مــن الأصــنام، فتســقط منظومــة عقيدتهم في آلهتهم وقدراتهم التي عليها التزموا بعبادتها.

59-قالوا من فعل هذا ...لمن الظالمين.

يبدو المشهد مبرزا لقوم إبراهيم وهم ينظرون إلى حطــام الآلهــة متنــاثرا فــي المعبــد. وهم يتساءلون ليعرفوا مــن تجــرأ عليهــا، وحكمــوا عليــه أنــه مــن الفريــق الظــالم المتجاوز للحدود . والظالم جدير بأن ينال جزاء ظلمه.

60- قالوا سمعنا...يقال له إبراهيم .

يتقدم فريق كان قد استمع لتوعد إبراهيم وقســمه علــى كيــد الأصــنام، وأدلــى بشــهادته فقالوا: سمعنا فتى قوي البنية ظاهر النشاط يتوعدهم يدعى: إبراهيم.

61-قالوا فأتوا به...لعلهم يشهدون.

كان رجعهم الأول بعد أن قوي الظــن بــأن فاعــلَ ذلــك إبــراهيمُ عليــه الســلام، أن يستقدموه، وأن يقرروه أمام الناس ليشهدوا علــى إقــراره، وليكــون مــا يحكمــون بــه عليه الجزاء العادل عن ظلمه في زعمهم.

62- قالوا أأنت فعلت... يا إبراهيم.

تــمَّ لهم ما أرادوا وحضر إبــراهيم عليــه الســلام، وســألوه قــائلين: هــل أنــت الــذي فعلت هذا الفعل الشنيع بآلهتنا يا إبراهيم ؟

63-قال بل فعله كبيرهم...كانوا ينطقون.

مؤدى افتتاح جوابه بكلمة " بل " أنه ينفــي عــن نفســه هــذا الفعــل، وينــبههم إلــى أن التهمة ينبغي أن توجه إلى الصنم الأكبر، إذ بقــاؤه ســليما قرينــة تــدل علــى أنــه هــو الذي قام بهــذا الفعــل الغاضــب، كراهــة منــه أن يشــاركوه فــي الألوهيــة ويعبــدوه

ويتقرب إليهم كما يتقرب إليه . وفي هذا الجواب لفت نظـرهم مــن طـرف خفـي إلـى أن الألوهية تنافي الشركة. قوموا بسـؤال حطـام الآلهـة والصـنم الأكبـر ليخبـروكم إن كانوا قادرين على النطق. واستشكل النـاظرون فـي الآيـة قضـية: هـي كيـف يخبـر إبراهيم خبرا مخالفا للحقيقة نافيا عـن نفسـه مـا فعلـه، وهـو الـذي آتـاه الله رشـده ورفعه إلى أرقى مقام يبلغه بشر إلـى مقـام النبـوة السـامي ؟ وأجـاب بعضـهم أنهـا كذبة يترتب عليها اهتداء قومـه، فهـي كذبـة فـي ذات الله. الصـلاح فيهـا أضـعاف الإخبار بما يخالف الواقع. وعمـل آخـرون علـى التأويـل . والـذي تـرجح عنـدي أن الكلام بتمامه وأن بقية الكلام مؤذن بـأن إبـراهيم لـم يقصـد مغـالطتهم ولا أن يـوقعهم في الخطأ وإنما قصد إلى هـز عقـولهم هـزا جعلهـم يراجعـون أنفسـهم فـي عبـادتهم للأصنام.

64- فرجعوا إلى أنفسهم...أنتم الظالمون .

توضح الآية نجاح إبراهيم عليه السلام الذي صدمهم كلامه صدما أعادهم إلى التأمل وإدراك الحقيقة. رجع كل واحد إلى التعمق في كلام إبراهيم، وانهار ما ترسخ في نفوسهم، بل نقضوه ناسبين الظلم إلى أنفسهم باتخاذ الآلهة معبودة من دون الله.

65- ثم نكسوا على رؤوسهم ... ينطقون.

تنازع في باطنهم قوة حجـة إبـراهيم مـع مـا ألفـوه فترسّـخ بفعـل التقليـد والعـادة، فتغلبت قوة العادة على قوة الفكر. وجسم القرآن انقلابهـم هـذا بالشـخص الـذي اسـتقام سائرا على رجليه، فانقلب رأسه إلى أسفل ورجـلاه مـن فـوق. وتحولـوا مـن النظـر الفكري إلى العناد والمكابرة، فقالوا لإبراهيم: إنك علـى علـم بـأن الأصـنام لا تنطـق. فما أردت بقولك إلا التنصل من جريمتك.

67/66- قال أفتعبدون ...أفلا تعقلون.

باغتهم إبراهيم بما يترتب على اعتـرافهم بعـدم قـدرة الأصـنام علـى النطـق، إذ مـن مستتبعات العجز عن الإفصاح أنه لا وجه لعبـادتهم. إذ كيـف يعبـدون مـا لا ينفـع ولا يضر، إذ النفع والضر مقرونان بالقدرة على الإفصـاح. ومـن لا يفصـح معـدوم العلـم والإرادة والقدرة. ثم أظهر إبراهيم الضّجَر من مكـابرتهم وطـريقتهم فـي الحـوار التـي لا تخضع لمنطق. وحقّرهم وحقر آلهتهم بمـا تـدل عليـه كلمـة "**أف**" التـي تقـال عنـد المستقذرات من الأشياء، فتجسّم المعاني وتطلق عليهـا. وأنهـى كلامـه بسـؤال ينكـر عليهم المستوى الذي انحدروا إليه، مستوى من فقد عقله.

قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا
وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ
وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ
نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَٰلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ
إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

حرقوه : تحريقا بالغا لا حياة بعده.

الأخسرين : جمع الأخسر، والمقصود به الخائبين .

باركنا فيها : أكثرنا خيراتها.

النافلة : الزيادة غير الموعودة .

أئمة : جمع إمام، وهو المقتدى به.

يهدون : يزكون نفوس الناس، ويصلحونها.

بيان المعنى الإجمالي :

امتلأوا غيضا وقرروا أن ينزلوا بـه أشـد العـذاب . ولا عـذاب أشـد إيلامـا، وأبلـغ إهلاكا من الإحراق بالنار، فقرروا أن يلقوه في النـار حيـا يعـذب ثـم ينقلـب رمـادا. وحرضوا على التنفيذ بأن هذا هو الحكم الذي ينتصـر للآلهـة ممـا فعلـه بهـم إبـراهيم. ودبَّروا في خفية كل ما يمكنهم من التنفيذ، ورموا به فعـلا فـي النـار. ويعلـو المشـهد الإرادة العليا لله سبحانه فيأذن النـار أن تغيـر طبيعتهـا وتنقلـب بـردا ينـاسـب طبيعـة إبراهيم فيخرج مـن النـار ومـن البـرد سـالما دون أن يلحقـه أي أذى. وخـابوا فـي تدبيرهم وانتصر الحق. ثم عذبوا بما لم يفصله القرآن.

وقدَّر الله بعد ذلك من الأسباب التي انتقل بها إلـى أرض بركـة وخيـر لكـل مـن نزلهـا من البشر، يصحبه في سفره زوجه سارة وابن أخيـه لـوط. وفـي مقامـه الجديـد أنعـم الله عليه بولادة إسحق، الذي عاش في رعايتـه إلـى أن تـزوج وأنجـب يعقـوب فكـان زيادة على ما سأله إبراهيم" **رب هب لي من الصالحين** ".

مضت هذه الأسرة الطيبة في مقامهـا الجديـد، ميزتهـا الصـلاح والبعـد عـن الإثـم. وقدر الله أن يكون أفرادها قادة يتـبعهم النـاس، يـدعونهم بمـا يوحيـه الله إلـيهم مـن الأمر بفعل الخير والابتعاد عـن الشـر . وأداء الصـلوات علـى أكمـل وجـه، وبـذل

الزكاة عن طيب نفس. وكانت المَسْحَةُ الغالبــة علــيهم، ظـــاهرةَ التعلــق بـــالله وحـــده، يعبدونه ويفردونه بذلك ولا يشركون به أحدا.

بيان المعنى العام :

68- قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين.

أبهتهم إبراهيم وقطع عليهم كل حجة وعرّاهم من كـل سـند معقـول فـي عبـادة الآلهـة، وأن المعبود بحق هو الله. وشـأن الضـلال المسـتبدين إذا أعـوزهم المنطــق، وفقـدوا الحجة أن يعتمدوا على القوة المادية والبطش الظـالم. وكلمـا تخلخلـت قـوتهم ضـاعفوا ظلمهم، فاجتمعت كلمتهم على إنزال أفظـع عـذاب بــه، وهـو تحريقـه تحريقـا يتلفـه ولا يبقى له أثرا في الوجود. والتحريق يدل على شـدة حقـدهم علـى إبـراهيم، إذ هـو يجمع بين الإيلام الشديد والإهلاك الماحق. وكـانوا مـدفوعين بالـذود عـن آلهـتهم التـي زيّفها إبراهيم. وفي قوله تعالى " **إن كنـتم فـاعلين** " مـا يـدل علـى التحـريض لنفـي التردد في التنفيـذ. أي إن كنـتم تـذودون عـن آلهـتكم التـي حطمهـا وأهانهـا وعـن سخريته من ديننا ودين آبائنا.

69- قلنا يا ناركوني بردا وسلاما على إبراهيم.

في هذا المشهد الرهيب والنار تشتعل وقد شمر الزبانية عـن أيـديهم ليلقـوا إبـراهيم فـي النار اللاهبـة، وجمـع المشـركين يشـهدون مـا يظنـون أنـه سيشـفي صـدروهم . يحضرون إبراهيم ويلقونه في النار. ويَسـقط فـي أيـديهم ويخـرج إبـراهيم سـالما لـم يصبه بأي أذى، لأن الذي خلق النار وجعل فـي طبيعتهـا الإحـراق تجلّـى وأذن إذنـه المطاع، قلنا: يا نار كوني بردا وسلاما. إن الذي أعطاهـا طبيعـة إحـراق مـا يقتـرب منها هو الذي سلبها مـا أعطاهـا، فـأذن أن تنقلـب إلـى الضـد إلـى بـرد لا يهلـك بزمهريره، ولكنه برد فيه لطف وسلام على إبراهيم.

70-وأرادوا به...الأسفلين.

أخذوا كل الاحتياطات، وضربوا وجـوه الـرأي التـي تمكـنهم مـن إحـراق إبـراهيم، وسدوا المنافذ التي يمكن أن ينفلت منها. وعَـيْنُ الله تـرقبهم، وتحُـوط العنايـة إبـراهيم، فينجلي المشهد عن خيبتهم خيبـة ألجمـتهم عـن تـدبير أمـر آخـر، وغُلِبـوا وانقلبـوا صاغرين. وكانوا الفريقَ الخاسر بما سلطه الله عليهم من العـذاب الـذي لـم يفصـل فـي القرآن نوعه.

71- ونجيناه ولوطا....فيها للعالمين .

يسدل الستار عن محنة إبراهيم مع قومه، وقد نجاه ربه من النار التي أوقدوها لإحراقه. وآمن به ابن أخيه لوط عليه السلام، فهاجر من بلد قومه. وخرج إبراهيم بزوجه سارة وابن أخيه. وقصدا الأرض التي أكثر الله خيراتها وطيَّب هواءها، وجعل الحياة فيها ميسورة لكل من أقام فيها من البشر. وهذه الأرض اختلف المفسرون في تعيينها من فلسطين، إلى مكة، إلى الشام، إلى العراق . والذي يهمُّنا هو أن عناية الله صاحبته فكان يتحول من مرتبة إلى مرتبة أعلى وأوفر خيرا.

72- ووهبنا له إسحق ويعقوب وكلا جعلنا صالحين .

في هذه البيئة الجديدة يتم الله على إبراهيم نعمته، فيولد له على كبر سنه من زوجه سارة الرسول الكريم " إسحق" ثم تستمر به الحياة حتى يرى ولد ولده "يعقوب " يبلغ مبلغ الرجال . فكان يعقوب زيادة في الخير . وهذا على أحد التأويلين . ويرى فريق من المفسرين أن إبراهيم سأل الله الولد فرزقه إسماعيل ثم رزقه إسحق فكان إسحق نافلة وزيادة في الخير، وكذلك يعقوب، اللذين من نسلهما الشعب اليهودي .

إن فضل الله بتيسير الإنجاب هو فضل عظيم، يدركه حق إدراكه العقيم من الناس. وفوق ذلك أن تكون الذرية طيبة لها مقام رفيع في الصلاح والخير يقتدي بها الناس، مما تتضاعف به المنة. وقد أكرم الله إبراهيم فجعل إسحق ويعقوب رجلين صالحين

73-وجعلناهم أئمة...وكانوا لنا عابدين .

وقد بلغت هذه الأسرة الكريمة من إبراهيم وولده وحفيده، قمة الصلاح إذ تجاوز الصلاح ذواتهم فكانوا قادة للبشر يقتفون سلوكهم، ويتعلمون من الوحي الذي يتنزل عليهم، ما تتزكى به النفوس ويثبِّت الإيمان في القلوب . ومع تأثر الناس بالإصلاح النفسي والعقدي يبلغونهم وحي الله بفعل الخيرات، وأداء الصلاة على أكمل وجه مما يعمق الصلاح الباطني، والتطوع بالزكاة عن طيب نفس، وحب في المجتمع لتتمكن الصلات بين الطبقات، ويجتث دواعي الحسد. والسمة الخاصة بهم أنهم كانوا ملازمين لعبادة الله .

ملاحظة: في قصة إبراهيم تأنيس لرسول الله ﷺ، وبشارة بأن ما منّ الله به على إبراهيم سيجري عليه مثل تلك المنن . فقريش لا تستطيع أن تؤذيه إذاية تمنعه من إبلاغ ما أنزل إليه، وأنه سينتقل من مكة إلى دار تكون أسعد له في ما يستقبله من أمره. وأن هدايته سيحرص البشر على الأخذ بها عقيدة وأدبا وسلوكا وأحكاما.

وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ
إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ
﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ
فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحكم : الحكمة والنبوة.

العلم : علم الشريعة .

الخبائث : الأعمال الشنيعة القبيحة.

الكرب : شدة حزن النفس.

نصرناه من القوم : حميناه منهم.

بيان المعنى الإجمالي :

كما امتن الله على سيدنا إبراهيم تولى بفضله سيدنا لوطا، فآتاه الله الحكمة في أقواله وأفعاله، وأنزل عليه التشريع الضابط للعلاقات الاجتماعية وللطريق المنجي في الحياتين . ونجاه من أهل القرية التي ألفت فعل القبيح الخبيث، وشهد الله فيهم وهو العليم بالبواطن أنهم قوم فسدوا تجاوزوا الحدود العقلية والفطرية. وآواه إلى مظلة رحمته لما كان عليه من الصلاح في نفسه وسلوكه .

وكذلك كان الأمر مع سيدنا نوح، فإنه لما يئس من اهتداء قومه، دعا ربه أن يستأصلهم ولا يبقى أحدا منهم ولا من ذريتهم، فاستجاب الله لدعائه، نجاه وأهله المؤمنين من الهول العظيم الذي لم ينج منه أحد . وحماه من القوم المكذبين بآيات الله، المعاندين للحق. الذين تأصل السوء في نفوسهم وفسدوا، فكان جزاؤهم العادل أن أغرقهم جميعا.

بيان المعنى العام :

74- ولوطا آتيناه حكما...قوم سوء فاسقين.

عطف القرآن الحديث عن سيدنا لوط عليه السلام على قصة إبراهيم إذا كانا في زمن واحد، وكان بينهما تواصل، آمن به وهاجر معه قطعا لكل صلة بأرض

المشركين، وسكن بعد هجرته قرية غير بعيدة عن المكان الذي نزل فيه إبراهيم، هي المؤتفكة. من أرض الشام .

حقق القرآن أن الله اصطفى لوطا، وآتاه الحكمة في رأيه وأقواله، والنبوة المرتبطة بالوحي. هذا الوحي الشامل للتشريع المحدد للحقوق والواجبات والعلاقات الاجتماعية، وهو المراد بالعلم. وهذا الإثبات القرآني لمزايا لوط ينفي مفتريات التوراة عنه، وما رموه به من الفعل الساقط الذي يتنافى مع الحكمة والقيام على التشريع .

بعث لوط في قوم فاسقين خارجين عن حدود الأخلاق وعما تقتضيه طبيعة التكاثر البشري، كان في قرية تستسيغ العمل الخبيث المنكر، وواصلوا حياتهم على اللواط حتى غدا شأنا لهم غير مرفوض بحكم الإلف والعادة، وترسّخ السوء والفساد في سلوكهم، فعبر القرآن عن تأصل الفساد فيهم بأنهم كانوا قوم سوء ومنكر، خارجين عن حدود الطبيعة والفطرة، فقدوا كل القيم وتسفّلوا إلى حد بعيد.

75- وأدخلناه في رحمتنا إنه من الصالحين.

ومع إنجائه من القوم الفاسقين وتكريمه بإنزال الوحي عليه، الوحي الجامع للعقيدة والتشريع، أدخله الله تحت سحائب رحمته التي لا مطمح لمن أوتيها في سعادة فوقها، وعلل ذلك بأن طَوِيَّته وعمله بلغا حدا من الصفاء والاستقامة يسرا لها الدخول في مظلة الرحمة وكان من القوم الصالحين .

77/76- ونوحا إذ نادى...فأغرقناهم أجمعين. .

تجري سنة الله مع رسله على طريق واحد، فهو ناصرهم بتأييد من عنده، فمن قبل إبراهيم ولوط كانت عناية الله بسيدنا نوح أول رسول حمله الله أمانة دعوة قومه إلى عبادة الله. بذل نوح كل ما مكنه الله منه من الحكمة والصبر على المواصلة، وإقامة الحجة على الحق الذي جاء به، إلى أن يئس من استجابة قومه، فتوجه إلى الله وقد ضاقت به سبل النجاح في إخراج قومه من الشرك إلى الإيمان أن يهلكهم، فاستجاب الله لدعائه، ونجاه وأهله المؤمنين من أن يحل بهم الكرب والبلاء العظيم. وأي كرب هو؟ هو الماء النازل من السماء المنبعث من كل مكان من الأرض الذي يعلو ويعلو حتى بلغ قمم الجبال، الآخذ بكل قائم على رجليه يغمره ويحبس عليه أنفاسه ثم يطفو جثة هامدة. وحمى الله نوحا مما دبره له قومه من الإذاية، القوم الذين كانت سمتهم التكذيب بما عرض عليهم من الأدلة

والمعجزات. إنهم كانوا قوما فاسدين، فكـــان تنفيـذ التقـدير الإلهــي فـيهم باستئصــالهم غرقا لم يفلت منهم أحد.

وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

نفشت: دخلته ليلا وأفسدته.

حكما وعلما : حكمة النبوة وعمق في الفهم .

لبوس : ما يلبس مما يحمي به المحارب نفسه.

الإحصان : الوقاية والحماية.

الباس : الحرب .

بيان المعنى الإجمالي :

كشفت هذه الآية عـن تعلـيم المـؤمنين قيمـة الاجتهـاد ومنزلـة النباهـة فـي معالجـة الأمور. كان داود عليه السلام نبيا وملكا وقاضيا . ترافـع لديـه خصـمان أحـدهما كـان قائما على زروع لجماعة، وكان الآخـر راعيـا لقـوم آخـرين .دخلـت غـنم الراعـي على المزارع ليلا فأفسـدتها .رأى داود أن مـن حـق صـاحب الأرض أن يتملـك الغـنم مقابل الفساد الذي أحدثته، والظاهر أن قيمة إفسـادها غيـر بعيـد عـن قيمتهـا . ولمـا خرج الخصمان من عنـده لقيهمـا ابنـه سـليمان عليـه السـلام، وأخبـراه بقضـيتهما وبحكم داود والده. فكان رده: إني لو كنت الحاكم لحكمـت حكمـا آخـر. لمـا سـمع داود المقالة دعا ولده، واستفسره عن رأيه، فقـال : أرى أن تسـلم الغـنم لصـاحب الـزرع سنة ينتفع بـدرها وصـوفها ونسـلها، وأن تسـلم المـزارع لصـاحب الغـنم يحرثهـا ويزرعها عاما فإذا عادت المزارع لما كانـت عليـه، يأخـذ عنـد ذلـك صـاحب الغـنم غنمه ويرد على صاحب الأرض مزارعه. فاستحسن داود حكـم ابنـه وقضـى بـه . مـا كان حكمهما غائبا عن علم الله، ولكن ترك القضـية تجـري فـي مسـارها ليكـون منـه عبرة، ونوّه بفطنة سليمان. حقـق أن كـلا مـن داود وسـليمان قـد آتاهمـا الله الحكـم وعلم النبوة، وبذلك فإن من اجتهد وكان في الأمـر اجتهـاد أفضـل، فالمجتهـد الـذي بذل جهده معترف بفضله . وقيمة البشـرية فـي الخـروج مـن التقليـد الأعمـى إلـى

الاجتهاد البصير . وداود على حظ عظيم من التكـــريم فقـــد ســـخر الله الجبـــال والطيـــور لتؤنسه في تسبيحه، فيحس بتسبيحها معه .وقد تم ذلك فالله لا يعجزه شيء .
وكذلك علَّمه الله كيف يصنع من الحديد حلقا خفيفـــة الـــوزن ثـــم يصـــل بينهـــا فـــي دقـــة تلبسونها في حــــروبكم فتكـــون وقايـــة لكـــم مـــن ضــــربات الســـيوف وطعنـــات النبـــال والسهام. استيقظوا وكونوا شاكرين لنعم الله عليكم.

بيان المعنى العام :

78/79- وداود وسليمان...وكنا فاعلين.

واصل القرآن ذكر الموحى إليهم من بني إســـرائيل بعـــد موســـى وهـــارون. فنـــوه بـــداود وسليمان عليهما السلام، وكل واحد منهما أوتـــي النبـــوة، وبلـــغ الله إليـــه الـــوحي الـــذي يرتبط في أصوله بشريعة موسى عليه السلام. فكانا نبيين لا رسولين.
تفيد الآيـــة : أن داود عليـــه الســـلام كـــان ملكـــا نبيـــا، يتـــولى بنفســـه القضـــاء بـــين المتخاصمين من رعيته . فكان من أمره أنه جلس يومـــا للقضـــاء فـــدخل عليـــه رجـــلان: أحدهما قائم علـــى زرع جماعـــة مـــن النـــاس أو كـــرمهم، والآخـــر راع لغـــنم جماعـــة أخرى. يشكو القائم على الزرع أن غنم الراعي دخلت لـــيلا إلـــى الـــزرع فأفســـدته. قلَّـــب داود الرأي، فترجح عنده أن الغنم تعدت علـــى الـــزرع فيســـتحق أن يتملكهـــا صـــاحب الزرع تعويضا عما خسره. وبســـاط القضـــية يـــدل علـــى أن القيمـــة متقاربـــة . فكـــان عادلا في حكمه وهو ما يقتضيه الظـــاهر. خـــرج الخصـــمان مـــن عنـــد داود فلقيـــا ابنـــه سليمان عند الباب، فسألهما عن قضيتهما وبِـــمَ حُكِـــم عليهمـــا، فـــأخبراه . عنـــدها قـــال سليمان لو كنت القاضيَ لحكمت عليكما بغير هذا. بلغ الخبـــر داود فـــدعا ابنـــه وقـــال لـــه بِمّ كنت تحكم ؟ قال :يأخذ صاحب الغـــنم الأرض فيقـــوم عليهـــا ســـنة حتـــى تعـــود كمـــا كانت، ويأخذ صاحب الزرع الغنم يقوم عليهـــا وينتفـــع بنســـلها ودرهـــا وصـــوفها إلـــى تمام السنة. ثم يدفع كل منهما المـــال لصـــاحبه عنـــد الأجـــل. أعجـــب داود بحكـــم ولـــده سليمان وسر الوالد أيما سرور بتوفيق ولده على حداثـــة ســـنه، وحكـــم برأيـــه . وعقـــب القرآن على هذه القضية بأن الله كان شاهدا لما حكما بـــه، وهـــو الـــذي لا يعـــزب عـــن علمه شيء، وأراد أن يمضي الأمر إلى نهايته ليكون جامعا لعبر كثيرة منها:
أولا: إذ بتنويهه بهما وبأن كلا منهما كان علـــى حـــظ مـــن العلـــم والحكمـــة مـــا يعطـــي تقديرا للعالم المجتهد الذي يبذل جهده للتعرف على ما يظـــن أنـــه الحـــق، وأنـــه إذا كـــان حاكما فحكَمَ بما ترجح عنده لا يسأل عما حكم به، ولـــو احتمـــل الأمـــر حكمـــا مخالفـــا لما ظنه.

ثانيا: أن الصواب لا يتبع السـن، ولا المنزلـة الاجتماعيـة. ففـي هـذه القضـية كـان الوالد داود هو الملك والقاضي، وسليمان ما يزال يافعا ولـيس لـه مـن الحكـم شـيء . وعلى هذا يكون التقدير في الإسلام تابعا للحق لا للسن ولا للسلطان.

ثالثا: أن هذا الحكم وقد صدر في وقت يكـاد يكـون واحـدا، علـى اتجـاهين مختلفـين ولم يكن عن وحي، يثبت مـا يرضـاه الله للبشـر: أن يجتهـدوا ويجعلـوا رائـدهم فـي اجتهادهم العدل والحق .

رابعا : أن الخطأ عن اجتهاد ونظر لا ينزل بالمخطئ ولا يحـط مـن شـأنه فقـد بقـي داود على سلطانه مؤيدا بالوحي. وفي كل ذلك من عبر تهدي البشر.

سجل القرآن عقب قصة القضاء، مـا خـص الله بـه داود مـن الفضـل. كـان داود إذا سبح الله ونزهه أحسَّ بأنه فـي موكـب مـن التسـبيح والتقـديس، وتبـين لـه صـوت ينطلق من الجبال الراسية، ومـن الطيـور فـي الجـو . إنـه صـوت مرتِّـل للتسـبيح والتمجيد لله الخلاق العظيم، ولكن البشـر لـم يرزقـوا القـدرة علـى إدراك مـا يصـدر عن تلكم الكائنات قال تعـالى **(وإن مـن شـيء إلا يسـبح بحمـده ولكـن لا تفقهـون تسبيحهم إنه كان حليما غفورا)**[1] فما كـان لبشـر أن يحـس بتسـبيحة الكـون ويـأنس لتلكم الجمادت في ترنيمتها السـرمدية، ولكـن الله خـص داود بإحساسـه لغـة تجـاوُبِ الجبالِ والطيورِ وهو يسبح .

80- وعلمناه صنعة لبوس ....فهل أنتم شاكرون .

أردفت هذه الآية مزية لداود على البشر أفـادوا منهـا قرونـا متتابعـة، أسـند الله لنفسـه أنه علمه تجويد صناعة الحديد، فأخرج منه دروعـا واقيـة للجسـم مـن آلات الحـرب : السيوف والرماح والنبال. وبعد أن كانـت الـدروع عبـارة عـن صـفائح حديديـة ثقيلـة تقيد حركات المقاتل، ولا يستطيع حملها مـع آلات الحـرب إلا الأشـداء الأقويـاء. أعـان الله داود فعوض الصفائح بحلق خفيفة الوزن واقية للجسـم ونسـج منهـا الـدروع. وأخـذ هذه الصناعة بعده البشر في أنحاء الأرض وحمت أجسـادهم إلـى أن تـم صـنع البـارود الفتاك. يبدو من هذه الآية شرف تجويد الصناعة والعناية بهـا، فهـي تعلـيم إلهـي لنبـي كريم. ومن أسباب تأخر العالم الإسلامي تهـوين قيمـة الصـناعة حتـى أصـبح الصـانع المُجَوِّدُ له مرتبة الدون، وإن كان المقدمون محتـاجين إلـى معرفتـه وفنـه. وهـو مـن اختلال سلم القيم في المجتمعات غير الواعية .

---

[1] سورة الإسراء آية 40

وتختم الآية بالتحريض على التأمل في نعـم الله علـيكم، تـأملا يفـرض علـيكم شـكر تلكم النعم. وصيغ ذلك في صورة السؤال ليكون به التنبيه أتم.

وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

عاصفة : قوية، شديدة الهبوب .

بأمره : حسب رغبته.

بيان المعنى الإجمالي :

سخر الله لسليمان ما لم يمكّن منه أحدا .سخر لـه الـريح تسـعد سـفنه فـتأتيها علـى أوفق نحو تطلبه من قوة أو ضعف، ومن اتجـاه ممـا يضـمن لهـا السـلامة والوضـع المواتي لها لتبلغ بما تحمله الأرض المباركـة التـي يسـكنها. وهـذا التقـدير هـو تـابع لعلمنا المحيط بكل شيء. كما سخر له الجـن والشـياطين يقومـون بخدمتـه، يغوصـون في أعماق البحار يستخرجون اللآلـئ والمرجـان، وينجـزون لـه الإنجـازات الرائقـة. وقد مكنه الله منهم فطوعهم له دون أن يؤذوا أحدا أو أن يتمردوا.

بيان المعنى العام :

81- ولسليمان الريح ...بكل شيء عالمين.

هذه الآية وُفِّقَ في بيان المَرَادِ منها الشيخ محمد الطـاهر بـن عاشـور رحمـه الله توفيقـا اختص به، فأنا أتابع فهمه قائلا: أن الله سخر الـريح تحقـق لسـليمان مـا يكـون أوفـق له في حياته وتـدبير أمـر مملكتـه، فـي حروبـه وغزواتـه، أو فـي حركـة سـفنه التجارية عبر البحر صادرة من الشام أو عائدة إليه . وهو مـا جـاء فـي سـورة سـبأ : **(ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر)** [1].

ووصفت الريح بكونها قوية الهبوب في هذه الآيـة ووصـفت بأنهـا رخـاء فـي سـورة ص **(فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء)**[2] وهو ما يلتـئم مـع قولـه فـي هـذه الآيـة **تجري بأمره**، أي على ما يلائمه في تدبير أموره . ففـرق بـين أن يكـون هـو راكبـا

---

[1] سورة سبأ، آية 12

[2] سورة ص، آية 35

للبحر، وبين أن تكون المراكب حاملة للسلع. وفــرق بــين الســلع التــي تتطلــب ســرعة نقلها، وبين السلع التي تتطلب الهدوء في تحويلها.

وختمت الآية بما يحقــق مضــمونها: أن الله الــذي ســخر الــريح لســليمان، لا يخفــى عليه شيء، مكن سليمان من ذلك ليكون أعــون لــه علــى عمــارة الكــون ونشــر كلمــة الحق، ولأن ما طبع عليه من صلاح يجعلــه يســير الــريح إلــى الخيــر . وهــو العلــيم متى يكون سير الريح أنفع إذا كانت قوية أو رخاء. وهــو العلــيم بالغايــات التــي تترتــب على الأفعال.

82- ومن الشياطين ..لهم حافظين .

هذه قضية من قضايا الغيب، ذكــر القــرآن أن الله ســخر الجــن والشــياطين لســليمان، وطوّعهم لتنفيذ أوامره، ويتأتى للجن والشياطين مــا لا يتــأتى للبشــر . إنــه كمــا جــاء في الآية لهم قدرة على الغوص في أعماق البحــار ليســتخرجوا اللؤلــؤ والمرجــان. كمــا لهم مهارة ينجزون بها أنواعا أخرى كما جاء في سورة ســبأ آ (**يعملــون لــه مــا يشــاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجوابي وقــدور راســيات**)[1] وجمــع الله لســليمان بــين عمل البشر وعمل الجن مع اختلاط بعضهم بــبعض، يسّــر لــه ذلــك بتطــويعهم للعمــل دون أن يؤذوا أحدا أو أن يتمردوا عن أوامره. وهــو معنــى وكنــا لهــم حــافظين، مــن التعدي على من يعمل معهم من النــاس، ومــن التمــرد علــى أوامــره. وناحيــة الغيــب تتمثل في الكيفية التي تم له بها ذلك.

۞ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

المس: الإصابة الخفيفة .

الضر : ما ألم الإنسان من سوء في بدنه أو أهله أو ماله.

الكشف : الإزالة السريعة.

بيان المعنى الإجمالي:

[1] سورة سبأ آية 13

أعطى الله النبوة والحكمة لأيوب عليه السلام، وبرزت آثارهما في ذلك الظرف الذي أحاطت به المصائب فتوجه إلى ربه في صبر جميل وحياء عارضا وضعه: رب **إني مسني الضر**، وأنت أعلم بحالي، أنت أرحم الراحمين لا توازي أي رحمة رحمتك. إثر هذا التضرع الخاشع عجَّل بشفائه شفاء لم يترك أثرا من سقمه، وعوَّضه عن أولاده الذين ماتوا ضعفهم. وذلك تحقيقا للرحمة التي ذكرها في ابتهاله فشملته الرحمة الصادرة عن الفيض الإلهي. وليتناقله العابدون فيتذكرون ما حصل لأيوب من البلاء ومن النجاة .

بيان المعنى العام :

83- وأيوب إذا نادى ...وأنت أرحم الراحمين.

وآتينا أيوب النبوة التي برزت آثارها في الظرف الذي توجه بالنداء إلى ربه مستشعرا عظيم فضله وقربه مناديا : **إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين** . يذكر المفسرون أن أيوب عليه السلام آتاه الله المال الوفير والذرية الصالحة والهناء في حياته العائلية. وتصرَّف القدر المحتوم فافتقر بعد غنى، واستوحش بعد أنس إذ مات جميع أولاده، ومرض بعد صحة وقوة. فتلقى أيوب كل ذلك بصبر جعله مضرب المثل للصبر الجميل الذي لا شكاية معه . فكان الرجل الصابر على البلواء، الراضي بالقضاء، لم يزده ضره إلا تعلقا بربه وحسن رجاء في فضله . وبلغ حياؤه من ربه أنه عرض ما تجمع عليه من البلايا بقوله **رب إن مسني الضر**، دون أن يفصله، واستحيى أن يدعو كشفه اعتمادا على أنه سبحانه أعلم بحاله، وظهر صبره في عرضه إذ قال: **مسني الضر**، والمس يعبر به عن الإصابة الخفيفة، مع أنه ضره كان قاسيا . واكتفى بالتعريض عن التصريح بالدعاء فقال: **وأنت أرحم الراحمين**. والله هو الموصوف بكونه أرحم الراحمين. نعم إنه لا يمكن أن تقارن أي رحمة برحمة الله لأمرين: سعة الرحمة الإلهية التي شملت كل شيء، ورحمته تابعة لكماله لا لنفع حقيقي أو معنوي، وهو ما لا يتوفر في رحمة غيره.

84-فاستجبنا له ... وذكرى للعابدين.

حقق الله ما استحيى من الدعاء به صريحا، شفاه من سقمه، فكأن السقم كان يغشِّيه فذهب عنه كما يرفع الغطاء دون أن يترك أثرا، وعوَّض له من مات من ولده مضاعفا .وكل ذلك من آثار الرحمة الصادرة من الفيض الإلهي . وليكون ما حصل لأيوب فيه ذكرى يتناقلها البشر من بعده، نبهت الآية إلى ما يحصل عن

الصبر والالتجاء مع الإخلاص إلـــى الله مـــن تتـــزل الرحمـــات علـــى المـــؤمنين الـــذين جمعوا بين صفاء الإيمان والإخلاص في العبادة.

وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ

بيان معاني الألفاظ :

ذو الكفل : الوفي بالنصيب الذي تعهد به.

النون : الحوت .

نقدر عليه : يحتمل أن لن نضيق عليه، ويحتمل لن نؤاخذه.

استجاب : أجاب إجابة قوية مؤكدة.

بيان المعنى الإجمالي :

ثلاثة من الأنبياء نوه الله بهم يشتركون مع سـيدنا أيـوب فـي خلـق الصـبر الجميـل، هم إسماعيل أبو العرب صبر وقبل تنفيذ رؤيا أبيـه أن يذبحـه ولـم يفـر ولـم يمـانع، وإدريس وذو الكفل، ولم يفصل القـرآن شـيئا مـن صـبرهم الـذي بلغـوا فيـه غايـة بعيـدة، وأن الله شـملهم برحمتـه، وأدخلهـم فـي زمـرة المرحـومين مـن عبـاده الصالحين.

واذكر يونس صاحب النون الذي ابتلعه الحوت، في ذلـك الظـرف الـذي فـارق مكـان بِعثَته غاضبا أشد الغضب من قومه الذين رفضـوا دعوتـه، ظانـا أن الله سـيحوله إلـى قوم آخرين يؤمنون بما جاء به، خـرج دون أن يسـتأذن ربـه. فسـلط الله عليـه حوتـا وهو في البحر فابتلعه. ولم يفقد الرجاء في الفضـل الإلهـي وقـد أطبقـت عليـه ظلمـة جوف الحوت وظلمة قاع البحر وظلمة الليل، فنادى بـإخلاص كامـل لـم تشـبه شـائبة معترفا بأنه لا إله يكشف الكرب ويجيب المضـطر، ويفـتح أبـواب الرجـاء، إلا أنـت يا الله، فكن لي في كربي، إني معترف بأني كنت مـن الظـالمين بعَجَلَتِـي فـاغفر لـي تقصيري . أكد القرآن أنه أجاب دعاءه، وكشف عنـه ضـره، ونجـاه مـن الغـم الـذي أحاط به. وعلى ذلكم النحو نتصرف بقدرتنا وفضلنا فننجي المؤمنين من كربهم .

بيان المعنى العام:

86/85-واسماعيل وادريس...إنهم من الصالحين .

ألحقت هذه الآية ثلاثة مـن الأنبيـاء لـم يفصـل القـرآن فيهـا التعريـف بهـم، إلا أن رابطتهم بأيوب هي الصبر الذي بلغوا فيه غايات بعيـدة . فـأثنى الله علـيهم بعمـق هـذا الخلق فيهم ، مما يدعو المـؤمنين لاتبـاع مـنهجهم فـي الصـبر ليرتفعـوا بـه إلـى مقامات ترضي الله. وقد ذكر القـرآن أن إسـماعيل بـن إبـراهيم صـبر لتنفيـذ رؤيـا والده بذبحه، وصبر علـى السـكنى بـواد غيـر ذي زرع .وأمـا صـبر إدريـس وذي الكفل فعمدة المفسرين فيه ما روته التوراة. أعرضـت عنـه، والمُتَـيَقَّنُ هـو أن حظهـم من الصبر كان عظيما اعتمادا على هـذه الآيـة. وأن الله شـملهم برحمتـه وجعلهـم مـن الزمرة المرحومة برحمته الخاصة، جزاء ما هم عليه من صلاح.

87- وذا النون إذ ذهب...وكذلك ننجي المؤمنين .

تتحدث الآية عن قصة يونس بن متى ﷺ وذكره القرآن خمس مرات. أربعة مواضع باسمه، ومرة واحدة هي هذه (بلقبه : ذي النون) ومعنى ذي النون صاحب الحوت، لتفرده بإنجاء الله له من الحوت بعد أن ابتلعه، فكان بينه وبين الحوت صلة بها تمت نسبته.

يقول الله لنبيه: واذكر للاعتبار ما تم ليونس ذي النـون. فقـد خـرج مـن مكـان إقامتـه وقد امتلأ غضبا علـى قومـه .فكلمـة مغاضـبا مـأخوذة مـن الغضـب علـى صـيغة المفاعلة التي تقتضي تشاركا بين اثنين، كما تقـول تقاتـل إذا كـان القتـال مـن كليهمـا، وكذلك تشارك وتعاون ....، وعلى أن المعنى علـى المفاعلـة مـن جـانبين ذهـب ابـن عباس ﷺ ، أي إن قومه أغضبوه بإعراضـهم، وهـو غاضـب علـيهم مـن رفضـهم الهداية التي دعاهم إليها. كما يحتمل أنـه لـم يُـراعَ إلا غضـبه الشـديد علـيهم فعبـر بصيغة المفاعلة كشفا عن شدة غضبه . وذهب الشـيخ ابـن عاشـور إلـى أن المقصـود تشبيه وضعه النفسي عند خروجه بوضع الغاضب علـى قومـه. وعلـى جميـع التقـادير فإن يونس عليه السلام لم يُقِمْ في مكان دعوته وخـرج غيـر راض قطعـا عـنهم لعـدم إيمانهم ، وهو وضع يغضب منه الرسـول، الحـريص علـى إيمـان قومـه لإخـراجهم من الكفر . وإحساسُه بذلك إحساسٌ قوي فعبر عنه ب "مغاضبا"

إذن خرج من مكان الدعوة وابتعد عـن قومـه اسـتجابة لمـا خطـر لـه إلـى درجـة الاقتناع : أن قومه ميؤوس من اهتدائهم. خرج ولـم يسـتأذن ربـه الـذي أرسـله وهـو أعلم بما قابله به قومه. وظـن أن الأرض واسـعة، وأن الله لـن يضـيق عليـه بقصـره على هؤلاء المعاندين. وأنه إن لم يفلح فـي هدايـة قومـه سـيجد قومـا آخـرين يهـديهم ويصلح عقيدتهم وتصورهم، ويُكَوِّنُ منهم أمـة مؤمنـة صـالحة. حملـه الحـرص علـى اتخاذ هذه الخطوة، وإن كانت هذه البارقة التي اقتنـع بهـا بارقـة مضـللة، إذ أن الـذي

خلق الأقوام كلهم تخيره لإصلاح القوم الذين بعثه فيهم دون غيرهم من الأقوام. ذلك أن بعثة المرسلين قبل محمد ﷺ كانت بعثة خاصة، وتفرد خاتم الأنبياء بالبعثة العامة: **(قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا)**[1] وهذا هو المعنى الذي ترجح عندي. ويمكن أن يكون المعنى أن يونس ظن أن الله لا يحكم عليه حكما فيه مؤاخذة بخروجه عن قومه. وهو اجتهاد أخطأ فيه. وكما سيأتينا في سورة الصافات أن الحوت ابتلعه وهو في البحر، وقد أطبقت عليه الظلمات ظلمة قعر البحر، وظلمة الليل، وظلمة بطن الحوت، وهي حالة ميؤوس من النجاة منها، إلا أن يونس كان واثقا من أنه لا عسير على القدرة الإلهية، فاستغاث ربه استغاثة صدرت عن نفس تعلقت بالفضل الإلهي ولم يخالطها في ذلك الظرف أي تصور ولا إحساس إلا إحساس القرب والرجاء، نادى في تلكم الظلمات لا إله يكشف الكرب وييسر العسير، ويغفر الذنب، إلا أنت يا رب، ثم جرد نفسه محاسبا لها معترفا بخطئها، مخاطبا بقوله : إني كنت من الذين ظلموا أنفسهم. فاستعجلت أمرا كان لي فيه أناة، وكان الواجب علي أن أنتظر الإذن من الله الذي بعثني.

صرح القرآن بأن الله أجاب تضرعه وقبل توبته قبولا عفا عن تقصيره وعجلته، ونجَّاه من الكرب الذي أحاط به، وما استقر في باطنه من الغم الشديد. فقلَّبَ سواد غمه إلى تفاؤل وإشراق وانتظار للخير من رب العالمين. وعلى هذا النحو من الغوث السريع والمستجيب لدعاء المؤمنين، ننجيهم من الكربات ونفتح لهم أبواب الفضل والرجاء . ونفتح لهم في المستقبل فوق ما يتوقعون . وفي ذلك تعريض بكفار قريش الذين ضيقوا على المؤمنين، وظنوا أنهم واقعون تحت سيطرتهم، إن تصوراتهم تصورات كاذبة، وأن الله سينصر المؤمنين فتكون لهم الغلبة في النهاية.

وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾

بيان معاني الألفاظ :

---

[1] سورة الأعراف آية 158

لا تذرني فردا : ارزقني نسلا.

الرغب : الرجاء في تحصيل مطلوب .

الرهب : الخوف من العقاب .

الخشوع : مظهر التذلل على الأعضاء تبعا لتذلل القلب.

بيان المعنى الإجمالي :

أحَسَّ زكرياء بتقدم سنه، وتألم إذ لم يكن له ولد يــأنس بــه فــي حياتــه، ويخلفــه فــي علمه ودينه بعد وفاته. دعا ربه دعوة الواثــق المضــطر أن يرزقــه ولــدا يرثــه، ومــن صفات الله أنه خير الوارثين. فحقق الله له ما طلبــه، ووهــب لــه ولــدا صــالحا، هــو يحيى من زوجه التي أصلح ما كان فيها من خلل يعوقها عن الإنجاب.

إن ما تفضلتُ به على رسلي وأنبيائي المذكورين في هــذه الســورة، كــان كفــاء إقبــالهم في حب لتنفيذ ما أريده مــنهم، هــم يلازمــون فعــل الخيــر ويبتعــدون عــن الشــرور، ويواصلون الدعاء، وقد عمرت نفوسهم بالرجــاء فيمــا عنــد الله، واستحضــروا الخــوف من بطشه، وكان الخشوع ظاهرا وباطنا صفة ملازمة لهم .

واذكر مريم منوها بعفافها. فهي التي حافظــت علــى طهارتهــا ولــم يتصــل بهــا ذكــر. وأن الله قد اختارها لتكون مظهرا لعظيم قدرتــه. فنشــر فــي كيانهــا القــوة التــي تكــون بها الحياة (الروح) ليحل في جنينها، فإذا كانــت الخليــة الأولــى للإنســان مكونــة مــن البييضة واللقاح، فإنه في حمــل مــريم حلــت الــروح فــي البييضــة بتكــوين إلهــي . فكانت مريم معجزة، كذلك كان تكون ابنها، كــل واحــد منهمــا كــان معجــزة مناديــة بقدرة الله العليم الحكيم الذي لا يعجزه شيء.

بيان المعنى العام :

89- وزكريا إذ نادى...وأنت خير الوارثين.

واذكر النبي زكرياء في ذلك الظــرف وقــد تقــدمت بــه الســن، وتضــاعف إحساســه بالأسى أن لا يكون له ولد يرث عنه علمــه وأخلاقــه ودينــه، فنــادى ربــه داعيــا : أن لا يتركه وحيدا ليس له من صلبه مــن ينضــم إليــه، و يــأنس بــه فــي شــؤون الــدنيا والآخرة . وقدم بين يدي دعائه ما يرجى به الإجابة مــن حســن الثنــاء علــى الله، فإنــه خير الوارثين. فإذا كان الولد يرث عن أبيه أخلاقــه ومالــه ومــا يــدين بــه، فــإن ذلــك الميراث سينقطع بعد أمد، إذ يلحق الفرع الزوال كما لحــق الأصــل، بينمــا رجــوع مــا عند الإنسان إلى الله رجــوع لا يلحقــه الفنــاء، ويترتــب عليــه مــن الجــزاء مــا لا

يستطيع الولد تحقيقه لوالده، فيكون انتفاع المورِّث بما تركــه مــن الخيــر ممــا اخــتص به الله .

90-فاستجبنا له ...وكانوا لنا خاشعين .

هذا الدعاء الصادر من زكرياء جمع بــين الإخـــلاص والوثــوق فــي فضــل الله الــذي هو رشح الاعتماد عليه مع طرح ما جرت عليــه العــادة . دعــا ربــه وقــد تقــدمت بــه السن، وكانت امرأته عاقرا، لكن قوة إيمانه انطلقــت بــه إلــى التوجــه إلــى الله رغــم ذلك مستشعرا أنه الفاعل المختار الذي لا يعجزه شيء.

فبمجرد ما دعا تقبل الله دعاءه، ويسر لــه أن تحمــل زوجتــه بيحيــى، فحــول امرأتــه من عقيم لا تلد إلى قبولها للحمــل، وأصــلح مــا كــان فيهــا مــن خلــل يعوقهــا عــن الإنجاب .

تتابع في هذه السورة عرض ما مــن الله بــه علــى أنبيائــه ورســله : موســى وهــارون وإبراهيم ولوط، وإسحق ويعقــوب، ونــوح، وداود وســليمان، وأيــوب، وإســماعيل وإدريس، وذي الكفل، وذي النون، وزكريــاء . ثــم أظهــر فــي ختــام هــذه الآيــة – 90– رَبْطَ ما تفضل به عليهم من تأييد واســتجابة الــدعاء، وتحقيــق المطالــب، ربطــه بحرصهم على فعل الخيرات، ومقْــتِهم للشــر، وداومهــم علــى ذلــك، وتعلقهــم بــالله يلجؤون إليه راغبين فيما عنده من خزائن الفضــل الــذي لا يحــد ولا ينفــد .مــع رهبــة من طردهم عن تلكم الخزائن. أي مستشــعرين أن مــا هــم عليــه مــن عنايــة وتيســير مرده إلى ما خصهم الله به من نعم، فهم حــذرون أن يتــركهم لنفوســهم فيهلكــوا، ولــذا رافقهم الخشوع في حياتهم والتذلل ظاهرا وباطنا لرب العزة الفعال لما يريد.

91-والتي أحصنت فرجها...آية للعالمين.

عطف القرآن على سلســلة النبيــين والمرســلين مــريم البتــول عليهــا الســلام . ولــم تذكرها الآية بالاسم، وإنما ذكرتها بصفتها تســفيها لمــا رماهــا بــه اليهــود، فبشــهادة الله العالم بالظواهر والأسرار هي التي عفَّتْ فمنعت فرجهــا مــن الزنــا ولــم يقربهــا أي إنسان . واختارها الله لتكون مظهرا للقــدرة الإلهيــة التــي لا يعجزهــا خــرق العــادات. لتكون مع ابنها آية مــن آيــات الله الدالــة علــى أن الأســباب الطبيعيــة لا تقيــد الإرادة الإلهية ولا تقف حائلا دون تنفيذ ما تعلقــت بــه. وعبــر القــرآن عــن الحادثــة الخارقــة للعادة بقوله: **فنفخنا فيها من روحنا** – وهو تقريــب لمــا تــم علــى أنــه إنجــاز لطيــف كنفخ الهواء من الفم لا يشاهد ولا يكــاد يســمع، ســرى فــي كيانهــا تلــك القــوة التــي

تنتشر بها الحياة (من روحنا) وأضاف الروح لذاته العليــة تشــريفا لــذلك الحاصــل الــذي به سرت الحياة في عيسى عن طريق أمه .

ولما ثبت يقينا بشهادة الله أن حمل مريم بعيسى كــان خارقــا للعــادة، فإنــه تبعــا لــذلك كان عيسى المولود من أم وبدون أب، ومريم التــي حملــت، كانــت عفيفــة لــم يقربهــا ذكر، ولا اختلطت ببيضتها بحيوان منوي . كان كل منهمــا آيــة دالــة علــى أن القــدرة الإلهية تتصرف كما تشاء في الكون . فيكون من هذه الحادثــة مــا يزيــد المــؤمنين قــوة ووضوحا في تصورهم للكمال الإلهي الذي لا يخضع للأسباب الظاهرة.

إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾ وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡۖ كُلٌّ إِلَيۡنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾ وَحَرَٰمٌ عَلَىٰ قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآ أَنَّهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ﴿٩٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

أمتكم : ملتكم ودينكم.

تقطعوا : تفرقوا.

أمرهم : حالهم في الدين والعقيدة.

لا كفران لسعيه :لا يحرم جزاء عمله الصالح.

حرام: ممنوع.

أهلكناها : قدرنا إهلاكها وسحقها.

بيان المعنى الإجمالي :

مما أوحى الله به لرسله الذين تتابع ذكرهم فــي هــذه الســورة، وفــي غيرهــا قــول الله لهم قولا أمروا بتبليغه لأتباعهم حاصله : إن هــذه الأمــة التــي تنتســبون إليهــا وتتفقــون معها على عقيدة واحدة، ومنهج سلوكي صــالح، هــو مــا يــربطكم بمــن ســبقكم مــن الأمم التي اســتجابت لــدعوة الرســل . وإنــي أنــا الله الواحــد لا إلــه غيــري ولا رب سواي أنا ربكم فأفردوني بالعبادة ولا تشركوا بي شيئا.

إنه وإن كان أمــر المرســلين واحــدا، يــدعون إلــى رب واحــد وقــيم واحــدة، فــإن المبعوث إليهم كان موقفهم من رسالات السماء، أنهــم اختلفــوا وســلك كــل واحــد مــن المختلفين على الرسل طريقا بعيدا عــن غيــره . إنهــم ســيعودون إلينــا جميعــا لــنحكم فيهم حكمنا العادل. وعقَّب هذا الرجوع بتفصــيل اخــتلاف المــآلات . فمــن جمــع بــين

الإيمان الصادق والعمل الصالح، يتولى الله جزاءه عن كل ما قدم لا يضيع منه شيء . وثّقه له كتابة لا تغادر صغيرة ولا كبيرة إلا تم إحصاؤها.

حرام ومرفوض أن يتحقق لكل قرية أراد الله إهلاكها لتكذيبها بالبعث، أن يتحقق لها ما تتمناه من عدم الرجوع إلى الله. فهي راجعة إليه مسلّط عليها ما سبق من الوعيد.

بيان المعنى العام :

92- إن هذه أمتكم...وأنا ربكم فاعبدون.

انعطفت هذه الآية على موكب المرسلين جميعا الذين تتابعوا في الآيات السابقة فقد خاطبهم الله خطابا موحدا لهم نابعا مما كان قد وجه لكل واحد منهم عند نزول الشريعة عليه. فقد اقترن بالوحي التشريعي إليه قول الله له : إن أمتكم التي كلفتم بحمل الشريعة إليها وهدايتها إلى العقيدة القويمة والسلوك الراشد هي أمة واحدة لا اختلاف بينها في المقومات الأساسية للتصور في العقيدة والسلوك الصالح في الحياة . فالآية مقررة أن الرسل الذين تتابعوا حاملون لوحي الله عبر القرون، أمرهم واحد في توحيد الله، وأمرهم واحد في إفراده بالعبادة، وهداية الناس لما تكون به حياتهم الدنيا أصلح وأقوم.

ويصح أن تكون الآية خطابا لأمة القرآن، يذكرهم ربهم بأن ما جاء به محمد وما ورد على لسان المرسلين الذين سبقوه هو نابع من منبع واحد لا اختلاف فيه. وهوما يزيد المؤمنين تعلقا بما أنزل إليهم، إذ هم على نفس المنهج الذي سبق أن هدى إليه الأمم السابقة .

وعطف مقررا ما يقتضيه ذلك من وحدة الرب، وأنه رب جميع الناس لا إله غيره ولا رب سواه، مما يحتم على كل إنسان أن يفرده بالعبادة الشاملة للتقرب إليه بالطاعة، وتنفيذ أوامره والابتعاد عن نواهيه .

93- وتقطعوا أمرهم....راجعون .

إن دعوة الرسل الواحدة المستجيبة للفطرة الموحدة لله، كان موقف المدعوين إليها مختلفا . كل فرقة اتخذت منهجا مغايرا لما اطمأنت إليه غيرها من الفرق، آمن بعضهم بما جاءه من الله، وأعرض آخرون وتوزعوا فلكل مجموعة معبود وقيمٌ ، وتصورٌ للحياة، فعوض أن يكون الدين موجب اتحاد، جعلوه سببا للافتراق والنزاع. إنهم سيعودون إلينا لنقضي بينهم، ونجزيهم عما قدموا، وقد ارتفعت المعاذير بإرسال الرسل الذين كانت أصول دعوتهم واحدة.

94-فمن يعمل من الصالحات...وانا له كاتبون .

أسرع القرآن ببث الطمأنينة في قلوب المـؤمنين بعـد إعـلان أنـه لا ينفلـت أي إنسـان من نيل جزائه في اليوم الذي يرجع فيه إلـى الله ليوفيـه حسـابه." **كـل إلينـا راجعـون**" فصرح بأن من يجمع بين العمـل الصـالح حسـب المعـايير الشـرعية، وبـين الإيمـان بالله واحدا أحدا بيده الأمر، ويثق بكل مـا جـاء بـه الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم وحيا من عند الله، وأن السعادة في الالتزام به وطاعته، سـيجزيه عمـا قـدم مـن خيـر، ولا يضيع عليه شيء مما اجتهد فيه وأنجزه، وهو معنى **لا كفران لسعيه.**

في هذا الربط بين الإيمان والعمـل تصـوير للمـنهج الـذي أقـام الله عليـه بنـاء ديـن الإسلام. فالعمل المقطوع عن الإيمـان كالشـجرة المقطوعـة الجـذور، مصـيرها إلـى الذبول ثم إلى الموت؛ والإيمان هـو الـذي يثبـت العمـل فيسـبغ عليـه حقيقـة الخيـر ويفصل بينه وبين الشر ويعطيه صفتي الثبات والدوام.

وأكّد تحقق هذا الجزاء الذي سيلقاه المؤمن الصالح الفاعـل للخيـر يـوم القيامـة، بـأن الله وثّقه له توثيقا مكتوبا لا ينسى منـه صـغير ولا كبيـر. كتبـه الحفظـة واسـتقر فـي علمه سبحانه .

95- وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون.

افتتحت الآية بتجسـيم النفـي معبـرا عنـه بقولـه: حـرام. والحـرام ممنـوع ومنفـي، ومرفوض أيضا. إن نسج الآية يواجه ذهن السامع بأنـه لا يمكـن أن يتصـور. فمـا هـو هذا الممنوع على كل أهـل قريـة قـدّر الله إهلاكهـا ؟ إن قولـه: **وحـرام علـى قريـة** متصل بقوله تعالى: **كل إلينا راجعـون** . والمشـركون ينفـون البعـث، إنهـم يرفضـون ما أفادته الآية السابقة أنهـم راجعـون إلـى الله، واقتنعـوا بـأن الحيـاة الـدنيا لا حيـاة بعدها. فيكون المعنى : ممنوع وحرام ومنفـي علـى أهـل كـل قريـة أراد الله إهلاكهـا لتكذيبها بالبعث، أن يتحقق ما اعتقدوه :أنهـم لا يرجعـون إلـى الله . بمـا يكـون معـه المعنى: أنهم راجعون إلى الله لا محالة، بما يتبـع ذلـك مـن محاسـبتهم علـى كفـرهم. ثم تنفيذ الوعيد الذي ستفصله الآيات اللاحقة . وهذه سنة الله مع الأمم السابقة .

حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي
غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ

حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا
وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

فتحت: حصل لهم مخرج من منفذ كان مسدودا.

ياجوج وماجوج : قبيلتان عدد أفرادها كثير كثرة مهولة .

حدب : مرتفع من الأرض .

ينسلون: يسرعون إسراع الذئاب.

شخوص البصر : عدم تحرك العين والجفن.

الحصب : المحصوب أي المقذوف. وقرأه علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وأبي ابن كعب وغيرهما حطب، أي ما توقد به النار.

الزفير : النفس يخرج من أقصى الرئتين بسبب الغم.

بيان المعنى الاجمالي :

سيستمرون على إنكار البعث، حتى إذا خرج الموتى من قبورهم، وهم كثرة كاثرة كأنهم ياجوج وماجوج، وهم فزعون مسرعون كقطعان الذئاب لا يوقف زحفهم الروابي والجبال . واقترب الحساب، وأيقن المحشورون بذلك فبُهِتوا واستقرت عيونهم فهي لا تتحرك. وأيقن الذين كفروا بالجزاء الموعود، وعادوا إلى أنفسهم قائلين: ياويلنا، لقد كنا غافلين عما حذرنا منه المرسلون، ثم تعمقوا في وضعهم فانتهوا إلى الاعتراف بأنهم كانوا ثابتين على ظلم الحق وظلم أنفسهم . وأنهم سيلقون الجزاء العادل.

ثم توجه لهم الخطاب فيقال لهم: إنكم وما كنتم تقدسونه وتعبدونه، الكل يقذف به في جهنم فتكونون وقودا لها. تقذفون هناك. وإمعانا في النكاية بهم وإذلالا لهم ينبهون إلى غبائهم باتخاذها آلهة فيقال لهم: لو كانت هذه الأصنام آلهة ما دخلوا جهنم ولحموا أنفسهم من مهانة العذاب. ويتسلط عليهم العذاب تسلطا سرمديا فهم خالدون فيه. تتحبس أنفاسهم في صدورهم ثم تنبعث منها زفيرا، شأن من اشتد عليه الغم .وفقدوا السمع مع ذلك فهم صم في انعزال تام عن سماع استغاثة من معهم فضلا عن مواساته .

بيان المعنى العام :

96-حتى إذا فتحت ياجوج وماجوج ...ينسلون.

افتتحت الآية بكلمة "**حتّى**" التي تفيد استئناف الكلام وابتداءه، مع ربط بالكلام السابق. وإذا كانت الآية 95 أفادت أن إصرار المشركين على التكذيب بالبعث متمكن منهم، فإنه سوف ينكشف الأمر انكشافا محسوسا، لا يستطيع أحد إنكاره وذلك عند خروج البشر كلهم يوم البعث مسرعين إلى الموقف كأنهم لكثرتهم ياجوج وماجوج . فتكون الآية نظير قوله تعالى: **(يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر)**[1]. وقوله: **فتحت ياجوج وماجوج**، تجسيم لكثرة البشر المبعوثين للحشر. ورُشّح هذا التجسيم بكلمة فُتِّحت المفيدة أن البشر كانوا مغيبين في قبورهم، فتنفتح لكل نفس طريقة للخروج، فيخرجون إجابة للداعي مسرعين إسراع الذئب في سيره. وقرئ من كل جدث والجدث هو القبر. وهذه القراءة مما رجح عندي المحمل الذي حملت عليه الآية.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن الآية تتحدث عن أمارة من أمارات الساعة، وهي خروج ياجوج وماجوج من وراء السد الذي ضربه عليهم ذو القرنين، وهم لكثرتهم وفسادهم كقطعان الذئاب المفسدة المهلكة، من كل حدب ينسلون، لا يوقف زحفهم الروابي ولا الجبال . فيعم الفساد الأرض لتغلبهم عليها، ويكون ذلك إيذانا بقرب انتهاء العالم.

97- واقترب الوعد الحق ...بل كنا ظالمين .

تؤكد الآية أنه قد اقترب الوعد الحق. والوعد الحق في القرآن أطلق في آيات عديدة على الحساب والجزاء. من ذلك ما جاء في سورة الأعراف : **فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا** [2]. وفي سورة التوبة :**وعد الله المنافقين نار جهنم خالدين فيها**[3] وفي سورة الأحقاف : **وعد الصدق الذي كانوا يوعدون**[4] وفي سورة يونس : **ألا إن وعد الله حق**[5] . وفي سورة الحج : **النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير**[6] . فيكون معنى الآية أن بعثهم مسرعين إلى أرض المحشر يعقبه الحساب، ويبدو لكل مبعوث مآله ويزول التردد والشك . ويا لهول ما يرى كلٌ كافر ويعلم. فعبرت الآية عن شدة انزعاجهم بأن أبصارهم لشدة الهول تكون ثابتة لا تتحرك شأن المبهوت تجمد عينه مكانها .

---

[1] سورة القمر آية 7

[2] سورة الاعراف آية 44

[3] سورة التوبة ، آية 66.

[4] سورة الأحقاف ، آية 16

[5] سورة يونس، آية 55

[6] سورة الحج ، آية 72.

ثم يعودون إلى أنفسهم إثر الدهشة الأولى قائلين: يـا ويلنـا، كلمـة فـزع مـن العـذاب المحقق الوارد. وينكشف غطاء العناد الـذي لـزمهم فـي الـدنيا فيصـرحون بـأنهم قـد مضوا سادرين، غافلين غير متأملين فيما بلغهم مـن النـذر التـي حـذرتهم مـن هـذا الموقف. ثم يتحولون عن اعترافهم بالغفلـة إلـى الإقـرار بـأنهم اسـتمروا فـي حيـاتهم الدنيا على ظلم الحقيقة وظلم أنفسهم. وفي ما صور به المشـهد مـا يـدل دلالـة واضـحة على اقتناع المعذبين بأن ما سيحل بهم جزاء عدل لا ظلم فيه.

98-إنكم وما تعبدون...أنتم لها واردون .

المشهد التالي إنزال العذاب بهـم فـي جهـنم؛ فأفـادت الآيـة أن الكـافرين ومـا كـانوا يعبدونه من دون الله يقذف الله بهم فـي جهـنم، وقـرئ حطـب أي إنهـم فـي آن واحـد معذبون بالنار وهم يضاعفون توقدها مـادة لضـرامها. ويتوجـه إلـيهم الخطـاب إذلالًا لهم وجمعا بينهم وبين آلهتهم التي كـانوا يعتـزون بهـا، ويتـذللون لهـا ويجـدون فيهـا سندهم، أنتم المستكبرون وآلهتكم داخلون الآن في جهنم.

99-لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون.

وزيادة في النكاية بهم وتعذيبهم نفسيا، يوجه لهم خطـابٌ إذلالٍ يقـول لهـم: لـو كانـت هذه المقذوفات في جهنم التي كنتم تعبدونها، لو كانـت حقـا آلهـة لـدافعوا عـن أنفسـهم وما دخلوا النار. وإتماما للمقصود ختمت الآية بخلود العابدين والمعبودين في النار.

100- لهم فيها زفير...لا يسمعون.

هؤلاء المعذبون من الكفرة في جهنم يحـيط بهـم الإحسـاس بـالغم والكـرب، فتخـرج أنفاسهم المحصورة من أعماق صدورهم زفيـرا. ويحرمـون مـن حاسـة السـمع كمـا جاء في قوله تعالى :(**ونحشرهم يـوم القيامـة علـى وجـوههم عميـا وبكمـا وصـما مأواهم جهنم**)[1] فهم معزولون عن الإحساس باستغاثة أهـل النـار الـذين كـانوا يؤلفـون معهم وحدة الضلال في الدنيا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنۡهَا مُبۡعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسۡمَعُونَ حَسِيسَهَاۖ وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحۡزُنُهُمُ ٱلۡفَزَعُ ٱلۡأَكۡبَرُ وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ هَٰذَا يَوۡمُكُمُ ٱلَّذِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

[1] سورة الإسراء آية 97

بيان معاني الألفاظ :

سبقت : تقررت منذ الأزل.

الحسنى : الحالة الحسنة في الدين والسلوك.

حسيسها : الصوت المدرك بالسمع .

الشهوة : شوق النفس إلى ما يلائمها.

الفزع : ما تنفر منه النفس وتنزعج.

التلقي : التعرض للكرامة.

بيان المعنى الإجمالي:

على نقيض ما وصف به جزاء الكافرين، تصـــرح الآيـــات بـــأن الله محقــق للــذين قــدر لهم منذ الأزل الهداية فـــي العقيــدة والعمــل البعــد عــن جهــنم، بعــدا لاتصــل إلـــيهم أصواتها المفزعة، فضلا عن حرها ومنظرها. وهــم خالــدون فـــي النعــيم الــذي يحقــق لهم كل ما يمكن أن تتعلق به الشهوة، المشْبِع لجميـــع الغرائــز، وللنعــيم العقلـــي. كمـــا يجدون من ملائكة الرحمـــة مـــا يقــذف فـــي قلــوبهم الطمأنينــة عنــدما يخرجــون مــن قبورهم، والناس فزِعُون من المصير والمآل، فتتلقــاهم الملائكــة بقولهـــا : هــذا اليــوم يوم تقر فيه أعينكم وتسعدون بتحقيق ما وعدتْكم به رسلكم.

بيان المعنى العام :

101- إن الذين سبقت لهم منا...عنها مبعدون.

تقدم في الآية –92– أن كل البشر يعودون إلى ربهــم ليلقــوا جــزاءهم بعــد أن اختلفــت مذاهبهم اختلافا كبيرا. وعقَّب ذلك بـــأن المـــؤمنين الــذين يعملــون الصـــالحات يجـــزون على كل كبيرة وصغيرة مما قدموه. وتتابعت الآيـــات بعــد ذلــك مفصـــلة الوعيــد الــذي سيسلط على الكافرين من الآية 94 إلـــى آيـــة 99. بعــد ذلــك انعطــف الكـــلام مكمـــلا وضع المؤمنين الصالحين، وهم الذين كتـــب الله لهــم منـــذ الأزل الهدايـــة إلـــى العقيـــدة الحسنة الموحدة لله، والسـلوك المرضـــي، فجمعهــم مشـــيرا إلـــيهم لتميــزهم "أولئــك " ليطمئنهم بأنهم عن جهنم مبعدون. محفوظون بحفظ الله. ثم فصل هذه الوقاية

102- لا يسمعون حسيسها...خالدون .

لا يسمعون صوت جهنم، مؤكد لقوله عنهـــا مبعـــدون . ذلـــك أن الصـــوت يـــدرك عـــن بعد أكثر من حرها، فإذا انتفى إدراك صوت اضـــطرامها وقبـــيح رائحتهـــا، أفـــاد ذلـــك تحصينهم من كل أنـــواع الإذايـــة المختصـــة بهـــا. وعقَّـــب النفـــي بإثبـــات الضـــد أنهـــم منعمون بمباهج من الفضل الذي يشبع كل ما تتوق له النفس بصفة باقية لا تنقطع.

103- لا يحزنهم الفزع ....كنتم توعدون.

افادت الآية أن الذين كتب الله لهم الحسنى يلقَون حسن العاقبة حتى قبل دخولهم الجنة . فبمجرد ما يخرجون من قبورهم، والمبعوثون على فزع شديد من المآل، كما جاء ذلك في قوله تعالى :(**ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله**)[1] يكون الذين سبقت لهم الحسنى داخلين تحت قوله إلا من شاء الله . فلا يحل بقلوبهم الجزع والخوف من المآل. ذلك أن ملائكة الرحمة تتعرض لهم قائلة لهم : هذا يوم الكرامة والجزاء الحسن الذي كنتم توعدون به في الدنيا على لسان رسلكم .

يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ

بيان معاني الألفاظ :

نطوي : طوى الشيء لف بعضه على بعض.

السجل : يطلق على كاتب الورقة، كما يطلق على الورقة التي يكتب فيها.

بدأنا: أنشأنا على غير مثال.

الزبور : المكتوب، أطلق على كتاب داود .

بيان المعنى الإجمالي :

كل شيء مقدر في علم الله. إنه سيعيد المخلوقات بعد فنائها كما أنشأها أول مرة، وأبطل ما يحيله المشركون من بعث البشر بعد موتهم، فأثبت أنهم سيعودون جميعا إلى ربهم. وسيأتي اليوم الذي تتحول فيه هيئة السماء التي كانت كواكبها منتظمة كل في مكانه إلى تراكم كشأن الصحيفة التي طويت على ما هو مكتوب فيها. والإعادة شأنها كشأن الخلق الأول، فكما أنشأ الله الخلق على غير مثال سابق، فإنه لا يعجزه أن يعيده. إن هذه الإعادة أمر ثابت وهي وعد من الله والله لا يخلف الميعاد إذ لا يحول بينه وبين قدرته ما يمنع نفاذ ما يريده.

يخبر القرآن أن الله سجل في كتاب داود عليه السلام بعد أن ذكّر الناس بفعل الصالحات ووعد وأوعد، سجل حقيقة ثابتة : أن الأرض يسيرها ويبسط عليها

[1] سورة النمل آية 87

سلطانه عباد الله الصالحين للخلافة بـــالتزام العبـــادة وتطبيـــق الســـنن التـــي جعلهـــا الله سببا للنصر. إن في هذا البيان ما يبلـــغ بـــأتم تبليـــغ القـــوم الـــذين كـــان قـــوام تفكيـــرهم عبادة الله واستحضار صلتهم به في كل أمر .

بيان المعنى العام :

104- يوم نطوي السماء كطي السجل ...كنا فاعلين .

افتتحت الآية بالظرف الزماني يوم، وهو يـــوم خـــاص يطـــوي فيـــه الله القـــادر الســـماء طيا يذهب بانتظامها ومكان أجرامها. ثـــم قُرِّبَـــتْ الصـــورة بأنهـــا كحالـــة الكاتـــب الـــذي يطوي الصحيفة بعد أن يكتبها. ويحتمل المعنـــى كمـــا تطـــوى الصـــحيفة علـــى مـــا هـــو مكتوب ومسجل فيها. وفي هذه الصورة من الإعجاز البيـــاني مـــا يـــبهج الإحســـاس بهـــذه الصورة المعبرة عن تقريب إحداث الكون على نظام، ثم نقـــض ذلـــك النظـــام فـــي يســـر عجيب. فخلق السماء وما يعمِّرها من كواكب منتظمة تـــم فـــي يســـر كمـــا يخـــط الكاتـــب الصحيفة. لكل كلمة موقعها وارتباطها بغيرها ودورها فـــي أداء مـــا قصـــد منهـــا فيثبـــت كل ماخط فيها، ثم هو بعد إكمال ما يقصده مما ســـجل يأخـــذ الصـــحيفة فيطويهـــا علـــى ما تحتويه . وهي بعد أن كانت منشورة تتميز كل كلمـــة بموقعهـــا تنقلـــب إلـــى متـــراكم، ثم يعيدها إلى وضعها متى أراد. وهذا التمثيـــل مقصـــود بـــه تقريـــب أمـــر البعـــث، وأن الإعادة على ما كان عليه الخلق الأول أمر معقـــول لا إحالـــة فيـــه. وفـــي ذلـــك رد لمـــا احتج به الكفار من أن تفتت الأجسام يحيل إعادتها. وأكدت الآيـــة أمـــر البعـــث بأنـــه كمـــا تم الخلق والإحداث على غير مثال، فكذلك تتم إعادته لما كـــان عليـــه، وهـــذا وعـــد مـــن الله، والله لا يخلف الميعـــاد، وأنـــه ســـبحانه فاعـــل ذلـــك لامحالـــة لانتفـــاء أي قـــدرة تحول بينه وبين مراده، فقدرته تعالى لا يعجزها شيء.

105- ولقد كتبنا...عبادي الصالحون.

النص يحتمل أن أرض الجنة يرثها عباد الله الصالحون، فتكون الآية متصلة بالآيات 103/101- كما تحتمل أن الله سيمكن لهذا الدين وتنتشر أعلامه في آفاق أرض الله ويتمكن المؤمنون من تسييرها حسب شرع الله. أو أنه وعد للمؤمنين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :أن الله سيمكنهم من أرض مكة التي عذبوا فيها وأوذوا . ويكون معنى الآية : أن الله وثَّق في كتاب داود عليه السلام " الزبور" بالتنصيص على أن الله سيحقق للمؤمنين الصالحين أسباب النصر فيعلو سلطانهم على الأرض . فهو وعد للخليقة جاء في كتاب داود من الكتب السابقة قبل القرآن . وتأكد هذا الوعد في القرآن في سورة النور .قال تعالى : **(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين**

من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم)[1] وتحدد الآية أن هذا الوعد قد جاء عقب التذكير والوعظ حثا على الاستقامة ، بما يفيد أن الالتزام بشرع الله سبب للسعادتين الدنيوية والأخروية. ومن هذا الالتزام اليقظة لسنن الله في النصر والهزيمة والقوة والضعف، فعباد الله الذين شرفوا بنسبتهم إليه، ليسوا المتواكلين، لكنهم الذين تعلقوا بالله فأقاموا شرعه، وأخذوا بأسباب القوة من الوحدة وحسن القيام على عمارة الأرض، والتعمق في العلم، والتمسك بالقيم الخلقية، هؤلاء هم الذين لهم الجدارة بإرث أرض الله. تتسع فتوحاتهم وتنتشر بمقدار ما يحافظون على وصفهم بالصلاح الشامل.

106- إن في هذا لبلاغا لقوم عابدين .

إن شأن هذا الوعد أنه يبلغ إلى أعماق الضمير، ويستقر في عقل الذين وصلوا أنفسهم بالله فتألف منهم قوم ملتزمون بعبادة الله، يجدون في كل حركة، وفي كل فعل، وفي كل علاقة، وفي كل تدبير، ما يجعلهم يستحضرون أنهم في عبادة لله فتنقاد مشاعرهم إلى ما يرضي الله حبا في الطاعة، وثباتا على السلوك الراشد .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ ۗ وَرَبُّنَا الرَّحْمَٰنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

آذنتكم : أعلمتكم محذرا .

على سواء : على نسبة واحدة تتساوون فيها.

فتنة : الفتنة اختلال الأحوال المفضي لما فيه مضرة

بيان المعنى الإجمالي :

أنت يا محمد مقصور على الرحمة في خلقك وفي طبيعتك، وفيما أوحي إليك من تشريع قرآنا وسنة، في أحوال الشدة والرخاء تصحبك الرحمة، وتفيض في سلوكك وفي علاقاتك بالناس وبالكون كله .

[1] سورة النور، آية 55

اصدع بهذه الحقيقة التي هـي قـوام دينـك والتـي انحصـر فيهـا الإسـلام باعتبارهـا المنطلق لكل ما أوحيناه إليك: إنه لا إله لكم إلا إله واحـد لا شـريك لـه. كونـوا واعـين لهذا، إن ذلك مما تقتضيه الفطرة ويحتمه العقل، فهـل أقلعـتم عـن شـرككم، ودخلـتم في دين الإسلام ؟

إن رفضوا دعوتك، وأقاموا على ما هم عليه مـن الشـرك، فقـل لهـم : إنـي أعلمكـم محذرا كل فرد منكم ما سيسلط عليه من العـذاب . وإن سـألوك عـن وقـت حلـول مـا أوعدهم الله به، فليكن جوابك إن ربي لم يعلمني بإنجـازه أو بتـأخيره، وأنـا ملتـزم بمـا يوحى إلي. تفرد ربي بعلم المغيبات، فهو يعلم الجهر مـن أقـوالكم كعلمـه بمـا تكتمـون في صدوركم .ولست أدري هل إن ربي قدر تـأخيره ، ليكـون فـي هـذا التـأخير مـا يمهلكم لتمتنعوا في الانحراف والضلال والتلهي بمتعكم المؤذنة بالزوال عن قريب.

وقل ختاما قولا قاطعـا لجـدلهم متوجهـا بالـدعاء : رب أنجـز حكمـك المؤيـد للحـق القاطع لدابر الشرك . وقل : ربنا الرحمن الـذي نـدعوه ونـؤمن بـه هـو الـذي نطلـب منه وحده العون على محق ما تصفونه بألسنتكم من المفتريات والتضليل .

بيان المعنى العام :

107- وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين .

هذه الآية خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم وللعـالم كلـه، مؤذنـة بمـا طبعـه الله عليـه من الرحمة، وهي الظاهرة التشريعية في الدين الـذي أمـر بتبليغـه، فالرحمـة منتشـرة في تفاريع التشريعات كما هي أساس ومقصـد يقينـي بـه تـدرك النصـوص الـواردة، وهي الموجهة للفهم والتطبيق . وهي الميزة التـي ادخرهـا الله لرسـوله فكـان الإسـلام دينه دين الفطرة الذي يلائم الطبيعة البشرية، فـلا يعكـس تطلعاتهـا ولا ينحـرف بهـا، ولا يسير بهـا فـي طريـق التسـاهل المنحـل، ولا فـي مسـالك العسـر والصـعوبة المرهقة. قلع من تصورات البشـر الطبقيـة والتفاضـل بالنسـب، ونـادى بـأن النـاس سواسية كأسنان المشط، يتفاضلون بما يجتهدون فيه للقـرب مـن الخيـر والابتعـاد عـن الشر. فوجد بذلك كل فرد مـن أفـراد البشـر مكانتـه فـي الكـون. يعلـو فـي قيمتـه الإنسانية بجهده وخلقه وصلاحه. فباب السمو مفتوح لكـل فـرد، بـل هـو مـدعو إلـى الرقي وعدم الرضى بالمنزلـة الـدون . حـرر الإنسـان مـن التقليـد، ومـن الإكـراه، ومن الظلم والاستبداد. وأنت إذا نظرت إلى التشريع المثبـت فـي القـرآن والسـنة فـي الأبواب الكبـرى: العبـادات، والمعـاملات، والسـلوك، تجـد الرحمـة منبثـة فـي عمومها وفي الأحوال الخاصـة. فالصـلاة مـثلا رحمـة للإنسـان يتسـامى بهـا إلـى

الاتصال بالله فينشرح صدره، ويتعمق حبــه للخيــر ومقتُــه للشــر، إن الصـــلاة تنهـى عن الفحشاء والمنكر. وكلما أحاطت بـــه مشـــقة أســـعفه التشـــريع بمـــا يرفعهـــا .فمـــثلا عادم الماء والخائف من استعماله مرضا، أو زيادتـــه يتحـــول فرضــــه إلـــى التـــيمم. **فـــإن لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبا**[1]– وكذلك الصيام ومـــا فيـــه مـــن تيســـير. **فمـــن كـــان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخـــر**[2]. والحـــج شـــرط وجوبـــه الاســـتطاعة **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا** [3]– وبصـــفة عامـــة فـــإن التيســـير مقصـــد يقيني من مقاصد الشريعة تولى الشيخ محمد الطـــاهر ابـــن عاشـــور تحليلـــه فـــي كتـــاب المقاصد.

وحتى في الحرب نجد الإسلام رحمـــة يمنـــع المجاهـــد مـــن التعـــدي علـــى المســـالمين الذين لا يشهرون عليـــه الحـــرب. وعنـــد الانتصـــار يحـــرم النكايـــة والقتـــل الجمـــاعي وحرق الزروع والأشجار والحيوانات، وقهر المهـــزوم علـــى تبـــديل دينـــه، أو إذلالـــه. ولا يغرنك ما يتبجح به الغرب من احترامـــه لحقـــوق الإنســـان. إن النكـــال الـــذي ســـلط على العراقيين والتعدي على حرماتهم الجســـدية وعلـــى أعراضـــهم، ومـــا يســـتمر إلـــى اليوم في قوانتنامو، والطـــائرات التـــي تحصـــد رؤوس الأفغـــانيين حتـــى فـــي حفـــلات أعراسهم. وما قامت بـــه الـــدول الاســـتعمارية عنـــد احتلالهـــا للأوطـــان، وردود الفعـــل البالغة أشد ما يتصور من العنـــف والنكـــال ممـــا قابلـــت بـــه حركـــات التحريـــر، ففـــي الجزائر وحدها قتل المستعمرون الطغاة مليونا ونصـــفا مـــن الرجـــال والنســـاء والأطفـــال والشـــيوخ. والانحيـــاز للإســـرائيليين فـــي فلســـطين يشـــردون أصـــحاب الأرض، ويمنعونهم من جميع حقوقهم ويفرضون علـــيهم الحصـــار القاتـــل والمـــذل، ويحرمـــونهم من مقومات العيش ومن مقومـــات الدولـــة ومـــن الـــوطن. ويحمَـــى الظلـــم الإســـرائيلي مدعيا أنها الدولة الديموقراطية في المنطقة. إن العالم اليـــوم فـــي أشـــد الحاجـــة للإســـلام، لرحمته الشاملة التي تعم الكائنات كلها، لإنقـــاذه مـــن هـــذه الحضـــارة المتوحشـــة التـــي تلوثت فيها القيم وانتكست فيها المبادئ وســـاد قـــانون الغـــاب. الحـــق فـــي رأي القـــوي. والأغلبية هي الأغلبية الساحقة .

---

[1] المائدة آية 7

[2] سورة البقرة آية 184

[3] سورة آل عمران 97

فأنت حيثما قلبت نظرك، وتعمقت في سيرة الرسول صـلى الله عليـه وسـلم وفـي ديـن الإسلام عقيدة وشريعة وسلوكا وجدت الرحمـة شـائعة تلمـس القلـوب والعلاقـات فـي الأسرة وفي المجتمع، وفي الكون كله، في السلم وفي الحرب.

108-قل إنما يوحى إلي ...فهل أنتم مسلمون.

تعتبر هذه الآية فذلكة لما بسط في السورة كلهـا، وإعـلان للقطـب الـذي يـدور عليـه كل ما جاء فيها. قل لهم يا محمد: إن الوحي الذي أتلقـاه مـن ربـي محصـور ومنطلـق ويعود إلى الحقيقة الكبرى: أن إلهكـم واحـد لا يمكـن أن يشـاركه أحـد فـي ألوهيتـه .وهو ما يفيد أن كل ما أوحي إلى النبي ﷺ يخدم هذه الحقيقـة التـي هـي مفتـاح الهـدى والمرجع الذي يقام عليه بناء الـدين الإسـلامي. فـي أمـور العقيـدة والتشـريع. وهـذه الحقيقة تقرها الفطرة السليمة، ويحكم بها العقـل. إنـه لـيس لكـم أي حجـة ولا شـبهة تعاكس الوحدانية، فقد آن الأوان أن تسـلموا وجـوهكم لله وأن تعترفـوا لـه بالوحدانيـة. فما لكم لم تسلموا حتى الآن.

109- فإن تولوا فقل ...أم بعيد ما توعدون.

تَمَّ التحريض على رفض الشرك ودعوتهم ليدخلوا في الإسـلام. فـإن هـم تمـادوا علـى الشرك ولم ينصاعوا للوحدانية، وتولـوا معرضـين عـن دعائـك لهـم، فتحـول مـن البيان إلى الإنذار، وقل لهم: إنـي أعلمكـم جميعـا محـذرا لكـم، ببلـغ هـذا الإعـلام المحذّر كل فرد منكم على مرتبة سـواء بمـا يترصـدكم مـن عـذاب الـدنيا والآخـرة . ولا تسألوني متى ينفذ الوعيد، ذلـك أن الله لـم يطلعنـي علـى وقـت تسـليطه علـيكم. يحتمل أن يكون ميعاده قريبا ويحتمل أن يكون بعيدا.

110-إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون .

إنه سبحانه واسع العلم يستوي علمه بما تظهرونـه مـن أقـوالكم، وبمـا تكتمونـه منهـا في صدوركم ولا تنطقون به . أمرني أن أعلمكم بمـا قـدره لكـم فـي مسـتقبل أمـركم، ولم يعلمني بأجله . فهو وحده المتفرد بالعلم المطلـق الشـامل. ومـا كـان لـي أن أتزيـد أو أنقص شيئا مما أوحاه إلي .

111- وإن أدري لعله...إلى حين .

وكما تفرد الله بالعلم المحيط، فإنه هو الحكـيم الكامـل فـي حكمتـه، فـإن عجـل لكـم العذاب فهو من عدله وحكمتـه، وإن أخـره فهـو أيضـا مـن عدلـه وحكمتـه . فلعـل تأخير العذاب عنكم هو إمهال لكم لتنغمسوا في الفتنـة، فيكـون مـا يقضـي بـه علـيكم

واضح المطابقة بين تمردكم وعقوبتكم. ويكون في إمهالكم ما تتمكنون من الانتفاع بما بين أيديكم من منافع الدنيا. إلى أمد قصير.

112- قل رب احكم بالحق....المستعان على ما تصفون.

تختم السورة بأمر النبي ﷺ أن يعلن للناس جميعا يقينه الأيقن بأنه على الحق، وأن الذين رفضوا دعوته سائرون في طريق الباطل والضلال. ولذلك أمره بأن يتوجه بالدعاء إلى ربه. مضمون هذا الدعاء :رب احكم بيننا وبين المعاندين حكما ملتبسا بالحق، حكما يظهر الدين ويهزم الكافرين ويخضد شوكتهم، ويفرق كلمتهم، ويذل كبرياءهم، حتى يعلو الحق الذي كلفتني إبلاغه والدعوة إليه. إن في هذه الخاتمة ما يرشد المؤمنين للالتجاء إلى الله إذا ضاقت بهم السبل، وتمرد الباطل واستشرى فساده ؛ إن الدعاء مظهر من قوة العزيمة في نفس الداعي، وعمق الإيمان الواثق بأن الله مع المؤمنين ينصرهم ويثبّتهم ويمهد لهم الأسباب الموفقة للنجح والنصر.

وربنا الذي شرفنا بالانتساب إليه، هو الرافض لكم كما رفضتم توحيده، هو الرحمن الذي نفيتم هذا الاسم الشريف عنه، هو الذي نطلب منه وحده العون ولا نستعين بغيره على إبطال ما تصفونه بألسنتكم من الافتراء عليه ومن الكيد للإسلام.

أكملت تفسير سورة الأنبياء ظهر يوم الثلاثاء 15 رجب 1433- 5جوان2011 نسأله سبحانه وهو ولي الحمد أن يتقبل مني ما هداني إليه من إبلاغ معاني كتابه، وأن يعينني على إكماله.

سـورة الحج

هذا هو الاسم الذي اتفق القراء والمفسرون علـى تسـمية السـورة بـه. ووجـه تسـميتها بسورة الحج: أن الله ذكر فيها أمره لإبراهيم ﷺ بالـدعوة إلـى حـج بيـت الله الحـرام، وذكر بعض مناسكه، وما فيه من المنافع والفضائل حثا عليه وتنويها به.

والراجح أنها نزلت في فترات عديدة، وأوضـاع مختلفـة. يقـول القرطبـي: وهـي مـن أعاجيب السّـور، نزلـت لـيلا ونهـارا، وسـفرا وحضـرا، مكيـا ومـدنيا، سـلميا وحربيا، ناسخا ومنسوخا. محكما ومتشـابها. - ج12ص-1- ولا يتعـين مـا هـو منهـا مكي ولا ما هو مدني. وعنـد البقـاعي وابـن النـديم أنهـا نزلـت بعـد النـور وقبـل المنافقون. وهما سورتان مدنيتان .فلعلهما اقتنعا بـأن معظـم السـورة نـزل فـي المدينـة بين هاتين السورتين. فألحقا الأقلّ بـالأكثر. ولـذا عـدت فـي روايـة جـابر بـن زيـد الخامسة والمائة. وهي السورة الثانية والعشرون حسب ترتيب المصحف الشريف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الزلزلة : اهتزاز عنيف فـي ناحيـة مـن الأرض، علـى نسـبة قوتـه تتهـدم المبـاني وربما ابتلعت الأرض بعض ما كان على سطحها .

الساعة : شاع استعمالها في القرآن على وقت فناء الدنيا.

العظيم : قوي شديد.

الذهول : نسيان ما شأنه أن لا ينسى.

المجادلة : المخاصمة والمحاجة بالباطل.

يتبع كل شيطان: ينقاد لوسوسة كل شيطان.

مريد : بلغ الغاية في التضليل، فتجرد من الخير إلى الشر.

كتب: ثبت ولزم.

تولاه :اتخذه نصيرا.

بيان المعنى الإجمالي :

ينادي القرآن الناس ليستعدوا بـــالتقوى التـــي تكـــون حصـــنا لهـــم مـــن أهـــوال زلـــزال الأرض عند ساعة انتهاء الكون. إنـــه يـــأتي علـــى جميـــع مكونـــات الأرض، فيخلخلهـــا ويفسدها. إنه شيء يفوق الوصـــف فاحـــذروا أهوالـــه بتقـــوى ربكـــم، بـــالتزام طاعتـــه، والابتعاد عن عصيانه . ثم إن القرآن جسم أهول زلـــزال الســـاعة بعـــرض مظـــاهر تـــدل على ما وراءها. يبلغ الهول بالمرضعة التـــي ضـــمت وليـــدها إلـــى صـــدرها وقـــد الـــتقم ثديها وهي تنظر إليه حانية، فبقيـــام الســـاعة يـــذوب كـــل ذلـــك الإحســـاس والحـــرص وتذهل أن وليدها على صدرها. وكل امرأة حامل تســـقط جنينهـــا لضـــعف أجهزتهـــا عـــن تحمل الزلزال. بل إن كل من تتصور منه الرؤيـــة يشـــاهد النـــاس وقـــد فقـــدوا قـــدراتهم العقلية كأنهم سكارى وليسوا بسكارى. ولكن عـــذاب الله المصـــاحب لقيـــام الســـاعة شـــديد على الأنفس فوق الطاقة العادية لهم.

كان الناس إثر هذا التحذير البليغ، على صنفين: صـــنف رجـــع إلـــى ربـــه وســـار فـــي طريق الخير والصلاح. وصنف أخذ يغـــالط ويحـــتج علـــى باطلـــه مـــن إنكـــاره للقـــدرة الإلهية والبعث والجـــزاء ، ويخـــدع بفصـــاحته المغفلـــين، متبعـــا كـــل شـــيطان شـــديد الخبث يوسوس لـــه مـــن الجـــن والإنـــس. أوجـــب الله، تبعـــا لطبيعـــة ذلـــك الشـــيطان الشريرة، أن كل من يسلك ما زينه، فإنه يسير بـــه فـــي طريـــق الضـــلال ويحبـــب لـــه الشر فيألفه، حتى يظن نفسه سائرا فـــي طريـــق الهـــدى، فيجـــد النهايـــة التـــي تبتلعـــه عذاب جهنم المستعرة نارها.

بيان المعنى العام:

1-يا أيها الناس اتقوا...شيء عظيم.

نداء من الله رب النـــاس ينـــبههم ويـــوقظهم مـــن غفلـــتهم. ويـــدعوهم إلـــى الاســـتعداد بتحصين أنفسهم من أهوال يوم القيامة. بـــأمرهم بـــالتقوى والخـــوف منـــه الخـــوف الـــذي يزيدهم قربا منه بطاعته فيما أمر، وترك ما نهـــى عنـــه، والحـــذر مـــن الشـــبهات التـــي يطوع بها الشيطان الإنسان للوقوع في الخطيئة.

والتقوى في هذه الفاتحة ارتبطت بلفظ الرب، بما يوحي إليه لفظ الرب من الرفق والعناية بمخلوقاته. فتقوى الله تتحقق باستحضار الإنسان أنه على صلة بالله لا تنقطع، وأنه قريب منه يرقبه، فيستحيي من التهاون بما أمر به، ومن اقتحام ما نهى عنه، ويبتعد عن الشبهات، فمن وقع في الشبهات وقع في الحرام . والضبط الجامع لمفهوم التقوى بينته الآية 177 من سورة البقرة. فلتراجع.

ناسب تعليق التحذير بكلمة " ربكم" أن يقرنه بالسبب الداعي للتقوى فقال: **إن زلزلة الساعة شيء عظيم.** فالارتجاج العميق الذي يحدث في الكون المضاف للساعة، وقت فناء الكون، عندما تُزَلْـزَلُ الأرض زلزالها الذي ينفذ إلى جميع أجزائها فيخلخلها، ويفسد انتظامها. إن هذا الزلزال وإن كان لم يحدث بعد، إلا أن صورته في علم الله محددة واضحة، ولذا عبر عنه بقوله "شيء" إذ الأصل أن كلمة الشيء لا تطلق على المعدوم. استحضر القرآن الزلزال المخرب لنظام العالم بأنه لا يمكن أن يعرف إلا بأنه شيء عظيم، تتجاوز حقيقته المدمرة والمرعبة كل تصوير فتقصر عنه العبارة.

ويمكن حمل الزلزال على بعض أهوال يوم القيامة المفزعة التي لا ينجو منها إلا المؤمنون المتقون.

2-يوم ترونها تذهل كل مرضعة... عذاب الله شديد.

واصل القرآن الكشف عن أهوال هذا اليوم، إن كل من تمكن منه الرؤية سيشاهد آثار الدمار الذي يتجاوز الوصف، كما يسمع الأصوات المصاحبة للزلزال. ومن المظاهر المعبرة عن ضخامة ذلك أن كل من هي بصدد إرضاع وليدها وقد احتضنته والتقم ثديها، وهذا من أبلغ صور الامتزاج والحنان، في وقت الزلزال تذهل عن رضيعها، إذ يبلغ تأثير هول المشهد أنه يستولي على مداركها فتنشغل عن أشد الناس تعلقا به وشفقة عليه .وإذا كان الذهول يحصل من المرضعة عن رضيعها فجميع العلائق الأخرى لا يُبقي الهلع لها أي أثر.

ثم جسم المشهد من ناحية تأثيره على القوى، فبين أنه أقوى من قدرات الإنسان فالحامل ترتج ارتجاجا تسقط به حملها، وإذا كان علوق الحمل بالأم علوقا شديدا يمتزج برحمها، فغير ذلك مما يمكله الإنسان أولى بالضياع من دون شعور به.

ثم عمم القرآن مبالغة في تجسيم الأهوال، أن كل الناس تأخذهم الأهوال فينصرفون عن أنفسهم، انصرافا يفقدهم تصور كل ما حولهم تصورا صحيحا، هم كمن أخذ الخمر بعقله فأخرجه من تصور الواقع كما هو إلى تصورات خيالية. إنه في ظاهرهم سكارى، ولكنهم غير واقعين تحت تأثير الخمر بل هم في فزع من عذاب

الله بالزلزال في الدنيا إن حملنا الساعة على آخر زمـــان الحيـــاة الـــدنيا، أو مـــن عـــذاب الله يوم القيامة وقد بدت مقدمات المآل المرعب للمحشورين الظالمين.

3-ومن الناس من يجادل...شيطان مريد.

بعد هذا الكشف الذي يهدف إلى إيقاظ الناس من غفلـــتهم ليقبلـــوا علـــى ربهـــم، اســـتيقظ فريق، وفريق آخر جعل همه في تضـــليل النـــاس، وتركيـــب الحجـــج الموهومـــة التـــي تخدع العقل، ويغطي باطلَها بيانٌ لفظي خاوٍ يـــذهل الســـامع الغِـــرّ ؛ فيشـــكك فـــي قـــدرة الله على البعث، وقيام الناس من قبورهم. ومن عيبه أنـــه جاهـــل لا يســـتند إلـــى معرفـــة ويقين، وهو ليس بمجتهد ولكنه مقلد لكل شيطان مـــن الإنـــس أو الجـــن، يوســـوس لـــه فتميل نفسه إلى تلك الوسوسة الباطلة فيعتقدها.

4-كتب عليه أنه من تولاه ...إلى عذاب السعير.

كشفت الآية عن حقيقة المتبـــوع: الشـــيطان المريـــد مـــن ناحيـــة تـــأثيره فـــيمن يتبعـــه. فحققت أن الشيطان، قد وجب عليه تبعا لطبيعته المبنيـــة علـــى الفســـاد وعلـــى الضـــلال، أنه أي الشيطان يأخذ من حالفه وانتصر به، فيصـــرف كـــل مكـــره فـــي إضـــلال ذلـــك التابع، فيزين له الباطل ويؤلف بينه وبينـــه حتـــى يرتضـــيه، ويقلـــب ســـلم القـــيم فـــي نظره فيتصور الحـــق بـــاطلا والباطـــل حقـــا، فيســـلك بـــه طريـــق الفســـاد متوهمـــا أن الشيطان يهديه . ولكن أي هداية ؟هي هداية إلى المآل الخاســـر، يصـــل بـــه إلـــى عـــذاب السعير. وهي صدمة أبرزها القرآن فـــي صـــورة الـــتهكم، مـــن كـــان يأمـــل أن يفـــوز بالنجح فإذا هو ملقى في عذاب جهنم المستعرة نارها .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّنَ ٱلۡبَعۡثِ فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٖ مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ وَنُقِرُّ فِي ٱلۡأَرۡحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ نُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرۡذَلِ ٱلۡعُمُرِ لِكَيۡلَا يَعۡلَمَ مِنۢ بَعۡدِ عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۝٥ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٦ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ ۝٧

بيان معاني الألفاظ :

أجل مسمى: أجل معين.

أرذل العمر : الهرم والخرف.

هامدة : جافة لا نبات فيها.

اهتزت : تحركت

ربت : ارتفعت.

الزوج : الصنف.

بهيج : السار للنظر.

الحق : الثابت الذي لا مراء فيه

بيان المعنى الإجمالي :

استبعد المشركون البعث مقدرين صعوبة إحياء الأجساد بعد أن تحولت إلى تراب، فناداهم ليوقظهم إلى حقيقة هي تحت أبصارهم، أن أصل خلقة الإنسان هي من تحول مواد الأرض عبر هضم منتجاتها من الزروع والبقول واللحوم والألبان، ودخولها في كل جهاز من أجهزة الجسم، مما تولد منه الخلية الأولى للإنسان "النطفة " ثم تكاثرت الخلايا ملتحمة وتعلقت بجدار الرحم فكانت منها العلقة، ونمت العلقة، وتحولت إلى مضغة خطط فيها جميع خصائص ذلك الإنسان وإن كانت غير واضحة، وفي ظاهرها لا تختلف مضغة عن مضغة فتبدو وكأنها قطعة من لحم لا اختصاص فيها. فعبر عنها بأنها غير مخلقة. عرضنا عليكم هذا التفصيل لنبين لكم مظاهر قدرتنا. ثم بعد ذلك يبقى هذا الكائن في الرحم الذي يحتضنه ويمده بالوريد السُرِّى يتغذى منه وينمو من دم الأم إلى الأجل المحدد لخروجه من ذلكم المحضن في شكل إنسان طفل. وينمو الطفل شيئا فشيئا حتى تبلغ قواه العقلية والجسمية كمالها، وهو لا يملك من أمره شيئا بل يتبع ما قدر له في الأزل، قد يسرع إليه الموت وقد يرخى له في أجله، وقد يصل إلى الوهن في الجسم والخرف في العقل، فتمَّحي قدراته العقلية وما اختزنه فيها .

ثم لفتت الآية الأنظار إلى وجه الأرض في حال استيلاء الجفاف عليها والتحجر، يبدو أنها لا حراك بها. وفي اللحظة التي قدرها الباري سبحانه ينزل الماء من السماء، فإذا هي تتحرك بما ينساب بين أجزاء تربتها من الماء، وما ما ينفلق من الحبوب التي تضرب بعروقها إلى بالباطن وترفع رأسها إلى الهواء والشمس، فتتنوع الثمار والحبوب. وإذا وجه الأرض وقد كسي ببساط مختلف الألوان يبهج النفوس. فسبحان الله أحسن الخالقين.

وبهذا العرض الذي لفتت به الآية الأنظـار لتجـاوز المظهـر إلـى دلالاتـه ومـا وراءه، تعلمون أن الله هو الإله الحق الفاعل في الكون، وأن مـا يدعونـه مـن دونـه زائـف لا حقيقة له ولا تأثير. وأنه سبحانه لما ظهرت قدرتـه فـي إحيـاء الـذات البشـرية بعـد أن دخل في تكوينها العناصـر الأرضـية الميتـة، وإحيـاء الأرض بعـد موتهـا. فقدرتـه عامة شاملة، ومنها نفاذ إرادته في الوقت المحـدد لإفنـاء العـالم، ثـم بعـث الأمـوات جميعهم من قبورهم ليخرجوا للحشر ثم الحساب والجزاء.

بيان المعنى العام :

5-ياأيها الناس إن كنتم في ريب...من كل زوج بهيج.

بعد أن حذر القرآن ونبه، وكشف عن أهـوال السـاعة، وفضـح المشـككين وعـراهم، واصل دعوة الناس لجعل البعـث داخـلا فـي حسـابهم وهـم يباشـرون نشـاطهم فـي الحياة. فأقام من الأدلة المسـتمدة مـن الواقـع التـي يفضـي التأمـل فيهـا إلـى اليقـين بالبعث. افتتحت الآية بنداء الناس، والغالـب فـي الاسـتعمال القرآنـي أن خطـاب "**يـا أيها الناس**" موجه للمشركين. فالآية تخاطـب المشـركين الـذين يُجْهِـدون أنفسـهم فـي إنكار البعث الذي يكدر عليهم لهوهم وشـهواتهم وتجـاوزاتهم. إن الـذي يلجـم الشـهوات عن المضي إلى أبعد مدى، هو الشعور بالبعـث والحسـاب، وإن الـذي يكـبح انطـلاق القوة الغضبية ويحول بينها وبـين التعـدي بـالقول والفعـل هـو الإيمـان بالبعـث، وإن الذي يرافق الإنسان فيقرب بينه وبـين الفضـيلة هـو الإيمـان بالبعـث . فيكـاد يكـون الإيمان بالبعث سائقا لكل لخير ومانعـا مـن كـل شـر. ومـع أن القصـد الغالـب فـي الاستعمال القرآني بيا أيها الناس، المشركين، إلا أنه لا مـانع مـن حمـل النـداء علـى أنه لفت أنظار الناس جميعـا مـؤمنهم وكـافرهم لمظـاهر القـدرة والإحكـام فـي خلـق الإنسان. فلنتتبع هذا العرض الذي لا يعلـم حقيقتـه بصـفة مفصـلة ومعللـة إلا الخـلاق العليم.

أولا: أنكر المشركون والكفرة البعث، وكانـت محـاجتهم مبنيـة علـى أن بعـث النـاس بعد تحلل أجسامهم وانـدماجها فـي التـراب غيـر مقبـول ولا ممكـن. فرفـع القـرآن شبهتهم بلفت أنظارهم إلى ذواتهـم . كـل إنسـان بـالنظر إلـى خلقـه الأول أو بـالنظر لنموه، هو مجموعة من عناصر من التراب. فمـا كـان للحيـوان المنـوي ولا للبييضـة أن يوجد أي واحد منهما لولا العناصر التـي دخلـت فـي تكوينهمـا مـن الغـذاء الـذي اختلط بأجهزة الأبوين. سواء أكان ذلـك ممـا أنبتتـه الأرض أو رعتـه الأنعـام فتحـول إلى لحوم وألبـان، أو مـا اصـطادته الطيـور، أو حيوانـات البحـر. وعـرف اليـوم

بالتحليل مجموعة العناصر الأرضـية مـن حديـد ونحـاس وفسـفور وكبريـت واليـود وماء وغير ذلك التي هي مكونـات كـل ذات بشـرية. إن هـذه العناصـر التـي تتمثلهـا الأجهزة البشرية وتحولها إلى مختلف الصـور حتـى الحيـوان المنـوي والبييضـة هـي من الأرض. كشف العلم التجريبي عن بعض هـذه الحقـائق، التـي أخبـر بهـا القـرآن منذ أكثر من أربعة عشر قرنا، والصادر عمـن وسـع علمـه كـل شـيء، فـي بيئـة ومجتمع ليس بها مدرسـة ولا معهـد علمـي ولا مختبـر ولا جامعـة ولا فِـرَق بحـث علمي، مما ينادي بصدق المنزّل عليـه القـرآن، وبـأن الخلـق مـن التـراب ظـاهرة تتكرر في كل لحظة من عمر الكون ملايين المـرات. ولكـن الجهـل هـو الـذي غطّـى عن إدراكها، فنشأ عنه إنكار تحول التراب إلى مكون من مكونات الحياة.

ذهب كثير من المفسرين إلـى أن قولـه تعـالى: **مـن تـراب** - يشـير إلـى خلـق آدم باعتبار أنه أصل البشر. ولكن الاسـتدلال بـذلك لا يـتم إلا علـى مـن يـؤمن بـأن الله خلق آدم من تراب، فهو فرع التصـديق بـالقرآن. والمنكـرون للبعـث منكـرون للنبـوة وللوحي فلا تقوم به الحجة عليهم. أمَّا دمغُهـم بحقيقـة أن عناصـر التـراب تـدخل فـي تكوين الإنسان منذ بدايته وفـي تطـوره ونمـوه، فباعتبـار أنـه واقـع وحقيقـة علميـة قررتها التجربة، يصدمهم ولا يتوقف صدقه على الإذعان له.

وبهذا يكون ما صدق الآية : إن كنتم في شك من إمكـان البعـث، فـاعلموا أنـه ممكـن إمكانا مساويا لخلقكم من تراب الذي يحدث فيكم منـذ بدايـة وجـودكم وفـي كـل لحظـة من لحظات حياتكم.

وقد أثبت العلم أنه خط في رأس الخلية، البرنـامج الـدقيق الضـابط لكـل جزئيـة مـن جزئيات التكون الفردي من الناحيتين المادية والنفسـية: وهـي الخريطـة المعبـر عنهـا بالجينوم، تاريخ ظهورها والنحـو الـذي تظهـر عليـه. حتـى عـدد شـعرات أهدابـه ولونها وقوتها أو ضعفها وتاريخ سقوط كل واحدة منهـا. وجميـع الصـور التـي تكـون عليها. وهكذا في كتاب محكم أحكمه الخالق العليم .

ثانيا : أن التراب الذي هو أصل الخلق المادي، لم يصـل إلـى مسـتوى الخليـة الأولـى إلا بعد أن مر بمراحل، من هضم ما تولد منه ثم توزيعه علـى كـل جهـاز مـن أجهـزة الجسم لتأخذ منه ما هي في حاجة إليه، كـالمبيض عنـد المـرأة الـذي تفـرز منـه فـي كل دورة بييضة أو أكثر، والأجهزة المعقدة للمنـي الـذي يحتـوي مـا يفـرزه الرجـل على عدد كبيـر جـدا مـن الحيوانـات الذكريـة، فيلـتحم أحـدها بالبييضـة ويلقحهـا، فتتكون من ذلك خلية تامـة التكـوين مـن سـتة وأربعـين كروموزومـا، نصـفها مـن البييضة ونصفها الآخر من الحيوان المنوي. ثـم تنمـو بالانقسـام وتأخـذ طريقهـا عبـر

قناة فالوب لتعلق بالرحم .وهذه هـي النطفـة التـي أصـلها خليـة واحـدة حيـة، ثـم تكاثرت إلى خلايا متناسقة تكون وحدة متلاصقة .

ثالثا: تَعْلق المجموعة الأولى مـن الخلايـا بجـدار الـرحم، فيـأنس بهـا ولا يرفضـها ويمدها بالغذاء فتنمو في ذلك المحضن.

رابعا: تنمو العلقة بالتكاثر والانقسام المتواصـل إلـى أن تتكـون منهـا قطعـة طولهـا ما بين اثني عشر وبين أربعة عشر. عبـر عنهـا القـرآن بالمضـغة تجسـيما لتقـديرها بما يمكن أن يمضغ مثلها. هي في بداية الطور إن نظرت إلـى مـا خـط فيهـا ممـا هـو كامن في الجينوم البشري وهي تتطـور حسـب المسـار الثابـت مـن أول يـوم، فهـي مخلقة أي لها ميزاتها وخصائصها الخلقية المتفـردة التـي تتقـوم بهـا كـل ذات بشـرية. ولذا عبر عنها القرآن بقوله: مخلقة.

وإن نظرت إلى ظاهرها، تجدها لا تنبئ عـن خصـائص خلقيـة بمـا تختلـف بـه ذات عن ذات أخرى فهي غير مخلقة .وهو معنى قوله تعالى: **مخلقة وغير مخلقة** .

يقف القرآن في هذا المقطع ليذكر بأن القصد: هو أن نبـين لكـم مـا خفـي علـيكم مـن مظاهر القدرة والتصرف الحكيم الذي يتجاوز مستواكم المعرفي.

خامسا: بعد هذا الطور ينمـو الجنـين وتـزداد علاقتـه قـوة بـالأم، ويظهـر الوريـد السري الذي يتغذى بواسطته من دم الأم المؤكسد. وهـذه مرحلـة تتواصـل إلـى الأجـل الذي قدره سبحانه لبقائه في بطن الأم. الغالب أنه نحـو تسـعة أشـهر، وقـد يـنقص أو يزيد .

سادسا : تلك الأطوار المتتابعة التي بلغت بالجنين وقت انفصـاله عـن أمـه، ينفـذ فيـه إثر ذلك التقدير الإلهي فيخرجه من محضـنه الـذي آواه المـدة المقـدرة فـي علـم الله . هو طفل في أول مراحل الحياة المستقلة يتفاعل مع الهواء والبيئة التي تحيط به.

إن بين الطفولة الباكرة التي لا يسـتقل فيهـا المولـود بـأمور حياتـه إلا مـا كـان مـن الفطرة كاستنشاق الهواء، والتقام الثدي، والحركة الضـعيفة، وبـين بلوغـه قمـة قوتـه البدنية والنفسية والعقليـة المعبـر عنهـا ببلـوغ الأشـد مراحـل وتطـورات وتجـارب وتربية أحاطتها ألطاف إلهية، وذلك هو الغاية مـن خلـق الإنسـان ليقـوم برسـالته فـي الكون الذي استُخلِفَ فيـه، وليحقـق العمـران فـي أرض الله. وفـي ذلـك إيمـاء إلـى مسؤولية الإنسان وتكليفه الذي هو غايـة الخلـق، والـذي لا تظهـر آثـاره إلا بالبعـث بعد الموت . ذلك أن الحكمة الإلهية اقتضت أن لا يكـون الإنسـان مُلْجَـأً بإدراكـه حتمـا نتائج أفعاله بمجرد ما يقوم بها، بل يمضـي فـي الحيـاة، ولكـل فـرد نصـيبه مـن

الاستقامة أو الضلال، دون أن تظهر آثار فعل الخيـر وجوبـا، ولا آثـار فعـل الشـر حتما، والبعث هو المُظْهِر للمسؤولية التي هي شرف الإنسان في الوجود .

وأردف القرآن ما يدل على التصرف الإلهي، فأبان أن تلكـم الأطـوار التـي يمـر بهـا الوليد إلى بلوغه كمال قوته ليست حتمية، ولكـن التقـدير الإلهـي السـابق فـي علـم الله ينفذ فيبلغ البعض ذلك المستوى، وقد يمـوت فـي مرحلـة مـن مراحـل نمـوه، وقـد يتجاوز القوة وينحدر إلـى الضـعف شـيئا فشـيئا إلـى أن يصـل إلـى أرذل العمـر، فيخسر شيئا فشيئا قواه البدنية، وقواه العقليـة، ومـا تـزال الـذاكرة تضـعف ويتسـاقط منها ما كان مخطوطا فيها، حتى تنقلـب إلـى صـفحة بيضـاء كأنهـا لـم تعلـم شـيئا. فيخرج من طور التكليف الشريف إلى طور أقرب ما يكـون إلـى الحيوانيـة. وقـد كـان النبي ﷺ يستعيذ من بلـوغ أرذل العمـر. روى البخـاري بسـنده إلـى سـعد بـن أبـي وقاص ﷺ (كان يأمر بهؤلاء الخمس ويخبرهن عن النبـي ﷺ: اللهـم إنـي أعـوذ بـك من البخل، وأعوذ بك من الجبن، وأعـوذ بـك أن أرد إلـى أرذل العمـر، وأعـوذ بـك من فتنة الدنيا، وأعوذ بك من عذاب القبر)[1]

إن مراحل وجود الإنسان بناء وهدم، وحياة ومـوت، تنفعـل بهمـا أجهزتـه دون علـم ولا إرادة منه. كل ذلك يقـوم شـاهدا علـى خضـوعه للتـدبير الإلهـي، وعلـى كـون البعث حقيقة لا ينبغي أن يشك فيها. فظهر بهذه السلسلة فـي التقلبـات التـي لفتـت إليهـا الآية خضوع الإنسان للقدرة الإلهية من ناحيـة، وإمكانيـة البعـث مـن ناحيـة أخـرى. فقامت دليلا محققا لقوله تعالى فـي فاتحتهـا: **وإن كنـتم فـي ريـب مـن البعـث فإنـا خلقناكم.....**

ثم قرن القرآن الدليل الأول على البعث المستند إلـى تطـورات خلـق الإنسـان، وكثيـر من المراحل لم يكشف العلم عن حقيقتها وقـت نـزول الـوحي، قـرن ذلـك بمـا هـو ظاهر للناس جميعا، وهو النظر في الأرض. فخاطب كل مـن تصـح منـه الرؤيـة فـي وقت نزول الآية ليلفت الانتباه إلى مشهد يراه كـل مبصـر، ويغفـل كثيـر مـنهم عـن دلالات ما يبصره، فيقف عند حد الإحساس الحيـواني، ولا ينطلـق بقـواه العقليـة إلـى ما وراء ما يبصره. المشهد المتكرر هو وضع الأرض في حالتين:

الحالة الأولى: الأرض جرداء جفت كـل رطوبـة كانـت تخللتهـا مـن قبـل فالتحمـت التربة ببعضها وأصبحت يابسة متحجرة لا يرى أثر للحياة على سطحها.

[1] فتح الباري ج 13ص433

الحالة الثانية: هي الأرض ذاتها، وقد ساق الله بفضـــله إليهـــا ســـحبا درت عليهـــا بالمـــاء الذي روّاها فنفذ إلى باطنها وتخلل التربـــة وحبـــات الرمـــل، فعـــلا ســـطحها، وتحركـــت بمسالك الماء الذي جرى في باطنهـــا، ثـــم أخـــذت النباتـــات تكســـو ســـطحها بمختلـــف الأصناف والأنواع، الجامعة بين النفع للأحياء وبين جمال المنظر.

6←7-ذلك بأن الله هو الحق ...يبعث من في القبور.

تنعطف الآية على كل ما تقدم مبرزة وجه دلالته علـــى البعـــث. أتـــي بـــالأداة الرابطـــة: اسم الإشارة " ذلك "ليستحضر التالي كل ما تقدم مـــن قولـــه: "**يـــا أيهـــا النـــاس إن كنـــتم في ريب من البعث**" إلى قوله: "**زوج بهيج** " ما أحكمتـــه يـــد القـــدرة فجعلتـــه يســـير فـــي نسق لا يلحقه اختلال من أطوار الإنسان ومن التحـــول فـــي ســـطح الأرض بعـــد نـــزول الماء .كل ذلك يقوم دليلا مثبتا أن الله هو الإله الحق وأن كـــل مـــن نســـبت لـــه الألوهيـــة زائف لا حقيقة له. إنه لا ألوهية لمن لا تخضـــع لـــه الكائنـــات فيوجـــدها حســـب تقـــدير محكم، ويطورها حسب تقدير محكـــم، ويهـــدمها كـــذلك. وقـــد ظهـــرت آثـــار ألوهيتـــه سبحانه في خلق الإنسان وتطـــوره فـــي مراحلـــه، وفـــي إحيـــاء الأرض بعـــد جـــدبها، وتزيينها بمتنوع النباتات. وإذا كانـــت قدرتـــه ســـبحانه قـــد أشـــرقت فـــي تحـــول المـــادة الميتة المتمثلة في العناصر الأرضـــية شـــيئا فشـــيئا إلـــى إنســـان، وفـــي قدرتـــه علـــى إحياء الأرض الميتة فإن ذلك يقوم شاهدا على أنه سيحيي الموتى لثلاثة أمور:

أولا : أن الله أخبر بذلك وقوله صدق.

ثانيا: أننا شاهدنا الإنسان يكتمل شـــيئا فشـــيئا ثـــم يتراجـــع إلـــى الـــوهن فالاضـــمحلال، وخَلْقُ الإنسان الأول لما أدخل الجنة كان فيـــه اســـتعداد لمواصـــلة طريقـــه فـــي الحيـــاة. وأنه لما أخرج من الجنة وكتبت له حياة أرضـــية تنتهـــي بـــالموت والفنـــاء، فإنـــه مـــن المعقول أن يجبر هذا النقص الذي لحقه ببعثه في حياة متواصلة.

ثالثا: أن شرف الإنسان يبدو فـــي تميـــزه بكونـــه مكلفـــا مســـؤولا، ولمـــا كانـــت آثـــار المسؤولية لا تظهر دائمـــا فـــي الحيـــاة الـــدنيا، فإنـــه يكـــون البعـــث والجـــزاء مكمـــلا للتكليف. إذ تكليف بلا حساب عبث.

و كما أحيى العناصر الأرضية بدخولها في تكون العناصـــر التـــي تكونـــت منهـــا النطفـــة وما تبعها، وكما أحيى الأرض الميتة، فـــإن ذلـــك دليـــل علـــى أنـــه لا يعجـــزه إحيـــاء الأموات بعد موتهم. وهو دليل أيضا على كمال القـــدرة التـــي لا يعجزهـــا شـــيء. فأنـــت إذا تأملت في العناصر الأرضية وكيف توزعت فـــي جســـم الإنســـان ليأخـــذ كـــل جـــزء مهما ضؤل ما يحتاج إليه من تلكم العناصر، ثم كيف ينمـــو ويأخـــذ شـــكله الخـــاص بـــه دون أن يستطيع تغيير أي شـــيء فـــي المســـار الـــذي قـــدره رب العـــالمين، كـــل ذلـــك

وغيره مما يقوم شاهدا مناديا بأن الله على كل شيء قدير . ومن كمال قدرته أن فناء العالم المعبر عنه بالساعة بيده، موقت بأجل لا يتأخر ولا يتقدم، أخبر أنه سيتحقق تحققا لا شك فيه ولا ريب. وأن أمر الساعة وحلولها هو لغاية قدرها رب العزة ليبعث كل الأموات ليخرجوا إلى المحشر ثم إلى الحساب فالجزاء.....

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ﴿٨﴾ ثَانِيَ عِطۡفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۖ لَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ﴿٩﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿١٠﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ﴿١١﴾ يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلۡبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدۡعُواْ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقۡرَبُ مِن نَّفۡعِهِۦۚ لَبِئۡسَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَلَبِئۡسَ ٱلۡعَشِيرُ ﴿١٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الكتاب المنير: الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل.

المنير : المظهر للحق كالمصباح .

ثاني عطفه : لاويا جانبه، تمثيل للتكبر والخيلاء .

سبيل الله: دينه.

خزي الدنيا : الإهانة.

قدمت يداك : ما قمت به في حياتك الدنيا.

يعبد الله على حرف : تمثيل لعدم الثبات وفقدان الطمأنينة.

الفتنة : اضطراب الحال .

الخسران : أصله نقصان رأس المال.

مبين : غير خاف.

بيان المعنى الإجمالي :

ما أقامته الآية من حجج وبيان، كان أثره في الناس مختلفا. فمنهم من اهتدى، ومنهم من انتصب مجادلا نافيا ما لله من سلطان ومحاسبة للناس عن أعمالهم يوم القيامة. يجادل وهو منصف بالجهل مبتعد عن طريق الهداية، وليس له كتاب يضيء الحقيقة ويكشفها يرجع إليه، فهو سائر في ظلمات من الجهل والغواية

منقطع عن وحي الله . ومن ملامحه أنــه قــد أبطــره الكبــر والاســتعلاء، فهــو يمشــي منحرفا عن الناس لا ينظر إليهم. همه أن يخرج بأتباعــه مــن الهــدى إلــى الضــلال. إن ما يترصده: أن الله قدر له المهانة والذل في الحياة الدنيا، وقــدر لــه فــي الآخــرة عــذاب جهنم يحترق بنارها، نكاية فيــه يقــال لــه : ذلــك العــذاب العظــيم هــو مــا أعددتــه لآخرتك بعملك. وهو جزاء عادل فإن الله لا يظلم الناس مثقال ذرة إذ هم عبيده.
ونمط آخر من الذين لم يدخل الإيمان في قلــوبهم دخــولا يكســبهم الطمأنينــة ويســتندون إليه في جميع أحوالهم، واعتبــروا الإســلام تجربــة مربوطــة بنتائجهــا القريبــة، هــم يسيرون فيــه متقلقلــين غيــر ثــابتين، فــإن نجحــت أمــورهم الاقتصــادية واســتقامت صحتهم، وتتابعت علــيهم الخيــرات اعتبــروا دخــولهم فــي الإســلام تجربــة ناجحــة واطمأنت نفوسهم بــه . وفــي المقابــل إن اضــطربت أحــوالهم فكســدت تجــارتهم، أو أصيبوا في صحتهم أو في ذريــتهم تطيــروا بالإســلام واعتبــروا دخــولهم فيــه جالــبَ تعاسة، فأصبح وضعهم كمن انكب على وجهه فتوقــف عــن الســير وأحــاط بــه اليــأس وعمي عليه ما هو أمامه . أتلف الخيــر الــذي تحصــل عليــه بالإيمــان . خســر خيــر الدنيا وخير الآخرة. ومــن خســرهما فخســرانه أبــين خســران لا يخفــى علــى أحــد. وتُعَمِّق الآية قبح الوضع الذي انتهى إليــه، أن ينــادي ويســتغيث بأصــنام، عــوض أن يستغيث بالقــادر الفاعــل الله رب العــالمين، مــع أنهــا لا تســتطيع ضــره ولا نفعــه. وعندما يتسفل الإنسان فيصل إلى هذا الحد يكون ضــل ضــلالا كبيــرا. عجــب لــه هــو يدعو من يلحقه منه الضر بصفة أقرب من لحاق النفــع . ومــن ينتصــر بمــن لا يلحقــه منه إلا الضر فقد انتصر بأسوأ نصير، وعاشر أسوأ خليل.

بيان المعنى العام :

8- ومن الناس من يجادل...ولا كتاب منير.

بعد أن لفت القرآن الأنظار إلى ما يدل عليــه خلــق الإنســان والتصــرف فــي مراحــل تطوره، وإحياء الأرض بعــد موتهــا، وبــين وأزال الريــب، وقطــع مــع الشــبهات التي تغطي على الحقيقة، كشف إثر ذلــك أن النــاس فــي انتفــاعهم مــن ذلكــم البيــان كانوا على قسمين :

أ-بعضهم أخذ يصوغ كلاما يدفع به ما اســتبان مــن الحــق، محــاولا اســتبعاد البعــث بل نفيه وإقناع الأتباع باســتحالته ليواصــلوا تحكمهــم فــيهم وتكثيــر صــف الرافضــين للإسلام. هم يجادلون في حقيقة الألوهيــة المتصــفة بالقــدرة علــى كــل شــيء. إنهــم لا يستندون إلى علم ثابت، كلامهم مناقض لمقتضــيات العقــل. ولا هــو مصــبوغ بصــبغة

الهداية إلى طريق الرشد بل هو موغل فـي الضـلال، ولا هـو يعتمـد كتـاب شـريعة منزل من عند الله ينير الحق ويُقْنِعُ به، ويساعد على سلوكه.

ذهب بعض المفسرين إلى أن الآية تفضح بعـض رؤوس الكفـر وقـادة الضـلال فـي العهد المكي كالنضر بن الحارث وأبي جهل والأخنس بـن شـريق وهـي خاصـة لهـم . والأصح أنها تتناول هؤلاء تناولا أوليا، وتتناول كل من هـم علـى شـاكلتهم فـي عهـد النبوة وما يتلوه. وعدد غير قليل ممـن أبهـرتم الحضـارة الماديـة ممـن كـان آبـاؤهم ينتسبون إلى الإسلام، تجد الآية تنطبق عليهم.

9- ثاني عطفه ليضل ..عذاب الحريق.

واصلت هذه الآية عرض ملامح بعـض النـاس المجـادلين بغيـر حـق، فـذكرت مـن هيآتهم الخارجية ما يعبر عما شُـحِنت بـه نفوسـهم مـن كبـر، وثنـي العطـف ميـل الجانب في السعي تكبـرا وخـيلاء، فهـو لا يواجـه الآخـرين بـالنظر إلـيهم، ويمـر معرضا عنهم .

إنه يجادل قاصدا إضلال الناس، والخـروج بهـم مـن المـنهج الواضـح الـذي يفيـدهم طمأنينة وإدراكـا للحـق، إلـى الشـك والـرفض وفوضـى الحيـاة والعلاقـات. ومـن الإيمان إلى الكفر، ومن السبيل المبلغ لرضوان الله، إلى مـا يقطـع الصـلة بـه ويلقـي به في الضياع.

10- ذلك بما قدمت يداك....بظلام للعبيد.

ويأتي الوعيد الذي هم أحرياء به، وعيد سيتحقق فـي الـدنيا وفـي الآخـرة . أمـا فـي الدنيا فستنقلب أوضاعهم إلى منازل الهـوان والذلـة .وذلـك بانتصـار الإسـلام وانفـراط الناس من حولهم، وظهور بطـلان جـدلهم. وبالنسـبة لـرؤوس الشـرك المكيـين مـن أسرهم وقتلهم كما تم يوم بدر. وأما في الآخـرة فسـيلقون جميعـا أشـد عـذاب، عـذاب الاحتراق بالنار. ويقال لهم نكاية فيهم: ذلك العـذاب العظـيم فـي جهـنم قـد قـدمتم لـه بسعيكم وأعددتموه لأنفسكم، فخذوا ما قـدمتم وتقبلـوا مـا أعـددتم. وعبـر بقولـه:" **مـا قدمت يداك**" تجسيما للعدل الإلهي فيهم، فهـم أعـدوا هـذا الجـزاء بمـا اكتسـبوه فـي الدنيا من التضليل والجدال بالباطل.

و ينعطف على كل ما تقدم التذكير بحقيقة: أن البشـر كلهـم عبيـد الله مملوكـون لـه، لا يرضى لهم الكفر ولا الضلال. فهـو لا يظلمهـم ولـو مثقـال ذرة. ولمـا كـان سـبحانه مالكا لهم، مصرحا بأنهم عبيده، نفى ظلمهم علـى صـيغة المبالغـة – ظـلام – إذ أقـل الظلم على مملوكيه منفي بصيغة المبالغة .

11-ومن الناس من يجادل ....الخسران المبين

ب – نمط آخر من الناس، هؤلاء لا يجادلون، لكــنهم دخلــوا فــي الإســلام ليخضــعوا تجربتهم إلى ما يكشف عنه المستقبل، مقدرين أنه إن اســتقامت لهــم أمــور دنيــاهم فقــد أصابوا الدين الحق، وإن أصــيبوا فــي أبــدانهم أو أمــوالهم أو أهلــيهم تطيــروا بالــدين الإسلامي وجعلوه سبب البلايا التي أصيبوا بهــا. هــم غيــر ثــابتين ولا مطمئنــين مــثلهم كمثل الذي يمشي على طــرف شــيء مرتفــع (علــى حــرف) فهــو متهــيء للســقوط والخروج عن خط المسار الذي يتبعه.

ثم فصلت الآية وَضْعَ هذا السائر على حرف: أنه يعتبر دخوله في الإسلام صفقة في سوق الحياة، فإن استقام البدن، ونفقت التجارة، ودر الضرع، وتكاثرت المواشي، ورُزِق الأولاد والأموال. ثبت على الدين ورأى فيه مؤشر خير، وربط بين الخير الذي لحقه في الدنيا وبين دخوله في الإسلام. وأما إن أصيب في ماله أوفي بدنه أو في عشيرته، ربط ذلك بانتمائه إلى الإسلام الذي كان حسب تصوره سببا في غضب الآلهة التي كان يعبدها ويطلب منها النصر والعون، وأنها خذلته لما انشق عنها. وعبرت الآية عن الوضع الذي آل إليه إثر هذا التصور، بأن شأنه شأن الذي كان يسير قائما فخر على وجهه فلا هو يستطيع السير ولا هو تتضح له رؤية ما يستقبله. ثم أبرز القرآن مآله بأنه ضاع منه خير الدنيا ولا يجد ثوابا في الآخرة ينفعه. ومن فاته خير الدنيا والآخرة معا فخسرانه أوضح خسران وأشهره. وتلفه أعظم تلف .

12- يدعو من دون الله...الضلال البعيد.

يزيد القرآن في تشويه صورته، أنه لمــا أضــاع حظــه مــن خيــري الــدنيا والآخــرة منقلبا على وجهه، أخذ يدعو ويستغيث الأصنام التــي كــان يعبــدها، ومــا أشــد غبــاءه فإن الأصنام التي يستغيث بها عاجزة عن ضــره كمــا هــي عــاجزة عــن نفعــه. وقــدم الضر في الآية على النفع، لأنه مــا تحــول لاسترضــاء الآلهــة إلا لأنــه تــوهم أن مــا أصابه من ضر كان بسبب غضبها عليه، فــداعي التحــول للاســتغاثة بالأصــنام بصــفة أولية هو ما أصابه من ضر فلذلك قدم. ذلك الوضــع الــذي انقلــب عليــه هــو الضــلال البالغ الغاية القصوى منه.

13- يدعو لمن ضره...العشير.

ثم تعمقت الآية كاشفة عن الحاصل لمــن يعبــد الأصــنام فحققــت: أنــه يــدعو وينــادي مستغيثا بمن ضَرُّه أقرب حصولا من نفعه، ممــا يفضــي إلــى أنــه لا يحصــل منــه إلا الضر الأقرب. و بيان ذلك أن المستغيث بالأصنام.

أولا أهلك عقله، بتعلقه بالأوثان التي كل قيمتها ما ألصقه بها خياله، وهي عاجزة عن حفظ نفسها فضلا عن التأثير في غيرها أو التحكم في الكون بدفع مفسدة أو جلب مصلحة .

وثانيا: أنه علق رجاءه بما لا يتصور أن يأتيه منه دفع ضر ولا جلب خير، فكانت آماله آمالا ضائعة فكان الضر أقرب بل لا واقع غيره.

و تختم الآية بتصويره بصورة العاجز الضائع المتخبط في الحبال التي أوثق بها نفسه، لا يصفه من ينظر إليه إلا بقوله: إنه أحاط نفسه بأسوأ نصير، وأسوأ معاشر وخليل.

إِنَّ ٱللَّهَ يُدۡخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٤﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ فَلۡيَنظُرۡ هَلۡ يُذۡهِبَنَّ كَيۡدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٥﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلۡمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡصِلُ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

السبب: الحبل.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآية تبشر المؤمنين الجامعين بين العقيدة الصحيحة والعمل الصالح، بعد أن ذكر القرآن أنماطا من الهالكين ومآلاتهم، تبشرهم بأن عاقبتهم هي الجنة التي تتخللها الأنهار الجارية. لطف بهم وأعانهم على بلوغ الفوز، بما يسر لهم .والله يحقق إرادته لا راد لما قدر وأراد.

و من وصل به تفكيره إلى اليأس من نصر الله لرسوله في الدنيا والآخرة، وامتلأ صدره غيظا على نفسه بإسراعه في إعلان إسلامه، فهذا ليس له دواء للخروج من يأسه وشفاء غيظه إلا أن يمد حبلا إلى أرفع نقطة في السماء ثم يتدلى فيه ويقطعه ليتهشم أو يجعل الحبل في عنقه يختنق به ثم يتدلى فتنقطع أنفاسه، شأنه شأن اليائسين. ومبالغة في التهكم من سخفه يقول القرآن: فلينظر بعد ذلك هل يزيل هذا التدبير غيظه ؟

وعلى هذا النحو من البيان لأنماط النــاس فــي مقابلــة الــدعوة، أنزلنــا آيــات القــرآن واضحة بينة، وأن الله يسعد من يريــد هدايتــه فيشــرح صــدره للإيمــان ويعينــه علــى فعل الخير.

ثم إن الطوائف المختلفة من البشر، مــن المــؤمنين برســالة محمــد ﷺ، ومــن اليهــود، ومن الصابئين، ومن النصارى، ومــن المجــوس، ومــن المشــركين، الكــل ســيقفون يوم القيامة للحساب، فيفصل سبحانه بينهم بــالحق. فالمســلمون ومــن كــان علــى الــدين الذي جاءه من عند الله قبل أن ينسخ، يدخلون الجنــة دار الكرامــة، ومــن عانــد الحــق وتعصب يلقى جزاءه. والله مطلع على خفايا الصدور، ولا يظلم ربك أحدا.

بيان المعنى العام:

14- إن الله يدخل الذين آمنوا ...إن الله يفعل ما يريد.

جرت هذه الآية على طريقة القرآن بــالجمع بــين البشــارة والنــذارة والوعــد والوعيــد .فإذا كانت الآيات السابقة تعرضت لأنماط من النــاس ممــن كفــر، وممــن لــم يســتقر الإيمان في نفسه وكان متربصا ما يأتيه مــن ضــر أو خيــر، فــإن هــذه الآيــة أكــدت عاقبة من جمع بين الإيمان الخالص، وظهرت آثار ذلك فــي ســلوكه فكــان عملــه عمــلا صالحا بمقاييس شرع الله. من جمع ذلك فإن الله ســيدخله يــوم القيامــة جنــات تتخللهــا الأنهار. والله يحقق إرادته لا يعترضه في تنفيذ مــراده صــعوبة. فقــد أحــاط مــن أراد له الخير بألطاف في عقله وروحه وفي محيطه، فــاتبع ســبيل الهــدى وفــاز بكرامــة الله يوم القيامة، فهو في الدنيا والآخرة محاط بإرادة الله.

15- من كان يظن...ما يغيظ

افتتحت هذه الآية بتحديد ملامح صنف من النــاس، وصَــفَتْهم الآيــة أنهــم ظنــوا أن الله لا ينصرهم ولا يهيء لهم أساب الخير فــي الــدنيا التــي منهــا ســعة الــرزق، وأنــه لا يمكنهم من النعيم الذي وصفه القرآن في آيــات كثيــرة، وأقربهــا الآيــة الســابقة. إنهــم بهــذا التحديــد كــافرون، لقولــه تعــالى: **(إنــه لا ييــأس مــن روح الله إلا القــوم الكافرون)**[1] وهم نمط خــاص أظهــروا الإســلام، وكــانوا عنــد دخــولهم فــي الــدين منتظرين أن تحسم الأمور في أقــرب وقــت، وأن ينتصــر الإســلام انتصــارا يقضــي على كل أثر للكفر. فهم ما دخلوا في الإســلام حبــا فيــه، ولكــن ليكونــوا مــع الفريــق الغالب، الشيء الذي يحقق لهم أطماعهم. ولمّا لــم يحســم الأمــر حســبما يصــوره لهــم استعجالهم، واســتبطأوا انتصــار المســلمين، تــرجح عنــدهم أن أمــر الإســلام إلــى

---

[1] سورة يوسف آية87

زوال، وأنه لا تكون له الغلبة في الصـــراع الـــدائر بينـــه وبـــين الشـــرك الفاشـــي فـــي المجتمع المكي. وأيضا لا يكـــون لمتبعيـــه أي حـــظ فـــي الآخـــرة، لأنهـــم لا يؤمنـــون بالبعث. هذا إذا أرجعنا الضمير في قوله تعـــالى: "**أن لـــن ينصـــره**" إلـــى الإســـلام. كمـــا يمكن أن يعود الضمير إلى رسول الله فيكون المعنـــى: أنـــه فريـــق تـــرجح عنـــده أن الله لا يؤيد محمدا بالنصر في الدنيا، وليس لـــه أي حـــظ فـــي الآخـــرة لعـــدم إيمـــانهم بـــه. ويصح أن يعود الضمير " أن لن ينصره" إلى صاحب هـــذا الظـــن الـــداخل فـــي الإســـلام الذي استبطأ النصر استبطاء حمله على ظن أنـــه اتبـــع الطريـــق الخاســـر، وأنـــه أهلـــك نفسه باتباع الإسلام، وأنه لا حظ له في الدنيا مـــع هـــذا الـــدين، وأنـــه لا حـــظ لـــه فـــي الآخرة لعدم إيمانه بحلولها.

هذا النمط عالجه القرآن بطريقة تهكمية، يقول لهـــم: إن امـــتلأتم غيظـــا علـــى محمـــد أو على الإسلام، أو حسرة بلغت حد الغـــيظ علـــى أنفســـكم، فـــإن خلاصـــكم مـــن ذلـــك أن تأخذوا حبلا تطوّلون فيه ما شئتم، ابلغوا به إلـــى الســـماء، ثـــم اربطـــوا أنفســـكم بـــأعلاه ثم اقطعوه، فتتهشموا علـــى الأرض أو اختنقـــوا بـــه فيقطـــع أنفاســـكم وتســـتريحوا وقـــد فسر القطع بالخنق، يقول الخليل: وقطع الرجـــل إذا اختنـــق بحبـــل أو نحـــوه. ولا يـــذهب غيظكم إلا ذاك، شأنكم كشأن اليائسين الذين ينتحرون بربط الحبل في أعناقهم.

ومبالغة في تشهير سخفه، وتنزيلا للـــتهكم بـــه يقـــول القـــرآن: إنـــه بعـــد أن ينفـــذ هـــذا التدبير لينظر هل ذهب غيظه واستراح ؟

16- وكذلك أنزلناه...من يريد.

وعلى هذا النحو من التوضيح المفصل لأحـــوال المـــؤمنين والكـــافرين بمختلـــف أنمـــاطهم التي سبقت في السورة، أنزلنا القرآن آيات بينـــات بالغـــة حـــد الإعجـــاز، داعيـــة للتـــدبر في مضامينها التي تمكن الناظرين فيها من آفـــاق لا ينقطـــع مـــددها. ومـــع ذلـــك فـــإن الله سبحانه يهدي بكتابه وبتلكم الآيات من يريد هدايتـــه، فييســـر لـــه مـــن الظـــروف ومـــن صفاء القريحة ومن الألطاف ما يبلغ بـــه وضـــوح المـــنهج والعـــون علـــى الالتـــزام بـــه عملا وتطبيقا .

17-إن الذين آمنوا....على كل شيء شهيد.

بعد أن بينت الآيات السابقة أنماطا من المناوئين للإسلام. وخُتِمَ العرض بأن القرآن أنزله رب العزة وبه البيان الشافي، وأن الله لا يسعد بألطافه إلا من أراد له الهداية. عقب ذلك بمسح شَملَ أكثر المجموعات المتدينة من المؤمنين الصادقين الذين تمسكوا بالإسلام وثبتوا عليه، إلى المشركين الذين وقفوا في وجه الدعوة حسبما فصل كثير منه قبل هذه الآية.

ذكرت الآية ست مجموعات من البشر مختلفة في دينها: 1) المؤمنون بالدين الإسلامي 2) المؤمنون المتبعون للدين اليهودي -3) المتبعون لدين الصابئة -4)المتبعون للدين المسيحي- 5) المتبعون للمجوسية (وهؤلاء مؤمنون بالله)- 6) المشركون - وعقبت عرضهم إجمالا بأن الله سيبعثهم ليوم القيامة : يوم الفصل، اليوم الذي تنكشف فيه الحقيقة ويلقى كل فريق جزاءه بناء على صلاح عقيدته وعمله، أو انحرافه عن الحق واتباعه طرق الضلال .إن الله مطلع على كل شيء من الماديات أو ما تنطوي عليه النفوس وما تعتقده العقول .

ولا شك أن المبعوثين من اليهود ومن الصابئة ومن النصارى ومن المجوس بعضهم كان على هدى قبل أن يدخل التحريف دياناتهم، وبعضهم غيروا الدين النازل إليهم وتعصبوا لما هم عليه، واستمروا على ذلك، ولم ينتفع أخلافهم من الحق الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ، وكابروا وواصلوا تعصبهم على الإسلام، يقول الله لنبيه : اثبت على ما أنت عليه وسأفصل بين الجميع فصلا يتبين كل ضال ضلالته يوم القيامة، حتى يجد أن ما قدّر له من جزاء، هو جزاء عادل ناله بما قدم في الدنيا.

وفي هذه الآية ذكرت خمس ديانات: 1) المؤمنين التّابعين لدين الإسلام الذي ختم به الله رسالته إلى بني آدم ونسخ ما قبله-2) الذين تمسكوا بالدين الذي أنزل على موسى وهم الذين هادوا -3) الصابئين وهم الذي تبعوا سيدنا يحيى وكفروا بكل الأنبياء بعده . وقد حققنا شيئا من دين الصابئة في الآية69 من سورة المائدة -4)النصارى المتبعين للدين الذي أنزل على سيدنا عيسى عليه السلام -5) المجوس. المذكور عند المفسرين أن المجوس قوم من عبدة النار، وأنهم يؤلهون إله النور وإله الظلمة، وبناء على ما ذكروه يكونون مشركين. وقد توقفت في هذا التعريف لدين المجوس، وذلك لأمور:

أولا: إن الله عطف الديانات وهي مختلفة كما يقتضيه العطف إذ لا يعطف الشيء على مثله، وخص الذين أشركوا وعطفهم على المجوس مما يقتضي أن المجوس غير مشركين إذ لو كانوا مشركين لأغنى ذكر المشركين عن ذكرهم.

ثانيا : ما أخرجه مالك في الموطأ: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذكر المجوس، فقال : ما أدري كيف أصنع في أمرهم ؟ فقال عبد الرحمن بن عوف : أشهد لسمعت رسول ﷺ يقول : سنوا بهم سنة أهل الكتاب[1] .

فلما كان تصرف المسلمين مع البلاد المفتوحة يختلف باختلاف عقيدة البلاد المفتوحة، فيكتفى من أهل الكتاب بالجزية وتتكفل الدولة الإسلامية بحمايتهم،

[1] الموطأ ح 756ج 1 ص374جامع الترمذي ج3 ص241ح 1586-

وتمكنيهم من إقامة شعائرهم. وأن الشـرك والإسـلام لا يلتقيـان فـي بـلاد الإسـلام. دل هذا على أن النبي ﷺ لم يعتبرهم مشركين وأجرى عليهم أحكام أهل الكتاب.

ثالثا: ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريـرة يحـدث: قـال النبـي ﷺ : مـا من مولود إلا يولـد علـى الفطـرة، فـأبواه يهودانـه أو ينصـرانه، أو يمجسـانه[1]. – فجعل النبي ﷺ التأثير على الصبي بإدخاله فـي ديـن المجوسية عـديلا لتـأثير اليهـود والنصارى على أولادهم، مما يدل على أنه دين موحد.

لقد أثبتت الدراسات الحديثة: أن الديانة المجوسـية هـي الديانـة الزرادشـتية نسـبة إلـى زرادشت الذي يثبت له أتباعه النبوة، وأنه هو الـذي فصَّـل تصـور العقيـدة المجوسـية وسلوك أتباعها. وأنها من أقدم الـديانات الموحـدة. يضـرب تاريخهـا إلـى أكثـر مـن ثلاثة آلاف سنة. وكتابهم دُوِّن بعد زرادشت بمدة طويلـة، وضـاع وجـدد. وهـذا ممـا يتبعه حتما عدم بقائه على النحو الذي ظهر به أول الأمر.

يعتقد المجوس بوجود إله واحد أزلي هو (أهورامـا زدا) بمعنـى الإلـه الحكـيم . وهـو خالق الكون وبنيل الخير ولا يأتي منه الشر.

أسس زرادشت ديانته على إيمانـه بـالقوة الشـافية: العمـل الصـالح. واعتبـر الشـمس والنار رموز الزرادشتية. فالنار مقدسة باعتبارهـا تمثيـل عـن نـور أو حكمـة، ولـذا يحرص الزرادشتيون على بقاء النار مشتعلة في معابـدهم. وهـذا هـو المـدخل الـذي جعل التصور السائد عنهم أنهم يعبدون النار.

يبلـغ عـدد أتبـاع هـذه الديانـة اليـوم بـين 124,000- وبـين 190,000 – وهـم منتشرون فـي سـوريا، والعـراق، وكردسـتان، وإيـران، وفـي آسـيا الوسـطى. وخاصة بمدينة بلخ بأفغانستان وفي باكستان وأميركا الشمالية.

إن التحقيق الذي كشفت عنه الدراسات الحديثـة يقـوم شـاهدا علـى أن السـنة كـالقرآن من عند الله، فقد كانت الدقة فـي التعبيـر كالدقـة فـي المضـمون فـي الحـديث عـن المجوس، على خـلاف العقيـدة السـائدة عنـد معظـم العلمـاء مـن أن المجـوس قـوم مشركون، ووقعوا تبعا لذلك في صعوبة. وتبين أنهـم غيـر مشـركين وأن عطفهـم علـى أصحاب الديانات الموحدة هو الحـق. وصـدق الله: **سـنريهم آياتنـا فـي الآفـاق وفـي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** [2]–

[1] فتح الباري ج 3ص464- وإكمال الإكمال ج7 ص 91

[2] سورة فصلت آية 53

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ (18)

بيان معاني الألفاظ:

الم تر : ألم تعلم .

يسجد: السجود يشمل السجود الحقيقي بوضع الجبهة على الأرض، والمجازي بمعنى الخضوع.

كثير حق عليه العذاب : لم يسجد.

يهن الله : يذله الله.

بيان المعنى الإجمالي :

انتبهوا واعلموا أن الله تخضع له جميع الكائنات، قدر لها مسارها وتطوراتها وآجالها فهي سائرة في الخط الذي قدره لها سبحانه. كل من في السماوات مما هو معلوم وما هو مجهول، وكذلك كل من في الأرض من كائنات، والشمس التي يستمد منها سكان الأرض جانب غير قليل من مقومات بقائهم، وكذلك النجوم والجبال الراسيات والأشجار والدواب، كلها خاضعة لتدبيره. وأما الإنسان فقد أراد الله أن يكون مختارا مكلفا، فكثير منهم علموا حق مولاهم فسجدوا له متقربين راجين رضاه، وكثير أعرضوا فحق عليهم العذاب. ومن ينحرف عن مسيرة الكون فينفصل عن الله هو مهين ذليل بإرادة الله، ومن أهانه لا يجد مكرما له. إن الله هو وحده الفاعل المختار في الكون.

بيان المعنى العام :

18-ألم تر أن الله يسجد له...يفعل ما يشاء.

بهذا الاستفهام الإنكاري المخاطب به كل من يصح منه العلم يوقظ القرآن جميع التالين لكتابه، ليكونوا على ذكرٍ من هذه الحقيقة: إن الكون كله بما خلق الله فيه يسجد لله: كل ما حوته السماوات من الكواكب والمجرات التي لا يعلم ضخامتها إلا خالقها، عدُّوا أبعاد ما بينها بالسنوات الضوئية، وما تحويه من الكائنات التي لا نعلم عن حقيقتها شيئا، كعالم الملائكة .وكذلك ما حوته الأرض من الكائنات الضخمة والتافهة التي لا يرى بعضها إلا بالمجهر الإلكتروني، ومما لا يزال مغطى تحت ستار الخفاء إلى اليوم . وما نشاهده من الشمس والقمر والنجوم، وما

على الأرض من جبال راسيات، وما تنبته من الأشـــجار التـــي ثبتـــت قرونـــا ومـــا كـــان منها ما يزال في فتوته، وما ينتقـــل ويـــدب علـــى وجـــه الأرض أوبـــين طبقاتهـــا؛ هـــذا الحشد الهائل كله خاضع للتسيير المحكم كما جاء فـــي جـــواب ســـيدنا موســـى لفرعـــون، **قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقـــه ثـــم هـــدى** [1]، فهـــي خاضـــعة للبـــاري لا تخـــرج عن المسار الذي حدده لها.

وتميز الإنسان من بين الكائنات، إذ مكنـــه مـــن الاختيـــار الـــذي كـــان مـــن آثـــاره أن كثيرا من الناس يسجدون لله عـــن إرادة وتفكيـــر وتعلـــق برضـــوانه، وأن كثيـــرا مـــنهم امتنعوا من السجود فحق عليهم العذاب. هم نشاز فـــي موكـــب الكـــون، لفظهـــم الكـــون، ومن قطع صلته بالله فقد ذهب عنه مصدر العز، فسلط عليـــه الهـــوان والـــذل. ومـــن لـــم يشمله الله بعزه لا تجد له مكرما. تعالى ربنا فهو الفاعل لما يشاء ويريد .

و قوله تعالى : (ما يشاء) موضع سجود مجمع عليه .

۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُواْ فِيهَا وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍۭ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الاختصام : المجادلة والخصومة بين طرفين.

التقطيع : جعلت لهم بتقدير كما يفصل الثوب على صاحبه.

الحميم : شديد الحرارة.

---

[1] سورة طـــه آية 50

الإصهار : الإذابة بالنار أو بحر الشمس.
المقامع : جمع مقمعة ما يرد به بعنف.
تحلى : لبس الحلي.
أساور: أسورة كثيرة وهي ما يتحلى به في المعاصم.
الحميد: المحمود كثيرا، اسم الله تعالى.
يصدون : يمنعون.
سبيل الله: الإسلام.
العاكف : المستقر.
الباد: ساكن البادية .
الإلحاد : الانحراف عن الحق.
بظلم : ملتبسا بظلم.

بيان المعنى الإجمالي :

يستحضر القرآن فريق المؤمنين وهم يدافعون من أجل التعريف بالله بالحجة والبرهان، والمخالفون لهم وهم يدافعون عن كفرهم. ويبين عاقبة كل فريق.
أما المخالفون فإنه يُفَصَّلُ لكل واحد منهم كسوة من النار على مقاسه فتحيط بكل جزء من أجزاء بدنه، ويضاف إلى ذلك أن سيلا شديد الحر يصب فوق رؤوسهم فينفذ إلى أمعائهم وجلودهم فيحرقها لتعود من جديد، لتتلقى نفس العذاب وهكذا. وكلما اشتد عليهم الكرب والغم حاولوا الخروج من النار فتتلقاهم ملائكة العذاب بمطارق من حديد تعيدهم إلى منازلهم في جهنم، ثم إذلالا لهم تقول لهم: ذوقوا العذاب الحارق مع أنه مسلط عليهم .
وأما المؤمنون فإن الله يدخلهم بإذنه العالي جنات تتخللها الأنهار، هذا هو مأواهم. وأما في ذواتهم فسيحل عليهم ألوان من التكريم والنعيم ؛منها أنهم يجدون في أيديهم أجمل ما يتحلى به معصم: أساور ذهبية مرصعة باللؤلؤ، ولا يتوقف في هذا بأن شأن الرجال أن لا يرغبوا في لبس الأساور، لا يذهب بكم الظن إلى أن مقاييس الآخرة هي مقاييس الدنيا هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى فإن أصحاب الثراء اليوم يلبسون في أيديهم ساعات ذهبية مرصعة عالية القيمة، وفيها يتنافسون. ويلبسون أجمل اللباس وأفضله من الحرير. وينعم عليهم فوق ذلك بمستوى رفيع من التفكير والتعبير، لا يلحقهم خطأ، فهم على صراط الله المحمود. وأكمل سعادة الإنسان أن يصفو عقله إلى هذا الحد.

ثم تعرض القرآن لفريق من الكافرين جمعوا لرفضـــهم للإســـلام، أنهـــم يمنعـــون النـــاس من الإيمان بشـــتى الطـــرق، كمـــا يمنعـــونهم مـــن العبـــادة بالمســـجد الحـــرام. إن هـــذا المسجد ليس ملكا لهم ولآبائهم، ولكنه ملـــك لله، وهـــو الـــذي جعلـــه للنـــاس جميعـــا لا يتميز فيه المقيم بمكة عن ساكن الباديـــة أو الـــوارد مـــن أصـــقاع الأرض. هـــو المكـــان الذي تشعر فيه البشرية بالمساواة الكاملة. ومن يريد أن يلحـــد فيـــه ويخـــرج عـــن ســـواء السبيل في عقيدته أو فـــي قولـــه أو فـــي فعلـــه، تتضـــاعف عقوبتـــه ويســـلط الله عليـــه العذاب المؤلم جدا.

بيان المعنى العام :

19←20- هذا خصمان اختصموا...ما في بطونهم والجلود.

جاءت هذه الآية في فاتحتها وفي مضـــمونها وفـــي صـــياغتها مستحضـــرة كـــأن التـــالي يشاهد ما ورد فيها.

افتتحت باسم الإشارة: **هذان**. فمـــن المشـــار إليـــه ؟روى الإمامـــان البخـــاري ومســـلم: أن هذه الآية في الفريقين اللذين تقدما للمبارزة يوم بدر، مـــن المـــؤمنين: حمـــزة وعلـــي بـــن أبي طالب، وعبيدة بن الحرث رضي الله عـــنهم، ومـــن المشـــركين عتبـــة وشـــيبة ابنـــا ربيعة والوليد بن عتبة . وكان أبـــو ذر رضـــي الله عنـــه يقســـم أن الآيـــة نزلـــت فـــيهم. وعلى هذا تكون الآية مدنية.

والأولى حمل الآية على تقابل فريق المؤمنين وفريـــق المخـــالفين لهـــم فـــي عهـــد النبـــوة وفي جميع الأعصار. ويدخل في ذلك دخولا أوليـــا مـــا رواه البخـــاري ومســـلم. ومعنـــى الاختصام المجادلة في حقيقة الربوبية، فـــالمؤمنون يتصـــورون ويصـــورون ربهـــم بمـــا يليق به من الوحدانية وصفات الكمال، ومخـــالفوهم بـــين موحـــد فـــي الظـــاهر ومشـــرك باطنا، وبين مشرك ظاهرا وباطنا. الذين قـــال الله فـــيهم: **ومـــا يـــؤمن أكثـــرهم بـــالله إلا وهم مشركون** [1]– وهذه الخصام يشمل الحجـــاج بالأدلـــة والبـــراهين، ويشـــمل الخصـــام بالجهاد. والحامل على هـــذا الخصـــام اقـــتلاع الأوهـــام الباطلـــة التـــي أضـــلت النـــاس وأبعدتهم عن طريق الهدى، وحرفت الشرائع المنزلـــة مـــن رب العـــالمين. وهـــذا الأمـــر الذي استحضرته الآية وإن كان معلوما حاضرا فـــي ذهـــن المـــؤمنين يمارســـونه بصـــفة متواصلة، إلا أن الآية تهدف إلى بيان نـــوع الجـــزاء المعـــد لهـــؤلاء الـــذين يخاصـــمون بالباطل. راعى القرآن فـــي عرضـــه أن يكـــون مجسّـــما كأنـــه مشـــاهد ليتســـاوق اســـم الإشارة في الأول مع الصورة المفصلة.

[1] سورة يوسف آية 106

تتمثل تلكم الصورة في صنوف العذاب المادي والنفسي.

أولا: تفصل على مقاييسهم ثياب مسن نسار تحسيط بكسل جسزء مسن أجسزاء أجسسامهم، فيأخذ كل منها حظه من آلام الاحتراق.

ثانيا : يضاف إلى النار المشستعلة المحيطسة بهسم أن يسسلط علسى رؤوسسهم، والسرأس مجمع الإحساس، سائل أشد ما يكون حرارة، ينفذ إلى أمعسائهم فيسذيبها ثسم تعسود إلسى حالتها الأولى، فتتقبل عارضا جديدا من الحميم وهكذا.

21←22: ولهم مقامع من حديد...عذاب الحريق.

ثالثا: أن العذاب النازل بهم لا يعطل مداركهم، بل يسستولي علسيهم الغسم مسن وضسعهم، فتسول لهم نفوسهم الخروج من جهنم ويسعون لبلسوغ أطرافهسا، وإذا بمقسامع مسن حيسد تردهم على أدبارهم.

رابعا : إذلالهم بعد دحرهم بمقامع الحديسد، فيقسال لهسم نكايسة فسيهم : ذوقسوا العسذاب الحارق، في الوقت الذي هم فيه يذوقونه.

23←24: إن الله يدخل الذين آمنوا...إلى صراط الحميد.

في مقابل الصنف الأول الذين جسمت الآية السسابقة صسنوف مسا يلقونسه مسن العسذاب والإهانة، ذكرت هذه الآية جزاء المؤمنين الصالحين. ومسن بسديع النسسج القرآنسي أنهسا لم تُعْطَفْ عليها لفظا فلسم يقسل القسرآن: والسذين آمنسوا وعملسوا الصسالحات يسدخلهم، رعاية للانفصال بين الفريقين وبُعْدِ مسا بينهمسا، ففصسلا لفظسا كمسا فصسلا مضسمونا. فالذين جمعوا بين الإيمان كما بينه رسسول الله ﷺ، وقرنسوا إيمسانهم بالعمسل علسى مسا ضبطه شرع الله، جزاؤهم أن الله يدخلهم يوم القيامسة جنسات تتخللهسا الأنهسار الجاريسة بما يقارنها من خصب وورونق وجمال. هذه منسازلهم. ومسن ناحيسة أخسرى هسم يلقسون في الجنة ضروبا مسن الكرامسة والنعسيم، منهسا أن الله يحلسي أيسديهم بأسساور عديسدة متنوعة من الذهب واللؤلؤ. ولا تظنوا أن الرجسال لمسا كسانوا لا يلبسسون الأسساور فسي الدنيا فكيف يُنْعِم الله عليهم بما لا يرغبون فيه ؟ وجوابا عسن ذلسك فإنسه ممسا ينبغسي أن يكون حاضرا في ذهن التالي لكتاب الله أن شؤون الآخرة غيسر شسؤون السدنيا هسذا مسن ناحية، ومن ناحية أخرى فإن أصحاب الثسراء والمسرفهين يتغسالون اليسوم فسي اتخساذ ساعات مرصعة عالية القيمة يلبسونها في أيسديهم، والمصسانع السويسسرية تفننست فسي هذا وأخرجت للسوق ساعات بالغة حدا كبيسرا مسن الإتقسان والجمسال يلبسسها الرجسال. كما يجعل لباسهم من الحرير الذي هو أرفسع لبساس وألينسه وأجملسه. وفسوق كسل ذلسك يهديهم الله إلى الكلام الطيب، فتكون لذتهم العقليسة بالغسة درجسة عاليسة فسلا يسسمعون

لغوا ولا ينطقون بسخف. ويقتلع جذور الانحــراف مــن نفوســهم. ضَــمِنَ لهــم أنهــم لا يفكرون ولا يتجهون إلا إلـــى الطريــق المســتقيم المحمــود المقــرب دومــا مــن ربهــم المستحق للحمد على ما أنعــم. والمؤكــد أن أرقـــى نعمـــة يـــنعم بهـــا الإنســان اســتقامة تفكيره وانكشاف الحق عنده انكشافا لا يخالطه غبش. ولــيس مــن الــلازم أن يقابــل كــل عذاب ومهانة بالنسبة للكافرين بمــا يضــاده مــن النعــيم. بــل إنـــي أفهــم الآيــة علـــى الصورة العامة للعذاب والمهانة مــن ناحيــة، والتكــريم والإعــزاز مــن ناحيــة أخــرى. ولمثل هذا فليعمل العاملون. رزقني الله وإياكم رضوانه وهدايته إلى صراط الحميد.

25- إن الذين كفروا ويصدون....من عذاب أليم.

عود للتشويه بمشركي مكة الذين كفروا بما أنــزل علـــى محمــد، والتزمــوا منــع النـــاس من الدخول فـــي الإســلام، ومحضــوا نشــاطهم ومــا أوتــوه مــن الحظــوظ الدنيويـــة للحيلولة بين الناس وبين دخــولهم فـــي ديـــن الله. إن هــؤلاء الـــذين كفــروا ويواصــلون المنع من الدخول في الإسلام، ويمنعون من يريــد التقــرب إلـــى الله فـــي بيتــه المســـجد الحرام، لهم عذاب أليم.

إن المسجد الحرام ليس ملكا لهم، وما اكتســب قدســيته مــنهم، ولكنــه اســتمد منزلتــه من جعل إلهي، فكل الناس فيه سواء لا فضــل لســكان مكــة علـــى غيــرهم مــن أهــل البادية أو من أطراف العــالم. فهــو بيــت لله يقصــده للعبــادة فيــه، البشــرُ المؤمنــون جميعا. ولا يوجد مكان تشعر فيه البشرية بالمســاواة الكاملــة كالمســجد الحــرام. وبهــذا كان المسجد الحرام أول خط فـــي المســاواة، ولا يبلــغ أي تشــريع ولا دســتور بصــفة حقيقية وكاملة هذا المستوى المقرر من الله للمسجد الحرام.

ثم إن الآية أعلنت ما حصن به الله هــذه المســاواة مــن ناحيــة حــق العبــادة فيــه لكــل الناس، وبين تطهيره من الانحــراف عــن المــنهج الســوي المفــرد لله بالعبــادة وعــدم الإشراك به، وهو أعظــم الظلــم، أو ارتكــاب المعاصـــي، إذ تعظــم جريــرة المعصــية بقدسية المكان. فالباء في قوله: بإلحاد تؤكد الارتبــاط، مــن يــرد فيــه إلحــادا ملتبســا بظلم، ولا يكون إلا كذلك، يكون جزاؤه عذابا أليما.

ينقل ابن عطية عن ابن مسعود أنه يقول: فلعظــم حرمــة المكــان توعــد الله علـــى نيــة السيئة فيه، ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاســب بــذلك إلا فـــي مكــة. وذهــب حبيــب بن أبي وثاب إلى أن الحُكرة بمكة مــن الإلحــاد بظلــم. فليحــذر الحجــاج والعمــار مــن التساهل في ذلكم المكان المقدس، وليجتهــدوا فـــي العبــادة، فبلــوغهم المسجد الحــرام منة من الله وفضـــل، فليستشــعروا دومـــا قيمـــة هـــذه النعمـــة ولا يضــيعوا التعــرض لأبواب الخير المفتوحة لهم.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ
لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ
يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟
مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ
ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟
نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

بوأنا ..مكان: بينا له مكان البيت ليتخذه مرجعا يرجع إليه.

تطهير البيت : تنزيهه عن كل خبث.

الطائفون : الساعون حول البيت عبادة لله .

القائمون : فسر بالقائمين للصلاة، وفسر بالداعين.

الركع السجود :المؤدون للصلاة بالركوع والسجود.

أذن : ادع الناس ونادهم رافعا صوتك.

رجالا: مشاة.

الضامر : ضمور البطن عدم تدليه.

الفج : الطريق بين جبلين.

العميق : البعيد.

ليشهدوا : ليحضروا فيحصلوا.

البائس: الفقير المحتاج.

يقضوا تفثهم : يقطعوا ما اتصل بأبدانهم مما يزال من الدرن والأظافر والشعر.

العتيق : المحرر غير المملوك للناس . الضارب في القدم .

بين المعنى الإجمالي :

و اذكر يا محمد ذلك الظرف الخاص الذي بين الله فيه لإبراهيم عليه السلام المكان الذي يرتضيه لبناء بيته في الأرض. إن هذا البيت يقترن به أن تُخْلِصَ يا إبراهيم في توحيد الله ولا تشرك بربك أحدا. واجعل هذا البيت طاهرا من الشرك ومن البدع التي يسولها الشيطان للإنسان المبنية على تصورات لا أساس لها، ومن الأنجاس. لينعم فيها الطائفون حوله بعبادة الله، ليجد المصلون القائمون الراكعون الساجدون

بيئة تساعدهم على تأملاتهم وحسن العبادة. وارفــع صــوتك مناديــا فــي النــاس: حجــوا يا عباد الله فقد فرض الله عليكم الحج. إنـــه سيســتجيب لــك مــن يــأتي ماشــيا، ومــن بعدت به الشقة راكبا علـــى وســائل النقــل القــادرة علـــى إبلاغــه بيــت الله، يتتبعــون الطرق البعيدة بين الجبال ليبلغــوا بيتـــي. إنهــم سيشـــهدون فـــي جـــوار البيــت منـــافع متنوعة لهم، ويتمتعون بذكر اسم الله على ما يذبحونـــه وينحرونـــه مـــن الأنعـــام. أذنـــت لكم أن تأكلوا مما تقدمونه من النسك، وأطعموا منه البؤساء الفقراء.

ثم أزيلوا ما علـــق بأبـــدانكم مـــن درن الغبـــار والعـــرق، والشـــعر الزائـــد والأظـــافر. وأوفوا بما التزمتم به من نذور قربـــات، وطوفـــوا بالبيـــت الـــذي حررتـــه فلـــيس لأحـــد عليه سلطان .

بيان المعنى العام :

26- وإذ بوأنا لإبراهيم ...و الركع السجود.

الآية متصلة بسابقتها التي نصت علـــى بعـــض خصـــائص المســـجد الحـــرام ومزايـــاه. واذكر محييا هذا الزمن الخاص الذي أذنت فيه لإبـــراهيم عليـــه الســـلام أن يبنـــي البيـــت في المكان الذي تخيرته لذلك وعرفتـــه بـــه وجعلتـــه مرجعـــا لـــه يرجـــع إليـــه، فبوأنـــا بمعنى بينا له مكان البيت كما ذكره الزجاج وهو مـــا نـــص عليـــه أبـــو زيـــد: التبـــوء أن يعلم الرجلُ الرجلَ على المكان الذي أعجبـــه لينـــزل بـــه (تـــاج العـــروس ج1 ص155). واللام تدل على إكرام إبراهيم بهـــذا التكليـــف لأن موقـــع إبـــراهيم موقـــع المفعـــول الأول لبوأنا، أي أعطينا إبراهيم.

إن هذه الهداية والإذن لسيدنا إبراهيم عليه السلام ليبني البيـــت فـــي المكـــان الـــذي تخيـــره رب العالمين، وهو الذي خلق الأرض ويعلم أسرار خلقه، مـــا كـــان يقصـــد مـــن ذلـــك أن يبني بيتا مأوى له، وإنما هو بيت شـــرفه الله وأكرمـــه وفضـــله علـــى بقـــاع الأرض كلها، على خلاف بين فقهـــاء المســـلمين أيهـــا أشـــرف قبـــر الرســـول ﷺ أو الكعبـــة ؟ فسر القرآن ذلك بكلمة [أن] أي مـــا يتبـــع هـــذا الإذن، مـــن توحيـــد الله توحيـــدا يبلـــغ اقصى حد من الوضوح والنقاء بحيث لا يخالطه أي شـــرك. ومـــن العنايـــة التامـــة التـــي تجعله على مـــر الأعصـــار مطهـــرا مـــن الأدنـــاس العقديـــة كالشـــرك، ومطهـــرا مـــن الانحراف في طريق العبادة كالبدع، ومطهرا مـــن الأنجـــاس والـــدماء. ليكـــون وضـــعه أكمل وضع للذين يطوفون حوله تقربا لـــرب البيـــت. وكـــذلك للمصـــلين الـــذين يجمعـــون في صلاتهم بين القيام والركوع والسجود. وهي الصلاة في الإسلام.

27- وأذن في الناس بالحج ...من كل فج عميق.

بني البيت عونا للبشر على تركيـز التوحيـد فـي أرواحهـم وقلـوبهم، ولـذلك أمـر الله إبراهيم عليه السلام أن ينادي في الناس وأن يدعوهم إلـى حـج البيـت الـذي أذن الله لـه ببنائه ليكون مجمعا للمـؤمنين يخلصـون حولـه فـي العبـادة. فكـل مـن زاره تتجـدد طاقاته الإيمانية ويزداد اندماجا في جامعة الإيمان. وبشّـر الله إبـراهيم بأنـه مكـن حـب البيت في قلوب المؤمنين، إنهم سـيأتونك مسـتجيبين لنـدائك سـاعين مشـاة، وراكبـين على الرواحل المضمرة التي لم تتَدَلَّ بطونها بمـا يجعلهـا أقـدر علـى السـرعة وعلـى مواصلة السير. وتفيد الآية كثرة قصاد البيـت مـن الـراجلين ومعظمهـم مـن الأمـاكن غير البعيدة عن المسجد الحرام، ومـن أطـراف الـدنيا الـذين يـبلغهم البيـت خيـولهم ورواحلهم. وحقق الله لإبراهيم وعده ببعثة سيدنا محمـد ﷺ، فمـا يـزال الوافـدون علـى المسجد الحرام تتضاعف أعدادهم، وكلما وسّـع القـائمون علـى المسـجد الحـرام فـي مساحاته كان إقبال المؤمنين أضعاف المتوقّـع. وهـو مـا يشـير إلـى أن قولـه تعـالى: **يأتوك**، هو وعد محقق بما غرسه في قلوب المؤمنين من الأشواق للبيت الحرام.

28- ليشهدوا منافع لهم...البائس الفقير.

إنه مع شحنة الإيمان، يتم في هذه الاجتمـاع السـنوي حـول البيـت حصـولهم علـى منافع عديدة: منافع سياسية، ومنافع علمية، ومنـافع روحيـة، ومنـا فـع ماديـة لأهـل مكة وللوافـدين بمـا يتجمـع فـي أسـواق مكـة مـن السـلع التـي تسـتجيب لمتنـوع الاحتياجات والأذواق. وعطف مخصصا ما يتيسـر لهـم مـن ذكـر اسـم الله علـى مـا يقدمونه من هدايا في الأيام المعلومات لهم، شاكرين الله علـى مـا رزقهـم مـن متنـوع الأنعام من شياه ومعز وبقر وإبل. إن ذبحها أو نحرهـا تقربـا لله لا يمـنعكم مـن الأكـل من لحومها، فما قـرره المشـركون مـن حرمـة الأكـل مـن الهـدايا غيـر صـحيح، فاجمعوا بين الأكل والتصدق بإطعام البؤساء الفقـراء الـذين لا تبلـغ أيـديهم أكـل اللحـم في سائر أيام السنة.

29-ثم ليقضوا تفثهم ...بالبيت العتيق .

ثم، فوق ذلك عليهم أن يعودوا إلى أنفسهم فينظفوا أبـدانهم ممـا لصـق بهـا مـن غبـار وعرق وما نبت من شعر زائد في الأماكن التي مـن الفطـرة إزالتـه. ومـن نـذر مـنهم نذرا ملتزما به طاعة لله فليتم نذره وليوف به، وليقومـوا بـالطواف حـول البيـت الـذي لم يجعل الله لأحد عليه سلطانا، فهو محرر مـن تسـلط النـاس عليـه. وإنـه لأول بيـت وضع للناس.

ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحرمات : جمع حُرْمة، ما يجب احترامه .

الرجس : الخبيث المستقذر معنى أو حسا.

قول الزور: القول المخالف للواقع.

خر: سقط.

تخطفه : أخذ الشيء بسرعة.

سحيق: بعيد.

شعائر الله : الشعيرة المعلم الواضح. وفي اصطلاح القرآن مناسك الحج .

الأجل المسمى : وقت نحرها بمنى.

المحل : المكان الذي تنحر فيه.

بيان المعنى الإجمالي :

نؤكد لكم ما سبق ما شرع في الحج وما اختص به المسجد الحرام، ومن يعظم ما أوجب الله احترامه وعدم انتهاكه من البيت والأشهر الحرم والمحرمين وغير ذلك، يتحقق أنه سيجد عند ربه جزاء هو خير له مما قدم. فطهروا أنفسكم مجتنبين الخبائث والمستقذرات المعنوية والحسية. اجتنبوا خبث الشرك بالله، واجتنبوا الكلام المخالف للواقع. وبذلك تكونون حنفاء سالكين الطريق السوي الذي شرعه الله بعيدين عن الشرك. إن الشرك فظيع جدا، فمثل من أشرك بالله كمن كان سابحا في السماء فسقط سقوطا متسارعا تحطم به كيانه وأصبح قطعا تتنازعها الطيور وتلتهمها في حواصلها. أو كمن تسلطت عليه ريح عاتية فرمت به في مكان قصي يعالج غربته وتيهه ويأسه. ومن تحل الهداية في قلبه فيُعَظّم ما جعله الله من شعائر الحج كالطواف بين الصفا والمروة والوقوف بعرفة، وتخصيص الهدايا بالطعن

في سنامها الأيمن لتكون معروفة بأنهـا نـذرت للنحـر فـي الحـج، وغيـر ذلـك فـإن تعظيمه ذلك يعمق التقوى في قلبه . أذنت لكم أن تنتفعـوا عنـد الحاجـة بركـوب البـدن وبلبانها إلى أن تبلغ الأجل المسمى، وهـو نحرهـا. ثـم تنتهـي المناسـك إلـى البيـت العتيق فيطوف به الحاج طواف الإفاضة ويتحلل بذلك التحلل الأكبر.

بيان المعنى العام :

30- ذلك ومن يعظم شعائر الله ...واجتنبوا قول الزور.

تفتح الآية بطريقة بلاغية تجمع بين أمرين: تثبيت ما سبق: ذلك بيان، والإيذان بالانتقال إلى مضامين جديدة ينبه السامع إليها. أدت كلمة "**ذلك** " الأمرين معا . واتصلت الآية بسابقتها التي نصت على بعض مزايا المسجد الحرام، وتم التنبيه إلى أن ما شرعه الله لإبراهيم عليه السلام من أمور الحج وتنزيه المسجد الحرام وكون الناس فيه سواء، إلى آخر ما تضمنته الآيات السابقة، هو من حرمات الله التي يجب أن لا تنتهك . إن الله رقيب على ما حدده، ومن يعظم ذلك ويستحضر ماله من حرمة فقد فاز بمقابل، هو خير له عند ربه، الذي يضاعف لمن يشاء ما يشاء.

وامتن سبحانه على المخاطبين بما أحله من الأنعـام، فلـم يحـرم علـيهم الأكـل منهـا والانتفاع بما تنتجه من ألبان وأصواف ووبـر إبطـالا لمـا شـرعه أهـل الجاهليـة مـن تحريم الانتفاع بالهدايا. واستثنى مما أحله ما أنـزل تحريمـه فـي سـورة الأنعـام وفـي سورة النحل. وإذا كانت الحِلّيّة هي الأصل والإذن هـو الغالـب ومـا اسـتثني محصـور فاشكروا الله على ما يسره لكم، وكونوا يقظـين فـاجتنبوا المسـتقذرات التـي تـؤثر فـي متناولها خسة وانحرافا، ويدخل في هـذه المسـتقذرات دخـولا أوليـا، الأوثـان، ذلـك أن رضا الإنسان بعبادة وثن نسف لقيمته الإنسانية وتلويـث نافـذ إلـى عقلـه وأحاسيسـه وقيمه . واجتنبوا أيضا التصريح بما هو مخالف للواقع سـواء فـي ذلـك مـا كـان مـن باب الشهادة أو من باب الإخبار، لأن قول الـزور تضـليل للمخاطَـب وإيقـاع لـه فـي الغلط.

31- حنفاء لله غير مشركين بـه...في مكان سحيق.

إنه إذا اجتنبتم ذلـك تكونـوا حنفـاء لله أي مسـتقيمين علـى طريقـه. إذا قـدرنا معنـى حنفاء، مستقيمين، وأمـا إن قـدرناه مـائلين فيكـون المعنـى منحـرفين عـن مسـالك الجاهلية ملتزمين طريقا غير طريقهم، هو طريق الله.

ثم جسمت الآية خطر الإشـراك وفظاعتـه علـى الإنسـان، فمثلـت مـن يخـرج مـن الفطرة إلى الإشراك بالله بمن كان في صـفاء السـماء سـابحا فهـوى مـن سـموه إلـى

الأرض فتحطم وتناولت الطيور قطعه في حواصلها، أو أخذته ريح عاتية فرمست به في مكان بعيد أشد البعد فاغترب منقطعا. إن هذه الصورة إذا فصلناها نجد فيها دقة في التشبيه عالية، فالإيمان هو بمنزلة من كان في السماء الرفيعة، والإشراك بمنزلة من سقط من منزلته تلك سقوطا حطمه قطعا، فشتت الضلالات والأهواء عقله. أو الذي كان مقيما وسط أهله وذويه، فإذا ريح عاتية تأخذه فتهوي به في مكان بعيد أشد ما يكون البعد فهو تائه، هذه الريح هي كالشياطين التي حولته من الأُنْس الحاصل بصلته بالله، إلى الغربة عنه .

32- ذلك ومن يعظم شعائر الله فإنه من تقوى القلوب.

نؤكد لكم ما سبق فاثبتوا عليه، واعلموا أن من يعظم ما جعله الله من شعائره، فإن قلبه تثبت فيه التقوى وتتعمق. وشعائر الله تشمل الصفا والمروة اللتين شرع الطواف بينهما وتشمل مواقف الحج من عرفة ومنى والمشعر الحرام، كما تشمل الهدايا التي يطعن الحاج في سنامها فيسيل منها دم يكون علامة على أنها مما خص للتقرب به ونذرت للهدي .

33-لكم فيها منافع ...إلى البيت العتيق.

الذي عليه مالك والشافعي أن الحاج ينتفع بهديه من ركوب ولبن إذا احتاج لذلك، وأنه لا يحرم عليه بنذره للنحر أي شيء من منافعه، قد روى مالك في الموطأ أن رسول الله ﷺ رأى رجلا يسوق بدنة فقال : اركبها، فقال يا رسول الله :إنها بدنة، فقال :اركبها ويلك في الثانية أو الثالثة .– ح1106 –كما روى عن هشام بن عروة عن أبيه عروة بن الزبير رضي الله عنهما أن أباه قال:، إذا اضطررت إلى بدنتك فاركبها ركوبا غير فادح، وإذا اضطررت إلى لبنها فاشرب بعد ما يروى فصيلها، فإذا نحرتها فانحر فصيلها معها –ح1111– ثم إن مناسك الحج التي تعظيمها من تقوى القلوب تنتهي إلى البيت فيطوف به الحاج طواف الإفاضة، وبهذا يتحلل التحلل الأكبر .

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا ۗ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا

صَوَآفَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأمة : أهل الدين الذين اشتركوا في اتباعه.

المنسك : الذبح وإراقة الدم تقربا لله.

أسلموا: انقادوا إليه الانقياد التام.

المخبت: المتواضع

الوجل : الخوف.

البدن : جمع بدنة، الضخم من الإبل.

شعائر الله :معلمة بشعار تعرف به أنها من الهدايا.

خير: نفع.

صواف: جمع صافة إذا انتظمت في وقوفها ولم تكن متداخلة.

وجبت جنوبها: سقطت على الأرض وفارقتها الحياة.

القانع : السائل بتذلل، وقيل العكس.

المعتر: المعترض للعطاء بدون سؤال.

نال الشيء: أحرزه وأصابه.

بيان المعنى الإجمالي :

هي سنة الله في جميع الأديان، أنه شرع لكل أمة من الأمم التي ارسل إليها رسولا، شرع لهم مكانا واحدا يتقربون فيه بذبائحهم، يذكرون عند ذبحها اسم الله مفردين له بالألوهية، فهو الذي تفضل عليهم بما رزقهم من الأنعام . وأمر ﷺ أن يبشر المؤمنين الذين يتميزون بالصفات الأربع التالية: الذين ترتعش قلوبهم كلما ذكر اسم الجلالة خوفا منه، وهم يصبرون على الأذى في سبيل نصرة دينه والتمسك به، والذين يقيمون الصلاة فيأتون بها تامة الأركان مستحضرين وقوفهم بين يدي الله لمناجاته، والذين ينفقون أموالهم مساعدة للمحاويج وإسهاما فيما ترقى به الأمة الإسلامية .

ثم خاطبهم ليحيي فيهم التأمل في البدن "الإبل المســمنة "التـــي تكــوّن مقومـــا مــن حيـــاة العربي، فقد جعلها الله مع كل المرافق التي تحصل بهــا مــن شــعائر الحـــج ومظـــاهره. جمعت لكم فيها ضروبا من الخير، فلا تفصلوها عــن خالقهـــا، وعنـــد نحرهـــا اذكـــروا اسم الله عليها وهي منتظمة معـــدة للنحـــر. وبمجـــرد مـــا تســـقط علـــى الأرض وتفـــارق الحياة، لا يحرم عليكم أن تأكلوا منها، ومـــن المرغـــب فيـــه أن تطعمـــوا مـــن لحمهـــا من يطلب منكم شيئا منها، وكذلك من حضر ولم يطلب. تـــأملوا فإنـــه علـــى هـــذا النحـــو من التسخير والتنظيم سخرناها لكم علـــى عظـــم أجســـامها وقـــوة أبـــدانها، لعـــل التأمـــل يصل بكم إلى شكر الله على نعمه. واعلموا أني لمـــا أمـــرتكم بتقـــديم الهـــدايا فـــإن الله لا يصله شيء من لحومها ولامن دمائها، ولكن الذي يصـــل إلـــى الله فيتقبلـــه هـــو حاصـــل التقوى الذي رفعه حسن قصدكم. وعلى هذا النحـــو مـــن التســـخير ســـخرنا لكـــم الأنعـــام لتتيقظوا لنعمه فتكبروا الله عند إرادتكم ذبحهـــا أو نحرهـــا. ومـــن عمـــل العمـــل فأحســـنه فليبشر بما أعده الله من القبول والنعيم.

بيان المعنى العام :

34←35: ولكل أمة جعلنا منسكا ....و مما رزقناهم ينفقون.

إن الديانات التي بُلّغَتْ البشرية على لسان رسل الله قـــد تختلـــف فـــي بعـــض الجزئيـــات، ولكنها متحدة في الأصول العامة. فكـــل أهـــل ديـــن أمـــروا بـــأن يتخـــذوا مكانـــا واحـــدا يتقربون فيه بذبح الأنعام. ولما كـــان التقـــرب إنمـــا هـــو لله الواحـــد فلكـــل أمـــة منســـك واحد، يتقربون فيه للرزّاق الـــذي رزقهـــم بهيمـــة الأنعـــام، وذللهـــا لهـــم وبـــارك فـــي نسلها. كما وحد بين جميع الديانات بإلزامهم أن يـــذكروا اســـم الله عنـــد الـــذبح أو النحـــر ليبرزوا قولا ما استقر في قلـــوبهم مـــن الاعتـــراف بفضـــل الله علـــى مـــا رزقهـــم مـــن الأنعام. وقد قرر المشركون لآلهتهم مناسك عديدة يـــذبحون عنـــدها، فأبطـــل القـــرآن مـــا قرروه وأثبت أن المنسك واحد لإله واحد. كما يفيده تنكيـــر لفـــظ منســـكٍ. ولمـــا ثبـــت أن الإله واحد، فإنه يتحتم عليكم أن تُسلِموا له وأن تنقـــادوا لمـــا يشـــرعه لكـــم مـــن فعـــل أو ترك بما يشمل كل واحد من أعمال الحج.

وكما أمر النبي ﷺ بأن يؤكد أمر التوحيد ومـــا ينبنـــي عليـــه فـــي النســـك، أمـــر بـــأن يبشر المؤمنين فيفتح لهم باب الأمل في فضل الله وســـعة رحمتـــه، وتخيـــر القـــرآن مـــن وصـــف المـــؤمنين وصـــف " **المخبتـــين** " والإخبـــات معنـــاه التواضـــع والتـــذلل لله، والإيمان ينافي التكبر، ذلك أن المؤمن يشعر في كـــل لحظـــة مـــن لحظـــات حياتـــه أنـــه

غير مستغن عن رعاية الله في توفيقه وفي الألطـــاف التـــي تحـــيط بـــه وأنـــه لا مصـــيبة عليه أعظم من أن يتركه الله لنفسه. وأبرز هذا التواضع في صفات أربع :

أولا: أنه إذا ذكر اســـم الجلالـــة " الله" ارتعـــش قلبـــه وتحركـــت مشـــاعره فســـمت إلـــى الاتصال بعزته، واهتزت أشواقه إلى خالقه. وتملكه الخوف من رفض ربه له.

ثانيا: أنه صابر على ما يصيبه من الأذى فـــي ســـبيل الإســـلام، ونشـــر كلمـــة الله فـــي العالم. كما أنه صابر صبرا يختلف عن صبر غيره كقول الشاعر:

وتجلدي للشامتين أريهمو *** أني لريب الموت لا أتزعزع .

فالمؤمن المخبت تقوم في باطنه حقيقة نافذة لتقديراته : أن مـــا حصـــل هـــو مـــن تقـــدير الله، وأن تحول الواقع في المســـتقبل هـــو بعـــون الله، فـــلا ينـــزعج لمكـــروه، كمـــا لا تبطره النعمة فلا يشمخ بتوفرها وتتابعها.

ثالثا: أنه يقيم الصلاة التي ارتبط بها ارتباطـــا يكـــون بـــه فـــي شـــوق لإقامتهـــا وأدائهـــا على أتم وجه، وفـــاء بأركانهـــا واستحضـــارا لصـــلته بـــالمعبود فـــي القيـــام والركـــوع والسجود.

رابعا: أنه صاحب نفس سمْحَة بالمال، يتصرف فيه على أنه مـــا حصَّـــل علـــى مـــا بلغـــه منه إلا برزق من الله يسَّره له، يسعف به المحتاجين، ويسهم به فيما يرقي الأمة.

36- والبدن جعلناها لكم ...لعلكم تشكرون.

البدن جمع بدنة، وأكثر ما تطلق على الإبل التـــي ســـمنت، يقـــول ابـــن الأثيـــر المـــال في الأصل ما يملك من الذهب والفضة، ثم أطلق علـــى كـــل مـــا يقتنـــى ويملـــك مـــن الأعيان، وأكثر ما يطلق عند العرب على الإبل لأنهـــا كانـــت أكثـــر أمـــوالهم[1] وبمـــا أن الإبل كانت أعز مال عند العرب توجه القـــرآن لهـــم بالخطـــاب لينـــبههم إلـــى أن الله قـــد جعلها شعيرة من شعائر الله، تعويضا لما يتـــرخص بـــه مـــن أعمـــال الحـــج، ويتقـــرب بنحرها، وأنها عندما تسير في الموسم وآثار الـــدم فـــي ســـنامها تزيـــد الموكـــب بهجـــة وجلالا. فأضاف أنه جعلها شعيرة معلنة للحج مظهرة له، كمـــا أنهـــا مـــن الخيـــر فينتفـــع الناس والفقراء خاصة بلحمها ولبنها وجلـــدها ومـــا علـــق عليهـــا مـــن النعـــال والثيـــاب. ويحصل لكم الثواب بنحرها .وذكّر الحُجاج بـــأن يـــذكروا اســـم الله عليهـــا عنـــد نحرهـــا، حالة كونها مصطفة لا متداخلة. وفي مسلم أن النبي ﷺ نحـــر بيـــده ثلاثـــا وســـتين بدنـــة، جعل يطعنها بحربة في يده، ثم أعطى الحربـــة عليـــا كـــرم الله وجهـــه فنحـــر مـــا بقـــي، وكانت مائة. ثم أرشدهم إلى الانتفـــاع بهـــا بمجـــرد مـــا تفـــارق الحيـــاة وتســـقط علـــى

[1] تاج العروس ج30ص428

الأرض. وجاء الأكل بصـــيغة الأمـــر قـــال تعـــالى: **فكلـــوا منهـــا**. والظـــاهر أن الأمـــر للندب إبطالا لما جرى عليه أمر الجاهلية من تحريم الأكـــل مـــن الهـــدايا. وتفصـــيل حكـــم الأكل من لحوم الهدي واختلاف الأئمة فيه محلـــه كتـــب الفقـــه. ثـــم أمـــرهم أن يطعمـــوا منها من تعرض طالبا منهم تمكينه شيئا مـــن اللحـــم، كمـــا يطعمـــون مـــن حضـــر ولـــم يطلب. وهو اختلاف فـــي مـــدلول كلمـــة **القـــانع** إذ حملهـــا بعضـــهم علـــى مـــن يبـــدي المسكنة ويطلب، وحمل آخرون "**المعتـــر**" على مـــن حضـــر وتعفـــف عـــن المســـألة مـــع فقره.

وعلى هذا النحو الذي تشـــاهدونه مـــن التســـخير، إذ يســـتطيع حتـــى الغـــلام أن يقودهـــا ويحملها ما شاء من الأثقال، وتخضع لكم للنحـــر علـــى ضـــخامة أجســـامها، تـــم ذلـــك بترتيب منا، ونزعنا من طبيعتها النفـــار والتـــوحش. وســـاعدتكم علـــى قطـــع الصـــحاري المترامية الأطراف، على ذلكم النحو الذي عليكم أن تتأملوا فيـــه ليصـــل بكـــم إلـــى شـــكر المنعم على نعمه، ولمزيد من التيقظ لحكمة الله في الخلق.

37- لن ينال الله لحومها...وبشر المحسنين.

القرآن حريص على تنبيه الناس ليبعدوا كـــل شـــائبة شـــرك. فقـــد كـــان أهـــل الجاهليـــة وكثير من الأمم يعملون ما يـــدل علـــى أن الآلهـــة ترغـــب فـــي التقـــرب إليهـــا بالـــدماء واللحوم وكانوا يلطخون الكعبـــة بالـــدماء. فصـــرحت الآيـــة :أن الله ســـبحانه وتعـــالى لا ينتفع ولا يصل إليـــه وصـــولا ماديـــا مـــن الهـــدايا أي شـــيء، لا الـــدماء ولا اللحـــوم . ولكن الذي يصعد إلى الله فيتقبلـــه ويكتبـــه لصـــاحبه ويجزيـــه عنـــه، هـــو التقـــوى هـــو السمو الروحي. عندما يقوم المؤمن بالمناسك ويقدم مـــا يقـــدم مـــن الهـــدايا تعبيـــرا عـــن خضوعه لله وتطبيقا لشرعه، وأمـــلا أن لا يـــرفض حســـن قصـــده، فهـــذا هـــو الـــذي يصل إلى الله. وأعاد التذكير بتسخير الأنعام للناس، وأنـــه لـــولا مـــا أقـــام عليـــه الكـــون من نظام ما تيسر للإنسان التصرف على النحـــو الـــذي يتصـــرف بـــه. وكـــل مـــن تفـــتح عقله بتأمله في ذلكم النظام المحكم يعلن معتقدا ومكبـــرا لله عـــز وجـــل. يُكبّـــر الله علـــى كمال صنعه، يكبر الله على تسخيره ما سخر لـــه، ويكبـــر الله عنـــدما يجـــد أنـــه أقـــوى من وساوس الشيطان فاهتدى إلى ما يرضي الله، ويكبـــر الله عنـــدما يأخـــذ واحـــدة ممـــا ملكه من النعم للذبح أو النحر. وبهذا الـــربط واليقظـــة يكـــون مـــن المحســـنين فـــأمر الله نبيه ﷺ أن يبشر المحسنين بالقبول لصالح أعمالهم.

۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمۡ ظُلِمُواْۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصۡرِهِمۡ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ

مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ كَثِيرٗاۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الخوان : صيغة مبالغة في الخون والغدر.

هدمت: نُقِضت وقُوضت.

الصوامع : ج صومعة. كانت مختصة قبل الإسلام برهبان النصارى وعباد الصابئين

البيع: ج بيعة، البناء المخصص لعبادة النصارى.

صلوات : يقصد بها الأماكن المخصصة لعبادة اليهود.

العزيز : الذي لا يمكن التسلط عليه. ولا يعترض على ما يريد.

بيان المعنى الإجمالي :

من البشارة التي ختمت بها الآيـة السـابقة، أن الله حقـق للمـؤمنين أنــه يـدافع عـنهم مكر الكفرة، لأنه يحبهم ويبغض كل خوان للأمانــة التــي حملهـا، وأولئـك بكفـرهم قـد غدروا وخـانوا. وتبعـت البشـارة أن أذن الله لهـم فـي قتـال عـدوهم بعـد أن كـانوا مأمورين بالصبر على أذاه. ويثيرهم للجهاد من ناحيتين:

أولاهما: أنهم قد ظُلِموا، ومن شأن المظلوم أن تثور فيه داعية الانتصاف ممن ظلمه.

وثانيتهما: أن الله لا يسلمهم في معركتهم مع الشـرك إلــى أنفسـهم، بـل إنـه سـيرعاهم ويمهد له أسباب النصر. والله لا يعجزه ذلك فهو عظيم القدرة على كل شيء.

صدر الإذن من رب العزة أن يقاتل المؤمنـون الـذين تسـلّطوا علـيهم مـن المشـركين الطغاة، فأخرجوهم من ديارهم التي هي لهـم، ونشـأوا فيهـا ظلمـا وعـدوانا، وبـدون أن يكون لهم أي مبرر، إلا أمر واحد وهو توحيـدهم لله وقـولهم ربنـا هـو الله الواحـد الأحد. إنه لولا أن الله ثبت المؤمنين على جهاد المشـركين والـدفاع عـن التوحيـد وعـن الصوامع التي يلجأ إليها رهبان النصارى غالبـا فحموهـا مـن الهـدم، وكـذلك أمـاكن عبـادة النصـارى البيـع، وأمـاكن عبـادة اليهـود، والمسـاجد المتخـذة لعبـادة الله والخضوع له، لولا تلك الهدايـة الإلهيـة للـدفاع عـن الحـق وتثبيتـه لتغلـب الشـرك ومحى نور الإيمان. فاعلموا أن واجـبكم هـو الجهـاد للـدفاع نصـرا لـدين الله. إن الله يعدكم أنه ناصر مـن ينصـر دينـه. كيـف لا وهـو القـوي الـذي لا يلحقـه ضـعف، العزيز الذي لا يغلب.، ولا رادَّ لحكمه.

بيان المعنى العام :

38-إن الله يدافع عن الذين آمنوا...كل خوان كفور.

تصريح بنوع من أنواع البشارة التي ختمت بهـا الآيـة السـابقة. هـدف هـذه البشـارة أن تقوّي عزائم الذين آمنوا علـى مقاومـة صـولات الكفـر، فـإن الله القـوي الـذي لا يغلب يدافع عنكم، ومن كان الله ناصره فله الغلبـة. إن مـا تشـاهدونه مـن كثـرة لِعَـدَدِ الكافرين، وما تجمع تحت أيديهم من قـوة، وتسـلطهم علـى البيـت الحـرام والمناسـك دون معارض، كل ذلك لا يصمد شيء منه أمام قـوتكم التـي تسـتمدونها مـن الله الـذي يدبر الأمور، فقد قـدر لكـم الغلبـة والنصـر. وممـا يزيـدكم طمأنينـة أن الله يـبغض أعداءكم .إنه إذا كان يدافع عـنكم تبعـا لإيمـانكم، فإنـه يـبغض أعـداءكم ولا يحـبهم ويحبط مكرهم لأنهم خانوا الأمانة التي عُهِدَ بها إليهم مـن عبادتـه وعـدم الإشـراك بـه، فهو سبحانه لا يحب الخائنين ولا الكافرين.

39-أذن للذين يقاتلون بأنهم ...لقدير.

طمأنت الآية السابقة الذين آمنوا: أن الله يدافع عـنهم ويـبغض أعـداءهم. وتحقيـق ذلـك لا يتم بخـرق سـنن الله فـي النصـر والهزيمـة، ولكـن علـى المـؤمنين أن يقومـوا بواجبهم لنشر كلمة الله وإعلائها في الكون. ولـذلك حمَّلهـم القيـام بقتـال أعـدائهم، وأن يواجهوهم بالقوة التي تكسر شوكتهم، وتمكن للحرية في الدعوة إلى العقيدة الحق.
كان المؤمنون في مكة يُـؤْذَوْن بمتنـوع الإذايـات ويتسـلط علـيهم المشـركون، وكلمـا عادوا لرسول الله ﷺ يَشكُون مـا لحقهـم مـن الإذايـة، أمـرهم بالتحمـل والصـبر، وذلك من الحكمة التي طبعها الله عليه، إذا لـو أذن لهـم فـي الانتصـاف ممـن آذاهـم في بداية أمر الدعوة، لتمالأ المشركون علـى المسـلمين، وكانـت إذايـتهم أشـد وربمـا ضربوا الدعوة الضربة القاضية . فلما تكـون المجتمـع الإسـلامي فـي المدينـة أذن الله للمسلمين في القتـال، وعلـل حصـول الإذن، بـأنهم ظلمـوا ومـن حـق المظلـوم أن ينتصف من ظالمه. ويقرن القـرآن هـذا الإذن بتقويـة عـزائمهم حتـى لا يخشـوا مـن عدم تكافؤ القوى، وأن الشرك وإن كان ما يزال قويـا متكبـرا متجبـرا، فيعـدهم وعـدا ثابتا: إن الله، الـذي لا يعجـزه شـيء، قـادر علـى تمكيـنهم مـن النصـر، بتكثيـر عددهم، وإنزال السكينة في قلـوبهم، وإفسـاد خطـط عـدوهم .وروي عـن أبـي بكـر الصديق رضي الله عنه أنه قال : لما سمعت هذه الآية علمت أنه سيكون قتال.

40- الذين أخرجوا من ديارهم...إن الله لقوي عزيز.

تفتح الآية ببيان الظلم الذي سلط على المـــؤمنين: ألجـــأوهم إلـــى الخـــروج مـــن ديـــارهم التي ولدوا فيها، والمنازل التـــي نشـــأوا فيهـــا، وفصـــلوا بيـــنهم وبـــين الأمـــاكن التـــي ارتبطوا بها وارتبطت بهم، فهم إن غادروهـــا كـــانوا مغتـــربين يشـــتد حنيـــنهم إليهـــا. إن بقاء الإنسان في المكان الـــذي ارتبطـــت بـــه أســـرته حســـب الأعـــراف والتقاليـــد حـــق فطري تتبعه حريته فـــي ذاتـــه وفـــي عقيدتـــه وفـــي مالـــه، فتســـلط المشـــركين علـــى المؤمنين بإخراجهم من مكة رفضا لتدينهم بالإسلام، هو ظلـــم لـــم يوجـــد لـــه أي مبـــرر، إلا أن هؤلاء المؤمنين يعتقدون ويصرحون بأن ربهم هـــو الله، وهـــذا يفيـــد نفـــي جميـــع المبررات، لأن هذه العقيدة توجب استقرارهم فـــي أرضـــهم لا إخـــراجهم منهـــا . وشـــأن العصابات الصهيونية اليهودية اليوم في إخراج أهل فلســـطين مـــن ديـــارهم هـــو كشـــأن مشركي مكة مع المؤمنين ومع رسول الله ﷺ.

ثم حرضت الآيـــة المـــؤمنين علـــى الاســـتعداد للقتـــال ومباشـــرته بقـــوة وعـــدم تـــردد، بتفصيل سنة الله التي جرى عليها أمر العـــالم قرونـــا. أنـــه مـــا انتصـــر الإيمـــان علـــى الشرك وبقي على الأرض له معابـــده وأتباعـــه إلا بســـب قيـــام المـــؤمنين بالـــدفاع عـــن دينهم وعن أماكن العبادة التي تضمن اســـتمرار الـــدين فـــي المجتمعـــات. وهـــذا المعنـــى العام نتبينه بمتابعة نظم الآية.

يقول الله تعالى: **ولولا دفاع..... لهـــدمت صـــوامع.....كثيرا** . بقيـــت الصـــوامع قائمـــة ولم تهدم، يلجأ إليها الرهبان للتفـــرغ لعبـــادة الله، وبقيـــت البيـــع تســـتقطب النصـــارى وتجمعهم لمواصلة القيام بطقوســـهم الدينيـــة، واســـتمرت الأمـــاكن المخصصـــة للصـــلاة عند اليهود، (وإن كان المقصود بالصـــلوات وطريقـــة قـــراءة هـــذه الكلمـــة قـــد اختلـــف فيها المفسرون والقراء اختلافا كبيرا) وكشأننا فـــي التفســـير نقتصـــر فـــي الأعـــم الغالـــب على وجه واحد من الوجوه المحتملة. وبقيت المســـاجد تـــؤدي دورهـــا فـــي عبـــادة الله . تم ذلك بفضل ما أثار له قلـــوب المـــؤمنين للـــدفاع عنهـــا، والقيـــام فـــي وجـــه الشـــرك الباغي. إن هذا المدد الإلهي الـــدافع الـــذي طـــوع لـــه قلـــوب المـــؤمنين للجهـــاد لبقـــاء التوحيد ومحاربة المشركين هو الذي حمى مـــن الهـــدم وتواصـــل بـــه الحـــق وعبـــادة الله وحده. وثقوا بأن الله ينصركم، لأنه مـــن ســـننه التـــي لـــم تتخلـــف فـــي الماضـــي، ولا تتخلف معكم، أنه من ينصر دين الله ينصره الله ويهيـــئ لـــه أســـباب الغلبـــة. هـــذا وعـــد لا مرية فيه محقق، لأن الله منفرد بالقوة التي لا يلحقهـــا ضـــعف، وهـــو العزيـــز الـــذي لا يتسلط عليه أحد ولا يخضع لإرادة أي كان.

ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ
وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿41﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ
قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴿42﴾ وَقَوْمُ إِبْرَٰهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿43﴾ وَأَصْحَـٰبُ مَدْيَنَ
وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمْلَيْتُ لِلْكَـٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿44﴾

بيان معاني الألفاظ :

مكناهم : جعلنا لهم سلطانا.

العاقبة: الخاتمة.

أمليت : أمهلت.

أخذتهم :القدرة عليهم بإهلاكهم .

النكير : الإنكار المتولد عن الزجر القوي

بيان المعنى الإجمالي :

إن الذين تكفل الله بنصرهم، بما يمكّن لسلطانهم، هم الذين جمعوا بين صفات ثلاث بها يتقوم مجتمعهم ويتميز .يقيمون الصلاة التي تطهرهم وتزكيهم، ويؤتون الزكاة الرافعة لأسباب الشقاق والحسد، ويحرصون على نظافة المجتمع فلا يتغاضون عن منكر ولا يقصرون في الأمر بالخير والدعوة إليه .

لا تبتئس يا محمد من إصرار قومك على تكذيبك، فمن سبقك من المرسلين كان هذا موقف أقوامهم معهم. فقوم نوح كذبوا رسولهم، وكذلك عاد مع هود، وصالح مع ثمود، وإبراهيم مع قومه، ولوط مع قومه الفاسقين، وشعيب مع أهل مدين، وكذّب القبط موسى. وجرى الأمر معهم جميعا على طريقة واحدة: أني لا أعاجل بالعقوبة، بل أمهلهم إلى الوقت المحدد، فأمسك به في لحظة واحدة لا يفلت منهم أحد، فتعجبوا من الطريقة التي تم بها إنكاري عليهم .

بيان المعنى العام :

41- الذين إن مكناهم في الأرض...ولله عاقبة الأمور.

تأكيد للوعد السابق وبيان لقوله تعالى:(**ولينصرن الله من ينصره**) فالذين ينصرون دين الله، وتولى الله وعدهم بتأييده لهم على أعدائهم، وهزم من يحول بينهم وبين نشر كلمة الله، هم الذين إن أعانهم فمكن لسلطانهم في أرض الله، لم يلههم ذلك عن الوفاء بما التزموا به مما يميزهم بالصفات المنبعثة من داعية الإيمان الثابت في

قلوبهم، الذي من أجله قاموا بالجهاد، وفتحت لهم أطــراف الــبلاد. وذكــرت الآيــة مــن صفاتهم ثلاث صفات:

1) إقامة الصلاة الدالة على أن صــلتهم بــالله صــلة قويــة لا يلهــيهم عنهــا أي شــيء. والصلاة هي الرابطة الجامعة بين العباد وربهم وبين بعضهم وبعض.

2) إيتاء الزكاة، وبذلها دون أن تبقى الــنفس متعلقــة بمــا بــذلت، وهــي شــعور مــن المزكي بأن سعادته منقوصة إذا كــان إخوانــه فــي خصاصــة. وبهــا يلــتحم المجتمــع ويقضى على الحسد المنبعث في معظم أحواله عن تعالي الواجد على المحروم.

3) سمو المجتمع الذي مكن الله لسلطانه فــي الأرض ســموا يربطــه بالفضــيلة ارتباطــا يجعله يشمئز من الرذيلة ويقضي على أول ظهور لهــا. وينشــر الفضــيلة ويــدعو لهــا، وبذلك يتيسر للمجتمع فعل الخير.

كونوا واثقين إذا أنــتم التــزمتم بهــذه الصــفات، أن النصــر يصــحبكم، وأن ســلطانكم يتواصل مع الزمن، فإن المآل هو لله وبيده، وجميع مــا يحــدث فــي الكــون هــو فــي النهاية لله وحده.

42←44،وان يكذبوك فقد كذبت...فكيف كان نكير.

آنس الله نبيه، وذكره بسننه في الأمــم الماضــية الــذين عارضــوا رســلهم وكــذبوهم، يقول الله لنبيه لا تأس من صمود الكــافرين لمــاهم عليــه مــن الشــرك ومقــاومتهم لمــا تدعوهم إليه من الخير والاستقامة، فهذه هي العــادة التــي جــرت مــع مــن قبلــك مــن رسلي. فمن قبل قومك كذب قوم نوح رسولهم الــذي بقــي فــيهم ألــف ســنة إلا خمســين عاما يدعوهم إلى التوحيد إلى أن بلغ بــه اليــأس مــن إصــلاحهم، وكــذلك قــوم عــاد، وثمود الذين بعث الله فيهم صالحا، وكذلك قوم ســيدنا إبــراهيم الــذين أرادوا بــه كيــدا، وقوم لوط وعظيم جراءتهم علــى رســولهم وعلــى الملائكــة، وقــوم شــعيب أصــحاب مدين، وكذلك كذب القبط موسى عليه السلام.

كل أولئك واجهوا رســلهم بالتكــذيب، ونصــبوا العراقيــل فــي وجــه دعــواتهم، ومــا عاجلت العقوبة لواحد منهم، بل أمهلتهم إمهالا يقطع حجــتهم حتــى ظنــوا أنهــم آمنــون مما أوعدهم به رسلهم، وتشبثوا بالكفر وأصروا على الشــرك. ثــم بعــد ذلــك أخــذتهم كأنهم كانوا فارين من قبضتي، فإذا هم في لحظة يحاط بهــم مــن جميــع جهــاتهم. إنــه لما حل وقت تسليط العقوبة عليهم، لم يفلت أي واحــد مــن نيــل جزائــه. فتعجبــوا مــن الطريقة التي نفذت فيها إنكاري علــيهم الإنكــار المــاحق لهــم. فلتنتظــر قــريش إنكــار ربك عليهم على ذلك النحو العجيب.

فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَـٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ
وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ
يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ
سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا
وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

كأين : كثيرا ما .

خاوية: خالية.

المصير : المرجع.

المشيد: محكم البناء.

بيان المعنى الاجمالي :

كثير من أهل القرى الظالمة بالكفر والعناد، نفذنا فيها وعيدنا فأهلكناها، فخربت مساكنهم بضربة واحدة سقطت السقوف ثم انهارت عليها الجدران، ولم يبق منهم من يفلح الأرض فالآبار أصبحت معطلة، والقصور العالية الفخمة بدون ساكن.

ما لهم لم يتعظوا بما يحصل لهم من مشاهد الأسفار! كأنهم لم يخرجوا من أرضهم، كأنهم ينتقلون وليس لهم قلوب يعقلون بها ما وراء المشاهد، ويعتبرون بما وقع فيعدّلون تفكيرهم وسلوكهم حسب ما يقتضيه النظر في تاريخ الأقوام التي مراوبها من الآثار والأخبار. كأنهم صم لم يسمعوا. والعمى ليس في تعطل حاسة العين، ولكن العمى الحق هو عمى القلب الذي لا يزيد تصوره عن التصور الحاصل للأنعام، فتكون عقولهم مقفلة لا تدرك.

يسخر الكفار من الوعيد فيعرضون على رسول الله ﷺ أن يعجل لهم ما أوعدهم بهم من العذاب، ورد عليهم القرآن بأمرين :

أولهما: أن الذي أوعدهم ليس محمدا وإنما هو الله القادر الذي لا يخلف وعده لعدم موجب للإخلاف .

وثانيهما: أن استبطاءهم نزول العذاب مبنــي علــى تقــديرهم للــزمن المــرتبط بعمــرهم القصير، وبالنسبة للذات الإلهيــة المحيطــة بالماضــي والحاضــر والمســتقبل تتضــاءل الأبعاد الزمنية فيوم عند ربك كألف سنة مما تعدون وتحسبون.

ومما يقوم شاهدا على غفلتهم في تصورهم أن تــأخير العــذاب دليــل علــى انتفائــه. فــي تاريخ البشرية عدد كثير من أهالي القرى المكذبة، لم أعاجلهــا بالعقوبــة، ثــم لمــا حــل أجل أخذها، أطبقنا عليها ولم يفلت منها أحد. فإن المــآل لــي وحــدي لا يشــاركني فيــه أحد.

بيان المعنى العام :

45- فكأين من قرية أهلكناها ..وقصر مشيد.

صرحت الآية السابقة أن الله يمهل الكــافرين إلــى الأجــل الــذي قــدره ثــم يأخــذهم ولا يفلتون من عقابه. وأكد في هذه الآية أن ذلك لم يقتصــر علــى أمــم الرســل المــذكورين، بل هي سنته مع المكذبين جميعا، فإن أهل القــرى الــذين ظلمــوا بشــركهم، وتكــذيبهم لأنبيائهم استكبارا عن قبول الحق، وهم كُثْر تتابعوا فــي التــاريخ، سَــلَّطْنَا علــيهم مــا يستحقونه من عذاب واستأصلناهم مــن الوجــود، فمســاكنهم التــي كــانوا يــأوون إليهــا ويعتقدون في حصانتها، تحولت إلــى أنقــاض ســقطت ســقوفها ثــم وقعــت الجــدران عليها، وامتد الخراب من المباني إلى الحقول والمــزارع، فالآبــار التــي كانــت يســتقى منها لرواء الأرض تعطلت لفقدان أهلها، وكــم مــن قصــر مشــيد كــان ينــادي بنــاؤه بالعظمة والقوة أصبح خاليا بعد إهلاك أهله ! وعبرت الآيــة عــن ســرعة تنفيــذ الوعيــد وقوته. بأن إهلاكها كان كشيء تافه أخذ أخذة واحــدة . إن مصــير الكائنــات كلهــا إلــى مبدعها الذي أحدثها رب العالمين. وهذا المشهد المتكــرر المفصــلة صــورته تــدعو كــل ذي عقل إلى التحصن منه بالإيمان والاستقامة.

46-أفلم يسيروا في الأرض...القلوب التي في الصدور.

توبيخ مع تعجب، إن الأرض التــي يسَّــرها الله ليســير البشــر فــي مســالكها، ويــتم الاتصال بينهم وبين البلدان التي يدخلونها، ويتبــادلون مــع أهلهــا المصــالح والأخبــار، وما تعمر به أرجاء الأرض من آثــار تــدل علــى كثيــر ممــا حصــل للأجيــال التــي انقضت. كانت الأسفار تمثــل العمــود الفقــري لقبيلــة قــريش عليهــا يقــوم اقتصــادها، الأمر الذي أوقفهم على كثير مــن أخبــار الأمــم التــي عمــرت الأرض ومآلاتهــا، إنــه من العجب أن لا يفيدوا مما وقفوا عليه من تلكــم الأســفار ممــا يكــون لهــم بــه عبــرة. إنهم بتضييعهم للعبر التي هي تابع ضروري للســفر، كــأنهم لــم يســافروا ولــم ينتقلــوا

من أرضهم. ذلك أن السير فــي الأرض إذا لـم يسـتفد منـه السـائر مـا وراء المشـاهد الحسية يكون كأنه فاقد للعقل، يستوي مـع الحيـوان الـذي يقـف علـى مـا تنقلـه لـه حواسه ولا يكشف ما وراء المحسوس الذي هـو مـن نشـاط العقـل. تنقـل لهـم آذانهـم الأخبار، وتعرفهم بما تم لمن سبق ممن كان قـبلهم، كـأنهم سـمعوا أصـواتا لـم تنفـذ إلى عقولهم وتحركها للتأمل فيها، كـأنهم صـم، الآلـة موجـودة ونفعهـا معـدوم. ثـم حولت الآية طريقة العرض والتعجـب إلـى تقريـر حقيقـة موقظـة، تقلـب الظـواهر الخادعة وتدعو إلى ما هو فعـل مـؤثر. إن عمـى الأبصـار الحقيقـي لـيس فـي عـدم إدراك المبصرات، وتعطل حاسة العين عن القيـام بوظيفتهـا، ولكـن العمـى الحقيقـي عندما يرتسم في الدماغ الصورة الحقيقية فتلقى عقـلا مقفـلا أعمـى لا يـدرك مـا وراء المبصر.

وفي إسناد الإدراك للقلوب لا يقصد القرآن إلى القلـب الـذي يضـخ الـدم فـي العـروق وينبض لتغذية كل أجزاء الجسـم، وإنمـا يقصـد إلـى القـوة التـي بهـا يـتم الإدراك "العقل" إذ وَصَفَ القلـوب بقولـه يعقلـون. ولاشـك أن العقـل لا يـؤدي وظائفـه إلا إذا كان الدم الذي يضخه القلب يصل إليه بانتظام .

47- ويستعجلونك ...مما تعدون.

تقدم في الآية 44 فأمليت لهم ثم أخذتهم. وقلنـا فـي تفسـير الآيـة أن الله يمهـل تسـليط العذاب على الكافرين إلى الأجـل الـذي سـبق أن حـدده. وكـان المشـركون رافضـين رفضًا قاطعا لعقيدة البعـث والحسـاب. وتعبيـرا عـن رفضـهم يواجهـون الرسـول ﷺ يطلبهم تعجيل العذاب الذي هـددهم بـه، اسـتهزاء واسـتبعادا. وكـان جـوابهم مـن الله المالك للأمور بقوله : إن الذي وعـدكم العـذاب لـيس محمـدا وإنمـا هـو الله الـذي لا يعترض تنفيذ ما أوعد أي معترض، ولا يتحـول علمـه ولا يتغيـر، إذ علمـه سـبحانه بالمستقبل كعلمه بالحاضر والماضي. ومن ناحية أخـرى فـإن أعمـاركم القصـيرة هـي التي خيلت لكم أن العذاب لو كان حقـا لنفـذ، لأن الـزمن بالنسـبة لله الأبـدي الأزلـي شيء آخر، فيوم عند ربك يساوي ألـف سـنة بحسـابكم. فمـا تقدرونـه بعيـدا بمقيـاس الزمن، هو في الحقيقة غير ذلك.

48- وكأين من قرية ....وإلي المصير.

مما يدل على غفلة المكذبين بالوعيد المسـتدلين علـى عـدم وقوعـه بتـأخير تنفيـذه، أن الله أملى وأمهل في تاريخ البشرية، أمما كثيرة ولـم يعاجلهـا بالعقوبـة بمجـرد ظلمهـا، ثم لما حل الأجل الذي قدره أهلكها. فلينظروا فيما لفتت إليـه الآيـة السـابقة مـن الآثـار

الدالة على ذلك. إنه إليَّ وحدي مصائر النـــاس، لا يخـــرج أحـــد مـــنهم عـــن قبضـــتي. فتكون هذه الخاتمة محققة لمضمون ما قرر في الآية.

قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْا۟ فِىٓ ءَايَـٰتِنَا مُعَـٰجِزِينَ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِىٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ لِّيَجْعَلَ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَـٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَفِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

النذير : المحذر من شر متوقع.

المبين : الفصيح. الواضح الحجة.

مغفرة : عدم مؤاخذة بما فرط منهم قبل الإيمان من الشرك وما يتبعه من ضلالات.

رزق **كريم**: عطاء يجمع بين الوفرة وخلوه مما يكدر.

المعاجز : السابق الذي يعمل على تعجيز مسايره عن اللحاق به.

الرسول : المبعوث من الله ليبلغ شريعة.

النبي : من أوحى الله له ما يصلح به أمر قوم بحملهم على ما سبق من هدايته.

الإلقاء : الوسوسة.

الذين في قلوبهم مرض : المترددون المتشككون.

القاسية قلوبهم : المصممون على الكفر.

الشقاق : الخلاف.

البعيد: البالغ حدا قويا.

الذين أوتوا العلم : المؤمنون بما جاء على لسان رسل الله .

الإخبات : الاطمئنان والخشوع.

بيان المعنى الإجمالي :

أعلنها للناس حقيقة مدوية، قل للمشــركين لــيس لــي إلا وصــف واحــد، هــو أنــي أنذركم ما يترصدكم من شــر، أعــرفكم بــه صــريحا واضــحا. ثــم إن النــاس مــن نذارتي على فريقين :

فريق آمن وصلح عمله قــدَّر الله لهــم مغفــرة ذنــوبهم التــي ارتكبوهــا قبــل إيمــانهم، وسينشر لهم من رزقه ما يكسبهم الطمأنينة فــي الحيــاة الــدنيا، والســعة مــع الكرامــة يوم القيامة.

و فريق محض جهده وضاعف تصميمه ليغالب النــور الــذي جئــت بــه ويصــد النــاس عنه، إن أولئك سيكونون مع الجحيم يوم القيامة شيئا واحدا.

على هذا النحو بنى الله نظــام الكــون. فجميــع مــن تقــدمك مــن الأنبيــاء والمرســلين، كانوا يتمنون عند اتصالهم الأول بالوحي أن يهــدي الله بهــم النــاس بمــا يصــلح حيــاتهم الدنيوية والأخروية. وذلك ممــا يغــيض الشــيطان الــذي يســعى للحيلولــة بــين البشــر والاهتداء فإذا هو يعمل كل أساليب مكره وإغوائــه فــي قلــوب الــذين تمنــى المرســلون والأنبياء إصلاحهم. ويقــوم صــراع بــين الحــق الهــادي، وبــين وســاوس الشــيطان المضــللة. وتتــوالى الآيــات، والمبعوثــون يزيحــون الشــبهات ويظهــرون الطريــق المنجي، حتى يعلو ما جاؤوا بــه مــن الــوحي، وتخســأ ضــلالات الشــيطان فتنهــزم. وبتتابع البيان والوحي وجهود المبعوثين، يــتم تقريــر مــا جــاء مــن الله. والله متصــف بالعلم التام والحكمة، فــلا يغيــب عنــه شــيء ممــا وسوســت بــه الشــياطين، وهــو المتصرف التصرف الذي يُعلي به الحق.

إنه قدر الله الذي بنى عليه أمــر الكــون فــي صــراع الشــر للخيــر. فجعــل مــا يبثــه الشيطان يفتتن بــه فريقــان: الــذين تــرددت قلــوبهم واضــطربت بمــا خلخلهــا مــن الشكوك، والذين قست قلوبهم قسوة كانت بها في حجــاب دافــع لكــل نــور وارد . وكــلا الفريقين ظالم للحق ظالم لنفسه، فهما منغمسان في العناد انغماسا عظيما.

ومن ناحية أخرى جعل ما يتلقاه المؤمنــون مــن علــم الرســل وتتــابع الآيــات والبيــان الرافع للشبهات ما يطمئنهم بأن ما جئت به هو الحــق الــوارد عليــك مــن ربــك فيســتقر الإيمان في قلوبهم، وتخشع ظــواهرهم وبــواطنهم عنــدما يجــدون أنفســهم فــي ظــلال الإيمان الرخية الوارفــة. وإن الله بفضــله ورحمتــه يضــيف إلــى الهدايــة التــي وردت على لسان رسله تيسير الألطاف التــي يثبِّــت بهــا المــؤمنين علــى الصــراط المســتقيم المبلغ لرضوان الله من أقرب طريق.

بيان المعنى العام :

48- قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين.

تفتح الآية مؤيدة لرسول الله ﷺ، على أن ما سيخاطب بــه المشــركين، هــو أمــر مــن الله :"قل" فهو يبلغه منفذا لأمر ربه، أمر بــأن يبلــغ المشــركين وأن ينــاديهم بيــا أيهــا الناس لإيقاظهم من غفلتهم، وليعلمهم أنه نذير لهم، ينبــئهم أنهــم علــى بــاب مــن شــر سيحيط بهم، وأن نذارته ليست بالتورية ولا بــالكلام المــؤول، ولكنــه ينــذرهم بفصــاحة قولٍ ووضوح فــي المضــمون. وهــو رد لشــغبهم ومــا يتصــورونه مــن أن تكــذيبهم ومطاعنهم، وإذاية المسلمين، ستنتهي به إلى التســليم واليــأس . قــل لهــم مــا أنــا إلا نذير فصيح القول واضح الحجة .

50←51: فالذين آمنوا وعملوا...أولئك أصحاب الجحيم .

ترتب عن إنذاره ﷺ أن المنذَرين كانوا على فرقتين:

الأولى: الذين صدّقوا بما أنذرهم واتبعوا ما أنزل عليــه مــن ربــه، واعتقــدوا بوحدانيــة الله، ثم قرنوا إلى الإيمان رقابتهم لسلوكهم والتــزامهم بالأعمــال الصــالحة والبعــد عــن كل ما نهى الله عنه. اختص هؤلاء بأن الله ســيغفر لهــم مــا فــرط مــنهم قبــل إيمــانهم، من الشرك ومن الأعمال القبيحة التــي مــا كــان الشــرك يصــدهم عنهــا. ومــع ذلــك سيرزقهم الله ما يجمع بين الرضا النفسي والطمأنينــة القلبيــة، وخيــرات الــدنيا التــي لا يخالطها اللهث وفقدان القناعــة، وخيــرات الآخــرة التــي لا يشــاركهم فيهــا الكفــرة، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب شر.

الثانية : الذين بذلوا كل جهودهم، ودبروا أشــد أســاليب المكــر، ليصــلوا إلــى تعجيــز الرسول ومغالبته حتى يضيقوا عليه الخناق ويحولوا بينــه وبــين النــاس، وبــين النــاس ودينه ؛ تجمعهم الآية برباط واحد وتشــير إلــيهم إشــارة لا ينفلــت منهــا أحــد مــنهم، هم سيمتزجون بجحيم جهنم امتزاجا، كــأن نــار الجحــيم لا تكــون إلا بهــم، وأنهــم لا يكونون إلا مع الجحيم. بما تفيده كلمة الصحبة من الملازمة.

52-وما أرسلنا قبلك من رسول ...والله عليم حكيم.

سجلت الآية السابقة ما كان يعانيه النبــي ﷺ مــن مقاومــة المشــركين لمــا يبلغــه ممــا أنزل عليه من ربه، وجســم مقــاومتهم بــأنهم يتحركــون مســرعين فــي كــل وجهــة ليعاجزوا . ولا شك أن هذه الحركيــة المضــللة كانــت ترهــق النبــي ﷺ، فعقّــب ذلــك بهذه الآية ليسليه ويثبته. تمت صياغة الآية علــى صــورة التــذكير بســنة مــن ســنن الله التي جرت على كل من تحمــل وحيــا مــن الله، مــن الرســل الــذين جــاؤوا بــديانات وتشريعات يتألف منها مــنهج خــاص بهــم كنــوح وإبــراهيم وموســى وعيســى علــيهم السلام . وكذلك من الأنبياء المنحصرة مهمتهم في إحياء شــريعة ســابقة أتــى بهــا أحــد

المرسلين، وهم كُثُرٌ في بني إسرائيل، أو لإصلاح قومه بتجديد ما هو مستقر من مجموعة من الحق في شرائع سابقة.

يجتمع النبي والرسول في أن كلا منهما موحى إليه مكلف بإصلاح البشر، ويختص الرسول بأن شريعته تكوّن وحدة خاصة به، والنبي شريعته تجديد لما سبق أن أوحى الله به إلى رسول قبله.

أفادت الآية أن جميع الأنبياء والمرسلين ما وجدوا الطريق ممهدا لينفُذوا إلى أرواح أقوامهم وإلى عقولهم بما كان معهم من صريح الحق، واستقامته مع قوانين العقل والفطرة. لا تسل عن السعادة الغامرة التي كانوا يحسون بها عندما اتصلوا بالخيط الأول من الوحي، لقد كانت كل أمانيهم أن ينفذوا إلى المجتمع فيقيموا العلاقات فيه على أساس التوحيد والعدل والصلاح. ولا فرق في امتلاء قلوبهم بهذه الأمنية، بين سابقهم ولاحقهم، هم على مرتبة سواء في هذا. فقوله تعالى **إلا إذا تمنى**، معمول تمنى مقدر: أي تمنى الرسول والنبي هداية قومه بقبولهم لما جاءه من الله في العقيدة والسلوك والعلاقات الاجتماعية.

والشيطان الذي عزم على عداوة بني آدم بإضلالهم وإفساد عقائدهم وعلائقهم الاجتماعية، ومعاكسة الأنبياء والمرسلين، يزعجه اهتداء البشر، فيسعى بكل ما أوتي من مكر وخبث فيوسوس بالشرور والآثام، ويحرك وسوسته المضللة الحاجبة للهداية عن النفاذ إلى العقول والأرواح. ويلقي الشبه والمطاعن، ويصرف بالتالي العقول عن الانفتاح على الصواب والخضوع للبرهان.

يؤكد القرآن مثبتا لرسوله، أن القوة الشيطانية لا تصمد أمام قوة النور الهادي الذي معه، فإن الله ينسخ ما يلقيه الشيطان من شبه وضلالات، وما يحركه من شهوات، وتتوالى آياته وبيانه على لسان رسله فيفضح ما يلقيه الشيطان، ويعريه من الغطاء الساتر للحق ويهزمه في النهاية .

إن الطريقة التي يجري عليها التقويم في دحض وساوس الشيطان، تتم بإحكام الله لآياته وتقرير مضامينها في عقول المؤمنين، فيكرر البيان بمتنوع الأساليب. وكلما لون الشيطان خبثه لتحريف المنهج، قابلته الآيات الصريحة والقوية تزيل آثاره مقررة لما نزل. وهو معنى ثم يحكم الله آياته. فهي معاناة موصولة للرسول تنتهي بزوال ما لبس به الشيطان. والله سبحانه عليم بما يلقيه الشيطان في النفوس من الأوهام والأباطيل، عليم بما يصلحها، ومع سعة علمه سبحانه هو حكيم في هدايته للعالمين، تنهار أمام حكمته أباطيل الشر .

53- ليجعل ما يلقي الشيطان ....لفي شقاق بعيد.

إن تلكم الفتن من جانب، وسعي الرسل للإصلاح مـن جانـب آخـر، لـم يكـن مغالبـة من الشر الشيطاني للخير الإلهي، ولكن هـو قـدَرُهُ سـبحانه الـذي بنـى عليـه الكـون. فقد قدّر ببالغ حكمته أن تكون الحياة الدنيا دار ابتلاء يصطرع فيها الخير والشر.

أولا –هو نظام رتب فيـه جعـل مـا يوسـوس بـه الشـيطان، يسـتهوي بـه النفـوس الضعيفة المترددة ليفتنها فيغشي على البصـائر، ويعطـل العقـول بمـا يسـتولي عليهـا من ضلالاته التي تصرفهم عن التأمل فـي حقـائق المشـاهد الكونيـة والآيـات الربانيـة ويلهيهم بالشبهات التي تغمسهم في التردد والحيـرة. وتـأثير الشـيطان فـي هـذا النـوع من البشر يجد فيه نوازع تثيره للتغلب عليها فيعطلهـا. كمـا ينفـذ بسـهولة إلـى نفـوس الذين قست قلوبهم فهـي مصـمتة لا تلـين، صـممت علـى الـرفض، وعلـى العنـاد وجعلت مـن رفضـها ذاك حجابـا صـفيقا يمنـع أي شـعاع مـن الإيمـان أن يخـالط أرواحهم.

ويصدر الحكم على الفريقين: إنهما منغمسـان فـي الخـلاف والعـداوة، انغماسـا ذهـب إلى أقصى غاياته. ولذلك لا تجد في سلوكهم وأرجاعهم ولو ذرة من الخير .

54- وليعلم الذين أوتوا العلم ...إلى صراط مستقيم.

وثانيا: هو نظام رتب فيه على بعثة رسـله، ومـا أيـدهم بـه مـن الأدلـة والبـراهين العقلية، وما تتابع على لسانهم من إقامـة الحجـج وإزاحـة الشـبهات، ومجادلـة أهـل الباطل، ونَسْخِهِ لما يلقيه الشيطان بظهـور عمايـة الصـادين عـن الإيمـان، مـا يبلـغ المؤمنين الذين استقر في عقولهم علوم الـوحي بـرد اليقـين، وأن مـا أنزلـه الله عليـك هو الحق الأصفي الوارد عليك من ربك الـذي تـولاك بهدايتـه. فتتركـز الطمأنينـة فـي مشاعرهم ويحل الإيمان الرضي فيهـا . فتخشـع القلـوب لتجـد أعظـم لـذة وأزكاهـا وهي في جوار ربها تحت وارف الظل الظليل لهدايته.

وتؤكد الآية في خاتمتها علـى فضـل الله : أنـه بعـد أن يرسـل رسـله بالهـدى وديـن الحق، يخص المؤمنين بتيسرهم إلى الاهتداء، ويحـيطهم بالألطـاف المثبِّتـة لهـم علـى اتباع الحـق اتباعـا لا يحيـدون عنـه ولا يلتـوي بهـم المسـلك ويحقـق لهـم الفـوز بالسعادة.

وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٥٦﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا

فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

مرية : شك وريبة .

الساعة : يوم القيامة.

يوم عقيم : يوم حرب يستأصلهم.

مهين : مذل.

الرزق الحسن : العطاء الذي يرضي صاحبه الرضى التام .

بيان المعنى الإجمالي :

رغم ما توالى على أسماع المشركين من الآيات والحجج الواضحة والإنذار، فإن قلوبهم المريضة بالشك لا تسلم منه، يصحبهم ذلك إلى يوم البعث الذي يأتيهم بغتة أو إلى يوم استئصالهم في الحرب الذي هو آخر أيام حياتهم ولا يوم بعده.

إن يوم القيامة يعلو فيه الحكم الفاصل من رب العزة بين جميع الفرق التي كانت تتنازع الدعوى أنها على حق. أما الذين جمعوا إلى الإيمان الالتزام والتطبيق للأعمال الصالحة، فمآلهم الاستقرار في جنات جامعة لضروب النعيم . وأما الذين جمعوا بين الكفر بآيات الله وتكذيب الرسل فيما بلغوهم عن الله، فأولئك مؤهلون للعذاب المذل لهم، وسينفذ فيهم.

ثم نوه القرآن بالمهاجرين الذين تركوا ديارهم وأموالهم وأهليهم وموطنهم، وخرجوا مفضلين صحبة رسول الله ﷺ، الممكّنة من ثباتهم على الطريق الذي يرضي رب العالمين، وأقاموا على ذلك إلى أن استشهدوا أو ماتوا. وصرحت بما كتبه الله لهم من الجزاء: إن الله سيمكنهم من ضروب فضله البالغ درجة الكمال، وواسع عطائه ما يملأ نفوسهم رضا. كيف لا والله هو الرزاق الذي لا ينقص من ملكه شيء ولا يمن مستكثرا. بكل تأكيد سيسلك بهم مداخل العز الذي يرضيهم فلا يكون لهم مطمح وراءه. إن الله عليم بما صدر منهم في حياتهم يصحب علمه الدقيق، حلمه الذي يعفو عن السيئات فيخلص تلكم النفوس من جميع النقائص، ثم يضاعف الحسنات.

بيان المعنى العام :

56- ولا يزال الذين كفروا...عذاب يوم عقيم.

رغم ما أيد به الله رسوله مــن الحجــج والآيــات، ومــا أعلنــه ﷺ مــن التحــذير مــن وسوسة الشيطان المضللة، فإن الذين كفروا مــن مشــركي مكــة سيســتمر شــكهم فــي رسالتك، وتتواصل ريبتهم في صــدقك، لا يخــرجهم مــن حيــرتهم إلا أحــد أمــرين: مثولهم بين يدي الله يوم القيامــة، اليــوم الــذي يــأتي مباغتــا فتتكشــف فيــه الحقــائق ويزول كل شك وريب، . أو يوم يقضــى علــيهم فــي حــرب تستأصــلهم فــلا يعيشــون يوما بعدها . ينتهي وجودهم وينتهي شكهم .

56←57: الملك يومئذ لله ...في عذاب مهين.

غيَّبتْ الآية السابقة الجزاء بقيام الساعة، وتابعت هــذه الآيــة تفصــيل بعــض أمــر يــوم القيامة. فالأمر الأول الذي عنيت بــإبرازه: أن الملــك فــي ذلــك اليــوم يخــتص بــه الله سبحانه، فهو وحده المتصرف، وهو وحده الحــاكم بــالحق، وهــو وحــده المنفــذ لمــا يحكم به. يعلن حكمه بين الطوائف المختلفة التي كانت تُرَوِّج مــن الشــبه مــا تقــوي بــه وجهة نظرها. فيبطل جميع تلك الشبه الباطلة، ويثبت الحق والحق واحد.

حكمه النافذ: أن الذين آمنوا بما أنزلــه علــى رســوله، وطوعــوا قــدراتهم لتطبيــق مــا أمروا به فالتزموا في حيــاتهم الأعمــال المتصــفة بــالخير والصــلاح، يســتقرون فــي الجنات الشاملة لضروب النعيم التي تطمــح إليهــا النفــوس. وأن الــذين واصــلوا ثبــاتهم على جحد الحق ومعاكســة الــدين، وكــان مــوقفهم مــن الآيــات الدالــة علــى صــدق المرسلين، أن كذبوا بها ورفضــوها واتهمــوا الرســل بــالتزييف؛ أولئــك يســلط علــيهم العذاب المذل وهم أهل له .

58←59: والذين هاجروا في سبيل الله...وإن الله لعليم حليم .

نوهت الآية بفريق من المؤمنين لهــم مزيــة أُوتوهــا مــن فضــل الله لا يشــاركهم فيهــا غيرهم ؛ هم الذين تركوا أهاليهم وأملاكهم، وموطنهم بما لهــم فيــه مــن علاقــات بيئيــة وإنسانية صحبتهم من يــوم ولادتهــم، تركــوا كــل ذلــك وخرجــوا مفضــلين صــحبة رسول الله الله ﷺ إلــى المدينــة المنــورة. هــاجروا مفضــلين قــربهم مــن رســول الله ليواصلوا مسيرتهم في الطريق الذي يزيدهم قربــا مــن الله؛ ثــم بعــد ذلــك ثبتــوا علــى اختيارهم ذاك، إلى أن ضموا إلى شرف الهجــرة شــرف المــوت فــي الجهــاد لنصــرة الدين، أو إلى أن توفــاهم الله ومــاتوا علــى الإيمــان والهجــرة. أســند الطبــري إلــى سلمان بن عامر الضبي قــال : كــان فضــالة الأنصــاري بجزيــرة رودس أميــرا علــى أرباع الجيش، فخرج بجنازتي رجلين، أحــدهما قتيــل والآخــر متــوفى، فــرأى ميــل

الناس مع جنازة القتيل، فقـال :أراكـم أيهـا النـاس تميلـون مـع القتيـل وتفضـلونه، فوالذي نفسي بيده ما أبالي في أي حفرتيهمـا بعثـت، اقـرأوا قـول الله تعـالى: **والـذين هاجروا في سبيل الله ثم قتلوا أو ماتوا ليرزقنهم الله رزقا حسنا .**

والله ذو الفضل العظيم، تكفل بأن يفيض عليهم من واسـع عطائـه العطـاء الـذي يمـلأ نفوسهم غبطة، فلا يبقى لها متعلق بشـيء، وتمتلـئ رضـى بمـا أوتيـت، وسـيدخلهم من مداخل العز ليستقروا في منازل العز المحقق لكل ما يطمحون إليه.

وبكل تأكيد فإن الله هو العليم الحليم. هو عليم بكـل مـا صـدر مـنهم، وعلمـه الـذي لا يغيب عنه شـيء، يصـحبه صـفة حلمـه التـي تضـاعف الحسـنات وتعفـو عـن السيئات، ولا تناقش المؤمنين في الحساب، فمن نوقش الحساب لا يسلم.

۞ ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإيلاج : الإدخال.

الحق : الصدق الذي لا زيف فيه.

الكبير : الكامل القدرة.

بيان المعنى الإجمالي :

تنعطف الآية على مضامين الآيات السابقة لتثبتهـا، وتنتقـل بالمخاطـب إلـى مضـمون جديد، هو قاعدة في تحديـد قـانون العقوبـة للبـادئ بـالظلم. إن المظلـوم قـد لحقتـه الإذاية من ظالمه، وفوق ذلك تسـلط عليـه الظلـم دون سـبب .فالظـالم بـاغ مجـاوز للحدود. فإذا قام المظلوم بردع ظالمه بمثل ما ناله منـه مـن أذى ولـم يـزد علـى ذلـك، فإنه موعود بأن الله سينصره على ظالمـه، وسـيرعى الله سـبحانه دفاعـه عـن نفسـه، لأن البادي أظلم، والله الكامل يعفو ويغفر.

ومظاهر التصرف في نظام الكـون تنـادي بـأن الله وحـده هـو المـدبر لأمـره، يـأتي النهار على الليل فيندمج فيه شيئا فشيئا حتى ينزع ظلامـه، ويـندمج الليـل فـي النهـار حتى يذهب نوره، والله هو المتصرف فـي تقلـب الظـاهرتين لا يخفـى عليـه شـيء، فتصرفه أكمل تصرف ونظامه أتم نظام.

إن ذلكم التصرف الحكيم النافذ تم بسبب أن الله هو الإلــه الحــق الــذي انقــادت لــه كــل الكائنــات، وأن الآلهــة التــي تــدعونها أيهــا المشــركون مــن دون الله انحصــر فيهــا الباطل، فهي زائفة ليس لهــا أي وزن ولا تــأثير. إن الله وحــده هــو صــاحب الجــلال والكمال، القادر الذي تخضع له جميع الكائنات.

بيان المعنى العام :

60- ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به...لعفو غفور.

ذلك، افتتحت الآية باسم الإشارة "ذلك" لتثبيت ما تقــدم فــي الآيــات الســابقة، ولإعــداد المخاطب لمضمون ما سيرد عليه بعد. وهو أمر مهم قدمتــه الآيــة كقاعــدة فــي التعامــل مراعية أن عدم عفو المظلوم عمن ظلمه، وعقــاب الظــالم بمثــل مــا صــدر منــه فــي العنف لا ينزل بمرتبــة غيــر العــافي إلــى ســخط الله عليــه، بــل بــالعكس فــإن الله سينصره قطعا على من ابتدأه بالظلم. وأنت إذا تعمقت فــي عمــل المبــادر بــالظلم تجــده باغيا متجاوزا لما ينبغي أن تكون عليه العلاقــات بــين النــاس. فالبــادئ بــالظلم إذايتــه من اعتدائه ظلما، ومن كونه كسر العلاقة التي كــان مــن واجبــه أن يراعيهــا، وأثــار المظلوم، فيكون بذلك مستحقا لعقوبة أشــد مــن قــدر الإذايــة التــي ابتــدأ بهــا .ولكــن المسلم الذي لطَّف الإسلام من أرجاعه إذا اقتصر على رد الظلــم بمثلــه فإنــه يكــون قــد تنازل عن شيء من حقه، وحرضته الآية أن يكتفــي بمثــل الإذايــة التــي نالتــه، لأن الله وهو الكامل متصف بالعفو والمغفرة . والآية تشــير إلــى الوضــع الــذي كــان عليــه المسلمون في أول أمرهم، وتسلط المشركين عليهم بســلبهم حــريتهم فــي مــا ارتضــوه من عقيدة وعبادة وسلوك، وأن الله ســيهيئ لهــم الأســباب التــي يــردون بهــا عاديــة الكفار، ويحقق لهم النصر.

61-ذلك بأن الله يولج الليل في النهار...و أن الله سميع بصير.

إن ذلك الوعد بالنصر على ظلم المشركين هو جار على سنن الله في الخليقة. فانظروا إلى تعاقب الليل والنهار، تأمّلوا في تلكم الظاهرة التي تتجدّدُ كل يوم أمام أنظاركم، كيف يدخل الله الليل في النهار، فما يزال يغطي ضوء النهار ظلمة الليل حتى يجلي الكون ويذهب بالظلمة، وينهزم الظلام. وعلى ذلك النحو يتصرف الله في الفئتين المتقابلتين فئة الذين يعملون على حجب أنوار الإيمان، ويسعون لإبقاء الناس في ظلام الشرك، أن الله يقوي أشعة الحق شيئا فشيئا حتى يهزم الشرك وأهله.

وفي التنصيص على تقابل إيلاج الليل في النهــار فتــذهب ظلمتــه، وإيــلاج النهــار فــي الليل حتى يذهب ضوؤه، إبــراز للقــدرة التــي تتصــرف فــي الكــون حســب الحكمــة

والتقدير السابق، فلا يغتر المشركون بما تهيــأ لهـم مـن صــولات، فــإن الله لا يخفــى عليه شيء من أمرهم، يسمع كل مــا يصــدر عــنهم، وينكشــف لــه تمــام الانكشــاف، ويرتب عليه ما يريد أن يريد أن يرتبه في أجله الذي قدره له.

62-ذلك بأن الله هو الحق...العلي الكبير.

ذلك التصرف الحكيم الشامل مرتبط بأن الله هو الحــق الــذي تنفــذ إرادتــه فــي الكــون وفي البشر، فهو الذي ينصر أوليــاءه، ويجــري علــيهم نعمــه المَرْضِــيّة، وينفــذ مــا أوعد بــه المشــركين والمعانــدين. فليطمــئن المؤمنــون بــأنهم تمســكوا بــالله المتفــرد بخصائص الألوهية جميعها فهو الإله الحق .

وبالمقابل فإن الــذين تــدعونهم أيهــا المشــركون، وتتقربــون إلــيهم وترجــون مــنهم العون، انحصر الباطل فيهم. فكأنه لا باطل إلا ما تعبدونه.

إن الله هو العلي الأعلى لا يسمو إلى جلال مقامــه أي كــائن، وأنــه القــادر الــذي تنفــذ قدرته في كل أمر . مما يؤكد زيف آلهتهم وعجزها.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

تصبح : تصير.

لطيف : المحكم للأمور برفق.

خبير : عليم بحاجاتهم .

سخر : جعل ما كان عصيا سهل الانتفاع به بدون ممانعة.

بيان المعنى الإجمالي :

ألم تبصر أيها الإنسان ما يتكرر على ناظرك من أعمــال القــدرة الإلهيــة بــإنزال المــاء من السماء، ثم ما يرتب عليه من إكســاء وجــه الأرض بســاطا أخضــر، ينتهــي إلــى حصول أقوات البشر والأنعــام. إن تجميــع الظــروف الملائمــة التــي بهــا يــتم إنــزال

المطر ثم تقبل الأرض لتلك المياه وما يحدث فيها مـــن تفـاعلات، يـدلك ذلــك علـــى أن الله يُحكِم تصرفه في الأمور برفق، وهو الخبير بكل مرحلة وما يتلوها.

وهو المتفرد بملك كل كبيرة وصغيرة فـــي الكـون سـمائه وأرضــه، لا مالــك سـواه، ثبت له الملك لذاته لا معين له هو الغني عـــن كـــل مســاعدة، وهـــو المســتحق للحمــد والثناء على حكمته ونعمه.

انتبهوا ولا تغفلوا عن ظاهرة تطويع الله لكـم الأرض ومـــا عليهـــا مـــن حيـــوان ونبـــات وجماد، وما حوته في بطنهـــا مـــن معـــادن وخيـــرات. فـــبعض الحيوانـــات ركـــب فـــي طبعها الانقياد للإنسان وخدمته، وبعضها فتح لـــه عقلـــه فـــأدرك خصائصـــها وقوانينهـــا فمكنه بذلك من الانتفـــاع بهـــا وقضـــاء مصـــالحه وإخضـــاعها لإرادتـــه .وكمـــا ســـخر اليابسة فقد سخر البحر، فهداه إلى صنع الفلك، وإلـــى قـــوانين الـــدفع والقـــوة المحركـــة فإذا هي تخترق البحـــار بمـــا ضـــبطه ســـبحانه. وعمَّـــرَ الســـماء بالكواكـــب والمجـــرات وقدر بينها من الجاذبية التي تمسك كل كوكب وكـــل مجـــرة فـــي المســـار الـــذي تســـير فيه دون أن تصطدم بغيرها أو أن تهـــوي علـــى الأرض، إلا فـــي الوقـــت الـــذي يريـــد ذلك، وعندها لا راد لما قضـــى بـــه. والله ســـبحانه رؤوف بعبـــاده يســـر لهـــم حيـــاتهم على وجه الأرض ورحمهم بما جمع لهم من ألطافه وعونه.

وفوق كل تلكم المظاهر التي لفـــت لهـــا الأنظـــار لتـــوقن بـــأن الله هـــو الحـــق، هومـــا جرى على كل إنسان. إنه كان معـــدوما، فأحيـــاه الله، ولا ســـبيل إلـــى ادعـــاء تـــدخل قدرة أخرى في الإحياء. وأنه يتصرف فيـــه فيســـلبه الحيـــاة ويميتـــه فـــي اللحظـــة التـــي قدرها. ومن أحيا ثم أمات قادر بالضرورة علـــى إعـــادة الحيـــاة، ولكـــن الكفـــر يحجـــب الحق عن العقل ويعمي البصيرة.

بيان المعنى العام :

63- ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء...خبير.

افتتحت الآية بسؤال إنكاري لإثارة المدارك للتأمل، وتَجـــاوُزِ مـــا توجبـــه الرتابـــة مـــن الغفلة. وهو سؤال موجه إلى كل مـــن تصـــح منـــه الرؤيـــة، باعتبـــار أن ذلـــك مظهـــر كوني سار متكرر. متعلَّق الرؤية هو إنزال المـــاء مـــن الســـماء. إنـــه لا يحـــدث ذلـــك إلا بعد تحقق ظروف عديدة لا يمكن أن تتآلف إلا بإرادة وقـــدرة. فكثيـــرا مـــا تتلبـــد الســـحب وترعد السماء ويخترق البرق أرجاءها، ثم تهـــب ريـــح فتمـــزق الســـحاب ويتلاشـــى ولا تنزل قطرة على الأرض العطشى.

ولا يقتصر التدبير المحكم الهادي إلى تعميق الإيمـان فـي الـنفس علـى إنـزال المطـر، بل ينضاف إلى ذلك ما قدر من أحـداث تتلـوه، هـو تحـول الأرض الجـرداء اليابسـة المغبرة إلى بساط أخضر، من النبات الذي يكون قوتا للبشر والأنعام.

روي عن عكرمة مولى ابن عباس أنه قال :هـذا لا يكـون إلا بمكـة وتهامـة. يعنـي أن اخضرار الأرض عقب نزول المطر لا يكـون إلا بهـذين المكـانين، وأمـا بقيـة بقـاع الأرض فإن انتشار الخضرة يتم بعد مدة. وقـال القاضـي أبـو محمـد بـن عطيـة أنـه شاهد هذه الظاهرة في السوس الأقصى قال : نزل المطـر لـيلا بعـد قحـط، وأصـبحت تلك الأرض الرملة التي نسفتها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف دقيق [1].

إن من تأمل في ذلك يتعمق اقتناعه، بأن الله يحكم تصـرفه فـي الكائنـات فتبلـغ تمـام ما أراده لها برفق تترتب كل مرحلة علـى مرحلـة سـابقة دون اخـتلال. وهـو الـذي لا يخفى عليه أي جزئية في مراحل التواصل الذي يتم به الإيجاد.

64- له ما في السماوات ...الغني الحميد .

لما لفتت الآية السابقة الأبصار إلى التعمـق فـي ظـاهرة نـزول المطـر مـن السـماء، وما ترتب عليه من خلق النبات، أكملت هذه الآية ملحظـا آخـر هـو دخـول ذلـك فـي ملك الله . فهو سبحانه خالق وهو مالك لكل ما فـي السـماوات ومـا فـي الأرض، التـي منها السحب والمياه والأرض والنبات.

وتفَرُّدُ الله بالملك هو تفرد لا يشاركه في صفته تلك أحـد، فهـو الغنـي بذاتـه، يحـدث ما يحدث ويرتب مـا يرتـب دون حاجـة لعـون، وفـي ذلـك تعـريض بزيـف آلهـة المشركين فهي لا تستغني في ذاتها عن صـانع ينحتهـا، وعـن قَوَمَـةٍ ينفضـون عنهـا الغبار ويرفعونها إن سقطت.

وغناه سبحانه يحـرك القلـوب والعقـول بالتسـبيح بحمـده والثنـاء علـى كمالـه. ولا يستحق الحمد الكامل سواه.

65- ألم تر أن الله سخر لكم ...لرؤوف رحيم.

لفْتٌ آخر للأنظار حتى لا يمر عليها المشـهد وهـي غافلـة عنـه، يسـر الله كـل مـا أودعه من الكائنات الأرضية فطوّعها للإنسان، يـتحكم فيهـا ويسـوقها إلـى مـا ينفعـه، سواء في ذلك الحيوانات أو الجمـادات. بنـى طبيعـة بعضـها علـى الانقيـاد للإنسـان، وقبولها لتنفيذ ما يريده منها سواء أكانت أبدانها ضـخمة تفـوق قوتهـا قوتـه، أو كانـت ضئيلة تنفلت من حواسه. وما كانت منهـا متوحشـة تفـر منـه. عرفـه علـى قوانينهـا

[1] المحرر الوجيز ج10ص314/315

ونواميسها، فتمكن من التسلط عليها لتحقـق لــه أغراضـــه، كــالكلاب المعلمــة والبــزاة وإخضـاع الوحوش الكاسرة لمروضيها . وكــذلك الجمـــادات بمعرفتـــه لقوانينهـــا، اقتــدر الإنسان على تطويعها أيضـــا فــتمكن مـــن حســـن الاســتخلاف فـــي الأرض وتعميرهـــا. وكما تم ذلك في اليابسة تم في البحار، ألهمه قــوانين الــدفع المـــائي فبنـــى الســفن التـــي ما يزال يجود فيها حتى بلغت اليوم منشـــآت ضـــخمة تجــوب البحـــار بأثقـــال عظيمـــة، مرتفعة أبراجها جامعة لمتنوع ما يريده الإنسان منهـــا فـــي الســلم والحــرب. كــل ذلــك بأمره سبحانه أي بما أودع في الماء من دفع على مقادير دقيقـــة، ومـــا فــتح إليـــه عقــل الإنسان من النفاذ إلى القوانين التي أنشـــأ بهـــا المحركـــات والطاقـــة، ومعرفـــات الاتجـــاه واحتياطات السلامة. فتبارك الله أحسن الخالقين.

ثم إنك إن نظرت إلى السماء وما عمـــرت مـــن كواكـــب ومجـــرات لا يعلـــم عـــددها ولا ثقلها إلا خالقها، تسبح في الفضاء الكـــوني المترامـــي الأطـــراف، قـــدر بينهـــا جاذبيـــة مقدرة تقديرا لا زيد فيه ولا نقـــص، تعلـــو الأرض ولا مـــانع لأي منهـــا مـــن الســقوط والارتطام بالأرض إلا ذلك الإحكام فـــي تســـييرها وفـــي جاذبيتهـــا، وفـــي علاقـــة كـــل كوكب بغيره، وفي علاقة كل مجرة بغيرها من المجرات التـــي تـــم قيـــاس بعـــض أبعـــاد منها، بعد التقـــدم العلمـــي بالســـنوات الضـــوئية. ومـــا هـــو محجـــوب تثبتـــه القـــوانين الحسابية ويستعصي عن كشف كل مكنوناتـــه . إن جرمـــا مـــن تلكـــم الأجـــرام الســماوية لو اختلت جاذبيته فخرج عن مســـاره وارتطـــم بـــالأرض لتهشـــمت وتنـــاثرت أجزاؤهـــا كما تتناثر حبات الرمان عند ارتطام الرمانة باليابسة. مـــن الـــذي يحفـــظ ذلكـــم التـــوازن؟ لا يحفظه إلا أمر واحد، هو الأمر الإلهي المنظم النظام الشامل.

إن الله موصوف بالرأفة بعبـــاده يســـر لهـــم الحيـــاة علـــى وجـــه الأرض، ويســـر لهـــم الانتفاع بما فيها من خيرات، ويســـر لهـــم التعـــرف علـــى كثيـــر مـــن قـــوانين الكـــون وأسراره، ودفع الضر عنهم. ورحمهـــم بضُـــرُوب الرحمـــة التـــي شـــملتهم فـــي حـــال انتباههم وفي حال غفلتهم، في حال اســـتقامتهم، وفـــي حـــال انحـــرافهم، ولـــم يعـــاجلهم بالعقوبة وأمهلهم ليعودوا إليه فيقبل توبتهم. رحمته وسعت كل شيء.

66- وهو الذي أحياكم ...إن الإنسان لكفور.

أكدت الآية السابقة –62–أن الله هـــو الحـــق، وأن جميـــع الآلهـــة التـــي يعبـــدونها مـــن دونه باطل وزيف. وأتبع تلكم الحقيقة بمـــا ذكـــره مـــن تفـــرده بالتصـــرف فيمـــا نصـــت عليه الآيات التالية. ومن أعظم ما يقوم دليلا على أنه وحـــده الإلـــه الحـــق، نفـــخ الـــروح في الإنسان التي بها تتَحَقَّقُ الحياة. إنـــه بـــأدنى تأمـــل يـــدرك النـــاظر أن الله هـــو وحـــده الذي أوجدنا أحياء، وأنـــه يســـلب منـــا الحيـــاة متـــى أراد، ولا يـــدري أي فـــرد متـــى

سيموت، إذ الإماتة كالحياة بيده وحـده. هـذه التـأملات تفضـي بالعاقـل إلـى أن مـن أحيا ثم أمات قادر من باب أولى وأحرى أن يحيـي بعـد المـوت. وهـي إحـدى ركـائز العقيدة التي بعث بها المرسلون. ومع وضوح الأدلة علـى إمكـان البعـث، ومـا أقامـه الرسل من الآيات البينات على أنه واقع لا محالـة، فـإن الـذي منـع البشـر المكـذبين بالبعث، هو ما بنيت عليه عقولهم مـن الإصـرار علـى الانكـار ورفـض كـل بارقـة تنير السبيل. فالإنسان الكفور الجاحد هو الذي أصر على الرفض لهدايات الله.

لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِى ٱلْأَمْرِ ۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ ٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ

بيان معاني الألفاظ :

المناسك : اسم مكان النسك بمعنى العبادة.

بيان المعنى الإجمالي :

كما يتصرف الله في الكون ذلكم التصرف، كذلك يهـدي كـل أمـة إلـى أمـاكن العبـادة وطرقها التي يرتضـيها. فـاقطع منازعتـك لهـم فـإنهم لا ينطلقـون إلا مـن التعصـب للباطل. لا تكترث بتشغيبهم وواصل دعوتك إلى الـدين الـذي أوحينـاه إليـك، فأفْسِـدْ كل شبهة يضللون بها. وتيَقَّنْ أنك مـتمكن مـن السـير علـى الطريـق السـالك المبلـغ للغاية من أخصر وجه. وإن واصلوا المجادلة فقل لهـم: إن الله يعلـم مخالفـة مـا تبدونـه لما هو في قلوبكم. والله سيظهر حكمه يـوم القيامـة فيتبـين الـذين كفـروا أنهـم كـانوا على باطل، وأنك متمكن من الهدى الذي جاء من ربك.

قد علمت أن الله يحيط علمه بمـا فـي السـماوات ومـا فـي الأرض مـن كائنـات ومـا يجري فيها من أحداث. وإحاطة علمه بذلك تقوم دلـيلا علـى علمـه بمـا كـانوا يرتبونـه في مجادلتك من غمط للحق، وانكشاف الغايات التي أضمروها.

إن علم الله بكل ذلك مثبت في كتـاب لا يزيـد ولا يـنقص ولا يقبـل التبـديل. وإحاطـة علم الله بما سيتحقق في مستقبل الأزمان وتوثيقـه فـي الكتـاب المحفـوظ عنـده، الـذي لا يتصور بأي صورة من كتب البشر، كل ذلك أمر يسير تحققه من القادر العليم.

بيان المعنى العام :

67- لكل أمة جعلنا منسكا...لعلى هدى مستقيم.

كما أن الله تفرد بالإحياء والإماتة ثـم البعـث، وأجـرى كـل ذلـك علـى مـا تقتضـيه الحكمة البالغة، فإنه سبحانه هو الذي هـدى كـل أمـة إلـى المكـان الـذي يعبـد فيـه، فالمنسك هو مكان العبادة الذي فضله الله لكل أمة ليتقربـوا إليـه بالعبـادة فيـه. ويطلـق المنسك أيضا على القربان كالهدايا والأضاحي.

إن الأماكن التي خصها الله بأداء عبادة الحج مـن الطـواف والسـعي وعرفـة والمشـعر الحرام ومنى هي مناسـك الحـج، كمـا أن الهـدايا وأحكامهـا مـن الأنـواع المقبولـة ومكان التقرب بها ووقته، هي من المناسك. وإذا كان الله قد أوقـف كـل أمـة علـى مـا يرتضيه منها في كل ذلك، فإنـه خـص أمـة محمـد بجعلهـا المحبيـة لشـريعة سـيدنا إبراهيم عليه السلام في الحج وما يتصل به.

وإذ تبين أن ما عرفه الله لنبيه من المناسك هـو الحـق الـوارد مـن الله، فـأعرض عـن تشغيبهم ولا يهُمَّنَك مكابرتهم فـي الحـق، ومـا ينسـبونه لأنفسـهم مـن كـونهم علـى شريعة إبراهيم التـي حرفوهـا فأفسـدوها. لا تكتـرث بمـا يروجـون ولا تمـارهم ولا تنازعهم . وهو كناية عن كون ما يقدمونـه مـن التنويـه بـآلهتهم سـاقط لا قيمـة لـه. واثبُتْ على مواصلة الدعوة إلى الدين الذي أوحِي إليك مـن ربـك، فـإن تركيـز الحـق لا يستغني عن المتابعة، وتجديد الأساليب المقنعة. بكل تأكيـد إنـك مـتمكن مـن الهـدى سائر في طريق يبلغ بسالكه الغايـة المحمـودة مـن أخصـر طريـق وأقربـه. ولا يجـد سالكه منعرجات توقفه وتبعث فيه الحيرة.

68- وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون.

إن واصـلوا التشـغيب، والمجادلـة بالباطـل، وأعمـاهم الإصـرار عـن الاعتـراف بصدق حججك، فأعرض عـنهم قـائلا : الله هـو العلـيم بمـا تخفيـه صـدوركم ومـا تحاولونه من طمـس الحـق وإعـلان الباطـل. وإذا كـان الله يعلـم تنـاقض ظـواهركم لبواطنكم فإنه سيجزيكم عما تقومون به من تضليل أتباعكم وترويج للكفر.

69-الله يحكم بينكم...فيه تختلفون.

أكدت هذه الآيـة مضـمون قولـه تعـالى " **الله أعلـم بمـا تعملـون** " فقـررت أن الله سيظهر حكمه العادل يـوم القيامـة، فيظهـر الحـق ظهـورا لا يبقـى معـه شـبهة ولا متعلق للكفرة المجادلين. يتبينون أن ما كانوا عليـه ومـا جهـدوا أنفسـهم لتثبيتـه ونشـره ليس له أدنى قيمة، ومتمسكهم أوهام مستندة إلى باطـل الخيـال. ويتبينـون أن مـا جـاء به الرسول ﷺ حق لا شبهة فيه مستمد من وحي الله.

70- ألم تعلم أن الله .... على الله يسير .

تثبت هذه الآية ما دلــت عليــه الآيــة الســابقة "**الله يحكــم بيــنكم..**" إن حكــم الله الــذي سيظهره يوم القيامة، هو مستند إلى علمه الشــامل الكامــل، لمــا فــي الســماوات ومــا في الأرض، وذكر السماوات محقق لعلمه بما انطــوى عليــه المعانــدون، الــذي يكــون العلم به أهون مما اشــتملت عليــه الســماوات. وصــيغت الآيــة علــى طريــق السـؤال المقرر والموقظ ، فمعنى ألم تعلم :إنك تعلــم مضــمون مــا ســيرد بعــد. وزادت الآيــة تقريرا وتثبيتا لعلم الله لما فــي الســماوات والأرض، بــأن كــل مــا حوتــه الســماوات والأرض من كائنات وما يجري فيهــا مــن تحــولات لا يحــدث لله علمــا، وإنمــا هــو ظهور لما سبق أن علمه وتم توثيقه في كتاب هو من الغيــب الــذي نعجــز عــن تفصــيل حقيقته، ونؤمن به على الصفة التي أثبتهــا الله، مــع التنزيــه عــن التجســيم فــلا ورق ولا مداد، ولا هو خط مما هو معروف في دنيــا النــاس. بــل هــو أمــر مــن متعلقــات الذات الإلهية المنزهة عن شَــبَهِ الحــوادث. إن تحقــق ذلكــم التثبيــت فــي كتــاب قبــل وقوعه، تبعا لعلم الله الذي لا يتأثر بالزمان، هو بــالنظر لطبيعــة خلقــتكم عســير جــدا، وأما بالنسبة إلى القادر العليم الحكيم، هــو أمــر ميســور لاســتواء الماضــي والحاضــر والمصير لديه.

وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَمَا لَيْسَ لَهُم بِهِۦ عِلْمٌ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ

بيان معاني الألفاظ :

السلطان : الحجة .

المنكر: الرفض المصحوب بالتغيض .

يسطون : يبطشون.

الاستنقاذ : مبالغة في الانقاذ.

ما قدروا الله حق قدره : ما عظموه حق تعظيمه.

بيان المعنى الاجمالي :

رغم ما تتابع من الوحي الهادي، ورغم البـراهين اليقينيـة، فـإن المشـركين واصـلوا عبادتهم للأصنام من دون الله. وما عضدوا أنفسهم بشـرع، هـو حجـة قاطعـة، منـزل من عند الله، كما أن قانون العقل يخذلهم ولـيس لهـم إلا أوهـام. إنهـم ظلمـوا الحقيقـة وظلموا أنفسهم، وظلموا أتباعهم . والظـالمون لا يجـدون نصـيرا ينصـرهم. ويتضـمن ذلك وعيدا بخذلانهم يوم القيامة.

ويصور القرآن الـذين كفـروا: أنهـم عنـدما تتلـى علـيهم الآيـات الواضـحة البينـة، يقابلونها بالرفض الكامل، وتمتلئ نفوسهم غيظا علـى التـالين، ويبـدو علـى وجـوههم أمارات الإنكار والرفض والغضب والاستعداد للسوء. يبلـغ بهـم الاسـتكبار عـن الحـق أنهم قاربوا أن يَنْقَضُّوا على التالين للآيات لينتقموا منهم. قـل لهـم يـا محمـد: أتريـدون أن أعلمكم بما هو أشد شرا عليكم مـن هـذه الآيـات ؟ النـار التـي وعـدها الله الـذين كفروا لتحرق أجسامهم وتهينهم. وإن المصـير إليهـا أسـوأ مصـير. ثـم يـدعو القـرآن المشركين أو جميع البشر ليستعدوا للتأمـل فـي المَثَـل المعـروض علـيهم بكـل انتبـاه ويقظـة. حاصـل هـذا المثـل: إن الـذين تـدعونهم مـن دون الله لقضـاء حـوائجكم ونصرتكم من الأصنام أو البشر المسـتكبرين، لـن يسـتطيع أي واحـد مـنهم أن يخلـق ذبابا، ولو اجتمعوا كلهم لذلك لصـاحبهم العجـز أيضـا. وأكثـر مـن ذلـك أن الـذباب الضعيف الذي هم عاجزون عن خلقه، لو تسـلط علـيهم فمـد خرطومـه وسـلبهم شـيئا مما يظنون أنه ملكهم وأنهم المتصـرفون فيـه، فلـن يسـتطيعوا أن يسـتردوا منـه مـا ذهب به. استوى المتعرض بمطالبه ومن علقت بـه الآمـال فكلاهمـا ضـعيف، الطالـب معترف بعجزه، والمطلوب قام الدليل على عجزه.

إن منشأ الضلال أنهم مـا عظمـوا الله التعظـيم اللائـق بجلالـه وقدرتـه، إن الله هـو المنفرد بالقوة التي لا تعاكس، الغالب لكل معاند .

بيان المعنى العام :

71- ويعبدون من دون الله ...وما للظالمين من نصير .

تشويه لوضع المشركين، وتعجيب من حالهم. فإن ما تتـابع مـن الـدلائل، ومـا أقامـه النبي ﷺ من قواطع الوحي وشواهد العقل والفطـرة كـان ممـا ينبغـي أن يتبعـه طـرح الكافرين لعبادة الأصنام. ولكـنهم واصـلوا عبـادتهم معرضـين عـن عبـادة الله. ومـن دواعي العجب أنهم، وهم يدَّعون أن لهم حظا مـن حسـن التـدبير وقـوة الإدراك، لـم يستندوا في عبادة الأصنام إلى حجـة ثابتـة جـاءتهم مـن عنـد الله، فكـل مـا عنـدهم

أوهام مردها إلى متابعة ما كان عليه آبـــاؤهم. وتقليــدهم الغبـــي للمـــوتى الـــذين ســـبقوهم على ضلال. وكما كانوا فاقدين لأي ســـند وحجـــة مـــن الـــوحي الإلهـــي، هـــم كـــذلك لا يستندون إلى ما يوجبه العلم من دلائل العقل والبراهين.

إنهم بهذا الضلال قد ظلموا أنفســـهم وظلمـــوا الحقيقـــة، وظلمـــوا أتبـــاعهم. ومـــن كـــان على هذا المستوى مـــن الظلـــم والضـــلال، فـــالظلم لا يعقبـــه وجـــود نصـــير، وإنمـــا يمَحِّض أصحابه إلى الخسران والضياع.

72- وإذا تتلى عليهم آياتنا ...وبئس المصير.

يتابع القرآن فضح المشركين، فبعد أن شنع عليهم إصرارهم على عبادة الأصنام، صرحت هذه الآية بنوع آخر من انحرافهم وضلالهم. إن إدراكهم قد اختل، فتجدهم إذا تليت عليهم آيات القرآن البينة الواضحة التي يشهد لها العقل، مع بلوغها أعلى درجات الفصاحة وحسن النظم، إنهم عوض أن يتأملوا ويأنسوا بها، ثم يطوعوا أنفسهم لمراجعة ما هم عليه ويتبعوا ما تدعوهم إليه ، يبلغ الغيظ من الكافرين أعلى مبلغ، فيظهر على سحنات وجوههم أمارات الرفض والغيظ والكراهية لما استمعوا إليه. ويكون مظهر وجوههم المقطًبة واضحا منبئا عما استقر في نفوسهم من أول وهلة. جسَّمت الآية حَنَقهم بأنهم قاربوا أن ينقَضُّوا على التالين عليهم فيبطشوا بهم. هذا التحفز للشر بمجرد سماع الآيات البينات يدلك على مبلغ الفساد والإصرار الذي هم عليه.

إن وضعهم هذا الذي تَتَبَّعه القرآن، فكون منه صـــورة لا يرضـــاها عاقـــل وينفـــر منهـــا، بالغ في إبراز شناعتها. صَوَّرَهُم كأنهم تحفـــزوا للـــرد، فعطـــل القـــرآن ردهـــم وبـــاغتهم بإذن الرسول أن يقول لهم: أسألكم هل تريدون أن أعرفكم بما هـــو أبلـــغ شـــرا مـــن هـــذا الذي رفضتموه وظهر اســـتعدادكم لاســـتعمال قـــوتكم الزجريـــة، وبلـــغ مـــنكم الغضـــب أقصى مبلغـــه؟ وأســـلوب الســـؤال " **أفـــأنبئكم**" هـــو اســـتئذان تهكمـــي بهـــم، فتغَـــيُّظهم واستعدادهم للانتقام والبطش لا يخيف المؤمنين . واسمعوا ما هـــو أشـــد شـــرا مـــن هـــذه الآيات التي تتلى عليكم فأغاظتكم . النـــار المحرقـــة وعـــد هـــا الله الـــذين كفـــروا وعـــدا ثابتا لا مثنوية فيه، ولا تجدون عنهـــا محيـــدا . وبـــئس المصـــير مصـــيرهم، لا أســـوأ منه إذ يجمع بين العذاب والمهانة .

73- يا أيها الناس ضرب مثل ...ضعف الطالب والمطلوب.

نداء يحرك الناس ليقبلوا على مضمون النداء يتـــأملون فيـــه، ليستحضـــروا كـــل جزئيـــة ويتعمقوا فيها، ويخرجوا من كل ذلـــك بمـــا تشـــير إليـــه الصـــورة المحكمـــة مـــن هـــذا الكلام الذي تمت صياغته على صورة المثل.

يا أيها الناس يحتمل النداء أن يكون موجهــا للمشــركين، اتباعــا للطريقــة الغالبــة فــي القرآن أنه يقصد من نداء الناس، نداء المشركين. كما يحتمــل أنــه نــداء لجميــع البشــر مؤمنهم وكافرهم. وإن كان حمله على المشركين أولــى ليــتلاءم مــع قولــه بعــد ذلــك : "**إن الــذين تــدعون مــن دون الله**" والمخــاطبون بكــونهم يــدعون مــن دون الله هــم المشركون.

دعي الناس دعاء لافتًا لعقولهم: أن المعروض عليهم مثــل قــوي يهــز المشــاعر ويفــتح للاعتبار بابًا. ولما كان المقصودُ الأول هــو الاعتبــار بالمثــل لــم يسم فاعلــه وبنــي الفعل للنائب "ضُرِبَ" وزاد تحريكا للمخــاطبين بــأمره أن يســتمعوا لهــذا المثــل، أي أن يصرفوا حواسهم عن كل شيء إلا عن هذا المثــل المتلــو علــيهم حتــى يــدركوا الغايــة منه بكل أبعادها. فما هو هذا المثل الــذي توجهــت إليــه العنايــة الإلهيــة لطفًــا بعبــاده ورحمة منه إليهم ؟

حاصل هذا المثل : إن الذين تطلبــون مــنهم العــون مــن دون الله، وقضــاء الحاجــات، وتنتظرون منهم أن يستجيبوا لكم فيسعفوكم بمطــالبكم، ســواء أكــانوا أصــناما، أم مــن البشر الذين بلغــت بكــم الغفلــة أن عظمتمــوهم إلــى أن ربطــتم آمــالكم بهــم، هــذا وضعهم: إنهم عجزة عن الخلق والإيجاد، هــم عــاجزون أن يخلقــوا الــذباب الضــعيف، كل واحد منهم عاجز عن الخلــق، ولــو جمعــوا قــدراتهم ومــا تتصــورون لهــم مــن مهارات لكانوا على نفس المســتوى مــن العجــز. وأكثــر مــن ذلــك: إن ذلــك الــذباب الضعيف لو مد خرطومه فسلبهم شيئا قلــيلا لا يدركــه البصــر، فــإنهم عــاجزون عــن استرداد ما تسلط عليه الذباب فنزعه منهم. على هــذا النحــو مــن التعمــيم أفهــم الآيــة، وإن كان بعض المفسرين حملوها على أن المشــركين كــانوا يلطخــون أصــنامهم بــأنواع من الطيب فتتجمع عليها الذباب ومــا تــزال تنــزع وتســلب، والأصــنام عــاجزة عــن طردها أو استرداد ما سلبته.

فظهر أن حاصل هــذا التمثيــل أن شُــبِّهَتْ الأصــنام فــي مختلــف صــورها وأماكنهــا، وكذلك المتجبرون من البشر الذين تتعلــق آمــالهم بهــم، شــبه المجمــوع فــي عجــزهم بهيئة ناس تعذر عليهم خلق الذباب الضــعيف الخلقــة. ولــو فــرض أن الــذباب ســلبهم شيئا تافها عجزوا بالمثل عن استنقاذ ما سلبهم.

وإذ تم عرض المثل ووضحت أبعاده وغاياتــه، عقــب عليــه القــرآن بنظــرة شــاملة: هي خلاصة العرض والعبرة منه وتشمل أمرين:

أولا : ما أضعف الطالــب، الإنســان الــذي يعلــق آمالــه بالأصــنام، ومــا أضــعف الأصنام التي لا تستطيع أن تخلق الذباب ولا أن تسترد منــه مــا ســلبها، ومــا أضــعف

المطلوب المتمثل في الأصنام والمستكبرين من البشر وهـذا الـذباب الحقيـر الـذي مـن خصائصه أنه من أقصر الحيوانات عمرا.

74- ما قدروا الله حق قدره...إن الله لقوي عزيز.

ثانيا: إن هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله آلهة وعلقوا آمالهم بهم، هم قوم فسد تفكيرهم، إذ لم يعظموا الله التعظيم الذي هو أهل له. فمن جراءتهم أنهم سووا بين خالق السماوات والأرض والموت والحياة وباعث الرسل، وبين العاجز عن خلق الذباب أو عن استنقاذ ما سلبه منهم. سووا القادر الذي لا تحد قدرته بحدود، بالعاجز عن أتفه الأشياء. وبكل تأكيد فإن الله وحده هو القوي الذي لا يستعصي عليه أي شيء، العزيز الغالب لكل معاند.

ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ﴿٧٥﴾
يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩
﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ
حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ
ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ
ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

تفلحون : تنالوا بغيتكم وتنجحوا.

جاهدوا في الله : قاتلوا أعداء المسلمين إعلاء لكلمة الله أو دفعا عنه.

حق جهاده : الجهاد الذي لا يشوبه تقصير.

الاجتباء : الاختيار.

الحرج : الضيق والعسر.

الملة : الدين والشريعة.

واعتصموا بالله : استمسكوا بالله.

المولى : السيد الذي يرعى صلاح عبده.

بيان المعنى الإجمالي :

كما كانت الهداية الإلهية أتم هداية، فكـذلك شـملت عنايـة الله القـائمين بتبليغهـا فكـانوا هم المختارين، فاصطفى من الملائكة الـذين كلّفهـم بـإبلاغ الـوحي، واصـطفى مـن

البشر الذين عهد إليهم دعوة النــاس إلــى دينــه. واختيــارُه تعــالى هــو اختيــار مــن لا يخفى عليه شيء ولا تخدعه الظواهر. يستوي علمه بما ســبق مــنهم ومــا سـيقومون بــه في المستقبل. وكل ما يقع في الكون يعود إليه سبحانه ليجزي به.

ينادي المؤمنين بأن لا يتراخوا في القيــام بمــا فــرض علــيهم مــن الصــلوات، ومــن عبادته مستحضرين أنه هو الرب الذي يسر لهــم التوفيــق للعبــادة ومكــنهم منهــا، وأن يجعلوا بينهم وبين الفضيلة رابطة دائمــة، وأن يقيمــوا بيــنهم وبــين الشــر حجابــا مــن اليقظة حاميا. إنه بذلك ترجون أن يتحقق لكم الفلاح.

إنكم أمة مختارة، عليكم أن تقوموا بالمهمة التــي أوكلــت إلــيكم مــن حمــل أمانــة هــذا الدين الخاتم. دافعوا عن دينكم، وانشروه، مجاهدين كــل مــن اعتــرض دعــوة الحــق، أو أراد الاعتداء عليكم. ليكن جهادكم في ســبيل هــذا المبــدأ الرفيــع مبــدأ نصــرة ديــن الله. تذكّروا أن الله لما أنزل عليكم دين الإســلام وجعلكــم حملتــه، قــرن ذلــك بالتيســير فلم يكلفكم ما هو عسير عليكم وما تجدون فيــه حرجــا، فكلمــا جــاء العســر حضــرت الرخصة والتيسير. إنكــم علــى ملــة إبــراهيم ﷺ تجمعكــم بــه رابطــة قويــة، فهــو بالنسبة إليكم أيها المؤمنون أب، نظير أزواج النبي ﷺ هــن أمهــات لكــم. ارتضــى لكــم اسما قبل نزول القرآن وفيه، أنتم المســلمون بهــذا ســماكم ربكــم. وربــط بيــنكم وبــين محمد ليكون شــاهدا علــيكم بالاســتجابة لدعوتــه، وشــرّفكم بــأن جعلكــم الممســكين بالميزان، الذي يوزن به مقدار ما عليه الأمم مــن الضــلال أو الرشــاد. لكــي لا يضــيع منكم هذا الميــزان حــافظوا علــى صــلاح بــواطنكم بإقامــة الصــلاة وإيتــاء الزكــاة والارتباط بحبل الله، الــذي قــربكم ولطــف بكــم وأحــاطكم بعنايتــه. إن تلكــم العنايــة صادرة من الله نعم المولى ونعم النصير. لا راعي غيره ولا ناصر سواه.

بيان المعنى العام :

75-الله يصطفي ..سميع بصير.

شنعت الآية 72 بموقف الكــافرين مــن الــذين يتلــون علــيهم آيــات الله. وممــا يؤكــد عنادهم واستكبارهم، أن هؤلاء التالين لآيــات الله هــم أكمــل المخلوقــات ســواء أكــانوا من الملائكة الذين تلقّوا الوحي فبلغوه للرسل، أو كــانوا مــن البشــر الــذين شــرفهم الله بإبلاغ هدايته . إن اختيارهم للمهام العالية التــي انتُدبوا إليهــا هــو مــن الله. والله أعلــم حيث يجعل رسالاته (سورة الأنعام آيــة 124) يتأكــد فضــل اختيــاره واصــطفائه بــأن علمه محيط بكل شيء .ولــيس لأحــد ســواه أن يحــيط بحقــائق الأمــور وتتكشــف لــه الخفايا انكشاف الظواهر .

76-يعلم ما بين أيديهم ....ترجع الأمور.

ومع كون اختياره سبحانه هو أكمل اختيار، فــإن مــا يشــغب بــه الكــافرون لا يخفــى شيء منه على الله. فتهددهم الآية بأن مــا يكتمونـــه ومــا يعملــون علــى إخفائـــه وســتر سوء نواياهم لا يخفى على الله، فهو يعلم ما سيحصل منهم فــي المســتقبل، مــا بــين أيديهم، كعلمه بما حصل منهم في الماضي ما خلفهــم. ويمكــن أن تفهــم الآيــة علــى أن الاختيار الإلهي للملائكة والرســل هــو اختيــار حكــيم، لأن الله يعلــم مــا ســبق مــن الملائكة والرســل مــن أعمــال ونوايــا، ويعلــم مــا سيحصــل مــنهم فــي المســتقبل، فصفاؤهم صفاءٌ صحبهم من قبل وسيصحبهم في المستقبل.

و إلى الله وحده لا إلى أحد غيره يرجع الجزاء عــن كــل فعــل ونيــة، مــا كــان منهــا صالحا خيرا وما كان منها قبيحا سيئا.

77-يا أيها الذين آمنوا ... لعلكم تفلحون.

توجه الخطاب إلى المــؤمنين بعــد أن اســتوفى تقريــع الكــافرين وفضــح مــا يدبرونــه وشنع عليهم تحريفاتهم وسخافتهم في تأليه من هو أضعف من الذبان.

توجه الخطاب مناديا للمــؤمنين بنــداء التكــريم، بوصــف الإيمــان، آمــرا لهــم بــأن يلتزموا بأداء العبادات التي شرعها لهم.

وأول ما ذكَّرهم به ليحافظوا عليه إقامة الصلاة، التي هــي ركــن الــدين، مــن أقامهــا فقد أقام الدين، ومن أضاعها فهو لما سواها أضيع. وهــي العقــد الواصــل بــين المــرء وربه. وعبر عن المحافظة علــى أداء الصــلوات بــالأمر بــالركوع والســجود؛ إذ همــا الخاصية الظاهرة للصلاة. وبالمواظبة على الصلوات وإقامتهــا فــي أوقاتهــا علــى أكمــل وجه تنشرح روح المؤمن للاتصــال بربــه، وتزكــو أشــواقه للعبــادة، ولــذلك عطــف على إقامة الصلاة الأمر بالعبادة المشروعة من صيام وحــج وذكــر. وثلــث بــأن طلــب منهم أن يفعلوا الخير. وهــو أمــر جــامع للإقبــال علــى مــا ينفــع النــاس مــن زكــاة وصدقات، وما يوثق الصــلة بــين أعضــاء الأمــة كصــلة الــرحم وإغاثــة الملهــوف، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصالح السلوك المتمثل في مكارم الأخلاق.

إنكم إذا نفذتم ما أمرتكم به تكونون في وضــع ترجــون معــه الفــلاح، فرجــاء الفــلاح هو رجاء المؤمنين النجاح في حياتهم الدنيا والآخرة.

<u>مـــــلاحظة:</u> اختلف الفقهاء، هــل إن التــالي إذا بلــغ قولــه تعــالى: **[لعلكــم تفلحــون]** مطالب بالسجود؟ فالذي رجحه مالك وأبو حنيفــة والثــوري أنـــه لــيس موضــع ســجدة، والذي رجحه الشافعي وأحمد وإسحق وكثير من الفقهاء أنه موضع سجدة.

78- وجاهدوا في الله حق جهاده...ونعم المصير.

بعد الآية الجامعة الداعية للقيام بمـا ضـبطه الإسـلام مـن واجبـات وسـلوك، عطـف القرآن على ذلك الأمـر بالقيـام بتعميـق المـنهج فـي الـنفس بجهـاد دواعـي الـنفس والاسترخاء للشهوات، وبنشر الإسلام والقتال فـي سـبيل إعـلاء كلمتـه ممـن يهـاجم الأمة أو يعترض حرية الدعوة. أمروا أن يكون جهادهم خالصا لله لنصر دينه.

هو الله العزيز الجليـل العلـيم، اختـاركم أيهـا المؤمنـون لتكونـوا أمـة محمـد خـاتم الرسل، ووالى عليكم تكريمه وفضله، فمن ذلك أنـه يسـر علـيكم القيـام بمـا فرضـه عليكم، وكلما وجد العابد نفسه في ضيق، وعَسُرَ عليـه الامتثـال يجـد التشـريع يسـعفه بالتيسير. ثم عرف بمزية أخرى للإسلام، وهو أنـه ديـن يلتقـي فـي أصـوله رسـولان إبراهيم أبو الأنبياء، ومحمد ﷺ خاتمهم. ارتبط ديـن إبـراهيم بالبيـت الحـرام، فكانـت قبلة المسلمين في صلاتهم، وارتبطت مناسك الحـج بمكـة التـي اخـتص إبـراهيم بأنـه أول من دعا الناس للحج، ثم أحيا ذلـك محمـد وبأنـه كـان حنيفـا مـائلا عـن كـل الطرق التي ضل الناس بسببها عـن الصـلة بـالله علـى النحـو الـذي يرضـاه، وكـان محمد حنيفا أيضا. فالراجح عندي أنها أبوة الشريعة لا أبوة الدم والنسب.

هو الله العظيم الجليل العليم، شـرفكم بـأن سـماكم " المسـلمين " وكفـاكم بـذلك شـرفا وامتيازا. ادخر لكم هذا الاسم من قبل نزول القرآن ثم أثبتـه لكـم فيـه، كقولـه تعـالى: **(فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون)**[1]

تخيَّركم لتكون صلتكم بمحمد صلة ثابتـة، فهـو الشـاهد علـيكم يـوم القيامـة: أنكـم آمنتم به ونصرتموه. وكفى بشهادته مخلصا لكم مـن أهـوال يـوم القيامـة. ثـم شـرفكم بأن جعل شهادتكم ماضية على غيركم من الأمـم، لكـم الوصـاية علـى البشـر جميعـا بما حفظه لكم من مـوازين الحـق والعـدل والتصـور الصـحيح لمنزلـة الإنسـان فـي الكون. تشهدون على الأمم التي طواهـا التـاريخ، وعلـى مـا هـو حاضـر إلـى يـوم الدين. تستندون في ذلك إلى ما أوحى الله لرسـوله وبلغـه إلـيكم، فكنـتم بـذلك عـالمين بموقف الأمم من رسلهم، وشـهادتكم مقبولـة عنـد رب العـزة، ولا يسـتطيع المشـهود عليهم أن يطعنوا فيها.

هذه النعم التي تم التذكير بها من اختيـاركم، وتسـميتكم المسـلمين مـن قبـل أن ينـزل القرآن ومع نزوله، إلى شـهادتكم علـى البشـرية الشـهادة المقبولـة التـي لا مطعـن فيها، كل ذلك مما ينبغي أن يحرككم لشـكر نعـم ربكـم علـيكم. وشـكره سـبحانه يـتم

---

[1] سورة آل عمران آية 64

بالقول، وبالعمل الــذي منــه أداء الصـــلاة علـــى الوجـــه الأكمـــل الصـــلاة المســـتجمعة لأركانها وشروطها وآدابها، التي يسمو فيهـــا المصـــلي إلـــى استحضـــار نفســـه مناجيـــا لربه خاشعا متبتلا، وبإيتاء الزكاة طائعا بهـــا يجـــد فيهـــا لـــذة مســـاعدة إخوانـــه ورفـــع الخصاصة عنهم، وبالاستحضار الحـــي النـــابض بـــأن ملجـــأكم وقـــوتكم الحاميـــة هـــي رعاية ربكم لكم. إنه إذا انفلتم عنه لحظة فقـــدتم كـــل قـــوة وكـــل توجيـــه للقصـــد. إن الله هو وحده الذي يرعى عبيـــده ويحقـــق لهـــم مـــا يصـــلحهم. والله نعـــم المـــدبر لشـــؤونكم الناصر لكم. وبهذه الوصـــاية الجامعـــة ينعطـــف ختـــام الســـورة علـــى فاتحتهـــا. كانـــت الفاتحة " **يا أيها الناس اتقـــوا ربكـــم** " وأتـــت الخاتمـــة مفصـــلة للتقـــوى مؤكـــدة علـــى ضرورة الالتزام بها لتحقيق الفلاح.

اللهم لك الحمد والشكر على ما أعنت ويسرت، فقـــد أكملـــت تفســـير ســـورة الحـــج يـــوم الجمعـــة 23شـــعبان 1433- 2012/7/13- أدعـــوه ضـــارعا أن ييســـر لـــي إكمالـــه، وأن ينفع به المـــؤمنين والمؤمنـــات وأن يجعلـــه خالصـــا لوجهـــه الكـــريم، وأن يتغمـــد والدي ومن علمني بواسع رحمته وجزيل فضله .

ســــورة المـــؤمنون

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به السورة أخذا من فاتحتها ومما تلاها من الآيات التي حددت ملامح المؤمنين، ويسمونها أيضا سورة الفلاح أخذا من قوله: قد أفلح. وجرى على بعض الألسنة: سورة "قد أفلح "

وهي سورة مكية، هي الثالثة والعشرون حسب ترتيب المصحف الشريف. وعدت السادسة والسبعين حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة "الطور" وقبل سورة الملك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ
اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾
فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾
الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفلاح : الفوز بالمطلوب، وصلاح الحال.

الخشوع: حالة تستقر في الروح تكون بها مستحضرة جلال الله وأنها بين يديه.

اللغو : سَقَط القول، والكلام الباطل.

الإعراض: الصد، أي عدم الإقبال على اللغو.

الحفظ : الصيانة.

اللوم : الإنكار على الغير ما صدر عنه مما لا يرضاه المنكر.

العادي : الظالم بتجاوزه الحد.

يرثون : يستحقون.

الفردوس : اسم من أسماء الجنة

بيان المعنى الإجمالي :

تأكيد من الله أن الفوز قد تحقق للذين عمر الإيمان قلـوبهم. الـذين مـن أخـص صـفاتهم أنهم مواظبـون علـى أداء صـلاتهم مستحضـرون مـوقفهم بـين يـدي الله، خشـعت بـواطنهم وظـواهرهم .والـذين يمقتـون سـقط القـول وباطلـه فمجالسـهم وأحـاديثهم مصبوغة بالجد. وهم حريصون على القيام بأداء الزكاة وإبلاغها لمن يستحقها.

و الصفة التالية المنـوه بهـا الموجبـة للفـلاح، هـي العفـة فهـم يحصـنون فـروجهم ويحفظونها من الزنا ونحـوه، وصـرحت الآيـة باسـتثناء الإشـباع الجنسـي بواسـطة الزواج أو المملوكات، فإن ذلـك مـأذون فيـه لا يـلام فاعلـه. وأكـدت الآيـة أن مـن تجاوز هذا الحد، الزواج والملك، يعتبر متجاوزا لما حدده الله معرضا للعقوبة.

وجمعت الآية التالية بين صفتين: حفـظ الأمانـة والوفـاء بهـا، وحفـظ العهـد وعـدم نقضه. فالمفلحون هم الـذين لا يغفلـون عـن واجـب حفـظ الأمانـة التـي اسـتودعها المـؤمن عنـد المـؤمَن، يحتفظـون بهـا، لا يـدخلون عليهـا أي تغييـر، ويؤدونهـا لصاحبها بدون مماطلة. كما أنهم يراعون مـا التزمـوا بـه، مراعـاة مـن يـوفي بمـا التزم حتى يكون الطرف الثاني مطمئنا للعلاقة.

و يعود القرآن منوها بالمحافظة على أداء الصـلوات فـي أوقاتهـا، وأن المحـافظ علـى أداء صلواته في أوقاتها مـن المفلحـين. فتجمـع صـورة المفلحـين، بـين الـذين حـل الخشوع قولهم وظواهرهم وهـم يـؤدون صـلواتهم، وبـين المحـافظين علـى القيـام بالصلوات في أوقاتها ولا يغفلون عنها.

أشار القرآن فـي ختـام عرضـه لصـفات المـؤمنين المفلحـين، مميـزا لهـم بـأنهم يستحقون أفضل ميراث يوم القيامة، هو منزلـة الفـردوس فـي الجنـة، وهـم آمنـون من الخروج منها، أو التحول عنها.

بيان المعنى العام :

1-قد أفلح المؤمنون.

مع التأكيد الكامل نثبت أن المؤمنين قد فازوا بنيل ما كانوا يرجونه. قال ابن إسحق: المفلحون هم الذين أدركوا ما طلبوا، ونجوا من شرما هربوا. بايع المؤمنون رسول الله ﷺ ، وقد انشرحت صدورهم لما جاءهم من الوحي، وما نزل عليهم من القرآن، وتحولوا من اللهث وراء متع الحياة الدنيا إلى العناية بتحقيق القيم العليا التي جاءهم بها الدين فسمت أرواحهم إلى مرضاة الله، وبعد أن كانت الدنيا كل همهم ولا رابط يربط بين أجزائها، انتظمت عندهم في سلك مصدره رب العالمين، يشعرون بأنهم مؤتمنون على الخير والصلاح وحسن الاستخلاف في أرض الله . إنها مهمة ضخمة، هي الأمانة التي نوه بها

القرآن. ومن تربية القرآن أن المؤمن يحاسب نفسه، ويرى الكمال درجات كلما صعد درجا من السلم دعاه إيمانه ليسمو إلى الدرجات التالية، وكشف له ذلك عن مقدار تقصيره فيما سبق. فبادرت فاتحة السورة مطمئنة المؤمنين الصادقين إلى أنهم فازوا حقا برضوان من الله، رضوان يفتح لهم أبواب الجنة يوم القيامة، كما يمكنهم من العزة والسؤدد في الدنيا.

2- الذين هم في صلاتهم خاشعون.

يتلو الإيمان هذا الوصف الشريف الذي يعتبر الكوكب المشع في كيان الإنسان الذي يضيء له مسالك حياته . هو مركب من أمرين: الصلاة، والخشوع فيها. فالصلاة هي العبادة التي تنادي المؤمن بصفة متكررة كل يوم. فيستجيب للنداء وهو مقبل على نشاطه الدنيوي فتحيي فيه صلته بالله، فلا تتمرد غرائزه وحبه لمباهج الحياة ويُخضع سلطانها لسلطان داعي الرحمن.

والصلاة التي نوه بها القرآن ليست الحركات التي يؤديها المصلي، وهو لاه عنها متعلق قلبه بمغريات الحياة وهموم الدنيا، تحدثه نفسه فيسترسل معها، ولكن الصلاة التي شرعها الله طهارة للروح لتسمو إلى مناجاة ربها، لا تحقق غاياتها النبيلة إلا إذا صحبها الخشوع، الذي هو استحضار المؤمن أنه بين ربه يناجيه، وبمقدار ما يستحضر العابد عظمة المعبود يحصل الخوف في مشاعره، وليس الخوفَ الذي يتبعه البعد، ولكنه الخوف الداعي إلى مزيد من القرب والشعور بالجلال . وهي معاني تعمر القلب وتظهر آثارها على الأعضاء فالخاشع لا يعبث ولا يلتفت ولا يشغله ما تنقله له الحواس. وبمقدار ما يراقب المصلي قلبه وهو يصلي بمقدار ما يسمو في مراتب الكمال . يقول الشاعر:

ألا في الصلاة الخير والفضل أجمع ***لأن بها الآراب (الأعضاء) لله تخضع
وأول فرض من شريعة ديننا *** وآخر ما يبقى إذا الدين يرفع
فمن قام للتكبير لا قته رحمة *** وكان كعبد بابَ مولاه يقرع
وصار لرب العرش حين صلاته *** نَجيا فيا طوباه لو كان يخشع

3-والذين هم عن اللغو معرضون.

الصفة الثالثة للفائزين جدية الحياة، لا تسمع في مجالسهم سقط الكلام، فهم في ذواتهم لا ينزلون في حديثهم إلىْ مراتب السفهاء، وإذا طرق اللغو أسماعهم لا يسترسلون مع قائله ويعرضون عنه. وهذا مما يفيد أن الإيمان يسمو بأهله إلى مقامات رفيعة ويربيهم على الشهامة.

4- الصفة الرابعة: شعورهم بالتضامن مع المحاويج، الشعور الذي جعلهم يعطونهم الزكاة . وإنك لتجد القرآن يقرن كثيرا بين أداء الصلاة وإيتاء الزكاة، نظرا إلى أن الصلاة ترفع المستوى الإنساني فيبلغ المصلي الخاشع رتبة تقربه من ربه، يرى بها العائلة الإنسانية وحدة تجمعها العبودية لله. وتفرض مد يد العون من كل عضو منه لبقية الأعضاء. وفي التعبير هم للزكاة فاعلون جمال في التعبير، وتحقيق للقيام بها.

5->7:والذين هم لفروجهم حافظون ...فأولئك هم العادون.

الصفة الخامسة المنوه بها، هي العفة. فالمؤمنون هم الذين لا يدفعهم إشباع الشهوة الجنسية إلى فوضى الاتصالات، مجتمعهم نظيف من العلاقات الجنسية غير المشروعة، المهدمة للأسرة ما كان منها بين الرجل والمرأة وما كان منها بين الوالدين والأولاد. يستجيبون للفطرة ويقضون شهوتهم، ولا يعتبرون ذلك نزولا عن مراتب الرفعة. فالميزان أن الفوضى شر على الفرد وعلى الإنسانية، والرهبنة أيضا شر على الإنسانية، يبدو ذلك جليا بتقدير أثرها لو عممناها.

فالمؤمنون هم الذين يشبعون غريزتهم الجنسية بواسطة الرابطة التي أقرها الإسلام والتي لا تخرج عن نوعين: الاستمتاع بالزوج على ما ضبطه الإسلام من شروط وأحكام. والاستمتاع بالمملوكة التي أسرت في الحرب، على القانون السائد في العلاقات الدولية عند نزول الآية.

و مما ينبغي التنبيه إليه أن العلاقات في الحروب بين الدول يوم نزول القرآن وقرونا بعد ذلك، أنه يتم استرقاق الأسرى. ولا يقبل أن يسترق الأعداء أسرى المسلمين، والمسلمون لا يسترقون أسرى الأعداء. ولكن الإسلام فتح أبواب تحرير العبيد باعتبار ذلك قربة يتقرب بها المحرر إلى الله، وبجعل التحرير وسيلة التكفير عن اليمين، أو في القتل، أو في الظهار، أو بواسطة الوصية بالعتق بعد الموت، أو بالمكاتبة. فلما اتفقت دول العالم على وقف الاسترقاق وجد المسلمون في هذا الاتفاق ما يساير اتجاهه العام.

وصرحت الآية بالنظرة الإسلامية وإن كانت مفهومة من المقام: إن الإشباع الجنسي المشروع لا يلام صاحبه، بل جاء في السنة أن الذي يقضي شهوته في الحلال هو مأجور عند الله . كما صرحت الآية أن الاشباع الجنسي فيما عدا الزواج المستجمع للأركان والشروط ، والتسري، يعتبر في نظر الإسلام تعديا من فاعله على ما حرمه الله، وصاحبه معرض للعقاب. فشمل الزنا، واللواط، والعادة السرية، ومواقعة البهائم .

8-والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون.

جمعت الآية فضيلتين: أداء الأمانة – وحفظ العهد– وكل واحدة منهما مستتبعة للفلاح والفوز.

أما الأمانة فهي صفة تكشف عن الثقة السائدة في المجتمع. فشأن الإنسان إذا كان يملك شيئا يظن به ويخشى عليه الضياع او التعدي، وخاصة عند مغيبه أو زمن ضعفه بكبر أو مرض، أن يستودعه عند أخيه ليحفظه له. والغالب أن يكون الائتمان في السر يسلمه الأمانة بعيدا عن أعين الناس، ودون إشهاد. والمفلح هو الذي لا تحدثه نفسه بجحد ما اؤتمن عليه، ولا يماطل صاحبها، ولا ينقص منها، ولا يغير منها شيئا، فيردها على صاحبها كما أخذها. وجزاؤه أنه بهذا الوصف يكون من الفائزين المفلحين.

و أما حفظ العهد، فإنه يبين قيمته وخطره، أن الإنسان ينظم حياته، متجاوزا الحاضر إلى ما يستقبل، ولما كان الإنسان مدنيا بطبعه فترتيبه لحياته المستقبلية تكون بتوثيق التزاماته بغيره والتزامات غيره له، وبذلك تسير الحياة منظورة مستقيمة آمنة. فكل من التزم لغيره أمرا مشروعا بنى عليه الملتزَمْ له اختياراته وقراراته مسؤول عن تنفيذ ما التزم به. والوفاء بذلك دون تأثر بما يترتب عليه من فائدة للواعد المعاهد يسمو بالموفي بالعهد إلى مرتبة الفلاح. وإن تأثير الوفاء بالعهد يتجاوز العلاقة الثنائية إلى الآثار الإيجابية للأمة في علاقاتها الاقتصادية وفي نظرة الإكبار للإسلام وأهله.

وكما أن الزكاة أمانة في مال المزكي مسؤول عن إبلاغها لأصحاب الحق، كذلك ما أؤتمن عليه المؤمّن من أخيه المؤمن ليحفظه له، وما التزم به من عهود؛ كل ذلك داخل تحت مظلة الأمانة، فظهرت المناسبة بين الزكاة وبين حفظ الأمانة والعهد.

9- والذين هم على صلاتهم يحافظون.

هذه الآية تختم الإطار الذي يشمل المفلحين الفائزين بإبراز المحافظة على الصلوات وعدم تضييعها.

إن الإنسان موزع بين إقباله على ما تقتضيه حياته المادية من اهتمامات وما يتبع ذلك من ضروب النشاط التي قد تستولي عليه فتنسيه صلته بربه، وتعتم على ذلكم الخيط النوراني الذي تسمو به روحه إلى خالقها، وبين داعي الله خالقه ليكون على صلة متجددة به، بما يحفظ توازنه النفسي والروحي.

فرض الله الصلاة محققة لذلكم التوازن؛ فكلمـا لفّـتْ المـادة علـى الـروح، وكلمـا زاد الشيطان من إغرائه للاندماج في مطالب الحيـاة وزينتهـا، يقـوم داعـي الصـلاة يعيـد للنفس توازنها وللروح الصفاء. فـإذا حـافظ المـؤمن علـى أداء صـلواته فـي أوقاتهـا أسعفه ربه باحتفاظه بتوازنه، وبالطمأنينة الراضية. وبذلك يكون من المفلحين.

10←11- أولئك هم الوارثون...هم فيها خالدون.

جمعتهم الآيتان، ووضعتهم فـي إطـار واحـد مميـزين مشـيرة إلـيهم، محققـة أنهـم سيكونون المستحقين للميـراث النفـيس، وأي ميـراث هـو ؟ هـو الفـردوس، منزلـة رفيعة من منازل الجنة. وهم في الجنة آمنون ببقائهم فيها لا يخرجون منها أبدا.

روى الترمذي بسنده إلى سيدنا عمـر بـن الخطـاب ﷺ أن رسـول الله ﷺ قـال: أنـزل علي عشر آيات من أقامهن دخل الجنة ثم قرأ: قـد أفلـح المؤمنـون حتـى خـتم عشـر آيات.

تمثل هذه الآيات البناء الإسلامي للروح والعمل الذي بـه يظهـر الـنمط الإسـلامي فـي تكوين الإنسان مميزا عن كل التشريعات والفلسفات الأخرى.

يتمثل البناء في القاعدة التي منها تفرعت عنهـا بقيـة الطوابـق التـي بهـا تـم الهيكـل العام. القاعدة هي الإيمان الذي ينسـاب إلـى الـروح والعقـل والجـوارح فيقيمهـا علـى منهجه. وهو الأساس الذي بدونه ينهار كل ما ركب بدونـه. ويتلـو هـذه القاعـدة القلـب المستحضر لجلال الله الخاشع عند إقامة الصلاة فتحصـل مـن ذلـك كيفيـة فـي الـنفس تراقب الله في مختلف ضروب النشـاط . ويسـمو المـؤمن المصـلي الخاشـع، فيـتحكم في لسانه ويترفع عن باطل الكلام، ويحصن سمعه مـن الاسترسـال فـي متابعـة كـلام السفهاء. ويتعمق إحساسه بصلته بإخوانه المـؤمنين المحتـاجين ويـذهب مـن نفسـه داء الأثرة والشح، فهو الفاعل للزكاة. وتبقـى غريـزة متمـردة مفسـدة للنسـيج الاجتمـاعي قوية وعنيفة، هي الغريزة الجنسـية، فيطوعهـا المـؤمن المفلـح لتقـوم بوظيفتهـا فـي بقاء النوع، ويضبطها بحدود الشرع، ويبعـد بهـا عـن المسـتوى الحيـواني الـذي لا يهمه إلا لحظة الشبق. ثم المفلح هو ذلك الأمين الـذي تحمـد خصـاله ويوثـق بـه فـي القرب والبعد، فهو حافظ لما اؤتمن عليه من الأمـوال، حـافظ لالتزاماتـه . ومـن أهـم الالتزامات الركن العملـي الأول فـي الإسـلام: الصـلاة، فهـو يقـظ لنـداء الله يرقبـه ويقوم بأداء الصلوات في أوقاتهـا. وحقيـق بهـذه الصـفات أن تكـون الفـرد الصـالح الفالح، والأمة الراشدة القوية .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾
ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا
ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم
بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخلق : الإنشاء والصنع.

السلالة : الشيء المسلول، المنتزع.

مكين : لا يقلع من مكانه.

بيان المعنى الإجمالي :

تعرض هذه الآية بناء الإيمان على النظر في تفرد الله بخلق الإنسان. وعلى ما في هذا الخلق من عجيب الصنع والحكمة. أصل خلقه وارد من خلاصة من الطين تحولت من عناصر الأرض إلى مما يتغذى منه الإنسان مباشرة وما تحول إلى لحم ولبن في الحيوان ليدخل الجميع في أجهزة الهضم، ثم تجري خلاصته دمسا يعطي لكل جهاز ما هو في حاجة إليه ليقوم بوظائفه. فتقوم الأجهزة الجنسية في الذكر بتكوين الحيوان المنوي، وتنمو البييضات وتخرج من مبيض الأنثى لتلقح بمني الذكر، وتندمج لتنغرس في جدار الرحم متمكنة منه يغذيها دم الأم فتنمو ويتحول النسيج إلى علقة ثم إلى قطعة صغيرة هي بالمقياس العادي كالمضغة من اللحم، ثم تأخذ الخلايا في التخصص فتُكون الخلايا العظمية العظام، وتُكون خلايا أخرى اللحم الذي يكسوها، وهكذا تتكون شيئا فشيئا أجهزة جسم الإنسان فيصبح خلقا آخر تتآلف فيه عناصر الروح والعقل والمشاعر والمادة. تبارك الله الذي خلق الإنسان هذا الخلق العجيب وخلق الكائنات كلها.

يوقظ القرآن الإنسان إلى أنه بعد تلك المراحل التي تبلغ به كمال نموه واقتداره على الخلافة في الأرض، سينتهي إلى الموت، وكما نشأ من الأرض سيعود إليها. وهي عودة سيبعث بعدها إلى الحياة ليلقى جزاءه، وهي بالنسبة للمؤمنين مرحلة الكمال التي لا يشوبها نقص.

بيان المعنى العام :

12←14: ولقد خلقنا الإنسان من سلالة ...فتبارك الله أحسن الخالقين.

يقوم خلق الإنسان شاهدا ودليلا على عظمة الله الخلاق العليم وعلى تفرده بالإنشاء، بكل تأكيد ما تصرف في الكون فخلق وأنشأ الإنسان إلا الله رب العالمين. ولقد خلقنا الإنسان. فإذا كانت السورة افتتحت بالتنويه بالمؤمنين الذين كتب لهم الفلاح والنجاح، فإن الدليل على قاعدة الإيمان تفصلها هذه الآية، الإيمان أولا بأن الله هو خالق الإنسان على طريقة محكمة تقوم كل مرحلة من مراحل الخلق منادية بتفرده بالخلق والتدبير. ويوقظ الإنسان بلفت نظره إلى مراحل التكوين الإنساني. انتزعت من الطين سلالة منها ابتدأ الخلق، تقودها في أطوارها العجيبة حكمة وتقدير بالغ. هو الطين الممثل لأجزاء الأرض يدخل في النبات والحيوان فيتغذى منه الإنسان ويتحول إلى دم يغذي كل جهاز من أجهزته ليقوم بوظيفته المقدرة له. يسري في الدماغ، وفي الجهاز التناسلي، في أجهزة الذكورة إلى أن يُفْرَزَ مني من الرجل، وفي مبيض المرأة وفي رحمها، فتنفصل البييضة التي تكون مستعدة لقبول الحيوان المنوي الذي يندمج فيها، وتتحرك نحو جدار الرحم عبر قناة فالوب، فإذا بلغت مكانها استقرت فيه متمكنة منه. تنمو الخلية الأولى المتكونة من ستة وأربعين وحدة نصفها من لقاح الذكر ونصفها من بييضة المرأة، فتنمو بالانقسام وهي في طريقها حتى، تلتصق بجدار الرحم الذي يحتضنها ويمدها من دم الأم بما تواصل به نموها .وتَحَوّلُها من وضعها الأول إلى تطوراتها التالية يتم بخلق الله .ثم خلقنا النطفة علقة. ثم تتكاثر ملتحمة في نسيج مستعد إلى ظهور آثار التمايز فيه حتى تبلغ في نموها إلى مستوى مضغة من اللحم. وإثر ذلك يبدو آثار التمايز الذي كانت المضغة مستعدة له. فتتكون الخلايا الأولى للعظام، والخلايا التي ستكسو العظام باللحم.

هي مراحل متتابعة من التطور، خلق الله فيها الاستعداد للتحول الكبير المفضي إلى الانتقال من الحياة الحيوانية النامية، إلى الحياة الإنسانية العاقلة الجامعة بين المادة والروح والعقل والمشاعر. عبر القرآن عن ذلك بقوله: **ثم أنشأناه خلقا آخر.**

إنك إن تأملت في الجهاز العقلي، في الدماغ وما ينساب منه خلايا الإدراك والتعقل، وتوجيه كل جهاز من أجهزة الجسم ليستجيب الاستجابة الخاصة لكل مؤثر، ويبلغ كل إحساس، ويضبط كل رجع من الأرجاع، والنظام العام والخاص، إنك ستجد مجالات استقطبت جهود العلماء عبر القرون لكشف أسرارها، والتي كلما بلغت مستوى من الكشف، انفتحت أبواب أخرى تنادي بمزيد من التعمق ليجد الإنسان لذة كشف ما هو مجهول لديه، وليتنعم بالتأمل في كمال الخلق الإلهي، وينشئ معتبرا ومعبرا عما استقر في نفسه بقوله: **تبارك الله أحسن الخالقين** . هو

الموصوف بالعظمة فيما قدره من خير للناس، وهو عظيم في خلق الإنسان وفي كل ما خلق .

15←16: ثم إنكم بعد ذلك...يوم القيامة تبعثون.

هذا الخلق العجيب، الذي ابتدأ ضعيفا من سلالة من طين، ثم تطور إلى أن أصبح الإنسانَ المكتمل الخلق، القوي بمداركه ليقوم بالخلافة في الأرض. قد يتملكه العُجْب بقوته وذكائه، وتطويعه كثيرا من الكائنات لخيره، فيوقظه القرآن ويهزه ليرفع عنه حجاب الغفلة بواسطة أمر يتكرر على سمعه ونظره. هو الموت الذي يأتي على كل إنسان فيعود إلى نقطة البداية، كان معدوما وينتهي إلى العدم. وهذه الحقيقة يجب أن تفتح بصيرته على أمر آخر أهم، هو أنه كما خلق أولا سيعود إلى الحياة من جديد، هو البعث الذي يبلغ فيه المؤمنون مرتبة الفوز. فمراحل التطور التي كان ينتقل فيها من مرتبة إلى مرتبة أخرى، وهو في كل منها لا يخلص له وضعه بل هو مشوب بالنقص، إنه بعد البعث تبلغ النفس المؤمنة كمالها. وتتصل الآية بفاتحة السورة: قد أفلح المؤمنون....

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَـٰفِلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّـٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَـٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَـٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَـٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الطرائق : جمع طريقة، وهي المسارات التي ينحصر فيها سير وحدات العالم العلوي.

عن الخلق غافلين : عنايتنا موفورة بالمخلوقات، في اتقان خلقهم، ومصالحهم وتطوراتهم.

بقدر: الضبط للكم والزمن.

أسكناه : اختزناه في الأرض اختزان قرار.

الجنة : القطعة المشجرة من الأرض .

الفواكه : جمع فاكهة وهو ما يتلذذ بأكله دون قصد اقتيات.

طور : جبل.

سيناء : سيناء هي المكان الذي به الطور.

الدهن : ما يطلى به الجسم من الخارج .

الصبغ : أصله ما يغير اللون وتوسع فيه للدلالة على الخبز عندما يغمس في الزيت

العبرة : الدليل .

تحملون : يشمل الركوب وحمل الأثقال.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد خلقنا سبع طرائق تسير فيها الأجرام السماوية سيرا منتظما لا يختل، فهي على عظم أجرامها وقوة اندفاعها في سيرها لا يصطدم بعضها ببعض، وفوق ذلك في تقديرنا جعلناها مرتبطة بالإنسان وإن كان هو لا يدرك تلكم الأسرار.

و ظاهرة تتكرر على الكون: أنا وحدنا، أنزلنا من السماء ماء حددنا مكان نزوله ووقته والمقادير التي ينزل بها. ومن كمال الدقة في الصنع أنا جعلنا الأرض تقبل الكميات النازلة من الماء لتحتفظ بها في القشرة الظاهرة، أو تفتح له مسالك لينفذ إلى مخازن في جوفها تتكون منها العيون، أو يصل إليه الطالب بواسطة حفر الآبار. ولا تذهلوا فإن بقاء انتفاعكم بتلك الموارد المائية مرتبط بإرادتنا، فنحن قادرون على رفعه.

ثم إننا أنشأنا من الماء ومن حاصل امتزاجه بالأرض جنات لتتعموا بما تنبته من النخيل والأعناب والثمار المختلفة الألوان والأشكال والطعوم، وكثرنا في خصائص كل نوع منها. ومن تلك الجنات تحصلون على ما تأكلونه .وخص من بين ما تنبته الجنات بالتفصيل شجرة الزيتون، المكان الأول الذي نبتت فيه كان بجانب الطور الذي كلم الله فيه موسى من أرض الشام. حصلت فيها البركة بالجوار، وتعددت منافعها، فزيتها صالح للاستعمال الخارجي فتدهنون به أبداكم وترجلون شعوركم وتنتفعون به في كثير من مستحضرات التجميل. كما هو صالح للاستعمال الداخلي، فتغمسون فيه الخبز ليكون إداما لذيذا.

وبكل تأكيد تجدون في الأنعام عبرة ترشدكم لما يُمَكّنُ اليقين بأن الله تفرد بالخلق وأجراه على نظام دقيق. تشربون مما تفرزه بطونها من ألبان سائغة للشاربين، ويسر لكم منافع كثيرة منها، وأحل لكم لحومها جامعة بين اللذة والقوت. كما سخرها لتركبوها ولحمل أثقالكم، كما تحملها السفن التي ألهم الله نوحا عليه السلام صنعها.

بيان المعنى العام :

17-ولقد خلقنا فوقكم .... وما كنا عن الخلق غافلين.

بعد أن حرك القرآن عقل الإنسان ليتأمل فسي مراحـل تطـوره العجيبـة، ومـا صـحبها من لطف الله وبديع صنعه، حقق له بعض ما تحويـه العـوالم المحيطـة بـالأرض ومـا بنيت عليه من الدقة في الإنجاز، وضبط كل جزئيـة منهـا، لينضـاف ذلـك إلـى أدلـة خلق الإنسان، كما قال تعالى: **(لخلـق السـماوات والأرض أكبـر مـن خلـق النـاس)**[1] ليوقن أن الله وحده هـو الخـالق والمتصـرف والمبـدع ؛ فـذكرت الآيـة أن الله خلـق سبع طرائق.

الأقرب أن تفسر الطرائق بالمسـارات التـي تسـير فيهـا المجـرات بمـا تحويـه مـن الأجرام السماوية التـي لا يعلـم كنههـا وعـددها علـى التفصـيل إلا خالقهـا. يحصـر القرآن تلكم المسارات في سبع رتبها ونظمها بحكمتـه، تتحـرك فيهـا الكائنـات العلويـة بسرعة كبيرة جدا دون أن تصطدم ببعضـها. ولا أسـتطيع أن أفصـل القـول فـي هـذا أكثر مما يوحي به ظاهر الآية هذا. وكلما تقدم العلم وتهيأ لـه مـن وسـائل الكشـف مـا يستطيع به الدخول إلى العوالم العلوية يدرك ضآلة قدراتـه العلميـة والعقليـة عـن بلـوغ النظرة المستوعبة، لما يجري في تلكم العوالم. فأقـام الله سـبحانه أسـرار خلقهـا دلـيلا مستمرا متجددا على حكمته مـن ناحيـة، وعلـى أن الحكـيم لا يخلـق الإنسـان عبثـا يفعل الخير أو الشر دون أن يرتب على عقيدته وسلوكه ما يتلاءم مع ما قدمه.

و حمل بعضهم الطرائق على ما يفيد أنها طبقـات يعلـو بعضـها بعضـا، كمـا فسـرت بالمبسوطات. ويبدو لي أن التفسير الأول أقـرب، لوضـوح ارتباطـه بالإنسـان، الـذي ختمت الآية بتحقيق أن هذه الطرائق مع مـا فـي انتظامهـا مـن دقـة الارتبـاط بينهـا، ما يضمن له استمرار وجودها إلى الأمـد الـذي قـدر لهـا. مـع ذلـك راعـى الخـالق الحكيم ملاءمتها للبشر سواء في حياتهم الأولى أو فـي آخـرتهم؛ كمـا جـاء فـي قولـه تعالى: **(وفي السماء رزقكم وما توعدون)**[2] فنفت الآيـة عـن الله أن يكـون عنـد خلقـه للطرائق لم يشمل بحكمته البالغة ارتباطها بالإنسان: **وما كنا عن الخلق غافلين.**

18- وأنزلنا من السماء ...لقادرون.

اندمج في الآية أمران مهمان . أحدهما المنة والفضل بـإنزال المـاء مـن السـماء الـذي ارتبطت به حياة الإنسان والأنعام والنبـات وحتـى الصـناعات. وثانيهمـا إيقـاظ الـذهن

---

[1] سورة سبأ آية 57

[2] سورة الذاريات آية (22

إلى ما في إنزال الماء من الدلالة على كمال القدرة وإحكام الصنع. فاتفقت آية خلق الإنسان وخلق الطرائق السبع في السماء، مع هذه الآية على إظهار مشاهد من الخلق تحقق الإيمان الذي افتتحت به السورة: **قد أفلح المؤمنون** –

و قد تكون ظاهرة إنزال الماء من السماء، تبعا لتكرر مشهدها على الأبصار، تمر دون أن يقع الانتباه إلى ما تحويه تلكم الظاهرة من الترتيب والربط بين جوانب عديدة ومتباعدة جمعتها يد الحكمة الإلهية وبلغت بها غايتها. فمياه المحيطات والتبخر، وتجميع الأبخرة، والرياح التي تسوقها وتجمعها، والمقادير من الرطوبة، ومستوى والبرودة في الجو، وغير ذلك من الظواهر الطبيعية، والشحنات الكهربائية في السحب، واتجاه الرياح، وقوتها أو ضعفها، وقوانين تبسط في العلوم المرتبطة بتلك لظاهرة، كل ذلك مما يقوم شاهدا على تفرد الله بالخلق. ومن بديع التعبير: قوله تعالى: وأنزلنا بإسناد الإنزال إليه مع الحضور والعظمة ليوحي إلى المتأمل ما يجعله خاشعا أمام عظمة إنزال الماء من السماء، وأنه لا يتأتى من أحد غير الله الكامل.

وتضيف الآية إلى أن هذا الإنزال هو في زمانه ومكانه ومقاديره، يتم بحكمة تتحقق بها النعمة والفضل. وأنه لو سمح للمياه أن تنزل على الأرض متتابعة دون توقف لغرقت الكائنات وهلكت، وأن نفعه لا يتوقف على وقت إنزاله فإن الله قد جعل في القشرة الظاهرة من الأرض قابلية اختزان ما ينزل الماء لتروي به النباتات في أزمنة لاحقة. كما جعل في طبيعة الماء وطبيعة تركيب الطبقات الأرضية ما يستطيع به الماء النفاذ إلى الأعماق ليجد فيها مخازن يتجمع فيها، ثم ينبع على شكل عيون هي مصدر الأنهار، أو يتوصل إليه الإنسان بواسطة حفر الآبار. ثم إن النعمة لا تقف عند نزول الغيث من السماء، فعلى الإنسان أن يتذكر أمرا هاما، هو أن بقاء الماء يسعفه بعد نزوله لما يقيم حياته ويلبي حاجاته، هو من فضل الله عليه، إن المنزل من الماء قادر على أن يذهب بتلك المياه فلا يجد لها الطالب أثرا.

19-فأنشأنا لكم به....ومنها تأكلون .

يتفاعل الماء مع الأرض حسب القوانين التي أودعناها في التربة وفي الماء؛ فأنشأنا بذلك جنات: الأرض واحدة، والأشجار متنوعة في شكلها وثمارها ومذاقها. وصرحت الآية بالنخيل والأعناب والزيتون باعتبار أن ثمارها ينتفع بها إثر جنيها، وتدخر لينسحب خيرها على الإنسان فيما يستقبل. وحللت الآية المنة بأن مما ينبته

في هذه الجنات، ما يقتات به ويتفكه به كالتمر والعنب، ومنها ما يتفكه به فقط كالكمثرى والتين واللوز. ومنها ما يقتات به كالزيتون.

وأنت إذا لا حظت تنوع الفواكه إلى فصائل متعددة، ونظرت في النوع الواحد واختلاف أفراده في الشكل والمذاق، تدرك دقة التعبير القرآني: فواكه كثيرة. كالبرتقال، والمشمش، والكمثرى، والتين، تجد بين وقت النضج اختلافا، وبين اللون والنكهة والرواء والطعم اختلافات كثيرة.

و تجمع المنة في كلمة: **ومنها تأكلون**. فمن الجنات تصلون إلى ما يقيم بنيتكم ويحفظ عليكم حياتكم.

20-وشجرة تخرج من ....وصبغ للآكلين.

صرحت الآية مفردة شجرة الزيتون، وأخرجنا لكم من الجنات شجرة، حدد منابتها الأولى بأنها في طور سيناء. وطور سيناء هو جبل الطور بصحراء سيناء، الجبل الذي تلقى عنده موسى عليه السلام الوحي الأول من الله، كما سبق في سورة الأعراف. وذكر المفسرون أن سيناء اسم شجر يكثر هناك، وقيل حجارة خاصة. وعناية القرآن بتحديد منبتها، قد يكون بالنظر إلى وجودها الأول على سطح الأرض، أو إشارة إلى تعظيم شأنها باتصالها بالمكان الذي كلم الله فيه موسى، وسيناء تقرأ بكسر السين وفتحها مع إسكان (الياء) وسينين.

ثم واصل القرآن عنايته بهذه الشجرة ففصل: أنها تنبت ملابسة للدهن والصبغ، فثمارها مختلطة بالزيت الذي هديتم إلى اتخاذه دهنا للأجسام للتداوي، ولترجيل الشعر، ويدخل في كثير من مراهم التجميل. ومع الاستعمال الخارجي تتخذونه صبغا، تغمسون فيه الخبز فيبدو كأنه صبغ به.

21- وإن لكم في الأنعام ... ومنها تأكلون.

عطفت هذه الآية على إنزال الماء من السماء مظهرة منة أخرى من النعم التي قصد بها الكريم التفضل على خلقه، ومتضمنة أيضا دليلا يسند الأدلة السابقة المثبتة لقدرة الله وتفرده بالخلق، وإجراء ذلك على نظام دقيق مرتب في الأزل.

تتثمل هذه المنة في الأنعام، التي تطلق على الإبل والبقر والشاء والمعز، يجد المتأمل فيها عبرة تمكن اليقين بالحكمة البالغة التي تصرف الله بها في الخلق. ولفت الأنظار بصفة خاصة إلى ما يجري في داخل أجهزتها من تفاعلات، فتفرز الألبان صافية نقية تشربونها سائغة مغذية لذيذة. وتنتفعون كذلك منها بمنافع متنوعة

وكثيرة كما ينسج من الصوف والوبر والشعر، والجلود التي تتخذ منها النعال والخفاف والوطاء وصور أخرى كثيرة، وحتى الزبل لتسميد الأرض .
ونعمة عظيمة أخرى هي إحلال لحومها للأكل منها، وإلهام البشر طرقا كثيرة للطهي.

22- وعليها وعلى الفلك تحملون.

لفت القرآن الأنظار إلى منة تسخير الإبل للركوب لقطع المفاوز ولحمل الأثقال على ظهورها، ويعبر عنها بسفن الصحراء، وأدمج منة ركوب السفن وحمل الأثقال عليها، تمهيدا للحديث عن نوح عليه السلام أول صانع للسفن.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ
أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ
يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ
ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا
جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ۙ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن
سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا
ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَٰتٍ وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الملأ: الرؤساء المقدمون الذين يرجع إليهم.

الجنة : نوع من الجنون.

التفضل : تكلف الفضل.

تربصوا : انتظروا.

بأعيننا: تحت رقابتنا فلا يدخل صنعك خلل.

ووحينا: في التصور الكامل للفلك.

اسلك : أدخل.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد أرسلنا نوحا عليه السلام إلى قومه، الذين كانوا يعبدون آلهة أصناما يتقربون إليها؛ فكانت دعوته: يا قومي اعبدوا الله وحده فإنه لا يمكن أن يكون إلها إلا الله، وكل الآلهة من دونه زيوف لا حقيقة لها. ألا تخشون عذاب الله وتحصنون أنفسكم منه ؟

تقدم كبراء القوم بمجرد ما سمعوا دعوته لتفنيدها والرد عليها، بخمسة أوجه:

أولا: إن نوحا بشر يستوي معكم في خصائص البشرية، ومرتبة الرسالة لا تليق بالبشر.

ثانيا: أن الدافع الباطني لدعوته: أنه يريد منازل الرئاسة والتقدم عليكم، وأن تتبعوه.

ثالثا: أن الله لو أراد أن يبلغ رسالته إلى الناس فإن المعقول أن يكلف بذلك ملكا لا بشرا.

رابعا: هذه الدعوة لا تستند إلى قوة الماضي، فما بلغنا أنه سبق أن ادعى أحدمن البشر أنه رسول من عند الله. وما وقع مثل هذا في عهد آبائنا.

خامسا: هذا الرجل مصاب بنوع من الجنون، ولا تتعجلوا الأمر. فإنه إما أن يشفى من جنونه فيقلع عما دعاكم إليه، وإما أن يتطور جنونه فينكشف أمره.

نفد صبر نوح، بعد أن واصل دعوته ليلا ونهارا، وأيقن أن تصميم قومه على الشرك بلغ بهم درجة العناد المتأصل، فدعا ربه أن يتولاه بنصره نصرا يقلع تأثيرهم الفاسد في قومه.

أوحى الله إليه أن عليه أن يصنع فلكا سفينة، وأن الله يهديه في عمله هذا فلا يلحقه أي خلل، وأن الله معه يرقبه ويسدده، وأنه سبحانه سيرسم في فكره صورة السفينة ووظائفها حتى يكون عمله محكما. فإذا أتممتها فإن أمارة إهلاك قومك الذين دعوت عليهم: أن الفرن ينبع منه الماء. وعند ذلك أدخل فيها من كل نوع من الأحياء زوجين ذكر وأنثى، وأدخل المؤمنين من أهلك، وأما الكافرين الذين سبق القدر بما سيلقونه فلا تأخذك بهم رأفة، تدفعك أن تطلب نجاتهم، فقد تم القضاء المبرم: سيبتلعهم الماء ويغرقون .

أرشد الله نوحا أن يتوجه إليه، عندما يتمكن مع من حمله معه في الفلك، أن يتوجه إليه بالحمد والثناء على ما تفضل به عليهم من إنجائهم من ظلم قومهم. وأن يلطف به و بهم في سيرهم حتى يدركوا منزلا مباركا، فيه ينزلون، فيعود بهم للأرض عمرانها.

مع التأكيد فإن قصة نوح قد اشتملت على عبر كثيرة، وآيات دالة على تفرد الله بالتقدير والتنفيذ. وأنه سبحانه يبتلي خلقه بالخير والشر لحِكَم تقصر مدارك البشر عن إدراك أسرارها.

بيان المعنى العام :

23- ولقد أرسلنا نوحا...أفلا تتقون.

تتابعت عناية الله بالناس ليهديهم إلى إفراده بالعبادة، فلفت أنظارهم أولا إلى ما في ذواتهم من الأدلة على ذلك، ثم ثنى بكتاب الكون وما فيه من عجائب الصنع وبالغ الحكمة والتقدير. ثم ثلث بعرض مواقف الأمم من رسلهم ومآل الرافضين لدعوة الرسل.

و لما كان نوح عليه السلام أول رسول إلى أهل الأرض، وهو أول من صنع الفلك، افتتح التذكير ببعثته، فقال مؤكدا: **ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه.** فهو يلتقي مع محمد عليه السلام في أن كلا منهما رسول، وأن قوم نوح لم يأتهم رسول منهم قبله، وكذلك العرب، وأن قَوَامَ دعوتهما إفراد الله بالعبادة **(اعبدوا الله مالكم من إله غيره)**.فنوح يهز قومه إلى رفض الأصنام التي يعبدونها، فمرض عقيدتهم هو الشرك، وكذلك كان شأن قريش. ورتب نوح دعوتهم لإفراد الله بالعبادة سؤالا إنكاريا، ينكر عليهم غفلتهم، بعدم وقاية أنفسهم من عذاب الله، فأدمج في سؤاله تهديدهم بسوء العاقبة.

24-فقال الملأ الذين كفروا...في آبائنا الأولين.

بمجرد ما دعاهم نوح أسرعوا للرد عليه، فتقدم لذلك رؤساؤهم ووجهاؤهم الذين تأصل فيهم الكفر من قومه رافضين دعوته، منكرين أن يكون رسولا من عند الله، موجهين موقفهم بأن نوحا يستوي معهم في البشرية، الأمر الذي لا يقبل معه أن يكون واسطة بين الله وبين الناس. ثم أضافوا لاستبعاد صدقه، عاملا نفسانيا اختلقوه، وهو أن نوحا ما أتى بهذه الدعوة إلا ليحصل على منزلة القيادة التي حرم منها، فهي محاولة منه ليظهر فضله عليهم ويبرر اتباعهم له. ثم ركبوا على ذلك نقطة ثالثة، فنصبوا أنفسهم حاكمين على الله مقررين ما ينبغي أن يفعله إذا أراد إبلاغ هدايته، فقالوا لو شاء الله أن يحمل رسالته أحدا فإنه لا يختار لها إلا ملائكة .فهم قد حكموا على البشر بأنهم في المنزلة الدون لا يرقون إلى قبول الفيض الإلهي الراشد. وواصلوا دعم تكذيبهم بالحجة التي يعتمدها كل الذين أقفلوا عقولهم وركنوا إلى التقليد، أن ما عليه السابقون هو الحق، وما بلغهم أي خبر يفيد أن الله بعث بشرا في الأزمنة السابقة. فما جاء به نوح مرفوض لعدم استناده إلى أمر حصل عند الماضين. ومبالغة في التأثير دعموا تقليدهم الأعمى بربطه بالآباء الذين فطر البشر على متابعتهم **(ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين)**

25- إن هو إلا رجل ....حتى حين.

ولما عروا نوحا عليه السلام من كل المؤيدات وقدموا تصور دعوته، بكونه رسولا من عند الله، أنه أمر غير مقبول ولا معقول، أرادوا أن يجهزوا بالإجابة عن سؤال يمكن أن يثور، إذا كان ما قدمتم صحيحا فكيف تأتى لنوح أن يدعي الرسالة من عند الله ؟ فقالوا: إن به مسا من الجنون، لم يرموه بالجنون لأن فطنته وذكاءه وقوته في عرض حججه تدفع دعوى جنونه ولذلك قالوا به جنة أي نوع من الجنون كما نقول اليوم : جنون العظمة .يعنون والله أعلم أنه استولى عليه حب القيادة والتفضل على قومه، فما زال ذلك يتفاعل في نفسه حتى أصبح ضربا من الجنون قاده إلى ادعاء الرسالة. فانتظروا قليلا فسينكشف أمره، إما أن يشفى فيقلع عما دعاكم إليه، وإما أن يتضاعف اختلاله فينكشف أمره ويفتضح.

26- قال رب انصرني بما كذبون.

بلغ نوح درجة اليأس من تواصل مد الإيمان في قومه، وقد أخبره الله بذلك كما نصت عليه الآية (**وأوحي إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون**)[1] – فكان شأنه شأن الذين تتضاعف ثقتهم في الله كلما اشتد بهم الكرب. فدعا ربه أن ينزل عليه نصره. والنصر الذي طلبه هو استئصال الكافرين. لأنه لا مطمع له في إيمان أي واحد منهم بعد أن استنفد كل قواه الفكرية والتعبيرية والإقناعية، وبعد كَشْفِ الله له على أن تصميمهم لا أمل في نقضه.

27- فأوحينا إليه أن اصنع...إنهم مغرقون.

استجاب الله دعاء نوح، فأمره أن يصنع فلكا: سفينة، وطمأنه على أن ما يصنعه سيؤدي الغرض منه، ذلك أن الله سيرقبه وهو يتقدم في إنجاز بناء السفينة فلا يلحقه الخطأ، يكون موفقا التوفيق الكامل في الصنع، كما أن التصور الكامل لهيكل السفينة وما ينبغي أن يتوفر فيها سيسعفه الوحي بذلك، فضمن له التوفيق في التصور، وطريقة التطبيق. وامض في عملك إلى أن يحين الوقت المقدر لإهلاكهم، وتظهر لك العلامة في فوران الماء من الفرن. فإذا ظهرت لك أمارة تنفيذ الوعيد فيهم، فأدخل في الفلك الذي أتممته، من كل نوع من الأنواع زوجين ذكر وأنثى، وأدخل أهلك المؤمنين، ولا تدخل الكافرين منهم الذين سبق حكم الله عليهم بالإهلاك. وأرشده أن لا يرق لأحد خَلّفَهُ وراءه ولم يدخله معه في سفينة النجاة، لأن الحكم المقدر النافذ الذي لا مرد له، قد حكم عليه بالغرق.

[1] سورة هود آية 36

28-فإذا استويت أنت ...نجانا من القوم الظالمين.

تعليم من الله لنوح، وهداية للمؤمنين، بينت الآية ما ينبغي للمؤمن أن يقوم به عندما يشهد نعمة الله تحل به، وينزل فضله عليه.

إذا تمكنت أنت ومن تحملهم معك من الاستقرار في السفينة، ورأيت المياه تغمر قمم الجبال، فقل: الحمد لله، والثناء على الله، فهو الذي نجانا من القوم الظالمين. نجانا من كفرهم ومن إذايتهم، ومن صدهم الشديد عن الإيمان. وقد تقدم لنا في سورة الفاتحة الشحنة العظيمة من الاعتراف في قول: الحمد لله رب العالمين. وأن على المؤمن أن لا يغفل عن الثناء على ربه في كل حين وخاصة عندما يجد الفرج بعد الشدة واليسر بعد الضيق.

29- وقل رب أنزلني ....وأنت خير المنزلين.

وفي هذه الآية يذكر القرآن ما علمه الباري لنوح من الدعاء، بعد أن قضي الأمر، وهلك الكافرون، قل: رب **أنزلني منزلا مباركا** ، يكثر فيه الخير، ويتضاعف الانتاج، ويسلم العباد الذين هم معه، والأزواج من الحيوان والنبات، حتى تعود العمارة إلى الأرض. فإنك سبحانك أنت العليم وحدك بظواهر الأمور وبواطنها وتحولاتها. لا يشاركك أحد في معرفة أفضل المنازل المحققة لدعائي.

30-إن في ذلك لآية وإن كنا لمبتلين.

إن فيما عرض عليكم في قصة نوح عليه السلام آيات كثيرة، وعبر متعددة تفيد المتأمل فيها يقينا بحسن التقدير والتصرف الإلهي في الكون. منها :

-إجابة الله لدعاء نوح، فليحذر من دعاهم النبي محمد ﷺ إلى الإيمان فأعرضوا، أن عاقبتهم لا تخرج عن سنن الله في معاملة الكافرين المكذبين لرسل الله .

-أن الذي خلق اليابسة قادر على أن يغمرها بالماء، وأن ينجي من يشاء من عباده. ويهلك من يشاء.

- أن فيها إيماء للبعث، فإن هلاك الكائنات كلها أعقبه عودة الحياة وعمارة الكون بالتكاثر البشري، وبمختلف أنواع النباتات والحيوانات.

وأؤكد أني أنا الله المتحكم في الكون أبتلي بالخير كما أبتلي بالشر. لا يعترض أحد على تقديري لعجز عقول الناس عن إدراك سر القدر.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ
مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا
لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ﴿٣٥﴾
۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا
نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ
بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ
نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ

بيان معاني الألفاظ :

القرن : الأمة من الناس.

أترفناهم : بسطنا لهم الأرزاق.

اللقاء : هو لقاء الإنسان بربه يوم الحساب .

هيهات: اسم فعل بمعنى بَعُدَ، مثل صَهْ بمعنى اسكت.

افترى : كذب كذبا مفضوحا لا شبهة له فيه.

أخذتهم : أهلكتهم.

الصيحة : صوت الصاعقة.

غثاء : ما يجمعه السيل من الأعواد اليابسة والورق ويتراكم فوق سطحه.

بيان المعنى الإجمالي :

تعلقت إرادة الله بعد إنجاء نوح ومن معه أن يبارك فيهم ويتكاثروا، وأنشأ سبحانه أمما تعرض القرآن لواحدة منها، الظاهر أنهم قوم ثمود. كان من أمرها أنها انحرفت ونسيت عقيدة التوحيد التي ثبتها نوح، وشريعته التي أقام عليها المجتمع. فأرسل الله لهم رسولا منهم نشأ فيهم يعرفون فضله وصدقه وخلقه الرفيع. دعاهم أول ما دعاهم إلى إفراد الله بالعبادة وطرح الآلهة التي كانوا يعبدونها من دونه. وحرضهم على التوحيد وأن عليهم أن يتقوا الله الذي خلقهم ولا يشركوا به شيئا.

وكما هو شأن المرسلين مع أقوامهم، أن الذين يرفضون دعوة الحق ويتقدمون للمواجهة، هم أكابر القوم الذين يخشون على مكتسباتهم أن تضيع، فصمموا على الكفر وعلى التكذيب بالبعث، واستهواهم المضي على حياة الترف والانغماس في الشهوات؛ وعملوا على تضليل الدهماء من أتباعهم بأن الرسول هو بشر يستوون

معه في خصائصه البشرية فلا فضل له عليهم، يأكل كما يأكلون ويشرب كما يشربون ومعنى هذا أنه تجري عليه جميع الأعراض البشرية، ورضاهم باتباع من هو مثلهم وطاعته سيفضي بهم إلى الخسران الواضح .

ما هو الأمر الذي يعدكم به ؟ هو يعدكم أنكم ستخرجون إلى الحياة وتعودون كما كنتم من قبل، بعد أن تحللتم وتحولتم إلى تراب وعظام. إن ما يدعوكم إليه ويعدكم به أمر بعيد وبعيد جدا.

فما هي الحقيقة ؟ إن الحقيقة: أنه لا توجد حياة بعد حياتنا الدنيا هذه. هي السنة التي جرى عليها أمر الإنسان في القديم والحديث والماضي والحاضر والمستقبل، نموت وننجب من يحيا بعدنا ليموت بعد أن ينجب، وهكذا. ولا حياة غير هذه الحياة ولا نبعث بعد أن نموت. ويبقى سؤال ربما يشكك في أقوال الملأ، وهو أن الرسول نشأ فيهم وهو معروف بالصدق والاستقامة والكمال . فطردا لهذا الخاطر قالوا: إنه قد اختلق من عنده ما أبلغكم إياه، ونحن تبينا ذلك تبينا كاملا فلا نؤمن أبدا بما يدعو إليه . وصدق الأتباع رؤساءهم وصمموا على الكفر كما صمموا. وإذ بلغ الأمر هذا الحد من العناد دعا الرسول ربه أن ينصره باستئصال المكذبين. استجاب له ربه وأعلمه أن كلمة العذاب حقت عليهم، وسينفذ ذلك قريبا في وقت الصباح. فأهلكوا بصيحة مزقت كيانهم، فلم يمر الصباح حتى كانوا ركاما فتاتا كحال غثاء السيل يطفو على السطح ويضيع على جنباته. ذهبوا غير مأسوف عليهم ولا يذكرون بخير.

بيان المعنى العام :

31←34: ثم أنشأنا من بعدهم ...إنكم إذا لخاسرون.

على هذا النحو تمت إرادة الله، فإنه بعد أن استأصل قوم نوح، وعم الطوفان اليابسة، ونجا نوح ومن معه، بسط الله للناجين أسباب التكاثر، وحماهم من الأوبئة، وانتشر العمران. ومن الأمم التي تناسلت منهم هذه الأمة التي تعرض لها القرآن في هذه السورة ولم يعينها، ورجح الطبري وغيره أنها أمة ثمود. رجح ذلك أمران : أحدهما أن أمة ثمود هي التي أهلكت بالصيحة، وثانيهما أن العذاب سلط عليهم في الصباح، وهو ما يأتلف ما جاء في سورة الحجر: **فأخذتهم الصيحة مصبحين**[1] .

---

[1] سورة الحجر آية 83

ذكرت الآية من أمرهم أن رسولهم كان منهم وليس واردا عليهم غير منسوب إليهم. وخاطبهم بما خاطب نوح قومه. وتولى اعتراض دعوته وتكذيبه أكابر القوم الذين جمعوا بين التصميم على الكفر، والتكذيب بالنشر والحشر وبيوم القيامة، وبين البسط في الرزق، فكانت حياتهم حياة الرفاهية المترفة. وشأن الترف أنه يفسد الفطرة ويغطي على منافذ الروح فتظلم وتتعلق بالمادة. ولذا اعتمدوا في إبعاد الناس عنه بقولهم: إنه بشر مثلكم تستوون معه ولا يفضل عليكم، هو يأكل كما تأكلون ويشرب كما تشربون. أثاروا الجانب المادي الذي استولى عليهم، واعتقدوا تبعا لذلك أنه ليس وراءه شيء آخر يتفاضل به البشر. هم غافلون عما يتميز به الإنسان، الروح التي تنفذ إلى المدارك العالية وتسمو بالإنسان إلى مرتبة تقربه من مرتبة الملائكة، وبالروح وشفافيتها يتفاضل البشر. نجد في الرتبة العالية المرسلين والأنبياء وفي الرتبة الدنيا المنغمسين في الطين والمادة. ولما كان الملأ من الصنف الثاني انعكس عندهم سلم القيم، فقصروا الفوز أو الخسران على الجانب المادي وحده، ولذا قالوا لقومهم إنكم إن اتبعتم رجلا مثلكم ليس من الأغنياء المترفين وأطعتموه ومكنتموه من قيادتكم، فإن صفقتكم معه ستكون خسارة تامة .

35- أيعدكم أنكم ....تخرجون.

استفهام فيه انكار وتعجيب، انتقلوا من إنكار رسالته إلى إنكار ما تضمنته من أن الناس سيبعثون من قبورهم، ويخرجون أحياء على الصورة التي كانوا عليها قبل موتهم . وهذا من تضليل أكابر القوم، يثيرون الأتباع ليتأملوا في مضمون الرسالة، وقدموه على أنه أمر مستبعد غير مقبول، بل هو جدير بأن يكون محل السخرية والاستهزاء: أن يبعثوا أحياء بعد أن تتفتت أجسامهم وتنقلب ترابا. وكرر أنكم مرتين لطول الكلام من الناحية اللفظية، وللإشارة من الناحية المعنوية بمواجهتهم بالخطاب المؤكد. ومخرجون: مخرجون على هيئاتكم التي أنتم عليها للجزاء.

36- هيهات هيهات لما توعدون.

هيهاتَ كررت مرتين وهذا هو الغالب في استعمالها في العربية أنها تكرر مرتين، وقد تكرّر ثلاثا. وهي كلمة مبنية على الفتح يقصد منها التعبير عن بعد ما يتلوها. فيكون المعنى بعد بعدا كبيرا ما توعدون من البعث بعد الموت.

37- إن هي إلا حياتنا ...وما نحن بمبعوثين .

وإذ نفوا ما وعدهم به من البعث ، قصدوا إلى إثبات ما يناقضه فقالوا: لا حياة إلا الحياة التي نحياها هذه، الحياة القريبة التي تجري على كل فرد .ثم فصلوا بأنها حياة يعقبها موت، أي إن الموجودين اليوم سوف يموتون ويخلفهم من بعدهم قوم آخرون يجري عليهم ما جرى علينا، وهكذا تستمر الحياة، وليس بعد هذه الحياة حياة أخرى نبعث لها بعد الموت.

38-إن هو إلا رجل ... وما نحن له بمؤمنين.

وحتى يؤثروا في الدهماء الذين يتبعسونهم خلصوا إلى بيان حقيقة ما جاء به الرسول حتى يحولوا بينهم وبين ما جاء به فقالوا: هو ليس رسولا ولكنه رجل كذاب، كذب على الله كذبا مفضوحا لا شبهة له فيه (افترى).ونحن الذين لنا من التجربة والنفاذ إلى حقائق الأمور لا نؤمن بما قال ولا نتبعه. فإياكم أن تنخدعوا.

39-قال رب انصرني بما كذبون.

وعلى سنة المرسلين إذا ضاق بهم الأمر، وبلغوا درجة اليأس من عناد مخاطبيهم المصممين على الكفر، وعلى التأثير في الأتباع بما يصدهم عن الإيمان، كما ورد في قصة نوح قبل هذا، أنهم يلتجئون إلى الله طالبين النصر الذي يمحق الكفر وأهله .

40- قال عما قليل ليصبحن نادمين.

استجاب الله لدعاء رسوله، وأعلمه أنه سيحل بهم العذاب قريبا وأنه لا يمهلهم. وأنهم حين يرون بوادر العذاب في الصباح يتضاعف عذابهم بندمهم على ما صدر منهم من التكذيب، ولا ينفعهم الندم بل يجمع الله لهم بين الاستئصال، والحرج النفسي، والشعور بالخزي عما قدموا.

41- فأخذتهم الصيحة...فبعدا للقوم الظالمين.

لم يمهلوا طويلا، إذ أعقب الله دعاء الرسول بالتعجيل بالانتقام منهم بصيحة قوية تجاوزت شدتها طاقاتهم وأهلكتهم في لحظة. إن ما سلط عليهم من العذاب كان هو ما يستحقونه جزاء وفاقا لكفرهم وتكذيبهم رسول الله، فلا اعتداء عليهم فيه (بالحق) ثم وصف تأثير الصيحة فيهم أنهم انقلبوا إلى ركام، أشبه ما يكون بما يحمله السيل من الأوراق والأقذار والأعواد التي تعلو سطحه (غثاء)

إنهم بعد أن أهلكوا ومزقوا من الصيحة، وذهب كل ما كان يعتزون به من قوة ويطاولون به الحق، هتف هاتف باحتقارهم وإظهار الشماتة بهم، عبر عنه القرآن بقوله: **فبعدا للقوم الظالمين**. فإن كلمة بعدا وإن كانت تستعمل في العربية للدعاء

بالهلاك، إلا أنهم بعد أن أهلكوا خرج اللفظ عن معناه الأصلي ليدل على أن الموقف منهم بعد استئصالهم موقف استراحت البشرية منهم، بسبب ظلمهم وفسادهم فقد ذهبوا غير مأسوف عليهم ولا يذكرون بخير .

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴿٤٣﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضًا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدًا لِّقَوۡمٍ لَّا يُؤۡمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

قرونا آخرين : أمما أخرى .

تترى : يأتي رسول ثم يأتي رسول آخر بعد مهلة من الزمن .

أتبعنا بعضهم بعضا : تتابع إهلاك المكذبين على نحو واحد.

أحاديث : جمع أحدوثة، يتحدث الناس من بعدهم بما أصابهم.

الآيات : المعجزات المؤيدة للرسول.

السلطان المبين : الحجة الواضحة .

ملئه : أهل مجلسه وأعوانه وعلماء الدين عنده.

آويناهما : أسكناهما وأنزلناهما.

الربوة : المرتفع من الأرض.

قرار : صالحة للاستقرار فيها.

المعين : الماء الجاري.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد قبول دعاء الرسول على الأمة التي تمردت عليه حتى يئس من هدايتها وتم إهلاكها، أنشأ الله أمما أخرى. لكل أمة من تلك الأمم أجل محدد، يبين لهم

الرسول ويثبت ما يدعو إليه بالبراهين والحجج، حتى إذا يئس من هدايتهم يسلط الله عليهم عذابه في الوقت المقدر فلا يتقدم العذاب ولا يتأخر عن وقته. وجرت سنته سبحانه أنه يبعث رسله بصفة متتابعة، يأتي الرسول ويبلغ ويجتهد لإقناع المبعوث إليهم بالحق الذي جاء به من عند الله، وأن إغراء الشيطان بالضلال واتباع المبعوث إليهم لتضليله، ينتهي بهم إلى رفض الدعوة وتكذيب الرسول فيستأصلهم الله بعقابه، ويتحدث الناس عنهم بما آلوا إليه. يذهبون غير مأسوف عليهم وقد استراحت البشرية منهم.

و بعد فترة من الزمان مقدرة عند الله بعث الله موسى وأخاه هارون مؤيدين بالمعجزات الظاهرة ابتداء من العصا وتحولاتها العجيبة وتأثيراتها القوية وخروج يده بيضاء نقية إذا أدخلها في جيبه، والآيات السبع الأخرى المذكورة في سورة الأعراف. ومؤيدين كذلك بظهور الحجة وقوة البراهين. أمرَهُما أن يتوجها إلى فرعون والملأ الذين يأتمرون بأمره المقربين منه. ثارت في نفوسهم جرثومة الكبر والتعاظم التي تمكنت منهم حتى غدا الكبر لهم طبعا. وصرحوا مستنكرين أن يؤمنوا برسالتهما، مع أنهما يستويان معهما في البشرية، بل إنهما أرفع مقاما اجتماعيا، إذ بنو إسرائيل خدم وعبيد للقبط . وصمموا على تكذيبهما فانضموا إلى الذين قدر الله إهلاكهم.

إن الله آتى موسى عليه السلام التوراة، الكتاب المثبت للتشريع، والمرجع الذي كان على اليهود أن يحفظوه وأن يعودوا إليه. إنهم يرجون من القيام عليه وتطبيق ما جاء فيه أن يحققوا لأنفسهم الهداية التي تبعدهم عن الضلال.

تعلقت إرادة الله أن يجعل في عيسى عليه السلام وأمه معجزة ظاهرة. فما حملت قبله ولا بعده أنثى وأنجبت دون اتصال جنسي بينها وبين ذكر من جنسها. وصحبتهما عناية الله فأسكنهما على مرتفع من الأرض توفرت فيه الخصوبة ويطيب فيه القرار، وتجري فيه المياه العذبة.

بيان المعنى العام :

42- ثم أنشأنا من بعدهم قرونا آخرين.

تحقيقا لما أراده الله من عمارة الأرض، قدر أنه كلما أهلك قوما لتكذيبهم وكفرهم وفسادهم فسادا يحول بينهم وبين شرف الخلافة، يخلق الله أمة أخرى تخلف الأمة الهالكة .

43-ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون.

ولكل أمة من تلكم الأمم أجـل محـدد، يمهلهـم الله ولا يهملهـم، فـإذا صـمموا علـى الكفر، والعناد، ورفض التوحيـد والهـدى، يسـلط علـيهم عذابـه فـي أجلـه، فـلا يستعجل بهم، ولا يؤخره عن أجله الذي حدده.

44- ثم أرسلنا رسلنا ....فبعدا لقوم لا يؤمنون.

يبعث الله لكل أمة من الأمم المتعاقبة على عمارة الكـون رسـولا يقـيم فـيهم، ويجتهـد لإقناعهم بالحقيقة التي جاء بها من عنـد الله، وليقلعـوا عـن الشـرك والظلـم والفسـاد، ويحقق لهم أنه مرسل من عند الله. وتتابع الرسل على هـذا النحـو. يـأتي الرسـول فـي الوقت الذي يغشي فيه الباطل والشـرك علـى الحـق والتوحيـد، وتخـتلط فيـه السـبل، فيجتهد في أداء ما أوكل إليـه، ويكـون همـه اسـتقامة البشـر علـى التوحيـد وعلـى السلوك الصالح. ويجد الصدود من أكابر القـوم والمتـرفين مـنهم الـذين يـؤثرون فـي الدهماء ليعرضوا عن الدعوة، وبعـد أن يسـتنفد كـل مـا أوتيـه مـن وسـائل الإقنـاع وبيأس من هدايتهم، يسلط الله عقابه على المعانـدين المكـذبين . فتنضـم كـل أمـة حـق عليها كلمة العذاب إلى سلسلة المكـذبين الهـالكين. ويكـون استئصـال كـل أمـة عبـرة للناس يتحدثون بما أصابهم وبما انتهى إليـه أمـرهم. فالرسـل لا يـأتون مجمـوعين ولا متعاقبين، ولكن يأتي الرسول فيقوم بوظيفتـه، وينتهـي الأمـر بهـلاك المعانـدين، ثـم بعد فترة يأتي رسول آخر لقوم وضعهم العقـدي والسـلوكي كوضـع المهلكـين وينتهـي أمرهم بمثل ما انتهى إليـه سـابقوهم، فهـذا معنـى رسـلنا تتـرى ... ويلحقهـم بعـد إهلاكهم، احتقارهم والنظر إليهم نظرة المسـتراح مـنهم غيـر المأسـوف علـيهم لأنهـم كانوا قوما غير مؤمنين. فاتحدت النظرة إلـيهم بعـد هلاكهـم بـين هـذه الآيـة والآيـة السابقة فبعدا للقوم الظالمين. والكفر وعـدم الإيمـان ظلـم للحقيقـة المطلقـة وللعلاقـات الكونية. إن الشرك لظلم عظيم.

45- ثم أرسلنا موسى....و سلطان مبين.

تتابعت الرسل على حسب ما وصفته الآية السابقة. يـأتي الرسـول ثـم بعـد فتـرة مـن الزمن يأتي رسول آخر، وتجري سنة الله في القـوم المكـذبين. ثـم بعـد ذلكـم الـزمن البعيد في تاريخ البشـرية تعلقـت الإرادة الإلهيـة بتكليـف رجلـين بالرسـالة يتعاونـان على إصلاح أمر المجتمع الذي بعثا إليه، أرسـل الله موسـى وأخـاه هـارون بعـد مـدة مؤيدين بالمعجزات التي صحبتهما مع بداية الدعوة. فكانـت العصـا التـي تتقلـب، بـين كونها عصا تحقق لحاملها أغراضـا كثيـرة كمـا قـال موسـى عليه السلام : (**هـي عصـاي**

أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيهـا مـآرب أخـرى ...)[1] وبـين مـا أودع الله فيها من خصائص معجزة لموسى بانقلابهـا حيـة تسـعى، وبالتهامهـا لكـل مـا أعـده السحرة من حبال وعصي، ثم عودتهـا إلـى وضـعها الأول. ثـم بعـد ذلـك بانشـقاق البحر وبتفجر الماء من الصخرة إثر ضربه لها، مما ذكـره القـرآن فـي آيـات عديـدة. وخروج يده بيضاء نقية بعد أن يدخلها فـي جيبـه مـع أنـه عليـه السـلام كـان أسـمر اللون، ومع المعجزات المحسوسة أيده الله بصـفاء فـي عقلـه واسـتقامة فـي تفكيـره، وحضور في البديهة، وهو السلطان المبين.

46- إلى فرعون وملئه ...وكانوا قوما عالين .

أرسلهما الله أولا إلى فرعون وأهل مشورته ورؤسـاء إدارتـه التنفيـذيين؛ كـان مـوقفهم الإعراض عن دعوة موسـى وأخيـه، حملهـم علـى الإسـراع بـالرفض اسـتكبارهم، وظنهم أنهم أعلى من أن يعرفوا بحقيقة من الحقـائق، أو أن يرشـدوا إلـى مـنهج غيـر المنهج الذي ساروا عليه في حياتهم، وقد تمكن منهم الكبر حتى صار طبعا لهم .

47-فقالوا أنؤمن ...لنا عابدون.

فصلت الآية كبرهم بعرضها ما بادروا إليه إثر دعـوتهم إلـى التوحيـد والتخليـة بـين موسى وقومه، على أن ذلك أمر إلهي، عليهم أن يسـتجيبوا لـه ويطبقـوه. كـان ردهـم تكذيب موسى وأخيه فيما أثبتاه أنهما مرسـلان مـن عنـد الله، بـرروا تكـذيبهم بأنهمـا من الجنس البشري لا مزية لهما ترفعهما إلـى مسـتوى الإخبـار عـن الله. وضـلوا فـي اعتقادهم أن البشر متساوون تساويا ينفي كل فـرق يتبعـه أن يرتفـع أحـدهم إلـى تلقـي الوحي من الله وتحمل رسالته. إن البشر وإن اتحـدوا فـي القـدر المشـترك بيـنهم فـي الإنسانية إلا أنهم في الجانب العقلي والروحي متفاوتون تفاوتـا كبيـرا. ثـم أضـافوا إلـى وهم المساواة المطلقة أن قوم موسى وأخيه كـانوا عبيـدا خـدما للقـبط، فكيـف ينقلـب العبيد التابعون إلى قادة متبوعين؟ وهذه الإضافة هـي نابعـة مـن اسـتكبارهم وتطـبعهم على العلو. أنكروا أن يكون موسى وأخوه مرسـلين مـن نـاحيتين: مسـاواتهم لهمـا فـي البشرية، وكونهم أفضل منهما اجتماعيا.

48- فكذبوهما فكانوا من المهلكين.

صرحت هذه الآية بعاقبة التكذيب التي هي مـآل كـل المكـذبين لرسـل الله فـي تـاريخ البشرية: أن الله أهلك فرعون وملأه واستأصـلهم بغـرقهم فـي البحـر ولـم يـنج مـنهم

---

[1] طه آية18

أحد. وفي ذلك تحريض للمشركين على قبول الرسالة المحمدية وإنقاذ أنفسهم من الدمار الماحق إن هم واصلوا العناد والمكابرة.

49- ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون.

بكل تأكيد مكنا موسى من الكتاب المفصل للشريعة التي جاء بها موسى ليكون مرجعا لبني إسرائيل يهتدون بهداه، وهو التوراة. ودور كتب الله أنها تكون جامعة لكلمة المرسل إليهم. إنه إذا رجعوا إلى ذلك الكتاب محكمين له فيما يشكل عليهم يرجون أن يهتدوا إلى الحق ويرتفع بينهم الخلاف.

50-وجعلنا ابن مريم وأمه...ذات قرار ومعين .

يتابع القرآن عرض عناية الله برسله التي من مظاهرها تأييده لهم بالمعجزات ووضوح الحجة، وإهلاك المكذبين. وآخر رسول قبل محمد ﷺ هو عيسى عليه السلام، الذي كانت معجزته أولا في ذاته. فنوه بأمره من هذه الناحية لتفرده بها وليرد على اليهود الذين غمزوا في نسبه وفي طهارة أمه، فجمع بين الوالدة والمولود، وحقق أن الله أراد أن تكون المعجزة في عيسى وأمه، إذ لم يقع في تاريخ البشرية أن حملت أنثى بدون اتصال جنسي بينها وبين ذكر. وحققت الآية أن عناية الله تواصلت بعد الحمل إلى الوضع، فتخير الله لها المكان الذي تضع فيه وليدها بعيدة عن أعين الرقباء، والذي هو من ناحية ثانية بيئة صالحة مرتفعة، نقي هواؤها، مظللة بالنخيل الذي يسر لهما من رطبها القوت والتفكه، ويجري فيها نبع ماء يرويهما ويؤنسهما بخريره.

وقد اجتهد المفسرون لتقديم فروض لتعيين هذه الربوة: غوطة دمشق، بيت المقدس، مصر، الرملة من أرض فلسطين، بيت لحم. وعلى المنهج الذي سرنا عليه فإن النص القرآني لما لم يعين المكان بالاسم على التحديد، فإنا لا نتجاوز ما جرى عليه، خاصة وأن الآيات السابقة كلها انبنت على لفت الأنظار إلى الوقائع دون اعتناء بربطها بمحددات معينة. ثم أرسلنا رسلنا تترى-أنشأنا من بعدهم قوما آخرين- أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين- دون تفصيل لا للآيات ولا للسلطان. ولقد آتينا موسى الكتاب – ولم ينص على اسمه. وعلى هذا النسق – ربوة – فتعيينها لا يزيد النص وضوحا ولا حاجة تدعو إليه ليتم الاعتبار.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرٗاۖ

كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٥٣﴾ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٥٤﴾ أَيَحْسَبُونَ
أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

تقطعوا: تفرقوا على نحل كثيرة.

أمرهم :أمور دينهم.

زبرا: جمع زبور، أصله الكتاب الجامع لأمور الديانة.

حزب : كل جماعة تشاكلت رؤاهم وأعمالهم .

فرحون : راضون مسرورن.

ذرهم : اتركهم.

غمرتهم: ما عمهم من الضلال حتى غرقوا فيه.

الإمداد : التمكين من العطاء والمدد.

نسارع لهم : نعجل لهم.

بيان المعنى الإجمالي :

إذْن صادر من الله لرسله دال على عنايته بهم وإرشادهم إلى ما يتناسب مع مستواهم الإنساني الرفيع، أذن لهم أن يأكلوا من طيبات ما خلقه الله في الأرض ولا يتبعوا الخبيث ولا المستقذر ولا ما هو محرم. وأن يجتهدوا في القيام بالأعمال الصالحة، وأعلمهم أنه يرقب أيضا أعمالهم بما يشعر أنهم مجزيون عن كل ما يفعلونه من صالح الأعمال في حياتهم . وأعلم سبحانه رسله بالجامع النفيس بينهم، أن دينهم واحد، هم يردون من مورد الحق فشرائعهم واحدة تهدي إلى الصراط المستقيم. ومع وحدة العقيدة والتشريع في أصوله، أني أنا الله ربكم جميعا فقوموا بما تقضيه الخلافة في الأرض من صلاح العقيدة والسلوك، فطبقوا شريعتي بما تحصنون به أنفسكم في الحاضر والمصير.

لم ينتفع كثير من الأمم بالتحذير، ومزقوا المنهج الواحد وقطعوه إلى قطع متنافرة اتباعا لأهوائهم، فكان كل فريق يأخذ بما تراكم من أباطيل، ويتعصبون لها تعصبا يشغلهم عن النظر أو نقد الذات. حرفت التوراة وحرف الإنجيل وضاعت شريعة المرسلين السابقين، وعبدت الأصنام، وبرروا ذلك بأنها تقربهم من الله. والعجب منهم أنهم راضون عن أنفسهم فرحون بما هم عليه من مخالفة للعقل والوحي.

اتركهم وما اختاروه لأنفسهم، غارقين في ضلالاتهم، فلن يهملوا طويلا، وإنما هو الأجل المحدد الذي يلقون فيه جزاءهم.

ما أشد غباءهم، أيظنون أن ما مكنستهم منه من أموال ووفرة في الأولاد والعدد، هو دليل رضا مني عليهم وتعجيل لما يسرهم ؟ هم مخطئون غير شاعرين بأن ذلك استدراج لهم لتقوم عليهم الحجة، ويلقون في مصيرهم جزاء ما قدموه.

بيان المعنى العام :

51- يا أيها الرسل كلوا من الطيبات...إني بما تعملون عليم.

ما جاء في الآية السابقة من أن الله يسر لعيسى وأمه منزلا يتوفر فيه الغذاء والماء. وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين. أكملته هذه الآية بما يدل على أن الله أذن لكل من رسله أن يأكل مما وفره الله على الأرض من الطيبات، وفي ذلك جمع بين أمرين: أحدهما الرد على الكفرة المكذبين الذين رأوا في بشرية الرسل وأخذهم حظهم من الطيبات منافاة للرسالة، فأفصحت الآية عن كونهم يأكلون بداعي الفطرة وبإذن من ربهم . وثانيهما أنهم لما جبلوا عليه من كمالات يتخيرون الطيب من الطعام البعيد عن الاستقذار وعن الخبث في ذاته وفي طريقة تحصيله. كما صح عن النبي ﷺ أنه أمسك عن أكل لحم الضب، فلما سئل أهو محرم؟ قال: لا- ولكني أجدني أعافه

وتشير الآية إلى أن الكمل من البشر يقصدون من القوت الاستعانة به على العمل الصالح الذي يفيد الناس ويفيد صاحبه. وبهذا القصد ينقلب الأكل عبادة مأجورا عليها . وهذا ما يشير إليه قوله تعالى: **إني بما تعملون بصير**. فمراقبته لأعمالهم تتضمن وعدا بالثواب لأنها أعمال صالحة.

52- وأن هذه أمتكم أمة...وأنا ربكم فاتقون.

عطفت الآية على ما سبقها من إبراز بشرية الرسل في أفقها العالي بقصدهم إلى الأكل من الطيبات وحدها، ومحض نشاطهم إلى صالح الأعمال، وأنهم في رعاية ربهم يجزيهم عما قدموا من حسنات. وبلغت العناية بهم أن ربط بينهم تحت تلكم الرعاية رعاية الرب الذي فتح لهم الحقيقة المنجية في الدنيا والآخرة. إنه وإن اختلفت الشرائع في بعض الأحكام إلا أنها جميعا واحدة في العقيدة، والسمو بالإنسان سموا يساعده على حسن الاستخلاف في الأرض. يرحمهم ويعنى بالمربوبين جميعهم، فكل الرسل من نوح ومن جاء بعده إلى محمد ممن قص علينا القرآن أخبارهم أو طواها، الله ربهم جميعا، هذه الحقيقة يجب أن تكون مركوزة في ضمائرهم حية في قلوبهم، وهم مكلفون بأن يُذَكِّرُوا بها أممهم. وهي ربوبية يطلب من البشر أن يحققوا بها الصلاح في الكون عقيدة وسلوكا. مما يفرض

عليهم أن يستحضروا خشيته فيما يأتون ويذرون. وهو معنى التقوى. وبهذا تكون آية هذه السورة أوسع دلالة من سورة الأنبياء الذي جاء فيها: **وأنا ربكم فاعبدون.**

53-فتقطعوا أمرهم بينهم ...بما لديهم فرحون.

بلغ الرسل المنهج الذي يسير بالبشر في الطريق المستقيم الواحد في جميع الأعصار، المتفق مع فطرتهم، الموصولة مضامينه في تكامل لا تجد بينها تناقض ولا تنافر، ولكن البشر قطعوا هذا الانسجام في حقيقة ما يتدينون به، وفي علاقاتهم ببعضهم تبعا لذلك. فحل بينهم العداء والتعصب، وبلغ اختلافهم في أديانهم أن تراكم من خيالاتهم مناهج كأنها كتب منزلة" **زبرا**" وأصبح كل فريق منهم مسرورا بضلالاته متعلقا بها، معجبا برأيه لا ينتظر منه أن ينقد ذاته أو يهتدي، ويعادي كل من خالفه، مزقوا وحدتهم قطعا سار كل واحد منهم بقطعته الممزقة التي لا غناء لها . بدلوا كتب الله، واتخذوا من دونه آلهة.

54-فذرهم في غمرتهم حتى حين.

والقوم الذين أرسل إليهم محمد ﷺ، نموذج من الأقوام الفرحين بما لديهم. اتركهم يا محمد وقد أطبقت عليهم ضلالاتهم فغرقوا فيها، شأنهم شأن من أخذه قاع البحر وهو يحسب أنه يسبح فيه. استولت عليهم مباهج الحياة وما هم فيه من زهرة الدنيا فغرقوا في المادة التي أعمتهم عن التفطن لداعي الحق. إنهم مأخوذون في الوقت المقدر لهم أخذا لا انفلات لهم منه.

55←56: أيحسبون أنما نمدهم به ...بل لا يشعرون.

استفهام ينكر عليهم ظنهم أن ما هم عليه من السعة في الرزق، ومن وفرة في الذرية والعدد، ومن ضروب الرفاهية، مما ألهاهم عن النظر فيما لفت إليه الرسول ﷺ أنظارهم، ظنهم أني مكرم لهم معجل لهم بالخيرات، راض عنهم، هم مخطئون خطأ كبيرا، إن ما مكناهم منه من الخيرات ومتع الحياة الدنيا ليس تعجيلا لهم بالمكرمات كما ظنوا، بل هم لا يشعرون بحكمة ذلك، فإني أستدرجهم من حيث لا يعلمون ليُطبق عليهم الوعيد المحتوم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾
وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ
رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ
نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِى

غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا
مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجۡـَٔرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ
﴿٦٥﴾ قَدۡ كَانَتۡ ءَايَٰتِي تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَكُنتُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسۡتَكۡبِرِينَ
بِهِۦ سَٰمِرٗا تَهۡجُرُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإشفاق: التوقع البالغ للمكروه مما يثير الحذر منه.

آيات ربهم : الدلائل التي تضمنها القرآن، وما هو منبث في الكون .

يؤتون ما آتوا: يبذلون المال صدقات وصلات، عن طيب نفس .

وجلة :خائفة.

سابقون : متنافسون في الإكثار من أعمال الخير.

كتاب: سجل جامع.

لدينا : محفوظ عن التغيير.

المترفون : المرفهون المسرفون الذين أبطرتهم النعمة.

الجأر : يصرخون من شدة ألم العذاب صراخا كصراخ البقر .

النكوص : الرجوع من حيث أتى، بمعنى الفرار.

مستكبرين : معرضين عنه استكبارا.

سامرا : تشغلون أحاديثكم في اجتماعاتكم الليلية.

تهجرون : من الهجر وهو السب والكلام السيء.

بيان المعنى الإجمالي :

في مقابل الذين قطعوا دينهم متحزبين معرضين، فصلت الآيات الخمس ملامح المرضي عنهم فذكرت من خصائصهم أن علمهم بمقامهم من رب العزة يجعلهم على حذر شديد من غضبه ورفضه. وأنهم آمنوا إيمانا، حصل لهم منه برد اليقين بالأدلة الواردة في القرآن والمنبثة في الكون. والذين يوحدون الله توحيدا ينفي كل شائبة شرك. والذين يقدمون ما آتاهم الله من أموال طائعة بها نفوسهم ينفقونها في وجوه الخير، ومع هذا هم خائفون أن لا يتقبلها الله منهم، فلا يجدون أثرها عندما يبعثون بين يديه. سحبت عليهم الآية الشهادة التالية: أنهم يبادرون بفعل الخيرات ويتسابقون في الإكثار منها.

ومن رحمة الله بعباده أنه لم يكلف الممزقين للدين شيئا فوق طاقتهم، كما أنه يعذر المتقين الذين تقصر بهم إمكاناتهم عن بلوغ المراتب العالية. وقد حفظ الله كل ما يصدر عن البشر تقيهم وفاجرهم، ولا يظلم الممزقين لدينهم وهو عادل فيما يسلطه عليهم من عذاب جزاء انحرافاتهم، كما يوفي المتقين أجرهم ويعذرهم إن هم قصروا تبعا لقدراتهم.

إن الذين مزقوا دينهم غارقون في الضلالات التي اخترعوها فلا يشعرون بما في القرآن من هداية ولا بما عليه المؤمنون من صالح العقيدة والعمل. وهم ثابتون على أعمالهم الفاسدة مستمرون في الضلال. وأي غاية يهدفون إلى بلوغها ؟

الذي سيظهر في الوجود أننا عندما نأخذ المسرفين المترفين قسرا من معاقلهم ونسلط عليهم عذابنا الذي يستأصلهم، تجد الأتباع يرفعون أصواتهم بالعويل كما تخور البقر. إن بكاءهم وعويلهم لا ينفعهم يوم تسليط العذاب، فإن الاستغاثة لا أثر لها في هذا اليوم.

ثم إبلاغا في النكال بهم يذكرهم ويوبخهم بتذكيره بمواقفهم من القرآن، فقد كان الرسول ﷺ يتلو عليهم آياته، ويشرح لهم مواعظه، وكنتم تفرون من سماع كلامه، والتأمل فيه. وتعرضون عن تذكيره، وضعكم كوضع من أقبل ثم تراجع حذرا مما لاح له. قام في نفوسكم مارد الاستكبار فحجب بصائركم عما تضمنه من حكمة ورشاد، وأخذتموه كملهاة تسمرون في اجتماعاتكم الليلية بسببه وبالكلام القبيح الساقط.

بيان المعنى العام

57←61: إن الذين هم من خشية ربهم ....وهم لها سابقون.

أتبعت هذه الآيات مفصلة الصورة المرضية للذين اهتدوا بهداية المرسلين وطبقوا ما جاءهم من عند الله، في مقابل الذين تقطعوا أمرهم بينهم. وذلك حسب المنهج القرآني في المقابلة بين الخير والشر.

فصلت هذه الآيات الخمس ملامح المرضي عنهم الملتزمون بهداية المرسلين:

أولا. الذين هم مشفقون على أنفسهم أن يحل بهم غضب الله، فاستحضارهم لما تقتضيه العبودية من الطاعة حاضر في مشاعرهم، هم خائفون من أن يكونوا مقصرين في جنب الله.

ثانيا .إن هذا الإشفاق مرتبط بإيمانهم القوي والواضح بالدلائل والآيات التي عرضها القرآن لتثبيت ما جاء به .

ثالثا. هم موحدون التوحيد الذي يفـرد الله سـبحانه بالألوهيـة والتصـرف، دون شـائبة شرك أو غبش في التصور.
رابعا: هم الذين تطهرت نفوسهم من الشـح، فهـم يقَـدمون أمـوالهم مواسـاة لإخـوانهم بالصدقات والهدايا، والنفقات في سبيل الله وفـي حمايـة البيضـة، تَطَـوُعُ بهـا أنفسـهم ولا يتعلقون بما أنفقوا، مستشعرين أن ما حصـل فـي أيـديهم مـن أمـوال أتـاهم مـن فضل ربهم. كل همهم أن يتقبل الله عملهـم، خـائفون أن يكـون حظهـم منقوصـا يـوم يعودون إلى ربهم أن لا يُحظوْا بمنـازل القـرب والرضـوان. يقـول الحسـن البصـري: هم الذين يفعلون ما يفعلون من البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عقاب الله.
خامسا: جمعـتهم الآيـة 62- فأشـارت إلـيهم مفـردة مستحضـرة، فسـحبت علـيهم الوصف الذي هـو خلاصـة الموصـولات، أن خاصـيتهم أنهـم يبـادرون إلـى فعـل الخيرات، لا يبطئون بإنجازها، ويتنافسون في الإكثار منها .

62-ولا نكلف نفسا ...وهم لا يظلمون.

أوعد القرآن في الآيات السابقة المقطعـين للـدين الممـزقين لنسـيجه، ووعـد المتقـين المستحضرين دوما لجلال الله في قلـوبهم. وفـي هـذه الآيـة بيـان لحقيقـة رحمـة الله بعباده. فهو سبحانه، وإن كان لا يسأل عما يفعـل، فقـد لطـف بعبـاده فلـم يكلفهـم إلا ما يستطيعون الإتيان به بدون حرج، وكلّمـا ضـعف الإنسـان عـن الوفـاء بمـا طلبـه منه أسعفه بالتيسير .

والله يعلم قدرات البشر ونواياهم، وقد سجل كل ما يقومـون بـه، ومـا يقصـدون إليـه في سجل جامع لا يضيع منه شيء. هو سـجل يكشـف عمـا قـدموه، يمكـن أن يكـون ذلك بالصوت، كما يمكن أن يكون بالدلالة الواضحة المساوية للنطق.

والله لا يظلم المتعصبين المقطعين للدين، فما ينزلـه مـن عقـابهم هـو جـزاؤهم عـن انحرافهم وفسادهم، كما لا ينقص من أجـور المتقـين شـيئا، وإن نزلـت مـراتبهم فـي الصلاح تبعا لضعف فيهم.

63- بل قلوبهم في غمرة ....هم لها عاملون.

انتقال لمزيد التسجيل والتشـنيع علـى الـذين مزقـوا ديـنهم. إن قلـوبهم غارقـة فيمـا تراكم عليها من الضلالات التي اخترعوها وتحزبـوا لهـا وتمسـكوا بهـا، ممـا جعلهـم لا يشعرون بما في القرآن مـن هدايـة، ولا بمـا عليـه المؤمنـون مـن اسـتقامة كمـا فصلتها الآيات السـابقة، ولا بالكتـاب المحصـي لأعمـالهم المحفـوظ عنـد الله. فقولـه تعالى " **من هذا**" شامل لما ذكرناه.

و هم فوق ذلك اختصوا بأعمال مخالفة للقرآن ولأعمال الذين يخشون ربهم، فهم سالكون منهجا مغايرا لمنهج المؤمنين ولما يدعو إليه القرآن. وهم ثابتون على ذلك لا يتوقع منهم إقلاع أو رجوع للحق.

64- حتى إذا أخذنا...إذا هم يجأرون.

افتتحت الآية بكلمة " **حتى**" وحتى في هذا المقام ليست رابطة للكلام السابق على أن ما بعدها غاية لقوله: "**بل لهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون**" ولكنها بداية كلام، قصد تفريعه على الكلام السابق. فلا تدل على أن قلوبهم في غمرة إلى الوقت الذي يؤخذ فيه مترفوهم . ولكن المقصود تهديدهم بالعذاب المحتوم الذي لا مخلص لهم منه.

وقد يكون تخصيص تسليط الأخذ بالعذاب على المترفين المنعمين المسرفين، لأنهم حلوا مركز القيادة من الأتباع من الدهماء، فانحرفوا بهم وأضلوهم .

وقوله تعالى: **إذا هم يجأرون**، الظاهر من نسق الكلام أن الذين يصيحون من ألم العذاب الذي أخذ به المترفون، هم غير المعذبين، لأن المعذبين قد أهلكهم العذاب فلا يتصور منهم جؤار. ولكن الذين يقيمون المآتم ويندبون الموتى الهالكون هم الباقين. وهذا التهديد المصور لما سيحدث، يمكن انطباقه على ما وقع للمشركين في غزوة بدر، فإن قريشا بكت أبطالها وقادتها الذين ضمهم قليب بدر، ورثوهم بالأشعار، وناحوا عليهم .

65-لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون.

يقال لهم وهم يندبون حظهم ويبكون على المهلكين من سادتهم: إن استغاثتكم ونواحكم لا يستجاب له ولا يتبعه عودتهم إليكم، فقد نفذ فيهم الوعيد وبذلك استوى رفع أصواتكم بالاستغاثة ورضوخكم رضوخ الاستسلام لما حل بكم. إن يوم إهلاكهم يوم تم عزل كل من يظن أن له قوة عن التأثير، والتأثير والتنفيذ لله وحده. فلا تجدون نصيرا ينصركم.

66-قد كانت آياتي ...على أعقابكم تنكصون.

أفادت الآية تقريعهم على ما كانوا يواجهون به النبي ﷺ، وعلى موقفهم مما يتلوه عليهم من آيات القرآن؛ وذلك ليثير فيهم مشاعر الندامة والأسى على ما صدر منهم، وهم الآن بصدد لقاء نتائج ما قدموا.

وجسمت الآية موقفهم الرافض، بأنهم كالفار الراجع من حيث أتى. فالعقب هو مؤخر الرجل، فإذا كان الماشي مقبلا كانت حركته بمقدم رجله، وإذا قصد إلى

عكس حالته الأولى كان سيره متجها إلى جهة أعقابه. والنكوص الرجوع من حيث أتى، كأن ما يتلى عليكم خطر تحذرونه، أو مكروه تتقونه وتفرون منه.

67- مستكبرين به سامرا تهجرون.

إن الداء الذي أضلهم والفساد الذي أعمى بصائرهم عن الحق، هو الاستكبار، هو ظنهم أن مقامهم الاجتماعي، وما أوتوه من مال وبنين، لا يليق بهم مع ما أوتوه أن يستمعوا لآيات القرآن، وللمواعظ التي تخللته، فيكون معنى: مستكبرين به معرضين عن القرآن استكبارا. كما يحتمل أن تكون كلمة مستكبرين أشربت معنى ساخرين بالقرآن.

وأضافوا إلى الإعراض والاستهزاء بما أنزل إليهم من ربهم، أنهم كانوا يتناولون القرآن بالطعن، والدين بالسخرية وفاحش القول في أسمارهم، ولا يتعففون عن القول القبيح انتهاكا لحرمته، وترويضا لأتباعهم ليقفوا مواقف السفهاء من الإسلام

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُواْ
رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ
وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ
وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٧١﴾
أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ
صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ

بيان معاني الألفاظ :

لم يدبروا القول : لم ينظروا بعقولهم فيه نظر التأمل.

الجنة : الاختلاط العقلي، نسبوه إلى تأثير الجن.

اتبع الحق : وافق الحق.

الهوى: شهوة ومحبة لما يلائم غرض صاحبه مما لا يخضع لقيم الحق .

خرج :القليل من العطاء .

الخراج: الكثير من العطاء. ويحتمل أن يراد به في الآية الثواب.

ناكبون : معرضون.

بيان المعنى الإجمالي :

تتبعت الآيات الاحتمالات التي جعلت قريشا يكفرون بالإسلام، فنسقها في صورة أسئلة إنكارية.

الاحتمال الأول: أ لأنهم أغلقوا عقولهم عن التدبر في القرآن العربي الفصيح المتضمن لكل ما تقتضيه الفطرة ويدعو إليه النظر العقلي؟

الاحتمال الثاني : أ لأنهم عاكفون على التقليد فعقولهم محجوبة بحجاب اتباع الآباء؟

الاحتمال الثالث: أ لأنهم جهلوا رسولهم وأخلاقه وكمالاته، أهو غريب عنهم لم يعرفوه ولم يختبروه في شبابه وكهولته فأنكروه ؟

الاحتمال الرابع: أ لأنهم يقولون إنه أصيب باختلال عقلي ؟ وهذا رمي بالباطل الواضح، فإن الكمالات التي دعا إليها، والمبادئ التي أقام عليها الأدلة، والتصور المتكامل للفرد والمجتمع مما لا يمكن أن يرمى الرسول معه بالجنون.

كل ما قالوه باطل وزيف. لأن الرسول جاءهم بالحق الذي لا شبهة فيه عقيدة وشريعة وسلوكا. ولكن الفساد كامن في ذواتهم فتجد أكثرهم يكرهون الحق، والبعض الذي كان له من استقامة تفكيره ما يجعله يفرق بين الحق والباطل، هو واقع تحت تأثير الأكثرية لا يستطيع إظهار مخالفته لهم.

إن رفضهم للحق نشأ عن عاطفة مريضة، لم يتأملوا في القرآن ولكن كرهوه . والكراهة والحب اتباع للهوى لا لصارم العقل الذي يزن ويقوِّم بالحقائق لا بالخيالات . والهوى لا يقود صاحبه إلا إلى الضلال، ولو توافق الحق الذي بني عليه أمر الكون مع أهوائهم وشهواتهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهن.

إن مبنى كفرهم، أن الله أنزل عليهم ما يحيي الحق الذي جاء على لسان المرسلين في قلوبهم وعقولهم ويذكرهم به، ويرفعهم إلى مستوى القيادة، فقابلوا تلكم النعم بالإعراض عنها، وعدم التأمل فيها.

هل إن المشركين أعرضوا عن التأمل فيما بلغتهم لأنك طلبت منهم مالا ؟ وهذا أمر منفي قطعا. إنك موقن أن ما يرزقك الله من ثواب وتكريم، وما ييسِّره لك من رزق يغنيك عما في أيديهم، فالله هو الرزاق الذي لا تفنى خزائنه ولا يمن بما يعطي.

بكل تأكيد، إنك يا محمد تدعوهم إلى أن يتبعوا الطريق السالك المستقيم الذي يبلغهم قصدهم من أقرب الوجوه وأصلحها. ولكن الذين لا يقرون بالبعث، وقصروا نظرهم على الحياة الدنيا ومباهجها، قد انحرفوا عن الصراط السالك فهم إلى الضياع صائرون.

بيان المعنى العام :

68- أفلم يدبروا القول ...آباءهم الأولين .

تتبع القرآن الاحتمالات التي حجبت قريشا عن الإيمان، وجعلتهم يصدون عن الإسلام ويبالغون في رفضه.

الاحتمال الأول: أنه ما وقع منهم ذلك إلا لأنهم لم يعملوا عقولهم في القرآن، وهو أمر عجيب منهم، جدير بأن ينكر عليهم . ذلك أن القرآن خاطبهم بلسان عربي مبين وهم أهل لسان، ومضامينه تدعو لما يرفع منزلة الإنسان ويسمو به، ويوحد بين البشر، ويقطع دابر الشر. إن عدم قبولهم لا مبرر له إلا أنهم أغلقوا عقولهم عن التأمل فيه. كحل النعامة التي لغبائها تردم رأسها في التراب إذا أطبق عليها الصيادون، ظانة أن الخطر ابتعد عنها لما كانت لا تراهم .

الاحتمال الثاني: أن الرسول محمدا ﷺ قد جاءهم بأمر غير معروف من آبائهم، وهم لعكوفهم على التقليد لا يقبلون إلا ما كان عليه آباؤهم، كما قال تعالى: **أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** [1]– فتفيد الآية تهكما بمستواهم العقلي الضيق. فالاستفهام المقدر بعد [أم] إنكاري تهكمي.

كما يحتمل النص أن يكون معناه مالهم أنكروا رسالة محمد ﷺ ؟ أ لأنه قد جاءهم بما لا يعرفه آباؤهم، مع أن هذه سنة المرسلين فإن الله لا يبعث رسولا إلا ليقيم الناس على الحق بعد الضلال الذي ترسخ فيهم.

69- أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون.

الاحتمال الثالث المخالف للواقع: أهم يجهلون خصال رسولهم، كأنه غريب عنهم لم يخبروا أخلاقه وفضائله واستقامته، فيعذرون في إنكارهم لما أتى به ؟ مع أن الواقع أنه كان ملقبا عندهم بالأمين، وكان على خلق عظيم. وأنه ليس بساحر ولا شاعر ولا جربوا عليه كذبا.

70-أم يقولن به جنة...للحق كارهون.

الاحتمال الرابع: أضاقت بهم سبل تبرير الإنكار والرفض، فادعوا زورا وبهتانا أنه قد جن وأصيب بخلل عقلي من مس الجن وروجوا هذه المقالة ؟ وكما جاء في قوله تعالى: **أولم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة** [2]– لو أعملوا عقولهم ما رموه بالجنون، فهو كلام جرى على ألسنتهم وهم لا يعتقدونه ولكن للتشويه.

---

[1] سورة البقرة آية 170

[2] سورة الأعراف آية184

ثم إن القــرآن بضـــربة واحـــدة أبطـــل كـــل الاحتمـــالات الســـابقة بكلمـــة " بـــل" فكـــل التصورات التي حالت بينهم وبين قبول الإســـلام زائفـــة. فـــالحق الـــذي لا زيـــف فيـــه، ولا باطل ولا منافاة بينه وبين الواقع، هو ما جاء به محمـــد ﷺ. مـــا كـــان مـــن العقيـــدة كالوحدانية والبعث والحساب والجزاء، وما كـــان مـــن التشـــريع الضـــامن للعدالـــة بـــين البشر، مما يقيم المجتمعات على الأمن والتعاون، ومـــا كـــان مـــن الأخـــلاق التـــي بهـــا يسمو الإنسان في إنسانيته.

و لكنهم لإلْفِهِم للفساد والانحراف، وإقـــامتهم علـــى البغـــي والحســـد والتعـــدي والشـــرك، تجد أكثرهم كارهين للحق لمنافاته لما طبعوا أنفسهم عليـــه. ومـــن إنصـــاف القـــرآن أنـــه أسند كراهية الحق لأكثرهم، لأن بعضهم كـــان علـــى حـــظ مـــن الحكمـــة، وقـــد ظهـــر ذلك في أشعارهم وكثير من أمثـــالهم. ولكـــن هـــؤلاء كـــانوا لا يســـتطيعون أن يظهـــروا خلاف ما عليه كبراؤهم فيصانعونهم على ما هم عليه خوفا أو تملقا.

71-ولو اتبع الحق أهواءهم...فهم عن ذكرهم معرضون.

أبرزت الآية ما يترتب على فـــرض أن يكـــون الحـــق هـــو مـــا يوافـــق شـــهواتهم، ولا يخضع لمعايير العقل والعدل. إن الكـــون مبنـــي علـــى نظـــام دقيـــق لا يحـــيط بجزئياتـــه وتحولاته العقل البشري والقدرات الفكرية الإنسانية . إنه لـــو كـــان الكـــون يجـــري علـــى مقتضى شهواتهم المتقلبة، وعلى علمهـــم المحـــدود الـــذي لا يســـتطيع أن يلـــم بكـــل مـــا حدث في الماضي وما يحدث في المستقبل، فإن النتيجـــة أن يفســـد بنـــاء الكـــون، تفســـد السماوات والأرض وما حوته. ويفسد البناء الاجتماعي للبشرية.

سأل أبو حيان التوحيدي أبا علي مســـكويه عـــن الإشـــكالية التاليـــة فقـــال: لمـــاذا يكـــون الشخص حكيما، ذا بصيرة واضحة، وعقـــل راجـــح، يعـــود إليـــه النـــاس فيصـــدرون عن رأيه، ويجدون في ما يهديهم إليـــه نجحهـــم، ولكنـــه إن نظـــر فـــي أمـــر نفســـه لا يصحبه التوفيق كما صحبه عندما ينظر في أمر غيره . فأجـــاب: إنـــه عنـــدما ينظـــر فـــي أمر غيره ينظر إن كان حكيما بما يهدي إليه العقل، أما إن نظـــر فـــي أمـــر نفســـه فـــإن عواطفه وشهواته يكون لها حظ في الحكم [1].

إن نظام هذا الكون هو نظام بالغ الدقة، مقام على أصول العـــدل، **مـــا تـــرى فـــي خلـــق الرحمن من تفاوت.** فلو تبـــع أهـــواء النـــاس المتقلبـــة المتغيـــرة لـــذهب النظـــام وحلـــت الفوضى محله، والفوضى فساد. ويقول زهير:

والظلم من شيم النفوس فإن تجد *** ذا عفة فلعلة لا يظلم

[1] الهوامل والشوامل ص144

فلو قامت علاقات البشر على الظلم لعـم الهـرج والقتـال وفسـدت المجتمعـات وتعطـل الإنجاز، ولاستأثر الأقوياء بـالخير وسـحقوا مـن دونهـم. وكـل قـوي سـائر إلـى ضعف، فلا ينقطع التغالب والخصام.

بل أتيناهم بذكرهم – إضراب وإبطال لاتباع الحـق أهـواءهم .لـم نجعـل الحـق تابعـا لأهوائهم لأنه لا فراغ حتى تحل فيه شـهواتهم وأهـواؤهم. ولكـن أبلغنـاهم مـا يـذكرهم بما جاء به المرسلون السابقون الذي نسوه بسـبب إلفهـم للتراكمـات التـي غطـت علـى الحق وأقامت الشهوات والتخيلات الباطلة مقامه. كمـا أن هـذا القـرآن سـيرفع ذكـرهم في العالمين. ما كان للعرب ذكر في العالم، وما كانـت لهـم وحـدة تفـرض احتـرامهم، وما كانت لهم حضارة مدنية لغلبة حياة البداوة عليهم، فلمـا جـاء القـرآن رفعهـم إلـى مستوى حمل الرسالة التـي يقصـر عـن رفيـع مسـتواها أي فلسـفة أو تنظـيم مـدني، وفرض القرآن تصـورا متكـاملا للوجـود وللعلاقـات بـين الإنسـان والكـون، وبـين الإنسان والإنسان. وبـالقرآن أصـبح للعـرب منزلـة فـي الفكـر الإنسـاني، فـارتفع المسلمون بالقرآن وبما سنه الإسلام من تشـريعات وآداب إلـى مسـتوى القيـادة التـي حملوها قرونا، ثم إنهم لما تخلوا عن تشـريعهم وعـن ناصـع عقيـدتهم، وعـن آدابهـم السلوكية، خمد ذكرهم، وأصبحوا تابعين بعد أن كانوا متبوعين .

إن البلية التي حلت بهم بعد أن أنزلنا إليهم هـذا الـذكر، هـي الإعـراض عـن التـدبر فيه، والتشدد في هذا الرفض والإعراض.

72- أم تسألهم خرجا فخراج ربك خير وهو خير الرازقين.

يواصل القرآن عرض الاحتمالات التـي يمكـن أن يتخـذها المعرضـون عـن الإسـلام تعلة لإعراضهم. أنفروا من الإسلام لأنك فرضت عليهم مالًـا [إتـاوة] يدفعونـه لـك لقـاء هدايتهم ؟ إنه من المعلوم أن النبي ﷺ وأهل بيته، حـرامٌ علـيهم الأكـل مـن الصـدقات. وقد أكد القرآن في آيات عديدة أن النبي ﷺ مـا كلفهـم أن يـدفعوا لـه مـالا ولـو كـان قليلا. إن ما يرجوه لقـاء تحمـل أعبـاء الرسـالة، ومواجهـة المعانـدين هـو الثـواب والرضوان من الله، وهو خير من كل متاع الدنيا. والمـال بيـد الله يرزقـه مـن يشـاء، وهو الرزاق الذي لا يمُنُّ بما يعطيه .

73←74: وإنك لتدعوهم...عن الصراط لناكبون.

بعد أن رفع كل الشبه التي يمكن أن يتعلقوا بها لرفض الدين، صرح بالخير الذي جاءهم به محمد ﷺ . إنك تدعوهم إلى الطريق الموصل للسعادة والأمن والطمأنينة والنجاح في الدنيا والآخرة، إنك تخرجهم من الحيرة والضياع برسمك لهم الطريق الواضح المستقيم الذي لا

عوج له، الذي يصل سالكه إلى غايته التي تبرز واضحة من أول الأمر. ولكن الذين كذبوا بالبعث، قصروا همهم على الحياة الدنيا فانقطعت عنهم الرؤية إلى الحياة الأبدية الخالدة، فهم بذلك قد انحرفوا عن الصراط المستقيم وتاهوا في متشابك دواعي الشهوة والهوى، وكلاهما منقلب، ومنقطع، وغير مستمر.

۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّواْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُواْ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

لجوا: استمروا في الخصام.

الطغيان : الكبر المبالغ فيه

يعمهون : يترددون في الضلالة .

الاستكانة : الخضوع مع تذلل.

التضرع : الدعاء بتذلل.

المبلس :الذي نزل به شر وييئس من زواله.

الإنشاء: الاختراع والإيجاد.

ذرأ : بث وخلق .

بيان المعنى الإجمالي :

يكشف القرآن عن قسوة قلوب المشركين، فقلوبهم لا تلين، ولو رحمهم الله وعطف عليهم، وكشف ما أصابهم من ضر في الأنفس والأموال، فإنهم يواصلون طغيانهم، وتطبق عليهم الحيرة والتردد في ضلالاتهم. وبالفعل فإن الله أخذهم من المأمن الذي كانوا يظنون أنه يحميهم وسلط عليهم عذابه بالقحط والجوع إثر دعائه ﷺ : اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف، وشاهدوا عجزهم وضعفهم ومع ذلك لم يخضعوا لربهم ولم يتضرعوا إليه ليرفع ما حل بهم .

إن الغاية التي سيبلغونها أن الله يفتح عليهم بابا من العذاب، شدته فوق تصوراتهم، فيطبق عليهم اليأس. ومع التهديد والتوبيخ يدعو القرآن البشر ليتأملوا في نعم الله

عليهم وألطافه المتداركة، ليقلعوا عن الشرك ويستقيموا في سلوكهم. فلينظر كل فرد في نفسه، فمن الذي اخترع حاسة السمع وقوانين الصوت، ومن الذي اخترع حاسة البصر وقوانين الرؤية، ومن الذي مكن الإنسان من القدرة على النطق والتفكير ؟ ولكن الذين يدركون تلكم النعم ويقدرونها حق قدرها وتنطلق ألسنتهم وقلوبهم بشكر الله على نعمه عددهم قليل بالمقارنة مع الكافرين. وهو سبحانه المتفرد بخلقكم على وجه الأرض وتيسير حياتكم عليها . إن هذا التنظيم المحكم والأسرار العجيبة تقوم شاهدا على أن الحياة الدنيا مرحلة يتلوها الجزاء عما قدم كل إنسان حتى لا يستوي الخبيث والطيب، إذ استواؤهما مناف للحكمة. وقد تبين لكم أن الحكمة ظاهرة في الوجود كله.

بيان المعنى العام :

75- ولو رحمناهم...في طغيانهم يعمهون .

هذه الآية تكشف عن القساوة المتأصلة في كفار قريش، فلو فرض أن الله تفضل عليهم برحمته، فكشف ما أصابهم من السوء في أبدانهم أو في أموالهم أو في ذريتهم، وسحب عليهم عافيته، فإنهم لا يقابلون ذلكم الفضل بشكره، ولكن بالعكس يستمرون في كبريائهم ويواصلون طغيانهم على من هو أضعف منهم، لقد أطبقت عليهم ضلالاتهم فهم متحيرون لا يدرون الجهة التي تنقذهم منها .

76- ولقد أخذناهم بالعذاب...وما يتضرعون.

في الآية تسلية للنبي ﷺ ، بإظهار أن رفض قريش للدعوة، واستمرارهم على الشرك، ما حصل ذلك لقصور في المجهود الذي يبذله النبي ﷺ ، ولكن للقسوة الشديدة في قلوبهم. يدلك على هذا أن الله سلط عليهم العذاب بالجوع، لما دعا عليهم النبي ﷺ : اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف. وتقبل الله دعاءه، وأصاب قريشا من القحط ومن الشدة ما كاد يسحقهم. إن شأن الإنسان أن يراجع نفسه إذا ابتلي بأمر شديد، ولكنهم واصلوا كبرياءهم وغطرستهم، ولم يخضعوا لله المتصرف فيهم خضوع من يلتجئ إليه، ولم يتضرعوا إليه بدعائه كشف الضر متذللين إليه، وقد ظهر عجزهم، وبانت آثار القدرة المطلقة لله رب العالمين .

77- حتى إذا فتحنا عليهم ...إذا هم فيه مبلسون.

الغاية التي هم صائرون إليها :أن الله يفتح عليهم بابا يفجأهم بما ينهال عليهم من العذاب الشديد . جسّمت الآية وضعهم بقوم كانوا محصنين في بيت مغلق بباب، وفجأة يفتح الباب ليظهر من ورائه العدو المهدد لهم ولا يجدون قدرة على رده.

فيطبق عليهم اليأس الذي لا أمل معه. ويحتمل أن يكون العـذاب هـو مـا حـل بهـم مـن الجوع أو ما يترصدهم يوم القيامة.

78- وهو الذي أنشأكم وجعل لكم....قليلا ما تشكرون.

مهمة الرسول ﷺ أن ينشر دين الله الموحد للبشر، السـالك بهـم إلـى مـا يمكـنهم مـن الحياة السعيدة في الدنيا والآخرة. ولذا جمع القرآن بـين البيـان الـذي ينتهـي بالمتـأملين فيه إلى التمسك به واعتقاده، وبـين البشـارة المرغبـة فيمـا يتبـع الالتـزام بـه مـن خير، وبين التهديد بالعقاب لمن صد عنه وعاند. ولذلك تجـد آيـات القـرآن تنتقـل مـن طريقة إلى طريقة أخرى حتى يشمل التأثير به أكبر عدد من الموجَّه إليهم الخطاب.

وعلى هذا المنهج انتقل القرآن مـن التهديـد والتـوبيخ إلـى عـرض مـا أفاضـه علـى البشر من نعم توجب إفراده بالعبادة والالتزام بالسلوك المستقيم.

إن الذي اخترع القوة السمعية الناقلـة للأصـوات، والمميـزة بينهـا، والتـي بهـا يـتم التواصل بين البشر وتبادل المنافع وعقد العقـود. إن الـذي اختـرع السـمع وضـبط لـه قوانينه هو الله رب العالمين. ولو تعلقت إرادته بتعطيـل السـمع لتعطـل ذلكـم التواصـل وما يترتب عليه مـن خيـر. والأصـنام التـي تعبـدونها عـاجزة عـن ذلـك، فكيـف تعبدونها؟ وكذلك الأمر في حاسة البصر، وفـي قـوة الإدراك، والنطـق والعقـل. هـي نعم كثيرة وجليلة، تشمل البشر جميعا، ولكن عـدد الـذين يتفطنـون إلـى تلكـم الـنعم ويقدرونها حق قدرها وتنطلق ألسـنتهم بشـكر مسـديها، قليـل بالمقارنـة مـع الغـافلين عنها الذاهلين عن فضل الله العظيم . قال تعالى: **(وقليـل مـن عبـادي الشـكور)**[1] وفـي الآية إيقاظ للناس ليشكروا فضل ربهم عليهم.

79- وهو الذي ذرأكم في الأرض وإليه تحشرون.

كذلك نعمة الحياة ونعمة التكاثر، ونعمـة ملاءمـة الأرض لوضـع الإنسـان، إذ يعـيش على سطحها في يسر ودون مشقة منهكة. سواء أنظرت إلـى الجاذبيـة بينهـا وبـين مـا عليها، أو إلى الغلاف الجوي المحـيط بهـا، أو إلـى وضـعها بـين بقيـة الكواكـب، تجد في ذلك نعما لا تحصى، وتنظيما بـالغ الدقـة ممـا ينفـي الخلـق العبثـي لا إلـى غاية، فالتأمل في كل ذلك يفضي بالناظر إلى أن الإنسـان لا بـد أن يحاسَـب علـى مـا عمل، وأن لا يستوي الخبيث والطيب . ولمـا كانـت الحيـاة الـدنيا ليسـت دار جـزاء،

---

[1] سورة سبأ آية 13

كما نشاهد أن الشر قد يستشري وينتصر على الخير، فلذا كان قيام الناس لرب العالمين ليجزيهم أمرا يقتضيه المنطق وقوانين العقل.

وَهُوَ ٱلَّذِى يُحۡىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخۡتِلَـٰفُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلۡ
قَالُواْ مِثۡلَ مَا قَالَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَـٰمًا إِنَّا
لَمَبۡعُوثُونَ ﴿٨٢﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا هَـٰذَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ
ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨٣﴾ قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ
لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ
﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىۡءٍ
وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ
تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾ بَلۡ أَتَيۡنَـٰهُم بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّهُمۡ لَكَـٰذِبُونَ ﴿٩٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

أساطير : جمع أسطورة، الخبر الكاذب الذي يكسى صفة الواقع.

ملكوت : الملك الكامل الذي يتبعه التصرف في الدقيق والجليل منه .

بيده : بقدرته .

يجير : يغيث ويمنع من الأذى.

بيان المعنى الاجمالي :

حقيقةٌ واقعة ماثلة أمام أنظار البشر جميعهم، إن الله هو المتفرد بالتصرف في إنشاء الحياة وفي سلبها، وكذلك في التأثير بتعاقب الزمان بين الليل والنهار، ما للأحداث تمر على أنظاركم فلا تتدبروا فيها أليست لكم عقول!

هم لا يعقلون لأنهم عطلوا ملكاتهم، واعتمدوا التقليد لمقالات الأسلاف، وما قال الأسلاف ؟ قالوا: إنه إذا متنا وتحللت أجسامنا واختلطت بالتراب وتفرق هيكلنا العظمي، فمن غير المقبول أن نعود إلى الحياة من جديد. لقد سمعنا هذا الوعد ومات من مات ولم يعد أحدمنهم إلى الحياة، ومِنْ قبْلِنا وُعِد آباؤنا هذا ولم يتبعه بعث، فما هذه الدعوة إلا أسطورة كاذبة لا أساس لها تروج منذ زمن بعيد .

ثم تابع القرآن الأسئلة الملجئة لهم ليعترفوا بتفرد الله بالألوهية.

السؤال الأول: قل من يملك الأرض وما فيها ومن عليها إن كان لكم حظ من العلم؟ لا يجدون إلا جوابا واحدا وهي أنها ملك لله. فأصنامهم التي يعبدونها مكونة من أجزاء من الأرض. وينكر عليهم أن لا يفضي بهم التذكر والتأمل في هذه الحقيقة لاطراح معبوداتهم المزيفة .

السؤال الثاني: ارْتَقِ معهم في السؤال وقل لهم من الذي نظم أمر السماوات والعرش المهيمن عليها؟ إنهم لا يجدون أيضا إلا جوابا واحدا، هي لله يتصرف وحده فيها، فقل لهم موبخا: أفلا تتقون غضب الله وعقابه باتخاذكم شركاء له ؟

السؤال الثالث: تَرَقَّ معهم في السؤال فقل لهم :من تفرد بالتصرف الكامل والملك الشامل لكل شيء في هذا الوجود، وهو يغيث ويحمي، ولا يستطيع أحد أن يحمي من قدر الانتقام منه، إن كان لكم حظ من العلم ؟ سيقولون مثبتين :أن ذلك لله. واسألهم سؤال تعجب وإنكار، كيف يروج عليكم ما يخيله لكم أئمة الكفر كما يروج السحرة على من استولوا على أخيلتهم ؟

لا يمكن أن تروج التخييلات التي يروجها أئمة الكفر، لأن الله قد أتاهم بالحق الواضح ، إنهم لكاذبون في دعواهم أن القرآن أساطير الأولين.

بيان المعنى العام :

80-وهو الذي يحيي...أفلا تعقلون.

يواصل القرآن لفت الأنظار إلى تفرد الله بالتصرف. ففصّل ما يشير إليه قوله وهو الذي ذرأكم في الأرض، أنه سبحانه وحده هو الذي ينشئ في الكائن الحياة ، وهو الذي يسلبها عنه فيعقب الموت الحياة . وهذه ظاهرة تتكرر في الوجود . ولا يمكن نكرانها، وبقدرته يعقب الليل النهار، ويعقب النهار الليل في دورة منتظمة لا اختلال فيها. ومن بديع النسج القرآني تعقيب الموت والحياة بالليل والنهار، ففي اليل تسكن الكائنات، فهي الموتة الصغرى، وفي النهار يتحرك الكون فهو بعث جديد له . إن هذه الأدلة البينة الظاهرة يقرّها العقل ولا يقبل المنطق إلا بها. فما للمشركين معرضون عن التوحيد. أسلبوا العقل، والمنطق، فترتسم عندهم المظاهر غير مرتبطة بالعقل.

81←83- بل قالوا مثل ...إلا أساطير الأولين.

بل إضراب يفيد نفي كونهم يعقلون، بعرض ما يعتقدونه ويروجونه مما يؤكد أنهم لا يتمتعون باستقلال عقلي، هم مقلدون لما صدر عن أسلافهم من الأمم المشركين يعيدون مقالتهم . ماذا قال أسلافهم ؟ قالوا متسائلين سؤال إنكار، أئذا متنا وفارقنا

الحياة، وتحللــت أجســامنا فاختلطــت بــالتراب، وتفــرق الهيكــل العظمــي فــانتثرت عظامنا، أيمكن والحالة هذه أن نعود إلى الحياة مــن جديــد ونبعــث؟ إنــه تصــور بعيــد وغير مقبول فقد وعدنا الرسول بهذه الحياة، كما وُعِـد آباؤنــا وســلفنا مــن قبلنــا. هــذا الوعد لا يعدو أن يكون من أنواع الأساطير الكاذبــة، التــي راجــت وتــروج للتلهــي ولا أصل لها.

84←85-قل لمن الأرض...أفلا تذكرون.

قل لهم يا محمد ملجئا لهم ليعترفوا بما لا يســتطيعون إنكــاره، أو المغالطــة فيــه، قــل لهم: من يملك الأرض التي تعيشون على ظهرها، ومن يملــك مــا حوتــه مــن خيــرات إن كان لكم نصيب من العلــم ؟ أجيبــوني. ويعجــل القــرآن بــالجواب الــذي لا جــواب غيره، سيقولون هي لله وحده. وإذ اعترفــوا فمــالهم لا يتــدبرون ولمــا ذا لــم تــتفطن عقولهم إلى أن آلهتهم مزيفة لا حقيقة لها .

86←87- قل من رب السماوات...قل أفلا تتقون.

ثم ترَقٍّ مع المشركين في عرض الأســئلة الملجئــة لهــم. اســألهم يــا محمــد: مــن رب السماوات السبع، من الذي يدير أمرها ويرتب أوضــاعها ويحفظهــا، كمــا يشــير إلــى ذلك كلمــة " رب"؟ ومــن رب العــرش العظــيم الــذي هــو أعظــم مــن الســماوات والأرض ويهيمن عليها جميعا ؟ إنه ليس لهذا الســؤال إلا جــواب واحــد، هــي مملوكــة لله يتصرف فيها بحكمته ويضبط أمورهــا بقدرتــه. وإذ ألْجِئــوا فــاعترفوا بأنــه هــو الله المتصرف وحده فيها، فقل لهم: ما لكم لا تتقــون الله فتحــذروا عقابــه وتســارعوا إلــى تنفيذ ما أمركم به ؟

88←89- قل من بيده ملكوت....فأنى تسحرون.

وترقى القرآن في السؤال ليبكتهم، اسألهم يا محمد :مــن الــذي شــمل ملكــه وتصــرفه كل شيء في السماء أو في الأرض، في الحاضر وفــي المســتقبل، مــن أوجــد وأفنــى وأعطى ومنع، من الذي خضعت كــل الكائنــات لإرادتــه وقدرتــه ؟ هــذا هــو معنــى الملكوت أي الملك الكامل، المقترن بالتصرف الشامل .

وهو الذي يغيث من استغاث به، ويمنعه مــن أن يلحقــه أذى لعزتــه. وهــو مــن ناحيــة أخرى إذا أراد تسليط عقاب على أي كــائن، فإنــه لا يســتطيع أحــد أن يمنــع مــن أراد عقابه. وألحق بهذا السؤال قوله: "إن كنــتم تعلمــون " حــث لهــم ليتــدبروا هــذا الأمــر الخفي. فإن الأدلة كثيرة ولكن انغماســهم فــي الكفــر قــد يحجــبهم عــن معرفــة ذلــك، فحرضهم على التدبر في سلطان الله الشامل.

إذا كان مضمون هذا السؤال وما يقتضيه من الجواب : أن الله وحده هو المتفرد بذلك، فالعجب منكم أن يروج عليكم الباطل أو أن تفعل في مشاعركم التخييلات التي يؤثر بها أئمة الكفر فيكم تأثير السحر .

90- بل أتيناهم بالحق وإنهم لكاذبون.

نفي وإبطال لأن يكونوا مسحورين، باعتبار أن الذي أتاهم من عند الله هو الحق الناصع الذي لا شبهة ولا مخالفة للواقع. وبكل تأكيد إنهم كاذبون في دعواهم أن القرآن أساطير الأولين.

مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾ قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّى مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٣﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِى فِى ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٩٤﴾ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَٰدِرُونَ ﴿٩٥﴾ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

لذهب : لاختص واستقل.

سبحان الله : تنزه الله .

تعالى : ارتفع وعظم.

همزات الشياطين : كتحريك القوة الغضبية التي يتبعها رد الفعل العنيف .

بيان المعنى الإجمالي :

أوهام عششت في عقول الجاهليين، فنسبوا لله الملائكة على أنها بنات له، وذهب بعضهم إلى أن عيسى ابن الله، نفى القرآن نفيا قاطعا أن ينسب أي كائن لله على أنه ولد له. كما أثبتوا له شركاء، فنفت الآية أن يكون لله شريك في ألوهيته. ثم بين أن هذه العقيد مناقضة لمقتضيات العقل. إنه لو فرض أن مع الله إلها آخر فمؤدى ذلك اختصاص كل إله بما خلق، ولا يقدر أي منهم على التدخل فيما خلق غيره، فيفضي إلى عجز الإله عن التصرف، والإله لا يكون إلا كامل القدرة قدرة عامة وشاملة لجميع الكائنات، ففرض إله ممنوع من التصرف مناقض عقلا لمفهوم

الألوهية . وإذا كان أحدهم أقدر من غيره فمؤدى هذا الفرض أن البقية خاضعون له فيكون وحده الإله. تنزه الله عن أن يكون له ولد أو شريك.

إن علم الله يشمل كل شيء، يعلم المشاهد كما يعلم ما هو مغيب عن الأنظار. فالله أرفع وأعظم من أن يكون له شريك.

ثم لقن القرآن النبي ﷺ أن يدعو ربه بنجاته من العذاب الذي سيسلطه على المشركين، وأن لا يكون مع القوم الظالمين عندما تحل بهم النقمة. وهذا وإن كان أمر لاشك فيه إلا أنه تعليم للبشرية جميعا أن يكونوا على حذر وخوف من سلطان الله.

وتسليط العذاب على المشركين بحيث يرى النبي ﷺ ما سيحل بهم وهو في منجاة من العذاب هو من صنع القادر على كل شيء، فهو وإن كان أمرا مستقبليا إلا أنه محقق لا شك فيه.

ثم أرشد رسوله أن لا يقابل السيئة بالسيئة، بل بالطريقة التي هي أحسن، تاركا له الاجتهاد في تحديد رجعه حسب ما يحقق الصلاح. وهدد المؤذين لرسوله بأن الله لا يخفى عليه شيء لا من نواياهم ولا من أفعالهم السيئة، على معنى أنهم سيلقون جزاءهم العادل.

أرشد الله نبيه أن يقول داعيا متحصنا بقوة الله وتأييده ليحميه من تأثير الشياطين في القوة الغضبية مما يثير داعية الانتقام من المؤذين، وكذلك الاستعاذة بقوته من أن يقتربوا منه لأن حضورهم وهم أهل الشر لا يأتي منه خير .والشياطين يحتمل أن يكون المراد منهم شياطين الجن، كما يحتمل أن يكون المقصود شياطين الإنس.

بيان المعنى العام :

91- ما اتخذ الله من ولد ....سبحان الله عما يصفون.

بعد أن ألجأهم بتعاقب الأسئلة إلى الاعتراف بالخالق، وتفرده بالتدبير والتصرف في الكون، انتقل القرآن لعرض الحقائق التي ضل فيها المشركون، فأثبت الحق ونفى ما يروجونه من ضلالات وأباطيل، وأيد تلكم الحقائق بالبرهان. الحقيقة الأولى أن الله واحد ليس له ولد. وفي هذا رد لما يعتقده بعض العرب من أن الملائكة بنات الله، يشاركونه في التصرف . وفيه رد على ما يروجه المسيحيون من أن عيسى ابن لله. ولنفي الضلالتين نفى عن الله الولد ؛ وكلمة الولد تصدق على الذكر والأنثى. فلا الملائكة الإناث على زعمهم، ولا عيسى ابن مريم، بينهم وبين الله صلة الوالدية.

والحقيقة الثانية أنه لا يوجد مع الله إله آخر، فهو الواحد الأحد .

إن انتفاء أن يكون مع الله إله آخر قضية يحكم بها العقل، ذلك أنه لوكان مع الله إله آخر فإن التصورات العقلية تنحصر في الفروض الآتية :

الفرض الأول: أن يستقل كل إله بنوع من الخلق، أو بقسم من المخلوقات المتنوعة، فعلى هذا الفرض يستقل واحد بخلق الحيوانات مثلا، والآخر بخلق البشر، وثالث بخلق السماوات، وهكذا. وعلى هذا الفرض يكون كل إله هو المتصرف في ملكوته، ولا يتدخل أي إله فيما هو من خصائص الإله الآخر. وهذا يفضي إلى الاستحالة .لأن فرض كونه إلها يقتضي أن يكون مختلفا عما هو تحت سيطرته، إذ ما هو تحت سلطانه، هو ممكن ما بلغ مرتبة الوجود إلا بفعل الخالق الذي لا يعقل أن يستوي معه في مستوى الوجود، أي إن المخلوق يكون جائز الوجود، والخالق لا يكون إلا واجب الوجود . وإذا فرض أنه واجب الوجود فإن هذا المستوى يتبعه أن يكون تصرفه لا يحد بحدود، والنوع الذي تفرد به خالقٌ غيرُه يمنعه من التصرف في ميدان الإله الآخر، فيفضي أيضا إلى أن يكون عاجزا عن التصرف، والعجز نقصان، واعتقاد الألوهية التي معناها الكمال المطلق، والتزام العجز تناقض . وذلك ما يفهم من قوله تعالى: " **إذا لذهب كل إله بما خلق**" وعندما يعجز غيره عن التدخل في نطاق مخلوقات الإله الآخر. فإن هذا يتبعه أن يعم العجز جميعهم.

الفرض الثاني: أن يعلو أحدهم على بقية الآلهة، ويكون هو الأقدر، وغيره لا يستطيع أن يتحرك إلا بإذنه وتحت سلطانه، وعندئذ فإن الإله القوي المتصرف هو الحقيق بالألوهية، وكل الآلهة الأخرى زائفة لا حقيقة لها. فثبت أن الإله لا يكون إلا واحدا.

وتقرر الآية تبعا لذلك أنه يجب تنزيه الله تنزيها مطلقا عن كل ما يصفه به المشركون، فإنها صفات تفضي إلى النقص والعجز، والله هو الكامل الكمال المطلق.

92- عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون.

إن الله متصف بالعلم الذي لا يغيب عنه أي شيء موجود مشاهد، ولا يجهل ما كان مضمرا سيحدث في المستقبل، إذ العلم الإلهي علم ذاتي لا يحتاج في حصوله إلى المشاهدة. وبناء على هذا فإنه يتأكد أن الإله لو كان متعددا فإنه لا بد أن يكون كل واحد عالما بما خلق غيره، فإذا علم الإله ما خلقه غيره، فإن تساووا عجز كل واحد عن التدخل في ملكوت غيره، وإن كان أحدهم أعظم ورضخ غيره له فلا يكون غيره إلها. فتعالى الله وتنزه عن أن يكون له شريك

93←94-قل رب إما تريني ما يوعدون... فلا تجعلني في القوم الظالمين.

لقَّنَ الله نبيه أن يتوجه إليه بالدعاء لينجيه من العذاب الذي سيحل بالظلمة. وفي هذا التلقين إشارة إلى أن حلول العذاب بالمشركين غير بعيد، وأن النبي ﷺ سيشهد العذاب عندما ينزل بهم، وفيه أيضا إشارة إلى أن تصحبه الخشية والحذر من غضب الله ليرتفع في مقام العبودية ويتضاعف أجره، وفي هذا ما يوقظ المؤمنين إلى الدعاء بحسن الخاتمة .

95-وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون.

حقق الله لرسوله أنه سبحانه قادر على أن يريه عذابهم، ، وإن كان هذا الظاهر ضروريا ومعلوما إلا أن ما تفيده الآية هو أمر وراء ذلك. إذ يفيد النص أن النبي صلى الله عليه سيشهد عذابهم وهو في أمن، كما يفيد أن العذاب لا يكون سماويا عاما، كالعذاب النازل بقوم لوط وثمود، فإن الله أبعد لوطا وصالحا عن موطن العذاب، بينما العذاب الذي أوعد الله به المشركين سيكون غير سماوي، بسلطه الله على رؤوس الشرك المتجبرين المستكبرين، ويراه النبي ﷺ كما وقع يوم بدر .

96- ادفع بالتي هي أحسن ....بما يصفون.

تولى الله رسوله فبلغ به المستوى الأرفع في حسن التعامل، أمره أن يدفع الإساءة التي طبع عليها الكافرون من الغلظة، وسوء الأدب بالطريقة التي هي أحسن، وأن لا يجاريهم في إساءاتهم المتنوعة والمتكررة. وأن يتسع صدره الشريف لما يصدر عنهم ولا يضيق بهم، ضيقا يسبب له الكمد. فهو أرفع من أن يتأثر بسفاهتهم. وهو إرشاد للمؤمنين كي يتأسوا برسولهم .ومن ناحية أخرى فإن في ربط رد الفعل المتسامح بالتي هي أحسن، وعدم تحديده ما يترك مجالا لتنويعه بالاجتهاد حسب الطريقة التي تكون محققة للغاية منه.

وختم الآية بقوله : "**نحن أعلم بما يصفون** " تهديد للمشركين الذين يؤذون رسول الله بأن الله مطلع على ما يقومون به وما يصفون به رسوله، مما ينبئ بأنه سيجزيهم. يقول ابن عطية : اشتغل أنت بهذا، وَكِلْ تعذيبهم والنقمة منهم إلينا .

97←98-وقل رب أعوذ بك ...أن يحضرون.

يوالي القرآن رعاية الله لرسوله فيأمره أن يتحصن بقوته وأن يحفظه، من أن يغضب من أذى المشركين فيصدر منه حدة من عنف لفظي أو مادي، مما لا يتناسب مع مقامه الرفيع ومستواه الخلقي العظيم . فإن الإنسان قد تهزه سورات الغضب ولا يملك نفسه فيها، فأمره أن يطلب منه العون في هذه الحالات التي قد

ينزلق إليها لولا حفظ الله ورعايتــه. والــدعاء هنــا موثــق للإجابــة .وهــل المقصــود بالشياطين شياطين الجن الذين يحركــون داعيــة الغضــب . أو شــياطين الإنــس الــذين يثيرون بسفههم .وفي سورة الناس تعليم للاســتعاذة مــن شــياطين الإنــس والجــن. ومــع الاستعاذة من همزهم أمر بالاســتعاذة أن يقتربــوا منــه، إذ يتبــع قــربهم حصــول الأذى منهم لما جبلوا عليه من الشر.

حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا
تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا
نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَن ثَقُلَتْ
مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فِى جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا
كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ أَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا۟
رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَآلِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ
عُدْنَا فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

فيما تركت : عالم الدنيا.

كلا: ردع للسامع ليعلم إبطال طِلْبة الكافر .

ورائهم : ما يصيب المرء وهو غير متوقع لأن يصيبه.

البرزخ : الحاجز بين مكانين، والمراد به هنا مقام الأموات إلى يوم البعث.

الصور : أصله البوق الذي إذا نفخ فيه وسمع صــوته الجنــد أســرعوا لأخــذ مراكــزهم في جبهة القتال.

اللفح : إصابة النار بالوهج والإحراق.

الكلوح : تقلص الشفتين وظهور الأسنان .

بيان المعنى الإجمالي :

انتقل القرآن لبيان وضع الكافرين إثر الحيــاة الــدنيا. فــأول مــا أثبتــه أن الكــافر عنــد مفارقة الروح للجسد، وقد كشف الغطاء وبدا له مــا ســيلقاه، أنــه يجــأر إلــى ربــه أن يعيده للحياة الدنيا رجاء أن يغير عقيدته وسلوكه فيعمل العمــل الصــالح فــي الــدنيا التــي

يعود إليها . نفى القرآن نفيًا قاطعا أن يستجاب له، وذلك لأن ما صدر منه لا يبلغ المستوى الذي يتحقق عند عودته للدنيا، فهي كلمات نطق بها لسانه ولم تتصل بقلبه وعزيمته. وسيبقى طيلة المدة التي بين موته ويوم القيامة منتظرا لتنفيذ الوعيد فيه، في البرزخ القبر أو ما رتبه الله لتجميع الأرواح، وسينكشف له فيه مآله. ويعرض القرآن وضع المشركين يوم القيامة. انقطعت الصلات التي كانوا يجدونها سندا عند الشدائد، فلا نسب ولا صداقة، كل واحد همه في ذاته فلا سؤال بينهم.

ويقابل القرآن بين عاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين، فيعبر عن الصالحين بأن حسناتهم تغلب سيئاتهم في المقدار، فيكون جزاؤهم إعلان نجاحهم، وأما الكافرون فلا يجدون أي عمل من أعمالهم التي ظاهرها أنها خيّرة، لا يجدون منها شيئا فقد أصبحت هباء منثورا. هم قد خسروا أنفسهم وكيانهم تلتهمهم جهنم، لا يخرجون منها أبدا. تشوي وجوههم النار، فتتقلص شفاههم عن أسنانهم في صورة بشعة كما يشاهد في رأس الكبش عندما يتعرض للنار لإزالة ما عليه من شعر.

ثم يسألهم المولى سؤال إنكار وتوبيخ فيقول لهم: ألم يكن الرسول يتلو عليكم آياتي من القرآن واضحة بينة، فكان موقفكم منها التكذيب ؟ ويعتذرون عن إعراضهم بأن الشقاء غلب على اختياراتنا، ونعترف أن الضلال كان متمكنا منا. ثم يمكن الله أنفسهم من أن تسول لهم سؤال ربهم أن يخرجهم من جهنم ليعيشوا حياة الصلاح، وإن عدنا لما كنا عليه فنكون قد أصبحنا نمثل الظلم المطلق.

بيان المعنى العام :

100/99- حتى إذا جاء أحدهم ....إلى يوم يبعثون.

انتقال إلى وصف ما يلقاه الكافرون في الآخرة بعد أن وصف ما يلقون في الدنيا.

ابتداه بأول مراحل الخروج من الحياة الدنيا، وهو وقت مفارقة الروح الجسد؛ يدعو الكافر في هذا الظرف ربه بقوله :ارجعون إلى الحياة الدنيا، مما يدل على أن ما يبدو له من مصيره يحمله على التوجه بهذا الطلب .وخطاب الجمع موجه إلى الله تعظيما لجلاله. وعلل ذلك برجائه أن يتحول عن حياة الضلالة إلى الحياة المستقيمة على الصراط المستقيم، فيقلع عن الشر ويمحض أفعاله إلى الخير، ويطرد ما كان يعتقده . فهو في هذا الظرف معترف بفساد ما كان عليه، آمل أن يتقبل ربه دعاءه فيعيده إلى الدنيا التي تركها ليصلح ما فرط فيه لما كان حيا .

ويأتي الجواب من رب العزة صارما قاطعا: "كلا" مقررا أن لا وجه لاستجابة طلبه. إن طلبه هذا وإن كان قد أخرجه في صورة المعترف بذنبه العازم على الإسلام والعمل الصالح، إلا أن الحقيقة أن ذلك لا يعدو أن يكون كلاما صدر من

لسانه لا أثر له في المستقبل. وهو كلام مقطوع عن العزيمة، يردده اللسان ولا عمق له في النفس. يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله: هذا الكلام يجري مجرى المثل، وهو من مبتكرات القرآن.

ثم يأتي بعد موتهم حاجز عبر عنه بالبرزخ. واختلف في المراد بالرزخ، فقيل القبر أي إنهم ما كثون إلى يوم البعث، وفسر بأنه عالم بين الدنيا والآخرة تستقر فيه الأرواح، وينكشف لها فيه مآلها. فهم ماكثون في مستقرهم بعد الموت لا يعودون إلى الدنيا، يتواصل إلى يوم القيامة .

101- فإذا نفخ في الصور...ولا يتساءلون.

ثم ثنى بذكر مشاهد عودة الأرواح إلى أجسامها يوم القيامة، وجسم هذه العودة التي يُبعث فيها البشر جميعا من قبورهم، بأن صوّرهم كالجند الذين يكونون مخلدين إلى الراحة، فبمجرد ما يسمعون صوت البوق الداعي إلى النفير، يسرعون إلى مراكزهم في جبهة القتال. وروي أن إسرافيل ينفخ في بوق ليس من أبواق الحياة الدنيا، ولكنه بمجرد ما يحدث فيه، ما عبر عنه بالنفخ، تعود الأرواح إلى أجسامها. ومن خصائص هذا المشهد أن يشتد الهول حتى لا يلتفت أحد إلى ما يربطه بغيره من القرابة أو الصداقة تقطعت الصلات، لا ينفع في ذلك اليوم ما كانت تجري عليه الحياة الدنيا من التناصر والتعاون والنجدة بالقرابة وغيرها .

وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عما يبدو من الاختلاف بين قوله تعالى في هذه الآية : **فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون**- وبين قوله تعالى : **وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون** [1]. فأجاب بأن الآية النافية للتساؤل هي عقب النفخة الأولى التي يصعق فيها من في السماوات والأرض إلا من شاء الله. وأما المثبتة للتساؤل فهي عند النفخة الثانية.

102- فمن ثقلت موازينه ...هم المفلحون.

يتوزع البشر إلى صنفين :

قسم كثرت حسناتهم وقلت سيئاتهم .عبر عن ذلك بثقل الميزان . وذلك بضابط هو من شؤون الآخرة، فليس هناك ميزان له كفتان ولسان، يظهر ميل الثقل إلى أحد الجانبين . لقد ظهرت موازين للحرارة وموازين لضغط الطقس، وموازين لصفاء اللبن من الغش، وموازين لقوة العظام، بل ظهرت موازين إلكترونية بالغة الدقة والحساسية لضبط الثقل .

---

[1] سورة الصافات آية 27

103- ومن خفت موازينه...في جهنم خالدون.

وقسم خفت موازين حسناتهم، ذلك أن كل عمل لم يستند إلى عقيدة صحيحة ونية سليمة هو عمل لا قيمة له ولا وزن، قال تعالى : **(وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)**[1] فكل ما عملوه في حياتهم الدنيا مما ظاهره الخير، هو عمل محبط لا ثواب له . وأعلن القرآن عن عاقبتهم أنهم خسروا أنفسهم . إن شأن الخسارة أن ترد على مال التاجر فينقص عن أصله، أما خسارة المشركين فهي منصبة على ذواتهم تأتي على كيانهم، فتلتهمهم جهنم ولا يخرجون منها أبدا.

104- تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون.

تحرق نار جهنم وجوههم، والوجه مجمع الحواس فالإحساس بالآلام فيه أشد، وقد قبحت صورهم فهم كالحون تتقلص شفاههم العليا والسفلى عن أسنانهم كما يشاهد في رؤوس الكباش عندما تشوى بالنار لحرق ما عليها شعر .

105-ألم تكن آياتي ...بها تكذبون.

يتوجه إليهم الخطاب في صورة سؤال إنكاري مقرعا لهم. ألم يكن الرسول ﷺ يتلو عليكم آياتي من القرآن المنزل عليه تفضي بالمتأملين فيها إلى اليقين بصدقه ؟ ولكنكم أعرضتم عن التأمل فيها وكذبتم ما لا شبهة فيه.

106-قالوا ربنا غلبت... وكنا قوما ضالين .

كان جوابهم جواب الندم والحسرة في الوقت الذي لا ينفع فيه ندم، ولا توبة مقبولة، قالوا ربنا استولى علينا شقاؤنا، نفرتنا من طريق السعادة. وقد تمكنت الضلالة منا.

107-ربنا أخرجنا منها....إنا ظالمون.

وأضافوا متضرعين لله أن يأذن بإخراجهم من جهنم، ليعيشوا حياة الإيمان والاستقامة، ونعترف مقدما أنا إن عدنا لما كنا عليه من الكفر وعمل السيئات، فإنا نكون قد أصبحنا نمثل الظلم المطلق الشامل .

قَالَ ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّخَذۡتُمُوهُمۡ سِخۡرِيًّا حَتَّىٰٓ أَنسَوۡكُمۡ ذِكۡرِي وَكُنتُم مِّنۡهُمۡ تَضۡحَكُونَ ﴿١١٠﴾ إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ

[1] سورة الفرقان آية 23

هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿١١١﴾ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

اخسأوا: كلمة تدل على الزجر والإذلال .

سخريا : موضع استهزاء .

الفوز : النجاة من هلكة إلى نعمة .

بيان المعنى الإجمالي :

أفادت الآية أن الله يزجرهم زجرا مهينا، كونوا أذلاء في جهنم ولا تكلموني. هذا جزاء معاملتكم لفريق من عبادي الصالحين، ما أضروكم ولكنهم كانوا يتوجهون إلي معلنين إيمانهم يدعونني أن أغفر لهم ذنوبهم وأن أدخلهم في رحمتي التي لا تعادلها رحمة ؛ كنتم تسخرون منهم حتى ألهاكم الاستهزاء بهم ومعاكستهم عن التدبر فيما أنزلت، بل كنتم تضحكون منهم لهدم عزتهم. إني جزيتهم اليوم بسبب صبرهم على إذايتكم أني قدرت أن يكونوا هم الفائزين بالجنة .

ويقال للمشركين كم عدد السنين التي قضيتموها بعد خروج الروح منكم، فيجيبون: لم تطل مدة بقائنا إلا يوما، ثم يدققون بل بعض يوم، ثم يختلط عليهم الأمر فيقولون :اسألوا من يحسن الحساب فما ندري كم لبثنا .فيقال لهم : كانت المدة قصيرة لو كان لكم علم بحقائق الأمور . مضى عليهم قرون لم يشعروا بها إذ بعثوا على هيئاتهم يوم فارقوا الحياة الدنيا .

إن جرثومة ضلالكم أنكم ظننتم أن الله الحكيم خلقكم عبثا، تختارون وتفعلون ما تشاؤون، ثم تكون النتيجة واحدة سواء اخترتم الخير أو الشر، والإيمان أو الكفر، مما لا يتناسب مع الحكمة الإلهية .

بيان المعنى العام :

108- قال اخسؤوا فيه ولا تكلمون.

بعد أن تضرعوا بما يفتح لهم باب الرجاء في الاستجابة، يأتي الجواب القامع من رب العزة : اخسؤوا زجرا لهم وتيئيسا من أن يسمع لتضرعهم أو يستجاب لدعائهم . وكثيرا ما يزجر بهذه الكلمة الكلاب . وقمع الرجاء إذا قارنه زجر، يتبعه

عذاب نفسي شديد للرد مع الإهانة. ونهاهم أن يكلموه أو أن يسألوه. فهم في منزلة من الحقارة لا يقبل معها أن يخاطبوا رب العزة.

109←111- إنه كان فريق من عبادي ...هم الفائزون.

لله أن يفعل ما يشاء، ولكنه الحكيم فلا يصدر عنه إلا ما يوافق الحكمة البالغة .فإنه لما زجر أهل جهنم بعد تضرعهم، علل ذلك بما صدر منهم ، فإنهم يوم كانوا في ظنهم أعزة، عاملوا المستضعفين من المؤمنين معاملة الاستهزاء والاحتقار . لقد كان فريق من المؤمنين الذين يصرحون بما ثبت في قلوبهم من الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به، وهم على وجل يدعون ربهم أن يتولى ستر ذنوبهم وإزالة آثارها، وأن يدخلهم في رحمته التي بها تطمئن القلوب ويحصل الرضا معترفين أنه لا رحمة تعدل ربهم ؛ كان تضرعهم على هذا النحو ولم تكن لهم شوكة تدفع بالمهابة في قلوب الكافرين، وليست لهم قبيلة عزيزة تحميهم، كان من صنيع الكافرين أنهم كانوا يستهزئون بما هم عليه من الإيمان والتقوى . وشغلوا بذلك واستولت عليهم السخرية بهم حتى نسوا ذكر الله والتدبر في آياته. وصحب سخريتهم التعبير المؤذي بالضحك منهم . فكان الجزاء بقوله تعالى: **اخسؤوا فيها ولا تكلمون**، جزاء عادلا لاستكبارهم واستهزائهم وإذايتهم للمستضعفين من أصحاب رسول الله ﷺ .

تنكيلا بالكافرين المستهزئين، وتكريما للمستضعفين ماديا، الأقوياء روحيا ونفسيا، صدر هذا الإعلام الذي أعلنه الله بقوله : إني توليت جزاءهم بسبب صبرهم على إذايتكم والسخرية بهم، وثباتهم على الإيمان .وما هو جزاؤهم ؟ جزاؤهم أنهم هم الذين نجوا من الهلاك وحلت عليهم النعمة وذلك بدخولهم الجنة، كما جاء في قوله تعالى : (**فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز**)[1]

112←113-قال كم لبثتم ... فاسأل العادين.

سجلت الآية سؤالا يلقى على المجرمين . أما وقت إلقاء السؤال عليهم فاختلف فيه المفسرون، فرأى بعضهم أنه سؤال لهم في عرصات القيامة، وقيل عند البعث من قبورهم، وقيل عندما يكونون في النار .

والذي أستروحه أنه نوع آخر من عقابهم على استهزائهم بالمؤمنين، بإظهار جهلهم الفاضح على رؤوس الملأ، فيكون هذا السؤال واقعا في عرصات القيامة. يسألهم ربهم أو الملك الموكل بعذابهم: كم لبثتم في القبور، وما هو الأمد الذي

---

[1] سورة آل عمران آية 185

مضى عليكم وأنتم في البرزخ؟ ويتحيرون في الجواب فيترددون بين أن يكون مضى عليهم يوم واحد، ثم يظهرون أنفسهم بمظهر من يتعلق بالتدقيق، فيعطفون أو بعض يوم، ثم يتبرؤون من الدقة فيحيلون الجواب على من عني بحساب ذلك . ذلك أنهم ينظرون إلى أجسامهم فيجدونها كما كانت في آخر لحظة من الحياة الدنيا ويختلط عليهم الأمر بما اقترنت به هذه الظاهرة من مشهد القيامة.

114- قال إن لبثتم إلا قليلا لو أنكم كنتم تعلمون.

كانت إجابتهم مثيرة للاستهزاء بهم، إذ أرادوا إظهار أنفسهم بأنهم على حظ من الدقة، ، وإمعانا في فضح جهلهم عقب كلامهم: نعم إن لبثتم إلا زمنا قليلا بالنسبة لعلم الله ولكنه في حقيقة الأمر قرون متطاولة، ورغم ذلك فلما تعلقت القدرة الإلهية بإخراجكم كيوم موتكم، تم ذلك دون أن تتفطنوا .

115-أفحسبتم أنما ...لا ترجعون.

إن منشأ ضلالكم ما عشش في عقولكم من ظنكم: أن الله خلقكم عبثا لا لغاية، مع أنه سبحانه عرّف من أول يوم ملائكته لما أراد خلق آدم أنه جاعل في الأرض خليفة مسؤولا عن عمارة الكون وعن تصرفه فيما استخلف فيه .فلو كان الخلق لأجل الخلق بدون غاية لكان الخلق عبثا . لأن شأن العبث أن لا يرسم العابث غاية لعمله، ولا يعمل على تحقيقها. ولأن البشر جبلوا على الاختيار لا على الاضطرار، ومنهم من يختار عمل الخير، ومنهم من يختار الشر. وما كانت طبيعة الحياة اقتران العمل بجزائه في الحين، فيُعَمَرُ الأشرار في الدنيا وقد أفسدوا فيها ومضوا دون عقاب. ويقوم الأخيار بالعمل الصالح وقد يقعون تحت ظلم الأشرار ويخرجون من الحياة دون أن يلقى الأخيار جزاء ما فعلوه، ودون أن يلقى الأشرار جزاءهم. فيستوي بذلك الخير والشر في النهاية. والتسوية بين الحسن والقبيح لا تصدر من حكيم وإنما تصدر من عابث لا يدري ما يفعل. فكان رجوع الجميع إلى الله ليحكم فيهم بما قدموا هو المحقق للحكمة النافي للعبث.

فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡكَرِيمِ ﴿١١٦﴾ وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

تعالى :بلغ في علوه الكمال المطلق.

الكريم : العرش الجامع لصفات الكمال مما لا يوجد في غيره .

بيان المعنى الإجمالي :

إن السمو الإلهي سمو كامل، فهو الملك الحق، وما سواه ممن يدعي الملك ملكه ظاهري وباطل، إذ لا يعلم أي ملك سواه كل ما يتعلق بملكه ولا يستطيع أن يصرف بنفسه كل شؤونه .فهو المتفرد بالألوهية رب العرش الكريم .

ولذا فإن كل من يدعي لله شريكا، ولا تكون هذه الدعوى إلا باطلة ولا يقوم عليها أي دليل، يكون قد أتى بأعظم ظلم، وسيتولى ربه حسابه، وكل الكافرين بعيدون عن الفلاح، حقت عليهم الخسارة والضياع .

قل يا محمد متضرعا طالبا من ربك أن يغفر ويرحم وتوجه إليه مباشرة قائلا : أنت خير الراحمين، ترحم بصفتك الذاتية الرحمة العامة .

بيان المعنى العام :

116- فتعالى الله الملك ....رب العرش الكريم .

ارتفع الله في كمالاته فهو الرفيع المتعالي عن كل نقص . وهو الملك الحق وكل ملك سواه ملكه باطل تبعا لما يشوبه من نقص ، إن تصرف الله في ملكه يتم بإرادته وقدرته بدون استعانة، وكل الملوك صالحهم ومسيئهم العادل منهم والظالم ملكهم منقوص يخفى على الملك من بواطن ملكه ما لا يستطيع أن يكشفه ولو توسع في أعوانه . وكل ملك هو في الحقيقة مملوك لله ينهي ملكه متى يشاء سبحانه.

لا يستحق أحد أن يكون إلها سواه، وهو الذي يدبر أمر العرش المغيب الذي لا يعلم كنهه إلا ربه الذي أنشأه وصوره، هذا العرش الموصوف بكونه كريما مستوفيا للفضائل التي من شأنها أن تكون فيه .

117- ومن يدع مع الله ...إنه لا يفلح الكافرون.

فإذا كان الله هو المتفرد بالملك الكامل، فإن من يدعو مع الله إلها آخر مثبتا للشركة، وهذا الادعاء لا يكون إلا مستندا للهوى والضلالات، ولا يمكن أن يقوم على برهان أو دليل، يكون قد أتى بأعظم ظلم يمكن وجوده، ولذا فإن عقوبته عند ربه وحساب مدعيه لا يعلم قسوته وشدته إلا ربه . وفي التعبير بربه زيادة تشنيع على المشرك بأنه قابل الإحسان بالجحود والنكران . ثم حقق ذلك بأنه بعيد عن الفلاح، مغرق في الخسران وهذا هو شأن الكافرين. وتنعطف خاتمة السورة على فاتحتها على طريق التقابل. فإذا كانت فاتحة السورة "**قد أفلح المؤمنون** " أتت خاتمتها بالتنصيص على عدم فلاح الكافرين.

118- وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين.

إرشاد وتذكير لنبيه ﷺ أن يدعو ربه بأن يحقق المغفرة والرحمة، ولم يذكر في الآية متعلق المغفرة والرحمة ، فقدره بعضهم اغفر لي وارحمني، وقدره بعضهم على التعميم مفوضا الأمر إلى كرمه ليشمل كل المؤهلين لذلك، ويترجح عندي الوجه الثاني تبعا لختم الآية بقوله " **وأنت خير الراحمين** " فالذي تشمل رحمته ومغفرته جميع المؤهلين لذلك حقيق بأن يكون خير الراحمين ولا يمكن أن يتصور هذا لغير الرحمن الرحيم.

أكملت بحمد الله وحسن عونه تفسير هذه السورة وقد قطعني المرض أياما عدة عن العمل، أشكره على ما من به علي من ألطافه. وقد بلغت ختامها اليوم الأربعاء 25 شوال 1433-12سبتمبر2012 على الساعة العاشرة والنصف صباحا نسأله سبحانه العون وحسن الخاتمة.

ســــورة النّـــور

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وفي كتب السنة، ووجه تسميتها بذلك ما جاء في الآية 35 " الله نور السماوات والأرض. وهي سورة مدنية بإجماع أهل العلم تواصل نزولها سنوات. ورتبتها الرابعة والعشرون حسب ترتيب المصحف الشريف، وحسب تاريخ النزول المائة. نزلت بعد سورة النصر وقبل سورة الحج.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

سورة : جزء معين من القرآن معلوم بدايته ونهايته وعدد آياته.

فرضناها: أوجبنا أخذ ما جاء فيها عقيدة وعملا وتصورا للحقائق المنبثة فيها.

الزنا: يتحقق الزنا بالجماع من المكلف مع الطوع بدون عقد ولا شبهة.

ولا تأخذكم بهما رأفة : لا تستولي على مشاعركم الرأفة فتعرضوا عن إقامة الحد.

الرأفة : أرق الرحمة.

بيان المعنى الاجمالي :

نوه القرآن بسورة النور تنويها خاصا، فصرح بأن الله أنزلها، وأنه فرض الأخذ بما جاء فيها. وأنه تخير أن تكون آياتها بينة واضحة، لكي يكون التالي لها يقظا لما تضمنته.

يجب جلد كل زانية وكل زان مائة جلدة، وذلك لفظاعة الزنا وآثاره المدمرة على الأفراد والمجتمعات. أقيموا الحد عليهما وإياكم أن تضعفوا بعامل الرأفة، فإن الأمر

هو انتهـــاك لـــدين الله، ولســـتم أرأف بعبـــاد الله مـــن الله. وزاد فـــي التحـــريض بربطـــه بالإيمان بالله واليوم الآخر. ولا يقام الحد فـــي ســـر وفـــي الخفـــاء، بـــل يتحـــتم إعلانـــه بحضور جماعة من المؤمنين لينقلوا مـــا شـــاهدوا فيرتـــدع النـــاس عـــن الإقـــدام علـــى الزنا.

وإمعانا في التنفير من الزنا وتقبيحه، ذكر القـــرآن أن المقـــيم علـــى الزنـــا لا يتـــزوج إلا بزانية أو مشركة، للتوافق بينهمـــا فـــي القـــيم وكـــذلك الزانيـــة المقيمـــة علـــى الزنـــا لا يتزوجها إلا زان أو مشرك. وذلك محرم على المـــؤمنين. فالإقـــدام علـــى الاقتـــران ممـــن هو مقيم على الزنا غير تائب منه، حرام على المؤمنين.

بيان المعنى العام :

-1- سورة أنزلناها... لعلكم تذكرون.

هذه سورة، نوه الله بها ليقبل المسلمون على وعي مـــا جـــاء فيهـــا مـــن تعلـــيم وأحكـــام. ذكر الله بأنها منزلة من عنده، إنـــه وإن كـــان القـــرآن كلـــه منـــزلا مـــن عنـــد الله، إلا أن في التذكير بذلك ما يشير إلى تشـــريف هـــذه الســـورة والـــدعوة للتـــدبر والحفـــاظ علـــى تطبيق ووعي ما جاء فيها من أحكام وهداية. وذلـــك يشـــير إلـــى أن كـــل آيـــات الســـورة محكمة لم ينسخ منها شيء. وتأكد التنويه بهـــا بقولـــه: **وفرضـــناها**، أي ألزمنـــاكم الأخـــذ بما فصلته آياتها على حسب ما يليق بكل آيـــة مـــن آياتهـــا، فالأخـــذ بقولـــه تعـــالى: " **الله نور السماوات والأرض** " أخذ للتصـــور العقـــدي . وقولـــه: " **والـــذين كفـــروا أعمـــالهم كسراب بقيعة** " التحذير من عاقبة الكفر في إحباط الأعمال.

وواصل التنويه بها بأنه سبحانه أنزل مـــن عنـــده فـــي هـــذه الســـورة آيـــات واضـــحة لا إشكال فيها. يتبعها أن يحصل لكم الرجاء في الانتفـــاع بهـــا وتـــذكر مـــا يمكـــن أن يغيـــب عن حضوره بالذهن حضورا متميزا.

2- الزانية والزاني فاجلدوا...طائفة من المؤمنين.

كل زانية وكل زان بكر، لم يتـــزوج زواجـــا، لحقـــه الـــدخول قبـــل زنـــاه، تـــم الجمـــاع بينهما، بدون عقد نكاح، ولا شبهة، ولا إكراه، يجب أن يقام عليه الحد الآتي بيانه.

وتقديم القرآن الزانية على الزاني على خلاف الترتيـــب فـــي قولـــه والســـارق والســـارقة، هو من بديع التعبير القرآني فالزنـــا لا يـــتم إلا إذا ســـاعدت الأنثـــى بقبولهـــا لـــه، ولأن رفض المجتمعات لزنا الإناث أشد. بخلاف السرقة فإن الجسارة في الذكور أشد.

والزنا محرم من الكبائر ،وذلك لما يحدثه من فساد كبيـــر فـــي المجتمـــع ، بمـــا يمكـــن أن يتبعه من اختلاط الأنساب، وإلحاق العار بـــالمزني بهـــا وبأســـرتها ، وانتشـــار الأمـــراض

التناسلية، ومعظم أساب انتشار مرض(السيدا) "فقد المناعة" مسبب عن الزنا .ولذا كانت عقوبته بالنسبة للبكر ذكرا كان أو أنثى، جلد مرتكبه مائة جلدة بسير من جلد ليس جديدا يابسا، ولا متهريسا بالاستعمال لا يؤلم. ولا يضرب الوجه ولا الفرج ولا المقاتل .

والمخاطب بقوله تعالى: "**فاجلدوا** " من يتولى أمر المسلمين، إذ إقامة الحدود موكولة لولي الأمر أو من يعهد به إليه .

ويؤكد القرآن على إقامة الحد عند وجوب إقامته، فينهى عن التراخي في إقامته عليهما كما جاء في الآية بسبب استيلاء الرحمة، فيضعف مقيمه عن إقامته أصلا أو ينقص منه أو يضرب بما لا يؤثر. والرأفة وإن كانت خلقا رفيعا تدل على رقة في النفس وحب للناس، ومشاركة لهم في آلامهم، إلا أنها إن كانت الرأفة معطلة لشرع الله فهي رأفة منهي عنها، على المؤمن أن يتشجع ويُمضي حكمَ الله. إن الله أرأف بعباده من بعضهم ببعض. **إن الله بالناس لرءوف رحيم.** [1]

وتحريضا على إقامة الحد رَبطَهُ بما لا يقبل المؤمن أن ينسحب عليه ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر فلا تتراخوا في إقامته . فعدم الإيمان بالله، وتوقع عدم الحساب يوم الآخر من موجبات الهلاك والعياذ بالله. وهو نظير قول القائل: إن كنت شجاعا فتقدم، تهييج للمخاطب.

وحد الزنا يقام علنًا لا سرًّا. فعلى ولي تنفيذه أن يُحْضِرَ عند إقامته من يَشْهدُه ويتحدث به ليكون ذلك زاجرا لبقية الناس من الوقوع في الزنا. ولا يقام حد الزنا إلا إذا ثبت ثبوتا معتبرا شرعا، إما بإقرار مرتكب الزنا، وإما بشهادة أربعة اتحدوا زمانا ومكانا في رؤية عملية الجماع مكشوفة. فلو شهدوا أنهم شاهدوهما تحت لحاف غير مكشوفين، فلا يحدان بل يؤديان بما لا يصل إلى الحد.

3- الزاني لا ينكح إلا زانية...وحرم ذلك على المؤمنين.

ذكر معظم المفسرين أن هذه الآية نزلت على سبب يوضح المقصود منها. روى ابو داود والترمذي: أنه كان رجل مسلم صالح قوي البنية يقال له مرثد بن أبي مرثد الغنوي، كان يخرج إلى مكة يحمل، من يمكنه تخليصه من أسرى المسلمين عند المشركين، إلى المدينة المنورة. وكانت "عناق" امرأة بغيٌّ بمكة خليلة له في جاهليته، فعرضت عليه أن يبيت عندها عندما قدم لمكة لفك أسير، مسلم. فقال لها: حرَّم الله الزنا .فنادت عناق: يا أهل الخيام !هذا الرجل يحمل أسراكم. وتمكّن من

---

[1] سورة البقرة آية143

التخفي من الذين قدموا لأسره، ثم أخذ الأسير الذي وعده بـأن يفكـه وقـدم بـه المدينـة، ثم سأل رسول الله ﷺ أن ينكح عناق، فلم يرُدَّ عليه حتى نزلت هذه الآية[1].

الذي فهمه الحذاق: أن بناء الآية رتـب علـى مقدمـة منفِّـرة، وعلـى التصـريح بحكـم. فقوله تعالى: في فاتحتها أن من لم يكن عفيفا، وتعـود الزنـا فـي جاهليتـه، ثـم أسـلم، وأراد التزوج من متعودة على الزنا لم تتب منه لأنها لم تـؤمن، يكـون قـد سـلك نفسـه في مستوى أهل الدعارة، والسلوك المتحلِّـل مـن غيـر المـؤمنين. وبعـد هـذا التنفيـر والتقبيح صرح بالحكم : أن الإقامة على الزنـا محـرَّمٌ علـى المـؤمنين . والمقـيم علـى الزنا والمقيمة على الزنا سـواء، وقـدم الزانـي فـي الـذكر علـى الزانيـة لأن سـبب النزول كما تقدم، رغبة رجل في زواج متعودة على الزنا.

وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَأۡتُواْ بِأَرۡبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجۡلِدُوهُمۡ ثَمَٰنِينَ جَلۡدَةً
وَلَا تَقۡبَلُواْ لَهُمۡ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ
ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ أَزۡوَٰجَهُمۡ وَلَمۡ يَكُن لَّهُمۡ
شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمۡ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمۡ أَرۡبَعُ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ
﴿٦﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدۡرَؤُاْ عَنۡهَا ٱلۡعَذَابَ
أَن تَشۡهَدَ أَرۡبَعَ شَهَٰدَٰتِۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٨﴾ وَٱلۡخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ
ٱللَّهِ عَلَيۡهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ
تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

يرمون : ينسبون فعل الزنا.

المحصنات :العفيفات اللاتي لم يثبت عليهن الزنا.

أبدا: الزمن المستقبل كله.

تابوا: أقلعوا وندموا وعزموا على عدم العودة.

فاسقون : خارجون عن طاعة الله.

اللعن : الإبعاد بتحقير.

ويدرأ عنها العذاب :ينفي عنها الحد.

---

[1] روح المعاني ج18ص76

بيان المعنى الإجمالي :

من رمى مؤمنة أو مؤمنا من أهل العفة بالزنـا ، فالحكم أنه يوقـف فإن أيد مقالته بشهادة أربعة عدول شاهدوا بأعينهم العملية الجنسية الفاضحة واضحةً، لا ريب فيها، قبل قوله. وأما إن عجز عن تأييده بما يتجمع منه أربعة شهداء على النحو الذي قدمناه، فإنه يحد بضربه بسوط غير مرتخ ولا شديد ثمانين جلدة. ويعتبر كاذبا ولو شهد ثلاثة عدول يحدون أيضا. ومع إقامة الحد عليه يعد فاسقا لا تقبل شهادته ما دام حيا إلا إذا أظهر توبته، وأصلح عمله مقلعا عن الكلام في أعراض الناس. والتائبون تقبل شهادتهم، فإن الله وهو الكامل الكمال المطلق غفور رحيم.

ثم تعرض القرآن إلى الفصل في قضية مزعجة متصلة بالقذف. وهي ما هي الحكم إذا وجد الزوج زانيا في حالة وقاع مع امرأته ؟ الغيرة الفطرية، ودفاعه عن شرفه مما يفرض عليه أن لا يقبل ولا يسكت عما رأى. وآية القذف تهدده بالجلد إن هو تحدث بما رأى. عالج القرآن هذه المصيبة التي وقعت في عهد رسول الله ﷺ والتي حدثت بعد.

الزوج المصدوم يرفع أمره إلى القضاء ، وتدعى المرأة فإن أقرت بالزنا أقيم عليها الحد ؛ وإن أنكرت حلف الزوج أربع أيمان كما جاء في الآية: أشهد بالله الذي لا إله إلا هو أني رأيتها تزني مع رجل كالمرود في المكحلة، ثم بعد ذلك يختم: أن لعنة الله تحل عليه إن كان من الكاذبين عليها.

فإذا حلف الأيمان ارتفع عنه حد القذف، وتُوقَف امرأته لتحلف أيمانا أربعة: تشهد بالله الذي لا إله إلا هو أنه كاذب وما زنت، وتختم بعد تذكيرها بعقاب الآخرة: أن غضب الله عليها إن كان زوجها من الصادقين. فإذا تلاعنا على هذا النحو ، فرق القاضي بينهما وحرَّم كل واحد منهما على الآخر ، ولا يحل لهما أن ينشئا زواجا جديدا بينهما ولو طال الزمان بعد لعانهما.

وللزوج أن يلاعن إذا تيقن من أن امرأته غير حامل، ولم يجامعها بعد ذلك ثم تبين بعد ذلك أنها حامل. وتكون الأيمان بنفي الولد منه، ومن المرأة بعكس ذلك. وإذا أتما أيمان اللعان انتفى نسب الحمل من الزوج، وانتسب إلى أمه.

و امتن الله على الأمة الإسلامية ببعثة محمد ﷺ الذي كان لحكمته الدور الكبير في إصلاح البناء الاجتماعي والفكري، وبمراعاته للتيسير في التشريع، وبرفقه بالأمة بعدم تعجيل العقوبة على المذنبين وقبول التوبة. وذلك تحقيق لما هو من صفات الكمال فيه سبحانه من أنه التواب الحكيم.

بيان المعنى العام :

4- والذين يرمون أزواجهم ...أولئك هم الفاسقون.

افتتحت هذه الآية باسم الموصول "**الذين**" الخــاص بجمــع المــذكر، والحكــم واحــد مــع الإناث. فلا فرق بين كــون القــاذف رجــلا أو امــرأة. والمحصــنات، وإن كــان جمعــا للمحصنة الأنثى العفيفة التي لم يثبت عليهــا الزنــا، إلا أن الحكــم ينســحب علــى مــن يقذف الرجال .

أفاد صدر الآية أن من ينسب الزنــا لعفيــف أو عفيفــة، وعُبِّــر عــن ذلــك بــالرمي لأن شأن الرمي أن يكون بما يــؤذي، ومــن أشــد أنــواع الإذايــة هتــك أعــراض أصــحاب العفة. فكان اختيار كلمة الرمي لتشير إلى ذلك من البيان الرفيع للقرآن.

من يرمي غيره بالزنا يوقَفُ إلى أن يــأتي بأربعــة عــدول يشــهدون أنهــم رأوا العمليــة الجنسية بين الزانيين واضحة ظاهرة غير مستورة، جمــاع تــام لا ملاعبــة .فــإن عجــز القاذف عن تأييد رميه بأربعة شهداء وهو بــالطبع لــيس واحــدا مــنهم، فالواجــب علــى ولي الأمر أن يجلده ثمانين جلدة ويكون بذلك كاذبا فيما صرح به.

ومع جلد القاذف الذي لم يؤيد نفسه بشهادة أربعــة، يعتبــر فاســقا لا تقبــل شــهادته فــي المستقبل. هو غير مأمون ولا مصدّق عند القضاء إذ تكذيبــه يتبعــه الاســترابة فــي كــل ما يشهد به في المستقبل. وأغلظت الآية في وصــفه بالفســق فجعلــت الفســق منحصــرا فيه لشناعة هتكه عرض غيره.

5- إلا الذين تابوا...فإن الله غفور رحيم.

واستثنت الآية من أظهر توبته بالإقلاع والندم والعــزم علــى عــدم العــودة. فتحــول مــن حال هتك الأعراض إلى مستوى الصــلاح. فمــن تــاب تقبــل شــهادته. والتوبــة تغفــر الذنوب، والله غفور رحيم .فــارفعوا بالتوبــة الســخط علــى المحــدودين. واختلــف هــل يشترط تكذيبه نفسه مع ذلك لتقبل شهادته. والتوبة لا تؤثر في إسقاط الحد.

6←7، والذين يرمون أزواجهم...إن كان من الكاذبين.

قد تهتز مؤسسة الأسرة اهتزازا قويا: يــدَّعي الــزوج أنــه رأى رجــلا يجــامع امرأتــه، ولندقق أن موضوع الآية في مشاهدة الزوج رجلا في حالــة وقــاع مــع امرأتــه، بمعنــى أنه لو وجده في فراش الزوجية فقط أو وجــده عاريــا فــي بيتــه فهــذا غيــر موضــوع الآية. إذا كانت الحالــة تلــك فهــي مصــيبة حلــت بــه، ولا يرضــى أي زوج، يحتــرم نفسه، وبما فطر عليه الرجال من غيرة، أن تخونه زوجتــه وتتخــذ خلــيلا مــن ورائــه . وحرَّم الإسلام قتل النفس بأي تعلة مــن الــتعلات، علــى عكــس مــا كــان عليــه أهــل

الجاهلية من تمكين الزوج من قتل الزاني في المكان الذي ضبط فيه. ومن ناحية أخرى هولا يقدر أن يأتي بأربعة شهداء، إذ يكون الزاني قد فر بجلده قبل جمعهم. ولو طبق عليه حكم الآية السابقة يكون بين أمرين جلد ظهره، أو قبول التعدي عليه. وكلاهما بعيد عن العدالة. وقد وقع مثل هذه الحادثة في عهد رسول الله ﷺ، وسأله صاحب النازلة فنزل إثرها الحكم العادل التالي الذ ي أوجد حلا لذلك .

أ-تسأل المرأة ، فإن أقرت بالزنا أقيم عليها حد الزنا. وإن أنكرت وكذبت زوجها فيما يدعيه ، ولم يأت زوجها بأربعة شهداء، فإن القاضي يأمره أن يحلف اليمين التالية أربع مرات متواليات، يقام كل يمين مقام شاهد .ويقول: أشهد بالله لرأيتها تزني ورأيت فرج الزاني في فرجها كالمرود في المكحلة وما وطئتها بعد رؤيتي وإني لمن الصادقين في قولي هذا، ثم يتبع ذلك بقوله في الخامسة: علي لعنة الله إن كنت من الكاذبين. فإذا أتم ذلك سقط عنه الحد، وانقلبت المطالبة على امرأته. وإن نكل وأبى الحلف على ذلك النحو، عد كاذبا قاذفا لامرأته ويحد حد القذف.

7←8: ويدرأ عنها العذاب ...إنه لمن الكاذبين.

ب – إذا حلف الزوج الأيمان الأربعة وأتمها بلعن نفسه إن كان من الكاذبين ، يعرض على المرأة أن تحلف أربعة أيمان تقول في كل يمين منها: أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماني به من الزنا . ثم تقول في الخامسة: وعلي غضب الله إن كان من الصادقين. فإن أبت أن تحلف حدت حد الزنا .

جـ ـ وكما يلاعن الرجل زوجته إذا رآها في حال اتصال جنسي واضح مكشوف فكذلك للزوج أن يلاعن زوجته إذا كان قد تحقق من براءة رحمها، واعتزلها بعد ذلك فلم يتصل بها جنسيا، حتى ظهر أنها حامل. أي إنه متيقن أن الحمل ليس منه، والقاعدة أن الولد للفراش، يلتحق الحمل بنسب الزوج. فللزوج في هذه الحالة أيضا أن يرفع أمره للقضاء، ويحلف عند القاضي أربعة أيمان: أشهد بالله إن هذا الحمل ليس مني وأني من الصادقين في نفيه، ويختم لعن نفسه إن كان من الكاذبين. فإذا أتم أيمانه وُقِفَتْ امرأته إما لتعترف أن الحمل ليس منه فتحد حد الزنا، وإما أن تحلف الأيمان الأربعة أشهد بالله إن هذا لحمل منه وإنه لمن الكاذبين وتخمس بقولها: غضب الله عليها إن كان من الصادقين .

د- إذا تم التلاعن وحلفت المرأة الأيمان بعد الزوج، فرق الحاكم بينهما، ولا يحل لهما استئناف زواج جديد بينهما أبدا. وينتفي نسب الولد إلى الزوج، ويبقى منتسبا إلى أمه.

ملاحظة:

بالتأمل في تشريع الملاعنة يتبين لنا زيــادة علــى مــا تضــمنته الآيــات مــن أحكــام ، التوفيق الذي صحب النبي ﷺ في تربيــة المــؤمنين علــى الــتحكم فــي أعصــابهم فــي المواقف الحرجــة، وإخــراجهم مــن حيــاة الجاهليــة المحكمــة للعواطــف، والأرجــاع العنيفة ، إلى حياة مدنيــة رفيعــة يقــوم فيهــا القضــاء، والقضــاء وحــده، فــي فصــل المنازعات على مختلف مســتوياتها. إن الصــدمة التــي تحــدث فــي نفــس الــزوج إذا شاهد فعلا ذلكم المنظر القبيح الذي تُرْعَدُ حتى مــن تخيلــه النفــوس الأبيــة ، ومــع ذلــك هو يضبط نفسه ويرفع أمره إلى القضــاء، هــو مســتوى رفيــع يمثــل مجتمعــا تحــول تحولا جذريا في ظرف وجيز من جاهلية كانــت تأخــذ مــا تظنــه حقــا لهــا بــالقوة ولا ترى في ذلك حرجا، إلى أمة مؤمنة تحكم دينهــا وعقلهــا فــي حياتهــا. وإنــي أحقــق أن هذا المستوى من التربية الناجحة لم يحدث فــي تــاريخ الإنســانية إلا علــى يــد رســول الله ﷺ.

10- ولولا فضل الله عليكم...تواب حكيم.

ولولا فضل عليكم ببعثة محمد ﷺ وما أوتيه مــن الحكمــة والخلــق العظــيم ، وبمــا تــابع عليكم إنزاله من التشريع الهــادي، الــذي تحــول بكــم شــيئا فشــيئا حتــى بلغــتم ذلكــم المستوى الحضاري الرفيع، ولولا رحمته سبحانه بكــم فلــم يصــدمكم التشــريع فيقلــب حياتكم بقوة، ولم يشدد علــيكم بــل كــان الرفــق والتيســير مرعيــا، مــا بلغــتم ذلكــم المستوى الحضاري الرفيع، ومــا كــان البنــاء الجــامع للأمــة الإســلامية بمثــل تلكــم الصلابة والقوة والنجاح. وهذا نابع مما اتصف به ســبحانه مــن صــفات الكمــال ، فهــو التواب على المــذنبين الــذين لا يعجــل بمؤاخــذتهم ، لكــن يمهلهــم ويــذكرهم بوحيــه ليعودوا إلى الصراط المستقيم، ومن ذلك قبول توبــة القــاذف، وكــل ذلــك صــادر مــن نبع الرحمة التي وسعت كل شيء، وأعظمها بعثة النبي الهادي ﷺ.

هذا وإن أحكام اللعان التفصيلية هي من اختصــاص الفقهــاء الــذين حــرروا القــول فيهــا وذكروا ما هو مجمع عليه من الأحكام وما هو مختلــف فيــه، تطلــب مــن مظانهــا والله أعلم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡۚ لَا تَحۡسَبُوهُ شَرّٗا لَّكُمۖ بَلۡ هُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۚ لِكُلِّ
ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُم مَّا ٱكۡتَسَبَ مِنَ ٱلۡإِثۡمِۚ وَٱلَّذِي تَوَلَّىٰ كِبۡرَهُۥ مِنۡهُمۡ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٞ
﴿١١﴾ لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ

مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عِندَ
ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ
لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ
بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ
إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ
﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ
ٱلْءَايَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ
﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإفك: الكذب الذي لا شبهة فيه.

عصبة : الجماعة من عشرة إلى أربعين .

الشر: المعصية بالكذب والقذف.

الكبر : أشد الشيء ومعظمه.

الإثم :الذنب.

أفضتم: أكثرتم القول فيه.

البهتان: الخبر الكاذب الباطل الذي يصدم السامع.

يعظكم : الوعظ الكلام الذي يقصد منه أن يتجنب المخاطب ما يضره في دينه أو خلقه.

يحبون : تتعلق نفوسهم ويرضون.

أن تشيع الفاحشة : أن تنتشر وتشتهر الفعلة الشنيعة.

بيان المعنى الإجمالي :

كان المؤمنون يقظين مستعدين لما كان يتهدد الدولة الإسلامية الناشئة من كيد الشرك وغيظه. وفي هذه الآيات كانت المعاول المخربة من الداخل. صورة الحادثة مفصلة في بيان المعنى العام. لقد كانت عصبة من سكان المدينة رأس الفتنة زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، وزمرته من المعادين للإسلام المتسترين بأنهم من

المؤمنين، وقليل من المؤمنين، جمع بيـنهم الافتـراء والكـذب والإفـك، فـاختلقوا مطعنـا في عفاف أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ،فنشـروا قالـة السـوء، وتحـدثوا بهـا فـي مجالســهم، وألحقــوا برســول الله ﷺ الأذى والغــم والكمــد . وكــذلك بــأم المــؤمنين ووالديها وبأسـرتها وبالصـحابة الـذين كـانوا يَفْـدُون رسـول الله ﷺ بـأرواحهم. ظـن الصحابة أن القدر ابتلاهم بشر، فبشرهم القرآن أن مـا حـدث لـيس شـرا ولكنـه يحقـق في باطنه خيرا كثيرا شأن الألطاف الإلهية التـي يسَّـرها الله لأمـة محمـد الصـادقة فـي الالتزام بما جاء به. إذ افتضح المنافقون وحل عليهـا الخـزي ، وتـم بهـذه الحادثـة مـن التربية والتشريع ومن تبرئة أم المؤمنين بالقرآن مـا يبقـى سـائرا مـع الأمـة الإسـلامية أبد الدهر. وحقّقَ القرآن أن كل من أسهم في حـديث الإفـك يتحمـل إثـم هـذا الافتـراء، أما زعيمهم فله عذاب عظيم لا يرجى له توبة ولا عفو. ثـم توالـت الآيـات تـوبخ الـذين انساقوا لحديث الإفك بطرق مختلفة يؤدبهم ويشـرع للمـؤمنين الطريقـة التـي يواجهـون بها مثل هذه الحالات. لولا- كان الواجـب علـيكم بمجـرد سـماعكم لـه أن ترفضـوه وأن لا يتحول ظنكم في أنفسكم من الخير إلـى الشـر، إذ الإيمـان وحَّـدَ بيـنكم، فظـنكم السوء في إخوانكم هو ظن سوء في ذواتكم، كان علـيكم بمـا قـام مـن شـواهد نفيـه أن لا تظنوا إلا الخير. ثم تصرحون بقولكم: مـا تناقلتـه ألسـنة الفجـرة واعتـداؤهم علـى أم المؤمنين رضي الله عنها: بهتان واضح. ما هـذه الغفلـة التـي تبعهـا التلاعـب بمقـاييس نقد الأخبار ، إن الرمي بالزنا لا ينظر فيـه، ولا يوجـب التثبـت فيـه، إلا إذا أقـيم عليـه أربعة شهداء، وهم لم يفعلوا. فالله يعلم أنهم كـاذبون . واعلمـوا أن مـا وقعـتم فيـه مـن إذاية الرسـول وأهلـه ،وصـحابته، موجـب للعقـاب العظـيم، لكـن فضـل الله علـيكم ورحمته التي تشملكم في الدنيا والآخرة أنقذتكم مما تهيأتم له.

و يواصل توبيخهم بتصوير خوضهم فـي الإفـك، وإسـراعهم لنشـره، بـأنهم مـا تلقـوا الخبر بأسماعهم، ولكن تلقوه بألسنتهم التـي أخـذت تتحـدث وتنشـر مـا لا علـم لهـم بأحقيته، وتظنون أن الخوض في ذلك أمر هين لا خطـر لـه. إنكـم مخطئـون فهـو فـي علم الله منكر عظيم. ثم يضيف النص القرآني توبيخـا، هـلاّ كـان مـوقفكم بمجـرد مـا وصلكم أن تقولوا: إنه لا يوجد ما يسوغ لنا أن نتكلم بهذا الإفـك، نبـرأ لـك ربنـا منـه، تنزهت ربنا. هذا الكلام كذب فاضح يصدمنا صدمة كبيرة .

ثم يثني القرآن بأن الله يريد أن يوقظكم ويحـرك أرواحكـم لتسـتقيموا ولا تعـودوا لمثـل ما وقع منكم إلى أبد الآبدين. ومع ذلك يبين لكـم الآيـات الدالـة علـى المـنهج الصـالح. وما جاءكم من الله هو الحكمة البالغة من الله العليم الحكيم.

ثم يكشف القرآن عن النفسية الخبيثة للذين يجدون فـــي إشــاعة الفاحشـــة وترويجهـــا، فـــي المجتمع الإسلامي، ما يرضي نفسياتهم المريضـــة، ويهـــددهم بـــأن الله أعـــد لهـــم عـــذابا أليما في الدنيا بكشف أمرهم ولقـــاء جـــزائهم ،وفـــي الآخـــرة بخســـران العاقبـــة. إن الله الذي نبهكم وبين لكم وهداكم بشرعه وتربيتـــه، هـــو العلـــيم بحقـــائق الأمـــور ومآلاتهـــا، أما أنتم فعلمُكم محدود قاصر كأنه لا علم .

ويمتن على المؤمنين منة مبطنة بلـــوم بأنـــه لـــولا فضـــل الله ورحمتـــه لأصـــابكم جـــراء تراخيكم صورا من البلاء يذهب فيها الخيـــال كـــل مـــذهب وذلـــك لأن الله رؤوف بعبـــاده رحيم بهم.

بيان المعنى العام :

نزلت هذه الآيات العشر مجموعة وتلاها النبي ﷺ فـــي بيتـــه إثـــر نزولهـــا عليـــه. وهـــي تسجل فترة أليمة تطاول فيها المنافقون وبعض المغـــرورين إلـــى بيـــت النبـــوة، أزعجـــوا رســـول الله ﷺ وزوجـــه الطـــاهرة أم المـــؤمنين عائشـــة، وأباهـــا الصـــديق المـــذكور بالصاحب فـــي القـــرآن، وكثيـــرا مـــن المـــؤمنين اليقظـــين الصـــالحين. روى البخـــاري ومسلم ومعظم المحدثين هذه الحادثة بما يلقي الضوء علـــى مـــا تناولتـــه الآيـــات. ونظـــرا لطول الحديث وخاصة في رواية الإمام مسلم، المســـند إلـــى أم المـــؤمنين عائشـــة رضـــي الله عنها ، والتزامي بالاختصار غير المخل في عملـــي هـــذا، ونظـــرا إلـــى أن تلخـــيص الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله كان تلخيصا جيـــدا، فأنـــا أقتفـــي أثـــره، وأنقـــل ما يقرب مما ذكره في تفسيره.

لما قفل النبي ﷺ من غزوة بني المصطلق في السنة الخامســـة مـــن الهجـــرة، ونـــزل لـــيلا على مرحلة من المدينة، آذن بالرحيل آخر الليل .وقـــد اصـــطحب فـــي غزوتـــه تلـــك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. فلما علمـــت بـــذلك خرجـــت مـــن هودجهـــا، وابتعـــدت من الجيش لقضاء شأنها، كما هو شأن النساء قبـــل الترحـــل .فلمـــا رجعـــت إلـــى رحلهـــا افتقدت عقدا من جزع ظفار(نـــوع مـــن العقيـــق خطوطـــه متوازيـــة مســـتديرة ومختلفـــة الألوان، تتخذ منه النساء حليا) كان في صدرها ، فرجعـــت عـــن طريقهـــا تبحـــث عنـــه، فحبسها طلبه وقتا، خاصـــة والظلمـــة مخيمـــة، ولمـــا وجدتـــه رجعـــت إلـــى منطلقهـــا، فوجدت الجيش قد ارتحل وحملوا هودجها فارغا .ولم يشـــعروا بـــذلك لأنهـــا كمـــا تقـــول: كانت خفيفة اللحم. فلما لم تجد أحدا من المســـلمين بقيـــت فـــي مكانهـــا انتظـــارا منهـــا أن يعودوا إليها عندما يتبينون أنها ليست في الهـــودج، فأخـــذها النـــوم. وكـــان مـــن ترتيـــب النبي ﷺ أنه كلف صفوان بـــن المعطـــل الســـلمي (مـــن بنـــي ســـليم) بحراســـة ســـاقة

الجيش (مؤخر الجيش) فلما تيقن ابتعاد الجـيش وأمــن عليــه مــن غــدر العــدو، ركــب راحلته ليلتحق بالجيش. فلما بلغ الموضع الذي كــان بــه الجــيش بصُــر بســواد إنســان، علم أنها عائشة إذ كان قد رآها من قبل أن ينزل الحجــاب، فأخــذ يســترجع ويقــول: إنــا لله وإنا إليه راجعــون. واســتيقظت عائشــة بصــوت اســترجاعه، فــأدنى منهــا ناقتــه وأناخها فركبتها عائشة وأخذ يقودها حتى لحق بالجيش وقــد ارتفــع النهــار. وكــان عبــد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين في الجــيش فقــال : والله مــا نجــت منــه ولا نجــا منها . فراج قوله على حسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثــة، وحمنــة بنــت جحــش أخــت زينب أم المؤمنين. حملتها الغيرة لأختها، وساعد عبدَ الله بــن أبــي علــى تــرويج الخبــر طائفةٌ من المنافقين أصحابه. وانتابت الحمى أم المــؤمنين عائشــة شــهرا إثــر رجوعهــا إلى المدينة. وما ســمعت رضــي الله عنهــا بحــديث الإفــك إلا بعــد أن برئــت. وقــد ضاعف ألمها أنها ما وجدت في فترة مرضها مــا كانــت تجــده مــن لطــف رســول الله ﷺ بها. وثقلت وطأة الإفك عليها وعلــى رســول الله وعلــى أســرتها. إلــى أن أنــزل الله براءتها قرآنا يتلى في هذه الآيات ففــرج الله بفضــله الكربــة والغــم الشــديدين . فلنعــد متتبعين الآيات.

11- إن الذين جاؤوا بالإفك عصبة منكم...له عذاب عظيم .

إن المنافقين الذين حملوا الكذبة التي اختلقوهــا وروجوهــا، هــم جماعــة قليلــة (عصــبة سوء) حقيرة ليس لقولها وزن ولا يعتد بكلامهــا بجانــب الأمــة الإســلامية التــي كانــت حول النبي ﷺ ، وكان لها من صــفاء إيمانهــا وعمــق تحليلهــا مــا رفضــت بــه خبــر الإفك. روي أن أبا أيوب الأنصاري ﷺ لما بلغه خبــر الإفــك قــال لامرأتــه : ألا تــرين ما يقال؟ فقالت له: لو كنتَ بــدل صــفوان أكنــتَ تظــن بحرمــة رســول الله ﷺ ســوءا؟ قال: لا. قالت: ولو كنتُ أنا بدل عائشة مــا خنــت رســول الله ﷺ. فعائشــة خيــر منــي، وصفوان خير منك. قال: نعم . ووصفتهم الآيــة بــأنهم مــنكم، علــى التوزيــع معظمهــم منافقون يساكنونكم في المدينــة، ويعــاملونكم وتعــاملونهم، وقليــل مــن المــؤمنين الــذين في تحدثهم بما روجه المنافقون قد انحــدروا إلــى مســتوى القــذف الــذي جعلــت الآيــة السابقة الفسق منحصرا فيهم.

تأثر الصحابة في مجتمع المدينة الفاضــلة، وانزعجــوا أن يتحــدث النــاس بالإفــك، وأن يؤذى رسول الله وزوجه وأسرتها التي هي أقــرب الأســر إليــه، وحســبوا أن مــا وقــع شر حل بهم ،وكيف لا يحســبونه شــرا، وقــد انغمــس بعضــهم فــي الفســق، وتمكــن المنافقون من إحداث ثغرة في البناء الإسلامي المتماســك النقــي ؛نفــى القــرآن أن يكــون

ذلك شرا بل هو خير. فقد أخذ المسلمون من خبر الإفك تربية صالحة فيما يعرض لهم في حياتهم المستقبلية، والطريقة التي يواجهون مثل هذه الحادثة الممزقة للأسر المحاولة للنيل من الشرفاء. وأن الله أنزل من القرآن الذي يتلى ما رفع به أم المؤمنين إلى مقام الطهر الذي لا يعلم صفاءه الحق إلا الله. ويغيض المنافقين الذين كانوا ينتظرون أن يعقب ترويجهم للإفك أن تنحل الروابط المتينة في بيت النبوة وما يتصل به ، فانقلب الأذى عليهم ولولا فضل عائشة التي عفت عن القاذفين لحُدُّوا . وروي أنهم حدوا حد القذف. ومع ذلك فالأحكام والتربية مما يبين وجه الخيرية فيما تم.

إن الذي كان ضالعا في اختلاق الإفك وترويجه في مجتمع المدينة، ويدعو عصابة النفاق لنشره عبد الله بن أبي بن سلول المنافق الذي احترق قلبه حسدا على رسول الله ﷺ، إذ كان يستعد قبل الهجرة أن يعقد له سكان المدينة الرئاسة عليهم ، فلما قدم النبي ﷺ سقط ما كان يأمله. ووعيده بأنه سيلقى عذابا عظيما في الآخرة ، ينبئ بأنه سيموت كافرا منا فقا لا يهتدي للتوبة .

12-لولا إذ سمعتموه ...وقالوا هذا إفك مبين.

إن المنهج الذي بذل فيه النبي ﷺ جهده ليقيم تفكيركم عليه، وإن ما نزل من القرآن قبل الهجرة وبعدها فصاغكم صياغة رفيعة، سمت بكم عن تلقف الأخبار وتصديقها، والرباط الإيماني الذي جعل كل مؤمن أخا لأخيه المؤمن لا يرضى له إلا ما يرضاه لنفسه ، كل ذلك تراخت آثاره. لقد كان من مقتضياته أن تقابلوا ما راج بالتكذيب والرفض . كان الواجب بمجرد ما سمعتم الخبر أن لا يظن مؤمن بأخيه ولا مؤمنة بأختها إلا خيرا. وعبر بأنفسهم نظرا إلى أن ما يؤذي أخاك يؤذيك. لما ذا لم يكن ردكم: هذا كذب وبهتان واضح بمجرد ما سمعتم ؟ وفي ذلك من التوبيخ ما هو واضح.

13- لولا جاؤوا عليه بأربعة شهداء...هم الكاذبون.

عودة لترسيخ التربية الإسلامية في نفوس المؤمنين، لولا :هلا، لماذا عندما سمعتم قالة السوء وحديث الإفك، لماذا لم تكن منكم المبادرة إلى نفيه بالظن الحسن في المؤمنين والمؤمنات. وفي ذلك تكرار للتوبيخ على المسارعة ومخالفة ما ينبغي أن يحصل في ذهن المؤمن إذا سمع مطعنا في أخيه المؤمن، وهو أن يظن به خيرا، فإذا لم يجد في الكلام مستندا، ولا يتناسب مع ما عرف عن المتحدث من فضل أن يسارع بنفيه ويقول: هذا خبر واضح أنه كذب. ومن هذه الآية يستفاد حكم جديد،

هو أن على المؤمن أن يصرح بلسانه نافيا مـا اتّهـمَ بـه أخـوه، فيجمـع بـين الإنكـار القلبي والإنكار باللسان.

تضيف هذه الآية توبيخا آخر على التسـرع وحصـول الظـن أو الشـك عنـد الـبعض، وتقرر طريقة مواجهة الخبر. فكل خبر لا يتأيد بمؤيـده مرفـوض، وخاصـة مـا يتعلـق بالجنس ،فإن المجتمعات المنحلـة يكثـر بـين رجالهـا ونسـائها الحـديث عـن الجـنس واتهام الآخرين، وفي ذلك خطر كبيـر، إذ شـيوع ذلـك فـي المجتمـع يضـعِفُ إنكـار السامع ، ويوهّن حصانة الرجال والنساء من ارتكاب الفاحشة، بـل يطـوع مـن لـم تكـن العفة فيه متأصلة لذلك . فقطعت الآية بـأن رَمْـيَ فـرد بالزنـا مرفـوض أساسـا ،إلا إذا قام عليه أربعة شهداء .وإذ لم يأت أصـحاب الإفـك بـذلك ،فهـم كـاذبون يقينـا، لأن الله علم كذبهم، وعلمه سبحانه لا يخالف الواقع، فهو العليم بالخفايا.

14- ولولا فضل الله عليكم ...فيه عذاب عظيم .

إن الذي منع العذاب العظيم أن ينزل بكم، هو فضـل الله ورحمتـه بكـم ، هـذا الفضـل، وتلكم الرحمة مما كتبه الله لكـم فـي الـدنيا والآخـرة. وكمـا سـارع فضـله وشـملت رحمته من وقع في الإفك فرقّـت عائشـة رضـي الله عنهـا، وأسـقطت المطالبـة بحـد القذف، ورحم المؤمنين الذين وقعوا في الإفـك بإلهـامهم النـدم والتوبـة وقبولهـا، فهـو كذلك صاحب الفضل عليكم في الآخـرة. ونحـن فـي دنيانـا لا يغيـب عنـا فضـل الله ورحمته، تارة نشعر بذلك وتـارة نغفـل، وهـو مـن ضـعفنا. جعلنـي الله وإيـاكم مـن الشاكرين لفضله بالقول والفعل، المشمولين برحمته في الدنيا والآخرة.

15- إذ تلقونه بألسنتكم ...وهو عند الله عظيم .

إمعانا في توبيخهم جسّمت الآية أمر الإفـك وصـورته الصـورة التـي تجعـل أصـحابه يشعرون بالخزي من مبادرتهم للخوض فيه . صـوّرتهم الآيـة بمـن يتلقـى الخبـر فـلا يمر بسمعه ولا يحيله على عقله لينقده، وينزلـق سـريعا إلـى لسـانه ليتحـدث بـه. لقـد هبطتم عن مستواكم الإنساني فتكلمت ألسنتكم بمـا هـو غيـر مسـتند إلـى علـم صـادر عن التفكير، وكما قال الشاعر الحكيم:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما *** جعل اللسان على الفؤاد دليلا

ثم أضاف إلى توبيخهم أنكم لم تزِنوا ما يترتب على مـا تحـدثتم بـه، وظننـتم أن الكـلام في السر ونشر الحديث في المجالس الخاصـة أمـر هـيِّنٌ لا خطـر لـه. كيـف يكـون تقديركم بهذا المستوى ، وقد آذيـتم رسـول الله ، ووقعـتم فـي عـرض أمكـم، واتهمـتم صحابيا مجاهدا، ولوثتم بيت الصاحب الكريم أول مـن آمـن برسـول الله وصَـحِبه فـي

هجرته، وكان فضله على هذا الدين فضلا لم يبلغـه أحـد مـن الصـحابة. وذلـك منكـر عظيم تزلزل له الجبال في علم الله الذي يزن الأمور بحقائقها.

16- ولولا إذ سمعتموه قلتم ....هذا بهتان عظيم .

يواصل القرآن تقريعهم ويبين الموقف الذي كان عليهم أن يتخذوه. هلا بادرتم بمجرد سماعكم بالقول: لا يوجد أي شيء يسمح لنا بأن نتحدث بحديث الإفك، فنحن نرفض سماعه، وأنتم المتحدثون تخرس ألسنتكم عن الخوض فيه. بل أن تتعجبوا وتظهروا ذلك بقولكم سبحان الله ! تنزه ربنا عن كل نقص فهو المؤيد لرسوله الحافظ له ، ونحن نبرأ من ذلك .ثم تصرحون بقولكم : هذا الذي تحدثتم به اختلاق وكذب لا شبهة فيه، ولا يقبله العقل. هو بهتان عظيم في ذاته وفيما تعلق به كما بيناه في الآية السابقة.

17-يعظكم الله أن تعودوا لمثله... والله عليم حكيم .

إن ما بسطته الآيات السابقة فـي قضـية الإفـك، ومـا تخللهـا مـن أحكـام وتوجيـه وتربية، يهدف إلى أن يحرك قلوبكم وعقـولكم، فتُقْبِلـوا علـى الخيـر المـنهج الرشـيد، وتبتعدوا عما يضـركم ويلقـي الفتنـة بيـنكم. ممـا يترتـب عليـه أن تكونـوا يقظـين متذكرين لما نبهتكم إليه، فلا تقعوا في المستقبل في مثل مـا وقعـتم فيـه . ثـم يضـاعف القرآن تحريكهم لعدم العودة بقوله: **إن كنتم مـؤمنين**. فهـو شـرط لا يقصـد منـه أنكـم إن لم تكونوا مؤمنين فلا عليكم أن تعـودوا. ولكـن هـو مـن بليـغ التأكيـد، إذ الإيمـان أعز شيء على هذه الأمة، فكل من عاد سيضيع إيمانه.

و بذلك فإن الله قد أتم لكم البيان والتوضيح لخطر مـا صـدر، ولعاقبتـه وأدّبكـم أفضـل تأديب وأكمله. وهو العليم بما يصلح النفوس ويقيم الأمـم علـى المـنهج السـوي، الحكـيم في كل ما يفعله ويأمر به.

19- إن الذين يحبون أن تشيع...وأنتم لا تعلمون.

إن الذين فسدت نفوسهم فأضمروا السوء بحبهم شـيوع الفاحشـة وانتشـارها بـين الـذين آمنوا، هؤلاء الذين ينظرون إلى المجتمـع الطـاهر النظيـف الـذي صـاغه الرسـول ﷺ وبلغ به مستوى رفيعا، فيغيظهم ذلك ويعملـون علـى أن ينـزل إلـى حمـأة القـذارة وأن تنتشر فيه الفاحشة بـالقول الـذي يطـوِّع النفـوس للفعـل. هـؤلاء الخبثـاء المريضـةُ نفوسُهم، الذين يرضون بالفساد ويأنسون بظهـور الحـديث عـن الفاحشـة، عـاقبهم الله بالعذاب الأليم في الدنيا بإقامة حد القذف عليهم، وبعذاب النار يوم القيامة.

ويمْتَنُّ على المؤمنين بأن الله يعلـم مـا يخفـى علـى البشـر، فـأمور الـنفس وطـرق التأثير فيها، وتقويمها بالإصلاح لتؤدي رسالتها على خيـر الوجـوه وتـنجح وتفـوز هـو

مستوى لا يصل إلى غاية مداه علم البشـــر النــاقص. فقـد تــولاكم الله بهــدايتكم بعلمـــه، ولم يتركّكم لنفوسكم التي تقصر علميا عن إدراك كل ما يصلح النفوس.

20- ولولا فضل الله ...رؤوف رحيم.

تذكير للمرة الثالثة خلال الآيات العشر بفضل الله ورحمتـــه، وأنهـم لــو يــدركهم فضـله ورحمته، ولم يذكر الجواب ليقدره المؤمن في كــل مقــام حســبما يقتضــيه. ينظــر فـــي فضل الله ورحمته في النظرة الكلية لجميـــع أمـــور الـــدنيا، وفـــي مشـــاهد الآخــرة، كمـــا يستحضر ذلك في الجزئيـــات التـــي تعـــرض لـــه، فيكـــون جوابـــه لنفســـه أنـــه ســـيلقى الخسران إذا خلّيَ لنفسه. ومـــا هـــذا الإســـعاد بـــالعون إلا لأنـــه ســـبحانه رؤوف بعبـــاده رحيم بهم .

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ وَمَن يَتَّبِعۡ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۚ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ أَبَدٗا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرۡمُونَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ ٱلۡغَٰفِلَٰتِ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ وَيَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ ٱلۡمُبِينُ ﴿٢٥﴾

بين معاني الألفاظ :

خطوات :جمع خطوة وهي ما بين القدمين عند المشي.

الفحشاء : كل فعل أو قول قبيح.

المنكر : ما تنكره الشريعة وترفضه الفطرة السليمة.

ما زكى : ما اهتدى ولا أسلم.

لا يأتل : الحلف وأكثر ما ورد فيه اليمين على الترك

الفضل : الكمال الديني.

السعة : الغنى المالي .

الغافلات : اللاتي لا علم لهن بما رمين به.

دينهم : جزاؤهم .

الحق : العادل.

بيان المعنى الاجمالي :

تذكير للمؤمنين كي يتيقظـوا لوسوسـة الشـيطان المضـللة، ويحـذروا أن ينزلقـوا إلـى متابعة المنهج الذي يدعوهم إليه، وأن ينقادوا للسـير فـي الطريـق الـذي يرسـمه لهـم. كونوا حـذرين منـه، فإنـه لا يـدعوكم إلا إلـى اتبـاع القبـيح مـن القـول والعمـل ، المرفوض والمنكر من المستقيمين ومن الفطرة السـليمة. إن الله لطيـف بكـم، ولـولا مـا خصكم به من بعثة الرسول ﷺ فيكم، وما أنـزل علـيكم مـن وحيـه، مـا اهتـدى أحـد منكم، ولا خالط الإسلام روحه. إنه لا تتحقق لأحـد الاسـتقامة والاهتـداء أبـدا إلا لمـن شاء أن يزكيه. إن الله لا يخفى عليه شيء مـن همسـات ألسـنتكم، ولا مـا يجـري فـي قلوبكم ولا ما تقومون به من أعمال.

كما ذكر المؤمنين الصالحين الأغنياء الذين وسـع الله علـيهم فـي الـرزق، أن لا يسـبقوا بالأيمَان لحرمان من كان ينال من سـماحتهم، وخاصـة إذا كانـت تـربطهم بهـم قرابـة وهم فقراء، لهم مزية المهاجرين. على المؤمن أن يكـون سـمحا يعفـو، ولا يُبقـي فـي نفسه حقدا لمن أخطأ معـه. ألسـتم تحبـون أن يغفـر الله لكـم ذنـوبكم ، فاقتبسـوا فـي أخلاقكم من الكمالات الإلهية

إن الذين ينطوون على نفسيات سيئة فيرمون العفيفات اللاتي لم يدر بخلدهن الزنا، الطاهرات بالإيمان، كتبت عليهم اللعنة في الدنيا، بما يفضحهم الله، وما يترتب على ذلك من احتقار الناس لهم، وقطع صلاتهم بهم، وحَدِّهِمْ ، وفي الآخرة في جهنم التي سيلقون فيها عذابا عظيما . إنه في هذا اليوم لا يستطيعون مراوغة ولا إنكارا، يُنطق الله بقدرته ألسنتهم التي كانوا يتحدثون بها في الإفك، وكذلك أيديّهم التي كانوا يشيرون بها إشارة الاستهزاء والتعيير، وأرجلهم التي كانوا ينتقلون بها إلى مجالس الطعن في عفة الآخرين. إنه في هذا اليوم يوفيهم الله جزاءهم كاملا غير منقوص، مع العدل الذي لا ظلم فيه، فيعلمون أن الله هو الحق الذي لا يظلم ولا يخفَى عليه شيء الذي لا أول له ولا يلحقه عدم.

بيان المعنى العام :

21- يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا...والله سميع عليم .

دعت الآية بوصف الإيمان، إشـارة إلـى أن مضـمونها مـن مقتضـيات الإيمـان ليـتم الحرص على مراعاته. لا تسيروا في المـنهج الـذي يـدعوكم إليـه الشـيطان، جسَّـمت

الآية الاتباع الغبي لوسوسة الشيطان، بالسائر على خطى من يقوده، غير منتبه ولا عالم بما ينتهي إليه. على من يتبع منهج الشيطان وما يوسوس به أن يكون يقظا إلى أن الشيطان لا يدله إلا على ما هو قبيح سيء ترفضه الفطرة والشرع والرأي العام للمؤمنين. الشيطان الذي بلغ من وقاحته وخبثه أن خاطب رب العزة بقوله : (**قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين**)[1]

هما منهجان متقابلان : المنهج الإلهي ، ومنهج الشيطان ، وإنه لولا فضل الله عليكم بإرساله محمدا ﷺ، وبألطافه التي أحاطت بكم في مسيرتكم في الحياة، ولولا رحمته التي وسعت كل شيء، لولا ذلك ما آمن منكم أحد، ولا كان راشدا لا في عقيدته ولافي سلوكه. إن ما أنتم عليه من الاستقامة هو من فضل الله بالهداية، وبرحمته بقبول التوبة وعدم تعجيل العقوبة. واعلموا أن الله سميع لا يخفى عليه ما تتحدثون به في السر، وهو العليم بنواياكم الخيرة أو الخبيثة. وفي هذه الخاتمة وعْدٌ للصالحين وتهديد للفجرة والكافرين.

22- ولا يأتل أولو الفضل ...والله غفور رحيم .

هذه الآية متصلة بحديث الإفك. كان أبو بكر الصديق السمح الكريم ينفق على ابن خالته مسطح المطلبي ،وكان من فقراء المهاجرين، فلما علم بسقوطه مع العُصْبَةِ التي نشرت قالة السوء، أقسم أن يقطع ما كان يساعده به. رغم أنه اعتذر وقال: إنما كنت أغشى مجلس حسان فأسمع ولا أقول، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: لقد ضحكت، وشاركت فيما قيل، ومر على يمينه فنزلت.

ترشد الآية أصحاب الفضل والمستوى الخلقي الرفيع، ومن آتاهم الله من الثروة ما يزيد عن حاجاتهم، أن لا يستعجلوا ويحرموا بأيمانهم، من تعودوا النيل من نوالهم إذا آذوهم، خاصة إذا كان يجمعهم بهم قرابة تؤكد البِرّ بهم، مع الفقر والخصاصة وكونهم من المهاجرين في سبيل نصرة الدين؛ الأمر الذي لهم به فضل لا ينكر في تقوية صف المسلمين .

ثم أمرتهم الآية بالعفو، والصفح بأن يطهروا نفوسهم من الحقد. وحرضهم على التسامي عن فلتات إخوانهم، بهذا السؤال المثير لكوامن الأمل في فضل الله عند المؤمنين :**ألا تحبون أن يغفر الله لكم**، فاغفروا لمن دونكم. روي عن أبي بكر

---

[1] سورة الحجر آية 40/93

رضي الله عنه أنه لما سمع هذا السؤال المحرك قـــال:(**إنــــي لأحِـــبُ أن يغفـــر الله لــــي**) ورجع لمساعدة مسطح.

وهذه الآية وإن نزلت على سبب خـــاص، هــي عامـــة للمـــؤمنين فـــي جميـــع الأعصـــار باعتبار أن مضمونها هو المنهج الذي يطلـــب الله مـــن المـــؤمنين أن يســـيروا عليـــه فـــي علاقاتهم مع من آذاهـــم مـــن إخـــوانهم. إذ أن مقابلـــة الإذايـــة بالإذايـــة مزرعـــة للحقـــد ومواصلة للخصام.

وهذه الآية ترشد إلى أن من أقسم يمينـــا، الحنـــث فيهـــا أفضـــل، أن يكفـــر عـــن يمينـــه ويفعل الذي هو خير.

وختمت الآية بتحقيـــق مضـــمونها: **إن الله غفـــور رحـــيم**، وصـــفات الله تمثـــل الكمـــال المطلق ، فليتخَلّقْ المؤمنون بتلكم الكمالات على المستوى الذي هو في طوقهم.

23←24: إن الذين يرمون المحصنات...بما كانوا يعملون.

تتعلق هاتان الآيتان بما نزل قبلهما فـــي الإفـــك. تشـــهران بالـــذين صـــفتهم المميـــزة لهـــم أنهم يؤذون العفيفات بما هن في غفلة عنه، إيماء إلى أنه لم يقـــع مـــنهن مـــا رمـــين بـــه. إذ لا يوصف الفاعل للشيء بأنه غافل عنه ؛ ثم يتوعدهم بـــأن اللعنـــة تصـــب علـــيهم فـــي الدنيا والآخرة، ففي الدنيا هم مبعدون عـــن مرتبـــة العدالـــة والثقـــة فيمـــا يشـــهدون بـــه، وبالإنكار عليهم فيما وقعوا فيه من الفســـق، وعـــدم مخـــالطتهم، وتعرضـــهم لإقامـــة حـــد القذف. وأما لعنهم في الآخرة فهو الوعيد الشـــديد بـــأنهم لا مطمـــع لهـــم فـــي رحمـــة الله. وبذلك تُطْبِقُ عليهم جهـــنم ولا يجـــدون عنهـــا محيصـــا. فيســـلّط علـــيهم فيهـــا العـــذاب العظيم. وذلك فـــي اليـــوم الـــذي يُفْضَـــحون، فتشـــهد علـــيهم ألســـنتهم بمـــا رمـــوا بـــه المؤمنات الغافلات، وتشهد علـــيهم أيـــديهم بمـــا كـــانوا يشـــيرون بهـــا إلـــى المقـــذوفات للمساعدة على ترويج ما افتـــروه، وتشـــهد علـــيهم أرجلهـــم التـــي كـــانوا بهـــا يســـعون، ويتحركون، وينتقلون إلى المجالس التي ينتهكون فيها الأعراض بالقذف.

25- إنهم سيعلمون علم اليقين الذي لا يدخله شك ولا ارتياب، يعلمون علما حاضرا لا تتطرق إليه غفلة ولا نسيان: أن الله هو الحق، الواجب الوجود الذي لم يسبق وجوده عدم ولا يلحقه عدم ، وهذا من الأمور الثابتة التي كانوا في شك منها في الدنيا بما عبدوه من أصنام. وأنه المتفرد بهذا الاسم لا يشاركه فيه غيره. وفيه إيماء إلى زيف معبوداتهم . المبين: الذي تحققت ألوهيته ثابتة لا غبش فيها ولا تساؤل ، ولا ريب .تظهر قدرته المتصرفة فيهم ظهورا بينا لا يتقلبون في منازل القيامة ومشاهدها إلا عن أمره. وتسلب منهم الإرادة والقدرة، وتتجلى القدرة الإلهية والتسيير بأجلى مظهر وأتمه.

ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ
لِلطَّيِّبَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ۖ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ
أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا
تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ
فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخبيث: خسيس النفس فاسدها.

الطيب: عكس الخبيث رفيع السجايا والملكات، المترفع عن الدون.

تستأنسوا : تطلبوا إذا كان صاحب البيت مستعدا للأنس بكم.

أزكى لكم : أفضل من الإذن عن كراهية.

فيها متاع : فيها نفع لكم .

بيان المعنى الإجمالي :

ركز الله في فطر البشر أنه لا يتم التلاؤم بين الزوج وزوجه إلا إذا تحقق التوافق بينهما في القيم وفي الطيب أو الخبث، فالخبيثة تلتئم مع من كان خبيثا مثلها، والطاهرة الطيبة تلتئم مع من كان طاهرا طيبا. ورسول الله ﷺ وأزواجه يمثلون قمة الطهر والطيب، فتكون هذه القاعدة المنغرسة في الفطرة شاهدا آخر على كذب المفترين، ويشهد الله أنهم مبرؤون مما قاله أهل النفاق بألسنتهم ، ولا يرقى الإفك إلى ما فوق الكلام. ونكاية في أهل النفاق صرحت الآية بأن الله كتب لهم المغفرة، والجزاء بالرزق الكريم في الآخرة.

ثم دعا القرآن المؤمنين أن يطلبوا الإذن إذا أرادوا دخول بيت يسكنه غيرهم. وأن يصحبوا الاستئذان بالسلام على أهل البيت تحية الإسلام: السلام عليكم، أتأذنون أن أدخل عليكم ؟ إن التزامكم بهذا التشريع يحصل لكم منه الخير، ويبعد عنكم الإذاية. تأملوا في ذلك فإنكم ترجون بذلك أن تتعمّقوا في الأسرار التي هدتكم إليها الآية ، فلا تغفلوا عن العمل بها. ثم فصل لرفع أي إيهام بأنه إذا استأذنتم فلم تسمعوا جوابا لخلو البيت من أهله، فارجعوا ولا تدخلوا بيوت غيركم الخاصة إلا بإذن صريح.

إن الالتزام بهذا التشريع هو خير لكم فــي الحاضــر والمــآل، فــلا تُثْقِلــوا بمــا يرخــي الصلات، وتثابون بتطبيقكم لشرع ربكم.
أما البيوت التي لم تتخذ سكنا يأوي إليها أصـــحابها، المـــأذون إذنـــا عامـــا فـــي دخولهـــا، كالفنادق والإدارات، ومواطن الاستراحة، فإنه يجوز الـــدخول إليهـــا لينتفـــع الـــداخل بمـــا أعدت له. وكونوا متيقنين أن الله يعلـــم نوايـــاكم، ومطلـــع علـــى مقاصـــدكم، ســـواء مـــا أخفيتموه، وما أعلنتموه، فلا تتخذوا الإذن من صاحب البيـــت أو مـــا رفـــع فيـــه الحـــرج ، وسيلة لما لا يحل كقصد الاطلاع على العـــورات والحـــديث بهـــا، أو التجســـس والإعـــداد للخيانة. فإن الله يجزي كل عامل بما قصد .

بيان المعنى العام :

26- الخبيثات للخبيثين ...مغفرة ورزق كريم .

من عجيب صنع الله فـــي الاجتمـــاع البشـــري، أنـــه يقـــرب بـــين الصـــالحين أصـــحاب النفوس الزكية، ويقرن بين أهل الســـوء وأصـــحاب النفـــوس الخسيســـة. فتلتـــئم النفـــوس الطيبة الطاهرة بأمثالها، وتلتئم النفوس الخبيثـــة الســـاقطة بأمثالهـــا. ويتنـــافر مـــا تعـــاكس منها. إنه حسبما جرت عليه سنن الكون أن يكون البيـــت الـــذي جمـــع أفضـــل خلـــق الله وأكرمهم نفسا، وأطهرهم سجايا، وأعظمهـــم خلقـــا محمـــد ﷺ ، أن تكـــون زوجـــه التـــي حَظيت بصادق حبه الذي تواصل إلى آخر لحظـــة مـــن حياتـــه الشـــريفة ،كمـــا قالـــت : توفي النبي ﷺ بين صدري ونحري ،أن تكون مـــن أطهـــر النـــاس خلقـــا وأبعـــدهم عـــن الريبة .

في عرض هذه القاعدة السائرة في الخليقة ما ينفـــي مـــا جـــاء فـــي حـــديث الإفـــك، وأن كل ما في الأمر هو أقوال لا حقيقة لهـــا، فهـــم مبـــرؤون ممـــا يقولـــه الخبثـــاء شـــهد الله بالبراءة. ويحققها أن الله وهو العليم بكـــل شـــيء أعـــد لهـــم مغفـــرة ورزقـــا نفيســـا فـــي الجنة. وهو ما يثبت لهم طهارة العرض، وحسن السلوك، ورضا الله عنهم.

27- يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا...لعلكم تذكرون.

هذه دعوة بوصف الإيمان تحرك المعتـــز بدينـــه ليحـــرص علـــى تطبيقهـــا والعمـــل بمـــا جاء فيها. إنها من الآيات الكثيرة التي تربي المـــؤمنين علـــى الســـلوك الحضـــاري الـــذي يرعى حرمة البيت الذي يتخذه المؤمن سكنا يأوي إليه ليجـــد فيـــه راحتـــه غيـــر معـــرض لإزعاج، فلا يتحفظ من أعين من لم يكـــن مـــن أهلـــه، لا فـــي لباســـه، ولا فـــي هيئتـــه. فلصاحب البيت حرمة خاصة عندما يأوي إلى بيتـــه .وللبيـــت أســـرار لا يحـــل الاطـــلاع

عليها إلا برضا صاحبه. اعتنى القرآن بتربيــة المــؤمنين وأوضــح لهــم منهجــا يمكــن في سلامة الصِّلات بينهم.

شرعت الآيـــة الاســـتئذان لمـــن يريـــد أن يـــدخل بيـــت أخيـــه المـــؤمن. ويكـــون ذلـــك بالاستئناس، يطلب الزائر من صـــاحب البيـــت أن يـــأذن لـــه بـــدخول البيـــت إذا كـــان لا يجد في ذلك حرجا، ولا يستوحش ولا يســـتثقل، بمـــا يـــدل علـــى أن كـــلا منهمـــا غيـــر كاره لذلك الاتصال. ثم بالتسليم فيقـــول: الســـلام علـــيكم، تحيـــة الإســـلام. قـــال الشـــيخ محمد بن أبي زيد رضي الله عنه: الاستئذان واجب، فـــلا تـــدخلْ بيتـــا فيـــه أحـــد حتـــى تستأذن ثلاثا فإن أُذن لك وإلا رجعـــت. وروى البخـــاري ومســـلم واللفـــظ للبخـــاري عـــن أبي سعيد الخدري قال : كنت في مجلس من مجـــالس الأنصـــار ، إذ جـــاء أبـــو موســـى الأشعري ، كأنه مذعور .فقال : استأذنت علـــى عمـــر ثلاثـــا فلـــم يـــؤذن لـــي فرجعـــت .قال ما منعك ؟قلت استأذنت ثلاثا فلـــم يـــؤذن لـــي فرجعـــت .وقـــال رســـول الله ﷺ: إذا استأذن أحدكم ثلاثا فلم يؤذن له فليرجعْ. فقال :والله لتقيمَنَّ عليـــه بينـــة .أمِـــنْكُمْ مـــن أحـــد سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أبي بـــن كعـــب والله لا يقـــوم معـــك إلا أصـــغر القـــوم، فكنـــت أصغرَ القوم، فقمت معه، فأخبرت عمر: أن النبي ﷺ قال: ذلك [1].

ولما كان الاستئذان يقتضي جوابـــا بالإيجـــاب، أو الـــرفض. فمـــن الطبيعـــي أنـــه إذا أذن صاحب البيت فذاك، وإن لم يأذن بعد الثلاث بـــأن ســـكت أو صـــرح بأنـــه غيـــر مســـتعد لقبول الزائر فليرجع. ورفعت الآيـــة مـــا يمكـــن أن يحـــدث فـــي نفـــس المســـتأذن مـــن الكراهية لموقف أخيه، فقال تعالى ذلك الرجوع عند عـــدم الإذن هـــو أفضـــل وخيـــر لكـــم من أن تثقلوا على صاحب البيت، أو تطَّلعـــوا علـــى مـــا يكـــره الاطـــلاع عليـــه. ولمـــا كان الحق في الإذن أو عدم الإذن هو لصاحب البيـــت وجعـــل الاســـتئذان لمعرفـــة ذلـــك، فمن الطبيعي أن لا يجد المستأذنُ حرجا من الرفض. وفـــي ذلـــك مـــا يحصـــل بـــه لكـــم رجاء في التدبر في هذه التربية الإسلامية، فتُقبِلوا على تطبيقها راضين.

28- فإن لم تجدوا فيها أحدا...بما تعملون عليم.

يصرح القرآن مفصلا، أنكم إذا لم تجدوا في البيت أحدا، فـــلا تـــدخلوا البيـــت فـــي غيبـــة أهله، بمعنى أن لا يذهب بكـــم الظـــن أن النهـــي خـــاص بمـــا إذا كـــان صـــاحب البيـــت موجودا ويكره أن يقبل الزائر غير متأهب لقبوله. بـــل للبيـــوت حرمتهـــا كـــان أصـــحابها فيها أو لم يكونوا فيها.

---

[1] فتح الباري ج13ص264/265

والله بما تعملون عليم. عليكم أن تحققوا وتعملــوا بالتربيــة التــي أمــرتكم بهــا ظــاهرا وباطنا، فلا تلِجُّوا ولا تثقلوا، ولا تتحايلوا بمحاولة كشــف ســر البيــت بطــرق ملتويــة ، أو التنصُّتِ على ساكنيها، إن ما أمــرتم بـــه هــو المــنهج الصــالح فــي العلاقــات بــين الناس .

تطبيق : ولما كانت معظم البيــوت مجهــزة بالهــاتف، ثــم إن معظــم النــاس يحملــون هواتف جوالة، فإن تطبيق الآية فــي عصــرنا الحاضــر قــد يكــون بمخاطبــة صــاحب البيت واستئذانه مقدما، وعدم التحرج إذا اعتذر عن عدم قبول المستأذن.

29-ليس عليكم جناح ....ما تبدون وما تكتمون .

لما كان الاستئذان واجبا، وأن ذلــك تــابع لحــق صــاحب البيــت كــي تكــون أســراره محفوظة، وأن يكون متهيئا لا يزعجه قبول المســتأذن، وأنـــه لا يجــوز اقتحــام بيتـــه إن كان غائبا عنه. وفــي المقابــل فإنـــه إذا كــان البيــت غيــر معــد للســكنى، كالفنــادق والمكتبات، والإدارات الدولية وغيرها، ومنــازل الراحــة المباحــة للعمــوم، ونحــو ذلــك فإنه لا إثم على المؤمن أن يدخل هذه البيــوت بغيــر اســتئذان. وقــد كــان فــي المدينــة بيوت بناها أصحاب البر يدخلها أصحاب الحاجــات ويضــعون فيهــا ســلعهم وأشــياءهم، أو يتظللون فيها من وهــج الشــمس. فكلمــا كــان البيــت غيــر مقصــود بـــه الســكنى، ووضْعُهُ أن يدخله الناس بغير استئذان فإنه لا إثم على داخله.

و تختم الآية بالتنبيه أن يستحضر المؤمن الداخل لغيــر بيتــه ســواء أكــان دخولـــه بعــد الاستئذان أو بدونه، أن الله يعلم ما يسره ومــا يعلنـــه، يعلــم قصــده الخيِّــر أو الشــرِّير. فالإذن لا يرفع المؤاخذة عــن الــداخل إذا كــان قصــده ســيئا كحــب الاطــلاع علــى العورات والحديث بها، أو الاستعداد للسرقة ونحو ذلــك، أو عمــل علــى التحايــل علــى القيود التي ضبطت بها الآية الدخول.

قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُواْ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَـٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَـٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ
فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ
وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ
أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ
نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّـٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ

ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ:

غض البصر : صرف البصر عن مواصلة التحديق وتثبيت النظر.

الزينة : ما يحصل به الحسن والجمال.

وليضربن بخمرهن : ليشددن خمرهن على جيوبهن فلا تظهر الرقبة.

الجيوب : مدخل الرأس من القميص.

الضرب : إيقاع المشي بشدة.

الإربة: الحاجة إلى النكاح.

لم يظهروا: لم يطلعوا عليها اطلاع شهوة، أي ما قبل سن المراهقة .

بيان المعنى الإجمالي :

عنيت الآيتان بدعوة المؤمنين إلى ما يقيم بناءهم الاجتماعي على الطهر والعفة. أمرت الرجال أن لا يشبعوا النظر في جسم المرأة التي لا تربطهم بها صلة قرابة أو نسب. وأن يقمعوا دافع الشهوة الجنسية فيحفظوا فروجهم من الاستمتاع والزنا. إن رقابتهم هذه تسمو مطهرة لنفوسهم . وعلى نفس المستوى عنيت الآية بالنساء. وطلب من المرأة أيضا أن لا تظهر مواطن الزينة المثيرة للغريزة الجنسية، وهي بالنسبة للزينة الخِلقية ما عدا الوجه والكفين ونصف الذراع والقدمين، وكذلك بالنسبة للزينة الاصطناعية لها أن تكتحل، وأن تكون يدها مخضبة وأن تلبس الخاتم والسوار. وكذلك على المرأة أن تستر شعرها ورقبتها وأذنيها عن غير المحارم. أما الرجال الذين يجوز لها أن تظهر زينتها أمامهم فهم: الزوج الذي يحل له النظر إلى جميع بدن زوجه. وقد ذكر في الآية قَصْدَ الاستيعاب. وكذلك ما عدا العورة بالنسبة للمحارم الذين عددت منهم الآية الأب وإن علا ، والأبناء ، وأبناءهم وإن نزلوا أي ابن ابن الابن، وابن الزوج من غيرها ، والأخ الشقيق أو للأب أو للأم ، وكذلك أبناؤهم وإن نزلوا، وأبناء الأخت ، وكذلك المرأة مع المرأة إن كانت مسلمة فبإجماع، وإن كانت كتابية فعلى الصحيح. وكذلك عبد المرأة، والخدم العبيد الذين يترددون على البيت وغريزتهم الجنسية معطلة، وكذلك الطفل في سن ما قبل المراهقة. ونهت الآية المرأة أن تقصد إلى إثارة الغريزة الجنسية لدى الرجال بغنجها أو تبخترها أو تضييق الملابس بما يضغط على جسدها فيزيد الخيال في

تصورها فتنة. ومُثّلت بما تفعلــه بعــض النســاء فــي عصــر النبــوة بضــرب الأرض برجلها تحرك ما تلبسه من الحلــي حركــة داعيــة، أو تبــالغ فــي وقــع الأقــدام علــى الأرض.

وفي الختام طلبت من المؤمنين والمؤمنــات أن تكــون اليقظــة وتخلــيص نفوســهم ممــا علق بها من الإثارات مصــاحبة لهــم، وذلــك بالتوبــة إلــى الله، فبهــا يرجــون الفــلاح والفوز في الدنيا والآخرة.

بيان المعنى العام :

30- قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم...خبير بما يصنعون.

إن عناية الإسلام بإصلاح البشــر، وتكــوين المجتمــع النظيــف المعتــدل الــذي لا يقمــع دواعي الفطرة، ولا يهمل نــوازع الشــهوة تســتبد بالإنســان فتجعــل حركاتــه مدفوعــة بتلك الدواعي. كان من حكمتــه أنــه عنــى بالوقايــة. فكمــا ذكــر فــي الآيــة الســابقة الاستئذان، بالتأكيد على حرمة البيت وأسراره، ألحقــت هــذه الآيــة أدبــا جديــدا وقائيــا أيضا، قد يكون متصلا بالاستئذان، وقد يكون غير مرتبط بــه. فــإذا دخــل المــؤمن بيــت أخيه فليحفظ بصره من إشباع النظــر وتحديقــه فــي نســاء البيــت. وكــذلك الأمــر إذا انكشف له شيء من الأنثى غير زوجه. عليه أن يصــرف بصــره عــن مواصــلة التثبــت في اللحم والمفاتن. ولما كان الإسلام لا يقيم حدا فاصــلا عــازلا بــين الإنــاث والــذكور، ويسمح بالتعاون بينهما، فإنه يقي هــذا التعــاون مــن أن يتحــول إلــى الافتتــان والتعلــق المفضي إلى الاتصال الجنسي المحرم، فــإن العــين أول داعيــة إلــى الإثــم. ولــذا أُمِــرَ المؤمنون أن يغضوا من أبصــارهم، ومــن الدقــة فــي القــرآن أن كــان الأمــر بغــض بعض البصر كما تفيده كلمة " من"، فإن النظرة الأولــى لا بــد منهــا تبعــا للتعــاون بــين الجنسين. ولذا لم يأمروا بغض البصــر تمامــا حتــى لا يــروا شــيئا مــن الأنثــى، ولــم يعتبر النظر حراما في جميع مراتبه، ولكن أمــروا أن لا يسترســلوا فــي النظــر الــداعي إلى الإشباع.

يقول أحمد شوقي رحمه الله:

نظرة فابتسامة فسلام*** فكلام فموعد فلقاء

وهكذا يأخذ الشيطان من منطلق النظر المتثبــت، فــي عقــد سلســلة مترابطــة متطــورة من مرحلة إلى أخرى إلى أن يطوع الناظر إلــى الخطيئــة. ولــذا عطفــت الآيــة الأمــر بحفظ الفروج بسترها عن الأعين ومن الزنا ومــن الاســتمتاع المحــرم. ووضــح لهــم أن ما جاء في هذه الآية من التشريع هــو أطهــر لمشــاعرهم، وأبلــغ ضــمانا لعــدم تلوثهــا

بالشهوة وبطائف الشـيطان . وأكـد علـيهم أن يطبقــوا شــرعه هــذا، لأن الــذي تــولى تربيتهم وهدايتهم إليه هو وحــده الخبيــر بمــا يزكــي النفــوس ويقيمهــا علــى الفطــرة النظيفة.

31- وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن....لعلكم تفلحون.

إن إيقاظ الرقابة الداخليــة علــى الطهــر والعفــة، وإن الحــرص علــى تكــوين مجتمــع نظيف من الفساد والتحلل، هو مقصد أســاس فــي الإســلام. وبنــاء علــى هــذا المقصــد اليقيني لم يقتصر القرآن على دعوة الرجال إلى غــض البصــر ، وإن كــان كــل خطــاب بصيغة المؤمنين يعم المؤمنات، بل وجه الخطاب مباشــرة للمؤمنــات أيضــا آمــرا لهــن بأن يغضضن من أبصارهن، ويحفظن فروجهن، على النحو الذي أمر به الرجال.

وتحقيقا لذلك قطع باب الإغراء الذي قد يســتولي علــى النــاظر فينســاق إلــى الخطيئــة، إذا ما بدت مخايل التساهل من الأنثى .فــأمرن أن يخفــين زينــتهن التــي تضــاعف مــن وسامتهن مضاعفة مثيرة للغرائز ،واستثني مــا لابــد لهــن مــن إظهــاره، ويقعــن فــي حرج لو أمرن بإخفائه.

لقد منح الله المرأة رقة هي في جنسها على تفــاوت فــي فضــل الله علــيهن. ولا شــك أن وجه المرأة جمع نصــيبا وافــرا مــن مقومــات الجمــال: العيــون والحواجــب والشــفاه والخدود. وهي من الجمال الخِلْقي الذي لو أمرها بستره عــن أعــين النــاس لوقعــت فــي حرج، وتعطلت عن قضاء شؤونها. فللمــرأة أن تكشــف وجههــا. خاصــة وهــي تكشــفه في الصلاة وفي الحج. **وما جعل عليكم في الــدين مــن حــرج**. والمــرأة مفطــورة علــى حبها لتكون وسيمة، وأن تضيف إلى جمالها الخِلقــي جمــالا مصــطنعا. كــأحمر الشــفاه، وتطلي خديها بلون وردي يظهرهما بلون الشــباب الصــافي. فهــذه الزينــة زينــة لافتــة للأنظار تثير في الجنس الآخر حُمَّى الشهوة. فليس للمــرأة أن تتــزين علــى هــذا النحــو مع غير من استثنته الآية. ومن ذلك الكحــل وقــد اختلــف فيــه العلمــاء، والــذي تــرجح عندي أن الكحل العادي لا حرج فيــه، ولكنــه تطــور فــي زماننــا هــذا إلــى مــا يقــيم الأهداب فيجعلها كالسهام، بما يخيل للرائــي ســعة فــي الحدقــة وجاذبيــة قويــة. وهــذا النوع يترجح عندي أنه ليس للمرأة أن تتزين به مع غيــر مــن اســتثنته الآيــة علــى مــا سيأتينا.

وكذلك للمرأة أن تظهر كفيها، وذهب بعض العلماء إلــى جــواز كشــف نصــف الــذراع. ويترجح عندي هذا القول، إذ أن كثيرا مــن نســاء الريــف يقمــن بالأعمــال الفلاحيــة ، وحتى في الحضر فمنهن التاجرة والعاملة، فستر نصــف الــذراع يــوقعهن فــي حــرج .

واختلف في كشف القدمين ومن الصعب الجزم بحرمته. ومـــن الزينـــة التـــي تعنـــى بهـــا النساء اللباس. واللباس الشرعي هو الساتر لجميع بدن المـــرأة مـــا عـــدا الوجـــه والكفـــين وأطراف القدمين على ما ذكرناه. وتعنـــى المـــرأة بلباســـها عنايـــة زائـــدة علـــى الســـتر فتتخير الألوان، وتطـــرز ثيابهـــا، واختصـــت موهوبـــات بـــالتفنن فـــي خياطـــة اللبـــاس. والمعول على جوازه مع غير الـــزوج ومـــا عطـــف عليـــه: أن لا يكـــون اللبـــاس كاشـــفا ولا ضاغطا على الجسم يصوره تصويرا قد يســـتوي مـــع العـــري. ولا أن يكـــون رقيقـــا لاهي به مستورة ولاهي عارية. أما الشـــعر والرقبـــة والأذنـــان، فقـــد أُمِـــرْن أن يغطـــي خمار الرأس الشعر والرقبة والأذنين، وذلـــك بـــأن لا تتـــرك أطـــراف الخمـــار مســـدولة إلى قفاها أو مسترسلة على منكبيها، بل تجمع طرفي الخمـــار فـــي فتحـــة العنـــق فتســـتر بذلك الأذنين والرقبة وأعالي الصدر. وفي التعبيـــر بالضـــرب مـــا يفيـــد تمكـــين وضـــعه في الجيب.

- ثم أكدت الآية النهي عن إبداء زينتهن ورتب علـــى التأكيـــد بيـــان المســـتثنيات التـــي يباح للمرأة فيها إظهار زينتها.

- ابتدأت الآية بمن الأصل فيه أن يحل له النظـــر إلـــى جميـــع بـــدن المـــرأة ، ولـــيس بينهما عورة يتحتم سترها وهو الزوج [البعل] مادامت العلاقة الزوجية قائمة بينهما.

- البنت مع والـــدها وجـــدها. فيحـــل لهـــا إبـــداء الزينـــة كالصـــدر والرقبـــة والســـاق والمعصم. وعلى هذا النحو تجري بقية المستثنيات.

- أصول الزوج الأب والجد.
- أبناء المرأة وأبناؤهم.
- ابن الزوج من غيرها وأبناؤهم.
- إخوة المرأة كانوا أشقاء أو لأب أو لأم، وكذلك أبناؤهم.
- أبناء الأخت وأبناؤهم.
- المرأة مع المرأة التي لا يجمعها بها نسب ولا صهر.
- الرقيق المملوك للمرأة .
- التابعون بشرطين: التردّد على البيت، وأن تكـــون رغبـــتهم الجنســـية معطلـــة، فهمـــا شـــرطان كثـــرة الاتصـــال بالبيـــت للمســـاعدة والخدمـــة، وفقـــدان الرغبـــة الجنســـية. كالمجبوب والشيخ الهرم، والخصي على قول.
- الطفل قبل سن المراهقة ، الـــذي لـــم تتطـــور فيـــه الغريـــزة الجنســـية لترغبـــه فـــي الاطلاع على عورات النساء .

والآية لم تذكر حكم العم والخـال، وحكمهمـا كبقيـة المحـارم للمـرأة، أنـه لا يحـرم عليها إظهار زينتها أمامهما. ولما كـان يحـرم مـن الرضـاع مـا يحـرم مـن النسـب، فالذكور الذين بينهم وبين المرأة صلة تحرمهـا علـيهم حكمهـم حكـم القرابـات بالصـهر والنسب.

ومما ينبغي التنبيه لـه: أن زوج الأخـت أجنبـي عنهـا، وكـذلك عـم الـزوج وخالـه. وبالجملة كل من يحل له الزواج بالمرأة لو انحلت رابطة الزوجية.

كما نهت الآية المرأة أن تقوم بما يحرك الشهوة الجنسـية عنـد الرجـال الأجانـب عنهـا. ونصت الآية على صورة من صـور الإثـارة، فقـد كانـت بعـض النسـاء فـي العهـد النبوي يضعن الخلاخل فـي أرجلهـن. وكانـت امـرأة مـرت وفـي سـاقيها خلخـال رصعته بجزع ، فضربت برجليها على الأرض ضربة فيهـا غـنج أثـارت مـن سـمعها فروي أنها نزلت الآية عند ذلك، إذ بـذلك يصـور الشـيطان تلـك الماشـية بمـا يشـاء الخيال أن يتصور. فكان هذا النص مفيدا أنـه يحـرم علـى المـرأة أن تقـوم بمـا يثيـر الغرائز وإن سترت زينتها. فالعفيفة لا تكـون إلا حييَّـة، تنشـط فـي الحيـاة تبعـا لمـا أوتيته من نباهة وذكاء، وتفرض احترامهـا بمزاياهـا الخُلُقيَّـة، وتحصـن نفسـها مـن أن تكون غرضا للعيون، أو أن تكون وسامتها رأس مالها.

وختمت الآية بالدعوة إلى التوبة عما يفـرط مـن الرجـل أو المـرأة فـي حـال الغفلـة، كاللمم والتصورات المسترسلة التي ينشـط الشـيطان ليواصـل الإنسـان حـديث الـنفس فيحرك الداعية لقوة الغريزة الجنسية فيه، هـذه الغريـزة التـي بهـا يتواصـل عمـران الكون بالإنجـاب. وهـي أيضـا أسـاس بنـاء الأسـرة السـعيدة إن أشـبعت بـالحلال وبالالتزام بأدب القرآن. مناديا المؤمنين بوصف الإيمـان ليـأملوا فلاحهـم وفـوزهم فـي الدنيا والآخرة بالاستقامة والتوبة.

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن

يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ وَمَثَلًا مِّنَ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأيامى : جمع أيم : المرأة غير المتزوجة بكرا أو ثيبا، وحقق بعضهم أنها تطلق على الذكر غير المتزوج أيضا.

واسع : واسع إحسانه، عظيم فضله.

وليستعفف: وليجتهد في العفة.

الكتاب : العقد الذي يتم بين العبد ومالكه، يتم بموجبه أن يلتزم العبد بدفع مقدار مالي في آجال محددة، ثم يخرج حرا إذا وفى بما التزم به.

البغاء: اتخاذ الزنى حرفة للتكسب.

المثل : النظير والمشابه.

الموعظة : التعريف بمواقع الزلل للانتهاء من اقتراف أمثالها.

بيان المعنى الإجمالي :

يدعو القرآن الأولياء لمساعدة غير المتزوجين على الزواج طلبا للعفة، وإذا كانوا صالحين فمساعدة الصاحين يربو ثوابها، وإن كانوا غير ذلك فمساعدتهم للخروج بهم مما يمكن أن تفضي له العزوبة متأكد. ولا يَكُنْ الفقر تعلة لعدم التزوج ،إن الأمل في فضل الله أن يوسع على الأسرة الفقيرة ويغنيها بعد عُدْمٍ. ذلك أن من صفته سبحانه أنه واسع الفضل، عليم بأحوال الناس .

ويرشد القرآن الذين تعذر عليهم تحصين أنفسهم بالزواج بالعزم الصادق على العفة، وأن لا يفقدوا الأمل في فضل الذي سيوسع عليهم، فإنه سبحا نه قادر على ذلك ، وهو لا يخيّب رجاء من رجاه.

ثم تعرض القرآن إلى وضع اجتماعي، حاصله أن المجتمع كان يتركب من أحرار وعبيد ، وقد جاء الإسلام برفع المستوى البشري، فكان مما شرعه : أن أمر مالك العبد أو الأمة، إن ظن أن مملوكه يرغب في الكتابة وكان صالحا لا يتخذ العقد ذريعة للتهرب من الخدمة بعض الوقت، بأن يعقد مع مملوكه عقدا يطلقه للعمل، ويقدم لمالكه أقساطا متفقا عليها في آجال محددة، فإذا وفى المملوك بما التزمه خرج حرا. ثم ندب المالكين وبقية المؤمنين أن لا يبخلوا على المكاتبين بالعون المالي حتى لا يعجزوا عن الوفاء.

وبجانب هذا التشريع السامي، كـان الجـاهليون يستسـيغون أن يكـره المالـك مملوكتـه على عرض جسدها وبيع الاستمتاع به من الزناة، ويفـوز هـو بالمقابـل المـادي .وهـو أمر مقرف استساغوه تغليبا للمال على القـيم والعفـة. وممـا يزيـده بشـاعة أن بعـض الفتيات كن مكرهـات علـى ذلـك يـرغبن فـي الصـون والعفـة. ووعـد الله الفتيـات المكرهات على البغاء، بـأن الله يغفـر لهـن مـا أكـرهن عليـه، لأن الله غفـور، وأنـه سيجعل لهن مخرجا فهو الرحيم.

وامتن الله على المؤمنين بمـا أنزلـه مـن تشـريع بواسـطة آيـات بلغـت مـن البيـان والوضوح والتأثير المبلغ الـذي تمـت بـه صـياغة المجتمـع الإسـلامي علـى الطهـر والسمو. وقرر تلكم القيم ونقشها في قلوب المـؤمنين بمـا عرضـه مـن الأوضـاع التـي كانت عليها الأمم السـابقة والمـآلات التـي انتهـت إليهـا، ليتخـذوا مـن ذلـك عبـرة وموعظة تحمي المتقين الذين يراقبون صلتهم بربهم، من الوقوع فيما وقعوا فيه.

بيان المعنى العام :

32- وأنكحوا الأيامى منكم ....والله واسع عليم .

يواصل القرآن تشريع ما يُمَكِّنُ للطهـر والعفـة فـي المجتمـع الإسـلامي، فـإن الشـبق للأيم غير المتزوج والأيمة غير المتزوجة، قد يكـون مـدخلا للشـيطان، فـأمر الأوليـاء أن ييسروا زواج من هم إلى نظـرهم مـن المسـلمين والمسـلمات. هـذا إذا كـان مـن تحت نظرهم صالحين على حظ من العفاف والتقـوى. وأمـا إن لـم يكونـوا علـى هـذا المستوى فإن السعي لتزويجهم آكد قطعا لدابر الزنا.

والذي فهمه الحذاق من المفسرين أنه يجـب فـي حـدود القـدرة، تـزويجهم إذا خشـي الولي وقوع منظوره فيما يضره في دينه، وإلا فهو مندوب إليه.

إن كثيرا ممن حرضت الآية على تزويجهم، قد يتعللون بـالفقر، سـواء أكـان ذلـك مـن الزوج أم من الخاطب الذي يُرَدُّ إذا لم يكـن غنيـا، ففتحـت الآيـة الآمـال فـي تحـول الفقير إلى وضع يكون فيه قادرا علـى إعالـة زوجـه. وهـو وعـد كـريم منـه تبـارك وتعالى بإغناء الفقراء المتزوجين طلبا لرضـاه واعتصـاما مـن عصـيانه. قـال عمـر بن الخطاب رضي الله: عجبي ممـن لا يطلـب الغنـى بالنكـاح، وقـد قـال تعـال: (**إن يكونوا فقراء يغنـهم الله مـن فضـله**) وحقـق هـذا الرجـاء بـأن الله واسـع النعمـة والفضل، **وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**. وهو العلـيم يُمَكِّـن مـن فضـله حسـب مـا يقتضيه علمه الذي لا يغيب عنه شيء.

33-وليستعفف الذين لا يجدون...غفور رحيم .

وسّع الإسلام أبواب الحرية، ومن ذلك ما أمرت به هــذه الآيــة مــالكي العبيــد والإمــاء أن يستجيبوا لطلب عبيدهم مكاتبتهم. والمكاتبة عقــد مكتــوب، يــتم بــين المالــك والعبــد، يلتزم فيه المملوك بدفع مقدار محدَّدٍ عند كــل أجــل مضــبوط (يســمى نجــوم الكتابــة) فإذا وَفَّى المملوك بما التزمه خرج حرا .

فإذا رغب المملوك في عقد الكتابــة مــن مالكــه، فالمالــك مــأمور بالاســتجابة لطلبــه، وعلقه بتيقن المالك أن في المملوك خيرا، أي إذا اطمــأن إلــى أنــه يبتغــي مــن الكتابــة الوفاء بما التزم به والتحــرر، لا أن يتخــذ العقــد وســيلة للتنصــل مــن واجــب العمــل للمالك ، بأن يأخذ تلك الفترة التي يــدعي أنــه يجمــع فيهــا مــال الكتابــة ليســقط حــق المالك فيما هو واجب عليه من الخدمة، ويقضيها في البطالة، دون أن يحقق حريته.

وطلب من المالكين أن يساعدوا عبيدهم بالتنقيص ممــا التزمــوا بــه ليتحــرروا. ويمكــن أن يكون الخطاب موجها للمؤمنين جميعا بمســاعدة المكــاتَبين حتــى مــن مــال الزكــاة. إذ أن من مصارفها "وفي الرقاب " وإضــافة المــال إلــى الله تصــريح بحقيقــة الأمــر ، فإن المال مال الله ، آتاه من فضله من شاء مــن عبيــده. وفــي التــذكير بــذلك تحــريض على المساعدة .

-كان العبيد يمثلون فصيلة من المجتمــع ،وشــمول الإســلام اقتضــى أن يحــدد وضــع المملوكين ويبين حقوقهم ، ويرشد إلى طريقة التعامل معهم .

جاء الشطر الأول من هذه الآية يحث المســلمين علــى مكاتبــة مــن يملكــون ليتحــرروا من الرق، وهو أحد الأبواب الكثيرة التي فتحها الإســلام للتحريــر، حتــى تكــون إنســانية الإنسان كاملة حسب ما قدره سبحانه من تكريمه.

شرعه قربة بدون سبب إلا الرغبة فــي الحريــة، وبأســباب كثيــرة منهــا الحنــث فــي اليمين وكفارة الفطر في رمضـــان، وفــي كفــارة الظهــار، وفــي كفــارة القتــل، وهــو مصرف من مصارف الزكاة.

وقد كان الجاهليون يضــطهدون الأرقــاء، ويعــاملونهم معاملــة الحيــوان، ومــن بعــدهم الأميركيــون فــيمن اختطفــوهم واعتبــروهم عبيــدا، وبــأرواحهم وبســواعدهم عمــروا أرض أميركا، واستولوا على خيراتها.

إنه في مقابل الوجه الإنســاني الرفيــع بــالأمر علــى المكاتبــة وعــون المكاتَــبِ ليفــوز بحريته، كان في المقابل وجه كالح استســاغه العــرف الجــاهلي. كــان أصــحاب الثــراء يشترون الإماء، ثم يجبر مملوكته على الزنى، ويتخــذ لهــذا الغــرض بيتــا يقــيم عليــه راية تعرِّف الراغبين في الجنس بمقابل ليقضــوا فيهــا شــهواتهم الآثمــة ، يعــرف باســم الماخور .والمال الحاصل يذهب به المالــك. وقــد ســجلت كتــب الســيرة مــثلا أســماء

ستة من الإماء اللاتي كان عبدالله بن أبي بن سلول يكرههن على البغاء. ولا يذهبن بكم الظن أن البشرية اليوم عوفيت من هذا، وأن الحرية شملت الناس أجمعين. ففي عالمنا ذي الوجهين ، تنشط عصابات منظمة وقوية جدا، تتنقل حتى بأسطولها الجوي، تجمع الغواني وتبيع أجسادهن للزناة بمبالغ مالية خيالية تتبع ثراء الزاني ووسامة البغي.

إذن نهى القرآن عن إكراه الإماء على البغاء بعرض أجسادهن للرجال بمقابل مالي ليغنم مالكها، من بيع الاستمتاع بجسدها، المال القذر، هي صورة يتقزز منها من له أدنى حد من الشرف. وليتم تقديم الصورة المنحطة أضاف القرآن قوله " **إن أردن تحصنا** " فهذا الإلحاق يرمي إلى زيادة تشويه الصورة، أن تكون المملوكة تبغض بيع الاستمتاع بجسدها بالمال وتتعلق بالعفة، ولكن الفظ الغليظ الجافي مالكُها يكرهها على الخطيئة. إن من يكرههن قد تسفل فأصبح لا يتعلق إلا بالمال متاع الحياة الدنيا الزائل، إنه قطع مشاعره بالقيم، فهو لا يتحرك إلا ابتغاء المادة الجانب الذي يشاركه فيه بقية الحيوانات. والمملوكة أسمى من مالكها .

والمملوكة المسكينة المغلوبة على أمرها التي لا تستطيع إنقاذ نفسها ،التي تكره الخطيئة ، قد من الله بأنه يغفر لها ذنبها، إذ هو سبحانه المتصف بالمغفرة الشاملة والرحمة الواسعة، وعسى أن يجعل لها من كربتها فرجا ومخرجا.

34- ولقد أنزلنا إليكم آيات ...وموعظة للمتقين.

ما عرضته الآية الأخيرة من انحدار المستوى الإنساني إلى إكراه المملوكة العفيفة على البغاء، ليحصل مالكها على المال القذر من الخنا، لم يكن أمرا مرفوضا من المجتمع الجاهلي، بدليل أن عددا غير قليل من كبرائهم كانوا يفعلونه ،ويضيفون إلى ثرواتهم مال البغاء ويكرهون فتياتهم عليه. فناسب أن يذكّر المؤمنين بالخير والنعمة والتفكير الصحيح ، والبناء الاجتماعي النظيف الذي أقامه الإسلام في عقولهم وضمائرهم، ويسّر لهم الاقتناع به بما أنزله من الآيات القرآنية البينة الواضحة التي لا لبس فيها ولا غبش ولا تأويل .وبما عرضه من أحوال الأمم السابقة ومآلاتها، ليتخذوا صور سلوكهم وما انتهوا إليه موعظة تحرك عقول المتقين وعواطفهم إلى السلوك المستقيم .

۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا

شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

النور : الإشراق والضياء. ومن هذا الاسم الجامد تم الاشتقاق، أنار، واستنار.

مشكاة : كوة في الجدار غير نافذة.

المصباح: الجهاز الذي يوقد فيه الزيت للإنارة .

كوكب دري: كوكب ساطع النور كأنه درة، وهو الزهرة.

مباركة : جامعة بين خيرات كثيرة.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآية تفسر إخراج المادة من العدم إلى الوجـود، وتشـكيلها علـى النحـو الـذي تـم تشكيلها عليه، من السماوات بمـا تحويـه عوالمهـا مـن أبعـاد ومـن خصـائص ومـن قوانين، غاية القوة العقلية التعرف على ما هو في طوقها معرفتـه مـن ذلـك. فمـا كانـت هذه العوالم لتخرج من العدم المطلق إلى الوجود الواضح إلا تبعـا لمـا عبـر عنـه بنـور الإيجاد الإلهي لها. وكذلك الأرض وما عليهـا، الأرض الـذي اسـتخلف فيهـا الإنسـان، هذا الإنسان الذي وإن وهب العقل الذي انبثق مـن نـور الإيجـاد الإلهـي أيضـا، إلا أن طاقاته تقعد به عن إدراك حقيقة علاقاته بخالقـه وبـالكون وعـن التقـدير الصـائب لمـا يترتب على سلوكه في الكون، وعن معرفة ما سـيؤول إليـه، إلا بفضـل مـا شـع مـن نور الهداية الإلهية على لسان رسله . فكل ما وجد مـن المـادة وترتيبهـا أو مـن العقـل وقدراته، أو من الهداية إلى السلام، تحقق بفضل النور الإلهي.

ولتقريب قوة هذا النـور وسـريانه ولطفـه ضـرب القـرآن لـه مثلًـا يوضـحه لعقـل الإنسان. إن مثل هذا النور كمثل كوة ظهرهـا غيـر نافـذ وضـع فيهـا مصـباح، فهـي بوضعها هذا يتجمع فيها ضوء المصـباح ولا ينتشـر انتشـارا يضـعفه، هـذا المصـباح داخل زجاجة بلغت من الصفاء والإشعاع صورة ما تدركـه العـين مـثلا مـن مشـاهدتها لكوكب الزهرة أكثر الكواكب التي تقر فيها العـين لمعانـا وصـفاء، ثـم إن هـذا المـادة التي يتوقد منها ضوء المصباح مادة عجيبة فريدة، هـو زيـت شـجرة الزيتـون، ليسـت زيتونة كبقية الزياتين، هي شـجرة فريـدة بعيـدة عـن الأطـراف الشـرقية والغربيـة، تحتل وسط المحيط الذي نبتت فيـه، يكـاد تبعـا لـذلك أن يبلـغ زيتهـا مـن الإشـراق والصفاء أن يصدر منه النور قبل أن تمسه النـار .هـي طبقـات مـن الأنـوار متداخلـة

مضاعفة الإشعاع، لا يتعطل نفاذهـا. ولكـن الهدايـة لهـذا النـور بيـد مصـدر النـور، يهدي به من يشاء، ويمنعه عمـن يشـاء فيبقـى فـي ديـاجير الظلمـة تائهـا. إن هـذه الأمثال يضربها الله للناس ليسمو بمداركهم إلـى المسـتوى الـذي يمكـنهم مـن وضـوح الأسرار. والله عليم العلم الكامل يضع الأمور في مواضعها.

بيان المعنى العام :

35- الله نور السماوات والأرض...والله بكل شيء عليم .

أقدم لهذه الآية بنقل نصين بلغ كاتباهما مـن الإحسـاس بهـا مبلغـا سـما إلـى درجـات عالية من التوفيق:

أولهما لسيد قطب رحمه الله، يقول:

وما يكاد النص العجيب يتجلى حتى يفـيض النـور الهـادئ الوضـيء. فيغمـر الكـون كله ، ويفيض على المشاعر والجوارح، وينسكب فـي الحنايـا والجـوانح، وحتـى يسـبح الكون كله في فيض النور الباهر، وحتـى تعانقـه وترشـفه العيـون والبصـائر ، وحتـى تنزاح الحجب، وتشـف القلـوب ، وتـرف الأرواح ، ويسـبح كـل شـيء فـي الفـيض الغامر، ويتطهر كل شيء في بحر النور، ويتجرد كـل شـيء مـن كثافتـه وثقلـه، فـإذا هو انطلاق ورفرفة، ولقاء ومعرفة، وامتزاج وألفـة، وفـرح وحبـور. وإذا الكـون كلـه بما فيه ومَنْ فيه نور طليقٌ من القيود والحـدود ، وتتصـل فيـه السـماوات بـالأرض، والأحيـاء بالجمـاد، والبعيـد بالقريـب، وتلتقـي فيـه الشـعاب والـدروب، والطوايـا والظواهر، والحواس والقلوب.[1]

فسيد قطب رحمه الله اندمج في ظلال الآية فنفذ إحساسـه بهـا علـى كيانـه كلـه فعبـر عن ذلك أجمل تعبير في لوحة فنية رائعة.

وثانيهما للإمام حجة الإسلام الغزالي في رسالته مشكاة الأنوار يقول :

النور هو الظاهر الذي به كل ظهـور، أي الـذي تتكشـف بـه الأشـياء وتتكشـف لـه، وتتكشف منه، وهو النور الحقيقي وليس فوقـه نـور، جعـل اسـمه تعـالى النـور دالا على التنزه من العدم، وعلى إخراج الأشياء كلها من ظلمـة العـدم إلـى ظهـور الوجـود فآل إلى ما يستلزمه اسم النـور مـن معـاني الإظهـار والتبيـين فـي الخلـق والإرشـاد والتشريع. فالإمام الغزالي رحمه الله تعمق في مفهـوم الآيـة فـي إطـار الأدلـة اليقينيـة فجلاها. وقد يكون ما فسر به الآية مبنيا على ما ذكره. فلنتابع الآية خطوة خطوة:

---

[1] في ظلال القرآن ج 18 ص104

الله نور السماوات والأرض- ما أؤكد عليه ليكـون حاضـرا فـي عقـل التـالي لكتـاب الله : أن الله منزه التنزيه الكامل عن كونـه مـادة أو عرضـا، أو أن يمثـل بمـا يخطـر في تصورات البشر، فكل ما علق ببالك فالله مخالف لذلك.

و بناء على هذه الحقيقة اليقينية فالإخبـار عـن الله بكونـه نـورا هـو إطـلاق مجـازي. يجري عليه الاستعمال العربي لتقريـب مـا يريـد المـتكلم أن يصـوره، كقـول الشـاعر مثلا يريد أن يجعل المخاطب يحس بما جمعته محبوبته من الوسامة بقوله :

بدت قمرا ومالت خوط بان *** وفاحت عنبرا ورنت غزالا

وتبعا لذلك نفهـم مـن قولـه: **الله نـور السـماوات والأرض** :أن الكـون كلـه سـماواته وأرضه أخرجه الله من العدم، وأظهره بخلقـه فأصـبح بـذلك قـابلا لأن يُـدْرَكَ وتظهـر عليه آثار الوجود. إن ما ظهر ومـا سـيظهر فـي العـوالم مـن دقيـق الأشـياء ومـن عظيمها، كل ذلك اكتسـب الظهـور الحقيقـي أو الكـامن، مـن اللحظـة التـي قـال الله للكون: كن، فظهر على النحو الذي قدره في سابق علمه.

وكذلك ما ركِّب في الإنسان من قوى العقـل والإدراك ليتفاعـل مـع ذلكـم الظهـور فـي السماوات والأرض فيتجلى له حسب القدرات التي أودعهـا فيـه، هـو خـروج بـه مـن عدم التعقل والإحساس والشعور إلى الفعل، الذي هو النـور الـذي تحولـت بـه الأشـياء عنده إلى ما هي عليه فتفاعل معها.

والله نور السـماوات والأرض ومـن فيهـا: باعتبـار أن الهدايـة التـي تجعـل الإنسـان يخرج من ظلام النفي، أو الشك والحيرة، فـي بدايتـه ومنتهـاه ،إلـى صـورة واضـحة مشرقة، تكتسب منها روحه الطمأنينة، هو أيضا مـن النـور الـذي نتقبلـه مـن هـدايات المرسلين الذين أرسلهم الله ومن العلماء.

والله نور السماوات والأرض بالنظر إلى إظهار مـا يترتـب علـى الأفعـال مـن صـلاح أو فساد ومن خير أوشر، أظهره بتشريعه وبإرشاده.

إن هذه المعاني دقيقة سامية فلذلك قربها للنـاس بالتمثيـل الآتـي الـذي نتبـع مـا ركـب منه جزءا جزءا، سائلين من فضله ورحمته أن يهدينا رشدنا في فهم كتابه.

سرى هذا النور في النواحي الأربعة المذكورة في لطـف بـالغ، ونفـاذ لا يمكـن أن يجـد معاكسة، فهو كالنور البارز من مصـباح فـي مشـكاة، وهـي الكـوة غيـر النافـذة فـي الجدار. وبهذا التحديد يكون مصدر النور مساعدا على قوة التوضيح.

ثم استحضر المصباح بإعادة ذكره ليبرز أنه مقـوم أسـاس فـي التمثيـل، فـأجرى عليـه الخصائص التالية. أنه موضوع في زجاجـة بمـا تلقيـه مـن ظـلال الشـفافية والصـفاء

لانطلاق النور بدون أي معوق. والزجاج يصفو إلـــى درجـــة أنـــه يكـــون مشـــعا بذاتـــه، وينعكس الضوء على جنباته فيزداد توهجــا، كـــالأنواع البالغـــة أعلـــى درجـــات الصـــفاء من البلور.

وكذلك استحضر الزجاجة لنفس الغـــرض، فأتبعهـــا بأنهـــا كالكوكـــب الـــدري، والكوكـــب هو النجم الساطع النور، وحمله كثير من المفسرين علـــى أنـــه كوكسب الزهـــرة المتميـــزة عن بقية الكواكب بسطوع نورها وصفاء لونها وبياضه.

يوقد من شجرة مباركة، يمد وقوده الذي يشتعل بـــه ليقـــوى لهبـــه زيـــت مســـتخرج مـــن شجرة، هي زيتونـــة. والزيـــت وإن كـــان يســـتخرج مـــن نباتـــات عـــدة، إلا أن أصـــفى الأنواع وأنسبها للإسراج زيت الزيتون. ونوّه بهذه الشـــجرة، بـــأن الله بـــارك فيهـــا فكـــل ما تركبت منه ينتفع به، وهو الأفضل فـــي نوعـــه، حتـــى إن حطـــب الزيتـــون إذا حـــول إلى فحم يفضل بقية أنواع الفحم. وأضاف مـــا ينـــوه بهـــذه الزيـــت المعتصـــر مـــن ثمـــر زيتونة، أنها وسط لا شـــرقية ولا غربيـــة. فهمهـــا بعضـــهم علـــى أنهـــا لا فـــي شـــرق الأرض ولا في غربها ولكنها بين الطـــرفين أي فـــي بـــلاد الشـــام. ولعـــل الأولـــى أنهـــا ليست في الطرف الشرقي من مجموعة الأشـــجار، ولا هـــي فـــي الطـــرف الغربـــي، بـــل هي في قلب ما يحف بها من أشـــجار. فكانـــت بـــذلك فـــي محـــل العنايـــة بهـــا أكثـــر، وبعدها عن الانتهاك والتعدي أتم. فلا تتناولهـــا الحيوانـــات بقضـــم لَـــدْنِ فروعهـــا. ومـــن المعروف عند الفلاحين أن شجرة الزيتون تتسمم أغصـــانها إثـــر قضـــمها مـــن الشـــياه ، مما يؤثر على الشجرة ، فتتأثر ثمارها، وكذلك الزيـــت المســـتخرج منهـــا تبعـــا لـــذلك .

ويواصل القرآن تحسيس التالي بصفاء هذا الزيـــت ، هـــو زيـــت آخـــر عجيـــب مشـــرق بذاته يكاد الضوء يشع من مادته، وينفجـــر منـــه النـــور قبـــل أن تمســـه النـــار. وتحـــرك الآية التالي حتى لا يضيع في ما تـــوارد علـــى المثـــل مـــن تـــدقيقات، فتصـــرح بـــأن النور قد توهج وانعكس شعاعه من جميع النـــواحي، فـــلا تســـتطيع أن تربطـــه بالمشـــكاة فقط، ولا بالمصباح، ولا بالزجاجة التـــي كأنهـــا كوكـــب دري ، ولا بالزيـــت البـــالغ مـــن الصفاء مبلغا فريدا حتى إنه يكاد يضيء بمادته. ولكنه نـــور علـــى نـــور تناصـــرت فـــي توهجه تلك الخواص المتجمعة. ويتركك القـــرآن منغمســـا فـــي إشـــراق عجيـــب يتجـــاوز الحس إلى ما وراءه من التصورات السامية التي ســـرى بهـــا النـــور فـــي المـــادة والعقـــل والروح والمدارك.

ثم ينتهي مصرحا بهذه الجمل الثلاث المحققة لما جـــاء فـــي العـــرض التمثيلـــي ، والـــذي يتبعه سؤال : إنه بما لهذا النور مـــن قـــوة وصـــفاء وإشـــعاع لا يمكـــن أن لا يحـــس بـــه وبآثاره العقل . وبما له من نفاذ إلـــى المعقـــول والمحســـوس، فمـــا لـــبعض النـــاس لـــم

يحسوا به، ولم يهتدوا بهديه، وتركوه وراءهم ظهريا ؟ فيكون الجواب في الجملة الأولى إن النور الفاعل هو ذاته الذي يقدر له رب العزة النفاذ فيهدي من يشاء الله هدايته ،أو يعطل البعض عن إدراكه فتنحبس مداركه ويحجب عقله فيمر مرور الأعمى الذي لا يكون عماه نافيا للإشراق والنور.

و الجملة الثانية: أنه إضافة إلى تحقق هذا النور وسريانه في الوجود كله، يتفضل الله على البشر بضرب المثل له حتى يرفع عن عقولهم الحجاب، فيهتدي من لم يطبع على قلبه.

و لا تبحثوا عن السر في اهتداء البعض، وانصراف البعض، فإن الله المتصرف في هذا الكون هو المتفرد بالعلم الكامل قد وضع الأشياء في مواضعها.

فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ
﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ
يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟
وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا
وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ
لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ
إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

أذن :أمَر وقضَى، فمكَّن.

الغدو : الوقت المعتاد لخروج الناس أول النهار من البيوت لقضاء شؤونهم.

الآصال : جمع أصيل وهو آخر النهار.

السراب: صورة يتوهم للبصر أنها ماء يتحرك فوق سطح الأراضي عند اشتداد الحر.

قيعة : أرض منبسطة .

وفاه حسابه : أعطاه جزاء كفره كاملا.

لجي : بحر عميق جدا.

بيان المعنى الإجمالي :

إن النور المشع الصافي الذي انبثــق عنــــه الكـــون فخـــرج مـــن العـــدم إلـــى الوجـــود، وفاض على أرواح وعقول من كتبت لهم الســـعادة، فاهتـــدوا بـــه، وحـــرم منــــه الأشــقياء فغرقوا في الظلمات، قد أبرز له القرآن نموذجين:

النموذج الأول: من شاء الله هدايتــه، فــانطبع عقلـــه وروحـــه بـــالنور. ودقـــق القـــرآن عارضا تفاصيل هذا النموذج :هم رجال ينزهـــون الله ويـــذكرون اســـمه، فـــي بيـــوت الله: المساجد التـــي أذن الله أن ترفـــع فرفعـــت أبنيتهـــا وطهـــرت مـــن الأدنـــاس، وطيبـــت رائحتها، لتكون خالصة لوجهه. يبرز فيها التنزيه لجلاله علـــى أتـــم صـــورة، هـــم رجـــال يواصلون تسبيح الله في الصباح والمســـاء، تعلقـــت قلـــوبهم بجلالــــه فهـــم فـــي تســـبيحة متواصلة، لا تقطعها تجارة ولا بيع ، يقيمـــون صـــلواتهم علـــى الوجـــه الـــذي شـــرعه ، ويؤتون زكاة أموالهم طائعة بها نفوسهم، ومـــع ذلـــك هـــم مستحضـــرون لليـــوم العظـــيم الذي تضطرب فيه القلوب والأبصار؛ خـــائفون أن يحـــرمهم الله فضـــله ورضـــاه. ينتهـــي الأمر بهذا النمـــوذج، إلـــى أن الله ســـيجزيهم عـــن أفضـــل الأعمـــال التـــي قـــاموا بهـــا ويتجاوز عن تقصيرهم، ثم يتفضل عليهم بمنـــازل هـــي مـــن فـــيض كرمـــه وجـــوده. إن الله يرزق من يشاء رزقا لا حد له ولا يدخل تحت الحســـاب ، بـــل هـــو فـــيض يتجـــاوز الوصف .

النموذج الثاني: الذين صمموا على الكفر ورفض الهدايـــة، هـــؤلاء جمعـــوا إلـــى ضـــلال الكفر إحباط أعمـــالهم، حتـــى مـــا كانـــت صـــورته صـــورة عمـــل صـــالح. ينســـف الله أعمالهم، فلا يبقى لها أثر ينتفعون به، فهـــي لا تعـــدو مســـتوى الخيـــال، هـــي أشـــبه مـــا يكون بالســـراب الـــذي يترجـــرج فـــي عـــين النـــاظر علـــى أرض منبســـطة شـــديدة الحرارة، يطمع بأن ما يراه ماء يطفئ عطشـــه، وبعـــد أن يحـــدد مكانـــه ويجـــري نحـــوه ليروي لهب ظمئه لا يجد ماء، بل يجد من يأخـــذه أخـــذا شـــديدا يشـــل حركاتـــه وينفـــذ فيه إرادته .وهكذا تنتهي أعمال الكفار بسبب كفرهم إلـــى هبـــاء لا قيمـــة لـــه ، ويجـــدون يوم القيامة أنفسهم في قبضة الله الـــذي يـــوفي كـــل واحـــد مـــنهم حســـابه العـــادل . والله يحاسب في سرعة يجتمع فيهـــا قيمـــة الأعمـــال الســـابقة والجـــزاء عليهـــا فـــي لحظـــة واحدة.

ومثل آخر ينطبق على مـــن حـــرم نـــور الهدايـــة يفصـــله القـــرآن: إن المعـــرض عـــن الإيمان المصمم على الكفر ،وضعه كوضع من أطبقت عليـــه الظلمـــات كأشـــد مـــا يكـــون الظلام، هو كالوالج في بحر عميـــق جـــدا تتحـــرك طبقاتـــه، كـــل طبقـــة فوقهـــا طبقـــة

أخرى بأمواج تعلو وتعلو، وتغطي السماء سحب كثيفــة تحجــب كــل نـــور تبعــث بــه الأجرام السماوية من شــمس أو قمــر أو نجــوم. ظلمــات تنوعــت فتجمعــت وتراكمــت حتى إن الوالج فيه لا يرى يده التي هي أقرب الأشياء إليه .

هكذا يكون الكفر حجابا صفيقا يتراكم على الــنفس فيحجــب عنهــا نــور الهدايــة. ومــن يحرمه الله النور بسبب تصميمه علــى الكفــر لا يمكــن أن ينفــذ أي شــعاع ينيــر عقلــه وروحه ، فهو مغرق في الظلمات ، تطبق عليه الحيرة والقلق.

بيان المعنى العام :

36←38: في بيوت أذن الله أن ترفع...من يشاء بغير حساب .

حقق القرآن في آية النور أن الله يهدي لنــوره مــن يشــاء، فتــابع الحــديث عــن هــؤلاء المهديين، فذكر منهم نموذجا: هم الــذين يســبحونه وينزهونــه فــي تســبيحة موصــولة في بيوت أذن الله أن ترفع .وأجرى عليهم من الأوصــاف، ومــا أعــد لهــم مــن حســن الجزاء ما يثير الرغبة في الالتحاق بهم.

فقوله تعالى في بيوت متعلق بقوله "**يســبح** "نعــم، إنــه وإن كــان التســبيح والتنزيــه لله ينقي الروح من شوائب المادة ويصفيها، إلا أنه إذا كان ذلــك فــي المســاجد فإنــه يكــون أقوى تأثيرا وأعظم أثرا فــي المشــاعر. روى أنــس بــن مالــك رضــي الله عنــه عــن رسول الله ﷺ أنه قــال :مــن أحــب الله عــز وجــل فليحبنــي ، ومــن أحبنــي فليحــب أصحابي، ومن أحب أصحابي فليحب القرآن، ومــن أحــب القــرآن فليحــب المســاجد ، فإنها أفنية الله [أبْنِيَتُه] أذن الله فر فعهــا، وبــارك فيهــا ميمونــة ،ميمــونٌ أهلُهــا محفــوظ أهلها، هم في صلاتهم والله عــز وجــل فــي حــوائجهم هــم فــي مســاجدهم والله مــن ورائهم.[1]

وبهذا تكون آية النور وآية المساجد هذه قد جرت كل واحــدة منهمــا علــى نســق واحــد في العناية بالتفاصيل.

هذه البيوت أذن الله فــي بنائهــا وتطهيرهــا، فهــي مرفوعــة بــإذن الله، حســا بالبنــاء، ومرفوعة معنى بتطهيرها من اللغو ومن كل مــا يســتقذر، مــأمور بتطْييبهــا للمصــلين، هي مواطن الذكر المصفِّي للروح. على داخلهــا أن يكــون علــى أحســن وضــع نظافــة ولباسا. **يا بني آدم خذوا زينــتكم عنــد كــل مســجد**[2]. وتتضــاعف قيمــة هــذه البيــوت

---

[1] الجامع لأحكام القرآن ج12ص266

[2] سورة الأعراف آية 31

(المساجد) باهتمام القائمين فيها، بما هم عليه من تجــرد للاتصـــال بــذلكم النــور الهــادي في الآية السابقة.

هم يسبحون الله في الغدو (الصباح) والآصال (آخــر النهــار) والــذي أفهمــه مــن الآيــة ليس تخصيص هذين الوقتين، ولكن ينساب التسبيح مــن قلــوبهم وأفــواههم فــي جميــع الأوقات، لأنه المناسب لما تم من التنويه بهم ، هــذا التنويــه الــذي ســما بــه أصــحاب النبي ﷺ فكانوا به هــداة البشــرية إلــى يــوم الــدين ؛ قــرنُهم خيــر القــرون . إنهــم ينغمسون في التسبيح انغماسا لا يلفتهم عن جلالــه وجمالــه شــؤون التجــارة ولا البيــع . وليس معنى هذا أنهم لزموا المســاجد وتركــوا النشــاط فــي تنميــة ثــرواتهم، لا ! إنهــم كانوا موفقين في تجارتهم يسر الله لعدد غير قليل مــنهم جمْــع ثــروات واســعة ســمحوا بأوفر نصيب منها في تأييد الدين وتجهيــز جيــوش المســلمين ، ومســاعدة المحتــاجين . رضي الله عنهم وأرضــاهم. إذا حضــر وقــتُ الصــلاة أقاموهــا علــى خيــر الوجــوه خاشعة قلوبهم. هم حريصون على أداء زكــاة أمــوالهم، تطهــرت نفوســهم مــن الشــح. وهم مع ذلك خائفون وجلون أن يقصــيهم ربهــم عــن مقامــات القبــول والرحمــة، فهــم يبذلون أقصى جهودهم ليكون ذكرهم وعبــادتهم خالصــة لوجهــه، مستحضــرين أهــوال يوم القيامة ،ذلك اليوم الذي تتقلب فيه القلــوب والأبصــار، تضــطرب كمــا يقــول ابــن عطية: القلوب والأبصار فيه مضطربة قلقة متقلبة مــن طمــع فــي النجــاة إلــى طمــع، ومن حذر هلاك إلى حذر، ومن نظر في هول إلى النظر في الآخر .

إن ذلك التسبيح المعمر للروح، وإقام الصلاة وإيتــاء الزكــاة، وذلــك الوجــل ووضــوح الاستحضــار لجلال الله، والخوف الإيجــابي الميســر للاســتقامة، كــل ذلــك كــان ســببا للجزاء المتميز المقدر على أحسن الأعمــال ، ثــم مضــاعفة الأجــر . وهــذا مــا أكــده القرآن في غير ما آية، قال تعالى: **من جــاء بالحســنة فلــه عشــر أمثالهــا**[1]. ولا تســأل عن رزق الله وعن عظيم فضله، فإن كرمــه يتجــاوز كــل تقــدير وكــل تحديــد. وهــذا وإن كان مقصــودا بــه قصــدا أوليــا أصــحاب رســول الله ﷺ ، فإنــه يتنــاول جميــع المؤمنين الذين ساروا على هــديهم واتبعــوا ســبيلهم ، نســأله ســبحانه أن يجعلنــا مــنهم ومعهم يوم القيامة ،بفضله وكرمه .

38- والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة ...والله سريع الحساب.

عرضت هذه الآية النموذج الآخر، وهم الذين حُرمــوا الهدايــة التــي يصــرفها الله عمــن يشاء، تبعا لعلمه وعدله .وتابعت تفاصيل هذا النموذج علــى النســق الــذي جــرى عليــه

[1] سورة الأنعام آية 160

القرآن في هـذا المقطـع، المفتـتح بقولـه تعـالى : **الله نـور السـموات والأرض.(35) إلى نهاية (39).**

ومن إعجاز القرآن أنـه لـم يلتـزم مقابلـة التعبيـر فـي النمـوذج الأول بـالتعبير فـي النموذج الثاني، ففي النموذج الأول افتـتح بـربط مـن هـداهم الله بالمسـاجد الـذين هـم مقيمون فيها فعلا أو تعلقا. وفي النموذج الثاني افتتحـه بالـذين كفـروا ليرتـب عليـه مـا استحقوا به الحرمان مـن الهدايـة. علـى أن الـذي حـرمهم مـن الهدايـة لنـوره هـو تصميمهم على الكفر " الذين كفروا " فانتظم الكـلام علـى خلـو أرواحهـم مـن الإيمـان، والذي سيصحب الصورة إلى نهايتها. فانتظم من التصوير القرآني:

أ- جماعة أبرز صفاتهم التي طبعت مداركهم، وبهـا يعرفـون هـي كفـرهم. فبـدت أرواحهم محجوبة عن الاتصال بالنور، إذ اختاروا أن لا يكون لها منفذ إليه.

ب- الكشف عن القيمة لأعمالهم التي أثر فيهـا الكفـر، فـإذا هـي، وإن كانـت فـي بعض الأحوال تتسم في ظاهرها بالخير والقبول، إلا أن الكفـر حطّمهـا ومحـق كـل مـا فيها من خير، وما يتبعه من صالح الجزاء.

ج – جسمت الآية تلكم الصورة بأنه أشبه ما يكـون بالسـراب الـذي يبـدو للسـائر فـي الصحراء وقد لفحته رياح السموم فجف ريقه واشـتد ظمـؤه، فيخدعـه بصـره بالسـراب في أرض منبسطة ،يتموج في منتهى نظره كأنه بركة مـن مـاء، فيجـري نحـوه لاهثـا وقد حدد موقعه، حتى إذا بلغه لم يجد ماء، فواجه الحقيقـة أنـه مخـدوع وأنـه لا وجـود لما يطلبـه مـن ري. وهـذا شـأن الكـافرين قـد يقومـون بأعمـال ظاهرهـا صـالح، فيواسـون المحـاويج ،ويطـوف المشـركون بالبيـت ويحجـون، ويكفلـون الأيتـام، ويجيرون بعض المستضعفين، ويطعمون الطعام ويتولـون سـقاية الحـاج، ونحـو ذلـك. ولكن أعمالهم تتبخر ولا أثر لها لصدورها عـن عقيـدة فاسـدة، فهـم كمـا قـال تعـالى: **وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا** [1].

د- أن مصيبته تضاعفت بأمرين: الخيبـة ،و تيقنـه أن مـا كـان يصـوره لنفسـه فـي الدنيا من أنه قادر على الانفلات من قبضة الله ، طـار ذلـك التصـور وواجـه الحقيقـة : أنه مأخوذ بكفره مجزي عنه بحساب عـادل لا ظلـم فيـه ، يُخـرس لسـانه . فصـورته صورة البالغ لموقع السراب يجد عنده من يتسـلط عليـه فيشـل حركاتـه ولا يجـد ملجـأ منه.

[1] سورة الفرقان آية 23

هـ – وتختم الصورة بإعلان حقيقة يقصر الخيال البشــري عــن تصــور كيفيتهــا: هــي أن الله يحاسب حسابا سريعا تظهــر مبانيــه ونتائجــه فــي لحظــة واحــدة . والله ســريع الحساب.

40- أو كظلمات في بحر لجي ...فما له من نور.

عرض لتمثيل آخر يقرب حال الكافر الــذي ابتلعــه كفــره فحجبــه عــن أي شــعاع مــن نور الهداية. فيصوره مجسما المشهد الذي طغــت عليــه الظلمــة، فتعــددت وتراكمــت ، فهي ليست ظلمة واحدة ولكنها أنواع تكاثفت، هي ظلمــة فــي قــاع المحــيط الــذي يمنــع أي شعاع أن ينفذ إليه لا من الشمس ولا من الكواكب، هــو البحــر اللجــي العميــق جــدا، وطبقات من الحركة يعلو كل موج مــوج آخــر. وتعظــم الظلمــة بســحاب قــاتم فــوق السطح .فأنت إذا أردت تفصيلها تجدها ظلمــات متكاثفــة ركــب بعضــها فــوق بعــض . من آثار تلك الظلمات أن أقرب الأشياء للوالج فيــه ، يــده التــي يحركهــا ويتنــاول بهــا الأشياء، يده تلك إذا حركها تحجبها الظلمة فلا يراهــا. فتفيــد الآيــة أن الرؤيــة منتفيــة، وقدر بعض المفسرين أن الرؤية لم تتحقــق إلا بعســر. والتقــدير الأول أرشــق وأنســب للمعنى العام.

إنه إذا منع الله ألطافه للإنسان فلم يجعل بينه وبين النــور الــذي تــتم بــه الهدايــة ســببا، فإنه يستحيل أن يكون له نور يضيء له طريق الاهتداء.

وبهذا تكون الآية تمثيلا لحالة الكافر، بأنــه بتصــميمه علــى رفــض مــا جــاء عــن الله على لسان رسوله ﷺ قد حجــب نفســه عــن قبــول الهدايــة الإلهيــة ، وأطبقــت عليــه ظلمات الكفر، ومثله كمثل الوالج في أعماق المحيط البعيــد قاعــه، تتحــرك أمواجــه فــي العمق، فوق كل موج موج، وفــوق الســطح ســحاب قــاتم يزيــد الظلمــة شــدة ، لا شعاع من نور يصل إليه حتى إنه لا يرى يده إذا حركها.

إن من حرمه الله نور الهداية الفاتحة لإدراك الحقيقــة، لا تجــد لــه مســلكا آخــر يصــل بينه وبين الحق فهو يتخبط في الظلمات.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا

فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ

بيان معاني الألفاظ :

صافات :ناشرات لأجنحتهن.

يزجي سحابا: يسوق السحاب.

يؤلف بينه : يضم بعضه إلى بعض.

ركاما: تكاثف السحب بعضها فوق بعض.

الودق : المطر.

الخلال : الفتوق.

جبال : سحب مثل الجبال.

لسنا: الضوء.

التقليب :تغيير هيئة إلى ضدها .

بيان المعنى الإجمالي :

استيقظوا وانتبهوا إلى هذه الحقيقة: إن كل كائن في السماوات والأرض، يسبح وينزه الله بلسان حاله أو مقاله. وهو خاضع للسنن التي خلق كل كائن عليها، فالطير تعلو في الجو باسطة أجنحتها ولا تسقط رغم أنها أجسام لها ثقل. إن الله الذي ألهم كل الكائنات تسبيحه وتمجيده لا يخفى عليه تسبيح الكائنات لجلاله، وصلوات العقلاء ودعائهم .والله عليم بكل ما يفعلونه .

ذلك أن الله هو المتفرد بملك السماوات والأرض، لا يملك أحد غيره شيئا منها، وكما صدرت عنه بخلقها من عدم، فستعود إليه ليَجْري فيها قضاءه العادل.

تنبّهوا إلى ما تتكرر مشاهده على أبصاركم: كيف يسير الله قطع السحاب المتناثرة، ليجمع بينها، ثم تتكاثف فترى الماء ينزل من الفجوات التي ركب عليها. وقد يعظم تكاثف السحب حتى تكون كالجبال فينزل منها البرد الذي يسلطه على أماكن خاصة ويبعده عن أخرى تبعا لحكمته في التصرف. وقد يجري في السحب شحنات تبدو على شكل البرق شديدة السرعة قوية الضياء تبلغ من القوة أنه يكاد يذهب ببصر الناظرين إليه. وظاهرة أخرى أن الله يحول الجو من ظلمة إلى ضياء، ومن ضياء إلى ظلمة: النهار والليل يتعاقبان على الكون ويمتد النهار تارة ويقصر الليل ويحدث العكس. إن في كل ما عرضه القرآن في الآيات السابقة صالح لأن

يكون مجالا للتدبر والاعتبار يزداد بــه الــذين آمنــوا إيمانــا. ويحــرم الكــافرين الــذين أغمضوا أبصارهم عن الآيات المتكررة.

بيان المعنى العام :

41- ألم تر أن الله يسبح له...والله عليم بما يفعلون.

افتتحت الآية بصيغة تثير الذهن وتوقظه "**ألم تر**" خوطب بهــا كــل مــن لــه عقــل لينتبــه إلى هذه الحقيقة السائرة في الكــون كلــه، هــي أن الله يســبح لــه مــن فــي الســماوات والأرض. وهو تسبيح متحد فــي غايتــه ، إذ كــل الكائنــات تمجــد المــولى ســبحانه ، فتسير مادامت موجودة على السنن التي أراد أن تسير عليهــا، فــلا الجمــاد يجــري علــى سنن الحيوان، ولا أي نوع من الحيوانــات يخــرج عــن خصائصــه التــي تميــزه. لقــد شاهدنا في عصرنا هذا أن محاولة الذين عملــوا علــى تحويــل غــذاء البقــر ممــا تنبتــه الأرض من عشب وحبوب فأضافوا إليه أجــزاء حيوانيــة فــي تركيبــة الغــذاء، انتهــت تجربتهم إلى فساد في التكوين، وأصيبت الأبقــار بمــرض جنــون البقــر الــذي يقضــي على الأنعام ويهدد صحة الإنسان .

إني أفهم من تسبيح الكون كله لله.

أولا :هو خضوعه للنواميس التي نظم سبحانه عليها الخلــق، فهــي تجــري إلــى غاياتهــا على النظام المحكم الذي أبدعها عليه خالقها، يشعر المــؤمن وهــو يســير فــي الكــون أن كل من حوله مرتبط بالله، ومرتبط ببقية أجــزاء الكــون، وهــذا الارتبــاط هــو تســبيحة وتنزيه لله بلسان الحال ينادي بتنزيه الله عن العبث، وعن الغفلة ،وعن النقص .

ثانيا: أن التعبير عن ذلكــم الإحســاس هــو مختلــف حســب طبيعــة الكائنــات، يــرى الجمهور أنه تسبيح حقيقي، ويرى الحســن البصــري أن تســبيحه هــو ظهــور الحكمــة فيه، تلكم الحكمة الداعية للعاقلين إلى تسبيح الله وتمجيده.

ثم يلفت القــرآن الأنظــار فــي ســرعة إلــى ظــاهرة تتكــرر علــى أبصــارهم دون أن يستيقظوا لعميق دلالتها، هي الطيور التي تعلو في الجــو باســطة أجنحتهــا ،كيــف تثبــت في الجو ، وتتحرر من جاذبية الأرض، ففي سنة الجاذبيــة المــؤثرة فــي كــل جســم لــه ثقل ، وتحرر الطيور من تلكم الجاذبية ما يفــتح البصــيرة إلــى الخلــق المحكــم والســنن التي عليها جرى الخلق .

"**كل قد علم صلاته وتسبيحه**" يصح فهم الآيــة أن الله علــم مــا يتقــرب إليــه كــل نــوع بلسان حاله، أو فعله ومقاله، فهو يعلــم تســبيح الكائنــات غيــر الناطقــة، ويعلــم تســبيح

الإنسان بدعائه وصلاته. كما يصــح فهــم الآيــة علــى أن الله طبــع كــل كــائن علــى معرفة الطريقة التي يسبح بها الله أو يدعوه.

وعلم الله شامل لا يغيب عنه شيء، فهو العليم بالتســبيح والــدعاء والصــلاة، وبكــل مــا يقوم به الكائن من عمل.

42- ولله ملك السماوات والأرض وإلى الله المصير.

تأتي النتيجة مصرّحا بها خاتمة لما تقدمها مؤكــدة لــه: لله وحــده، هــو المتفــرد ســبحانه بملك السماوات والأرض، هو الذي خلقها وهو الذي يتصــرف فيهــا بمــا يجــري عليهــا من تطورات وتحولات. وكما صدرت عنه فهي تنتهي فــي وجودهــا إليــه ليحقــق فيهــا ما اقتضته حكمته في الخلق والإفناء والبعث. وفي ذلك إيماء بالوعد والوعيد.

43- ألم تر أن الله يزجي سحابا... يذهب بالأبصار.

تلفت هذه الآية الأبصار للتأمل في الظاهرة التالية التي تتكرر في الكون ويراها الناس، ولكن تجاوز الحادثة إلى ما وراءها من حكمة قد يغفلون عنه. هذه الظاهرة: إن الله خلق السحاب قطعا متناثرة، يسوق بعضها إلى بعض وييسر انضمام تلك القطع متآلفة حتى تصير سحابا كثيفا، وبتقديره المحكم تتضاعف كثافة السحب ويتراكم بعضها فوق بعض، ثم يخلق في الجو ما يساعد تحول السحب إلى ماء ينزل من خلال السحب على الأرض ما يروي الأرض والإنسان والحيوان. وقد تتكاثف السحب تكاثفا أبلغ وأقوى حتى تكون كالجبال في كثرتها وعظمها فيُنزِل منها بردا، قد يكون متجمدا يحدث فيما ينزل عليه من النبات والثمار أضرارا، عبر عن ذلك " يصيب" يصرف أماكن نزوله حسب تقديره ، فلا يعم الأرض ولكن يخص بضرره من قدر ذلك له . وقد يكون على شكل قطع من القطن له منافع خاصة. وقد تتخلل السحب الكثيفة ومضات برق شــديد ضــوؤه يكــاد يســتولي علــى الأبصــار لسرعته وقوة ضيائه، فيذهب بها.

وفي الآيتــين تحقيــق لقولــه تعــالى: **ولله ملــك الســماوات والأرض**. فجمْــع الســحب وإنزال المطر منها علــى تقــدير عجيــب، وإنــزال البــرد علــى أمــاكن دون أخــرى، وسرعة البرق وقوة ضيائه مظــاهر تنــادي بــأن الله وحــده هــو المالــك للكــون، وأنــه يسبح له.

44- يقلب الله الليل والنهار...لأولي الأبصار.

إن التحول الذي يحدث كل يوم فيخرج الكون من النهــار إلــى الليــل ، والتحــولات فــي الليل والنهار بين الطــول والقصــر، قــد لا يتأمــل الإنســان فــي هــذه الظــاهرة مــن التحولات تبعا لتكررها ورتابتها. وهي مع ما تقدم فــي الآيــات الســابقة، مجــال للعبــرة

والتدبر، مما يصل بالمتأمل إلى اليقين الأيقن أن الكون يجري على ما أراده الله له يوم خلقه . ولكن الكفر يغشي على البصائر فلا تنتفع حتى بالمشاهدات . وبهذا يتحقق أن الإيمان نور، وأن الكفر ظلمة.

يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةٗ لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٤٥﴾ لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

دابة : كل ما دب على وجه الأرض.

الآيات البينات : تشمل آيات القرآن وآيات الله في كتاب الكون .

بيان المعنى الإجمالي :

سنة الله في الخلق مطردة لا استثناء فيها، إن كل نوع من أنواع الحيوانات التي تتحرك فوق الأرض، مخلوق من نوع من الماء الذي يحمل خصائص النوع. ثم إن التقدير المحكم الإلهي قد رتب أن الحركة الحيوانية متنوعة وأن كل حيوان تكون حركته مساعدة له على البقاء. فمن الحيوانات من يمشي على بطنه، ومنها من يمشي على رجلين كالإنسان والطيور، ومنهاما يمشي على أربع كما هو الحال في معظم الحيوانات البرية. نفذت فيها القدرة الإلهية الحكيمة ،ولا يخرج عن قدرة الله شيء .

إن الله أنزل آيات واضحة من القرآن، ومما بثه في كتاب الكون ولفت إليه الأنظار، لتتبين ما أشكل، وبدلالاتها يهتدي من يشاء الله هدايته ليسلك الطريق المستقيم الموصل للسعادة.

بيان المعنى العام :

45- والله خلق كل دابة من ماء...إن الله على كل قدير.

تتابع الآيات موقظة لحس الإنسان وعقله، باعثة في روحه صلته بالمبدع الخلاق العليم، فيحولنا القرآن من مشهد السحب المسيرة في السماء، المحملة بالماء، إلى أمر آخر أجرى عليه ناموس الخلق. هو أمر بعيد عن المستوى المعرفي للناس وقت نزول القرآن، فيقرر أن كل الحيوانات التي تدب وتتحرك في البر أو في البحر أوجدها الله من ماء، تنوع ذلكم الماء إلى أنواع لا يعلم عددها إلا خالقها ،

ولكن ناموس التكوين يجري عليها جميعا، فمـن كـل نـوع مـن أنـواع المـاء الخـاص انبثقت الحياة النوعية. وكل نوع مـن أنـواع الحيوانـات تظهـر فيـه الحيـاة بالحركـة، فلذلك رصد القرآن تنقلها، فبعضها يمشي علـى بطنـه كـالزواحف والحيتـان، وبعضـها يمشي على رجلين كالإنسان والطيور، ومنها من يمشي علـى أربـع وهـو الغالـب علـى الحيوانات البرية. و لفتُ النظر إلـى هـذه النمـاذج لا يـدل علـى قصـرها علـى هـذه الثلاثة، بل ذلك أغلب خلق الحيوانات.

يخضع الخلق لمشيئته سبحانه، فهو الـذي قـدر أن يكـون النـازل مـن السـماء يـروي النبات والإنسان والحيوان، وهو الـذي قـدر أن يكـون كـل حيـوان مخلوقـا مـن مـاء خاص بنوعه. وهو الذي قدر أن يتطور الخلق الأول مـن مـاء إلـى صـور مـن الحيـاة الحيوانية أعطى لكل نوع مـا يتميـز بـه. إن ذلـك يشـهد بـأن قدرتـه سـبحانه قـدرة تتصرف في الكون كله كبيره وصغيره.

46- لقد أنزلنا آيات...إلى صراط مستقيم.

مما لا شك فيه أنا أنزلنا إليكم أدلة نيرة سـاطعة، واضـحة بينـة، مـن القـرآن الحكـيم، ومن مشاهد الكون الناطقة بتفـرد الله بـالخلق والتصـرف. تلكـم الآيـات التـي لا يـتم تأثيرها في العقول والأرواح إلا بالهداية التي يختص بهـا سـبحانه مـن يشـاء، فـيُمكِّن من أراد له السعادة من إدراك دلالاتها ، وينفعـل بهـا .وذلـك هـو الصـراط المسـتقيم . وتنعطف خاتمة الآية على الآية 35" يهدي لنوره من يشاء" .

وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

مذعنين : منقادين طائعين .

القلوب: العقول .

مرض: فساد الكفر.

ارتابوا: شكوا في حقيقة الإسلام.

يحيف يظلم ويجور.

الطاعة : امتثال الأوامر واجتناب النواهي .

الخشية : الخوف من أن يكون قد قصر فيما عليه أن يقوم به.

التقوى : يقظة في النفس تجعل صاحبها حذرا من مخالفة التكاليف.

بيان المعنى الإجمالي :

تحقق أن الهداية بيد الله، فالمهتدون أشرقت قلوبهم بنور الإيمان يعبدون الله خائفين من رفض أعمالهم، سيجزيهم أحسن الجزاء. والكافرون تذهب أعمالهم هباء لا يجدون يوم القيامة، مما قدموا في حياتهم الدنيا شيئا ينفعهم. والمنافقون الذين يصرحون بأنهم مؤمنون يطيعون الله ورسوله، وهم كاذبون. ثم تجدهم بعد ذلك قد عادوا لما كانوا عليه من الكفر، فليس بينهم وبين الإيمان أي رابطة. ومن سماتهم أنهم إذا حدثت خصومة بينهم وبين غيرهم وعرض عليهم أن يفُضُّوها بتحكيم قائد الجماعة رسول الله ﷺ قابلوا هذه الدعوة بالرفض، إذا كانوا ظالمين، مظهرين أنهم لا يثقون في حكمه. ولكنهم إذا كانوا يعلمون أنهم محقون أجابوا وتحاكموا إلى رسول الله ﷺ. فمقياسهم هو مصلحتهم . ما الذي جعل سلوكهم على هذا النحو الغريب ؟ الافتراضات ثلاثة: أولا –أن عقولهم وأرواحهم قد تمكن منها مرض الكفر ولم يتحولوا عنه.

ثانيا – أن ما ظهر من إيمانهم هو إيمان متقلقل لا ثبات له، فبمجرد أن خافوا على حظوظهم الدنيوية شكوا في الدين كله.

ثالثا– أن يكونوا قد توهموا أن الله في حكمه الذي أنزله، ورسوله ﷺ المبلغ له، يمكن أن يجور عليهم ويظلمهم.

كل هذه الفروض الثلاثة بعيدة عن الحقيقة، فبكل تأكيد قد تمكن الظلم من نفوسهم، حتى أصبحوا يعتقدون أن غيرهم على شاكلتهم من التعلق بالظلم.

يقابل هذه الصورة المنحرفة المترددة الرافضة، صورة أخرى هي من توابع أنوار الإيمان الذي استقر في العقول والأرواح ، ثقتهم تامة فيما أنزله الله من أحكام، وما يطبقه رسوله في الحياة ، فإذا ما دعوا إلى حكم الله على لسان رسوله يبادرون طائعين مصرحين بقبولهم للدعوة بما يساوي: سمعنا وأطعنا . وبناء على ذلك فقد تحقق لهم الفلاح في الدنيا والآخرة.

وقاعدة عامة : أن كل من يطيــع الله ورســوله، وتلازمــه الخشــية مــن الله فــي عقلــه وروحه ،ويُكوِّن لنفسه وقاية من رفض الله لــه بتطبيــق أوامــره واجتنــاب نواهيــه، إن هؤلاء هم الذين ضمنوا لأنفسهم الفوز في الدنيا والآخرة .

بيان المعنى العام :

47-ويقولون آمنا بالله وبالرسول...وما أولئك بالمؤمنين .

أثبتت الآية 35 " **يهدي الله لنوره من يشـاء** " أن نـور الهدايـة لا يجبـر النـاس علـى الإيمان، لكنه يهديهم، فتحدثت عن المهتــدين، ثــم تحــدثت عــن المعرضــين الرافضــين، وتعرضت هذه الآية إلى المنافقين فكشفت مــواقفهم التــي منهــا التنــاقض بــين أقــوالهم وما يظهرونه ، وبين ما يعتقدونه ويخفونه.

إنهم يعلنون، لخداع الجماعــة الإســلامية، قــائلين: آمنــا بــالله وبرســوله، ونعبــر عــن طاعتنا وقبولنا لما جاء به، وإذا مــا تحولــوا عــن المجــالس التــي جمعــتهم بــالمؤمنين ينقلبون إلى ضد ما كانوا صرحوا به. وهم على فريقين :

فريق آمنوا إيمانا ضعيفا لم ينفذ إلى عقولهم ولم يمــلأ مشــاعرهم ببــرد اليقــين، فارتــدوا مختفين بذلك بعد وقت .

وفريق مخادع من الأول، صرحوا بإيمانهم، وهــم يبطنــون الكفــر، ولــم يخــالط نــور الهداية عقولهم ولا أرواحهم.

كلا الفريقين ساقط عن مرتبة الإيمان، بعيد عــن النــور الهــادي، هــم غيــر مــؤمنين. إذ الإيمان لا يتبع ما تنطق به الأفواه فقط، ولكن مع ذلك ما استقر في العقل والروح.

48-وإذا دعوا إلى الله ورسوله...إذا فريق منهم معرضون.

يكشف حقيقتَهم موقفُهم إذا حلت بهم نازلــة تــدعو إلــى فصــلها بحكــم الإســلام، الــذي أنزله الله، ويعرف بــه ملزمــا رســولُه ﷺ . فهــم إذا طلــب مــنهم أن يرفعــوا القضــية المختلف فيها إلى رسول الله ﷺ، ليحكم فيها بحكــم الله الــذي ضــبط الأحكــام ، وجعلهــا تنطبق على جميــع النــاس لا يتــأثر الحكــم بحــال المحكــوم عليــه زمانــا ومكانــا ولا بمستواه الاجتماعي ، تجد فريقا مــنهم، وهــم المبطلــون الــذين يوقنــون بــأن الحكــم لا يكون لفائدتهم ، تجدهم يبادرون بالإعراض عن التحــاكم إلــى الرســول صــلى الله عليــه وسلم ، لعلمهم مقدما أن الرسول ﷺ لا يحكم إلا بالحق ولا يحابي أحدا .

49- وإن يكن لهم الحق ....مذعنين.

وفي المقابل تجدهم إذا ظنوا أن الحكــم ســيكون لفائــدتهم لأنهــم محقــون، أقبلــوا علــى رسول الله مظهرين قبولهم وإذعانهم لما يحكم به.

50- أفي قلوبهم مرض أم ارتابوا...هم الظالمون .

إن الصورة التي عرضتهم الآية عليها تستدعي كشف الأسباب الخفية التي جعلتهم على هذا النحو من التناقض. فعقب العرض بثلاثة فروض كلها تبين سوء طويتهم وفساد عقيدتهم، وبعدهم عن الإنصاف. إذ من غير المنطقي أن يكون قبولهم للحكم مرتبطا بمصالحهم وأهوائهم.

الفرض الأول: هل تمكن الكفر من عقولهم ولم يبرحها، هل إن عقولهم قد استحكم منها الكفر والعناد، ولم يدخل فيها من نور الإيمان أي شعاع هاد؟ فالمرض هو مرض الكفر وفساد العقيدة. فالفرض الأول أن المتحدث عنهم لم يحصل منهم الإيمان.

الفرض الثاني:" أم ارتابوا" أنهم آمنوا إيمانا متقلقلا غير ثابت، يهتز كلما خافوا على مصالحهم الدنيوية ،فيحل الشك محل الإيمان ، هم حريصون على ما يحفظ لهم حظوظهم الدنيوية ، وإذا لاح لهم أن باطلهم لا يروج على رسول الله ﷺ، شكوا في الإسلام ،ورفضوا تبعا لذلك ما عاهدوا عليه من الاحتكام لله ولرسوله .

الفرض الثالث: هل إنهم غير موقنين بعدالة الرسول ﷺ وعدالة الأحكام التي يحكم بها باعتبار أنها منزلة من عند الله ؟ على معنى أنهم يطعنون في كون الرسول مبعوثا من عند الله، وأن الأحكام الإسلامية هي ما أمر الله بتنفيذه في الكون. وإذا انتفى أن تكون المرجعية لأحكام الإسلام الوحي المنزل ، فهم يدعون أنهم يخافون أن تكون تلكم الأحكام فيها الظلم وعدم العدل والانصاف.

الحقيقة التي يجب الإعلان عنها: أن هؤلاء المنافقين قد تمكن الظلم من نفوسهم، فهم يقدرون، أن غيرهم على شاكلتهم في الظلم والفساد، فهم يقيسون الناس على ما يختلج في نفوسهم. والظلم مقصور عليهم .

51- إنما كان قول المؤمنين...وأولئك هم المفلحون.

في مقابلة موقف المنافقين المرضى عقولهم وأرواحهم بالنفاق، ينوه القرآن بموقف المؤمنين إذا عرض عليهم التحاكم لرسول الله ﷺ . إن ما يصدر عنهم بصفة تلقائية هو قولهم: سمعنا هذه الدعوة وأطعنا الله ورسوله فنحن مقبلون مطمئنين راضين بما يحكم فينا. وليس المقصود أنه لا يصدر عنهم إلا هذه الصيغة، لكن الذي يصدر عنهم هو ما يفهم منه عدم الإعراض، وقبول الحكم والرضا به مقدما تبعا لرسوخ الإيمان في قلوبهم.

ويقرر القرآن عاقبتهم: إنهم هم الذين اختصوا بالفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة.

52-ومن يطع الله ورسوله...فأولئك هم الفائزون.

كانت صياغة هذه الآية على شكل قاعدة تنطبــق علـــى الحيـــاة انطباقـــا عامـــا. إن مـــن يبادر بطاعة الله ورسوله قولا وعملا، ينشرح صدره وعقلــه لكــل مـــا يأتيــه عـــن الله ، ويجد الرضا في كل ما يسمعه ويراه من رســوله. ومـــن تعمـــق الإيمـــان فـــي مشـــاعره فهو دائم الخشية والخوف مـــن الله الخشـــية التـــي تدفعـــه دفعـــا لمزيـــد التقـــرب إليـــه ، فيحصن نفسه بلباس التقوى . إن كل الـــذين جمعـــوا هـــذه المزايـــا هـــم وحـــدهم الـــذين حققوا لأنفسهم الفوز في الآخرة بـــدخول الجنـــة كمـــا جـــاء فـــي قولـــه تعـــالى : **(فمـــن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)**[1] وكذلك في الدنيا بمـــا يســـتقر فـــي عقـــولهم مـــن رضا وطمأنينة.

۞ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَـٰنِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا۟ ۖ طَاعَةٌ
مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن
تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى
ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ
يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ
﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا
تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

أقسموا : حلفوا.

جهد : منتهى الطاقة .

البلاغ المبين : التبليغ الواضح الفصيح.

عملوا الصالحات: عملوا الأعمال التي شرعها لهم.

المعجز :الذي يجعل غيره عاجزا عن غلبه.

[1] سورة آل عمران آية 185

بيان المعنى الإجمالي :

جاء المنافقون يحلفون بأغلظ الأيمـــان ويكررونهـــا ، ويظهـــر علـــيهم التعـــب مـــن كثـــرة الترداد للأيمان، يعلمون النبي ﷺ أنهم يطيعونه في كل شـــيء حتـــى إنـــه لـــو أمـــرهم أن يخرجوا من ديارهم للقتال، أو أن يخرجوا مـــن أمـــوالهم وديـــارهم لاســـتجابوا. قـــل لهـــم يا محمد :لا تحمّلوا أنفســـكم الأيمـــان، إنـــه لا يـــروج علـــي كـــذبكم، فـــالمطلوب مـــنكم الطاعة المعروفة التي هي قبول ما جاء من عنـــد الله راضـــية بهـــا نفوســـكم، ولا حاجـــة لي بأموالكم ولا بدياركم، وأنا أعرف مـــا تنطـــوي عليـــه نفوســـكم ، فطـــاعتكم معروفـــة عندي تهكما بهم .يؤكـــد ذلـــك أن الله لا يخفـــى عليـــه شـــيء ممـــا تبطنونـــه وتقولـــون بألسنتكم خلافه.

قل لهم: الطاعة التي هي واجبة علـــيكم: هـــي طاعـــة الله فيمـــا أمـــر بـــه ونهـــى عنـــه، وطاعة رسوله فيما بلغكم من التكاليف. فإن تتولـــوا وتعرضـــوا فقـــد قـــام الرســـول بمـــا هو مكلف به، وتتحملون أنتم تبعة عدم قيامكم بما كلفـــتم بـــه. واعلمـــوا أنكـــم إن تطيعـــوا رسوله تفوزوا بالهداية. ومهمة الرسول محصورة فـــي إبلاغكـــم مـــا تلقـــاه مـــن الـــوحي بصورة ترفع كل لبس وبدون أي غموض.

إن الهداية التي تحصل لكم بطاعته، يتصـــل بهـــا وعـــد كـــريم مـــن الله ســـيتحقق للـــذين جمعوا بين الإيمان النقي الواضح، وبين القيـــام بالأعمـــال الصـــالحة، التـــي تعـــم شـــاملة تطبيق كل ما أمر به الدين والانتهاء عما نهى عنه، فـــي شـــؤون العبـــادة وفـــي العلاقـــات الاجتماعية، وفي مقومات الدولة .فما تمحض للخير والقـــوة صـــلاح ، ومـــا خالطـــه شـــر هو فساد. ودعاهم إلى عبادته سبحانه عبادة لا يـــداخلها شـــرك خفـــي أو ظـــاهر . يعـــدهم أنهـــم إن طبقـــوا هـــذه المـــنهج فجـــرت عليـــه حيـــاتهم الاجتماعيـــة والخاصـــة، أن الله سيرفعهم إلى مرتبة الخلافة في الأرض، وظهـــور أمـــرهم، ومهابـــة النـــاس لهـــم. وهـــذه هي سنته تعالى جرى عليها أمر الأمم في التـــاريخ. ولينصـــرن ديـــنهم الـــذي آمنـــوا بـــه وشُرّفوا بأن كانوا حملته الناشرين له في الكـــون. إنـــه الـــدين الـــذي ارتضـــاه رب العـــزة لهذه الأمة، وارتضى أن يكـــون صـــحابة رســـول الله صـــلى الله عليـــه وســـلم القـــائمين عليه الداعين له الموضحين لأحكامـــه ومقاصـــده. كمـــا وعـــدهم أن يحـــول حـــالهم مـــن الخوف من بطش المشركين إلى مستقر الأمـــن فيـــزول الخـــوف، ويحـــل محلـــه الأمـــن. وهذا الوعد ينسحب على المؤمنين الذين يأتون بعدهم ويسلكون مسلكهم.

إن من أغواه الشيطان بعد ظهور الـــدين وانتصـــاره، أولئـــك الـــذين كملـــت فـــيهم صـــفة الفسق والخروج من الحق إلى الباطل.

ثم أمر القرآن المؤمنين ، بالحفاظ على ما يحقــق لهــم الوعــد مــن التمكــين والنصــر ، وذلك بالحفاظ على أداء الصلوات علــى أتــم وجــه مخلصــين لله ،وتمكــين المســتحقين للزكاة من حقهم الذي فرضه الله في أموال الأغنيــاء، وبصــفة عامــة تطبيــق شــرع الله بطاعة رسوله في كل ما أمر به، والانتهاء عما نهى عنــه. إنــه بــذلك تكونــون راجــين لتنزل رحمات الله عليكم وألطافه.

لا تظنوا أن الكافرين سينفلتون من أخــذ الله لهــم وبطشــه بهــم، فــإنهم لا يقــدرون أن يعجزوا الله عن تنفيذ وعيده فــيهم. بــل إنهــم سيخســرون الــدنيا بقهــرهم وهــزيمتهم، وسيكون مآلهم يوم القيامة عذاب جهنم ولا أسوأ مصيرا منه.

بيان المعنى العام :

53- وأقسموا بالله جهد...خبير بما تعملون.

عود إلى تسجيل ما صدر عن أهل النفاق، بعد أن نزلت فيهم الآية الفاضحة لما ينطوون عليه من رفض لتحكيم الرسول صلى الله عليه وسلم في النزاع الحادث الكاشفة عن سوء عقيدتهم وكفرهم. جاؤوا لرسول الله متقدمين بالحلف ، مبالغين فيه بالتكرار، وتخير أغلظ الأيمان حتى بدا عليهم التعب، تغريرا منهم ليوهموا أنهم صادقون في أيمانهم. فعلى أي شيء أقسموا؟ حلفوا أنهم مطيعون لما يأمرهم به رسول الله، حتى إنه لو أمرهم أن يخرجوا إلى الجهاد لاستجابوا، ولو أمرهم أن يخرجوا عن أموالهم وديارهم لفعلوا.

لقن الله نبيه الجواب الذي يجيبهم به جوابا يقطع عليهم ما زوَّرُوه في نفوسهم، قل لهم: لا تتعبوا أنفسكم بالأيمان، ولا تعيدوا التمويه بالحلف، فإن إعادة الكذب لا ترفع عنه خسة الكذب ولا تخرجه إلى الصدق المقبول. ولا تقسموا لأنه لا حاجة إلى القسم فإن دخيلتكم معروفة عندي .

وقوله تعالى: **"طاعة معروفة"** لا تعيدوا القسم وتجهدوا أنفسكم فيه فطاعتكم معروفة عندي، تهكما بهم. ويحتمل أن يكون المعنى أنتم غير مطالبين باليمين طاعتكم معروفة عندي، على معنى أني أعرف عدم وقوعها، تهكما بهم أيضا.

يؤكد مضمون الجواب على جميع الاحتمالات، أن الله يعلم بواطن نياتكم وحقيقة أعمالكم ، تعالى سبحانه أن يغتر بتمويهاتكم.

54-قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول... .إلا البلاغ المبين.

تلقينٌ آخر من الله لرســوله، قــل لهــم وأبلغهــم آمــرا: أطيعــوا الله وأطيعــوا رســوله الطاعة الحقيقية التي يتبعها العزم على تنفيذ ما تــؤمرون بــه والرضــا بــذلك وهــو مــا يحقق ما ختمت به الآية السابقة: **إن الله خبير بما تعملون.**

ثم إنه بعد أن يقرع أسماعهم خطابـك، فـإنهم إن أعرضـوا وتولـوا ورجعـوا إلـى مـا كانوا عليه من الكفر والنفاق ، بعـد سـماع مـا نـزل عليـك، فـلا تهـتم بمـوقفهم ولا يضرك إعراضهم، فقد أديـت الواجـب عليـك وهـو التبليـغ، ويتحملـون وحـدهم وزر الإعراض والنفاق، ورفض الطاعة لمـا كلفـوا بـه وعرفـوه مـن لسـانك. ويحرضـهم القرآن على الطاعة وعدم العصيان، بأن فـي طاعـة الرسـول هـدايتهم. والقاعـدة التـي بُنِيَ عليها تشريفك بمنصب الرسالة، أنـك رسـول مـن عنـدي لسـت ملزمـا إلا بـأمر واحد هو تبليغ ما تتلقّاه من الوحي تبليغا واضحا.

55- وعد الله الذين آمنوا...فأولئك هم الفاسقون.

تضمنت الآية السابقة وعدا بالهداية يحـرض علـى الاسـتجابة " **وإن تطيعـوه تهتـدوا**" فثنّتْ هذه الآية بتفصيل هذا الوعد من ناحيتين:

الناحية الأولى :ما يتوقف على تحقـق الوعـد ممـا يقـوم بـه مـن يرجـو أن تشـمله الهداية ، وقد احتضن ذلك الموعود بـه مقـدما فـي قولـه تعـالى :**الـذين آمنـوا مـنكم وعملوا الصالحات** ، وختاما في قوله: **يعبدونني لا يشركون بي شيئا.**

الناحية الثانية: تفصيل الوعد في ثلاثـة أمـور: الاسـتخلاف – تمكـين الـدين – تحويـل وضعهم من الخوف إلى الأمن.

فلنعد إلى بيان كل ناحية بتفصيل مقتـرن بـالنص القرآنـي. فقـد ربـط القـرآن تحقـق الوعد مقدما بالوفاء بما يلي:

أ: الإيمان: النور الذي يقذفه الله في قلب الإنسـان فيكـون المجْـدُ الإلهـي حاضـرا فـي العقل والروح. ويحس به الإنسان أنه منسـجم مـع الكـون كلـه، فـي مسـيرة منطلقهـا أول يوم من أيام خلقه، وغايتها في الموقف بين يدي رب العالمين يوم القيامة.

ب: عمل الصالحات. مما يفيد أن الإسلام يقوم علـى العقيـدة وعلـى العمـل معـا، فـلا يكفي لنيل الوعد مجرد الإيمان، بـل لا بـد أن يقتـرن بالعمـل بمـا هـو مطلـوب مـن الإنسان في هذه الحياة الـدنيا. ولـيس النشـاط كيفمـا اتفـق، ولكنـه النشـاط الصـالح. ويشمل هذا اللفظ في عمومه جميع ما هـو صـالح حسـب المعيـار الـديني الـذي فـرق تفريقا بينا بين الصلاح والفساد.

تشمل الصالحات اسـتقامة الإنسـان فـي سـلوكه، فـي قيامـه بالعبـادة علـى الوجـه المرضي ،وفي أداء دوره في الحياة وَفِيًّا بالالتزامات المنوطـة بـه ، فـي الأسـرة، وفـي المجتمع الموطن والـوطن، وفـي الأمـة .ولكـل فـرد مـن الجماعـة الإسـلامية دوره الخاص به حسب مركزه الاجتمـاعي، فمسـؤولية رئـيس الدولـة والمسـيرين لأجهـزة

الحكم، وممثلي الشعب في المجالس النيابية، والجـيش بقادتـه وجنـده، وأصــحاب المهــن العقلية والعضلية بمختلف اختصاصاتهم، كـل واحـد مـنهم بـين طريـق الهـدى الـذي يكون به عمله صالحا حسب المعيار الشرعي، وبـين الفسـاد الـذي يكـون بـه العمـل مختلا بعيدا عن العدل وعـن الاسـتقامة. وكـل عمـل لا يراعـي فيـه صـاحبه قاعـدة الوحدة الإنسانية وعلاقتها بالخالق هو عمل فاسد، ويسمو العمـل فـي قيمتـه بمقـدار مـا يراعي فيه العامل أن الله مطلع عليه، وبمقدار مـا يراعـي مصـلحة إخوانـه فـي الـدين وفي الإنسانية.

وربطه ختاما بعبادته سبحانه ،عبادة خالصة مـن لـوث الشـرك .فـنص صـريحا علـى أن الذين يعبدون الله ويشركون به ،لا صلة بينهم وبـين الهدايـة، ولا ينـالهم شـيء مـن الوعد. وفي وقت نزول الآية كـان بعـض العـرب يتقربـون إلـى آلهـتهم علـى أنهـا وسائط بينهم وبين الله.

ولنعد إلى الوعد المركب من الأمور الثلاثة.

أ- الاستخلاف في الأرض. إن الأرض لله يمكن منها مـن يشـاء بمـا يحقـق لـه التصرف في خيراتها عزيزا غير ذليـل ولا تـابع .وكمـا يتحقـق الاسـتخلاف للأفـراد فكذلك يتحقق للأمم. والآية تَعد المسلمين أفـرادا وأمـة بتمكينهمـا مـن الحيـاة الشـريفة. عانى المسلمون الأولون من ضيق أسباب العيش، وهـم فـي قلـة مـن العـدد ومحدوديـة في العُدَدِ والسلاح، كانوا على خوف من مكـر المشـركين، ومـن مخططـاتهم المتلاحقـة للقضاء على الدين الإسلامي. فجاءت هذه الآية تمـلأ نفوسـهم يقينـا بـأن العاقبـة لهـم، وأن ما يضيقون منه اليوم سيتحول إلـى سـعة فـي العـيش، وإلـى قـوة تجلـب إلـيهم الأنظار، وتنقلب نظرة الاحتقار إلى نظرة الإكبار. وتؤكد الآيـة تحقـق هـذا الوعـد بـأن ذلك هي سنة الله التي أجرى عليه تحولات البشر والأمـم . علـى هـذا كتبـت صـفحات التاريخ ، فمن أخذ بأسباب العزة واستقام جاءته الدنيا طائعة .

ب- إن ما يتبع حتما الاستخلاف المعتمـد علـى الإيمـان والأخـذ بسـنن النجـاح ، هو انتشار الدين في الآفاق، وظهور سلطانه، سـلطان الحـق فـي العـالم المحـيط بهـم. وتراجع أمر المنافقين الـذين كـانوا يتربصـون بالمسـلمين الهزيمـة القاضـية لينضـموا إلى من كانوا يوالونهم في الخفاء. وتصل الآية تمكـين الـدين بإضـافته " **لهـم**" إن الـدين هو دين الله، ولكن الآية تشير بذلك إلـى أنهـم حملتـه والمعرفـون بـه قـولا وسـلوكا، والناشرون له، وأنه رضي لهم هـذا الـدين الخـاتم وارتضـاهم ليكونـوا القـائمين بـه.

وفي هذا تنويه بصحابة رسول الله ﷺ وبشارة لهم بتحقــق الوعــد. وينســحب ذلــك علـــى من سار سيرتهم.

جـ - كمــا أشـــرنا إليـــه ســـابقا، اضــطهد المشــركون المــؤمنين فـــي مكـــة، فكـــانوا يَحْذَرُونهم، ولما انتقلـــوا إلـــى المدينـــة كـــان المشـــركون يتـــآمرون علـــيهم ليضــــربوهم الضربة القاضية، واستولوا على أمــوالهم التــي تركوهــا خلفهــم فـــي مكـــة. قـــال أبـــو العالية: (مكث رسول الله ﷺ عشر سنين بعد ما أوحـــي إليـــه خائفـــا هـــو وأصــحابه، ثـــم أمر بالهجرة إلى المدينة، وكانوا فيها خـــائفين يصـــبحون ويمســـون فـــي الســـلاح. فقـــال رجل: يا رسول الله أما يأتي علينا يوم نـــأمن فيـــه ونضـــع الســـلاح؟ فقـــال رســـول الله: لاتغبُرون (لا تمكثون) إلا قليلا حتى يجلـــس الرجـــل مـــنكم فـــي المـــلأ العظـــيم محتبيـــا ليس عليه حديدة) ونزلت هذه الآية. وقـــد حقـــق الله وعـــده، ففـــتح علـــى رســـوله مكـــة، وجاءت الوفود من أطراف الجزيرة العربية مبـــايعين علـــى الإســـلام والطاعـــة والـــدخول في دين الله. وتحَوّل الخوف إلى أمن، وامتن الله علـــى المـــؤمنين بـــذلك كمـــا جـــاء فـــي سورة قريش.

إن الشيطان يغري أولياءه بمتع الحياة الـــدنيا واســـتعجالها، فقـــد يســـتولي علـــى عقـــول بعض الناس فيدفعهم إلى الخروج من الدين الإسلامي، والكفـــر بمـــا أنـــزل علـــى محمـــد، بعد ما قامت الآيات البينة على فوز المؤمنين في الـــدنيا والآخـــرة، إن هـــؤلاء هـــم الـــذين تحقق فيهم صفة الفسق الكامل، هم الخـــارجون عـــن الحـــق، فســـدت دخـــائلهم وفســـدت أعمالهم .

56-وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة...لعلكم ترحمون.

تفصيل للعبادة التي وردت في الآية السابقة " **يعبـــدونني**" فصـــرح بجمـــاع العبـــادة آمـــرا بإقامة الصلاة عمود الـــدين، وإيتـــاء الزكـــاة مؤكـــدة اللحمـــة بـــين المـــؤمنين ، وبصـــفة جامعة الحرص على طاعة رسول الله في كل ما أمـــر بـــه والانتهـــاء عمـــا نهـــى عنـــه. إنه بتطبيقكم لهذه الأوامر في الحياة تكونـــون علـــى رجـــاء أن يتفضـــل الله علـــيكم بـــأن ينزل عليكم رحماته، ويحيطكم بألطافه.

57-لا تحسبن الذين كفروا.... ولبئس المصير.

نزلت الآية في الوقـــت الـــذي كـــان فيـــه للمشـــركين صـــولة وقـــوة. وكـــان المؤمنـــون يستبطئون تنفيذ الوعد، شأن المضطَهَدِ الذي لـــم تنشـــق لـــه حجـــب الغيـــب ليـــرى نـــور الفرج، فطردت هذه الآية مـــا يحســـبونه مســـتمرا مـــن ســـطوة الكـــافرين، وأنهـــم لقـــوة بأسهم واتحادهم على باطلهم، أنهم يُعْجِزون طالبهم فلا يقـــدر علـــيهم. بـــل إن مـــآلهم هـــو

إلى الهزيمة والضعف في الدنيا، وفي الآخرة هوعــذاب النــار فــي جهــنم، وتلــك أســوأ عاقبة وأرذل مصير يصير إليه الإنسان.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلۡأَطۡفَٰلُ مِنكُمُ ٱلۡحُلُمَ فَلۡيَسۡتَـٔۡذِنُواْ كَمَا ٱسۡتَـٔۡذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الاستئذان : طلب الإذن في الدخول .

عورات : جمع عورة، ما يكره انكشافه.

بيان المعنى الإجمالي :

دعوة للمؤمنين بوصف الإيمان ليطبقوا هــذه التربيــة التــي تســمو بمســتواهم الإنســاني الاجتماعي. وأن يحرصوا على هذا الأدب حتــى يكــون مرعيــا. هــذا الأدب: أن علــيهم أن يقوموا على تربيــة ممــاليكهم حتــى لا يــدخلوا علــيهم فــي أوقــات ثلاثــة إلا بعــد الاستئذان. ما قبل صلاة الفجر – وحــين يتخفــف الإنســان مــن ثيــاب عملــه ليســتريح بنوم الظهيرة – وعندما يقصد فراشه إلــى النــوم إثــر صــلاة العشــاء. وينســحب هــذا الإرشاد على أطفالهم الذين لم يصلوا إلى سن البلوغ. أما فــي غيــر هــذه الأوقــات التــي من شأن الإنسان أن لا يكون متحفظــا فيهــا، فإنــه لا إثــم علــيكم فــي دخــولهم علــيكم بدون استئذان. ذلك أن علاقة الأطفال في سن الصــبا وعلاقــة المماليــك الموكــول إلــيهم القيام بالخدمة، مما يوجب أن يكــون التواصــل معهــم متكــررا، فهــم يــدخلون علــيكم وأنتم تدخلون عليهم، وما جعل الله عليكم من حــرج فــي الــدين. هــذه التعــاليم أنزلناهــا عليكم بينة واضحة في آيات الكتاب ، نزلت علــيكم مــن الله العلــيم بمــا يصــلحكم وهــو الحكيم إذ هو سبحانه الذي يعلم عواقب الأمور ولا يخفى عليه شيء من المآلات.

ثم إن أطفالكم إذا بلغوا سن التكليف، فــإن حكــم الاســتئذان العــام الــذي ورد قبــل هــذه الآية هو الحكم فيهم، إنه يجري عليهم أحكام الكبار فــي الاســتئذان. وعلــى هــذا النحــو من البيان يأتيكم البيان الواضح من الله. إن الله عليم حكيم .

بيان المعنى العام :

58: يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم...والله عليم حكيم .

عنيت سورة النور في آياتها الأولى بتفصيل آداب وأحكام ترتبط بالآداب الاجتماعية ما يتعلق منها بالتزاور بين المؤمنين، فأرشدت إلى الاستئذان وعقبته بالستر والحياء. ثم استأنفت مرشدة إلى ما يتعلق بالاستئذان بين الأفراد الذين تتركب منهم العائلة. فأمرت المكلفين في العائلة أن يحرصوا على أن يستأذن كل من الأرقاء الذين كانوا يعيشون معهم في البيت، وشأن هؤلاء أن تكون الصلة بهم مستمرة تبعا لقيامهم بالخدمة. وكذلك الأطفال الذين لم يبلغوا سن التكليف، وشأن هؤلاء أن يكون دخولهم على الكبار متكررا. فخففت الآية في الاستئذان، وليس أمرهم كالأجانب الذين نزل فيهم: **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها**[1] وليس مرخصا لهم أن يدخلوا على الكبار في كل وقت بدون استئذان. فكان الإرشاد أن لا يدخلوا إلا بعد أن يؤذن لهم في ثلاث حالات:

الأولى: قبل صلاة الفجر في أواخر الليل، بعد أن يكون الصالحون قد فرغوا من قيام الليل، ومالوا إلى النوم قبل أذان الفجر.

الثانية: عندما يميل الراشد إلى الراحة في وقت الظهر، فيتخفف من ثياب العمل ، ويأوي إلى مضجعه .

الثالثة: بعد صلاة العشاء عندما يأوي إلى فراشه لينام .

هذه الأوقات الثلاثة، هي أوقات قد ينكشف فيها من جسم الإنسان ما لا يرضى صاحبه بانكشافه. وشأن البشر أن لا يكونوا متحفظين في هذه الأوقات الثلاثة، خاصة واستدعاء النوم يقتضي التخفف من الثياب، ومن ناحية أخرى فلصلة الزوجين في هذه الأوقات ما يحتم أن يكون سرهما محفوظا غير مطلع عليه من أحد. وحكم الاستئذان واحد بالنسبة للنساء والرجال.

أما في غير هذه الأوقات الثلاثة، فإنه لا يطلب لا من المماليك ولا من غير البالغين من أعضاء الأسرة أن يستأذنوا، لما في ذلك من الحرج، تبعا لحاجة الخدمة المتكررة للمماليك، واعتماد الأطفال على أوليائهم وكثرة التردد عليهم ما داموا دون سن البلوغ. فالمماليك يدخلون بكثرة على مالكيهم، ويطوف بعضهم على بعض .

---

[1] سورة النور آية 27

على هذا النحو من البيان للحكم، وضبط الزمن الذي تظهــر فيــه الحكمــة مــن التشــريع، ومراعاة رفع الحرج عنكم، وقع بيان القــرآن فــي آياتــه للحكــم بيانــا كــاملا واضــحا. والله العليم بما يصلح أموركم ويــربيكم علــى الحيــاء والعفــة، كيــف لا وهــو المتفــرد بالحكمة البالغة.

59-وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم...والله عليم حكيم .

صرحت الآية إثر ذلك أن الحــد الفاصــل بــين الاســتئذان المطلــق، وبــين تخصيصــه بالأوقات الثلاثة بالنسبة لأولاد العائلة الذين يحتضنهم بيــت واحــد، هــو بلــوغ الأطفــال ما يتحولون به من عمر الصبا الذي لا تكليــف فيــه، إلــى الوقــت الــذين يكونــون فيــه مخاطبين بخطاب التكليف . فعند ذلك ينســحب علــيهم حكــم بقيــة الراشــدين إذا دخلــوا بيوتا غير بيوتهم أن يستأذنوا. ويَمُنُّ القرآن على المــؤمنين بأنــه علــى هــذا النحــو مــن البيان يخاطبكم رب العزة بآيات بينات لا غموض فيها. والله عليم حكيم .

وَٱلۡقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا يَرۡجُونَ نِكَاحٗا فَلَيۡسَ عَلَيۡهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعۡنَ ثِيَابَهُنَّ غَيۡرَ مُتَبَرِّجَٰتِۭ بِزِينَةٖۖ وَأَن يَسۡتَعۡفِفۡنَ خَيۡرٞ لَّهُنَّۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٦٠﴾ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٦١﴾

بيان معاني الألفاظ :

القواعد : جمع قاعد يطلق على المرأة التي بلغت سن اليأس من الحيض.

يضعن ثيابهن : ينزعن ثيابهن.

متبرجات: مظهرات زينتهن رغبة في لفت الأنظار إليهن.

يستعففن : يتعمق فيهن الشعور بالعفة فلا تختلف حالتهن في الكبر عن زمن الشباب.

الصديق : الصادق في المودة .

جميعا : المجتمعون.
أشتاتا: الأكل منفردا.
تحية : ما يقوله الداخل تأنيسا لمخاطبه وتأمينا له ولطفا.
مباركة : فيها البركة ووفرة الخير.
طيبة : مقبولة من الناس .

بيان المعنى الإجمالي :

رخص القرآن في هذا النص للمرأة التي أيست من الإنجاب لكبر سنها وذهاب طراوة شبابها ،أن لا تدني جلبابها ولا تتحرج من كشف عنقها وأعالي صدرها، دون أن تبلغ درجة التبرج بإبراز ما يتبعه لفت النظر إليها. وينصحهن القرآن بالحفاظ على الستر على الوضع الذي كن عليه في عهد الشباب. والله سميع لما يحدِّثن به أنفسهن، عليم بمقاصدهن. فليلتزمن الحياء والعفة. وكما نفى الإثم عن المرأة إذا وضعت جلبابها عند ما تكبر، فكذلك نفى الحرج والإثم عن الأعمى والأعرج والمريض الذين لا يستطيعون أن ينفذوا ما يطلب منهم على الوجه الذي يقوم به غير ذوي النقص. ونفى الحرج أيضا عن الأكل من الطعام المهيأ في البيوت بالنسبة لأحد الزوجين إذا لم يكن قرينه حاضرا، وبالنسبة للوالدين في بيوت أولادهم ، وللأولاد في بيوت والديهم ، ولذوي القرابة كبيوت الإخوان والأخوات والأعمام والعمات والأخوال والخالات ، وكذلك ما مُكِّنتم منه بوكالة أو حراسة ، وكذلك بيوت أصدقائكم الذين توثق بينكم وبينهم الود. إنه لا إثم عليكم أن تأكلوا من الطعام المهيأ في كل ما ذكر مجتمعين مع غيركم أو منفردين ما دام ذلك في حدود المعروف وعدم التجاوز. وذكَّرهم بالأدب الذي جاء في آية الاستئذان: أن عليهم أن يسلموا على أهل تلك البيوت، وأنه لا يعتبر الود رافعا لأدب السلام. والسلام بقولهم: السلام عليكم. التحية التي فيها كثير من الخير والتي يأنس بها السامع ويطمئن . وعلى هذا النحو من البيان الواضح يبين لكم الآيات القرآنية،و يرجى منكم بالتأمل فيها أن تدركوا معقوليَّتَها.

بيان المعنى العام :

60- والقواعد من النساء اللاتي ...سميع عليم .

ما تقدم من الأمر بالستر للنساء في الآية 31 القصدُ منه أن يكون المجتمع الإسلامي نظيفا في أخلاقه، تتحفظ فيه المسلمة من إغراء الرجال بما رزقت من وسامة وجمال. ورخصت هذه الآية للمرأة إذا جاوزت سن المحيض، وأيست من

الحمل، وتبع ذلك ذهاب نضارة الشباب المغرية، أنـه لا إثـم عليهـا إذا أزالـت جلبابهـا أو لبسته ولم تدنه من جيبها ليستر رقبتها وأعالي صـدرها. ولكـن الحـد الـذي لا يبـاح لهن تجاوزه، هو أن يكون هذا التخفف غير مقصـود بـه لفـت أنظـار الرجـال إلـيهن، فإذا قصد به ذلـك كـان حرامـا، وذلـك كطريقـة المشـي ، أو الأصـباغ، أو العطـور الصارخة ،أو الحلي النفيس الـذي تتبعـه الأبصـار، أو الثيـاب المتجـاوزة حـد الأناقـة المعتاد، ونحو ذلك. وقوله تعالى: **اللاتي لا يرجـون نكاحـا:** هـو وصـف كاشـف عـن مفهوم القواعد، أي اللاتـي لا يتـرقبن خطّابـا ولا راغبـين فـي الـزواج مـنهن، فهـو تفسير لكلمة القواعد.

ثم أشار القرآن عليهن: أن التخفف رخصة، والتزامهن بالطريقـة التـي كـنّ عليهـا قبـل ذلك، هو أفضل لهن وخير من التخفف. وذكّرتْهُنّ الآيـة بـأن الله سـميع لمـا تحدثـه بـه أنفسهن وما يجري في سرهن من تحويل الرخصة من التيسـير إلـى التحلـل. علـيم بمـا يقع منهن لا تخفى عليه خافية يجازي بالحق.

61- ليس على الأعمى حرج ...لعلكم تعقلون.

نفت الآية السابقة الحرج في الستر الواجـب عـن المـرأة إذا هـي تقـدمت فـي السـن وأيست من المحيض. فتابع القرآن رفع الحـرج عـن نظـائر، وضـعُهُمْ الصـحي يقعـد بهم عمن سلموا من النقص الذي حل بهم ، فنفـت الحـرج عـن العميـان فـي التكليـف الذي يرتبط بالبصر. كالخروج للجهاد، والحج إذا لم يجـد قائـدا، والصـلاة فـي المسـجد كذلك. وكذلك الأعرج الذي لا يقدر علـى الكـر والفـر، أو الانتقـال فـي الطـرق غيـر المعبدة، وكذلك المريض الذي يمنعه مرضه مـن القيـام بـبعض مـا هـو مطالـب بـه باعتباره مكلفا، كالصلاة من قيام أو الصـوم ، أو الجهـاد . فهـؤلاء لا إثـم علـيهم فـي عدم قيامهم بما لا يقدرون عليه ، فما جعل الله علينا في الدين من حرج.

ثم تناولت الآية إرشادا لبعض الآداب الاجتماعيـة وتحديـدها تحديـدا ينفـي الإثـم عـن فاعلها، وإن كان العرف الجاهلي لا يرضاها. واعتنـت بموضـوع الأكـل . بينـت الآيـة أنه لا إثم على الإنسان أن يأكل مما هو فـي بيتـه، إن كـان قرينـه غائبـا فـلا تتحـرج المرأة من الأكل مما يحويه بيت الزوجية عنـد غيـاب الـزوج، وكـذلك العكـس، ومثلـه أكل الوالدين مما هو في بيوت أولادهم. وكذلك لا حـرج فـي أكـل الولـد مـن الطعـام المعروض في بيت أبويه وهما في حالة زواج أو فـراق ، أو مـن بيـوت إخوانـه أشـقاء أو لأب أو لأم ، أو مـن بيـوت أخواتـه إلا إذا كـن متزوجـات وتعلـق الملـك بحـق الزوج، وكذلك بيوت الأعمام ، وبيـوت العمـات كمـا ذكـر فـي الأخـوات ، أو بيـوت

الأخوال، أو بيوت الخالات؛ ومثله ما مُكِّنَ من التصرف فيـــه القـــائم عليـــه وسـلمت لـــه مفاتيحه، كالموكِّل، والخازن ،والحافظ للحقل المثمـــر فـــلا إثـــم عليـــه فـــي الأكـــل مـــن ثمره بالمعروف. وكذلك الصـــديق الـــذي انعقـــدت بينـــه وبـــين صـــاحب البيـــت مـــودة. تتابعت أنواع الصلات التي اتحدت في التـــرخيص لهـــا فـــي الأكـــل، فأعيـــد نفـــي الإثـــم عنهم في الأكل تأكيدا للحكم الذي افتتحـــت بـــه الآيـــة، وأنـــه لا فـــرق بـــين أن يجتمعـــوا على الأكل، أو أن ينفردوا. وكل ذلك في الطعـــام المهيـــأ للأكـــل منـــه، لافـــي المخـــزون المغيب . وهذا إقرار من الشارع لـــبعض الأعـــراف الصـــحيحة، ونفيـــا للأعـــراف التـــي منها أن بعض العرب كانت لا تأكل أفـــرادا البتـــة. وكـــان بعـــض العـــرب إذا كـــان لـــه ضيف لا يأكل ضيفه معه، ورأيت فـــي بعـــض نـــواحي الصـــين أن الـــداعي لا يتنـــاول شيئا من الطعام الذي أعده لضيوفه، مقدرا أن إكـــرام الضـــيف يوجـــب تخصيصـــه بكـــل الطعـــام. فالآيـــة لا تقـــر أن تلـــك الأعـــراف واجبـــة التطبيـــق، وتقـــرر أن الإســـلام لا يوجبها، وإن كان بعضها حسنا كالحرص على إشراك الآخرين في الطعام.

ثم ذكرهم بأدب السلام الذي نصـــت عليـــه آيـــة الاســـتئذان "**حتـــى تستأنســـوا وتســـلموا على أهلها**" فذكرهم أن يسلموا عند دخول بيوت الـــذين تـــربطهم بهـــم رابطـــة القرابـــة أو الود، تنبيها على أن الـــروابط الجامعـــة لا تبـــرر التحلـــل مـــن قـــيم الأدب. ومـــن بـــديع التعبير أن علق الســـلام ب " **أنفســـكم** " إذ أن البســـاط هـــو قـــرب وثيـــق بـــين هـــؤلاء المذكورين في الآية، فكأنهم شيء واحد، وكـــأن المُسَـــلِّمَ عنـــدما يســـلم هـــو يســـلم علـــى نفسه. وتحيةً موقعها، سلموا تحية ثابتة بـــأمر الله مشـــروعة مـــن عنـــده. وهـــي الســـلام عليكم. هذه التحية التي رتبها الإسلام لتكـــون أول مـــا يبـــادر المـــؤمن عنـــد لقـــاء غيـــره من المؤمنين، وتشتمل على تأنيس المخاطب وتأمينـــه إذا كـــان لا يعرفـــه، واللطـــف معـــه إذا تقدم بينهما اتصال، وقد جعل الله فيها البركة بما ينمـــو بالســـلام مـــن ود ويـــوفر مـــن أخوة. وفي" السلام عليكم " أيضـــا طيـــب لمـــا تتضـــمنه مـــن دعـــاء بالســـلامة وإعـــلان للمصافاة. وعلى هذا النحو من تفصـــيل وبيـــان مـــا يصـــلح أمـــوركم ويقـــوي الـــروابط بينكم يبين الله لكم آياته القرآنية ليحصل لكم الرجـــاء فـــي تعقـــل تلكـــم البينـــات، والنظـــر فيما يترتب عليها من خير المآلات .

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُواْ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمۡرٖ جَامِعٖ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَـٔۡذِنُونَكَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ فَإِذَا ٱسۡتَـٔۡذَنُوكَ لِبَعۡضِ شَأۡنِهِمۡ فَأۡذَن لِّمَن شِئۡتَ مِنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ

هُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ
بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ
يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم
بِمَا عَمِلُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٦٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأمر : الشأن المهم.

الجامع : الذي من شأنه أن يجمع له الناس للتشاور أو التعلم.

يتسللون : يخرجون متخفين.

لواذا : يتستر بعضهم ببعض لئلا يتفطن إليهم .

يخالفون عن أمره : يصدون عن اتباع أمره .

الحذر: تجنب الشيء الذي تخشى عاقبته.

الفتنة : اضطراب حال الجماعة.

العذاب الأليم : القتل والهوان.

بيان المعنى الإجمالي :

تناول القرآن بعضا من آداب الاجتماعات العامة، فنوه بالمؤمنين بالله ورسوله الذين إذا حضروا اجتماعا بإمامة رسول الله، لازموا الأدب، فلا يخرجون منه إلا بعد الاستئذان. شهد الله بأنهم صادقون في إيمانهم. وتلكم المزية أمارة كونهم مؤمنين حقا. ولذلك فإذا استأذنك أحدهم لأمر عرض له، فأنت يا محمد تقدر الوضع فتأذن لمن شئت منهم تبعا لما هو أصلح ، واستغفر لمن أذنت له فحُرِمَ ثواب حضور الاجتماع إلى نهايته . والله من صفاته الأزلية أنه غفور رحيم.

و عرَّف المؤمنين أنهم لا خيَرَةَ لهم إذا دعاهم الرسول، فالواجب أن لا يتخلفوا عن الاجتماع إلا لضرورة، فليست دعوة الرسول كدعوة إخوانكم أنتم مخيرون في الاستجابة لها. كما أن عليهم أن يتأدبوا عندما يخاطبون رسول الله فلا يدعون باسمه، ولا بما هو مُوهِمٌ. ولا يدعونه من مكان بعيد صائحين، فإن ذلك لا يتناسب مع شرف مقامه الرفيع ﷺ.

ثم فضح المنافقين الذين يخرجون في أثناء الاجتماعــات العامــة متخفــين أشــد التخفــي، يتستر بعضهم ببعض. فحقق القرآن بــأتم تحقيــق أن الله لا يخفــى عليــه أمــرهم ، إنهــم إن استطاعوا أن يختفوا من عيون الحاضرين معهــم، فــإن الله لا يخفــى عليــه شــيء. فليحذروا ما سيسلطه عليهم مــن فتنــة، بــانفلات أمــرهم وشــيوع العــداوة والخــلاف بينهم، أو من عذاب أليم بالقتل والتشريد بأيدي المؤمنين.

تنبهوا فإن الله مالك الكون كله سماواته وأرضه ، يبلغ علمه كل دقيقة وعظيمة ،وما خفي في الصدور وما ظهر من الأعمال . وكل ما تم وجوده محفوظ، لا يضيع منه شيء فسيطلع كل فرد عما قدمه ليلقى جزاءه يوم القيامة. وعلم الله هو العلم الشامل الأزلي الأبدي.

بيان المعنى العام :

62- إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله...إن الله غفور رحيم .

قررت هذه السورة آدابا اجتماعية تفضي بــالمؤمنين إلــى الحيــاة المدنيــة التــي تســمو بها الجماعة وتبعد عن جفاء البداوة.

و اعتنت هذه الآية بتقرير الأدب الذي يجــب أن يراعــى إذا دعــا الرســول ﷺ المــؤمنين للاجتماع. وربطته بتحقــق الأصــل الأول الــذي هــو الإيمــان بــالله ورســوله. ليكــون الأدب الذي أرشد إليه هو من مســتتبعات ذلكــم الإيمــان . وقــد كــان النبــي ﷺ يــدعو المؤمنين للاجتماع بهم في الأمور المهمــة، ســواء أكــان الأمــر يتعلــق بتشــريع جديــد يبلغهم إياه ويوضحه لهم، أو ليشاورهم في أمر يهمهم مما يتعلق بالسلم أو الحرب.

وقد كــان المنــافقون يحضــرون هــذه الاجتماعــات، ويخرجــون منهــا دون اســتئذان، يفعلون ذلك لما استقر في نفوسهم من كراهيــة لكــل مــا يعْرِضُــه النبــي ﷺ ، وليــدخلوا الخلل في الاجتماع بما يوحي به الانصراف من تفاهــة موضــوع الاجتمــاع ،وأنــه ممــا لا يمكن أن يصبر عليه الســامع . قصــدهم التشــغيب والطعــن الخفــي. فلــذلك جعلــت الآية من سمة الإيمان بالله ورسوله: أن مــن حضــر لا يخــرج مــن الاجتمــاع إلا بعــد أن يطلب الإذن من رسول الله ﷺ . ومن هذه النقطــة يظهــر التلاقــي بــين هــذه الآيــة والآية السابقة؛ فإذا كانــت الآيــة الســابقة موضــوعها الاســتئذان فــي الــدخول، فــإن موضوع هذه الاستئذان في الخروج والمغادرة.

نوهت هذه الآية بالمؤمنين بالله ورسوله، وعــذرت مــن حضــره، وهــو فــي الاجتمــاع ،حصل ما يدعوه للخروج، واستأذن النبــي ﷺ، وأوكلــت للنبــي صــلى الله عليــه وهــو رئيس الجماعة أن يسمح للمستأذن بــالخروج إذا قــدر أن المصــلحة العامــة لا تضــيع ، وأن الاجتماع لا يختل . وأرشــده الله أن يطلــب المغفــرة للمســتأذنين الــذين أذن لهــم،

إيماءً إلى أن تغليب الأمر الخاص علـــى مواصـــلة حضـــور الاجتمـــاع خـــلاف الأولـــى، والنبي ﷺ لا يدعو إلا إذا كـــان الاجتمـــاع يتعلـــق بـــأمر مهـــم فيـــه مصـــلحة للجماعـــة والمستأذن واحد منهم. ومن ناحية أخـــرى فـــإن الإســـلام يعـــز كـــل فـــرد مـــن أعضـــاء الأمة، فخروج أحدهم وعدم مواصلة الاجتمـــاع يعتبـــر ناحيـــة ســـلبية. وطمـــأن المـــأذون لهم بأن الله من صفاته الأزلية الدائمة أنه غفور رحيم

63- لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم ...عذاب أليم .

اعتنت السورة بكثير من الآداب الاجتماعيـــة التـــي تســـير بهـــذه الأمـــة لتتبـــوأ مقعـــدها الحضاري، سواء من كان قبـــل دخولـــه فـــي الجماعـــة الإســـلامية مـــن ســـكان المـــدن والقرى، أو من سكان البوادي والخيام. فبينت الآية فـــي أولهـــا أنـــه لا خيـــرة للمـــؤمن إذا بلغته دعوة النبي ﷺ ، فكما أنه إذا حضر لا يخـــرج مـــن الاجتمـــاع إلا بعـــد الاســـتئذان، فكذلك هو ملزم بالحضور إذا دُعي. وهـــو تقريـــر سياســـي باعتبـــار أن ولـــي الأمـــر لا يستطيع أن يحقق للأمة أمنها ورفاهيتها إلا إذا حصـــل التعـــاون بينـــه وبـــين كـــل عضـــو من أعضاء الأمة، ولم يتراخَ أي منهم عن تلبية ما هو مطلوب منه.

وتحتمل الآية وجها آخر، أن يستحضر المؤمنـــون مقـــام النبـــي ﷺ فـــلا يخاطبـــه إلا بمـــا يليق بشريف مقامه، فلا ينادونه [ييا محمـــد] ولا ب[يـــا ابـــن عبـــد المطلـــب] ولا بمـــا فيه إيهام كقول المنافقين " راعنا " كما تقدم في ســـورة البقـــرة آيـــة 104 – بـــل يدعونـــه بلطف وأدب وتقدير ، يا رسول الله ويـــا أبـــا القاســـم. وأن لا ينـــادوه مـــن بعيـــد برفـــع صوت.

ثم بعد هذا الاعتـــراض الـــوارد فـــي أثنـــاء الكـــلام، ليعـــرف بخصـــال المـــؤمنين فـــي الاجتماعات، ويعذر أصحاب الحاجة منهم؛ تعود الآيـــة لفضـــح المنـــافقين والتشـــهير بمـــا يقومون به مما يظنون أنهم قد نجحوا في إخفائه.

بكل تأكيد، إن الله يعلم كل فردمن الذين يخرجون مبـــالغين فـــي التخفـــي فـــي حركـــاتهم، وبانحنائهم، حتى كأن خروجهم هو خروج شـــيء وانســـلاله مـــن شـــيء هـــو فيـــه، يـــتم إخراجه بحذر شديد. وهم يلوذون ببعضـــهم، أي يتســـتر بعضـــهم بـــبعض عنـــد الخـــروج حتى لا يلمحهم بصر الناظرين.

هدد القرآن الذين يصدون الناس عما أمر بـــه، وحـــذرهم عاقبـــة مـــا يقومـــون بـــه مـــن تلبيس وتشكيك، فأنذرهم بأن الله قادر على الإيقـــاع بهـــم إيقاعـــا لا يجـــدون منـــه انفكاكـــا ،إما باضطراب أحوالهم اضـــطرابا يفقـــدهم الأمـــن ، وينشـــر بيـــنهم العـــداوة ويعجـــزهم عن التناصر . وإما بتسلط المؤمنين عليهم قتلا وتشريدا.

64- ألا إن لله ما في السماوات...والله بكل شيء عليم .

تختم السورة بحرف الاستفتاح "**ألا**" وفي ذلك تنبيه لتحقــق كــل مــا ورد فيهــا، والتأكيــد على الاســتجابة لأحكامهــا. بــأن الله منزلهــا هــو مالــك كــل مــا تحويــه السـماوات والأرض. محقِّق أنه يعلم أوضاعكم ،وما تنطــوي عليــه صــدوركم ومقاصــدكم التــي تجري في بواطنكم، وأنه سبحانه سيعرفكم بها يــوم تعرضــون عليــه ،ممــا ينبــئ بأنــه سيجازيكم عنها بالثواب للصــالحين، والعــذاب للكــافرين والمنــافقين والمجــرمين . والله لا تخفى عليه صغيرة، ولا كبيــرة، ولا أمــر ظــاهر ولا أمــر خفــي. علمــه شــامل منسحب على الماضي، متواصل إلى أبد الآبدين.

أتممت بحمد الله وحسن عونه ،وهو صاحب الفضــل ،عليــه تــوكلي واعتمــادي، تفســير سورة النور صباح زوال يوم الخميس الرابــع والعشــرين مــن شــهر ذي القعــدة عــام- 1433-الموافق للحادي عشر من شهر أكتــوبر- 2012 – تقبــل الله عملــي وعفــا عمــا كان فيه من تقصير أو قصور، ونفع به المؤمنين وأعــانني علــى مواصــلة مــا محضــت له حياتي من تيسير فهــم كتابــه للمــؤمنين، ورحــم الله والــدي ومــن علمنــي بواســع رحمته وجميل غفرانه .

ســـورة الفرقــان

هذا هو الاسم الذي عرفت بـه السـورة فـي المصـاحف وفـي كتـب السـنة. ووجـه تسميتها بذلك افتتاحها بلفـظ " الفرقـان " وهـي سـورة مكيـة. رتبتهـا حسـب تـاريخ النزول الثانية والأربعون. نزلت بعد سورة يـس وقبـل سـورة فـاطر . وهـي السـورة الخامسة والعشرون حسب ترتيب المصحف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَخَلَقَ
كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا
وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا
حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ
ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ
تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ
إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى
فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ
كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا
رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَٰلَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ
سَبِيلًا ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

تبارك : فعل اختص به الله ، عظمت خيراته ،وتحققت كمالاته .

الفرقان : القرآن.

العالمين : جميع المكلفين.
النذير : الموقظ والمحذر من شر يأتي.
الخلق : الإيجاد.
قدره : ضبط مقدما المقادير التي يكون عليها.
ضرا : إصابة بمكروه.
الإفك : الكلام الكاذب المختلق.
الظلم : الاعتداء.
الزور : الكذب المحَسَّن الذي يخيل لسامعه بذلك أنه صدق.
أساطير : ج أسطورة، القصة عن الماضين التي تختلط فيها الحقيقة بالخيال.
الأولين : التوراة والإنجيل.
اكتتبها : استنسخها .
تملى عليه : يعيد استماعها .
بكرة وأصيلا : أول النهار وآخره والمقصود بصفة متواصلة.

بيان المعنى الإجمالي :

كمالات الله لا تحصى وفضله لا يحد ، تبـارك سـبحانه . ومـن خيراتـه التـي تفضـل بها على عبيده إنزاله للكتاب " **القرآن** " الفارق بـين الحـق والباطـل، واختيـاره محمـدا عبده لتبليغـه وبيانـه، وإقامـة الحجـة علـى مضـامينه. ولينـذر المبعـوث إلـيهم مـا يترصدهم من شر ليتخذوا وقاية لأنفسهم منه .

تفرد بملك السماوات والأرض وما تحويـه مـن كائنـات، وتنـزه أن يكـون لـه ولـد إذ الأبوة تنافي الملكية. ولا يتصرف معه أحد فـي ملكـه. خلـق كـل الكائنـات فأوجـدها من عدم. تظهر حكمته في كل ما خلق إذ لا يوجد مخلوق ظهـر صـدفة، بـل كـل كبيـر وصغير له قانونه الذي يسير عليه بمنتهى الضبط والإحكام.

والعجب من المشركين أنهم اتخذوا مـن دون الله آلهـة عبـدوها وتقربـوا إليهـا ، مـع أنها عاجزة عجزا مطلقا ، فلا هي خلقت شيئا ولا هي قـادرة علـى ذلـك ، إذ هـي فـي ذاتها نتيجة صنع عابديها الذين نحتوها . وهـي عـاجزة عـن دفـع الضـر عـن نفسـها أوعن نفعها ، وعجزُها عن نفع عابديها أوضـح .وهـي فاقـدة لخاصـية الألوهيـة وهـي التصرف بالموت والحياة ، فلا هي تعطي حيـاة ولا تسـلبها. ولا هـي قـادرة أن تبعـث عابديها يوم النشور لتحاسبهم عن أعمالهم .

دفع المشركين كفرُهم للتشكيك في صدق رسـول الله ﷺ ، فقـالوا: إن مـا يـدعوكم إليـه منحصر في كونه كذبا اختلقه هو، وساعده عليـه قـوم آخـرون. إن مقـالتهم هـذه ظلـم

كبيــر لرســـول الله ولـــدين الله ، زَوَّرُوهـــا وحســـنوها ليخيلـــوا للبســطاء أنهـــا صـــدق. وأضافوا لتمويهاتهم، إن القرآن الذي يحتج به محمــد هــو مجموعـــة أســـاطير وقصـــص، طلب من العارفين أن يسجلوها له كتابة، لتعرض عليــه صـــباح مســـاء بصـــفة متواصـــلة حتى يذيعها على أنها من عند الله. لقَّن الله نبيـــه الجـــواب المفحـــم للمشـــركين قـل لهـم: إن الذي أنزل الفرقان، هو الذي لا يغيب عنه ســـر مـــن أســـرار الوجـــود مهمـــا خفـــي، ومنه سر القلوب، فلا يُمَكِّن من يكذب عليه مـــن مواصـــلة افترائـــه. ولـــم يعجـــل علـــيكم العقوبة لأنه سبحانه غفـــور رحـــيم ، فعســـى أن يفـــتح علـــى بصـــائر بعضـــكم ليكـــون نصيرا للدين ناشرًا له.

وتبعا لغلظ حسهم واستيلاء المادة عليهم، سألوا متعجبين ما بـــال هـــذا الـــذي يـــدعي أنـــه رسول يأكل الطعام، ويسعى في الأسواق لتحصـــيل رزقـــه؛ علـــى أن الرســـول لا يكـــون من جنس البشر، إن كان من جنســـهم فتأييـــده بملـــك ضـــرورة. إن حســـهم متبلـــد، فمـــا يجري في الإنســـان مـــن روح وعقـــل يقـــوم شـــاهدا علـــى أن الإنســـان لـــيس مقـــادير مجموعة من المواد المحسوسة. قالوا: هلا أُنْزِلَ عليـــه ربـــه ملكـــا يســـاعده فـــي إنـــذاره للناس من الشر الذي سيحل بهم إن لم يتبعوه، أو ينـــزل عليـــه كنـــزا مـــن الســـماء يغنيـــه عن السعي في تحصـــيل المـــال ، أو أن يحـــول لـــه جبـــال مكـــة إلـــى جنـــات تتخللهـــا الأنهار، تنتشر فيها مختلف الأشـــجار المحملـــة بمتنـــوع الثمـــار .ثـــم أضـــاف بعضـــهم فقالوا : نظرنا فتحقق عندنا أنه رجـــل اســـتولى عليـــه الســـحر فاختلـــت مداركـــه. انظـــر إليهم وهم متحيرون فـــي غبـــائهم، مفضـــوحون بمـــا صَـــوَّرُوك بـــه، فضـــلوا الطريـــق وقطعوا ما بينهم وبين المعقـــول، فهـــم لا يســـتطيعون أن يســـيروا علـــى طريـــق يـــبلغهم الهدف المنجي.

بيان المعنى العام :

1-تبارك الذي نزل الفرقان ....للعالمين نذيرا.

افتتاح بديع فيه تمجيد لله تعالى ، فهو سبحانه الذي بفضـــله نـــال كـــل فـــرد مـــن النـــاس من الخيرات ما نال ، وتقرير لعظمتـــه وتفـــرده بالكمـــالات التـــي اخـــتص بهـــا . وهـــو متضمن للثناء عليه. وأتبع هذا الفعـــل بمـــا يؤكـــد مضـــمونه ، وهـــو إنـــزال **"الفرقـــان"** القرآن. أطلق عليه فرقانا لأنه فرق بين الحـــق والباطـــل بصـــفة مســـتمرة، فكلمـــا تطـــور البشر وجدوا في القرآن ما يبين الطريـــق الســـوي، النـــاجح ســـالكُه. ولأنـــه الحـــد الـــذي تحولت به البشرية من مذاهب مختلة وعقائـــد متداخلـــة، فاســـتقام لهـــا المـــنهج الكاشـــف عن الحق، المفنِّد للباطل. ونوه بـــالمتلقي للفرقـــان مقربـــا لـــه بقولـــه: عبـــده، مكلفـــا لـــه

بمهمة عظيمة: أن يكون منبها، ومحذرا للمكلفـين جمـيعهم مـن الإنـس والجـن، ممـن كان حاضرا وقت نزول الآية ولمن يأتي بعـدهم إلـى أبـد الآبـدين، محـذرا لهـم مـن الشر الذي سيحل بهم إن هم لم يهتدوا بما يبلغـه لهـم ممـا أنزلـه الله عليـه . فجمعـت الآية بين تمجيد الله، والتنويه بالقرآن المنزل مـن عنـده، والتنويـه برسـوله الـذي سـما به إلى أن جعله رسوله للعالمين جميعا. فأثبت له عموم الرسالة واستمرارها.

2-الذي له ملك السماوات والأرض...فقدره تقديرا.

أجرى القرآن على الذات الإلهية الممجدة أربع صفات:

أ–التفرد بملك السماوات والأرض. ويحقق تفرده بالملـك إنزالـه الفرقـان، فـإن المتفـرد بالملك لا يتصور أن يهمل ملكه إهمالا يسرع إليـه الفسـاد والاخـتلال. فـإنزال الفرقـان يحفظ للكون بقاءه، ويبين صلته بمالكه، الصـلة التـي لا تنكشـف علـى وجههـا الحـق إلا بما أنزله.

ب – نفـي كونـه والـدا. وهـو نتيجـة حتميـة لملـك السـماوات والأرض، إذ المالـك للسماوات والأرض وما تولد منهما وما فيهمـا، يسـتحيل أن يتخـذ ولـدا.و اتخـاذ الولـد يثبت أنه كان ناقصا قبل هذا الولد فأكمل نقصـه بـه، وهـو سـخافة لأن الولـد لابـد أن يحمل صفات والده، ومنها استعداده لملك السماوات الأرض.

جـ – نفي الشريك. وإذا انتفى أن يكون له ولد يشـاركه فـي الملـك فمـن بـاب أولـى وأحرى أن لا يكون له شريك أصلا .

د – تفرده بالخلق .ولا تقصد الآية مجرد الإيجـاد ، بـل تثبـت شـيئا وراء ذلـك ، هـي أن الخلق لم يكن على طريق المصادفة يتحقق كيفما اتفق، بـل إنـه سـبحانه خلـق كـل شيء على مقادير محددة، وقوانين مضـبوطة، عليهـا يسـير المخلـوق، وعليهـا ينسـجم مع بقية الكائنات، وبها يتم عمران السماوات والأرض كما هو مشاهد.

3- واتخذوا من دونه آلهة....ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

أثارت الآية العجب من عقيدة مشركي مكة، فـي اتخـاذهم آلهـة يعبـدونها مـن دون الله، بعد ما كشف الوحي والبيان النبوي عن انفـراد الله بالألوهيـة، ومـا أقامـه مـن الأدلـة المحطّمة للشرك ، ومنها ما ذكر في صدر السـورة. وتـم التصـريح بموجـب العجـب، ذلك أن الآلهة التي يعبدونها متصفة بالعجز الكامـل، وعـدم القـدرة علـى التـأثير، فـلا هي تستطيع أن تخلق أي شيء ولو كان تافها، إذ هي لـم تكتسـب وجودهـا مـن ذاتهـا، وإنما خلقها الذين يعبدونها، وهو منتهى السخف. ومـع ذلـك فمـا اتخـذوه مـن آلهـة لا تستطيع أن تدفع الضر عـن نفسـها، ولا أن تجلـب لهـا منفعـة، وهـذا كمـا أظهـره

إبراهيم ﷺ لما حطم الآلهة، وأحـــالهم علــى كبيــرهم .وإذا عجــزت عــن دفــع الضـــر عن نفسها أو جلب النفع، فعجزها عن تحقيق ذلــك لعابــديها مـــن بـــاب أولـــى وأحـــرى. وخاصية الألوهية التفرد ببث الحيــاة فـــي الكائنـــات، وفـــي ســلبها بـــالموت. وآلهـــتهم بعيدة كل البعد عن هذه الخاصية فهـــي لا تقـــدر لا علـــى الإحيـــاء ولا علـــى الإماتـــة ولا على بعث الأموات يوم القيامة. فبسطت الآية سُخْفَهُم ومُوجَب التعجب منهم.

4-وقال الذين كفروا إن هذا... فقد جاؤوا ظلما وزورا.

ثم سجل القرآن الباطل الذي رموا به النبي ﷺ . ومقالاتهم صادرة عما استقر فيهم من الكفر " **قال الذين كفروا**" هذا الرجل الذي يبطل آلهتكم ويقدم لكم تصورا عقديا ومنهجا في الحياة يختلف عما أنتم عليه، لا يخرج كلامه عن كونه كذبا اختلقه، لا أساس له ولا مرجع يستند إليه. وقد انضم إليه أفراد آخرون، على ما رواه أصحاب السير أنهم عبيد لبعض القرشيين، من الفرس كانوا نصارى، فدخلوا في الدين الإسلامي .

ما أفسد ما افتروا ! هم قد عرضوا ما هـــو ظلـــم صـــارخ واعتـــدوا علـــى مقـــام النبـــوة، ورفضوا الوحي الحق، وأشركوا بالله، والشـــرك ظلـــم عظـــيم. وموّهـــوا بـــاطلهم تمويهـــا وزينوه حتى خيلوه للبسطاء أنه صدق .

5- وقالوا أساطير الأولين ....بكرة وأصيلا.

ثم أضافوا لزورهم، أن القرآن الـــذي يحـــتج بـــه محمـــد إن هـــو إلا مجموعـــة قصـــص مسجلة في الكتب السابقة التوراة والإنجيل؛ طلب محمـــد مـــن العـــارفين بتلـــك الكتـــب أن تنقل إليه وتوثّق، فهو يقرأها ويعيدها في جميع الأوقات.

6- قل أنزله الذي يعلم الغيب ...إنه كان غفورا رحيما.

يأتي الرد عليهم من الله، فيلقّنُ نبيه اهتمامـــا بنصـــره ولتكـــذيب افتـــراءات المشـــركين ، قل لهم يا محمد : إن الذي أنزل الفرقان، هـــو الـــذي لا تخفـــى عليـــه الأســـرار الكامنـــة في السموات والأرض، ومنها السر المكتوم في الصـــدور. ومـــن مقتضـــيات ذلـــك أنـــه لا يُمْهِلُ من يفتري عليه ليواصل الجراءة والكذب عليه . وأنـــه إن لـــم يعجـــل لكـــم العقوبـــة في تكذيبكم وصدكم عن دينـــه فلأنـــه متصـــف اتصـــافا أزليـــا أبـــديا بـــالغفران العظـــيم، والرحمة الواسعة، رجاء أن يستفيق من قُدِّرَت لـــه الهدايـــة مـــنكم، ليتحـــول إلـــى نصـــير لهذا الدين ناشر له. وهو ما تم فعلا.

7-وقالوا مال هذا الرسول ...فيكون معه نذيرا.

عرضت الآية لونا آخر من طعن المشركين. فقـــد ضـــموا إلـــى طعـــنهم فـــي مضـــمون الرسالة " **إن هذا إلا إفك افتـــراه....**"طعـــنهم فـــي ذات الرســـول ﷺ ، أبـــرزوا طعـــنهم

في صيغة التعجب التي تقتضي استبعاد أحقية المتعجب منـــه. فقـــالوا: إنـــه يـدعي كونـــه رسولا، فما باله يأكل الطعام، ويمشي في الأســـواق طلبـــا للـــرزق؛ إن حالتـــه لا تختلـــف عن بقية الناس. اســـتبعدوا أن تكـــون أحـــوال الرســـول المبعـــوث مـــن عنـــد الله تماثـــل أحواله أحوال بقية البشر. روجوا هـــذه المقالـــة طعنـــا فـــي صـــدقه وليصـــرفوا الـــدهماء عن الإسلام، ومتابعة الرسول فيما يخبر به عن الله.

إنه يمكننا أن نؤمن به لو أيـــده الله ببعـــث ملـــك معـــه يؤيـــده فـــي التحـــذير مـــن الشـــر المرتقب ، فهلا بعث معه الله هذا الملك !

8- أو يلقى إليه كنز .. إلا رجلا مسحورا.

ولما كانت القيم عندهم قيما مادية، وأنه كلمـــا كـــان الشـــخص أوفـــر مـــالا كـــان مقامـــه أرفع وتأثير كلامه أبلغ، اقترحوا: لو أن الله أنزل عليه كنـــزا مـــن الســـماء يكفيـــه نَصَـــبَ العيش والسير في الطرقـــات. ومعلـــوم أن مكـــة بـــواد غيـــر ذي زرع، جبـــال بركانيـــة جرداء، لا سهول منبســـطة ولا عيـــون جاريـــة، فـــاقترحوا أن يحـــول الله تلـــك الطبيعـــة إلى جنة تتخللها الأنهار، وتنتج مختلف الأقوات والثمار.

قدموا هذه الاقتراحات التي يدركون أنهـــا غيـــر عمليـــة، وقـــدَّرُوا أنهـــا ربمـــا لا تـــروج على كثير من الناس، فاستنبط بعض الظـــالمين مـــنهم المتشـــددين فـــي معاكســـة الرســـول صلى الله عليه وسلم المقالة التالية : تنبهوا ولا تغفلوا، فـــأنتم مـــا تتبعـــون إلا رجـــلا نفـــذ فيه عمل السحر ، وهـــم يعتقـــدون أن مـــن يتـــأثر بالســـحر يختـــل عقلـــه، وتضـــطرب مداركه. وقد عين المفسرون وكتـــاب الســـير أســـماء الـــذين قـــدموا هـــذه الافتراضـــات . وتعيين أسمائهم لا يضيف للواقع جديدا.

9- تصورهم الآية في صورة مجموعة متناقضـــة تتخـــبط، جـــديرة بـــأن تكـــون مجـــالا للنظر في غريب أحوالها وسخف تفكيرهـــا، انظـــر إليهـــا يـــا محمـــد وهـــي تنـــزل إلـــى دركات الحضيض في تفكيرها، ومنهجها فـــي الاحتجـــاج . كـــل مـــا قـــالوه فيـــك خيـــال مريض، انظر إليهم كيف لفقوا ما لفقوه، فتاهوا في الضلال، فهـــم أبعـــد مـــا يكـــون عـــن الاهتداء لطريق واضح يضمن لسالكه بلوغ الهدف الصالح.

تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ وَيَجْعَل لَّكَ قُصُورًۢا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِٱلسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ سَمِعُوا۟ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾ وَإِذَآ أُلْقُوا۟ مِنْهَا

مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْاْ هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٣﴾ لَّا تَدْعُواْ ٱلْيَوْمَ ثُبُورًا وَٰحِدًا
وَٱدْعُواْ ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

القصور : المباني الفخمة الواسعة.

الساعة : البعث من القبور وما يعقبه.

سعيرا : التهابا.

التغيظ : شدة الغيظ ، الغضب الشديد.

الزفير : صوت من احتبس نفسه فخرج منه بقوة.

ألقوا : قذفوا في جهنم قذف إهانة.

مقرنين : مقرنا بعضهم ببعض كشأن الأسرى في شدهم بوثاق واحد.

دعوا هنالك ثبورا : نادوا بأعلى صوتهم يا هلاكنا.

بيان المعنى الإجمالي :

كثرت خيرات الله وتجاوز فضله كل تصور، إنه سبحانه قادر لو تعلقت مشيئته، أن يمكنك مما هو خير مما عرضوه وما يتجاوز تصوراتهم الضيقة، قادر أن يجعل لك جنات تتخللها الأنهار، وتقوم فيها القصور الفاخرة .ولكن الله اصطفاك لتقوم بمهمة الرسالة وأنت تجاهد في الحياة، لتكون أسوة للمؤمنين .يعظم ثوابكم بجدكم في عمران الكون، وبجهادكم لنشركم للدين.

إن السبب الكامن الذي تبعه فسادهم، هو تكذيبهم بيوم القيامة وما يتبعه. وإني قد أعددت لمن كذّب بالساعة عذاب جهنم التي تستعر نارها. جهنم التي تقترن رؤيتها من أبعد الأمكنة بسماع اضطرام نارها وفرقعة وقودها. إنهم عندما يقذفون فيها قذف المهانة، موثق كل واحد منهم إلى مثله، في مكان ضيق جدا يزيد قرينه عليه ضغطا، إنهم في ذلك الظرف ينادون: يا هلاكنا! يطلبون أن يستريحوا ويهلكوا. ويجابون: عذابكم أبدي سرمدي، فكرروا دعاء الهلاك وأكثروا منه، ولكن لا يأتيكم.

بيان المعنى العام :

10-تبارك الذي إن شاء ...ويجعل لك قصورا.

تبارك الله مالك السماوات والأرض مفيض النعم ، كثرت خيراته وفاضت آلاؤه على العالمين ، إنه لا يعجزه ولا ينقص من ملكه شيء إذا جعل لك ما هو خير مما

اقترحوه ، مما لا يخطر على بالهم ولا بلغت إليه معـــرفتهم، مـــن ذلــك أنـــه يجعــل لـــك جنات تتخللها الأنهار الجارية، ويقيم لك قصورا عظيمة.

إنه من الحكمة أن كان الرسول رجلا يعمـــل ويكـــد كمـــا يكـــد المؤمنـــون، وأن لا يكـــون مترفا يعيش عيشة الدعة والإســـراف فـــي الجنـــات والقصـــور، وأن يكـــون بـــذلك مثـــالا لأمته المجاهدة في الحياة القائمة بأمر الـــدين ونشـــره والـــدفاع عنـــه. فهـــو بمـــا أراده الله له خير قدوة للمؤمنين برسالته، فقراء كانوا أو أغنياء.

11- بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا.

ينتقل القـــرآن مـــن متابعـــة أبـــاطيلهم ويعلـــن الجرثومـــة التـــي اســـتقرت فـــي عقـــولهم فأفسدتها، إنهم كذبوا بيوم القيامة وما يتلـــوه مـــن حيـــاة أبديـــة. وهـــذه الحقيقـــة يرفضـــها الكفار رفضا كليا، وقدر الله أن يكـــون جـــزاء مـــن كـــذب بالبعـــث والحســـاب والجـــزاء نارا مستعرة يزداد لهبها. كلما خبت زدناها سعيرا.

12- إذا رأتهم ..تغيظا وزفيرا.

عذاب جهنم المستعرة هو من أحوال الآخرة التي يقصر الفكر البشري عن تصوره التصور الكامل الكاشف. والقرآن يقرب شؤون الآخرة للبشر حسب قدراتهم العقلية واللغوية.

إذا رأتهم جهنم، وأحست بهم وهم ما يزالون بعيدين عنها، أو إذا رأوها هم من مكان بعيد جدا، وشأن البصر أن يدرك الأشياء من المسافات البعيدة التي لا يدرك السمع ما يجري فيها، ولكن البصر والسمع يتحد إدراكهما لقوة ما يصدر عن جهنم من دوي مهول عبر عنه القرآن بالتغيظ والزفير .والتغيظ وإن كان حالة لا تسمع إلا أنه مجسم للشدة، وقال النقاش الزفير صوت ممدود كصوت الحمار المرجع في نهيقه. وكل ذلك تقريب لسوء حالهم يوم القيامة وإحساسهم بعذاب جهنم قبل أن يدخلوها.

13-وإذا ألقوا منها....هنالك ثبورا.

بعد أن تزعجهم جهنم أشد الإزعاج من بعيد، يساقون علـــى رغـــم مـــنهم إليهـــا، ليقـــذف بهم فيها قذف المهانة، ويُضَيَّقُ عليهم فيها، كل فرد منهم مقـــرون إلـــى مثلـــه يضـــيق بـــه كما يضيق بمكانه. يستغيثون داعين أن يعجـــل لهـــم الهـــلاك المبيـــد ليســـتريحوا. دعـــوا هنالك ثبورا.

14-لاتدعوا اليوم ...ثبورا كثيرا.

ويتَلَقَّوْن الجواب عن ندائهم: لا تدعوا بـــالهلاك مـــرة واحـــدة، ولكـــن واصـــلوا دعـــاءكم وكرروه، فإنه عذاب أبدي لا يرفع عـــنكم. فيجمـــع الله علـــيهم العـــذاب الشـــديد واليـــأس من الفرج.

قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا
﴿١٥﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٦﴾ وَيَوْمَ
يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ
هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ
مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾
فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا يَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم
مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ
لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۗ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً
أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

مسؤولا: تنفيذه محقق .

النسيان: الإعراض المتعمد.

الذكر : القرآن.

بورا: جمع بائر بمعنى هالك.

بيان المعنى الإجمالي :

قل للمشركين تهكما بهم: أيهما خير مآلكم في جهنم التي وصفتُ شيئا من عذابها ومهانتها، أم جنة البقاء الأبدي التي وعدتها للمتقين، هي جزاؤهم تحبهم ويحبونها وهي المصير الذي ينتظرونه في شوق؟ أعدتْ لهم فيها كل ما يرغبون الحصول عليه، وهم خالدون فيها لا يتحولون عنها. تحقق الوعد مائة في المائة، كأنه وعد يطلبه الموعود فيستحقه بمجرد طلبه إياه.

واذكر يا محمد يوم نبعثهم من قبورهم وندفعهم إلى المحشر، يستوون في ذلك مع الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، فيوقف المعبودون ونسألهم هل أنتم الذين أضللتم عبادي الذين أشركوا بي، ودعوتموهم لعبادتكم من دوني، أو هم وقعوا في الضلالة وتنكبوا طريق الحق باختيارهم ولم تؤثروا عليهم ؟ يجيبون بقولهم: ننزهك سبحانك أن يكون لك شريك، ولا يصح ولا يستقيم أن نعقد صلة بيننا وبين المشركين بحيث يكونون لنا تابعين. ولكن الفساد لحقهم من انغماسهم هم وآباؤهم في التنعم بما تفضلت عليهم، انغماسا أنساهم أنهم ما كانوا

ليحصلوا على ذلك النعيم لولا فضلك، فألهاهم عن التأمل في وحيك. ولأنه كان الهلاك والفساد مقوِّما من مُقوِّماتهم الأساسية. ويتوجه الخطاب للمشركين إثر ذلك؛ فُضِحتم فقد كذبكم من اتخذتموهم أربابا في أقوالكم، وهم لا يستطيعون أن يصرفوا عنكم ما يترصدكم من العذاب والخزي، ولا أن ينصروكم بشفاعة.

ثم رد القرآن ما اعترضوا به من أن الرسالة ينافيها أن يكون الرسول يأكل كما يأكل الناس ويمشي في أسواقهم، فأبان عن غبائهم، أو تعمدهم نكران الحقائق ؛ ذلك أنهم يعترفون بأنه قد سبق محمدا رسل، وأن هؤلاء الرسل كانوا بشرا يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق.

والله أراد أن لا يمنع الكافرين من فتنة المؤمنين بما يسلطون عليهم من العذاب ومن التزييف. كما أن بعض المؤمنين كان فتنة للكافرين، إذ امتنع بعضهم من الدخول في دين الله لأن هذا الدين سبق أن اعتنقه كثير من المستضعفين، وهم تبعا لاستكبارهم لا يرضون أن يكونوا متساوين معهم.

أمر الله المؤمنين بأن يصبروا، وبشرهم بأن العاقبة لهم، لأنه سبحانه بصير بكل ما يجري في الحياة، وسيظهر في الكون آثار حكمته واقعا وزمنا.

بيان المعنى العام :

15- قل أذلك خير أم جنة الخلد...لهم جزاء ومصيرا.

اهتمام بمضمون الآية، لذلك أمر النبي ﷺ أن يصرح به. قل يا محمد للمشركين تهكما بهم: أيهما أفضل، جهنم التي كشفنا عما ينتظركم فيها من عذاب ومهانة، أم جنة الخلد التي لا يخشى داخلها انقضاء نعيمها، الجنة التي وعدها الله للمتقين وأعدها لهم جزاء تقواهم، إليها يصيرون، فهي تنتظرهم وهم ينتظرون دخولها، على عكس ما وصفت به جهنم من بغضها لداخليها وبغض داخليها لها؟

16- لهم فيها ما يشاءون ...وعدا مسؤولا.

ثم صرحت هذه الآية بكلمة جامعة، تذهب النفس في تصورما تدل عليه كل مذهب. استحقوا في الجنة أن يحصلوا على كل ما يشاؤون ويرغبون فيه. وقدم من ذلك، الخلود الأبدي في نعيمها، فارتفع ما يعكر على المنعَّم نعيمه، وهو خشيته من زواله، فنعيمهم لا أمد ينتهي إليه. هو وعد محقق حصوله لا ريب فيه، لأنه صادر من ربك، التزم به تفضلا منه على عباده. جسَّمت الآية تحقق تنعمهم بما أعد لهم في الجنة، كأنه وعد يطلبه صاحبه فيستحقه. والحقيقة أنه لا شيء يجب على الله فالكل من فضله: الهداية والجزاء.

17-ويوم نحشرهم...أم هم ضلوا السبيل.

اذكر منذرا لهم يوم نبعثهم من قبورهم للمحشر، ونجمعهم فيه مع ما كانوا يعبدونه من دون الله، بما يشمل الأصنام، والملائكة، وعزيرا ،وعيسى؛ يوم يسأل الله المعبودين سؤال تقرير ليجيبوا عن أحد الشقين جوابا واضحا لا تتردد فيه. أإن ضلال الكفر والشرك الذي وقع فيه المحشورون من عبادي، كان مرتبا عن تأثيركم فيهم ، أم كان باختيارهم ، صادرا عن داعية ذاتية من تلقاء أنفسهم لا يَدَ لَكُمْ فيه؟

18- قالوا سبحانك ما كان ...وكانوا قوما بورا.

عَلَمٌ على تسبيح الله وتنزيهه من كل نقص، يستفتح به المتبرئ كلامه مبرزا تعجبه من القول الفظيع. يقدمه المعبودون من دون الله من العقلاء بين يدي كلامهم: فيقولون : إنه لا يتصور أن نتخذ عبادا يدينون لنا بالولاء والتبعية دونك ربنا ؛ أي ندرك تمام الإدراك أنك الله الذي تدين لك جميع الكائنات، فتكون تابعة لك مقرة بألوهيتك، وتبعا لذلك فإنه لا يصح ولا يستقيم بحال من الأحوال أن تكون صلتنا بأي مخلوق من مخلوقاتك، صلة التبعية لنا. تفضّلت علينا بالعصمة من الكبائر، ولا كبيرة أقبح وأسوأ من اتخاذ أحد من خلقك وليا لنا، ننصره وننضم إليه دونك. فهم يعلنون كذب من عبدهم ، وأنه تنصُّلٌ مفضوح من مسؤوليتهم ،ويقيمون بذلك الدليل على أنه لا يتصور أنهم كانوا راضين بذلك.

وإذا لم يكن سبب ضلال المشركين ما اقتروه من دعوتنا لهم لاتباعنا، فإنهم مسؤولون عن ضلالهم الذي بلغ من قبحه أنه لا يوجد متعلق لهم بالشرك إلا تنكرهم لفضلك عليهم وعلى آبائهم. فقد توالت نعمك عليهم وعلى آبائهم، فأعرضوا عن الذكر "القرآن" إعراض الناسي، والناسي لشيء لا يتأمل فيه وهو غائب عن استحضاره له. ولأنهم كانوا قوما هالكين في تفكيرهم وفي سلوكهم وبالتالي في المصير الذي هم آئلون إليه .

19- فقد كذبوكم بما تقولون...عذابا كبيرا.

فُضِحُوا بتكذيب الذين كانوا يعبدونهم، ويستندون إليهم بإعلان المعبودين أنه لا صلة بينهم وبينهم. فتوجه الخطاب إلى المشركين تبكيتا، لقد كذبكم في أقوالكم، الذين اتخذتموهم آلهة ، وأبطلوا دعواكم أنهم كانوا راضين بموالاتكم لهم وتبرأوا منكم. وهم معترفون مقِرُّون أنهم لا يستطيعون أن يصرفوا عنكم العذاب، ولا أن ينصروكم بشفاعة أو يُقَوُّوا جانبكم في هذا الموقف الصعب .

وأضاف لهذا التبكيت والتأييس المصور كأنه واقع عند نزول الآية ، التذكير بقاعدة العدل الإلهي: أنه من يظلم يجد جزاء ظلمه ، وأنتم قد فقدتم النصير والولي. وأنتم

ظالمون أسوأ ظلم. و مـــن يظلـــم مـــنكم، نســـلط عليـــه عـــذابا كبيـــرا يحـــس بـــه أبلـــغ الإحساس.

20-وما ارسلنا قبلك من المرسلين...وكان ربك بصيرا.

يوالي القرآن الرد على المشركين وتبكيـــتهم ،وإظهـــار تصـــوراتهم الخاطئـــة، فقـــد جـــاء في الآية –7– استبعادهم أن يكـــون محمـــد رســـولا لأنـــه يأكـــل الطعـــام ويجـــول فـــي الأسواق ، وذلك في زعمهم ينفي أن يكـــون رســـولا. بينـــت هـــذه الآيـــة فســـاد طعـــنهم، بأنهم يعترفون أن الله أرســـل رســـلا قبـــل محمـــد، وأن هـــؤلاء الرســـل كـــانوا بشـــرا؛ وبالطبع كانوا يأكلون الطعـــام ويمشـــون فـــي الأســـواق لقضـــاء مصـــالحهم وللاتصـــال بالأقوام الذين بعثوا لهدايتهم. فبان أن اعتراضهم هذا تشغيب لا أساس له .

لقد كان بعض المؤمنين فتنة للذين صمموا علـــى الكفـــر ، إذ قـــدموا مبـــررا لإعراضـــهم: أن كثيرا من الذين سبقوا للإيمان ضعفة الناس الـــذين ليســـت لهـــم مكانـــة اجتماعيـــة فـــي المجتمع القرشي الذي لا يقدر إلا القـــوة الماديـــة، كـــبلال وصـــهيب وآل ياســـر. كمـــا أن بعض الكافرين الغلاظ كانوا يفتنون المؤمنين عن ديـــنهم ويضـــيفون إلـــى التســـلط بـــالقوة المادية، اختلاق الأباطيل . أُمِرَ النبـــي ﷺ و المســـلمون أن يصـــبروا علـــى هـــذه الفـــتن، ويثبتوا على دينهم الذي من الله علـــيهم بالاهتـــداء إليـــه. واعلمـــوا أن الله لا يغيـــب عنـــه شيء، وأن لكل أمر أجله المقدر، فترقبوا النصر والتأييد.

۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَـٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الاستكبار : المبالغة في التكبر.

العتو : تجاوز الحد في الظلم .

حجرا محجورا : كلمة يقولها العربي إذا واجه عدوا له يخشى أن يقتله في الأشهر الحرم.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن مُقْتَرَحًـــا للـــذين لا يرجـــون أن يبعثـــوا ليحاســـبوا، حاصـــله: نحضـــك يـــا محمد أن تطلب من ربك أن ينزل علينـــا ملائكتـــه بدينـــه، أو أن يخاطبنـــا هـــو مباشـــرة. ما أشد وقاحتهم ! لقد عظُم كبرهم، وتجـــاوزوا حـــدهم، وظلمـــوا ظلمـــا كبيـــرا، بتقـــديمهم

هذا المقترح. نعم سيرون الملائكة، ولكنهم يوم يـرونهم سـيكون يـوم حـزن وأسـى لا يوم بشرى، وسيقولون بمجرد مـا يـرونهم هـذه الكلمـة التـي مـن عـادة العربـي أن يستعيذ بها عندما يرى ما يخيفه "**حجرا محجورا** " وأخبـر القـرآن أن الله قصـد إلـى مـا قاموا به من أعمال ظاهرها الخير ، فسحقها سحقا ، ذهبـت كـل آثارهـا. هـي كالهبـاء المتطاير في حزمة ضوئية نفذت من كوة فـي بيـت خافـت الضـياء . لا أثـر لهـا ولا وزن ، إذ لم تصدر عن عقيدة مؤمنة بالله

بيان المعنى العام :

21- وقال الذين لا يرجون لقاءنا...وعتوا عتوا كبيرا.

اعتنى القرآن بصفة خاصة في السور المكية بتسجيل اعتراضات المشركين، وتفنيد حججهم وإظهار باطلهم وتناقضهم؛ وجاءت هذه الآية من ذلكم النسق. إن الذين صفتهم المعَرِّفَةَ بهم : أنهم لا يؤمنون منكرين أنهم سيوقفون لنحاسبهم ، قالوا: هلا أنزل الله علينا الملائكة لنؤمن بما جئت به ولا نجادل فيه . وهذا كلام متصل معنى بقولهم: **مال هذا الرسول يأكل الطعام...** قدموا البديل أن يتخير الله من ملائكته مَنْ يبعثه ليعرف الناس بالدين الذي يرتضيه. أو يتجلى لنا ربنا تجليًا يخاطبنا مباشرة بدون واسطة. وعند ذلك نؤمن بهذا الدين الذي يصلنا عبر الملائكة أو مشافهة من الله .

العجب منهم، كيف بلغ بهم التكبـر الشـديد أن يعرفـوا الله العلـيم بأنـه كـان عليـه أن يتخير لرسالته ملائكة، أو أن يظهر لهم ويخاطبهم. لقد تجـاوزوا الحـد فـي الظلـم . هـم في آن واحد ظلموا الرسول فكذبوه، وظلموا ظلما صـارخا بسـؤالهم مـا لـيس هـم لـه أهل، بطلبهم أن يتحولوا عن طبيعتهم ليأخذوا عن الملائكة مباشرة أو عن الله.

22- يوم يرون الملائكة ...ويقولون حجرا محجورا.

ما أعظم جهلهم بالحقائق، وما أشـد غفلـتهم عنهـا! المشـركون الـذين طلبـوا أن يـروا الملائكة. أما علموا أنهم يوم يرون الملائكـة وسـيكون ذلـك يـوم القيامـة، تظهـر لهـم الحقيقة عارية، سيرونهم وقـد وُكِّلـوا بعـذابهم، إنـه لا بشـارة لمـن أجـرم باسـتكباره وعتوه عندما يرى الملائكة، بل إنه سيستولي عليـه الحـزن وسيسـتعيذ مـنهم ، يتمنـى أن لو انصرفوا عنه، ويقول هذه الجملة التي من عـادة العـرب أن يسـتعيذوا بهـا ممـن يخشون بأسه في الأشهر الحرم "**حجرا محجورا**".

23- وقدمنا إلى ما عملوا...هباء منثورا.

ما كانت أعمال المشركين شرا مطلقـا، بـل كـانوا يـأتون بـبعض الأعمـال الصـالحة. كانوا يتولـون مـثلا سـقاية الحـاج، وإطعـام الطعـام، وإغاثـة الملهـوف، ويكرمـون

الضيف. وكان يطرق أسماعهم أن الله يجازي عن عمــل الخيــر، فظنــوا تبعــا لــذلك أن عاقبتهم آمنة بفضل ما قاموا من أعمال خيــرة. فــأعلن رب العــزة أنــه قصــد إلــى مــا قدموه مما حسبوا أنه يضمن لهم حســن العاقبــة، فســحقه ســحقا حتــى صــار كالهبــاء المنثور، وهو ما يرى من الأجزاء الدقيقة تتحــرك فــي الحزمــة الضــوئية التــي تــدخل من كوة بيت خافــت النــور. أي إن أعمــالهم لمــا صــدرت عــن عقيــدة كــافرة بــالله، وقطعت تبعا لذلك عن الله ولم ترتبط بالتقرب إليه، تحللــت مــن ذاتهــا ولــم يبــق منهــا شيء ينفع صاحبه.

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلاً ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولاً ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

مقيلا: الراحة بنوم القيلولة عند الظهيرة.

تشقق: تحدث فيها شروخ تفسد نظامها.

الغمام : السحب.

الحق : الخالص.

العض : الشد بالأسنان على الشيء.

ياويلنا : صيغة تحسر، بنداء الويل بسبب ما فوتوه على أنفسهم.

أضلني: سوّل لي الانصراف عن الحق.

الذكر : القرآن.

خذولا: ممعن في ترك نصرة المستنجد به .

المهجور :غير معتنى به. مبعدا مقصيا.

بيان المعنى الاجمالي :

بعد أن فصل القرآن ما يلقاه المؤمنون مــن ضــروب التكــريم فــي الجنــة، ومــا يلقــاه المشركون من النكال والمهانة في جهــنم، قــارن بــين الحــالين وصــرح بــأن مســتقر أصحاب الجنة خير من مستقر أهل النار، تهكما بهم. ويضــيف أنهــم أحســن حــالا مــن

أهل جهنم عندما يستريحون في وقت الظهيرة. هذا الوقــت الــذي يتميــز فيــه المنعَّمــون في الدنيا بتوفر أسباب الراحة والرفاهية.

و اذكر لهم اليوم الذي تحدث فيه شروخ فــي بنــاء الســماء، وتظهــر ســحب، وتتنــزل الملائكة تنزيلا حقيقيا. هو مشهد من مشاهد يوم القيامة قرَّبــه القــرآن حســب المســتوى الفكري والعادي للناس يوم التنزيــل، وإلا فــإن أمــور الآخــرة مختلفــة الاخــتلاف كلــه عن شؤون الدنيا وما يجري فيهــا. إنــه فــي هــذا اليــوم يتفــرد الله بالملــك الخــالص، بمعنى أن الناس كانوا يدعون لأنفسهم في الدنيا شــبهة ملــك، أمــا فــي هــذا اليــوم فــلا ملك لأحد إلا لله. ويكون يومــا شــديدا علــى الكــافرين إذ يــأتون للحســاب مُعْــدِمِينَ لا يملكون ثوابا مدخرا.

في ذلك اليوم يعَض الظالم عل يديه من شدة الأسف والأسى علــى مــا فــرط فــي الــدنيا، ويقول أسفا وحسرة: يا ليتني اتخذت مع الرســول ســبيلا. متمنيــا أن يكــون قــد التــزم الطريق مع الرسول، الطريق الهادي إلــى الجنــة. ويواصــل تحســره لاختيــاره خلــيلا فاسدا في الدنيا، عمل على تلبيس الحقيقة عليــه، فصــرفه عــن الطريــق المفضــي إلــى النجاة، إلى الطريق الذي ضاع فيه فلَفَّهُ الضلال، ألهاه عــن التــدبر فــي القــرآن وهدايــة الرسول بعد أن كانت حاضرة قريبة منه. وهذا شــأن شــياطين الإنــس والجــن يخــذلون الناس فيوقعونهم في الخسران المبين.

يسجل القرآن أن النبي ﷺ توجه إلى ربه شاكيا موقــف قومــه مــن القــرآن، إنهــم قومــه الذي كان من واجبهم أن يلوذوا به ويســمعوا لمــا يقــول، كــان مــوقفهم أن عملــوا كــل جهدهم ليكون القرآن مهجورا بينهم غير ملتفت إليه.

سلّى الله نبيه، بأن مــا لاقــاه هــو ســنة الله فــي المرســلين قبلــه، أن كــل نبــي يقــوم المجرمون من قومه بمعاداتــه، وصــرف النــاس عــن هدايتــه. ويكفيــك أن ربــك هــو الهادي والنصير، مما يتضمن بشارة أن الله يُحوّل كثيرا منهم إلى الإيمان.

بيان المعنى العام :

24- أصحاب الجنة يومئذ ...وأحسن مقيلا .

في مقابل ما يلقاه المشركون في جهنم من العذاب والمهانة، يتميز أصحاب الجنة منعمين في قرار الكرامة. قد استقروا يوم القيامة في الجنة أكرَم مقر على عكس مقر الكافرين في جهنم. ويصرح القرآن بأن الجنة خير من جهنم تهكما بهم. وأبرز من نعيم المكرمين بالجنة المعاكس لما عليه الكفرة، أنهم أحسن مقيلا، لتظهر المقابلة مع ما ذكرته الآية 13 وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا.

25- ويوم تشقق السماء...الملائكة تنزيلا.

ولمّا تعرض القرآن لتكريم الصالحين في نعيم الجنـــة يــوم القيامـــة، وعــذاب المشــركين المكذبين بالبعث في جهنم، أضاف إلى ذلــك عــرض بعــض مشــاهد يــوم القيامـــة ممــا يزرع المهابة والخوف من ذلك اليوم.

اذكر اليوم الذي تشقق السـماء بالغمـام؛ يُفْهَـمُ المشـهد علـى أن السـماء تحـدث فيهــا شقوق بسبب السحب، أو أن السـماء تتشـقق عـن الغمـام أي تبــرز السـحب. أودع الله في العوالم العلوية نظاما تسير عليــه يحفــظ لهــا بقاءهــا، ودور كــل جــزء منهــا فــي المجموعة الكونية مُقَــدَّرٌ التقــدير البــالغ. أعلمــت الآيــة أن الســماوات يحصــل فيهــا شروخ، وتظهر سحب، ويحدث عقــب هــذه الظــواهر التــي يختــل فيهــا البنــاء العــام للكون، إنزال الملائكة إنــزالا حقيقيــا "تنــزيلا"، فيتحولــون مــن مــواقعهم التــي كــانوا يلازمونها في العالم العلوي، إلى مواقع جديدة يعينها لهم الخلاق العليم.

26-الملك يومئذ الحق...على الكافرين عسيرا.

في هذا اليوم ينفرد الله بالملك الحق الخالص، هــو المالــك وحــده يــوم الــدين. ويبــدو للعيان زيف ما كان يدعيه البشر من ملك ، قدموا معــدمين للمحشــر، لــيس لهــم إلا مــا قدموا من عمل . ومع تلكم الأهوال فــإن الله يلطــف بعبــاده الصــالحين، ويكــون يومــا عسيرا على الكافرين ، لا يجدون فيه رحمة ولا فرجا .

27- ويوم يعض الظالم على يديه...مع الرسول سبيلا.

واذكر أيضا :أن في ذلك اليوم تستولي الندامة علــى كــل ظــالم مشــرك، ويشــتد أســاه فيعض على يديه، لما تهيجت القوى العصبية فــي داخلــه، كمــا يصــفق الخاســر بيديــه، وكما تصحب الإشارة بالإصبع لاحتقار المخاطب ، وعــض الأنامــل عنــد الغــيض قــال تعالى: **وعضوا عليكم الأنامل مــن الغــيض** ســورة آل عمــران آيــة119 ثــم يخاطــب نفسه خطاب من فوت الفرصة وأضــاعها فخســر يقــول : يــا ليتنــي لازمــت الطريــق الذي سلكه الرسول فسلكته متبعا خطاه .

28-ياويلتى ليتني لم أتخذ فلانا خليلا.

وتتابع حسراته وقد واجه مصيره، ويتيقظ في نفســه تفريطــه، زيــادة فــي النكــال بــه، فينادي من أعماق كيانه : يا ويلتا، يا سوء حــالي، وهــو تعبيــر عــن التحســر والندامــة البالغة ، ليتني لم أصادق فلانا، ولم أُقَرِّبْهُ مني، وأصــافيه الــود مطبّقــا مــا كــان يشــير به عليَّ . يستحضر ما كان يجري بينــه وبــين خليلــه الــذي كــان يــزين لــه الشــرك، ويصده عن التأمل في كتاب الله ومضــامين الــدعوة الإســلامية، ويقويــه علــى الصــمود

في معاكسة الإسلام. وكلمة "فلان" تـدل علـى شـخص يحمـل علمـا (اسـمه الخـاص المعرف به "يرى المتكلم أن لا فائدة مـن تعيينـه. ونظـرا إلـى أن الآيـة تتنـاول كـل ظالم، وكل واحد له خليله الخاص، يكون مـن الدقـة فـي التعبيـر اختيـار لفـظ فـلان. وكل ظالم يذكر اسم خليله الذي كان يأنس به ويتبع ما يشـير بـه عليـه . ثـم يأخـذ فـي تعداد ما جره عليه من هلاك وخسران.

29-لقد أضلني ..للإنسان خذولا.

بكل تأكيد ما جنيت من صداقته إلا أنـه كـان يلـبس علـيَّ الحقيقـة، ويصـرفني عـن الخير، وعن مواصلة التأمـل فـي الـذكر "القـرآن" الـذي وصـلني فيضـه، واسـتمعت لآياته، فقام سدا بيني وبينـه. ونقلنـي مـن طريـق الهدايـة إلـى الجنـة، إلـى طريـق الضلال المفضي إلى جهنم.
ويأتي القول الفصل من الله : إن من شأن الشيطان أنـه يخـذل صـاحبه أشـد الخـذلان. والشيطان يشمل شيطان الإنس المتمثل في خليل السـوء الـذي زيـن لـه التمـادي علـى الكفر، والإعراض عن القرآن وعن أضرب الهداية التـي كـان ينشـرها النبـي ﷺ فـي الناس. وكذلك شيطان الجن في وسوسـة إبلـيس الـذي تعهـد بـإغواء النـاس، وتـزيين الكفر وعبادة الأصنام.

30- وقال الرسول يارب إن قومي ...مهجورا.

صلة محمد ﷺ بربه صلة سمت إلى أعلى درجـات الإخـلاص والحسب، هـو مـع ربـه في أوقات الشدة وفي أوقات اليسـر والرخـاء، علـى حـد سـواء، يتوجـه لـه بالشـكر والعبادة ، ويلتجئ إلـى بابـه ليُسـعده بفـتح السـبيل الـذي يـذلل بـه الصـعاب التـي تعترضه، وخاصة في أعز شيء لديه وهو هداية النـاس للـدين الـذي ارتضـاه لهـم رب العالمين . سجل القرآن الشكوى التي توجه بها النبـي ﷺ إلـى ربـه لمـا قـال لـه : يـا رب ابتهالا ونداء ، نداء من ضاقت به السبل ، ولم يبـق لـه إلا الاسـتعانة بربـه الـذي عَوَّدَهُ نصره وعدم إهماله ، يدعوه لنصره ويبـرأ لـه مـن تمـادي قومـه علـى الكفـر، وخاصة موقفهم الرافض لهذا القـرآن العظـيم الـذي أبلغـتُهم آياتـه، وتلوتُهـا علـيهم ، وكشفتُ عن حقائقه، وقامتْ به المعجـزة المناديـة بصـدقه، عملـوا بكـل قـواهم علـى طمس تأثيره وصرف الناس عنه ، حتى انتهوا إلى هجره وعدم الالتفات إليه .
وتحتمل الآية أن يكون هذا التوجه منه ﷺ إلى ربـه يـوم القيامـة فيشـكو بعـض أفـراد أمته الذين تراخت صلتهم بالقرآن فكان مهجورا بيـنهم أو كـالمهجور. يقـول ابـن زيـد: هو تنبيه للمؤمنين على ملازمة المصـحف، وأن لا تكـون الغبـرة تعلـوه فـي البيـوت،

وتشتغل بغيره. وروى عن أنس حديث سنده ضعيف قال: من علق مصحفا ولم يتعاهده أتى يوم القيامة معلقا به، يقول: هذا اتخذني مهجورا اقض يا رب بيني وبينه .

31- وكذلك جعلنا لكل نبي...هاديا ونصيرا.

سمع الله شكوى رسوله وهو السميع العليم، فسلّاه بأن عليه أن لا يرهق نفسه بالأسف على قومه. إنه على هذا النحو كان موقف الأمم من رسلهم، كان المجرمون منهم أعداء لهم ، ومن طبع على الإجرام ، ومعاداة الفضيلة لا يعمل إلا على مقاومة الهداية ونشر الشر. ويكفيك أن الله هو الهادي للناس والنصير لجهادك. وفي هذه الخاتمة بشارة للنبي ﷺ أن الله سيفتح على قلوب كثير من قومه، الذين تولوا عنه اليوم ، فيهديهم إلى اتباعه وينقلبون بعد العداء إلى ناصرين لدين الله، مما يتضمن أمره بالتدرع بالصبر والمواصلة .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا

بيان معاني الألفاظ :

لنثبت : لنبلغ فؤادك درجة اليقين الأيقن .

الفؤاد : العقل .

رتلناه: جعلناه حسن التأليف بين الدلالة.

التفسير : البيان والكشف عن المعنى.

بيان المعنى الإجمالي :

من الشبه التي ألقاها الذين كفروا قولُهم: هلا أنزل القرآن مرة واحدة لا على هذه الطريقة من إنزاله مفرقا في كل مرة آية أو أكثر. وأجابهم القرآن بأن الله أنزله على الطريقة التي أنزل عليها لحكمة، هي أن يزيد عقل رسول الله وقلبه ثباتا بكثرة اتصاله بملك الوحي، ولأنها تثبت القرآن بصفة أفضل في نفسه. وقد جعلنا نظمه متناسقا رغم فواصل الزمن بين ما نزل من آيات السورة الواحدة.

إنهم مشاغبون لا يدفعهم إلى محاجتك وتقديم اعتراضاتهم إلا ما ينسقونه من شبه، وكن مطمئنا، فإني مؤيدك فكلما جاؤوك بشبهة دمغناها بالحق، وبما هو أحسن بيانا من بيانهم.

إن وقاحتهم سيجازون عنها، أنهم سيحشـــرون منكبـــين علـــى وجـــوههم، يتقـــدمون علـــى هذا الوضع إلى أن يبلغوا مستقرهم في جهــنم . إنهــم لفـــي أســـوأ مكـــان، وإن الطريـــق الذي اتبعوه حتى بلغوا ذلكم المستقر لهو أضل السبل.

بيان المعنى العام :

32- وقال الذين كفروا لولا ...ورتلناه ترتيلا.

بلغ بالمشركين العنـــاد ومحاولـــة صـــد النـــاس عـــن القـــرآن، أنهـــم يتقـــدمون بمتنـــوع الاعتراضات، والتشغيب .و كلمـــا قمعهـــم التنزيـــل وحطًّـــم تضـــليلهم، اســـتنبطوا أمـــرا جديدا، يظنون أنهم بذلك سيهدمون قـــوة القـــرآن وقدرتـــه علـــى الانتشـــار فـــي العقـــول والقلوب. فمِمَّا اعترضوا به أن قالوا: لو كان القـــرآن منـــزلا مـــن عنـــد الله، فـــإن العقـــل يوجب أن لا ينزله مفرقا، بل يبلغه جبريـــل كتابـــا كـــاملا مجموعـــا فـــي زمـــن واحـــد. شُبْهَتُهَمْ أنه لما كان من عند الله وعلم الله لا يتجدد ، فهذا ممـــا يؤكـــد أن ينزلـــه كمـــا هـــو موحد عنده ، أن ينزله مرة واحدة لا متتابعا في أزمان وظروف مختلفة.

على هذا النحو منجما أنزلناه، وذلك تبعا للحكمة التي غفلوا عنها التي منها:

أولا: أننا أردنا أن نجعل إنزاله متتابعا ،لكيلا يكون الاتصـــال بينـــك وبـــين الـــوحي عـــن طريق جبريل منقطعا، بل كلما تنزل عليك في ظرف مـــن الظـــروف كـــان ذلـــك محييـــا للاتصال بينك وبين الوحي، ويتكرر تلقيك لـــه، وكلمـــا تكـــرر لقـــاؤك مـــع جبريـــل زادك ذلك تثبيتا وتمكينا ، ذلك أن التلقي تسمو فيه القوى الروحيـــة لتـــتلاءم مـــع ذلـــك الظـــرف

ثانيا: من ضروريات التعليم أن يكون متتابعا شـــيئا فشـــيئا، فيرســـخ فـــي العقـــل رســـوخا ما كان له أن يثبت لو ألقيت المعلومات مجتمعة.

ثالثا: أن الرسول ﷺ كان المرجع لأمته، يبـــين لهـــا بمناســـبة كـــل مسْـــتَجَدٍّ فـــي الحيـــاة المنهج الأمثل والطريـــق الأفضـــل، فكـــان الـــوحي يُنـــزّل عليـــه ليحقـــق وفـــاءه بتلـــك المهمة. فلو نزل القرآن جملة واحدة، لما وجد فـــي كـــل ظـــرف مـــا يثبتـــه ويكشـــف لـــه عن الحق في ذلك الظرف الخاص. وهـــو مـــا دون فيمـــا عبِّـــر عنـــه بأســـباب النـــزول. ومن جهلهم تقديم هذا الاعتراض، ذلك أن كتـــب الأنبيـــاء الســـابقين، ومـــا بقـــي موجـــودا منها لم ينزل أيٌّ منها جملة واحدة، فهذه سنة الله فيما ينزله على رسله.

ورتلناه، أي راعينا أن يكون مفرقا منسقا غيـــر متـــراكم ليـــتم بـــذلك الإعجـــاز. إذ شـــأن ما يؤلفه البشر، أنه إذا تباعدت أزمان ما بين الكـــلام ،ظهـــر عـــدم الارتبـــاط والفجـــوة، أما القرآن فقد أنزلناه مفرقا على أزمنة، ومع هذا فأنـــت إذا نظـــرت إلـــى الســـورة كلهـــا وربما نزلت في أزمة قد تكون متباعدة، تجد نسقها واحدا لا نشاز فيها ولا تَقَطُّع .

33-و لا يأتونك بمثل ...وأحسن تفسيرا.

هذا رد عام يفيد أن كل معارضاتهم باطلة يكشف الله زيفها ، وبشارة للنبي صلى الله عليه وسلم ، أنه يبطل ما يقدمونه من أمثال، وشبه لا حقيقة لها . يبطلها بأن يوحي إليك، فيجيئك عن طريق جبريل الحق، الذي حاولوا تغطيته وطمسه. ويكون إبطال شبههم أحسن من العرض الذي صاغوا عليه شبههم ، العرض الذي بذلوا كل جهودهم فصاغوه صياغة جودوا فيها ما شاء لهم التجويد، فإذا جاء الرد عليهم زال ما كان في كلامهم من حسن ، كما سقط مضمون ما جاءوا به .

34-الذين يحشرون...وأضل سبيلا.

على إن وقاحة المشركين الذين ذكر القرآن صورا من مواجهتهم لرسول الله وللوحي المنزل بالتكذيب وتركيب الشبه ، استحقوا بذلك أن يحشروا يوم القيامة يمشون على وجوههم حتى يصلوا إلى مستقرهم في جهنم .تمت الصورة وارتسمت بهذا التعبير الدقيق فبلغت حدا :أن اصبحت حاضرة في النفس فأشير إليهم "أولئك" بأنهم في شر مكان وأقبح صورة ، تبعا لما اتخذوه من أشد الطرق ضلالا .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَا مَعَهُۥٓ أَخَاهُ هَٰرُونَ وَزِيرًا ﴿٣٥﴾ فَقُلْنَا ٱذْهَبَآ إِلَى ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٦﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ ٱلْأَمْثَٰلَ ۖ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

وزير: معاون لموسى في أداء مهمته .

التدمير : الإهلاك.

آية : دليلا واضحا على مصير المكذبين للرسل.

القرن : القوم المقترنون في زمن واحد، جمعه قرون.

التتبير: التفتيت و الإهلاك.

أمطرت مطر السوء :عذاب نزل عليهم من السماء في صورة حجارة من كبريت.

السوء : العذاب.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد آتينا موسى التـوراة، وأيـدناه بأخيـه هـارون ليكـون لـه مُعينًـا ونصـيرا، وأمرناهما بـأن يتوجهـا إلـى فرعـون وقومـه المكـذبين بالأدلـة الواضـحة البينـة ، فبلغوهما ما أرسلتهما به، وأقاما علـيهم مـا ينفـي كـل شـبهة فـي صـدقهما، ولكـنهم كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميرا، وابتلعهم البحر، ولم ينج منهم أحد.

وكذلك فعلنا بقوم نوح لما كذبوا الرسل ، ونفوا أن يتخـذ الله رسـولا مـن البشـر، فكـان مآلهم الغرق الذي لم يُبْق أحدا مـن المكـذبين. وهـذه هـي الطريقـة التـي نعامـل بهـا الظالمين. نسلط عليهم عذابا يحسون بألمه شديد الإحساس.

وكذلك أهلكنا قوم عاد وقوم ثمود وأصحاب الرس، وأممـا كثيـرة مضـت فـي التـاريخ بينها أزمنة متباعدة ،الذين رفضوا الاستجابة لهداية رسلهم. لقـد بينـا لهـم بيانـا يزيـل كل شبهة ويقرب كل بعيد ، فلما استولى علـيهم العنـاد فَتَّتْنَـاهم تفتيتـا كوضـع البلـور المهشم. ومن العجيب أن قريشا تمر في سـفرها إلـى الشـام علـى قـرى قـوم لـوط ، ويرون الدمار الذي حل بقرية سدوم كبرى القـرى التـي أنـزل الله عليهـا حجـارة مـن كبريت ورماد، متتابعة من السماء كـالمطر. مـالهم ألـم يروهـا فيتعظـوا بهـا، وتكـون لهم مُوقِظَةً لما يترصدهم من أن يحل بهم ما حـل بهـا ؟ولكـن الـذي حجـب بصـائرهم عن الاعتبـار: أنهـم كـانوا لا يرقبـون أن يبعـثهم الله ليحاسـبهم عـن أعمـالهم يـوم النشور.

بيان المعنى العام :

قصص القرآن قد تأتي مفصلة، وقد تأتي لفترة مـن فتـرات الرسـل، فتنبـه بمـا تقصـه على سنن الله في الكون، وتزجر المعانـدين بمـا يترصـدهم مـن سـوء العاقبـة الـذي سيحل بهم، كما حل بمـن قـبلهم. وتؤيـد المـؤمنين، وتثبِّـت قلـوبهم علـى الصـمود ومواصلة الصبر. وقد يكون إعجاز القـرآن يقتضـي أن يعـرض القصـة فـي ومضـة خاطفة تلتقي فيها البداية والنهاية، لينذر المعاندين فلا يضـيع تـأملهم فـي ثنايـا القصـة، بل يهددهم بما يؤول إليه إعراضهم سـريعا، الـذي يـؤول بهـم إلـى مـا آل إليـه مـن قبلهم. وعلى هذا جاءت الآيات التالية.

35-ولقد آتينا موسى ....معه أخاه وزيرا.

من المؤكد أنا مكنا موسى من الكتاب المعتمد على وحينا. وهـو مـا نـزل علـى موسـى عليه السلام يوم خاطبه ربه فـي الطـور، وتواصـل إنزالـه طيلـة فتـرة نبوتـه. ومـن الكتاب الوصايا العشر التي تلقاها يوم كانت بنو إسرائيل فـي التيـه. وفـي التـذكير بهـذا

من أول الآمر ما يدفع شَغَبَ المشركين فـي قـولهم: لـولا أنـزل عليـه القـرآن جملـة واحدة. فإن بين نزول الكتاب الذي أخبرت به هذه الآيـة لمـا كلفـه الله بتبليـغ مـا أمـر به إلى فرعون، وبين الوصـايا العشـر فتـرة زمنيـة طويلـة، وكـل ذلـك مثبـت فـي التوراة.

وفي التذكير بجعل أخيه هارون معاونا مسـاعدا لـه علـى القيـام بمهمـات الرسـالة مـا يشير إلى الرد على المشركين لمـا قـالوا: لـولا أنـزل عليـه ملـك. فموسـى ﷺ أُيـد بأخيه ، ولم يُؤَيَّدْ بملك .

36- فقلنا اذهبا...فدمرناهم تدميرا.

أمرهما بأن يذهبا مبلغين ما أمـرا بتبليغـه إلـى القـوم الـذين يُعَرِّفـون بـأنهم بـادروا وصمموا على التكذيب بآيات الله، فعجَّـل الله عقـوبتهم بـالإهلاك المـدمر. وكمـا ذكرنـا في المفتتح أن نظم هـذه الآيـات لـيس التفصـيل، ولكـن فـي لمحـة خاطفـة يعـرف المشركين بمآلهم الذين سيكون على وزان مصير فرعون وملئه.

37 –وقوم نوح لما كذبوا...عذابا أليما.

يتتابع عرض ما حاق بالمكذبين على نفس النسـق الـذي عرضـت بـه قصـة موسـى، فعطف على قوم موسى المدَمَّرين قـوم نـوح، كـان مصـيرهم واحـدا، بسـبب تكـذيبهم للرسل. وقومُ نوح لم يكذبوا إلا نوحـا، ولكـن مقـالتهم تـدل علـى أنهـم لا يقبلـون أن يبعث الله بشرا رسولا: **(ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم)** [1].

هيأ الله لهم العذاب بسبب ظلمهم بالشرك الـذي هـو أعظـم الظلـم ، وبجـراءتهم علـى رسلهم . وهذا العذاب يشمل عذاب الدنيا، وقد تم بالغرق فـي قـوم نـوح، كمـا أخـذ بـه فرعون وأتباعه. ويفيد أنهم سيُعَذَّبون يـوم القيامـة أيضـا، العـذاب الألـيم الـذي يبلـغ الإحساس به أعلى درجات.

38←39، وعادا وثمودا...وقرونا بين ذلك كثيرا.

علـى نفـس النسـق هـددت الآيـة المشـركين، أن مصـيرهم كمصـير عـاد وثمـود وأصحاب الرس، ومصير أمم كثيرة بين نوح ومـن جـاء بعـده. أن الله دمـرهم تـدميرا أيضا. وأصحاب الرس: هم قوم تم تـدميرهم لتكـذيبهم رسـولهم، هـذا مـا يـدل عليـه العطف على عاد وثمود. ويبقى السؤال من هم أصـحاب الـرس ؟ هـل هـو واد أهلكـوا فيه، أو هو بئر رموا فيه نبـيهم، أو هـو جانـب مـن بـلاد فـارس، أو هـو بئـر فـي أنطاكية؟ ذكرت له معان كثيرة. والـذي تـرجح عنـدي أن المخـاطبين بـالنص القرآنـي

[1] سورة المؤمنون آية 24

كان مصداقه معلومـا عنـدهم، وأن القـرآن هـددهم أن يكـون مـآلهم كمـآل أصـحاب الرس، وهم معروفون عندهم، ولما كانوا قوما هلكوا في التـاريخ ولـم يبـق مـن آثـارهم إلا ما تناقله الأخباريون عنهم، فلـذلك كثـرت الفـروض فـي تعيينـهم. ولا يهمنـا لفهـم النص القرآني تعيينهم.

وقرونا بين ذلك كثيرا – وبين تلك الأمـم التـي صـرحنا باسـمها "قرونـا "أممـا كثيـرة أهلكناها. والقرآن لم يتعرض لها مفصَّلة بل بالإشارة العامـة الدالـة علـى كثرتهـا وبُعْـدِ ما بينها في الأزمان. وهذا النص يدل على أن مـا يـذكره النسـابون فـي كتـب السـيرة وفي كثير من كتب التفسير من ضبط سلسـلة النسـب لـبعض الأنبيـاء الضـاربين فـي آماد بعيدة، لا يطمأن إليه ، ومعظمه مأخوذ من التـوراة التـي لا نثـق بصـحة مـا ورد فيها لما دخلها من التغيير عبـر القـرون ، وضـياع الـنص الأصـلي المكتـوب باللغـة العبرانية القديمة التي لا يوجد اليوم من يعرفها.

ثم سحبت الآية عليهم أمرين :

أولهما: أن الله بَيَّنَ ما أنزله إلى كـل أمـة مـن الأمـم، فضـرب لهـا الأمثـال المقرِّبَـة للحقيقة البعيدة. ذلك أن المثل يتضـمن تشـبيه المعـاني، التـي ربمـا تستعصـي علـى بعض المخاطبين، بما هو قريب منهم حتى يتجلى المـراد وتتميـز دلالتـه بمـا ضـرب من مثل. فضرب المثل يدل على أنه راعى فـي خطـابهم مـا لا يعسـر علـيهم إدراكـه مقربا له بضرب ما يشبهه ومقارنته به. وفي ذلـك تنبيـه لمشـركي مكـة أنهـم لا عـذر لهم في صدودهم عن قبول القرآن الذي يسر لهم إدراك مراميه بضرب الأمثال .

وثانيهما: هددهم بأن الأمم المذكورة بالنص والمشار إليها، قـد سـلط عليهـا مـن العقـاب ما فتتها تفتيتا" تبرنا تتبيرا"، أي سحقها سَحْقًا لم يُبْقِ لهم مقوما من مقومات الوجود.

40- ولقد أتوا على القرية ...كانوا لا يرجون نشورا.

ومن العجيب أن تجار قريش يمرون في طـريقهم إلـى الشـام علـى قـرى قـوم لـوط، ويشاهدون كيف تحولت إلى خراب. وأعظمها " سـدوم " أنـزل الله عليهـا مـن السـماء حجارة كبريتية تتباعت كالمطر. هو مطر العـذاب الـذي فتـتهم تفتيتـا كالزجـاج عنـدما يتحطم .ولكنهم لم ينتفعوا بتلكم المشاهد ، فصـدرت الآيـة علـى طريقـة التعجيـب مـن حالهم: أفلم يكونوا يرونها ؟إذ عـدم اعتبـارهم بالمشـهد جعلهـم كمـن لـم يـر الأثـر المحرِّك للاعتبار، فهو إنكار عليهم وتهديد لهم بأنـه سـيجري علـيهم مـا جـرى علـى سدوم. ثم انتقل البيان القرآني لإبراز سـبب عـدم اعتبـارهم : أنهـم كـانوا لا يؤمنـون بالبعث والنشور. وذلك هو الصارف لأبصارهم عـن التأمـل ولأذهـانهم عـن الاعتبـار.

فالذي قَصُرَ ذهنه عـن تصـور البعـث والجـزاء لا يسـأل ولا يتأمـل فـي التحـولات والعواقب التي ترتبط بالمشاهد، ويختلط عليه الخير بالشر.

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولاً ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ۚ وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٢﴾ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

هزوًا: محل استهزاء وسخرية .

الصبر: الثبات على ما يشق عمله على النفس.

الوكيل : القائم على الأمر الناهض به .

بيان المعنى الإجمالي :

حارب رؤوس الكفر النبي ﷺ بجميـع الوسـائل ليحولـوا بـين الإسـلام ودخـول النـاس فيه. قاوموا بالحرب النفسية ، فمـن ذلـك أنـه إذا مـر علـى مجـامعهم أشـاروا إليـه باستهزاء قائلين: أهذا العبد البسيط هو من بعثـه الله رسـولا لـه ؟ لقـد كانـت لـه قـوة على الحجاج فقد كاد يبلغ مراده من إضلالنا عن عبـادة آلهتنـا، ولكننـا صـمدنا وصـبرنا على مقاومته حتى أنقذنا أنفسنا من خلابة لسانه، وبقينـا أوفيـاء لآلهتنـا. وجـوابهم عـن فساد تفكيرهم: أنهم سيعلمون يوم ينزل بهم العـذاب مـن السـائر فـي طريـق الهدايـة، ومن الذي أطبقت عليه الضلالة.

عجب من الذي صيَّر هواه إلها معبودا؛ يتبـع فـي سـلوكه واختياراتـه مـا يمليـه عليـه الهوى، وتدعوه إليه شهواته. أفأنت تكون عليه فيما تعيـده إلـى سـلوك الرشـاد بعـد أن صمم على ذلك ؟ فلا تحزن عليهم .

أتظن أن أكثر المشركين ينتفعون بمـا يسـمعون، وتصـل آيـات القـرآن إلـى عقـولهم لتقيمها على ما يعود عليهم بالخير في الدنيا والآخـرة. لا ! هـم كالأنعـام التـي لا تعقـل ما تسمع، ولا تهتدي بالحجة والمنطق، بـل هـم أضـل مـن الأنعـام وأسـوأ حـالا. لأن الأنعام لم ترزق عقلا تفهم به وتتأمل ما يرد عليها مـن الآيـات البينـات، فلهـا عـذرها،

أما المشركون فهم قد عطلوا ما رزقهـم الله مـن قـوى عقليـة، وأصـموا آذانهـم عـن الاستماع إلى ما تبلغهم من الوحي الهادي.

بيان المعنى العام :

41-وإذا رأوك إن يتخذونك ...الذي بعث الله رسولا.

سجل القرآن ما كان يلقاه النبي ﷺ من أذى كفار قـريش ،ومنـه الحـرب النفسـية ، فـإذا مر النبي ﷺ أمام مجمع من مجـامعهم ، رفعـوا أصـواتهم لإذايتـه والاسـتهزاء بكـريم مقامه عند الله وعند المـؤمنين، مسـتهزئين بـه، يتحـدثون فيمـا بيـنهم بمـا يُسْـمِعُونَه قائلين: أهذا المار أمامكم هو الذي بعثه الله رسـولا يبلـغ كلامـه ؟ يلمزونـه بأنـه لعلـو أخلاقه يمر مر كـرام النفـوس الـذين طهـر الله قلـوبهم مـن الكبـر، ومظهـرهم مـن الخيلاء، لا يصعر خده للنـاس، ويخـالط الفقـراء والمستضـعفين. يـرون أن المسـتحق لأن يكون رسولا، من كان علـى شـاكلة كبـرائهم المسـتكبرين فـي الأرض المتعـالين عن الناس .

42 -إن كاد ليضلنا عن آلهتنا. ..من أضل سبيلا.

يقرنون إشارتهم إليه المحقـرة لشـأنه، بافتخـارهم بأنفسـهم: أنهـم لقـوة بأسـهم وشـدة شكيمتهم ثبتوا على عبادة أصنامهم. لقد قارب محمـد أن يضـلنا فيقطـع مـا بيننـا وبـين آلهتنا من صلات، ويُحَوِّلَنا عنها، لكننا صمدنا، وصـبرنا علـى عبادتهـا رغـم تشـكيكه، ففوتنا عليه ما أراد أن يبلغه منا. يتولى القرآن الـرد علـيهم ، بمـا يشـير أولا إلـى أن تشددهم في الكفر أعمـى بصـيرتهم ، وحجـب عـنهم رؤيـة الحـق الواضـح، وأنهـم سيستمرون على ذلك ، إلى اليوم الـذي تنكشـف فيـه الحقيقـة الناصـعة، يـوم يـرون العذاب النازل عليهم الذي لا يستطيعون له مردا، فعنـد ذلـك يعلمـون مـن اتبـع طريـق الهداية المنجي، ومن اتبع طريق الضلال المردي .

43- أرأيت من اتخذ ... عليه وكيلا.

يخاطب القرآن محمدا صلى الله عليه وسـلم فيقـول: أرأيـت، سـؤال تعجـب مـن أمـر قومه الذين كان شديد الحرص على هدايتهم. عجب أمر هـذا الـذي صـير إلهـه هـواه. الإله الذي لا بد أن يكون له من العظمـة والكمـال، مـا يسـتحق بـه العبـادة ويوجـب التقرب، يجب أن يكون فوق العابد يحـتم كمالـه الخضـوع لـه، ولكـن المعْـرِضَ عـن دين الإسلام صيَّر إلهه هوى نفسه؛ وما الهـوى إلا اسـتجابة للغريـزة وتعطيـل للعقـل. أي جعل إلهه الشيء الذي يهوى عبادته دون تعقل. فـإذا أعجبـه مـا نحتـه مـن خشـب أو من رخام عبده واتخذه إلها. وإذا عرض له مـا يسـتهويه أكثـر انتقـل إلـى عبادتـه.

ويحتمل أن يكون المعنى : أرأيت من اتخذ هواه إلهـا يطيعـه ، فهـو يسـير فـي حياتـه على اتباع الهوى والعواطف ودعوات الغريزة. والمراد مـن ألوهيـة الهـوى أنـه مطيـع له؛ والذي يتحكم في سلوكه، وفي علاقاته البشـرية هـو هـوى الـنفس، والعقـل مهـزوم أمام تمرد الشهوات ومطالب الغريزة .فالهوى شبيه بإلهـه بجـامع الطاعـة فـي كليهمـا. أتستطيع أن تكون وكيلا قائما على هـذا الـذي بلـغ مـن مسـايرته لشـهواته أن كانـت معبودته، أتستطيع أن تقف حائلا بينه وبـين مضـيه فـي طريقـه المنحَـل. فهـو سـؤال إنكاري مساو للنفي: أي لا تستطيع ذلك.

44- وانتقل الكلام بواسطة "أم" ليجـري علـى نفـس الطريقـة قبلـه، سـؤال إنكـاري : أتظن وأنت تدعوهم، وتكرر دعوتـك، وتجهـد نفسـك لإقامـة الحجـج البينـة، وتُلْفـت أسماعهم إلى الآيات المحكمة في القرآن، أتحسـب أنهـم يسـمعون كلامـك، أو يفهمـون حديثك وما تريد أن تحرك به عقولهم ؟ لا شـيء يحصـل مـن وراء ذلـك؛ نعـم لهـم آذان ولكنها معطلة عن وظيفتها ، فلا تنفذ المسـموعات مـن خلالهـا إلـى العقـل الـذي يتأثر بها ويحللها. ومـن دقـة القـرآن أن نسـب هـذا التعطيـل لأكثـرهم، لأن مجتمـع الكفر كان بعضهم له من النباهة والقـدرة علـى التفكيـر مـا تتحـرك بـه قـواه العقليـة ،ولكن حظوظ الرئاسة وأنَفَـتهم مـن انقلابهـم تـابعين صـدَّتْهم عـن الإيمـان؛ والحالـة المشنع بها هي حالة الدهماء الذين وصفهم القرآن بأنهم أشـبه مـا يكـون بالأنعـام التـي تسمع صوت من يسوقها فتستجيب له، بل إن هؤلاء أحـط مـن الأنعـام، لأن الأنعـام قـد تفهم من رعاتها ما يدفعها إلى التجمع أو ورود المـاء ونحـو ذلـك، وهـؤلاء لا ينتفعـون بشيء مما يقرع أسماعهم من الإرشاد والتبيين.

أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ
دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا
وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ
يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا
وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟
فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

المد : البسط مثل مد اليد.

القبض: ضد البسط، النقص.

يسير: يحدث شيئا فشيئا.

لباسا: ساترا.

سباتا : كلمة تشير إلى معان عديدة، أقربها للنص الراحة.

أرسل : وَجَّهَ.

نشرا : تبسط السحب.

رحمته : المطر.

طهورا : بالغ أعلى حدود الطهارة، والصفاء.

بلدة : البلد .

الأناسي : البشر.

بيان المعنى الإجمالي :

انتبه لتكون واعيا لهذا المظهر المتجـدد كـل يـوم، والـذي قـد يكـون تكـرره بصـفة منتظمة يغطي ما فيه من عجائب الصنع. ألم تر يا محمد وكـل مـن يمكـن لـه أن يـرى ببصره ويعي بفكره، الطريقة التي يتصـرف بهـا الله فيمـد الظـل علـى البسـيطة كـل صباح بين الفجر وطلوع الشمس ،وانتبه إلى أن هـذا الظـل يسـير مـع قـانون الكـون فهو غير ساكن ولا ثابت ،هو فوق ذلك مـرتبط بالشـمس تحولـه وتزيلـه ، ومـن هـذا الارتباط اكتشف الإنسان مقدار الدقـة فـي التنظـيم الكـوني. وفـوق ذلـك أن نقصـانه يعود به إلى تصرفنا فيه، فهو نتيجة حركة كوكب الأرض، يـتم فـي لطـف وفـي يسـر لا يحس به إلا البصر والفكر. فسبحان الله مدبر الكـون ومجريـه علـى نظـام لا يختـل. إن من ألطافه التي يسرها لكم، أنه جعل لكـم الليـل سـاترا لمـا يحويـه الكـون فتأخـذ الحواس في الهدوء وتتهيأ للنوم الذي يقطعها عـن العـالم الخـارجي، فتأخـذ حظهـا مـن الراحة، ليعود لها نشاطها من جديد في النهار ، وقـد ارتفـع لبـاس الليـل، فتنتشـر فـي الكون كما يبعث الموتى من قبورهم بعد غيابهم عن العالم .

واختص سبحانه بتوجيه الرياح لتبسـط السـحب بسـطا يبشـر بقـرب رحمتـه، فيهيئهـا لنزول الماء منها، الماء الـذي بلـغ مـن النقـاوة ومـن الصـلاح ومـن الطهـر أعلـى الدرجات؛ يلائم مختلف طبائع البشـر والحيـوان والنبـات. يحيـي بـه الله البلـد الميـت الذي جرده المحل من كل ظاهرة حياة، فتسري بعد نزولـه الحيـاة فـي جنباتـه بالنبـات والحيوانات الراعية، والبشر العامل. تحصـل لهـم بـه السـقيا مباشـرة أو بمـا يختـزن فينبع منه العيون وتجري به الأنهار ، وتمتلئ منه السدود والصهاريج.

إن توزيع مياه السحب على الأرض يجري بقدر مِنْ منظِّـــم الكـون، وفـي ذلـك مـا يدعو الإنسان للتفكر، فوجود السحاب والرياح فقـط لا تنـزل بـه الأمطـار، بـل لا بـد من أن تتعلق الإرادة والقدرة الربانية بـذلك ؛ وإلا فكثيـرا مـا تنشـأ السـحب وتتحـرك الرياح فتمزقها ولا تبض ولو بقطرة من ماء . ولكـن كثيـرا مـن النـاس صـمموا علـى الكفر، وعزلوا ظواهر الكون عن الفاعل فيهـا، الـذي يجعـل الأسـباب الظـاهرة منتجـة أو عقيمة.

بيان المعنى العام :

45←46: ألم تر إلى ربك ...قبضا يسيرا.

نعت الآية السابقة على الكافرين ضلالهم وعبـادتهم لشـهواتهم، وانحـرافهم عـن التـدبر في ما نُزِّل إليهم من الحق ،وأنهم بذلك ساووا الأنعـام بـل هـم أضـل، إذ لـم يسـتفيدوا من الإمكانات التي خصهم الله بها . وواصلت هذه الآية لفـت الأنظـار إلـى مظهـر مـن مظاهر الكون يفضي بالتأمل فيه إلى الإيمـان بـالله، وتخصيصـه بالعبـادة. وذلـك فـي ظاهرة الظل .

افتتحت الآية بلفت الأنظار وإثارة الانتباه لهذه الظاهرة التـي تتكـرر علـى الكـون كـل يوم في نظام لا يختل، فتُحَرِّك خوامد حواسنا التي نوَّمها طـول الألفـة فغطـي علـى مـا فيها من عجيب التقدير. وقد جاءت صياغتها علـى طريقـة السـؤال الـذي يثيـر الـذهن ولا يتطلب جوابا. توجَّه السؤال إلى النبي ﷺ أولا، ثـم لكـل مـن تصـح منـه الرؤيـة. وهي صالحة للرؤية البصرية باعتبـار أنهـا ظـاهرة مرئيـة، وصـالحة أيضـا للرؤيـة العلمية، بالنظر إلى مصدرها وهو " **ربك** " ألم تعلم. لتشـمل الغافـل تحريضـا لـه علـى النظر، وتشمل الجاحد منكرة عليه إهمال التأمل ، والموفـق ليتعمـق فيظفـر بتأكيـد بـرد اليقين ويزيد الله الذين آمنوا إيمانا. فما هي هذه الظاهرة ؟

يترجح عندي أن هذه الظاهرة حسب التعبيـر القرآنـي تسـجل وضـع الكـون مـا بـين طلوع الفجر، وشروق الشمس، عندما ينسحب علـى البسـيطة ظـل مديـد عـام شـامل. هو مظهر الكون وقد تقشـعت الظلمـة الحاجبـة، وأخـذ البصـر يحـس بـالموجودات . وينبهك القرآن في رفق كرفق ظلال الصبح قبل طلـوع الشـمس، إلـى أن هـذا الوضـع ينسحب عليه القانون الذي أجرى عليه الباري سبحانه بنـاء الـدنيا : كـل شـيء يتحـرك حركة تفضي به إلى الزوال . إن الظل المديد لم يـرد الله أن يجعلـه خارجـا عـن سـنة الكون، باقيا على وضعه، سـاكنا لا يتحـول؛ بـل أراد أن يجعلـه متحركـا يسـير إلـى الزوال. وكيف يتم ذلك ؟ إنه فوق ما تمثلـه الصـورة التـي تلـف الكـون كلـه ، نظـم

الخلاق العليم الشمس مـــع الأرض تنظيمـــا جعلهـــا تأخـــذ ذلـــك الظـــل فتحركـــه حركـــة مقدرة تقديرا دقيقا ، فإذا هـــو يعطينـــا ضـــبطا للـــزمن ، بنـــى عليـــه الفلكيـــون الســـاعة الشمسية " المزولة" البالغة من الدقـــة أقصـــى حـــد. وظـــاهرة أخـــرى لا يـــدعنا القـــرآن نغفل عنها، هي أن تلكم الحركة وانقباض الظـــل وغـــزو أشـــعة الشـــمس لمســـاحاته يـــتم بيُسْرٍ عجيب. إن تحرك الظل التابع لحركة الأرض كلها بانتقالهـــا مـــن موقـــع إلـــى آخـــر بالنسبة للشمس، إن تصور الأرض بجبالها ومحيطاتهـــا ومـــا هـــو علـــى ســـطحها، ومـــا هو في باطنها ، كل ذلك يتحرك ليتحرك بحركته الظـــل، ينبهنـــا القـــرآن أنـــه رغـــم أنـــه تحول عظيم جدا ، فإنه يتم تحقيقه ببسر، بحركة متتابعـــة بـــلا طفـــرة، وبـــدون اهتـــزاز ولا ارتجاج. وانتبه إلى قوله تعـــالى: إلينـــا، ومـــا يشـــير إليـــه مـــن أن التـــدبير الإلهـــي يتجدد مع كل لحظة ، تبارك الله مدبر الكون ومجريه على أتم نظام وأكمله .

47- وهو الذي جعل لكم....وجعل النهار نشورا.

يواصل القرآن لفت الأنظار لنتعمق في مظـــاهر الكـــون فـــأتبع ظـــاهرة الظـــل بظـــاهرة تقلب الكون بين الليل والنهار، وما في كل منهما من نعمة ولطف بالإنسان.

تفرد الله بالتصرف المقدر لكل شيء ولآثاره ولعلاقتـــه بغيـــره. فهـــو وحـــده الـــذي جعـــل الليل ساترا، كأن الكون كله وما فيه يلبس لباســـا يحجبـــه عـــن الأنظـــار. وبهـــذا الســـتر الحاجب تجد الحواس راحتها من متابعة الموجودات، فتهـــدأ بعـــد نشـــاط لازمهـــا فتـــرات النهار .فيتلو فترة ستر الكون بالليل إعـــداد الإنســـان لينقطـــع شـــعوره بمحيطـــه، وأعقـــب بحكيم تقديره ذلك بالنوم، وأبدع في التعبير عن أثـــره بأنـــه ســـبات قـــاطع للإنســـان عمـــا يجري حوله، وقاطع للإنسان عن اليقظة، الحالة التـــي تشـــبه المـــوت، وهـــو مـــا تشـــير الآية : **(الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فـــي منامهـــا فيمســـك التـــي قضـــى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مســـمى إن فـــي ذلـــك لآيـــات لقـــوم يتفكـــرون)**[1] وبنفس التقدير المحكم قابل سبحانه الانقطاع بالنوم الشـــبيه بـــالموت ،قابلـــه ببعـــث النيـــام بتأثير ضوء النهار ،لينشطوا في الحياة ويسعوا في كون الله مـــن جديـــد .وفـــي ذلـــك مـــا يبعث العاقل على التدبر في هذه الظاهرة التـــي تقـــرب لـــه فهـــم البعـــث يـــوم القيامـــة ، واختيار كلمة النشور من بديع التعبير القرآني يقرب استحضار هذه العقيدة .

48←49: وهو الذي يرسل الرياح...وأناسي كثيرا.

من تقلبات الكون التي تفرد سبحانه بتسييرها ، ظـــاهرة الريـــاح التـــي يحركهـــا فتجـــري حسبما حدده لها. هذه الحركة التي يحدثها سبحانه في الهـــواء حســـب قـــوانين هـــي مـــن

[1] سورة الزمر آية42

عجيب صنعه أيضا، فيؤثر بها في تكوين السحب وتجميعهـا ، تنتهـي إلـى إنـزال المساء من السماء ، إذا أراد ذلك . وخـص المـاء النـازل مـن السـماء بكونـه بالغـا أعلـى درجات الصفاء الذي يؤثر في غيره فيكسبه الطهارة بعـد القـذارة؛ ثـم هـو يـؤثر فـي الأرض فيختلط بها محييا بعد أن كانت ميتة قاحلة، بمـا ينبـت فيهـا مـن عشـب، ومـا يتبعه من انتشار الأنعام في أرجائها تحيا بمـا ترعـاه، فتنجـب وتتكـاثر. ثـم هـو سُـقيا للأنعام وللبشر التي رحمها بماء السماء لأنها خلقُـه، ولا أرحـم بالعبـاد مـن خالقهـا. إن ذلك يقوم دليلا على تفرد الله بالتصرف فـي الكـون، وعلـى ربـط الظـواهر ببعضـها ليرتب عليها من الحوادث ما قـدره بحكمتـه أحسـن التقـدير. ومـن قطـرات الأمطـار جرت الأنهار العظيمة، واختزن باطن الأرض مـا اختزنـه، واحـتفظ الإنسـان بكميـات كبيرة في الصهاريج والسدود.

50- ولقد صرفناه بينهم...إلا كفورا.

هذه الرياح تثير السحب وتجري بها في السماء، فتـروي مكانـا وتنـأى بهـا عـن مكـان آخر ، اختص الله منشـئها بالتصـرف فيهـا. إن فـي ذلـك مـا يـوقظ البشـر إلـى أن الظواهر الكونية ليست فاعلـة وحـدها بـذاتها، ولا تترتـب عليهـا آثارهـا علـى أنهـا أسباب كاملة، لكن الذي يعطيها فاعليتها هو خالقها سـبحانه. تـرى السـماء وقـد تلبـدت بالسحب، وتحركت الريح تـؤذن بقـرب نـزول الغيـث، وإذا بـالريح تمـزق السـحب وتبقى الأرض عطشى ، وقد تُلين السحب وتغـذيها برطوبـة جامعـة، فيتـدارك المطـر، ويعم الخير .إن هذا التصريف هو مثير للتـذكر والتـدبر، والتوجـه إلـى الله بالاسـتغفار ورد الأمر إليه والأمل في فضله ، في الحالـة الأولـى ، وشـكره علـى نعمتـه بـالقول والفعل. إن هذا الموقف العاقل رفضه أكثـر النـاس واختـاروا شـيئا واحـدا هـو الكفـر الشديد، ونسبة تلكم الظـواهر إلـى الطبيعـة التـي لاعقـل لهـا ولا إرادة، ولا صـورة واضحة في عقولهم . أخذ بهذا المفهوم للتصريف معظم المفسرين.

و ذهب ابن عباس رضي الله عنهمـا إلـى أن الضـمير فـي صـرفناه للقـرآن، وإن لـم يتقدم له ذكر لوضوح تعلقه بذلك. وهذا الفهم أولـى بـالقبول. وذلـك لأن كلمـة صـرَّف مشددة الراء وردت خمس مرات في القرآن متعلقهـا القـرآن **ولقـد صـرفنا فـي هـذا القرآن ليذكروا**[1] – ووردت في هذه الآية متعلقهـا الضـمير "صـرفناه " فجَعْـلُ الضـمير جاريا على نسق واحد مرادا به القـرآن أقـربُ. ومـن ناحيـة أخـرى فـإن هـذا الفهـم يجعل اتصال الآية بما بعدها لا إشكال فيه. فيكون معنـى صـرفناه بيـنهم، نوعنـا إيقـاظ

[1] سورة الإسراء 41

الناس بواسطة آيات القرآن، إلى مختلف المظاهر الكونية، والأدلة العقلية ليذكروا فيؤمنوا بأن الله واحد فاعل سبحانه لا شريك له، ولكن أكثر الناس امتنعوا من الالتفات إلى أي أمر، ولا إلى أي موقظ، إلا إلى شيء واحد هو الكفر، صمّمُوا عليه وأعرضوا عن غيره. كما ذهب ابن عباس إلى أن الكمية النازلة من السماء على الأرض واحدة لا تزيد ولا تنقص، وإنما يصرفها الله فيسقي بها من يشاء ويصرفها عمن يشاء، أو يذهب بها إلى الصحاري والبحار فلا ينتفع بها الناس إذا تعلقت إرادته بامتحانهم بالشدة .

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ
جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ ۞ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ
أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا
فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا ۗ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٥٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۗ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا
وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ
سَبِيلًا ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الطاعة : عمل المرء ما يطلب منه.

الجهاد : اسم يجمع بذل منتهى الطاقة لتحصيل أمر.

المرج : الخلط.

البحر : الماء الكثير العظيم.

العذب : الخالي من الملح .

الفرات : شديد العذوبة.

الأجاج : شديد الملوحة.

البرزخ : الحائل بين الشيئين .

حجر محجور: تنافر مفرط.

النسب : الرابطة بين الأب وما علا عنه وما نزل منه وما توسع على جانبيه.

الصهر : العلاقة بين الزوج وأسرة زوجه.

ظهيرا : معينا.

الأجر : الجزاء بالعوض عن العمل.
السبيل : الطريق .

بيان المعنى الإجمالي :

لقد اخترناك للمهمة العظيمة التي كلفناك بإبلاغهـا للبشـرية جمعـاء. فـلا تهـن واصـبر على مواصلة الدعوة، فإن الحكمة كل الحكمة فيما اصـطفيناك لـه، ولـو بعثنـا فـي كـل قرية نذيرا يوقظهم لما اختلف الأمر. فاثبُـت، ولا تطـع الكـافرين فيمـا يحاولونـه مـن مصانعتهم. إنك مؤيد بـالقرآن فجاهـدهم بآياتـه، وحقائقـه، ونـذره، حتـى ينهـار مـا يستندون إليه من العادات، والتقاليد، وباطل العقيدة.

وتفرد الله بجعل البحار متجاورة مـع الاخـتلاف الكبيـر بينهـا. أحـدهما عـذب شـديد العذوبة ، والآخر ملح شديد الملوحـة .و رتـب ببـالغ حكمتـه بينهمـا برزخـا حـاجزا يمنع تغلب أحدهما على الآخر، وأبقى علـى خصائصـهما رغـم التجـاور والتنـافر فـي طبيعتهما. وذلك مما يثبت تفرد الله بالتصرف في الكون.

وينقلنا القرآن من البحار الكبيرة ليرينا آثار قدرتـه فيمـا هـو أعجـب مـن ذلـك، فـي الماء الذي خلق منه الإنسان، طوَّرَتْه يـد القـدرة الإلهيـة إلـى أن أصـبح منتجـا لـنفس النوع البشري، وأضاف إلى ذلك أنه كوَّن روابط مـن النسـب والمصـاهرة تألفـت منهـا الأسرة، ثم المجتمع، ثم الأمة، مما ترتب عنه بنـاء صـرح الحضـارة الإنسـانية. ومـا تم هذا التحول من الماء إلى المجتمـع الإنسـاني بإنجازاتـه وترابطاتـه إلا بفضـل مـا أثرت به يد القدرة الإلهية. هذه القدرة التـي تثْبَـتْ صـفة مـن صـفات الله منـذ الأزل. أعرض الكافرون مع هذه الشواهد من ظـواهر الكـون، ومـن البيـان القرآنـي المعجـز عن عبادة الله، وعبدوا أصناما من دونه، أخص صـفاتها عجزهـا عـن نفـع عابـديها إذا هم تقربوا إليها، وعن ضرهم إذا هم أعرضـوا عنهـا .وبلـغ الجحـود بكـل كـافر أنـه يقدم وينصر أعداء ربه ،الذين خلقهم ورزقهم ولطف بهم ، من البشر والأصنام.

يذكِّر الله نبيه بما يؤنسه ويرفع عنه الحزن من إعـراض قومـه. يـذكره بأنـه مـا كلـف هداية الناس، وإنما مهمته منحصرة في تبشير المـؤمنين ليثبتـوا علـى مـا اهتـدوا إليـه، وفي إنذار الكافرين سوء العاقبة ليقلعوا عن ضلالهم عقيدة وسلوكا.

قل لهم :إني لا أرقب من أي منكم أن يدفع لي أجـرا عمـا أقـوم بـه. إن كـل سـعادتي أن يهتدي الناس إلى اتباع الطريق الذي يرضي ربهم.

بيان المعنى العام :

51- ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيرا.

إذا كان القرآن كما خرجنا عليـه الآيـة السـابقة صـالحا لهدايـة البشـرية جميعـا، وأن إعراض أكثر الناس عنه إنما كـان تبعـا لعنـادهم؛ فاصـبر ولا تضـجر مـن ذلـك. إن إفرادك بالرسالة هو الحكمة. فإنه لا يعجزنـا أن نبعـث فـي كـل بلـدة نـذيرا يعـرفهم ويحذرهم من سوء العاقبـة .علـى معنـى أن تصـميم الكفـار علـى رفـض الهدايـة لا يتغير لو تعدد المنذرون.

52- فلا تطع الكافرين...جهادا كبيرا.

اثبت على ما كلفناك به، ولا تطع الكافرين فيما يحـاولون جلبـك إليـه مـن مصـانعتهم، بعدم التعرض لآلهتهم، وما جروا عليه من العـادات السـيئة والأخـلاق الفاسـدة كـالكبر والظلم واحتقار الفقراء. ولتكن عزيمتك أمضـى مـن كيـدهم فـلا تهـن فـي مواصـلة الدعوة إلى ما جاءك مـن الحـق. وقـد أيـدناك بـالقرآن فجاهـدهم بأدلتـه وبحكمتـه، وقابلهم بقوارع نذره . اصـبر وكـرر علـى أسـماعهم الـوحي الصـادق، حتـى يهتـز فيسقط ما استندوا إليه من العادات والتقاليد.

53- وهو الذي مرج البحرين...وحجرا محجورا..

من مظاهر التقدير العجيب الذي اختص به الله، ولا يسـتطيع أحـد أن يـدعي لـه شـركا فيه، أنه سبحانه جاور في كثير من نـواحي الأرض بـين بحـرين أحـدهما عـذب شـديد العذوبة خال مـن الملـح، والآخـر شـديد الملوحـة. كلاهمـا مـاء، وكلاهمـا متصـل بالأرض. ثم إنه مع إعطائه الخصائص لكل منهما، جعـل بينهمـا حـاجزا يمنـع أحـدهما من التغلب على خصائص الآخر وتحويله إلى جنسـه بـل يمضـيان فـي الوجـود هـذا عذب وهذا ملح، ينتفع الناس من كل منهما رغـم مـا بينهمـا مـن التنـافر. فمـن المـاء العذب يرتوي الإنسان والحيـوان والنبـات. والمـاء الملـح هـو الـذي يحفـظ للبحـار والمحيطات بقاءها دون أن يفسدها ما يقع فيها.

فتنضم هذه الآية للآيات السابقة التي أبرزت تفـرد الله بالتصـرف فـي الكـون بالحكمـة، واجتثت الشرك من أصله، لما كانوا لا يستطيعون أن ينسـبوا شـيئا مـن هـذه الظـواهر إلى آلهتهم. وعجزها ينفي ألوهيتها، إذ من التناقض الجمع بين الألوهية والعجز.

54- وهو الذي خلق...وكان ربك قديرا.

لا يزال القرآن يترقى لافتا الأنظار إلى ما في كتاب الكـون مـن آيـات مثبتـة لتفـرد الله بالألوهية والقدرة والحكمة. فنبه بهـذه الآيـة إلـى أن المـاء الـذي كـون منـه البحـار العذبة والملح ، كون منه ما هو أعجب وأسمى ، كـون الإنسـان مـن نطفـة مـن مـاء ، فمن ماء الرجل وماء المرأة بما فـي كـل واحـد منهمـا مـن الخصـائص يقـدر الله أن

يحصل من تلاقيهما الإنسان . وفي لمح البصر تنقلنا الآيــة إلـــى أطـــوار نضـــج النطفـــة، فإذا تلك النطفة من الماء تقوم بإعـــادة الرحلـــة التـــي انطلقـــت منهـــا ، فيصـــبح الإنســـان منتجا لذرية جديدة تخلفه وتُوا صِـــلُ عمـــارة الكـــون ، هـــو أب وابـــن وأخ وعـــم وجـــد، فهو نسب ، وهو في الآن نفسه صهر لعائلة أخـــرى ينجـــب مـــع أنثـــاهم وتتســـع العلاقـــة بالمصاهرة . وبذلك تتكون الأسرة، ثـــم المجتمـــع بمختلـــف درجاتـــه، ثـــم الأمـــة التـــي تواصل البناء الحضاري للإنســـانية. هـــو هـــرمُ الحضـــارة، قاعدتـــه الأولـــى النطـــف، وقمته ما يتولد عن الترابط الأسري ثم المجتمعـــي مـــن المنجـــزات العمرانيـــة الضـــخمة. وأنت إذا تأملت ما بين المنطلـــق "المـــاء " ومـــا أنتجتـــه الحضـــارة الإنســـانية المواصـــلة للتجويد والسمو بمكتسباتها، لا تجد أبلغ تعبيـــر عـــن الإحســـاس الغـــامر بـــذلك إلا قولـــه تعالى : **وكان ربك قديرا** .نعم هي القدرة التي تتصـــرف تصـــرف الحكمـــة التـــي نفَـــذَتْ عمران الكون بالجنس البشري من الماء .

55-ويعبدون من دون الله...على ربه ظهيرا.

تشنع الآية على الكفـــرة انصـــرافَهم عـــن عبـــادة الله، وتـــوجهَهُم إلـــى الأصـــنام. إنهـــم يعبدونها ويتقربون إليها، وهـــي لا تســـتطيع أن تـــنفعهم ، فـــلا يرجـــى منهـــا أي عـــون على تحقيق مرغوب فيه، كما أنها لا تستطيع دفع أي مكروه عن عابديها .

والعجب من أمر كل كافر، أنك تجده ينصر الأصـــنام علـــى ربـــه الـــذي أحاطـــه بألطافـــه فبلغه المستوى الذي هو عليه.

56- وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا.

هذه الآية تبين حقيقة تقلع إنكـــار الكـــافرين ، وتـــؤنس النبـــي ﷺ فهـــي تـــذكره بالمنزلـــة التي تخبره الله لها. هي مسؤولية دعوة الخلـــق دعـــوة عامـــة، والنـــاس علـــى قســـمين : مؤمن وكافر. فهو ﷺ يبشر المؤمنين بالرضا فـــي الحيـــاة الـــدنيا وبالجنـــة يـــوم القيامـــة. وينذر الكافرين بالحيرة والقلق في الدنيا والعذاب المهـــين فـــي جهـــنم يـــوم القيامـــة. هـــي تؤنسه لأن الله الذي أرسله لم يحمّله الهداية الفعليـــة للنـــاس، وإنمـــا حملـــه الـــبلاغ، وقـــد قام بذلك أحسن قيام .

57- قل ما أسألكم عليه من أجر...إلى ربه سبيلا

أعلنْ لهم قائلا: إني لا أطلب منكم جـــزاء مـــا محضـــت لـــه نشـــاطي، وقصـــرت عليـــه تفكيري في الحياة. أنا لا أطلب ولا أرقب من أحـــد مـــنكم أن يقـــدم لـــي أجـــرا. إن كـــل همي، وما يسعدني في الحياة إلا شيء واحـــد، أن تهتـــدوا إلـــى الطريـــق الـــذي يصـــلكم بخالقكم، فتؤمنوا به، وتستقيموا في حياتكم على الوجه الذي يرضى عنه .

وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡحَيِّ ٱلَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِهِۦۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۚ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا۩ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

التوكل : الاعتماد.

سبح بحمد ربك: نزهه تنزيها مصاحبا للثناء عليه.

كفى: لا يحتاج لغيره.

الخبير : الدقيق علمه .

نفورا : فرارا وبُعدا.

بيان المعنى الإجمالي :

اعتمِدْ الاعتماد كله على ربك الذي لا يغيب عنه شيء من أمرك. فهو الكامل الذي وجبت له الحياة الأبدية السرمدية، الحياة التي لا يلحقها غفلة ولا ذهول. وواصِلْ في نفسك تنزيهه عن كل نقص قارنا ذلك بالثناء عليه. ولا تحزن من سوء أعمالهم، فإنهم في قبضة الله الذي لا يغيب عنه من أفعالهم ولا من مقاصدهم شيء. وكفاك ربك نصيرا. هو الذي تعلقت إرادته بخلق السماوات والأرض خلقا متدرجا في ستة أيام، ثم خلق العرش وأخضعه لجلاله ؛ هو الرحمان الذي تقصر اللغة عن تصوير رحمته، فاسأل كل من شمله ما يفيده اسم الرحمان يخبِرْك. إن عناد الكفار وتصميمهم على الكفر جَعَلَهُم عندما دعوتهم ليسجدوا للرحمان ،يتجاهلون ما يطلق عليه هذا الاسم، فقالوا وما الرحمان؟ ولم يثبتوا له حقيقة إلا أمر الرسول لهم بالسجود، وأنكروا أن يكون حقيقا بالسجود إليه لمجرد أمر الرسول لهم ، وزادهم هذا الأمر بعدا ونفورا .

بيان المعنى العام :

58- وتوكل على الحي ....وكفى به بذنوب عباده خبيرا.

مما أفادته الآيات السابقة كما بيناه تسلية النبي ﷺ وتذكيره بأنه غير مسؤول ولا يعتبر مقصِّرا إذا أعرض عن الاهتداء به الكافرون. وأضافت هذه الآية إرشاد النبي ﷺ إلى ما يقويه ويسنده في أداء مهمته: أنْ يعتمد على الله الحي الذي وجبت له الحياة صفة أزلية أبدية ،فلا يلحقه موت، ولا غفلة، ولا ذهول، ولا نوم ،ولا أي

عارض من العـوارض التـي يفقـد المتوكـل رعايـة المتوكّـل عليـه. واقـرن توكلـك بتنزيهه عن كل نقص، والزم مع ذلك الثناء عليه، بمعنـى استحضـر مـا للـذات الإلهيـة من كمالات، وتذكر عطاياه الموصولة لك، وذلـك يقتضـي تسـبيحه وحمـده .والخطـاب موجه إلى النبي ﷺ ولكل إنسان أيضا.

وكن واثقا من أن الله عـالم بمـا يؤذيـك بـه الكـافرون ، وبمجـاوزاتهم وبآثـامهم ، لا يغيب عنه شيء مما اقترفوه . هم عبـاده خلقهـم، وهـو المـدبر الراعـي لتطـوراتهم ، هو يعلم ظواهرهم وما أضمروه في نفوسـهم. وفـي هـذه الخاتمـة تهديـد للكـافرين أن الله سيعاقبهم على ما قدموا من شر.

59- الذي خلق السماوات والأرض...فاسأل به خبيرا.

هذه الآية من قوله تعالى "الذي خلق إلى العـرش" تؤكـد مـا جـاء فـي الآيـة 56 فـي سورة الأعراف . وقد بينـا هنـاك الطريقـة التـي نرضـاها فـي فهمهـا بـالجمع بـين الإيمان بما أثبتته ، ونفي كل تشبيه وتصـور تجسـيمي، وتفـويض المـراد الـدقيق منهـا إلى رب العالمين باعتبارها من المغيبات التي تتجـاوز قـدراتنا العقليـة. ووقـع التـذكير بها لتكون دليلا على أحقية التوكل على الله الذي ورد فـي الآيـة السـابقة: وتوكـل علـى الحي الذي لا يموت-

الرحمان- اسم من أسماء الله الحسنى، مـا كـان العـرب يطلقونـه علـى الـذات العليـة سبحانه. ويصح أن نجعله خبرا عن قوله: الـذي خلـق...، كمـا يصـح قطعـه عـن أول الآية، وجعله خبرا لمبتدأ مقدر: هـو الرحمـان. والتقـدير الثـاني أبلـغ إذ يفيـد تأكيـدا لحسن عاقبة التوكل المأمور به، باعتبار أنه هو الرحمن الـذي يتـولى مـن توكـل عليـه برحمته، فمن توكل عليه مطمـئن لإسـعافه وتـدبيره. وإذا أردت أن تعـرف سـعة آفـاق رحمته، فإن البيان اللفظي يقصر عن تجلية رحمتـه علـى الوجـه الأتـم ،وأفضـل مـن البيان اللفظي، أن تسأل عنه أي فرد خَبَرَ رحمته، وسـعِد بهـا، يخبـرك خبـر المجـرب عن فيوض الرحمة والألطاف .

60-وإذاقيل لهم اسجدوا للرحمن ...وزادهم نفورا.

تسجل الآية موقف المشركين الرافض للسـجود للـرحمن لمـا دعـاهم النبـي صـلى الله عليه وسلم إليه. وهو تسجيل يفيـد التعجـب مـن عنـادهم، ويشـنع بمـوقفهم، ذلـك أن النبي دعاهم إلى التقرب بالسجود للذي يتـولى رحمـتهم، التـي هـم فـي أمـس الحاجـة إليها لو تدبروا أوضاعهم. وقرنوا العناد بسؤالهم سـؤال المظهـر نفسـه بمظهـر الجاهـل المستغرب، فقالوا: وما الرحمان؟ وهو إمعـان مـنهم فـي الصـدود، فـإن هـذا الأمـر

بالسجود ليس فاتحة الدعوة إلى الله، بل تكرر على أسماعهم قاعدة الإسلام في التوحيد وإفراد الله بالعبادة. وكان شأنهم كشأن المنكر للحقيقة عن غباء ، يناقض نفسه عن قرب. فأضافوا ما يفضحهم بقولهم: أنسجد لما تأمرنا بالسجود إليه، أي إنا نرفض السجود لله. إن امتناعهم من الخضوع لله متقرر في ضمائرهم ، ودعوتهم للسجود زادتهم امتناعا ونفورا .وذلك شأن المصممين على العناد .

** أجمع القراء على أن النبي ﷺ سن السجود عند قراءته لقوله تعالى : **وزادهم نفورا** وكان سفيان الثوري يقول : إلهي زدني لك خضوعا ما زاد أعداك نفورا.

تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

البروج : المنازل التي قدرها الراصدون للشمس.

سراجا : السراج: الشمس.

خلفة: يخلف الليل النهار ، والنهار الليل.

يذكر: يتأمل في أدلة الدين.

الشكور: عرفان إحسان المحسن.

هونا : بلين ورفق. مما ينبئ عن تواضع الماشي .

اصرف عنا : أبعد عنا، ونجنا.

غراما: الهلاك المُلِح الدائم.

مستقر : مكان الاستقرار.

مقام : مكان الإقامة.

الاسراف : تجاوز الحد.

الإقتار : عكس الإسراف .

قواما: العدل بين الطرفين.

بيان المعنى الإجمالي :

ما أكثر نعمه وما أعم خيراته، التي حُجِبَتْ عن الكـافرين فقـالوا: ومـا الرحمـان؟ فهـو الذي نظم عالم السماء تنظيما وزع فيه الكواكب على بروجهـا التـي تسـير فيهـا، وأثـر بها على الأرض فانقسم العام إلـى فصـول، وتـأثرت بـذلك الثمـار والـزروع. وربـط بين الشمس والحياة على وجه الأرض، وجعـل القمـر نـورا. وتـم كـل ذلـك بحكمـة بعيدة عن المصادفة والفوضى. كما جعـل سـبحانه الليـل والنهـار يخلـف كـل منهمـا الآخر في دورة مستمرة، يتأثر بهما الإنسان بـالتفكر فـي تلكـم الظـاهرة التـي تفضـي به إلى توحيد الله وعبادته، كما تفضي به إلى شـكره علـى ذلكـم التعاقـب الـذي يسـعده على القيام بالنشاط ، ويمكنه من فرصة للراحة والاستجمام.

ثم أثنى القرآن على الذين شرفوا بكونهم عبيدا للرحمن فنـوه بهـم وأبـرز مـا اختصـوا به من صفات فضل.

عباد الرحمان الذين تطهروا من الكفـر والعنـاد، وأخلصـوا ديـنهم لله، ملامحهـم تـأتي في هذه الآيات. غسلوا قلوبهم من الكبـر ، فمشـيتهم عـزة فـي غيـر تكبـر وخـيلاء، يترفعون عن إثارة السفهاء فلا ينحـدرون إلـى مسـتواهم الهـابط فـي الخصـام. ردهـم على سفه السفهاء قـولهم: سـلاما. تمكنـت التقـوى مـن قلـوبهم فـلا يسـتقرون فـي مضاجعهم بالليـل إلا قلـيلا ليقومـوا متقـربين بالتهجـد فـي جـوف الليـل، يأنسـون بالصلاة والسجود. عمرت قلوبَهم عظمةُ الله فهـم يخشـون عـذاب جهـنم ، ويسـألونه أن يصرف عنهم عذابها، العذاب الذي يلازم من وقـع عليـه فـلا يجـد منـه فكاكـا. فهـم موقنون بأن رحمة ربهم هي المنقذة لهم من عـذاب جهـنم، وبـذلك ظهـر بصـفة أجلـى كونهم عباد الرحمان. تحقق التوازن في نفوسهم وفي أفعـالهم، فـإذا أنفقـوا لـم يسـرفوا مبذرين، ولم يشحوا مقترين، ولكنهم لزموا الطريـق القصـد العـدل الوسـط، لا يميلـون إلى أي طرف.

بيان المعنى العام :

61-تبارك الذي جعل ...وقمرا منيرا.

المجد والعظمة والفضل، والبركة والخير لله، الـذي سـير أمـر السـماوات علـى نظـام لا يختل، فهي مستمرة على الترتيب الذي رتبـه عليهـا. توصـل البشـر مـن ملاحظـة البـروج منـازل الكواكـب: الحمـل والثـور والجـوزاء والسـرطان والأسـد والسـنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والـدلو والحـوت، إلـى ضـبط الفصـول، وارتـبط

بها بروز المحاصيل الزراعية ونضجها. ثم تعمقوا فـي الملاحظـة، وكلمـا تقـدموا فـي كشف قانون من القوانين الكثيرة التي قام عليها بناء السـماوات، كـان مـا وصـلوا إليـه فاتحا لكشـوف جديـدة، خاضـعة جميعهـا للمعقـول والدقـة، والبعـد عـن الفوضـى والمصادفة. ثم لفتت الآية نظر المشاهدين إلى الشمس كأنهـا سـراج فـي السـماء تبعـث بنورها في الأرجاء المترامية ،وإلى القمر وهـو يضـيء الضـوء الهـادئ ممـا يـنعكس على صفحته من الأشعة .

إن السموات وما حوته من الكواكب الضخمة ، والشمس التي ارتبطت بها حياة الناس على كوكب الأرض ، والقمر المؤثر في المد والجزر، كل ذلك يشنع على الكافرين قولهم : وما الرحمن؟ فهل يقال للمتفرد بهذا التصرف، ولا يستطيع أحد سواه أن ينسب لنفسه ولو قليلا من هذا النظام ، أن يسأل عن ماهيته. ولكنه العناد والوقاحة.

62- وهو الذي جعل الليل والنهار...أو أراد شكورا.

كيف يسألون وما الرحمن ؟ مع أنه هو الذي يقلـب الليـل والنهـار، فيخلـف كـل منهمـا الآخر، وهو مما اختص به لا يشاركه فيـه غيـره. وتصـرفه هـذا فـي الكـون يحقـق أمرا آخر، هو تحريك الناظرين في نظامه ليكون فاتحـا لهـم بـاب التـذكر والتأمـل فـي الحكمة الإلهية ، وهذا التذكر يفضي إلى شكر الله علـى ألطافـه ، ومـا يسـره للإنسـان لينشط ويستجم مما يسعده بإداء دوره في الحياة معانا عليه .

63- وعباد الرحمن...قالوا سلاما.

بعد أن شنع القرآن على الكافرين تجـاهلهم للرحمـان، وأقـام مـن مشـاهد الكـون مـا اختص به من تسيير أمر السماوات ببروجهـا ، ومـن اخـتلاف الليـل والنهـار المـؤثر في الإنسان تذكرا وشكرانا. عطـف علـى ذلـك ملامـح عبـاد الرحمـان اهتمامـا بهـم وتنويها. شرُفوا بأمرين أولا: أنهـم عبـاد يشـعرون بمزيـة العبوديـة لله وبشـرف هـذه الرابطة، وثانيا: عبوديتهم للرحمن التي تجعلهم علـى خـط منـاقض للـذين قـالوا: ومـا الرحمن ؟ وذلك ما يـرجح أن المقصـود بهـم قصـدا أوليـا أصـحاب رسـول الله ﷺ .

وإن كان ذلك لا يمنع انسحاب الأوصـاف والجـزاء علـى مـن سـار سـيرتهم وتخلّـق بأخلاقهم من أعضاء الأمة الإسلامية. فماهي الأوصـاف التـي اعتبرهـا القـرآن مميـزة لهم ، يتأهلون ليكونوا منوها بهم مجزيين؟

أولا: الذين من صفتهم أنك لا تـرى مـنهم وهـم يسـعون فـي الأرض مـا يـدل علـى الكبر. ولا لوثة من الخيلاء والاستعلاء، ولا شـيء مـن المسـكنة والـذل. تـدل مشـيتهم على ما استقر في كيانهم من جد وحزم في تواضع.

ثانيا :أنهم يترفعون عن مجاراة السفهاء، هـم يـرون أن الأدب الـذي حصـل لهـم مـن الإسلام سما بمستواهم الإنساني، فهم لا ينحـدرون إلـى المسـتوى الهـابط الـذي عليـه الجاهلون الذين كثيرا ما يتعرضون للمسلمين بالإذايـة. إنهـم لحكمـتهم لا يثيـرهم بـذيء الكلام من الكفرة، ولا يصرفون ألسنتهم للرد عليهم بمثل مـا تجـرأوا بـه علـيهم ، كمـا هو شأن الجاهليين. وقد قال عمرو بن كلثوم:

ألا لا يجهلن أحد علينا *** فنجهل فوق جهل الجاهلينا

إن في ذلك تأجيجا للأحقاد، وإهـدارا للكرامـة إذ شـأن السـفهاء أن يبـالغوا فـي الـرد، قال تعالى : (**ولا تسبوا الذين يـدعون مـن دون الله فيسـبوا الله عـدوا بغيـر علـم**)[1] ويكون ردهم حسب الأدب القرآني : سلاما- وكلمة "سلام "بمـا تـدل عليـه مـن الأمـن، وعدم المكافأة بالشر، مما يغيض السفهاء .

بهاتين الصفتين صور القرآن عباد الرحمـان، وهـو يتعـاملون مـع النـاس وينشـطون في دروب الحياة. وقار وترفع عن منازل السفهاء.

64-والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما.

ثالثا: كشفت الآية عن شغلهم في الليـل، عنـدما يخلـد النـاس للنسوم. عبـاد الرحمـان يقضون جانبا من الليل متقربين إلى الله بالصـلاة. فهـم سـاجدون قـائمون. يجـدون فـي هدوء الليل داعيا للاتصال بربهم ،ولـذة فـي الانغمـاس فـي العبـادة ، فتتفـذ أسـرارها مطمئنة لأرواحهم، مصفية لمشاعرهم.

65-<66: والذين يقولون ربنا اصرف عنا...ومقاما.

رابعا: إحساسهم بعظمة الله مما يجعلهم يحذرون عقابه.

هذا هو شأن المؤمنين، هم على خوف مـن رفـض الله لأعمـالهم، فهـم يجتهـدون فـي عبادتهم ، ويخلصون بها إلى الله الذي لا يقبل عملا ملوثـا غيـر نقـي، كمـا تقـدم لنـا في قوله تعالى: **والذين يؤتون ما آتـوا وقلـوبهم وجلـة أنهـم إلـى ربهـم راجعـون**[2]. فتفيد هذه الآية أنهم يدعون ربهـم أن يحمـيهم مـن عـذاب جهـنم ،ممـا يـدل علـى أن قلوبهم وجلة من الرفض لما قدموه من خيـر .يتأكـد موجـب هـذا الحـذر الشـديد بمـا علموه علم اليقـين، أن عـذاب جهـنم عـذاب لا مفـر منـه ولا منجـى إلا برحمـة الله وتقدير صرفه . ثم عقبت الآية وصـف عـذاب جهـنم بقولـه : **إنهـا سـاءت مسـتقرا**

[1] سورة الأنعام آية 108

[2] سورة المؤمنون آية60

ومقاما . هذا من كلام رب العزة: يحـق لهـم أن يطلبـوا مـن ربهـم أن يقـيهم عـذاب جهنم لأن القرار فيها أسوأ قرار. والإقامة فيها أسوأ إقامة.

يجمع بين هذه الآيات إقبـالهم علـى عبـادة الله فـي خلـواتهم ، فـي جـوف الليـل ، **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** ، وخشية نابعـة مـن استحضـارهم الواضـح لعظمـة الله، ونفاذ أحكامه في خلقه .

67- والذين إذا أنفقوا...وكان بين ذلك قواما.

خامسا: رشد التصرف فيما آتاهم الله من مال . وصفتهم الآيـة بـأن همـتهم تسـمو إلـى الإنفاق ، وأن الإنفاق متحقق منهم حسـبما تـدل عليـه كلمـة إذا .وهـم ملتزمـون فـي الإنفاق بما أدب به الإسلام معتنقيه. هم إذا أنفقـوا لـم يسـرفوا، وابتعـدوا عـن التبـذير الذي يدفع إليه الفخر، كما أنهم يحصنون أنفسـهم مـن التقتيـر، وكـان سـلوكهم الوسـط بينهما. إن الإنفاق يصطبغ برشح النفس، فإما أن تكـون معتدلـة، وإمـا أن تكـون مائلـة إلى طرف الإفراط أو التفريط. فالنفس المعتدلـة لا يـدفعها للبـذل حـب المـديح، ولكـن ما يقتضيه الحق المدرك بسلامة الفطرة. وإمـا أن تفقـد هـذا التـوازن فتجـد صـاحبها إما مبذرا مسرفا يرى في إهلاك المال مكرمـة وموجبـا للمحمـدة، وعلـى هـذا جـرى العرب في أشعارهم ؛ وإما مسِّيكًا يعبد المـال يقتـر علـى نفسـه وعلـى مـن يعـولهم. وعباد الرحمن هم الذين استقر توازن الإنفـاق فـي نفوسـهم، لا يحجمـون عـن الإنفـاق إذا كان حقا ، ولا يمسكون أيديهم عن البذل في غير سرف.

وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَ ۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَـٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُوْلَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأثام : جزاء الإثم. العقاب .

بيان المعنى الإجمالي:

من صفات عباد الرحمان أنهم مبرؤون مـن المهالـك الـثلاث –أ– مـن أعظـم الكبـائر الإشراك بالله وانتظار النصر والتأييد من غيـره. – ب – قتـل الـنفس التـي حصـنها الله

وحرم التعدي عليها، بغير موجب مستند إلـى شـرع الله. –جــ – الزنـا يسـتوي فـي كونه فاحشة موبقة الذكر والأنثى. إن من يتلبس بواحـد مـن هـذه الثلاثـة فإنـه سيسـلط عليه العقاب الـذي كتبـه الله، وسيضـاعف عذابـه بصـور مـن الإيـلام مـع المهانـة والاحتقار والذل، ولا يخرج من جهنم إلى أبد الآبدين.

واعلموا أن الله يتفضل على من تاب فآمن وغير سلوكه من التهاون بما حرمه الله، إلى الاستقامة والانضباط والتزام الأعمال الصالحة، أنه سبحانه سيمحو سيئاته، بل فوق ذلك سيبدلها حسنات .وذلك ما يقتضيه كونه واسع المغفرة عظيم الرحمة. ومن تاب وعمل صالحا، توبته مقصود بها الله، والله أكرم من أن يرد من قصده تائبا مخلصا مطيعا.

بيان المعنى العام :

68←69: والذين لا يدعون مع الله...ويخلد فيه مهانا.

سادسا وسابعا وثامنا ثـلاث موبقـات، مـن أقـبح الـذنوب وأكثرهـا إفسـادا للمجتمـع، وأقواها تخريبا لروح الإنسان ، ما تجتمع إلا فـي المجتمعـات التـي انفصـلت عـن الله. ولا تستقر إلا في روح أقفرت من الخير وفسدت. وقلـوب عبـاد الـرحمن مطهـرة مـن ذلك. وتمت صياغتها في صورة نفيها عن عباد الرحمان ثلاث "لاءات "مفادها:

1) نقاء عقولهم وقلوبهم من التعلق بـأي إلـه غيـر الله. فـلا يتعلقـون تعلـق الاعتمـاد وانتظار العـون، ولا يسـتغيثون، لا بالأصـنام ولا بالبشـر الأحيـاء مـنهم والأمـوات، ولا يكون الهوى قائدهم في الحياة.

2)لا يقتلون النفس البشرية إلا بالحق. هذا الحق الذي يتبـع حكمـا عـادلا، يصـدر عـن قضاء غير منحاز، ويُمكَّنُ فيه المحال علـى القضـاء مـن الـدفاع المشـروع، وبتشـريع إلهي معلوم قبل الجريمة الموجبة للحكم بالقتل.

تهاوَنَ البشر بقيمة الحياة في كثير مـن المجتمعـات، سـواء فـي ذلـك بتسـلط الحكـام الظلمة الجبارين بواسطة قضاء يستجيب لهـواهم، فقتلـوا خصـومهم السياسـيين بغطـاء من يشاركهم الإثم من أعضاء السـلطة القضـائية الجـائرة. وتهاونـت بعـض الأمهـات الزانيات فقتلن ما ينجبنه من السفاح. وتهاونت بعـض النسـاء فأسـرعن إلـى الإجهـاض لأسباب واهية مرفوضة شرعا وخلقا.

إن في وصف النفس "**بالتي حرم الله** " إظهار لأمـر هـام فـي الإسـلام، هـو أن مالـك الحياة هو الله ، ولم يعط لأي كان الحق فـي سـلب الحيـاة إلا فـي حـدود مـا شـرعه حفظا للحياة ؛ فقاتل النفس بغير حق متعد علـى المقتـول، ومتعـد علـى مـا هـو مـن اختصاصات الذات العلية .

3) لا يشبعون شهوتهم الجنسية في الحرام. تشابكت آثار الزنـا السـيئة، إنـه تَعَـدٍ علـى الجنين الذي ولد من سفاح ، يلتصق به طول حياته أنه ابـن زنـا، وتعـد علـى الأسـرة ، إذ هو عار يشمئز منه أقارب الأنثـى ، وأقـارب الـذكر إن كـانوا يعقلـون . وإذا كـان مع متزوجة فهو أشد نكرا وأعظم شناعة، وتختلط به الأنساب اختلاطا فوضويا .

أتبع التشنيع على مرتكب هذه الكبائر الثلاث بالتنصيص علـى جزائـه، بـأن مـن يفعـل هذه الموبقات الثلاث يسلـّط عليـه الجـزاء المقـدر، المتمثـل فـي مضـاعفة العـذاب، كلما عذب بنوع من العذاب جدد عليه عذاب أشد وأقسـى، وفـوق ذلـك هـو خالـد فـي العذاب لا يرجو تخفيفا ولا خروجا منه. وبجانب العـذاب الحسـي البـدني عـذاب نفسـي بما يسلط عليه من ضروب الإهانة والتحقير.

و الإشارة بقوله تعالى " **ومن يفعل ذلـك**" إلى الموبقات الـثلاث، فمـن يجمـع بينهـا هـو الموعود بذلك العقاب. وأما من ارتكـب ماعـدا الإشـراك فالأدلـة مـن القـرآن والسـنة متظافرة على أن أمره إلى الله يوم القيامة .

70- إلا من تاب وآمن...وكان الله غفورا رحيما.

هذا الاستثناء هو الذي ينادي به اسم الرحمان. فهو يخـرج مـن الخسـران يـوم القيامـة وتسليط العذاب المخلّد له في النار، كلٌ مـن تـاب إلـى الله فـأقلع عـن الآثـام. التوبـة النابعة من الشعور بالاشمئزاز من الوضع الـذي كـان عليـه قبـل التوبـة. هـو النـادم على ما وقع فيه من شرك وقتل وزنـا. والعـازم عزمـا أكيـدا علـى أن لا يعـود إلـى قذارة الإثم الذي تلطـخ بـه. ولمـا كـان أحـد عناصـر الموبقـات الـثلاث الإشـراك، صرحت الآية بأن أول عنصر هو الإيمـان. إن مـن آمـن صـدقا يتحـول سـلوكه مـن الفساد إلى الصلاح، ومن العصيان إلـى الطاعـة، ومـن الشـر إلـى الخيـر. ووعـد الله من صدق إيمانهم وصلحت أعمالهم، فاستحضـرهم مميـزا لهـم بالإشـارة "**أولئـك**" بـأن الله سيبدل ما كتب في صحائفهم من سيئات، بحسـنات. يفهـم هـذا الوعـد علـى أسـاس أن الإنسان إذا تطهر من الشرك، ثم راقـب الله فيمـا بقـي مـن عمـره فاسـتقام، وعقـد بينه وبين الفضيلة رابطة ثابتة متواصـلة، فإنـه بـذلك يكـون قـد انضـم إلـى زمـرة الصالحين الأتقياء من عباد الرحمـان. ويؤهلـه الـرحمن بفضـله وعفـوه لنيـل مراتـب الأبرار ،فيحشره معهم ويتفضل عليه تبعا لإعراضه عمـا كـان يقـوم بـه مـن منكـراتٍ خشيةً من الله ، أن يجعل قصده هذا موجبا لتحويـل سـيئاته حسـنات. قـال تعـالى: (**إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين**)[1] وأكد هـذا الفضـل نافيـا كـل تأويـل أو

---

[1] سورة هود آية 114

تخصيص بقوله: **وكان الله غفورا رحيمـــا**. فـــالمغفرة العظيمـــة والرحمـــة الواســـعة ممـــا ثبت لله ثبوتا أزليا سرمديا.

71-ومن تاب وعمل صالحا فإنه يتوب إلى الله متابا.

تأكيد للتوبة وترغيب في قرنها بالعمل الصالح، وافتتحـــت الآيـــة بكلمـــة " **مـــن** " الشـــاملة لكل من تاب فعلا حسبما يقتضيه الفعل الماضي "**تاب**" وظـــاهر الآيـــة فيـــه إشـــكال، ذلـــك أنه أخبر عن الذي تاب بأنه يتوب. ويرفع الإشكال إما بـــأن المقصـــود أنـــه يتـــوب توبـــة خالصة "**لله**" وما ظنك بمـــن يقصـــد الكـــريم الغفـــور، فـــإن توبتـــه لا تكـــون إلا مقبولـــة مجزيا عنها.

ويحتمل أن من تاب صادقا وعمل صالحا، فإن يقظته لفعـــل الخيـــر تتجسدد ،الأمـــر الـــذي يحميه من العود إلى الإثم ، يتوب إلى الله متابا .

وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا ﴿٧٢﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ﴿٧٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُجْزَوْنَ ٱلْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَٰمًا ﴿٧٥﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ۖ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا ﴿٧٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الزور: الباطل. وغلب استعماله في الكذب .

اللغو: الكلام العبث الذي لا خير فيه. وكل سقط من قول أو فعل.

مروا باللغو : مروا بأصحاب اللغو.

كراما: معرضين لا ينزلون إلى مستوى السفهاء.

الخرور : السقوط.

إمام : قدوة.

الغرفة : البيت المعتلي الذي يصعد إليه بدرج.

ما يعبأ : ما يبالي وما يهتم ، وما يكترث.

لزاما: لازما لا ينفك.

بيان المعنى الإجمالي :

واصل القرآن بيان ملامح عباد الرحمان. إنهــم لا يحضـــرون مشــاهد الباطـــل كـــالرقص والفجور والغيبة ولا يشهدون شهادة كاذبــة. هــم يترفعــون عــن مجــاراة الفاســقين فــي سقط أقوالهم وأفعالهم، وإذا مروا بهم لا ينحدرون إلــى مســتواهم الهــابط خلقيــا. قلــوبهم مستعدة للتأثر بما يسمعونه من آيات الله، هم علــى خــلاف المشــركين الــذين إذا ســمعوا الآيات، أوتم لفت أنظارهم إليها أعرضوا كأنهم لم يسمعوا ولم يبصروا صم عمي.

وعباد الرحمن يدعون ربهم ضــارعين ، أن يهــدي أزواجهــم وذريــاتهم هدايــة يُسَــرُّون باستقامتهم وتقواهم ، ويسِّر لنا الثبات على الخيــر حتــى نكــون قــدوة صــالحة للمتقــين الذين يخشون ربهم فيتأثرون بسلوكنا لبلوغ الدرجات الراقية من الصلاح.

إن الذين جمعوا تلكم الخصال يجزيهم الله بأن يكونــوا فــي المنــازل العاليــة فــي الجنــة بسبب صَبرهم على دواعي الشهوة، وصبرهم الذي يجعلهــم يثبتــون علــى ديــنهم رغــم إذاية المشركين وأعداء الدين . يسعدهم ربهم فــي الجنــة بتحيــة الملائكــة لهــم والتســليم عليهم. هم لا يخشون انقطاع ما أنعم الله بــه علــيهم، إذ كتــب لهــم الخلــود فيهــا، بلــغ الاستقرار فيها غاية درجة الحسن.

قل يا محمد للمشركين الذين توهموا أن الله قد اعتنى بهم عناية خاصة، وأنهم لقيامهم على البيت ،ومساعدة الحجيج أهلٌ لذلك ، قل لهم إن الله لا يكترث بكم، وما بعث إليكم رسوله إلا ليدعوكم حسب ما قدره في الأزل من إرسال الرسل. وأنكم قابلتم فضله بالتكذيب والرفض، فسوف يكون تسليط العذاب عليكم أمرا لازما لا تجدون عنه محيدا.

بيان المعنى العام :

72- والذين لا يشهدون الزور...مروا كراما.

تاسعا: عباد الرحمــان، لا يحضــرون مجــالس الباطــل التــي يتعلــق بهــا المشــركون كمجالس اللهو والرقص، والغيبة، وأعيــاد المشــركين، وأمــاكن عبــادتهم. كمــا يحتمــل أن يكون المعنــى لا يشــهدون بــالزور. وإن صــادف أن مــروا علــى قــوم مشــتغلين بالسقط من الفعــل أو القــول، مــروا معرضــين عــنهم يتنزهــون عــن مشــاركتهم ولا يرضون ما هم عليه. ولما كانت الآيــة مكيــة ولــم يــؤذن للمــؤمنين فــي ذلــك الوقــت بتغيير المنكر، الذي أصبح الواجب على المــؤمن بعــد أن قامــت دولــة الإســلام، أثنــى عليهم بأنهم يمرون على اللغو وقلوبهم منكرة له ومشاعرهم تَمَّقُتُ ما رأوه منهم .

73- والذين إذا ذكروا...صما وعميانا.

عاشرا: تَلَقــفُهُم لآيات القرآن بالاهتمام بمضــامينها، والتأمــل فيمــا هــدت إليــه؛ وهــو وضع يختلف عن وضع المشركين الذين كــانوا إذا ســمعوا مــا أنــزل علــى الرســول

أعرضوا عنه إعراضا كـاملا، حـالهم كحـال مـن سـقط علـى الأرض لا يسـمع ولا يبصر ، فلا آيات القرآن تنفـذ إلـى عقـولهم لتعطـيلهم وسـيلة الاسـتماع، ولا الآيـات الكونية التي يثيرهم للتأمل فيها تهـديهم، لأنهـم أعمـوا أبصـارهم عنهـا. شـأنهم شـأن النعامة التي أطبق عليها الصيادون تـدس رأسـها فـي التـراب توهمـا منهـا أنهـا لمـا حجبت بصرها عن الواقع، فإن الصيادين عموا عنها أيضا.

74- والذين يقولون ربنا...للمتقين إماما.

حادي عشر :ابتهالهم إلى الله بدعائـه أن تكـون حيـاتهم العائليـة حيـاة مسـتقرة تمـلأ نفسـهم رضـا وطمأنينـة، يـدعون الله أن تكـون أزواجهـم وذريـاتهم يسـيرون علـى الطريق المستقيم، فـي عقيـدتهم وفـي أعمـالهم، وفـي علاقـاتهم الأسـرية والبشـرية. ومعلوم أن كلمة الزوج تطلق على، بعل المـرأة، وعلـى امـرأة الرجـل. وكلمـة زوجـة غير فصيحة.

وأن يبلغوا في مراتب التقوى والصلاح الغاية التـي يكونـون بهـا قـدوة لغيـرهم. فهـم يدعون الله أن يواصل هدايتهم حتـى ينتقلـوا إلـى المراتـب العليـا التـي تؤثـرُ فـي غيرهم صلاحا فيقتدوا بهـم. وهـو عبـارة عـن حـب مسـتقر فـي نفوسـهم لانتشـار الفضيلة بين المؤمنين. و قرة العين تعبير مجازي أصـله سـكون العـين، فـإن العـين إذا رأت ما يسرها تواصل النظر إليه ولا تلتفت إلى غيره.

75-أولئك يجزون الغرفة .. ويلقون فيها تحية وسلاما.

بعد أن فصـلت الآيـات السـابقة ملامـح عبـاد الرحمـان تفصـيلا أوضـح شـريف خصالهم، فتميزوا تميُّزًا تهيأوا به إلى أن يشار إلـيهم غيـر مختلطـين بغيـرهم " **أولئـك**" سيتحقق لهم الجزاء التالي: أنهـم يختصـون بـالغرف فـي الجنـة، هـذه الغـرف التـي وصفت في آية أخرى: **لهم غرف من فوقها غرف مبنيـة تجـري مـن تحتهـا الأنهـار**[1] ثم عرف ارتباط هذا الجزاء بما قدموه فـي الـدنيا، لأنهـم صـبروا ، فكانـت عـزائمهم تيسر عليهم التقوى وفعل الخيـر ، وهـي أقـوى مـن مغريـات الشـهوة ، ومـن إذايـة الكافرين.

إنها منازل الكرامة والأمـن والرضـوان. يلقَـوْنَ الملائكـة فيشـنفون أسـماعهم بالتحيـة وبالسلام. ومن كمال الكرامة والنعيم أنهم واثقون بأن ما نالوه مـن نعـيم هـو نعـيم دائـم سرمدي، لا يلحقه نقص ولا انقطـاع. يعبـر عـن ذلكـم الجـزاء بتعبيـر واحـد جـامع يصوره أبلغ التصوير: حسن، بلغ غايـة الحسـن الاسـتقرار فيـه، لا يرغـب صـاحبه

---

[1] سورة الزمر آية 20

في التحول عنه إلى غيره. وطاب المقام فيـه. فكـل مـا يـبهج المقـيم فيـه مـن النعـيم متوفر. حسنت مستقرا ومقاما.

77- قل ما يعبا بكم ربي ... فسوف يكون لزاما.

ختمت هذه الآيـة السـورةَ التـي تعـددت أغراضـها، واسـتوفى فيهـا البيـان غايتـه. وتضمنت أمر النبي ﷺ ليقول كلمة الختام ، قـل للكـافرين المعانـدين مـن قـريش: مـا يهتم الله ولا يكترث بخطابكم، وأن أمـركم تافـه لا قيمـة لـه بالنسـبة لمـن سـيفتح الله على بصائرهم فيؤمنوا بهذا الدين وينصروه. لولا أنـه سـبحانه يـدعوكم للخيـر تحقيقـا لما كتبه على نفسه من بعث المرسـلين لينبهـوا النـاس مـن ضـلالاتهم، ويقيمـوا لهـم طريق الحق، في العقيدة الصـحيحة والسـلوك الصـالح ، كمـا جـاء ذلـك فـي قولـه تعالى:(**فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون**)[1]

إنكم قابلتم فضله بإرسال محمد إليكم بتكذيبـه، فسـوف يلـزمكم أثـرُ تكـذيبكم لزومـا لا فكاك لكم منه في الدنيا والآخرة، كما أوعـد بـه فـي الآيـة39و**الـذين كفـروا وكـذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**. وقـد صـدق وعـده فـي الـدنيا بانتصـار المسلمين وهزيمة المشركين يـوم بـدر. ويـوم القيامـة سـيكون مصـيرهم إلـى جهـنم خالدين فيها أبدا يلزمهم عذابها.

نسأله سبحانه أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

أكملت بحمد الله وحسن عونه وله الفضـل تفسـير سـورة الفرقـان يـوم الاثنـين 20ذي الحجة 1433- 5- نوفمبر 2012 أعانني ربي على إكماله.

---

[1] سورة البقرة الآية 38.

ســـورة الشّعـراء

هذا هو أشهر أسمائها ، ووجه تسميتها بـذلك أنهـا السـورة الوحيـدة فـي القـرآن التـي ذكر فيها كلمة " الشعراء" وسميت أيضا بسـورة " طسـم" أخـذا مـن فاتحتهـا. وجميـع آياتها مما نزل علـى رسـول الله ﷺ بمكـة علـى أشـهر الأقـوال. ورتبتهـا الخامسـة والعشرون حسـب ترتيـب المصـحف الشـريف. وعـدت السـابعة والأربعـين حسـب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة الواقعة وقبل سورة النمل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟
مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾
وَمَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهُ مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا۟
فَسَيَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا
مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩﴾

بين معاني الألفاظ :

المبين: الظاهر الواضح.

باخع: من البخع، الذبح البالغ أقصى ما تصل إليه الآلة .

الخضوع: التواضع باطنا وظاهرا، والمقصود به الانقياد.

محدث: جديد.

الأنباء : جمع نبأ، الخبر عن الحدث العظيم.

زوج : نوع.

كريم : مرضي فيما يتعلق به من المنافع.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الأحرف التي تتلى مقطعة، والتي افتتحت بهـا علـى هـذا النحـو كثيـر مـن سـور القرآن، تتحدى المشركين الذين يطعنون في القرآن أن يأتوا بمثله في إعجازه.

أشار القرآن إلى آيات هذا الكتاب الذي بلغ أقصى غايــات البيــان لمــن كــان قصــده أن ينظر ويتأمل ولا يعاند. ولكن المُصِرِّين علــى العنــاد كــانوا كثيــرين، وكــان النبــي ﷺ يحزن أشد الحزن من عدم إيمانهم وإصرارهم على الكفــر. وأثـــّـر فيــه الحــزن تــأثيرا ربما يصل به إلى الهلاك، فسلاه ربه إشفاقا عليه من هــذا الأســى الكبيــر. وذكــره بــأن مهمته تنحصر في دعوة الناس لقبول الإسلام ، أما اهتــداؤهم فهــو غيــر مســؤول عنــه. وإنه لو شاء أن ينزل عليهم آية يخضعون لهــا وتَقْسِــرُهم علــى الإيمــان لفعــل. ولكنــه سبحانه أراد أن يكون كل مكلف مختارا بين الإيمــان والكفــر، مســؤولا عــن اختيــاره. صــمَّمَ المشــركون علــى الكفــر، فكلمــا جــاءهم ذكــر جديــد مــن الــرحمن قــابلوه بالإعراض. استقر التكذيب في نفوســهم، وســيلقون جــزاءهم حتمــا وســتأتيهم الحقــائق التي كانوا يكذبون بها ويستهزئون.

إنهم أغمضوا أبصارهم عن المشــاهد التــي تقــيم لهــم الــدليل علــى تفــرد الله بــالخلق والتدبير. إن الأرض التي يعيشون على ظهرهــا قــد أنبتنــا فيهــا مختلــف الأنــواع مــن الزروع والأشجار، كل نوع له خصائصه ومنافعــه .إن فــي ذلكــم التنــوع وفــي الــربط بينه وبين الإنسان لآيــات تنــادي بــأن المتصــرف هــو الله الخــلاق الحكــيم ، ولكــن أكثرهم صمموا على الكفر وحجبوا نور الإيمان مــن أن ينفــذ إلــى عقــولهم. وإن ربــك يا محمد لهو العزيز الذي يتحقق كل ما أراده، فــإهلاك المكــذبين لا يعجــزه، وهــو مــع ذلك هو الرحيم بعباده ، فعسى أن يقلعوا عــن الكفــر وعســاهم أن ينقلبــوا جنــدا ينشــر الإسلام ويدافع عنه أو أن يكون من ذريتهم من يحمل راية الإسلام .

بيان المعنى العام :

1-طسم

افتتحت السورة بهذه الحروف الثلاثة التي تتلــى هكــذا – طــا– ســين – مــيم-والقــول فيها نظير ما جاء في سورة البقرة .والأقرب هــو أن الله تحــدى المشــركين، وهــم أهــل لسان وفصاحة، أن يأتوا بمثل هذا القرآن المركب مــن الحــروف التــي يفخــرون بــأنهم يطوعونها لمختلف أغراضهم وأنهم بلغوا في ذلك المقام العالي .

2-تلك آيات الكتب المبين.

أشير بقوله" تلك" أولا إلى آيــات القــرآن الحاضــرة فــي الأذهــان، ثــم بــين المقصــود بقوله: آيات القرآن. أيها العرب وأنــتم تفخــرون بقــدراتكم علــى التصــرف فــي اللغــة تصرفا موفّقًا، هذه آيات القرآن أمامكم مركبــة مــن الحــروف التــي هــي مــادة اللغــة، أنزلنا بها الوحي، فائتوا بمثل هذه الآيات. إن عجزكم يقــوم دلــيلا علــى أن هــذا الــنظم

من عند الله، ودور محمد فيه لا يعدو إبلاغه لكم. وتميز مـع إعجاز نظمه بأنه مبين واضح ، دليل صدقه من ذاته، لا يمكن أن يجحده إلا مكابر .

3-لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين.

تحول الخطاب من مواجهة العرب إلى الرسول ﷺ تأنيسا له، واشفاقا عليه. لقد عانى النبي ﷺ من إعراض قومه عن الاستماع لما جاءه من الوحي، ومن الإصرار على مواصلة عبادة الأصنام، ومن تلفيق الاتهامات له. وقد سجل القرآن ذلك في كثير من المواطن. وكان حرصه على هدايتهم أقوى من صدودهم. وكان يأسف أشد الأسف ويحزن أن قومه لم يؤمنوا وواصلوا تمسكهم بما ورثوه عن آبائهم. والرسول بشر يتأثر جسمه بعوامل الحزن العميق والأسى البالغ. والله قد أعده ليواصل التبليغ لهذا الدين الخاتم. فنبَّهه إشفاقا عليه: أن غمه من عدم إيمانهم سيفضي به إلى الهلاك الكامل الشبيه بحال من يذبح فيبلغ بالسكين أقصى ما يمكن أن تصل إليه. فلا يجعلْ للغم على قلبه سبيلا.

4- إن نشأ ننزل ... فظلت أعناقهم لها خاضعين.

مما يقويه على مغالبة الأوضاع الصعبة التي كان يعانيها ﷺ في مكة، تذكيره بأن الهداية إلى الحق ربطها الله بإعمال الفكر، والاجتهاد لطرد الشبه، حتى يصل الناظر إلى الاقتناع، ويستقر برد اليقين في النفس. ولم تجر سنته مع رسله جميعا أن يؤيدهم بآية مادية تنزل عليهم من السماء فينقاد لها المبعوث إليهم انقيادا ملجئا. إنه ما بُنِيَ الدين إلا على الاختيار، ولا يستحق المكلف الثواب أو العقاب إلا على ما اختاره من عقيدة أو سلوك. فتؤكد الآية لرسوله أن الله لو أراد أن ينزل على قومه آية من السماء تجبرهم على اعتناق الإسلام لفعل. فإنه لا يعجزه شيء. ولكنّ سنته مضت على أن المبعوث إليهم غير مجبرين على الإيمان بما أُنْزِل إليهم. فليواصل الدعوة بنفس الجد والبيان، ومن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر .

وخضوع الأعناق تعبير يجسم الخضوع والانقياد. فإن شأن الخاضع أن يظهر أثر الخضوع عليه تطامنا، وينزل رأسه وتميل رقبته إلى الأمام . عكس المعجب بنفسه الواثق بقدرته، يعلو رأسه ويشمخ بأنفه.

5- وما يأتيهم من ذكر...كانوا عنه معرضين.

تأكيدا لتسليته عن موقف قومه من الوحي، عرف الله نبيه أن هذا هو شأنهم الذي يستمرون عليه. فكلما أتاهم جديد من القرآن الذي يذكرهم ويرفع شأنهم في العالمين، إلا كان موقفهم منه نفس الموقف: الإعراض، وعدم التأمل في مضمونه

جريا على ما ألفوه من العناد. وفي نسـبة الـذكر المنـزل إلـى الرحمـان، تشـنيع علـى الكافرين، إذ قابلوا ما يشير إليه اسم الرحمن مـن العنايـة واللطـف بهـم، بثبـاتهم علـى الإعراض والكفر.

6- فقد كذبوا فسيأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون .

سجلت الآية أن ما استقر فـي نفـوس المشـركين هـو التكـذيب. وهـو بيـان لموجـب إعراضهم الوارد في الآية السابقة. وشأن التكذيب أن يسـتند المكـذب إلـى حجـة تنفـي ما بَلَغَهُ، ولكنهم ما رفضوه إلا عنـادا وعملـوا علـى طمـس حقائقـه بالاسـتهزاء بـه. أوعدهم القرآن إذ بلغوا هذا الحـد مـن الطعـن والمقاومـة ، بـأنهم سـيعلمون إذا حـق فيهم الوعيد في الدنيا أو في الآخـرة، الأنبـاء التـي كـانوا يسـتهزئون بهـا .استهزأوا بالبعث، وبما فصله القرآن من أحوال يوم القيامـة كشـجرة الزقـوم. إن الغلبـة سـتكون لدين الله.

7- أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم .

إظهار لكون تكذيبهم نتيجـة حتميـه لتصـميمهم علـى غلـق منافـذ المعرفـة، وعـدم الالتفات إلى ما تزخر به الحياة مـن أدلـة، مناديـة بالوحدانيـة لله الفاعـل الحكـيم فـي الكون. هل عَمّتْ أبصارهم فلم يـروا وجـه الأرض التـي يمشـون فيهـا، ألـم يلحظـوا الأنواع الكثيرة المختلفة التي تخرج منها؟ لقد أنبتنـا فـي الأرض مـن كـل زوج كـريم. أنبتنا فيها أنواعا مختلفة الألوان والأشكال والمذاق. وفي كـل نـوع مـن الخصـائص مـا يحقق النفع الخاص الذي خلق من أجلـه. الأرض واحـدة واختلـف مـا تنتجـه بـين مـا يصلح غذاء وما هو فاكهة وما هو دواء من الأسقام، ومـا تتغـذى منـه الحيوانـات فـإذا هو لحم ولبن وبيض، وكل نوع هـو كـريم فـي نوعـه يحقـق المنـافع التـي قـدر الله بحكمته أن يخرجها من ذلك النوع.

8←9إن في ذلك لآية...لهو العزيز الرحيم.

بكل تأكيد يفضي التأمل في كل نوع وتَقَصّي فوائده التـي تظهـر شـيئا فشـيئا، فتتجـدد دلالاتها على أن صانعها حكيم محيط بكل شيء علما. فـي كـل نـوع آيـة تنـادي بأنهـا من صنع الله. ولكـن أكثـر النـاس المخـاطبين وقـت نـزول الآيـة، لا يتـأملون فـي دلالاتها، أقفلوا أبصارهم وبصائرهم، فحرموا الإيمان.

بكل تأكيد إن ربـك الـذي يرعـاك هـو المتفـرد بـالعزة ، فلـو شـاء تعجيـل تـدمير المشركين لفعل ، إذ لا يغلبـه شـيء، ومـن حكمـة القـرآن أن صـرح برحمتـه إثـر التصريح بعزته. إن عزته قـد اقترنـت برحمتـه، ممـا يفيـد أن عـدم تعجيـل حلـول

العذاب ناظر إلى رحمته التي وسعت كـل شـيء، والتـي بفضـلها سـيهتدي كثيـر مـن المشركين وسيخلفهم من ذرياتهم من يعز الله بهم الإسلام.

وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ ۚ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِى وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِى فَأَرْسِلْ
إِلَىٰ هَٰرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنۢبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا ۖ فَٱذْهَبَا بِـَٔايَٰتِنَآ
إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ
أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

يتقون: يحذرون.

يضيق صدري : يحصل لي من الكمد ما أحس به شدة الضغط على صدري.

انطلاق اللسان : يسر الإفصاح عما في الضمير.

بيان المعنى الإجمالي :

واذكر ذلك الظرف الذي نادى فيه ربـك موسـى فقـال لـه: اذهـب إلـى القـوم الـذين عرفوا بالظلم والاستبداد: قوم فرعون المسـتكبرين. عجيـب أمـرهم كيـف لا يتقـون الله ولا يخشون بأسه.

كان موسى، وهو في مقام المناجاة والقرب الشديد من الله، خائفا من عدم النجاح في مهمته التي كلف بها. فإن ما يعرفه عن فرعون وقومه، هو أنهم متمردون على الحق معاندون، فهو يخشى أن يبادروا بتكذيبه وعدم الاستماع لحججه، وأنه يخشى مع ذلك أن يضغطوا عليه فَتَغُور الحجج ويضيق صدره بها، ويعجز تبعا لذلك عن التأثير في قوم فرعون. وطلب من ربه أن يؤيده بإرسال أخيه هارون، الخطيب الفصيح الواضح الحجة، معه. ومن ناحية أخرى كان يحذر أن يمسكه فرعون وينفذ فيه القتل، لأنه غادرَ مصر فارًّا من درك فرعون الذين ائتمروا بقتله عقابا له على قتل القبطي.

طمأنه ربه ، بأنهم لا يقدرون على قتله. وأنه استجاب له فهـو مكلـف بـأن يـدعو أخـاه لتحمل عبء الرسالة معـه. فاذهبـا برسـالتي مؤيـدين بـالمعجزات، ومـع هـذا فـإني محيطكم بعنايتي أسمع كل ما يجري بينكما وبين فرعون.

اذهبا إلى فرعون وقولا له قـولا واضـحا فاصـلا: إنـا رسـولان مـن رب العـالمين، عليك أن تطيع ما نبلغك إياه، هو من رب العـالمين جميعـا، ولـيس لـك يـا فرعـون أي

شيء من أمر العـــوالم، والألوهيـــة لله وحـــده. وإن الله يـــأمرك أن تمكـــن بنـــي إســـرائيل من الخروج من مصر. وأن تحررهم من العبودية التي سلطتها عليهم.

بيان المعنى العام :

10←11: وإذ نادى ربك...ألا يتقون.

سجلت الآية السابقة -3- الحزن الكبير من إصرار قومـــه علـــى الكفـــر الـــذي أثـــر فـــي رسول الله ﷺ. وأن الله قد اعتنى به فسلاه بأنه غيـــر مكلـــف بـــأن يهتـــدي بـــه المبعـــوث إليهم.

ومواصلة لتسليته، عرض القرآن ما وقع لأنبياء الله مـــع أقـــوامهم. فابتـــدأ بقصـــة موســـى عليه السلام .اذكر يا محمد إذ نادى ربك موسى، فكلفـــه بتحمـــل تنفيـــذ مضـــمون الـــوحي الذي سمعه من رب العالمين بدون واســـطة ملـــك ولا بحـــروف وكلمـــات. وعـــاه عقلـــه تلقيا مباشرا من رب العزة. فهم موســـى أن الله أمـــره أن يتوجـــه إلـــى القـــوم الظـــالمين. على أن الظلم أخص صفاتهم. لقد كان فرعون حاكمـــا مســـتبدا، ادعـــى الألوهيـــة فظلـــم الحقيقة ظلما كبيرا، وظلم بني إسرائيل واســـتعبدهم، وتعـــدى علـــى كـــرامتهم. واســـتخف قومه فأطاعوه وعبدوه فوقعوا في ظلم الشرك. إن الشرك لظلم عظيم.

وقل لهم: ألا تتقون ربكم وتخشـــون عقابـــه وتحـــذرون عاقبـــة ظلمكـــم؟ ففيـــه تشـــجيع لموسى بأن يواجههم غير هياب، منكرا عليهم عدم تقواهم.

12←14:قال رب إني أخاف...فأخاف أن يقتلون.

وعى موسى ما أمره به ربـــه، وأســـعفته ســـرعة خـــاطره بتصـــور ثقـــل المهمـــة ومـــا يتبعها، وكان عُظّـــم مـــا يخشـــاه أن يواجـــه بالتكـــذيب مـــن فرعـــون، كمـــا هـــو شـــأن المستكبرين الذين يرفضون كل تشكيك في أحقيتهم بالسلطان المطلق.

و كما خشي من التكذيب خشي من الوضع الذي سيكون عليه وهو يواجه فرعون الطاغية، وهو المتجبر الذي جمع حوله حاشيته وزبانيته. إنه مأمور بمخاطبة فرعون بما يزعزع يقينياته وينسفها نسفا، فانضاف إلى خشيته من التكذيب أن يضيق صدره بما يتراكم فيه من الأدلة التي لا يستطيع أن يبرزها لانحباس في لسانه فلا يبلغ من البيان والوضوح ما يؤدي به الرسالة بنجاح. لذا طلب من ربه أن يؤيده ببعثة أخيه هارون الذي هو خطيب مفوه، أفصح منه لسانا، وأقدر على التأثير في مخاطَبيه .

كما كان موسى مدركا، وهو في مقام المناجاة، أنـــه قريـــب مـــن ربـــه قربـــا يُطْمِعُـــه أن يستجيب لطلبه ويحميه. وكان الظرف الذي حُمّل فيه دعـــوة فرعـــون وقومـــه، هـــو يـــوم رجوعه من مدين التي أوى إليها يـــوم كـــان مطـــاردا مـــن زبانيـــة فرعـــون بعـــد قتلـــه

للقبطي. فإذا رجع إليهم فإنه يخشـــى أن يأخـــذوه بمـــا هـــو مطالـــب بـــه قبـــل أن يبلـــغ الرسالة. فكشف عما في نفســـه مـــن الخـــوف أيضـــا، أن يأخـــذوه بـــذنب القتـــل الـــذي ارتكبه، وفر قبل محاكمته. وموســـى يعلـــم أن القـــانون المطبـــق فـــي مصـــر هـــو قتـــل القاتل. وهذا معنى قوله تعالى: **ولهم علي ذنب فأخـــاف أن يقتلـــون**. فخَوْفُـــهُ كـــان مـــن أن يحال بينه وبين تبليغ رسالة ربه بتسليط عقوبة القتل عليه.

15←17: قال كلا فاذهبا... أن أرسل معنا بني إسرائيل.

أفرغ الله في قلـــب موســـى الطمأنينـــة، وأزال مخاوفـــه، وابتـــدأ خطابـــه بقولـــه: **كـــلا**- المفيدة النفي القاطع لكل أذى. ثم أوضـــح المفـــاد بقولـــه: اذهبـــا تصـــحبكما آياتنـــا التـــي تزعزع فرعون وقومه، فلا يتجـــرؤون علـــى إذايـــتكم. إنـــي لا أهملكمـــا وأنتمـــا عنـــده، فأنتما مرعيان، أستمع كل ما يجري بينكم وبين فرعـــون. والآيـــات التـــي تصـــحبهم هـــي انقلاب العصا حية، وخروج يده من جيبه بيضاء نقية.

أزال الله ما ساوره من خوف، وأيده بهارون أخيه ، وطمأنه بأنه لا يهمله ولو لحظة، وأنه يرعاه ويسمع كل ما يجري بينه وبين فرعون، فناسب أن يأمرهما، وقد توفرت ظروف النجاح، بالتوجه إلى فرعون، وأن يواجهاه دون خوف بقولهما: إنا نخاطبك بوصفنا رسولين من رب العالمين. هي جملة واحدة، ولكنها تجمع تحديد مهمتهما، وأصول العقيدة والتصور للكون. أما مهمتهما فهما رسولان دورهما التبليغ عن الله. وأنهما لما كانا مبعوثين من الله فتصديقهما والعمل بما يبلغانه حتم لا خيار فيه. وأما أصول العقيدة فالله رب العالمين الواحد الأحد لا رب سواه، فدعوى فرعون الألوهية دعوى باطلة وليس له من الألوهية شيء. وأما التصور للكون، فإن الكون صدر بفضل عناية الله، التي صاحبت العوالم من مبدئها إلى أن بلغت ما هي عليه.

ثم إن الله يأمرك يا فرعون أن ترفع يدك عن بني إسرائيل، وأن تمكنهم من الخروج من مصر. بما يعنيه من التحرر من استعباد فرعون لهم .

قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

التربية : كفالة الصبي وتدبير شؤونه.

الوليد : الطفل في طفولته الباكرة.

حكم : حكمة وعلم .

عبدت : اتخذتهم عبيدا، وأذللتهم.

بيان المعنى الإجمالي:

طوى القرآن تفصيل ما تم بين الــوحي لموســـى، وبـــين مواجهتــه لفرعــون. وعــرض علينا ما أجاب به فرعون موسى عليه السلام . قال لــه ممتنـــا أولا: أذكــرك وأنـــت تعلــم أنــك ربيتَ في نعمتنا منذ كنـــت وليـــدا فـــي المهـــد، وتواصـــل فضـــلنا عليـــك فـــي السنين الموالية، فالوفاء يقتضي منك أن تكون شـــاكرا لنعمنـــا. وثانيـــا تـــذكر أنـــك لمـــا بلغـــت أشدك اعتديت على القبطي أحد الذين كانوا في خدمتنا وقتلتـــه. وثالثـــا كنـــت طيلـــة ذلـــك العهد كافرا حسب ما تعرضه علينا اليوم، وقتلك للقبطي دليل على ذلك.

انقض موسى على فرعون من نقطة الضـــعف والزيـــف فـــي كلامـــه، وعاجلـــه بإبطـــال كلامه فيها، وأثبت أنه ما كان كافرا، ولكنه كان مخطئا بقتل القبطـــي. ثـــم ثنـــى بـــأن مـــا امتننت به عليه هو قلب للحقائق. فلا منة لـــك علـــيّ، وإنـــي فـــررت مـــن مصـــر لعـــدم ثقتي في عدالتكم فخفت مـــن ظلمكـــم. وأن الله الـــذي أدعـــوكم لعبادتـــه قبلنـــي برحمتـــه، وملأ قلبي حكمة وجعلني رسولا له أبلـــغ مـــا يـــأمرني بتبليغـــه. وأيُّ نعمـــة لـــك علـــيَّ وعلى قومي؟ لقد استعبدت بني إسرائيل وبلـــغ مـــن ظلمـــك لهـــم أن نفـــذت قـــرارك فـــي قتل ذكرانهم، ولذلك ألقت بي أمي في اليم، ودخلت قصرك .

أمام هذا السيل من الحجج الدامغة المزعزعة قال لـــه فرعـــون: مـــا رب العـــالمين الـــذي تدعو إليه ؟ إذ هو المفهوم الذي يقـــوض كـــل تصـــوراته فـــي الكـــون. فأجابـــه موســـى بجواب يقطع عليه كل تردد ويحيله علـــى المشـــاهد المحســـوس. أجابـــه: رب العـــالمين هو رب السماوات والأرض وما بينهما، الـــذي أبـــدعها ونظمهـــا تنظيمـــا لا خلـــل فيـــه، وواصل عنايته بها في كل لحظة فبقاؤها مرتبط بتلك العنايـــة. فـــإن كنـــتم ترغبـــون فـــي حصول اليقين، فهذا الكون أمامكم يشهد بوجوده وحكمته في تصرفه.

بيان المعنى العام :

طوى القرآن تفصـــيل الأحـــداث التـــي تمـــت بـــين تكليفـــه بالرســـالة، وبـــين مخاطبتـــه لفرعون: ذهب موسى وأخوه هارون إلـــى فرعـــون، ودخـــلا عليـــه، وأبلغـــاه مـــا أمـــرا بإبلاغه. فكان رد فعل فرعون فيه دهاء ومكر.

18←19: قال ألم نربك فينا وليدا...وأنت من الكافرين.

1)خص رده بموسى باعتبار ما فهمه أن موسى هو الأصيل، وهارون معين له، فإذا حطم ما قدمه موسى فقد هزمهما معا بضربة واحدة –

2) اشتغل بالطعن في موسى لتحويل الجدل من مضمون الدعوة إلى ما يظنه هنَاتٍ في تاريخ موسى، تنافي أن يكون صاحبها يحمل هداية.

3) واجهه بالمطعن الأول فوجه إليه سؤال تقرير ألم نربك فينا وليدا؟ نحن أولياء نعمتك ،ربيناك في نعيمنا وفي قصورنا منذ بواكير صباك. والوفاء يقتضي أن لا تتطاول على من رباك أو أن تأمره. يشير بذلك إلى قصة طرح أم موسى له في اليم والتقاطه ليُرَبَّى في قصر فرعون.

4) وهو من تمام الوجه الثالث: أن نعمتنا عليك تجاوزت السنوات الأولى، فعشت يا موسى في نعيمنا سنين عديدة، الأمر الذي يحتم عليك أن تكون مقدرا لذلك، مطيعا لنا

5) ارتقى فرعون من الامتنان إلى التلويح بالتهديد بمؤاخذته على قتل القبطي الذي رُوِي أنه كان طباخا في قصر فرعون . وقتلك إياه يدل على أنك كنت من الكافرين. رفض المفسرون هذه التهمة، التجأوا إلى التأويل :كنت من الكافرين بنعمتي لما اعتديت على أحد من خاصتي. أو أن المراد كافرا بديننا في الحال. أو وكنت من الكافرين بديننا بناء على قرائن دلت فرعون على أن موسى كافر بدينهم. وهي تأويلات يظهر فيها التمحل، وإغفال بعض من كلام فرعون. إن فرعون يؤاخذه لقتل القبطي، ويشنع عليه أنه فعل ما فعل لأنه وقت فعلته كان من الكافرين، أي إنه في ظن فرعون لم يكن على هدى شريعة من الشرائع، لاتفاق الشرائع على أنه لا يجوز الاعتداء على النفس البشرية بدون موجب. ويرمي من وراء ذلك أن موسى كان غير مؤمن يوم قتل القبطي قبل عشر سنوات، فادعاؤه اليوم أنه داعية لدين، ورسول من رب العالمين تناقض في حاله. والذي يسندنا في هذا الفهم أن موسى عليه السلام كان يستمع إليه دون أن يرد عليه كلامه، لكنه لما وصل إلى هذه النقطة لم يتركه يواصل وقاطعه، وأخذ الكلام وأجاب موضحا ما أخطأ فيه فرعون، وما هو محق فيه. ولكنه لا يبرر ما رتبه عليه، فاستنتاجه غير صحيح.

20←21: قال فعلتها إذا...وجعلني من المرسلين.

اعترف موسى عليه السلام بفعلته "قتل القبطي" فعلتها في الوقت الذي فعلتها فيه وأنا من الضالين لا من الكافرين. وفرق بين الكفر والضلال، إذ الكفر رفض للألوهية؛ وموسى من ذرية إبراهيم ومن نسل يعقوب، وبنو إسرائيل في مصر احتفظوا

بدينهم وبعقيدتهم الموحدة. أما الضـلال فهـو الخـروج عـن الجـادة. يقـول الراغـب: (ويقال الضلال لكل عدول عن المنهج عمدا كان أو سـهوا، يسـيرا كـان أو كثيـرا، ثـم يقول: وإذا كان الضلال ترك الطريـق المسـتقيم عمـدا كـان أو سـهوا، قلـيلا كـان أو كثيرا، صح أن يستعمل لفظ الضلال ممن يكون منـه خطـأ مـا، ولـذلك نسـب الضـلال إلى الأنبياء وإلى الكفار ، وإن كان بين الضلالَيْنِ بون بعيد)[1] .

وضع موسى الأمر في نصابه، ورد في حزم على فرعـون أن يكـون قـد تلـوث بـالكفر أبدا. نعم هو وكز القبطـي فقضـى عليـه. وأخطـأ إذ ضـربه ضـربة لـم يأخـذ فيهـا الاحتياطات أن لا تكون قاتلة. ثم حمّل فرعون المسـؤولية فـي هـذه القضـية ، ذلـك أن موسى خاف أن يحكم عليه فرعون بالقتل قصاصـا ، فـي الوقـت الـذي مـا كـان فيـه قاصدا القتل . ولذلك فررت منكم لما خفـت ظلمكـم، وعـدم تحـرِّيكم تبعًـا لاسـتهانتكم بدم بني إسرائيل. وهذا الخروج من مصر أعقبـه رضـوان ربـي علـي، فـوهبني مـن عنده فهما دقيقا لحقائق الأمور، فلا أخدع بالظواهر المضـللة. ثـم شـرفني بـأن جعلنـي من المميَّزين من عباده الذين اختارهم لتحمل رسالته.

22-وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل.

ثم أظهر آثار الحكم "النظر النافـذ المتجـاوز للظـواهر" الـذي أوتيـه فقـال: امتنانـك علي بأن ربيت في قصرك مغالطـة. مـا ربيـت فـي قصـرك إلا لأنـك اتخـذت بنـي إسرائيل عبيدا لك، أذللتهم ونفذت فيهم جـائر أحكامـك، حتـى بلـغ بـك الأمـر اتخـاذ القرار بتذبيح الأبناء بمجرد ما يولدون. وتأمينـا علـى حيـاتي ألقتنـي أمـي فـي الـيم، فالتقطني آلك.

23- قال فرعون وما رب العالمين.

وثوقُ موسى في عـون الله، جعلـت حججـه تنفـذ إلـى كبريـاء فرعـون فتزعزعـه، فتطامن قليلا وسأل موسى ما رب العالمين ؟ لقد ادعى فرعـون ومـن سـبقه ممـن ملـك حكم مصر أنهم يحكمون باعتبار أنهم المظهـر الأكمـل للآلهـة الأخـرى الـذين أوكلـوا لهم حكم مصر النيل. فما عرضه موسـى صـدمه فـي عقيدتـه مـن نـاحيتين: الناحيـة الأولى، العقيدة السائدة لدى سكان مصـر فـي ذلـك العهـد أن الآلهـة متعـددون بتعـدد عناصر هذا العالم وموسى يثبت أن الله واحد. والناحيـة الثانيـة أن فرعـون مُسَلَّـمٌ لـه من جميع الآلهة أنه يحكم مصر باعتباره إلـه الآلهـة. وموسـى يثبـت أن الله واحـد لا شريك، وليس لفرعون من الألوهية شيء.

---

[1] المفردات 510/509

24- قال رب السماوات ...إن كنتم موقنين .

أجاب موسى مدمجا الدليل في الرد. تسألني عن ماهية الله رب العالمين، فأقول لك: هو رب السماوات والأرض وما بينهما. الدليل هو أن الذي أدعوك لعبادته هو أن تتأمل في الإبداع لما تشاهده من نظام في هذا الكون ومن الصنع الحكيم، ولم تشارك لا أنت ولا أحد من آبائك، في قليل أو كثير في هذه المنظومة الكونية العظيمة. وأتبع جوابه : هذا هي الحقيقة المشاهدة أمام أنظاركم ، وهذا هو الدليل الذي لا مطعن فيه. فإن كنتم مستعدين راغبين في الظفر باليقين، فاقبلوا على الإيمان به.

قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُۥٓ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَـٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الثعبان : الحية الضخمة.

نزع: أخرج.

بيان المعنى الإجمالي :

أراد فرعون أن يثيرهم ويغريهم ويثير تعجبهم من كلام موسى، فسألهم ألم تستمعوا لما كان يقوله؟ اغتنم موسى الفرصة وتوجه إليهم قائلا: هور بكم ورب آبائكم من قبلكم . وتحصن فرعون برمي موسى بالجنون إذ شكك في ألوهيته وألوهيته آبائه. فرد عليه بأن الله هو المتصرف في الكون فهو المنظم لما تشاهدونه كل يوم من الشروق إلى الغرب وما يحدث بينهما، ففي كل لحظة تدبير لله، إن كان لكم عقل يظهر لكم الحق من الباطل. وغضب فرعون والتجأ إلى قوته الزجرية المادية فتوعد موسى بأنه إن اتخذ إلها غير فرعون يعبده فإنه سيرمي به مع المجرمين في غيابات السجن. بكل هدوء أجابه موسى أترمي بي في السجن ولو عرضت عليك شيئا واضحا تمام الوضوح يقنعك بأني رسول.

لم يعده باتباعه وإنما أذن له في عـرض مـا عنـده، مضـيفا أنـه يشـك فـي أن يكـون موسى من الصادقين في كلامه .

ألقى موسى عصاه فانقلبت بمجرد ما مسـت الأرض ثعبانـا عظيمـا، وأدخـل يـده فـي جيبه وكان لونها كلون جلده سمراء واضـحة السـمرة، ثـم أخرجهـا فـإذا هـي بيضـاء نقية تدعو الناظرين للتأمل فيها وتملي جمالها.

بيان المعنى العام :

25-قال لمن حوله ألا تستمعون.

نعم كان فيما أجاب به موسى ﷺ زعزعـة لسـلطان فرعـون، وتزييـف لمـا يدعيـه من كونه رب القبط. فتوجه فرعون أولا لمـن كـان حولـه يثيـرهم ضـد مـا عرضـه موسى، ويغريهم برفضه، ويظهر لهم أن مـا ادعـاه منكَـرٌ حـريٌّ بـأن يتعجبـوا مـن شناعته. وذلك بسؤالهم سؤال إنكار كيـف لـم يسـتمعوا لكـلام موسـى علـى معنـى أن عليهم أن يثوروا.

26- قال ربكم ورب آبائكم الأولين.

ما أظن إلا أن فرعون ارتبك، فأدخل فـي الجـدل والمحاجـة مـن كـان حاضـرا فـي المجلس. واغتنم موسـى هـذا الضـعف فحـوّل المخاطبـة مـن فرعـون إلـى جميـع الحاضرين. فقال: هو ربكم ورب آبائكم مـن قـبلكم. كمـا أضـاف إلـى اسـتدلاله الأول على وجود الله بخلق السماوات والأرض، اسـتدلالا ثانيـا هـو أقـرب للحاضـرين، فقـد يدعون أن السماوات والأرض قديمة، فحولهم إلـى النظـر فـي أنفسـهم، وفـي آبـائهم، التي منها ملوك الفراعنة الذين أدخلوا في عقول الناس أنهـم آلهـة. مـن أوجـدهم؟ ومـن تصرف فيهم فأماتهم ؟

27- قال إن رسولكم....لمجنون.

بلغت المحاورة حدا أفحم فرعون وأفرغه مـن كـل معقـول، فالتجـأ إلـى مـا التجـأت إليه قريش فرماه بالجنون وقال: إن رسـولكم الـذي أرسـل إلـيكم، منكِـرٌ للواقـع، إذ تجرأ موسى فنفى أن يكون فرعون هو الإله الأعظـم، إن مـا يقدمـه يـدل دلالـة يقينيـة على أنه مختل المدارك العقلية ، مصاب بالجنون .

28- قال رب المشرق...إن كنتم تعقلون.

واصل موسى ﷺ الاستدلال على الوحدانيـة فقـال: هـو رب المشـرق والمغـرب ومـا بينهما. ولا بد من توضيح الدقة فـي كـلام موسـى . يقـول إن الله هـو الـذي يصـرف أمر السماوات والأرض الذي مـن آثـاره هـذا الشـروق والغـروب، ومـا بـين هـذين

الحدثين اللذين يتعاقبان كل يوم في نظام لا يختــل، ثــم إن التصــرف الإلهــي لا يقتصــر على الشروق والغروب، بل في كل لحظة مــن اللحظــات تبــدو للمتأمــل القــوانين التــي وضعها رب العزة في سيرورة الكون المشرق والمغرب، وما بينهما.

ثم رد على رميه بالجنون بقوله: **إن كنتم تعقلون**. إن كــان لكــم عقــل فإنــه ينتهــي بكــم إلى الإيمان بالله وبقدرته العجيبة وبصنعه المحكم.

29- قال لئن اتخذت إلها...من المسجونين.

ضيق موسى الخناق على فرعون ، وقطع حجته، فمــال إلــى مــا يميــل إليــه الجبــارون المستكبرون، هدد بالبطش المــادي فقــال لموســى: بكــل تأكيــد **لأجعلنــك واحــدا مــن المسجونين**. وهو يريد أن يدخل فــي قلــب موســى الرعــب، لمــا يعلمــه مــن وضــع المسجونين في حكم الطاغية فرعون، التي منها أن الداخل للســجن يعلــم يــوم دخولــه، ويوم خروجه مجهول. كما لبث يوسف في السجن بضــع ســنين، ولــولا تعبيــره لرؤيــا الملك ،التي سبقت الألطاف الإلهية أن تكون سببا لخروجه ،ما خرج منه .

30-قال أولو جئتك بشيء مبين .

تحول المشهد من حجاج عقلي الغلبة فيه للحق، إلــى القــوة الماديــة التــي ظهــرت مــن فرعون في صورة التهديد بالســجن، فتقــدم موســى بســؤال فرعــون بقولــه: أتــودعني السجن وإن كنت أؤيد مقالي بشيء مبين؟ يعنــي بــأمر مــادي لا يتــرك لــك مقــالا ولا شكا. ويستوي الجميع في مشاهدته . وبــذلك يكــون مــا أُظْــهِرُه يثبــت: أنــي رســول الله.

31- قال فأت به إن كنت من الصادقين.

سجل القرآن أن فرعون تبعا لكبره ورفضه لقبــول الحــق كيفمــا كــان، أنــه لــم يلتــزم الرضوخ للدليل الذي سيأتي به موســى، بــل اقتصــر علــى إذنــه أن يقــدم دليلــه، دون التزام منه مسبق. ثم شكك في كلام موسى بقوله: **إن كنت من الصادقين**.

32←33: فألقى عصاه...بيضاء للناظرين.

إن شأن المرسلين واحد ،هــم يعملــون علــى هدايــة البشــر، ولا يــدخرون جهــدا فــي تحقيق ذلك ، ويتعلقون بكل أمل ولوكان ضئيلا.

يبدو المشهد والعيون ترقب ما سيقدمه موسى. وإذا بــه فــي لحظــة يلقــي عصــاه مــن يده على الأرض فتنقلب العصا التي كان الجميــع يشــاهدونها فــي يــد موســى عصــا لا تختلف عن غيرها من العصيِّ. فما إن مست الــرض حتــى انقلبــت إلــى ثعبــان عظــيم لا يشك أحد في أنه ثعبان. ثم تابع ذلــك بــأن أدخــل يــده، التــي لا تختلــف عــن لــون

جلده، في جيب قميصه، ثم أخرجها فإذا هي أمـام جميـع النـاظرين بيضـاء أشـد مـا يكون بياضا ونقاء. يعجب بها الناظرون ويرغبون في إشباع بصرهم من جمالها.

قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُواْ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الحاشر : الجامع.

ميقات يوم معلوم : يوم الزينة، يوم كسر خليج النيل.

نتبع السحرة: نتبعهم في نصرة ديننا وتأليه فرعون.

بيان المعنى الإجمالي :

التفت فرعون لأكابر القوم الذين كانوا حوله فـي مجلسـه وقـال لهـم: إن موسـى عـالم بالسحر ماهرّ فيه، وأن ما يهدف إليه هـو أن يسـتولي علـى أرضـكم وخيـراتكم. فمـا هو رأيكم؟ قالوا له: أمهلـه وأخـاه، بمقـدار مـا يتـوزع الجـامعون فـي أرض مصـر وقراها لجمع السحرة الذين تزخر بهم أرض مصر ويـأتوك بهـم. وافـق فرعـون علـى هذا. وبعد مدة قليلة حضر السحرة، وحُـدِّدَ يـوم الزينـة موعـدا للاجتمـاع، ونـودي أن احضروا الاجتماع العام، لنتبع السحرة في نصـرة ديننـا. لمـا جـاء السـحرة واجتمعـوا بفرعون اشترطوا عليه أولا أن لا يكـون عملهـم تسـخيرا بـل بـأجر إن تغلبـوا علـى موسى. فأجابهم لكم ذلك وفوق ذلك سأقربكم مني.

بيان المعنى العام:

34←35: قال للملأ حوله...فما ذا تأمرون.

قال فرعون إمعانا منه في المكابرة، والتفت إلى أكابر القـوم الـذين كـانوا حولـه فقـال: إن الذي فعل هذا لا يكـون إلا سـاحرا متقنـا لفـن السـحر، عليمـا بخفايـاه. وصـادق الحاضرون على ما قدمه كما جـاء ذلـك فـي سـورة الأعـراف. آيـة 109- وحـذرهم تحذيرا مبطنا كما تقدم أيضا فـي سـورة الأعـراف أن موسـى يرمـي إلـى الاسـتيلاء

على أرض مصر ويخرج القبط منها. وأشـركهم فـي المشـورة ليكونـوا ملتـزمين بمـا يستقر عليه الرأي في أمر موسى.

36←37؛ قالوا أرجه وأخاه...بكل سحار عليم .

اجتمع رأيهم أن لا يعاجلوه بالعقاب ، وأن يؤجلوه مع أخيه، وأن يبعثوا في مدن مصر وقراها جامعين، يجمعون السحرة، ويأتون بكل سحار خبير، متقن لفن السحر.

38←40؛ فجمع السحرة لميقات يوم معلوم ...إن كانوا هم الغالبين.

لم يمض وقت طويل حتى جُمع السحرة من جميع المـدن والقـرى، وحـدد يـوم الزينـة ليكون موعد الاجتماع، كما جـاء فـي سـورة الأعـراف. واسـتحث المنـادون الشـعب على الحضور. إننا نرجو أن يتغلب السحرة ويبطلـوا مـا جـاء بـه موسـى، ونواصـل اتباع ديننا بانتصار السحرة . وتخرج مصر من أزمـة الثقـة التـي خلخـل بهـا موسـى ملك فرعون ، وما غرسه في قلو ب الشعب أنه يتصرف فيهم بإنابة من الآلهة .

41←42؛ فلما جاء السحرة...لمن المقربين.

لما اجتمع مهرة السحرة عنـد فرعـون، وقـد شـعروا أن فرعـون فـي أشـد الحاجـة لتأييدهم للانتصار على موسى وما يدعيه، قالوا لـه: أتعطينـا أجرنـا علـى مـا نتعاطـاه من السحر إن تغلبنا على موسى ؟ وأجاب فرعـون، وبـدا الضـعف عليـه وأن السـحرة هم المنقذون له: نعم لكم أجـركم وافيـا، وفـوق ذلـك فسـأرفع منـزلتكم لتكونـوا مـن المقربين عندي ومن خواصي.

قَالَ لَهُم مُّوسَىٰٓ أَلْقُواْ مَآ أَنتُم مُّلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْاْ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

بيان معاني الألفاظ :

بعزة فرعون : مستعينين على الفوز بقدرة فرعون الإله.

تلقف: تبتلع.

يأفكون: يكذبون.

من خلاف: يقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى حتي يفقد التوازن .

بيان المعنى الإجمالي :

خاطب موسى السحرة قائلا: ألقوا ما أعددتم. فتقدموا وألقوا حبالهم وعصيهم، واستعانوا ببركة فرعون قائلين بقوة فرعون إنا سنغلب موسى وننتصر عليه. تحركت الحبال والعصي وخيل للناظرين أنها غابة من الحيات تتحرك بقوة، فبلغت بهم الرهبة أشدها. وعندها ألقى موسى عصاه فإذا هي تلتهم تلك الحبال والعصي ولا تبقي لها أثرا. تيقن السحرة أن عصا موسى ليست من السحر في شيء. وأنه حقا مؤيد من الله، فخروا سجدا لله، وقالوا آمنا برب موسى وهارون اللذين دلانا على المعبود الحق. تَغَيَّضَ فرعون وقال: آمنتم برب موسى وهارون قبل أن تستأذنونني. إن موسى هو أعلم منكم وهو الجدير بأن يعلـمّكم، فعن قريب سأنفذ فيكم وعيدي: لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف، ثم أصلبنكم جميعا لا أستثني أحدا منكم من العذاب. أجابوا: لا يضرنا تهديدك ووعيدك، إنا سائرون لنلقى جزاءنا عند ربنا، ونحن نأمل أن يغفر لنا خطايانا لأنا كنا السابقين للإيمان برب موسى وهارون.

بيان المعنى العام :

43←44: قال لهم موسى ألقوا...إنا لنحن الغالبون.

لما حضروا في الميقات سألوا موسى: أن يختار أن تكـون ضــربة البدايــة لـــه أو لهــم؟ وذلك من شدة ثقتهم بأنفسهم كما تقدم فـــي ســـورة الأعــراف. وأن موســـى ﷺ أذن لهــم أن تكون ضربة البداية لهم وقال لهم مستخفا بمـــا هيــأوه: اطرحـــوا كـــل مـــا أعـــددتموه. كان ما أعدوه حبالا وعصيا، ألقـــوا جميعهـــا وقرنـــوا فعلهـــم بقـــولهم: نحـــن مســـتعينون بقوة فرعون، إنا لنحن الغالبون. أي إن الغلبة ســـتكون لنـــا بعـــزة فرعـــون وقوتـــه تبعـــا لاعتقادهم ألوهيته.

45-فألقى موسى عصاه...ما يأفكون.

بعد أن تحركت الحبال والعصي حركـــة أوهمـــت الحاضـــرين أنهـــا ثعـــابين دبـــت فيهـــا الحياة فملكتهم الرهبة، ألقى موسى عصاه، فأخـــذت تلـــتهم فعـــلا مـــا كـــان أمامهـــا مـــن الثعابين الموهومة، وتعدمها دون أن تبقي لها أثرا.

46←48: فألقي السحرة ساجدين ...رب موسى وهارون.

يعلم السحرة أن السحر تخييل ولا حقيقـــة لـــه، وأن قـــدرتهم تكمـــن فـــي تحكمهـــم فـــي تصورات الناس .فلما شاهدوا أن ما أتى به موسى حـــق لا تخييـــل، علمـــوا علـــم اليقـــين

أنه ليس من السحر في شيء، وأن ما تـم لا يكـون إلا مـن الله، فـأعلنوا إيمـانهم بـرب العالمين رب موسى وهارون ، ووصـلوا رب العـالمين بموسـى وهـارون نظـرا إلـى أن الهداية تحققت عندهم بواسطتهما عليهما السلام . وصـرحوا بهـذا أمـام المـلأ الـذي كان حاضرا .

49- قال آمنتم له ...لأصلبنكم أجمعين .

عندها سُقِطَ في أيدي فرعون، ولا شك أنـه شـعر بـأن ملكـه يهتـز ، فـأراد أن يسـلط نقمته على السحرة لا لأنهم غُلِبُـوا، ولكـن لإعلانهـم الإيمـان بـرب العـالمين قبـل أن يستأذنوا منه. وهذا هو شأن الطغاة قبـل فرعـون وبعـده، أنهـم يهتمـون بـالتحكم فـي الأفكار والعقائد أكثر من التحكم في الرقاب والأمـوال. فإيمـانهم بـالله قبـل إذنـه أعظـم كبيرة يؤاخَذون عليها ،ويتأهلون للنكال بهم من أجلها أبلـغ تنكيـل. وحتـى يغطـي علـى غطرسته برر ذلك بأن موسى أعظم منهم في علوم السـحر بـل هـو المعلـم لهـذا العلـم وما تغَلـُّبُه عليهم إلا نتيجة ضعفهم العلمـي. ولـذا تهـددهم بأنـه سـيقتلهم شـر قتلـة، سيقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف يقطـع اليـد اليمنـى والرجـل اليسـرى، ثـم يصـلبهم على جذوع النخل إلى أن يموتوا صـلبا متمكنـا لا يسـتطيعون منـه فكاكـا، ولـذا عبـر بكلمة :في ، كأن الصلب سيقع داخل الجذوع.

50←51: قالوا لا ضير...أن كنا أول المؤمنين.

أجابوا فرعون: لا نهتَمُّ بما يصيبنا مـن ضـر سـاعة قليلـة، لنصـير إلـى ربنـا وهـو راض عنا. إنا نؤمل أن الله بفضله وكرمه سـيغفر لنـا مـا تقـدم منـا قبـل اليـوم مـن الخطايا. وأن يثيبنا ثوابا زائدا لأنا كنا أول من آمن مـن القـبط. أي إننـا شـرعنا للنـاس اتباعنا في الإيمان بإله موسى وهارون . وهذا يقابل ما جـاء فـي الآيـة 40 لعلنـا نتبـع السحرة على الكفر بما جاء به موسى.

۞ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِيٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرۡسَلَ فِرۡعَوۡنُ فِي
ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾
وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخۡرَجۡنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ
﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتۡبَعُوهُم مُّشۡرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا
ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ
﴿٦٢﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ

ٱلۡعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزۡلَفۡنَا ثَمَّ ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيۡنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجۡمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ
أَغۡرَقۡنَا ٱلۡأٓخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

المدائن : جمع مدينة البلد العظيم.

الشرذمة : الطائفة القليلة من الناس.

الغيظ: الغضب الشديد.

حذرون : متيقظون للحوادث.

جنات: جنات النخيل التي كانت على ضفاف النيل .

الكنوز: الأموال المدخرة .

الكريم : النفيس في نوعه.

الفرق: الجزء المفروق من البحر.

الطود : الجبل .

أزلفنا : قربنا.

الآخرين : قوم فرعون

بيان المعنى الإجمالي :

بعد مدة من انتصار موسى على سحرة فرعون وإيمانهم بالله، أوحى الله لموسى أن سر ليلا بعبادي بني إسرائيل. وإن فرعون سيتبعك بجنوده. وخرج موسى بقومه تحت جنح الظلام. وبمجرد ما تفطن فرعون لخروجهم أرسل في مدائن مصر رجالا ينادون: إن هؤلاء الخارجين هم شرذمة حقيرة قليلة العدد، قد أغضبونا أشد الغضب، وإن شعب مصر وحكومته على يقظة تامة وعلى حذر منهم. وتَعبّأ الشعب إلى أن بلغ فرعون الطريق الذي سلكوه، والمكان الذي وصلوا إليه. فجمع قادة الجيش والجنود وكل من يستطيع حمل السلاح، وخرجوا للقبض على موسى وقومه تاركين وراءهم أموالهم والجنات التي كانوا ينعمون فيها والأراضي التي كانت تتخللها العيون، والمساكن الرفيعة المتميزة. خرجوا على هذا النحو، ومكن الله بني إسرائيل من أمثال ما خلفه فرعون وقومه لما تغلبوا على الكنعانيين في أرض الشام. وسار فرعون وقومه في إثر موسى مشرقين نحو البحر الأحمر. وعلى شاطئ البحر اقترب الجيشان من بعضهما فكان كل واحد منهما يرى الآخر. خاف بنو إسرائيل من قوة جيش فرعون ، وقالوا لموسى: وقعنا في قبضتهم . أجابهم موسى نافيا ظنهم كلا: هذا

غير صحيح. إن لطف ربي يصحبني وسيهديني لطريق النجاة. وعند ذلك أوحى الله إلى موسى: أن اضرب بعصاك البحر. ضرب موسى بعصاه البحر فانفلق البحر وظهرت طرقات يابسة على جوانبها أمثال الجبال العظيمة من المياه. اقترب فرعون وقومه من بني إسرائيل حتى كانوا جميعا يسلكون تلك الطرق. وفي لحظة أطبقت عليهم تلكم الجبال من الماء، بعد أن أنجى الله موسى وجميع الذين كانوا معه. وأغرق الآخرين: فرعون وقومه ولم ينج منهم أحد حيا.

إن هذا الذي قصه القرآن ليتضمن دليلا على قدرة الله وتقديره الغلبة للمؤمنين. ولكن أكثر الذين يتلى عليهم غير مؤمنين. وإن ربك لهو العزيز الذي لا يعجزه إهلاك الكفرة المعاندين، وهو الرحيم بعباده المؤمنين.

بيان المعنى العام :

52- وأحينا إلى موسى ...إنكم متبعون.

مرت فترة من الزمان بعد ظهور الآيات التي أيد الله بها موسى عليه السلام . لم تفصل السورة أحداثها. وأوحى الله بعدها إلى سيدنا موسى أن المطلوب منه أن يخرج ليلا ببني إسرائيل المشرفين بنسبتهم إليه " عبادي " وأعلمه: أن فرعون سيتفطن لخروجهم وسيتبعهم ليحول بينهم وبين مغادرتهم أرض مصر.

53-فأرسل فرعون في المدائن ....وإنا لجميع حذرون.

خرج موسى تحت جنح الظلام يقود قومه، وبعد خروجه تفطن فرعون للأمر. وقرر أن يحول بينهم وبين ذلك. وأراد أن يأخذ عليهم جميع الطرق حتى يردهم من أي طريق سلكوه. فأرسل في جميع المدن المصرية من يطلق صيحة الفزع لتستعد كل مدينة من مدن مصر الاستعداد الكامل، وتخبر فرعون بمكانهم.

وكانوا ينادون بما يهوّن على سكان مملكته أمر تتبعهم والوقوف في وجههم، بأنهم جماعة قليلة العدد ، ويحفّزهم لتنفيذ الأمر بأنهم أغضبوا فرعون ملك مصر أقوى الغضب، وحثهم على العناية بتنفيذ الأمر بأن الأمر لا يخلو من خطر يستوجب الحذر، هذا الحذر الذي اشترك فيه فرعون وأهل مصر كلهم. فيكون من لم يقم بواجبه في كشفهم خارجا عن إجماع الأمة .

57←58: فأخرجناهم من جنات...و مقام كريم.

لما وردت الأخبار المعينة للطريق الذي سلكوه، أجمع فرعون أمره وحشر قواده وجيشه. وتركوا وراءهم ثرواتهم النفيسة من جنات كانت تجري فيها الأنهار على ضفاف النيل ، ومنابع للمياه تنشر الخصب في الأراضي وما كانوا جمعوه من

أموال مدخرة ومساكن جمعت ضروبا غير قليلة من الرفاهية تعد نفيسة إذا قورنت بغيرها من المساكن . كانوا يعتقدون أنهم سيقيدون بني إسرائيل بالحبال ويأتون بهم أسرى أشد ما يكون هوانا وذلا.

59-كذلك وأورثناها بني إسرائيل.

تم الأمر على هذا النحو الذي صورته الآيات. وأورث الله بني إسرائيل خيرات مثل ما خلفه المصريون وراءهم :جنات وعيونا في أرض الشام لما غلبوا الكنعانيين.

60←61: فاتبعوهم...إنا لمدركون.

لما خرج فرعون وجيشه متعَقِّبين بني إسرائيل، وجدوهم قد اتجهوا نحو الشرق نحو البحر الأحمر.

كان فرعون أسرع من بني إسرائيل فلحق بهم، وأصبح كل منهما يرى الآخر لقرب ما بينهما. وحق ما أخبره الله بأنه متبعون، الذي يدل على أنه سيحميهم منه. وحسب المعطيات الظاهرة أحس بنو إسرائيل بالخطر يتهددهم، البحر أمامهم، والعدو المدجج بالسلاح وراءهم. فقالوا لموسى:.يقينا إنا سنقع في قبضتهم.

62-قال كلا إن معي ربي سيهدين.

كان جواب موسى حاسما رادعا لهم عن الشك في النجاة. كلا، لا يدرككم فرعون وجنده، إن لطف ربي يصحبني وهو قد وعدني نصره، وهو لا يخلف وعده. وإنه بناء على ذلك سيهديني للمخرج الذي نسلم به .

63←66: فأوحينا إلى موسى...ثم أغرقنا الآخرين.

جاء الفرج بعد الشدة: أوحى الله لموسى: اضرب البحر بعصاك. وضرب موسى البحر بعصاه فإذا هو مسالك وطرق يابسة على جانبي كل طريق يرتفع الماء كالجبال العظيمة.

64- ومن عجيب صنع الله أن قرب فرعون وجنده من بني إسرائيل فتبعوهم في المسالك التي جروا فيها في البحر، حتى لم يبق منهم أحد خارج تلك المسالك، كما يدل عليه قوله تعالى " ثَـمَّ" والآخرين هم فرعون وقومه. وعبر عنهم بالآخرين احتقارا لهم وتوهينا لشأنهم.

تصريح بالنتيجة، وتسجيل لنعمة الله، أنجى الله موسى ومن معه، ولم يتخلف أي واحد منهم، وعاشوا جميعا لحظة النصر وراء رسولهم. وشاهدوا جميعا إغراق الآخرين.

67←68: إن في ذلك لآية...لهو العزيز الرحيم .

بكل تأكيد فيما عرضناه عليك من أمر موسى ﷺ وكفاحه لغطرسة فرعون ما يقوم دليلا على أن القدرة الإلهية تتصرف في الكون تصرف الحكمة الخارجة عن تصورات البشر، يؤيد أنبياءه ويعلي شأنهم في الوقت الذي تكون فيه جميع المعطيات لا تدل على ذلك. وهذه الآية التي ذُكِّر بها كحاصل للقصة لا تتعلق بقوم فرعون، ولكنها تشير إلى القوم الذين بعث إليهم النبي ﷺ . كان عليهم أن يعتبروا وينظروا في المآلات، ويقلعوا عن التكذيب ومعاكسة الدعوة الإسلامية . لكن أكثرهم كانوا غير مؤمنين . وكما جاء في أول السورة: الإشفاق على رسول الله من حزنه على رفض الإيمان من قومه، فإن هذه الظاهرة تجعل كثيرا من قومه لا ينفع فيهم ما ذكروا به من أمر موسى وفرعون.

وإن ربك يا محمد هو العزيز الذي لا يعجزه أمر هؤلاء الكفرة، وهو الرحيم الذي هدى من كتبت له السعادة إلى الإيمان.

وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ إِبۡرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعۡبُدُ أَصۡنَامٗا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلۡ يَسۡمَعُونَكُمۡ إِذۡ تَدۡعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوۡ يَنفَعُونَكُمۡ أَوۡ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلۡ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفۡعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيۡتُم مَّا كُنتُمۡ تَعۡبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾ ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِي هُوَ يُطۡعِمُنِي وَيَسۡقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

التلاوة : القراءة.

نبأ إبراهيم : قصة إبراهيم.

الصنم : ما كان من الأوثان على صورة بني آدم.

نظل : أصل استعمالها في الفعل نهارا، عكس بات، وطفق لليل والنهار.

عدولي: أبغضهم .

الخطيئة : الذنب.

بيان المعنى الإجمالي :

اقرأ على الناس قصة إبراهيم حين قــال لأبيــه وقومــه ســائلا مــا تعبــدون ؟ أخبرونــي عن معبودكم .أجابوه بكل ثقة نعبد أصــناما منحوتــة ، فنواصــل عبادتهــا كامــل اليــوم. وإذ حددوا الإله الذي يعبدونه، كــر علــيهم ليبطــل معبــوداتهم، ويبــين لهــم الحقيقــة . فسألهم أيسمعون ابتهالاتكم ودعاءكم لهــم ؟ أينفعــونكم إذا احتجــتم للعــون مــنهم ؟ وهــل يضرونكم إن أنتم أعرضتم عنهم ؟ أحرجهم فلم يجدوا جوابــا ســوى أنهــم قلــدوا آبــاءهم في عبادتهم. أجابهم إبراهيم: أنظرتم في أمــركم لتتبينــوا حقيقــة مــا تعبــدون أنــتم ومــا عبده آباؤكم من قبلكم عبر الآمــاد الماضــية؟ إنــي أعلــن عــدائي لجميــع آلهــتكم، ولا أخضع إلا لله رب العالمين.

الله رب العالمين هو الذي خلقني، وهو وحده الــذي يهــديني ســواء الســبيل فــي عقلــي وعقيدتي، وفي اختيــاراتي لأكــون موفقــا. وهــو وحــده الــذي يمكننــي مــن الغــذاء والشراب، وهو الذي يشفيني من دائــي إن مرضــت، وهــو الــذي يــتحكم فــي حيــاتي فيميتني متى شاء، ثم يبعثني ليحاسبني علــى مــا قــدمت. وفــي ذلــك اليــوم أنــا آمــل طامع أن يشملني بفضله فيغفر لي تقصيري .

بيان المعنى العام :

69←70: واتل عليهم ...ما تعبدون.

أعقب القرآن قصة موسى بقصة إبراهيم عليهما الســلام. فــأمر الله نبيــه أن يقــرأ علــى قومه قصة إبراهيم، وما تضمنته من إبطال الشرك بإعمال النظر العقلي.

أمر النبي ﷺ بقراءة قصة إبراهيم، حــين قــال لأبيــه وقومــه: مــا تعبــدون ؟أي حــين استفسرهم عن جنس ما يعبدون، ليصــرحوا بتعيينــه حتــى يســتطيع أن يُقَــوِّمَ عقيــدتهم بعد أن تكون محددة بكلامهم .

71- قالوا نعبد أصناما. فنظل لها عاكفين .

صرحوا بأنهم يتقربون إلى الأصــنام بالعبــادة، وإظهــار الطاعــة لهــا وهــم يواظبــون على ذلك كامل أوقات النهار." عاكفين "

72←73:قال هل يسمعونكم...أو يضرون.

لما حددوا بتصريحهم علاقتهم بالأصنام، وأنهم يعبــدونها كامــل الوقــت، تهيــأ لإبــراهيم أن يدخل في محاجتهم حســب أقــوالهم .فكــان الســؤال الأول منــه، إذا كنــتم تعبــدونهم فهل يسمعون ابتهالاتكم ودعاءكم وما يجري على ألســنتكم مــن التقــديس لهــا؟ ثــم إنكــم

تتضرعون لهم ليساعدوكم بتحقيــق رغبــاتكم، وينفعــوكم. فهــل يســـتطيعون أن يقــدموا لكم نفعا مرجوًّا؟ وهل يستطيعون أن يضروكم إذا قصرتم في إرضائهم ؟

74- قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون.

أحرجهم بسؤاله هذا، فلم يجدوا إلا جوابا واحدا. هو اعتمــادهم علــى تقليــد مــن اكتســب صدقه من تقادم الزمن؛ فقالوا: إنا وجــدنا آباءنـــا يعبــدونهم علـــى النحـــو الــذي نعبــدهم فقلدناهم.

75←77:قال أفرأيتم ...إلا رب العالمين .

تأملوا واستيقظوا فإن كلامكم يدعو إلى العجب ! مـــا كنـــتم تعبدونـــه، ومـــا عبـــده آبـــاؤكم من قبلكم، وما أسبغتم عليهم من القداسة لقِــدَمِ عبــادتهم، باطــلٌ والباطــلُ لا ينقلــب حقــا بالقدم. واعلموا أن موقفي من جميع معبــوداتكم وعلاقتـــي بهــم، هـــي علاقــة العــداوة. لكني أفرد بالعبادة رب العالمين.

78←82:الذي خلقني فهو يهدين.... يغفر لي خطيئتي يوم الدين.

أخذ إبراهيم يعرفهم بصفات الله المميزة لـــه، وتصـــرفه فـــي الكـــون، وحاجـــة الإنســـان له. فابتدأ أولا: بأنه هو الذي خلق الإنسان فأحســـن خلقـــه، وهـــو الـــذي هـــدى الإنســـان بواسطة ما أودع فيه مـــن قـــوانين تحفـــظ لـــه حياتـــه وتعرفـــه علـــى الكـــون، كالبصـــر والسمع والتقام الثدي ، وجريان الدم في عروقه وكـــل الأجهـــزة التـــي بهـــا كـــان إنســـانا حيا. وهو الذي خصــه بالعقــل الــذي يكشــف لــه الحــق ويعرفـــه بـــالزيف والباطـــل. ويحيطه بألطافه الحامية له من الزيغ والضلال.

ثم ثنى بأن عنايته بالإنســـان لا تقـــف عنـــد حـــدود الخلـــق الإيجـــادي وخلـــق الأجهـــزة العقلية والجسمية، ولكن تتعدى ذلك إلى مساعدة الإنسان علـــى الحيـــاة فـــي كـــل لحظـــة من لحظات حياته، على معنى أنه لولا عنايـــة الله بالإنســـان المتواصـــلة مـــا اســـتطاع أن يستمر في الوجود ولو لحظة. فغذاؤه وريه يصل إليهما بفضل عناية ربه.

ثم ثلث بعون الله للإنسان إذا ما اختلت صحته، فمرض. مـــن الـــذي يشـــفيه مـــن ســـقامه غير الله؟ إن الدواء لا يحـــدث أثـــره إلا إذا أراد الله للمـــريض الشـــفاء، ولا ينفـــع تـــدخل الطبيب إلا إذا هدى الله الطبيـــب لتشـــخيص الـــداء، وهـــداه لوصـــف العقـــاقير الملائمـــة لخواص المريض. واستجاب البدن لفعل الأدوية.

ورابعا – سر الوجود المُعَمَّى عن الإنسان: الحياة والمـــوت. إن الـــذي بعـــث فـــيَّ الـــروح فحييْت، والذي يسلب مني هذه الروح فأموت، ثم يعيـــدها إلـــي لأبعـــث مـــن جديـــد. هـــو الله .

– إن علاقتي بربي متواصلة إلـى يـوم أبعـث وأقـف بـين يديـه للحسـاب فـي يـوم الجزاء. إني أطمع أن يغفـر لـي تقصـيري فـي ذلـك اليـوم ، ولا يؤاخـذني . وهـو موقف يدل على ما ينبغي أن يكون عليه الإنسان مهما علـت قيمتـه فـي مراتـب القـرب من الله. سواء أكان من الأنبياء والمرسـلين، أم مـن العبّـادِ والصـالحين؛ إنـه لا مطمـع لأحد في النجاة إلا إذا تفضل الله عليـه بـالقبول وغفـر لـه تقصـيره. ومـن ضـروب التقصير غفلة العابد عن المعبود والاشتغال بما سـواه . جعلنـي الله وإيـاكم ممـن يحـل عليه رضوانه يوم يبعثون.

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحكم : الحكمة والنبوة.

لسان صدق : كلام مرغوب فيه محقق.

ورثة جنة النعيم : المستحقون لها استحقاق الوارث لمخلف الميت.

الخزي : الحياء من الوضع الذي هو فيه، والمهانة .

بيان المعنى الإجمالي :

ابتهل إبراهيم إلى ربه راجيا أن يستجيب له، فدعاه: أن يهب لـه مـن فضـله حكمـة فـي عقله تبين الحقيقة بوضوح فيـدرك أعماقهـا ولا يخفـى عليـه شـيء منهـا. وأن يجمـع بينه وبين الصالحين المرضيِّ عـنهم مـن عبـاده. وأن يجعـل أعمالـه وأخلاقـه مثـالا يحتذى وينوه به في الآماد المسـتقبلية. هـذا فـي الـدنيا، وأمـا فـي الآخـرة فـدعا، أن يجعله من الذين يتملكون مقامهم في جنة النعـيم والكرامـة، كمـا يتملـك الـوارث مـال مورثه . وأن يغفر لأبيه الذي كان من القوم الضالين، وكـان دعـاؤه هـذا قبـل أن يتبـرأ منه. وأن لا يكون يوم يبعث الناس مـن قبـورهم إلـى الحسـاب، فـي وضـع يسـتحيى منه.

ثم أخذ القرآن يفصل بعض أهوال هذا اليـوم: يـوم لا ينفـع الإنسـان أخـص مـا كـان يعتز به ويطمئن إلى أنه يستمد منه قوته ، ويكون له مناعـة مـن النوائـب ، وهـو مالـه

وبنوه . ولا ينفع المبعوث في ذلك اليوم شيء مما لــه قيمـــة إلا إذا أتــى للموقــف وقلبــه سليم من مرض الشرك والنفاق، وكذلك من كبائر الذنوب بالتوبة منها.

بيان المعنى العام :

83←89: رب هب لي حكما...بقلب سليم.

بلغ إبراهيم عليه السلام تصوره السامي لرب العالمين ، وتبرأ مــن كــل حــول وقــوة، وأن كــل ما ينعم به هو من فضل ربه عليه ، وإذ قد أتم ما يعتقد أنــه مهمتــه الأولــى توجــه إلــى ربه يدعوه في خشوع وإنابة، وهو الأواه الحليم. ومن رقــة قلــب إبــراهيم وصــفائه أنــه يتوجه بالدعاء كلما ختم أمرا أخلــص فيــه لله ، إذ يــراه الظــرف الــذي يكــون أرجــى للقبول . فهو عندما كان يرفع قواعد البيــت الحــرام ســجل القــرآن دعــاءه: **وإذ يرفــع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربّنا تقبل منّــا**[1]. وعنــدما أتــم مهمــة بنــاء البيــت وأسكن زوجه وابنه حولهــا : **ربّ اجعــل هــذا البلــد آمنــا واجنبنــي وبنــي أن نعبــد الأصنام** [2]– وعلى سنته تلك دعا ربه أن يكرمه من فضــله، وأن يهــب لــه مــن عنــده، لا جزاء على ما فعل ولكــن علــى ســبيل التفضــل، أن يهبــه الحكمــة التــي تتجــاوز الظواهر إلى الحقائق، والدنيا إلى الآخــرة ، والعاجــل الفــاني إلــى الــدائم البــاقي. وأن يجمع بينه وبين زمرة الصالحين المهتدين المرضــيِّ عــنهم . إذ مــن كمــال الســعادة أن يكون الإنسان مع الجمع الذين يرتاح لهــم ويــأنس لطــريقتهم وأخلاقهــم .وقــد اســتجاب الله دعاءه ؛ قال تعالى:(**وإنه في الآخرة لمن الصالحين**)[3].

ثم سأل ربه أن يجعل له ذكرا حســنا ســائرا مــدى الــدهر فــي الأمــم والأجيــال. وقــد أجاب الله دعاءه، فجميع أمم المرسلين بعده تــذكره وتعظمــه وتقتــدي بــه. قــال تعــالى: **ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا مــن ســفه نفســه**[4] وأثنــى عليــه القــرآن فــي آيــات عديدة.

بعد أن أتم دعاءه بما يحقق له طموحاته العالية في الدنيا انتقــل إلــى الــدعاء بمــا يتعلــق بالآخرة. فكان ســؤاله الأول فيهــا أن يجعلــه مــن الــذين يســتحقون الجنــة اســتحقاق الوارث لمخلف مورثه استحقاقا ثابتا.

---

[1] سورة البقرة الآيات 129/127

[2] سورة إبراهيم الآيات 41/36

[3] سورة البقرة 130

[4] سورة البقرة آية 130

ثم أعقبه بالدعاء لأبيه أن يغفــر لـــه. واستُشْــكِل دعـــاء إبـــراهيم لأبيـــه الكـــافر. ويـــدفع الإشكال ما جاء في سورة التوبة **(وما كــان اســتغفار إبــراهيم لأبيــه إلا عــن موعــدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منــه إن إبــراهيم لأواه حلــيم)**[1]. نعــم إن أبــا إبراهيم وعد ابنه أن يؤمن ، ولكنه مات على الكفر، وما طبــع عليــه إبــراهيم مــن رقــة القلب، ولين الجانب بشــهادة القــرآن فيــه، جعلــه يســتغفر لأبيــه بعــد موتــه، وهــذه الآية(86) تتحدث عن ذلك الظــرف. ثــم إن الله نهــى إبــراهيم عــن الاســتغفار لأبيــه فانتهى، وتبرأ منه.

ثم سأل ربه أن لا يخزيه يوم القيامة. والخــزي انكســار فــي الــنفس، قــد يكــون مــن شدة الحياء ومصدره الخزاية . وقد يكون مــن الغيــر ومصــدره الخــزي . والأقــرب أن يكون سؤال إبراهيم أن يحميه من الخزاية بالمعنى الأول .

أتبع القرآن يوم يبعثون، بقوله :**(يوم لا ينفــع مــال ولا بنــون** إلــى الآيــة 102 **فلــو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين)**. والــذي جــرى عليــه معظــم المفســرين أن الآيــات مــن كلام إبراهيم. والذي رجحه ابن عطية والشيخ ابن عاشــور أن الآيــات كلهــا مــن كــلام الله تعالى. وأن توسلات إبراهيم انتهت عند قوله: **ولا تخزني يوم يبعثون.**

وصف يوم يبعث الناس للحساب، بأنه يوم لا ينفــع فيــه مــال ولا بنــون إلا مــن أتــى الله بقلب سليم. والمعنى والله أعلــم: لا ينفــع المبعــوثين شــيء لا مــال ولا بنــون لكــن المبعوث الذي جاء ربه بقلب سليم فإنه يحصــل لــه النفــع بــذلك. والقلــب الســليم هــو القلب الذي لم يصب بمرض النفاق والكفر. وأما المعاصي فــإن مــن تــاب منهــا توبــة مقبولة فإنه سليم القلب لا يخزى يوم القيامة. ومن لــم يتــب قبــل خــروج الــروح فــأمره إلى ربه إن شاء غسل له قلبه من آثامه بفضله ، وإن شاء عذبه بعدله ورحمته .

وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ
تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ هَلْ يَنصُرُونَكُمْ أَوْ يَنتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُبْكِبُوا۟ فِيهَا هُمْ
وَٱلْغَاوُۥنَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا۟ وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَٱللَّهِ إِن
كُنَّا لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَآ أَضَلَّنَآ إِلَّا
ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِن شَـٰفِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً

---

[1] سورة التوبة آية 114

فَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

أزلف : قرب.

برزت : برزت وظهرت ظهورا شديدا.

الغاوون : جمع غاوٍ، الضالون، والمضلون.

التسوية : المماثلة.

الحميم: القريب، جمع الصداقة والقرب.

الكرة : مرة من الرجوع.

بيان المعنى الإجمالي :

يقرب الله الجنة من المتقين يوم البعث فيرون منازلهم وتحل الطمأنية قلوبهم . وبالمقابل تكون جهنم بارزة أشد البروز لأهل الضلال والفساد. ويُسأل الغاوون سؤال تبكيت واستهزاء، أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله ؟ إنكم كنتم تعتقدون أنها تنصركم فهل تستطيع أن تنصركم اليوم، بل هل تستطيع أن تنصر نفسها من المهانة والعذاب ؟ ويعقب هذا السؤال بأن يطرح في جهنم في ضربة واحدة الأصنام، والعابدون لهم، ومن كان إبليس يستعين بهم لإغواء الناس وإضلالهم عن الطريق المنجي. ما يجري بينهم من الحديث في جهنم، هو خصام يقول الكفرة والمشركون لآلهتهم التي كانوا يقدسونها: قسما بالله إننا كنا مغرقين في الضلال الواضح. من كمال ضلالنا وغبائنا أنا كنا نجعلكم في مرتبة واحدة مع الله رب العالمين، فكنا نعلق عليكم الآمال في العون والنصرة. إن الذين خدعونا فأهلكونا هم المجرمون. فاليوم لا نجد شفيعا يشفع فينا فتنفعنا شفاعته ،ويخفف عنا ما نلقاه ، ولا نجد صديقا قريبا نبث له شكوانا أو يقدم لنا نصيحة تساعدنا على الخروج من كربنا. وستكون أمنيتهم العودة إلى الدنيا فيؤمنوا ويصلحوا أعمالهم حسبما استفادوا من التجربة . وهي أمانٍ لا تزيدهم إلا مضاعفة حسراتهم.

إن في قصة إبراهيم وما عقبت به من جزاء الصالحين وبيان منازل المكذبين الضالين ،لأدلة تلهم الناظرين اتباع طريق الهداية، ولكن أكثر الناس المخاطبين بالآيات صمموا على الكفر فلا يستفيدون. وإن ربك لهو العزيز الذي سينتقم من

الكفرة، وينصر برحمته الصـــالحين المـــؤمنين. وفيـــه بشـــارة بنصـــر الإســـلام ، ودحـــر الكفر. والله غالب على أمره.

بيان المعنى العام :

90- وأزلفت الجنة للمتقين .

مما يتفضل الله به على المتقين الحذرين مـــن المعصـــية ، الـــراغبين فـــي فعـــل الخيـــر، عند البعث أنه يقرب لهم الجنة فيرون مكانهم فيها فيطمئنون على مصيرهم

91- وبرزت الجحيم للغاوين.

وفي المقابل فإن جهنم يتم إبرازها بقـــوة تأخـــذ حـــواس الغـــاوين الضـــالين والمضـــلِّين، ورؤيتهم لجهنم قبل أن يدخلوها تعجيل للعذاب النفسي.

92←93:وقيل لهم أين ...أو ينتصرون .

مع كامل الاحتقار يسمعون قولا، لم يســـم قائلـــه، يـــوبخهم :أيـــن هـــي معبـــوداتكم التـــي كنتم تعبدونها من دون الله راجين منها النفع، آملين منهـــا أن تبـــدل ضـــعفكم قـــوة ؟ هـــل هي قادرة على نصركم وإخراجكم من البلاء الذي أنتم فيـــه؟ بـــل هـــل هـــي قـــادرة علـــى أن تنصر نفسها تهكما بها وبعابديها.

94←95: فكبكبوا فيها ...وجنود إبليس أجمعون.

وعند ذكر الأصنام العاجزة المستهزأ بها وبِعُبَّادِها، تكـــب فـــي جهـــنم كبـــا. ويلقـــى بهـــا في جهنم كما تجرف الجرافات المزابل، يُجْمَعُون إلى جنـــود إبلـــيس الـــذين عملـــوا علـــى إضلال الناس ، فلا يبقى منهم أحد خارج جهنم .

96←98: قالوا وهم فيها يختصمون....برب العالمين.

سجل القرآن ما يقولونه وهم في النار، فأبرز الظـــاهرة الأولـــى: أنهـــم يختصـــمون فـــي جهنم، علاقتهم علاقة كراهية وعداء وإلزام.

97←101، تالله إن كنا لفي ضلال...فنكون من المؤمنين.

أقسموا قسما فيه تعجب من حالهم في الدنيا خاطبوا بـــه أصـــنامهم: مـــا كنـــا فـــي الـــدنيا إلا مغرقين في الضلال الواضح، في ذلـــك الظـــرف الـــذي نجعلكـــم ورب العـــالمين فـــي مرتبة واحدة.

ثم التفتوا إلى زعمـــائهم واصـــفين لهـــم بـــالمجرمين، ذاكـــرين أنهـــم قـــد عملـــوا علـــى إضلالهم في الدنيا، وغطوا عليهم طريق الخيـــر، ولبســـوا علـــيهم طريـــق الشـــر وحببـــوه لهم. وأطمعوهم فـــي الفـــوز إذا هـــم اتبعـــوهم. وقـــد أثَّـــروا فـــيهم بمختلـــف التـــأثيرات المموهة ، واعتقدوا أنهم سيجدون فيهم الملجأ والعـــون فـــي مصـــيرهم . زفـــرت قلـــوبهم

بحالة الإحباط التي هم عليها فقالوا: ما لنا مـن شـفيع، لـم نجـد أحـدا اليـوم ، يكـون شفيعا لنا فيما ارتكبناه من ضلال وفساد، ولـم نجـد صـديقا قريبـا يواسـينا أو يشـاركنا فنبُثُّ له شكوانا ليسلينا.

102-فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين .

تبين لهم ضياعهم، وكذب الذين كـانوا يزينـون لهـم طريـق الكفـر والضـلالة. وشـأن الخاسر أن يتمنى أن يأخذ الاحتياطـات ولا يغفـل كمـا غفـل فـي السـابق، فتمنـوا أن يعودوا للحياة الدنيا مرة واحدة ، فيقبلـوا علـى الإيمـان والعمـل الصـالح. ولكـن هـي الندامة والأسى، ثم اليأس تضاعف آلامهم.

103←104: إن في ذلك لآية ....لهو العزيز الرحيم.

إن في قصة إبراهيم عليه السلام ، وما عُقِّبَتْ به من بيـان منـازل المتقـين، ومنـازل الغـاوين الضالين، ما يوقظ القلوب للتأمل والاعتبار. ولكن أكثـر المبعـوث إلـيهم كـانوا معانـدين رافضين للإيمان. وإن ربك يا محمد هو العزيز الذي لا يغلبـه أحـد فسيحشـر إليـه كـل طاغية من المشركين فردا ذليلا. وإنه هو الـرحيم بعبـاده المـؤمنين. وبعزتـه ورحمتـه سينتصر الإسلام ويهزم الشرك.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٠٧﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٠٨﴾ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١١٠﴾ ۞ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ
ٱلْأَرْذَلُونَ ﴿١١١﴾ قَالَ وَمَا عِلْمِى بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٢﴾ إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّى
لَوْ تَشْعُرُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَآ أَنَا۠ بِطَارِدِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٤﴾ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأرذلون : سقط القوم، المحقرون في المجتمع .

الحساب : أصله العد، واستعمل بما يفيد محاسبة الله للبشر.

بيان المعنى الإجمالي :

عطف القرآن قصة نوح على قصة إبراهيم عليهمـا السـلام. وافتتحـت القصـة بتسـجيل الظاهرة الكبرى في قوم نوح وما تميـزوا بـه: أنهـم كـذبوا أن يبعـث الله رسـولا مـن البشر ، فكل من يدعي الرسالة كاذب عندهم. قـال لهـم أخـوهم نـوح الـذي هـو مـنهم نسبا غير أجنبي عنهم: ما لكم لا تتقـون ربكـم فتعتقـدون العقيـدة الصـحيحة ،وتعملـون

العمل الصالح ! إني رسول مـــن الله إلـــيكم لا أغيــر شـــيئا ممـــا أمرنـــي بـــه ، والـــذي جماعه تقوى الله، وطاعتي فيما أهديكم إليـــه . ولا أطلـــب مـــنكم أي حـــظ لنفســـي. إنـــي أنتظر من رب العالمين أن يـــوفيني جزائـــي ،فـــاتقوا الله وأطيعـــون .وتكـــررت دعـــوتهم لتقوى الله وطاعة نوح فيما يبلغهم عـــن ربهـــم ، نظـــرا إلـــى أن مقامـــه بيـــنهم بلـــغ مـــا يقارب ألف سنة ، فهو يؤكد عليهم بين الحين والآخر أن يتقوا الله ويطيعوا نوحا.

قالوا له : كيف يمكن أن نؤمن بك ونتبـــع الـــدين الـــذي أتيـــت بـــه، فـــي الوقـــت الـــذي اجتمع حولك الأراذل وسَقَطُ الناس ؟ مع إشارة إلى أنهم كانوا يفعلون الشر.

أجابهم بأنه لا علم له بما يتهمونهم به، وأن الذي يهمـــه فقـــط هـــو وضـــعهم الحـــالي مـــن الإيمان والاستقامة، وأما ما مضى أو مـــا تتهمـــونهم بـــه فالـــذي يتـــولى حســـاب النـــاس على أعمالهم هو ربّي، وهو العليم بالظواهر والبـــواطن. ولكـــن شـــعوركم غلـــيظ، فـــالفقر لا رابطة بينه وبين الرذالة. ولا يمكـــن أن أطـــرد المـــؤمنين بعـــد أن فـــتح الله صـــدورهم للإيمـــان. إن مهمتـــي، هـــي هدايـــة النـــاس للإيمـــان، وإنـــذارهم الخســـران إذا هـــم أعرضوا، أبذل في سبيل ذلك كل إمكانياتي ، وما يتيسر لـــي مـــن الوســـائل التـــي تبـــين لهم ذلك.

بيان المعنى العام :

105- كذبت قوم نوح المرسلين.

بعد أن ذكر القرآن بإبراهيم ﷺ ، وجهاده لإصلاح قومه ومـــا لاقـــاه مـــنهم، ومـــا عقـــب بّه القرآن من تفصيل لمآل الصـــالحين، ومـــآل المكـــذبين الضـــالين. عطـــف علـــى ذلـــك قصة نوح ﷺ لتسلية النبي ﷺ عما يلقاه من عناد المشركين.

افتتحت القصة بتسجيل تكذيب قوم نوح له. في الظـــرف الـــذي عـــرض علـــيهم الإيمـــان بما جاء به من عند الله. ومتابعة للآيات نلاحظ:

أولا: أن فعل كذب، فاعله قوم نوح. وكلمة قوم اســـتعملت فـــي القـــرآن علـــى أنـــه اســـم مذكر، وفي هذه الآية جاء الفعل المسند إليها ملحقا بتـــاء التأنيـــث الســـاكنة. وخـــرج ذلـــك بإحدى طريقتين: إما على أن قوم نوح مؤول بأمـــة قـــوم نـــوح، وإمـــا علـــى اعتبـــار أن قوم يصح اعتباره مـــذكرا ومؤنثـــا، ويـــدل علـــى التأنيـــث أنـــه يصـــغر علـــى قويمـــة. والتصغير يرد الكلمات إلى أصولها .

ثانيا: أن مفعول كـــذب "المرســـلين" جمعـــا، مـــع أن نوحـــا ﷺ هـــو أول رســـول، ولـــم يبعث معه رسول آخر حتى يجمـــع "المرســـلين " وخـــرج علـــى أن قومـــه يرفضـــون ولا يقبلون أن يكون بشر رسولا، فهم يكذبون جميع الذين يدعون الرسالة.

106←107: إذ قال لهم أخوهم...إني لكم رسول أمين.

افتتح رسالته بمخاطبتهم بقوله: ألا تتقون. ما الموجب الذي جعلكم لا تتقون عقاب الله باتخاذكم شركاء له. وهو سؤال إنكار عليهم عدم تقواهم. ثم حرضهم على اتباع رسالته بقوله : إني رسول من عند الله ، أمين على وحيه لا أتزيَّد عليه. وأنتم تعلمون أمانتي بممارستكم لي ومعرفتكم لحياتي ومعاملاتي. ومما يؤكد عليهم قبول قوله أن رابطة النسب بينه وبينهم ، لا يتصور معها أن يخدعهم في عقيدتهم عبَّر القرآن عن هذه الصلة الوشيجة بقوله " **أخاهم**". وما وقع لنوح عليه السلام وقع مثله لمحمد ﷺ ، فالكفر ملة واحدة. فقد كان النبي ﷺ معروفا عند قريش بالأمين. ولكنهم لم يستحيُوا ، لما دعاهم إلى الإسلام، من التصريح بتكذيبه.

108←110: فاتقوا الله ....فاتقوا الله وأطيعون.

فإذا كنتم قد جربتموني قبل الرسالة واطمأننتم لصدقي ، فإن الواجب عليكم اليوم أن تتقوا الله وتطيعوني فيما أبلغكم عنه .

إن ما أدعوكم إليه لا أطلب فيه منكم نفعا لنفسي. إني أعمل ليكرمني ربي برضوانه. وأنتظر أن يجزيني عن حرصي على هدايتكم. فاتقوا الله واطيعوني فيما أدعوكم إليه.

111- قالوا أنؤمن لك واتبعك الأرذلون.

قدموا تعليلا لرفضهم قبول دعوته، استنقصوا أتباعه وقالوا: إنا وجدنا الذين قبلوا دعوتك وآمنوا بها هم أراذل القوم ، الذين ليست لهم مكانة اجتماعية. هم مُحَقَّرون عند الناس، من يلتصق بهم يهون اجتماعيا. وكبْرُهم يدعوهم إلى إلصاق كل نقيصة خلقية بهم. وعلى هذا النحو من الكبرياء واجهت قريش النبي ﷺ لما أسرع إلى الإيمان به بعض الذين رزقوا روحا صافية، ولم يكن لهم حظ من الثراء، أو كانوا مستعبدين، كبلال وعمار. وهذا من أمراض الجاهلية الذين أغفلوا القيم الإنسانية من ذكاء وعلم وخبرة وصلاح في العمل، وجعلوا ميزان الاعتبار الثروة والجاه.

112←115: قال وما علمي بما كانوا يعملون...نذير مبين.

كان جواب نوح سريعا معطوفا على كلامهم ، كأنه يقول لهم وما يهمني من أمر عملهم قبل أن يؤمنوا . يرد عليهم اقتراحهم طردهم بناء على سوء أعمالهم التي هي تُهَم ألصقوها بهم واعتقدوا تلبسهم بها، شأنهم شأن المتغطرسين في كل زمان أن يصوروا الفقراء صورة منحطة خلقيا. قال نوح: وما يهمني ما كانوا يعملون قبل إيمانهم بما جاءهم من عند الله، إذا كانوا قد أصلحوا شأنهم. وأكبر إصلاح هو

إصلاح العقيدة وعلاقتهم بالله التـي صـفت الآن بالتوحيـد. أمـا أعمـالهم السـابقة فمـا بعثت لأحاسب الناس على ما كانوا قدموه من أعمال.

أما حسابهم وترتيب الثواب والعقاب، فهو موكـول لربـي وحـده لا يشـاركه فـي ذلـك أحد. وذلك لأن الحساب يقتضي علما بـالظواهر والبـواطن، وهـذا لا يعلمـه إلا ربـي.

وأضاف لو تشعرون، إشارة إلى غلظ حسـهم وغبـائهم، فـإن نسـبة النقـائص للفقـراء، وتنزيه أصحاب الثراء والجاه عـن كـل نقيصـة، يعلـن أن معتَقِـدَ ذلـك غيـر شـاعر بالقيمة الحقيقية للأعمال. إذ القيم لا تتأثر بما للفاعل مـن ثـراء او فقـر، ولكنهـا ترجـع إلى ذات العمل وآثاره في الوجود.

وإذ نفى عنهم إدراك القيم الحقيقية ، واصل التنبيـه علـى ضـعف تفكيـرهم ، بـأن مـا يطلبونه من طرد المؤمنين الفقراء ، هو عكس ما هـو مهـتم بـه ويسـعى إليـه ويبـتهج به. ذلك أن نجاح الرسول في مهمته يظهـر بـدخول النـاس فـي الـدين الـذي يـدعوهم إليه؛ فكيف ينقض ما بناه ووُفِّقَ فيـه؟ فـلا يتصـور مـن الرسـول أن يطـرد المـؤمنين لفقرهم ، أو اتباعا لتُهَمٍ ما وُثِّقَتْ ببينة ولا حجة .

اعلموا أني مكلف بأمر واحد لا أتجاوزه، هو إنـذار البشـر سـوء المصـير إذا هـم لـم يؤمنوا ويستقيموا، وأن عليَّ أن أبين لهم ذلك بيانـا يقنـع كـل مـن لـم يكـن معانـدا. وبناء على ذلك فإنه لا يتصور مني أن أطرد من فتح قلبه للإيمان.

قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الرجم : أصل الرجم الرمي بالحجارة.

افتح ... فتحا: حكما شديدا.

الفلك : السفينة .

المشحون : المملوء بقدر ما يحمل .

بيان المعنى الإجمالي :

هدد قوم نوح رسولهم أنهم سيستعملون معه العنف الذي يثنيـه عـن المضـي فـي دعـوة الناس، وأنهم سيرجمونه. أيس نوح من اهتداء قومـه، فـدعا ربـه أن ينجيـه ومـن آمـن

معه ويستأصل المكذبين. استجاب الله دعاءه وأنجاه ومن آمن معه في الفلك الذي شحن شحنا على قدر طاقة حمله. وأغرق الله الآخرين . إن في قصة نوح لآية تدعو إلى التدبر والإيمان بما جاءك يا محمد من الحق، ولكن أكثر الذين تخاطبهم غير مؤمنين. وإن ربك هو العزيز الذي لا يغلبه شيء، الرحيم بعباده يقبل كل تائب.

بيان المعنى العام :

116- قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن" من المرجومين.

انقطعت حجج قوم نوح. وعجزوا عن تفنيد دعوته ، فالتجأوا إلى ما يلتجئ إليه المستبدون الظلمة ، استعمال القوة الزجرية والعنف البدني .

117←118:قال رب إن قومي كذبون ...ومن معي من المؤمنين.

ضاقت بنوح السبل، إذا كان عناد قومه صخرة تتكسر عليها كل أدلة الهداية. فالتجأ إلى ربه مستنجدا شاكيا، فقال رب إن قومي صمموا على تكذيبي ورفض كل ما أحدثهم به. فاحكم بيني وبينهم حكما شديدا، تفصلهم عني، باستئصالهم وتطهير الأرض منهم، وتنجيني ومن هو معي من المؤمنين.

119←120: فأنجيناه ومن معه ...لهو العزيز الرحيم .

استجاب الله دعاء نوح. فنجاه ومن آمن به، مما قدر لقومه من الاستئصال، بما هداه إليه من صنع الفلك، فركبه مع المؤمنين وشحن شحنا كاملا. وهذا هو الشطر الأول من دعاء نوح عليه السلام. وأما الشطر الثاني وهو استئصال المكذبين، فقد تم إغراقهم جميعا، ولم ينج منهم أحد.

إن في قصة نوح وما انتهى إليه أمر قومه لما كذبوا رسولهم، وعاندوا، ما يقوم دليلا على أن سنة الله ماضية وأن مصير المعاندين واحد. وما كان أكثر الذين توجه إليهم الوحي مؤمنين. وبكل تأكيد فإن ربك لهو العزيز الذي لا يعجزه شيء، الرحيم بعباده فمن اهتدى قبِلَهُ وغفر له ما فرَّط.

كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٢٦﴾ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢٧﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ
لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٠﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٣١﴾

وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِىٓ أَمَدَّكُم بِمَا تَعۡلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُم بِأَنۡعَٰمٖ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ
﴿١٣٤﴾ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿١٣٥﴾ قَالُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَوَعَظۡتَ أَمۡ لَمۡ
تَكُن مِّنَ ٱلۡوَٰعِظِينَ ﴿١٣٦﴾ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٣٧﴾ وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ
﴿١٣٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهۡلَكۡنَٰهُمۡۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

ريع : المكان المرتفع.

الآية : العلامة الدالة على الطريق.

العبث : العمل الذي لا يترتب عليه فائدة.

المصانع : جمع مصنع. ويطلق على كل مصنوع جيد .كالقصور ، وخزانات المياه.

البطش : الأخذ بعنف .

الجبار : من معانيه الشديد في غير الحق.

الوعظ : التخويف من أمر فيه ضرر.

بيان المعنى الإجمالي :

من الآية 123 إلى الآية 127 لا يكاد يختلف عما تقدم في قصة نوح عليه السلام . ثم أنكر عليهم إنفاقهم العبثي في البناء العبثي، واتخاذ مبان على المرتفعات من الأرض يأوون إليها للهو والفساد. وكذلك بناؤهم قصورا ومخازن مياه لا لحاجة، ولكن على سبيل الإسراف، والتفاخر، ناسين حق الله عليهم وما ألزم به بني الإنسان من عمارة الأرض. وهكذا فإنه كلما تعمق الناس في الحضارة وتحولت إلى إسراف سقطت الأخلاق وأسرع الفساد إلى المجتمع. لقد كانت ظاهرة الإسراف واضحة فيهم، فهم أيضا إذا غضبوا أسرفوا في العقوبة لا يرعون كرامة البشر ولا الصلة التي توحد بين أعضاء العائلة الإنسانية. وبعد أن لفت أنظارهم إلى ما ينكره عليهم دعاهم لتقوى الله الذي هو أهل للتقديس والعبادة ، وأن يطيعوا رسولهم الهادي إلى الصراط الذي يرضي ربهم. وكرر عليهم الأمر بالتقوى حسبما توجبه النعم الكثيرة التي أمدكم بها في الحياة ، والتي تجدونها في كل لحظة من لحظات حياتكم. اتقوا الله الذي أعطاكم الأنعام التي تتخذون منها غذاء ولباسا ووسيلة سفر وحمل الأثقال. وأمدكم بالبنين الذي يتواصل بقاؤكم بهم بعد موتكم ، ويحملون ثقافتكم ، ويحفظون

ذكركم ، وهم عمدتكم عند العجز . وأمدكم بجنات فيهـا بهجـة للـنفس وغـذاء وفاكهـة. وأجرى لكم العيون التي بها بقاء حياتكم وحياة أنعـامكم وجنـاتكم. احـذروا أنكـم إذا لـم تعودوا إلى الصراط المستقيم فسيحل بكم عذاب يوم عظـيم ،إمـا فـي الـدنيا وإمـا فـي الآخرة. كان جوابهم فظا غليظا .قالوا لنبيهم إن تـأثيرك بمـا وعظتنـا بـه مسـاو لعدمـه لكونك من غير أهل الوعظ. إن ما نحـن عليـه هـو الخلـق القـويم الـذي كـان عليـه أسلافنا، ونحن أوفياء لهم لا نخرج عمـا كـانوا عليـه. وتخويفـك لنـا بالعـذاب ، فإننـا آمنون من العذاب بما لنا من قـوة وتحصـينات ووحـدة . فصـرحوا بمـا يفيـد عـزمهم وإصرارهم على تكذيبه. فعجل الله بهلاكهـم ، وفـي قصـتهم آيـة لأهـل مكـة ، لكـن أكثرهم لا يؤمنون ولا ينتفعون بالآيات. وإن ربـك يـا محمـد عزيـز لا يعتـرض أحـد على ما أراده، وهو الرحيم بعباده.

بيان المعنى العام :

123←127: كذبت عاد المرسلين...إلا على رب العالمين.

هذه الآيات لا تكاد تختلف عن نظم الآيـات فـي قصـة نـوح. موقـف المـدعوين مـن الرسول هودٍ كان التكذيبَ. عـرض علـيهم هـود أن يتقـوا الله. ذكَّـرهم بمـا يعرفونـه عنه من الأمانة والصدق. وضاعف التأكيـد علـى تـذكيرهم بـالتقوى ومـا يتبعهـا مـن الطاعة .إنه يقوم بهدايتهم تنفيذا لأمر ربه، ولا يُحَمِّلُهُـمْ علـى ذلـك أجـرا. إنـه يرجـو أن يجزيه رب العالمين عما قام به.

128- هذه الآية هي من مضمون الـدعوة التـي بلغهـا هـود لقومـه. افتتحـت بسـؤال إنكار، أنكر عليهم بناءهم بكل مكان مرتفع أعلامـا ثابتـة تـدل المسـافر فـي الصـحراء على موقعه، وعلى الجهة التي يسلكها لكيلا يتيـه فـي الصـحراء. وهـذا عمـل مـأذون فيه وغير منكر، ولكن الإنكار ورد عليه من ناحيـة القصـد. وهـو أنهـم قصـدوا بتلـك العلامات العبث لا تحقيق الأصل الذي هدي إليـه البشـر مـن عـون المسـافرين علـى تبين الاتجاه. وقد يكون من عبثهم أنهم لم يقتصروا على مـا يهـدي النـاس، بـل أكثـروا منها كثرة تدل على سرف وتضييع الأموال والجهود. ولمـا كانـت قصـص القـرآن قـد يقصد من ورائها تربية المبعوث إليهم ، فإن المجهـود الـذي يبـذل فـي البنـاء إن كـان محققا لغاية مدنية فهو عمـل خيـر ومقبـول، وأمـا إذا كـان للعبـث والعبـث وحـده، وإهدار للمال في التفاخر بما لا يعود على صـاحبه أو علـى الأمـة بـالنفع فهـو منهـي عنه .وهذا ما تقتضيه قاعدتان من ضـروريات الـدين: حفـظ المـال، وعـدم السـرف. وقد يكون النهي لأنهم اتخذوا تلـك المبـاني للهـو والفسـاد، والعبـث بـالقيم والأخـلاق.

وهذا مما يشاهَدُ نوع شبيه به في الكازينوهات التي كثيـرا مـا تشـيد فـي أمـاكن بعيـدة مستقلة عن التجمعات البشرية .

129-وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون.

عطف على إنكار مـا أقـاموه مـن بنـاءات عبثيـة، إنكـاره علـى اتخـاذهم مصـانع. والمصانع تطلـق علـى الجـوابي المحفـورة فـي الأرض لخـزن المـاء كالصـهاريج. وتطلق أيضا على القصور. ويقال فيهـا مـا قيـل فـي سـابقتها مـن أن كفـرهم بـالله، وإقبالهم الشديد على متع الحياة الدنيا ألهـتهم تلـك المصـانع والقصـور عـن ذكـر الله، وعن تذكر واجبهم في تعمير الكون، وأنهم مسـتخلفون فيـه ومحاسـبون علـى أفعـالهم، حتى بلغ بهم الأمر أن أفعالهم أفعال من يظن أنه خالد في الحياة غير محاسب .

130←135: وإذا بطشتم ....عذاب يوم عظيم.

كما أقبل قوم عاد على الدنيا ومباهجها وقصروا همهم علـى العـب مـن اللـذة والعبـث، كانوا من ناحية أخرى، أشداء في عنف. فإذا تسلطوا علـى معاقـب بـالغوا فـي عقوبتـه بدون رحمة ولا شفقة، لا يقدرون أنه يتألم كما يتألم البشـر. هـم لا ينظـرون إلـى حقـه الإنساني في الكرامة وعدم تجاوز الحد في إيلامه. وعلى طريقـة قـوم هـود تفـنن كثيـر من الجبارين الظلمة في عصرنا، فاخترعوا أنواعا مـن التعـذيب والعبـث بكرامـة مـن يقع تحت سلطانهم الجائر، موقع الانتقام منه.

بعد أن أنكر عليهم خروجهم عن الاعتدال في جميـع أحـوالهم، أعقبـه بـأمرهم أن يتقـوا الله، ويحصنوا أنفسهم من عقابه. وأن علـيهم أن يطيعـوا رسـوله، إذ بطاعتـه يظفـرون بالمنهج الذي يحولهم إلى الرشد والصلاح.

136-قالوا سواء علينا أوعظت أم لم تكن من الواعظين.

كرر الأمر بالتقوى، وفي هذه الآية ربطها بموجبها الذي هو الفضل الإلهي والنعم الوافرة. بينما في الآية السابقة ربطها بحقه سبحانه في الطاعة والتقديس .هو حقيق بالطاعة لما مكنكم من الخيرات والفضل الذي تعلمونه علم الإحساس به في كل لحظة من لحظات حياتكم. ثم فصل بعض ما مكنهم منه ، رزقكم الأنعام التي تعتمدون عليها في الغذاء واللباس وحمل الأثقال والسفر. وكثركم فرزقكم البنين ترون فيهم امتدادكم في الحياة، وقوتكم على الأعداء ،وهم أعوانكم عند الكبر، وحملةُ ثقافتكم إلى الأجيال القادمة.

وأمدكم بجنات فيها بهجة للنفوس، وإنتاج متنـوعٌ يجمـع بـين القـوت واللـذة. وحَصَّـنَ ثرواتكم تلك، بالعيون الجارية التي هـي فـي قبضـته، ولـو شـاء لجففهـا فـلا تـبض بقطرة، وعندها لا تبقى لكم حياة ولا كسب .

و اعلموا أنـــي مهـــتم بنصـــحكم، وإزالـــة حجـــاب الغفلـــة عـــن بصـــائركم، فـــإنكم إن واصلتكم مسيرتكم على النحو الذي أنتم عليـــه، أخـــاف أن يلحقكـــم عـــذاب يـــوم عظـــيم. وتحذيره صالح لأن يكون تحذيرا مـــن عـــذاب يـــوم القيامـــة، كمـــا هـــو صـــالح لعـــذاب يستأصلهم في الدنيا.

136←138: قالوا سواء علينا ...وما نحن بمعذبين .

أتم هود موعظته التي حاول بها أن يحرك فطرتهم لقبول مـــا جـــاءهم بـــه عـــن الله. فلمـــا أنهى كلامه أجابوه قائلين: إنه لا فرق بين مـــا قمـــت بـــه مـــن المجهـــود للـــوعظ، وبـــين كونك لست أهلا للوعظ. فإن ما نحن مقتنعون بـــه قبـــل وعظـــك وبعـــد وعظـــك ســـواء. إنك لم تؤثر فينا شيئا.

إن ما نحن عليه ليس أمرا أحدثناه، لكنه خلـــق الأولـــين مـــن آبائنـــا، وإذ كـــان مـــا نحـــن عليه خلقا لأسلافنا، فإن الوفاء منا لهـــؤلاء الأســـلاف يقتضـــي منـــا الثبـــات علـــى مـــا ورثناه عنهم . كما يحتمـــل أن يكـــون الكـــلام مـــرادا بـــه: أن مـــا ينكـــره علـــيهم ومـــا يدعوهم إليه لا يعدو أن يكون خلق أناس قبله بثوه في النـــاس فوعـــاه، ثـــم جـــاء يـــدعي أنه أوحي إليه به من عند الله .

ثم ردوا عليه ما حذرهم منه، مـــن حلـــول عـــذاب يـــوم عظـــيم، فنفـــوا أن يحـــل بهـــم عذاب، وأن لهم من القوة والحصانة ما يحميهم من كل طارئ.

139←140: فكذبوه فأهلكناهم...لهو العزيز الرحيم.

كان حاصل مناقشتهم لهود: أن كذبوه ورفضوا الأخـــذ بمـــا دعـــاهم إليـــه، أو أن يأخـــذوا الحيطة من نزول العذاب بهم، وواصلوا مسيرتهم في الحياة علـــى مـــا كـــانوا عليـــه مـــن الكبر والإسراف والعبث، والتجبر وعدم تقوى الله .

وإذ بلغ العناد إلى هـــذا الحـــد، وتجـــرأوا علـــى رســـولهم المعـــروف بالأمانـــة فرمـــوه بالكذب والاختلاق، فأهلكهم الله عقب ردهم العنيف على هود عليه السلام .

إن في قصة هود مع قومه لآية لمن يعتبـــر، ولكـــن أكثـــر مـــن تـــدعوهم للاعتبـــار مـــا كانوا مؤمنين. وبكفـــرهم وعـــدم اتعـــاظهم بمـــا حـــل بمـــن قـــبلهم سيخســـرون العاقبـــة لامحالة.

بالتأكيد إن ربك يا محمد هو العزيز الذي لا يغلبـــه شـــيء فسيقصـــم الطغـــاة والجبـــابرة، وإنه لرحيم يقبل من تاب وثاب إلى مستقر الإيمان .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّى لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٤٤﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٥﴾

افتتحت قصة الرسول صالح عليه السلام إلى قبيلة ثمود بمثل ما افتتحت به قصة نوح وهود عليهما السلام. وما شرحنا به الآيات التي افتتحت به القصتان مغن عن إعادته. والأنبياء من العرب أربعة هود وشعيب وصالح ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين.

أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا
هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾
وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾
قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ قَالَ هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا
تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٦﴾ فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا۟ نَٰدِمِينَ
﴿١٥٧﴾ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾
وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الطلع : وعاء يطلع من النخل هو أول أطوار تكون الثمر.

هضيم : يطلق بإزاء معان كثيرة ، وأقربها أنه رطب غير يابس .

فرهين : الفراهة ،الحذق والكياسة.

المسحرين : المسحور سحرا تمكن من مداركه .

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن أمرهم بتقوى الله في الآية السابقة أيقظهم إلى أنهم مخطئون إذا كانوا يظنون أنهم خالدون فيما أفاء الله عليهم من النعم والتي أهمها نعمة الأمن. إنكم في أرض خصبة انتشرت فيها الجنات بمتنوع الثمار والفواكه وجرت العيون ترويها، وتمت بهجتها بالخضرة المنتشرة على أديم الأرض، والنخل بثمارها الرطبة. ووفقكم فأكسبكم المهارة التي بها نحتم بيوتا في الجبال تتوفر فيها الراحة. فقيدوا هذه النعم

بشكرها واتبعوني فيما أبلغكم عـن رب العـالمين. وإيـاكم أن تتبعـوا المسـرفين الـذين يدعونكم إلى الإفراط في الشهوات، إنهـم يعملـون علـى أن يعلـو الفسـاد فـي الأرض، ومعاكسة الصلاح.

كان جوابهم: لقد استولى السحر على عقلـك. إنـك إنسـان مثلنـا لانقبـل أن يرفعـك الله علينا ويجعلك رسولا له . وإنا نتحداك أن تـأتي بآيـة خارقـة للعـادة تثبـت صـدقك إن كنت من الصادقين فيما تدعيه. قدم لهم آية دالة علـى أنـه مرسـل مـن عنـد الله: هـي ناقة أعلمهم بأن الله أمرهم أن تختص بيوم معين تشـرب فيـه المـاء ،ويكـون لهـم يـوم يشربون فيه، وأن يراعوا حصانتها فليحذروا الاعتـداء عليهـا، وأنهـم إن أسـاؤوا إليهـا، فإن الله يسلط عليهم عذابا يسحقهم في يـوم عظـيم . ولـم يمـض زمـن طويـل حتـى عقروها ، وشعروا بالندامة ، وأصبحوا خائفين من حلـول العـذاب .وتحقـق مـا أنـذرهم به صالح. وفي قصة صالح آية ينتفع بها المؤمنون، ولكـن أكثـر الـذين تـدعوهم غيـر مؤمنين. والله هو العزيز لا يعطل قضاءه أحد، وهو الرحيم بعباده الصالحين.

بيان المعنى العام :

146-أتتركون فيما هاهنا آمنين.

وفّر الله النعم لقبيلة ثمود، التي فصل الحديث عـن شـيء منهـا فـي الآيـات التاليـة. أبطرتهم النعم، فانغمسوا فيما توفّر لهم مـن خفـض العـيش، وظنـوا أن مـا جمـع لهـم من الخيرات أمر طبيعـي، أرض طيبـة وميـاه دافقـة، وأمـن مسـتتب. فنسـوا ربهـم وأعرضوا عن عبادة الله ومراعاة حدوده في التعامـل. فأرسـل الله إلـيهم رسـولا مـنهم أخاهم صالحا. فدعاهم إلى تقوى الله أولا كما جـاء فـي الآيـة 142- ثـم سـألهم سـؤال إنكار لما هم عليه، وهو ظنهم أن ما توفر لهم من النعيم هـو نعـيم دائـم وهـم مخلـدون فيه باقون. فذكّرهم أولا بنعمة الأمن العامة في بلادهم. ونعمـة الأمـن مـن أجـلّ الـنعم، وجميع النعم مرتبطة بها.

147←148: في جنات ...طلعها هضيم .

ثم فصل بعض تلكم النعم التي منها: خصوبة أرضـهم وانتشـار الجنـات فيهـا بمختلـف أنواع الفواكه والثمار. وتوفـر الـري بـالعيون التـي تتخللهـا وتسـقيها بصـفة دائمـة. ومما يزيدها بهجة الغطاء الأخضر لوجههـا بمتنـوع الـزروع. وخـص النخيـل بالـذكر مع أن كلمة الجنات تتناولها تناولا أوليـا اهتمامـا بهـا، ووصـف طلـع النخيـل بكـون هضيما ، ولما كان الهضيم يطلق بإزاء معان كثيـرة، أوصـلها القرطبـي لاثنـي عشـر،

ولما كان المقام مقام تعداد المــنن ،فالــذي يتــرجح أن ثمــار نخــيلهم تتميــز بالرطوبــة، ويسر الهضم .

149-وتنحتون من الجبال بيوتا فرهين.

ومن المنن ما ألهمهــم الله مــن بنــاء بيــوت تتــوفر فيهــا الراحــة، ينحتونهــا بحــذق وكياسة، وفن في الجبال.

150-←152:فاتقوا الله وأطيعون...ولا يصلحون.

وإذ استحضر أمام أبصارهم وحرك بصائرهم لمــا خصــهم الله بــه مــن نعــم وعــددها عليهم، صرح عند ذلك بــأمرهم أن يتقــوا الله وأن يطيعــوه حتــى يضــمنوا بقــاء تلــك النعم. فإن النعمة يقيدها الشــكر ويعرضــها للــزوال كفرهــا وعــدم شــكرها. وإذا كــان صالح يدعوهم إلى الخير، فإن فريقــا آخــر يحرضــهم علــى خــلاف منهجــه. فنــبههم حتى لا ينخدعوا بهــم ، ونهــاهم عــن اتبــاع المســرفين . والمســرفون هــم الــذين لا يعرفون الاعتدال، وينشرون التطرف في الإقبال علــى الملــذات ويــدعون إليهــا بقــولهم وبعملهم. إنكم إن وزنــتم آثــار طــريقتهم فــي الحيــاة تجــدونها مقترنــة بالفســاد فــي الأرض. وفسادهم خالص لا يشوبه صلاح. وشــأن المســرفين أنهــم لا يهتمــون بالــدين، بل هم يرون فيه لجاما لشهواتهم فيعادونه.

153←154- قالوا إنما أنت من المسحرين...إن كنت من الصادقين.

و عظهم صالح بما يرفع الحجب التي كانــت تغطــي علــى إدراكهــم للحقيقــة، وكشــف لهم عن مداخل الفســاد مــن القــادة المســرفين. ولكــن جــوابهم كــان رفضــا لهدايتــه، وتكذيبا لدعواه الرسالة مــن الله وقــالوا: لقــد اخــتلط عقلــك بمــا اســتولى عليــك مــن السحر. إنه مما ينفي ما تدعيه: أنك مرسل من عند الله، هو أنــك بشــر مثلنــا، لــيس لــك أي مزية علينا حتى تكون المرسل إلينا، علــى معنــى أن الرســول فــي زعمهــم ينبغــي أن يكون من غير صنف البشــر. واطلــب مــن ربــك الــذي أرســلك أن يؤيــدك بــأمر خارق للعادة يكون شاهدا على صدقك إن كنت فعلا من القوم الصادقين .

155←158، قال هذه ناقة....وما كان أكثرهم مؤمنين.

أحضر صالح أمامهم ناقة أشــار إليهــا، عــرفهم أن لهــا شــرب يــوم معلــوم مقــرر، وأنهم يرتوون يوما، ونهاهم أن يعتدوا عليها بــأي نــوع مــن أنــواع الإذايــة، وحــذرهم مغبة ذلك، أنهم إذا اعتدوا عليها يصيبهم عذاب يــوم عظــيم يســحقهم ســحقا. لــم يمــض أمد طويل حتى سولت لهم أنفسهم الاعتداء علــى الناقــة فعقروهــا، ودخلــوا فــي صــباح اليوم الموالي نادمين ندم خوف لا ندم توبــة. ولــيس الوقــت وقــت ندامــة إذ لا يــنفعهم

الندم في الوقت الذي رأوا فيه مقـدمات العـذاب . وعجـل الله بعـذابهم فلـم يبـق مـنهم أحدا. وتقدم تفصيل قصة صالح في سورة هـود. وختمـت القصـة كمـا ختمـت قصـة موسى وإبراهيم ونوح وهود. في هذه السورة.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ
رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ
لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ
لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُم مِّنَ ٱلْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي
مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ
دَمَّرْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ
لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

العادي : المتجاوز حد الحق إلى الباطل.

القالين : جمع قال، مبغض.

عجوز : المرأة المسنة.

الغابرين : الباقين بعد ذهاب القوم.

دمرنا : الإهلاك المستأصل .

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت قصة لوط على النحـو الـذي افتتحـت بـه القصـص الأخـرى فـي السـورة. ويلاحظ أمر واحد، هو أن لوطا لم يكن من نسبهم، وكـان نـزيلا بيـنهم تأكـدت الصـلة بينهم وبينه، فعد أخا. أنكر عليهم بعد أن أمـرهم بـالتقوى مـا هـم عليـه مـن الشـذوذ الجنسي بإتيان الذكران، وعدم الالتفـات إلـى مـا خلـق الله لهـم وفطـرهم عليـه مـن التواصل مع النساء الذي به يتكون محصن مـن الـزوجين. إنكـم بهـذا الشـذوذ يحـق عليكم ما يتأهل له العادون المجاوزون الحـق إلـى الباطـل. أجـابوه بـأنهم سـيخرجونه من قريتهم إذا هو واصل النكيـر علـيهم .رد علـيهم فـي ثقـة: إنـه منكِـر ومـبغضٌ لعملهم. وإذ تبين له من إصـرارهم أنهـم تـأهلوا لنـزول العـذاب بهـم، سـأل ربـه أن

ينجيه وأهله من العذاب . فاستجاب له ، ونجاه وأهلــه إلا امراتــه العجــوز التــي كانــت تُظَاهر قومها على فسادهم ، فحل بها مــا حــل بقومهــا. دمــرهم الله جميعــا بالخســف، وبمطر من الحجارة متتابع لا يجدون منــه ملجــأ. إنــه مطــر بــالغ أعلــى درجــة مــن السوء . وختمت القصة بما ختمت به القصص السابقة .

بيان المعنى العام :

160←164 :كذبت قوم لوط...على رب العالمين.

الآيات الخمس هي نظير ما تقــدم فــي القصــص الســابقة. إلا أن لوطــا ﷺ مــا كــان أخاهم نسبا ، ولكنه نشأ فيهم وجاورهم ، وارتبط بهــم حتــى صــار كأنــه واحــد مــنهم نسبا . فجسمت تلكم الصلات وعبر عنها بالأخ.

165←166: أتأتون الذكران...بل أنتم قوم عادون.

خاطب لوط قومه خطاب القريب المهتم بصــلاح حــالهم، وحــثهم علــى تقــوى الله، وأن لا يسترسلوا مع شهواتهم. ثم واجههم بالإنكــار علــيهم فيمــا انتشــر فــيهم مــن الشــذوذ الجنسي. هو ينكــر علــيهم ويعجــب مــنهم قضــاء شــهوتهم الجنســية بالاتصــال بــين الذكران. وشنع عليهم فعالهم تلك بالتصــريح بالصــورة القبيحــة التــي تخــالف الفطــرة، إن الله خلق الجنسين الذكور والإناث، اختص الإنــاث بمــا يحــرك شــهوة الــذكور مــن ناحية، واختص الذكور بما يحرك شــهوة الإنــاث. وجعــل الجــنس البشــري يتواصــل وجوده بالتزاوج بــين الجنســين. فالاتصــال الجنســي يحقّــق أمــرين معــا: الاســتمتاع الفطري، وامتداد الحياة عن طريــق النســل. إن انحــرافهم عــن الفطــرة يمثــل اعتــداء على البشرية ، من عدة نواح:

1-رفض للناموس الذي خلق الله عليه الكون، فقــد فطــر الــذكر علــى أن يتخــذ زوجــا من الإناث ،وفطرت الأنثى على أن تتخذ زوجــا مــن الــذكران ، وبــذلك تتكــون خليــة تستمر بها الحياة وتُقْضَى الشهوة، وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم .

2-إن الشذوذ الجنسي ،حرمان للنساء من قضــاء شــهوتهن، واعتــداء علــى حــق مــن حقوقهن مغروس في تركيبهن، فيمثل ذلك الحرمان على نطاق واسع اعتداءً عليهن.

3- شــيوع الشــذوذ الجنســي يعطــل التطــور الطبيعــي للتركيبــة البشــرية، التــي قدر لها أن تتكاثر ، وتقوم بمهمة الخلافة . ويختل بذلك الناموس العام.

4- إن العلاقــة الجنســية بــين الــذكرين تســلب مــن المعاشــر الســالب عزتــه وكرامته، وتفقده الشعور بما منحته الفطرة من استقلالية، وتعقّد نفسيته.

5- ثبت علميا أن الشذوذ الجنسي من أقوى الأسباب الناشرة لفقد المناعة، الداء الذي يهدد الحياة، وليس له علاج. ومجموع ذلك أشارت إليه الآية "**بل أنتم قوم عادون**"

167-قالوا لئن لم تنته...من المخرجين.

كان جواب قومه إعلانا لإصرارهم على مواصلة شذوذهم، تهديده بإخراجه من مدينتهم لأن نسبه لا يرتبط بهم، إذا هو أصر على الإنكار عليهم.

168←169:قال إني لعملكم من القالين...وأهلي مما يعملون.

أجابهم في شجاعة بأنه مستمر على إنكاره لشذوذهم، بل إنه مبغِضٌ لعملهم. وشعر بأن العذاب سيحل بهم لإقامتهم على المنكر، فدعا ربه أن ينجيه وأهله مما سينزل بهم من العذاب، جزاء ما يعملون.

170←171: فنجيناه وأهله...دمرنا الآخرين .

استجاب الله دعاءه، ولم يرفض ابتهالاته، فنجاه مع أهله جميعهم، ولم ينجِ عجوزا بقيت بعده لحقها العذاب، هي امرأته كما تقدم لنا في سورة هود.

وفوق ما ذكرناه من إنجاء لوط وأهله ، دمر الله الآخرين تدميرا مستأصلا، المقيمين على الفاحشة . فخسفت بهم الأرض وابتلعتهم.

173-وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين.

وأنزلنا عليهم من السماء عذابا متداركا كالمطر، لا يستطيعون اتقاءه، فهلكوا به وامحت آثارهم. وقبح قبحا شنيعا عاقبة المنذرين الذين لم يرتدعوا وصمموا على سوء فِعالهم.

174←175:إن في ذلك لآية...العزيز الرّحيم .

هو على نحو ما سبق لنا في خواتم القصص السابقة في السورة.

كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمۡ
رَسُولٌ أَمِينٞ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ
إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُواْ
بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ
مُفۡسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ
ٱلۡمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسۡقِطۡ
عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ

﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

بيان معاني الألفاظ :

أيكة: الشجر الملتف .

أوفوا: ليكن الكيل ممكنا لكل طرف من حقه غير منقوص.

المخسر :المنقص لغيره .

البخس: الذم الذي يتبعه نقص قيمة الشيء.

الكسف : القطعة .

الظلة : سحابة ارتفعت فوقهم جميعا .

بيان المعنى الإجمالي

قصة شعيب هي كالقصص السابقة في السورة .لكن مما يلفت إليه النظر، أن شعيبا لم تكن صلته بأصحاب الأيكة صلة نسب ولا جوار . وسموا بأصحاب الأيكة إشارة إلى الشجر الملتف الذي كان يغطي محل إقامتهم. دعاهم إلى الإيمان بالله وتقواه، ثم حرضهم على ما يصلح اقتصادهم بتوخي العدل في الكيل فلا ينقصوا شيئا ، وكذلك في الوزن فلا يظلموا المتعامل به، وأن لا يوهموا صاحب السلعة ما هو غير حقيقي ليستولوا على ما يعرضه بثمن بخس. وبصفة عامة أن يعملوا على القيام بما يساعد البشرية على حسن الخلافة في الكون وتعمير الأرض، وأن يبتعدوا عن الغش والسرقة وقطع الطرق وبذر الفتن، ونحو ذلك. وأن يستحضروا دوما صلتهم بالله الذي خلقهم وخلق من كان قبلهم.

كان جوابهم: استولى عليك السحر أولا فاختلط عقلك. وثانيا ما أنت إلا بشر لا تختلف عنا. فأنت بدعواك الرسالة من الكاذبين . ونتحداك أن تسقط علينا من السماء قطعة تهلكنا إن كنت صادقا فيما تدعيه أنك مبعوث من عند الله.

كان جوابه عليه السلام: أفوض الأمر لله فهو العليم بكفركم وبأعمالكم الفاسدة. ولما كذبوه أطبق عليه عذاب يوم الظلة العذاب العظيم فلم ينج منهم أحد. وختمت القصة بما ختمت به القصص السابقة في السورة .

بيان المعنى العام :

176←180: كذب أصحاب ليكة المرسلين...على رب العالمين.

افتتحت قصة شعيب عليه السلام على النحو الذي عرضت به فواتح القصص السابقة في هذه السورة .واختصت بأمور :

1)أنه لم تلحق علامة التأنيث لفعل كذب، نظرا إلى أن الفاعل هنا "أصحاب" مذكر لفظا ومعنى.
2)أن أصحاب ليكة لم ينسبوا إلى شعيب ، وإنما قـدموا بـأخص صـفاتهم المعرفـة لهـم هو أنهم النازلون بالأيكة المكـان الكثيـر الشـجر . وسـيدنا شـعيب أرسـل إلـى أهـل مدين، فجاء في سورة الأعـراف آيـة 85 وفـي سـورة هـود آيـة 84 وفـي سـورة العنكبوت آية 36 – **وإلى مدين أخاهم شـعيبا** . ممـا يفيـد أن شـعيبا ﷺ أرسـل إلـى مدين وإلى أصحاب الأيكة . مما يدل على أن شعيبا كـان مـن قـوم مـدين ، ولـم يكـن من قوم أصحاب الأيكة. وأنه أرسل إليهما في آن واحد.

181←183:أوفوا الكيل...ولا تعثوا في الأرض مفسدين .

بعد أن دعاهم لتقوى الله ليتحولوا عن منهجهم البعيـد عـن الله إلـى اتبـاع مـنهج جديـد في حياتهم يربطهم بالله في مختلف أنواع نشاطهم . تابع هدايتـه لهـم بـأن يقلعـوا عمـا دأبوا عليه من الظلم في طريقة التعامل الاقتصادي ، حتـى يكـون تعـاملهم قائمـا علـى أساس العدل. ومما سجله القرآن من هديه ﷺ :

1)أمرهم بإعطاء المكيال حقه فلا ينقص للمكيل له شيء من حقه. والتنقيص من الكيل إخسار. وللعناية بتمكين كل فرد من حقه، أمر بالوفاء ونهى عن التطفيف والتنقيص. وقد يكون التاجر مشتريا من الفلاح ، فهو مأمور أن لا يظلم البائع الفلاح بأخذ زائد عن حقه، إذ الزيادة بغير حق، كالتنقيص، كلاهما أكل بالباطل لمال الغير. وكلاهما مخرب للاقتصاد .إذ الاقتصاد الخالي من الأمانة، اقتصاد سريعٌ فشلُه.
2)أن يراعوا العدل إذا كانت وسيلة التبـادل الميـزان أيضـا. وجَسَّـمَ العـدل بـأن يـتم التقدير بميزان يكشف عن ثقل الموزون بدون زيادة ولا نقصـان. نعـم قـد يكـون البـائع من أهل الفضل فيريد أن يبرئ ذمته يقينا ، فيضـيف شـيئا قلـيلا يحقـق بـه أن زبونـه أخذ حقه كاملا ، ولكن هذا مظهر تورع، وليس بواجب .
3)أن لا يؤثروا في عارض السلعة تأثيرا يُغرُّوه به، حتى يظن أن سلعته بائرة أو رديئة وأن قيمتها أحط . وقد يعمد بعض التجار إلى إيهام البائع أن السوق كاسدة ، والأثمان نازلة، أو أن سلعته ليس لها رواج كما كانت، أو أن يبعثوا وسطاء سوء يغرون البائع ويوهمونه أن الثمن الذي وجده عند العارض الأول ثمن رفيع فليعجل بإتمام الصفقة على أنهم ناصحون له. وصور كثيرة من بخس الناس أشياءهم. كانت السوق تقوم عند القوم على التحايل والكذب وأكل أموال الناس بالباطل. فهداهم شعيب إلى الاستقامة، وأعلمهم أن الربح مع الأمانة أوفر في النهاية من التعامل غير النزيه.

4)ختم نصحه بنصيحة شاملة أن لا يفسدوا في الأرض. الأرض التي استخلفوا فيها لتعميرها، فليبتعدوا عن كل ما يعطل تطوير المجتمع الإنساني نحو الخير في ذاته أو في محيطه، كقطع الطرق أو إفساد المحيط، أو إيقاد الفتن ونحو ذلك.

184- واتقوا الله الذي خلقكم والجبلة الأولين.

ثم كرر أمرهم بتقوى الله ، وبناء على أنه بوصفه خالقا لهم من عدم، مفيض عليهم كل نوع من أنواع النعم ، حقيق بأن يتقى، وأن يفرد بالعبادة .ومما يؤكد ذلك أنه هو الواحد الذي خلق من كان قبلهم .وفي التذكير بخلقه الأجيال السابقة تنبيه لهم أن مآلهم هو كمآلهم الفناء .والتذكير بالفناء يوقظ النفس ويرفع عنها الغشاوة .

185←187:قالوا إنما أنت...إن كنت من الصادقين.

وعظهم فأحسن موعظتهم ، ولفت أنظارهم إلى ما يقيم اقتصادهم وينمي ثرواتهم ، ويحفظ أمنهم ،وأن يقيموا أساس حياتهم على إفراد الله بالعبادة والمحافظة على تقواه. فكان جوابهم وقد تمكن الكفر من عقولهم ومشاعرهم فواجهوه بكل صلافة:

أولا: لقد تمكن السحر منك فلم يبق منك إلا هيكلا مسحورا ذهب عقله، فكل كلامك تخليط .

وثانيا: إنك لا تعدو أن تكون بشرا، وهذا ما تُقِرُّ به، فلست ملكا ولا نوعا آخر من المخلوقات، ومن المستحيل أن يكون البشر رسولا من عند الله

وثالثا: إنك من القوم الذين تمكن الكذب منهم. فكل ما أثبتَّ أنه من عند الله لا أصل له. واستعمال الظن فيما يدل على اليقين استعمال كثير في الأسلوب العربي .

رابعا: تَحَدَّوْهُ أن ينزل عليهم من السماء قطعة من العذاب، إن كان صادقا في أنه مبعوث من عند الله.

188-قال ربي أعلم بما تعملون.

وأمام هذا التحدي الوقح أرجع شعيب الأمر إلى ربه ،فهو العليم العلم الكامل بما تعملون من عبادة غير الله ،والظلم، وأكل أموال الناس بالباطل، والفساد في الأرض . وهو العليم بما أنتم أهل له من العذاب، وسيحل بكم ما قدره في علمه.

189-فكذبوه فأخذهم...عذاب يوم عظيم .

تصريح بالنتيجة التي تحققت في الوجود. كذبوا شعيبا . فأنزل الله عليهم عذابا من السماء ، هي سحابة أمطرتهم صواعق محرقة لم تُبْق منهم أحدا ، في يوم معروف في تاريخ الإنسانية هو يوم الظلة .

190←191:إن في ذلك لآية ...مؤمنين.

ختمت القصة بما ختمت به القصص السابقة .

وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ
ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ
ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾
فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الروح الأمين : جبريل عليه السلام.

اللسان : اللغة.

المبين : الموضح الدلالة على المعاني التي يقصدها المخاطب .

الأعجمين :جمع أعجم ، الشديد العجمة، الذي لا يحسن الإفصاح عما في نفسه.

بيان المعنى الإجمالي :

تميز القرآن بكونه منزلا من رب العالمين، هو كلامه أنزله بواسطة جبريل الملك القوي الأمين. فسما أصله بكونه تعبيرا عن كلام رب العالمين ، وسما بكون الحامل له أمين الوحي جبريل عليه السلام ، وسما بأن المودع فيه هذا الكلام هو أشرف القلوب وأزكاها ، قلب محمد ﷺ ، وسما باختيار اللغة المعبرة عن مضامينه اللغة العربية التي طوعتها العناية الإلهية ليكون فيها من الخصائص ما استطاعت به استيعاب الوحي القرآني . كما تميز بأنه مبشّر به مذكور في كتب الأنبياء السابقين. دعوا أقوامهم ليُحَمِّلوا ذريتهم أمانة قبوله ونصره عند ظهوره.

وتشنيعا بهم لتصميمهم على الرفض، ولمواصلة معارضتهم للقرآن أنهم لم يجدوا في شهادة علماء بني إسرائيل أن القرآن صادق موجود في كتبهم وصفه ، لم يجدوا في ذلك آية تحولهم إلى قبول الحق ،رغم أنهم هم الذين بعثوا للأحبار يستعلمون منهم إن كان القرآن حقا موجودا ما يدل عليه في كتبهم .

ومن صور إصرارهم على العناد أنه لو نزل هذا القرآن على رجل أعجم لا يحسن الإفصاح عما في نفسه ، فقرأ عليهم القرآن ،على علو مكانته في البلاغة إلى حد الإعجاز ، لو قرأ عليهم هذا الأعجم القرآن ما آمنوا بأنه من عند الله .

بيان المعنى العام :

192←194:وانه لتنزيل رب العالمين...لتكون من المنذرين .

بكل تأكيد يثبت الله أن القرآن منزل من عند ه. وهذه الآية بما تضمنته من معنى مؤكد، ترتبط بفاتحة السورة التي رفعت شأن القرآن وأشارت إليه في مقامه العالي "**تلك آيات الكتاب المبين** " وإذا كانت القصص التي تتابعت في السورة ختمت بما يشير إلى أن ما قصه القرآن يثبت أنه صادق وحق ،فإن قوله تعالى : **وإنه لتنزيل رب العالمين** "يلتقي ما ذلك الغرض . تمت العناية به حتى في طريقة إبلاغه للنبي ﷺ ، فقد نزل به جبريل أمين الوحي، الملقب بالروح الأمين، لكونه ليس من عالم الماديات ولكنه من عالم الأرواح، ولأن الله اختاره ليكون أمينا على تبليغ وحيه. فمن ملاحظة المعنيين لقب بالروح الأمين. نزل جبريل مصاحبا للقرآن ليحل في قلبك. والقلب هو القوة التي بها يستطيع النبي ﷺ وعي ما يصله، فيتمكن في نفسه تمكنا بلفظه ونظمه لا ينفلت منه شيء. ليتحقق ما أراده الله من تنبيه الناس إلى ما يترصدهم من عقاب إن هم لم يستقيموا، وهو معنى النذارة. واختارك لتقوم بهذه المهمة.

195-بلسان عربي مبين.

إن هذا الوحي القرآن ،الــذي نــزل عليــك بواســطة جبريــل ،قــدرنا أن يكــون بلغــة عربية مُبِينة عن المعاني التي تضمنها الوحي ، أي إن فــي طبيعــة هــذه اللغــة العربيــة من الإمكانات ما يسرها به الله لتكون حمالة للوحي مبينة عنه أفضل إبانة.

196- وإنه لفي زبر الأولين .

ثم عطف على ما أثبته للقرآن من المقام الســامي مــن كونــه تنزيــل رب العــالمين ومــا تعلق بذلك، عطف أمرا آخر هو أن القرآن في كتب الأولــين. ومعنــى كونــه فــي كتــب الأولين يحتمل: أن التنويه به وذكره والبشارة به قد ثبت كــل ذلــك فــي الكتــب المنزلــة على الرسل السابقين. ويحتمل: أن الأصــول التــي تــولى دعــوة النــاس إليهــا مبثوثــة أيضا في كتب الرسل السابقين قبل أن تحرف، أو أن يضــيع منهــا شــيء، ومــا أضــافه القرآن إليها يؤكد ويتمم ولا يناقض. وذهب بعضـــهم إلـــى عـــود الضـــمير علـــى رســـول الله ﷺ، وأنه مذكور بنعته في الكتب الســابقة. واســتدل بمقــاطع مــن التــوراة والإنجيــل تفيد ذلك بتأويل. ولكن التناسق في النســيج القرآنــي يبعــده. لأن الحــديث مــن العطــف الأول " وإنه لتنزيل "تتــابع متعلقــا بــالقرآن، فجعــل معــاده الرســولَ ﷺ بــدون قرينــة موجبة لصرفه لذلك فيه بعد.

197-أولم يكن لهم ...بني إسرائيل .

يتواصل بهذه الآية إقناع المبعــوث إلــيهم بكــون القــرآن منــزلا مــن عنــد الله، وأنــه معجزة محمد ﷺ التي وقعت الإشارة إليهــا أولا بقولــه "**بلســان عربــي مبــين** "ونســج

الآية يدعو للتأمل فيــه، لتحليــل تركيبــه تحلــيلا يظهــر المعنــى المــراد، إن شــاء الله .فقوله تعالى : **أولم يكن لهم آيــة** – الهمزة[أ]اســتفهام إنكــاري – مفهومـــه أغفلـــوا عـــن كونه منزلا مني ، وأنه في كتـــب الأولـــين .وأمـــا الـــواو فمرتبتهـــا المعنويـــة أن تكـــون قبل الهمزة ، فتكون الآية دليلا آخر على صـــدق القـــرآن فتلاحقـــت بهـــا ثلاثـــة أدلـــة : إنه لتنزيل – إنه لفي زبر الأولين – معرفـــة علمـــاء بنـــي إســـرائيل بـــه . وإذا رتبناهـــا ترتيبا معنويا يكون نسجها هكذا: أغفلوا عمـــا ذكـــر، ولـــم يكـــن أن يعلمـــه علمـــاء بنـــي إسرائيل(علم علماء بني إسرائيل) آية لهم.

ولمزيد من البيان نقول: إن القرشيين كانوا يثقون في علم أحبار يهود بأسرار الدين. وأنهم بعثوا من يستنبئهم عن صدق القرآن ، وأنهم أثبتوا لهم أنهم يجدون في التوراة ما يؤيد أن القرآن منزل من عند الله . كما سألوهم عن النبي ﷺ، فكانت إجاباتهم لا تنفي صدق الرسالة المحمدية. فيكون على قريش باعتبار أنهم يثقون فيهم أن يؤمنوا ، فذكر القرآن هذا الدليل الثالث يهز التصميم على الكفر لدى القرشيين.

198←199، ولو نزلناه على بعض...ما كانوا به مؤمنين .

هذه الآية تتضمن أمرين:

أحدهما: التشنيع على قادة المشركين وفضح قصدهم من مقاومة الدين.

وثانيهما: إيقاظ الأتباع إلى أن التصميم على الكفـــر والعنـــاد هـــو مـــا يـــدفع رؤســـاءهم إلى الطعن في الإسلام. فتـــذكر الآيـــة: أن هـــؤلاء المقـــاومين للـــدعوة مـــن المشـــركين، مصممون على العناد والرفض، بحيث أننا لو أنزلنـــا هـــذا القـــرآن، علـــى الدرجـــة التـــي هو عليها من البيـــان والجمـــال، علـــى رجـــل أعجـــم. والأعجـــم هـــو الـــذي لا يحســـن الإفصاح عن مراده وإن كان عربيـــا، والأعجمـــي هـــو مـــن كـــان مـــن غيـــر الجـــنس العربي ،وإن كان فصيحا بليغا في كلامه. لو أنزلنا هـــذا القـــرآن علـــى رجـــل أعجـــم لا يؤمنون به ويطعنون في صدقه. وهو مـــا ينســـجم مـــع قولـــه تعـــالى: **إن الـــذين حقـــت عليهم كلمات ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية .**[1]

كَذَٰلِكَ سَلَكْنَٰهُ فِي قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا۟ هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

---

[1] سورة يونس97/96

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُواْ
يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يُمَتَّعُونَ ﴿٢٠٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

سلكناه : أدخلناه.

المجرمين : المشركين.

منظرون : مؤخرون.

يستعجلون : يطلبون حلوله عاجلا.

بيان المعنى الإجمالي :

على هذا النحو المشاهد من موقف المشركين من القــرآن أدخلنــاه فــي قلــوبهم وصــمموا على رفضه. إنهم لا يؤمنون به رغم شواهد صــدقه .إذ قــوة عنــادهم تجعلهــم لا يــؤثر فيهم إلا العذاب الأليم الذي يبلغ جميــع منــاطق إحساســهم ،هــذا العــذاب الــذي يــأتيهم فَجْأَةً دون أن يشعروا بقربه .وتسجل عليهم آخر أمنيــة هــل يمكــن أن يــؤخر العــذاب؟ ومن شدة غرورهم سألوا أن يعجل علــيهم العــذاب .عجــب مــن غــرورهم أيســتعجلون عذابنا، اطمئنانا بما متعنــاهم بــه مــن خيــرات ســنين معــدودة؟ وعنــدما يحصــل مــا أوعدناهم ويسلط عليهم العذاب، فهل يفيدهم شيئا الوقت الذي تمتعوا فيه قبل نزوله

بيان المعنى العام :

200- كذلك سلكناه في قلوب المجرمين.

إنه على هذا النحو المشاهد من موقف المشــركين مــن القــرآن المنــزل عليــك، أدخلنــا القرآن في عقول المجرمين (المشــركين) فتبينــوا صــدقه وإعجــازه، ومــع ذلــك فــإن المجرمين رفضوا قبوله. وعبر عن المشــركين بــالمجرمين ،لأنهــم بعــد نــزول القــرآن وتكذيبهم له بعد تبينهم أنه صادق حقيقون بأن يوصفوا بالمجرمين .

201←202:لايؤمنون به...وهم لا يشعرون.

لا يؤمنون بالقرآن اعتمادا على الأدلة الواردة فــي الآيــات الســابقة ، فــإن عقــولهم قــد تحجرت وحجبت عن التأمل والتفكير ،فلا يفيد فــيهم إلا العــذاب المــادي العــذاب الألــيم الذي يحل عليهم فيشاهدونه وهــو يــؤلم جميــع منــاطق الإحســاس . ووضــحت الآيــة 202 طريقة إتيانه بأنه يــأتيهم بغتــة دون مقــدمات يفجــأهم ، دون أن يشــعروا بقــرب قدومه .

203- فيقولوا هل نحن منظرون.

لا تسَجَّل لهم إثر بغتتهم بالعذاب إلا كلمة واحدة تصدر منهم، هي كل أمانيهم : هل يمكن أن يؤخر عنا ما حل بنا؟ فتكون هذه الحسرة آخر ما يعصر قلوبهم قبل أن يهلكوا في الدنيا، أو كلمة يرددونها في أول ما يسلط عليهم العذاب يوم القيامة.

204- أفبعذابنا يستعجلون.

لما هددهم في الآية السابقة أن العذاب يأتيهم بغتة دون أن تكون له مقدمات ويسحقهم وترد أمانيهم بتأخيره. عقبه بالتعجيب من غرورهم وتذكيرهم بأنه قد سجل عليهم ما استهانوا به .إنهم من شدة غرورهم طلبوا من رسول الله أن يعجل لهم العذاب الذي هددهم به، يشيرون بذلك إلى أنهم آمنون من أن يلحقهم. فالعجب من شدة غرورهم واستعجالهم بعذابنا .

205←207: أفرأيت إن متعناهم ...ما كانوا يمتعون.

افتتحت الآية بقوله : "أفرأيت" وهي صيغة للتقرير تلفت نظر السامع إلى أن ما يأتي بعدها حق مقرر كأنه مشاهد. وترتبط الآية بسابقتها: أنهم استبطأوا تحقق ما أوعدهم به من العذاب فاستعجلوه ، ظنا منهم أن تأخيره إلى الأجل المقدر ينفي تحققه . فرد عليهم القرآن تصورهم هذا. فيذكر القرآن أنه إن أخرنا عنهم العذاب وخلينا بينهم وبين ما خلقنا من الخيرات التي فيها متعة يستمتعون بها سنين محدودة، ثم سلطنا عليهم العذاب على النحو المذكور في الآية السابقة، فإن ذلك الإمهال، ما كان ليغنيهم شيئا يوم ينزل بهم عذابنا. نقل الشيخ ابن عاشور عن ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز الخليفة الراشد ﷺ ، كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ الآيات الثلاث أفرأيت ... . تمتعون ثم يبكي ويقول:

نهارك يا مغرور سهو وغفلة *** وليلك نوم والردى لك لازم
فلا أنت في الأيقاظ يقظان حازم *** ولا أنت في النُّوّام ناج فسالم
تُسَرّ بما يفنى وتفرح بالمنى *** كما سُرّ باللذات في النوم حالم
وتسعى إلى ما سوف تكره غِبَّه *** كذلك في الدنيا تعيش البهائم

وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

ذكرى : للتذكر.

ما ينبغي لهم : ما يصح ولا يتأتى لهم .

السمع: توهم استراق السمع من الملأ الأعلى.

معزولون : مبعدون.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه سنتنا أنا لا نستأصل أهل قرية ونهلكهم إلا بعد أن نوقظهم إلى ما ينتظرهم بواسطة من نرسله إليهم من المنذرين، فلا يسلط عليهم العذاب وهم جاهلون جهلا كاملا ما يطلب منهم، وقبل أن ننذرهم ما سيسلط عليهم من العذاب. فنحن نذكرهم وذلك تبعا لما نتصف به من كمال فلا يتصور الظلم منا.

و باطل: الدعوى التي روجها بعض المشركين أن محمدا كاهن، فما نزل بالوحي شيطان الذي هو عماد الكهنة، ولا يتصور أن يكون للشياطين قدرة على ذلك، وإنهم مبعدون عن الاستماع إلى الملأ الأعلى.

بيان المعنى العام :

208←209: وما أهلكنا من قرية ....وما كنا ظالمين .

هذه سنة من سنن الله: هي تحقيق لصفاته الأزلية الأبدية كالعدل والرحمة. جرت سنته في معاملة أهل القرى في تاريخ الإنسانية أنه لا يعذب قوما ، وهم جاهلون غير واعين بأن الكون الذي يعيشون فيه مخلوق لله، وأنهم مخلوقون لله أيضا، وأن عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ،وأن لا يتصرفوا في الحياة إلا تصرف الطاعة لأوامره واجتناب نواهيه. إنه تبعا لذلك كانت سنتُه أن يبعث لكل أمة رسولا يعرفها بذلك. وأن لا يسلط عليها عذابه إلا بعد أن ينبههم الرسول إلى ما يترصدهم من عذاب إذا هم تمردوا وقطعوا صلتهم بالله وعبدوا غيره.

ذلك التنبيه هو ذكرى لكم يا معشر قريش: إن ما تقدم في هذه السورة من عاقبة المكذبين المتمردين، وما جاء في الآية السابقة، كل ذلك يحرككم لتنفلتوا من الغفلة. فقد نبهناكم بإرسال محمد وجهاده المتواصل لإبلاغكم. ونصرح بأنا لعظمتنا وتنزهنا عن النقائص لا نظلم أحدا فالظلم منفي عنا. فإرسال محمد لكم لا يبقى معه لكم عذر إن لم تؤمنوا به وتتبعوا ما أنزل إليه.

210←212: وما تنزلت به الشياطين...عن السمع لمعزولون .

هذا رد لمزاعم روجها بعض المشركين، إذ زعموا أن الرسول ﷺ يتلقى ما ينشره من الشياطين الذين هم على صلة بالكهان، فمؤدى الكلام أنه كاهن. فنفى القرآن هذا التصور نفيا قاطعا، ثم وجه هذا النفي:

بأن طبيعة الشيطان طبيعة رجس وفساد، وبناء على ذلك فلا يصح أن يتصور منهم أن يأتوا بما هو هداية للعالمين، ولأن الله حفظ الملأ الأعلى من تجسس الشياطين عليه، فلا يتأتى منهم بلوغ تلك العوالم.

وإن قدراتهم لا تبلغ أن تسمع شيئا مما يجري في الملأ الأعلى، فهم مبعدون عن الاستماع بطبعهم. فدعوى الكهانة مرفوضة. وينبه القرآن المبعوث إليهم أن عليهم أن يتأملوا في حقيقة ما أنزل إليهم، وأن يرفضوا أباطيل الأفاكين، وأن ينقذوا أنفسهم، وذلك بالدخول في دين الإسلام.

فَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ
ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنۡ
عَصَوۡكَ فَقُلۡ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِي
يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

العشيرة :الأدنون من القبيلة

خفض الجناح : التواضع، واللين في المعاملة .

التوكل : تفويض الأمر لمن يكفيه

يان المعنى الإجمالي :

عقيدة التوحيد هي القاعدة التي يجب أن يقوم عليها تصور كل فرد، وأن كل من لا يكون على هذه العقيدة هالك لا محالة. ولتصوير هذا على أبلغ وجه خاطب الله أعرف البشر بالله محمدا، فقال له: لا تسند الألوهية لأحد غير الله، فإنك إن دعوت إلها غيره تكون عاقبتك مع المعذبين. والتوجه بالخطاب إلى من لا يتصور منه الإشراك، هو تأكيد جرم الإشراك على أبلغ وجه.

ثم أمر نبيه أن يدعو أهله الأقربين ، وقد فعل، وأنذرهم كما أنذر غيرهم ، فالعقيدة وتطبيق شرع الله في الحياة لا يستثنى من ذلك أي أحد. كما أمره أن يلين ويتواضع لمن هداهم الله منهم للإيمان. وإن عصوك وتغلب عليهم الشيطان، فأعلمهم أنك بريء من شركهم ومما يعملون. إن المأمورية المكلف بها ﷺ ضخمة جدا، فثبّت الله نبيه بأنه لا يهمله، وأمره بأن يتوكل عليه فإنه يقدر له الغلبة على أعدائه بعزته، وييسر له الأسباب ويسعده برحمته. إنه يراك راضيا عنك حين تقوم للعبادة، وإنه يرعاك حين تجتمع مع المؤمنين في صلاتك. إنه هو الله السميع يسمع

صوتك وأنت تعبد وأنت تدعو إلى الله، وأنت تنشر الفضـيلة بـين النـاس. وهـو العلـيم بنياتكم جميعا .

بيان المعنى العام :

213←214،فلا تدع مع الله...عشيرتك الأقربين.

الظاهر أنها إيقاظ لكـل مـن يصـح أن يخاطـب. أن علـى كـل إنسـان أن يفـرد الله بالعبادة، ولا يشرك به شيئا ، وأن يخلص لهذا المبدأ انقـاذا لنفسـه مـن العـذاب. وقـدَّرَ بعضهم أن النهي موجه إلى النبي ﷺ ، والمراد تفظيـع الشـرك، وتحقـق الخسـران لكـل من أشرك، فإذا كان النبي ﷺ على ما هو عليـه مـن الرفعـة فـي مقامـه، نبـه إلـى أن المشرك ليس له مآل إلا أن يكون في زمـرة المعـذبين، فغيـره أولـى بـذلك. وتعـين أن المقصود بهذا النص كل مشرك في عصر الرسالة وما بعده.

إنه بعد أن جعل الدعوة إلى التوحيد دعوة عامة شـاملة، أمـر نبيـه محمـدا ﷺ أن يَكَـوِّن قوة حوله تساعده على نشر الدعوة، خاصة وقد كـان النظـام القبلـي فـي عهـد الرسـالة هو النظام الاجتمـاعي الـذي يقـوم عليـه التـرابط. فـأمره أن يـدعو أقاربـه للتسـمك بالتوحيد، وأن ينذرهم حلـول العـذاب علـيهم، إذا هـم لـم يؤمنـوا موحـدين رافضـين للشرك. وفي ذلك تحويل لهم من العصبية القبلية ليسـموا إلـى أفـق الأخـوة الإيمانيـة ، ومن ضيق الانتساب إلى صنم إلهيته المزعومـة محصـورة فـي نطـاق ضـيق، إلـى التعلق بالله وحده خالق الكون كله، وإلههم جميعـا. وتقـوم الـدعوة علـى تخـويفهم مـن سوء المصير إذا هم لم يؤمنوا. إن علاقة القرابة لا تنفع أحـدا وإنمـا الـذي ينجيـه هـو العقيدة الصحيحة والعمل بما تقتضيه، فقد جـاء الإسـلام ليقـيم المسـاواة بـين المـؤمنين جميعا.

215-واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين.

الطائر إذا أراد أن يطير مد جناحيه، فإذا أراد أن يحـط كسـر جناحـه، فجسـم القـرآن لين المعاملة والتواضع المأمور به بخفض الجنـاح. وهـذه وصـية عامـة مـن الله لنبيـه أن يلين في معاملة المؤمنين ، فإنهم في بداية أمـرهم مـا تـزال التربيـة الإسـلامية لـم تتمكن منهم ، وبعضهم ما يزال علـى جفـاء الأعـراب وغلظـتهم، وقـد روى أصـحاب الحديث صورا كثيرة من المعاملة الفظة التي كان يلقاهـا مـن بعـض الأعـراب . وفـي سورة الحجرات مثال من ذلك. وكما قـال ﷺ : أدبنـي ربـي فأحسـن تـأديبي[1] . وفـي الآية تنويه بأهل الإيمان ، إذ هم موصًى بهم من الله العزيز الحكيم .

[1] ابن السمعاني فيض القدير ج1 ص224- ح 310

216-فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون.

تصريح بالموقف الذي يواجه به من لم يلب الدعوة، فمن عصاه لا يبرر عصيانه الغلظة عليه ، بل يتبرأ من كفره، ويعلمه بأن الرابطة النسبية لا يكون لها مكان في قلبه ﷺ ،إذا فقد الإيمان وحل محله الشرك .ولما نزلت الآية السابقة قام النبي ﷺ بإبلاغ مضمونها بطرق عديدة كما روي في السنة وفي كتب السيرة. ومن جملة ما جاء في خطبته : غير أن لكم رحما سأبلها ببلالها. إنه إذا فقد الجانب الإيماني ، فإنه يبقى الجانب الإنساني الذي كان النبي ﷺ برعاه ويربي المؤمنين على رعايته. ووصاياه للجيش، ومعاملاته خير شاهد على ذلك. فالإسلام دين السلام لا دين العنف

217←220:فتوكل على العزيز ...إنه هو السميع العليم.

إيناس لرسول الله ﷺ ،ولطف من الله الذي يرعاه ، وتقوية له على مواصلة الدعوة، يقول الله لنبيه : أنه إذا تبرأ ممن لم يؤمن من عشيرته ، فإنه يجد في الاعتماد على الله وتفويض الأمر إليه ما يكفيه همه ويسعده بالتأييد. ولتثبيت هذا الأمر في نفسه ﷺ ، آنسه بإتباعه بالصفتين القديمتين مؤكدتين، لتحقق ما اشتقا منه: العزة والرحمة. فبعزته يتغلب على ما يمكر به الأعداء ، ويحبط مؤامراتهم ومخططاتهم، وبرحمته يعصمه منهم ويفتح له أبواب النصر. ثم أضاف أنه بمحل العناية من ربه، فهو عندما يقوم في جوف الليل عابدا هو مرعي مرضي عنه، مقبول ما يتقرب به، فأطلق لفظ الرؤية على هذه المعاني الدالة على المكانة الرفيعة الخاصة لرسول الله ﷺ . وبنفس الرضا والقبول يرقبه وهو مع الصحابة يصلون في جوف الليل. فبركة النبي ﷺ انسحبت على من كان يقوم معه في جوف الليل. وهذه الآية استدل بها مقاتل على صلا ة الجماعة وفضلها.

وتختم الآية بما يؤكد ما جاء في الآيات السابقة ، بالتذكير والتثبيت لصفتي السمع والعلم، فهو سبحانه يسمع كل ما يقوم به النبي ﷺ من الدعوة للدين ،ومن لينه في الخطاب، ومن التبرؤ ممن لم يؤمن ،وما يدعو به في جوف الليل مع المؤمنين الصالحين. هو يسمع كل ما يصدر عنهم ، وهو العليم بنياتهم ، وذلك يشير إلى قبول صالح أعمالهم وحسن جزائهم .

هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ
ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ

فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ
وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأفاك : الكذاب.

الأثيم : العاصي الآثم.

الغاوي: المتصف بالغي وهي الضلالة الشديدة.

الهيام : الحيرة.

واد **يهيمون** : المنخفض يتبعونه عند الجدب.

المنقلب : المصير.

بيان المعنى الإجمالي :

لما زعم بعض المشركين أن بين النبي ﷺ والشياطين صلة، هي هذا القرآن الذي يتلوه. رد الله عليهم بتسفيههم فيما ادعوه. ذلك أنهم حسب طبيعة الشياطين لا يتأتى لهم ذلك، وهم عاجزون عن تلقي التنزيل الإلهي، ومن المؤكد جدا أنهم معزولون مبعدون عن الملأ الأعلى عزلا لا يمكن أن يستمعوا إلى شيء مما يجري فيه. اثبُت على التوحيد وابتعد عن الشرك، ولا تدع مع الله إلها آخر من الأصنام أو الملائكة أو البشر، فإن من يشرك عاقبته العذاب.

اهتم يا محمد بعشيرتك وأقاربك، فأنذرهم: إن قرابتهم منك لا تفيدهم شيئا يوم القيامة، وحولهم من النظرة الضيقة لرابطة القبيلة إلى الرابطة الإيمانية السامية. وكن ليّنا مع المؤمنين متواضعا، خاطبهم بما يجلب قلوبهم ولا ينفرهم، فإن قرروا عصيانك رغم لينِكَ، ووضوح ما تدعوهم إليهم، فقل إني بريء مما تعملونه، لا أتحمل شيئا من جزاء أعمالكم. واستعن بالله واعتمد عليه فإنه سبحانه لا يغلبه عُتُوُّ المشركين ، وهو رحيم بك يقدر لك الخير ويساعدك عليه . إنه يرعاك بصفة دائمة، فهو يراك حين تقوم للعبادة، ويراك حين تجتمع مع صحابتك في قيام الليل. إنه هو السميع الذي لا تغيب عليه همسة ولا أي حركة. وهو العليم بما تكنه الصدور ويجري في القلوب.

ثم أكد تسفيه ما زعموه من صلة بينه وبين الشياطين ، ذلك أن من طبيعة الشياطين أنهم لا يقربون إلا ممن كان على شاكلتهم ، فهم يتنزلون على كل كذاب، يسعى

ليغمس التابعون له في الإثم والفساد .يوهمـون أتبـاعهم أنهـم يتلقـون السـمع وأكثـرهم كاذبون لا يسمعون شيئا .

رمى بعض المشركين النبي ﷺ بأنـه شـاعر، نظـرا إلـى أن القـرآن يسـتولي علـى السامعين كما يستولي عليهم جيد الشـعر فـي زعمهـم. رد الله علـيهم بـأن الشـعراء لا يلوذ بهم ويقترب منهم ويسـمع إلـى أقـوالهم ويروجهـا إلا المضـلون المفسـدون. هـم كالإبل الحائرة في الأودية تبحث عن الكلأ فتلـتهم مـا تجـده مـن جيـده ورديئـه، وأن أقوالهم تناقض أفعالهم. وللتدقيق فـإن مـا تقـدم وسْـم الشـعراء بـه لـيس مـن لـوازم الشعر، ولكنهم من لوازم الشعراء المضللون من الكفـرة ؛ أمـا المؤمنـون الـذين عملـوا الأعمال الصالحة فهم نمط آخر، هـم قـد اسـتقر الإيمـان فـي قلـوبهم وجـرى تـلاوة القرآن والذكر لله على ألسـنتهم، هـم انتصـروا لله ولرسـوله وللمـؤمنين ، وسـيجزيهم الله أحسن الجزاء وهم ألسنة الحق، ودفاعهم عن الإسلام نوع من الجهاد.

ليحذر الذين ظلموا من عاقبة ظلمهم، سـواء أكـان ظلمهـم بالشـرك، أم بالتعـدي علـى حقوق الآخرين في أعراضهم وأموالهم وسعادتهم. ليحـذروا العاقبـة السـيئة التـي تفـوق كل تصور ، وإنما يعلمون حقيقتها يوم تحل بهم فلا يجدون لها مردا.

بيان المعنى العام :

221←223: هل أنبئكم على من تنزل...وأكثرهم كاذبون.

هذه الآيات متصلة بقوله تعالى: **ومـا تنزلـت بـه الشـياطين -210-** التـي كـذب الله فيها دعواهم، ونزه رسوله أن يكون متلقيـا للقـرآن مـن الشـياطين. وهـذه الآيـة تعلـن جهلهم حتى بطبيعة من هو مهيأ للاتصـال بالشـياطين. فافتتحـت الآيـة بسـؤال: "**بهـل**" التي يطلب بها التحقيق في الأمر الـذي وقـع فيـه اشـتباه وخلـط .هـل أنبـئكم ،هـل أخبركم ، على من هو مهيأ لتتنزل عليـه الشـياطين؟ ذلـك أن تنـزل الشـياطين يقتضـي أن يكون بين المنزِل والمنزَل عليه تقارب، حتى يسـتطيع تقبـل مـا يلقيـه إليـه. ولـذلك فإن الكهانة لها قوم مخصوصون، ولا يجلـس مجلـس الكـاهن إلا مـن لـه اسـتعدادات للاتصال بالشياطين. وهو وضع نفسي يقرب به أحدهما من الآخر.

و بعد أن أثار السامعين بالسؤال ليسـتعدوا لمعرفـة مـا جهلـوه، بسـط القـرآن علـيهم مواصفات القابل للتلقي. الصفة الأولى: أن الكذب قد صـار طبعـا لـه، علـى مـا يفيـده كذّاب صيغة مبالغة في الموصوف بالكذب. الصـفة الثانيـة: أثـيم. وهـي أيضـا صـيغة مبالغة : أنه منغمس في الإثم ، لأن مـدعي الاتصـال بالشـياطين (الكـاهن) يضـم إلـى كثرة الكذب الذي هو من أكبر الكبائر ، عمله علـى تضـليل النـاس بتمويهاتـه . الصـفة

الثالثة: تخييلهم للناس أنهم يتلقون السمع من عوالم غيــر ماديــة . ومــن يشــاهد مجـــالس الكهنة يدرك قدراتهم على اللعب بأبصـــار الحاضـــرين وتخيـــيلهم أن لهـــم صـــلات مـــا ورائية بطرق أحكموها . الصفة الرابعة : أن أكثرهم غيـــر صـــادقين فيمـــا ينبئـــون بـــه . ومن دقة القرآن أن جعـــل زيـــف مـــا يخبـــرون بـــه هـــو الأكثـــر، لأنهـــم بتضـــليلاتهم ومهاراتهم، قد يكون بعض ما يخبرون به مستندا إلى قـــواهم النفســـية النافـــذة إلـــى الـــذين يجلسون إليهم، فيستكشفون من الخبايا مـــا هـــو صـــادق، وبـــه يغرســـون فـــي نفـــوس الناس الثقة بهم . فكشف القرآن بدقته عن ذلك لمـــا قـــال: وأكثـــرهم كـــاذبون. كمـــا أنهـــم لشرهم قد يكون لبعضـــهم صـــلة بالشـــياطين، فيخبـــرونهم عـــن وقـــائع بعيـــدة، يكشـــف الغيب بعد عن صدقهم فيها.

وإن هذه الملامح التي عرضها القرآن لمن تتنـــزل علـــيهم الشـــياطين، أبعـــد مـــا يكـــون عن النبي ﷺ الذي ما عرف إلا بالصـــدق والأمانـــة، وأنـــه القائـــد إلـــى الخيـــر والمنقـــذ للبشر من الضلالة.

224- والشعراء يتبعهم الغاوون .

كما قال المشركون عن النبـــي ﷺ :إنـــه كـــاهن، يتلقـــى الأخبـــار عـــن الشـــياطين، ورد القرآن عليهم وجَهّلهم ؛ فكذلك قال بعضهم: إنه شـــاعر، وقـــد نفـــى القـــرآن عـــن النبـــي صلى الله عليه كونه شاعرا، في قوله تعالى: **وما علمنـــاه الشـــعر ومـــا ينبغـــي لـــه**[1]– **وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنـــون**[2] وفـــي هـــذه الآيـــة ردٌّ علـــيهم، وإبـــراز لجهلهـــم بطبيعة الشعراء .ذلك أن من طبيعة الشعراء أنه يلـــوذ بهـــم ويتـــبعهم الضـــالون المحبـــون لشعر الهجاء ، وصحابة رسول الله ﷺ أئمـــة الهدايـــة ، مســـتقيمون كأفضـــل مـــا تكـــون الاستقامة أبعد الناس عن الهجو، وتناول أعـــراض النـــاس أو الاعتـــداء علـــى كرامـــاتهم. وكان نفر من شعراء قريش يهجون النبـــي ﷺ ، ويجلـــس إلـــيهم ويســـتمع لمـــا يقولونـــه ، بعضُ الأعراب خارج مكة، أدمجت الآية من يتبـــع الشـــعراء بحـــالهم تشـــويها للشـــعراء والمستمعين.

225← 226-ألم ترأنهم في كل ...ما لا يفعلون.

ألم تعلم– المقصود التقرير بأنه عالم، لتصوير مـــا ســـيأتي علـــى أنـــه أمـــر معلـــوم، لا يقصد المتكلم الإخبار به، وإنما التذكير بمـــا هـــو معلـــوم للســـامع. والخطـــاب لكـــل مـــن يتأتى منه العلم. ما هو هذا الأمـــر المعلـــوم ؟ أن مثَـــل الشـــعراء كمثَـــل الإبـــل الراعيـــة

[1] سورة يس آية69

[2] سورة الحاقة آية 41

فقدت المرعى الطيب في الربـــى، فأخـــذت تبحـــث عـــن أي شـــيء يؤكـــل فـــي بطـــون الأودية. فالصورة متحركة إبل تبحث هنا وهنـــاك عمـــا تقتاتـــه، فـــي بطـــون الأوديـــة وقد عـــم القحـــل الروابـــي. فالشـــعراء تهـــيج فـــي بـــواطنهم داعيـــة القـــول لا يهمهـــم الموضوع، ولا القيم الخلقية ، هم كالإبل الهائمـــة فـــي بطـــون الأوديـــة لا يتـــأتى لهـــا إلا المرعى الخبيث .وهي صورة كثيرٍ من أفـــانين الشـــعر التـــي يتســـابق فيهـــا الجـــاهليون ويجيدون ، كالهجاء والنسيب والتشبيب بالنســـاء ومـــدح الخـــاملين، طمعـــا فـــي نـــوالهم وهجْوِ النبلاء إذا لم يعطوهم ،والتقلب بين مدح الشـــخص ثـــم هجائـــه ، ويأخـــذها عـــنهم الغاوون يروونها وينشرونها .

و في عرض القرآن لصورة الشعر الذي هو على هذا النحـــو تنفيـــر منـــه، وحـــط لقيمـــة أهله، ونفي على أبلغ وجه أن يكون في القـــرآن أي شـــبه بالشـــعر، وأن يكـــون للرســـول ﷺ وأصحابه سبب وصلة به. وينضـــاف إلـــى ذلـــك عـــدم التـــزامهم بالصـــدق. تخـــالف أقوالُهم أفعالَهم، حتى جرى بيـــنهم أن أحســـن الشـــعر أكذبـــه. والشـــهامة العربيـــة تـــأبى الكذب حتى في الجاهلية.

227- إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات... ينقلبون .

هذا من الدقة القرآنية، التي يقارنها التفرقة بـــين جانـــب الخيـــر وجانـــب الشـــر، حتـــى لا يؤثر ما يكون بينهما تماس قد يخـــتلط بـــه الأمـــر. فبعـــد التشـــويه بالشـــعراء الـــذين لا يسلم منهم عرض ولا قيمة خلقية، ممـــا يمكـــن أن يفهـــم مـــن الصـــورة المنفـــرة بالإبـــل الهائمة، والتناقض بين القول والعمـــل، تعمـــيم ذلـــك الفهـــم علـــى كـــل شـــاعر، اســـتثنى القرآن الشعراء الذين استقر الإيمان في قلـــوبهم بمـــا يتبعـــه مـــن اســـتقامة وعـــدم إذايـــة واشمئزاز من الاعتداء على الآخرين، وتعلقهم بقـــيم الخيـــر والجمـــال، واقتـــرن الإيمـــان في كيانهم بالتطبيق العملي لما تلقَّوه من هداية حببـــت إلـــيهم كـــل مـــا جـــاءهم مـــن الله، وجرى على ألسنتهم ذكر الله، والقول الطيـــب، وتـــلاوة القـــرآن . ثـــم إنهـــم انتصـــروا لله ولرســـوله وللمـــؤمنين ، بعـــد مـــا آذاهـــم المشـــركون ، فـــردوا علـــيهم هجـــاءهم وأفحموهم، وأقرهم النبي ﷺ ، بل إنه نـــوه بهـــم . وعـــن الزهـــري أن كعـــب بـــن مالـــك قال: يا رسول الله، ما تقول في الشعر ؟قال: إن المـــؤمن يجاهـــد بســـيفه ولســـانه، والـــذي نفسي بيده لكأنما تنضحونهم بالنبل . وأجاز النبـــي ﷺ كعـــب بـــن زهيـــر وخلـــع عليـــه بردته ، وما زال الخلفاء يتوارثونها شـــارة مـــن شـــارات الخلافـــة حتـــى اســـتقرت عنـــد ملوك بني عثمان ، وهي محفوظة اليـــوم فـــي متحـــف توبكـــابي بالقســـطنطينية . وأمـــر حسان بن ثابت ﷺ بهجاء المشركين، وقال له: قل ومعك روح القدس.

آذنت السورة بالانتهاء، وقـرب مسـك الختـام ،وقـد صـوَّرَتْ الملحمـة بـين الخيـر والشر وبين الكفر والإيمان، وبين الرسـل الأكـرمين، والمرسـل إلـيهم، مـن المعانـدين الرافضين ومن الصالحين المتقين. فأعلنـت فـي خاتمتهـا، أن الـذين ظلمـوا بالشـرك، والشرك ظلم عظـيم، وبالاعتـداء علـى الآخـرين فـي أعراضـهم وأمـوالهم، وهتـك حقوقهم؛ أن الذين كان الظلم صـفتهم سـيعلمون علـم اليقـين عاقبـة ظلمهـم، سـيعلمون المصير الذي يصيرون إليه، وأي مصير؟ إنه لهولـه ولتنوعـه تركـت الآيـة للتـالي أن يذهب به التصور كل مذهب. ليحذر الإنسـان الظلـم، وليعيـد فـي نفسـه هـذا الوعيـد وليعمل على الاستقامة والتوبة قبل فوات الأوان. أسـأل الله لـي ولكـم العافيـة. وحسـن الختام والعاقبة.

أتممت كتابـة مـا فـتح الله علـي فـي هـذه السـورة يـوم الأحـد11 محـرم 1424-2012/11/25

سـورة النّمل

هذا هو أشهر أسمائها، وتسمى أيضا بسورة الهدهد. لأنهما لم يذكرا في سورة غيرها. كما سميت بسورة سليمان، لأن تفصيل الحديث عن سليمان مما اختصت به. وهي سورة مكية. رتبتها حسب ترتيب المصحف السادسة والعشرون. وهي الثامنة والأربعون حسب ترتيب النزول. نزلت بعد الشعراء وقبل سورة القصص.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ (1) هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ (2)
ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ (3) إِنَّ ٱلَّذِينَ
لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ (4) أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمۡ سُوٓءُ
ٱلۡعَذَابِ وَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡأَخۡسَرُونَ (5) وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلۡقُرۡءَانَ مِن لَّدُنۡ
حَكِيمٍ عَلِيمٍ (6)

بيان معاني الألفاظ :

زينا: فقدوا الميزان المميز بين القبيح والحسن، فاختاروا القبيح.

العمه : الحيرة والتردد في الضلالة.

الأخسر : الأشد خسارة .

تلقى: تُعطى وتَتَقبّل.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت السورة بالحروف المقطعة التي تشير إلى أن من مثلها جاء نسج القرآن المعجز. واستحضر فأشار إلى آيات القرآن المتلو المحفوظ في الصدور، الذي توالت دراسته على مر الدهور. وهو الكتاب المحفوظ بالكتابة كما حفظ في الذاكرة الإسلامية. الذي بلغ من البيان والوضوح أعلى درجاته عقيدة وتشريعا. به يتم الهدى إلى الحق، وتتقدم البشرى بالنجاة والفوز للمؤمنين.

وليس الإيمان كلمة تقال ولا دعــوى مبتوتــة مــن قاعــدتها. ولكــن الإيمـــان بترســـخ بإقامـــة الصـــلاة، وإيتـــاء الصــدقات والعطــف علـــى المحتـــاجين والأرامـــل والأيتـــام، وبرسوخ اليقين الأيقن بيوم الآخـــرة ، يـــوم يقـــوم النـــاس لـــرب العـــالمين ، فيحاســـبون على ما قدموا من أعمال.

بكل تأكيد إن وضع الذين لا يؤمنون بيوم القيامـــة وينكـــرون اليـــوم الآخـــر، هـــو وضـــع المنغمسين في الشهوات الفاقدين لميـــزان القـــيم . إنهـــم يـــرون الخبيـــث حســـنا، والقبـــيح زينا، فهم في حيرة سادرون . حـــرَمَهُم الله ألطافـــه وتـــركهم لنفوســـهم الضـــالة تقـــودهم من ضلال إلى ضلال.

أولئك قد اختصوا بسوء العذاب المصـــحوب بالمهانـــة فـــي الـــدنيا، كمـــا اختصـــوا فـــي الآخرة بأنهم أشد النـــاس خســـارة. لا يجـــدون مـــن أعمـــالهم التـــي أحبطهـــا الكفـــر أي ثواب، وتبدو لهم سيئات ما عملوا.

ثم نوه القرآن بالمتلقي له، الـــذي اختـــاره الله ليعطيـــه كتابـــه، وقَبِـــلَ تحمـــل المســـؤولية الثقيلة للمهمة بكل جد. وأدمج فـــي ذلـــك أن المعطـــي المنـــزّل مـــن عنـــده القـــرآن هـــو الحكيم الذي وسعت حكمته كل شيء، الحكمـــة التـــي يجـــد التـــالي والمتأمـــل فـــي كتابـــه هداية لها، ومرانا على إدراك الأشياء على نسقها. وهو العليم العلم الشامل .

بيان المعنى العام :

1- طسم تلك آيات ...وكتاب مبين.

افتتحت سورة النمل بالحروف المقطعة التي تَقَدم تفصيل القـــول فيهـــا فـــي فاتحـــة ســـورة البقرة. واسم الإشارة "تلك" صادق على آيـــات القـــرآن، وعلـــى كتـــاب مبـــين. وعطـــف أحدهما على الآخر مع أن مدلولهما واحـــد، للتنويـــه بـــه مـــن حيـــث الاشـــتقاق، حتـــى يكون المشتق منه مستحضرا. فقوله **تلك آيـــات القـــرآن** فيـــه ملحـــظ أنـــه مقـــروء متلـــو وأن المنزل إليهم يتدارسونه، ويعيدون النظر فيه ليتكشـــف لهـــم مـــن أســـراره مـــا بقـــي به حجة على كونه من عند الله سائرا مع الزمن. وهـــو كتـــاب لأنـــه حفـــظ بالكتابـــة كمـــا حفظ بالقراءة. وهذا ما اختص به القـــرآن مـــن بـــين الكتـــب الســـماوية. إذ بقيـــة الكتـــب مقروءة، لم تدون كتابة إلا بعد أمد طويـــل مـــن إنزالهـــا. بينمـــا القـــرآن حفـــظ بالكتابـــة وفي الصدور معا. وهو مبين أي واضح في الدلالـــة علـــى مضـــامينه، فمـــن اتصـــل بـــه ترتسم في ذهنه العقيدة والعبادة والعمل بصفة واضحة وبدون شبهة أو غموض.

2-هدى وبشرى للمؤمنين.

إنه بواسطة القرآن حصلت الهدايــة، والبشــارة للمــؤمنين. وإن الهــادي والمبشــر فــي الحقيقة هو الله، وقد كانت وسيلة ذلك القرآن، فجعلــت الهدايــة والبشــارة لــنفس القــرآن الكريم تجسيما لما احتوى عليه من التأثير.

3-الذين يقيمون الصلاة... وهم بالآخرة هم يوقنون.

ولما كان التأثير لا تظهر آثاره كاملة إلا فــي الــذين هيــأوا نفوســهم لقبولــه والاهتــداء به ، وفتح آمالهم على بشارته . وذلك:

أ: بإقامة الصلاة الركن الأول الذي يجعل المؤمن على صلة متجددة بربه .

ب : و إيتاء الزكاة المطهــرة للــنفس مــن الشــح، والشــعور بالتضــامن بــين الأغنيــاء والفقراء وذوي اليسار والمحاويج .فالزكاة فــي الآيــة هــي الصــدقة، وليســت الفريضــة التي تم تشريعها وتقديرها في المدينة

جـ: وبلوغ اليقين عندهم بأنهم مبعوثون يوم القيامــة للحســاب والجــزاء، بلوغــه أعلــى درجات اليقين، مما يجعلهم مستحضــرين دومــا وقــوفهم بــين يــدي رب العــالمين يــوم القيامة.

4-إن الذين لا يؤمنون بالآخرة....يعمهون.

تعرضت هذه الآية للذين كفروا بيوم القيامة ولم يؤمنــوا بــالآخرة ، فأثبتــت مؤكــدة أنهــم بإعراضهم عن التدبر فيمــا أنزلنــاه مــن الهــدى والبينــات، وانغماســهم فــي الشــهوات واللذات، قد فقدوا الميزان الذي يزنون به أعمالهم ، ويميــزون بــه بــين الخيــر والشّــرّ، فاختلت عندهم القيم، ولذلك حرمنــاهم ألطافنــا التــي تســاعدهم علــى النظــر الصــادق، والتقويم الراشد، وأصبحوا يرون في الشر خيرا، وفي الظلــم عــدلا، وفــي القبــيح مــن أعمالهم زينة وجمالا. إنه بمقدار مــا تفــتح الاســتقامة ثباتــا علــى الطريــق الصــالح، بمقدار ما يغشي الكفر والفسق على النفس، حتــى تظلــم ويركبهــا قتــام يحجــب عنهــا النور وتنقلب حقائق الأشياء، تتملكها الحيــرة بــين مــا يبقــى فــي النفــوس مــن أصــل الفطرة، وبين ما ركب عليها مــن إلــف الخــروج عنهــا. فهــم يعمهــون متحيــرون ،إذ عمــل الشــر والرذيلــة ،وإن كــان يســتجيب للشــهوة إلا أنــه يتبعــه الحيــرة وفقــدان الطمأنينة.

5-أولئك لهم سوء العذاب... الأخسرون .

لقد تميــزوا ، ومــا أســوأ مــا تميــزوا بــه، تميــزوا باختصاصــهم بالعــذاب الســيء المصحوب بالإهانة .ولمّا عطف عليه عذاب الآخرة تمحــض إلــى عــذاب الــدنيا .وهــذا ماتم بالنسبة للمشركين من أهل مكة، الــذين عاصــروا النبــي ﷺ ، فــإن مــن لــم يــؤمن

منهم شاهد الهزائم المتتابعة ، وعلو راية الإسلام على كامل الجزيرة العربية. وتميزوا بأنهم يوم القيامة يكونون في القسم الأشد خسارة المنكوب، الذي ضاع منه كل شيء. فأعماله التي ظاهرها الصلاح محبطة، وأعماله السيئة حاضرة.

6- وإنك لتلقى القرآن...حكيم عليم.

بكل تأكيد إنك تعطى القرآن وتتقبله من عند حكيم عظيم الحكمة، عليم واسع العلم. إنه بعد أن نوهت فاتحة السورة بالقرآن وبما صحبه من خير، وبالصفات التي يتحلى بها المؤمنون به، عطف في هذه الآية التصريح بالعناية للذي أنزل عليه. فبينت أنه بالمنزلة الرفيعة، إذ آياته تأتيه مباشرة من عند الحكيم الذي عظمت حكمته، فظهرت آثارها أولا في اختيارك لتلقي الوحي، وفيما يوحى به إليك من الحقائق التي لا زيف فيها الشاملة للدنيا والآخرة. الواسع علمه لما مضى ولما هو حاضر ولما يأتي في المستقبل. ومن ذلك علمه بما طواه التاريخ من قصص الأمم الماضية، مما فصله القرآن مدمجا فيه الحِكَمَ والعبر. إن تلك الأخبار وإن كان بعض أهل الكتاب يروون شيئا منها، إلا أن للخيال مدخلا كبيرا في مروياتهم . وبهذا الملحظ كانت هذه الآية وسيلة لحسن التخلص مما ذكر قبلها، إلى عرض قصة موسى عليه السلام وما تلاها من القصص.

إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِيَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِي ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَـٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًۢا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ۖ فِي تِسْعِ ءَايَـٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأهل : الزوج .

الإيناس : الشعور بأمر خفي.
الشهاب : الجمر المشتعل .
قبس: ما يؤخذ من النار المشتعلة أو من الشعلة ليكون وسيلة لإيقاد غيرها.
الاصطلاء : التدفؤ بالنار.
بورك : قدس وضوعف خيره ونمي.
الاهتزاز: الاضطراب.
الجان : ذكر الحيات وهو نشيط جدا.
تولى مدبرا : رجع إلى الخلف.
لم يعقب : ولم يتردد في توليه.
لا تخف: اطرد عنك الخوف.
مبصرة : واضحة لا خفاء فيها.
الجحود : الإنكار باللسان .
استيقنتها : أيقنت بها.
العلو : الكبر

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر ذلك الوقت الذي قال فيه موسى لأهلــه، إنــي أحسســت بمنظــر نــار تتوقــد، إنــي ذاهب قِبَلها، لآتيكم منها إما بخبر عن الطريق الذي يبلغنــا مقصــدنا الــذي عُمِّــيَ علينــا. أو أقتبس جمرة فنوقد بها النار لنتــدفأ مــن بــرد الصــحراء . فلمــا بلــغ المكــان الــذي أبصر فيه النار، سمع نداء: أن كثرت خيرات وفضــل مــن أوقــع بصــرك علــى النــار، كما كثرت خيرات من هو حول النار مــن الملائكــة. والتنزيــه الكامــل لله رب العــالمين .ثم صرح له الباري سبحانه بقولــه : إنــي أنــا الــذي أخاطبــك، أنــا الله رب العــالمين ورب كل ما حواه الكون. ثم أمــره أن يرمــي بعصــاه علــى الأرض، فانقلبــت بمجــرد ما مســت الأرض، ثعبانــا ذكــرا نشــيط الحركــة. أحــس موســى عليه السلام بــالخوف مــن المشهد، وولى إلى الخلف دون تردد. وعنــدها خاطبــه ربــه بقولــه: يــا موســى أقبــل واطرد الخوف عن نفسك، إني لا يخاف عندي المرســلون فهــم فــي أمــن. لكــن الــذي حصل منه ظلم وأسرع إلى التوبة من المعصية وبــدّل الســيئة بمــا يناقضــها ممــا هــو حسن الحقيقة والآثار، فــإني غفــور لــذنوب التــائبين ، رحــيم أبــدل ســيئاتهم حســنات وأزيل الخوف من قلوبهم. أدخل يدك في جيب قميصــك، ثــم أخْرِجْهــا فســتجدها بيضــاء نقية جميلة. أؤيدك بتسع آيات ، فاذهــب داعيــا فرعــون وقومــه إلــى الإيمــان ، إنهــم فاسقون خارجون عن الحدود التي حددتها.

عرض موسى عليه السلام دعوته على فرعون وقومه، وأظهــر لهــم مــا أيــده بــه ربــه من المعجزات الواضحة أشد ما يكون الوضوح، ابتــداء بــانقلاب العصــا حيــة وبيــاض يده من غير سوء. كان ردهم: هذا الذي قدَّمتــه ســحر واضـــح لا شـــك فيــه. وصـــرحوا نكرانهم هذا بألسنتهم، وكانوا متيقنين في بـــاطنهم أنهـــا آيـــات مـــن الله وليســـت ســـحرا. ولكن إلفهم للظلم والاعتداء على الحق من جهة سهل لهــم هــذا الموقــف ، ومـــا انغــرس في نفوسهم من الكبر والتعالي على الحق من ناحية ثانية .

وتصور العاقبة بأنها عاقبـــة ظـــاهرة يشـــاهدها كـــل نـــاظر ، تناقلتهـــا الأجيـــال وزادهـــا القرآن رسوخا وصحة. هي عاقبة كل المفسدين يأخذهم الله بالعذاب الماحق.

بيان المعنى العام :

7- إذ قال موسى لأهله...لعلكم تصطلون .

عرض لمشاهد من قصة موسى عليه السلام . تبدأ من خروج موســى مـــن مـــدين مـــع زوجـــه، وهما يقطعان الصحراء فأظلم عليهما الليـــل، وأحســـا بـــالبرد. انفـــرد موســـى بإحســـاس: أنه يرى نارا عن بعد، أخبر أهله بما أحـــس ثـــم أعلمهـــا بأنـــه مـــاض صـــوب المكـــان الذي لمع فيه الضوء، سأحمل لكِ من ذلك المكـــان خبـــرا يســـاعدنا علـــى الطريـــق الـــذي يبلغنا وجهتنا إن كـــان الـــذي حولـــه مـــن العـــارفين بمســـالك الصـــحراء، وإن وجـــدت جماعة أوقدوا النار للدفء آتيتكم منهم بجمرة نوقد بها حطبا نتدفأ به.

8-فلما جاءها نودي...وسبحان الله رب العالمين.

يُقَدَّر أنه بعد إعلام أهله بعزمه على المضي نحـــو مصـــدر النـــار، مشـــى إلـــى أن بلـــغ المكان المقصود. فلما جاء النار التي آنس، تحول المشـــهد تحـــولا فريـــدا فـــي التـــاريخ . سمع صوتا يناديه: **أن بورك من في النـــار ومـــن حولهـــا**. وهـــذه القصـــة ســـبقت فـــي سورة طه وفَصَّلَتْ الكلام الذي توجه به الله إلى موسى وهـــو أوســـع مـــن هـــذا . ولكـــن ما ذكر في هذه الآية لم يسجل سابقا. وهذه طريقـــة القـــرآن فـــي ســـرد القصـــص، فهـــو يخص كل عرض بخصائص لا ينافي ما تقـــدم ولكنـــه يكملـــه. ومـــن إعجـــاز القـــرآن أن القصة واحدة، ويختلف عرضها فـــي تكامـــل يناســـب البســـاط المـــذكورة فيـــه. ومعنـــى بورك تقدس عن كل نقـــص، وكثـــرت خيراتـــه، وتواصـــل فضـــله وعطـــاؤه. إذا كـــان المقصود ببورك الذات العليـــة . وأمـــا إذا كـــان المقصـــود موســـى عليه السلام فـــالمعنى أن الله باركك ياموسى بتكثير خيراتك ،وفيه نوع من تحية التكـــريم .وحضـــر فـــي هـــذا المكـــان الذي تخيره الله لمخاطبة موسى عليه السلام، جمع مـــن الملائكـــة كـــانوا حـــول مصـــدر النـــور فشملهم ما خوطب به موسى من التحية.

إن اللغة مهما بلغت من القوة على قبول التجريــد تبقــى محــدودة، ولا بــد مــن لواحــق تساعد المتلقِّي على الإدراك المجــرد. فنبَّــه القــرآن التــالي لهــذه الآيــات، أن عليــه أن يستحضر دوما تنزيه الله تعالى، التنزيه الكامــل عــن كــل ظِــلالٍ تحــدث فــي الــنفس، فيها تجسيم، فلذلك ختمت الآية بقوله **وسبحان الله رب العــالمين**. فهــو المنــزه عــن كــل تصور تجسيمي يحده في مكان أو يسبغ عليه شــيئا مــن المفــاهيم الماديــة. فلــيس هــو حالا في ذلك المكان الذي خاطب فيــه موســى ولا هــو مــتكلم بلســان، ولا يتصــل بــه شيء من الأصوات التي فهــم منهــا موســى مــا أراد الله أن يُبَلِّغَــه. ومــا أدق التعبيــر الشامل: كل ما جرى ببالك فالله مخالف لذلك.

9-ياموسى إنني أنا الله العزيز الحكيم .

سجل القرآن أن الله خاطب موسى مناديــا لــه بقولــه: إنــي أنــا الله أخاطبــك، وتفَهَّــمْ بدون واسطة ما ألقيه لك، وأنا العزيز الــذي لا يغلــب ويخضــع كــل شــيء لإرادتــي ، الحكيم الذي لا يغيب عني أي جانب من الجوانب فــي علمــي، المنــزه عــن التــأثُّرِ بمــا يلابس أحكامي وفعلي . فكن واثقا بعوني ولا تخش أي بأس .

10- وألق عصاك... لا يخاف لدي المرسلون.

أمره برمي عصاه على الأرض. أطاع ورماها، فــإذا بهــا بمجــرد مــا لامســت الأرض تنقلب حية ذكرا نشيطة مضطربة شــديدة الاضــطراب، يخشــى مــن يراهــا انقضاضــها عليه. دخل الخوف في كيان موسى من المشهد الــذي رآه ، فرجــع إلــى الــوراء هاربــا غير مترد د.

ويأتيه النداء من ربه وهو على هذه الحالة من الفــزع والخــوف: ياموســى اطــرد عنــك الخوف واثبت .فإني مؤمِّنٌ رســلي ،لا يخــاف فــي حضــرتي مــنْ شَــرَّفْتُهم بالرســالة. فزاده طمأنينة بأن الله اختــاره ليكــون رســولا، يبلــغ هدايتــه إلــى النــاس. ومــا وقــع لموسى فيه حكمة من تدريبه على رباطة الجــأش، وإجــراء تجربــة عمليــة يحــتفظ بهــا في ذاكرته تؤيده في المواقف الحرجة .

11- إلا من ظلم...فإني غفور رحيم .

للمفسرين موقفان من تحديد نوع الاستثناء. إلا من ظلم ثم بدل...

الموقف الأول: أنه استثناء متصل، ويكــون مــؤدى الآيــة أن الخــوف منتــف لا يلحــق الرسل عند ربهم، فلاهم يخافون موقفا حرجــا ولا يخــافون عقابــا يــوم القيامــة، أمَّــنَهُم الله بعزته وحكمته. ويكون الرسول الذي سبق منــه ظلــم بتجــاوز بعــض الحــدود التــي حددها الله، قبل أن يشرفه الله بالرسالة، ثم إنه بعــد ذلــك تطهــر وبــدل العمــل الســيء

الذي صدر منه بالعمل الحسن؛ الــذي أول مراتبــه التوبــة والرجــوع إلــى الله ،وخــاف العقاب، فإن الله يمحو ذنبه ويقبل توبتــه ولا يؤاخــذه بهــا. فــإني أنــا الغفــور الــرحيم. وهذا ناظر إلى قتــل موســى عليه السلام للقبطــي ونوبتــه وســؤاله الغفــران. فالآيــة خاصــة بموسى عليه السلام.

ملحظ: قال ابن عطيــة :أجمــع العلمــاء أن الأنبيــاء علــيهم الســلام معصــومون مــن الذنوب الكبائر ، ومن الصغائر التي هي رذائل . واختلــف فيمــا عــدا هــذا. ونقــل عــن ابن جريج قوله :لا يخيف الله تعالى الأنبيــاء إلا بــذنب يصــيبه أحــدهم ، فــإن أصــابه أخافه حتى يأخذه منه .وأشار الزمخشــري إلــى أن الصــغائر التــي فرطــت مــنهم قــد تسمى ظلما، كالذي فرط مــن آدم ويــونس وســليمان، وإخــوة يوســف ، ومــن موســى بوكزه القبطي وقال موسى: رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له.

الموقف الثاني: أن الاستثناء منقطع. ويكــون مــؤدى الآيــة ،لكــن مــن ظلــم أيــا كــان رسولا أو غيره ، ثم تاب من بعد ظلمه وبدل مكــان ســيء عملــه عمــلا صــالحا فــإن الله يتوب عليه ، لأنه هو الغفور الرحيم .

12-وأدخل يدك...كانوا قوما فاسقين.

ثم أضاف سبحانه ما يزيد رسوله موســى عليه السلام طمأنينــة ، فــأمره أن يــدخل يــده فــي جيبه ، ثم يسحبها لتبدو له بيضاء نقية جميلة ،وقــال لــه: أؤيــدك بتســع آيــات. فاذهــب إلى فرعون وقومه وادعهم إلى الإيمان وتغيير سلوكهم ليتحولــوا مــن الفســق الــذي هــم عليه إلى الصلاح. والآيــات التســع هــي: -1- انقــلاب العصــا حيــة -2-اليــد -3-الطوفان -4-الجــراد -5-القمــل -6-الضــفادع -7- الــدم -8-القحــط -9- انفــلاق البحر، وفي عد انفلاق البحر نظر لأنــه لــيس آيــة تلــزم فرعــون بالإيمــان برســالته، ولكن هي آية لمن يعتبر .

13←14: فلما جاءتهم آيتنا...كيف كان عاقبة المفسدين.

طوى القرآن التفاصيل التالية للمشهد الســابق، وعجــل بالنتيجــة التــي تهــدد مشــركي مكة بنفس مصير فرعون وقومه .فلما جاءتهم الآيات الدالــة علــى صــدقه، النافيــة لكــل ريبة ،البالغة من الوضوح أعلى حد، كأن الآيــات لوضــوحها أصــبحت تُبْصِــرُ وتــرى. وأشارت الآية إشارة مختصرة إلــى المشــاهد المفصــلة فــي مــواطن أخــرى باتهامــه بالسحر، وما تبع ذلك. ثم صرحت الآية التالية بأن موقفهم مــن الآيــات التــي تأيــد بهــا موسى عليه السلام ، أن أنكروا بألسنتهم كونهــا مقنعــة ، وإن كــانوا فــي بــواطنهم لا يجــدون لها مدفعا . إن هذا الوضع المتنــاقض، اقتنــاع فــي بــاطن الــنفس ، وإعــلان للــرفض

باللسان، ينبئ عن ظلم للحقيقة تولــد مــن داء الكبــر . ترفعــوا أن يطيعــوا موســى وأن يعترفوا له بالرسالة . وفي لمحــة خاطفــة تحــرك الآيــة مشــاعر التــالين إلــى ســوء عاقبتهم، افتضحوا بهــا وصــارت معروضــة أمــام جميــع النــاظرين، مــا إن يحــرك الناظر نظره حتى يبدو له المشهد كما قصــه القــرآن ، جثــث جــيش كامــل ورئيســهم، طافية متراكمة على سطح الماء، تدفعها أمواج البحر .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا ۖ وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَـٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَـٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَـٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَـٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفضل : الزيادة في الخير والنفع.

حشرت جنوده : أحضرت مسخرة.

يوزعون: ينتظم جمعهم فلا يسبق بعضهم بعضا. وطائعون مطبقون لما يطلب منهم.

حطم: كسر وأباد.

أوزع: أغرى بالعمل، وفقني

بيان المعنى الإجمالي :

سيدنا داود وسليمان ،نبيان كريمان نوه القرآن بما آتاهمــا الله مــن علــم مؤصــل غزيــر. رفعا ابتهالاتهما لله اعترافا بفضله وثناء على نعمــه وحمــدا لــه، لمــا فضــلهما بــه مــن العلم على كثير مــن عبــاده المــؤمنين. تــوفي داود وورث ســليمان مقامــه فــي النبــوة والملك ، جمع شعبه وخطب فيهم مبرزا ما فُضِّــل بــه علــى جمــيعهم ليحقــق طــاعتهم له، وعدم انتقاضهم علــى الســلطة، وأعلمهــم أن الله علمــه مــا تــدل عليــه أصــوات الطيور وآتاه من كل ما يُمَكِّنهُ من تســيير أمــور الدولــة. ثــم تصــور الســورة تحَــرُّكَ

سليمان بجيوشه. جمعت الجيوش من الجن ومن البشر ومـن الطيـر .كـل ينفـذ مـا هـو مختص به .واقتصرت الآية على الأنواع الثلاثة اكتفـاء بـذكرها عـن تفصـيل الأنـواع الأخرى كالخيل والإبل. وعني سليمان بنظامها فكانت لـه وزعـة ، يقومـون علـى ذلـك ،يتفقدون من تخلف مثلا ،أو خـرج عـن الصـف ليـردوه إلـى الوضـع السـليم. سـار موكبه حتى بلغ وادي النمل، والنمل فيه نشـيط متحـرك فـي كـل مكـان. نبهـت نملـة أهلها بأن خطرا داهمـا سيقضـي علـيهم فليتحصـنوا بمسـاكنهم. إن سـليمان بجيوشـه الجرارة سيمر وسيحطمكم بخيله ورجلـه دون أن يشـعروا أنهـم قضـوا علـيكم. تبسـم سليمان ابتسامة عريضة وهو منشرح من قولها، أن عرفتـه باسـمه ونوهـت بعدلـه فهـو إن أضرَّبِهِمْ فليس بقصد الإذاية . وتجمعت في نفسـه مشـاهد الـنعم الكثيـرة التـي أنعـم الله بها عليه فتوجه داعيا: رب ألهمني دوام شـكر نعمتـك التـي تفضـلت بهـا علـي ، وعلى والديَّ ، وألهمني أن أثابر على القيـام بالأعمـال الصـالحة التـي ترضـى عنهـا لحسن مقصدها ، وأدائها على الوجه الأكمل . وأدخلنـي فـي رحمتـك الواسـعة دخـولا يضمني إلى عبادك الصالحين وحسن أولئك رفيقا.

بيان المعنى العام :

15-ولقد آتينا داود ...من عباده المؤمنين.

سيدنا داود وابنه سليمان نبيان من أنبياء بنـي إسـرائيل، ذكرهمـا الله فـي كتابـه، ونـوه بهما .وفيما عرضه من قصتهما عبر للمـؤمنين، ودعـوة لاتبـاع منهجهمـا مـن عبـاده العلماء الصالحين. حقق القرآن أن الله تفضل عليهمـا ففـتح قلوبهمـا علـى علـم واسـع غزير. أعطاهما هذا الفضل مِنّةً منه دون كبير عنـاء ، كمـا امـتن علـى سـيدنا محمـد بقوله :**وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضـل الله عليـك عظيمـا**-[1] وظهـرت آثـار هـذا الفيض من العلم بمعرفة أكمل لنعم الله عليهمـا ، فكـان أول مـا سـجله القـرآن عنهمـا هو قولهما : **(الحمد لله الذي فضلنا على كثيـر مـن عبـاده المـؤمنين)** وهـذا الابتهـال نستروح منه أمورا. أن العالم كلما صـفا عقلـه بمـا أوتيـه مـن علـم يقـوى اعترافـه بفضل الله عليه الذي فتح عقله للفهـم، وثَبَّـت المعلومـات فـي ملكاتـه، وأطلعـه علـى شيء من أسرار خلقه. كما أن العلم المقتـرن بالإيمـان يسـمو بـه مقـام صـاحبه ممـا يحتم احترامه، ولا يمنعه التواضع من أن يـذكر مرتبتـه فـي العلـم ليتميـز العـالم مـن الجاهل الدَّعِيّ. وأن على العالم أن لا يركبه الغرور فـيظن أن حظـه مـن العلـم بتفـوق

---

[1] سورة النساء آية 113

به على جميع الناس، فهذان النبيان اللــذان آتاهمــا الله علمــا ونــوه بهمــا، اعترفــا بــأن تفضيلهما كان على كثير من عباده المؤمنين لا على جميعهم .

16- وورث سليمان...الفضل المبين.

طوي ذكر قصة داود ، واقتصر على مــا جــاء فــي الآيــة الســابقة. وواصــل القــرآن الحديث عن سليمان، فأول ما ذكره أن ورث مــا كــان لأبيــه مــن الحُكْــمِ والحِكْمَــةِ، ولا مدخل للآية في الدلالة على ميراث ما كان لــداود مــن مــال، حســبما يقتضــيه الســباق والسياق. وسجل القرآن من حسن تدبيره للملك أنه لــم ينعــزل عــن شــعبه، بــل جمعهــم وخطب فيهم معرفا بمزاياه وقدراته التي يستطيع بهــا تســيير أمــور الدولــة فقــال: أيهــا الناس. مكنني الله من علم ما تــدل عليــه أصــوات الطيــور. إن فكــه لرمــوز أصــوات الطيور يفهم منه أنه عارف برموز أصــوات غيرهــا مــن الحيوانــات التــي هــي أشــد قربا من الإنسان. وفي ذلك إشارة أيضا إلــى أن ملكاتــه تتجــاوز مــا عنــد الآخــرين. وإذا كان يتبين أحاسيس الطيور بما يصدر من ألســنتها مــن الأصــوات، ومــا تتواصــل به بقية الحيوانات فيما بينها، فإن ذلك مما يقنع شعبه بأنــه يطلــع، بمــا علمــه الله، علــى كثير مما يجري في مجالسهم. فليعملــوا علــى الوفــاء للأمــة، وليبتعــدوا عــن النفــاق. وعطف على علمه الواسع أن الله آتاه مــن كــل شــيء. والعمــوم عرفــي، لــيس معنــاه أنه أوتي كل ما في الدنيا ، ولكنه يفيد أنه أوتــي مــا يســاعده علــى حســن تســيير أمــر الدولة، وحفظ مصالحها ، وتنميتها. وخُتم ما سجل مــن خطبتــه باعترافــه: إن هــذا هــو الفضل الكبير. يقر علَنًا بنعمة الله عليه ،وأن مــا أوتيــه كلــه مــن فضــله الــذي لا تحــد آفاقه، البينة آثاره، التي تقتضي من المنعَمِ عليه الشكر عليها.

17-وحشر لسليمان...فهم يوزعون.

جمعت لسليمان الجيوش الجرارة بجميع أصنافها. فريــقٌ مــن الجــن المــوكلين بإنجــاز ما لا يستطيعه غيرهم، وهو من اختصاصهم، كتوجيــه القــوى الخفيــة، والتــأثير بطــرق غير مادية. وصنف من البشر بجميــع الاختصاصــات مــن حــرس، وســاقة، وخيالــة، المدربين على الحرب وغير ذلك. وصــنف مــن الطيــر التــي كانــت تظللــه إذا ســار وتأتمر بأمره فتبلغه وتبلغ عنه. وفيما ذكر اكتفاء عــن ذكــر غيرهــا. ثــم وصــفت هــذه الجيوش بأنها منظمة لها قيمون يقفــون علــى انتظامهــا وعــدم توزعهــا بســبق بعضــها عن بعض ،مأمونة من الفوضى، فهــو حشــد عســكري مــنظم بدقــة ، وُكِــلَ بــه مــن القَوَمَةِ ما يحفظ له الاستمرار على نظامه.

18←19،حتى إذا أتوا ....برحمتك في عبادك الصالحين.

تحرك الجيش. وساروا إلـى أن وصـلوا إلـى وادي النمـل، ووادي النمـل إمـا مكـان مسمى بهذا الاسم لكثرة النمل فيه، وإما مكـان انتشـر فيـه النمـل وكثـر دون أن يكـون علَمًا عليه. وتنفرد نملـة لعلهـا كانـت رئيسـة النمـل بـإدراك قـرب الخطـر الـداهم، ومملكة النمل كمملكة النحل تسير على نظام دقيق يقـوم كـل قسـم بالوظـائف الموكلـة إليه ، مما يضمن للمملكة البقاء والتكاثر. وترسل إشـارتها بلغتهـا إلـى النمـل المنهمـك في أداء مهماته، تعلمه أن علـيهم أن يسـرعوا بـالعودة إلـى مكـامنهم الحصـينة حـذرا من أن يحطمهم سليمان وجنوده ، دون أن يشعروا بالنمـل الصـغير المنبـث علـى وجـه الأرض .هي تشير إلى أنها مدركة صلاح القائـد وجيشـه ، وأنهـم لا يقصـدون الإذايـة لمملكة النمل حبا في الإذاية والتنكيل . تفطـن سـليمان لمـا دار بـين النملـة وأتباعهـا، ورضي قولَها فتبسم تبسما عريضا. واستحضـر سـيل الـنعم المتواليـة التـي خصـه الله بها، حتى إن نملة عرفت اسمه، ووثقـت فـي عدلـه علـى أنـه يرعـى حتـى الأشـياء التافهة ولا يقسو عليها. وأنه تفرد بالتقاط ما تحـدثت بـه النملـة. وهـذه واقعـة أخبـر بها القرآن نؤمن بها كما وردت فـي الـنص القرآنـي ، ونبتعـد عـن الإضـافات التـي ليس عليها دليل من القرآن. ونقول إنها مـن الأمـور الخارقـة للعـادة التـي يسـرها الله لسليمان وليس فيها شيء يناقض العقل ، ولكنها خوارق للعادة.

ثم توجه سليمان مبتهلا إلى ربـه داعيـا : رب ألهِمْنـي وأعنِّـي علـى أن أقـوم بشـكر نعمك التي خصصتني بها وأنعمت بها علـي وعلـى والـدي . وهـذا مـن بـر الوالـدين الذي لا ينقطع برهما بموتهمـا، كمـا قـال تعـالى: "**وقـل رب ارحمهمـا كمـا ربيـاني صغيرا**"[1] وشكر النعمة يتبعه دوامها. فقـد ورد فـي الحكمـة: النعمـة وحشـية، قيـدوها بالشكر فإنها إذا شكِرت قَرّتْ. وإذا كُفِـرت فَـرَّتْ. وأردف بسـؤاله أن يواصـل توفيقـه للقيام بالأعمال الصالحة في طريقة أدائها، وفـي النيـة المصـاحبة والباعثـة عليهـا. وأن يجعله أحد عباده الصالحين المرضي عنهم، وأن يدخله فـي زمـرتهم. وهـم مَـنْ يطيـب المقام معهم ويتم بهم الأنس.

وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾
لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ
بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ إِنِّي

[1] سورة الإسراء آية 24

وَجَدتُّ ٱمۡرَأَةٗ تَمۡلِكُهُمۡ وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا
وَقَوۡمَهَا يَسۡجُدُونَ لِلشَّمۡسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَصَدَّهُمۡ
عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمۡ لَا يَهۡتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسۡجُدُواْۤ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ
ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ۩ ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

التفقد :تطلب ما غاب عنك.

الهدهد: طائر من خواصه أنه يكتشف الماء عن بعد. ويحس به في باطن الأرض.

سلطان مبين : حجة ظاهرة.

الإحاطة : استيعاب العلم بالشيء.

النبأ : الخبر المهم.

أوتيت من كل شيء: نالت من كل شيء يحقق عظمة الملك .

الخب ء: الشيء المستور .

بيان المعنى الإجمالي :

منْ حزم سليمان أنه كان يتفقد جيشه حتى لا يتفشى الخلل التابع للغفلة. وعند تتبعه لجيش الطير لفت نظره تغيب الهدهد عن مكانه. وقف سليمان، وسأل المكلفين بنظام الجيش: ما الذي حجب عني رؤية الهدهد في مكانه الذي يجب أن يكون فيه؟ أم إنه غاب بدون استئذان؟ إني لا أعفو عن الخلل الذي أحدثه إن صدر منه عن قصد ، فإما أن أعاقبه عقوبة شديدة تناسب ما صدر عنه ، أو لأذبحنه إن كان تغيبه يزعزع نظام الدولة . وإما أن يقدم لي عذرا مبنيا على حجة واضحة.

لمْ يطُلْ الوقت حتى حضر الهدهد وخاطب سليمان قائلا: حصلت على علم مستوعب ليس عندك. وجئت إليك من سبأ بخبر صادق لا ريبة فيه. من غريب ما اطلعت عليه أني وجدت امرأة تتولى الملك. وأنها قد جمعت التوفيق في تسيير أمر مملكتها، وكثرة الخيرات، والنفائس التي يعنى الملوك بتوفيرها. وأنها تعتلي على عرش عظيم بلغ من النفاسة والمهابة مستوى عاليًا.

ومع مظاهر العظمة اللافتة للأنظار، وجدتها وقومها يعبدون الشمس ويسجدون لها من دون الله.

عجبا من سجودهم للشــمس ، هــلا توجهــوا إلــى الله، الله الــذي بيــده ملــك الســموات والأرض ، يتصرف في كوامنهما فيخرجهــا للنــاس ينتفعــون بهــا ، هــو العلــيم بمــا تخفيه الصدور وما تعلنه الألسنة والفعال . لا يشــاركه أحــد فيمــا هــو مــن خصــائص الألوهية. وهو رب العرش العظيم.

بيان المعنى العام :

20-وتفقد الطير فقال ...كان من الغائبين.

الحديث عن سليمان يتضمن مشاهد فيها عبر. فبعــد مشــهد مــروره علــى وادي النمــل، عرض القرآن تفقد سليمان لجنــده وتبينــه أن الهدهــد مــا كــان حاضــرا فــي المكــان المحدد له. يبدأ المشهد بتفقد سليمان قسمَ الطيــور فــي جيشــه، وإدراكــه للخلــل الناشــئ عن مغيب الهدهد. ويلقــي الســؤال علــى المــوكَّلين بــالطير. يطلــب مــنهم أن يعلمــوه بالسبب الذي جعله لا يرى الهدهد. أهو غائب بدون استئذان.

وفي تفقد سليمان للطير تفقدا فاحصــا، وإدراكــه أن الهدهــد غائــب ، ثــم ســؤاله عنــه، عبرة لمن يتولى أمر الدولة : أن عليه أن يتــابع مــا عظــم ومــا صــغر مــن شــؤونها، وأن يكون حزمه حاضرا في النفوس حتى لا يتراخى أحــد فــي القيــام بواجبــه .كمــا أن من حكمته أن طرح الفــروض التــي يمكــن أن تكشــف عــن ســبب مغيبــه والجــزاء المترتب عنها. وبهذا يكــون الانضــباط فــي الجــيش مركــوزا تبعــا لاطمئنــانهم علــى العدل ، وأن العقاب ليس للتشفي ، ولكن لتسلّمَ مؤسسات الدولة من التسيب .

21-لأعذبنه ...ليأتيني بسلطان مبين .

صرح سليمان بأن موقفه من الهدهــد المــتهم، أحــد مــوقفين: إمــا أن يعاقبــه، وإمــا أن يقدم عذرا مقبولا.

الفرض الأول :أنه إذا كان مغيبه عن تهــاون وانحــلال فســيعاقبه بعــذاب شــديد يكــون عبرة لغيره حتى لا تبقى ثغرة انتبه إليها القائد ، ورتب مــا يســدها، ولكــن التــابع أخــل بواجبه فيها عن تهاون . وأما إذا أخــل بواجبــه قصــدا ليختــل أمــر الجــيش فســيعاقبه على الخيانة العظمى بقتله. الفرض الثاني :أنــه إن كــان مغيبــه بعــذر فليقــدم عــذره ، ويكون واضحا بينا ليست فيه شائبة تنصل مــن المســؤولية. ســلطان مبــين حجــة قويــة بينة.

22- فمكث غير بعيد ....بنبأ يقين.

لم يطُل الأمر كثيرا حتى حضر الهدهد بين يدي ســليمان، وخاطبــه بقولــه: قــد حصــل لي علم مستوعِبٌ دقيق لم يحصل لك، تحصلت عليه مــن مملكــة ســبأ التــي كنــت فيهــا

وشاهدت ما سأرويه لك. وقبل أن ننتقل إلى الآية التاليــة لا غنــى لنــا عــن ملاحظــة أن الهدهد خاطب سليمان: بأنه يفوقه في الإحاطة بأخبار مملكــة ســبأ، وأنــه يعــرف عنهــا ما يجهله. لم يغضب سليمان ، ولم يعــدَّ ذلــك جــراءة عليــه ، وذلــك اتباعــا للحــق أن العالم في كل ناحية هو أرقى من الذي يجهلها.

23- إني وجدت امرأة ...عرش عظيم.

أخذ الهدهد يعرض على سليمان الجوانب الغريبة التي اكتشفها عند مغيبه:

أولا: وجدت امرأة تملك، وتدير شؤون المملكة. وغرابتــه أنــه مــا كــان معهــودا فــي بني إسرائيل تولي المرأة منصب الملك.

ثانيا: أنه قد اجتمع لها في مملكتها أمور عديدة، مكنتها مــن تســيير أمــور الدولــة علــى أفضل وجه مما يرجع إلــى مزاياهــا الشخصــية، ومــن ظهورهــا بمظــاهر الاســتقرار والأبهة. وكثير من النفائس التي منها عرشها.

ثالثا: عرشها العظيم. والعروش تتنــافس الملــوك فــي إســباغ صــفات الجــلال عليهــا، لتكون أعون على غرس المهابة في الداخلين علــيهم. وقــد يكــون فــي وصــف الهدهــد عرشها بقوله: عظيم، إيماء إلى أن عرشها أعظم من عرش سليمان.

24-وجدتها وقومها...فهم لا يهتدون.

ثم واصل أنه بجانب النواحي الإيجابية ، ناحية ســلبية تــدعو للإنكــار والعجــب . ذلــك أن الملكة وشعبها كانوا يعبدون الشمس.

أتبع هذا الجزء من كلام الهدهد بــــ : **وزيــن الشــيطان أعمــالهم** .... فهــل هــو مــن كلام الهدهد؟ أي إن الهدهد أظهر تعجبه من ســخافتهم فــي التصــور الاعتقــادي بعــد أن نوه بمستواهم الحضاري . وإلى هذا ذهــب جمــع مــن النــاظرين فــي كــلام الله ، ورأى آخرون أن هذا الكلام من كلام الله سبحانه ، ذيل بــه مــا ســجل عــن الهدهــد تعريضــا بالمشركين .

ومعنى وزين لهــم الشــيطان أعمــالهم : أن الشــيطان لعــب بعقــولهم فأضــلهم ضــلالا أصبحوا معه يرون القبيح جميلا ، والسيء حســنا. وانتهــى بــه الأمــر إلــى أن مــنعهم من اتباع سبيل الهدى: الدين الحق ، واعتقاد التوحيــد. فضــلوا وانفصــلوا عــن الطريــق الذي يضمن لهم النجاة في الآخرة من العذاب.

25-ألا يسجدوا لله...ما يخفون وما يعلنون.

زين الشيطان أعمالهم بأن صدهم عن السبيل لئلا يســجدوا لله. ويمكــن فهــم الآيــة علــى أنه تحريض على توجههم بالعبادة لله على معنى: هلا.

وهو سبحانه الحقيق بأن يتوجه له الناس بالسجود ،فهو الذي يخرج الكوامن وبيسر لها طرق ظهورها سواء أكانت في السماء أو في الأرض ، كإخراج النبات إثر ما ينزله من المطر ، وإعطاء الأرزاق للناس. وهو العليم العلم الكامل، يستوي علمه بما يخفيه الإنسان ويكتمه، وما يعلنه ويذيعه.

26-الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم.

خاتمة تتوج ما تقدمها مما أجري على الذات الإلهية من الصفات. بما يفيد أن تلك الصفات اختص بها الله الذي لا شريك له، ولا يمكن أن ينسب لغيره أي شيء منها. رب العرش الذي هو أعظم من السماوات والأرض.

عند تلاوة القارئ لقوله تعالى :وهو رب العرش العظيم : يسن السجود سجود التلاوة .

قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ
ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ
﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى
مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ
تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا
تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ
وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الملأ : أشراف الناس الذين يمثلون الجميع.

أفتوني : قدموا رأيكم لحل المشكل المعروض.

الأمر : الحال المهم.

قاطعة أمرا: منفذة أمرا مع عدم التردد.

تشهدون: تكونون حاضرين معي لأستشيركم.

بأس : شدة على الأعداء وثبات.

بيان المعنى الإجمالي :

سمع سليمان عليه السلام ما أجاب به الهدهد ولم يتخذ قرارا في شأنه لا بالعفو ولا بالعقاب. ونبهه إلى أنه سينظر في أمره إن كان صادقا أو كاذبا. وكتب كتابا وأمره أن يحمله إلى ملكة سبأ ، ويلقيه اليهم . وأن يرقب أرجاعهم .

نفذ الهدهد أمر سليمان. قرأت بلقيس الكتاب. فجمعت أكابر قومها من الذين كانت تجمعهم للتشاور في الأمور المهمة للدولة، وعرضت عليهم ما جاء في الكتاب وقالت لهم: صاحب الكتاب هو سليمان. افتتح خطابه ببسم الله الرحمن الرحيم. إنه يطلب من مملكة سبأ أن يطيعوه وأن لا يظهروا علوا عليه ولا استكبارا، وأن يأتوه مسلمين وجوههم لله موحدين له. ثم ذكرتهم بأنها تواصل نفس الطريقة في تسيير دواليب الدولة: أنها لا تبت في أمر مهم إلا بعد أن تأخذ رأيهم. أكدوا لها بأن الدولة قوية في تجهيزاتها الحربية، وتدريباتها. وخبرتُها بفنون القتال متميزة. ونفسية الجيوش عالية، وشجاعتهم موفورة، وأنهم مستعدون استعدادا كافيا؛ وبعد هذا فالتدبير السياسي، أنت أدرى به، ونحن نحقق ما ترينه. أجابتهم بأن شأن الملوك أنهم كلما دخلوا بلدا قلبوا الأوضاع فيه وأفسدوه. وأنهم يرفعون السفلة ويبعدون أصحاب الرأي والتدبير ويهينونهم. وما أظن أنهم تغيروا عن سنتهم هذه. وأن الأمر ما يزال غامضا. ولذا فإني اخترت أن أوجه إليهم بهدية ملكية، وأنظر ما سيكون موقفهم بعد ذلك.

بيان المعنى العام :

27- قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين.

لم يعاجله لا بالتكريم، ولا بالعقاب . وصرح أن الأمر مشكل يقتضي التريث، وعلق قراره على التأكد من صدقه أو من كذبه. إن هذا المشهد فيه عبرة لمن يتولى أمور الدولة ؛ أن العدل يلزم الحاكم بأخذ كل الاحتياطات لحفظ الحقوق . فالمتهم بريء حتى تحقق إدانته ، وهو في المشهد مقامه في جيوش سليمان لا يؤبه له، ومع هذا توقف سليمان ولم يعاجله .هو قد تغيب بدون إذن ،وقدم اعتذارا فيه مصلحة للدولة . فعلى رئيس الدولة أن يواصل البحث للتأكد من الحقيقة. ثم الحكم حسبما يتبين، من إدانته أو براءته.

28-اذهب بكتابي...ماذا يرجعون.

نظر سليمان في الأمر، واهتدى إلى الحل التالي: يكتب كتابا لملكة سبأ، وهذا شأن رؤساء الدول يتم الاتصال بينهم بواسطة الرسائل. أنجز الكتابَ واختار أن يكلف الهدهد بإبلاغه إليها. فأمره أن يحمل الكتاب إلى ملكة سبأ وقومها. ثم بين له طريقة

تنفيذ المهمة: يلقي إليهم الكتاب بطريقة يــأمن معهــا وقوعــه فــي أيــديهم .يتــأخر عــن المكان الذي ألقى فيــه الكتــاب . ينتظــر ويتــابع بانتبــاه رد فعلهــم، أيقبلــون عــرض سليمان أم يرفضونه؟ وأخذ الفقهاء من هــذا اتصــال رؤســاء الــدول المؤمِنــة برؤســاء الدول غير المؤمِنة. ومما يؤكد جــوازه ، الرســائل التــي بعــث بهــا النبــي صــلى الله عليه وسلم إلى كسرى وقيصر .

29←31-قالت يا أيها الملأ إني ألقي كتاب...وأتوني مسلمين.

حسب طبيعة الأحداث يفهم من النص، أن الهدهــد قــام بالمهمــة كمــا حــددها ســليمان عليه السلام.

جمعت الملكة أشراف قومها، وأعلمتهم أنها تلقــت كتابــا، وعبــرت لهــم عــن المســتوى الحضاري الذي كان عليه الكتــاب، إذ جمعــت تلــك الخصــائص بقولهــا "كــريم " فــي لغته، وفي شكله، وفي خطه، وفي أناقته.

بعد أن نوهت بمظهر الكتاب أخبرتهم بمضمونه:

أولا: أن الذي أرسل الكتاب هو سليمان. وأنه لمــا كــان القصــص القرآنــي لا يتعــرض للتفاصيل الثانوية، لم تتعرض الآية إلــى أنهــا عــرفتهم مــن هــو ســليمان، ولا مقامــه الخطير، ولا سلطانه الواسع. والمظنون أنها عــرفتهم بــذلك ،لأن ذكــره باســمه فقــط لا يكون له كبير فائدة إذا لم يقترن بتفصــيل ذلــك . خاصــة وأن المــلأ إنمــا حضــر فــي جلسة عامة للتشاور في أمر له خطره. ومن أول المعطيات معرفة مرسل الكتاب.

ومن الأدب الذي نســتفيده مــن الآيــة تعريــف المخاطِــب باســمه لمــن يتوجــه إليــه بالخطاب، كالرسائل ، والاتصال الهاتفي ، والاستئذان . فيبــدأ كلامــه : أنــا فــلان .وقــد افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم رسائله: من محمد رسول الله.

ثانيا: الأمر الغريب الثــاني فــي أمــة تعبــد الشــمس، أن تفتــتح الرســالة ب " بســم الله الرحمن الرحيم " وهي إشارة إلــى أن صــاحبها يــربط أمــوره المهمــة بــالله الــرحمن الرحيم. وكما اختصر القرآن ما اتصل بقولهــا: إنــه مــن ســليمان، فجــرى علــى نفــس النسق في تعريفها بعقيدته وما ترمز إليه فاتحة كتابه.

وهذا الأدب النبوي في افتتاح الرسائل لم يحفظه بنو إسرائيل ،فمــا عــرف عــنهم أنهــم التزمــوا هــذا الأدب فــي رســائلهم . وادخــره الله لهــذه الأمــة. روى أبــو داود فــي مراسيله: أن النبي صلى الله عليه وسلم لما نزلت هذه الآيــة صــار يكتــب البســملة فــي أول كتبه .

ثالثا: يدعونا لأمرين :

1) طاعته والدخول تحت سلطانه، ذلك أن سليمان بعد أن يسر له الله تكوين جيش قوي، دربه أحسن تدريب، وجهزه أكمل تجهيز، وسخر له من الجن والطير ما لم يسخره لأحد. لمع في فكره أنه إذا ضم ملك اليمن لملكه فتح أبواب التجارة نحو الشرق؛ وتبادل خيرات اليمن مع ما ينتجه فيه قوة لمملكته. وقد تحير المفسرون في موقع "أن لا تعلوا علي " وافترضوا افتراضات لا يخلو أي منها من تمحل. والذي ترجح عندي أن ظاهرة الاختصار في سرد قصة بلقيس واضحة كما تبين مما قدمناه. فأنا أقدر أن بلقيس قالت لهم: يقول لكم سليمان في كتابه : أن لا تعلوا علي ، وادخلوا تحت سلطاني ، ولا تستكبروا .

2) أقْبِلوا عليَّ وقد تحولتم عن عبادة الشمس إلى إسلام الوجه لله، فيكون قد دعاها وقومها إلى التوحيد ونبذ الشرك.

ويكون سليمان تصرَّف تصرُّف الملوك الذين يعملون على رفاهية من هم إلى نظرهم، وتوسيع سلطانه. ثم تصرَّف تصرُّف الأنبياء بدعوتهم إلى عبادة الله وحده. وهذا شأن الأنبياء أنهم يدعون أقوامهم إلى التمسك بالشريعة التي كلفوا بها، ويدعون من يتصل بهم إلى نبذ الشرك وإفراد الله بالعبادة.

بعد أن بينت مضمون الرسالة، خاطبت خطاب التكريم الحاضرين: يا أيها الملأ. أيها الأشراف، على النحو الذي خاطبتْهُم به في أول الأمر: بعد أن استمعتم إلى تفاصيل المعضلة، قدموا لي رأيكم في الطريقة التي ترونها أفضل وأسلم عاقبة في هذا الأمر المهم. فأنتم تعلمون أني ملتزمة بأن لا أقرر قرارا فاصلا حتى تكونوا حاضرين، وقد بسطت المشكلة عليكم لأستشيركم، وأحترم ما تشيرون به.

32-قالوا نحن أولو ا قوّة...ما ذا تأمرين.

كان جواب الملأ معبرا عن اعتدادهم بالمستوى الحربي لبلادهم. ذكروا أن السلاح ووسائل القتال متوفرة لديهم، والجيوش كثيرة العدد، حسنة التدريب، يحذقون أساليب الحرب. ومن ناحية أخرى هم شجعان يثبتون ولا يفرون من ساحات القتال. أولوا بأس.

وبعد أن عبروا عن ثقتهم في قوتهم وأنهم لا يخشون الحرب ، فوّضُوا الجانب الثاني وهو جانب السياسة ، والتصرف في المهمات العظمى إلى الملكة بلقيس. وصرحوا بأن هذا الجانب هو إليكِ بما لكِ من أصالة رأي، وحسن تدبير ، ونظر بعيد. فتدبري الأمر وانظري في جميع جوانبه . ونحن على أتم الاستعداد لتنفيذ ما ترينه.

34-قالت إن الملوك ...وكذلك يفعلون.

سجل القرآن الكلمة التي عقبت بها على رأي كبار قومهـا الـذين حصـروا تقـديرهم فـي اعتزازهم بقوتهم المادية، وأن الأمر إليهـا فـي النظـر السياسـي فقـدمت رأيهـا، الـذي كان على شقين:

أولهما: أن الأمر جد والخطر كبير. وشرحت ذلـك بـأن سـليمان الـذي بعـث برسـالته ملك، وأنها علمت من تتبعها للتاريخ ولطبـائع الملـك، أن الملـوك إذا أدخلـوا بلـدا فـي طاعتهم، فإن أول ما يقومون به ، هو تغيير النظام الـذي كانـت تسـير عليـه الدولـة ، فإن تغلبوا بالحرب أسروا وسلبوا ، واسـتباحوا المغلـوبين للجـيش أيامًـا مكافـأة علـى انتصارهم .وعملوا على إزالة معالم الاعتزاز ليكـون إخضـاع الأمـة المغلوبـة نهائيًـا، وأقصوا الطبقة التي كانـت تسـير الـبلاد عـن مـواطن التـأثير ، فـلا يتمكنـون مـن الانتقاض إذا سنحت الفرص . وإذا كان ذلـك بالطريقـة السـلمية فـإنهم يغيـرون نظـام الحكم، ويقصون أهل الرأي فيهم، ويستبدلونهم بالسـفلة الـذين يسـاعدونهم علـى معرفـة عورات البلد، ويمتصون الخيرات. ولا ينتهـي أمـرهم إلا بفسـاد البلـد الـذي يدخلونـه. ثم أضافت: هذا ما شهد به التاريخ، وهو ممتـد إلـى المسـتقبل، فـلا تجـدونهم سـائرين إلا على هذا النحو من الفساد.

35-واني مرسلة إليهم ...بم يرجع المرسلون.

ثانيهما: أن أمر سليمان ما يزال غامضا، وعرضت: أن من الحكمة أن نختبره بإرسال هدية لها قيمتها. فإن كان من الملوك الذين يهمهم ما يجمعونه لأنفسهم من أموال، فإنه يقنع بها، ونبتعد عن الحرب التي لا تأتي بخير. ونأمن شره في الحاضر والمستقبل ، لأن المهتمين بالأموال أبعد ما يكون عن الشجاعة ومواقف الشرف والبطولة. وإن كان لا يهتم بالمال وهو صاحب همة عالية، دبرنا ما نواجهه به في المستقبل بعد أن يتضح الأمر. فإنا ننتظر ونترقب ما يحمله لنا الرسول من أخبار.

اختصر القرآن ما تلا عرض رأيها. والمقـام يقتضـي أن المـلأ وافقهـا، وأنهـا أعـدت هدية ثمينة رفيعة المقدار والمحتويات، وبعثت بها إلى سليمان مع رسولها.

فَلَمَّا جَآءَ سُلَيۡمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٖ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيۡرٞ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلۡ
أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمۡ تَفۡرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرۡجِعۡ إِلَيۡهِمۡ فَلَنَأۡتِيَنَّهُم بِجُنُودٖ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا
وَلَنُخۡرِجَنَّهُم مِّنۡهَآ أَذِلَّةٗ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَؤُاْ أَيُّكُمۡ يَأۡتِينِي بِعَرۡشِهَا
قَبۡلَ أَن يَأۡتُونِي مُسۡلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفۡرِيتٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبۡلَ أَن

تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ
أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا
مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ
فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

قبل : طاقة.

الصاغر : الذليل.

عفريت : أصله اسم لعتاة الجان ويطلق على الشديد الذي لا ينال.

بيان المعنى الإجمالي :

قدمت رسل بلقيس حاملين للهدية التي أرادت أن تختبر بها سليمان . أنكر عليهم أن يكون الرد على رسالته بهذا المستوى الهابط، وقياسه بهدية مالية هي لا قيمة لها عنده مهما جمعت من النفائس. فإن ما مكنه الله من المال أوفر وأنفس مما عندهم. ثم صرح لهم بموقفه الحازم: إنه سيأتيهم بجيشه الكاسح، وسيحتل أرضهم بجنود لا طاقة لهم بها، ولا يستطيعون الوقوف أمامهم. وليخرجنهم من مدينتهم أسرى أذلاء. أبلغ الوفد ما سمعوا من سليمان وما شاهدوه من قوة عظيمة ومنظمة جدا. ثم علم سليمان أن بلقيس قد أخذت الطريق لتقديم طاعتها ودخولها تحت سلطانه. وتوجه إلى من حوله من الخبراء والعلماء قائلا لهم: من منكم يستطيع أن يأتيني بعرشها العظيم قبل أن تصل إلينا، لتكون دهشتها أعظم وتدخل المهابة في قلبها. تقدم عفريت مارد من الجن وقال له: إني قادر على أن أحضره لك قبل أن تقوم من مجلسك هذا. ثم قام عالم من الدارسين للكتب، فقال: إني قادر على أن آتيك به قبل أن تحول نظرك عما كنت تنظر إليه. وتم له ما أراد، وانتصب العرش أمام ناظره. فعبر عما امتلأت به نفسه قائلا مستحضرا النعم التي تتباعت عليه : هذا الذي تحقق هو من فضل ربي عليَّ ليس لي في ذلك يدٌ ، وإنما هو عونه وهدايته . ثم أطلق قاعدة إيمانية خلقية : أن من عبر عما امتلأ به قلبه من الشكر ، فإن عاقبة الشكر هي له. يعطيه الله بها أجرا ،ويضاعف له الخيرات. ومن كفر فضل ربه وجحده فإن الله غني عن شكره ، وهو مع ذلك كريم لا يحرم الكافرين رزقهم الذي قدره لهم في الدنيا.

بيان المعنى العام :

36- فلما جاء سليمان...بهديتكم تفرحون.

كلفت بلقيس وفدا من قومهـــا ليحملـــوا هـــديتها إلـــى ســـليمان ،وقـــد يكـــون أنهـــا أرادت إضافة إلى تبليغ الهديـــة ، أن يعرفوهـــا بالوضـــع العـــام لمملكـــة سـليمان ممـــا يعمـــق معرفتها به. وسار الوفد وقدم الهدية النفيسة لســـليمان . والـــدخول فـــي تفاصـــيل الهديـــة لا يستند إلى دليل. فلنقتصر على ما اقتصـــر عليـــه القـــرآن، ولا نضـــيف إلا مـــا طـــواه القرآن مما هو معلوم، ليكون ما نضيفه محققا لوضوح النص.

كما ذكرنا سابقا: رزق الله سليمان آفاقـــا عقليـــة واســـعة وحكمـــة نافـــذة، وهمـــة عاليـــة، وأنه كان يهدف إلى أمرين مهمين: ضم مملكة اليمن إلـــى مملكتـــه، وتحويـــل أهلهـــا مـــن الشرك وعبادة الشمس إلى التوحيد وإسلام الوجه لله. ولـــذا فإنـــه بمجـــرد مـــا ســـمع مـــن الوفد الذي وجهته إليه بلقيس، الجواب الذي كلفته بـــه، وأنـــه لا يعـــدو شـــيئا مـــن المـــال هو حقير في نظره مهما بلغ .وشتان مـــا كـــان يهـــدف إليـــه مـــن كتابـــه وبـــين عـــرض الوفد. بادر بالإنكار ، وأنه يرفض رفضا قاطعا أن يظـــن بـــه أنـــه راغـــب فـــي المـــال ، وعلل ذلك بقولـــه :إنكـــم تجهلـــون أن مـــا رزقنـــي الله مـــن الأمـــوال والنفـــائس أعظـــم وأفضل وأجود مما آتاكم . أنا في غنى عن هـــديتكم، ووضـــعي غيـــر وضـــعكم ،فأنـــا لا أعير لهديتكم اهتماما، بل أنتم تتطلعون لورود الهدايا إليكم وتفرحون بها.

37-ارجع إليهم ...وهم صاغرون.

ثم خاطب الوفد بعد أن عرفهم منكـــرا علـــى مُرْسِـــلَتِهِمْ جهلهـــا بعظـــيم ثروتـــه وعـــالي همته بقوله : ارجع للذين أرسلوك ، وأخبرهم أني بكـــل تأكيـــد ســـأزحف علـــيهم بجنـــود يهزمونهم شر هزيمة ،ولا يســـتطيعون أن يقفـــوا أمـــامهم ، ويعجـــزون عـــن مقـــاومتهم، ويخرجونهم من معاقلهم ويأسرونهم مضروبين بالذل والصغار.

38-قال يا أيها الملأ... مسلمين.

مشاهد مقدَّرَة طواها القرآن حسب طريقته في عـــدم تتبـــع الجزئيـــات التـــي لـــيس فيهـــا كبير عبرة . ويكون التقدير والله أعلم : أن الرسل رجعـــوا إلـــى بلـــدهم تصـــحبهم الهديـــة التي حملوها لسليمان ، وقصُّوا على بلقيس وقومها عظمـــة ملـــك ســـليمان ،ومـــا سُـــخِّرله من القوى . وأنها اختارت أن لا تدخل معـــه فـــي حـــرب والقـــوى غيـــر متكافئـــة. ولـــذا قررت أن تقدم عليه كما طلب في رسالته: **وائتـــوني مســـلمين**. وأن الخبـــر وصـــل إلـــى سليمان بما يعلمه أنها تجهزت للقدوم عليه. وبهـــذا فـــإن ســـليمان عليـــه الســـلام انتصـــر انتصارا قيما وحقق ما خطـــط لـــه مـــن أول الأمـــر. ولـــذلك خاطـــب أهـــل مشـــورته،

فناداهم: أيها الملأ ! إن بلقيس قادمة علينا ، وأريــد أن أفاجئهــا بمــا لا تتوقعــه ، فيكــون عامل الرهبة والحيرة مسلطا عليها في أول لقــاء بيننــا .و كمــا أخبرنـــي الهدهــد فإنهــا تعتز بعرشها الذي جمع من مظاهر العظمة ما ميزه عــن غيــره مــن العــروش ، وأريــد أن تحضروه لدي قبل قدومها ، فأيكم يستطيع ذلك ؟

39-قال عفريت من الجن ....لقوي أمين.

تقدم عفريت من الجن معروف باقتداره، يتقــى لشــره وخبثــه وشــطارته ،فقــال : إنـــي مســتعد علـــى أن آتيــك ســريعا بــالعرش الــذي طلبــت إحضــاره ، وإن إمكانــاتي لا يعجزها هذا الأمر، إني قوي على حمله وتجاوز المسافات بــه حتــى يكــون بــين يــديك، وإني أمين على ما حواه العرش من أشــياء ثمينــة . وإذا أذنــت يكــون حاضــرا أمامــك قبل أن ينتهي مجلسك هذا.

40-قال الذي عنده علم...فإن ربي غني كريم.

تقدم إِثْرَهُ الذي درس الكتب، وتمرس بالحكمة، وأجــاد تطبيــق القــوانين العلميــة لينتفــع بها في الحياة. وخاطب سليمان بقوله: إني قــادر علــى إحضــار عرشــها قبــل أن يرتــد إليك طرفك. أي توجه نظرك إلى المرئي ثم تحوله عنــه .علــى معنــى أن الإنســان يمــد بصره إلى موقع ،ثم يتحول نظره من ذلك الموقــع إلــى موقــع آخــر .فهــذه اللحظــة كافية لمن استمد علمه من الكتب أن يحضر العرش.

يعلق الشيخ ابن عاشور رحمة الله عليــه: وهــذه المنــاظرة بــين العفريــت مــن الجــن، والذي عنده علم من الكتاب، ترمز إلى أنه يتــأتى بالحكمــة والعلــم مــا لا يتــأتى بــالقوة. وأن الحكمة مكتسبة لقوله:" **عنده علم مــن الكتــاب** "وأن قــوة العناصــر طبيعــة فيهــا، وأن الاكتساب بالعلم طريق لاستخدام القوى التـــي لا تســتطيع اســتخدام بعضــها بعضــا (يقصد أنها لا تحصل نتائجها من ذاتها) فذكر في هذه القصــة مــثلا لتغلــب العلــم علــى القوة.

تبارى العفريت الجني والعالم الدارس للكتب فـــي الســـرعة التـــي يســتطيع كــل واحــد منهما إحضار عرش بلقيس قبل دخولهــا علـــى ســليمان . وتــم لســليمان مــا أراد ، وإذا العرش العظيم الذي كان يتصوره من الوصف ،يراه مستقرا عنده في لحظة.

إنه وإن كان ما تحقق أمرا عجبا، والمفاجأة ضــخمة بالمقــاييس العاديــة، مــن شــأنها أن تستولي على النفس وتشغلها، على الأقل لحظات، عما يحيط بالإنســان الــذي تــم لــه مــا أراد. ولكننا نعيش في هذا المشهد مع نبي، قلبــه معلــق بــالله، لا يقطــع عنــه أي شــيء خيط النور الذي يصله بربه بل يزداد إشــعاعا وقــوة. فصــرح بمــا امــتلأت بــه نفســه

بهجة وسرورا [**هذا من فضل ربي**]. وتصور في مضمون الإشارة ما شئت ، من حضور العرش ، إلى ما حوله من العلماء والجن ، إلى سبقهم للطاعة ، إلى استجابة ملكة سبأ وسيرها إليه طائعة ، إلى الإيمان الذي دخل فيه قومها . ثم أردف بقاعدة إيمانية، وحكمة خلقية: إن من يشكر الله فإنه هو المنتفع بشكره، ينشرح قلبه بذلك، ويلقى جزاء شكره ثوابا يوم القيامة، وزيادة للخيرات في الدنيا. فَنَوَافِلُ الشكر تعود إليه في الدنيا والآخرة. وفي المقابل فإن من يجحد فضل الله ، فإن موقفه الجاحد لا يضر الله شيئا ، فإنه سبحانه غني عن شكره ، ثبت له الكمال المطلق . وإنه سبحانه لكريم لا يسرع بتسليط العقوبة والحرمان على الجاحدين لفضله ، بل يمهلهم ويوالي نولهم من خيراته ، وإن كان لا يمنحهم البركة التي بها يكون العمل غير منقطع.

قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ

نكروا : غيروا عرشها.

ممرد : مملس .

القوارير :ج قارورة أصله إناء من زجاج ، والمراد به هنا الزجاج.

بيان المعنى الإجمالي :

طلب سليمان من الصناع أن يجروا تغييرات على العرش تجعل الناظر إليه غير متيقن بأنه عرش بلقيس .ولما قدمت بلقيس على سليمان عرض عليها الموكَّلون بقبولها العرش وسألوها: أهكذا عرشك ؟ كان جوابها يدل على فطنتها وحذرها فلم تقل : إنه هو، ولم تقل إنه يختلف عنه ، وأجابت إجابة موهمة : كأنه عرشي على التشبيه لا على التحقيق . ولما بلغ سليمان جوابها ومخائل فطنتها ،ذكر نفسه والملأ من حوله بتصريحه بما يلي: إن الله تفضل علينا فآتانا العلم قبل قومها ، وهدانا

للإسلام . وأما بلقيس فإنها رغم رجاحة عقلها حـال بينهـا وبـين الإسـلام عقيـدتها فـي الشمس التي كانت تعبدها مـن دون الله ، وأنهـا تـأثرت بـالمحيط الكـافر الـذي كانـت تعيش فيه .

لما أوصلها المرافقون إلى الصرح الـذي كـان يجلـس فـي صـدره سـليمان ، أذن لهـا بالدخول عليه ، واندهشت إذ ظنـت أنـه يفصـلها عـن سـليمان مـاء دافـق يتمـوج ، فرفعت ثيابها وكشفت عـن سـاقيها حتـى تصـل إلـى سـليمان دون أن تبتـل أطـراف ثيابها، ويتقاطر منها المـاء، ممـا لا يتناسـب مـع مقامهـا كملكـة .وناداهـا سـليمان : تقدمي، فإن الصرح قد تمت هندسة بنائه علـى أن أرضـيته زجـاج مصـقول ، يجـري الماء من تحته . انبهرت بما رأت، وتوجهـت إلـى الله معترفـة بمـا كانـت عليـه مـن الضلال ، وأنها ظلمت نفسها بعبادة الشمس ، وأنهـا عزمـت علـى اتبـاع سـليمان فـي عقيدته وشرعه ، معترفة بأنك أنت الله رب العالمين .

بيان المعنى العام :

41-قال نكروا لها عرشها...من الذين لا يهتدون.

بعد أن أحضروا له عرشها، طلب من المـاهرين مـن الصـناع الـذين تحـت إمرتـه أن يعملوا على تغيير معالم عرشها بصفة تجعل الناظر فيـه يشـك فـي أنـه عـرش بلقـيس بعدما أدخل عليه من التغيير الجوهري. وتوجهوا إليهـا بالسـؤال: أهـو عرشـها الـذي تركته في قاعة عرشها ببلدها ؟ أراد أن يختبر بـذلك دقـة ملاحظتهـا فتهتـدي إلـى أنـه عرشها، أم إن التغيير من ناحية وبعد المسافة بـين المكـان الـذي تركـت فيـه عرشـها وموقعها الآن في قصر سليمان من ناحية أخرى يضللها ويرمي بها في حيرة.

42-فلما جاءت قالوا...وكنا مسلمين.

تم لسليمان ما أراد ، وبمجـرد مـا قـدمت علـى سـليمان وُجِّـهَ لهـا سـؤال : أهكـذا عرشك؟ وذلك لأنها كانت تعتز بعرشها حسبما تقدم لنـا. وقـد أبقتـه فـي بيـت حكمهـا، والعرش الماثل أمامها شبيه تمام الشبه به، وإن كـان المهـرة مـن الصـناع قـد أدخلـوا فيه تغييرات. ولدقة ملاحظتها المساوية لدقة كلامهـا وحضـور بـديهتها، أجابـت جوابـا مبهما فقالت: كأنه عرشي، فلم تنف كونـه عرشـها ولـم تثبـت. وأجابـت جوابـا فيـه غموض وتحوُّطٌ.

طوي ماتم بعد دقيق جوابها. والذي يظهر أن سـليمان لـم يكـن حاضـرا عنـد اختبـار عقلها. وأن السؤال كان من بعض الملأ. وذلـك أن لقياهـا بسـليمان كانـت بعـد أن أذن لها بدخول الصرح الذي يجلس سليمان في صـدارته. وأن سـليمان أبلغـوه مـا أجابـت

به. فتوجه إلى الله معترفا بفضله عليه: أن مكنه من دقيق المعرفة بالله وبالعمق في إدراك أسرار الموجودات ما لم تبلغه، وأنه أعلمه بإسلامها قبل قدومها. وأنه أكرمه الكرامة الكبرى بجعله مسلما وجهه له.

43-وصدها ما كانت تعبد من دون الله إنها كانت من قوم كافرين.

إنها على جودة ذهنها ما كانت موحدة ، صدها عن التوجه لله، الشمس التي كانت تعبدها وتعتقد فيها خصائص الألوهية. حال بينها وبين الإيمان بالله نشأتها في قوم كافرين . وعلى هذا الفهم ترتبط الآية بالشكر الذي رفعه سليمان لله: **رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي** .فنشأته في بيئة صالحة هو أحد موجبات الشكر لهذا الفضل العظيم. وهو ما حرمته بلقيس.

44-قيل لها ادخلي الصرح...لله رب العالمين.

بعد أن أكْبَرَتْ ما شاهدته من الإتيان بعرشها، وتغييره في وقت قصير تغييرا يعمي حقيقته إلا لمن كان فطنا، قادها الموكلون بها إلى سليمان، الذي كان جالسا في صدر الصرح يكسوه النور وتجلله المهابة. بلغت الصرح و كانت مرفوعة الرأس منتصبة القامة تغطي ثيابها رجليها و تجر وراءها ما ينسحب منها على الأرض مما يعبر عن كبرياء و شموخ. إنه حسبما هو معروض من الآثار القديمة كان لباس الطبقة المترفة يتدلى إلى الأرض، و ينسحب وراءهن ممّا يزيد في مظهر الأناقة و العظمة (train traine*) فتوقفت لأنها وجدت أنه يفصلها عن عرش سليمان ماء دافق يتموج، فانحنت لترفع ثيابها و كشف ساقيها، فتحقق لسليمان ما دبره بحكمته مقدما، مما يكسر عزتها فناداها تقدمي، إن هندسة الصرح تمت على جعل أرضيته صفحة من زجاج صقيل يجري تحته الماء .

اندهشت بلقيس مما شاهدت . وتبعا لرجاحة عقلها صرحت بصوت مسموع: رب إني ظلمت نفسي إذ تركتها في ظلام الشرك سادرة، ولم أخلصها من المادة إلى السمو إليك. وإني أسلمت وجهي مخلصة لك. أتقرب إليك وأطبق شرعك، وألتزم الدين مع سليمان حسب ما يهديني إليه.

وبلغ القرآن من القصة ختامها بهذا المشهد، لتكون عبرة لقريش المستكبرين، لينظروا كيف إن امرأة ذكية بيدها مقاليد ملك أمة قوية، لما بهرها الحق الذي شاهدته من سليمان أسرعت إلى الاعتراف بالخطأ، والدخول في الإسلام والالتزام بأحكامه.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ
يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا
تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ۚ قَالَ
طَٰٓئِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِى ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ
يُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ
وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟
مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ
مَكْرِهِمْ إِنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟
يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

بالسيئة: الحالة السيئة نزول العذاب .

اطيرنا: تطيرنا وتشاءمنا .

الرهط : الجماعة من الثلاثة إلى العشرة.

التبييت : مباغتة العدو ليلا.

مهلك : إهلاك.

ولي صالح : أقرب الناس إليه الذي يقوم بأخذ ثأره.

التدمير: الإهلاك الشديد.

خاوية : خالية.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد أرسلنا إلى ثمود صالحا رسولا منهم عرفوه، وخبروا أخلاقه واستقامته، دعاهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة. وهو المبدأ الذي قامت عليه جميع الديانات المنزلة. انقسم قومه إلى فريق مؤمن به، وفريق كافر يخاصم صالحا ويخاصم المؤمنين. واصل الفريق الكافر استخفافهم بما أوعدهم به صالح ، وقالوا :ليعجل تسلط العذاب علينا .حاول صالح أن يرجعهم إلى الرشد. وقال لهم: يا قوم، إنه من

المعقول أن تطلبوا أن يعجل لكم بـالخير والسـلامة لا بالسـوء. أحرضـكم علـى طلـب المغفرة من الله، فإنه رحيم يقبل توبة التائبين ويعفو عما وقعوا فيه من الخطيئة.
زادهم هذا اللين تمردا ووقاحة فقالوا له : تشاءمنا بـك وبمـن آمـن معـك .أعـادهم إلـى التصور الصحيح قائلا : إن المؤثر في الكـون هـو الله، فهـو الـذي يريـد بكـم الخيـر وينفذه ،أو يريد بكم الشر وينفذه . الحقيقة أنكم تُخْتَبَرُون بما يحـل بكـم مـن ربكـم، إنـه المتفرد بالتأثير. سجل القرآن أنه كان في مدينة صـالح تسـع مجموعـات تعاونـت فيمـا بينها على الفساد فلا ترى منهم صـلاحا. أهمهـم صـوت الحـق الصـادر مـن صـالح، فدبروا فيما بينهم أن يكيدوا لـه مكيـدة تنهـي أمـره. اجتمعـوا وقـالوا : ليحلـف كـل واحدمنا على تنفيذ ما يأتي : أن نجتمع ليلا ونباغت صـالحا وأهلـه فنقـتلهم جميعـا .ثـم نقسم لمن يطالب بدمه : مـا حضـرنا فـي أي زمـان ولا فـي أي مكـان قتـل أهلـه ، ونؤكد مقسمين أيضا : إنا لصادقون . أعدوا خطتهم بكامـل المكـر، وغفلـوا عـن تقـدير الله وتصرف قدرته. وخسروا. فإن الله قدّر أن يبيـدهم ويـدمرهم تـدميرا هـم وقـومهم. وفعلا كانت غاية مكرهم أن أصبحت بيوتهم خاليـة مـن سـكانها الـذين أبيـدوا جميعـا. إن ما انتهـى إليـه أمـرهم فيـه دليـل علـى قـدرة الله وحكمتـه ، لا ينتفـع بـذلك إلا العالمون. وأنجى الله المؤمنين المتقـين. فالإيمـان والتقـوى متـى اجتمعـا كانـا حصـنا لصاحبهما.

بيان المعنى العام :

45- ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم...فريقان يختصمون.

تتوالى القصص التي عني القرآن بعرضها ، تسـلية للنبـي ﷺ عمـا يلقـاه مـن مشـركي مكة من الصد عن الإسلام . وهذه قصة صالح عليـه السـلام مـع قومـه ثمـود تجـري في نفس السياق، والمناسبة بـين القصـتين، هـو الموقـع الجغرافـي لـديارهم إذ كانـت على تخوم مملكة سليمان.
بكل تأكيد، أرسلنا إلى ثمود رسولا مـنهم غيـر غريـب عـنهم، خبـروه قبـل الرسـالة وعرفوا مزاياه الخلقية واستقامته، هو أخوهم صالح. كانـت دعوتـه تشـترك مـع دعـوة محمد في إنقـاذ المبعـوث إلـيهم مـن الشـرك، دعـاهم إلـى توحيـد الله وأن يفـردوه بالعبادة. حصلت المفاجأة، إذ من المتوقـع أن تكـون الـدعوة إلـى توحيد الله، وجمعُهـم على عقيدة واحدة، ممكنا لاجتماع كلمتهم وذهاب الخـلاف مـنهم. ولكـنهم انقسـموا إلـى فريقين، فريق استكبروا ورفضوا، وفريق قبلـوا مـا جـاءهم بـه مـن الـدين. وتصـلب

المشركون في شركهم، واقتنع المؤمنون بما جاءهم من الحق. فكانت الخصومة بين الفريقين خصومة ظاهرة قوية .

46-قال يا قوم لم تستعجلون...لعلكم ترحمون.

استكبر المشركون وتحدوا صالحا أن يحل بهم ما أوعدهم به من العذاب. على معنى أنهم استبطأوا نزول العذاب فجعلوا ذلك أمارة على كذبه ، وأنه لا ينزل بهم أي مكروه لعدم إيمانهم بما جاء به ، اعتمادا على عدم حلوله .

تلطَّف بهم وذكرهم بصلته بهم فناداهم: "**يا قوم** " تأملوا، وحكِّموا عقولكم وابتعدوا عن التطرف. إن طلبكم أن يحل بكم العذاب عاجلا غير معقول، بل المعقول أن تطلبوا دوام السلامة. إن اختياركم التصلب في الكفر ومطالبة الله بتعجيل عذابكم ، خير منه أن تؤمنوا بالله وتطلبوا منه أن يكتب لكم السلامة من العذاب. إني أحرضكم لتقلعوا عن الشرك، وأن تطلبوا من الله المغفرة عن شرككم وتجاوزاتكم السابقة، فإنه بذلك تتعرضون إلى الرحمة الإلهية التي بها ترتفع المؤاخذة عن المذنب إذا تاب وأناب.

47- قالوا اطيرنا بك ...أنتم قوم تفتنون.

بعد هذا الجواب الحاني اللطيف من صالح، دفعتهم غلظتهم إلى أن يواجهوا صالحا بقولهم: إنك طالع شؤم من اليوم الذي بعثت فينا، لا يأتينا منك ولا من الذين اتبعوك إلا الشر.

وجد صالح في جوابهم نتائج كفرهم، فبادر إلى دعوتهم إلى ما يصحح عقيدتهم. فقال لهم: إن المتصرف في الكون تصرفا يجري فيه ما قدره من خير أو شر هو الله. ولكنكم قوم فُتِنْتُمْ عن إدراك الحقيقة وتعلقتم بخيالات لا دليل لكم عليها. إن ما يصيبكم من خير أو شر هو اختبار لكم من الله، وابتلاء لكم ليتميز المؤمن من الكافر، والمطموس على عقله بالأوهام، ممن تعلق بالله وربط ما يحدث بقدره، وهو راض به.

48- وكان في المدينة.. ولا يصلحون.

بذل صالح كل ما آتاه الله من الحكمة ، ومن اللين ، ومن ترتيب الأدلة وعطف مخاطبيه من الميل مع الهوى ، إلى النظر العقلي الرصين . والباطل مهزوم أمام قوة الحق. ولكن الهوى عندما يتغلب على المدارك يعمي البصائر، ثم يبعث في أصحابه اندفاعا للشر ليهزموا الخير ويكون سلوكهم متجها دائما نحو الشر والفساد، ومعاداة الخيرين الأبرار. وهؤلاء هم شيعة الشيطان ،تجد منهم في كل مجتمع.

وكان منهم في مدينة صالح، تسع مجموعات تآلفت على الشر وعلى الفساد. واعتنى القرآن بتشخيص فسادهم بقوله يفسدون في الأرض ولا يصلحون: تمحضوا للفساد وبلغوا الذروة في ذلك فلا تجد منهم أي صلاح .

49- قالوا تقاسموا بالله...وإنا لصادقون.

اجتمعوا لتدبير مؤامرة تقضي على النبي صالح، وانتهوا إلى ما يلي: ليقسم كل واحد منا بالله، أن نباغته ليلا تحت جنح الظلام، فنقتله دون أن يتفطن لفعلتنا أحد. وبهذا نستريح منه . وحتى يذهب دمه هدرا، وننجو من الثأر الذي يقوم بالمطالبة به وليه، فمن تمام المؤامرة، أن نقسم بالله ما شهدنا هلاك أهله ولا كنا حاضرين في زمان القتل ولا في مكانه. ونضيف تأكيدا وإنا لصادقون في قسمنا لننفي كل ريبة .

50- ومكروا مكرا...وهم لا يشعرون.

يعلق القرآن على ما أعدوه وما ائتمروا به فيقول : إنهم لقصور تفكيرهم ، والفساد الذي تأصل فيهم، ظنوا أنهم قد رتبوا مؤامرة خفية ، وتوقعوا كل الاحتمالات، من الإجهاز على صالح ، إلى طريقة التبري من دمه .وفي مقابل هذا المكر رتب الباري ما يحبط مخططاتهم ، وينجي نبيه ويسحقهم .وهم لا يشعرون بما أعده الله لهم.

51- فانظر كيف كان عاقبة مكرهم...وقومهم أجمعين.

تبدأ الآية باستحضار ما فاجأهم به مما يحقق المكر المحبط لمكرهم ،كأنه منظور إليه . فلفت القرآن نظر محمد صلى الله عليه وسلم ليتبين مآل مخططاتهم وما انتهى إليه مكرهم. فما هو هذا المكر الشديد؟ سلطنا عليهم من العذاب ما دمرهم تدميرا واستأصلهم، فلم يبق فرد من أفراد الرهط، ولا من قومهم. كما دبروا للاعتداء على صالح وقومه، كذلك كان إحباط مكرهم باستئصالهم مع قومهم أجمعين، فلم ينج منهم أحد.

52-فتلك بيوتهم...لقوم يعلمون.

الإهلاك الماحق ترك ديارهم بلاقع خاوية لا يسكنها أحد . صورتها حاضرة في نفوس المخاطبين لأنهم كانوا يمرون على ديار ثمود في سفرهم إلى الشام، فلذلك أشار إليها القرآن بقوله: **تلك بيوتهم**. وأضافت الآية إضافتين وإن كانت استوفت التصوير الذي آلت إليه منازلهم .

الإضافة الأولى: أن خراب بيوتهم كان بسبب ظلمهم. والظلم يشمل ما تجاوز به قوم صالح ، من الشرك ، ومن تكذيب صالح ، ومن إعداد المؤامرة لقتله وقتل أهله، ومن التصميم على التنصل من المسؤولية بعد تنفيذ القتل . وفي ذلك تحذير

من عاقبة الظلم بأوسع معانيه. روي أن ابــن عبــاس رضــي الله عنــه قــال: أجــد فــي كتاب الله أن الظلم يخرب البيوت وتلا " **فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا** "

الإضافة الثانية: إن ما عرضته قصـــة ثمــود فيــه دليــل علـــى أن الله ناصـــرٌ أوليــاءه، ولكن لا ينتفع بذلك إلا من كان عالما موقنا بقــدرة الله وعدلـــه وحكمتـــه فـــي تصـــرفاته. مما يدل على أن من لم يستقر في عقله سلطان الله العادل، فإنه لا يتعظ ولا ينتفع.

53-وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون .

في هذه الآية تصريح بنجـــاة المـــؤمنين، وأن هـــذه النجـــاة كانـــت بعنايـــة الله، ذلـــك أن العذاب الساحق قد يعم الطـــالح والصـــالح، وفيـــه إشـــارة إلـــى أن الإيمـــان، إذا صـــحبته التقوى، يكون حرزا لصاحبه من أن يمسه العذاب العام.

﴿ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفاحشة : الفعلة القبيحة (اللواط)

وأنتم تبصرون : معلنين.

تجهلون : تأتون فعل الجاهلية.

يتطهرون: يتنزهون على طريقة الاستهزاء بهم.

الغابرين : المهلكين الباقين مع من قدر استئصالهم.

بيان المعنى الإجمالي :

واذكر ما ختم به أمر قوم لـــوط، لمـــا أنـــذرهم رســـولهم لـــوط عليـــه السلام، منكـــرا عليهم إتيانهم للفعلة القبيحة المنكرة، وفســـادهم إلـــى درجـــة أنهـــم أصـــبحوا يتجـــاهرون بها بدون حياء. قال لهم: عجبا لكم كيـــف ترغبـــون فـــي قضـــاء شـــهوتكم الجنســـية مـــن الذكور أمثالكم وتعرضون عن النساء مع مـــا أودع الله فـــيهن مـــن خصـــائص بهـــا يـــتم التكامل بين الجنسين، من رقة ومن لطف وجمال. حقا إنكـــم قـــوم انغـــرس الفســـاد فـــيكم وانحرفتم انحرافا بالغا.

كان موقف قومه من موعظته تصـــلبهم علـــى الفســـاد، وهـــددوه بإخراجـــه ومـــن آمـــن معه، وسخروا منهم بأنهم قوم بالغوا في الطهارة.

إنه لما بلغ بهم التصلب في الفساد إلى هذا الحد ، قدر الله إنجاءه من كيدهم ، ومن العذاب الذي سيتأصلهم .وأن امرأته التي كانت مقرة لهم على فسادهم سينالها ما ينالهم من العذاب .ونزل عليهم من السماء عذابا منتنا بعا كالمطر .فما أسوأ ما انتقم الله به منهم

بيان المعنى العام :

54←55- ولوطا إذ قال لقومه...بل أنتم قوم تجهلون.

واذكر تاليا عليهم قصة لوط عليه السلام ، فــي ذلــك الظــرف الــذي قــال فيــه لقومــه منبها لهم منكرًا عليهم أمرين قبيحين جمعا بينهمــا لتجــذر الفســاد فــي نفوســـهم : أنكــر عليهم شيوع الفعلة البالغة أقذر حد في الفساد والقــبح : العلاقــة الجنســية بــين الــذكور، وزادها قبحا أنهم يعلنون بذلك ولا يتســترون .ممــا يــدل علــى انقــلاب القــيم عنــدهم بحصول الرضا العام عن الشــذوذ الجنســي. تشــتهون الرجــال دون النســاء . وأضــاف إلى الإنكار الأول توبيخهم علــى جهلهــم بالعواقــب، فنــبههم إلــى أن الشــهوة العارمــة غطت على ما في فعلهم من القبح ومناقضته للفطرة، وشدة الفساد.

اهتز سلم القيم اهتزازا كبيرا، إن لم نقل إنه تحطم، علــى أيــدي الطغــاة الــذين مســكوا بزمام القيادة حسب أهوائهم، فالعدل هو ما يمكن لسلطانهم والتســلط علــى مــن لــم يبلــغ قوتهم فأرضخوه ليكون تابعا لهم. والميزان مختــل تــرجح فيــه كفــة مــا ينفــذون بــه مصالحهم. وخير مثال علــى ذلــك فــي عصــرنا حــق الــنقض فــي مجلــس الأمــن ، والطريقة التي تم بها استخدامه وتعطيل العدل ونصــر الظلــم .خــدروا البشــر بشــعارات تستقطب الرضا العام، وغالطوا الناس على أنها مثال للقــيم التــي جاهــدت البشــرية فــي تاريخها الطويل لتبلغهــا، ومــا قاربــت بلوغهــا إلا اليــوم. ومــن ذلــك ميثــاق حقــوق الإنسان الذي جندوا له وســائل الإعــلام، ورســخوه بــالمؤتمرات والقــرارات المفصــلة لمضامينه. والتوقيع عليــه مــن الحكومــات الفاعلــة والمضــللة، والحكومــات المغلوبــة على أمرها. وبلغ التضليل أن مكنوا الشذاذ جنسيا مــن إعــلان شــذوذهم ، والــدفاع عــن فسادهم واعتبروه حقا من حقوق الإنسان .

56- فما كان جواب قومه...أناس يطهرون.

تبع إنكار لوط وتقريعه قومه علــى مــا انغمســوا فيــه مــن الشــذوذ الجنســي ، أنهــم تصلبوا في الثبات على إشــباع شــهواتهم علــى مــا اختــاروه لأنفســهم ،ورأوا أن هــذا التذكير والإنكار من لوط ، صوت يفسد عليهم متعــتهم ، فــأجمعوا أمــرهم علــى إخــراج لوط ونفيه خارج قريتهم . تآمروا بهذا، وأضــافوا إلــى ذلــك أن ســخروا مــن تمســك لوط بقيمه على أنه وأتباعه أناس يتطهرون من الشذوذ. قالوا هذا استهزاء بهم.

الفهـــــرس

سـورة الكهف: 3
قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ... مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا (75←76) : 3
فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ... مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (77←78): 3
أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ... مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (79←82): 5
وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ... مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (83←88): 8
ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا... وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (89←91): 11
ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا... وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (92←98): 12
وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ... إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (99←102): 16
قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا... وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا (103←106): 18
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ... وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (107←109): 20
قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ... وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (110): 21

سـورة مريم: 24
كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا... وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (1←6): 24
يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ... أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (7←10): 26
فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ... وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (11←15): 28
وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ... وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا (16←21): 30
فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ... فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا (22←26): 33
فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ... وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (27←33): 35
ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ... لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (34←38): 38
وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ... وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (39←40): 41
وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ... فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (41←45): 42
قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي... وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (46 ←50): 44
واذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى... أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (51 ←53): 47
وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ... وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (54←57): 48
أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ... خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا (58): 49
فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ... مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (59←63) : 51

وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ... هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (64←65): 53
وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَا مِتُّ ... ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (66←70): 55
وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ... مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا (71←74): 57
قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ ... فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (75←76): 59
أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا ... كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (77←82): 61
أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ ... مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (83←87): 63
وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا .. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (88←95): 65
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (96←98): 67

سـوْرة طه: 70
طه مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ... هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (1←8): 70
وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ... وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (9←16): 73
وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى ... لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (17←23): 76
اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ... قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (24←36): 80
وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ... وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (37←41): 82
اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ... عَلَى مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى (42←48): 85
قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى (49←54): 89
مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ... وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (55←59): 92
فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى... وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (60←64): 94
قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ... وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (65←69): 97
فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا... وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (70←76): 98
وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى... وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (77←82): 102
وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى... هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (83←88): 105
أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ ... وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (89←94): 109
قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ... وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (95←98): 111
كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ... إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (99←104): 114
وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ ... فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (105←112): 116
وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا... وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (113←114): 119
وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ ... وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى (115←119): 121
فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ... وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (120←127): 123
أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ... نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (128←132): 127

وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ من رَبِّهِ ... وَمَنِ اهْتَدَى (133←135):.. 131

ســــورة الانبياء:.. 134
اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ... أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ (1←6) :... 134
وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا... لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (7←10):................. 138
وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ... حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِين (11←15):.................... 140
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ... يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (16←20):....... 142
أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ...إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون (21←25):........ 145
وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ... فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (26←29):........... 148
أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (30←33):............ 151
وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ... آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (34←36):............. 154
خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ... وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (37←40) :... 157
وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ... وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ (41←45): 159
وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ... وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (46←47):................................... 161
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ ... وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (48←50): 163
وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ... وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِين (51←57):............... 165
فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ... أُفٍّ لَكُمْ ولما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (58←67): 167
قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ ... وَكَانُوا لَنَا عَابِدِين (68←73): 171
وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ... إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (74←77): 174
وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ... فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (78←80):............................ 176
وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ... وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (81←82):... 179
وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ ... وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (83←86):..................... 180
وَإِسْمَاعِيل وإِدْرِيس وَذَا الْكِفْلِ ... وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (85←88):................................. 182
وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ ... وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (89←91): 184
إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ... وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُون (92←95):.................. 187
حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ... لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (96←100) :............... 189
إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى ... الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُون (101←103): 192
يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ ... إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (104←106):.................................... 194
وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ... وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُون (107←112): 196

ســــــورة الحج: 201
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ ... فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ (1←4): 201
يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ ... وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (5←7): 204
وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ ... لَبِئْسَ الْمَوْلَى وَلَبِئْسَ الْعَشِيرُ (8←13): 211
إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا ... إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (14←17): 215
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ ... إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (18): 220
هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ ... وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (19←25) : ... 221
وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ ... وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (26←29): 226
ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ ... إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (30←33): 229
وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ... لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (34←37): 231
إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ... إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (38←40): 235
الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ... ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (41←44): 239
فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا ... وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (45←48): 241
قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ... آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (49←54): 244
وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ ... وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (55←59): 248
ذَلِك وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ ... وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (60←62): 251
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ... إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (63←66): 253
لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا ... إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (67←70): 257
وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ... إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (71←74): 259
اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ... هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (75←78): 263

ســــــورة المؤمنون: 268
قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ... هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (1←11): 268
وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ... ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (12←16): 274
وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ ... وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (17←22): 276
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (23←30): 281
ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ... فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (31←41): 285
ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ... ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (42←50): 290
يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ ... نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لَا يَشْعُرُونَ (51←56): 294
إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ... مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (57←67): 297
أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ ... وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ (68←74): 302

وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ ... فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (75→79): 307
وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ... بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (80→90):.......................... 310
مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ... وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (91→98): 313
حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ ... رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (99→107): 317
قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ... وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (108→115):............................ 320
فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ... وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (116→118):.................................. 323

ســــــورة النور:.. 326
سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا ... حَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (1→3): 326
وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ... وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (4→10): 329
إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ ... وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (11→20):.. 333
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (21→25):.. 341
الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (26→29): 345
قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ... أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (30→31): 348
وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ ... مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (32→34): 353
اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ... وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (35):.. 357
فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ ... فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (36→40):... 362
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ ... يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (41→43): 367
يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ... إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (44→46):.. 371
وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ ... فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (47→52):.................................. 372
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ... وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (53→57): 376
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (58→59): 382
وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ... يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (60→61): 384
إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ... وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (62→64): 387

ســــــورة الفرقان:.. 392
تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ ... فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (1→9): 392
تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ ... وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (10→14):.. 397
قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ ... وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (15→20): 400
وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ... وَأَحْسَنُ مَقِيلًا (21→24):.. 403
وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ ... هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (25→30): 405

وكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ ... أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا (31←34):..................................... 409
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا (35←40):.. 411
وَإِذَا رَأَوْكَ إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ... بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (41←44):...................................... 415
أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ... فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (45←50):............................. 417
ولَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ... أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (51←57):............................... 422
وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ... لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا (58←60):.......................... 426
تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ ... وكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (61←67):................................ 428
وَالَّذِين لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ ... يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (68←71):... 432
والَّذِينَ لَا يَشْهَدُون الزُّور ... فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا (72←77):... 435

سـورة الشعراء:.. 439
طسم تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِين... وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (1←9): 439
وإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى ... أَنْ أَرْسِلْ معَنَا بَنِي إِسْرَائِيل (10←17):.................................. 443
قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا ... ومَا بَيْنَهما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِين (18←24):.............................. 445
قَالَ لِمنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ... وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِين (25←33): 449
قَال لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَساحِرٌ عَلِيمٌ ... قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (34←42):.................. 452
قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُون ... أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (43←51): 453
وأَوْحَيْنا إِلى مُوسَى ... وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (52←68):.. 455
واتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ... والَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّين (69←82): 459
ربِّ هبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ... إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (83←89): 462
وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ... وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (90←104):............................... 464
كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِين ... إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (105←115):..................................... 467
قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا نُوحُ ... وإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (116←122): 470
كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ... وإِنَّ رَبَّك لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (123←140): 471
كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ... إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (141←145):... 476
أَتُتْرَكُون فِي مَا هَاهُنَا آمِنِين ... وَإِنَّ رَبَّك لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (146←159):............................ 476
كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ... وإِنَّ رَبَّك لهو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (160←175):............................ 479
كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ... وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (176←191):.......................... 481
وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِين ... ما كانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (192←199):.. 485
كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِين ... ما أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُون (200←207): 487
ومَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ... إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُون (208←212): 489

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ... إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (213←220):.. 491
هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ... ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (121←167):........................ 493

ســــورة النمل:.. 499

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ... وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (1←6): 499
إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ ... كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (7←14): 502
وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا ... وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (15←19):.............. 507
وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ ... هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (20←26):......................... 510
قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ ... فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (27←35): 514
فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ ... فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (36←40): 518
قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا ... مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (41←44):.................................. 522
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ ... وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (45←53): 525
وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ... إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (54←56) 529

نهج البيان في تفسير القرآن

سماحة الشيخ محمد المختار السلامي
مفتي الجمهورية التونسية سابقا

الجزء الخامس

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
1436 هـ - 2015 م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية، أو أشرطة ممغنطة، أو وسائل ميكانيكية أو الاستنساخ الفوتوغرافي أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من المؤلف.

9 789938 141924

ISBN: 978-9938-14-192-4

I.R.A

مطبعة التسفير الفني
Imprimerie Reliure d'Art

الهاتف: 030 432 74 216+
الفاكس: 248 432 74 216+
البريد الالكتروني
reliure.dart@tunet.tn

ســـورة النّــمل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ
ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿٥٥﴾ ۞ فَمَا كَانَ جَوَابَ
قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوٓاْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴿٥٦﴾
فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ قَدَّرْنَٰهَا مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ
مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٥٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الفاحشة: الفعلة القبيحة (اللواط)

وأنتم تبصرون: معلنين.

تجهلون: تأتون فعل الجاهلية.

يتطهرون: يتنزهون على طريقة الاستهزاء بهم.

الغابرين: المهلكين الباقين مع من قُدِّر استئصالهم.

بيان المعنى الإجمالي:

و اذكر ما ختم به أمر قوم لوط، لما أنذرهم رسولهم لوط عليه السلام، منكرا عليهم إتيانهم للفعلة القبيحة المنكرة، وفسادهم إلى درجة أنهم أصبحوا يتجاهرون بها بدون حياء. قال لهم: عجبا لكم كيف ترغبون في قضاء شهوتكم الجنسية من الذكور أمثالكم وتعرضون عن النساء مع ما أودع الله فيهن من خصائص بها يتم التكامل بين الجنسين، من رقة ومن لطف وجمال. حقا إنكم قوم انغرس الفساد فيكم وانحرفتم انحرافا بالغا.

كان موقف قومه من موعظته تصلبهم على الفساد، وهددوه بإخراجه ومن آمن معه، وسخروا منهم بأنهم قوم بالغوا في الطهارة.

إنه لما بلغ بهم التصلب في الفساد إلى هذا الحد، قدر الله إنجاءه من كيدهم، ومن العذاب الذي سيتأصلهم. وأن امرأته التي كانت مقرة لهم على فسادهم سينالها ما

ينالهم من العذاب. ونزل عليهم من السماء عذابا منتنا بعا كالمطر. فما أسوأ ما انتقم الله به منهم

بيان المعنى العام:

54←55: ولوطا إذ قال لقومه...بل أنتم قوم تجهلون.

واذكر تاليا عليهم قصة لوط ﷺ، في ذلك الظرف الذي قال فيه لقومه منبها لهم منكرًا عليهم أمرين قبيحين جمعا بينهما لتجذر الفساد في نفوسهم: أنكر عليهم شيوع الفعلة البالغة أقذر حد في الفساد والقبح : العلاقة الجنسية بين الذكور، وزادها قبحا أنهم يعلنون بذلك ولا يتسترون. مما يدل على انقلاب القيم عندهم بحصول الرضا العام عن الشذوذ الجنسي. تشتهون الرجال دون النساء . وأضاف إلى الإنكار الأول توبيخهم على جهلهم بالعواقب، فنبههم إلى أن الشهوة العارمة غطت على ما في فعلهم من القبح ومناقضته للفطرة، وشدة الفساد.

اهتز سلم القيم اهتزازا كبيرا، إن لم نقل إنه تحطم، على أيدي الطغاة الذين مسكوا بزمام القيادة حسب أهوائهم، فالعدل هو ما يمكن لسلطانهم والتسلط على من لم يبلغ قوتهم فأرضخوه ليكون تابعا لهم. والميزان مختل ترجح فيه كفة ما ينفذون به مصالحهم. وخير مثال على ذلك في عصرنا حق النقض في مجلس الأمن، والطريقة التي تم بها استخدامه وتعطيل العدل ونصر الظلم. خدروا البشر بشعارات تستقطب الرضا العام، وغالطوا الناس على أنها مثال للقيم التي جاهدت البشرية في تاريخها الطويل لتبلغها، وما قاربت بلوغها إلا اليوم. ومن ذلك ميثاق حقوق الإنسان الذي جندوا له وسائل الإعلام، ورسخوه بالمؤتمرات والقرارات المفصلة لمضامينه. والتوقيع عليه من الحكومات الفاعلة والمضللة، والحكومات المغلوبة على أمرها. وبلغ التضليل أن مكنوا الشذاذ جنسيا من إعلان شذوذهم، والدفاع عن فسادهم واعتبروه حقا من حقوق الإنسان.

56ـ فما كان جواب قومه...أناس يطهرون.

تبع إنكار لوط وتقريعه قومه على ما انغمسوا فيه من الشذوذ الجنسي، أنهم تصلبوا في الثبات على إشباع شهواتهم على ما اختاروه لأنفسهم، ورأوا أن هذا التذكير والإنكار من لوط، صوت يفسد عليهم متعتهم، فأجمعوا أمرهم على إخراج لوط ونفيه خارج قريتهم. تآمروا بهذا، وأضافوا إلى ذلك أن سخروا من تمسك لوط بقيمه على أنه وأتباعه أناس يتطهرون من الشذوذ. قالوا هذا استهزاء بهم.

57←58: فأنجيناه وأهله...فساء مطر المنذرين.

قدم القرآن إنجاء الله لوطا وقومه لأنه هو المهم في القصـة، التي تهدف إلى تـأنيس الرسول، أن الله منجيه كما أنجى لوطـا وأهلـه، وتهديـد مشـركي مكـة أن قـدرة الله تأخذ الظالمين أخذا يكونون معه خبرا بعد عين. كما تم بالنسـبة لقـوم لـوط فقـد أهلكهـم وأنجى لوطا وأهله إلا امرأته. وذلك أن الله أنزل عليهم مـن السـماء مطـرا متتابعـا لـم ينج منه أحد من المنذرين. وما أسوأ مطر العذاب النازل عليهم المبيد لهم!

قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

سلام: تحية يقصد بها التلطف والتكريم.

الإنبات: تكوين النبات.

الحدائق: جمع حديقة وهي البستان الذي حوله حائط يحميه.

البهجة: حسن المنظر الذي يسر به الناظر.

القرار: من قر إذا ثبت وسكن.

يكشف: يزيله.

بيان المعنى الإجمالي:

خطاب من الله لرسوله يـأمره أولا: أن يتوجـه بالحمـد لله والثنـاء علـى ألطافـه التـي أعان بها رسله، مما يدل على أن النبوة وحدة سـائرة فـي الكـون، فكـل مـا أسـعد الله به رسله وأنبياءه من العون والنصر، جدير بأن يتوجه خـاتم رسـله بالحمـد لـه والثنـاء على تلك الأيادي الكريمة.

وأمره ثانيا: أن يدعو الله بـأن يكتـب للـذين اصـطفاهم مـن عبـاده التكـريم والمقـام العلي. فإنهم قد شرعوا لمن بعدهم المسـالك التطبيقيـة للهـدى. وأمـره ثالثـا: أن يوجـه

سؤال لوم وتوبيخ للمشركين ليقول لهم: هل إن الله الـذي تفضـل علـيكم ببعـث رسـله، وما سيرد في الآيات اللاحقة من ضروب فضله هـو خيـر أو مـا تعبـدون مـن دون الله من أصنام وعبادٍ وكواكب لا تنفع ولا تضر؟

ثم أخذ القرآن يتابع توجيه الأسئلة الجامعـة بـين بسـط دلائـل الألوهيـة وبـين تـوبيخ المشركين فكان أول سؤال : من خلـق السـماوات والأرض، وربـط بينهمـا فـأنزل مـن السماء ماء، قدر بحكمته أن ينبت لكم به جنات مـن مختلـف الـزروع والثمـار، تجمـع بين الجمال والنفع .انتبهـوا فـإنكم عـاجزون عـن إنبـات شـجرها. ولكـن المشـركين بسبب تصلبهم في الكفر يجعلون لله عديلا مساويا، مع أنه عاجز عن التأثير.

و السؤال الثاني: عـن نظـام الأرض العجيـب. هـذه الأرض، أمـا انتبهـتم إلـى أنكـم تعيشون على ظهرهـا ولا تشـعرون بحركـة ولا ارتجـاج، مـع أنهـا تسـير بسـرعة كبيرة، تتخللها الأنهار الجارية، وبجانب الأنهـار جبـال راسـية، وبحـار ماؤهـا ملـح، وأنهار عذبة تتصل بالبحر الملح دون أن يجور أحـدهما علـى الآخـر. فهـل يوجـد إلـه مع الله رتب هذه الأمور ونظم الكون هذا النظـام العجيـب؟ ولكـن أكثـر الكفـار جهلـة بالقوانين وبالمؤثر، وحتى الذين أوتـوا نصـيبا مـن العلـم لا يربطـون تلـك المظـاهر بموجدها.

و السؤال الثالث: عن التصرف في أحوال البشر. كل فـرد مـنكم إذا ضـاقت بـه السـبل ولم يجد من يسعده بالعون والوقوف معه عند الضيق الشـديد، يتجـه إلـى الله بمـا ركـز في الفطرة من ارتباطه بالله. والله هو المتصرف يجيـب مـن يشـاء ويمنـع مـن فضـله من يشاء. وكذلك إذا أحاط بأحدكم ما يسوؤه فـي ذاتـه، أو فـي مالـه، أو فـي أسـرته وأعزائه، فمن يكشف السوء غير الله .و من قـدر أن يخلـف بعضـكم بعضـا، الخلافـة التي بفضلها يتواصل التطور. من رتَّبَ كـل ذلـك غيـر الله ؟ مـا لكـم لا تستحضـرون كل هذه الأمور وتوحدون الله تبعا لذلك !

بيان المعنى العام :

59.قل الحمد لله ...أما تشركون.

تتابعت قصص الرسل في هذه السورة مثبِّتة للنبـي ﷺ بأنـه يلاقـي مـا لاقـاه الرسـل عليهم السلام من قبله، لمـا جهـروا بـدعوتهم، ومفصِّـلة ثبـاتهم أمـام عنـاد أقـوامهم، وتصلب الكافرين منهم. ومبينة أن الله ناصر رسله.

أمام هذه الأرسال من مشـاهد صـراع الكفـر للإيمـان، وفـوز الرسـل وأتبـاعهم فـي النهاية بحسن العاقبة، أمر الرسول ﷺ أن يتوجه لربّه بالحمـد علـى مـا قـدره لإخوانـه الذين سبقوه، وعلى ما تلقاه من بشـارة وتأييـد مـن ربّـه. وفـي ذلـك إيمـاء إلـى أن

الرسل تربطهم رابطة الأخوة في المقامات العليا التي رفع إليها الله من اختارهم لحمل رسالته . وأن الألطاف التي حفت بهم جديرة بأن يحمد محمد ﷺ ربّه عليها. ومعنى الحمد لله سبق في سورة الفاتحة ما يشرح بعض أبعاده. فهو سبحانه الحقيق بالثناء على ألطافه وعدله.

وتلا الأمر بالحمد الأمر بالسلام على عباده الذين اصطفاهم من بين خلقه وقربهم منه، ومنهم الأنبياء والمرسلون، والعلماء العاملون الذين بهم يتواصل نشر الدّين، وإيقاظ الأمة لحماية أرض الإسلام، والصالحون من عباده الذين يكونون قدوة لغيرهم في التعلق بالخير، وأسوة في نظافة السلوك والأمانة. ومعنى السلام عليهم أن يكرمهم، ويعلي مقاماتهم عنده، وفيه تعليم لصورة من صور الوفاء للذين مضوا وخلّفوا من سنن الخير ما شرع لمن أتى بعدهم طريق الصلاح.

وأمر ﷺ أن يواجه المشركين بهذا السؤال" ءالله خير أما تشركون" تحريكا لعقولهم الذاهلة، المأخوذة بحجاب التقليد. أفيقوا من غفلتكم فأنا أدعوكم إلى توحيد الله الذي سيتتابع في الآيات التالية سند أحقيته بالألوهية، وأن ما تدعون من دونه من الآلهة عاجز عن تحقيق أي أمر من الأمور التي اختص بها الله. إن من له أدنى حظ من العقل والفهم لا يترك عبادة القادر الذي شمل بفضله كل كائن في الوجود، ويتبع من لا يستطيع نفع نفسه ولا نفع عابده. فمن هو خير مستحق للعبادة، الله أم الأصنام والعبّاد والكواكب التي تتوزعون عبادتها ؟

60.أمن خلق السماوات والأرض...بل هم قوم يعدلون.

تحول من السؤال العام إلى أسئلة خاصة تؤكد ما سيقت له الآية السابقة. فكان أول سؤال ما تضمنته هذه الآية. سؤال عن الكون الذي هم جزء منه؛ السماوات بما تحويه من كواكب ومن نظام بديع، والأرض التي يعيشون على ظهرها، والارتباط بين السماء والأرض، هذا الارتباط الذي تتوقف عليه الحياة، فمن أنزل من السماء ماء؟ به تتمكنون من الحياة، وبه أخرجنا النبات من باطن الأرض فأزهر وأثمر، وتكونت منه جنات من نخيل وعنب وأشجار مثمرة، إن نظرت إليها امتلأت نفسك بها بهجة وسرورا . وإنكم رغم ما أو تيتموه من ذكاء وقدرات لا تستطيعون إنبات شيء من أشجارها. إن الذي يجعل الماء مؤثرا في التربة وفي البذور، وتخرج منه الجنات، هو الله سبحانه. انتبهوا فإنه قد تنزل الأمطار بقوة فتجرف التربة وما نبت فيها، أو تتأخر الأمطار عن مواعيدها فتيبس الأشجار وتموت. إنكم إذا حققتم في دوركم في الزراعة تجدون، أنه لا يتجاوز الأسباب الظاهرية. أفيقوا هل إله مع الله يؤثر التأثير الحقيقي؟ ولكن المشركين من غبائهم أو تصميمهم على الكفر

ومكابرتهم يجعلون لله عديلا مساويا له في الألوهيـة، مـع أن عجـزه ظـاهر لا يخفـى. فهم أهل بذلك لتوبيخهم على إنكارهم للمحسوس، وتصلبهم في ذلك.

61ـ أمن جعل الأرض قرارا...بل أكثرهم لا يعلمون.

هذه الآية تضمنت السؤال الثاني: مـن الـذي جعـل الأرض تبـدو سـاكنة لا اضـطراب فيها، ولا اهتزاز، مما مكنكم من القرار فيهـا، ويسـر لكـم بـذلك السـفر فـي أرجائهـا، وإقامة المباني والمصانع ؟من الثابت أن الأرض تسير بسـرعة كبيـرة جـدا، ومـع ذلـك لا يحس من عليها بحركتها. إن هـذا التـدبير العجيـب الجـامع بـين الرحمـة والنعمـة صوت ينادي محركا الفطرة لتتأمل فيما حولها، وتنفي ما للرتابـة مـن قـوة علـى جعـل الغفلة مسيطرة حاجبة للقدرة المهيمنة وراء هذا النظام السـائر مـن الآمـاد البعيـدة إلـى المستقبل الذي لا يعلم تاريخ انتهائه إلا مبدعه.

كل شيء في هذه الأرض يحـرك العقـل للتوحيـد ونفـي الشـرك. إنـه بجانـب قـرار كوكب الأرض، تشاهد الأنهار تتخلل القارات، وبجانـب المجـاري النازلـة عـن سـطح الأرض الحاضنة للمياه، تقوم الجبال الشامخة تقوم بدورها فـي نظـام الكـون، يـتم بهـا التوازن، والتعديل في سير الأرض. ارتفـاع شـاهق ومجـار تختلـف عمقـا؛ وبجانـب ذلك مياه عذبة تسير بها الأنهار، ومياه ملح تضـطرب بهـا أمـواج البحـار. ومـع ذلـك لا يسطو ماء البحر بملوحته على ميـاه الأنهـار، ولا تسـطو ميـاه الأنهـار علـى ميـاه البحار . الكل يسير بقوانين أحكمت، وبتقدير لا يختل أجـراه عليهـا خالقهـا. فهـل لغيـر الله، ممن تدعون أنهم آلهة أي دخل فـي هـذا النظـام المحكـم؟ ولكـن أكثـرهم أعمـاهم الجهل، وأضلهم التقليد، فهم لا يعلمون شـيئا مـن أسـرار مـا يجـري أمـام أبصـارهم. والتعبير "بأكثرهم " تدقيق حسب السنة فـي التعبيـر القرآنـي. فـإن بعضـهم وإن تعلـم وأدرك ما وراء الظواهر، إلا إنهم يشـتركون فـي الضـلال عـن إسـناد ذلـك إلـى الله. وفي ذلك ما يشير إلى أن المؤمنين مستثنون، لفت الوحي أنظارهم فهم يعلمون.

62ـ أمن يجيب المضطر...قليلا ما تذكرون.

هذه الآية هي التي تضمنت السؤال الثالث: عـن المتصـرف فـي الانسـان فـي أحوالـه المختلفة .

أولا : **حالة الاضطرار** – يسير الإنسان علـى نمـط لا يَفْجَـأُ بمـا يغلـق الأبـواب كلهـا أمامه. وهو في تلك الأحوال لاهٍ، وقـد يكـون مسـتكبرا، حتـى إذا نفـذ سـابق القـدر، تجده يقف في لحظة وقد ذهبت كل الأسناد، وعجـز كـل الأعـوان والخـلان والأقـارب عن إغاثته في كربته، وانسد كل باب للفرج، في تلكـم اللحظـة تسـتيقظ فطرتـه، وتُرْفَـعُ الغشاوة التي كانت على بصيرته، ولمـن يعـود ؟ يعـود إلـى الله ويجـأر إليـه. حـدثني

الوزير الأول عن مشهد حضره، بعد منتصف الليل وقد أصيب رئيس الدولة بجلطة قلبية، وتضاعفت آلامه وهو يتقلب من شدة ما يحس به ويستغيث: يا رب يا رب! كان يرمي من حديثه: أن يقنعني بأن الرئيس مؤمن بالله. وهذا الطاغية كان كثيرا ما يسخر من الدين ويستهزئ بالقرآن الكريم. فهذه الآية تقوم دليلا على أن الإنسان في الأوقات الحرجة جدا التي يتكشف له ضعفه فيها وأنه مضطر، يحيا في باطنه صوت الفطرة، وأنه لا ملجأ إلا لله. ومن المعلوم أنه سبحانه يجيب من يشاء، ويمنع من غوثه من يشاء. ولا تقوم الاستجابة دليلا على صلاح الداعي، ولا الحرمان على غضب الله عليه .

الحالة الثانية: حالة اختلال وضع الإنسان، وما يصيبه من سوء. ومن الذي يرفع عنه السوء، ويعيده إلى وضعه السليم السابق ؟ اختص الله بالتأثير في إزالة السوء، من كل ما يلم بالإنسان في دينه، أوفي بدنه وملكاته، أو في ماله.

الحالة الثالثة: انتفاع الإنسان بتسخير الأرض له التسخير الذي مكنه من الحياة ومن الرفاه. فهو سبحانه الذي طوع له الأرض، وألهمه ما يمكنه من عمارتها بأنواع الزروع والأشجار، وباتخاذ السكن. ملكه إياها في الظاهر، تأتي أمة وتذهب فتخلفها أمة، ويرث النسل والأقارب ما ملكه مورثهم. ولو كتب للإنسان الخلود لتوقف التطور على استعدادات ذلك الجيل. ففي جعل الخلافة قانون الحياة الإنسانية يعمل كل جيل على الانتفاع بما تحقق من قبل ويضيف إليه إضافات جديدة، يتواصل التطور المستمر المتعالي الذي هو سر استخلاف الجنس البشري في الأرض.

ثم حركهم القرآن بسؤال إنكاري متضمن التعجب من غفلتهم عن استحضار تلكم الحالات الثلاث، التي تتكرر عليهم، وهم رغم وضوحها وحضورها لا يتذكرونها تذكرا يفضي بهم إلى الاعتراف بأن مدبر الكون هو الله لا شريك له. وقوله تعالى: **قليلا ما تذكرون**، خُرِج على أن هذا التعبير يقصد منه أنهم فاقدون للتذكر أصلا. ولعل الأولى في نظري: أن تذكرهم، وإن حصل قليلا فهو تذكر مقطوع عن غايته التي هي اليقين بأن الله وحده هو المالك المتصرف.

أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ

وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِّنْهَا ۖ بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ﴿٦٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

البرهان : الحجة.

أيان : اسم للزمان، أي الوقت.

عمون : فاقدون للبصر.

بيان المعنى الإجمالي :

السؤال الرابع: من الذي يتولى هدايتكم في ظلمة الليـل، وأنـتم سـائرون فـي البريـة، أو أنتم تمخرون البحر ؟ إمـا بواسـطة النجـوم أو بواسـطة ماهـداكم إليـه مـن الأجهـزة بمعرفة الاتجاه. ومن تفـرد بإرسـال أرزاقكـم إلـيكم مـن السـماء، أمطـارا مخصـبة للأرض، ومن يرسل الرياح فتثير السحب وتجمع شتاتها ثـم تغـذيها حتـى تنـزل الميـاه منها وتنشر رحمته للعالمين . هل يوجد إله مع الله يحقـق ذلـك ؟ تقـدس الله فـي كمالـه أن يكون له شريك. إذ الشركة ظاهرة احتياج وضعف.

السؤال الخامس: من هو المتصرف في الإنسـان التصـرف الـذي ابتـدأ بخلـق الإنسـان على الصورة التي هو عليها من الإتقـان ؟ ومـن يعيـد كـل فـرد مـن الأفـراد التـي خلقها؟ ثم من يرزقكم من خيرات السماء ومـن خيـرات الأرض ؟هـل يشـترك مـع الله أحد في تحقيق ذلك؟ قل لهم: اعْرِضُوا حجتكم إن كنـتم صـادقين فـي دعـواكم الشـركة ولا برهان لهم فيكون ما دعوا إليه صادرا عن الخيال وهوى النفس.

قل لهم بصفة واضحة: إنه لا يعلـم الغيـب فـي السـماوات والأرض أحـد إلا الله. وهـم لا يعلمون متى سيبعثون من قبورهم للحساب الذي هو من الغيب

الحقيقة أنهم قلدوا آباءهم في حكمهم على الآخـرة، فمـدوا بضـلالهم فـي ضـلال مـن سبقهم. إنهم عُمْيٌ أغبياء. فالأعمى الغبي ينكر وجود ما لـم يـره. وكـذلك هـؤلاء فـي إنكار أمر البعث.

بيان المعنى العام :

63ـأمن يهديكم...تعالى الله عما يشركون.

الحالة الرابعة: يقطع المسافرون البـراري والبحـار، ولا تتوقـف حركـة سـيرهم طيلـة الليل والنهار. وإذا كان ضوء الشمس يكشف لهـم الطريـق الـذي يسـيرون فيـه، فمـن الذي يمكنهم من السير في ظلمات الليل وهـم واثقـون بـأنهم مهتـدون إلـى الأمـاكن التي يقصدونها ؟ أَقْدَرَ الله الإنسـان علـى ضـبط مواقـع النجـوم التـي تقـوم بتحديـد

اتجاهه في المفاوز أو في البحار، كما أقـدره علـى اختـراع الآلات وهـداه إلـى طـرق استعمالها لتنبئه بالاتجاه الصحيح لغايته. من الـذي أودع فـي الكـون هـذا النظـام الـذي لا يختل في مواقع النجوم، ومن الذي فـتح للإنسـان بـاب المعرفـة لـلآلات الضـابطة للاتجاه ؟ ومن هداه إلى طرق استعمالها بحيث يأمن أن يضل في طريقه ؟

ومن الذي يؤثر في حركات الريـاح فيجعلهـا جامعـة للسـحب مـؤثرة فيهـا الرطوبـة التي بفضلها تنزل منها الأمطار، وتنشـر رحمتـه سـبحانه للعبـاد والنبـات والحيـوان؟ لا يقدر أحد أن يضيف إلى السحب العناصر التـي بهـا ينـزل منهـا المـاء. أخبرونـي هل يوجد إله يشارك الله في هذا التصرف الحكـيم ؟تقـدس ربنـا أن يكـون لـه شـريك في هذه التصرفات. وكـل مـا عبـدوه مـن دون الله، لا يقـدرون إلا أن يعترفـوا بأنـه ليس له دخل في نظام الكون، ولافي هداية الإنسـان لمـا فـتح لـه مـن علـوم، ولافـي إنزال الماء.

64ـأمن يبدأ الخلق ثم يعيده...إن كنتم صادقين.

الحالة الخامسة والأخيرة التـي هـز بهـا القـرآن السـامعين ليزيحـوا عـن بصـائرهم غشاوة الرتابة التي يبدو بها الواقع وكأنه أمر طبيعـي لا سـر وراءه. السـؤال مـن يبـدأ الخلق؟ اللفظ يدل على عموم الخلق، إلا أن المتفق مـع الـنص فـي خاتمتـه، هـو خلـق الإنسان. فمن يبدأ خلق الإنسان؟ إن الدقة التي عليهـا خلـق الإنسـان، ومـا تـم اكتشـافه في الجينوم البشري من اشتماله على جميع خصـائص الكـائن والتحـولات التـي تطـرأ عليه، لا يمكن أن يفهم ذلك إلا على أنه مـن فعـل مـدبر علـيم، أحكـم كـل جزئيـة . والقول بالمصادفة التي لا تكون إلا عمياء وفوضوية قـول بمـا لا يقبلـه العقـل. وأدمـج سبحانه في آية الخلق آية الإعادة . ذلك أن خلق الإنسـان كـان علـى مسـتوى يسـتطيع معه أن ينفذ إلى الحاضر والماضي والمستقبل، وآثاره كلمـا ارتقـى فـي سـلم الإنسـانية تتجاوز حياته إلى ما بعد الموت. وينحل الجسـد وأفعالـه تتجـاوز الأيـام التـي عاشـها في الدنيا. فيكون من غير المعقول أن الأيام التي يعيشها فـي الـدنيا هـي الوجـود كلـه. ومن أفعاله ما هو خير ومنها ما هو شـر، والجـزاء لا يتحقـق دائمـا فـي الـدنيا، فقـد يموت الخيرون وهم مضطهدون من قبل الأشـرار، ويمـوت الأشـرار وهـم إلـى آخـر لحظة من حياتهم يفسدون. فدقة الخلق وما أودع في العقـل البشـري مـن التنـاقض بـين الصالح والفاسد، والخير والشر، يقضي بأن العـدل إن لـم يظهـر فـي الـدنيا لا بـد أن تظهر آثاره في الحياة الأخرى. عندما يعيد الله البشر كما خلقهم أول مرة.

ومع الخلق فإنه لا يتم بقاء الإنسان فـي الحيـاة المقـدرة لـه، إلا إذا تـوفر لـه الهـواء والماء والقوت والسكن، فمن الذي يرزق الإنسـان مـن خيـرات السـماء والأرض. هـل

يوجد مع الله إله آخر يعطـي الحيـاة، ثـم يبعـث الأحيـاء، ويـرزقهم الـرزق الحـافظ لحياتهم؟ إن عقيدتكم المبنية على الشرك وعدم التوحيـد، عقيـدة زائفـة وغيـر صـادقة. قدموا برهانا وحجة يقبلها العقل على وجود إله مع الله يفعل ذلك.

65ـ قل لا يعلم من في السماوات... وما يشعرون أيان يبعثون.

هذا من الأمور المهمة التي تعلق بها كثير من النـاس، وتطلعـوا إلـى معرفـة مـا يـأتي به المستقبل، وما يظهره الغيب. وزعم الكهنـة والعرافـون أن فـي مقـدورهم أن يعلمـوا الغيب، وتعلق بهم عدد غير قليل مـن ضـعاف الإيمـان. ولـذا توجهـت عنايـة القـرآن إلى نفي ادعاءاتهم، وتنبيه الناس إلـى أنهـم لا يعلمـون شـيئا مـن الغيـب، ولا يوجـد أحد عنده علـم الغيـب إلا الله سـبحانه . يسـتوي فـي ذلـك العـالم الأرضـي والعـالم السماوي. فلا أحد من الملائكة ولا من الجن ولا مـن البشـر يـدرك مـا سـيحدث فـي المستقبل على التعيين، إذا اعتمـد علـى ملكاتـه، ولكـن الله قـد يتفضـل علـى بعـض المقربين باطلاعه على الغيب في قضـية محصـورة، وتكـون معرفتـه بالغيـب مسـندة إلى اطلاع الله له على ذلك.

وقد يكون مما تنطبق عليه الآية تطلع المشركين لمعرفـة تـاريخ قيـام السـاعة، وجعلـوا ذلك معيارا لصدق النبي ﷺ، وسألوه عنها. فتكون الآيـة ردا قاطعـا علـيهم، مهيئـة لمـا عطف من قوله تعالى: **وما يشعرون أيـان يبعثـون** .نفـت الآيـة فـي مفتتحهـا علمهـم بالغيب مصرحة بأن ذلك من خصائص الذات الإلهية لا يرقـى إليـه أحـد. ثـم واصـلت الآية نفي أن يكون لهم علم بالوقت الذي يبعثون فيـه مـن قبـورهم. وتهيـأ بـذلك نسـق القرآن لما سيأتينا في خاتمة الآية التالية بل منها عمون.

66ـ بل ادارك ...منها عمون.

تفتح الآية بكلمة بل التي هي للإضـراب الانتقـالي الارتقـائي مـن مسـتوى المضـمون السابق إلى مضمون أعلى منه. فأثبتت أن علمهـم متـدارك ومعنـى تـدارك علمهـم، أن علم المشركين الحاضرين بالآخرة، قد تدارك علم من سـبقهم مـن أهـل الجاهليـة، فكـان ركاما من الجهل والإنكار، بعيدا عن النظر والتفكـر. كمـا يمكـن فهـم الآيـة، علـى أن علمهم بالبعث يحصل عند بعثهم فهم يدركون عندها أن البعث حق.

ثم عطف بكلمة " بل" الثانية، بأن القرآن قد هزهم هـزا، جعلهـم يفكـرون فـي الآخـرة، ولكن تصلبهم في الكفر، ولحوق جـيلهم بمـن سـبقهم تقليـدا، جعلهـم لا يخرجـون مـن الشك إلى اليقين، ومن التردد إلى الجزم. ثـم عطـف بكلمـة "بـل "الثالثـة ليرتقـي فـي تجسيم ضلالهم وعدم إدراكهم لحقيقة الآخرة يوم القيامـة، بتشـبيههم بمـن فقـد بصـره،

فهو لا يرى ما هو موجود أمامه، فيسرع إلى إنكاره. وكان سبب عماه هو الآخرة ذاتها.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخۡرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدۡ وُعِدۡنَا هَٰذَا نَحۡنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَا تَحۡزَنۡ عَلَيۡهِمۡ وَلَا تَكُن فِي ضَيۡقٖ مِّمَّا يَمۡكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي تَسۡتَعۡجِلُونَ ﴿٧٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

لا تكن في ضيق: لا تتأثر بما يعدونه من مخططات.

ردف: تبع بصفة قريبة.

بيان المعنى الإجمالي :

أثر الكفر في عقول المشركين فقالوا: إنه لأمر عجب: أنه بعد تحولنا إلى تراب وتحول آبائنا من قبلنا كذلك، أن نعود إلى الحياة ونخرج من قبورنا. ثم بالغوا في رفض عقيدة البعث، فقالوا: خروجنا من القبور أسطورة وحكاية، لا أساس لها من الصحة، وُعِدْنَا بها نحن، وتم في التاريخ وعْدُ آبائنا بها، ولم يقع شيء من ذلك.

أجابهم القرآن بأن عليهم أن يسافروا في أرض الله ويتأملوا، عاقبة المكذبين بالبعث المجرمين كيف أبادهم الله، ولم تبق إلا مساكنهم، شاهدة بسوء مصيرهم ونفاذ القدرة الإلهية فيهم.

حولوا نقاشهم من إنكار البعث إلى السؤال عن تاريخه !وهم يرومون من وراء ذلك: التهكم والاستبعاد. ومن وقاحتهم شككوا في صدق الرسول ﷺ . قل لهم: أرجو أن يكون ما وعدتم به قريبا أجله غير بعيد، وعندما يحل بكم ما تستعجلون بحدوثه، فهو القضاء المبرم الماحق، وفعلا فقد تمت سيادة الإسلام في جزيرة العرب وقطع دابر الكفر والحمد لله رب العالمين.

بيان المعنى العام :

67←68: وقال الذين إذا كنا...إلا أساطير الأولين.

يكرر الذين تأصل فيهم الكفر، الإعلان عن إنكارهم للبعث والحساب، بل تراهم يزعمون أن البعث مما لا يمكن إقامة الدليل عليه، إذ هو مخالف للمشاهد المحسوس. بنوا رفضهم على أربعة أمور:

الأمر الأول: عقيدة البعث تلجم شهواتهم، وتلزمهم باستقامةٍ ابتعدوا عنها وأصبحت عليهم شاقة ثقيلة. وإنكارها يوافق هواهم.

الأمر الثاني: ان تحول الميت بعد أن يطول عليه الزمن إلى تراب، لا يمكن أن يتصور معه، في دعواهم، أن يعود كما كان حيا في الدنيا، ليحاسب عما قدم. وعطفوا أباءهم للإشارة إلى عمق البعد التاريخي .

الأمر الثالث :ان الإنذار بالبعث ليس أمرا جديدا، فقد تقدم المرسلون السابقون، وأنذروا به وروي لنا. ولمَّا لم يتم في الوجود، فذلك دليل على بطلانه.

الأمر الرابع: أجروا على الإنذار بالبعث تقييم الأحاديث الزائفة، وقالوا: هو أسطورة كررها الخيال، وأعادها الخلف عن السلف، ولا شيء من ذلك حق.

69ـ قل سيروا في الأرض...عاقبة المجرمين.

أمر الرسول ﷺ أن يعلن بأمره لهم : تنقلوا في جنبات الأرض متدبرين متأملين، وانظروا الحالة التي انتهى إليها، والعاقبة التي آل إليها أمر المجرمين السابقين أمثالكم. لقد عجل لهم في الدنيا جزاؤهم فأبيدوا، وسيلقون جزاءهم في الآخرة.

70ـ ولا تحزن عليهم ...مما يمكرون.

ذكَّرهم القرآن بسنن الله التي تقوم شواهدها في الكون، وما عليهم إلا أن يسيروا في أرض الله حتى يجدوا الآثار ناطقة بمصائر المجرمين المكذبين. إن هذه السنن لا تتخلف أبدا، وإن أمر قريش آئل لما سلط على من كانوا قبلهم .وقد امتلأ قلب رسول الله ﷺ رحمة وشفقة . فثبَّته ربه وقوَّى قلبه حتى لا يفعل الحزن فيه أفاعيله عندما يلقون مصائرهم.

و عطف على دعوته لمقابلة ما ينزل بالمجرمين برباطة جأش، أن لا يضيق صدره بما يعدون ويدبرون من مكر به وبالدين وبالمسلمين. وضيق الصدر تعبير مجازي، أصله أن الإنسان عند ما يصدم بما يدخل عليه الهم قد يحس كأنه لا يقدر على التنفس بسهولة، وهو يفيد أن عليه أن لا يكترث بما يُعِدُّونه من مخططات في الخفاء، فإن الله ناصره ومؤيد دينه، ومعز المؤمنين .

71ـ ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين.

لاشك أن التهديدات القرآنية أزعجتهم، وأنهم يريدون أن يظهروا التجلد وعدم الخوف، فتوجهوا للنبي ﷺ مستهزئين في الظاهر بما وعدهم، فقالوا: متى سيحل الوعيد الذي تذكره ؟ صورة كلامهم توحي بأن تأخره أمارة على عدم حصوله، فليضرب لهم موعدا لذلك، وأردفوا بقولهم: إن كنتم صادقين، بصيغة تفيد الشك في الصدق.

72- قل عسى أن يكون... بعض الذي تستعجلون.

كان الجواب: إنه في علم الغيب لا يعلمه إلا الله، ولكن المؤكد أنه قريب ما توعدون، سيتبع تكذيبكم، ولا يبطئ كثيرا. وحمله المفسرون على ما حل بهم يوم بدر من انكسار شوكتهم، وقتل صناديدهم رؤوس الكفر، وعبر عنه ببعض الذي يستعجلون من العذاب، إشارة إلى أن عذاب الدنيا قليل بالنسبة للعذاب السرمدي الأبدي الذي قدر لهم جزاء كفرهم ومكرهم يوم القيامة. ويمكن حمل التهديد، على ما حل بالشرك من ذل، إذ قد تم استئصاله من الجزيرة العربية، قبل أن ينتقل النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى.

وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

تكن : تخفي.

يعلنون : يظهرونه.

الغائبة : اسم للشيء الغائب.

الكتاب : علم الله .

مبين : مفصل.

التوكل: إسناد الأمر لمن يعتمد عليه في تسييره وتدبيره.

المبين: الواضح وضوحا كاملا.

بيان المعنى الإجمالي :

من الحقائق التي يجب على المؤمن أن يعتقدها: أن فضل الله يشمل المؤمن والكافر، والتقي والفاجر، فهو سبحانه لا يعجل العقوبة، ويمهل تبعا لفضله لعل الإنسان يستيقظ ويعود إلى طريق الهدى فيغفر له. وفضل الله يحتضن الإنسان من تاريخ ولادته ويصحبه كامل أيام حياته. ولكن أكثر الناس يتمردون ولا يشكرون الله على فضله ونعمه. وإنه من فضل الله وسعة عفوه عدم مؤاخذة المذنب بمجرد ما يذنب.

ضل الكافرون فظنوا أن الله لا يعلم ما تخفيه صدورهم وما يعدونه مخططات لإذاية الرسول وأصحابه والكيد للدين الإسلامي. إنهم مخطئون، فعلم الله واحد لا يختلف، سواء ما يخفونه ويظهرونه. كل ما غاب عن مدارك البشر فخفي عليهم، فإن الله يعلمه سواء أكان في السماء أو في الأرض، هو موثّق في علم الله كأنه دُوّن في كتاب لا ينفلت منه شيء. فعلى المؤمن أن يعتقد أن علم الله شامل لكل كلية ولكل جزئية في السماوات أو في الأرض، يستوي في ذلك ما كان منها حاضرا يعلمه الناس، وما كان مطويا خافيا عنهم. ومن مظاهر هذا العلم الصادق الشامل، أن بني إسرائيل اختلفوا فيما هو مدون بالتوراة، وليس لهم معيار يكشف الحقيقة، فجاء القرآن مبينا للحق، مظهرا له، نافيا لما تعلق به بعضهم من الأباطيل في العقيدة أو التاريخ أو التشريع. ثم إن الاختلاف الظاهر في البشر، سيحكم ربك يا محمد بين المختلفين الحكم العادل الذي يجزي كل فرد عما فعل واعتقد، وكيف لا يكون حكمه عادلا، وهو الموصوف بالعزة التي لا يمكن معها أن يصانع أحدا، وهو الحكيم فلا تخرج أحكامه عن العدل المطلق. وبناء على ذلك فإن عليك أن تتوكل على الله وتسند إليه أمورك، فهو المتولي لأمورك لا يخذلك، وكن واثقا من أن العاقبة لك بتوكلك هذا، وبأن الدين الذي أنت متمكن منه وكلفت بتبليغه من طبيعته أنه واضح أشد الوضوح لا يقبل الطعن في مضامينه، ولا التشكيك.

بيان المعنى العام:

73ـ وإن ربك لذو فضل ...أكثرهم لا يشكرون.

إن فضل الله، بكل تأكيد شامل، لجميع البشر مؤمنهم وكافرهم، فكل فرد من أفراد البشر يناله حظه من الفضل الإلهي ما قدره الله له .والناس من هذا الفضل نوعان:

نوع مشغول بما أوتيه من الفضل، فهو يستهلكه فيما يرضي شهواته.

و نوع معترف ومقر بأنه ما كان له أن يحصل على ما رُزِقَهُ من فضل لولا رحمة من الله نالته وخصته بما وصل إليه.

و لكن الشيطان قد استولى على عقول الناس فألهاهم عن المنعم وشغلهم بالنعم، ولذا تجد أكثرهم لا يذكرون الله ذكرا يتبعه الشكر.

74ـ وإن ربك ليعلم...وما يعلنون.

و بكل تأكيد أيضا فإن الله عليم بما تكنه صدور الكافرين، فهو إذ يرحمهم بفضله ويغدق عليهم خيراته، فذلك ليس تابعا لغفلة عن حقيقتهم، فإن الله يستوي علمه بما يخفونه في نفوسهم، وبما يصرحون به ويظهرونه للناس. وفي هذا فصل ما يناله الإنسان من خيرات الدنيا، وبين حظه من رضوان الله. وما يخطئ فيه كثيرون هو

ربطهم بين تيسير أوضاع البشر في الـدنيا وبـين صـفاء نفوسـهم .فـالله يـرزق البـر والفاجر . وسر ذلك عنده.

75ـ وما من غائبة ...إلا في كتاب مبين .

إن علم الله بالخفايا علم يتجاوز خفايا صـدورهم، ومـا يكتمونـه ولا يبيحـون بـه لأحـد من الناس، يتجاوز ذلك إلى علمه العلم الدقيق بكل أمر غائـب غيـر مشـاهد. فـإن علـم البشر لما كان علما غير ذاتي فإن حصوله يتوقـف علـى حصـول أسـباب العلـم. أمـا العلم الإلهي فإنه علم ذاتـي لا يتوقـف علـى أي شـيء. شـامل لمـا هـو كـائن فـي السماوات والأرض. وهو علم ثابت لا يقبل التغييـر كأنـه موثـق فـي كتـاب مضـبوط. وبهذا استوى ما يخبر به رسول الله ﷺ عما يتعلق بالـدنيا، وعمـا سـيتحقق يـوم القيامـة من وصف للعذاب أو النعيم.

76ـإن هذا القرآن...هم فيه مختلفون .

لما كان القرآن منزلا من عند الله فإن كل ما تضـمنه حـق، هـو يقضـي علـى الكتـب الأخرى، وغيره من الكتب يُصَحَّحُ بعرضه علـى القـرآن. وبنـو إسـرائيل اعتمـدوا مـا وصلهم من التوراة التي تغيـرت لغتهـا عـن لغـة موسـى؛ فهـي ترجمـة لا يسـتطيع أصحابها أن يقتنعـوا ولا أن يقنعـوا غيـرهم بـأن الترجمـة سـليمة وأمينـة، وأرَخَـت التوراة أحداثا لأحقاب بعيدة فـي التـاريخ. وأدخلـت التـأويلات والأفهـام البشـرية فـي صلب النص، واعتبر الجميـع مقدسـا. ولتعلـق النـاس بمعرفـة أطـوار البشـرية فـي تاريخها غير الموثق، اعتبروا أن ما تضمنته التـوراة علمـا، وأن أدرى النـاس بـه هـم أحبار يهود، فشاع عودة المستطلعين لهـم. وأضـافوا مـن خيـالهم وروَجـوه علـى أنـه من العلم الموثوق به. والمتتبع للتوراة يجـد فيهـا مـا لا يمكـن أن يقبـل صـدوره مـن رسل الله الذين اختارهم لهداية الناس، لـوّثتهم التـوراة وجعلـت سـلوكهم سـلوك الفسـقة المنحرفين، فإسرائيل أبوهم وصل إلى النبوة بالحيلة، وزنـى بزوجـة ابنـه. وأنـه لقوتـه صارع الله ليلة كاملة. ولوط أسكرته ابنتـاه حتـى ذهـب عقلـه وضـاجعته كـل واحـدة منهما، وحملت منه. وبناء علـى ذلـك رفـض بعـض علمـاء يهـود التـوراة جملـة وتفصيلا، واعتبرها بعضهم مقدسة كل مـا فيهـا حـق يجـب الإيمـان بـه. ولـم يكـن بأيديهم معيار يفصل بين الحق والباطل، فاسـتمر الخـلاف بيـنهم إلـى أن جـاء القـرآن بالحق البين فما ذكر فـي التـوراة ممـالا يكذبـه القـرآن ولا ينفيـه هـو مقبـول علـى الجملة، وما صدّقه القرآن هو حق لا شك فيه، ومـا خـالف القـرآن محكـوم ببطلانـه، وأنه من الإضافات التي أدخلها الربيون في النص التوراتي .

77ـ وإنه لهدى ورحمة للمؤمنين.

وبكل تأكيد فإن القرآن قصد به أن يكون هدى للمؤمنين يجدون فيه الطريق المؤمِّن لهم حسن الحاضر والمصير، وقد قام بدوره هذا، فكان رحمة للذين آمنوا به، أخرجهم من الحيرة والشك إلى البيان الواضح واليقين. وهو رحمة لهم باعتبار أنه يضمن لهم النجاح في الحياتين. به جرت أمور حياتهم الدنيا على استقامة، وبه يتحقق بفضل الله أملهم في نعيم الجنة.

78ـ إن ربك يقضي بينهم بحكمه وهو العزيز العليم.

تفيد هذه الآية أن الاختلاف الجاري بين البشر، المؤمنين والمشركين وأهل الكتاب وفرق بني إسرائيل مما تعرضت له الآيات السابقة، هذا الاختلاف لا يستمر هكذا، دون أن يتم الفصل بين المحق والمبطل، بل إن ربك يا محمد سوف يقضي بين الطوائف المختلفة بحكمه المعروف بالعدل والحكمة. وهو الموصوف بالعزة فلا يتصور منه حيف ولا يصانع أحدا، وهو الموصوف بالحكمة فلا يحكم بباطل ولا تخرج أحكامه عن الحق ولا يخدع.

79ـ فتوكل على الله إنك على الحق المبين.

خطاب للنبي ﷺ يزرع في نفسه الثقة بالتأييد الذي لا يتصور معه خذلان. أسنِدْ أمورك إلى الله، هو المتكفل بنجاحك . هذه الآيات نزلت على رسول الله ﷺ وقد اشتد ضغط المشركين، ونفذوا كثيرا من مخططاتهم المعطلة لنشر الدين، فثبّته الله بأن عليه أن يواصل مهمته، وأن العاقبة له بأمرين: توكله على الله المتكفل بتأييده، وأنه متمكن من الحق الواضح الذي لا يقبل أي طعن أو تشكيك. ويعتبر مدلول الآية قاعدة من قواعد الدين الإسلامي .

فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٨٠﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَـٰدِى ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَـٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ ۞ وَإِذَا وَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَآبَّةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ ٱلنَّاسَ كَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإسماع :إبلاغ الكلام إلى حاسة السمع.

بيان المعنى الإجمالي :

إنك متمكن من الحق الواضح، وإن إعراض المشركين عـن اتبـاع الهـدى الـذي جئـت به هو بسبب أنهم قصـدوا إلـى تعطيـل جميـع مـداركهم، هـم كـالأموات، وأنـت لا تستطيع أن تسمع الأموات، أو هم كالصم الـذين لـووا رؤوسـهم وفـروا مـن مخـاطبيهم فهم لا يسمعون .وإنك لا تستطيع أن تهدي ببيانك العمـي فتخـرجهم مـن الضـلال الـذي هم فيه إلى طريق الهدى.

لا تضجر من تصميمهم على الكفر، فإنك قـد نجحـت فـي التـأثير علـى الـذين فتحـوا بصائرهم وأسماعهم على الآيات النازلة من عند الله، فأسرعوا بإسلام وجوههم لله.

إنه لتصلّبهم في الكفر فسنبعث لهم يوم يحين أجـل البعـث، دابـة مـن الأرض تكلمهـم، فتنتفي كل تعلة لهم، ولكنهم في ذلك اليوم لا ينفع نفسا إيمانها لـم تكـن آمنـت مـن قبـل. إن الكافرين كانوا رافضين للآيات البينة، ولا يؤمنـون بهـا. فتكـون الدابـة ملجئـة لهـم دون أن ينتفعوا من إيمانهم بسببها.

بيان المعنى العام:

80ـ إنك لا تسمع الموتى...إذا ولوا مدبرين.

نعم إن ما أتيت به هو الحق الواضح كما دلت عليـه الآيـة السـابقة، ولكنـك لا تسـتطيع أن تصل إلى من عطل كل مداركه مـن قـوة إعراضـه عمـا جئـت بـه، فهـو بـذلك والميت سواء؛ إلا أن الميـت معطـل بـالطبع وهـؤلاء معطلـون بـإرادتهم. وكـذلك لا تستطيع أن تسمع الأصم الذي فر في خط معـاكس للـداعي. وهـو مبالغـة فـي تصـوير المعرضين: أن حالتهم كفاقدي السمع الذين قطعـوا صـلتهم بالمتحـدّث إلـيهم، فهـم قـد انصرفوا عنه فلا ينفذ أي صوت ولا أي معنى لأدمغتهم، فـلا هـم يـرون المـتكلم وقـد أدبروا عنه، ولا هم يسمعون شيئا من كلامه لصممهم.

81ـوما أنت بهادي العمي ...فهم مسلمون.

إنك على الحق المبين الذي لا شـك فيـه، فـلا تبتـئس. فالمشـركون المتصـلبون فـي الكفر، هم كالموتى الـذين تعطلـت جميـع قـوى إدراكهـم، والصـم المـولين ظهـورهم الفارين من السماع، وإن شئت فهم كـالعمي الـذين لا يـدركون الطريـق السـالك إلـى المقصد إذا تشابهت الطرق واختلطت. إنهم قـد صـمموا علـى الكفـر، فهـم لا يفكـرون في أي حقيقة ولا يسمعون أي صوت ولا يبصـرون فيـدركون أي نـور، غيـر مـا هـم عليه من الضلالة .

فالعيب في المشركين لا في ما تبلغه، ولا في طريقتك فـي الـدعوة إلـى الله؛ إنـك تـؤثر في مسامع وقلوب الذين تفتحوا للحق، وأحسـوا بمـا هـم عليـه مـن ضـلال، فاشـتاقوا

لمعرفة طريق الهداية، ولذا اتبعوك مسلمين لله، متعلقين بدينه، شاعرين بأنهم ظفروا بالحقيقة التي تستجيب لفطرتهم.

82ـ وإذا وقع القول عليهم...بآياتنا لا يوقنون.

نتتبع هذه الآية جزءا جزءا، نظرا للصعوبة التي تواجه الناظر فيها للكشف عن المراد منها.

إذا وقع القول عليهم: الظاهر أن الضمير يعود على المشركين الذين وصفوا في الآية السابقة بأنهم فقدوا الإدراك كالموتى، وبأنهم صم ولوا مدبرين، وبأنهم عمي لا يرجى لهم اهتداء. اهتمت الآيتان السابقتان بوصفهم والتشنيع عليهم في الدنيا. وتكون هذه الآية تتحدث عن أمور تقع لهم في المستقبل. حدد هذا المستقبل بأنه الوقت الذي يقع عليهم فيه القول. ولما كان القول يسمع مضمونه ولا يقع في الخارج كفعل من الأفعال، فإن المعنى المناسب هنا، حل أجل البعث الذي وُعِدوا به. فتكون الآية مهددة بنوع سيتم في الخارج يتحقق به ما وُعِدُوا به من البعث الذي لجُوا في إنكاره واستبعاده.

ما هو هذا الأمر الذي يتحقق به الوعيد؟ قال تعالى: **أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم**. الدابة كل حيوان يتحرك على الأرض. وهي دابة خاصة تخرج عند حلول أجل البعث الذي يعقبه الحشر والجزاء. وقد أكثر الناس في وصفها وتعيينها واختلفوا اختلافات تجعل الأخذ بأحدها مناقضا لبقيتها. ولا يوجد دليل يرجح واحدا منها، فيكون الأخذ به نوعا من التحكم والقول في كتاب الله بالظن.

كما فرضوا أماكن مختلفة تخرج منها. ولا يقبل تعيين أي مكان أيضا، استنادا إلى ظن ليس له ما يرجحه سوى الفرض.

تُكَلِّمُهم: أيضا الكلام الذي يحمل عليه النص القرآني هو الكلام بالأحرف المنطوق به والمسموع الذي يفهمه المخاطبون به. أما تعيين اللغة فلا دليل عليه أيضا.

إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون: هذه الخاتمة هي التي تهدينا إلى أن المقصود بفاتحة الآية المشركون. إن المشركين صمموا على الكفر ولم تفد في هدايتهم ما هو طبيعة مضمون الرسالة بأنه الحق المبين الواضح. فقد استمروا على الكفر وفي آخر المطاف سنخرج لهم دابة من الأرض تكلمهم. فإذا حل أجل البعث واستمروا على الرفض لآيات الله، فإن الله يخرج لهم دابة تكلمهم، وفي ذلك تحقير لهم، فبعد الرسل الذين هم خيرة البشر يكون الذي يكلمهم ويلجئهم دابة من الأرض. ونقف عند هذا الحد ولا نقول في كتاب الله بغير علم .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَـٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا
جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَـٰتِى وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ
ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ
وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفوج : الجماعة الكبيرة من الناس.

يوزعون: يزجرون إغلاظا وإهانة.

بيان المعنى الإجمالي :

واذكر لهم منذرا يوم نجمع من كل أمة من الأمم التي أرسلنا إليهم رسلنا فوجا من أئمة الكفر وقادة الضلالة الذين واجهوا رسلنا بالتكذيب، فيساقون حشدا واحدا لا يخرج عنه أحد، سوقا فيه غلظة؛ إلى أن يبلغوا جهنم، فيسألون سؤال تقرير وتقريع حاصله : أكذبتم بآياتي البينة الهادية عنادا، من قبل أن تتدبروا في مضامينها ؟ فإن كنتم لم تكذبوا بها فما ذا كنتم تعملون في خطاباتنا لكم ؟ وهنا ينفذ فيهم الوعيد بسبب ظلمهم، وتخرس ألسنتهم فلا يستطيعون النطق.

بيان المعنى العام :

83.ويوم نحشر من كل أمة...فهم يوزعون.

واذكر يا محمد يوم نجمع من كل أمة أرسلنا إليها رسولا، نجمع في هذا اليوم من بين أعضائها جماعة كثيرة من الذين كانوا رؤوس التكذيب والعناد بآياتنا البينة، نجمعهم ويساقون سوقا فيه غلظة وشدة كما يساق الأسرى. لا يتخلف منهم أحد ولا يخرج عن الحشد، فيدفعون دفعا إلى الغاية المعلومة للموكَّلين بهم .

84. حتى إذا جاؤوا ...ما ذا كنتم تعملون.

يسيرون على تلك الحالة إلى أن يبلغوا المكان المعين الذي لم تحدده الآية والظاهر أنه جهنم لقوله تعالى في آية أخرى : **حتى إذا جاؤوها فتحت أبوابها**[1] في ذلك المكان يفجؤهم سؤال إنكار وتقرير من رب العزة يسمعونه مباشرة أو من الموكلين بهم حاصله: أكذبتم بما بلَّغه إليكم المرسلون من آياتي الواضحة والأدلة المستقيمة البينة قبل أن تتأملوا فيها؟ فالسؤال الأول يقررهم مقرعا على ما صدر منهم من

[1] سورة الزمر آية 71.

التكذيب والرفض بمجرد ما سمعوا الآيات دون تمحـيص وتحريـك لعقـولهم، التـي تـم بها تشريفهم وتكليفهم، تحريكـا يكشـف لهـم الحقيقـة. والسـؤال الثـاني المعـادل لهـذا السؤال هو قوله: أما ماذا كنتم تعملون؟ فلو فرضنا أنكم لـم تكـذبوا بآيـاتي فمـا ذا كنـتم تعملون بما أنزلته إليكم. ولاشك أنه لـيس إلا جـواب واحـد لهـذا الترديـد؛ وهـو أنهـم كانوا يكذبون بالآيات قبل أن ينظروا فيها.

85ـ ووقع القول عليهم ...لا ينطقون.

نفذ فيهم العذاب فبعد أن كان العذاب في الدنيا تهديدا لهـم ليقلعـوا عمـا هـم عليـه مـن الكفر والعناد، تحقق واقعا ونفذ فيهم.

ثم تبكيتهم، وجلَّلهـم الخـزي. خرسـت ألسـنتهم التـي كـانوا يجـادلون بهـا، فهـم لا يستطيعون النطق. إنهم لا يستطيعون المراوغة ولا الكـذب، تجلـى لهـم الواقـع بأسـبابه ومسبباته، فلم يترك لهم قدرة على الكلام.

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴿٨٩﴾ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الفزع: شدة الخوف.

داخرون : صاغرون أذلاء.

جامدة: ساكنة.

الصنع: الفعل المتقن.

كبه على وجهه: قلبه على وجهه وألقاه.

بيان المعنى الإجمالي :

يوقظ القرآن الناس حتى لا يمروا علـى آيـات الله فـي الكـون غـافلين. إن فـي تتـابع الليل والنهار بصفة منتظمـة، الليـل مظلـم يسـكن فيـه البشـر ويسـتجمون نشـاطهم، والنهار ضياء تمتد فيه أبصارهم إلى المشاهدات تلتقطها، ثـم تقـوم بمتنـوع النشـاط فـي

الكون. تبدو من هذه الظواهر في الكون وفي الإنسان أدلـة بينـة علـى القـدرة والحكمـة الإلهية.

احذروا فإنه يوم تعود الحياة لكـل ميـت " **يـوم نفـخ الصـور**" يحـل الفـزع والخـوف الشديدان في المبعوثين بعد المـوت مـن عـوالم السـماوات والأرض، إذ يشـمل البعـث جميعهم، فيأتون إلى موعد الحساب صـاغرين أذلاء، واسـتثنى القـرآن مـن شـاء الله أن تحل الطمأنينة في نفوسهم من بين المبعوثين.

تلحظ من آثار علم الله الواسـع الـذي لا يغيـب عنـه صـغيرة ولا كبيـرة، أن بصـرك يريك الجبال ساكنة، ولكن الحقيقة هي متحركـة بحركـة الأرض فـي الغـلاف الجـوي. هي في انتقالها كالسحب الكثيفة تخالها ثابتة وهي في الحقيقـة متحركـة. ومـا كـان ذلـك ليتم إلا تبعا للعلم الدقيق لله سبحانه، إنه لاشك أن الله يعلم ما تبطنونه.

ويوم القيامة يظهر عدل الله وفضله معجلا. فمن جـاء يصـحبه سـجل حسـناته، يجـزى جزاء أوفر وأفضل مما جاء به. ولا يفزع عنـد البعـث إذ يسـكب الفضـل الإلهـي فـي روحه الأمن والطمأنينة.

وأما من جاء يصحبه سجله المسـودُّ بالسـيئات، إمـا لأن حسـناته محبطـة بـالكفر، أو لأنه كان من الأشقياء الذين غمرت سيئاتهم حسناتهم، فـإنهم يكبـون علـى وجـوههم فـي النار، وإمعانا في النكال يقال لهم: ما جوزيتم إلا جـزاء وفاقـا لمـا كنـتم تعملـون فـي الدنيا.

بيان المعنى العام:

86. أولم يروا أنا جعلنا...لقوم يؤمنون.

افتتحت الآية بسؤال فيه إثارة وتعجيب؛ أغَفَلُـوا فلـم يعلمـوا أنـا تصـرفنا فـي الكـون هذا التصرف المشاهد منهم البالغ غاية الحكمة في التـدبير. يتكـرر علـى أنظـارهم كـل يوم مرتين حاصـله : أنـا قـدرنا أن يتعاقـب علـى الكـون الليـل والنهـار، والظلمـة والنور. وأنا ربطنا بين الإنسـان وهـذه التحـولات، فجعلنـا الليـل ليسـكن فيـه البشـر ويستريحوا من عناء العمل، بما يجدد نشـاطهم ليواصـلوا تعميـر الكـون والعمـل فيـه. وجعلنا النهار نورا يتمكن فيه البشر مـن رؤيـة مـا حـولهم مـن الموجـودات، وبـذلك يستطيعون إخضاعها لتجاربهم، ولفعلهم، والاستفادة مما أودع فيها من حكمة.

إن في اختلاف الليل والنهار لآيـات تتجـاوز الحصـر تـدل علـى أن الله هـو الخـالق للكون، وأنه المجري له على نظام لا يختل، وأنه هـو الـذي ربـط بـين الإنسـان وبـين تلكم التحولات مما يساعده على الخلافة فـي الأرض، وتطبيـق شـرعه المسـاعد علـى النجاح.

إن هذه الأدلة القائمة في نظام الكـون لا ينتفـع بهـا إلا مـن فـتح قلبـه للإيمـان الـذي يصل به إلى الربط بين كل ظـاهرة وبـين مبـدعها، فينفـي بهـا الشـرك، ويثبـت بهـا الألوهية المتصفة بالكمال المطلق .

ومن الدقة في التعبير القرآني قوله تعالى: "**لآيات**" فإن هـذا التتـابع بـين الليـل والنهـار لا يمكن إدراك جميع أسراره، والإشـارة إلـى بعضـها يبـرز مـا أشـار إليـه القـرآن بقوله: **لآيات** .فحركة الأرض، وموقعها من النظام الشمسـي، وموقـع الشـمس مـن بقيـة الكواكب المسيرة في فلكها، وقـوانين الضـوء، والأجهـزة البشـرية ونشـاطها، وتأثرهـا بالنور والظلمة، وغير ذلك مما هو مرتبط بحركة الليـل والنهـار ممـا هـو أوسـع مـن قدرات البشر وأعمارهم، والذي تتـوالى فيـه الاكتشـافات العلميـة، ومـا تـزال الآفـاق العلمية منادية بالتأمل والتعمق، ممـا يؤكـد أنهـا أدلـة محققـة لقولـه تعـالى: **سـنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** .

87ـ ويوم ينفخ في الصور...وكل آتوه داخرين .

هذا منهج القرآن في التأثير على البشر ليحولهم مـن ظـلام الكفـر إلـى نـور الإيمـان. ذكّرهم مهددا بحشر كبرائهم ذلك الحشـر الـذي فصـلته الآيـات السـابقة-83/84/85- ثم حركهم للنظر في آيات اختلاف الليل والنهـار باعتبـارهم بشـرا يهـديهم النظـر فـي آيات الله إلى الإيمان. ثم عاد مهددا لهم بمشهد مـن مشـاهد يـوم القيامـة. واذكـر لهـم مذكرا لهم باليوم الذي ينفخ في الصور. والنفخ فـي الصـّور هـو تقريـب للأذهـان فـي حدود ما تسمح به اللغة كما سبق بيانه فـي سـورة الأنعـام آيـة "73" هـو اليـوم الـذي تعود فيه الحياة لجميع الأموات، فيقومون وقد عادت حواسـهم تنقـل إلـيهم كـل مـا يقـع في نطاقها، واستيقظت مداركهم يقظة لا يشـوبها خيـال ولا أوهـام. سـجل القـرآن أنـه في هذا اليوم قد حل في قلوبهم خوف شديد من المرحلـة القادمـة، إذ هـم لا يـدرون مـا الله فاعل بهم. لا ينجو من هذا الفزع أي مبعـوث مـن السـماء أو مـن الأرض إلا مـن شاء الله، من الذين زرع الأمن والطمأنينة في كيانهم كما ذكـر فـي قولـه تعـالى: **وهـم من فزع يومئذ آمنون** -89- إن الفزِعين سينتهي بهم المسـار إلـى الموقـع الـذي يفصـل فيه بالقضاء العادل، يرهقهُم الذل والصغار، بما تبين لهم مـن ضـعفهم وفقـد كـل سـند، وانكشاف الحقيقة بما لا يدع مجالا للشك ولا للمغالطة.

88ـوترى الجبال تحسبها... إنه خبير بما تفعلون.

يخاطب الله رسوله ﷺ فيكشف له عن حقيقـة كانـت مغيبـة عـن البشـر جميعـا، إذ أن العلم لم يبلغ المستوى المعرفي الـذي يمكنـه مـن إدراكهـا. كـان النـاس يعتقـدون أن الشمس متحركة، وأن الأرض ثابتة في مكانها. ولمـا كـان الكـون الـذي خلقـه والكـلام

الذي أنزله ينبعان من نبع واحد لا يختلفان، فإنه قد تغيب بعض أسرار الخلق تبعا للمستوى المعرفي الذي وصلت إليه البشرية إلى أن يفتح عليها بالتوفيق إلى كشف الحقيقة الكامنة، وقد يعبر كلامه على تلك الحقيقة ويلجأ البشر إلى التأويل، حتى إذا تجلى الأمر وانكشف ما كان غائبا، يكون ذلك الكشف أحد الأدلة المصدقة لقرآنه. وبما أن المشاهدة تثبت أن الجبال ساكنة في مقرها حمل معظم المفسرين الآية على أنها تتعلق بمشهد من مشاهد يوم القيامة. ولكن الحذاق وعلى رأسهم الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله جعل الآية من الإعجاز العلمي المنبث في القرآن. فإن قمم الجبال تراها بالنسبة للشمس متلقية لضوئها تمتد ظلالها في الجهة المقابلة، ثم تنحسر تلكم الظلال شيئا فشيئا وتسير في الجهة المقابلة؛ في حركة تشبه السحب عندما تتكاثف، يظنها الرائي ثابتة وهي تمر منتقلة. تأملوا فإن وضع الأرض في مدارها حول الشمس، تظهر حركتها بصفة أجلى في جبالها، ودورانها مرتبط بالجاذبية التي بنيت على أوضاع مضبوطة، لو اختلت لما كان لهذا الكون أن يتواصل وجوده، وما كان للإنسان أن يعيش على هذا الكوكب. إنه من صنع الله الذي أحكم وأجاد في خلق هذه المجموعة الشمسية. ولما كان التذكير بالآيات المنبثة في الكون من أدلة العلم الكامل الذي لا يغيب عنه كبيرة ولا صغيرة، ختمت الآية بالتذكير بذلك ليفيق البشر من غفلتهم ويعلموا أن الله الذي صنع العالم بهذه الدقة لا يتصور أن يغيب عنه شيء من مقاصدكم في فعالكم .

89←90: من جاء بالحسنة...إلا ما كنتم تعملون.

تفيد هذه الآية حكما عاما عرَّفنا بفضل الله وعدله في الجزاء. قسم الناس يوم القيامة الذي تحدثت الآيات السابقة عن بعض ما يحدث فيه؛ قسمهم إلى فئتين .

الفئة الأولى: الذين جاؤوا مصحوبين بالحسنة. فما المراد بالحسنة؟ حملها بعضهم على أن المراد بها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أو لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ورويت في ذلك آثار. وحملها النظار على أن المقصود بها: الأفعال الحسنة عند الله. أي الذين خلصت أعمالهم من الذنوب، ومثلهم الذين نقوا أنفسهم بالتوبة ورد المظالم إلى أصحابها وأخلصوا لله. وهؤلاء أثبت القرآن أن لهم خيرا من الحسنة التي جاؤوا بها. والخيرية بالنظر إلى أن الحسنة فعل العبد، والجزاء عطاء الله وفضله. وكما يقول السهيلي :

حاشا لفضلك أن يقنط عاصيا **** الفضل أجزل والمواهب أوسع

ومع الثواب الكريم الذي هو من فضل الله الذي ينعمون به الجنة، هم آمنون من الفزع، فهم الذين استثنتهم الآية 87 **ففزع من في السماوات والأرض إلا من شاء الله.**

الفئة الثانية: من جاء يـوم القيامـة تصـحبه السـيئة، وهـم الـذين حبطـت صـالحات أعمالهم بالكفر، فقدموا على ربهم وصـحيفتهم خاليـة مـن الحسـنات، وكـذلك الأشـقياء الذين فاضت سيئاتهم وقبائح أعمالهم. ومما ينبغـي أن يتـذكره المتأمـل فـي الآيـة مـا جاء في قوله تعالى : **ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا**[1]

ومع ذلك يعجل لهم العذاب فتكب وجوههم في النـار أي يلقـون فـي النـار. وفـي ذلـك إشارة إلى الهوان الذي قصد أن يحسـوا بـه، باعتبـار أن الوجـه هـو أشـرف أجـزاء الجسم، وتسليط الإهانة عليه أقسى على صاحبه مـن بقيـة الأعضـاء. ثـم يضـاف إلـى كب وجوههم في النار، أن يخاطبوا: لا تسألوا عن النهايـة التـي أخـذتم إليهـا، فـإنكم لا تُجْزَوْن إلا جزاء وفاقا لما كنتم تعملـون فـي الـدنيا، أي إنكـم آثـرتم الشـر، فجـزاؤكم كان شرا على وزان أفعالكم في الدنيا.

و يمكن أن يخاطب بهذا القول فريق النـاجين المنعمـين، فيكـون هـذا الخطـاب زيـادة تكريم. وذلك فضل الله الذي لا يحد.

إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩١﴾ وَأَنْ أَتْلُوَا۟ ٱلْقُرْءَانَ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿٩٢﴾ وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَتَعْرِفُونَهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

حرمها: التحريم المنع.

التلاوة : القراءة. تابع بقراءتك بين آياته.

بيان المعنى الإجمالي :

قل لهم يا محمد معرفا بمهمتك التي حددتها لك، والمتمثلة:

أولا: في أني لا أعبد إلا رب هذه البلـدة مكـة، التـي خصـها بتحـريم كـل مـا ينـافي صلاحها وصلاح من حل بها. وإن ربي ليس رب مكة وحـدها بـل هـو رب كـل كـائن أينما وجد، يملكه ملكا حقيقيا لا يشاركه في ملكـه أحـد. وأمـرت أن أكـون واحـدا مـن هذه الأمة التي أسلمت وجهها لله.

ثانيا: أن أبلغكم القرآن فأقرأه عليكم وأبين لكم مضامينه.

---

1 سورة الأنبياء آية 47

ثالثا: أني منذر كبقية المرسلين، لا ألجئ أحـدا ليـؤمن، فـإن مـن قبـل رسـالتي وآمـن بالله موحدا وعمل صالحا، فإن ثواب ذلك ينتفع به هـو وحـده، وأمـا مـن تصـلب فـي الضلال فإنه هو الخاسر. ولا أقسر أحدا على قبول ما جئت به.

وقل يا محمد ختاما: الحمد لله علـى مـا هـداني إليـه وأكرمنـي بـه. قـل لهـم: إن الله سيظهر لكم الأدلة على صدق القرآن، فتعرفون تلـك البـراهين ممـا يزيـل كـل ريبـة. ولا تبتئس من عنادهم فإن ربك لا يخفى عليه، ولا يغفل عن شيء مما يعملونه.

بيان المعنى العام:

91ـ إنما أمرت أن أعبد...وأن أكون من المسلمين.

آذنـت السـورة بختامهـا، فتوجـه الخطـاب للنبـي ﷺ أن يصـرح قـائلا للمشـركين المعاندين بعد ما بسط في السورة مـن أصـول العقيـدة، ومـا أيـدت بـه مـن قصـص الرسل السابقين مع أقوامهم. قل لهم: ما أنا إلا مبلغ عن ربـي مـا يـأمرني بتبليغـه إلـى الناس ومطبق لما يطلبه مني. ما أمرني إلا أن أعبده ولا أشـرك بـه غيـره مخلصـا لـه الدين؛ أمرت أن أعبد رب هذه "**البلدة**" مكة التي حرم أن يقصـد إليهـا أحـد بمـا ينـافي صلاحها وصلاح من يسكنها. وفي إسناد مكـة لـرب العـزة إظهـار لمـا أراده الله لهـا من التشريف، إذ كان إبراهيم عليه السلام أول من عمرهـا وأقـام فيهـا بيتـا لعبـادة الله، وقـدر أن يكون محمد ﷺ خاتم الرسل خيرةَ من سكنها وانطلقـت منهـا دعوتـه. وأضـاف إلـى ذلك ما يقتضيه هذا التكريم فجعله منسحبا علـى أرضـها والبشـر السـاكنين بهـا وعلـى حيواناتها وشجرها، فحرم أن يقصد إلى ما يضاد صلاح مـن دخـل فـي دائرتهـا. فهـي بشرع الله أفضل بلاد الله أمنا. وإذ علقت الآيـة عبـادة محمـد بـرب هـذه البلـدة مكـة، فذلك قصد تشريف مكة من ناحية، وللإشـارة إلـى ضـلال المشـركين بتنكـرهم لـرب البيت الذين يفاخرون بالانتساب إليه وعبدوا الأصنام مـن دونـه، وأن محمـدا هـو الـذي أعطى للبيت حرمته الحـق. ومـن ناحيـة أخـرى اقتضـى دخـول الكـون كلـه فـي مربوبيته لله التصريح إثر قوله "**رب**" هذه البلـدة بأنـه رب كـل شـيء. وعطـف علـى توحيده لله ومخالفة ما عليه مشركو مكة أن الله أمره أيضـا أن يكـون داخـلا فـي زمـرة الذين أسلموا وجههم لله. وفي هذا تشريف لأمة محمد أن الرسول واحد منهم.

92ـوأن أتلو القرآن...إنما أنا من المنذرين.

تلاوة القرآن قراءته مع حسـن أداء كمـا أنـزل عليـه. وتشـمل تلاوتـه قراءتـه علـى الناس تبليغا لنصه المنزل إليهم، وتلاوته عبادة يأنس بها وتزيـده رفعـة فـي مقامـه بمـا يترتب عليه من أجر. وقراءته على الناس، ثم بيانه لهـم هـو القـدر المكلـف بـه، ومـا وراء ذلك مما تقترحونه من اطلاع على الغيب ونحـو ذلـك، أو معرفـة موعـد البعـث،

فما أنا بمكلف به، ومن قَبِلَ ما دعوته إليـه واهتـدى فـي تصـوره وسـلوكه فإنمـا نفـع نفسه؛ ومن واصل طريق الضلال والابتعاد عن الحقيقة فإنـه هـو الخاسـر، وأقـول لـه كلمة خاتمة قاصمة لِلّجَاجِه: الذي كلفني به ربي هـو عـين مـا أوكلـه للمرسـلين الـذين سبقوني، أن أنذركم سوء العاقبة إذا لم تؤمنوا بما أنزل إلي.

93ـ وقل الحمد لله ....وما ربك بغافل عما تعملون.

وتختم السورة بأمر رسول الله أن يصرح بالقول: الحمـد لله والثنـاء لله، علـى مـا والـى عليَّ من نعمه وشرفني برسـالته، وأن خـتم بـي هدايتـه للعـالمين، وأفـرغ فـي قلبـي اليقين. إن ربي سيريكم الآيات والأدلة في الدنيا وفـي الآخـرة، فتعرفـون أنهـا بـراهين تثبت لكم صدق القرآن. في الدنيا كآية الـدخان ودخـول النبـي ﷺ لمكـة، ومـا يكشـفه العلم كما سبق في آية سير الجبال. وفي الآخرة عنـدما تلقَـوْنَ جـزاءكم فينكشـف لكـم ما أنذرتكم به. إن ربك يا محمد يرصد كل ما يفعلونـه فـي الجهـر أو فـي الخفـاء، ولا يفلت عن علمه ما ظهـر ومـا بطـن. وفـي ذلـك مزيـد تحـذير للمعانـدين، وبشـارة للمؤمنين الصالحين.

أكملت بحمد الله وحسن عونـه تفسـير سـورة النمـل ليلـة الجمعـة 06 صـفر الخيـر 1434 –20 ديسمبر 2012 أعانني الله على إتمامه.

سورة القصص

هذا هو الاسم الذي عرفت بـه السـورة فـي المصـاحف، وفـي كتـب السـنة. ووجـه تسميتها بذلك ذكر لفظ" القصص "فيهـا عنـد قولـه تعـالى: **فلمـا جـاءه وقـص عليـه القصص**. وأوعب القرآن تفصيل ما أجملـه فـي سـورة الشـعراء فـي تربيـة موسـى بقصر فرعون. وهي سـورة مكيـة .ورتبتهـا حسـب ترتيـب السـور فـي المصـحف الثامنة والعشرون. وحسب ترتيـب النـزول التاسـعة والأربعـون. نزلـت بعـد سـورة النمل وقبل سورة الإسراء. عدد آياتها ثمان وثمانون آية .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

النبأ: الخبر المهم العظيم.

الحق: الصدق.

العلو: الكبر، علا استكبر.

شيعا: فرقا تتناصر فيما بينها، وتعادي غيرها.

نمن: ننعم..

أئمة : يقتدي بهم غيرهم.

نمكن : نثبت لهم ملكهم.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت السورة بما افتتحت به سورة الشعراء، فالكلام فيهما واحد. نقرأ عليك يا محمد بواسطة جبريل الخبر المهم الصادق المتعلق بموسى وفرعون. وذلك لتبلغه وتقرأه على المؤمنين الذين ينتفعون بما تضمنه من عبر.

يبدأ عرض القصة ببيان ملامح فرعون. إن سمته الغالبة عليه هي التعالي والاستبداد الذي عم أرض مصر. هذا الاستبداد الذي جعله يفرق بين من كانوا تحت سلطانه فجعلهم فرقا، علاقة ما بين كل شيعة وغيرها علاقة متوترة، مما مكّن من ضعفهم ويسر له التحكم في حظوظهم.

بيان المعنى العام

1←2: طسم تلك آيات الكتاب المبين.

الآيتان مساويتان لما افتتحت به سورة الشعراء، فالكلام فيهما واحد.

3.نتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون.

نبلغك قراءة عليك خبرا عظيما مُهما، هذا الخبر متعلق بموسى وفرعون، وهو خبر صدق بين، لتبلغه لقوم من صفتهم الإيمان، إذ هم الذين بفضل إيمانهم يتلقونه فيستفيدون منه. أما المعرضون فهم غير مقصودين بما يتلى عليك، لأنهم بإعراضهم لا ينتفعون بما فيه من عبر. ونبه على أن ما سيرد في هذه القصة لا يستوعب كل ما حدث، بل بعضه فقط كما يفيده قوله: [من] نبأ.

شمل هذا النص ضروبا من الاهتمام:

أسندت التلاوة إلى الله بنون العظمة والحضور" **نتلو**" مع أن التالي هو جبريل بإذن من الله.

نوه بمضمون القصة، بالتأكيد على كونها حقا صدقا.

تخصيص القوم الذين يجمعهم الإيمان بكونهم المقصودين بهذه القصة ليتأملوا في تفاصيلها، وينتفعوا بالعبر المستخلصة منها.

أن القصة لم تفتتح بسرد الأحداث، ولكن بلفت الأنظار إلى الربط بين الأسباب والمسببات.

4.إن فرعون علا في الأرض...من المفسدين.

تبدأ القصة بعرض العنصر الرئيس فيما يتلو من أحداث. صورة فرعون ملك مصر المتكبر الطاغي الجبار. علا في أرض مصر من ناحيتين، سعة ملكه واستكباره. والناحية الثانية هي التي وجه إليها القرآن عنايته؛ وهي من أقوى الجوانب للاعتبار.

فصلت الآية ما انجر عن استكباره، فذكرت أنه أقام سياسة الذين هم تحت سلطانه على تفريقهم إلى مجموعات بشرية تعادي كل مجموعة المجموعة الأخرى. وهذه

سياسة كل الجبارين في الأرض " فرق تسد". كما أنه عمل على إذلال طائفة من تلك المجموعات " الشيع" وهم بنو إسرائيل فكان يكلفهم القيام بالأعمال الشاقة، وخطط لوقف تكاثرهم، فكان يقتل الذكران من مواليدهم، ويبقي على الإناث، وبذلك يفسد أخلاقهم. فكثرة الإناث، وتقلص عدد الذكور تقلصا كبيرا، وقوة الغريزة الجنسية تدفع إناثهم للزنا، وتنحل بذلك الرابطة القوية الجامعة بين بني إسرائيل بانحلال الأسرة محضنها الأول.

إن فرعون بسياسته تلك، قد استولى عليه الفساد وتمكن من عقله. وذلك صورة من المفسدين من ولاة الأمور في التاريخ البشري، الذين يخونون الأمانة، ويقيمون سلطانهم على ما يتصورونه مصلحة، والمصلحة هي ما يمكن لاستبدادهم.

5←6. ونريد أن نمن...ما كانوا يحذرون.

شأن الطغاة أنهم يظنون أن المستقبل يحقق لهم مخططاتهم، وأنه ليست هناك قوة تفسد ما خططوا، وتحبط ما دبروا. وينسون إرادة الله وما قدره. وتعلو إرادة الله في النهاية، وما قدره للمستضعفين؛ فيحقق نعمته على بني إسرائيل ويحولهم من وضع المهانة والاستعباد إلى وضع يكونون فيه أئمة يقتدى بهم وينظر إليهم غيرهم نظرة الإكبار ويتخذونهم مثالا، ونعطيهم ما ملكه غيرهم، ونجعل سلطانهم ثابتا في الأرض التي نملكهم إياها. وفي الختام نبقي على المتسلطين عليهم حتى يشاهدوا انتصار بني إسرائيل، وبوادر عزهم باجتماع كلمتهم على موسى عليه السلام . نبقي على الملك فرعون وعلى وزيره هامان وعلى جنوده الذين كانوا اليد التي يبطش بها فرعون وهامان. وظهرت هذه الإرادة الإلهية لما أطبق البحر على فرعون ووزيره وجنده.

وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ:

اليم : نهر النيل.

الخوف: توقع أمر مكروه.

التقطه: الالتقاط أخذ الشيء دون طلب.

فؤاد: عقلها ومداركها.

الربط على القلب: توثيقه، وذهاب الشك منه.

قُصيه: اتبعي أثره.

بصُرت: رأته رؤية واضحة.

عن جنب :عن بعد.

بيان المعنى الإجمالي:

كانت أم موسى تحس بحركة جنينها وتحس إحساسا بلغ درجة اليقين، أن عليها أن ترعاه وترضعه، وتحتفظ به عندها، حتى إذا أحست بخطر أخْذِه من جنود فرعون، أن تتشجع وتلقيه في النيل وأن لا تخاف عليه، ولا تحزن لفراقه، فإنه سيعود إليها سالما، وأنه سيكون له شأن. هو مختار ليكون رسولا من رب العالمين.

وفعلا نفذت ما أحست به، وألقته في النيل لما شعرت بالخطر. مر التابوت أمام جمع من أسرة فرعون، فحملهم حب الاستطلاع على أخذ التابوت وفتحه. ولما فتحوه وجدوا طفلا رضيعا، هجم حبه والرأفة به على قلوبهم. أخذوه بأيديهم وكان القدر قد هيأ ذلك الرضيع ليكون في النهاية عدوا لهم وموجب حزن. إن فرعون ووزيره هامان كانا مغرقين في الخطيئة والإثم، فأعمى الله بصيرتهما عن موسى.

دخل موسى عليه السلام قصر فرعون، فتعلقت به امرأة فرعون، وألقى الله في قلبها حبه والسرور به. عرضت الأمر على زوجها أن تتم تربيته في القصر، إنه ذو شخصية جذابة كلما نظرنا إليه امتلأنا منه سرورا. ومن ناحية أخرى لعله يكبر برعايتنا وتربيتنا فيتعلق بنا، ونجد منه ما يجده الآباء من أولادهم عند الحاجة. اقتنع فرعون بكلامها، وهم لا يشعرون بما خبأه القدر.

وفي المقابل، فإن أم موسى لما ألقته في النيل كانت واثقة مما حل في قلبها من أنه سيعود إليها سالما. إنها حسب العاطفة الفطرية للأمومة قارب أن يصدر منها ما يلفت الأنظار إليها. ولكن الله قوى يقينها وأزاح الشكوك من فكرها، لتكون بإقدامها ثابتة على ما أقدمت عليه، لتكون من المؤمنين. وذلك لم يمنعها من تتبع ما يحصل له، فطلبت من ابنتها أن ترقب تنقله، فتيقنت برؤية واضحة من مكان بعيد أنه وقع في أيدي أتباع القصر الفرعوني.

بيان المعنى العام :

7ـ واوحينا إلى أم موسى...وجاعلوه من المرسلين .

تفتح الآية بأن الله أوحى إلى أم موسى. وأمه عليه السلام لم تكن نبية بإجماع العلماء، فمعنى الوحي في نظري إحساس وجدته في قلبها تيقنت أنه ليس من حديث النفس، ولا مما يصوره الخيال وأنه حقيقة كإدراكها بأنها موجودة. ارتسم في عقلها أنها مأمورة بأن ترضع وليدها، وأن تواصل إرضاعه إلى الوقت الذي تحس فيه بالخوف عليه من زبانية فرعون تنفيذا لأمره العام بقتل كل مولود ذكر من بني إسرائيل. وعندها هي مأمورة بأن تلقيه في النيل. وأحست بمناد يناديها في باطنها: كوني مطمئنة ولا تخافي عليه الغرق ولا الموت، تشجعي واطردي عنك الحزن لفراقه. إن الله سيرده عليك وسيرفعه إلى مقام الرسالة فيختاره هاديا لبني إسرائيل معصوما بعصمة الله.

وطوى القرآن الجزئيات التي لا أثر لها فيما تهدف إليه القصة من عبر. من أنها حملته وما صحب حملها، وولدت طفلا ذكرا، وأنها وضعته في تابوت، وأقفلته بمفتاح ربطته به.

8ـ فالتقطه آل فرعون...كانوا خاطئين .

مر التابوت يطفو على سطح النيل أمام أعين آل فرعون. حملهم حب الاطلاع على أخذه والتعرف على ما يحويه. فتحوه فإذا صبي في المراحل الأولى من الحياة. رقُّوا له ونفذ حبه إلى قلوب الذين التقطوه، والقدر الإلهي ينفذ ما سبق أن سطر. هذا الصبي الملتقط سبق القدر أنه سيكون عدوا لآل فرعون وجالب حزن لهم. دخل قصر فرعون في الوقت الذي كان فيه فرعون يبعث بعيونه في كل مكان ليخنق أنفاس كل مولود ذكر من بني إسرائيل. تمكنت الخطيئة والإثم من الطاغية فرعون ووزيره الذي كان يساعده على ظلمه واستبداده؛ فكان من شأنهما أن تحداهما القدر، وانهار ما دبراه لإنقاذ ملكهما وامتداد سلطانهما.

9ـوقالت امرأة فرعون....وهم لا يشعرون.

موسى عليه السلام صبي رضيع في قصر فرعون، تعلقت به امرأة فرعون، وغمر حبه قلبها، وكلما عاودت النظر إليه زادت تعلقا به. ولابد في حدث كهذا أن تعرض الأمر على زوجها. كانت لطيفة في عرضها فابتدرته بقولها: هذا الطفل يدخل السرور علي وعليك، فكلما نظرنا إليه نود أن نتابع التأمل في قسمات وجهه، وجمال محياه. أبقُوا عليه ولا تقتلوه لتوهم أنه من بني إسرائيل. وبعد أن وفقت في إثارة عاطفة زوجها، حركت عقله بلفت نظره إلى ناحية فطرية مغروسة في البشر،

وهي رغبة الزوجين في أن ينجبا ولدا يكون لهما سندا مخلصا عند الكبر. والظاهر أن امرأة فرعون لم تنجب منه. ولعل هذا الرضيع يكبر ويشتد ساعده فتتخذه ولدا، بعد تمتن العلاقة بينها وبينه، بعيشه معنا. كان كلامها مقنعا لفرعون. فأبقى عليه لما يدخله وجوده بينهما من البهجة، ولما يمكن أن ينفعهما عند كبره. ووراء هذه الظنون وتقليب الرأي، القدر الإلهي يتصرف دون أن يشعر أحد بما سيكون عليه الأمر، هل تتحقق تلكم الآمال أو تنقلب إلى الضد؟

10ـ وأصبح فؤاد أم موسى... لتكون من المؤمنين.

تعرضت الآية السابقة لوضع موسى وهو في بيت فرعون. وتحدثت هذه الآية عن أمه بعد أن ألقته في النيل. نص الآية أن عقلها ومداركها استقر فيها الفراغ. ويمكن فهم الآية على أحد الاحتمالين التاليين:

أحدهما: أن يراد منه أنها كانت وهي تلقيه في اليم واثقة مما ألقاه الله في روعها من أنه سيعود إليها ولا يلحقه أذى. فقلبها فارغ من الخوف. وليس معنى هذا أنها جمدت عاطفة الأمومة فيها، فإنها وهي تلقيه كانت يتنازع في باطنها عامل الحنو الفطري وعامل الثقة بما اقتنعت به من نجاته وهي ترمي به في النيل. وعامل الفطرة عامل قوي جدا فهي قاربت أن يظهر منها من الجزع ما يلفت الأنظار إليها ويفضح أمرها. ولكن الألطاف الإلهية أحاطت بها فجعلت قلبها متعلقا بوليدها دون أن يصدر منها ما يلفت أنظار زبانية فرعون لها ولوليدها، لتكون بهذه الألطاف من المؤمنين بقدر الله إيمانا جازما لا يدخله الشك.

ثانيهما: أن عاطفة الأمومة كانت قوية جدا وهي تلقيه في اليم، وبلغت حد أن قاربت التفجر بما يلفت الأنظار إليها، ولكن الله شد على قلبها في ذلك الظرف فلم يصدر منها ما يكون سببا في هلاك ولدها. ولتكون من المؤمنين الواثقين بفضل الله.

11ـ وقالت لأخته قصيه...عن جنب وهم لا يشعرون.

إن اليقين الحاصل في قلب أمه لم يمنعها من التحري عنه، فاستعانت بمريم أخته، وطلبت منها أن تتبع بحذر سير التابوت. فرأته رؤية واضحة، كما يفيده بناء بصُر من قوة النظر بمقدار أوفى من أبصر. كانت حذرة فرأته من مكان بعيد، دون أن يشعر بها أحد من أتباع فرعون.

۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ

وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

يكفلونه: يتعهدون بحفظه.

ناصحون: يخلصون له ولا يقصرون.

أشده: شدة البدن، واستحكام قوته.

استوى : تكامل عقله.

الحكم : الحكمة.

بيان المعنى الإجمالي :

سبق في التقدير الإلهي أن بُغِّض لموسى قبول أي مرضع تعرض عليه. وأمام هذا الإشكال والولد في حاجة إلى الرضاع وانصرافه عن قبول أي مرضع، تقدمت أخته عارضة خدماتها على الموكلين بحفظه، وقالت لهم: هل أعرفكم ببيت لهم من المؤهلات ما يمكنهم من كفالة الولد، ومعاملته أفضل معاملة. صحبوها إلى بيت أمها وبمجرد ما عرضوه على ثديها أقبل عليه وبدا عليه الأنس بها. فسلموه لها، ورد الله ولدها عليها، فسرت به أيما سرور، ولم يجد الحزن لفراقه سبيلا، والأهم من كل ذلك أن كان في هذا التقدير، ما علمت به أن وعد الله حق لا يخلف. وتميزت عن الكثرة الكاثرة من الناس الذين لا يعلمون هذه الحقيقة. ويعطينا القرآن صورة موسى وقد اكتملت قواه الجسمية والمعرفية، وأنه كان راشدا في سلوكه فجازاه الله بتمكينه من الإدراك الصحيح للأشياء، وأثبت في نفسه علما صحيحا، وهي السنة التي يجري عليها العطاء الإلهي، فعلى هذا النحو يجزي المحسنين.

بيان المعنى العام:

12. وحرمنا عليه المراضع...وهم له ناصحون.

موسى صبي رضيع أحبه ملك مصر وزوجه. وأول ما يحتاج إليه هذا الوليد الرضاعة، فأتوا له بمراضع كثيرة، كلما عرضوه على واحدة منهن أعرض عنها، وذلك تبعا لما غرس الله في نفسه من عدم قبول أي منهن. إنه تحريم أزلي ظهر في هذا الظرف لسابق القدر. وتقدمت أخته عارضة خدمتها على آل فرعون، وقد شاع أن الأسرة المالكة تبحث عن مرضع. عرضت عليهم :أنها تعرف أسرة لها من المزايا العالية: أنها تقوم بكفالة هذا الرضيع خير قيام من إرضاع وعناية فائقة، مع نصح له كأنه ابن لها، لا تقصِّر في أي أمر، ولا تقوم به إلا على أحسن الوجوه.

13ـفرددناه إلى أمه...ولكن أكثرهم لا يعلمون.

نجحت أختـه في إقناع المـوكلين بحفـظ الصـبي أن يجربـوا مـا نصـحتهم بـه الفتـاة. صحبوها إلى المرضعة، وبمجرد ما قربته مـن ثـديها التقمـه وبـدا منـه الأنـس بهـا. سلموه لها فقرت عينها به، وانقشع ما كان يمكن أن يـدخل علـى عواطفهـا مـن الكمـد والحزن لبعده عنها. وفي النهاية تأكدت أن مـا أحسـت بـه مـن التوجيـه الربـاني قـد تحقق. وأن كل ما يَعِدُ الله به المؤمنين حق لا شـك فيـه. ولكـن أكثـر النـاس جـاهلون بهذه الحقيقة، قصروا نظرهم على الواقع المحدود كمحدودية قواهم الفكرية .

14ـولما بلغ أشده واستوى ....نجزي المحسنين.

طوى القرآن تفصيل مراحل نموه، وتَعرِض هـذه الآيـة علينـا موسـى عليه السلام رجـلا قـد اكتملت قواه الجسمية، والعقلية؛ عبر عن ذلك بقوله "**ولمـا بلـغ أشـده** "ونقـل الزبيـدي عـن التهذيب قوله :قرن بلـوغ الأشـد بالاسـتواء، وهـو أن يجتمـع أمـره وقوتـه، ويكتهـل وينتهي شبابه[1]. ثم إن الله جـازاه علـى اسـتقامته واختيـاره الطريـق الأحسـن، جـازاه بفتح عقله وقلبه للفهـم الصـحيح، وإدراك الأمـور علـى حقيقتهـا لا ينخـدع بـالظواهر فآتاه الحكمة، وشحن قواه المعرفية بـالعلم الصـحيح . وعلـى هـذا النحـو مـن الجـزاء نجزي المحسنين من عبادنا، لا نضيع من أحسن عملا.

وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

[1] تاج العروس ج8ص243

بيان معاني الألفاظ:

على حين غفلة من أهلها: الوقت الذي تضعف فيه حركة الجولان من شيعته من بني إسرائيل.

عدوه: الجماعة التي يبغضها موسى.

استغاثه : طلب تخليصه من شدة.

الوكز: الضرب بجمع اليد.

قضى عليه : مات.

ظهيرا :معينا.

الاستصراخ : الصراخ القوي.

الغوي: الضال.

يبطش: يعنف بقوة.

الجبار : المُنفذ لإرادته بعنف.

بيان المعنى الإجمالي:

دخل موسى مدينة رمسيس في وقت قلت فيه الحركة، ولفت نظره تقاتلٌ بين شخصين، أحدهما إسرائيلي، والآخر قبطي. شعر الإسرائيلي بالضعف فاستغاث بموسى. غضب موسى فضرب بجمع يده ضربة على قلب القبطي فمات. وشعر موسى بعظم ما صدر عنه. ورأى أن الشيطان قد هوّل عليه الأمر وحركه لتأديب القبطي وهو مغضب. والشيطان عدو للإنسان يضله، وإضلاله بين يمكن التوقي منه، لمن يتريث ولا يسرع للاستجابة لعواطفه. وبعد هذه المحاسبة لنفسه عن عمله، اعترف بأنه ظلم نفسه، وطلب من الله أن يغفر له ما فعل. واستجاب الله لموسى وغفر له ذنبه. والله غفور يرحم من تاب وإليه أناب.

أثارت هذه الحادثة في نفس موسى ﷺ يقظة، فتبين من حسابه لنفسه أنه يعمل في قصر فرعون المستبد الظالم، فتوجه إلى ربه ملتزما: أن لا يعمل عملا فيه عون للجبارين. معترفا أن قلبه انشرح لذلك بفضل ما عمره به من الحكمة والعلم.

والقتل ليس أمرا هينا. أصبح موسى من الغد خائفا من عاقبة فعلته يتحسس الأخبار، يترقب أن يعرف حديث الناس. بينما هو كذلك يفجأه إسرائيلي الأمس يصرخ ويستغيث لينقذه من قبطي. تحرك موسى ليسعف الإسرائيلي، بعد أن أنكر عليه كثرة مشاكساته والدخول في مشاكل كان يمكنه أن يبتعد عنها. وخشي القبطي على نفسه لعلمه بأنه لا يستطيع أن يصارع موسى الشديد البنية القوي العضلات فقال له: يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا يوم أمس؟ إنك تبغي أن تتسلط

على الناس بقوتك، وتخضعهم لإرادتك، وما تريد أن تسير في حياتك على أنك أحد المصلحين.

بيان المعنى العام :

15- ودخل المدينة على حين غفلة...عدو مضل مبين.

دخل موسى مدينة منفيس في وقت قلت فيه الحركة وضعف النشاط، وكادت المدينة تخلو من الناس . شد نظره خصومة شديدة بين رجلين، كان أحدهما اسرائيليا من جماعة موسى وقومه، والآخر قبطي من شيعة فرعون. طلب الإسرائيلي من موسى أن يسعفه ويخلصه من يد عدوه الذي يظهر أنه كان أقوى منه. فاستجاب موسى للاستغاثة، وضرب القبطي بجمع يده على قلبه، "**وكزه**" فكانت القاضية ومات القبطي.

ما كان موسى قاصدا قتل القبطي، بل كان يريد أن يخلص المستغيث من القوي المتسلط عليه. ندم موسى على اختياره الصورة العنيفة لتخليص الذي من شيعته. ورجع إلى نفسه، وهو الحكيم، ليقوم العمل الذي قام به أهو من الخير أم من الشر؟ قتل النفس في غير دفاع عن النفس مرفوض، ولذلك أدخل فعلته تحت معيار وسوسة الشيطان الذي لا يدل على خير. هو متمحض للعداوة، ولإخراج الإنسان من طريق الهدى إلى طريق الضلال. وإن إضلاله لواضح بين .

16-قال رب إني ظلمت....هو الغفور الرحيم.

تقدم موسى عليه السلام ضارعا إلى ربه، وقد أدرك ما جره إليه الشيطان ؛ فاعترف أولا بأنه ظلم نفسه بإقدامه على الانتصار للإسرائيلي قبل أن يعرف البادئ بالإساءة، وثانيا لأن الغضب حمله على رد الفعل بعنف، وكان من حقه أن يعمل على الفصل بينهما دون ضرب على القلب. ومحاكمته لنفسه تكشف عن قوله تعالى: "**آتيناه حكما وعلما**" وأتبع الاعتراف بالذنب بسؤال المغفرة والتجاوز عن ذنبه. واستجاب الله لتوسله، وغفر له ذنبه فمحا كل أثر سيء تابع له. ومن صفات الله أنه كثير المغفرة قوي الرحمة.

17- قال رب بما أنعمت علي...ظهيرا للمجرمين.

قتلُ القبطي كانت حدا فاصلا في حياة موسى عليه السلام، ابتدأ بمحاسبته لنفسه حساب المسؤولية، بما يتبعه من الاعتراف بالذنب وطلب المغفرة . ثم قوم حياته كلها، فوجد نفسه منغمسا في حاشية فرعون، و أنه بما آتاه الله من الحكمة والعلم والنظر في الأمور بعين العقل الصحيح الطارد للأهواء والعواطف، تبين له أن نشاطه وذكاءه كان يصرفهما لعون فرعون الظالم المستبد. وأنه لا يقبل أن يواصل حياته

على هذا المنهج مشـاركا مسـاعدا للظلـم والفسـاد. فتوجـه إلـى ربـه ضـارعا: رب! بسبب ما أنعمت علي من الحكمة والعلم، وما كنـت لأحظـى بـذلك لـولا فضـلك علـي، فإني أعاهدك ربي على أن أقطع صلتي بالمجرمين ولـن أكـون عونـا لهـم أبـدا. وقـد استنبط بعض العلماء الصالحين من الآية: عـدم جـواز خدمـة الظلمـة، وإن كـان فـي نشاط لا يتصل بظلمهم.

18. فأصبح في المدينة خائفا يترقب ...إنك لغوي مبين.

مر ذلك اليوم الذي قتل فيه القبطي، وفي صباح الغد كان موسـى خائفـا مـن أخـذه بـدم القتيل، يراقب ما يتحدث به الناس. لأن قتله للقبطي يوم أمس كـان فـي حـين غفلـة مـن أهلها لم يشاهده أحد. يمضي موسى متحسسـا، فيفجـأ بالإسـرائيلي الـذي نصـره يـوم أمس يصرخ مستغيثا به لينقذه من يد قبطي أقوى منـه. كـان رد فعـل موسـى الأولـي: أنه أبدى تذمره من الإسـرائيلي المشـاكس، وقـال لـه : إنـك مضـل بـيّن الضـلالة، تشاكس من لا تقدر عليه، وتوقع نفسك في المضائق.

19. فلما أراد أن يبطش...أن تكون من المصلحين.

موسى وإن قام بواجب الإنكار على الإسرائيلي لتتابع خصوماته، ولامه على ذلك، فإنه هَمَّ أن ينصره لأنه مكروب في شدة، والقبط يذلون بني إسرائيل ويظلمونهم، وتقدم نحو القبطي الماسك بتلابيب الإسرائيلي، وخشي القبطي على نفسه والمغيث رجل قوي البنية لا يستطيع أن يصارعه؛ فتوجه إلى موسى قائلا: أتريد أن تقتلني كما قتلت أخي القبطي يوم أمس ؟ إنك ياموسى بتقوّيك على هذا النحو، تريد أن تكون متسلطا عنيفا على الناس تنفذ فيهم إرادتك وليس هذا شأن المصلحين الذين تريد أن تكون واحدا منهم.

وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

يسعى : يسرع خطاه

يأتمرون بك: يتشاورون فيما يضر بك.

الملأ: الجماعة أصحاب الشأن.

يترقب :حذر.

ورد: بلغ.

الأمة: الجماعة الكثيرة العدد.

تذودان: تطردان.

ما خطبكما؟: ما شأنكما؟

يصدر الرعاء: يتم الرعاة سقي مواشيهم وينصرفون بها.

بيان المعنى الإجمالي:

بينما كان موسى مستعدا لنصر المستغيث به، إذا برجل قادم يسرع في خطاه، يناديه لينجو بنفسه. إن الخبر قد بلغ فرعون وأن أهل مشورته يدبرون الأمر لقتله. أسْرِعْ بالخروج من المدينة قبل أن يلحقوا بك ويأخذوك. إني ناصح لك حريص على سلامتك.

خرج موسى من المدينة خائفا، حذرا من أن يتفطن له من يدل عليه. داعيا أن يكتب له ربه النجاة من فرعون وقومه. وسلك طريقه راجيا أن يهديه ربه لاختيار الطريق المستقيم المأمون.

ساقته الألطاف الإلهية إلى أرض مدين على البحر الأحمر؛ فدخلها من الناحية التي يجتمع فيها الرعاة لسقي مواشيهم. لفت نظره امرأتان انتحتا جهة مستقلة عن الناس، تحرصان على منع ماشيتهما من ورود الماء. توجه موسى إليهما سائلا عن شأنهما؟ أجابتا بأنهما تنتظران الوقت الذي ينتهي فيه الرعاة من سقي مواشيهم ويرجعون بها حتى لا تزاحما الرعاة. وأن أباهما شيخ كبير، ولا يوجد في الأسرة رجل يقوم بهذه المهمة.

حمله طيب نفسه وشهامته، وما آتاه الله من قوة بدنية أن يتولى سقي ماشيتهما ويأخذ له مكانا في زحمة الرعاء. ثم عاد إلى ظل الشجرة ليستريح من السفر ومن السقي، وشعر بطمأنينة غامرة. انطلقت أشواقه الروحية إلى ربه مبتهلا شاكرا على ما أولاه من نعم تتابعت، من إنجائه بعد إلقائه في النيل، إلى التربية الناعمة في قصر فرعون، إلى حمايته من آثار الضلال الذي كان سائدا في تلك البيئة، إلى سلامته من القتل بعد أن قضى على القبطي، إلى هدايته لسلوك الطريق الموصل

إلى أرض مَدين، فقال: رب إني فقير لما أنزت علي فبفضلك وحده تيسرت لي كل تلكم الخيرات.

بيان المعنى العام:

20ـ وجاء رجل من أقصى...إني لك من الناصحين.

تسارعت الأحداث، فقبل أن ينصر المستغيث يدخل في المشهد رجل جاء يسرع في سيره قاصدا موسى عليه السلام فناداه : ياموسى! إن أهل الرأي من حاشية فرعون بصدد التشاور في أمرك والرأي أنهم سيقررون قتلك، فِرَّ بجلدك، واخرج من المدينة قبل أن يقبضوا عليك، فإني لك ناصح حقيق.

21ـفخرج منها خائفا... نجني من القوم الظالمين.

شعر موسى بالخطر، وخرج من المدينة تحت عاملي الخوف والحذر، داعيا ربه أن يكتب له النجاة من القوم الظالمين قوم فرعون، الذين لا يفرقون بين قتل العمد وقتل الخطأ، ولا يسمعون من المعروض على المحكمة حجته.

22ـولما توجه تلقاء مدين...سواء السبيل.

سار في طريقه وكله رجاء في ربه أن يهديه إلى الطريق الذي يحقق له الأمن، فإن الطرق متساوية أمامه، والطريق المنجي لا يعلمه إلا الله. وأنْ يُوَفِّقَ إلى اختيار الاتجاه الذي يصل به إلى المكان الآمن. استجاب له ربه فهداه إلى أن يسلك الطريق المؤدي إلى مدين، تجاه مدين، جهة مدين. وهي أرض واقعة على الشاطئ الغربي من البحر الأحمر، وتبلغ المسافة بينها وبين منفيس ثمانمائة وخمسين ميلا تقريبا. مما يستدعي مواصلته خمسة وأربعين يوما سيرا على الأقدام. كما قدر ذلك الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله.

23ـ ولما ورد ماء مدين...وأبونا شيخ كبير.

بلغ موسى عليه السلام أرض مدين فدخلها من الناحية التي فيها الماء الذي يسقي منه الرعاة مواشيهم. ووجد على الماء جماعة كثيرة من الناس يسقون الإبل والمواشي، واستراح تحت ظل شجرة، بعد أن أنهكه مواصلة سفر تلكم المسافة.

لاحظ موسى عليه السلام أن الرعاة يتزاحمون على البئر، وامرأتين همُّهُمَا أن يبعدا ماشيتهما عن الماء ويكبحا اندفاعها إليه. تعلقت إرادته بمعرفة السر الذي من أجله اختارتا جهة بعيدة عن الناس وذَوْدِ ماشيتهما عن الماء. توجه إليهما بالسؤال: ما شأنكما؟ أجابتا: لا نسقي حتى يتم الرعاة سقي مواشيهم، وينصرفوا عن الماء. وأردفتا بأن أباهما شيخ كبير لا يستطيع القيام بهذه المهمة، وتربيتهما على الحياء تمنعهما من مزاحمة الرجال.

24.فسقى لهما ....من خير فقير.

رجل قوي البنية شهم عـالي الهمـة تبـين ممـا عرضـته المرأتـان ضـعفهما، فانـدفع لمساعدتهما في زحمة الرعاة، وسقى ماشـيتهما، فأرضـى نفسـه. ثـم عـاد إلـى الظـل الذي كان فيه. في هذه الظروف: البدن مكدود، والمسـتقبل غـائم يكتنفـه الغمـوض مـن جميع الجوانب، فلا هو يستطيع الرجوع إلـى منطلقـه ليقتـل، ولـيس لـه صـديق فـي مدين يأوي إليه أو يسـاعده فـي غربتـه، والصـفاء الروحـي يزيـده قربـا مـن ربـه وتعلقابه، واعترافا بفضله عليه. وهذا ما تم فعـلا، فيسـجل القـرآن ابتهالاتـه فـي ظـل الشجرة: رب إني فقير لما أنزلت علي من خير، من العلـم والحكمـة، ومـن نجـاتي مـن الطَّلَبِ الذي كان يأتمر به الملأ، وبما يسرته لـي مـن العـيش فـي حجـر النعـيم فـي صباي وشبابي، دون أن أتلوث بما في تلك البيئة مـن شـر وفسـاد، ومـن هـدايتي إلـى هذا المكان الآمن.

فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا
سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ
ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ
حِجَجٍ ۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ
ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا
عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

استحياء: مع حياء شديد.

القصص: الخبر.

حجج: سنوات.

أشق عليك : أكلفك عملا شاقا.

العدوان : الاعتداء.

وكيل : يؤاخذ المخل .

بيان المعنى الإجمالي:

رجع موسى إلى ظل الشجرة مستغرقا في تأملاتـه، وإذا بإحـدى المـرأتين اللتـين سـقى لهما، تقف أمامه تبلغه دعوة من أبيها: أن يقـدم عليـه ليكرمـه عمـا قـام بـه. ولاحـظ موسى الحياء الذي كان يجللها.

لم يتردد موسى في استجابة الدعوة. وسار نحـو الشـيخ . أنِـس كـل منهمـا بصـاحبه، وقص موسى عليه خبره، من حياته في قصر فرعون إلـى قتلـه القبطـي الظـالم خطـأ، إلى خروجه ووصوله أرض مدين. وبدا من موسى الـذي كـان يعـرف بطـش فرعـون واستبداده، أنه كان خائفا. طمأنه الشيخ بأنه لا سلطان لفرعـون عليـه فـي مكـان إقامتـه هذا. فهذه أرض العمالقـة لا سـلطان لفرعـون عليهـا، فـاطرد عنـك الخـوف وكـن مطمئنا فقد نجوت.

كانت إحدى الفتاتين تتابع بانتباه ما يجري بـين موسـى ووالـدها. تنبهـت إلـى أن كـلا منهما في حاجة إلى الآخر، وأن موسى جمـع مـن الخصـال مـا يسـاعد العائلـة فـي مهامها، فهو رجل قوي البنيـة علـى خلـق نبيـل وأمـين، فاقترحـت علـى والـدها أن يستأجره ليساعد العائلة. وفي الحـين عـرض الشـيخ علـى موسـى أن يزوجـه إحـدى البنتين على أن يقوم بالخدمـة ثمـاني سـنين. وأنـك إذا اختـرت المقـام معنـا عـامين آخرين في الخدمة، فذلك فضل منـك. وكـن واثقـا أنـي سـأعاملك معاملـة إنسـانية لا أكلفك ما يعسر عليك أو ما يكون شاقا.

رضي موسى بالعرض وربط بين موافقته وبين كـل مـا جـاء فـي كـلام الشـيخ، مـن العمل ومن الأجل ومن الزواج. وأشهد الله علـى مـا عقـدا عليـه، وهـو الوكيـل الـذي يؤاخذ من أخل منهما بتعهداته.

بيان المعنى العام :

25ـفجاءته إحداهما ....نجوت من القوم الظالمين.

بينما كان موسى مستغرقا في تأملاته في هذا الظرف الـذي يشـع منـه نـور الطمأنينـة والثقة في فضل الله، إذا بإحدى المرأتين تطلب منـه أن يتبعهـا إلـى أبيهـا الـذي يريـد أن يكرمه علـى عونـه لهمـا. لـم يتـردد فـي الاسـتجابة للطلـب . ويظهـر أن مـن مرجحات المبادرة بالقبول، ما لاحظه في الداعيـة، أنهـا كانـت علـى حـظ وافـر مـن الحياء والأدب، مما يدل علـى أنهـا تنتسـب إلـى أسـرة نبيلـة صـالحة. ولأن غربتـه تدعوه لِيُكوِّن روابط مع سكان تلك الأرض تيسـر لـه الإقامـة فيهـا. وأن الـداعي شـيخ مجرب قد تفيده تجاربه في حل الأزمة التي هو فيها.

وصلت به إلى بيت أبيها وقدمته له .لا تدخل القصة القرآنية في تفاصيل اللقاء، وإن كان يفهم منه أن الصورة التي حصلت عند الشيخ أنه يقبل رجلا شهما، وصورة الشيخ عند موسى صورة رجل كريم. أنس كل منهما بالآخر، ومن الجلسة الأولى فتح موسى قلبه له، وقص عليه خبره، وأنه يخشى بأس فرعون، ومن زبانيته الذين يلاحقونه. استمع الشيخ لما قصه عليه وطمأنه: اطرد عنك الخوف. قد تحققت نجاتك من القوم الظالمين. إن منطقتنا لا سلطان لفرعون عليها، هي تحت سلطان العمالقة. ووصفه لفرعون ومساعديه بكونهم قوما ظالمين استند فيه لما يبلغه من أخبار عن الأرض المجاورة لهم، ولما قصه عليه موسى من الحكم عليه بالقتل دون أن يعرضوا عليه التهمة أو أن يمكنوه من الدفاع عن نفسه، ولتسويتهم بين قتل العمد وقتل الخطأ.

26ـ قالت إحداهما ....القوي الأمين.

أنس كل منهما بالآخر، وأكرم الشيخ ضيفه. وما كان حديثهما في سر، بل كانت الأسرة تسمع لما يدور بينهما. وكانت إحدى البنتين فطنة حاضرة البديهة، فعرضت على أبيها أن يعقد معه عقد إجارة على الخدمة، لما فهمت أن هذا الرجل النبيل الغريب يهمه جدا أن يستقر في مكان يأوي إليه يجد فيه الراحة والأنس، وأن الأسرة في حاجة لمن يساعدها على تنمية ثروتها الحيوانية التي عجز أبوها لتقدمه في السن عن القيام بهذه الوظيفة، ولاحظت ثالثا : أن هذا الرجل جمع بين صفتين هما معيار الاختيار : القوة على القيام بما يكلف به والأمانة على ما يكلف به. وكأنها جمعت تجربة الإنسانية كلها في قولها" **إن خير من استأجرت القوي الأمين** " فذهبت مثلا.

27ـ قال إني أريد أن أنكحك...إن شاء الله من الصالحين.

صادف العرض قبولا من الشيخ، واستنبط من الوضع العام أن كل واحد منهما في حاجة إلى الآخر، فعرض الأمر على موسى قائلا: أعرض عليك يا موسى، أن أزوجك إحدى ابنتي، ويكون مهرها أن تعمل عندي ثماني سنين. وإن أردت أن تبقى معنا عامين آخرين، فذلك فضل منك وإن أردت أن تغادرنا بعد الثماني سنين فذلك هو موجب العقد. وإني سأستعين بك ولا أكلفك من الأعمال ما يشق عليك ويصعب. سيتبين لك من العيش معنا ومخالطتنا أني رجل متخلق بأخلاق الصالحين، أميل إلى الكرم واللين في المعاملة، بعيد عن الظلم والجفاء.

28ـ قال ذلك بيني وبينك...على ما نقول وكيل.

شرط الشيخ لنفسه وعليها، وكان واضحا في عرضه، يَطْمَئِنُّ له مخاطبه. فأجاب موسى عليه السلام بقبول العرض الذي به تستقر حياته : لا يبحث عن مسكن، ولا

عن زوج يسكن إليها وتسكن إليه، جامعة بين الحيـاء والـذكاء، تقـوم بشـؤونه. والشـيخ يدل سمته ومنطقه على صلاحه؛ فأتى جواب موسـى بالإيجـاب للعـرض، وأكـده بـربط جوابه بكلام الشيخ، ذلك العرض الذي عرضته علي، كل منـا ملتـزم بـه، وإنـي مخيـر فيما زاد على الثماني سنوات، فـلا نتجـاوز مـا اتفقنـا عليـه فتتعـدى علـي. والله هـو المتولي حفظ عقدنا، فمن لم يوف به فالله مؤاخذه.

۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

جذوة: العود الغليظ المشتعل.

اسلك يدك: أدخل يدك.

من غير سوء: لا عيب فيها.

برهانان: حجتان يقينيتان.

بيان المعنى الإجمالي:

أكمل موسى عليه السلام سنوات الإجارة حسب الاتفاق. واشتاق لأهلـه فـي مصـر فأخـذ أهلـه معه، وساربهم، وأظلمت الصحراء عليهم ووجدوا لسـع البـرد، فأبصـر بجانـب الجبـل نارا . أعلم أهله بما رأى، وطلب منهم أن يمكثوا حيث هم، لعلـه يجـد قومـا لهـم خبـرة بمسالك الصحراء فيدلوه على الطريق الأفضل المبلغ قصـده. أو يقتـبس مـن نـارهم مـا يشعل به حطب التدفئة الذي أعدوه ولم يجدوا نارا يوقدونه بها.

فلما وصل إلى مصدر النور، تم نداؤه مـن الجانـب الغربـي للـوادي فـي البقعـة التـي باركها الله وكثـرت خيراتهـا الروحيـة، نـودي مـن الشـجرة : **أنـا الله رب العـالمين**

أخاطبك. ألق العصا التي بيدك، ولشد ما كـان خوفـه إذ انقلبـت العصـا حيـة متحركـة نشيطة، فرجع القهقرى إلى الخلف. فنـاداه ربـه مُطَمْئِنـًا لـه :يـا موسـى أقبـل وأبعـد الخوف عن نفسك، إنك من القـوم الآمنـين. ثـم أمـره أن يـدخل يـده فـي جيبـه، ثـم يخرجها، فإذا هي بيضاء نقية كأشد ما يكون البيـاض والجمـال، لا عيـب فيهـا. وهـدئ روعك وكن واثقا ولا ترتجف من الرهبة .هذان دلـيلان يقينيـان العصـا وبيـاض اليـد. مصدرهما ربك، فاذهب مؤيدا بهما إلـى فرعـون وأهـل مشـورته ورؤسـاء أعوانـه، فادعهم إلى الإيمان، إنهم قوم متصلبون في الكفر.

بيان المعنى العام :

29ـ فلما قضى موسى الأجل...لعلكم تصطلون.

بمجرد ما أتم موسى أجل الخدمة، أخذ أهله معه وتوجه إلى مصر. واختلف المفسرون في الأجل الذي قضاه .ورجح كثير منهم أنه مكث أطول الأجلين. والقرآن لم يعين، واعتمدوا على أخبار لم تبلغ درجة الصحة، أو على أن هذا هو الوفاء الأليق بمن سيكون رسولا. ولكن الذي فهمته من جواب موسى عليه السلام أنه أكد على عدم التزامه بما زاد على الثماني، لقوله **فلا عدوان علي**، إذ اعتبر أن إلزامه بالعشر عدوان فهو متحلل منها مقدما. كما اختلفوا هل إن كلمة أهل في الآية أريد منها امرأته فقط؟ والظاهر من التعبير القرآني أنه سار بزوجه وبولديه أو أولاده؛ وذلك لقوله "**امكثوا**" "**آتيكم**" " **لعلكم تصطلون**" فتكرر الخطاب جمعا أربع مرات.

هذا المقطع من القصة تقدم في سورة النمل آية7-وتغيـر أسـلوب العـرض بمـا يخـرج به النص عن التكرار المساوي.

30ـفلما أتاها نودي...أنا الله رب العالمين.

هذه الآية مساوية في المعنى أيضـا للآيتـين 8/7 فـي سـورة النمـل. وأضـيف إلـى وصف الله في سورة النمل "**العزيز الحكـيم**" أضـيف هنـا: **أنـا الله رب العـالمين.** ممـا يفيد أن الله وصف نفسه بالأوصـاف الثلاثـة، وتوزعـت بـين السـورتين فـي تسـجيل المشهد الواحد. وأن مَكَانَ النداء كان من جانب الوادي الأيمـن فـي سـفح الطـور. وهـو الجانب الغربي كما تدل عليه الآية 44 من هـذه السـورة: **(ومـا كنـت بجانـب الغربـي إذ قضينا إلى موسى الأمر)** والبقعـة المباركـة القطعـة مـن الأرض التـي اختارهـا الله ليتلقى موسى فيها وحي الله، ويشرفه الله بالرسـالة .والشـجرة لـم يعينهـا القـرآن، فـلا تعتمد التوراة في تعيينها. إلا أن الآية عنيت بتحديد الموقـع مـن نـواح أربـع 1) جانـب الوادي 2) من الناحية اليمنى منه 3) في بقعة مباركـة 4) مـن الشـجرة. فيكـون موسـى سمع صوتا من الشجرة وعاه، وحفظ محتواه.

31ـ وأن ألق عصاك...إنك من الآمنين .

وكذلك هذه الآية مساوية للآيتين 10و12 من سورة النمل. وهي تتضمن المعجزة الأولى: انقلاب العصا حية. وخوف موسى وتطمين الله له بأنه آمن، لأن الخوف بعيد عن الرسل عندما يتلقون الوحي من ربهم.

32ـاسلك يدك في جيبك...كانوا قوما فاسقين.

تتضمن هذه الآية أمرين :

1)المعجزة الثانية: إشراق لون جلد يده عندما يخرجها بعد أن يدخلها في جيبه، فتنقلب بيضاء نقية منيرة لا عيب فيها.

2) قوله :اضمم إليك جناحك من الرهب .دعوة لموسى أن يتجلد ويتشجع للقيام بما سيؤمر به. هو تصوير كما يقول ابن عطية نقلا عن أبي علي بمعنى شمر في أمرك ودع الرهب. وقريب منه ما رجحه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: تمثيل بحال الطائر إذا سكن عن الطيران، أو عن الدفاع، فإنه يضم جناحه إليه. بمعنى أبعد عنك الخوف وشد عزمك في القيام بأمر الرسالة.

وختمت الآية باستحضار المعجزتين العظيمتين، فأشار إليهما مستحضرا بقوله: فذانك برهانان، حجتان قاطعتان لا جدال فيهما. بهما أيدتك، لتقرع فرعون وكبار رجاله. إنهم قوم تأصل الكفر فيهم، وخرجوا عن المعقول والحق إلى الهوى والباطل.

قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

ردءً ردء وردى العون.

سلطان : مهابة.

لا يصلون إليكما : لا يمكنون من إذايتكما.

بيان المعنى الإجمالي :

غمر الرضا والأنس قلب موسى عليه السلام، فعبر عن مخاوفه وسأل ربه وهو في مقام القرب. هو يخشى أن يقتله فرعون قصاصا قبل أن يبلغ الرسالة. أجابه سبحانه

بأنه سيجعل لهما مهابة وقوة تبهر فرعون وملأه، فلا تحدثهم نفوسهم بالإذاية. وعرف من نفسه أن قواه الفكرية تقصر عن فصاحة لسانه، فسأل ربه أن يقويه بأخيه هارون فيحمله الرسالة معه. وأجاب سؤله فكان هارون بمثابة الوزير لموسى يفصح عما يريد أن يقوله موسى. ثم وعده النصر فسينهزم أعداؤه ويفوز عليهم .

بيان المعنى العام :

33←34: قال رب إني قتلت...أخاف أن يكذبون.

أحس موسى بشرف المهمة وبثقلها في آن واحد. وهو يريد أن ينجح في القيام بها. وحضر في ذهنه أن أول مشكلة تعترضه، وقد تحول بينه وبين نجاحه في أداء المهمة، أنه مطلوب لفرعون لينفذ فيه القتل قصاصا من القبطي. والمشكلة الثانية أنه ذكي الفؤاد غير فصيح اللسان، إنه يخشى أن يقصر في إقامة الحجة على ما كلف به، أو أن لا يفصح بما يقطع جدل المجادلين. وهو مطمئن إلى أن أخاه هارون جامع بين الصلاح والفصاحة. فسأل ربه في هذا الموقف أن يؤيده بأخيه هارون ليتحمل معه عبء تبليغ الرسالة. فيحسن مجادلة الملأ الذين خبر موسى قدراتهم لمَّا كان معهم في قصر فرعون.

35ـقال سنشد عضدك...ومن اتبعكما الغالبون.

أجاب الله سؤله فيما طلبه منه، ونفـَّله.

أجابه عن السؤال الثاني : بأنه قرر أن يؤيده بأخيه هارون ليكون قوة له، كما يشد الإنسان على عضده عند العمل ليقوى على المواصلة.

وأجابه عن سؤاله الأول بقوله : **(ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما)** ونجعل لكما مهابة في النفوس، وقوة في عيون أعدائكما، فيضعفون عن إذايتكما، لأن آياتنا التي أيدناكما بها ستبهرهم . وبهذا تكون هذه الحصانة آية أخرى داخلة تحت قوله: **بآياتنا .**

ونفله بقوله: **(أنتما ومن اتبعكما الغالبون)** وهو وعد يضاعف ثقتهما في أن قوة أعدائهما ستنهزم أمام ما معهما من التأييد. وأن خاتمة أمرهما النصر المحقق.

وفيما سبق عرضه تأييد لرسول الله ﷺ بان شأنه كشأن الرسل من قبله. فالرسالة فيض إلهي يفيضه الله في الوقت وفي المكان الذي يختاره، الوادي بجانب جبل الطور والغار بجبل حراء .نزل عليه الوحي فخاف كما خاف موسى . ثبت الله قلبه بعد ذلك كما ثبت موسى. أمره إلى الظهور والنصر كما تم لموسى.

فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى وَمَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن

تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا
عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ
أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي
ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ
فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

المفترى: المكذوب.

عاقبة الدار: خاتمة الخير بعد المشقة.

الطين : الآجر.

الصرح: القصر المرتفع.

أطلع: أتكلف الرقي إلى الأعلى.

نبذناهم : طرحناهم كما تطرح النواة.

بيان المعنى الإجمالي:

توجه موسى إلى فرعون وقومه داعيا لهم أولا إلى الإيمان بالله وحده. وقدم لهم المعجزة تلو المعجزة. وكلما دمغهم بمعجزة كان ردهم ما هذا إلا سحر. وما تدعو إليه من التوحيد أمر مختلق لا أصل له لأن آباءنا ما سمعنا عنهم بشيء مثل هذا. وكان رد موسى دائما إنكم تستندون إلى أوهام وحجج باطلة، والله وحده هو الذي يعلم من هو على هدى منه، ومن هو مغرق في الضلال. ومن يفوز في الدار الآخرة. والظالمون بشركهم وتعديهم على حقوق الناس مآلهم الخسران ولا يفلحون أبدا.

خطب فرعون في أعوانه وكبراء قومه معلنا لهم: أنه نظر فيما يدعو إليه موسى، وأنه ما علم بوجود إله غيره. والتفت إلى وزيره هامان فطلب منه أن يوقد مطابخ الطين لصنع الآجر حتى يبنوا له قصرا عاليا يصل به إلى السماء أين يوجد إله موسى. وإني أظن أنه كاذب فيما يدعيه. فإني أؤكد لكم مقدما أنه غير موجود في السماء. وانتفخ مع جنوده كبرا، وظنوا أنهم في منعة لا يعودون لحكم الله ولا يبعثون. ويظهرهم القرآن في صورة من الهوان والضعف كقبضة من حصى أخذها القدر فرمى بها في اليَمِّ ولم يبق لها أثر. انظر واعتبر كيف كان مآل المكذبين بالحق الرافضين لدعوة الرسل.

بيان المعنى العام:

36ـ فلما جاءهم موسى...في آبائنا الأولين.

طوى القرآن الأحداث بين تكليفه بالرسالة وقدومه على فرعون. فأتى هذا المقطع كاشفا عن مشهد موسى ﷺ بحضرة فرعون. وهي في الحقيقة مشاهد متتابعة، في كل مشهد يقدم موسى معجزة من المعجزات التي تأيد بها من انقلاب العصا إلى الضفادع والدم. وكان جوابهم في كل مرة جوابا معبرا عن تصلبهم في العناد، يقولون : ما هذه الآيات التي أتيت بها إلا ضرب من السحر وما الرسالة الداعية للتوحيد إلا أمر مكذوب. وحجتهم: ما سمعنا من آبائنا ولا من أسلافنا أنه قد جاءهم مثل ما تدعونا إليه.

37ـ وقال موسى ...إنه لا يفلح الظالمون.

يبدو من هذه الآية قوة استناد موسى إلى ربه. ردوا عليه بما لا يقبله منطق ولا يعتمد على معقول مما يظهر ضعف تفكيرهم. قال لهم موسى مرجعا الأمر إلى ربه: إن الذي يعلم ما هو حقيق بالاتباع المبلغ للهداية، وما حقه الرفض لكونه مفضيا للضلال والضياع، هو ربي. وهو الذي يعلم من تتحقق له العاقبة الطيبة، ومن يكون خاسرا في المآل. وهو الذي ضبط المعيار : فكل ظالم مآله الخسران. وهو مآلكم تبعا لظلمكم بالكفر والفساد.

38ـ وقال فرعون يا أيها الملأ....لأظنه من الكاذبين.

تتحدث الآية عن مشهد يدل على أن دعوة موسى زعزعتهم، وأنه كلما حصل اتصال بينهم وبينه عقدوا المجالس للنظر في الطريقة التي يردون عليه بها.

قال فرعون مستكبرا، وقد خشي أن تكون دعوة موسى ربما أخذت طريقها إلى الضمائر، فخاطب حاشيته وكبراء قومه قائلا: يا أيها الملأ! نظرت وقلبت الرأي، فما وجدت لكم إلها حقيقيا غيري. وحسبما أقره في عقول قومه، أنه لا يخطئ، شأنه شأن المستكبرين في الأرض يعتقدون في نفوسهم العصمة. وقاده قصور تفكيره : أن الإله الذي دعا إليه موسى مكانه في السماء، وأنه ليس بينه وبين إبطال دعوة موسى إلا أن يصعد إلى السماء باحثا عنه، وهو غير موجود فيكون كذب موسى ثابتا لا محالة. ولتحقيق هذا التصور الساذج، أمر وزيره أن يجمع العملة، وأفران طبخ الطين آجرا، وأن يوقد عليها النار ليطبخها، ثم يبني له بها قصرا عاليا يبلغ عنان السماء فيصعد إلى أعلاه للتحقق الفعلي من عدم وجود الرب الذي يدعو إليه موسى. أفعل هذا وإني لأظنه من الكاذبين. يقدم للنتيجة قبل حصولها لكيلا يكون قومه في لحظة من اللحظات متعلقين بما أثبته موسى.

39ـ واستكبر هو وجنوده...أنهم إلينا لا يرجعون.

أخذ القرآن يحلل نفسية فرعون التي كانت سبب ضلاله. كان فرعون قد استولى عليه الكبر كأعتى ما يكون، وسرى هذا الاستكبار إلى جنوده إذ كانوا أعظم جند في ذلك الزمان. واستكبارهم هذا لا وجه له ولا سند، هو انتفاخ كاذب، وكل استكبار لا يكون إلا بدون حق . وقادهم هذا الاستكبار إلى زيغ عقيدتهم فظنوا أن لا بعث بعد الموت، وأنهم لا يرجعون إلى الله الذي خلقهم أول مرة لكفرهم بوجوده.

40ـ فأخذناه وجنوده...كيف كان عاقبة الظالمين.

صورت الآية ضعف فرعون وجنوده، وحقارتهم. هم كحفنة من حصى يلقيها جامعها في اليم فلا يبقى لها أي أثر. وقابل بين صورة الاستكبار الفرعوني، وظنهم أنهم أقوى من أن يقعوا في قبضة الله، وبين صورتهم وقد أخذوا كقبضة من حصى ألقي بها في اليم مهينة لا قيمة لها.

ما جرى هو محل للاعتبار، فانظر متأملا الحالة التي كانت عليها عاقبة الظالمين بشركهم المتجاوزين لموازين العدل التي أنزلها على لسان رسله. وسيكون مآل قريش الظالمين المستكبرين على وزان مآل فرعون وجنده.

وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإمام : المقتدى به في خير أو شر.

المقبوحين : المشتومين.

القرون جمع قرن والمراد به الأمة.

بصائر: أدلة كاشفة عن الحق.

تطاول العمر :تطاول أمد انقطاع الوحي.

ثاويا: مقيما.

بيان المعنى الإجمالي :

تصلبوا في الكفر فجزاهم أن جعلهم أئمـــة متبـــوعين يقـــودون أتبـــاعهم إلـــى النـــار، ولا يجدون نصيرا يوم القيامة. تلحقهـــم بعـــد إغـــراقهم فـــي البحـــر الأحمـــر اللعنـــة ممـــن يذكرهم، ويوم القيامة يضاف إلى عذابهم الشتائم.

بكل تأكيد قربت موسى ومكنته من الكتـــاب، الـــذي أنزلتـــه عليـــه بعـــد أن أهلكنـــا الأمـــم الكافرة الغابرة في الزمن الماضي. وهذا الكتاب يفـــتح بصـــائر النـــاس بمـــا تضـــمنه مـــن هداية وآيات بينات، هي هادية لهم ورحمة.

عرفتَ أخبار موسى وهو يتلقى أول وحي منا بالجانب الغربـــي مـــن الطـــور، مـــع أنـــك لم تكن من الحاضرين في ذلك المشهد. ولكنا قدرنا أن نمســـك الـــوحي عـــن أمـــم كثيـــرة بينك وبين عيسى، فتطاول زمن فترة الـــوحي علـــى قومـــك، وجعلـــوا مـــن هـــذا الطـــول طعنا في نبوتك. وما كنت مقيما في أهل مدين تتلو عليهم آياتنـــا بنـــاء علـــى مـــا ســـمعته وشاهدته، ولكنا كنا مرسلين لك فعلمناك من أمرهم ما لـــم تكـــن تعلـــم. وكـــذلك لـــم تكـــن حاضرا بالجانب الغربي من الطور في الوقـــت الـــذي نادينـــا فيـــه موســـى وتلقـــى منـــا الألواح. ولكن علمته رحمة منا بك ليكون ذلك لك حجة علـــى صـــدقك، فتنـــذر قومـــا لـــم يأتهم نذير قبلك يوقظهم. إن ما أكملناه بواسطتك ليحصـــل لهـــم الرجـــاء فـــي أن يكونـــوا على ذكر مما أنزلناه عليهم بواسطتك

بيان المعنى العام:

41ـوجعلناهم أئمة...لا ينصرون.

إنهم بتصلبهم في الكفر والفساد، وإعراضهم عـــن هدايـــة موســـى إعـــراض مـــن أصـــم سمعه، وأعمى بصره، قد كونوا في بصائرهم حجابا يحـــول بيـــنهم وبـــين التـــأثر بـــالحق، وجاوزوا ذلك إلى مستوى أصبحوا فيه يؤثرون في غيـــرهم تـــأثيرا جعلهـــم يتبعـــونهم بـــه في كفرهم وفسادهم، وأصبحوا قادة للعمـــل الموصـــل إلـــى النـــار. وأكـــدت الآيـــة ســـوء عاقبتهم بأنهم يوم القيامة لا يجدون نصيرا يدفع عنهم عـــذاب النـــار. يـــوم لا يغنـــي أحـــد عن أحد شيئا.

42ـ وأتبعناهم في هذه الدنيا ...من المقبوحين .

أهلكوا في اليم مهانين، وانقطع ما بنـــوه مـــن أمجـــاد، ولـــم يبـــق لهـــم ذكـــر إلا ذكـــر مقرون باللعنة المتواصلة من المؤمنين. وكما لحقهـــم فـــي الحيـــاة الـــدنيا اللعـــن والـــدعاء

بإبعادهم شأن الأشياء القذرة، هم يوم القيامة من المقبوحين، تتوالى عليهم الشتائم إمعانا في إهانتهم بمقدار ما تطاولوا على الله، وعلى عباد الله، واستكبروا وظلموا.

43.ولقد آتينا موسى الكتاب ...لعلهم يتذكرون.

سنة الله في هداية الخلق سنة واحدة، هي سنة العالم بما خلق. فكما أرسل موسى إلى بني إسرائيل بعد فترة من الرسل، ومرور أزمنة عم فيها الجهل بشريعة الله وفشا الإلحاد، فكذلك أرسل الله محمدا بعد فترة من الرسل. إن الله أعطى موسى الكتاب، التوراة، بعد ما أهلك القرون السابقة لعهده، كقوم نوح وعاد وثمود، بسبب تكذيبها للرسل. ونوه بالتوراة فوصفها بقوله "**بصائر**" جمع بصيرة، فكما تنكشف المحسوسات بالبصر فتنجلي، فإن التوراة كذلك تنجلي بها الحقائق للعقل، وجمعها لتنوع أدلتها. والناس مراد بهم بنو إسرائيل والقبط، وكذلك من تهود وأخذ بتعاليم التوراة. وإذا انكشفت الحقيقة للبصيرة تبعتها الهداية فكانت التوراة هدى، وكذلك رحمة للقلوب والمشاعر بما يحل فيها من الرضا . إنه يحصل لهم بذلك الرجاء في أن يكون ما جاء فيها حاضرا في القلوب والسلوك. وفي هذا تنظير بما أوتيه محمد ﷺ ، فإن ما أوتيه سيفتح بصائرهم، ويسمو بهم فيجدون في القرآن كل هداية، ورحمة، ويوقظهم ليكونوا دوما على ذكر من الخير الذي أنزل إليهم.

44.وما كنت بجانب ...وما كنت من الشاهدين.

تصريح بما هو مضمن في الآيات السابقة، إن ما تقصه من خبر موسى وهو يتلقى الوحي من ربه مكانا وزمانا بدقة وضبط، هو دليل دامغ لعناد مشركي مكة .فحديثك عن موسى بهذه الدقة مع أنك لم تكن حاضرا في الجانب الغربي من الطور، وما كنت من الذين أشهدهم موسى على التوراة ليحفظوها، يدمغ المشركين الذين يشككون في صدقك .

45.ولكنا أنشأنا...ولكنا كنا مرسلين.

تمسك المشركون بأن القرون تتابعت، ولم يحمل الله وحيه أحدا من الرسل، فرد الله عليهم بأن الله أنشأ بعد الوحي إلى موسى أمما تتابعت واختلط الوحي السابق بما أضيف إليه من البشر الحاملين له، وانقطع السند، فأحس قومك الذين بعثت إليهم أنه تطاول أمد انقطاع الوحي، فمن لطفنا أنا أرسلناك إليهم لتقيمهم على العقيدة الصادقة، والشريعة الصالحة.

ومن ناحية أخرى فإنك عندما تقص على قومك أخبار موسى في مدين، مع أنك لم تكن مقيما بها، هذه الأخبار التي هي آياتنا على صدقك، بعلمك ما لم تكن لتعلمه، لفقد أسباب العلم وهو المشاهدة بالإقامة، ولم تكن مقيما، ولكنك مستند إليَّ. إنا كنا مرسلين لك منزلين عليك الوحي الذي علمك ما لم تكن تعلم.

46ـ وماكنت بجانب الغربي...لعلهم يتذكرون.

هو مقام آخر أكرم الله فيه موسى، عند الطور في الجانب الغربي منه . وقد أكرم الله موسى مرتين في هذا المكان عند الطور :إحداهما عند عودته من مدين، وثانيتهما عندما تلقى الألواح عقب مناجاته. وهو ما فصل في سورة الأعراف. يمْتَنُّ الله على نبيه بما عرفه من أحوال موسى. وما كان لك أن تحصل على هذه المعرفة الدقيقة لما طواه الزمن البعيد، والحال أنك لم تكن حاضرا بجانب الطور تشهد ما حدث. ولكن رحمناك رحمة من ربك، لتنذر بفضلها قوما لم يتوجه لهم أي نذير من قبلك يبين لهم العقيدة الصحيحة والسلوك الصالح، ويكشف لهم عن سوء المصير إذا هم لم يلتزموا طريق الهدى. رجاء أن تستيقظ عقولهم وأرواحهم فيدركوا ما هم عليه من الفساد العقدي والاجتماعي فيقلعوا ويسيروا في طريق الرشد.

وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَـٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَـٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَـٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

مصيبة : عذاب في الدنيا على كفرهم.

الحق: هو ما في القرآن من الهدى.

بيان المعنى الإجمالي :

إن تجديدنا لبعثة الرسل تقطع عليهم الحجة إذا أصابهم عذاب في الدنيا بسبب ما ارتكبوا من موبقات، أن يقولوا ربنا هلا أرسلت إلينا رسولا يوقظنا من غفلتنا، فنخرج من صف المشركين إلى صف المؤمنين.

ومن لجاجهم أنهم لما جاءهم محمد الرسول الحق والقرآن الكتاب الحق، نازعوا وقالوا هلا تأيد بمثل ما تأيد به موسى من قبل كانقلاب العصا حية وبياض اليد

وإنزال الكتاب جملة واحدة. إن ما قدموه لا يعـدو أن يكـون جـدالا بعيـدا عـن الحـق. لأن موسى لما أتى بهذه الآيات لم يذعن المرسل إليهم بهـا، فمـا جـاء بـه كفـروا بـه. وقالوا عن موسى وأخيه بأنهما تعاونا على السـحر. وقـال المشـركون مـن قبـل: إنهـم يرفضون أن يبعث الله رسلا من البشر.

قل لهم يا محمد قولا يقطع لجاجهم: ائتوني بكتاب يهـدي البشـرية أفضـل مـن التـوراة والقرآن إن كنتم صادقين في محاجتكم، فـإن جئتمـوني بـه فأنـا أتبعـه، وهـو فـرض محال لإظهار عجزهم.

إنهم لا يأتون به قطعا. وبذلك فاعلم وكن واثقـا أنهـم مقـودون بـأهوائهم لا بعقـولهم ولا بالحقائق الثابتة. وإنك لا تجد اشـد ضـلالا وأقـبح فعـالا مـن الـذين أسلسـوا قيـادهم لهواهم معرضين عن هداية الله. إن الله بحكمتـه وعدلـه لا يحـيط بألطافـه القـوم الـذين ظلموا بالشرك في عقيدتهم وبالتعدي في علاقاتهم الحياتية.

بيان المعنى العام :

47ـولولا أن تصيبهم...ونكون من المؤمنين.

لولا إصابتهم بمصيبة بسبب ما انحرفوا عـن العقيـدة الحـق وبمـا اقترفـوا مـن ظلـم ومن معاص؛ يجأرون إثرها بقولهم: ربنـا لـولا أرسـلت إلينـا رسـولا يرشـدنا ويرفـع حجاب الجهل عن أعيننا، فنؤمن به ونتبع ما دلت عليـه آياتـك، لـولا ذلـك مـا جـددنا بعثة الرسل ولعاجلناهم بالعقوبـة. فإرسـال الرسـل إزاحـة لكـل عـذر يصـدر مـنهم وليدركوا أن ما حل بهم من عذابنا هو العدل.

48ـ فلما جاءهم الحق من عندنا...وقالوا إنا بكل كافرون.

إن كانوا يعتذرون بعدم بعثة رسول إليهم، فها هو قد جاءهم الرسول الحق المؤيد بالقرآن الذي هو كله حق، لاشك أنه من عندنا لما تأكد فيه من الإعجاز بالتحدي؛ رفضوا اتباعه وقدموا اقتراحا يبرر رفضهم، وقالوا لولا تأيد بما تأيد به موسى، كانقلاب العصا حية وبياض اليد من غير سوء. هل إن آيات موسى التي اقترحوا أن يصحبها محمد توجب الإذعان لها إيجابا لا يتصور معه نكرانها ؟ لقد كذبوا موسى وقالوا: هو وأخوه ساحران تعاونا على ما قدماه، وما أتيا به ليس حقيقة وإنما من تخييل السحرة المهرة . كما أنه سبق من المشركين أن صرحوا برفضهم للرسالات جميعا. فقد قالوا:(**ما أنزل الله على بشر من**

شيء)[1] وبهذا يظهر أنهم ليسوا طلاب معرفة ولكنهم قوم خصمون كما قال الله فيهم : **(ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)**[2].

49.قل فأتوا بكتاب...إن كنتم صادقين.

تنوعت طرق التأثير القرآني في الناس، بالبيان، وإقامة الحجة، وسرد ما تم في الوجود المعبر عنه بالقصص القرآني، والإلزام بما يسقط للمعاندين كل متمسك. ومنه هذه الآية؛ يأمر الله نبيه أن يتحدى المشركين الذين كفروا بمحمد وبموسى وبما تأيدا به: القرآن، والتوراة. فيلقن نبيه أن يقول لهم: ابذلوا كل طاقاتكم، واجمعوا أمركم، وائتوني بكتاب جامع للهداية في العقيدة وفي العمل أفضل منهما، فإن أتيتم به فأنا أتبعكم. وهذا من تعليق الكلام على ما هو ممتنع؛ ولكن المقصود منه إظهار عجزهم .

50.فإن لم يستجيبوا لك...إن الله لا يهدي القوم الظالمين.

إن ظهر عجزهم عن الإتيان بكتاب هو أبلغ هداية من التوراة والقرآن، وهو ما سيحصل فعلا لا محالة، فاعلم أن المشركين ليس لهم منهج فكري، ولا يتمسكون بأي دليل منطقي، وغاية ما يعتمدون عليه وينطلقون منه شهواتهم وأهواؤهم. وكفى بذلك ضلالا.

إنهم أشد الناس ضلالا وضياعا وبعدا عن الحق. آنك لو نظرت في الضالين، فإنك لا تجد أشد ضلالا، وأبعد عن طريق الحق والرشد، ممن جعل القائد الذي يقوده في حياته هواه وشهواته منفصلا عن هدى الله الذي أرشد إليه عن طريق أنبيائه، فعطل عقله وضميره. وقاده اختياره هذا إلى الظلم في العقيدة بالشرك وإلى الظلم في المعاملة لتغلب دواعي شهواته على الإنصاف. إنهم بتصلبهم في اتباع الهوى لا يمكنهم الله من ألطافه ولا يمن عليهم بالهداية.

۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ ٱلْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

---

[1] سورة الأنعام آية 91

[2] سورة يونس آية97

بيان معاني الألفاظ:

القول : القرآن.

يدرؤون : يدفعون.

اللغو : الكلام الباطل.

لا نبتغي الجاهلين : لا نريد أن نكون في زمرة الجاهلين.

بيان المعنى الإجمالي:

تابعنا إنزال القرآن عليهم بمتنوع هداياته، من عقيدة، ومن الأعمال الصالحة، ومن الحكمة، ومن القصص، عسى أن يحصل في مداركهم ما يوجب التذكر لتلكم الهدايات والعمل بها.

ثم ذكر القرآن بالذين أوتوا الكتب السابقة للقرآن، من اليهود والنصارى، الذين أقبلوا على تصديقك وآمنوا بكتابك وأخذوا بهداه. تسمع قولهم عندما تتلوه عليهم: آمنا بما سمعنا، إنه الحق النازل من عند ربنا. وبيننا وبين ما جاء فيه صلة قديمة فإنا نشأنا على إسلام الوجه لله الذي جاء به القرآن مؤكدا. ثم نوه من نواح سبعة -1) كَتَبَ الله ثواب إيمانهم بدينهم قبل مجيء الإسلام كما كتب لهم ثواب دخولهم في دينك فتضاعف أجرهم.

2) أنهم ترفعوا عن اللجاج والخصام.

3) يدفعون ما يؤذيهم بالإحسان في القول والعمل فيشفوا أنفسهم من الغضب ويعطون درسا عمليا للآخرين.

4) أن مواساة إخوانهم أصبحت خلقا لهم فهم ينفقون عن حب من الأموال التي يشعرون أنها رزق الله.

5) أنهم إذا مروا بمجالس اللغو أعرضوا عنها وعما يجري فيها.

6) يذكرون أنفسهم والآخرين: إنا مجزيون بأعمالنا، وأنتم مجزيون بأعمالكم .نحن نتارككم ولا نندمج فيكم، تبعا لما انقدح في نفوسنا .

7) إننا لا نريد أن نكون مع الجاهلين.

ثم نفس عن رسوله ﷺ: بأن كَرَّمَ نفسه الذي جعله يحب نشر الإيمان نشرا يهتدي به كل البشر ليس ذلك له، فإن الهداية بيد الله يحيط من يشاء بألطافه فيقبل على الإيمان، ويمنع تلك الألطاف عمن يشاء ؛ لأنه سبحانه أعلم بمن يهتدي بألطافه ومن هو مصمم على رفضها، لا ينتفع بها.

بيان المعنى العام:

51ـ ولقد وصلنا...لعلهم يتذكرون.

بكل تأكيد كما يشهد به الواقع قد بلغهم القرآن باجتهاد محمد نصا وبيانا. وصلنا لهم : أي إن القرآن كلام الله النفسي ما كان لأحد أن يطلع عليه، فلما أراد إظهاره،

وصله محمد توصيلا متتابعا، لا ينفصل التشـريع فيـه عـن العقيـدة ولاعـن القصـص الملهم للعبر، ووصل الترغيـب فيـه والبشـارة، بالترهيـب والإنـذار، وقـرع بـه آذان المشركين، رجاء أن يتم به التذكر، ويخرجهم من الغفلة إلى اليقظة.

52ـالذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون.

هذا القرآن يتطابق في العقيدة، وثوابت التشريع مـع الكتـب المنزلـة مـن قبلـه، ولـذلك تلقّاه كثير من أهل الكتاب من اليهود والنصـارى بـالقبول فـي مكـة كورقـة بـن نوفـل وصهيب، وفي المدينة ممـن وفـدوا علـى النبـي ﷺ فـأعلنوا إيمـانهم، وممـن كتمـوا إيمانهم حتى هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، ومن نصارى الحبشة.

53ـ وإذا يتلى...إنا كنا من قبله مسلمين.

سجل القرآن هذه الصورة الوضيئة لأهل الكتـاب الـذين قرنـوا إيمـانهم بـالقرآن عنـدما يتلوه عليهم النبي ﷺ، بقولهم:

أولا: آمنا بالقرآن. إعلان عام شامل، وعللوا ذلك بأنهم تيقنوا أنـه حـق بعيـد كـل البعـد عن الباطل. وأنه منزل من عند ربهم الذي يسعدهم بألطافه وببعثة الرسول الخاتم.

و **ثانيـا:** إنا لم نجد في القرآن غرابة، فإنا كنـا مـن قبـل إنزالـه مسـلمين وجوهنـا لله، فلما سمعنا القرآن تمكن الإسلام في قلوبنا بصفة أوضح.

54←55: أولئك يؤتون أجرهم...لا نبتغي الجاهلين.

نوه القرآن بأهل الكتاب الذين أعلنوا إيمانهم وعللوه بما ذكر في الآية السابقة، وفصل التنويه بهم في سبع خصال:

1) أنهم فازوا بمضاعفة الأجر: أجر لتعلقهم بدينهم قبل ظهور الإسلام، وأجر لتمسكهم بالقرآن، ودخولهم في الإسلام.

2) أنهم من الذين قويت عزائمهم فثبتوا على الحق، وصبروا على إذاية قريش، وإذاية قومهم، وقد حفظت كتب السيرة أنواعا من التعديات على أموالهم وعلى أجسامهم فما ضعفوا وما استكانوا. تحدوا في شمم وإباية. وبصبرهم تكونت منهم مع إخوانهم الكتلة التي مكنت لظهور الإسلام. فهم من السابقين الأولين.

3) ترفعوا عن جلافة المشركين، واعتزوا بما عندهم، فقابلوا سيئات المشركين بنقيض ما صنعوا، وبذلك حصنوا أنفسهم من أن تتزعزع بالإذاية، وقدموا مثلا حيا من الحلم في المعاملة.

4) اندمجوا في المجتمع اندماجا، كان من آثـاره أنهـم قلعـوا داء الشـح مـن نفوسـهم، وقوي توكلهم، فهم ينفقون أموالهم فـي مسـاعدة الجماعـة الإسـلامية التـي كـان عـدد المحاويج فيها غير قليل تبعا لمقاطعة المشركين لهم.

5) نفَذَ التأديب الإسلامي إلى عقولهم ومشاعرهم، فهم يستنكفون من سماع اللغو الذي لا فائدة فيه من الكلام الذي يعاند الحكمة، ومن باب أولى لا يصدر منهم اللغو والعبث.

6)عبروا باللفظ عن متاركة المشـركين، وعـدم رضـاهم بالانـدماج معهـم فـي اللغـو، نبهوا إلى أنهم يصدرون في سلوكهم هـذا تبعـا لعقيـدتهم أن الأعمـال يتبعهـا جزاؤهـا؛ فنحن آملون في جزاء ما قدمناه، وبالمقابل فإنكم ستجزون عن أعمالكم، فلا لغو.

7)لا نريد مخالطة المجرمين الذين يصرفون أوقاتهم في التعدي على الأعراض وفيما لا يفيد. نحن نتطلب العلم ومكارم الأخلاق. وهي تعليل لانفصالهم عنهم . ويحتمل أن يكون هذا الكلام كان يدور في ضمائرهم دون أن يصرحوا به. وسجله القرآن عليهم إتماما للتنويه بهم. واستئناسا بقوله تعالى في الآية: **ويدرؤون بالحسنة السيئة.**

56.إنك لا تهدي من أحببت...وهو أعلم بالمهتدين.

تكرر في القرآن ذكر ما يفيد أن النبـي ﷺ كـان حريصـا أشـد الحـرص علـى إيمـان البشر، وإنقاذ أنفسهم من الكفـر، ومـا يتبعـه مـن غضـب الله. وكـان القـرآن يسـليه بطرق متنوعة، ومن ذلك ما دلـت عليـه هـذه الآيـة. يقـول الله لنبيـه: لا تحـزن ولا تتكدر لامتناع من امتنع من تصديقك والإيمان بما جئـت بـه. إنـك لا تبلـغ هدايـة كـل من أحببت هدايته من الناس. وخاصة شدة أساه ﷺ لما كـرر الـدعوة لعمـه أبـي طالـب إلى آخر لحظة من حياته، وامتنـع مـن النطـق بالشـهادتين. وبعـض رجـال التفسـير يجعلون الآية واردة على هذا السبب، وإن كـان مؤداهـا عامـا شـاملا. فـإن الله وحـده هو الذي يساعد من يشاء هدايته، فيحيطه بالألطـاف فـي محيطـه وفـي أسـرته، وفـي فتح عقله ليتأمل ويـتعظ ويقصـي عنـه دواعـي الشـرك والإلحـاد، فينسـاق للإيمـان وللعمل الصالح. وهـو سـبحانه أعلـم بمـن رزق تفتحـا للخيـر وانتظامـا فـي عقلـه ومواهبه.

وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا
يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾
وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ
إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ
فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا

ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

التخطف : أصله أخذ الشيء بسرعة، أي يأسروننا.

نمكن لهم حرما : نيسر لهم حرما هم ثابتون فيه.

يجبي: يجلب.

كل شيء : كثير مما به صلاح حالهم، وقوام أمرهم من الثمرات.

بطرت : سفهت، وطغت. وكفرت بنعمة معيشتها.

أم القرى : القرية الكبيرة فيها، وهي مكة في جزيرة العرب.

المتاع: ما ينتفع به زمنا ثم يزول.

زينتها: يجملها.

بيان المعنى الإجمالي :

من تعلاتهم الواهية قولهم : إنا نخشى إن اتبعنا ما بلغتنا إياه من الهدى، أن تهجم علينا القبائل لإنكارنا آلهتهم، وعددنا قليل، وعدتنا لا تقاس بما عندهم، فنقع في أسرهم. رد عليهم القرآن بقوله : ما لهم لا يتأملون في الواقع ؟ لقد حميناهم بالحرم الآمن فوقر في نفوس العرب احترام ساكنيه، ويسرنا لهم الأرزاق تأتيهم مع أن أرضهم واد غير ذي زرع. ولكن قسوة الجهل جعلتهم لا يعلمون. لقد أهلكنا قرى عديدة كفرت بنعمة الله وتمردت، فأبدناهم إبادة ماحقة، فانقلبت مساكنهم إلى خراب دائم فلم يسكنها أحد بعدهم إلا بعض المسافرين يمرون بها على عجل. والأرض عندما يفنى سكانها جميعا كبارا وصغارا تعود إلى باريها، وينتهي استخلاف الإنسان فيها. إنه من عدل الله أنه لا يهلك قرية من القرى إلا بعد أن ينذر الناس في القرية الأم التي هي ملتقاهم، بواسطة رسول يبين لهم ويدعوهم إلى الإيمان. والسنة أنا لا نهلك القرى إلا بسبب ظلمهم. لقد اختل عندكم أيها المشركون سلم القيم. فكل نوع من أنواع متاع الحياة الدنيا لا يعدو أن يكون مؤقتا فانيا، وقيمته في جماله الظاهري. وإن ما أعده الله للمؤمنين خير من كل ما في الدنيا، وهو باق لا يلحقه الزوال. فأين عقولكم ؟

بيان المعنى العام:

57ـوقالوا إن نتبع الهدى...ولكن أكثرهم لا يعلمون.

تتضمن الآية نوعا من التعلات التي يزعم فيها المشركون أنها تحول بينهم وبين الدخول في الإسلام. قالوا إن عددنا قليل وتجهيزاتنا الحربية تضعف عن رد المعتدين علينا الذين يتغلبون علينا ويأسروننا لو اتبعنا دينك، وأظهرنا انفصالنا عن الشرك الذي هو قدر مشترك جامع بيننا وبينهم.

بين القرآن زيف ما تعللوا به: ووجه لهم سؤال إنكار وتوبيخ : ألم نيسر لكم :أن كان الحرم الذي تأوون إليه وتسكنون فيه، قد أنزلنا الأمن فيه، وأحللنا مهابته في قلوب جميع القبائل العربية، وبذلك وقر فيها حرمته. ألم تنظروا في النعمة الأخرى التي تنعمون بها: أن حرمكم بواد غير ذي زرع، ومع ذلك يسَّرْنا أن يجلب إليه كثير من الثمرات والخيرات. إن ذلك كله هو رزق قدرناه ويسرنا عواطف الناس له. ولكن إنكارهم وما تعللوا به أمارة جهل بالحقائق من أكثرهم، وإن كان بعضهم يدركه، ولعلهم الذين سيدخلون في دين الله إثر تأملهم في ذلك.

58ـ وكم أهلكنا من قرية...وكنا نحن الوارثين.

هددت هذه الآية المشركين وخوفتهم من غضب الله، مبالغة في نفي تعلاتهم. قرى كثيرة كانت قبلكم تكبرت وطغت فأنكرت نعم الله عليها، فعاقبناها عقابا كان من آثاره أن خربت مساكنهم خرابا أبديا. انقرضوا ولم يبق لهم عقب. ولا يسكنها إلا قليل من المسافرين عندما يمرون بها طلبا للكِنّ. دام خرابها لتكون عبرة للمارين والمستمعين للحديث عنها. وانقطعت السكنى فيها نهائيا لأن الله قد اشتد غضبه عليهم، وحرم كل الناس من سكناها لشدة غضبه على أهلها. فليحذر المشركون غضب الله.

59ـوما كان ربك مهلك...إلا وأهلها ظالمون.

بينت هذه الآية سنة الله في إهلاك القرى وإنزال العذاب بهم. فقال تعالى إن سنتنا الدائمة :أن لا نهلك القرى إلا بعد أن ننذرهم ببعثة رسولنا في القرية الكبرى من المجمعات، التي يأوي إليها سكان بقية القرى، ويبلغهم الحق بما يتلوه عليهم من آياتنا. ثم إنهم بعد سماعهم آياتنا وبيانها لهم يواصلون تصلبهم في الشرك الذي هو أعظم الظلم، والذي هو سبب الإهلاك. فالله عادل لا يظلم أحدا، ولكن الناس بإعراضهم عن الهدى يظلمون أنفسهم.

60ـوما أوتيتم من شيء ...أفلا تعقلون.

تعللوا بخوفهم من ذهاب ما هم فيه من أمن وما مكنهم من.أرزاق تجبى لهم من الأماكن القريبة والبعيدة. فبين لهم أنهم مخطئون في سلم القيم، إنهم لا يقدرون الأشياء تقديرا ينظر إلى المآل البعيد، فجميع ما أوتوه لا يعدو أن يكون مما يُسْتَمْتَعُ به زمنا قليلا ثم يذهب، ولا يبقى منه شيء متواصل. وما هو إلا بهرج ظاهري وجمال وزينة. إن ما أعده الله للمؤمنين هو خير من كل متاع الدنيا ولا يقاس بها. وأخص مميزاته أنه نعيم دائم في ذاته وفي الإحساس به. ثم سألهم سؤال استفهام توبيخي أليست لكم عقول تنظرون بها فتقدرون الفرق الكبير بين الوَقْتِيِّ والدائم، والكامل والناقص؟ .

أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

من المحضرين: مسوقون يجرون إلى العذاب.

التبرؤ: التنصل من التهمة.

الأنباء: جمع نبأ وهو الخبر عن أمر مهم.

عميت : خفيت من الحيرة.

التوبة :الإقلاع عن الشرك والندم عليه

بيان المعنى الإجمالي :

مقارنة بين الفائزين، والهالكين. أما الفريق الأول فقد وعدهم الله وعدا حسنا من الرضا وحسن الجزاء، فانشرحت له صدورهم واطمأنت به قلوبهم، وهم سيحصلون عليه قطعا. وأما الفريق الثاني فقد متَّعهم في الحياة الدنيا بما قدره لهم، ولكنهم كفروا به، وسيكونون يوم

القيامة حاضرين لنيل العذاب ولا يجدون منه مهربا. ثم فصل القرآن أنواعا من العذاب النفسي والجسمي؛ يناديهم الجبار نداء التبكيت والتوبيخ:

أولا: أين شركائي المزيفين الذين زعمتم أن لهم القوة والقدرة على كشف الضر عنكم فعلقتم آمالكم بهم؟ تقدم زعماء الشرك لفهمهم أنهم المعنيون بالسؤال: ربنا إن هؤلاء الكفرة الذين أضللناهم، يتحمل مسؤولية ذلك الذين أضلونا نحن من قبل، فنحن لا نعدو أن نكون قد نقلنا لهم ما أضلّنا به من قبلنا؛ وإنا نتبرأ لك منهم، فإنهم ما كانوا يعبدوننا.

ثم بكتهم ثانيا: إمعانا في التوبيخ والإذلال: استغيثوا بشركائكم. فاستغاثوا وناَدَوْهم ولكن لا مجيب. وانكشفت لهم منازلهم من العذاب. ولو كانوا يهتدون بإنذار الرسُل ما كانت هذه عاقبتهم.

و ثالثا: ذكرهم بموقفهم الحائر، يوم يناديهم فيقول لهم: ما ذا أجبتم المرسلين الذين بعثتهم إليكم لإيقاظكم وإنذاركم؟ وتتضاعف الحيرة فيتعطل فكرهم وألسنتهم، ولا يجدون جوابا، تتملكهم الدهشة فلا يسال أحد منهم غيره.

ويفتح القرآن لهم باب الفرج لينقذوا أنفسهم من الفضيحة والعذاب يوم القيامة. يعلمهم أنه هو التواب، وأنه لا يرد خائبا من آمن به وقرن العقيدة الحق بالعمل الصالح، فمن آمن وعمل صالحا يرجو رجاء مؤكدا أن يكون في زمرة الناجين الفائزين.

بيان المعنى العام:

61ـأفمن وعدناه وعدا ....من المحضرين .

مقارنة عامة بين المؤمنين والكافرين، تؤكد مضمون الآية السابقة. الفريق الأول من وعدهم ربهم وعدا يتضمن الخير والكمال والحسن، بما لا يلحقه أي نقص، ومُؤَكَّدٌ أنه سيناله وينعم به فهو مطمئن إلى التحصيل عليه ؛ والفريق الثاني في الموازنة من متَّعْتُهُ متاع الحياة الدنيا الموصوف بأنه عاجل زائل، ثم يؤتى به يوم القيامة مسوقا مجرورا مهانا إلى العذاب المقيم. فأي شبه بينهما؟

62ـويوم يناديهم...الذين كنتم تزعمون.

ذكرهم باليوم الذي ينادي أئمة الكفر المشركين فيسألهم، أين الشركاء الذين كنتم تزعمون أنهم آلهة يستحقون العبادة وشركائي في ملكي؟ إنه لا وجود لهم.

63ـقال الذين حق عليهم القول...ما كانوا إيانا يعبدون.

يأتي الجواب من هؤلاء القادة المضلين، عرفوا أنهم هم المقصودون بالسؤال، والذين حق عليهم ووجب أن يقولوا ما يعرف بالجواب عن السؤال. فماهم قائلون؟

افتتحوا جوابهم بنسبة أنفسهم إلى الرب استعطافا وإقرارا بالحقيقة "ربنا" ثم اشاروا إلى الذين كانوا معهم في المحشر من العامة الذين اتبعوهم في الحياة الدنيا وأغروهم فيها بالتصلب في الشرك، فاعترفوا بأنهم أغووهم، هؤلاء الذين أغوينا.

ثم حاولوا التنصل من تبعات إغوائهم فأضافوا: إن إغواءهم للتابعين لهم من العامة إنما كان بسب أن من تقدمنا أغوونا فنحن لقناهم ما استقر في أذهاننا من الغواية. ظنوا أن ذلك يرفع عنهم تبعة نشر الضلالة والمنع من الإيمان، وزادوا: نبرأ إليك ونتنصل ونثبت براءاتنا من شركهم فما كانوا يعبدوننا، وما كنا شركاء.

64ـوقيل ادعوا شركاءكم...لو أنهم كانوا يهتدون.

يواصل القرآن تفصيل مشاهد المشركين يوم القيامة رؤساء ومرؤوسين. يقال لهم والقائل هو الله أو من يكلفه بسؤالهم: ادعوا شركاءكم الذين كنتم تستنصرون بهم في الدنيا، اطلبوا منهم أن ينجدوكم اليوم. استغيثوا بهم كما كنتم تستغيثون. واستغاثوا بشركائهم في المحشر. وكانت النتيجة أنهم ما سمعوا منهم ردا ولا جوابا. وهو أمر طبعي جدا لأنه لا وجود لهم. وأحضر أمام أعينهم العذاب وتيقنوا أنه سيطبق عليهم. لو كانوا يهتدون في الدنيا بما أرسلنا إليهم من الرسل، وما مكناهم من قوة العقل التي تنفذ إلى الحوادث فتستخلص العاقبة لمن أراد أن يتذكر أو يهتدي، ولكنهم ما كانوا يرغبون في الهداية؛ فحق عليهم اليأس في هذا الموقف.

65ـويوم يناديهم ...ما ذا أجبتم المرسلين.

هذا نداء آخر يجري فيه ما قلناه في سابقه قصد به التقريع، والتعذيب النفسي. محصله أن المشركين يُسألون: ما كان جوابكم للرسول الذي بلغكم ما أنزل عليه من ربه وحذركم سوء عاقبة الإعراض وبشركم بالرضا والجنة إن آمنتم واهتديتم؟

66ـفعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون.

وقعوا في حيرة من أمرهم، عجزوا عن الجواب، لم يجدوا تعلة كما قالوا قبل ذلك إنهم كانوا متأثرين بمن كانوا قبلهم" **أغويناهم كما غوينا**". لم يجدوا جوابا مقبولا ولم يهتدوا إلى أي جواب حتى ولوكان فيه مغالطة: لأن التبكيت كان حاصرا لهم. هم كالأعمى الذي اختلطت عليه السبل فما أبعده عن الاهتداء! واستووا في الحيرة، فلا يسأل أحد منهم غيره.

67ـفأما من تاب ...من المفلحين.

هكذا شأن القرآن كلما زعزع المشركين وقنطهم، أتبع ذلك بفتح باب الفرج، فيحث على الإيمان والاستقامة . فأما من تاب فأقلع عن الشرك ورفضه رفضا قاطعا، وآمن بالله وما جاء به محمد ﷺ، وقرن الإيمان بالعمل الصالح كما بينه الكتاب والسنة، فإنه يرجو رجاء مؤكدا أن يكون في زمرة المفلحين الفائزين بحسن العاقبة.

وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الخيرة :التخير.

بيان المعنى الإجمالي :

وربك يا محمد هو المتفرد بالخلق، خلق الكائنات كلها، وقدر من ألطافه ما أعان به بعضهم وحرم منه بعضهم فأوكلهم إلى نفوسهم. وهو وحده الذي يختار من يشاء لما يشاء تبعا لحكمته، فيسمو به إلى مقام تحمل أعباء الرسالة وهداية العالمين لمنهج ربهم. إنه لا دخل للبشر في اختيار ما يحدث في الوجود. إن اختيارهم وحبهم أو بغضهم لا يؤثر شيئا. تنزه ربنا عن تصورات المشركين، وتعالى عما ينسبه له المشركون الجاهلون بحقيقة الربوبية .

ومما يحقق ذلك أن الله وحده هو الذي يعلم ما تخفيه الصدور من خير أو شر، وإيمان أو كفر، كعلمه سبحانه بأعمالهم المعلنة الظاهرة وما يخفونه منها. ويحاسبهم على ذلك.

والحقيقة التي يجب أن تكون حاضرة في العقول والأفئدة أن الله واحد لا شريك له، كل ما يدعونه من دونه زيف وباطل. تفرد بالحكم الحق في الدنيا، فأحكام غيره سبحانه أحكام ظاهرية ينفذ الله منها ما يشاء، ويسألون عنها .وأما يوم القيامة فلا حكم إلا لله، فجميع الخلائق تعود إليه ليحاسبهم عما قدموا وبذلك يظهر تفرده بالحكم سبحانه.

بيان المعنى العام

68. وربك يخلق ...وتعالى عما يشركون.

افتتحت الآية بما يفهم منه مقام قرب النبي ﷺ من العناية الربانية، إذ خاطبه بقوله: وربك، تأنيس له ورفع لمقامه بإبراز الصلة الوثيقة بينه وبين رسوله، وأنه يتقلب في الحياة تحت رعاية ربه .

أعلمه بالحقيقة التي ترد على المشركين ما ادعوه باطلا، وتثبت أن الله متفرد بالخلق، يخلق ما تتعلق به إرادته من الذوات ومن المفاهيم . فهو الخالق لكل إنسان، وهو الخالق لما يصدر عنه. وخلقه الشامل يصدر عن اختياره سبحانه، الاختيار النابع من الحكمة البالغة. فالله يختار من بين البشر من يعهد إليه بإبلاغ رسالته

للناس، ويصطفي لهذا المقام السامي من يستطيع تحمل الوحي الثقيل، ومن زكت نفسه وطهُر عمله حتى يكون تطبيقا حيا لما تضمنه الوحي. كان مما شغب به المشركون: لماذا لم يرسل الله من له مقام رفيع في المجتمع الجاهلي كالوليد بن المغيرة، واختار محمدا مع أنه لم يكن من أصحاب الثراء وصاحب القول النافذ في الدهماء ؟ فكان الرد على تصورهم هذا بقوله تعالى: **الله أعلم حيث يجعل رسالته**، وبهذه الآية "**وربك يخلق ما يشاء ويختار**". فهو الذي خلقهم جميعا وهو الذي يختار من بين خلقه من هو أقوم بأداء مهمة الرسالة ويختاره وحده. وليس لأحد من خلقه القدرة ولا حق الاختيار حتى يرشح لشرف الرسالة من يختاره. هم معزولون عن الاختيار عزلا كاملا. تنزه سبحانه عما يقوله المشركون من تصورات يستحيل أن يتصف بها سبحانه .فإنه في سموه وكماله أرفع من تصورات المشركين الهابطة من التجسيم ومن نسبة ما لا يليق به كالولد والبنات، والشريك والشفيع من الأصنام. أو أن يرعى من كانت قيمته فيما ملّكه إياه من متاع الدنيا وزخرفها.

69ـوربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون.

تأكيد لما تضمنته الآية السابقة، فهو الخالق وهو المتفرد بالاختيار. وهو سبحانه العليم بما انطوت عليه صدورهم من خير أو شر، ومن كفر أو إيمان. وبأفعالهم سواء ما بالغوا في التخفي به وما أعلنوه.

70ـوهو الله لا إله إلا هو ...واليه ترجعون.

تمثل الآية حاصل ما تقدم من إبطال للشرك، وتبكيت للفرق الضالة، وما أعلن من حقائق ونفي زيف المفترين، وتفرد الله بالخلق والاختيار، والعلم الشامل. فتعلن في وضوح أنه هو الله تفرد بالألوهية، ولا يشاركه فيها أحد. هو الحقيق وحده بالحمد والثناء في الدنيا، فما من نعمة إلا بفضله ومن رزقه. وهو وحده المختص أيضا بالحمد في الآخرة. يحمده كل لسان على عدله ورحمته، وعلى كمالاته التي تتكشف لجميع الخلائق في ذلك اليوم، فلا يجحدها الكافرون كما كانوا يجحدونها في الدنيا.

تفرد سبحانه بالحكم النافذ في الدنيا والآخرة، حكمه لا يرد ولا مثنوية فيه. وأما أحكام الناس في الدنيا فهم مسؤولون عنها. وإلى الله وحده المصير. تعودون إليه جميعا يوم القيامة. ولا يفلت واحد من الجزاء المقدر له يوم القيامة.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ

سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا
تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ
تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ
لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

السرمد: الدائم الذي لا ينقطع.

ضياء :نور.

الابتغاء من فضله: العمل لتحصيل الرزق.

نزعنا : أخرجنا من كل جماعة.

هاتوا برهانكم: قدموا حجتكم ودليلكم.

ضل عنهم : غاب عنهم غيبة الشيء الضائع.

يفترون : من الكذب والباطل.

بيان المعنى الإجمالي:

بعد أن هدم الشرك بالدليل وبالتناقض العقلي، عطف القرآن لإثبات تلك المفاهيم بمشاهد الكون. فسألهم سؤال توبيخ وإلزام: من الذي تعتقدون أنه يستطيع أن يخرجكم من ظلام الليل، لو قدر الله أن يكون الليل متواصلا إلى يوم القيامة لا يخترق ظلامه ضياءٌ؟ إن لم تنتبهوا إلى هذه الظاهرة الدالة على تفرد الله بالتصرف فما لكم لا تسمعون لما يوقظكم به القرآن؟ وفي المقابل لو جعل الله النهار متواصلا لا يقطع نوره ظلام ما دامت الحياة الدنيا، أتعتقدون أنه يوجد إله غير الله يأتيكم بليل تجدون فيه راحتكم. ما لكم لا تبصرون هذه الظواهر التي تثبت لكم تفرد الله بالخلق والتدبير.

إن من رحمة الله الشاملة، هذا التقدير المحكم الذي جعل لكم به الليل لتسكنوا فيه وتجددوا قواكم بعد أن امتصها المجهود العملي في الحياة. وجعل لكم النهار لتسعوا فيه وتطلبوا تحصيل ما يتفضل الله به عليكم من رزق. وفي كليهما يرجى أن يبعثكم فضله على الشكر. ذكرهم يوم يناديهم نداء التوبيخ والتعجيز: أين شركائي الذين كنتم تزعمون أن لهم حظا من الأمر؟ وهذا المشهد الذي يوجه فيه هذا السؤال

هو مشهد يُحْضِر الله فيه شهيدا صادقا ينزعه من كل أمة لا يستطيعون مغالطته، ويقول الله لهم قدموا حجتكم على ما كنتم تعبدون. لا حجة لديهم، وتيقنوا أن الحق لله وحده، وضاع عنهم كل ما كانوا يفترونه من الكذب عن قدرات معبوداتهم.

بيان المعنى العام:

71←72: قل أرأيتم إن جعل...أفلا تبصرون.

بعد أن أثار عقول البشر وحركها، وأثبت تفرده سبحانه في التصرف، بالحكمة في الدنيا والآخرة ليقروا بالوحدانية والبعث وصدق الرسول؛ لفت أنظارهم ليتأملوا في مشاهد الكون التي تمر متكررة على أسماعهم وأبصارهم، ولرتابتها غفلوا عن دلالاتها.

أيقظهم يا محمد بتوجيه سؤال لهم، وقل لهم: ما تعتقدون أنه سيحدث إذا واصل الله الليل يلفكم بظلامه بصفة دائمة إلى يوم القيامة، فلا ينقشع سواده ولو لحظة من عمر الدنيا. فهل يوجد إله غير الله قادر على أن يأتيكم بضوء يبدد الظلمة الدائمة؟ إذا بلغت بكم الغفلة فلم تنتبهوا إلى ما يجري عليكم متكررا كل يوم، وما يهدي إليه من دلائل على وجود الخالق وحكيم تصرفه، أفلا تحرككم الآيات القرآنية التي تخترق أسماعكم منبهة؟

و بالمقابل ما تعتقدون أنه يحصل إذا جعل الله النهار مضيئا بدون انقطاع في كل لحظة من عمر الكون؟ فهل تتصورون أنه يمكن لإله غير الله أن تكون له القدرة والتأثير فيأتيكم بالليل الضروري لحياتكم. ما لكم لا تدركون حكمة تقلب الزمان المتتابع على أنظاركم بتعاقب الليل والنهار، كأنكم عمي؟

73ـ ومن رحمته جعل لكم الليل....ولعلكم تشكرون.

صرحت هذه الآية بما تضمنته الآيتان السابقتان. فافتتحت بأن ما ينفع الناس من تقلب الليل والنهار هو من رحمته التي شملت كل شيء. راعى سبحانه ما ييسر للناس حياتهم بذلكم النظام الذي أجرى عليه حركة الكواكب، وما يتولد عنها. راعى سبحانه حاجتكم فجعل الليل لتجدوا فيها راحة وسكونا، وجعل النهار لتنشطوا فيه وتعملوا راغبين أن يمدكم الله بما قدر لكم من أرزاق وييسرها لكم. وعسى كل ذلك أن لا يحجب عنكم شعوركم بفضل الله فتنطلق ألسنتكم بشكره.

74ـو يوم يناديهم...كنتم تزعمون.

يتواصل يوم القيامة تقريع المشركين كلما تحول المشهد، فيتجدد نداؤهم بصوت بين يسمعونه ترعد له فرائصهم، ويقال لهم أين الشركاء الذين كنتم تزعمون أن لهم حظا مع الله في الكون؟

75ـ ونزعنا من كل أمة...وضل عنهم ما كانوا يفترون.

صرحت الآية أن الله يخرج من كل أمة شهيدا يميز بينه وبين بقية الناس، ينزعه منهم يعرفهم ويعرفونه، يشهد عليهم شهادة صدق بما كانوا عليه في الدنيا. والظاهر أنه رسول كل أمة. ثم يخاطبون خطاب التعجيز والتقريع والإلجاء فيقال لهم: قدموا حجتكم ودليلكم على ألوهية ما كنتم تزعمونه من أصنامكم التي اتخذتموها شركاء لله .

هم لا يستطيعون التبرؤ من الشرك لأن الشهيد حاضر أمامهم ما غاب عنه شيء من مواقفهم، وما كانوا عليه من شرك، وهم يعلمون ذلك. ويوجه السؤال التعجيزي من رب العزة بقوله: قدموا دليلكم الذي كنتم تستندون إليه في إعراضكم عن الذكر والتعلق بالشركاء. وقد أحيط بهم فلا مفر ولا مخرج، ولا برهان ولا شبهة. وحصل لهم العلم اليقيني في ذلك اليوم بعد أن كابروا فيه طيلة حياتهم الدنيا. تيقنوا أن الحق لله، وكل ما نسب لغيره باطل. وضاع عنهم كل ما تمسكوا به في الدنيا من أوهام، فلم يجدوا حجة تنقذهم.

۞ إِنَّ قَـٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَـٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ

يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

بغى: اعتدى.

تنوء : تثقل.

العصبة: الجماعة من الناس .

نصيبك : حظك.

القوة :ما يستعان به على إنجاز الأعمال الصعبة.

الجمع : الجماعة من الناس.

زينته: ما يتجمل به ويتباهى به من المراكب والثياب والأتباع.

ويل : صيغة تطلق للتعجل المشوب بالزجر.

الخسف: انقلاب بعض ظاهر الأرض إلى باطنها.

الفئة: الجماعة الناصرة التي يعود إليها الطالب للنصرة.

البسط: السعة والكثرة.

يقدر: يقلل ويضيق.

بيان المعنى الإجمالي :

عرض القرآن في قصة قارون نموذجا آخر من المستكبرين الضالين. هو نموذج الذين غرهم وفرة المال، وسعة الرزق. قارون رجل من قوم موسى خلصه من ظلم فرعون. وعظمت ثروته، و وسع الله عليه في الرزق، ولكنه اعتدى على قومه، واستخف بهم. اختزن من المال الشيء الكثير وشح به، وملأ به خزائن أحكم إقفالها. وقد تجمع له من مفاتيح تلكم الخزائن ما لا يستطيع حمله العصبة القوية، أي ما يقارب خمسة عشر رجلا. أعلن عن سعادته بما جمعه من أموال وازدرى كل شيء غير المال الذي ملك عليه حياته. نصحه فريق من قومه وقالوا له : يا قارون لا تجعل السعادة محصورة في المال فيستولي عليك الفرح به وتنسى كل ما أنت مطالب به من الكمالات. فإن الله يبغض الفرحين بالمال على هذه الصورة. يا قارون اجعل نصيبا مما آتاك الله ذخرا لك تجده يوم القيامة. ولا تحرم نفسك مما يخوله لك المال من متاع الحياة الدنيا. والتزم الإحسان في كل ما تقوم به في عبادتك وعلاقاتك الاجتماعية وفي صلتك بالكون. واحذر من التصرف الذي يترتب عليه فساد في الكون، إن الله يبغض المفسدين ويحرمهم رحمته.

انتفخت أوداجه لسماع هذا النصح، فأجـابهم فـي صـلف وكبريـاء: مـا حصـلت لـي الثروة التي جمعتها إلا بفضل مواهبي وقدراتي على تنمية الأموال.

ما أشد جهله: ألم يعلم أن الله قد سلط عقابـه علـى مـن سـبقه ممـن كـان أقـدر منـه، وأكثر أموالا؟ فلو لم يحطـه الله بألطافـه لضـاع دينـاره الأول بمجـرد مـا حصـله. إن الله عندما تتعلق إرادتـه بعقـاب المجـرمين لا يـوقفهم للسـؤال عـن جـرائمهم، ولكـن يعاجلهم بالعقوبة الماحقة.

تحدى الناصحين وخرج في موكب جمع من ضروب الزينـة مـا يلفـت الأنظـار. وتـأثر بعض الذين كان حظهم مـن الإيمـان ضـعيفا وتعلقهـم بالـدنيا قويـا، وقـالوا مُكْبِـرين لقارون متمنين أن يبلغوا ما بلغه من الثراء. إن حـظ قـارون وتوفيقـه فـي جمـع المـال لعظيم.

ويتحقق القضاء المبرم، فإذا قارون، ومن كـان فـي موكبـه، وداره، تفـتح الأرض فمهـا فتبتلع الجميع. وإذا هم أثر بعد عين. وتحول المعجبـون بثرائـه الـذين كـانوا يـودون أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون، إلـى وضـع مـن النـدم شـديد. اسـتيقظوا مـن غفلـتهم وقالوا : إنه لأمر عجب

إن التصرف في الأرزاق هو بيد الله وحده، يوسع علـى مـن يشـاء ويضـيق علـى مـن يشاء. إن المهم أن يكون الإنسان في رعاية ربه ولطفـه، فلـولا أن الله لطـف بنـا ومـن علينا فلم نَنْسق لقارون لكنا معه في بـاطن الأرض . إنـه لأمـر عجـب يوجـب الرضـا بما قسم الله، وأن الكافرين خاسرون في النهاية.

بيان المعنى العام:

76ـ إن قارون كان...إن الله لا يحب الفرحين.

عرضت السورة نموذجين من البشر الذين اغتـروا بـالقوة التـي كـانوا يتصـرفون بهـا في الحياة. أما الأول فهو نمـوذج المـتحكم بالسـلطان الـذي يسـتهين بحقـوق البشـر، ويخضعهم لطاعته، ويسلبهم الحريـة والعـزة. وعرضـت السـورة صـورة لهـذا فـي فرعون. وأما النموذج الثاني فهو الذي يطغى بمـا جمـع مـن أمـوال، ويسـتهين بالقيمـة البشرية للناس، وينخزل عنده سلم القيم في أمر واحد، هـو المـال. فـالفقير لا قيمـة لـه، والثراء مسوغ ومبرر لكل ما يريـد. وعرضـت السـورة هـذا النمـوذج فـي قـارون. وقارون اسم أعجمي هو" قورح" في التوراة

اعتنت الآية بعرض ملامح قارون من ثلاث نواح:

الناحية الأولى نسبه: أنه كان من قوم موسـى، يجمعـه بموسـى نسـب. فحسـبما تـذكره التوراة هو ابن عمه، وقيل هو عمه، وقيل ابـن خالتـه. وهـي فـروض لا تسـتند لـنص

يقيني. والحكمة في الوقوف في حدود ما ذكره القرآن: أنه من قومه نشأ في وسط بني إسرائيل، وأنقذه الله معهم من ظلم فرعون بقيادة موسى، وذلك مما يفرض أن يكون مخلصا لما جاء على لسان موسى ﷺ، متعاونا مع الجماعة التي قاست من استبداد فرعون ما قاست. ولكنه كان على نقيض ما يفرضه الوفاء .

الناحية الثانية نفسيته :استولى الكبر على قلبه ومشاعره، الأمر الذي سوغ له أن يظلم قومه، فاستخف بحقوق قومه، وسخر من **ضعفائهم**، وتجاوز ذلك إلى ضروب من الاعتداء تُوَهِّن قومه. بعد الاضطهاد الفرعوني لبني إسرائيل، وإذلالهم حسبما فصلت السورة شيئا منه. فأعزهم الله بموسى. وعمل قارون بما أوتيه من مال على تكوين خلية مناوئة لموسى. شأن المال القذر في شراء الضمائر، وحبك الدسائس. وخرق الشريعة.

الناحية الثالثة ثراؤه: فتحت له أبواب الرزق، فنمت ثروته نماء كبيرا، وكان يكنز ماله، ويشح به، ولا يجعل منه نصيبا للمحاويج، ومصالح الأمة. يدل لذلك تعبير القرآن عن ماله بكنوز" جمع كنز" المال المحفوظ المخزون. وجسمت الآية كثرته بأن الخزائن التي كان يحفظ فيها ماله، ويقفل عليه بمفاتيح؛ أن الجماعة القوية من الناس "**العصبة**" ما بين عشرة وخمسة عشر يثقل عليها حمل مفاتيح خزائنه، فما بالك بالمحتويات من الذهب والفضة والنفائس .

هذه الشخصية التائهة بمالها المعتدية بثرائها، المنعزلة عن الأمة بشحها، قد استولى عليها حب المال، فكان قارون يشعر بأنه جمع السعادة من أطرافها، هو مزهو بماله، كل القيم تافهة في نظره، بريق المال أخذ عليه فكره، وروحه، وعلاقاته الاجتماعية. هو أشد ما يكون الإنسان فرحا بوضعه لما يمكنه المال من تحقيق شهواته، والتحصيل على ملذاته.

تقدم إليه الصالحون من قومه بالنصح والإرشاد، لمَّا أهمهم أمره، وخافوا عليه الهلاك من الانحراف الذي تمكن منه وأعماه عن المصير السيء الذي سينتهي إليه أمره .قالوا :لا تفرح فرحا ينسيك ربك وواجباتك، وحقوق أمتك عليك، و يحجب نفسك عن الكمالات، وينزل بك إلى حضيض الشهوة واللذة العاجلة. إن حصر همك في المال والإمكانات المتاحة منه وفرحك بذلك يعرضك إلى بغض الله لك. فإن الله لا يحب المفرطين في الفرح.

77ـ وابتغ فيما آتاك الله ....إن الله لا يحب المفسدين.

وصل الناهون عن المنكر الذي كان عليه قارون، وصلوا ذلك بأمره بالمعروف: اطلب فيما آتاك الله من أموال وثروة، ثواب الدار الآخرة. لا نقصد أن تنخلع عن

الاستمتاع بنصيبك المقدر لك من مباهج الحياة ونعيمهـا. ولكـن اجمـع بـين التـنعم بمـا آتاك الله من خيرات، والاستعداد ليوم القيامة.

هؤلاء الذين سجل القرآن موعظتهم لقارون هم يمثلـون الصـورة التـي علـى الـواعظين أن يأتسوا بها، فالجمع بين ما هـو حـلال يلائـم الإنسـان لتكـون حياتـه الـدنيا أرفـق وأمتع، وبين ما يدخر ليوم القيامة من القربـات. هـو مـنهج الوسـط والاعتـدال الـذي جاءت به الشرائع السماوية ويرضى الله عنه.

و أضافوا إلى موعظتهم التذكير بالقاعـدة التـي تسـمو بالأعمال[الإحسـان] الـذي كتبـه الله على كل شيء. أرشدوه كي يراعي في نشاطه الإحسـان فـي العبـادة وفـي علاقاتـه بالناس، وفيما يقوم به من أعمال، وفي التزاماتـه. ليكـون شـاعرا أن عليـه إنجـاز مـا ينجزه على أفضل ما يمكنه أن ينجزه. وكما قرنـوا فـي مـوعظتهم الأولـى بـين الـدنيا والآخرة فكذلك ألحقوا بموعظتهم أن يحذر مـن الفسـاد فـي الأرض، باستحضـاره أنـه مستخلف فيها مسؤول عمـا يحدثـه. وأكـدوا نصـحهم بقاعـدة عامـة: إن الله لا يحـب المفسدين. ومن شأن المؤمن أن يحـذر ممـا يبغضـه الله، الـبغض الـذي يترتـب عليـه الحرمان من الرحمة والتعرض للعقاب.

78ـقال إنما أوتيته على علم ...عن ذنوبهم المجرمون .

ازدادت شخصية قارون وضوحا من جوابه لواعظيـه. بـدا مغـرورا كأشـد مـا يكـون الغرور. مزدهيا بملكاته ونباهته في تصريف الأمـور . قـال لهـم: إن مـا جمعتـه مـن أموال، ما حصل لي ذلك إلا لأني أوتيت من الـذكاء والفطنـة، والعلـم بطـرق التنميـة، ما فتح لي أبواب الثراء مشرعة .يرد قولهم "**ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة**.

يعلق القرآن على موقفه: لقد كشف جوابه عن جهلـه، وعَجَـبٌ منـه ذلـك. أجهـل ولـم يعلم أن الله قد دمر تدميرا مهلكا فيما مضـى مـن التـاريخ مـن كـان أشـد قـوة مـن قارون، في الفكر والتدبير، وفي المحيط المساعد بكثـرة الأتبـاع والأشـياع. ومـن ذلـك ما انتهى إليه أمر فرعون، رغم مـا كـان تحـت سـلطانه مـن ملـك مصـر بأرضـها وأنهارها، والجيوش والأعوان التي كانت رهـن إشـارته. وكـان قـارون حاضـرا لمـا ابتلعهم البحر في لحظة وأصبحوا أثرا بعد عين. وختمـت الآيـة بتهديـد كـل المجـرمين المتمردين على الحق .إن الله يسلط علـيهم عقابـه المـاحق فـي لحظـة، دون أن يـوقفهم لسؤالهم عما اقترفوه.

ذكر القرآن في عديد الآيات أنه يسأل المذنبين والكافرين يوم القيامة، يوم يقفون بين يديه يسألهم عما قدموا في الحياة الدنيا، وذلك سؤال توبيخ وتعذيب نفسي وإهانة. وأنه سبحانه عندما تتعلق إرادته بإهلاك المجرمين واستئصالهم، فإنه يأخذهم بغتة ولا يسألهم.

79ـفخرج على قومه...إنه لذو حظ عظيم.

بلغ به التحدي والزهو أنه أعقب ما سمعه من المـواعظ، بمـا ذكـر مـن رده المتعـالي، وأضاف إليه أنه قام باستعراض أمام الناس جمع فيه مـا يخلـب الأنظـار مـن ضـروب أنواع الزينة، من اللباس الفاخر، والخيـول المطهمـة، والخـدم والأتبـاع. وسـار موكبـه يسحق المحـرومين المستضـعفين ويعقّـدهم. وسـجل القـرآن أثـر ذلـك فـي نفـوس المتعلقين بزخارف الحياة الـدنيا، المتلهفـين علـى النيـل مـن مباهجهـا مـن ضـعاف الإيمان. عظم في عيونهم جمال وبذخ الموكب القـاروني، انبهـروا فجمعـوا بـين تمنـي أن يبلغوا من الثراء ما بلغه قارون، لـم يسـألوا مـن أيـن حصـل علـى هـذا المـال، ولاعن تصرفه فيه، وقالوا : إنه صاحب بخت إن ما قسم له من المال حظ عظيم.

80ـوقال الذين أوتوا العلم...ولا يلقاها إلا الصابرون.

ويظهر في المشهد من الجانب الآخر في مقابلة هـؤلاء الـذين اسـتهوتهم زينـة الحيـاة الدنيا، من كانوا على حظ من العلم يكشف لهـم الحقـائق، ويسـمو بهـم عـن الظـواهر الخادعة. سمعوا تعليق المستضعفين على الموكب الذي كلـه تفـاخر وكِبْـرٌ، فقـالوا لهـم: ويلكم تعجبا من إكبارهم لقـارون وحظـه، وزجـروا لهـم حتـى يسـتفيقوا ولا ينخـدعوا. اعلموا أن ثواب الله الذي أعده للمحافظين علـى شـرعه الملتـزمين بتطبيـق مـا بلغهـم رسوله، الذين استقر الإيمان في قلـوبهم وجـرت أعمـالهم علـى مـنهج الصـلاح، هـو خير لأنه دائم. ولأن رضا الله أجل ما تسعى إليـه همـم النـاس. ومـا يفـوز بـذلك إلا الصابرون الذين يواصلون المسيرة بعزيمـة ثابتـة يتغلبـون بهـا علـى الشـر، وعلـى دواعي الشهوة.

81ـفخسفنا به وبداره.. وما كان من المنتصرين.

إثر هذا الاستعراض الـذي فـتن المستضـعفين، وتجلـت بـه قـوة أهـل العلـم ونفـاذ بصيرتهم عوجل قارون بالعـذاب، دون أن يوقـف للسـؤال .ففـي لحظـة تفـتح الأرض بطنها فتبتلع قارون وأتباعه، وداره وأموالـه. وختمـت الآيـة مصـرحة بـالفراغ الـذي أحاط بقارون في النهاية؛ إنه لم يجد أحدا من الـذين كـانوا يلـوذون بـه، الـذين أعـدهم لينتصر بهم على موسى. فلم تنفعه شيعته، كمـا أن الهزيمـة أطبقـت عليـه، ومـا كـان من المنتصرين.

82ـوأصبح الذين تمنوا مكانه...ويكأنه لا يفلح الكافرون.

ابتلعت الأرض قارون وتوابعه، ويعرض النص القرآنـي مشـهد الـذين كـانوا معجبـين بثرائه المتمنين اللحاق به، وقد رأوا بـأعينهم هـوان قـارون وعاقبتـه الخاسـرة. نـدموا

على فترة الضعف التي جعلـتهم يتمنـون أن لـو كـانوا علـى المسـتوى الـذي عليـه قارون. ثم عبر القرآن عما قـالوه بلغـتهم والـذي مـؤداه بالعربيـة: ويكـأن الله يبسـط الرزق لمن يشاء ويقدر. وكلمة "ويكـأن" صـيغة عربيـة غيـر شـائع اسـتعمالها. وردت في هذه الآية كما حفظت في بعض النصوص العربية.

ولعلماء اللغة في توضيح تركيبها ثلاث طرق:

الطريقة الأولى: طريقة سيبويه والخليـل بـن أحمـد والزمخشـري، أنهـا مركبـة مـن كلمتين [وي] –[كأنه] وي– اسم فعل كلمة تنبـه علـى الخطـأ وتنـدم. شـعر المـأخوذون بزينة قارون وبما صرحوا به فتبين لهم خطؤهم ونـدموا . وكـأن أداة تشـبيه: مـا أشـبه الحال بأن الكافرين لا ينالون الفلاح. والتشبيه مستعمل بمعنى اليقين.

الطريقة الثانية : أنها مركبة من ثـلاث كلمات[وي]:أعجـب[ك] أداة خطـاب تنبـه علـى من قصد المتكلم توجيـه الكـلام إليـه، كالكـاف اللاحقـة بأسـماء الإشـارة– ذاك تلـك أولئك. أن المؤول ما بعدها بمصدر. أعجب يا هذا من بسط الله الرزق لمن يشاء .

الطريقة الثالثة: أنها مركبة من أربـع كلمـات: [وي] واصـلها ويـل حـذفت الـلام– [ك] كاف الخطاب، و فعل[أعلم] مقدر، و[أن] ويلك أعلم أن الله يبسط الرزق.

إنه وإن اختلفت التخريجات الثلاثـة فـي التفصـيل، فـإن المعنـى واحـد أن المنبهـرين بموكب قارون ندموا على ما جـرى فـي نفوسـهم، وانتبهـوا إلـى حكمـة التصـرفات الإلهية، مما يحتم الرضا بما قدره الله. فوراء الظواهر خفايا لا يعلمها إلا هو.

إن الله يجري بحكمتـه التـي تفـوق قـدراتنا العقليـة، أمـر التوسـعة فـي الأرزاق، أو التضييق فيها. والكل عبيده فلا تدل السـعة علـى القـرب والرضـا، ولا يـدل التضـييق على الإقصاء والغضب. فعلى العبيد الرضا بما قسمه لهـم. الـذي يظهـر بالصـبر عنـد الضيق، وبالإنفاق الراشد مع التوسـعة. وسـؤال الله مـن فضـله فـي جميـع الأحـوال. والمهم أن لا يُترك الإنسان لنفسه، ويحرم ألطاف ربه. عبـروا عـن هـذا بقـولهم : لـولا أن من الله علينا بألطافه فحفظنا من التشيع لقـارون، لابتلعتنـا الأرض معـه .إنـه لأمـر عجب كيف ينتهي الكفر بأهله إلى الخسـران المبـين . فقـارون جمـع بكفـره ومناواتـه لموسى بين ضياع ماله وما ملك، وبين سوء العاقبة وغضب الله.

تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ

لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ مَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ وَمَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا
كُنتَ تَرۡجُوٓاْ أَن يُلۡقَىٰٓ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبُ إِلَّا رَحۡمَةً مِّن رَّبِّكَۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا
لِّلۡكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعۡدَ إِذۡ أُنزِلَتۡ إِلَيۡكَۖ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ
وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ كُلُّ شَيۡءٍ
هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٨٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الدار: محل السكنى.

الآخرة : التي لا دار بعدها فهي الدائمة.

لا يريدون: لا يفعلون.

العلو: التكبر.

العاقبة: النهاية الخيرة. وتطلق على يوم القيامة.

يلقى إليك الكتاب : يوحى إليك القرآن.

ظهيرا: معينا.

وجهه: ذاته العلية المنزهة عن كل تشبيه.

بيان المعنى الإجمالي:

ميز القرآن موطن استقرار المنعمين، تلك الدار الآخرة فأشار إليها كأنها حاضرة مشاهدة، رفيعة المستوى يفوق نعيمها كل تصور؛ وحدد المستحقين للخلود فيها بأنهم الذين طهروا أنفسهم من الكبر، وأفعالهم من الفساد. إن العاقبة الصالحة يوم القيامة يختص بها الذين تمكنت التقوى من قلوبهم.

يأتي الناس يوم القيامة معهم سجل أعمالهم، فمن كان معه سجل الحسنات، فإن الفضل الإلهي يوفر له أضعاف ما قدم، ومن جاء مصحوبا بالسيئات فعدل الله يجزيه على نحو ما قدم.

إن الله الذي أوجب عليك يا محمد تلاوة القرآن وتبليغه للناس وتبيينه وشرفك بذلك، سيبعثك يوم القيامة فتعود إليه لتنفرد بجزاء لا يعلم حدوده إلا الله. إن كل ما دعوت إليه هو الهدى بشهادة الله الذي تفرد بالعلم الصادق. وهو العالم أيضا بمن تمكن منه الضلال البين. الله هو الذي يختار من يحمِّله الرسالة وليست بالتمني، فأنت يا محمد ما كنت منتظرا أن تتلقى الوحي وأن تنزل عليك آيات القرآن. ولكن

هي رحمة ربك باختيارك لهذه المهمة، وهي رحمة ربك فيما أنزل عليك من الهدى المنقذ للناس من الحيرة والشك والضلال، وباختيارك لتبين لهم الحق والطريق المستقيم. ولذا فلا تكونن عونا للكافرين ولو بمصانعتهم أو السكوت عن ضلالاتهم. وتحصَّنْ من مكرهم وما يروجونه، حتى لا يستطيعوا أن يحولوا بينك وبين ما أنزل عليك من العمل بآيات القرآن وتبليغه وتبيينه للناس. وواصل دعوة الناس إلى التوحيد الخالص، وواصل جهادك لمقاومة كل ظاهرة شرك، وتحصَّنْ من مسار المشركين ولاتكن معهم لا في صغيرة ولا في كبيرة من عقائدهم وفعالهم.

ليكن أمرك واضحا يا محمد فلا تتقرب ولا تعبد ولا تتوسل ولا تدع إلها آخر غير الله، فإنه لا يوجد إله حق إلا هو وما عداه زيف وباطل. ذاته تفردت بالبقاء، وما عداه فان، هالك زائل. هو الذي تفرد بنفاذ أحكامه لا راد لحكمه ولا معقب. إنكم جميعا ستعودون يوم القيامة إليه، ليجزيكم عما كنتم تعملون بالقسط، مع واسع الرحمة للمتقين.

بيان المعنى العام:

83ـ تلك الدار الأخرة نجعلها....والعاقبة للمتقين.

بعد عرض الحالة المضطربة في قصة قارون، ومآله، واستفاقة المأخوذين بمظاهر تَرَفِهِ وزينته. ينتقل القرآن إلى عرض صورة الاستقرار والأمن والفوز. فيفتتح الآية باستحضار الصورة المتميزة الرفيعة: الدار الدائم نعيمها" تلك الدار" في مقابلة الدار التي ابتلعتها الأرض سريعا فهوت في القاع ما تركت أثرا. تلكم الدار قد هيأها الله وجعلها سكنا يقيم فيه الذين من صفاتهم، أنهم كانوا لا يتكبرون. ولا يفسدون في الأرض.

ينطلق داء الكبر من تصور خاطئ يظن معه المتكبر أنه على مرتبة عظيمة هو بها أعلى من غيره، إما بجاهه أو بماله أو بجماله، أو بعلمه وذكائه، ونحو ذلك من الأوهام التي تتفاعل في النفس فتحجب عن النظر النقائص وتضخم ما يظنه صاحبه كمالا، ثم يبرز ذلك التصور في الحياة ترفعا على الآخرين واحتقارا لمن يظن أنهم أدنى منه .جمع القرآن بين الدافع الداخلي، وبين الموقف العملي، فعبر عنهما معا بالإرادة. الذين لا يريدون في الأرض علوا. لا تتحدث بها نفوسهم لصفاء عقيدتهم، ولا يتصرفون تصرف المتكبرين.

والذين يستحضرون دوما أنهم مستخلفون في هذه الأرض، مسؤولون عن عمارتها وتطويرها إلى ما هو أحسن. ولا يتم عمران الكون إلا بالحفاظ على القيم التي بها يتم التعاون بين البشر، من صدق وأمانة وجد والتزام بما شرعه الله في التعامل بين الناس.

إن النهاية الصالحة السـعيدة مقصـورة علـى الـذين حلـت التقـوى قلـوبهم، فطوعـوا نشاطهم لما يحققها.

84ـ من جاء بالحسنة...إلا ما كانوا يعملون.

فصلت هذه الآية العاقبة التي يفوز فيهـا المتقـون. إن مـن يقـدم علـى ربـه، وسـجله عامر بالأفعال الحسنة بميزان الشرع يمكنه الله من جزاء هو خير مما قدم.

إن فعل الخير في الدنيا تترتب عليه آثاره صلاحا في الكون ونفعا للمحسن ولغيره.

إن هذه الآثار الطيبة مقومة عند الله بميزان العـدل، وحقـق أن جزاءهـا سـيكون خيـرا منها. إذ هو جزاء الكريم،

الرؤوف الرحيم . وفي المقابل فإن مـن كـان سـجله عـامرا بالسـيئات وبالشـر، فمـن المحقق أنه يلقى جزاءه مساويا لما قدم من أعمـال، فيجـري عليـه الحكـم العـادل لـرب العالمين وبرحمة الله يكون الجزاء بمقدار السيئة دون زيادة.

85ـإن الذي فرض عليك القرآن...ومن هو في ضلال مبين.

أعلنت الآية السابقة أن تقدير الله للحياة الـدنيا لـيس عبثـا، بـل سـتنتهي الحيـاة إلـى جزاء من جنس ما قدمه الإنسان، وفضل الله يثيـب عـن الحسـنة مـا هـو خيـر منهـا، وعدله يجـزي عـن السـيئة جـزاء مسـاويا. والحسـنات لا تـدرك إدراكـا عامـا إلا بالشرع، وبالمقابل فإن السيئات بصفة عامة متوقفة علـى الـوحي. وبهـذا يكـون فضـل رسول الله ﷺ على البشرية فضلا يجمع بـين الأمـر والبيـان للمعـروف، وبـين النهـي عن المنكر وتقبيحه. فخاطب الله نبيه منوها بشـرف دوره فـي تحمـل القـرآن وتبليغـه، خاطبه بقوله إن الذي حمّلك وعي القرآن وتبليغـه والعمـل بـه وتلاوتـه علـى مـا فـي ذلك من صعوبة وثقل، ليجزينك جزاء يسـمو عـن التحديـد ويتجـاوز الوصـف. وإنـه لرادك بعد أن تكمل مهمتك إلى معاد[يوم القيامـة] تتفـرد فيـه بـالجزاء الـذي لا يرقـى إليه أحد غيرك. وعقبت الآيـة علـى التكـريم الـذي اخـتص بـه النبـي ﷺ بـأمره أن يجهر بذكر الحقيقة التي ينازع فيها المشركون، قل لهـم :إنـه فـي هـذا اليـوم سـيظهر الله علمه، فيتبين من حمل معه الهدى للناس، وفتح بصـائرهم وألـف بيـنهم، ومـن هـو منغمس في الضلال، مغمور في مسالك الضـياع، ومـع وضـوح ضـياعه هـو سـادر في ضلاله. وفي ذلك تعريض بالمشركين ليقلعوا عما هم عليه.

86ـوما كنت ترجو...فلا تكونن ظهيرا للكافرين.

إن الاصطفاء لحمل الرسالة، هو أمر من سـر القـدر الحكـيم فالـذين تطـاولوا لحمـل الرسالة مخطئون بعيدون عن تصور مهمة الرسالة، فإنـك يـا محمـد مـا كنـت منتظـرا

أن يشرفك الله بوحي كتابه إليك، ويحملك القـول الثقيـل. ولكـن تـم ذلـك برحمـة مـن ربك. كيف تم ذلك؟ هو مما لا تبلغ العقول إدراكه. ولما كنـت بهـذه المنزلـة عنـد ربـك فإياك إياك أن تكون عونا للكافرين، تصانعهم أو تسكت عن أي شيء من باطلهم.

87ـ ولا يصدنك عن آيات الله...ولا تكونن من المشركين.

تضمنت الآية نهيا وأمرا. أمـا النهـي، فهـو نهـي مسـلط علـى الكـافرين لا يصـدنك الكافرون، فيقيمون من المعوقات والحواجز مـا يصـرفونك بـه عمـا أنـزل إليـك مـن القرآن، تبليغا وعملا. وهذا الظاهر غيـر مـراد قطعـا، والمقصـود نهـي النبـي ﷺ أن يتأثر بما يدبره المشركون وما يصنعونه ليصـرفوه عـن آيـات القـرآن بعـد أن أنزلهـا الله عليه. وهذا لا يتصور أن يقع من النبي ﷺ حتى يتوجـه إليـه النهـي، فتكـون الآيـة تبعا لذلك مثبِّتَةً له ﷺ على المضي في طريقه، تُيَئِّسُ المشـركين مـن كـل تـأثير عليـه. وأما الأمر فهو أمره أن يواصل إبلاغ الـوحي ودعـوة النـاس إلـى عبـادة الله وحـده لا شريك له . واقطع كل صلة مع المشركين فليس بينـك وبيـنهم مـع شـركهم مـا يقربـك منهم.

إن هذه الآيات قد تلاها النبي ﷺ وأذاعها في النـاس، وسـمعها المسـلمون فاسـتبان لهـم أن القطيعة مع المشركين أمر جازم واضح لا اجتهـاد فيـه وسـمعها المشـركون ففهمـوا منها أن كل جهودهم لصرف المؤمنين عن كتـابهم فاشـلة فأدخلـت اليـأس فـي قلـوبهم من أن يميل إليهم المؤمنون أو يصانعوهم.

88ـ ولا تدع مع الله...وإليه ترجعون.

ما أخذ من الآية السابقة باللوازم تم التصريح به في هـذه لآيـة الخاتمـة للسـورة، التـي تضمنت نهي النبي ﷺ ومن ورائه جميع البشـر ممـن يصـح أن يتوجـه لـه الخطـاب، النهي عن الشرك البلية الكبرى التي يتبعها كل شر وفسـاد. لا تتوجـه إلـى إلـه آخـر لا بالعبادة ولا بطلـب العـون، فإنـه لا إلـه بيـده التصـرف والفعـل إلا الله فهـو وحـده المستحق للعبادة، ومن سواه عاجز .و هـو الله البـاقي لا يلحقـه فنـاء ولا عـدم. ومـا سواه من الكائنات هالك، فانٍ. تفرد بالحكم الـذي لا يـرد ولا يـنقض. وسـتعودون إليـه كما أوجدكم من عدم.

كملت بحمد الله وحسن عونه

يوم الأربعاء 04 ربيع الأول 1434-2013/01/16

سورة العنكبوت

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به. ووجه تسميتها بذلك اختصاصها بذكر مثل العنكبوت الآية 41-واختلف العلماء في كونها مكية أو مدنية، أو بعضها مكي وبعضها مدني. وعلى كونها مكية فإنها من آخر ما نزل على رسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة. وهي السورة التاسعة والعشرون حسب ترتيب المصحف. وهي السورة الخامسة والثمانون حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة النور وقبل سورة المطففين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَأٓتٍ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

أحسب : أظن.

أن يتركوا: غير مفتونين.

يفتنون: بالتعدي والأذى.

السيئات: الأعمال التي تسوء المؤمنين كالتعذيب والتنكيل.

يسبقونا: أنهم انفلتوا من العقاب، ونجوا منه.

يحكمون: يظنون.

جاهد: بالغ في بذل المجهود وتكلف ما فيه تعب.

بيان المعنى الإجمالي:

ألف لام ميم – تفهم على نحو ما سبق بيانه في نظائرها.

ما بال الناس يظنون أن الإيمان يحميهم من تسلط الكفار عليهم بمتنوع الإذايات ليفتنوهم عن دينهم. هذا ظن باطل، فإن سنة الله جرت على أن المعركة بين الكفر والإيمان ماضية منذ القدم. فقد فُتِنَ أتباع الرسل في الأمم الماضية. وبفتنتهم تميز المؤمنون الذين صدقوا في إيمانهم فكانت الفتن تتكسر على صلد عزائمهم؛ عمن كان إيمانهم رداء ظاهريا كاذبا فيعودون إلى الكفر.

أظَنَّ الذين يتسلطون على المؤمنين بالأعمال السيئة قصد فتنتهم، أنهم إذا أمهلوا ولم يعاجَلوا بالعقاب، أنهم قد انفلتوا من العذاب؟ هذا ظن خاطئ وحكم فاسد وباطل؛ وإن الله يمهل الظالمين ولا يهملهم فيحقق وعيده فيهم.

من طابت سريرته وحسن عمله، فتعلقت آماله بنيل ثواب الله، فليكن مطمئنا فإن الأجل الذي حدده لينال الصالحون فيه ثوابهم، هذا الأجل آت لا ريب فيه، وسينعمون بجزاء ما قدموا من خير أحصاه الله لهم، فهو السميع لأقوالهم الحسنة العليم بأفعالهم الطيبة.

من جاهد فتغلب على نفسه وشهواته، وصبر على الأذى، وأسهم في الدفاع عن الدين في السلم والحرب، فليعلم أن نفع جهاده يناله نفعه بصلاح روحه، ويعتز بعزة أمته. والله لا ينتفع بشيء، فهو الغني الغنى المطلق عن الحاجة.

إن الذين استقر الإيمان في قلوبهم، وطوعوا أعمالهم لمقتضيات عقيدتهم فصلحت، سيتفضل عليهم بمحو سيئاتهم وتطهيرهم من أدران الخطيئة، ثم يقدر لهم ثواب ما عملوا من خير، بميزان أحسن أعمالهم فيلحق الناقص بالكامل.

بيان المعنى العام:

ألف ـ لام ـ ميم.

افتتحت السورة بحروف التهجي على النحو الذي بيناه في سورة البقرة. وتتوسط هذه السورة السور الثلاث التي لم يتبع فيها الحروف المقطعة بالإشارة إلى القرآن أو الكتاب. فقبلها سورة مريم، وبعدها سورة الروم.

2ـأحسب الناس أن يتركوا.. وهم لا يفتنون.

افتتحت الآية بسؤال إنكاري، ينكر القرآن على الناس ما ارتسم في أذهانهم، فظنوا أنهم عندما ينطقون بكلمة الإيمان، أنهم حصنوا بذلك أبدانهم وأرزاقهم وحياتهم كلها من كل ضر أو مكروه. وأن الكفرة لا يتعرضون لهم بأذى، بتحولهم من ظلام الكفر إلى نور الإيمان. إن هذا ظن خاطئ، بل هووهم من أوهام النفوس الضعيفة المسترخية. إنه من سنن الخلق أن الكافرين يحملون الضغينة والعداء لمن خرج من صفهم، ويصرّفون بغضهم بضروب من الأذى المادي والنفسي بالاحتقار، والمقاطعة، والتجويع، والتعذيب.

ينكر القرآن على الناس، ويعني بذلك المؤمنين، والغالب أن القرآن يطلق كلمة الناس على الكافرين، ولعل في إطلاق كلمة الناس على المؤمنين في هذه الآية مراعاة لتحذيرهم من تراخي عزائمهم وضعف صمودهم، بسبب ما يفتنهم به أعداؤهم، تحذيرهم أن يحقق الكفر هدفه فيضيع منهم الإيمان. إن ما ينبغي أن يسمو إليه المؤمن هو أن يكون الإيمان مقويا لعزيمته، مثبتا لصموده، مُعِدًّا له لتحمل كل أذى، يعمل الكفر على زرعه في طريقه ليثنيه عن المضي على ما يقتضيه الإيمان منه من عقيدة وسلوك.

3.ولقد فتنا الذين ...وليعلمن الكاذبين .

لينظروا في سنن الله في التاريخ. بعث الله رسله إلى الناس. وكلما جاء رسول اهتدى به وآمن فريق من الناس، وتسلط الكافرون على المؤمنين يؤذونهم بمختلف أنواع الأذى ليفتنوهم عن دينهم، فيضعفوا ويرتدوا إلى الكفر.

إن الله لم يمنع الكافرين من تنفيذ مكرهم بالمؤمنين، ولم يحل بين المؤمنين وبين أسباب الضغط المسلطة عليهم، وهو معنى نسبة الفتنة إلى الله "**ولقد فتنا**" إن حدوث هذا التسلط بالفتنة للمؤمنين ليس أمرا مفاجئا، بل هو أمر معلوم ثابت في العلم الأزلي .إن مما ينبغي أن يستيقنه المؤمنون أن علم الله الأزلي أحاط بما كان وبما يحدث الآن، وبما سيحدث في المستقبل علما واحدا لا يتبدل ولا يتغير. وينكشف في الوجود المعلوم على حسب ما ثبت أزلا في علم الله زمانا ومكانا، دون أن يحدث تغير في علم الله. فعبرت الآية عن هذا الانكشاف لما ثبت في الأزل، بتحقق علمه الأزلي. وينقسم المؤمنون المفتونون كما سبق في علمه، إلى:

1) مؤمنين صادقين في إيمانهم، ثابتين على ما عاهدوا الله عليه، لا يؤثر في ثباتهم ضروب الفتن والأذى، فالذين صدقوا هم من كانت صلابتهم في الدين لا تتزعزع، وصبرهم لا يغلب.
2) وإلى كاذبين، ويفتضح من كان إيمانهم متقلقلا، الذين يرتدون إلى الكفر إذا مسهم أي أذى ولا يصمدون، فإيمانهم الأول هو إيمان كاذب لا حقيقة له.

وفي هذه الآية وعد للصادقين وتنويه بهم، ووعيد للكاذبين وتوبيخ لهم .

4.أم حسب الذين يعملون...ساء ما يحكمون.

اضراب عن الكلام السابق قصد الانتقال منه إلى أمر جديد، يتضمن الإنكار على ما علق بذهن الذين يؤذون المؤمنين، بظنهم أنهم لما حققوا جولات آذوا فيها المؤمنين، دون أن يحصل لهم مكروه، ظنهم أنهم قد انفلتوا من العقاب وتمت لهم

الغلبة في النزاع بين الكفر والإيمان. فبين بطلان ظنهم بقوله ساء ما يحكمون . ظنوا ظنا سيئا وباطلا .

و الآية وإن كانت دالة على وعيد الفاتنين للمؤمنين دلالة أولية وأنهم لا يفلتون من العقاب، فإنها من ناحية ثانية تحذر المؤمنين من اقتراف السيئات استخفافا بالإثم تبعا للاغترار بالإمهال.

5ـمن كان يرجو لقاء الله...وهو السميع العليم.

في مقابلة الذين محضوا نشاطهم لإيذاء المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم حتى ظنوا أن الوعيد لا يلحقهم، ينوه القرآن بالمؤمنين الذين ينتظرون في شوق يوم الجزاء، تبعا ليقينهم أن وعد الله لا يخلف .فالتعبير بالرجاء له وقع بديع باعتبار أن الرجاء هو تعلق الآمال بتحقق شيء محبوب، فالرجاء في الآية يقصد منه ما استقر في نفوسهم من شوق إلى الحياة الآخرة، التي ستكون حسب ما تلقوه من الوحي أفضل وأتم وأكمل وأسعد من حياتهم الدنيوية. ويبشرهم الله بأن هذا الوقت المحدد للجزاء والتكريم سيتحقق لا محالة. هم على عكس الفريق الهالك الظان أن الوعيد لا يلحقهم، ووقعوا في الظن الباطل. يؤكد الله لهم أن ما ينتظرون نوله هو لا شك فيه سيحصلون عليه قطعا وعدا من الله "**أجل الله**" إنهم بالمنزلة التي رضي فيها ربهم عما تنطق به ألسنتهم، وما يجري في مجالسهم، إنه يسمعهم في خلواتهم وهم يدعون: **ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة**[1]. وهو العليم بما يجري في ضمائرهم من شوق للقاء ربهم.

6ـ ومن جاهد فإنما...لغني عن العالمين.

من بذل جهده، ولم يتراخ في القيام بما يضمن له الثبات على الإيمان الذي يعظم به رجاؤه في ثواب الله يوم لقائه، بما يشمله من صبر على الأذى، صبر يجعله يستهين بكل ما يصيبه في سبيل الثبات على ما آمن به، ومن جهاد الدواعي التي ترتخي بها العزيمة لتنقاد إلى المتعة العاجلة، ومن جهاد التأثيرات المتنوعة من دوافع الغريزة التي تريد أن تشْبَعَ بلا حدود، ويجاهد جواذب العواطف المسترخية لرغبات الأزواج والأولاد . كما يشمل الذين ينضمون لجيش الإسلام لحماية الأمة وإزالة معوقات انتشاره. هذه كلها ضروب من الجهاد من يبذل فيها إرادته وفعله، فإن النفع يعود له أولا وبالذات متمثلا بصفة خاصة في تقوية عزيمته، وفي توازنه النفسي، وفي صفائه الروحي، وفيما يتفتح له من أبواب الرجاء عند لقاء ربه. وبهذا

---

[1] سورة آل عمران193

تتصل الآية بسابقتها. فلا يُدِلُّ أحد بجهاده، والحال أن النفع يعود إليه. والله سبحانه غني الغنى المطلق عن جهود البشر، وما حصل لهم من التوفيق إلى الخير فإنما نالوه بفضله ورحمته.

7ـوالذين آمنوا وعملوا...الذي كانوا يعملون.

تتأكد مضامين الآيات السابقة بما أفادته هذه الآية التي تدل على أن الراجين لقاء الله، والباذلين جهودهم في الخير، وبصفة عامة الذين تركز الإيمان في قلوبهم وثبت، وطوع أعمالهم للخير فكانت صالحة، سنحقق لهم جزاء يشمل جناحين:

الجناح الأول: يتمثل في تطهيرهم مما تلوثوا به من فعل السيئات. ذلك أن عمل السيئات يتبعه ظلام في النفس، ويترك الأثر المناسب له في الروح، ويقرّب من الشيطان. وكل ذلك انزلاق إلى السقوط وسوء العاقبة. فإذا اجتمع الإيمان وعمل الصالحات فأول ما يجنيه هو محو تلك الآثار السيئة جميعها.

الجناح الثاني: يتمثل في تفضل الله عليه بتقدير صالح أعمالهم وجزائهم عنها، هذا الجزاء الذي يظهر فيه الكرم الإلهي وسعة الفضل، فيقدر سبحانه جميع أعمالهم على ميزان أحسن الأعمال، فيلحق الناقص بالكامل، والذي فيه بعض التقصير بما لا تقصير فيه.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا
تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ
فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا
مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا
وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ
﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

وصينا: فرضنا وعهدنا.

جاهداك: ألحا لتشرك.

حمل الأثقال: تحمل تبعات الذنوب.

بيان المعنى الإجمالي :

فرض الله على البشرية رعاية علاقة الفرد بوالديه والبر بهما، وأن تكون معاملتهما على الطريقة الأحسن والأفضل. وبرهما إن تعارض مع الثبات على الإيمان، فالإيمان مقدم ولا يطيع أبويه ليبقى كافرا أو يرتد بعد إيمانه، وإذا أذن في معصيتهما ليثبت على الإيمان فطاعتهما والقيام بحقوقهما فيما وراء ذلك واجب. واعلموا أنكم ستبعثون يوم القيامة فيعرف كل واحد حقيقة عمله من خير أوشر، ويلقى جزاءه.

إن الذين ثبتوا على الإيمان وصلحت أعمالهم، ليلحقنهم الله بالصالحين من عباده المكرمين يوم القيامة بالجنة.

بعض الناس يصرحون أنهم من أمة الإسلام مؤمنين بالله، و إذا لحقتهم إذاية بسبب إيمانهم شبهوا ما لحقهم بعذاب الله على الكفر، فقدموا سلامتهم في الدنيا على تعرضهم إلى عذاب الله يوم القيامة. هم يتظاهرون بالإيمان حتى إذا فتح الله عليكم نصره يقولون: إنا مؤمنون معكم. إن الله يعلم سرائرهم وحقيقة ما هم عليه، وهو سبحانه العليم بما تخفيه الصدور، إنه سبحانه العليم العلم الكامل بحقيقة إيمان المؤمنين وما شع في بواطنهم وظواهرهم من نور الإيمان، وهو العليم بما يجري في نفوس المنافقين مما يبالغون في إخفائه، ولا يتأثر علم الله بذلك.

من المحاولات الغبية التي قام بها المشركون ما اختلقوه لتحويل المسلمين عن دينهم بقولهم لهم: اتبعوا طريقنا وكونوا أوفياء لقومكم. وما أثر به عليكم محمد من سلامتكم يوم القيامة، هذا نضمنه لكم فنحن نتحمل تبعات أفعالكم وعقائدكم. رد القرآن عليهم مؤكدا أنهم لا يستطيعون حمل أي خطيئة عنهم لا كبيرة ولا صغيرة، لا في العقيدة ولا في العمل. بكل تأكيد هم كاذبون فيما ادعوه.

و من ناحية أخرى فإنهم سيحشرون وهم يرزحون تحت ثقل ما فعلوه من خطايا، وما ارتكبوه من آثام؛ ويضاف إلى أحمالهم آثام إفسادهم لغيرهم. ويوقفون للسؤال عن الأكاذيب التي كانوا يروجونها للتضليل. وينتهي بهم ضلالهم إلى العذاب المقيم في جهنم.

بيان المعنى العام:

8- ووصينا الإنسان ...بما كنتم تعملون.

قاعدة من قواعد الدين نستنبطها من هذه الآية، حاصلها أن الإسلام لا تناقض فيه، وأن على المكلف في استجابته لما أمر به الدين، أن يقدم الأهم على المهم، دون أن يمحق هذا الترتيب كل ما يتعلق بالمقدم عليه. إذ مما أمر به الدين وكرر الوصاية، به وفاء الفرد لأسرته، وخاصة لوالديه إذ جعل طاعتهما والقيام بأمرهما مقدما حتى على الجهاد. وفاتحة هذه الآية تؤكد تلكم الحقيقة. إذ يوصي رب العزة الأولاد بأن يكون تعاملهم مع والديهم على أحسن ما يكون التعامل، وإدراك ما هو حسن وما هو بخلافه فطري في الإنسان، وهو مراتب تعلو أو تسفل من طريقة الخطاب إلى توفير ما يجعل حياتهما أسعد، إلى تنفيذ مطالبهما.

ومن ناحية أخرى فإن طاعة الفرد لربه مقدمة حتى على حفظ النفس، فإذا تعين الجهاد وبذل النفس مثلا في حماية الدين كان ذلك واجبا لا اختيار فيه.

و بناء على ذلك فإن طاعة الأبوين إذا تعلقت بالثبات على الكفر أو الرجوع من الإيمان إلى الكفر، فلا طاعة لهما في ذلك، دون أن يتحلل الفرد من البر بهما فيما عدا ذلك. ولا تتأثرْ أيها المؤمن من شدة إلحاحهما، أو غضبهما حتى تشرك بي ما ليس له أي حقيقة إلهية. ولمّا انتفت حقيقته في الوجود تبعه انتفاء العلم به؛ فقوله تعالى ما ليس لك به علم في قوة ما لاوجود له، وما لا وجود له العلم به منفي .

وتتصل الآية بصورة من صور الفتنة التي افتتحت بها السورة. وختمت بما يفيد نفي الحرج عن المؤمن الذي فتنه أبواه على الكفر، فإنكم ووالديكم ستعودون يوم القيامة إلى حكمنا العادل، وينكشف صلاح العاصين لوالديهم الثابتين على الإيمان فيلقون حسن الثواب، وما يكنه الآباء من تصلب في الكفر فيكون جزاؤهم سوء العذاب.

9-والذين آمنوا وعملوا...لندخلنهم في الصالحين.

تصريح بما أشار إليه قوله تعالى في الآية -8-: **إلى مرجعكم....** فالذين ثبتوا على الإيمان واستقاموا في حياتهم والتزموا بما هو صالح حسب المعايير الشرعية، لنعوضنهم من علاقة الأسرة المنكرة للإسلام بعلاقة أمتن وأرفع فيكونون جزءا من زمرة الصالحين المرعيين بالتكريم

10-ومن الناس من يقول...بما في صدور العالمين.

تتعرض هذه الآية إلى نمط آخر من صراع الكفر للإيمان، وما يفرزه من مشاكل في عصبة المؤمنين. ذلك أن بعض الناس أعلنوا إسلامهم، واطمأن المؤمنون لهم

فعاملوهم بما يعامل المؤمن أخاه في العقيدة، ولكنهم ضعفوا أمام إذاية الكافرين وتهديداتهم، فرجعوا إلى الكفر وأعلموا بذلك من فتنهم، وأخفوا كفرهم عن المؤمنين، فتمكنوا بذلك من الاطلاع على أسرارهم. فكان ضررهم أشد. إن هؤلاء لما آذاهم الكافرون وفتنوهم، قدروا أنهم بين أن يثبتوا على إيمانهم ويفتنهم الكافرون بالإذاية، وبين أن يطيعوهم فتسلم لهم حياتهم الدنيا وشبهوا فتنة الكافرين بعذاب الله. وشأن التشبيه أن يكون المشبه به أقوى من المشبه ،إنهم قدروا أن فتنة الكفر حاضرة مشاهدة، وعذاب الله الموعود به هو من أمر الغيب، والمشاهد أقوى، فانهزموا شر هزيمة.

ثم كشفت الآية عن أمر يبطنونه علمه الله: أنهم يعدون أنفسهم ليوهموا المؤمنين أنهم كانوا معهم على الإيمان عندما يفتح الله على الأمة أبواب النصر، فإنهم سيقولون مؤكدين كلامهم: إنا كنا مؤمنين معكم.

ما أشد غباءهم ! من يخادعون؟ إن الله أعلم بما تحويه الصدور، وما يجري في باطن النفس، وإن الله قد أطلع نبيه على من اتخذ النفاق قناعا. هم مكشوفون عند رسوله لا يروج كلامهم عليه. والنبي ﷺ يتلو هذه الآيات فيسمعونها مع المؤمنين فكانت أول قمع لهم.

11ـوليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن المنافقين.

بكل تأكيد إن علم الله ثابت ونافذ. هو سبحانه مطلع على ما داخل قلوب المؤمنين من نور الإيمان، وما أثر في مداركهم من استقامة ووضوح. وهو عالم أيضا علما محيطا بالمنافقين وما يجري في سرائرهم وما يصدر عنهم من أعمال. وفي التصريح بذلك ما يفيد أنه سيجزي المؤمنين بالحسنى ويجزي المنافقين على وزان شرهم الباطن والظاهر.

12ـوقال الذين كفروا...إنهم لكاذبون.

يتواصل في السورة كشف بعض طرق الكافرين في فتنة المسلمين ليتحولوا من الإيمان إلى الشرك. عرض رؤوس الشرك الذين كانوا مطاعين في مكة على المؤمنين الأمر التالي، قالوا لهم: إنكم تحولتم عن عبادة الأصنام إلى الدين الذي جاء به محمد، تحصينا لأنفسكم من عذاب يوم القيامة، فإن كان ما يقوله محمد حقا فإنا نعرض عليكم أن تعودوا لديننا وأن تتابعوا حياتكم مع قومكم، واطْمَئِنوا إلى أننا يوم القيامة نحمل عنكم خطاياكم التي يحذركم محمد منها بعذاب ذلك اليوم. لقد كانوا لمكانتهم في قومهم ومنزلتهم من الرئاسة إذا تقدموا لتحمل أي شيء قُبِلوا ولا ترد عليهم حمالتهم. وبلغ بهم الغرور أن ظنوا أن منزلتهم يوم القيامة لا تختلف

عن منزلتهم في الدنيا. فسفه القرآن أقوالهم، ونفى أن يحملوا لا القليل ولا الكثير من خطايا غيرهم، وبكل تأكيد هم كاذبون، واهمون. فتبعات انحراف المنحرفين يتحملها المنحرفون، ولا يحمل أحد تبعة وزر غيره، وهذا لا ينفي مؤاخذتهم عن تضليلهم للناس، إذ هو من تبعة أفعالهم.

وأضافت الآية إلى بطلان ما ادعوه، إثبات الكذب لهم في قولهم: ولنحمل خطاياكم. فهذا كلام مخالف للواقع كذب قطعا.

13- بعد أن سفههم القرآن في الآية السابقة وكذبهم فيما حاولوا ترويجه من تحمل تبعات من يكفر بالإسلام، دقق في هذه الآية أنهم سيأتون يوم القيامة يحملون ثقل الآثام التي فعلوها في الدنيا، وثقل آثام من كانوا سببا في إضلاله، والتأثير عليه ليحولوه من الصلاح إلى الفساد ومن الخير إلى الشر ومن الإيمان إلى الكفر. وأكبر من ذلك أنهم يوقفون في المحشر لسؤالهم سؤال التقرير الإنكاري عن مفترياتهم التي اختلقوها ليضلوا بها الدهماء.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا۟ فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الوثن: صورة لحيوان أو إنسان منحوتة .

تخلقون: تختلقون ما لا أصل له.

الإفك : الكذب

بيان المعنى الإجمالي:

كرر القرآن قصة نوح عليه السلام ليعيد التذكير بما تم للمكذبين من غرقهم جميعا بسبب ظلمهم، ومن إهلاكهم حتى يرتدع المشركون عن رفضهم. وأضاف تحديد المدة

الطويلة التي قضاها في دعاء قومه ليسلي النبي ﷺ عن أساه من تكذيب قومه ويقوي عزيمته للمضي في التبليغ. وبينت الآية أيضا أن الله أنجى نوحا ومن آمن به ليكون ذلك آية من آيات الله يتعظ بها البشر.

و أعقب قصة نوح بقصة إبراهيم، وكما أنجى الله نوحا في السفينة من الغرق، فكذلك أنجى الله إبراهيم من النار.

دعا إبراهيم قومه أن يفردوا الله بالعبادة، وأن يحصنوا أنفسهم من عقابه بطاعته. فإن ذلك هو الذي يحقق لهم النتائج الأفضل، وحرضهم بأن ذلك هو اللائق بأهل العلم.

ثم أخذ يهز ما استقر عندهم من عبادة الأوثان. فلفت أنظارهم إلى ان هذه الأوثان لا أصل لها هي شيء اختلقتموه أنتم. تتقربون إليها رجاء أن تساعدكم على سعة الحياة وتحصيل الأرزاق. إنكم واهمون فهي لا تملك شيئا حتى تعطيكم منه. الأولى بكم أن تطلبوا الرزق من مالك الأرزاق الله رب العالمين. فاعبدوه واشكروا له ما أفاضه عليكم من نعمه. فإنكم ستعودون إليه ليجزيكم عن شكركم ثوابا، وعن الكفر به عقابا. واعلموا أن عاقبة تكذيبكم لا يعود ضررها إلا عليكم، فقد كذبت أمم من قبلكم فما أضروا إلا أنفسهم، وفاز الرسل برضوان ربهم لأنهم أدوا أمانة التبليغ والبيان، وما كلفوا بأن يحصل الاهتداء لجميع المبعوث إليهم.

بيان المعنى العام:

14←15: ولقد أرسلنا نوحا...آية للعالمين.

يحقق القرآن ويؤكد مجموع ما دخلت عليه "**ولقد**" الذي يتضمن ثلاثة أمور:

أ-أن الله أرسل نوحا إلى قومه. ونوح عليه السلام هو أول رسول أوحي إليه، بعثه الله إلى قومه لما تفاقمت الضلالات فأفسدت الفطرة، وتصلب البشر في الشرك.

ب -كان قوم نوح لما أرسل إليهم، قد أضافوا إلى الضلالات التي ورثوها من أسلافهم ضلالات أخرى وتراكمت واستقرت في أفكارهم وعاداتهم حتى تحولت إلى طبيعة ثانية. فصبر على بيان الحق، ومواصلة الدعوة، وإقامة الحجة، تسعمائة وخمسين عاما، دائبا دون كلل، لم تثبطه قوة تصلب قومه في الشرك. ومع ذلك فلم يؤمن بما جاء به إلا عدد قليل .

جـ : بعد أن نفدت كل الطرق ليثنيهم عن عبادة الأوثان، وأيس من اهتدائهم، تأهلوا للنقمة فعم عليهم طوفان الماء وأغرقوا، وهم ثابتون على ظلمهم-للحق، بالشرك وتكذيب نوح رغم ما قدم لهم من الأدلة المقنعة.

و قدر الله أن ينجي نوحا ومن آمن به، وهم الذين أخذهم معه في السفينة التي هداه الله لصنعها. ثم قدر أن تكون سفينة نوح، وإنجاءه ومن آمن معه واستئصال الكفرة،

واهتداءه لبناء السفينة، التي طورها البشر إلى البواخر العملاقة تتصل بواسطتها الأمم عبر البحار والأنهار، جعل كل ذلك آية تهدي العالمين لتؤمن بالله من التأمل في سننه التي يتصرف بها، وبنى عليها أمر هذا الكون.

ملاحظة: تكررت قصة نوح عليه السلام في القرآن، وتكرارها ليهز كل مرة تصلب قريش في الشرك، وينذرهم سوء العاقبة إذا هم واصلوا مقاومتهم للإسلام كما أهلك المكذبين قبلهم. وأضاف في هذا العرض الأمد الطويل الذي قضاه في دعاء قومه.

أما ما يتوقف فيه بعض الناس من بقاء نوح وتعميره أكثر من ألف سنة، فمبناه توهم أن الجنس البشري لم يتطور في بنائه الجسمي من يوم وجوده على سطح الأرض إلى اليوم. وهذا تصور يقوم على النفي لعدم العلم. وعدم العلم لا يصح أن يكون دليلا يقينيا على نفي الوجود. وقد أخبرنا الله في قرآنه أنه لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما زيادة على عمره قبل أن يوحى إليه، وبعد أن غرق قومه. ولا تقاوم العادة الحقائق القرآنية .

16←17: وإبراهيم إذ قال...إليه ترجعون.

أعقب قصة نوح بقصة إبراهيم عليه السلام . وفي كل من القصتين ما يقوم شاهدا على القدرة التي تنفذ ما تعلقت به الإرادة، مع ما يبدو من الاختلاف. أنجى الله نوحا من الغرق في الماء. وفي قصة إبراهيم أنجاه الله من النار.

واذكر للناس قصة إبراهيم في الظرف الذي توجه إلى قومه داعيا لهم، أن يخصوا الله بالعبادة فلا يعبدوا غيره، وأن يحصنوا أنفسهم ليحموها من مقت الله، وذلك بالتقوى. إن ما دعوتكم له هو الأفضل لكم إن كنتم من أصحاب العلم والنظر.

ثم أضاف ما يزيد كلامه وضوحا وإقناعا بلفت أنظارهم إلى أن ما يعبدونه من دون الله أوثان: خشب أو حجر نحتوه بأيديهم وصوروه على صورة إنسان أو حيوان. إنكم اختلقتم أشياء زعمتم أنها آلهة. رغم أنه لا يوجد فيها أي شيء من حقيقة الألوهية. والفرق بين الوثن والصنم أن الوثن شيء منحوت على صورة إنسان أو حيوان أو صورة تخيلية. وأما الصنم فهو ما ينصب للعبادة دون أن يكون مصورا.

انتبهوا! إنكم تعبدون هذه الأوثان تبتغون منها العون لتتيسر لكم الحياة وتدر عليكم الأرزاق، وتنتج لكم فلاحتكم وتجارتكم. إن ما ترجونه من أوثانكم وهي عاجزة عن تحقيقه لكم سفه في الرأي. فخير لكم أن تتوجهوا إلى مالك الأرزاق إلى الله، الذي عنده وحده الرزق فهو القادر على منحكم ما ترجونه منه. خير لكم أن تعبدوه، وتشكروه على ما ينيلكم من نعمه. إنكم ستعودون إلى حكمه يوم القيامة ليجزي الصالحين ويعذب الكافرين المكذبين.

18.وإن تكذبوا فقد...إلا البلاغ المبين.

إنكم إن كذبتم ما بينته لكم ورفضتموه، فإن الخسران عليكم، ولستم بدعًا من الناس، فقد جاءت رسل قبلي إلى أممهم وبينوا لهم ما يسعدهم في دنياهم وأخراهم فكذبوهم، وعاقبهم الله على كفرهم .وفاز المرسلون بثواب الله وتكريمه، لأنهم أدوا مهمتهم التي هي البلاغ الواضح لما أوحي إليهم من ربهم، ولم يكلفوا بأن يتحقق الاهتداء فعلا.

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (19) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (20) يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (21) وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (22) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (23)

بيان معاني الألفاظ:

أبدأ : أوجد بعد عدم.

الخلق : المخلوقات.

النشأة: الإيجاد.

تقلبون : ترجعون للجزاء.

معجزين: غالبين غلبة تنفلتون بها من العذاب.

بيان المعنى الإجمالي:

ما لهم لا يعتبرون بما يشاهدونه، كيف يتصرف الله فيخرج إلى الوجود ما كان معدوما، ثم يفنيه ويعيده مرة أخرى. يظهر ذلك جليا في علم النبات. وسوف يتم على ذلك النحو بالنسبة للبشر. فإن قدرة الله تنفذ دون أن يعوقها شيء. كل ما تعلقت به القدرة يطيعها في يسر. قل لهم: سيروا في الأرض متأملين، واكتشفوا كيف أنشا الله الخلق الأول. ومن قدر على الخلق أولا قادر على إعادة المخلوقات ليوم القيامة. إن الله قادر على كل شيء. ومن مظاهر قدرته العامة أنه ينفذ حكمه في البشر فيعذب من شاء تعذيبه ويرحم من قدَّر رحمته. وستعودون إليه جميعا ليجزيكم الجزاء العادل عما قدمتم. ولا تستطيعون الانفلات من قبضته، فليس لكم

ملجأ لا في ظاهر الأرض ولا في باطنها، ولا في أي موقع من السماوات. ولا تجدون شفيعا يشفع فيكم فيخفف عنكم ما قدر لكم من الجزاء، ولا تجدون نصيرا يخرجكم من العذاب. إن الذين عرفوا بكفرهم بآيات الله وإنكارهم للبعث، يحل فيهم اليأس من رحمة الله، فيضاف إلى ما يقاسونه من الآلام الجسمية، العذاب النفسي بالقنوط من تخفيف العذاب..

بيان المعنى العام:

19- أولم يروا كيف...إن ذلك على الله يسير.

استفهام إنكاري ممزوج بالتعجب من غفلتهم. أحالهم على ما هو مشاهد متكرر لديهم. يرونه بأعينهم، أن الله يظهر المخلوقات بعد عدم، وينشئها بعد أن لم تكن. يظهر ذلك في عالم النبات وفي الإنسان وفي الحيوان، وهذه الحقيقة المشاهدة لفت القرآن إليها الأنظار كثيرا، وهي من المشاهد التي تؤكد أن الله وحده هو المتفرد بالخلق.

ثم يعيده: وكمال القدرة والتصرف تظهر في إعادة ما خلقه بعد أن يفنيه، تنتهي الزروع إلى حطام، ثم تعود الحياة إلى بذورها التي تولدت منها، ويفنى الإنسان ويستمر وجوده في نسله الذي يحمل في جينومه خصائص أصوله. وهذا ما ظهر بعد المستوى الذي بلغ إليه العلم.

وهذا التفسير للآية مستند إلى اعتبار الرؤية بصرية، وأما إذا حملنا المراد منها على العلم، ألم يروا، ألم يعلموا إذا أعملوا فكرهم وتدبروا في مظاهر الكون الماثلة أمامهم، أن الله القادر على إظهار الموجودات قادر على إعادتها بعد فنائها. إنهم لا يستطيعون نسبة الإيجاد لغير الله؛ وحسب ما جرت به العادة فإن إعادة الشيء بعد إيجاده أيسر على الفاعل الأول. وعلى أقل تقدير هما سواء. والمقصود هو إثبات البعث الذي هو أحد الثوابت من العقيدة التي تولى الرسل بيانها للناس.

20- قل سيروا في الأرض...على كل شيء قدير.

من مضامين الرسالة هذا التوجيه العام للبشرية، قل لهم يا محمد، من كان حاضرا وقت نزول الآية، وكذلك كل فرد من أفراد البشر إلى يوم القيامة، واطلب منهم أن يسيروا في أرض الله سير المتأمل النافذ ببصيرته إلى ما وراء الظواهر. ذلك أن رتابة العيش في المحيط الذي ولد فيه الإنسان يغطي ما في المظاهر المختلفة من خصائص، فيمر عليها دون أن يتعمق في أسرارها؛ فإذا سار في الأرض أثار فيه جدةُ ما يمر عليه تأملات ومقارنات، تفضي به إلى انبلاج حقيقة نسبة الخلق إلى الله. ويؤديه ذلك إلى الإيمان بالبعث. ذلك أن مشاهد الكون الحاضرة، وما فيها من

دقائق الصنع، وآثار الأمم الغابرة الدالة علـى أن لله سـننا فـي الإيجـاد وفـي الإهـلاك؛ كل ذلك يفضي بالناظر أولا إلى أن التصرف المتنوع مـن ناحيـة فـي صـور الإيجـاد، وسوق الموجود إلى نهايته، ثم ظهور دورات جديدة ممـا يحـتم أن يكـون صـادرا مـن القادر العليم. ويفضي به ثانيا إلى أنه لا يقبل عقـلا أن يكـون هـذا الإحكـام مـن قبيـل العَبَثِ. إنه إذا كان الإنسان يخرج إلى الحياة ويعمر في الـدنيا ويـؤثر فيهـا، ثـم يمـوت وينتهي الأمر. مع أن كثيرا مما قام به البشر تبقى آثـاره سـائرة بعـد المـوت. وتنتهـي الحياة دون أن يجازى الصالح على صـلاحه، والخبيـث علـى فسـاده وظلمـه. فـالنظر مفض إلى أن الله سيعيد الخلائق إلى الحيـاة لينـالوا جـزاء مـا قـدموا. والله علـى كـل شيء قدير، لا يعطل نفاذ قدرته حائل.

21. يعذب من يشاء ويرحم من يشاء وإليه تقلبون.

صرحت الآية بما فهم من سابقتها. فالنشأة الآخـرة ليسـت عـودة علـى غـرار النشـأة الأولى. النشأة الأولى نشأة تكليف، والنشأة الثانية نشـأة حسـاب وجـزاء، فيتصـرف فـي خلقه حسب مشيئته، يعذب من يشاء تعذيبـه، ويـرحم فيـنعم علـى مـن يشـاء، وإليـه سبحانه يكون مصيركم.

22. وما أنتم بمعجزين... من ولي ولا نصر.

هذه الآية تحقق ما تضـمنته الآيـة السـابقة، وتجسـمه، إنكـم مـأخوذون بيـد القـدرة الإلهية لا مفر لكم مما قـدر لكـم مـن الجـزاء، إنكـم لا تعجـزون الله النافـذةُ قدرتُـه، فسيسلط عليكم عقابه ولا تجـدون ملجـأ فـي الأرض، لا فـي جبالهـا ولا فـي كهوفهـا وأنفاقها، ولا فـي صـحرائها ولا فـي بحارهـا. وحتـى إذا تصـورتم أن تنفلتـوا فـي السماء، فأنتم في قبضته في أي موقع مـن مواقـع السـماء. هـو اليـأس الـذي سـيُطْبِقُ عليكم، إنه مع عجزكم عن الانفـلات بأنفسـكم، فـإنكم لا تجـدون وليـا يتقـدم للشـفاعة فيكم، ولا نصيرا ينصركم، إذ الأمر يومئذ كله لله .

23. والذين كفروا بآيات الله ولقّائه... لهم عذاب أليم .

تتابع هذه الآية ما دلت عليه الآية **يعـذب مـن يشـاء** -21- فبعـد أن أوضـحت الآيـة 22 أن العذاب ينالهم ولا مفر منه، أكـدت هـذه الآيـة تهديـدهم، وأنهـم اسـتحقوا هـذا العذاب لكفرهم بآيات الله، وإنكـارهم للبعـث "**ولقائـه**"، وأن هـاتين الجـريمتين أهّلَـتْهم لليأس من رحمة الله. إنهم يجزون الجزاء العادل ولا مطمع لهـم تبعـا لـذلك فـي رحمـة الله التي تخفف عنهم شيئا مما قدر لهم مـن العـذاب، ولا أن يلحقهـم عفـو الكـريم. هـم مميزون باستحقاقهم للعذاب الذي يكون الإحساس بآلامه قويا.

من الآية 19 إلى هذه الآية يمكن حملها على أنها من كلام إبراهيم عليه السلام، كما يمكن أن تكون فاصلة بين أجزاء القصة من كلام رب العزة موجه لمن يتناولهم خطاب النبي ﷺ.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

مهاجر: مفارق ديار الكفر.

الكتاب :الكتب المنزلة كالتوراة والإنجيل والقرآن.

بيان المعنى الإجمالي:

بعد احتجاج إبراهيم على قومه، وإظهار فساد عقائدهم، وإفحامهم حتى لم يبق لهم دليل عقلي مقبول، التجأوا إلى القوة المادية، فاتفقت كلمتهم على تصفيته جسديا بقتله أو إحراقه. ورجحت كفة الذين أرادوا إحراقه، فرموا به في النار، فتحولت بإذن ربها إلى برد وسلام. وخرج إبراهيم منها دون أن يمس بأذى. فكان ذلك جامعا لأدلة ربانية ينتفع بها القوم المؤمنون. وقال لهم إبراهيم: لقد سقطت جميع شبهاتكم ولا يوجد لكم متمسك فيما أنتم عليه إلا أمر واحد، هو أنكم عقدتم فيما بينكم، وفيما بينكم وبين الأوثان، مودة وحبا لا يتجاوز الحياة الدنيا. إنه عندما تحشرون يوم القيامة يتبرأ كل فرد منكم من الآخرين، ويدعو عليه بالخزي والمقت، ولا تجدون أي ناصر يشفع فيكم أو يخفف عنكم شيئا من العذاب.

لم يؤمن بإبراهيم إلا لوط ابن أخيه عليه السلام، وأمام تصلبهم في الكفر ويأسه من اهتدائهم، أعلن أن سيفارقهم إلى مكان آخر يعبد فيه الله. إن الله عزيز حكيم.

جازاه الله عن إخلاصه بأن وهب له ولزوجته على الكبر إسحق رسولا، وحفيدا نبيا يعقوب، وجعل في نسل إبراهيم من سما إلى قبول الوحي، ومن أنزل عليه الكتاب السماوي كموسى وعيسى ومحمد خاتم الرسل.

كان فضل الله على إبراهيم عظيما، جمع له بين ثواب الدنيا كالذرية الصالحة، واستمرار النبوة في نسله، وختم الرسالة بمحمد ﷺ، وحسن ثناء الناس عليه. وبين حسن ثواب الآخرة فهو من القوم الصالحين المجزيين بالمقامات العلى في الجنة.

بيان المعنى العام:

24ـفما كان جواب قومه...لقوم يؤمنون.

كان إبراهيم عليه السلام قويا في حججه، واضحا في بيانه، وأسقط كل ما قدموه من الشبهات والتشكيك، فلجأوا إلى استعمال القوة، فتآمروا بينهم على تصفيته ليستريحوا منه. قال بعضهم لنقتله، وقال آخرون وهم الأشد حقدا لنحرقه بالنار مبالغة في النكال به. وأوقدوا له النار اللاهبة وقذفوه فيها؛ فأنجاه الله من أن تتسلط النار على جسمه أو تؤلمه. إذ النار لا تفعل فعلها من الإحراق إلا بما أودع الله فيها من ذلك التأثير، وهو يسلبه منها متى شاء فتطيع.

تعددت الآيات الدالة في هذا المشهد على التصرف الإلهي وكمال القدرة. ففيه آية على أن الأسباب مفضية إلى مسبباتها بما أودع الله فيها من التأثير، لا لذاتها. وأن الله ينصر رسله، ويخذل أعداءهم، وأن تسجيل القرآن للمشهد يجعله آية للقوم الذين عاهدوا على الإيمان والتزموا به. ولذا ختمت الآية بقوله تعالى إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون.

25ـ وقال إنما اتخذتم...وما لكم من نصير.

توجه إبراهيم عليه السلام لقومه مؤنبا لهم على اتخاذهم الأوثان آلهة، كاشفا عن ضعف عقولهم، وقصر نظرهم فقال لهم: لقد شاهدتم سلامتي من النار، وكفى بذلك آية على أن المتصرف في الكون وفي ترتيب المسببات على أسبابها هو الله وحده، وقد ارتفعت الشبه التي كنتم تتعلقون بها. ولم يبق لكم وجه تستندون إليه في عبادتها إلا أنكم اتخذتموها مؤلفة بينكم، تجتمعون حولها وتقيمون لها الحفلات، وتتأكد تبعا لذلك أواصر الود والمحبة بينكم وبين الأوثان. إن تعلقكم بها وحبكم لبعضكم وللأوثان هي عواطف قاصرة على الحياة الدنيا زائلة بزوالها. وافتحوا أبصاركم على العاقبة، فإن ودكم هذا سينقلب إلى كراهية وبغض، سيتحول هذا الود إلى نكران كل فرد منكم لمن كان يأنس به، وإلى نكران للأوثان، ويحس كل فرد أنه خدع من الأوثان ومن عابديهم، فيصب لعنته عليهم ويدعو عليهم بالطرد والاحتقار من شدة تغيُّظه. وستتحدد عاقبة اللاعنين والملعونين، فيكون المكان الذي يعودون إليه نار جهنم. ولا تجدون ناصرين يخرجونكم من النار.

26ـ فآمن له لوط وقال...إنه هو العزيز الحكيم.

أعلن إبراهيم مقاطعته لقومه، وخروجه من بلده الذي ساد فيه عبادة الأوثان. ورغم ما آتاه الله من قوة الحجة، ومن طلاقة اللسان في بيان ما أوحي له به، تصلب قومه في الكفر وأيس من اهتدائهم للتوحيد، ولم يؤمن من قومه إلا ابن أخيه (هاران) لوط ﷺ .فقرر أن يرحل عنهم، وأعلن ذلك قائلا: إني مهاجر إلى ربي، إني قطعت صلتي بكم وسأخرج لبلد يوحد أهله رب العالمين. إن ربي هو المتفرد بالعزة، الحكيم في كل ما يأمر به وينفذه.

27ـ و وهبنا له إسحاق ...لمن الصالحين .

تعلق إبراهيم بربه العزيز الحكيم، فأعزه بأن وهب له على كبر سنه إسحق رسولا وحفيده منه يعقوب النبي، ثم تسلسل في ذريته النبوة والكتاب. فكان أبا للأنبياء والمرسلين الذين جاءوا بعده، الذين تعززت رسالاتهم بالكتب السماوية، كالتوراة والإنجيل، وكان مسك الختام بمحمد ﷺ وما أنزل عليه من القرآن.
وتختم الآية بأن الله أكرمه فآتاه أجره الدنيا، بانتصاره على أعدائه، وحسن الثناء عليه، واستمرار الرسالة في ذريته حتى ختمت بمحمد ﷺ .وما سنّه النبي ﷺ بقرن الصلاة عليه بالتذكير بصلاة الله على إبراهيم. وهو في الآخرة محشور في زمرة الأنبياء، مجزي معهم في الدرجات العلى في الجنة.

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الفاحشة : الفعلة البالغة الغاية في القبح.

قطع السبيل : قطع الطريق بالتسلط على المسافرين.

النادي : المجلس الذي يجتمع فيه الناس نهارا.

البشرى: الإخبار بما فيه مسرة.

القرية : قرية سدوم موطن المبعوث إليهم لوط.

ضاق بهم ذرعا: وقع في ضيق وحرج.

الغابرين : الهالكين.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر لهم خبر لوط، حاصل هذا الخبر: أن لوطا أهمه ما كـان عليـه قومـه مـن الفسـاد، فأوحى الله إليه أن ينذرهم سوء عاقبة قبيح فِعالهم فقال لهـم: إنكـم تفعلـون فعـلا شـنيعا جدا لم يسبق أن فعله أحد قبلكم :إنكم تقضـون شـهوتكم الجنسـية بإتيـان الـذكران فـي أدبارهم، وتتعرضون للمسافرين في طرقهم لتعتـدوا علـيهم وعلـى أمـوالهم، وترضـون بكل منكر في أماكن اجتماعـاتكم. تحـدوه قـائلين: إن كنـت تـزعم أن الله بعثـك بهـذا، وأنه سيسلط علينا عذابه إن عصيناك، فنحن نتحـداك أن يسـلط علينـا عذابـه، إن كنـت من الصادقين فيما تدعيه من أنك مرسل منه.

لما أيس من اهتدائهم توجه مبتهلا إلى الله أن ينصـره علـى هـؤلاء القـوم الـذين تمكـن الفساد من عقولهم حتى أصبح عادة لهم. ولمـا بعـث الله ملائكـة لسـيدنا إبـراهيم كـي يبشروه بما سيرزقه الله من الولد، وبقـاء العقـب، أخبـروه بـأنهم سـينتقلون مـن عنـده إلى قرية لوط لإهلاكها بسبب ظلمهم. خشي على ابـن أخيـه الرسـول لـوط، فقـال لهـم إن لوطا مقيم بينهم. أجابوه نحن أعلم منك بمـن فيهـا، فقـد تلقينـا مـن الله علمـا يقينيـا واضحا عرفنا بكل من يسـكن القريـة. وكلفنـا بإنجـاء لـوط وأهلـه إلا امرأتـه التـي ستكون من المخلفين بعده وتهلك مع أهل القرية.

انتقلت الملائكة إلى قرية لوط، ودخلوا عليه. فوقع فـي شـدة، فهـم مـن ناحيـة ضـيوف يجد لذة في إكرامهم، ومن ناحية أخرى يعلم أن قومـه لا يفلـت مـن اعتـدائهم أي وافـد على قريتهم. كان يظن أنهم بشر ضـيوف. نفسـوا عليـه ضـيقه وقـالوا لـه: لا تخـف علينا، ولا تحزن لمـا سيصـيب قومـك وامرأتـك. كلفنـا ربنـا أن ننجيـك وأهلـك إلا امرأتك، وأن ننزل على سـكان هـذه القريـة عـذابا مـن السـماء يشـملهم جميعـا، ولا يستطيع أي أحد أن يحمي نفسه منه، وذلك بسبب فسـقهم. نفـذوا فـيهم العـذاب، وكانـت نهايتهم آية باقية على مآل المفسدين يتدبرها الناس ليتعظوا.

بيان المعنى العام:

28ـ ولوطا إذ قال...بها من العالمين.

وأرسلنا لوطا إلى قومه ففاتحهم بقوله: إنكم ترتكبون فعــلا بلــغ مــن القــبح أبعــد غايــة، تسفلتم فأحدثتم حدثا منكرا جدا ما عرف في تاريخ البشرية.

29ـ أئنكم لتأتون الرجال ...من الصادقين.

واصل مقت ماهم عليه، فشهّر بأنواع الفســاد الــذي استشــرى فــيهم، وعــم مجــتمعهم، فواجههم بتعداد قبائحهم: إنكم تقضون شــهوتكم الجنســية مــع ذكــور أمثــالكم. فأفســدتم الرجال بانحراف فطرتهم، وأفسدتم النســاء بحرمــانهن مــن طــرق الإشــباع الفطــري للجنس. ثم إنكم اعتديتم علــى طــرق التواصــل التجــاري، باعتــدائكم علــى المســافرين للاســتيلاء علــى أمــوالهم أو اغتصــاب ذكــرانهم. ثــم إنكــم تجتمعــون فــي نــواديكم فتجاهرون بالمنكر من القول والفعل، مما يجعل هتــك الفضــيلة معتــادا شــائعا، وبالتــالي انقلب معروفا.

يفهم من جوابهم أنه هددهم بأنه سيحل عليه عذاب الله إذا لــم يقلعــوا عــن الفســاد الــذي انغمسوا فيه. ولذا قالوا له لما ألح عليهم: تخوفنــا بعــذاب الله فــنحن لا نصــدق ادعــاءك أنك مرسل من عنده، ونحن نتحداك أن تطلب من ربك أن يسلط علينا عذابه.

30ـ قال رب انصرني على القوم المفسدين.

يئس من اهتدائهم فتوجه مبتهلا إلى ربه أن ينصره على قومه المتصلبين في الكفر، الذين فسدت أخلاقهم، وسفلت طباعهم، وألفوا الفساد والإفساد، فلا تفيد فيهم الموعظة.

31ـ ولما جاءت رسلنا...إن أهلها كانوا ظالمين.

استجاب الله دعاء لوط، وقــدر إنجــاز إهــلاك قومــه المفســدين. وأعلــم بــالخبر عمــه إبراهيم. أتته الملائكة مبشرة أن الله يمنحه، على تقدمه فــي الســن، وكبــر زوجــه، ولــدا نبيا وحفيدا. وأتبعوا بشارتهم بأن الله كلفهم بإهلاك قريــة ســدوم وذلــك بســبب مــا فشــا فيهم من الظلم، ظلموا الأخــلاق فداســوها، وظلمــوا المســافرين فبــدلوا الأمــن خوفــا، وظلموا رسولهم فكذبوه. تلك القرية التــي كــان لــوط نــازلا فيهــا، ودعــا أهلهــا إلــى الإقلاع عما تعودوا القيام به من الفواحش فتحدوه معرضين.

32ـ قال إن فيها لوطا... كانت من الغابرين.

خشي إبراهيم على ابن أخيه لوط أن يناله العذاب، وهــو الــذي بــذل كــل جهــوده لتعلــو الفضيلة، فنبه الملائكة أن لوطا مقيم فــيهم ليســتثنوه مــن الهــلاك. كــان جــوابهم أن الله أطلعهم على من يسكن القرية من الصــالحين الــذين مــا فســدوا ولا رضــوا، وصــرحوا

بأنهم تبعا لذلك أعلم من إبراهيم. وقالوا : نحن عازمون عزما أكيدا على إنجائه، وإنجاء أهله، ما عدا امرأته فإنه سينالها من العذاب ما ينال سدوم.

33ـولما أن جاءت رسلنا لوطا...كانت من الغابرين.

توجه الملائكة بعد أن بشروا إبراهيم، وأخبروه بمهمتهم في قرية لوط، توجهوا إلى سدوم .

دخلوا على لوط، فظن أنهم ضيوف قصدوا بيته، فوجد نفسه مقسما بين الابتهاج بهم ليسعد بإكرامهم، وبين ما يعلم من فساد قومه، وتعديهم على الغرباء. وقع في كرب نفسي وضاق به الأمر، إذ كان يظن أن الوافدين بشر ضيوف، إذ قدموا عليه في صورة إنسانية، ولم يخبروه بأنهم ملائكة. بدا عليه التضايق، فنفسوا عنه بإخباره أنهم ملائكة، وطمأنوه تطمينا يزيل ما عراه من خوف، وقالوا له: لا تخف علينا، ولا تحزن على مصير قومك الذي جئنا لتنفيذ العذاب عليهم. كلفنا ربنا بأن ننجيك أنت وأهلك من العذاب، إلا امرأتك التي حق عليها القول: أنها من الهالكين.

34ـ إنا منزلون على أهل هذه القرية...بما كانوا يفسقون

و كشفوا له أن العذاب الذي وكلوا بتسليطه، هو عذاب مؤلم ينزل عليهم من السماء لا ينجو منه أي أحد منهم. وقد فصلته الآية 82 من سورة هود.

35ـ ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون.

لم يعف النسيان على مصير قرية لوط، فقد بقيت بعض من آثارها، شاهدة على مصير أهلها، كما حفظ التاريخ هلاك قوم لوط، ولم يمحها من ذاكرة الإنسانية. ليكون مصيرهم دلالة لمن يعقل على نكال الله بهم، وتهديدا لمن يكون على شاكلتهم.

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا
تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى
دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ
وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾
وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ
حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم
مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الرجاء : الترقب عن اعتقاد.

صدهم : منعهم.

السبيل : الطريق المبلغ للمطلوب الحق.

مستبصرين : أصحاب بصر بالأمور وعقل مساعد.

استكبروا:بلغ منهم الكبر حدا بعيدا.

سابقين:منفلتين من العقاب.

الأخذ: الإهلاك.

بيان المعنى الإجمالي:

أرسل الله إلى مدين رسولا منهم أخاهم شعيبا، دعاهم إلى تخصيص الله بالعبادة، وأن يوقنوا بالبعث وأن يصلحوا في الأرض التي استخلفوا فيها ولا يفسدوا. فكان موقفهم من دعوته تكذيبه أن يكون رسولا من عند الله. فهزتهم بالليل رجفة عظيمة، فدخل عليهم الصباح وهم جثث هامدة.

وأهلكنا عادا وثمودا؛ وقد أبقينا على مساكنهم عبرة للناس. لقد تمكن الشيطان من جعلهم يظنون: أن أعمالهم السيئة، حسنة صالحة، فمنعهم ذلك من اتباع طريق الهداية، رغم أنه كان لهم حظ من الفهم.

وكذلك أهلكنا قارون وفرعون وهامان، بعد أن جاءهم موسى مؤيدا بالمعجزات البينة. صرفهم عن اتباعه تعاظمهم وكبرهم البالغ؛ وما استطاعوا الانفلات من العذاب . كل واحد منهم أخذناه بالعذاب المناسب لإجرامه. فأرسلنا على عاد حاصبا ريحا شديدة دمرتهم، وعلى ثمود صيحة مزقت أنسجتهم، وخسفنا بقارون وأتباعه وأمواله الأرض، فما بقي منهم أثر، وأغرقنا فرعون وهامان وأتباعهما وجنودهما. لقد كان الجزاء من جنس فاسد أعمالهم، فما ظلمهم الله بتسليط عذابه عليهم بعد أن نبههم وأرسل إليهم رسله، ولكنهم ظلموا أنفسهم بالكفر والكبر.

بيان المعنى العام:

36ـوإلى مدين... ولا تعثوا في الأرض مفسدين.

أرسلنا إلى مدين رسولا منهم هو شعيب عليه السلام. ابتدأ دعوته لقومه بأن يفردوا الله بالعبادة، وأن يتيقنوا بأنهم سيبعثون للحساب والجزاء، الأمر الذي يجعلهم يراقبون الله في أعمالهم منتظرين ثوابه يوم القيامة. ونهاهم عن الفساد في الأرض بتذكر أنهم مستخلفون فيها ومسؤولون .

37ـ فكذبوه...في دارهم جاثمين.

قابلوه بالتكذيب أن يكون الله بعثه بما طلبه منهم. فعاجلهم زلزال شديد ارتجفت بهم الأرض ليلا زلزالا شديدا يتجاوز طاقة احتمالهم فهلكوا. وطلع الصباح عليهم وهم جثث هامدة لا حراك لها.

38ـ وعادا وثمودا...وكانوا مستبصرين .

جرى الأمر في تتابع القصص على نفس نسق الذكر في سور القرآن، في التذكير بقصتيهما بعد قصص إبراهيم ولوط وشعيب. أهلكنا عادا وثمودا، ولم نُعْفِ على آثارهم، فما تزال آثار مساكنهم ناطقة بما كان فيها من عمارة شاهدة على وضعها يوم كانت عامرة بأهلها وعلى مصيرهم.

لقد زيَّن وحَسَّنَ الشيطان لهم أعمالهم القبيحة، فانقلب عندهم سلم القيم. فمنعتهم وسوسته من اتباع طريق السعادة، رغم أنهم كانوا أصحاب عقول قادرة على الفهم والنظر.

39ـ وقارون وفرعون وهامان ...وما كانوا سابقين .

ثم ذكرهم القرآن بعاقبة رؤوس الكفر، فرعون وهامان وقارون الذين بلغهم موسى هداية ربه، وأيدها بالمعجزات الظاهرة، فرفضوا قبولها، تبعا لاعتقادهم أنهم أعلى وأعظم من أن يتبعوه. وما أشد غباءهم فإنهم لا يستطيعون الانفلات من عقاب الله. وفي هذا تهديد لرؤوس الكفر من قريش، المستكبرين: أنه سينالهم العذاب والنكال.

40ـ فكلا أخذنا بذنبه...كانوا أنفسهم يظلمون.

فصلت هذه الآية نوع العذاب المسلط على كل واحد. منهم من أرسل الله عليه ريحا مزقتهم شر ممزق كعاد. ومنهم من أهلكتهم الصيحة الشديدة التي مزقت كيانهم وهم ثمود. ومنهم من ابتلعته الأرض وهم قارون وأتباعه وماله. ومنهم من ابتلعه اليم وهم فرعون وهامان وأتباعهما وجنودهما. إن كل واحد جوزي جزاء مناسبا لما قدم. وهو العدل الذي تنادي به الفطرة السليمة. وتحقق أن الله لا يظلم الناس شيئا، ولكن الناس يظلمون أنفسهم بالعناد والاستكبار.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ

ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

أوهن: أضعف البيوت مقاومة.

العزيز: النافذ مراده لأنه لا يغلب.

وما يعقلها: يفهمها على الوجه المراد منها.

الحق: يؤدي ما خلق له دون نقص أو اختلال.

الفحشاء: تجاوز الحد الذي حدده الإسلام.

المنكر : ما ينكره الشرع، وهو شامل للأفعال والنوايا.

تصنعون: ما جرى في نفوسكم قبل العمل، وما نفذتم.

بيان المعنى الإجمالي:

ضرب الله مثلا يصور عُبّاد الأصنام، مثلهم كمثل العنكبوت تجهد نفسها لبناء بيت يحميها وتأوي إليه، ولكنه بيت واه ينهار لأي حركة فينقلب هباء . وهكذا أصنامهم لا تفيدهم شيئا وكل ما بذلوه من جهد لتقديسها، وتعليق الآمال بها، ينهار ولا يجدون شيئا. ولكنهم جهلة لا يعلمون المآلات . والله يعلم أن ما تدعون من دونه لا حقيقة له بل هو أوهام. والله يضرب الأمثال للناس تقريبا للحقائق العالية، وما يستفيد منها إلا العالمون، أما الجهلة المشركون فلا تفيدهم شيئا. وإذ زيف القرآن ما يعبدونه من دون الله، لفت الأنظار إلى النظام الكوني الذي يقوم دليلا على أن الله خلق السماوات والأرض خلقا ملتبسا بالحق، تؤدي وظيفتها حسبما قدره لها. وفي هذا التقدير المحكم آيات للمؤمنين فتتضاعف طمأنينتهم أنهم على الحق.

امر الله محمدا ﷺ أن يواصل تلاوة القرآن الذي أوحاه إليه كتابا منزلا، وأن يقيم الصلاة بأدائها على أتم وجه يحقق الصلاح النفسي. إن الصلاة إذا أقيمت مستجمعة للشرائط والأركان والفضائل، واستحضر المصلي موقفه بين يدي الله، فإن صلاته تساعده على الاستقامة وتنهاه عن فعل المحرمات وعن إتيان المنكر. وإن ذكر الله شيء عظيم جدا فهو يجعل الذاكر قريبا من ربه. والله يعلم أعمالكم الظاهرة، وحقيقة الدوافع الباطنية لها.

بيان المعنى العام:

41-مثل الذين اتخذوا...لو كانوا يعلمون.

تجسيم بديع يظهر وضع الكافرين، وهم يتحركون حول الأصنام، ويستنبطون لها شعائر من التقديس، ويجعلون لها طقوسا ومواسم، ويتقربون إليها بما أملته عليهم

أخيلتهم، وأحاطوها بهالة من التعظيم، واتخذوها آلهة من دون الله. قارن القرآن بينهم وبين الحشرات، فكانت الصورة القريبة من نشاطهم الديني، العنكبوت الذي يجهد نفسه ويخرج من ذاته خيوطا يواصل التأليف بينها وربطها ليكون له منها بيت يأويه ويحفظه. ولكنه بيت ضعيف واهن كأشد ما يكون الضعف والوهن، فما إن يصدمه جسم عن قصد أو غير قصد، حتى يتهاوى وينهار. وعلى وزان بيت العنكبوت من الضعف والوهن وعدم الغناء، ما نسجوه من أوهامهم حول آلهتهم، إذ تنهار رابطتهم بتلكم الأصنام وتتبخر آمالهم فيها كلما لجأوا إليها لتحميهم. فهم أقرب ما يكون إلى العنكبوت؛ ولكن جهلهم جعلهم لا يدركون شبههم بها.

42.إن الله يعلم ...وهو العزيز الحكيم.

بعد أن ضرب القرآن المثل لِوَهَنِ آلهتهم وعدم غنائها ببيت العنكبوت، أكد ذلك بأن الله يعلم: ما تدعون من دونه من شيء. فما نافية أي إنكم لا تدعون من دون الله شيئا. يعني أن الذين تدعونهم من دون الله أوهام وخيالات لا تستحق أن تسمى شيئا. فتكون من الثانية "**من شيء** " ليس لها فائدة إلا تأكيد النفي المستفاد من "**ما تدعون**". وختمت الآية بأنه تعالى هو العزيز، وعزته توجب خضوع الكائنات له؛ وهو ما يؤكد زيف معبوداتهم. وهو الحكيم ومن حكمته كشف الأوهام بمختلف الطرق التي منها ضرب الأمثال.

43. وتلك الأمثال نضربها...وما يعقلها إلا العالمون .

المثل المضروب هنا "**بيت العنكبوت**" يذكر التالي بالأمثال التي عرضها القرآن، فلفت النظر إليها وأشار إليها، باعتبار المفهوم الجامع بينها، على أن تكون كاشفة موضحة، ومقربة للمعاني البعيدة، المساعدة على قبول العقل للحقائق التي ربما تخفى عليه لأول الأمر. ولكن لا يفهمها إلا من صقل عقله بالمعارف والعلوم، ويضل في إدراك غاياتها الجهلة، وخاصة الذين ضرب التقليد حجابا على مداركهم.

44.خلق الله السماوات ...لآية للمؤمنين .

بعد أن زيف الآلهة المعبودة من دون الله بالدليل والمثال، لفت الأنظار إلى النظام الكوني، الذي يقوم شاهدا على أن الخلق الإلهي بلغ غاية الإحكام، فهو يؤدي ما خُلقَ له على النحو الذي قدر له دون اختلال. وأسرار الخلق هذه تقوم دليلا للمؤمنين، ولا تنفع المشركين.

45. اتل ما أوحي إليك من الكتاب...والله يعلم ما تصنعون.

هذه أوامر من الله لرسوله :

1)الأمر الأول: أن يواصل تلاوة القرآن: الكتاب الذي أوحى الله به إليه، يتلوه على المشركين ويتلوه على المؤمنين. إذ هو كلام رب العالمين الجامع للعقيدة والتشريع والأدب ومتنوع المعارف، وأن لا يصده تمادي المشركين على الكفر به أو تشغيبهم. وهو أمر للمؤمنين أيضا باعتبار أن كل أمر خوطب به النبي ﷺ ينسحب على أمته، فالقرآن بالنسبة إليهم المعين الذي لا ينضب يعمق إيمانهم، ويحيي أرواحهم، ويصلهم بالمعارف العقلية والكونية والتاريخية، على منهج فريد تميز به،لا يشاركه في ذلك أي كتاب آخر من الكتب الدينية المنزلة، ولا مما ألفه البشر.

2)الأمر الثاني: أن يقيم الصلاة، وهو أمر يتشعب إلى شعبتين:

أ-المواظبة عليها وعدم التراخي في أدائها في أوقاتها المحددة.

ب – إقامتها بما يتجاوز أداءها كيفما اتفق، إلى أدائها على الطريقة المثلى في الظاهر والباطن. ولذا كان الأمر أقم الصلاة، دون صل أو أد الصلاة. وتحقيقا للعناية بالصلاة عناية خاصة عميقة، أتبع الأمر بالتعليل الكاشف عن أثر الصلاة المترتب على إقامتها في إصلاح المؤمن. فجمعه في أمرين؛ تنهى المقيم لها عن الفحشاء، وتنهاه عن المنكر. فكيف يفهم هذا التعليل؟

الذي فهمته: أن الصلاة إذا أقيمت على الوجه الأكمل ظاهرا، بجميع شروطها وأركانها وآدابها، وباطنا، باستحضار المصلي أنه واقف بين يدي ربه كما يقول الشيخ أبو محمد عبد الله بن أبي زيد رحمه الله: والمصلي يناجي ربه. إنه إذا قام بهذه المناجاة على أقل تقدير خمس مرات في اليوم والليلة على هذا النحو من الاستعداد والاستحضار حصلت في نفسه مَلَكَة، أجَسِّمُها في أن خيط النور الواصل بينه وبين خالقه يكون متوهجا، لا تستطيع ظلمة الشهوة أن تحجب أنواره، وكلما حدثته النفس الأمارة أو اغتنم الشيطان فلتة من فلتات الضعف، وجد النفس بإقامة الصلاة يقظة، تبعده عن قذارة الخطيئة. كما سبق أن بيناه في قوله تعالى: **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون**[1].

و الفحشاء والمنكر ليسا شيئا واحدا، وإن كان مفهومهما متقاربا، فالفحشاء تطلق على القبح الظاهر، والمنكر ما ترفضه النفس النقية.

ولذكر الله أكبر–ذكر الله يمكن أن يفهم على أنه الصلاة، فتكون هذه الجملة زيادة تأكيد لإقامة الصلاة ووجهه : أن الله يقول في سورة الجمعة **فاسعوا إلى ذكر الله** (صلاة الجمعة) سورة الجمعة آية9 كما يمكن أن يفهم على الأمر بذكر الله أي، اتل

---

[1] سورة الأعراف آية201

القرآن، وأقم الصلاة، واذكر الله بقلبك ولسانك. ولما كان الذكر يصحب المؤمن مصاحبة أكثر من الصلاة، إذ يكون في الصلاة وفي غيرها كان أمرا عظيما وتأثيره في الروح عميقا. يقول ابن عطية رحمه الله: والانتهاء لا يكون إلا من ذاكر لله مراقب له، وثواب ذلك الذكر: أن يذكره الله تعالى، كما في الحديث (من ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، ومن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم – البخاري في التوحيد ومسلم في الذكر) والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نهي، والذكر النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفرغه إلا من الله تعالى. وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى، وذكرُ الله تعالى للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرة لذكر العبد ربه، قال تعالى: **فاذكروني أذكركم**[1]

وتختم الآية بالإعلان عن الحقيقة التي يجب أن يكون الإنسان ذاكرا لها دوما: أن الله عالم العلم الكامل بكل ما تعملون، وبما رتبتم في نفوسكم من مقدمات وغايات لأفعالكم.

۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

المجادلة: المناقشة بالحجة.

أهل الكتاب : اليهود والنصارى، والصابئة.

ارتاب: شك.

المبطلون: المكذبون مع انتفاء الشبهة

[1] سورة البقرة آية 152

بيان المعنى الإجمالي:

عَلَّمَ الله هذه الأمة كيف تقدم الإسلام بصـفة حضـارية إلـى أهـل الكتـاب، مـن اليهـود والنصارى والصابئة. أمرهم ربهم أن يثبتوا الإسـلام بـالحجج والبـراهين، علـى أحسـن وجه دون عنف مع مخاطبيهم، إلا الذين ظلموا مـنهم كالـذين حرفـوا ثوابـت ديـنهم، أو المسـتكبرين الـذين آذوا النبـي ﷺ أو آذوكـم . وقولـوا لغيـر المسـتكبرين مـن أهـل الكتاب: إنه يجمعنا بكم أننا نؤمن بـأن الله أنـزل وحيـه علـى رسـلكم وعلـى رسـولنا، ونتفق أن إلهنا وإلهكم واحد، ونتفق على إسلام وجهنا له والانقياد لتشريعه.

و على هذا النحو من الدقـة والبيـان أنزلنـا إليـك الكتـاب: القـرآن. فالـذين آتـاهم الله الكتاب ولم يفسدهم الحسد، ولا غلبة حظوظ الـدنيا، يؤمنـون بمـا أنـزل إليـك، كمـا أن فريقا من المشركين اهتدوا به وآمنوا. و انحصـر رفضـه وإنكـار كونـه مـن عنـد الله، في المتعصبين المتصلبين في الكفر.

إنك أمي ما عرف قومك الذين كانوا يعلمـون كـل دقيقـة عـن حياتـك قبـل أن يـوحى إليك، ما عرفوا أنك كنت تكتب أو كنت تجلـس لمـن يعلـم الأديـان فتقـرأ علـيهم مـا يلقنونك. إذ لو حصل أحد هذين الأمرين لكان لهم شبهة. أمّـا وأنـت أمـي فإنـه يسـتحيل أن تأتيهم بهـذا الـوحي المعجـز الـذي أنزلنـاه عليـك. فانتفـاء أي شـبهة، يحقـق أن المكذبين على باطل. إن آيات القرآن أدلة ثبت أنهـا معجـزة لـك، تميـزت بوضـوحها، قَبِلَتْهـا عقـول العلمـاء فاسـتقرت فيهـا. إنـه لا يـرفض القـرآن ويجحـد أحقيتـه إلا المتصلبون في الكفر الذين لا ينقادون للحق.

بيان المعنى العام :

46ـ ولا تجادلوا أهل الكتاب...ونحن له مسلمون.

ناقشت الآيات السابقة المشركين، وكشـفت عـن جهلهـم وتعصـبهم، وأغلظـت علـيهم. ولما كان القرآن دعوة عامة، وجه القرآن الرسـول والمـؤمنين بـه إلـى الطريقـة التـي تتم بها دعوة أهل الكتاب ومناقشـتهم. إن البـون شاسـع بـين المشـركين الـذين تعلقـوا بالأصنام وعبدوها من دون الله، وبـين أهـل الكتـاب الـذين رفضـوا الأصـنام وآمنـوا بالله. لذلك نهت هذه الآية الرسول والمؤمنين عندما يعـرض لهـم مناقشـة أهـل الكتـاب، من اليهود والنصارى والصابئة على ما بيناه سابقا مـن أنهـم أهـل كتـاب، أن يناقشـوهم بالطريقة التي هـي أحسـن، الطريقـة التـي لا تثيـر فـيهم المعاكسـة والعنـاد. إنهـم بمخالطتهم لما بقي بين أيديهم من الوحي، ولإيمـانهم بـالله، اسـتقر فـي عقـولهم كثيـر من الحقائق التي يتحدون فيها مـع المسـلمين. وتكـون قاعـدة الحـوار هـذه عامـة إلا بالنسبة للذين ظلموا منهم. وأنواع ظلمهم كثيرة، منهـا مـا يعـود إلـى التحريـف الكبيـر

الذي أدخله بعضهم على ثوابت الدين وانحرفوا به عـن أصـوله. ومنهـا مـا يعـود إلـى الديانات السابقة. كانت قريش ترقبه وتعلم الشيء الكثيـر مـن حياتـه قبـل النبـوة؛ وأنـه ما كان في تلك الفترة يتلو شيئا من الكتب السـابقة، كمـا أنـه مـا كـان يعـرف الكتابـة حتى يتهم بأنه خط القرآن بيده وجوده ثم عرضه علـيهم. إنـه لـو كـان تاليـا للكتـب أو كاتبا غير أمي، إذن لكان للمبطلين المكذبين الذين لا شبهة لهـم فـي تكذيبـه، لكـان لهـم وجه لحصول الشك فيما أتى به. أمـا وقـد تيقنـوا جميعـا أن موجبـات الريبـة منفيـة يقينا. فاتهامه بأن القرآن من عند غير الله تهمة باطلة لا أساس لها.

49. بل هو آيات بينات...إلا الظالمون.

بل: إبطال لحصول أي ريبة فـي كـون القـرآن منـزلا مـن عنـد الله. وإذ انتفـى أن يكون مما خطه النبي ﷺ بقلمه، أو تلقى علمه من أي بشـر، ثبـت أنـه منـزل مـن عنـد الله. ومما يزيد ذلك تحقيقا أنه آيـات معجـزات واضـحة فـي نصـه، الـذي وقـع بـه التحدي فعجز العرب عن الإتيان بسورة من مثله، أوفـي النـواحي العلميـة التـي تـزداد ثباتا كلما تقدم المستوى العلمي للبشرية، أو فيمـا أخبـر بـه مـن الغيـب. أو فـي كـون المنزل عليه أميا ما كان له أن يعرف ما قصه من أخبـار الأمـم الماضـية. هـذه الآيـات البينة استقرت فـي صـدور الـذين أوتـوا العلـم، كلمـا تعمقـوا فـي معـارفهم ازدادوا اطمئنانا لكونه حقا منزلا من عند الله. وما ينكـر آيـات ربنـا وينفـون أن تكـون منزلـة من عنده، إلا الظالمون الفارغون من الإنصاف.

وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

كفى بالله : الله كاف لي في إظهار الحق.

يستعجلونك : طلبوا تعجيل العذاب استخفافا به.

بيان المعنى الإجمالي:

اقترحوا أن ينزل الله على رسوله معجزات حسية. قل لهم إن الله يؤيد رسوله بما يشاء لا بما تقترحون. تفرد سبحانه بإعطاء السنن في الكون، وهو الذي يخرقها بما شاء في الوقت الذي يشاء. واعلموا أن دوري قاصر على إنذاركم حلول العذاب بكم إن أعرضتم.

و العجب من تصلبهم في الكفر، ألم يكفهم القرآن المنزل عليك من عند الله، نتلوه عليهم وقد اشتمل على الرحمة للبشر بتوضيح ما يسعدهم في الحياتين. وإنه ليحرك ضمائر المؤمنين وأرواحهم للخير.

قل لهم: كفاني الله شهيدا بيني وبينكم، يظهر من هو على الباطل ومن هو على الحق. إن ربي لا يخفى عليه شيء. كيف لا وعلمه يشمل السماوات والأرض ومن فيهما. والنتيجة التالية لذلكم الاحتكام واضحة، فالذين آمنوا بما لا حقيقة له، وأنكروا ألوهية الله تفردوا بالخسارة.

يطلبون منك أن تعجل نزول العذاب الموعود عليهم. وهذا من جهلهم، فإن العذاب مقدر في علم الله نوعه وأجله، فلا يتقدم عن موعده لسؤالهم حلوله، ولا يتأخر لو طلبوا تأخيره. وليكونوا واثقين أن العذاب سينزل عليهم لا محالة فيبغتهم، في الوقت الذي هم فيه غافلون، غير شاعرين أنه حل أجله. يستعجلونك بالعذاب ظنا منهم أنه لا عذاب إلا عذاب الدنيا، وجهلوا أن العذاب الذي يشملهم ولا يفلت منه أحد منهم هو عذاب جهنم. في ذلك اليوم يحيط بهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، ويسمعون صوتا أذن الله أن يخترق أسماعهم يقول : ذوقوا جزاء ما كنتم تعملون من سوء في الدنيا.

بيان المعنى العام:

50. وقالوا لولا أنزل عليه آيات...إنما أنا نذير مبين.

سجلت الآية تعنت المشركين، وحسب الظاهر فإن الآية تتحدث عما يدور بينهم في مجامعهم ليشككوا أتباعهم في صدق الرسول، كما يفهم من إسناد القول إلى ضمير الغائب دون مواجهة الرسول، فلم يقل وإذ قالوا لك، وآية من ربه دون ربك. فهم قد دبروا هذا في خلواتهم، ثم تحدوا الرسول أن يأتي بآية يؤيده بها ربه من النوع

الخارج عن قدرة البشر(من ربـه) يقصـدون مـن تحـديهم هـذا أن تكـون الآيـة مـن المحسوسات المشاهدة كعصا موسى.

أجبهم جوابا قاطعا لهـذا النـوع مـن التشـغيب: إن الآيـات بيـد الله، لا تـأتي حسـبما تقترحون وتتصورون. وقد عرض موسى آيات محسوسـة مفصـول بينهـا بوقـت تـارة غير قليل، ومع ذلك فكلما انقضـت مشـاهدة المعجـزة عـاد الكـافرون إلـى ضـلالهم. ومن ناحية أخرى فإن الآيـات المعجـزة تكـون حسـب طبيعـة الرسـالة فـإذا كانـت موجهة لقوم معينين جاءت الآية بما يشاهدون، وإذا كانـت الرسـالة عامـة لمـن حضـر ولمن لم يحضر، كان التأييد بمعجزة يدركها من حضـر ومـن غـاب، ممـا يقتضـي أن تكون عقلية لا محسوسة.

وقل لهم: إن مهمتي تقتصـر علـى إنـذاركم مـا يترصـدكم مـن عـذاب، وأبـين لكـم مضمون رسالتي بوضوح كامل.

51ـ أو لم يكفيكم أنا أنزلنا ...و ذكرى لقوم يؤمنون

عجب من اقتراحهم آيات، ألم يكتفـوا بـالمعجزة العظيمـة أننـا أنزلنـا عليـك الكتـاب. وهو الكتاب المحفوظ من التغيير والتبـديل، المعجـز بمجموعـه، والمعجـز بكـل ثـلاث آيات منه. وفي التعبير بالكتاب إشارة إلى أنهـم يسـتدلون علـى مضـامين ديانـاتهم بمـا بين أيديهم من التوراة والإنجيـل، ولا يسـتطيعون ادعـاء أن الـنص الـذي بـين أيـديهم هو النص المنزل من عند الله، فمن البديهي تبعا لـذلك أن يكـون القـرآن المحفـوظ مـن التبديل آية باقية . ثم أضاف مبرزا مزايا القرآن :

أ: أن نصه ميسر للحفظ يتلـوه القـارئ والأمـي. ويحفظـه العـالم والجاهـل، والرجـل والشاب والصبي. وهذا من أسرار بقائه حجة مدى الدهر.

ب- أن نصه معجز، ومـا قـدر الله أن يكـون غيـر القـرآن معجـزا. ولـذلك لا فـرق عندهم بين اللغات العديدة التي يروج ويقرأ بها نص التوراة والإنجيل.

جـ -أنه رحمة، يفتح للإنسان أبواب حـل مشـاكله وتسـاؤلاته الدينيـة والحياتيـة. وقـد فهم هذا الوصف بصـفة عامـة شـاملة صـحابة رسـول الله ﷺ، فاعتمـده أبـو سـعيد الخدري ورَقَى به الملسوع فشفي[1].

د - أن التدبر فـي نصـه يرقـق القلـوب، ويحيـي فـي الـنفس خشـية الله ومراقبتـه، ويساعد على تذكر الآخرة، وبالتالي يصلح المجتمع كله بمـا لـه مـن أثـر مباشـر فـي المؤمنين.

---

[1] فتح الباري ج5 ص262

52ـ قل كفى بالله بيني وبينكم...أولئك هم الخاسرون.

أرشدت هذه الآية النبي ﷺ، أن يعرض عليهم أمرا فيه الانتصاف ولا يستطيعون رده، وهو ملزم لهم: قل لهم إن الله يكفيني في إظهار الحق، فيشهد من هو المحق ومن هو المبطل، إنه وحده العليم بما في السماوات وما في الأرض فلا يفلت من علمه ما تدبرونه وما تتآمرون به لتوقيف المد الإسلامي. إن الذين آمنوا بالباطل، أي ما ليس بحق فمشركو مكة آمنوا بأصنامهم، واليهود الذين دبروا هذا التحدي انحرفوا أولا عن التوحيد الذي أكدته التوراة، وكذلك النصارى، وثانيا عن التعاليم التي لم ترضهم فتجاوزوها بالتأويل الباطل.

و هددهم بأنهم خاسرون للعاقبة، لأنهم وثقوا بالباطل واعتمدوه، وكفروا بالله وما أنزله على رسوله. ونتيجة هذا الواقع هو تفرد الفريق المؤمن بالباطل الكافر بالله بالخسران.

53ـ ويستعجلونك بالعذاب ...وهم لا يشعرون.

واصل القرآن عرض صور من تحدي المشركين لرسول الله ﷺ . طلبوا منه أن يعجل عذابهم إنكارا للوعيد الذي أوعدهم به، واستخفافا به. أجابهم القرآن بأن حلول العذاب بهم هو من جهةٍ أمرٌ محقق فسيحل بهم بغتة دون تجديد إنذار، ومن جهة أخرى هو مقدر عند الله نوعه وأجله، وأنه عند حلول أجله سيأتيهم ما أوعدهم به.

إن الله حكيم لا يستفزه استعجالهم فيقدمه عن أجله. وهو حليم حكيم فلا يعاجلهم بالعقوبة لأنه سبق في علمه أن من المشركين ومن ذريتهم من يؤمن بالله ورسوله، ويكون قوة لجند الإيمان، وهذا ما تم فعلا في الوجود.

54ـيستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين.

من غفلة المشركين استعجالهم حلول العذاب بهم، وظنهم أن العذاب مقصور على النكال بهم في الدنيا، وسيوزع العذاب عليهم، فمن لم ينله في الدنيا نصيبه من العذاب، فإن جهنم ستحيط بالكافرين جميعا، من عذب في الدنيا بالهزيمة والقتل، ومن انفلت من عذاب الدنيا، إنها ستحيط بهم فلا يفلت أحد منهم من عذابها.

55ـ يوم يغشاهم العذاب...ذوقوا ما كنتم تعملون.

صورت الآية هول العذاب، وأنه سيصل إلى كل جزء من أجزائهم فيحيط بهم، هو عذاب ينزل عليهم من فوقهم، ويصعد إليهم من تحت أرجلهم.

ويضاف إلى العذاب الجسمي، عذاب نفسي هو الاحتقار والإذلال والشماتة، فيسمعون ممن أذنه الله بإبلاغهم: ذوقوا ألم العذاب على وزان ما كنتم تعملون في الدنيا، فآثامكم مسجلة عليكم، وعذابكم مقدر بمقدار كل سيئة صدرت منكم.

يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفۡسٖ ذَآئِقَةُ ٱلۡمَوۡتِۖ ثُمَّ إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ نِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

لنبوئنهم: لنسكننهم.

الغرفة : البيت المعتلى على غيره.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه الآية وما تلاها فيه إعداد المؤمنين للهجرة. يناديهم ربهم بقوله: **يا عبادي الذين آمنوا،** تأنيسا لهم بما يذهب عن نفوسهم الأسى والخوف من المستقبل: إني خلقت الأرض واسعة تأويكم ولا تضيق عن توفير أسباب الحياة حيثما كنتم. خصوني بالعبادة . لا تخافوا في سبيل الثبات على عقيدتكم أي قوة، كل نفس ستموت لامحالة، يتلو الموت رجوعكم إليَّ لتجدوا الجزاء الدائم الذي لا ينقطع، وقد تقدم جزاء الكافرين فأعلنت الآية جزاء المؤمنين؛ أن يسكنهم بيوتا عالية تتخلل أراضيها المياه المتدفقة في الأنهار، ولا ينقطع نعيمها. ما أحسنه من جزاء لمن عمل صالحا. هم الذين صبروا على الثبات على الحق، ووثقوا بعون الله ورعايته.

بيان المعنى العام:

56ـيا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون.

الذي ذكره معظم المفسرين أن هذه الآية تفيد الإذن لمسلمي مكة، الذين بالغ المشركون في إذايتهم ليفتنوهم عن دينهم، أن يتحولوا عنها إلى المدينة. والذي أفهمه أنه إعداد لهم للتحول عن مكة إلى المدينة. هيأ نفوسهم للهجرة بأن أرض الله واسعة، لا تضيق بالبشر. وهو متضمن لوعد بعونهم وعدم إهمالهم .فالمهم أن لا يتعلقوا بالأرض تعلقا يقدمون معه البقاء فيها، على هوان وفتنة، عن القيم التي آمنوا بها. وإن الأسى الذي يتحرك في الباطن مثبطا عن مفارقة الموطن، تنفذ إليه الآية لتحوله إلى رضى ورغبة بدعوتهم: يا عبادي ! وبفسح الآمال: إن أرضي واسعة. وبتذكيرهم بأن رأس القيم إفراد الله بالعبادة. أفردوني بالعبادة ولا تعبدوا غيري.

57ـكل نفس ذائقة الموت ثم إلينا ترجعون.

تذكير بالحقيقة التي قد تختزن في باطن الشعور فيضعف ظهور أثرها في التفكير والسلوك. هي حقيقة الموت الذي يترصد كل كائن، وأنه لا خلود في الدنيا. وأن بعد الموت عودة للخالق بما يصحب النفس من أعمال، عليها يكون الجزاء. بما يهون مفارقة الموطن، والهجرة حيث يستطيع الإنسان عبادة الله غير مفتون.

58ـوالذين آمنوا وعملوا...نعم أجر العملين.

ترتبط الآية بقوله تعالى في الآية 52: والذين آمنوا بالباطل" فهما نهايتان متقابلتان. الذين آمنوا وقرنوا صلاح العقيدة بصلاح العمل، قررنا أن يكون جزاؤهم السكنى في بيوت عالية تتخلل أراضيها المياه المتدفقة في الأنهار. لا ينقطع نعيمها ولا يشوبه كدر ولا خوف من الزوال. ما أحسن أجر العاملين العمل الصالح. هم الذين كان الصبر خلقًا لهم. يثبتون على دينهم رغم ما يلاقونه من الحرمان والأذى، ولا يضعفون. وتعلقوا بربهم تعلقا فتح لهم باب الأمل.

وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِ مَوۡتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ﴿٦٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

الدابة: كل نفس تحركت على وجه الأرض عاقلة أولا.

تسخير الشيء : إلجاؤه لعمل صعب.

بسط الرزق وتقديره : سعته وضيقه.

بيان المعنى الإجمالي :

الآيات التالية تظهر تناقض المشركين، واعترافهم بما هو حجة عليهم. إنك إن سألتهم من خلق السماوات والأرض، وسخر الشمس والقمر فجعلها تسير في مسارها وتؤدي وظائفها حسبما قدر لها؛ جوابهم واحد كل ذلك من فِعْلِ الله، فكيف ينصرفون عن توحيد الله؟ فهذا تناقضهم الأول. إن الرزق بيد الله، فهو الرزاق، ويعترف المشركون أن آلهتهم لا ترزق، وأن الرزق يتم حسب إرادته فيوسع على

من يشاء ويضيق على من يشاء. ومع ذلك فإنهم يطلبون من أصنامهم تيسير أمر رزقهم. وهذا تناقض ثان.

وإنك إن سألتهم من تصرف في السحب فأنزل منها الماء على الأرض التي كانت حية فماتت ثم عادت لها الحياة بما نزل عليها من الماء، إنه ليس لهم إلا جواب واحد؛ الله الذي فعل ذلك. ومع ذلك يعبدون الأصنام ويتقربون إليها فأكثرهم لا يعقلون. وهو تناقض ثالث.

بيان المعنى العام:

60- وكأين من دابة...وهو السميع العليم.

إنك إذا نظرت في عالم الحيوان، تجد أن معظم أنواع الحيوانات لا تتكلف ادخار أقواتها وجمعها لوقت الحاجة. ومع ذلك هي باقية لم يلحقها الفناء. والحيوانات التي تدخر أقواتها لم يعرف منها إلا النمل والنحل والفئران، وبعض الطيور. إن المتكفل برزقها هو الله خالقها. وكما يرزق الدواب يرزقكم. وهو السميع لدعائكم، واستغاثاتكم. وهو أكرم من أن تهتفوا به ولا يجيبكم. وهو العليم بأحوالكم وإن لم تمدوا أيديكم إليه ولم تطلبوا. وحاشاه وهو الرؤوف الرحيم أن يحرمكم ما تتواصل به حياتكم.

61- ولئن سألتهم من خلق... ليقولن الله فأنى يؤفكون.

هذه الآية تلجئ المشركين إلى الاعتراف بتفرد الله بالخلق والتأثير، وتبرز تناقضهم، ومحدودية تفكيرهم. إنك إن سألتهم عن الظواهر الكونية من خلق السماوات والأرض؟ ثم سألتهم من ضبط للشمس والقمر مسارهما، من سخرها ليؤديا دورهما في الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية، من الليل والنهار ومن ترتيب الفصول، ومن المد والجزر في البحر؟ يجيبونك خلقها الله وسخرهما الله. فاعجب لتناقضهم، كيف يعترفون بأن الله هو الخالق والمسخر، كيف يصرفون مع ذلك عن توحيد الله إلى عبادة الأصنام!

62- الله يبسط الرزق ...إن الله بكل شيء عليم.

هذه الآية عامة لا تتناول المشركين وحدهم، ولكن الخطاب بها عام، فيه تقوية للمؤمنين الذين تُعِدُّهم هذه الآية لله للهجرة وترك أموالهم، وللمشركين الذين يحتقرون المستضعفين من المؤمنين؛ فتقرر قاعدة تُطَمْئِن المؤمنين أنهم إن تركوا ديارهم وأموالهم، فإن الرزق بيد الله يعوض عليهم ما ذهب منهم، فلا تقعدهم أموالهم عن الهجرة بدينهم. وتظهر تناقض المشركين فإنهم قد اعترفوا بأن الرازق

هـو الله كما ورد في سورة يونس(**قل من يرزقكم من السماء والأرض....فسيقولون الله**)[1] ثم هم يحتقرون المستضعفين.

وأكملت الآية التصور الإسلامي في الرزق، فعلى المؤمن أن يعتقد:

1) بأن الله هو المتفرد بالرزق.
2) وأنه يوسع على من يشاء، ويضيق على من يشاء بناء على علمه الشامل للحاضر والمستقبل . وبناء على ذلك فإن حكمة بسط الرزق وتضييقه لا يمكن أن تحيط بها البشر .

وقوله تعالى:**إيبسط الرزق لمن يشاء ويقدر**. يفهم على وجهين :

الوجه الأول: يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويضيق على آخرين .

الوجه الثاني : أنه سبحانه يبسط الرزق لمن يشاء من عباده في حال، ثم يضيق عليه في حال أخرى.

63.ولئن سألتهم من خلق...بل أكثرهم لا يعقلون.

عود إلى إلجاء المشركين للاعتراف بتناقضهم، بإيراد أسئلة عليهم يقرون بها، وينفون مقتضياتها. إنك إن سألتهم من تصرف في السحب فسيرها، ثم أنزل منها الماء في الأماكن التي كان حبسه عنها فماتت وتجردت أرضها من كل نبات، فرتب على إنزال الماء بعث الحياة فيها. إنك إن ألقيت عليهم هذا السؤال لا يستطيعون أن يجيبوا إلا بجواب واحد: الله فاعل ذلك.

تتابعت الأسئلة وكلها ملزمة للمشركين، ملجئة لهم أن يعترفوا بعجز أصنامهم عن تدبير الكون في عمومه، أو في بعض مظاهره كما تبين ذلك في الآيات السابقة.

تَوَجَّهْ إلى الله بالحمد أن هداك إلى معرفة الحقائق التي يقر بها المشركون، وجعلها مفضية بك إلى الإيمان، فجعل عقلك مستقيما سائرا على الصراط المستقيم، ونفعك فجعل النظر فيها مؤكدا للتوحيد نافيا للشرك، بينما كانت هذه المظاهر الكونية موقعة للمشركين في التناقض مفسدة لعقولهم. ومن بديع التعبير القرآني ختم الآية بأن أكثر المشركين ليس لهم عقل مستقيم. يقرون بالشيء ثم ينفون ما يترتب على إقرارهم.

وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ۖ فَسَوْفَ

[1] سورة يونس ، آية31

يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ
أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ
كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾
وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

اللهو: ما يقوم به الإنسان مما لا يتعب عقله ويجلب له متعة لما فيه من لذة ملائمة للشهوة.

اللعب: عمل هدفه تقصير الوقت، أو إراحة العقل بعد تواصل الجد.

الحيوان : الحياة الحق.

مخلصين له الدين : مفردين الدعاء له.

الباطل : الشرك.

التخطف : الأخذ بسرعة.

المثوى: مكان الثواء : الإقامة الطويلة.

سبلنا: المسالك المقربة من الله والمفوزة بالجنة.

بيان المعنى الإجمالي :

المقارنة بين الحياة الدنيا والحياة الأخرى تنتج نتيجة بينة: إن الحياة الدنيا إذا انفصلت عن اعتبارها طريقا إلى الحياة الآخرة، واستقلت فكانت الوسيلة والغاية لا تعدو أن تكون لعبا ولهوا، يستمتع بها لفترة قصيرة الصبيان واللاهون، دون أن يحصلوا من ذلك على نفع. والحياة الحقيقية التي كلها خير هي الحياة الآخرة. ولكن الجهل هو الذي يغطي هذه الحقيقة.

كانت التجارة أكبر مورد للرزق لأهل مكة، وكانوا يحسون بالأمن إذا سافروا في طرق الصحراء، لأنهم يسيرون في قوافل ويحملون معهم السلاح والمدربين على الدفاع، ومعرفتهم بالمسالك تكسبهم أمنا آخر، لكنهم إذا ركبوا في الفلك وساروا في البحر فإنه إذا هاجت الأمواج وفوجئوا بزوبعة شديدة وكاد اليأس من الحياة يستولي عليهم، في هذا الظرف يتوجهون إلى الله وحده بالدعاء لينجيهم، فلما نجاهم ووصلوا إلى البر عادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك؛ ليكون فضل الله عليهم كفرا بالنعمة، وتمتعا بما يقيمونه حول آلهتم من لهو وتآلف. هددهم القرآن: إنهم سوف يلاقون جزاءهم فيعلمون عندها عاقبة نكرانهم وشركهم.

ما لمشركي مكة لم ينظروا في النعمة الكبرى التي أنعمنا بها عليهم؟ أمنّاهم بالحرم، في الوقت الذي كانت فيه جميع القبائل العربية تعيش في خوف من الغارات السريعة عليهم تستولي على الضعفاء منهم أسرى وعلى أموالهم فيستاقون إبلهم ومواشيهم ويأخذون أموالهم. أيؤمنون بالأصنام العاجزة ويكفرون بنعمة أمْنِ الله عليهم.

ابحث في أطراف الكون وفي تاريخ البشرية فلن تجد أحدا أشد ظلما من الذي اختلق أكاذيب على الله فنفى عنه كمالاته، ونسب إليه ما ينافي عزته وصفاته الأزلية، أو الذي جاءه الهدى والحق فرفضه. إن جزاءهم جزاء عادل. ستكون جهنم مستقرا دائما لهم.

والذين جاهدوا في سبيل مرضاة الله، فثبتوا الدين وعملوا بكل ما أوتوا من قوة صبر، وإقناع، وبذل أموال لنصره، وتوسيع دائرة المؤمنين به، فجزاؤهم أننا نحيطهم بألطافنا فيزدادون مضيا في سبل الخير وإلْفًا للحق. وهذه سنة الله فإنه سبحانه عون للمحسنين، وهذه العصابة حول محمد هم من المحسنين. وكفاهم ذلك سعادة وشرفا.

بيان المعنى العام :

64-وما هذه الحياة الدنيا....لو كانوا يعلمون.

تعلق الكفار بالحياة الدنيا كأشد ما يكون التعلق. وحصروا اهتمامهم فيها، واعتقدوا أنها الحياة وليس وراءها حياة أخرى، فنبهتهم هذه الآية إلى خطئهم، وأن هذا الذي استقر في عقولهم وهم من الأوهام وعرفتهم أن حقيقة الحياة الدنيا لا قيمة لها إذا قارنّاها بالحياة الآخرة، فهي لا تعدو أن تكون لهوا ولعبا . فترة قليلة يلهون فيها كما يلهو الصبيان ويلعبون، دون أن يحصلوا على فائدة باقية. إن متع الحياة الدنيا إن لم تسمُ بربطها بالله هي متع تزول بتجاوز الظرف الذي وقعت فيه، فتعلّقوا بربكم واربطوا منجزاتكم برضاه. فالحياة الحق التي تبقى ولا يكدر صفوها مكدر، والتي ينتهي فيها الصراع بين الخير والشر هي الحياة الآخرة. ولكنهم جهلة ولو كانوا يعلمون لما آثروا الحياة الدنيا.

لا تدل هذه الآية على الإعراض عن الحياة الدنيا كما يُعْرِضُ أصحاب العقول الراجحة عن اللهو واللعب. ذلك أن الله استخلف الإنسان في الأرض ليعمرها، وليكون فاعلا فيها غير واهن ولا قاعد، وبعث له رسله تهديه إلى الخير وتحذره من الشر، وهو مسؤول عن هذه المهمة؛ لا يعفيه ضعفه إذا تراخى عن تطبيق ما شرعه الله .قال تعالى: (**إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم**

قالوا كنا مستضعفين في الأرض قــالوا ألــم تكــن أرض الله واســعة فتهــاجروا فيهــا)

فالآية 64 تبصر الإنسان مُعَرِّفَةً أن الحيــاة الــدنيا إذا انفصــلت عــن الغايــة التــي مــن أجلها خلق الإنسان واستخلف، تكون كاللعــب واللهــو اللــذين لــيس لهمــا غايــة نافعــة. واللاعب واللاهي يقضي فترة لعبه أولهوه، ثــم هــو لا يجــد حاصــلا مــن وقتــه الــذي خسره .

65←66: فإذا ركبوا في الفلك...فسوف يعلمون.

هذه الآية تكشف عن الفطرة المغروســة فــي بــاطن العقــل، تحجبهــا الشــهوات ويقمــع ظهورها التقليد. ثم إنه إذا كانت التجربة التي يــدخل فيهــا الإنســان قويــة مزقــت ذلــك الحجاب، فتبرز الفطرة حسب طبيعتها.

اكتسبت قريش ثروتها من التجارة، بما يرتبط بهــا مــن التمــرس بالأســفار، فمــا كــانوا يجدون صعوبة ولا خوفا إذا قطعوا الصــحاري لا فــي الليــل ولا فــي النهــار. أمــا إذا اضطروا للسفر عبر البحار، فــإن البحــر إذ هــاج وتلاطمــت أمواجــه، فــإن شــعورهم بقوتهم يكاد ينعدم فلا عَدَدُهُمْ ولا عُدَدُهُمْ بمنجيــة لهــم؛ وعنــدها تنــادي فطــرتهم ملتجئــة إلى الله المتصرف في البحر، أن ينقذهم من هوله ويكتب لهم النجاة والسلامة.

فقوله تعالى: **فإذا ركبــوا فــي الفلــك:** أي إذا كــانوا مســافرين فــي البحــر، وهاجــت الأمواج وتوقعوا الهلاك، يدعونه وهم مخلصــون فــي دعــائهم، لا يشــركون بــه أحــدا، ليقينهم أنه لا يغني أحد سواه شيئا عنهم، إذ الأمر بيده وحده.

ما هو موقفهم بعد أن أحاطهم بألطافه وبلغوا ساحل النجــاة ونزلــوا إلــى البــر ســالمين، بعد إحساسهم في بعض الفترات أن الموت أقرب لهم مــن الحيــاة، وأن البحــر قــد تهيــأ لابتلاعهم في قاعه البعيد؟ النتيجة مفاجئــة غيــر متوقعــة حســب العــادة، أنهــم عــادوا لإظهار طقوس الشرك.

وقوله تعالى : **ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعــوا**-دخلــت الــلام علــى يكفــروا، وهــي لام العاقبة كقول الشاعر أبي العتاهية : لِدُوا للمــــوت وابنوا للخراب **

أي إن عاقبة الــولادة المــوت وعاقبــة البنــاء الخــراب. وكقولــه تعــالى: **فالتقطــه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا** [1]-كانت عاقبــة التقاطــه أن يكــون لهــم عــدوا وحزنــا. فيكون معنى الآية نجاهم إلى البر لتكــون العاقبــة كفــرانهم بنعمــة الإنجــاء، عــوض أن يقابلوا النعمة بالاعتراف والشكر. وليتمتعوا باجتمــاعهم علــى عبــادة الأصــنام وتــوادّهم عليها، عوض كفرهم بها لما لم تغن عنهم شيئا وقت الحاجة.

---

[1] سورة القصص آية 8

وقوله تعالى: **فسوف يعلمون**، تهديد لهم.

67ـ أولم يروا...وبنعمة الله يكفرون.

قامت العلاقات الاجتماعية في جزيرة العرب وقت البعثة على الوحدة القبلية، كل قبيلة يتناصر أعضاؤها، ولا يرون في الإغارة على غيرهم من القبائل وسلب الأموال وأسر من يمكنهم أسره، إلا مظهرا من مظاهر العزة والبأس والشجاعة. فما كانوا ينعمون بالأمن إلا في الأشهر الحرم. وتميزت قبيلة قريش، نظرا لجوارها للكعبة، وقيامها على كثير من شؤون الحاج، بحرمة خاصة، فلا تتعدى عليها أي قبيلة، ولا يتعرضون لقوافل تجارتها. لم يكتسبوا أمنهم هذا بقوة السلاح، ولا بكثرة في العدد، وإنما هي مهابة أحلها الله في قلوب العرب جميعهم. وإنه بهذا التقدير العام توفرت عندهم الأموال بالتجارة وتيسرت الحياة، مع أنهم كانوا يسكنون بواد غير ذي زرع.

إن نعمة الأمن نعمة يتقلبون فيها كل يوم، ويحسون بها إحساسا أبلغ عندما تحمل لهم الأنباء: الغارات والقتل وطلب الثأر بين القبائل، وهم كما قال الله تعالى في سورة قريش: **فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**.

وجهت الآية لهم سؤال إنكار عن غفلتهم عن النعمة الكبرى بهذا الحرم الذي أمنوا فيه على حياتهم، وعلى أرزاقهم، في الوقت الذي يتخطف الناس في الأماكن الأخرى. هذه النعم تستوجب الشكر عليها والاعتراف بفضل مُسْديها، ولكنهم قابلوها بعكس ما تستحق، فتأهلوا للإنكار عليهم، اختيارهم للشرك على الإيمان، وكفران نعم الله التي توالت، أنجاهم في البحر، وآمنهم والناس يتخطفون من حولهم، وبعث رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم.

68ـ ومن أظلم ممن افترى على الله... مثوى للكافرين.

كل ما تقدم يحقق أن هؤلاء المشركين أقبح الناس ظلما، وأشدهم تعديا على الحق. ابحثوا في كل زمان وفي كل مكان هل تجدون من هو أظلم ممن اختلق على الله الكامل الكمال المطلق، المتفضل حتى على المشركين بنعم لا تحصى، فكذب عليه، ونسب إليه ما ينافي كماله، ونسب ما أنعم به إلى أصنام عاجزة مخلوقة بأيدي أصحابها. إنه ظلم تناهى في القبح، يمثل الاعتداء بنكران جميل مسدي الجميل ومفيض الخير. وأضاف إلى التعدي على مقام الألوهية، أنه عمد إلى الحق لما جاءه منه ليهديه وينقذه من الضلالة، على لسان من عرف صدقه وتحدى بما أنزل عليه فعجزوا كلهم عن الاتيان بمثله، ووصل إليه بدون أن يحمّله عناء، فكذب به أيضا .

إن هؤلاء الظالمين المتوحشين في ظلمهم حقيــق بهــم أن يكــون محــل إقــامتهم الدائمــة جهنم بسبب كفرهم .

69- والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين.

تزداد الصورة السابقة وضوحا بذكر الصــورة المقابلــة لهــا، وهــي صــورة المــؤمنين المجاهدين، الذين جاهــدوا فــي مرضــاتنا وصــبروا علــى الأذى، وبــذلوا كــل قــواهم الفكرية في تثبيت أركان الدين في القلوب. وكأنــت لــذتهم الكبــرى ومــا يعدونــه فــوزا هو نجاحهم في نشر دين الله. سنتفضل عليهم بزيــادة الهدايــة إلــى طــرق الخيــر كشــفا لها وثباتا عليها. وتأكيدا لذلك، نظمهم القــرآن فــي ســلك المحســنين الــذين بلغــوا فــي الطاعة الحد الأرقى (الإحسان) والله معهم يثبتهم ويحسن جزاءهم.

تم تفسير السورة بعون الله 21 ربيع الأنور1434 – 2013/02/02

سورة الرّوم

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به، ووجه تسميتها بذلك أنها السورة الوحيدة التي ذكر فيها اسم الروم ؛ كما سنتبينه في الآية الثانية منها. وهي مكية، نزلت بعد أن كثر عدد المسلمين. وهي السورة الثلاثون حسب ترتيب المصحف، والرابعة والثمانون حسب ترتيب النزول، تالية لسورة الانشقاق، وسابقة لسورة العنكبوت.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى
بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ
ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ
هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

بضع : لفظ يدل على معدود بين الثلاثة والعشرة.

بيان المعنى الإجمالي:

افتتحت السورة بالحروف المقطعة التي سبق أن ذكرنا شيئا عنها في فاتحة سورة البقرة.

فرح المشركون بانتصار الفرس المجوس عبدة النار على الروم المسيحيين، وروجوا أن هزيمة الروم تقوم دليلا على أن الله الذي يعبده المسلمون والمسيحيون لا يغني عنهم شيئا. فصرح القرآن بأن هزيمة الروم ستنقلب انتصارا بعد سنوات لا تبلغ العشر. كانت هذه الواقعة في الأرض القريبة إلى الجزيرة العربية من أرض الشام، ما بين بصرى وأذرعات. وحققت ذلك بأن الأمر من قبل هزيمتهم ومن بعدها، ومن الأزل إلى الأبد هو لله وحده . وسيكون نصرا مبينا يفرح به المؤمنون بهزيمة الشرك، وبتحقيق الوعد الإلهي، الذي ينصر من يشاء. لا شك في ذلك لأنه العزيز الذي لا يقوم عائق يحول بين تحقيق ما علمه، وما أراده. ورحمته تشمل عباده فالمهزومون لا ييأسون من رحمة الله .

إن هذا الخبر عن الغيب المستقبل، محقق وقوعه لأنه وعد الله القادر. والله لا يخلف وعده لأنه لا يتصور أن يمنعه مانع من تحقيق وعده، ولا حصول أمر جديد يثنيه عن إنجاز وعده. ولكن أكثر الناس: المشركون ومن كان على شاكلتهم لا علم لهم، فاستبعدوا أن ينتصر الروم بعد سنين قليلة لا تبلغ العشر.

إن علمهم لا يتجاوز بعض ظواهر الحياة الدنيا، وهم مع ذلك غافلون عن الأدلة القائمة المثبتة للبعث يوم القيامة.

بيان المعنى العام:

1ـألم.

هذه السورة هي السورة الثالثة في القرآن التي افتتحت بالحروف المقطعة، والتي لم يعقبها ذكر لفظ القرآن ولا الكتاب. ويقال فيها ما تقدم ذكره في نظائرها.

2←5: غلبت الروم في أدنى الأرض ...وهو العزيز الحكيم.

إمبراطوريتان تقاسمتا السلطان على أطراف الجزيرة العربية: الفرس في الشمال وما يليه، والروم في الغرب، من الشام إلى الأناضول. وفي سنة 615 من التاريخ المسيحي غزا الفرس بلاد الشام التي كانت جزءا من الإمبراطورية الرومية، وهزمت الجيوش الرومية هزيمة منكرة .

دولة الروم هي المعبر عنها بالدولة البيزنطية التي كانت عاصمتها القسطنطينية، والتي عرفت بعد ذلك بإسطنبول عاصمة الخلافة العثمانية التركية. كانت دولتهم تمثل قاعدة الديانة للمسيحيين الأرتودكس. وكانت روما عاصمة الرومان الغربيين وتمثل قاعدة الديانة المسيحيين الكاتوليك. وكان المشركون من قريش يقاومون المد الإسلامي بشراسة، يغتنمون كل فرصة أو شبهة، ليؤثروا بها في الدهماء ليصدوهم عن الدخول في الإسلام. ما كان لهم اعتماد على الحجج العقلية، ولا على ما تقتضيه الفطرة وتدعو إليه، فلجأوا إلى الشبهات ليصرفوا الناس عن الإيمان. ولما انهزم الروم روجوا أن الروم الذين يعبدون الله خذلوا لسوء عقيدتهم، وأن الفرس عبدة النار انتصروا لكفرهم بالله. وبنوا على ذلك أن أمر الإسلام إلى نفس المآل الذي آل إليه الروم، وأن أمر المشركين إلى نصر . وهذا من جهلهم ومن قصور تفكيرهم، إذ النصر والهزيمة مرتبطان بسنن هي سبب الفوز أو الخسران. فمن جمع اسباب النجاح نجح، والعكس بالعكس. ونزلت هذه الآيات الأولى من سورة الروم. تثبت الروايات أن المشركين ابتهجوا أيما ابتهاج بانتصار الفرس، وأن أبا بكر الصديق ﷺ لما سمع الآية خرج متحديا الفرحين، بأن الله أنزل ما يثبت قرب هزيمة الفرس وانتصار الروم. فعمد بعضهم إلى عرض المراهنة على أبي بكر

"الرهان مائة من القلائص" وهي الناقة الشابة إلى تسع سنين " وأتم الله وعده. وخسر القرشي الرهان.

تثبت الآية الأولى والثانية أن الروم غلبوا وأنهم من بعد هزيمتهم هذه ستكون الدائرة لهم على أعدائهم فينتصرون عليهم. ومن بلاغة التعبير القرآني اعتباره الغالب مجهولا، فلم يعرفه باسمه "غلبت الفرس الروم" إيماء إلى هوانهم وعدم اعتبارهم.

حدد القرآن المكان، بأنه في أدنى الأرض: أي أقرب الأرض لبلاد العرب، إذ كانت المعركة الحاسمة بين بصرى وأذرعات من بلاد الشام وأذرعات هي التي ذكرها امرؤ القيس:

تنورتها من أذرعات وأهلها *** بيثرب أدنى دارها نظر عال

وما كانت في ذلك العهد قوانين للحرب، ولا يقف الغالب في انتقامه من خصمه إلى حد. فكان يبالغ في هدم قواه هدما يجعله مطمئنا إلى أن المهزوم لا يعود إلى ساحة القتال ولا يؤمل في نصر. ولذلك كانت فرحة القرشيين عظيمة، يتعشمون منها أن انتصارهم على المسلمين سيكون ساحقا كانتصار الفرس على الروم .

نزلت الآية تبشر المسلمين وترفع من معنوياتهم، وتعلمهم بأن الروم سينتصرون على الفرس الذين غلبوهم، وأن ذلك سيتم على خلاف التوقعات، كما بيناه في الفقرة السابقة، بعد مدة لا تطول كثيرا هي دون العشر سنوات.

ثم أكدت الآية تحقق هذا الوعد الذي سيكون على خلاف التوقعات، بأن الأمر في الهزيمة والنصر، وفي كل ما يحدث في الكون، هو بيد الله، فهو الذي يؤيد من يشاء فيمكنه من جمع الأسباب الموجبة، ويخذل من يشاء، فيصرفه عن الأسباب المساعدة إلى أسباب الخذلان إنه في اليوم الذي ينتصر فيه الحق بتوفيق المؤمنين للأخذ بأسباب النصر، وتحقيق سننه في ذلك، في هذا اليَوْمِ يحق للمؤمنين أن يفرحوا بنصر الله لهم، وإعلاء كلمته. يؤكد ذلك، ويثبته أن الله يتصرف في الكون بوصفه العزيز الذي لا يوقف تنفيذ إرادته شيء. ومن ناحية أخرى فإنه سبحانه يحدد الوقائع زمانا ومكانا، ونوعا تبعا لرحمته، التي تعم الخلائق جميعا. فليكن كل معتقد آملا في رحمته.

6ـ وعد الله لا يخلف الله وعده...لا يعلمون.

هذه الآية تأكيد للآيات السابقة، فثبتت مضامينها:

أولا: بأنه وعد من الله، وشأن وعد الكامل أن ينجز بدون شك. بما يُطَمْئِن الموعود، إذ هو مالك الملك، الغني القادر، فلا يوجد أي سبب لإخلافه ما وعد .

ثانيا: أبرز ما فهم ضمنا فصرح به" لا يخلف الله الميعاد. وهو وعد للمؤمنين، ووعيد للكافرين.

ثم استدرك القرآن، بأن ذلك وإن كان بديهيا من شأن العقلاء أن يعلموه ولا يشكوا فيه، إلا أن الجهل المتمكن فيهم، وبُعدَ أغلب الناس عن العلم الكاشف بأن المتصرف في الكون هو الله وحده، كل ذلك مما غم عليهم الحق فجعلهم لا يدركونه.

7.يعلمون ظاهرا من الحياة...هم غافلون.

ولما كان من شأن القرآن الإنصاف والتدقيق، عقب قوله أكثر الناس لا علم لهم "لا **يعلمون**" بتوضيح المقصود من نفي العلم عنهم، فبين ذلك، بالتفرقة بين العلم القاصر الذي يقف بالمعلومات في الحدود التي لا تكاد تبعد عن الإدراك الحيواني: إدراك الحواس وما تنقله للدماغ من الظواهر المحسوسة للموجودات، وبين العلم المستند إلى الإيمان الذي لا يَقْصُرُ فهم الوجود على الظواهر.

وفي موضوع الوعد بأن الروم سيغلبون الفرس في بضع سنين، الذي أخبر به القرآن، وجزم المشركون ومن كان على شاكلتهم بنفيه اعتمادا على: أن الروم قد هزموا وتَتَبَعَ الفرس مراكز قوتهم العسكرية فحطموها، وأن تجديد قواهم لا يتم إلا بعد أجيال، إن صحبهم التوفيق في ذلك. ولذلك فإنهم كانوا مقتنعين بأن هزيمة الروم ستصحبهم إلى أمد طويل. وهذا ما جعل تفكيرهم قاصرا، لأن الاحتمالات التي فرضوها بنوها على ما نقلت لهم الحواس، وظواهر الحياة الدنيا. وغفلوا عن التصرف الإلهي الذي يهيء الأسباب لتنفيذ ما تعلق به علمه . كما قال أحد العارفين : وفوق تدبيرنا لله تدبير

أثبتت لهم الآية علما لا يتعدى بعض ظواهر الحياة الدنيا، وأنهم لقَصْر توقعاتهم على تلك الظواهر يكسون ظنهم أن أحكامهم يقينية أو مقاربة لذلك ظنا خاطئا، لإسقاطهم القدرة الإلهة المتصرفة، والتي تحدث في سلسلة الوجود ما لا يتبين إلا بتعميق النظر، وتجاوز الظواهر التي قد تكون خادعة. وانبنى على وقف تأملاتهم على ظاهر الحياة الدنيا غفلتهم عن الأدلة القائمة في أنفسهم وفي الكون المنادية بأن الحياة الآخرة حق ؛ ولكنها لم تقدهم لغفلتهم عنها، مع وجودها، لا لشدة خفائها.

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِي أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآيِٕ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ

لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ
أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

يتفكروا: يعملوا فكرهم فيستنبطوا به الحقائق الخفية.

المسمى: المقدر.

العاقبة: آخر الأمر من الخير أو الشر.

القوة: مجموع صفات يكون صاحبها دافعا للنقص.

السوأى: حالة موصوفة بأبلغ ما يكون من السوء.

بيان المعنى الإجمالي:

عجيب أمر المشركين، رزقهم الله عقولا ينظرون بها، ومع ذلك هم لم يعملوا تلك الملكة للتدبر والنظر في ذواتهم ! إنهم لو نظروا في ذواتهم لتبينوا من إحكام الصنعة في الخلق ما يدل على أنهم مخلوقون، ولو تأملوا في التحولات التي تجري عليهم من ضعف ثم إلى قوة ثم إلى ضعف وشيبة مما يقوم شاهدا على الحياة بعد الموت. فيد ك وأنت كهل هي غير يدك وأنت رضيع ذهبت الأولى وخلفتها الثانية في نسيجها وعظامها وخلاياها وشكلها، ثم تذهب تلك الصورة وتخلفها صورة أخرى يرتخي فيها الجلد وتضعف القوة فترتعش ولا تستطيع حملا ولا مسكا. وفي ذلك ما يدل على أن بعث الإنسان بعد موته ممكن لا استحالة فيه. وإذا تحولوا بفكرهم إلى خلق السماوات والأرض وما فيهما من أحكام وجدوا من دقة الصنع والضبط المحكم ما يدل أيضا على وجود الخالق وعلمه وقدرته. ويجدون فيها من ناحية أخرى، أنه تأتي عليها أعراض التحول والتغيير مما يدل على أنها ليست باقية بل لها أجل محدد ستنتهي إليه. ورغم هذه الدلائل تجد كثيرا من الناس كافرين بتلك الآيات، نافين للبعث ولحسابهم عند ربهم على ما قدموا.

بجانب النظر في ذواتهم هم لم يعتبروا بما يشاهدونه في أسفارهم، يمرون على آثار قوم لوط وقوم ثمود وقوم عاد، خرابا تنطق بما كان لساكنها من قوة أشد من قوتهم وعمارة للأرض أكثر من عمارتهم لها. ولما انحرفوا بعث الله لهم رسله، مؤيدين بالمعجزات، ليقيموهم على العقيدة الصحيحة والسلوك الصالح، فقابلوهم بالتكذيب، فدمرهم الله. كان عقابهم جزاء عادلا، ما ظلمهم ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بإقامتهم على الفساد في العقيدة والسلوك.

وفوق الدمار الذي لحقهم في الدنيا سيلقى الذين فعلوا السيئات في العقيدة والسلوك، أسوأ الجزاء في الآخرة، في نار جهنم. لأنهم كذبوا بما أنزل الله إليهم من أدلة صادقة هادية، واستهزأوا بالحق الذي جاءهم على لسان الرسل عليهم السلام .

بيان المعنى العام :

8- أولم يتفكروا في أنفسهم...بلقاء ربهم لكافرون.

وصفت الآية السابقة المشركين بأن الغفلة حجبت عنهم إدراك أن بعد هذه الحياة حياة أخرى. فيفتتح القرآن هذه الآية باستفهام تعجبي مبرزا غفلتهم الناتجة عن عدم إعمال الفكر. عجيب أن بلغت بهم الغفلة أن لا يعملوا ملكاتهم العقلية لينظروا في أنفسهم.

والتفكر في النفس يحتمل تصورين :

التصور الأول: التعجب من عدم تفكرهم تفكرا باطنيا داخليا هادئا. والعجب هو أن من طبيعة الإنسان أن يعود إلى فكره فيحركه في المشاهد التي أمامه ليرقى من الظواهر إلى ما وراءها. إنهم لو تأملوا هذا التأمل لساقهم إلى أن الله ما خلق السماوات والأرض إلا بالحق، أي ملتبسيْن بالحق، ومضبوط لهما الأجل المقدر لبقائهما. لا شيء من هذا النظام الكوني بثابت ثبوتا لا يدخله التغير. فالحركة الدائبة في الأرض في كتلتها وفي باطنها وعلى ظهرها. وكذلك ما حوته السماوات من كواكب ونيازك، ومن مجموعات متحركة متنقلة من مكان إلى مكان. كل ذلك يفضي بالعقل المتأمل المتفكر: أن هذا الكون يستحيل أن يكون باقيا بقاء أبديا سرمديا، مع كون الفناء ملازما له. ولما كان الإنسان جزءا من هذا الكون العظيم، فإنه يجري عليه ما يجري على الكون، خاصة وظاهرة التغير أوضح فيه.

التصور الثاني: التعجب من عدم تفكرهم تفكرا متعمقا في ذواتهم. إنهم لو تأملوا في ذواتهم لقامت لهم الشواهد على أن الحياة تعقب الموت في كل لحظة؛ إن الخلايا التي تتكون منها الأجهزة الإنسانية غير باقية، بل هي متجددة، تموت خلايا وتخلفها خلايا أخرى، وهكذا طيلة حياة الإنسان. خذ لذلك مثلا قريبا إذا جرح جلد الإنسان فإن الخلايا التالفة بالجرح تخلفها خلايا أخرى تعمل على وصل الجرح ليعود النسيج على ما كان عليه. أليس هذا النظر المتعمق في ذات النفس الإنسانية يدل دلالة واضحة على أن الحياة بعد الموت له شواهد عديدة في ذات الإنسان ؟

وإنه مع الإمكان الذي استبعد المشركون حصوله بسبب غفلتهم، نجد الآية تنقلنا إلى حقيقة أخرى هي: أن البعث هو الذي جعل الخلق متصفا بالحق بعيدا عن الباطل. لقد استخلف الله الإنسان في الأرض، ومكنه من الاختيار بين الخير والشر، وبين

الإيمان والكفر؛ وقد يموت الأخيار تحت تعـذيب الأشـرار، وقـد يسـرق السـارق مـال الرجل الطيب، ويموت المسـروق منـه محرومـا مـن مالـه، ويبقـى السـارق متمتعـا بمجهود غيره. فلو كانت الحياة الدنيا هـي كـل الوجـود علـى الوصـف الـذي رأينـا، لكانت ضربا من العبث : يستوي فيها الخير والشـر، و يهـزم الفسـاد الصـلاح .ويفـوز الأشرار ويخيب الأبرار. فكون الحياة الأخرة آتية، المعبـر عنهـا بأجـل مسـمى محـدد، حقا وحتما لا شك فيها، مما يحكم به العقـل المفكـر. ولكـن رغـم قيـام هـذه الـدلالات على البعث فإن كثيرا من الناس كافرون به، لا يعتقدون أنهـم سـيقفون بـين يـدي ربهـم للحساب.

9. أولم يسيروا في الأرض...كانوا أنفسهم يظلمون.

تتبع هذه الآيةُ الآية السابقة لتقيم دليلا منظـورا شـاهده المخـاطبون، ولـم يتـدبروا فـي دلالاته. يوجه لهم السؤال، كأن الأمـر مشـكوك فيـه، وهـو معـروف عنـدهم، ولكـنهم لعدم تحريك عقولهم في المشـاهد، ناسـب أن يوبخـوا فيسـألوا: هـل سـافروا ومـروا بديار من كان قبلهم من الأمم، كـديار ثمـود وقـوم لـوط فـي طـريقهم إلـى الشـام، وكديار عاد في طريقهم إلى اليمن؟ كيف كانت عـاقبتهم، كيـف إن ديـارهم التـي كانـت عامرة بهم تحولت إلى خراب .

لقد كانوا أقوياء على مستوى أشد وأنفذ مما عليـه مشـركو مكـة مـن القـوة فـي المـال والعدد، والتمكن في الأرض التـي يسـكنونها. تصـرفوا فيهـا تصـرفا دنيويـا ناجحـا، وبلغوا مستوى رفيعا مـن الـتحكم فيهـا، لاسـتخراج متنـوع الخيـرات مـن باطنهـا، وأنشأوا فيها الضياع المنتجة لمختلف الثمار، وأقـاموا عليهـا المبـاني الفخمـة، ومهـدوا الطرق السالكة، ورتبوا فيها من التنظيمات ما تحققـت لهـم بـه حضـارة تقـوم آثارهـا شاهدة على أن العرب لم يبلغوا مسـتواهم الحضـاري . ولكـنهم قصـروا نظـرهم علـى الحياة الدنيا، ولم يحصـنوا مـا تحصـلوا عليـه بتزكيـة نفوسـهم، وإصـلاح عقيـدتهم. جاءتهم رسلهم بالأدلة البينـة الواضـحة، ترشـدهم إلـى مـا يطهـر نفوسـهم ويصـلح عقولهم، ويربطهم بمبدع الكون. فكان موقفهم كموقـف أهـل مكـة فـدمر الله حضـارتهم وما أنجزوه، وتحول إلى خراب ناطقة بعاقبة الظالمين.

إن تدميرهم وتسليط العقاب عليهم بما أبـادهم مـع منجـزاتهم، كـان جـزاءً تـأهلوا لـه بسبب كفرهم وتكذيبهم لرسله، وسلوكهم في الحياة سـلوكا منفصـلا عـن الفضـيلة . فمـا ظلمهم الله بتدميرهم ولكنهم ظلموا أنفسـهم بعملهـم مـا يوجـب تـدميرهم، فـأهلكهم الله بسبب ظلمهم. وفي ذلك أشـد التحـذير لمشـركي مكـة، ثـم لمـن يـأتي بعـدهم مـن الأجيال، و أن سنة الله واحدة .

10ـ ثم كان عاقبة الذين ...وكانوا بها يستهزئون.

أفادت الآية السابقة أن الأقوام المكذبين من قبلهم قد دمروا وبقيت آثارهم شاهدة على ما حل بهم، وصرحت هذه الآية بمآلهم فذكرت أن عاقبة الذين أساؤوا في أعمالهم وعقائدهم المتحدث عنهم في الآية السابقة هي العاقبة الأسوأ والأقبح من كل عاقبة، وهي جهنم. فافتتحت الآية بـ (ثم) للإشارة إلى أن ما سيحل بهم يوم القيامة هوأسوأ مما حل بهم في الدنيا. وفي ذلك تحذير لمن كان على شاكلتهم : أنهم سيجزون نفس الجزاء في الدنيا والآخرة . كما صرحت الآية بما هو مستهجن وقبيح من موقفهم من آيات الله المحركة للنظر الداعية للتدبر، كان موقفهم الإسراع بتكذيب المرسلين وتجاوزوا التكذيب إلى الاستهزاء والسخرية بالنذر. وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون بتعطيل قواهم الفكرية.

ٱللَّهُ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبۡلِسُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمۡ شُفَعَٰٓؤُاْ وَكَانُواْ بِشُرَكَآئِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوۡمَئِذٖ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمۡ فِي رَوۡضَةٖ يُحۡبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآيِٕ ٱلۡأٓخِرَةِ فَأُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡعَذَابِ مُحۡضَرُونَ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الساعة : الوقت المضبوط لقيام الناس من قبورهم للحشر والحساب.

يبلس: الإبلاس الحالة التي تبلغ فيها الحيرة حدا يسكن معه الشخص

يتفرقون: ينقسمون إلى فريقين ليس بينهما اتصال.

روضة : أرض نضرة بالماء والعشب والفواكه والزهور .

يحبرون : يسرون بالنعيم الذي هم فيه.

بيان المعنى الإجمالي:

صرحت السورة بما اختص به الله سبحانه من التأثير في الكون .

أولا: هو الذي أخرج الكون وما يحويه من العدم فأوجده، وهذه حقيقة لا يستطيع المشركون نقضها، ثم يفنيه لينتهي أمد الإعدام إلى الأجل الذي يعيدكم فيه، ليقف كل فرد بين يديه للحساب والجزاء. وفي هذا اليوم الذي ترجعون فيه تتملك الحيرة المجرمين فإذا هم واجمون لا يتحركون . وغابت الأصنام التي كانوا يشركون بها

ويعولون عليها لتشفع فيهم، وعندها يتبينون أنها أوهام لا حقيقة لها فيكفرون بها، ولا ينفعهم ذلك.

إنه في يوم البعث تتفرق الخلائق. فريق الذين آمنوا وطبقوا في حياتهم ما أمرهم ربهم به، يجزيهم ربهم أنه يسكنهم روضات تتخللها المياه وتكسوها الخضرة ويخرج منها متنوع الزهور والفواكه والغلال. تمتلئ نفوسهم سرورا ورضا بما أوتوه من فضل . والفريق الثاني الذين كفروا بما أنزلنا عليهم من الآيات البينات، وأنكروا البعث والحساب في الآخرة . وهؤلاء يستقرون في العذاب لا يخرجون منه

بيان المعنى العام:

11ـ الله يبدأ ...ثم إليه ترجعون.

جاءت الآيات السابقة منكرة وموبخة للمشركين على ما اعتقدوه وعلى سيء سلوكهم .ثم أعقبها القرآن بالتصريح بما اختص الله به بصفة واضحة جلية .يفتتح كل بيان بقوله تعالى : **الله – الله يبدأ الخلق ثم يعيده – الله الذي خلقكم ثم رزقكم – الله الذي يرسل الرياح – الله الذي خلقكم من ضعف.**

الاختصاص الأول : أن ابتداء الخلق هو لله وحده. وكون غيره بدأ خلق أي شيء أو أعان عليه منفي قطعا. وربطه بأمرين : أنه يعيده بعد إفنائه، وأنكم ترجعون إلى الله ليحاسبكم عن أعمالكم.

12ـويوم تقوم الساعة يبلس المجرمون.

لما ذكر في الآية السابقة أن رجوعكم إليه، أوضح في هذه الآية وما بعدها بعض ما يلقاه المبعوثون .

أولا: يكون الكرب شديدا، فيقع المجرمون في حيرة، لا يجدون مخرجا مما هم فيه.

13ـ ولم يكن لهم من شركائهم ...كافرين.

هذه الحيرة تبع للخيبة التي صدموا بها، إذ بحثوا عن الشركاء الذين كانوا يتقربون إليهم في الدنيا ليكونوا عونا لهم وشفعاء، ينصرونهم، ويحولون بينهم وبين العذاب، فلم يجدوا شيئا مما أعدوه. وحينئذ يكفرون بشركائهم في الوقت الذي لا ينفعهم ذلك.

14ـ ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون.

ومن خصائص الساعة أن المبعوثين يتفرقون فيها إلى فرقتين كبيرتين.

15←16:فأما الذين آمنوا...اولئك في العذاب محضرون..

أما الفرقة الأولى، فهم الذين آمنوا بالله وتأصلت في عقولهم أصول العقيدة، وطوعوا سلوكهم لما يقتضيه الإيمان فكانت أعمالهم صالحة ملتزمين بالفضيلة.

هؤلاء قد أعد الله لكل منهم روضة خصبة تتخللها المياه الجارية وتتنوع فيها الزهور والثمار. وضعهم النفسي أن السرور يغمرهم من الرضا بما هم فيه.

وأما الفرقة الثانية، فهي فرقة الذين أنكروا الألوهية، وقابلوا الآيات المنزلة عليهم والمعجزات بالتكذيب، ونفوا أن يكون لهم حضور بين يدي الله للحساب، هؤلاء المذمومون بما قدموا هم في العذاب المقيم لا يخرجون منه .

فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

سبحان الله : علم على تنزيه الله عن السوء، والثناء عليه بالخير .

يخرج :ينشئ شيئا من شيء كان مستكنا فيه.

بيان المعنى الإجمالي :

هو الله الحقيق بالتمجيد والتنزيه والثناء على كمالاته وفضله. مستحق أن تذكروه مسبحين في كل الأوقات والأزمنة، في المساء وفي الصباح وعند الزوال وفي العشي .. محمود مثني عليه في الكون كله سماواته وأرضه وما فيها. يتصرف التصرف المطلق كما يشاء ويريد يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي. لا يتوقف إنجازه على الأسباب الدنيوية. وعلى هذا النحو من التصرف الذي يطيع به كل شيء لإرادته يتم إخراجكم إلى البعث والنشور.

بيان المعنى العام:

17←18 :فسبحان الله...وحين تظهرون.

ذكرت الآيات السابقة الخلق المحكم الذي بلغ به بعثه يوم القيامة للجزاء في روضات المسرة للمؤمنين، وفي العذاب المقيم للكافرين. إن هذا التصرف الحكيم الشامل حقيق منفذه بأن يمجد وينزه عن كل نسوء، وأن يثنى عليه بكل جميل على ما تفضل، تسبيحا متواصلا "**حين تمسون**" عند دخولكم في المساء ما بعد غروب الشمس." **وحين تصبحون**" حين تدخلون في الصباح مع أول النور المؤذن بانتهاء الليل" **وعشيا** "وقت صلاة العصر" **وحين تظهرون** " عند الزوال. ويتوسط الأوقات الأربعة التي تعم الزمان الأرضي التسبيحة العامة التي تشمل عالم الأرض والسماء. فالكل يسبح بحمده. وهو إيقاظ للإنسان حتى يكون حضور صلته بربه

مقرونة بكل لحظة من لحظات الحياة، وبهذا التسـبيح يكـون منسـجما مـع الكـون كلـه، يهتف التحول الزمني والكائنات التـي يرقبهـا أو يـؤثر فيهـا بجميـل فضـل الله عليـه فينزه ربه ويثني عليه. وحمل بعضهم الآية علـى الأمـر بالصـلوات الخمـس "**تمسـون**" المغرب والعشاء "**تصبحون**" صلاة الصـبح "**عشـيا**" صـلاة العصـر "**تظهـرون**" صـلاة الظهر. وحملها على المعنى الأول أولى بالقبول.

19. يخرج الحي ....وكذلك تخرجون.

يؤيد التنزيه الكامل والتمجيد الذي هو أهله ومسـتحقه، أنـه يخـرج الحـي مـن الميـت. مظاهر هذه القدرة كثيرة، فمنهـا أن الإنسـان يتغـذى بـأنواع مـن المـأكولات لا حيـاة فيها، فتدخل الجسم ليتحول أجزاء منها إلى الخلايا فتتغـذى بهـا ليتولـد مـن كـل خليـة خلايا. ويتكون الحيوان المنوي، وتتغذى ببيضـة المـرآة لتكـون وعـاء للتلقـيح . ولـولا الغذاء الذي لا حياة فيه ما تكونت اللقيحة الحية . وبالنسـبة للقـدرة سـواء إخـراج الحـي من الميت وعكسه. فتلد الأنثى الحيـة ميتـا. وبـنفس القـدرة المتصـرفة يحيـي الأرض بعد أن كانت جـرداء قاحلـة، لا نبـات فيهـا، يحييهـا فـإذا هـي بسـاط أخضـر وإذا الأشجار محملة بالثمار وكمـا ينشـئ الحـي مـن الميـت بقدرتـه التـي لا يعجزهـا شيء، فكذلك وضعكم يوم يريد إخراجكم أحياء من بعد الموت.

و يستروح من الآيـة أن الله يخـرج مـن أصـلاب الكفـرة المـؤمنين المؤيـدين للـدين الناشرين لأنواره في الكون. كخالد من أبيه الوليد ابـن المغيـرة الـذي كـان أحـد رؤوس الكفر المقاومين للإسلام.

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ
أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ
فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّلْعَـٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ
مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾
وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ
إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

تنتشرون: تظهرون على الأرض وتتوزعون على ظهرها.

المنام : لنوم

ابتغاء الفضل: طلب الرزق

بيان المعنى الإجمالي :

ست آيات عظيمة وأدلة يهز القرآن بها الفكر البشري ليفضي به التأمل فيها إلى الإيمان بتفرد الله بالقدرة والتنظيم والتأثير، وأن المخلوقات جميعها ستعود إليه للحساب والجزاء.

الآية الأولى: أنكم أيها البشر مخلوقون من تراب سواء أنظرتم إلى أصلكم الأول آدم عليه السلام، أم نظرتم في أنفسكم . فالخلية الأولى في أصلها وفي العناصر التي تتابعت فنمت بها إلى أن كانت إنسانا مقتدرا، كلها تعود إلى العناصر الأرضية التي مرت من طريق الغذاء إلى مختلف الأجهزة . فمن التراب تحولتم إلى بشر منتشر في الأرض فاعل فيها.

الآية الثانية: أن الله خلق لكم من أنفسكم ما يكون به الواحد زوجا، فخلق الذكر والأنثى، وجعل في طبيعتهما، أن كل جنس يألف الجنس الآخر ويتكامل معه بعاطفة الود والأنس والمحبة، وبالرحمة التي تدوم بها العلاقة .وللمفكرين مجال واسع للتدبر في تلك الأسرار.

الآية الثالثة: في خلق هذا الكون: السماوات بما تحويه من كواكب ونيازك ومجرات لا يعلم تعدادها وخصائصها إلا الله منشئها، والأرض وتركيبها والعناصر التي تتكون منها باطنا وظاهرا، وحركتها والزلازل التي تهزها مما لا يحيط بعلمه إلا الله. وكل ذلك بإحكام وتناسق، وتؤثر في الإنسان . ومن مظاهر ذلكم التأثير اختلاف اللغات والأصوات والألوان. وفي كل ذلك آيات للبشر تهديهم إلى أن الخالق لها هو الله بحكمته، أجراها على ما هي عليه.

الآية الرابعة: ما يجري على الإنسان من قانون النوم الذي يأتي على الحواس فيخدرها إلى أجل معلوم، وبتخديرها يعود للجسم وللعقل عند اليقظة القوة التي استنزفها العمل، فيواصل فعله في الكون ابتغاء للرزق من فضل الله. إنها آيات تثير من يسمع النص القرآني للتأمل.

الآية الخامسة: أقدرناكم على رؤية البرق، الذي يثير فيكم الخوف من الصواعق المحرقة، ويثير فيكم في نفس الوقت الطمع في نزول الغيث. والله هو الذي يجعل البرق خلبا لا يعقبه مطر، وهو الذي ينزل الماء متى أراد من السماء، فيبعث به

الحياة في الأرض بعد أن كانت هامدة. فيمــا عــرض علــيكم فــي هــذا اللفــت الخــامس آيات عديدة للقوم الذين دربوا عقولهم علــى النظــر، ولا يقفــون عنــد الظــاهرة الأولــى. فيحصل لهم برد اليقين بقدرة الله وحكمته.

الآية السادسة: القوانين التي أجــرى عليهــا خلــق الســماوات والأرض فــإذا هــي تقــوم بدورها الذي خلقت من أجله لا يختــل ولا يضــطرب. وكمــا تطيــع الســماوات والأرض لما أراده منها الخلاق العليم، فكذلك أنــتم ستســتجيبون لندائــه فتخرجــون مــن قبــوركم للحشر والحساب والجزاء.

بيان المعنى العام:

20ـ ومن آياته أن خلقكم...بشر تنتشرون.

أهم الأغراض التي عني بها القرآن عقيــدة التوحيــد. ومــن شــعبها الأدلــة التــي تثبتهــا وتفصلها. ومن ذلك الآيات المفتتحة بقولــه: **(ومــن آياتــه)**. وهــي إحــدى عشــرة آيــة .تتابعت ست منها في هذه السورة، والســابعة الآيــة السادســة والأربعــون منهــا :**(ومــن آياته أن يرسل الريــاح....)** والثامنــة والتاســعة الايتــان 39/37 مــن ســورة فصــلت والعاشرة والحادية عشرة الآيتان32/29 من ســورة الشــورى . وآيــات الله هــي الأدلــة المنبثة في الكون التي تفضي بالمتأمل فيهــا إلــى اليقــين بــأن التصــرف لله وحــده فــي الكون، التصرف الدال على الحكمة والقدرة .قــال تعــالى: **ســنريهم آياتنــا فــي الآفــاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق** [1].

الآية الأولى في ترتيب القرآن التي افتتحت بقولــه : ومــن آياتــه هــي هــذه الآيــة–20– فهي توقظ الفكر للتأمل في مضمونها الــدال علــى تفــرد الله بالقــدرة والإحكــام .وهــي آية منبثقة من نفس الإنسان. تلفت النظــر إلــى أول مراحــل خلقــه، ســواء نظرنــا إلــى خلق آدم من تراب كما اخبر به القــرآن والكتــب الســماوية، أو نظرنــا إلــى خلــق كــل فرد من البشر. إن تكون كل إنسان هو مــن الخليــة الأولــى(اللقيحــة) التــي مــا كــان يمكن لها أن تنمو وتوجد فيها الخصــائص المســاعدة، لــولا مــا يصــلها مــن عناصــر غذاء الإنسان المتكون أساسا من التراب. تتحــول عناصــر مــن التــراب إلــى الحبــوب والخضر والفواكه واللحوم والألبان، ثــم تتحــول بعــد عمليــة الهضــم والتوزيــع علــى مقادير مضبوطة ودقيقة، فيأخذ كل جهاز وجزء ما هو فــي حاجــة إليــه . فمــن التــراب اليابس الميت انبثقت الحياة في الإنسان.

---

[1] سورة فصلت آية 53

كنا نتحدث عن التراب وعن العناصر التي تتحـول فـي صـورة النبـات والحيـوان، ثـم في عملية الهضم وسريان الخلاصة موزعـة، ويكـون النـاتج مـن ذلـك شـيئا مفاجئـا افتتح بإذا: هو أنكم (بشر تنتشرون) على وجه الأرض وتتحركون، وتعمرون.

21ـومن آياته أن خلق لكم ...لقوم يتفكرون.

الآية الثانية المرتبطة بالآية الأولى. هي تسلسـل البقـاء الإنسـاني، إذ خلـق مـن نفـس الإنسان ما يكون به زوجا. وكلمة زوج تدل على ما يكـون بـه الواحـد زوجـا. فالـذكر والأنثى كلاهما زوج للآخر. فقدر أن يتعـاون الـذكر والأنثـى وتتكـون منهمـا الأسـرة الحاضنة للتكاثر البشري. وأن يبنى هذا التكامل على المودة والرحمة.

فكانت الحكمة في خلق الـذكر والأنثـى وأن يكـون بقـاء النـوع بهمـا معـا. وجعلـه تزاوجا وتجاذبا يجد كل واحد من الجنسين فـي الآخـر مـا يجعلـه يـأنس بـه ويسـكن إليه. فانغرس في الفطرة أن العزوبة وضـع مخـالف للفطـرة، يجعـل العـزب والعزبـة معقدين، بما يتراكم من الانعزال مـن مضـاعفات الوحشـة. وغـرس التقـدير الإلهـي في النوعين عند التزواج المودة والرحمة .فـالود عاطفـة نبيلـة توجـب الانـدماج فـي الآخر وحب الخير له والذي يصل فـي أعلـى درجاتـه إلـى قضـاء الشـهوة الجنسـية والشعور بأن كل واحد منهما مكمل للآخر. وبإنجاب الذريـة تزيـد هـذه الصـلة إحكامـا وقوة. وأما الرحمة فهي التي تستمر بها تلك الصـلة ولا تضـعف مـع البـرودة الجنسـية ولا مع الضعف والحاجة .

إن ما غرس في النفس البشرية من المشـاعر والعواطـف تفاعـل بيـد القـدرة الإلهيـة، تجد آثاره في بقاء النوع البشري وفي الطاقات التـي بهـا يـتم عمـران الكـون المترتبـة عن الزواج المبني على الود والرحمـة وفـي التقريـب بـين الأسـر بالمصـاهرة، وفـي التعاون على حمل متاعب الحياة والمضي بها إلى الأمـام، وفـي التربيـة علـى التعـاون بين الفرد والمجتمع، وغير ذلك مما عبر عنه القرآن بقولـه إن فـي ذلـك لآيـات عديـدة لقوم يعملون فكرهم في سنن الله في الخلق .

22ـومن آياته خلق السماوات...لآيات للعالمين.

جاءت الآيتان السابقتان للفت الأنظار لآيات الله في الأنفـس، وأدمجـت هـذه الآيـة لفـت الأنظار إلى آياتـه فـي الآفـاق وفـي الأنفـس معـا. فعرضـت أولا خلـق السـماوات والأرض، الكون كله بما يحويه من كواكب لا يحصـيها التعـداد ومـن مجـرات ضـخمة تسبح في مساراتها لا يعلـم حقيقتهـا ولا تعـدادها ولا مـا هـو كـائن فيهـا إلا خالقهـا سبحانه. تبدو الأرض التي نعيش على ظهرها كوكبا ضـئيلا تافهـا بالنسـبة لعظمـة مـا

تركب منه الكون المترامي الأطراف. الـذي يقـاس أبعـاده بالسـنوات الضـوئية حسـب المستوى الـذي بلغتـه المعرفـة الإنسـانية. وحتـى الأرض مسـتقرنا وميـدان حركتنـا وتجاربنا ما يزال بحـث المجهـول منهـا يحـث الإنسـان لمعرفتـه. إن ضـخامة هـذا الكون، والقوانين المحكمة أبلغ ما يكون الإحكام، لَيقوم ذلـك دلـيلا وشـاهدا علـى الدقـة في التصرف الإلهي، والنظام في تسييره .

ثم عرضت ثانيا ما يلفت أنظارنـا إلـى الأنفـس. البشـر الـذين خلقـوا حسـب قـوانين واحدة من التراب ومع ذلـك تجـدهم مختلفـين ماديـا اختلفـوا فـي الوحـدات الكبـرى الجامعة بينهم، من الأبيض والأسـود والأصـفر والأحمـر، ومركـب مـن تمازجهـا. إن موقع كل جنس في ناحية من الأرض، وما يقابله مـن كواكـب السـماء، لـه أثـره فـي اللون. فقد لاحظنا أن الأميركيين الذين انحدروا من أصـول إفريقيـة تغيـر لـون جلـدهم من السواد إلى الخلاسية.

وبجانب هذا الاختلاف في الإهاب المادي اختلاف فـي الفكـر الـذي يعبـر اللسـان عمـا يجري فيه. نجد اختلافا في الوحدات الكبرى فـي لغـات الشـعوب، كمـا نجـد اختلافـا بين أصحاب اللغة الواحدة في الإبانة عما يجـري فـي نفوسـهم ؛ بـل يختلـف أصـحاب اللغة الواحدة والأسرة الواحدة في النبرات وتكييف الحبال الصوتية للأصوات.

إن تمييز كل وحدة كبرى وكـل ذات بخصائصـها يشـهد بـأن الطبيعـة التـي تخيـل بعضهم أنها المؤثرة في الكون، ينهار هذا الـوهم بـالتميز الـذي لا يتولـد إلا عـن إرادة حرة تفعل ما تشاء . إن الآلة التي قامت عليها الصناعة اليوم لا تنتج إلا متماثلا.

و بالتعمق في خلق السماوات والأرض، واختلاف ألسـنة البشـر وألـوانهم علـى حسـب ما ألمعنا إليه يقتنع البشر جميعا بتفـرد الله بـالخلق. وهـذا إذا اعتمـدنا قـراءة العـالمين بفتح اللام . وأما إن اعتمدنا رواية كسر الـلام يكـون العلمـاء المتعمقـون فـي ميـادين المعرفة مؤهلين لإدراك تلكم الأسرار .

23.ومن آياته منامكم ...لقوم يسمعون.

هذه هي الآية الرابعة في الآيات الست تلفت الأنظار إلـى ظـاهرة النـوم التـي بسـبب تكررها كل يوم تمر على الإنسان دون أن ينتبه لما فيها من أسرار.

حياة الإنسان هدم وبناء متواصل، هو في يقظته يعمـل بقـواه العضـلية وبقـواه الفكريـة، والعمل وإن كان ضروريا للإنسان إلا أنه يهدم من قواه مـا يبلـغ معـه العامـل الشـعور بالإعياء والفتور. فليقوم الإنسان بمهمة الخلافـة فـي الأرض، بصـفة متواصـلة، كانـت حياته منقسمة إلى فترتين فترة يجـد فيهـا ويكـدح، وفتـرة يسـتريح فيهـا فيتجـدد مـا ذهب من قواه، ويعود له نشاطه الذهني والعضـلي، وذلـك بـالنوم .وهـذا المـزج بـين

فترات النوم واليقظة على نظـام مـرتبط بأعصـاب الـدماغ علـى قـانون يسـترد بـه المتعب قواه ويجدد نشاطه من آيات الله. فـالنوم شـبه مـوت قـال تعـالى : **الله يتـوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت فـي منامهـا فيمسـك التـي قضـى عليهـا المـوت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى**[1] ومـن عجيـب صـنع الله أنـه يخـدر بعـض أجهـزة الجسم ليضخ فيها القوة التي فقدتها، ويبقـي علـى بعضـها فـي حالـة نشـاط، حتـى إذا استيقظ تفاعلت كل الأجهزة .

إن تأثير النوم في البشر، والتنظيم المحكم في هذه الظـاهرة تشـتمل علـى آيـات عديـدة تدل على أن التصرف الإلهي فـي الإنسـان يصـحبه فـي جميـع لحظـات حياتـه. ولا يلتفت لذلك فيعيه إلا القوم الـذين يسـمعون القـرآن ويتـابعون مـا جـاء فيـه بالتـدبر للوقوف على أسراره.

24ـومن آياته يريكم البرق ...لقوم يعقلون.

هذه هي الآية الخامسة من الآيات الست، وهي من المشاهدات التي مكنكم الله من إدراكها بالبصر "**يريكم**" وفي ذلك تنبيه إلى أن قوانين النظر من خلق الله، فلا تدرك أبصارنا من القوى المنبثة في الكون إلا في حدود تلكم القوانين. مكننا الله من إدراك البرق وهو يخترق السحب ويلمع منه ضوء يكاد لسرعته وقوته يخطف الأبصار. أقدرنا على مشاهدة البرق ولم يعطنا القدرة على رؤية القوى الكهربائية المشحونة في السحب، كشأن كثير من القوى الكونية التي أدركنا وجودها بآثارها، ولا مطمح في إدخالها تحت الحواس. ومن عجيب صنع الله أن جعل ظاهرة البرق تحدث فينا أرجاعا متناقضة، تخيفنا من ناحية لما يمكن أن يصحبها من الصواعق الحارقة. ومن ناحية ثانية تبعث الطمع لما يعقبها من نزول الغيث. ولما كان الخوف أمرا سلبيا لم يعقبه بزيادة إيضاح. أما الطمع فأضاف إليه ما يبينه. إن تحقق ما يطمع فيه البشر من نزول الغيث هو من تقدير الله، فهو الذي ينزل من السماء الماء الذي قدر أن يكون سر الحياة الذي حول الأرض الميتة اليابسة الجرداء، إلى زهور وأوراق وثمار وأعشاب تكسو سطح الأرض بحركتها ومتنوع ألوانها.

كيف تم ذلك؟ في كل مرحلة من تكاثف السـحب، ولمعـان البـرق، ونـزول المـاء مـن السماء، واهتزاز الأرض، وخـروج النبـات مـن باطنهـا، وسـريان الميـاه المشـحونة بعناصر من الأرض في الأشجار، وتأثير ذلك في الشكل والمـذاق ؛ فـي كـل مـا ذكـر وما يتصل به آيات تدل القوم الـذين مـن شـأنهم إعمـال عقـولهم علـى أن المتصـرف المدبر للكون هو الله وحده.

---

[1] سورة الزمر آية42

25ـ ومن آياته أن تقوم...إذا أنتم تخرجون .

هذه الآية السادسة من مجموعة الآيات التي تتابع عرضها، وإثارة انتباه الإنسان إليها. توجه الأنظار إلى الاعتبار بحفظ نظام الكون. فكما لفت انظارنا إلى خلق السماوات والأرض ذكرنا بهذه الآية لنتأمل في القوانين التي أبقى بواسطتها نظام الكون يتواصل ملايين السنين دون أن يلحقه اختلال، وجسم ذلك في صورة بديعة، شأن المأمور المطيع أن يقف بين يدي آمره يسمع الأوامر وينفذها **(أن تقوم السماء والأرض بأمره)**.

وفوق ذلك خروج الموتى من قبورهم إذا دعاهم دعوة واحدة : يا أهل القبور اخرجوا كانت هذه الدعوة فوق كل ما تقدم لعظيم آثارها من الخروج من القبور والحساب والجزاء. وخروجهم من قبورهم أمر مفاجئ حقًا إذ يتحقق بسرعة فائقة بعد الموت الذي تطاول أمده.

وبهذا تتم الآيات الست بالانتهاء إلى الوقوف بين يدي الله، وأن إلى ربك المنتهى.

وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُم مَّثَلٗا مِّنۡ أَنفُسِكُمۡۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ فَمَن يَهۡدِي مَنۡ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

قانتون: مطيعون، منقادون.

ضرب لكم مثلا: وضع لكم نظيرا يقرب لكم الحقيقة ويوضحها.

ملكت أيمانكم : العبيد الذين تملكونهم.

بيان المعنى الإجمالي :

كل العقلاء في السموات وفي الأرض، من بشر وجن وملائكة مملوكون لله. وكلهم مطيعون له، ينفذ فيهم ما قدره في تكوينهم، وما يجري عليهم في حياتهم. في تطوراتهم وفي آجالهم ونحو ذلك. وتفرد سبحانه بأنه هو الذي خلق الخلق . والمشركون مقرون بهذا، إذ لا يستطيعون أن ينسبوا لأصنامهم قدرة على الخلق أو

اشتراكا فيه، وهو القـادر علـى إعـادة مـا خلـق .وكيـف تسـتبعدون إعـادة الخلـق ونقولون: من المستحيل أن تعود الأجساد إلى مـا كانـت عليـه، مـع أنكـم تقبلـون فـي حياتكم أن الإعادة أيسر من البدء .فاعترافكم بأن الله هو الـذي خلـق، يقتضـي أنـه هـو الذي يعيد، وهو العزيز الذي لا يعترض إرادته شـيء، وهـو الحكـيم فلـم يخلقكـم عبثـا بل خلقكم لتجزون عما قدمتم .

واستدل على نفي الشريك بضرب مثـل: حاصـله أنكـم تنفـون نفيـا قاطعـا أن عبيـدكم يشاركونكم في أرزاقكم التي رزقنـاكم إياهـا، وأن تسـتووا معهـم أو تخـافوهم، فكيـف يكون لأصنامكم المخلوقة من المواد التي خلقتها يكونون شـركاء لـي. علـى هـذا النحـو نفصل الأدلة ونبينها للقوم الذين يحكمون عقولهم.

دع عنك الأمل في رجوعهم إلى الحق ! فـإن الـذين حـرمهم الله توفيقـه، ولـم يسـعفهم بالألطاف التي تهديهم إلى الحق، واستكبروا متعلقـين بـأهوائهم وهـم مـع ذلـك بعيـدون عن العلم الصادق، إنك لا تجد لهم من ينصـرهم لا فـي الـدنيا ولا فـي الآخـرة . ومـا أضعف الإنسان إذا تركه ربه لنفسه!

بيان المعنى العام:

26ـ وله من في السماوات والأرض كل له قانتون.

تفيد هذه الآية أمرين :

الأول: أن كل من يعقل في السماوات والأرض مملوك لله وحده.

الثـاني :أن العقـلاء كلهـم خاضـعون لله ممتثلـون لـه .وكـونهم ممتثلـين لله يحتمـل وجهين:

أحدهما أنه امتثال التكوين في الخلـق الأول، ثـم مـا يجـري علـيهم فـي حيـاتهم مـن صحة أو سقم، ونمو أو ضعف، وكيف تعمل الأجهزة ومتى تتوقف جزئيا أو كليا.

وثانيهما: الطاعة عندما يدعوهم للخروج إلى الحساب.

أما الامتثال فيما كلف به فغيـر مـراد علـى عمومـه لأن إبلـيس عصـا وسـار علـى نهجه ذريته . وذرية آدم منهم القانتون ومنهم الزائغون على نسب متفاوتة

27ـوهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ...وهو العزيز الحكيم.

تقدم في الآية العاشرة (الله يبـدأ الخلـق ثـم يعيـده) وأكـدت هـذه الآيـة مضـمونها، وأضافت إليه ما يقطع جدل من ينـازع فـي قـدرة الله علـى الإعـادة. ذلـك أن العقيـدة الإسلامية تقوم على أن الإنسـان مسـؤول عـن أفعالـه، مجـزي عنهـا يـوم القيامـة. والجـزاء يـوم القيامـة يـؤرق المسـرفين المـرتكبين للآثـام، المتهـاونين بـالحقوق والواجبات الشرعية. ويجـدون فـي الإصـرار علـى إنكـار ذلـك مـا يخـدر الرقيـب

الداخلي المؤنب عن سوء فعالهم. وبرروا ما ذهبوا إليه، بأن عودة الإنسان بعد أن تبلى عظامه ويتحلل جسمه ويتحول إلى ذرات تختلط بالأرض، أمر مستحيل حدوثه. فرد عليهم القرآن: إن ما توهمتموه حجة، خطأ بمقاييس العقل البشري. فإنكم لما أذعنتم إلى الحقيقة الأولى خلق الله للإنسان، فإن إعادة ما خلق على النحو الذي خلق أولا هو أيسر حسب مقاييسكم الدنيوية. فيكون قوله أهون عليه حسب مقاييسكم. ويحتمل أن يكون قوله: وهو أهون عليه، أي هين .

إن تقريب صدق الإعادة بأنها أهون من البدء، إنما قدم ذلك لكم مراعاة لمستواكم الفكري. والحقيقة التي يقر بها أهل السماوات والأرض، أن كل ما يتعلق بالذات الإلهية هو الأعظم والأكمل المتجاوز لكل تصور. كيف لا وهو العزيز الذي لا يحول بينه وبين تنفيذ مراده أي حائل. وهو الحكيم، ومن حكمته أنه لم يخلق البشر عبثا غير مسؤولين، يستوي الصالح والطالح والخيّر والشرّير.

28.ضرب لكم مثلا ...نفصل الآيات لقوم يعقلون.

يوالي القرآن توضيح العقيدة الصحيحة وإبطال الشرك، فبعد أن هدم معتقداتهم بدليل العقل، ثم بمخالفته لما تقتضيه الفطرة، أضاف في هذه الآية دليلا مستخلصا مما جرى عليه أمر الحياة عندهم . كان المجتمع العربي مكونا من أحرار وعبيد. والعبد لا يملك حتى ذاته، فذاته وما يحوزه هو لسيده. فخاطبهم بما محصله: إنكم أيها المشركون إذا كان لكم عبيد فإنكم لا تشركونهم في أموالكم، ولا في أي شأن من أموركم على حد التساوي معكم، كما أنكم لا تخافون منهم أن يرثوا أموالكم أو يقاسموكم إياها، كما هو الأمر فيما بينكم. فإذا كانت هذه عادتكم تقبلونها وترون أنها الحق وما سواها ظلم، فكيف تعتقدون في أصنامكم التي هي مخلوقة عاجزة أحط منكم، أنهم شركاء لله في سلطانه ؟

على هذا النحو من التوضيح ورفع الشبه، نفصل الآيات تفصيلا يرفع كل لبس وإجمال، للقوم الذين من شأنهم أن يعملوا عقولهم فيما يرد عليهم . فلا يحول بينهم وبين إدراك الحق التقليد.

29ـ بل اتبع الذين ...وما لهم من ناصرين.

اضراب عن متابعة الضالين المشركين، وفضح لحالهم .إنهم قوم ضالون لا يرجى خروجهم مما هم فيه ؛ .ذلك أن الله حرمهم ألطافه وتركهم لأهوائهم وشهواتهم وما يدعوهم إليه الشياطين. وتبعا لذلك لا يجدون نصيرا ينصرهم عندما يواجهون حسابهم.

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ
ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ
وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا۟ رَبَّهُم
مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ
ءَاتَيْنَٰهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا۟ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

أقم وجهك: احصر اهتمامك وأقبل عليه ولا تنظر إلى غيره. وكن قويا جادا في أعمال الدين.

للدين : دين الإسلام.

حنيفا: منصرفا عن الباطل متجها إلى الحق.

فطرة الله: الوضع الأصلي الذي خلق الله عليه البشر.

القيم : المستقيم الذي لا عوج فيه.

منيبين إليه: المنيب الراجع المخلص إلى جهة ما توده نفسه. الملتزم بالطاعة.

شيعا : جمع شيعة الجماعة التي توافق رأيا سبق.

حزب: الجماعة الذين نزعتهم واحدة.

ما لديهم : ما اتفقوا عليه.

فرحون : مبتهجون. مفتونون بآرائهم.

الضر: سوء الحال في البدن أو العيش أو المال.

مس: أصاب

أذاق : أصاب .

الرحمة : تخليصهم من الشدة.

الإيتاء : إعطاء النافع.

التمتع : الانتفاع بالملائم مدة محدودة.

بيان المعنى الإجمالي:

أقبل على الدين الإسلامي بعقلك وروحك وبدنك، ولتكن أحكامه ومبادئه هي التي تلتزم بها وتسير عليها. إن الطرق المعروضة في الدنيا متشعبة وكثيرة .انحرف

عنها جميعا، والتزم منهج الإسلام ولا تخلطه بغيره .ميزة هذا الدين أنه متسق مع الفطرة التي خلق عليها الإنسان فعقيدة التوحيد، وما يتصل بها منسجمة مع الطبيعة التي خلق عليها الإنسان .وكذلك التشريع لا يعاكس طبيعة الخلق. فلا تنحرفوا عما شرعنا فتغيروا الفطرة التي خلقتم عليها. هذا الدين هو الدين الرفيع الشأن. ولكن أكثر الناس لم يدخلوا فيه لجهلهم بحقيقته، وعدم تأملهم في منهجه ومضامينه.

لا تبعدوا عن ربكم، وتقرّبوا إليه، وتحصنوا بالتقوى، وقوموا بأداء الصلاة على الوجه الأكمل، ابتعدوا عن منهج المشركين، الذين مزقوا الدين، وكانوا فرقا مختلفة، مع أن الدين هو الحق والحق واحد. كل جماعة مفتونة بدينها تؤيده وتنوه به، وتطعن في دين غيرها، وهم جميعا على باطل. ذلك أن الباطل متشعب، والحق واحد.

من شأن الإنسان الضعيف أنه إذا شعر بضر أصابه من مرض أو سوء حال أو قحط ونحو ذلك، أن يسرع إلى الاستغاثة بالله والعودة إلى حماه .ولكن بعد أن ينزل الله عليه رحمته فيخرجه من ضره، يفترق الداعون المستغيثون إلى فريقين: مؤمن يشكر ربه على ألطافه، وكافر يتنكر لنعمته .نزلت عليهم النعم ليكفروا بما مكناهم من الخير، إني لا أغفر لهم وسوف ينفذ فيهم جزاء كفرهم، فيعلمون عندها عاقبة كفرهم بنعمي.

بيان المعنى العام :

30ـ فاقم وجهك للدين...ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

أمر من الله لرسوله ولكل من آمن به، أن يخلص لهذا الدين إخلاصا يجعله لا ينظر إلى غيره. فيكون قلبه ومشاعره وأعماله مرتبطة بالإسلام، ويكون من ناحية أخرى نشيطا في تطبيق ما جاء به. وأكد هذا المعنى بقوله حنيفا، أي مائلا عن كل الاتجاهات الأخرى منحرفا عنها باعتبار أن كل الطرق الأخرى ملتبسة بالباطل والفساد.

"**فطرة الله التي فطر الناس عليها** "دين الإسلام موافق للفطرة، أي النظام الفكري والحياتي للبشر. فكل ما جاء به الدين لا يعكس ما خلق الله الإنسان عليه، عندما تربط العمل بالعقل، وعندما تقيم المفاهيم على قانون العقل غير متأثر بالعادات أو بنوازع الشهوة .وعرف الفطرة ابن عطية بأنها الخلقة والهيئة التي في نفس الطفل (يقصد ما كان الإنسان مستعدا له منذ نشأته) لأن يميز بها مصنوعات الله (يقصد بذلك إعماله لحواسه ووثوقه بصدق ما تنقله إليه تلك الحواس ليكون منه رصيدا يعرف به العالم على الوضع الذي خلق عليه) ويستدل بها على ربه جل

وعـــلا(يقصـــد أن انطـــلاق الإنســـان مـــن المحسوســـات إلـــى التفكيـــر فـــي صـــنعها وخصائصها إلى أنها تدل علـــى موجـــد الكـــون ومبدعـــه . فالوصـــول إلـــى معرفـــة الله ووحدانيته من مقتضيات الفطرة . وبقي قسم آخـــر مســـتند إلـــى الفطـــرة، وهـــو القســـم التشريعي؛ وهو من الفطرة باعتبار أن كل ما أمر به الـــدين، أو نهـــى عنـــه يـــأتلف مـــع طبيعة الخلـــق الإنســـاني، وكـــذلك ضـــوابط المعـــاملات تجـــد العقـــل يقبلهـــا ويجـــدها منسجمة مع قوانينه .

"**لا تبديل لخلق الله**" تؤكد هذه الجملة المضمون السابق: أي إنك لا تجد في العقيدة الإسلامية ولا في التشريع ما يبدل الخلقة الأصلية التي خلق الله عليها الإنسان. ويمكن فهمها على أنها نهي في صورة الخبر: أي لا تبدلوا الخلقة التي خلق الله الفطرة عليها.

"**ذلك الدين القيم** " إشارة مميزة للإسلام بأنه الدين المســـتقيم الـــذي لا عـــوج فيـــه، وهـــو أيضا يقوم على الإنسان يهديه ويستقيم به فكـــره، ويـــنظم غرائـــزه، ويؤلـــف بينـــه وبـــين غيره تأليفا تنسجم به القوى المختلفة لتنسجم فيما بينها نحو الخير.

"**ولكن أكثر الناس لا يعلمون**" بعد هذا البيان لطبيعـــة الإســـلام، الموجـــب للـــدخول فيـــه، وتأييده، لكن الواقع غير ذلك لأن الجهل قد حجـــب النـــاس عـــن إدراك حقيقـــة الإســـلام، وما يحويه من خير للفرد وللبشرية...ولو نظروا نظر مـــن يرغـــب فـــي معرفـــة الحـــق، وتأملوا في تفاصيل هذا الدين لآمنوا. فالكفر نتيجة الجهل.

31←32:منيبين إليه واتقوه...بما لديهم فرحون.

وكونوا على حال من هو مـــلازم لطاعـــة ربـــه، أفـــردوه بالطاعـــة، وكوّنـــوا لنفوســـكم وقاية من غضبه، وواظبوا علـــى أداء الصـــلاة علـــى أكمـــل وجـــه ولا تشـــغلكم عنهـــا الشواغل، واحذروا أشـــد الحـــذر مـــن الشـــرك ومـــا يتصـــل بالمشـــركين .ثـــم عقـــب المشركين بالكشف عن صفتهم التي تدعو إلى البعد عنها لمـــا يترتـــب عليهـــا مـــن ســـوء الاختيار، ثم سوء العاقبة .إنه إذا كان المســـلمون يعبـــدون إلهـــا واحـــدا فـــإن المشـــركين يعبد كل فريق منهم إلها، وكل فريق يعتقد ويصـــرح بـــأن ديـــن الفرقـــة الأخـــرى زيـــف وباطل. وذلك مما مزق وحدتهم فهم فرق وشيع كل جماعة مبتهجة بما هي عليه

إن الاختلاف قد يكون داعية قوة، إذا كان كل مخالف يتأمـــل فـــي مبـــاني غيـــره وينتفـــع من جانب الحق فيها. أما إذا أدى الاختلاف إلـــى التعصـــب، ومـــا يتبعـــه مـــن التعـــادي، وعمل كل فريق على هزم الفريق الآخر، فـــذلك مـــن صـــفة أهـــل الشـــرك وهـــو مـــا حذر منه القرآن في غير ما آية قال تعالى : **ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم** [1]

---

[1] سورة الأنفال آية 46

33←34: وإذا مس الناس ضر....فسوف تعلمون.

تكشف الآية عن نفسية المؤمنين والفاقدين للإيمان من البشر، فجميعهم يعودون إليه ضارعين بالدعاء إذا أصابهم ضر في أنفسهم من مرض أو خوف، أو في أموالهم كالقحط،، أسرعوا إلى دعاء ربهم عائدين إليه كي يكشف عنهم ما نزل بهم، ثم إنه بمجرد ما يرحمهم ويكشف ضرهم ينقسمون إلى فريقين، فأما المؤمنون فيزيدهم ذلك إيمانا يعبرون عنه بالشكر، وأما الفريق الآخر فإنهم يسرعون إلى العودة إلى ما كانوا عليه من الشرك. لتكون عاقبة النعمة عليهم الكفر بالنعمة وبما يسرع الله من فضله. يهددهم منذرا وموبخا : تمتعوا زمنا قليلا بما آتيتكم سوف يحيق بكم ما أوعدتكم.

أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا۟ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

السلطان : الحجة .والبرهان من رسول أو كتاب.

سيئة: ما يكرهه الإنسان في نفسه أو ماله أو محيطه.

يريدون وجه الله: يبتغون رضاه.

قدمت أيديهم : فعلوه.

القنوط : اليأس.

يقدر : يضيق.

بيان المعنى الإجمالي:

لما نفت الآيات السابقة أن يكون للمشركين سند من العقل مقبول، فهل استندوا إلى برهان من كتاب منزل يصرح بما هم عليه من الشرك؟ شركهم لا دليل عليه لا من العقل ولا من النقل. فهو من هوى الأنفس ومن نزغات الشياطين.

ومن شأن النفوس إذا لم يروضها الإيمان ويسمو بها، أن يستولي عليها الفرح بالنعمة، فتنسى من تفضل بها، وإن يصبهم مكروه في النفس أو المال أو الأتباع،

ولا يكون ذلك إلا مرتبطا بعصيانهم، ينسون أيضا أن الله مقلب الأحوال ويتبع العسر باليسر، ولا يعودون إلى أنفسهم بالنقد الإصلاحي فيعمر قلوبهم اليأس.
ما أشد غفلتهم ألم ينظروا في أحوال الناس من حيث الفقر والغنى ؟ لو أبصروا لوجدوا أن الله يوسع على من يشاء فيجمع بينه وبين الألطاف التي تجعل نشاطه المالي رابحا. وأنه سبحانه يحجب ألطافه على آخرين فهم في ضيق وفقر. إن في التدبر في أوضاع الناس هذه أدلة على تفرد الله بالتصرف . كن يا محمد سمحا بالمال ولتكن أمتك سائرة على طريقتك. واس أقاربك من المال الذي رزقك الله، وكذلك المساكين المحتاجين، وكذلك المسافرين الذين لا يجدون مأوى، استضفهم وأكرمهم. إن تطبيقك لهذه الهداية يتبعها خير كثير، إذا صحب تنفيذها الإخلاص لوجه الله وابتغاء رضوانه. وهؤلاء الكرماء المخلصون هم وحدهم المفلحون الفائزون برضوان الله.

بيان المعنى العام :

35ـأم أنزلنا عليهم ...بما كانوا به يشركون.

انتقل القرآن بواسطة الحرف (أم) التي هي بمعنى بل للتحول من الطريقة التي كان يهدم بها الشرك، إلى سؤالهم سؤال إنكار، يقصد به أن يقر المسؤول بنفي ما يسأل عنه. هل أنزلنا عليهم برهانا بينا من كتاب، خطه قلم القدرة الإلهية، ينطق بأن الشرك حق . وإذ انتفى أن يكون الشرك مستندا لدليل عقلي، ولا لكتاب منزل من عند الله، لم يبق لهم متمسك فيما اعتقدوه وساروا عليه من الشرك. إن شركهم لا يعدو أن يكون خيالات وأوهاما لا أساس لها.

36←37: وإذا أذقنا الناس ...وأولئك هم المفلحون.

هذه الآية تكشف عن طبيعة النفس البشرية إذا لم يروضها الإيمان وتصقلها التقوى، إن الإنسان إذا أنزل الله عليه رحمته فيسر له الصحة والهناء والخصب والرخاء، تستولي عليه النعمة ويفرح بها فرحا ينسيه فضل المنعم، ويغفل عما بنيت عليه الحياة من التقلب فيظن أن ما هو فيه دائم غير منقطع، فلا يقوم بواجب الشكر، وفي المقابل إذا أصيب بما يسوؤه من سقم أو جدب أو قلق وخيبة، استقر في ذهنه أن البلاء الذي نزل به دائم لا يرتفع، ويحل القنوط المظلم في قلبه، من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ولا يحاسب نفسه حسابا ينكشف له منه: أن ما أصابه من سوء مرتبط بما صنع وأنه نوع من الإيقاظ للتوبة والعودة إلى الطريق المستقيم، وحث على التضرع لله .

العجب من الناس أنهم لم يروا تصرف الله في الرزق! إن الله يوسع على من تعلقت إرادته بالتوسعة عليه. مع أن الموسع عليهم ليسوا أشد الناس ذكاء أو أوسعهم علما، أو أقدرهم على تبين الفرص المواتية قدرة ذاتية .وأنه سبحانه يضيق الرزق على من يشاء في رزقه، و ليس ذلك عن غباء شديد، ولا عن كسل معطل، ولا عن جهل حاجب . ولكنه التصرف الإلهي لحِكَم تقصر عقولنا عن إدراك أسبابه البعيدة، وأنه يحول الغني إلى فقير، والفقير إلى موسع عليه مرزوق . إن التصرف الإلهي الذي يمكن من شاء من ألطافه فيتسع رزقه وتعظم ثروته، ويحرم من لم تتعلق إرادته بالتوسعة عليه من تلك الألطاف، فتجده وهو يسعى في الحياة مقطوعة حباله بالتوفيق في جمع المال . فيزداد الذين آمنوا إيمانا بأن الخير بفضل الله، وأن الحرمان بما كسبت أيدي الناس، والله حكيم في تصرفه .

38ـفآت ذا القربى حقه...وأولئك هم المفلحون.

نبهت الآيتان السابقتان على ما يدخل الناس من انحراف في موقفهم إذا شملتهم الرحمة فاستقامت أمور حياتهم، أو أصابهم السوء والضر فقنطوا. ووجهتهم إلى مراجعة سلوكهم عند الضر وعدم القنوط .وإلى شكر الله على ما تفضل به من نعم .

والشكر يكون باللسان فيتصل الشاكر بربه ويكثر من الثناء عليه. وبجانب الشكر باللسان والقلب الشكر بالفعل الذي هدت إليه هذه الآية . فأمرت الرسول ﷺ ومعه المؤمنون بأن يقدم المنعَم عليه بالتوسعة في المال عن طواعية، للقريب المحتاج حقه الذي يرفع عنه الخصاصة والحرمان . وقد جاءت صياغة الآية أولا بالأمر **(فآت)** والأصل في الأمر أن يدل على الوجوب، وأنه حق **(حقه)** وتمكين صاحب الحق من حقه واجب. فتأكد بذلك أن مد يد العون للقريب واجب. ولما كانت الأقارب على درجات مختلفة فهناك علاقة الأبوة والبنوة والزوجية، والنفقة على هؤلاء واجب حسب الضوابط الشرعية. وأما النفقة على الجوانح على اختلاف منازلهم فقد كانت مواساتهم واجبة قبل الهجرة، أما بعد ها وفرض الزكاة، فهو من البر المؤكد دون أن يبلغ درجة الوجوب. ويبقى ما يمتن الصلة بالإهداء مرعيا.

وعطفت الآية على ذوي القربى المساكين، وحقهم باق يتكرر في القرآن التذكير به. وابن السبيل المسافر، حق استضافته إذ احتاج لذلك. وبذلك يشعر كل مؤمن أن الجماعة تحتضنه عند العوز ولا تضيعه.

وحرضت خاتمتها على تطبيق ما جاء فيها من سماحة بالمال، ووجهت إلى أن تلك السماحة لا ترقى إلى مستوى رضا الله إلا إذا كان المؤتون أموالهم يفعلون ذلك

ابتغاء رضوان الله، لا يمنون بما أعطوا ولا ينتظرون عنه ثناء، أملهم معلق بقبول الله لعملهم. إن هؤلاء هم الذين أفلحوا وفازوا، بقبول الله لعملهم . ومن قبل عمله فقد تحققت سعادته.

وَمَا ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

المضعف: الحاصل على أضعاف.

بيان المعنى الإجمالي :

بيان المعنى العام :

39ـ وما آتيتم من ربا ...هم المضعفون.

لما أرشدهم القرآن في الآية السابقة إلى السماحة بالمال عونا لذوي القربى والمحاويج والمسافرين المنقطعين، وأن ذلك هو التجارة الرابحة .تنى في هذه الآية بنهيهم عن الطريق المقابل للسماحة والغيرية، وهي طريقة الأنانية والاستغلال طريقة المرابين. كان الربا فاشيا في قبيلة قريش وثقيف. وشأن المقترض أن يكون محتاجا غالبا، ومن له فضل من المال لا يمكن منه أحدا إلا بزيادة تربط بين المال والزمان، فيزيد المال بالمدة التي يبقى فيها عند المقترض. تقول الآية وما دفعتم من أموال لتزيد من أموال المقترضين، فكونوا واثقين أن الذي يبارك في المال وييسر نماءه هو الله، والله لا يرضى عن هذه الطريقة في التعامل فهو لا ينمي مال المرابي بل يمحقه.

وفي المقابل فما آتيتم إخوانكم من أموال بدافع تزكية المال وتزكية النفس بالسمو بها من خساسة الشح، وإخلاص المزكي عمله لوجه الله، فإن تلك الأموال ستتضاعف من ناحيتين: ثوابها يوم القيامة **(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)**[1] التحصين بفضل الله لصاحبها من الكوارث فيكون استثمارها مصحوبا بالربح والبركة.

[1] سورة الأنعام آية 160

40ـ الله الذي خلقكم ...وتعالى عما يشركون.

إعلان للحقيقة يتكرر في القرآن لهدم الشرك الفاشي .افتتح باسم الجلالة " **الله**" هو المتفرد بما تختص به الألوهية من التصرف في شؤون الكون . (1) هو الخالق خلقكم ولم يخلقكم غيره (2) ثم إنه بعد خلقكم لم يهملكم بل تكفل برزقكم وترتبط الآية بسابقتها فالرزق. الذي بين ايديكم هو مال الله فواسوا به ولا تثمروه بالربا(3) ثم جعل لحياتكم أجلا تنتهي إليه لا تستطيع تأخيره ولا تقديمه (4) ثم يحييكم: البعث والحساب. وهو ما تقتضيه الحكمة وعدم العبث .

ثم أوقفهم على فساد ما يذهبون إليه من اعتقاد الشركاء. هذه خصائص الألوهية، فهل بلغ واحد من شركائكم الذين ما جاءهم اسم "الشريك" إلا من أوهامكم، ولذا نسب الشركاء لهم " **هل من شركائكم** " هل يوجد أي صنم تعبدونه يستطيع أن يفعل أي شيء مما اختص به الله؟ ولما كان جواب السؤال مما لا يصرح به لفساده وقبحه، وقع التصريح بما ينفيه مع تقديس الله عن الشريك : سبحانه وتعالى عما استقر في عقولهم من فساد .

ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ ۚ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۖ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الفساد :سوء الحال.

بما كسبت أيدي الناس : جزاء لهم عن أفعالهم.

يرجعون: يقلعون عن المعاصي.

العاقبة : نهاية الأمر.

القيم : الشديد الصواب، لاعوج فيه .

مرد : دفع.

يصدعون : يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير.

يمهدون: يهيئون ما يريحهم.

بيان المعنى الإجمالي :

استشرى الفساد في الكرة الأرضية بسبب انحراف البشر وفعالهم السيئة التي انفكت عن مقتضيات الإيمان ومراقبته في أعمالهم. اتخذوا الربا قاعدة الاقتصاد فانحسرت الأموال بين أيدي فئة قليلة، فوظفوها لما ينمي ثرواتهم، وأخضعوا أصحاب القرار لشهواتهم؛ فاختل التوازن وانتشر الظلم. وأعرضوا عن الإيمان وعبدوا المادة حتى انقلبت المادة إلى قوة ماحقة للأرض وما عليها، وذلك بتفجير الذرة .

سيجني البشر عاقبة انحرافهم، وفساد سلوكهم، لعلهم يرجعون إلى الطريق المستقيم. فيعمروا الكون ولا يقومون بتخريبه. وتبعه أمر عام للبشرية أن يسافروا في أرض الله معتبرين بما انتهى إليه أمر الأمم الذين سبقوهم، فيتبين لهم من عاقبتهم ما يترصد الناس من تمردهم . فيراجعوا أنفسهم ويستقيموا.

أقبل على هذا الدين بجد، وانصرف عن كل ما يلهيك عنه، فإنه دين كله صواب واستقامة. واستعد لليوم الذي هو آت لا ريب فيه ولا راد له. إنه يوم يتفرق فيه البشر بين سعداء وأشقياء.

المسؤولية شخصية في الإسلام، فمن كفر فإنه يلقى العقاب الذي يستحقه. ومن عمل صالحا في طريقة أدائه مع الإخلاص فإنه يمهد ما يحقق له راحته يوم الجزاء . يوم يجزي الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات جزاء من فضله يتضاعف خيره أكثر مما قدموا. ويمقت الكافرين فيحرمهم فضله لأنه سبحانه لا يحب الكافرين .

بيان المعنى العام

41. ظهر الفساد في البر والبحر ..لعلهم يرجعون.

إيقاظ للبشرية لتصلح أمرها قبل أن يحيق بها البلاء العام، ظهر الفساد واستعلى في الكرة الأرضية كلها اليابسة والبحر، لم يكن هذا الفساد وليد الصدفة ولا تابعا لتقلبات المناخ، ولا لعوامل من داخل الكون خفية عن الناس، ولكن هو جزاء انحراف البشر عن الصراط المستقيم . ليحسوا به إحساسا بالغا كإحساس الإنسان عندما يتذوق الطعام الفاسد، يدرك طعمه ثم يسري في كيانه كله فيخربه. إن ما يصيب الإنسانية كلها من سوء فعالهم فيه رجاء أن يتبصروا فيقلعوا عن فسادهم ويعودوا إلى الصلاح. فمعنى ظهر ليس على المضي بمعنى أن هذا شيء ظهر في الماضي والآية تتحدث عنه، بل جيء بالفعل الماضي لإفادة التحقق.

ما هو هذا الفساد الذي عم الكرة الأرضية ؟ تتبعت ما بين يدي من التفاسير فلم أقتنع بما ذكروه. ذلك أنهم قطعوا الآية عن مساقها. نلحظ أن الآية جاءت تابعة لأمرين خطيرين:

أولهما : الربا في التعامل الاقتصادي.(**وما آتيتم مـن ربـا لتربـوا فـي أمـوال النـاس فلا يربو عند الله)** المؤذن برفع البركة من الأرزاق .

ثانيهما: الشرك بالله في العقيدة **(الله الذي خلقكم ....سبحانه وتعالى عما يشركون)**

عم اعتماد الربا في التعامل الاقتصادي فانحسرت الأمـوال بـين أيـدي عـدد قليـل مـن البشر، بلغت بهم الأنانية وشراهتهم لجمـع المـال حـدا، جعلهـم يتحكمـون فـي العـالم بقوتهم الماليـة، لا يتورعـون عـن إشـعال الحـروب إذا كانـت الحـروب تـوفر لهـم الأرباح وتعظم ثرواتهم. إن استيلاء الصهيونية على فلسطين، مـا كـان ليـتم، ومـا كـان ليستمر إلا بالقوة المالية التي بـين أيـدي الصـهاينة المـرابين. الـذين اشـتروا ضـمائر أصحاب القرار في العالم بـأموالهم التـي تـتحكم فـي الإعـلام. فتظهـر الحـق بـاطلا والباطل حقا. وتتدخل في الانتخابات بقوتها الماليـة لتوثـق الفـائز الـذي كـان لأمـوالهم الأثر الكبير في نجاحـه ليؤيـد اغتصـابهم لأرض فلسـطين. وكـان لشـراهة المـرابين أكبر الأثر في اندلاع الحـربين العـالميتين، ومـا حصـدته مـن ملايـين الأرواح، ومـا حصل فيهما من خراب، وما تبعهما من مؤسسات تمكن لـرأس المـال مـن الـتحكم فـي مصير البشـرية. فـانبنى نظـام علـى تسـويغ الظلـم، والظلـم لا يتبعـه إلا المتاعـب للإنسانية . فكلما انتهـت الحـرب فـي منطقـة مـن منـاطق العـالم اشـتعلت نيرانهـا وتخريبها في منطقة أخرى. ويخدرون العالم : أنه يسير نحو السلام.

أما الشرك، وهو الداء المخرب للضمائر وللقيم فقـد امتـد شـره .قـال تعـالى : **(ومـا يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)**[1] تطور الشـرك فـي عصـرنا مـن عبـادة أصـنام وتقديم قرابين إليها، واعتقاد النفع والضـر بيـدها إلـى عبـادة المـادة. ألهـت البشـرية المادة، فللقوة المادية السيادة والريادة . والمـادة والأخـلاق، لا يجتمعـان علـى أن يكـون كل واحد منهما محترما على مرتبة سـواء .تـأبى المـادة إلا أن تطـوع الأخـلاق لتقبـل بتفوقها وإن دمرتها. وتـأبى الأخـلاق إلا أن تخضـع المـادة لقيمهـا. والإنسـان بقيمـه الروحية لا بقوته المادية. ولكن انقلب سـلم القـيم فـي عصـرنا فنزلـت الأخـلاق إلـى الحضيض، وارتفعت المادة إلى أعلى مقام. وهذا مـا سـوغ للعلمـاء أن يجـروا أبحـاثهم في المادة منفصلين عن الأخلاق. ففجروا الـذرة وأصـبح المخـزون مـن القـوة الذريـة كافيا لتخريب العالم مرات. وقامت مشـكلة النفايـات فـي المؤسسـات النوويـة .درسـوا لها مقابر للخزن، ولكن الإشـعاع الـذي تحتـوي عليـه، والمهلـك للبشـرية وللحيـوان وللنبات وللبيئة برا وبحرا لا ينتهـي إلا بعـد مئـات السـنين. انفجـر مولـد تشـارنوبيل فأهلك ما تسرب من إشعاعه البيئة وأضر بالبشر والكون على بعد مئات الأميال.

---

[1] سورة يوسف آية116

و فعلا (**ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون**). أترى البشرية تفيق من ضلالها فتعود إلى الطريق المستقيم؟ إن الإسلام هو الشافي للبشرية والمنقذ لها من الهلاك. ولكننا نحن المسلمين عجزنا عن تقديمه للناس.

42.قل سيروا في الأرض...كان أكثرهم مشركين.

يكرر القرآن أمر الناس بالسير في الأرض. والأسفار التي يصحبها تأمل المسافر فيما يقع تحت بصره، فتفتح له منافذ للاعتبار بالعاقبة التي آل إليها أمر الأمم التي عمرت تلك الأماكن. والعرب في أسفارهم إلى الشام وإلى اليمن يمرون على آثار الأقوام الذين أقاموا حضارات، ورفعوا المباني والحصون، ولم يبق من كل ذلك إلا أطلال بالية، تنبئ عن المستوى الحضاري الذي بلغوه، وعن العاقبة التي آل إليها أمرهم بسبب فشو الشرك فيهم، الذي يرتبط به الفساد في العلاقات الاجتماعية، وفي السلوك، فيدمرهم الله عند حلول الأجل المقدر لذلك . وكما ينتفع المسافرون بالاعتبار في أحوال الأمم الماضية ومآلاتهم، فكذلك ينتفع الضاربون في الأرض بالاعتبار بأوضاع الأمم، وما بلغوه من مستوى حضاري رفيع أو متدن ضعيف، فيكون لهم من مشاهداتهم الدرس النافع للسمو بأوضاعهم اقتباسا لموجبات النجاح، أو احتراسا من أسباب الوهن والسقوط .

43. فأقم وجهد للدين القيم ...يصدعون.

أمر النبي ﷺ ومن ورائه جميع المؤمنين أن يقبلوا على الدين بجد دون تراخ، ذلك أن الالتزام بالإسلام يصحبه مقاومة الشهوات، والغرائز الهابطة، ومراقبة الله في علاقة الإنسان بالله وبإخوانه في البشرية، وبالكون عامة . لذا كان الأمر بالقيام فإن شأن من يعتني بإنجاز أمر له قيمته يقوم له وينجزه لا متكئا ولا قاعدا. ووصف الدين بالقيم أي الدّين كله صواب، مقابل القيم المعوج، والإسلام لا يخرج عما يقتضيه العقل المستقيم. هذا الإقبال على الدين وتطبيقه بجد مجاله الحياة الدنيا، على المؤمن أن يغتنم حياته قبل أن يأتي اليوم الذي لا دافع له،(**يوم يقوم الناس لرب العالمين**). اليوم الذي يفترق فيه البشر إلى فرقتين: (**فريق في الجنة وفريق في السعير**).

44. من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون.

اختُزنت معاني عديدة في الآية، حتى تأهلت لأن تكون مثلا. هي قاعدة العقاب والجزاء، وارتباطه بذات الفاعل بحيث لا يتجاوزه إلى غيره. فمن اختار الكفر وسار فيه فإنه يتحمل وحده ضرر كفره .وفي المقابل فإن من عمل صالحا مطبقا

لشرع الله ومخلصا لله، فإن نشاطه هذا هو تمهيـد للفــوز بالراحــة التامــة فــي مَعَــادِهِ . شأن الذي يمهد فراشه قبل أن ينام عليه

45ـليجزي الذين آمنوا...إنه لا يحب الكافرين .

إن العلة التي جعلتهم يولــون عنــايتهم بــأمر آخــرتهم ويمهــدون لهــا، هــو انتظــارهم الجزاء الذي أعده الله للــذين صــلحت عقيــدتهم بالإيمــان وصــلحت أعمــالهم بإجرائهــا على منهج الشرع. وفي ربــط الجــزاء بفضــل الله مــا يــوحي بأنــه جــزاء يضــاعف حسناتهم، فهو واسع الفضل، الكامل كمالا مطلقــا. وبمقــدار مــا يوســع علــى الصــالحين ويكرمهم، يضيق على الكافرين ويهيــنهم لأنــه لا يحــبهم: يبعــدهم مــن منــازل فضــله، ولا يظهر عليهم أمارات رحمته، على عكس المؤمنين الصالحين.

وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَـٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَـٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

المبشرات :المؤذنة بالخير ، المطر .
الانتقام : العقوبة لمن يفعل ما لا يرضي.
حقا علينا : وعد ثابت لا نخلفه.
تثير : تحرك.
البسط : النشر المقابل للطي.
كسفا: جم كسف، قطعة .
الودق : المطر .
الخلال: جمع خلل، ما بين السحب .
الإبلاس : يأس مع انكسار.

بيان المعنى الإجمالي :

الأدلة من كتاب الكون على تفرد الله بـــالخلق والتـــدبير كثيـــرة. فمنهـــا أن الله هـــو الـــذي يحرك الهواء فينشئ بذلك الرياح المؤذنة بالخير المطـــر الـــذي يترقبـــه البشـــر. فتـــبلغكم رحماته وتنعمون بآثارها . ولا يقـــف الفضـــل عنـــد هـــذا الحـــد، بـــل إن الـــريح تجـــري السفن في البحار، فتتيسر لكم طرق للتجـــارة عبرهـــا . وهـــذه نعـــم لا يـــرزقكم إياهـــا إلا الله فالرجاء أن يحملكم فضله على شكر نعمه .

ثق بأن الله سينصرك ويعلي دينك على الشرك الطاغي. هـــذه ســـنتنا فقـــد أرســـلنا رســـلا مضوا في التاريخ، قدموا لأقوامهم الأدلـــة البينـــة الواضـــحة، فكـــذبوهم فســـلطنا علـــيهم نقمتنا بسبب إجرامهم. وإنه مما قـــدرناه فكـــان ثابتـــا جاريـــا مـــدى الـــدهور أنـــا ننصـــر المؤمنين.

تفرد الله بأنه هو الذي يحرك الرياح فتثير السحب من الرطوبة المخزونة في الجو، فتتجمع وتنبسط على مساحات شاسعة، أو يتكون منها قطع محدودة المواقع، تشاهد أيها الناظر كيف أن الماء ينزل من بين أجزائها. فإذا البشر والسرور يتم قلوب الذين سقاهم الله من فضله، ويتحولون عن وضعهم الذي كانوا عليه من الاكتئاب واليأس .

انظر أيها الإنسان إلى آثار رحمـــة الله التـــي حولـــت أوضـــاع الأرض والبشـــر . انظـــر كيف تتحول الأرض من المـــوت إلـــى الحيـــاة. إن هـــذه الصـــورة تنـــادي بـــأن الله هـــو محيي الموتى وأن قدرته لا تحـــد . فالبعـــث تقـــوم الشـــواهد علـــى أنـــه ممكـــن وغيـــر مستبعد.

بيان المعنى العام:

46ـ ومن آياته أن يرسل ...ولعلكم تشكرون.

هذه الآية معطوفة على الآية (20) كما بينـــاه فـــي مقدمـــة تفســـيرها. افتتحـــت كســـابقاتها بقوله " ومن آياته "الدالة على حكمته في التصـــرف العـــام فـــي الكـــون، حركـــة الريـــاح التي يسيرها الخلاق العليم، فتحدث في الكون آثارا قـــدرها ســـبحانه. فمنهـــا أنهـــا تكـــون مبشرة بنزول الغيث المحيي للأرض، ويترتب علـــى نـــزول الغيـــث نعـــم بينـــة تحســـون بها في حياتكم كما يحس الآكل طعم ما يمر على مذاقه. ومنهـــا أنهـــا تســـير الســـفن فـــي البحر بما هدى إليه الإنسان من صنعها علـــى مقـــادير وكيفيـــات خاصـــة، ومـــن توجيـــه قلاعها. فتقطع بكم المسافات لتتمكنـــوا مـــن التحصـــيل علـــى أرزاق تـــأتيكم مـــن فضـــل الله. وبفضل المسالك البحرية نمـــت التجـــارة بـــين الأقطـــار، وانتقلـــت خيـــرات الأرض إلى مسافات بعيدة. وفي كلا الأمـــرين مـــا يثيـــر فـــيكم التـــدبر فـــي عظـــيم صـــنع الله، ويطلق ألسنة الشاكرين بشكره

47ـ ولقد أرسلنا من قبلك ...حقا علينا نصر المؤمنين.

إيناس لرسوله بوعده بالنصر على سنته مـع الرسـل السـابقين. لسـت يـا محمـد بـدعا من الرسل، ولا تختص بما قابلك بـه قومـك مـن التكـذيب ؛ فقـد أرسـلنا رسـلنا إلـى أقوامهم، وأيدناهم بالآيات الواضحة وعرضوها علـيهم. وكانـت حسـب طبيعتهـا داعيـة إلى الإيمان، ولكنهم قابلوها بـالرفض، والتصـلب فـي الكفـر والجمـود علـى التقليـد، فعاقبناهم بسبب تماديهم على الإجرام، وكفاكم بالشـرك جرمـا. والبشـارة تظهـر بختـام الآية: بأن الله وهو الكامل الذي لا يخلف وعده قد التـزم بأنـه ينصـر المـؤمنين فتكـون لهم الغلبة في الخاتمة. فثق بأن الله سينصرك ومن تبعك.

48ـ الله الذي يرسل الرياح...إذا هم يستبشرون.

تكرر في هذه السورة الآيات التي تذكر صورا مما اخـتص بـه سـبحانه مـن التصـرف في الكون .وهي متصـلة بالآيـة(46) التـي أفـادت أن الله هـو الـذي يحـرك الريـاح ويرتب عليها البشارة بالغيث وتسيير السفن فـي البحـر .وفصـلت هـذه الآيـة تحريـك الرياح للسحب، ودقة الصـنع الإلهـي الـذي اخـتص بـه .فهـو إذا أراد أن ينشـئ بـه السحب جعل الريح تهب مـن نـواح عديـدة، إذ غلـب اسـتعمال الـريح مفـردة علـى الريح المدمرة. ثم إن تلك الرياح تتحرك فتتفاعل مـع الرطوبـة الموجـودة فـي الجـو، ثم ينتشر السحاب في نواحي السماء حسبما يريـده .فهـو لا يجـري علـى هيئـة واحـدة في جميع الظروف، بل يبسطه ويسيره كمـا يشـاء، وتـارة يجعـل السـحب قطعـا. ولا يفهم من جعله قطعا التجزؤ الصغير، بـل تجـد السـحاب تـارة يمتـد علـى مسـاحات شاسعة تبلغ مئات الأميال طـولا وعرضـا، وتـارة يجعلـه قطعـا لا يشـمل مسـاحات كبيرة جدا.

ثم تخاطب الآية كل من يلاحـظ حركـات السـحب وتطوراتهـا، تـرى أيهـا الملاحـظ المطر ينزل من خلال السحاب الممتد، ومن السحاب الأقل امتدادا.

ثم لفتت الآية الأنظار إلى الترابط بين السحب الجاريـة فـي السـماء ومـا ينـزل منهـا، وبين حالات البشر النفسية. ينزل الله الغيث فيسـقي بـه نـواحي مـن الأرض، فيستبشـر الذين أصابهم الغيث، وتتفتح آمالهم وترى الفلاحـين يهنـئ بعضـهم بعضـا، ولقـد كـان اليأس والانكسار قبل نزول الغيث متمكنا منهم لطول المـدة التـي لـم يسـقوا فيهـا مـن السماء.

50ـ فانظر إلى أثر رحمة الله...وهو عل كل شيء قدير.

فانظر أيها الإنسان، ولا تغفل عن التأمل في ذلـك التقـدير العجيـب، تأمـل فـي الآثـار التي أعقبت الرحمة الإلهية التي يمد بها مخلوقاته بمـا يحـول حيـاتهم إلـى مـا هـو

أسعد وأفضل، وينفي عنهم الضيق الذي كـان يأكـل راحـتهم. انظـر كيـف يحيـي الله الأرض بعد موتها. بالأمس كانت الأرض قاحلة جـرداء موحشـة، وبعـد نـزول الغيـث جرت الحركة في باطنها، واهتزت ثم كسـيت ببسـاط أخضـر يسـر النـاظرين. تأمـل فإن تلك صورة من الحياة بعد الموت تتعاقـب علـى الكـون ويشـاهدها النـاس جميعـا، أفلا يقوم ذلك دليلا على البعث وأن الله سيحيي النـاس بعـد مـوتهم كمـا أحيـى الأرض بعد موتها . ألا وإن الله قادر لا يخرج عـن قدرتـه شـيء، فكـل كـائن يسـتجيب لمـا تعلقت به القدرة .إن الغبي أو المعاند هو من ينكر البعث ويستبعده .

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

رأوه مصفرا: رأوا الزروع آخذة في الاصفرار.

بيان المعنى الإجمالي :

كما يرسل الله الرياح فتثير السحاب ويحيي بما ينزل منه الأرض بعد موتها، فكذلك يرسل الريح التي يصحبها الجدب والقحط، فتأخذ الزروع في الاصفرار. من ضلال الكافرين أنهم إن رأوا هذه الريح وآثارها تضاعف كفرهم . عوض أن يلتجئوا إلى الله.

تصرفات الله في الكون، وما أنزله الله من الآيـات البينـات فـي كتابـه، لا تهـدي الـذين صمموا على الكفر، بلغ ببعضهم العناد أن أصـم أذنيـه فـلا يصـل إليهـا شـيء مـن القرآن وتقوقع في الكفر فهو كالميت والميـت لا يسـمع، وبعضـهم إذا سـمع مـا أنـزل على الرسول يفر خشية على نفسه أن تتأثر به، وبعضـهم أسـلم قيـاده لـرؤوس الكفـر فهو تابع لهم لا تنفع فيه موعظتك. هذه أنماط الكفـرة فـي مواجهـة القـرآن. فأنـت يـا محمد لست مسؤولا عنهم وحالتهم تلك. إن مـا جمعتـه مـن ناصـع الحجـة وإشـراق البيان، لا ينفع إلا الذين تفتحت أرواحهم لقبول الهدايـة، فبتلقـيهم عنـك، يسـرع الإسـلام إلى أرواحهم وعقولهم.

تفرد الله بالتصرف في البشر وفي الكــون. انظــروا إلــى أنفســكم فــإنكم تنتقلــون مــن مرحلة إلى مرحلة دون اختياركم. كنتم ضعفاء عقليــا وبــدنيا، ابتــدأ أمــركم ولا يســتطيع أي منكم أن يستقل بنفسه، ثم بلغتم سن الاكتمال الممكــن والاقتــدار، ثــم يأخــذ الضــعف والوهن يلاحقكم وتظهر أعراض المشــيب .كــل طــور يخلــق الله فــيكم خلقــا تظهــر آثاره عليكم، دون أن يكون لكم في ذلك مدخل .جــرى كــل ذلــك بقدرتــه حســب علمــه الشامل لكل الدقائق.

شأن الكفرة أنهم أقفلوا عقولهم عن النظر المتأمــل؛ وسيصــحبهم مــا عاشــوا عليــه يــوم البعث فعلى طريقتهم في النظــرة القصــيرة، والتصــميم علــى صــدق ذلــك، يســرعون عندما يبعثون من قبورهم إلــى القســم بــأنهم مــا لبثــوا فــي قبــورهم إلا زمنــا قلــيلا، فأخطأوا خطأ فاضحا. كشأنهم فــي الــدنيا عنــدما جــاءتهم البينــات، لــم يتــأملوا فيهــا ورفضوها مصممين على أنها باطل.

بيان المعنى العام :.

51ـ ولئن أرسلنا ريحا...من بعده يكفرون.

يتصرف الله في الكــون كمــا يشــاء وحســبما تقتضــيه حكمتــه، وإن خفيــت علينــا. إذ يرتبط بكل تصرف نتائج ومســببات تفــوق طاقــة اســتيعابنا. فهــو ســبحانه إذا أرســل الأمطار وأحيى الأرض استبشروا بما يترتب على ذلــك مــن زيــادة فــي مكاســبهم، ولا يقدم الكفار الشكر على ما رزقهم من نعمــه. وإذا حجــب عــنهم الغيــث، وأرســل ريحــا تذهب برواء الأرض، فرأوا الزروع وقد أخذ لونهــا إلــى الصــفرة المؤذنــة بــالاحتراق والموت، يهيج مكنون صدورهم من الكفر. لا يختلف حــالهم مــع النعمــة، عــن حــالهم مع الحرمان . قال أحد الأعراب وقد أصاب قومه قحط:

رب العباد مالنا ومالك **قد كنت تسقينا فما بدا لك؟

أنزل علينا الغيث لا أبا لك

52←53: فإنك لا تسمع الموتى ...فهم مسلمون.

عناية الله برسوله متواصلة، ولا شك أن هذه المواقــف المعلنــة بــالكفر، والجــراءة علــى الله كانت تسوؤه ﷺ فخاطبه ربه مسليا، منوهــا بأنــه بلّــغ وبــذل جهــده ليــؤمن قومــه، ولكن كفر قومه على أنواع :منهم من بلغ بــه الإعــراض حــدا جعلــه لا يحــس بــالوحي الذي يخترق سمعه، هو كالميت المعطل الحواس. وبعضــهم يســمع القــرآن ولكنــه يفــر من مواصلة الإنصات له خوفا علــى نفســه أن تتــأثر بــه، فهــم يولــون مــدبرين عنــد سماعه. بعضهم مقلدون لســادتهم يتبعــونهم كــالعمي لا يهتــدون يســيرون حيــث يســير قائدهم. هذه أنماط من الكفرة لا تســتطيع التــأثير فــيهم، إنــك لا تســتطيع هدايــة مــن

عطل سمعه وحسه وعقله، ولكنك تستطيع أن تقوم بمهمتك وتهدي الذين تفتحت قلوبهم وعقولهم للحق النازل عليك، وهؤلاء هم المسلمون .

54ـ الله الذي خلقكم من ضعف ...وهو العليم القدير .

أقام القرآن الحجة على المشركين من كتاب الكون كما أشرنا إليه فيما مضى، وأقام عليهم الحجة في هذه الآية من كتاب الإنسان. وهي حجة لقوتها ووضوحها لا يستطيعون لها ردا ولا نقدا. هي أطوار الإنسان التي ينتقل فيها من طور إلى طور.

الطور الأول : في ابتداء أمره يبلغ به الضعف مبلغا، حتى كأنه مستخلص من الضعف. ضعف في قواه العقلية ومداركه، وضعف في قواه العضلية. هذا إن نظرنا إلى الفترة التابعة للولادة وسرنا بها إلى ما قبل سن الشباب، وكذلك لو سحبنا النظر على فترة الخلق الأول في الخلية الأولى اللقيحة فإن الضعف يكون أبين.

الطور الثاني: عندما يبلغ سن الرشد، تكتمل قواه العقلية وتنمو مداركه. وتبلغ طاقاته الجسمية كمالها من سن الشباب إلى الفترة التي تظهر فيها بوادر التراجع.

الطور الثالث: طور التراجع طور الضعف الذي تتراجع فيه القوى العقلية والعضلية. يخمد العقل بعد بريقه، ويغطي النسيان على النباهة العقلية، وتضعف يداه عن حمل ما كان يستخفه، كما تثقل هامته على رجليه فتضعف عن حمله .

إن هذه الأطوار التي ينتقل فيها الإنسان، تتم دون اختيار منه، ولا قدرة على استرجاع ما فات منها . فمن الذي أثر في كيانه في المراحل الثلاث ؟ الله هو الذي تفرد بالتصرف. يخلق سبحانه في كل طور أوضاعا خاصة؛ لا تحدث بصفة فوضوية، وليس للمصادفة فيها من سبيل، ولكنها مستندة إلى علمه الذي أعد كل مرحلة لتنتقل إلى المرحلة التالية، وإلى قدرته التي تُخْضِع الكائن لها .

55ـ ويوم تقوم الساعة ...كذلك كانوا يؤفكون.

بعد أن كشفت الآية السابقة عن ضلال المشركين في الدنيا أعقبت هذه الآية ببيان أن ما فارقوا عليه الدنيا يصحبهم يوم البعث. كان موقفهم في الدنيا من آيات الله الإسراع إلى رفضها، وكلما لفت القرآن أنظارهم إلى آيات الله في أنفسهم وفي الآفاق لم يتجاوزوا الظاهر إلى مكنون ما دعاهم إليه. ولذا فإن تلكم العجلة تصحبهم يوم القيامة ليفتضحوا. فبمجرد ما يقومون من قبورهم يقسمون: ما مكثنا في قبورنا إلا ساعة، زمنا قليلا. هم بعجلتهم وإسراعهم بالقسم يمثلون تركيبهم النفسي الذي كان ملازما لهم في الدنيا فأوقعهم في الكفر. وهو الذي أوقعهم في الخطأ يوم البعث.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا
يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ
مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ
مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا
يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

المعذرة : ما يقدمه المذنب أو المقصر من عذر لعله يبرر ذنبه أو تقصيره.

ولاهم يستعتبون : لا تزول عنهم المؤاخذة.

ضربنا : ذكرنا ما يعمق البيان.

الطبع : الختم على العقل حتى يفقد قوة الإدراك.

وعد الله حق : وعده ثابت تحققه.

لا يستخفنك : لا يحملنك على ترك الصبر، فلا تتأثر تأثرا يذهب بما عرفت به من الرسوخ

بيان المعنى الإجمالي :

رد العالمون المؤمنون على الكافرين الذين قالوا ما لبثنا بعد الموت إلا ساعة، فقالوا لهم: ظنكم كاذب، ولقد مر عليكم في قبوركم الأمد الذي قدره الله لبعثكم، وهذا هو الأجل المحتوم. ولكن الجهل .. الذي غم على عقولكم في الدنيا لم يفارقكم. إنه في هذا اليوم يهذي الظالمون بالإشراك وتكذيب الرسول وإيذاء المؤمنين بمختلف المعاذير، ولكنها مرفوضة ولا تنفعهم شيئا. لقد نوعنا الأمثلة التي تقرب المعاني وتثبتها، ولكن تصلبهم في الكفر جعلهم يرفضون كل آية بينة قدمتها لهم، ويقولون بكل وقاحة: إن أنت إلا مبطل. وعلى هذا النحو تنغلق أفهام الجهلة الذين لا علم لهم، وتحرم من الألطاف فلا يستفيدون من دلائل الهداية.

لا تجزع ولا تتأثر بشغبهم وعصيانهم، وواصل ما أنت عليه من الثبات والصبر، وكن متحديا للذين فقدوا اليقين.

بيان المعنى العام :

56ـ وقال الذين أوتوا العلم والإيمان...ولكنكم كنتم لا تعلمون.

عبرت الآية السابقة عن خفة عقول الكفرة، وابتعادهم عن التأمل الكاشف عن الحق حتى أقسموا بمجرد خروجهم يوم البعث، أن إقامتهم في القبور كانت قصيرة جدا. ويرد عليهم الذين جمعوا بين المزيتين اللتين يسمو بهما الإنسان، وهما:

1)العلم الحاصل عن التأمل الدقيق، الذي يتعمق به العقل حتى يبلغ إدراك الحقيقة موثقة ببرد اليقين .

2) الإيمان الذي يربط الكون كله بمبدعه، الذي يكون به المؤمن متواضعا، متيقنا أن العلم الكامل لله وحده، وأنه هو الذي يسكب في الروح الطمأنينة، وفي العقل الاهتداء.

يردون عليهم: لقد خُدعتم بالنظرة القصيرة العجلى. كل ما ظننتموه خطأ. فقد مرت عليكم الأزمان التي قدر الله أن تمكثوا فيها في قبوركم، وقد حضر الأجل المقدر لخروجكم، فأنتم اليوم في يوم البعث، بما يشير إليه مما حذرهم منه الرسل ووصفوا لهم شيئا مما يلقونه إن لم يصدقوهم. ولكن الجهل صحبكم وما يزال يوقعكم في الضلال.

57ـفيومئذ لا تنفع ...ولا هم يستعتبون.

إعلان من مالك الملك عن مشهد من مشاهد يوم القيامة. في هذا اليوم الذي تحقق فيه المشركون، أنه سينالهم العقاب الموعود والمهانة المقررة، يحاولون التنصل باختلاق الأعذار، ولكنهم لا ينتفعون بها، ولا تندفع عنهم المؤاخذة بما قدموا في حياتهم الدنيا.

جاء في القرآن: أن المشركين (لا يؤذن لهم فيعتذرون)[1] .وأثبتت هذه الآية أنهم يعتذرون. وبالتأمل يتبين أن ما جاء في سورة المرسلات أن الله لا يأذن لهم في الاعتذار، إذ لو أذن لهم لكان ذلك مقدمة لقبول اعتذارهم. وما في هذه الآية هو من هذرهم يقدمون معاذير مرفوضة.

58ـ ولقد ضربنا للناس ....إن أنتم إلا مبطلون.

بكل تأكيد قصدنا أن ننزل في هذا القرآن أمثلة تقرب المعاني، وتزيدها وضوحا وإشراقا، وتنوعت الأمثال حسب المقامات، وذلك لتكون الهداية تبلغ من البيان ما تنفذ به إلى العقول والأرواح، ولتكون حجة على المعاندين الرافضين. إن من شأن الكافرين أنك إن أتيتهم بآية واضحة لا يستطيع المنصف إلا قبولها، لكن الكافرين يقولون: (إن أنتم إلا مبطلون). وهو تعبير عن ردهم. أكرم الله فيه محمدا بخطابه بصيغة الجمع، وإن كان لفظ المشركين لا يكون: ما أنت إلا مبطل .

[1] سورة المرسلات آية 36

59. كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون.

وعلى هذا النحو من الصرف والحرمان من الألطاف، يختم الله على قلوب المتصلبين في الكفر، كأنه مطبوع عليها لا ينفذ إليها أي شعاع من نور الإيمان.

60. فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون.

هذه خاتمة السورة التي تعددت فيها أفانين الهداية، لتبلغ دخائل النفوس فتقتلع الشرك، والفساد، وتحصن البشر من الزيغ والضلال .ويواصل المشركون تصلبهم في الكفر والضلال والرفض، فأمر النبي ﷺ أن يصبر على تعنتهم، ويذكره الله بوعده: أن الله سينصره، إن ما يعد به الله ثابت لا يتغير، ولكل أجل كتاب. وواصل ما أنت عليه من الثبات والحزم، والترفع عن إذاية المشركين، واقمعهم بثباتك فلا يستطيع إثارتك، الكفرة الذين فقدوا اليقين، فهم في ريبهم يترددون .

يوم الخميس 11ربيع الثاني1434-21 فيفري2013

سورة لقمان

هذا هو الاسم الذي عرفت به عند كتاب المصاحف، وفي كتب التفسير. سميت بهذا الاسم لأنها فصلت بعض أخبار لقمان وحكمه ووصاياه التي أدب بها ابنه. والراجح أنها سورة مكية كلها. واختلف المفسرون في بعض آياتها .ورتبتها حسب ترتيب المصحف الحادية والثلاثون. وهي السابعة والخمسون حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة الصافات وقبل سورة سبأ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ
يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن
رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ
ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

المحسنون : الفاعلون للحسنات، وأعلاها الإيمان وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة.

يشتري: يقبل عليه.

لهو الحديث: الحديث الذي يقصد منه تشغيل السامع بكلام لا فائدة منه إلا تقصير الوقت.

الوقر : ثقل في السمع، وشاع في الصمم.

بيان المعنى الإجمالي:

افتتحت السورة بما افتتحت به سورة يونس. منوهة بالقرآن لجمعه بين خيري الهداية وما يتبعها من الرحمة للذين بلغوا درجة الإحسان. ومن هم هؤلاء المحسنون؟ هم الذين يؤدون صلاتهم على أكمل الوجوه إخلاصا وتطبيقا لشرع الله. ولا يبخلون بأموالهم فيسهمون فيها المحتاجين، وفوق ذلك يقينهم بالبعث بلغ درجة

الكمال، فهم يستحضرون دوما وقوفهم بين يدي الله للحساب.. إنهم هم المفلحون الناجحون الفائزون، **(فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز).**

وفي المقابل، فإن بعض الناس يقابلون هذا القرآن على سمو منزلته، بإلهاء الناس عنه بأحاديث خيالية عن بطولات وهمية، تستهوي الدهماء، تشغلهم عن الجلوس لرسول الله ﷺ، ليضلوهم عن الطريق الذي يوصلهم بربهم، الذي يهدي له القرآن. أحاديثهم خيال لا علم فيه، ومع ذلك يستهزئون بالقرآن. هذه الطائفة الفاسدة المفسدة أعددت لهم عذابا يهينهم. وزيادة على ذلك تجدهم يفرون عندما يقرأ عليهم القرآن بعامل الاستكبار والتعالي عن سماعه، مظهرين أنهم لم يسمعوه، كأن آذانهم معطلة بالصمم. ويواجهه القرآن مستهزئا به في مقابلة استكباره، بشره بعذاب يحس بألمه أشد الإحساس.

بيان المعنى العام :

1←2: الم ...تلك آيات الكتاب الحكيم .

افتتحت هذه السورة بما افتتحت به سورة يونس. فالآية الأولى هي نظير الآيات التي بينا ما يتعلق بها في سورة البقرة وغيرها. والآية الثانية كما ذكرنا في سورة يونس: الكتاب الرفيع الشأن المهيمن على الكتب السابقة، الذي يطبع المخالط له بالحكمة في القول والفكر..

3.هدى ورحمة للمحسنين.

صرحت الآية بأخص مزايا القرآن. فالمزية الأولى أنه بلغ من الهداية أعلى مرتبة، هو ضامن للمخالط لبيانه، أن يجد فيه الطريق المبلغة إلى الفوز في الدنيا والآخرة، يخرجه من الحيرة ومن الضلال. ويضيء علاقته بالله، وبالناس، وبالكون كله. وأما المزية الثانية، فهي ما يفتحه من أبواب الرحمة وما يقره في النفس من اليقين ومن الرضا.

يقرأ القرآنَ البرُّ والفاجرُ، والمسلم وغير المسلم. ولكن مزيتاه ينالهما المحسنون فقط الذين يفعلون الحسنات. فمن هم المحسنون ؟

4.الذي يقيمون الصلاة... وبالآخرة هم يوقنون.

كشفت هذه الآية مُعَيِّنَةً المحسنين بصفاتهم الذاتية الثلاث: الذين يقيمون الصلاة؛ إن الخيط الجامع بينهم وبين خالقهم موصول، يذكرونه بصفة مسترسلة، يناجونه مستشعرين الوقوف بين يديه في صلاتهم خاشعين لله. والذين يحسون بما تفرضه وحدة العقيدة من واجب المواساة وخاصة بالمال لمن كان محتاجا من إخوانهم. والذين تلزمهم رقابتهم لأعمالهم، فهم ذاكرون ليوم القيامة، محاسبون مجزيون عما يعملون.

5ـ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون.

نوه القرآن بالمحسنين الذين جمعوا الصفات الثلاث، فأشار إليهم إشارة تقدير **(أولئك)** ثم حقق أنهم متمكنون من الهدى، وهم معتزون به لأنه ورد عليهم من ربهم الذي رعاهم ويسر لهم ألطافه التي بها التزموا الصراط المستقيم. ثم هنأهم بأنه قرر أن يكونوا المنفردين بحسن العاقبة، فهم وحدهم المفلحون الناجحون.

6ـ ومن الناس من يشتري...عذاب مهين.

قوله **(ومن الناس)** تجهيل للمتحدث عنه، وأنه مهين لا قيمة له. يقول المفسرون إنه النضر بن الحارث كانت له تجارة في فارس، فاقتنى منها كتبا تتحدث عن بطولات في حروب فارس معظمها من نسج الخيال. فكان يجمع حوله النّاس، ويسرد عليهم ترجمة تلكم الخيالات التي يقبل عليها الدهماء، ويتخلل عرضه الطعن في القرآن، يدل على ذلك أن الآية صرحت بأنه يعمل على إضلال الناس وإبعادهم عن الطريق المؤدي للإيمان **(سبيل الله)** بتلهيتهم بما يقصه من غرائب الأخبار، أو بالتعريض بأن ما يقصه من أخبار الفرسان وبطولاتهم، أحق بالاستماع له والأنس به من القرآن، ومع ذلك هو يقرن طعنه بالاستهزاء بالقرآن. ميزهم القرآن بأن الله أعد لهم عذابا جسديا في جهنم وعذابا نفسيا بما يشعرون به من المهانة والذل في جهنم.

ويرى ابن عطية أن الآية باقية المعنى في الأمة الإسلامية، إذا انصرفوا عن جد الحياة إلى اللهو بقطعهم ما قدر لهم من ساعات في الحياة الدنيا فيما هو مكروه. ثم حلل نفسية المقبلين على أحاديث اللهو، بأن النفوس الناقصة تروم تتميم ذلك النقص بالأحاديث.

7ـ وإذا تتلى عليه آياتنا...بعذاب أليم.

هذا المهين المتحدث عنه في الآية السابقة يضم إلى فساده السابق، أنه إذا قرئت عليه آيات القرآن، أحسن الحديث، أعرض عن الاستماع وابتعد مدفوعا بعامل الاستكبار، كأنه لم يسمع التوجيه القرآني الذي بلغ من الفصاحة والجاذبية ما شهد به حتى أئمة الكفر، ولهذا فسر إعراضه أنه لا مبرر له إلا أن يكون أصم .

ويتوجه إليه الخطاب بقوله: **(فبشره)**- استهزاء به على وزان استكباره. وأية بشارة ؟ عذاب في جهنم يبلغ الإحساس به أقسى ألم وأدومه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ

رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖۚ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلۡقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الرواسي : الجبال .

الميد :التحرك المنافي للثبات.

الزوج : الصنف .

كريم : متقن الصنع، أو نفيس في نوعه.

الظالمون : المشركون .

الضلال المبين : الكفر الفظيع.

بيان المعنى الإجمالي:

وعد مؤكد من الله أن يدخل الجنة، للذين خلصت عقيدتهم من لوثة الشرك، وصلحت أعمالهم بالإخلاص على الوجه الذي يرضيه. ينعمون في مآلهم بما يتجاوز تصور البشر، ومع ذلك هم خالدون في نعيمهم لا يخشون انقطاعا لما هم فيه، هو وعد العزيز الذي لا يخلف وعده، الحكيم في اختيار الذين كتَبَ لهم تحقيق هذا الوعد.

هو الله الذي خلق السماوات مرفوعة ثابتة، وتأملوا فلن تقع أبصاركم على العمد التي تشده. وإذا نظرتم إلى الأرض التي تعيشون على ظهرها تجدون بديع الصنع وكمال التقدير فالجبال الشاهقة راسية في موقعها، وهي تواصل سيرها دون أن تضطرب بكم إلى اليمين أو إلى الشمال. وعمَّر الأرض بأنواع الدواب، لكل نوع منها نظامه وطريقته في العيش وفي التكاثر، وفي تعامل الإنسان معه. وما كانت لهذه الدواب أن تستمر وتساعد البشر على عمارتها، لولا ما أنزل الله من السماء، فأنبت به سبحانه أنواعا كثيرة تتجاوز التعداد، وكل نوع منها فيه من عجائب التقدير ما يقوم شاهدا على حكمته وعلمه. هذا الخلق أحكم الله صنعه، فأروني أيها المشركون ما ذا خلقت الآلهة التي تعبدونها من دون الله ؟ ولكن المشركين قد استولى عليهم ظلام الشرك الفظيع.

بيان المعنى العام:

8-إن الذين آمنوا...جنات النعيم .

تكرر وعد الله بما أعده من جنات ينعم فيها من كتبها الله له، وهم الذين جمعوا بين خصلتين :الإيمان الصادق بكل ما بينه ودعا إليه النبي ﷺ، وبين العمل حسبما

ضبطنه الشريعة (العمل الصالح) وفي هذا التذكير إيقاظ للإنسان حتى لا يغفل عما أعده الله للمتقين الصالحين فينجذب لدواعي النفس والشيطان

9-خالدين فيها...وهو العزيز الحكيم.

أكدت هذه الآية النعيم الذي كتبه الله ونفى عنه كل نقص، بإثبات أنه نعيم يصحبه الخلود فلا يخشى المكرمون به انقطاعه. وأنه وعد من الله الموصوف بأنه عزيز، وشأن العزيز أن لا يخلف وعده. وهو الحكيم الذي يجري الثواب على من هو أهل له.

10-خلق السماوات بغير عمد...من كل زوج كريم.

يواصل المشركون تعنتهم وتصلبهم في الكفر، ويعيد القرآن إنزال ما ينقض شركهم. تثبت هذه الآية أن الله هو الذي خلق السماوات، ويلفت أنظارهم إلى الصنع العجيب **(بغير عمد ترونها)** أي إنكم ترونها مرتفعة إلى ما يتجاوز أقصى ما يصل إليه البصر، ومع ذلك ترون بأبصاركم أنها ليست لها عمد ترتكز عليها لتثبت. كما يصح فهم الآية على أن السماوات لها عمد تحفظها في مكانها، ولكنكم لا ترون تلك العمد. وهذا يمكن أن يشير إلى الجاذبية بين الكواكب التي قدرها الله على نحو تثبت به الأجرام السماوية في مركزها من الكون. ولا يستطيع أحد أن يدعي أن واحدا من آلهتهم شارك الله في تنظيم السماوات، هذا التنظيم العجيب المشاهد. وفي نفس اللحظة يلفت بصرهم إلى خلقه سبحانه للأرض، ويضيف أن في خلق الأرض من الإتقان في الصنع، إذ ركزا الجبال الشامخة بكتلها الضخمة، وقدر أن تكون حياتكم على هذه الأرض، رغم سرعة دورانها في فلكها، لا تتحرك بكم لا يمنة ولا يسرة. بل لا تشعرون بحركتها تلك .

وبعد تحول التأمل سريعا من السماوات بعظيم أجرامها، إلى الأرض بجبالها الضخمة، ينقل القرآن البشر إلى التأمل في جزئيات ما أودع الله في الأرض ليرى بعيني رأسه تفرد الله بالخلق. رغم أن الأرض واحدة فقد خلق الله فيها من أنواع الدواب التي تتحرك على سطحها، وخالف بينها في مظهرها وفي خصائصها وفي طرق تحركها، وفي القوانين الذي تحكم حياتها من البدء إلى الموت. وما يسره للإنسان من ضروب الانتفاع منها.

إن هذه الدواب التي لفت القرآن نظرنا إلى الصنع المحكم فيها، ينقلنا القرآن ليربط بين السماء والأرض وبينها؛ إنه ما كان لها أن تتكاثر وتحيا لولا أن الله أنزل من السماء ماء فأخرج به مختلف الأنواع، ما يمكن كل نوع وكل فصيلة من فصائل الحيوان من تلبية حاجاتها التي بها تحيى وتتكاثر. ولو منعوا القطر لانقرضوا من سطح الأرض .

11ـهذا خلق الله ...في ضلال مبين.

استحضرت الآية كل ما لفتت الآية السابقة الأنظــار إليــه، فأشــارت إليــه باعتبــار أنــه تجلى ولم يبق فيه خفاء. هذا الكــون أمــامكم فــي مجموعــه وفــي تفاصــيله، فــأروني واعرضوا على أبصار الناس، الشيء الــذي خلقــه غيــر الله. والأمــر للتعجيــز لإســقاط كل ما يحتجون به . ثم عقب على عجزهم ووضــوح الــدليل المســتدل بــه، إن الظــالمين المشركين مغرقون في الضلال الفظيع إلى أبعد حد.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَـٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَـٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الحكمة : إصابة الحق بالعلم والعقل، ثم جودة تعبير عنه.

العزيز :الذي يحقق ما أراده.

الحميد : المستحق للثناء

وهن على وهن : ضعف يزداد شدة.

فصاله : فطامه.

جاهداك : بالغا في الإلحاح.

المصاحبة : المعاشرة

معروفا: على الوجه المعروف المألوف.

من أناب إلي: الراجع للتوحيد وصالح العمل

بيان المعنى الإجمالي :

فتح الله على قلب لقمان وروحه فامتلأ من الحكمة. وأحس بأن واجبه أن يكون شاكرا لفضل الله عليه. والشكر بالقول والفعل لا ينتفع به إلا الشاكر، وفي المقابل فإن من كفر بنعمة الله فضرر كفرانها يعود عليه. إن الله كامل الكمال المطلق، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية، غني عن البشر وعن كل شيء، مستحق للحمد وجميل الثناء.

واذكر ذلك الظرف الذي قال فيه لقمان لابنـه، وقـد كـان قاصـدا تحريـك أوتـار قلبـه وهز روحه إلى منهج الخير والسـعادة، قـال لـه: يـا بنـي إيـاك أن تشـرك بـالله، إن الشرك أفظع أنواع الظلم وأعظمها.

وسجل القرآن ما وصى به البشـر فـي بنـاء علاقـاتهم الاجتماعيـة التـي تقـوم علـى الأسرة. فكل فرد مطالب بـالبر بوالديـه، ووضـح منطقيـة هـذا الأمـر الموجـه، بـأن الإنسان ما كان له أن يبلغ قوته التي يحس بها ويفعـل بهـا، إلا بفضـل مـا عانـت أمـه في سبيله، فقد حملته وضعفها يتضـاعف بحملـه، وتقـوم علـى إرضـاعه عـامين بعـد ولادته. فكن أيها الإنسان شاكرا لله الـذي أوجـدك وغـرس فـي فطـرة الوالـدين حبـك والعناية بك، ثـم كـن شـاكرا لوالـديك، إن عاقبـة الشـكر أو الكفـر سـتجدونها يـوم تصيرون جميعا إلى حسابي.

إن طاعتي مقدمة على طاعة أبويك، فإن أعملا معـك متنـوع أسـاليب الإلحـاح والتـأثير لتشرك بي أو تعصيني فـلا تطعهمـا، فإنـه لا طاعـة لمخلـوق فـي معصـية الخـالق. وفيما عدا ذلك فأنت مطالب بأن تعاشرهما معاشرة طيبـة كريمـة حسـب العـرف الـذي لا ينكر. وكن أيها المـؤمن متبعـا للطريـق الـذي يسـلكه الصـالحون الـذين رجعـوا بفكرهم وعملهم إليَّ. وفوق كل هذا فتنبه إلى أن المرجـع والمـآل، لكـم جميعـا والـدين وأولادا، تابعين ومتبوعين، إليَّ أنـا الله الـذي أعلـم حقيقـة أعمـالكم، وبيـدي جزاؤهـا فسأجزيكم عنها جزاء عدلا.

بيان المعنى العام:

12ـولقد آتينا لقمان الحكمة...فإن الله غني حميد .

تفتح قصة لقمان بالتأكيد، ليلفت الأنظـار إلـى مـا فـي خبـره مـن مـواطن الاعتبـار، وليكون في ذلك إشارة لطيفـة إلـى الفـرق بـين الهدايـة الربانيـة التـي تهـدف إلـى الإصلاح، وبين القصص الذي يعنى بـه السـمار، ومـنهم النضـر بـن الحـارث فـي الآية 5 الذي يقتصر على إضاعة الوقـت وإخـراج الإنسـان مـن الحقيقـة إلـى عـالم الأوهام والخيال .

إذن أكد القرآن أن الله آتى لقمان الحكمة "**ولقـد آتينـا لقمـان الحكمـة**" وهـذه الكلمـات الثلاث تدعونا إلى الوقوف عند كل واحدة منها:

1-**الإيتاء:** تمكين برفق، وأسند إلى ضمير العظمة (نا) للإشارة إلى نفاسة ما مكن الله منه لقمان، فهو عطاء تبعه التنويه بالمعطى له، وتخليد ذكره الجميل في تاريخ الإنسانية.

2-**لقمان:** علم مختوم بالألف والنون. لا ينون (ممنوع مـن الصـرف) ذكِـر اسـمه فـي القرآن مرتين فقط في هذه الآية وفي التي تليها. وقـد اختلـف النـاس فـي كونـه حكيمـا

أو نبيا. والذي يُطمأن إليه أنه كان حكيمـا. واختلفـوا فـي ضـبط الـزمن الـذي عـاش فيه، وفي العمل الذي كان يقوم به، وفي أصـل نسـبه، وهـل هـو مـن البـيض أو مـن السود؟ اختلافات أطال المفسرون بتأييـدها بروايـات غيـر موثقـة. والمؤكـد أنـه كـان رجلا صالحا، كفاه أن القرآن تحـدث عنـه ليتخـذ المؤمنـون الصـالحون مـن حكمتـه صورة للطريق الذي يرضى الله عنه.

3- **الحكمة** :عرفت الحكمة بتعريفـات عـدة .وأفضـل تعريـف لهـا لمـن نظـر إلـى الجانب المعرفي: معرفة حقائق الأشياء على مـا هـي عليـه- وأمـا لمـن نظـر إلـى الجانب العملي، فالحكمة هي العمل على مقتضى العلم، وعبادة الله والشكر له.

ولا تتحقق الحكمة إلا بالجمع بين الطرفين: معرفـة صـادقة لا خطـأ فيهـا، ثـم عمـل بما علم من الحق. وفي التحلي بالحكمـة بهـذا التعريـف الجـامع مراتـب، أعلاهـا مـا أوتيه سيدنا محمد ﷺ ثم تنزل في درجات السلم حتـى لا تجـد للحكمـة أثـرا واضـحا. وهي فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده . قال تعالى: **يـؤتي الحكمـة مـن يشـاء ومـن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا**[1] ومن الحكمة الكـلام الـدقيق النـابع عـن عمـق فـي معرفة الأشياء على ما هي عليه والهادي إلى الخير.

فلقمان أعطاه الله عقـلا بلـغ مـن صـفائه أنـه لا تخدعـه الظـواهر ولا الشـهوات. الحكمة التي تولى القرآن بيانها: أنه ألهم : أن مداركـه، محصـور توجههـا نحـو الحـق الخالص، وأن إحساسه بشكر الله على ما مكنه منـه إحسـاس قـوي جـدا. فهـو يجمـع بين أمرين معرفة الحق العميق واليقين بأن ذلك فضل الله عليه يدفعه إلى الشكر.

والشكر باب واسع: يشمل الشكر باللسان، والشكر العملي بتطبيـق مـا علمـه فـي حياتـه تطبيقا يشعر فيه بنعمة التوفيق للخير. وبنشـر المعرفـة والعلـم تثبيتـا لمـا علمـه فـي النفوس، وترقيقا للمشاعر حتى تلين للخير الذي علمه.

ثم حببت الآية الشكر للنفوس بالتأكيد على أن الشـكر ينتفـع بـه أولا وبالـذات، الشـاكر نفسه. وأن الله لا ينتفع بشكر الشاكرين، كما لا يؤثر فـي عظمتـه وكمالـه وفضـله كفـر الكافرين. وهو الفارق بين المخلـوق والخـالق، فـالمخلوق يعجبـه الشـكر ويجنـي منـه فوائد سواء أقصدها الشاكر أم لم يقصدها. والله غني عن ذلك كلّه.

وصرحت الآية بهذا المفهوم: إن كفر الكافرين لنعمـه لا يعـود ضـرره إلا علـى الكـافر حسبما تقتضيه المقابلة. والله سـبحانه علـى جميـع الوجـوه غنـي عـن البشـر، وعـن

---

[1] سورة البقرة 269

فعالهم وأقوالهم. كماله سبحانه ثابت ومؤكد على نفـس المسـتوى مـع الشـكر أو الكفـر، وهو المحمود على ما اختص به سبحانه من كمال وفضل.

13ـ وإذ قال لقمان...لظلم عظيم.

واذكر تاليا على البشرية قصة لقمان ابتداء من هـذا الظـرف الـذي خاطـب فيـه ابنـه واعظا له. والوعظ زجر مقترن بتخويف وتذكير بـالخير. كـان صـلب الموعظـة نهيـه عن الشرك بالله. ويفهم منه أن ابن لقمان كان مشركا بـالله، لأنـه لا ينهـى إلا عمـا هـو متلبس به ليقلع عنه، أو على ما هو متوقـع. لكـيلا يقـع فيـه. ويـذكر المفسـرون أنـه واصل موعظته لابنه إلى أن طهر عقيدته من الشرك.

افتتح موعظته بهز مدارك ابنه إلى ما يفضـي بـه إلـى الابتعـاد عـن الشـرك. وفيمـا قصه القرآن ما يشير إلى حكمة لقمان:

أولا: بتوجهه أولا إلى إصلاح عقيدة ابنه، ليبني عليهـا مـا سـيأتينا مـن وجـوه الخيـر التي وعظه بها..

ثانيا: إلى اللطف في الخطاب، إذ ابتدأ كلامه بقوله: **(يا بنـي)**. فابنـه كـان بجانبـه فـلا حاجة لندائه، ولكن النداء فيه مزية إحضار ذهـن المخاطَـب إشـارة إلـى الاهتمـام بمـا سيرد عليه. وفي تصغيره: يا بني، عوض يا ابنـي، إيمـاء إلـى شـفقته عليـه . ويـنجح الواعظ بمقدار ما يفتح القنوات الواصلة بينه وبين من يعظه.

ثالثا: تفخيم خطر المآل الذي كان ابنه غافلا عنـه، غيـر متصـوِّر لحقيقتـه. **(إن الشـرك لظلم عظيم)**. فهو ظلم للحقيقة ومـا لله مـن حـق علـى المخلـوق أن يعبـده ولا يشـرك به، وظلم للمشرك ذاته إذ نزل بقيمتـه الإنسـانية فرضـي لهـا أن يكـون عابـدا متقربـا لمخلوق مثله بل أقل منه. وهو ظلم لفكره إذ رفع المهـين. ومـن ناحيـة أخـرى حسـبما هو مشاهد تجد المشركين يبطنون عداوة شـديدة للمـؤمنين، ولا يقصـرون فـي المعاملـة بالسوء لمن آمن.

14ـ ووصينا الإنسان بوالديه ...إلي المصير.

في ربط هذه الآية بما سبقها ما يوجب التأمـل المتـأني. ذلـك أن بعـض المفسـرين رأوا أن هذه الآية معترضة بين كـلام لقمـان، ذكـر الله بهـا البشـرية. ولكـن هـذا إن قبـل يكون تعريفا بالواقع لا توضيحا للاتصـال. والـذي أحـس بـه أن موعظـة النهـي عـن الشرك تكون أبلغ إذا ربطـت بحـق الموجـد علـى مـن أوجـده، حـق الخـالق علـى المخلوق. وحق الإيجاد يقربه حقوق الوالـدين، إذ بهمـا وجـد الإنسـان. ولكـن لا تبلـغ درجة حقوقهما حقوق الله الخالق للجميع، فإذا مـا تعارضـا فحقـوق الله مقدمـة. فكانـت

هذه الآية معلنة عن هذا المعنى النفيس والمكمل للنهي عن الشرك، والمُعِدّ لما ختمت به الآية.

هذه الآية وصية من الله برعاية حقوق الوالدين، هي حقوق التكريم، والعون بكل أشكاله، وحسن المعاملة. يتواصل هذا البر طيلة حياتهما ويتتابع بعد موتهما بالدعاء لهما، وبالبر لأهل ودهما. فهي وصاية من الله للبشر جميعا تضبط الأسس الاجتماعية التي يجب أن تقوم عليها الأسرة. وأرجع ضابط المعاملة إلى الأعراف الاجتماعية. ولم يفصلها تفصيلا يفقدها المرونة بتغير الأعراف. فمثلا يعد تدخين الولد بحضرة والده تحديا ووقاحة في بعض الأعراف، ولا يُؤَوّلُ هذا التأويل في أعراف أخرى؛ وعلى ما جرى عليه العرف يقدر قيمة الموقف . ولتركيز ذلك أظهرت الآية المبنى الذي أوجب على الإنسان البر بوالديه. وخصّ بالتفصيل الأم. فهم منه كثير من الناس أن الأم مفضلة على الأب في البر، وأن حقوقها أكبر من حقوق الأب بثلاثة أضعاف. وهو استنباط غير قطعي، بل هما في وجوب البر بهما على حد سواء، ولكن لما كانت الأم لقوة عاطفتها ولينها لا تفرض شخصيتها على الأولاد، كما يفرض الأب، حسب الأعراف الجارية في كثير من المجتمعات، وبخاصة المجتمع العربي في وقت نزول الآية، أكد النبي ﷺ على رعاية حقوقها قصد عدم التهاون بها لا بقصد التفضيل بينهما.

فصلت الآية مبنى البر بالتذكير بما تحملته الأم، فقال تعالى: **حمَلَتْه أمه وهنا على وهن**. والوهن هو الضعف. إن الضعف والإعياء وأعراض الحمل الأولى البدنية والمزاجية تتواصل بعد ذلك بثقل الجنين الذي ينمو ويتغذى من عصارة غذاء الأم، من دمها .حتى إذا وضعته انضاف إلى أتعاب الحمل أتعاب وآلام الولادة، ثم ثقل العناية به في تغذيته من لبنها والقيام على نظافته، وحماية جسمه وحياته .ويستمر هذا الوضع وضع التغذية والقيام على ضرورياته إلى عامين .وهو الفطام: أقصى مدة الرضاع غالبا. فالأم ترعى الجنين ثم المولود، والأب مطالب بالنفقة على الأم، فيوفر لها كل الحاجيات، كما ينفق على المولود نفقة تستمر إلى دخول الزوج بالبنت، وبلوغ الذكَر سن الحلم. ورعاية لما ذكرناه ختمت الآية بقوله تعالى: **أن أشكر لي ولوالديك**. إن نعمة الرعاية الضرورية المكملة لنعمة الإيجاد تتضح من نسج الآية المعجز، فالشكر كله لله أولا على الخلق والتيسير، ثم الشكر للوالدين كليهما. والخاتمة الجامعة تعريف الشاكر بأنه سيلقى جزاءه يوم يصير إلى ربه، الذي تفرد بأن الكائنات كلها تعود إليه كما صدرت عنه.

15ـ وإن جاهداك على...بما كنتم تعملون.

هذه الآية نظير الآية الثامنة من سورة العنكبوت. وقـد بينـا مـا يتعلـق بهـا. وحاصـل هذه الآية أنه لا يوجد أي مبرر للشرك الذي هو أعظـم ذنـب وأشـد ظلـم. فلـو فـرض أن الوالدين ألحا كل الإلحاح، واسـتعملا متنـوع طـرق التـأثير للحيلولـة بـين ولـدهما وبين الإيمان، أو ليعود إلى الشرك فلا طاعة لهما فـي هـذا، كمـا لا طاعـة لهمـا فـي هتك ما حرمه الله كقتل النفس والسرقة والزنا ونحـو ذلـك أو عـدم القيـام بمـا أوجبـه كترك الصلاة أو الصوم.

ونبه القرآن على أن عصيان الوالدين فيما حرمه الله ونهـى عنـه، لا يبـرر عـدم القيـام بحقهما فيما سوى ذلـك، بـل إن المـؤمن مـأمور أن يحسـن عشـرتهما وأن يحترمهمـا حسب العرف الذي لا ينكره المجتمع . فالولد المسلم مـن أبـوين مسـيحيين يجـب عليـه أن ينفق على أبويه حتى إذا طبا منه الخمر، لأن الخمر غير منكر عندهما.

وإذ أمرت الآية ونهت وفصلت، كان المقام داعيا إلى التنصيص على القاعدة في العلاقات بصفة عامة، فأمر القرآن المؤمن أن يتّبع الطريق الذي يسلكه المؤمنون الصالحون، الذين كان منهج الرجوع إلى شرع الله هو طريقهم الذي يسلكونه في الحياة .

وفي الختام فإن مرجعكم جميعا إلى الله، أولادا ووالدين، وأتباعا ومتبوعين، كلكم ستعودون إليه. لا ينفعكم في ذلكم الظرف إلا ما قدمتم من صالح العمل؛ وسيظهر لكم جزاء أعمالكم، ذلكم الجزاء الذي يكشف عن قيمة الخير أو الشر في أعمالكم الدنيوية.

يَٰبُنَيَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٖ فَتَكُن فِي صَخۡرَةٍ أَوۡ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَأۡتِ بِهَا ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرۡ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٖ ﴿١٨﴾ وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

مثقال: وزن، ثقل.

خردل: نبت له بزور دقيقة تسمى الخردل.

الصخرة: الحجر العظيم الصلب.

اللطيف : العالم بدقائق الأشياء الرفيق بعباده .

عزم الأمور: التي شدد الله الأمر بها وحذر من التراخي فيها.

تصعير الخد : الانحراف عن النظر إلى الناس تكبرا.

ولا تمش ...مرحا: لا تمش متبخترا مزهوا بما أوتيت.

المختال : المتبخثر في مشيته تكبيرا.

الفخور : شديد الفخر.

أنكر : أقبح وأوحش.

بيان المعنى الإجمالي :

واصل لقمان موعظة ابنه، فابتـدأ بتجليـة الناحيـة العقديـة، فعرفـه أن علـم الله محـيط بكل جزئية في الدنيا وإن ضؤلت. فلو كان الشـيء وزن حبـة مـن خـردل، كامنـا فـي قلب صخرة صماء، أو كان ملقى في واسـع ملكـوت السـماء، أو مندسـا فـي أي بقعـة من الأرض لا دليل عليه، فإن الله يأتي به من مكانـه ويكشـفه. وكـذلك الأعمـال مهمـا خفيت. إن الله عليم بما دق، رفيق بعباده، يعلـم كـل شـيء علمـا لا يخفـى عليـه منـه شيء.

و ثنى بدعوته إلى الناحية العمليـة، فوعظـه بالمحافظـة علـى الصـلاة وأدائهـا علـى أفضل وجوه الأداء، وأن يكون متعلقا بالخير آمرا بـه، مبتعـدا عـن الشـر ناهيـا عنـه. وتحمّلْ في سبيل ذلك مـا يمكـن أن يلحقـك مـن أذى صـابرا علـى مواصـلة طريـق الخير. فإن ذلك من الأمور المهمة المعنيّ بها.

وثلث بنهيه عن مظاهر التكبر المؤذية بالفعل، كلَفْتِ خـده عـن النـاس احتقـارا لهـم، أو المشي المتبختر، فإن الله يمقت ولا يساعد كل مختال فخور بنفسه.

وربع ببيان بعض مظاهر السلوك التي تحببـه وتحفـظ لـه كرامتـه. فلـيكن فـي مشـيه وسطا بين الهرولة والـدبيب، ولـيكن صـوته بـين الخفـاء المتعـب للسـامع، والجهـر المؤذي، ونفّره من الصوت الجهير، بتشبيهه بصوت الحمير الذي يعلو فيزعج .

بيان المعنى العام :

16ـ يا بني إنها إن تك...إن الله لطيف خبير.

عُنِيَ لقمان في تزكية ابنه بتقديم عقيدة التوحيد، وأتبعهـا فـي هـذه الآيـة بتوجيهـه إلـى التصور العقدي الصحيح والكامل. فوعظـه مراعيـا طريقـة التجسـيم التـي يكـون بهـا التصور واضحا ودقيقا مما يحقق حكمته. لفت نظـر ولـده إلـى أشـد الأشـياء خفـاء، إلى شيء لا يعدو وزن حبة مـن خـردل، وهـو ممـا ينبـه علـى ضـآلة الشـيء، إذ الموازين في ذلك العهد ما كانت تتأثر بذلك الوزن، كأنـه يقـول: ممـا لا يمكـن وزنـه. ثم بالغ في خفائه بأنه مخفي داخل حجـارة صـلبة شـديدة، أو هـو ملقـي فـي عـالم

السماوات الفسيح، أو في داخـل كوكـب الأرض. إن الله قـادر علـى أن يخرجـه مـن مكمنه ويرتب عليه من الآثار مـا تعلقـت إرادتـه بـه. اعلـم يـا ولـدي: أن الله عـالم بدقائق الأمور، وهو الرفيق في إيصال الخيـر لمـن أراد. فكانـت الخاتمـة كاشـفة عـن علم الله الكامل والشامل. وعن قدرتـه البالغـة. التوجيـه صـالح لحملـه علـى الأشـياء المحسوسة، كما هو صالح للتنبيه على جزاء مـا يقـوم بـه الإنسـان مـن أعمـال، فإنـه وإن قلت أو ضعفت قيمتهـا يجـد الفاعـل جزاءهـا محفوظـا عنـد الله. فتكـون الآيـة جامعة بين الترجية للصـالحين، والتخويـف للمـذنبين . يؤكـد ذلـك أن الله علـيم العلـم الكامل، خبير بدقائق الأمور وما خفي منها

17ـ يا بني أقم الصلاة...من عزم الأمور.

بعد أن أتم توضيح ما يتعلق بالعقيدة، انتقل في وعظ ابنـه إلـى الناحيـة العمليـة. فابتـدأ بدعوة ابنه مؤكدا (يابني) أقم الصلاة . والصـلاة العبـادة التـي يتقـرب بهـا الإنسـان لخالقه منصرفا عن كل شيء، فهـي قمـة العبـادة، وهـي أولـى الثوابـت فـي جميـع الشرائع، وإن اختلفت طرق أدائها شروطا، وأركـان وآدابـا. أمـر بـأن يـؤدي الصـلاة بما يوقظ الروح، ولا يتغافل عنها. وثنى بأن يكـون قلبـه متعلقـا بـالخير مشـمئزا مـن الشر، بصفة أنه زيادة عن الامتثـال يُشِـيعُهُ فـي النـاس، فيـدعو غيـره إلـى الخيـر: المعروف، وينهاه عن الشر: المنكر، ولا يكتفـي بصـلاح ذاتـه، إذا فسـد غيـره. وثلـث بأمره بالصبر على الأذى في قيامه بواجـب الأمـر بـالمعروف والنهـي عـن المنكـر، بصفة خاصة، لما يتبع ذلك من نفرة وعـداء المـأمورين، إذ فـي ذلـك قمـع لشـهواتهم المصحوبة باللذة العاجلة.

إن هذه الأمور التي أوصيتك بها هـي مـن الأمـور التـي عنـي بهـا الله، وأكـد علـى الناس القيام والالتزام بها.

18ـ ولا تصعر خدك للناس ...كل مختار فخور.

انتقل لقمان في وعظ ابنه إلى تنبيهه إلى طريقة السلوك مـع المجتمـع، بمـا يؤلـف بينـه وبينهم، ولعل أقوى ما يؤذي الناس التكبر عليهم، ولـه مظـاهر كثيـرة: أن يلـوي خـده عنهم يرمز إلى احتقارهم بأنهم فـي منزلـة دون أن ينظـر إلـيهم، أو أن يـؤذيهم بلسـانه شاتما أو ساخرا، ونحو ذلك .كما نبهه إلى مـا فـي الإعـراض عـن النـاس مـن سـوء خلق، نبهه إلى صور أخـرى مـن الكبـر: أن يمشـي مشـية تخـالف الماشـين علـى الأرض، وهو واحد منهم، بأن يمشي مشية تظهر أنـه متكبـر يخـال نفسـه أعلـى مـن الآخرين . وزيادة على نقمة الناس عليه نبهه إلـى أن الله يقصـي عـن منـازل رحمتـه ولا يسعف بألطافه، كل من كان مختالا يفتخر على الناس معتقدا أنه أعلى منهم .

19ـ واقصد في مشيك...لصوت الحمير.

ختمت هذه الآية موعظة لقمان لابنه، إذ هـداه إلـى بعـض الآداب فـي طريقـة مشـيه، وفي صوته .كن مقتصـدا فـي مشـيتك لا تهـرول فتـذهب مروءتـك، ولا تـدب دبيبـا يعطيك مظهر العاجز. كن وسطا بين الأمرين. ولا تجهـر بصـوتك جهـرا ينبعـث مـن نفس تبغي الاستعلاء في المجامع، ونفره من هذا المسـتوى فـي رفـع الصـوت بتشـبيهه بصوت الحمار، أنكر أصوات الحيوانات. إذ بقيـة الحيوانـات يـأنس الإنسـان لصـوتها إلا صوت الحمير فإن ينفر منه لأنه قـوي مـزعج . فلـيكن صـوتك وسـطا، لا تخافـت به إلى درجة يتعب السامع بعدم وضـوحه، فيسـتوقف المـتكلم ويطلـب منـه الإعـادة، ولا يكن جهيرا مظهر عنف .

وقد تتبع الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور ما ينسب من الحكم إلـى لقمـان، فبلـغ بهـا مـا يقارب سبعين حكمة

أَلَمْ تَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾

بيان معاني الألفاظ:

إسباغ النعم :إكثارها بما يعمُّ.

النعمة : المنفعة التي يقصد بها فاعلها الإحسان للمنعم عليه.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه آيـات الله فـي الكـون شـاهدة علـى أن الله هـو المتفـرد بـالخلق والتـدبير، ألا تشاهدون كيف أن الله أودع فـي السـماوات والأرض مـن القـوانين مـا جعلهـا تحقـق للإنسان خلافته، وتسعده فـي حياتـه، ولا تعاكسـه. وأعطـاكم الـنعم الكثيـرة التـي لا تحصى منها ما هو ظاهر مشاهد تدركونـه بحواسـكم، ومنهـا مـا هـو خفـي كقـواكم المدركة والأجهزة المختلفة في الجسم، والعقل والروح ونحو ذلك.

ورغم ذلك فإن بعض الناس ممن لم يدرك هذه الـنعم إدراكـا يربطهـا بمبـدعها، إذا نُبِّـهَ لذلك وقيل له اتبع ما أنزله الله من الهدى لتسـعد فـي دنيـاك وأخـراك، أعـرض وقـدم حجته السخيفة قائلا: إني أتبع مـا كـان عليـه آبـائي . وإنـه لأمـر عجـب أن يتبعـوا آباءهم، ولو كان آباؤهم إنما قادهم الشيطان إلى عذاب السعير فانقادوا.

بيان المعنى العام:

20ـ ألم تروا أن الله سخر لكم...ولا هدى ولا كتاب منير.

بعد أن سجل القرآن ما آتاه الله لقمان من الحكمة، ومظهرها في مواعظه لولده، عاد البيان القرآني إلى الاستدلال على تفرد الله بالألوهية، إكمالا لما عني به قبل الحديث عن لقمان. خاطب بهذه الآية كل البشر مؤمنهم وكافرهم، مفتتحا بسؤال تقريري وإنكاري، كيف لم تشاهدوا بأعينكم تسخير السماوات والأرض للإنسان.؟ إن موقع الأرض من الكواكب، والتقديرات العجيبة المحكمة في مقدار ما يصل من الإشعاعات إلى سطحها، وتأثير القمر على حركة المد والجزر، وتداول الليل والنهار، وموقعها المتغير الناتج عنه تحول الفصول. وكذلك الجاذبية التي تَيَسَّرَ معها استقرار الإنسان، وتنقله، وما أقامه من منشآت، إلى البحار والأنهار، والتربة وما احتوته من العناصر التي بها تنمو الأشجار والزروع والثمار. سخر الله السماوات والأرض، بأن أجرى فيها من القوانين ما يتمكن به الإنسان من العيش وتعمير الأرض. وكانت نعمه على الإنسان لا تحصى منها الظاهر في ذاته، أعضاؤه وجماله وما في الكون مما يلبي حاجاته في معاشه : قُوتُه، ولباسه وسكنه، من الضروري إلى الجمالي . ونعمه الباطنة من أجهزة متنوعة كالجهاز الهضمي والجهاز الدموي، والجهاز التنفسي، وما ركبه فيه من قوى الإدراك والعقل.

إنه مع هذه النعم التي لا تحصى والتي لا يمكن للمشركين أن ينسبوا أي واحدة منها لأصنامهم، تجد بعض الناس من رؤوس الكفر في مكة يجادلون في تفرد الله بالخلق والتقدير .لا يستندون في جدلهم إلى وسيلة من وسائل الاحتجاج. إذ ليس لهم علم يقيني صادر عن اجتهاد سالك منهج الاستنباط. ولم يتلقوا ما يجادلون به من عالم موثوق بعلمه، ولا سند لهم من كتاب صادق منزل. وإنما هي المكابرة وتمسك بالأهواء.

21ـوإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ...إلى عذاب السعير .

بلغ تصلبهم في الكفر، وتصميمهم على الرفض، أنهم إذا نبهوا بالدعوة إلى اتباع ما أنزل الله على رسوله، إذا كانوا لم يهتدوا بآيات الله في الآفاق التي هي أمام أنظارهم، لم يجدوا تعلة لمواصلتهم الإشراك بالله إلا الاعتماد على التقليد لآبائهم .

والعجب منهم أنهم يقلدون آباءهم، ولو كان آباؤهم وقعوا تحت إضلال الشيطان وغوايته، ليقودهم إلى عذاب جهنم. أيتبعونهم ولو كان ما عليه آباؤهم من إضلال الشيطان، وأنهم خاسرون الخسارة التي هي أعظم خسارة، إحباط الأعمال والتعذيب في نار جهنم المستعرة.

۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ
عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾
وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

إسلام الوجه لله : إفراده بالعبادة.

محسن : قائم بعبادة الله مخلص.

العاقبة :الخاتمة والنهاية .

ذات الصدور: النوايا المستكنة في النفوس.

التمتيع : العطاء الموقت .

بيان المعنى الإجمالي :

طمأنت الآية من أخلص لله فأفرده بالتوجه له، ولم يشرك به غيره، وقرن ذلك بالإحسان في عبادته، حسبما روي عن رسول الله ﷺ: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه. طمأنته: ليكن واثقا من سلامته، وضعه كوضع من تمسك بالعروة التي لا تنقطع ولا تنفصم. وإلى الله وحده يصيرون فيجزيهم بما هم أهل له.

لا تحزن يا محمد لكُفْرِ من كَفَرَ. فإن مصيرهم إلينا، وسوف نفضحهم بإظهار حقيقة ما كانوا يعملون. إن الله عليم بما تنطوي عليه الصدور. نمكنهم من التمتع قليلا في الحياة الدنيا، وما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل . ثم نلجئهم إلى عذاب النار الشديد، أشد ما يكون العذاب.

من تناقضهم وضعف عقولهم، أنك لو ألقيت عليهم السؤال: من خلق السماوات والأرض؟ فإنهم يعترفون بأن الله هو خالقها. ثم يشركون به غيره. اختص الله بالحمد والثناء والألوهية، ولكن أكثرهم جهلة أعماهم الجهل، وإن كان بعضهم يرجى منه أن يعود إلى الحق..

الحقيقة المطلقة: أن ما في السماوات والأرض ملك لله، هو وحده المالك، وأنه غني الغنى المطلق عن جميع المخلوقات، هو المستحق للحمد والثناء على ما اختص به من كمالات.

بيان المعنى العام :

22.ومن يسلم وجهه....وإلى الله عاقبة الأمور.

في مقابل المتصلبين في الكفر ينوه القرآن ويعد من أعرض عن كل الدواعي الخارجية والداخلية الصارفة عن الله، وصرف قصده لله وحده. وأصل كلمة الوجه أن تدل على الجهة الأمامية من الرأس أطلقت هنا على القصد، باعتبار أن القاصد للشيء يستقبله بوجهه. ومع إخلاصه لله وحده، فقد جمع إلى ذلك الإحسان. والإحسان أن يقوى في روحه تعلقه بالله، فإذا هو مستحضر لصلته بربه في جميع أوجه نشاطه. وهو معنى قوله ﷺ : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه. وبهذا يكون الإحسان العبادة لله المتمثلة في أي عمل يقوم به الإنسان رابطا له بربه، فتنقلب جميع الأعمال الصالحة إلى عبادة مجزي عنها. أثنى الله على من أسلم وجهه لله وهو محسن بأنه ناج لا محالة في خضم دواعي الحياة، فهو مستمسك بالمنهج المنجي، شأن الإنسان إذا كان متعلقا بعروة وثيقة لا تنفصم فهي تنجيه من التيارات الجارفة ما دام متعلقا بها.

و لما تعلقوا بالله في كل أمر من أمور حياتهم، فإنهم سيجزون عنده أفضل الجزاء لأن النهاية هي عند الله يوم القيامة.

23. ومن كفر فلا يحزنك...إن الله عليم بذات الصدور.

لما فصلت الآية كريم الوعد للمؤمنين، والرسول ﷺ إمامهم، ثنت هذه الآية بتسلية النبي ﷺ عن حزنه من كفر الكافرين وعدم اهتدائهم، فيخاطبه القرآن قائلا له: لا تهتم بشأنهم وما ستكون إليه عاقبتهم، فإنهم سيعودون إلينا، ونظهر لهم حقيقة أعمالهم الشريرة، ونفضحهم بها، لأن حسابهم سيكون منا، والله لا يخفى عليه ما أبطنه الفاسقون من المكر والفساد، فضلا عما ظهر منهم.

24. نمتعهم قليلا...إلى عذاب غليظ.

فصلت هذه الآية قوله في الآية السابقة: إلينا مرجعهم- نعطيهم عطاء قليلا لا يطول انتفاعهم به. ثم نلجئهم إلجاء لا خيَرَةَ لهم فيه إلى عذاب غليظ، شديد شدة تتجاوز طاقة تحملهم. وكانوا في الدنيا يرفضون طاعة الله ويظنون أنهم يفعلون ما يشاءون، فكان أول مراحل العذاب هو احتقارهم ودفعهم دفعا إلى العذاب .

25. ولئن سألتهم...بل أكثرهم لا يعلمون.

تكشف هذه الآية عن سخافة عقول المشركين، وتناقضهم. إنك لو سألتهم من خلق السماوات والأرض وما فيها، ومن ذلك المواد التي صنعوا منها أصنامهم، فإنهم

يقرون بأن خالقها هو الله. لأنه لا يمكنهم أن ينسبوا لأصنامهم شيئا من ذلك. ومع ذلك هم يعبدون ما سوى الله الخالق. قل لهم إنه كما اختص بالخلق فهو الحقيق بالحمد والثناء. ولكن الداء المضل هو الجهل الحاجب لبصائرهم عن التدبر في خلق الله وما يوجبه.

26.لله ما في السماوات...هو الغني الحميد.

تصريح بالجواب عن السؤال في الآية السابقة وتسجيل للحقيقة من خالق الكون، الذي استند إليه الخلق وحده، فهو مالك لجميع الكائنات في السماوات والأرض التي منها الإنسان. سبحانه المتميز بأنه الغنيُّ الغنَى المطلق . كمالاته من ذاته، ومستحق للحمد والثناء، والحمد ثابت له ذلك ثبوتا ذاتيا.

وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِي ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

المداد : الحبر .

يمده : يزيده مدادا.

يولج : يدخل .

الجري : المشي السريع

العلي :العلو بمعنى القدسية والتعالي عن كل نقص .

الكبير :عظيم الشأن.

صبار شكور: عظيم الصبر، قوي الشكر..

غشيهم الموج : فاجأهم الموج. فغطاهم أو كاد.

كالظلال : فسر بالجبال والسحب، في عظمتها وارتفاعها.

ختار : غدار .

بيان المعنى الإجمالي:

عِلْمُ الله علمٌ أزلي أبدي، ليس له بداية ولا نهاية. فلــو بَرَيْــت أشــجار الــدنيا أقلامـــا، مـــا وجد وذهب، وما هو موجود عند نزول الآيــة ومـــا ســينبت علـــى ســطح الأرض؛ ثــم جعلت البحر كله حبرا تغمس فيه تلك الأقــلام لتكتــب بهـــا علــم الله، ونفــد البحــر، ثــم أتيت ببحور كثيرة لتسجل بها علــم الله، فإنهـــا لا تبلـــغ تســجيل علــم الله، لأن المتنـــاهي يستحيل أن يكون مساويا لما هــو غيــر متنـــاه. إن الله عزيـــز لا تــرد لـــه إرادة، حكــيم فيما يصنع ويخلق. إنه لعزته يستوي خلــق فــرد واحــد مـــن البشــر، وخلــق البشــرية جمعاء. إنه سبحانه لا يغيب عنـــه صـــوت وإن ضـــعف، ولا صـــورة ومكـــان أي كـــائن مهما صغر .ظاهرتان في الكون انتبهوا إليهما :

الأولى: أن الله يدخل الليل في النهار فيبدد النور ظلامه ويكشف الكون بضيائه.

والثانية: أن الله يعكس الأمر فيدخل النهار وضـــوءه فـــي جـــوف الظـــلام فيســـتر الكـــون كله. انتبهوا إلى الارتباط بين تحول ظواهر كثيـــرة علـــى ســـطح الأرض تبعـــا لحركـــات الشمس والقمر، وجريهما في أفلاكهما. هذا الســـير المنـــتظم لـــيس ســـيرا أبـــديا ولكنـــه داخل تحت التقدير الإلهي، فسيأتي الوقت المحدد لتوقفهـــا عـــن الســـير، وانتهـــاء الحيـــاة. إن هذا التقدير المحكم العجيب، إذا تأملتموه يفضي بكم إلـــى العلـــم اليقينـــي بـــأن الله هـــو الحق، وأن الأصنام والأوثان التي تـــدعونها وتتقربـــون إليهـــا باطـــل لا حقيقـــة لهـــا ولا سلطان ؛ وأن الله وحده هو المنفرد بالمقام العلي الأعلى، العظيم الشأن.

ألم تعلم أيها الإنسان أنه بنعمة الله وفضـــله، تجـــري الفلـــك علـــى ســـطح البحـــر فتنقـــل البشر والحيوانات والسلع بين أقطار الأرض. إن في القوانين التـــي تـــم بهـــا ذلـــك، ومـــا يترتب على هذا التنظيم من خير كثير للبشرية، فـــي ذلـــك آيـــات ناطقـــة بـــأن حكمـــة الله الواضحة وإحكامه، وقدرتـــه يســـرت كـــل ذلـــك، ولكـــن لا يتبينهـــا إلا كـــل مـــن رزق الصبر على البحث والتأمل، وانفتح قلبـــه لشـــكر الله علـــى نعمـــه الجلّـــى . وكمـــا يفـــتح البحر عقول المؤمنين للإيمان والشكر، فـــإن البحـــر إذا ســـارت فيـــه الفلـــك بمـــن فقـــدوا الإيمان، فإنك تجدهم إذا علـــت الأمـــواج كالجبـــال، وظـــن الراكبـــون الهـــلاك، تجـــدهم يتضرعون إلى الله أن ينجيهم، فإذا نجوْا وبلغـــو ســـاحل النجـــاة، وجـــدتهم بـــين مقتصـــد في كفره، لم تقتلع منه التجربة جذور الكفـــر، بـــل مـــا زال متـــرددا بـــين وضـــعه عنـــد ابتهالاته ووضعه السابق في التقرب للأصنام، ومنهم من هـــو متصـــلب فـــي كفـــره، لـــم تحرك التجربة فيه أي تحول للصـــلاح. وفعـــلا هنـــاك مـــن هـــو مـــؤمن فـــإذا التجربـــة تضاعف شكره، وتقوي إيمانه.

ولا ينكر آيات الله ولا يجحدها إلا فاسد الطبع، الذي تمكن خلق الغدر فيه وكفران النعمة .

بيان المعنى العام :

27ـولو أنما في الأرض...إن الله عزيز حكيم .

وصف القرآن نفسه في عديد الآيات بأنــه بلــغ أعلــى مراتــب الوضــوح والبيــان. إنــه يتحدث عن العقيدة والعمل، وعن الدنيا والآخــرة، ويبــين مــا يجــب علمــه عــن الــذات الإلهية، ويتحدث عن أخبار الرســل ومــا جــرى لهــم مــع أممهــم، وعــن الصــالحين وآثارهم. إن هذا التنــوع لا يقصــد منــه التسـجيل، ولكــن الهــدف الأول هــو إصــلاح البشرية بواسطة هذا الكتاب. ولذا كان من الواجــب أن يكــون بينــا واضــحا حتــى ينفــذ إلى الأرواح فيحييها، وإلى العقول فيفتح لها منــاهج الصــواب، وإلــى المشــاعر فيعليهــا ويسمو بها. إن اللغة مهما بلغت من الدقة تكون قاصــرة عنــدما تتحــدث عــن الله القــديم المتعالي، أو عن الآخرة التي شؤونها غير شؤون الــدنيا. ولــذلك اعتمــد القــرآن ضــرب الأمثال، والتجسيم بمقارنة المعاني العالية بما هــو مجســم يدركــه الحــس، مــع وجــوب التنزيه للباري عن كل تحديد. وتعمل القــوى العقليــة علــى تصــوره بنــاء علــى ذلكــم التجسيم، فإذا هو واضح في النفس قوي التأثير فــي التعقــل والســلوك. لقــد تكــرر فــي القرآن **"أن الله بكل شيء عليم"، "أنــه علــيم بــذات الصــدور"، (مــا مــن غائبــة فــي السموات والأرض إلا في كتاب مبين)**، وفي هــذه الســورة: **(إنهــا إن تــك مثــال حبــة من خردل فتكن في صخرة أوفي الســماوات أو فــي الأرض يــأت بهــا الله)** . وتحــدث القرآن أيضا عن نعيم الآخــرة الــذي لا يفنــى، والله علــيم بكــل شــيء؛ يشــمل علمــه المتناهي من أمور الدنيا، ويشمل غير المتنــاهي مــن أمــور الآخــرة. إن هــذا المفهــوم الواسع جسمته الآية. لو فرضنا أن أشــجار الــدنيا مــا هــو موجــود الآن ومــا ذهــب، وما سيوجد في المستقبل، ثم حولنا أغصان تلك الشجر إلــى أقــلام للكتابــة، ثــم اعتبرنــا أن بحار الأرض مِدادٌ (حبر) يغمــس فيــه الأقــلام ليلــتقط كــل قلــم مــن المــداد بلــل للتسجيل، ونشف البحر بما يؤخذ منــه للتســجيل، ثــم يتضــاعف البحــر بمــداد ســبعة أبحر، وليس المراد التحديد بالسبعة حتى يقال لمــاذا قصــر القــرآن العــدد علــى ســبع؟ بل المراد بالسبع في الاستعمال البياني الكثرة. إنــه لــو كتبــت الكلمــات المســجلة لعلــم الله لنشف الحبر واستهلكت الأقلام، وعلم الله متواصــل لا ينقطــع. مقارنــة بــين الــدائم الباقي والفاني. إن الله عزيز ينقاد كــل شــيء لإرادتــه، وإرادتــه ليســت إرادة الطغيــان والاستبداد، ولكنها إرادة الحكيم المجري لما يصدر عنه على أسس الحكمة.

28ـ ما خلقكم ولا بعثكم ... سميع بصير

أثبتت الآية السابقة سعة علم الله وعدم تناهيه، وتعرضت هذه الآية إلى جزئية من علم الله، وقدرته على إنجاز ما علمه. وهذه الجزئية هي خلق الإنسان أولا، ثم إعادة خلقه ثانيا بعد

الموت. وهذا الثاني يرفضه المشركون لأنه يعكر عليهم شهواتهم. فعرفتهم الآية أن خلق البشر جميعا هو كخلق نفس واحدة، ذلك أن ما في عجائب الصنع في التركيب المادي للإنسان، وعالم العقل والإدراك، والربط بين المادي واللامادي، وعالم الروح الذي يتجاوز نطاق الحس. في ذلك دليل واضح على أن الذي أوجد نفسا واحدة جامعة لهذه النواحي كلها، لا يعجزه إيجاد جميع البشر، وأن ذلك ليس فيه بعد ولا استحالة. ويتبعه أن بعث النفوس بعد خلقها هو جار على ذلكم الميزان العقلي، الذي لا يستطيع إلا أن يقربه لجريانهما على نسق واحد.

إن الله كامل ومن صفات كماله أنـه سـميع بصـير، يعلـم خصـائص الجزئيـات علمـا دقيقا، فهو المقدر لكل حركة تنشأ عـن الإنسـان وكيـف تحـدث، ومـا ينبغـي أن يعـد لتحقيق ذلك، وهو لا يفوته أي جزء من تركيبـه فهـو يـراه رؤيـة لا يفوتـه بواسـطتها خلل .فينشئه أولا ثم إعادة بدون غفلـة عـن أي شـيء ممـا سـبق فـي تكوينـه الأول. فتبارك الله أحسن الخالقين.

29ـ ألم تر أن الله يولج...بما تعملون خبير.

احتجت الآية السابقة على إحياء البشر للبعث بعد المـوت، وقرَّبَتْـه للأذهـان. ثـم أخـذت هذه الآية ظاهرة من ظواهر الكون تتردد كل يـوم، وتـدخل تأثيراتهـا فـي حيـاة النـاس كلهم. كان عليهم أن يتأملوا فيها ولا يقفوا في حـدود الحـواس ومـا تنقلـه. لـذلك ابتـدأ الآية بسؤال إنكاري: ألم تعلموا أن تتابع الليل والنهار مـن خلـق الله ؟ ألـم تـر، خطـاب لكل من يصح منه الرؤية العلمية، ألم تعلم أيها الإنسـان أن الله يـولج الليـل فـي النهـار ويولج النهار في الليل. هي عملية عجيبة كيف يدخل القـادر الحكـيم ظلمـة الليـل التـي كانت تشمل الكون كله، فيدخل ذلك الظلام في ضوء النهـار، فمـا يـزال الضـوء يتغلـب شيئا فشيئا على سلطان الظلام حتى يذهبه ويشـرق الكـون بالضـوء، ثـم يـولج النهـار في الليل فيدخل فيه شيئا فشيئا حتى يعم الظلام، ويبتلع الكـون كلـه. فهمـت مـن ولـوج الليل في النهار أن الليل يدخل في النهار فيـذهب النهـار بظلامـه، وإن كـان هـذا الفهـم مخالفا لما فهمه من اطلعت على كلامهم من المفسرين، وبنيت فهمي هذا :

1)على أن الوالج مغطى بالمولوج فيه، فإذا قلنا ولج محمد فـي الـدار، فـإن محمـدا قـد احتوت عليه الدار، والدار هي الواضحة ومحمد كامن فيها .

و2)أن الله قدم الشمس على القمر، وهي كوكب نهاري فالتناسـق فـي الـنظم يـدعو إلـى أن تكون الظاهرة الأولى ذهاب الظلمـة بضـوء النهـار. إن واجـب الإنسـان أن يتأمـل في هذه الظاهرة الواضحة ليحصل له اليقـين أن التـأثير فـي الكـون كلـه علـى تقـدير منتظم بيد الله، وأنه كما خلق الإنسان فهو يميته ثم يحييه.

إن الكوكبين المنيرين الشمس والقمر، سخرهما فكل منهما يجري ويتحرك، ويستمر في هذا الجري والحركة إلى الأجل الذي قدره لتوقفها، فيتوقفان توقفا يحصل معه خراب العالم. جريانهما ترتبط به الحياة، ويؤثر كل منهما في كوكب الأرض، زيادة على الليل والنهار، اختلاف الفصول، وتغير مستويات الحرارة، والنبات والنضج للزروع والثمار، وحركة المد والجزر، وتأثيرات وتأثيرات بعضها وصل العلم لاكتشافه، وكثير ما يزال يدعو العلماء للدراسة والبحث للكشف عن القوانين الدقيقة التي أتقن الله عليها صنع العالم .

ثم، ألم يعلم البشر أن الله بما لفت إليه الأنظار من حكمته في الخلق، وتصرفه فيه بعد خلقه أنه عليم بما يصدر منهم، لا يفلت عنه فعل ظاهر، ولا قصد مبطن في الضمير. وهي قضية كبرى، فإذا كانت جهود العلماء تتحد لتفوز باكتشاف الحقائق الكونية، فإن ما تنطوي عليه نفسية كل فرد في هذا الوجود، وما يجري بخاطره، هو فعلا أعظم من سير الكواكب، وهو مجال لا يصل إليه العلم، وهو لله وحده.

30ـذلك بأن الله هو الحق. ..العلي الكبير.

استحضرت الآية ما تقدم في الآية السابقة وأشارت إليه، ووجهت الخطاب لكل شخص مشرك ليعلن بوضوح، ويقر بما ينبني عليه: إن التصرف في نظام الليل والنهار، وجريان الشمس والقمر إلى الأجل المحدد لهما مسبقا، يدل دلالة بينة على أن الله وحده هو الإله الحق بما له من الخالقية، والتصرف في المخلوق. وأن ما تدعون من دونه من الأصنام باطل، ليس لها من خصائص الألوهية شيء، فلا هي تخلق ولاهي تتصرف. وأن الله هو المقدس عن كل نقص، المتعالي في جلاله وكماله عما يظنه الجاحدون، وأنه هو الكبير عظيم الشأن لا تقاس عظمته بما يتصوره البشر من عظمة.

31ـ ألم تر أن الفلك...لكل صبار شكور.

من دلائل إحكام التقدير في هذا الكون، وتسخير الكون للإنسان، الفُلك التي تمخر عباب البحار، وتنقل السلع والبشر، وتصل بين أطراف الأرض. ما كان هذا ليتم لولا ما أودعه الله في البحر من قوة دفع قدرها تقديرا، ومن مواد صالحة إذا ركبت على هيئة مخصوصة أن تطفو على سطحه؛ ومن هداية البشر لتدرس القوانين والاستفادة منها والتأليف بينها، والتحكم فيها، فجريان الفلك في البحر ملتبس بنعمة الله . وحظ الإنسان في ذلك ضئيل جدا كما يظهر بأدنى تأمل. إنكم تشاهدون بأعينكم دلائل القدرة والتصرف المحكم. ولكن لا يبلغ النظر في ذلك ما يفتح

للبصيرة منافذ الإيمـان، إلا لمـن رزق صـبرا قويـا، صـبرا علـى ملابسـة الحيـاة، وصبرا على التأمل فيما ترمز إليه كـل ظـاهرة مـن الظـواهر، وصـبرا علـى طـرد الوساوس، وصبرا على البحث يطرد الكسـل العقلـي. ومـع ذلـك حملـه لـنفس طيبـة تدرك النعمة وتفي بواجـب المـنعم، فكلمـا تجـددت النعمـة انطلـق القلـب والجـوارح واللسان بالشكر. فكم من منعَم عليه تزيده النعمة كفرانا.

32ـ وإذا غشيهم موج كالظلل...كل ختار كفور

حركت الآية السابقة الأنظار لنعم الله في البحر، ونوهـت بكـل صـبار شـكور، تهديـه تلكم النعم وتعمـّق إيمانـه. وفـي المقابـل إذا هـاج البحـر وعلـت أمواجـه، وشـبهها بالسحب لارتفاعها واسودادها واضـطرابها "**كالظلـل**" وارتفعـت تلكـم الأمـواج مهـددة بالغرق والموت، فإن الضعف الإنساني في أوقات العجـز يبـرز الفطـرة ويرفـع عنهـا غشاوتها، في هذا الظرف يتحد كل الراكبين، مـن كـان مؤمنـا قبـل ذلـك، ومـن كـان كافرا، في التوجه إلى الله بالـدعاء لإنجـائهم. فتمـر فتـرة الشـدة علـى النفـوس وقـد تطهرت من الشرك وتوجهـت إلـى خالقهـا معترفـة بأنـه وحـده المتصـرف. ولكـن بمجرد ما ينجيهم وتهدأ العاصفة وتصـل السـفينة إلـى شـاطئ السـلامة، تـذوب تلـك الصورة الوضيئة النيـرة، ويفترقـون إلـى مقتصـد وإلـى غيـر مقتصـد. مـا المـراد بالمقتصد ؟ فسره معظم المفسرين: مـنهم غيـر متصـلب فـي الكفـر، مـا تـزال هـزة الخوف تلازمه من جانب، ولم ينصح إيمانه مـن جانـب آخـر، وبقيـت عـروق الكفـر تؤثر فيه. ومنهم متصلب في كفره كأنـه مـا دعـا ولا ارتجـى خائفـا مبـتهلا . ويُثنّـي على مواقفهم، بأنه ما يجحد بآيات الله منكرا لهـا، إلا كـل فاسـد طبـع غـدار للعهـود لا وفاء له، جاحد لنعم الله .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡ وَٱخۡشَوۡاْ يَوۡمٗا لَّا يَجۡزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوۡلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الخشية : الخوف، احذروا ما سيقع في ذلك اليوم .

يجزي والد: يقضي والد عن ولده. لا يقضي، ولا يدفع.

وعد الله : البعث.

الغرور: من يكثر من التغرير.

الدراية: هي العلم الحاصل بعد المعالجة والكد .

بيان المعنى الإجمالي :

دعوة موقظة من رب العباد تنتشلهم من غفلاتهم.

الأمر الأول : حصّنوا أنفسكم بالتقوى، لتكن صلتكم بربكم حية فاعلة في عقولكم وضمائركم.

الأمر الثاني : احذروا، وليكن الخوف ملازما لكم من أهوال اليوم الذي تتحدد فيه مسؤولية كل شخص بما قدم، فلا ينقذ الوالد ولده من كربه ومن جزاء عمله، وكذلك العكس فلا ينتفع الوالدان بمولودهما.

الأمر الثالث: اعلموا يا أيها الناس : أن وعد الله ثابت لا يتخلف، فلا تشغلكم الحياة الدنيا بمباهجها، فتقصروا همكم على ما تنالونه من متاعها الزائل عن قريب، وادفعوا عن أنفسكم ما يغركم به الشيطان وحزبه فيخيل لكم أن الساعة غير آتية، وأنها إن جاءت فإن الأصنام تدفع عنكم.

تفرد الله بعلم تاريخ انقضاء الكون، ومتى يبعث الناس من قبورهم. وهو الذي يتصرف في الكون فينشئ السحب ويسيرها إلى حيث يشاء من الأرض. لينزل منها الماء المحيي للزروع والأشجار. وهو المتفرد بعلم ما تحتضنه الأرحام من تاريخ تلقيح البييضة إلى يوم وضعه، في كل مرحلة من مراحل تكونه، وفي كل جزئية من جزئيات تركيبه البدني والنفسي. ولا يعلم الإنسان ما سيتعرض له في حياته فلا يدري ما ذا سيكون عليه نتائج نشاطه في غده، وهو جاهل بالوقت والمكان الذي ستقبض فيه روحه، وينتهي أمد حياته في الدنيا . تيقنوا أن الله سبحانه واسع العلم، لا يغيب عن علمه شيء، خبير يدرك تفاصيل ما يتعلق به العلم بوضوح لا مزيد عليه.

بيان المعنى العام :

33ـيا أيها الناس اتقوا...ولا يغرنكم بالله الغرور.

تتابع في السورة عرض الآيات ومظاهر القدرة، ولفت الأنظار إلى ما في الخلق من شواهد على تفرد الله بالحكمة والخلق والتدبير. واهتداء المتدبرين إلى الحق وفوزهم بالإيمان والحكمة، فتهيأت العقول لتخاطب بهذا النداء العام: يا أيها الناس شاملا للمؤمنين والكافرين، نداء رب رحيم يرضى لعباده الاستقامة، ويهديهم إلى طريق النجاة في حياتهم الدنيا والآخرة .دعاهم:

أولا: إلى تقوى الله. وتقوى الله أن تحصـن نفسـك مـن الضـلال والفسـاد والخسـران. وذلك بالعمل الصالح والبعـد عـن المنـاهي والآثـام. وممـا ييسـر التقـوى والالتـزام، الشعور بارتباطك بالله في كل لحظة، وأنـه مطلـع عليـك، وأن تحبـه حبـا يكـون لـك وازعا عن عصيانه.

وثانيا: الخوف مما يحدث يوم القيامة مـن أهـوال. فهـو ينـبههم إلـى أن يـوم القيامـة يجري على مقاييس تختلف تماما عن مقاييس الـدنيا، ففـي هـذا اليـوم لا يتحمـل الوالـد عن ولده شيئا مما هو مطالب به، ولا يدفع عنه ضـرا تأهـل لأن يصـاب بـه. إن رقـة الأبوين التي جرت عليها أعـراف الـدنيا، لا يكـون لهـا فـي هـذا اليـوم أي أثـر ولا اعتبار. وكذلك العكس فـالأولاد لا ينفعـون آبـاءهم بشـيء ولا يـدفعون عـنهم أذى. لا قليلا ولا كثيرا.

وثالثا: إن يوم القيامة آت لا ريب فيـه، فـلا تـذهب بكـم الشـكوك والاحتمـالات، ومـا يضللكم به الفاسقون، من استحالة عـود الأمـوات، بعـد أن تحللـت، إلـى الحيـاة مـن جديد. من أنه لم نشاهد في الكون أن فـردا بعـث إلـى الحيـاة بعـد المـوت. إيـاكم أن تتأثروا بتلكم الأوهام، وبمقاييس الحياة الدنيا التي أمرهـا مختلـف عـن الحيـاة الآخـرة. وإياكم أن تحجبكم الحياة الدنيا بزخارفهـا عـن الحيـاة الباقيـة فتغـركم وتصـرفون كـل همكم إليها، منصرفين عن جمال الطاعة.

رابعا: احذروا أن يغركم الشيطان، إنه قد التزم إضـلال مـن يسـتطيع إضـلاله، وإنـه لا يقصر في ذلك، يوسوس ويعيد الكرة حتـى يخمـد المقاومـة .كونـوا يقظـين لإغوائـه، أن يُطَمْئِنكم بأنه حتى لو وقع بعثكم فإن الأصنام تشفع لكم .

34-إن الله عنده علم الساعة....إن الله عليم خبير.

كان التنبيه والتحذير من أهوال يـوم القيامـة مسـجلا فـي الآيـة السـابقة بـأتم بيـان. وعنيت بذكره والتخويف منه، وهذا قد يجعل النفوس تتطلـع إلـى معرفـة الوقـت الـذي سيقوم فيه الناس لرب العالمين، فجاءت هذه الآية مؤكـدة أن علـم الوقـت المحـدد لقيـام الساعة عند الله وحده، لم يُطْلِع عليه أحدا. والسـاعة تتحـل إلـى فنـاء الحيـاة أولا، ثـم البعث بعد الفناء، كلاهما مما اختص الله بعلم الوقـت الـذي يحصـل فيـه. وبنـاء علـى ذلك فما يشيعه بعض العرافين بين الوقت والآخر أن فناء الـدنيا سـيكون يـوم كـذا، هـو كذب لا يصدقهم فيه المسـلم المـؤمن بكتـاب ربـه. وقـد كـان جـواب رسـول الله ﷺ لجبريل لما سأله متى السـاعة والصـحابة يشـهدون؟ مـا المسـؤول عنهـا بـأعلم مـن السائل. أي إننا (محمد وجبريل) نستوي في الجهل بها..

و ناسب أن يلحق بوقت الساعة الذي لا يعلمه على التحديد إلا الله، أن يلحق به أمورا أخرى لا يعلمها إلا الله:

1) التأثير في الكون تأثيرا ينشئ السحب، ويسيرها إلى الأرض المحددة التي سينزل منها الماء. كما أن بعث الحياة في الأموات لا يعلمه إلا الله وقتا وكيفية، فكذلك إنزال الغيث بتفاصيله من كمية ومكان، وتأثير في السحب لتتجمع الأسباب التي تلين بها فتروي الأرض وتحييها بيد الله وحده. نعم إن دراسة المنخفضات في الجو قد ترشد إلى توقع نزول الغيث، ولكن ليس هذا هو المقصود بالآية.

2) النّاحية الثالثة التي اختص الله بعلمها، هي علمه بما تكنه الأرحام، من الوقت الذي فيه تم التخصيب إلى الوقت الذي ينزل فيه الجنين حيا.

توقف بعض الناس فيما تدل عليه الآية بعد أن تقدم العلم، وأصبح في متناول الأطباء بواسطة الأجهزة الكاشفة أن يدققوا جنس الجنين، أذكر أو أنثى، وهو في بطن أمه. وهذا التوقف ناشئ عن قصور في التأمل في نص الآية، فالقرآن لم يقل: والله يعلم ما في الأرحام من ذكورة أو أنوثة، ولكنه عمم متعلق العلم، فشمل النواحي المادية، والنواحي العقلية والروحية

ففي النواحي المادية يشمل علم الله الخلية الملقحة في أول مراحل التلقيح وتطوراتها، وما ستؤول إليه من تطورها إلى بلوغها الأمد الذي تنزل فيه بشرا، أو سيقذفها الرحم قبل ذلك، وما هو الوقت المضبوط لأحد الفرضين. ويعلم سبحانه خصائص الجنين من لون البشرة والعينين والشعر، بل هو يعلم عدد شعرات الأهداب والحاجبين والرأس، وضبط طوله وطول يديه وصورة كل عضو من أعضائه، على وضعه الذي هو عليه في الرحم، والكوامن التي ستبدو مع تقدم العمر، ومئات الآلاف من الصور والاحتمالات التي لا يحيط بها إلا علم الله .وكونه ذكرا أو أنثى جانب تافه بجانب العلم الضخم لأحوال هذا الجنين وما هو مهيأ له. وسع ربي كل شيء علما.

3) الرابع والخامس مما استأثر الله بعلمة ما يجري على الإنسان، وهو يسعى في الأرض. فكل نفس بشرية تجهل أخص ما يتعلق بها في المستقبل. فهي وإن اهتمت وبذلت كل مجهوداتها ليحصل يقين بالأمرين التاليين، فإنها مقموعة لا تصل إلى معرفته ؛ فلنحلل هذين الأمرين:

تجد البشر المنَظَّمين في حياتهم، يرتبون لكل يوم الأعمال التي سيقومون بها، ولا يهمنا الفوضويين، فهم لا صلة بينهم وبين التخطيط. ورغم ما خططوه ورتبوه فليس لهم يقين بما سيكسبون في المستقبل من نجح أو خسارة، من إنجاز أومن

حصول معوقات تحول بينهم وبين مـا خططـوا لــه، ولا هـم علــى يقــين مــن مقــدار الكسب. والأمر كذلك فيما يســعدهم بــه ربهــم مــن التوفيــق أو يحجبــه عــنهم لتكــون أعمالهم صالحة أو سيئة. فظهر بــذلك محدوديــة علــم الإنســان بالمغيــب فــي أخــص خصائصـــه: كســبه، وكــذلك الأمــر تجــد النــاس يخططــون للمســتقبل، فيزرعــون، ويغرسون، ويبنون، ويقيمون المصــانع، ويمضــون الاتفاقيــات للتــرويج ومــع ذلــك، فلا أحد منهم يدري هل يعمــر مــا بنــى وهــل يحصــد مــا زرع، وهــل يجنــي ثمــار غرسه، وهل ينفذ اتفاقياته ويحصل على الربح، أو يموت قبــل أن يحقــق مــا أعــد. ومــا هو المكان الذي ســيقبض فيــه ملــك المــوت روحــه ؟ فقــدرة الإنســان علــى كشــف المستقبل ضعيفة إلى هذا الحد؛ فكيف يتساءل عــن موعــد يــوم القيامــة، ويجــادل فيــه ويرغب في معرفته ؟

إن الله هو وحده العليم بالماضــي والحاضــر والمســتقبل، الــذي لا تغيــب عــن علمــه دقيقة في الأرض ولا في السماء، لا في حاضرها ولا في تطوراتها.

يوم الاثنين22 ربيع الثاني 4مارس2013

سـورة السّجـدة

هذا هو أشهر أسمائها، وهو المكتوب في السطر الأول المعرف بها في المصاحف. وسميت في صحيح البخاري (ألم تنزيل السجدة) عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ يوم الجمعة في صلاة الفجر (ألم تنزيل السجدة). وتسمى أيضا سورة المضاجع، أخذا من الآية 16: **تتجافى جنوبهم عن المضاجع** . وهي سورة مكية رتبتها حسب ترتيب المصحف الثانية والثلاثون. وحسب ترتيب النزول عدت الثالثة والسبعين نزلت قبل سورة نوح، تالية لسورة النحل.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ
هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ
ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا
لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى
ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ
ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ
ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ
مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا ريب فيه : لاشك في كونه منزلا من عند الله.

افتراه : اختلقه من عنده لا أصل له.

ولي: نصير ومدافع.

الشفيع: الوسيط لدفع ضر أو جلب نفع.

تتفكرون : تتدبرون.

يدبر الأمر : يتقنه اتقان من يعلم عواقبه.

العروج : الصعود، صائرة إليه ليتصرف فيها.
نسله : الأولاد، وما يلدون .
سلالة: ما انتزع من الشيء برفق. الحيوان المنوي.
مهين : لا يعبأ به.
التسوية :التقويم.
نفخ :أفاض اروح في الجسد.
بيان المعنى الإجمالي :
افتتحت السورة بالحروف التي يقرأ كل حرف منها منفصلا. وحقق القرآن بعد ذلك أنه لاشك في كونه منزلا من رب العالمين هداية لهم. وانصرف بعد ذكر هذه الحقيقة ليسجل على المشركين جراءتهم وعنادهم؛ فقالوا: إن محمدا افترى هذا الكتاب واختلقه من عنده. كذبوا فيما ادعوا، فإنه الحق الذي لا يأتيه الباطل، منزل عليك من ربك، يهدف إلى إنذار قوم مرت عليهم الأحقاب دون أن يأتيهم نذير، من قبلك، ينذرهم ليحصنوا أنفسهم من الخسران في الدارين. رجاء أن يهتدوا بما تبين لهم مما يوقظهم إلى سوء العاقبة إن هم لم يتبعوا هدايتك.
تعالى الله، هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما وما فيهما من كائنات في ستة أيام. خلقا متصفا بالحكمة، ولم يهمل ما خلقه بل سيرهما مراقبا لما يجري فيها، نافذةّ إرادته في كل جزئية من جزئياتها. لا تجدون نصيرا ينصركم، ولا شفيعا يحول بينكم وبين تنفيذ حكمه، إذا تركَكم لذواتكم. فما لكم لا تتعمقون في الواقع تعمقًا يكشف لكم الحقائق.
سبحانه ينفذ حكمه وتقديره في الكون كله من السماء بعوالمها، إلى الأرض التي تعيشون على ظهرها . ثم ترفع إلى جلالته ما يسجّله الملائكة الموكلون بذلك .يتم ذلك في يوم مقدار ألف سنة من السنين التي تعدونها. والألف يصور نهاية العدد عند الناس دون أن يكون الألف المنتهى، بل هو للكثرة.
إن الله هو المتفرد بعلم ما ظهر وما غاب عن إدراك البشر، لا يعاكَسُ في تنفيذ إرادته، وهو الرحيم بعباده. هو الذي خلق كل شيء فأعطاه قوانينه التي بها يتابع مسيرته في الحياة. ثم اختار الصورة المثلى، وهي خلق الإنسان، فنوه بها وفصلها.
ابتدأ خلق الإنسان من الطين بصورة واضحة في آدم عليه السلام، ثم قدر أن يكون نسل الإنسان من وحدة مأخوذة من مائه الذي في حد ذاته مهين لا قيمة له، إذ يعمل الإنسان على تطهير بدنه وثوبه منه. ثم كان محل عنايته فبلغ به حد الكمال الخِلْقي، وأكرمه فسرى بحسن تقديره في جسمه القوة الروحية، ومكن الإنسان من إدراك المسموعات والمبصرات، وغرس فيه المشاعر وقوة الإدراك والتوليد.. ورغم ذلك

فالشاكرون من البشر قلة. والشـاكرون لا يواصـلون الشـكر بمقـدار مـا يصـلهم مـن نعمه.

بيان المعنى العام :

1ـألم.

يقال في فاتحة هذه السورة ما أثبتناه في سـورة البقـرة ومـا تلاهـا مـن السـور التـي افتتحت بحروف تقرأ مقطعة.

2ـتنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين.

طرفا هـذه الآيـة المفتـتح بهـا 1 المبتـدأ – تنزيـل الكتـاب. 2 الخبـر – مـن رب العالمين. وما توسط بينهما "لا ريب فيه" صفة للكتاب.

نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ فـي مكـة، ومعظـم أهلهـا مصـمم علـى الكفـر رافض لكون القرآن من عند الله وحيا إلى رسـوله، وهـي نظيـرة فاتحـة سـورة البقـرة "**ألم ذلك الكتاب** " واختلف الأسلوب مراعاة لحال المخـاطبين. سـورة البقـرة نزلـت فـي المدينة في مجتمع مؤمن، القرآن إمامُهم مُمَيَّـز عنـدهم فلـذلك أشـير إليـه "**ذلـك** "وهـو معلوم لديهم أنه من كلام الله. وأما المجتمع المكـي فـإن الغـرض الأول هـو تثبيـت أن القرآن منزل أوحى الله به لرسوله. فهما أمران اهـتم القـرآن بتثبيتهمـا "**تنزيـل**" و" **مـن رب العالمين**" ثم أكد صدقه بنفي الريب والشـك أن يلحقـه. وذلـك اسـتنادا إلـى طبيعـة نظمه وخصائصه التي تحدى بها المشـركين فـأعجزهم، فـانتفى بـذلك أن يلحقـه شـك في كونه موحى به. ونظر إلى المرسل إليه الحامل له والمبلـغ لآياتـه، تبعـا لمـا عـرف به من الصدق ومن الاستقامة والأمانة، فانتفى عنـه الكـذب، وتحقـق أنـه منـزل وحيـا إليه. فنفي الشك عنه حسب طبيعتـه. وأمـا شـك المشـركين فيـه فهوشـك مـن فسـاد أنفسهم، إذ هم بين متيقن صدقه في نفسه، ولكن حظوظـه الدنيويـة منعتـه مـن الإقـرار، وبين مقلد شك فيه لا عن نظـر ولكـن عـن تقليـد. فالعيـب الـذي تبعـه الشـك فـي الناظرين لا في موضوع النظر الذي هو القرآن.

3ـأم يقولون افتراه...لعلهم يهتدون.

انتقال من وصف القرآن بانتفاء الشك فيـه، إلـى موقـف المشـركين منـه، أبـرزه فـي صورة التعجب. عجب منهم أن يقولوا وما كان مـن حقهـم أن يقولـوا ذلـك لـو كـانوا يعقلون، قالوا: إنه كلام لا أصل له اختلقه محمـد وزوره مـن عنـده! مـع أنهـم عجـزوا عن الآتيان بسورة من مثله لما تحداهم. وعلموا وصرحوا بأن محمدا هو الأمين.

أضرب القرآن عن متابعة تسـجيل بـاطلهم تعجـيلا بإظهـار الحقيقـة التـي نفوهـا. إن القرآن الذي أنزل إليك هو الحق الخالص لا حـق غيـره، لا صـلة بينـه وبـين الباطـل

حتى يرتاب فيه شاك. وهو أكمل حق لأنه نزل عليك يا محمد من ربك الذي رعاك فهيأك لتحمل الحق منه وإبلاغه. لقد اخترتك يا محمد لتنذر قوما صاحبهم الضلال أمادا طويلة، لم يأتهم رسول قبلك ينذرهم سوء العاقبة إذا هم أشركوا بالله، ولم يستقيموا في علاقاتهم مع الكون ومع أمثالهم. ومما ينبغي أن ينتبه إليه، أن الإسلام دين عام للبشرية موحد لها، فمعنى كونه نذيرا للعرب الذين لم يأتهم رسول قبل محمد عليه الصلاة والسلام ينذرهم، أنهم أنذروا ليستقيموا وينفذوا ما بلغهم رسوله من الدعوة إلى دين الله، وليتحملوا شرف تبليغ ما أنزل إليهم، الذي يتبعه أولا: الأجر على الاهتداء به " لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم " وثانيا ما يحق للهادي من تقدير وتكريم. إنه بفضل الإسلام والقرآن تحول العرب من قبائل متناحرة، إلى أمة نالت زعامة العالم قرونا، واختصت بأن ما حملته من الهداية لم يحرَّف، ولم يتغير عن الصورة التي نزل بها لا في قليل ولا كثير. فحق أن يكون هذا المنزل يصحبه رجاء الاهتداء به خاصا وعاما.

4- الله الذي خلق السماوات والأرض...أفلا تذكرون.

ثبت لله سبحانه ما اختص به من العظمة والعزة، فانتفي عن الأصنام الأذلاء صفة الألوهية. الله الجليل: من عظمته أنه خلق السماوات والأرض وما بين السماوات والأرض من فضاءات لا يعلم مقدار أبعادها إلا هو. خلقها في ستة أيام. ما المراد بالأيام الستة ؟ من التحريفات التي أدخلت في التوراة: أن الله بدأ الخلق يوم الأحد، وانتهى منه يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، وهو من ضلالاتهم التي تقوم شاهدا على أن التوراة التي بين أيديهم لا ثقة بها. ذلك أنه ما تحقق وجود أيام الأسبوع إلا بعد خلق السموات والأرض ودوران الأرض حول نفسها في فلكها التي تسير فيه. فكيف يكون التقدير بشيء لم يخلق بعد؟ وسرى هذا التصور بل الوهم المناقض للحقيقة والمعقول إلى عدد غير قليل من المفسرين. وسُجِّلَتْ اختلافات: هل إن الله خلق آدم يوم الجمعة، وهل إن بداية الخلق كانت يوم الأحد أو يوم السبت؟ الذي ينبغي أن يفهم من الآية أن الله خلق الكون خلقا مر بأطوار، في أزمنة طويلة. قال تعالى: **وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون)**[1] ومرتبة أعلى من خلق السماوات والأرض تسييرها والتحكم فيها وتطويعها لإرادته فلا تخرج عن النظام الذي قدره لها.

---

[1] سورة الحج آية 47

إن الله الذي خلق السماوات والأرض وسـخرها مملوكـة لجلالـه لا تخـرج عمـا قـدره لها، لا أحد غيره متصف بالعز أيهـا المشـركون حتـى يسـتطيع أن ينصـركم أو يشـفع لكم، أو يحُول بينكم وبين ما يصيبكم أو مـا أنـتم مؤهلـون لـه. مـالكم لا تتـدبرون ولا تُعْمِلون عقولكم لتتبين لكم الحقيقة؟

5.يدبر الأمر....ألف سنة مما تعدون.

اختص سبحانه بأنه لمـا خلـق السـماء والأرض ومـا بينهمـا لـم يتركهمـا للمصـادفة والتقلبات العشوائية، ولكنه سبحانه أتقن كل جزئيـة وكـل كـائن، ونظـم بإحكـام صـلته بغيره، وانتظامه في الوجود معه . ليسير الجميع فـي موكـب واحـد علـى نظـام دقيـق لا يختلف شأن مجرة مـن المجـرات عـن أي ذرة ظـاهرة أو خفيـة. ولا يغيـب عنـه استجابة المتقين الصـالحين، ولا تمـرد الكـافرين والمفسـدين. فهـذا الجانـب التقـديري الذي وسعه علم ربنا، ورتب الأسباب، وما يتولد عنها من مسببات.

وبجانب التقدير الأول للكون وما يجري فيه، فإنـه سـبحانه لـم يهمـل مـا خلقـه بعـد ذلك، فإنه يرفع إليه أمر ما يتحقق في الوجود .ولـيس الرفـع رفعـا ماديـا، ولكـن مـا يجري في الخلق، وما تدونه الملائكة الموكل لهـم متابعـة التطـورات والأفعـال، يُقـدَّم إليه من الموكَّلين .كما يقال حسب العـرف اللغـوي المراعـى فيـه الأدب، رفـع الأمـر الفلانـي إلـى القاضـي أو إلـى رئـيس الجمهوريـة. علـى معنـى أن القضـية تمـت إجراءاتها، وعرضت على المقام العالي في القضـاء، أو فـي المنصـب السياسـي . فهـو رفع معنوي لا رفع مكاني. وتنص الآية على أن هذا الرفع يـتم فـي يـوم كـان مقـداره ألف سنة مما تعدون. ولما عرضت الآيـة شـأنا مـن شـؤون الخـالق القـديم الأبـدي المتضمن، رفع تحقق ما تحقق على النحو المقـدر مقـدما، فـإن تصـوره علـى التـدقيق بواسطة التأويل، لا أراه مستقيما، فأقول : الذي أفهمـه مـن الآيـة أن الله لا تخفـى عليـه خافية من حوادث الكـون، أو أفعـال المكلفـين، وأن هـذا العـرض علـى جلالـه مـن ملائكته يرفع إليه تباعا ويصل إلـى علمـه بمجـرد مـا يحـدث، فيكـون مجمـوع مـا يعرض عليه مستغرقا لألف سنة حسب حسـابكم. ولمـا كـان الألـف هـو نهايـة العـدد فهو يطلق على الكثرة غير المحـدودة بوحـدات الألـف. فعلمـه أزلـي أبـدي، وعمـل الملائكة رصد ما هو خفي عـنهم قبـل حدوثـه، وتسـجيله عنـد حدوثـه، ورفعـه إلـى جلاله لا ليفيده علما، ولكن الحكمة اقتضته. وهو مـن المغيبـات التـي لا نتجـاوز فيهـا ما يدل عليه النص القرآنـي، إذ الإضـافات إسـقاط مـن المخلـوق النـاقص المحـدود على شؤون الخالق الكامل المنزه أن تحيط به حدود.

6ـ ذلك عالم الغيب و الشهادة العزيز الرحيم.

ذلك، المشار إليه الحاضر الذي لا يغيب، هو المتفرد بعلم ما غاب عن علم المخلوقات، وما هو حاضر مشاهد لهم. فذكر الشهادة بجانب الغيب إشارة إلى أنهما سواء بالنسبة للذات الإلهية، فعلمه بما يجري على الكائن في المستقبل لا يختلف عن علمه بما حدث وصدر للوجود . يدل دخول كل الكائنات تحت قدرته وخلقه على عزته، وعدم حاجته لعون من أي كان، ولا يحول بينه وبين تنفيذ إرادته أي حائل. وتظهر رحمته في أنه يجزي أفضل مما عمله العامل الصالح، ولا يعاجل بالعقوبة، فرحمته تشمل الصالحين وغيرهم.

7←9: الذي أحسن كل شيء ...قليلا ما تشكرون.

تتابع ذكر ما يختص به الله مما هو من مقتضيات الألوهية المتصفة بالعزة. إنه وحده الخالق، وكل ما خلقه لا يعاكسه بل ينقاد إليه، وأودع فيه من القوانين التي كان بها على أكمل وجه في جنسه ونوعه. إن قوانين الخلق الثابتة هي التي مكنت الإنسان من معرفة ما تيسر له من أسرار الخلق، ولو كان الخلق فوضويا بدون نظام وبدون قواعد مضبوطة، ما استطاع الإنسان أن يحقق الخلافة التي أوكلت إليه. فأول مراتب إحسان الخلق هو النظام. ثم إنك تجد في كل نوع ما يستطيع أن يواصل به الحياة ويدافع عن نفسه، ويحفظ استمرار نوعه بالتوالد؛ وهي جوانب ما زال العلم يكتشفها شيئا فشيئا، وكلما تقدم في المعرفة تأكد لدى الباحث والمتابع تفرد الله بالخلق والتدبير.

وتخلص القرآن من هذا الحديث العام إلى الإنسان، فتابع الصنع العجيب فيه .

أولا : خلقه من طين، إن تحول الطين إلى الإنسان السوي، الذي لا تستطيع أن تتأمل في بعض أجزاء خلقه حتى تعترف بحسن الخلق الدال على الخالق العظيم. انظر إلى العيون مثلا في أشكالها، وألوانها، وأهدابها، ونفاذها إلى عمق الناظر والمنظور، وتجاوز ذلك إلى التركيب المادي، لها، الذي ما يزال الطب يواصل اكتشافاته وما يزال بعيدا عن اليوم الذي يقول فيه: أدركت كل الأسرار. كيف تحول الطين إلى الإنسان الذي تشكل أولا في آدم إلى ذلك الصنع العجيب في كل جزء من أجزاء التركيب الإنساني ؟

ومرتبة أخرى فوق ذلك: إن تواصل الوجود الإنساني، وخلف الأجيال لبعضها تم بما انسل وانتزع من الماء الذي يفرزه الذكر فيفوز واحد من بين مائتي مليون يقذفها الذكر في كل دفقة، بالاستقرار في البييضة التي تفرزها المرأة فيخصبها. هذه هي السلالة المأخوذة برفق من الماء المهين، الذي لا يصان ولا يحتفظ به،

ويقوم الإنسان على تخليص ثيابه وبدنه من التلوث به. فأي فرق بين وضع المخصّب الذي هو مبدأ الإنسان الجميل المكرم، وبين باقي الماء الملوث الذي يتطهر منه ؟

ثم بعد مرحلة التلقيح أتم خلقه بتطورات عجيبة، يظهر في كل طور ما هو كامن فيه إلى أن يتخلله ذلك السر الذي يصبح به قابلا للمعرفة، ومجاوزة المحسوس إلى المجردات مما هو وراء المادة. عبر القرآن عن هذه الطاقة المنبثة في الإنسان بقوله تعالى: **ونفخت فيه من روحي**- ظلال هذا التعبير أن القدرة الإلهية تجعل الروح سارية في الإنسان مع لطف بالغ، سريان الهواء عند ما ينفخه النافخ. وهو تصوير بديع يقرب المفهوم إلى الإدراك البشري، فإن الروح من أمر ربي، هو الذي يعلم كنهها. فمعنى من روحي: أي من الروح التي هي ملكي. كقوله رزقي، وليحذر التالي أن يظن أن الروح جزء إلهي، فالله سبحانه منزه عن التجزؤ.

وعطف القرآن على نفخ الروح أنه قدر أن يمكن الإنسان من قوى الإحساس التي تصله بالعالم الخارجي: السمع والبصر، وكذلك القدرة على استخلاص المفاهيم من المحسوسات، والمشاعر التي تجمع بين الفعل والانفعال في العلاقات.

وختمت الآية بالتنبيه إلى أن هذه النعم المتتابعة، والمتجددة التي بها سما الإنسان عن بقية الحيوانات، تفرض عليه أن يكون مواصلا لشكر المُنْعِم سبحانه، ولكن المعترفين بفضل الله قلة، كما جاء في قوله تعال : **وقليل من عبادي الشكور)**[1] كما أن بعض الشاكرين مقصر في القيام بشكر المنعم قولا وعملا.

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ إِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَـٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَـٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَآ إِنَّا نَسِينَـٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

---

[1] سورة سبأ آية 13

بيان معاني الألفاظ:

ضللنا في الأرض :دخلنا في تركيب الأرض فتلفنا فيه وأصبحنا أجزاء لا تعرف.

جديد : المحدث.

التوفي : الإماتة.

المجرمون : الكافرون.

ناكسوا رؤوسهم: مطأطأة مما ينبئ بما هم عليهم من الذل .

الجِنة بكسر الجيم: الشياطين من الجن.

ذوقوا: تعذبوا عذابا يقارنه شدة الإحساس به.

النسيان : الأول بمعنى الإهمال. والثاني بمعنى الحرمان من العفو والكرامة.

بيان المعنى الإجمالي :

تسجيل لضلال الكافرين بعد أن أقام عليهم الأدلة المقنعة بقدرة الله وإحكامه للخلق. بعد كل ذلك عوض أن يدخلوا في جماعة الإيمان، أعلنوا أن ما سمعوه لا يقبلونه، ولا يصدقونه. كيف يعودون إلى الحياة من جديد بعد أن تتحلل أجسامهم في الأرض فتضيع فيها. إضراب عن كلامهم وطرح له، فالحقيقة أنهم متصلبون في الكفر، جاحدون للبعث جحدا لا تهديهم الأدلة. قل لهم: إن الحكمة التي بنيت عليها شؤون البشر: أن الله وكل بكل نفس ملك الموت الذي ينتزع كل روح من صاحبها، ثم يعيدها إليه عند البعث.

ومشهد فظيع لو تراه أيها الإنسان، مشهد الكافرين وقد نزل عليهم الذل والصغار فتدلت رؤوسهم على صدورهم، تحت سلطان ربهم، يقولون ربنا : إننا تحققنا ما كنا نشك فيه، رأيناه وسمعناه، فزال كل شك من نفوسنا وحل اليقين بصدق الرسول وبصدق يوم البعث، فارجعنا ربنا إلى الحياة الدنيا حتى نحيا حياة استقامة وصلاح.

اعلموا أن حكمتي اقتضت أن أخلق البشر ليعمروا الأرض، ومكنتهم من العقل، ثبّتُ فيهم الغرائز، وأعنتهم على الهدى بالرسل المبلغين والمبينين. ولم نخلقهم مقسورين على الخير، بل هم مختارون مسؤولون مجزيون. وبذلك يتحقق لكل فريق مآله، فللجنة أهلها، وتمتلئ جهنم بالكافرين الفسقة من الإنس والجن.

ويتوجه الخطاب بعد ذلك إلى أولئك الداعين للعودة إلى الحياة الدنيا، يقال لهم خطاب مهانة: واصلوا الإحساس الشديد بالعذاب، بسبب إهمالكم الاستعداد ليوم القيامة. فقد حرمتكم من رحمتي حرمان الشيء المنسي المهمل . ذوقوا عذاب موصولا أبديا لا يرفع عنكم، بسبب ما كنتم تعملون في الدنيا.

بيان المعنى العام :

10ـ وقالوا أئذا ضللنا...بل هم بلقاء ربهم كافرون.

بعد أن بينت الآيات السابقة دلائل التصرف الإلهي المحكم في الكون، وفي الإنسان الذي يرفع غشاوة الضلالات، ويدفع الكفر، فإن مما يتعجب منه أن الكافرين تصلبوا في كفرهم، كأنهم لم يسمعوا تلك الأدلة البينة، وقالوا: عجبا لما استمعنا إليه! إنا إذا متنا وتحللت أبداننا أجزاء، وتداخلت في الأرض بصفة لا يمكن أن تتميز، أن نعود والحالة هذه إلى الحياة، فنخلق خلقا جديدا.

لنتحول عن كلامهم وما قالوه، فإن إنكارهم للبعث ليس ناشئا عن دليل، ولكن الداء الذي أفسد تفكيرهم، وبالتالي جميع استنتاجاتهم : أنهم مصممون على الكفر جاحدون جحودا لا خروج منه للبعث ولقاء الله يوم القيامة.

11ـ قل يتوفاكم ملك الموت...إلى ربكم ترجعون.

تعجبوا من بعث الأجساد بعد تحللها وضياعها في التراب، فأمر النبي ﷺ أن يجيبهم؛ قل لهم يا محمد: إن نهاية حياتكم ليست كما تظنون أن الإنسان يتحول من الحياة إلى الموت لينتهي من الوجود. إن تصوركم هذا تصور خاطئ؛ الموت مرحلة قدرها الله تقديرا دقيقا، ووكل ملك الموت بقبض روح ابن آدم. ولما كان الموت ليس ضياعا، ولكنه انتقال الروح من جسم ابن آدم إلى الملك الذي يحتفظ بها إلى الأجل، فإنه يعيدها للجسم الذي أخذها منه لتعودوا إلى ربكم، فيجزيكم عما قدمتم.

12ـ ولو ترى إذ المجرمون...إنا موقنون.

منظر رهيب، معروض يراه كل راء ويبصره كل مبصر، هو مشهد الكافرين المكذبين، وقد نكست رؤوسهم فتدلت أذقانهم على صدورهم من الذل والخزي .تحت سلطان ربهم وقد سلبوا كل قدرة واختيار. لا تسمع منهم إلا كلاما واحدا يعبر عن الندامة والاعتراف، يقولون: ربنا أبصرنا أن كل ما وعدنا به الرسول حق، وأن البعث حق وإنكارنا له ضلال، وأن الرسول صدقنا ما أنذرنا به. وسمعنا من التقريع، ومن ندامة أمثالنا على ما فرطوا في دنياهم. ربنا إنه حصل لنا اليقين بأنك حق وأن البعث حق، وأن رسولك صادق في كل ما أخبر به، ندعوك أن ترجعنا إلى الحياة لنظهر ما نحن موقنون به، ونقلع عن الكفر والعناد.

13ـ ولو شئنا لأتينا كل نفس...والناس أجمعين.

بعد أن عرض في الآية السابقة مشهد المجرمين النادمين الداعين للعودة إلى الحياة ليعملوا صالحا. أعقب ذلك بهذه الآية التي تفيد التقدير الإلهي الحكيم في خلق

البشر. إنه سبحانه لم يخلق البشر مضطرين إلـى فعـل الخيـر منصـرفين عـن الشـر من ذواتهم، أو من الأدلة الملجئة، ولكن حكمتـه تعلقـت بتمكـين الإنسـان مـن عمـارة الأرض، مستعينا في ذلك بما رزقه من قوى العقـل، والمشـاعر، ومـا غرسـه فيـه مـن غرائز. ثم أعانه على الاستقامة وطرد الشبه، والتعرف على مـا هـو مغيـب عنـه ممـا لا يصل إليه بقواه العقلية وحـدها، أعانـه بإرسـال رسـله بالبينـات والهـدى. وجعلـه مكلفا باتباع الخير والابتعاد عن الشر مجزيا عن فعلـه الـذي أقـدم عليـه باختيـاره. فلـم يحمله بالقوة على الخير، ولم يصرفه بـالقوة عـن الشـر. هـذه إرادة الله ومشـيئته التـي خلق عليها الخلق. وقدر بحكمته أن يكون مـآل المسـتقيمين فـي العقيـدة والسـلوك إلـى دار الكرامة الموافقة للطهارة التي كـانوا عليهـا. كمـا قـدَّر أن يكـون مـآل الكـافرين الفاسقين من الجِنةِ والناس إلى مقر العـذاب والمهانـة المناسـب لمـا كـانوا عليـه فـي الدنيا من الشر والفساد.

14ـ فذوقوا بما نسيتم لقاء...بما كنتم تعملون.

بعد أن قررت الآية السابقة ما بنى عليه خلق الإنسان مـن التكليـف، ومـن إعانتـه علـى الهدى، وما انتهى إليه كل ذلـك مـن المسـؤولية، اتجـه إلـى مخاطبـة الكفـار الأذلاء الطامعين في العودة إلى الحياة الدنيا. أجابهم عـن دعـائهم العـودة إلـى الـدنيا فأسـمعهم جوابا ما كانوا ينتظرونـه: تحملـوا أشـد أنـواع الإحسـاس إيلامـا "ذوقـوا" بسـبب إهمالكم التفكير في ملاقاتكم هـذا اليـوم، فاطمـأننتم إلـى عـدم تحققـه. إنـا أهملنـاكم وحرمناكم من رحمتنا. وأعلنت الآية ما يترتب علـى حرمـانهم مـن الرحمـة حرمـان من يُهمل فلا يُتذكر. واصلوا تحمل ما يسلط علـيكم مـن عـذاب لا يرفـع عـنكم أبـدا، وذلك جزاء وفاق لما كنتم تعملون في الدنيا، ولما اخترتموه من منهج حياة.

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَلَهُمْ جَنَّـٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟

عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ
دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ
أَعْرَضَ عَنْهَآ ۚ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

خروا: هووا من وضعهم نحو الأرض.

سجدا: بوضع الجبهة على الأرض.

المضاجع : موضع الاضطجاع.

الفاسق : في الآية والكافر.

المأوى : المكان الذي سيعودون إليه في الآخرة .

نزلا: النزل ما يقدم للضيف من القرى .

بيان المعنى الإجمالي :

نوه القرآن بالذين آمنوا بآياته وعرض خصائصهم:

1) إن تأثرهم كبير عند ما يذكرون بآيات القرآن، يصل بهم التأثر أن يخروا على الأرض ساجدين لله.

2) تطهرت نفوسهم من داء الكبر.

3). يتركون مضاجع نومهم ويستيقظون للتقرب إلى ربهم بقيام الليل.

4) يبتهلون إلى ربهم خائفين من أن يكونوا مقصرين، طامعين في عفوه.

5) يُقْبلون على الصدقات والإنفاق فيما شرعه، شاعرين بأن ما رزقوه هو من فضل الله.

إن جزاءهم يتجاوز الوصف، ولا يستطيع الإنسان أن يتصوره، إذ كل ما يتصوره الإنسان مؤلف من مشاهداته في الدنيا، وحتى ما يتخيله هو مستخرج منها، وهي مبنية على النقص، والنعيم الأخروي على الكمال. بكلمة واحدة يبلغون درجة الرضا عما جازاهم به ربهم.

لا يستوي المؤمنون والكفرة الفاسقون. ويظهر الفرق بينهم:

أن الذين آمنوا بربهم وبرسوله وباليوم الآخر، وعملوا الصالحات ملتزمين شرع الله، يستحقون أن تكون الجنات مآلهم يوم القيامة، وهي التقدمة الكريمة التي أعدها الله لهم، وهم نزلاء رحمته فتبلغ كرامته لهم أن يغرس فيهم الإحساس بأن ما لاقوه هو جزاء حسن صنيعهم في الدنيا. وأما الذين فسقوا فإن مأواهم النار اللاهبة، مما يزيد في النكال بهم، إنهم كلما خيل إليهم أنهم خارجون منها تقمعهم الملائكة

فتعيدهم إلى شر ما كانوا عليه، ويقال لهم: هذه النار التي تحرقكم هي النار التي كنتم تكذبون الرسل إذا أنذروكم بها .

وسنسلط عليهم في الدنيا عذابا قبل عذاب يوم القيامة، لعلهم يتعظون به ويعودون إلى الإيمان. إنه لا ظلم أشد وأقبح من ظلم الذي ذكّره الرسول بآيات ربه فلم يعد إلى الحق، بل أعرض عنها كأنه لم يسمعها. إنه مجرم وإنا سننتقم من المجرمين.

بيان المعنى العام :

15-إنما يؤمن بآياتنا ...وهم لا يستكبرون.

تابع القرآن في الآيات السابقة مواقف الكافرين من الهدى، وكشف مستحضرا مآلهم وما يلقونه من عذاب ومهانة. وشأن القرآن أن يقرن بين آيات الإنذار بالعذاب، وبين آيات البشارة بالنعيم والتكريم. فابتدأ هذا القسم الثاني بتشخيص المؤمنين، وحصرهم حصرا ينوه بهم، ويعرف بمزاياهم .

أولا: أنهم إذا وقع تذكيرهم بما أنزله الله من آيات القرآن، وجدوا من قوة التأثر بما سمعوا أنهم يخرون ساجدين لله. فكلما أعيد على مسامعهم تلاوة آيات القرآن أشرقت أنواره في قلوبهم، كأنهم سمعوه لأول مرة، ويقرنون لوضع جباههم على الأرض تذللا وتقربا، انطلاق ألسنتهم بالتسبيح والتنزيه، والثناء على الله بما أنعم عليهم، من إنزال وحيه لهدايتهم. ثم أثنى عليهم بأنهم تطهروا من رجس الاستكبار، فلانوا لذكر الله، على خلاف الكافرين في مقابلتهم آيات الله بالإعراض، والاستكبار عن قبولها.

تنبيـــه :هذا موضع سجدة يظهر به المؤمنون أنهم على سنن الصحابة المنوه بهم.

16-تتجافى جنوبهم عن المضاجع...ومما رزقناهم ينفقون.

ثانيا: الصفة الثانية للمؤمنين المنوَّهِ بهم، أنهم يستيقظون أثناء الليل، ويفزون من مضاجعهم التي أخلدوا فيها إلى النوم، بتوجهون إلى ربهم بصلاة الليل، خائفين أن يكونوا قصروا فيما يجب عليهم نحو خالقهم من العبادة والتقديس، قارنين الخوف بالرجاء والطمع في عفوه ومغفرته ورضوانه ..

ثالثا: يستهينون بالمال في سبيل مرضاته فهم ينفقونه في التوسعة على المحتاجين وفي الأبواب التي شرعها لهم مستشعرين أن الرزق هو رزقه تفضل عليهم بما أتاهم منه.

17- فلا تعلم نفس ما أخفي...جزاء بما كانوا يعملون.

وكما عرف القرآن بما ينتظره الكافرون من المهانة والعذاب (وترى المجرمون...) بشرت هذه الآية المؤمنين بأن ما أعده الله لهم من النعيم والكرامة

المادية والروحية، يتجاوز التصور البشري، الــذي غايــة مــا يرســمه هــو حاصــل مــا يستخلصه من مشاهداته ومن تخيلاتــه المنتزعــة مــن المشــاهد. ألمــح القــرآن إلــى أن نعيم الآخرة هو أمر آخر لا تصل أي نفس لكشفه فــي الــدنيا، خفــي علــيهم لأنــه فــوق طاقتهم. أفضل تعبير عن ذلك النعــيم مــا جــاء فــي الحــديث القدســي، قــال الله عــز وجل: أعددت لعبادي مــا لا عــين رأت ولا أذن ســمعت، ولا خطــر علــى قلــب بشــر اقرأوا إن شئتم فلا تعلم نفس ما أخفي لهم مــن قــرة أعــين – أي إن المنعمــين يشــعرون بأن ما تيسر لهم قد بلغ الغاية ينظرون إليــه نظــرة الســرور والإعجــاب، الأمــر الــذي أشبع أشواقهم وأرضى نفوسهم.

18ـأفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون .

يُظْهِر القرآن الإشــارة التــي فهمــت مــن العــرض القرآنــي الســابق، فيصــرح بــأن المؤمنين والكفرة الفاسقين الخارجين عن الإيمــان بــالله وتصــديق رســوله، لا يســتوون لا في عقيدة ولا في تصور للكون، ولا في سلوك. كل واحــد يســير فــي خــط معــاكس للآخر، وبالطبع يختلف مآلهم، وما أعد لكل فريق من النعيم أو المهانة.

19←20:أما الذين آمنوا...عذاب النار الذي كنتم به تكذبون.

فصلت الآيتان، المفهوم من عدم المساواة:

قدمت الذين قرنوا إلى العقيدة الصحيحة، العمل الصــالح الــذي هــو رشــح تلكــم العقيــدة الحية المؤثرة في سلوكهم. فنشاطهم في الحياة يتم بتوجيــه منهــا. إنهــم تــأهلوا لمنــازل الكرامة في الجنات .هم ضيوف الرحمن يقدم لهم النعــيم الفــائق جــزاء علــى أعمــالهم الصالحة في الدنيا.

وثنت بالذين كفروا وخرجوا من حصن الإيمان، فالمحــل المعــد لإيــوائهم يــوم القيامــة، النار اللاهبة، يضاعف لهم العذاب بقمع أطماعهم، فكلمــا همــوا بــالخروج منهــا، وخيــل لهم أنهم سينجون من ألــيم عــذابها، يعيــدهم ملائكــة العــذاب إلــى مــا كــانوا عليــه، ويخاطبونهم خطاب الإذلال: ذوقــوا ولــيكن إحساســكم بالعــذاب بليغــا، فهــذه طبيعــة النار التي كنتم تكذبون الرسل الذين أنذروكم جحيمها.

21ـ ولنذيقنهم من العذاب..لعلهم يرجعون .

وبكل تأكيد فستسلط عليهم أنواعا من العذاب قبل يوم القيامة في الدنيا، وهو العذاب الأدنى، وسوف لا يكون عذاب استئصال كما سلط على المكذبين الذين أبيدوا من الأمم السابقة. بل عذاب يتضمن تهديدا ينتفع به بعضهم ويرجعون من الكفر إلى الإيمان، ومن ذلك قتل صناديدهم في واقعة بدر، وفتح مكة، وسنوات الجدب والقحط .

22 – و من أظلم ممن ذكر...من المجرمين منتقمون.

سؤال إنكاري مثير للانتباه: لا أحد أشد ظلمـا مـن الـذي ذكـره الرسـول بآيـات ربـه الذي حباه بنعمه ومكنه من سماع آياته البينة. إنـه عـوّضَ أن يهتـدي بهـا ارتقـى فـي ظلمه فأعرض عنها. هو ظلم الآيـات إذ كـذب بهـا، وظلـم الرسـول بتكذيبـه، وظلـم الناس بعمله على نشر الكفر، وظلم حق ربه عليه بطاعته لمـا دعـاه إليـه. إنـه مجـرم، ولا تسأل عن جزاء المجرمين، فهم مُعَرَّضُونَ قطعا لانتقامنا منهم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ
فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

المرية : الشك..

الأئمة : جمع إمام الذي يقتدى به، وأصله خيط البناء.

الفصل :القضاء والحكم..

يهد لهم : يبين لهم.

السوق: الدفع من خلف .

الجرز : التي انقطع نبتها بالجفاف .

بيان المعنى الإجمالي :

تَسَلَّ يا محمد فقد أعطينا موسى الكتاب، فلقي من فرعون وقومه البلاء الشديد، فلا تكن شاكا أنه يصيبك مثل ما أصابه. وأنه فاز بنصر الله له فجعل الله كتابه هدى لبني إسرائيل. وكذلك الأمر بالنسبة لك فأبشر بأن الله ناصرك ومثبت للدين الذي تدعو إليه.

وإنه قدر سبحانه أن يكون بَعْضُ علمـاء بنـي إسـرائيل أئمـة يقتـدى بهـم، بسـبب صبرهم وثباتهم على الحق، وصبرهم علـى الـتعلم، وصـبرهم علـى بـث العلـم فـي صدور الرجال. ولأنهم كانوا على يقين ممـا هـم عليـه، إذ لا يـنـجح الشـاك المرتـاب . ثم إن المختلفين من بني إسـرائيل بعـد ذلـك، سـيوقفون بـين يـدي الله ويحكـم بيـنهم بجزاء الصادقين وعذر المخطئين عن اجتهاد ومعاقبة المبدلين

ما للمشركين لم يعتبروا بما نفذناه من إهلاك القوم الذين كانوا قبلهم ؟ لقد بلَغَتْهُم أخبارهم، والمسافرون منهم يمرون على مساكنهم، ففي مشاهد تدميرهم أدلة واضحة على سوء مآل المكذبين لرسل الله، وفي الأخبار المتكررة ما يقوم دليلا للسامعين فلماذا لم يسمعوا ؟

ومن ناحية أخرى فما بـالهم لـم ينظـروا فـي التصـرف البـديع الـدال علـى القـدرة والبعث: أن الله يسوق السـحاب سـوقا يبلـغ بـه الأرض التـي أراد إرواءهـا بعـد أن كانت قاحلة، فينبت ما نزل عليها مـن الغيـث الحبـوب غـذاء للبشـر، والكـلأ غـذاء للحيوان، ثم غذاء للإنسان، فتتم بذلك مواصلة حياته، أفلا يـدلهم ذلـك علـى البعـث بعـد الموت؟ ما لهم لا يبصرون آيات الله في الخلق؟

بيان المعنى العام:

23ـ ولقد آتينا موسى الكتاب ...لبني إسرائيل.

تؤكد هذه لآية أن الله مكن موسى مـن تلقـي التـوراة، وهـذه الجملـة مؤداهـا معلـوم تكرر في القرآن، فينظر فيها على أساس أنها مقدمة لما يـرد بعـدها" **فلاتـك فـي مريـة من لقائه** " فتكون جملة ولقد آتينا موسى الكتـاب يستحضـر معهـا النبـي ﷺ مـا لاقـاه موسى من فرعون وقومـه. ويكـون تحمـل المرسـلين لصـنوف الإذايـة، والتكـذيب، والتصلب في الكفر منهج يتحد فيه جميعهم. وأن مـا أنـزل عليـه مـن الآيـات الماديـة كقلب العصا، وخروج يده بيضاء، وما تلا ذلـك مـن الطوفـان والجـراد والقمـل والـدم والضفادع، كل تلك الآيات لم يبق بعد إظهارها إلا التـوراة. كـن واثقـا أشـد مـا يكـون الوثوق أنك ستلقى أنواعا مثل ما لقيه موسى؛ فلا تكـن فـي مريـة مـن لقائـه، أي مـن لقاء كلقاء موسى مـن الـرفض والتـدبير للإذايـة. وأن موسـى بقيـت هدايتـه بفضـل الكتاب الذي أنزل عليه، وأن شريعته استمرت من بعـده فكانـت هدايـة للنـاس بفضـل الكتاب الذي أوتيه، وكذلك ستلقى مثـل لقيـه فسـيبقى القـرآن هدايـة للبشـرية جمعـاء، وسيكتب لك النصر على المكذبين مـن قـريش، كمـا انتصـر موسـى علـى فرعـون. وكما كان موسى هاديا لبني إسرائيل فجمع كلمتهم، وكـوّنَ مـنهم أمـة متميـزة بمبادئهـا وتشريعها، فكذلك سيتحقق لك توحيد كلمـة أمتـك علـى الإسـلام، وسـيكون لهـم دولـة يرفعون فيها كلمة الله .

24ـ وجعلنا منهم أئمة ...بآياتنا يوقنون.

أتم الله لبني إسرائيل أن جعل من علمائهم من تحمل مهمة الهداية، بنشر العلم ومحاربة الضلال، فكان هؤلاء العلماء أئمة يتأثر بهم الناس ويسيرون على ما يهدونهم إليه، ويحترمونهم. تحقق لهم ذلك لمّا جمعوا موجبات القيادة العلمية: الصبر على الأذى لالتزامهم بالحق الذي علموه، وعدم المصانعة فيه، والصبر على تلقي العلم وتحمله، والصبر على بثه

في الناس. ولأنهم طردوا الشك من نفوسهم وعمروها باليقين الذي أكسبهم الثبات. وتومئ هذه الآية بالبشارة لرسول الله ﷺ :أنه سيكون من أمته من يحمل العلم الذي جاءه من ربه، وينجحون في مواصلة الهداية للناس .

25.إن ربك هو يفصل....فيما كانوا فيه يختلفون.

التنويه بأئمة الدين الإسرائيليين، الذي سجلته الآية السـابقة، يثير سـؤالا: كيـف ينـوه بهم وهم قد اختلفوا اختلافا حـذرنا الله مـن الوقـوع فـي مثلـه: **(ولا تكونـوا كالـذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينـات)**[1] أجابـت الآيـة بـأن اخـتلافهم سـيلقون جزاءه يوم القيامة، بحكم فاصل من الله، يجزي القـائم علـى الحـق، ويعـذر المجتهـد المخطئ، ويعاقب من غلب هواه فحرف الشـريعة أو كتمهـا. وفـي ذلـك تنبيـه لعلمـاء الأمة الإسلامية، أن الله سيجزيهم عن اجتهادهم على سنة العدل الإلهي.

26.أولم يهد لهم كم...أفلا يسمعون.

تفتتح الآية باستفهام إنكاري تعجبـي :عجـب ! كيـف لـم يحصـل لهـم (الكـافرون المجرمون) البيان الرافع لكل شك واحتمال، بما عرضه القـرآن مـن أدلـة علـى أحقيـة البعث، فيؤمنوا به وينتهون عن الجدل فيه، ولـم يحصـل لهـم الإيمـان بمـا تـدل عليـه مصارع المكذبين، الذين تناقل الناس أخبـارهم فاشـتهرت بمـا يفيـد اليقـين، وانضـاف إلى الأخبار أن المشركين يمرون في مساكن المهلكين، فتنطـق لهـم آثـار دمـارهم بمـا حل بهم ؛ فيدلهم ذلك على أنهم مُعَرَّضُون لمثل مـا أصـيبوا بـه. ودلالـة الآثـار علـى العبرة لا تتحقق إلا بالنسبة للمسافرين الـذين مـروا علـى ديـار لـوط وثمـود، فلـذلك ختمت الآية بقوله:(**أفلا يسمعون؟**) للإشارة إلى أن خبرهم عـام بلـغ كـل أذن، فمـا لهـم لا يسمعون السماع الذي يفضي بهم إلى الاعتبار.

27.أولم يروا أنا نسوق الماء...أفلا يبصرون.

إثارة لانتباه المجرمين المكـذبين بالبعـث ليكـون دلـيلا علـى تحققـه. وهـو اسـتفهام إنكاري، ينكر عليهم أنهم لـم يشـاهدوا مشـاهدة تهـديهم إلـى الاعتبـار، هـذا التـدبير الكوني، أن الله يسوق السـحاب سـوقا يبلـغ بـه الأرض التـي ذهـب نبتهـا وأُمْحِلَـتْ، وتجرد أديمها من الخضرة، فينزل عليها الماء مـن السـحاب الـذي سـاقه، فيخـرج بـه زرعا من القمح والشعير والقطـاني، ممـا يكـون قوتـا للبشـر يحفـظ علـيهم حيـاتهم، ويخرج به كلأ تأكل منه أنعامهم فيتولد منه اللـبن واللحـم الـذي يقتاتـه الإنسـان فيحيـا

[1] سورة آل عمران آية 105

به أيضا. هذه صورة متجددة، ما لهم لا يبصـــرون صـــنع الله فـــي إحيـــاء الأرض بعـد موتها، ثم في تدخل ما تنبته في الحياة، فيعلموا أن البعث حق ؟

وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ ٱلْفَتْحِ لَا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِيمَٰنُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الفتح : نصر المؤمنين.

الانتظار: الترقب.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن عراهم القرآن من جميـع حُجَجهـم ولـم يبـق عنـدهم مـا يـردون بـه أنـوار الإيمان، التجأوا إلى السـخرية والاسـتهزاء، فقـالوا للمـؤمنين: أخبرونـا متـى سـيأتي اليوم الذي تنصرون فيه ؟أجبهم يا محمد قل لهم: يوم الفـتح هـو اليـوم الـذي لا يـنفعكم فيه الإيمان، وتطلبون فيـه أن تـؤخروا لإصـلاح مـا أفسـدتموه عقيـدة وعمـلا، فـلا يستجاب لكم. أعرض عنهم إعـراض مـن لا يتـأثر بشـغبهم. وانتظـر اليـوم المحقـق الذي سيحاسبون فيه، وإنهم مؤخرون إلى ذلك الأجل ينتظرونه فيحق عليهم الوعيد.

بيان المعنى العام :

28ـويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين.

كان الصحابة رضوان الله عليهم، بما هم عليـه مـن يقـين يتحـدَّوْن الكـافرين، بـأن الله سينصر دينه، وسيهزم أعداءهم. وكان الكـافرون يسـتهزئون بهـم، عـاملين علـى بـث اليأس في قلوبهم، فيسألونهم استبعادا: متى سيكون هـذا اليـوم الـذي سـيحقق لكـم فيـه نصره ؟ ومن وقاحتهم تشكيكهم في نصـر الله لأوليائـه بقـولهم: **(إن كنـتم صـادقين).** أي إنهم يرجحون أن هزيمة الكفر وأهله بعيدة عن الوقوع).

29ـ قل يوم الفتح...ولا هم ينظرون.

أجبهم واثقا باعتبار أن هذا الأمر وحي من ربك وأمر لك يقمعهـم: يـوم الفـتح هـو يـوم الفتح الحق الذي لا شك فيه، خاصته أنه لا ينفع الذين كفـروا إيمـانهم، هـو اليـوم الـذي تنكشف لكم الحقيقة واضحة فتدركونها، وتعلنـون إيمـانكم، وتتطلبـون التـأخير لإصـلاح ما أفسدتموه، وتستقيمون عقيدة وسلوكا. فيـرفض إيمـانكم كمـا رفضـتموه فـي الـدنيا، ولا تؤخرون ولو يوما .جهنم تنتظركم .

30ـ فأعرض عنهم وانتظر إنهم منتظرون.

تتابعت الحجج البينة المفحمة التي لــم تُبْـق لهــم متمســك بمــا هــم عليــه مــن الكفــر والشرك. فأمر النبــي ﷺ أن يعــرض عــنهم، إعــراض الواثــق بنفســه الــذي لا يتــأثر بشغبهم، لما وصلوا في محاجتهم للمؤمنين، أنه لــم يبــق لهــم فــي جعبــتهم إلا الســؤال عن اليوم الذي يتحقق فيه الوعيد فانتظر يا محمد اليوم الذي تــرى فيــه مــا وعــدك بــه ربك وما أوعدهم، وإنهم في حقيقة حالهم بصــدد انتظــار مــآلهم الخاســر .فــلا تبتــئس. وأبشر .

27 ربيع الثاني 1434- 09 مارس 2013

ســــــورة الأحزاب

هذا هو الاسم الذي عرفت به عند كتاب المصاحف، وفــي كتــب التفسـير. سـميت بهـذا الاسم لأنها فصلت أخبـار أحـزاب مشـركي مكـة والمتحـالفين معهـم، لمـا قصـدوا الهجوم على المدينــة فــي عشــرة آلاف مقاتــل. فــرد الله كيـدهم وكفــى الله المــؤمنين القتال. وهي ســورة مدنيــة. ورتبتهــا حســب ترتيــب المصــحف الثالثــة والثلاثــون. والتسعون حسب ترتيب النزول. نزلت قبل سورة المائدة وبعد سورة الأنفال.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا
حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾
وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى
جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ
أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾ ٱدْعُوهُمْ
لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ
ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الوكيل : القائم بالأمر المغني عن الموكل.

أدعياءكم : جمع دعي وهو الولد الذي نسبه أب غير أبيه لنفسه .

السبيل : الطريق الذي لا يضل سالكه.

أقسط : عدل، بل هو العدل الكامل.

جناح : إثم

بيان المعنى الإجمالي :

يا أيها النبي المكرم اثبت على ما أنت عليه من التقوى، واستحضار صلتك بالله ربك في كل قول أو فعل. وتيقظ لما يعرضه عليك الكافرون والمنافقون، فلا تسارع بطاعتهم فيما يدعونك إليه، فإنهم يصدرون عن خبث وغش. إن الله متصف بالعلم الذي لا يخفى معه شيء، الحكيم الذي تنكشف له الحقائق على ما هي عليه. فهو سبحانه يعلم سرائرهم ويحميك بوحيه. والزم النهج الذي فصله لك الوحي من ربك، إن الله لا يغيب عنه شيء من أعمالكم في ظاهرها وفيما يصحبها من نوايا. وأحسن الاعتماد على الله، فإنه الوكيل الكافي لمن توكل عليه.

ما جعل ربك في باطن الإنسان إلا قلبا واحدا، فدعوى بعض الجاهليين أن بين جنبيه قلبين دعوى باطلة لا أساس لها. وكذلك ادعاؤهم أنه إذا قال الزوج لزوجه: أنت علي كظهر أمي تنقلب زوجه أما، هو أيضا باطل وغير صحيح. وكذلك ادعاؤهم أن الرجل إذا نسب غيره إلى نفسه ينقلب بذلك ولدا له" التبني" باطل وغير صحيح. هذه الثلاثة لا تعدو أن تكون أقوالا لا صلة لها بالواقع، وكل قول يقوله اللسان ويخالف الواقع، كذب مرفوض. فقول الله هو القول الحق، وهو الذي يهدي الناس إلى الطريق الذي يبلغهم النجاح. وبناء على ذلك فأنتم مطالبون بنسبة هؤلاء الذين عرفوا بينكم بنسبتهم إلى غير آبائهم، بأن تدعوهم بنسب آبائهم، فإن جهلتم آباءهم، فانسبوهم إلى الأخوة : أخوة الإيمان، أو بطريق مولى فلان أو بني فلان بناء على ما كان متعارفا عندهم من عقد الولاء الرابط برباط التناصر لا النسب. ومن أخطأ بلسانه دون قصد انتهاك التشريع، فلا إثم عليه. إن الله موصوف بالمغفرة والرحمة.

بيان المعنى العام :

1←3: يا أيها النبي اتق الله....وكفى بالله وكيلا .

يخاطب الله في هذه الآية سيدنا محمدا مناديا له. وتكرر نداؤه في هذه السورة خمس مرات، وما نادى الله رسوله إلا بوصف الرسالة أو النبوة، وفي ذلك تشريف له وتثبيت كونه نبيا من عند الله، مبلغ، أمين على ما يوحى إليه. وهو تأديب اجتماعي في خطاب النبي ﷺ أولا، ثم في طريقة مخاطبة العلماء وأولي الأمر. إنه بمجرد ما ولي الخلافة سيدنا أبو بكر ﷺ خوطب من الصحابة: يا خليفة رسول الله، ثم حولها عمر ﷺ إلى: يا أمير المؤمنين حتى لا تطول بالإضافات مع الزمن. نعم من جفاء البدو أنهم يخاطبون ذوي الهيئات بأسمائهم. وما كان العرب ينادي بعضهم البعض إلا بالكنية لا بالاسم: يا أبا عبد الله، يا أبا القاسم: يا أبا صالح. ونحو ذلك. يقول الشاعر :

أُكْنيه حين أناديه لأكْرِمَهُ *** ولا أُلَقِّبُه والسوأةَ اللَّقَبا

نادى الله نبيه ليقول له: 1) ليأمره : اتق الله – 2) وينهاه – ولا تطع الكافرين والمنافقين – 3) ويأمره باتباع الوحي الذي أتاه من ربه – 4) وأن يتوكل على الله .

1) أمر الله نبيه بقوله (اتق الله)، والأمر قد يكون بإحداث ما طلبه الآمر، كقولك لمن لم يصل: قم فصل. وقد يكون بطلب المخاطب أن يثبت على ما هو عليه ويواصله، كما تقول للسائر في الطريق سر، وتقول للمكرر للحفظ: كرر. فدعوته تعالى لرسول آمرا له بتقوى الله، هو تصريح بأنه راض عن سلوكه يدعوه للثبات عليه ومواصلته، وليكون مهيئا لنهيه عن طاعة الكافرين والمنافقين، فيتألف منهما: يا أيها النبي لا تتق إلا الله.

2) نهيه عن طاعة الكافرين والمنافقين. تآلف خبيث بين الكافرين والمنافقين. كانوا يتصلون برسول الله ﷺ، ويعرضون عليه في مكر وخبث ما تآمروا به في صورة نصح له وللمسلمين، فأمره الله أن لا يتبع ما يشيرون به عليه. ولا تطع إلا ما يأمرك به ربك، ذلك أنه سبحانه هو العليم بحقائق الأمور وعواقبها، وما هو الصلاح والخير، وهو الحكيم الذي يعلم العواقب الصالحة، ويهدي إليها. وعنى بقوله: إن الله كان: ثبت له الوصف ثبوتا أزليا أبديا.

3) تصريح بما يحقق ترك المنهي عنه بالقيام بضده، فأمر ﷺ، والمؤمنون تبع له، باتباع وتطبيق ما يتلقاه من وحي من ربك، وفي التعبير بكلمة من "ربك" من المزايا التي كررنا لفت الأنظار إليها .وأتبع هذا الأمر بما يحرض على الامتثال، بأن الله يعلم ما تَعْمَلُونَ. يعلم ظاهره، ويعلم مبانيه، ويعلم مآلاته. واعتمِدْ على الله مفوضا له أمرك، مقتنعا بأنه يكفل لك ما يعود عليك بالسعادة. ويكفي الإنسان توكله على الله الأمان والخير.

هذه الآيات الثلاث يؤكد بعضها بعضا، مما يوحي بأنها تُعِدُّ لما سيأتي بعدها من أحكام. في تشريعها تغيير لما استقرت عليه الأعراف قبل ذلك. هي تُقَوِّي المؤمنين على طاعة الله وتطبيق شرعه، وعدم الالتفات إلى شغب المشاغبين .

4.ما جعل الله لرجل ...وهو يهدي السبيل .

تنفي الآية وهْمًا تردد، حتى وثق به الناس. كانوا يظنون أن لبعضهم، لنباهته ويقظته، وتعمقه في الأمور، يظنون أن له قلبين، بمعنى عقلين يسعف أحدهما الآخر فيتجلى لصاحب القلبين ما لا يراه غيره. ومن الأسماء التي حفظت أن أصحابها كان يُعتقد فيهم أن لهم قبلين، جميل بن معمر بن أسد . وبلغ من غروره أنه كان يقول للناس: لي قلبان أعمل بكل واحد منهما عملا أفضل من عمل محمد. وكذلك

عبد الله بن خطل، المهدر دمه يوم الفتح. فجـاء الـوحي مـن خـالق الـنفس البشـرية : أن اعتقاد قلبين لإنسان وهْم لا حقيقة له فهيأ السامعين لإبطـال مـا تعـودوا عليـه فـي العلاقات الاجتماعية.

بعد بيان زيف من ادعى ما هو علـى خـلاف قـوانين الله وسـننه فـي الخلـق المـادي، عطف عليه ابطالا ثانيـا ؛ حاصـله أنـه جـرى العـرف الجـاهلي، أن الـزوج إذا أراد تحريم زوجه تحريما أبديا يقول لها: أنـت علـي كظهـر أمـي، يشـبه غشـيانه لزوجـه بغشيانه أمه وظهرها للسـماء. وهـي صـورة وقحـة تـدل علـى سـفالة صـاحبها، إذ يفترض أن علاقته بزوجه على أشد ما يكون مـن النكسارة، مشـبهة بعلاقتـه بأمـه وهـو يركب ظهرها لقضاء الشهوة. ولذا كـان منكـرا مـن القـول وزورا كمـا سـيأتينا فـي سورة المجادلة آية 2 – فحرم الله هذا القول، وحكـم بأنـه لا تنقلـب زوجـه أمـا بقولـه، كزيف قوله إن له قلبين. وسيأتي مزيـد بيـان فـي سـورة المجادلـة التـي فصـل فيهـا أحكام الظهار.

بعد أن هيأ القرآن النفوس لرفض ما كـانوا يقبلونـه، ولا يـرون فيـه حرجـا، مـع أنـه باطل، من كون الرجل له قلبان، ومن أن المظاهر تنقلـب زوجـه أمـا، أتـى بالمقصـود الأصلي مما هيا له ووطأه: وهو إبطال التبني.

كان العرب في الجاهلية يقبلون أن يلحق الرجل أحدا بنسـبه، مـع أنـه لـم يتخلـق مـن مائه، ولا صلة بين خريطته الحيوانية وخريطـة المتبنًـى. فيصـبح بقـول المتبنـي هـذا ابني مرتبطا به يحمل نسـبه ويتوارثـان، ويكـون لكـل منهمـا للآخـر جميـع الحقـوق والواجبات الرابطة بـين الأب وابنـه. وقـد كانـت أم المـؤمنين خديجـة بنـت خويلـد رضي الله عنها، قـد وهبهـا ابـن أخيهـا غلامـا اشـتراه اسـمه – زيـد-فوهبتـه أم المؤمنين لرسول الله ﷺ .

كان زيد طفلا في الثامنة من عمـره، إذ أغـارت خيـل مـن تهامـة فسـبته، واشـتراه حكيم بن حزام بن خويلد. تحرّقَ أهلـه عليـه، وأخـذوا يتقصـون أخبـاره حتـى علمـوا بأنه مقيم في مكة، فقدموا وعرضوا فداءه علـى رسـول الله ﷺ، وخيـر النبـي ﷺ زيـدا بين البقاء عنده تحت الرق، وبـين أن يلتحـق بأسـرته، فاختـار البقـاء. وعنـدها أشـهد النبي ﷺ قريشا أن زيدا ابنه، يحمل اسمه ويتوارثـان. فرضـي أهلـه بـذلك وانصـرفوا. وبقي زيد عضوا من أسرة النبـي ﷺ، فلمـا أكرمـه الله بالرسـالة كـان زيـد مـن أول الذين آمنوا به .إن هذه الصلة علـى قوتهـا التـي بلغـت أن زيـدا اختـار البقـاء عنـد رسول الله عبدا على الالتحاق بأهله، وتعلق رسـول الله بـه حتـى أشـهد النـاس جميعـا أنه يتمتع بكامل حقوق البنوة ؛ قد جاء التشريع ليثبـت صـلة البِـرّ، وينفـي صـلة الـدم

فالله ما جعل الأدعياء أبناء، وهو ما ستزيده بقية الآية بيانا. جمع القرآن الزيوف الثلاثة وأشار إليها بقوله:" **ذلكم** " - القلبان لرجل واحد - وانقلاب المظاهَر منها أما - وانقلاب المتبنَّى ابنا - هذه الثلاثة ليس لها حقيقة في الواقع. وهي لا تعدو أن تكون أقوالا كاذبة مخالفة للحقيقة الخارجية . وهو معنى **[قولكم بأفواهكم]**. وما يصدر عن اللسان دون أن يكون مطابقا للواقع كذب لا قيمة له، ولا يترتب عليه حكم ولا صلة حقيقية. وكلام الله هو الكلام الحق، فكل كلام جاء على خلاف ما نطق به الوحي كلام مرفوض لا يعول عليه. والله يهدي الناس إلى السبيل الموصلة إلى الغاية الآمنة.

5.ادعوهم لآبائهم ...وكان الله غفورا رحيما.

تصريح بالتشريع الجديد الرافع لما كانوا عليه. انسبوهم، عندما تخاطبونهم، إلى آبائهم، وتحولوا عما كنتم عليه في دعائهم باسم متبَنِّيهِمْ . ويتأكد الامتثال بأن ذلك هو العدل، وما كنتم عليه جور وباطل . هذا ما شرعه الله .

ثم فصلت الآية الفروض التي يتبعها عدم الالتزام بهذا التشريع، فمنها أن يجهل الداعي اسم والد الذي كان متبنًّى، فأرشده القرآن إلى دعائهم برابطة الأخوة، اعتمادا على أن الإسلام عقد بين المؤمنين رابطة دينية هي الأخوة في الدين قال تعالى: **(إنما المؤمنون إخوة)**[1] أو برابطة الولاء الذي هو التحالف الذي كان معروفا بين العرب، ويمثل رابطة لا تفصل الحليف عن أسرته ولا تدمجه إدماجا نسبيا، ولكنه عقد يتبعه التناصر والتعاون فيدعى يا أخا فلان أو بني فلان، يا مولى فلان أو بني فلان.

ومنها الخطأ غير المقصود، لما كان التعود والربط حاصلا في النفس بين الذات والاسم الذي كان يدعى به المتبنَّى، فقد يسبق اللسان إلى ندائه باسم متبَنِّيه، الذي يستدعي مستوى من اليقظة والانتباه في بداية التشريع، فلذا خفف الله على من يسبق لسانه إلى دعوة المتبنَّى باسم متبنيه بدون قصد المخالفة للتشريع الجديد، فرفع الإثم على المخطئ. وثبت لله صفة الغفران والرحمة، فلكونه غفورا يغفر ذنب من تاب وأناب، وبصفته رحيما يعفو عمن أخطأ أو جهل.

ٱلنَّبِىُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ

[1] سورة الحجرات آية 10

أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

أولى: أقرب.

الكتاب : كتاب الله

مسطورا: مكتوب .

الميثاق: العهد المؤكد.

غليظ : قوي.

ليسأل :سؤال تقرير .

صدقهم : صدق الأفعال واستقامتها.

بيان المعنى الإجمالي :

بيان لمنزلة رسول الله ﷺ في أمته: إنه أقرب وأنفع للمؤمنين من أنفسهم التي قد تضللهم، ولكن الرسول يقودهم إلى خيرَيْ الدنيا والآخرة. ومقام أزواجه المقام الرفيع، كل واحدة منهن لها من واجب التعظيم والتقدير ما يجب للأم من ولدها، ولا يجوز أن يتزوج أحد ممن دخل بها النبي ﷺ.

إن المؤاخاة التي سنها رسول الله ﷺ، إثر هجرة الصحابة من مكة إلى المدينة، وعقده عَقْدَ مؤاخاة بين الأنصاري والمهاجر، يتبعه إرث كل منهما للآخر، رفع هذا الحكم، ورجع الأمر إلى أن صلة الرحم أولى بالميراث من غيرها من الصلات، حكم مقرر في كتاب الله . لكن تبقى المواساة فيما عدا الميراث حكما مقررا كالمساعدة بالمال، والإيصاء والتعاون . سطر الله ذلك مثبتا له في كتابه.

واذكر ذلك الوقت الذي أخذ الله فيه الميثاق المؤكد والعهد الملزم، من النبيين ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم، يتضمن هذا العهد تبليغ الوحي وتبيينه وعدم قبول أي مساومة فيه .أخذ هذا العهد من النبيين ومنك يا محمد، ومن نوح أول رسول، ومن إبراهيم أبي الأنبياء، الذي يزعم العرب أنهم على هديه، ومن موسى وعيسى ابن مريم اللذين يؤمن بهما أهل الكتاب، أخذ الله عهدا مؤكدا قويا، ليرتب على ذلك انقسام البشر إلى فرقتين صادق مثاب، وناقض معاقب، فيسأل الفرقة الأولى هل صدقت في القيام بالعهد؟ فتجيب بالإيجاب

ويغمرها النعيم والثواب. وأما الفرقة الثانية التي نقضت الميثـاق فقـد أعـد لهـا العـذاب الذي راعى فيه أن يكون مؤلما كأشد ما يكون الإيلام.

بيان المعنى العام :

6-النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم....في الكتاب مسطورا.

هذه قاعـدة فـي بيـان صـلة المـؤمن برسـول الله ﷺ وبموقـع أزواجـه فـي الأمـة الإسلامية، وبعلاقة المؤمنين فيما بينهم. فاشتملت على أمور :

الأمر الأول: أن النبي ﷺ أشد قربا لكل مؤمن مـن نفسـه. فـإذا كانـت نفـس كـل فـرد تسعى لما يعود عليها بالخير، وما يحقق سعادتها، فإن النبـي ﷺ أشـد حرصـا علـى كـل فرد من أمته من نفسه، وإذا كانت النفس قـد تزيـغ أو تضـللها الشـهوات فتفسـد علـى الإنسان حياته، فإن رسول الله ﷺ أشد حرصا، وأعمق حبـا مـن كـل نفـس لصـاحبها . وهذا المعنى يبين وجه ما ذهب إليه بعضـهم : أن أرجـى آيـة فـي القـرآن هـي قولـه تعالى **(ولسوف يعطيك ربـك فترضـى)**[1] قـائلا : إن رسـول الله ﷺ لا يرضـى ببقـاء أحد من أمته في النار. وهذه الولاية توجب حرمتـه والصـلاة عليـه وحبّـه. ولا يقصـد منها ميراث المال .و قد قال النبي ﷺ : أنـا أولـى بـالمؤمنين مـن أنفسـهم فمـن تـرك دينا فعلي قضاؤه، ومن ترك مالا فهو لورثته[2].

الأمر الثاني : أن أزواجه اللاتي دخل بهن لهن حرمـة الأمهـات، فيحـرم التـزوج بأيـة واحدة منهن، ولهن من التعظيم والبر والاحترام ما يحـق للأمهـات. ويسـتوي فـي هـذه الناحية الرجال والنساء. ولا يتعدى ذلك لميراث، ولا للتزوج من بناتهن.

الأمر الثالث: أن علاقة الرحم الحقيقية تتقدم على المؤاخاة التي شرعها النبي ﷺ لما انتقل بأصحابه إلى المدينة المنورة. إذ آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، فمما حفظ من ذلك: مؤاخاته بين ابي بكر الصديق وبين خارجة بن زيد .وبين الزبير بن العوام وكعب بن مالك، وبين عبد الرحمان بن عوف وسعد بن الربيع، وبين سلمان وأبي الدرداء، وبين عثمان بن مظعون وأبي قتادة الأنصاري، رضي الله عنهم. فتوارث المتآخون بتلك المؤاخاة. ثم نسخ ذلك بهذه الآية . فيكون معنى الآية: أن الذين ثبتت لهم صلة بالرحم أولى من الذين ثبتت صلتهم بالجَعْل . فالأخوة النابعة من قرب الرحم أولى وأحق بالميراث من قرابة المواساة التي شرعها رسول الله ﷺ إثر الهجرة. وأكد هذا التشريع بأنه مثبت في كتاب الله، ويحتمل أن يكون المراد بقوله في كتاب الله: **القرآن**، أو **اللوح المحفوظ**.

---

[1] سورة الضحى آية 5

[2] متفق عليه ح 2707ج3 فيض القدير

وقوله تعالى: (**من المؤمنين والمهـاجرين**) متعلـق بـأولى. والتقـدير (**وأولـو الأرحـام**) أولى بإرث ذوي أرحامهم، من المؤمنين والمهـاجرين الـذين لا تـربطهم علاقـة رحـم، وذلك حسبما كتبه الله ووثقه في كتابه.

(**إلا أن تفعلوا إلى أوليائكم معروفا**). هذه الآية تسـتدرك مـا يمكـن أن يتوهمـه متـوهم، أن الله لما قطـع التـوارث بالمؤاخـاة، أنـه قطـع الانتفـاع المتبـادل بـين المهـاجرين والأنصار على ما كانوا عليه مـن المواسـاة. فأثبتـت الآيـة تواصـل مـا اسـتقر مـن التعاون والود وحرص كل مؤمن على مسـاعدة أخيـه المـؤمن بالمـال، وسـائر أنـواع المعروف كالوصية.

ثبت هذا التشريع الوارد في هذه السورة تشريعا مقـررا، وثابتـا بالكتابـة ثباتـا لا يغيـر ولا ينسى. فأكدت هذه الآية توثيقا للأحكام التي حولت ما أَلِفَه الناس وساروا عليه

7ـ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم....ميثاقا غليظا.

اذكر ذلك الظرف الخاص، الذي أخـذ فيـه الله تعـالى الميثـاق والعهـد الـلازم، مـن وثوقهم بأنهم على الحـق، و مـن تبليـغ وحيـه، وتبيـين أحكامـه ومقاصـده، وتأييـده بالحُجَجِ، ومجاهدة الرافضـين مجاهـدة لا تقبـل المشـاطرة أو التنـازل. أخـذ الله هـذا الميثاق من جميع النبيين، وأخذه منـك، ومـن نـوح وإبـراهيم وموسـى وعيسـى ابـن مريم. وفي هذا السرد عطف بعض أسماء النبيين، وهـم مـن هـم عنايـة بهـم، إبـرازا لفضل سيدنا محمد بتقديمه، وإلزاما للعـرب الـذين يـدعون أنهـم علـى ديـن إبـراهيم، ولليهود الذين يدعون أنهم على دين موسى، وللمسـيحيين الـذين هـم مصـدقون لعيسـى؛ أن الميثاق يتضمن فيما يتضمن نصـرة الحـق وتأييـده . فرفضُـهم لمـا أنـزل علـى محمد ومحاربته نقض للميثاق المؤكد. قال تعـالى : (**وإذ أخـذ الله ميثـاق النبيـين لمـا آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصـدق لمـا معكـم لتـؤمنن بـه ولتنصـرنه قال آقررتم وأخذتم على ذلكم إصري قـالوا أقررنـا قـال فاشـهدوا وأنـا معكـم مـن الشاهدين**)[1] وأكد القرآن ذكر أخذ الميثاق بإعادتـه ووصـفه بالغلظـة، أي عظـيم جليـل الشأن.

8ـ ليسأل الصادقين عن صدقهم...للكافرين عذابا أليما.

ذكرت الآية علة أخذ الميثاق الغليظ، أخذنا علـيهم هـذا الميثـاق وبعثنـا الرسـل بهـدينا لكي يجعل الله خَلْقَهُ فرقتين: الفرقة الأولى هـي الفرقـة التـي صـدقت فـي الأخـذ بمـا جاء به المرسلون، فيسألها ربها عن موقفها مما بلغهـا الرسـول، فتجيـب بأنهـا آمنـت

---

[1] سورة آل عمران آية 81

وصدقت في تطبيق شرعه، والتزمـت بهديـه فيتكـرم عليهـا بثوابـه وحسـن جزائـه.
وفرقة يسألها ليسجل عليها كفرها فيسلط عليها ما أعده لها من عذاب أليم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ جَآءَتۡكُمۡ جُنُودٞ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا
وَجُنُودٗا لَّمۡ تَرَوۡهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذۡ جَآءُوكُم مِّن فَوۡقِكُمۡ وَمِنۡ
أَسۡفَلَ مِنكُمۡ وَإِذۡ زَاغَتِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلۡقُلُوبُ ٱلۡحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا
﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبۡتُلِيَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَزُلۡزِلُواْ زِلۡزَالٗا شَدِيدٗا ﴿١١﴾ وَإِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ
وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورٗا ﴿١٢﴾ وَإِذۡ قَالَت طَّآئِفَةٞ
مِّنۡهُمۡ يَـٰٓأَهۡلَ يَثۡرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمۡ فَٱرۡجِعُواْۚ وَيَسۡتَـٔۡذِنُ فَرِيقٞ مِّنۡهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ
بُيُوتَنَا عَوۡرَةٞ وَمَا هِيَ بِعَوۡرَةٍۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارٗا ﴿١٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

جنود: الأول بمعنى الجيش المتحد، والثاني بمعنى جماعة الملائكة.

الحناجر : جمع حنجرة منتهى الحلقوم .

زاغت الأبصار : مالت عن مواضعها فلا ترى ما تريد أن تراه من شدة الهول .

الابتلاء : إصابة الشدة.

زلزلوا : انزعجوا انزعاجا شديدا. غرورا

غرورا: أطمعنا بما سيحصل خلافه .

عورة : غير حصينة.

بيان المعنى الإجمالي :

يا ايها الذين آمنوا تذكروا دائمـا النعمـة الكبـرى التـي خصصـتكم بهـا، فـي ذلكـم الظرف الذي هجمت عليكم جحافل الغزاة، فعاجلناهم بإرسـال ريـح شـديدة بعثـرت بهـم وبمعداتهم .وأوكلنـا إلـى ملائكتنـا أن يزعزعـوا ثقـتهم فـي قـواهم وأن يهزمـوهم نفسيا، فانهزموا وفروا. والله لا يخفى عنه شـيء ممـا قمـتم بـه للـدفاع عـن الإسـلام فسيجزيكم من فضله.

لقد هجموا عليكم من الشمال ومن الجنوب وحاصـروكم. كـانوا لكثـرتهم، ومـا صـحبوه من خيل وإبل، وسلاح، قد استولت عليكم الحيرة بسه، فالأبصـار تجمـدت منحرفـة تكـاد لا ترى ما هو أمامها، وانتفضـت قلـوبكم انتفاضـة كـادت بهـا تخـرج مـن حلـوقكم،

وداخلَتْكم الهواجس والتقديرات وسارت بكم الظنــون فـــي متاهـــات المســـتقبل. فـــي ذلـــك الظرف اهتز المسلمون اهتزازا شديدا كأن زلـــزالا نفضـــهم نفضـــا. ويتحـــرك المنـــافقون يضاعفون تلكم الأحاسيس، فيتحدثون بأن ما وعـدنا الله ورســـوله مـــن انتصـــار الإســـلام وبلوغه سائر أقطار الأرض، ما كان إلا خداعا لا حقيقة له.

و يبرز في المشهد طائفة أخرى من المنافقين أشـــد مكـــرا، فينـــادون الأنصـــار: يـــا أهـــل يثرب، ليس لكم مقام يغنيكم في مواقعكم هذه، خيـــر لكـــم أن تعـــودوا إلـــى منـــازلكم وأن تحموها وتدفعوا الشر عن أهاليكم وأموالكم. وتـــأتي طائفـــة أخـــرى مـــن المنـــافقين، وقـــد تقاســـموا الأدوار، لإرْبَـــاكِ الصـــف المـــتلاحم حـــول رســـول الله، يظهـــرون أنهـــم لا يتحركون إلا بأمره، ولكنهم يطلبون منه الإذن ليعـــودوا إلـــى منـــازلهم التـــي هـــي غيـــر محمية ويخشون أن تذهب أمـــوالهم وتســـبى أولادهـــم ونســـاؤهم. وهـــي كذبـــة فضـــحهم القرآن: ليست بيوتهم معرضة للخطر.

بيان المعنى العام :

9- يا أيها الذين آمنوا اذكروا.....بما تعملون بصيرا.

ينادي القرآن المؤمنين ليُقْبِلُوا على سماع مـــا تضـــمنه خطـــاب الله إلـــيهم. يطلـــب مـــنهم أن يكون ما حدث حيا في نفوسهم حاضرا فـــي ذاكـــرتهم، يتـــأملون فيمـــا تضـــمنه ممـــا عرفوه ومما خفـــي علـــيهم وأطلعهـــم الله عليـــه، ليأخـــذوا عبـــرة مـــن صـــنع الله فـــي الأحداث، ومن ألطافه التي تحف بهـــم، وأن القـــدر الإلهـــي قـــد اختـــارهم ليكونـــوا هـــداة العالم، وأنه ليفوزوا بالنجاح في هـــذه المهمـــة يبتلـــيهم ليصـــفي الجـــوهر النفـــيس فـــيهم ويذهب عنهم الزبد ورجس الشيطان.

اذكروا وتملوا نعمة الله عليكم، وأنتم في راحة بال قـــد اطمـــأننتم وذهـــب عـــنكم الخـــوف، وبؤتم بالنصر المبشر بمـــا يتلـــوه مـــن الانتصـــارات. هـــي الـــذكرى التـــي أمـــروا أن يجددوها في مشاعرهم فتكون حاضـــرة موحيـــة .هـــي انتصـــار المســـلمين فـــي غـــزوة الأحزاب التي سوف لا أتتبعهـــا كمـــا ســـردها أصـــحاب الســـيرة والمؤرخـــون، ولكنـــي أتابع النسق القرآني المعجز.

هي نعمة عظيمة نســـبت لله العظـــيم، نزلـــت علـــيكم فشـــملتكم تحـــت مظلتهـــا "**علـــيكم**" لتكتسبوا منها ثقة في عزكم بالإسلام، وفي عناية ربكم بكـــم. نزلـــت علـــيكم النعمـــة فـــي ظرف زماني شديد، وفريد بلغة القرآن: صَوَّرَهُ فـــي لمحـــة خاطفـــة، ومشـــعة، ومجســـمة للظرف، كانت صورته المتحركة تتـــابع حضـــورها: هـــو الظـــرف الـــذي جـــاءتكم فيـــه الجنود وأحاطت بكم. من هم الجنود الذين جـــاؤوا؟ ومـــا هـــي الأســـباب التـــي حـــركتهم للانقضاض على المدينة؟

قصد رؤساء قبيلة النضير اليهودية مكة، بما لهم مــن مكــر، وبمــا رُبُّــوا عليــه حتــى أصبح طبيعة لهم سائرة معهم إلى اليوم من قــدرة يشــعلون بهــا نــار الحــروب، **كلمــا أوقدوا نارا للحرب أطفأهــا الله ويســعون فــي الأرض فســادا**[1] واتصــلوا بالأحــابيش، وهم بنو المصطلق وبنو الهون فحرضوهم علــى الوفــاء بعهــد حلفهــم لقــريش، وتــألف من الجميع جيش بعشــرة آلاف مقاتــل وداخلــوا قــادة غطفــان فجهــزوا ألــف مقاتــل. صور المتآمرون من قادة يهود أن مناعة المؤمنين فــي المدينــة مختلــة، بمــا التــزم بــه لهم إخوانهم يهود بني قريظــة، أنهــم سينتقضــون مــن الــداخل بمــا يربــك الصــف الإسلامي، وأن هذه ستكون المعركة الفاصلة والناجحــة ضــد الإســلام .كــان ذلــك فــي سنة أربع من الهجرة على الصحيح . ولــم يتعــد القــادرون علــى حمــل الســلاح فــي المدينة ثلاثة آلاف مقاتل. فميزان القوى فــي العــدد شــائل للمعتــدين، وكــذلك الســلاح. هــذه صــورة: غــزوة الأحــزاب .عســكرت الجيــوش محاصــرة المدينــة .تحصــن المسلمون وراء خندق يحول بين الغــزاة وبــين المدينــة بإشــارة مــن ســلمان الفارســي ﷺ. شارك في حفره رسول الله وجميع المسلمين. وأنجــزوه فــي أيــام قليلــة .. حصــلت مناوشات قبل أن يحزم الغزاة أمرهم للهجــوم. تصــور الآيــة انقــلاب الوضــع ســريعا. أرسل الله على المحاصرين ريحا عاصفة شديدة، قلعــت الأوتــاد وســفت الرمــال تــداخل العيون وتقلب القدور، ونفرت الخيــول والإبــل فماجــت يهشــم بعضــها بعضــا، فهلــك كثير من مراكبهم، وأرسل الله ملائكتــه ينفثــون الرعــب فــي القلــوب، ويقتلعــون الثقــة من النفوس، ويغرسون الخوف، فنادى فــيهم أبــو ســفيان بالرحيــل وركــب ناقتــه، ورد الله كيدهم في نحرهم، وكفى المــؤمنين القتــال. وســجل القــرآن منوهــا بــالجهود التــي بذلها المؤمنون، في حفر الخنــدق، وتــأهُبهم للــدفاع عــن الــنفس والــدين. فــأعلن أنــه بصير بما عملوه، كتبه وسيجزي عنه.

10←11: إذ جاؤوكم من فوقكم ....زلزالا شديدا.

بعد تلكم الصورة الجامعة بين البدايــة والنهايــة، فــي لمحــة خاطفــة. يعــرض القــرآن تفاصيل ما حدث. فيفصــل أولا قولــه: **إذ جــاءتكم جنــود** – فيرســم أن العــدو أطبــق عليهم من فوق ومن أسفل، كأنهم وقعوا بين طبقتي الرحــى الطاحنــة، ثــم يضــيف وقــع الوضــع فــي النفــوس، فالأبصــار قــد انحرفــت وَالِهَــةً لا تــرى مــا تتوجــه إليــه، واضطربت القلوب اضطرابا يكاد يحــس صــاحبه أن قلبــه ســيخرج مــن مكانــه عبــر حنجرته، يضغط المشهد ضغطا قويا: صهيل خيــول الأعــداء ورغــاء إبلهــم، وصــناديد

---

[1] سورة المائدة آية 64

قريش يتحدون معتزين بما معهم من آلات الحرب من السيوف والرماح، تمتد خيامهم مد البصر. أكثر من أحد عشر ألف مقاتل منتخَبين. يا لَلْهَوْل ! كاثرهم العدو، وهم لا ينتظرون مددا من الرجال، ولا من السلاح . إنهم بشر، أخذ تفكيرهم يسير في شعاب التوقعات، والتوقعات السيئة حسب المعطيات الظاهرة غالبة، ويتساءل كثير منهم: هل إن الإسلام سيُفْتَنْ فتنة عواقبها مجهولة، ما عساه يفعل بهم المشركون وهم يكادون ينفجرون من الغيظ ؟ وكيف بهم إذا اقتحموا المعركة فخانتهم قريظة والمنافقون في أموالهم وأسرهم. تلبدت الظنون المظلمة . وهم وإن كان إيمانهم يصور لهم أن الله سينصر دينه لا محالة، إلا أن هذه معركة لم يتَبَيَّنْ لهم فيها خيط الفرج.

في هذا الزمان وفي ذلك المشهد كان وضع المسلمين في شدة وكرب، زلزلوا، واضطربوا اضطرابا شديدا. وتبدو الصورة والمسلمون حسب تربيتهم وتبعا لثقتهم في ربهم، كأنهم الأرض بصلابتها وقوتها يأتيها الزلزال فيجعلها تضطرب اضطرابا شديدا.

12ـ وإذ يقول المنافقون...إلا غرورا.

عامل آخر ضاعف الشدة، هو تثبيط المنافقين، والذين لم يستقر الإيمان في أرواحهم، هم يتهامسون بينهم همسا لا يخفونه خفاء كاملا عن المؤمنين؛ يقولون لقد وعدنا محمد أن الله ناصر دينه، ستكون له الغلبة وسينتشر في العالمين (**لقد أنزلنا إليكم كتابا فيه ذكركم أفلا تعقلون**)[1]. ثم يصرحون متهكمين: ما وعدنا إياه وعدٌ خادعٌ والحاصل خلافه..

13ـو إذ قالت طائفة منهم ... إن يريدون إلا فرارا.

ومشهد آخر خطير من التخذيل يفتتحه القرآن ب (وإذ)، تأتي جماعة من المنافقين ومرضى القلوب فيواجهون المقاتلين وهم من وراء الخندق مرابطون دفاعا عن المدينة، وحماية لها، وهم على أتم ما يكون الاستعداد لمقاومة الغزاة، فينادونهم: يا أهل يثرب ! لابد من الوقوف قليلا عند هذا النداء الماكر، لا ينادونهم: يا أهل المدينة، بل يا أهل يثرب. ويثرب هو اسم المدينة قبل الهجرة، ولما حل بها رسول الله ﷺ سماها: المدينة. يذكرهم المنافقون بالاسم القديم ليثيروا فيهم الحنين إلى الرابطة السابقة للإسلام، وليحرضوهم في خفاء إلى العودة إلى أهلهم. فهم أهلها والمهاجرون غرباء. خاطبوا الأنصار بأهل يثرب وقالوا لهم: إن مواقعكم التي

[1] سورة الأنبياء آية 10

تقيمون فيها ليست مواقع صـــالحة لكــم. خيــر لكــم أن تعــودوا إلــى منــازلكم لتقومــوا بحمايتها ولتصونوا نساءكم وأطفالكم وأموالكم. كل كلمة فيهــا غــش تكشــف عــن قلــوب مشحونة بالبغض والدس.

وفريق ثالث من هــؤلاء المنــافقين يــأتي للنبــي ﷺ مظهــرا أنــه لا يتحــرك إلا بإذنــه، طلبوا منه أن يأذن له في الرجوع إلى منازلهم، متعللين كــذبًا بــأن موقــع ديــارهم موقــع غير حصين لا يــأمنون أن يهجــم الغــزاة عليهــا، فيســتولون علــى الأمــوال ويســبون النساء والذراري . كذبهم الله بأن بيــوتهم محصــنة بالخنــدق الــذي أوقــف المهــاجمين. وعزيمة الجيش الإســلامي ومعنوياتــه تحمــيهم، وهــم فــي أطــراف المدينــة، فليســوا معرضين أولا للغزاة. إنهم لا يضمرون إلا شيئا واحــدا، هــو أن يفــروا مــن المعركــة، وأن يكون فرارهم فاتحا لخروج غيرهم من صــفوف الجهــاد، ومــا كــان فــرارهم مــن ساحة القتال بهذه التعلة إلا لما يحملونه من بغض وكراهية للإسلام .

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

قطر : الناحية .

الفتنة: فتنة المسلمين والكيد لهم بما فرق أمرهم.

التلبث : اللبث، والمكث.

لا يولون الأدبار : لا يفرون.

مسؤولا : محاسبا على الوفاء به.

العصمة : الوقاية مما يكرهه المعصوم.

ولي: يتولى نفعهم

بيان المعنى الإجمالي :

مما يحقق كذب المستأذنين، وقصدهم الفرار، أنه لــو اجتاحــت جيــوش الأعــداء المدينــة من جميع جوانبها، ثم طلب الغزاة منهم أن يبثــوا الفتنــة فــي صــفوف جــيش الإســلام،

لفعلوا. وهم لشدة بغضهم للإسلام فإن الغزاة لا يبقونهم في المدينة إلا وقتا قليلا، إذ يستولون على أموالهم، ويأسرونهم. إنها ليست الأولى منهم فإنهم قد خذلوا المسلمين في غزوة أحد، ولما انكشف أمرهم، أظهروا الندم والتوبة وعاهدوا الله ورسوله أنهم لا يفرون في المستقبل. وإذا كان من شأن المنافقين أنهم لا يحفظون عهودهم، فإن عهودهم مع الله لابد أن يحاسبوا عليها، وأن ينالوا العقاب المناسب لغدرهم.

أَيْقِظْهُمْ، وقل لهم إنكم تقدمون التبريرات الكاذبة، وتفرون من المعركة ظنا منكم أن فراركم يحفظ عليكم حياتكم فلا تموتون ولا تقتلون. وهذا تقدير سخيف وسذاجة. فإن كل فرد لا بد أن يلقى حتفه بالموت أو القتل. الحياة الدنيا قصيرة فانية.

قل لهم أيضا: من الذي يستطيع أن يحميكم من تصرف الله ؟ فإذا أراد أن ينزل بكم ضرا فمن الذي يمنعكم من عذابه ؟ وإذا أراد أن ينزل عليكم رحمته، فمن يستطيع أن يمنع وصولها إليكم ؟إنهم لا يجدون وليا يصل بينهم وبين النفع، غير الله، ولا يجدون نصيرا ينصرهم في حربهم غيره .

بيان المعنى العام :

14- ولو دخلت عليهم من أقطارها......إلا يسيرا.

تكشف الآية عن دخيلة المستأذنين الذين كذبهم الله " **وما هي بعورة** "فتضيف الآية إنهم لكرههم للإسلام وبغضهم له، يكون موقفهم: أنه لو فرض أن الغزاة دخلوا المدينة من جميع جهاتها، فجاست خيولهم خلال جميع الديار التي منها ديارهم، ثم طلب الغزاة منهم أن يبثوا الفتنة في صفوف المسلمين، بما يلهيهم عن المقاومة لأسرعوا لذلك، لأنهم من شدة حقدهم يقدمون خذلان المسلمين على ممتلكاتهم وأهليهم. لقد أعماهم الحقد فهم لا يقدرون الأمور حق قدرها، إن أمنهم وكذلك حريتهم لا يضمنها إلا المسلمون الذين هم أوفياء بعهودهم، وأما الغزاة فإنهم لو انتصروا فإنهم يستولون على أموالهم ولا يبقونهم في ديارهم إلا وقتا يسيرا ثم يأخذونهم أسرى أذلاء. هذا ما أداه لي التأمل في نص الآية . وقد عبر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور على صعوبة فهمها، ولم يرتض إلا بعض ما ذكره الزمخشري، وأن ابن عطية أوضح منه. وجميعهم حملوا **وما تلبثوا بها** على معنى: ما أبطأوا بالفتنة إلا يسيرا من الوقت . ويعلق الشيخ ابن عاشور: يظهر أنه تهكم بهم .

15-ولقد كانوا عاهدوا الله ....وكان عهد الله مسؤولا.

هؤلاء الذين استأذنوا وكشفهم القرآن، أنهم كَذَبَة لا يريدون إلا الفرار. ثم فضحتهم هذه الآية، ذلك أن بني سلمة المستأذنين، قد خذلوا المؤمنين في غزوة أحد، ثم

أظهروا توبتهم وعاهدوا الله عهدا موثقا أمام الرسول وأمام المسلمين، عقب توقيفهم على تخاذلهم، أنهم لا يفرون في المستقبل لأي سبب من الأسباب. ثم إنهم في هذا الظرف العصيب الذي تداعت فيه قوى الشرك الباغي، وتألبت لكسر الإسلام، يولون الأدبار ناقضين عهدهم متعللين، وهم كاذبون بخوفهم على الأموال والذراري. إنهم منافقون وشأن المنافق أنه لا يرعى عهوده، ولا يهمه الوفاء بها. وما علموا أن عهد الله يحاسَبُ عليه المعاهِد حسابا يتبعه الجزاء المناسب لإخلاف الوعد.

16.قل لن ينفعكم الفرار....لا تمتعون إلا قليلا.

كاشفهم بالحقيقة التي خفيت عليهم لظلمة النفاق المغطي بصائرهم وقل لهم: إن قصدتم بالاستئذان أن تحصنوا أنفسكم من الموت أو القتل، فأنتم واهمون. إن الفرار لا ينفعكم في تحقيق ما قصدتم. ولا يترتب على الفرار أي نفع لكم، وأن كل فرد يموت حتف أنفه، أو يقتل، ولا خلود لأحد. وأنتم لا تعلمون متى سيحل انتهاء حياتكم الدنيا، وليست على كل حال إلا أياما قليلة، شأن الدنيا الفانية.

17.قل من ذا الذي يعصمكم....من دون الله وليا ولا نصيرا.

عرِّفْهم بأن الله مالك أمرهم يتصرف فيهم كما يشاء، ولا يشاركه أحد في تنفيذ ما قدره وأراده لهم .قل لهم :من الذي يستطيع أن يمنعكم ويحميكم من السوء الذي قدر أن يسلطه الله عليكم ؟لا أحد. وكذلك لا أحد يمنعكم من نول الرحمة التي قدرها لكم.

واعلم يا محمد أنهم لا يجدون من دون الله، من يتولى نفعهم، ولا يجدون نصيرا ينصرهم غير الله في الحرب، فما ينسجونه من الحيل لا يفيدهم شيئا.

۞ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

المعوقين: الباذلين جهدهم لمنع المجاهدين، وتثبيطهم.

هلم: أقبلوا.

الباس : القتال

الشح : منع المقدور على بذله من مال أو عون.

جاء: حصل.

الخوف : القتال.

تدور أعينهم: متقلبة في سرعة إلى جميع الجهات فكأنها حركة دائرية.

سلقوكم : رقوا أصواتهم

حداد : نافذة.

يودوا: أصلها يحبوا، والمراد أنهم يسعون لتحقيقه، شأن المحب للشيء.

بادون : مقيمون في البادية .

الأعراب : سكان البوادي.

الأنباء : جمع نبأ وهو الخبر.

أسوة : قدوة.

بيان المعنى الإجمالي :

يسعى المنافقون بكل ما لديهم مـن مكـر وتلفيـق للأخبـار، أن يـؤثروا فـي المجاهـدين تأثيرا يمنعهم من القيام بواجبهم . ومن ناحية ثانية يدعون مـن توثقـت بهـم الصـلة إلـى الإقبال عليهم لينالوا مما أعدوه من مآكل ومشارب. يفعلـون كـل هـذا فـي خفـاء، والله مطلع عليهم ويخبر رسوله بما صدر عنهم. كمـا يعلـم سـبحانه أنهـم لا يشـاركون فـي القتال إلا مشاركة قليلة لا تغني. تمكن الشح مـن نفوسـهم فـلا يسـاعدونكم لا بمـال ولا بإعانة لشدة بغضهم لكم. هـذه صـورة المنـافقين. فـإذا حضـر القتـال وكـانوا عنـدك تراهم مضطربين تتحرك أعينهم في كل اتجـاه وضـعهم وضـع الـذي يعـاني سـكرات الموت. وفي المقابل تجدهم بعد ذهـاب الخـوف مـن الجهـاد تطـول ألسـنتهم، وترتفـع أصواتهم يلومونكم على مواقفكم من المشركين، المواقـف التـي أثَـارَتْهمْ فقـدموا علـى المدينة غزاة .هم منافقون لأنهم لا يضمرون لكـم أي خيـر ولا يقـدمون لكـم أي عـون. أولئك المنافقون الذين يظهرون الإيمان، الله يعلم أنهم كفـار، وأبطـل كـل أعمـالهم التـي ظاهرها الصلاح. إن نفيهم من جماعة الإسلام لا يؤثر.

يظنون أن الأحزاب ما زالوا محاصرين للمدينة فلـذلك رفعـوا أصـواتهم بـالملام. ولمـا تبين لهم ذهاب الأحزاب وانتهاء الحصار، ظنوا أنهـم سـيعودون، ولـذلك هيـأوا أنفسـهم

ليخرجوا إلى البادية مع الأعراب . يتجسسون ليطلعوا على حقيقة أخباركم، ليبلغوها لأعدائكم، وتدبيرهم للخروج من المدينة مع الأعراب لا قيمة له، لأنهم لو بقوا في المدينة ما كانوا ليقاتلوا المهاجمين إلا قتالا لا قيمة له .

بيان المعنى العام:

18ـقد يعلم الله المعوقين....ولا يأتون البأس إلا قليلا.

تحقق هذه الآية أن الله يعلم ولا يخفى عليه شيء من المكر المادي للمنافقين، لتعطيل من يريد الجهاد عن بلوغ قصده، وكذلك ما يدبرونه ويلفقونه من أراجيف ليشككوا ويخوفوا حتى يوقفوا الإقبال على اللحاق بالمجاهدين. هذا ضرب غير مصرح به كشفه الله لرسوله وأعلمه مؤكدا حصوله، حتى يعرِّيهِمْ مما يختفون وراءه من النفاق.

ونوع آخر صريح، يقولون لمن تربطهم به رابطة الصداقة القوية "لإخوانهم ": أقبلوا علينا واغنموا ما هو حاضر عندنا من متع الحياة؛ فذلك خير لكم من حضور مشاهد القتال. فهم يعملون على التأثير بما لهم من صلات سابقة، وما يعدونه من مغريات حاضرة.

والله يرقبهم ويعلم أنهم لا يحضرون مع المؤمنين في مشاهد القتال إلا حضورا محدودا قليلا في زمنه، وفي أثره وغَنَائِهِ .

19ـأشحة عليكم ....وكان ذلك على الله يسيرا.

يواصل القرآن تعْرِيَتَهُمْ وفضحهم فيقول: إنهم يبخلون عليكم بكل عون من المال ومن كل ما يمكن أن يساعدكم، فلا تجدون منهم إلا بخلا وإمساكا عن العون والبذل.

وتُصَوِّرُهُمْ الآية إذا بوغتوا بحدوث القتال وحصوله، وهم عندك، فينكشف أمرهم، ولا يستطيعون إخفاء ما طُبِعوا عليه من الجبن، فيبدو ما يعتمل في خفايا صدورهم على ظواهرهم، وترى يا محمد عيونهم غير ثابتة مضطربة تتحرك حركة دائرية. صورتهم صورة المذعورين الواقعين تحت الشباك، تدور أعينهم مضطربة يمينا وشمالا ومن أسفل إلى فوق، علهم يجدون مخرجا مما هم فيه. فقدوا السيطرة على أنفسهم فهم كحال المغشي عليه وهو يعالج سكرات الموت حذرا وخوفا.

ثم هم بعد انتهاء المعركة تطول ألسنتهم وترتفع أصواتهم، إما باللوم والعَتَبِ على إثارة المشركين حتى قدمت جحافلهم الغازية، وإما بإظهار أنهم شاركوا في الجهاد، فلهم نصيبهم من الغنيمة، وإما بتطاولهم على المؤمنين بالأذى. وقد يكون كل ذلك وقع منهم. والحال أنهم لم يساعدوكم أي مساعدة، وما كانوا في وقت من الأوقات يخشون عليكم فهم كاذبون في ادعائهم أنهم كانوا يخافون عليكم.

بعد تتابع الآيات التي فضحتهم كاشفة عن حقيقـتهم معريــة لهـم مــن كـل مــا اســتتروا به، أشار إليهم إشارة لإحضارهم ليصدر الحكم عليهم. أولئـك لــم يؤمنـوا. نفــى عــنهم الإيمان، وأن حضورهم مع المؤمنين في مجامعهم علــى أنهــم مــنهم، هــو كــذب وزور، وأن ما يقومون به مما ظاهره أنه مــن الأعمــال الصــالحة لا قيمــة لــه ولا وزن عنــد الله. وأن الله لا يرتب لهم عليه أي أجر، فسيبطل أعمالهم.

وإن نفيهم وإخراجهم من جماعــة الإيمــان يَسِـيرٌ علــى الله، يعنــي أنــه لا قيمــة لهــم، ووجودهم مع المؤمنين وزنه معدوم إيجابيا، بل أثره سلبي، فكان إقصاؤهم يسيرا.

20.يحسبون الأحزاب لم يذهبوا....ما قتلوا إلا قليلا.

ذكرنا فيما سبق أن الأحزاب قد اشــتدت علــيهم الريــاح الســافية شــدة خلطــت علــيهم أمورهم، واقتنعوا في وقت قليل أنهم لا يقدرون على البقــاء تحــت قــوة انــدفاع الــريح، وخلخلت الملائكة ثقــتهم فــي أنفســهم فأســرعوا بــالرجوع إلــى ديــارهم تحــت جــنح الظلام. وكان المنافقون يظنــون أنهــم مــا زالــوا معســكرين وراء الخنــدق، ينتظــرون الساعة المواتية للانقضاض علــى المدينــة. ولــذلك رفعــوا أصــواتهم بــالملام والعَتَــبِ على المؤمنين .

وصورت لهم أنفسهم الحاقدة، بعــد تيقــنهم رجــوع الجيــوش الغازيــة، أنهــم ســيعودون لحصار المدينة من جديد. ولــذا أخــذوا يفكــرون كيــف يســتعدون إلــى الخــروج إلــى البادية مع الأعراب الرحل، حتى لا يمدوا المســلمين بــأي مــدد لا مــن المــال ولا مــن الرجال. وأن يبذلوا كل جهــودهم للتعــرف علــى وضــع الجــيش الإســلامي، وأخبــاره ليبلغوها للغزاة.

يعلق القرآن على ذلك: مظهرا تفاهــة وجــودهم فــي المدينــة، بــأنهم لــو كــانوا فيهــا ورجع العدو، فهــم لا يســاعدون فــي قتــال المغيــرين إلا بالتافــه الــذي لا يــؤثر فــي المعركة. فهم لا وزن لهــم حضــروا أو غــابوا . بــل يكــون خــروجهم للباديــة رافعــا لشيء من شرهم.

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ
ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ
وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَـٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ
صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ
تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ

يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

صدق وعده : وفى به.

النحب : النذر الملتزم به. وقد يتجوز به فيطلق على الموت.

الغيظ: الحنق والغضب.

كفى : أغنى.

قويا : قادرا .

بيان المعنى الإجمالي :

هي الحقيقة التي أخرجت للعالم نمطا من الرجال تمت صياغتهم في ظرف وجيز، وهي المنة الكبرى على المؤمنين بربطهم برسول الله ﷺ، المثل في الكمال الإنساني في روحه وعقله وسمته وخلقه، وفي منهجه، بما يحقق السعادة في الدنيا وفي الأخرة. عاشوا معه، وتأثروا به ووجدوا فيه القدوة الحسنة، والمثل الكامل، فاقتبسوا منه ما اقتبسوا، كل على قدر طاقته، حتى كانوا قمة الرجال الكُمَّلِ في التاريخ الإنساني. هو مثل أعلى لمن كان يرجو رضوان الله والفوز في الآخرة. ولمن يذكر ربه ذكرا يقربه منه.

وإليكم صورة من نمط هؤلاء الرجال، فإنهم لما رأوا جيوش الشرك تحاصر المدينة وبلغ عددهم أربع مرات عدد الجيش الإسلامي، مع قوة في السلاح، لما رأوا الأحزاب متأهبين أشد أهبة للقضاء على الإسلام وعلى المدينة ومن فيها. أعلنوا في وثوق تام: هذا الذي نشاهده هو ما وعدنا الله أن يحدث، وأن ننتصر عليهم، وهو الذي أعلمنا به رسول الله يوم أخبرنا: أن المشركين مع اليهود تحزبوا لغزو المدينة، وشرعنا عندها في حفر الخندق، وأعلمنا أننا سننتصر. وقالوا: صدق ربنا، فما وعدنا به حق ثابت، لا يخلف الله عده. فبهذا التهديد العظيم من الغزاة المتجبرين نصع إيمانهم، وزادوا تسليما وطاعة لما يأمرهم به الله ولما يطلبه منهم سيدنا رسول الله ﷺ .

ثم أثنى القرآن على طائفة من الرجال صرحوا بأنهم يعاهدون الله على الصدق في الجهاد، حتى تتحقق لهم إحدى الحسنيين النصر أو الشهادة. ثم إن بعضهم عرض له الميدان الذي حقق فيه ما وعد به، وبعضهم ينتظر أن تتاح له الفرصة والعزم ثابت لم يتغير.

ثم ما قدره الله ليجزي الصادقين الثـابتين الجـزاء الحسـن بسـبب مـا أبلـوه، وليعـذب المنافقين الذين صمموا على النفاق إلى الموت، ويتـوب علـى المنـافقين الـذين اسـتفاقوا فتابوا. والله غفـور يمحـو ذنـوب التـائبين، رحـيم يثيـبهم. والله سـبحانه بقدرتـه رد الكافرين المهاجمين إلـى الأمكنـة التـي انطلقـوا منهـا خـائبين . ولطـف بـالمؤمنين فنصرهم على أعدائهم وكفاهم القتال الـذي يمكـن أن تصـحبه بعـض الخسـائر. وقـد ثبتت لله منذ الأزل القوة التي لا تغلب، والعزة التي لا تضام.

بيان المعنى العام :

21ـلقد كان لكم في رسول الله.....وذكر الله كثيرا.

بعد أن تتبعت الآيات السـابقة مواقـف المنـافقين، وتخـاذلهم وتخـذيلهم؛ حـول القـرآن بيانه للحديث عن المؤمنين الصامدين . فافتتح هذا التحـول بـإعلان السـر الـذي سـجل به الصحابة رضوان الله عليهم تلكم الصورة الرائعـة مـن الثبـات والشـجاعة والبـذل. إنه الإسلام يسمو بالإنسان، ويرتقي به في وقـت قصـير جـدا، الأمـر الـذي يسـتدعي حسب طرق التربية الأخرى تتابع أجيال ليتم مثل ذلكـم التحـول. مـا هـو السـر؟ هـو في القدوة الحسنة التي بلغت حد الكمال الإنساني مـن جميـع الجوانـب: الروحيـة منهـا، والفكرية والحياتية والخلقية، ولعل أحسن من فَصَّـلَ ذلـك القاضـي عيـاض فـي كتـاب الشفاء . فتحول بالاقتداء برسول الله ﷺ جيـل الصـحابة تحولًـا تكونـت بـه شخصـيات أصبحت بدورها مثالا وقدوة. فما كان ﷺ يـدعوهم إلـى الحيـاة الآخـرة بمفردهـا، ولا هو يعنى بتنظيمهم دنيويا لتكون لهم القوة والمنعة، بل كـان منهجـه أن فـي كـل عمـل دنيوي نظرة إلى الحياة الآخـرة، وتآلفـت الحياتـان فـي نفـس صـحابته، حتـى تـرى الواحد منهم معتزا بدينه وأمته عزة لا يـرى، لأحـد سـوى الله، سـلطانا عليـه، وتـرى الواحد منهم إذا ذكر بآية من آيات ربه خضـع واسـتكان، تجـري دموعـه مـن الخشـية في الله والحب لله. بذلك انتصروا .

في هذه اللفتة القرآنية يسطع المنهج الإصلاحي في الإسـلام: هـو فـي القـدوة الحسـنة. سواء في ذلك الإصلاح الديني أو الإصلاح الـدنيوي. وكـل داعيـة للإصـلاح لا يكـون قدوة هو فاشل، يذهب جهـده ضـائعا، ومصـير الحمـاس الـذي يحركـه ارتـداد إلـى الوراء.

22ـولما رأى المؤمنون الأحزاب....إلا إيمانا وتسليما.

هذا فعل القدوة الحسنة .قارن صورة المنافقين وهـم مرتبكـون وجلـون، كأنمـا يعـانون سكرات المـوت، ونفسـياتهم الهابطـة المتلونـة متهالكـة، علـى مـا فصـلته الآيـات السابقة، قارن تلك الصـورة بصـورة المـؤمنين حـول رسـول الله ﷺ . رأى الصـحابة

رضوان الله عليهم، جيوشا جــرارة وأســلحة وعتــادا، لا يحجــزهم عــن الهجــوم علــى المدينة إلا الخنــدق الــذي حفــروه. إنهــم ليســوا متهــورين حتــى يخيــل إلــيهم أنهــم يستطيعون سحق المهاجمين بما لهم من قــوة، **فقــد ابتلــي المؤمنــون وزلزلــوا زلــزالا شديدا** "الآية 11" هم قدروا خطر الموقــف حــق قــدره، ورجعــوا إلــى معــين الإيمــان يستمدون منه توجيها، وقالوا: هذا الذي نشاهده غيــر مفــاجئ. فقــد وعــدنا الله ورســوله أنه سيفتح علينا فيه بنصر قريب. نعم نــزل علــيهم فــي ســورة البقــرة :**أم حســبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثــل الــذين خلــوا مــن قــبلكم مســتهم البأســاء والضــراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معــه متــى نصــر الله ألا إن نصــر الله قريــب** "الآية 214" وهذا ما وعدنا رسوله : فقــد أعلمهــم أن الأحــزاب تجمعــوا وهــم قــادمون عليكم فاستعدوا للدفاع عن الإســلام، وإن الله سينصــركم علــيهم . وشــرعوا فــي حفــر الخندق الذي كان الخط الدفاعي الأول عن المدينة. أنجــزوه فــي مــدة قصــيرة جــدا لــم تبلغ عشرة أيام والرسول ﷺ يعمل معهــم. ســرى مــن الإيمــان فــيض ثبــت القلــوب، وغسل ما تحدثت بــه أولا، وقــالوا: صــدق الله. فمــا وعــدنا لا ريــب فيــه، وصــدق رسوله أيضا. فزادتهم هذه التأملات نصاعة في إيمانهم وتسليما وانقيادا للطاعة .

الإيمان يقين . بمعنى أن الحاصل في العقــل بلــغ درجــة مائــة فــي المائــة، وإذا كــان كذلك فما معنى النصوص القرآنية والســنية التــي ذكــرت زيــادة الإيمــان كهــذه الآيــة؟ الذي أفهمه أن اليقين يكون كامنا في العقل مثبتــا لموضــوعه ثباتــا لا يقبــل الزيــادة ولا النقصان؛ ولكن هذا الحاصل الإيماني لــه مراتــب فــي التــوهج، وبالتــالي فــي التــأثير على ميادين أخرى يفعل فيها فعلــه. فالإيمــان بــالله وحــده إلهــا لا شــريك لــه، قــدر مشترك بين المسلمين جميعا. ولكن الذي يواصل التأمل فــي الفعــل الإلهــي فــي الكــون، ويتابع التعمق في تصرفه، ويجهد للكشف عــن أســرار الخلــق، ويصــبر علــى البحــث حتى تتجلى له خفايا وحقــائق تبهــر فكــره بمــا لحظــه مــن انســجام وارتبــاط ودقــة متناهية. إنه في هذا الظــرف الــذي انبلجــت فيــه حقيقــة يجــد مفهــوم الألوهيــة أشــد حضورا وأبلغ نصاعة قبل أن ينكشف له ما كــان مســتورا. وتجــد المــؤمن يقبــل علــى الذكر والصلاة في جوف الليل وعند ســكون الكــون، لا يقطــع تأملاتــه صــوت ناشــز، ولا صورة لافتة، ويقف عند الآية يتملاها، ويــنغمس فــي أبعادهــا، وتأخــذه كــل مرتبــة إلى مرتبة أرقى منها، وقد تذرف عينه الــدمع للإحســاس الــذي يــنعم بــه و لا يقــدر أن يعبر عنه .إن إشراق إيمانه وحضوره لا شك أنه أقــوى ممــا كــان عليــه فــي النهــار وهو يشتغل في التجارة أو الصفق فــي الأســواق. فهــذا هــو معنــى زيــادة الإيمــان . والصحابة في هذا الظرف أيقظوا مــا كــان كامنــا فــي قلــوبهم مــن أن العــزة لله، وأن

نور الرسول ﷺ وهم يعيشون معه ينضم إلى ثقتهم في الله، فتجمع من ذلك حضور الإيمان بأنهم منتصرون لا محالة. وهو معنى زيادة الإيمان. والله أعلم.

23.من المؤمنين رجال صدقوا....وما بدلوا تبديلا.

ثناء على المؤمنين، وتنويه بطائفة منهم "رجال"، ولا يدل الثناء عليهم أن غيرهم ليس على شاكلتهم، ولكن الآية تعرضت فقط لواقعة أثنى الله فيها على رجال ثَنَاءَيْنِ: ثناء، أنهم من المؤمنين فوصف الإيمان هو الذي سلك بهم المسلك المنوه به، وثناء لأنهم عاهدوا الله عهدا بالثبات في ساحة القتال ثباتا يفضي بهم إما إلى النصر، وإما إلى الاستشهاد .ثم قسمهم إلى قسمين

الأول: من حضر الجهاد فوفى بما عاهد عليه الله من الثبات، فما ارتعد ولا هان ولا توقف عن المضي إلى النهاية التي التزم بها. وهو معنى قضى نحبه، أي وفى بنذره المؤكد. وهذا أصل كلمة النحب في العربية، تفيد النذر المؤكد. ولما كان الموت يشبه النذر المؤكد المحتم وقوعه فقد تطلق كلمة النحب على الموت، فيقال قضى نحبه، أي مات. ومن الذين عينهم المفسرون، أنس بن النضر، عم أنس بن مالك رضي الله عنهم .فإنه لما لم يشهد غزوة بدر مع رسول الله ﷺ، كبر عليه ذلك وقال: والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله ﷺ ليريَنّ الله ما أصنع. فشهد غزوة أحد وأبلى البلاء الحسن حتى قتل، ووجد في بدنه أكثر من ثمانين جرحا رحمه الله.

والثاني: من لم يتغير عزمه وهو مصمم على الوفاء ولكنه ينتظر حضور المشهد الذي يكشف عن وفائه. وكلاهما مثني عليه لأنه ما بدل ما عاهد عليه الله تبديلا.

24.ليجزي الله الصادقين...كان غفورا رحيما.

هذه هي الغاية التي قررها الله سبحانه لكل فريق من الذين اضطرب بهم المشهد في هذه الغزوة، أجراها حسب علمه ليرتب على صدق الصادقين الجزاء الحسن، وليرتب على المنافقين الذين أقاموا على النفاق العذاب الذي يكون كفاء الشر الذي عملوه، وليرتب على النفاق الذي نطهر منه أهله بالندم والتوبة، مغفرته. يحقق ذلك أن الله متصف بالمغفرة والرحمة اتصافا أزليا سرمديا. وتعليق عذاب المنافقين بالمشيئة ليبين لهم أن خسرانهم للعاقبة ليس حتما لا مرد له، بل يمكن أن يرتفع عنهم وذلك إذا تابوا، فالقرآن يجلبهم إلى التوبة، بإمكان غفران ذنوبهم.

25.ورد الله الذين كفروا بغيضهم....وكان الله قويا عزيزا.

بعد أن وضَّحَتْ الآية السابقة الغاية التي قدرت لكل فريق، تكفلت هذه الآية بتسجيل الصورة التي بها انتهى الهجوم. أرجع الله جنود الأحزاب وهم"**الذين كفروا**" إلى

المنطلقات التي خرجوا منها خائبين خاسرين، لم يتمكنوا من تحقيق أي خير مما حدثتهم أنفسهم به عند زحفهم، يأكل قلوبهم الغيظ الذي يلتهب في صدورهم. زحفوا على المدينة متوقعين أن ينتقموا من المسلمين قتلا وأسرا، وأن يضربوا الإسلام الضربة القاضية، وأن يغنموا أموال المدينة، وأن يسبوا ما أمكنهم سبيه من البشر. دفعتهم الكراهية لتدبير هذه الحملة، فخابت كل آمالهم، ووجدوا أنفسهم قد خسروا الأموال، ومات منهم من مات، وأجبروا على الفرار. عبر القرآن عن كل ذلك "**بغيظهم لم ينالوا خيرا**" ومع إظهار الشماتة بهم يصرح ما جناه المسلمون: أن الله كفاهم القتال، فلم يخسروا مالا ولا رجالا. وما تم هو فضل الله عليهم، فإن الله أسعد بقوته التي لا تغلب، وبعزته التي لا يقوم أمامها معاند، ما أنجزه في هذه المعركة.

وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

أنزل : أهبط .

ظاهروهم : أعانوهم وآزروهم.

الصياصي : جمع صيصة وهي الحصن .

القذف : الإلقاء السريع.

لم تطأوها : لم تنزلوا بها غزاة.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن رجع الغزاة إلى منطلقاتهم خائبين، وعاد النبي ﷺ إلى بيته ظهرا، نزل جبريل يعلمه: أن لا يستريح، ليخرج غازيا لبني قريظة الذين خانوا العهد وغدروا وأعانوا الأحزاب. واستجاب المسلمون لدعوة الجهاد، ونزلوا حول ديار بني قريظة الذين أغلقوا عليهم حصونهم، فحاصرهم المسلمون نحوا من خمس وعشرين ليلة، إلى أن انخذلوا ودخل الرعب في قلوبهم، فرضوا بأن ينزلوا من حصونهم، وأن يحكم فيهم سعد ابن معاذ ﷺ. وحكم سعد فقضى بقتل المقاتلة، وسبي الأموال والعيال والأطفال. ونفذ الحكم. ثم وعد الله المؤمنين أن هذا النصر ستتلوه انتصارات مثله، وأنهم سيرثون أراضي أخرى، وتتوسع أرض الإسلام إلى ما وراء الجزيرة العربية. وتمت البشارة والحمد لله.

بيان المعنى العام :

26←27 : وأنزل الذين ظاهروهم ...على كل شيء قديرا.

تسجل هذه الآية ما تبع تولّي الأحـــزاب مهـــزومين خـــائبين. أوى النبـــي ﷺ ظهـــرا إلـــى بيته، فنزل عليه جبريل يبلغـــه : أن الله يـــأمره أن يغـــزو بنـــي قريظـــة الـــذين غـــدروا، ونقضوا العهد الموثق بينهم وبين رســـول الله ﷺ، وأعـــانوا الأحـــزاب بتـــدبير مـــن حيـــي بن أخطب النضري. فنادى رسول الله ﷺ في النـــاس: لا يصـــلين أحـــد مـــنكم العصـــر إلا في بني قريظة ! كانت منازلهم وحصـــونهم بـــالجنوب الشـــرقي مـــن المدينـــة. اســـتجاب الصحابة للنداء وتوجهوا زرافات ووحدانا إلـــى بنـــي قريظـــة . وحضـــر وقـــت العصـــر وهم في طريقهم؛ ففهم بعضـــهم الأمـــر علـــى ظـــاهره، فلـــم يتوقـــف ليصـــلي العصـــر وواصل طريقه إلى أن وصل إلى مقصـــده بعـــد العشـــاء، وفهـــم فريـــق آخـــر أن نـــص النداء قصد به التأكيد وعدم التباطؤ، إذ لا مزيـــة لأرض بنـــي قريظـــة ليصـــلى العصـــر فيها، فتوقف وصلى، ثم واصل طريقه .ولم يخطـــئ النبـــي ﷺ أيـــا منهمـــا .فكـــان ذلـــك دليلا على أن المجتهد إذا قاده اجتهاده، المبني على النص إلـــى حكـــم، أنـــه لا إثـــم عليـــه وهو مأجور، ولو تناقض الاجتهادان .

احتمى القرظيون بحصونهم، وحاصرهم المســـلمون نحـــوا مـــن خمـــسٍ وعشـــرين ليلـــة، ونزل في قلوبهم الرعب، وأيسوا مـــن أن يصـــلهم أي مـــدد، فـــتم الاتفـــاق بيـــنهم وبـــين رسول الله ﷺ أن ينزلوا من حصونهم **(وأنزل الـــذين ظـــاهروهم مـــن أهـــل الكتـــاب مـــن صياصيهم)**، راضين بـــأن يحكـــم فـــيهم ســـيدنا ســـعد بـــن معـــاذ الأوســـي، آملـــين أن يصانعهم ويشفق عليهم لما كان بينهم وبين قبيلتـــه (الأوس) مـــن حلـــف قبـــل الإســـلام . فحكم فيه سيدنا سعد: أن تقتل المقاتلة، وتسبى الذريـــة والعيـــال والأمـــوال. وكـــان فـــيمن نزل من الحصون حيي بن أخطـــب النضـــري. ونفـــذ حكـــم ســـعد ﷺ . فقتلـــت المقاتلـــة "**تقتلون فريقا** " وأسر الآخرون "**وتأسرون فريقـــا**". "و دخلـــت أرضـــهم وأمـــوالهم فـــي ملك المســـلمين " وأورثكـــم أرضـــهم وديـــارهم وأمـــوالهم "وبشـــر الله المـــؤمنين أن مـــد الإسلامي متواصل، وانهزام الشرك وأهله متجـــدد. فســـيفتح علـــيكم أراضـــي أخـــرى لـــم تصلوا إليها بعد، كـــالعراق والشـــام ومصـــر وإفريقيـــة والأنـــدلس. ويحتمـــل أن يكـــون معنى لم تطأوها : لم تقاتلوا أهلها، كفتح خيبر .والله أعلم .

وختام الآية يحمل بشارة إلـــى المســـلمين حـــول رســـول الله أن الله سيســـعدهم بنصـــره، ويقويهم بقوته .وأن قدرته سبحانه تنجز ما أراده.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ
أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ
ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ
مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

تعالين:أقبلن.

أسرحكن:السراح، الطلاق.

جميلا : مقبولا نفسيا لا يصحبه غضب.

الفاحشة : المعصية.

بيان المعنى الإجمالي :

نال المؤمنون في المدينة من غنائم بدر ومن بني قريظة والنضير، ما ظهر في توسعهم في النفقة على عيالهم. ولم يتغير شيء في بيت النبوة، فألح عليه أزواجه ليوسع عليهن في النفقة، وما كان النبيء ﷺ شحيحا، بل هو أكرم الناس، وكان همه في بث الدين والسعي فيما يرضي رب العالمين، وبالَغْنَ في الإلحاح فأنزل الله عليه هذه الآية، فعرض الأمر على كل واحدة منهن، إما أن تختار الحياة الدنيا، فيمتعها بعطية مالية، ويفارقها فراقا لا غضب معه ولا كراهية. ومن ترغب منهن في الإقامة معه على نفس الطريقة التي عاشت عليها من قبل، مفضلة طاعة الله وطاعة رسوله معاهدة على ذلك. آملةً في حسن الثواب من الله فهي على علاقتها به. فكلهن عاهدن على اختيار الله والدار الآخرة على متاع الحياة الدنيا، والعيش مع الرسول عيشته المقتنعة باليسير، متعلقة آمالُهن بثواب الدار الآخرة، وأن الله أعد لكل محسنة منهن أجرا عظيما يتجاوز الوصف.

ثم أعلمهن بمقتضيات العهد فناداهن بوصفهن زوجات النبي، يا نساء النبي من ترتكب منكن معصية، وهي عضو من بيت النبوة، يكون إثمها وعقابها مضاعفا، إذ علو مقامهن وكونهن أمهات للمؤمنين يفرض عليهن أن يكنَّ قدوة في الطهر والسلوك الصالح، ولا يشفع في الآثمة أن كانت زوجة لرسول الله ﷺ .

بيان المعنى العام :

28←29: يا أيها النبي قل....منكن أجرا عظيما.

هذا هو النداء الثاني في هذه السورة للنبي ﷺ بوصف النبوة. قوّاه على تنفيذ بدعوته بوصف النبوة، لأن مضمون الآية أمر خطير في حياته. أُمِرَ بأن يعرض

على جميع نسائه أن يخترن بين أمــرين لا ثالــث لهمــا: إمــا البقــاء عنــده، مــع عــدم التوسع في الحياة الدنيا، وإما تمتيعهن ومفارقتهن . ما الذي حدث؟

ليكون معنى الآية أكثر جلاء نذكر مــا قالــه الــرواة فــي ســبب نــزول الآيــة، وهــو يكشف عن صلتها بالآيات السابقة .

لما فتح الله على المؤمنين المهاجرين أمــوال بنــي قريظــة، حســب حكــم ســعد، الــذي خص بها المهاجرين، وأن الأنصار راجعوه فــي حكمــه فأجــابهم: إنــي أريــد أن يكــون لهم أموال كما لكم أموال .توسع المهاجرون فــي النفقــة، ونالــت نســاؤهم مــن الوضــع الجديد ؛ فأخذ نساء رسول الله، ﷺ، يراجِعْنَهُ فــي التوســعة علــيهن فــي النفقــة، يــرغبن أن ينالهن ما نالته المهاجرات. وما تعلق قلــب رســول الله ﷺ بمتــاع الحيــاة الــدنيا. لقــد اختار لنفسه ولأهل بيته عيشة الكفــاف، لا رفضــا للــدنيا، ولا لضــيق ذات اليــد، ولكــن كان ذلك استعلاء عن التعلق بمتاع الدنيا الزائل، ولذا هو لــم يتحــول عــن نظرتــه تلــك لما أفاء الله عليه من الغنائم ومن أمــوال بنــي قريظــة والنضــير مــا أفــاء .مصــمم أن يبقى هو هو في جميع الظروف والأحوال، وأن يكــون بيتــه علــى نفــس الوضــع، قــد لا توقد فيه نار الشهر ونحوه، يتعَلَّلُ بالمــاء والتمــر. لــم تكــن الطيبــات محرمــة فــي شرعه، ولم يحرمها على نفســه، ولا أعــرض عنهــا إن قــدمت لــه. ولكنــه يــأنف أن تتنزل مشاعره للتعلق بهــا والتفكــر فيهــا، تفــرح لتوفرهــا أو تتأســف لفقــدانها .نفســه العالية على مســتوى واحــد متصــلة بــالله ســعيدة بحضــورها عنــده . ســاءه أن يقــع الإلحاح عليه من نسائه أن يتحول عما ألفه وألفنه منــه، ولــم يزجــرهن، ولا أغلــظ لهــن القول .(روى الإمام مسلم بسنده إلى جابر بن عبــد الله أن أبــا بكــر وعمــر رضــي الله عنهما دخلا على رسول الله ﷺ بعد أن استأذنا. فوجــدا رســول الله جالســا حولــه نســاؤه واجما ساكتا، فقال عمر لأقولنّ شيئا أُضْحِكُ به النبــي ﷺ. فقــال :يــا رســول لــو رأيــت بنت خارجة (زوجه) سألتني النفقة، فقمت إليها فوجــأت عنقهــا(طعنتهــا أو غمزتهــا فــي عنقها). فضحك رسول الله ﷺ،وقال : هن حولي كمــا تــرى يســألنني النفقــة، فقــام أبــو بكر إلى عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلــى حفصــة يجــأ عنقهــا كلاهمــا يقــول: تســألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده .فقلن: والله لا نسأل رســول الله ﷺ أبــدا، شــيئا لــيس عنــده. ثم اعتزلهن شهرا أو تسعا وعشرين يوما. ثم نزلت عليــه هــذه الآيــة: (**يــا أيهــا النبــي قل لأزواجك** حتى بلغ **للمحسنات منكن أجــرا عظيمــا**). قــال: فبــدأ بعائشــة، فقــال: يــا عائشة إني أريد أن أعــرض عليــك أمــرا أحــب أن لا تعجلــي فيــه حتــى تستشــيري أبويك. قالت: وما هويا رسول الله ؟ فتلــى عليهــا الآيــة. فقالــت: أفيــك يــا رســول الله أستشير أبوي ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخــرة، وأســألك أن لا تخبــر امــرأة مــن

نسائك بالذي قلت. قال: لا تسألني امــرأة مــنهن. إلا أخبرتهــا. إن الله لــم يبعثنـــي معنتــا ولا متعنتا(العنت التعب والمشقة والمتعنــت الــذي يــدخل غيــره فــي مشــقة ولا ييســر عليه) ولكن بعثني معلما وميسرا)[1] .

وأزواج النبي ﷺ اللــواتي خيــرهن تســع. خمــس قرشــيات :عائشــة بنــت أبــي بكــر الصديق ﷺ، وحفصة بنت عمر ﷺ،وأم حبيبة بنت أبــي ســفيان، وســودة بنــت زمعــة، وأم سلمة بنت أبي أميــة .وأربــع غيــر قرشــيات: ميمونــة بنــت الحــارث الهلاليــة، وصفية بنت حيي الخيبرية، وزينــب بنــت جحــش الأســدية، وجويريــة بنــت الحــارث المصطلقية. رضي الله عنهن .

عرض على كل واحدة على انفــراد، أن تختــار غيــر ملجــأة تبعــا لاختيارهــا، إمــا أن تؤثر ما في الحياة من ترف على الحياة التي تقــدم فيهــا الاشــتغال بالطاعــات والصــبر على الطريقة التي عشن عليها معه من قبــل. عطــف زينتهــا لضــبط أن التوجــه إلــى مباهج الحياة هو في المأكــل والمشــرب واللبــاس. وأن كــل مــن تــؤثر الحيــاة الــدنيا ومباهجها، يدعوها لتَقبُّلَ علــى مــا يترتــب علــى اختيارهــا. يعطيهــا الرســول ﷺ مــا يطيب خاطرها، كما جاء في قولــه تعــالى:(**ومتعــوهن علــى الموســر قــدره وعلــى المقتر قدره متاعا بالمعروف.)**[2] ثم يطلقهــا " **أســرحكن**" طلاقــا لا يصــاحبه بغــض ولا كراهية.

وإما أن تؤثر رضى الله، والبقاء عند رسوله مع الصبر راضــية نفسُــها بمــا يقــدم لهــا، مريدة الفوز في الحياة الأخرة، مقيمة في بيت النبــوة، واحــدة مــن أســرته الكريمــة .إن ما يترتب على الاختيار: أن جزاء كل واحدة قد تم إعــداده علــى قــدر مــا قــدمت مــن صالح العمل، وأحسنت الامتثال لما جاءت بــه الشــريعة، وعلــى جميــع الأحــوال فــإن الأجر المعد لها يوم القيامة أجر عظيم يفوق الوصف.

30ـ يا نساء النبي من يأت منكن....وكان ذلك على الله يسيرا.

خير رسول الله ﷺ نساءه فاخترنه. وإذ التــزمن بــأن يكــن أزواجــه لا يرهقنــه بمطالــب الحياة، ويؤثرن نعيم الآخرة على متاع الحياة الدنيا، فقد ارتقــوا إلــى مرتبــة رفيعــة مــن الكمــال الإنســاني، وأصــبحن أمهــات للمــؤمنين، يحملــن الصــورة العمليــة للــدين الإسلامي، بما كن يأخذنه عن رســول الله ﷺ فــي مباشــرته للحيــاة، وهــي أوســع مــا روي من الســنة العمليــة. إن بلــوغهن هــذا المقــام الســامي يفــرض علــيهن ســلوكا

---

[1] إكمال الإكمال ج4 ص116

[2] سورة البقرة آية236

يتناسب مع علي مقامهن، فنهتهن هذه الآية مفتتحة بندائهن بـ: **يا نساء النبي !** ليكون ما يرد من توجيهات، من متعلقات كونهن أزواجا للنبي عليه الصلاة والسلام، على أن هذا الوصف وصفٌ اختصصن به ولا يشاركهن فيه أية امرأة في الدنيا، فليحرصن على التأمل فيه، وتطبيق ما يهدف إليه، والشعور بعظم المسؤولية .يقول الله لهن: إن كونكن نساء النبي يحملكن مسؤولية عظمى، لا تبيح الترخص ولا الاعتماد على هذه الصلة الزكية النبيلة . هو منهج غير ما عرف عليه نساء معظم قادة العالم ورؤساء الدول: أنهم يبيحون لنسائهم ما هو ممنوع على والأخريات، ويترخصن بمجاوزة الحدود وتخضع الرعية محققة ما يرغبن في تحقيقه. نساء النبي لسن من هذا النمط .من تفعل منهن فعلا قبيحا فاحشة، أي محرما في شرع الله، فإنه لعلو قدرها لا يعفى عنها ولكن يضاعف لها العذاب ضعفين .فقوله يضاعف لها العذاب أصله مائتين في المائة، وزاد ضعفين، والتثنية تفيد التكثير لا بمعنى أربعمائة في المائة، بل هو عذاب كثير، بمقدار شناعة الفاحشة المرتكبة، وبمقدار تأثيرها في المجتمع. وكلمة فاحشة كلما ذكرت في القرآن، فإن كانت منكرة (فاحشة) فهي المعصية، يؤكد ذلك أن الله وصفها بالبيان، إذ فاحشة الزنا لا تكون بينة بل مخفية، وإن كانت معرفة (الفاحشة) فهي الزنا. وتسليط هذا العقاب الشديد يتم فعلا، لا تنفع المرتكبة للمعصية مكانتها من رسول الله ﷺ، وهو معنى: وكان ذلك على الله يسيرا. فكانت هذه الآية عهدا عليهن. قال أبو رافع كان عمر ابن الخطاب ﷺ كثيرا ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب في الصبح، وكان إذا بلغ (**يا نساء النبي**) رفع بها صوته. فسئل عن ذلك، فقال: أذكرهن العهد.

﴿ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ۚ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

يقنت: يطيع ويخضع بالعبودية.

أعدتنا: التيسير والإعداد.

رزق كريم : الجنة.

لا تخضعن : لا تلن.

المرض : الفسق والغزل

القول المعروف : الصواب الذي لا تنكره الشريعة، ولا يستقبح في العادة.

التبرج : إظهار الزينة والمحاسن للرجال.

الجاهلية : الأوضاع التي كان عليها العرب قبل الإسلام.

الرجس :أصله القذر، والمراد به هنا الذنوب والنقائص التي لا تلائم التدين.

بيان المعنى الإجمالي :

دعوة محرضة لنساء النبي كي يجتهدن في القيام بمـا يرضـي الله، ويمكـن رسـوله مـن الحياة الهنيئة التي تساعده على القيـام بمهـام الرسـالة، وأن يعملـن الأعمـال الصـالحة كما وضحته شريعة الله؛ حرضـتهن بـأن أجـر كـل واحـدة تسـتجيب لهـذه الـدعوة، يضاعف لها أجرها لعلو مكانتها، ويمكنها مما أعده من المنازل العلية في الجنة.

ثم ناداهن لينَبِّهَهُنَّ إلى ما يقتضـيه رفيـع مقـامهن، الـذي لا يسـاويه مقـام أيـة امـرأة أخرى. وأن أدب الخطاب يحـتم علـيهن أن يجـزمن فـي كلامهـن، ولا يبـدين مـن الرقة الزائدة التي قد تصدر عن نفس كريمة لينة، ولكـن بعـض الـذين قلـوبهم مريضـة التي لم تشف من عاهة سوء الخلق، وسوء الظـن؛ يصـور لـه الشـيطان أن ذلـك فـتح لباب المغازلة، فيتجرأ على مخاطبتكن خطابا لا يليـق بمقـامكن العلـي. ولـيكن حـديثكن بما هو غير منكر في العادة ولا في الشرع. رقابة اجتماعية، ورقابة إلهية.

وبما أن كل مؤمن مأمور بتبليغ ما يعلمـه مـن شـرع الله علـى لسـان رسـوله، وأنـه يتاح لهن من الفرص ما لا يتاح لغيرهن، باعتبار أنهـن يطلعـن علـى الهـدي النبـوي في الأسرة، وأنهن يتعلمن من رسول الله ﷺ مـا ينـزل عليـه مـن آيـات القـرآن ومـا يفتح له ربه من الحكمة فـي تـدبير الأمـور، ذَكَّـرتهن الآيـة بهـذا الواجـب. وكـان الصحابة رضوان الله عليهم يعودون لنسـاء النبـي يأخـذون عـنهن شـرع الله، وهـدي رسوله. كما عليهن أن يكون ما يسمعنه وما يشـاهدنه مـن رسـول الله ﷺ حاضـرا فـي أذهانهن حضورا يساعدهن على تحقيق ما طلب منهن. لقـد جمـع الله لكـن مـن ألطافـه ما ميزكن، والله خبير بما يجري في نفوسكن.

بيان المعنى العام :

31.ومن يقنت منكن...رزقا كريما.

نبهت الآية السابقة نساء النبي وذكرتهن بمنزلتهن الرفيعــة، لمَّــا يســر الله لهــن أن كــن نساء الرسول صلى الله عليه وســلم وأمهــات المــؤمنين، وأن مقــامهن الرفيــع يتبعــه أن تكون المعصية من أية واحدة مــنهن منكــرة لكونهــا معصــية، ولصــدورها ممــن لــه ذلكم المقام وهو أسوة يقتدى به. فتوعــدت الآيــة مــن ترتكــب معصــية واضــحة أنهــا تعذب ضعف ما يعذب غيرها ممن ليس لــه ذلكــم المقــام وتلكــم المنزلــة. وحرَّضَــتْهُنَّ هذه الآية على ما هــو المؤمــل مــنهن، فــذكرت أن مــن تطــع الله، ممتثلــة لأوامــره، منتهية عن نواهيه، متدرجة في التقرب إليه بــالمنهج الــذي تأخــذه عــن رســول الله ﷺ عبادة وخلقا وسلوكا؛ وتطع الرسول طاعة يجد بهــا فــي بيتــه الســكينة والراحــة التــي ينشدها للقيام بثقل الرسالة، وأكد على جدهن فــي العمــل الصــالح المرضــي، حرضــتهن بأن أجر كل واحدة منهن هو أجــر مضــاعف، إن الله قــد هيــأ لهــن المنزلــة الرفيعــة الكريمة في الجنة. ويمكن أن تفهم الآيــة علــى شــمول الــرزق الكــريم (المتميــز فــي جنسه) في الدنيا أيضا.

32.يا نساء النبي لستن كأحد... وقلن قولا معروفا.

أعاد دعاءهن بالوصف المشرف "**يا نساء النبي**" ليرتــب عليــه بيــان منــزلتهن الرفيعــة، وأنهن وإن كن نساء، فاختصاصــهن برســول الله ﷺ أكســبهن مكانــة لا تشــاركهن فيهــا أي امرأة أخرى. إن النساء وإن كن يتفاضلن فــي قيمــتهن الإيمانيــة والإنســانية فإنــك لا تجد واحدة تساوي زوجات الرسول، مما يفــرض علــيهن أن يكــن متقيــات لله كــأتم مــا تكون التقوى؛ فليس قوله تعالى (**إن اتقيــتن**) مقصــودا بــه الشــرط، بــل المقصــود بــه التحريض وإلهاب الحماس للتسابق في تقوى الله.

ثم فصلت الآية بعض المظاهر السلوكية التــي يمكــن أن تغفــل عنهــا زوجــات النبــي. مما ميز الله بين الجنسين أن الأصل في أصــوات الــذكور أن تكــون قويــة خشــنة، وأن الحبال الصوتية تساعدهن على أن تكون أصواتهن لينــة ناعمــة. فــإذا أضــافت الأنثــى إلى أمر الجبلة قصد أن تزيد في رقــة صــوتها عملــت الغريــزة الجنســية فــي الرجــل على تصور أن تلك الرقة فيها تودد لــه، فربمــا اجتــرأت نفســه علــى تجــاوز الحــديث إلى المغازلة .لما كان هذا المستوى من ترقيق الكــلام قــد يفضــي بالــذين فــي قلــوبهم مرض، بضعف الوازع الديني، الذي يجد به الشــيطان مــا يجرئــه علــى تجــاوز الأدب في القول والظن .ونساء النبــي يجــب أن يكــن فــوق هــذا المســتوى الهــابط لــبعض الرجال، الذين يثيرهم سماع صوت المرأة الرخيم اللين، وإن كانت عفيفة.

33←34: وقرن في بيوتكن ....إن الله كان لطيفا خبيرا.

تابعت هذه الآية تقرير بعض الآداب التي طالب بها نساء النبي. فأمرهن:

أولا: أن يلازمن بيوتهن، وأن لا يخرجن إلا لضرورة وملازمة البيوت فهمتها أم المؤمنين سودة رضي الله عنها، على العموم في الأحوال فكانت لا تخرج لحج ولا عمرة، وسئلت عن ذلك فقالت: قد حججت واعتمرت، وأمرني الله أن أقر في بيتي.

وإذا كانت هذه الملازمة للبيوت وعدم الخروج لغير ضرورة واجبة على نساء النبي، فإن النساء في ذلك العهد وما تلاه يطلب منهن طلبا غير محتم البقاء في بيوتهن. ومضى أمر المجتمعات الإسلامية في المدن على هذه الطريقة، إلى العشريات الأولى من القرن العشرين، ثم شاركت المرأة الرجل في الاقتصاد، وفي مختلف ضروب النشاط، الأمر الذي يفرض عليهن الخروج من بيوتهن .ولما كان الأمر بالنسبة لغير نساء النبي ليس على اللزوم فإن خروج الإناث للعمل لا مانع منه . ولكن على الأنثى عندما تخرج من بيتها أن لا تتجاوز ما هو نافع لنفسها وللأمة، إلى الإثارة الجنسية. فالخروج للمصلحة حلال وإشاعة التحلل والفساد حرام كبير.

ثانيا: أن لا يتبرجن، والتبرجُ عادةٌ كان عليها نساء الفترة التي سبقت الإسلام. تخرج المرأة مظهرة محاسن ثيابها وحليها، كاشفة عن بعض مفاتنها للرجال. ويعجبها أن تستقطب أنظارهم، وأن تُلْفِتَ أعناقهم، وأن تظهر نوعا من الترفع، على أن ما جمعته يعلو بها إلى أن تكون مطمح أنظار الرجال. إن هذا من أخلاق الجاهلية السابقة للتحول الذي رفع أقدار الإنسان، فلا يرضى أن تكون قيمة الأنثى في جمالها، أو في غنجها، وصارخ أنوثتها. وسميت تلك الفترة بالجاهلية لجهل الناس بالله وبشرائعه.

ثالثا: أمرن بأن يحافظن على ماهن عليه من إقامة الصلاة، ليكن على صلة متجددة بالله، وبأن يؤدين ما يجب عليهن من زكاة أموالهن. و بصفة عامة أن يطعن الله ورسوله طاعة، تربطهن بشريعة الله وتبعدهن عن المعصية. وأن يجد النبي ﷺ البيت الذي لا تلهيه مشاكله عن القيام بالمهمة الشريفة التي أوكلت إليه.

ثم حرضهن على تطبيق ما أمرن به، بإعلامهن بالصورة التي يريد الله أن يكون عليها بيت النبوة، من السمو الأخلاقي والنظافة السلوكية، والتسامي عن زخارف الحياة الدنيا، والتعلق بما عند الله .يريد الله أن يكون بيت النبوة البيت الكامل المثالي، البيت الذي لا يتلوث بالمعصية، والتهاون بحدود الله فعلا أو تركا. وبذلك تشيع الطهارة الكاملة المؤكدة.

رابعا: أمِرْنَ أن يكون دورهن فـــي المجتمـــع الإســـلامي، دورا متممـــا لـــدور النبـــي ﷺ. إن النبي ﷺ يبلغ ما جاءه عن ربه، وكـــل مـــن ســـمع منـــه شـــيئا، هـــو مكلـــف بتبليغـــه لغيره. وللرســـول صـــلى الله عليـــه وســـلم مجـــالس يحضـــرها عـــدد غيـــر قليـــل مـــن الصحابة، ولـــيس مـــن الممكـــن أن يحضـــرها الصـــحابة أجمعـــون، ويحضـــره ﷺ مـــن الوقائع ما يبين الحكم المنطبق عليها، وفي جميـــع الأحـــوال الشـــاهد مـــأمور بتبليـــغ مـــا سمعه ووعاه لمن لم يحضر. والنبي ﷺ يهـــدي فـــي بيتـــه بصـــفته أوليـــة إلـــى الصـــورة المثالية للأسرة الإسلامية، ومن حضر هـــذه المشـــاهد هـــن أزواجـــه رضـــي الله عـــنهن، يتولى تعليمهن، ويتلو عليهن ما أنزله الله عليه من آيات القـــرآن، ومـــا يســـعده بـــه ربـــه من إدراك الحقائق على ما هي عليه فيعلن ما آتـــاه ربـــه مـــن الحكمـــة، فهـــن مطالبـــات بأن يبلغن ما سمعن ومـــا شـــاهدن .وقـــد فعلـــن رضـــوان الله علـــيهن. فكـــان الصـــحابة يرجعون إليهن للتعرف على سنة رســـول الله ﷺ، وبخاصـــة فـــي بيتـــه، وفـــي الأحكـــام التي علمهن إياها، ما هو من خصائص النســـاء، ومـــا هـــو أعـــم مـــن ذلـــك. كمـــا هـــن مطالبات أن يكنَّ على ذكر مما رباه عليهن بالآيات والحكمـــة، هـــذا التـــذكر الـــذي جعـــل نور تعاليمه حاضرة دوما فـــي أرواحهـــن، تيســـر لهـــن ســـبل الخيـــر، وتحقـــق إذهـــاب الرجس، والتطهير.

إن الله ثبت له وصف اللطف، فبألطافه تيسر لكـــن الحيـــاة فـــي بيتـــه، وأن تكـــن أزواجـــا له، ورفعكن إلى مقام: أن تصبح كل واحـــدة مـــنكن أمـــا للمـــؤمنين والمؤمنـــات، يحـــق لها من الاحترام والتقدير ما أوجبه نحو الأمهات اللاتـــي ولـــدنهم. وأن تكـــن حملـــة لـــدين الله. وهو الخبير الذي لا تخفى عليه ما انطـــوت عليـــه الصـــدور، الـــذي لا تغيـــب عـــن علمه التطورات التي ستحدث في المستقبل.

إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن تَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

مغفرة : محو الذنوب.

أجر عظيم : ثواب عظيم من فضله.

قضاء الأمر: تبيينه والإعلام به.

الخيرة : الاختيار بين القبول والرفض.

بيان المعنى الإجمالي :

عشر صفات هي جماع ما هدى الله إليه هذه الأمة، بواسطة الكتاب والسنة. حقق فيها أن الفضل في الاتصاف بها لا يتأثر بذكورة ولا أنوثة، فهما سواء في التعرض لفضل الله. ويستوي الجنسان في نيل المغفرة للذنوب، ونيل الثواب العظيم.

وأتبع القرآن التسوية بين الجنسين، بما يحتم على فرد ذكر أو أنثى، أنه إذا علم أن الله حكم بحكم، أو أن رسوله حكم بحكم، أن يطيع ولا يجعل عقله أو عادته أو أهواءه محكمة تتخير فترفض ما تشاء وتقبل ما تشاء. وأن من يعص الله ورسوله ويتبع عقيدة أو تقويما للأعمال غير ما قرره الله ورسوله، فقد حاد عن الطريق المبلغ للنجاح والنجاة، ودخل في متاهات مضللة.

بيان المعنى العام :

35ـإن المسلمين والمسلمات...وأجرا عظيما.

تتابعت في هذه الآية عشرة أوصاف، عطف في كل وصف صيغة التأنيث على صيغة التذكير، ليعقب بالتسوية بين الجميع دون أن يكون للجنس تأثير.و يتبادر سؤال: إذا كانت أحكام الدين تجري عامة على الذكور والإناث، وأنه كلما ذكر التشريع بصيغة التذكير يشمل الإناث قطعا، فلماذا وقع التنصيص بالطريقة التي وردت عليها الآية ؟ وقد ذكر بعض المفسرين روايات متنوعة الجامع بينها: أن بعض النساء أثرن هذه القضية التي حاصلها لما ذا لم يذكرن بخصوصهن في القرآن؟

وقد يكون لتوجه الخطاب لنساء الرسول ﷺ في الآيات السابقة، ما أثارهن لطلب الجواب عن سؤالهن. فأتى الجواب بقرنهن فيما يمكن أن يقوم به المسلم والمسلمة من الخير، ثم بالتسوية بين الذكور والإناث في جزاء لا يتأثر بالجنس أصلا. فلنتتبع هذه الأوصاف واحدة واحدة:

الصفة الأولى: **المسلمين والمسلمات**، وتشمل هذه الصفة الإعلان بالشهادتين، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت. وتطبيق ما شرعه رسول الله من الأحكام في الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وضوابط السلوك.

الصفة الثانية: **المؤمنين والمؤمنات.** والإيمان يتحقـق بالإيمـــان بـــالله ورســـله وملائكتـــه وكتبه واليوم الآخر والقدر. وإذا كان الإيمـــان مقـــدما فـــي الاعتبـــار فلمـــاذا ذكـــر ثانيـــا؟ وقد تكون الحكمة في ذلـــك أن أركـــان الإســـلام هـــي التـــي يـــتم بهـــا تكـــون المجتمـــع الإسلامي في الظاهر فتجري أحكامه. وأمـــا الإيمـــان فهـــو أمـــر بـــاطني لا يعلـــم إلا الله صدق صاحبه.

الصفة الثالثة: **القانتين والقانتات.** والقنـــوت يمثـــل الخضـــوع لله، بـــإخلاص العبـــادة لـــه والخضوع لرسوله خضوعا يقترن بحبه والسعي في مرضاته.

الصفة الرابعة: **الصـــادقين والصـــادقات.** والصـــدق يشـــمل الصـــدق فـــي الكـــلام، فـــلا يتحدث بما هو كذب مخـــالف للواقـــع. ويشـــمل كـــذلك الصـــدق فـــي العزيمـــة بالوفـــاء بالعهود، فلا يخلف عهدا. بما يحقق الطمأنينة في الحياة الاجتماعية.

الصفة الخامسة: **الصابرين والصابرات.** بمعنـــى مقاومـــة المعوقـــات، والمضـــي لتحقيـــق ما عزم عليه بثبات، فتبعثه قوته النفسية علـــى تحـــدي الصـــعاب لينـــال المراتـــب العليـــا في الحياة، وخاصة الصبر على دواعي الشهوة ودوافع الغرائز .

الصفة السادسة: **الخاشعين والخاشعات.** والخشوع حالـــة تصـــحب العبـــادة فترفعهـــا إلـــى مستوى الشعور بالحضور بين يدي الله فتتعلق الـــروح والأشـــواق بـــالمعبود. كمـــا يبعـــث الخشوع لله رقابة على الأعمال بما يتكون منـــه الخشـــوع مـــن خـــوف الـــرفض. فيطـــرد الهواجس وأحاديث النفس والتلهي الصارف عن الله : أن تعبد الله كأنك تراه.

الصفة السابعة: **المتصدقين والمتصدقات،** وتشـــمل الســـماحة بإشـــراك المحتـــاجين فيمـــا مكنه الله منه من أموال، بما يســـاعدهم علـــى رفـــع الخصاصـــة، وذل الحاجـــة. وكـــذلك بعدم البخل بالعون المعنـــوي كـــالعلم والجـــاه. وشـــيوع التصـــدق فـــي المجتمـــع يقـــوي الصلة بين أعضائه. ويرفع صاحبه عند الله مكانا عليـــا، روى الإمـــام مســـلم بســـنده إلـــى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالـــت: قـــال رســـول الله ﷺ : أســـرعكن لحاقـــا بـــي أطولكن يدا. قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يـــدا. قالـــت: فكانـــت أطولنـــا يـــدا زينـــب، لأنها كانت تعمل بيدها وتتصدق. علق عليه القاضـــي عيـــاض: فانكشـــف بمـــوت زينـــب أنه إنما أراد طول اليد بالصدقة. يعبر به عن الجـــود والكـــرم. يقـــال فـــلان: طويـــل اليـــد والباع[1].

الصفة الثامنة: **الصـــائمين والصـــائمات،** والصـــوم وإن كـــان يمثـــل ركنـــا مـــن أركـــان الإسلام، داخل في قوله تعالى: " **المســـلمين**" لكنـــه أفـــرد بالـــذكر تنويهـــا بهـــذه العبـــادة،

---

[1] إكمال الإكمال ج6 ص286

لجمعها لرياضات نفسية عالية؛ فزيادة على أنه مثل حـي للعـزم، هـو عبـادة أبعـد مـا تكون عن الرياء. ولذا ورد في الحديث القدسي الصحيح: الصوم لي وأنا أجزي به.

الصفة التاسعة: **الحافظين فروجهم والحافظات**، وليس المـراد بـه التنـزه عـن الإشـباع الجنسي، إذ الرهبنة بدعة مسيحية مخالفـة للمـنهج الإسـلامي، بـل إن الإسـلام يـرى في الإشباع الجنسي بين الزوجين ما يترتب عليـه الأجـر، متـى استحضـرا الاسـتجابة للفطرة ولما أذن الله فيه. والفوضـى الجنسـية مخربـة للمجتمعـات بمـا يتبعهـا مـن اختلاط الأنساب، وانخرام البناء العائلي.

الصفة العاشرة: **الذاكرين الله كثيرا والذاكرات**. والـذكر يشـمل الـذكر باللسـان لتحريـك القلب إلى الإقبال على الله، وليـرتبط عقـل الـذاكر وروحـه بـالله. كمـا يشـمل ذكـر أوامر الله ونواهيه عندما ينشط في الحياة، فلا تأخذه الغفلـة الموقعـة فـي الإثـم .وهـو المروي عن سيدنا عمر ﷺ: أفضل من ذكر الله باللسان ذكر الله عند أمره ونهيه.

رتب الله على هذه الصفات ما قدره فـي سـابق علمـه، أنـه هيـأ لأصـحابها المغفـرة لذنوبهم، والأجر العظيم. فهما جانبان: جانب نظافة الصـحائف مـن لـوث الإثـم، فيلقـى ربه نقي السوابق كأنه لم يفـرط فـي واجـب كامـل حياتـه، ولـم يقـتحم معصـية . والجانب الثاني هو تعمير صـحائفه بالحسـنات، كمـا قـال تعـالى: **أولئـك يبـدل الله سيئاتهم حسنات**[1]. وفضل الله عظيم، ورحمته وسـعت كـل شـيء. نسـأله سـبحانه أن يجعلنا من المشمولين بهذا الوعد الكريم.

36.وما كان لمؤمن ...فقد ضل ضلالا مبينا.

افتتحت الآية بهذه الصيغة الخاصة: **وما كان** لـــ، وهـي صـيغة تفيـد نفـي مـدخولها من الوجود مبالغة في رفضه .يفهـم منهـا أنـه لا يتصـور أن يجتمـع الإيمـان فـي رجل أو امرأة، في واقعة قضى الله ورسوله فيهـا قضـاء، وألـزم حكمـا،،مع تصـور ذلك المؤمن وتلك المؤمنة أنه مختار في الأخذ بالحكم أو رفضه.

هذا وقد نقلت روايات كثيرة فـي سـبب النـزول، ونـص الآيـة أعـم مـن أي سـبب خاص. وأن الآية تقرر منهج الإسلام الذي يلزم كل مـؤمن وكـل مؤمنـة أن تقبـل حكـم رسول الله، ولا تجعل العقل أو العادة قيما على شرع الله.

---

[1] سورة الفرقان آية 70

لقد ابتلينا في عصرنا هذا بمن يزعم أنه لا يأخذ الحكم إلا من القرآن، وينسب نفسه باطلا إليه (قرآني) وهذه الآية تبطل زعمه وتكشف زيفه، وكذلك قوله تعالى: **من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا** [1] .

قاعدة عامة : أن كل من بلغه ما اختاره الله من تشريع أو هداية للناس، أو ما فهمه الرسول عن ربه فبلغه للناس، أن كل من بلغه ما اختاره الله ورسوله، ثم أعرض عنه وحكم عقله أو هواه أو عاداته، يتحقق فيه أنه قد ضل ضلالا بينا واضحا. ذلك أن منهج الله ورسوله منهج واحد لا يختلف، وغير ذلك مسالك مختلفة متناقضة يضل من اتبعها ضلالا لا يتوقع لنفسه مخرجا منه.

وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

أنعمت عليه : أعتقته.

أمسك عليك زوجك: لا تطلقها وواصل حياتك الزوجية معها.

مبديه : مظهره .

تخشى الناس : تكره ما يتحدث به المنافقون.

قضى : أتم وبلغ الغاية.

وطرا : الحاجة التي بها تم الزواج بينهما.

فرض الله له : قدره وأذن له فيه.

السنة : السيرة التي يلزمها صاحبها.

---

[1] سورة النساء آية 80

الذين خلوا من قبل: المرسلون السابقون.
قدرا: مقدرا على حكمة أرادها الله في ذلك الأمر..

بيان المعنى الإجمالي:

تذكر ما أذنا لك فيه، يوم جاءك زيد يستشيرك في طــلاق زوجــه، فنصــحته بــأن يبقــي على علاقتهما ولا يطلقها. وأن يلتزم تقوى الله في معاملتهــا. وعبــر عــن زيــد "**بالــذي أنعم الله عليه**" لهدايته للإسلام، وأنعمــت عليــه فأعتقتــه وربيتــه. وكنــت فــي الوقــت الذي تبذل نصحك، تعلم أن زيــدا ســيطلق زوجــه، وأنــك ســتتزوجها بنــاء علــى مــا أعلمك به جبريل. فأخفيت ذلك في نفسك ولم تبح به. وكنــت تخشــى أن يــؤثر ذلــك فــي نشر الدعوة بما يتهمك به المنافقون. ولما كان زواجــك منهــا بــإذن ربــك فــلا تخــش أحدا إلا الله .ثم إن زيدا طلق زوجه فخطبها النبــي ﷺ، وتــزوج بهــا. ومــن حكمــة مــا قدره رب العزة، أنه بزواج النبي ﷺ من زوج متبناه، ارتفــع مــا يجــده مــن فعــل ذلــك من الحرج . لنا في رسول الله الأسوة الحسنة.

انتفى عن النبي أي حرج عندما تزوج من زينب، فــلا هــو ملــوم ولا عَتَــبَ عليــه فــي أمر أذن له فيه ربه . وهذا أمر ليس خاصا به، بــل ذلــك ســنة الله مــع المرســلين مــن قبله. وثبت أن أمره وشرعه وإذنه، قــدر صــادر عــن علمــه مقــدر فــي الأزل لحكــم يعلمها. إن رسل الله مهمتهم أن يبلغوا مــا جــاءهم مــن ربهــم، ويشــعرون دومــا بأنــه حاضر معهم لا يخفى عليه شيء من أمــرهم، فهــم يخشــونه ولا يخشــون أحــدا ســواه. وهو سبحانه الحسيب المطلع على كــل خافيــة، المســجّل لكــل مــا يصــدر، فحســاب الناس وتقديرهم لا قيمة له. وختم هذا المقطــع بالتأكيــد علــى أنــه لا صــلة أبُــوَّةٍ بــين النبي ﷺ وبين أي رجل من المؤمنين. ولكن صلة الرسول بأمتــه ثابتــة بمــا يتبعهــا مــن رحمة وحرص على ما يسعدهم. وهو خاتم النبيين لا نبي بعــده، فلــيس لــه ابــن حتــى يرث عنه النبوة. وكل ما قدره الله وأنجزه ونفذه مما ذكــر فــي الآيــات الســابقة صــادر عن العليم العلم الشامل .

بيان المعنى العام :

37 – وإذ تقول للذي أنعم الله عليه....وكان أمر الله مفعولا.

افتتاح الآية القرآنية بكلمة إذ، الظرف، وردت كثيــرا فــي القــرآن. ويربطهــا المفســرون بكلمة مقدرة: واذكر. ويرى الشــيخ ابــن عاشــور أن المقــدر لا يناســب أن يكــون هنــا اذكر؛ لأن ما يرد بعدُ، لا يلتئم مع ذكــر اللســان؛ إذ لا تقصــد الآيــة اذكــر مــا يــأتي للناس، وإنما هي اذكر، بمعنى تذكر في نفسك هذه الحادثــة. وتتمثــل هــذه الحادثــة فــي الفصول الآتية:

الفصل الأول: رجل بين يدي النبي ﷺ يستشيره، عرفته الآية بأنه هو الذي أنعم الله عليه بنعمة الإيمان، وبنعمة الصلاح والهداية من ناحية. وبأنك أنعمت عليه بالعتق والتقريب من ناحية ثانية. وهو زيد بن حارثة الذي كان معدودا ابنا لرسول الله ﷺ، وأنه لما أبطل الله التبني انقطعت هذه الصلة، وبقيت صلة الحب، فكان الصحابة يدعونه : حب رسول الله.

كان يستشيره في طلاق زوجه التي زوجه منها رسول الله ﷺ: زينب بنت جحش بنت عمته . والصلة الوثيقة برسول الله ﷺهي التي جعلته لا ينفذ الطلاق، لخاطر سنح له دون أن يستشير من كان بالنسبة إليه أحب من الولد لوالده. جاءه يشكو إليه أنه تكرر، كلما حصل سوء تفاهم بينهما، مما شأنه أن يحدث بين الزوجين، تتعاظم عليه لما لها من نسب شريف، ومقام اجتماعي منيف. كسرت بذلك عزته. ومما وهَّن الروابط بينهما أن زوجه لم تنجب منه، ومعلوم أن الإنجاب يمتن الصلة ويجعل الزوج يقدر حق الولد في أن يعيش في حضن أبويه. أشار عليه النبي ﷺ أن لا يسرع إلى الطلاق، فهي امرأة صالحة. وأمره أن يتقي الله فيها فلا يتجاوز الحدود إذا هي نشزت عليه .

الفصل الثاني : سجل الله ما كان كامنا في نفس رسول الله ﷺ عندما استشاره زيد. فكشفت الآية أنه كان يخفي في نفسه ما أطلعه الله عليه، بطريقة من الطرق التي لم تحددها الآية، فهل رأى رؤيا منامية: أنه مأذون له في التزوج من زينب بعد أن يطلقها زوجها، أو أن جبريل أخبره أنه مأذون له في التزوج من زينب بعد أن يطلقها زوجها؟ فقوله تعالى: **وتخفي في نفسك:** إخفاء ما أعلمه الله به. وليس من الواجب عليه ولا من الحكمة أن يعلم زيدا أنه أُخبِرَ بأنه سيتزوجها من بعده.

هذا ما أخفاه النبي ﷺ .ثم أضافت الآية: أن ما أخفاه النبي ﷺ أمر سيتحقق، وأن الله سيظهره في الوجود.(**ما الله مبديه**).

وتخشى الناس-سجل القرآن ما كان يجري في ضمير الرسول ﷺ، وهو ينصح زيدا .فعرف أنه ما قصر في النصح رغم أنه عَلِمَ أنه سيتزوجها، وأن زيدا مطلقها لا محالة. وأنه من ناحية أخرى كان متوقعا ما سيتخذه المنافقون مغمزا فيه، وأنهم سيتحدثون بالأراجيف، ويثيرون ما كان مقررا في عوائدهم أن المتبني لا يتزوج زوج متبناه. كان هذا التصور يجري في نفسه، ويقدر آثاره على الدعوة.

والله أحق أن تخشاه – إن الله وحده هو الحقيق أن تخشاه وتحذر من الوقوع فيما لا يرضاه. فكل ما أوحي إليك به امض في تبليغه والعمل به، ولا تُقِمْ وزنًا لما يرجف به المرجفون. وفي ذلك تقوية لنفسه ﷺ، وشد لعزيمته.

الفصل الثالث :طوى القرآن بعض المراحل مما هو معلوم ضرورة .كما هو شأنه؛ فيقدر: أن زيدا كان مصمما على فراق زوجه، وأنه فهم من الاستشارة أن النبي لم يعزم عليه، ولذا مضى إلى النهاية فطلقها.

فلما قضى زيد منها وطرا... صرحت الآية أن زيدا لم تبق له حاجة في الحياة الزوجية مع زينب، أتم قضاء ما كان يرغب فيه لما تزوجها، ولم يعد متعلقا بها، ولذا طلقها. يصرح القرآن أن الله تعالى زوجه زينب. فما كانت في حاجة لولي يمثلها لعقد زواجها. وهذا يوضح ما يروى أنها رضي الله عنها كانت تعد هذا وتذكر أنه من مزاياها على بقية أزواج الرسول ﷺ. كما روي أن الخاطب كان زيد ﷺ، فقد طلب منه أن يعرض على زينب ما عزم عليه من خطبتها. قال زيد: فجئتها فوليت ظهري توقيرا لرسول الله ﷺ وقلت: يا زينب أرسل رسول الله يذكرك. فقالت ما أنا بصانعة شيئا حتى أؤامر ربي . وقامت إلى مسجدها فصلت صلاة الاستخارة فرضيت.

الفصل الرابع: الكشف عن حكمة هذا التزويج. **لكي لا يكون...وطرا.** تقدم لنا في أول السورة عناية القرآن باقتلاع العادة الجاهلية في جعل النسب يتحقق بالإرادة الإنسانية. وأنه أمر مناف للواقع، وأن فيه تعديا على المتبنَّى إذا كان صغير السن، فالحكم عليه بأنه ينسب في المستقبل لمن تبناه تعدٍّ صارخ على حقوقه، وإلزامه بما لم يكن له فيه رأي.

و إذا كان التبني قد بطل ولم يبق له اعتبار في تكوين الأسرة، فإن ذيوله لم تقتلع من النفوس، إذ بقي أنه لا يقبل اجتماعيا أن يتزوج الرجل بامرأة من تبناه. وهو رشح من اعتبار التبني ملحقا للنسب. فلِمَحْوِ هذا التصور الذي لم يخلص بعد من الرواسب الجاهلية، أذن الله لرسوله أن يتزوج امرأة متبناه بعد طلاقها ليمحو كل أثر من آثار التبني، ويذهب الحرج من الاعتبارات الفردية والاجتماعية.

إن ما أمر الله به، وما شرعه واجب التطبيق لا يتنزه أحد عن اتباعه ولا حرج فيه. وهو قدَرُهُ بإرادته الأزلية التي تعلقت بأن يطلق زيد زوجه، وقد كان ابنا لرسول الله ﷺ بالتبني، وأبطل الله التبني، وأراد سبحانه أن يتزوجها النبي ﷺ بعد اكتمال عدتها، فهذا قدره، وأكد كونه قدرا له بقوله **مقدورا**؛ الذي لا يفيد إلا التأكيد لقوله **قدرا**. كما تقول: ظل ظليل.

38. ما كان على النبي من حرج...قدرا مقدورا.

ذكرت الآية السابقة أن الرسول ﷺ كان يخشى أن يُحوِّل المنافقون إقدامه على التزوج من زينب زوج متبناه السابق إلى طعن وتشكيك في نزاهته، يؤثرون بذلك

على ضعفاء الإيمان والمترددين، فيعطلــوا انتشــار الإســلام بــأراجيفهم . وقــد قطعــت الآية السابقة ما كانوا يهدفون إليه. ثم أكــدت ذلــك هــذه الآيــة، فصــرحت أن النبــي ﷺ لا يلام ولا يكون آثما إذا فعل ما قدره وأذنه له فيــه ربــه. إن النبــوة لا تخــرج الإنســان من خصائص إنسانيته. إن سنة الله الجارية على جميع المرســلين مــن عهــد نــوح إلــى محمــد، أن جمــيعهم مــأذون لهــم أن لا يترهبــوا، ولا أن يتركــوا الحيــاة جانبــا، بــل يتقوَّوْنَ على تحمل أعبــاء الرســالة بعــدم الكبــت وأخــذهم حظهــم مــن الــدنيا دون أن يشغلوا به عما كلفوا به من مهام، علــى الوجــه الأكمــل .قــال تعــالى: **(ولقــد أرســلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهــم أزواجــا وذريــة)**[1] إن الســنة التــي أجــرى عليهــا ســيرة المرسلين من أولهم إلى محمد، مراعــى فيــه الألطــاف الإلهيــة التــي تحــف بأنبيائــه، وتأذن لهم وتشرع لهم ما يقتلع العادات المتمكنة، مــن جــذورها، ويــنهج لهــم مــا يثبــت به تشريعه القائم على الحق.

39ـ الذين يبلغون رسالات الله....وكفى بالله حسيبا.

جميع المرسلين يشتركون في الصفات المتميزة التي رفعتهم إلى مقام الرسالة.

أولا: هم يبلغون ما يأتيهم عنه، وينشرون الآيات التي نزلت عليهم.

وثانيا: إن استحضارهم لجلال الله في نفوسهم أشــد مــا يكــون حضــورا وتــأثيرا. فهــم يخشونه إجلالا نابعا من إدراكهم لكمالاته على مستوى لا يبلغه غيرهم .

وثالثا: لما عمرت نفوسهم بمخالطة خشية الله كــأتم مــا يكــون، لــم يبــق فيهــا مكــان لخشية أحد سوى الله. فلا يعيرون لرفض الكافرين، أو شغبهم أي اعتبار.

40ـ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم....بكل شيء عليما.

هذه الآية تؤكــد مضــمون الآيــات الســابقة مــن أن التبنــي لا يثبــت نســبا ولا يــربط الرابطة الدموية بين الاثنين ؛وبذلك فإن محمدا ﷺ لمــا تــزوج زينــب بعــد زيــد متبنــاه، هو تحقيق لهذا التشريع، قالع لما استقر مــن العــادات الجاهليــة. فتفيــد هــذه الآيــة أن محمدا لا تربطه صلة الأبوة النسَبيّة بــأي رجــل مــن رجــال المجتمــع الإســلامي. وإذ انتفى انتساب أي رجل لرسول الله انتساب الابن لأبيه، فإنــه قــد ثبــت لــه شــرف كونــه رسولا من عند الله، والرسالة تقتضي أن يكون بينــه وبــين أمتــه الــود والرحمــة، مــع الحرص على ما يحقق لهم الخيــر. قــال تعــالى : **(لقــد جــاءكم رســول مــن أنفســكم**

[1] سورة الرعد آية 38

عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بــالمؤمنين رؤوف رحــيم)[1] فانتفــاء الأبــوة النســبية لا تنافي الأبوة الروحية، فتم استدراكها بالعطف مع لكن : لكن.

ومما يؤكد أن الله قدر أن لا يكون لمحمد ابــن، أنــه خصــه بــأن يكــون خــاتم الرسـل جميعا، فلا تطمح نفس أحد من نسله لتظهر فيه النبوة مــن جديــد، كمــا كــان فــي نســل إبراهيم عليه السلام ويعقوب. ولذا فإن الله لما أراد أن يخــتم النبــوة فــي بنــي إســرائيل بعث عيسى مصروفا عن التزوج. وكــون رســول الله خــاتم النبيــين قضــية ضــرورية من ضروريات الدين، إنكارها إنكار للضروري الــذي بلــغ حــد اليقــين، فإنكــاره هــدم للدين يتبعه خروج مدعيه من الإسلام. ذلــك أنــه حســب القــوانين العقليــة الضــروريات مثبتة لغيرها، ولا تحتاج لمثبت. ولو احتاج الضــروري لمثبــت لمــا تحقــق شــيء أنــه من الدين.

ممن شكك في هذه الآية، وادعى النبوة في أوائل القــرن الثالــث عشــر فرقــة البابيــة التي نبعت في فارس، وتسربت إلى العراق . ثــم خلفتهــا البهائيــة التــي هــي تواصــل لمبادئ البابية. وهذه الفرقة التي لها أتباعها فــي الولايــات المتحــدة وفــي الهنــد وفــي بعض دول آسيا، فرقة ليس بينها وبين الإسلام أي صــلة، وبــذلك فإنــه لا ينطبــق علــى أتباعها أي حكم من الأحكام الإسلامية فــلا تــوارث بيــنهم وبــين المســلمين ولا يصــح عقد زواج أحد طرفيه بهائي ولا يدفنون في مقابر المسلمين.

ولما قرر القرآن إلغاء التبني، وأذن لنبيه في الــزواج مــن زينــب أم المــؤمنين رضــي الله عنها، ونفى أن يكون محمد أبا لأي ذكر من المــؤمنين، فــذلك هــو الحــق، ســبحانه هو العليم العلم الشامل، فلا تغيب عنه المصلحة في الحاضر والأجل.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي
يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ
رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمۡ يَوۡمَ يَلۡقَوۡنَهُۥ سَلَٰمٞۚ وَأَعَدَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَرِيمٗا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ
أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ
ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ
أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿٤٨﴾

[1] سورة التوبة آية 128

بيان معاني الألفاظ :

البكرة : أول النهار .

الأصيل : العشي .

صلاة الله : ثناؤه على عبده في ملأ الملائكة.

صلاة الملائكة : دعاؤهم للمؤمنين.

التحية :أدب الخطاب في بداية اللقاء

يلقونه: لقاء الله: الحضور المدرك للإنسان أمام ربه.

الأجر الكريم : الثواب النفيس في أنواع الأجر.

المبشر :المخبر بما يسر المخبَرَ.

النذير : المخبر بما يخاف ويحذر.

الفضل: ما يزيده، على العطية، المعطي للمعطى له.

التوكل : الاعتماد وتفويض التدبير إلى الله.

بيان المعنى الإجمالي :

دعوة للمؤمنين كي يشغلوا ألسنتهم بذكر الله كثيرا. وأن يسـبحوه منـزهين لـه عـن كـل نقص كامل أوقات النهار من الصباح إلـى المسـاء. إن الـذكر الكثيـر والتسـبيح يتقبلـه الله فيثني على الذاكرين، وتتولى ملائكته الـدعاء لهـم بـالخير والتوفيـق، فتتـزل علـيهم ألطافه التي تهديهم إلى الطريق الأسـلم وتضـيء لهـم الأنـوار الكاشـفة ليسـيروا فـي حياتهم آمنين مطمئنين. وهذا الفضـل وتلكـم الهدايـة مظهـر مـا اتصـف بـه الله منـذ الأزل برحمته للمؤمنين. وتتعدى هذه الرحمة عنايته بهم فـي الـدنيا إلـى تكـريمهم يـوم القيامة. إنهم عندما يلقـون ربهـم للحسـاب، ينـزل علـيهم الطمأنينـة فيسـمعون تحيـة الإسلام " السلام عليكم "ثم يعقب ذلـك نـوالهم الأجـر الكـريم والثـواب الجزيـل الـذي يرضي طموحاتهم.

ثم توجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وسـلم، فنـوه بعـالي صـفاته وعـدد منهـا، أنـه رسول من عنده يجب اتباع هداه. وشاهد على من آمـن واهتـدى، وعلـى مـن رفـض وكفر. وشاهد على الأمم السابقة من وعى وحفظ ما بلغتـه الرسـل، ومـن غيـر وبـدّل. وهو المبشر بالطمأنينة والرضـى والسـعادة فـي الـدارين مـن أقـر بأركـان الإيمـان واستقام، وأنه منذر منبه من كفر أو تراخت عزيمته فاتبع هـواه، بمـا عـرَّضَ لـه نفسـه من عقاب الله. وأنه بصـفة عامـة هـو داع للبشـرية جميعـا ليبـين طريـق السـلامة، ويبطل الشرك والتقاليد الضالة. وهو في الكون سراج منيـر أزال مـا كـان مـن الخلـط والضياع. ثم أمره سبحانه أن يتولى بشارة المـؤمنين بأنـه سـيوفيهم أجـرهم، ويزيـدهم

عليه فضلا كبيرا من عنده، لا يعلم مقداره إلا الله . وقابل ما يطلبه منك المنافقون بالرفض، ولا تصانعهم، ولا تبتئس ولا تحزن من إذايتهم المبطنة، وترفع عن مستواهم الهابط فلا تقابل إذايتهم بالنقمة العاجلة منهم، وتوكل على الله فإنه سيكفيك شرهم وهو ولي التدبير لحمايتك من شرهم ولعقابهم.

41ـ يا أيها الذين آمنو اذكروا الله ذكرا كثيرا.

إقبال على المؤمنين بندائهم نداء يوقظهم للاهتمام بما يرد عليهم. حاصل هذا النداء أنهم مدعوون إلى الإقبال على ذكر الله ذكرا كثيرا. حتى يكون المؤمن شاعرا بأنه مع الله في كل لحظة، لا ينقطع اتصاله به، مما يُكَوِّنُ له نورا يضيء له مسالك الحياة، ويُكوِّنُ مناعة له من الوقوع في الآثام. لقد حذر النبي ﷺ من خروج اللسان عن الرقابة الحازمة إذ قال: وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم. فإذا اشتغل اللسان بذكر الله انصرف عن اللغو وعما يثير الشقاق والبغضاء. وكتب له الأجر الذي يلقاه عند الله .ولذا كانت الكثرة هنا مأمورا بها. وكثرة الذكر ليس لها حد محدود. والأفضل أن يتنوع حتى يبتعد عن الرتابة التي تفصل اللسان عن العقل.

42ـوسبحوه بكرة وأصيلا.

يصح أن يكون المراد من التسبيح الصلوات النوافل. ويمكن أن يكون معناه قول المؤمن: سبحان الله . وخص التسبيح بالتنبيه عليه، مع أنه داخل في الذكر، لما له من المزية. فالمؤمن يسبح الله ليتجلى في نفسه مفهوم الألوهية المنزه عن كل نقص المتصف بالكمال المطلق. فيحصل بـ" **سبحان الله** " الذكر مع التنزيه.

وقوله تعالى **بكرة وأصيلا** يفيد تواصل التسبيح كامل أوقات يقظة الإنسان. فتم التعبير عن المواصلة للذكر بصيغتين "كثيرا – بكرة وأصيلا"

43ـهو الذي يصلي عليكم وملائكته...بالمؤمنين رحيما.

بعد أن أمر القرآن المؤمنين في الآية السابقة بالذكر والتسبيح أعقبه بتبشيرهم في هذه الآية بما قدره لهم إذا هم استجابوا. هو الكريم الذي يثني عليكم في ملأ الملائكة بكثرة ذكركم وتسبيحكم، وينفعل الملائكة بهذا الثناء فيتوجهون إلى الله داعين لكم بالخير والسعادة. وبثناء الله عليكم الدال على رضي الرضا، وبالدعاء المقبول من الملائكة، يهديكم الهداية التي تخرجكم من الظلمات في التفكير وفي السلوك، فترفع الحجب عن الحق فيتوهج نوره في القلوب والمشاعر . وتقمع الدواعي للانحراف عن الهدى، وتحف بكم ألطافه . ومما ثبت لله منذ الأزل أنه

رحيم بالمؤمنين .وهذا ما يدعو المــؤمنين لحســن التوكــل علــى ألطــاف ربهــم تــوكلا يشحذ طاقات الخير فيهم.

44. تحيتهم..أجرا كريما.

رتب الله الثناء العاجل، والدعاء المقبول من الملائكــة، للــذاكرين الله كثيــرا. ثــم بشــرهم بالتكريم يوم يحشرون بــين يديــه . يفــتح تكــريمهم بالســلام علــيهم عنــد حضــورهم، فتتجدد بسماع " **السّلام عليكم** "ما كــانوا عليــه فــي الــدنيا مــن التعبيــر عــن الأمــن للمخاطب وتطمينه بهذه التحية تحية الإسلام. ثــم تتــرى علــيهم الــنعم، فقــد هيــأ لهــم مقدما الثواب والأجر النفيس في جزاء ذلك اليوم .

45←46:يا أيها النبي إنا أرسلناك....وسراجا منيرا.

هذا هو النداء الثالث بوصف النبوة .ترتيب على النحو التالي:

النداء الأول: كان لتحريضه على التــزام الســلوك المســتقل الأنقــى المــرتبط بــالله كمــا يليق بشريف مقامه. **يا أيها النبي اتق الله...الآيات** .

النداء الثاني: كان لتنظيم شــؤون أســرته ومــا التحــق بــذلك مــن متنــوع التشــريعات المرتبطة به.

النداء الثالث: هو ما بيّنه هذا النص. وإن كــان الخطــاب متوجهــا لــه، إلا أن مضــمونه تعريف للناس أجمعين الحاضرين وقت نزول الآيــة، ومــن ســيوجد إلــى أن يــرث الله الأرض ومن عليها ؛تعــريفهم بصــفاته الخاصــة بــه التــي توجــب تــوقيره وطاعتــه، وإدراك النعمة التي نالت البشرية ببعثته ﷺ.وصفته بست صفات :

الصفة الأولى: أنه **مرسل** إلى البشرية مــن الله. وكونــه مرســلا مــن الله يوجــب علــى البشر اتباع الهدى الذي أتى به مــن عنــده، وتــوقيره، وتقــدير المســتوى الرفيــع الــذي خص به .

الصفة الثانية: أنه **شاهد**. وتشمل الشهادة نواح جليلــة. فهــو شــاهد علــى أمــة الــدعوة: من هم الذين استجابوا ولم يبــدلوا وأخلصــوا وثبتــوا، ومــن الــذين أعرضــوا وكــذبوا، ومن الذين بدلوا ولم يثبتوا. وهو شــاهد علــى موقــف الأمــم الســابقة مــن اســتجابتهم لدعوة رسلهم، وثباتهم على ما تلقوه أو تبــديلهم وتحــريفهم للكلــم عــن مواضــعه. وهــو الحجة في تمييز ما هو ثابت من دياناتهم، وما هــو مشــروع لــزمن محــدد يرفــع عنــد بلوغ أجله، كتشريع عيسى بعد موسى؛ واليهودية والنصرانية بعد نزول القرآن.

الصفة الثالثة: أنه **مبشر**. وهو الذي يعرّف مخاطبه بالبشــرى، أي مــا ســيلقاه مــن خيــر يترقب التحصيل عليه. والنبي ﷺ جمع بين الهدايــة إلــى الخيــر، ومــا ينــتظم بــه أمــر

الحياة فرديا واجتماعيا، وأضاف إلى ذلك وعد المطيع بالعون في الدنيا، والطمأنينة وذهاب الحيرة والخوف. وهو مبشر بالفوز يوم القيامة للمؤمنين المتقين، وقد وردت في القرآن تسع عشرة آية تضمنت التبشير بحسن ثواب الآخرة.

الصفة الرابعة: هو **نذير** يوقظ المتصلبين في الكفر، والذين تراخت عزائمهم، وانقادوا لشهواتهم فاقتحموا المنكرات وما نهى الله عنه، ولم يقوموا بما هم مطالبون بالقيام به من الواجبات والفروض. فدعوته ﷺ عامة مصلحة للبشر جميعهم على اختلاف مؤهلاتهم وخصائصهم . يدعو من لانت قلوبهم للخير ببيان الصلاح فيما يبلغه عن الله، ويحرضهم بما أعد الله لهم من الكرامة والثواب فيتضاعف إقبالهم على ما يدعوهم إليه، ويدعو من غلبت عليهم العادات والشهوات بتحذيرهم من سوء عاقبة المنهج الذي اختاروه لأنفسهم، وما سينالونه من عقاب جزاء تمردهم .

الصفة الخامسة: أنه **داع إلى الله بإذنه** . تقول دعوت زيدا إلى خالد، أي أعلمته بأن يحضر عند خالد. والنبي ﷺ يدعو الناس إلى الله، وتعالى أن يكون الله في مكان محدد، فمعنى ذلك اطراح الشرك، وإفراده بالعبادة، وتنبيه البشر إلى أن عليهم أن يطيعوا أوامره، وأن يجتنبوا ما نهاهم عنه، وأن يكونوا على صلة دائمة به سبحانه.

أعانه الله على تحمل هذا الأمر العظيم، تحويل الناس من اتباع شهواتهم، وما يرون فيه حظهم في الحياة، والارتفاع بهم من وهدة الخوف من غيره، إلى السمو للاقتراب منه. فيسره له بإذنه. وإذا صدر إذنه سبحانه طاع الكون كله بتحقيقه.

الصفة السادسة: أنه **سراج منير** . هذه الآية تجسم وضع العالم بعد البعثة المحمدية. لقد كان العالم كالمكان المظلم، لا تتبين حقائق موجوداته، يختلط النافع بالضار. قد تكون به الأفعى السامة القاتلة على الأريكة الناعمة، ولا يتميز منفذ الباب عن الجدار الصاد، فإذا أشعل السراج أضاء بشعاعه أرجاء المكان، فتتبين الأشياء بما يساعد الناظر على معرفة الخصائص الذاتية لكل ما بلغه شعاعه. جاء نور الهداية الإسلامية عن طريق محمد عليه الصلاة والسلام، فتبين ضلال الشرك وزيف الآلهة المدعُوَّة من دون الله. وتبين اختلاط ما عند الأحبار مما كتبوه بأيديهم، وما هو منزل على موسى عليه السلام. وكان الناس يرجعون إلى ما استقر أمره بالعادة والتقليد في علاقاتهم الاجتماعية، وضبط قيم الأفعال. فلما أنار الله بوحيه عقول البشر، هدمت الأصنام فانهارت، وتبين اختلاط ما يدعو ن أنه شريعة موسى، وقامت القيم على أساس من الوحي والعقل المستنير به فتبينت مسالك الحياة الضامنة لسعادة البشرية في حاضرها وفي مصيرها.

47ـ ويبشر المؤمنين...فضلا كبيرا.

بعد أن أعلنت الآيتان صفات محمد ﷺ، التي تميز بها؛ توجه إليه الأمر أن يقوم بالبشارة للمؤمنين. مضمون هذه البشارة أنهم مستحقون لفضل من الله كبير. ولما كان الفضل هو الزيادة، فإن مما يوضح هذه البشارة المأمور بها قوله تعالى : **(للذين أحسنوا الحسنى وزيادة)**[1] وقوله تعالى: **(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها)**[2] ويتبع هذا الأمر مزيد من الثواب له، لأن الاستجابة للأمر باب لنيل ثواب الطاعة .وهو صلى الله عليه وسلم استجاب للأمر ونفذه.

48ـ ولا تطع الكافرين...وكفى بالله وكيلا.

بمقدار ما كان الصحابة رضوان الله عليهم يؤيدون رسول الله ﷺ، بمقدار ما كان المنافقون يجتهدون في إذايته، ويتحيلون لإخفاء الحقيقة وتلبيسها بغير صورتها. وكانوا يعيشون معه مندسين في صفوف المؤمنين، وقد أطلعه الله على ما يبطنون من مكر وخبث. أمر الله نبيه أن لا يصانعهم مستجيبا لمطالبهم، ليرفضها. وأرشده إلى عدم الاكتراث بما يصدر منهم من باطل في صورة الحق، وأن يكلهم إلى عقاب آجل، وأن لا يحزن لذلك، وأن يمضي في سبيله، متوكلا على الله مفوضا تدبير أمرهم إليه، فإنه سيكفيك شرهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحۡتُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقۡتُمُوهُنَّ مِن قَبۡلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمۡ عَلَيۡهِنَّ مِنۡ عِدَّةٖ تَعۡتَدُّونَهَاۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ﴿٤٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٠﴾

---

[1] سورة يونس آية 26

[2] سورة الأنعام آية 160

بيان معاني الألفاظ:

المس : الوطء

العدة :المدة المحددة شرعا، التي يمكن للمرأة بعدها التزوج بزوج آخر.

تعتدونها : تعدون أيامها عليهن.

متعوهن : المتعة عطية يعطيها الزوج لمطلقته تطيبيا لخاطرها.

أجورهن : مهورهن .

ملكت يمينك : المملوكة غير الحرة.

الفيء : ما يحصل من المال والسبي بدون قتال .

بيان المعنى الإجمالي :

دعوة للمؤمنين أن يعملوا بما تضمنته هذه الآية: أن لا يطالب أحد بالعدة التي انتهت علاقتها بزوجها إذا كان لم يدخل بها. لأن العدة شرعت لتيقن عدم علوق حمل بها من الزوج المطلق، فإذا لم يدخل بها فكونها غير حاملة منه أمر متيقن. وأن يمتعها الزوج بهدية تطيب خاطرها. وأن لا يتسلط عليها ولا يؤذيها، فبعد الطلاق تبقى أخوة الإسلام، فليرعها كل منهما رعاية تبطل وساوس الشيطان.

توجه الخطاب إثر ذلك إلى النبي ﷺ، ممتنا عليه بما يسره له. إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي ضمهن بيتك ودفعت لكل واحدة منهن صداقها، كما أحللنا لك ما ملكته من غير حرب من نساء غير المسلمين، وهو الفيء الذي يسر لك ربك الحصول عليه. وأحللنا لك أن تتزوج من بنات عمك، ومن بنات عماتك، ومن بنات خالك وبنات خالاتك بشرط أن يكن هاجرن إلى المدينة، وشرفن بوصف "المهاجرة "أي قبل فتح مكة. وأحللنا لك أن تتزوج امرأة تهب لك نفسها بدون صداق، إذا توفرت رغبتك فيها. وتزوج الواهبة نفسها بدون صداق خصيصة لك لا يشاركك فيها أحد من المؤمنين. تحقق علمنا بما هو مفروض على المؤمنين في الزواج من الحرائر، والتسري من الإماء. فلا يشاركونك فيما حكمت باختصاصك به. إن ما خصصتك به ينفي عنك الحرج والعسر وييسر لك الأمر في كثير من المواقف. إن الله متصف بالمغفرة والرحمة فتحقق أنه ينفي الحرج.

بيان المعنى العام :

49-يا أيها الذين آمنو إذا نكحتم...وسرحوهن سراحا جميلا.

من الثوابت في الشريعة الإسلامية حفظ الأنساب. ولذلك شرعت العدة للمطلقة أو المتوفى عنها زوجها إذا تم الدخول بها. والعدة زمن محدد شرعا يتيقن إثره أن المرأة غير حامل من زواجها المنتهي. ولذا فإنه إذا عقد الرجل زواجه ولم يدخل

بالمرأة، يعنى أنه لم يحصل بينهما علاقة جنسـية، فـإن مجـرد العقـد لا يلـزم المـرأة، والحالة تلك، أن تنتظر مدة. وليس للعاقد على زوجـه أمـد يلزمهـا فيـه بعـدم التـزوج من غيره.

والحكم الآخر في المطلقة قبل الـدخول بهـا أن علـى مطلقهـا أن يمتعهـا بمـا يطيـب خاطرها حسب وضع كل منهما اجتماعيا وماديا. وقـد تقـدم الكـلام علـى التمتيـع فـي الآية 236 من سـورة البقـرة. وأن لا يتـدخل فـي حريتهـا، ولا يضـارها ولا يتبعهـا بسوء القول، فأخوة الدين باقية، وحظها مرعـيٌ لا يسـقط بـالطلاق. قـال ﷺ : المسـلم من سَلِم المسلمون من لسانه ويده.

50ـ يا أيها النبي إنا أحللنا لك....وكان الله غفورا رحيما.

خطاب رابع للنبي ﷺ بندائه بوصف النبوة فـي هـذه السـورة .وهـو خطـاب يتضـمن: امتنان الله عليه بما أحل له من نساء دخلن فـي عصـمته أو سـيدخلن. والفائـدة الأولـى منه أن تصرف النبي ﷺ في ذلك مأذون له فيه محدد من رب العالمين.

أولا : **(إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجـورهن)** تقريـر للرابطـة الزوجيـة للنسـاء اللاتي كن في عصمته ويعاشرهن معاشـرة الأزواج قبـل نـزول الآيـة. فقولـه اللاتـي آتيت أجورهن: يفيد أنه عقد علـيهن عقـدا مسـتوفيا للأركـان والشـروط، ودفـع لهـن مهورهن. وأن الله يؤكد حليتهن له، ويرد هذا على ما يطعـن بـه المنـافقون والـذين فـي قلوبهم مرض قديما وحديثا، من تزوجه ﷺ بأكثر مـن أربـع، لقـد تـم ذلـك بـإذن الله ورضاه، ولحكمة خص بها رسوله .

ثانيا: **(ما ملكت يمينـه)** من الفيء- وتطلق هذه الصيغة علـى المـرأة التـي دخلـت فـي ملكه من الفيء الذي ناله المسلمون من العدو مـن غيـر قتـال. وينطبـق هـذا الوصـف على مارية القبطية التي وهبها المقوقس له ﷺ فتَسَرَّى بها وولدت له ابنه إبراهيم.

ثالثا: من تربطه بأصـولهن رابطـة العمومـة أو الخؤولـة. فنصـت الآيـة علـى أن الله أحل له التزوج من بنات الأعمـام، وبنـات العمـات، وبنـات الخـال وبنـات الخـالات، بشرط أن يكن هاجرن إلى المدينة ولم يبقـين بمكـة إلـى زمـن الفـتح. وأفـرد الـنص القرآني في لفظ العم والخال (عمك – خالـك) لأنـه إذا أطلـق فـي العربيـة أريـد بـه الجنس الشامل للواحد والمتعدد. وجمـع لفـظ العمـات والخـالات، لأن اللفـظ المفـرد لا يطلق إلا على الواحدة المعينة.

ويستروح من التنصيص على بنات الأعمـام والأخـوال وبنـات العمـات والخـالات، أن الـزواج مـنهن غيـر منهـي عنـه شـرعا، ولا مسـتنكر، لا بالنسـبة للرسـول ﷺ ولا المؤمنين.

رابعا: صورة مفترضة. نصـت عليهـا الآيـة: أن تعـرض امـرأة علـى النبـي ﷺ أن يتخذها زوجة . عطفت على ما أحـل لـه. فأفـادت أن الأصـل فـي حكمهـا بالنسبة للرسول هو الحلية .ثم ضبط هذه القضية بجملة من الشروط والأحكام:

1)أن تكون المرأة العارضة مؤمنة، فـإذا كانـت كتابيـة فعرضـها مرفـوض، ولا يحـل له أن يتزوج بكتابية تعرض نفسها عليه، ومن باب أولى وأحرى المشركة .

2)أن يرغب النبي ﷺ في التزوج بها. وهذا الشـرط يبـين أن العـرض لا يجـب عليـه قبوله. خلافا لما كان مستقرا عنـد العـرب: أن المـرأة إذا وهبـت نفسـها تحـتم علـى المعروض عليه قبول العرض.

3) أن هذا الحكم هو مـن خصـائص النبـي ﷺ . **(خالصـة لـك مـن دون المـؤمنين)**. هبة المرأة نفسها لا ينعقد بها نكاح لغير النبي ﷺ . خالصة لك من دون المؤمنين.

(قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما ملكـت أيمـانهم) تأكيـد لمـا اخـتص بـه الرسول الله ﷺ من أحكام الـزواج والتسـري. فـإن الأحكـام التـي شـرعناها للمـؤمنين على لسانك، حكمها باق لا تغيير فيه، فلا يتطلـع أحـد مـن المـؤمنين أن يتـرخص فـي الأحكام المقررة من قبل .فعلم الله مؤكـد أن المصـلحة للفـرد والمجتمـع فـي الالتـزام بتلك الأحكام.

(لكي لا يكون عليك حرج وكان الله غفـورا رحيمـا) تنصـيص علـى العلـة التـي مـن أجلها بين وشرع من أول الآية إلى هنا. هي ألطاف بك يـا محمـد، تنفـي عنـك الشـدة، وتوسع عليك في حياتك توسعة تسـعدك بالنجـاح فـي المهمـة الشـريفة التـي أوكلـت إليك.

إن ما أفهمه من هذا التعليل هو أن النبي ﷺ كان يواجـه مـن مقتضـيات نشـر الـدعوة، أن يتخذ قرارات ليست محققة لأغراض دنيوية، ولكـن ليكـون موقفـه أوفـق لنجاحـه، مما لا يظهر وجهه للناس .فالتوسعة عليه في التشريع تمكنـه مـن ذلـك. ولـذا فـإن مـا أحل له زيادة على أزواجه الطاهرات، لم ينفع نفسه بشـيء منـه، لمـا لـم يعـرض مـا يبرر.

وثبت أن الله متصف بالمغفرة والرحمـة. وقولـه " **وكـان الله غفـورا رحيمـا** " محقـق لنفي الحرج بصفة عامة، فلما اتصف بالمغفرة والستر للتجـاوزات فكـل مـن وقـع فـي حرج تبعه الوقوع في الاثم فليبادر إلـى التوبـة فـإن الله غفـور. ورفعـه للحـرج فـي الدين هو أثر من آثار رحمته الواسعة .فالخاتمة جـاءت أعـم وأشـمل ممـا سـبقها. والله أعلم.

﴿ تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

ترجي : تؤخر

تؤوي : تضم وتقرب.

عزلت : أبعدت.

ابتغيت : أردت تقريبها بعد الإبعاد.

بيان المعنى الإجمالي :

شرع القرآن لرسوله الاختيار في مخالطته نساءه، فصرح القرآن أنه مأذون له في إبعاد من يشاء منهن، وفي تقريب من يشاء، كما هو مأذون له في تقريب من أبعدها. إن هذا الإذن الإلهي يحقق قبولهن لاختيارك رضا لا يتطلعن معه إلى خلاف ما قمت به، ويذهب الحزن عن كل واحدة منهن لم تحقق رغبتها ليقينها أن ذلك يرضي ربها، وينتهي هذا التشريع بأن تَشْعُر كل واحدة منهن قرَّبْتها أو أبعَدْتها بالرضا. إن تحقق ذلك في الواقع لاشك فيه لأن الله يعلم ما تنطوي عليه القلوب، ولا شك أن الله عليم، وهو الحليم عما جرى في أنفسهن قبل نزول التشريع.

خوطب النبي ﷺ : أنه لا يحل له أن يتزوج بزوجة غير النساء التسع اللاتي كن في عصمته، وبنات عمك....... ولا أن يطلق إحداهن ليتزوج غيرها، ولو أعجب بحظها من الجمال والحسن. لكن الله أباح له أن يتسرى بمن تم ملكه عليها. والله يرقب ما يصدر من البشر بعد ما يشرع لهم تشريعه.

بيان المعنى العام:

51ـ ترجي من تشاء منهن ...وكان الله عليما حليما.

بسطت الآية السابقة ما أحله الله لنبيه من النساء. وأكملت هذه الآية ببعض ما يتعلق بذلك فقررت: أنه ﷺ مخير بين إبعاد من يشاء من نسائه في المخالطة الزوجية

وبين تقريب من يشاء منهن أيضا، على معنى أن له أن يقسم بينهن قسمة لكل واحدة منهن حقها في المبيت عندها واختصاصها به في يومها، وله أن لا يقسم .
كما له أن يعيد من عزلها وأبعدها، فيجدد علاقته بها والقسم لها؛ على معنى أن الإبعاد لا يوجب استمراره. وأكد هذا التخيير برفع الجناح والمؤاخذة عن الطريقة التي نفذ بها اختياره.

إن تنزيل التخيير قرآنا من عند الله يتفاعل مع ما في نفوسهن من قوة الإيمان، ورغبة فيما عند الله، مستشعرات أنهن يحصلن على ما هو خير وأبقى. فأشارت الآية في مفتتحها بقوله ذلك **(ترجي من...فلا جناح عليك)** أن هذا التشريع سيؤثر فيهن تأثيرا يجعل كل واحدة منهن شاعرة بسعادتها بإقامتها في بيتك، لا ترغب في شيء وراء ما هي عليه، وهو معنى" **تقر أعينهن**" وينتفي عنهن الحزن والأسى إذا كان اختيارك على خلاف ما يرغبن فيه، ولا شك أن أمهات المؤمنين كانت كل واحدة ترغب رغبة أكيدة أن تكون قريبة منك في جميع الأوقات، فإذا علمن أن ذلك بإذن مني زالت عوارض الحزن، وبذلك يتحقق رضاهن بالوضع الذي تختاره لهن، هن جميعا متساويات في هذه الأحاسيس. وقد ثبت أن النبي ﷺ وإن مُكِّنَ من الاختيار، فإنه راعى العدل في القسم بين أمهات المؤمنين، تكرما منه وتعلقا بما هو أسمى. إلا أن سودة تنازلت عن حظها لعائشة تبعا لرغبتها الأكيدة في إدخال السرور على النبي ﷺ، لما تعلم من مكانتها عنده. وختام الآية يقمع المشاغبين الذين يتخذون من هذا التشريع مغمزا في علاقاته مع أسرته. إن الله عالم بما يجري في القلوب وما تخفيه المشاعر، فهو يعلم سمو تعلقهن بالله وتقديم رضوانه على جميع الحظوظ الدنيوية. ومن فضله سبحانه أنه لا يؤاخذ على خطرات القلوب والأفكار التي تجري، ما دامت تجد من صرامة الرقابة الإيمانية ما يقمعها عن البروز للخارج على وجه لا يرضي الله.

52ـ لا يحل لك النساء من بعد...على كل شيء رقيبا.

أتمت هذه الآية التشريع الذي خص نساء بيت النبوة. فأفادت أنه لا يحل للنبي ﷺ النساء بعد الأصناف المذكورة في الآية السابقة، أو بعد وقت نزول الآية. ويفهم منها أنه يحرم عليه أن يتزوج على التسع اللاتي عنده، واللاتي كان من كمالهن أن قرت أعينهن بما حكم به الله ورضينه .

(ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن) ولا يحل لك أن تطلق إحداهن وتتزوج بدلها امرأة أخرى. ورويت أقوال متناقضة حُمِلّتْ الآية عليها. وتلك الأفهام والأقوال لا محصل لها، باعتبار أن الآية تتحدث عما يحل للنبي ﷺ وما يحرم

عليه، وقد انتهى الجانب التطبيقي بانتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى. فنرجح ما يفهم من ظاهر الآية. وهذا الشرط يفيد عموم المنع، فإنه إذا منع من التزوج من امرأة أعجبه جمالها، فمن لم يكن لها حظ من الجمال أولى بأن تدخل في النص.

(إلا ما ملكت يمينك) هذا الاستثناء بمعنى "لكن" فيكون المعنى لكن ما دخلت في ملكك من السبي: الرقيق، فإنه لا مانع أن تتخذها سُرِّيَّةً لك.

وكل ما شرعه الله لعباده، وأمرهم به، هو لازم التنفيذ في جميع الظروف والأحوال، والله رقيب، عليم بكل حادث يحدث.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ مَتَٰعٗا فَسۡـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٖۚ ذَٰلِكُمۡ أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبۡدُواْ شَيۡـًٔا أَوۡ تُخۡفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيۡهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ إِخۡوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبۡنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

ناظرين : منتظرين.

إناه: حضور وقته .

طعمتم: أكلتم.

فانتشروا: غادروا مكان الدعوة.

الاستئناس : طلب الأنس .

حديثا: كل كلام يجري بين المجالسين.

الأذى : ما يكدر ويسوء

لا يستحيي : لا يترك قول الحق.

متاعا: ما يطلب من المواعين والمرافق.

الحجاب : الستر المرخى على باب البيت.

بيان المعنى الإجمالي :

نهت الآية المؤمنين أن يدخلوا إلى بيوت النبي ﷺ ويطيلوا الجلوس، يأتون رغبة في الأكل حتى قبل أن يبدأ إعداد الطعام، ويعجبهم المقام في بيوته فيجلسون يتبادلون أطراف الحديث . وبعضهم إذا دعي لتناول الطعام على مائدته ﷺ يطيل الجلوس ويأنس لما يجري بينه وبين الحاضرين من أحاديث .والنبي ﷺ مثقل بالمهمات الجسام باعتباره رسولا، ورئيس دولة، ومنشئ أمة، ولأهله عليه حقوق، ومن حقه هو أن يستريح ليوالي القيام بما أوكل إليه . إن دخولكم لبيوته رغبة في الطعام، وإطالة الجلوس، ومتابعة الحديث حتى بعد الانتهاء من الأكل، أمر يتأذى منه رسول الله ﷺ، ولكن لعلو أخلاقه، وقوة حيائه، كان يتحرج ولا يأمركم بالخروج من بيته .ولذا فالأدب يقتضي أنه إذا دعيتم فأجيبوا الدعوة، وإذا أخذتم حظكم من الطعام فليتجه كل منكم إلى عمله أو مستقره. اعلموا أن الله يؤدبكم وأنتم عبيده فهو سبحانه لا يستحي من أمركم بماهو حق ولا من تنبيهكم للابتعاد عما هو تعد وباطل.

ثم أمر الله نساء نبيه أن يحتجبن من غير المحارم، فلا يحل لهن أن يكشفن وجها ولا كفا، ويحرم على الرجال الأجانب النظر إلى أزواجه حتى الوجه والكفين. وأمرهم إذا أرادوا سؤال أزواجه شيئا من الماعون، أو شأنا من شؤون الدين، أن يخاطبوهن من وراء حجاب، ساتر بسترهن.

إن هذا التشريع يحقق هدفا نبيلا، هو أن تتعودوا ويتعودن على مراعاة ما خصهن الله به من امتياز رفعهن إلى مقام جعلهن أمهات لكم، فمع التعود على هذا الحاجز تألف النفوس ما لهن من حق، وما لرسول الله ﷺ من تقدير، فتزداد القلوب طهرا، وقدرة على طرد وسوسة النفس وحديث الشيطان.

إنه أمر شنيع أن يؤذيَ أحد رسول الله، إنه معرض لوعيد شديد. تخير الله رب العزة رسوله لتبليغ رسالته وهدايته الناس؛ فتوقيرُه ونصرته واجب حتم على المؤمنين.

ومن حقوقه صلى الله عليه وسلم أن لا يتزوج أحد بعده بأي امرأة دخل بها تحريما أبديا سرمديا. احذروا اقتحام تلكم الحدود فإنه أمر عظيم شناعته . كونوا موقنين بأن الله يعلم ما تظهرونه، وما تخفونه، فهو سبحانه المتصف بالعلم الأزلي الأبدي.

واستثنى القرآن من عموم الناس الرجال من ذوي الأرحام الذين يتصلون بأزواج الرسول بصفة كونهم آباءهن، أو أبناءهن، أو إخوتهن، أو أبناء إخوتهن، أو أبناء

أخواتهن، أو أعمامهن، أو أخوالهن. وكذلك العبيد الذين هم في ملكهن، أباح لهم جميعا أن يدخلوا عليهن ويخاطبوهن بدون حجاب. وكذلك النساء اللاتي لهن علاقة بهن.

ثم ذكر نساء الرسول بأن عليهن أن يجتهدن في تقوى الله ليرتقين في مراتب الكمال التي يسرها الله لهن بفضل اتصالهن بالرسول عليه الصلاة والسلام. والله يرقبهن وهو الشهيد على كل شيء.

بيان المعنى العام :

53. يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا....كان عند الله عظيما.

عني القرآن بتفصيل العقيدة وإقامة الحجة على الحق الذي بسطه؛ كما عني ببيان أصول أحكام العبادات والمعاملات والروابط الجازمة بين الأفراد وبينهم وبين الدولة؛ كما عني بإقامة نظام اجتماعي يسمو بمتبعيه من جفاء البداوة إلى لين الحضارة. تقدم لنا شيء من هذا في الاستئذان، وحرمة الإنسان في بيته، وتتعرض هذه الآية إلى الأمرين التاليين:

الأمر الأول: وهو يتعلق بالأدب مع رسول الله في بيته، وينسحب على بقية الأمة.

وليتضح المقصود من الآية بصفة أفضل، نعرض ما كان يجري عليه الأمر في العرف إذا دعا الداعي الناس ليطعموا عنده، أو يحضروا وليمة في بيته لمناسبة من المناسبات. كان البعض يقدمون إلى مكان الدعوة حتى قبل البدء في إعداد الطعام، ويجلسون يتبادلون الحديث،ثم يواصلون البقاء حتى بعد الأكل، والداعي صابر على ثقل هؤلاء. كما كان بعض الناس يدخلون إلى بيوت النبي ﷺ قصد الأكل من مائدته ويجلسون يتبادلون الأحاديث على النحو المذكور. روى البخاري بسنده إلى أنس ﷺ قال :بُني على النبي ﷺ بزينب ابنة جحش بخبز ولحم، فأرسلت على الطعام داعيا، فيجيء قوم فيأكلون ويخرجون، ثم يجيء قوم فيأكلون ويخرجون، فدعوت حتى ما أجد أحدا أدعوه، فقلت: يا نبي الله ! ما أجد أحدا أدعوه. قال: ارفعوا طعامكم وبقي ثلاثة رهط يتحدثون في البيت، فخرج النبي ﷺ فانطلق إلى حجرة عائشة، فقال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله، فقالت: وعليك السلام ورحمة الله. كيف وجدت أهلك ؟ بارك الله لك. فتقرّى حجر نسائه كلهن يقول لهن كما يقول لعائشة، ويقلن له كما قالت عائشة. ثم رجع النبي ﷺ فإذا ثلاثة من رهط البيت يتحدثون، وكان النبي ﷺ شديد الحياء، فخرج منطلقا إلى بيت عائشة، فما أدري آخبرته، أو أُخبِرَ أن القوم خرجوا، فرجع، حتى إذا وضع رجله في أسكفة لباب داخلة وأخرى

خارجة أرخى الستر بيني وبينه، وأنزلـت آيـة الحجـاب[1] . فجـاء الحـديث الصـحيح على وزان الآية متضمنا لأمرين: أدب المدعوين، وتشريع الحجاب.

نادتهم الآية في الشطر الأول منها بوصف الإيمـان: **يـا أيهـا الـذين آمنـوا**؛ لتـوقظهم أن ما ستتناوله هو من مقتضيات الإيمان، وحتـى لا يفهـم الإيمـان علـى أنـه عقيـدة أو عبادات فقط؛ بل هو منهج حياة يطوع حياة الفرد والجماعـة إلـى مـا يسـمو بهـا إلـى المستويات الإنسانية الرفيعة. فلنتبع الآية حتى تتوضح .

1)نهى المؤمنين أن يدخلوا إلى بيـوت النبـي ﷺ، وخاصـة إذا كـان ذلـك لانتظـار أن يحضر الطعام . ترخصوا لأنفسهم ذلك لما عـرف مـن كرمـه وسـماحته ﷺ. ورخـص لهم أن يدخلوا إذا دعوا إلى الطعام. فليس النهي منعا لهم منعـا باتـا، ولكـن مـا يقتضـيه الأدب من ناحية، وحتى لا يجعلوا من كرم خلقـه سـببا لإحراجـه مـن ناحيـة أخـرى، هو رسول الله تجمعت واجباتـه مـن نشـر الـدين، والعنايـة بشـؤون الأمـة، والعنايـة بأسرته، وله الحق أن يستريح من عناء الواجبات التي عهدت إليه.

2) إذا استجبتم لدعوة رسـول الله فتنـاولتم الطعـام علـى مائدتـه، فـلا تثقلـوا عليـه بالجلوس الطويل إثر الطعام. وانتشروا، ومـا أبـدع التعبيـر بقولـه: **فانتشـروا**، ليـذهب كل منكم إلى وجهة بيته، أو تجارته، أو مركز عمله، من مختلف اهتماماتكم.

3) لا تطيلوا الجلوس، استئناسا بما يجـري بيـنكم مـن أخبـار وأحاديـث، تنسـون بهـا أنكم في بيت لصاحبه الحق في السكن والراحة.

إن ذلكم كان يؤذي النبي فيستحيي منكم- إن السلوك الـذي كـان يصـدر مـن بعضـكم من الدخول إلى بيوت الرسول للجلـوس والحـديث، ولانتظـار الطعـام حتـى قبـل أن يطبخ، ومن المكث بعد الأكل طـويلا. هـو سـلوك كـان النبـي يتحـرج منـه، ولعلـو أخلاقه كان يسكت ويتحمل، فلا تحسبوا سكوته رضـى، ولـيكن لكـم مـن الفطنـة مـا ينبهكم إلى ما ينبغـي أن تسـلكوه لتتوَقَّـوْا مـن إذايتـه التـي أنـتم حريصـون علـى احترامها. إنه ﷺ يستحيي من تنبيهكم لتخرجوا مـن بيتـه. وهـذا الأدب كمـا خوطـب به الصحابة في عهد الرسول فكـذلك هـو أدب عـام للأمـة الإسـلامية كلهـا عليهـا أن تتأدب به .

والله لا يستحي مـن الحـق – إن الله لا يسـتحيي مـن بيـان الحـق والتنبيـه إليـه. إن الرسول إذا تكرم فتنازل عن حقه، فإن منزلـة المخلـوقين بالنسـبة للخـالق ينتفـي معهـا كل ما يعتبر أدبا فـي علاقـة المخلـوقين بعضـهم بـبعض. واسـتنبط الشـيخ محمـد

---

[1] فتح الباري ج10 ص148/149

الطاهر ابن عاشور رحمه الله من الآية، أن من الواجب أن لا يستحي أحد من إقامة الحق، وكذلك في معرفته، وفي إبلاغه، وفي الأخذ به، إلا ما كان من الحقوق الخاصة التي لأصحابها إسقاطها، مما لا يترتب عنه إسقاط حق للغير.

وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب – هذا المقطع متمم لقوله تعالى: **يا نساء النبي لستن كأحد من النساء** ، آية 32 فمما ميزهن الله به أنه لا يحل لمن كان غير محرم لهن أن يرى منهن أي جزء لا الوجه ولا الكفين. وبناء على ذلك فإذا رغب أحدكم أن يسأل ما يرتفق به كالأواني أو أن يسأل عن الدين، وخاصة مما كُنَّ أعلم به من غيرهن، فإن التقدم إليهن بالسؤال يجب أن لا يكون مباشرة بل من وراء ستر.

ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن – هذا الحكم الموجب لضرب الحجاب بين نسائه ﷺ وبين الصحابة غير المحارم، له فائدة عظيمة: أنه يقوي الطهارة في قلوب المؤمنين وقلوبهن. إن الطهارة وإن كانت ثابتة بالمنزلة الرفيعة لما تأصل في قلوبهم وقلوبهن من تقوى الله، إلا أن إحاطتها بما يعمق الإحساس بتميزهن، يطرد الخواطر الشيطانية وإن ضعفت، وينمي الشعور بالمكانة التي جعلها الله لهن من اعتبار كل واحدة منهن في مرتبة الأم لكل فرد من أفراد الأمة الإسلامية في ذلكم العهد وما يتلوه من الأزمان. وبناء على ذلك فإن الحجاب الذي يوجب على نساء النبي ستر كامل بدنهن حتى الوجه والكفين، وأن لا يخاطَبْن إلا من وراء حجاب. هذا حكم خاص بنساء النبي عليه الصلاة والسلام – لستن كأحد من النساء–

وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا– حكمان جديدان ختمت بهما الآية إذ يكملان ما تتابع فيها:

الحكم الأول :المنع المؤكد بأبلغ تعبير من إذايته ﷺ . ليس في الوجود ما يتصور منه أن ينزلق أحد إلى إذاية رسول الله ﷺ .إن احترامه واجب محتم بوصفه مبلغا عن الله، مختارا منه ليبين لكم ما يسعدكم في الدنيا والآخرة، احترامه بالقول والفعل، والذود عن علي مقامه من السفلة الذين شرِفوا بكمالاته.

الحكم الثاني: التحريم القاطع لتزوج أي إنسان إحدى النساء التي دخل بها النبي ﷺ. لقد قررت الآية أنهن أمهات المؤمنين" وأزواجه أمهاتهم " فليطرد كل مؤمن عن نفسه أي خاطر من هذا النوع. روي أن بعض المنافقين صرح بما ينطوي عليه قلبه من بغض وما يجري في تفكيره من وقاحة جاهلية لما قال: ما بال محمد يتزوج نساءنا والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه. وكبت الله أعداءه، وتم ما شرعه، فلم يجرؤ أحد على تزوج إحدى نسائه الطاهرات أمهات المؤمنين بعد

انتقاله ﷺ إلى الرفيق الأعلى. وختمت الآية بــإعلان النكــارة العظمــى بــأقوى تعبيــر، إذ جعل الله إثم إيذائه أو التزوج من إحدى نســائه معــدودا عنــد الله العظــيم أمــرا عظيمــا في الشناعة. وكفاكم بذلك تخويفا وتهديا.

54-إن تبدوا شيئا...بكل شيء عليما.

جرى القرآن في التحذير من المنكرات المحرمــة الشــنيعة، أنــه يتبعهــا بــأن علــم الله شامل للعظائم والدقائق، للظواهر والخفايا، ممــا يشــعر بــأن علــى الإنســان أن يحتــاط من التصريح والتلميح، ومن متابعة وسوسة الشيطان. فالوعيــد شــديد، وعلــو مقــام نبيــه العلو الذي ليس بعده مزيد.

55-لاجناح عليهن في آبائهن... على كل شيء شهيدا

أوجبت الآية السابقة الحجاب على نساء الرســول، ومنعــت الرجــال مــن مخــاطبتهن إلا من وراء حجاب ودققت هذه الآية الحكــم، بأنــه لا يتنــاول الآبــاء والأبنــاء والإخــوان وأبناء الإخوان وأبناء الأخوات، وكذلك الرقيــق المملــوك لهــن، وإن لــم يــذكر الأعمــام والأخوال فإن ذكر ابناء الإخــوة والأخــوات منبــئ بمســاواتهم فــي الحكــم. واســتثنت الآية النساء أيضا فلهن أن يخاطبن نســاء النبــي دون حجــاب. وأشــارت خاتمــة الآيــة "واتقين الله " إلى أن أمر الحجاب من التقوى المــأمور بهــا والمرعيــة بصــفة عامــة. وأكد عليهن الالتزام بما شرعه سبحانه، بأن الله شــهيد مطلــع علــى كــل مــا يحــدث في الكون. لا تخفى عليه خافية.

إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

يصلون : الصلاة من الله الثناء، ومن الملائكة الدعاء.

اللعن :الإبعاد عن الرحمة والتحقير.

العذاب المهين : عذاب جهنم .

احتملوا : كلفوا أنفسهم حملا

بيان المعنى الإجمالي :

هو شرف عظيم خص الله به نبيــه محمـدا ﷺ . فهــو يتــولى بذاتــه الثنـــاء عليـــه فـــي العالمين .وأرشد ملائكته أن يعرفــوا لــه مقامــه العـــالي وأن يتقربــوا لـــربهم بالصـــلاة عليه، فيعلو مقامهم بذلك عند ربهم. وأمر أمـــة محمـّـد ﷺ أن يتأسـوا بـــربهم وبملائكتـــه ؛يصلوا على نبيه دعاء يفوضون ما يشمله مـــن التكـــريم إلـــى واســـع الرحمـــة والجـــود. وأمروا أن يسلموا عليه فيقولوا: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.

؛تنمو بذلك حســـناتكم ويكفـــر الله بفضـــل الصـــلاة عليـــه مـــن ســـيئاتكم ويقـــربكم منـــه، ؛تسعدوا بقربه.

وفي المقابل فإن الذين يــؤذون الله بـــالافتراء عليـــه ووصـــفه بمـــا لا يليـــق بكمالـــه، أو الاعتراض على ما حكم به وقدره، وكـــذلك الـــذين يـــؤذون رســـوله، بتكذيبـــه أو الطعـــن في شريعته، أو تحكيم عقولهم تحكيما يرفض منهـــا مـــا خـــالف هـــواهم، جـــزاؤهم لعنـــة من الله تطردهم مـــن رحمتـــه ومهانـــة تلحقهـــم فـــي الـــدنيا والآخـــرة وعـــذاب يـــؤلمهم ويهينهم.

كما حذر القرآن مـــن إذايـــة المـــؤمنين والمؤمنـــات، وتعظـــم شـــناعة إذايـــتهم إذا كانـــت نتيجة افتراء وسوء ظن مع أنه ما صدرت منهم نقيصـــة، ومـــن اكتســـب مـــنهم خطيئـــة فالقضاء هو الذي يتولى الحكم عليه، وتنفيذه ولا يحل نشـــر قالـــة الســـوء فيـــه. ومـــن لـــم يتعظ فليوقن أنه حمل نفسه أوزارا وآثاما عظيمة.

بيان المعنى العام

56ـ إن الله وملائكته....وسلموا تسليما.

إن الله العظيم الجليل يثني على النبي ثناء ينبث في الكون كلـــه، يثنـــي عليـــه فـــي المـــلأ الأعلى. قد أبدع سيد قطب رحمه الله إذ صور ما أوحـــى إليـــه هـــذه الـــنص فقـــال: يـــا لها من مرتبة سنية تردد جنبات الوجود ثناء الله علـــى نبيـــه، ويشـــرق بـــه الكـــون كلـــه وتتجاوب به أرجاؤه. ويثبت في كيان الوجود ذلك الثنـــاء الأزلـــي القـــديم الأبـــدي البـــاقي ــ وما من نعمة ولا تكريم بعد هذه النعمة وهـــذا التكـــريم اهـــــ .**الله أعلـــم حيـــث يجعـــل رسالاته**، اختار محمدا ليختم بـــه وحيـــه الهـــادي للبشـــرية فجمـــع فيـــه مـــن الكمـــالات الإنسانية وبلغ به أعلى مرتبة بلغها إنسان، ثم نـــوّه بشـــأنه، بخُلقـــه فقـــال: **(وإنـــك لعلـــى خلق عظيم)**، ووالى عنايته به فطهّرَهُ وطهر أهل بيتـــه. وعطـــف ســـبحانه علـــى صـــلاته عليه صلاة ملائكته، وهم المقربون، (**الـــذين لا يعصـــون الله مـــا أمـــرهم ويفعلـــون مـــا يؤمرون**). أمرهم أن يوالوا الـــدعاء لرســـوله وحبيبـــه ومصـــطفاه. هـــذا البســـاط النقـــي

الرفيع يهيئ المؤمنين ليلتحقوا بموكب الملائكة فيتحدون معهم في الصلاة على رسول الله محمد ﷺ .

ولما كانت الصلاة على رسول الله ﷺ عبادة، وشأن العبادة أن تكون محددة جارية على النحو الذي يرضي المعبود، تقدم الصحابة لما نزلت الآية فسألوا رسول الله ﷺ: يا رسول الله ! هذا السلام عليك قد علمناه فكيف نصلي عليك ؟ ويجتمع من الروايات أن صيغة الصلاة عليه: اللهم صل على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته كما صليت على إبراهيم وبارك على محمد وآله وأزواجه وذريته كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد.- فصلاة المؤمنين هي الدعاء الذي يتجه به المؤمن إلى ربه، بأن يفيض من فضله وتكريمه ورحمته على محمد وعلى آله وأزواجه وذريته كما يرضيه في حبيبه ومجتباه. فمحتوى هذا الدعاء مفوض إلى الله سبحانه لأن في هذا التفويض ما يجمع بين الأدب والسعة. وأما البركة فهي بتكثير الخيرات وتعظيم المثوبات والتطهير والتزكية. إن ذلك كله يعبر عن الحب العميق لينعم الداعي بأن الله رفع به نبيه إلى مقامات سامية من القرب والكمال والرضى. تسري هذه الصلاة في الأكوان والعوالم. وثناء على الله بأنه حميد محمود فاعل ما يستوجب به الحمد من النعم المتكاثرة والآلاء المتعاقبة- مجيد، كريم كثير الإحسان إلى جميع عبادك الصالحين. ومن محامدك وإحسانك أن توجه صلواتك وبركاتك على حبيبك نبي الرحمة وآله .

وأما السلام فيقول المؤمن: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. كما هو في التشهد. ومعنى التسليم عليه إكرامه وتعظيمه. فالسلام إنشاء السلام عليه، والتصلية دعاء .

وليس في الصلاة والسلام عليه حد محدود. ولكن المؤمن إذا صلى وسلم على النبي ﷺ نال ثواب الطاعة، ومنزلة القرب من رسوله. والأدب يقتضي أن يعقب ذكره بالصلاة والتسليم عليه، وكذلك عند دخول المسجد، وعند الخروج منه، وعند قصد الدعاء، وعند الانتهاء منه. نسأله سبحانه أن يحشرنا تحت لوائه مقربين منه يوم القيامة.

57- إن الذين يؤذون ....عذابا مهينا.

بعد أن بينت الآيات السابقة ما أوجبه الله لنبيه ﷺ من التكريم والإعزاز، أكد ذلك بالتنصيص على جزاء من يؤذيه .وافتتحت الآية بالذين يؤذون الله، وإذاية الله، تعالى عن أن يتأثر بمخلوق، ولكن إذايته تتمثل في الطعن في كمالاته كادعاء شريك له، أو رميه بالنقص وبعد أفعاله عن الحكمة. أو وصفه بما لا يليق بجلاله.

وإذاية الرسول تكون بكـل مـا ينـاقض تـوقيره، بـالقول أو الفعـل، أو الإيمـاء .ومنـه الطعن في شريعته أو في أهله أو في أمته. وقـد تفـنن المنـافقون فـي إذايتـه بـالخفي والظاهر. فحقـت علـيهم اللعنـة بإبعـادهم عـن أن تشـملهم رحمـة الله، وأن يلحقهـم التحقير والمهانة في الـدنيا، وأن يكـون مصـيرهم يـوم القيامـة العـذاب الجـامع بـين الآلام النفسية، والجسدية.

58ـ والذين يؤذون المؤمنين...وإثما مبينا.

تقدم في هذه السورة آية 6 قوله تعـالى: **النبـي أولـى بـالمؤمنين مـن أنفسـهم**، فهـو يدافع عنهم كما أنه يهديهم .ولـذا عطـف القـرآن التحـذير مـن إذايـة المـؤمنين علـى التحذير من إذاية النبي ﷺ .فبسط مقدما ما ينكره العقـلاء مـن إقـدام المتجـرئين علـى تحمل الكذب والزور، فيؤذون المؤمنين والمؤمنـات، بتسـليط ألسـنتهم علـيهم طـاعنين في أخلاقهم وسلوكهم، مع أنهم لم يفعلوا شيئا مما يطعنون بـه. وحتـى لـو كـانوا فعلـوا ما يوجب عقابهم، فالشريعة لم تمكـن أحـدا مـن إطـلاق لسـانه فـي عـرض المـؤمن والمؤمنة، والقضاء هو الذي يتولى الإثبات، وهو وحـده الـذي يحكـم وينفـذ. وعطـف المؤمنات على المؤمنين وإن كان الحكـم واحـدا للتنصـيص علـى المسـاواة فـي هـذا، ولأن ألسنة السفهاء تتناول الإناث أكثر، ويتخذون من إذايـة الإنـاث مركبـا للطعـن فـي أوليائهم .

وتعرف الآية بجزائهم: أنهم لغباوتهم كلفوا أنفسهم حمـلا ثقـيلا . ومـاهو هـذا الحمـل ؟ هو أنهم معدودون في أهل البهتان يثقل ميزان آثامهم بجرم شديدٌ عقابُه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٥٩﴾ ۞لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الجلباب : غطاء تضعه المرأة على رأسها ويتدلى أسفل من كتفيها.

الذين في قلوبهم مرض :الذين لم يتخلصوا تماما من رواسب الكفر. ومنهم الزناة .

المرجفون : الناشرون للأكاذيب التي تدخل الهلع على بعض المؤمنين..

نغرينك : نحرضك على عقابهم.

ثقفوا: أينما عثر عليهم.

أخذوا: أمسكوا لتنفيذ العقاب فيهم.

وقتلوا : يكثر القتل فيهم

بيان المعنى الإجمالي :

نادى الله نبيه ليبلغ لنسائه وبناته ونساء المؤمنين، أن يقربوا جلبابهن من الوجه والعنق، وأن لا يتركنه وراء ظهورهن تعبث به الريح، الأمر الذي يفهم منه أن لابسته غير متحفظة، إن إدناءهن للجلباب، وسيرهن بوقار، ينبئ عن وقار، ويُعَرِّف بأن المرأة ليست بمحل الريبة، وهذا ما يجعل الشباب والشطار لا يتعرضون لهن بالإذاية والمراودة. وما سبق منهن قبل نزول الآية من عدم التحفظ على النحو الذي بينته الآية، فإن الله لا يؤاخذهن لأنه قوي المغفرة، عظيم الرحمة. أساء المنافقون فَهْمَ أخلاق النبي ﷺ، ظنوا ترفعه عن سفاهتهم ضعفا، فتمردوا وصرفوا كل قواهم لإذاية الإسلام وأهله، من تدبير المكائد، والتعرض للنساء ومغازلتهن، ونشر الأخبار الزائفة التي تربك المجتمع وتقتلع منه الثقة بنفسه. فأنذرهم رب العزة إنذارا قويا مزلزلا: أنهم إن لم يُقْلعوا عن فسادهم، فسيحرض نبيه تحريضا ينتهي بإخراجهم من المدينة تجللهم اللعنة والصغار. سيسلطه عليهم فيلحقهم عقابه في أي مكان حلوا فيه، يأسرهم ويكثر فيهم القتل .وفَهِمَ المنافقون أن الأمر جد فانكفوا، ولذلك لم ينفذ النبي ﷺ ما جاء في الإنذار.

بيان المعنى العام :

59.يا أيها النبي ....وكان الله غفورا رحيما.

يا أيها النبي: هذا هو النداء الخامس والأخير في سورة الأحزاب. يتضمن أمر النبي ﷺ أن يبلغ أزواجه أمهات المؤمنين، وبناته، ونساء المؤمنين، هذا التشريع المهم .اذكر لهن أن الله يأمرهن أن يدنين عليهن من جلابيبهن. والجلباب ثوب أصغر من الرداء الذي يشمل البدن كله، وأكبر من القناع الذي يغطي الرأس، فهو ثوب ينسدل على جانبي الوجه والكتفين ويتدلى تحت ذلك قليلا. كانت الأنثى تلبسه إذا خرجت من بيتها. أمرهن بإدنائه عليهن. وقد اختلف المفسرون في بيان المراد من إدناء الجلباب. فروى الطبري عن ابن عباس: الهيئة المقصودة: هي تغطية الوجه من فوق الرأس ويبدين عينا واحدة. كما روي عن ابن عباس أيضا، إدناء الجلباب: أن تقنع به رأسها وتشده على الجبهة. وزاد القرطبي توضيحا فروى عن ابن عباس أنه يقول: أن تلويه فوق الجبين ثم تعطفه على الأنف، وإن ظهرت

عيناها، لكنه يستر الصـــدر ومعظـــم الوجـــه. وذكـــر معظـــم المفســـرين الـــذين تتبعـــت كلامهم، أن العلة التي نصت عليها الآية فـــي إدنـــاء الجلبـــاب أن يعـــرفن فيتميـــزن عـــن الإماء اللاتي قد يتعرض لهن الشطار، فـــإذا أدنـــين علـــيهن مـــن جلابيـــبهن، والإمـــاء لا تلبسن الجلباب، وقين أنفسهن من تعرض الدعار.

وكررت النظر، وأطلت البحث فلم أطمئن إلى تفسير الآيـــة علـــى هـــذا النحـــو. وذلـــك لأمور:

الأمر الأول: أن رتبة هذه السورة حسب تاريخ النـــزول هـــي التســـعون كمـــا بينـــاه فـــي طالعها، وسورة النور رتبتها المائة، فهي متـــأخرة عنهـــا. وقـــد ورد فـــي ســـورة النـــور قوله تعالى، ولا يبدين زينـــتهن إلا مـــا ظهـــر منهـــا آيـــة 31 وحققنـــا فـــي تفســـيرها أن للمرأة أن تكشف وجههـــا، بـــل هـــي مطالبـــة بكشـــفه فـــي عبـــادتي الصـــلاة والحـــج. والشريعة لا تناقض فيها. ولم يرو أنها ناسخة لهذه الآية، فتعـــين حملهـــا علـــى أنـــه لـــيس بينهما تضارب.

الأمر الثاني: نص الآية "**ونساء المـــؤمنين** " والإمـــاء المؤمنـــات مـــن نســـاء المـــؤمنين فإخراجهن بدون دليل، وتقييد الطلب بالحرائر بعيد جدا.

الأمر الثالث: الاختلاف بين ستر الوجه إلا عينا واحـــدة، وبـــين ســـتر معظـــم الوجـــه إلا عينين، وإسناد القولين لابن عباس، مما يرجح أنهم أســـقطوا علـــى الآيـــة العـــادات التـــي كانت سائدة في المنطقة التي كـــان يعـــيش فيهـــا المفســـر. وهـــي عـــادات كانـــت تابعـــة لظروف اجتماعية

الأمر الرابع: أنهم فرضوا أن النبي ﷺ كـــان يتغاضـــى عـــن الشـــباب الـــذين يتعرضـــون للإماء لمراودتهن. يقول القرطبي ليقـــع الفـــرق بيـــنهن وبـــين الإمـــاء فتعـــرف الحرائـــر بسترهن. اهـــ هذا غير مقبول إذ حرص الإسلام علـــى العفـــة يســـتوي فيـــه الأمـــر بـــين الحرائر والإماء. وقد أبطل الإسلام تسلط المالكين للرقاب عن دفع إمائهن للزنا.

ولذا فإن الآية تحمل في نظري، والله أعلـــم، أن علـــى مـــن ذكـــرن أن يســـترن بالجلبـــاب رؤوسهن، ثم يدخلن طرفيه في جيوبهن(فتحـــة العنـــق التـــي يـــدخل منهـــا الـــرأس فـــي الثوب) فيسترن العنق والصـــدر. ولا يبقـــى الجلبـــاب خلـــف ظهـــورهن تحركـــه الـــريح فينكشف العنق والآذان، وربما حتى أعالي الصدر. ويكـــن بســـترهن علـــى هـــذا النحـــو، يعرفن بالعفاف غير متهمات بريبة، فالصورة المنهـــي عنهـــا أن تشـــد الأنثـــى جلبابهـــا فوق رأسها وترخيه على ظهرها، يتحرك بالريح وحتـــى بالمشـــي، وقـــد يعبـــث الـــريح بخصلات شعرها وينحسر عن عنقهـــا وأذنيهـــا وأقراطهـــا، ومـــن تخيـــل هـــذه الصـــورة تعطيه منظرا لأنثى تبدي نوعـــا مـــن الـــدل والغـــنج، ممـــا يثيـــر غريـــزة الـــدعار مـــن

الشباب. ويلتئم هذا الفهم مع العلة التي وقع النهي من أجلها في هذه السورة آية 33 :(**ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى**) . إن من صفاته الأزلية سبحانه أنه قوي المغفرة فما وقع منهن من عدم التحفظ قبل نزول الآية يغفره لهن، وهو الرحيم بعباده يشرع لهم ما فيه صلاحهم .

60←61: لئن لم ينته المنافقون....وقتلوا تقتيلا.

أفهم من هذه الآية أنها إنذار أخير من الله للمنافقين والمترددين والمرجفين في المدينة، وإن كانت الأوصاف الثلاثة ما صدقها المنافقون ولكن كل صفة تبرز نوعا من مكرهم، من مجموعها يظهر هدفهم الخبيث: زعزعة مجتمع المدينة المنورة. ودلتني هذه الآية أيضا على أن القرارات الحاسمة في تصرفات الرسول ﷺ كانت تأتيه من الله، فإنه كان يتأذى من مكرهم وكان على علم تام بمخططاتهم، ولكن ما انتقم منهم ولا جازاهم عن سوء فعالهم.

عمل المنافقون والمترددون على بث الفوضى والقلق في مجتمع المدينة، ونزع الطمأنينة من النفوس، وإشاعة الأخبار الزائفة، وترديدها بما يطوّع لقبولها ثم اعتقاد صحتها لكثرة ما تعاد على الأسماع بصور مختلفة ومتقاربة ومتحدة في الهدف. إذا خرجت سرية للغزو أشاعوا أنها هزمت وأن معظم أفرادها قتلوا. يتناولون أعراض المؤمنين والمؤمنات ويرمونهم بكل منكر ويغازلون النساء. يؤولون أفعال الرسول ﷺ وقراراته أسوأ تأويل لينزعوا الثقة به، وهكذا. ومجتمع المدينة يشمل كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين لا يروج عليهم الأراجيف، ويشمل من لم يَسْمُ إلى ذلك المستوى الرفيع من تحليل الأخبار، فيتأثرون كل على مقدار استعداداته. ومهام الرسول ﷺ متعددة وعميقة، فشغبهم يشغله عن صرف جهوده للدعوة وتحصين الدولة. فجاء التنبيه الأخير صارما من الله عز وجل. أنهم إن واصلوا خبثهم،ولم يقلعوا عن إذايتهم للرسول ﷺ وللمؤمنين، فإن الله يغريك بهم، ويحرضك على عقابهم والانتقام منهم، نقمة تجعلهم لا يستطيعون المقام معك في المدينة إلا مدة قليلة، وذلك يشير إلى شدة التسلط عليهم ومواصلته، فيتم التضييق عليهم تضييقا يفضي بهم إلى مغادرة سكنى المدينة، والخروج منها نهائيا. إن المدة القليلة بين تسلطك عليهم وبين خروجهم يكونون فيها مبعدين لا يتعامل معهم المؤمنون، يجللهم الصغار والحقارة. ويتمكن الخوف من قلوبهم ويفقدون الأمن، ففي أي مكان أو زمان يظفر بهم يتم أسرهم والتضييق عليهم. ويقتلون قتلا ذريعا لا يتمكن أي منهم من الانفلات.

وبهذا التحذير الشديد انقمع المنافقون، وكفوا عن الأذى، ولم ينفذ الرسول ﷺ ما أذن له في عقابهم، لأن القصد الأول هو استِتْبَابُ الأمن في المدينة، وقد انكف المنافقون، لما تبين لهم أن الأمر جد.

وفي هذه المعاملة ما يعطي درسا لمن يتولى أمر المسلمين، أن يكون حازما في كل ما يتعلق بالأمن المادي والنفسي، ولا يتهاون في الضرب على أيدي من يحاولون خلخلة النظام والطمأنينة. وأن الحزم لا يقتضي التنفيذ حتما، بل المهم هو دفع الضرر، فإذا تم دفعه بإرهاب المفسدين فإنه لا يتجاوز ذلك إلى العقوبة الجماعية.

62ـ سنة الله ....ولن تجد لسنة الله تبديلا.

تلك سنة الله في تحصين الجماعة الإسلامية، فهو لا يعاجل أعداءهم الذين يؤذونهم بالعقاب، لكنهم إن واصلوا واستهانوا بهم، وعملوا على نسف الأمن، فإن عقابهم يكون عقابا شديدا، وينهزمون أذلاء منه. وسنة الله ماضية لا يطمع منافقو المدينة ولا من يأتي بعدهم، أن يُسْتَثْنَوْا منها.

يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

ما يدريك : أي شيء يجعل لك دراية ومعرفة ؟.

سعيرا: نارا شديدة الإيقاد.

سادتنا : جمع سيد.

كبراءنا: ج كبير عظيم العشيرة.

بيان المعنى الإجمالي :

يسأل الناس رسول الله ﷺ عن الساعة (يوم القيامة) إما سؤال خوف منها، أو سؤال تكذيب واستهزاء، أو سؤال حب معرفة. كان الجواب واحدا لجميعهم بأن الله اختص بعلمها ولا يطلع عليه أحدا. ولعل موعدها قريب، فعلى المؤمن أن يكون مستعدا لها.

ثم فصل القرآن ما سيلقاه الكافرون يوم القيامة، يلقون لعنة وإبعادا من رحمة الله، وقد هيأ لهم نارا تتوقد شديدة الحرارة لا يخرجون منها أبدا. وهم موكلون إلى أنفسهم لا يجدون من يعطف عليهم ولا من ينصرهم. في ذلك اليوم يقلب الملائكة وجوههم في النار. ويعصر الندم قلوبهم فيقولون مخاطبين أنفسهم: **(يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول)** ولم نكذب بيوم القيامة. حاولوا قبل أن يُلْقَى بهم في النار أن يتنصلوا من المسؤولية. فقالوا ربنا إنا وقعنا تحت تلبيس سادتنا وكبرائنا الذين كانت بيدهم قيادتنا فقادونا إلى طريق الضلال عن الحق. ربنا سلِّطْ عليهم العذاب مضاعفا لكفرهم ولإضلالنا. وقدِّرْ لهم من اللعنات ما ينصب عليهم في كل موقف. وكما جاء في سورة الأعراف : "**لكل ضعف**".

بيان المعنى العام:

63- يسألك الناس عن الساعة ....لعل الساعة تكون قريبا.

الساعة من المغيبات التي تثير الناس للسؤال عن وقتها. فمتى ينتهي هذا العالم الذي نعيش فيه ؟ متى يتحول الناس من عمل لا يصحبه السؤال والجزاء، إلى وقت الكشف والجزاء؟ يسأل عنها بعضهم استبعادا لها، ومنكرين. ويسأل عنها البعض متبينين أحوالها مشفقين منها. ويسأل عنها آخرون تطلعا لمعرفة المغيبات. ويسأل عنها اليهود لمقارنة جواب الرسول بما عندهم في التوراة علهم يظفرون منه بما يقنع الدهماء بعدم صدقه.

تنوع السائلون تبعا لما حملهم على البحث. فكان الجواب جوابا واحدا لجميعهم: هي من علم الغيب الذي تفرد الله بعلمه. فلا مطمع لهم من معرفة وقتها بالتحديد، ولكن المهم أن يكونوا مستعدين لما يَلْقَوْنَهُ فيها، فتوجه الخطاب للنبي ﷺ بقوله: **وما يدريك** ؟ أي شيء يعرفك بوقتها أيكون قريبا أو يكون بعيدا. وإذا كان الرسول ﷺ لا يوجد شيء يعلمه بوقتها، وهو الذي يتلقى الوحي من ربه، فكل من سواه أبعد عن القرب من المعرفة.

64←65: إن الله لعن الكافرين... وليا ولا نصيرا.

أشارت الآية السابقة إلى أن المهم لمن يعقل أن يستعد للآخرة، وأن السؤال عن وقتها أوعمًا يجري فيها بكامل الدقة مضيعة للوقت والجهد لأنه من الغيب الذي تفرد الله بعلمه. وأشارت هذه الآية إلى ما يلقاه الكافرون يوم القيامة فأفادت: إن الله حكم بأن جزاءهم مقرر لاحق بهم لا محالة، يشمل جزاؤهم المذكور:

أولا :أن اللعنة التي سلطت عليهم في الدنيا ستصحبهم يوم القيامة، وأنهم في ذلك اليوم يحرمون من رحمة الله ويبعدون عن منازل الصالحين .

وثانيا، أنه أعد لهم نارا شديدة التوقد.

وثالثا، أن عذابهم عــذاب ســرمدي لا ينقطــع، يصــحبهم اليــأس مــن الخــروج مــن العذاب.

ورابعا أنه يصــحب يأســهم مــن انقطــاع العــذاب عــنهم، أنهــم لا يجــدون نصــيرا ينصرهم ولا صديقا يخفف عنهم.

66ـ يوم تقلب وجوههم...وأطعنا الرسولا.

ما فُصّل من العذاب في الآيــة الســابقة الــذي لا يجــدون مــن إنقــاذهم منــه وليــا ولا نصيرا، يقولون في ذلك اليوم الذي تشوي وجــوههم النــار مــن كــل جانــب، فيقلبهــا الملائكة تقليبا تجعلهم يحسون العذاب في كل جــزء مــن أجزائهــا، الوجــوه التــي هــي مجامع الحواس، وإيلامهم فيها أشد الإيــلام. ويبــدون نــدمهم الــذي يزيــد فــي عــذابهم؛ يقولون يا ليتنا، هو تمني ما فات ولا مطمع في رجوعــه، وكــان لهــم دور فــي ضــياعه عنهم؛ يتبين لهم أن ما جاءهم به محمد حق، ومــا أنــذرهم بــه صــدق. يجلــدون ذواتهــم بسياط الندم على عدم طــاعتهم لله وعــدم طــاعتهم لرســوله، يــوم كــانوا مختــارين لا يحول بينهم وبين الحق إلا العناد.

67←68: وقالوا ربنا إنا أطعنا...والعنهم لعنا كبيرا.

تسجيل لمشهد من مشاهد يوم القيامة، ترتفــع أصــوات الكــافرين وقــد رأوا رأي العــين ما أعده الله لهم من العذاب الذي بينتــه الآيــة الســابقة، يحــاولون التنصــل مــن تبعــات أعمالهم فيقولون: ربنا ! استعطاف علــه يخفــف عــنهم شــيئا مــن العــذاب، ويُلْقُــون المسؤولية على ساداتهم (عظمــائهم) الــذين كــانوا يرضــخون لمــا يحددونــه لهــم فــي الدنيا، وكذلك على كبــراء القــوم الــذين كــانوا يــأمرونهم فيطيعــون، ولكــن مســتواهم الاجتماعي دون مرتبة السادة. يعترفون بــأنهم كــانوا يطيعــونهم فــي تكــذيب الرســول وإنكار يوم القيامة.

مهدوا لطلب الانتصاف من الذين كانوا سببا في إضلالهم، وليخففوا عن نفسهم المسؤولية إذ هم تابعون، والذي نظّــرَ للكفر وأحاطه بما يزينه هم السادة والكبراء. ولذا هم يسألون الله أن يضاعف عذابهم جزاء كفرهم وجزاء التغرير بالأتباع. ولشدة حقدهم على من كانوا سببا في كفرهم وخسرانهم يوم القيامة، طلبوا أن يلعنهم الله ويبعدهم عن رحمته لعنا كثيرا يتجدد في كل موقف وفي كل وضعية من الوضعيات . طوي جوابهم عن تذمرهم واعتذاراتهم، وقد سجلته الآية **(قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون)**[1]

[1] الأعراف آية38

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ
وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا
ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
ٱلْإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

برأه الله :أظهر براءته

وجيه :صاحب مكانة رفيعة مرضي عنه.

القول السديد :القول الموافق للصواب والحق.

بيان المعنى الإجمالي :

ينبه الله المؤمنين حتى لا يكونوا في سلوكهم مع رسول الله ﷺ كسلوك يهود مع موسى، فقد آذوه بكثرة التشكي والتشكيك في نجاح ما يأمرهم به، ورموه بعيوب، وتولى الله إظهار براءته مما رموه به باطلا. وفوق ذلك منزلته: أنه من المقدمين بين البشر، مرضيٌّ عنه مقبول الدعاء .

ثم أمر المؤمنين أن يكونوا يقظين لصلتهم بربهم، مما يجعلهم ملازمين لتقوى الله. وأن يحرصوا على مراقبة أقوالهم فلا يقولوا إلا ما هو موافق للحق والصدق، بمكن للفضيلة والخير، كنشر العلم، والذكر، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر. وحرضهم سبحانه على الالتزام بالتقوى والقول السديد، بإظهار نتيجة ذلك، أعظم بها نتيجة، هي الفوز والنجاح العظيم في الدنيا والآخرة .

عرفنا القرآن بما تم في عالم التكوين العام الشامل للكون. مثل منزلة الإنسان في الكون فجسمها، بأن الله عرض المسؤولية على السماوات والأرض والجبال لتقوم بها، فكان لسان حالها يعبر عن رفضها تحمل الأمانة لعجزها عن القيام بها حسب مؤهلاتها .وتفرد الإنسان بقبوله لتحمل أمانة توحيد الله، والتصرف في الكون حسبما تقتضيه شريعة الله، وفطرته وعقله، ليسمو إلى أرقى مرتبة بين الخلائق

إذا هو أدى الأمانة وأحسن تحمّلها، أو ينزل إلى أسفل سافلين إذا هو ضيع الأمانة وقطع صلته بمبدع الكون وتصرف تبعا لهواه. إن الإنسان المتهاون بما اؤتمن عليه في الكون يكون ظالما أشد الظلم لقطعه صلته بالله، ولتعديه على مالا يملكه وتصرفه فيه حسب هواه، وهو ينزل إلى هذا الدرك بسبب جهله بسوء عاقبة ظلمه.

إن تحمل الإنسان للأمانة تظهر عاقبته فيما سيسلط على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات من العذاب الذين خانوا الأمانة واستهانوا بمسؤولياتهم .وفيما سيلقاه المؤمنون من تكريم لا يشوبه نقص لأن الله تكفل بتوبته عليهم. والله متصف بأنه الغفور الرحيم.

بيان المعنى العام :

69ـ يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا...وكان عند الله وجيها.

تقدم في هذه السورة صور من جراءة الكافرين والمنافقين على رسول الله ﷺ، إلى أن هُدِّدوا بالإنذار الأخير (**لئن لم ينته....**)ونبه الله المؤمنين أن يرعوا حق رسول الله ﷺ، وأن يوقروه وأن يترفعوا عن جفاء الأعراب، ولا ينزلوا إلى المستوى الهابط الذي كان لبني إسرائيل مع سيدنا موسى ﷺ .فقد آذوه بعصيانهم، وتشكيكهم في ترتيب النجح على ما يأمرهم به. قالوا له: (**اذهب أنت وربك فقاتلا**) وقالوا له لما أمرهم بذبح البقرة: **أتتخذنا هزؤا**ورموه بقتل أخيه هارون، وحرضوا مومسا لترميه باغتصابها، ولما كان لا يتعرى رموه بأنه أبرص أو آدر. وقد نفى الله ما رموه به من العيوب، أو من التقصير والقصور، وسما إلى رتبة الرضى والقبول عند الله مفضَّلا على كثير من الخلائق.

70←71: يا أيها الذين آمنوا اتقوا...فقد فاز فوزا عظيما.

المنهج القرآني في الإصلاح: أنه يُتبِعُ النهي عن الفساد بالأمر بالصلاح، والإنذار بالتبشير، والتخويف بالتأمين. فبعد أن نهى المؤمنين عن الغفلة عما يقتضيه الأدب والتوقير لرسول الله ﷺ، وضح لهم ما يعينهم على الصلاح في جميع شؤونهم، فأمرهم أولا بتقوى الله التي تتحقق بالاستحضار الدائم لصلة الإنسان بالله، وأنه معهم لا تخفى عليه خافية من نواياهم وأعمالهم. وأن يراعوا فيما يُقبلون عليه وما يتركونه تطبيق شرعه. ثم خص من التقوى مراقبة اللسان بمزيد اليقظة والمراقبة. فليقصروا كلامهم على الأقوال السديدة الموافقة للحق والصواب، والخير والفضل. مما يشمل الذكر، وإسداء النصح، ونشر العلم، والنهي عن المنكرات بالحكمة والموعظة الحسنة، والذب عن الإسلام ورد مطاعن الطاعنين، وأيضا الانكفاف عن إذاية الآخرين، وهو من تقوى الله.

ومن فضل الله على الناس أنه يهديهم لما هو خيرهم، ثـم يسـاعدهم علـى اتباعـه بـذكر ما يترتب على الاستقامة من ثواب عاجل وآجل. فقـال تعـالى : **يصـلح لكـم أعمـالكم** . وهذه هي الهداية التي هي عبارة عن إسـعاد المتقـي المحـافظ علـى منطقـه بالألطـاف التي تسلك به سبيل الخير وإلْفَ صـالح الأعمـال. وفـوق ذلـك أنـه لكرمـه سـبحانه يغفر لكم بالتقوى وحفظ اللسان ما فرط منكم من السيئات .

قاعدة عامة: من يلتزم في أقواله وأفعالـه تطبيـق مـا جـاء مـن الله ومـا هـدى إليـه رسوله، فألِفَ طاعتهما ؛ إن هذا الربط ينتج النتيجة التاليـة: أنـه تحقـق فـوزه ونجاحـه في الدنيا والآخرة، بمستوى عظيم لا يعلـم مـداه ومقـداره إلا الله سـبحانه. جعلنـي الله وإياكم ممن هدي للتقوى والقول الطيب، وفوزنا برضاه.

72-إنا عرضنا الأمانة.... كان ظلوما جهولا.

تتميز هذه الآية بسعة مضامينها، وبعمـق مـا تـدل عليـه، وبجمعهـا للكائنـات كلهـا بأخصر لفـظ . تفتـتح الآيـة باستحضـار الجـلال والكمـال الإلهـي والعظمـة " **إنـا**" فالمنطلق هو الحضور الإلهي المتحكم في الكـون كلـه الـذي أجـراه علـى سـنن فـي الخلق والتقدير لا يحيط بها علم الإنسان مهما سما. فلنتابع الآية لفظا لفظا.

1) **عرضنا**: العرض يقتضي شيئا معروضا لِتَبَيُّن تأهـل المعـروض عليـه للقيـام بـه، أو قصوره عن ذلك المستوى. عن عبد الله بـن عمـر ﷺ قـال: (أن رسـول الله ﷺعرضـه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزنـي ثـم عرضـني يـوم الخنـدق وأنـا ابـن خمس عشرة سنة فأجازني)[1] فهذا عرض للجهاد. وفـي الآيـة عـرض لتحمـل الأمانـة. وهو تجسيم يقرب به القرآن الحقيقة التي تمت، على مستوى مدارك البشر.

2) **الأمانة** : اختلف الناظرون في كتـاب الله فـي تعيـين الأمانـة: مـن الإيمـان، إلـى أصول العبادات، إلى ما يؤتمن عليـه الإنسـان مـن حقـوق غيـره، إلـى العقـل، إلـى الخلافة في الأرض...... والذي تـرجح عنـدي: أن الأمانـة، هـي مجمـوع المـؤهلات التي تميز بها الإنسان عن جميع الكائنات الأخرى، هـذه المـؤهلات التـي جعلتـه مُمَكَّنـا من إصلاح نفسه وإصلاح محيطه القريب والبعيد، كمـا هـو ممكـن مـن إفسـاد غيـره ومحيطه وكل ما تصل إليه قُدُرَاته. فالأمانة هي أمانـة علاقـة واختيـار: إمـا أن يكـون راشدا في تصرفه في علاقاته، هذا الرشد الذي يهديـه إليـه عقلـه، ومـا ألهمـه الله فـي فطرته، وما أمره به ونهاه عنه وأرشده على لسـان رسـله. وإمـا أن يزيـغ عـن الرشـد إلى الفساد.

[1] فتح الباري ج 6ص204/203

تجري حياة الإنسان على سنن في الخلق، الدورة الدموية، الصلة بين دماغه وبين حمالات الإحساس المنبثة في بدنه، الجهاز الهضمي وخصائصه، عظامه ولحمه وجلده، ونحو ذلك مما تسير عليه حياة الإنسان دون شعور منه ولا إرادة. وهو في وقوعه تحت هذه النواميس لا يختلف عن بقية الكائنات التي أودع فيها الباري سبحانه نظامها التي تسير عليه.

وجانب آخر في الإنسان، هو اختياره بين المسلك ونقيضه، مما يترتب عنه النتائج المتعاكسة حتى في بدنه، فهو يستطيع أن ينظم غذاءه، ويمرن عضلاته، فينمي قواه ويوفر لها السلامة. أو بالعكس فيعرض جسمه للترهل والأسقام. وهو في هذا الكون جزء بسيط عليه أن يرتب علاقته بالكون على أساس أنه مخلوق لخالق الكون كله، عليه أن يطبق النظام الذي عرفه به بواسطة عقله وشرع الله، في علاقته بخالقه وفي علاقته بكل جزء من أجزاء هذا الكون، ويحاسَبُ على اختياراته، التي إن كانت صالحة بالجزاء الحسن، وبالعقاب إن كانت مفسدة بالعقاب. إن هذه الأمانة أي المسؤولية في كل لحظة من لحظات حياته وفي كل كبيرة وصغيرة من أعماله، ونتائجها المباشرة، وغير المباشرة، اختص بها الإنسان .وهي منزلة تبلغ أعلى مراتب الشرف إذا هو أدى الأمانة التي تحملها على العدل فاستقام، أو تنزل إلى أدنى منازل الحطة بمقدار انحرافه عن الحق والعدل.

3) **على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها** تجسيم لعدم تأهل السماوات والأرض لتحمل أمانة الاختيار والمسؤولية في الالتزام بالصلاح. قد تثور الرياح فتهدم المنازل والقناطر وتغرق البواخر، وتقلع الأشجار وتبيد المزارع، وهي غير متحملة للأمانة وغير مسؤولة . ولو قام الإنسان بشيء من ذلك لعوقب عليه. وكذلك الأمطار بين الخصب أو الجفاف، وهطولها بكميات تفوق طاقة التحمل. كانّ لسان حالها ينبئ عن إشفاقها من تبعات الأمانة، فلم تتحملها . والتنصيص على الجبال وإن كانت جزءا من الأرض إلا أنه تبعا لما استقر في الذهن والخيال من قوتها وعظمتها، صرح بها لتبلغ الصورة مستوى رفيعا من الإحساس بها.

4) **وحملها الإنسان** :تقبل رعي ما كلف به، بما أوتي من استعدادات للإصلاح والإفساد، للسمو والحطة، بعقله وفطرته، وقدرته على الاختيار بتحكيم عقله في غرائزه وشهواته، أو الانصياع لها وتغليبها على ما جاءه من عند الله. فتشمل الأمانة علاقته بالخالق، وعلاقته بكل فرد من إخوانه في البشرية، وعلاقته بمكونات السماء والأرض.

5) **إنه كان ظلوما جهولا** تؤكد هـــذه الخاتمـــة أن الإنســـان الـــذي اختـــار الانحـــدار إلـــى أسفل سافلين، فاختار الكفر علـــى الإيمـــان، وطريـــق الضـــلالة علـــى طريـــق الهدايـــة، والظلم على العدل والفســـاد علـــى الإصـــلاح هـــو ظـــالم أشـــد الظلـــم لنفســـه ولنوعـــه ولمحيطه، وللحقيقة. إن الذي انحرف به أولا: هو ظلمـــه لنفســـه بـــالكفر وإقامتـــه حجابـــا بينه وبين ربه وهدايته؛ ثم تسلطه المفسد على مـــا هـــو بـــين يديـــه ممكّـــنٌ مـــن التـــأثير فيه. وثانيا إنكاره إنكار الجهلة عاقبـــة عـــدم وفائـــه بالأمانـــة التـــي حُمّلهـــا. إنـــه، أي إن الإنسان الذي لم يقم بالأمانة، وليس مطلق الإنسان الشامل للصالح والمفسد.

73ـليعذب الله المنافقين....وكان الله غفورا رحيما.

أفصحت الآية عن عاقبة تحمل الإنسان للأمانـــة: العاقبـــة أن يتواصـــل عـــذاب المنـــافقين والمنافقات، والمشـــركين والمشـــركات، الـــذين تعـــاونوا رجـــالا ونســـاء للقضـــاء علـــى الإسلام في غزوة الخندق. فتســـجل علـــيهم آثـــامهم دون أن يهمـــل شـــيء منهـــا. وفـــي المقابل يتولى المؤمنين والمؤمنات الذين حملوا الأمانـــة ووعوهـــا، وأخلصـــوا فـــي القيـــام بها، الجزاء الـــذي يمحـــو أثـــر الســـيئات ويضـــاعف الحســـنات .(**إن الحســـنات يـــذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين.**)[1] يؤكـــد هـــذا التصـــرف الإلهـــي: أن الله ثبـــت اتصـــافه أزليا بالمغفرة والرحمة .

أكملت تفسير ســـورة الأحـــزاب بعـــد ظهـــر يـــوم الســـبت25جمـــادى الأولـــى 1434 – 2013/4/6 أسأله أن يعينني على إتمامه.

[1] سورة هود آية 114

ســــورة سبـــأ

هذا هو الاسم الذي عرفت به. ووجه تسميتها بذلك ذكر قصـــة ســبأ فـــي أثنائهـــا. وهـــي سورة مكية. وهي السورة الرابعة والثلاثون حسب ترتيب المصحف. وهـي السـورة الثامنة والخمسون حسب ترتيب النزول، نزلت بعد سورة لقمان وقبل سورة الزمر.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ
ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا
يَعۡرُجُ فِيهَاۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلۡغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأۡتِينَا ٱلسَّاعَةُۖ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي
لَتَأۡتِيَنَّكُمۡ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِۖ لَا يَعۡزُبُ عَنۡهُ مِثۡقَالُ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا
أَصۡغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ﴿٣﴾ لِّيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ
ٱلصَّٰلِحَٰتِۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوۡ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ
أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مِّن رِّجۡزٍ أَلِيمٞ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الولوج: الدخول .

يعرج: يصعد .

لاتأتينا الساعة: لا يأتينا يوم القيامة .إنكار للبعث.

بلى: كلمة تفيد نقض النفي السابق. لا تأتينا الساعة، نقضها تأتيكم الساعة .

العزوب: الخفاء .

السعي: الجد في فعل من الأفعال.

آياتنا: القرآن

معاجزين: يظنون أنهم يستطيعون الانفلات من العذاب ويعجز عن اللحاق بهم .

الرجز: أسوأ العذاب .

بيان المعنى الإجمالي :

ثبت لله الحمد والثناء الكامل مالك جميع ما في السـماوات ومـا فـي الأرض، هـو الـذي أنشأها إنشاء راعى فيه الدقة ومقومات البقاء إلـى الأجـل الـذي حـدده، وهـو المتفـرد بالحمد في الآخرة، وليس لغيره أي حـظ مـن الثنـاء. وهـو سـبحانه الحكـيم الـذي لا يغيب عن علمه ما هو حاضر ومـا سـيتحقق فـي المسـتقبل فيراعـي سـبحانه الجميـع بحكمته، وهو الخبير فكل ما يتصرف فيه يتصرف فيه بأبلغ إتقان..

بلغ علمه الشامل كل ما يدخل في الأرض من ماء ومـا يسـتكن فيهـا مـن حيـوان ومـا يتخللها من هواء، والبذور المختلفة الأنـواع. كمـا يعلـم مـا يخـرج منهـا مـن نبـات وأشجار وأنواع الحيوانات، وعلى نفس المستوى من العلـم الـدقيق يعلـم مـا ينـزل مـن السماء من هداية وأمطار وأشعة وملائكة، وما يصـعد منهـا مـن الملائكـة وصـحائف الأعمال والأبخرة. وهو سبحانه الرحيم بعبـاده يحـيطهم بألطافـه الحسـية والمعنويـة . ويغفر للمؤمنين ذنوبهم .

قابل الذين كفروا سعة علـم الله وحكمتـه، بإنكـار البعـث وزعمـوا أنـه لا حيـاة بعـد الموت. أمر الله نبيه أن يرد عليهم مقـالتهم مثبتـا لنقيضـها بكـل تأكيـد، أمـر نبيـه أن يقسم بربه أنها ستأتي عليهم فيوقظـون مـن قبـورهم، ويحشـرون للحسـاب، لا يخفـى عن الله وزن ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا مـا هـو أعظـم مـن ذلـك. سـجل ذلك تسجيلا لا يفلت منه شـيء. لتكـون العاقبـة أن الـذين آمنـوا بـالله علـى الوجـه المطلوب وعملوا ما هو خير في الـدنيا يجـزيهم بغفرانـه لتقصـيرهم، ويـرزقهم مـن أنواع النعيم والتكريم ما يتجاوز الوصف. والـذين اجتهـدوا فـي العنـاد، ورد مـا نطـق به القرآن ظانين أنهم يفرون من حصـائد أعمـالهم ولا يلحقهـم العـذاب، سـينزل بهـم أسوأ العذاب وأشده إيلاما.

بيان المعنى العام :

1ـالحمد لله ...وهو الحكيم الخبير .

خمس سور في القرآن افتتحت بهذا الافتتـاح البـديع: الحمـد لله. وهـي سـورة الفاتحـة، وسورة الأنعام، وسورة الكهف، وهذه السورة، وسورة فاطر.

الحمد لله: الثناء الكامل ثابت لله وحده، وما اسـتحق أحـد سـواه الحمـد إلا بفضـل مـا وصل إليه منه سبحانه من خيـر أو هدايـة. ثـم تابعـت الآيـة توجيـه الحقيقـة التـي سجلت في أولها. بيوضح المسـتحق للحمـد: أن مـا فـي السـماوات ومـا فـي الأرض ملك له. وإذا تأملت في تنظيم وتـدقيق عـالمي الأرض والسـماوات، فإنـه كلمـا تقـدمت معرفتك في مكوناتها وفي علاقات بعضها ببعض وما هـي عليـه مـن جمـال وتناسـق،

تنبهر بأن كل جزئية من تلكم العوالم مرعية في خلق العوالم العظمى ثم إن ما ينزل من السماء إلى الأرض فيتم التفاعل من الهداية الربانية على لسان الرسل، ومن الغيث المحيي. وهذا ما يتبعه حتما أن يفيض اللسان بما غمره من الإحساس بالإتقان البالغ أن يثني الثناء الكامل في حدود ما تتحمله اللغة على الخلاق سبحانه.

ثنت الآية بأن له وحده الحمد في الآخرة، وفي عرصات القيامة يتفرد بالحمد فلا محمود سواه لا حقيقة ولا مجازا، إذ تتعطل جميع القوى فلا تغني نفس عن نفس شيئا. يعبر عن كل ذلك ما اتصف به أزليا بأنه الحكيم الذي تتكشف له الغايات القريبة والبعيدة وما يترتب عليها وما يتولد منها فيرعى كل ذلك دون ترتيب زمني ولا إعمال فكر، وهو الخبير، علمُه وإتقانُ صنعته متلازمان.

2. يعلم ما يلج في الأرض ...الرحيم الغفور.

اتصلت هذه الآية بسابقتها لتظهر استحقاقه تعالى للحمد الكامل والثناء الجميل. إنه سبحانه وهو مالك ما في الأرض وما في السماء ؛ يظهر ملكه التام في تواصل تصرفه فيهما، وأن كل ما يجري فيهما لا يخرج عن علمه. وفصّل هذا المعنى فقال: إنه يعلم علما تتكشف له به الظواهر والخفايا لكل ما يلج في الأرض حتى قطرة الماء التي تنفذ داخل التراب والهواء الذي يتخلل أجزاءها، والتطورات التي تحدث في عروق الأشجار وهي تتمثل ما تمتصه من ماء وغذاء. وهو سبحانه العليم بما يخرج منها كبيرا كان أو صغيرا، يعلم ما يتبخر من المياه وما يخرج من المعادن، وأنواع النباتات والأشجار. وما ينزل من السماء فكل قطرة من قطرات المطر معلومة عنده يمسكها متى شاء، وما ينزل من السماء من وحي ومن تقديرات تحملها الملائكة. فكل ما يجري في الكون مقدر بحكمته، وينفذ بخبرته. وهو الموصوف أزلا بواسع الرحمة. فما وصل إلى الإنسان من خيرات الأرض والسماء هو برحمته، وهو الذي يطمع المؤمنون من عباده في مغفرته وتجاوزه عن تقصيرهم، وعدم مؤاخذتهم بكل هفوة تصدر عنهم، فهو الغفور حقا.

3. وقال الذين كفروا ...إلا في كتاب مبين.

هذا النظام والدقة والتصرف المحكم التي تمت الإشارة إليها فيما مضى، تقتضي حتما جزاء الإنسان عن عمله، وإلا كان الخلق عبثا. ولكن الذين كفروا وألقى الكفر حجابا على بصائرهم، قالوا :**لا تأتينا الساعة**، لا نبعث بعد موتنا، فأوحى الله لنبيه أن يواجههم بالرد الذي أتاه من خالق الأكوان، قل لهم: بلى، باطل ما ادعيتم، وأقسم بربي على ذلك قسما يثبت ما أقول: بكل تأكيد لتأتينكم .

ثم وجهت الآية إلى ما ينفي استبعاد البعث الذي بنوه على أن تحلل الأجسام إلى ذرات وتحولها إلى صور أخرى ينفي البعث والإحياء بعد الموت. فأثبتت الآية أن ما بنوا عليه استبعادهم لقيام للساعة، أنه قد مرت أزمان وما بعث أي ميت من قبره، فأكدت الآية أن قيام الساعة من الغيب الذي تفرد الله بعلمه، ولا تأتيكم إلا بغتة. واستبعدوا اجتماع الأجزاء بعد تفرقها وبعدها عن بعضها، قد تكون أجزاء من الجثة في السماء وأخرى في الأرض . فنبههم على قصور تصورهم : بأنه علم الله محيط بكل جزئية، في مكانها وتحولاتها، صغرت أو كبرت، وأكد هذه الحقيقة بأنه تعالى لا يعزب أي لا يخفى عليه صغير ولا كبير في أي مكان، لا من الأجسام ولا من الأفعال .وحتى يقرب تصور هذا العلم الشامل الدقيق، مثله بأنه موثق في كتاب واضح لا اختلاط فيه.

وذكر القرآن أن الله ينشئ البشر نشأة أخرى(**ثم الله ينشئ النشأة الآخرة)**[1] **(وأن عليه النشأة الأخرى)**[2] فمن أنشأ النشأة الأولى قادر على إعادة ما أنشأه. ثم إن العلم تقدم اليوم فبان أن الحامض النووي يعرف بكل إنسان بعد موته ولو مرت قرون على موته.

4←5: ليجزي الذين آمنوا...إلى صراط العزيز الحميد.

تأكد أن الخلق لم يخلق عبثا، يستوي فيه الصالح والطالح، والخير والشرير، النافع لغيره والمضر به . والحياة قد تمضي فيموت المفسد وقد جنى من شره منافع جمة، ويموت الخير مضطهدا من الأشرار. وأن الله يحصي كل ما صدر عن المكلفين ولا يضيع من أعمالهم شيء. كل ذلك يفضي إلى غاية هي الجزاء العادل عما قدم كل من الفريقين؛ فالذين آمنوا وصلحت عقيدتهم وتصورهم للكون، ثم لم تناقض أفعالهم وأقوالهم عقيدتهم، فراعوا القيام بصالح الأعمال. أن أولئك الأخيار يكون جزاؤهم الذي يستحقونه مغفرة من ربهم لما عسى أن يكون منهم من تقصير. وبعد نفي كل النقائص والآثام من صحائفهم يجزون بنعيم تبعا لما يتفضل به عليهم ربهم، وهو وإن اختلفت درجاته فهو رزق وثواب نفيس لا يشعر المنعم بنقص ولا يأسف على فوت أي شيء.

وفي المقابل فإن الذين محضوا جهودهم للشر والفساد، ظانين أنهم منفلتون من عذاب الله يعجزونه عن التمكن منهم وتنفيذ أحكامه فيهم. أولئك سيضبطون ضبطا

---

[1] سورة العنكبوت آية 20

[2] سورة النجم آية 47

لا ينفلت منهم أحد يشار إليهم ليكون جزاؤهم عذاب جهنم، الذي هو أسوأ عذاب وأشده إيلاما .

وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ
ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلۡ نَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ رَجُلٖ يُنَبِّئُكُمۡ إِذَا مُزِّقۡتُمۡ كُلَّ
مُمَزَّقٍ إِنَّكُمۡ لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا
يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ فِي ٱلۡعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا
خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا
مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

ندلكم: نعرفكم .

الخلق الجديد: الحديث العهد بالوجود

التمزيق: تفكيك الأجزاء

افترى: ذكر خبر مختلق لم يسمعه المخبر..

الضلال: خطأ الطريق الموصل إلى المقصود.

ما بين أيديهم: ما يواجهونه.

الكسف: القطعة.

الآية: الدليل.

المنيب: المعاود للنظر.

بيان المعنى الإجمالي :

تيقن الذين آتاهم الله القرآن فاختلط بعقولهم حتى أصبح علما لا مدخل للشك فيه، واضح الدلالة والمرامي؛ تيقنوا أن الذي أنزله الله عليك من ربك منحصر فيه الحق، النافي لكل باطل من التصورات. ومع كونه حقا هو يشتمل على قوة تؤثر في العقول فتهديها وفى السلوك فتصلحه، ليتم السير في طريق الله المتصف بالعزة المستحق للحمد.

دبر الذين كانوا رؤوس الفكر لصد من يرد من العرب سائلين عن محمد وعن دينه أن يقولوا لهم : نحن مستعدون لندلكم على هذا الرجل الذي تبحثون عنه، ونعرفكم بما جاء به هو يدعو إلى أمر واحد يقول : إنكم إذا متم وتمزقت أجسامكم

وتحللت، أنكم تعودون لحياة من جديد، كـأن البلـى لـم يلحقكـم. إن مـا يـدعو إليـه يثبت أنه إما أن يكون قد اختلق أخبارا ونسبها إلـى الله، وإمـا أن يكـون بـه مـس مـن الجنون. كذبوا ما كذب على الله وهو أكمل الناس عقـلا، ولكـن الـذين أخـص صـفاتهم التكذيب بالبعث واقعون في العـذاب، ومغرقـون فـي الضـلال الـذي يبعـد بهـم عـن الحق بعدا كبيرا .

بيان المعنى العام :

6ـ ويرى الذين أوتوا العلم...العزيز الحميد.

عطف القرآن على الحقائق التي أكـدت وحدانيـة الله وإحكامـه للكـون، وتصـرفه فـي العباد بما يجزي به كل عامل بما عمل، مثبتـا أن مـا ذكـر سـكب فـي قلـوب الـذين أوتوا العلم القرآنـي اليقـين بأنـه حـق، ففهمـوا كـلام رب العـزة واسـتيقنت أنفسـهم بصدقه، وأن الحق منحصر فيه. وأنـه يشـتمل علـى قـوة عجيبـة تنفـذ إلـى القلـوب فتهديها وإلى الطبـاع فتهـذبها، وإلـى السـلوك فتصـرفه عـن الشـر وتلزمـه الخيـر والصلاح. وذلك هو صراط الله العزيز الذي بعزتـه اعتـزوا، وبمـا والـى علـيهم مـن العناية والهداية انطلقت ألسنتهم بحمده والثنـاء عليـه. وهـو سـبحانه المتصـف بـالعزة والمستحق للحمد.

7←8: وقال الذين كفروا...في العذاب والضلال البعيد.

في مقابلة ذلكم الموقف الذي عبر عنـه القـرآن بالنسـبة للـذين احتـل هـدى القـرآن عقولهم وأرواحهم، عمل قادة الكفر على صد النـاس عـن الـدخول فـي الإسـلام، فكمـا أثروا في الدهماء الذين يثقون بهم، عملوا على التأثير فـي الوافـدين مـن العـرب الـذين بلغت مسامعهم دعوة الإسـلام، ويقـدمون إلـى الأسـواق وبمناسـبة المجـامع العامـة، يستطلعون أمر ما سمعوه ويتقصون حقيقته. أعـد الـذين كفـروا طريقـة تحـول بيـنهم وبين الإيمان. اتفقوا على أن يكون جوابهم للذين يسـألون عـن الإسـلام أن يقولـوا لهـم: هل تريدون أن ندلكم على رجل بلغ به الحال أنه يـدعي أنـه يخبـركم بعجيـب الأخبـار التي لا يصدقها عاقل. ينبئكم أنكـم إذا مـتم ثـم تحللـت أجسـامكم وتنـاثرت أجزاؤهـا، أنكم تعودون للحياة خلقا جديدا مكتملي القـوى. ويتبعـون كلامهـم بأنـه رجـل لا يخلـو من أحد أمرين؛ إما أن يكـون قـد اختلـق كلامـا مـن عنـده ونسـبه إلـى الله، وهـو المفتري، وإما أن يكون مجنونا يهذي تبعا لاختلال مداركه

رد القرآن عليهم ما وصفوه بكلمة "**بل** " التي تفيد أن مـا تقـدمها باطـل وزيـف. وعبـر عنهم بالذين لا يؤمنون بـالآخرة، إبـرازا لمنشـأ ضـلالهم؛ هـم واقعـون فـي العـذاب

بإنكارهم البعث، وقد أوغلوا في الضلال، لأن الضال هو من أخطأ الطريق الموصل للمقصود، فكلما واصل سيره في طريقه الضال، ازداد بعدا عن الصواب.

9ـ أفلم يروا إلى ما بين وأيديهم ...عبد منيب.

صيغت الآية على صورة التعجيب من غفلة الكافرين المنكرين للبعث، كيف استبعدوا إعادة الحياة للأجسام بعد موتها وتمزقها، ومشاهد الكون أمام أبصارهم. إنهم لو أبصروا الكون المحيط بهم من كل مكان، من أمامهم ومن خلفهم، وما يبدو فيه من مظاهر القدرة والإحكام. إنهم لو تدبروا فيما تنقله إليه أبصارهم، لأدركوا إمكان البعث، بل إن تنظيم الكون أهون من إعادة الأجسام .

ثم عقب التعجيب من غفلتهم بالتهديد بما يقع تحت أبصارهم، فإن الأرض التي يسيرون عليها قابلة أن تنفذ أمر ربها فيهم فتبتلعهم وتتخسف بهم كما وقع لقارون. وإن السماوات التي تمسكها القدرة الإلهية والنظام الذي سير عليه الكواكب، إن الله قادر على أن ينزل عليهم قطعة من السماء فتسحقهم سحقا كما أصاب أهل الأيكة.

إن في نظام الكون وحسن تصرف الخلاق العليم فيه، وعجزهم عن حماية أنفسهم من السماء والأرض الواقعين تحت قدرة الله، إن في ذلك لدليلا ينتفع به كل عبد من عباد الله، غير مصمم على الإنكار مغلق لعقله، بل هو يعيد النظر ويوالي التأمل، فتنكشف له الحقيقة بما رزقه الله من بصيرة أعملها ولم يهملها.

۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

أوبي : التأويب الترجيع.

ألنا: طوعنا له الحديد بذهاب صلابته.

سابغات : دروعا سابغة.

قدر : اجعله على مقدار دقيق مضبوط.

السرد : صنع الدروع الحديدية .

القطر : النحاس المذاب .

الإسالة : جعل الشيء سائلا.

يعمل بين يديه : يخدمه ويطيعه.

من يزغ: من يعص أمرنا.

المحاريب : ج محراب وهو الحصن الذي يُدفع منه العدو..

التماثيل : الصورة المجسمة من عمل النحـات التـي تحكـي إنسـانا أو حيوانـا أو شـيئا متخيلا كصورة الشيطان..

الجفان : جمع جفنة وهي القصعة .

قدور: جمع قدر، وهو الإناء الذي يطبخ فيه الطعام

راسيات : ثابتة على الأرض..

دلهم : الدلالة الإشعار بأمر خفي

دابة الأرض : الأرضة، السوس الذي ينخر الخشب .

المنسأة : العصا

بيان المعنى الإجمالي:

تحقق أن الله مكـن داود مـن فضـل كبيـر، جعلـه نبيـا وآتـاه الزبـور، وأذن للجبـال والطير أن يسبحن معه، ويذكرن إذا ذكر. يأنس بالكون ويـأنس لـه .وطـوع لـه الحديـد الصلب، وأمره أن يصنع منـه الـدروع السـاترة والحاميـة لجميـع البـدن مـع خفـة الوزن .وأن يتقن صـناعته فينجزهـا علـى مثـال مقـدم. ثـم أمـر وأهلـه أن يعملـوا الصالحات شكرا لله على ما أنعم بـه علـيهم. وكمـا سـخر الله لـداود الجبـال والطيـر تسبح معه، وألان له الحديد فصنع منه الدروع، فكـذلك امـتن الله علـى سـليمان فطـوع له الريح تساعده فتسير في الصباح مسـيرة شـهر وتعـود فـي المسـاء مسـيرة شـهر. ومكنه من النحاس المذاب يجري متدفقا كأنـه مـن عـين جاريـة. وسـخر لـه الجـن يعملون له وينفذون أوامره، لا يستطيعون الانتقاض عليـه أو التهـاون بمـا يكلفهـم بـه، يرقبهم الله ويعاقب أشد العقاب المتهاون.

يعملون لسليمان ما تتعلق به مشيئته من المنجزات العجيبـة، يبنـون لـه حصـونا منيعـة حول مدينته، وينحتون له تماثيل رائقة، ويصـنعون لـه جفانـا كبيـرة كأنهـا الجـوابي،

وقدورا ثابتة لا تزول عن مكانها لطبخ الطعام. ثم توجه الخطاب لداود وآله: أنعمت عليكم فاعملوا عملا صالحا لتكونوا شاكرين .إن الشكر يسمو بكم إذ الشاكرون قلة .

ثم إن سليمان جاء أجله فمات، وبقي جالسا على كرسيه، لا يظهر أنه قد مات. والجن يبذلون كل طاقاتهم لإنجاز الأعمال التي كلفوا بها، يخشون البطش بهم إن هم تراخوا. وفي لحظة يسقط سليمان بعد أن تهشمت عصاه بنخر السوس باطنها. مضى بين موته وسقوطه على الأرض زمن، والجن لا تعلم، وهي مسخرة تعمل. إن هذه الحادثة تكشف عن عدم قدرة الجن كشف الغيب، إذ لو كانت لهم القدرة على معرفة الغيب لعلموا موت سليمان بمجرد موته، ولما كانت لهم حاجة لمعرفة ذلك بسقوطه على الأرض.

بيان المعنى العام :

10←11: ولقد آتينا داود ....بما تعملون بصير .

بكامل التأكيد تعلقت إرادتنا فنفذت القدرة ما أردناه. أن نمكن داود من فضل عظيم منا . فماهو هذا الفضل ؟ فصلته الآية فيما يلي :

أذنا الجبال أن تشاركه تسبيحه وذكره، وكذلك خاطبنا الطير، وهي مسخرة لنا بالمشاركة في التسبيح معه. وقد خفي على المفسرين صلة الآية بما سبقها. والذي ظهر لي: أن الآية السابقة هددت المنكرين للبعث بالخسف وإنزال الكسف من الأرض والسماء على أنها وسيلة عذاب يهدد بها الله، وهذه الآية كشفت عن نوع آخر من التصرف ا الإلهي به يعين العبيد الصالحين.، ويجعل بينهم وبينه انسجاما. فإذا خضع الكون كله محقا وسحقا، أو عونا وتسبيحا، فإحياء الموتى والبعث من نوع التصرف الإلهي.

أكرم الله داود فمكنه من فضل شريف هو من عنده، وهذا الفضل المنكر يشمل إيتاءه النبوة والزبور، وفضل رباطة الجأش في الحرب، وفضل كونه أول مخترع للدروع في الخليقة، وأنواع أخرى كثيرة من فضله.

يا جبال أوبي معه والطير: قلنا للجبال سبحي مع داود فاستجابت، وساوقتها الطيور في جو السماء، وإذا الكون كله تسبيح وتمجيد يأنس لداود ويأنس به داود. انظر الآيتين 79/80- من سورة الأنبياء

وألنا له الحديد ....: الحديد الصلب الذي لا يلين عادة إلا بقوة حرارية نارية، تحول إلى عجينة لدى داود، تتشكل حسب ما تقتضيه صناعة الدروع حلقا خفيفة. كعجين التشكيل لدى الأطفال .و ذلك ليعمل منها دروعا سابغة تكسو البدن فلا تبقي

للسيف مضربا ولا للنبل منفذا. وأوصيناه أن يحكــم الصــناعة ويقــدر لهــا مقــدما مثــالا مضبوطا يخرجها عليه.

واعملوا صالحا: خطاب لداود وأهله ليلتزموا في حيــاتهم العمــل الصــالح الــذي يــؤثر في الكون والمحيط الخير. واعلموا أني مراقب لأعمــالكم لا يخفــى علــي منهــا شــيء، مما يحرضهم على الصلاح ظاهرا وباطنا.

12ـ ولسليمان الريح...من عذاب السعير.

عطف القرآن النعم التي آتاها الله ســليمان علــى الــنعم التــي آتاهــا داود المفصــلة فــي الآية السابقة. وشملت هذه النعم:

1) تسخير الريح، والريح على لطافة مكونها: الهواء: تمثل قوة تتجاوز طاقة البشر، ولا يستطيع البشر أن يطوعها، وغاية ما يصل إليه أن يحتمي منها. فالريح الجامعة بين اللطافة والعنف، سخرها الله لسليمان ليتصرف فيها تصرفا يساعده على تحقيق أغراضه منها. ذكر القرآن أنه يخرج بقوتها صباحا فيصل بها إلى مسيرة شهر، ثم يعود بها مساء مسيرة شهر. كان ذلك من خوارق العادة التي لم يفصلها القرآن، والله لا يعجزه شيء.

وما روي من صــور تحقــق ذلــك، لا يســتند إلــى خبــر يقينــي؛ فنقــول: الله أعلــم بالصورة التطبيقية لهذا التسخير، ولكنه تسخير لم يؤته أحد غيره.

2) جعلنا له النحاس سائلا يجري كأنــه صــادر مــن عــين. وبســيلانه وكثرته،وطوّعــه ليخرج منه متنوع الأشكال للحاجة أو الزينة

3) وسخرنا له عملة من الجــن يعملــون تحــت إمرتــه، يخدمونــه ويطيعونــه، فينفــذون أوامره. وينتجون بعملهم ومهارتهم ما لم يمكن منه البشــر. ولمــا كــان مــن شــأن الجــن التمرد على الناس وعدم الانقياد لهم، كانــت الرقابــة الإلهيــة تلاحقهــم، وتنفيــذ العقــاب الشديد لمن يتهاون كعقاب النار الشديدة الاستعار في جهنم .

13ـ يعملون له ما يشاء ...و قليل من عبادي الشكور.

فصلت الآية ما كان الجن ينفذونه لسليمان من الأشياء العجيبة المتقنة تبعا لمشيئته:

1) **المحاريب** : وهي الحصون التــي يتحصــن فيهــا المــدافعون عــن المدينــة، وتطلــق على القصور المحصنة. وإطلاقها على موقف الإمام فــي المســاجد أمــر غيــر معــروف عند نزول الآية . والفن المعماري الذي أحــدثها كــان علــى أغلــب الظــن فــي القــرن الثاني من الهجرة

2)**التماثيل:** جمع تمثال، وهي الصــورة المجســمة التــي تكــون علــى صــورة حيــوان حقيقي أو خيالي أو على صورة إنسان كله أو بعضــه، أو صــورة متخيلــة يبــدع فيهــا

النحات لإبراز القوة، أو الجمال، ونحو ذلك. ولـم تكـن التماثيـل محرمـة فـي الشـرائع السابقة. وحرمها الإسلام قطعا لدابر وسائل الشـرك إذ كانـت بعـض الأصـنام تماثيـل، فتحريمها تحريم الوسائل لا المقاصد .

3)**جفان كالجواب**: قصاع عظيمة كأنها الجوابي التـي يتجمـع فيهـا المـاء. وهـي تـدل على كثرة الآكلين مـن الأتبـاع والخـدم والجيـوش، الـذين كـان سـليمان يـوفر لهـم أقواتهم..

4)**قدور راسيات**: القدور جمع قدر: الآلـة التـي يطـبخ فيهـا الطعـام؛ راسـيات مثبتـة لثقلها. وهي تتناسب مع الجفان الواسعة كالجوابي.

اعملوا آل داود شكرا وقليل من عبادي الشكور: قلنا: يا آل داود قدروا النعم التي أنعمت بها عليكم، وقابلوها بالشكر، الشامل لشكر اللسان، وشكر الأعمال. ومن مراتب الشكر.

الأولى التواضع وعدم الاستكبار .ونبههم للحـرص علـى الشـكر بـأن الـذين يعرفـون حق النعمة فيشكرون المـنعم، ويتخلقـون بـأخلاق الشـكر قلـة فـي البشـرية. وشـأن العزيز المتميز أن يكون قلـيلا. روي أن سـيدنا عمـر ﷺ سـمع أحـدهم يـدعو: اللهـم اجعلني من القليل؛ فقـال لـه: مـا هـذا الـدعاء ؟ فقـال أردت:(وقليـل مـن عبـادي الشكور) فقال عمر: كل الناس أعلم من عمـر. ويمكـن فهـم الآيـة علـى أن الخطـاب موجه إلى رسول الله ﷺ تحريضا له ولأمته على الشكر.

14ـ فلما قضينا عليه...في العذاب المهين.

تواصل عمل الجن إلى أن نفذ الله قدره في سليمان فأماتـه، فـي الوقـت المحـدد لحياتـه. وبقي ميتا في مكانه، والعملـة ينجـزون مـا كلفهـم بـه، نشـطين كعـادتهم .يرقبـون سليمان وهو على كرسـيه، لـم يظهـر عليـه أي تغيـر . وفـي لحظـة خاطفـة يخـر سليمان وتنقسم العصا التي كانت تصاحبه. لم يمـت سـليمان فـي اللحظـة التـي خـر فيها، ولكن موته سبق ذلك، وانكسار العصـا كـان بسـبب نخرهـا بالأرضـة، السـوس الكامن في الخشب.

كما ذكرنا واصل الجن أعمالهم، ظانين أن سليمان حـي، فلمـا خـر مـن مكانـه وسـقط على الأرض .عندها أدركوا أنه قد مات. وأن تسـخيرهم قـد انتهـى بنهايتـه. كـم لبـث سليمان ميتا، والأرضة تنخر عصاه حتـى أفرغتهـا مـن داخلهـا فخـر علـى الأرض؟ لما كان هذا أمرا غريبا أخذ الرواة يفرضون فروضا في المـدة التـي بقـي علـى هـذه الحال. وما وجدت فيها ما يمكن اعتمـاده . فـأقول: الاحتمـالات المقبولـة: أن الأرضـة كانت تنخر عصاه منذ مدة طويلة قبل موته وهـو لـم يـتفطن، حتـى صـادف أنـه لـم يبق في داخلها كبير قوة، فلما مـات أجهـزت الديـدان علـى نخـر مـا بقـي ممسـكا،

فانقصـــمت العصـــا وســـقط .كمـــا يحتمـــل أن الإرادة الإلهيـــة تعلقـــت بإظهـــار فســـاد تصورات باطلة كان يعتقدها الناس، وهـــي أن الجـــن يعلمـــون الغيـــب، فبمجـــرد مـــوت سليمان كثّر في عدد أفراد الأرضة، و في وقـــت غيـــر كبيـــر نخروهـــا فســـقط. وعلـــى جميع الافتراضات، تبـــين للنـــاس أن الجـــن لا يعلمـــون الغيـــب؛ إذ لـــو كـــانوا يعلمـــون الغيب لعلموا بوقت موت سليمان، بل إنهـــم لضـــعفهم عـــن معرفـــة مـــا لـــم يقـــم عليـــه الدليل الكاشف، مات سليمان أمامهم ومـــا عرفـــوا موتـــه إلا بســـقوطه وانكســـار عصـــاه. ولو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في السخرة يعملون الأعمال الشاقة المهينة.

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

سبأ: أمة سبأ.

الآية: الأمارة الدالة على ما راءها.

الطيبة: الحسنة في جنسها.

أعرضوا: قابلوا الهداية بالرفض..

سيل العرم: ما يبنى لمسك الماء . السد.

أثل: شجر صحراوي يشبه الطرفاء.

السدر: شجر له شوك.

أكل: المأكول.

خمط: شجر الأراك، كل شجر له شوك وثمرته كريهة.

ظاهرة: قريب بعضها من بعض، أو خارجة عن المدن.

قدرنا: كانت الأبعاد بين القرى مضبوطة بكيفية توفر للمسافرين الراحة والنزول فيها.

بيان المعنى الإجمالي :

تفضل الله على أمة سبأ، كانت مساكنهم دليلا علـــى ســـعة فضـــل الله، بمـــا يســـعد بـــه من حياة ناعمة وأرزاق وافرة .إذا دخلت ديـــارهم تجـــد الجنـــات عـــن يمينـــك وشـــمالك.

جمع الله لهم بين الأرض الخصبة، والسري الوافر، والهواء النقي. وأذن لهم أن يرتفقوا بما أعطاهم ويأكلوا من ثمار جناتهم، وأمرهم أن يقوموا بشكره على ما يسره لهم بالعمل الصالح والسلوك النظيف، والإيمان الصادق. ولكنهم أعرضوا عن الشكر فكفروا النعمة وفسدت أخلاقهم، فأرسل الله عليهم السيل الجارف بانهيار السد؛ الذي جرف كل شيء من التربة الصالحة ومن الأشجار والنباتات والأنعام وحتى من كان من البشر في تياره الهادر. وتحولت الجنات والمزارع إلى أرض قاحلة تتناثر فيها أشجار صحراوية طعم ما يجنى منها مرٌ، وحتى السدر المتميز ورقه برائحة طيبة هو قليل .كان هذا الجزاء جزاء عادلا موازيا لشدة كفرهم. ولا نجازي بمثل هذا الجزاء إلا المتصلين في الكفر.

ثم عدد من النعم التي أفاضها عليهم أن هداهم لتعمير الطرق التي تصلهم بقرى الشام بإنشاء قرى في ضواحي المدن لا تخفى على السائر لكونها مقامة على مرتفعات .و بذلك يواصلون سيرهم في راحة من دخول المدن بتعقيداتها، يجدون قرية في طريقهم عند الزوال ينزلون فيها آمنين، ويواصلون سفرهم فيجدون قرية عند نزول الليل. الوضع يدفعهم إلى السفر للنشاط التجاري، فينضاف إلى سعة الأرزاق، مما تنتجه أرضهم الطيبة، ما ينمي مكتسباتهم بواسطة التجارة .

بيان المعنى العام:

15ـ لقد كان لسبأ....ورب غفور.

تعرضت الآيات التالية لمشاهد من قصة أمة سبأ. وقد تقدم في سورة النمل آية 22 الصلة التي كانت ببن سليمان وبين بلقيس ملكة سبا. افتتحت بما من الله به عليهم من منن عظيمة، كان منها ما يصلح ليكون دليلا يعتبر به المعتبرون. أغدق عليهم كثيرا من النعم فيسر عليهم العيش في بلدهم، وحفهم بألطاف كثيرة .

كانت مساكنهم تحف بها الجنات، فحيثما نظرت يمنة أو يسرة، تجلب الجنات نظرك، بما تلقيه هذه الكلمة "**جنات**" في النفس من صور: الخضرة النضرة، ومن متنوع ما تحمله الأشجار من ثمار، ومن هواء رقيق، ومن أزهار فواحة . ومن رطوبة معتدلة، لا تقوى حتى تنقلب بِرَكًا، ولا تقل فتجدب الأرض وتقحل.

ولم يحرموا مما تنتجه الجنات، بل أذن لهم ليأكلوا منها تحف بهم الألطاف، فلا يسبب لهم أكلهم سقما، فإن ذلك من رزق رزقكم الله إياه، هو الرزاق فلا مزية لأحد عليكم.

وأضاف إلى ما سبق: أن البلدة التي يسكنونها قد حفت بها ألطاف إلهية، في نقاء هوائها وخصب تربتها، وخلوصها من الأوبئة .وبارك الله في نتائجها. وعمها الأمن والرخاء. ووفر لأهلها ما هو أنفس من كل ذلك: يذكرهم الله أنه رب غفور،

فليتعلقوا به، وليطرقوا أبواب التوفيق للاستقامة من فضله . وأنــه غفـر لهـم مـا فـرط منهم قبل إيمان بلقيس.

16ـ فأعرضوا فأرسلنا عليهم...من سدر قليل .

قابلوا هذه النعم بالإعراض والرفض للهدايـة التـي جـاءتهم عقيـدة وسـلوكا. فعـاقبهم الله بأن أرسل عليهم السيل الذي كـان مـاؤه محبوسـا فـي السـد، انهـار فـي لحظـة فجرف ماؤه الأشجار والتربـة الخصـبة، وحمـل مـن كـان فـي طريقـه مـن النـاس والأنعام. سمي بسيل العرم إما من العرامـة بمعنـى الشـدة والقـوة، أو إن السـيل الـذي كان يحبس ماؤه في السد اسمه "العـرم" كـوادي مجـردة ووادي النيـل. وانكشـفت سـبأ عن أرض جـرداء يتـوالى عليهـا الجفـاف، وحمـل السـيل التربـة الخصـبة. إنهـم بإعراضهم عن السلوك الذي هدوا إليـه واتبـاعهم لشـهواتهم تحولـوا مـن حيـاة الجـد والاستقامة، إلى حياة الرخاوة واللهـو، وفتـرت عـزائمهم، ولـم يتعهـدوا السـد تعهـدا يحفظ أداءه لوظيفته، فتآكل شيئا فشيئا فلقي مصير كل مهمل. الضياع والخراب.

وصف القرآن سبأ بعد انهيار السـد، أرض قاحلـة لا تنبـت إلا الأشـجار الصـحراوية المتأقلمة مع الجفاف .فعوضهم عـن الجنـات المتنوعـة الغـلال، والمتداخلـة فـي كـل مكان. أشجارا صحراوية كشجر الأراك " **خمط**". وأثـل، شـجر يشـبه الطرفـاء، وقليـل من أشجار السدر. وشجر السدر له شـوك يشـبه شـجر العنـاب. و السـدر علـى قلـة غنائه أفضل من النوعين الآخرين، ولكنه قليل .فهي الحياة القاسية .

وكلمة "بدل "تفيد أن ما عديت إليه بنفسها مدفوع، ومـا عـدي بالبـاء مقبـوض. فهـم قـد دفعوا الجنات المثمرة، وقبضـوا الجنـات القاحلـة. وتقـول بـدل الله درهمـك بـدينار، فالدرهم مدفوع، والدينار مقبـوض.. ولا تتبـدلوا الخبيـث بالطيـب فالخبيـث مـدفوع، والطيب مقبوض. وإطلاق جنتين على مـا تحولـوا إليـه، هـو علـى سـبيل المشـاكلة والتهكم؛ إذ كل ما فيها يمثل القحالة والجفاف. فهم فـي فضـاء لا يجـدون مـا يـأكلون إلا من هذه الأشجار التي طعمها مر.

17ـ ذلك جزيناهم...إلا الكفور.

استحضروا في أنفسكم ذلك الجزاء، من إرسال سيل العرم عليهم، ثم تحولهم من حياة مطمئنة رخية رغيدة، إلى حياة قاسية غليظة، بعد أنواع الفواكه اللذيذة، والثمار الشهية، شجر أفضله يلسع من يقطف منه بشوكه، ورغم ذلك هو قليل وجوده. ولا نجازي مثل هذا الجزاء من التحول من الضد إلى الضد، من الرخاء الناعم، إلى الشدة القاسية، إلا من كان كافرا شديد الكفر. فالجزاء من جنس العمل هو العدل

18 -وجعلنا بينهم وبين ...وأياما آمنين.

م ذكر القرآن نعما أخرى من بها على سبأ. أنــه يســر للعمــران أن ينتشــر، فكــانوا إذا صدوا قرى الشام للتجــارة يجــدون علــى طــريقهم قــرى ظــاهرة، وعنــى بقولــه: ـاهرة، أنها مقامة على المرتفعات، لا تخفــى علــى الســائر يراهــا حتــى مــن بعيــد، يحتمــل أن معنــى كونهــا ظــاهرة : أي مقامــة فــي خــارج المــدن المعبــر عنــه الضواحي. وألهمهم ربهم في تعميرهــا، أن كانــت الأبعــاد بينهــا مســاعدة للمســافرين، إذا خرجوا من قرية صباحا استقبلتهم قرية أخــرى عنــد الظهيــرة فيســتريحون، ثــم اصلون سيرهم فما إن يرخي الليل ظلامه حتى يكونوا قــد وصــلوا إلــى قريــة أخــرى بنزلون ويبيتون آمنين . فكأن لسان الحال يدعوهم إلى الســير فيهــا كيــف شــاؤوا لــيلا نهارا، الأمن موفور. ونماء الثروات كبير بمــا تنتجــه أرضــهم الخصــبة، والتجــارة نافقة المأمونة.

قَالُواْ رَبَّنَا بَـٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَـٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَـٰهُمْ كُلَّ
مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَـٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ
فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن
يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُواْ
ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَلَا فِى
ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ
إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْۖ قَالُواْ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ
ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

حفيظ: الذي لا يخرج عن مقدرته ما هو في حفظه.

ذرة: بيضة النمل .

مثقال : وزن..

ظهير: معين.

فزع: أ زال الفزع، مثل قشر العود أزال قشره، ومرض المريض.

العلي : علو الشأن البالغ منتهى الكمال في علمه.

الكبير: العظمة الحق بالحكمة والعدل

بيان المعنى الإجمالي :

بلغ من كفرهم بنعم الله وتحديهم لمن يعظهـم بتـذكيرهم بـنعم الله علـيهم، أن اسـتهانوا بفضل الله عليهم فقالوا: **ربنـا باعـد بـين أسـفارنا**، ممـا يـدل علـى اسـتخفافهم بهـا ووقاحتهم. فعاجلهم الله بالعقوبـة فخـرب القـرى الظـاهرة، وتشـردوا، كـالثوب الـذي مزقته قطعا، في نواحي الأرض، ذهبت رابطـتهم التـي كـانوا يعتـزون بهـا،و فحلـت الأرض بعد خصب . وبعد أن كانوا أمة قوية غنيـة، أصـبحوا أحاديـث يتحـدث النـاس بها. إن في قصة سبأ آيات توقظ الناس وتخـرجهم مـن غفلـتهم، يتبينـون عاقبـة بطـر النعمة، والكفر.

اختبرهم إبليس فوجدهم مستعدين لقبـول وسوسـته. وظـن أنـه قـادر علـى إغـوائهم، واجتهد في تضليلهم ونجح في ذلك. واتبعـوه فـي كـل مـا زينـه لهـم مـن الاسـتهانة بالنعم، ووصل بهم إلى الكفر .وهكذا شأن إبليس فإنه تحقيقـا لمـا توعـد بـه البشـر مـن العمل على إضلالهم، وتعريضهم لسـخط الله ومقتـه، مـا يـزال يوسـوس فـي قلـوب البشر ويحول بينهم وبين الإيمان والطاعـة؛ ولكـن فريقـا مـن النـاس الـذين حصـنوا أنفسهم بالإيمان خاب في إغوائهم .

إن الشيطان أحقر من أن يكون له السلطان الذي يستطيع بـه الفعـل فـي النـاس. ولكـن هو معطى من المعطيات التي يتحقق بمجموعها مـا سـبق فـي علـم الله أنـه سـيحدث، فيعلمه الله وقت حدوثه كعلمه به فـي الأزل. يعلـم الـذين لا يغـويهم إبلـيس، وإيمـانهم باليوم الآخر أقوى من وسوسته، ويعلم الـذين يسـتجيبون لوسوسـته فيغـريهم بالتشـكيك في الآخرة والحساب. وربك يا محمد لا يضيع عنـده شـيء مـن فعـل النـاس، فسـوف يحاسبهم على ما قدموا.

قل لهم يا محمد موقظا لهم من غفلتهم الشديدة: ادعـوا الـذين زعمـتم أنهـم ينصـرونكم ويغدقون عليكم الخير، من دون الله، وكـرروا دعـاءكم لهـم. الخيبـة تكـون جـوابكم؛ إنهم لا يملكون وزن بيضـة النمـل مـن ملكـوت السـماوات والأرض. وكمـا أنهـم لا يستقلون بملك أتفه الأشياء فهم من باب أولى وأحـرى لا يملكـون مـا يـرفعهم إلـى مـا مقام الشراكة لله، أو مقام العون لـه. ومـع انتفـاء أن يكـون لهـم ملـك ولا شـركة ولا عون، فإنه أيضا لا يملكون ما تخيلـوه مـن أن لهـم دالـة بهـا يشـفعون فـي تقصـير عابديهم . والشفاعة قاصرة يوم القيامة على الذين يـأذن الله لهـم فـي ذلـك؛ فـي يـوم تضطرب فيه القلوب، ويتعلـق الشـافعون والمشـفوع لهـم فـي خـوف ووجـل إلـى صدور الإذن العالي . فإذا صدر الإذن زال الفـزع وذهبـت الاحتمـالات، فمـن أذن لـه

في الشفاعة اطمأن بالإذن، ومن أذن أنهم مشفوع فيهم أمنوا، ومن رفضت الشفاعة فيهم أيسوا . ويسأل الشافعون الملائكة المقربين ما ذا قال ربنا ؟ فكان الجواب قال ربنا: الحق الذي لا يخالطه احتمال ولا باطل. وقوله قول العلي الذي ينكشف له كل شيء على ما هو عليه، وهو العظيم المقتدر النافذة قدرته بالعدل والحكمة .

بيان المعنى العام:

19ـ فقالوا ربنا باعد ...لكل صبار شكور.

الذي عليه معظم المفسرين أن أهل سبأ استخفوا بالنعم وكفروها، فدعوا ربهم أن يبدلهم من تقارب القرى، وما يتبعه من راحة، مسافات بعيدة تتعب وتنهك. وبذلك ظلموا أنفسهم باختيارهم لها النصب والتعب. وما يتصل بذلك من الخوف وقلة الأمن هذا مجمل ما ذكروه. وهذا الفهم حسب المقاييس المألوفة في البشر بعيد. فإن بطر النعمة يتصور بعدم شكر المنعم، والانغماس في اللذات، أما أن يكون بطر النعمة بطلب زوالها فهو على خلاف سنة البشر. ولعل المعنى يستقيم إذا تصورنا ما يجري في المجتمعات التي يتصلب فيها الكافرون، ويقوم أهل الصلاح بوعظهم، ومن الوسائل التي يبرزنها في وعظهم التذكير بالنعم التي أنعم الله بها على الموعوظين . ومن شراسة وجلافة الكفار، أنهم يردون على الوعاظ ردا خشنا لا أدب فيه. فإذا وعظوهم بالتدبر في نعمة الله عليهم وما يسره لهم من القرى المتتابعة في أسفارهم، مما يوفر لهم الراحة والأمن، قالوا لا حاجة لنا بهذه النعمة، ربنا باعد بين أسفارنا. فبلغوا من الشراسة والوقاحة مبلغا بعيدا. هو رد للنعمة وكفر بآلائه سبحانه عليهم.

لقد ظلموا أنفسهم، إنهم بمقالتهم هذه تأهلوا للمقت وسلب النعمة، فكان ظلمهم وتجاوزهم للحدود، آثاره مسلطة على أنفسهم. وفعلا تحولوا إلى أثر بعد عين، كانوا بشرا يضربون في الأرض، منعمين بما يسره الله لهم، فمحقهم القادر العزيز، أبادهم ولم يبق منهم إلا أخبار يتناقلها الناس، يتحدثون عنهم في أسمارهم بما كانوا عليه وما انقلبوا إليه .وخرب الله بلادهم وتفرقوا، فانتقض نسيجهم الاجتماعي، وبلغ تمزقهم الحد الأقصى من التفرق؛ واصبحوا موعظة للناس يتأملون في ما يؤول إليه أمر من كفر بنعمة الله.

في قصة سبأ عبر جمة، آيات تدل على ما وراءها. إن الله إذا أراد أن ينعم على قوم يسر لهم الأسباب التي بها يبلغون مكانة متميزة من النعيم. وإن النعمة لا تدل على أن المنعم عليهم مرضي عنهم، وأن النعمة إذا لم يقابلها المنعم عليه بالشكر كان سببا في زوالها. وأن كفران النعم آثاره مدمرة تتجاوز ذهابها إلى عقاب

الكافرين لها بعذاب يقــدره رب العــزة. وأن المتصــرف فــي الكــون والبشــر هــو الله. وأن على الإنسان أن لا يطمئن إذا كان في نعمة أنهــا ستتواصــل إلــى مــا لانهايــة لــه. فلا الخير بدائم ولا الشر بدائم .وأن الأمن من أعظم أسس العمران.

إن تلكم الآيات ينتفع بهــا كــل مــن رزق قــوة الصــبر علــى التأمــل فــي ســنن الله، وروض نفسه على التحمل وعــدم الجــزع، وأفضــى بــه تأملــه إلــى تعميــق إيمانــه، فازداد صلة بربه وتقديرا لنعمه؛ فهو شاكر لها، ذاكر لفضله سبحانه

20.ولقد صدق عليهم ...إلا فريقا من المؤمنين.

تأصل في إبليس قوتان:

القوة الأولى : قوة عداوتــه لبنــي آدم .قــال تعــالى مســجلا لوقاحــة إبلــيس : **(قــال فبعزتك لأغــوينهم أجمعــين إلا عبــادك مــنهم المخلصــين)**[1] محــض نشــاطه لإغــواء البشر، ابتــداء مــن تــزيين الشــهوات، وبســط الأمــاني وتوســيع الآمــال، وإلهــاب الغرائز، وتوهين قوى الرقابة. ما يزال يحبب له التراخــي فــي تطبيــق شــرع الله حتــى ينتهي به إلى الكفر الرافض لسلطان الله وللبعث والحساب.

القوة الثانية: أنه لا يواجه الإنسان دفعــة واحــدة، فيحولــه مــن الإيمــان إلــى الكفــر، ومن الاستقامة إلى الانحلال دفعــة واحــدة، ولكنــه يــدرس دراســة خبيثــة اســتعدادات الشخص لقبول الغواية، وجوانــب الضــعف التــي يأتيــه منهــا، فيبنــي علــى دراســته منهجا، متكاملا ينتقل فيه من مرحلة إلى أخرى، حتــى يطوعــه لإغوائــه، فــإذا انهــارت قوى الخير فيه أجهز عليه ليقوده إلى ما أعده مقدما من الضلال.

تمثل هاتين القــوتين قــدرة إبلــيس علــى إضــلال البشــر. وتحقيــق مخططاتــه التــي ينحرفون بها من الإيمان إلى الكفر، ومن الاستقامة إلى الرذيلة والإثم .

و لقد صدق إبليس ظنه فحقق ما أعده مــن خطــط الكفــر والشــر، علــى البشــر الــذين منهم أمة سبأ. واتبعوه في الكفر بالله، ثم في استهانتهم بمــا أنعــم علــيهم مــن الخيــرات والأرزاق الوافرة، والأمــن والمــأوي. واتبعــوا إبلــيس، واســتثنت الآيــة فريقــا مــن المؤمنين في كل عصر، تحطمت وساوس الشــيطان علــى قــوة إيمــانهم. فتكــون الآيــة منبهة على عاقبة سبأ، وموقظــة لأمــة محمــد حتــى لا يلــبس عليهــا إبلــيس ويغويهــا ويضلها.

---

[1] سورة ص آية 83

21. وما كان له عليهم ...على كل شيء حفيظ.

لا تظنوا أن إبليس له السلطان القاهر، وأن الأحداث تجري حسب مخططاته في الكون. هو أهون من ذلك؛ ولكن الله لما خلق البشر وجعلهم صنفا من مخلوقاته قابلا للخير والشر، وهديناه النجدين، وقدر أن فريقا ستكون عاقبته إلى الجنة، وفريقا ستكون عاقبته إلى السعير. ومكن كل فرد من الاختيار بين طريق الهدى وطريق الضلالة. وعلم الله الأزلي لا يتغير فهو يعلم ما سيجري في الكون وفي الأفراد علما يتحقق الوجود على وفقه، فله سبحانه علم أزلي، وعلم بالحادث عند حدوثه، ولا تغاير بين العلمين. فوسوسة الشيطان هي أحد الأسباب التي تمت به الغواية، فإذا تجمعت الأسباب التي منها إغواء الشيطان ووسوسته، وحرمان الشخص من الألطاف الإلهية، تحقق ما علمه الله في الأزل وما تم في وقت حدوثه.

لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها في شك– سجل القرآن من أحوال المتسلط عليهم من البشر، من تسلطه عليه مهزوم وهو الذي يؤمن بالآخرة، ومن تسلطه عليه نافذ وهو الذي لا يؤمن بالآخرة. لأن الحقيقة التي يتأثر بها الناس في سلوكهم، هي قضية الإيمان بالآخرة، فمن يؤمن بالآخرة تكون يقظته قوية فاعلة تكون له مناعة من وسوسة الشيطان، ومن لا يؤمن بالآخرة على العكس تكون يقظته منومة خامدة، فيستجيب لما يزينه له من الإثم والرذيلة والكفر .

وربك على كل شيء حفيظ – كل ما يحدث في الكون من أفعال ونوايا، يعلمها الله علما دقيقا على ما هي عليه، (وهو الذي يحفظها فلا تضيع)، **(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا)**[1].

22←23: قل ادعوا الذين زعمتم ... وهو العلي الكبير.

نفت الآية السابقة أن يكون لمن ادعوا أنهم شركاء الله أن يكون لهم أي ملك وإن كان تافها في السماوات والأرض، ولا مساعدة لرب العزة في تصريف أمور الكون.

أفادت هذه الآية أن ما تعلق به المشركون من أن آلهتهم تشفع لهم يوم القيامة، هو وهم من الأوهام لا حقيقة له. إنه لا ينتفع أحد من المذنبين بالشفاعة، ولا يتقدم أحد من المقربين بالشفاعة، إلا لمن أذن له .إلا من أذن له في الشفاعة، وأذن لمن شاء أن تشمله الشفاعة. فلا يشفع شافع إلا بعد الإذن له ليتقدم بالشفاعة، ولا يشفع الشافع

[1] سورة آل عمران آية 30

إلا لمن أذن الله له أن يشفع فيه، فليس للشفعاء قبول مطلق لشفاعتهم، ولا تشمل الشفاعة كل الناس .

الموقف موقف عظيم رهيب، الكل في خوف وترقب، الطمأنينة بعيدة عن القلوب، لا الشافعون ولا للمشفوع فيهم. يشعرون بالأمن .(**لمن الملك اليوم لله الواحد القهار اليوم تجزى كل نفس ما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب)**[1]

ولكن مع ذلك فهناك مقربون يشعرون بأن الله سيقبل شفاعتهم بعد أن يأذن لهم، وهناك من يرجون أن ينتفعوا بشفاعة الشافعين. وكلاهما على وجل وخوف من عدم الإذن إذ لا ملزم لله فهو الفاعل المختار. هم يستمرون على هذا الوضع النفسي حتى يصدر الإذن الإلهي في ذلك اليوم يتبين به الشافعون المقبولون من يتقدم بالشفاعة، ويشعر المذنبون بأنهم مهيؤون لقبول الشفاعة فيهم، فيذهب عن قلوب الفريقين ما كان من فزع وخوف. ويحصل في قلوب الآخرين اليأس من الشفاعة فيهم.

ماذا قال ربكم قالوا الحق وهو العلي الكبير. إنه حين يصدر الإذن العالي بالشفاعة يتساءل الشافعون ما ذا قال ربنا ؟ يسألون الملائكة المقربين، من أُذِنَ له في الشفاعة ومن هم المؤهلون للشفاعة فيهم ؟ فيكون الجواب: إن ما قاله ربنا هو الحق، القول الفصل الذي لا يعقبه قول، لأنه الحق والحق لا يتعدد. فَيُلْهَمُ كل شافع من يشفع فيه، ويلقي في قلوب المشفع فيهم نوعا من الطمأنينة بما سيشملهم من فضل الله .

وهو العلي الكبير. يعقبون على ما قاله ربنا بأنه الحق، الصادر عن العلي الموصوف بصفات الكمال التي يتصرف بها في خلقه ذلك اليوم تصرفا صادرا عن علم كامل، ولا يشاركه أحد فيما ينفذه، فلا قدرة إلا قدرته، هذه القدرة التي تلتئم مع الحكمة البالغة، والعدل التام، فتجزى الخلائق الجزاء الذي حكم به، خاضعين له سبحانه. لا ظلم اليوم –

۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ

[1] سورة غافر آية16

أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

السؤال : كناية عن الجزاء.

الفتح : الفصل والحكم بالحق.

الحقتم : وصفوا بالألوهية بإلحاقكم لا لوصف ذاتي فيهم .

بيان المعنى الإجمالي :

تكرر الافتتاح بالأمر بالقول في هذه الآيات سبع مرات. إبداء للاهتمام، ولإيقاظ المخاطبين لرفع الغفلة عنهم .

أولا: قل ملجئا لهم: أن يدعوا الذين يزعمون أنهم يستحقون العبادة من دون الله. ليتبين لهم أنهم لا يتصرفون تصرف الملك في أقل جزء من السماوات والأرض، فهي خارجة عن ملكهم وعن سلطانهم وهم أحقر من أن يعينوا رب العزة في تصرفه. وهم لا يملكون الشفاعة في احد من عابديهم، فإن الشفاعة لله، لمن يأذن له. في يوم ترعد فيه القلوب ويتملك الجميع خوف وفزع: الشافعون والمشفوع لهم، حتى إذا صدر الإذن العالي ذهب الخوف لتبين المؤذن لهم بالشفاعة، ومن هم أهل لأن يشفع فيهم. ويزول الفزع والخوف من قلوب الهالكين، ويحل محل الفزع اليأس من الرحمة.

ثانيا وثالثا : قل لهم: من الذي يتولى رزقكم من بركات السماء من مطر وشمس وكواكب، ومن خيرات الأرض ما تأكلون وما تشربون وما تلبسون والمساكن التي تحميكم من القر والحر؟ قل لهم قاطعا كل شغب منهم: الرزاق المتصرف الوحيد هو الله؛ ثم إنه بعد ذلك، فإما أن تكونوا على هدى متمكنين منه، وإما أن تكونوا أنتم مغرقين في الضلال الذي يغمركم من كل جانب، أو العكس.

رابعا :قل اسمعوا إلى ما تركز في عقولنا من مفهوم المسؤولية التي بها يرتفع الإنسان في مستوى إنسانيته .نعلن أنكم غير مسؤولين عما رميتمونا به من الإجرام بنكران الأصنام، ونحن غير مسؤولين عن أعمالكم .

خامسا: قل لهم : لما كان كل فريــق يتحمــل مســؤوليته، فــإن ربنـــا ســيجمعنا جميعـــا للحساب عنده ليقضي بالحق الفاصل فإنه هــو الــذي لا يغيــب عنـــه شــيء ولا يحيــد عن العدل المطلق الذي هو من مقتضيات كماله.

سادسا: قل لهم: اعرضوا علي ما زعمــتم بـــاطلا أنهـــا آلهـــة لاحقـــة بـــالله، لنشـــاهدها وهي لا ترى ولا تسمع ولا تتحرك، ولا تدفع عــن نفســـها. كــل مـــا دعوتمـــوه باطـــل تشهد به البداهة، والله وحـــده هـــو العزيـــز الـــذي لا يغلـــب، الحكـــيم فكـــل تصـــرفاته مصطبغة بالعلم والدقة الكاملين. إنك يا محمـــد تميـــزت بأنـــا أرســـلناك حـــاملا لوحينـــا، وأن رسالتك عامـــة لجميـــع البشـــر علـــى اخـــتلاف أجناســـهم ولغـــاتهم وألـــوانهم، فـــي عصرك وفي العصور التالية إلـــى آخـــر الزمـــان. تبشـــر المـــؤمنين الصـــالحين، وتنـــذر الكفرة الفاسقين. ولكن أكثر الناس لجهلهم لـــم يهتـــدوا، والحـــق لا يـــوزن بكثـــرة العـــدد. إن الكافرين يسألونك ويسألون المؤمنين عن الوقت الـــذي ســـيحل فيـــه الحســـاب المنـــذر به .

سابعا: قل لهم: كل شيء مقدر في علم الله فاليوم الـــذي تتهزمـــون فيـــه وننتصـــر علـــيكم محدد وقته آت لا ريب فيه، واليوم الذي ستحاسبون فيه يـــوم القيامـــة مضـــبوط فـــي علـــم الله، إن طلبتم تأخيره لا تجـــابون، وإن اســـتعجلتم قدومـــه فـــلا يـــأتي إلا فـــي الســـاعة المحددة له.

بيان المعنى العام:

24ـ قل من يرزقكم من السماء...أو في ضلال مبين.

تفتح الآية بكلمـــة "**قـــل**" للإشـــعار بأهميـــة مـــا ســـيذكر، ولأن المتلـــو علـــيهم إذا طـــرق أسماعهم هذا الأمر تهيؤوا للتأمـــل فيـــه . والســـؤال واضـــح لا يقبـــل الجـــواب عنـــه إلا بنفس الوضوح الذي صيغ به. مـــن الـــذي يـــرزقكم مـــن الســـماء، مـــن ينشـــئ الســـحب وينزل منها الأمطـــار، ومـــن يرســـل الشـــمس بأشـــعتها المنيـــرة وبحرارتهـــا وبمختلـــف الطاقات التي تحدثها في الكون، وكذلك القمر والنجـــوم، ومـــن يـــرزقكم مـــن الأرض مـــا تأكلون وما تشربون وما تلبسون؟ هل للأصـــنام والأنصـــاب التـــي تعبـــدونها مـــن دخـــل في كل ذلك؟ والسؤال لوضوحه وبداهته لا يحتمـــل إلا جوابـــا واحـــدا ؛قـــل لهـــم قاطعـــا لترددهم أو تجاهلهم: الله هو المتفرد بـــذلك. وينبنـــي علـــى ذلـــك أن الأمـــر لا يحتمـــل إلا أحد أمرين، إما أن نكون نحن متمكنـــين مـــن الهـــدى وتكونـــون أنـــتم منغمســـين فـــي الضلال المغرق فـــي الكفـــر أو العكـــس. وبعـــد المقدمـــة باختصـــاص الله بـــالرزق مـــن السماوات والأرض وأن آلهتهم التي يـــدعون مـــن دون الله عـــاجزة فقيـــرة، يتبـــين أنهـــم في ضلال مبين.

25ـ قل لا تسألون عما...عما تعملون.

قل لهم قولا آخر منصفا يقتلع ما استقر في نفوسهم من عناد ومجادلة: أنتم لا تجزون عما تعتقدون أنا أجرمنا فيه بإبطال ألوهية الأصنام، والالتزام بقيم الإسلام، ونحن أيضا لا يلحقنا إثم من أعمالكم التي تتصرفون بها عقيدة وسلوكا. فتدبروا في الأمر وانتم غير معجلين، لعلكم تدركون الحق.

26ـقل يجمع بيننا...وهو الفتاح العليم.

قل لهم أيضا على نفس الدرجة من الاهتمام والإيقاظ: إنا على طريقين مختلفين متضادين، ولا تظنوا أن الأمر يستمر هكذا إلى ما لانهاية ؛ فإن ربنا سيجمع بيننا، ولن يستطيع أي فريق أن يتخلف، وسيتولى سبحانه الفصل بيننا بالحق والعدل، وهو الفتاح للحق الذي تبلغ حكمته وعدله وكماله، في كل اختلاط أو شبهة فتذوب الخيوط المضللة وإن كانت ضعيفة لأنه لا يخفى عليه خافية . عليم بالحاضر والمآل والتطورات التي تغيب عن علم غيره سبحانه.

27ـقل أروني ...بل هو الله العزيز الحكيم.

قل لهم أيضا: قدموا لنا الآلهة التي ليس لها من وصف الألوهية إلا ادعاؤكم أنها آلهة، فهو جعل باطل منكم، قدموهم لنا لنراها، وهي في حقيقة أمرها حسب دعواكم لا تخرج عن كونها حجارة أو مواد نحِتتْ منها صورا لا تسمع، ولا تبصر، ولا تتحرك. هي أعجز من أن تدافع عن نفسها. كلا ! إن ما تدعونه باطل لا حقيقة له ولا شبهة في بطلانه بل الحقيقة الكاملة : إن المتفرد بالألوهية هو الله العزيز الحكيم لا آلهتكم، إذ أنه سبحانه المتفرد بالعزة يحقق فعله بذاته لا يحتاج إلى معين كيفما كان والكل محتاج إليه. وهو الحكيم الذي يجري الأمور حسب الدقة العلمية التي لا يغيب عنها ولا يخفى عليها أي شيء في الحاضر والمستقبل في ذات ما يحدثه ولا فيما سيترتب عليه .

28ـوما أرسلناك إلا كافة...لا يعلمون.

بعد إبطال الشرك في الآيات السابقة بطرق مختلفة، عقب ذلك بإثبات رسالته ﷺ، وأنه مرسل من عند الله وهي الحقيقة المصاحبة للتوحيد في الإسلام المقومة لشطر من مفتاح الدخول في الدين. وأعلنت الآية اختصاصه بأنه مرسل إلى الناس كافة إلى جميع الأجناس والألوان والمواطن، فكل من اتصف بصفة الإنسانية كلف النبي ﷺ بإبلاغه شرع الله . تم ذلك بما عهد به إلى كل من دخل في دين الإسلام وسمع منه مباشرة أو وصله أي شيء من الوحي أن يبلغه لغيره، كما أعلن في

خطبة حجة الوداع: فليبلغ الشاهد الغائب .ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد. استدراك بقوله: ولكن أكثر الناس – ليرفع وهم أن يقدر الحق بكثرة أتباعه .إن مقياس الحق في ذاته .وأكثر الناس جاهلون بعيدون عن المعرفة الصادقة .

29←30: ويقولون متى ...ولا تستقدمون.

أنذر المشركون على لسان رسول الله ﷺ، وعلى لسان صحابته، أنذروا بأن أعمالهم مثبتة عند الله سيسلط عليهم عقابه العادل يوم القيامة، وأن الله سينصر دينه وسيحل بكم النكال على ما مكرتم بهذا الدين . سأل المشركون إنكارا واستخفافا بما وعدوا، فقالوا: متى سيتحقق هذا الوعد، أي متى يأتي يوم القيامة، أو متى ستنتصرون؟ فكان الجواب حاسما من الله العليم، وأنهم لتصلبهم في العناد يسألون عن الميعاد الذي ما ذكروا لهم أنهم يعرفونه. أثبت الله العليم بما سيحد ث في المستقبل بأن ما وعدوا به، مما يشمل يوم القيامة، وانتصارات الإسلام، كل ذلك محدد أجله عند الله، وسوف يأتي لا محالة؛ ولا تستطيعون تأخيره عند حلوله، كما لا يتقدم بطلبكم استعجاله .

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

رجع القول : المحاورة.

مجرمين : مشركين..

المكر: الاحتيال

الأنداد : الند المماثل .

الندامة: الحسرة على ما فات.

الأغلال: جمع غل وهو ما يوضع في رقبة الأسير مـــن جلـــد أو حديـــد ويشـــد بسلســـلة أو حبل بيد آسره .

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن مقالة الذين كفروا لما بلغ بهـم النكـران، أن جمعـوا بـين رسـالة محمـد صلى الله عليه وسلم ورسالات الأنبياء السابقين فـأعلنوا أنهـم لا يؤمنـون بـأي رسـول منهم. ويعاجلهم القـرآن بافتضـاح أمـرهم يـوم يبـدون لكـل راء، وهـم موقوفـون، لا يتحركون والجدل بينهم على أشده وقد ذهـب كـل مـا كـان بيـنهم مـن صـلات فـي الدنيا. يقول المستضعفون الذين كانوا تابعين للقادة الـذين اسـتكبروا بغيـر الحـق، إنكـم أضللتمونا ولولا تأثيركم الفاسد فينا لكنـا مـؤمنين، ويـرد علـيهم رؤوس الكفـر أنحـن صددناكم عن الهدى الذي جاءكم ؟ أبدا، ولكـنكم كنـتم مصـممين علـى الشـرك .ويـرد عليهم المستضعفون؛ كذبتم بل إنكم كنتم تدبرون بالليـل والنهـار مـا يحـول بينـا وبـين الإيمان وتغروننا بالثبات على عبادة الأصنام، دين الآبـاء. وهـو تنصـل مـن المسـؤولية لا يغني شيئا عن الفريقين، فتمتلئ نفوسهم حسـرة علـى مـا فرطـوا عنـدما يبـدو لهـم المصير الذي هم صائرون إليه وقد وضعت الأغـلال فـي أعنـاقهم، وسـيجزون جـزاء عادلا، ولا يظلم ربك أحدا.

بيان المعنى العام :

31ـوقال الذين كفروا...لولا أنتم لكنا مؤمنين .

معارضة المشركين للرسالة المحمدية أخذت أشـكالا عـدة، لأن كـل مـا يعترضـون بـه على القرآن يتهاوى، فهم يتحولون من باطل إلـى باطـل. فقـد تقـدم مـنهم أن طلبـوا أن يأتيهم بمثل ما أوتي موسى مثلا، وفـي هـذه الآيـة أعلنـوا أنهـم لا يؤمنـون بـالقرآن المتلو عليهم على أنه من عنـد الله، وهـو مسـاو للكتـب التـي سـبقته، فهـم رافضـون لجميع رسالات الله.

اختار القرآن أن يرد عليهم بتحقيق ما سيكون جزاؤهم عـن تصـلبهم فـي الكفـر تصـلبا نفوا به جميع الرسالات. لو تراهم. والخطاب لكـل مـن يمكـن منـه الرؤيـة لافتضـاح أمرهم، متعلق الرؤية مقدر لتذهب فيـه الـنفس كـل مـذهب مـن الفظاعـة، والظـالمون موقوفون، ووصفهم بأنهم موقوفون يلقـي فـي التصـور أنهـم مأسـورون لا يتحركـون ولا يستريحون .الحيـرة تـأكلهم يتحـاورون حـوارا سـؤال يتبعـه جـواب هـو نفـس السؤال. ويصرح القرآن ببعض ما يجري بينهم مـن حـوار هـو حاصـل بـين الزعمـاء الذين كانت لهـم القيـادة والتـأثير فـي الـدنيا وبـين الأتبـاع الـذين كـانوا يـأتمرون بأوامرهم. وترمز الآية إلى الذل الذي أحـاط بهـم، فقـد كـانوا فـي الـدنيا مُطـاعين لا

يتجرا الضعفاء على مناقشتهم، واسمع إلى حوارهم في ذلـك اليـوم .يقـول الـذين كـانوا مستضعفين يؤمرون فيطيعون، للمستكبرين الذين كانت القيـادة بـين ايـديهم فـي الـدنيا: أنتم تتحملون المسؤولية، إنه لولا إلزامكم لنـا وتضـليلكم وتـأثيركم الفاسـد، لـولا ذلـك لكنا مؤمنين.

32ـ قال الذين استكبروا...بل كنتم مجرمين.

يتوالى الحوار بين الفريقين، فيدفع المسـتكبرون الملامـة عـن أنفسـهم قـائلين: أنحـن صددناكم . استفهام إنكاري . ننكر مقالتكم ونكذبكم فيمـا جـاء فيهـا، فـنحن لـم نمـنعكم عن اتباع الهدى بعد أن وصلكم وسمعتم بـه، ولـم نصـدكم عنـه، ولكـن الحقيقـة أنكـم كنتم مصممين على الكفر والرفض للهداية التي جاءتكم .

33ـوقال الذين استضعفوا...هل يجزون إلا ما كانوا يعملون.

قال المستضعفون مكذبين للمستكبرين القـادة: كلامكـم باطـل وتبـرؤكم ممـا قمـتم بـه فعلا مردود عليكم. إنكم كنتم تلحون علينا بالليل والنهـار، لا تتركـون بابـا للتـأثير فينـا إلا سلكتموه. كنتم تحتالون علينا بمتنـوع طـرق المكـر، وتغروننـا بمختلـف المغريـات لنكفر بـالله ونجعـل لـه شـركاء مـن الأصـنام. ورأى الكـافرون مـن المستضـعفين والمستكبرين ما أعد لهم من العذاب الذي أيقنوا أنه لا مفـر لهـم منـه فـانطوت نفوسـهم على الندم والتحسر على ما فرط ولا أمل فـي رجـوع عقـارب السـاعة إلـى الـوراء، ارهقوا بالعذاب النفسي بين اليأس والحسرة .

ويبدو المشهد بعد ذلك الجـدل بيـنهم، والحسـرة التـي اسـتولت علـى بـواطن الـذين كفروا، يبدو المشهد وقد قيدوا من أعناقهم يسـوقهم الملـك الموكـل بهـم إلـى مصـيرهم التعيس. ولا يكون جزاؤهم إلا الجـزاء المقـدر بمسـاواته لسـوء أعمـالهم القلبيـة فـي العقيدة وسوء أفعالهم في تصرفاتهم الفاسدة والظالمـة . والجـزاء العـادل صـادر عـن الله الذي لا يظلم أحدا.

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟
نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ
وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ
عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ
فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ

مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

المترف : المنعم البطال

يبسط الرزق : ييسّره ويكثره.

يقدر يعسره ويضيقه.

زلفى : مصدر بمعنى التقريب، تقربكم تقريبا.

معاجزين : يهدفون إلى تعجيز الرسول ﷺ.

بيان المعنى الإجمالي:

تسل يا محمد ولا يحزنك تصلبهم في الكفر. هذا شأن المترفين الذين استغرقوا في حياة النعيم مع الذين أرسلتهم قبلك ينذرونهم عاقبة كفرهم، فكلما جاء رسول إلى أهل قرية، ما كان موقفهم من هدايته إلا قولهم : إنا مصممون على الكفر برسالتكم. وأضافوا: نحن أكثر أموالا وأولادا من الذين اتبعوكم، وهذا دليل على رضا الله عنا، وأنه لا يعذبنا .قل لهم نفيا لما زعموه: إن ربي يوسع الرزق لمن يشاء، ويضيقه على من يشاء، ولا رابطة بين رضا الله وسعة الرزق، ولا بين التضييق وعمل الإنسان بما هو مطالب به. ولكن أكثر الناس لا يدركون هذه الحقيقة فيقعون في أوهام باطلة .ليست سعة أموالكم ولا كثرة أولادكم هي التي تجعل لكم منازل القرب والرضى عند الله؛ لكن الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، فأولئك الذين سنجازيهم الجزاء المضاعف على صالح أعمالهم يوم القيامة وأعتدنا لهم منازل عالية في قصور الجنة، مع وافر الأمن.

في المقابل، إن الذين يتحركون بقوة ليضللوا الناس متوهمين أنهم يُعجِزُون الله ورسوله ويطمسون أنوار آياته، هؤلاء سيكونون حاضرين في العذاب المعد لهم.

قل يا محمد مؤكدا إن الله يبسط الرزق لعباده أو تقتضي حكمته التضييق لمصلحة المضيق عليه . وإن الله سيخلف على المنفقين في الأوجه التي أذن فيها ما أنفقوه إخلافا عاجلا في الدنيا وثوابا في الآخرة، أو جزاء أخرويا .

بيان المعنى العام :

34- وما أرسلنا في قرية من نذير...إنا بما أرسلتم به كافرون.

يسلي الله نبيه بأن تصميم قريش على تكذيبه وتصلبهم في الكفر، هو ما لاقاه إخوانه المرسلون من قبله. فكلما دعا رسول الناس في مدينة من المدن، إلا قابله

المترفون المنعمون الأغنياء بقولهم: إنا كافرون بما تدعون أنكم أرسلتم به .ولا نصدقكم.

35ـوقالوا نحن أكثر ... وما نحن بمعذبين.

من استكبارهم، وعدم فطنتهم: أنهم قالوا لرسلهم: نحن قد أوتينا الأموال الكثيرة، نعيش في رغد من العيش، وأولادنا حولنا نعتز بهم ونكاثر بهم الناس . ومن تبعكم مضيق عليهم فقراء. إن وضعنا يقوم دليلا على أننا غير معرضين للعذاب، إذ لو كنا محل سخط معرضين للعذاب ما بلغنا من النعيم المبلغ الذي نحن فيه. إن الله يعلم رفضنا لرسالتكم فلوكان ساخطا علينا لما مكننا من الخيرات التي بسطها علينا.

36ـقل إن ربي يبسط...ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

قل لهم يا محمد قولا يبطل تصورهم ويكشف عن خطئهم في تقدير الأمور، إن الله يوسع في الأرزاق، أو يضيق فيها ويجعلها عسيرة على أصحابها ليس جزاء على ما قاموا به من أعمال، ولكن مشيئته المنظمة للكون، والمرتبة للأسباب والمسببات في الدنيا هي التي يرتبط بها الرخاء أو الضيق. فكم من غني افتقر، وكم من فقير انقلب إلى رفاه وكثرة أموال. والربط بين الأعمال والجزاء هو من قوانين الآخرة، لا من قوانين الدنيا. ولكن أكثر الناس مخطئون جاهلون بالأسباب الحقيقية التي يبسط الله بها الرزق في الدنيا، أو يضيق، وليس منها في شيء صلاح العقيدة والفعال .

37ـ وما أموالكم ...وهم في الغرفات آمنون.

قل لهم أيضا :إن أموالكم وأولادكم ليس لها أي أثر ولا اعتبار في تقريبكم منا تقريبا دالا على الرضا والكرامة ؛ولكن الذين آمنوا فتطهرت عقيدتهم من الشرك، وصلحت فعالهم في الدنيا فاستقاموا على شرع الله، فأولئك مميزون بأن الله يجزيهم الجزاء المضاعف، وهذا يتضمن أمرين:

أولهما: أنهم من المرضي عنهم لأن مضاعفة الجزاء يختص بها الذين عملوا الحسنات، وأما من عمل السيئة فلا يجزى إلا مثلها ولا يظلم بترتيب عقاب عليها أكثر منها.

وثانيهما : أن قوله تعالى جزاء الضعف، فيه إشارة إلى المراتب المتفاوتة في فضل الله الذي قدره جزاء للمحسنين من عشرة أمثال إلى سبعمائة ضعف، والله يضاعف لمن يشاء . قال تعالى : **(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل**

حبة أنبتت سبع سنابل فـي كـل سـنبلة مائـة حبـة والله يضـاعف لمـن يشـاء والله واسع عليم)[1].

ونقضا لما توهموه من أن سعة الأرزاق وكثرة الأولاد دليـل رضـا، نصـت الآيـة علـى أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات هم وحدهم الـذين يلاقـون الرضـا بمضـاعفة الثـواب، وهم في منازل مرفوعة، مع نعيم السكنى المشرفة فيمـا أعـد لهـم مـن القصـور فـي جنة الخلد، حقق لهم الشعور بالأمن، فزال عنهم الخوف مـن انقطـاع مـا هـم فيـه مـن نعيم

38ـ والذين يسعون...في العذاب محضرون.

تؤكد هذه الآية مضمون الآية السابقة بالتنصيص علـى مـآل الـذين يسـيرون فـي خـط معاكس للفائزين بالرضوان. قدمهم على أنهم يجرون لاهثـين، بمـا تفيـده كلمـة يسـعون من الجري اللاهث، وبذل أقصى الجهد، يسعون لتعمية الحقيقـة التـي تشـع مـن آياتنـا، ويعملون على مغالبة رسـول الله ﷺ وتعجيـزه، وبالتـالي تعجيـز القـادر العظـيم . إن كيدهم فاشل، ونهايتهم عذاب معد على وزان فسادهم .

39ـ قل إن ربي يبسط...وهو خير الرازقين.

تتفق هذه الآية مع مضـمون الآيـة 36 : إن التوسـيع علـى النـاس فـي أرزاقهـم أو التضيق عليهم، لا يرتبط بصلاح الشخص، ولا بفسقه . وتتميز بخصائص :

1) أن هذه الآية نسبت الموسع عليهم إلى ذاتـه العليـة "**مـن عبـاده**" ويكفـي الإنسـان شرفا أن يكون عبدا لله .

2) يفهم منها أن التضييق مبني على حكمة راعى الله فيهـا مصـلحة مـن قـدر عليـه رزقه، ويقدر له . إذ تفيد هذه الصياغة أن التضييق عليـه هـو لـه لا عليـه. سـيظهره له ربه بجزائه على الصبر، ومضاعفة الثواب يـوم القيامـة، وبصـرف مـا كـان يمكـن أن يقارن السعة من شرور في النفس أو في الأهل أو في الدين.

3) لتكون فاتحـة الآيـة مقدمـة للوعـد الكـريم مـن رب العـالمين. ولمزيـد الاهتمـام بمضمونها افتتحت بكلمة قل: إنه سيخلف على المنفق مـا أنفقـه . فهـو الـرزاق، وهـو الهادي للإنفاق، والإخلاف من الكريم الذي لا يـنقص شـيء مـن ملكـه، يحقـق بفضـله مضاعفة ما تم إنفاقه في الوجوه التي أذن فيها عطـاء دنيويـا وثوابـا أخرويـا، أو ثوابـا في الآخرة.

---

[1] سورة البقرة آية261

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟
سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾
فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ
ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا
رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

الولي: الحليف والناصر.

يملك : يقدر على نفع

الذوق : تعبير عن قوة الإحساس بالألم .

الآيات البينات : آيات القرآن الواضحة.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يوم يجمع الله كل المشركين الذين عبدوا الملائكة، ويسأل الله الملائكة أكنتم راضين بعبادة هؤلاء لكم. وجواب الملائكة واضح : تنزهك ربنا أن نتخذ وليا من دونك أو أن نبتغي النصرة من أحد سواك. إن هؤلاء كانوا يعبدون الجن. إنه في هذا اليوم تتقطع الروابط التي كانت بينكم فلا يستطيع العابد ولا المعبود أن ينفع الآخر بشي أو يضره. ويلفكم قضاء واحد: ليكن إحساسكم بعذاب النار بليغا، لأنكم كنتم تكذبون به.

إن موقفهم منك، إذا تلوت عليهم آيات الكتاب البينة، أنهم يجتهدون بمختلف الطرق ليرفضوا ما سمعوه. يقولون مرة لصرف الناس عن الإيمان: إن التالي عليكم رجل مثلكم قصده واضح: أن يحول بينكم وبين ما هو مقدس عند آبائكم. ويقولون مرة أخرى هذا الكلام الذي نسمعه لا يعدو أن يكون كذبا على الله أو كلاما مختلقا من محمد. وفي النهاية أجمع الكافرون على أنه سحر يلعب بالعقول والمدارك.

بيان المعنى العام :

40←41: ويوم نحشرهم ...أكثرهم بهم مؤمنون.

بعد أن أبطل القرآن عقائد الكفرة وشبهاتهم في الآيات السابقة، أوعدهم محذرا من موقفهم يوم القيامة. فاذكر يا محمد افتضاح أمر المشركين، عندما يوقفون أمام ربهم ويسأل الله العليم بالحقائق، سؤالا يكشف عن بنائهم عقيدتهم على خيالات منفية.

تخاطب الآية صنفا من المشركين يجمعهم الله يـوم القيامــة، لا يســتثني أحــدا "**جميعــا**"، عبدوا الملائكة، وعبدوا الجن. فيوقف الله الملائكــة ويســألهم، أكـان هــؤلاء المشــركون يعبدونكم؟ وليس المقصود من السـؤال تحقـق العبــادة أو لا؛ فهـم قـد عبـدوهم فعــلا، ولكن المقصود وراء ذلـك، هـو رد دعــواهم أن الملائكــة كــانوا يـدعونهم لعبــادتهم راضين عنها. ويجيب الملائكة : سبحانك ! تنزيــه لـك أن يعبـد سـواك. لا نرضـــى أن يكون لنا ولي وناصر سواك. فنحن نوالي مـن والاك ونعــادي مـن عــاداك، فـلا صــلة بيننا وبين المشركين. ولكن صلتهم كانت بالجن. الــذين كــانوا يوسوســون لهـم، ويلقــون إليهم معلومات تخدعهم ليواصلوا عبادتهم. وقد تحيــر كثيــر مــن المفســرين فــي عبــادة الجنة، وذلك لأن تسجيل أنــواع الشــرك لـم يكـن وافيــا، وتــأولوا الآيــة علــى أنهـم يسولون لهم المعاصي فيتبعونهم، فهي عبــادة مجــازا. ولكــن انكشــف اليــوم أن بعــض المشركين في زماننا يعبدون الشــيطان . فتبــارك الله رب العــالمين الــذي وســع علمــه كل شيء.

42ـ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض ..التي كنتم بها تكذبون.

خسأ المشركون، فأعقب ذلك الحكم العادل، المتمثل في:

1) أن التناصر الذي كــان بيـنكم قـد انتهــى اليـوم، وتقطــع مــا كــان بيــنكم. فمــن عبدتموهم من الجن يتبــرؤون مــنكم، عــاجزون عــن نفعكــم، وأنــتم عــاجزون عــن تقديسهم الذي كنتم عليه في الدنيا. ولتمام تصــوير العجــز ألحــق عجــزهم عــن الضــر مع يسر القيام بالضر.

2) أنجز العذاب وأسمعهم: ليكن إحساسكم بعــذاب النــار أشــد إحســاس وأبلغــه، وهــو من العدالة الإلهية لأنهم كانوا يكذبون بعذاب يوم القيامة.

43ـوإذا تتلى عليهم...إلا سحر مبين.

سجل القرآن موقفهم من القـرآن عنــدما يتلــى علــيهم فعــلا ويســمعونه مباشــرة مــن رسول الله ﷺالعجيب منهم أنهم إذا سمعوا آيــات القــرآن الواضــحة الدلالــة التــي تشــهد مضــامينها بصــدقها وســموها، وبموافقتهــا للحــق والفطــرة .صــمموا علــى الــرفض مبررين رفضهم بأمور:

1) أن محمدا التالي للقرآن رجل مثلكم وليس ملَكــا، وغايتــه مكشــوفة؛ إنــه يريــد أن يبعدكم عن الآلهة التي ثبتـت ألوهيتهــا قـديما، التــي كــان يعبــدها آبــاؤكم، وآبــاؤكم محل ثقة بآرائهم ومعبوداتهم .

2) إن ما يتلوه لا يخرج عن كونه كذبا افتراه محمد ناسبا له إلى الله .

3) أحضر الذين كفروا بوصفهم، قال الذين كفروا، ليكون الكفر هو الحامل لهم على مقالتهم، في الوقت الذي عجزوا عن معارضته لكون نور الحق باديا عليه، وقد هزهم ونفذ إلى مداركهم فلم تجد فيه مطعنا ترفضه به، قالوا لتصلبهم في الكفر: ما هذا إلا سحر واضح، لأنه يحول تصوراتنا ويخرجنا مما كنا نعتقده إلى شيء آخر بعيد عنه.

وَمَا ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ
إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن
جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ
لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ
عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ
أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الدراسة : القراءة بتأمل .

المعشار : العشر .

النكير : الإنكار .

الوعظ: كلام فيه تحذير من مكروه، وترغيب في ضده.

القيام : التأهب وأخذ الأمر بجد.

التفكر : تكلف الفكر، لتحصيل العلم .

لأجر: العوض عن عمل يرغب في التحصيل عليه دافع المقابل كان مالا أو منفعة.

يقذف بالحق : يظهر الحق ويهزم الباطل .

ما يبدئ الباطل وما يعيد : يَضْمَحِلّ الباطل اضمحلالا نهائيا.

قريب: عليم محيط .

بيان المعنى الإجمالي:

العجب من غباء المشركين، فهم لم يكونوا أهل كتاب يتدارسون ما فيه دراسة تبني عقولهم، ولم يأتهم قبلك نذير يوجههم إلى الخير ويحذرهم من سوء العاقبة، فيكون اعتمادهم على أحد الأمرين مبررا للإعراض.

إن تصلبهم في الكفر شأنهم فيه كشأن المكذبين من الأمم الماضية، قوة القرشيين لا تبلغ عشر قوتهم، وسلطت عليهم العقاب الماحق لما كذبوا. فكيف كان غضبي؟ هو فوق الوصف.

قل لهم: إني أرغب في تحذيركم من الشر، وأدعوكم إلى ما يقابله من الخير (أعظكم) بأمر واحد: أن تجتهدوا فتقبلوا على الله بقلوب متفتحة مطهرة من كل الأفكار المسبقة، وأن تقبلوا على التعمق في التفكير، إما أن يختار كل واحد منكم صاحبا يألفه ولا ينازعه، أو أن تجتهدوا فرادى، ثم تتعمقون في التدبر حسب شروط التفكير المنتج؛ إن هذا المنهج سيصل بكم إلى أن محمدا صاحبكم الذي رضيتم خلقه وصدقه وأمانته وذكاءه، ونجاح تدبيره، لا يمكن أن يكون به مس من الجن. و يتبين لكم أنه إنما جاءكم لينذركم العذاب الشديد الذي لا منجاة منه لمن كفر.

قل لهم أيضا: إني ما تعلقتُ بدنياكم ولا حملتكم أجرا يثقل عليكم، ولا قليلا من أموالكم، فأنا أطمح لنيل رضا الله، الذي هو شهيد لا يخفى عنه شيء مما أنطَوِي عليه.

وقل لهم أيضا: إن ما تؤثر به النفس في عقيدة الإنسان وسلوكه ينتهي به إلى الضلالة، فتبعات الضلال يتحملها الضال وحده وجاءته من نفسه . وإن اهتديت، فذلكم الاهتداء هو بفضل ما أوحى به إلي ربي من الهداية وتوفيقه. إن ربي سميع لكل ما تحدثه النفس، وقريب قربا يحقق أن علمه محيط بالأشياء .

بيان المعنى العام :

44- وما آتيناهم من كتب...قبلك من نذير.

رفض الكفار ما بلغهم رسول الله ﷺ، وقد ذكرت الآيات السابقة مبررات رفضهم الزائفة. وتابعت هذه الآية تقطع كل عذر في رفضهم. فذكر القرآن أنه سبحانه لم ينزل عليهم قبل القرآن كتابا من عند الله يستندون إليه لرفض ما جاءهم باعتباره مناقضا لما عندهم، فهم أمة أمية، كان محمد أول رسول. ولو كانوا يعقلون لأقبلوا على القرآن مبتهجين، إذ يخرجهم من الضياع إلى وضع يكونون فيه حملة كتاب من عند الله . ولم يأتهم قبلك نذير مختص بهم ينذرهم فيستندوا لكلامه ويستغنوا به عن نذارتك. ويختارون البقاء على ما ألفوه .

45- وكذب الذين من قبلهم...فكيف كان نكير.

هذه الآية تسلية لرسول الله ﷺ ؛ تذكر الآية أن الذين أرسلت إليهم الرسل قبل قومك كذبوهم، وكانوا أشد قوة من قومك .و لا تصل قدرات قومك ولا تراوهم إلى عشر

ما كان للأمم السابقة .فكذب هؤلاء الماضون الأقوياء رسلي، فتسأل الآية كيف كان نكيري عليهم ؟ كيف كان عقابي لهم على موقفهم من رسلي .هو نكير وغضب وعقاب يفوق الوصف.

46- قل إنما أعظكم بواحدة...بين يدي عذاب شديد.

خمس آيات متوالية كل واحدة منها مفتتحة بقل . منبهة بذلك لمضامينها.

الأولى: قل لهم لينتبهوا وليفتحوا عقولهم على ما سيعرض عليهم. هو يعرض عليهم أمرا لا تعقيد فيه، ولا كثرة مشتتة. هو وعظهم بموعظة واحدة تحرك العقول وتهدي السبيل.

أن تأخذوا الأمر بجد أن تقوموا لله، فتبعدوا عن أنفسكم كل ما علق بها وتعودوا بها إلى فطرتها التي خلقها الله عليها. تغسلوا عقولكم ومشاعركم مما التصق بها في الحياة لتكون صافية تنحي عن محيطها كل غبش، فتتجردون من الأفكار المسبقة. أن تقوموا جادين على هذا التصور، إما اثنين اثنين، يختار كل منكم من يأنس لفكره، ويثق في نظره، فيكون التعاون بين الاثنين مضمونا للتعمق وتقليب النظر لتتكشف الحقيقة. أو أن يقبل كل واحد منكم بجد يعود إلى نفسه منفردا، يتأمل في هدوء، بعيدا عن العجلة، وعن الصخب واللغط. ثم تنتقلون من مرحلة الإعداد هذه، إلى التعمق مفكرين في صاحبكم الذي عاش معكم أيام صباه وشبابه وكهولته. خبرتم أخلاقه فرضيتم خلقه وأمانته، ورجاحة عقله وذكاءه، وصدقه وعفته. إنكم تستمعون لما يبلغكم به عن الله من وحي كتابه، فما طرق أسماعكم كلام يبلغ مبلغه من البيان والدقة والسلاسة وحسن النظم. إنكم إذا تدبرتم في ذلك فرادى، أو مثنى مثنى، فإنه لا بد أن تفضي بكم تلكم المقدمات إلى التفكر، إلى انقداح تلكم الومضة النورانية من الفكر الخالص، وعندها فإنكم ستعلنون أنه لا يمكن أن يكون مجنونا، فالجنون يقترن به الخلط والخروج عن المنطق والمعقول. إنه مقصور على إيقاظكم ليعرفكم ما يترصدكم من خسران ومقت وعذاب شديد. فتنتشلكم هدايته من العذاب الشديد .

47- قل ما سألتكم...وهو على كل شيء شهيد.

هذه هي الآية الثانية المفتتحة بـ " قل ". طعنوا في الرسالة وفي الرسول وفي الكتاب المنزل ما شاء لهم العناد .وبين القرآن باطل تلكم المطاعن فأسقطها. ثم فرضت هذه الآية أن يتعللوا بسعيه من وراء دعوته إلى اكتساب المال، شأن سدنة الأصنام وبيوت العبادة الذين يفرضون على العابدين ضرائب تفتح لهم أبواب الخير

وتسبب لهم رضا المعبودين. يتبرا فيها النبي ﷺ من طلب الدنيا والتعلق بما في أيدي الناس، وانتظار أجر على ما يقدمه لهم من هداية ينفي ذلك على أبلغ وجه، يأمره الله أن يقول لهم: إن كنت سألتكم أجرا في الماضي أو في الحاضر تدفعونه لي، فهو لكم استرجعوه مني. وهم يعلمون أنه ما طلب منهم شيئا من متاع الدنيا. وإذ انتفى أن يكون طالب مقابلا، فإن قيامه بالهداية ليس عبثا، ولكنه ينتظر ثواب ذلك وأجره من الله. ثم يعلن أنه متعلق بربه الذي يعلم ما ظهر وما بطن، يعلم أنه ما أخذ شيئا، وأن نفسه الكريمة العالية مطهرة من التعلق بما في أيديهم..

48ـ قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب.

هذه الآية الثالثة المفتتحة بـ "**قل**" تحقق ما جاء في الآية السابقة "**إن أجري على الله**" فإن أجره المضمون من عند الله ضمان الوعد ممن لا يخلف وعده؛ إن أجره ﷺ لا يقتصر على ما سيتفضل عليه من تكريم ورفع الدرجات، بل يقترن ذلك بأن ما جاء به سيظهره الله، ويقذف بقوة ما تضمنه من الحق، على الباطل الذي تتمسكون به فيتهاوى، وينتصر الدين الذي جئت به على الأوهام والضلالات المظلمة التي استولت عليكم .. ولا تسألوني متى سيتحقق ذلك؟ فإن ربي القريب مني الذي وعدني ما أنذرتكم به، هو وحده علام الغيوب. فما هو مخبأ في غيوب المستقبل منكشف عنده كأنه حاضر .

49ـ قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد.

هذه الآية الرابعة المفتتحة بـ"**قل**" لهم أفيقوا من غَفَلاتكم، فقد جاء الحق. لم يعد الأمر جدلا ينتهي بغلق المجادلة والاحتجاج. ولكن الأمر معركة انتصر فيها الحق بالآيات المنزلة الثابتة في الصدور، المتلوة بالألسنة والقلوب، المؤثرة في منهج الحياة، الكاشفة عن العقيدة الصحيحة. فاستقرت في الحياة استقرارا نفى باطلكم نفيا لا مطمع له بعد ذلك في ظهور ولا في عودة، لقد اضمحل، وتحللت جميع قواه فلا مطمع له في عودة. وبهذا التحليل تكون الآية مؤكدة للآية السابقة قل إن ربي يقذف بالحق علام الغيوب

50ـ قل إن ضللت...سميع قريب.

هذه هي الآية الخامسة المفتتحة بـ"**قل**" اختتم بها إيقاظ كل من يحتمل أن يكون مخاطبا لتقرير قاعدة عامة، على الإنسان أن يتأمل فيها، ولتكون مقدمة بأجلى بيان إذ نسب فيها الضمير إلى النبي ﷺ، وهو المثل الأعلى في السمو الإنساني. قل لهم: إن منبع الضلال والشر، والفساد في العقيدة والسلوك، هو نفس الإنسان التي

بين جنبيه؛ إن النفس لأمارة بالسوء. هي مسكن الشيطان، ومنها ينطلق إلى العقل ليضلله، وإلى الغرائز ليلهبها حتى تقطع صلتها بالفضيلة. إن ضللت وانحرفت عن طريق الهداية، فآثار الضلال تقع على نفسي.

وإن اهتديت إلى الحق في العقيدة والاستقامة في السلوك، فإن ذلك لا يكون إلا باتباعي لما يوحي به إلي ربي. فالحق والخير والاهتداء والأمن، كلها باتباع وحي الله. وخسارة الإنسان بانفصاله عن وحي الله واستجابته لدواعي النفس الأمارة.

إن ربي سميع لما يجري في النفس من خواطر وعزمات، وسميع لكلّ ما يرف في الكون لا يتوقف سمعه على تموجات الهواء. وهو قريب قربا يؤكد علمه بكل ما يحدث. وفي هذه الخاتمة تهديد للضالين بأن الله مطلع على كل دقيقة من فعالهم. وهو تأمين للصاحين بأن ربهم قريب منهم، ولا كرامة أسمى من هذا القرب.

وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُواْ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُواْ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُواْ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ﴿٥٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفزع : الخوف المفاجئ.

أخذوا : قبض عليهم.

فلا فوت : فلا خلاص من العقاب.

مكان قريب : المحشر.

التناوش: التناول.

يقذفون : يقولون بدون ترو.

أشياعهم : المشابهون لهم في النحلة . أمثالهم.

بيان المعنى الإجمالي :

يامن تصح منه الرؤية ! لو تبصر هؤلاء العتاة المشركين من أهل مكة وهم مضطربون خائفون، لا يقدرون على الانفلات مما هم فيه، يتم إمساكهم كلما هموا بالخروج. وهم ينادون: آمنا به، **آمنا به** – وما أبعد الإيمان النافع عنهم. فهي كلمات تضيع بمجرد ما تخرج من أفواههم. كيف لا وقد كفروا بما قالوا: آمنا به، زمن التكليف. وكانوا يرمون ما يعمل الرسول على إبلاغهم إياه من الوحي قبل أن

يصل إليهم، كانوا يفرّون منه ويبتعدون عنه. إنهم في هذا اليوم يشتهون أن يعودوا إلى الدنيا، أو أن تنفعهم كلمة: آمنا. ويقوم اليأس في قلوبهم من نيل ما يشتهونه، ذلك جزاؤهم العادل على شكهم العميق.

بيان المعنى العام :

51ـ ولو ترى إذ فزعوا ...من مكان قريب.

استحضار لمشهد رهيب؛ لو ترى، والخطاب لكل من تصح منه الرؤية إذ بلغ الأمر شهرة واضحة، فلا يخفى على أي راء؛ فما هو المرئي ؟ هو مقدر لتذهب النفس في تقدير فظاعته ما شاءت. ثم تفصل ،الآية بعض الصور: الفزع والخوف قد استولى عليهم فهم يرتجفون، إنهم يضطربون، كل فرد يتحرك حركة المستعد للفرار، فيؤخذ ويقيد قبل أن ينتقل من مكانه، يؤخذ من مكان قريب، فبمجرد ما يتحرك للهروب يطبق عليه أسر الملائكة الموكلين به.

52ـ و قالوا آمنا به...من مكان بعيد.

وقالوا: آمنا به ولم يعينوا بما ذا آمنوا، كلمة خرجت من أفواههم يصح أمنا بمحمد، أو آمنا بيوم البعث، توهما منهم أن ذلك ينجيهم وكم هو بعيد عنهم أن يصيبوا الإيمان، ويتناولوه اليوم، إن الإيمان كان نافعا في الدنيا، أما اليوم فقد بعد ما بينهم وبين زمن التكليف، الذي يترتب عليه الفوز أو الخسران. فمثلهم مثل من يمد يده ليتناول شيئا هو بعيد عنه تمام البعد. ولتقريب الصورة مثلهم كمثل الذي يمد يده إلى السماء ليتناول منها كوكبا.

53ـ وقد كفروا به ...بالغيب من مكان بعيد.

كشفت هذه الآية عن الوضع الذي كانوا عليه في الدنيا. أنكروا الوحي النازل على رسول الله ﷺ، وسجل القرآن في غير ما آية جراءتهم على القرآن وعلى الرسول، فقد كفروا بكل ما جاءهم وما وعدوا به وما توعدوا عليه، فهذه صورة الكفر. أما الكيفية فكان الصدود يحملهم على الرفض دون أن يتبينوا مضامينه، ويعرضوه على عقولهم وعلى ما تنادي به فطرتهم، فمثلهم مثل من يقدم له النفيس فيرفضه قبل أن يعرف نفاسته، ولا يقترب منه، وينفر منه بعيدا. أي إن الفاصل بينهم وبين هداية الوحي كان فاصلا بعيدا لأنهم قرروا مقدما أنهم لا يقتربون منه.

54ـ وحيل بينهم ....إنهم كانوا في شك مريب.

تلخص هذه الآية حالتهم بعد تقريرهم بسوء ما قدموا، ومحاولاتهم التنصل، وتصورهم أن قولهم آمنا ينجيهم فيحمون أنفسهم من العذاب. إن ما كانوا يتمنونه

بقوة، تتفتح له شهيتهم كانفتاح شهية الجـائع إلـى الطعـام؛ فـي ذلـك الظـرف يحـال بينهم وبين أطماعهم، فيقوم اليأس المعذب يـرد كـل أطمـاعهم إلـى خيبـة، ومـا أشـد مرارة وقع ذلك عليهم ! تم مثل هذا الحرمـان الباغـت فـي الـدنيا فـإن أمثـالهم فـي الدنيا من الذين سلط عليهم العذاب واستؤصـلوا، تـم ذلـك بصـفة مباغتـة قُطِـعَ دابـر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين. وما ظلمهـم الله، وهـو الحكـم العـدل. إنهـم كانوا مغرقين في الشك، أقبح صور الشك المفضـي إلـى الـرفض، وانحـراف السـلوك. مريب شك شديد في نوعه.

تم بحمد الله وحسن عونه بيان معاني سـورة سـبأ يـوم الاثنـين 12 جمـادى الثانيـة 1434 – 22 أفريل 2013 تقبل الله عملي ويسر لي بلوغ إتمامه .

سورة فاطر

المشهور من أسمائها (سورة فاطر) أخذا من فاتحتها: الحمد لله فاطر - وسميت في صحيح البخاري وسنن الترمذي : سورة الملائكة . إذ فصلت السورة في أولها صفة الملائكة بطريقة اختصت بها من بين سور القرآن . وهي سورة مكية، نزلت جميع آياتها قبل الهجرة. وهي السورة الخامسة والثلاثون حسب ترتيب المصحف. وهي الثالثة والأربعون حسب ترتيب النزول .نزلت بعد سورة الفرقان، وقبل سورة مريم .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ
وَرُبَٰعَۚ يَزِيدُ فِي ٱلۡخَلۡقِ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (١) مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن
رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ (٢)
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡۚ هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ
وَٱلۡأَرۡضِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ (٣) وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كُذِّبَتۡ رُسُلٞ مِّن
قَبۡلِكَۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ (٤) يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ
ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ (٥)

بيان معاني الألفاظ:

فاطر: خالق ومنشئ على غير مثال.

جاعل : مصور على كيفية مخصوصة.

أولي : أصحاب.

أجنحة: جمع جناح.

اذكروا : تذكروا بالقلب واللسان

أنى تؤفكون : إلى أي زمان أو مكان تصرفون .

وعد : الإخبار عن الشيء المستقبل .

التغرير : إيهام النفع فيما هو ضار.

الغرور : الشيطان.

بيان المعنى الإجمالي:

تفرد الله باستحقاق الحمد والثناء. هو الذي أنشأ السماء والأرض على غير مثال، وأحكم التقدير. جعل الملائكة مخلوقات له، تطيعه ولا تستطيع أن تعصيه. كلفهم بتبليغ ما يريد إبلاغه من الخير لأهل الأرض، ومن الوحي لرسله. لها قوة مثلها بالأجنحة التي تساعدها على القيام بالمهام المكلفة بها. وللملائكة مراتب فمنها ما ركب فيه اثنين من الأجنحة مضاعفا، أو ثلاثة أجنحة مضاعفة أو أربعة أجنحة مضاعفة أيضا. والأجنحة قوة للملائكة ليست مجسمة يعلمها خالقها. والله يزيد في قدرات الملائكه ما يشاء . كما يزيد في الخلق من الكمالات والأنواع ما يشاء حسبما تقتضيه حكمته . إنه سبحانه متفرد بالقدرة الكاملة التي تنفذ كل ما يريده .

إن ما يمكن الله منه البشر من الخيرات لا يستطيع أي أحد أن يمنع وصوله لصاحبه، وكذلك ما يمسك الله من خيره عن البشر أفرادا أو جماعات فلا يستطيع أحد أن يمكن المحروم منه. إنه العزيز الذي يخضع له كل شيء. وتعالى عن الخضوع لأي شيء. وكل ما يحققه ربنا في الوجود فإنه يصدر عن الحكمة والعلم الكامل.

لا تحزن ولا تيأس، من تصلبهم في تكذيبك، فعلى هذا النوع من السلوك جرى أمر أقوام الرسل من قبلك. وإن جميعهم يعودون إلى الله ليحكم فيما فعلوه وما ترتب عليها من سوء. ثم ينادي القرآن كل عاقل على وجه الأرض ليستيقظ من غفلته، اعلموا أن ما وعده الله سيتحقق قطعا. إنكم ستبعثون يوم القيامة وتحاسبون عما قدّمتم، بالثواب أو العقاب. فلا تخدعكم مباهج الحياة الدنيا من مال وبنين وسلطان وصحة، ولا يغرنّكم الشيطان بما يغريكم به من الإقبال على الملاذ والشهوات.

بيان المعنى العام :

1ـ الحمد لله فاطر...على كل شيء قدير.

الحمد الكامل والثناء البالغ أعظم مبلغ، هو لله وحده. فكل ما يثنى به على غيره حصل بفضل منه وهبه للمحمود. حق له الثناء فهو الذي أنشأ السماء والأرض على غير مثال سابق، ولا ترتيب في التصور. إن من ينظر في ملكوت السماء والأرض وما فيهما من دقة، وتقدير لكل كبير وصغير فيهما، وعلاقة كل كائن بغيره لا يملك إلا أن يحمد الله على ما خلق وأبدع، وقدر فأحسن التقدير.

ثم لفتت الآية العقول إلى شيء خَفِيّ عنهـا لا تستطيع معرفتـه إلا بمـا يعلمهـا بـه الخالق، والمناسبة بينهما أن كلا من خلـق السـماء والأرض يحتـوي علـى أسـرار لا يحيط بها إلا خالقها، الذي يتفضـل علـى الإنسـان بهدايتـه إلـى كشـف بعـض تلكـم الأسـرار إمـا باتبـاع طـرق التعـرف الماديـة، كمـا فـي السـماوات والأرض، أو بواسطة الوحي كتعريفنا بخصائص الملائكة، وكذلك الغيوب التي منها يوم القيامة.

أعلمتنا الآية أن الله قد خص الملائكة بخصائص. فلنتتبع ما كشفته :

1) **الملائكة** جمع ملك. وعرف الشـيخ محمـد الطـاهر ابـن عاشـور الملائكـة بعـد أن عرض ما استقر عليه رأي صـاحب المقاصـد ولـم يرتضـه، فعرفهـا بقولـه: أجسـام لطيفة نورانية أخيار ذوو قوة عظيمة، ومـن خصائصـهم القـوة علـى التشـكل بأشـكال مختلفة، والعلم بما تتوقف عليـه أعمـالهم، ومقـرهم السـماوات مـا لـم يُرْسَـلُوا إلـى الأرض.

إن الجنس الذي افتتح به التعريف لم أرضه، لأن إدخالهـا تحـت جـنس الأجسـام التـي تقتضي تركيبا ماديا، ما وجدت في النصوص مـا يشـهد لـه. ولكـن فـي نظـري هـي كائنات، مجودات خلقها الله لا دخل للتركيب ولا للمادة فـي تحقـق وجودهـا، لـم تُمَكَّـنْ مـن الاختيـار بـل تمحضـت للطاعـة **(لا يعصـون الله مـا أمـرهم ويفعلـون مـا يؤمرون)**[1]. ولذلك لا يتصـور أن يصـدر عنهـا إلا الخيـر. ولمـا كـانوا يفعلـون مـا يؤمرون، فإن الله طوع لهم القوى العصيَّة علـى الإنسـان. أمـا القـدرة علـى التشـكل، وما ورد من ذلك في ظهور جبريـل للنبـي ﷺ علـى صـور مختلفـة، هـو صـحيح، ولكن الذي أطرحه هو أن ما يحصل في إدراك الرائي هـل هـو نتيجـة تشـكل المرئـي حقيقة، أو هو نتيجة القوة الإدراكية. فقطرة المـاء النازلـة مـن السـحاب يراهـا الرائـي خيطا ممتدا من المصدر إلـى الأرض، مـع أنهـا فـي الحقيقـة انتقـال سـريع لا يقـدر البصر على الفصل بين الأمكنة المتلاحقة. فقد يكـون تـأثير الملـك فـي بصـر الرائـي أنه يراه على شكل رجل أو على شكل جسم عظيم لـه أجنحـة. وأرجـح الفـرض الثـاني لأنه يحقق نفي الجسمية والأبعاد المكانية. ويجعل طبيعـة الخلقـة الملكيـة غيـر الطبيعـة الإنسانية.

يكلف الله بعضهم بحمـل رسـالاته، فيتولـون تبليغهـا إلـى مـن يختـارهم الله ليكونـوا أنبياءه ورسله. وهم بذلك أمنـاء علـى الـوحي، لا يتقـدمون عـن الوقـت المحـدد ولا يتأخرون عنه، ولا يحورون منه شيئا بالزيادة أو النقص.

---

[1] سورة التحريم آية 6

اثنين اثنين، ثلاثة ثلاثة، أربعة أربعة. وهل المراد أن هذا العدد حاصر أو مراد به التكثير. والمهم في نظري هو تبين المراد بالأجنحة. ويكاد المفسرون يربطون في تصور أجنحة الملائكة بالصورة المجسمة. ولا أعترض على من يقتصر على الظاهر، ولكني أرجح أن المراد بالأجنحة والله أعلم قوة يكون عليها الملك، فتفيد الآية أن قواهم وقدراتهم ليست على مرتبة سواء، فبعضهم أكمل قدرة من بعض، وأنهم جزء من التكوين العام للخلق. ربهم يحملهم القيام بمأموريات يؤدونها حسب استعداداتهم. ولا أستطيع أن أتصور أن خلق الملائكة له أي شبه بخلق الكائنات الأرضية. فإذا قال الله: لهم أجنحة، نثبت لهم أجنحة. لكن ليست من ريش ولا لحم ولا عظم ولا مثبتة في الجانب الأيمن أو الأيسر أو فوق الظهر . وقد ورد في الحديث أن جبريل عليه السلام له ستمائة جناح، وإسرافيل له اثنا عشر ألف جناح. وجبريل ينزل على رسول الله ﷺ مبلغا لوحي الله، في بيته أو في المسجد أو فوق راحلته من الصور العديدة التي كان ﷺ يتلقى عليها الوحي. إنه يحدث في نفسي تناقض إذا تصورت تجسيما فيها. هي كائنات محدثة حسب قانون إلهي غير قانون خلق السماوات والأرض والإنسان والحيوان. فأبْعِدْ عنك أيها المؤمن كل تصور مستخلص من مباشرتك للحياة، وجردها عن الدم واللحم والعظم والريش والتحيز.

4) **يزيد في الخلق ما يشاء** .يصح ربط هذه الجملة بالحديث عن الملائكة فتفيد، أن ما ذكر من قواهم مصور بالأجنحة، قد يزيد القادر الحكيم في قدرات بعضهم عن الحد المذكور، مثنى وثلاث ورباع . كما يمكن فهم الآية على أنه يزيد في خلق الكائنات المعروفة لنا ما تتعلق به المشيئة، أو أن الله يزيد بعض المخلوقات من الكمالات ما يشاء من العلم والذكاء والفطنة والجمال. وحمله بعضهم على جمال الخط. وكلها تمثيل لا يقصد منه الحصر. فإن الله على كل شيء قدير، لا تظنوا إذا انبهرتم لجمال صورة، أو دقة وفصاحة ونباهة عالم، أن ذلك هو الكمال الذي ليس فوقه بعد، فالله يزيد في الخلق ما يشاء. والكل خلقه، والفضل فضله، وفضله لا يحد .

2ـ ما يفتح الله للناس ...وهو العزيز الحكيم.

ترتبط هذه الآية بخاتمة الآية السابقة بما أفادته، من أن الله سبحانه يزيد في الخلق ما يشاء . ومن ذلك أن كل خير يعطيه الله لعباده من علم وتقوى ومال وصحة وجمال وصلاح الذرية وأمن نفسي، ما انتفع به الأفراد أو ما تناله الجماعات، فإنه لا يستطيع أحد أن يمسكه فيحُول بينه وبين من قدَّر الله له الخير. وفي المقابل إذا منع سبحانه أي نوع من أنواع الخير، وحبس أي لطف من ألطافه، فإنه لا يستطيع

أحد أن يمكن منه المحبوس عنه .واختتمت الآية بمـا يفيـد أن فتحـه لأبـواب الخيـر أو مسكه إياها هو من مقتضيات العزة، فهـو العزيـز، إذا أراد المـنح فـلا يسـتطيع أحـد أن يمنعه، وإذا أراد مسك رحمته نفّـذ مـا أراد ولا يرقـى أي كـائن للاعتـراض عليـه. إن فعله سبحانه جار على مقتضى الحكمـة، فالحكمـة والعـدل والكمـال فـي تصـرفه سبحانه.

3ـ يا أيها الناس...فأنى تؤفكون.

نداء يوقظ الناس ويخـرجهم مـن غفلاتهـم؛ يـأمرهم أن يـذكروا نعـم الله علـيهم التـي تفوق الحصر، أن يتأملوا فيها ليذكروها ذكـر الشـاكرين المعتـرفين بفضـله علـيهم. ثـم تنفذ الآية إلى مرحلة أرفع من الإيقاظ فيسألهم سؤال إنكار مفيـد لنفـي مـا دخـل عليـه؛ إنه لا خالق غير الله؟ هو الخالق الفاعل الـذي لا غنـى لكـم عنـه، فكمـا خلقكـم، هـو وحده الذي يمكنكم من وسائل البقاء، في الرزق الـذي يمكـنكم منـه ممـا يـرد علـيكم من السماء من الأمطار والأشعة والنـور، وضـبط الاتجـاه، ومـن الأرض ممـا تنبتـه أو تنميه من حيوانات البر والبحر . لا إله إلا هـو. كـل مـا تـدعون مـن دونـه آلهـة زائفة، فإلى أي زمان أو مكان تصرفون، فلا فعل إلا له وحده.

4ـ وإن يكذبوك ...ترجع الأمور.

ثم عطف القرآن التوجه إلى رسول الله ﷺ ليسلّـيه، ويقـوي عزيمتـه علـى المضـي في تبليغ الوحي والهداية. لا تبتئس بتكذيبهم رغـم جهـدك ونصـاعة حجتـك، فـإن هـذا هو شأن المرسلين الذين سبقوك، دعـوا أقـوامهم للإيمـان فكـذبوهم. مـن سـبق ومـن حضر ومـن سـيأتي فـي المسـتقبل، الكـل سـيعودون إلـى الله، وتنكشـف أمـورهم ويجزون على ما فعلوا، أو يحاسبون على مـواقفهم مـن رسـل الله . إن جميـع الأحـوال صائرة إليه.

5ـ يا أيها الناس...ولا يغرنكم بالله الغرور.

هذه الآية توقظ الناس جميعا. يخاطب الله بها المـؤمنين ليثبتـوا علـى الحـق الـذي هـم عليه، ويخاطب بها الكافرين ليرتدعوا ويقلعوا عن كفـرهم وفسـادهم. يـذكرهم بـأن مـا وعد الله به سيتحقق في المستقبل لا محالة. ما أخبـر بـه عـن جـزاء الصـالحين، ومـا وعد به من بعث الناس جميعا. لا تغتـروا بمـا تغـريكم بـه الحيـاة الـدنيا مـن مـلاءٍ وترف، وسلطان، مما يشغلكم عن التفكير في المعـاد، وعـن الانتبـاه إلـى أن كـل نعـيم زائل عقب اللحظة التي استمتعت فيها بمـا اسـتمتعت بـه .ولا يغـرنكم بـالله الغـرور: الشيطان، الذي يزين لكم مباهج الحياة وينسـيكم ربكـم، ويقلـب الحقـائق فيصـور لكـم

الزائل باقيا، لا يفنى .فينسيكم ربكم ويقطع الصلة النورانية التي تربطكم بجلاله، وتحفظكم من الزيغ والضلال . فيغرقكم في ظلام الشهوة ويحول بينكم وبين الاستقرار النفسي في الحياة الدنيا والرضوان الإلهي يوم القيامة.

إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ إِنَّمَا يَدۡعُواْ حِزۡبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنٗاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

السعير : النار الشديدة الاشتعال، والمراد بها جهنم.

التزيين : تحسين ما ليس بحسن. كلا أو بعضا

فلا تذهب نفسك: فلا تهلك نفسك.

الحسرة : هم النفس على فوات أمر.

بيان المعنى الإجمالي :

تأكدوا من أن الشيطان مصمم على عداوتكم حتى أصبحت طبعا فيه فتيقظوا لوسوسته، وقابلوا ما يكنه لكم من عداوة بعدائه معتصمين بما أنزل الله إليكم من هدايته. همه أن يَقُودَ من يتبعه إلى عذاب النار الموقدة في جهنم. وبذلك انقسم الناس إلى فريقين: فريق اتبع الشيطان فكفر، فاستحق عذابا شديدا؛ وفريق عاداه واستقام في سلوكه، هو مستحق لمغفرة الله له عن تقصيره، وهيأ الله له ثوابا كبيرا يتجاوز كل مقدار.

من مكر الشيطان أنه يقلب القيم، وتصور الإنسان للخير والشر، فيرى القبيح حسنا والحسن قبيحا. إن الله يحجب ألطافه عمن يشاء فيضل، ويمنح عونه وهدايته لمن يشاء فيرشد. والله عليم ببواطن الأمور، فلا تحزن عليهم حزنا يقضي عليك، إن الله لا يغيب عنه شيء من فعالهم ومما يدبرونه من الشر.

بيان المعنى العام :

6ـ إن الشيطان لكم عدو...ليكونوا من أصحاب السعير.

بكل تأكيد، الشيطان منطو على عداوتكم، أشد ما تكون العداوة، يحمله بغضه للجنس البشري ليصرف كل خبثه ومكره ليضل الناس، ويبعدهم عن طريق ربهم، وعن سبل الخير، ويزين لهم الشر فيألفونه، ويرضونه حتى يزيل من فطرتهم رفضه.

وإذا كـان هـذا حالـه فـانتبهوا لمخططاتـه، وتحصـنوا مـن مكـره، واتخـذوه عـدوا ترفضون كل ما يحدثكم به، ويزينـه لكـم. يـبغض مـنكم أن تلزمـوا مسـالك التقـوى، ويُسَرُّ أشد السـرور باتبـاعكم لشـهواتكم، يحـزن لوحـدتكم، وينشـرح لتفـرقكم. هـذا شأنه، فكونوا أعداء لما يـدعوكم إليـه، وعاكسـوا وسوسـته، وتحصـنوا منـه بمعرفـة مداخل الشر التي ينفذ منها إلى عقولكم وقلوبكم. اتبعوا مـا شـرع لكـم ربكـم. إن الـذين يطاوعونه ويتراخون، فيقبلون وسوسته والطرق التـي يـدعو إليهـا تتكـون بيـنهم وبينـه رابطة الانقياد والتبعية، إن هـؤلاء الـذين غطـى علـى رَقَـابَتِهم فأطـاعوه، واسـتجابوا لدعوته، إنما يدعوهم في الحقيقة لتنتهي بهم مسـالكه إلـى أن يكونـوا ملازمـين لعـذاب جهنم المستعرة نارها.

7ـالذين كفروا لهم...وأجر كبير.

أتباع الشيطان هم أولا وبالذات الذين كفروا بالله وبشـرعه. إن أخطـر مـا يوسـوس بـه الشيطان هو التشكيك في العقيدة، للانتهـاء بالشـاكين إلـى الـرفض (الكفـر) فصـرحت هذه الآية بما قررته الآية السابقة :أنهم اختصـوا بالعـذاب الشـديد الـذي لا يعلـم مـداه وأنواعه إلا المتصرف في الخلق بالعـدل، والله لا يغفـر أن يشـرك بـه .وفـي مقابـل الكافرين يرفع القرآن جزاء من جمع بـين الإيمـان بمقوماتـه، وبـين تطبيـق شـرع الله الذي أتاهم على لسان رسـول الله ﷺ، فتطهـروا مـن دنـس الإثـم، وزيـغ الشـهوة، والتسلط والظلم. وعدهم بالمغفرة لمـا قصـروا فيـه، أو غفلـوا ثـم انفتحـت بصـيرتهم فتابوا. ومع المغفرة التي تنقي صحائفهم مـن أدران الإثـم، أجـر كبيـر لا يعلـم مقـداره إلا رب العباد الرؤوف بهم .

8ـ أفمن زين له سوء عمله...عليم بما يصنعون.

نبهت الآية السابقة إلى تأصل عـداوة الشـيطان للإنسـان، حتـى أصـبحت جـزءا مـن طبيعته، مما يقتضي أن يكون حذرا مـن مكائـده، ويعـاكس مـا يـدعوه إليـه. وكشـفت هذه الآية عن قوة مكره. إنه بوسوسته يصل إلى قلب سـلم القـيم، قلبـا يـنقض بـه مـا استقر في الفطرة، وما جاء بـه الشـرع. إنـه يـزين القبـيح حتـى تألفـه الـنفس فـلا ترفضه. ويغلق باب التوبة باعتبار أنه غطـى وجـه القبـيح فـي الفسـاد. ويلهيـه عـن الواجبات والحسن، فلا يشعر بداعية الإقدام عليه وإنجـازه. فيبلـغ الشـيطان مـن الـتحكم في الإنسان أنه يقلب قيمه، فيرى الشر خيرا، والمعـروف منكـرا. وبـذلك يطمـئن إلـى أنه لا يتحول عما دفعه إليه .

أفمن زين له سوء عمله، استفهام إنكاري أن يبلغ الشيطان بوسوسته أن يغطي على جوانب القبح والفساد، ثم يخرجها على أنها جوانب خير. وزُيِّن. مبني للمفعول، والفاعل المضمر هو الشيطان، فالتركيب في قوة، أفمن زين الشيطان له عمله، فرأى الحسن قبيحا؟ إياكم أن تظنوا أنه يفعل ما يشاء له خبثه، وأنه قادر متصرف في عقول الناس، وبالتالي في مصائرهم .إن التصرف لله وحده، ولكنه سبحانه يحجب ألطافه ومساعداته على من يشاء، فيترك الإنسانَ لنفسه تبعا لتغلب شهواته عليه، وتعطيل قواه الفكرية عن التأمل في كتاب الكون، وفي الشرع الذي أنزله. إن الله بعدله يحرم هؤلاء عونه، وألطافه فينغمسون في الرذيلة والفساد، ويحرمهم اليقظة لسوء أعمالهم. وفي المقابل فإن الله بفضله ييسر للصالحين ألطافه، فيكشف عن بصائرهم حجاب الغفلة، فيرون الحق حقا والباطل باطلا بلا خلط. ثم يقذف في قلوبهم حب الخير، وبغض الشر. أما السؤال: لماذا حرم الله فريقا ألطافه، ويسرها لفريق آخر؟ إن ذلك من سر القدر الذي تضعف عقولنا عن إدراكه على التفصيل. (**لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**)

إنه إذ تبين لك يا محمد حكمة تصرف الخالق بالعدل والحكمة، وتصلب الكافرين في كفرهم، وأن الشيطان أعمى بصائرهم، وأن كثيرا منهم لا يرجى له صلاح، فلا يكن حرصك على نشر الحق والفضيلة، ومقابلة سعيك بالرفض والعناد، مؤثرا في نفسك تأثيرا يعرضك للهلاك حزنا عليهم، فإن تتابع الحسرات عليهم بتتابع انحرافاتهم قد يطغى على قوى احتمالك .ويواصل القرآن تسلية رسول الله ﷺ بأن الله عليم بما يصنعونه. وفي التعبير **[يصنعون]** مزية تجسيم أن مكرهم يتراكم شيئا فشيئا كالشيء المصنوع يتابع الصانع مراحل إنجازه.

وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلۡعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمۡكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۖ وَمَكۡرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗاۚ وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٖ وَلَا يُنقَصُ مِنۡ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

البلد الميت : القاحل الذي لا نبات فيه.

النشور : الحياة بعد الموت.

العزة : الشرف والحصانة من أن ينال صاحبها سوء.

يصعد الكلم الطيب: يقبله ويجزي عنه..

الكلم الطيب :الكلام الذي يستحسن سماعه الاستحسان الشرعي.

المكر : تدبير إلحاق الضر في خفية حتى لا يأخذ حذره.

يبور: يفسد ولا يحقق ما أعد له.

الكتاب : علم الله أو اللوح المحفوظ المسجل فيه كل شيء.

بيان المعنى الإجمالي :

ترى الأرض هامدة قاحلة، وقد اختزنـت فـي باطنهـا الحـب والزريعـة، فـإذا أراد الله إحياءها جمع الأسباب من إرسال الرياح وسوق السـحاب، وإنـزال المـاء مـن خلالـه. فتتحرك الأرض ويخرج النبات من بطنها حيا كما كانـت أصـوله. وكـذلك البعـث يـوم القيامة، فمتى أراد الله بعث البشر هيأ الأسـباب التـي يعقبهـا عـودة الحيـاة للأجسـام بعد موتها. من كان يعمل على أن يحصل علـى العـزة، فلـيعلم مقـدما: أن العـزة كلهـا لله. لا يجدها طالبها لا في الأصنام العاجزة، ولا عنـد أصـحاب السـلطة، الـذين يتـذلل لهم ليحصل على رضاهم، ويخشى دائما أن يغضـبوا عليـه ويطـردوه، فانتظـار العـزة منهم وَهْمٌ.

تنال العزة برضوان الله، الذي يصعد إليه ما يلفظ به الإنسـان مـن ذكـر وإصـلاح بـين الناس وتعليم. وكذلك بالعمل الصالح الذي يرفعه ربنا إلى مقام القبول عنده.

وفي المقابل فإن الذين يجتهدون فـي تـدبير المخططـات للإضـرار بغيـرهم، وينفـذون ما استطاعوا مما دبروه من خبـث، يجـزون العـذاب الشـديد فـي جهـنم، ويحـبط الله مكرهم. تأملوا في خلقكم لتزدادوا إيمانا. كـل فـرد مـنكم مخلـوق مـن تـراب، سـواء امتد نظره إلى أنه من نسل آدم، وآدم من تراب، أو تأمـل فـي خلقـه الـذاتي بمـا يعلـم معه أنه مكون من عناصر من الأرض دخلت فـي التركيـب الجسـمي لأبويـه، ومنهـا تم الإنجاب .ثم تحول إلى نطفـة مـن بييضـة الأم، والحيـوان المنـوي لـلأب . وهـذا الخلق الذي أصله واحد اللقيحة، قدر الله أن يكـون منـه الـذكر والأنثـى، اللـذين منهمـا يتم التكاثر البشري .إن الله لا يغيب عنـه أي أمـر مـن حمـل الأم بجنينهـا والتطـورات التي تجري عليه، وتاريخ وضعه والصورة التي يكون عليهـا عنـد ولادتـه. فـإذا ابتـدأ حياته فأيامه دقائق وثوان معلومة عنـد الله، فهـو يعلـم هـل هـذا المولـود يسـتمر بـه

العمر إلى ما بعد السبعين، أو يموت قبل ذلك .؟كل ذلـك موثـق فـي علـم الله لا يحـدث في علمه أي تغيير. وقد سجله لله على ما يكون عليه منذ الأزل.

بيان المعنى العام :

9ـ والله الذي أرسل...كذلك النشور.

ظاهرة إنزال المطر من السـحاب، وتـأثيره فـي الأرض القاحلـة التـي لا نبـات فيهـا، تكرر لفت الأنظار إليه في القرآن ليكون دلـيلا علـى إمكـان البعـث ومقربـا لحصـوله. فكما أن الله ينزل الماء على الأرض القاحلة فتنبـت الأعشـاب ويخضـر أديمهـا، حسـب قوانين أحكمها، فكذلك يحيـي الله المـوتى فـي الأجـل الـذي قـدره، بإحـداث أسـباب يحكمها فتتزاوج الأرواح بالأجساد. ويتم البعث والنشور.

10ـمن كان يريد العزة...ومكر أولئك هو يبور.

أمر فطري في الإنسان أنه يأنف من الذل، ويبغي العزة فـلا يقـدر أحـد علـى الاعتـداء عليه. وإذا كان هذا أمرا فطريا فإن سبيل الوصول إلـى العـزة قـد يعمـى علـى النـاس فيطلبون العزة من غير وجهها فلا يحصـلون عليهـا. اعلمـوا أن العـزة كلهـا ملـك لله، ولمّا تفرد الله بملكها وغيره عار عنها، فمـن يطلـب العـزة فليطلبهـا مـن الله سـبحانه، وغيره فاقد لها، وفاقد الشيء لا يعطيه. فمن أراد أن تحصـل لـه العـزة فليطلبهـا منـه، ومن تعلق بالأصنام فهو واهم لأنها عاجزة. ومن طلـب العـزة مـن الكبـراء وأصـحاب السلطان فهو واهـم أيضـا، لأن تعلقـه بهـم هـو إذلال لنفسـه مـن البدايـة ورضـوخ لكبريائهم. ولا يأمن أن ينقلبوا عليه فيكون ضـررهم عليـه أبلـغ . ولا بـد أن نشـير إلـى أن العزة المطلوبة تكون في الدنيا، وأشرفها عـزة الـنفس، وتكـون فـي الآخـرة؛ وهـذه يختص بها المؤمنون الذين يتلقونها من ربهم.

إن سبيل العزة هو الكلم الطيب والعمل الصالح. الكلم الطيـب، قـالوا: هـو قـول لا إلـه إلا الله. وسبحان الله والحمـد لله ولا إلـه إلا الله والله أكبـر .وكـل ذكـر مـن تسـبيح وتهليل وقراءة قرآن، ودعاء واستغفار. وأزيـد علـى ذلـك نشـر المعرفـة، والإصـلاح بين الناس وإحياء السنة. والعمـل الصـالح يرفعـه – أي إن العمـل الصـالح يرفعـه الله إلى درجات القبول وحسن الثواب. وروي عـن النبـي ﷺ أنـه قـال: لا يقبـل الله قـولا إلا بعمل، ولا يقبل قولا ولا عملا إلا بنيـة، ولا يقبـل قـولا وعمـلا ونيـة إلا بإصـابة السنة[1] وفي هذه الآية تنبيه إلى أن عناية الإسلام بالأعمـال الصـالحة آكـد مـن الأقـوال الطيبة إلا كلمة التوحيد : <u>لا إله إلا الله محمد رسول الله .</u>

[1] الجامع لأحكام القرآن ج17 ص330

والذين يمكرون السيئات – هذه الآية تحقق معنى الآية السابقة باعتبار أنها تعرضت إلى مقابل الذين يجمعون بين الكلم الطيب والعمل الصالح. فذكرت الآية الذين يجهدون أنفسهم ويعملون فكرهم، لتدبير إلحاق الضر بالغير، على وجه لا يتفطن إليه. هؤلاء هم الذين يمكرون المكر السيء؛ ولما كان مكرهم منوعا أشير إلى ذلك بقوله " **يمكرون السيئات**" جمعا. أنواع خبيثة من المكر . فقد اجتمعوا في دار الندوة لتدبير ما يقطعون به سبيل انتشار الدعوة، قال تعالى : (**وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك**)[1] وكانوا يدبرون ما يفتنون به المسلمين عن دينهم .

إن مكرهم هذا، والسيئات التي اقترفوها لا يفلتون من جزائها بالعذاب الأليم يوم القيامة في جهنم. مع ذلك فإن مكرهم يقدر الله إحباطه، وتعطيل ما مكروه. والبَوَار: أصله السلعة التي يعرضها التاجر ويبذل مجهودا لترويجها، فيخيب ولا يبيع منها شيئا، فصورت الآية سقوط مكرهم بالسلعة البائرة التي ينظر إليها صاحبها فيرى فيها مجهوده الضائع. الأمر الذي ينكده .

11.والله خلقكم من تراب...إن ذلك على الله يسير.

في هذه الآية تذكير بالتدبير العجيب في الخلق، وليكن نظر الإنسان أولا إلى نفسه. فالناس كلهم من آدم وآدم من تراب. ثم إن كل إنسان خلق من مواد تمثلت في أجهزة الإنسان، كلها من عناصر الأرض على نسب مقدرة. وصرحت الآية بهذا المرجع في النطفة التي هي البييضة الملقحة بالحيوان المنوي. ومن هذه اللقيحة تنوع البشر إلى الذكور والإناث، فكان كل من الذكر والأنثى زوجا للآخر. كلمة الزوج كما تطلق على بعل المرأة تطلق على المرأة، فالمرأة زوج الرجل والرجل زوج المرأة .ثم إن الإنجاب الذي الأصل فيه أن يتم بقضاء الشهوة الجنسية يعلمه الله: متى يتكوَّن ويعلم تطوراته، كما يعلم متى يخرج إلى الدنيا إنسانا، وتلده أمه. كما أن الله يوجد البشر بإرادته، حسب علمه من بداية التكوين إلى الوضع، فكذلك المدة التي يبقى فيها حيا معلومة لله، وينفذ إرادته، فيُعمّر بعضهم، فيبلغ من العمر ما يفوق سبعين سنة، ويقطع حبل اتصال الحياة لفرد آخر فيموت قبل السبعين، ويكون عمره أنقص منها. وكل ذلك يعلمه ربنا قبل حصوله، ويتحقق على حسب ما استقر في علمه. وإحاطة علم الله بكل ذلك أمر يسير لا صعوبة فيه إذ هو المتحكم في الخلق، والمتحكم في أعمار مخلوقاته .

---

[1] سورة الأنفال آية30

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ
تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟
مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ
وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ
وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟
دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ
مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

البحران : مُثنّى بحر وهو الماء الممتد الكثير.

فرات : خال من الأملاح .

سائغ شرابه : مقبول لا يرفض.

أجاج : شديد الملوحة

اللحم الطري : الحوت.

مواخر : تشق سطحه.

القطمير : القشرة في شق النواة.

خبير : عليم علما كاملا لا يدخله أي شك .

بيان المعنى الإجمالي :

مياه ممتدة على مساحات شاسعة؛ بحر عذب ماؤه، تشربون منه فتستسيغونه ولا تنفرون منه، وبحر مالح ملوحة شديدة. وفي كل منهما خير كثير لكم، تصطادون منهما الأسماك التي تغذي أبدانكم بالبروتينات، وتستخرجون من البحر ما تتزينون به كاللؤلؤ والمرجان. بحر واحد يمكنكم من القوت، ومن الزينة .إنكم تشاهدون الفلك تشق صفحة الماء تنقلكم مع سلعكم، وتفتح لكم طرقا مختصرة للتواصل .هذه نعم استحضروها استحضارا يحملكم على شكر منعمها .

_هو الله الذي يدخل الليل في النهار شيئا فشيئا والعكس، وينفذ تقديره في الشمس والقمر فلا يخرجان عن المسار الذي قدّره لهما، إلى أن يبلغا الأجل الذي حد لهما في الوجود. إن الذي تصرف في الكون أنواع التصرف المذكورة هو الله ربكم،

المالك الذي لا يشاركه في ملكه أحد. و الذين تدعونهم وتسألون منهم العطاء والعون عجزة، لا يسمعون كلامكم ولو فرض أنهم سمعوا فهم لا يقدرون على تحقيق ما تسألونه. وفوق ذلك ينفون أشد النفي يوم القيامة أنهم أمروكم بالشرك. وهذا الخبر عن الغيب ينبئكم به الخبير الذي لا يغيب عن علمه شيء ولو دق.

بيان المعنى العام :

12ـ وما يستوي البحران.. . ولعلكم تشكرون .

تلفت الآية النظر إلى بديع صنع الله في الكون، فاختلاف الخصائص مع اتحاد المظهر يقوم شاهدا على التصرف الحكيم في الخلق. يقول العالم كريسي موريسون: وعلى الرغم من الانبعاثات الغازية من الأرض طول الدهور – ومعظمها سام– فإن الهواء باق دون تلويث في الواقع، ودون تغير في نسبته المتوازنة اللازمة لوجود الإنسان. وعجلة الموازنة لعظيمة هي تلك الكتلة الفسيحة من الماء–أي المحيط – الذي استمدت منه الحياة والغذاء والمطر والمناخ المعتدل، والنباتات، وأخيرا الإنسان نفسه .

أنتم تشاهدون الأنهار الكبيرة تجري بالماء العذب الذي يستسيغه الشارب ولا يرفضه ولا يَغَصُّ به، وتجدون بجانبه في مصبه ماء ملحا شديد الملوحة. ومن ناحية أخرى ترزقون من البحرين الأسماك التي تتخذونها قوتا. وهديتم إلى استخراج ما يكون حِلْيَةً لكم، به تتجملون كاللؤلؤ والمرجان. وتشاهدون التقدير العجيب كيف تجري الفلك على سطح الماء فتشقه سائرة محملة بالبشر والسلع؛ وذلك بفضل قوانين أحكمها الخلاق العليم حتى بلغت البواخر اليوم من الضخامة ما أصبحت به مدنا عائمة ذات طوابق. إن هذا التيسير يمكنكم من طلب فضل الله في الرزق، يسر لكم كل ذلك ليكون حاضرا في بصائركم وأبصاركم لتشكروا ربكم على جليل نعمه.

13ـيولج الليل في النهار...من قطمير .

تقدم التنصيص على مضمون هذه الآية في سورة لقمان آية 28 ولا فرق بينهما إلا في تعدية فعل " يجري " إذ عدي في سورة لقمان بـإلى " إلى أجل " وعدي في هذه السورة باللام "لأجل" وهما متقاربان. وإن كان الزمخشري دقق في الفرق بينهما مبرزا إعجاز القرآن في اختيار التعدية بما يناسب الغرض من الآية . والآية تذكر أيضا بأن كل كائن يجري لبلوغ أجله دون أن يشعر . وذلك مما يؤكد الاستعداد لهذه النهاية التي يعقبها الجزاء .

ذلكم العظيم المتعالي الذي فصلت الآيات السابقة آثار قدرته وحكمته، هو ربكم الذي تولاكم بعنايته حتى بلغتم المستوى الذي أنتم عليه، والملك له لا يشارك فيه أحد. وتحقيقا لذلك فإن الذين تدعونهم من دون الله لا يملكون أقل شيء من الدنيا، وضرب المثل للقلة والتفاهة بالقشرة التي في شق النواة كالخيط الدقيق " قطمير" فإذا كانوا لا يملكون القطمير فإنه من باب أولى وأحرى انتفاء قدرتهم على تحقيق طلباتكم.

14- إن تدعوهم لا يسمعوا...مثل خبير.

فصلت هذه الآية عجز من اتخذوهم أربابا من دون الله، ووهَنَ صلتهم بهم وعدم انتفاعهم بها وذلك في النواحي الثلاث الآتية:

1) إنكم تحسون بأنهم لا يسمعونكم عندما تخاطبونهم. والذي لا يسمع غير مؤهل لأن يعبد أو أن يطلب منه أي شيء، ولا يفعل ذلك عاقل.

2) وحتى على سبيل الفرض والتقدير كما يفرض المحال، لو سمعوا منكم ما استطاعوا أن يجيبوكم، ويحتمل نفي الإجابة عدم قدرتها على الرد لأنها لا تنطق. ويحتمل عجزها عن تنفيذ ما طلبتم منها.

3) سوف تعلن هذه الأصنام يوم القيامة تبرؤها منكم، وترفع عن نفسها اتهامكم لها بأنها أمرتكم بعبادتها وبشرككم، أو رضيته منكم.

هذا الذي كشفته لكم من عجز الأصنام، ومن تبرئها من المشركين، هو أمر بلغ درجة اليقين الأيقن أخبركم به من بلغ علمه أعلى درجات المعرفة والدقة. وليس له مثل يساويه في ذلك .

۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

يذهبكم: يهلكم.

بعزيز : بممتنع.

إن تدع : تستغيث وتطلب العون.

الحمل : يطلق على ما يحمل على الظهر من الأثقال، ويطلق مجازا على الآثام.

يخشون ربهم بالغيب : يخشونه في خلواتهم .

تزكى : تطهر من لوث الآثام.

الحرور : حر الشمس

بيان المعنى الإجمالي :

يا أيها الناس استيقظوا من غفلتكم. اعلموا أن ما رزقتم من قوة ومن حظوظ دنيوية هو من عطاء الله، فأنتم في الحقيقة فقراء، والله هو الغني المعطي، وهو المستحق للحمد والثناء على كمالاته . إنه إن تعلقت مشيئته بإبادتكم لا يبقى لكم أثر، ويعمر الكون بمخلوقات آخرين يوحدونه .وتنفيذ ذلك ليس بممتنع عليه .

قاعدة مرتبطة بالعدل الإلهي: لا تتحمل نفس حِمْل نفس أخرى مما ارتكبته من الآثام؛ ولو استغاثت المثقلة بالآثام بقريب منها كان في الدنيا مشفقا عليها ويساعدها، كالأم مع ولدها. فإنها لا تنتفع منه بشيء يوم القيامة، ولا تنفعه بشيء

إن نذارتك وإيقاظك لما يترصد الزائغين عن طريق الله من عقاب، لا يحقق أثره من الصلاح، في أرواح الأفراد، إلا في الذين تصحبهم خشية الله والخوف من عقابه في خلواتهم فضلا عن وجودهم بين الناس .ومع ذلك حافظوا على صلواتهم فهؤلاء هم الذين ينتفعون بإنذارك .

وقاعدة أخرى أن من اعتنى بنفسه فسما بها وطهرها من الآثام والرذيلة، فإن نفع جهاده ذلك يعود لنفسه، فيحصل له الخير. وكل نفس صائرة إلى الله ليجزيها الجزاء العادل.

يمثل القرآن التضاد الكامل بين الإيمان والكفر، التضاد الذي يقربه التضاد في المدركات التالية فالكافر كالأعمى، والمؤمن كالبصير. والكافر مغرق في الظلمات، والمؤمن يعيش في النور فتتبين له الحقائق والخير والمهالك، ليلتزم الهدي ويبتعد عن الشر. والمؤمن يعيش في طمأنينة وهدوء نفسي، وراحة، وقناعة، والكافر يعيش تحت وطأة حر الشهوات المتناقضة، والحرمان المهيج. والمؤمن حين يقرع سمعه آيات ربه يتأثر بها ويعدل سلوكه عليها، والكافر كالميت تحت التراب الذي أهيل عليه في قبره. إنك يا محمد تستطيع أن تسمع الأحياء ما يتأثرون به

ويصلحون أنفسهم، ولكنك لا تستطيع أن تجعل من مات وأطبق عليه قبره واعيا لما تقول. فلا تتأسف لتصلبهم في الكفر، فما كلفتك إلا بإنذارهم ليُبْصروا الحق ويقلعوا عن الكفر.

بيان المعنى العام :

15ـيا أيها الناس أنتم...وهو الغني الحميد.

تخاطب هذه الآية الناس "**يا أيها الناس**" وخصها بعض المفسرين بخطاب المشركين اعتمادا على ما تكرر في القرآن من مخاطبة المشركين ب " يا أيها الناس " والذي أرجحه أنها تخاطب المؤمنين والكافرين، كل فريق بما يليق به.

فهي تخاطب المؤمنين ليكونوا دوما ذاكرين لمضمونها، مما يزيدهم تعلقا بربهم ويدفعهم لشكره على نعمه، ومواصلة الالتجاء إليه مما يرقق عواطفهم.

وهي خطاب للكافرين يقتلع ما رسخ في نفوسهم: أن الدين في حاجة إليهم، باعتبار أن مركزهم الاجتماعي يؤثر في الأتباع وهم كُثُرٌ، وأن الناس ينصرفون عن الدين بانصرافهم عنه، ويدخلون فيه إذا هم رضوه . فنقض كبرياءهم بتنبيههم إلى تأكد فقرهم، واحتياجهم إلى ما ينعم الله به عليهم، وأن الله غني عنهم لا يزيد في عليائه إيمانهم، ولا ينقص من سلطانه إعراضهم. وهو المستحق للحمد على كل حال، إذ حمده من موجبات كماله.

15←17:يا أيها الناس أنتم الفقراء... على الله بعزيز.

ثم هدد المشركين المعتزين بما توفر لهم من قوة ومن حظوظ الدنيا، بأن الله هو الفعال لما يشاء، فإن شاء أن يرزقهم رزقهم، وشاء التضييق عليهم حرمهم .فلا تكون التوسعة عليهم مبعث غرور. بل إن الله إذا شاء أن يهلككم ويبيدكم، ويأتي بمخلوقات آخرين يخلفونكم في الأرض، فإنه هو القادر الفعال لما يريد .وذلك ليس بممتنع عليه.

18ـ ولا تزر وازرة وزر أخرى...و إلى الله المصير.

تسجل الآية قاعدة عامة: إن كل من أذنب ذنبا، يتحمل تبعاته، وإنه إذا استصرخ من يحمل عنه ثقل ذنوبه، لا يجد مجيبا يسرع لعونه، ولو كان المستغاث به ممن كانت تربطه به قرابة ويشفق عليه. وما ورد في القرآن من تحميل الأوزار لغير فاعلها كقوله تعالى: **وليحملن أثقالهم وأثقالا مع أثقالهم**[1]، فمحمله على أنهم أغووهم وزينوا لهم الضلال. فهم يحملون أوزار الإضلال، مع أوزار كفرهم.

---

[1] سورة العنكبوت آية 13

ويكون معنى الآية: ولا يحمل الله نفسا حملا: آثاما تعلقت بنفس آثمة أخرى، ولو استغاث الآثم بقريب من أقربائه الذين يشفقون عليه كالأم مع ولدها لتحمل شيئا من آثامه، فإنها لا تحمل من ذلك شيئا لا كبيرة ولا صغيرة. فتؤكد هذه الآية المسؤولية الفردية .

ثم سجلت الآية أن تذكيره ﷺ، وإنذاره بما يجعل المنذرين يستقيمون، ويقبلون الوحي المنزل عليه ويعملون به، لا ينجع ويؤتي ثماره إلا في الذين حلت خشية الله في قلوبهم، يخافونه في خلواتهم مستشعرين أن ربهم مطلع عليهم، فهم يحذرون من أن يكونوا في وقت من الأوقات على وضع منكر لا يرضى عنه الله. وعطف على الخشية من التلبس بالآثام، وإن كانوا بعيدين عن أعين الناس، عطف صفة أخرى لها مزيتها في صقال النفس لتكون متأثرة بالنذارة، وهي إقامة الصلاة التي هي ركن الدين العملي .

ومن اجتهد فكان يقظا دائما، عاملا على ما يسمو بنفسه ويطهرها من درن الآثام، وقذارة الرذيلة، فإن جهاده ذاك، ومتواصل حرصه، ينتفع به هو. ومن أعرض عن التأثر بالنذارة ولم يقلع عن طريق الفساد الذي سار فيه فجريرته على نفسه. ثم إن المصير الذي ينتهي إليه الناس كلهم، هو لله وحده. فلا تستطيع أي نفس الانفلات مما قدمته في الدنيا من شر، فهي منتهية إلى حكمه العادل.

19←23: وما يستوي الأعمى والبصير...إن أنت إلا نذير.

أفادت هذه الآيات تأكيد حقيقة: إن التماثل في ظواهر الحياة لا يحقق استواء الناس في القيمة الإنسانية. وهنا تلفت الآيات الأنظار إلى أن الكفر والإيمان مساران متضادان، ما يلقاه المؤمن في مساره هو ضد ما يلقاه الكافر في مسيرته.

الكافر أعمى والمؤمن بصير. فالكافر يسير في موكب الكون، فلا تصله المشاهد بما وراءها، فالأعمى يتعرف على الوجود بلمسه أو بعصاه، ويقف إحساسه عند ذلك الحد، وأما البصير فإنه يدرك المنظور، ويدرك ما يحيط به، ويدرك القوى التي فعلت فيه، ويربط مثلا بين هيكل البناء، والمهندس، والبناء، والنحات، والقائم بطلاء الجدران إلى آخره. وكذلك وضع الكافر ووضع المؤمن في إدراك الكون. يقف إدراك الكافر على الظاهرة الحاضرة، أما الإيمان فيعمق نظر المؤمن فيربط الظاهرة بمبدعها، وبغيرها من أجزاء الكون، ويحضره مصيرها الذي يمثل القانون الذي ينفذ به الباري سبحانه إرادته في الكون من التحولات الذاهبة إلى طرفي الكمال والعدم .

والكفر ظلمات، والإيمان نور. فالكافر مغشي عليه بظلمــات كثيفــة. إمــا أن يقنــع نفســه راضيا بجواب: هو جهل مصــدر الكــون، وجهــل بالغايــة التــي يســير إليهــا. وجهــل بالعلة التي وجد من أجلها، لِمَ كان الكون على هــذا الوضــع ؟ وجهــل بمــا ســيلقاه بعــد موته، ظلمات متتالية. والمؤمن يمسك بخيط النــور فالحقيقــة يشــق بهــا باســتنادها إلــى الله المدبر للكون كله، الميزان ثابــت لا يتغيــر بتغيــر الأحــزاب والممســك بالســلطة . يضيء له إيمانه منزلته في الكون، وتنير له العقيدة المآل بعد الموت .

المؤمن يحيا في ظل الإيمان، فيجد الهدوء في نفسه، ويلقــي الإيمــان فــي قلبــه ثقــة فــي ربه فإذا هو مطمئن. هو كالساكن في البلد الشديد الحر يجــد فــي الظــل راحتــه ويبعــد عنه الضغط والدوار. والكافر تتنــازع فــي نفســه دواعــي الشــهوات، وعــدم الرضــا، والخوف من المستقبل، تتصارع في ذاته كــل التناقضــات فتولــد حــرارة تقضــي علــى الاستقرار النفسي .

و المؤمن حي يحس بكل ما يحيط بــه، يشــعر بــأن الله اسـتخلفه فــي أرضــه ليعمرهــا وليفعل فيها، وليجريها على العدل والحكمــة. تهــزه آيــات الكــون فيتفــتح علــى عــوالم راقية نقية تصله بمبدع الكون، وتتجلى له آيات قدرتــه فــي كــل مــا حولــه، ويســتمع إلى الوحي فيشرح له صدره ويحس به إحساسا ينفعل بــه ويقَــوِّم بــه نظرتــه وســلوكه. وأما الكافر فلا يعدو إدراكه ظواهر الحياة الــدنيا، وهــو مقطــوع عــن الآخــرة، وعــن مبدع الأكوان.

إنك يا محمد تسعى بكــل جهــدك لتســمع النــاس ســماعا ينفــذ إلــى قلــوبهم فيحييهــا ويخرجها من الغفلة، ويسلك بها الصراط المســتقيم فــي العقيــدة والعمــل، ولكــن التــأثر بما تلقيه إليهم من الوحي هو بيد الله، فيمــنح ألطافــه لمــن يشــاء، فــإذا حســها مرهــف ينتقش في أسماعها وفي أرواحها الــوحي الــذي تُبَلــِّغه فتهتــدي؛ ويحــرم الله ألطافــه من حرمه عونه فكأنه ميت أهيل عليه التراب في قبره فــلا يســمع مــن حركــة الحيــاة شيئا .

وختاما فإن دورك هو الإنذار لما غفلــت عنــه البصــائر. أمــا الاهتــداء فــذلك بيــد الله وحده، **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.**

إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا
وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا
يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ
ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾
لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

بشير: يبشر المؤمنين برضوان الله وحسن جزائه.

نذير: محذر لمن أعرض وكفر بالعذاب الأليم.

الأمة : الجماعة العظيمة من الناس، يجمع بينها أصول حضارية، ونسب وإن بعد.

البينات : المعجزات .

الزبر : جمع زبور مجموع مواعظ .

الكتاب المنير : الكتاب الجامع بين العقيدة والشريعة ينير الروح والسلوك.

الأخذ: الاستئصال .

النكير : شدة العقاب .

جدد: جمع جدة، وهي الطريقة تكون في الأرض والجبل متصلة طولا.

غرابيب : جمع غربيب اسم للشيء الحالك السواد..

التجارة : أعمالهم الصالحة.

تبور : لن تكسد بل تتضاعف أرباحها.

التوفية: إعطاء الأجر كاملا.

بيان المعنى الإجمالي:

إنا بعظمتنا أرسلناك محملا برسالتنا إلى البشرية، تبشر المستجيبين لك بالنعيم والسعادة، وتحذر الكافرين بالسخط والعذاب. وهذه سنة الله فما من أمة إلا بعثنا فيها من يوقظها لتستقيم عقيدة وسلوكا. لا تحزن يا محمد إن واصلوا تكذيبهم، فقد سبق أن أمما من قبلك كذبوا رسلي الذين جاؤوهم مؤيَّدين بالمعجزات، وبالمواعظ النافذة للقلوب المأمور بحفظها، والتي تفوق مضامينها ما يمكن للبشر التوفق لمثله أو النسج على منواله. ثم إني أبدتهم استئصالا مُنْهِيًا، فتعجبوا من مستوى العذاب الذي أنزلته بهم

يسأل القرآن الناظرين لينبههم إلى السر العجيب في التقدير الإلهي؛ ألم تروا إلى السحب تسير فينزل منها الماء، وإذا تابعت رحلته تجده يتحول في النهاية إلى ثمرات مختلفة الألوان والشكل والمذاق. وكذلك سطح الأرض، تجد في الجبال طرائق مستطيلة مختلفة الألوان تكاد تفوق الحصر من الأبيض والأحمر والأسود الشديد السواد، والمركب منها. واختلفت ألوان البشر فبعضها أبيض، وبعضها أسود وبعضها أحمر، وبعضها أصفر، ومنها ما هو مركب من تلكم الألوان. واختلفت ألوان دواب الأرض الأهلية والوحشية، واختلفت ألوان الأنعام، تجده واضحا في ألوان الخيل. على هذا النحو من التأمل في خلق الله يكون العلماء أشد خشية لله من غيرهم لتعمقهم في التدبر في الخلق، ولوضوح معرفتهم بالله، فهم يقرنون الظواهر بمبدعها .

إن الذي يتصرف هذا التصرف لاشك أنه عزيز يطيعه كل شيء فيخرج إلى الوجود حسب تقديره. ولا ييأس الذين كفروا فإنهم إذا أقلعوا عن كفرهم يجدون الله غفورا لذنوبهم .

ثم نوه القرآن بالذين اهتدوا هداية جعلتهم تالين لكتاب الله القرآن. ألسنتهم رطبة بآياته، ويقيمون الصلاة وينفقون مما آتاهم الله فيما يحب الله أن ينفق فيه. تجود أيديهم بالخير سرا دون أن يطلع عليهم أحد، وكذلك جهرا. يقصدون أن يكونوا أسوة محرضين غيرهم على الصدقة، هؤلاء المنوه بهم يرجون أن يكون ما قدموه من صالح العمل رأس مال لن يلحقه غبن ولا خسارة. ينفقون ليمكنهم ربهم من أجرهم وافيا غير منقوص، بل يضاعفه لهم بفضله وبما صاحبه من الإخلاص. إن الله عظيم المغفرة لعباده المقصرين فلا يناقشهم الحساب بل يتجاوز ويتفضل، وهو الذي يشكر لكل مؤمن ما قام به من عمل صالح.

بيان المعنى العام :

24←26: إنا أرسلناك بالحق بشيرا...فكيف كان نكير.

بنون العظمة وصيغة الحضور "**إنا أرسلناك**" خاطب الله محمدا ﷺ ليثبّته باستناده في مهمته إلى رب العزة سبحانه، ولأن ما أنزل عليه هو الحق، فأنت في مرتبة رفيعة، تنشر الحق، وتقاوم به الباطل، وتدعو إلى الخير وتقاوم الشر؛ وتؤمّن للمبعوثين سلامة عاقبتهم بتبشيرك للمؤمنين برضوان الله والثواب العظيم والفوز يوم القيامة، فيقبلوا على سلوك طريق الهدى، ومن ناحية أخرى تحذر الكافرين من مواصلة رفضهم، بأن ما يترصدهم من سخط الله وعذابه واقع لا محالة .وهذا فضلي على البشرية، فما من أمة إلا وأرسلنا فيها نذيرا يهزهم هزا كاشفا عن سوء

العاقبة لمن أعرض وكفر. وكل الأمم كما أخبر القرآن بعث الله فيها رسولا وضّح العقيدة وبين الشريعة، وكلف المؤمنين به بمواصلة نشر هدايته إلى الأخلاف، لتهاون الأخلاف عن القيام بالأمانة. ولذلك تجد أصل التدين قدرا مشتركا بين الأمم، وإن كان بعضهم بقي متمسكا بأصول كثيرة وخلط في البعض، وبعضهم قد عمي فلم يبق في تصوره إلا صور باهتة.

25←26: وإن يكذبوك....فكيف نكير.

لا تحزن ولا تبتئس، وواصل التبشير والإنذار، وإن كذبوك .فإن الذين أرسلت إليهم رسلي من قبلك واجههم أقوامهم بالتكذيب. تلكم الرسل الذين جاؤوا مؤيدين بمتنوع المؤيدات، بالمعجزات البينة الواضحة التي لا تختلط بالسحر، كنجاة إبراهيم من النار، وما ذكر من معجزات الرسل في القرآن؛ وبالزبر وهي المواعظ المأمور بحفظها وكتابتها تلقي في القلوب أسرار القرب من الله، والكتاب الذي ينير سبيل الاهتداء إلى صحيح العقيدة وقويم السلوك. ونصرت رسلي بعد أن أدّوا مهامهم على أفضل طريق، وتصلب المرسل إليهم في الكفر، فأفنيتهم، فتعجبوا من شدة الباس الذي استأصلهم .

27.ألم تر أن الله أنزل ...وغرابيب سود.

إثارة للانتباه حتى لا تغطي الرتابة على المشهد العجيب في الكون، الذي يفضي بالتأمل فيه إلى تمكن الاعتقاد بعظيم القدرة الإلهية، وحسن التدبير. فالمخاطب بالآية كل من يصح منه الرؤية .يأخذ القرآن الإنسان السليم بصره ليتابع التسلسل العجيب في الكون، على أن كل مرحلة تهيء لما بعدها، وتتصل بها اتصالا تبدو آثاره وإن خفي سر ذلك، إلا أنه ينبئ عن تقدير العزيز الحكيم .يرى كل إنسان قطرات الأمطار تنزل من السحاب على الأرض. نتتبع رحلة الماء النازل، فنراه في الطرف الآخر ثمارا مختلفة الألوان والأشكال. الماء واحد والتربة واحدة. والألوان مختلفة في الثمرة الواحدة في متتابع مراحل نموها إلى النضج، خضرة فصفرة فألوان متباينة عند النضج بين الأصفر والأحمر والذهبي والبني والأسود، والمزيج من أصول الألوان فيأخذ في الرمان لونا وفي البرتقال لونا آخر وهكذا.

ولا يقتصر هذا التنوع العجيب على الثمار بل تجده بصورة واضحة في الجبال وخاصة الشامخة في ارتفاعها التي منها يقتطع الرخام، تجد فيها طرائق متواصلة في طولها، ليست بقعا منعزلة، منها الأبيض، والأحمر والأسود، وأقحم بين سرد هذه الألوان: مختلف ألوانها، ليشير إلى أن الألوان في الطرائق الجبلية تتنوع

ألوانها إلى أعداد كبيرة .فقد رأيت في تاج محل بالهند رسوما بديعة لفنانين، صوروا على عضادتي المدخل وعلى القبر نسيجا من الزهور من قطع صغيرة من الرخام متداخلة، مطابقة للألوان الحقيقية للزهور. يذهب فيها اللون مثلا بين أصل الورقة وطرفها من القوة إلى الضعف حتى كأنها ملونة بالأصباغ المركبة بأيدي الفنانين المهرة .

28- ومن الناس والدواب...عزيز غفور.

التقدير الإلهي كما ظهر لكم في تتبع مراحل الماء النازل من السماء إلى الثمرات المختلفة الألوان، والطرائق المشكلة ألوانها تشكلا لا يتغير ولا يتحول. فإن من مظاهر تقديره سبحانه، اتحاد البشر في مقوماتهم الأساسية ثم اختلاف ألوانهم من الأبيض والأسود والأحمر والأصفر والمركب منها، وكذلك الأمر في الدواب التي تدب على وجه الأرض الأليف منها والوحشي، الضار والنافع، اختلفت ألوانها اختلافا عجيبا .

على ذلكم النحو من الاختلاف في النبات والجماد والإنسان والحيوان، الذي تنقله الأبصار، وتتأمل فيه العقول، يختلف الناس في تأثرهم بتلكم المظاهر، فأرفعهم هم العلماء الذين يتجلى لهم الإبداع في الخلق، ويحسون بالتناسق فيه، ويتقرر في عقولهم وأرواحهم أن كل ما يحدث في الكون هو من تقدير الله ونفاذ إرادته، فتمتلئ قلوبهم من خشيته .يقول ابن عطية: العلم رأس الخشية وسببها. وأخرج ابن أبي حاتم قال: قال ﷺ: أعلمكم بالله أشدكم خشية له

تختم الآية بما يؤكد المضامين السابقة كلها . إن التصرف الإلهي المفصل في الآيات السابقة تقوم شاهدا على أن الله عزيز تنفذ إرادته الحكيمة في الكون ولا يمكن أن يعترض تقديره أحد. وهو مع عزته يدعو المعرضين إلى الإقبال على الحق ليغفر لهم ما سلف من ذنوبهم.

29←30: إن الذين يتلون كتاب الله...إنه غفور شكور.

بعد أن نوه بالعلماء الذين يخشون الله، ثنى بالقائمين بالأعمال الصالحة فأثنى عليهم ووعدهم. افتتحت الآية بالذين يتلون كتاب الله، واختير التعبير بكتاب الله ترفيعا لشأن ما يتلونه وليرتب عليه ما رتب من فضل. وتلاوة كتاب الله مراتب فأعلاها التلاوة المتدبرة في معانيه، التي يتأثر معها التالي بما يقرأه من عظات وأحكام وكشف عن حقائق، فيتدبر كل ذلك وينفعل له في عقيدته وسلوكه. ودون ذلك مراتب. ولا يعدم التالي غير المتدبر حظه من الأجر. إذ المواظبة على تلاوته حفظ

له وتأنيس للروح بآياته .وعطـف علـى تـلاوة القـرآن إقامـة الصـلاة عمـود الـدين، وأضاف الإنفاق في سبل الخير، وقدم الإنفـاق فـي السـر علـى الإنفـاق علانيـة لأنـه أعظم أجرا لكونه أبعد عن الريـاء، ولأنـه مـن ناحيـة ثانيـة يحفـظ للمتصـدّق عليـه كرامته . ومن بديع التعبير القرآني إدماج أن الرزق الـذي ينفـق منـه هـو فـي حقيقتـه من عند الله .وهو يشير إلـى رضـاه سـبحانه عـن تصـرف المتصـدقين. جمـع هـذه الفضائل فجسم ما فيها من خير بتشبيهها بـرأس مـال التـاجر الـذي لا يلحقـه خسـارة ولا تلف. بشـرهم بـذلك، وأن راس مـالهم مـن العمـل الصـالح لا يلحقـه نقـص ولا خسارة، ليحصلوا على الأجر الوافي الصادر عـن الكـريم. فهـو لـذلك لا يـنقص مـن حقهم شيئا، بل -يضاعفه من فضله. وقد صور القـرآن هـذه التضـعيف بقولـه : **(مثـل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبـة أنبتـت سـبع سـنابل فـي كـل سـنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء)**[1] وتشمل البشـارة حتـى المقصـرين إذا هـم تـابوا، هم يرجون أن يتفضل عليهم ربهم . يثبّت ذلـك، أنـه سـبحانه غفـور، يمحـو الـذنوب والسيئات، ويعفو عن التقصير والقصور، وهو شـكور يشـكر لعبـاده مـا يقومـون بـه من صالح الأعمال شكرا ينادي بحسن الثواب.

وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ هُوَ ٱلۡحَقُّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرُۢ بَصِيرٞ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا يُحَلَّوۡنَ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٖ وَلُؤۡلُؤٗاۖ وَلِبَاسُهُمۡ فِيهَا حَرِيرٞ ﴿٣٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

بين يديه : الكتب المتقدّمة في الزمان عن القرآن.

الخبير: العالم بدقاق الأمور وخفاياها.

المقتصد : هو الآخذ بالوسط .

الفضل : الزيادة في الخير..

---

[1] سورة البقرة 261

الحزن : الأسف.

دار **المقامة** : دار الخلود

المس : الإصابة

النصب : التعب.

اللغوب : الإعياء .

بيان المعنى الإجمالي :

إن الذي خصصناك به يا محمد من الكتـاب الـذي هـو كلامنـا أوحينـاه إليـك، هـو الحق الخالص، وما سواه حقه مشـوب بباطـل. وهـو وإن تـأخر زمانـا فإنـه مهـيمن على الكتب التي سبقته. إن تفضـيلك واختيـارك لتبليـغ أعظـم كتـاب، واختيـار أمتـك لحمل الهداية للعالمين، هو صادر منـا، والله هـو الخبيـر الـذي يحـيط علمـه بالأشـياء ظاهرا وباطنا، ولا تغيب عنه لحظة.

إن القرآن المنوه به، قد مكنا منه عطاء من لدنا لأمتك كمـا يـرث الفـرد الخيـرات مـن مورّثه. ذلك أني اصطفيت المؤمنين بك فجعلتهم القـائمين علـى هـذا العطـاء يحفظونـه ويبلغونه للبشرية إبلاغا لا ينقطع خيط مـده. ثـم إنهـم فـي التـأثر بـه علـى مراتـب فالمرتبة الدنيا نور الإيمان باق، ولكـن اسـتقامتهم علـى الطريقـة التـي يجـدونها فـي القرآن لم تكن على مستوى الالتزام، ففرطوا بارتكـاب الآثـام، وظلمـوا أنفسـهم بـذلك، ومنهم من لم يبلغ درجة الصفاء البالغة، ولم يسـقط فـي طريـق الشـهوات، ومـنهم مـن اعتبر الدنيا ميدان سباق لما يرضي الله فهـو حـريص علـى الخيـرات، شـديد اليقظـة للالتزام بهديه .هذا المستوى هو وحده الفضـل الكبيـر. الفضـل الـذي سـيكون فـي الآخرة جنات إقامة يقيمون فيها، ظواهرهم تنادي بأنهم فـي أعلـى مراتـب النعـيم، فمـا يشاهد من هيئات الملوك فـي الـدنيا مـن أسـاور الـذهب وتطريـز ثيـابهم الحريريـة باللؤلؤ والحجارة الكريمة، ليس استثناء ولكنـه مظهـرهم الـدائم عنـد ربهـم. يترنمـون بحمد الله على إزالة كل آثار الخوف والأسف. هـو الـذي مكننـا مـن دار الإقامـة التـي لا نخرج منها، لا يلحقنا فيها تعب ولا إعياء.

بيان المعنى العام :

31ـ والذي أوحينا إليك...لخبير بصير.

في هذه الآية تنويه بالقرآن الذي سما مقام التـالين لـه إلـى منـازل الرضـا فـي الآيـة السابقة. فسجلت أنه وحي من عنـد الله، وأنـه اختـارك يـا محمـد مـن بـين الخلائـق لتكون المبلغ له، وان الحق منحصر فيه. فكـل الكتـب التـي يتعلـق بهـا بقيـة النـاس ويعتمدونها في تدينهم، مشوبة بالباطـل علـى نسـب متفاوتـة تبعـا لمـا دخلهـا مـن

تحريف. ثم أضاف أنه قيم على الكتب السابقة فما أقره منها ثبت صدقُه بشهادة القرآن وما نسخه انتهى العمل به، وما حكم بأنه محرف وجب رفضه، فهو مهيمن عليها جميعا. اختيارك للرسالة، وتشريف أمتك بأن كانت الحفيظة على القرآن كتاب الله، والتنويه بمن يستحق التنويه به من الناس، كل ذلك حق وصواب لأن المتصرف الذي قدر كل ذلك، هو الخبير بعباده الذي ينكشف له مستواهم الإنساني وتقاهم وصلاحهم، وهو بصير بهم يعلم خفاياهم كظواهرهم .

32.ثم أورثنا الكتاب...هو الفضل الكبير.

توالى الحديث عن القرآن من الآية 29 مبشرا التالين لآياته بتحقق رجائهم في النجاح، ومضاعفة أجورهم. ثم ارتقى منوها بالقرآن بأنه هو المتفرد بالحق ولا يأتيه الباطل .ثم ترقى مفصلا أثره في المؤمنين به، وأنهم ليسوا على مرتبة سواء. فتفيد الآية :

إن القرآن المنوه بالتالين له، المبشر والمتفرد بالحق، قدرنا فيه مزية أخرى لا يشاركه فيها كتاب من الكتب السابقة، أنا حفظناه بحفظنا، وقدرنا أن أمتك قد أورثناها هذا الكتاب القرآن، فجعلناهم المنتفعين به، لأني اصطفيتهم على الناس، وتعلقت إرادتي أن يكونوا حملة مشعل التوحيد والحق، الحافظين للقرآن على مر العصور. فالوراثة معناها هنا: هو تشبيه أمتك بالوارث الذي يرث خيرا من مورّثه، ينتفع به ويؤثر في حياته، دون أن يكون قد بذل في تلك الخيرات مجهودا. إنهم باعتناقهم الإسلام ووضوح التوحيد في عقولهم ومداركهم، قد استحقوا ذلك، وإن كان هذا بتوفيق من الله، فسموا إلى أن يكونوا حملة هذا القرآن إلى البشرية. فالصحابة أخذوا عنك والتابعون أخذوا عن آبائهم، وأولادهم حملوا الكتاب عنهم، وواصلوا إبلاغه، وهكذا تتعاقب الأجيال وكل جيل يبلغه إلى من بعده سليما من كل تغيير. إنها مزية لم تكتب لأي أمة من الأمم السابقة، إذ عجزوا عن الاضطلاع بالمحافظة على صحتها وسلامتها من كل دَخَلٍ. فالمسلمون حقا هم المصطفين تميزوا متفردين بحفظ القرآن في صدورهم، وفي مصاحفهم، وترسخ في نفوسهم غيرة على حفظه تجاوزت غيرتهم على أهليهم وأموالهم.

ثم فصلت الآية مراتب الآخذين بالقرآن الحافظين له حسب تأثيره في حياة كل فرد منهم، فإنهم وإن اشتركوا في حفظ القرآن، إلا أن تأثيره في سلوكهم، وقوة مراقبتهم الباطنية لتطبيق الكتاب الذي حموه، مختلفة رتبها القرآن على ثلاث مراتب:

الرتبة الدنيا والأكثر أفرادا، وهم الذين ظلموا أنفسهم، وظلم النفس بتهاون الرقابة، وضعف العزيمة على صد الشهوات وتزيين الشيطان للّذة العاجلة والمتعة الدنيوية،

هم قد ارتكبوا المعاصي ودخل إبليس في حياتهم بقوة، حتى أنساهم صقال ما تراكم على بواطنهم من درن الإثم، فأقاموا على بعض المعاصي، وإن كانوا لم يفقدوا الإيمان، وصلتهم بالقرآن. وهؤلاء يختلفون كثرة وقلة حسب غلبة ظاهرة الصلاح أو الفساد، في البيئات والمجتمعات والأعصار.

المرتبة الثانية: هي فوق هذه وهم الذين لم يتيقظوا اليقظة الدائمة والقوية لتحصين أنفسهم من الإثم، ومخالفة أحكام القرآن، فهم قد ارتكبوا بعض الذنوب، وكان أكثر أحوالهم الاستقامة، ولم يحرموا أنفسهم من فعل الصالحات. وقد يقيمون على الكبيرة أمدا ثم تتحرك نفسهم اللوامة فيتوبون. وهؤلاء هم الأكثرية حسب اختلاف العصور والبيئات أيضا.

المرتبة الثالثة: المرتبة النقية الرفيعة، هم الذين تطهرت نفوسهم فكانت شفافيتها ناصعة، صلتهم بالله تحرك عقولهم ومداركهم، وتأثراتهم. يعيشون مع القرآن ويتخذونه هاديا لهم في نشاطهم في الحياة الدنيا. فهم يمثلون في كوكبة المتسابقين إلى الخير وإلى رضوان الله، يمثلون الطليعة السابقة لغيرهم من المرتبة الدنيا والمرتبة المتوسطة. إن سبقهم هذا كان بعون من الله إذ جعل نفوسهم أليفة الصلاح والتقوى .

ذلك هو الفضل الكبير- إن رتبة السابقين تمثل أعلى درجات الفضل، لأن الذين سبقوا إلى الخير والانضباط وأكثروا من فعل الخيرات، يجدون آثار ذلك في حياتهم الدنيا طمأنينة، يألفهم الناس ولا يحذرونهم. وفي الحياة الآخرة تقدمهم في مراتب الفوز.

33.جنات عدن...فيها حرير.

عطفت الآية جنات عدن على قوله ذلك الفضل الكبير. فأفادت أن الفضل الكبير يتمثل في الآخرة بدخولهم الجنات التي يقيمون فيها. تظهر عليهم آثار النعيم وخص بالذكر منها اللباس الذي قربه بما كانوا يرونه في الحياة الدنيا من لباس الملوك من الذهب في سواعدهم وتطريز ثيابهم باللؤلؤ والحجارة الكريمة، ولبس الحرير. والذي أجزم به أن الصورة لتقريب سمو النعيم في الآخرة بما هو لديهم في الدنيا، إذ أن أمور الآخرة مختلفة عن أمور الحياة الدنيا.

34←35:وقالوا الحمد لله الذي أذهب...ولا يمسنا فيها لغوب.

تجسيم لامتلاء النفس بإحساس النعيم الذي هم فيه. ذلك أن شأن النفس إذا امتلأت رضى وسعادة أن تنطق بما ينفس عن قوة ما حل فيها فتزداد بذلك راحة .تجد

بعضهم في حالات القمة من السـعادة يتـرنم ترنيمـات معبـرة عـن عميـق إحساسـه، وبعضهم يتمثل بما ارتسم في ذهنه من آيات الإبـداع مـن القـرآن أو مـن الشـعر إلـى آخره . فهؤلاء المرضيُّ عـنهم الـذين اصـطفاهم الله وأدخلهـم جنـة نعيمـه تـرنيمتهم التي تفيض من قلوبهم: الحمد لله الثنـاء الجميـل لله . أزال عنـا الأسـف الـذي كـان يكدرنا في الحياة الدنيا وفي مواقف يوم القيامة. إن مـا أفاضـه علينـا هـو مـن فضـل مغفرته وتكرمه بالترفيع فيما قدمناه إلى درجة القبـول ثـم الجـزاء. أسـكننا درا الخلـود التي لا نبرحها ولا نخشى انتهاء مدة إقامتنا بهـا، صـدر ذلـك مـن فضـله وفضـله لا يحد. نقيم إقامة لا يلحقنا، ولا يصيبنا فيها تعب مؤلم ولا إعياء موهن.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

يصطرخون : يصرخون صراخا شديدا

التعمير : تطويل العمر .

النذير : محمد ﷺ.

فذوقوا العذاب : واصلوا الإحساس بالعذاب .

الظالمين : المعتدين على الحق، وأعظمه الشرك.

ذات الصدور : مضمراتها ونيات الناس .

المقت : البغض مع خزي وصغار .

خسار : خيبة العمل .

بيان المعنى الإجمالي :

صورة مقيتة مهينة للذين اختاروا الكفـر، فكـان كفـرهم سـببا لاسـتحقاقهم نـار جهـنم حتى غدت ملكا لهم. هم ملازمون للنار لا تسرع بإنهـاء إحساسـهم، فيموتـوا بهـا موتـا ينتهي معه عذابهم، ولا يجـدون لحظـة يضـعف فيهـا إحساسـهم. علـى هـذا النحـو

نجازي كل كافر فضّل الشرك على التوحيد والفساد على التقوى. النار تلفحهم وهم يصرخون صراخا شديدا، عسى الله أن يسمع صراخهم فيستجيب لهم، يصرخون ربنا تفضل بإذنك حتى نخرج من النار ونعود إلى الحياة الدنيا مرة أخرى لنعمل صالحا ونثبت على توحيدك. ويكون الجواب قاطعا لآمالهم في العودة. لم أباغتكم بالعذاب، ولكني أطلت في أعماركم لتتدبروا وتقلعوا عن الكفر، وبعثت فيكم النذير محمدا صلى الله عليه وسلم أنذركم هذا العذاب فكذّبتموه. أنتم ظلمتم أنفسكم بالكفر والمعاصي، فذوقوا جزاء ظلمكم. والظالمون لا يجدون نصيرا. تفرد الله بعلم غيب السماوات والأرض وأسرارهما، كما تفرد بعلم ما يجري في الضّمائر وما ينطوي في النفوس من نوايا ومقاصد. وقد مكنكم من الأرض بما أودع فيكم من العقل ومن الحواس، لتنفذوا إلى معرفة الكون، وتطبقوا فيه ما يرضى عنه مالكه رب العالمين. فأنتم مستخلفون في الأرض غير مالكين لها مسؤولون عن عملكم فيها . فمن سار في الأرض بعقل مشرك بالله، غير منقاد لما يحبه، عاص لأوامره فإن استمراره على الكفر يسبب له مقت الله بمقدار ما يعمر في الأرض، وتكون حياته زيادة في خسرانه يوم القيامة

بيان المعنى العام.

36.والذين كفروا لهم نار...نجزي كل كفور.

تصور الآية عاقبة الذين كفروا صورة معاكسة لعاقبة المؤمنين، بها يزداد التفضل على المؤمنين وضوحا. فقد جعل الله للذين كفروا نار جهنم، اختصها بهم فملكوها. إن عذابها أعاذنا الله منها: أنه عذاب فوق ما يتصور البشر وما عرفوه في الدنيا. إن شأن نار الآخرة أنها لا تنهي حياتهم فيموتوا موتة يفقدون معها الإحساس ويستريحون بها من العذاب، بل تستمر النار تتوقد يحسون بآلامها أشد ما يكون الإحساس، دون أن ينخفض عذابهم لحظة. إنه على هذا النحو نجزي الكافرين بي في الدنيا جزاء عادلا .

37. وهم يصطرخون فيها...فما للظالمين من نصير.

تصور الآية وضعهم في النار وهو يقاسون عذابها الشديد، تسمع صراخهم الذي يكاد يقطّع حناجرهم، رافعين أصواتهم آملين أن يُسمعوا، يصرخون: ربنا استعطافا لجلاله، تفضل بإذنك أن تخرجنا من النار، نعاهدك أننا نعمل صالحا لو أعدتنا إلى حياة التكليف، على عكس ما كنا نعمله في الحياة الأولى . يعبرون عن ندمهم عما قدموا.

وعلم الله لا يغيب عنه شـيء، فيسـمعهم الجـواب الـذي يقـرعهم ويـوبخهم، ويطفـئ الأمل من نفوسهم، فيسمعون السؤال التـالي: ألـم نعمـركم ؟ ألـم نبـق علـيكم أحيـاء، ونطيل أعماركم حتى خرجتم من الصبا إلـى الرشـد والتكليـف، وبعثـت لكـم رسـولي ينذركم العاقبة التي تجأرون منها اليوم، وقـد بـين لكـم وكـرر علـى أسـماعكم النـذر التي تصلبتم في ردها وعدم اعتبارها، وتكذيب قائلهـا، مـع أنهـا كانـت كافيـة لـو لـم تصمموا على الكفر، كانت المـدة والتـذكير كـافيين لتـدركوا الحـق، وتنفـوا الشـرك وتستقيموا على الطريقة. فذوقوا العذاب. أمر قُصـد بـه الإهانـة. وإن كنـتم تبغـون مـن ينصركم؛ فإن الظالمين لا يستحقون النصرة، وهـي قاعـدة يـرتبَط بهـا الصـلاح العـام: الظالم لا ينصر، وإنما النصرة للمظلوم.

38ـ إن الله عالم ...بذات الصدور.

تثبت هذه الآية ما أشارت إليه الآيات السـابقة مـن أنـه سـبحانه أجـرى كـل شـؤون الحياة على الحكمة التامة التي لا تصدر إلا من وسع علمه كـل شـيء. فقـد ربـط بـين كل الكائنات في العالم، فـلا يغيـب عنـه شـيء مـن أسـرارها، ومـن أخفـى الخفايـا مضمرات النفوس وخفي النوايا. هو يعلمها سبحانه .

39ـ هو الذي جعلكم خلائف ...كفرهم إلا خسارا.

فصلت هذه الآية قوله تعالى **(إنه عليم بذات الصدور)**. بقدرته وبحكمته جعلكم أيها الناس مستخلفين في الأرض، مكنكم من خيراتها، وأعطاكم عقولا وحواس تستطيعون بها كشف أسرارها لتطوعوها إلى ما يحقق مصالحكم. وربط نجاحكم في الدنيا بالتوحيد والاستقامة في السلوك، ومراقبة الله المطلع على ما في صدوركم.

إن هذه المنن الكثيرة تجعل كل فرد من أفراد البشـر مسـؤولا فـي هـذه الـدنيا . فمـن كفر بالله، ظانا أنه غير داخل تحت سلطانه، متوهما أنه حـر يفعـل مـا يشـاء، والـدنيا التي استخلفه فيها ملكه يتصـرف فيهمـا كمـا تقـوده شـهواته، لا ينضـبط بالصـلاح والخير، إن كفره هذا لا يزيده إلا مقتـا مـن الله، أي بغضـا وهوانـا . وإذا كـان الكفـر بمجرد حدوثه يعرض الكـافر للمقـت الإلهـي، فمـا معنـى لا يزيـده كفـره إلا مقتـا ؟ فتأويل الآية أن مقـت الله لهـم يتواصـل بتواصـل كفـرهم . كمـا أن اسـتمرارهم فـي الحياة لا يحقق لهم أي مكسب بل يغرقهم في الضياع، ويزيد خسارتهم يوم القيامة.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ

بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن
زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ :

أروني : أنبئوني.

الشرك : النصيب المشترك به في ملك شيء .

يمسك : يحفظ.

من بعده : من بعد تركه الإمساك.

بيان المعنى الإجمالي :

أخبروني عن الشركاء الذين زعمتم أن لهم صفة الألوهية بها يقاسمون الله التصرف. أعلموني أي شيء خلقوه من الأرض ولو كان صغيرا تافها. أخبروني هل يملكون من السماوات أي جزء منها يتقاسمونه مع الله. أخبروني هل مكنتهم من كتاب يبرر شركهم. كل ذلك باطل وغير موجود. ولكن الكبراء يعدون وعدا لا يتحقق منه أي شيء: أن الآلهة تمنعهم وتشفع فيهم، والأتباع يعدون بتصلبهم في الدفاع عن الأصنام لتبقى لهم الألوهية. وكل ذلك غرور لا يتحقق منه شيء.

إن الله هو وحده المتفرد بالألوهية، فهو الذي يسير السماوات والأرض في مساراتها دون أن تصطدم ببعضها أو يختل سيرها. ومن ناحية فإنه إذا أراد أن يختل سيرها وتتهاوى فيفسد الكون، لا توجد قدرة تستطيع أن تعيد انتظامها بعد الله.

بيان المعنى العام :

40ـقل أرأيتم شركاءكم...بعضهم بعضا إلا غرورا.

بعد أن هددت الآية السابقة المشركين وأنهم لا ينالون من كفرهم إلا مقت الله وخسران العاقبة؛ عطف القرآن بأمر النبي ﷺ أن يبكّتهم ويلجئهم إلى الاعتراف بالعجز عن تبرير عبادتهم لغير الله .

تفتتح الآية بقوله :**قل أرأيتم** – هذه الصيغة في قوة أخبروني، ولكم المجال نبئوني عن شركائكم، هؤلاء الشركاء الذين ليس لهم من قوة الشركة إلا بدعواكم أنهم شركاء، ولذا نسبهم إليهم، فمن البداية تنفي الآية عنهم الشركة. فهي دعوى باطلة من الأساس يدعونها آلهة من دون الله .ثم فصلت الآية السؤال الملجئ الطاعن في دعواهم الشركة، بمطالبتهم طلبا يعجزون عنه فتبطل دعواهم وتتعرى من كل سند. إذا كانوا آلهة فالإله لا بد أن يكون خالقا، لها قدرة على الإنجاز والإحداث؛ فهل خلقوا شيئا من الأرض مما تحويه الأرض في باطنها ومما هو

على ظهرها، ولو كان تافها ؟ ثم انتقل بهـم إلـى عـوالم السـماوات، ألَهُـمْ شـرك فـي سير الكواكب، واخـتلاف الليـل والنهـار، وتصـريف السـحب وإنـزال المـاء منهـا، والسحب وبروقها ورعودها. وسواء أكـانوا يعتقـدون أن لهـا شـركا فـي السـماوات أو لم يكونوا يعتقدون ذلك، ففي بيان عجزها عن ذلـك مـا يعمـم كـل الاحتمـالات الواقعـة والتي يمكن أن يقـول بهـا بعـض المشـركين فـي المسـتقبل. ولمـا انتفـى أن يكـون لأصنامهم تأثير الألوهية في الأرض وفي السماء، فكـذلك نفـت الآيـة مُعَجِّـزَةً لهـم أن يثبتوا أن الله آتـاهم كتابـا اعتمـدوه، فتمكنـوا مـن ظفـرهم فيـه بآيـة تثبـت شـرك شركائهم.

انتقلت الآيـة بكلمـة: **بـل** – لتبطـل كـل الخيـالات السـابقة والـدعاوى والمبـررات الساقطة، لتظهر أنهم ليس لهم تعلق إلا بمواعيد هـم اختلقوهـا يتبادلونهـا بيـنهم، لـيس لها أي مصداقية، فالقادة يعدون أتباعهم بـأن الآلهـة تحمـيهم وتشـفع لهـم، وتسـاعدهم على تحقيق ما يأملون، والدهماء الأتباع يعـدون رؤسـاء الكفـر بـأنهم مصـممون علـى الوفاء للآلهة والذود عنها لتكون كلمتها العليا .فكل منهما مغرور.

41- إن الله يمسك السماوات ...إنه كان حليما غفورا.

أحالت هذه الآية المخاطبين ليتـأملوا فـي انتظـام سـير الكـون. الشـمس والقمـر فـي مساراتهما المنتظمة، والأرض في حركتها الدائبة، والتـوازن بينهـا فـي أبعادهـا وفـي كتلها، مما يثبت أن الله قد رتب نظامها ترتيبا لا يختـل، وعلـى تلـك التنظـيم والجاذبيـة بقيت واستمرت على هيئاتها التي هي عليها فـي الكـون. اعلمـوا أن الـذي حمـى مـن الاختلال هو يد القدرة الإلهية والحكمة والدقة فـي الصـنع، والإرادة التـي قـدرت تتـابع ذلك المسار. ولتنتبهوا فإنه فـي الوقـت الـذي تتعلـق إرادتـه بتعطيـل ذلكـم الترتيـب والنظام، فاختلت النسب والمقادير، فهل يستطيع أحد مـن بعـد تركـه الحفـاظ عليهـا، أن يتقدم فيبقيها على الحالة التي هي عليها ؟ لا أحـد يقـدر علـى ذلـك. وإذا كـان أمـر انتظام الكون بيده سبحانه وحده، فـإن تمـرد المشـركين ومـع تأجيـل تسـليط العقـاب عليهم، يبينه أنه سبحانه متصف بـالحلم فـلا يسـرع بالعقوبـة، وأنـه يمهـل المسـرفين والمشركين علهم يقلعوا ويؤمنوا.

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ

ٱللَّهِ تَبۡدِيلاًۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلاً ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ
عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةًۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٍ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوۡ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا
كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهۡرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمۡ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا
جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرَۢا ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

جهد أيمانهم : أبلغها وآكدها.

نفورا : بعدا واستبشاعا.

المكر : تدبير الأذى مع الحرص على إخفائه.

حاق : نزل وأحاط.

ينظرون : ينتظرون.

سنة : عادة

تبديلا: تغييرا.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن على كفار قريش عدم وفائهم، واحترامهم لالتزاماتهم، فقد كانوا أقسموا بالأيمان المؤكدة، قبل البعثة، أنهم لو أرسل إليهم نذير، فإنهم سيطيعونه، ويكونون صورة أنقى وأفضل من الأمم التي جاءتهم رسل فاختلفوا وتفرقوا عليهم. ولكنهم لما جاءهم النذير محمد، تضاعف نفورهم من الحق بعامل الاستكبار، وبالمكر الخبيث في السر لإذاية الرسول وصحبه. والمكر السيء سيَنْطبِق على الماكرين، وينجي الله المؤمنين.

ما يرقب هؤلاء المشركون المستكبرون ؟ إنه ليس لهم إلا مآل واحد، أنه سيجري عليهم نفس ما جرى على الأمم الذين سبقوهم، وسنة الله في المؤاخذة والاستئصال صادرة عن كامل عدله، ولذا فإنك لا تجد لها تغييرا، ولا تتحول عن طريقها المرسوم .

ما لهم متصلبون في كفرهم، ألم يسيروا في أرض الله، بل قد ساروا في تجارتهم إلى الشام أو إلى اليمن وشاهدوا آثار تدمير القادر العظيم لأمم سبقوهم، وكانوا أشد قوة منهم. وهل تُعجز القوةُ البشرية القدرةَ الإلهية، وهل يوجد في الكون من السماء إلى الأرض من يحول بين الله وبين تنفيذ ما أراده ؟إنه سبحانه العليم القدير .

إن الله لو عاجل الكفرة بالعقاب الذي يستحقونه بمجرد ما يحصل منهم التمرد، فإن الحياة ستمحق من وجه الأرض، ولكن جرى تدبيره الحكيم أنه يمهلهم ويؤخرهم إلى الأجل الذي قدر فيه ذلكم الفناء .فعندما يأتي الأجل المضبوط، فإن الله ينفذ وعيده، وهو البصير بأحوال خلقه ورحمته بعباده موفورة .

بيان المعنى العام :

42←43: وأقسموا بالله جهد أيمانهم...لسنة الله تحويلا.

هذه الآية تذكر تناقض حال المشركين بين وضعهم قبل أن يبعث الله فيهم رسوله، وبين وضعهم بعد أن جاءهم الهدى.

هم في الحالة الأولى كانوا مشركين، ومتصلبين في الشرك. وكانوا كما وصفهم القرآن قوما خصمين، تطاوعهم ألسنتهم لمخاصمة كل من يحاول صرفهم عما هم عليه. تشير الآية إلى أنهم جادلوا في الجاهلية بعض من كان يزعم أنه على دين من عند الله، وأنهم لاستكبارهم كانوا ينتقدون الذين دعوهم إلى ترك الشرك وأن يقبلوا دينهم وينضموا إليهم، فكان من شدتهم في الجدل أن اعترضوا على الذين دعوهم، وقالوا لهم :إنه لم يأتهم نذير يدعوهم إلى دين سماوي، وتشير الآية إلى أنهم هاجموا من دعوهم باختلافهم وتشتتهم، وأقسموا أنهم لو جاءهم من ينذرهم ويحرك قلوبهم ويحذرهم سوء العاقبة، فإنهم يقبلون عليه إقبال المطيع الطاعة التامة، ولا يختلفون عليه . فيكونون أهدى وأفضل اتباعا وتطبيقا لما جاء به، من أية أمة من الأمم.

و تصف الآية موقفهم في الحالة الثانية، بعد أن أقسموا قسما مؤكدا، أن يستجيبوا لدعوة النذير الذي يأتيهم ويكونوا أشد قبولا لهدايته من الأمم التي دعتهم للإقلاع عن الشرك واتباع دينه؛ أنه لما جاءهم محمد وهو منهم، ينذرهم، ويكشف لهم ما يؤول إليهم حالهم من الخزي إذا هم لم يتبعوا هدى الله الذي أتاهم به، ضاعفوا من نفورهم من هدي السماء بسبب استكبارهم عن الحق في الأرض، أي في مكة، وبسبب خبثهم، وما دبروا لرسول الله ﷺ وأصحابه من مكر وإذاية في مكر خفي.

ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله – إن وراء تدبيرهم السيء، وإعدادهم المخططات لإذاية الرسول والصحابة، وراء ذلك القدر الإلهي العادل الذي أفشل مخططاتهم، بل عرضهم للأذى الذي أعدوه لغيرهم. وفي هذه الخاتمة إيقاظ للناس أن من يخادع، ويعمل على الإضرار بغيره، ويبالغ في التخفي حتى لا يأخذ المخدوع حذره، ظانا أنه أطبق على من مكر به وأنه سيضره لا محالة، ليتيقن هذا الخادع أن مكره سينقلب عليه ويسلم المخدوع.

ماذا ينتظر المشركون المستكبرون الماكرون ؟ إنهم لا ينتظرون إلا أن تجري عليهم العادة التي جرى عليها أمر الله مع أمثالهم من السابقين، فيتساوى جزاؤهم مع جزائهم. اعلموا أن ما أجرى عليه الله سبحانه من الربط بين الأفعال والجزاء، هو طريق مستمر لا يتخلف، ولا يتغير، ولا يتحول. وختام الآية **[ولا تجد لسنتنا تحويلا]** يجري مجل مجرى المثل للتعبير عن التواصل الذي لا يلحقه استثناء.

44. أولم يسيروا في الأرض...كان عليما قديرا.

ما لهم مصممون على الكفر والاستكبار ! ألم يسيروا في الأرض ويقطعوا المراحل جيئة وذهابا بين مكة والشام، وبينها وبين اليمن ؟ ألم يشاهدوا بأعينهم الآثار الدالة على استئصال المستكبرين الكافرين قبلهم. لقد كانت الأقوام التي سلط عليها العقاب أكثر قوة منهم، فاضمحلوا رغم ذلك، ولم تفدهم قوتهم شيئا. وإذا كانت القوة البشرية تنهار ولا تقاوم تنفيذ الله لإرادته، ولا يوجد شيء في الأرض ولا في السماء يمكنه أن يحول بين إرادته المطلقة وبين نفاذها، فتجعله عاجزا، فليحذر المستكبرون سوء العاقبة. تعالى ربنا إنه قد ثبتت له صفة العلم فلا يغيب عنه خفايا ما تتعلق إرادته بسحقه ولا ما يتحصن به الماكرون ظاهرا أو باطنا. وثبتت له القدرة التامة التي لا تغالب.

45. ولو يؤاخذ الله الناس ..كان بعباده بصيرا.

هددت الآيات السابقة المشركين المستكبرين، وحققت هذه الآية أن الله يمهل الكفرة الآثمين، فلا يطمئنوا فيحملوا تأخير عذابهم على رفعه عنهم، إن ذلك غفلة منهم عن سنن الله المطردة: أنه لا يعاجل المذنب بالعقوبة بمجرد ما يقترفها، ولكن حكمته جعلت لكل شيء أجلا، مقدرا عنده لا يسبق الاستئصال أجله ولا يتأخر عنه. إنه لو أراد مؤاخذة الناس بمجرد ما يكتسبون الخطيئة، فإنه لا يبقى على الأرض حي يتحرك.

ولا تسألوا كيف يسحق الله الحياة من وجه الأرض، الدواب والصالحين؟ الجواب إن الله بصير بعباده، هم عبيده وهو أعلم كيف يقضي حكمه فيهم، وعقولكم أضعف من أن تستوعب التدبير الإلهي في الكون.

تم بحمد الله وحسن عونه تفسير سورة فاطر يوم الجمعة 22جمادى الثانية 1434- 2013/5/03 أعانني الله على إكماله --

سورة يـــــس

هذا هو الاسم الذي اشتهرت بـه. أخـذ اسـمها مـن الحـرفين اللـذين افتتحـت بهمـا، واختصت بذلك بين سـور القـرآن. وهـي سـورة مكيـة .السادسـة والثلاثـون حسـب ترتيب المصحف. واختلف في ترتيبها حسـب تـاريخ النـزول فعنـد ابـن النـديم هـي السابعة والثلاثون؛ نزلت بعد سورة الجن، وقبل سـورة الأعـراف. وعنـد البقـاعي هـي الحادية والأربعون.

ورد في فضل هذه السورة أحاديث كثيـرة أوردهـا القرطبـي رحمـه الله فـي تفسـيره. فعن معقل بن يسار : اقرؤوا سورة يـس علـى موتـاكم. وعـن أم الـدرداء قـال النبي ﷺ: ما من ميت يقرأ عليه سورة يس إلا هـوّن الله عليـه. وروى الترمـذي عـن أنـس ﷺ قال: قال النبي ﷺ :إن لكل شيء قلبا، وقلب القـرآن يـس. ولـم يبلـغ حـديث منهـا درجة الصحة .ولكن يستأنس مـن مجموعهـا مـا لهـذه السـورة مـن المزايـا .والله ذو الفضل العظيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾
تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ
ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى
ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا
فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الحكيم : المتقن، والموصوف بأعلى درجات الحكمة.

غافلون: الغفلة الذهول. ويقصد منه الإهمال والإعراض .

حق: ثبت.

القول : ما قدره الله فيهم .

الغل :ما ثبت حول العنق قصد التضييق والتعذيب.

الأذقان: جمع ذقن .منتهى اللحيين.

مقمحون: مرفوعة رؤوسهم عاجزون عن تحريكها.

أغشيناهم : و ضعنا على أبصارهم حجابا يمنع من الرؤية.

بيان المعنى الإجمالي :

حرفان افتتحت بهما السورة. عطف عليهما قسم بالقرآن البالغ من الدقة أعلى مقام. وهو مع ذلك موضح للحكمة مقرر لها. والمقسم عليه: أن محمدا منتخب ليكون واحدا من رسل الله إلى البشرية. ويثبت القرآن أن العناية الإلهية رافقته وجعلته متمكنا من الطريق السوي الذي لا عوج فيه، الواضح الذي يبلغ به الغاية من أخصر طريق.

إن هذا القرآن المقسم به تنزل من الله، ليس لمحمد ولا للملك أي دخل فيه. وهما أمناء على تبليغه كما أراد الله أن يصل إلى الناس.

مهمتك يا محمد أن تنذر قوما وتوقظهم من غفلتهم، بعد أن ضاعت منهم الهداية الإلهية لتطاول الأحقاب. فليعلموا أن ما أتاهم به محمد، هو ما تولى إبراهيم وإسماعيل التنبيه إليه. وهم في هذه الفترة، بينك وبينهما، لم يأتهم نذير قبلك. إنهم ذاهلون عن الحق . أكسبهم طول الذهول شدة الإعراض.

ثبت في علمي أن أكثرهم لا يؤمنون بك، فصدق علمي فيهم .وعلم الله لا يتبدل. وتعلقه تعلق انكشاف لا تعلق تأثير.

تصلبهم في الكفر بلغ درجة تماثل الأسرى الذين وضع في أعناقهم الأغلال تضغط عليها، بصفة ترتفع أعناقهم وتخضع أبصارهم. فلا يدركون شيئا مما عن أيمانهم ولا عن شمائلهم. ولا مما هو أمامهم. ولا يصل إليهم شيء مما هو وراءهم. فهم عمي كأنما عصبت عيونهم بغشاء صفيق لا تنفذ منه أي صورة من الواقع الحق. هذا وضعهم من آيات الله المنزلة وفي كتاب الكون. حرموا التدبر فيها .وما يترتب على ذلك من الاهتداء .

لا تحزن لتصلبهم في الكفر. فإنهم لا يتأثرون بما تدعوهم إليه، فاستوى عندهم إنذارك وعدم إنذارك لهم. هم مقيمون على الشرك والضلال.

بيان المعنى العام:

1←4: يس ...على صراط مستقيم.

افتتحت السورة بحرفين: يا – سين– وبذلك هي تشترك مع السور الأخرى المفتتحة بالحروف المقطعة. فأجرى كثير من المفسرين عليها ما قيل في نظائرها من سور

القرآن. كما بيناه في سورة البقرة. وحملهـا بعضـهم علـى أنهمـا: اسـم مـن الأسـماء الحسنى لله تعالى. ورأى أخرون أنهما اسـم لمحمـد ﷺ .وذهـب آخـرون إلـى أن[يـا] حرف نداء، وسين مقصود به الإنسان : يا إنسان. وهذا الإنسان هو محمد ﷺ .

هذا وقد اختار كثير من النـاس اسـم- ياسـين – لبنـيهم. ولا أعلـم أنـه أطلـق علـى الإناث. وروي عن مالك أنه لا يرضى التسمية به.

وعطف على هذا الافتتاح [يس] قسمًا القـرآن الحكـيم. وإنـه حقـا لحكـيم باعتبـار مـا جمعه من الحكمة والغوص على المعاني الصـادقة البعيـدة. ولأنـه بلـغ غايـة الإتقـان. فبناؤه محكم، ونسيجه محكم، ومضامينه هي عين الحكمة. وهو لذلك معجز.

كانت هذه الفاتحة والقسم المصاحب لها مثبتة بأقوى ما يكـون الإثبـات أنـك يـا محمـد أحد الذين اخترتهم لحمل رسالتي للعـالمين. وإنـك مـتمكن مـن الطريـق الـذي يبلغـك قصدك من أخصر طريق ودون التواء أو اعوجـاج أو حيـرة. يبلـغ سـالكه إلـى الفـوز بالطمأنينة في الحياة الدنيا والرضوان من الله يوم القيامة. وذلك هو الفوز المبين.

5.تنزيل العزيز الرحيم.

ثم أضاف للتنويه بـالقرآن المقسـم بـ:أنـه تنزيـل مـن الله، لا دخـل لمحمـد فيـه، ولا للملك، لا في لفظه ولا في معناه. هو منزل علـى قلبـك مـن الله العزيـز الـذي يطـوع كل شيء لإرادته. طوَّع اللغة العربية لتَحْمِـل كلامــه. وجعـل نسـجه نسـجا معجـزا لا يرقى أي بليغ للقرب من مستواه. وهو مظهـر رحمتـه بمـا اشـتمل عليـه مـن هدايـة تعين البشر على التعاون فيما بينهم. وعلـى النجـاح فـي تعميـر الأرض. وتكشـف لهـم المنهج الخلقي الذي يكسبهم راحة الضـمير، وتشـرع العمـل الـذي يقـربهم مـن ربهـم فيسعدوا في الآخرة كما سعدوا في الدنيا.

6.لتنذر قوما ...فهم غافلون.

يهدف ذلكم التنزيل إلى إنذار الناس؛ إلى إيقاظهم إلى أن مـا هـم عليـه يسـبب لهـم فـي الدنيا الاضطراب والفوضى، والخوف والبغضاء. ويحـرمهم مـن رضـى الله فـي الـدنيا والآخرة.

فكانت مهمة الرسول ﷺ أولا:

تحويلهم من الوضع الذي هم عليه، في علاقـتهم ببعضـهم، وبـالكون. فيقطـع مـا بيـنهم وما بين العقيدة العمياء الضالة، والأخلاق الفاسدة، والظلم والاستبداد والاستكبار.

و من إعجاز القرآن التنبيه إلى الانفصـال بيـنهم وبـين آبـائهم فـي مضـمون الإنـذار؛ ليبطل ما كانوا يعتمدون عليه في عقيدتهم وفـي تصـوراتهم وفـي سـلوكهم مـن تبريـر

انحرافهم، بأنهم يقلدون آباءهم بما لهم من حرمـة وتقـدير فـي نفوسـهم. فسـجل علـيهم أن آباءهم ضيعوا شريعة إبراهيم، وابنه إسـماعيل. وتوالـت الأحقـاب، وطالـت الآمـاد دون أن يبعث الله من ينذرهم ويجدد ما انـدرس. إنـك يـا محمـد مكلـف بهـذه المهمـة من هداية الله .

ويحتمل أنك مكلف بإنذارهم الإنذار الذي أنـذر آبـاؤهم. وفـي هـذا الاحتمـال تحـريض لهم على اتباعه، لأن ما يدعوهم إليـه هـو الحـق الـذي دعـي إليـه آبـاؤهم الأولـون، وسارت حياتهم على نهجـه. وهـو منـاقض لمـا تـراكم مـن الأوهـام التـي رسّـخت الشرك، وما يتبعه مـن فسـاد النظـام الاجتمـاعي .فهـم غـافلون عـن إدراك الحـق، ومعرضون تبعا لذلك.

7ـ لقد حق القول ...فهم لا يـؤمنون.

إن ما يحدث في الكون لا يحدث لله علما متجددا. ولكنـه انكشـاف لمـا ثبـت فـي العلـم الأزلي القديم فيكون الواقع هو مـا علمـه الله دون أي تغيـر. ولمـا بعـث الله محمـدا ﷺ لينذر قريشا أولا: فإنـه عـالم أن أكثـرهم يصـدون مسـتكبرين، ولا يقبلـون مـا نـزل إليهم. وأن الأقلية تتبعه فيبارك الله فـيهم، ويفـوزون بالقيـام علـى نشـر ديـن الله فـي الآفاق. وهم المهاجرون الذين أثنى الله علـيهم فـي كتابـه بمـا هـم أهلـه مـن الرتبـة العالية في الكمـال الإنسـاني. لقـد تحقـق مـا ثبـت فـي علـم الله أزلا أن أكثـرهم لا يؤمنون. وعلم الله سبحانه قد انكشف الواقع على وفقه، ولا تبديل في علم الله.

8ـإنا جعلنا في أعناقهم ..فهم مقمحون.

الآية تحتمل معنيين :

أولهما: تصور تمكن الكفر في عقولهم، فهم تحت صـرامة حكمـه فـيهم لا يلتفتـون إلـى حجة تأتيهم، ولا إلى هداية مـن شـأنها تحريـك المشـاعر. إن وضـعهم شـبيه بوضـع الأسرى الذين أحاط الغل برقابهم، وشدت أيـديهم فيـه، وأجبـرهم الغـل علـى أن تبقـى رؤوسهم مرفوعة ثابتة، وأبصارهم منخفضة، لا يستطيعون رؤية ما يحيط بهم.

ثانيهما: أن الآية تصور الوضع الذي يكونون عليه يـوم القيامـة. وعلـى هـذا الاحتمـال فالآية وعيد، كقوله تعالى:(**إذ الأغلال في أعنـاقهم والسلاسـل يسـحبون فـي الحمـيم ثم في النار يسجرون**)[1]

[1] سورة غافر آية 71

9ـوجعلنا من بين أيديهم...فهم لا يبصرون.

تجسم الآية عدم قبولهم للهداية الربانية. هُمْ لتصلبهم في الكفر، وشحذهم عزيمتهم على المضي فيه، مثلهم مثل المحصور بين سدين: جدارين عازلين، يتعذر تجاوزهما، أمامهم سد، وخلفهم سد. منقطعون عن الكون، فلا يستطيعون معرفة ما يجري وراء السدين. وفي ذلك تجسيم لعزمهم المتصلب على رفض ما يأتيهم من الآيات . سواء ما يأتيهم به الرسول صلى الله عليه وسلم، وما هو مشاهد في الكون مما يقوم دليلا على الخالق المتفرد الحكيم.

لقد بلغ إعراضهم حدا أقرب ما يمثل به: أن الله جعل على أبصارهم غشاء لا ينفذ منه نور ولا صورة من الخارج. هم ومن فقد بصره سواء.

10ـوسواء عليهم ...لا يؤمنون.

فهمتُ من هذه الآية : أنها تسلي النبي ﷺ .إذا كان مهتما شديد الاهتمام بنجاحه فيما شرفه الله به من نشر الإسلام وإيمان قومه، واهتدائهم إلى العقيدة الصحيحة، والسلوك الراشد. وقد تملكه الحزن من تصلبهم في الكفر وإعراضهم الشديد عن قبول الحق الذي جاء به. هوّن الله عليه شيئا مما كان يحس به لما خاطبه بقوله : **(فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا)**[1] وهذه الآية تقول له: إنك قمت بما يجب عليك ولم تأل جهدا، وإنهم لتصلبهم في الكفر والعناد يستوي إنذارك لهم وعدم إنذارهم .

إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ
﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ
إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ
أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟
مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟
رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا
تَطَيَّرْنَا بِكُمْ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟
طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾

[1] سور الكهف آية 6

بيان معاني الألفاظ:

الذكر : القرآن.

خشية الرحمن : تقواه.

الأجر الكريم : أفضل أنواع الثواب.

اضرب لهم مثلا: اعرض عليهم صورة تشبه وضعهم

عززنا : قوينا.

التطير : ربط الخير أو الشر في المستقبل بمسار الطائر. وأغلب ما يطلق على التشاؤم.

لنرجمنّكم : بكل تأكيد نقتلكم رميا بالحجارة.

بيان المعنى الإجمالي :

ليكون تذكيرك محققا غايته، فإنه لابد أن يكون في القابل له استعداد لاتباع ما احتوى عليه القرآن من حق وبيان. ولا يصادم جليل وقعِه تصميمٌ مسبق على رفضه. فمن كان على هذه الشاكلة، واستقر في ضميره الخشية من الله في السر والعلانية، فذكّره، وبشّره بأن ربه سيقربه منه تقريبا يغفر به ذنوبه، ويجزيه أحسن الجزاء على ما قدم من حسنات .إنا نتصرف في الأموات فنحييهم في الأجل الذي قدرنا أن يتم فيه البعث. وسيحضرون ليجدوا كل ما فعلوه في حياتهم موثقا. وكذلك ما استمرت آثاره في الكون مترتبة عما فعلوه من خير أوشر. وقد ضبطنا ضبطا محكما وسجلنا كل عمل قاموا به، وثقناه في كتاب لا اختلاط فيه.

قدّمْ للمكذبين بدعوتك، الرافضين للإسلام، مثلا يعتبرون به، فيقيسون به وضعهم، وذلك بما سبق أن حصل لأصحاب القرية. وهم سكان أنطاكية عند معظم المفسرين. لما جاءهم المرسلون من عند الله يدعونهم إلى الإيمان والعمل الصالح. بعثنا لهم أولًا رسولين فكذبوهما. فأيدناهما برسول ثالث. أكدوا لهم: أنهم مرسلون إليهم من عند الله. فكان ردهم: نحن وأنتم سواء، كلنا بشر نتساوى في خصائصنا. لا فضل لكم علينا، ولذا فإنا لا نصدقكم في ما تدّعون من أن الله ميزكم علينا، وأوجب علينا اتباعكم. فأنتم تكذبون.

كان رد المرسلين على استكبارهم: نُشهد الله ربنا، الذي لا يتصور أن نتجرّأ عليه، ونقول عليه ما لم يقل. هو يعلم أنا مرسلون إليكم .ولو افترينا عليه لعاجلنا بالعقوبة الماحقة. تنحصر مهمتنا فيما ألزمنا به: إبلاغكم شرعه إبلاغا واضحا لا لبس فيه ولا غموض.

كان جوابهم : إنه من اليوم الذي حللتم بيننا أُصبِنَا بالمصائب المتوالية التي ما حلت بنا إلا لمقامكم المشؤوم فينا. اعلموا أنه إذا لم تنتهوا من الدعوة لرسالتكم، وتكفوا

عن إسماعنا ما لا نصدقكم فيه، فإننا ســترجمكم، وسنسـلط علـيكم مـن العـذاب أشـده، وأبلغه إيلاما.

كان رد المرسلين: تشاؤمكم وما حصـل لكـم نـابع مـن ذواتكـم، مـن كفـركم ومـن رفضكم للحق، وإفراد الله بالعبادة، وانحـراف سـلوككم عـن الصـراط المسـتقيم .إنكـم قوم تأصل فيكم الخروج عن الاعتـدال، وجـاوزتم مـا يرشـد إليـه المنطـق والعقـل، وأخذتم بتحكيم هواكم وشهواتكم .

بيان المعنى العام.

11- إنما تنذر من اتبع...وأجر كريم.

إذا كانت الآية السابقة سوت بين إنـذار المصـممين علـى الكفـر وعـدم إنـذارهم، وأن إنذارك لا يفيدهم، ولا يرجى منهم قبـول الإسـلام، فـإن هـذه الآيـة فتحـت للنبـي ﷺ أبواب الأمل في نجاحه في مهمته، والاهتداء بـه. إنـك يـا محمـد لا تسـتطيع أن تنـذر إنذارا يهتدي به المخاطب إلا إذا كان من الـذين تفتحـت قلـوبهم لاتبـاع الحـق، الـذين يقبلون على ما تبلغهم بقلوب واعيـة مصـدقة، فاسـتقر نـور القـرآن فـي مشـاعرهم. الذين يستحضرون دوما عظمة الخـالق، ويخشـون أن يـراهم فـي وضـع لا يرضـيه. السر والعلانية عندهم سواء. بشِّر من اتبـع القـرآن وراقـب الله علـى جميـع الأحـوال، بالمغفرة لما فرط منه قبل إيمانـه. ومـن التقصـير التـابع لضـعف الإنسـان .وبـالأجر الكريم : الثواب الذي يناله يكون مقترنا بحسن الثناء والتكريم .

12- إنا نحن نحيي الموتى ....في إمام مبين.

تتضمن الآية شقين: أولهما التذكير بالبعـث والتأكيـد عليـه؛ وأن المـوت وضـع ينتهـي بعودة الحياة للناس ليحاسبوا عما قـدموا. ومناسـبة ذلـك لمـا تقـدم: أن الآيـة السـابقة بشرت بالمغفرة والأجر الكريم. وذلك يكون يوم القيامة.

ثانيهما: أن الملائكة تحصي على كل إنسان عملـه، مـن الخيـر أو الشـر. ثـم تحصـي عليه الآثار التي ترتبت على عمله بعد انقضائه. ذلـك أن الأعمـال علـى نـوعين: منهـا ما يحدث وينتهي أثره في الحين. وبعض الأعمال يبقـى أثـره بعـد الانتهـاء منـه. فمـن كتب مثلا كتابا يرشد إلى الهدى، ويحبب الخيـر، ويصـفي الـنفس مـن درن الفـواحش، تكون تلكم الآثار مسترسلة مع الزمن مسـاعدة علـى نشـر الفضـيلة لمـن ينظـر فيـه نظر التأمل، فاعلة في الأفراد والمجتمع الصلاح، فـإن الله بفضـله يعطـي لكاتبـه مـن الأجر، ما تحقق من عمله ولو بعد قرون. وبالعكس فمن كتـب كتابـا مضـلال، فـإن كـل من قرأه وتأثر به ينال صاحب الكتاب نصـيبه مـن الإثـم علـى الضـلال الـذي زينـه وحببه للناس. وكذلك من حبس من ماله صدقة جارية علـى فعـل البـر، أو علَّـم علمـا

فتح به البصائر، أو أنشأ معهدا للتعليم، أو بنى أو أسهم في بنـاء مسـجد يـذكر فيـه اسـم الله.

لا ينحصر التوثيـق فـي الأعمـال التـي يسـتمر أثرهـا الصـالح، ولا فـي الأعمـال الشريرة، بل إن علم الله شامل لكل شيء يقع فـي الكـون، مثبـت عنـده فـي كتـاب واضح لا خلط فيه. هل هذا التـدوين فـي الكتـاب تجسـيم وتقريـب لعلـم الله، أو هـو اللوح المحفوظ المسجل به كل كبيرة وصغيرة ؟الاحتمالان متقاربان.

13←15 : واضرب لهم مثلا...إن أنتم إلا تكذبون.

التوضيح والتأثير بضرب المثل طريقة من طـرق البيـان . محصـلها أن يشـبه المـتكلم الحالة التي يريد من السامع أن يتأمل فيهـا فيجسـمها لـه بتشـبيهها بحالـة تقـرب منهـا ليقيس ما سيحصل للمشبه على المشبه به. حتـى يكـون ذلـك داعيـة للاتعـاظ، وأقـرب للفهم. وتوضيحا لذلك أقول: تجد شابا مولعا بجمـع الحيـات السـامة، ويحـاول تطويعهـا تطويعا يمكنه من التحكم فيها. فتقـول لـه مـذكرا: إن مـروض الأسـود غضـب عليـه يوما، أحد تلكم الوحوش فانقض عليه فهشم عظامه ثم افترسه.

المثل الذي جاء به القرآن يتعلق بأصحاب القرية الـذين فصـل الحـديث عـنهم. مـاهي القرية ؟ ومن هم المرسلون إليها؟ القـرآن لـم يعـرّف تعريفـا عينيـا لا هـذا لا ذاك. وذلك لعدم توقف الموعظـة علـى معرفـة ذلـك. وروي عـن ابـن عبـاس رضـي الله عنهما وعن الزهري أن القرية: أنطاكية. مسـتندين فـي ذلـك إلـى روايـات مسـتخرجة من الإنجيل .والمرسلون هم برنابـا وشـاول المـدعو [بـولس] ثـم عـزرا وبسـيلا أو شمعون . ويذكرون أن أهالي أنطاكيـة قـابلوا بـولس وبرنابـا بمقاومـة شرسـة .وأنـه عـززهم وأيـدهم شـمعون، وأكـدوا لسـكان أنطاكيـة أنهـم مرسـلون مـن عنـد الله، ومبعوثون من الحواريين أصحاب عيسى ﷺ . فقابـل أهـل انطاكيـة المرسـلين الـذين دعوهم لتوحيد الله وعبادته، ونبذ كل معبود سواه، وان يطبقـوا مـا جـاؤوهم بـه، قـابلوا دعوتهم بمثل ما قابل مشركو مكة محمدا ﷺ . قالوا لهـم: مـا أنـتم إلا بشـر مثلنـا، ولـم ينزل الله عليكم شـريعته ولا وحيـه، وادعـاؤكم أنكـم تحملـون رسـالة مـن الـرحمن دعوى كاذبة.

16←17 :قالوا ربنا يعلم...وما علينا إلا البلاغ المبين .

تبرأ المرسلون من أن يبلغ بهـم التجاسـر أن يكـذبوا علـى الله .و أقسـموا: أن الله يعلـم أنهم صادقون مرسلون حقا من عنده. وأردفوا: لـم نكلـف بقسـركم جبـرا علـى اتباعنـا .تنحصر مهمتنا في إبلاغكم الحق الـذي شـرفنا ربنـا بعرضـه علـيكم بينـا واضـحا. تنساق إليه الفطرة السليمة.

18ـقالوا إنا تطيرنا....عذاب أليم.

أثـّـر مظهر صدق المرسلين ما ضـــاعف عنـــاد أهـــل القريـــة. فتحولـــوا مـــن المواجهـــة بالحجة، إلى استناد عــدم قبــول دعــوتهم، أنهــم تشــاءموا بحلــولهم بيــنهم .فصــوروا للأتباع من الدهماء أن كل مصيبة حلت بواحــد مــنهم مرجعهــا إلــى وجــود المرســلين بين أظهرهم، وإقامة الرسل بقــريتهم. وهــو مــا راج علــى المستضــعفين .فــإن شــأن الحياة أن كل مجتمع لابد أن يصاب أحد أفراده بمــا لا يلائمــه. وربْطــُ ذلــك بحلــول المرسلين في القرية يقبله ضعفاء العقول. ثم هــدّدُوهم: أنهــم إن لــم يســرعوا بــالخروج من القرية فلا أمن لهم وأنهم سيعتدون عليهم برميهم بالحجــارة إلـــى المــوت. ولــم تبــق بينهم وبين الرســل مهادنــة. سيتصــرفون معهــم بــالعنف الــذي يعــذبهم فيرحلــون، أو ينقطعوا عن دعوتهم ويسكتون.

19ـقالوا طائركم ... أنتم قوم مسرفون.

رد عليهم الرسل ردا يوقظ العقل، ويطرد الخيال والأوهــام. انتبهــوا فــإن مــا حــل بكــم من المصائب مرده فساد في نفوســكم، هــو اتبــاعكم لأهــوائكم، وعــدم تحليــل الأمــور تحليلا يعتمد الترابط بين الأسباب والمسببات .تَصَلّبْتُمْ فــي الكفــر، ولــم تفتحــوا عقــولكم للتعمق في المواعظ التي عرضناها عليكم . إنه مــا عرضــنا علــيكم إلا مــا يــنفعكم فــي الحاضر والمآل. ينقذكم من التيــه والضــلال، ويــربطكم بــالخلاق العظــيم. إنكــم قــوم تعودتم تجاوز الاعتدال إلى التطــرف، وتنــويم العقــل. أتتشــاءمون بالتــذكير إذا ذُكّــرتم، فتقلبون التذكير الهادف إلى جلب الخير لكم، إلــى موجــب تشــاؤم وحــذر منــه .وهــذه صورة أقرب ما يكون من جدل أهل مكة لرسول الله ﷺ كما سجلته كتب السيرة.

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

أقصى المدينة : طرفها.

يسعى : مسرعا في سيره.

الاتباع: الامتثال.

الإنقاذ : التخليص من مأزق.

بيان المعنى الإجمالي :

سمع رجل صالح يسكن أطراف المدينة بما توعـد بـه أهـل مدينتـه المرسـلين، فأسـرع ليقوم بدوره في الدفاع عن الحق. وخاطب قومـه قـائلا لهـم: يـا بنـي جلـدتي اتبعـوا المرسلين ولا تعانـدوهم. انتبهـوا فـإنهم يبـذلون قصـارى جهـدهم ومحضـوا حيـاتهم ونشاطهم لفائدتكم دون أن يطلبوا منكم أجرا مقابل مـا يبذلونـه لخيـركم . مضـمون مـا جاؤوكم به هو الهدى الموصل إلى السـلامة .وخاطـب نفسـه أمـامهم فقـال: مـا الـذي يصرفني عن عبادة الذي خلقني، وأنكم جميعا ستعودون إليه ليحاسبكم عما قدمتم .

كيف أتخذ آلهة من دونه، والحـال أنهـا لا تسـتطيع أن تشـفع فـي، إذا أرادنـي ربـي بضر، أو تنقذني من المحنة بعد أن تصيبني. آلهـتكم عجـزة. إنـي لـو عبـدتها أكـون قد انحرفت عن طريق الهداية الطريق المستقيم ودخلت في متاهات لا مخرج منها.

إني آمنت بربكم فاسمعوا مقالتي، واتبعوني ترشدوا.

غضبوا من كلامه وقتلوه. فأسرعت ملائكة الـرحمن بروحـه إلـى الجنـة .وبمجـرد مـا دخلها وشاهد ما أنعم الله به عليه من مغفـرة لذنوبـه، ومـن تكـريم يتجـاوز الوصـف تمنى أن يعلم قومه بما هـو فيـه مـن نعـيم، حتـى يقلعـوا عـن كفـرهم ويسـرعوا بالإيمان، وبالعمل بما يرضي ربهم الرحمن .

بيان المعنى العام:

20←21: وجاء رجل ...وهم مهتدون.

تدخل حركية مفاجئة في المثل .وبعد أن كان الحـوار بـين المرسـلين وبـين الرافضـين يدخل عنصر جديد، هو من أهل القرية وليس رسـولا، وهـو مـؤمن اطمـأن لمـا جـاء به الرسل، وقد بلغته التهديـدات التـي قابـل بهـا أهـل القريـة المرسـلين، فخشـي أن ينتقلوا من التهديد إلى الفعل. أسرع لينصر المرسلين .

ها هو بين رؤساء المدينة يعـرفهم ويعرفونـه .فخـاطبهم ناصـحا بقولـه: **يـا قـومي !** وفي ندائهم بيا قومي ما يقربهم إليه، ويعرض أولا أنـه حـريص علـى مـا يجلـب لهـم الخير للرابطة الجامعة بينهم .ويدعوهم إلـى الامتثـال باعتقـاد وقبـول مـا جـاءهم مـن هداية .

22←24: ومالي لا أعبد ...لفي ضلال مبين.

ثم أضاف إلى الناحية العاطفية [يا قومي] مرجحا آخــر عقليــا نظريــا. اتبعــوا هــؤلاء الرسل لأمرين:

أولا: أنهم يجتهــدون أفضــل الاجتهــاد لــنفعكم، دون أن يطلبــوا مــنكم أي أجــر علــى الخير الذي قدموه لكم. فانتفى أن يكون لهــم أي فائــدة ماديــة ممــا تحملــوه مــن عمــل دائب متواصل، وصبر على البيان .

ثانيا: أنكم إذا تأملتم في مضمون ما جــاؤوكم بــه تجــدون أنهــم يــدعونكم إلــى طريــق الرشد الذي ينفعكم في دنياكم وأخراكم.

وأضاف إلى نصحه هذا: بمخاطبته لنفسه، وهو واحد مــنهم، بقولــه: مــا الــذي يبعــدني عن عابدة الذي أنشاني ومكنني بما غرسه في نفسي مــن مبــادئ طبعنــي عليهــا، وبهــا تستقيم حياتي. ولما استوى معهم في تلكم الفطرة فهــو يقصــد إلــى أن الإيمــان تســتجيب له النفس بطبيعة خلقها فعليهم أن يؤمنوا. وأدمج في لطــف أنهــم ســيرجعون إلــى الــذي خلقهم ليحاسبهم. ثم ترقى إلى إبطال عقيدة الأصــنام قــائلا كأنــه يخاطــب نفســه: كيــف أعمد إلى سواه فأتخذه إلها. لننظــر هــل تقــدر هــذه الآلهــة، إن أراد مــدبر الكــون أن يلحق بي ضرا في نفسي أو فــي رزقــي، هــل تســتطيع أن تشــفع لديــه ليبعــد عنــي المكروه قبل حصوله، أو أن يخلصــني مــن كــرب وقعــت فيــه. إنهــا عــاجزة فلمــاذا أعبدها. إني إن عبدتها من دونه مع عجزها أكن مغرقــا فــي الضــلال .انحرفــت عــن الفطرة، وعن العقل ودخلت في متاهات لا مخرج منها.

ثم صرح بنتيجة نسجه البديع من نصحه لقومه، وبيان مــا تقتضــيه الفطــرة، ومــا يحكــم به العقل المنصف، فأعلن لهم: إني آمنــت بــالله ربكــم الــذي تــولاكم بعنايتــه، وتفضــل عليكم برزقه ورعايته، فافتحوا آذانكم للحقيقة التي أصدع بها.

26←27: قيل ادخل الجنة... من المكرمين.

هذا هو المشهد الأخير من المثــل المضــروب. يعلــن أن نهايــة هــذا الرجــل الصــالح المؤيد للحق كانت دخول الجنة. وطوى القــرآن الحــديث صــراحة عــن موقــف قومــه الكفار المتصلبين في كفرهم منه. فيفهم من التعجيل بدخولــه الجنــة، أنهــم أســرعوا إلــى إسكات صوته الذي ازعجهم ونقض مــا ألفــوه مــن الضــلال، فقتلــوه .فإدخالــه الجنــة عقب مناقشته ونصحه لهم يدل على استشــهاده. إذ مرتبــة الشــهداء عنــد ربهــم أعلــى المراتب وأزكاها في جنات النعيم.

كانت أمانيه وقد فاز بدخوله الجنة أن يعلم قومــه بتطهيــر نفســه مــن كــل تقصــير أو قصور، وأنه أصبح نقــي الصــفحات لــم تســجل فيهــا إلا الحســنات، وأن يعلمــوا مــا

أفاض عليه ربه من نعيم، وما في الجنـة مـن تكـريم يفـوق الوصـف، حتـى يؤمنـوا ويوحدوا. قال هذا وقد تطهرت نفسه من كل غل ونقمـة حتـى علـى الـذين قتلـوه. قـال تعالى في أهل الجنة: (ونزعنا ما في صدورهم من غل)[1]

۞ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾
إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا
يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ
ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَءَايَةٌ
لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا
فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ
وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا
مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الصيحة: الصياح مرة واحدة.

الخمود : أصله انطفاء النار وذهاب توقدها تماما.

الحسرة : شدة الندم المشوب بالتلهف على ما فات.

موت الأرض : جفافها فتكون مجرودة من النبات.

إحياء الأرض : إخراج النبات من بطنها أخضر حيا.

بيان المعنى الإجمالي :

ظن أهل القرية أنه لو تحقق إنـذار الرسـل إلـيهم، فـإنهم مسـتعدون لمقاومـة جنـد الله النازلين عليهم من السماء. هـم مخطئـون، فاستأصـلناهم دون أن ننـزل علـيهم جنـودا من السماء يحاربونهم، ولا يتصور أننا نفعـل ذلـك. ولكـن لمـا جـاء أجـل اهلاكهـم، قضينا عليهم بصيحة واحدة، فإذا هم اموات لا حـراك لهـم. بعـد أن أهلكـوا، لـم يبـق إلا التحسر والأسف على خاتمتهم التعيسـة، التـي يشـتركون فيهـا مـع المكـذبين مـن العباد، الذين كلما جاءهم رسول، قابلوه بالاستهزاء . فتكون عاقبتهم الهلاك.

[1] سورة الأعراف آية 43

ما لهم لم يعلموا العلم الذي يرشدهم ويفتح بصائرهم، حتى لا يقعوا فيما وقعت فيه الأمم السابقة التي كذبت رسلها عبر القرون، فأهلكهم الله إهلاكا لا عودة بعده إلى الحياة الدنيا. ومع استئصالهم في الدنيا، فإنهم سيبعثون للحساب على ما قدموا، لا يفلت منهم أحد من هذا المصير.

يقوم تصرفنا في الأرض المشاهد لديهم على أن البعث حق. تكون الأرض جرداء لا نبات فيها ولا زرع، وبمجرد ما تتعلق إرادتنا بإحيائها نُفَعِلُ الأسباب فتحيى وتكسوها الخضرة وينبت الزرع الذي من حبه يقتاتون. وأثر حسن التقدير في الأرض، فأنشأ سبحانه جنات مختلفة الأنواع من النخل الباسقة إلى الكروم التي تفرش على السطح ما لم تقمها الأعمدة. وحفظ رواءها بتدفق الماء من العيون، كل ذلك فضل من الله على البشر ليقتاتوا من تلكم الثمار التي هي من فضل الله لا من إنتاج الإنسان. ما بالهم غافلون أفلا يشكرون ربهم على ما رزقهم. تنزه ربنا عن كل نقص فهو الذي خلق النوعين الذكور والإناث، خلقها مما دخل في تكوينها من أجزاء الأرض، ومن ذوات الجنسين، ومن مكونات لا يعلمها الإنسان القاصر كالروح التي تكون بها الحياة .

بيان المعنى العام :

28←29:وما أنزلنا على قومه...فإذا هم خامدون.

كانت نهاية العبد الصالح الناصح، ما ذكرته الآيات السابقة. وكشفت هاتان الآيتان عن مآل أصحاب القرية المستكبرين. تشير الآيتان إلى أنهم كانوا معتدّين بقوتهم متحدّين للمرسلين، كان لسان حالهم، أو مقالهم فعلا: نحن أقوياء ونعرف كيف ندافع عن أنفسنا إذا قدمت جنود ربك لاستئصالنا .صرح القرآن بأنهم أحقر من أن يرسل الله عليهم جندا من السماء ليقضي عليهم،مؤكدا أنه لا يتصور أن ينزل عليهم جنودا من السماء يحاربونهم ويقاتلونهم فيتغلبون عليهم . ما كانت إبادتهم إلا بصيحة واحدة قطعت نياط قلوبهم، فتحولوا في لحظة بتلك الصيحة الواحدة إلى ما يشبه الرماد بعد أن ينطفئ لهب النار المتوقدة . تراهم قبل أن يمحقوا يرفعون أصواتهم متهيجين متحدين، فإذا هم بعد الصيحة ركام من الموتى تتناثر جثثهم في كل مكان من القرية .

30ـ يا حسرة على العباد...كانوا به يستهزئون.

هذا نداء يجري على ألسنة البلغاء، يقصد به تنبيه المخاطب بالنداء حتى يتيقظ ذهنه لما يرد عليه .والمتكلم يريد أن يصور للسامع الوضع العام، فلا يجد شيئا حاضرا يمكن أن ينادى إلا الحسرة والأسف والتلهف على النفع الفائت. الحسرة

على العباد الذين فوتوا على أنفسهم النفع حتى فـات أوانـه .جـاءتهم الرسـل وهـم فـي سعة من أمرهم، دعوهم إلى توحيد الله، والاسـتقامة فـي السـلوك، فعـوض أن يتـدبروا فيما دعوا إليه، قابلوا الإنذار بالاستهزاء بالرسل وبما جاءوا به .

31ـ ألم يروا كم أهلكنا...أنهم إليهم لا يرجعون.

تثير الآية انتباه المخاطبين ليكـون إحضـار مشـهد الـذين سـبقوهم فكـذبوا وعوقبـوا مثيـرا لهـم ليحتـاطوا لأنفسـهم، حتـى لا تَنسـحِبَ علـيهم سـنة الله فـي استئصـال المكذبين.

تفيد الآية التعجب من عدم علمهم بما حاق بالأمم السـابقة علـى امتـداد التـاريخ، الـذين أهلكهم الله إهلاكا لا مطمع بعده للعودة إلى الحياة الدنيا.

32ـوإن كل لما جميع لدينا محضرون.

ومن المؤكد أن كل المهلكين لا يقتصر الانتقام منهم على مـا حصـل لهـم فـي الـدنيا، بل إنهم جميعا، لا يفلت مـنهم أحـد، سيحضـرون لـدينا لحسـابهم .ولعـذاب الآخـرة أشد.

33ـوآية لهم الأرض ...فمنه يأكلون.

بعد أن ضرب لكفار قريش مثلا مـن أصـحاب القريـة، وكشـف عـاقبتهم لمـا كـذبوا الرسل، لفت أنظارهم إلى دليل من أدلة تصـرف الله فـي الكـون. هـم يرقبـون الأرض التي حولهم: أنها تكون جرداء لا نبات فيها ولا حيـاة، موحشـة تسـفي الريـاح أديمهـا، فبمجرد ما تتعلق الإرادة الإلهية بإحيائهـا يرتـب الأسـباب التـي بهـا تحيـى فيكسـو النبات أديمها، ويخرج من باطنهـا الـزروع التـي مـن حبهـا قـوام غـذاء الإنسـان، فيعوضون بها ما ذهب من الوحدات الحرارية . وهكذا يكـون المشـهد مـن بدايتـه إلـى نهاية يتعاقب فيه الموت والحياة، والوجود والعدم ثم الوجـود .وفـي ذلـك أوضـح دليـل على إمكانية البعث يوم القيامة.

34←35:وجعلنا فيها جنات...أفلا يشكرون.

إذا كانت تحلية الأرض بالغطاء النباتي تحصل سـريعا، وفـي ذلـك عبـرة وآيـة، فـإن ما بثه الباري سبحانه في الأرض مـن الجنـات التـي تتنـوع أشـجارها مـن النخيـل الباسقة إلى الكروم التي تمتد أغصـانها علـى الأرض أو تعـرش، وإخـراج المـاء مـن العيون الجارية تروي الجنات وتبقي على خضرتها ونضارتها.

كل ذلك مرتب لنفع الإنسان، يسر له أن يأكـل مـن الثمـار التـي تنتجهـا، هـذه الثمـار التي يجنيها الإنسان ويتنعم بلذيذ طعمها، وبما تحويـه مـن غـذاء، هـي منحـة مـن الله،

فما كان ليد الإنسان وعمله دور في وجودها. هي من عناية الله فليقدر فضل الله عليه، أفلا يكون من واجبهم أن يشكروا الله ويثنوا عليه على ما رزقهم.
كما يمكن فهم الآية على أن " ما" موصولة " أي والذي عملته أيديهم، تحريضا لهم على العمل في الأرض حتى تؤتي الأرض أفضل النتائج .

36ـسبحان الذي خلق ...و مما لا يعلمون.

تنزه الله الخالق المبدع عن كل نقص، فقد رتب السنن التي أجرى عليها الإنبات وتفجير المياه من باطن الأرض عيونا جارية، وأعطى لكل نبتة وزهرة، وغصن، وشجرة، وعذق نخل، وكل تحول في الثمار من تكونها الأولي زهرة ملقحة إلى بلوغها حد النضج شكلا ولونا ومذاقا .كل ذلك بخلقه وتقديره.

وتعالى متقدسا عن كل نقص، فقد خلق كل زوج من البشر والحيوان، ذكوره وإناثه. وميز كلا من الجنسين بخصائص بالتقائهما تتكون الخلية الأولى. هذه الخلية التي دخل في تركيبها عناصر من الأرض، تمثلتها أجهزة الجسم، وحولتها تحولات قد يدرك بعض الناس تبعا للتقدم العلمي شيئا من تلكم التحولات، وما تأثرت به حتى وصلت إلى تغذية مركبات الخلية، ثم دخلت في نموها إلى أن تكاملت إنسانا أو حيوانا مكتمل الخلق .ومهما بلغ الإنسان من العلم، ومهما سمت المعرفة الإنسانية، فإن جوانب عديدة ما تزال غامضة يلفها الجهل .و من أشدها بعدا عن إدراك الإنسان الروح التي تسري في الكائن فإذا هو حي فاعل، وتسلب منه فإذا هو كتلة من اللحم والعظم إن كان من الحيوانات التي لها هيكل عظمي ولحم نابت عليه.

وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا
ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ
﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ
يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن
مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً
مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

السلخ : أصله إزالة جلد الحيوان .والمراد به إزالة ضوء النهار.

تجري تسير سيرا سريعا.

المستقر : مكان القرار، أو زمنه.

الفلك : الدائرة المفروضة في الخلاء الجوي، المقدر أن يسير فيها الكوكب.

الذريات : نسل الإنسان .

صريخ: صياح المستغيث طلبا للنجدة .

الإنقاذ : التخليص من ورطة .

بيان المعنى الإجمالي :

حرك القرآن انتباه البشر وعقولهم لينظروا في كتاب الكون، فيقتنعوا بأن هذا العالم مسير تسييرا متقنا ودقيقا من خالقه. يكونون نشطين يتحركون فوق سطح الأرض وقد كساها الضوء إهابا أظهر محتوياتها .فتتصرف يد القدرة الإلهية فتنزع هذا الإهاب المضيء فتعم الظلمة. وليتأملوا في الشمس هذا الكوكب العملاق، يجري إلى أن يبلغ نهاية المدى المقدر له فيتوقف، ولا يبقى من النظام المشاهد الآن شيئا. ذلك الجري المضبوط المنطلق مع الشمس من يوم خلقت، ما تم ذلك إلا بتقدير محكم من العزيز الذي يستجيب كل شيء لإرادته ولا يعوق معوق تصرفه، أجرى سيرها حسب علمه الدقيق.

وكذلك القمر قدر الله له مساره وضبطه ضبطا محكما، كل منزلة من منازله تهدي الناس لضبط حسابهم، ومعرفة عدد الشهور والأيام والسنوات. يبدو في السماء كوكبا مضيئا جميلا، ثم يأخذه المحاق شيئا حتى يصير خيطا لا نضارة فيه كالعرجون بعد أن تم جني رطبه وترك مدة كاد يلحقه فيها البلى.

النظام الكوني في حركة الشمس والقمر نظام ثابت، كل كوكب يدور في فلكه الخاص به . فلا يتأتى للشمس أن تدرك القمر فتأخذ مكانه في فلكه، وكذلك العكس. ولا يتأتى لليل أن يتسلط بظلمته على النهار فيحجبه. كل كوكب سابح كما تسبح السفينة في المحيط حسبما ضبطه الخلاق العليم .

من الأدلة على تفرد الله بالتقدير، هداية الإنسان لصنع الفلك، الذي ما كان أن ينجح فيه، لولا أن كل شيء في الكون يسير على نظام دقيق وقوانين محكمة. الفلك الذي يحملكم ويحمل ذرياتكم، ويحمل أثقالكم. يشحن بالبشر والسلع فيخترق البحار ويصل بين الأبعاد . وهداكم كذلك إلى تسخير ما تركبون وتحملون أثقالكم عليه، من الحيوانات كالإبل والخيل والبغال والحمير، ومن وسائل النقل الأخرى التي اهتدى الإنسان لصنعها بتصريف قوانين الخلق، وتجميعها على مقادير كامنة في سر الصنع الإلهي .على الإنسان أن لا يجهل فيظن نفسه متحكما في الكون، فإنه

وهو راكب في الفلك يمخر عباب البحر مثلا، فإن العناية الإلهية تصحبه فيصل إلى غايته، أو يقدر الله إهلاكه فيزمجر البحر وتشتد العاصفة وتعلو الأمواج ثم تنقض كالصواعق، فيبتلع البحر السفينة ومن فيها. ولا ينفعهم صراخ ولا يجدون منقذا . فالرحمة الإلهية وحدها هي التي تنجي السفن وأصحابها.

بيان المعنى العام :

37- .وآية لهم الليل ...مظلمون.

عني القرآن بلفت الأنظار إلى مشاهد الكون في تقلباته، حتى لا تغطي الرتابة على ما في ذلك من أسرار. في هذه الآية تجسيم لما يشهده كل إنسان، ويمر على بصره كل يوم. يكون الإنسان يقظا وأمامه الأرض وقد لبست ثوبا مشرقا أظهر كل الموجودات على ظهرها، الجبال وحبات الرمل الدقيق. ثم يسلخ ذلك الثوب المنير، فتحل محله الظلمة، ويلف الكون سواد يحجب كل ما كان منكشفا.

في هذا التتابع المنظم. وفي القوانين التي جرى عليها تتابع الليل النهار وما يترتب على ذلك، ما يقوم دليلا واضحا يقنع العقول بأن وراء هذه التغيرات خالق مقتدر، ويقرب هذا المشهد خروج الناس يوم المعاد . أما البحث في أن الأصل في الأرض النور أو الظلمة، فهو أمر خارج عن مضمون الآية. لا تنفيه الآية ولا تؤكده.

38-والشمس تجري ...العزيز العليم.

ظاهرة الليل والنهار لفت القرآن إليها الأنظار، على أنها آية من آيات التصرف الإلهي في الكون. ثم عمق النظر فلفت الأنظار لتتأمل كوكب الشمس. الشمس التي تكبر كتلتها كتلة الأرض بما قدره العلماء مليونا ومائتي ألف ضعف. الشمس بهذه الضخامة تجري مع المجموعة التي تدور حولها في الفضاء الكوني بسرعة قدرها الفلكيون باثني عشر ميلا في الثانية.

سعة الفضاء الكوني وضخامة كتل المجموعة، وهي تجري دون أن تختل حركتها أو يصطدم كوكب بآخر، والقوانين التي تسيرها، تحرك العقل البشري ليقتنع بأن المحرك لها، هو العزيز الذي لا يرد له حكم، ولا يعوق مراده معوق، ولا يخفى عليه شيء يفجأ، فيفرض التعديل أو العجز . وهو الذي وسع علمه كل كبيرة وصغيرة. بعزته المقرونة بعلمه، تابعت الشمس مسيرتها بسرعة من يوم خلقت، وما تزال تسير على ذلك النحو، حتى تبلغ اللحظة التي قرر لها أن تسكن وتستقر. ولا يكون الكون بعد سكونها هو الكون مع سيرها.

39ـ والقمر قدرناه... كالعرجون القديم.

والكوكب الثاني الذي يتـابع البشـر أحوالـه فـي السـماء، هـو كوكـب القمـر يـذكر القرآن: أنه مقـدر بنظـام محكـم، ومقـدر بـذلك حسـاب الأشـهر والأيـام والليـالي والفصول، والمد والجزر. قدر منازل سيره التي يسـير فيهـا، حتـى صـار كـالعرجون الذي نزع منه تمره ومضى عليه زمن بلـي فيـه .وهكـذا يكـون القمـر فـي أول أيـام الشهر وفي آخرها خيطا ضـئيلا. ويمكـن أن يـدل التعبيـر " **حتـى صـار كـالعرجون القـديم**" إلى ما حققه العلمـاء مـن أن كوكـب القمـر كوكـب غيـر نـابض بالحركـة الداخلية المتفاعلة في باطنه.

40ـلا الشمس ينبغي لها...وكل في فلك يسبحون.

لا يملك الإنسان غير الغافل بعد ما أثاره فـي مداركـه عـرض تعاقـب الليـل والنهـار وجريان الشمس وتحـرك القمـر إلا أن يبقـى لحظـات يسـتمتع فيهـا بحسـن التقـدير وحكمة الخلاق العظيم. ويعمق القـرآن إحساسـه هـذا فيخبـره أن مـا عـرض عليـه ثابت متصل سائر مع الزمن؛ لا يتأتى للشـمس أن تـدرك القمـر فتصـطدم بـه، أو أن تحوله عن مساره وتأخذ مكانه، وكذلك العكس، فلا القمـر يأخـذ مكـان الشـمس ويسـير في مدارها. كما لا يتأتى لليل أن يسبق النهار فيسـتمر الظـلام فـي الكـون. مـا يشـاهد من تعاقب الليل والنهار أمر مقدر لا يتخلف الكـل يسـير فـي الفضـاء الكـوني الرحـب سيرا مطردا لا يحيد عنه. إن المسافة بـين الأجـرام السـماوية مسـافات هائلـة .فهـي بين المجموعة الشمسية، وأقرب نجم من نجوم السـماء مقـدرة بـأربع سـنوات ضـوئية، وسرعة الضوء تقدر بثلاثمائة ألف كلـم فـي الثانيـة .فـإذا ضـربت ذلـك 365 عـدد الأيام في 24 ساعة في 60 دقيقة في 60 ثانية تجـد رقمـا هـائلا،. وهـذا أقـرب نجـم، وراءه مجرات أضخم وأبعد .وكم يبـدو الإنسـان ضـئيلا. فـي هـذا الكـون المترامـي الأطراف المنظم تنظيما دقيقا ينادي بأنه من صـنع مـن أجـرى صـنعه علـى مقتضـى الحكمة، وتتكشف الحكمة شيئا فشيئا تبعا للتقدم العلمـي .والعقـل البشـري أضـعف مـن أن يحيط علمه بكل دقائق الخلق، بل يتابع الفرضـيات ليتأيـد بعضـها، ويسـقط الـبعض الآخر ليخلفه افتراض آخر . فيزداد الذين آمنوا إيمانا.

41←44:وآية لهم أنا حملنا ...ومتاعا إلى حين.

تتصل الآيات الأربع ببعضها، لتكشف عـن صـورة مـن صـور التقـدير الإلهـي فـي الكون، هذا التقدير الذي إذا تأمل فيه الإنسان كان له دلـيلا علـى مـا يُبلغـه اليقـين فـي العقيدة الموحدة لله المتصف بالكمال . يمكننا فهم الآيات على طريقتين:

الطريقة الأولى التي أخذ بها حذاق المفسرين: ذكّرت الآيات بنعمة الله على البشرية إذ أوحى الله إلى نوح عليه السلام أن يحمل في سفينته التي ألهم صنعها، من آمن به من أهله ومن الناس. ومن هؤلاء المحمولين تناسل البشر. فهم كما قال الله تعالى: **(ذرية من حملنا مع نوح)**[1] فالمحمولون من المؤمنين امتد بهم عمران الكون، وما البشر الموجودون في زمن البعثة، وخاصة القرشيين إلا ممن تناسل منهم. ومن الدقة التعبيرية في القرآن قرنُ فلك نوح بوصف مشحون، ليعبر عما حملته سفينته من أنواع المخلوقات: زوجين اثنين. فتصوروا أنواع الكائنات التي عمر الله بها الكون وقد أخذت مكانها في الفلك، والتي كانت ستنقرض عندما يغمر الماء الكرة الأرضية. وعطف القرآن نعمة خلق الإبل التي بفضل خصائصها الخلقية، كانت صالحة للأسفار واختراق الصحاري. فكما ينتقلون بواسطة السفن، ينتقلون بواسطة الإبل فتحملهم وتحمل أثقالهم. ثم عاد القرآن لإظهار المنة .إن السفن مهما عظمت، إذا كانت في وسط لجج البحر، تبدو ضئيلة جدا، تضعف عن مقاومة العواصف البحرية الشديدة. إن سلامة الراكبين لا تتأتى لهم إلا برحمة من الله، الرحمة وحدها هي التي تنقذ ركاب السفينة، من تحطمها وغرقهم في البحر. الغرق الذي إذا كان في عظم المحيط، لا يسمع للمستغيثين صوت استغاثة، ولا يجدون من يخلصهم مما آل إليه أمرهم .فالألطاف الإلهية وحدها هي التي تحقق لهم تواصل الحياة إلى الأجل المقدر عنده.

الطريقة الثانية التي بدت لي في فهم الآية: نبه القرآن على أن في اهتداء الإنسان لقوانين الماء ودفعه، والهيئة التي يكون عليها تركيب الفلك، وفعل الرياح في أشرعتها، ثم فعل قوة المحركات التي توصل إليها المهندسون لتسيير السفن على سطح البحار، التي بلغت من الضخامة أنها تنقل مئات الأطنان مما لا يتأتى لوسيلة نقل أخرى، في ذلك دليل على أن كل شيء في الكون راعى الخلاق الحكيم في صنعه قوانين مضبوطة دقيقة، يستطيع الإنسان بتطويعها أن يعمر الكون ويحقق التواصل بين أجزائه .فالسفن تحمل البشر والسلع؛ ونص القرآن على حمل الذرية إشارة إلى أن هذا الاهتداء مستمر نفعه يشمل الحاضرين ويشمل ذرياتهم .

وكما هدى الإنسان لصنع السفن وتطويرها فكذلك هداه إلى تطويع الحيوانات الناقلة: الخيل والإبل والحمير والبغال، ثم الآلة بعد ذلك، من كل ما يَرْكَبُه الإنسان فينقله في آفاق الأرض ويحمل أثقاله.

---

[1] سورة الإسراء آية 3

ونبه على تمام المنة في الاستعانة بالسفن، فـذكر أنهـم لا يخرجـون عـن تحكـم القـدرة الإلهية فيهم، فلا يطغى الإنسان أو يظن أنه أصـبح مالـك الكـون، فـإن الإرادة الإلهيـة إذا تعلقت بإهلاك السفن ومـن فيهـا، يـتم ذلـك فـي لحظـات. يهـيج البحـر، وتهجـم العاصفة، وتعلو الأمواج، فتنقلب الباخرة الضـخمة بأبراجهـا ومحركاتهـا إلـى مسـتوى بيضة دجاج فارغة، يبتلعها البحر فلا يسـمع صـراخ ركابهـا ولا يجـدون مخلصـا، إذا أخطأتهم رحمة الله .

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُواْ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

ينظرون: من النظرة أي الترقب . أي لا يؤخرون لحظة.

الصيحة : الصوت الشديد

تأخذهم : تستأصلهم.

يخصمون : يختصمون .يتحاورون ويتدافعون.

توصية : توصية أهلهم على ما يحذرون عليه.

بيان المعنى الإجمالي :

تفيد الآيات تصلب المشـركين فـي الكفـر، فـإذ نصـحهم رسـول الله ﷺ وقـال لهـم: حصنوا أنفسكم بتقوى الله حتى لا يسلط عليكم ما سلط علـى مـن سـبقكم مـن المكـذبين، وما سيكون عليه أمر المكذبين فـي الآخـرة؛ إنكـم ترجـون باتبـاعي أن يـرحمكم الله. قابلوا نصحه بالإعراض.

أفسـد الكفـر أخـلاق المشـركين؛ فهـم إذا دعـاهم المسـلمون ليصـلوا ذوي قـرابتهم والفقراء من المسلمين بشيء من المال يخفف عـنهم الخصاصـة، وذكـروا بـأن الله هـو الذي تفضل عليهم فوسع عليهم في الرزق ؛كـان جـوابهم أنطلبـون منـا أن نطعـم مـن لو أراد الله أن يطعمه على زعمكم لأطعمه، فاطلبوا منـه أن يطعـم فقـراءكم لقـد تمكـن

منكم الضياع والضلال. يسأل المشركون مستهزئين مستبعدين تحقق ما أوعدهم. متى يأتي ما توعدنا به يا محمد؟ يجيبهم القرآن: إن حياتكم قصيرة جدا، وما هي إلا صيحة واحدة تسحقكم وأنتم غافلون تختصمون تبعا لحرص كل فرد منكم على مغالبة غيره ليفوز بالحظ الأوفر. تنتهي الحياة فلا يستطيع أي فرد منكم أن يوصي برعاية ماله ولا أطفاله. ولا هو عائد إلى أهله إذ يكونون جميعا قد انتهوا من الحياة.

بيان المعنى العام :

45←46: وإذا قيل لهم اتقوا ...عنها معرضين.

تفيد الآيتان تصلب المشركين في الكفر، تصلبا حرمهم من الانتفاع بما في كتاب الكون من آيات، كما حرمهم الانتفاع بما يبلغهم إياه رسول الله ﷺ .فإذا قال لهم ناصحا: كَوِّنوا وقاية لأنفسكم من أن يحل بكم ما حل بالأمم السابقة من السحق والدمار، وكَوِّنُوا وقاية لأنفسكم من عذاب الآخرة وبذلك ترجون أن يرحمكم الله بتكفير ذنوبكم وهدايتكم الصراط المستقيم، يقول لهم هذا ناصحا لا يبغي لنفسه من وراء ذلك مكسبا. كلما وعظهم وتلطف معهم وتلى عليهم آيات القرآن، قابلوا ذلك بالإعراض وعدم التأمل ..

47.وإذا قيل أنفقوا...إلا في ضلال مبين.

صورة أخرى من تصلبهم الذي أفضى بهم إلى التخلي عما كانوا يفتخرون به. من المعلوم أن المجتمع العربي طبع على بعض الأخلاق الفاضلة في الجاهلية، وإن كانوا لم يسموا بها إلى رتبة حب الفضيلة، بل كانوا يقومون بها حبا في الفخر. فالعرب اندى الناس يدا، وأكثرهم كرما .وكان أثرياؤهم لا يبخلون على معارفهم وأقربائهم من أن ينالوا من فضل أموالهم، فلما سبق المستضعفون إلى الإسلام قطعوا عنهم ما كانوا يعطونهم .وإذ ذكروا بما تحتمه القرابة، ونبل السخاء، وفقر المحاويج، وأن ما يتمتعون به من سعة في المال هو من رزق الله، أجابوا في صلف منكرين أن يعطوا الذين لو شاء الله أعطاهم . فهم بهذا الجواب يستهزئون بما قررته العقيدة الإسلامية، من أن الله وحده هو المتصرف في الكون. يقولون لما كان التصرف لله، فليفض من أرزاقه على المستضعفين الفقراء. واختار القرآن من أنواع شحهم الشح بالطعام، ليدل بذلك على أن الكفر استأصل من قلوبهم رحمة الجياع. وأضافوا إلى بخلهم وإمساكهم أن خاطبوا المسلمين الذين دعوهم إلى السماحة والإنفاق بأنه قد تمكن فيهم الضلال الواضح.، وفقدوا الصواب .

48.ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين.

تسجل الآية تصلب المشركين في الكفر، فعوض أن يتأملوا فيما يدعوهم إليه الإسلام، أنكروا صدق الرسول فيما جاءهم به، وما تهددهم به من النقمة .و سألوا سؤال المكذب الذي لا يهتم: متى يتحقق ما وعدتنا به ؟ والوعد يطلق على الخير وعلى الشر، والسياق يوضحه، أما الوعيد فلا يطلق إلا على الشر. وألحقوا بالسؤال ما يفيد شكهم في صدق المؤمنين .

49←50: ما ينظرون إلا صيحة ...ولا إلى أهلهم يرجعون.

تولى الله إجابتهم عن سؤالهم. إن ما وعدهم الرسول حق لا شك فيه،وهم لا يترقبون إلا شيئا واحدا :تستولي عليهم فتهلكهم صيحة واحدة تأتيهم فجأة عن غير توقع. تبلغ من قوتها أنها تذهلهم فلا يستطيعون أن يوصوا أهليهم بما يحذرون عليه من الأموال والأولاد. وتهلكهم فلا يعودون على ما كانوا فيه. ولا يرجعون إلى أهليهم لانقطاع الحياة الدنيا.

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُواْ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الصور : القرن الذي ينفخ فيه لدعوة الجند .

الأجداث : جمع جدث : القبر .

ينسلون :يسرعون في مشيهم.

في شغل : يشغلهم ما هم فيه من نعيم عن تتبع أحوال وأخبار المعذبين .

فاكهون : مسرورن .

ياويلنا : التحسر على ما أصابهم.

المرقد : قبورهم التي دفنوا فيها بعد الموت

ظلال : جمع ظل .

الأرائك : جمع أريكة وهو السرير الذي يكتنف جانبيه ستائر وتغطي أعلاه، وهي الحجلة

الاتكاء : جلوس الراحة، هيئة بين الجلوس العادي، وبين الاضطجاع.

الفاكهة : الثمار اللذيذة.

ما يدعون : ما يتمنون .

امتازوا : تميزوا منفردين .

بيان المعنى الإجمالي :

تكشف الآية عن طريقة بعث الموتى من قبورهم، فتُقَرِّبُه للأذهان، بحال استجابة الجيش للنفير عندما ينفخ في البوق، فتراهم يسرعون إلى مواقعهم استجابة لصوته البالغ مسامعهم أينما كانوا. وفجأة يقومون من قبورهم يخرجون فزعين مسرعين لصوت النداء. ليقفوا أمام ربهم. تتملكهم الحيرة ينادون حظهم التعيس، ويندبون خسارتهم، ويسألون أنفسهم: من هزنا هذه الهزة التي أخرجتنا من الهمود الذي كنا عليه أزمانا ؟ ثم يوقظ الله نفوسهم لتدرك أن ما هم فيه، هو ما أخبرهم به المرسلون مما وعدهم الله به أنهم مبعوثون من بعد الموت. ثم تبلغ بهم الحسرة على تكذيبهم الرسل، فلا يملكون إلا أن يعلنوا: لقد صدق المرسلون فيما أخبرونا به عن الله. والخسران كل الخسران أنا لم نصدقهم، وواصلنا إنكار البعث. كل ذلك يتم في لحظة هي صيحة واحدة تحيي كل فرد منهم، وبكل سرعة وفجأة يكونون جميعا حاضرين بين يدي الله للحساب .

إنه هذا اليوم يوم عظيم، يبدو فيه العدل الإلهي على أكمل صورة، ينزع الله من النفوس كل محاولة للمراوغة، فتشعر بأن ما تلقاه هو قضاء عادل لا ظلم فيه .لأنه جزاء وفاق لما في العمل من الفساد والشر.

و يصور القرآن ما يلقاه المؤمنون الذين ملكهم الله الجنة فهم أصحابها، يغمرهم النعيم بكيفية تشغلهم عن أي أمر آخر خارج عما هم مسرورون به غاية السرور. يجمع الله بينهم وبين أزواجهم، يتفيأون ظلال الجنة التي تتناسب معهم تناسبا لا يبغون أن تكون أكثر دفئا ولا بردا، يمكنهم ربهم من الراحة الكاملة التي تظهر في مجالسهم هيئة ومكانا .

تحدثت الآية عن مآكلهم بأنها ترقى إلى مذاق الفاكهة اللذيذة الطعم الخفيفة الهضم الملائمة للجسم والإحساس، بل إن كل ما يخطر ببالهم يجدونه حاضرا لديهم بدون طلب. وفوق ذلك يحسون بمخاطبة ربهم لهم. خطاب تكريم وتأمين، تمتلئ حواسهم بسلام طيب مبارك من ربهم قولا فعليا تابعا من رحمته. وفي مقابل السلام للسعداء الصالحين، يتوجه الأمر التكويني للأشقياء الذي يحدث أثره بمجرد

صدوره: امتازوا عن المؤمنين فلا صلة بينكم وبينهم، فادخلوا جهنم دار قراركم بسبب إجرامكم الذي صاحبكم كامل حياتكم الدنيا.

بيان المعنى العام :

51←53: ونفخ في الصور...لدينا محضرون.

بعد أن أثبتت الآية السابقة أن جميع الخلائق يقعون تحت وقع الصيحة فيهلكون. أفادت هذه الآية أن تلك الصعقة لا يترتب عليها فناء لا يعقبه حياة، كما يزعم المشركون. ولكن تعقبها نفخة أخرى، عبر عنها بالنفخ في الصور. وهو تقريب للناس بما عهدوه في حياتهم: أن الجند يكونون منتشرين، تأخذهم الراحة فيسترخون، وما هو إلا أن ينفخ في بوق النفير حتى ينهضوا إلى سلاحهم ومراكزهم لأخذ الأمر بالجد، ويلتحقوا بمراكزهم .والصيحة التي تعقبها بداية الحياة الثانية لا تسبقها ظروف تهيء الموتى للبعث، ولكنها تحدث فجأة عبرت كلمة " إذا" عن هذا المفهوم المضمر في الكلام. يقومون من قبورهم لا يتخلف أحد، يسرعون في إجابتهم للداعي، ليكونوا حاضرين جميعا بين يدي الله، لا يبطئ منهم أحد ولا يتخلف.

54ـفاليوم لا تظلم نفس ...ما كنتم تعملون.

يستحضر القرآن يوم القيامة كأنه لتحققه مشاهد عند نزول الآية. وتعلن الآية أنه يومٌ يتحقق فيه العدل الكامل، فإنه وإن كان عقاب الكافرين شديدا، فإن شدته لا تخرج عن حدود العدل، ولا يظلم أي فرد من المحاسبين أي شيء مهما كان تافها. يحقق ذلك أن الجزاء على وزان العمل. والمقدر لما في الأعمال من الفساد هو العليم بحقائق الأشياء .

55ـإن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون.

لما كانت الصيحة ينبعث إثرها كل البشر الأخيار منهم والأشرار؛ وحققت الآية السابقة جزاء الأشرار عن كل ما قاموا به من سوء، عرفت هذه الآية مصير الأخيار. فهم بصفة عامة قد أحاط بهم النعيم فامتلأت نفوسهم سرورا امتلاء ألهاهم ما فيه من غبطة عن كل أمر آخر خارج عما حباهم به ربهم من كرامة .يقرب لك ذلك أن الإنسان في حياته الدنيا قد يمر بظرف يتحقق له فيه ما تعلقت به آماله زمنا طويلا، فتجده في تلك اللحظة وقد غمرته السعادة، يذهل عن كل ما حوله، ويكاد يطير فرحا، يذهل عن محيطه وعن كل الشواغل التي كانت تتقاسم فكره. فعلى هذا الوزان يكون إحساس المنعمين بدخول الجنة مشغولين بنعيمهم الذي لم

يبق لأي صارف أن يحولهم عما هم فيه. وحققت الآية هذا النعيم بأن الإحساس به قد كاد ينقلب إلى إحساس مادي يجد طعمه مذاقا هو مذاق الفاكهة بالنسبة للأطعمة.

56. هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون.

يجمع الله بين الأزواج الذين كتبت لهم السعادة فيجدد الله بينهم ما كانوا يشعرون به في الدنيا من السكن والود، كما يمكن المكرمين بما هيأ لكل منهم من الحور العين، كما فصلته سورة الواقعة: **وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون جزاء بما كانوا يعملون)**[1] وأحوال الآخرة مغايرة لأحوال الدنيا في التركيب النفسي، والعواطف. يمكنهم ربهم من الأوضاع الملائمة نفسيا وبدنيا، يسعدهم محيط مناسب يتلاءم معهم فهم في ظلال لا يرغبون أن تكون أكثر دفئا ولا أقل حرا. جلستهم جلسة المنعمين متكئين على الأرائك.

57. لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون.

ويجمل القرآن ما ينالونه من لذائذ المطعوم والمشروب، أن ما ينالونه هو في مستوى الفاكهة لذة، وخفة. وكلما خطر ببالهم وتحدثت به نفوسهم، يجدونه حاضرا بين أيديهم دون حاجة إلى سؤال.

58. سلام قولا من رب رحيم.

ويبلغ النعيم أقصى مداه، ويسمو إلى المرتبة العليا، وذلك بسماعهم سلاما فعليا، يوقنون أنه من عند ربهم، سواء أكان ذلك ناشئا عن شعور باطني، أومن إخبار الملائكة به. ويمثل ذلك حالة الرضى الكامل من ربهم عنهم. والرحمة التي غمرهم بها، هي الرحمة الصادرة من الموصوف بالرحمة الكاملة الشاملة التي لا يبقى معها عتب .

59. وامتازوا اليوم أيها المجرمون.

ويبدو تكريم السلام أعز وأبلغ بمقابلته بما يقال للكافرين: امتازوا بمكانكم فلا صلة بينكم وبين أصحاب الجنة، والأمر أمر تكويني يحدث مضمونه بمجرد التوجه به. ابتعدوا عن الجنة وكونوا في النار في هذا اليوم نتيجة ما كنتم عليه من الإجرام والفساد.

---

[1] سورة الواقعة ، الآيات 22-24

۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ
﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ
تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم
بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ
يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا
يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

العهد: الوصاية .

جبلا: الجموع العظيمة من الخلائق.

نختم على أفواههم : نعطل قدرتهم على الكلام .

طمسنا على أعينهم : جعلنا جلود وجوههم متصلة .

المسخ : تحويل أجسامهم عن صورتها إلى صورة من نوع آخر.

المكانة : المكان.

بيان المعنى الإجمالي :

توبيخ وإنكار على بني آدم عدم وفائهم بوصيّة الله لهم وعهده المؤكد الذي ترسخ بما يشهد به مضمون رسالات الله ويشهد به العقل، أن لا يعبدوا الشيطان باتباع ما يوسوس به من ضلالات العقيدة والسلوك وذلك لأنه مصمم على عداوتكم فلا يقودكم إلا إلى ما يدمركم؛ وأن يفردوا ربهم بالعبادة بما بلغتكم إياه على لسان رسله إنه هو الصراط الذي يبلغكم السلامة والنجاح. أفيقوا وانظروا فيما تصل إليه اسماعكم وأبصاركم ويتكرر حدوثه في الحاضر والتاريخ، أن الشيطان أضل خلقا كثيرا وأهلكهم، فمالكم تتبعون مع هذا دعاءه، أليست لكم عقول تميزون بها بين ما ينفعكم وما يضركم.؟ ثم تبدو في المشهد جهنم حاضرة تستعر، فيؤمروا أمرا تكوينيا: احترقوا فيها اليوم بسبب ما كنتم مصممين عليه من الكفر .

في هذا اليوم الذي كانوا يُكذبون به، وينطلقون في الحياة مستجيبين لشهواتهم ووساوس الشيطان، يعقد الباري ألسنتهم فلا تستطيع الكلام، ومع هذا هم قد وقفوا ليسألوا، فينطق الله أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون فيبدو ما كانوا يكسبون بصفة

لا تقبل التشكيك أو الاعتذار. إن قدرتنا لا يعجزها شيء، فلو شئنا أن نسلط عليهم العذاب في الدنيا لجعلنا جلدة أعينهم مطموسة، فيحاولون المضي في الطريق الذي ألفوه فلا يبصرونه، ولا يهتدون إليه ولا مطمع لهم في عودة البصر. ولو شئنا أن نحولهم ماسخين لهم قردة وخنازير ونحو ذلك لفعلنا فيثبتون في مكانهم لا يتحولون عنه إذ فقدوا كل ما شحنوا به عقولهم وذاكرتهم.

بيان المعنى العام :

60ـألم أعهد إليكم...عدو مبين.

خطاب توجه إلى البشر الذين عمهم المحشر في انتظار مصيرهم. وهم ما عدا الفائزين الذين سبقوا إلى الكرامة بجنة الخلد الذين فصلت الآيات السابقة النعيم الذي هم فيه .يخاطبهم في صيغة سؤال يقررهم ليوبخهم، ويتأكد التوبيخ والإنكار بنسبتهم إلى آدم الذي جرب اتباع نصيحة الشيطان فأخرج من الجنة .

يوبخهم لأنه رزقهم عقولا تميز بين الخير والشر، وتدرك عاقبة كل منهما، وبعث فيهم رسلا يبصرونهم بالحق، فتجمع من الطريقين ما تركز منه وصية الله إليهم أن يبتعدوا عن عبادة الشيطان. وتشمل عبادته عبادة ما يأمر به من الخضوع للأصنام، وهو الشرك، وتشمل عبادته ما يوسوس به من الشر، وما يزينه من الشهوات الصارفة عن الخير والاستقامة السلوكية. ويؤكد التوبيخ بأنهم اتبعوا ما دعاهم إليه مع أن عداوته واضحة، لا لبس فيها ولا خفاء لمن يعقل، لبني آدم. أعلنها من اليوم الذي أطرد فيه من الجنة .

61ـ وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم.

إن عهد الله للبشر ينحل إلى شعبتين: شعبة نهي عن عبادة الشيطان واتباع المهالك التي يدعو إليها ؛ وشعبة إفراد الله بالعبادة والتزام الطريق الواضح المتميز الذي بينه الرسل، الطريق الذي يبلغ بكم السلامة والنجاح . هذا صراط مستقيم .

62ـولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون.

تتابع النهي والأمر والتعليل لإنقاذ البشر من تضليل الشيطان؛ ثم أيقظهم إلى التدبر في سفر الحاضر والتاريخ الذي تكرر فيه وما يزال يتكرر على أبصارهم وأسماعهم، عاقبة جموع كثيرة استجابت لإغوائه فضلت وهلكت. وأنكر عليهم تعطيل عقولهم عن إدراك ما هو حاضر أمامهم. فكأنهم لا عقل لهم .

63←64: هذه جهنم ...بما كنتم تكفرون.

بعد التقريع والتوبيخ، تبدو جهنم ماثلة أمام أعينهم، يشير إليها القرآن: **هذه جهنم**– التي أعلمكم المرسلون بها، وأنذروكم عذابها. يتبع استحضارها الأمر بأن يصلوا نارها. والاصطلاء أصله أن يكون طلبا للدفء في الشتاء بالاقتراب من نار الموقد في البيت أو في البرية، فأمروا بالاصطلاء بها تهكما بهم وإذلالا، وهو الأمر التكويني الذي يحصل معه دخولهم النار والعذاب بنارها بسبب ما كانوا يقومون به من شر وفساد.

65. اليوم نختم ...بما كانوا يكسبون.

مشهد عجيب من مشاهد يوم القيامة .في هذا اليوم تخرس ألسنتهم ويختم على أفواههم: يطبع عليها فلا تستطيع أن تنطق بكلمة .ويأخذ دور اللسان في الإفصاح الأيدي التي كانوا بها يبطشون ويعتدون، ويشيرون فيستهزئون، ويتعاهدون على مقاومة دين الله، وتفصح الأرجل عن سعيها الآثم، ولا تناقض بين هذه الآية وما ورد في سورة النور: **(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون)**[1] ذلك أن هذه الآية تكشف وضع المشركين، وآية سورة النور تفصح عن وضع المنافقين الذين كانت ألسنتهم تناقض ما يعتقدون إمعانا في التخفي .

66←67:ولونشاء لطمسنا...مضيا ولا يرجعون.

بينت الآية السابقة قدرة الله على إلجاء المشركين يوم القيامة للاعتراف بالحق، والكشف عما صنعوه من الخبث والفساد. ونفت هذه الآية ما يمكن أن تتساءل عنه النفس، لما ذا لم يعجل الله ذلك في الدنيا حتى يستريح العالم من الفساد ويخسأ الشيطان ؟ فنبهت هذه الآية أن قدرة الله متصلة بحكمته، فإنه قد بنى عالم الدنيا على تمكين الإنسان من الاختيار، وأنه مسؤول عما يختار. وأن المسؤولية تظهر آثارها العادلة يوم القيامة . يؤكد ذلك أنه لو تعلقت إرادته سبحانه بأن يعاجل العقوبة على كل منكر يقوم به الإنسان لفعل، فيطمس على أبصارهم فلا ترى شيئا، تذهب الحدقة والأهداب وتكون جلدة متصلة على مكان العين، فيفزعون قاصدين الطريق الموصل إلى المأمن، ولكن اهتداءهم أبعد ما يكون وقد ذهبت الأبصار. ولو تعلقت مشيئته سبحانه بأن يحول ذواتهم إلى نوع آخر كالقردة والخنازير والضباع لفعل .فتذهب قدراتهم الفكرية الهادية إلى المضي في سبيلهم أو الرجوع إلى المكان الذي أتوا منه.

---

[1] سورة النور، آية 24

و يمكن أن تفهم الآية على أنـه كشـف عـن الأوضـاع الممكنـة يـوم القيامـة التـي لا يعجز الباري تنفيذها. فلـو شـاء أن يُلبسـهم الحيـرة فيفقـد هـم القـدرة علـى النظـر فيستبقون الصـراط علـى جهـنم فـلا يهتـدون وتأخـذهم كلاليبهـا. ولـو شـاء الله أن يعاجلهم بمسخهم محولا لخلقتهم عن الصـورة الإنسـانية إلـى صـورة أخـرى كجعلهـم قردة أو خنازير فتكون حيرتهم أشد مـا يكـون لفعـل . وعلـى التخـريج الأول مضـى معظم المفسرين .

وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ ۘ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

نعمره :نطيل عمره .

ننكسه في الخلق :نحول خلقه من القوة إلى الوهن والضعف .

وما علمناه الشعر :ما أوحينا إليه شعرا علمناه إياه.

ويحق القول :يتحقق الوعيد الذي أنذر به الكافرون .

الأنعام : الغنم والمعز، والبقر والإبل .

ذللناها:طوعناها وسخرناها لإرادة الإنسان..

بيان المعنى الإجمالي :

يقرب لكم التصرف الإلهي في أحـوال خلـق الإنسـان، الـذي ذكـر منـه فـي الآيـات السابقة أنه يطمس على الأعين فلا تبصـر، وتتحيـر تبعـا لـذلك فـلا تهتـدي لطريـق، وإمكان المسخ، بما تشاهدونه في الحياة البشـرية، أن مـن يبقـي الله عليـه حياتـه إلـى زمن التعمير، ثمانية عقود فأكثر، نحول حاله مـن قـوة إلـى ضـعف فـي البـدن حتـى يصل إلى العجز وفي القوى العقلية حتى يصـل إلـى الخـرف .يؤكـد ذلـك أن الله إذا شاء شيئا فعله.

إن ما أبانت عنه الآية من مصير الكافرين يــوم القيامـــة لــيس مـــن الصـــور الشـــعرية، ولكنها الحقيقة، فالنبي ﷺ علمه الله القرآن ولم يعلمه الشــعر. ومـــا يتـــأتى لـــه أن يســـير مع الخيال المجنح . فالقرآن منحصر في كونه ذكرا يــؤثر فـــي كـــل مـــن أوتـــي عقـــلا، يبصره القرآن بمكانته فـــي الكـــون ومصـــيره . ويحـــق الوعيـــد علـــى الـــذين واصـــلوا الكفر.

ما بال المشركين لم يتأملوا فيما رزقنـــاهم، فـــي الأنعـــام التـــي خلقناهـــا بقـــدرتنا علـــى غير مثال ولا بتولد مسببات عـــن أســـباب، وملكناهـــا لهـــم بواســـطة مـــا أودعنـــاه فـــي خلقتها من التناسل والتكـــاثر. طوعنـــا الإبـــل والبقـــر والغـــنم والمعـــز لخدمـــة الإنســـان وتحقيق أغراضه منهـــا .يركبـــون ظهورهـــا فتقطـــع بهـــم أبعـــاد الصـــحراء، تحملهـــم وتحمل أثقالهم، ويأكلون من لحومهـــا، ويشـــربون مـــن ألبانهـــا، ومنـــافع كثيـــرة عرفهـــا الإنسان وأخرى سيكتشفها . ما لهم لا يشكرون نعمـــة المـــنعم ويعترفـــون بفضـــله، مـــالهم يشركون به أصناما لا تمدهم بأي نعمة.

إنه من عجيب أمر المشركين أنهم صنعوا لأنفســـهم آلهـــة، علقـــوا آمـــالهم بهـــا راجـــين أن ينصروهم في الأزمات ومنهـــا يـــوم القيامـــة لـــو حصـــل مـــا ينـــذرهم بـــه محمـــد. اتخذوهم آلهة مع أنهم عجزة لا يستطيعون نصرهم، بـــل الواقـــع أن العابـــدين هـــم الـــذين يتولون نصـــرة المعبـــودين. فيحمـــونهم بحراســـتهم والقيـــام علـــى جميـــع شـــؤونهم . لا تحزن يا محمد من وقاحتهم وما يصدر عـــنهم مـــن ســـوء القـــول فإنـــا ســـوف نحاســـبهم على ما كانوا يسرون في قلوبهم المريضـــة مـــن عـــدائك، وتـــدبير النيـــل منـــك ومـــن صحابتك، وما كـــانوا يصـــرحون بـــه، لا يغيـــب عنـــا مـــن ســـيئاتهم شـــيء ســـينالون جزاءهم .

بيان المعنى العام :

68ـ ومن نعمره ننكسه في الخلق ...أفلا تعقلون.

هذه قضية ربط فيها القرآن بين التعميـــر بطـــول أمـــد حيـــاة الإنســـان فيتجـــاوز العقـــود الثمانية، وبين تنفيذ القدر الإلهي فيه، فيتحول من قوة في البـــدن إلـــى وهـــن، ومـــن توقـــد ذهني وذاكرة لا يكاد يفلت شيء ممـــا تســـجله إلـــى ذهـــول وغلبـــة النســـيان، وضـــياع كثير من المحفوظ، فيعيده شيئا فشيئا إلى حالة صباه البـــاكر. وفـــي ذلـــك مـــا يؤكـــد مـــا جاء في الآيات السابقة من قـــدرة الله علـــى التصـــرف بطمـــس الأعـــين والمســـخ. فـــإن حالة التحول المغلوب عليها عند التعميـــر، تقـــرب مـــا حققتـــه الآيـــات مـــن التصـــرف الإلهي المـــذكور. عجـــب لكـــم كيـــف لا تعملـــون عقـــولكم فتتكـــرون خضـــوع أحـــوال الكائنات كلها، لقدرة الله .

هذا هو الفهم الأقرب في نظري، وهو الذي جرى عليه معظم المفسرين. وحمل الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، على أن المعنى أنه إذا امتدت بهم الحياة فسيدركون انتصار الإسلام، وانقلاب حالتهم من الاعتزاز بالكفر بين الناس إلى ذل وضعف .

69ـ وما علمناه الشعر ...وقرآن مبين.

هذه الآية تقتضي وقوفا على صلتها بما قبلها، فجعلها الشيخ ابن عاشور معطوفة على قوله تعالى: **ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**[1] – والفصل بين المعطوف والعطوف عليه بأكثر من 20 آية يبعد هذا الاحتمال . وخرجها على إمكان أن تكون مستأنفة، وهو لا يكشف عن ارتباط الآية بما قبلها . وسأبين بحول الله وجه الارتباط لاحقا .

قوله تعالى : **وما علمناه الشعر**، هو كاشف عن قوله تعالى : **وعلمك ما لم تكن تعلم.**[2] إن ما أودع في قلب الرسول ﷺ وعقله هو من تعليم الله إياه، هذا التعليم الذي اختص به على أنه تعليم لا يشاركه فيه أي إنسان. لتبيينه أتم بيان، نفى عنه ما يشتبه فيه أنه منه، ثم أثبت له خصائصه الذاتية .نفى عنه أن يكون شعرا. ذلك أن الشعراء في عصر النبوة كانوا المقدمين في مراتب التعبير، تحفظ أقوالهم، وتعتز بهم قبائلهم، ويسير كلامهم في المجتمع سيرا يملك الإعجاب ويحرض على الرواية. فنفى الله عن رسوله أن يكون ما علمه من القرآن شعرا. وسجل القرآن اختلاط الأمر على المشركين، لما بهرهم أسلوبه وأعجزهم بيانه، فقالوا إنه شاعر. بل قالوا أضغاث أحلام بل هو شاعر. سورة الأنبياء آية 5 –**ويقولون أننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون**[3] –**أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون**[4] – **وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون**[5]– ونفي الشعر عن القرآن حرك الطاعنين في القرآن فقالوا إن القرآن اشتمل على الشعر واقتضبوا من بعض الآيات ما يكون شطر بيت أو بيتا كاملا . وقد تولى ائمة من علماء الدين كالباقلاني والزمخشري والسكاكي وابن العربي تفنيد هذه الدعوى بناء على أن الوزن غير مقصود فيما

---

[1] سورة يس ، الآية 48

[2] سورة النساء آية 113

[3] سورة الصافات آية 36

[4] سورة الطور آية 30

[5] سورة الحاقة آية 41

اقتطعوه من الآيات. وحاول الشيخ محمد الطاهر أن يرد هذا المطعن بأدلة بعضها لا يذعن له الخصم الطاعن .

وفي نظري فإن الذي جلب اعتراض المشركين وإشكال المحققين من علماء الإسلام، هو جريهم على أن المراد من نفي الشعر عن القرآن ظاهرة الوزن. ولا يقوم الشعر بالوزن وحده، وما بلغ الشعراء من قوة التأثير بأشعارهم ورودها موزونة. فعلماء العربية والأصول والحديث وغيرها أنشأوا مطولات موزونة بلغ بعضها الألف بيت وأكثر، وما عدت من الشعر في شيء . وهذا يظهر أن قوة التأثير الشعري في كلام العرب ما تأتى لهم من الوزن على بحور الشعر، وإنما تأتى لهم من الصورة البديعة المتخيلة التي تستولي على فكر السامع ومشاعره. والتي فيها يتنافس الشعراء ويتفاوتون في التجويد. انظر إلى قول المتنبي في بدر بن عمار:

أمعفر الليث الهزبر بسوطه *** لمن ادخرت الصارم المسلولا

أراد المتنبي أن يشيد بشجاعة بدر بن عمار فصوره أولا واقفا رافعا صوته يهزم كل ما في الأسد من شراسة وتوحش حتى مرغه في التراب خاضعا ذليلا. ثم يضيف لهذه الصورة التي قطعها في كلمات متوازنة "أمعفر" الليث " الهزبر "بصوته" فيوقظك بسؤاله ليعمق إحساسك بتلك الصورة البديعة، فيسأل لمن ادخرت الصارم المسلول. يجعلك تتصور أنه يخضع كل قوي بسوطه ولا حاجة له بالسيف المسلول من غمده. وهي صورة شعرية جميلة ليس فيها شيء من الحقيقة .

ويقف شوقي مهنئا بالإصلاح في الأزهر فيفتتح قصيدته الرائعة بقوله:

قم في فم الدنيا وحي الأزهرا *** وانثر على سمع الزمان الجوهرا.

وهي صورة بديعة خيالية أن يجعل للدنيا فما فيصيح فيه بالتهنئة التي يتردد صداها في كل ركن من أركان الأرض وفي كل مدينة وقرية وبيت، فيحس بنغمات التهنئة كل سامع ويرددها لامعة جميلة كحبات الجوهر تناثرت في سمع الزمان. وهي أيضا صورة خيالية ليس فيها شيء من الحقيقة .

ولنعد إلى الآية وموقعها من الآيات السابقة. ذكر القرآن أن الأفواه تخرس، والأيدي تنطق، والأرجل تتحدث، لتعلن حقيقة ما فعله أصحابها في الدنيا. وأن العيون تطمس، أصحابها في حيرة لا يهتدون إلى السبيل الذي ألفوه، وأن المتعالين المستكبرين يتحولون إلى قردة أو ضباع .هذه صورة ليست صورة شعرية خيالية بل هي الحقيقة كل الحقيقة التي تتم يوم القيامة. أو يمكن أن تحدث في الوجود إذا أراد الله ذلك. فالرسول ﷺ علمه ربه قرآنا ليس شعرا يمتعك بخيالاته، ولكن هو

ذكر يدخل شعاب العقول فيهديها، وقوته تـلازم تاليـه فكلمـا غـم الأمـر عـاد القـرآن بذكر ويوقظ، وهو مع ذلك يقرأ فيبين، ويرفع عنـك الحيـرة والغمـوض . ويكشـف لـك موقعك في الكون ومآلك الذي أنت صائر إليـه. فـي نظـم بلـغ حـد الإعجـاز، تقصـر العقول عن بلوغ ما وسعه نظمـه، فهـو جديـد مـع كـل عصـر، يجيـب البشـر عـن تساؤلاتهم مهما سموا في رتب الحضارة .

هو يهدف إلى إيقاظ من أوتي عقـلا مسـتقيما غيـر منحـرف ليتقـي المهالـك، وعبـر عنه بالحي، تعريضا بالكافرين بأنهم لما أعرضـوا عـن القـرآن والانتفـاع بآياتـه، هـم كالموتى الذين لا ينتفعون بما هو حولهم من موجبـات الانتفـاع . فيكـون معنـى الآيـة: **لتنذر من كان حيا** فيزداد به حياة بامتثال ما جـاء بـه فيفـوز، ومـن كـان ميتـا فـلا ينتفع بإنذار، فيحق عليه الوعيد .

71.ألم يروا أنا خلقنا...لها مالكون.

ينذر القرآن من كان عقله يتحرك وينظر في كتاب الكون ليقف على حسن التقدير، والتيسير .فبعد أن رفع الحجاب عما ينتظر المشركين من عقاب وعذاب، أيقظ البشر للتأمل في الأنعام التي منها ثرواتهم، وتدخل في حياتهم غذاء ولباسا وحتى سكنا .

الأنعام من بقر وإبل وغنم ومعز، أنشـأتها فأحكمـت خلقهـا لكـم، خلقتهـا علـى غيـر مثال سابق بقدرتي . يقر الناظر بأن خلقها لم يكن بواسـطة وإنمـا هـي القـدرة الإلهيـة تعلقت بإيجادها فوجدت . فهو إيجاد مـن صـنع الله بـدون أسـباب. وهـو معنـى قولـه بيدي، إذ جرى الأسلوب اللغوي على أن نسبة الفعـل لليـدين يقصـد منـه أن المنسـوب له الفعل لم يستعن على إنجاز فعله بغيره . والله منـزه عـن أن تكـون لـه يـد يحركهـا وينجز بها . ومن فضل الله على النـاس أن ملكهـم تلـك الأنعـام .وركـب فـي خلقتهـا التأنس وعدم التوحش والفرار من الإنسان .

72←73:وذللناها لهم...أفلا يشكرون.

طبعها الله على الانقياد للإنسان، وطوعها لتنفيذ ما يريـده منهـا. فتـرى الولـد الصـغير يقود البعير الضـخم ويـتحكم فـي مسـيره، يبـرك لإذنـه ويقـوم لزجـره. وأخضـعها للركوب وحمل الأمتعة، والأثقال، يسيرها راكبها إلى حيـث يقصـد فـلا تمتنـع عليـه . ومن لحومها يأكلون. وَمِنْ ألبانها يشربون، ثم عمم بعـد التخصـيص ليشـمل فضـله مـا ينتفع به البشر من الأنعام بما ينسجونه من صـوفها ووبرهـا وشـعرها كسـاء أو بيوتـا خفيفة يأوون إليها في أسفارهم. وأسـمدة تخصـب الأرض وتضـاعف الإنتـاج. وغيـر ذلك مما يكشفه العلم كالاعتماد عليها لتكثير الأمصال الواقية.

هذه النعم المتنوعة والكثيرة المذكور منها والتي سيكتشفها العلم، تدعو المتأمل فيها إلى الاعتراف بأن ذلك كله من خلق الله، وليس لهم فيها سبب لا في إيجادها ولا في تطويعها، مما يقتضي أن يقابلها المنتفعون بها بشكر منعمها .ولكن العجب من المشركين أن الشرك طمس فكرهم، واقتلع أخلاقهم، فلم يشكروا المنعم، ومضوا ينتفعون غافلين عن مسديها يشركون به من لا يمدهم بشي منها .

74←75:واتخذوا من دون ....جند محضرون.

تصريح بما تضمنه الإنكار عليهم في الآية السابقة من عدم الشكر. فعدم الشكر أفضى بهم إلى اتخاذ آلهة، صنعوها من خيالهم وجعلوها أربابا، راجين أن تكون لهم نصيرا يوم القيامة، على فرض وقوعه. ما أشد بلاهتهم يأملون النصر ممن مظاهر عجزه عن الدفاع عن نفسه شاهدة معلنة، إنه من البديهي أنهم لا يستطيعون نصرهم .بل إن العكس هو الظاهر للعيان فهم قد جندوا أنفسهم لنصر آلهتهم يدافعون عن تأهلها للعبادة، وهي لا تنطق، ورفعوا عنها ما يتراكم عليها من الغبار، ووضعوا عليها حراسا تمنع من يريد الإضرار بها .

76ـ فلا يحزنك قولهم...وما يعلنون.

تنوعت مقالات المشركين الوقحة: آذوا رسول الله ﷺ، وأصحابه الأكرمين بما دربت عليه ألسنتهم من الكذب والفحش والسوء من القول، وتجرؤوا على الله فكفروا به وأشركوا به آلهة قدسوها بمقدار ما سخروا من رب العباد. وقد طبع الله محمدا ﷺ على كريم الشيم ونبيل الأخلاق، ومرهف الإحساس .كان يتأذى مما يصدر عنهم، ويشعر بالألم الشديد لكفرهم ووقاحتهم. وكان الله به رحيما، ادخره لختم رسالته للعالمين، فكان سبحانه يواصل تأييده له ويشد من عزمه، فوجه له هذا الطلب: أن لا يحزن ولا يغتم، وكيف يطلب منه ذلك وهو واقع لا محالة، فيكون المعنى لا تهتم بما يصدر منهم فإني مؤيدك تأييدا لا يستطيعون معه أن يوهنوا أمرك، فامض في سبيلك ولا تلتفت لما يقولون، فإني لهم بالمرصاد أعلم ما يسرون وما يدبرون من سوء، وما يعلنون .أي إني سأعاقبهم على قبيح أقوالهم وفعالهم .

والوقف على قوله: فلا يحزنك قولهم، حسن وليس بواجب.

أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ

تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ
وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾
فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

خصيم : شديد الخصومة، لا يذعن للحق .

رميم: بلي من تقادم الزمن عليه

الملكوت : مبالغة في الملك .

بيان المعنى الإجمالي :

يعمل رؤوس الكفر على التأثير على الدهماء ليروجوا إنكارهم للبعث فيقنعوا ضعاف العقول، فجاء أحدهم إلى النبي ﷺ وبيده عظم مضى عليه زمن طويل حتى ذهبت صلابته، ففتته وذراه، ثم قال لرسول الله ﷺ : من يحيي هذه العظام البالية؟ تولى القرآن إجابتهم بما يقطع شغبهم ويكشف عن غبائهم: يحييها الذي أنشأها أول مرة فإعادتها أهون من ابتداء خلقها لو كنتم تعقلون. ولا يضيع من خصائص أصحابها شيء إذ أن الخلق قد تم تبعا للعلم السابق لا بالمصادفة . بين أيديكم في مشاهد الكون ما يرفع عنكم حجاب الغفلة، فأنتم تشاهدون أن إذا قدح عود أخضر من شجر العفار بعود أخضر من شجر المرخ انقدحت النار .فالتحول من الرطوبة التي يسيل منها الماء إلى الجفاف الأكمل النار، في لحظة واحدة يدلكم على أن ترتيب الوجود يتم بالإرادة المطلقة التي لا يوقفها شيء. تنبهوا إلى أن الذي خلق السماوات والأرض وما تحويه من العناصر والكائنات، ألا يكون قادرا على خلق أمثالكم لتبعثوا وتحاسبوا. بلى بكل تأكيد هو القادر الذي لا يفوته أي جزئية من خصائصكم فيعيدكم كما كنتم، إنه هو المتفرد بخلق كل موجود خلقا مستجيبا للعلم الشامل .

شأنه المتفرد به في الخلق، أنه يأذن آمرا أمرا تكوينيا لما تعلقت إرادته بإيجاده فيوجد بدون مقدمات ولا مادة ولا ترتيب مسبق. سبحانه تنزه عن كل نقص وعن كل تشبيه وتصور. هو الملك المالك لكل شيء ملكا تاما إيجادا وتطويرا وإعداما، وإعادة إذا أراد . فستعودون إلى حكمه وقضائه يوم البعث.

بيان المعنى العام :

77: أولم ير الإنسان أنا...هو خصيم مبين .

تسجل الآيتان جراءة بعض المشركين، ولجاجهم، وعملهم على التأثير في الدهماء .فقد روي أنه أقبل أبي بن خلف، أو العاصي بن وائل، أو أبو جهل، وكل واحد منهم رأس من رؤوس الشرك، على النبي ﷺ، أقبل وبيده عظم قد طال أمد موت صاحبه حتى بلي وذهبت صلابته، وتحدى الرسول ﷺ، ففتته ثم قال: من يحيي العظام بعد تناثرها أجزاء مفرقة في الأرض ؟ افتتحت الآية بظاهرة تنفي موجبات التشكيك، وتقتلع أسباب الحيرة في البعث يوم القيامة ألم يعلم كل إنسان أنه خلق من نطفة من ماء مهين، ثم تطور إلى أن بلغ المستوى الذي يكون فيه خصيما شديد الشكيمة في الخصام، يلتف على الحق فيعمل على إسقاطه ليحقق لنفسه الغلبة .إن المسافة بين النطفة وبين الإنسان الشديد العنيد المجادل، مسافة كبيرة جدا. فإذا كانت تلكم الأطوار قد مر منها كل كائن، فإحياء العظام بعد بلاها أقرب في التصور .

78ـ وضرب لنا مثلا و نسي خلقه قال من يحي العظام و هي رميم.

ثم تصوره هذه الآية في صورة المتناقض قصير النظر، إذ اتخذ من صورة العظم البالي فأظهر به استحالة البعث، وغفل عن المراحل التي مر بها من يوم علق برحم أمه إلى أن بلغ المستوى الذي هو عليه، فقال : من يقدر على إحياء العظام البالية؟

79ـ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة و هو بكل خلق عليم .

قل له يا محمد قولا ينقض تشبيهه، ويظهر غفلته وغباءه، يحيي العظام الذي خلقها أول مرة لا على مثال .وبلغ خلقه من الدقة أرقى مستوى؛ فكان مظهر العلم للعليم الذي لا يفوته أي جزئية حتى كان الخلق على ذلكم المستوى من الحكمة الجامع لقوانين ثابتة، عرف البشر بعضها وما تزال أسرار أخرى يجهدون لكشفها.

80ـ الذي جعل لكم ...فإذا أنتم منه توقدون.

هو الله العليم القادر الذي تبدو مظاهر قدرته في كل شيء .فيودع في الكائن من القوانين ما ينتقل به من الضد إلى الضد، فمما هو معروف لهم: أنهم إذا أخذوا عودا أخضر من شجر العَفَار، وعودا أخضر من شجر المَرْخ فحكوا أحدهما بالآخر، وهما ما يزالان أخضرين، انقدحت النار؛ فيعرضون لسقط الزند ما هو قابل للالتهاب بسرعة من تبن أو كتان مبلل بالزيت فيحصلون على النار للدفء أو الطبخ . فالعود من الشجر الأخضر يمثل الرطوبة، والنار تمثل غاية الجفاف،

فخروج هذا من ذاك يقوم شاهدا على القدرة التي لا يعجزها شيء. وتقرب تحول العظام النخرة إلى الحياة على الحالة التي كانت عليها (البعث) يوم القيامة .

81.أوليس الذي خلق...وهو الخلاق العليم .

تفتتح الآية باستفهام تقريري يلجئ المنكرين إلى الإذعان بعد إيقاظهم وعرض صورة واضحة تكون أصلا لكشف حقيقة ذهلوا عنها . فالسؤال عن مشاهد أمام أبصارهم، وهو خلق السماوات والأرض، إنهم لا يستطيعون أن ينسبوا خلقها لآلهتهم ولا إلى أي قوة أخرى، ويلجأون تبعا لذلك للإقرار بأن خالقها هو الله العزيز الحكيم . وخلق هذه الكائنات العظيمة بما تحويه من مختلف القوى والأنواع يثبت أنه قادر على أن يخلق مثل البشر الذين ماتوا :"**على أن يخلق مثلهم** " ولما كان السؤال واردا على صيغة النفي، كان الجواب بكلمة " **بلى**" التي تدل على نفي النفي. أي إنه بكل تأكيد قادر على ذلك. وأفصحت خاتمة الآية على توجيه هذه القدرة الإلهية، بأنه سبحانه المتفرد بالخلق الكثير المتتابع، الذي ينشئ خلقه لا بصفة آلية، ولكن تبعا للعلم الدقيق بالجزئيات والعلاقات.

82. إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

كل الصور التي تعلق بالذهن في الكيفية التي يتم عليها الخلق، هي صور موهومة مخالفة لما يتم في واقع الأمر. وليس هناك إلا صورة واحدة صرح بها القرآن في هذه الآية: شأنه سبحانه إذا أراد أن يخلق أي كائن ويبرزه للوجود: أن يأذن بالأمر التكويني، فإذا المخلوق يخرج للوجود على النحو الذي قدره، وضبطه بجميع خصائصه. فهو سبحانه لا يباشر الصنع بآلة ولا بواسطة، ولا من مادة، كما هو الشأن في البشر إذا ما أرادوا صنع أي شيء تتابع المراحل من: تفكير، ومادة، ومعالجة، وتجربة تقوم وتتحسن شيئا فشيئا لتبلغ المستوى المقبول.

83.فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون.

بما بسطه القرآن على أسماعكم من مظاهر التصرف الحكيم، والخلق البديع، والقدرة الكاملة، والعلم الشامل الصحيح والدقيق، ينشأ الإفصاح والاعتراف بأنه منزه عن كل نقص. ثابت له كل كمال ثبوتا ذاتيا لا ينفك. وكل كائن دق أو عظم من الذرة إلى الكواكب والسماوات والأرض، الكل مملوك له ملكا تاما، أوجده بقدرته وإرادته، وهو الذي ينهي وجوده متى أراد، وهو الذي يعيده حسبما قدر في الأزل. وقد قدر أيها البشر أنكم ستعودون إلى الوقوف بين يديه ليقضي فيكم قضاءه والله أعلم.

سورة الصافات

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصــاحف، وكتــب الســنة. وتســميتها ب " الصـــافات " مأخوذ من أول آية. وهي ســورة مكيــة رتبتهــا حســب ترتيــب المصــحف الســابعة والثلاثون، وحسب النزول السادســة والخمســون. نزلــت تاليــة لســورة الأنعــام وقبــل سورة لقمان.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجۡرٗا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكۡرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمۡ لَوَٰحِدٞ ﴿٤﴾
رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا وَرَبُّ ٱلۡمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ
ٱلۡكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفۡظٗا مِّن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ مَّارِدٖ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلۡمَلَإِ ٱلۡأَعۡلَىٰ
وَيُقۡذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٖ ﴿٨﴾ دُحُورٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ
فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الصافات : الجماعات المصطفة في نظام .

الزجر : حث المخاطب حتى لا يتباطأ في إنجاز ما هو مطالب به.

التاليات :المرددة قراءة .

الدنيا : القريبة من الأرض

المارد : الخارج عن الطاعة.

الملأ: الجماعة ذات الشأن والقدر. الملائكة .

الأعلى :علو في شرف المقام.

القذف : الرجم.

جانب : جهة

دحورا: طردا يصحبه مذلة.

الواصب : الدائم .

أتبعه : تبعه.

شهاب : النيزك.

ثاقب : مخرب لبنية الشيطان المحاول استراق السمع

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم الله بملائكة قدسه، فذكرها بأوصاف هي من كمالاتها منوها بها، أقسم وهي على وضع هي فيه مهيأة لقبول الأوامر الإلهية لتنفيذها كحال الجيوش عندما تصطف لتقبل الأوامر من قادتها. وأقسم بها وهي تنفذ ما أراد تنفيذه فتحث السحب مثلا لتسوقها إلى المواقع التي قدر فيها إنزال مائها. أقسم بها وهي مستغرقة في التسبيح والتحميد والتمجيد والذكر. أكد بهذه الأقسام الثلاثة أن إلهكم أيها الناس هو إله واحد لا شريك له. وكما أكد الوحدة الإلهية بالقسم فكذلك أكدها بلفت الأنظار إلى الكون أرضه وسماواته. والتحولات التي تجري فيه كل يوم من انتقال مكان شروق الشمس وغروبها. فإذا هي مشارق منتظمة متتابعة، يرعاها ربها بحسن تقديره.

تأملوا في السماء الدنيا القريبة منكم، تجدون أننا بكمال قدرتنا وتقديرنا وإتقاننا، قد زينا وجهها بالكواكب اللامعة المنتظمة تملأ عين الناظر من جمالها. وقدرنا فيها وظيفة أخرى تقوم بها، هي حراستها من الشياطين العصاة المتمردين تمرد أبيهم إبليس. هؤلاء الشياطين الذين منعناهم من الاستماع إلى الملأ الأعلى: الملائكة، الذين كل ما يجري بينهم لا زيف فيه ولا باطل، يحاول العصاة من الشياطين المتمردون الاقتراب من الملائكة، رجاء أن يحصل لهم شيء من الحق الذي سيحدث ليموهوا بذلك على أتباعهم أنهم صادقون في كل ما يخبرونهم به ويدعونهم إليه اعتمادا على ضم صدق ما يجري في الملأ الأعلى إلى ضلالاتهم. ولكن مَحاولتهم فاشلة، ذلك أن الله أوكل كواكب السماء الدنيا بحفظها من استراق السمع ويُقْذَفُون من جميع الجهات ويطردون محتقَرين مذمومين. وقد أعددنا للشياطين عذابا دائما. ومجرد ما يحاول أحدهم أن يخطف بسرعة شيئا مما يجري في الملأ الأعلى يتبعه في سرعة أشد من سرعته، شهاب من الشهب فيفسد تركيبه، ولا يظفر بالاطلاع على أي حقيقة

بيان المعنى العام :

1←4: والصافات صفا...إن إلهكم لواحد.

تضمن هذا المقطع قسَمًا -1-2-3- ومقسما عليه -4-

جاء القسم في صيغة أوصاف لموصوف مقدر .

1) **الصافات**- وصف يمكن أن يكون وصفا للملائكة، وهـي علـى وضـع مـن الانتظـام يشبه وضع البشر عندما يكونون مستعدين لقبـول الأوامـر فـي مواقـع الجـد .ويمكـن أن يكون القسم بالجيوش الإسلامية عنـدما تكـون مصـطفة علـى تمـام الاسـتعداد فـي مواقع الجهاد، أو في مواطن العبادة الجماعية. ولا مـانع مـن قصـد النـوعين، فكلاهمـا بمرتبة رفيعة عند الله، أهلتهم للتنويه من رب العزة فعبر عن تميزهم بأن أقسم بهم

2) **الزاجرات** -يمكـن أن يفهـم القسـم بالملائكـة عنـدما يتولـون إنجـاز مـا أراد الله تكوينه في عالم الشهادة. كزجر السحب لتسـير إلـى الأرض التـي قـدر أن يسـقيها. أو حث العناصر التي بتجمعها ينشئ الباري مـا تعلقـت إرادتـه بإنشـائه، ويمكـن حملهـا على آيات القرآن التي تزجر الناس عن اتباع الهوى ووساوس الشيطان.

3) **التاليات ذكرا**- قسم بمن يقرأ، فهو قسـم بالملائكـة عنـدما يتلـون مـا أنـزل علـيهم من عند الله لتبليغه لرسله، وعندما يـرددون مـا علّمهـم ربهـم مـن التسـبيح والتقـديس والتمجيد وأنواع الذكر، الذين هم منغمسون فيـه بطـبعهم. كمـا يمكـن حمـل "التاليـات" على الجماعات التي تجتمع في مجالس الذكر.

وليس في القسم بها تعظيم، ولكن التنويه بهـا فـي حـالات الكمـال التـي وصـفت بهـا، مما يدعو المتأملين في القرآن إلى النسج على منوالها للفوز بالرضا من الله.

4) **إن إلهكم لواحد**- هذا هـو المقسـم عليـه . قضـية أن الإلـه لا يمكـن أن يكـون إلا واحدا. وأن اعتقاد الشركة تناقض حقيقة الألوهيـة، ويتبعهـا خـراب التصـور الفكـري، وفساد العقيدة... .واضـطراب الأحـوال الفرديـة والاجتماعيـة. سـواء أكـان الإشـراك في أحط مفاهيمه، أعني تأليه الأصنام، كما كـان عليـه أهـل الجاهليـة، أم كـان اعتقـاد قدرة المخلوق على النفع أو الضـر فينقـاد الإنسـان خاضـعا واهـن العزيمـة أو معلقـا رجاءه بغير الله طامعا ذليلا.

5-رب السماوات....ورب المشارق.

تعريف بالإله الواحد، واسـتدلال عليـه. هـو المنشـئ للسـماوات والأرض، ولا يمكـن لعاقل أن يدعي شيئا من الأصنام مشاركا في هـذا الخلـق العظـيم. فـدل إيجادهـا علـى تفرده بالألوهية. ومع خلق الكون المشاهد فإن تصرفه فـي هـذا الكـون بتغييـر أحوالـه كل يوم دون أن يحـدث اخـتلال أو فسـاد دليـل آخـر متجـدد علـى تفـرد سـبحانه بالألوهية. فتحول مكان طلوع الشمس، ومكان غروبهـا كـل يـوم دليـل علـى إحكـام الصنع والتسيير، والوحدانية أيضـا. إذ لـو تعـددت الآلهـة لاختـل النظـام. فهـو رب المشارق، بـالنظر لاخـتلاف مطـالع الشـمس وأمـاكن غروبهـا، ولـذلك جمـع لفـظ المشارق والمغارب.

6-إنا زينا السماء بزينة الكواكب.

إن هذا البناء البديع للسماء يدعو إلى التأمل فيما أودع فيه من الحكمة والإتقان في الصنع. فالجاذبية بين الكواكب تُكوِّن نظاما يثبِّت كل كوكب في مداره، ويمكنه في الآن نفسه من الحركة المنتظمة. والسماء على سعتها راعى الخلاق العليم فيها أن تملأ نفس الناظرين فيها من جمالها، وتناسب ما انبث فيها من الكواكب اللامعة .لقد حجب التلوث ذلكم المنظر العجيب للسماء عن الأبصار. وإذا قدر لك أن تكون بعيدا عن تلوث المدن، والسماء صاحية، والجو ساكن هادئ، فمتع بصرك في قبة السماء لتستمتع بآثار قدرة الخلاق العليم، التي جمعت بين العظمة التي لا يدرك حدودها إلا خالقها، وبين الجمال والعناية بالزينة على مستوى العناية بالإتقان، ودقة التقدير

7←9: وحفظا من كل ...ولهم عذاب واصب.

وظيفة أخرى قدرها للكواكب المنتظمة في السماء الدنيا القريبة، وظيفة حراسة السماء من تلصص الشياطين، الذين طبعوا على التمرد والخبث، هم ما يزالون يحاولون أن يستمعوا لما يجري في الملأ الأعلى ليروجوه، ويكون سندا في الاطمئنان لهم، والثقة بما يخبرون به من الأباطيل .فيتم مكرهم في خداع البشر. إنها محاولات متتابعة، ينطلقون فيها عن اقتناع من أن طبيعة تركيبهم من اختراق الأبعاد والوصول إلى السماء الدنيا، من ناحية، ومن ناحية أخرى ما بقي فيهم من أبيهم إبليس من قدرة على فهم ما يجري بين الملائكة مما يتلقونه عن رب العزة من الحق التام، هم مقتنعون بأنهم يستطيعون بالعاملين المذكورين من تسجيل شيء مما يجري في الملأ الأعلى .ولكنهم بمجرد ما يقتربون من المنطقة الحرام يلاحقهم شهاب من شهب السماء فيحرقهم، أو يفسد تركيبهم فيدفعهم دفعا بكل احتقار .ويحقق الله صون ما حجبه عن الشياطين. فهي محاولات فاشلة، لا يسمعون أي شيء مما يجري في الملأ الأعلى. ولكنهم لشدة خبثهم وتأصل عدائهم لذرية آدم، لا ينفكون عن المحاولات وشهب السماء دائما لهم بالمرصاد. كيف يتم ذلك ؟ هذا من الغيبيات التي نقتصر في تبينها في الحدود التي ذكرها القرآن. وما وراءها يتجاوز مداركنا والبحث عنه لا يبلغ بالباحث إلى غايته. فهم يقذفون بالشهب من كل جانب دحورا إبعادا باحتقار، ولوقاحتهم وجراءتهم تحقق لهم عذاب دائم، مرجومون في الدنيا بالشهب، ولعذاب الآخرة أشد .

10ـ إلا من خطف...عذاب واصب.

يؤكد القرآن أن من وقع في سمعه مسموعا مخطوفا غير تام ولا واضح، لا يسعد به ولا يحقق له أي غرض، إذ يلحقه الشهاب المخرب لتركيبه فلا يحصل من محاولته إلا على الاحتراق المخرب لكيانه .

فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَهُمۡ أَشَدُّ خَلۡقًا أَم مَّنۡ خَلَقۡنَآۚ إِنَّا خَلَقۡنَٰهُم مِّن طِينٖ لَّازِبِۭ ﴿١١﴾ بَلۡ عَجِبۡتَ وَيَسۡخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذۡكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗا وَعِظَٰمًا إِنَّا لَمَبۡعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَءَابَآؤُنَا ٱلۡأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلۡ نَعَمۡ وَأَنتُمۡ دَٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ فَإِذَا هُمۡ يَنظُرُونَ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

استفتهم : اسألهم عن رأيهم .

أشد خلقا : أصعب خلقا.

لازب : الطين الذي اختمر حتى أصبح قابلا للالتصاق بغير .وفسر عتيق حتى اسود .

يسخرون : يستهزئون .

يستسخرون : يبالغون في السخرية.

داخرون : صاغرون أذلاء .

زجرة صيحة تبعثهم

بيان المعنى الإجمالي :

إلجاء للمتصلبين في إنكار البعث ليذعنوا بما يقتضيه الدليل العقلي. هل إن إعادتهم إلى الحياة للبعث أشد وأعسر من خلق السماوات والأرض وما يعمرهما من المخلوقات كالملائكة والإنس والجن. فإذا كانت قد تم خلقها من غير مادة ولا مثال سابق، فالبعث من التراب أيسر لا محالة. وتأملهم في أصل خلقتهم يلجئهم أيضا إلى الاعتراف بالبعث. فأصل البشر طين طال أمد تخمره حتى اسود وأصبح قابلا للالتصاق بغيره. والتراب الذي استبعدوا بعث الحياة فيه هو أحد عنصري الطين اللازب.

ثم سجل القرآن تعجب النبي ﷺ من رفضهم، كما سجل عليهم دناءتهم بالاستهزاء بالبعث. وعجب آخر من أمرهم: أنهم إذا ذُكِّروا فوُعِظُوا بما يدعو إلى الاتعاظ والخشية، كانت عقولهم وأرواحهم محجوبة عن قبول الحق، فهم لا يتعظون. وإذا جاءتهم الآيات الدالة على صدق الرسول قابلوها بالسخرية، وبأن ما شاهدوه هو نوع سحر بين لا شك فيه غالط أبصارهم وخدعها. ثم كشفوا عن سبب رفضهم: أن عقولهم لا تقبل أن يعودوا إلى الحياة بعد

أن تحللت أجسامهم، وجردت عظامهم مما كان يكسوها، ثم انقلب الكل إلى تراب. وهل يمكن أن تعود الحياة لآبائنا الذي مضى على موتهم زمن بعيد؟ أجابهم الحق سبحانه، آمرا رسوله أن يقول لهم: نعم ستبعثون وأنتم أذلاء صاغرون .يتم ذلك بصيحة واحدة تحتكم على الإسراع فتسرعون، وتعود لكم جميع مداركم، فتبصرون فجأة حقيقة البعث واقعة لا ريب فيها.

بيان المعنى العام :

11ـ فاستفتهم...من طين لازب.

اسأل هؤلاء المعاندين المنكرين للبعث يوم القيامة، استبعادا لإمكان تحققه :اسألهم سؤالا يلجئهم إلى الاعتراف بما رفضوه؛ هل إن إعادتهم كما كانوا في الدنيا، أذلك أصعب وأبعد تصورا في تقديرهم من خلق الأرض والسماوات ومن فيهما من الملائكة والإنس والجن والكواكب، وما يعمرهما مما هو معلوم لهم أو مغيب لا يعلمه إلا الله ؟لقد تم خلق ذلك على غير مثال وبدون مادة للصنع. إنهم إذا كانوا يملكون أدنى درجة من الإنصاف لا يستطيعون إلا أن يعترفوا بأن البعث أيسر من ذلك. ثم أضافت الآية ما يزعزع تصلبهم في الإنكار بتذكيرهم بأصل خلقهم. تعلقت القدرة الإلهية بتحويل الطين الذي طال أمد تخمره حتى اسود، وأصبح قابلا للالتصاق بغيره؛ فتم من هذا الطين خلقكم. ولما كان الطين ترابا كان هذا التنظير مبطلا استبعادهم في قولهم أئذا كنا ترابا

12ـبل عجبت ...ويسخرون.

ينقل القرآن المحاجة من واد إلى واد آخر. فيخاطب رسوله ﷺ مسجلا ما حصل في نفسه: تملكك العجب من عناد قومك، إذ هم أهل فطنة بما تميز الجنس العربي من سرعة الخاطر وحدة الذهن، وحضور البديهة، ومع هذه الصفات تصلبوا فسجل عليهم الأمور الآتية

أولا: أنكروا البعث، وأعلنوا أن عقولهم تحيل أن يعود الناس إلى الحياة بعد الموت. وأضافوا إلى إنكارهم مواصلة الاستهزاء بعقيدة البعث .فأضافوا إلى المجادلة التلبس بخلق السفهاء الذين يعمدون إلى الحرب النفسية بالباطل ليؤثروا في الدهماء.

13ـوإذا ذكروا لا يذكرون.

ثانيا: وهو مما يثير العجب أيضا، أنهم إذا ذكروا بما يؤثر في العقول لواضح بيانه، وفي المشاعر بانسجامه مع الفطرة، التذكير الذي كان من المفروض أن

يلتصق بهم ويحولهم إلى ما هو أفضل وأرقى، يقوم التصلب في الكفر حاجزا مانعا من التأثر، فلا يذكرون شيئا مما سمعوا ورأوا.

14ـوإذا رأوا آية يستسخرون.

ثالثا : أنهم إذا رأوا بأبصارهم دليلا خارقا للعادة يؤيد الرسول ﷺ فيما أثبته :أنه مبعوث من عند الله، قابلوا ما الأصل أن يرفع العناد ويُخْضِعَ المشاهدين فيصدقوا ويؤمنوا، قابلوا ذلك بالمبالغة في السخرية والاستهزاء، زاعمين أنه سحر مبين .كما جاء في قوله تعالى: (**اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر**)[1]

15ـوقالوا إن هذا لسحر مبين.

رابعا: وهو مما يدعو للعجب من صفاقتهم، أنهم قابلوا الآيات وقابلوا الإعجاز القرآني نظما ومضمونا، وتذكيرهم بما حصل للمكذبين للرسل من قبلهم، وتحقيق أمر البعث حتى لا يكون الخلق عبثا، جمعوا كل ذلك وعبروا عنه: إنه لا يخرج ما عرض علينا عن السحر البين الذي يخدع العقول والأبصار.

16←17: أئذا متنا...أو آباؤنا الأولون.

ثم سجل القرآن ما زعموا أنه يسندهم في الرفض، فقالوا: كيف يتصور البعث بعد أن تتحلل أجسامنا، وتتحول إلى تراب ؟ إنكارا له. وزد على ذلك آباؤنا الذين مضى على موتهم أزمان أن يبعثوا معنا.

18←19: قل نعم...ينظرون.

جاء الجواب عن استفهامهم، واستبعادهم من رب العزة، فأمر رسوله، وقوله تعالى **هو الحق**، أن يقول لهم: نعم بكل تأكيد ستبعثون، وأدمج في تحقق بعثهم الحالة التي يكونون عليها، أنهم يبعثون أذلاء يعلوهم الصغار.

-سيتم بعثكم بصيحة واحدة تزجركم زجرا، فتخرجون من قبوركم مسرعين. ويصف القرآن وضعهم بعد البعث، إن الحاصل أمر سريع مفاجئ، هم جميعا في لحظة واحدة تعود إليهم مداركهم، فينظروا الوضع الذي صاروا إليه.

وَقَالُواْ يَـٰوَيْلَنَا هَـٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَـٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ ٱحْشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهْدُوهُمْ

---

[1] سورة القمر آية 2/1

إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ ۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ
ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ كُنتُمْ
تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ بَل لَّمْ تَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن
سُلْطَٰنٍ ۖ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ ۖ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ
إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ
بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الويل : سوء الحال .

يوم الدين: يوم الجزاء.

الفصل : تمييز الحق من الباطل.

الحشر : جمع المتفرقين إلى مكان واحد.

الأزواج : يحتمل أن يكن حلائل الرجال، ويحتمل أن يكون ما هو من صنفهم.

الهداية : الدليل على الطريق لمن يجهله.

الاستسلام : الخضوع وترك المدافعة.

طاغين : متكبرين عن قبول الهداية.

أغويناكم : ساعدناكم على الضلال.

غاوين :ممعنين في الضلال

بيان المعنى الإجمالي :

أدركوا الحقيقة الصادقة، فقالوا: يا لسوء حظنا، يا خسارتنا وهلاكنا ! هذا يوم الجزاء . ويسمعون صوت الملائكة يزيدهم تعاسة يقول لهم : هذا يوم الفصل الذي قضى فيه قضاء باتا. اليوم الذي كنتم تكذبون به في الدنيا ويأذن الله ملائكته أن يجمعوا المشركين وأزواجهم، وما كانوا يعبدونه من دون الله، الأصنام وغيرها، فدلوهم على طريق الجحيم .ويدفعون إلى جهنم، وإذا بالإذن العالي من رب العباد يأمر بإيقافهم حتى يحاسبوا، فيعرف كل فرد ما عمل في دنياه من سوء عقيدة وسلوكًا. ثم يُسألون أولا سؤال توبيخ وتعجيب، ما لكم لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم في الدنيا ! كان كل واحد منكم ينصر أخاه الكافر على ظلمه وعلى كيده للإسلام. ومن أين لهم أن يتناصروا؟ إذ كل فرد منهم مستسلم مذعن ذليل.

وفي هذا الظرف ينشب حوار بين السادة والدهماء. يروم المستضعفون تحميل السادة مسؤولية كفرهم، فقالوا لهم: إنكم كنتم تأتوننا في الدنيا بقوة لتصدونا عن الإيمان. ودافع السادة عن أنفسهم فردوا عليهم: الواقع خلاف ذلك، فإنكم اخترتم الكفر وما كان لنا عليكم تسلط يجبركم على الكفر. بل إن الطغيان والاستكبار عن قبول الهدى كان مقوما من مقوماتكم. فحق علينا وعليكم وثبت ما قاله ربنا من تسليط العذاب والمهانة، لنحس بذلك أكمل الإحساس. نعم إنا حببنا لكم طريق الضلال، لأنا كنا عليه لتكونوا مثلنا، أضللناكم لأننا كنا ضالين. وتأتي النتيجة : إن المستضعفين والكبراء يشتركون في أصل العذاب وفي ذوقهم آلام الجحيم. إني أنا الله على هذا النحو من إلجاء الكافرين إلى مصيرهم في جهنم أفعل بالمشركين.

بيان المعنى العام :

20ـوقالوا ياويلنا...كنتم به تكذبون.

نظروا فيما حولهم فتبينوا أنهم تحولوا من عالم إلى عالم آخر، من العالم الذي كانوا يُكَذِّبون فيه بوقوع هذا اليوم، إلى اليقين بتحققه، فقالوا يا ويلنا، يا خسارتنا وسوء حالنا، حالة اليائس الذي يندب حظه. هذا يوم الدين: يحتمل أنهم صرحوا بما استيقنوه فقالوا: هذا يوم الجزاء. كما يحتمل أنه من قول الملائكة بعد أن ندبوا حظهم، فقالوا لهم : هذا يوم الجزاء، الذي تنالون فيه جزاء ما قدمتموه في الدنيا.

الظاهر أنه كلام تنطق به الملائكة إثر مناداة الكافرين بالويل والهلاك، فيخاطبونهم بقولهم: **هذا هو يوم الفصل**، اليوم الذي يفصل فيه فلا تأخير ولا تأجيل. هو يوم القضاء الذي يعقبه التنفيذ . هو اليوم الذي واصلتم التكذيب به، ويحتمل أن يكون ذلك من قول الكافرين أنفسهم، إذ يستيقظ في نفوسهم ما كان يخبرهم به المرسلون.

22←24: احشروا الذين ظلموا...إنهم مسؤولون.

بعد أن عَرَفُوا أو عُرِّفوا أن هذا اليوم هو يوم الفصل الذي تصدر فيه الأحكام الباتة. أذن الله لملائكته أن يجمعوا الذين ظلموا بالإقامة على الشرك، ويسوقونهم مع أزواجهم اللاتي وافقنهم على رفض الدين، والتصريح بهن مفيد أن المسؤولية يتحملها الذكور والإناث على حد سواء. ولذا فإن النساء اللاتي خالفن أزواجهن فأمن لا ينالهن ما ينال أزواجهن الكفرة. ويضم إليهم المعبودات من الأصنام والتماثيل التي عبدت من دون الله، وذلك إمعانا في الإذلال تبعا لما كانوا يعتزون به في الدنيا. اجمعوهم وأسرعوا بهم إلى طريق الجحيم .وإن كان أصل الهداية الدلالة على طريق الصواب والخير، إلا أنه أطلق لفظ الهداية على دلالتهم إلى الطريق الذي يبلغون به جهنم، تهكما بهم.

-إنهم سائرون يتدافعون إلى الجحيم، فيصدر الأمر الإلهي بأن يوقفوهم، إنهم لا يدخلون جهنم إلا بعد أن يحاسبوا على ما عملوا، ويتوجه السؤال لهم عن شركهم وعن الفساد الذي لوثوا به الكون..

25←26: مالكم لا تناصرون...مستسلمون.

يقفون وقلوبهم وجلة، فيسمعون نداء التوبيخ والتقريع: ما لكم لا تتناصرون ! ما الذي حولكم عما كنتم عليه في الدنيا من إسراعكم لنصرة بعضكم بعضا، باستعمال قوتكم لنصرة الباطل، وحبك المؤامرات التي تتقاسمون فيها الأدوار للإضرار بالإسلام والمسلمين. ويصرح القرآن بوضعهم الذي يكونون عليه: **هم اليوم مستسلمون**، خاضعون أذلاء؛ كل فرد مشغول بهمومه، خذل بعضهم بعضا.

27←28: وأقبل بعضهم...عن اليمين.

ذكرتهم الآية السابقة بعلاقاتهم في الدنيا. فتقدم المستضعفون الدهماء إلى رؤوس الكفر، كل فريق يسأل الفريق الآخر سؤالا يرمي إلى تحميله مسؤولية الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا .فجرى بينهم الحوار التالي:

قال الأتباع: **إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين.** واستشكل المفسرون ما يدل عليه هذا الإلزام. فخرجوه على أن قالوا: إنكم كنتم تأتوننا من جانب الخير لتشوهوه لنا وتصدونا عنه وتضلونا. وذلك أن كلمة اليمين مرتبطة بالخير عرفا كارتباط كلمة الشمال بالعسر والحطة. وخرج على أن معنى كنتم تأتوننا عن اليمين، على أنه كنتم تأتوننا متقوين علينا مرغمين لنا ومستضعفين. ومن ذلك قول الشماخ:

إذا ما راية رفعت لمجد **** تلقاها عرابة باليمين.

أي تلقاها عرابة بقوة وعزيمة، ولا يقصد أنه تلقاها بيده اليمنى. وتخريجات أخرى لم نتعرض لها لوضوح الآية على التخريجين.

29←30: قالوا بل ...كنتم قوما طاغين.

دافع الذين كانوا سادة في الدنيا فقالوا جوابا عن تحميلهم المسؤولية: كذبتم فلم نُدْخِلْ الكفر في قلوبكم ولم نُلزمكم به، بل كنتم صادين عن اتباع الرسول غير متفتحين على الإيمان. وما كان الإيمان يمثل مقوما من تفكيركم .هذا أولا. وثانيا فإنه ما كان لنا عليكم من قدرة تقهركم وتكرهكم على الكفر. ولكن الحقيقة هي أنكم كنتم متكبرين عن قبول الدعوة من رجل منكم جاءكم لينقذكم، فأبيتم عليه مستكبرين عن الحق .

31←33:فحق علينا قول...مشتركون.

ثم اعترفوا باستحقاقهم جميعــا للعــذاب الأتبــاع والكبــراء، والكفــر الــذي هــو ســبب العذاب قاسم مشترك بين الجميــع. فثبــت وتحقــق علينــا مــا قالــه ربنــا: إنــا جميعــا معرَّضون للعذاب الذي يكون إحساسنا به على أشد ما يكون الإحساس.

- نعترف بأنا دعوناكم إلى الضلال، وحببنا إلــيكم الانصــراف عــن الرشــد، فأغوينــاكم أضللناكم وأغريناكم بالضلال، إنا كنا ممعنــين فــي الضــلال، فمــا اخترنــا لكــم إلا مــا اخترناه لأنفسنا لتكونوا مثلنا، فرضيتم به فتحملوا نتيجة اختياركم.

33ـ فإنهم يومئذ في العذاب مشتركون.

هذا كلام صدر عن الحق سبحانه، يعرف به الرســول والمــؤمنين بمــا قضــى بــه فــيهم سادة وأتباعا .هم يشتركون في أصل العذاب وإن كــان عــذاب الغــاوين المُغْــوِين أشــد كما تدل عليه نصوص أخرى.

34ـإنا كذلك نفعل بالمجرمين.

على هذا النحــو مــن الجــزاء ومــن إذلالهــم وتعــذيبهم، يصــدر حكمنــا وينفــذ فــي المجرمين الكافرين.

إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

المخلصين : الذين أخلصهم الله لعبادته.

سرر: جمع سرير، من أثاث الراحة أوسع مــن الكرســي، لا يضــيق بحركــات الجــالس ولا بهيئات جلوسه.

الكأس : الوعاء الذي يشرب منه الخمر .

معين: جار مطرد.

لا فيها غول: منفي عنها ما يصحب شرب الخمر من الصداع، أو الارتخاء.

ينزفون :نزف البئرَ إذا نزح ماءها كله. فخمر الجنة لا تذهب العقل.

قاصرات الطرف: نساء لا يتجاوزن بأبصارهن مجلس الأنس الـذي يـنعم فيـه كـل فـرد من أهل الجنة

عين : جمع عيناء، وهي التي اتسعت حدقة عينها في جمال وتناسب .

بيض مكنون :بيض النعام في نقاوته وصفائه، المخفي بين الرمل والريش الناعم.

بيان المعنى الإجمالي :

استقر موقفهم على رفض عقيدة التوحيد، فـإذا قـال لهـم رسـول الله ﷺ : لا إلــه إلا الله، استكبروا وعدوا أنفسهم أعظـم مـن الخضـوع لإلـه واحـد. ويقـول بعضـهم لـبعض، ويشيعون في الأوسـاط: إنهـم لا يتـابعون رجـلا شـاعرا تصـور صـورا خياليـة، أو مجنونا. كل ما رموه به هو بريء منه لأن ما جاءهم بـه هـو الحـق، وهـو يتفـق مـع المرسلين قبله، يصدقهم في كونهم مبعوثين مـن عنـد الله، لا خـلاف بينـه وبيـنهم فـي أصول العقيدة.

يسمعون خطاب التهديد: إنكـم سـتعذبون عـذابا يبلـغ ألمـه أقصـى إحساسـكم. ومـا نظلمكم ولكن تجزون بما كنتم تعملون من ضلال العقيدة وسيء الفعال .

وإذ بسط القرآن جزاء المشركين، عقب ذلك بالجهـة المقابلـة. فاسـتدرك مميـزا عبـاد الله الذين أخلصوا له في عقيدتهم وسلوكهم. أولئـك المخلصـون اسـتحقوا رزقـا معلومـا عند الله. يقربه بأنه يشمل فواكه متنوعـة يصـحبها التكـريم، مـن أدب المناولـة وحسـن الخطاب عند التقديم. هم في أفضل منزل وأرفـع بيئـة، فـي جنـات النعـيم، مرتـاحون على سرر يأنس المنعم برؤية من يحب أن يـراه . يطـوف علـيهم الغلمـان بكـؤوس لا ينقص خمرها الأبيض النقي، كلها لذة لمن يشـربها. وكلمـا شـرب منـه لا يلحقـه منـه دوار ولا مغص، ولا تخدرهم وتذهب بيقظـتهم الفكريـة. وتحضـر مجـالس كـل فـرد منهم جواري لا تتعلق أبصارهن بغير المـنعَم الـذين هـن عنـده، بلغـت عيـونهن مـن الجمال والحور أعلى مرتبة،

بيان المعنى العام :

35←37: إنهم كانوا إذا...وصدق المرسلين.

ثبتوا في الدنيا ثباتا لا يتحولون عنـه: أنـه إذا قـال لهـم رسـول الله ﷺ:لا إلــه إلا الله . الله واحد وما عداه من معبوداتكم ليس لهـا شـيء مـن صـفات الألوهيـة، ولا اسـتحقاق العبادة، يرون أنفسهم أعظم مـن الإقـرار بهـذا المبـدأ. يقـول بعضـهم لـبعض، كمـا

يعلنون في المجامع، عدم قبولهم لمبدأ التوحيد، معللين رفضهم بسؤال فيه إنكار وتعجب حاصله : كيف نترك آلهتنا التي هي قوام تصورنا، لأجل كلام رجل إما أن يكون شاعرا يتحدث بأمور خيالية، أو هو مجنون مختل المدارك .رد الله عليهم قولهم ونفى نفيا قاطعا أن يكون محمد شاعرا أو مجنونا، كل من يتأمل مضمون ما دعا إليه، يدرك قطعا أن ما جاء به هو الحق الذي لا صلة له بالباطل، وتأكيدا لصدقه : أنه مصدّق للرسل الذين تقدموه يعترف برسالتهم، ويتفق معهم في أصول العقيدة، ويثبت أو يخبر بنسخ ما انتهى أمد العمل به .

38←39 :إنكم لذائقوا ...ما كنتم تعملون.

خاطبهم الله تعالى بواسطة ملائكته: إنكم لمعذبون العذاب المؤلم لا محالة، وإن إحساسكم به سيكون كأشد ما يكون الإحساس، كما تدل عليه كلمة لذائقون، فإن حاسة الذوق قوية .و ما تلقونه هو جزاء وفاق، لا ظلم فيه، ولا نكال أعظم من ذنوبكم التي اقترفتموها. من الإشراك بالله ومن الظلم، وإيذاء رسول الله ﷺ، والتعدي على صحابته، ووأد البنات، وغصب الأموال، والزنا وجميع ما أَتَوْهُ من قبيح الفعال .

40- إلا عباد الله المخلصين .

وقع استثناؤهم استثناء بمعنى لكن، في قوة الاستدراك. أتبع سبحانه أحوال الصالحين من عباده يوم القيامة، بعد أن حقق تعذيب الكافرين على شركهم وسيء أعمالهم .فأكرمهم :

أولا: بوصفهم أنهم **عباد الله** ورضا الله سبحانه عنهم بنسبتهم إليه تعد من أفضل ما كرّموا به. يقول الإمام الشافعي ﷺ :

ومما زادني شرفا وفخرا *** وكدت بأخمصي أطأ الثريا

دخولي تحت قولك يا عبادي *** وأن أرسلت أحمد لي نبيا

ووصفهم بكونهم المخلصين الذين تمحضوا لعبادته وطاعته .

41←43: أولئك لهم رزق...وهم مكرمون.

ثانيا: أن الله قدر لهم **رزقا معلوما**. فهمت منه أنه معلوم عنده، لا يحيط بخصائصه البشر، فليس هو من رزق الدنيا. وقربه لإدراك المخاطبين بأنه فواكه، ومعلوم أن الفاكهة ألذ أنواع الطعام، وأيسرها هضما، وأمتعها مذاقا. لا يقدم لهم الطعام تلبية للحاجة إلى الطعام، فإن أجسامهم تختلف عن الصورة الدنيوية. فهي لا تحترق فيها القوى لتتجدد بالطعام، مما ترتب عنه أن الحياة الدنيا كلها هدم وبناء داخل الذات

وخارجه. فلما كتب لهم الخلود كان بناء أجسامهم طبعا حسبما يقتضيه الخلود، لا يلحقهم فناء جزئي ولا كلي. ويؤكد القرآن على الجانب النفسي، فهم عندما يقدم لهم طعامهم يلاحظ دوما أنهم مكرمون .

43←49:في جنات النعيم ...بيض مكنون.

ثالثا: يتتابع في هذه الآيات السبع تفصيل ما يقرب للمؤمنين جزاءهم يوم القيامة. فهم مقيمون في الجنات التي يحس المقيم فيها بكل نوع من أنواع النعيم، فمهما جنح بأحدهم الخيال في تصور ما أعد لهم لم يبلغ التصور الدقيق، لأن قوة الملاءمة تجعلهم لا يحسون بنقص نفسي ولا مادي.. هم في الجنة يجدون الراحة الكاملة في مجالسهم، فلا هم على الأرض، ولا على كراسي تضيق بتقلبهم أو بالهيئة التي تكون أكثر ملاءمة. وأن الحواجز التي تحجب المشاهدة معدومة في الجنة. فأنسهم ببعضهم البعض موفور. ويقرب هذا خاصية لأصحاب الجنة، ما أصبح شائعا اليوم من التواصل بين أطراف الأرض بواسطة أجهزة الاتصال الحديثة، فالفرد في جنوب الأرض يستطيع مشاهدة أهله وأصدقائه في المحيط المنجمد الشمالي، وهو في بيته .

يطوف الولدان الموكلون بخدمتهم، وأنسهم، يطوفون عليهم بكؤوس الخمر التي كلما شربوا منها عادت كهيئتها الأولى، لا ينقص منها شيء، فكل ما في الجنة مرتبط بصفة الخلود وعدم النقص والفناء. ثم أخذت الآية تصف الخمر بما اختصت به مما يجعلها غير الخمر المعروفة في الدنيا. فهي بيضاء وصفة البياض يلازمها النقاء والصفاء إذ اللون الأبيض يكشف كل دخيل عليه. ولا يجد شاربها ألما ولا دوارا ولا تشنجا ولا ارتخاء. فخمر الدنيا تتحكم في بدن شاربها ومداركه، وخمر الجنة لا يجد منها شاربها إلا لذة كبيرة ترضي ذوقه. إن هذه اللذة التي تنساب في شعاب كيانه تفارق ما يتبع خمر الدنيا من صداع في الرأس أو مغص، والتخدير الكامل وذهاب اليقظة العقلية. وكما قلنا إن بناء الجنة كله على الخلود، لا يلحقه نقص ولا زوال.

وتحضر مجالس كل فرد منهم، الجواري اللاتي جمعن بين إخلاص الود، فعيونهن لا تتجاوز المنعَّم الذي هن حوله، لأنه ملأ نفوسهن غبطة ورضا، وبين صفاء البشرة صفاء يلقي عليهن مسحة من البريق واللمعان. إن كلمة"**بيض**" تدل على بيض النعام الذي من شأنه أن يُكِنَّ بيضه في الرمل بعد أن يفرش لها من ناعم ريشه فتكتسب من تلك العناية صفاء ولمعانا. وذكر المفسرون أن التشبيه:**كأنهن بيض مكنون** يتبعه أن لونهن، بياض مشوب بصفرة، أخذا من لون بيض النعام.

وهذا بعيد عندي. ذلك أن التشبيه لا يلزم فيه التساوي بين المشبه والمشبه به في جميع الصفات. فتشبيههن ببيض النعام لا يؤخذ منه إلا الصفاء واللمعان، وما زاد على ذلك من الصلابة والصفرة لا مدخل له في التشبيه. وما يزال الشعراء يشببون بورد الخدود الجامع بين الجمال والحيوية. وما دخلت الصفرة في تشبيبهم إلا للدلالة على شدة تعلق المحبوبة بالشاعر، يفارق النوم جفونها وتسهر مع ذكراه، فتصبح ولون بشرتها مشوب بصفرة. على أن كلمة عِين ارتبطت في القرآن بكلمة حور، ولا توصف بها المرأة إلا إذا كان بشرتها بيضاء نقية. جاء في القاموس وشرحه: أو الحَوَرُ شدة بياضها وشدة سوادها في شدة بياض الجسد .ولا تكون الأدماء حوراء [1].

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا إِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾

بيان معاني الألفاظ:

القرين : الصاحب الملازم .

المصدق : الموقن.

المدين : المجازى وأغلب ما يكون في السوء.

سواء الجحيم : وسطها.

ترديني : توقعني في الهلاك.

بيان المعنى الإجمالي :

يسجل القرآن مجلسا من مجالس الأنس بين المنعَّمين في الجنة، أخذوا يتساءلون عن أمور مضت في الدنيا. قال أحدهم إني كان لي قرين يلازمني، ولما علم بإسلامي بذل كل جهده لأرتد، كان يقول لي: أعجب لك كيف تصدق أننا إذا متنا وتحللت أجسامنا وتفتت عظامنا واختلطت بالتراب، أن نعود إلى الحياة ونجازى

[1] تاج العروس ج 11 ص100

عن أعمالنا. وعرض على إخوانه أن يطلعوا على أهل النار، ويسر الله لهم ذلك فرأى قرينه في وسط النار. خاطبه بقوله: قسما بالله إنك عملت كل ما في وسعك لأكفر بالإسلام فأهلِكَ. ولكن فضل الله عليَّ أنقذني من إلحاحك، ولولا فضله سبحانه علي لكنت مُحْضَرًا في جهنم مثلك. ثم قال لهم وقد غمرت السعادة كل مداركه فقال: أنحن خالدون لا نموت ولكن الموتة الأولى قد مضت، وأنا لا نعذب. حقا إن هذا الذي نحن فيه هو **الفوز العظيم** . لنيلِ مثلِ ما نالـه هؤلاء السعداء**فليعمل العاملون** الخيرَ الذي يُبلّغهم مثل منازلهم.

بيان المعنى العام :

50.فأقبل بعضهم...يتساءلون.

لون آخر من ألوان النعيم التي يكرم بها الله الفائزين بالجنة. إضافة إلى ما تقدم من أنواع النعيم المادي، يتمثل ذلك في مجالس الأنس، وما يدور فيها من أحاديث. والظاهرة الأولى المسجلة أن استماعهم لبعضهم يجري على المستوى الرفيع من الأدب. أقبل بعضهم على بعض. من نكد المجالس الإعراض عن المتحدث أو مقاطعته. يقول الشاعر:

من لي بإنسان إذا أغضبته وجهلت *** كان الحلم رد جوابه

وتراه يصغي للحديث بسمعه *** وبقلبه ولعله أدرى به

فالمجالس على هذا المستوى من الأدب، يقبل الإخوان على الاستماع من محدثهم. ويشارك كل فرد بما عنده، فلا ينفرد أحدهم بالحديث.

من أحاديثهم: أن بعضهم يثير من الحوادث ما يجدد الله علوقه بذهنه من أمور الدنيا. ويغيب عنه نهاية الأمر مآله. ويسجل القرآن من ذلك الحادثة التالية:

53.51ـقال قائل منهم ...أئنا لمدينون.

قول أحدهم: كان لي في الدنيا قرين بيننا تلازم، يهتم كل منا بصاحبه. وكنت اهتديت إلى الإيمان بمحمد ﷺ .

-فكان يَعجَبُ منكرا علي أن أكون من المصدقين بمضامين الرسالة التي منها، أننا نبعث يوم القيامة بعد أن نموت وتتحلل أجسامنا وتتحول إلى تراب، وكذلك عظامنا، وأننا نوقف بعد ذلك التحول فنجازى على ما قدمنا في الدنيا.

54←55: قال هل أنتم...سواء الجحيم.

مما يكرم به أهل الجنة: أنهم إذا رغبوا في شيء أجيبوا تفضلا من الله عليهم. فهذا رغب أن يعلم مصير قرينه، وحسب المعطيات أنه سيكون من أهل النار. فقال لإخوانه : هل ترغبون في الاطلاع على أهل جهنم لنرى هل هو من بينهم.

مكنته الملائكة من الاطلاع على أهل النار، ومُيز له قرينه في الدنيا، فرآه يصلى النار في وسط جهنم .

56← 57: قال تالله ...لمن المحضرين

لما رآه في وسط الجحيم، قام بتوبيخه على ما كان يلح به عليه في الدنيا، ويحاوله من صده عن مواصلة التمسك بالإسلام، وأقسم له قسما مغلظا: إنك بذلت كل ما في وسعك لتهلكني، ويكون جزائي مثل جزائك.

إن الذي أنقذني من إغوائك، وعطل تأثيرك علي هو فضل الله علي بتثبيتي على الإيمان، ولولا ذلك الفضل والتثبيت لكنت مثلك من المحضرين معك في النار.

58←59: أفما نحن بميتين...بمعذبين.

الذي عليه معظم المفسرين أن هذه الآية تواصل تسجيل ما قاله من دعا إخوانه للاطلاع على مصير قرينه. فيكون التقدير أنه بعد أن اطلع على وضع قرينه فاض شعوره بالسعادة التي هو فيها فلم يستطع إلا أن يعبر عن ذلك فقال: أنحن خالدون فلا نذوق الموت أبدا؟ لكن الموتة الأولى التي مضت هي كل علاقتنا بالموت. وأننا لا نعذب ؟ كأنه يقول: ما أعظم سعادتنا ! حقا إن ما بلغناه هو الفوز العظيم.

ويمكن أن تفهم الآية على أنه من خطابه لقرينه مؤنبا له يقول له: أين ما كنت تقوله من أنها موتة لا قيام بعدها ولا عذاب ولا حساب .

61ـ لمثل هذا فليعمل العاملون

يمكن أن تفهم على أن الله سبحانه أنزل عقب تعريفه بما يجري يوم القيامة، بتحريض البشر على أن يعملوا العمل الذي ينالون به مثل ما حظي به المنعمون من قوله تعالى :**أولئك لهم رزق معلوم** .... ويمكن أن يفهم على أنه من تمام القصة في حديثه مع إخوانه.

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ
تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا
فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ
لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾
وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

النزل : الطعام المهيأ للضيف.

تخرج : تنبت.

طلعها : أطلق على ما تخرجه من الثمار كلمة الطلع الخاصة بالنخل.

شوبا : خلطا.

الحميم : القيح السائل من الدمل .

الإهراع : الإسراع.

بيان المعنى الإجمالي :

أيهما أفضل فواكه أهل الجنة وما يطلبونه، أم شجرة الزقوم في جهنم. هذه الشجرة التي فتن بها الظالمون المشركون. فزادتهم كفرا وعنادا. هي شجرة تنبت في قعر جهنم، ثمرتها بشعة جدا كأنها رؤوس الشياطين. يحدث الله فيهم شراهة شديدة فيقبلون على الأكل منها لا ينفكون حتى تمتلئ بطونهم. ثم تحدث فيهم داعية الشرب، فيسقون من قيح وصديد شديد الحرارة أنتن ما يكون منظرا وأخبثه. ثم يعودون إلى أماكنهم في الجحيم. بأيديهم واختياراتهم نالوا ما نالوه من العذاب والمهانة، إنهم وجدوا آباءهم ضالين تشهد الفطرة والعقل بفساد عقيدتهم، وبالرغم من ذلك قلدوهم وأسرعوا للسير على منهجهم. وقد سار أكثر الأمم السابقة على النحو الذي سار عليه كفار قريش، بالرغم من أنا أرسلنا إليهم رسلنا لينذروهم عاقبة الكفر. انظر إلى عاقبتهم، تقوم آثار المنذرين المكذبين شاهدة على ما لحقهم من عذاب. ويستثنى من الأولين عباد الله الذين أخلصوا دينهم لله فقد فازوا.

بيان المعنى العام :

62ـأذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم.

يهدف القرآن إلى التأثير على الناس حتى يؤمنوا فيصلحوا عقيدتهم وأعمالهم. وفصّلت الآيات السابقة شيئا من نعيم أهل الجنة مما يبعث على السعي لنوله. ولتأكيد ذلك عرض هذه المقارنة بين ما يقدم لأهل الجنة وما يقدم لأهل جهنم فقال: أذلك الذي ذكر أنه يقدم كرامة لأهل الجنة من الفواكه وكل ما يخطر ببالهم خير أم شجرة الزقوم التي تقدم لأهل النار ؟وشجرة الزقوم لم تكن حقيقتها معروفة عند قريش. وذكر أنها شجرة تنبت في الأراضي القاحلة شجرة مرة مسمومة، لها لبن إن مس جسم أحد تورم ومات منه في أغلب الأحيان. وإن اتحدت شجرة جهنم معها في الاسم فهي غيرها في الواقع. وقد ذكرت في سورة الواقعة، مجملة ثم فصلت في سورة الدخان وفي هذه السورة.

63←65:إنا جعلناها ... كأنه رؤوس الشياطين.

ذكر القرآن خصائصها التي منها :

1)أنها كانت سببا لفتنة الكفار فزادتهم حيرة، إذ اتخذ بعضهم هذا الخبر وسيلة للتندُّر، وللتأثير على الدهماء. استبعادا أن تنبت النار شجرا. ووصفهم بالظالمين لأنهم ظلموا بشركهم، وظلموا لأنهم حصروا القدرة الإلهية في تصوراتهم الدنيوية

2)أنها تنبت في قعر جهنم. طبيعتها نارية تتشعب أصولها وعروقها في الطبقات السفلى للجحيم، وهو ما يجعل ما تخرجه من طبيعة المكان الذي استقرت فيه.

3) طلعها ما تخرجه من الثمر أشبه ما يكون برؤوس الشياطين. ويفهم هذا التعبير، إما على أنه من أسوأ ما يكون منظرا، تبعا لما استقر في خيال الناس أن الشياطين أقبح المناظر وأبشعها، فإذا أرادوا التعبير عن قبح وجه، قالوا له وجه شيطان، وإذا أرادوا التعبير عن حسنه ولطفه، قال: له وجه ملك .وكذلك إذا صوره المصورون جاؤوا بأقبح ما في خيالهم. ويمكن أن يكون ثمرها قرِّب بصورة أفعى لها أعراف على عنقها قبيحة المنظر هائلة. ويمكن أن يراد برؤوس الشياطين ثمر الأستَن، شجرة تنبت في بادية اليمن سموا ثمره رؤوس الشياطين لبشاعة منظره.

66ـ فإنهم لآكلون منها فمالؤون منها البطون

يحدث الله في طباع أهل جهنم شراهة للأكل منها على قبحها ونتنها، وكلما أكلوا زادوا شراهة ومواصلة حتى تمتلئ بطونهم فيعذبون من طعمها ثم من ثقلها وقد امتلأت البطون .

67←68:ثم إن لهم عليها...لإلى الجحيم.

تنبعث داعية العطش ليشربوا، فلا يجدون إلا شرابا من حميم هو لون القيح ونَتْنه شديد الحرارة يشوي وجوههم ويقطع أمعاءهم .

– لما كانت شجرة الزقوم نابتة في قعر جهنم، فإنهم يدفعون إليها ليأكلوا من ثمارها ثم يشربوا من الحميم على حسب ما وصف، ثم يعودون إلى منازلهم الخاصة في الجحيم التي تضيق بهم .

69←70: إنهم ألفوا آباءهم...يهرعون.

ما الذي أوقعهم فيما وقعوا فيه من العذاب والمهانة ؟ لقد جاءهم الرسل هداة يكشفون لهم طريق الحق، وينذرونهم سوء عاقبة الكفر والفساد. السبب في ذلك هو التقليد . وجدوا آباءهم سائرين في طريق الضلال، فعطلوا عقولهم، وأعرضوا عن

التأمل في الهدى الذي بلّغهم إياه رسل الله. وألزموا أنفسهم اتباع خطى الآباء بل إنهم كانوا يسيرون في طريق الضلال هذا مسرعين غير ملتفتين لأي شيء .

71←73: ولقد ضل قبلهم...عاقبة المنذرين.

على هذا النحو من اتباع الآباء وعدم التأمل فيما جاء به الرسل من الحق الواضح الذي تشهد له الفطرة، ويقتضيه العقل، وقع في الضلال بالتقليد أكثر الأمم السابقة . بالرغم من أننا أرسلنا فيهم رسلا يهدونهم ويبينون لهم، وينذرونهم سوء العاقبة إذا هم لم يؤمنوا. ولا تغرنكم كثرة المكذبين فإن الكثرة لا تقوم أمارة على الحق ولا مميزة بينه وبين الباطل .فصدق الحق ينبع من ذاته.

- إن آثار الأمم التي عذبت واستؤصلت لما كذبت رسلها حاضرة أمامكم تشهدونها في أسفاركم، فاعتبروا بالعاقبة الخاسرة التي آلوا إليها .

74. إلا عباد الله المخلصين.

لكن الذين أخلصوا دينهم لله ولم يشركوا به شيئا، صدقوا الرسل المنذرين ففازوا برضوان الله وحسن جزائه.

وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

نجيناه : خلصناه من الكرب الذي هو فيه.

الكرب العظيم : الطوفان

بيان المعنى الإجمالي :

نداء التجاء واستغاثة من نوح عليه السلام توجه به إلى ربه. أجاب الله نداءه فسلمه ونصره على أعدائه وأكرمه. وهو خير مدعو ومجيب. فصلت الاستجابة: أنه نجاه وأهله من الطوفان. وقدّر أن يكون سكان الأرض بعده من ذريته. وأبقى ذكره سائرا مع الدهر ثناء عليه وإكبارا. سلام من الله ومن عباده الصالحين على نوح سلام مستمر مع الزمن. إنه على هذا النحو من التكريم نجزي من كان الإحسان قوام أعماله.

وأعظم ثناء عليه أنه كان من المؤمنين الذين أضاء الإيمان مداركهم وحياتهم .
وفوق ذلك دمرنا المعاندين الكفرة أعداءه فأغرقناهم أجمعين لم ينج منهم أحد.

بيان المعنى العام :

75ـ ولقد نادانا نوح...المجيبون.

تضمنت الآية 71 أن الله أرسل رسله في الأمم السابقة، فجاءت هذه الآية وما يتلوها تخبر عن ثلاثة من رسل الله [نوح وإبراهيم ويوسف] ثم عن ثلاثة من أنبياء الله [لوط وإلياس ويونس] ليكون في قصصهم تسلية لرسول الله ﷺ وتثبيت له على مواصلة الدعوة، وإنذار للمشركين بعرض صور من نقمة الله على القوم المكذبين .

تبدأ قصة نوح بنداء توجه فيه إلى ربه ليسعفه بعد أن بذل كل إمكاناته لنشر التوحيد. ذكرت تلكم الدعوات في سور من القرآن منها: تكذيب قومه،(**إن قومي كذبون، إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا ومكروا مكرا كبارا**) [1] . أعقب الله استغاثة نوح بإجابة استغاثته. وأي إجابة ! إنها تفوق ما كان يأمله نوح من ندائه، إذ الاستجابة كانت من أفضل مجيب وأقدره وأكمله .فلنعم المجيبون. حققنا له مراده ونصرناه على أعدائه. وانتقمنا منهم أبلغ ما يكون الانتقام.

76←79: ونجيناه وأهله...على نوح في العالمين.

أفصحت هذه الآيات عما اشتملت عليه الإجابة من خير مجيب:

أ–**نجيناه ونجينا أهله** ، مِنّتان انتلفتا فلم يتضرر من الطوفان، الذي أخذ قومه حتى من أعالي الجبال، ونجى كذلك أهله: زوجه والصالحين من أولاده. فلم يمسسهم سوء، وسلموا من المياه العاتية والاختناق بالغرق. وذلك هو **الكرب العظيم** .

ب– وقدرنا تقديرا محققا: أن انحصر سكان الأرض في ذريته، فكلهم من نسل نوح وذريته. وإنه لشرف لنوح أن يضاهي آدم عليه السلام فكان الأب الثاني للبشرية

جـ – ونعمة أخرى تضاف إلى ما تقدم أن الله بارك في عمله، فبقي اسمه مذكورا أبد الدهر ويرى الزمخشري أن الله أبقى على نوح هذه الكلمة" **سلام على نوح في العالمين** " فالأمم والملائكة والجن كلهم يسلمون على نوح واستمر ذلك مع الزمن يطوي القرون دون أن يجمع الناس على تركه .فوصل بين الآيتين في المضمون . ويمكن فهم الآية على أن الله أبقى الثناء الحسن والذكر الجميل على نوح في

---

[1] سورة نوح آية 22/21

العالمين .ثم أضاف إلى ذلك السلام منه سبحانه وهو الرضا والتقريب، وثبته في العالمين .

81←82:إنه من عبادنا...الآخرين.

ثم وجهت الآية معللة ومبينة السبب الذي من أجله بلغ نوح هذا المقام الزكي. شهد الله له بأنه كان من المنغمسين في الإحسان. الإحسان الذي يدخل في كل شيء، إحسان في العبادة: أن تعبد الله كأنك تراه، وإحسان في المعاملة بالصبر على الأذى، وإحسان في الدعوة، وَاصلها وما ثبّطه الملال. وإحسان في معاملة أهله فما كان قاسيا حتى مع من أعلن عصيانه كما في قصة محاولته لابنه أن يؤمن ويركب السفينة. وفوق ذلك كان من الذين آمنوا أكمل الإيمان وأضاءت أنواره جميع مداركهم، وبذلك صرح القرآن بأنه **(من عبادنا)**ونسبة الإنسان إلى الله على أنه عبد له، هو أعظم شرف وتزكية لمن ناله.

82ـ ثم أغرقنا الآخرين .

يسدل الستار على قصة نوح بإعلان النهاية: **ثم أغرقنا الآخرين**تفرد نوح وأسرته بالنجاة. وابتلع اليم الآخرين. وفي التعبير بالآخرين احتقار لهم، وإبراز أن الناس صنفان المؤمنون المؤهلون للتكريم، وصنف آخر كأنه ليس من الناس.

﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبۡرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذۡ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلۡبٖ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَاذَا تَعۡبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفۡكًا ءَالِهَةٗ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظۡرَةٗ فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٞ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ مُدۡبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ فَقَالَ أَلَا تَأۡكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقۡبَلُوٓاْ إِلَيۡهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعۡبُدُونَ مَا تَنۡحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

من شيعته :ممن شايعه على أصول الدين، فهي انتساب فكري وعقدي.

قلب سليم :لم يعلق به أي مرض من أمراض القلوب.

الإفك الكذب.

تريدون :تبغون عبادتها.

تولوا عنه مدبرين : انصرفوا عنه وتركوه وراءهم.

راغ :مال إليهم في حذر وتخف.

ضربا باليمين : يضربها بكل ما أوتي من قوة .

يزفون : مسرعين.

تنحتون : تصورونه في الأجسام الصلبة .

بيان المعنى الإجمالي :

بَيْنَ نوح وإبراهيم صلات وثيقة في العقيدة والمبادئ، يبـرز ذلـك بوضـوح عنـدما أقـدم إبراهيم يصحبه قلب سليم من كـل أمـراض القلـوب. طهـر قلبـه مـن الشـرك ومـن السفالات الخلقية. أنكر على قومه عبـادتهم للأصـنام، فمعبـودانكم التـي تعبـدونها مـن دون الله باطل وزيف. خبروني عـن ظـنكم السـيء فـي حقيقـة رب العـالمين، الـذي بفضله وُجِد كل كائن، والذي بفضله تيسـر لكـل كـائن أسـباب البقـاء، رب العـالمين. وما وجد منهم إلا الإعراض .فأخـذ يفكـر مصـوبا نظـره نحـو السـماء مغرقـا فـي التفكير، ولما سألوه عن حاله قال: **إني سقيم**. كان ذلك في يـوم عيـد لهـم فتركـوه ظنـا منهم أنه لا يقدر على حضـور الحفـل. وجـد نفسـه فـي المعبـد وحيـدا مـع آلهـتهم والطعام أمامها، فعرض عليها باستهزاء أن تأكل ما قـدم لهـا، ثـم سـألها متغيظـا: مـا لكم لا تتكلمون؟ ثم أخذ يضربها بكل قـواه فحطمهـا. بلغهـم الخبـر فـأقبلوا مسـرعين. وتبين لهم بعد البحث أن الفاعل: هو إبـراهيم. قـال لهـم إبـراهيم وهـو ثابـت الجَنَـان: عجبا لكم أتعبدون منحوتات من صـنع أيـديكم، والله خلقكـم وخلـق المـادة التـي منهـا عملتم آلهتكم. إن الله وحده الحقيق بالعبادة .

بيان المعنى العام :

83-وإن من شيعته لإبراهيم.

ربطت الآية بين نوح وإبراهيم عليهما السـلام، منوهـة بنـوح: أن إبـراهيم مـن الـذين شايعوه على أصول العقيـدة والقـيم. وإن كـان لكـل شـريعة مميـزات خاصـة، شـأن الشرائع الإلهية في نسبة بعضها إلى بعض تتفق في أمـور وتختلـف فـي نـواح. فظهـر حسن الانتقال من قصة نوح إلى قصة إبراهيم.

84- إذ جاء ...بقلب سليم.

ظهر الارتباط بينهما في الوقت الذي أقبل فيه إبـراهيم علـى ربـه يحمـل بـين جنبيـه قلبا سليما أخلص لله، وطرد كـل تصـور ينـافي توحيـد ه، ونقّـى قلبـه مـن أمـراض القلوب كالحسد والبغض والكبر والرياء والغـرور. ثبتـت تلكـم القـيم فـي نفسـه ثباتـا قويا، جسمها القرآن فجعله كأنه جاء بها مصاحبة له.

85←87: إذ قال لأبيه ...فما ظنكم برب العالمين.

قلبه السليم جعله محصنا من جميع أمراض القلوب الظاهرة عند غيره. فلذلك لما شاهد من قومه عبادة غير الله أسرع بسؤالهم سؤال إنكار عليهم عبادتهم لغير الله، ولذلك وصل سؤاله الإنكاري الأول بسؤال إنكاري ثان. فحصل من مجموع السؤالين: أي شيء تعبدونه، أتبغون عبادة آلهة من دون الله باطلا، وإفكا وكذبا.

كان الحاصل في أذهانهم صورة باطلة لا تستحق أن تسمى عقيدة، فلذلك قال لهم **ما هو ظنكم برب العالمين** ما هو ظنكم السيء برب العالمين. واختار التعبير بـ "**رب العالمين**"ليثير المعاني التي تبرز خطأهم. فلما كان هو الذي تولى كل شيء في العالم بألطافه وعنايته حتى استقام وجوده. وأن كل كائن هو في حاجة لإمداده حتى يواصل وجوده، فبان بذلك أنه المستحق وحده للشكر على تفضله، وعبادته عبادة المحتاج لمعبوده .فإني أنكر عليكم ظنكم السخيف، وأن تجعلوا له شركاء عجزة . صيغت هذه الحقيقة في قالب استفهام إنكاري لأنه أبلغ في إثارة الذهن.

88←89: فنظر نظرة....سقيم.

لم تسجل القصة من محاورة إبراهيم لقومه إلا ما ذكر. ويفيد هذا المقطع أنه تأمل في طريقة يقتلع بها الشرك وعبادة الأصنام، وأنه بقي يفكر وسرح ذهنه في مختلف الاحتمالات، مقدرا نجاعتها، وما يمكن أن يترتب عنها. وشأن المفكر أن يمد بصره في الفضاء الرحب فيجد في ذلك عونا له على الظفر بالحلول للمشاكل التي اعترضته .فقوله تعالى، **فنظر نظرة في النجوم**يترجح أنه مد بصره إلى السماء مفكرا. وبينما هو على هذه الحال سأله قومه: ما بالك واجما مستغرقا ؟ فأجاب: **إني سقيم** فهم منها قومه أنه مريض منهك القوى، وما كان هذا مراده، بل يريد: إني سقيم من شرككم وعنادكم وتصلبكم في ذلك. خاصة وقد عرف القرآن إبراهيم بأنه **جاء ربه بقلب سليم**على ما بيناه.

90ـفتولوا عنه مدبرين.

كان قومه على ميعاد يوم عيد، أعد مكان خاص للاحتفال به. ولما عبر لهم عن سقمه، وفهموا منه أنه لا يقدر على التنقل، تركوه وراءهم في المعبد، وانصرفوا لعيدهم.

91←93: فراغ إلى آلهتهم...ضربا باليمين.

وجد إبراهيم نفسه وحيدا في المعبد، وأمام كل صنم أنواع من الأطعمة التي يتقرب بها العُبَّاد، والتي تنتهي في بطون السدنة. فمال إليها حذرًا من أن تكون بعض

العيون ترمقه. **ألا تأكلون ؟** أنواع الأكـل أمامهـا ولـم تأكـل، فعـرض عليهـا أن تأكـل وحثها على ذلك. ثم صعد اللهجة: **مالكم لا تنطقـون**، إذا كنـتم آلهـة فمـالكم لا تعبـرون عما في نفوسكم وما ترغبون فيه وما لا ترغبـون. حـرك حـواره معهـم تغيظـه علـى جمودهم وبما أن الحياة لا تجري فيهـا لا بالأكـل ولا بـالتفكير والنطـق، وهـي قائمـة أمامه وقد أضلت قومه. اندفع نحوها بكل غضب وحـذر ليهشـمها قبـل أن يـتفطن إليـه أحد.

– فمال على آلهتهم وقد تمكن منها، وأخذ يضـربها بكـل مـا أوتـي مـن قـوة ضـربا هشمها، وتركها قطعا متناثرة.

94ـ فاقبلوا إليه يزفون.

بلغ خبر وضع الآلهـة لقومـه وهـم محتفلـون بالعيـد، أشـارهم أيمـا إثـارة، وأقبلـوا مسرعين. وكان منظرا فظيعا حسب اعتقـادهم، وقـاموا ببحـث انتهـوا إلـى أن الفاعـل هو إبراهيم

95←96: قال أتعبدون...وما تعملون.

اقتصرت القصة في هذه السورة على أنهـم أحضـروا إبـراهيم وسـألوه، وأنـه أجـابهم برباطة جأش، واحتقار لعبادتهم هذه المنحوتات التـي هـي مـن صـنع أيـديهم. وسـألهم سؤال إنكار كيف يتعصبون لمعبودات لا حقيقة لهـا، إلا أنهـا منحوتـات فـي خشـب أو حجارة، هم نحتوها وأعطوها صورها التي أسـعفهم بهـا خيـالهم. فمـن سـفاهة الـرأي أن يعبد الصـانع ما يصنعه. إن الحقيـق بالعبـادة هـو الله الـذي خلقكـم وأقـدركم علـى العمل في مواد هي من خلقه أيضا . فالله هو الحقيق بالعبادة .

قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ
﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَـٰهُ
بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَـٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ
مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا
أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَـٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَـٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾
وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾

إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرۡنَٰهُ بِإِسۡحَٰقَ نَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكۡنَا عَلَيۡهِ وَعَلَىٰٓ إِسۡحَٰقَۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحۡسِنٞ وَظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ مُبِينٞ ﴿١١٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

الجحيم : النار الشديدة.

الأسفلين : المغلوبين.

البشارة : الإخبار بما يسر.

حليم : قوي الذكاء رصين في تفكيره، ملتزم بالأخلاق الفاضلة.

أسلما: سلم واستسلم وأسلم معناها واحد، انقاد له.

تله : صرعه.

للجبين : على الجبين وهو أحد جانبي الجبهة

صدق الرؤيا : فعل ما يحققها في الخارج.

البلاء المبين : الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم.

الذبح : المذبوح كبشا أو غيره .

باركنا : زدنا ه في الخير من وجوه عدة.

محسن : عمل بما هو حسن.

ظالم : مشرك.

بيان المعنى الإجمالي :

استقر رأي قوم إبراهيم على أن يبنوا له بنيانا يشعلون فيه النار فتتوقد أشد ما يكون التوقد، ثم يلقونه فيها. وبهذا لا يبقى من إبراهيم أي أثر. وأعدوا ما أرادوا من الكيد له، فنجاه الله من النار وخرج سالما فغلبهم ماديا كما غلبهم بالحجة. ولما وصلوا إلى هذا الحد من المقاومة أذن له ربه في الهجرة، فأخبر أهله أنه سيغادر أرض قومه، ويتوجه إلى حيث يهديه الله. خرج معه من كان يعيش معه فقط وابتدأت الغربة القاسية، فتوجه إلى ربه داعيا أن يؤنسه بولد يكون عميق الصلاح، يواصل مسيرته بعد موته. استجاب الله دعاءه وبشره بأنه سيولد له غلام يجمع بين الذكاء وسمو الأخلاق والاتزان في التدبير .ولد له إسماعيل؛ فلما كبر وبلغ أنه يساعده في الحياة ببدنه وبرأيه، رأى إبراهيم رؤيا مفادها: أن الله يأمره بذبح هذا الولد الصالح والرفيق. عرض الرؤيا على إسماعيل: إني رأيت في المنام أني مأمور بذبحك، فانظر معي في الأمر، وأخبرني بما تراه. ظهر حلم الولد في أسمى مظاهره. الإيمان والطاعة هما الأساس، وانضاف لهما الشجاعة والصبر . يا أبت:

هذا أمر الله فافعل ما تؤمر، كن مطمئنا فسترى أني سأكون صابرا إن شاء الله . استسلم الوالد لأمر الله واستعد لذبح ابنه، واستسلم الولد لينفذ في رقبته الأمر الإلهي. فصرع الوالد ولده على جبينه، وبدت رقبته. في تلك اللحظة ناديناه بواسطة ملك: يا إبراهيم ! صوت تجاوب في الفضاء الساكن، صوت حق، ثم أضاف قد حققت ما أمرت به في منامك. وبلغتَ بذلك أسمى ما يمكن أن يبلغه الإنسان في الطاعة. وعلى وزان سمو طاعتك سأجزيك جزاء المحسنين من عبادي. إن هذا هو الاختبار البين الذي يتميز فيه المخلصون من غيرهم. وحتى يتحقق الذبح قدر الله أن يحضر بين يدي إبراهيم كبشا أو نحوه، وذبحه إبراهيم بإذن من ربه فداء لولده. وأصبح هذا الذبح سنة ظهرت في شريعة محمد ﷺ، وبهذا بقي ذكر إبراهيم في الأجيال التالية .سلام على إبراهيم من رب العالمين ومن المؤمنين سنة في التشهد في الإسلام وفي الصلاة على رسول الله . وعلى هذا النحو من الجزاء الكبير المستمر نجزي المحسنين، وأنوه بإبراهيم بأنه كان من زمرة المؤمنين الصادقين. ثم سجل القرآن تفضلا آخر على إبراهيم بعد أن نجح فيما ابتلاه الله به، فبشره سبحانه بولد اسمه إسحق سيكون نبيا ومن القوم الصالحين . وحقق الله أنه بارك وكثر الخير في إبراهيم وفي ولده إسحق .ولكن الفضل والتكريم لا يورث منهما، بل من ذريتهما من سار على الهدى فيجزى جزاء المحسنين، ومنهم من انحرف فيجزى حسب ظلمه وفساده .

بيان المعنى العام :

97←98: قالوا ابنوا...فجعلناهم الأسفلين.

عجزوا عن مقارعته بالحجة، ولم يبق لهم متمسك يبرر عبادتهم للأصنام وقد تبين عجزها نظرا وفعلا. وهم متصلبون في كفرهم، مستبدون في تعاملهم، وشأن المستبدين إذا ضاقت بهم سبل العقل الملزم، أن يلجأوا إلى القوة والعنف والتسلط المادي القاهر. فلذلك اتفق رأيهم على إزالته من الوجود بأقسى طريقة: أن يبنوا له بناء يوقدون فيه النار (قد يكون فرنا) حتى تبلغ أعلى درجات حرارتها، ثم يقذفوه فيها. ونفذوا ما فكروا فيه. ويخرج إبراهيم سالما من الجحيم، فَسُقِطَ في أيديهم؛ وأيسوا من القضاء عليه، وكما كان وضعهم في المحاجة الوضع السافل المغلوب، فكذلك الأمر في المقاومة المادية كانوا مغلوبين، علا عليهم إبراهيم منفردا، بفضل عناية ربه .

99←100 :وقال إني... رب هب لي من الصالحين.

بعد أن بلغت بهم القساوة والكراهية الحد الذي رموا به فـي الجحـيم، يـئس إبـراهيم مـن اهتداء قومه .وأعلن عزمه على الهجرة إلى حيث أمره ربـه. وهـل أخبـر بـذلك قومـه أو أخبر بذلك أهله الذين قـدر أن يخـرج بهـم معـه؟ يحتمـل هـذا وذاك. وأردف أنـه واثق من أن ربه سيهديه في هجرته إلى ما فيه صـلاحه دنيـا وأخـرى. وذلـك حسـبما عوده به ربه من حسن التوجيه والتأييد. وبحسن اعتمـاده هـداه ليبنـي فـي مكـة الكعبـة أول بيت وضـع لعبـادة الله فـي الأرض. وليعمـر ذلـك الـوادي الـذي لا زرع فيـه. وليكون نسله القَوَمَة على ذلكم البيت .

– وضح الوضع الجديد: ترك قومه وراءه، وأصـبح غريبـا فـي الأرض لـيس معـه إلا من أخذ معه من أهله، ولم ينجـب ولـدا يشـاركه القيـام بأعبـاء الحيـاة، ويـرى فيـه استمراره في الوجود بما يحمل من قيم الحـق والعـدل والتقـوى. فابتهـل إلـى ربـه أن يرزقه ولدا، وأن يكون من عبـاد الله الصـالحين، فـإن تمـام نعمـة الإنجـاب أن يكـون الولد صالحا.

101ـ فبشرناه بغلام حليم.

استجاب الله دعاءه، وأعلمه بذلك مبشرا له بأن سيولد لـه ولـد ذكـر يجمـع بـين الـذكاء والنباهة، والعقل الرصين المتأمل، والتحلـي بمكـارم الأخـلاق، وحسـن المعشـر، وهـو المراد بالحلم. والحلم صفة عزيزة، وصف الله بهـا إبـراهيم وابنـه إسـماعيل، ووصـف بها قوم شعيب شعيبًا .وهذا المبشر به هو ابنه إسماعيل عليه السلام، جد النبي ﷺ.

102ـفلما بلغ...من الصابرين.

طوى القرآن تحقق البشارة، فقد ولد لـه ولـد. ودرج فـي صـباه إلـى أن بلـغ قدرتـه على السعي مع والده، يعينه علـى تحمـل أعبـاء الحيـاة يسـاعده بقـوة بدنـه وبرأيـه، فتمكن الاتصال بين الوالد وولده، مـلأ عليـه حياتـه حبـا وإعجابـا. وإذا بـإبراهيم عليه السلام يرى في منامه أن الله يأمره بأن يذبح ولده. رؤيـا مناميـة، هـو مـأمور أن ينفـذها. لأن إبراهيم مكلف بتنفيذ ما يصله عن طريق جبريل في اليقظة، أو ما يراه في منامه.

لا شك أن الرؤيا كانت أشد ما يكون علـى إبـراهيم، الولـد ولـد صـالح يـبهج الـنفس، ويرضي الوالد الذي يأمل فيه أن يـرث علمـه وتقـواه وحسـن سـلوكه، والولـد وحيـده لا ثاني له، ويبتلى بأن يتولى هو بيده ذبحه. عرض الرؤيا علـى ابنـه: يـا بنـي صـيغة فيها التقريب والتحنن، **إني أرى في المنام أني أذبحك** . عـرض الأمـر عليـه لأنـه مـا كان مأمورا أن يختل ابنه ويذبحه، ولا هو مـأمور بـأن يلزمـه بالانقيـاد لـه، بـل هـو

أمر يبلغه إبراهيم لمن تعلق به الأمر، ليرى قبولـه أو رفضـه .كمـا وقـع لنـوح عليـه السلام مع ابنه فقد دعاه ليؤمن ويركب معه في السفينة فأبى، فلم يجبره .

كان جواب الولد على وزان عرض الوالد: **يا أبـت** ، صـيغة فيهـا التقريـب والتـودد. إن الله أمر وأمره سبحانه يجب أن ينفذ، فقم بما أمـرك الله . وأكـد قبولـه لأمـر الله بقولـه: **ستجدني** ، ستتحقق في الواقع أني وطنـت نفسـي علـى قبـول ذلـك، مـن الـذين كـان الصبر خلقا لهم.

103ـ فلما أسلما...كذلك نجزي المحسنين.

عقب حصول الاقتناع من الوالد وولده، وقبول الوالد أمـر ربـه مستسـلما غيـر رافـض ولا معترض، وقبول الولد ذلـك أيضـا مستسـلما لقضـاء الله، ابتـدأ التنفيـذ، فصـرع إبراهيم ولده على جبينه فظهرت الرقبة مكان الذبح .

-**لما أسلما وتله للجبين** ، كـان المشـهد فريـدا فـي تـاريخ الإنسـانية، تصـوروا مـا يوحي به من عظمة الطاعة، وقوة الإخلاص. فـي تلـك اللحظـة ينطلـق صـوت ينـادي إبراهيم، هو نداء بإذن الله أوكـل الله بـه ملكـا تجـاوب فـي الفضـاء الرحـب، رفـع إبراهيم إلى مقام عال: خصه الله بندائه باسمه. **يـا إبـراهيم قـد صـدقت الرؤيـا** . قمـت بالعمل الذي يحقق الرؤيا في الخارج. إنـا بعظمتنـا وقـدرتنا نجـزي علـى هـذا النحـو الرفيع من السمو الذي ظهر فيه إبـراهيم وابنـه نجـزي المحسـنين مـن عبادنـا جـزاء يسمو إلى هذا المستوى. وفيه أيضـا تنويـه بـإبراهيم وابنـه إذ كـان جزاؤهمـا بـإنزال الفرج بعد الشدة بسبب إحسانهما.

106ـ إن هذا لهو البلاء المبين.

هذا تنويه آخر بإبراهيم، فإن ما جرى على إبراهيم، ممـا صـورته الآيـات مـن وقـت مهاجرتهم إلى زمن القيام بتنفيذ الأمر، لهـو اختبـار شـديد بـين، كيـف يقـوى الإيمـان على عواطف الأبـوة، وعلـى غريـزة حـب الحيـاة، وعلـى الظـروف التـي جعلـت الاختبار قاسيا على إبراهيم. ولكـن المـؤمنين يجـدون فـي ابـتلاء إبـراهيم وإسـماعيل صورة تقويهم على تحمل الابـتلاءات، فإنهـا مهمـا عظمـت لا تبلـغ مـا ابتلـي بـه إبراهيم .

107ـ وفديناه بذبح عظيم.

من تمام اللطف ومظـاهر الفـرج، أن الله بعـد أن حفـظ للولـد حياتـه وللوالـد ولـده، وهب لإبراهيم ذبيحة يقوم بذبحها فداء لإسماعيل .فقـد صـدق الرؤيـا فـي الـذبح الـذي ارتضاه الله أن يكون فـداء لإسـماعيل. وأن ذلـك سـيكون سـنة فـي الإسـلام إحيـاء

للمشهد، وتذكيرا بنعمة الله وفضله. لم يعين القرآن الذبح أهو كبش، أو وعل، أو تيس .إذ التعيين لا يهم ووصف الذبح بأنه عظيم، إما بالنظر إلى كمال خلقته ووفرة لحمه، وإما للمعاني التي يمثلها هذا الذبح إذ قد كان فداء لإسماعيل الذي جاء من نسله سيدنا محمد ﷺ.

108←111: وتركنا عليه في...من عبادنا المؤمنين.

افتتحت قصة إبراهيم بأنه من شيعة نوح عليه السلام . وتأكد ذلك باتفاق الخاتمتين لقصتيهما فهذه الآيات هي نظير78/ 81/80/79- ويلاحظ أنه قيل في نوح **سلام على نوح في العالمين، وفي إبراهيم سلام على إبراهيم** ذلك من إعجاز القرآن فإن نوحا مذكور في العالمين جميعا، بينما إبراهيم فلا يذكره إلا أهل الديانات التي تناسلت أنبياؤهم منه

112ـ وبشرناه باسحق نبيا من الصالحين.

نوه الله بإبراهيم بنجاحه فيما ابتلاه. أفاض عليه من الفضل في جميع مراحل حياته. فكان أهلا لتواصل الفيض الإلهي، فأضاف أن قال: **وبشرناه باسحق** على أنه سيولد له ولد ذكر آخر اسمه اسحق، وأنه سيسميه إسحق. وأنه سيسمو إلى مرتبة النبوة، وأنه سيكون من القوم الصالحين. ولما كان نبيا فإنه لابد أن يكون من الصالحين، إذ مرتبة النبوة فيها الصلاح وزيادة. وقد يكون في التنبيه على صلاحه تنويه بالصلاح، وأن كَمَلَةَ البشر ينوه بهم من ناحية صلاحهم، فهي مرتبة نفيسة على الإنسان أن يعمل على بلوغها.

وهذه الآية ترجح ترجيحا يكاد يبلغ درجة اليقين أن الذبيح هو إسماعيل وليس إسحق، لأن الحديث عن البشارة بإسحق كانت بعد الابتلاء بذبح إسماعيل. وهي لاحقة للكرامات التي نالها إبراهيم من ربه بعد فوزه في الابتلاء.

113ـوباركنا عليه ...مبين.

بارك الله في إبراهيم ومنحه أنواعا من الخير مضاعفة. فمن ذريته إسماعيل ومحمد ﷺ، وبارك على إسحق وكثر خيره، فتناسل منه يعقوب وموسى وهارون، وكثير من أنبياء بني إسرائيل وعيسى عليهم السلام .

أعقب هذا التنويه بإبراهيم وإسحق، والثناء عليهما بالصدق، والإخبار بأنه بارك عليهما، أعقبه بأن ذريتهما تعامل بميزان ما تُقَدِّم من صالح الأعمال أو بالفساد الذي تألفه. فبعض ذريتهما محسن يثنى عليه ويجازى بما يجازى به المحسنون، وبعض ذريتهما مشرك ظالم، يحاسب ويجازى حساب المشركين الظالمين.

تشير الآية إلى قاعدة من قواعد التصور الإسلامي: أن الفرد لا يرتقع مقامه بنسبه، ولكن بما يقدمه من خير لنفسه وللبشرية عقيدة وسلوكا. وكذلك الأصول لا تتأذى بفساد ما تناسل منها ولا تنحط قيمتها بذلك. فمن ذرية إبراهيم محسنون صالحون أنبياء ورسل وعلماء متقون، وساعون لتحقيق الخير لغيرهم سيجزون جزاء المحسنين، ومن ذريتهما مشركون فاسدون كانوا شرا على أنفسهم وعلى محيطهم. فسيجري حسابهم على ما قدموا .

وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَـٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَـٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَـٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُمَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَـٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَـٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ

المنة: النعمة الثقيلة .

المستبين :الواضح وضوحا تاما.

بيان المعنى الإجمالي :

القصة الثالثة هي قصة موسى عليه السلام وأخيه هارون. من الله عليهما بنعم عظيمة المقدار. فرفعهما إلى مقام النبوة، ويسر لهما طريق النجاة من الغم الشديد: ظلم فرعون وحياة الذل، وفتح البحر عندما حاصر جند فرعون موسى وقومه. وكتب لهم النصر في جميع المعارك التي خاضوها بقيادة موسى عليه السلام فكانوا الغالبين لأعدائهم، ولم ينهزموا إلا عندما خالفوا أوامره. ومكن الله موسى وأخاه من التوراة الكتاب البين الواضح. وفتح بصائرهما على الطريق المفضي إلى سعادة الدارين من أخصر طريق لا عوج فيه. وأبقى ذكرهما الحسن سائرا بعد موتهما. وسلام من الله معبر عن الأمن والرضا والتقريب ورفع المنزلة. وعلى هذا النحو من التكريم وحسن الجزاء نجزي المحسنين من عبادي الصالحين. وتختم القصة بشهادة الله فيهما أنهما من زمرة الذين صفت عقيدتهم وقوي إيمانهم.

بيان المعنى العام :

114←116 : ولقد مننا على موسى...هم الغالبين.

الآية معطوفة على قصة نوح، ولقد نادانا نوح. وهي القصة الثالثة المسلية لرسول الله ﷺ والمطمئنة للمؤمنين أن العاقبة لهم، والمنذرة للمشركين أن سنن الله واحدة في نصر رسله وهزم أعدائه. تفتتح القصة بالتأكيد على أن الله مكن موسى وأخاه هارون من نعم عظيمة وثقيلة، أولا ها نعمة رفعهما إلى مقام النبوة، ثم عرضت الآيات التالية تفصيل المنن.

- أن الله شملهما مع قومهما برحمته فنجاهما ونجى معهما قومهما من الكرب العظيم. نجاهما من ظلم فرعون وزبانيته. ونجى قوم موسى من المهانة التي كانت مسلطة عليهم. ورفع عن موسى وأخيه عميق الاستياء من الذل المسلط على قومهما. ونجى الجميع من طلب فرعون وكادوا يأخذونهم بعد أن حاصرهم الجند وليس أمامهم ملجأ إلا البحر. ونجاهم من الغرق إذ فتح لهم طريقا يبسا.

-و يذكر التاريخ أن قوم موسى حالفهم النصر على جميع أعدائهم يوم كانوا يأتمرون بأمره، ويلتزمون بتوجيهه وما يحدده لهم .وما انهزموا إلا لما خالفوا ما حدده لهم .

117-وآتيناهما ...الصراط المستقيم.

المنة الثالثة: أن الله أتاهما كتابا مسجلا لوحيه، بَيِّنًا في مقاصده وأغراضه، وتشريعه. وكان إيتاء موسى الكتاب مباشرة، وإيتاءه لهارون باعتبار أنه عضده في نشره، وفي رجوع بني إسرائيل له عند مغيب موسى.

- المنة الرابعة: شهادة الله بأنهما سارا في موكب المرسلين الذين هداهم إلى الصراط المستقيم المبلغ للسلامة في الدنيا والآخرة من أخصر طريق. الأمر الذي ضمن لمن يتبعهما الفوز بالنجاة في الدنيا والآخرة.

119←121 :وتركنا عليهما ..نجزي المحسنين .

المنة الخامسة: أن الله كتب لهما تواصل الثناء عليهما سائرا مع عباد الله المؤمنين.

- المنة السادسة : السلام والأمن، تحية من الله عليهما مشعرة بالرضا والتقريب والرفع إلى المقامات العليا .

- أجراهما على سنن نوح وإبراهيم، فعلى وزان جزائهما نجزي المحسنين.

122- إنهما من عبادنا المؤمنين.

و القمة هي شهادة الله بعمق إيمانهما فهما في موكب المؤمنين السائر موصولا بالله.

وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا
وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ
فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾
سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

بعل: إله الكنعانيين .

محضرون : لا يفلتون من العذاب.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد إن إلياس: إيليا، هو من المرسلين الذين أرسلتُهم لإصلاح الناس، ظهرت رسالته في الوقت الذي قال فيه لقومه منكرا عليهم :ما لكم لا تتقون الله، ولا ترعون رضاه .ثم سألهم سؤال إنكار وتوبيخ؛ أتدعون بعلا إلها وتتركون عبادة أحسن الخالقين، الذي مِنَّته عظيمة عليكم: أحسن صورتكم، وأكمل أجهزتكم. هو الذي تولاكم بعنايته فبلغتم المستوى الذي أنتم عليه، وهو رب آبائكم فالتوحيد هو الدين الذي كان عليه آباؤكم. ووفاؤكم لهم يقتضي أن توحدوا الله وتَدَعُون بعْلاً. فتصلبوا في كفرهم وكذبوه. فسيساقون إلى العذاب يوم القيامة لا مفر لهم منه. ونجح في التأثير على عباد الله الذين أخلصوا لله فاتبعوه وخالفوا قومهم. وختمت القصة بما ختمت به القصص الأخرى .وآل ياسين هم آل إلياس على أنه يسمى بهما (إلياس، وياسين) وعلى أنه ابن ياسين فيشمل السلام إلياس ومن أعانه على القضاء على بعل وسدنته .

بيان المعنى العام:

123ـوإن إلياس لمن المرسلين.

بكل تأكيد إن إلياس هو أحد المرسلين، أرسلته لإقامة التوحيد، من هو إلياس؟ اختلف فيه المفسرون، فقيل هو إيليا، من أنبياء بني إسرائيل التابعين لشريعة موسى ولِمّا جاء في التوراة، فهو لم يأت بشريعة جديدة. بعثه الله لبني إسرائيل الذين انحرفوا فعبدوا غير الله ليعود بهم إلى عبادة الله وحده وتطبيق التوراة في حياتهم .وذهب بعضهم إلى أنه إدريس على أن إدريس ينطق إدراس وبتغييرات صار

إلياس وآخرون إلى أنه ابن ياسين. ومن شأن العربية في نطقها بالأسماء غير العربية أن تطوعها للأوزان العربية .

124←125: إذ قال لقومه...وتذرون أحسن الخالقين.

خاطب قومه المشركين من بني إسرائيل منكرا عليهم، مستفهما، أتكفرون بالله ولا تتقونه سبحانه. كشف من أول الأمر عن مهمته: أنه داعية إلى توحيد الله وتطبيق أحكام التوراة، وليثير خشية عقاب الله في ضمائرهم. ثم أظهر اهتمامه أولا بتحويلهم عن عبادة بعل. فقال لهم منكرا موبخا: أتدعون بعلا إلها تتقربون إليه وتعبدونه، وتتركون عبادة الله الحقيق بالعبادة، لأنه هو الذي خلقكم في أحسن صورة، وأتقن أجهزتكم التي بها أنتم بشر.

وبعل هذا الذي عبدوه، هو أكبر أصنام الكنعانيين الذين تأثر بهم الإسرائيليون واتخذوا إلههم إلها لهم. ويجعلونه رمزا للذكورة والقوة. مثلوه بصورة إنسان له رأس عجل وله قرنان ويحيط بعنقه إكليل وهو جالس مادا يديه. كانت صورته هذه من نحاس مجوف تعلو بناء كالتنور، يوقدون فيه النار حتى يحمى النحاس إلى درجة عالية. ومن شأنهم أن يتقربوا إليه بوضع القرابين على يديه الممدودتين، فتذوب القرابين من شدة الحرارة ولا يبقى لها أثر، فيظنون أنه أكلها وتَقَبَّلَ القرابين من أصحابها.

126. الله ربكم ورب آبائكم الأولين.

الله وحده هو الذي تولاكم، وتولى آباءكم بعنايته، ووالى ألطافه عليكم، وعلى آبائكم الأولين، ما كان لكم أن تبلغوا ما أنتم عليه لولا فضله. وذكّرهم بآبائهم الأولين، لأن اليهود أشد الناس حرصا على الانتساب لإسحاق ويعقوب، ويرون أنهم مميزون عن بقية البشر بذلك الانتساب، فتذكيرهم بآبائهم الأولين إلزام لهم بأن يتبعوهم في عبادة الله وحده.

127. فكذبوه...لمحضرون.

قابلوا الجهد الذي بذله لإقناعهم بالعقيدة الحق، وأنه مبعوث من عند الله، قابل معظمهم ذلك بالتكذيب فسوف يكونون حاضرين في العذاب يوم القيامة لا ينفعهم نسبهم. ولكنه نجح في إصلاح الفريق الذي أخلص لله وطرد وساوس الشيطان وشهوات النفس .

128←132: إلا عباد الله المخلصين...من عبادنا المؤمنين.

يطّرد فيها ما ذكر في خاتمة قصة نوح وإبراهيم، وموسى وهارون. إلا أنه يلاحظ أن السلام كان في هذه الخاتمة على آل ياسين، ووجه على أن إلياس

يدعى أيضا ياسين. كما خرج على أن ياسين هو أبـو إليـاس، فالمقصـود السـلام علـى إلياس وذويه من آل أبيه الذين قاموا بإعانتـه وتحطـيم بعـل وقتـل سدنته. وفـي هـذه القصة ما يفيد أن سنة الله في المكذبين أنه يجـازيهم يـوم القيامـة عـن تكـذيبهم، وأمـا في الدنيا فقد يستأصلهم بعذابه، وقد يؤجلهم لحكمة له فـي ذلـك. ولـم يستأصـل قريشـا، فكان منهم ومن ذريتهم حملة الشريعة والناشرين للإسلام في الآفاق.

وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَـٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَـٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

العجوز: امرأته.

مصبحين : وقت الصباح.

بيان المعنى الإجمالي :

إن لوطا عليه السلام بعثه الله بشريعة إبراهيم الموحِّدة، وقـاوم الفسـاد المستشـري فـي القـوم الذين كان يسكن معهم. فقـد كـانوا يـأتون الـذكران ويتجـاهرون بـذلك. فـاذكر ذلـك الظرف الشديد الذي نجيناه وأهله المؤمنين بـه مـن العـذاب إلا زوجـه فقـد بقيـت مـع قومها وتم تـدميرهم جميعـا بـانقلاب الأرض وإرسـال الحجـارة. كـان مـن الواجـب عليكم أيها القرشيون أن تتعظـوا بمـآلهم، فـإنكم تمـرون علـى ديـارهم الخربـة فـي الصباح والمساء فـي رحلـتكم إلـى الشـام للتجـارة. فمـا لكـم لا تحركـون عقـولكم لتعتبروا؟

بيان المعنى العام :

133←136:وإن لوطا...ثم دمرنا الآخرين.

كما أكد رسالة إلياس أكد رسالة لـوط، وهـو تأكيـد يـدعو إلـى التأمـل فـي قصـته والاعتبار بها. وقد تكررت قصة لـوط وقومـه فـي القـرآن. واذكـر إذ نجينـاه وكـذلك أهله فقد شملتهم بركته فلم يصب أحد منهم بالعذاب، إلا امرأتـه بقيـت فـي العـذاب مـع قومها، لأنها كانت مع قومها ضد زوجها.

- بعد أن نجى الله لوطا ومن كان معه من المؤمنين سـلط علـى قومـه عـذابا دمـرهم فخسف بهم الأرض وجعل عاليها سافلها، وأرسـل علـيهم حجـارة مـن سـجيل مـزقتهم شر ممزق. قال تعـالى (**لعمـرك إنهـم لفـي سـكرتهم يعمهـون فأخـذتهم الصـيحة**

مشرقين فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل إن في ذلك لآية للمتوسمين وإنها لبسبيل مقيم)[1]

137←138: وإنكم لتمرون ... أفلا تعقلون.

هزت الآية قريشا ليتيقظوا وليعتبروا، فإنهم يمرون ببحيرة قوم لوط التي بها آثار ديارهم الخربة، يمرون بها صباحا ومساء في رحلتهم إلى الشام للتجارة. فكان من الواجب عليهم أن يتعظوا بما جرى على قوم لوط، ويستقيموا على طريقة الإسلام. ما لكم لم تعتبروا ! أفقدتم قدراتكم العقلية.

وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

أبق: صيغة تطلق عند فرار العبد من عند سيده.

المدحضين : المغلوبين الذين يلقى بهم في البحر .

مليم : من آلام إذا فعل ما يوجب اللوم.

العراء : الأرض التي لا شجر فيها.

اليقطين : فصيلة من النباتات تنبسط على الأرض، منها البطيخ والدباء (القرع) والقثاء.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد يونس أحد رسلي. واذكر يا محمد قصته إذ فر إلى الفلك المشحون دون إذن مني. فركبه مصاحبا للمسافرين على ظهر السفينة. أحس ربان السفينة بأن المركب سيغرق إن بقيت حمولته على ما هي عليه. واتفقوا على أن يجري بينهم القرعة فمن خرجت قرعته بأن يلقى به في البحر، نفذ فيه ذلك. وكان من بين الخاسرين في القرعة يونس فألقي به في البحر. وعقب ذلك أن حوتا عظيما فتح فاه

---

[1] سورة الحجر، 72←76

وابتلعه كلقمة وكان شاعرا بأنه ملوم على ما فعـل. وقـد تداركـه الله بلطفـه لأنـه كـان يذكر الله كثيرا ويسبحه في كل وقت وفي وقت الشدة، فقذفه الحوت.

قذفه الحوت على شاطئ أرض عراء لا نبـات فيهـا ولا شـجر. متـأثرا بدنـه بـالمحيط غير المناسب الذي كان فيه. فتوالـت ألطـاف ربـه عليـه، وأنبـت عليـه شـجرة مـن فصيلة القرع تستره ويتغذى منها، وشفي من سقمه، وقـوي بدنـه وملكاتـه علـى تحمـل الرسالة فبعثه الله إلى قوم عددهم كثير مائة ألف بل أكثر مـن ذلـك. ونجـح فـي مهمتـه فسعد بإيمانهم، وشاهد العون الإلهـي الـذي شـملهم والاطمئنـان والرفـاه الـذي عقـب إيمانهم. وواصلوا حياتهم في نعيم إلى الوقت الذي لا بد أن ينتهي فيه متاع الدنيا .

بيان المعنى العام :

139ـ وإن يونس لمن المرسلين.

تثبت الآية بكل تأكيد أن يونس عليه السلام هـو أحـد رسـل الله. وهـذا علـى نحـو مـا أثبتته الآيات السابقة لإلياس وللوط . فالأنبيـاء الثلاثـة افتتحـت قصـتهم بالتأكيـد علـى سمو مقامهم وأنهم من المرسلين.

140ـ إذ أبق إلى الفلك المشحون.

علق كثير من المفسرين هذه الآية بقوله: إنه لمـن المرسـلين، أي ظهـرت نبوتـه عنـد إباقه . ولم أجد هذا رشيقا. وأرجح أنه بعـد أن أثبـت القـرآن نبوتـه، قـال الله لمحمـد: اذكر قصة إباقه وما جرى عليه .وأصل الإبـاق أن العبـد (الرقيـق) يهـرب مـن سـيده الذي ملكه. والذي أفهمه أن يونس ﵇ بعد أن رفعه الله إلـى مقـام النبـوة، أخـذ يـدعو قومه إلى توحيد الله، فلم يجيبوه، فاستعجل وخـرج مغاضـبا لهـم. والنبـي لـيس لـه أن يهاجر إلا بعد أن يأتيـه الإذن مـن الله. وفـي هـذه القصـة تعلـيم لرسـول الله ﷺ : أن مقام الرسالة يقتضي أن الرسول لا يقـدم علـى الهجـرة إلا بعـد الإذن الإلهـي. وهكـذا قص علينا القرآن في نوح وإبـراهيم وموسـى، فمـا خـرج مـنهم واحـد قبـل صـدور الإذن له بالهجرة. فخروج يونس بدون إذن إلهـي عبـر عنـه بالإبـاق . كـان خروجـه من بين قومه إلى فلك وجده قد أتم شحنته، وأنـه علـى بـاب الإقـلاع، فركبـه وسـارت السفينة بركابها.

141ـ فساهم فكان من المدحضين.

في أثناء الرحلة البحرية تغيرت الظـروف، وتبـين للربـان أن الفلـك سـيغرق إذا بقـي حاملا لجميع الركاب. واتفقـوا علـى أن تجـري بيـنهم القرعـة للتخفيـف مـن الثقـل. ومرت القرعة بالسوية بينهم على أن من يخرج له سـهم إلقائـه فـي البحـر ينفـذ ذلـك

فيه. أفرد المفسرون يونس عليه السلام بأنه هو الذي خرج عليه سهم التخلص منه، ولكن نص الآية يفيد أن عددا من ضمنهم يونس كانوا من المغلوبين. إذ لو انفرد يونس لقيل كان مدحضا.

142.فالتقمه الحوت وهو مليم.

بمجرد ما رمي به البحر، فَغَرَ حوت عظيم فمه فابتلعه كأنه لقمة. وهو في وضعه هذا يتبعه اللوم لهجرته بدون إذن من ربه.

143←144 :فلولا أنه كان من المسبحين...يوم يبعثون.

جاء الفرج بعد الشدة .ويسر الله ليونس أن يلفظه الحوت ويخرج من بطنه حيا. والسر في ذلك أنه كان من الذاكرين لله كثيرا في حياته، حتى إنه في ذلك الوقت الحرج جدا، وهو في بطن الحوت كان يذكر ربه بما ألهمه إليه: **لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.** ولولا أنه كان في حياته من المواظبين على ذكر الله وتسبيحه لبقي في بطن الحوت وكان قبرا له لا يخرج منه إلا عندما يخرج البشر من قبورهم يوم البعث.

و في هذه الآية تنبيه للمؤمنين أن الله يقرب الذاكرين من منازل لطفه، فاذكروا الله في الرخاء تجدوه معكم في الشدة والضيق.

145←146 : فنبذناه بالعراء...يقطين.

تصرفت قدرتنا فرفضه الحوت ولم يهضمه، وألقاه على شاطئ أرض عراء ليس فيها شجرة. وكانت الفترة التي بقي فيها في بطن الحوت قد أثرت في أجهزته، فكان سقيما مريضا، بعيدا عن النشاط. وكل ما ذكر في مدة بقائه في بطن الحوت لا دليل عليه، وإنما هي تصورات ذاتية، لا يلتفت إليها، ذكرها أصحابها ثم نقلت ونشرت على أنها مقصودة من النص. ولطفنا به فأنبتنا عليه في هذه الأرض العراء شجرة من فصيلة النباتات التي تنسحب على الأرض ولا ساق لها، كالبطيخ والقثاء، والدباء المعروف بالقرع. قد تكون النبتة التي نمت ومدت فروعها عليه، صالحة لستره ولغذائه.

147. وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون.

طوى القرآن ما تيسر ليونس حتى عاد له نشاطه، وقوي بدنه على تحمل الرسالة. فكلفه الله عند ذلك بأن يتوجه بالدعوة إلى جماعة كثيرة العدد من البشر مائة ألف، بل تزيد. ومائة ألف طريقة في الدلالة على الكثرة، وتحقق ذلك، بقوله تعالى، **بل يزيدون**

148ـ فآمنوا...إلى حين.

تفيد الآية أنه نجح في القيام بما كلف به، وأن الألطاف الإلهية ساعدته، فآمن القوم الذين بعث فيهم. وتبع إيمانهم أن الله أغدق عليهم من نعمه، متعهم بالإيمان وبالاستقرار الفردي والاجتماعي، وبصفة عامة بالشعور بالسعادة. وذلك إلى وقت مقدر لأن نعيم الدنيا غير باق بقاء سرمديا، أي ليس هو نعيم الآخرة.

فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

إفكهم : كذبهم

سلطان : حجة.

مبين :موضح للحق.

الجنة :الجماعة من الجن .

النسب: القرابة العمودية الآباء والجدود...والأفقية الأعمام والإخوة....

بيان المعنى الإجمالي :

اسألهم سؤال من يطلب الجواب من المسؤول، وهو في هذا المقام لبيان جهله وغبائه وكذبه. وقد لوّن القرآن الأسئلة لينقض كل دليل يمكن أن يستندوا إليه.

فالسؤال الأول، أتقولون إن لله البنات التي هي المرتبة المنحطة في عرفكم، وانفردتم أنتم بالذكور التي هي موجب اعتزاز؟

وثانيا هل إنهم كانوا حاضرين عند خلق الله للملائكة فشاهدوا أن الله خلقهم إناثا. إنه من الكذب على الله ونسبة الباطل المناقض للمعقول ادعاؤهم أن الله قد وُلِد له. وهذا من أقبح الأقوال المخالفة للحق. إنهم كذبة في قولهم هذا .أتقولون إن الله اختار البنات على البنين، فما أفسد حكمكم، وكيف ذهبت عقولكم فصرحتم بهذا الكذب. أليست لكم عقول بها تَتَبَيَّنُونَ الزيف من الحق. أعندكم دليل نزل عليكم من السماء، فقدموا لنا كتابكم هذا إن كنتم صادقين. ما ولده خيالهم المريض، زعمهم أن الله

تخير بنات الطبقة الرفيعة من الجن، فتزوج منهن وأنجب الملائكة، فَبَيْنَ الله والجن نسب. وهذا من أظهر الباطل فإن الجنة ذاتهم يعلمون أنهم سيحضرون جميعا للحساب، يوم القيامة ويجزون عما قدموا، فكيف يعذب أنسباءه ! إن ذلك من سخف القول.

بيان المعنى العام :

149ـفاستفتهم ...وله البنون.

أوقفهم يا محمد، واطلب منهم أن يكشفوا عن مباني ما يروجون من الباطل الذي ليس له أي أساس من المنطق ولا يمكن أن يقول به عاقل. استفتهم عن قولهم الساقط المتهافت: أن لربك الذي لطف بك وبكل كائن وأعانه على بلوغ المستوى الذي هو عليه، بما تفيده كلمة الرب حسب اشتقاقها. أن ربك اختص بالإناث، وأنهم اختصوا بالذكور. وذلك بناء على منطقهم، أن الأنثى في المرتبة الدنيا، وأن الذكور أرفع مرتبة. فحسب منطقهم المتناقض يعجز الله فلا يكون له إلا البنات، وتظهر قوتهم فيستأثرون بالذكور. إن قولهم ساقط حسب طبيعة تفكيرهم.

150ـ أم خلقنا الملائكة....شاهدون.

واذهب في إسقاط أسطورتهم أن الملائكة إناثا، فاسألهم هل إنهم حضروا مشهد خلق الملائكة فعاينوا أن الله خلق الملائكة إناثا. فانتفى دليل المشاهدة ضروريا.

151←152: إلاإنهم من إفكهم ...وإنهم لكاذبون.

وتنقض الآيتان أسطورتهم من الناحية العقلية، فتفتتح الآية الأولى بكلمة "ألا" التي توقظ السامع فترسم في ذهنه أن كلامهم كله كذب وبهتان لا يستند إلى برهان. يقولون إن الله ولد ذرية، كذبوا شر كذبة، فهو الغني الغنى المطلق، الكل عبيده.

153←155: أصطفى البنات...تذكرون.

فلو فرضنا أن الله اتخذ ولدا، فلماذا اختار واصطفى الإناث على الذكور. مع أنه حسب مقاييسكم الاجتماعية من رزق الذكور هو أعلى شأنا في المجتمع، وأكثر حظا. أمركم عجب في السُّخْف والغباء، مالكم تحكمون هذا الحكم الباطل، وكيف حكمتم به، ألكم عقول أم إن عقولكم سلبت منكم ؟

156←157: أم لكم سلطان مبين...إن كنتم صادقين.

على ماذا استندتم، أتملكون حجة عقلية واضحة الدلالة أو خبرا من السماء أنبأكم، أن الله خلق الملائكة إناثا. فاعرضوا علينا الكتاب الذي أنزل عليكم الذي وجدتم فيه

ما تزعمون. والأمر في قوله **فاتوا بكتابكم**، هو أمر تعجيزي، لا يطلب من المأمور أن يستجيب ولكن لإظهار عجزه، وبالتالي كذبه وأنه غير صادق.

158- ومما اختلقوه، وكونوا منه أسطورة من توليد خيالهم، ادعاؤهم أنه وقع تزاوج بين الله وبين بنات الأسر الماجدة من الجن، فتولد من ذلك الملائكة. جعلوا بينه وبين الجنة نسبا. وحمله بعضهم على أن المراد بالجنة هنا الشيطان، عقيدة فاسدة انتشرت في بلاد فارس وما جاورها مفادها: أن الله خطر له خاطر من الشر فتكون منه إله الشر. وهذا محمل بعيد لا ينظر إليه، لأن هذه العقيدة التي تقول بالثنوية وهي غير معروفة أصلا عند القرشيين. هذه المزاعم والأكاذيب ينفي أن يكون لها أي حظ من الحق، هو أن الجِنَّةَ الذين يزعمون أنهم من أسرة الله يعلمون أنهم سيحضرون يوم القيامة للحساب والعذاب. فتناقضٌ سخيف أن يكونوا أنسباء لله، يوقفهم ويعذبهم.

159. سبحان الله عما يصفون.

تنزه الله تنزها ينفي كل هذه المقالات الفاسدة والاعتقادات الضالة، ويبطل كل الأوصاف التي ألحقوها برب العالمين. وفي ذلك تعليم للمؤمنين كيف يواجهون مثل هذه الأكاذيب والخيالات. فعليهم أن يصرحوا بأنهم ينزهون الله عن كل نقص.

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنۡ هُوَ صَالِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٞ مَّعۡلُومٞ ﴿١٦٤﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُواْ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوۡ أَنَّ عِندَنَا ذِكۡرٗا مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُواْ بِهِۦۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ﴿١٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الفاتن : المضل.

صال الجحيم : الذين يصلون الجحيم.

ذكرا : كتابا

بيان المعنى الإجمالي :

لكن عباد المخلصين ناجون من العذاب. بكل تأكيد يسقط مكْرُكُمْ أنتم مع ما تعبدون على قلعة الإيمان، فلا تستطيعون فتنة المؤمنين ولا التأثير فيهم، لهم من نور الإيمان ما يكشف ثم يرفض ما تروجونه من الأباطيل. ويقتصر إفسادكم على الذين

اختاروا أن تكون عاقبتهم الجحيم يصلونها. ثم أعلن الملائكة ردا لمقالاتهم واعتزازا بما اهتدوا إليه فقالوا، إن كل واحد منا معشر الملائكة له مقام معلوم لا يتجاوزه، سعيد بأن يؤدي في مقامه ذاك الطاعة في الحدود التي حددها لنا ربنا. النظام هو الظاهرة التي عليها وضعنا، والتسبيح والتقديس لرب العالمين هو أليفنا لا نفتر عنه.

لقد دأب القرشيون على القول: لو كان عندنا كتاب من الرسل الأولين موجه لنا، لكنا عباد الله المتميزين بالإخلاص الكامل، ولَفُقْنَا اليهود والنصارى في دعواهم الاعتزاز بكتابهم. ولكنهم بمجرد ما جاءهم كتاب هو أهدى من جميع الكتب السابقة مضمونا وصياغة، تصلبوا في الكفر به. هدّدهُمْ بأنهم سوف يعلمون في المستقبل ما سيحل بهم من العذاب والنكال.

بيان المعنى العام :

160-إلا عباد الله المخلصين.

في الآية السابقة تنصيص على أن الكفرة محضرون للحساب والعذاب. واستثنت منهم هذه الآية استثناء منقطعا بمعنى "لكن" أي لكن عباد الله المنسوبين إليه نسبة التقريب والتشريف، المخلصين في تقديسه وتنزيهه ناجون لا ينالهم العذاب الموعود به الكافرين يوم القيامة.

161←163: فإنكم وما تعبدون...صال الجحيم.

بكل تأكيد أنتم أيها المشركون، مع آلهتكم، أنتم عاجزون عن إضلال أي فرد ممن سبقت لهم منّا الحسنى. إنه لا تأثير لكم في الصرف عن عبادة الله وعدم تنزيهه، وإلصاق ما هو منفي عنه عقلا وواقعا، إلا الذين اختاروا لأنفسهم الضلال، ونسبوا لله البنات من الجن، وأعدوا أنفسهم ليصلوا نار الجحيم، أي من آثروا طريق الفساد والكفر والكذب على الله، الذي يبلغهم الجحيم يوم القيامة.

164←166: وما منا إلا...لنحن المسبحون.

هذا من تمام كلام الملائكة. الذي يبدأ من قوله تعالى **سبحان الله عما يصفون**: ولقد علمت الملائكة وشهدوا: أن المشركين افتروا على الله الكذب، واختلقوا من أوهامهم النسبة بين الله والجن، وقال الملائكة: سبحان الله ننزهه عما يقولون ويكذبون، واستثنوا عباد الله المخلصين فأثبتوا أنهم مبرؤون مما يقول الكفرة. وقالوا للمشركين إنه بناء على تحقق ذلك فإنكم مع آلهتكم لا تقدرون أن تفتنوا أحدا وتضلوه، وتأثيركم مقصور على من كان مثلكم من الذين اختاروا سلوك طريق

الضلالة، وآثروا اتباع الوساوس، وعطلوا عقولهم. كيــف يكــون بيننــا وبــين الله العلــي الأعلى نسب، وما نحن إلا عبيده لا نملــك شــيئا مــن أمرنـــا، هــو الــذي هــدانا وهــو الحقيق بأن نخضع له ونذل له سبحانه . لكل منا مقام مــن الطاعــة ومــن العمــل معلــوم لا يتجــاوزه ولا يــنقص منــه. نحــن خاضــعون لجلالــه خاشــعون لعظمتــه، منفــذون لأوامره. ثم أخبروا بأنهم الصافون؛ وقد ذهب المفسرون فــي بيــان ذلــك أنهــم يقومــون صفوفا. ولما كانت الملائكة أجساما نورانية لا نعلم كيفيتهــا ولا هــي ممــا يــدخل تحــت تصورنا، فيكون معنى صــافين: منظمــين لا تجــد فــي جمعنــا علــى كثــرة عــددنا أي مظهر مــن مظــاهر الفوضــى فليســت الصــفوف ســطورا منتظمــة، والنظــام كمــال والفوضى نقص. وقد أراد الله من خلق الملائكــة أن يكونــوا مطيعــين لا يعصــون. إننــا نسبح ربنا وننزهه ففي ذلك متعتنا.

ويمكن أن يكون الكلام كلام محمد ﷺ يقول: مــا مــن أحــد مــن المســلمين الصــالحين إلا له مقام معلوم في الجنة على قدر عمله وإخلاصــه، ثــم نــوه بــالمؤمنين أن الإســلام دخل عقولهم فنظمها فانتظمت فعالهم تبعا لــذلك، وخاصــة فــي الصــلاة إذ هــم يعنــون بانتظام صفوفهم، وأن لا يبقوا فيهــا فرجــا ولا نبــوا. ونحــن المســلمين نواظــب علــى تسبيح الله وتنزيهه عما يقوله الكفرة الملحدون.

167←170: وإن كانوا ليقولون...فسوف يعلمون.

بعد أن تتبع القرآن كثيرا من مفترياتهم، ومن أضاليلهم، ومن أساطيرهم، فأبطلها وأقام الحجة عليهم، انتقل القرآن للتنديد بتناقضهم، والتشهير بمقالاتهم التي قالوها فلم يَفُوا بها. كانوا قبل أن ينزل الله القرآن على محمد ﷺ، يتحدثون في مجالسهم، متحرّقين أن الله لم يبعث فينا رسولا، ولو أنزل علينا كتابا من الرسل السابقين مثل موسى وعيسى. لو جاءنا رسول يخاطبنا بكتاب من عند الله، إذ الرسل السابقون ما كانوا معنيين بنا، لو جاءنا رسول لأسرعنا للإيمان به إيمانا يرفعنا إلى أن نكون عباد الله حقا المخلصين له كامل الإخلاص. لا يقاس مستوى إخلاصنا بإخلاص الأمم الأخرى. وجاءهم الرسول منهم يعرفونه بكل الصفات النبيلة السامية، وبكتاب هو أفضل الكتب على الإطلاق، مضمونا، وصيغة. فتنكروا لكل أمانيهم وكفروا به، وتعصبوا في كفرهم وتصلبوا فكانوا من أشد الناس كفرا. كما جاء في قوله تعالى: **وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا استكبارا في الأرض ومكر السيء)**[1] يهددهم القرآن تهديدا في عدم تفصيله، ما يفيد فظاعته. سيحل بهم لا محالة في المستقبل كما تفيده " **سوف**".

---

[1] سورة فاطر آية 42

وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا
لَهُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾
أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ
عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَـٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا
يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَـٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

كلمتنا : كلامنا.

تول عنهم : أعرض عنهم ولا تتأثر حزنا بإعراضهم.

حين : وقت قليل.

أبصرهم :تأمل أحوالهم.

بساحتهم : وسط مجمعهم .

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد سبق كلامنا في الأزل بوعدنا لعبادنا المقربين المرسلين: إن النصر لهم وحدهم، وإن الهزيمة تنزل على أعدائهم. ووعدنا لعبادنا المجاهدين من جند الله: إنهم هم الغالبون لأعدائهم، المفوّزون بالظفر على أعدائهم. فأعرض ولا تبتئس بما يفعلون، فلن يطول بهم الأمر، وسيتحقق الوعيد فيهم .و راقبهم ببصرك المتأمل في أحوالهم، فإنك تجد أن مجتمعهم مجتمع منحل آيل إلى الفساد، وستشاهد عاقبتهم فيُسيرُك الله بذهاب أمرهم، وسيبصرون تلاشيهم فيتنكدون.

قابل المشركون التهديد بعدم المبالاة بل طلبوا أن يتحقق الوعيد. وإنه لأمر عجب أن يطلبوا نزول العذاب الإلهي الماحق بهم. مثلهم كمثل منذر أنذر قومه استعداد جيش للإغارة عليهم، فلم يقوموا بواجب الاستعداد للجهاد، وإذا بالجيش المغير ينزل فجأة صباحا بوسط مجمعهم، ويتحكم في جميع السبل فَتَحِلَّ بهم الهزيمة النكراء. ما أسوأ صباح المنذرين.

بيان المعنى العام :

171←173: ولقد سبقت كلمتنا...الغالبون.

بكل تأكيد ثبت منذ الأزل، بكلامنا الذي لا يحتمل النقض ولا التعطيل، الموجه لعبادنا الفائزين بتقريبهم منا بما تفيده كلمة "**عبادنا**" الذين اخترناهم لتحمل رسالتنا لهداية العالمين، ثبت يقينا فاطمأنوا لتحقق الوعد: إنهم هم المنصورون على

أعدائهم. وفي ذلك تسـلية لرسـول الله ﷺ باعتبـاره خاتمـا للمرسـلين، أنـه منصـور لا محالة، وأن الهزيمة لاحقة بأعدائه. ثم ثنى القـرآن بتبشـير المـؤمنين المجاهـدين: أنهـم جند الله "جندنـا" قَبِلَهُم الله فنسبهم لذاته العلية تكريمـا لهـم وتنويهـا بمـا يقومـون بـه، أن الغلبة لهم في مقامات الحجاج لأن الدين الـذي يـدافعون عنـه ويحتجـون لـه، هـو دين العقل، فحجتهم دائما يسـندها العقـل، والمخـالفون لهـم يـدفعهم الهـوى والظنـون. والنصر لهم وحدهم في المعارك الفاصلة في ميادين القتـال، مـا دامـوا يمثلـون الإسـلام فعلا، لا انتسابا فارغا.

174ـفتول عنهم حتى حين.

لمّا ثبت أنك بعناية ربك وأن الله ناصـرك، فـأعرض عـنهم إعراضـا يجعلـك لا تتـأثر بمواقفهم الرذيلة، ولا تتنكّدْ بسوء صنيعهم وتصلبهم فـي الكفـر، إنـه لـن يطـول الأمـر بهم فإلى مدة قريبة سوف ينهزمون.

175ـوأبصرهم فسوف يبصرون.

تتبع أحوالهم متأملا فيها، فإن الكفر يسير بهـم فـي طريـق الانحـلال والفسـاد، يتبـين لك من متابعتك المتعمقـة أنهـم صـائرون حسـب سـنن الله إلـى التلاشـي والانهـزام. وأنهم سيبصرون عاقبتهم مع الندم على ما فرطوا.

176ـأفبعذابنا يستعجلون.

لمّا توعدهم القرآن بقرب تحقق الوعيد فيهم، قـابلوا هـذا التهديـد حسـبما اعتـادوا مـن الاستكبار والتحدي، قابلوه بطلب أن ينزلـه الله بهـم قريبـا تكـذيبا للوعيـد. وإنـه لمـن عجيب أمرهم أن يستعجلوا عذاب الله.

177ـ فإذا نزل...صباح المنذرين.

هذا تمثيل بديع يجسم ما سيحل بهم كأنه واقـع مشـاهد أمامـك أيهـا التـالي لكتـاب الله. مثلهم كمثل ناصح أمين لقومه، أنذرهم جيشـا قادمـا للإغـارة علـيهم، وحرّضـهم علـى الاستعداد للجهاد، فلم يلتفتوا إلى نصحه.

ولمّا كانوا ما يزالون في حال الدعة صباحا، إذا بـالمغيرين تمكنـوا فـي لحظـة خاطفـة من احتلال وسط المُجَمّع، وتحكموا من كل السـبل الرابطـة، وفتكـوا بهـم. وعلـى هـذا النحو سينزل بهم عذابنا .أنذروا بـه، يـأتيهم مباغتـا، يعطـل كـل قـواهم فـي لحظـة واحدة، يمحقهم .

178←179: وتول عنهم ...فسوف يبصرون.

يمكن أن تكـون تأكيـدا للأيتـين 174و175- ويمكـن أن يكـون التـولي "تـول عـنهم" عمن بقي من المشركين بعد نزول العذاب الذي اسـتعجلوه بهـم. كمـا يحتمـل أن يقصـد بحين إلى وقت فتح مكة، أو إلى يوم القيامة.

180.سبحان ربك...عما يصفون.

مطلع بديع يرتبط بكـل مـا سـجله علـى المشـركين أثنـاء السـورة مـن تجـاوزاتهم وخيالاتهم وجراءتهم على الله، ينعطف عليها لينقضها ويعلـن تنزهـه سـبحانه عـن كـل نقص في ذاته، وأن اختياره لـك يـا محمـد كـان اختيـارا مبنيـا علـى علمـه الكامـل الشامل، إنه ربك والى عليـك رعايتـه حتـى بلغـت المسـتوى الرفيـع لتكـون خاتمـا لرسالاته في الأرض .هو رب العزة، صاحب العـزة التـي لا يلحقهـا عجـز، وهـو رب ما يرزقه من العزة لأي إنسـان .فعـزة الملـوك والرؤسـاء والعلمـاء، وقـواد الجيـوش المنتصرين ونحوهم، هي مملوكة له، تفضل بما قدره لكـل واحـد مـنهم بالمقـدار الـذي تقتضيه الحكمة. فبان أن الكمال المطلق ثابـت لربـك العزيـز الـذي لا يُغلَـب، المـانح العزة لمن يشاء، على أن العزة الحقيقيـة بعـد الله هـي لرسـوله وللمـؤمنين. **ولله العـزة ولرسوله وللمؤمنين**. فهم الـذين لا يخضـعون إلا لله، ولا يرجـون فضـلا إلا منـه. ولا يتقربون تقربا يعتزون به من أحد سواه. تنزه ربك عـن كـل مـا يحـاول أن يلصـقه بـه المشركون والكافرون والمعطلـون. إن هـذا التصـور المنـزه هـو الـذي يبعـث فـي الإنسان العزة الحقيقية، ويعلي مقامه، ويسمو به عن دركات ذل العبودية لغيره .

181. وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

إن سبيل الرقي إلى التصور الصحيح عـن الله لا يبلـغ العقـل مهمـا أوتـي مـن ذكـاء وفطنة المستوى الذي يكون فيه التصور تاما واضـحا بعيـدا عـن كـل شـائبة ودخيلـة . وكذلك السلوك لا يكون محصنا من دواعـي الشـهوة ووسـاوس الشـيطان، كـل ذلـك لا يتحقق إلا بفضل رسل الله الـذين يطوعـون النفـوس للخيـر، ويجعلونهـا تشـمئز مـن الشر والرذيلة، يجد الإنسان منهم العون والتوجيـه والرفـق، وهـم بكلامهـم أو بفعـالهم يجسِّمون المثل المحتذَى. فسلام الله عليهم كفاء ما قدموا للإنسانية من خير.

و الحمد الكامل والثناء الجميل، والاعتـراف بالفضـل اخـتص بـه رب العـالمين، فمـا من كائن إلا لسان حاله إن لم ينطـق لسـانه، هـو معتـرف بالثنـاء علـى الله، وأن مـا لحقه من خير ونعمة فهو من الله.

وإنه لحقيق بالمؤمنين أن يرددوا هذه الخاتمـة لجمعهـا لـتلكم المفـاهيم العاليـة، حتـى تكون معانيها حاضرة في عقولهم وأرواحهم .

روى ابو سعيد الخدري ﷺ قال سـمعت رسـول الله ﷺ غيـر مـرة ولا مـرتين يقـول آخر صلاته أو حين ينصرف : **(سبحان ربـك رب العـزة عمـا يصـفون وسـلام علـى المرسلين والحمد لله رب العالمين)**

وعن علي ﷺ : (من أراد أن يكتال بالمكيـال الأوفـى مـن الأجـر يـوم القيامـة فليقـل آخر مجلسه حين يريد أن يقوم: سبحان ربـك رب العـزة عمـا يصـفون وسـلام علـى المرسلين والحمد لله رب العالمين).

ســـــورة ص

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وكتب التفسير والسنة. أخذ اسمها من أول آية فيها[صاد] بسكون الدال. هي سورة مكية بإجماع .رتبتها حسب ترتيب المصحف الثامنة والثلاثون. وحسب ترتيب النزول الثامنة والثلاثون. نزلت بعد سورة القمر وقبل سورة الأعراف. روي ما يفيد أنها نزلت قبل الهجرة بثلاث سنوات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي عِزَّةٖ وَشِقَاقٖ ۝٢ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَبۡلِهِم
مِّن قَرۡنٖ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٖ ۝٣ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ
هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ
ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا
فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧ أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ
مِّن ذِكۡرِيۖ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ۝٨

بيان معاني الألفاظ:

ذي الذكر : تذكير الناس بما هم عنه غافلون.

العزة : المعازة والمغالبة .

لفي شقاق بعيد: متجذرون في العناد والخصام.

قرنا: أمة.

نادوا: دعوا الله.

مناص: النجاء .

عجاب : يثير أشد العجب.

انطلق :اذاعوا مقالتهم يتحركون بها في المجامع.

الملأ: أشرافهم، وأصحاب الجاه والسؤدد فيهم .

أن امشوا : واصلوا السير على ما أنتم عليه.

الصبر: الثبات والملازمة.

اختلاق: كذب مخترع لا شبهة لقائله فيه.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت بحرف واحد يقرأ (صاد) الذي يقال فيه ما بسط في أول سورة البقرة. وألحق به قسما بالقرآن الموصوف بأن التذكير صفة لازمة له فيرفع عن القلوب غفلاتها، و يذكرها بكل ما هي في حاجة إليه مما يصلح شأنها في الدنيا والآخرة. مع هذا المستوى الذي هو عليه لم ينتفع به الذين كفروا لأنهم استكبروا عن هدايته معتزين بما تجمع لهم من تجبر في الأرض مصممين على العناد. اغتروا بذلك، وهي قوة تنهار أمام النقمة الإلهية. فلينظر هؤلاء الكافرون في كتاب التاريخ، فقد أهلكنا قبلهم أمما كثيرة استكبرت وعصت، أهلكناهم وأبدناهم، ولم تنفعهم التوبة بعد فوات أوانها .فكانت استغاثتهم في الوقت الذي لا تنفع فيه استغاثة ولا توبة . وأبدوا عجبهم من كون المنذر واحدا منهم يشاركهم في خصائصهم الإنسانية وفي الانتساب إلى نفس العرق والنوع الإنساني. وهذا من تصلبهم في العناد، لأن كونه واحدا منهم مرجح لتصديقه لا للتعجب منه، لأنه بهذه الصلة يكون حريصا على نفعهم لا على غشهم. ويكونون أعرف بأخلاقه وشمائله. ومما دفعهم إلى العجب أيضا أن مضمون دعوته توحيد الإله، ورفض التعدد. ثم أخذ المقدمون في الرتبة الاجتماعية يحرض بعضهم بعضا ويحرضون الأتباع على مواصلة التشبث بالشرك، وأن يثبتوا على عبادة الأصنام متحملين في ذلك كل ابتلاء. زاعمين أن الطعن في الآلهة هو أمر تم تدبيره وإعداده، وإرادة تنفيذ ه. ما سمعنا بما يدعيه من تفرد الإله المعبود في أقرب الأديان زمنا منه، فعيسى يدعو إلى التثليث، ودينه آخر دين. فما يدعيه من الوحدانية وما يطعن به في تعدد الآلهة هو كذب لا سند له اخترعه من عنده. ثم واصلوا مؤيدين شركهم، رافضين لرسالته بقولهم نتساءل، كيف اختاره الله من بيننا لينزل الذكر عليه، يعني ولا مزية له واضحة ؟ لنضرب عن متابعة شغبهم. فالحقيقة أنهم انغمسوا في الشك في أمر هذا الذكر زعموا أنه: سحر أساطير، كذب، شعر، كهانة؛ أعْرِضْ عنهم. فإنهم واصلوا تكذيبهم لأنه لم يصبهم عذابي إلى اليوم، مما يتضمن تهديدا أن حلول العذاب بهم غير بعيد

بيان المعنى العام :

1ـص والقرآن ذي الذكر.

افتتحت الآية بـ [ص] الذي يقرا هكذا " صاد" وهو جزء من الآية، وليس آية مثل نظائره من السور التي افتتحت بحرف واحد، فلم يعتبر ذلك الحرف آية، كـ [ن]،

و[ق] ويقال فيه ما ذكر في فواتح السور التي ابتدئت بحروف مقطعة، مما ذكر في سورة البقرة.

ذي الذكر – صاحب الذكر وما أضيف لفظ ذو رفعا وذي جرا، يدل على أن مدخولها مهتم به حظه رفيع منوه به . كما تقول ذو علم أو ذو تقى أو ذو مال.

والقرآن – قسم بالقرآن الذي من صفاته الكاشفة عن حقيقته أنه الموصوف بالشرف وعلو المنزلة، و أنه يذكر الناس بما تضمنه من كل ما هم في حاجة إليه من العقيدة والتشريع. يوقظ عقولهم وأرواحهم ويحميهم من الغفلة والضياع.

وجواب القسم مقدر: أي والقرآن ذي الذكر إنه لكلام معجز، يهدي العقول التي لا تكابر في الحق.

2.بل الذي كفروا في عزة وشقاق.

انتقال من التنويه بالقرآن، الذي صفته أنه مذكر للناس، إلى رفع اشتباه وهو أنه إذا كان على هذا المستوى من إصلاح البشرية فما بال الذين كفروا لم يتعظوا به ولم يصلحهم؟ فصرحت الآية بأن علة عدم تذكرهم بالقرآن، هو أولا فساد في نفوسهم إذ استولى عليهم الكبر، وأخذتهم العزة الموهومة بمكانتهم في الكون، وثانيا أنه تولد عن كبرهم، تأصل العناد فيهم وتمكن الخلاف من نفوسهم فغدا طبعا لهم.

3.كم أهلكنا...ولات حين مناص.

هذا وعيد محذر للمعتزين المعاندين، بما جمعوا من القوة وأعراض الحياة الدنيا. ينذرهم بأن مآلهم سيكون كمآل أمم كثيرة مضوا قبلهم في الحياة،واستكبروا وعاندوا، فأهلكناهم، وحق عليهم العذاب، واستغاثوا عندما استيقنوا بحلول العذاب، ولكن فات الوقت، **فلات حين مناص**: فليس الوقت وقت نجاء من العذاب.

4.وعجبوا أن جاءهم...ساحر كذاب.

وتملكهم العجب أن كان النذير المنبه لهم من سوء العاقبة، إذا هم لم يصلحوا شأنهم في العقيدة والسلوك، أن كان النذير واحدا منهم. ومن بديع النسج القرآني وصف المنذر بأنه منهم، الذي يدل حسب طبيعة الأشياء أن يكونوا أطوع له لما تحمله القرابة من حرص على النفع فتبرير إعراضهم بأنه واحد منهم يحقق ما ذكر من استكبارهم وتصميمهم على العصيان. ودفعهم كفرهم إلى أن يتهموه بأنه ساحر كذاب. ساحر في زعمهم لأنه استطاع أن يؤثر في عقيدة بعض الناس فحولهم بكلامه عما كانوا مقتنعين به، وكذاب لأنه يدعي أنه مرسل من عند الله. وذلك حسبما فصلته آيات أخرى: أن الرسول لا بد أن يكون من غير جنس البشر .

5.أجعل الآلهة...لشيء عجاب.

أخذوا يبررون رفضهم: أنه قلب للحقيقة ورفع للواقع، جعـلُ الآلهــة إلهـا واحــدا، ومـا عداه باطل وزيف. إن هذا أمر يثير أشد العجـب، لأنهـم مضـوا علـى الشـرك آمـادا، فغدا محل اقتناع جماعي قَبِلَهُ الأخلاف عن الأسلاف.

6←7: وانطلق الملأ...إلا اختلاق.

واصل أشراف القوم وسادتهم، ما كانوا عليه مـن تمجيـد لآلهـتهم، يحـرض بعضـهم بعضا على الثبات على عقيدتهم. وبهذا يكـون الانطـلاق انطلاقـا مجازيـا. كمـا يمكـن أن يفهم على أنه انطلاق حقيقي، بناء على ما روي أنه لمـا احتُضِـر أبـو طالـب عـم النبي ﷺ، قال أشراف قريش: إنه مـن القبـيح علينـا أن نبـالغ فـي إذايـة محمـد بعـد موت أبي طالب فلننطلق إلى أبي طالب نعـرض عليـه أمـرا: هـو إنصـاف لمحمـد، نتركه يعبد إلهه في بيته، ولا يتعـرض إلـى آلهتنـا بسـوء، فـاجتمعوا عنـده وحضـر النبي ﷺ، وقال له عمه: إن هـؤلاء قومـك قـد أنصـفوك، وعـرض عليـه مقـالتهم. فأجاب النبي ﷺ : فليكن العرض غير ذلك. قال: وما هـو ؟ يعطـونني كلمـة تـدين بهـا لهم العرب والعجم. قالوا وما هي ؟ قال: لا إلـه إلا الله. فنفـروا وقـال بعضـهم لـبعض **أن امشوا واصبروا على آلهتكم**. فيكون الانطلاق عبارة عـن خـروجهم مـن بيـت أبـي طالب

ثم تظاهروا بالفطنة، وقالوا: إن ما يدعو إليه من تسفيه آلهتنـا، وعلـو إلهـه أمـر مـدبَّر، أعد له بطريقة فيها مكر، ونحن قد تفطنا لمكره. كيف لا، وإنـه مـا سـمعنا بمثـل قولـه **في الملة الآخـرة**، في آخر الأديـان نـزولا، فالنصـارى يثبتـون تعـدد الآلهـة. أو مـا سمعنا بمثل ما يدعو إليه فيما تناقله الناس مـن أول أمـرهم إلـى الآن. فتكييـف دعوتـه إلى التوحيد: أنها دعوة مختلقة لا أصل لها.

8.أانزل عليه الذكر...بل لما يذوقوا عذاب.

تصرح هذه الآية بسلم القيم الذي يعتقدونه ويعبر عن المكانة التي يحتلها كل فرد تبعا له. فسلم القيم عندهم لا يعود إلى ما في الفرد من مزايا إنسانية ذاتية، كالذكاء والاستقامة وكمال الأخلاق، ولكنه يعود إلى الثراء والجاه والعصبية . وبناء على ذلك تملكهم العجب أن يختار الله من بينهم محمدا لينزل عليه وحيه ويكلفه بإبلاغ رسالته وإنذار الناس. فزيادة على استبعاد أن يكلف الله برسالته إنسانا لا ملكا، فإنه من غير المعقول عندهم أن يختار من بين الناس من ليس في القمة حسب مقاييسهم." **بل هم في شك من ذكري**" حقيقة أمرهم أنهم افترضوا افتراضات عدة، وأن رفضهم له أوقعهم في شك ولبس. فمرة قالوا إنه شعر،

وأخرى أساطير الأولين، ومرة كهانة، وأنه سحر. فهم مترددون تبعا لتصلبهم في الكفر والرفض، لم يستطيعوا أن يستقروا على رأي. إن الذي جرأهم على هذا الخبط، أني لمَّا أنزلْ عليهم العذاب إلى الآن. فكلمة " **لما** " تفيد النفي مثل" لم " وتتميز بأن النفي محدود بزمن التكلم لا ينسحب على المستقبل . فيفيد توقع التحقق في المستقبل . وبهذا تكون الآية متضمنة نوعا من التهديد: أن الله سيسلط عليهم عذابه في المستقبل فيحسون به أبلغ الإحساس.

أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُم مُّلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ فَلْيَرْتَقُواْ فِى ٱلْأَسْبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الخزائن : جمع خزانة الظرف الذي يحفظ فيه المال أو الطعام.

رحمة ربك : رفق ربك وعنايته..

العزيز : من لا يعطل تنفيذ إرادته أي شيء.

أصحاب ليكة: أهل مدين

ما ينظر : ينتظر .

فواق: المدة بين الحلبتين .

بيان المعنى الإجمالي :

عرف القرآن بجراءتهم مع فقرهم وعجزهم. أيملكون خزائن الرحمة الإلهية ليتصرفوا تمكينا ومنعا من تلك الخزائن التي يملكها العزيز الذي لا يرد له أمر، الواسع الفضل كثير المواهب. واسألهم أهم يملكون الأرض والسماوات وما بينهما، وإذا كانوا كذلك ليصعدوا إلى العرش ليدبروا أمر الكون فيمكنوا من الرسالة من شاؤوا ويصرفوها عمن أرادوا صرفها عنه. هم جند كثير عدده، مهزوم من الأحزاب المتألبين على الرسل الذين، لا تختلف نهايتهم، هي الانكسار. ثم عدد القرآن ست أمم كذبوا واستكبروا هم قوم نوح وقوم عاد وقوم فرعون الذين ظنوا أن قوتهم مركزة لا تهدم، وثمود وقوم لوط وأصحاب ليكة بمدين، أولئك هم الذين

تحزبوا لوقف المد الإيماني فـانهزموا وأبيـدوا. اشـتركوا فـي تكـذيب الرسـل وتأييـد الباطل، فتأهّلوا للعذاب المقدر لهم الذي أبـادهم. وهـؤلاء الـذين يكـذبونك مـن قـريش مصممين على الشرك، مآلهم قريب. ينتظـرون أن تأخـذهم صـيحة واحـدة تبيـدهم دون تأجيل ولا إمهال.

بيان المعنى العام:

9.أم عندهم خزائن...العزيز الوهاب.

إضراب عن الكلام السابق وانتقال إلى توجيه سؤال إنكـار لهـم، هـل يملكـون خـزائن رحمة ربك يا محمد، الخزائن التي هـي ملـك لله وحـده، لا تمتـد إليهـا أي يـد لتأخـذ منها. على معنى أن النبوة هي فضل من رحمة الله التـي تفـرد هـو بالتصـرف فيهـا، ولا يملكون منها شـيئا حتـى يمكنـوا منهـا مـن شـاؤوا، ويصـرفوها عمـن شـاؤوا، ويتخيروا للنبـوة كبـراءهم، والمقـدمين عنـدهم فـي المرتبـة الاجتماعيـة. إن خـزائن الرحمة التي منها النبوة لا يملكها إلا ربك يـا محمـد الـذي واصـل العنايـة بـك حتـى بلغك مرتبة ختم الرسالة، فهو العزيز إذا تعلقـت إرادتـه بـأمر نفـذه ولا يعطـل إرادتـه أي قوة. وهو الوهاب للنعم تبعا لسعة فضله.

10.أم لهم ملك السماوات ...في الأسباب.

تشهر هذه الآيـة بجـراءتهم، فاسـتفهمت اسـتفهاما تهكميـا، أهـم يملكـون السـماوات والأرض وما بينهما، ويتصرفون فيها، وحينئـذ فليرتقـوا صـعدا فـي الحبـال الموصـلة إلى العرش حتى يدبروا أمر العالم فيحرموا مـن شـاؤوا، وينعمـوا علـى مـن شـاؤوا، وينتدبوا للنبوة من هو في خيالهم أولـى بهـا ويمنعوهـا ممـن لا يرقـى عنـدهم لعلـي رتبتها. والأمر في فليرتقوا أمر تعجيزي يكشف عن عجزهم عن تلكم المرتبة.

11.جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب .

ثنى معرفا بقيمتهم، بعـد أن اسـتهزأ بهـم بـأمرهم :أن يصـعدوا إلـى منتهـى العـرش ليحكموا في الكون كيف شاؤوا. هم جند متـألف مـن عـدد كثيـر، مهـزوم فـي النهايـة .شأنهم شأن جملة أحزاب الكفر الـذين لا تخـرج عـاقبتهم عـن الـنمط الخاسـر الـذي قدره الله لنهايتهم.

12←13:كذبت قبله قوم...أولئك الأحزاب.

عدد القرآن ستة من الأمم المكذبة بأعيانهم، فذكر قـوم نـوح الـذين كـانوا أول مـن تـم استئصالهم، وثنى بعاد، وثلث بفرعون واصفا له بأنـه ذو الأوتـاد. والوتـد عـود غلـيظ مذبب طرفه يغرس في الأرض فيشد فيه الحبل الماسـك بطـرف مـن أطـراف الخبـاء. ويمكن أن يكون القصد من وصفه مـن أنـه ذو الأوتـاد الإشـارة لعظمـة ملكـه وقـوة

ثبوته. ويمكن أن يفهم على أنه إشارة إلى الأهرام التي تمثل قوة الحضارة التي بلغتها مصر تحت حكم الفراعنة. التي ما كان لها أن تتم على الشكل التي هي عليه، إلا اعتمادا على مستوى علمي في رفع الأثقال، وهندسة البناء، ودراسة خصائص المواد التي تم منها البناءات الضخمة. وكل ذلك يدل على بلوغ مستوى رفيع في الهندسة والكفاءات الصناعية. وتمت إبادتهم رغم ذلك لما كذبوا موسى عليه السلام وعزموا على مواصلة إذاية المؤمنين به، وذكر بعد ذلك ثمود، وقوم لوط، وأصحاب ليكة من أهل مدين. وقد سبق الحديث عنهم وعن نهايتهم في المواقع القرآنية التي فصلت أخبارهم .

أولئك الأحزاب أشير إليهم بأنهم تفصيل لما أجمل في الاية 11 جند ما هنالك مهزوم من الأحزاب .

14ـ إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب.

تؤكد هذه الآية ما ورد في الآيتين 13/12 – على أنه ليست لهم إلا صفة واحدة هي التكذيب لرسل الله، فصورهم القرآن بذلك صورة من تأهل بما قدمه للحكم العادل من الله، وتم التصريح به (**فحق عقاب**)فوجب لذلك أن أعاقبهم .وفي ذلك تعريض بالتهديد لمشركي مكة أن يكون لهم نفس المصير إن لم يرتدعوا.

15ـ وما ينظر... ما لها من فواق.

تهديد قوي لمشركي مكة على أنهم لا ينتظرون إلا شيئا واحدا، أي ليس بينهم وبين تنفيذ الوعيد فيهم، إلا حدوث صيحة واحدة لا تعاد، ليس بعدها إمهال .وجسم الإمهال بما جرت عليه عادتهم: أنهم كانوا إذا أرادوا حلب الناقة، أرسلوا فصيلها ليرضعها فتدر باللبن، ثم يفصلوه عنها وقد در الضرع فيحلبونها ثم يرسلون عليها الفصيل ثانية، فالزمن الفاصل بين الحلبتين يطلق عليه (فواق) فالصيحة المهلكة ليس بعدها إمهال .

وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

قطنا: نصيبنا .

الأيد :القوة.

أواب: صيغة مبالغة في الأوب أي الرجوع إلى الله .

يسبحن : يمجدن وينزهن ومن ذلك قول سبحان الله.

الإشراق : وقت الضحى، وقت وضوح إشراق الكون بضوء الشمس.

بيان المعنى الإجمالي :

من وقاحة المشركين وتحديهم معلنين تكـذيبهم لرسـول الله فيمـا أخبـر بـه مـن أمـر الجزاء، طلبهم أن يعجل الله لهم جـزاءهم السـيء فـي الـدنيا قبـل الآخـرة. لأنهـم لا يصدقون بأنهم مجزيون عن شركهم. وأمره أن يتذكر ما كان أوحـى بـه إليـه مـن أمـر داود ﵇ . هذا الرجل القوي البنية الرقيـق الـنفس الكثيـر الرجـوع إلـى ربـه تقربـا وتطبيقا للسلوك الذي يرضيه. هذا الرجل الذي مننا عليـه فسـخرنا الجبـال تسـبح لأجـل تسبيحه في العشي وعندما يصفو شـعاع الشـمس فـي وقـت الضـحى .وكـذلك الطيـر جمعناها للتسبيح معه.

ومكن الله لملكه فلا يختل لا بسبب خـارجي ولا داخلـي. وأجـرى الله الحكمـة الكاشـفة عن عمق الحق في تفكيره وكلامه. ويسر لـه القـول السـليم فـي مبانيـه الواضـح فـي دلالاته فإذا تكلم أوضح وأقنع فلا كلام بعد خطابه.

بيان المعنى العام :

16ـ وقالوا ربنا...يوم الحساب.

حققت الآية السابقة أن مآلهم صيحة واحدة تفنـيهم بـدون إمهـال. قـابلوا ذلكـم التهديـد بالاستهزاء قائلين بصيغة التهكم: ربنا عجل لنا القسـط الـذي كتبتـه لنـا الآن قبـل يـوم القيامة. ولم يقولـوا ذلـك رغبـة فـي العـذاب، وإنمـا قـالوه تكـذيبا لرسـول الله ﷺ، واستهزاء وسخرية، واثقين أنه لا بعث ولا جزاء.

17ـ واصبر على ما يقولون...إنه أواب .

أمر الله رسوله أن يـوطن نفسـه علـى الصـبر، وأن يكـون لـه مـن قـوة الاحتمـال والاعتزاز بحمل شرف الرسالة، مـا يـوهن مقاومـة المشـركين لـه المقاومـة الماديـة والمقاومة النفسية. فلا تلتفتْ إلى سخيف أقـوالهم، واثبـت علـى مـا أنـت عليـه فإنـك منصور. ولذا أمر الله رسوله أن لا يحـزن ولا يجـزع مـن تصـلبهم وأن يصـبر علـى الدعوة.

وعقب التأكيد عليه بالصبر بأن طلب منه أن يتذكر ما تم لداود عليه السلام، وسنبين بحول الله في تمام قصته وجه عطف قصته على الأمر بالصبر. ولنتابع قصة داود مرحلة مرحلة كما عرضها القرآن:

1)عني القرآن بالإطار العام الذي تسير فيه أحداث القصة. فعرض الشخصية الأولى فيها (داود ﷺ) على أنه رجل قوي البنية قوة واضحة، لأن " **ذا الأيد**" صاحب القوة أكمل في الدلالة من قول: إنه قوي. ومع القوة البدنية هو يحمل بين جنبيه روحا بلغت غاية الرقة، أبعد ما يكون من العنف والصلابة، رجل **أوّاب** كثير الرجوع إلى الله تملأ خشية الله قلبه، فهو يعود إلى ربه طلبا للقرب منه، وتحصيناً لنفسه من الانفلات مع القوة التي رُزِقها، وعملاً بما يرضيه .فأشرقت ملامح الشخصية التي تدور حولها الأحداث: بنية صلبة شديدة، ونفس لينة خاشعة.

18←19: إنا سخرنا الجبال ...كل له أواب.

واصلت هذه الآية تفصيل ملامح شخصية داود فأفادت: أن الله ربط بينه وبين الكون، وأتم الانسجام بينه وبين الجبال، وجمع الطير التي من شأنها أن تسبح في الفضاء الرحب بحرية فإذا سبَّح اجتمعت وكفت عن الحركة وانطلقت معه مسبحة، (انظر الآية 79 من سورة الأنبياء). فهي تسبح لأجل تسبيحه فدخل في إطار القصة الصوت والحركية بالتفاعل بين داود وبين الجبال والطير. كما أدخلت الآية تعاقب الزمن لتزداد الحركية والتفاعل وضوحا. هي تسبح معه في العشي، وعندما يقوى ضياء الشمس عند الضحى. فالإشراق هو وقت الضحى بعد ارتفاع الشمس وسطوع ضوئها، والفعل أشرقت الشمس. وأما الشروق فهو وقت انفلات حاجب الشمس من الأفق. والفعل شرقت الشمس.

20. وشددنا ملكه....وفصل الخطاب.

من ملامح شخصية داود : أنه كان ملكا قد استتب الأمن في مملكته، وأنه أحاط حدوده بما يقمع كل من تحدثه نفسه بانتهاكها أو التعدي على جزء منها، وأنه قد استطاع أن يؤلف بين رعاياه بعدله فلا تحدث نفس أحد، من رعاياه، بالانتقاض عليه لما حصن به ملكه من القوة والتنظيم، ومن رضا الشعب على حكمه. ومكنه الله من الحكمة ففتح بصيرته إلى إدراك الحق والعمل به ـ وإبرازه للناس. إذ الحكمة هي الإدراك الذي لا خلل فيه، والقول المعبر عنّ ذلك التصور السليم الكاشف عن الحق. الذي لا يشغله بعض الظواهر المضللة عن الحقيقة الكامنة. كما آتاه الله **فصل الخطاب**. وقد فسر فصل الخطاب بتفسيرات كثيرة، والذي أرتضيه:

أن الناس إذا جرى بينهم الحديث وكانوا على مستوى رفيع من التفكير، فإنك تجد كل فرد يكمل ما يعرضه غيره. وقد يكون لبعضهم من العمق في التفكير، ومن وضوح البيان ما يجعل كلامه بالغا إلى عمق الحقيقة موضحا لدخائلها كاشفا عن خفي جوانبها، فبعد عرضه يتم فصل القول فيها ولا يتواصل. وهو فصل الخطاب الذي هو رشح فطنة وفصاحة.

۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

النبأ : الخبر .

الخصم :يطلق على الواحد والمتعدد.

تسوّر : اعتلى على السور.

المحراب : البيت المتخذ للعبادة .

فزع: ذعر من أمر مفاجئ.

بغى: اعتدى وظلم.

أشط :جار وظلم .

سواء الصراط : الحق الواضح.

أكفلنيها : هبها لي .

عزني :غلبني .

خر: هوى إلى الأرض.

الزلفى: القربى .

حسن المآب: حسن العودة بالدخول إلى الجنة.

خليفة : موكل إليك إنفاذ شريعتي في عبادي وفي أرضي .

الأرض : الأرض التي يسكنها الإسرائيليون في تلك الحقبة .

الهوى : الخروج عن الحق اتباعا لشهوة النفس.

سبيل الله : الطريق الموصل لمرضاة الله .

نسوا يوم الحساب : لم يدخلوه في اعتبارهم.

بيان المعنى الإجمالي:

شوّق القرآن محمدا ﷺ لم للخبر المهم القائم على الخصمين اللذين تسلقا الحائط، فنزلا على داود وهو مستغرق في عبادته. دخلا عليه، ففزع من دخولهما وقد أقفل دونه الأبواب وأقام الحرس حتى لا يصل إليه أحد يقطعه عما استغرق فيه من العبادة والتقرب إلى الله. طمأناه بأنهما أقدما عليه ليفصل بينهما في خصومة يتظلم فيها أحدهما من تعدي أخيه عليه. وشددا عليه ليحكم بينهما بالعدل ولا يميل عنه، وأن يدلهما على الطريق الحق الذي لا عوج فيه ولا ميل. صور المتظلم القضية: أنه يملك نعجة واحدة، وأن أخاه يملك تسعا وتسعين نعجة فطلب مني أن أملّكه نعجتي، وكاد يغلبني في الحجاج والخصام، حتى أسكتني. بعد أن سمع كلام المتظلم، وصادقه الخصم على عرضه. أصدر داود الحكم بأن صاحب التسع والتسعين ظالم لأخيه، وليس له حق في الاستيلاء على نعجة أخيه. ثم وعظهما ليستل ما علق في نفسيهما من آثار الخصومة، بأن ما وقع هو شأن الخلطاء، أن كثيرا منهم يؤثرون أنفسهم بكل خير بغيا وظلما. وأن الله عصم من هذا الانحراف من انشرح صدره للإيمان، ويسره لعمل الخير حتى أصبح أليفا له. وهؤلاء المنصفون هم من الفئة الخيرة الصالحة، وهم قلة أعزاء. وما إن أتم كلامه حتى غابا عن نظره ولم يبق لهما أثر. فطن داود أنهما ملكان بعثهما الله ليصورا له عمليا ما قام به، عندما نظر من كوة فرأى امرأة أوريا عارية، وقد حباها الله من الجمال والوسامة ما جعل صورتها ترتسم في عقله ارتسام الإعجاب كأشد ما يكون الإعجاب، وفطنت له فأرخت شعرها على جسمها فتضاعفت وسامتها. بقيت صورة المرأة الجميلة عالقة بنفسه وسأل عنها فتبين أنها امرأة أحد من قواده، وما زال يتابع أخبارها حتى علم أن زوجها استشهد في القتال، فخطبها لنفسه وضمها لنسائه وجواريه التسع والتسعين. مضى دون أن يتفطن إلى أنه اتبع ما تدعوه شهوته حتى حققها، وإن كان لم يفعل محرما، ولكن عقله ومداركه تعلقت بهذه

المرأة إلى أن ضمها إلى نسائه، وهو في وقت الانتظار مشغول بها لا تفارق صورتها خياله. أيقظته المحاكمة المعروضة عليه إلى خطئه، وغلب على ظنه أن الله ابتلاه بها، ولم يستيقظ لما كان يجب عليه من طرد الصورة من نفسه وطرد كل الواردات الشاغلة؛ فطلب من ربه أن يغفر له ذنبه، وأن يمحو ما كتب في صحائفه من غفلة عنه وتعلق بامرأة ملكت عليه نصيبا من فكره غير قليل. وقرن استغفاره بالتقرب العملي بالسجود والتضرع إلى الله .فقبل الله توبته، وأبقى على مكانته من القرب الذي هو مرتبة الرسل والأنبياء. وأن عاقبته ستكون يوم القيامة في منازل المقربين في جنات النعيم. ثم خاطبه ربه مذكرا، فناداه: **يا داود** ! إنا اخترناك لتكون خليفة على عبادي وفي أرضي لتحكم بين الناس وتنصفهم وتجري العدل فيهم. احكم بين الناس بالحق الذي أبلغتك إياه. وإياك أن تنقاد إلى هواك وما تزينه لك نفسك .هما طريقان طريق موصل لمرضاتي الطريق الذي يحكم صاحبه شرع الله، ويقمع دواعي الشهوة. وطريق الهوى المؤدي إلى البعد عن طريق الله والوقوع في الضلال. احذر العاقبة فإن الذين يبتعدون عن طريق الله اختصوا بالعذاب الشديد، بسبب إعراضهم إعراضا أنساهم أن هناك يوم الحساب الذي يجزى فيه كل إنسان عما قدم.

بيان المعنى العام:

21←22: وهل أتاك نبأ الخصم...سواء الصراط.

الفصل الثاني بعد أن أتم القرآن ما يتعلق بشخصية داود ﷺ ثنى بحادثة مما وقع له ؛هي الغرض من إيراد القصة. ولمزيد من الإثارة افتتح هذا المشهد بسؤال تعجيبي، يثير عجب رسول الله ﷺ، وكذلك كل تال، من الحادثة التي سيعرض القرآن تفاصيلها فيما يلي .

كان داود مستغرقا في العبادة في محرابه المغلق بابه، المحروس من الخارج حراسة تمنع أي وارد من الدخول عليه . ويا للمفاجأة ! رجلان متخاصمان تسلقا الحائط.

22- دخلا عليه محرابه، وما كان يتوقع أن يدخل عليه أحد، فكان للمفاجأة وقعها عليه، وفزع منهما. وفزعه هو من طبيعة التركيب النفسي البشري، فلا يعتبر نقصا موجبا للاعتراض أو التساؤل .

أسرعا بطمأنته، وقالا له: لا تخف منا. نحن لا نضمر لك سوءا. وإنما دخلنا عليك لتقضي بيننا. اختصمنا والتجأنا إليك لتحكم بيننا حكما يراعي الحق الكامل، أخرجنا من الالتباس الذي وقعنا فيه، رغم أن روابطنا قوية لم يكن بيننا عداء سابق ولا

قصد للانتقام، ولكن بغى بعضنا وظلم البعض الآخر. فالروابط لم تنفك بيننا ولكن نريد أن تقيمنا على العدل حتى يذهب ما بيننا من الخلاف. نطلب منك أن لا تجور علينا في الحكم فتميل إلى أحدنا، كل واحد منا يرغب أن تهديه إلى الطريق المستقيم الذي يمكنه من حقه. تمت هذه المقدمة قبل التقاضي، واقتلعت الفزع الذي كان في نفس داود.

23. إن هذا أخي له تسع ...وعزني في الخطاب.

تقدم أشدهما حرصا قائلا: إن هذا القادم معي هو أخي وسع الله عليه فهو يملك تسعا وتسعين نعجة، وأما أنا فإني لا أملك إلا نعجة واحدة. فطلب مني أن أضمها إليه وأن أتنازل له عنها "**أكفلنيها**" ولما أبيت عليه، تتابعت حججه وعلا صوته، وغلبني وأعجزني عن ممانعته. فبسط ظلامته بكل وضوح.

24. قال لقد ظلمك...وخر راكعا وأناب.

الذي يدل عليه سياق القصة أن الطرف الثاني صادق على الدعوى، ولم يجادل أخاه. واستبان الحكم لداود أن صاحب التسع والتسعين ظالم لأخيه، في خُلُقه جشع. فصرح داود بالحكم وعلّله ليكون المحكوم عليه مقتنعا فيستل بذلك ما يمكن أن يبقى في نفسه من التغيظ بإصدار الحكم على خلاف ما كان يبغي أن يصل إليه من تبرير عمله.

حقق أولا أن سؤاله التنازل عن نعجته الوحيدة ليضمها إلى نعاجه التسع والتسعين هو ظلم وشراهة لا مبرر لها إلا حب الاستئثار. ثم هون عليه الحكم، وهون على أخيه قبول الحكم، بأن ما تم بينهما ليس غريبا في باب العلاقات بين الشركاء والخلطاء؛ فإن كثيرا منهم يبغي بعضهم على بعض متناسين ما كان بينهم من التكامل والود. وأنه لا يسلم من هذه الأثرة إلا من جمع بين الإيمان والتطبيق لموجبات الإيمان. فالإيمان نور يبصر بمواقع الإثم فلا تتغلب دواعي حب الذات، وبالعمل يتمرن المطيع على الخير ويألفه. ثم أردف: إن الجامعين بين الفضيلتين صفاء العقيدة وسلامتها وصحتها، والمواظبة على العمل الصالح، هم الكمَّل من الناس، ولكن عددهم بالنسبة للضالين أو المفرطين، عددهم قليل. قال تعالى: **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين، وقليل من عبادي الشكور**. فعلى من وجد من ربه العون على الهداية إلى العقيدة الصحيحة، وأعين على العمل الصالح أن يوالي الشكر لربه. وأن يشعر بالنعمة العظمى التي يسرها الله له، **وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله**. صدر الحكم البات العادل . وقد ذهب معظم المفسرين إلى أن اللذين

تسورا المحراب، وعرضا قضيتهما عليه، هما ملكان قدما عليه في الصورة البشرية. أتياه بأمر من الله . و ما كان حديثهما معه ولا الخصومة التي عرضاها وكل ما جاء في القصة، ما كان ذلك إلا تمثيلا، وصورة لا واقعا، كانت محبوكة الإخراج، حتى يظن المتابع أن أمرهما في التخاصم في النعاج أمر حقيقي. واتخذت هذه التمثيلية مع داود لتكون له درسا عمليا كما سيأتي .ويقوم ذلك سندا لاتخاذ التمثيل طريقا إلى التربية وتحسيس المشاهد بما يؤثر في نفسه ويقيمه على الطريق المستقيم .

يروى أنه بمجرد ما أصدر حكمه، تبسما وغابا عن بصره، وتفطن داود عندها إلى أنهما لم يكونا إلا ملكين أرسلهما الله ليُحِسَّ إحساسًا واضحا بما أقدم عليه. إذ روي أن داود نظر من كوة فوقع بصره على أنثى عارية فاتنة، وتفطنت أنه ينظر إليها فأرسلت شعرها على بدنها فكساها وضاعف جمالها، علقت صورتها بقلبه. سأل عنها فتبين أنها زوجة أوريا أحد قادة الجند .ثم إن زوجها قتل في معركة، فتقدم داود وخطبها لنفسه وضمها إلى نسائه .

إن شدة تعلقه بها، ومتابعة أخبارها إلى وفاة زوجها، ثم تزوجها تحقيقا لما تعلقت به شهوته، كل ذلك كان موجبا للومه والعتَب عليه. و كانت التمثيلية موقظة له، لما جُسِّم له ما أقدم عليه في واقع غيره. ذلك أن الإنسان إذا نظر في أمر نفسه تنازعت قواه العقلية مع نوازع نفسه فضعفت الأولى. أما إذا نظر في أمر غيره تكون قواه العقلية محررة من تأثير العواطف النفعية، فتتجلى له الحقيقة بصورة أشد وضوحا.

كان داود بمنزلة التقريب والتكريم من ربه، وهي مرتبة من النعيم لا يبلغ أحد أن يحس بها الإحساس الكامل إلا الأنبياء والمرسلون . وهي مرتبة ينطبق عليها حسنات الأبرار سيئات المقربين. إن تعلقه بزوجة أوريا ومتابعة ذلك إلى أن تزوج بها، ألهته لا شك في ذلك عن تأملاته وقطعت إلى حدٍّ صلته بربه في فترات. مر ذلك وهو غافل عما وقع فيه وذهب سادرا فيه، إلى أن أقدم عليه الملكان وجسما له ما وقع فيه وما ألهاه عن ربه، وتفطن إلى أن مقامه الرفيع يفرض عليه أن يطرد آثار الصورة التي وقعت عليها عينه لا أن يتابعها إلى النهاية .ثار في عقله وروحه كل ذلك، فظن أنه فتن بتلك النظرة ومتابعتها، وأنه اختبر بها فلم يقاومها مقاومة تطردها وتعفّي على آثارها من أول الأمر. هذا، والله أعلم معنى :وظن داود أنما فتناه. وقد أوضح ابن عطية رحمه الله وجه استعمال ظن في هذا المقام، فقال: حقيقة الظن حضور أمرين في الذهن يغلب أحدهما على الآخر. وتطلق العرب (الظن) على العلم غير المستند إلى الحواس، وهذا العلم لا يبلغ مرتبة اليقين التام

أبدا. فإطلاق الظن بمعنى اليقين تخليط بعيد عن الدقة. هذه الآية بينها وبين اليقين درجة. وهو كلام نفيس دعمه بالقرآن والشعر، لخصته منه.

قامت في باطنه صورة ما أقدم عليه ولا بسه، وروحه روح طاهرة نقية تخيرها الله لحمل رسالته، ففزع إلى الاستغفار والتوبة، وتوجه إلى ربه سائلا أن يغفر له ما وقع فيه، وفي يقينه أنه يتوجه إلى الذي رعاه بفضله وأيده في ضعفه ونقله صعدا في رتب الكمال، وذلك ما يشير إليه: **فاستغفر ربَّه**. فكانت هذه تجربة روحية قرنها بتجربة حسية **فخر راكعا** فقوله خر تفيد أنه هوى نحو الأرض، ولم يبق واقفا .وهذا الوضع له مرتبتان: انحناء الظهر مستويا مع الأرض، والنزول إلى الأرض. والأول هو الركوع، والثاني هو السجود. وقوله فخر راكعا مرجح لأن يكون داود انحنى راكعا تذللا لله. ومن نظر إلى أن كمال الخضوع يكون بوضع الجبهة على الأرض رأى أنه أطلق لفظ راكعا على مفهوم السجود مجازا إذ يشملهما الانحناء من القيام، وتمام الخرور يكون ببلوغ الأرض.

تنبيه : ذهب مالك وأبو حنيفة إلى أن التالي للقرآن يسجد عند بلوغه كلمة: وأناب.

اعتمد مالك وأبو حنيفة على ما أخرجه أبو يعلى والترمذي وغيرهما عن أبي سعيد الخدري قال: رأيتني أكتب سورة (ص) فلما بلغت هذه الآية سجد القلم، ورأيتني في منام آخر وشجرة تقرأ سورة (ص) فلما بلغت هنا سجدت وقالت: اللهم اكتب لي بها أجرا، واحطط بها عني وزرا، وارزقني بها شكرا، وتقبلها مني كما تقبلتها من عبدك داود .قال ﷺ : وسجدتَ أنت يا أبا سعيد ؟ فقلت: لا. فقال: أنت كنت أحق بالسجدة من الشجرة .ثم تلا رسول الله ﷺ الآيات حتى بلغ **{ وأناب}** فسجد وقال كما قالت الشجرة. وليست من عزائم السجود عند الإمام الشافعي.

إلى هنا انتهى تسجيل ما وقع لداود. وواصل القرآن معقبا على هذه القصة، فذكر:

أولا: أن داود أناب إلى ربه وتاب، والإنابة بمعنى التوبة أمر خفي، فالإعلان عنها من قبل الله هو إعلان عن صدق صاحبها وعن قبولها .

25.فغفرنا له ذلك....وحسن مآب .

ثم سجل القرآن ثانيا ما عقب التوبة: أنه غفر له ما كان موجب عَتْبٍ عليه. فأزاله حتى أصبح كأن لم يكن.

وثالثا: حقق ما سيجده يوم القيامة بأنه في المكان الرفيع مقرب منه. وينتهي إلى المرجع الأحسن الذي تتعلق به الآمال وتسعى للوصول إليه: الجنة. وهو حسن المآب، يوم يعود الناس جميعا إلى ربهم للجزاء.

وإذ أتممت متابعة قصة داود، فإنه يلوح لي أن علاقتها بما سبقها، قد تكون تحريض مشركي مكة على التوبة واتباع صراط الله، وتحقيق سعة فضل الله وأنه يقبل توبة التائبين فيمحي آثار ما كان قبلها. فداود لما تاب توبة نصوحا رفع إلى مكان علي عنده .

26.يادود إنا جعلناك...بما نسوا يوم الحساب .

نداء موقظ لداود يثبته على ما أفاده من التجربة التي ذكرت في القصة التمثيلية. يعرفه بمكانته. وبمقدار ما يكون الفرد شاعرا بمرتبته العالية تكون رقابته لما يصدر عنه أكمل مما يدعوه إلى المقام الأرفع. يقول الله لداود: **إنا جعلناك خليفة** تحكم في البشر الذين هم عبادي، وفي الأرض التي ينشطون فيها، الأرض التي يسكنها بنو إسرائيل. إن هذا المستوى من المسؤولية: أنك تتولى الحكم في عبادي وفي أرضي يفرض عليك أن تكون يقظا أشد ما تكون اليقظة لتحكم بين الناس بصارم الحق. ذلك أنك مرجع للمظلومين، فإذا كنت عادلا ملتزما بالحق سارَ عُمَّالك على خطاك وأنصفوا من هم إلى نظرهم. ولما كان الحق هو الفطرة التي استقرت في نفس البشر، فإن الهوى والشهوة والعواطف تحجب بريقها وتعميها، فتأكيدا للحكم بالحق أنهاك عن اتباع هوى النفس، وما تزينه لك عواطفك وما تحثك عليه شهواتك. إن الهوى يُكوِّنُ حجابا على الضمير ينوِّمه، ويشلُّ حركته، لتنطلق النفس الأمارة بالسوء منفردة بالقيادة، وتنحرف بصاحبها عن السبيل الموصل لمرضاة الله .احذر العاقبة فإن الذين ينحرفون عن سبيل الله اختصوا بالعذاب الأليم النفسي والجسمي، لأنهم أهملوا يوم الحساب إهمال من نسيه وأسقطه من ذاكرته. ويوم الحساب هو يوم القيامة الذي يحاسب فيه كل فرد عما قدم من خير أوشر ليلقى جزاءه العادل .

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

باطلا : بدون غاية وإنما لمجرد التلهي والعبث.

ويل له: كلمة تقال للتعجيب من سوء حالة المتحدث عنه .

التقوى : يقظة في الروح تجعل صاحبها يلتزم بالخير ويبتعد عن الشر..
الفجار : جمع فاجر وهو الخارج عن حدود التقوى.
مبارك :كثيرة خيراته.
التدبر: التأمل.
التذكر : استحضار الذهن ما سبق أن عرفه.
أولو الألباب: أصحاب العقول الفاعلة .

بيان المعنى الإجمالي :

طبع الله خلق السماوات والأرض وما بينهما على الحكمـة البالغـة والدقـة التامـة، فكـل صغير وكبير قدَّره بمقدار فـي ذاتـه وفـي علاقتـه ببقيـة أجـزاء الكـون. واسـتخلف الإنسان فيه. وما أنجز هذا الخلق عبثا لغيـر غايـة، ليعـيش النـا س ويموتـوا. إن هـذا التفكير البسيط هو ظن الذين اسـتولى الكفـر علـى مـداركهم فأضـلهم. سـينتهي بهـم الأمر إلى نار جهنم.

أيظنون أننا بالرغم من حكمتنا البالغة نسـوي بـين المتقـين المسـتقيمين، وبـين الفجـار المنغمسين في الرذيلة، فيكون الوجود قاصرا على هـذه الحيـاة الـدنيا التـي كثيـرا مـا يصول الباطل على الحق، ويفوز الفجرة بكثيـر مـن الخيـرات. إن ذلـك ممـا لا يقبلـه العقل الراشد والحكمة الإلهية الظاهرة في كل مكونات الحياة .

إنه الكتاب العظيم الذي أنزلناه إليك لتبلغـه للنـاس، لا تحَـدُّ خيراتـه وفضـائله يضـمن سعادة الدنيا والآخرة. أنزلناه ليتدبره النـاس ويتـأملوا فـي مضـامينه، فتسـتقيم عقـولهم على منهاجه، وليكون مذكرا لهم، كلما تلوه، بتـدبر للحقـائق التـي تـدخل فـي حجـاب النسيان أو في دائرة الغفلة فيوقظ قلوبهم لاستحضارها.

بيان المعنى العام :

27ـ وما خلقنا السماء....فويل للذين كفروا من النار.

وحقيقة يثبتها القرآن ويذكر بها. مـا خلقنـا السـماء والأرض ومـا بينهمـا بـاطلا. مـا خلقناهما لمجرد الخلق، دون أن يكون لنا غاية وحكمـة مـن خلقهمـا. إن مـا بنيـا عليـه نظام دقيق، وتناسب مكوناتهما، والتفاعل فيمـا بينهمـا التفاعـل الـذي يتـأثر فيـه كـل كوكب بغيره من الكواكب، والذي يتـأثر بـه الإنسـان فـي موقعـه مـن الكـون. فكـل ظاهرة إلا وهي مضبوطة مقدما في تـاريخ ظهورهـا، وفـي آثارهـا القريبـة والبعيـدة. وإن العقل البشري ليقف عـاجزا عـن بلـوغ كـل الخصـائص والتفـاعلات والتـأثرات لأبسط المخلوقات في هذه العوالم.

إنه من التبسيط الغبي أن يظن ظان أن هذا التنظيم المحكم وهذا الترابط، وتسليط الإنسان وإقداره على الانتفاع بما هو مودع في الكون، وأن الإنسان مع ذلك له أن يسير في تصرفه على دواعي هواه وشهواته، سيرا فوضويا غير مسؤول؛ وأنه غير محاسب على أعماله، إن هذا التصور مع الضبط والدقة والنظام التي جرى عليها الخلق، يمثل تناقضا يرفضه العقل حسب صارم قوانينه. ولكن الذين كفروا تبعا للحجاب الذي حجب عقولهم عن التدبر بَرَّرَ لهم القول بأن الخلق خُلِقَ لا غاية له، يستوي فيه الخير والشر. إن ظنهم هذا سيلقون جزاءهم عنه، ويل لهم سيلحقهم أشد السوء، الذي هو عذابهم في نار جهنم .

28ـ أم نجعل الذين آمنوا...كالفجار.

انتقال للكلام باستفهام إنكاري بما يؤكد مضمون الآية السابقة. ما تظنون؟ أتظنون أننا نسوي بين المتقين الذين يراقبون ربهم في جميع تصرفاتهم، يقبلون على الطاعة وتطبيق الأوامر بكل جد ورغبة، ويبتعدون عن النواهي حذرين منها نافرين لها .حضور اتصالهم بربهم يشع في نفوسهم حب الخير وييسر للإقبال عليه. أنسوي بين هؤلاء وبين من كان الإجرام حليف عقولهم، ألفوا الشر فلا تتكره طباعهم، ومردوا على الرذيلة فاستهانوا بها ؟ إن الله الذي من صفاته الحكمة البالغة، لا يمكن أن يتصور عاقل أنه يسوي بين الفريقين تسوية مستمرة دائمة. الفريقان يعيشان في الحياة الدنيا، وقد تجد من الأتقياء من هو منعم وتجد من هو محروم من سعة الرزق أو الصحة أو نحو ذلك، وكذلك الفجار تجد فيهم الموسع عليه في حياته، وتجد المضيق عليه. فلو كان الوجود قاصرا على الحياة الدنيا لأدى ذلك إلى التسوية بين الأخيار والأشرار .وهو ما ينافي الحكمة. فثبت أن بعد الحياة الدنيا حياة أخرى يفوز فيها المتقون بحسن الثواب، ويساق المجرمون إلى سوء العذاب.

29ـ كتاب أنزلناه...وليتذكر أولوا الألباب.

افتتحت الآية بالتنويه بالقرآن " **كتاب** " أي عظيم نفعه رفيع مقداره. أنزلناه بعنايتنا موجها إليك أولا يا محمد. فهو المتلقي له أولا من رب العالمين. وقد قدر أن يكون جامعا لخيرات كثيرة، لا تقف عند حد، ما يزال عطاؤه متطورا بتطور البشرية محققا لهدايتهم، وفتح آفاق الخير والرشاد لهم. إن ما تضمنه من خير يتحقق بتدبر آياته فيسعد تاليه المطبق لما جاء فيه بالسعادة الدنيوية والفوز في الآخرة بالجنة ورضوان الله. يتحقق ذلك بتلاوة آياته تلاوة تتجاوز الظواهر القريبة إلى ما وراءها

من الحكم والمعاني، وليتذكر أصحاب العقول بـه مـا غفلـوا عنـه أو دخـل فـي دائـرة النسيان. يقول الحسن البصري ﷺ : قد قـرأ هـذا القـرآن عبيـد وصـبيان لا علـم لهـم بتأويله، حفظوا حروفه وضيعوا حدوده، حتى إن أحـدهم ليقـول والله لقـد قـرأت القـرآن فما أسقطت منه حرفا. وقد أسقطه، والله، كله. مـا يُـرَى للقـرآن عليـه أثـرٌ فـي خلـق ولا عمل. والله ما هو بحفظ حروفه وإضـاعة حـدوده .والله مـا هـؤلاء بالحكمـاء ولا الوزعة .لا كثر الله في الناس مثل هؤلاء. اللهم اجعلنـا مـن العلمـاء المتـدبرين وأعِـذْنَا من القراء المتكبرين.

وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

أواب: كثير الرجوع إلى الله بالذكر والتوبة.

الصافنات: الخيل النشيطة التي تقف على ثلاثة قوائم وترفع الرابعة فتمس الأرض بطرفها

الجياد: جمع جواد وهو الفرس ذو الصفات النفيسة.

الخير: المال النفيس.

توارت بالحجاب : غابت الشمس في الأفق.

طفق : شرع.

السوق : جمع ساق.

الأعناق : جمع عنق.

بيان المعنى الإجمالي :

تواصلت النعم من الله على داود، فوهب له سليمان ولدَه مـن زوجتـه التـي فـتن بهـا، وورث نبوته وملكه، وكان أوابا كثير الرجوع إلى ربه .

من صور أوبته إلى ربه، أن ساسة خيله عرضـتها عليـه، وهـي أتـم مـا تكـون عليـه نشاطا وقوة ونضارة شـباب. استعرضـها مبتهجـا، وواصـل الابتهـاج بهـذا المنظـر، وكِرَامُ الخيل تمر أمامه تصهل وتمرح، ألهاه جمال المشهد عـن ذكـر ربـه زمنـا، ثـم

تفطن إلى انقطاع صلته بمولاه، فأمر الساسة أن يعيدوها إلى إصطبلاتها. وأقبل على العبادة مفتتحا بطلب المغفرة عن اشتغاله بالخيل اشتغالا ملأ عليه نفسه، وقطعه عن الذكر والعبادة. وبقي على عبادته إلى أن غابت الشمس. وأذن لهم أن يردوها عليه فشرع يمسح أعناقها وسُوقَها بيده حبا فيها وتحننا عليها.

بكل تأكيد تمت فتنته في ملكه كما ابتلي في ماله. انتقض عليه ثائر تمكن من أن يزيحه عن كرسيه، ويخلفه فيه، ولم يكن لهذا الثائر المؤهلات التي تساعده على حسن التصرف في المملكة. فقاومه بما أمكنه من الخطط والقوة المادية، وتفطن بعد ذلك إلى ضم الوسائل المادية إلى حسن الاعتماد على الله وتطهير النفس مما وقعت فيه من التقصير. وابتهل إلى الله أن يغفر له تقصيره، وأن لا يبتليه ثانية بخروج ملكه عنه.

بيان المعنى العام :

30.ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب.

عاد القرآن لعرض ما أنعم الله به على داود .فأضاف إلى ما سبق أنه وهب له سليمان، ورث نبوته وملكه. ومن أجلِّ النعم على الإنسان أن يرى صفات الكمال تتواصل في نسله. وأدمج في ذلك الإطار الذي ستجري فيه قصة سليمان. أن أحداثها تدور حول رجل شهد الله فيه أولا: أنه **نعم العبد**، أثنى عليه الذي يتجاوز علمه الظواهر، فوصفه بأنه عبد لا يستكبر عن حقيقة العبودية لله. وثانيا بأن صلته بربه صلة مسترسلة لا تنقطع، فهو يعود إلى ربه ذاكرا مستحضرا ما يقربه منه حذرا من عصيانه، وكثير الأوبة له بالتوبة.

31←33: إذ عرض عليه...بالسوق والأعناق .

صورة من صور أوبته الكثيرة، أنه عرضت عليه الخيل التي كان يحبها ويعنى بها، ويتخير الكرام الفارهة منها، عرضت عليه الخيل وهي نشيطة على أتم ما يكون من الشبع والرواء. أخذ ينظر إليها مشغولا بها متعلقا بهذا المنظر الذي أبهجه كأشد ما يكون الابتهاج. ويثور في ذلك الوقت داعي العبادة التي طبع عليها، ويندم من اشتغاله بخيله وانقطاعه عن ذكر ربه، فيأمر القومة على الخيل أن يقطعوا هذا الاستعراض، وأن يعودوا بالخيل إلى اصطبلاتها، ويقبل على ربه مستغفرا تائبا من هذا الإقبال المفرط الذي شغله عن ذكر ربه، ويستمر في ابتهالاته إلى أن غابت الشمس وذهب ضوءها. وعندها أمر القومة بإعادتها، فقربها إليه، وأخذ يمسح سوقها وأعناقها حبا فيها وتكريما لها.

وبقي بيان التركيب **أحببت حب الخير**، فإن أصله: إني أحببت الخير حبا، فقدم حبا على كلمة الخير ليكون تمييزا، على معنى: أني أحببت، فيتساءل السامع ما هذا الحب العالق بنفسه، فيقول حب الخير، وهو أمكن في الدلالة على المعنى المراد. والخير هو الخيل، أو المال. وقالها: آسفا بعد أن أمر ساسة الخيل بإدخالها، وصرفها عنه. أي إن شدة تعلقي بها استغرق مني وقتا وأنا لاه عن ذكر ربي.

34ـ ولقد فتنا سليمان...ثم أناب.

بكل تأكيد فتنا سليمان. وفتنة الإنسان عبارة عن اضطراب حاله، بحيث تخرج حياته عن حالة الاستقرار إلى وضع يهزه هزا، ويقتضي منه مصابرة، ومغالبة للظروف التي حفت به . وقد يخرج من الفتنة منتصرا وقد يخرج منها منهزما. قد يفتن الإنسان بحب المال، فتستولي عليه هذه العاطفة حتى تملك عليه فكره وحياته، وعوض أن يكون المال مساعدا له على انتظام أمره، ينقلب هو خادما له. وقد يفتن الرجل بامرأة فتسلبه عقله وهناءه، ونشاطه، فإذا هو لا يفكر إلا فيها، ولا يعيش إلا من أجلها، تلهيه عن عبادة ربه كما تلهيه عن علاقاته الاجتماعية السابقة. وقد ينتصر في مقاومة دواعي الفتنة فيخضعها لعقله ويسيطر على وضعه فلا ينفلت من بين يديه. وقد يكون رئيس الدولة آمنا في سلطته، فيتسلط عليه منتقض يهز أركان سلطانه، قد يقاومه ويتغلب عليه، وقد ينهزم فيخلع وينتهي أمره إما إلى القتل أو الفرار.

فسليمان ﷺ آتاه الله النبوة، وابتلي بغفلته عن ذكر ربه، ثم تفطن واستغفر تائبا وقبلت توبته . وآتاه الله الملك ففهمت من قوله تعالى: **ولقد فتنا سليمان الآية 34** أنه قد واجه اضطرابات زعزعت أركان ملكه. وتمكن الخارج عليه أن يسلبه الكرسي الذي كان يجلس عليه ويدير منه أمر مملكته. ولكن هذا الخارج لم يكن له المستوى السياسي والفكري الذي يمكنه من تسيير أمر الدولة باقتدار؛ فهو جسد بلا مواهب مؤهلة للاضطلاع بالحكم. قد يكون هذا الابتلاء لتخليصه من آثار تقصير وقع فيه، طوى القرآن ذكره، وأنه أناب إلى الله تائبا مخلصا في توبته .وقد يفهم من العطف بثُمّ أنه اعتمد أولا في مقاومة الذي افتك منه عرشه على المقاومة بالقوة القتالية والخطط الحربية، وأنه تفطن بعد الصدمة الأولى فرجع إلى ربه تائبا ضارعا أن يتقبل توبته، وأن يغفر له ما فرط منه، وليس لنا أن نعين نوع التقصير الذي وقع فيه وقد طواه القرآن ولم يذكره.

35ـقال رب اغفر لي...إنك أنت الوهاب.

وتوجه إلى ربه داعيا أن يغفر له تقصيره، مغفرة تمحو آثارها من صحائفه، وأن يحفظ عليه ملكه حفظا يحميه من كل متسلط ومنازع. فلا يتأتى لأي أحد أن يكون

له ملكه من بعده في حياته كما هو المناسب في الدعاء إثر فتنته في ملكه. تتبعت كلام المفسرين من قبلي فوجدت معظمهم يؤولون الآية على أن سليمان دعا أن لا يبلغ أحد من الخلق بعده المستوى الذي بلغه من السلطان والملك. وأن لا يجتمع ما أوتيه من الملك لأحد من الناس إلى أن يرث الله الأرض. واضطروا للإجابة عن إشكالات كثيرة، منها هل يعتبر هذا من سليمان حسدا ؟ ونسب إلى الحجاج أنه قيل له: إنك حسود، فقال: سليمان أحسد مني. وأجابوا: أنه إنما سأل ذلك لأن مثل ما أوتيه من الملك بدون تأييد النبوة يفضي بصاحبه إلى العجز عن تسيير الأمور، وإلى الاختلال الاجتماعي وفساد أمر الأمة. ونظير ذلك من الإشكالات والإجابات. وهي في نظري إجابات ظاهرة الصنعة بادية منها. ويغني عنها ما رجحناه أنه دعا أن لا يفتن مرة أخرى بانتقاض الثائرين عليه.

فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

رخاء : لينة.

أصاب : قصد.

بيان المعنى الإجمالي :

فيوض الكرم الإلهي تتعدى سؤال السائلين. أجاب الله دعاء سليمان وقبل توبته ورد عليه ملكه، ثم جعل الريح مطاوعة لأمره يسيرها حسب السرعة والاتجاه واللين الذي يرغب فيه مما يحقق قصده. كما سخر له مهرة الصناع، والجن فشيدوا له المباني الرائعة، وغاصوا أعماق البحار فأخرجوا له اللؤلؤ. ومكنه من مردتهم فصفدها مقرونة في السلاسل. يا سليمان هذا الذي بين يديك هو عطاؤنا الواسع العظيم، تصرف فيه كيف شئت؛ وسع على من شئت، وأمسك ما أردت الإمساك، إنه لا سؤال عليك في اختياراتك .وفوق كل ذلك إن له عندنا المكانة الرفيعة المقربة منا وحسن المعاد يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

36 ←40 :فسخرنا له الريح تجري...وحسن مآب .

كانت توبة سليمان توبة نقية بالغة الحد الذي يرضي الله، فرتب عليها قبول دعائه، وأضاف إلى ما سأله من فيض كرمه مواهب ما كانت تخطر لسليمان على بال.

أولا: **سخر له الريح**. وشـأن الـريح أنهـا تتقلـب، ولـيس لأحـد عليهـا سـلطان فـي سرعتها ولا في توجهها، ولا في ثباتها على الوجهـة التـي هـي عليهـا. فجعـل قيادهـا بيد سليمان تطاوعه، فتجري متحركة بـأمره اللفظـي أو الإرادي، تجـري هادئـة لينـة لا يضطرب ما تأتي عليه. فكانت تساعد سفنه على السـير إلـى وجهتهـا الموافقـة لقصـده. فحيث أصاب أي حيث قصد. ومن ذلـك قـولهم أصـاب الصـواب فأخطـأ الصـواب، أي قصد الصواب فأخطأ الجواب.

ثانيا: **سخر الله لسليمان الجن**: ويمكن أن يفهـم مـن لفـظ الجـن: أنهـم المهـرة مـن الإنس والجن، إذ يطلق على الماهر في فنـه. كمـا يمكـن أن يقتصـر بـه علـى الجـن. وحقق الله له بهذا التسخير أن الحذاق مـن الصـناع الـذين هـم مسـخرون لـه يقومـون ببناء ما يريد على الشكل الذي يريد. ويغوصون في قاع البحر ليخرجوا له اللؤلؤ.

كما سلطه على بعض الجن فقـرنهم مجمـوعين فـي الأغـلال. ويمكـن أن يفهـم ذلـك على أن بعض الجـن كـانوا متمـردين، فكـان سـليمان مسـلطا علـيهم يجمعهـم فـي السلاسل لا يستطيعون الفرار أو التمـرد. كمـا يمكـن فـي نظـري أن يكـون بعـض مردة الجـن، يتسـلطون بمـا لهـم مـن خبـث علـى الصـناع والغواصـين والبنـائين ليصرفوهم عن العمل أو يشوشوا عليهم، فأوتي سليمان مـن السـلطة علـيهم مـا يقيـدهم تقييدا يمنعهم من الفساد والإفساد.

هذا الذي بين يديك هو عطاؤنـا الواسـع العظـيم؛ منحنـاك إيـاه مـن فضـلنا لـك. أن تتصرف فيه حسب تقديرك، تمكن منه وتنعم بـه علـى مـن تشـاء، وتمنـع منـه مـن تشاء. لا حساب عليك فيما تختار وتنفذ.

خلاصة ما تقدم أن ما آتيناه لسليمان في الدنيا هـو مقدمـة لمـا هـو أجـل منـه، وهـو نظير الآية 25 في التنويه بداود عليه السلام.

وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿41﴾ ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ﴿42﴾ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿43﴾ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ﴿44﴾

بيان معاني الألفاظ:

النصب : المشقة والتعب.

العذاب : الألم.

اركض: اضرب الأرض برجلك.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر يا محمد عبدنا المقرب منا أيوب لما توجه إلينا مناديا داعيا: ربي ! إنه قد طال بي البلاء فأعياني وتواصل ألمي، حاول الشيطان أن يَنْفُذَ إلى صبري ليحوله إلى قنوط من الشفاء من آلامي وتعبي. عرفه ربه أن دواءه من كل ما يجد تحت رجليه فليركض الأرض برجله ينبع منها ماء بارد، ليغتسل منه ويشرب فيشفى من كل ما يجد. فعل ما أرشد إليه، وشفي شفاء تاما. وإذ انفتح باب الألطاف أكرمه بجمعه مع أهله، وضاعف عددهم بما ولد له من الأولاد والأحفاد .فتجلت الرحمة واضحة. وكان ما تتابع على أيوب من البلاء، والصبر عليه، وعدم القنوط من رحمة الله، والابتهال إليه، واستجابة ندائه وتمكينه من أكثر مما دعا به، ما يجعل أصحاب العقول النقية تتأسى به. وكان أيوب في حرج بعد شفائه كان أقسم على أحد ممن هو تحت سلطته أن يضربه أسواطا. وكان يحبه ويشفق عليه .ليبر بيمينه ويؤذي من يحبه بالضرب، أو يحنث في يمينه .أفتاه الله بما يجمع به بين البر وعدم الإيلام .وذلك بأن يأخذ مجموعة من القضبان بعدد الضربات التي أقسم على تنفيذها، ويضرب بها ضربة واحدة يبر بذلك في يمينه ولا يؤلم من يشفق عليه. أثني على أيوب نعم العبد هو، إنه كثير الرجوع إليَّ.

بيان المعنى العام :

41←44:واذكر عبدنا أيوب... نعم العبد إنه أواب.

واذكر يا محمد عبدنا الذي قربناه، ورفعنا مقامه بما ينبئك عنه إضافته إلينا "**عبدنا**" منسوب إلينا رضيناه مقربا لنا. ليكون لك أسوة تساعدك على الصبر والثبات على تصلب قريش في رفضهم للإسلام. تأمل منه في هذا الظرف الذي بلغ فيه وضعه أقصى ما يمكن تحمله. نادى ربه موقنا أنه الملجأ الأخير له، قائلا في ندائه إني مسني الشيطان بتعب وإعياء. مما يشير إلى الوهن الجسمي العام الذي حل بداود وما صحب هذا الإعياء من الألم

وقف المفسرون عند قوله أصابني الشيطان، باعتبار أن الفاعل هو الله وليس للشيطان من قدرة على الفعل. ولعل القصد منه: أن الشيطان، لما توالى على داود الوهن والألم، اللذين أصيب بهما في بدنه، ومن شأن الإنسان أنه يضعف عند توالي البلاء، وأن يجد الشيطان من ضعفه هذا مدخلا للوسوسة يقطع بها صبره على البلاء، ويحوله من الأمل إلى اليأس والقنوط، فشكا أيوب إلى ربه حالة الضعف

التي كرر الشيطان محاولته الدخول منها، لينزل به عن مستوى الصبر الذي كان مثلا رفيعا له.

ضراعة المتقين يعقبها استجابة رب العالمين. تبع نداءه استجابة الله لدعائه، فأوحى إليه أن دواءه من أدوائه قريب منه: اضرب المكان الذي أنت فيه برجلك ينبع لك الماء، فاغتسل به، واشرب منه، يتم شفاؤك مما تجده في باطنك، وما تتألم منه في ظاهرك، وتعود لك سلامتك التي كنت عليها، معافى من كل الأسقام.

نعمة تالية لنعمة الشفاء من السقام الذي طال أمده، وابتهل إلى الله أن يلطف به. لطف به فشفاه وجمع بينه وبين أهله، ولم يذكر في القرآن أين كانوا، ولا كيف تم جمعهم حوله. ولكنها نعمة العافية التي تكون أتم بجمع الشمل. وقدّر الله أن يحوله من العبد الصابر إلى العبد الشاكر. وفضل الله لا يحد فضاعف أهله بالذرية والأحفاد. وذلك مظهر من مظاهر رحمتنا التي وسعت كل شيء. وفي إسناد الرحمة تنصيصا على أنها من الله ما يشعر بعظمها وسعتها وصحبة الألطاف لها. ولتكون الحالة التي تحول إليها ذكرى للذين رزقوا عقولا صافية، فيستفيدوا مما جرى على أيوب: أن الصبر والتعلق بالفضل الإلهي، والتدرع بالصبر، وإخلاص الدعاء يعقبه الفرج . ومضاعفة الخيرات.

تتابعت الألطاف على أيوب ﷺ . والذي يفهم من ظاهر النص أن أيوب حلف ليضربن أحدا من الذين له عليهم سلطة أسواطا .ذكر المفسرون أن المحلوف عليها زوجه، وأن يمينه كانت بضرب مائة سوط. وأن يمينه صدرت منه في حالة غضب إذ كان يحب زوجه التي كانت بارة به، أعانته على تحمل كل الأذى الذي ألم به ولم تضجر من مساعدته. وعز عليه أن يضربها، كما تعلق شديد التعلق بالبر بيمينه، خاصة بعد ما توالت عليه الألطاف. وكون المحلوف عليها زوجه لا يوجد في النص القرآني ما يؤكده، وكون الأسواط مائة كذلك. ويحتمل أن يكون المحلوف عليه عبده، ويحتمل أن يكون العدد أكثر من المائة أو أقل. ولكن اليقيني أن أيوب تحرج من اليمين. وأن الله أفتاه ترخصا بأن يأخذ حزمة من العيدان يجمعها في كفه ويضرب بها ضربة واحدة لا تؤذي ولا تؤلم، ويبر من يمينه ولا يحنث.

إنا وجدناه صابرا– هذه الألطاف التي تتابعت على أيوب من شفائه من أسقامه، ومن جمعه بأهله ومباركتهم، كانت جزاء على صبره. ففاز برضا ربه، وتفريج كربه، وإسباغ النعم عليه مما سأله ومما لم يسأله. أثْني عليه وأنا رب العزة، فحق أن يكون العبد الكامل العبودية لي. بلغ ذلك لأنه كان أوابا يعود لي ولا ينفصل

عني. قال سفيان الثوري: أثنى الله على عبدين ابتليا: أحدهما صابر، والآخر شاكر. ثناء واحدا .فقال لأيوب وسليمان: إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب.

وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٥﴾ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم
بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ وَٱذْكُرْ
إِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكْرٌ ۚ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ
مَـَٔابٍ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ مُّفَتَّحَةً لَّهُمُ ٱلْأَبْوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدْعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٍ
كَثِيرَةٍ وَشَرَابٍ ﴿٥١﴾ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ
ٱلْحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

أولي الأيدي : أصحاب القوة في الدين.

الأبصار : جمع بصر يعني به أصحاب البصيرة المتأملين في شرع الله.

أخلصناهم : جعلنا بواطنهم نقية من النقائص.

خالصة ذكرى الدار : استحضار موصول يوم القيامة.

عدن : الإقامة.

أتراب : جمع ترب، وهو المساوي في العمر.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر في نفسك هؤلاء العباد الذين قربتهم ونسبتهم لنفسي لتتخذ منهم أسوة، إبراهيم الذي صبر على هداية وقومه وأذاهم حتى جمعوا أمرهم على إلقائه في النار فنجاه الله منها، فاصبر كما صبر وكن واثقا أن الله سيحميك كما حماه واذكر نسله إسحق ويعقوب اللذين سارا على خطاه، فقد نقينا ضمائرهم من كل شائبة رجس وميل إلى إثم، بسبب خلوص ذكرهم للدار الآخرة واستحضارهم لها في جميع الأوقات. وإني اصطفيتهم واخترتهم فهم بالمنزلة الرفيعة عندي من الخيرة المتميزين من خلقي. واذكر هؤلاء الأنبياء الثلاثة أيضا، اذكر اسماعيل الذي منه تناسل العرب وكنت خاتم الرسل من ذريته، واذكر اليسع وذا الكفل، وكل واحد منهم هو من الأخيار المفضلين عندي.

تحقق ما قدمناه إن هذا القرآن ذكر جامع لكل خير. وبكل تأكيد فاز المتقون لله بالعاقبة الحسنة، هي جنات أعدت لاستقبالهم يجدونها تنتظرهم. فإذا دخلوها توفرت

الراحة والنعيم كلما سألوا شيئا حضر بين أيديهم، فواكـه كثيـرة منوعـة وشـراب سـائغ هو فوق الوصف. يأنسون في الجنة بزوجات صـالحات جمعـن الحسـن، وكـل واحـدة منهن متعلقة بزوجها ترى فيه الرجل الجامع لكـل صـفات الحسـن والفضـل الإنسـاني لا يتعلق خاطرها ولا بصرها بغيره، وكذلك هـي نظـر ة المـنعَم عليـه لهـن . تسـاوت أعمارهن وعمره. هذا الذي فصلناه هو ما هو موعـود لكـم لتجـدوه يـوم الحسـاب. إن هذا رزقنا هو دائم متواصل لا ينفد.

بيان المعنى العام :

45←47: واذكر عبادنا...لمن المصطفين الأخيار.

هو موكب الرسل يتواصل عرضه في هذه السـورة، فقـد افتـتح هـذا الموكـب بـداود، وأمر الرسول ﷺ أن يذكره تأسيا بـه، تحقيقـا لقولـه تعـالى: **فبهـداهم اقتـده.** فعطفـت هذه الآية ثلاثة من عباد الله الـذين قـربهم ونسـبهم إلـى نفسـه **[عبادنـا]** تعبيـرا عـن رضاه عنهم. وهؤلاء الثلاثة اتصـل نسـبهم بـإبراهيم ﵇، فإسـحق هـو ابـن إبـراهيم من زوجه هاجر، ويعقوب هو ابن إسحاق. أمر أن يكونـوا حاضـرين فـي قلبـه نظـرا إلى أنهم جمعوا بين مزايا أهّلتهم ليكونوا نجومـا لامعـة فـي تـاريخ البشـرية يُـذْكرون فيجد فيهم الذاكر منارة يقتدى بها. هـم أهـل القـوة التـي لا تضـعف فـي طاعـة الله، وهم أصحاب البصـائر المتفتحـة علـى هـدى الله وآياتـه، فعقـولهم يقظـة تـربط مـا يشاهدونه بمبدعه وبالنظام العام في الكون.

ثم أثنى عليهم بأن الله سما بهم إلى درجة أنه نقّى بـواطنهم مـن شـوائب الـنقص، فمـا كان للمادة ولا لأعراض الدنيا مكانة في نفوسـهم. تحقـق ذلـك بسـبب خلـوص تعلقهـم بذكرى الدار الآخرة. ولما كان هذا جَعْلا إلهيا، فيكـون ذلـك إيمـاء إلـى العصـمة التـي كتبها لأنبيائه ورسله. فهم لا يقعون في الخطيئة إما علـى معنـى أن الله خلـق فـيهم قـوة دافعة للإثم تحصنهم من ارتكاب أي معصية، على معنـى أن نفوسـهم تشـمئز مـن كـل أمر لا يرضى الله عنه وتتعلق فقـط بمـا يزيـدهم قربـا منـه. وإمـا علـى معنـى أن الهداية صحبتهم حتى ألفتها عقولهم ومداركهم، فغـدت ملكـة مـن الملكـات التـي عليهـا يسيرون، وعنها يصدرون. ثم إن مكـانتهم الحقيقيـة هـي التـي قـدرها الله لهـم عنـده، فهي المنزلة الرفيعة اختارهم الله من بـين الخلائـق، وقـد جمعـوا فـي نفوسـهم وفـي فعالهم ضروب الخير، فهم أخيار وصفوة البشر.

48ـ واذكر إسماعيل ...وكل من الأخيار.

وعطف على الثلاثة المصطفين الأخيار ثلاثـة. هـم إسـماعيل جـد النبـي ﷺ، ومعظـم العرب من نسله، وعطف عليه اليسع، وذا الكفـل. وحسـب الـنص القرآنـي همـا مـن

الأنبياء. والقرآن لم يفصل من أمرهمـا شـيء. واعتمـد بعـض المفسـرين روايـات لا تستند إلى طريق صحيح. ويكفي في بيان مكانتهم وسـموهم شـهادة الله فـيهم بـأنهم مـن عباده الأخيار. والخيرة مبنية على صفاء عقيدتهم، ونقاء سلوكهم، ونصحهم للناس.

49ـهذا ذكر...لحسن مآب.

افتتحت الآية باسم الاشارة "هذا" وهي طريقـة متبعـة عنـد الانتقـال مـن غـرض إلـى غرض، يثبت المتكلم ما مضى بقوله هذا، ويعد السـامع لمـا يـرد عليـه بعـد. وأخبـر عن اسم الإشارة بـأن هـذا ذكـر. والـراجح أن المقصـود بالـذكر القـرآن. استُحْضِـرَ القرآن بما يحويه من خيـر لا يحـد، وهدايـة مسترسـلة ماضـية مـع البشـرية مهمـا اختلفت بها الظروف والأحـوال، وربـط بـين الـدنيا والآخـرة. وعطـف عليـه كـون القرآن ذكرا تحقيـق أن العاقبـة الحسـنة والمعـاد السـعيد هـو للمتقـين، الـذين كـان حضورهم مـع الله ملازمـا، يحبونـه ولا يغيـب عـنهم أنهـم عبـاده محاسـبون عـن أعمالهم، يسرع بهم ذلك إلى فعل الخير، ويلجمهم عن فعل الشر.

50ـ جنات عدن ...الأبواب.

بينت الآية حسن المـآب: جنـات إقامـة سـرمدية، لا يخشـون انقطـاع الكرامـة التـي أفاضها عليهم ربهم. يحسون بالتكريم من أول الأمر، إذ يجـدون أنهـا قـد اسـتعدت لهـم قبل أن يدخلوها، كأنها تنتظرهم، فقوله أبوابها مفتحـة لهـم، مسـتعدة لاسـتقبالهم مرحبـة بهم.

51←54: متكئين يدعون فيها...ما له من نفاد.

من هذه الآية يأخذ القرآن في تفصيل أنواع النعيم الـذي يحظـى بـه أهـل الجنـة. فهـم شاعرون بالراحة التامة، فجِلستهم جلسـة المـرفهين الـذين لا يشـغلهم شـاغل. يـأمرون فيلبى طلبهم، ويمر بخاطرهم خاطر فيجدونه حاضـرا بـين أيـديهم. تكثـر الفواكـه بـين أيديهم كمية وتنوعا. وعبر عن غذائهم بالفواكـه لتقريـب لـذتها للنـاس، ذلـك أن شـأن الفاكهة في الدنيا أنها أطيب المأكولات، مذاقا وخفـة. وإن كـان طعـام أهـل الجنـة ممـا يتناسب مع حياتهم السرمدية مع البعد عن النقائص التـي تصـحب كـل أمـر مـن أمـور الدنيا. وذكر الطعام يستدعي ذكر الشراب، وليـذهب الخيـال فـي تصـور شـراب أهـل الجنة مذاقا واستساغة، كل مذهب، والحقيقة أنه خيـر مـن ذلـك. ولا وجـه لتخصيصـه بالخمر .

تحدثت الآية عن الأنس الذي سيستمتع به أهل الجنـة، فعنـدهم نسـاء انطـوت نفوسـهن إعجابا وحبا لمن هن عنده. لا تجدها تنظر لغير رفيقها فـي الجنـة، إذ هـو يمـلأ عليهـا

حسها، وهو أمر متبادل فإنهن لجمالهن ولخلقهن، ولأنوثتهن البالغة يملأن على المنعمين إحساسهم فلا يلتفتون إلى غيرهن. بمعنى أن الشعور بالحاجة تذهب من مدارك هؤلاء وهؤلاء. ولما كانت الوسامة تبلغ أقصاها في سن معينة، تكون قبلها أنقص وتأخذ بعدها في التولي، أخبر القرآن بأنهن على سن واحدة مع أزواجهن.

إن هذا الحاضر أمامكم، باعتبار أن الخطاب سيكون في الجنة والخطاب من الملائكة أو من رب العزة، هو ما توعدون ليوم الحساب والجزاء .وإما باعتبار أن الجزاء المفصل هو محقق فأشير إليه كأنه حاضر في الدنيا أمامهم هذا ما توعدون ليكون لكم جزاء يوم الحساب .

إن ما وصف من أنواع النعيم، والخيرات التي تتصرفون فيها، هي رزقنا الذي لا ينفد، ولا ينتهي. ذلك أن حدوثه مرتبط بالإرادة الإلهية، وثبتت إرادته بتجدد الأرزاق للمؤمنين المكرمين.

هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾ هَٰذَا فَلۡيَذُوقُوهُ حَمِيمٞ وَغَسَّاقٞ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكۡلِهِۦٓ أَزۡوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوۡجٞ مُّقۡتَحِمٞ مَّعَكُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِهِمۡۚ إِنَّهُمۡ صَالُواْ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ بَلۡ أَنتُمۡ لَا مَرۡحَبَۢا بِكُمۡۖ أَنتُمۡ قَدَّمۡتُمُوهُ لَنَاۖ فَبِئۡسَ ٱلۡقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدۡهُ عَذَابٗا ضِعۡفٗا فِي ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾

بيان معاني الألفاظ:

الطغاة : جمع طاغ المجاوز الحد في الكبر والشر.

الحميم : الماء الشديد الحرارة.

غساق : سائل أشد ما يكون نتنا وأسوأ ما يكون طعما.

الفوج : الجماعة الكثيرة من الناس.

الاقتحام : الدخول في الشدة.

لا مرحبا : دعاء يفيد التبرم بالداخل .

بيان المعنى الإجمالي :

يقيم القرآن صورة لعذاب الطغاة، مقابلة لصورة النعيم في الجنة للمتقين. السمة العامة لجزائهم أن يعودوا إلى شر عودة. يحترقون بنار جهنم، هي فراشهم وما أسوأه من فراش . ليكن إحساسهم بعذاب جهنم على أشد ما يكون. ماء حار يقطع الأمعاء، وسائل من صديد خبيث الطعم كريه الرائحة. وأنواع أخرمن العذاب من جنس العذاب المذكور. حتى إذا تعودوا على نوع من العذاب تسلط عليهم نوع آخر

يكون أشد إيلاما. وينظرون فإذا جماعة عظيمة مدفوعـة دفعـا تـدخل جهـنم فـي شـدة وكرب، فيقول بعضهم لبعض متبرمـا مبغضـا لـدخولهم معهـم: **هـذا الفـوج المقـتحم معكم لجهنم، لا مرحبا بهم،** هم من السفلة الـذين نرفضـهم أن يكونـوا معنـا، يزيـدوننا ضيقا بأجسامهم، وأذى بصياحهم وأنينهم .ويجيبهم الفوج : أنـتم الأحـق بـأن يقـال لكـم: لا مرحبا بكم ولا قبول. إننا صـالوا النـار بسـبب إغـوائكم لنـا وتلبيسـكم علينـا. ثـم توجهوا إلى الله داعين أن يضاعف عذاب هـؤلاء الرؤسـاء الـذين أضـلونا فـي الحيـاة الدنيا، حتى كنا من أهل النار.

بيان المعنى العام :

55←56: هذا وإن للطاغين...فبئس المهاد.

تنبيه انتقل الكلام من موضـوع إلـى موضـوع آخـر بكلمـة "هـذا" فبعـد أن رغـب المؤمنين في مواصلة ما يقتضيه مـنهم الإيمـان بتفصـيل الجـزاء الـذي ينتظـرهم فـي الجنة، تحول القرآن لبيان مآل الطغاة، فبني الكلام علـى أسـاس التقابـل بـين الفـريقين. إذا كان مآل المتقين خير مآب، فإن الطغاة مآلهم شر مـآل، وعـودتهم إثـر البعـث شـر عودة. سيصلون حريق جهنم، تكون لهم فراشا، وما أسـوأه مـن فـراش. النـار الموقـدة من تحتهم .

57←58: هذا فليذوقوه...من شكله أزواج.

هذا المآب الشر مُحْضَر غيـر غائـب، فليـذوقوا عذابـه، ليحسـوا بآلامـه، مـاء حـار وسائل كريه أشد ما يكون نتنا، وأقذر منظرا، وأبشع طعما. "**حميم وغساق**":
وعذاب آخر يتجرعونـه مـن شـكل العـذاب الأول فـي القسـاوة والإذايـة، أزواج أي أصناف يجمعها كلها أنها عذاب، تنوعت حتى لا تتعـود أجسـامهم نوعـا مـن العـذاب فيضعف الإحساس بالألم.

59: هذا فوج مقتحم...إنهم صالوا النار.

تقدم في القرآن صورة المنعمـين فـي الجنـة ومـا يـدور بيـنهم فـي مجالسـهم، تلـك المجالس التي تضاعف شعورهم بالسعادة. وفي الآيات التاليـة يسـجل القـرآن مـا يـدور بين أهل النار. نظر الطغاة المستكبرون وهم في جهـنم، فـإذا جماعـة عظيمـة مدفوعـة إلى جهنم تقتحمها بعسر وشدة. هم مـن الأتبـاع المستضـعفين الـذين كـانوا يتحكمـون فيهم في الدنيا. فيصرخون جميعا بقـولهم: **لا مرحبـا بهـم**. نرفضـهم ولا نرغـب فـيهم ولا يجدون منا تكريما ولا أنسا. ولهذا الرفض أسـباب: منهـا أن الكبـر الـذي صـاحبهم في الدنيا يبقى أثره في الآخرة ليهانوا ويعذبوا بـه. فهـم عنـدما يجـدون الأتبـاع معهـم

في منزلة سواء، تتكسر كبرياؤهم فعبروا عـن رفضـهم لهـم. ومنهـا أن جهـنم تضـيق بالنازلين فيها ليتضاعف عذابهم، فهؤلاء الـداخلون سـيزيدون الضـيق حـدة، ومنهـا أن الداخلين هم من المعذبين الذي يصلون النار فيسـلط علـيهم ضـروب النكـال والعـذاب، وتنطلق حناجرهم بالصياح والصراخ. فيتضاعف الصخب والأنين .

60ـ قالوا بل أنتم ...فبئس القرار.

كان الطغاة يسلطون على المستضعفين الأتبـاع بـذاءتهم واحتقـارهم فـلا يسـتطيعون رد التعدي. أما فـي جهـنم فبمجـرد مـا عبـروا عـن رفضـهم واحتقـارهم، ردوا علـيهم مستهينين بهم. أنتم لا مرحبا بكم، لا نعتز بكم ونرفضـكم، إن تعييـركم لنـا بأنـا صـالوا النار، فهذا الجزاء السيء أنتم سـببه، أنـتم قـدمتم لنـا فـي الـدنيا مـن التسـلط ومـن المغريات ما رفضنا به الطريق المستقيم ودعـوة الرسـل. فكـان جزاؤنـا هـذا الجـزاء وما أسوأه من جزاء، هيأتموه لنا بسوء قيادتكم وفساد تدبيركم .

61ـ قالوا ربنا من قدم....في النار.

ثم أضافوا داعين في صورة تذلل "ربنا" ليكون الـدعاء أرجـى فـي القبـول: مـن عمـل على تقديم ما نحن فيه مـن العـذاب والمهانـة بتغريـره بنـا وتزييفـه لمـا جـاءت بـه الرسل، فسلط عليه عذابا مضاعفا فـي النـار. ليتميـزوا فـي جهـنم كمـا تميـزوا فـي الدنيا. وهذا نظير ما جاء في سورة الأعـراف : (قالـت أخـراهم لأولاهـم ربنـا هـؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار)[1]

وَقَالُواْ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالاً كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾

بيان معاني الألفاظ

زاغت : مالت عن جهتهم فلم ترهم.

السخري : المستهزأ به .

---

[1] سورة الأعراف ، آية 38.

القهار: المخضع كل شيء لحكيم إرادته وتقديره.

نبأ : خبر هام.

الملأ: الجماعة ذات الشأن .

بيان المعنى الإجمالي :

يتذكر الطغاة جماعة من فقراء المؤمنين الـذين مـا كـان لهـم مركـز اجتمـاعي رفيـع، وكانوا يحسبونهم تبعا لذلك أنهم ما جمعوا بين الفقـر وعـدم النصـير، والكفـر بالآلهـة، إلا لأنهم شرار أشقياء. قد اتخذناهم محل سـخرية واسـتهزاء. مـا لنـا لا نـراهم ؟أهـم غير موجودين هنا؟ بل أهم موجودون فـي النـار ولكـن مالـت أبصـارنا عـن المكـان الذي هم فيه. إن كل ما سبق أن سجلناه من مقاولات وخصـام المخلـدين فـي النـار هـو الحق الذي سيظهر.

قل لهم قولا يلفت أنظارهم، ويسترعي أسـماعهم: إنـي لا أحملكـم كرهـا علـى الحـق، وإنما أنذركم فقط ما ستلقونه إن لم تحصـنوا أنفسـكم بالإيمـان. لسـتم فـي هـذه الحيـاة متروكين لخياراتكم غير مسؤولين عنهـا. والمتصـرف فـيكم حاضـرا ومـآلا، هـو الله وحده الذي يخضع كل شيء لإرادته أحب أم أبى. ومـا تعبـدون مـن دونـه لـيس لهـا شيء من الألوهية والتصرف. هـو رب السـماوات والأرض ومـا بينهمـا، أنشـأها مـن عدم ومكنها بألطافه لتبلغ المستوى الذي هي عليـه. وقـل لهـم أيضـا: إن هـذا القـرآن نبأ عظيم فيه سعادتكم في الدنيا والآخـرة، يفـتح عقـولكم ويقـدركم علـى النجـاح فـي عمران الكون. خسارتكم الكبرى من إعراضكم عنه، فلـم تسـتفيدوا منـه وهـو أمـامكم. يؤكد عظمته أنه وحي من الله العليم بحقائق الأمور علـى مـا هـي عليـه. ويثبـت لكـم أنه وحي أني أعلمكم بما يجري في الملأ الأعلى مـن مقـاولات لـيس لـي سـبيل إلـى العلم بها إلا بفضل ما يوحي به إلي. ذلك الوحي الـذي يلزمنـي أن أكـون نـذيرا مبينـا للعواقب الخاسرة لمن يكفربه.

بيان المعنى العام :

62←64 :وقالوا ما لنا...أهل النار.

تنبعث ذاكرة المعذبين المستكبرين مستحضرة جماعة مـن فقـراء المـؤمنين الـذين لـم تكن لهم عصبية قبلية تفـرض احتـرامهم، فيقـول الطغـاة بعضـهم لـبعض: مـا الـذي حصل حتى إننا لا نرى جماعة كنا نحسبهم أشـقياء، باتبـاعهم للإسـلام وتـركهم ديـن قريش القبيلة القوية العزيزة، وبفقـرهم وبصـفة عامـة بوضـعهم الاجتمـاعي المهـين . كنا نعدهم من شرار الناس لما اجتمع فيهم من النقـائص، علـى معنـى أن مـن لـم يكـن له حظ في الدنيا فلا حظ له في الآخرة. قال تعـالى: **(وقـالوا نحـن أكثـر أمـولا وأولادا**

وما نحن بمعذبين)[1] لقد اتخذناهم موطن سخرية واستهزاء، بل إن أبصارنا كانت تتجاوزهم احتقارا لهم وترفعا عليهم. فيكون النص مبينا علاقتهم بهم، وتعجبهم من عدم رؤيتهم في النار.

وتفهم الآية على قراءة نافع وغيره " **أتخذناهم سخريا أم زاغت عنهم الأبصار**" بقطع همزة "أتخذناهم " فيكون النص مبينا ندامة الطغاة من موقفهم من المستضعفين من المؤمنين في الدنيا. على معنى أكان تحقيرنا لهم في الدنيا خطأ لأنهم ليسوا أهلا للسخرية، أم كان ترفعنا عليهم وأبصارنا تعلو عليهم وإن نظرت إليهم فلا تنظر إلا شزرا نظرة احتقار، وهذا خطأ ثان. وقال الحسن البصري إنهم فعلوا الفعلين القبيحين معهم .

ويمكن فهم الآية ما لنا لا نرى رجالا كنا نحسبهم أشرارا خاسرين دنياهم وآخرتهم لفقرهم وكفرهم بآلهتنا، اتخذنا هؤلاء الرجال موضع سخرية. فهم لا يعرفون أين هم موجودون في الآخرة، ثم أضربوا فقالوا: بل إن أبصارنا لم تقع عليهم لعدم معرفتها بمكانهم في النار.

بكل تأكيد إن الذي سجلناه عليهم، وفصلناه، حق ثابت أنهم سيتكلمون به ويجري بينهم، وعبر عن مقاولاتهم بالخصام تبعا لتلقي الطغاة المستضعفين شر قبول، ورد المستضعفين عليه بل أنتم لا مرحبا بكم. وهذا الخصام يجري بين الخالدين في النار، لأن التعبير بـ " **أهل النار**" يفيد قوة الملازمة بينهم وبين النار

65←66: قل إنما أنا منذر...العزيز الغفار.

ما سبق هذه الآية من عرض ما يلقاه الطغاة والكفرة يوم الحساب والجزاء، قل لهم: و واجههم بهذه الحقيقة: إن ما أبلغكم إياه، وتحذيري لكم من سوء العاقبة إن لم تؤمنوا وتصلحوا أنفسكم، إنما أقوم به لأن ربي لم يكلفني إلا بإنذاركم، حتى لا تكونوا غافلين عن المصير المقرر لكل المعرضين عن هدايته. واعلموا أنه لا إله يستحق العبودية ويتقرب إليه إلا الله، فهو الواحد في ألوهيته وصفاته لا خالق غيره. وهو الذي يخضع كل كائن لقدرته، فلا يستطيع التمرد عليه أو الانفلات من قبضته. هو رب السماوات والأرض، وما بينهما، أنشأها من عدم، ووالى عليها ألطافه وعنايته حتى بلغت المستوى الذي تشاهدونه، عزيز في تصرفه فلا ترقى أي قوة لإلزامه أو التأثير عليه. وهو سبحانه متفضل بالمغفرة على من تاب من عبيده

---

[1] سورة سبأ آية 35

وأقلع عن الشر، فاغتنموا هذا الكمال المتصف به وآمنوا يمحُ ما سبق لكم أن اقترفتموه .

67←68: قل هو نبأ...عنه معرضون.

افتتحت الآية بما افتتحت الآية 65 بكلمة " قل". إبرازا للاهتمام بمدخولها، حتى تعيه الأسماع وتلتفت إليه الأنظار. تشجع و واجههم بهذا المضمون: أن القرآن نبأ عظيم، بما تضمنه من صلاح في العقيدة والنفس والعمران، ومن الفوز في الآخرة. أنتم أيها المشركون أعرضتم عن التدبر فيه، فلم تدركوا عظمته، وفاتكم خير كثير

69ـما كان لي من علم...إذ يختصمون.

عظمته تكمن أنه منزل من عند الله، يثبت ذلك أني أخبركم عن معلومات تتعلق بالملأ الأعلى الملائكة وآدم قبل أن ينزل من السماء إلى الأرض، وإبليس. أخبركم عن مواقفهم المختلفة، وما يصرح به كل فريق، من مضامين تمثل نقاشا في بعض الأحوال. فلما كان بعض التقاول فيه خصام، عبر عن الجميع بالخصام. إذ ليس من شأن الملأ الأعلى أن يحدث فيه مقاولات. سيظهر شيء من هذه المقاولات بعد آية واحدة: **إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة الآيات.....**

70ـ إن يوحى إلي...أنا نذير مبين.

اعلموا أن ما أبلِّغكم من القرآن وما يتضمنه من وعيد ووصف لما يلقاه المجرمون في الآخرة أو في قصصهم في الدنيا، وما يجري بينهم في الجحيم، وقصة آدم وعزم إبليس وتصريحه بأنه يجمع كل ما أوتي من مكر لإضلالكم وإغوائكم، كل ذلك لأجل إنذاركم، لطفا من ربي بكم لتهتدوا وتصلحوا حياتكم الدنيوية والأخروية. وقد كلفني ربي أن أفصل لكم القول وأبين لكم المضمون.

إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

سويته: أتممت خلقه وعدلته.

من روحي : من الروح التي أتفرد بملكها وأعلم حقيقتها.
رجيم : مطرود عن الخيرات وعن منازل الملأ الأعلى.
اللعنة : الإبعاد من رحمة الله.

بيان المعنى الإجمالي :

واذكر يا محمد قصة خلق آدم ليكون الناس على ذُكْر منها. تبدأ القصة من إعلام الله ملائكته: إني خالق بشرا بمواصفاته الخاصة، وإمكاناته، مبتدئا خلقه من طين. فإذا أتممت خلقه، وعدلته جسديا، وأسريت فيه الحياة التي هي من روحي، أتفرد بملكها وبمعرفة حقيقتها. فتحركت أجهزته للعمل؛ فعندها قعوا له ساجدين. وبمجرد ما ظهر آدم بشرا سويا نفذ الملائكة أمر ربهم، فسجدوا جميعا، إلا إبليس الذي كان مشمولا بالأمر وكان يعيش مع الملائكة، عد نفسه أعظم من أن ينفذ الأمر، وكان منطويا على الكفر. أوكل الله بعض ملائكته لإيقافه بالسؤال عن سبب امتناعه من السجود لمن توليت خلقه بعنايتي في كل مرحلة من مراحل تكونه، أهو تعاظم واستكبار بدون موجب، أم يظن نفسه أعلى من آدم . أجاب إبليس بأنه خير من آدم لأن ابتداء خلقه كان من نار وابتداء خلق آدم كان من تراب، والنار أرفع وأسمى من التراب . صدر الحكم عليه إثر إقراره . أمره أن يخرج من الجنة ومن الملأ الأعلى الذي كان يعيش معهم، أن يخرج مطرودا مهانا. وأن اللعنة واليأس من رحمة الله تلحقه إلى يوم الجزاء الذي يلقى فيه جزاء كفره وتمرده، وفساده وإفساده.

بيان المعنى العام :

71←72: إذ قال ربك للملائكة...فقعوا له ساجدين.

اذكر يا محمد ما وقع في هذا الظرف الذي قال فيه الله للملائكة إني قدرت خلق بشر من طين. فإذا أتممت خلقه وعدلته، وأذنت للروح التي هي من أمري أن تسري فيه، فتَمَشَّتْ الحياة فيه وأخذت أجهزته المختلفة تقوم بدورها، فأصبح حساسا مفكرا، مزودا باستعدادات تهيئه للخلافة في الأرض. فعندها اسجدوا له.

وقصة خلق آدم تكررت في القرآن، ذلك أنها قصة توقظ الإنسان إلى أن الشيطان يتهدده بإغوائه، ويعمل على إضلاله، بتقبيح الحسن وتحسين القبيح، والإملاء في الآمال، والإنسان قد يغفل عن هذا العدو الماكر غير الظاهر، المتآلف مع دواعي النفس وشهواتها.

وسجود الملائكة لآدم لا إشكال فيه لأنه ليس سجود عبادة، إذ المعبود هو الآذن بالسجود: الله رب العالمين. ولا يفهم السجود على أنه وضع الجبهة على الأرض، فالملائكة مخلوقات روحانية ليس بينها وبين المادة من سبب. فهي تحية إكبار

وإجلال لهذا المخلوق العجيب، الذي يرقى إلـى أن يكـون مـن جنسـه المرسـلون هـداة العالم وخيرة الخلق. وينسفل حتى يكون صنو الشـيطان. الـذي يوسـوس فـي صـدور الناس من الجنة والناس.

73←74: فسجد الملائكة...وكان من الكافرين.

تم خلق آدم، سواه ربه ونفخ فيه من روحه، وأخذت أجهزته تعمل عملها. وحان الوقت لينفذ الملائكة أمر ربهم، فسجدوا فعلا وأدوا التحية على النحو الذي فهموه من الأمر، مبتهجين أن أتيحت لهم فرصة جديدة لعبادة لربهم . سجدوا جميعا لم يتخلف أي واحد منهم، وبدا في المظهر العام المتحد فردا غير ساجد، هو إبليس ظاهرة الاستكبار بادية عليه، عد نفسه أعظم وأكبر من أن يسجد لآدم وأن يحييه تحية الإجلال التي أمره بها ربه. ويسجل القرآن أنه كان من الكافرين عندما امتنع من السجود. أو كان منطويا على جذور الكفر التي ظهرت في الخارج بمناسبة الأمر بالسجود. وكُفْرُ إبليس لم يكن متولدا عن العصيان للأمر، إذ المعصية لا تحول بمفردها العاصي عن الإيمان إلى الكفر. ولكنه كان معترضا على الله، ناسبا له الخطأ في الأمر بالسجود لآدم . واعتقاد النقص في الذات الإلهية كفر.

75ـقال يا إبليس ...أم كنت من العالين.

أوكل الله ملَكًا يقرر إبليس ليظهر سبب امتناعـه مـن السـجود، وبـذلك ينفـي الغمـوض عن سبب تركه للسجود، ويظهر موجب الحكم عليـه. فسـأله عـن السـبب الـذي منعـه من السجود لآدم الذي خلقته بعنايتي، متحولا من مرتبة إلـى مرتبـة أخـرى، حتـى بلـغ مرتبة نفخ الروح، الجوهر الخفي الذي لا يعلـم حقيقتـه إلا أنـا. إذ إيجـاد آدم لـم يكـن حسب القوانين التي أعطاها للكون، يجـري بهـا اللاحـق علـى سـنن السـابق، وإنمـا توليت العناية به في جميع مراحل تكونه حتى أصـبح بشـرا سـويا. هـذا معنـى خلقـت بيدي، إذ لا يصح نسبة اليد إلـى الله. هـل كـان الحامـل لـك اسـتكبارك علـى طاعـة أمري، وظنك أنه لا يقبل أن تكون مـأمورا بالسـجود تعاظمـا منـك. أم تعتقـد نفسـك أعلى من آدم، وبالتالي أرفع من أن ترضـخ لأمـري؟. فعلـى الاحتمـال الأول لا يوجـد في إبليس أي موجب للكبر، ولكنهـا أوهـام ودعـوى فارغـة ومـرض نفسـي. وعلـى الاحتمال الثاني اعتقاده أنه فعلا أرفع من آدم وبالتـالي لا يسـجد، وأمـره بالسـجود مـع علو منزلته خطأ من الأمر، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

76ـقال أنا خير منه...من طين.

صرح بأن امتناعه من السجود ليس اسـتكبار وانتفاخـا، ولكنهـا الحقيقـة التـي اتبعهـا: أن من حقه الامتناع مـن السـجود. وبـرر ذلـك بأنـه خيـر مـن آدم، إذ أن عناصـر

التكوين تقتضي ذلك، فإبليس مخلوق من نار، وآدم مخلوق من طين. والنار أرقى وأشرف من الطين. وكلمة "من" في الخلقين تفيد الابتداء، أي إن خلق إبليس ابتدأ من عنصر ناري، ثم أضيف له ما أضيف حتى استقل كيانه. وآدم ابتدئ خلقه من عنصر ترابي ثم أضيف له ما أضيف من العناصر حتى كان إنسانا. وبالنظر إلى مبدأ الخلق فيهما استنتج إبليس أنه خير من آدم. وكانت خطيئته الكبرى أنه عبد مأمور، وعلى العبد الطاعة. هذا أولا. وثانيا فإن ابتداء الخلق لا يستقل بالتأثير في الكائن، بل إنه بعد أن جمع عناصر أخرى أصبح شيئا آخر. فإبليس ليس نارا تتوقد، وآدم ليس قطعة من طين يابس تصلصل.

77←78: قال فاخرج ...إلى يوم الدين.

بعد أن صرح إبليس بما هو كامن في نفسه أستحق الحكم عليه باعترافه. هذا الحكم الذي تضمن:

أولا: أمْرَه بالخروج من الجنة ومن جوار الملائكة والعيش معهم الذي كان عليه قبل ذلك.

ثانيا: أن خروجه هذا ليس خروج انتقال ولكنه خروج طرد ومهانة " **رجيم** "

ثالثا: أن اللعنة والإبعاد والحرمان من رحمة الله تصب عليه صبا، تصحبه في الحياة الدنيا. ويوم الدين يوم الجزاء سيلقى جزاء عصيانه وكفره، وما محض له نفسه من شر وفساد.

قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ
ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ
﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾
قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾
وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

أنظرني : أمهلني.

يوم يبعثون : يوم القيامة.

فبعزتك : بقدرتك غير المحدودة التي لا يحول بينها وبين تنفيذ ما تعلقت به أي حائل.

الإغواء : الإضلال.

من المتكلفين : من المتصنعين الذي يطمحون إلى التحلي بما ليس لهم.

نبأه : صدق ما أخبر به القرآن.

حين : في المستقبل

بيان المعنى الإجمالي :

طلب إبليس من ربه بكل تذلل وخضوع، وقد تبخـر كبـره، أن يـؤخر حياتـه إلـى يـوم القيامة. أعلمه الله أنه تقرر في علم الله أنه سـيبقى متحركـا خبيثـا إلـى الأجـل المحـدد في علم الله. عندما ينتهي دوره على أنه أحد العوامـل المـؤثرة فـي التكليـف والاختيـار للناس. لما علم إبليس أن الله سيبقيه إلى الأجل المحـدد عنـده أطمـأن إلـى أنـه سـيعيش مع الجنس البشري، وأقسم بعزة الله أنه سـيغوي البشـر جميعـا ويضـلهم عـن العقيـدة الحق وعن السلوك الراشد، إلا الذين أخلصوا ديـنهم لله وطهَّـرتَهم مـن الزيـغ. أثبـت الله تعالى أنه يوجب الحق في كل مـا يجـري فـي الكـون، وأنـه سـبحانه لا يقـول إلا الحق الثابت .بكل تأكيد لأملأن جهنم منك ومـن ذريتـك ومعاونيـك ومـن البشـر الـذين يتبعون طريقك.

قل يا محمد للمشركين إلجاء لهم ليقروا بالحقيقة المتضمنة:

أولا: أني ما طلبت منكم في يوم من الأيام ثوابا ماديا مقابل ما أدعوكم إليه.

ثانيا: أني نشأت بينكم فما رأيتم منـي مـن وقـت شـبابي إلـى الآن أن لـي طموحـات تجعلني أتصنع ما ليس في .فدعوا ما ترموني بـه مـن أنـي غيـر صـادق فيمـا أقـول لكم.

ثالثا: إنه تنزيل رب العالمين. القـرآن والـوحي الـذي بلغـتكم إيـاه لا يقصـد منـه إلا تذكير البشرية قاطبة لتصلح عقلها وعقيـدتها وسـلوكها. وسـيظهر لكـم فـي المسـتقبل تأثير القرآن في العالمين.

بيان المعنى العام :

79. قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون.

ذهب ما كان ينطوي عليه إبليس من كبر، وانكشـفت لـه حقيقتـه، وتبـين لـه صـغاره، وتيقن أنه لا يسـتطيع أن يتحـرك إلا إذا مكنـه الله مـن التحـرك؛ فقـال: رب !أظهـر التذلل والخضوع، أخرني إلى يوم يبعثون . لا تفنيني وأمِـدَّ لـي فـي حيـاتي إلـى يـوم تبعث فيه الناس يوم القيامة.

80←81: قال فإنك...الوقت المعلوم.

أعلمه الله بواسطة الملك الموكل بذلك: أني حكمـت بـأن تواصـل حياتـك، فأجابـه إلـى الشطر من دعوته، وهو الإنظار .وأما الشطر الثـاني وهـو أن يبقـى حيـا فـاعلا إلـى

يوم القيامة فلم يجبه، وأن أجله سينقضي في الوقت المعلـوم عنـد الله. لأنـه سـيفنى يـوم ينتهي التصارع بين الخير الذي يدعو إليه المرسلون، وبـين الشـر الـذي يحركـه إبلـيس ويزينه للناس. وفي ذلك إيماء خفي إلى أن بقاء إبلـيس وتسـلطه علـى النـاس لـم يكـن استجابة لدعائه، ولكن ذلك كـان أمـرا مقـررا فـي سـابق علـم الله، تحقيقـا للتكليـف ولابتلاء الإنسان بالاختيار.

82←83: قال فبعزتك...منهم المخلصين.

أقسم إبليس بعزة الله، بسلطانه وقهره، أنـه عـازم علـى إضـلال البشـر جميعـا، بنـاء على ما أحس به في نفسه من قدرات شـريرة خبيثـة، وعلـى مـا علمـه عـن طبيعـة التركيب الإنساني ودور شهواته وغرائزه في سـلوكه. ولـذك اسـتثنى عبـاد الله الـذين أخلصوا لك، وطهرتهم من الزيغ والضلال.

84←85: قال فالحق ...منهم أجمعين.

قال تعالى فالحق: إني أوجب الحق وأثبته، والحق أقول، لا أقول إلا الحق، وهو تأكيد لقوله: فالحق. ما هو هذا الحق المؤكد؟ بكل تأكيد لأملأن جهنم منك ومن ذريتك وأتباعك من جنسك، ومن الذين استجابوا لإغوائك وانحرفوا عن صراطي المستقيم .

86ـ قل ما أسألكم ...وما أنا من المتكلفين.

قل للمشركين المتصلبين لتلجئهم إلى الاعتراف بالحقيقة التي باشروها وجربوها: هذه الحقيقة أني ما سألتكم ولا طلبت منكم أجرا ومقابلا، ولا أثقلت عليكم أن تمكنوني من مثوبة على ما أقدمه لكم من نصح، وما أعمل ليلا نهارا لأقنعكم به. فاشهدوا أني ما كلفتكم في مقابل الدين الذي أبلغكم أحكامه، وأبين لكم أصوله ونظامه أي فائدة مادية. كما أنكم جربتموني وعرفتم خلقي من يوم ولدت بينكم، فما رأيتموني في يوم من الأيام من الذين يرومون أن يتحلَّوا بما ليس عنده. والتكلف كما روي في بعض الآثار: للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم. إن آفة التكلف تظهر مع قوة الشباب ومراحل الكهولة الأولى. أما وقد جاوزت الأربعين فإنه لا يتصور أن أكون من المتكلفين الآن مع تنزهي عن التكلف من قبل. وإذا كنت لم أسألكم أجرا، ولا أنا من المدعين ما ليس في طموحا فارغا، فرميكم إياي بالكذب باطل من القول منفي عقلا. فكانت هذه الآية مثبتة صدق الرسول حسب القوانين المعتادة في الاجتماع الإنساني.

87ـإن هو إلا ذكر للعالمين.

فإذا كان القرآن والوحي الذي بلغـتكم مضـامينه والـذي لا أطلـب علـيكم منـه أجـرا، وما أنا من الذين يظهرون أنفسهم بمـا لـيس فـيهم، فـإن ذلـك الـوحي المنـزل قرآنـا

وغيره لـيس إلا ذكـرا للعـالمين جميعـا، لا لقـريش وحـدها، ولا للحاضـرين وقـت التنزيل، وإنما هـو رسـالة الله للبشـرية عامـة فـي جميـع أطوارهـا، وأينمـا كانـت، تذكرهم بالحقائق التي تُصلِح منهم آلة التفكير، وتصلح العقيدة وتصلح السلوك.

88- ولتعلمن نبأه بعد حين.

وستعلمون صدق هذه الحقيقة من تأثير القـرآن فـي الحضـارة الإنسـانية، وفـي العقـل البشري عامة في المستقبل. وفـي ذلـك تطمـين لرسـول الله ﷺ وللمـؤمنين، أن الـدين سينتشر في الآفاق، وسيهدي الله به أمما كثيرة .

4 شوال 1434-2013/08/12

سورة الزمر

هذا هو الاسم الذي عرفت به عند كتاب المصاحف. سـميت بهـذا الاسـم لوقــوع لفــظ: الزمر: فيها وحدها. وروي اسم آخر لها فـي بعـض كتـب التفسـير "سـورة الغـرف " لاختصاصها أيضا بهذه الكلمة في القـرآن. وهـي سـورة مكيـة كلهـا، علـى الأرجـح .وترتيبها حسـب ترتيـب المصـحف التاسـعة والثلاثـون. وهـي التاسـعة والخمسـون حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة سبأ، وقبل سورة غافر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

أولياء : جمع ولي بمعنى معبود.

الزلفى: منزلة القرب.

كفار : المتصلب في الكفر .

بيان المعنى الإجمالي :

تفتتح السورة بالتنويه بـالقرآن بكونـه منـزلا مـن الله، وبكـون تنزيلـه متتابعـا، وبـأن منزله هو العزيز الذي لا يغلب، الحكيم الذي يعلـم حقـائق الأشـياء علـى مـاهي عليـه ويوجدها على أفضل وجه. ولما كان القرآن كلامه فهـو جـامع بـين العـزة الغالبـة بمـا تضمنه من الحق، وبـين الحكمـة بتعريفـه البشـر بحقـائق الوجـود والمعـاد، وعلـى الشريعة الهادية لسعادة الدارين. إنا أنزلنا القرآن موجهـا إليـك ملتبسـا بـالحق مختلطـا به، فقم بشكر ربك بواسطة العبـادة لذاتـه عبـادة تخـتص بـه ولا يخالطهـا غيـره. ألا فانتبهوا واعلموا أن الدين الخالص من كل شائبة شـرك، المسـتحقّ لـه هـو الله وحـده.

واحذروا الأوهام التي وسوس بها الشيطان من عبادة الأوثان على أنها وسيلة وواسطة تقرب العابد من المعبود. إن الله سوف يحكم بينهم في اختلاف طرائقهم في عبادة الوسائط، فيكشف لهم ضلالهم جميعا. وسيستمرون على ضلالهم إلى آخر لحظة من حياتهم لأن الله حرمهم هدايته وتوفيقه، وتركهم لأنفسهم ولوساوس الشيطان تنخر عقولهم وتفسد أرواحهم بسبب تصلبهم في الكفر، وكذبهم على الله في دعواهم أن الله أمرهم بتقديس الوسائط. من تلكم الوسائط نسب العرب لله اللات والعزى ومناة، وزعموا أنها بنات الله. ما أشد غباءهم! إن الله في عزته وجلاله لو أراد أن يتخذ أولادا يتبناهم وينسبهم لنفسه، لاختَارَ أفضل ما يمكن أن يتصور، فكيف يتخذ الأحجار الصماء والإناث، مع أنكم تقولون: إن الإناث أحط من الذكران، فنسبتم بغبائكم إلى الله الأحط في مادته والأحط في جنسه. تنزه الله عما تقولون، فهو الواحد الذي لا يعقل أن يكون له ولد . هو الذي يُخضِعُ كل شيء لحكمه وينفذ فيه إرادته رضي أم أبى.

بيان المعنى العام :

1ـتنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم.

بداية فريدة افتتحت بها هذه السورة، فيها بيان لحقيقة يجب أن تكون حاضرة في عقول الناس ومشاعرهم، هي أن هذا القرآن هو كتاب، فصفة الكتابة والجمع والضبط ركن من أركان حقيقته، ليس لمحمد فيه إلا البلاغ، ثم التبيين بالقول والفعل. إذا أردت ضبطه بما يميزه فاعلم أنه تنزيل متعاقب منجم، من الله العزيز الحكيم. وفي قرن اسم الجلالة بالوصفين "**العزيز الحكيم**" تنبيه إلى أن هذا الكتاب يوصف بما وصف به منزله، العزة والحكمة. أما أنه عزيز فذلك لأنه بقوة الحق الذي يتضمنه غالب لكل مكذب به، حجته الغالبة من ذاته، ومن مضامينه. وأما أنه حكيم فلأن القرآن يشتمل على الحكمة التي تكشف للناس الحقائق التي لا يصلون إليها إلا بواسطته كالمغيبات، وعلى الحكمة فيما شرعه للناس في الحقوق والأخلاق والسلوك.

2ـإنا أنزلنا...مخلصا له الدين.

إنا بعظمتنا أنزلنا إليك يا محمد الكتاب المنوه به العزيز الحكيم، على معنى أنا اخترناك لتحمل هذه المهمة العظيمة، هي تلقي الكتاب، ولذلك أعيد لفظ الكتاب ولم تأت الآية على صيغة: "**إنا أنزلناه بالحق**" ملابسا للحق أي إن الحق مختلط به، انتفى عنه الباطل فلا يمكن أن يلتصق به. ولا يلحقه النقض والفساد لا في الحال ولا في المستقبل. ثم ربط هذا التنزيل للكتاب المنوه به، بالإقبال على عبادة الله

عبادة تتصف بالخلوص من كـل شـائبة شـرك وريـاء وبتصـفية السـر. أي اعبـد الله عبادة تبغي بها، الخضوع لجلالــه والتقـرب إليـه. إنـه لا تبلـغ العبـادة حقيقتهـا إلا إذا كانت الخيوط التي تجمعك بـالمعبود خيوطـا نورانيـة لا يخالطهـا كـدر وضـعف مـن التفات النفس إلى أمر آخر. إن الأمر الآخر هـو ظـلام يعتّـم علـى صـفاء الإخـلاص فيذهب شفافيته. وكلمة الدين التي تعلـق بهـا الإخـلاص تشـمل كـل عمـل يقـوم بـه الإنسان. تشمل العبادة المشروعة من صـلاة وزكـاة وصـوم وحـج، والأفعـال الخيريـة من صدقة وعون وهداية وإرشاد وجهاد، وتشمل الأفعـال الدنيويـة التـي تنقلـب عبـادة بما يصحبها من نية ترفعها من مستوى الأفعـال الطبيعيـة، إلـى ربطهـا بالخـالق ونيـة النفع بها في دائرة الاستخلاف في الحدود التي حـددها فتنقلـب عبـادات يتبعهـا الأجـر. يوضحه ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم بسـنده إلـى أبـي ذر ﷺ قـال: قـال النبـي ﷺ : وفي بضع أحكم صدقة قالوا: يا رسول الله أيأتي أحـدنا شـهوته ويكـون لـه فيهـا أجر قال: أرأيتم لو ضعها في حرام أكـان عليـه فيهـا وزر؟ فكـذلك إذا وضـعها فـي الحلال كان له فيه أجر. علق عليه عيـاض بقولـه: وفيـه أن المبـاح ينصـرف بالنيـة إلى الطاعة[1] كما روى البخاري بسنده إلى ابـن عبـاس رضـي الله عنهمـا عـن النبـي ﷺ قال: أما لو أن أحدكم يقول حين يأتي أهله، بسـم الله اللهـم جنبنـي الشـيطان وجنـب الشيطان ما رزقتنا، ثم قدر بينهما في ذلك أو قضي ولد لم يضره الشيطان أبدا[2].

3ـ ألا لله الدين الخالص...من هو كاذب كفار.

انتبهوا لما سيرد عليكم فإنـه مـن الأهميـة بمكـان. تفـرد الله بأنـه المسـتحق للعبـادة الخالصة غير المشوبة بما يناقضها. وذلك مراتب:

أن يعبد الله لأنه حقيق بالعبادة، لا ينظر العابد إلى ما يترتـب علـى عملـه مـن ثـواب، وإنما يهمه شيء واحد هو أن يكـون محـل الرضـا مـن ربـه بعبادتـه. وهـذه مرتبـة سامية قد يصل إليها الإنسان بعد مجاهدة للـنفس، وبحسـن توفيـق مـن الله. ودون هـذه المرتبة أن يعبد الله طمَعًا في ثوابـه واتقـاء لغضـبه وعقابـه. وحـظ الـنفس فـي هـذا ضئيل ولكنه موجود. وهو لا يناقض العبادة لأن كل عابـد هـو غيـر واثـق أن الله تقبـل عمله وتعرض للثواب، فهو مواصل للقيـام بالعبـادة علـى جميـع الأحـوال. ودون هـذه المرتبة أن يعبد الله، ويجد في نفسـه مـيلا أن يـراه النـاس فـي طريـق الخيـر، إلـى المساجد مثلا أو يشارك في أفعـال البـر، أو طبيـب يخصـص يومـا لمعالجـة الفقـراء

---

[1] إكمال الإكمال ج3 ص145

[2] فتح الباري ج11ص136

مجانا ونحو ذلك، فهذا إذا كانت الخاطرة الذهنية لا تناقض فعل الخير على معنى أنه لا يقلع عن فعل الخير إذا لم يكن بمرأى من الناس فهذا لا ينافي الإخلاص. قال مالك: وإنما هذا شيء يكون في القلب لا يملك. وذلك من وسوسة الشيطان ليمنعه من العمل؛ فمن وجد ذلك فلا يُكسله عن التمادي في فعل الخير، ولا يُؤيِّسه من الأجر، وليدفع الشيطان عن نفسه ما استطاع، ويجدد النية فإن هذا غير مؤاخذ به إن شاء الله. وأما إذا كان تقديره لنظر الناس له وهو يفعل الخير، أو لحديثهم عنه مساويا أو أرجح من قصد العبادة، فالإخلاص مفقود، ولا طمع لصاحبه في الثواب أو في القبول.

وعرجت الآية على شبهة كانت فاشية في المجتمعات الجاهلية. كان بعض المشركين يعبدون الأصنام، كاللات والعزى ومناة والجن، وبعضهم يعبدون الملائكة. ويبررون ماهم عليه فيقولون: إن مرتبتنا منحطة، لا تسمو إلى عبادة الله مباشرة، فنتخذ وسائط بيننا وبين الله من المقربين عنده، حتى نفوز بالقرب من الله وبرضوانه بفضل تلك الوسائط. وتعالى الله أن يقبل وسائط بينه وبين عبيده، وهو شرك والعياذ بالله.

فالله يحكم بينهم: يمكن أن تفهم الآية على أن الله يحكم بينهم يوم القيامة بإظهار أن كل من عبد غير الله ضال، وهالك. فهو حكم بين مختلف الفرق التي تدعي كل واحدة منها أنها سلكت طريق الصواب، الحكم عليها جميعا بالضلال والفساد.

كما يمكن أن تفهم الآية على أن الله يصدر حكمه بين العابدين والمعبودين حكما يتناسب مع كل نوع. يحكم بالإلقاء في الجحيم، على العابدين ومعبوداتهم من أصنام ومن رضي منهم بأن يعبد من دون الله. ويحكم على عباده الصالحين الذين ما دعوا وما رضوا ليكونوا وسائط بين المشركين وبينه، يحكم عليهم بدخول الجنة ونيل تكريمه وثوابه.

إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار: يفيد المقطع السابق أن الذين اتخذوا من دونه أولياء بقصد تقريبهم إليه أنهم يواصلون كفرهم إلى اليوم الذي يصدر فيهم حكمه. فجاءت هذه الآية مؤكدة بالمنطوق لما هو مفهوم من المقطع السابق. إن مواصلة حياتهم على الضلال هو أمر تابع لقاعدة معاملة الله للكافرين، أنه سبحانه لا يمن على المتصلبين في الكفر الذين يعرضون عن الاستماع لما يأتي به رسله، النافرين من التأمل، لا يمن عليهم بمنحهم ألطافه التي تفتح قلوبهم للخير، وعقولهم لتقبل الهداية. مكن الله البشر جميعا من الآلات التي تصل بينهم وبين الحق، من سمع وبصر، ومن إبلاغ الرسل الحق الذي جاءهم من عند الله وبيانه. ولكن الذين اتخذوا

من دونه أولياء، رفضوا الاستماع إلى ما بينه لهم رسل الله: أن ما يعبدونه من دون الله باطل وزيف. وغلّبوا ما يلقيه الشيطان في نفوسهم على وحي الله وبيان الرسل، فحرمهم الله من ألطافه التي تساعدهم على اتباع الخير والبعد عن الشر. أولئك الذين جمعوا بين الكذب على الله بدعواهم أن الله أمرهم بعبادتهم وبتصلبهم في الكفر.

4-لو أراد الله...هو الله الواحد القهار.

تواصل هذه الآية إبطال ما تعرضت له الآية السابقة. كان المشركون يعتقدون أنه بين الله وبين أصنامهم نسب فالثلاثة بنات الله: اللات والعزى ومناة. ولذلك هم يعبدونهم ليقربوهم من الله زلفى. تذكر الآية أن الله لو أراد أن يتخذ على طريق البنوة أولادا، لتخير من مخلوقاته الأسمى والأقوى شرفا، ومن له من المزايا ما يرجح اختياره. فمن أبطل الباطل أن يجعلوا أولاد الله الذين يتقربون بهم ثلاثة تجمع بين انحطاط كونها أحجارا، وبين كونها إناثا، على حسب قيم المشركين الذين يعتقدون أن الإناث أحط من الذكران. ولذلك عقب هذا الفرض المنفي بقوله: سبحانه، تنزه الله تنزها ذاتيا عن تصور ما ألحقه به الكفّارون الكاذبون. ثم واصلت الآية بما يحقق التنزيه المستفاد من قوله "**سبحانه**" بأن الله واحد لا يتصور أن يكون له تعلق ذاتي بمخلوق من مخلوقاته، ولا أن يسمو كائن إلى أن يكون له نسب به. وهو القهار لكل كائن لا يستطيع أن يخرج عن سلطانه وهو ما ينافي علاقة التبني التي تقوم على لاهب العواطف من الرحمة والحب لا على القهر.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾ إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

يكور : التكوير اللف واللَّيُّ.

يجري : يسير سيرا سريعا.

مسمى : معين.

سخر : طوعهما تطويعا لا يَتَأتّى لهما الخروج عنه.

الأزواج : الأنواع .

الصرف : الإبعاد.

الوزر : أصل معناه الثقل، وأطلق على الإثم .

وازرة : نفس

بيان المعنى الإجمالي :

استدلال على وحدانيته ونفي الولد عنه، ذلك لأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وأجراها على قوانين ثابتة، موحدة لا اختلاف فيها. يسلط الليل على النهار فيتبعه على سطح الكرة الأرضية ففي كل لحظة تظهر الظلمة في مكان، ويسلط النهار على الليل فيظهر في النقطة المقابلة لها ضوء النهار. وطوع بقدرته وحكمته الشمس والقمر لأداء وظائفهما في الكون. وكل منهما يسير إلى الغاية التي رسمها لهما رب العالمين، فيتوقف السير، وتقوم القيامة. فبحق هو العزيز الذي تتحقق إرادته ولا يعطلها أي معطل، وهو الذي يفتح لكم أبواب مغفرته لتتوبوا إليه فيمحو عنكم ما سلف. تأملوا فإن هذا البشر الذي يتكاثر على سطح الأرض نشأ من شخص واحد هو آدم، قدر الله كل جزئية فيه وقدر أجهزته والترابط المحكم بينها على غير مثال سبق، وفوق ذلك خلق من آدم زوجه حواء. ومكنكم من الانتفاع بالأزواج من الأنعام الإبل والبقر والغنم والمعز.

يتولى سبحانه العناية بكم في بطون أمهاتكم، يحولكم من وضع إلى وضع، ومن مستوى إلى مستوى أعلى منه، مع أنكم في ظلمات ثلاث ظلمة المشيمة وظلمة الرحم وظلمة البطن. وتعالى أن يتأثر علمه وفعله بظلمة أو نور.

إن ذلك الذي تصرف وسخر وخلق هو الله ربكم، اختص بالملك فلا يشاركه أحد في ملكه، ويتبع تفرده بالملك تفرده بالألوهية. فكيف تصرفون وتبعدون عن عبادته وتوحيده !

إنه من رحمة الله ما يسره لعباده من الهداية بما أوحاه لرسله، وبما مكنهم من قوة العقل. إن من كفر منكم فكفره لا يضر الله شيئا لأنه الغني الذي لا يحتاج إلى طاعتكم. ولكنه مع ذلك لا يرضى منكم أن تكفروا نعمه فتشركوا به. ومعنى لا

يرضى لعباده الكفر أنه يعاقبهم على كفرهم، وفي المقابل هو يرضى لعباده أن يشكروا نعمه الشكر الذي أساسه الإيمان بأنه هو وحده الخالق المتفضل. ورضاه هو ثوابه وتكريمه. ثم إنه لا تتحمل نفس آثام نفس أخرى. وفوق ذلك ستعودون جميعا إلى حكمه، فيعلمكم ويخبركم بحقيقة ما عملتم في الدنيا. هذه الحقائق التي كان بعضكم يكتمها في صدره ولا يكشفها. والله يعلم ما يقصده كل عامل. وسيجازيه حسب قصده.

بيان المعنى العام :

5ـ خلق السماوات والأرض... العزيز الغفار.

هو القهار فلا يخرج أي شيء عن قدرته، سخر الكون تسخيرا أجراه حسب حكمته، خلق السماوات والأرض، وقدر أن يكونا في خلقهما مرتبطين ارتباطا كاملا بالحق. تلحظ أيها الإنسان أن الحكمة شملت كل جزئية من جزئيات الكون، وليس فيه عبث أو إنجاز كيفما اتفق، بل جرت كلها على الدقة التامة والحساب المضبوط .يقول سيد قطب رحمه الله: وآية الوحدانية ظاهرة في طريقة خلق السماوات والأرض، وفي الناموس الذي يحكم الكون. والنظر المجرد إلى السماوات والأرض يوحي بوحدة الإرادة القادرة المدبرة. وما كشفه الإنسان حتى اليوم، من دلائل الوحدة فيه الكفاية. فقد اتضح أن الكون المعروف للبشر مؤلف كله من ذرات متحدة في ماهيتها، وأنها بدورها تتألف من إشعاعات ذات طبيعة واحدة. وقد اتضح كذلك أن جميع الذرات وجميع الأجرام التي تتألف منها، سواء في ذلك، الأرض التي تسكنها أم الكواكب والنجوم الأخرى في حركة دائمة، وأن هذه الحركة قانون ثابت لا يتخلف لافي الذرة الصغيرة ولا في النجم الهائل. واتضح أن لهذه الحركة نظاما ثابتا هو الآخر يوحي بوحدة الخلق ووحدة التدبير. وفي كل يوم يكشف الإنسان عن جديد من دلائل الوحدة في تصميم الوجود. ويكشف عن حق ثابت في هذا التصميم لا يتقلب مع هوى، ولا ينحرف مع ميل، ولا يتخلف لحظة ولا يحيد[1].

يكوِّر الليل على النهار ويكور النهار على الليل – مما يلفت النظر لفتا يعمق الإيمان، ويدخل على النفس بهجة الحق وجمال الصدق، هذا التعبير القرآني في تعاقب الليل والنهار. إن ما تلحظه العين المجردة أن الليل يبسط ظلامه على النهار، والعكس. وهذه الصورة التي ينقلها لنا البصر غير صادقة. ثبتت بصفة قطعية كروية الأرض، وأنها تدور حول نفسها، وفي كل لحظة يكون جزء منها مواجها

---

[1] في ظلال القرآن ج24ص 12

للشمس وهو النهار، والجزء المقابل محجوبا عنها هو الليل. وهكذا في حركة دائبة تتم معا يتم دورانهما على الكرة الأرضية، يكور النهار على الليل ويكور النهار على الليل. فالقرآن ليس كتابا يشرح الحقائق الكونية، فذلك مما كلف الله به الإنسان لمَّا استخلفه في الأرض، ولكن العلم الإلهي الدقيق بما خلق، يتبعه أن التعبير القرآني يكون صادقا، مما يحرك النظر للمضي في البحث عن أسرار كلامه سبحانه لتتكشف الحقيقة المضمرة.

وسخر الشمس والقمر : ارتباط النهار بالشمس، وارتباط الليل بظهور القمر، مناسبة للحديث عنهما. فالظاهرة الأولى أن كليهما قد طوعه الله ليقوم بوظيفته في الكون، كتجديد طاقات الأرض بالشمس، والدفء، والطاقة المنبعثة التي حركت العلماء للانتفاع بها. والقمر وتأثيره في المد والجزر وضبط الأوقات وغير ذلك. أودع سبحانه القوانين التي بها تكونت والتي بها تمضي في الوجود وفي التأثير على البشر والحيوان والنبات والتراب. هما يتحركان حسب تلكم القوانين ويسيران سيرا حثيثا، ينتهي سيرهما عند الأجل الذي قدر لبقائهما .فتتوقف حركتهما ويفسد الكون وتكون القيامة.

ألا هو العزيز الغفار: انتبهوا هو وحده المتصف بالعزة، فالكوكبان العظيمان سخرهما وأجبرهما على السير حسب القوانين التي أودعها فيهما. وتسخيرهما دليل على أن كل شيء مسخر لعظمته لا يخرج عما ضبطه له، ولا يقوم أي شيء يمنعه عن التصرف، أو يعدل ما قرره. وفي هذا تهديد للكافرين أنهم لا يملكون من أمرهم شيئا، ومقاليدهم بيد العزيز. وهو الغفار، وهو بهذا الوصف يدعو عباده للتحول عن الشر إلى الخير، وأنه يمحي ما سبق لهم من سيئات وانحراف عن الحق إذا هم تابوا ورجعوا إلى الاستقامة.

6ـ خلقكم من نفس واحدة...فأنى تصرفون.

بعد أن لفت الأنظار إلى دليل خلق السماوات والأرض على نظام محكم وقوانين ثابتة لا تحيد عنها إلى الأجل المقدر لها، عطف عليها خلق البشر جميعا لافتا الانتباه إلى أن هذه الأمم المتكاثرة، والخلائق التي تتضاعف أعدادها مع الزمن، أصلها واحد هو آدم .ويمثل خلق آدم آية عظمى على قدرة الخلاق العليم. نفس واحدة أوجدها على غير مثال، جمع فيها بين المادة والروح، وبين العقل والشهوة، ونظم كل جزء من أجزائها حسب قوانين دقيقة، وربط بينها ربطا عجيبا يتأثر الفكر بالوضع المادي، ويتأثر الوضع المادي بالوضع الروحي والفكري. بناء يشهد بالحكمة والقدرة والتدبير للخلاق العليم. ثم إن هذه النفس الواحدة قدر أن يخلق من

جزء من أجزائها ما تكون به زوجا بعد أن كانت فردا. وتكاثر البشر منحدرين من هذا الزوج ليقوموا بعمران الأرض إلى الأجل المسمى أيضا.

و أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج: هذا الإنزال يحتمل أن يكون معناه، أن الله أنزلها من السماء لتتكاثر على وجه الأرض، وأن تكون أليفة للإنسان لا تستعصي عليه بل تخدمه وتمكنه من منافعها العديدة. ويحتمل أن يكون الإنزال ناظرا إلى نزول أصولها من سفينة نوح عليه السلام، بعد أن أخذ من كل زوجين اثنين ذكر وأنثى. والثمانية أزواج المراد بها الأنواع الشاملة للغنم والمعز والبقر والإبل.

يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث: يستمر خلقكم ويتواصل في أطوار متلاحقة كل طور مهيّئ للطور الذي يليه حتى يكتمل ظهور الخصائص الكامنة في رأس الخلية الأولى المكونة من بيضة المرأة ولقاح الذكر 23 كرموزوما من كل واحد. إنه في اللحظة التي يتم فيها التخصيب تكون الخلية لا ترى إلا بالمجهر، ثم تتطور وتنمو شيئا فشيئا إلى أن تأخذ الأجهزة المختلفة في العمل. وهو في كل طور يرعاه ربه وهو في ظلمات ثلاث : ظلمة البطن وظلمة الرحم، وظلمة المشيمة، الغلاف الذي تكونه يد القدرة لحمايته وليكون واسطة غذائه من الوريد السري .و ذلك لأن الظلمة والنور لا تأثير لهما في علم الله بوضع الجنين في كل مرحلة من مراحل تكونه.

ذلكم الله ربكم له الملك - ذلكم: الذي تعين تعيّنًا في الأذهان بما أجري عليه من الصفات والتأثير والتصرف، هو الله الفرد العلم المختص بهذا الاسم. ثم أضافت الآية تسجيل أنه ربكم جميعا، بما تفيده كلمة الرب حسب اشتقاقها، من أنه تولاكم وتولى كل كائن برعايته وإمداده. المتفرد بالملك، إذ ملكه دائم لا ينقطع، ولا يختلف في حال عن حال أخرى. أما ما يدعيه الناس من الملك، فهو ملك يلحقه الفناء، ويجري عليه التحولات بين الضعف والقوة، والاهتزاز والاستقرار. ثم يفنى من يدعون الملك وتبقى الأشياء التي كانوا بها يعتزون. فالملك الحقيقي الكامل غير المتغير اختص به الله .

لا إله إلا هو فأنى تصرفون: لما ثبت لله الملك الحقيقي الدائم، فإنه يتبع ذلك أنه لا إله يحق إلا هو سبحانه، انحصرت فيه الألوهية، وكل الآلهة الأخرى زائفة لا تملك ملكا دائما ولا تتصرف تصرفا متواصلا . فكيف تصرفون وتبعدون عن توحيده وعن عبادته، وعن اعتقاد الرجوع إلى حكمه والخضوع لسلطانه. فكيف تغترون بتضليل المضللين وتشكيك المشككين؟ إنكار عليهم تعطيل عقولهم وانقيادهم لأئمة الكفر وللشياطين.

7-إن العناية الإلهية العظيمة بإصلاح أمر الناس، وبعث الرسل لهدايتهم، وتمكينهم من قوى العقل والنظر لتتَبَيَّنَ الحقائق فلا تختلط بالباطل. والإنكار عليهم في انصرافهم عن التوحيد كما جاء في الآية السابقة: **فأنى تصرفون**. كل ذلك هو من فضله ورحمته بالبشرية حتى يسعدوا في الدارين. والله غني عن إيمانهم وعن كفرهم. تخاطب الآية الكفرة: إنهم إن اختاروا الكفر وثبتوا عليه فإنهم لا يضرون الله شيئا، إذ هو غني عن إيمانكم وعبادتكم لا ينتفع منها بشيء، وإنما النفع لأنفسكم. كما أنه سبحانه لا يتأثر ولا ينتفع بإيمان المؤمنين وشكر الشاكرين .إلا إنه وقع إدماج مفهوم جديد، هو أن الله وإن كان لا ينتفع بالإيمان ولا يضره الكفر وهو الغني الغنى المطلق، إلا أنه لا يرضى لعباده أن يكفروا به، ويرضى لعباده أن يشكروه ويعترفوا بفضله، ويعملوا وفق ما يقتضيه الشكر من طرد كل شرك، وفعل الخير والابتعاد عن الشر. وإنه إذا كان لا يقع في الوجود شيء على عكس الإرادة الإلهية، فالكفر واقع بإرادته، فكيف يريد الكفر ولا يرضى به؟ والذي استقر عندي في النظر: أن الله خلق الجنس البشري، وأراد أن يكون مختارا غير مجبر، وهذا الاختيار تتبعه المسؤولية عن الأعمال. أراد الله لكل إنسان أن يكون مختارا بين الإيمان والكفر، ولا يجبره ولا يقسره على أحدهما. فإذا اختار الإيمان فقد تحققت الإرادة الإلهية في الاختيار الذي هو مناط التكليف .وإذا اختار الكفر فقد تحققت الإرادة الإلهية في الاختيار الذي هو مناط التكليف. فقوله تعالى مثلا: **ولو شاء الله ما فعلوه**[1] -**ولوشاء ربك لآمن من في الأرض كلهم جميعا** [2]- وما كان على هذا النحو في القرآن أفهمه على أن الله لوشاء أن يمنع البشر من قتل أولادهم لفعل، وعندها لا يتم إلا ما أراد. ولكنه أراد أن يجعلهم مختارين بين أن يقتلوا أولادهم وأن لا يقتلوهم. وكذلك لو شاء ربك أن يقسر البشر كلهم على الإيمان لفعل، ولكنه مكنهم من الاختيار بين الإيمان والكفر، ثم يحاسبهم على ما اختاروه. فالإرادة هي وصف سابق على فعل الفاعل. وأما الرضا فهو استحسان ورضوان من الله للإيمان بعد الفعل. فبعد أن يؤمن المؤمن، يرتب عليه تكريمه وثوابه. وأما الكفر فإنه بعد وقوعه يكون صاحبه مسخوطا عند الله لا يرضى به ويعاقبه.

وذهب الماتريدية وبعض الأشاعرة إلى أن الإرادة والمشيئة والرضا شيء واحد، فجعلوا قوله تعالى مُؤَوَّلاَ: **ولا يرضى لعباده الكفر**، أي لعباده المؤمنين. والمسألة من دقائق علم الكلام سالت فيها أقلام، والله أعلم بالصواب.

---

[1] سورة الأنعام137

[2] سورة يونس آية99

ولا تزر وازرة وزر أخرى : لا تحمل نفس وزر نفس أخرى. تُطَمْئن هذه الآية المؤمنين أنه إذا كان المشركون في مكة عند نزول الآية كثيرة، فإن إثمهم وما يمكن أن ينزل عليهم من عذاب لا يمس المؤمنين. كما أنها تحقق قضية أساسية في التفكير الإسلامي أن المسؤولية فردية، فنوح ﷺ لم ينتفع ابنه الكافر من مقام والده العالي الرسول الكريم، وحكم عليه بأنه عمل غير صالح. وإبراهيم عليه السلام لم يضره أن كان آزر مشركا. وتبقى المسؤولية في مطالبة المؤمن بأن يدعو إلى الخير وينهى عن الشر.

ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات الصدور: هذه مرتبة أخرى فوق كون الله غنيا عنكم، أنه قرر أن تعودوا إليه ليوقفكم على ما دوّن من أعمالكم القلبية، ومن أعمالكم الظاهرة. عبر عن هذا التوقيف بقوله ينبئكم، أي يخبركم فتعود ذاكرتكم إلى استحضار ما عملت، وإما أن يكون توقيفهم بواسطة ملائكة موكلين بذلك فيعلنون لهم أعمالهم. ثم إن هذا الإنباء ليس إنباء ظاهريا للصورة التي وقعت في الخارج، ولكن يكشف لكم أعمالكم حسب القصد والنية التي صاحبت تلك الأعمال. وذلك لأن الله يعلم ما تخفيه الصدور المشتملة على القلوب، والمقصود بها القوة الباطنية التي تصحب الأعمال، والتي يسعى المنافقون إلى إخفائها.

۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَـٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَـٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَـٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

التخويل : الإعطاء بدون قصد عوض.

النسيان : ذهول الحافظة عما سبق لها علمه.

الأنداد : جمع ندّ الكفء.

التمتع :الانتفاع المؤقت.

قانت : عابد.

آناء : ساعات.

يوفى : يعطى الصابرون أجرهم تاما لانقص فيه

الصابرون : الذين قويت عزائمهم على تحمل المصائب فلا يضطربون ولا يضجرون.

بيان المعنى الإجمالي :

شأن الإنسان الذي لم يصلح الإيمان أخلاقــه وفكـره، أنــه إذا أطبـق عليــه الضـر ولـم يجد منه مخرجا، أنه يتوجه إلى الله داعيا ضارعا عائــدا إليـه ليكشـف ضـره. ثـم إنــه بعد أن يكشف الله عنه ضره، ويمكنه من فضــله ونعمتــه، ينســى موقفــه الســابق، وأنــه التزم بأنه سيَسْتَقيم إذا سلم من الوضع الذي هو فيـه؛ ويعـود إلــى مــا كــان عليــه قبـل الضر، فيعود لعبادة الأصنام ليكون ضالا، مضــلا لغيـره. قـل لــه [هـذا النمــوذج] يــا محمد مهددا: استمتع بما مكنك منه الله، فإنه انتفــاع مؤقــت شــأن كــل أعــراض الحيــاة الدنيا تزول عن قريب، وإنك خاسر فــإن مصــيرك إلــى النــار وعاقبتـك هــي عــذاب جهنم. وازنِوا بين هذا النموذج الهالك، وبــين الإنســان العابــد الــذي يطيـل قيــام الليـل ساجدا لربه وقائما، يحــذر ويخــاف أن لا يفـوز يــوم القيامــة بــدخول الجنــة، فيــؤثر الخوف في سلوكه ابتعادا عن مواقعة الإثــم، وإســراعا بالتوبــة، ولا ييــأس مــن رحمــة الله فهو راج بما يجتهد فيه مــن فعــل الخيــرات، أن يتقبلــه الله بعفــوه ويدخلــه جنتــه، فيكون عامل الرجاء دافعا له للمزيد من الخيــر. إن الفــوارق عظيمــة بــين النمــوذجين، كأنهما ليسا من جنس واحد. هبط نموذج حتى كاد يتــدمج فــي زمــرة الشــياطين، وســما الآخر حتى كاد يلتحق بالملائكــة. لا يــدرك هــذه المفــاهيم إلا مــن رزق عقــلا صــقله بجودة النظر وعمق التأمل فصفا.

مضمون هذه الآية معتنى به كثيرا، يخاطب الله رســوله بقولــه: "**قــل**"، ثــم يســند الكــلام إلى ذاته العلية، لينبه المبلّغين أنه كلام الله موجه إلــيهم. ينــاديهم مقربــا لهــم مــن ذاتــه، "**ياعبادي**". وفي ذلك من التشريف المقــام الســامي، ويكــون هــذا التشــريف والتقريــب محرضا لهم على مواصلة التقوى لله الحقيق بأن تتقوه، لأنــه ربكــم الــذي مناهــل فضــله وألطافه متواصلة عليكم . ومما يؤكــد التقــوى أن مــن أتــى بالحســنة ســيجزى عنهــا حسنة لا يقدر مقدارها يوم القيامة.

وتومئ هذه الآية إلى أن نفاسة التقــوى توجــب أن يكــون لهــا المقــام الأول، فــإذا لــم تستطيعوا أن تتقوا الله حق تقاته فــي مكــة، فــإن بــاب الهجــرة مفتــوح، وأرض الله لا تضيق بكم، فهيأتهم الآية لهجرة الحبشة . والهجــرة تعتمــد علــى العزيمــة القويــة التــي لا تتــردد ولا تضــجر، تقتضــي أن يكــون المهــاجر صــابرا علــى تــرك المــوطن

المغروس حبّه في الفؤاد، وأن يتخلى عن كثير من مصالحه المرتبطة بالبيئة التي خرج منها، وأن يذلل الصعوبات التي سيلاقيها. ولذلك اختص الصابرون بأن أجرهم يعظم بما يتجاوز الحساب سعة وعمقا.

بيان المعنى العام :

8ـوإذا مس الإنسان...من أصحاب النار.

تعرض الآية صورة تناقض النفس الإنسانية عارية، مُقَرِّبَةً مواقفه بين حالتي الضر والرخاء. هو الإنسان عندما يمتحن بالضر في جسمه أو في ولده أو في ماله، فتنطلق فطرته من كابوس الأنانية والدعاوى المضللة، وتواجه الحقيقة الواقعية، ولا تجد من ينتشلها مما وقعت فيه، وتدرك أنها ضعيفة لا حول لها ولا قوة في مواجهة المصاب؛ فتلجأ إلى ربها داعية كشف الضر، والعون ليفتح لها منفذ الفرج. وفي جانب آخر من الإطار تعرض الآية صورة الإنسان نفسه بعد أن كان متهالكا ضعيفا ضارعا، تعرضه وقد منحه الله من فضله ورحم تضرعه، وفتح له منافذ السعة والفرج، فعوفي مما أصابه، واستقرت حياته تصوره ذاهلا عن وضعه السابق، يتعلق بالقوى الزائفة التي لم تفده عند ضره. يجعلها سنده ناسيا أنه قبل قليل انكشفت له على أنها ليست فاعلة ولا تغنيه من بأس الله شيئا. تجده عند المشركين الذين يعودون إلى معبوداتهم يتقربون إليها ويجعلونها أندادا مساوية لله قصدهم وهمهم أن يضلوا الناس عن سبيل الله، وهذا يمثل القمة في التناقض وهو المقصود الأول للآية. كما تجد شيئا منه عند ضعفاء الإيمان، يعود المصاب بالضر بعد المحنة للتقرب لأصحاب الجاه، أو النهم المالي، أو الحزب السياسي. ولا يكتفي بذلك بل تجده يدعو الناس ليسيروا في نفس طريقه، ويصرفهم عن منهج الله.

يتوجه القرآن لرسول الله ليأمره أن يقول لكل فرد من هؤلاء المتناقضين مهددا، وخاصة المشركين، قل لكل فرد منهم: تنعمْ واستمتعْ بما فتح له كفرك بالله، غير معجّل لك العذاب، ولكن ذلك إلى أجل قريب، إذ أن مدة الحياة الدنيوية، أو مدة السلامة التي منحها لك ربك مدة قليلة: إنك خاسر الخسران الأكبر، فإن مصيرك يوم القيامة هو إلى جهنم، ذلك أنك ابتُليتَ وعافاك الله، لتستقيم وتصلح عقيدتك، وتعدل سلوكك، فعدت إلى ما كنت عليه وتنكرت لما عاهدت الله عليه من الإنابة له، وإخلاص العبادة.

9ـ أمن هو قانت...يتذكر أولوا الألباب.

نموذجان من البشر. النموذج الذي عرضته الآية السابقة الذي يدعو ربه ضارعا عند الضر، ثم يعود إلى ما كان عليه ليتمتع بكفره قليلا. والنموذج الثاني الذي

تعرضه هذه الآية: هو المطيع العابد، الذي يوقظه تعلقه بالله إلى مغادرة فراشه ساعات من الليل فيلبي أشواقه إلى الاتصال بربه، في تلك الأوقات التي تقوى فيها عزيمته فتتغلّب على داعية الراحة والنوم. وتخصيص التنويه بساعات الليل، لما في عبادة الليل من أسرار، تكون فيها الروح أكثر تفتحا وإخلاصا. وأتبعت الآية قيامه للعبادة بالتنصيص على حالين يبينان ما يتضمنه القنوت، من كونه جامعا بين السجود والقيام .وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد. وفي ذلك ما يكشف عن أحواله الظاهرية، وأردفت ببيان ما ينطوي عليه قلبه وروحه مما لا يظهر أثره في الخارج، فبينت في هذا النموذج أنه مشدود بين قطبي الخوف والرجاء. هو مقبل على عبادة ربه وهو حذِرٌ من أن يرفض عمله ولا يسمو إلى درجة القبول، وأن تكون سيئاته تطغى على جوانب الخير وصالح عمله، وأن لا يكون له حظ في الآخرة. وهو في الآن نفسه يأمل راجيا أن يتقبل الله صالح عمله، وأن يعفو عن سيئاته، وأن يجعله من الذين كتب لهم السعادة في الآخرة ودخول الجنة مع الأبرار. فبالخوف ينزجر عن المعاصي، والرجاء يحثه على الإكثار من فعل الخيرات، وعلى التمادي في طريق الصلاح بتوقي المحارم ودوام الذكر وفعل الخير، فتأنس نفسه مسالك الصالحين.

قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب : قل لهم يا محمد قولا يوقظهم للتأمل في النموذجين السابقين. وبالغ في إيقاظهم بسؤالهم سؤال إنكار أن يكون النموذج الثاني نموذج القانت الخائف الراجي، مساويا للنموذج الآخر في الآية السابقة؟

و في هذا السؤال توجيه لإدراك أثر العلم في صلاح النفس البشرية، وإلى أثر الجهل في انحرافها وفسادها. فبمقدار ما يتعمق علم الإنسان، وينفذ إلى حقائق الكون، ويتضح في عقله وروحه الكمال الإلهي، وفضل الله ورحمته بالعالمين، وبتأملاته في التشريع الإسلامي، وتتبعه للنظام الاجتماعي الإسلامي الراعي لبناء الأمة، وبالتزامه بالقيم الخلقية عن تحليل واقتناع، يقبل الإنسان على الخير ويشمئز من الشر، وينفع مجتمعه وأسرته ونفسه ويجد التوازن الداخلي الذي تقترن به السعادة.

أما العديل للذين يعلمون فهم الذين لا يعلمون، الذين أظلم الجهل عقولهم وأرواحهم، فتمردت غرائزهم وشهواتهم وأصبحوا منقادين لغواية الشيطان ووسوسة إبليس، تجدهم أقرب إلى الشر والأنانية والخبث.

ولكن حب المتعة العاجلة، و الاغترار بالبهرج ودواعي الشهوة هو الذي يطمس على العقول ويحجب النور عنها فلا تدرك ما في العلم من نفع. فعقولهم معطلة، ولا يدرك قيمة العلم حقا إلا من أوتي صفاء في القريحة وذكاء وفطنة.

10ـ قل يا عبادي الذين...بغير حساب.

هذه ثلاث آيات تمت صياغتها على نحو يكاد يكون متحدا، ينبئ عن الاهتمام الكبير بمضامينها وهي:

الآية الثالثة والخمسون في سورة الإسراء: **قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن.** وهذه الآية : **قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم.** والآية 53 من هذه السورة : **قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله.**

أولا: كل واحدة منها افتتحت بكلمة "**قل**" مخاطبا بها النبي ﷺ، وهي تدل على أن ما سيرد بعدها محل اهتمام كبير يلفت الأنظار إليه بهذا الاستفتاح.

ثانيا: أن الموجه له المضمون " **عبادي**" الدالة على تقريبهم وتشريفهم بنسبتهم إلى ذاته العلية. وهو ما يحتم عليهم أن يكونوا حريصين على الوفاء بما يدعوهم إليه.

ثالثا: أن الرسول ﷺ يبلغهم ما أوحي به إليه مع التذكير بأنه توجيه إلهي لا ينسبه إلى نفسه ويخاطب به على أن الله أوحى به إليه ليبلغه على صفة الخطاب التي تلقاها. فلا يصح أن يقول يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم، أو يا عبادي الذين آمنوا إلا رب العباد سبحانه.

رابعا: أن الآية الأولى في سورة الإسراء هي الثالثة والخمسون، وأن الآية الأخيرة في سورة الزمر هي الثالثة والخمسون، وأن آية سورة الزمر التي ندرسها توسطت، فكانت بموقعها هذا تعمق ما جاء في الآيتين.

خامسا :العناية بالإحسان في المواقع الثلاثة. (**قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن**)[1] في (**للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة**) في الزمر 10 (**واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم**) وهي معطوفة على الآية 53 في الزمر داخلة في مضمون **قل**" .

فلنتأمل في شرحها:

قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا ربكم : خصت النداء بعباده المشرفين بإضافتهم إلى ذاته العلية الذين تحقق منهم الإيمان حتى صار هو المعرف بهم. إن المنزلة التي سجلها القرآن لهم بالإضافة وبصلة الإيمان، توجب نفاستها أن يحرصوا تمام الحرص على تغذيتها بما يجعلها مشعة في عقولهم وأرواحهم، منسحبة على

[1] سورة الإسراء، الآية 53

سلوكهم. فأمروا بمواصلة ما هم عليه من تقوى الله .التقوى التي تجعل خيط الارتباط مصاحبا لهم ينير توجههم، بصفة مستمرة لا تنقطع، إذ التقوى هي لربهم بصفة الربوبية المشعرة باستحضارهم لتواصل ألطافه وإمداده وعونه.

للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة: ترغيب لعباده المؤمنين في التقوى، حاصلها أن الذين استجابوا للأمر "**اتقوا ربكم**" فالتزموا في حياتهم الدنيا فعل الطاعات، والابتعاد من مقارفة الآثام والسيئات، وتنزهوا عن الشبهات .سيجزون حسنة تتجاوز الوصف والتقدير. بما يفيده تنوين حسنة، أنها غير معينة ولا محددة ليسرح الفكر في تصور أبعادها مقدارا ووصفا. ثم إنه في إخراجها مخرج القواعد العامة الصالحة لانطباقها على مختلف الصور، ما يؤكد الترغيب بتحقق الجزاء بصفة خاصة وبصفة عامة.

وأرض الله واسعة: هيأت الآية حسب المفاصل – **يا عبادي- الذين آمنوا- اتقوا ربكم – للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة** – هيأ كل ذلك العزائم لقبول الهجرة .ففي قوله تعالى: **وأرض الله واسعة**، معالجة لوضع متأزم كان عليه المسلمون، ولضيق ضاغط عليهم في حياتهم الاجتماعية وهم في مكة. وتبعا للضر الذي لحقهم من المشركين ليصرفوهم عن إيمانهم. تقول لهم الآية إن أرض الله لا تضيق بكم، وأنه إن حاول المشركون إذايتكم وحرمانكم من حقوقكم الاجتماعية، فلا تعجزوا . وأرضي واسعة تقبلكم وعوني معكم يسعدكم بالتأييد. وفي ذلك إعداد لهم لهجرة الحبشة التي التجأ إلى ملكها المهاجرون الأولون فخرج ثلاثة وثمانون رجلا وتسع عشرة امرأة، ومعهم أولادهم الصغار. وبقي الرسول وبعض من صحابته في مكة يتابعون نشر دين الله، إلى أن أذن الله لرسوله في الهجرة إلى المدينة بعد أن تهيأ المناخ المناسب لينغرس الإسلام في المدينة، ويتميز المجتمع الإسلامي بخصائصه.

إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب : إن الصابرين على الأذى الذين قويت عزائمهم فلا يضطربون، ولا يضجرون، ويكونون أقوى من المصائب التي نزلت بهم، اعتمادا على ما عمرت به قلوبهم من الإيمان ومن الرجاء في فضل الله، وبقوتهم النفسية هذه تتفتح لهم في المضائق مخارج تحولهم من العسر إلى اليسر ومن الشدة إلى الفرج .هذا في الدنيا وأما في الاخرة فإنهم سيعطون أجرهم كاملا غير منقوص بغير حساب. كناية عن عظمة ما يكرمهم به ربهم به من الجزاء والثواب، إنه جزاء لا يحاط به، ولا يعلم مقداره إلا معطيه، فهو يتجاوز العد والحساب .جزاؤهم محصور في هذه الكثرة اللامتناهية .

قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ (11) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ (12)
قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (13) قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِي (14)
فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ
ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ (15) لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ
ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ (16)

بيان معاني الألفاظ :

ظلل: جمع ظلة وهي ما يحجب الإنسان من أشعة الشمس .

خوف به : يجعلهم خائفين.

بيان المعنى الإجمالي:

نَبِّئْهُمْ وقل لهم: إن ربي أمرني أن أعبده عبادة خالصة لوجهه لا يخالطها رياء ولا شرك. وأمِرت أن أعبده عبادة أكون بها أكمل المسلمين إسلاما وأعلاهم في العبودية مقاما. المسلمون جميعا من أمتي ومن الأمم السابقين، ومن رسل الله الأكرمين. وقل لهم إني مستحضر دوما لجلال خالقي . فأنا أخشى عذاب يوم عظيم لا يقاس به أي يوم آخر. وفي ذلك ما يدعو المؤمنين للاقتداء به في تلكم الكمالات. قل لهم منبئا عن هذه الشهادة السامية مني: إني فعلا (**أعبد الله مخلصا له ديني**). لقد اهتديت ولا يضرني إذا أنتم واصلتم ضلالكم واتبعتم ما تمليه عليكم شهواتكم. وستعلمون مصيركم . إن مصيركم هو مصير الخاسرين، الذين بلغ خسرانهم أعلى مستوى، إذ هم قد خسروا أنفسهم فأهلكوها وأعدوا لها جهنم مصيرا. وكذلك خسروا أزواجهم وذرياتهم إذ أعدوهم لنار جهنم بطاعتهم لهم فيما كانوا يضلونهم. وإن هم لم يطيعوهم وآمنوا فقد خسروهم إذ تنقطع الصلات بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة ولا يوجد خسران أعظم من خسرانهم على جميع الوجوه.

ثم جسمت الآية لهب جهنم وهي تطبق على أهلها بأنها كالمظلة التي يتَقَلَّبُ فيها الإنسان لتقيه من حر الشمس، وأي مظلة هي ؟هي اللهب الحارق المؤلم ذلكم اللهب الذي يحيط بهم من جميع الجوانب. ثم يناديهم نداء الرأفة والرحمة ليقلعوا عن كفرهم ويتمسكوا بالتقوى.

بيان المعنى العام :

11ـ قل إني أمرت ... له الدين.

أمرت الآيــة الســابقة عبــاد الله المــؤمنين بــالتقوى ووعــدتهم الجــزاء الفــائق لكــل حساب. وفي ذلك تحريض لهم على التشبث بها والحــرص علــى مراعاتهــا فــي متنــوع

أنشطتهم الدنيوية والأخروية. وأكملت هذه الآية التأكيد عليها بإظهار الصورة الرفيعة لها، هي صورة التقوى التي أمر بها النبي ﷺ، وهو الأسوة الحسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر. فأمرَ ﷺ أن يقول للمؤمنين: إن الله أمرني أن أعبده عبادة خالصة لوجهه الكريم لا يخالطها ما هو غريب عنها، فأجعل عبادتي وتوجهي مفردا ذاته العلية. وهو ما يومئ إلى أن التقوى التي أمروا بها ينبغي أن تسمو لتبلغ المستوى الذي أمر به في الإخلاص لربه .

12ـو أمرت لأن أكون أول المسلمين.

وأمرت أيضا أن أجتهد في التقوى والإخلاص لأكون في مقدمة المسلمين وأقوى المسلمين إسلاما، كأنه يقول وأمرت بذلك لأكون الحائز على أرفع مستوى بين المسلمين جميعا. ولما كان الإسلام دين الأنبياء والرسل جميعا، فإن هذه الآية تكون أيضا كناية عن المنزلة التي خص بها النبي ﷺ، فهو أفضل رسل الله جميعا، تبعا لفيوض الهداية التي أكرمه بها ربه، وخصه بها.

13ـقل إني أخاف... يوم عظيم.

هذه الآية تنبئ عن قوله ﷺ : وإني لأخشاكم لله، إنه ﷺ أعرف الناس بحق ربه، يستحضر جلاله في كل حين. وهذا الاستحضار يحصنه من الوقوع في الإثم .إنه يخشى ربه ولا يعصيه .إن المعصية تعرض صاحبها لعذاب يوم عظيم .هو اليوم الذي لا تملك فيه أي نفس شيئا والأمر يومئذ لله

14ـ قل الله أعبد مخلصا له ديني.

أعيد المفهوم الوارد في الآية 11 مع اختلاف بسيط بينهما، فالآية 11 أفادت أن الله أمره أن يكون مخلصا لله في دينه، وهذه الآية تسجيل من الله أن محمدا ﷺ طبق الأمر على الوجه المرضي لربه. وأمر أن يعلنه في الناس، تأكيدا لكون ﷺ الأسوة التي يتحتم الاقتداء بها.

15ـ فاعبدوا ما شئتم من دونه....

يحتمل المقصود منها التهديد كقوله تعالى: **اعملوا ما شئتم**[1] كما يحتمل أن يكون المقصود منها التسوية، الدالة على أن المتكلم لا يكترث بموقف المخاطب، إيماء إلى أنه لا قيمة له. إنه لا يضرني عبادتكم لما تختارونه من الضلال حسب هواكم ومشيئتكم .

---

[1] سورة فصلت آية 40

15ـقل إن الخاسرين....الخسران المبين

بعد أن سجل عليهم أن النبي ﷺ أمر بأن يعلن لهم : أنه لا يكترث بهم إن هم اتبعوا هواهم فعبدوا ما شاؤوا. أتبَعَ ذلك بأمره ﷺ، أن يحذرهم من اتباعهم لهواهم في عبادة غير الله .إنهم بذلك يكونون في قمة الخسران، أخسر الخاسرين الذين خسروا أنفسهم، فعرضوها للعذاب المحتوم، وللخزي والمهانة، وخسروا أزواجهم وذرياتهم، لأنهم إن كانوا عبدوا غير الله فقد كان تأثيرهم فيهم سببا في هلاكهم أعظم الهلاك، وإن كانوا مؤمنين لم يسقطوا فيما سقط فيه آباؤهم خسروهم، باعتبار أن الصلات تتقطع يوم القيامة بين المؤمنين والكافرين، وبين المنعَّمين والمعذَّبين. فلا شك إن خسارتهم لأنفسهم بسوء مصيرهم خسارتهم لأهلهم معا هي أعظم خسارة وأبينها على جميع الاحتمالات.

16ـ لهم من فوقهم ظلل....فاتقون.

تفصل الآية العذاب الذي يلقونه في جهنم . اختصوا بطبقات من النار تعلوهم كما تعلو المظلة من يكون تحتها من حر الشمس، وفي إطلاق الظلل على ما يعلوهم من نار جهنم ضرب من التهكم. وإذا كانت الظُّلل في الأصل إنما تطلق على ما يعلو الرؤوس، فما وجه إطلاقه على ما تحتهم ؟ قد يكون ذلك على وجه المشاكلة، وقد يكون بالنظر إلى من تحتهم في طبقات جهنم.

ذلك يخوف الله به عباده... ذلك العذاب الذي توعد الله به، وذلك التشخيص لهوله، يلقي في قلوب الناس جميعا الخوف منه ليحذروه. والقرآن يحرك الناس إلى الخير بعاملي التهديد والرحمة. فوصف عذاب حر جهنم وإطباقه على أهلها يَرْدَعُهُمْ عن الكفر بالتخويف. وتقريبه بندائهم: يا عبادي ينشر في قلوبهم الأمل ليستجيبوا لندائه اللطيف، أن يجعلوا حماية لأنفسهم من غضبه بالتقوى وأن لا يفعلوا ما يوجب سخطه.

وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾
ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ
أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ
ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ ۖ لَا
يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الطاغوت: مختلف أنواع الأصنام.

أناب: رجع وتاب.

البشرى: الإخبار بنفع.

حَق: تحقق وثبت في الواقع...

غرف: جمع غرفة البيت المقام على بيت آخر، طوابق من البناء.

بيان المعنى الإجمالي:

انتقل القرآن للتنويه بالفائزين، فعرفهم بأنهم الذين نقّوا قلوبهم وعقولهم وأرواحهم من عبادة الأصنام، وتابوا من كل شرك ومن كل معصية فرجعوا إلى الدائرة الوضيئة دائرة القرب من الله. استحقوا بذلك الاختصاص بالبشارة، ولأنهم مرنسوا عقولهم على النقد فلا يميلون مع كل داع وقائل. ولكنهم يزنون ما يسمعون فتتساق نفوسهم إلى الأكمل والأفضل. أولئك الذين جمعوا تلكم الخصال قد هداهم الله، واختصوا بالعقول النافذة إلى الحقيقة.

أأنت يا محمد مالكُ أمر المشركين؟ فمن وجبت له النار أفأنت تنقذه مما وقع فيه؟ إنك لا تستطيع أن تنقذ من النار من وقع فيها فأطبقت عليه. وفي المقابل فإن الذين انغرست التقوى في قلوبهم، ومارسوا حياتهم على ما تقتضيه، أعد الله لهم بناءات ذات طوابق، تتخللها الأنهار الجارية، وعدهم الله بذلك وعدا لا يتصور عدم تحققه.

بيان المعنى العام:

17←18: والذين اجتنبوا الطاغوت...هم أولوا الألباب.

عرفت الآية السابقة بالخاسرين ليكون الناس على بينة من سوء مآلهم. وانتقل القرآن للتنويه بالفائزين، فعرف بهم وبين خصائصهم التي بها فازوا ونجحوا وهم:

1) **الذين اجتنبوا الطاغوت**: كلمة الطاغوت على الأصنام المعبودة من دون الله، وتطلق على الشيطان، وعلى الأشرار المستكبرين الضالين المضلين. والمعنى الأول أقرب وأولى بحمل الآية عليه لأن الآية تنوه بنقاء عقيدتهم، فهم قد اجتنبوا عبادة الأصنام وابتعدوا عنها.

2) **أنهم أنابوا إلى الله**، طهروا نفوسهم من الإثم والخطيئة، وتعلقوا بما يرضي الله، فهم قد سلكوا مسلكا يفضي بهم إلى القرب من الله. فتابوا من الفساد الأكبر "الشرك" ومن كل المعاصي التي نهى عنها الرب سبحانه.

إنهم بجمعهم بين نقاء العقيدة وحسن السلوك، استحقوا أن يختصوا بالبشرى، وأن يعجل لهم الخبر بالخير الذي سينالهم.

ولذا أمر النبي ﷺ أن يعجل لهم البشارة، وأولها أن الله نسبهم لذاته العلية تقريبا لهم وتنويها بهم "عبادي "

3) تمر الأقوال على أسماعهم فلا يتأثرون إلا بأحسنها وأفضلها مضمونا وعائدة. حملها بعضهم على القرآن وهو صحيح، لكن فيه تضييق، فالأولى أن يحمل الكلام على الذين لهم عقول نقادة تعرف الخير وتميل إليه.

4)انطبعت نفوسهم بالخير فهم لا يقفون عند الاستحسان والتذوق، ولكن يتبعون ما تفاعلوا معه بالانقياد والتطبيق.

تميزوا بالخصال الأربعة، فاستحقوا أن يصرح القرآن بمكانتهم، وأن يشير إليهم فاستحضرهم بملامحهم مصرحا، بأنهم الذين اختصوا بالإقبال الشديد على هداية الله، وفاضت تلكم النعم على عقولهم فصفت وبلغوا أرفع مستوى بين أصحاب العقول.

19.أفمن حق...تنقذ من في النار.

هذه الآية متصلة بالآية السابقة التي بشرت ونوّهت، وهي تفيد أيضا تأكيد ما استحقوه بتسجيل ما هو معدٌّ للفريق المقابل. فالهمزة المفتتح بها هي للإنكار بالنظر إلى تمام الآية **أفأنت تنقذ من في النار**" ويكون معنى الآية :أأنت مالك أمرهم فمن حق عليه كلمة العذاب فأنت تنقذه وتخلصه ؟ وجرد لفظ حق من التاء لأن الفاعل "كلمة "أضيف إلى العذاب، مع إمكان الاستغناء عنه، ومراعاة للفصل بين الفعل "حق" والفاعل " كلمة " بالجار والمجرور " عليه " وكلمة العذاب وعيد الله بعذابهم .

والخطاب في قوله: (**أفأنت تنقذ من في النار**) ، موجه إلى رسول الله ﷺ. ذلك أنه كان شديد الحرص على هدايتهم، يأسف من تصلبهم في الكفر، فيقول له القرآن مالك تلح إلى هذه الدرجة، أتظن أنك تستطيع أن تنقذ من أحاطت به النار ؟ إذ من المعلوم أن من وقع في النار وشوته من جميع جوانبه لا مجال لإنقاذه.

20. لكن الذين اتقوا...لا يخلف الميعاد.

افتتحت الآية بكلمة" **لكن** " لتنبه التالي إلى أن مضمون الآية التي سيتلوها، أنها على نقيض ما دلت عليه الآية المتقدمة التي حققت أن أصحاب النار لا مُنْقِذ لهم مما هم فيه. فأفادت هذه الآية أن الذين رسخت في قلوبهم ملكة التقوى اختصوا في مقابل الفريق الآخر" **من حق عليه كلمة العذاب** " بأن الله أعد لهم طوابق من البناءات، مع سعتها وإشرافها تتخللها الأنهار الجارية .وعدهم الله وعده، الذي لا يتصور عدم تنفيذه .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

فسلكه : أدخله ونظمه.

ينابيع : جمع ينبوع عيونا ومسالك.

يهيج : يغلظ ويرتفع.

حطاما: فتاتا.

شرح صدره للإسلام: فتح عقله وروحه لقبول هدي الإسلام.

نور من ربه : الهدى النازل من ربه.

قساوة القلب: عدم تأثره بالمواعظ .

اقشعر الجلد : تقبض من شدة الخوف.

لان : انبسط سرورا.

بيان المعنى الإجمالي :

تنبه الآية إلى حكمة الله في تصرفه في الكون، تنبه كل من يصح منه الرؤية أن يتأمل في الأطوار التي تتابع بتقدير سابق – أن الله وحده هو الذي جمع الظروف التي بها نزل الماء من السماء، ثم إنه قدر لهذا الماء النازل المسالك التي يتبعها في الأرض وفي الحبة المحتضنة في التراب. وجعل منه ينابيع عيونا وأنهارا بها ينتظم الري. ثم يخرج به زروعا مختلفة الألوان مشكلة الأنواع، ثم تبلغ النباتات أشدها فتتهيأ بعد أن ينضج ما تحمله من حبات تخلفها، تتهيأ باصفرارها وذهاب خضرتها إلى الموت والتفتت. في هذه المراحل المترابطة والمتتابعة ما يصلح ليكون ذكرى وتنبيها لمن أوتي عقلا يتجاوز الظواهر إلى ما وراءها؛ فيعلم أن الكون كله مبني على نظام وحسن تقدير، وأن هذه النباتات التي برزت من باطن الأرض نظير خروج الإنسان من بطن أمه، تطورت إلى أن تحطمت وفنيت، ثم

استعدت حباتها لأخذ الحياة من جديد، فكذلك الإنسان يبلغ غاية قوته ثم يضعف إلى أن يموت، ثم يبعث إلى الحياة من جديد عندما يوفر المولى سبحانه الظروف التي تنشأ إثرها النشأة الآخرة.

ثم لفتت الآية الأنظار إلى نموذجين من البشر : النموذج الأول هو الذي أقبل على الإسلام إقبال القبول والأنس بما قرره من عقيدة وأخلاق وسلوك، فوجد الراحة النفسية والبدنية كلما توالى عليه سماع الوحي. ما يزال موقفه هذا يثبّت في نفسه حب الخير والحق حتى انطبع به فكان قابلا متمكنا من نور ربه يسعده ويهديه. والنموذج الثاني نموذج الذي عزم على رفض كل ما يبلغه من الحق والهدى من القرآن والوحي، تراكم على قلبه الكفر والعناد، حتى أصبح قاسيا لا ينفذ إليه من أنوار الوحي هداية ولا إرشاد. استحق الويل والعذاب. إن هؤلاء القساة القلوب منغمسون في الضلال الشديد، الواضح، لعمى قلوبهم.

الله العظيم تولى إنزال أحسن الحديث، وأفضل الكلام، على رسوله محمد ﷺ لينشره في العالمين. هو كتاب محفوظ بالكتابة كما هو محفوظ في الصدور. تعددت أغراضه من العقيدة إلى الغيب إلى التشريع إلى النظام الاجتماعي إلى علاقة الإنسان بالكون بكل ما يحويه إلى القصص المؤيدة لمضامينه . وهو في كل ذلك بالغ أعلى مستوى من الهداية والبيان تتشابه آياته في ذلك. وتتكرر لتثبت مضامينها ثم هي مع ذلك لها وقع الجدة مع تكررها. إنه القرآن معجزة الإسلام يحرك مشاعر الذين يخشون ربهم، فيهزها هزا يجعلها حذرة خائفة كأشد ما يكون الخوف، ثم يبشرها ويفتح لها أبواب الأمل فإذا هي منبسطة يغمرها الرضا والأمن. إن ذلك الكتاب هو هدى الله يهدي به من يشاء من الذين أقبلوا عليه تلاوة وتفهما وعملا . ومن حرم الهداية القرآنية فأعرض عنه فلن يجد سبيل النجاح والأمن والسلامة في أي شيء آخر.

بيان المعنى العام :

21. ألم تر أن الله أنزل من السماء...لذكرى لأولي الألباب .

افتتحت الآية باستفهام تقريري، لإثارة الذهن بالاستفهام، وتأكيد حصول مدخوله، والخطاب صالح ليتناول كل من يصح منه الرؤية. وهذه الصورة العجيبة المتطورة في تواصل تُعِدُّ كل مرحلة إلى المرحلة التالية. وقد يغفل الإنسان عن الربط، الارتباط الذي كشف العلم عن قوانينه فلنتتبعها مرحلة مرحلة.

1) أن الله هو وحده الذي تصرف وجمع الأسباب التي بتوفرها أنزل الماء من السماء.

2) أنه قدر الطريقة التي يسلكها الماء ليتم به الدور المقدر، من تخلله للأرض، فيكون مسالك كالعروق في الأجساد. ومن تحريك الزريعة لامتصاصه لتبدأ مرحلة الحياة.

3) أنه قدر في الجين الخاص لكل حبة مـن الحبـات الأطـوار التـي سـتتبعها، كيـف تتفلق الحبـة لترمـي بجـذورها فـي الأرض تمـتص المـاء ومقومـات حياتهـا مـن عناصر التربة، وترفع رأسها لتتقبل أشعة الشمس التي تتفاعل معها تفاعلا عجيبا.

4) أن حبات الزريعة المبثوثة في الأرض، تأخـذ فـوق سـطح الأرض أشـكالا متنوعـة وألوانا مختلفـة . تكسـو الأرض ببسـاط بـديع متناسـق . بـين الأخضـر والأحمـر والأصفر والأقحواني والأبيض....

5) تتلو مرحلة الإزهار بلـوغ الـزروع غايـة نموهـا ويأخـذ المـاء الـذي امتصـته ونمت به في الجفـاف. وعنـدها يـتم التكـون للحبـوب، التـي سـتقوم بـدورها فـي استمرار النوع .و في هذه المرحلة المشـابهة لمرحلـة الشـيخوخة فـي الإنسـان تـذهب الألوان ليعقبها صفرة معدة للموت.

6) تذهب كل بقية من الماء فيسرع التحطم للنباتات وتتفتت .

إن في ذلك تنبيها وتذكيرا لأصحاب العقول اليقظـة التـي يسـتوقفها المعـروض فتتأمـل فيه وتعتبر به. ومن جملة مـا فـي تلـك الظـواهر، مـا يثبـت أن وراء هـذا التنظـيم المحكم قدرة إلهية أحكمت كل مرحلة وهيأتها للمرحلـة التـي تليهـا. فهـي ظـاهرة تـدل أن الكون لا عبث فيه، وإنما هو من تقدير العزيـز الحكـيم. وقـد وصـل أولـو الألبـاب اليوم إلى أن كل حبة مـن الحبـات تحمـل فـي ذاتهـا برنـامج تطورهـا علـى جميـع الاحتمالات، وليس للمصادفة من مكان. فالأطوار التي تمـر بهـا الحبـة، سـواء تشـربت الرطوبة أو بقيت جافة، وما تحويه الأرض من عناصر، ومقـدار مـا تأخـذه مـن أشـعة الشمس، ومدة كل طور من أطوار النمو، ومـا سـيعقبه، كـل ذلـك مكتـوب فـي جـين الحبة.

وهذه الظواهر تقوم دليلا على البعث، فـإذا كانـت الحبـة بعـد يبسـها وتحطـم أصـلها تعود إلى الحياة عند توفر ظروف الإحياء، فكـذلك البشـر سـيبعثون مـن قبـورهم عنـد توفر ظروف البعث التي هي تحت تصرف الخلاق العليم.

22ـأفمن شرح الله صدره...في ضلال مبين.

سؤال يثير في السامع البحث في المقارنة بـين هـذين النمـوذجين مـن البشـر. نمـوذج الذي سمع الوحي النازل على رسول الله فهش لـه، وزاده التأمـل فـي مضـامينه قبـولا له، مثله القرآن بمن انفتح صدره بأن وجـد راحـة لمـا يـدعو إليـه الإسـلام، يوضـح ذلك أن السامع إذا عرضت عليه أخبار سارة يجد في نفسـه قبـولا لهـا، تكـون نبضـات قلبه منتظمة لا يشعر بانقبـاض جسـماني . يـتلاءم مـع الخبـر ويستسـيغه. وبـالعكس فإنه إذا أخبر بما يحزنه ويؤلمه مما يرفضه يجـد كـأن قلبـه يضـغط عليـه، ويظهـر

ذلك في نبضات قلبه. فمن وجد بين فكره وبين ما يدعو إليه الإسلام انسجاما وتوافقا، فإنه ينفتح للمزيد من التعرف على الإسلام وعلى ما يدعو إليه ويرشد. فهو قد تمكن من النور الإلهي الذي يضيء له مسارب الحياة، ويسعده بالحلول الرضية للإشكالات التي تقلقه لولا نور الإسلام.

أما النموذج الثاني فتفتتح الآية عرضه بكلمة: ويل الدالة على العذاب والخسران. فيرتسم من البداية التحول إلى نموذج مناقض للنموذج الأول، ثم شرحته بأنه الذي قسا قلبه، كان غليظا لا تنفذ إليه الأنوار، ولا يتأثر بالمواعظ، ولا يلين لسماع الحق فضلا عن اتباعه، وذلك بسبب ما تراكم عليه من العناد ومن الرفض، تجده إذا ذكر الله وفضله وهداه يصد عن ذلك صدودا، وما يزال على تلك الحال إلى أن يُطبع على قلبه فيفقد التأثر بالحق، ويمر كلام الله على سمعه فلا ينفذ إلى وعيه . ويل له وعذاب وخسران، فقد أهلك نفسه وخسر الراحة والطمأنينة في الحياة الدنيا. وأعد لنفسه سوء المصير يوم القيامة في جهنم.أولئك القاسية قلوبهم منغمسون في الضلال الواضح الشديد الذي لا يخفى فساده.

23ـالله نزل أحسن الحديث....ومن يضلل الله فما له من هاد.

تفتتح الآية باسم الله العظيم "الله" فتستحضر جلاله تنبيها على أن ما يرد فيها له وصف الرفعة والعظمة والمنزلة الفريدة. **(نزل أحسن الحديث)** فتلتقي الآية بفاتحة السورة: تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم. وهو تأكيد يبطل دعوى المشركين أن القرآن من كلام محمد، ويحقق للعالمين على تعاقب الأعصار أن هذا الكتاب هو كلام الله نزله على رسوله، لهدايتهم إلى الحق.

أحسن الحديث : يعانق هذا المقطع الآية 18 المنوهة بعباده الخلص المهديين "**الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه**" واختير لفظ الحديث للدلالة على القرآن إيماء إلى أنه كلام جديد نزل من رب العزة لا كما يزعم المشركون "**أساطير الأولين اكتتبها**" وكونه أحسن الحديث يوضحه: أن الكلام يتفاوت بصياغته أو بمضامينه. أما صياغته فإنك إن تأملت القرآن تجده قد بلغ حد الإعجاز في نظمه، وتحدى البشر كلهم فأعجزهم، وما هو إلا أن يقتبس البليغ أو الشاعر آية أو مقطعا حتى تجد إشعاعها وحسنها يعلو على بقية كلامه .وأما بالنسبة لمضامينه فإنك تجد فيه التصور الصحيح للمعبود، وللكون ولمنزلة الإنسان فيه، وللمبدأ والمعاد، ولأفضل طريقة في اتصال العابد بالمعبود، ولصلة الناس فيما بينهم في المعاملات، والأخلاق، ولعلاقته بكل مخلوق في هذا العالم. ثم الربط بين الحكم العالية وسنن

الله في الخليقة بما قصه من أخبار السابقين. وما بثه في تضاعيف حديثه من حكم تمثل القوانين العامة التي لا تتخلف.

كتابا : في تمييزه بكونه كتابا إشارة إلى أن القرآن قصد أن يكون مكتوبا، بما يضمن سلامة نصه، فتم حفظ القرآن بثلاثة عوامل لم تتوفر لغيره من الكتب السماوية:

- عامل كتابته فكان النبي ﷺ بمجرد ما ينزل عليه يدعو أحد كتبة الوحي لتوثيق ما تلقاه من ربه.
- والعامل الثاني تعلق المؤمنين بحفظه وهو أمر إلهامي ربط فيه رب العزة بين المؤمنين وكتابهم فحرصوا أن يحفظوه في صدورهم، فكانت نسخ القرآن يتم التثبت من سلامتها بالمحفوظ العام.
- والعامل الثالث إنزاله بلغة جعل في مقوماتها الذاتية أنها تستطيع أن تساير تطور الإنسان مع ثبات بنيتها، وكل الكتب السابقة نزلت بلغات لحقها الموت والفناء، فلا يوجد من يفهم اللغات التي نزل بها الوحي. وما بين أيدي أتباعها لا يعدو أن يكون ترجمة تمثل فهم المترجم لا مراد منزلها.

متشابها: وكون القرآن متشابها فيه إشارة إلى تساوي آياته في الجمال، والهداية. فإنك إذا تتبعت كلام الأدباء والبلغاء تجدهم تارة يرتفعون إلى منازل عالية في الفن القولي، وتارة يسفون وينزلون إلى مستويات ضعيفة .أما القرآن فسواء أكان تأملك في بسطه للعقيدة أو للتشريع أو للقصص تجده على مستوى واحد من الدقة والجمال والإعجاز.

مثاني– جمع مثنى أي اثنين اثنين، وهو تسجيل لظاهرة التكرار في القرآن. إذ أنزله الله على فترة امتدت ثلاثا وعشرين سنة، أخذ قلوبًا كانت بعيدة عن الهدى، وفي وسط اجتماعي لا صلة صحيحة بينه وبين الله، تواضع فيه المجتمع على قيم وأخلاق نبعت من الهوى والقوة، فكان الوحي يصلحها شيئا فشيئا، يكرر عليها ما يقلع ما ترسخ في العقول من مألوفات .ثم إن التالي لكتاب الله، قد يضعف في نفسه أثر التوجيه الخاص بانتقال القرآن في عرض أغراضه. فيعيد القرآن على قلبه التذكير ليثبُت ويتمكّن. وإنك لتجد من سر القرآن عجبا حسبما يشير إليه وصف "**مثاني**" فإن المؤمن يقرأ مثلا سورة الفاتحة ويكررها سبع عشرة مرة في اليوم، ومع هذا تجده يأنس بها كلما كررها ويتابعها كأنه يقرأها أُنُفًا.

تقشعر منه جلود... : يعبر هذا عن قوة التأثير القرآني في العقول، الذي يكون من آثاره ظواهر على الجسم. يبلغ العرض القرآني تارة مستوى يجعل التالي كأنه

يعيش فعلا المشهد الذي يصوره القرآن، فينقبض جلده، أو تدمع عينه. وقد يلين العرض ويشيع الرحمة الإلهية ويبعث الآمال متحركة حتى تكاد تلامس الوعد وتقبض عليه، فيشيع السرور والرضا في مشاعره، فيأنس به ويهدأ.

فالقشعريرة تتصل بالخوف من المؤاخذة بما فرط، واللين يرتبط بالتصور لفسيح الرحمة كقوله **(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، يا عبادي الذين أسرفوا على انفسهم لا تقنطوا من رحمة الله)** . كما سيأتينا عند بيان معانيها في هذه السورة.

ذلك هدى الله....: تم فيما سبق من الآية تفصيل خصائص القرآن، وإذ تجمعت أشير إليها في مستواها العالي بقوله " **ذلك هدى الله** " هي الوسيلة التي تكشف للإنسان الطريق الذي يوصله إلى الخير، ويحقق له سعادته في الدنيا والآخرة، على معنى أن من انحرف عن ذلك الطريق يضل ويتيه في متاهات كلما أوغل فيها صرفته عن غايته وهلك. فمن تفتح لهداه وطوع غرائزه وشهواته لذلك الهدي أسعده ربه بالألطاف التي تؤلف بينه وبين هدى الله، فيدخلُ تحت من شاء الله هدايتهم. ومن رفض ذلكم الهدى وعاند، وأقام بين القرآن وعقله حجابا، فمنع الهدى أن يصل إلى عقله وروحه، فإنه لا يجد طريقا آخر يبلغ به الهدى والنجاح، والسعادة .

أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ :

يتقي : يتكلف ويجتهد بما يصون وجهه من العذاب.

ذوقوا: الذوق يقصد به أشد ما يكون به الإحساس.

الخزي : الذل والصغار.

غير ذي عوج: غير مختل المعاني ولا النظم.

ضرب الله : شبه صورة بصورة.

متشاكسون : على أشد ما يكون من الاختلاف. وليس في أخلاقهم سماحة.

سلما :خالصا.

بيان المعنى الإجمالي :

لا يجد من حُرم الهداية ما يصون به نفسه يوم القيامــة مــن ألــم العــذاب إلا وجهــه، أي يواجه عذابا لا مفر منــه ولا مخفـف. ويســمع صــوتا يشــمت بــه فيقــول لــه: لــيكن إحساسك بالعذاب شديدا على وزان ما اخترته فــي حياتــك ونفذتــه معرضــا عــن هــدي الله. إنهم سادرون في الضلال الذي مضــت عليــه الأمــم الســابقة الــذين أهلكــوا مــن قبلهم واطمأنوا إلى أن مســتواهم الاجتمــاعي ومــا بــين أيــديهم مــن ثــروات يحمــيهم ويبقى لهم. وعلى حين غفلة منهم أتــاهم العــذاب بغتــة مــن الجهــة التــي مــا كــانوا يظنون أن العذاب يأتيهم منها. فكان الاحساس به مؤلمــا أشــد الإيــلام مــذلا لهــم .كــان ذلك جزاءهم في الحياة الدنيا، وهذا النكال الــدنيوي لا يعفــيهم مــن عــذاب يــوم القيامــة الذي سيكون أعظم وأشد. ولكن الجهل ربط على قلوبهم فأعماهم عن مصائرهم.

أبلغهم يا محمد هذا المثــل البــديع الموضــح لوضــع المشــرك ووضــع الموحــد. مثــل المشرك كمثل العبد الذي تعدد مُلاّكــه واختلفــوا، إن أرضــى أحــدهم أغضــب الآخــرين فهو في حيرة من أمره، شقي في حياته. ومثل المــؤمن الموحــد كمثــل العبــد الــذي لــه مالك واحد يعرف ما يرضيه وما يســخطه، فــإن أطاعــه فــاز برضــاه واطمــأن .فــأي العبدين أكثر سعادة . الجواب بين والمثــل واضــح، فالشــرك شــقاء والتوحيــد ســعادة. اختص الله باستحقاق الثنــاء والحمــد. ولكــن أكثــر المشــركين جهلــة مقلــدون .والقلــة معاندون قدموا مصالح الدنيا على الحق الواضح.

يُذَكِّرُ القرآن بالحقيقة التي كتبها على جميع البشر مــن هــو فــي أرفــع مقــام محمــد ﷺ، ومن كان على الشرك والضلال، هو الموت الذي لا يفلــت منــه إنســان. وفــي ذلــك مــا يرفع انزعاج المؤمن من الموت فــي الســلم أو فــي الحــرب. والحقيقــة الثانيــة أنكــم ستعودون إلى الله فيفصل بينكم الخصومات التــي مــر فيهــا الظــالم غانمــا فــي الحيــاة الدنيا.

بيان المعنى العام :

24ـ أفمن يتقي ...ما كنتم تكسبون.

جسمت الآية وضع الذين فقدوا هداية الله فخسروا خســارة لا أشــد منهــا. هــذه الصــورة تتمثل فيمن واجه العذاب ففقــد كــل مــا يمكــن أن يحمــي نفســه بــه ويصــد الــوارد

المهلك، لا يجد آلة ولا جهازا يحميه، ولا يتحكم حتـــى فـــي يديـــه اللتـــين مـــن شـــأنهما التعرض للخطـــر الـــداهم، فصـــوره القـــرآن علـــى أنـــه إذا أراد أن يصـــرف العـــذاب صرفه بوجهه، مما يفيد أن أعز شيء وأنفســه الــذي يحــرص الإنســان بفطرتــه علــى حمايته من كل مكروه، وهو الوجه، يصبح هــو الــواقي مــن العــذاب، علــى معنـــى أن العذاب لا راد له ولا ملطف.

ويقترن بالعذاب العنيـــف المهـــاجم الســـاحق، عـــذاب نفســـي هـــو تحطـــيم لمعنويـــاتهم. فيستمع الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، وظلمـــوا غيـــرهم، والكـــون بـــانفلاتهم مـــن الحـــدود التي حددها القرآن والشريعة، يســـتمعون إلـــى صـــوت يقـــول لهـــم: لـــيكن إحساســـكم بالعذاب على أبلغ وأشد ما يكون الإحساس، حتـــى يتحقـــق التـــوازن بـــين مـــا اكتســـبتم، ونفذتم في الحياة باختياركم، ما كنتم تكسبون مـــن صـــور الأعمـــال فـــي الـــدنيا .فـــالجزاء جزاء عادل فلا تتبرموا منه، ولا تطلبوا تخفيفا.

والآية تقدم موازنة بين من يحيط به العـــذاب ويحـــرم كـــل صـــون وعـــون، وبـــين مـــن رَضِيَ عَنْهُ ربه فجمع له بين التكريم والنعيم.

25←26: كذب الذين من قبلهم...لو كانوا يعلمون.

يواصل القرآن تهديد المشركين المكذبين، فيحشـــرهم مـــع الـــذين كـــذبوا رســـل الله مـــن قبلهم، وإذ استووا في التكذيب فسيحل بهم ما حـــل بالمكـــذبين مـــن قـــبلهم الـــذين قـــص القرآن أخبارهم. إنهم كذبوا وظنوا أنهم في مأمن من العـــذاب، محَصَّـــنين بمـــا لهـــم مـــن قوة ومنعة من أن يساموا الذل والهوان. وبينمـــا كـــانوا مطمئنـــين أتـــاهم العـــذاب بغتـــة، وأتاهم من الجهة التي ما كانوا يتوقعون أن يـــأتيهم منهـــا العـــذاب. وكـــان العـــذاب عنيفـــا بلغ الإحساس به أشـــد مـــا يكـــون الإحســـاس. تحـــول اســـتكبارهم واعتـــزازهم إلـــى ذل وصغار ليس بعده ذل. لصق بهم ولـــزمهم فـــي الحيـــاة الـــدنيا. واعلمـــوا أن مـــا يُعجَّـــل للكافرين من العذاب في الدنيا، ليس منجيا لهم مـــن عـــذاب يـــوم القيامـــة الـــذي ســـيكون أعظم وأبلغ من الإذلال والإيلام المسلط عليهم في حياتهم الدنيا.

وتختم الآية بقوله: **لو كانوا يعلمون**. فتقرر أن الجهـــل قـــد اســـتولى علـــى عقـــولهم فهـــم لا يعملون حقيقة السلطان الإلهي، ولا ما قـــرره مـــن جـــزاء للمشـــركين، ولا هـــول ذلـــك الجزاء، فمضوا سادرين في ضلالهم إلى أن بغتهم في الدنيا وسيلقونه يوم القيامة.

27.ولقد ضربنا...لعلهم يتذكرون.

القرآن قوي التأثير في نفوس الـــذين يتـــأملون فـــي هديـــه. ومـــن الفـــن القـــولي الـــذي يحقق ذلك، ما تجده في تضاعيفه من ضـــرب الأمثـــال . إن مـــا يقـــرره مـــن الحقـــائق العقلية المجردة والمغيبات البعيدة عن التصور العادي، يـــتم إقنـــاع الأذهـــان بـــه بواســـطة

الجمع بينه وبين نظائر قريبة من التصور العام، فإذا المقارنة تجلي البعيد، وتجعله قريبا واضحا. والمثل من ناحية أخرى يوقظ الذهن لينتبه إلى أن ما بين يديه من المسلمات المعلومة القريبة هو كاشف عما كان يتصوره بعيدا. وتنوعت أمثال القرآن بتنوع ما قصد تقريبه وتوضيحه من مضامينه، كل ذلك ليهيِّئ للناس ما يتبعه تذكرهم ما غفلوا عنه فيُجَلّيه مستحضرا له بعد أن طواه النسيان، ويرفع عن قسم آخر نواحي الغموض فينجلي ما كان بعيدا عن الأفهام .

28ـقرآنا عربيا غير ذي عوج لعلهم يتقون.

ذلكم الكتاب الذي أنزلناه وضربنا فيه الأمثال المسعفة بتذكير ما نسي، وفهم ما غمض؛ من صفاته أنه: قرآن مقروء يصل إليه كل عاقل. وعربي تدركون بسليقتكم مقاصده وأغراضه ميسر للفهم، هو بلغتكم التي بها تعتزون. وغير ذي عوج منتف عنه كل انحراف فلا تجدون في ما يعرضه تناقضا ولا اختلافا، ولا يكشف الزمن عن خلل فيه. وما من بليغ إلا وتجد في كلامه إسفافا ونزولا عن المستوى الرفيع، ولكن القرآن لما كان منزلا من عند الله فإنك لا تجد فيه تلكم الهِنَات فنظمه رفيع عال مستقيم .

بتلكم المزايا التي جمعها، مَنْ سمعه بقلب واع غير معرض، يكون مؤهلا لأن تحل التقوى قلبه، بما يتبعها من صالح العمل ومستقيم السلوك.

29ـضرب الله مثلا ...بل أكثرهم لا يعلمون.

هيأت الآية السابقة المتلقين للقرآن فلفتت أنظارهم إلى أمثال القرآن، فكان البساط مناسبا لضرب مثل بديع في تأليفه. فافتتحت الآية بأن هذا المثل من الوضع الإلهي العميق، فاضربه يا محمد للناس ليكون مقربا لقاعدة هذا الدين الذي هو التوحيد ونفي الشرك. حاصل هذا المثل: قل لقومك ليتأملوا وضع عبدين:

أحدهما مملوك لمالكين مختلفين في مطالبهم، وفيما يريدون من العبد أن يقوم به، وفي طريقة تعامله، وفي طريقة معاملتهم له، أخلاقهم بعيدة عن السماحة. إن أرضى أحدهم لقي من الآخرين كل عَنَتٍ. كل واحد يريد أن يقسره على الطريقة التي يرضاها وعلى القيام بالأعمال التي يرغب فيها، فهو متحير في أمره، قلق من وضعه، تضاعفت همومه، وتكدرت حياته.

وثانيهما مملوك خلص لمالك واحد، يعرف ما يرضى عنه مالكه، وما يسخطه، يستقر نفسيا إن أطاع مالكه، ويرتاح لعلاقته الموحدة التي لا تناقض فيها.

ضرب الله هذا المثل للمشركين الذين يعبدون آلهة عديدة، ولا تتعدد الآلهة في عقيدتهم إلا لأن لكل واحد ميدانه الذي يتحكم فيه، وكل فرد منهم باعتباره إلها لا يرضى إلا بأن يختص بالعابد وأن ينفرد بقرابينه. ولا يجد طريقة تكشف له خصائص كل إله للتناقض بين مفهوم الألوهية وبين مفهوم الاشتراك. فنظيره المشبه به العبد الملوك لشركاء متشاكسين. وضرب الله المثل الآخر للمؤمن الموحد الذي أفرد الله بالعبودية وأنه الإله الذي لا شريك له، أوامره محددة بينة لا اختلاط فيها، والمنهج الذي يرضى عنه واضح لا غموض ولا اختلاف فيه.

فهل يستوي حالهما، وأي العبدين يكون أسعد بالرضا والطمأنينة والوضوح في الحياة؟ . ظهرت الحقيقة ظهورا لا يقبل الجدال. ولا يمكن إلا أن يكون الجواب واحدا: توحيد الله. هو ما أراده القرآن من ضرب هذا المثل. ولله الحمد على ما بين وأوضح وهدى وقطع لجاج المشركين وكشف غفلتهم وبعدهم عن الفطرة.

بل أكثرهم لا يعلمون- انتقال إلى تشنيع ما هم عليه من الشرك. هو حاصل الجهل والتقليد، فأكثرهم أشركوا اعتمادا على التقليد الأعمى، هم مغرقون في الجهل. ومن دقة القرآن إسناده الجهل لأكثرهم . أما زعماؤهم ورؤوس الكفر فهم دفعوا إلى الشرك ليخلص لهم الجاه والتسلط .

30ـ إنك ميت وإنهم ميتون.

هذه الآية تتضمن أولا: ردا على المشركين وفضحا لمستواهم الخلقي، فقد قالوا: نتربص به ريب المنون، والموت حقيقة لا يفلت منها أحد، فتربصهم موت محمد يدل على غبائهم وحطتهم .فالموت سيصيبك ويصيبهم، إلا أن الفارق أنك تأمل أن يهتدوا ويقلعوا عن الشرك، أما هم فلبلادة حسهم يظنون أن الحق الذي جاءك من عند الله سيتوقف بموتك. وثانيا: هي مهيئة لقوله تعالى بعد، **ثم إنكم عند ربكم تختصمون** .

و ثالثا: فيها إيقاظ للمؤمنين أن يغتنموا حياته ﷺ ليفيدوا منها.

ورابعا: ما يوطن المؤمنين للموت وعدم الانزعاج مما لا مفر منه.

31ـ ثم إنكم...تختصمون.

وستنتهون إلى الوقوف بين يدي الله ليحكم بينكم حكمه العادل والبات فيما وقعتم فيه من خصام : هو ما كان بين المشركين والمؤمنين، مما ظلم فيه المشركون المؤمنين في عقيدتهم، وفي أموالهم، وفي كرامتهم، وفي أجسامهم. فينصف الله المؤمنين ويسلط على الظلمة جزاءهم العادل. وسحب بعض المفسرين الآية على الخصومات التي وقعت بين المؤمنين، فتعرض يوم القيامة عرضا يفصل فيها

بالعدل .قال أبو سعيد الخدري: كنا نقول: ربنا واحد ونبينا واحد وديننا واحد فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صفين، وشد بعضنا على بعض بالسيوف، قلنا نعم! فليحذر المؤمنون الخلاف الذي يفضي بالبعض للتسلط على غيره، فإنه لا يضيع حق، ويُوَفَّى كل فرد حسابه عند ربه.

۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

بالصدق : بالقرآن.

المثوى: المقر.

الانتقام : المكافأة على الشر بما يردع صاحبه.

بيان المعنى الإجمالي :

إن أشد الناس ظلما وانحرافا عن الحق من كذب على الله فنسب له ما هو مستحيل، كقولهم له شريك أو ولد أو اتخذ من الملائكة بناتا، ونحو ذلك من الأباطيل. وفي رتبة مساوية من كذب بالقرآن بعد أن جاءه وبلغه. ليس للكافرين مقام إلا في جهنم. وفي المقابل فإن أعلى الناس منزلة هو محمد الذي جاء بالقرآن، ويتميز الذين اتبعوه فصدقوه، فهم المتقون حقا. وجزاء المتقين أن الله يعطي لكل فرد منهم ما يشاء من أنواع النعيم، فيغمر نفسه الرضا الكامل بما آتاه ربه .ذلك الجزاء العظيم غير المحدود هو جزاء المحسنين من عباد الله . صدقوا ليرتب لهم ربهم على ذلك محو أسوأ ما عملوا حتى الشرك الذي كانوا عليه قبل أن يصدقوا، ومن باب أولى أن يكفر عنهم بقية سيئاتهم. وبعد تنظيف صحائفهم يمن عليهم بالثواب ويوفيهم أجورهم بوزان أحسن أعمالهم، ويلحق ما كان دون الأحسن بالأحسن تفضلا منه وتكرما. بكل تأكيد سيكفيك الله يا محمد مكرهم، ويحبط مخططاتهم، فأنت عبدي، ولا يستطيعون أن يضروك. ومن غباوتهم أنهم يخوفونك بأس الذين عبدوهم من

دون الله، لتكف عن التشنيع بتفاهتهم وزيفهم. لقد أصموا آذانهم عن التأمل في الوحي فحرموا الهداية الإلهية، ولا هداية إلا هداية الله. وفي المقابل فإن من تفتح على الهداية الإلهية وتأمل في الوحي وخالطه فألفه، قد كون لنفسه حماية من الضلال. أقروا بأن الله عزيز لا يعطل مراده شيء، ينفذ حكمه في كل جزئية من جزئيات الكون ولا راد لحكمه .ظهرت قدرته على الانتقام من المجرمين المكذبين، كما تشاهدون نقمته في آثار الأمم التي قص عليكم القرآن أخبارهم.

بيان المعنى العام :

32.فمن أظلم ممن كذب على الله...مثوى للكافرين.

إنه لا يوجد أبلغ ظلما وأعظم فسادا وأقبح وقاحة، من الذي كذب على الله فنسب له الشريك، ونسب له الولد، ونفى أن يرسل أحدا من البشر، وكذب بقدرته على إحياء الموتى والبعث والنشور، ونحو هذا من الأكاذيب والأقوال التي لا سند لها . وقرن بالكذب على الله تكذيب محمد الذي جاء بالقرآن حجة وهاديا. كذب بالقرآن بمجرد ما سمعه، في الوقت الذي جاءه لم يعمل فيه نظرا ولا فكرا دون تأمل في معانيه ومبانيه. فما ظنكم بمن هذا حاله ؟ إنه كافر بالله وبالقرآن، فليس له إلا جزاء واحد هو أن يكون مقره الذي ينتهي إليه: جهنم. هي قراره وقرار الكافرين أمثاله. واختار القرآن صيغة الاستفهام للتعبير عن مآلهم: أليس في جهنم؟ لما لها من خصائص بها يستيقظ الذهن فتلجئ المخاطب إلى الإقرار، فيبدو العدل الإلهي أتم وأكمل. ولا يجد المخاطب جوابا غير ما يريد القرآن إظهاره.

33.والذي جاء بالصدق وصدق ....أولئك هم المتقون.

وفي مقابل أسوأ الناس وأظلمهم نوه القرآن بالمتميزين من البشر، وأعلاهم رتبه وأرفعهم مقاما محمد ﷺ، بما عهد إليه من تقبل القرآن وتحمل إبلاغه للناس، وهو الذي جاء بالصدق. ومعه الذي صدق به، وهو كل من سمع القرآن فآمن به ودخل نور الإيمان في شعاب نفسه، فأخلص عقله للتوحيد وصفت مشاعره بما خالطها من الإيمان فانتفى كل ما يناقضه، وصدق بكل ما جاء به القرآن فعزم على الاهتداء به والتزامه منهجا وحيدا في الحياة. وإذ تميزوا بهذا التميز الواضح كانوا أحرياء بالإشارة إليهم وانفرادهم بأنهم هم المتقون حقا.

34.لهم ما يشاؤون عند ربهم. ...المحسنين.

بعد أن نوه بهم القرآن وحصر كمال التقوى فيهم، صرح بجزائهم الذي ينفردون به ويستحقونه. لهم كل ما يشاؤون، ما يرغبون فيه وما تتعلق به أمانيهم، يحقق لهم ربهم الذي شملتهم ألطافه في الدنيا، وتكون ألطافه وفضله وخيره مضاعفا يوم

الجزاء. ولا شك أن الجنة مراتب فمرتبة الأنبياء والرّسل لا تدانيها مراتب بقية الناس، وللمجاهدين والشهداء عند ربهم منازل لا يصل إليها غيرهم، وهكذا ... فكيف يتحقق لكل مؤمن ما يرغب فيه ويأمله ؟ قد يكون توجيه ذلك أن الله يجعل كل مُكَرَّمٍ راضيا بما آتاه، ولا يطمح إلى مرتبة فوق المرتبة التي هو فيها . وبهذا يكون شعوره بالسّعادة غير منقوص .

ذلك جزاء المحسنين : ما فسح من عظيم الثواب والتكريم، هو جزاء للمتقين بسبب إحسانهم، والإحسان هو المستوى الأكمل لكل صلاح، فالإحسان في العبادة كما قال ﷺ : أن تعبد الله كأنك تراه.

35.ليكفر الله عنهم ....بما كانوا يعملون.

صدقوا فكانوا من المتقين ليرتب ربهم على ذلك تكفير أسوأ أعمالهم. فمن صدق بعد الشرك يذهب تصديقه بالإثم العظيم. أعلمهم ربهم بأن تصديقهم يكفر ما سبق لهم من الشرك ليُدخل الطمأنينة في قلوبهم بمحو آثاره، فلا يبقى عالقا بصحائفهم شيء منه. وهو معنى قوله ﷺ : (إن الإسلام يجب ما كان قبله.)[1] وإذا كان تصديقهم يمحو أسوأ ما عملوه فمحوه لما هو دون ذلك من باب أولى. وقد يفهم منه بشارة لأصحاب رسول الله ﷺ الذين صدقوه وآمنوا به وجاهدوا معه، أن الله يكفر عنهم أسوأ ما عملوا من الكبائر بعد إسلامهم، تبعا لما خصهم الله به من فضل الصحبة رضي الله عنهم أجمعين .

وبعد تنقية صحائفهم وتطهيرها من دنس الشرك وقتام الآثام، يبشرهم بأنه يجزيهم بأحسن ما قدموا من أعمال .وقد يفهم من الآية أن الله يجري ما كان دون الأحسن من الأعمال على مستوى أحسن الأعمال. فيجعل ثوابها متساويا تفضلا منه.

36.أليس الله بكاف عبده...فما له من هاد.

كما حققت الآية السابقة حسن ثواب رسول الله ﷺ وثواب الذين آمنوا به، يوم القيامة، أكدت هذه الآية أن الله حاميه فلا يضره كيدهم ومؤامراتهم، إذ هو عبده المشرف بنسبته إلى ذاته العليه، لا يسلمه إلى أعدائه ويصونه بحفظه صونا يكفيه كل ضر منهم .

كما عمد المشركون إلى تخويف النبي ﷺ من تبعات إهانة أصنامهم التي يعبدونها من دون الله، بأن لها قدرة عجيبة على إفساد من يتعرض لها بسوء .ولما ذهب خالد بن الوليد لهدم العزى بعد فتح مكة قال له سادنها، القائم على المعبد التي هي

[1] مسند أحمد ج4 ص199

فيه: أحذركها يا خالد فإن لها شدة لا يقوم لها شيء. فعمد خالد إليها فهشم أنفها إلى أن كسرها بالفأس. فظن بعضهم أنها نزلت بهذه المناسبة، لكن الخطاب في سياق الآية هو لرسول الله ﷺ .

36-من يضلل الله فيحرمه ألطافه، ويتركه لنفسه لا يلقى منه عونا، فيعرض عما أنزله الله تبعا لتصلبه في مواصلة ما هو عليه من الفساد في العقيدة، ومن السلوك المنحرف، وقطع كل نظر في هداية الله، فإنه لا يجد هاديا غيره، فينغمس في الضلال. إن الحق والباطل طريقان لا ثالث لهما، فمن أعرض عن الحق وقع في الباطل .

37-ومن يهد الله فماله من مضل ...بعزيز ذي انتقام.

وفي المقابل فإن من يهديه الله فيحيطه بألطافه، ويقبل عقله على النظر في آيات الله في كتابه، وفي الأنفس، وفي الآفاق، فإن روحه تنطبع بما يتأمل فيه من الهدى، ويألفه حتى يرسخ فيه الخير رسوخا ينفي كل مدخل للشر. فلا تجد تبعا لذلك من يقدر أن يضله ليحوله على النهج الطيب الذي سار فيه.

هذا تقرير لحقيقة صيغت صياغة سؤال تقريري ليكون المخاطبون أشد وعيا لها. فبكل تأكيد، إن الله متصف بالعزة، فلا يتصور أن تتسلط عليه أي قوة، أو تحول بينه وبين ما يريد. بل الكل خاضع له. فله العزة الكاملة التي لا يلحقها نقص ولا استثناء. فتنعطف هذه الآية على ما سبقها من كونه كافيا لعبده، مثبتا له بما يدفع عنه كل تخويف وتهويل، لا مضل لمن هداه. لتؤكد تحقق ذلك كله استنادا إلى عزته.

وتختم الآية بتهديد المشركين والمناوئين لرسول الله ﷺ وللإسلام بأن الله موصوف بالقدرة الكاملة على الانتقام من الضالين، كما هو معلوم عندهم من العقوبات الساحقة التي سلطها على الأقوام الضالين السابقين.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ :

أفرأيتم : أفظننتم.

كاشفات : مزيلات.

ممسكات : مانعات.

حسب: كاف.

التوكل : تفويض الموكِل أمره إلى الموكّل .

مكانتكم : حالتكم .

بيان المعنى الإجمالي :

لو حركت عقولهم بالسؤال من الذي نفذت قدرته فخلق السماوات والأرض، فإنهم لا يجدون إلا جوابا واحدا: الله خلقهما. ورتب على هذه الإشارة، إبطال ما يعتقدونه من تأثير آلهتهم، فقل لهم ما هو ظنكم أعلنوه في الأصنام الذين تدعونهم من دون الله ألهم أي تأثير؟ فإذا أراد الله أن يضرني فهل يستطيع أي منهم حمايتي من ضر، وإن أرادني برحمة منه وخير هل يستطيع أحد منهم أن يقبض الرحمة عني؟ والجواب واحد؛ لا يستطيعون من ذلك شيئا فمن قصر عن الإيجاد قصر عن التصرف فيما لم يوجده. أعلن للناس جميعا اعتقادك بأن الله كافيك كل أمرك، وأنك معتمد عليه، وهو سبحانه الذي يعتمد عليه ويتوكل المتوكلون الصادقون .

قل لهم يا محمد قولا ينبههم ويهددهم: إني مواصل مهمتي في دعوتكم إلى الحق، ومواصل سلوكي حسبما هداني إليه ربي. وسوف يدمغكم الواقع فتعلمون من تكون عاقبته الخسارة التي ما بعدها خسارة. من يسلط عليه عذاب يذله ويخزيه في الدنيا، يستولي عليه عذاب يوم القيامة، الدائم الذي لا انقطاع له.

أكرمناك يا محمد وشرفناك فأنزلنا القرآن إليك لتبلغه وتبينه للناس جميعا. فصلاحهم وسلامتهم في هداه. ولذلك فإن من تمسك به والتزم ما جاء به ضمن السلامة والأمن لنفسه، ومن ضل عنه وسلك طريقا مغايرا لما جاء به. فخسارته على نفسه . وإنك لست مرغما لأحد على الإيمان .

بيان المعنى العام :

38ـ ولئن سألتهم من خلق...يتوكل المتوكلون.

إنك لو سألتهم من الذي خلق السماوات والأرض، فإنه بكل تأكيد لا يجدون إلا جوابا واحدا: الله الذي خلقهما. إن الأصنام التي يعبدونها من دون الله ليست إلا أجزاء من الأرض نحتوها أو من أخشاب أشجارها، ثم نصبوها وعبدوها. فالبديهة تقتضي أنه لا مدخل لها في خلق السماوات والأرض.

قل لهم: أبرزوا ظنونكم وما تخفونــه فــي ضـمائركم. ظنــوكم فيمــا تعبدونــه مــن دون الله، ما هو تأثيرها؟ هل يستطيع أحد مــن الأصــنام التــي تعبــدونها أن يكشــف ضــري ويحميني مما قدر الله أن يصيبني به في بدني أو فــي مــالي أو فــي أســرتي ؟ وبــالعكس فإنه إذا يسر لي غطاء رحمته وفســح لــي أسـباب التوفيــق فهــل مــن معبــوداتكم مــن يستطيع أن يحول بيني وبين ما قدره الله لي من الخيــر ؟ فبعــد أن ألجــأهم ليقــروا بــأن الله هو المتفــرد بخلــق الســماوات والأرض ألــزمهم بــأن يقــروا أنــه إذا كــان وحــده المنشئ للخلق فإنه من الضروري أن يكون المتصــرف وحــده فيمــا خلــق .أبكــتهم بمــا يقتضيه المنطق والعقل، وقطع شبهاتهم .

قل حسبي...انتقل القرآن من إبطال أي حجة يحتجون بهــا إلــى أمــر رســوله أن يعلــن: إني مسند كل ما يهمني إلى ربي، هو الله الــذي يكفينــي كــل أمــر مــن أمــور حيــاتي الدنيوية والأخروية وهو المتولي لجميع أموري. هي عقيــدة راســخة فــي نفســي، يعلــن بها لتكــون معلومــة عنــد الجميــع، وليلقنهــا للمــؤمنين حتــى يشــدوا عليهــا عقــولهم وأرواحهم. إنه سبحانه هو الحقيق وحده بأن يتوكل عليه المتوكلون الصادقون .

39←40: قل يا قوم اعملوا...عذاب مقيم.

ما كان النبي ﷺ فظا غليظا، فإنه رغم ما أوذي ومــا قوبــل بــه مــن التكــذيب والازدراء هداه ربه كيف يلين لهــم .فــأمره أن يــدعوهم، بقولــه لهــم: "**يــا قــومي**" مــذكرا لهــم بالروابط التي تربطهم به، التي يرعاها فيجتهد فــي تــوجيههم إلــى مــا فيــه خيــر لهــم. وأن تهديده إياهم يقصد منه أن يلــويهم عــن الفســاد والضــلال، واصــلوا عملكــم علــى الحالة التي أنتم عليها. فإذا كانت الأدلة والمــواعظ لــم تفــدكم وتصــلبتم علــى مــا أنــتم عليه منحرفين عن الهــدى، فــاعلموا أولا: أنــي مواصــل مــا اهتــديت إليــه لا أتــأثر بشغبكم " **إني عامل** " أواصل دعوتكم وتطبيقي مــا جــاءني مــن ربــي، وأحــذركم أنكــم ستلقون يقينا نتائج ضلالكم، فسينكشف لكم المصير، فتعلمــون علــم المعاينــة مــن يأتيــه، من حيث لا يعلم، عذاب يبغتــه ويخزيــه فــي الــدنيا، فيــذهب بمــا كنــتم معتــزين بــه ويذلكم، وستتم لي الغلبة بعز عزيز .ويحل عليــه عــذاب لا يرفــع أبــدا، وذلــك عــذاب الآخرة .

41. إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ...وما أنت عليهم بوكيل.

لما هددهم برفق في الآية الســابقة، مــا يترصــدهم إن واصــلو التشــبث بضــلالهم ممــا يحصل في المستقبل، جاءت هذه الآية لتثبته علــى الحــق الــذي هــو عليــه وتنــوه بــه، وتعرف بجليل مقامه واختيار ربه لــه. إنــا بعظمتنــا وعلمنــا الواســع اخترنــاك لتحمــل هدايتنا، فأنزلنا عليك الكتاب الكامل الجامع لكــل خيــر، لتبلغــه للنــاس قاطبــة، مباشــرة

أو بواسطة تعليمه لمن يتولى إيصاله إليهم، بما أن أرواحهم في حاجة إليه كحاجة أبدانهم للماء والهواء. إنه ملتبس بالحق، فهو الحق والحق هو.

و مما يترتب على تلكم الحقيقة أن الاهتداء غير الهداية. فالقرآن كاشف عن الحق، ومحمد ﷺ يصل بينهم وبين ذلكم الكتاب؛ ثم إن من اهتدى من المبلَغين بمضامينه فإن النفع يكسبه لنفسه طمأنينة في الدنيا، ورفعا للتساؤلات التي لا تجد لها جوابا إلا القرآن، وتقويما لسلوكه وعلاقاته بالكون وببقية الكائنات. وفي المقابل من انحرف من الناس عن هدايته وسلك طرقا أخرى يتيه فيها ويبعد عن الطريق الموصل الآمن، فإنه يتحمل خسارته.

وبصفة عامة فإنه ما عليك إلا البلاغ ولست ملزما لأحد بأن يهتدي، فقد بنيت مسؤولية الإنسان في الحياة على الاختيار، فهو غير مجبر لا على الإيمان والطاعة، ولا على والكفر والعصيان .فأنت لا ترغم أحدا.

ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا
ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٤٢﴾ أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ
﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٤٤﴾
وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن
دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

يتوفى: يميت .

يمسك : يمنعها من العودة.

يرسل : يرد إليها الحياة كاملة.

مسمى : معين عنده مقدما.

الاشمئزاز : شدة الكراهية، نفروا وانقبضوا.

يستبشرون: تظهر آثار البشر على وجوههم.

بيان المعنى الإجمالي :

تفرد الله بالتصرف في حياة الإنسان. ينفخ فيه الروح فتسري فيه الحياة، ثم إن بقاءها بظهور آثارها هو من تصرفه وحده. فمتى أراد أن يقبض الحياة إليه قبضا

نهائيا لا عودة لها في الـدنيا فعـل، ومتـى أراد أن يقـبض بعـض خصائصـها عطلهـا تعطيلا موقتا في النوم، ثم يحرك ما تعطل وهكذا إلـى الأجـل الـذي قـدره، فـلا يزيـد عنه الإنسان لحظة ولا ينقص من أجله المقدر لحظـة. إن فـي هـذا التصـرف العجيـب لأدلة على القدرة والحكمة والتصرف لمن يحرك فكره للتدبر في هذا المجال.

بل اتخذ المشركون شفعاء ينفعونهم بشفاعتهم حسب زعمهـم. مـا اشـد غبـاءهم كيـف يعتمدون على شفاعة من لا يملك أي شيء ولا يملك حتـى ذاتـه، والأنكـى أنـه لا عقـل له فلا هو يفهم معنى للشفاعة حتى يقوم بها.

ولما تمكن داء الشرك في قلوبهم، تجـدهم إذا سـمعوا ذكـر الله وحـده فـي الشـهادة أو في القرآن امتلأوا غيظا، فيظهر الاشمئزاز علـى صـفحة وجـوههم تقطبـا وغيضـا. وإذا سمعوا فـي مجالسـهم ذكـر الـلات والعـزى وبقيـة الأصـنام تهللـت وجـوههم واستبشروا .

بيان المعنى العام :

42ـ الله يتوفى الأنفس ....لقوم يتفكرون.

خلق الله الإنسان خلقا عجيبا، جسم يشتمل علـى أجهـزة بنيـت علـى إحكـام بـالغ فـي تركيبها وفي سيرها، وفي وظائفهـا، وفـي اتصـال كـل جهـاز بغيـره وتـأثيره فيـه. أجهزة بدنية جسمانية، كجهاز التنفس، وجهـاز الهضـم، وجهـاز الإدراك الحسـي مـن سمع وبصـر وذوق وشـم ولمـس. وبجانبهـا جهـاز الإدراك العقلـي، وجهـاز الإدراك الروحي. هذه الأجهـزة يقـوم كـل جهـاز بوظائفـه، وإذا سـلم أداؤهـا مـن الخلـل والعيوب كانت الحياة سوية. وكلها مرتبطة بالبدن. إن الـذي أبـدع صـنعها ومكـن كـل جهاز من أداء مهماته هو الله العزيـز العلـيم. وكمـا تصـرف سـبحانه بالإيجـاد فإنـه يتصرف بالإعدام. وتصرفه هذا على مستويين:

المستوى الأول: أن ينزع قوة جميـع الأجهـزة ويسـحبها مـن الجسـم. وهـو المـوت، فتكون صورة البدن باقية ولكن كل جهاز فيهـا معطـل. يأخـذها ولا يردهـا لمـن كانـت حالة فيه في اللحظة التي قدرها مقدما. ووكل الله بهذا ملـك المـوت كمـا ورد فـي قولـه تعالى : **(قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكـم)**[1] فـالمتوفي بكسـر الفـاء المشـدّدة هـو الله المالك الآذن، وملك المـوت متـوفِي بكسـر الفـاء باعتبـار أنـه مباشـر. والإنسـان متوفَّى بفتح الفاء المشددة .

[1] سورة السجدة آية 11

المستوى الثاني: سلب بعض الأجهزة لتتعطل إلى أمـد محـدود تتجـدد فيـه قواهـا. ثـم يردها إلى المَوَاطِنِ التي كانت تعمل فيها لتـؤدي وظائفهـا التـي تعطلـت، وهـي حالـة النوم. أجهزة التنفس تشتغل وتقوم بـدورها وتتفاعـل مـع القلـب والـدم وتغـذي كـل جزء من أجزاء البدن حتى الدماغ .و كذلك تتواصـل عمليـة الهضـم، والتحـولات التـي تدخل على ما أكله الإنسان أو شربه. ولكن أجهـزة الإحسـاس بمـا حولـه تتعطـل، فـلا يرى من هم بجانبه، ولا يسمع أصواتهم وهكذا . والجسم هـو ولكنـه غيـر متفاعـل مـع المحيط. ثم إن الله يعيد للذات نشاط تلك القـوى بعـد فتـرة النـوم، يعيـدها إعـادة غيـر أبدية، ولكن إلى الوقت الذي عينه للمـوت، فيعطـل جميـع الأجهـزة تعطـيلا لا عـودة بعده في الدنيا.

إن هذا التصرف المحكـم المقـدر تقـديرا دقيقـا يقـوم دلـيلا علـى تفـرد الله بـالخلق، وإخضاع كل كائن لما قدره له. فلينظر الإنسان كيـف نظـم الخـالق أمـر الحيـاة ودبـر تحولاتها. وما تزال الروح حقيقتها، نفخها أو سلبها وما يـرتبط بهـا مـن شـؤون الحيـاة من السر الذي يتجاوز مداركنا اختص الله بعلم ذلك **(ومـا أوتيـتم مـن العلـم إلا قلـيلا)** نتأمل الآثار فتزيدنا إيمانا بقدرة وحكمة الواحـد الأحـد القهـار. فليحـرك البشـر فكـرهم للتعقل والتدبر في بديع صنع الله .

43←44: أم اتخذوا من دون الله....ثم إليه ترجعون.

أم مؤذنة بالانتقال من الاستدلال على تفرده سـبحانه بالتصـرف بالحيـاة والمـوت، إلـى تشويه ما اعتقدوه، وبنوا عليـه مصـيرهم، فـإنهم لجهلهـم اتخـذوا شـفعاء تشـفع لهـم وتكفر عنهم سيئاتهم، وتركوا المسيطر على الأمر كله، الله الـذي بيـده الأمـر .قـل لهـم يا محمد مظهرا غباوتهم: أتتخذونهم شـفعاء والحـال أنهـم حجـارة لا تملـك أي شـيء. هي لا تملك نفسها ولا تتصرف في أي كائن ولـو كـان تافهـا، وأكثـر مـن ذلـك هـي جمادات لا تعقل، وليس لهـا أي حـظ مـن الإدراك، فهـي بطبيعتهـا لا تفهـم للشـفاعة معنى، فكيف يرجى منها أن تقوم بها؟

وأردف إبطال عقيدتهم فـي الشـفاعة بإثبـات أن الـذي يملـك الشـفاعة كـل الشـفاعة فيقبلها أو يردها، هـو الله وحـده. إذ أن الشـفاعة تابعـة للملـك، وهـو سـبحانه مالـك السماوات والأرض وما فيهما، فلا يستطيع أن يتقـدم أي كـان لتحويـل مـا قضـى بـه . وفوق ذلك أنكم جميعا تعودون إلى حكمه وقضائه، فلا يشـفع أحـد إلا بعـد أن يـأذن لـه يوم القيامة، فلا أثر لأصنامهم في إسعافهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

45- وإذا ذكر الله وحده اشمأزت...إذا هم يستبشرون.

تشوه هذه الآية تصور المشـــركين، وتفضـــح شـــيئا مـــن تناقضـــهم. يقولـــون: **مـــا نعبـــد الأصنام إلا ليقربونا إلى الله زلفـــى** [1] وهـــم إن ســـئلوا مـــن خلـــق الســـماوات والأرض يعترفون بأنه الله وحده هو الخالق. ثم إنهـــم إذا ذكـــر الله وحـــده فـــي شـــهادة المـــؤمنين " لا إله إلا الله " وفيما يتلوه النبي ﷺ من آيات القـــرآن ويطـــرق مســـامعهم، ظهـــرت آثـــار الرفض وانقبضت وجوههم من شـــدة الكراهيـــة للتوحيـــد. ولـــتمكن حـــب الأصـــنام فـــي نفوسهم تراهم ينشرحون إذا ذكرت الأصـــنام بأســـمائها ولـــم يـــذكر اســـم الله معهـــا فـــي مجالسهم. فإذا كان ذكر اسم الله وحـــده ينفـــرهم فتبـــدو الكراهيـــة علـــى وجـــوههم فـــذلك دليل على تصلبهم في الشرك وإقفال عقولهم عن قبول الحق.

قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾ وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

فاطر: مبدع السماوات والأرض وموجدهما على غير مثال.

الغيب : ما غاب على الناس.

الشهادة : ما يقع تحت حواسهم.

ما في الأرض : يشمل ذواتهم وأهليهم وأموالهم.

يحتسبون : يظنون.

حاق: أحاط.

ما كانوا به يستهزئون : عذاب الآخرة.

بيان المعنى الإجمالي :

توالت الأدلة وواصل النبي ﷺ وعظهم وتفصيل مـــا أنـــزل إليـــه وبيانـــه، فمـــا زادهـــم إلا نفورا واستكبارا، مما أثر في نفسه ﷺ، فأرشده القـــرآن أن يتوجـــه بالـــدعاء قـــائلا: اللهـــم بديع السموات والأرض، العليم بالظـــاهر والخفايـــا علمـــا مســـتويا، أشـــهدك ربـــي علـــى

[1] سورة الزمر الآية 3

ما عانيت من تصلبهم وعنادهم، فأنت الله الحكم العدل تحكـم بـين عبـادك، تحكـم بينـي وبينهم فيما اختلفنا فيه، فتجزي كل فاعل بما فعل.
سوف يظهر حكم الله فيهم، سوف يحقق مـا أوعـدهم مـن الخـزي والعـذاب. سـيكون وضعهم يوم القيامة حين يواجهـون ذلـك، أنهـم يتمنـون أن لـو يمكـنهم الافتـداء مـن العذاب بكل غال ونفيس وعزيز. إنهم يودون لو كـانوا يملكـون مـا فـي الأرض جميعـا بل ومثله معه، ليقدموه كله بديلا من المصير الذي بدا لهـم حاضـرا. ظهـر لهـم جـزاء جميع سيئاتهم التي اكتسبوها في الدنيا، حتى ما اسـتهانوا بـه ومـا كـانوا يظنـون أنهـم سيحاسبون عليه. سيُطبق عليهم جزاء سوء أعمالهم مـن كـل جانـب فـلا يجـدون عنـه مخرجا.

بيان المعنى العام :

46ـقل الله فاطر السماوات والأرض....في ما كانوا فيه يختلفون.

توالى في السّورة عرض وجوه الاحتجاج، وضروب الأدلـة مـن الآفـاق ومـن أنفسـهم، والاستناد إلى الفطرة والمسلمات التـي تشـترك فـي إبطـال الشـرك، ودحـض شـبهه. ألآنَ النبي ﷺ لهم القول مذكرا لهم أنه قومه، كـل همـه أن ييسـر لهـم الخيـر ويبعـدهم عن الشر، ولا شر أعظم من الشرك. وتعصـبوا وتصـلبوا، ومـا كـان مـوقفهم العنيـد بالهين على رسول الله ﷺ، لشدة حرصـه علـى هـداهم. فـأوحى الله إليـه هـذه الآيـة جامعة بين السلوى، وبين التأكيد على أنه وفى بما أُمِرَ بـه. قـل، متوجهـا بهـذا النـداء: اللهم يا الله يا من أبدع هذا الكـون يـامن خلـق السّـماوات والأرض خلقـا علـى غيـر مثال، ولا من مادة سابقة. تجلت قدرتك وحِكمتـك مسـطورة فـي كتـاب الكـون، وسـع علمك كل شيء تعلم ما هو مغيب عنا كعلمـك بمـا نشـاهده فـلا يغيـب عـن علمـك لا ظاهر ولا خفـي. يخضـع لعزتـك البشـر جميعـا، فـاحكم ربنـا بيننـا وبـين هـؤلاء المتمردين، نحن وإياهم عبيدك، وقد جاروا علينا، وخالفونـا، كمـا تعلـم، عنـادا وتمسـكا بحظوظ الدّنيا. احكم بيننا في الدنيا حكمـا يخضـد شـوكتهم، وينصـرنا علـيهم، واحكـم بيننا في الآخرة حكمك العادل الذي يجزي كل فاعل بمـا فعـل. ولا شـكّ أن هـذا الـدّعاء ينفّس على رسول الله كربه.

47ـولو أن للذين ظلموا....ما لم يكونوا يحتسبون.

تجسم الآية هول الحكم المذكور في الآية السابقة. إنه عنـدما يصـدر الحكـم العـادل مـن رب العزة يوم القيامة، يكون وضع الظالمين فـي عقيـدتهم وسـلوكهم أنهـم يتمنـون لـو كانوا يملكون ما في الأرض جميعا، ثم يقدمونه فداء لأنفسـهم مـن أهـوال العـذاب التـي تحققوا بأنها مطبقة عليهم. فالآية تجسم فظاعة مـا سـيلقونه مـن العـذاب الـذي يجعلهـم

يودون أن يفتدوا منه بكل عزيز وغال، لو كانوا يملكون، بأهليهم وأموالهم وإن وسعت ما في الأرض، وهو تجسيم أيضا لليأس الذي يضاعف نكدهم. وظهر لهم من سخط الله وعذابه ما لم يدخل في حسابهم، ولم يحدثوا به أنفسهم مما يفوق كل تصور وكل خيال.

48-وبدا لهم سيئات ما كسبوا....ما كانوا به يستهزئون.

وظهر لهم حاضرا وواضحا الأعمال والمواقف السيئة التي ما كانوا يظنون أنهم سيلقون جزاءها لتهاونهم بالأوامر والنواهي، وجراءتهم في الإقدام على الأعمال حسبما تدعوه إليه شهواتهم، إذ كانوا سادرين في الضلال غافلين عن تسجيل كل ما اكتسبوه، قال تعالى: (**لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا**)[1] وأحاط بهم من كل جهة العذاب الذي كانوا يقابلون التهديد به بالاستهزاء والسخرية . فلا يجدون مخرجا منه .

فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَـٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَـٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَـٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

خولناه : ملكناه.

فتنة : ابتلاء واختبار.

بمعجزين : بغالبين لنا فيفلتون .

يقدر: يضيق.

بيان المعنى الإجمالي :

حالة المشركين حالة تناقض. فقدوا نور الإيمان فأضحوا يقومون بالشيء وضده دون أن يتفطنوا. فتجدهم إذا أصابهم ضر في المال أو الأهل أو المكاسب، ولم يجدوا منه مخرجا التجأوا بالدعاء إلينا لكشف ضرهم. وإذا ملكناهم نعمة من فضلنا

[1] سورة الكهف آية 49

قابلوها بالجحود ونسبوها لما هم عليه من فطنة وكياسة. عقيدتهم هذه زائفة وباطلة نتيجة جهلهم: إن ما مكناهم منه من النعم هو اختبار لهم فمن شكر مُتّعَ بما أوتيه في الدنيا، ويجد ثواب شكره يوم القيامة . والعكس بالعكس. وعلى نفس منهجهم وقع الكفرة السابقون كفارون، قالوا مثل قولهم فلم يفدهم ما بين أيديهم وذاقوا خسرانه في الدنيا وعقابه يوم القيامة. لقوا من الله جزاء أعمالهم السيئة، وعقيدتهم الفاسدة. وكذلك مشركو مكة سيكون مآلهم كمآل من سبقهم نسلط عليهم جزاء سيئاتهم ولا يستطيعون الانفلات من قدرنا المحتوم. ما لهم جهلوا الحقيقة الناطقة في مشاهد الحياة: إن الله يوسع رزق من يشاء ويضيق رزق من يشاء . ولا يعود ذلك لعوامل ذاتية وحدها ولكنه التوفيق والألطاف التي يسعد بها أو يحرم منها. وفي ذلك أدلة على انفراده سبحانه بالتصرف، والحكمة .

بيان المعنى العام :

49ـفإذا مس الإنسان ضر ....ولكن أكثرهم لا يعلمون.

الغفلات التي يعيش عليها المشركون متعددة تهلكهم دون أن يتفطنوا . غفلوا في الآية السابقة عن المعاد، ولم يحتاطوا ليزنوا أفعالهم بميزان الشرع، فكان مآلهم سوء المصير واليأس.

ومن غفلاتهم عن الحق ما أوقعهم في التناقض الذي تكشفه هذه الآية .هو أن كل إنسان مشرك بالله، لم يضئ الإيمان تفكيره وتقديره للأمور، إذا مسه الضر في نفسه أو ماله أو في ذريته، وانغلقت في وجهه أبواب الفرج التجأ إلينا ودعانا لكشف ضره. مع أنه لما كان في سعة من أمره إذا ذكر الله وحده نفر مشمئزا كارها كما سجلته الآية 45 – فهذا تناقض أول، وبجانبه تناقض آخر، أن ذلك المستغيث إذا مكناه من نعمة، ما كانت لتصل إليه إلا بتيسيرنا لأسبابها، كفر بفضلنا عليه وصرح قائلا: إنه لا سبب حقق ما هو بين يدي من النعمة، من المال أو الصحة أو الجاه أو السلطان، أو الذرية الناجحة في نشاطها، ليس لذلك إلا سبب واحد هو ما أنا عليه من الذكاء والكياسة، ومن التفطن لمواطن النجاح، فقدراتي الذهنية، وتجاربي، واختياري للمأكولات الصحية، والرياضة البدنية، وحسن توجيهي لذريتي هو العامل الوحيد فيما تحقق لي من نجاح .

بل هو فتنة – تصوره هذا باطل وغير صحيح، إن ما رزقناه هو في الحقيقة اختبار له ليظهر أثر التكليف، هل يشكر فضل ربه عليه موقنا أنه لولا عونه وحسن تقديره، وتيسير الأسباب ما وصل إلى شيء من ذلك ؟ أو يقذف به في كفران فضل الذي بيده العطاء والمنع فينسب كل شيء لنفسه؟

إن الحقيقة التي سيَّرنا عليها أمر الحياة الدنيا يجهلها كثيــر مـــن النـــاس. فهـــم لا يعلمـــون أن الإنسان مبتلى بالخير وبالشر. قال تعـــالى : (ليبلـــوني أأشـــكر أم أكفـــر ومـــن شـــكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غنـــي كـــريم)[1] وقـــال تعـــالى : (ونبلـــوكم بالشـــر والخير فتنة وإلينا ترجعون)[2]

50ـقد قالها الذين من قبلهم ...ما كانوا يكسبون.

الكفر سلسلة واحدة تتكرر في الوجود، ولا يعتبر اللاحـــق بمـــا حـــل بمـــن ســـبق. فقبـــل مشركي مكة اتخذ موقفهم هذا أقـــوام صـــرحوا بـــنفس مقـــالهم الجاحـــد، واعتـــزوا بمـــا أوتوه من النعمة ونســـبوها لأنفســـهم، فـــذابت تلكـــم الـــنعم كمـــا يـــذوب الجليـــد بأشـــعة الشمس، وما استطاعت قواهم التي وثقـــوا فيهـــا أن تحمـــيهم لتبقـــي علـــى مـــا اكتســـبوه. قص القرآن علينا ما اعتز بـــه قـــارون مـــن المـــال وكفـــره بنعمـــة الله عليـــه وصـــرح بمصيره الخاسر، الذي جعل من كان يغبطه يحمد الله على أنه لم يكن مثله .

51ـفأصابهم سيئات ما كسبوا...وما هم بمعجزين.

صرحت الآية بمفهوم (فما أغنى عـــنهم مـــا كـــانوا يكســـبون)، أصـــابهم القـــدر الإلهـــي الذي لا يرد بجزاء سيئات ما اكتسبوا من الجحود والكفـــران لـــنعم الله. وتلكـــم هـــي ســـنة الله تجري في الكون، فإن مشركي مكة المســـتكبرين الظـــالمين بشـــركهم وتعـــديهم علـــى الحق وأهله، لا يفلتون. سيصيبهم بقدرتنا وعـــدلنا جـــزاء ســـيئات مـــا كســـبوه بـــإرادتهم من الشر والفساد. لا يستطيعون الفرار من قبضتنا، وهـــم عـــاجزون عـــن مغالبـــة قـــدرتنا المحتوم الذي لا راد له.

52ـأولم يعلموا أن الله يبسط ....لآيات لقوم يؤمنون.

هل جعلوا على عقولهم حجابا يحـــول بيـــنهم وبـــين النظـــر فـــي الحقيقـــة التاليـــة رغـــم ظهورها فأبقوا على أنفسهم في طبقـــات الجهـــل ؟مشـــاهد الحيـــاة تنـــادي أمـــامهم بتلـــك الحقيقة: إن الله هو الذي يسعد من يشاء بـــالعون وتيســـير الأســـباب فيبســـط لمـــن يشـــاء في رزقه، ويوفر له من متاع الدنيا ما قدره، ويحـــرم آخـــر فيمنعـــه عونـــه، فتجـــده يكـــد ولا يحصل من كده على شيء له بـــال، رزقـــه ضـــيق يكـــاد لا يتجـــاوز الحـــد الأدنـــى الذي يبقي على حياته وحياة من يعـــول. ولـــو اختبرتهمـــا بمقـــاييس الـــذكاء والاســـتقامة ربما وجدت البون شاســـعا بـــين الشخصـــين، فالاختبـــار إيجـــابي فـــي المضـــيق عليـــه، وسلبي في الموسع عليه. إن في هذا التصرف ما يقـــوم دلـــيلا علـــى أن الملـــك لله، وأنـــه

[1] سورة النمل آية 41

[2] سورة الأنبياء آية 35

يعطي من ملكه ما يشاء لمن يشاء، ويمنع ما يشاء مــن يشــاء . الواجــب علــى المــؤمن أن يجتهد في الحياة، وأن يرضى بالنتيجة التي يصل إليهــا فــلا ييــأس ولا يقــنط، فــذلك رزقه الذي قدره له ربه، لا يوسعه الحرص الشــديد والشــعور بتعاســة الحرمــان. وإنمــا عليه أن يعمل ويجتهد ويطلب من ربه التوفيق في نشاطه.

۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

أسرفوا: أكثروا من الذنوب والمعاصي.

لا تقنطوا : لا تيأسوا.

أنيبوا : توبوا.

الحسرة: الندامة الشديدة.

التفريط : التضييع، والتقصير.

جنب الله: في النواحي المتعلقة بذات الله .

الساخرين : المفرطين لا عن غفلة ولكن عن استهزاء.

الكرة : الرجعة .

بيان المعنى الإجمالي :

قل يا محمد مبلغا أمري لعبادي الذين جــاوزوا الحــدود فــي اقتحــام مــا نهيــتهم عنــه والتفريط فيما أمرتهم به، قــل لهــم: إيــاكم أن تيأســوا مــن رحمــة الله. فــإن رحمتــي وسعت كل شيء، وإني قادر على غفران جميــع الــذنوب مهمــا عظمــت وكثــرت فــلا يبقى لها أثر ظاهر يسود صفحات أصحابها. يؤكد لكم ذلــك أنــي أنــا الغفــور الــرحيم. وعليكم لتفوزوا برحمتي ومغفرتــي أن تعــودوا إلــى ربكــم عــودة توحدونــه وتطبقــون

شرعه، معتنقين الإسلام مخلصين لعلي ذاته. أسرعوا بالتوبــة مــن قبــل أن يحــل علــيكم العذاب، وعندها لا تجدون نصيرا ينقــذكم منـــه. والتزمــوا متبعــين أحســن مـــا أنزلتـــه إليكم، وهو القرآن عقيدة وتشريعا وأدبـــا. اســـرعوا بالتمســـك بـــه مـــن قبـــل أن يـــأتيكم العذاب في الوقت الذي أنتم مطمئنون فيـــه غـــافلون عنـــه. فـــإن عـــذاب الله لا يـــأتي إلا بغتة. سواء في ذلك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

أعظكم حتى لا يقول الإنسان المسرف على نفسه غيـــر التائـــب، أن يقـــول احضـــري يـــا حسرات ويا أسى على ما لم أقم به مـــن واجـــب الطاعـــة والامتثـــال نحـــو الله، أو يقـــول معتذرا العذر الغبي (**لو أن الله هداني لكنت من المهتـــدين**)، أو يقـــول حـــين يظهـــر لـــه العذاب متمنيا أماني خائبة قطعا، لو أعـــود إلـــى الـــدنيا فـــأومن وأســـتقيم، وأكـــون مـــن المحسنين الصالحين. وكل ذلك مما يضاعف عذابـــه جـــزاء إهمالـــه لتفريطـــه فـــي وقـــت السعة .

بيان المعنى العام :

53-قل يا عبادي الذين أسرفوا...إنه هو الغفور الرحيم.

أمر علي من الله الكريم، الغفور الرحيم، لأفضل خلقـــه، وأكـــرم رســـله، أن يقـــوم بتبليـــغ نص ندائه لعباده. إنهم وإن أجرموا وعصوا فهم دائمـــا عبـــاده لا يطـــردهم طـــردا ينفـــيهم عن العبودية لعلي ذاته، إن هذه الإضافة هي أعظم شرف وأبلغ كرامة لهم.

يتوجه نص النداء لكـــل إنســـان باعتبـــاره عبـــدا لـــه ســـبحانه. الإنســـان الـــذي أغـــواه الشيطان، ووسوست لـــه نفســـه الأمـــارة فأشـــرك، أو عصـــى ربـــه وخـــالف أمـــره، واقتحم ما نهاه عنه. فسار في طريق الضلال أشـــواطا. أكثـــر مـــن الـــذنوب والمعاصـــي وتراكم على روحه من ظلامها مـــا حجـــب بصـــيرته عـــن الهـــدى. فـــي هـــذا الضـــياع والظلام يؤمر محمد ﷺ أن يبلغ هـــؤلاء، الـــذين ســـمعوا الزواجـــر وكشـــف لهـــم عاقبـــة العصيان، مما لعله أن يقنطهم ويدخل في مشاعرهم اليـــأس مـــن النجـــاة. أن يبلـــغ نـــداءه سبحانه لهم: لا تقنطوا من رحمتي أنا الله الكـــريم العفـــو الغفـــور؛ رحمتـــي وســـعت كـــل شيء. إن الله لسعة فضله ورأفته بعباده، قادر علـــى مغفـــرة جميـــع الـــذنوب وإن كثـــرت وعظمت. وذلك تبعا لصفتين من صـــفاته القديمـــة الملازمـــة لعلـــي ذاتـــه: هـــو الغفـــور الستار للذنوب، يسحب عليها من مغفرته ما يخفيها بـــه فـــلا يظهـــر لهـــا أثـــر، كـــأن لـــم تكن. وهو الرحيم الذي يرحم عباده الذين يلتجئون إليه فيحـــولهم مـــن اليـــأس إلـــى فســـيح الأمل، ويفتح لهم مسالك الفرج .

54- وأنيبوا إلى ربكم....ثم لا تنصرون.

الآية معطوفة على قوله: "**لا تقنطوا من رحمة الله**"، عطفا يفيد أن تحقق المغفرة والرحمة لابد من الجمع فيه بين الرجاء وبين التوبة، بالتحول عن الطريق، وعن السلوك الذي كانوا عليه، والاتجاه إلى طريق الله وتطبيق شرعه. وبين اعتناق الإسلام بالنسبة لمن كان ضلالهم في الشرك. أسلموا له، فلتكن عقيدتكم أنه هو الله الواحد الأحد، وأنه كلف عباده أن يعبدوه تطبيقا لشرعه الذي عرفهم به نبيه محمد ﷺ . إن التوبة وما عطف عليها لا تفيد صاحبها إلا إذا طهر بها نفسه قبل حلول العذاب. أما بعد نزول العقاب فلا تنفع التوبة. وفيه إيذان وتهديد بأن العذاب قريب منهم فليبادروا بالتوبة قبل مجيئه. وسوف لا تجدون نصيرا ينصركم بعد حلول العذاب الموعود به.

الآيتان تخاطبان البشر جميعا، إن كونهم مخلوقين لله عبيدا له مملوكين له يبقي على خيط يربطهم به، وإن تجاوزوا الحدود في التنكر لفضل الله عليهم والاستهانة بما ضبطه لهم من تشريع، وما أقام عليه الآيات البينات في العقيدة. إن هذا الخيط سوف يبقى ممتدا رابطا لكل مخلوق بخالقه، يحركه ليتعلق به ويعود إلى رحاب فضله. وأول خيط ينضم إلى خيط الخلق، هو خيط الإيمان بوحدة الخالق ذاتا وتصرفا، وبانضمام الإيمان إلى الخالقية يقوى الارتباط، هو العروة الوثقى التي ختمت بها آية الكرسي : (**فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها**). ثم يتكون حول الحبلين الجامعين حبل الخالقية وحبل الإيمان نسيج يشمل الإنسان كله ويسحب عليه الرحمة التي يتبعها سعادة الدنيا والآخرة، وذلك بتطبيق شرع الله وهديه في الحياة وحسن الخلافة في الأرض في علاقته بالكون، وبإخوانه في البشرية وبإخوانه المؤمنين. وبمقدار ما يكون هذا النسيج ملتحما لا ثغرات فيه يتم التوزان في الذات البشرية. والآثام تحدث في النسيج خللا وثقوبا تعرض المتهاون إلى التعري بمقدار ما أفسد. وفي هذا المستوى يفتح القرآن للنفس الآثمة باب التوبة التي ترقع الخلل الذي حصل في الغطاء الإيماني والعملي. هذه التوبة التي لا تتحقق إلا إذا تيقظ الإنسان الآثم إلى خطئه، وعمل على إصلاحه بالتوبة في الوقت الذي تفيد التوبة، وذلك في الدنيا قبل خروج الروح. فإذا لم يستيقظ وأقبل على ربه بإيمان مختلط بين الخير والشر، مع عدم تنظيفه للشر بالتوبة، فأمره إلى ربه إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه بما يطهره من قذارة الآثام التي مات غير تائب منها .

55.واتبعوا أحسن ...وأنتم لا تشعرون.

بعد أن أمرهم بأن يتحولوا من اليأس إلى الأمل والرجاء، وأن يعودوا إلى التعلق به وحده، وأن يسلموا تصديقا لمحمد ﷺ وإخلاصا لعلي ذاته. أوضح لهم أن نجاتهم تلك، تكون بالتزامهم واتباعهم لأحسن ما نزل عليهم من ربهم الذي تولاهم بكريم دعوته، وببيان تفاصيل شريعته. وهذا الأحسن هو القرآن الذي جمع الله فيه الهداية كلها، عقيدة وسلوكا. أسرعوا من قبل أن يحل عليكم عذابه، الذي يأتي بغتة دون سابق إعلام. فيطبق على الضالين في الوقت الذي يظنون فيه أنهم آمنون. يستوي في المفاجأة، عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.

56←58: أن تقول نفس يا حسرتا....فأكون من المحسنين.

أمرتكم بما أمرتكم به، أوضحت لكم طريق النجاة والفوز، لئلا يذهب عنكم وقت الاختيار، أنتم اليوم في سعة من أمركم فأنقذوا أنفسكم قبل فوات الأوان، وعندها تصرخ النفس المفرطة: **يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله.** تشعر عندها بالحسرة البالغة والندامة الشديدة، فتنادي عوامل الأسف لتحضر، لعلها تنفس الكرب التي هي فيه، إذ لم يبق لها ملطف إلا إبداء الأسف. الندامة على تهاوني تهاونا ضيعت به ما كان علي أن أقوم به من طاعة الله والتزام حدوده. والوقت وقت الحق فلا نفاق ولا تخفي فتصرخ النفس الآسفة، بأنها فرطت تفريطا لم يكن ناتجا عن غفلة أو نسيان، ولكن سخرية واستهزاء بما جاءها، وقد تمكن الاستعلاء والسخرية منا. فهم في هذه الآية في موقف الاعتراف والحسرة.

أو تقول بعد إظهار الحسرة كلاما تحاول به التنصل من سيء ما قدموا وهو ما كانوا يحاولون به في الدنيا قطع الدعوة عن أسماعهم، وإفحام النبي ﷺ، على أن الأمر كله بيد الله كما يقول، فلو شاء الله هدايتهم لهداهم . فيظهرونه ليتضاعف عذابهم، لأنهم يقولونه للتصلب فيما هم عليه من الشرك . فموقف النفس هذا موقف الاعتذار البليد .

أو تقول بعد الحسرة والاعتذار مظهرة التمني أن ترجع إلى الحياة الدنيا لتؤمن وتستقيم وتعمل الصالحات فتنقذ نفسها من العذاب . وموقف النفس هذا موقف التمني الذي لا يتحقق أبدا .

بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ
ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى
لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ

تَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

التكبر :شدة الكبر وإظهار التعاظم.

مثوى : مكان إقامة دائم.

المفازة :مصدر بمعنى الفوز والفلاح. ويقصد به الجنة.

الوكيل : القائم على الأمر الكفيل بإكماله .

المقاليد: مفاتيح الخزائن.

آيات الله :دلائل وجوده وكماله.

بيان المعنى الإجمالي:

يسفه القرآن كل ما قدمه الخائب الخاسر من المعاذير والتعلات. فيدمغه ويقول له سبحانه: قد بلغتك آيات كتابي فاخترت تكذيبها وصددت عنها، وحملك الكبر والتعاظم عن اتباع ديني، ورجحت مختارا أن تكون مع الكافرين تتأيد بهم. وسيتميز الذين كذبوا على الله فنسبوا له ما لم يشرعه ونسبوا له الشركاء والبنات والولد، ستكون وجوههم عليها قتام وظلمة تنفر منهم . وبكل تأكيد فإن مقرهم الذي لا يبرحونه جهنم جزاء تكبرهم على الحق. ويَمُنُ الله على المتقين فينجيهم بدخولهم الجنة دار الفوز، التي لا تلحقهم فيها أي مساءة ولا حزن . فهم في كرامة وسرور دائمين فضلا من الله ونعمة. ثم ذكر القرآن حقائق ثلاث على المؤمن أن يكون مستحضرا لها لا تغيب عن وعيه ليصح فهمه للوجود.1(الله وحده هو الخالق وليس لأحد سواه القدرة على الخلق -2(هو المتصرف في كل شيء لا معقب لما يختاره وينفذه)-3(جميع خزائن الخير المعنوي والحسي بيده وحده) إن الجاحدين لهذه الحقائق الثلاث هم الخاسرون حقا في دنياهم وأخراهم .

بيان المعنى العام :

59ـبلى قد جاءتك آياتي ....وكنت من الكافرين.

افتتحت الآية بحرف "بلى" الدال على نفي مفهوم في الكلام السابق إبطالا له وإثباتا لضده. جاء في الآية 57 (لو أن الله هداني لكنت من المتقين)، فتم الرد عليه ردا ناقضا نقضا عاما بقوله: بلى، ثم أتبعه بتفصيل النقض وحدة وحدة. بنقض قوله: لو أن الله هداني، بأن الله قد بعث لك رسوله معه القرآن وآيات صدقه فأعرضت عنها وكذبت بها، فاخترت طريق الغواية. وبنقض قوله: **(على ما فرطت في جنب الله).**

قولك باطل وإنك كاذب في قولك: فرطت كأنك لم تكن قاصدا الإعراض عن هداية الله، إن الحقيقة أنك استكبرت واستعليت. وبنقض قوله لكنتُ من المتقين، بأنك اخترت الكفر، بل أكثر من ذلك اخترت أن تكون في جماعة الكافرين متقويا بكفرهم. فيخلص من ذلك بلى: إن الله أنزل عليك آيات القرآن هادية وبلغها إياك رسوله، فقابلت هدايته بالتكذيب والاستكبار، واختيار الانتساب إلى القوم الكافرين اعتزازا بهم.

60-وينجي الله الذين اتقوا....ولا هم يحزنون.

ردت الآية السابقة على الكافرين معاذيرهم الكاذبة، ويظهر ذلك يوم القيامة. وعطف القرآن على ذلك خطابا لرسوله ﷺ، ولكل من يصح منه الرؤية تبعا، أنه سيشاهد الذين كذبوا على الله، كمن جعل له ولدا أو شريكا أو بناتا، وكمن يقول إذا فعل فاحشة: إن الله أمرنا بها، ونحو ذلك، سيشاهدون متميزين بسمة خاصة، وجوههم تكون مسودة. وهل المراد أن لونها سيكون مسودا؟ أو المقصود أن يعلو وجوههم قتام وظلمة. كما وصفت بقوله: **(ووجوه عليها غبرة ترهقها قترة.)**[1] قال الراغب: وذلك شبه دخان يغشى الوجه من الكذب. وهذا ما أرجحه، لأن سواد الوجه ليس علامة قبح، ولا مظهر عقوبة، فعدد غير قليل من الزنج لهم حظ من الجمال والوسامة غير قليل، وفازت بعض فتياتهم بلقب ملكة جمال العالم، تفوقن على البيض والسمر، والصفر والحمر.

أليس في جهنم ...تقرير في صورة سؤال يلزم المخاطب بمضمونه .إن الذين استكبروا وتعاظموا ورأوا أنفسهم أرفع من اتباع محمد ﷺ والخضوع لأحكام الله، أن مقامهم ومستقرهم جهنم التي يجتمع عليهم فيها العذاب والمهانة. وفي هذه الآية تهديد لمن يشرع حسب هواه وينسب رأيه لله. نقل الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله عن أئمة المالكية: أن الحكم المقيس غير المنصوص عليه المستنبط يجوز أن يقال فيه: هذا دين الله، ولا يقال: هذا قول الله.

61- وينجي الله الذين اتقوا...ولا هم يحزنون.

أعقب القرآن وصف حال المستكبرين من الكدر الظاهر على وجوههم، ومن مقامهم في جهنم إقامة دائمة، أعقب ذلك بما كتبه للمتقين، فأعلم أنه سبحانه يرعى المتقين رعاية تنجيهم من كل الأسواء والمخازي التي تلحق أهل النار. ينجيهم منها بدخولهم الجنة دار الفوز والنجاح والنعيم المقيم. يحل عليهم الأمن الذي قدره لهم،

---

[1] سورة عبس آية 41

فلا يمسهم أي سوء يعكر عليهم نعيمهم، لا في ذواتهم ولا في محيطهم، وبذلك ينتفي عنهم الحزن والأسى انتفاء دائما.

62ـ الله خالق كل شيء .... على كل شيء وكيل.

تثبت هذه الآيات أصولا ثلاثة متشابكة:

الأصل الأول: إن الله هو خالق كل شيء، إن جميع الكائنات سواه عاجزة عن الإيجاد بقدراتها المستقلة. وكل ما هو موجود في الكون في السماوات أوفي الأرض هو الذي أوجده. ولا ينفي هذا مسؤولية الإنسان عن أعماله، فإن المسؤولية تابعة للاختيار الذي مكن الله منه الإنسان. يجري في مناطق التفكير الإقبال والإحجام، ثم يختار المكلف أحدهما فتتوجه إرادته إلى الفعل أو الكف. وهو في هذا المستوى محاسب على ما رجحه، وتقدم لتنفيذه. والله لم يجبره على أحدهما بل أوجد في نفس المكلف الاختيار الذي يحاسبه عليه، بعد ما بين له بواسطة رسله طريق الهداية. إن هذه الآية تركز وتؤكد أن البشر عبيد لله، وأن ما بهم من نعمة فمن الله، ولا تستطيع الآلهة التي يتقربون إليها أن تمكنهم من أي شيء، فليعتمدوا عليه ويفردوه بالعبادة والسؤال.

الأصل الثاني: أن التصرف في الكون هو بيد الله وحده، لا معقب لما ضبطه ونفذه. فنظام الكون عامة، وتسييره على ذلكم النظام هو تحت تصرفه وحده، وما قدره من الجزاء والعون والتيسير هو بيده وحده، فليتجه البشر إليه وحده بالسؤال والدعاء بالتوفيق، بعد أن تبين لهم أنه وحده المتصرف.

63ـله مقاليد السماوات...أولئك هم الخاسرون.

الأصل الثالث: أن كل ما هو موجود من الخيرات، من الخيرات المعنوية ومن الأمور والأشياء التي بها قوام حياة الإنسان وصلاحه، مما هو معدود كالمخزونات النفيسة، التي قفل عليها بمفتاح لا يمكن الاستفادة منها إلا بحل قفلها بذلك المفتاح. إن مفاتيح تلك الخزائن بيد الله، كما جاء في قوله تعالى: (**وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم**)[1] فشملت الآية الهداية التي يكلف بها من يشاء ممن يختارهم لتلكم المهمة، وكل القوى التي بها ينتظم سير العالم وتيسر للبشر حياتهم في هذا الكون ماديا. كل ذلك بيد الله وحده، فاختصاص محمد ﷺ بختم الرسالة، ونشر الحق وهزم الباطل هو من توابع ملكه وحده لمنابع الخير.

[1] سورة الحجر آية **21**

إنه إذا ثبت يقينا تفرد الله بـالخلق، والتصـرف، وأن خـزائن الخيـر بيـده وحـده، فإنـه من لوازم ذلك عقـلا أن الـذين كفـروا بالـدلائل الواضـحة علـى تلـك الخصـائص الثلاث، ومضوا غير ملتفتـين إليهـا، وحجبـوا عقـولهم عـن التأمـل فيهـا، إن هـؤلاء الذين جحدوا آيات الله اختصوا بأنهم هم الخاسرون حقا.

قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

ليحبطن :يذهب ما كان فيه من خير يثاب عليه.

الله فاعبد : اعبده وحده لا تعبد غيره.

بيان المعنى الإجمالي :

عرضوا على النبي ﷺ أن يعبد بعض آلهتهم ويعبـدون هـم إلهـه. إنـه عـرض سـخيف غبي مرفوض رفضا تاما. كيف تـأمروني أيهـا الـذين اسـتولى علـى عقـولكم الجهـل فأصبحتم لا تدركون ما يترتب على أقوالكم، أن أعبد غير الله.

بكل تأكيد، حقيقـة توحيـد الله وعـدم الإشـراك بـه، حقيقـة ثبتـت بالآيـات البينـات، وبالوحي الذي تواصل وتكرر إليك وإلى المرسلين مـن قبلـك، وأن الشـرك يحـبط كـل عمل خير ويمحوه، وينتهي بصاحبه إلى الخسران الـذي لا يبقـى لـه علـى أي حسـنة. لا تعبد أحدا إلا الله وحده. وكن شاكرا لفضله على ما وفقك ويسرك له من الهداية.

بيان المعنى العام :

64ـقل أفغير الله تأمروني...أيها الجاهلون.

نقض النبي ﷺ جميع شبهات المشـركين، وأبطـل كـل مـا احتجـوا بـه، فغُلِبُـوا ولـم يجدوا ما يبررون به شركهم، فعمدوا إلى إغـراء النبـي ﷺ باتخـاذ حـل وسـط يقـرب مسافة ما بينهم من الاختلاف : أن يقدس بعـض آلهـتهم فيعبـدها، ويقدسـون هـم إلهـه، فتجتمع الكلمة. فقنَّطهم من النظر فـي هـذا العـرض، وصـرح بأنـه مرفـوض رفضـا كليا، وأنكر عليهم إنكارا غليظا أن يأمروه بعبـادة غيـر الله، إذا لا يعقـل أن يكـون بعـد ما بسطه من دلائل التوحيد أن يسـاوموه فـي ذلكـم المبـدأ. ثـم عـنَّفهم بـأن عرضـهم عرض الجاهلين الذي لا علم لهـم. لقـد اسـتولى علـى عقـولكم الجهـل فأصـبحتم لا تقدرون ما يترتب على أقوالكم من تناقض يستحيل تصوره.

65←66: ولقد أوحي إليك ...وكن من الشاكرين.

ثم بالغ في تيئيسهم، وكشف سخفهم بالإعراض عنهم، وإعلان الحقيقة المتكررة مع الزمن، الحقيقة التي هو وحي من الله، وحي توجه به رب العزة إليك وتوجه به إلى الرسل قبلك. وحي هو خيط جامع بين جميع المرسلين من نوح إلى كل رسول جاء من بعده، وإليك: أن الشرك يقضي على كل عمل خير وينقضه نقضا لا يبقي له أثرا، وبالتالي يكون المشرك خسر الخسارة التي ما بعدها خسارة. يذوب كل صلاح قدمه كما يذوب الجليد بوهج الشمس. فإذا كانت هذه الحقيقة تكررت على سمعك وعلى الرسل من قبلك، فمحاولة المشركين زعزعة التوحيد الثابت الأركان في قلبك هو ضرب من البلادة والغباء. وليعلم البشر أن الشرك يقترن به قطع الصلة بالله وحرمان المشرك من الرحمة حرمانا أبديا سرمديا. وهذا ينسحب على كل إنسان وحتى على سبيل الفرض المحال أعلى الناس درجة في القرب مني .

اترك كل أقوالهم واثبت على إفراد الله بالعبادة، واشكره على ما وفقك إليه، وعلى ما خصك به من نعم كنت بها خاتما لرسالاته إلى البشرية.

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ
مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن
فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ
يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ
وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا
يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا
وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ
يَوْمِكُمْ هَـٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ٱدْخُلُوٓا۟
أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

حق قدره :قدره الحق.

قبضة : المرة من القبض.

بيمينه : بقدرته.

الصور : أصله بوق ينفخ فيه فيحضر كل فرد من الجيش عند سماع صوته.
صعق :خر ميتا.
إشراق الأرض : انتشار الضوء ووضوح الرؤية.
وضع الكتاب : أحضرت صحائف الأعمال.
الشهداء : الذين يشهدون.
وفيت : إعطاء الشيء وافيا غير منقوص.
ما عملت :جزاء عملها .
زمرا: جمع زمرة، الفوج المتبوع بفوج آخر.
الخزنة : جمع خازن، وهم الوكلاء بجهنم.
آيات ربكم : الأقوال الموحى بها إلى رسلهم من ربهم.
كلمة العذاب : الوعيد.
المثوى : محل الإقامة.

بيان المعنى الإجمالي :

قصرت عقول المشركين عن فهم عظمة القدرة الإلهية فاستعظموا أن يكون مالكا للسماوات والأرض ولذخائرها. فحقق القرآن أن السماوات والأرض على ما هي عليه من أبعاد يعجز العقل البشري عن تحديدها، سوف يطوي سبحانه تلك الأبعاد يوم القيامة فتطيعه، وتحقق قدرته ما أراد، فهي شبيهة بالقابض على شيء بيمينه لا يفلت منه شيء ولا يخرج عن قبضته. تنزه ربنا وتعالى عما يتصوره المشركون. ومما يتصل بإفناء الكون أنه ينفخ في الصور، بوق خاص لا يعلمه إلا الله، نفخة أولى يخر بسماعها كل من في السماوات والأرض إلا من شاء الله . ثم بعد أمد قدره الله يعاد النفخ في البوق فتنبعث الكائنات التي صُعِقت في النفخة الأولى ومن مات قبل ذلك، تبعث للحياة فَجْأة، وقد توفر لها جميع مداركها فهي قائمة تنظر، وتتعرف.

يقوم المبعوثون على أرض المحشر التي هي غير أرض الدنيا. وقد أشرقت بنور من رب العزة لا يخفى معه أي كائن. ويجمع الباري سبحانه كل وسائل المحاكمة العادلة للموقوفين. سجلات الأعمال، الأنبياء والمرسلون، الملائكة الحفظة. فلا يستطيع أي فرد الإنكار ولا التأويل والاعتذار. ويتم القضاء العادل من الله الحكم العدل. ويستوفي كل فرد جزاء ما قدم، ويرتفع الظلم تماما. ولا يخفى على الله شيء من أعمالهم لا في ظاهرها ولا في النوايا التي انبعثت منها الأعمال، فيذهب كل زيف غطى الحق في الدنيا.

صدر الحكم العادل، فدفع المحكوم عليهم جماعات متتابعة، دفعوا إلى جهنم. ثم إنهم عندما وصلوا إليها استقبلتهم مشوقة إليهم، ففتحت لهم أبوابها. وكان تقريع حفظتها لهم أول ما يؤلمهم. قالوا لهم: ألم يبعث الله لكم رسلا تعرفونهم، نشأوا بين أظهركم، تعرفون صدقهم وشهامتهم واستقامتهم، أبلغوكم ما نزل عليهم من الآيات البينات الدالة على التوحيد والخير، وحذروكم العذاب الذي وجدتموه في يومكم هذا ابتداء من الوقوف موقف الذل إلى الحساب والحكم ؟كان جوابهم فعلا قد وقع كل ذلك، ولكنا أعرضنا واستكبرنا وكذبنا، فحق علينا العذاب الذي وُعِدْنا به الذي نحن فيه. أما وقد استُوفِيَتْ جميع الإجراءات، صدر الأمر الذي لا يقدرون على رفضه: ادخلوا أبواب جهنم، لتخلدوا فيها وتقيموا إقامة أبدية .وإنها أسوأ إقامة للمتكبرين عن قبول هداية المرسلين .

بيان المعنى العام :

67ـ وما قدروا الله...وتعالى عما يشركون.

لفتت الآيتان 63/62 الأنظار إلى تفرد الله بالخلق، وأنه مختص بالتصرف في مكنونات خزائن السماوات والأرض. وزيفت ما يعبدونه من دون الله. فكان من عناد المشركين أن شككوا في انفراد القدرة الإلهية بهذه القوة التي بها يتصرف في كل شيء في الكون مستعظمين ذلك. فبينت هذه الآية أن قصور المشركين الذهني، وعدم تأملهم في آيات الله في القرآن والآفاق، هو داؤهم الذي ترتب عنه هذا الإنكار، وأعماهم عن قدرته سبحانه التي لا تحد بحدود. تثبت الآية بكل تأكيد: أن بقاء نظام الكون أرضِهِ وسماواته هو بقدرته يُجريه إلى أجله الذي أجله له. فإذا جاء يوم القيامة ترى الأرض وما تحويه، والسماوات على سعة آفاقها وامتداداتها، ترى كل تلك الضخامة وتلك الأبعاد قد طويت، تحكمت فيها القدرة الإلهية فاختل تركيبها، وذهبت القوانين التي كانت تقضي بامتدادها، ذهبت جاذبية الأرض فانهار كل ما تحمله على ظهرها أو في باطنها، وخسف الشمس والقمر وبقية الكواكب والمجرات فتقلصت الأبعاد، وانقادت لحكم خالقها فأصبحت طائعة لما أراده منها فهي تحت تصرفه وقدرته. نفذت فيها الإرادة وحققت القدرة ما تعلقت به الإرادة الحكيمة. فهي كشيء ضئيل يقبض عليه باليمين. إنه لا يمكن أن تفهم الآية على أن لله يمينا يمسك بها، ولكن الآية تصور بما تساعد عليه اللغة القدرة العظيمة لله التي تصرفت في السماوات والأرض تصرف من يمسك الشيء بيمينه فلا يفلت من يده.

إن ذلكم التصرف العظيم، والقدرة التي تهوّن كل عَصِيٍّ على البشر، تدعو كل كائن أن يسبح منزها ربه عن كل نقص، وأن يقرن التسبيح بالحمد والثناء على كمالاته، تعالى سبحانه عما يقوله المشركون، وعما يتصوره الجاهلون.

68.ونفخ في الصور...قيام ينظرون.

فصلت الآية بعض ما يحدث في الكون عند تعلق الإرادة بإفناء الكون وطي السماوات والأرض واختلال نظامهما. قَرَّبَ ما يحدث للبشر بصورة الجيش عند تفرق أفراده، فإنه ينفخ في بوق يعلو صوته ويبلغ مسامع كل فرد فيستجيبون له ويحضرون في مواقعهم. إلا أن هذا الصوت المدوي ينبعث مرتين مرة للإفناء، فبمجرد ما ينفذ الصوت إلى الأسماع يموت كل سامع له في الأرض أو في السماء. واستثنى القرآن إلا من شاء الله. والمستثنى لم يعين، ولا نجازف بتعيينه فالله أعلم بمراده. ولا يتعلق بمعرفته على التحديد كبير فائدة. وذكر السدي أن المستثنى جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت، ثم إن الله يميتهم بعد النفخة الأولى .

ثم ينفخ فيه النفخة الثانية بعد مدة من النفخة الأولى على ما يفيده العطف بحرف "ثم". والأمد بين النفختين لا دليل على تعيينه. إلا أن هذه النفخة يترتب عليها عكس ما ترتب على النفخة الأولى، فعندها تسري الحياة في جميع الموتى من مات بالصعقة الأولى، ومن مات قبل ذلك. وفي لحظة واحدة يقومون فَجْأَةً تعود إليهم جميع حواسهم ومداركهم. تتقلب أبصارهم فيما حولهم.

69←70: وأشرقت الأرض....بما يفعلون.

يقف الذين سرت فيهم الحياة من أهل السماوات والأرض على أرض المحشر. وهي قطعا غير الأرض التي كان يعيش على ظهرها البشر في الدنيا، لأن تلك قد طويت وذهبت، ولكنها الموقف الجامع لجميع الخلائق يقفون فيه. وقد أشرقت الأرض بنور عظيم منبعث منه يلقي بضيائه، فينكشف كل شيء انكشافا لا ساتر له. نور من الله لا بواسطة كوكب ولا بقوة أخرى .

بلغ المشهد من الوضوح المادي ما تهيأ به لكشف كل ما عمل المبعوثون على إخفائه وستره. تحضر صحائف الأعمال، مسجل بها تسجيلا دقيقا ما عمله كل فرد من خير أو شر. ويزداد المشهد مهابة بحضور الأنبياء والمرسلين ليشهدوا على أممهم، فلا يستطيع أي موقوف إنكار أنه بلغه الوحي والهداية على لسان رسوله. ويحضر الشهداء، الملائكة الذين وكلوا بمراقبة أعمال كل فرد في حياته وتسجيلها. أحضرت السجلات التي لا يستطيع صاحبها إنكار شيء منها، حضر الأنبياء والرسل يشهدون بأنهم بلغوا، حضرت الملائكة الذين كانوا موكلين بكتابة كل ما صدر عن المسؤول. توفرت أركان الحكم العادل الذي لا ظلم فيه، مشرقا كإشراق الأرض التي يجري فيها الحكم. هو الحكم الحق العادل الذي لا يُظلم فيه أحد. ينتصف المظلومون من الظالمين. ويُخزى المشركون والكفرة بشركهم. يوفِّي الله

العادل كل نفس بجزاء ما كسبت من الخيــر أو الشــر فــي دار التكليــف، فــي علاقاتهــا بالله وبالرسل وبالكون وببعضهم البعض. وفــوق كــل ذلــك: إن الله يعلــم الحقيقــة علمــا لا يخفى عليه شيء من النوايا أو الظواهر.

فعلى كل إنسان أن يستعد لهذا اليــوم الــذي تنشــر فيــه صــحائف الأعمــال، وتتكشــف النوايا، يوفّى الظالمون جــزاءهم نكــالا ونقمــة، ويــوفى الصــالحون أجــورهم كرامــة وعزة. وما يظلم ربك أحدا. جعلني الله وإياكم ممن اهتدى ووسعته رحمته.

71←72: وسيق الذين كفروا ...فبئس مثوى المتكبرين.

تنفذ الأحكام العادلة إثر صدورها، فيتحول الذين كفــروا عــن موقــف الحكــم ويســاقون سوقا من خلفهم، يتوالى عليهم فــي مســيرتهم الإزعــاج والمهانــة، بســبب كفــرهم إلــى جهنم جماعات تتلوهــا جماعــات. يصــلون إلــى جهــنم دار إقــامتهم التــي مــا كــانوا يعرفونها معرفة المشاهدة. كانت جهنم منتظرة لهم، فبمجــرد مــا يبلغــون حــدودها تفــتح أبوابها جميعــا فيفــاجؤون بمنظرهــا المفــزع وبشــدة لهيبهــا. وتنطلــق خزنــة جهــنم الموكلون بها يقررونهم ليصرحوا بسبب مصيرهم إليهــا. يســألونهم بمــا بعمــق خــزيهم، يقولون لهم: لماذا صرتم إلى هنا، أتنكــرون أن الله قــد بعــث لكــم رســلا نشــأوا بــين أظهركم، تعرفون صدقهم واستقامتهم، وكمــال أخلاقهــم، بــذلوا جهــدهم لبيــان الآيــات التي أنزلها عليها ربكم، فهم يقرأونها على مسامعكم ويتولــون تفصــيل مــا تضــمنته مــن هدى، وتولوا إنذاركم: أنكم إن لــم تؤمنــوا وتســتقيموا فســيكون مصــيركم هــذا اليــوم الذي كشف فيه حسابكم وحكم عليكم بــالجحيم ؟ قرَّعُــوهم بمــا ضــاعف النــدم المهَــرِّي لنفسياتهم، ولم يجدوا بدا من الاعتــراف. فقــالوا بلــى! جاءتنــا الرســل ولكنــا أعرضــنا عنهم استكبارا وعنادا وتعلقا شديدا بمغريات الحيــاة الــدنيا، فحــقّ علينــا الجــزاء الــذي أنذرونا به، وصدقوا فيما أوعدونا به . ووقفــوا أمــام الحكــم العــدل، وكشــفت صــحائف أعمالهم، وتأكدت مسؤوليتهم عما قدموا، وصدر الحكــم، وســاقهم الموكلــون بهــم لينفــذ فيهم الحكم، وقبل التنفيذ أعلنوا صراحة عن كامــل مســؤوليتهم؛ فســمعوا صــوتا التنفيــذ العاجل: ادخلوا أبواب جهنم لتــتلقفكم نارهــا وســعيرها، فــإنكم مقيمــون بهــا إقامــة لا ترفع عنكم .إن مقركم في جهنم هو أسوأ مقر.

وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ﴿٧٣﴾ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي صَدَقَنَا وَعۡدَهُۥ وَأَوۡرَثَنَا ٱلۡأَرۡضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلۡجَنَّةِ حَيۡثُ نَشَآءُۖ فَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ

﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٧٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

طبتم : دعاء لهم بما يوافق، بطيب أوضاعهم طيبا يجعلهم في أكمل وضع وأليقه.

صدقنا وعده : حقق لنا وعده.

وأورثنا: مكننا بفضله من مقامنا تمكينا لا زوال عنه.

نتبوأ : نحل ونسكن في فسيح الجنة حيث نريد .

حافين : محدقين حاضرين حوله .

بيان المعنى الإجمالي :

بعد صدور الحكم العادل الفصل المكرِّم للمتقين بفوزهم، يسوق مراكبَهم الموكلون بهم إلى مصيرهم، إلى الجنة جماعات جماعات مؤلفة قلوبهم. حتى إذا وصلوا إليها شاهدوا من الفضل والنعيم ما يتجاوز الوصف. وقد تفتحت لهم أبوابها شأن الأعزة لا يقفون عند الأبواب بل يجدونها مفتوحة معدة لاستقبالهم. يسمعون من خزنة الجنة هذا السلام الرخي الندي: سلام عليكم وأمن دائم لكم طبتم فذهب عنكم كل رجس وكل أثر من آثار المعاصي .فادخلوا الجنة خالدين فيها بينكم وبينها تمام التناسب من الطهر. وعندها يتوجه المكرمون لله فيقولون: الحمد لله الذي حقق لنا ما وعدنا، وجعل مأوانا في الجنة ننتقل فيها حيث نشاء، ما أكرم أجر العاملين أجرا.

وترى يا محمد وأنت في موقع الشرف والإشراف الملائكة محيطين بعرش الله منغمسين في التسبيح. فقد تم القضاء الذي كله حق بين المخلوقات. والصوت الذي يعلو في المشهد: **الحمد لله رب العالمين**.

بيان المعنى العام :

73ـ وسيق الذين اتقوا ربهم...فادخلوها خالدين

يلاحظ أن التعبير عن تحول المكرمين بالجنة أتى على وزان الذين كفروا، فكلاهما سوق، وجماعات جماعات. والذي يبدو والله أعلم أن سوق الكافرين سوق عنف وعذاب ومهانة، حفاة يدفعون دفعا، كما يدفع بالمقبوض عليهم من المحاربين المفسدين في الأرض. وسوق المكرمين سوق مراكبهم إلى الجنة شأن من يشرف ويكرم في الدنيا. ولدار الآخرة خير .

حتى إذا جاؤوها : بدا لهم ما أعد لهم من الكرامة والنعيم، ومن الفضل الذي لا يحد، مما يفوق الوصف وتقصر عن الوفاء بكنهه اللغة .ولذا عبر بأن الحال أن

أبوابها مفتحة تنتظرهم كما جاء في قوله تعالى: **(جنـات عـدن مفتحـة لهـم الأبـواب)**[1] وتبدأ مظاهر حسن الوفادة والتقدير بمخاطبة خزنـة الجنـة لهـم: الأمـن علـيكم تطهـرتم وطبتم من دنس المعاصي ودرن الخطايا .صفحتكم بيضـاء نقيـة تشـاكل المصـير الـذي حللتم فيه. ادخلوا الجنة خالدين لا تخشون مفارقتها أبدا

74ـوقالوا الحمد لله ....فنعم أجر العاملين.

هذه النفوس التي زكيت وتطهرت وسمت، هـي نفـوس متعلقـة بـالله مستشـعرة فضـله تأنس بالتوجه إليه بالثناء، فبمجرد حلولهم بالجنة توجهوا إلـى علـي مقـام ربهـم بالثنـاء الذي هو أهله ومستَحِقُه فقالوا الحمد لله الذي حقق لنـا مـا وعـده ومكننـا تمكينـا أبـديا من أرض الجنة ننتقل فيها حيث نشاء دون تضييق ولا منـع .ثـم امـتلأت نفوسـهم مـن الرضا باستحضار ما هم فيه من نعيم فعبروا عنـه تعبيـر الشـكر : مـا أحسـن وأكمـل أجر العاملين أجرا.

75ـ وترى الملائكة حافين....الحمد لله رب العالمين.

ويختم المشهد كمـا تخـتم السـورة، بالمقـام العزيـز لسـيدنا محمـد ﷺ، فيخاطبـه رب العزة: إنك تكون يـا محمـد بالمقـام المشـرف الـذي تشـاهد فيـه الملائكـة محـدقين بالعرش، منغمسين في نعيم التسبيح والتمجيد لـربهم الـذي تتـوالى علـيهم منـه العنايـة والألطاف. وتم القضاء بين الخلائق جميعا. وتسمع قـولا يمـلأ صـداه المشـهد وتسـري نغماته الندية الرضية في الآذان والفضاءات الشاسـعة غيـر المحـدودة : الحمـد والثنـاء والمجد والسناء لله رب العالمين.

15 شوال 1434 الموافق لــ 22 /2013/08

---

[1] سورة ص آية 50

سورة المؤمن

روي تسمية هذه السورة بأحد الأسماء الأربعة التالية. ففي صحيح الترمذي عن أبي هريرة قال :قال رسول الله ﷺ (من قرأ حم المؤمن ...) ووجه تسميتها بذلك الجمع بين فاتحتها وما ذكر فيها من قصة مؤمن آل فرعون بصفة صريحة. وفي مصاحف المشرق (المؤمن) وفي مصاحف المغرب (غافر) أخذا من فاتحتها: الحمد لله غافر الذنب. كما كانت تسمى بسورة الطّول أخذا من قوله فيها (شديد العقاب ذي الطول) وهي سورة مكية وترتيبها حسب ترتيب المصحف الأربعون. وحسب ترتيب النزول الستون. نزلت بعد سورة الزمر وقبل سورة فصلت. وهي السورة الأولى من السور المفتتحة ب حم. وهي سبع ويدعى مجموعها (آل حم) كما جمعت بلفظ الحواميم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغۡرُرۡكَ تَقَلُّبُهُمۡ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٤﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۖ وَهَمَّتۡ كُلُّ أُمَّةِۭ بِرَسُولِهِمۡ لِيَأۡخُذُوهُۖ وَجَٰدَلُواْ بِٱلۡبَٰطِلِ لِيُدۡحِضُواْ بِهِ ٱلۡحَقَّ فَأَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

التوب : الرجوع إلى أمر الله .

الطول: الفضل، أو القدرة.

يجادل: يثير الشبه الباطلة ويطعن.

الغرور: ظن الشيء على خلاف حقيقته.

تقلبهم في البلاد : تمتعهم بالمساكن والمزارع والأسفار في الدنيا.

الأحزاب : جمع حزب الجماعة المتفقة على عمل أو اعتقاد.

همت: عزمت.

ليأخذوه : ليسلطوا عليه العذاب.

فأخذتهم : نكلت بهم.

إدحاض الحق: إبطاله.

كلمات ربك : وعيده الذي أنذر به المرسلون أقوامهم

بيان المعنى الإجمالي :

هذه هي السورة الأولى من السور السبع المتوالية المفتتحة بـ "**حم**" في القرآن. ويقال فيها ما قيل في نظائرها. القرآن منزل من عند الله. **ما على الرسول إلا البلاغ**. بلغ من قوة الحجة أنه عزيز عزة منزله، يعجز المعارضون عن إبطال حججه. انتفى عنه كل مخالفة للواقع بما أنه أنزل من العليم. اتصف سبحانه منزله بأنه الغفور الماحي للذنوب .القابل لتوبة التائبين فيجمع لهم بين ثواب التوبة وتنقية الصفحات من درن الآثام. وهو أيضا شديد العقاب لمن أعرض وتصلب في كفره. وهو صاحب القدرة التامة بها ينال المكرمون الخير، ويتسلط العقاب على المستكبرين الكفرة. تفرد بالألوهية، وإليه وحده دون سواه مصير المكلفين ليجزي الذي أحسنوا واستغفروا وتابوا ويعذب الذين أعرضوا.

إن آيات ربك لوضوحها وقوتها لا يجادل فيها ويحاول إبطالها إلا الذين تمكن الكفر من عقولهم، وأظلمت أرواحهم. فإياك أيها المؤمن أن تغتر بما أوتوه من متاع الحياة الدنيا، فتتوقع أن الرخاء في الدنيا سيتبعه سعادة في الآخرة. إن تكذيبهم لرسولي محمد كان سنّة المرسل إليهم في تاريخ البشرية. فقد كذب قبلهم قوم نوح وكذبت الأحزاب، بل إن كل أمة منهم أعدت المؤامرات للإيقاع برسولها. ولبسوا الحق بالباطل فخدعوا الدهماء بزيفهم فصرفوهم عن الحق، فنكلت بهم تنكيلا. فانظر كيف كانت شدة عقابي ! وكما حق عليهم الوعيد في الدنيا، فإن وعيدهم بعذاب النار يوم القيامة لا يفلتون منه.

بيان المعنى العام :

1-حم.

افتتحت السورة بحرفين – حا- ميم- وقد تقدم الكلام على هذه الفواتح في القرآن .

2-تنزيل الكتاب...العزيز العليم.

فاتحة هذه السورة قريبة من فاتحة سورة الزمر. ففي السورتين تنويه بالقرآن، والتأكيد على أنه منزل من عند الله العزيز العليم. وذكر الوصفين: العزيز تنبيه

على أن كلامه تضمن من الحجج الصادقة، ومن الحـق الواضـح مـا جعلـه أقـوى مـن أن يبطله الجاحدون أو يحرفه المغرضون .وبوصف العلـيم تنبيـه علـى أن مُنزلـه يعلـم الغيب والحاضر، فمن أراد أن يكون مطمئنا فـي معلوماتـه فـإن هـذا الكتـاب لا يوقـع متبعه في الجهل ولا في الضلالة .

3.غافر الذنب....إليه المصير.

واصلت هذه الآية تسجيل الصفات الأزلية لله فذكرت أوصافا أربعة:

أ-**غافر الذنب**. صفة أزلية ملازمـة دالـة علـى أنـه هـو الـذي يمحـو الـذنوب كـأن صاحبها لم يقترفها. فيذهب ما في صـفحته مـن سـوء وسـواد. تنسـحب هـذه الصـفة على الماضي والحاضر والمستقبل.

ب- **قابل التوب** .يقبـل توبـة التـائبين. فيثيـبهم علـى حسـن تـوبتهم باعتبـار التوبـة استجابة للأمر بواسطة العزم والتنفيذ فهي طاعة بدون شـك. وبـذلك جمـع القـرآن بـين وصفين ثابتين أزليـين لله. المغفـرة والتوبـة. وإن كـان حسـب الترتيـب فـي الوقـوع تسبق التوبة الغفران، إلا أن نكتـة التقـديم تعجيـل البشـارة بـالمغفرة . ويحصـل بهمـا معا إدراك الإنسان لسعة فضل الله، فهو يمحـو سـيئاته، ثـم يسـجل ذلـك حسـنات فـي صحائفه. والله ذو الفضل العظيم. وقد روي أن رجلا جـاء إلـى عمـر بـن الخطـاب ﷺ فقال: إني قتلت، فهل لي من توبة ؟فقال نعم ! اعمل ولا تيأس ثـم تـلا هـذه الآيـة إلـى قوله تعالى:(**وقابل التوب**) ونقل الزمخشـري: أن عمـر بـن الخطـاب رضـي الله عنـه افتقد رجلا ذي بأس شديد من أهل الشام، فقيل له: إنه تتـابع فـي هـذا الشـراب .فقـال عمر لكاتبه: اكتب، من عمر إلى فلان. سلام عليك، وأنـا أحمـد الله إليـك الـذي لا إلـه إلا هو. بسم الله الرحمن الرحيم. حم إلـى قولـه تعـالى إليـه المصـير، وخـتم الكتـاب وقال لرسوله: لا تدفعه إليه حتى تجده صاحيا. ثم أمر مـن عنـده بالـدعاء لـه بالتوبـة. فلما أتته الصحيفة جعل يقرأها ويقول: قـد وعـدني الله أن يغفـر لـي وحـذرني عقابـه. فلم يبرح يرددها حتى بكى ثم نزع فأحسن النـزوع، وحسـنت توبتـه. فلمـا بلـغ عمـر أمره قال: هكذا فاصنعوا، وإذا رأيتم أخـاكم قـد زل فسـددوه ووفقـوه، وادعـوا لـه إن الله يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانا للشيطان عليه.

ج- **شديد العقاب** : هذا هو الوصف الثالث في الآية، وهـو جـار علـى المـنهج القرآنـي في الجمع بين البشارة والتهديـد. إصـلاحا للنفـوس المختلفـة. والله موصـوف بالرحمـة الواسعة لمن لانت نفسه للتقوى وموصوف بشدة العقـاب لمـن اسـتكبر وطغـى معرضـا عن هدايته.

د- **ذي الطول** : وكلمة الطول يمكن فهمها على أن الله قـادر علـى تعجيـل العـذاب لهـم في الدنيا. فيكون مدلولها مقترنا بالوصف المتقـدم (**شـديد العقـاب**) فيكـون التحـذير قـد تم بوصفين، والبشارة بوصفين .ويمكن حمـل ذي الطـول علـى سـعة القـدرة الإلهيـة فيمحو الذنوب ويبدلها حسنات، وينكـل بـالمجرمين .وهـو القـادر فـي الحـالين القـدرة التي تنفذ ما أرادت في الثواب أو العذاب.

تأكد التصرف الإلهي في المكلفين بأنه هـو الإلـه الواحـد لا يشـاركه أحـد فـي ملكـه. صرحت الآية في خاتمتها بالتنصيص علـى البعـث وأن النـاس جميعـا صـائرون إلـى حكمه فيظهر تصرفه بالمغفرة والتوبة، وبشدة العقاب.

4. ما يجادل في آيات الله...تقلبهم في البلاد.

سجل القرآن على الكفرة أنهم حاولوا الاعتـراض علـى القـرآن وقصـدوا إلـى الطعـن فيه، كقولهم: (**إنما يعلمه بشر**)، طلـبهم أن يُنَـزِّلَ القـرآن كتابـا مكتوبـا مـن السـماء. وقولهم: كاهن وشاعر. هي تلفيقـات باطلـة كاشـفة عـن عنـادهم .ولمـا كـان القـرآن منزلا من العليم كما بيناه في الآية السـابقة، فـلا يشـغب فيـه بالجـدال إلا مـن طمـس الكفر على بصيرته، وتصلب في العنـاد. وهـذا نظيـر قولـه تعـالى: (**ويجـادل الـذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق**)[1]

لما كان من سنة الله أنه لا يحرم الكافرين مـن متـاع الحيـاة الـدنيا، وأنـه يمهلهـم بمـا يمكنهم من زخرفها، وبما أن الأنظار تتجـه لمـن يرفـل فـي النعـيم، بحسـن المسـاكن وكثرة الأولاد، وتنوع الأموال، ووفرة الخـدم والأتبـاع، وقـد جمعـت قـريش بتجارتهـا الموفقة ما جمعـت، فلـذلك نبـه القـرآن المـؤمنين أن لا يعجبـوا بمـا أوتيـه الكفـرة المجادلون من النعـيم الزائـل عـن قريـب. وأن لا يظنـوا أن الإمهـال رضـا، ولا أن مصيرهم سيكون على نحو ما هم عليه في الدنيا، فإن ذلك فتنة.

5.كذبت قبلهم قوم نوح...فكيف كان عقاب.

هذه الآية تكشف عن سنن الأمم الماضية فـي تكـذيب رسـلهم ومقـاومتهم، وعـن سـنة الله في المكذبين. فسجلت الآية أن موقف قـريش بتكـذيبهم لـك قـد سـبقهم إلـى مثـل عنادهم وصدودهم عن الحق قوم نوح والأحزاب الذين ذكروا في سورة ص

كذبت قـبلهم نـوح وعـاد وثمـود وفرعـون ذو الأوتـاد (11) وثمـود وقـوم لـوط وأصحاب ليكة أولئك الأحزاب (12) ولم يقتصـروا علـى التكـذيب، بـل تجـاوزوه إلـى عزمهم على الانتقام من رسولهم بالتعـذيب والقتـل، فحـاكوا المـؤامرات وكانـت عـين

[1] سورة الكهف آية56

الله ترصدهم فَنَكَّلَتْ بهم مستأصلا. وفي ذلك تلويح بأن العذاب سينزل بقريش إذا هموا بقتل رسول الله ﷺ . وكذلك كان فإنهم لما عزموا على قتله أحاطه الله بألطافه حتى وصل إلى المدينة، وركز فيها أركان الدولة الإسلامية، وانتقم الله من قريش في غزوة بدر وما تلاها حتى فتح المسلمون مكة.

و جادلوا بالباطل : زوروا الحقيقة فقلبوها إلى باطل وزيف، عن قصد، وصوروها بصورة الكلام المعقول الذي لا يستطيع الكشف عن حقيقته الدهماء، ووصلوا بذلك إلى إبطال الحجج الصحيحة التي تضمنتها الآيات المنزلة. لم أهملهم بل أخذتهم فنكلت بهم . فتأمل كيف كان عقابي، الدرجة المبيدة من النكال، كما تشاهده في آثار ديار قوم لوط وثمود.

6ـ وكذلك حقت .....أصحاب النار.

و كما نفذ الوعيد على الكافرين المكذبين من الأمم السابقة فتم استئصالهم وتخريب ديارهم، فكذلك صدق وعيد ربك على الذين كفروا في كل زمان أن مصيرهم إلى النار. أوعدهم رسلهم بذلك وصدق وعيد الله عليهم في الآخرة .

ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٩

بيان معاني الألفاظ:

الجحيم : اللهب الشديد .

و سعت :لك الرحمة الشاملة والعلم الذي لا يخرج عنه شيء.

عدن: الإقامة والخلود.

بيان المعنى الاجمالي :

الملائكة الذين أوكل الله إليهم حمل عرشه، والملائكة المحيطون به، وهم جميع على قرب معنوي شديد من رب العزة، وهم مستغرقون في التسبيح والتمجيد، صفا إيمانهم ورسخ، ألهمهم الله أن يقدموا بين دعائهم، تمجيد الذات الإلهية بأن رحمته لا حد لها، فقد شملت كل حي في الدنيا، وأن علمه تعلق بكل ما هو كائن من الجماد والحيوان والإنسان، والمادة

والمعاني. ألهمهم أن يطلبوا المغفرة للذين تابوا من المؤمنين، فالتزموا ما شرعته وانتهوا عما نهيتهم عنه وساروا في حياتهم على الطريق الذي بينته لهم على لسان رسولك. ربنا احفظهم بوقاية تحميهم من لهب النار الموقدة نار جهنم في الآخرة. ثم واصلوا دعاءهم للمؤمنين التائبين أن يدخلهم جنات الإقامة والخلود، وأن يلحق بهم الصالحين من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم فيقربهم من منازلهم، وإن كانوا لم يبلغوا من الصلاح مبلغهم، لتتم نعمتك عليهم، فإنك ربنا أنت الموصوف بالعزة التي لا يعجزها شيء، الحكيم الذي يجري الأمور على أتم ما يكون. واجعل ربنا بينهم وبين كل ما يسوؤهم، من الأسف والحزن، وقاية تحميهم. فإن من تحميه من الأسف والحزن وتُحِل في نفسه الرضا هو الفائز حقا الفوز العظيم.

بيان المعنى العام :

7-الذين يحملون العرش ....وقهم عذاب الجحيم.

ذكر في فاتحة هذه السورة خمسة أوصاف لازمة لله- **العزيز -العليم- غافر الذنب -قابل التوب -ذي الفضل العظيم** .وبهذه الصفات يطمع المؤمنون في تكريم ربهم والفوز برضوانه. فأكدت هذه الآية أن رجاءهم محقق. فإنه زيادة على ما وصف الله به نفسه، فإنه ألهم ملائكته المقربين الاستغفار للمؤمنين والدعاء لهم.

أشد الملائكة قربا من ربهم هم حملة عرشه ومن حوله. ولما كان الله منزها عن المكان وعن الحدود، فإنه لا يصح بحال من الأحوال ما يقال من تجسيم لعرشه وأبعاده المكانية وتشخيص قوائم له من نفائس الجواهر. كل ذلك لا تَلْتَفِتْ إليه أيها المؤمن واجزم بأن الله له عرش لا يعلم كنهه إلا هو. هو عظيم يتجاوز في عظمته التصور والخيال. وأن الله أوكل بعرشه ملائكة مقربين يحملونه، والحامل كالمحمول ليس من نوع الثقل المادي الذي هو نتيجة جاذبية الأرض لما فوقها. فنزه ربك عن مسارح الخيال البعيد بعدا تماما عن الحقيقة. بل المناقض للعقل .

الذين يحملون العرش، والملائكة الذين هم حول العرش، مستغرقون في تسبيح الله وتنزيهه عن كل نقص، مدركون لعظمته، انغرس الإيمان فيهم، فهم بنوره الذي لا تشوبه شائبة من الذهول أو عدم الوضوح، تفتح لهم آفاق المعرفة، ويحصلون على لذة التسبيح والتمجيد والعبادة خالصة. وإذا كان من المعلوم ضرورة أن الملائكة مؤمنون فنسبة الإيمان لهم هو للتنويه بشرف قيمة الإيمان. هؤلاء الملائكة الموصوفون بتلك الصفات ألهمهم ربهم أن يطلبوا من فضله ورحمته أن يغفر للمؤمنين التائبين ما اقترفوه من ذنوب، وأن يرفع عنهم إثم ما فرط منهم .ألهمهم أن يفتتحوا الدعاء بنداء ربهم: ربنا لإظهار التقرب وإبراز التضرع بما يُطْمِع في

الإجابة. وبسطوا لدعائهم التنويه بما وُصِفَتْ به الذات العلية مما يناسب قبول دعائهم، أن رحمته سبحانه، وسعت كل إنسان وحيوان، وسعت الكافرين والمؤمنين في الدنيا، فما من كائن حي إلا وللرحمة نوع من التعلق به. وكذلك سعة علمه تبلغ كل موجود حتى الجمادات .فَصِدْقُ إيمان المؤمنين الذين يدعون لهم معلوم عنده سبحانه علما لا لبس فيه. يدعون للمؤمنين التائبين أن يغفر الله لهم ذنوبهم التي تابوا منها، ثم أثنوا عليهم بما يكون أرجى لقبول دعائهم، بأن هؤلاء التائبين طبقوا في حياتهم أوامرك واجتنبوا نواهيك، فاجعل لهم وقاية تحميهم من عذاب لهَبِ النار الموقودة نار جهنم .

8ـ ربنا وأدخلهم....إنك أنت العزيز الحكيم.

واصلوا دعاءهم، وكرروا التضرع بقولهم: ربنا، لتقرن الوقاية من المهانة وعذاب الجحيم، بتحقيق الثواب وحسن المصير. وذلك بإدخالهم جنات الإقامة والخلود، التي سبق لجلالك أن وعدتهم بها على لسان رسلك، فإنك لا تخلف الميعاد. وألحِقْ بهم الصالحين من آبائهم ومن أزواجهم، ومن ذرياتهم .أفهمُ من هذه الآية أن الله ألهم ملائكته هذا الدعاء، وهو ذو الفضل العظيم، ليتم النعمة على المفوَّزين من المؤمنين فلا يحرمهم قرب أهليهم وذويهم: الآباء والأزواج والذرية، وإن كانوا لم يبلغوا من صالح العمل ما بلغه أصحاب المقامات العليا في الجنة .وبسطوا لقبول دعائهم الثناء على ربهم بأنه عزيز لا يثقله شيء ولا يستعصي عليه، وأنه حكيم يعامل المحسن بالإحسان .

9ـ وقهم السيئات....هو الفوز العظيم.

قد ينكد النعمة تذكر الهفوات والزلات، وقد يهونها رتابة التكرار فيضعف الشعور بها، وقد يحصل في النفس أن الله وإن قبل المذنبين بعفوه وتوبته، قد يحيي في نفوسهم اللوم على ما فرطوا. فدعا الملائكة أن يطهر نفوس المؤمنين التائبين من جميع تلكم المؤلمات، وهم بنعمة الله يتقلبون بفضل الله في الجنة. إن النفوس التي تطهرت من الإثم ومن تذكره، ومن الحزن لارتكابه، لا تبلغ ذلك الصفاء إلا برحمة من الله. وهذا النعيم بين امتلاء النفوس بأن الله راض عنهم تمام الرضا، وما تهيأ لهم في الجنة هو الفوز العظيم الذي لا فوز بعده .

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا

بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ
وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ
لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

مقت الله :التنكيل بهم وأصله شدة البغض.

أكبر: أشد خطرا.

مقتكم أنفسكم : إضراركم بأنفسكم شأن المبغض لها.

سبيل: وسيلة تمكننا من الخروج من جهنم .

دعي الله :ذكر وأعلن بما هو عليه من الكمال.

الآيات : دلائل وجوده وكماله.

تنزيل الرزق : تنزيل الماء من السحب.

الإنابة : التوبة.

فادعوا الله :اذكروه ونادوه متضرعين، واعبدوه.

كره الكافرون : أبغضوا، وعملوا على صدكم.

بيان المعنى الإجمالي :

ينادي الملائكة الذين كفروا من بعيد، وهم يصلوْن نار جهنم، فيقرّعونهم: إن تنكيل الله بكم في هذا اليوم، هو أشد من سوء معاملتكم لأنفسكم في الحياة الدنيا بإعراضكم عن الهدى وإيثاركم الشرك. كان الرسل يدعونكم إلى الإيمان فبُغضُكم لما يصلح نفوسكم حبب إليكم الكفر. فأنتم الذين أوقعتم أنفسكم في الهلاك. رفعوا ابتهالاتهم إلى الله معترفين بقدرته التي تصرفت فيهم حياة وموتا مرتين، وقالوا ربنا إننا نعترف بذنوبنا اعتراف الندم على ما فرطنا، فهل هناك وسيلة نخرج بها من الوضع الذي نحن فيه؟

كان جوابهم تعليلا للمصير الذي آلوا إليه. ذلكم العذاب المسلط عليكم هو جزاء موقفكم من رب العزة، فقد بلغ تعنتكم واستكباركم أنكم كنتم تمتعضون إذا ذكر الله بصفاته من الوحدانية والجلال، وتعلنون كفركم به. وإنْ ذكر أمثالكم شركهم بالله ونوهوا بالآلهة الباطلة استبشرتم وآمنتم بكلامهم . فالحكم الذي به دخلتم جهنم هو حكم الله العلي الذي لا ظلم في حكمه حتى ينقضه، الكبير الكامل كمالا مطلقا فلا نقص في حكمه حتى يرفعه، تفرد ربنا بالحكم الحق .

هو وحده الذي يلطف بكم فيحرك أذهانكم للتأمل في آياته المنبثة في كتاب الكون، وهو الذي ينزل من السماء الأمطار بقصد نفعكم، فيتبع هذه النعمة الارزاق المتنوعة. إنه لا يتذكر في ذلك فيزداد إيمانا وينطلق لسانه بالشكر إلا التائب. إنه بعد أن قامت الآيات هادية لكم، فاذكروا الله واعبدوه وتوجهوا إليه لقضاء حوائجكم حالة كونكم مخلصين له العبادة. وإن كان هذا المستوى يغيض الكافرين فيعملون على فتنتكم فاثبتوا.

بيان المعنى العام :

10.إن الذين كفروا ينادون....فتكفرون.

الصورة المقابلة لابتهالات المقربين من الملائكة أن يسبغ نعمه وفضله على المؤمنين التائبين، صورة علاقة الملائكة بالذين كفروا. فقوله تعالى: **ينادون** المناذون هم الملائكة، والمنادَوْن هم الذين كفروا وأطبقت عليهم جهنم. يناديهم الملائكة من مكان بعيد: بكل تأكيد إن مقت الله لكم اليوم بالتنكيل بكم في جهنم، هو أعظم وأشد خطرا من موقفكم من دعوة الرسول في الدنيا، فإنكم بإعراضكم وكفركم حُرِمتم في الدنيا الرضا النفسي، والفهم الصحيح للكون، والرشد في السلوك، فأهلكتم أنفسكم بذلكم الانحراف، كما أهلكتم أنفسكم بتعريضها لمقت الله وغضبه، في الوقت الذي كنتم تدعون إلى اتباع الإيمان فاخترتم الكفر. واليوم عذاب الآخرة أشد.

11. قالوا ربنا أمتنا ...إلى خروج من سبيل .

نداء الملائكة لهم، وإن كان تقريعا وتوبيخا، أطمعهم في تخفيف العذاب، فتوجهوا متذللين إلى الله بوصف الربوبية علّه يرحمهم. وقدموا بين سؤالهم اعترافهم بأن تقدير الله نفذ فيهم، وأنهم لا يستطيعون الخروج عما أحكمه، هم خضعوا له فأماتهم مرتين وأحياهم مرتين. وفي إثبات الموت مرتين توقف. ووُجِّهَ بأن العناصر التي كانت مبدأ لوجودهم المستخلصة من الأغذية التي تناولها الأبوان، وتكونت منها الخلية الأولى من بييضة الأنثى والحيوان المنوي للذكر كانت عناصر ميتة، فقدر الله أن يحييها واستمرت الحياة متطورة إلى الموت، فكانت الموتة الثانية بتوقف جميع الأجهزة التي تولدت من تلكم الخلية الأولى. ثم بعد الموت بعثوا للحياة من جديد يوم البعث .و إننا اليوم نعترف بأننا أذنبنا ذنوبا كثيرة من الشرك، وما تبعه من فاسد السلوك والظلم. ظنوا أن اعترافهم وتوبتهم بعد دخولهم جهنم قد يفيدهم، فسألوا هل هناك سبيل للخروج من جهنم كيفما كان؟ غلبهم اليأس والقنوط، ولم يتبين لهم طريق للنجاة مما هم فيه فتوجهوا بهذا السؤال.

12ـ ذلك بأنه إذا دعي....العلي الكبير.

اختار القرآن أن يعرف بأن الجواب كــان تيئيســا لهــم مــن الخــروج، بتــذكيرهم بســبب كونهم في النار، السبب الذي لم يرتفع. وأن تــوبتهم واعتــرافهم بــذنوبهم يــوم القيامــة لا يعتبر اعترافا ولا توبة، لأنهم شاهدوا الحقيقــة عيانــا بصــفة رافعــة للتكليــف. فــذُكِّروا بما كان منهم في الدنيا. إن عذابكم سببه أنكم كنــتم فــي الــدنيا متصــلبين فــي الشــرك، رافضين رفضــا باتــا أن تســمعوا أي حــديث عــن جــلال الله وكمالــه، فكلمــا ذكــره المؤمنون وذكر في القرآن جددتم إعلان كفركم به. وإن ســمعتم مــا يقتضــي الكفــر بــه، وإنكار وحدانيته في الخلق والتصــرف، استبشــرتم وجــددتم الإيمــان بالشــركاء. ذُكِّــروا بإصرارهم على الشرك ورفض التوحيد.

فالحكم الذي صدر وأنتم بمقتضاه فــي جهــنم، هــو حكــم الله الموصــوف بأنــه العلــي علوا تنزه به عن الظلم، ولا يظلــم ربــك أحــدا، ولا يغمــط حقــا، ولا يغيــب عنــه أي جانب من الحقيقة حتى ينقض حكمه فيكم . وهو الكبيــر فعظمتــه وجلالــه وكمالــه تؤكــد أن ما حكم به هو الحق، ولا حق غير ما حكم به فحكمه ماض فيكم أبدا.

13ـهو الذي يريكم...وما يتذكر إلا من ينيب.

الآيات الدالة على وحدانية الله، وتفــرده بالتصــرف منبثــة فــي كتــاب الكــون، تتكــرر مظاهرها مع الزمن ولا تنقطع. وإذا كانت هذه الآيات هــي مــن صــنع الله، فــإن يقظــة الناظر للتأمل فيها والاعتبار بها، وعدم الغفلة عنهــا هــو مــن لطــف الله الــذي يحــرك قوى الإحساس والعقل للملاحظة المتبوعــة بــاليقين بقــدرة الله وحكمتــه. ونصــت الآيــة على مظهر من مظاهر آياته إنزال المــاء مــن الســحب، المــاء الــذي اقتضــت حكمتــه ربط الإنسان به. فهو رزق في ذاته وهــو ســبب مــا يترتــب علــى إنــزال المــاء مــن الخيرات التي لا تحصى. ولكــن ذلــك لا يبعــث العقــل علــى التفكــر، ومتابعــة الــنعم إيجادا وفعلا في الحيــاة، إلا الــذين تــابوا مــن الشــرك وأنــابوا إلــى ربهــم، فصــفت أرواحهم، وأصبح كل مشــهد مــن مشــاهد الفضــل الإلهــي يحــركهم للتعــرف عليــه، فيتعمق إيمانهم وتنطلق بالشكر ألسنتهم.

14ـفادعوا الله ....ولو كره الكافرون.

قامت الآيات الدالة على وجوده ووحدانيته وعظــيم فضــله، فــداوموا علــى ذكــره فــي ضمائركم وبألسنتكم كمــا يقتضــيه الكمــال والجــلال، واســتغيثوا بــه، وتوجهــوا إليــه بالدعاء لقضاء حوائجكم، على أكمل حالة من حالاتكم: حالــة كــونكم مخلصــين لــه فــي العبادة، مطهرين أنفسكم من أن تتعلق بأحد غيره . اثبُتــوا علــى هــذا المســتوى الرفيــع، وتحدوا بغض الكافرين وكراهيتهم لكم، وعملهم على فتنتكم.

رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلۡعَرۡشِ يُلۡقِي ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوۡمَ
ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنۡهُمۡ شَيۡءٞۚ لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَۖ لِلَّهِ
ٱلۡوَٰحِدِ ٱلۡقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ
سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡأٓزِفَةِ إِذِ ٱلۡقُلُوبُ لَدَى ٱلۡحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا
لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ حَمِيمٖ وَلَا شَفِيعٖ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعۡلَمُ خَآئِنَةَ ٱلۡأَعۡيُنِ وَمَا تُخۡفِي ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾
وَٱللَّهُ يَقۡضِي بِٱلۡحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقۡضُونَ بِشَيۡءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ
ٱلۡبَصِيرُ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الدرجات : يقصد بها مجده وعظمته.

يلقي الروح : يعطي الوحي.

الإنذار :إخبار محذر مما يسوء.

يوم التلاقي : يوم الحشر.

يوم الآزفة: يوم القيامة القريب وقوعه.

الحناجر : جمع حنجرة الحلقوم.

كاظمين: ممسكين على قلوبهم لكيلا تخرج.

الحميم : المحب المشفق.

خائنة الأعين : النظرة المشعرة بما يسوء .

بيان المعنى الإجمالي:

الحقيق بالعبادة والاستغاثة والدعاء، هو الذي علا مجده وسمت عظمته، مالك العرش أعظم مخلوق، هو الذي يعطي الوحي الناشئ عن إذنه، عطاء مترتبا عن اصطفائه من يشاء لهذا العطاء. ليتولى هذا الرسول الموحى إليه إنذار البشر يوم التلاقي الذي تلتقي فيه جميع الخلائق على أرض المحشر. اليوم الذي يكون فيه الكفرة بارزين لا يخفى شيء من ظواهرهم ولا من سرائرهم، منكشفين انكشافا كاملا. هذا اليوم الذي نادى فيه بصوت جهير يخشع له الجميع: لمن الملك اليوم؟ أين الملوك المستكبرون وما كانوا يتسلطون به على الخلق من مظاهر العظمة والقهر؟ ويعلو الجواب واضحا بينا: الملك اليوم تفرد به الله الواحد الأحد، القهار للجبابرة والمستكبرين، والكفرة المتمردين.

في هذا اليوم يأخذ كل موقوف جزاءه الموازن لكسبه في الدنيا، حسب عزيمته وإرادته. في هذا اليوم لا أثر للظلم ولا للاشتباه في الحق. إذ الحاكم المتصرف، الله الذي لا تخفى عليه خافية. ويتم حساب الخلق بسرعة فيرتبط كل عمل بجزائه.

أنذرهم يا محمد ما يترصدهم يوم القيامة القريب حلوله . في هذا اليوم تضطرب قلوب الكافرين اضطرابا يجعلهم يحسون أنها خرجت من صدورهم والتحمت بحلوقهم، يحاولون كتم أنفاسهم حفاظا على قلوبهم المختنقين بمكانها. إن الظالمين بالشرك وبمعصية الرسول، لا يجدون في ذلك اليوم صديقا يواسيهم، ولا شفيعا مقبول الشفاعة يخلصهم.

الله منفرد بكونه يقضي بين الموقوفين للسؤال يوم القيامة، قضاء حق ليس فيه شبهة باطل. وأصنامكم التي تدعونها كما هي مدفوعة عن الشفاعة لا يتصور منها أن تقضي مع كونها جامدة عاجزة. إن قضاء الله مستند إلى علمه الدقيق بكل أقوالكم ما أسررتموه، وما أعلنتموه. وبكل فعالكم ما كان منها ظاهرا، وما أخفيتموه عن الأعين .والحكم المستند للعلم الكامل هو الحكم الذي لا ظلم فيه .

بيان المعنى العام

15←16: رفيع الدرجات...لله الواحد القهار.

ادعوا الله .هو في أعلى وأرفع ما يتصور من المجد والعظمة؛ هذا في ذاته وهو كذلك في ملكه فهو رب العرش الذي هو أعظم مخلوق، فإقبالكم على عبادته ودعائه بإخلاص هو مقتضى هذا التصور. وطمعكم في نيل الخيرات منه طمع راجح الإجابة تبعا لذلك.

يلقي الروح من أمره. الروح السر الذي تنبعث به الحياة، وقصد بالروح هنا: الوحي الذي به يحيا الناس الحياة المعنوية كما تحيا المادة بنفخ الروح فيها، فالوحي يصلح عقولهم، ويسمو بأرواحهم، فيتدرجون بفضله في معارج الكمال. وفي هذا التعبير(يلقي) إيماء إلى أن السمو إلى تلقي الوحي لا يحدث عن مجاهدة ورياضة، ولكنه فضل من الله يلقيه على من يشاء من عباده الذين اصطفاهم فأقدرهم على تلقيه، بأمره، فهو الذي يختار وهو الذي يأمر وينفذ . ويمكن أن تفهم الآية على أنه يوحي إلى الرسل بعض ما تعلقت إرادته باطلاعهم عليه فكلمة "من" تبعيضية. وفي النبوة صلاح للبشر وهداية للخلق. وذلك يتم بالدعوة إلى الخير، وبالتنبيه على الفساد والشر لاجتنابه. ومع عمل الأنبياء على تحبيب الاستقامة والخير للناس، فإنهم ينذرونهم ما يتعرضون له

من المقت والعذاب إن هم أعرضوا ولم يستجيبوا لداعي الله، ينذرونهم حضورهم يوم التلاقي .اليوم الذي تلتقي فيه جميع الخلائق في أرض المحشر، ويقفون للحساب أمام ربهم.

هذا اليوم الذي يكون فيه الكافرون بارزين ظاهرين، تنكشف ظواهرهم، وبواطنهم. لا يغيب عن علم الله شيء مما فعلوه في الدنيا مما كانوا يستترون به ويخفونه. ينادى في هذا اليوم بصوت جهير، يخشع له كل من سمعه، ويتضاءل كل من كان معتزا بسلطانه من الملوك المتجبرين الطغاة، وما عشش في الأوهام من سلطان للآلهة على مر العصور. ينادى لمن الملك في هذا اليوم ؟ أين الذين ادّعَوْا الملك فتجبروا على الناس، أين مظاهر استكبارهم وخيلائهم ؟ وكما كان السؤال بصوت جهير خشع له كل الحاضرين في أرض المحشر، كان الجواب الملك اليوم لله الواحد الأحد، لا شريك له . القهار للمتعاظمين وللظالمين.

17ـ اليوم تجزى كل نفس...سريع الحساب.

اليوم الذي تفرد الله فيه بالملك والتصرف في الخلائق، في هذا اليوم يتم جزاء كل نفس بما وجهت إليه عزمها وأنجزته مختارة. وهو يوم لا مجال فيه للظلم، فكل نفس تجزى حسبما قدمت، وهي معترفة به، فلا يبقى في نفس المحكوم عليه استشعار أنه غير مؤهل للحكم المسلط عليه. وقد يثور في نفس بعض السامعين، كيف يتم حساب الخلائق منذ آدم إلى فناء الكون، وكم يقتضي ذلك من أزمان ؟ فحققت الآية أن الله يقضي قضاءه العادل في وقت وجيز لأنه عالم بكل ما اكتسبه أي فرد من الخلائق، منكشف له تمام الانكشاف، وهو القادر على كل شيء، فكما مكن كل كائن من رزقه في كل لحظة من حياته، فلا يعجزه أن يحاسبهم جميعا، فيربط في لحظة بين العمل المقدم في الدنيا، وبين الجزاء المقدر، ويظهر الحكم بالسرعة المقدرة، والاعتراف من قبل المحكومين بعدالته.

18ـ وأنذرهم يوم الآزفة ...ولا شفيع يطاع.

الله لطيف بعباده رحيم بهم، بعث رسله ليصرف الناس عن الكفر إلى الإيمان، وأوكل لرسله أن ينذروا أقوامهم بتعريفهم سوء المصير إذا هم لم يقبلوا هداية الله. فأمر الله محمدا ﷺ أن ينذر قومه ويحذرهم يوم القيامة، إن القيامة قريبة بالنظر إلى عمر الكون الذي لا يعلم مبدأه إلا الله. وعرِّفهم بأهوال هذا اليوم، فإن قلوب المعرضين عن الهداية تضطرب اضطرابا تكاد تخرج من مواقعها لتندس في الحناجر، يكادون يختنقون بها، يحاولون ردها إلى مواقعها فيعجزون،

يبلغ بهم مستوى الاضطراب والجزع حد الاختناق بما يصحبه من آلام. ينضاف إلى وضع قلوبهم ذاك أنهم يحاولون كبت أنفاسهم حتى لا تنفلت القلوب من الحناجر حناجرهم .فهم في أشد ما يكون من الكرب. إن الذين ظلموا الحقيقة فأشركوا بالله، وكذّبوا رسله، لا يجدون في ذلك اليوم صديقا مشفقا محبا يسعدهم بتوهين شيء مما حل بهم، ولا يجدون شفيعا له منزلة تقبل بها شفاعته، يتوسط لهم ليخرجهم مما هم فيه من العذاب .

19←20: يعلم خائنة الأعين ...هو السميع البصير.

هو سبحانه يقضي بالحق، لأن علمه علم لا يفلت منه شيء، فهو يعلم ما تشير به النظرات الخائنة .فكثيرا ما يستهزئ ويسخر الإنسان بإشارة عينه، ويشير بها إلى تعريض غيره للأذى، وللعيون كلام خفي، وكما يكون في إيقاع الشر بالغير، فكذلك يكون لدعوة فاجرة واقتحام العفاف .

ويعلم سبحانه ما تخفيه الصدور من الحسد والبغض، وترتيب الأذى والكفر. مما يترتب عليه مختلف أنواع الشرور والكفر والآثام.

فعندما يقف المكلف للسؤال يكون ما صدر عنه من خفي الإشارات معلوما لله كعلمه بما تخفيه الصدور، لا يفلت من علمه سبحانه أمر ظاهر ولا خفي، فحكمه يمثل العدل المطلق تحقيقا لقوله: **اليوم تجزى كل نفس ما كسبت.**

والله يقضي بالحق... أبرزت الآية اسم الجلالة في فاتحتها تأكيدا لصدق مضمونها. الله المتصف بالكمال المطلق يحكم ويقضي قضاء ملتبسا بالحق، قضاؤه هو الحق، والحق هو قضاؤه. ثم بينت الآية زيف آلهتهم، وأنها لا مدخل لها في القضاء الذي هو مرتبط بالعلم الذي يستوي فيه الظاهر والخفي الباطن. هي لعجزها وكونها جمادات لا مدخل لها في القضاء إذن فهي معزولة عن القضاء كعزلها عن الشفاعة. إن الله سميع ينفذ علمه لجميع المسموعات فما كان يجري في السر بين الكفرة، مما يتهامسون به معلوم عند الله علما واضحا. وكذلك ما يصدر عنهم من أفعال ما أعلنوه وما تخفّوا به يعلمه الله علما مساويا للظاهر.

۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

اشد قوة: قوة معنوية بكثرة عددها ووفرة الوسائل .

الآثار: ما يبقى دالا على الوضع السابق الذاهب.

الأخذ : الاستئصال .

الذنوب : المعاصي.

واق : مدافع وحاجز.

قوي : لا يعجزه شيء ولا يعطل إرادته.

شديد العقاب : وصف يناسب شدة ما حل بهم.

بيان المعنى الإجمالي :

وجه القرآن سؤالا لقريش على لسان رسول الله ﷺ ليتذكروا ويقروا؛ حاصله: ألم يسيروا في الأرض مسافرين إلى الشام وإلى اليمن، إن في مسالكهم تلك تقوم مشاهد تنبئ عن عاقبة الذين كانوا يعمرون تلك الأماكن في سابق الأزمان، كانوا يملكون القصور ويحتمون بالحصون، وتركوا من آثار العمران ما يشهد بالمستوى الحضاري الذي كانوا عليه. فأذنبوا بالشرك والمعاصي فأهلكهم الله بسبب ما ارتكبوه من آثام، ولم يجدوا واقيا يقيهم العذاب النازل. أهلكوا لأن كل أمة منهم جاءها رسولها مصحوبا بالآيات البينة الواضحة المقنعة، فكان موقفهم منه الكفر بما جاء به، فاستأصلهم الله وأبادهم. إن قوة الله لا يقوم أمامها شيء وعقابه هو أشد العقاب للمكذبين.

بيان المعنى العام :

21ـأولم يسيروا في الأرض...من الله من واق.

ينوع القرآن طرق التأثير في المعرضين، فبعد أن أنذرهم عذاب الآخرة، وفصل شيئا من أهواله، ثنى بإنذارهم نكال الدنيا. فكانت طريقته في ذلك أن أثار سؤال تقرير لشيء يعلموه يقينا ولكنهم لم يستفيدوا منه عبرة تثنيهم عما هم عليه. ألم يسيروا في الأرض شمالا إلى الشام وجنوبا إلى اليمن، فتقوم أمامهم عاقبة الذين كانوا قبلهم. بكل تأكيد كان هؤلاء السابقون أشد منهم قوة، كانوا قوة بعددهم، وبما جمعه مجتمعهم من خيرات تغنيهم عن غيرهم. وبلغت حضارتهم أن قامت من معالمها آثار عظيمة في أرضهم من الحصون والقصور، تنبئ عن المستوى الرفيع الذي وصلوا إليه. فلما كفروا وكذبوا الرسل معرضين عن هداية الله، استأصلهم الله بسبب ما ارتكبوه من الذنوب والآثام. وما وجدوا من عذاب الله واقيا يقيهم نفاذه فيهم لا من الخارج ولا من قوتهم الذاتية.

21ـ ذلك بأنهم كانت...قوي شديد العقاب.

ذلك الاستئصال كان بسبب أن الرسل كانت تتابع. كـل أمـة مـن تلكـم الأمـم جاءهـا رسولها مؤيدا بالآيـات البينـات، ظهـورا وقـوة إقنـاع، فأعرضـوا وكـذبوا وواصـلوا عبادتهم لغير الله، فاستأصلهم الله رغم ما أوتوه مـن قـوة وحضـارة أعظـم ممـا أوتيتـه قريش. إن الله هو القوي حقـا فاستئصـالهم وإهلاكهـم ميسـور والله لا يعجـزه شـيء. وصورة العقاب المسلط عليهم تنبئ عن شـدة عقابـه لمـن تصـلب فـي كفـره وعنـاده. فلتحذر قريش أن يحل بهم مثل ما حل بالأمم التي يمرون على آثارها.

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُواْ سَٰحِرٞ كَذَّابٞ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ مِنۡ عِندِنَا قَالُواْ ٱقۡتُلُوٓاْ أَبۡنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذۡتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٖ لَّا يُؤۡمِنُ بِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

سلطان مبين : حجة ظاهرة هي ما أوتيه من المعجزات.

ضلال: ضياع، لا يترتب عليه ما قصدوا.

وليدع ربه : لا أكترث بدعائه ربه.

أخاف أن يبدل : أظن أنه يبدل.

يظهر: ينشر الفساد فيتغلب على الحياة.

العائذ : الملتجئ إلى قوة تحصنه.

بيان المعنى الإجمالي :

كما أرسلنا رسلا إلى الأقوام الذين تمـرون علـى ديـارهم فـي رحلاتكـم، وأنهـم لمـا كذبت كل أمة رسولها سلطنا عليهم العذاب الماحق. فكـذلك فعلنـا بقـوم فرعـون . فقـد أرسلنا موسى مؤيدا بآياتنا الواضحة والحجـج القويـة إلـى فرعـون وهامـان وقـارون، فقال لما عرضت عليهم الآيات: هـذا سـحر، وهـو كـاذب فـي دعـوى النبـوة. ولمـا أعجزهم الحق الصادر من عندنا، ركنوا إلى الكيد، فقـالوا لنقتـل ذكـرانهم ونبقـي علـى نسائهم للخدمة والمتعـة، فتنكسـر نفسـيتهم ويخضـعوا. وكانـت عاقبـة هـذا التـدبير

ضياعا لم يغنهم شيئا. يبدو أن مكرهم مات في المهد، ولذا تقدم فرعون عارضا الحل الصارم الذي ينقذ به شعبه في ظنه من موسى، فقال لهم: دعوني أقتل موسى ونستريح منه. ولا أبالي إذا كان يستنصر بربه فإنه لا ينصره. إنه حسب تحليلي للأمور أن أمره سيؤول إلى تبديل ديننا ونشر الفساد والخلاف والتمرد في الشعب. وقد يكون أن موسى بلغه تهديد فرعون بقتله، ورأى من قومه إشفاقا عليه لما يعلمون من طغيان فرعون فشد على قلوبهم بقوله: إني ملتجئ إلى ربي وربكم ليعصمني من شره، ومن شر كل متكبر لا يخضع للحق، ولا يؤمن بأن الله سيحاسبه على فساده، فكونوا مثلي معتمدين على نصره.

بيان المعنى العام :

23←24: ولقد أرسلنا موسى....فقالوا ساحر كذاب.

.بكل تأكيد تمت في الوجود قصة موسى ﷺ، المتضمنة أني أنا الذي أرسلته مؤيدا بالمعجزات الواضحة البينة القوية التي لا يعقل ردها. أرسلناه إلى فرعون صاحب مصر، الحاكم فيها بأمره، وإلى هامان وقارون اللذين كان لهما التأثير الكبير في ضبط السياسة وفي المواقف من الأمور الحادثة الخطيرة. فلما شاهدوا تلك الآيات عجلوا برميه بالسحر لما انقلبت العصا حية، وباتهامه بالكذب لما قال لهم: **(إني رسول رب العالمين)**. وذكرت قصة فرعون وهامان وقارون إتماما للإيقاظ الذي تم بدعوتهم إلى التأمل في أحوال الأمم السابقة التي يمرون عليها في رحلتي الصيف والشتاء. وما كانوا يمرون على أرض مصر. فذكرهم بهذه القصة ليهددهم بنافذ قدرته التي أهلك بها فرعون وزبانيته. وليبشر المؤمنين بأن العاقبة لهم.

25ـفلما جاءهم الحق...إلا في ضلال مبين.

تبع دعوة موسى فرعون وقومه، وإظهار الحجج المثبتة لنبوته، والحكمة في التشريع الذي أعلم به، وكل ذلك حق ثابت من عند الله الكامل تبعه أن دبروا مكيدة يردون بها هذا الحق الذي ما استطاعوا إسقاطه بالمنطق، كانت مكيدتهم تسليط القسوة على بني إسرائيل بقتل الذكور، واستحياء النساء للخدمة والتسري. كما فعلوا من قبل حين توقعوا أن يخرج منهم رجل يقيم أمرهم وينتصر على المتسلطين. إنه كيد لم يحقق ما أعدوه له، كيد قدر الله بقوته وعزته إبطاله، فلم يبلغوا ما أرادوا من الانهزام النفسي لبني إسرائيل. ذلك أن شأن الجبابرة المستكبرين، أنهم يرهبون من هم تحت تسلطهم ليقضوا على عزتهم النفسية، ليتحكموا في حياتهم كما يشاؤون .

26ـ وقال فرعون ذروني ...أن يظهر في الأرض الفساد.

مات الكيد الذي دبروه في المهد، ولذا اختص فرعون بفكرة أخرى ظن أنه ينتقم بها من موسى ويستريح من دعوته، فقال فرعون: لا تعترضوا علي فيما أعرضه، فإنه

الرأي الحاسم. اتركوني أنفذ في موسى القتل ونستريح منه، ولا أبالي إذا كان يستنصر بربه، فإني مسؤول عن سلامة شعبي، وبقاء موسى ينشر دعوته سيفضي إلى تبديل دينكم الذي عليكم أن تدافعوا عنه بكل ما أوتيتم، أو أن ينشر تعاليمه فتفسد قيمكم وعلاقاتكم، ويفسد ما كان يقوم عليه مجتمع مصر من السلم والوئام والطاعة.

27.وقال موسى إني عذت بربي وربكم ...لا يؤمن بيوم الحساب.

صرح فرعون بأنه عزم على قتل موسى. ومن القريب جدا أن يكون موسى ﷺ قد سمع بما يكيده له فرعون، وقد يكون فرعون قصد إلى تسريب عزمه إلى موسى ليخاف العاقبة ويقلع عن دعواه. وماذا يكون موقف رسول عرف ربه وأحبه، وعمر قلبه وفكره بما يبلغه مرضاته؟ ليس له إلا موقف واحد، هو أن يلتجئ إليه ليسعفه بعونه. ومع ذلك هو يريد أن يغرس هذا التعلق السامي في قلوب أتباعه المؤمنين، فخاطبهم بقوله: إني واثق من أن الله ربي وربكم ينصرني، ويحول بين فرعون وتنفيذ تهديده. إنه ملاذي الذي يحميني من كل متكبر؛ ختم الكبر على قلبه فحرمه رؤية الحق والإذعان له. بلغ من فساد دخيلته أنه لا يؤمن بأن الله سيحاسبه على ما قدم. هو منكر للبعث يرى أن لا حياة إلا هذه الأيام القليلة التي يعيشها الإنسان على ظهر الأرض. إنه رغم جراءته على الله بطغيانه وتكذيبه لرسوله، فأنا مطمئن إلى أن ربي وربكم سيحميني منه. وهو يشير إلى قومه ليسيروا على الاعتماد على ربهم سبحانه ليقيهم مكر الكفرة المتجبرين.

وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَـٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَـٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾ يَـٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَـٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَـٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ

جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا
هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ
مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ
وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

مسرف : متجاوز الحد. أي مبالغ في أفحش الكذب.

في الأرض : أرض مصر.

ظاهرين : غالبين.

البأس : القوة المخضعة للمعاند.

سبيل الرشاد: طريق الصلاح الآمن .

الأحزاب : الأمم التي تحزبت ضد رسلها فدمرت.

الدأب : العادة.

التناد : يوم البعث الممتد من الحساب إلى الجزاء .

ولى مدبرا: رجع من حيث أتى لأنه اعترضه ما يكره .

العاصم : المانع والحافظ.

المسرف : المفرط في فعل لا خير فيه.

المرتاب: قوي الشك.

المجادلة : تكرير الاحتجاج..

بغير سلطان : بغير حجة صحيحة عنادا.

كبر مقتا :جدالهم مبغوض يترتب عليه سوء العقاب .

الطبع : الختم.

المتكبر : المبالغ في الكبر.

الجبار : المتسلط على الناس بالإكراه.

بيان المعنى الإجمالي:

هذه قصة الرجل المؤمن القبطي من آل فرعون وأقربائه، سمع كلام موسى فأعمل فيه فكره، واهتدى بعون من ربه على أنه صادق وكتم إيمانه. وعزم أن يدفع عن موسى الأذى، فقال: بلغني تهديدكم موسى بالقتل، فما فعل من موسى من شر حتى تعزموا على قتله ؟ غاية ما صدر منه أنه قال: ربي الذي يسعدني بعونه هو الله،

وأيد كلامه بحجج ظاهرة. ثم إنه لا يخلو حاله مـن أحـد أمـرين : إمـا أن يكـون كاذبـا فيفقد ثقة الناس بأقواله ولا يستطيع أن يـؤثر، وإمـا أن يكـون صـادقا، ومعاكسـتكم لـه وتكذيبه تعرضكم لبعض البلايـا التـي حـذركم منهـا. إن الله لا يهـدي ولا يؤيـد مـن تجرأ على أقبح الكذب وأشنعه الكذب على الله، فهو كذاب شديد الكذب.

يا قومي، إنه يهمني ما يهمكم، فكما تشاهدون، أنـتم غـالبون علـى أرض مصـر ثبـت ملككم. وهذا الرجل يحذركم من عـذاب الله، وتبـديل قـوتكم ضـعفا وتمزقـا. ولا يوجـد من ينصرنا من عذاب الله إن جاءنا، فلنكُـونَّ لأنفسـنا وقايـة مـن العـذاب ولا نؤذيـه. خشي فرعون أن يؤثر كلام الرجل المـؤمن ولا يـتم لـه مـا قـرره وأعلنـه مـن قتـل موسى، فأكد أنه لا رأي صواب إلا الرأي الذي صـدع بـه .وإنـي مـا أدلكـم إلا علـى الطريق الآمن الجامع للخير

رغم ذلك واصل مؤمن آل فرعون موعظته لقومـه. فقـال لهـم: إنـي أحـبكم وأخـاف أن يلحقكم أي أذى، أخاف عليكم أن يهلككم ما أهلك الأحـزاب. كـل حـزب مـنهم عانـد وكفر فسلط الله عليه ما استأصله به. على العادة التي جرت فـي قـوم نـوح وقـوم عـاد، وقوم ثمود، والأقوام الذين جاؤوا من بعدهم وسـاروا علـى نهجهـم. وإهـلاك المكـذبين ليس ظلما والشـرك ظلـم عظـيم، والله لا يريـد ظلمكـم بعقـابكم ولا يريـد أن يظهـر الشرك في العالم. ثم خاطبهم بنفس التودد، فقال لهم: يـا قـومي إنـي أخـاف علـيكم مـا تلاقونه يوم التنادي، يوم القيامة الـذي تكثـر فيـه نـداءات الاسـتغاثة وطلـب الشـفاعة، وطلب تخفيف العذاب، ونداء المؤمنين لمـن فـي النـار مـذكرين لهـم بمـا سـلف مـن عتوهم، ونداء أهل النار معارفهم في الجنة ليرحموهم. إنـه اليـوم الـذي تـودون الهـرب والعودة إلى الوراء بعدا من الأهـوال، ولكـن قضـاء الله يكـون نافـذا ولا تجـدون مـن عذاب الله حاميا يحميكم. ومـن يعانـد الحـق فيحـرم الألطـاف الإلهيـة يطبـق عليـه الضلال، إذ من حرم تلك الألطاف لا يجد هاديا. لا تسـيروا فـي الطريـق الـذي سـلكه آباؤكم في موقفهم من يوسف. شكوا في صدقه رغـم الآيـات الواضـحة التـي تصـدقه، ثم تجاوزوا ذلك إلى الحكم على كل رسول يأتي من بعده أنـه رسـول كـاذب لـم يبعثـه الله. إنه على ذلك النحو من الضلال يضـل الله ويحـرم ألطافـه علـى كـل مبـالغ فـي الشك كثير الارتياب. أولئك المسرفون الذين مـن ملامحهـم أنهـم يجـادلون، ويجـادلون بالأوهام، فكلما دمغتهم حجة عملـوا بكـل قـواهم علـى إبطـال جوانـب الحـق فيهـا. وجـدلهم لا يسـتند لا إلـى وحـي ولا إلـى منطـق. إن هـؤلاء المجـادلين ممقوتـون، يبغضهم الله على معنى أنه لا يرخـي علـيهم أسـتار رحمتـه، ويعـاقبهم أشـد العقـاب. وكذلك يبغضهم المؤمنون للتنافي بين البحـث عـن الجـدل بالباطـل الـذي هـم عليـه،

وبين عشق الحق والشوق إليه الذي عليه المؤمنون. وعلى هذا النحو من الحرمان من نور الهدى يتم طبع قلب كل متكبر يدفع الحق بالباطل، ويتجبر على الناس ويرضخهم لإرادته.

بيان المعنى العام:

28ـ وقال رجل مؤمن من آل فرعون...من هو مسرف كذاب.

هذه قصة الرجل الذي سميت به السورة " المؤمن " ومن خلال عرض القصة نتبين أن الرجل كان مؤمنا في باطنه، سمع ما عرضه موسى عليه السلام وأعمل فيه فكره فلطلف الله به وأعانه على قبول الحق فآمن .كان يكتم إيمانه عن قومه تقيّةً وخوفا من بطشهم به، وليتمكن من الدفاع عن موسى فيسمع فرعون وقومه إلى وجهة نظره التي يمكن أن تدفع الأذى عن موسى عليه السلام . وأنه قبطي يتحصن بما له من صلة وثيقة بآل فرعون لأنه واحد منهم .والظاهر أن مقالته المسجلة لم تكن في مجلس فرعون، ولكن قوة صدق مقالته، وكونه من آل فرعون يسرت انتشارها بين الناس .ماذا قال ؟ ابتدأ كلامه باستفهام إنكاري عن تفكيرهم في قتل موسى. إن القتل عقوبة تنهي حياة من كان شرا على الناس، وموسى لم يفعل شيئا فيه اعتداء على غيره، وغاية ما أخذتموه به، أنه يقول: ربي الذي يتولاني برعايته وحفظه الله. وأن ما جاءكم به لم يكن كلاما خاليا من السند المثبت له يلقي بالفتنة بين الناس، ولكنه كان مستندا إلى الأدلة البينة والحجج الواضحة المصدقة له، ولذا فإنه لا يوجد ما يبرر العزم على قتله. وبعد أن ألان لهم القول مما يدفع حنقهم ويسقط رأي فرعون بإظهار أنه موقف متشنج لا يليق بالعقلاء، ثنى بتشكيكهم في سلامة ما كانوا قبلوه من قتل موسى، فأضاف: إن أمر موسى لا يخلو من أحد احتمالين:

الاحتمال الأول أن يكون كاذبا في دعواه الرسالة، وهو يتحمل نتيجة كذبه فيخسر ثقة الناس فيه ولا يضركم كذبه شيئا.

الاحتمال الثاني: أن يكون صادقا فتكونون معرضين لأن يحل عليكم بعض ما توعدكم به. لأن العذاب الذي توعدهم به موسى لم يكن عذابا مستأصلا سريعا، وإنما يأتي واحدا بعد آخر. فيظهر صدقه من العذاب الأول. ومن حكمة مؤمن آل فرعون أنه قدم احتمال الكذب على احتمال الصدق ليأنسوا له ولا يرمونه بأنه مصدق لموسى يدافع عنه وأنه من شيعته .

وإنه حسبما يثبته موسى في دعوته: أن الله لا يؤيد ولا يلطف فيهدي من كان مبالغا في الكذب، فإن الكذب على الله هو من أكثر أنواع الكذب سوءا وفحشا. وكذاب عطف على مسرف مؤكد له. ويمكن أن تفهم خاتمة الآية على أنها من كلام الله،

ناسب أن يذكر بها البشر تذكيرا عاما. وليثبت أن هذا الرجل المؤمن قد أيده الله وزكاه لأنه تقي صالح، وليس مسرفا كذابا.

29 ـ يا قوم لكم الملك....وما أهديكم إلا سبيل الرشاد.

كان اللين ظاهرة في كلام هذا الرجل المؤمن فواصل حديثه على نفس النسق. فبعد أن قدم لهم رأيه بطريقة لا تثير عنادهم، ناداهم بالصلة الجامعة بينه وبينهم يا قومي: على أنه واحد منهم يحرص على ما ينفي الضر عنهم ويسعدهم، لننظر في وضعنا وما نحن عليه في بلدنا. يا قومي إنكم تتصرفون في أرض مصر تملكونها بدون منازع، أخضعتم كل المعوقات واستتب لكم الملك. إن هذا الرجل يحذركم زوال ملككم إذا أنتم قابلتم دعوة ربكم بالرفض، وإذا أراد الله أن ينزل بنا بأسه ويذيقنا عذابه، ويرفع ما خولنا، فهل نجد قوة تنصرنا وتحمينا من عذاب الله إن جاءنا. أليس من الحكمة أن نتقي العذاب قبل حلوله؟

أثر كلام المؤمن في قومه. خشي فرعون أن يتبعوه، ويعرضوا عن رأيه الذي قدمه في قتل موسى، فقاطع كلام الرجل الناصح، وقال مستكبرا، شأن الطغاة الذين لا يقبلون الرأي المخالف لرأيهم دون نظر في مستنداته: قال لهم: ليس هناك إلا رأي واحد، ولا طريق إلا الطريق الذي بينته لكم: قتل موسى. إني حريص على هدايتكم للرأي الصواب والطريق الأسلم عاقبة

30←32:وقال الذي آمن...فما له من هاد.

استرسل مؤمن آل فرعون في نصحه، غير آبه باعتراض فرعون وعنجهيته، فنادى قومه كما افتتح حديثه معهم: يا قومي إني غير مطمئن على أمنكم، إني خائف أن يصيبكم مثل ما أصاب المكذبين للرسل. فقد كان لكل حزب تمرد وكذب الرسل، يومٌ تم فيه إهلاكه بضربة واحدة ومحوه من الوجود. أذكركم بالعادة والطريقة التي تم بها استئصال الأحزاب حزب قوم نوح، وعاد، وثمود. والذين تتابعوا من بعدهم وساروا على طريقتهم. اعلموا أن الله لا يحب الظلم ولا يرضى عنه وأقبح أنواع الظلم الشرك بالله ثم الاعتداء على رسله. والله الكامل لا يريد أن يظلم أحدا من عبيده. فإصراركم على تكذيب موسى يتبعه عدله سبحانه فيجزيكم عن كفركم وعما تعدونه لإذاية رسوله.

– كرر نداءهم مقربا لهم من نفسه ممحضا نصحه لهم، مظهرا شدة اهتمامه بقومه فهو يخاف عليهم ما يخافه على نفسه، فذكرهم بما يترصدهم يوم التنادي، اليوم الذي تتنوع فيه النداءات فمن مستغيث ينادي ولا مجيب، أو مستشفع ومتضرع

آئب إلى ربه، ومن السلام والتهاني، ومن نداء أصحاب الأعراف، ومن نداء أصحاب الجنة من كانوا يعرفونهم في الدنيا من الكفرة وهم في جهنم. في سوق يوم القيامة تختلط النداءات وتتداخل الأدعية . ثم أبدل من يوم التناد ما يزيدهم وضوحا بالتصريح بما يلقونه في هذا اليوم، هو يوم تَهُمُّون بالرجوع فارين، من حيث ما أتيتم لما يستقبلكم من العذاب والأهوال. ولكن لا تجدون حافظا يحفظكم وينقذكم من عذاب الله. قمت بما يفرضه علي واجب النصح لكم. ولكن من يتصلب في الكفر، ويعاند ولا ينظر في آيات ربه، لا يمنحه الله ألطافه. ومن حرم الألطاف الإلهية لا تجد له هاديا يهديه، بل يستمر سادرا في ضلاله الذي اختاره لنفسه.

34- ولقد جاءكم يوسف من قبل ...مرتاب .

واصل مؤمن آل فرعون نصحه فذكرهم بقوله: إنه بكل تأكيد قد جاءكم يوسف من قبل، حل بين أظهر آبائكم هاديا داعيا لعبادة الله مؤيدا بالحجج البينة والمعجزات الواضحة، شأن كل رسول يبعثه الله إلى الناس، بتأيد من صدق وسمو مضمون رسالته، وبتأيد بمعجزات تكون بمثابة الشهادة بصدقه من الله المتفرد بخرق العادة. واختلف المفسرون اختلافا بينا في تعيين يوسف المذكَّر به، هل هو يوسف المفصل محنته في سورة يوسف أو هو يوسف آخر، والقرآن لم يقص علينا من أمر يوسف أنه رسول ولا ما عانى من قومه. ولم يذكر أمر الشك في رسالته إلا إجمالا في تذكير مؤمن فرعون هذا.

والذي ترجح عندي أن مؤمن بني إسرائيل قد زعزع إنكار قومه، وأنهم تحولوا من الرفض الكامل لموسى عليه السلام رفضا يبرر قتله، حولهم إلى الشك في رسالته، فأراد بذكره لقصة يوسف تنبيههم إلى ما وقع فيه آباؤهم من الشك الذي أفضى بهم إلى فساد التفكير، ورفض كل رسالة تأتي من عند الله في المستقبل. ذكر لهم أن يوسف عليه السلام قد جاء بشرع وتأيد بالآيات البينات، وأنه لا يجب أن يكون هو يوسف بن يعقوب، والراجح أنه سميه، واسمه يدل على أنه من بني إسرائيل، وأنبياء بني إسرائيل كثر. والله يقول: **(ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك)**[1] وما كان ليذكرهم مؤمن آل فرعون برسول مجهول، ولكن لا بد أن تكون أخباره ما تزال مذكورة في قومه. فأراد أن يذكرهم بأن آباءهم قد وقفوا من يوسف الرسول موقف الشك. وأن تعصبهم هو الذي جعلهم لا يؤمنون به إلى أن توفاه الله. وأن شكهم رغم ما عرضه عليهم من الآيات البينة تواصل بعد موته فنفوا أن يبعث

[1] سورة النساء آية 164

الله رسولا بعده. وهو حكم اعتباطي يدل على انحراف تفكيرهم وفساد أحكامهم. إذ كيف يُقبَلُ من عاقل أن يحكم بنفي إرسال الرسل في المستقبل إذا هو شك في الرسول الحاضر. وأن السبب في ضلالهم عن الحق هو إسرافهم في مسايرة الاحتمالات الباطلة، وتمكن الشك من عقولهم، فكان شكهم شكا مدمرا، لأن الشك الفاتح لأبواب اليقين هو الشك الذي يتجاوز به الشاك الموضوع المشكوك فيه إلى ما يحيط بالموضوع من المعطيات ليصل إلى اليقين النافي لكل التساؤلات. احذروا أن تسيروا على الطريقة التي سلكها آباؤكم. فإن الله قد أضلهم على النحو الذي يحرم كل مسرف في شكه، الرافض للتأمل فيما يُبَلِّغُه اليقين، يحرمه من العون والألطاف، فينطلق في عماه لا يبصر الحق ولا ينتفع به.

35ـ الذين يجادلون...قلب متكبر جبار.

واصلت الآية التشنيع على المسرفين فأجرت عليهم من الصفات الكاشفة، أنهم يجادلون، أي إنهم كلما قدمت لهم حجة دامغة لباطلهم عملوا على إبطالها سفسطة ومكابرة من قبول الحق. وإن مجادلتهم مهتزة لا يؤيدها وحي ولا عقل. إن الجدل بالباطل لإزهاق الحق ممقوت عند الله مقتا كبيرا، مبغوض ومعاقب عليه أشد العقاب. وكذلك هو ممقوت عند المؤمنين الخيرة الذين أدعوكم لتكونوا منهم، فالجدل بالباطل لا يجامع الإيمان. إنه على هذا النحو يجعل قلوب المتكبرين المتعالين على الناس وعلى الحق، الذين يدفعهم كبرهم إلى التجبر على الناس، وكسر إرادتهم إذلالا لهم وظلما، يجعل قلوبهم مغلقة بغلاف مانع من نفاذ أي شعاع من النور، كأنها غلفت بذلكم الغلاف الصفيق ثم ختم عليها ختما لا فتح بعده.

وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبۡنِ لِي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَبۡلُغُ ٱلۡأَسۡبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسۡبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرۡعَوۡنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيۡدُ فِرۡعَوۡنَ إِلَّا فِي تَبَابٖ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ ٱلَّذِيٓ ءَامَنَ يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

صرحا: بناء مرتفعا عاليا.

الأسباب : جمع سبب، وهو ما يوصل إلى المقصود.

الاطلاع: المشاهدة من علو.

أظنه : أتيقن.

التباب : الخسران.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن المكيدة التي حاول بها فرعون أن يلهي الناس عن تعليم موسى وعن نصائح مؤمن آل فرعون، فطلب من وزيره هامان أن يبني له صرحا يرتفع حتى يبلغ أعلى ما يمكن أن يبلغه الارتفاع، وذلك حتى يتمكن من ولوج أبواب السماوات ليشرف على إله موسى إن كان له وجود، مع يقينه أن موسى من الكاذبين .زين له استكباره وهواه هذه المكيدة ليتلهى بها الشعب، وتصبح حديث أسمارهم، وينصرفون عن تعاليم موسى ونصائح مؤمن آل فرعون. ولكن مكيدته لم تحقق له ما أراد، وكانت عاقبته الهلاك والدمار.

واصل مؤمن آل فرعون نصائحه لقومه داعيا أن يتبعوا ما يدعوهم إليه، كل همه أن يهديهم إلى الطريق الصالح الأمن. قال لهم: إن هذه الحياة الدنيا المغرية لا تعدو أن تكون نعمها وقتية زائلة. وإن الحياة الباقية التي لا يلحقها زوال هي الدار الآخرة. هيئوا أنفسكم لها، واعلموا أن من عمل منكم سيئة يكون جزاؤها مع كفره على مقدار ما ترتب عنها من فساد .وأما من انشرح قلبه للإيمان وعمل صالحا، كيفما كان وفي أي زما ن، ذكرا كان أو أنثى، فإنه سيدخل الجنة ليجد فيها جزاء لا بحد له مقدار ولا يلحقه زوال.

بيان المعنى العام:

36←37: وقال فرعون يا هامان....وما كيد فرعون إلا في تباب.

إيراد هذا المقطع متوسطا بين نصائح مؤمن آل فرعون، يستروح منه أنه قد هز بصدق لهجته فرعون، وأدخل الاضطراب على تدبيره، فعمد إلى تلهية الناس عن دعوة موسى، وعن حجج المؤمن الذي نفذ قوله الصادق والواضح إلى العقول، خاصة وأنه قدم نفسه على أنه واحد منهم، يكرر أنه ما حمله على عرض ما عرضه إلا حبه لهم وخشيته أن يصيبهم سوء . ففكر فرعون في مكيدة كما تم التصريح بذلك في الآية 37 "**وما كيد فرعون إلا في تباب**" .فما هي هذه المكيدة ؟

قد يكون فرعون أراد أن يظهر لشعبه أنه واثق من أن دعوى موسى لا أساس لها من الصحة، وأنه سيصعد إلى السماء ليأتيهم بالحجة الدامغة: أنه بحث في السماء، والإله الذي يدعو إليه موسى لا وجود له. والقرآن لم يذكر شيئا عن إنجاز هذا الصرح الذاهب في

السماء علوا، واقتصر على أن فرعون أمر وزيره هامان ببنائه. طلب منه أن يبني له بناء عاليا كأبعد ما يكون الارتفاع، وقال موجها لأمره هذا: إنه يريد أن يفتح بذلك الطرق التي تبلغه ما يريد، ثم أوضح مراده أبغي ولوج أبواب السماوات، فأشرف على رب موسى الذي يدعونا للإيمان به، ثم أضاف: إني أظنه كاذبا فيما يدعي. فأنا واثق مقدما بأن الإله الذي يدعو إليه موسى غير موجود.

وعلى هذا النحو من سطحية تفكيره وعدم عمقه، وتزيينه للباطل للتضليل، زين لفرعون عمله السيء فخاله حسنا، ووقف حاجزا مانعا قومه من سبيل الهدى. دبر تدبيره هذا لكيد لموسى وليشكك رعيته في صدقه. وآل كيده هذا إلى هلاك نفسه؛ فإنه حسب ظني لم يتحقق له ما أراده من بناء الصرح ومن تلهية الناس به إذ لم يرد له ذكر، ولا يوجد له أثر بين المباني العظيمة التي صمدت على تقلبات الزمان. فأمره لهامان وإعلانه به غايته أن يتحدث به الناس تلهية لهم عن دعوة موسى، وعن نصائح مؤمن آل فرعون. فتكون لفرعون مهلة يدبر فيها ما يقطع على موسى السبل التي يحاول أن يؤثر بها في المجتمع .

38ـ وقال الذي آمن يا قوم....بغير حساب.

واصل مؤمن آل فرعون وعظ قومه مقربا لهم إلى نفسه دائما: يا قومي – سيروا على الطريقة التي أبينها لكم، واتبعوا ما أنصحكم به، فإن كل همي أن أفتح بصائركم على طريق الصلاح والنجاح والأمن.

39ـياقوم إنما هذا الحياة...فيها بغير حساب.

ابتدأ عرضه بكشف حقيقة الحياتين الدنيا والآخرة، فالحياة الدنيا تضلل الناظر فيها بما يصحبها من شهوات فتجعله يظن أن السعادة لا تعدوها. يقول لهم :تأملوا فإن كل ما تظنون أنكم تنعمون به في الحياة الدنيا هو زائل عن قرب. خذ لذلك مثلا قريبا: إن ما تستلذه من الطعام لا يتجاوز الإحساس به اللحظة التي يمر فيها من فمك إلى بطنك ثم ينقطع الإحساس به، وهكذا كل أمورها. فالإخلاد إليها هو أصل الشر ومنه يتشعب ما يؤدي إلى سخط الله .و أما الحياة الآخرة فهي النعيم المقيم الذي لا يزول.

ومن ناحية أخرى فإن جزاء العمل السيء مساو له. عقوبته على مقدار ما ترتب عنه من فساد. وأما الأعمال الصالحات التي صدرت عن قلب مؤمن موقن بوحدانية الله الكامل الكمال المطلق، الحقيق بالعبادة، الأعمال التي يرضى عنها رب العباد، وتنفع المجتمع والأفراد، وتتطهر من هوى النفس ودواعي الشيطان والفساد، إن

جزاءها يتجاوز كل مقدار، إذ هو جنة الخلد. يمكنهم ربهم من كل ما يخطر ببالهم من دون حساب، لا يخشون أن ينتهي ما أعد لهم من أنواع الكرامة. كل إنسان ذكر أو أنثى في أي مكان وفي أي زمان، آمن واتقى ينال هذا الجزاء فضلا من الله ووعدا صادقا لا يتخلف.

﴿وَيَٰقَوْمِ مَا لِيٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا جرم : لامحالة، أولا بد .

ليس له دعوة : لا تنفع دعوته.

المسرفون : المفرطون في الكفر والمعاصي.

حاق : نزل وأحاط.

بيان المعنى الإجمالي :

يا قومي إن أمركم لعجيب، إني أواصل دعاءكم لما ينجيكم من الضلال وخسران العاقبة، وفي المقابل تدعونني إلى ما يوجب النار والعذاب. تلحون علي لأكفر بالله، وأجعل له شركاء ليس لهم أي تأثير حتى يحصل علمي بهم. فهم والعدم سواء؛ في الوقت الذي أحرضكم على الإيمان بالله العزيز الذي لا معطل لما يريده، الغفار لذنوب عباده التائبين. لامحالة إن ما تدعونني للإيمان به لا يملك تأثيرا لا في الدنيا ولا في الآخرة .وأننا جميعا سينتهي الحكم فينا جميعا لله .و أن المفرطين بالكفر وفعل الشر سيكونون خالدين في النار لا يخرجون منها.

كونوا على يقين أنه سيأتي يوم تذكُرون فيه ما كنت حذرتكم منه. وإن أنتم أعددتم مؤامرة تنتقمون بها مني فإني لا أخشاكم، إني مفوض كل أمري إلى ربي الذي يتولاني بعنايته وحفظه، فأنا مطمئن لا خائف. إن الله لا يخفى عليه شيء من أمر عباده.

حفظه الله من مؤامراتهم ومن أنواع السوء التي عزموا أن يلحقوها به. ونزل عذاب الله محيطا بفرعون وقومه. أوكل الله بهسم ملائكته بعد غرقهم ليعرضوهم صباح مساء على النار. ويوم القيامة يصدر عليهم الحكم البات: أدخلوا فرعون وقومه جهنم ليذوقوا فيها أشد أنواع العذاب .

بيان المعنى العام

41←42: وياقومي ما لي أدعوكم ...وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار.

الذي يظهر من نسق الكلام، وإن كان مطويا أن قومه راودوه ليقلع عن دعوته، وأن يعود إلى تقديس معبوداتهم، وما هم عليه .فيقول لهم: عجب لكم تقابلون نصحي لكم وعملي على نجاتكم من سخط الله وعقابه، ومن خسران آخرتكم، بدعوتي إلى الكفر بالله لأكون من أصحاب النار. عجب لكم كيف تدعونني أن أجعل لله الواحد شركاء في الألوهية، والحال أنها ليس لها شيء من خصائص الألوهية حتى أعلمها وأرتب على ذلك تقديسها. فتسميتها آلهة أوهام ليست لها أدنى نصيب من الحق يعلم فينظر فيه. عجب لكم تقابلون دعوتي إلى فضل الله العزيز الذي يُعزِّمَنْ يؤمن به بإصلاح عقيدته وتصوره للكون وفوزه في العاقبة، وهو الذي يغفر ذنوب عباده التائبين، تقابلون ذلك بدعوتي إلى الكفر.

43.لاجرم أنما تدعونني ....هم أصحاب النار.

لا محالة أن ما تدعونني إليه من اعتقاد ألوهية أصنامكم وعبادتها، وطلب التأييد منها وتحقيق الرغبات في الدنيا وفي الآخرة، ما تدعونني إليه أوهام منكم، فما تدعونهم آلهة ما دعوكم يوما لتؤمنوا بهم، وشأن الإله أن يدعو العباد إلى طاعته. فهي ليست آلهة وليست لها قدرة على الاستجابة للدعاء، ولا نفع لمن يتعلق بها. ثم واصل مؤكدا عجز أصنامهم وعدم نفعها لمن يتعلق بها، فركز أن الحق الذي يجيب ويسمع الدعاء، ويسعف الذين يدعونه بطلباتهم هو الله إله موسى الذي إليه الملجأ في الدنيا وفي الآخرة. وحكم الله في الآخرة العادل أنه خص المسرفين بكفرهم، وغلبة شرهم من المجرمين الآثمين، أنهم ستكون بينهم وبين النار رابطة لا تنفك، تكون دار خلودهم فيها، لا يجدون عنها حولا.

44ـفستذكرون ما أقول لكم..إن الله بصير بالعباد.

حاول المؤمن بكل ما يملك من بيـان وحجـج أن يصـرف قومـه عـن اتبـاع فرعـون، ويحوّلهم إلى الإيمان بموسى ﷺ، ولكنه لم يبدُ لـه بارقـة أمـل فـيهم لاتبـاع نصـائحه والتأمل في براهينه، فأنذرهم أنه لا بد أن يأتي يوم يتحقـق فيـه مـا أنـذرهم بـه، وقـال لهم :عندها ستتذكرون أقوالي .إني معتمد على ربـي أفـوض أمـري إليـه، فهـو الـذي يحميني من شركم. إن ربي عليم بعباده لا يخفى عليه مـن أمـرهم شـيء، علـى معنـى أن رعايته وتأييده معي في كل وقت. فأنا مطمئن غير خائف.

45ـ فوقاه الله...وحاق بآل فرعون سوء العذاب.

فعلا دبر قومه وخططوا ما يؤذون به هذا المـؤمن الناصـح .وعزمـوا علـى تنفيـذ مـا دبروا، ولكن عين الله التي ترعاه كانت له درعا واقيـا مـن مختلـف مـا عزمـوا عليـه من الإذاية. وإكمالا للنعمة جمع إلى إنجائه مـن مكـرهم، إنـزال العـذاب المحـيط الـذي لا مخرج منه على قوم فرعون. انتهى أمرهم إلـى أن غرقـوا وابتلعـتهم أمـواج البحـر في الوقت الذي كانوا ينظرون إلى موسى ومـن تبعـه نـاجين يسـيرون علـى الشـاطئ آمنين. فاجتمع عليهم عذاب الغرق، والغـيظ المخـزي. عبَّـر القـرآن عـن ذلـك بقولـه (وحاق بآل فرعون سوء العذاب) .

46ـ النار يعرضون عليها....أشد العذاب.

سوء العذاب المذكور في خاتمة الآية السـابقة، بينـه فـي هـذه الآيـة :النـار المحرقـة يعرضون عليها صباحا وعشيا، فتفيد الآية على هـذا الوجـه أنـه بمجـرد غـرقهم وكـل بهم ملائكة العذاب يمرون بهم على جهنم فـي الصـباح والعشـي تلفحهـم بنارهـا ومـا بين ذلك مطوي، يتناسب مع هذا العـرض .ويمكـن أن يفهـم ذلـك علـى أنـه مواصـلة للعذاب من الصباح إلى العشي. فالمقصـود أن الغرقـى مـع فرعـون تعـذب أرواحهـم بمجرد غرقهم بإيقافهم على النار. هذا العـذاب يتواصـل مـن يـوم غـرقهم إلـى يـوم القيامة .

ويوم القيامة يصدر الحكم الذي لا يقبل النقض: أدخلـوا فرعـون وقومـه جهـنم ليـذوقوا أشد أنواع العذاب. وعذاب جهنم دركات . أعاذنا الله منها بفضله ورحمته.

وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِي ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓاْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِي ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُواْ

رَبَّكُمۡ يُخَفِّفۡ عَنَّا يَوۡمٗا مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓاْ أَوَلَمۡ تَكُ تَأۡتِيكُمۡ رُسُلُكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ
قَالُواْ بَلَىٰۚ قَالُواْ فَٱدۡعُواْۗ وَمَا دُعَٰٓؤُاْ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا
وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡأَشۡهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوۡمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ
مَعۡذِرَتُهُمۡۖ وَلَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

التحاج: الاحتجاج من جانبين.

الضعفاء : التابعون من الدهماء .

الذين استكبروا : من يظنون أنفسهم أعلى منهم وسادة لهم.

التبع: اسم لمن يتبع غيره واحدا كان أو متعددا.

مغنون: دافعون ورَادُّونَ.

نصيب: قسط.

خزنة جهنم : الملائكة الموكلون بما تحويه جهنم.

البينات: المفاهيم المعقولة المقبولة، والحجج الواضحة.

ضلال : ضياع، غير متقبل.

الأشهاد : الحفظة من الملائكة.

اللعنة: الإبعاد والطرد من رحمة الله.

سوء الدار :جهنم.

بيان المعنى الإجمالي :

تحتج كل مجموعة من المجموعات التي في جهنم على غيرها. يقول الذين كانوا تابعين في الدنيا للسادة والكبراء، ولا رَأْيَ لهم في أمور الدولة، يقولون لسادتهم هل تستطيعون أن تخففوا عنا نصيبا من العذاب الشديد الذي نعانيه؟ ويكون جواب السادة استوينا في العذاب نقاسي ما تقاسون. قد صدر الحكم العادل من الله وتم الحكم ونفذ. حل اليأس في قلوب الجميع تابعين ومتبوعين.

وإذ حل اليأس من قدرة بعضهم أن ينفع البعض، استغاثوا بخزنة جهنم، الملائكة الموكلين بحفظها وتنفيذ ما قدره الله وحكم به فيها وفي من يحل بها. طلبوا منهم أن يدعوا الله ليرفع يوما من عذاب جهنم. كان جواب الملائكة في صورة سؤال توبيخي وتنديم وتحسير، هل جاءتكم رسلكم بالعقيدة الواضحة والشريعة البينة والحجج الكاشفة ينذرونكم عذاب جهنم ؟ أجابوا: بلى! قد جاؤونا بكل ما قلتم .

فقالت لهم خزنة جهنم: إنه لا عذر لكم، فتولوا بأنفسكم دعاء ربكم. ودعاء الكافرين لا يستجاب له، ضائع لا أثر له.

إنه بكل تأكيد ننصر بعظمتنا رسلنا والمؤمنين فنجعلهم الغالبين. يشملهم تأييدنا في الحياة الدنيا فنهزم أعداءهم ونبددهم، وننصرهم يوم القيامة فيفوزون بالكرامة في الجنة، في ذلك اليوم الذي يتقدم فيه الأشهاد من الرسل والحفظة من الملائكة والمؤمنين من هذه الأمة. إنه في ذلكم اليوم لا ينفع الظالمون ما يقدمونه من المعاذير، التي لا تغني عنهم شيئا. قد استحقوا الطرد من رحمة الله، واختصوا بجهنم أسوأ دار للإقامة.

بيان المعنى العام :

47←48: وإذ يتحاجون في النار...قد حكم بين العباد.

و اذكر هذه الحقيقة التي ستظهر يوم القيامة بين نزلاء النار، وهم ركام في جهنم. بعضهم كانوا ضعفاء في الحياة الدنيا لا يؤثرون في القرارات، إذ كانوا تابعين لسادتهم وكبرائهم يأتمرون بأوامرهم وينفذون ما يرسمونه لهم. لازمهم هذا التقليد والطاعة لهم في النار، فتوجهوا لمن كانوا سادتهم في الدنيا قائلين: إنا كنا تابعين لكم في الدنيا، لاعتقادنا أنكم أهل التدبير في الأزمات، فهل تستطيعون اليوم أن تَكُفُونا قسطا من النار. أي هل تستطيعون أن تخففوا عنا نصيبا من العذاب الشديد الذي نعانيه ؟ فمحمل الآية هنا على أنهم يرجون أن يجدوا عند رؤسائهم ما كانوا يقومون به في الدنيا. ويمكن أن تحمل الآية على معنى تحميلهم المسؤولية وتوبيخهم على غشهم لهم في الدنيا، فهم لا يرجون منهم تخفيفا للعذاب لتبَيُّن عجزهم.

كان جواب المستكبرين في الدنيا: إننا جميعا نلقى جزاءنا من العذاب الذي لا مخرج لنا منه. تبخرت أوهامنا فنحن جميعا نواجه مصيرنا؛ هذا المصير المستند إلى الحكم العادل الذي لا ظلم فيه. إن الله حكم بين العباد جميعا، نال كل فرد جزاءه، مؤمنا كان أو كافرا وصدر عليه الحكم ونفذ. فهو اليأس من كل تحول عما هم فيه.

48. قال الذين استكبروا...قد حكم بين العباد.

بعد خيبة أمل المستضعفين في قدرة رؤسائهم على نفعهم، واستوى التابعون والمتبوعون في اليأس من تخفيف العذاب، بدا لهم أن يتوجهوا جميعا لخزنة جهنم: الملائكة الموكلين بإجراء ما قدره الله فيها من وقودها وعذاب من دخلها حسب الحكم الصادر، ظنا منهم أنهم لقربهم من الله هم أرجى أن ينتفعوا بشفاعتهم،

فسألوهم أن يدعوا ربهم، طالبين من فضله أن يخفف عـنهم عـذاب يـوم يسـتريحوا فيـه من عذاب جهنم، تعود إليهم أنفاسهم فيه.

49←50 :وقال الذين في النار لخزنة جهنم ...إلا في ضلال.

سمع خزنة جهنم توسلاتهم فأجابوهم :قبل كل شـيء، هـل أتـتكم رسـل مـن الله قـاموا أحسن قيام ببيان العقيدة، والأحكـام التـي يتبعهـا الفـوز والنعـيم لمـن طبقهـا أحسـن تطبيق، والعذاب والنكال لمن استهان بها ومضى فـي حياتـه مطيعـا لشـهواته ونزغـات الشياطين. يهدف خزنة جهنم من هذا الجواب توبيخهم، وتنديمهم على ما أضاعوه.

لم يكن لهم بد من الاعتـراف بالحقيقـة، بلـى قـد جاءتنـا رسـلنا وبينـوا لنـا الحـق وأوضحوه لنا. فأجابهم خزنة جهنم: إنكم والحالة هـذه لـم تفاجـأوا بالعـذاب، فـأنتم قـد علمتم مآلكم في الآخرة، ولذا فإنا لا نجد لكم عذرا يخفف عـنكم مـا أنـتم فيـه. فتوجهـوا بأنفسكم إلى الله طلبا للتخفيف وادعوه. ودعـاؤكم لا يـنفعكم فـإن دعـاء الكـافرين غيـر متقبل. مآله الضياع كأن لم يكن.

51←52 :إنا لننصر رسلنا...ولهم سوء الدار.

بكل تأكيد نتصرف بعظمتنا، فننصر رسلنا والذين آمنوا بهـم .هـو النصـر بظهـور مـا يدعون إليه من الحق على مـا يتمسـك بـه المعانـدون مـن الباطـل، فنسـقط حججهـم وشبهاتهم، ونفوزهم يوم القيامة بالجنة ونعيمهـا، فـي ذلـك اليـوم الـذي يقـوم الأشـهاد لأداء شهادتهم، من النبيين والملائكة المـوكلين بالتسـجيل، والمـؤمنين مـن هـذه الأمـة. على أن الرسل بلغوا مـا كلفـوا بتبليغـه مـن الهـدى. وبالمقابـل فقـد توعـدت الآيـة المكذبين الرافضين بالهزيمة وسقوط شـبهاتهم وانحـلال أمـرهم فـي الـدنيا. وبـالخزي يوم القيامة. يخـتم الله علـى أفـواههم فـلا يسـتطيعون الاعتـذار عمـا ارتكبـوه مـن الموبقات، ومـا يعتـذرون بـه لا يـنفعهم، إذ تظهـر الحقيقـة عاريـة لا لـبس فيهـا، ويطردهم الله يوم القيامة من رحمتـه لا ينـالهم ولـو القليـل منهـا، ويختصـون بالـدار السيئة التي لا أسوأ مقام منها، وهي جهنم دار خلدهم .

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ

ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الصدور: ضمائرهم وعقولهم.

الكبر: انفعال نفسي يجعل صاحبه معتقدا أنه أرفع من حقيقته.

استعذ بالله : اطلب من الله أن يحصنك من مكر كبرهم.

أكبر : أعظم.

بيان المعنى الإجمالي :

من صور نصر الله لرسله ما تفضل به على موسى، فبعد أن كان فرعون يطارده جمع الله له الهدى في العقيدة والسلوك والتشريع، وكون له من قومه أمة تحمل التشريع مؤتمنة على التوراة المنزلة الجامعة بين الهداية للصراط المستقيم وبين تحريك العقول للتدبر فيها واستنباط ما يصلح بها شأن الناس. إني منجز لك وعدي يا محمد فاصبر ولا تستبطئ ما وعدتك به، فإن وعد الله لا يخلف. وواصل التسبيح والتنزيه لله والاستغفار من العشي إلى الصباح. أي في جميع الأوقات. لا تأبه بالمشركين الذين محضوا كل تفكيرهم للجدل، وطمس الحق والمراوغة والسفسطة. هم يجادلون ليسقطوا الحق ويطمسوا الأدلة المؤيدة لما جئت به، يحاولون ذلك وليس معهم حجة غالبة لا من العقل ولا من الوحي. ولكن الكبر والتعاظم استولى على مداركهم فهم يودون أن لو كانت لهم النبوة، وثقة الناس بهم ليترأسوا عليهم. وكل ما زينه لهم كبرهم لا يبلغون تحقيقه، إنهم يمكرون بك ليؤذونك، فالتجئ إلى الله ليحميك من مكرهم، فإنه سبحانه السميع لكل ما يصدر منهم البصير بحقائق الأمور.

أنكروا البعث واستبعدوه، وأمامهم كتاب الكون شاهد على القدرة الإلهية التي لا يستعصي عليها شيء. فإن خلق السماوات والأرض بعظمتها ودقة قوانين الخلق فيها، لا يقاس بإعادة خلق الإنس الضئيل التافه. ولكن الذين يمرون على مشاهد الكون دون تأمل فيها يُحْكِم الجهل قبضته على عقولهم.

بيان المعنى العام:

53←54: ولقد آتينا موسى الهدى...وذكرى لأولي الألباب..

تذكيرا لنصر الله لرسله الوارد في الآية 51 سجلت هذه الآية ما آل إليه أمر موسى الذي كان مطاردا من فرعون. كان عاقبة أمره أن مكنه الله من تبين طريق الهدى في العقيدة وفي منزلة الإنسان في الكون، وآتاه الله التوراة التي أورثها بني إسرائيل ليحفظوا التشريع الذي جاءت به، ويسيروا على القيم الخلقية المؤكدة للبناء

الاجتماعي .فأي نصر مكن الله منه موسى! أغرق فرعون وأنقذ بني إسرائيل على يديه من الذل والاستعباد، وكون منهم أمة بقيت قرونا مرجعا لهداية الله. فجعل من التوراة طريق الهدى، والمرجع الذي يعود إليه أصحاب العقول الذكية والنظيفة ليستنبطوا منها الحلول للمشاكل العارضة.

55ـفاصبر إن وعد الله حق...والإبكار.

ما تقدم من وعد الله بنصرة رسله، وتحقق ذلك في موسى، يؤكد لمحمد ﷺ أنه منصور لا محالة، وأن عليه أن لا يستبطئ النصر فإنه منصور قطعا. وإن الله وعده بذلك وعدا مؤكدا، ووعد الله حق لا ينقض ولا يبطل. وأشارت الآية إشارة لطيفة إلى قرب تحقق الوعد، بأمره بما يتحتم عليه عقب تحققه كما جاء في سورة النصر، فأمر ﷺ بالتسبيح والتنزيه، ودوام الاستغفار، يصحبه ذلك كامل يومه في جميع الأوقات من العشي الذي تقدم فيه الظلمة إلى الصباح الباكر وما بينهما.

أمر الله نبيه بالاستغفار لذنبه، وحمله الناظرون في الآية على محامل عديدة. منها أن هذه الآية نزلت قبل أن يعلمه ربه بأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر في سورة الفتح آية 2- ومنها أنه ﷺ ما يزال يرتقي من مرتبة في القرب إلى مرتبة أعلى منها، فإذا نظر إلى المرتبة السابقة كانت أنقص بالنسبة للمرتبة التي وصل إليها، فيستغفر ربه ليوحد له في الأجر على مرتبة الكمال الأخيرة التي بلغها. ومنها أن النبي ﷺ كان يقوم على أمور الدولة الإسلامية من تنظيم أمر المسلمين، والفصل بين نزاعاتهم، وتجهيز الجيوش، ومتابعة أخبار العدو، كما كان يقوم على حاجات أسرته، وكان يزور المرضى ويشهد الجنائز، ويخفف عن المكروبين كرباتهم، وهو في هذه الحالات ينقطع عن استحضار صلته بالله ذكرا بلسانه وحضورا قلبيا مخلصا لا يشاركه شيء، فعدت تلك الفترات التي يقوم فيها بما فرض عليه بالنسبة للأوضاع الذي يكون مستغرقا في تمجيد ربه وتسبيحه كأنها حالات نقص تقتضي منه أن يستغفر كما جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم عن الأغر المزني أن رسول الله ﷺ قال: (إنه ليغان على قلبي وإني لأستغفر الله مائة مرة إكمال الإكمال ج 7ص129) والغيم ما يغشى به يقال غامت السماء إذا أطبقها الغيم .

56ـإن الذين يجادلون في آيات الله... هو السميع البصير.

أمرَ النبي ﷺ أن يتدرع بالصبر، وأن الله ناصره في الدنيا والآخرة. ومن الصبر الذي عليه أن يوطن نفسه عليه مجادلة المشركين، التي ينطلقون فيها من المكابرة ومن تصميمهم على رد كل ما يأتيهم من الهدى. هم يجادلون جدلا ليس له سند من

حجة عقلية، ولا وحي منزل، يجادلون بهواهم وبالباطل وبالتمويه. ليس في عقولهم حقيقة يناضلون عنها ويثبتونها، بل ليس في عقولهم إلا شيء واحد هو الكبر والتعاظم، على معنى أنهم يجادلونك تبعا لما انطوت عليه نفوسهم من التعاظم، وظنهم أنهم أرفع من أن يتبعوا الحق الذي أتيْتَهم به، تعلقا بالرئاسة والتقدم وأن لا يكون أحد فوقهم، هم يرفضون تكبرا أن ينقادوا لأمر الله، وإن كانت نبوة فلا يقبلون إلا أن تكون لهم. إن هذا الكبر الذي عشش في عقولهم لا يبلغون تحقيقه، لا في رئاسة ولا في نبوة. فستنتصر عليهم وتهزمهم، وتسقطهم من المرتبة التي نصَّبُوا أنفسهم فيها باطلا.

إن كبرهم يبعث غيظهم عليك فهم يدبرون ما يؤذونك به، فاعتصم بالله والتجئ إليه، فإنه هو السميع لدعائك، ولما يمكرون بك في الخفاء مما لا تطلع عليه، وهو البصير بوضعك، وبوضع مخططاتهم، فإنه سبحانه سيحبطها ويحميك وينصرك عليهم.

57ـلخلق السماوات... أكثر الناس لا يعلمون.

مما يموه به المشركون ويجادلون، ادعاؤهم استحالة البعث وإنكارهم إحياء الأموات، **(وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد)**[1] فأفادت الآية شدة غفلتهم عن ظواهر الكون المشاهدة أمامهم .إن الله خلق السماوات والأرض ومن عليها، وإن هذا الكون العظيم المترامي الأطراف الذي لا يعلم حقيقته إلا الله، والذي أنجز بالدقة الكاملة في كل جزئية من جزئياته، إذا قيس بإعادة خلق الناس تبدو إعادة خلقهم شيئا تافها بالنسبة لخلق السماوات والأرض. ولكن أكثر الناس لا يتأملون في كتاب الكون، فهم بذلك جهال لا يقدرون الأشياء حق قدرها.

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ
قَلِيلًا مَّا يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ
عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ

[1] سورة سبا آية 7

وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ
﴿٦١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ
يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

لاريب فيها :لابد من مجيئها .

الساعة : يوم البعث.

داخرين : صاغرين، أذلاء.

بيان المعنى الإجمالي :

مقارنة توضح حقيقة المؤمنين والكافرين. والبعد الشاسع بينهما. مثل الكافر كالأعمى، الاختلال في ذاته بفقده البصر، فينكر المشاهدات جميعها وما يترتب عليها. والمؤمن كالبصير الذي تبعثه المبصرات على التأمل فيها وتهديه إلى أن قدرة الله ليس لها حدود، وكما أنه لا مساواة بينهما من حيث الإدراك فكذلك تختلف أفعالهما. فالمؤمن يستقيم عقله وتتهذب حواسه وشهواته، بينما الكافر ينصرف إلى الشر والسيء من الأعمال. ولكن القليل من الناس هم الذين يتذكرون وينتفعون بالتأمل.

نتيجة لكل ما تقدم إن الساعة " **يوم البعث** " لا شكذ أنها آتية لامحالة. ولكن العقول التي لم يفتحها الإيمان تنكر ذلك اتباعا لشهواتها. فهم ينكرون اتيانها، لأن استحضار قدومها ينكد عليهم ما انطلقوا فيه من التسيب والفساد .

قال ربكم قولا يوجب الإذعان له من ناحية، ويتبعه الشعور بالرحمة والفضل. محصل القول: ادعوني طالبين تحقيق رغائبكم المشروعة، فإني أجيب دعواتكم إما منجزا وإما بادخار امتثالكم أجرا يوم القيامة. وقوموا بعبادتي مخلصين أوفّ لكم أجوركم. إن الذين يترفعون عن دعاء الله ليسعدهم بعونه، والذين يترفعون عن عبادته جزاؤهم محقق، هو دخولهم جهنم أذلاء.

كما يتفضل عليكم سبحانه بقبول دعائكم، فإن منته قد نالتكم في الحاضر والماضي.

رتب سبحانه الكون على أن الليل يخلف النهار والعكس. لاءم بينكم وبين الليل فجعله ظرفا تجدون فيه السكينة والراحة من عناء النهار وتتجدد قواكم. وجعل النهار مشرقا بضوئه يتبين لكم فيه ما حولكم بما يمكنكم من القيام بدوركم في

الخلافة .كل ذلك ينادي بسعة فضل الله، والعجيب أن معظم الناس يغفلون عن فضله ولا يشكرونه على نعمه.

ذلكم المشار إليه هو المرتب بحكمته لنظام الكون الليل والنهار، وأثرهما في حياة الإنسان. هو الله الذي تولاكم بعنايته فأعد لكم ما بلغكم الوضع الذي أنتم عليه في يسر من جميع النواحي المادية والروحية والعقلية. وهو الذي خلق كل شيء فهو الحقيق بالتفرد بالألوهية، وما سواه باطل وزيف. إنه بعد ثبوت هذه الحقائق فإلى أي وجهة تتصرفون؟ وعلى ذلكم النحو من الضلال والانصراف ينصرف إلى الباطل الذين ينكرون آيات الله عنادا.

بيان المعنى العام:

58ـوما يستوي الأعمى والبصير...قليلا ما يتذكرون.

تأكيد لمضمون الآية السابقة، فإن المشركين المنكرين للبعث مع أن مشاهد الكون دالة بوضوح على أن القادر على خلق السماوات والأرض قادر على خلق الإنسان الذي لا يقاس بعظم خلقهما. فأعقب ذلك المفهوم بأن مثل المنكرين هم كمثل الأعمى الذي لا يدرك المشاهد العظيمة لفقده البصر، وأن المؤمنين كمن سلمت حاسة بصره. وتكون النتيجة أنهم لا يستوون. وطوي التصريح بفضل البصير لشدة وضوحه. ثم أضاف لتأكيد فضيلة المؤمنين، بأنهم وهم قد اهتدوا فصلحت أعمالهم وزكت، لا يستوون مع الذين كفروا ففقدوا النور الهادي للصراط المستقيم وصدرت أعمالهم عن نفوس غلب عليها الشر فساءت. واستدركت الآية أنه بالرغم من وضوح الأمثلة المسوقة وضوحا مشرقا، فإن كثيرا من الناس، وهم المشركون في وقت نزول الآية لا يتعمقون في التفكير ولا يتابعون الفكرة بما انبنت عليها وما تؤول إليه، فتفكيرهم بسيط محدود، ولذلك لم ينتفعوا من الأدلة المنبثة في كتاب الكون والأدلة التي يرشد إليها العقل.

59ـإن الساعة لآتية ...لا يؤمنون.

بعد أن توالت الآيات الدالة على أن البعث حق، وقع التصريح بذلك: إن الساعة يوم يبعث الناس من قبورهم أمر مؤكد لا شك فيه. وإذا كان ثابتا مؤكدا لا شك فيه فلماذا يصر المشركون على الشك فيه بل على نفيه ؟ فكان الجواب أن أكثر الناس فقدوا الإيمان الذي يهدي ويكشف الحقائق، وينفي الأوهام. فعدم إيمانهم هو الذي طمس عقولهم فلم تنفعهم الآيات البينات على كونه حقا، لا من كتاب الكون، ولا من البراهين العقلية ولا من الوحي.

60ـ وقال ربكم ادعوني...جهنم داخرين.

هذا قول حق سجله القرآن لا مرية فيه، صدر من الله العزيز الحكيم يطلب من الناس بوصفه ربهم الحقيق بالطاعة أن يدعوه، هو قول كريم يُثَبِّت الأمل والرحمة والفضل. حاصل هذا الخطاب: يا عبادي ادعوني. والدعاء يطلق بمعنى العبادة ويطلق بمعنى سؤال الحاجات من مطالب الخير في الدنيا والآخرة. والآية تشملهما. يدعو اللهُ البشر ليعبدوه موحدين فيستجيب لهم بمعنى يثيبهم، ويرفع درجاتهم. ويدعو اللهَ البشرُ مخلصين ليتفضل عليهم بما هم في حاجة إليه، من أنواع الخير، ورفع الكرب في الدنيا، ومن المغفرة وقبول التوبة وتخفيف الحساب، والفوز برضوانه وبالجنة يوم القيامة.

وسواء أحملنا الدعاء على الطاعة الخالصة، أم على طلب العون لتحصيل المرغوب، فكلاهما لا يصدر إلا عن نفس مؤمنة معترفة بالحاجة وموقنة بأن السعادة كل السعادة قبول خضوعها لجلاله عبادة أو طلبا. ولذلك عقب الأمر بالدعاء بمآل الذين يستكبرون عن عبادته ويرون أنهم في غنى عن فضله، ولا يخضعون لجلاله، أن الله يهملهم ويذلهم فيدخلهم جهنم دار العذاب وهو صاغرون.

61ـ الله الذي جعل ...لا يشكرون.

واصل القرآن تذكير الناس بنوافل فضله، وعظيم رحمته. فبعد أن وعدهم الاستجابة لدعائهم وهي منة تتحقق في المستقبل، لفت أنظارهم إلى ما يؤكد هذا الوعد بما يشاهدونه من عنايته بهم في الماضي والحاضر .الله وحده هو الذي تصرف تصرفا محكما، فجعل الليل ينسجم مع الحاجات الإنسانية والحيوانية، قدر بواسطة الظلمة التي تعم نصف الكرة الأرضية في كل لحظة، أن يتمكن الأحياء في ذلك الشطر من السكون الهادئ، الذي يعيد للأعصاب في الليل ما يوفر لها الراحة فتتجدد بالنوم القوى، ويتم الإقبال على اليوم الجديد بنشاط. وذلك بعد أن أعياهم ملاحقة الحياة، بالإحساس بها أو بتصريفها تصريفا يحقق رغباتهم.

و في مقابلة سكونهم بالليل قدر أن ينتشر الضياء في النهار، فتدرك الأبصار ما حولها، وينطلق الناس لتحقيق مهمة الخلافة في الأرض. وإبرازا لعظيم المنة جعل النهار مبصرا، مع أن المبصر هم البشر. تأملوا فإن الله هو صاحب الفضل العظيم، راعى بعلمه وحكمته ما يلائم الإنسان وبنى عليه نظام الوجود .إن على الإنسان أن يستحضر دوما تلكم العناية، ويشكرها . ولكن العجيب: أن أغلب الناس طمس الكفر بصائرهم، فيمرون غافلين عن المنن الإلهية، لا يتوجهون لله المنعم بها بالشكر، والاعتراف بالفضل.

62ـذلكم الله ربكم....فأنى تؤفكون.

اسم الإشارة يدل على الذات الإلهية المستحضَر معهــا مفهــوم الكمـــال، وقــد ســبق فـــي الآيتين المنن التي تفضل بها. ثم أجرى علـــى اســم الإشـــارة مـــا يميـــزه تمييـــزا وافيـــا، وذلـــك بالأخبـــار الأربعـــة التاليـــة : (الله) العلـــم الفـــرد المخـــتص بالعظمـــة والجـــلال والوحدانية(ربكم) الذي تولاكم بنعمه وألطافه المتتابعـــة علـــيكم (خـــالق كـــل شـــيء) فكـــل ما في الوجود مما تنعمون به في حياتكم من خلقـــه وفضـــله(لا إلـــه إلا هـــو) فكمـــا تفـــرد بالخلق تفرد بالألوهية، لا إله غيره ولا رب سواه.

وإذ تجمعت هذه الأخبار الأربعة فوجبت له، فأي وجهـــة أخـــرى تتصـــرفون إليهـــا غيـــر وجهته؟ كلها زيف وباطل، كيف تعبدون غيره أو ترجون سواه!

63ـكذلك يؤفك ...بآيات الله يجحدون.

إن الذين انصرفوا عن عبادة الله وأشركوا بـــه بلغـــوا أبعـــد غايـــة فـــي الضـــلال، وفـــي الانصراف عن الحق إلى الباطل. وعلـــى نحـــو انصـــرافهم وضـــياعهم ينصـــرف الـــذين جحدوا آيات الله، الآيات اليقينية من الوحي ومن مشاهد الكون.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ
وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾ هُوَ
ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞
قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى
وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ
مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن
يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ
وَيُمِيتُ ۖ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

قرارا : مستقرة غير مضطربة.

تبارك : كثرت خيراته.

البينات : الأدلة والحجج الواضحة من العقل والوحي.

أن أسلم : أن أنقاد قولا وعملا.

الطفل : الصغير من بني آدم يطلق على الواحد والجمع.
الأشد: القوة في البدن.
الشيوخ : جمع شيخ وهو مَن تجاوز الخمسين من العمر.

بيان المعنى الإجمالي :

كل إنسان يسير على سطح الأرض ويضع متاعه وحاجاته في المكان الذي يتخيره فتبقى حيث أراد. ولا يكاد الإنسان يلتفت إلى سر ذلك ولا إلى الحكمة التي جعلت بقاءه على الأرض ميسرا على ذلكم النحو. وفي جاذبية الأرض للإنسان ولحاجاته ما يقوم دليلا على أن كل ذلك بفضله ولطفه بالبشرية .وكذلك السماء عمرها الله بالكواكب والمجرات وربط بينها برباط الجاذبية فلا تخرج عن مسارها فأحكم بناءها. ومع ذلك فإن فضله تجاوز الضروريات للكماليات، فراعى أن تكون صورة خلقكم أحسن صورة على وجه الأرض. يتسابق الرسامون في إبراز الجمال الإنساني في لوحاتهم، وما تبلغ أي لوحة منها في الجمال، جمال الإنسان الحقيقي، وهو الذي مكنكم من طيبات الرزق غذاء ولباسا، حسن مذاق وجمال مظهر ومهابة. إن الذي جمع كل هذه النعم فمتّعكم بها هو الله ربكم، فما أكثر خيراته! (**وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها**)، فكونوا شاكرين لربكم. تفرد بأنه الحي حياة تليق بذاته العلية، هو حي في الماضي وفي الحاضر وفي المستقبل لا يلحقه فناء، لم يسبق حياته عدم، بخلاف بقية الأحياء الموجودات فهي وجدت بعد أن لم تكن، وتفنى عند بلوغها أجلها. وبناء على ذلك فهو الحقيق بالألوهية المقتضية لتفرده بالعبادة، فاعبدوه وادعوه مخلصين، تنزهونه عن كل شرك خفي أو ظاهر. وله الحمد الكامل والثناء الجميل. هو وحده رب الكائنات جميعا.

قل لهم قولا فصلا: إنه قد حصل في عقلي وروحي اليقين الأيقن بالنظر حسب قوانين النظر العقلي، وبواسطة مشاهداتي في الكون أن الله وحده هو رب الكائنات، وأن أخصه بالعبادة، وأن لا أعبد الآلهة التي تدعونها من دونه، كما تأكد ذلك عندي بالوحي، بآيات القرآن البينة .وهذه الهداية جاءتني من ربي الذي تولاني بعنايته فهدى عقلي، ثم أوحى إلي. وأُمرْتُ أن أنقاد إلى رب العالمين قولا وعملا. هو الذي خلقكم فابتدأ خلقكم من تراب من عناصر الأرض، ثم تحولتم إلى نطفة امتزج فيها لقاح الذكر ببيضة الأنثى، فواصلت النطفة مسيرتها إلى أن علقت بجدار الرحم، وتكامل تصويركم حتى الولادة فأمضيتم زمنا في الطفولة ثم تبلغون كامل قوتكم،ثم تأخذون في الانحدار شيئا فشيئا .ويتم ما قدرته فمنكم من لا يبلغ إلا بعض الأطوار وتنتهي حياته، ومنكم من يبلغ أقصى ما قدرته له من العمر .وهذا الصنع العجيب

يُقَرِّبُهُ لكم أن الله إذا أراد إحداث شيء تتعلـق إرادتـه بإحداثـه، فـلا يمـانع ولا يتـأخر. هذا التصرف يرجى أن تتعقّلوه.

بيان المعنى العام :

64ـ الله الذي جعل لكم...فتبارك الله رب العالمين.

يوالي القرآن تذكير البشر بالنعم الإلهية التـي قـد يغفـل الإنسـان عـن تقـديرها، تبعـا لتكرر مشاهدتها، إذ تغطي الرتابة علـى مـا تـدل عليـه مـن عظـيم المنـة وعجيـب الصنع. تلفت الآية الأنظار إلـى قـانون مـن قـوانين الكـون، عبـر عنـه فـي الأرض بالقرار، وفي السماء بالبناء. ويضم القـرآن إلـى قـانون الأرض أنـه جُعِـلَ لنـا، فهـو مراعى فيه ما يـتلاءم معنـا نحـن البشـر الـذين نعـيش علـى وجـه الأرض. فهمـه السابقون على أن الأرض قارة لا مضطربة، أو علـى أنهـا بنيـت علـى وضـع تكـون بها قرارا للإنسان تلائمه بجعلها يابسة غير سـائلة. وهمـا محمـلان لا مـانع مـن فهـم الآية عليهما. والأولى في نظري أن نفهـم الآيـة علـى أسـاس قـانون الجاذبيـة الـذي جعله الباري متناسبا مع الإنسان وحاجاتـه إذ لـو كـان قـانون الجاذبيـة أقـوى لكانـت معاناته في تنقله علـى وجـه الأرض شـديدة، بـل لا يسـتطيع أن يعمـر الأرض. ولـو كانت الجاذبية أخف لما استطاع أن يثبت ويسـتقر عليهـا بيسـر. وقـد شـاهدنا النـازلين على كوكب القمر، وجاذبيته أخف مـن جاذبيـة الأرض، كيـف أنهمـا لـم يقـدرا علـى تنفيذ مهمتهما إلا بفضل التدريبات وما صـحبهما مـن أجهـزة. ففضـل عظـيم وحكمـة بالغة في الربط بين الإنسان وبين جاذبية الأرض لتكون للجنس البشري قرارا.

أما السماء فالجاذبية بين الكواكـب لـم يـراع فيهـا حيـاة الإنسـان، بـل تعلقـت الإرادة الإلهية بأن تكون متماسـكة مبنيـة بنـاء لا يختـل، ولـذلك لـم يـربط القـرآن بناءهـا بالبشرية بل قال: **والسـماء بنـاء.** إن الكواكـب والمجـرات علـى ضـخامة أحجامهـا ربط الخلاق الحكيم بينها فسارت في مساراتها منتظمة إلـى الأمـد المحـدد لهـا، وأعْظِـمْ ببنائها بناء، والمسافات بينها تقدر بالسنوات الضوئية فتبارك الله أحسن الخالقين.

-إن من يتأمل ما أوجده الله على سطح الأرض ويقـارن بينـه، لا يجـد مخلوقـا أحسـن صورة من الإنسان. خذ لذلك مثلا؛ تجـد مـن أجمـل الحيوانـات الحصـان، والعنـدليب والظبي، تصور إنسانا فمه على شكل واحد من هذه، كـم يكـون قبيحـا لا تسـتقر عليـه العين. فمن تكريم الإنسـان أن طـور الله الخليـة الأولـى تطـويرا بلـغ بـه مـا عليـه الإنسان من وسامة وجمال. ولـو حرمـت الخليـة جزيئـا لا يسـتطيع العلمـاء تقـديره لتشوّهَت خلقته. ومع حسن الإيجاد تخير له أمتـع مـا يكـون مـن الإمـداد. فمـا خلقـه سبحانه من أنواع الغذاء ومواد اللباس، وما هدى إليه الإنسـان مـن قـدرة علـى تطـوير

ذلكم الرزق الوافر، ومعالجته بما يبلغ به مستويات رفيعة من الطيب وحسن المذاق، وجمال المنظر، كل ذلك ينادي بعظيم الفضل والعناية بالإنسان.

– ذلكم الذي نبهكم إلى بعض أنواع فضله الله العظيم الكريم، هو ربكم الذي يرعاكم بحسن رعايته، فيما تنتبهون إليه وفيما خفي عنكم فيحرككم للتأمل فيه. فثناء عليه هو أهله ومستحِقُه، كثرت خيراته وتنوعت فضائله. هو رب العالمين جميعا البشر وكل المخلوقات. صرح القرآن بصورة من صور الثناء على الذات العلية تعليما لنا وإرشادا.

65ـهو الحي ...الحمد لله رب العالمين.

هو الحي –الحياة كمال الموجودات، والله متصف وحده بالحياة الحقيقية التي لا يتبعها نقص ولا يسبقها. فكل الأحياء لم يكونوا موجودين ثم وجد كل واحد في الأجل المقدر له، وكذلك كل حي مآله إلى الموت والفناء، والحياة الأزلية السرمدية اختص بها الله. ولما كانت حياته أزلية أبدية فهو وحده المستحق للألوهية. وكل ما نسب إلى الألوهية من الأصنام وغيرها معدوم في وقت من الأوقات ولا بد، ومع انعدامه لا يصلح للألوهية " **لا إله إلا هو**" هو الرب الموجد القائم وحده على موجوداته بدون شريك، فادعوه: اعبدوه عبادة لا تجعلون فيها حظا لأي كان، مطهرة من الشرك الخفي والظاهر، اعبدوه لأنه هو وحده الحقيق بالعبادة. "**مخلصين له الدين**" أخلصوا له في العبادة وأفردوه بالطاعة.

وإذ بلغ التعبير القرآني أسمى مراتب البيان في الكشف عن كمال الألوهية، ختم ذلك بإنشاء الثناء على الله رب العالمين " **الحمد لله رب العالمين** " هو وحده المستحق للحمد، و هو رب الكائنات كلها لا تستغني عن إمداده.

66ـقل إني نهيت أن أعبد الذين...أن أسلم لرب العالمين.

قل للمشركين قولا يدخل اليأس في قلوبهم من التأثير عليك، ويعلن اليقين الأيقن الصادق الذي غرسه الله في عقلك وروحك. تأمُّله ﷺ قبل البعثة في كتاب الكون، وصفاءُ عقله، وتوفيقُ الله له من أول أمره، ثبّت يقينه أنه لا يستحق العبادة أحد من الأصنام التي كان يعظمها قومه ويعبدونها. ثم انضاف إلى تلك الأدلة العقلية، ما أوحى الله به إليه من الآيات القرآنية التي تُفْرِدُ الله بالعبادة، فتظافرت مع ما رسخ في عقله من حقيقة الوحدانية لله، وبطلان كل ما دعي من دونه، فتألف من مجموعهما ما يبعده عن عبادة غير الله. ليس المراد أن الله نهاه عن عبادة الأصنام فانتهى. ولكن المراد أنه بعناية الله به فتح له عقله إلى الآيات الدالة على زيف آلهتهم قبل البعثة، وأكد بطلانها بالوحي فما استقر في عقله وروحه إلا عبادة الله

الواحد الأحد، قبل البعثة بدليل العقل من المنطق وكتاب الكون، وبعد البعثة بذلك مع الوحي. وبهذا فلا يأمل قومه أن يلين معهم في هذا الجانب. وجاءني الأمر الذي يحتم الطاعة والامتثال، مضمونه: أن أنقاد انقيادا بالقول والعمل لرب العالمين، الحقيق بالطاعة إذ هو الذي تولى كل صغيرة وكبيرة في الكون بعنايته .

67ـ هو الذي خلقكم من تراب...ولعلكم تعقلون.

يتوهم كثير من الناس أنهم مستقلون في وجودهم يتحكمون في مصائرهم، دعوى ينفخ فيها إبليس ليفصلهم عن مُوجدهم رب العالمين .فلفت القرآن أنظار البشر إلى التطور الذي يجري عليهم الذي به تحققت ذواتهم، مع أنهم لا يتحكمون في القليل ولا في الكثير منه، مما يدل يقينا على تفرد الله بالتصرف فيهم، وعدم استغنائهم عنه. ذكّرهم بأن خلقهم ابتدأ من عناصر الأرض التي تكونت منها أقواتهم فتحولت بعد هضمها إلى مقومات دخلت في الخلية الأولى، فتكونت منها النطفة التي تابعت مسيرتها في قناة فالوب فعلقت بجدار الرحم، إلى أن تكامل تصويركم شيئا فشيئا، حتى إذا بلغ الجنين أمده نزل إلى الأرض إنسانا طفلا، ثم ينمو إلى أن يشتد عوده ويصل إلى قمة قوته شابا وكهلا، ثم تتحولون قسرا إلى سن الشيخوخة، وتأخذ قواكم في الضعف شيئا فشيئا. وإنكم في رحلتكم هذه لا تتحكمون في مضيها إلى منتهاها الشيخوخة، فمنكم من يتوفى في مرحلة من مراحل التطور السابق، ومنكم من يتواصل وجوده إلى أن يبلغ الأجل المعين فلا يزيد عليه لحظة ولا ينقص منه لحظة . كل ذلك يرجى منكم أن تعقلوه فتؤمنوا بربكم .

68ـهو الذي يحيي ...له كن فيكون.

من عجيب صنع الله أنه حول التراب الذي منه أصل تكونكم إلى كائن حي، والحياة من أعظم المنن الإلهية، فاعلموا أن وجودكم أحياء هو من عطاء ربكم. وهو الذي ينهي حياتكم حسب تقديره. فكيف يتم التصرف في هذين القطبين ؟ هومن عجيب صنع الله لا يحتاج في ذلك إلى معالجة ولا إلى تدبير، يقرب ذلك لعقولكم: أنه إذا قضى أي أمر وتعلقت إرادته به، سواء في ذلك حياتكم أم بقية التصرفات في الكون، يأمر فينفذ أمره ويتحقق دون ممانعة ولا تأخير .

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟
بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ
أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِى ٱلْحَمِيمِ ثُمَّ فِى ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ

قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن
نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمْ
تَفْرَحُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ
خَـٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۚ فَإِمَّا
نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٧٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

أنى: كيف. سؤال مع استبعاد.

بالكتاب : بالقرآن.

الأغلال : جمع غل، محيط بالعنق يوصل به ما يقاد به المجرم أو الأسير.

يسحبون : يجرون.

الحميم : الذائب الشديد الحر من النار .

يسجرون : توقد النار بهم.

ضلوا عنا : غابوا.

الفرح: المسرة ورضا الإنسان بوضعه.

المرح: ما يظهر على الفارح من آثار فرحه.

المثوى : الإقامة الدائمة.

بيان المعنى الإجمالي:

تقرير في صيغة السؤال لتكون الإثارة أتم. ألم تعلم وضع الذين يبذلون كل طاقاتهم إذا جاءتهم الآيات البينات من الله ليجادلوا فيها بالباطل، ويحرفوا النظر إلى إثارة شبهات لا دخل لها في الاحتجاج. إلى أي جهة ينصرفون ؟ ليست لهم وجهة إلا الضياع. هؤلاء المجادلون هم الذين صمموا على تكذيب القرآن وتكذيب كل الرسل الذين وافقت تعاليمهم ما أنزل على محمد، إنهم رفضوا الإيمان بالبعث. يهددهم القرآن أنهم سيعلمون أن البعث حق. وذلك في الوقت التي تكون الأغلال الحديدية محيطة بأعناقهم وقد ربطت بسلاسل ثقيلة يجرون بها إلى جهنم كلما رفعهم اللهب نزلت بهم السلاسل إلى قعر الجحيم ليكونوا وقودا للنار.

و فوق ذلك يسلط عليهم الذل والمهانة فيسألهم الملك الموكل بعذابهم سؤال تقريع، أين شركاؤكم الذين اتخذتموهم آلهة من دون الله تزعمون أنهم يشفعون لكم فادعوهم. أجابوا إجابة الحزين الفاقد لكل سند: لم نجدهم، بل الحقيقة أننا لم نكن

تدعو من دون الله شيئا نافعا. وعلى هذا النحو يتم إضلال الكافرين. كل أنواع العذاب المفصل سابقا ما كان منه ماديا أو نفسيا مسبب عن فرحكم ورضاكم الرضا التام بما أنتم عليه من الباطل، وبسبب مرحكم استكبارا واستهزاء بالمؤمنين وضحكا منهم.

يقال لهم ادخلوا جهنم من أبوابها المفتحة لقبولكم في قعرها أين ستقيمون إقامة لا تغادرونها أبدا .إن إقامتهم في جهنم هي أسوأ ما يتصور من الإقامات.

اصبر يا محمد ولا تستعجل ما وعدتك به فإنه حق لا ريب فيه. ووعد الله لا يتخلف أبدا. واعلم أن بعض ما وعدتك به من النصر ستراه في حياتك، كما تم يوم بدر. وما لم يتحقق في حياتك فإن أعداءك لا مفر لهم من العودة إلى حكمنا فنجزيهم عما قدموا إما في الدنيا كالانتصارات التي تمت للإسلام بعد وفاته ﷺ، وإما يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

69- ألم تر إلى الذين يجادلون...أنى يصرفون.

تكرر في هذه السورة فضح جدال المشركين خمس مرات " الآيات 4-5-35-56- وتم تبكيتهم وتهديدهم. وتستفتح هذه الآية بتعجيب كل متأمل في وضعهم الفكري، فهم بمجرد ما تتلى عليهم الآيات البينات الواردة من الله العليم الحكيم، يجهدون أنفسهم ليقدموا ما يبطلها ويشككوا في صدقها. عجب لهم إلى أي جهة يصرفون أنفسهم إليها. هم عارضوا الحق بسفسطة وقلب للحقائق وتحويل المنطق العقلي إلى الجدل الباطل. والخطاب موجه إلى النبي ﷺ أولا، ثم لكل متأمل في مواقفهم الجدلية من آيات الله الهادية البينة.

70←72: الذين كذبوا بالكتاب...يسجرون.

من هم هؤلاء المجادلون بالباطل ؟ عرفتهم الآية بأنهم الذين بادروا بتكذيب كون القرآن منزلا من عند الله رغم أنهم تحدوا به وعجزوا، ولكن واصلوا التكذيب جدلا، وكما كذبوا بالقرآن فإنهم قد كذبوا بما جاءت به الرسل السابقون: فإنهم لما أعلمهم الرسول ﷺ بأن الله سيبعثهم للحساب يوم القيامة، وأن هذا قدر متفق عليه بين جميع الرسل، سألوا أهل الكتاب فصدقوا فكفروا بالرسل جميعا. هددهم القرآن بأن البعث لاشك فيه، وتوعدهم بأنهم سيعلمون أنه حق بما يسلطه عليهم من العذاب.

سيتحقق علمهم بالبعث، ولكن علمهم به سيكونون فيه على الوضع المتوعد به: الأغلال الحديدية محيطة بأعناقهم، يُجَرُّون إلى مصيرهم في جهنم وقد ربطت

الأغلال بسلاسل الحديد الثقيل فكلما رفعهم اللهب أعادتهم السلاسل إلى قعر جهنم. فينقلبون إلى وقود للنار يزداد بأجسامهم حرها ووقودها .

73→74: ثم قيل لهم أين ...يضل الله الكافرين.

وفوق ذلك العذاب عذاب نفسي. إذ يخاطبهم، الملك الموكول بتنفيذ العذاب فيهم، إعلانا لفضحهم، بقوله: أين الأصنام التي كنتم تشركون بها، وتدعون أنها آلهة من دون الله تشفع لكم؟ فهذا أو ان حضورها فادعوها. كان جوابهم جواب المنهارة آماله الذي تبين له أنه كان ضالا ضلالا مبينا: ضلوا عنا، غابوا عنا ولم نجد لهم أثرا. ثم اعترفوا مضربين عن قولهم: غابوا عنا، وأعلنوا أنهم أدركوا الحقيقة البينة: أنهم كانوا يقيمون آلهة غير فاعلة وليست شيئا يعتد به. فكأنهم تعلقوا بالعدم. وعلى هذا النحو الذي ضل به المجادلون في آيات الله، يضل الله جميع الكافرين. هو ضلال ينتهي إلى الندامة واليأس والافتضاح.

75ـ ذلكم بما كنتم....تمرحون.

ذلكم-الذي تبين لي أن اسم الإشارة يستحضر كل ما مضى في الآيات السابقة من تفصيل أنواع العذاب البدني والنفسي. يستحضره الملك ويذكرهم به ثم يردف بقوله: كان هذا جزاءكم:

أولا: بسبب ما كنتم عليه من الرضا التام لرفضكم الحق، فكنتم فرحين بشرككم وظلمكم للمؤمنين، كنتم مبتهجين بما أنتم عليه لا تراجعون أنفسكم ولا تنظرون في الوحي الذي يخاطبكم.

وثانيا: بسبب إظهاركم ما كنتم عليه من الفرح الباطني، إظهاره تطاولا، وتكبرا، واستهزاء وضحكا مثيرا.

76ـ ادخلوا أبواب جهنم...مثوى المتكبرين.

ويقال لهم: **ادخلوا أبواب جهنم**، وهو قول يصحبه التنفيذ، فأبواب جهنم هو المقصد الذي يدفعون إليه دفعا أي، جهنم، ويُعَرَّفون أن إقامتهم فيها إقامة دائمة لا مخرج لهم منها. واستحضروا سوء مصيرهم. فإن إقامتهم تلك أسوأ إقامة متصورة للمتكبرين المستخفين بالحق. بمقدار ما انتفخوا في الدنيا واستكبروا، يبلغ إذلالهم إلى أحط منزلة وأسوأ حالة.

77ـ فاصبر إن وعد الله حق....فإلينا يرجعون.

كن واثقا يا محمد أن الله وعدك النصر، وأنه سينصرك لا محالة، فاصبر ولا تستعجل الوعد، إن تصرفه سبحانه مؤسس على الحكمة. واصل نشر الهداية التي أوحينا بها إليك، وكن ثابتا على ذلك رغم ما تلاقيه من عنادهم ومكرهم.

فإما نرينك بعض الذي نعدهم- عرف الله رسوله أن ما وعده لا يخلو حاله من أمرين:

أحدهما: أن يتحقق في حياتك الوعد، فترى بعينيك النصر يُعْلِي دعوتك ويهزم أعداءك. كما تم في بدر وفي فتح مكة، إلى سنة الوفود التي أقبلت فيها القبائل العربية معاهدة على الإسلام طائعة .

ثانيهما: أن نتوفينك قبل أن ترى انهزامهم جميعا وانتصارك عليهم جميعا، فاعلم أنهم صائرون إليَّ لا يخرجون عن قبضتنا وإني سأجزيهم عما قدموا .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ ۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾

بيان معاني الألفاظ :

بآية : بمعجزة.

هنالك : في ذلك الوقت.

الأنعام: الإبل والبقر والغنم

المنافع : الشيء الذي ينتفع به .

حاجة :ما قصدتم التحصيل عليه.

بيان المعنى الإجمالي :

أرشد الله رسوله ليتدرع بالصبر ووعده النصر في الآية السابقة .وذكره في هذه بأنه أرسل رسلا من قبله قص أخبار بعضهم عليه، ولم يقصص أخبار بعض آخر، وفيه إيماء إلى التذكير بأن العاقبة كانت لهم. ويقويه على مواجهة مكر المكذبين باقتراحهم معجزات من نوع خاص على هواهم، فأعلمه أن ما كان لأي رسول أن يقدم معجزة يتحدى بها المكذبين حسب اختياره. ولكن الله هو الذي يؤيد بحكمته رسوله بالمعجزة التي يقدر أنها أصلح .وأنه إذا جاء الوقت الذي ينفذ فيه ما قدره الله يظهر القضاء الحق بتدمير المبطلين وخسارتهم خسارة تستصفي كل ما عندهم شأن التاجر الذي ذهب كل ماله .

من منته سبحانه عليكم أن جعل لكم الأنعام الإبل والبقر والغنم والمعز، سخرها لكم، تركبون بعضها [الإبل] وتأكلون من لحومها، وتشربون من ألبانها، وتنسجون من أصوافها وأوبارها، وتنتفعون بأثمانها إلى غير ذلك .وتبلغكم ما تعزمون تحقيقه في تجاراتكم، كما يسر لكم سفن البحر تتنقلون فيها مع تجاراتكم. مكنكم الله من رؤية هذه النعم لتستدلوا بها على انفراده بالربوبية والفضل والتدبير. فهل تستطيعون إنكار أي نعمة من تلكم النعم الكثيرة، أو أن تنسبوها لغيره؟ فانتفعوا بها بما يربطكم بخالقكم .

بيان المعنى العام :

78ـ ولقد أرسلنا رسلا من قبلك...وخسر هنالك المبطلون.

من الجدل الذي جادل به المشركون غير المبني على النظر ولا العلم، إنكارهم أن يبعث الله رجلا مثلهم ليبلغهم وحيه؛ فأثبتت هذه الآية أن الله أرسل قبلك يا محمد رسلا. وهم كُثُر لم نقصص عليك أخبار جميعهم في القرآن بل منهم من أنزلنا عليك وحيا يعرف بهم، وقسم آخر لم أعرفك بهم. إذ لا ينبني على إعلامك بهم كبير فائدة، ففي ما ذكر كفاية. والرسل الذين ذكروا في القرآن بأسمائهم هم: نوح، إبراهيم، لوط، إسماعيل، إسحق، يعقوب، يوسف، هود، صالح، شعيب، موسى، هارون، عيسى، يونس، عليهم السلام، ومحمد ﷺ خاتمتهم . كما ذكر اثنا عشر نبيا بأسمائهم: آدم، داود، سليمان، أيوب، زكرياء، يحيى إلياس، اليسع، إدريس، ذو الكفل، ذو القرنين، لقمان. .ومن علِمهم من القرآن وجب عليه الإيمان بكل واحد منهم، ومن نفى رسالة أحدهم بعد اطلاعه على رسالته في القرآن يعد جاحدا ليقيني، يخرجُه إنكاره من الإيمان. وأما من لم يعرف وأنكر جهلا فلا يضره .

ومن جدلهم بالباطل أنهم طلبوا من رسول الله ﷺ، أن يأتيهم بآيات يعينونها تصدقه **(وقالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى)**[1]كما ورد في الآيات 90-91-92-93- من سورة الإسراء. فقلبوا الأمر وجعلوا أنفسهم يتحكمون في الإرادة الإلهية لتؤيد رسوله بما يشتهون ويقترحون. فردت هذه الآية شغبهم، وأكدت أن الرُسُل السابقين ما كان لأحد منهم، ولا يتصور منه أن يأتي بآية حسب مقترحات قومه ولا حسب رغبته، ولكن الله يأذن فيطوع لرسوله آية يخضع لها المبعوث إليهم، ويُتَحَدَّوْن بها فيعجزون عن الإتيان بمثلها .

[1] سورة القصص آية 48

فإذا جاء أمر الله.يمهل الله الكافرين يتحدون ويستكبرون ويؤذون، ظانين أنهم في مأمن من العقاب، وأنهم غالبون. وفي الوقت الذي ما كانوا يتوقعون فيه شرا، يبرز التقدير الإلهي الذي لا مرد له في الانتصاف من المكذبين الذين كانوا يشككون ويقترحون الاقتراحات على هواهم، فيظهر قضاء الله المظهر للحق الهازم للباطل. وتجسم العاقبة أن المبطلين خسروا كل شيء وذهب كل ما كانوا يعتزون به من قوة. يستحضر وضعهم مقارَنا بوضع التاجر الذي بذل جهده، وانفسحت آماله، فكانت عاقبته الخسارة وذهاب المكاسب . فحصل له الضر من حيث أراد تحصيل النفع.

79←81: الله الذي جعل لكم الأنعام...فأي آيات الله تنكرون.

استئناف لعرض منن أخرى من فضل الله. افتتحت الآية باسم الجلالة المتفرد بالإيجاد والتمكين. فهو سبحانه الذي جعل لكم الأنعام الغنم والمعز والبقر والإبل. يتضمن النص أمرين اختص الله بالتفضل بكل منهما. الجعل بالتسخير، والجعل للبشر "لكم " بالملاءمة بين تلكم الأنعام وبين حاجات الإنسان منها. ثم أخذت الآية تفصل شيئا من تلكم المنن. لتركبوا بعضها [الإبل] فمن بمعنى بعض. ولتأكلوا من لحومها. ولكم فيها منافع أخرى: ألبانها وأصوافها وأوبارها، وجلودها، وأثمانها. وتتأثلون منها أموالا تدخرونها .وتبلغكم ما تقصدون التحصيل عليه من الأبعاد التي ما كنتم بالغيها إلا بشق الأنفس .تقطعون بها الصحاري تحملكم وتحمل تجاراتكم، التجارات التي تعدون لها وترتبون في عقولكم ما تحملونه معكم، وما تستوردونه مما ينفق في البلد المحمولة إليه .

و ربطت الآية في المنة ما يسره للعرب المخاطبين بهذه الآيات، رَبَطَ الإبل سفن الصحراء، بالسفن البحرية التي كانت وسيلة لهم في نشاطهم التجاري والانتقال وخاصة عبر البحر الأحمر، إلى الحبشة واليمن.

يريكم آيات قدرته، وآيات عنايته بكم، وألطافه، وحسن تقديره. إذ ذكر في الآيات السابقة بنعمة الليل والنهار، وملاءمة الأرض للاستقرار على ظهرها. وعنايته بكم في أطوار خلقكم، وجعل الأنعام مسخرة للإنسان ينتفع منها بمتنوع الانتفاعات. إنكم تشاهدون هذه الآيات في كتاب الكون، وهي أدلة لكم لتؤمنوا بربكم، وتوحدوه وتعبدوه. فهل تجدون آية من تلك الآيات تستطيعون نكران وجودها، أو نسبتها لأحد غيره ؟

أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓاْ أَكْثَرَ
مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِي ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا
جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُواْ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ
يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ
مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْاْ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي
عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

فرحوا: ازدهوا.

حاق: أحاط إحاطة ضيقة.

ما أغنى عنهم : ما أفادهم ولا عصمهم .

البأس : الشدة في المكروه.

سنة الله : طريقة حكمته في تصريف الأمور.

بيان المعنى الإجمالي :

يسألهم القرآن سؤال تقرير وتقريع، ألم يقطعوا المفاوز من اليمن إلى الشام، ويقفوا في أسفارهم على عاقبة المكذبين من قبلهم. كانوا على مستوى حضاري أرفع من مستواهم. يدل على ذلك بقايا قصورهم وحصونهم وجناتهم. فما أفادهم ما جمعوه من قوة، وما حصنهم من عذاب الله. ثم ذلك، لما جاءتهم رسلهم بالأدلة البينة على أن الحياة الدنيا مطية للحياة الآخرة، وأن عليهم أن يصلحوا عقيدتهم وعملهم ليفوزوا فيها. كان موقفهم من الهداية أن قارنوا بين مكتسباتهم العلمية وما حققت لهم من تقدم، واقتنعوا بأن ما جاءتهم به الرسل سخيف، وفرحوا بما هم عليه. فأحاط بهم العذاب إحاطة لم يجدوا منه متنفسا وتم استئصالهم .

وسجل القرآن لحظاتهم الأخيرة .إنهم لما شاهدوا العذاب نازلا أدركوا ضلالهم فقالوا: **آمنا بالله وحده**، وكفرنا بجميع الآلهة التي كنا ندعوها من دونه. ويعلق القرآن على إيمانهم الاضطراري، أنه إيمان لا ينفعهم لما رأوا العذاب الشديد يحيط بهم. وهذه هي سنة الله وطريقته الحكيمة السائرة في جميع الأعصار مع جميع العباد .وخسر في ذلك الوقت الكافرون خسارة ذهبت بكل ما جمعوه وتأثّلوه.

بيان المعنى العام :

82: أفلم يسيروا...بما كنا به مشركين.

عرضت الآيات السابقة متنوع النعم والمنن التي من الله بها على عباده، والتي تقتضي أن يوحدوه، ويفردوه بالعبادة. وهذه الآية تفيد لفت أنظارهم إلى ما يشاهدونه في أسفارهم من آثار الأمم التي كذبت رسلها كيف كانت عاقبتها، الاستئصال والتدمير وانقطاعها من الوجود. وذلك ليعتبروا ويقلعوا عن التكذيب. جاءت صياغة الآية على طريقة السؤال: **أفلم يسيروا في الأرض** لتجمع بين الإثارة والتقرير.

فهذه الآية تحركهم إلى الاعتبار بعاقبة المكذبين من الأمم السالفة، العاقبة التي يشاهدون آثارها في أسفارهم، مما يحذرهم المصير الذي آلوا إليه .و مما يضاعف التأثير فيهم ويخوفهم، أن تلك الأمم كانت على حظ من القوة أكثر من حظهم. فبقايا قصورهم، وحصونهم، ومصانعهم وجناتهم، تشهد بالمستوى الحضاري الذي بلغوه. وهو يفوق المستوى الذي عليه المكِّيُون. وشاهدوا أن تلك الأمم ما أغنى عنهم، وما حصنهم من عذاب الله، ما جمعوه وما حققوه من المكاسب العلمية والمادية.

فلما جاءتهم رسلهم ... هذا المقطع يوضح قوله: **فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون** . أبان كيف تَمَّ ذلك ولم تفدهم تحصيناتهم وقوتهم. فبمجرد ما جاءتهم رسلهم بالآيات البينات والحجج الواضحة، استهانوا بها واعتبروها لا قيمة لها، وقارنوا بين الوحي الإلهي وما يدعو إليه من الموازنة بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، لتكون الحياة الدنيا طريقا للسعادة الحقيقة يوم القيامة، استهانوا بذلك ونظروا إلى ما جمعوه من علوم الدنيا، وما حققت لهم من سيطرة وتحكم في خيرات الكون، فازْدَهَوْا بما عندهم من العلم، واعتبروا أن ما جاءتهم به الرسل لا يسمو إلى ما هم عليه من العلم. وكابروا وتصلبوا في رفضهم، فأحاط بهم الاستئصال والعذاب إحاطة لا يجدون منه متنفسا. هذا العذاب الذي كانوا يستهزئون بالرسل عندما أوعدوهم به .

84←85:فلما رأوا بأسنا...وخسر هنالك الكافرون.

سجل القرآن ما تحقق على الأقوام المستأصلة. إنهم لما شاهدوا عذابنا الماحق، أعلنوا عندها إيمانهم بوحدانية الله ورفضهم الآلهة الأخرى التي كانوا يتعلقون بها ويعبدونها. فلم يكن إيمانهم إيمان اختيار محقق للتكليف، وإنما كان إيمان اضطرار،

والله يقول:(**لا إكراه في الدين**)[1] ولما كـان إيمـانهم إيمـان اضـطرار لـم ينتفعـوا بـه وأطبق عليهم العذاب.

وعلى هذه الطريقة جرت حكمة الله في تنفيـذ عقـاب الكـافرين المتصـلبين فـي كفـرهم في جميع الأعصار. وانتهت السورة بتعبير عام يكون عبـرة: خسـر فـي ذلـك الوقـت، وقت نزول البأس والعذاب، خسر الكافرون كل ما ظنوا أنه يفيدهم.

يوم الاثنين 10 ذو القعدة 1434 – 2013/09/16

[1] سورة البقرة آية255

سورة فصلت

بهذا الاسم عرفت في المغرب العربـي، أخـذ اسـمها مـن الآيـة الثانيـة، كمـا سـموا السورة السابقة بسورة غافر. وسميت بسورة "حم السـجدة" فـي صـحيح البخـاري وفـي جامع الترمذي . لأنها السورة الوحيدة المفتتحة بحم وفيهـا سـجدة. واسـمها فـي معظـم مصاحف المشرق والتفسير سورة " السجدة" كما نقـل أنهـا تسـمى "سـورة المصـابيح " لقوله تعالى فيها:**(وزينا السـماء الـدنيا بمصـابيح)**[1] وسـورة الأقـوات لقولـه تعـالي فيها:**(وقدر فيها أقواتها)**[2] وهي سورة مكية باتفـاق. هـي الحاديـة والأربعـون حسـب ترتيب المصحف. والحادية والستون حسب ترتيـب النـزول. نزلـت بعـد سـورة غـافر وقبل سورة الزخرف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٌ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٌ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٌ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

فصلت : وضحت آياته فانتفى عنها اللبس.

بشير: المخبر بما يسر سامعه.

أكنة: جمع كنان وهو الغطاء.

الوقر : ثقل السمع، صمم.

الحجاب : الساتر لما وراءه.

---

[1] سورة فصلت، آية 12.

[2] سورة فصلت، آية 10.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه ثاني سورة من السور المتتابعة المفتتحة بـ" حم" يقال فيها ما سبق في نظائرها من الحروف المقطعة في سورة البقرة وما تلاها. تنزيل عظيم، من الموصوف بالرحمة الواسعة الشاملة. أنزل القرآن تُحْفَظُ آياته في كتاب. وتتلى قراءة بلغة عربية فصيحة، ليهتدي به القوم المهيؤون للعلم . يبشر المؤمنين به المطبقين لهديه بالسعادة في الدنيا والآخرة، وينذر المعرضين عنه بسوء الحاضر والمصير . اختار أكثرهم الإعراض عنه فكانوا بمثابة الصم الذين لا يسمعون. وصرحوا بعدائهم لما جاء به فقالوا: عقولنا مقفل عليها في صناديق لا يصل إليها شيء مما تجهد نفسك لدعوتنا إليه، وفي آذاننا ثقل شديد فهي صماء لا تسمع أقوالك، وبصفة عامة فإنه قد ضرب بيننا وبينك بحجاب لا تصل إلينا ولا نراك. اعمل ما شئت فلن تؤثر فينا . واعلم أننا عقدنا العزم لنكون عاملين على ما يوقف مَدَّ رسالتك، وتصور ما سيحصل لك.

لا تتأثر يا محمد بشراستهم، وقل لهم: **(ما أنا إلا مثلكم)** في البشرية، لا أدعي أني مسيطر عليكم أو متحكم فيكم، ولكني أفضلكم، بأن ربي اختارني لتحمل وحيه الذي يقوم على أن إلهكم لا يكون إلا واحدا. انهضوا لاتباع الطريق المستقيم الذي يصلكم به. واطلبوا منه أن يغفر لكم ذنوبكم من الشرك ومن المعاصي بالتوبة. وليعلم المشركون أن الله قد أعد لهم الويل: العذاب الأليم. المشركون الذين لا يعينون بالصدقة على المحاويج، لا تلين قلوبهم لأنهم متصلبون في الكفر بيوم القيامة.

بيان المعنى العام

1-حم

يقال فيه ما قيل في الحروف المقطعة المفتتح بها بعض السور القرآنية. وهذه هي السورة الثانية من السور السبعة المفتتحة بـ" حم ".

2-تنزيل من الرحمن الرحيم.

تُثَبِّت هذه الآية أن القرآن تنزيل عظيم، لم يكن لمحمد فيه دخل إلا بالتبليغ والبيان. نزل بكل حرف من حروفه وكلمة من كلماته، جبريل عليه السلام من الله الموصوف بالرحمة الواسعة. رحمهم بهذا الكتاب ليخرجهم من ظلمات الحيرة والضلال، إلى نور اليقين والهدى .

3->4:كتاب فصلت آياته....فهم لا يسمعون.

أجرى على هذا التنزيل الأخبار التالية :

أ -**كتاب:** يكون أولا وحيا يسمعه النبي ﷺ، ويقرأه، ثم يأمر أحد كتبة الوحي بتسجيله، فاجتمع فيه من أول يوم بالنسبة لكل آية من آياته، الحفظ، ثم التسجيل بالكتابة.

ب -**فصلت آياته:** كان نصه واضحا بينا، لا لبس فيه. ومن حاول من المكابرين تأويله التأويل الذي لا يتفق مع روحه ونصه، يعجز عن بلوغ الغاية من مكره ويظهر سَقَطُه .

ج - **قرآنا عربيا:** تنويه بلغته التي هي أوسع اللغات، وأقدرها على تحمل المفاهيم وإبلاغها، فما توجد لغة أقدر من اللغة العربية على حمل الهداية السماوية للبشرية، مع استمرارها عبر الأزمان على المستوى الذي كانت عليه وتمكنها من مخاطبة البشر والتأثير عليهم، على مختلف درجاتهم الفكرية والثقافية.

لقوم يعلمون: القرآن في ذاته موصوف بما تقدم، نزل لقوم متهيئين للمعرفة والانتفاع بما جاء فيه. فمن وقف منه موقف الرافض دون أن ينظر فيه أو يتدبر في معانيه لا ينتفع به لعيب فيه لا لخلل في القرآن.

د - **بشيرا**، هو مبشر بالخير للمستقيمين الذين يألفونه ويطبقون ما جاء به. وتنوعت طرق التبشير في القرآن، من الطمأنينة الراضية إلى الفوز يوم القيامة.

هـ - يوقظ للتحصن من أمر مخوف، ببيانه، كما جاء في تفصيل ما توعد به الكافرين من خزي الدنيا، ومن عذاب الآخرة. وما حذر فيه العصاة من غضب الله وعقابه.

فأعرض أكثرهم - تسجيل لموقف القرشيين من القرآن، بمجرد ما جاءهم الهدى أعرض أكثرهم عنه. فرفضوا هدايته قبل أن يتأملوا فيها أو يجربوها. ولم يلقوا بالا لما جذبهم إليه من البشارات، ولم يحذروا الشر فيحتاطوا له ويحصنوا أنفسهم منه .

فهم لا يسمعون: تجسيم لقوة إعراضهم. لما وصف المنزل بكونه قرآنا ينفذ إلى العقول المستعدة للمعرفة، كان موقفهم الرفض، فاستووا في التأثر به مع الصم الذين تعطلت حاسة السمع عندهم.

5.وقالوا قلوبنا في أكنة...إننا عاملون.

واصل القرآن تفصيل موقفهم من القرآن بتسجيل تصريحاتهم التي عبروا بها عما يكنون للإسلام من عدم اكتراث وانصراف عنه. قالوا: اعلم يا محمد أن عقولنا التي بها نفكر ونفهم يحيط بها غطاء سميك لا ينفذ معه أي شيء مما تدعونا إليه، سواء أكان من العقيدة أم من السلوك والعلاقات الاجتماعية، وكذلك من القرآن التي تقدمه معجزة لصدقك. وآذاننا صماء لا تسمع ما تقول، واعلم أنه قام بيننا وبينك حجاب

عازل فلا يرى أحـدنا الآخـر. وهـو تجسـيم لشـدة بغضـهم للإسـلام وتصـلبهم فـي معاداته. وأنهوا ردهم بالجمع بين عدم مبـالاتهم بحرصـه، فقـالوا: واصـل عملـك فإنـه لا يهمنا، ولا تطمع أن تحصل على نتيجة تقر عينـك. ونحـذرك بأنـا عـاملون، حـذفوا متعلق عملهم مبالغة في التهديـد لتـذهب الـنفس فـي تصـور أعمـالهم، وهـم خبثـاء، صورا من الكيد المادي والنفسي.

6←7:قل إنما أنا بشر...وهم بالآخرة هم كافرون.

كانت مواجهتهم للدعوة عنيفة ترمي إلى زرع اليأس فـي قلـب سـيدنا رسـول الله صـلى الله عليه وسلم. فأسعفه التأييد الإلهـي يثبتـه. كانـت ردة فعلهـم قويـة حسـبما سـجلته الآية السابقة، ومن شأن المواجهة بمثل هذه الدرجة أن تهـدم الثقـة بـالنفس، فـأمره ربـه بقوله، قل: **إنما أنا بشر مثلكم**...إن الصراع لمـا احتـدم إلـى هـذه الدرجـة، فـالمهزوم هو الذي يترك الساحة وينصرف يأكله الأسـى مغلوبـا علـى أمـره. كـأن الآيـة تقـول لرسول الله: واصل الدعوة، وأعِدْ على مسامعهم الحقيقـة التـي تحملهـا، وتَحَـدَّهُمْ، كـرر عليهم: إني بشر مثلكم، ولست ملكا. فكل مـا تشـغبون بـه مـن التشـكيك فـي رفـض تكليف الله رسولا من البشر بالهداية ليس فيه شـيء مـن الحـق ولكنـه الهـوى الـذي لا قيمة له. ولكني لست مثلكم في كل شيء، فـإن الناحيـة التـي فضـلني بهـا ربـي، أنـه يـوحي إلـي: **إنـه لا إلـه إلا الله** وإن إلهكـم الحـق لا يكـون إلا واحـدا. وأوِمـرهم بالاستقامة على طريق الحـق، الـذي لا تتلاعـب بـه الأهـواء والشـهوات . وأخلصـوا لربكم الواحد في جميع أعمالكم، وقد عشـتم ردحـا مـن حيـاتكم علـى ضـلال تلـوثتم بالآثام والمعاصي، فاستغفروا ربكم، اطلبوا منه أن يغفـر لكـم مـا قـدمتم، وفـي ضـمن ذلك التوبة من الكفر والعصيان.

إن هذه الآية تعطي منهجـا لأصـحاب المبـادئ الرفيعـة والقصـد إلـى الإصـلاح . إن عليهم أن لا يتأثروا بردة الفعل الأولى العنيفـة مـن الـذين يريـدون إصـلاحهم، وعلـيهم أن يمضوا في سبيلهم وليكرروا على أسماع مخـاطبيهم الحـق الـذي يؤمنـون بـه فـإن الباطل له صولته ولكن الحق يدمغه فيزهقه .

وويل للمشركين -هددهم بما يترصدهم من عـذاب ألـيم أعـده الله لهـم جـزاء شـركهم. وشنع عليهم شحهم بالمـال، فهـم قـد أمسـكوا أيـديهم عـن عـون المستضـعفين مـن المسلمين. إذ الزكاة بمعنى أحد أركـان الإسـلام غيـر مقصـودة فـي الآيـة، لأنهـا لـم تفصل أحكامها في العهد المكي، والسورة مكية. واقـرن بـين التشـنيع علـيهم والتسـجيل بأنهم كافرون بيوم القيامة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ۞ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ
بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا
رَوَٰسِيَ مِن فَوۡقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقۡوَٰتَهَا فِيٓ أَرۡبَعَةِ أَيَّامٖ سَوَآءٗ لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ
ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا
طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا
ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿١٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الأجر : الجزاء الصالح.

ممنون : المنة تذكير المعطى بفضل المعطي .

أندادا: جمع نِدّ وهو المثل.

رواسي: ثوابت.

البركة : الخير النافع.

استوى: قصد قصدا خالصا.

ائتيا: الاتيان الحصول والوقوع.

قضاهن : أوجدهن مبدعا.

بيان المعنى الإجمالي :

يبشر القرآن المؤمنين الذين أخلصوا لله وعملوا ملتزمين شرعه، أن الله يوفيهم يوم القيامة أجورهم، دون أن يؤذيهم المن والتذكير .

قل للمشركين موبخا لهم: **كيف تكفرون بالذي خلق الأرض في يومين**، وضبط في تكوينها جميع القوانين المحكمة، وتجعلون له مساوين في الألوهية، مع أن الذين تدعونهم عجزة لم يخلقوا شيئا. إن المستحق للألوهية هو الله الذي تولى كل عنصر من عناصر العالم برعايته حتى بلغ المستوى الذي هو عليه. ومع خلقه للأرض في يومين، فقد جعل فوق الأرض جبالا راسيات ثابتة، وكثَّر خيرات الأرض، وقدر الأقوات التي تنتجها، لاءم بين تلك الأقوات وبين حاجات الإنسان وحاجات كل نوع من أنواع الحيوانات، وأتم كل ذلك في أربعة أيام ليتبين بذلك السائلون عن الخلق الإلهي .وفوق خلق الأرض وأسمى منها مرتبة قصده سبحانه إلى خلق السماء، وكانت دخانا. جَسَّمَ خلقه للسماوات والأرض بما يقرب للأذهان الحقيقة المعجزة.

أذن للسماوات وللأرض أن يخرجا إلى الوجود الحقيقي، تنفذ فيهما الإرادة الحكيمة بدون تردد ولا انتظار. فكان واقع حالهما الاستجابة للإرادة وانبثق الكون. .فرتب مبدعا السماوات في يومين. وحسب تقديره تم إحداثها على قوانين ونواميس معقولة، لكل سماء نواميسها وخصائصها وما يعمرها وعلاقتها بغيرها من السماوات. ومن كمال الصنع أن جعل السماء الدنيا مرصعة بالنجوم كأنها المصابيح، ومع الجمال تقوم بدورها في الحفظ للكيان العام، ومن الشياطين. كل ذلك من تقدير العزيز الذي تنفذ إرادته فلا ترد، العليم العلم الكامل الذي لا يغيب عن علمه الواقع الحاضر، وما سيحدث في المستقبل، فرتب لكل حادث أمره قبل وجوده.

بيان المعنى العام:

8- إن الذين آمنوا...لهم أجر غير ممنون.

في مقابل ما توعد به المشركين الذين يشحون بأموالهم، وعد الذين جمعوا بين صفاء العقيدة وصالح الأعمال، فكان تأثيرهم في الكون التأثير الحسن، وأخلصوا لله، وعدهم بالجزاء الصالح كفاء ما قدموه، ينعمون به دون أن يمن عليهم أحد بما هم فيه من نعيم .وكما قيل: طعْم الآلاء أحلى من المن، وهي أمر من الآلاء عند المن.

9-قل أئنكم لتكفرون.. ذلك رب العالمين.

قل للمشركين موبخا : استفهمهم استفهام تقريع لا يقتضي جوابا،عما تأكد حصوله منهم: كيف تكفرون بالذي بقدرته وإرادته تم خلق الأرض في يومين .وقد ذهب المفسرون في بيان اليومين اللذين تم فيهما الخلق مذاهب عديدة. خاصة وقد واجهتهم مشكلة، أن تحديد الأيام حسب المصطلح: المدة المقدرة بأربع وعشرين ساعة، نتيجة دوران الأرض حول نفسها، والأرض لم تخلق بعد. والذي اطمأننت إليه أن القرآن يفهمنا أن الإرادة الإلهية تعلقت بخلق الأرض على مراحل لا دفعة واحدة، عبر عنها بيومين . فقد تقدم لنا في سورة يس : **(إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون)**[1] فخلق الأرض لم يتم بالأمر التكويني الجامع السريع. واليوم ليس هو اليوم الاصطلاحي، وإنما هو يوم لا يعلمه إلا الله كما جاء في قوله تعالى: **(وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون)**[2]وكما جاء في قوله : **(في يوم كان**

---

[1] سورة يس، الآية 82

[2] سورة الحج آية 47

مقداره خمسين ألف سنة)[1] وفي إعلامنا أنــه خلــق الأرض فــي يــومين تعلــيم لنــا، أن العمل المتقن يتطلب وقتا لا بطء فيه ولا عجلة . ومــع كمــال التقــدير والأســرار التــي لا تُحَدُّ في خلق الأرض، تجعلــون أيهــا المشــركون لله الخــالق آلهــة هــي مثلــه فــي استحقاق العبودية. إن ما تذهبون إليه باطل وخــور وغبــاء. ذلــك العظــيم الــذي خلــق الأرض في يومين هو رب العالمين جميعا، ومــا ســواه لــيس لــه دخــل فــي الخلــق، ومع انتفاء الخالقية تنتفي الألوهية قطعا.

10ـ وجعل فيها رواسي ...سواء للسائلين.

عطف على خلق الأرض فــي يــومين، بعــض المظــاهر فــي الأرض التــي تســتوقف النظر وتنادي بعظمــة الخــالق، جعــل ســبحانه الجبــال الراســية الثابتــة فــوق ســطح الأرض، بما تتميز به من قوة، وبما نوع فيها مــن الخصــائص، فبعضــها ترتفــع قممــه عالية فتكون مكسوة بالثلوج كامل الســنة، وبعضــها تغطــى بصــخور مختلفــة الألــوان والأشكال، وبعضها يكســوه الخــلاق بالأشــجار الباســقة والنباتــات المختلفــة الألــوان، وبعضها يبدو جاثما صلبا صــلدا، وبعضــها تنطلــق مــن قمتــه فوهــة بركانيــة. ومــن حكمة الخلق أن بارك سبحانه فــي الأقــوات التــي تخــرج مــن الأرض، فتعطــي لكــل حيوان ما يحتاجه لبقاء نوعه، وللبشر مــا تتقــوم بــه حيــاتهم، وتســتلذه أذواقهــم. وكــل نوع من تلك الأنواع قــدَّره فــي تكوينــه، وفيمــا يأخــذه مــن عناصــر الأرض تقــديرا محكما. وقد تم ذلك في (**أربعة أيام**) .ونقول في الأيام الأربعــة مــا قلنــاه فــي اليــومين. وفرض المفسرون أن الأيام الأربعــة تشــمل يــومي خلــق الأرض، (**واليــومين**) اللــذين قدر فيهما الأقوات، فيكون المجموع أربعة أيام. وهــم مــأخوذون بمــا جــاء فــي التــوراة أن الله خلق الكون في ستة أيام ثم استراح يوم السبت. فلــذلك جعلــوا يــوم الســبت يــوم راحة. وقد تبين أن الأيــام ليســت أيــام الأســبوع. وتعــالى الله أن يلحقــه إعيــاء حتــى يحتاج للاستراحة.

سواءً للسائلين – أربعة أيام كاملة لا نقص فيها. جعــل ذلــك، وبــارك، وقــدر ليعرفــه السائلون عن الخلق الإلهي.

11ـ ثم استوى ...قالتا أتينا طائعين.

العطف بـ" ثم" هو للتفاوت في الرتبة لا لتــأخر خلــق الســماوات زمنــا. فــالمعنى أنــه فوق خلق الأرض وما ذكر فيها وأعلى منزلــة، خلــق الســماوات ولــذلك عبــر القــرآن بقوله ثم استوى المفيد أنه قصد قصدا خاصــا متوجهــا إلــى خلــق الســماوات. وعرفنــا

[1] سورة المعارج آية 4

أن المادة الأولى كانت عبارة عن شيء شـبيه بالـدخان، قربـه إلـى مسـتوانا المعرفـي بأنه كائنٌ متخلخلٌ مظلمٌ، الدخان أقرب شـيء إليـه. ولكـن متـى وجـد هـذا الـدخان، وكيف تم تحوله فذلك من علم الله الذي لم يطلعنا عليه.

فقال لها وللأرض.... مـا كـان التوجـه لـلأرض والسـماء بهـذا اللفـظ .ومـا كانتـا موجودتين فعلا عند توجه الأمر التكـويني. ولكـن المـراد، والله أعلـم، أن الإرادة التـي تخضع لها الكائنات جميعا توجهت إلى الـدخان ليتكـون منـه السـماوات والأرض علـى المقادير التي ضبطت مقدما في علم الله. وإن كـل الكائنـات بمجـرد مـا تتوجـه الإرادة لفعل شيء فيها يحصل فيها ما يحركها لتحقق الإرادة بواسـطة القـدرة الفاعلـة. وعبـر عن هذا المفهوم بقوله: (**ائتيا طوعا أوكرهـا**). لـتَقُمْ فـي ذات الـدخان التفـاعلات التـي تتولد منها حتما السماوات، التي هي غير الـدخان طبعـا، ولـيس لهـذا الـدخان اختيـار في تحقق التحول أو عدم تحققه. تتحقـق الإرادة، وتُنَفَّـذُ القـدرة مـا تعلقـت بـه الإرادة. وهو معنى قوله: (**قالتا أتينـا طـائعين**). أخـذت التفـاعلات التـي قـدرها تعمـل علـى تكوين السماوات والأرض. وتم ذلك في يومين وكـذلك فـي بنـاء الأرض حسـبما ذكـر في الآية السابقة. إن شأن التأثير أن يجد فـي الكـائن المـؤثَّر فيـه مقاومـة، تضـعف أو تقوى، يتم ذلك حتى بالفرار من المؤثر. وهذا في العلاقـات بـين الحـوادث، أمـا علاقـة المحدثات بالإرادة الإلهية ففي تركيبها طواعية القبـول والتنفيـذ لمـا تعلقـت بـه الإرادة. سواء في ذلك إحداثها أو التحويل في ذاتها وفي خصائصها.

12ـفقضاهن سبع سماوات...تقدير العزيز العليم

وتم ذلك في السماوات في يومين أيضا .فأوجـد سـبع سـماوات، لكـل سـماء كيانهـا، وقوانينها الخاصة بها. ولا تسأل كيف إن السـماوات علـى واسـع أبعادهـا، وعظـم مـا حوته من المجرات والكواكب كيف استوت مـع الأرض فـي عـدد الأيـام، وذلـك لأنـي بينت لك سابقا، أن الأيام ليست الأيام المحددة بـأربع وعشـرين سـاعة. وتقـديم القـرآن الحديث عن خلق الأرض لا يدل على أن خلقهـا سـابق علـى خلـق السـماوات. ولكـن لما كان القصد الأول هو الاعتبار الذي يترتب عنه قبول الإسـلام دينـا حقـا منـزلا مـن عند الله، والأرض أقرب للمعاندين، قـدم الحـديث عـن الأرض لـذلك. والقـرآن يهـدي إلى سبق خلـق السـماوات. قـال تعـالى: (**والأرض بعـد ذلـك دحاهـا أخـرج منهـا ومرعاها**)[1]

---

[1] سورة النازعات آية31/30

وأوحى في كل سماء أمرها...سخر الله كل سـماء لتتفاعـل العناصـر فيهـا تفـاعلا يـتم به ما أراده الله من الصفة التي تكون عليها، وما يجري فيهـا، ومـا تحويـه مـن كواكـب وكائنات هو أعلم بها، وما يربطهـا بغيرهـا مـن السـماوات مـن الجاذبيـة والتفاعـل.
وخصت الآية الحديث عن الظاهرة التي تبدو للإنسـان مـن صـفحة السـماء. فـذكر مـا عمرت به السماء الدنيا من النجوم التي تتلألأ في السـماء كأنهـا مصـابيح، راعـى فـي انتثارها، وترتيبها وسطوع ضوئها الناحية الجمالية، فكانـت زينـة للسـماء يسـرح فيهـا النظر مستمتعا بجمالها. وقدّر أن تكـون تلـك المصـابيح حافظـة للسـماء. سـبق أنهـا راجمة للشياطين في سورة الصافات.
وقد يكون الحفظ هنا أعم من رجم الشـياطين، فقـد يكـون لمنازلهـا وكتلهـا مـا يحفـظ بناء السماء .فالله أعلم بمراده .
ما لفتت إليها الآيات السابقة من الإبداع والخلق، تم بتقدير دقيـق لكـل جزئيـة مـن تلـك العوالم، قدّرها ونفّذها العزيز الذي لا يـرد لـه أمـر ولا يعطـل إرادتـه معطـل، العلـيم عظيمٌ علمُه يستوي في ذلك المجرة الهائلة والـذرة الصـغيرة، وهـو المتصـف بالحكمـة البالغة، راعى في خلقـه قـوانين أحكمهـا وأودعهـا فـي مخلوقاتـه، ورتـب نـواميس، عليها يجري أمر الكون فجرى على ما قدر .فتبارك الله أحسن الخالقين.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَاءَتْهُمُ الرُّسُلُ
مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۖ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَائِكَةً
فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا
مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا
يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ
الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

أنذرتكم : الإنذار التخويف.

صاعقة: صوت شديد من الجو وقد تصحبه نار تنزل من السحب مع لمع البرق.

الاستكبار : المبالغة في الكبر، والتعاظم.

الصرصر : الريح العاصفة التي يكون لها دوي .

نحسات: جمع نحس السوء والضر الشديد .

الخزي : الذل .

أخزى : أشد إهانة وإذلالا.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد ما عرض على مشركي مكة من الأدلة التي يجب أن يهتدوا بها لو كانوا غير متصلبين في الكفر. أنذرهم بأنهم إن استمروا على عنادهم فقل لهم: ستلقون النكال والعذاب الماحق كما لقيه المعاندون عاد وثمود. حرص هود على هداية عاد قومه الذين أرسل إليهم، حرصا شديدا دعاهم إلى عبادة الله وحده. فاستكبروا واعتقدوا أنه لا يوازيهم أحد في العظمة، وقالوا لا يوجد من هو أقوى منا، فقد جمعنا بين حسن التدبير، وكثرة الأموال، ومناعة الحصون. لم يتوبوا وواصلوا إقامتهم على الكفر. ما أشد غفلتهم ! ألم يعلموا أن الله الذي أوجدهم وخلقهم، هو الذي خولهم من القوة ما خولهم، فالقدرة الكاملة له سبحانه. واستمروا على جحد آياتنا المنبثة في أنفسهم وفي الكون. فاستحقوا أن يرتب الله على موقفهم العذاب المتمثل في ريح عاتية يصحبها دوي كأنه صفير، تواصلت عليهم أياما، كانت أيام شؤم عليهم، فأذاقهم الله العذاب المهين .وأعد لهم يوم القيامة عذابا أبلغ إذلالا. ولا يجدون من ينصرهم،لا بإخراجهم مما هم فيه، ولا بالشفاعة فيهم.

بيان المعنى العام :

13←14 :فإن أعرضوا فقل...فإنا بما أرسلتم به كافرون.

بعد ذلك البيان الذي حقق تفرد الله بالتصرف في الكون سماواته وأرضه، والذي يقتضي أن يخضعوا للحق الوارد فيه ويؤمنوا برسالتك، ولكن من الاحتمال البعيد حسب المعقول، لو كانوا يعقلون أن يستمروا على إعراضهم مكابرين. وإن استمروا فقل لهم: تم الأمر فقد أنذرتكم عذابا شديدا مفاجئا كما تم لمن قبلكم، مثل عذاب عاد الذين أهلكوا بريح استأصلتهم، وثمود الذين دمروا بالصاعقة. فأطلق على العذاب المستأصل بالريح لفظ الصاعقة فجمع بينهما إذ انتهى أمرهما إلى المحق. حق عليهم العذاب في الوقت الذي جاءتهم الرسل: هود وصالح، جمعا بلفظ الرسل، لضخامة ما قاما به من الدعوة للحق. وفي العربية قد يعامل المثنى معاملة الجمع لنكتة. بينت الآية عظيم مجهودهما، وشديد حرصهما على تحقيق الهداية، وجسّمت ذلك بأنهما قد أتيا قومهما من أمامهم، ومن خلفهم، يدعوانهم إلى إفراد الله بالعبادة. فليس المقصود المعنى الحقيقي من قوله: **من بين أيديهم، ومن خلفهم**. وإنما هو تمثيل يجسم شدة الحرص وبذل غاية الطوق.

اتفق رد قوم هود وقوم صالح علـى دعوتهمـا إلـى توحيـد الله والإخـلاص لـه. قـالوا لوشاء ربنا أن يبلغنا شرعه، ويوضح لنا ما يبغيه منـا عقيـدة وسـلوكا، فإنـه يبعـث لنـا ملائكة لا بشرا . فدعواكما أنكما مبعوثان مـن عنـد الله افتـراء علـى الله ولا نصـدقكما في ذلك. ونحن كافرون بما أرسلتما به، مما حاولتما إقناعنا به، أنه من عند الله.

15ـفأما عاد فاستكبروا...بآياتنا يجحدون.

بعد أن تم تخويفهم بأن مآلهم سيكون مآل عـاد وثمـود، أخـذ القـرآن فـي تفصـيل مـا وقع لعاد أولا.

كشف القرآن عن الانحراف الذي وقعت فيه عـاد. وهـو داء خلقـي يهلـك مـن اتصـف به، ويحجب عقله عن المواعظ، ويجعل صـاحبه يعـيش فـي خيـال مضـلل. هـو داء الكبر الذي يعظم فيخيل لصاحبه أن له مـن المزايـا مـا يفـوق الحقيقـة، ويسـتر عنـه عيوبه فلا يفيق إلى إصلاحها. استكبروا فـي الأرض التـي كـانوا يسـكنونها واحتقـروا الضعفاء. وقوله تعالى: **بغير الحـق**. وصـف يشـنع اتصـافهم بـالكبر، فـإن الكبـر لا يكون أبدا بالحق. لأن المستكبر يغالط نفسه، يضـخم مزايـاه، ويطمـس نقائصـه. وكـل إنسان مهما جمع من الكمالات هو منطو على نقائص كثيـرة، يغطيهـا الكبـر فـلا يعمـل على إصلاحها .سجل القرآن ما صرحوا به لما قـالوا: **مـن أشـد منـا قـوة ؟** أعجبـوا بما تجمع لهم من قوة أبدان، وكثرة أموال، وعـدة سـلاح، وتـدرب علـى فنـون القتـال. استخفوا بالناس جميعا، واعتقدوا أنه لا يوجد في الكـون مـن يقـدر علـيهم أو يسـاويهم، وأنهم حصنوا أنفسهم من كل بلية .

أولم يروا... أنكر القرآن عليهم إنكارا فـي صـيغة سـؤال ليـوقظهم مـن غفلـتهم. ألـم يعلموا أن الله الذي خلقهم، فحولهم من ضعف إلى قوة، ثم مـن قـوة إلـى ضـعف، وأنـه يتحكم فيهم في كل لحظة من لحظات حيـاتهم، فـأين قـدرتهم مـن قـدرة الله التـي بهـا خلقوا والتي بها ينتقص من قواهم شيئا فشـيئا وهـم يشـاهدون ! ولكـن الإصـرار علـى إنكار الواقع، والمكابرة فيه التي تجعل المكـابر يجحـد مـا يـراه ويسـمعه، هـو الـذي جعلهم يجحدون الآيات البينات المنبثـة فـي أنفسـهم وفـي الكـون المثبتـة لوجـود الله، وتفرده بالخلق، والحكمة الكاملة في تصرفه.

16فأرسلنا عليهم ريحا...وهو لا ينصرون.

رتب الله على جحدهم لآياته، واسـتكبارهم واحتقـارهم لغيـرهم، وظـنهم أنـه لا يوجـد من يساويهم فـي قـوتهم، ورفضـهم لتوحيـد الله وطاعتـه، رتـب علـى ذلـك تقـديره لإبادتهم. فصّل طريقة سحقهم: أنه سلط عليهم ريحـا عنيفـة كأشـد مـا يكـون العنـف،

سريعة كأقوى ما تكون السرعة تدوي في انبعاثها. تواصلت عليهم أياما ترفعهم من أماكنهم إلى أعالي الجو ثم تلقيهم جثثا هامدة ممزقة، وتقتلع الأشجار والمنازل والقلاع التي كانوا بها يتحصنون .فكانت أيام نحس، يتتابع فيها في كل لحظة ما يمزقهم ويقضي عليهم وعلى حضارتهم. لم يستأصلهم في لحظة، والله قادر على ذلك، و لكنه قدر أن يذيقهم العذاب: أن يجعل إحساسهم بالعذاب إحساسا بالغا، وإنه لعذاب يجمع إلى الآلام المادية، الآلام المعنوية فقدر أن يجعلهم وهم يتعذبون يشعرون بالخزي والذل والمهانة .وبكل تأكيد فإن عذاب الآخرة أبلغ خزيا وإهانة، وهذا يقابل تعاظمهم في الدنيا وادعاءهم أنه لا أقوى منهم. ويفقدون النصير، فلا شافع لهم، ولا من يخفف عنهم العذاب.

تعالت قدرة ربنا، فإنه لما طغت عاد، وقالت من أشد منا قوة، قدر لسحقها ألطف شيء، هو الهواء، حركه بقدرته حركة اقتلعتهم مع حصونهم ومبانيهم وجناتهم، وكانوا أضعف من الهواء الذي نستنشقه كل لحظة ولا نشعر بدخوله ولا بخروجه للطافته. فليعتبر كل مستكبر أنه أضعف من الهواء إذا أراد الله أن يكوّن منه قوة.

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُم مِّنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

هديناهم : ارشدناهم إلى طريق الهدى بواسطة رسولهم.

أخذتهم : تمكنت منهم الصاعقة كما يتمكن من الشيء الآخذ له باليد.

الهون : المذل .

أعداء الله : مشركو قريش

يحشر : يجمع الناس في مكان، مضمن معنى نرسل.

الوزع: تنظيمهم لرفع الفوضى .

أرداكم : أهلككم.

يستعتبوا : يطلبوا الصفح والعتبى

بيان المعنى الإجمالي :

كما أهلك قوم هود بريح صرصر، أهلك الضالين من قوم صالح بصاعقة مهينة أبادتهم، بعد أن بعث لهم صالحا ﷺ، الذي بذل كل جهده ليشرح لهم الحق في العقيدة والصلاح في السلوك، ففضلوا الطريق الضال الذي هم عليه. فتم سحقهم بسبب ما اعتقدوا وفعلوا. وأنجى الله الذين آمنوا برسولهم واتبعوا هداه من قوم هود ومن قوم صالح، الملتزمين تقوى الله في سلوكهم .

واذكر يا محمد لقريش منذرا يوم يحشر الله جميع الكفرة المعادين لله ولرسوله، فينطلقون متدافعين تردعهم الملائكة ويعيدونهم إلى النظام. يسيرون إلى النار إلى أن يبلغوها.

بعد أن شهد عليهم سمعهم، بما تلا عليهم الرسول من كتاب الله وما وعظهم به، وشهدت أبصارهم بما نقلته إليهم من مشاهد الكون الدالة على الحكمة والتفرد بالخلق لله. وشهدت عليهم جلودهم بجميع أعمالهم التي باشروها، والجلود تحيط بكل جزء من أجزاء بدنهم. وكانت شهادة الجلود شديدة عليهم فضحتهم، فقالوا لجلودهم لائمين **"لماذا شهدتم علينا؟ قالوا أنطقنا الله"** الذي لا يرد حكمه، هو سبحانه هو الذي أنطق كل شيء فنطق. إنه الله الذي أوجدكم أول مرة فهل استطعتم أن تمتنعوا ؟ وهو الذي عدتم إليه ليجزيكم.

إثر لومهم لجلودهم على شهادتها التي لم تبق لهم حجة ولا اعتذار، وبعد سماعهم لإجابتها عن ذلك، انطلق صوت مؤنب لهم، قد يكون صوت ملك العذاب الموكل بهم، فقال لهم: لماذا تلومون جلودكم، مع أنكم كنتم مجاهرين بالشرك، لا تتورعون عن اقتراف المعاصي، فماكنتم تبغون الستر وعدم الانكشاف ولا تخافون من أن تشهد عليكم أسماعكم وأبصاركم وجلودكم .

إن الذي أهلككم ليس شهادة حواسكم ولكنه فساد عقيدتكم إذ كنتم تظنون أن الله لا يعلم ما تقومون به من أعمال، إن ظنكم ذلك واعتقادكم أنه لا حساب ولا عقاب، هو الذي أوقعكم فيما وقعتم فيه، وخسرتم آخرتكم. فإن صبرتم على الوضع الذي أنتم فيه، فأنتم مقيمون إقامة سرمدية في النار، وإن حاولتم الاعتذار فعذركم مرفوض.

بيان المعنى العام :

17ـو أما ثمود فهديناهم..بما كانوا يكسبون.

تفصل الآية أخبار استئصال ثمود كما فصلت أخبار استئصال عاد. تعلقت إرادة الله بهداية ثمود بعد أن تعمقوا في الضلال، ولم ينتفعوا بعقولهم، ولم تقدهم آيات الكون، فبعث الله فيهم رسوله صالحا ﷺ . بذل صالح جهده ليقلعوا عن عبادة الأصنام، ويتحولوا عن سلوكهم الظالم، فلم يجيبوه وتبين له أنهم أحبوا ما هم عليه حبا شديدا. اختل سلم القيم عندهم فأصبحوا يفضلون الباطل على الحق، كأن عقولهم تعطلت لا تفرق بين المهالك والطريق المستقيم. إنهم إذ تصلبوا في هواهم تعلقت إرادة الله باستئصالهم، فلم يفلتوا من عذاب الصاعقة التي أرسلت عليهم فأبادتهم وأذلتهم فاصبحوا أشلاء ممزقة. وكان ذلك جزاء لما اختاروه لأنفسهم ومارسوا عليه حياتهم.

18ـونجينا الذي آمنوا وكانوا يتقون.

صرحت الآية بالعدل الإلهي الذي جازى كل فريق بما يستحقه، فأهلك الكافرين من قوم عاد بريح صرصر، وأباد المغرقين في الضلال من قوم ثمود بالصاعقة، ونجى الذي آمنوا وعملوا بمقتضى إيمانهم فصحبتهم تقوى الله. فصلح منهم الظاهر والباطن.

19←20: ويوم نحشر أعداء الله...بما كانوا يعملون.

و اذكر يا محمد محذرا كفار قريش بما قدره الله يوم القيامة. في ذلك اليوم يحشر الله ويجمع كل الذين أعلنوا عداءهم لله ولرسوله، ويجتمع منهم في المحشر عدد كبير جدا، فيتدافعون ولا يدرون إلى أي وجهة يتجهون، ويتداخلون فوضى، فتردعهم الملائكة وتعيدهم للنظام. ينتهي هذا التدافع والردع إلى أن يصلوا إلى النار. حتى إذا ما بلغوا حدود جهنم فلا تسأل عن وضعهم المقيت وعن اضطرابهم. يكونون في هذا المشهد وقد شهد عليهم يوم كانوا في الحساب سمعهم ردا لتلجلجهم وكذبهم في قولهم: **ما جاءنا من بشير ولا نذير**، وما سمعنا هداية، وما حضرنا مجالس المؤامرات للكيد للإسلام، فيشهد عليهم سمعهم: أن الرسول بلغهم آيات القرآن، ووعظهم فأحسن الموعظة، ولكنكم كنتم تصدون عن السماع. وأنهم سمعوا وحضروا تلكم المشاهد للكيد. .وعندما يقولون ما عرضت علينا الآيات، فتشهد أبصارهم أن الكون كان مفتوحا أمامهم وأنهم نقلوا آيات الله وصور إبداع صُنْعِهِ، ويوم ينكرون انهم ما شاهدوا تعذيب المؤمنين، ويدعون أنهم ما ترصدوا لرسول الله والمؤمنين ليحاصروهم وينفذوا فيهم مؤامراتهم، تكذبهم أبصارهم أيضا. وتشهد

جلودهم، وهي مجامع الإحساس تغطي سائر الأعضاء، تشهد عليهم بما كانوا يعملون في الدنيا.

21ـ وقالوا لجلودهم لم شهدتم....واليه ترجعون.

إن شهادة الجلود كانت أثقل الشهادات أثرا في فضحهم. ذلك أنها تشهد على كل عمل قاموا به في الحياة الدنيا، من استمتاع بالمنكرات، في بطشهم وفي اغتصابهم للحقوق، وفي لذاتهم الجنسية، وفي لمزهم وهمزهم للمؤمنين. إلى آخر ما فعلوه من مناكرهم. فيتوجهون إلى الجلود منكرين عليها هذه الشهادة التي أغرقتهم وأعجزتهم، والتي يترتب عليها تعذيب الجلود أيضا؛ فتجيب الجلود بكل تلقائية: أنطقنا الله فما كان لنا اختيار. إنه هو الله الذي أنطق كل شيء. إنه كما أنطق الإنسان بلسانه فقد أنطق كل الكائنات بتسبيحه مثلا. قال تعالى: **(وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)**[1] ألم تخضعوا لتقديره وإرادته وقدرته، فهو قد خلقكم عندما أنشأكم من عدم، فخضعتم لما قدره وأراده ونفذه. وكما خلقكم فقد قدر رجوعكم إليه ليجزيكم، وقد فعل.

22ـ وما كنتم تستترون....كثيرا مما كنتم تعملون.

يحتمل أن يكون مدلول الآية من كلام الله توبيخا لهم، أو من كلام ملك وُكِّلَ بأن يقول لهم، وهذا هو الأقرب: ما كنتم في الدنيا تستترون وتخفون عقيدتكم الفاسدة وقبيح أفعالكم، حتى يحجب ذلك عن أسماعكم وأبصاركم وجلودكم، خشية أن تكون في يوم من الأيام شاهدة عليكم، بل كنتم تجاهرون بالشرك وتحتجون له، وتتحللون في فعالكم من القيم التي دعاكم إليها الدين، وماكنتم تؤمنون بالبعث حتى تتخذوا له الحيطة .ولكنكم تصلبتم في الكفر حتى حسبتم أن الله لا يعلم كثيرا من أفعالكم، وخاصة التي ظاهرها الخير وباطنها الشر لأنها رشح نفس غير مؤمنة لا تقصد إلا لما يرضي هواها من الشهرة والتأثير في الناس التأثير السيء حتى يقاوموا الدين.

23←24: وذلكم ظنكم....فماهم من المعتبين.

إن هذا الظن الذي ظننتموه بالله، وحسبانكم أنه لا يبعثكم للجزاء، هو الذي تسبب عنه هلاككم. فشهادة جلودكم عليكم ليست هي المثبتة لفسادكم، ولكن الله عليم بما اقترفتم، وشهادة حواسكم وجلودكم هي للتشهير بكم. إنكم صرتم خاسرين لاعتقادكم

---

[1] سورة الإسراء آية 44

أنكم لا تبعثون وأن أعمالكم تخفى عن ربكم الذي هو المنشئ لكم والذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

هم في النار يحترقون بها، ماكثون فيها، وليس لهم مخرج منها، فإن صبروا على عذابها فهم باقون فيها لا يخفف صبرهم من عذابهم. وإن سألوا الصفح فهم يائسون من أن يقبل الله منهم اعتذاراتهم، أو أن يصفح عنهم .

۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا۟ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ
قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا
تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا
شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ ۖ لَهُمْ
فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ ۖ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا
ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

قيض: أتاح وهيأ.

القرناء : جمع قرين وهو الصاحب الملازم.

التزيين : التحسين.

ما بين أيديهم : ما يتعلق بالدنيا.

وما خلفهم : المغيبات.

حق عليهم القول : تحقق فيهم مقتضى القول وعيد العذاب.

الغوا فيه : شوشوا على تاليه.

الخلد : البقاء الأبدي.

بيان المعنى الإجمالي :

يتفتح الضال على طرق الضلال ويألفها، فيهيئ له القدر من كان على شاكلته، ليتعاونا على الإثم والخطيئة. يألف كل منهما الآخر، ويزين له الفساد ويحببه له، ويدعوه إليه وييسره له. يعينه على إشباع شهواته وغرائزه، وينفي كل عقيدة تمنعه من الشر فلا بعث ولا حساب. ويكونون بذلك عرضة لتحقق الوعيد الساحق الذي حل بالأمم التي كانت على شاكلتهم من الجن والإنس. بكل تأكيد هم خاسرون لأنفسهم وذلك أعظم خسارة. وكان من مكرهم أن حرضوا أتباعهم من الدهماء على

التشويش على رسول الله ﷺ عندما يتلـو القـرآن، وذلـك بالصـياح والصـفير، والكـلام الفارغ، حتى لا يصل نصه واضحا إلى المستمعين. وقـالوا لهـم: إنهـم بـذلك يرجـون غلبة محمد فيتوقف عن إشاعة القرآن الذي أعجزهم إيقـاف تـأثيره فـي النـاس. تهيـأوا بسبب فساد عقيدتهم، وسيء أفعالهم، وبغضـهم للقـرآن، لينفـذ فـيهم قضـاء الله. إن الله قدر أن يعذب الكافرين عذابا شديدا يحسون به إحساسـا بالغـا فـي الـدنيا. وأن يجـزيهم عن فعالهم السيئة. ذلك العذاب الـذي هـو جـزاء مـن عـادى الله ورسـوله وشـرعه، استحقوا النار التي يخلدون فيها ولا يجدون منها مخرجـا، هـي جـزاؤهم بمـا اسـتمروا عليه من جحد الآيات البينات، وتصلبهم في الكفر.

سجل القرآن تغيُّظ الأتباع على رؤوس الكفر وهـم فـي جهـنم، فتوسـلوا إلـى ربهـم أن يريهم القياديين من الجن والإنس في الدنيا، اللذين عمـلا بمـا لهمـا مـن الرئاسـة وقـوة الوسوسة على إضلالهم. ربنا إنـا نريـد أن ننـتقم منهمـا بـأن نرفسـهما تحـت أقـدمنا ليكونا من الأشد سفالة ومهانة. جزاء ما غالطونا وأوهمونـا مـن الباطـل فأضـلونا عـن سبيلك وصرنا إلى ما نحن فيه .

بيان المعنى العام :

25ـ وقيضنا لهم قرناء....إنهم كانوا خاسرين.

كشف القرآن عن ظروفهم التي أدت إلى ما هم عليه من الكفر والفساد. جرت سنن الله في البشرية أن من يرغب في الخير ييسر له أسبابه المعينة عليه، ومن يرغب في الشر يحرمه أسباب الخير فيألف من كان على شاكلته في الخبث والشر. وبناء على ذلك فإذا اختار الإنسان لنفسه طريق الضلال تحصل بينه وبين الأشرار جاذبية فيكون له من قرناء السوء أصحاب يتلازمون، وينبسط كل فرد منهم إلى الآخر في سلوكه الضال.

إن قرين السوء يضلل صاحبه، فيحبب له الكفـر والفسـوق، ويقـوي تعلقـه بمـا يشـبع غرائزه، ويزين له الخطيئة فيألفها ولا يلوم نفسه على إتيانهـا. إنـه بصـفة عامـة يكـون قابلا للشر والفساد فإذا تهيأت فرصة انـدمج فيـه. يـزين قـرين السـوء مبـاهج الحيـاة الدنيا الآثمة، ويزين له الكفر ونكران يوم البعث.

وعندما تنطبع النفوس بالخطيئة والشر، تتهيـأ للعقوبـة، فينفـذ الله فـيهم الوعيـد الـذي سلط على من كان قبلهم من الأمـم الضـالة مـن الجـن والإنـس. بكـل تأكيـد تحقـق خسرانهم لأنفسهم، بتسليط العذاب عليها، العذاب السرمدي.

26ـ وقال الذين كفروا لا تسمعوا...لعلكم تغلبون.

شرقوا بالقرآن، وكانت خشية سادتهم كل الخشية،أن يصـل إلـى مسـامع النـاس، إذ فـي جزالته وجماله وتفوق بيانه، وفي مضامينه التي تألفهـا الفطـرة، مـا يـؤثر فـي سـامعه

قطعا .فدعوا أتباعهم من الدهماء أن يشوشوا على النبي ﷺ عندما يتلو القرآن بالصفير والصياح، ورفع أصواتهم بالكلام اللغو الذي لا معنى له. المهم أن يضيع القرآن وسط صخبهم، فيعزلون الناس عن سماعه. وعللوا ذلك بما يحرضهم على التشغيب، بأن هذه الطريقة هي التي يرجى منها أن يغلبوا محمدا.

27←28: فلنذيقن الذين ظلموا...بما كانوا بآياتنا يجحدون.

وعيد يزلزل قلوب الذين كفروا من مشركي مكة، بكل تأكيد بنزل عليهم عذابا شديدا يحسونه كأشد ما يكون الإحساس، في الدنيا بالقتل، والذل، وتفرق الكلمة، مع التأكيد على أن عذاب الدنيا لا يخفف عنهم المؤاخذة يوم القيامة. هو جزاؤهم عن شركهم ومعاصيهم المساوي لسيء أفعالهم. ذلك الجزاء السيء هو جزاء الذي عادوا الله ورسوله، هي النار التي قدرنا أن يكونوا خالدين فيها، يتضاعف عذابهم فيها بسبب استمرارهم على جحد آيات الله من القرآن ومن الكون.

29ـ وقال الذين كفروا...ليكونا من الأسفلين.

سجل القرآن ما طلبه عامة الكافرين من ربهم وهم في النار. طلبوا من الله أن يكشف لهم عن اللذين توليا إضلالهم من الجن والإنس، وأبعدوهم عن قبول الإيمان، أن يحضرهما حتى يكونا مشاهدين، لننتقم منهما أشد الانتقام، نرفسهما بأرجلنا ونذلهما، لنمحو ما كانا عليه من الاستكبار، حتى يكونا أسفل منا وأحط قيمة .

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

استقاموا: ثبتوا على اتباع ما أمروا به، واجتناب ما نهوا عنه .

الخوف : غم في النفس ينشأ عن توقع المكروه.

الحزن :غم في النفس لفوات محبوب أو حصول مكروه.

ما تدعون: ما تتمنون.

النزل : رزق الضيف من التكريم .

دعا إلى الله :طلب من غيره أن يتبع منهج الله وأن يخصه بالعبادة.

الولي :الحليف المناصر.

الحميم : القريب.

يلقاها : يجعل لاقيا لها.

حظ: نصيب خير.

بيان المعنى الإجمالي :

ينوه القرآن بالمفوَّزين مصرحا بما اختصـوا بـه مـن كامـل الصـفات. هـم المعتـزون بإيمانهم .يعلنونه للناس قـائلين: ربُّنـا الله لا رب لنـا سـواه. هـو الـذي يـوالي علينـا ألطافه وفضله، ثم كانت لهم مرتبة أخرى هـي يقظـتهم الدائمـة التـي تجعلهـم يسـيرون في طريق وسط لا عوج له، ولا إفراط ولا تفـريط. ينـيلهم ربهـم أن ملائكـة الرحمـة تتنزل عليهم تؤانسهم وتلقي السـكينة فـي قلـوبهم، وتؤكـد لهـم أنـه قـد انتفـى عـنهم موجبات الخوف فلا يسـتقبلون إلا خيـرا، وكـذلك موجبـات الحـزن فلـم يفـتهم أمـر محبوب. ثم ذكروهم بما كان لهم من صـلات بهـم فـي الـدنيا أسـندتهم بـالعون علـى الخير، وبرفع حسناتهم إلى ربهم. وبشروهم بأنهم سـيجدون فـي الآخـرة حاضـرا كـل ما تشتهيه أنفسهم، كل ما يخطر ببالهم من أنواع النعـيم. لا يضـيق علـيهم فـي شـيء، فهم نزلاء الجنة، نزلوا ضيوفا على الرحمن قد أعـد لهـم أرزاق الضـيف المكـرم ممـن لا ينقص من ملكه شيء. إنه هو الغفور الذي تكـرم فَمَحَـا كـل سـيئاتهم فلـم يبـق فـي صحائفهم نقص، ورحمهم فضاعف حسناتهم وجـزاهم بأحسـن مـا كـانوا يعملـون. ثـم زاد القرآن تنويها بأنه لا يوجد قول أحسن من قـولهم: كـل واحـد مـنهم يـدعو إلـى اتباع الطريق الذي يرضى عنه الله، وقرن القـول بالعمـل، وأعلـن فـي اعتـزاز: إننـي من المسلمين، الذين أسلموا وجههم لله، وأنه جعل دين الإسلام مذهبه ومعتقده .

أمران متقابلان تمام المقابلة: الحسنة في القـول والفعـل، والسـيئة فـي الفعـل والسـلوك لا يتلاقيان ولا مساواة بينهما؛ فالحسنة في المقـام العـالي، والسـيئة فـي المقـام السـاقط الهابط. وبناء على ما بينهما من تضاد فالطريقة التـي تنفـع الإنسـان فـي دنيـاه وفـي معاده أن يقابل السيئة من القول أو الفعـل، يقابلهـا بالفعـل الأحسـن، والكلمـة الأفضـل. التأدب بهذا الأدب يحول من كان يغلي قلبه عليك عداوة، يحولـه إلـى قريـب لـك شـديد القرب لا يرضى أن يمسك مكروه.

إن هذا المستوى الرفيع بعدم الإسراع إلى الرد العصبي والغضبي، والتجمل بالأناة لا يبلغه إلا الذين وطنوا أنفسهم على الصبر، والتحكم في غرائزهم، ووزن ردودهم بميزان العقل. وإنه من وصل إلى هذا المستوى فهو صاحب حظ عظيم وخير كثير.

بيان المعنى العام:

30-إن الذين قالوا ربنا الله...التي كنتم توعدون.

يصلح القرآن البشر بالترغيب والترهيب. الترغيب بالتبشير بفضل الله الذي يكرم الصالحين ويضاعف أجرهم بما يتجاوز ما قدموه من خير. والترهيب بتفصيل صور مما سيناله الكفار والعصاة من عقاب. أنذرت الآيات السابقة المشركين بما يترصدهم في الدنيا من هزيمة وذل، ومآلهم في الآخرة في نار جهنم خالدين فيها. واعتنت هذه الآية بتفصيل جزاء الصالحين.

افتتحت بتحديد الصلاح الذي يهدف الدين إلى غرسه في المجتمعات البشرية، وذلك بالجمع بين قطبين:

القطب الأول: صلاح العقيدة، الإيمان بالله خالقا للكون مشرّعًا للبشر ما يتحتم عليهم تطبيقه في الحياة الدنيا، محاسب للناس عما قدموه من عمل وقصد. مع الاعتزاز بالإيمان اعتزازا يجعلهم يصرحون بإيمانهم ويعلنونه في كلمة جامعة **ربنا الله** . لا رب لنا سواه. وهو الذي تولانا برعايته وعنايته من الخلق الأول إلى أن بلغنا ما بلغناه في الحياة.

القطب الثاني: الاستقامة التي تتحقق بيقظة المؤمن إلى صلته بخالقه، يدعوه هذا الحضور إلى القيام بما أمر به على الوجه الذي أمر به. ويحصنه من دواعي الإثم والشهوات. الاستقامة تجعل الإنسان بعيدا عن الغلو، يعمل على أن يكون الخليفة الصالح في الأرض، يعمرها، ويقيم العدل في علاقاته مع البشر ومع الكون. لا تستغرق العبادة الخالصة أوقاته، رهبنة تجعله لا يقوم بدوره في رقي أمته، ومضاعفة خيراتها. ومن ناحية أخرى لا يتراخى في القيام بواجباته العبادية، فلا يميل إلى أحد الطرفين ميلا يهمل أو يضعف الطرف الآخر. فالمسلم الذي ينوه به القرآن ويبشره هو البعيد عن التطرف.

و إذ تبينت الملامح التي يريد الإسلام أن يصوغ عليها أفراد هذه الأمة ومجتمعها، فقد ثنى ببيان ما وعدهم به من فضل وحسن جزاء فصرح بأمر من الغيب.

معلوم "أن الملائكة عباد مطهرون لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون"، خلقوا ممحضين للخير، وليس لهم اختيار يتبعه التكليف والحساب، فهم يمثلون

الخير والطهر الخالصين. يـأتي معهـم الخيـر والطمأنينـة لمـن يـؤمرون بمصـاحبته. أخبر القرآن أن الملائكة تتنزل على الموحدين المسـتقيمين، وتكـون معهـم مؤيـدة مقِـرَّةً للأمن النفسي الجميل. قيل إن تنزلهم يكون عند الموت وفي القبر ويوم يبعثون.

ويمكن حمل الآية على أن التنـزل فـي الـدنيا أيضـا، يجعـل المـؤمن شـاعرا بـأنس نفسي، يُلقون في قلوبهم ما يزيل خـوفهم وينشـر الطمأنينـة ويسـاعدون داعيـة الخيـر لدفعهم إلى ما يرضي ربهم، عكـس مـا يلقيـه الشـيطان فـي قلـوب أوليائـه، القرنـاء المذكورين في الآية السابقة .

و المحمل الأول هو الأقرب. ويلقـون إلـيهم مـا يشـرح صـدورهم لحسـن المـآل، لا تخافوا فما تستقبلونه خير خالص، ولا تحزنوا فإنـه لـم يفـتكم أمـر تجـدون مـن فوتـه ألما. وإذ انتفـى الـنقص المتمثـل فـي الخـوف والحـزن، عمـروا قلـوب المـؤمنين بالبشارة: أبشروا بقرب تمتعكم بالجنة التي تكرر وعدكم بها.

31←32:نحن أولياؤكم...نزلا من غفور رحيم .

ثم أضافوا تأنيسا للمؤمنين فقالوا: نحـن كنـا معكـم مؤيـدين فـي الـدنيا، نيسـر لكـم أسباب التقوى ونقـويكم علـى طـرد وسوسـة الشـيطان، فصـلتنا بكـم صـلة قديمـة موصولة، كنا نرفع لربنا صـلاتكم طرفـي النهـار، ونكتـب حسـناتكم فـورا، وننتظـر توبتكم قبل تسجيل سـيئاتكم، ونحـن نواصـل تأنيسـكم ورعـايتكم فـي الآخـرة . ثـم بشروهم بأن الله أعد لهم في الآخرة كـل تكرمـة، فـأنتم مسـتحقون لنيـل مـا تشـتهيه نفوسكم، وما يخطر ببالكم .يحصل لكم كل ذلك حالـة كونـه رزقـا مـن الله الـذي قـبلكم في الجنة ضيوفا على مائدة كرمه. وهو الغفـور الـذي محـا كـل نقائصـكم، ورحمكـم فضاعف حسناتكم.

ثناء جميل من الله المتفضل على الموحـدين المسـتقيمين، أنـه إذا قومـت الأقـوال فـلا أحسن من قولهم. كيف لا يكون ذلك كذلك، وهـم بـأقوالهم يـدعون النـاس إلـى التعلـق بالله، والإخلاص له، ونبذ الشرك وتحطـيم شـبهات المبطلـين. ليسـود الخيـر وينهـزم الشر. فهم يجاهدون بألسنتهم لتكـون كلمـة الله هـي العليـا، وتسـود الفضـيلة. ويربـي القرآن المؤمنين ليكونوا أمة لا تناقض بين سـلوكها وأقوالهـا، فـالمنوه بهـم هـم الـذين جمعوا إلى القول الداعي إلى الصـلاح والفضـيلة، جمعـوا إلـى ذلـك العمـل ليكونـوا أسوة خير بفعالهم وأقوالهم معا. والتنـاقض بـين القـول والعمـل يطفـئ نـور القـول ويمحق تأثيره.

يقولون وهم معتزون بما هم عليه، فيعلنون: إنـا مـن المسـلمين. بعـد أن اسـتقرت هـذه الحقيقة في عقولهم: إن الإسلام معتقـدنا و مـذهبنا. ولمـا كـان الأذان فيـه دعـوة لأداء

الصلاة جماعة، يكون الأذان داخلا في مفهـوم الآيـة، ولـذا نُصِحَ المـؤذن بـأن يقـول عقب الأذان: إنني من المسلمين.

34ـولا تستوي الحسنة ...ولي حميم.

تتابع النظم القرآني مسجلا ثم منوها بـالمؤمنين المسـتقيمين فبلـغ فـي الآيـة السـابقة أن أقوالهم الداعية إلى الخير هي أسمى الأقوال وأحسـنها. فواصـل الإرشـاد إلـى الموقـف الذي ينبغي أن يكون عليه المؤمنون الكمل من الجفـاة والكفـار .فابتـدأ الإرشـاد بـنظم مقابلة بين حقيقتين متناقضتين: الحسنة مـن جانـب والسـيئة مـن جانـب آخـر. وكلمـة الحسنة تثير في النفس معاني كثيرة ترجع إلى الكمـالات الإنسـانية، منهـا: الـدعوة إلـى الله، والدلالة على الخير، والإحسان في القـول، والعفـو عـن الجفـاة، والاسـتقامة كمـا بيناها قريبا. والسيئة تشمل النقائص الخلقية والسـلوكية وكـل مـا هـو قبـيح، كالبـذاءة، والتعدي على الأعـراض، والفحـش، والسـباب، ونحـو ذلـك. فافتتحـت الآيـة بنفـي المساواة بين الحسنة والسيئة، على معنى أن الحسـنة فـي المنزلـة الممدوحـة الرفيعـة، والسيئة في المنزلة المذمومة الساقطة. وعطفـت السـيئة بكلمـة "لا" ليقـدر الكـلام بنـاء على ذلك: لا تستوي الحسنة والسـيئة، ولا تسـتوي السـيئة والحسـنة. فتنتفـي المسـاواة بصفة مؤكدة.

-أتبع الجانب القيمي بتأكيد عدم المسـاواة بـين الحسـنة والسـيئة، بالتوجيـه والإرشـاد إلى طريقة الاستفادة من ذلـك. فتوجـه الخطـاب أولا إلـى رسـول الله ﷺ، ومنـه إلـى جميع المؤمنين باعتبار أنه أسوتهم الحسنة، ادفع السيئة بـالتي هـي أحسـن. ومـن بـديع الصياغة القرآنية، أنه أمر أن يدفع السيئة من القـول أو الفعـل، بالطريقـة التـي أحسـن في الدفع، فتشمل الأفعال، والأقوال، والتغاضي، والمـؤمن بمـا ربـي عليـه مـن السـمو يهتدي إلى الطريقة التي هي أحسن من غيرهـا. أي يختـار الطريقـة التـي هـي خيـر وأحسن ويفضلها على الطريقة الحسنة.

إن هذا المنهج في العلاقات البشرية، يحصل بـه الخيـر، مـا لا يحصـل بـإفراغ شـحنة الغضب سريعا بما هو مكافئ للتعدي الحاصـل. إن الـذي حملـه عـداوه علـى إذايتـك، ينقلب بحسن معاملتك وجميل ردك، إلى متعلـق بـك كأنـه صـديق قريـب. إن التخلـق بهذا الأدب القرآني يقتلع العداوة من قلب من تم الإحسـان إليـه، وينتهـي الأمـر حسـب طبيعة التكوين الإنساني إلـى الحيـاء مـن مواقفـه السـابقة. إن العـداوة التـي يشـحنها الشيطان ويلهبها تمزق العلاقات الاجتماعية وتحـول الطاقـات مـن البنـاء إلـى الهـدم. والله استخلفنا في الأرض لنتعاون على عمارة الكون ونعمل صالحا.

35ـ وما يلقاها إلا الذين صبروا...ذو حظ عظيم.

إن التأدب بالأدب الذي جاء في الآية السابقة، هو مستوى رفيع لا يصل إليه الإنسان إلا إذا وطن نفسه على الصبر، وعدم العجلة. ذلك أن شأن الإنسان العادي أن يستجيب للإثارة ليكون رد فعله على قدرها، فإذا تحكم عقله في عواطفه، وربى نفسه على الأناة وعدم العجلة والنظر في المآلات، استعد تبعا لذلك أن يكون الصبر خلقا له . فيخرج رده من غليان العاطفة وثورتها إلى الهدوء الفاعل، ويكون قراره قرار العقل البصير. وبهذا فإن الذي يتأدب بأدب هذه الآية هو الوحيد الذي كان حظه من الخير عظيما، فأصبح الصبر سجية له.

وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ

نزغ: نخس، عبر به عن اتصال قوة الشيطان بمدارك الإنسان.

الآيات : الأدلة.

استكبروا : صدر عنهم ما يفيد تمكن الكبر منهم.

التسبيح : تنزيه الله عن كل ما لا يليق بعظمته.

يسأمون : يضجرون .

الخشوع : التذلل.

اهتزت : تحركت.

ربت : ارتفعت.

يلحدون : الإلحاد أصله الميل عن الاستقامة، والمقصود به الانصراف عن التأمل في الآيات الكونية.

بيان المعنى الإجمالي :

لما هُدِي النبي ﷺ إلى الصبر وعدم رد الفعل السريع الغاضب، فرض كما يفرض المحال أن يحاول الشيطان صرفه عن هذا المستوى بخواطر تدعوه إلى سرعة الانتقام. وهذا كثيرا ما يحصل للمؤمنين، فكشفت لهم الآية عن الطريقة المحصنة من تلك الخواطر، بأن يقول المؤمن: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فإن الله يسمع ابتهاله، عليم بما ينطوي عليه من الخير.

من الأدلة البينة على تفرد الله بالخلق والتدبير تعاقب الليل والنهار بصفة منتظمة، وخلقُ الشمس والقمر. وإن كان هذان الكوكبان يؤثران في حياة البشر والحيوان والنبات والمد والجزر، فإنهما لا يستحقان العبادة. وإياكم أن تعبدوهما وتسجدوا لهما. إن الحقيق الوحيد بالسجود والعبادة هو الله، الذي تصرف فخلقهن على تقدير حكيم، إن من يعبد الله لا يمكن أن يعبد غيره ولا أن يجعل واسطة بينه وبين الله كما يدعي مشركو مكة . وإن استكبر المشركون من الانصياع لأمر الله بالانصراف عن عبادة الشمس والقمر، فإن الله غني عن طاعتهم. وإن لله ملائكة استغرقوا في التسبيح والتمجيد حياتهم، لا يلحقهم ملل من ذلك.

ودليل آخر من كتاب الكون تأمل فيه أيها الإنسان، إنك ترى بعينيك الأرض وهي منكسرة منزوعة الكساء، تسفو الرياح أديمها، فماهي إلا أن ينزل الله الماء عليها حتى تتحرك، يتخلل الماء باطنها فيعلو أديمها، وتتشرب البزور الرطوبة فتمد عروقها إلى الباطن بحثا عن الغذاء وتمد رؤوسها إلى السماء لتأخذ حظها من أشعة الشمس. وإذا وجه البسيطة مكسو بمختلف الألوان والأشكال. إن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر طبعا على إحياء البشر. إنه طور من أطوار الحياة يمر على الأنظار وهي مشوقة إليه. عجب كيف ينكر الإنسان إمكان إحياء الموتى .

إن الذين يحرفون آيات الله، ويطمسون حقائقها، ويعملون على تغيير مقاصدها، منكشفون عندنا سنجزيهم عن كل ما فعلوه جزاء وفاقا. تصوروا العاقبة: عاقبة من يلقى في النار مهانا، وعاقبة من يقدم على ربه مطمئنا آمنا من غضبه وعقابه، أيهما خير ؟ تركت لكم الخيار في الدنيا لتعملوا ما شئتم من الخير أو الشر،فإني أنا الله بصير بما تعملون لا يخفى علي شيء من أفعالكم وقصودكم، سأجزيكم بها الجزاء العادل .

بيان المعنى العام :

36ـ وإما ينزغنك من الشيطان نزغ...هو السميع العليم.

يخاطب القرآن بهذه الآية النبي ﷺ، بعد أن أرشده إلى مقابلة السيئة بالتي هي أحسن، وأن يترفع عن مجاراة السفهاء، متدرعا بالصبر. يخاطبه بأنه إن تصور وفرض كما يفرض المحال، أن الإساءة أثارتك، وتحدثتَ في نفسك بالانتقام من

المسيء ورد الفعل على مستوى إساءته، فاعلم أن هذا هو من محاولات الشيطان أن يخرجك عن مقام خلقك العالي إلى الأخذ بحقك المساوي لاستجابات كثير من الناس. ولما كان هذا الخطاب يشمل الأمة قطعا، فتحققه إنما هو لغير رسول الله، لأن الله عصمه من الشيطان، ولكن في توجيه الخطاب لرسول الله ﷺ، تنبيه شديد للمؤمنين حتى لا يصطادهم الشيطان في حبائله. إن إحباط محاولات الشيطان رد الفعل العاطفي، تكون بالاستعاذة بالله، أن يقول المؤمن إذا غضب من الإساءة وحدثته نفسه بالانتقام السريع، أن يقول: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. وَعْدٌ محقق من الله الذي يسمع ابتهال المؤمنين، العليم بما تنطوي عليه نفوسهم من التقوى، أن يسعفهم بتحصينهم من نزغه.

37ـ ومن آياته الليل والنهار....إن كنتم إياه تعبدون.

تذكير بالدلائل التي تثبت تفرد الله بالخلق والتدبير. فلفت الأنظار إلى مظاهر تتكرر على الأبصار كل يوم، ولعل في رتابتها ما يرفع قوة دلالتها، مع أنها أدلة عظيمة لمن يتأمل فيها، وميادين فسيحة للفكر والمعرفة. من هذه الأدلة الليل والنهار، وتعاقبهما بصفة منتظمة وبحساب دقيق يتداولان كل جزء من أجزاء الكون. والشمس والقمر، بالنظر إلى كونهما كوكبين مضيئين ترتبط الحياة بهما من نواح عديدة، وبالنظر إلى انتظام سيرهما، مجالات للتدبر والاستدلال على أن موجدهما هو القادر الذي لا يعجزه شيء.

إن التأمل في عظمة خلق الشمس والقمر، قد دفع طائفة من البشر لما لم يدركوا سر خلقهما وتدبيرِ أمرهما، إلى اعتقاد ألوهيتهما، فعبدوهما وأظهروا الخضوع لهما بالسجود. فعقّب لفت الأنظار إليهما، بالتنبيه على أن المخلوقات مهما عظمت لا تبلغ مستوى التأليه، وأن على الإنسان الذي رفع الله قدره، أن لا يسجد خاضعا إلا لله الذي خلقهما وخلق ما هو أعظم منهما، وختمت الآية بإفراد الله بالعبادة والإخلاص لعلي ذاته، فإنه لا يصح أن يعبد أحد سواه.

إثر قوله :تعبدون يسجد التالي للقرآن سجدة التلاوة عند مالك ومعظم أصحابه، وكذا هو مروي عن علي بن أبي طالب وابن مسعود. وعند أبي حنيفة السجود إثر قوله بعد: وهم لا يسأمون . وهو مروي عن ابن عمر وابن عباس وسعيد ابن المسيب وعن الشافعي روايتان.

38ـ فإن استكبروا فالذين...وهم لا يسأمون.

أمر البشر أمرا جازما أن يفردوا الله بالعبادة، وفي ذلك شرف لهم. فإن استكبروا عن تطبيق الأمر الإلهي، وترفعوا أن ينصاعوا لحكم الله، فإن الله غني عن

سجودهم وعبادتهم، ولا يضرون إلا أنفسهم. وإن الملائكة الذين رفع الله مقامهم فجعلهم في الملأ الأعلى المطهر من الإثم، خاضعون الخضوع الكامل لله، مستغرقون في تسبيحه وتنزيهه عن كل ما لا يليق به، يستوعب تسبيحهم جميع الأوقات، وكلما واصلوا التسبيح زادوا أُنسًا به وانتفت عنهم السآمة، على معنى أنهم لا يجدون لذة تساوي تسبيح ربهم .

39ـومن آياته أنك ترى الأرض ....إنه على كل شيء قدير.

واحدة أخرى من الأدلة المنبثة في الكون المثبتة لتفرد الله بالخلق والتدبير. تختلف هذه الآية عن الليل والنهار والشمس والقمر من جهة أن الآيات الأربع الأولى، نظرا لتكررها وانتظام حدوثها دون أن يشتاق الإنسان إليها قد لا يتأمل الإنسان فيها. أما آية وضع الأرض قبل نزول الغيث وبعده، فهي ظاهرة ترتبط بها حياة الإنسان، ويشتاق إلى المطر إذا انحبست . ولذلك توجه الخطاب إلى كل من تصح منه الرؤية "**أنك ترى**" ما ذا ترى؟ ترى الأرض في وضعها الأول خاشعة، كأنها منكسرة منزوعة اللباس لا تحمل خيرا ولا بهجة. وبمجرد ما ينزل الله عليها رحمته من السماء ماء، تتحرك حركة عجيبة، فيعلو أديمُها بما يتخلل باطنها من الماء، وتكسى بمختلف أنواع النباتات المشكلة الألوان، وتبدو وكأنها مزهوة بما جمعت من جمال وخيرات. انتبهوا! إن الذي أحيى الأرض بعد جدبها وموت كل شيء في باطنها، بمجرد ما ينزل الماء تتشربه البزور فتمد جذورها في الباطن لتقتات، وتظهر رأسها لتأخذ حظها من أشعة الشمس، فيكون النماء المتواصل والحياة الواضحة. إنه على هذا النحو يتم إحياء الموتى. إن قدرة الله لا تحدها حدود. إنك إن نظرت إلى المنظر العام للأرض، في حالة جدبها بعد أن حصدت الشمس الحارقة كل نبات على ظهرها، وفي حالة ريها بالماء وإحياء ما في باطنها، أو نظرت إلى الحبة الواحدة كيف يتم رجوع الحياة إليها لتأخذ دورة جديدة .سواء أنظرت إلى هذا أو ذاك فإن المشهد ناطق بأن قدرة الله على إحياء الموتى قدرة كاملة، إن البعث آت لا ريب فيه. فليستعد الإنسان للحياة الباقية .

40ـ إن الذين يلحدون في آياتنا...بما تعملون بصير.

تابع القرآن من مفتتح السورة إلى الآيات السابقة لفت الأنظار إلى الأدلة على وحدانية الله وتفرده بالخلق والتصرف، وساق تلكم الآيات تباعا ليهدي البشر إلى الحق. وهو العليم بموقف عباده من آياته، يعلم أن بعضهم لا يتحرك للتأمل في تلكم الآيات، ويواصل تصلبه في الكفر. فالإلحاد في الآيات معناه الانصراف عن التأمل

فيها، ومحاولة الطعن فيها وتشكيك السامعين لها. يهددهم بأنهم مكشوفون عنده، مطلع على خفاياهم وما يقصدونه من إشاعة الكفر، وفي ذلك تهديد بما قدر لهم من جزاء كفاءَ إلحادهم في آياته .لا يخفون علينا: نحن بالمرصاد لهم.

أفمن يلقى في النار... تفصيل للتهديد الوارد في الآية السابقة. المصير إلى الله يجري على الصالحين والكفرة. ولكن الجزاء مختلف، فانظروا إلى المآلين: مآل من يلقى في النار مع الإهانة كما تلقى الفضلات، ومآل الذي يقدم على ربه مكرما آمنا من غضبه وعقابه. أيهما خير عاقبة ؟

أعاد التهديد بقوله : **اعملوا ما شئتم** . تهديد ووعيد. بكل تأكيد إن الله بصير بحقيقة ما تعملون، يعلم ظواهر أعمالكم، ويعلم مقاصدكم الخبيثة، وسيجزيكم عنها.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ۖ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ۗ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدًى وَشِفَآءٌ ۖ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ۚ أُوْلَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الذكر : القرآن.

فصلت: بينت.

الأعجمي : منسوب إلى أعجم وهو الذي لا يفصح باللغة العربية.

الشفاء : أصله، زوال المرض، والمقصود ذهاب الحيرة وحصول اليقين.

عمى : أصله عدم البصر، والمقصود عدم الاهتداء.

بيان المعنى الإجمالي :

يقول الله لرسوله: إن الذين كفروا بالقرآن لما جاءهم خاسرون الخسارة الكبرى في حاضرهم ومآلهم. كيف لا، والقرآن قد سما في أوصافه إلى أعلى مستوى من الكلام لفظا ومعنى، فخسارة من صد عنه ولم ينتفع بهداه خسارة عظمى. إنه كتاب حق لا صلة بينه وبين الباطل. نزله الحكيم فكله حكمة، ونزله الحميد فمن شأن

المتبع لهدايته أن تحصل له المنافع التي لا تحد، التي جاءته من اتباع ما جاء فيه، فينطلق قلبه ولسانه بحمد منزله.

سلّى القرآن النبي ﷺ عن حزنه بسبب وقاحة المشركين في مطاعنهم على القرآن، فسلاه بأن ما يسمعه من المشركين من الأذى للدين وللقرآن وللوحي هو نظير ما سمعه الرسل من قبله من أقوامهم، فلا تحزن ولا تبتئس، واعلم أن ربك غفور يستر ذنوب عباده الصالحين ويمحوها. وهو سبحانه المتمكن من تسليط العذاب الشديد الإيلام لمن أعرض عن ذكره وآذاك.

و لفضح عقلية المشركين، وأنهم ما يرمون من محاجتهم تبين الحقيقة، وإنما محاولة الطعن في القرآن، إنه لو فرض أن نزل القرآن بلغة أعجمية على رسول الله، لطعنوا فيه وقالوا: لولا جاءت آياته مفصلة بينة بلغة نفهمها، ما هذا الخلط ؟ رسول عربي، وكتاب أعجمي ينزل عليه.

قل لهم قولا يكشف عن أسباب عدم اهتدائهم بالقرآن والطعن فيه: إن العيب والنقص ليس في القرآن، ولكنه في ذواتهم. ذلك أن آثاره في المؤمنين به آثار كلها خير وبركة يهديهم إلى الحق، ويشفي صدورهم من وساوس الشيطان وزلازل الشك. بينما آثاره في الذين لا يؤمنون على العكس من ذلك .يصم آذانهم، ويحجب بصائرهم فلا تدرك شيئا من أنواره، وتبعدهم عنه بعدا فلا يصل إليهم شيء من خيراته.

بيان المعنى العام :

41←42:إن الذين كفروا بالذكر...تنزيل من حكيم حميد.

فاتحة الآية متصلة بقوله تعالى في الآية السابقة: (**إن الذين يلحدون في آياتنا**)، أبدلت منهم بدل بعض من كل (**إن الذين كفروا بالذكر**) ويكون الخبر ما يفهم مما أتي به خبرا عن المبدل منه " **لا يخفون علينا**" فيمكن أن يقدر الخبر: هالكون في الدنيا والآخرة. وبهذا تكون هذه الآية مؤكدة للتهديد الوارد في الآية السابقة. فهم مهددون بالعقوبة التي لا تترك قليلا ولا كثيرا من إلحادهم، ومهددون لأنهم كفروا بالقرآن الموصوف بالأوصاف الآتية، التي ما كان لهم معها أن ينكروه. فما هي الأوصاف التي جمعتها هذه الآية؟ تتبعها الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله، وفصلها إلى ستة أوصاف، وهو كلام نفيس أقتبسه منه.

الوصف الأول: أنه ذكر، يذكر الناس كلهم بما يغفلون عنه، من الأمور التي من شأن الغفلة عنها فوات فوزهم.

الوصف الثاني: أنه ذكر يُحَوِّل العرب من أمة مغمورة إلى أمة قيادة للعالم، ينتشرون في الدنيا هداة، وتصبح لغتهم لغة العلم. كما قال تعالى: **(وإنه لذكر لك ولقومك.)**[1]

الوصف الثالث: أنه كتاب عزيز. نفيس، حجته ظاهرة ومن يعارضه مهزوم.

الوصف الرابع: بعيد عنه الباطل، بعدا لا يخالطه لا في ظاهر ولا في باطن. فمن أي جهة قصده المبطلون دفعوا، وجسَّم ذلك بقوله: من بين يديه ولا من خلفه – لأنه يدفع الباطل دفعا ذاتيا. يقول الزمخشري: ألم يطعن فيه الطاعنون؟ قلت بلى ولكن الله قد تقدم في حمايته عن تعلق الباطل به، بأن قيض قوما عارضوهم بإبطال تأويلاتهم ومطاعنهم فمحقوها.

الوصف الخامس: أنه مشتمل على الحكمة، وهي المعرفة الحقيقية التي لا تقبل النقض، لأنه تنزيل الحكيم، ولا يصدر عن الحكيم إلا الحكمة.

الوصف السادس: أنه تنزيل من حميد، محمود حمدا كثيرا على فضله ونعمته على البشرية بإنزاله. لما يشتمل عليه من الخيرات التي بها تستقيم وتسعد حياة متبعيه في الدنيا والآخرة.

43- ما يقال لك إلا ما قد قيل... وذو عقاب أليم.

بعد أن دفع تجرؤ المشركين على القرآن، ونبه إلى سموه عما يعترض به الملحدون، راعى القرآن أن يتوجه بالتسلية لرسول الله ﷺ، فإنه كان يدرك ويحس من نفاسة القرآن ما يفوق ما يدركه ويحس به غيره. فكان الطعن في القرآن يؤلمه أشد الألم. فسلاه ربه بأن هذه هي سنة المعاندين الكفرة الملحدين مع الرسل جميعا، هوّن عليك، فإن جميع الرسل سمعوا من قومهم مثل ما تسمع من قريش من الأذى والمطاعن . كما يمكن أن تفهم الآية على أن ما أوحي إليك يتفق مع الأصول التي أوحي بها للمرسلين قبلك: التي جماعها: إن ربك لذو مغفرة ورحمة لأنبيائه وأوليائه، وذو عقاب أليم لأعدائهم .

فإذا اتبعنا التفسير الأول: أن مشركي مكة استووا مع المشركين من الأمم السابقة، فيكون قوله تعالى: **إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم** . يفيد أن الله وعد وأوعد. وعد رسوله وهو ربه بأنه هو المالك لغفران الذنوب وإزالة آثارها كأن لم تكن، والبشارة بالنسبة لأمته واضحة، وأما بالنسبة له ﷺ، فإنا قد بينا سابقا أن النبي ﷺ يرتقي كل يوم في مدارج الكمال فيكون وضعه القديم ناقصا عن المستوى الذي

---

[1] سورة الزخرف آية 44

بلغه، فمن إكرام الله لرسوله أن جعل كل أحواله السابقة على المستوى الرفيع اللاحق.

وأوعد بأن عقابه للملحدين عقاب يحسون بألمه أشد الإحساس.

44-ولو جعلناه قرآنا أعجميا...أولئك ينادون من مكان بعيد.

تبدأ الآية بفرض، لو جعلنا القرآن نازلا بلغة غير لغة العرب. فإن مشركي مكة لا يعدمهم الاعتراض عليه. فكما قالوا في القرآن النازل بلغتهم المتحدي لهم : أساطير الأولين، وسحر، وإفك افتراه، **(ولو نشاء لقلنا مثل هذا...)**. فلو نزل بلغة أعجمية، لغة لا ينطق بها محمد ولا يفهم معانيها، فإنهم يقلبون اعتراضهم فيقولون: لولا نزلت آياته بلغة نفهمها، لولا فصلت وبينت آياته. وهو فرض مقابل قوله تعالى: **(ولو نزلناه على بعض الأعجميين فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين)**[1] يكون حاصل اعتراضهم :كيف يكون قرآنا نازلا من عند الله، المنزل عليه عربي، والنص بلغة أعجمية، أأعجمي وعربي. إنه تناقض غير مقبول. وهذا الجدل يحقق ما وصف الله به قريشا: **(بل هم قوم خصمون)**[2]

حققت الآية السابقة تصلب المشركين في الكفر، ومبالغتهم في الطعن في القرآن اتباعا لهواهم. فأمر الرسول ﷺ أن يقول معلنا: إن سمو القرآن وخيراته وبركاته لاتحد، ولكن آثاره تختلف فبالنسبة للذين آمنوا تنفذ إلى عقولهم بفعل الإيمان فتتفاعل مع مضامينه، يجدون فيه الهدى إلى الطريق الأرشد في العقيدة، وفي ضبط العلاقات الاجتماعية ضبطا يحقق النمو والأمن، ويجدون فيه أيضا ما يشفي صدورهم من الشك ويطرد وساوس الشيطان. وتكون آثاره على العكس من ذلك بالنسبة للذين لم ينفذ نور الإيمان إلى عقولهم، فحُجِبَتْ عن هداه

أولا: تتعطل أسماعهم عنه ويشغلون عنه، ويستولي عليهم العناد.

ثانيا: تحجب بصائرهم عن أنواره، فهم عمي لا يتبينون مقاصده، ولا ينتفعون ببيانه، شأنهم شأن العمي الذين لا يتأثرون بما تزخر به الحياة من مباهج وخيرات.

ثالثا: إنهم لقصدهم الصدود عنه، يكون شأنهم شأن الذي ينادى من مكان بعيد، فلا يدرك صوت المنادي والمسافة بينه وبين الصوت مسافة شاسعة.

ومع هذه التّدقيقات الثلاثة لوضعهم ينكشف بها سر إعراضهم وعدم انتفاعهم بالقرآن. وإلصاقهم به ما هو بعيد عنه، تبعا لجهلهم به.

---

[1] سورة الشعراء آية 199/198

[2] سورة الزخرف آية 58

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ
بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ
وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

كلمة ربك : ما قدره من إمهالهم.

سبقت: تقدمت في علمه.

الأجل المسمى: الأجل المعين في علم الله.

الريب: الشك.

بيان المعنى الإجمالي:

بكل تأكيد آتينا موسى الكتاب التوراة، فكان موقف المبعوث إليهم مختلفا منه. كذب بعضهم، وتأول بعضهم التأويلات البعيدة، وضيَّعه بعض حتى أصبحت الظاهرة بالنسبة إلى التوراة هي الاختلاف. وإنه لولا أن الله قدر في سابق علمه الوقت الذي ينفذ فيه حكمه في الصالحين وحكمه في الكافرين لعجل لهم الجزاء المُرْدِي. وإن الكافرين منغمسون في الشك من صدق القرآن. وما يزيدهم شكهم إلا قلقا واضطرابا.

من عمل عملا صالحا في قصده، وفي طريقة أدائه، فإن نفع ذلك يعود إليه، من أساء قصدا وعملا يجزى على مقدار إساءته. وربك يا محمد لا يظلم أحدا.

بيان المعنى العام :

45- ولقد آتينا موسى الكتاب ...لفي شك منه مريب.

تقدم في الآية 43 أن الكفر ملة واحدة، وموقفهم من هداية الله لا تختلف. فصرح في هذه الآية بما يذكر بموسى عليه السلام وبموقف الناس مما آتاه الله من الوحي . أفادت الآية أن ألله آتى موسى الكتاب: التوراة، فكان موقف الناس منها موقفا مختلفا، كفر بها فرعون وبعض بني إسرائيل كقارون وعبدة العجل. وآمن بها بعضهم ولكن عمدوا إلى تحريفها وتأويلها وطوعوها لهواهم. وأضاعوا نصها. وفي هذا ما يسلي النبي ﷺ إذ الاختلاف في القرآن كان اختلافا بين المؤمنين به الحريصين على الاحتفاظ بنصه، الراجعين لرسول الله لفهم ما يشكل عليهم، المجتهدين لتطويع هواهم لما جاء به، وبين الكافرين الرافضين.

ولولا كلمة من ربك...تقرر في علمه سبحانه كل ما يقع في الكون، وما سيجري عليه أمر الدنيا في كل كبيرة وصغيرة، تبعا للحكمة التي قد تخفى علينا .فقد تقرر في علمه أنه لا يقضي على الرافضين للقرآن بمجرد رفضهم، ولا يسلط عليهم ما سلط على المكذبين لموسى من الاستئصال، ولكن تقرر في علمه أن يؤجل عقاب الكافرين ويمهلهم إمهالا لا ينفي عقاب المصرّين على الكفر إلى الممات، بل يسوقهم إلى العذاب المقدر لهم يوم القيامة .ويمهل البعض فيسلط عليهم رسوله والمؤمنين كما تم لرؤوس الكفر في بدر. ويمهل فريقا آخر ليتوبوا ويكونوا عونا للإسلام ومجاهدين صادقين لنشر هداه في العالمين.

وبكل تأكيد هتك الشك في البعث وفي صدق الرسول عقول المشركين. هم يعيشون منغمسين في ذلك الشك الكبير الذي نخر أرواحهم.

46ـمن عمل صالحا....وما ربك بظلام للعبيد.

تشير الآية إلى قانون عام أجرى الله عليه أمر البشر في حياتهم. حاصل هذا القانون العام:

أولا: أن من عمل عملا صالحا، صلحت منه النية فتمحضت للخير، وصلحت الصورة العملية بتطبيقه لشرع الله الذي تلقاه من ربه، فإن نفع فعله الصالح يكون لنفسه .يجد به طمأنينة في نفسه، ويلقى ثوابه مدخرا عند ربه.

ثانيا: أن من اختار الفعل السيء الضار الملوث بالشر، فإن آثار فعله ستعلو ذاته وتسحقها تحت انحرافه. يجد قلقا في روحه، وكراهية من الناس لفساده، وعقابا يوم القيامة في آخرته.

في تعبير وجيز يصلح أن يكون قاعدة عامة يستنجد بها الفكر، والدعاة، تلقي الطمأنينة في قلوب البشر جميعا. ما ربك الذي تولاك بعنايته، وأفاض عليك من فضله، وميزك بما خصك به يا محمد، إن ربك لا يتصور منه ان يظلم أحدا، فلا يظلم المحسن فينقص من أجره، لأنه غني كريم .ولا يظلم المسيء، فإن عذبه فهو كفاء ما قدم . فعدل الله كامل وصفة واجبة.

۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا
تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾
وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ
مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ

مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَا أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

يرد : يفوض علم الساعة لله.

أكمامها : جمع كِمٍّ، وهو وعاء التمر.

آذناك: أعلمناك.

ضل: غاب.

لا محيص: لا ملجأ.

يسأم : يمل .

دعاء: طلب.

القنوط : أشد الياس .

الحسنى : الحالة الحسنى.

عذاب غليظ: صعب شديد

بيان المعنى الإجمالي :

يسأل المشركون عن اللحظة التي ينتهي فيها العالم، فأجيبوا بأن علمها عند الله وحده، ولم يُمكّن أحد من ذلك. ولماذا يلحون لمعرفة الساعة ؟ فأشياء قريبة منهم تقصر عقولهم عن معرفتها، فالنخل تخرج أكمامها ولا يدري أحد كيف تتكون الثمار، ولا يعلم أحد متى تحمل الأنثى، ولا متى تضع حملها. والله وحده هو العليم بكل شيء. واذكر يوم يناديهم ربهم فيخاطبهم خطابا علنيا: أين شركائي الذين كنتم تسوونهم بي وتعبدونهم؟ أجابوا قائلين: أعلمناك، ونقر لك ما منا من أحد يشهد بأنها آلهة. وغابت عنهم الأصنام التي كانوا يدعونها ويعبدونها في الدنيا. و تيقنوا أنه لا مفر لهم من المصير الذي تقرر لهم.

حب الخير متجذر في فطرة الإنسان، ولكن الذين خوت أرواحهم من الإيمان يتعلقون بخيرات الدنيا، يلحون في طلبها ويلحون، ولا يملون من الطلب والسعي اللاهث. و من مسه منهم ضر ولو كان خفيفا تظلم الدنيا في عينيه، ويستولي عليه اليأس والقنوط.

ثم إنه إذا لطف الله به وأزال ضره، وفرج كربته أبطرته النعمة وقال: هذا حقي فما نفقت تجارتي مثلا إلا بفضل ذكائي وخبرتي، وما شفيت من مرضي إلا لأني اخترت الطبيب الماهر وأتمتع بجسم قوي وهكذا. وإذا ذكر بالآخرة سارع إلى

إنكارها، ويبلغ به الصلف والكبرياء أن يـدعي قائسـا وضـعه الأخـروي علـى وضـعه الدنيوي، فيصرح بأنه لو بعث ،فإنه سيجد عند ربه أحسن الجزاء كحالته في الدنيا.
بكل تأكيد ستُكْشَفُ للذين كفروا صحائف أعمالهم يوم القيامـة فيخـزيهم عمـا قـدموا، ثـم ينفذ فيهم الحكم العادل، عذاب شديد كأبلغ ما تكون الشدة.
إن طغيان الإنسان لأمر عجب، فإذا أنعـم الله عليـه ، وحقـق لـه مـا يأملـه ، أعـرض عن شكر الله وعن الاعتراف له بالفضل .وابتعـد عـن الاتصـال بـه. و إذا مسـه الشـر الذي يحذره يجزع أشد الجزع، ويتوجه بالدعاء الذي لا يتجاوز وقت الضر.

بيان المعنى العام :

47←48: إليه يرد علم الساعة...ما لهم من محيص.

إن من أبلغ ما يحرج الكافرين تـذكيرهم بيـوم القيامـة، ووقـوفهم للحسـاب بـين يـدي الله، فكان من جدلهم فيه إلقاء السؤال التـالي: متـى تكـون السـاعة ؟ فأبانـت الآيـة أن تاريخ حلول السـاعة لا يعلمـه إلا الله، نفـوض العلـم بتاريخهـا إليـه. وليسـت هـذه الوحيدة التي يجهلها الناس وتاريخها غير معلـوم لهـم. نبهـتهم الآيـة إلـى بَعْـضٍ مـن مظاهر حياتهم، ففلاحتهم التي يباشرونها، لا يعلـم أي فـلاح مـا تحويـه أكمـام النخـل من ثمرات، لا عددها، ولا صلاحها، ولا اللحظة التي يبـدأ كـل كـم فـي التفـتح لقبـول اللقاح. ولا يعلم أحد متى تحمل الأنثى، فاللقاء الجنسـي وإن كـان سـببا للحمـل، إلا أنـه متى يكون مخصبا للبييضة، ومتى لا يكون، ومـا هـو نـوع الجنـين مـن أول لحظـة، وما هي خصائصه الخلقية والنفسية والعقلية، كـل ذلـك مـن الغيـب الـذي اخـتص الله بعلمه. و كذلك اللحظة التي تضع فيها الحامل المولـود. وبـذلك يصـرف القـرآن الفكـر البشري عن البحث عما هو مغيب عنه، ولا يمكـن أن يصـل إلـى معرفتـه، لـيمحض فكره وبحثه إلى المجاهيل الكثيرة التي يمكن له اكتشاف أسرارها.
بعد أن أيأسهم من معرفة وقت يوم القيامة، قال لرسـوله اذكـر لهـم شـيئا ممـا يلقونـه فيه. في هذا اليوم يخاطـب الله الكـافرين عبـدة الأوثـان، خطابـا علنـا يسـمعه أهـل المشهد ، يقول لهم: أين شركائي الذين كنتم تسوون بينـي وبيـنهم فـي الـدنيا وتزعمـون أنهم آلهة؟ و يكون جوابهم: أعلمناك ونقر لك ما منـا مـن أحـد يشـهد أن لـك شـريكا، يتنصلون يومها مما كـانوا يعتقدونـه ويجـادلون فيـه ويقـرون معتـرفين بكـذبهم فـي الدنيا، عندما كانوا يعلنـون أن الأصـنام حقيقـة بالعبـادة، ويعبـدونها. كمـا يمكـن أن تفهم الآية على أنهم يقولون: نظرنا فلـم نشـاهد واحـدا منهـا. فلـم يجـدوا مـا كـانوا يعبدون في الدنيا. و ضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل، غـابوا عـن المشـهد فـلا أثـر لهم، إما لأنه عجل بهم إلى النار، وإما لأنهم هلكوا مـع مـا هلـك فـي الـدنيا. و حصـل

في أذهانهم توهم الفرار من الموقف، فتبينوا أنهم لا يجدون مفرا. يقال حاص الرجل: إذا راغ يطلب النجاة.

49ـ لا يسأم الإنسان ...فيؤوس قنوط.

شأن الإنسان أن تصيبه السآمة والملل من التكرار، ولكنه تبعا لما طبع عليه من حب كل ما هو خير من مال وصحة وجاه وبنين وعلم وكل ما يحقق رغباته، تجده كلما جاءه الخير طلب المزيد. إنه لا يكتفي بما عنده. و بالمقابل فإنه إذا مسه أدنى ضر حسبما تشير إليه كلمة مس، من ضعف الإصابة. فإنه لا يتحمله، ويجزع ولا يصبر، وينزعج إلى حد اليأس من ارتفاع الشر بل يصل إلى حد القنوط بفقده لكل أمل في الفرج. والناس في فرحهم بالخير وحب المزيد يتفاوتون على درجات، إن حب الخير إذا كان لا يطمس على الروح بما يشغلها عن علاقتها بربها وعن الشكر للواهب المنعم المتفضل، فهذا محمود، خاصة وإن الإنسان مستخلف في عمارة الأرض، مما يقتضي أن يفرح بنجاحاته، ومهمته في الكون ليس لها حدود. فكلما حقق هدفا انفتحت أمامه أهداف أخرى، وكلما عمر ونجح شاكرا لأنعم ربه، يكون محققا لإرادة الله في استخلافه لعمارة الكون. مثابا عن اجتهاده مستجيبا لأمر ربه، قال تعالى:(**وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا**)[1] فتكون الآية تنعي أولا، على الكفرة الذين حصروا همهم في جمع أكثر ما يمكن من الخيرات، ويعتبرون أنه ليس وراء المغانم الدنيوية مطمح لهم. لا يشكرون الله على نعمه، ولا يؤدون واجب الشكر قولا و فعلا في تقوية الروابط الاجتماعية . وهم المعنيون بأنه إذا مسهم الضر يئسوا من الفرج ، وقنطوا من عودة الخير .

50ـ ولئن أذقناه...من عذاب غليظ.

ثم تكشف هذه الآية عن نوع آخر من أخلاق الإنسان الكافر أولا، والغافل عن مقتضيات إيمانه ثانيا ، كما سنتبينه من تتبع الآية :

أولا: إذا تفضل الله فرحم عبده الكافر بعد ضر، فشفي بعد مرض، أو توسع رزقه بعد ضيق، أو ارتفع عنه الظلم، ولا تغفل عن قوله تعالى: "منّا" . فإنه ما كان ليتحول وضعه من السوء إلى الخير إلا بفضل الله، إذ مقلب الأحوال هو وحده المتصرف. إنه إذا كان كافرا يقول: من حقي أن يذهب عني السوء، إن ما رزقتُه من خبرة وذكاء، لا بد أن أحقق به ما وصلت إليه من مكاسب. وإنه لولا الطبيب الماهر وقوتي البدنية ما كنت لأُشفَى ونحو ذلك. وإذا ذُكِّر بالساعة وواجب الشكر

---

[1] سورة القصص آية 77

للمنعم يقول: الراجح عندي أن الساعة لا حقيقة لها، وعلى فرض أن نبعث فإني سأجد العاقبة الحسنة، فإن وضعي في الآخرة سيكون مثل وضعي في الدنيا، إذ المعقول أن يستمر ما أنا عليه في الدنيا .

ثانيا: إذا تفضل الله فرحم عبده المؤمن، فإن صفاء الإيمان على درجات، فالمؤمن النقي التقي، يرفع يديه وقلبه إلى خالقه بالشكر على ألطافه وفضله. و يعتبر ما حصل له من ضر، وما عقبه من خير بلاء يوقظه إلى مراقبة سلوكه، وشحذ عزيمته على مضاعفة فعل الخير. و المراتب دون هذه كثيرة تصل عند بعضهم إلى التسويف، سأفعل الخير، أو إن الله غني عن عذابنا، أو يعتبر الإيمان كافيا للنجاة من العذاب ومن سخط الله. و يؤول النصوص الواردة في الرجاء تأويلا يفرح به إبليس ليواصل إضلاله .فالآية صالحة للقسمين .

ثم توقظ هذه الآية الذين لم ينتبهوا إلى ما في البلايا، وما في الفرج بعد الشدة، إلى أنها أحوال تحرك الإنسان للتوبة و لمحاسبة نفسه. فليعلم كل مسرف على نفسه من الكفر، إلى ارتكاب المعاصي، أن كل ما قدمه في الحياة مسَجّل لا يضيع منه شيء، ثم إن الله يوقفه يوم القيامة ليذكره بسوء فعاله. و ليس هو الوقوف للتوبيخ بالتذكير فقط، ولكن ليجزيه عما فعله جزاء يحس بألم عذابه أشد الإحساس.

وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإعراض : الغفلة عن شكر المنعم.

نأى : بعد عن التفكر في نعم الله عليه .

بجانبه: منفصلا عن الله ، متكبرا.

الدعاء : الابتهال إلى الله لكشف الضر .

الشقاق: العصيان.

الآفاق : جمع أُفق، الناحية من الأرض المتميزة عن غيرها.

على كل شيء شهيد : مطلع ومهيمن على كل شيء.

المرية : الشك .

محيط: محيط علمه

بيان المعنى الإجمالي :

أمر الإنسان الفاقد للإيمان عجب، هو متنـاقض، فـإذا أنعـم الله عليـه بـالرزق والعافيـة وانتظام أمر حياته، أعرض عن شكر الواهـب المتفضـل، وابتعـد عنـه. و بمجـرد مـا يمسه شر من الشرور، مرض أو ضيق في الـرزق أو بليـة فـي الأهـل، ونحـو ذلـك، تجده منزعجا جدا يدعو لا صبر عنده. مما يضاعف وقع الشر على نفسه.

قل لهم: اخبروني؛ لنفترض أن القرآن والوحي الذي أَتَيْتُ بـه هـو مـن عنـد الله، ألـيس الواجب عليكم والحالة هـذه أن تتـأملوا فيـه وأن تنظـروا فـي حقيقتـه، ولا تسـارعوا برفضه. إنكم إذا سارعتم بالكفر به والحالة هذه تكونسون قـد ضـللتم وعصـيتم. تيقنـوا أن القرآن والشرع الإسلامي ستقوم الأدلة على صـدقه فـي جميـع أنحـاء الـدنيا، وكـل يوم يمر تقوم شواهدُ مثبتة أن الوحي الذي أتيت بـه حـق صـادق. وكمـا تقـوم شـواهد الكون بصدقه، ينادي التأمل في ذواتكم بكـون الله الخـالق الواحـد هـو المتصـرف فـي الكون .إنها شواهد يذعن لها كل عاقل في الدنيا.

إن حكمة ربك وحسن تقديره طبع بها كل كائن ، فالكل يشـهد ببـديع صـنعه، وأنـه هـو المهيمن عليه سبحانه . ألا يكفيـك ذلـك دلـيلا علـى تفـرده بـالخلق و التـدبير. ألا إن المشركين منغمسون في الشـك المخـرب لتفكيـرهم و حيـاتهم. إن هـذا هـو وضـعهم. أعلنه، وأنا الله المطلع على كل شيء اطلاعا لا يفلت منه صغير ولا كبير.

بيان المعنى العام :

51ـ و إذا أنعمنا على الإنسان...فذو دعاء عريض.

تتصل هذه الآية بالتي قبلها اتصالا وثيقـا، وتكـاد تكـون تجسـيما للصـورة التـي تفهـم منها، فهي تكشف عن نفسية الإنسان الكافر أولا، والمؤمن العاصي ثانيا.

1)فبالنسبة للكافر تفيد أنه إذا تفضل الله عليـه بنعمـه الزائـدة علـى الحاجـة، فتوسـعت أرزاقه، وكثرت أنواع الخيرات لديه، أعرض عـن الإيمـان وزاده الخيـر عتُـوًّا وكبـرا. وابتعد بنفسه عن كل مشهد يرضي الله أو يعبـر عـن الاعتـراف بـه . و إذا مسـه أقـل ضر تجده مقبلا بالدعاء طالبا كشف الضر. و بمـا أن أدعيـتهم هـي ممـا ترسـب مـن الثقافة العامة التي أصلها من عـادات سـالفة قبـل أن تسـتولي علـيهم عبـادة الأصـنام، وَصَفَ دعاءهم بالعريض أي الواسع، فإنهم إذ يدعون يـرددون جميـع مـا حفظـوه ممـا يتصل بكربهم الخاص وبغيره.

2) و بالنسبة للمـؤمنين، فـإن الإيمـان درجـات، فـبعض المـؤمنين يجعلهـم الإيمـان حاضرين مع الله في كـل لحظـة، إن غفلـوا تـذكروا فـإذا هـم مبصـرون. وبعضـهم استولت عليه الدنيا ، يجري لاهثا وراء ما يغنمـه منهـا، يقـيس تعاسـته، وسـعادته بمـا يتجمع له منها. و بذلك تجد أصـحاب هـذا المسـتوى كلمـا أقبلـت علـيهم الـدنيا زادوا تعلقا بها، وبعدا عن رياض الصالحين. و تجـدهم أيضـا إذا مسـهم أي ضـر ينزعجـون أشد الانزعاج، ويدعون الله بكل لسان وبكل حرارة ليكشـف مـا بهـم مـن ضـر. ودون هذا المستوى مراتب كثيرة يقرب بعضها مـن مرتبـة الصـالحين، ويقـرب قسـم آخـر من مرتبة المسرفين.

52ـ قل أرأيتم...وفي شقاق بعيد.

أرأيتم: أخبروني. تعالوا نَحْـتَكِمْ إلـى قـوانين القبـول والـرفض كمـا يقتضـيه النظـر العقلي. إن هذا القرآن الذي تَلَوتُـه علـيكم، لا تسـتطيعون أن تنفـوا احتمـال أن يكـون من عند الله ،وهذا الاحتمال يقتضي مـنكم أن لا تسـارعوا برفضـه، بـل تتـدبروا فيـه، وتزنوا ما فيه من حق، فإذا كان الحق فيـه واضـحا راجحـا آمنـتم بـه ، وإن وجـدتموه على العكس ، كان لكـم أن ترفضـوه . و لكـنكم وقفـتم منـه موقـف الكفـر والـرفض بدون تبين، فأنتم ضالون أشد الضـلال. عاصـون عصـيانا كبيـرا، لرفضـكم لـه قبـل البحث وقبل التأمل في مضامينه وفي نسجه.

53ـ سنريهم آياتنا....إنه بكل شيء محيط.

إن استنزالهم للنظر حسب قواعد النظر العقلـي، وفـرض الأمـر وخلافـه، لـيس نابعـا من تردد في صدق القرآن، ولكـن هـذا المـنهج يزلـزل صـدهم، ويحـدث ثغـرة فـي الحاجز الذي ضربوه على مداركهم. ثم يُجْهِزُ القـرآن علـى عنـادهم بـأن معيـار الحـق والباطل: أن الباطل تكون له صولة ثـم ينطفـئ ويتلاشـى، وأمـا الحـق فهـو كـالفجر يبدو ضوؤه خافتا ثم يمتد ويتضاعف نوره. وحسب هـذا المعيـار فـإن القـرآن يؤكـد أن صدق القرآن وما يحمله من حق سيزداد جلاء مـع الأيـام . سـيرى العـرب أولا آيـات صدقه، ويراها ثانيا بقية البشر. و كذلك الشرع الذي جئت به.

لعل أنصع آية هي انتشار الإسـلام فـي آفـاق الـدنيا. إن المعطيـات المقارنـة لانتشـار الإسلام ما كانت تدل إلا على أن الإسـلام سـيبقى فـي حـدود جزيـرة العـرب. ولكـن انتشاره السريع والواسع، وما صحب الفتوح مـن تأييـد، فـي ذلـك آيـات علـى أنـه لا يقاس بما عرفه البشر في تاريخهم الطويل، وإنما هـو علـى أعلـى درجـة مـن الحـق. وآية ثانية: أن الذين اعتنقوه أصبحوا مدافعين عنه بـأموالهم وأنفسـهم، ومـا عـرف هـذا

لأي توجيه في حياة البشر لا من المفكرين ولا من الفلاسفة. خذ لذلك مثلا الشيوعية لفتت أبصار الناس مشرقا ومغربا، ولكنها لم تعَمِّرْ إلا قليلا حتى أصبح المؤمنون بها والدعاة لها أول من قوض أركانها وهدم بنيانها، وتنكرت لمبادئها حتى الدول التي ما تزال تقْحِمُ اسم الاشتراكية في التعريف بقوميتها.

وثالثا نزل القرآن على رجل أمي في بيئة بعيدة عن ترف الحضارة والتعمق العلمي. و من عهد النبوة إلى الآن تقدم العلم التجريبي في اكتشافاته تقدما عظيما، وما وجد المؤمن بالقرآن نفسه في حرج في الجمع بين الإيمان بالقرآن، وبين ما تكتشفه المعرفة الإنسانية من أسرار الكون. بل كلما تقدم العلم وجد المؤمن النص القرآني قد صيغ صياغة معجزة يفهمه بها البشر حسب مستواهم العلمي، دون أن يقع في حيرة بين مقتضيات إيمانه وبين مكتشفات العلم، فكان التقدم العلمي التجريبي معمقا لإيمان المؤمنين وفاتحا لعقول كثير من العلماء ليعلنوا انبهارهم بذلك، ويدخلوا في دين الله عن اقتناع .

ولا تَقِلُّ أسرار الذات البشرية عن أسرار المادة ، عرف العلم تطور الجنين ،فكانت كشوفه متفقة مع ما سجله القرآن . وجدوا القرآن يدعوهم إلى التعمق في ذات الإنسان فإن فيها عجائب تهدي للإيمان قال تعالى: **(وفي أنفسكم أفلا تبصرون)**[1] إن تركيب الدماغ البشري مثلا وصلة كل جزء من أجزاء الجسم وكل حاسة به ، وتسييره لها جميعا، بطريقة في اليقظة، و بطريقة أخرى في النوم، لَيُنادي بتفرد الله بالخلق والحكمة. و كشفت المجاهر الإلكترونية للإنسان تكوين الإهاب الحاوي للدماغ، ومزايا خلايا كل جهة من الجهات، وجذع المخ وارتباط الحياة به، ونحو ذلك. وما كشف العلم إلا القليل من النظام الذي أحكمه الباري سبحانه ، فيزداد المؤمن إيمانا ويتبين أنه الحق . ويتبين بصفة أجلى وأتم حسب النواميس التي يجري عليها الخلق من الذرة إلى المجرة أن الله واحد لا شريك له ،وأنه هو الخالق للإنسان والكون، إذ النظام المسيطر الذي يتجلى كل يوم بصفة أوضح ،يحتِّم العقلُ أنه صادر من قادر عليم خبير، وسع علمه كل شيء . تعالى أن يكون له ولد أو شريك. وهو الحق الذي ينادي به القرآن ويكرر عليه الأدلة.

أولم يكف بربك...: سؤال تقريري يُلْزِمُ بتأكيد ما تضمنته الآية في مقدمتها، مضمون هذا السؤال أولم يكف للناظر في صدق القرآن وفي صدق الشريعة التي أنزلناها عليك ، أن الله هو وحده المطلع العليم بأسرار كل كائن. في كل جزئية من

---

[1] سورة الذاريات آية 21

جزئيات هذا الكون، وفي الوحدات الكبرى، وفي النواميس العامة التي جرى عليها الخلق، تلمس يد القدرة والإبداع والحكمة الإلهية فيها جميعا. لا يمكن للعقل أن يفهم أسرارها إلا إذا اعتقد أن الله هو المهيمن عليها جميعا.

54ـ ألا إنهم في مرية من لقاء...بكل شيء محيط.

افتتحت الآية بـ[ألا] كأنه يقول للسامع استيقظ حتى تخرج من البحث والسؤال لماذا تصلب المشركون في شركهم ورفضوا الدين الإسلامي؟ إن الداء الذي أفسد عقولهم، وحجب عنهم الإيمان، هو أنهم منغمسون في الشك من الوقوف بين يدي ربهم للحساب يوم القيامة. تذكرهم بذلك وتدعوهم إليه، فتزلزل تصميمهم على الإنكار، ثم يعودون لتصور مقتضيات ما يترتب على الاعتراف بيوم القيامة من رفض الشرك، والتزام التشريع الذي يضبط أفعالهم، فيحجمون. فهم حسب النزاع الذي يجري في بواطنهم هم في شك، هم في ريبهم يترددون.

ألا – تنبيه ثان يقرر المضمون التالي. إن علم الله محيط بكل شيء لا يخفى عنه ما يعلنون ولا ما يبطنون. ما يصرحون به من الكفر، وما يجري في عقولهم . وعلمه سبحانه هو علم يرتب عليه آثاره يوم القيامة من الحساب والجزاء .

22 ذو القعدة 1434–2013/9/28

سورة الشورى

جرى تسميتها بهذا الاسم في كثير من المصاحف وكتب التفسير أخذا من الآية38، الآية الوحيدة في القرآن التي ذكر فيها لفظ الشورى. كما سميت عند كثير من السلف بسورة " **حم عسق**" أخذا من فاتحتها .وبهذا الاسم الأخير ترجمها البخاري والترمذي. و هي سورة مكية، واختلف في بعض من آياتها مما سننبه عليه في موضعه. رتبتها في المصحف الثانية والأربعون. وحسب ترتيب النزول التاسعة والستون نزلت تالية لسورة الكهف وقبل سورة إبراهيم. وهي ثالثة السور المفتتحة بـ" **حم**"

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرۡنَ مِن فَوۡقِهِنَّۚ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيۡهِمۡ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٖ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

العلي: السامي في كماله سموا لا يقرب منه أحد .

يتفطرن : يتصدعن ويتشققن.

أم القرى : مكة .

يوم الجمع :يوم القيامة .

لا ريب فيه : لا يتصور فيه شك.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت السورة بالحروف المقطعة كما افتتحت سورة البقرة .إنه على النحو الذي أوحينا إليك يواصل ربك الوحي إليك كما أوحى إلى الرسل الذين جاؤوا من قبلك. إن الذي تولى ذلك هو الله المتصف بالعزة فهو يتم الفضل على من اختاره ولا يتصور أن يعترض أحد على اختياره إذ هو العزيز، كما أنه حكيم فالرسل الذين اختارهم لتحمل الرسالة هم أشرف البشرية وأولاهم بتحملها لأنه حكيم.

له وحده الملك الحقيقي لكل ما تحويه السماوات والأرض، لا يشاركه أحد في ملكه. وهو الذي سما في عظمته وكماله، وهو العظيم الذي لا يثقله شيء. يكاد يبلغ أثر صلف المشركين ووقاحتهم وجراءتهم على الله أن تتشقق السماوات من فوقهن، وأن يفنى العالم كله. وأخبر الله أن ملائكته مستغرقون في التسبيح والتمجيد لذاته العلية لأنهم عرفوا ربهم فكان تمجيده والثناء عليه قمة ما يسعدهم. ومع ذلك يستغفرون لمن في الأرض حتى لا يعاجلهم بعقوبته، انطلقوا في ذلك لمعرفتهم أن من صفات الله الثابتة أنه هو الغفار للذنوب، الرحيم بعباده فلا يعاجلهم بالعقوبة.

في مقابل الملائكة المستغرقين في التسبيح والحمد والاستغفار، يشنع القرآن بالذين أنكروا ما الله أهل له من الوحدانية والتصرف ، واستندوا إلى أصنام يستنصرون بها تصوروها بأوهامهم قادرة على عونهم ، فاخترعوا لها طقوسا وعظموها، لا تحزن يا محمد لضلالاتهم، فالله يرقبهم ويحصي عليهم ما يجري في بواطنهم، وما يفعلونه من سوء ثم يحاسبهم. وأنت مهمتك إبلاغ ما أوحيت به إليك، وقد فعلت . وليست مهمتك أن تجبرهم على الإيمان.

وعلى ذلك النحو من الإيحاء اخترناك فأوحينا إليك قرآنا بلسان عربي، لتَعِيَهُ ثم تنذر به سكان مكة، والقبائل التي حولها، وهم المعنيون أولا بالدعوة حتى ينقذوا أنفسهم من العذاب والخزي. ولتنذرهم أيضا أهوال يوم الجمع يوم الحساب الذي لا ريب ولا شك في حصوله، وفيه يفترق الناس فرقتين: فرقة ناجية في الجنة، وفرقة هالكة في النار الموقدة.

هذه هي إرادة الله، أن يكون الإنسان مكلفا محاسبا على ما قدم، ولوشاء الله أن يجعل الإنسان مقصورا على الحق والخير كما خلق الملائكة لفعل. ولكن إرادته تعلقت بأن يجعل الناس على فرقتين: فرقة تهتدي إلى الحق بتفتحها على الوحي وعدم رفضه مقدما فأدخلها في رحمته، يسعدون في الدنيا ويفوزون يوم القيامة، وفرقة ظالمة نفسها بالكفر وباتباع الشهوات، والإعراض عن منهج الله فهي إلى العذاب والمهانة، لا تجد وليا يحتضنها ويدافع عنها ،ولا تجد نصيرا ينصرها .

بيان المعنى العام :

1←2: حـــم عـســق.

افتتحت السورة بخمسة أحرف تتلى مقطعـــة : حـــا، مـــيم ، عـــين ، ســـين، قـــاف. يقـــال فيها ما قيل في الحروف المقطعة في بـــاقي الســـور ابتـــداء مـــن ســـورة البقـــرة. و هـــذه الســـورة هـــي الســـورة الثالثـــة مـــن الســـور المفتتحـــة ب[حـــم]. واختصـــت باتبـــاع الحرفين[حم]"بحروف أخرى "عسق " بينما "حم" في بـــاقي الســـور الســـبع لا يتصـــل بهـــا أي حرف.

3.كذلك يوحي إليك ...العزيز الحكيم.

على هذا النحو مـــن الـــوحي فـــي صـــورته ومضـــامينه يـــوحي إليـــك، باعتبـــار أنـــه اصطفاك لتحمل هدايته وشرعه وإبلاغهمـــا للعـــالمين، كمـــا اصـــطفى مـــن ســـبقك مـــن الرسل الذين جاؤوا قبلك. من الذي يوحي ؛ الله العلم الفـــرد الـــذي لا يشـــاركه أحـــد فـــي ذاته، ولا في اسمه هذا [الله]ثم أتبع اسم الله بمـــا يوضـــح مـــا اخـــتص بـــه، أنـــه هـــو العزيز الذي لا يعترض على ما يفعل، ولا يتصـــور أن يقـــوم معـــوق يمنعـــه مـــن تنفيـــذ ما قدر وأراد. و مع عزته وأنه لا يســـأل عمـــا يفعـــل، فـــإن متصـــف بالحكمـــة البالغـــة، فما قدره ونفذه صادر على صورة بلغـــت غايـــة الحكمـــة. فأفـــادت الآيـــة أن الله اختـــار الرسل من بين البشر، فهـــم فـــي أســـمى مراتـــب البشـــرية، وأنـــه لا يســـتطيع أحـــد أن يعترض على ذلكم الاختيار، وأنه اختيار حكيم لا يمكن أن يوجد اختيار أفضل منه.

4.له ملك السماوات...العلي العظيم.

تفرد الله بملك السماوات والأرض ومـــا حوتـــه. وهـــذا الخلـــق العجيـــب المحكـــم يقـــوم شاهدا على عزته وحكمته، فتكون هذه الآية دليلا على ما جـــاء فـــي الآيـــة الســـابقة. ثـــم أضافت دلالة أخرى، وهو أنه سبحانه هـــو العلـــي الســـامي فـــي كمالاتـــه، يشـــهد لـــذلك كمال الخلق في هذا الكون، وقيامه على كل حدث يحـــدث فيـــه، وفـــي ذلـــك دليـــل آخـــر على عظمته ، فهل يقدر على خلق الكون وتسييره غير العظيم الكامل في عظمته ؟

5. يكاد السماوات يتفطرن...الغفور الرحيم.

يمكن فَهْمُ هذه الآية على طرق:

1: الطريقة الأولى: أنها مكملـــة لمـــا فـــي جـــاء فـــي الآيـــة الســـابقة مـــن وصـــف الله بالعظمة، فالسماوات على عظم مـــا تحويـــه مـــن الكواكـــب و المجـــرات التـــي لا يعلـــم حقيقتها على وجه الدقة إلا مبدعها سبحانه ، والتـــي تهـــول أبعادهـــا الحاســـبين . ملكـــوت السماوات يكاد ينشق من استحضـــاره لعظمـــة الله. يكـــاد يبـــدأ الانشـــقاق مـــن الأعـــالي، وانشقاق الأسافل أيسر وأهون . فهو العلي العظيم .

2-الطريقة الثانية: أن هذه الآية متفقة مع ما جاء في سورة مريم:(**وقالوا اتخذ الرحمن ولدا(88) لقد جئتم شيئا إدا(89) يكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا(90)**) أي إن جراءة المشركين على الله ،و حديثهم عن جلاله بما هو من أقبح ما يكون من الوقاحة ، يكاد السماوات على عظمها تتشقق من ذلك، كما تحدثت عنه سورة مريم من نسبة الولد لله .

الطريقة الثالثة :يكاد السماوات يتشققن بكثرة ما يعمرهن من الملائكة وتصاريف الأقدار .وهو محمل بعيد في نظري، لأن الملائكة وتصاريف القدر ليست ثقلا حتى يكاد السماوات يتشققن منه.

والملائكة يسبحون ... تفصّل شيئا مما يدل عليه قوله في الآية السابقة: **له ما في السماوات**. و مِنْ خلق السماوات الملائكة، فعرف هذا المقطع بهم. هم يسبحون الله وينزهونه حامدين لجلاله، معترفين بما أفاضه عليهم من ألطاف وقمتها تيسيرهم لتسبيحه وتحميده. يمثل هذه الوصف قمة حب الله والتعلق به ، فهم يجدون كل سعادتهم في تمجيده وذكره بما يليق به ، وصياغته تفيد استمرار التسبيح والحمد، كما جاء في الآية الأخرى:(**يسبحون الليل والنهار لا يفترون**)[1] ومع تسبيحهم وتمجيدهم لله ،هداهم ربهم إلى قرن التسبيح والتمجيد بالاستغفار للمؤمنين من أهل الأرض، وذلك لما بينهم من وثيق الصلة بصفاء العقيدة وتقديس الله جل جلاله. وقد يمكن فهم الآية على أنه لما كانت جراءة المشركين على الله تكاد تنشق منها السماوات، يتوجه الملائكة بالاستغفار لمن في الأرض حتى لا ينفجر الكون ويأخذ العذاب جميع سكان الأرض.

ونبه في خاتمة الآية أن الله يتقبل استغفارهم لأن المغفرة من صفاته الخاصة به ، ولأنه هو الرحيم، لا يعاجل بالعقوبة ولكن يمهل العصاة ليتوبوا، أو أن يجعل من ذرياتهم من يكون ناشرا للدين ،عاملا به.

6ـ والذين اتخذوا من دونه...بوكيل .

في الطرف الأعلى الملائكة يسبحون ويحمدون، ويستغفرون .ويقابلهم في الطرف الأسفل الذين استندوا إلى أصنام، توهموا فيها قدرات، ثم وصل به الوهم إلى اتخاذها آلهة يرتبطون بها. كن واثقا من أن الله يرقبهم ولا يذهب عن علمه شيء من انحرافاتهم، ما حل في ضمائرهم، وما يقومون به من طقوس. ولا يأخذك الحزن والأسى من ضلالاتهم، وسوء

---

[1] سورة الأنبياء آية 20

فعالهم، فإنه ما عليك إلا البلاغ، وما أنت بوكيل عليهم تلزمهم بالهدى الذي أوحيناه إليك وتجبرهم عليه.

7ـوكذلك أوحينا...و فريق في السعير.

وعلى ذلك النحو من الـوحي، أوحينـا إليـك قرآنـا، تقـرأه، ويقـرأه النـاس، وتتجـدد قراءته فتتجدد بها هداية القلوب، وتحصل بها الطمأنينـة، وتـربط المـؤمن التـالي بقيمـه وبربه . سمي قرآنا وصيغ من القراءة مختتمـة بـالألف والنـون الدالـة علـى المبالغـة. وأردنا أن يكـون بلسـان عربـي. ذلـك أن جميـع اللغـات تتطـور فينسـخ حاضـرها ماضيها، ولا تمر حقبة، تطول أو تقصر، حتى تكـون اللغـة الأصـلية مهجـورة وغيـر مفهومة. وتميزت العربية بجمعها بين الحيـاة فـلا تعجـز عـن التعبيـر عـن مكتسـبات الحضارة، وباحتفاظها بأصولها فالجيل اللاحق مهما بعد مـا بـين أصـوله وبـين الـزمن الذي هو فيه، يفهم اللغة العربية كما فهمها أسلافه.

لتنذر أم القرى...قرآن أوحيناه إليـك لتقـوم بإنـذار أهـل مكـة ومـن حولهـا. ومـع الإنذار البشارة فالقرآن يجمع بـين الإنـذار مـن العـذاب والبشـارة بـالخير والسـعادة، واقتصر على الإنذار لأنه الأهم حسب وضعية المخـاطبين لمـَّا كـان أكثـرهم مشـركين. ولا تقتصر الدعوة على أهل مكـة ومـا حولهـا، كخزاعـة وكنانـة وقـريش الظـواهر الساكنون خارج مكة ، بل هي دعـوة إنسـانية عامـة قـال تعـالى: (**ومـا أرسـلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا**)[1] وتنـذرهم أيضـا يـوم القيامـة، اليـوم الـذي تجتمـع فيـه الخلائق للحساب، هو يوم آت لا شك في قدومه وحضور الخلائـق فيـه . مـا يقـع فـي يوم الجمع هذا ؟ تظهر النتـائج ، ففريـق ينعمـون فـي دار الكرامـة الجنـة ، وفريـق يعذبون في النار المستعرة شديدة التوقد.

8ـولو شاء الله لجعلهم...من ولي ولا نصير.

تصريح بإرادة الله التي بنى عليها أمر الإنسان فـي الأرض. التـي بينـت يـوم أنـزل الله آدم إلى الأرض كما تقدم لنا في سورة البقرة : **قلنا اهبطـوا منهـا جميعـا فإمـا يـأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هـم يحزنـون38 والـذي كفـروا وكـذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيهـا خالـدون 39)** هـذه مشـيئته ، وهـذا قـدره، ولـو شاء أن يجعلهم قابلين للهدى عاجزين عن الإثم والكفـر لفعـل، ولكـن إرادتـه أن يكـون الإنسان مكلفا، رَزَقَه العقل الذي يميـز بـه بـين الحـق والباطـل، وبعـث إليـه رسـله يساعدونه ويبصرونه ليهتـدي إلـى الحـق. لـم تتعلـق إرادة الله بـأن يقصـرهم علـى

[1] سورة سبأ آية 28

الهدى، ولكنه جعلهم مختارين مكلفين .وبناء على ذلك يدخل الذين استجابوا لربهم، وأعملوا عقولهم، غير مصممين على الرفض من أول الأمر، ومكنهم الله من الطاقه فآمنوا وصلحت أعمالهم ، يُدْخِلُهم في رحمته الواسعة استقامة في الدنيا، وحسن ثواب الآخرة. وفي المقابل فإن الذين ظلموا أنفسهم بالشرك، ورفضهم الهدى، وإيثارهم لشهواتهم يحرمهم من رحمته ، ولا يجدون عند حسابهم وليا يدافع عنهم ، ولا نصيرا ينصرهم يخفف عنهم شيئا من الخزي والعذاب.

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡوَلِيُّ وَهُوَ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ (٩) وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّي عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ (١٠) فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَمِنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ أَزۡوَٰجٗاۖ يَذۡرَؤُكُمۡ فِيهِۚ لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ (١١) لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ (١٢) ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ (١٣)

بيان معاني الألفاظ :

أولياء : ولاية المعبودية .

توكلي: كافيني منكم .

أنيب: أرجع إليه وحده و لا أعتمد على أحد سواه.

فاطر: مبدع على غير مثال.

أزواجا: جمع زوج وهو ما يكون به الواحد اثنين، فالرجل زوج المرأة والمرأة زوج الرجل.

يذرؤكم : يبثكم ،ويكثركم .

مقاليد : خيرات.

يبسط : يوسع.

يقدر : يضيق.

شرع : أوضح وبين.

أقيموا: احرصوا على العمل به.

لا تتفرقوا: لا تختلفوا.

كبر: شق، وثقل.

الاجتباء: التقريب.

بيان المعنى الإجمالي

بعد أن حقق أن المشركين لا يجدون وليا ولا نصيرا ، كشف عن السبب، هو أنهم اتخذوا وَلِـدُوا من خيالاتهم أنصارا ينصرونهم من دون الله فعبدوهم . و هم ضالون الضلالة الكاملة، لأنه لا ولي ولا نصير إلا الله، إن الله هو وحده الذي يتصرف فيحيي الموتى ليبعثهم إلى الحساب يوم القيامة، وهو القادر الذي لا تحد قدرته. فلا يكون وليا بحق إلا الله، وما عداه من الأولياء زيف وضلال.

اعلموا أن كل ما تختلفون فيه، إذا أردتم أن تعرفوا ما يزيل الخلاف ويظهر الصواب، فعودوا إلى الله، إن رسوله ووحيه هو الفيصل في كل خلاف. ذلك العليم بحقائق الأشياء ولا يغيب عنه شيء هو الله، وهو ربي الذي حباني بألطافه وعونه وهدايته، فأنا متوكل عليه في كل لحظة من حياتي، وإني أعود إليه دائما ليهديني سواء السبيل.

هو الذي خلق فابدع السماوات والأرض. من دلائل ألوهيته أنه جعل لكم من نوعكم أزواجا ،خلق الذكر والأنثى من نوع واحد ليأنس كل منهما بالآخر وليتعاونا على تحمل رسالة الحياة . وكذلك خلق من الأنعام أزواجا ذكورا و إناثا. وقدَّر أن تتكاثر ذرياتكم وتتوالى أجيالكم، وكذلك قدر أن تتكاثر الأنعام ويتوالى نسلها. اعلموا أن الله واحد في ذاته وفي صفاته لا يوجد أي شيء يماثله، وكل ما تتصوره فالله مخالف لما تصورته.

هو المتفرد بملك ما تحويه السماوات والأرض من الخيرات والأرزاق، يتحكم فيها كما يشاء، يوسع الرزق على من يشاء التوسعة عليه، ويضيقه على من يشاء تضييقه عليه. وتصرفه سبحانه يجري وِفْق علمه المحيط بكل شيء فلا مصادفة.

اعلموا أن الدين الذي أنزلته إليكم يتفق في أصوله ومبادئه مع ما وصى الله به نوحا وكذلك ما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام. فالأنبياء صدروا عن الحق، والحق واحد لا يختلف. أمَرَتْ كل المرسل إليهم من الأمم أن يستجيبوا استجابة كاملة لما يأمرهم به الدين من توحيد الله، و الإيمان بيوم القيامة وكل ما عرفهم به رسلهم من الغيب، وأن يلتزموا في سلوكهم بالقيم الخلقية التي أمِرُوا بها. ونهيتهم عن الاختلاف في الدين، فالدين جاء ليوحد البشرية لا ليفرقها، والاختلاف يتبع الهوى الذي نهوا عن اتباعه .

إن المشركين لتصلبهم في الكفر واستكبارهم شـق علـيهم اتبـاع مـا تـدعوهم إليـه فـي العقيدة والعلاقات الاجتماعية.

ورفضوا اتبـاع الرسـول المختـار المصـطفى مـن الله، توهَّمـوا أن السـمو الإنسـاني يقترن وجوبا بوفرة المال، وكثرة الأولاد، وقوة العصـبية. وتبعـا لهـذا التصـور السـاذج رفضوا الرسول لكونه لا يتوفر فيه ذلـك. هـذا وهـم خـاطئ فـإن الله المطلـع علـى حقائق الأشياء، يختار من بين البشر من يشاء من عبـاده ليتحمـل الـوحي والتبليـغ، لمـا للرسول المختار من مزايا نفسية وخلقية يسـمو بهـا للمقـام الرفيـع، الـذي هـو تقبـل وحي الله الثقيل. والذين يتبعونه يَفْضُلُون بقية الناس لأنهـم أنـابوا إلـى الله وتعلقـوا بـه، وكلما مالوا عن طريقه أسرعوا بالعودة.

بيان المعنى العام :

9ـأم اتخذوا من دونه...على كل شيء قدير.

أم بمعنى بل، اختتمت الآية السابقة بـأن الـذين ظلمـوا أنفسـهم بالشـرك لا ولـي لهـم. فحولت هذه الآية مجرى الكلام إلى فضـح وضـعهم بـأنهم لمـا فقـدوا ولايـة الله لهـم، اتخذوا، بسوء تدبيرهم وفساد تفكيرهم، أوليـاء معبـودات صـنعوها بخيـالهم وعبـدوها. إنها وإن ادعوا أنها أولياء تفيدهم وتـدافع عـنهم، ولكنهـا أوليـاء زائفـة لا حقيقـة لهـا ولا تقف إلى جانب عابـديها وقفـة التأييـد لعجزهـا. فبـان عقليـا: أن الله وحـده هـو الناصر والـولي لا ناصـر غيـره ولا ولـي سـواه. وأنـه هـو الـذي يحيـي المـوتى فيجازيهم، وأصنامهم عاجزة لا تتصرف بالإحياء، فأنى لهـا أن تكـون لهـا نصـرة فـي ذلك اليوم الذي تفرد الله فيه بالإحيـاء، ولا يسـتطيعون أن ينسـبوا لأصـنامهم هـذا. والله هو الولي لأنه الوحيد الذي يتصرف في الكون كله بقدرته التي لا تحدها حدود.

10ـوما اختلفتم فيه من شيء...وإليه أنيب.

تتابع القواعد التي تعطي للمؤمن منهجا يرضـاه الله فـي الحيـاة . بينـت الآيـة السـابقة أن الله هو الولي لا ولي غيره، ولا يعتمـد المـؤمن فـي حياتـه إلا عليـه. وتفيـد هـذه الآية قاعدة أخرى، هي قاعدة المرجع الـذي يعـود إليـه المختلفـون، فيرتفـع بـالرجوع إليه الخلاف، لأن الحقيقة الكاملة عنده. والخلاف عام، ويمكن أن يقع:

أ : بين المؤمنين وغيرهم في شـؤون العقيـدة ،خاصـة واليهـود يعتمـدون علـى مـا عندهم في التوراة من التصور للذات الإلهيـة ولصـفاته، ومـن شـؤون الغيـب. وبعـض ما في التوراة لا يقبله المسلمون باعتبار مـا تكـرر فـي الـنص التـوراتي البـاقي بـين أيديهم من تجسيم، ومن تحديد. فكلمـا وقـع خـلاف بيـنكم وبـين غيـركم مـن جميـع الطوائف فالحكم الصادق هو حكم الله الذي بينه على لسان رسوله في كتابه.

ب: بين المؤمنين أنفسهم في موضوعات عدة، وكلما وقع خلاف بينكم عودوا إلى حكم الله فيه. يُعَلِّمُ حكم الله برفع الأمر إلى رسوله ﷺ . قال تعالى: (**فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما)**[1]

ذلكم – المشار إليه هو الله العظيم الذي بيده وحده الأمر، العليم بالحقائق على ما هي عليه، هو ربي الذي تولاني بتأييده وفضله، توكلت عليه وحده في جميع أموري، فهداني سواء السبيل. ولا أعود في المستقبل في كل مهمة إلا إليه، إني لا أجد طلبي إلا عنده. وبهذا تكون الصورة المثالية لمن لكم فيه أسوة حسنة محمد رسول الله ﷺ، دليلا على ما صُدِّرَتْ به الآية من العودة إلى الله عند الاختلاف.

11ـ فاطر السماوات...وهو السميع البصير.

أبدع السماوات والأرض على غير مثال فتكونتا، مما يؤكد قوله: **(وهو على كل شيء قدير)** الآية9– خلق لكم إتماما للنعمة أزواجا . لنلاحظ هذا التقدير العجيب ولا نغفل عنه . خلق للرجل امرأة، وللمرأة رجلا ليتكاملا ويتآنسا، فالأزواج جمع زوج، ويطلق في العربية على ما يصير به الفرد اثنين، وكل واحد منهما زوج للآخر. فتخصيص لفظ الزوج برجل المرأة، وتأنيث المرأة زوجة، غير جار على فصيح اللغة العربية. و جَعَلَ الأنثى من جنس الذكر حتى يكون الاندماج بينهما طبيعيا. فقوله من أنفسكم أي من نوعكم. وخلق لكم أيضا من الأنعام أزواجا ذكورا وإناثا.

يذرؤكم – يبثكم بصفة متواصلة ويكثركم في هذا الجعل المرتبط بالأرض، فتتوالى أجيالكم، ويتوالى نسل الأنعام . وهو من تمام النعمة والألطاف التي قدرها سبحانه لكم .

ليس كمثله شيء –نفى النص أن يكون لله مثل ولا شبيه بصفة مؤكدة على أبلغ وجه. فالكاف الداخلة على مثل هي بمعنى مثل، وهي داخلة في حيز النفي. وهذه الآية قاطعة في نفي كل تصور يثيره الخيال ليقرب الذات الإلهية من تصورات الناس . ذلك أن الناس قد ضلوا ضلالا كبيرا في تنزيه الله، فالعرب قد جعلوا له شركاء في الألوهية، واليونان نحتوا صورا خيالية لله، واليهود فهموا التوراة وأضافوا من خيالاتهم ما يتألف منه صوارة لله. والإسلام ينزه الله عن كل شبيه، وعن كل تصور يعلق بخيال الإنسان بأتم بيان. والمبالغة في تنزيه الله عن كل

---

[1] سورة النساء آية 65

تصور، أو أن يكون له مساو في الألوهية، أو في أي صفة من صفاته على النحو الكامل الذي اتصف به، هذا التصور لا يوجب تعطيلا للذات الإلهية عن الفعل والتأثير والتقدير، يوضحه ما ختمت الآية بأنه السميع الذي لا يغيب عن علمه أي حركة ولا حرف ولا كلمة مما يجري في الكون، وكذلك هو بصير يرى الموجودات وتقلباتها وتحولاتها لا يغيب عنه شيء مهما دق. وبهذا فوصفه سبحانه بالسميع البصير هو سمع وبصر موجبان للعلم الكامل الدقيق دون حاسة ولا مواجهة ولا قرب ولا بعد.

12ـ له مقاليد السماوات...بكل شيء عليم.

هو المتفرد بملك خزائن السماوات و الأرض وما فيها، مفاتيحها بيده وحده. يدلك لذلك أنه يوسع على من يشاء بما قدره من رزقه .وكل ما يطلب الإنسان التحصيل عليه هو من رزق الله. وهو سبحانه الذي يضيق على آخرين فلا يصل إليهم من رزقه إلا القليل . ولا تسأل لم وسع على هذا وضيق على الآخر ؟ فإن كل تصرف في الكون تابع لعلمه الواسع الذي ينزل كل شيء منزلته.

13ـشرع لكم من الدين...ويهدي إليه من ينيب.

شرع الله لكم، فأوضح المبادئ والقواعد، وسن لكم الأحكام التي كلفكم بالالتزام بها في حياتكم العقدية والعملية. إن شرعه سبحانه هذا هو مثل ما وصى به نوحا ،والمماثلة في أصل العناية بهداية البشر إلى الحق. بتصفية عقيدتهم من لوث الشرك. وفي القواعد العامة التي هي جماع الخير للبشرية، وانخرام واحد منها يعطل البشر، ويقعد بهم عن النجاح في خلافتهم في الأرض. ثم إن المنهج التفصيلي تطور مع رسل الله إلى أن بلغ غايته، وتمت الصورة المرضية التي تهيأ البشر لقبولها، والسير عليها ،في الدين الإسلامي .

واقتصرت الآية على نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، لجوانب رعاها القرآن، وفي الكشف عنها ما يزيد النص القرآني عمقا، ويجلي الإعجاز. ففي البداية جمع بين طرفي الرسالة لأهل الأرض :ما وصى به نوحا أول رسالة من الله للبشرية، والذي أوحينا إليك بها ختمت الرسالات. وعطف عليهما إبراهيم، وهو أبو الرسالات الموحدة الباقية. وحافظ العرب على شيء من دينه كإقامة الحج والختان....وعطف عليه موسى بما أن شريعته أوسع الشرائع المذكورة في عهد التنزيل، وعيسى آخر رسول بشر بمحمد. فتكون هذه اللطائف تسعد الذوق ويجد فيها متعة. و قد تولى الشيخ محمد الطاهر ابن عشور رحمه الله إبراز نكت أخرى في الآية على هذه الشاكلة .

أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه. هي وصية تمثل الأساس في الهداية الربانية على لسان الرسل، أمر كل واحد أمته أن يقيموا الدين الذي جاؤوهم به . وما جاؤوهم به، منه ما هو متفق مع بقية الأديان السماوية، خاصة ما يتعلق بالعقيدة، وبالبعث، وبالتقوى. و منه تشريعات تناسب الطور الذي عليه الأمة المرسل إليها في ذلك الوقت، كما قال عيسى ﷺ: **(ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم)**[1] فكل رسول أكد على أمته أن يحرصوا على العمل بما أوحي له. وكما أمرهم بالحرص على القيام بكل ما شرعه ،اعتنى بنهيهم عن التفرق في الدين، بالتأويلات البعيدة ، وتطويع الشريعة لأغراض الحكام المستبدين، واللجاج في الخصومة في الأمور الدينية لجاجا مفضيا إلى التنازع .

كبر على المشركين ... كانت فاتحة الآية منسجمة مع الفطرة و مستجيبة للمنهج العقلي. فلماذا لم يسارع المشركون إلى الإيمان ؟ تجهم المشركون ،وثقل عليهم أن يستجيبوا لما تدعوهم إليه من التوحيد، ونبذ عبادة الأصنام، والتجمل بزكي الأخلاق، بالرغم من أن العقل ينادي بذلك. استعظموا أن يختار الله إنسانا ولا يبعث ملكا، وأن يختار لرسالته من لم يكن من أصحاب المال الوفير، أو العصبية الغالبة. وأن لا يمكن الرسول من كتاب ينزله عليه مرة واحدة ، ومن مضمون رسالته التي تدعوهم لترك الأصنام وعبادة الله الواحد الأحد ،وتؤكد لهم أنهم مبعوثون يوم القيامة ومحاسبون. فكان ما ذكر هو جماع ما اعترضوا به ولم يستطيعوا أن يهضموه.

الله يجتبي ... رد عليهم استبعادهم لبعث محمد، وإنكارهم تخيره واصطفاءه على من هم في نظرهم أولى بالرسالة والزعامة. فكان الرد أن الاصطفاء والاختيار والتقريب من الله لا يخضع لقيمكم، ولكن الله يختار من البشر من هو أقدر على تحمل الوحي وإبلاغه، وقد اختار محمدا لأنه أولى الناس بهذه المهمة. ثم إن الله يهدي إلى القرب منه والتحصيل على ثوابه، من ينيب إليه تائبا واتصاله به على أتم ما يكون قوة ووضوحا.

وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى لَّقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُ مُرِيبٖ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ

---

[1] سورة آل عمران آية 50

بِمَا أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا
وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾
وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ
وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

استقم : التزم المنهج الذي أمرت به ولا تنحرف عنه.

لا تتبع أهواءهم : لا تجارهم في أهوائهم.

داحضة :باطلة زائلة.

بيان المعنى الإجمالي

تفرق أتباع الديانات السابقة عكس ما أمروا به من وحدة الكلمة. و العجب أنهم ما تفرقوا إلا من بعد ما بذل رسلهم جهودا مضنية، حققوا لهم بها أن التفرق مضر بهم منهي عنه. فعلوا ذلك متجاوزين للحق، يعمل كل فريق على إخضاع الفريق الآخر لسيادته. إنهم بتجاوزهم هذا تأهلوا لأن يحل بهم العذاب، ولكن الله سبق في علمه وتقديره أن لا يعاجل بالعقوبة الخارجين عن حدوده. وإن أخلافهم الذين كانوا ورثة للكتاب الإنجيل والتوراة أضافوا إلى تفرقهم في أصل ديانتهم أن اختلفوا في أمر رسول الله ﷺ،وادعوا أنهم يشكون في كونه الرسول المبشر به شكا موجبا للريب في صدقه .

إنه تبعا لما تقرر في الآيات السابقة، عليك أن تواصل الدعوة إلى الإسلام، وكن في حياتك مستقيما ممتثلا لما جئت به. و لا تتأثر بما يدعونك إليه من أهوائهم التي لا سند لها من عقل ولا من شرع. وأعلمهم بالأصول الآتية وقل لهم :

1:إني معتقد أن التوراة التي أنزلت على موسى والإنجيل المنزل على عيسى كتب صادقة.

2: إني مأمور بأن أجري العدل فيكم، فلا أنحاز لمن يشايعني، ولا أظلم أحدا لأنه أعلن عن عدائي.

3: إن الله الواحد الأحد هو ربي وربكم يختلف البشر في أنسابهم وأعراقهم وألوانهم ولكن الله هو رب الجميع. فلماذا نتعادى ونحن مربون لرب واحد.

4:المسؤولية فردية ، فكل فرد مسؤول عما صنع ، ولا يتحمل وزرغيره.

5: وإذ قامت هذه المسلمات فلم يبق بيننا وبينكم حجاج ، ولا جدال. وإن أبيتم إلا الكفر فإن الله سيجمعنا يوم القيامة ليحكم بيننا.

تواصل بُغْضُ المشركين للإسلام، وزادهم انتشاره تغيظا. وأخذوا يموهون على الدهماء ليصرفوهم عنه. ويبسطون حججا بعيدة عن المعقول. إن حججهم لا تقوم على أساس يفضح الله ما فيها من زيف ومناقضة للحق، واستحقوا أن يبعدوا من رحمة الله شأن المغضوب عليه. و من حرم الرحمة يلقى العذاب شديدا.

بيان المعنى العام :

14ـوما تفرقوا ...لفي شك منه مريب.

أمر الله جميع الأمم المرسل إليهم بواسطة رسلهم أن يتوحدوا ولا يختلفوا، ونهاهم عن الاختلاف، وبين لهم أن الاختلاف يؤدي إلى التفرق والعداء ،كما دلت عليه الآية السابقة. و يقدر في بداية هذه الآية أنهم تفرقوا.

والعجب أنهم تفرقوا وتعادوا من بعد ما قرر لهم الرسل سوء عاقبة التفرق ومفاسده، تقريرا واضحا حصل به العلم. و سبب ذلك ليس البحث عن الحق ولكن لأن كل فريق يحاول أن يتجاوز حقوقه ويظلم الفريق الآخر ليطوعه لإرادته.

إن تنكرهم لما حصل لهم من العلم من النهي عن التفرق في الدين، أمر منكر قبيح يؤهلهم لتحل بهم العقوبة العاجلة، ولكن سبق في علم الله أنه لا يعاجلهم بالعقوبة ، ويمهلهم إما إلى أجل محدد في الدنيا، وقد عذب الله أقواما بسبب اختلافهم وتفرقهم، وإما إلى يوم القيامة ليلقوا ما قدر لهم من عذاب. والتأخير لهذا الأجل أو ذاك تابع للحكمة التي بها يصرف سبحانه شؤون العالمين .

وإن الذين أورثوا... تحدثت الآية في صدرها عن اختلاف أتباع الرسل بعد أن نهاهم رسلهم عن التفرق. وواصلت هذه الآية موقف أتباع الرسل وتفرقهم من محمد عليه الصلاة و السلام. فاليهود والنصارى الذين تلقوا الدعوة إلى الإسلام، رغم أنهم ورثوا الكتاب الذي يدّعون أنه مستمسكون به وهو ينهاهم عن التفرق، كان موقفهم من الإسلام موقف الفرقة. بعضهم وجد ما في القرآن وما في كتبهم يصدر من مشكاة واحدة، وأن محمدا هو الرسول المبشر به، تنطبق عليه الأوصاف المعرفة به ،فآمنوا وحسن إيمانهم، وفريق آخر حكّموا شهواتهم ومصالحهم العاجلة من الرئاسة والمال فتذرعوا بالشك لرفض الإسلام.

و تعمّقوا في الشك، إلى أن أوقعهم شكهم في اتهامهم رسول الله بأنه ليس رسولا، دون أن يكون لهم سند.

15ـ فلذلك فادع...وإليه المصير .

ترتبط هذه الآية بالآيات السابقة . يقول الله لرسوله لأجل ما فصلته لك من إقامة الدين ومواقف المشركين وأهل الكتاب من الإسلام ومن التعلق بالتفرق، وتمكن

الشبهات من عقولهم. لكن ذلـك واصـل الـدعوة إلـى الله. وهـذه قاعـدة مـن قواعـد النجاح؛ فكل داعية إلى الحـق، إذا واجـه تصـلبا مـن المنحـرفين، عليـه أن يواصـل الدعوة ولا يتوقف، لشراسة المخالفين ومـا يظهـر علـيهم مـن تصـميم. واقـرن بـين الدعوة باللسان، وبيان الحق الواصل لـك عبـر الـوحي، اقـرن ذلـك بالاسـتقامة بـأن تكون المثل الذي يحتذى في الطهارة والنقاء ووضـوح السـلوك، حسـب مـا أمـرت بـه لتكن حياتك وعلاقاتك صورة لما تدعو إليه. وإيّاك أن تلـين فـي الحـق، أو أن تتبـع مـا يدعونك إليه من الانحرافـات فـي العقيـدة أو السـلوك، تلـك الانحرافـات النابعـة مـن الهوى وما تزينه الشهوة الهابطة.

ليكن تصريحك بما يأتي واضحا نافذا حتى يرتفع كل غبش .

1)تحقق إيماني بكل الكتب التي أنزلها الله، فأنـا معتـرف بصـدقها جميعـا علـى الوجـه الذي أنزلت عليه. إنه سبحانه أوحى لموسـى التـوراة ولعيسـى الإنجيـل ،وهمـا كتابـان أنزلهما الله لهداية المخاطبين بهما .

2)وأمرني ربي أن أقيم العدل بيـنكم ، فعـداوتكم لـي لا تـؤثر فـيَّ بمـا يـدفعني إلـى الجور في معاملتكم .

3)وأمرت بأن أصرح لكـم: إن عقيـدتي هـي أن الله الواحـد هـو ربنـا، وهـو ربكـم. فدعوى اليهود أن الله هو إله إسرائيل أولا، كـلام باطـل. وكـذلك دعـوى النصـارى أن الله هو إله من يؤمن بأن عيسى صلب تكفيرا عن الخطأ. كلام خيالي لا أساس له .

4)**لنا أعمالنا ولكم أعمالكم** . كل فرد منا مسؤول عما عمل ، ومجزي بما صنع. فدعوى اليهود أنهم يعذبون بمقدار الأيام التي عبدوا فيها العجل، ودعوى النصارى أن الإيمان بأن المسيح قدم بدنه للقتل والصلب تكفيرا لذنوب البشر، كل ذلك لا يعدو الأوهام والتضليل. والمسؤولية الفردية حقيقة منصفة أثبتها النبي ﷺ، وعليها قام التكليف .

5)كشفت لكم عن تلكـم المسـلمات التـي لا يمكـن أن يختلـف فيهـا عـاقلان، وهومـا قامت عليه رسالتي . و لم يبق موطن يمكـن لكـم أن تخـالفوا فيـه حتـى أسـنده بـدليل وحجة لتناقشوني فيها. فإن أنتم لم تقبلوا ما أرسلت بـه ومـا بينتـه لكـم فقـد زال محـل الاحتجاج الذي تقدمون فيـه حجـة وأقـدم لكـم فيـه حجـة ونتجـادل. واعلمـوا أن الله سيجمع بيننا وبينكم يوم القيامة، فيتبين المحق والمبطل. و فـي ذلكـم اليـوم يظهـر عيانـا ما أنتم عليه من الضلال. إننا جميعا صائرون إليه لـيحكم بيننـا وهـو خيـر الحـاكمين. وهذه الآية تمثل فترة من مسيرة الدعوة، هـي المناسـبة لـذلك الوقـت. حتـى إذا ظهـر الدين، وقاومه اليهـود بتحـريض المشـركين فـي غـزوة الأحـزاب، وخيـانتهم للعهـد الموثق بينهم وبين المسلمين، اقتضى موقفهم القرار الذي أخذه النبي ﷺ.

16ـو الذين يحاجون في الله...ولهم عذاب شديد.

إن الذين يعملون على تقـديم الحجـج الوهميـة مـن المشـركين أو مـن أهـل الكتـاب حججهم لا ثبات لها، باطلة زائفة. يعملون على إيقـاف المـد الإسـلامي ودخـول النـاس في دين الله. فكـان المشـركون ينشـرون مـا يلبسـون بـه علـى الـدهماء، بالتنويـه بأصنامهم، والتشكيك في البعث بعـد تحلـل الأجسـام، وأن هـذا الـدين سـيؤلب علـى قريش الرافضين للدين، ويذهب مـا هـم فيـه مـن أمـن .كمـا كـان أن أهـل الكتـاب يوهمونهم أن رسولهم أولى بالاتباع لتقدم زمنه، ونحو ذلك .

وداحضة: أصل استعمالها في الرِّجْلِ إذا زلت فلم يثبـت صـاحبها قائمـا. جُسِّـمَ بطـلان حججهم بتشبيهه بالرجْلِ التي لم تثبت فصرع صـاحبها. و ظهـر بطلانهـا بتزايـد عـدد المسلمين، وأن من دخل فيـه لا يخـرج منـه، ومـا تكـرر فـي القـرآن مـن إبطـال شبهاتهم. والله سيعاملهم معاملة الممقوتين المبغضـين، فـلا مطمـع لهـم فـي رحمتـه. وإذ تحقق أنهم يائسون من رحمة الله ، فإن العذاب الذي سيسلط عليهم يكون شديدا.

ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ﴿١٧﴾ يَسۡتَعۡجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِهَاۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مُشۡفِقُونَ مِنۡهَا وَيَعۡلَمُونَ أَنَّهَا ٱلۡحَقُّۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفُۢ بِعِبَادِهِۦ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡقَوِىُّ ٱلۡعَزِيزُ ﴿١٩﴾ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلۡأٓخِرَةِ نَزِدۡ لَهُۥ فِى حَرۡثِهِۦۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرۡثَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلۡأٓخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

ما يدريك: أي شيء يعلمك.

الاستعجال : طلب التعجيل .

الإشفاق :الخوف نتيجة حب المشفق عليه.

لطيفبر بهم. رفيق بعباده محسن إليهم.

حرث الآخرة : العمل الذي يرجو ثوابه يوم القيامة.

نصيب: الحق الذي يناله كل واحد من المتقاسمين.

بيان المعنى الإجمالي :

يحقق القرآن أن الله هو منزل القرآن ومنزل كتبـه علـى رسـله مقترنـة بـالحق، وهـو سبحانه الذي أنزل العدل فرسـمه فـي الفطـرة البشـرية، وأنـزل الوصـية بـه وحيـا

مؤكدا. و إن الساعة آتية لا ريب فيها، و لا مانع من أن تعرف أنها ستكون قريبا، ولكن علمها على التحديد عند الله. ثم إن موقف الناس منها على ضربين :

موقف الذين لا يؤمنون بقدومها وتحققها، بل ينكرونها، فهؤلاء لجهلهم واستكبارهم يطلبون تعجيلها، استهزاء وتحديا، إذ يرون أنها مستحيلة فعدم قيام الساعة يبطل ما تؤكده من أنها إحدى الحقائق الغيبية التي يجب الإيمان بها .

وموقف الذين آمنوا، يكشف لهم إيمانهم أهوالها فهم مشفقون على أنفسهم مما يقدره الله فيها من رضا أو من سخط، ومن تكريم أو عذاب. موقنون بأن الساعة إحدى ركائز الإيمان بالغيب الذي أخبر به رسول الله ﷺ. إن الذين ينكرون الساعة ويحاولون إلقاء الشبهات ، وصرف الدهماء عن الإيمان بها، قد ساروا في الضلال إلى أبعد حد.

الله يلطف بعباده كلهم، يصلهم منه في رفق كل نعمة ظاهرة أو خفية. لا يحجب جميع نعمه عن أي فرد من عباده. فالمحروم حرمانا كاملا غير متصور. ثم إن تمكين كل فرد من النعم إنما يتم حسب مشيئته، فلا يرزق أي فرد شيئا إلا بإرادة الله وفضله لا مصادفة ولا غفلة. و رِزْقُ العباد كلهم بمتنوع الأرزاق لا يثقل عليه، فهو القوي القوة غير المحدودة، و هو العزيز الذي لا يحول بينه وبين تنفيذ مشيئته أي حائل. و بناء على ذلك فإن من كان قصده بما يقوم به من أعمال نيل رضوان ربه وحسن الثواب يوم القيامة، فإن الله يبارك له سعيه، ويوفقه للمضي في سبيل الخير. و أما من كان غاية ما يرغب في التحصيل عليه، هو نيل حظوظ دنيوية، دون أن يخطر على باله أنه محاسب بين يدي ربه، وأنه مستغن عن عونه، فإنه ينال في دنياه ما سبق أن قدره الله له. ولا يجد لأعماله أي أثر طيب يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

17ـالله الذي أنزل...لعل الساعة قريب.

تضمنت الآية- 15- الأمر بالاستقامة وعدم الميل مع أهواء أهل الشرك، والإيمان بما أنزل الله من الكتب، وأن يلتزم العدل. و أن المصير إلى الله. فجاءت هذه الآية مؤكدة لما أفادته تلك. مثيرة لبعض مباني ذلكم الهدي. فأكدت أولا:

أن الكتب منزلة من عند الله، ملتبسة بالحق، ومقترنة به، والحق لا يعدوها.

وأكدت ثانيا الأمر بالاستقامة والالتزام بالعدل، فأثبتت أن الله هو الذي أنزل الميزان. والميزان يطلق ويراد منه العدل، فيكون إحساس الإنسان بالعدل أمرا فطر الله عليه الإنسان الذي لم تفسد طبيعته الإنسانية بدواعي الهوى. وحث عليه في

هديه لجميع الرسل. و لما كان الميزان الذي له كفتان ويعلم به حق كل طرف في الماديات فالآية تشمله وليست قاصرة عليه.

وأكدت ثالثا: أمر البعث؛ وما يعلمك أن الساعة قريب؟ وهذه الصيغة تطلق والمخاطب بها غير معين، كل من يصلح ليعلم، وهي تفيد إمكان حصول العلم بما بعده . والساعة هي يوم القيامة فالكلام في قوة لعلك تعلم قريبا حصول يوم القيامة. وهذه الخاتمة فيها إيماء بتهديد للمشركين الذين يستبعدون يوم القيامة.

__لطيفة :__ عن ابن عباس ﷺ أن ما ورد في القرآن من خطاب بـ "ما يدريك" فإنه لم يُعَقَّبْ بما يزيل إبهامه كأمر الساعة في هذه الآية. وما ورد ب " ما ادراك فقد تبعه تبيينه من الله .

18ـ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها....في ضلال بعيد.

إنه بمقدار ما تكون معرفة الشيء بينة يكون تقدير آثاره أكمل وأتم، فمن عرف مضار شيء ما، تجده يحذر أن تحل به تلك الأضرار، فيرتب لنفسه مناعة أو يجتنبه. و من جهلها يقع في المهالك نتيجة جهله. و المشركون لجهلهم بالساعة وإنكارهم مجيئها تراهم يستهينون بها، بل يطلبون من الرسول تعجيلها استهزاء، ويرمون من وراء ذلك إقامة دليل على عدم صدقه في الإنذار بها.

و أما المؤمنون وقد فصّل لهم الوحي بعض أهوالها، وتبعا لما سمعوه من رسول الله ﷺ عنها، تراهم مشفقين على أنفسهم يوم حضورهم ذلك المشهد. و هم موقنون أنها حق آتية لا ريب فيها، ويحذرون أن لا يكونوا مفروزين برضا ربهم يومها.

ألا إن الذين.... توقظ هذه الفاتحة السامعين للحقيقة التي ستعرض عليهم: إن الذين يشكون في الساعة، ويحاولون إدخال الشك عند الآخرين أيضا، بما يقدمونه من شبهات، هم مغرقون في الضلال. تمكّن الضلال منهم حتى أصبحوا كأنهم ابتعدوا في طريق الضلال بعدا يجعلهم لا يسمعون نداءات الصواب التي تعمل على إرجاعهم إلى الجادة.

19ـ الله لطيف ...وهو القوي العزيز.

فاتحة هذه الآية تمثل التصور الذي يجب على كل مكلف أن يعتقده في الذات الإلهية. فالله سبحانه بيده الخير، ولا خير يصل إلى الإنسان إلا بفضله ورفقه به. وهذا الخير يشمل كل النعم عظيمها ودقيقها، ما يشعر الإنسان به وما لا يشعر به . خذ لذلك مثلا جريان نَفَسِك في كل لحظة، وتدفق دمك إلى كل جزء من أجزاء جسمك، عمل حواسك دون أن تحس بما تم داخل كيانك. كيف انتقلت صورة المرئي مثلا إلى موطن الرؤية من الدماغ، كيف ربطت هذه الجزئية التي ارتسمت

بنظيراتها في الذاكرة وما لها من مميـزات؟ عمليـة معقـدة شـديد التعقيـد، تمـت فـي لحظة وتحققت المعرفة، وذلـك بفضـل اللطـف الإلهـي بـك. ومـن الجزئيـات غيـر المشعور بها، إلى النعمتين العظيمتـين العقـل والإيمـان، مـا لا يعـد ولا يحصـى مـن النعم الإلهية وصلت في رفق ولين إلـى جميـع العبـاد، وشـرَّفهم فضـلا منـه ونعمـة، فنسبهم إلى ذاته العلية " عباده" وكل الـنعم المشـعور بهـا وغيـر المشـعور بهـا ينـال منها المؤمن والكافر والبر والفاجر . ولما كـان الخيـر كلـه بيـده ، وأنـه يـرزق منـه عباده ، حقق أن قسمة الأرزاق على عبيده بيده، وكل فـرد يصـل إليـه مـا شـاء الله أن يصل إليه من الرزق. فـالمحروم بتاتـا لا وجـود لـه وغيـر متصـور. و المرزوقـون يسر لهم الرزق على مستوياتٍ، وكـل رزق نالـه أحـدهم فهـو بمشـيئته وإرادتـه، لـم يحصل عن مصادفة ولا غفلة. وتصورُ الآدميين مـن بـدء الخليقـة إلـى الآن، وتصـورُ ما حصل لكل فرد منهم من متنوع الأرزاق في كـل لحظـة مـن اللحظـات ،يقـرب لـك فهم: أن الله هو القوي القوة التـي ليسـت لهـا حـدود، بلّـغ الأرزاق لكـل فـرد دون أن يثقل عليه ذلك، وحرم من حرم من بعـض الأرزاق ، وكـل ذلـك جـار علـى مقتضـى الحكمة لا مانع لما أعطى ولا معطي لمن حرم وهو ما يفسر وصفه بالعزيز.

20ـ من كان يريد حرث...من نصيب.

الرزق كله من عند الله ، وهو الذي يمكن كل فـرد مـن عبـاده بمـا يشـاء مـن رزقـه، والبشر في سعيهم للتعرض للرزق الإلهي ينقسمون إلى قسمين:

القسم الأول: هم الذين يجعلون غايتهم مـن النشـاط الـذي يقومـون بـه بلـوغ الأجـر والثواب في الآخرة. جسمت الآية السعي بالعمل إلى نيـل ثـواب الآخـرة بمـن يحـرث الأرض ليحصل على نماء مـا تنبتـه مـن خيـرات ، كمـا وقـع التمثيـل لـذلك فـي المضاعفة في قوله تعالى : (**مثل الـذين ينفقـون أمـوالهم فـي سـبيل الله كمثـل حبـة أنبتت سبع سنابل في كـل سـنبلة مائـة حبـة والله يضـاعف لمـن يشـاء**)[1] إن مـن يخلص في عمله لله يقدر له الله العون فيجنـي مـن عملـه النجـاح ويصـحبه التوفيـق. ويبشر هذا أن من سعى سعي الآخرة، أنه يصـحبه توفيـق مـن الله ليسـهل عليـه القيـام بالأعمال المرضية من رب العالمين المقدر لها حسن الثواب.

القسم الثاني: هم الغافلون عن الـدار الآخـرة ، كـل همهـم مـا يحصـلون عليـه مـن حظوظ الدنيا ، إن قصّر اهتمامـاتهم علـى الحيـاة الـدنيا وإغفـالَ الآخـرة لا يحـرمهم

[1] سورة البقرة 261

حظهم من الحياة الدنيا المقدر لهم ، فحرصهم لا يحصلون معه إلا على ما شاء الله أن يرزقهم من الدنيا . و لكنهم لا يجدون من عملهم أي حظ في الآخرة.

والآية لا يفهم منها التضاد بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة، فإن الذي يعمل لنيل حظه من الدنيا مستشعرًا أن كل ما يرزق من خير هو من فضل الله، ويستحضر ملتزما الحدود التي حددتها الشريعة في الكسب ،فقصده والتزامه يرفع عمله إلى مستوى الأعمال الصالحة التي يترتب عليها ثواب الآخرة بفضل الله.

أَمْ لَهُمْ شُرَكَـٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّـٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُواْ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَـٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

روضات : جمع روضة أرض خصبة بها ماء وشجر وخضرة.

يبشر: يخبر بما يسر.

الأجر :جزاء العامل عما قدم.

المودة: المعاملة الحسنة التي تكون بين المتحابين.

القربى : قرابة النسب .

يقترف: يكتسب.

الحسنة : المحكوم بحسنه لموافقته الشرع.

بكلمته : من القرآن والوحي.

ذات الصدور : النوايا الكامنة في العقل .

بيان المعنى الإجمالي :

انتقال لتوبيخ المشركين على صدودهم عــن الهدايــة، ولكشــف ســبب ضــلالهم المنبــئ عن سخافة عقولهم، وفقــدانهم لأي ســند معقــول. أَلَهُــمْ شــركاء مــن الشــياطين ومــن أسلافهم الضالين قدموا لهم مجموعــة مــن الضــلالات حببــت إلــيهم عبــادة الأصــنام، والإقبال على متاع الحياة الدنيا وإنكار الآخرة. فاتخذوا ذلــك دينــا لــم يــأذن الله فــي أي شيء منه، ولا يقول به عقل راشــد؟ و لــولا أن الله قــدر عــدم تســليط عقوبتــه علــيهم عاجلا لكانوا قد سحقوا، ولكــن القــدر الإلهــي الحكــيم أخــر ذلــك إلــى يــوم القيامــة. والظالمون بالشرك مستحقون لعذاب أليم .

يرى كل من تصح منه الرؤية أولئك المشركين وهم علــى أشــد مــا يكــون مــن الفــزع والخوف، وقد افتضحوا، فعرض ما اكتسبوه مــن ســيئات العقيــدة والأعمــال. و خــوفهم وإشفاقهم لا ينقذهم، فهم صائرون حتما إلى جهنم.

وفي المقابل فإنه في الوقت الــذي يكــون فيــه المشــركون ينتظــرون مصــيرهم فــي جهنم، في قسوة العذاب النفسي، يكون المؤمنــون ينعمــون فــي روضــات منوعــة فــي الجنة، لا تقمع لهم مشيئة، ولا يحرمون مــن أي شــيء يبغونــه. كُتِــبَ لهــم ذلــك عنــد ربهم وقد نالوا مرضاته. إن ما فصل من جزائهم هو الفضل الكبير.

ما فُصّل من الجزاء في الجنة ذلك هــو بشــارة عجلهــا الله لعبــاده المــؤمنين العــاملين بما شرعه لهم. قل للمشركين :إني لا أطلــب مــنكم أي جــزاء مــادي ولا أكلفكــم شــيئا، ولكن لما كنت قريبــا مــنكم ونحــن جميعــا قريشــيون ، ونظامنــا الاجتمــاعي يفــرض عليكم أن تعاملونني بــالود ولا تتقــدموا لإذايتــي، فــإني أســألكم أن تعــاملونني حســب أعرافنا بالمودة وعدم الإذاية.

إن من يبذل وسعه لفعل العمــل الحســن شــرعا، فــإن الله يتقبلــه منــه ويضــاعف لــه مثوبته. بكل تأكيد الله يعفو عن نقائص عبــاده المــؤمنين، ويشــكر لهــم مــا قــدموه مــن أعمال حسنة بمضاعفة الأجر.

أيقولون إن محمدا افترى على الله ما ينسبه إليــه؟ مــا أشــد وقــاحتهم وأعظــم جهلهــم! إن الله القوي العزيز لو افتريْتَ عليــه فإنــه قــادر بمشــيئته أن يخــتم علــى قلبــك فــلا تستطيع الإبانة وتتوقف حــالا عــن المواصــلة. فتواصِــلُ دعوتــك، وانتشــار الإســلام بسبب ما يتتابع من الوحي لك ناقض لأقوالهم مبطل لاتهاماتهم .

و يمحو الله الباطل فيذهب بدون أن يترك أثــرا، ويقــرر ويثبــت الحــق بفضــل وحيــه وقرآنه. وكل ما يجري في باطن العقل البشري معلوم له سبحانه على أكمل وجه.

بيان المعنى العام :

21- أم لهم شركاء شرعوا...لهم عذاب أليم.

بعد أن أثبت القرآن أن المشركين في ضلال بعيد، وأن من يريد حرث الدنيا محروم من كل ثواب يوم القيامة. افتتحت هذه الآية ب " أم" تنبيها على الانتقال من ذلك المستوى إلى مستوى آخر، بما يتضمن سؤال توبيخ وتقريع على ضلالهم، وسخف تفكيرهم. على أي شيء يعتمدون إذ انفصلوا عن هداية الله ؟ أيعتمدون على شركائهم في الضلال من الشياطين ومن أسلافهم الغاوين ،الذين رتَّبُوا لهم جملة من التوجيهات تدفعهم إلى اعتقاد ألوهية أصنامهم، وانكار البعث، ومحض نشاطهم للعمل الدنيوي، فكوَّنُوا لهم من ذلك منهجا يسيرون عليه في حياتهم، هو الدين عندهم، أي إنهم ملتزمون به التزام المتدين بدينه ، فأعقبه القرآن بقوله: **مالم يأذن به الله** . تعالى الله أن يأذن به. هو منهج في العقيدة والمعاملات والسلوك لا يستند إلى وحي الله ، ولا إلى الحقائق المتولدة عن العقل المستقيم حسب قوانين التفكير. إن ما انحرفوا إليه يؤهلهم لينزل بهم العذاب العاجل، ولكن الله قدر في سابق علمه، حسب حكمته أن يؤخر عذابهم إلى الأجل الذي قدره في إمهالهم .

إن إمهالهم لا يفهم منه نجاتهم مما اقترفوا، فإن الله حكم أنهم سيذوقون العذاب الأليم جزاء شركهم، وتمردهم على رسول الله، إما في الدنيا، وإما يوم القيامة.

22-ترى الذين ظلموا....هو الفضل الكبير.

عرضت الآية حالة المشركين يوم القيامة، وحالة المؤمنين.

أما حالة المشركين فوصفتهم قبل دخولهم النار، مفتضحين يراهم كل الحاضرين في المحشر ، يرونهم وهم يُرْعَدُون خائفين وجلين، مشفقين من المصير الذي لا يرون عنه محيصا . بدا لهم ما كسبوه من سيئات العقيدة والأعمال، وما يقابلها من الجزاء الذي سيسلط عليهم حتما. وهو واقع بهم .

وأما حالة المؤمنين الذين استقرت العقيدة في قلوبهم، وبرزت على سلوكهم عملا صالحا ، فإنهم سيكونون في روضات الجنات، وتفيد الصورة التي ترتسم في الذهن حسب النص، أن الجنة التي حلوا فيها تتخللها وحدات جامعة بين الخضرة والأشجار والمياه المتدفقة ،تزيد بتنوعها روعة وجمالا. فرتب القرآن جزاءهم في ثلاث رتب متسامية: كونهم حالين في روضات الجنات؛ يحصل لهم ما يحقق لهم ما يشاؤون ويرغبون فيه. وهذه التكرمة من الثواب والنعيم لهم يختصون بها محفوظة عند ربهم.

ذلك الذي فصلناه في ثوابهم وتكريمهم هو الشرف البالغ، وهو فَضْلُنا عليهم. ويدل هذا على مرتبة أومأ إليها النص، وهي أنهم محل الرضا. إذ الموقف بين وضع الغضب الذي لا يكون لصاحبه إلا المقت، ووضع الفضل الذي يكون صاحبه مؤهلا للتكرمة والنعيم .من لدن رب العالمين.

23ـذلك الذي يبشر...غفور شكور.

ما وصف من الجزاء الكريم، قصد من عرضه التعجيل بتبشير عباده الذين آمنوا وعملوا الصالحات بما يدخل السرور عليهم. وقد غلب في القرآن إطلاق صيغة "عباده" للإيماء إلى أنهم مقربون منوه بهم.

قل لا أسألكم.... افتتاح النص بكلمة "قل" مشعر بالاهتمام بمضمونه. قل للمشركين قولا لعله يؤثر في عنادهم، فيكفون عن الكيد للدعوة وعن الإذاية: إني لا أطلب منكم مقابلا على ما أقدمه لكم من الهداية، وما جعلته كل اهتمامي وسعيي. إني لست طالب مال، ولا أكلفكم أي نوع من المساعدات المالية. وانضم بهذا الجزء إلى قوة الدعوة في مضمونها، قوة الاستغناء و عدم الطمع فيما عندهم. و بقي ركن آخر يتقوى به النبي ﷺ في القيام بنشر الدين، هو أن الروابط الاجتماعية في المجتمع العربي، كانت تقوم على العصبية التي عني ابن خلدون بتفصيلها في المقدمة تفصيلا وافيا. فكانت هذه الناحية ملحظ الاهتمام الذي صيغت به الآية مفتتحة بـ**[قل]** إني قريب منكم نحن قريشيون ، وما من بطن من بطون قريش إلا ولي صلة به ، وهذه الروابط المرعية في عرفنا الاجتماعي، أدعوكم إلى اعتبارها، مما يفرض أن تعاملوني معاملة القريب لقريبه معاملة الود والمحبة، لا معاملة البغض والعداء. فقوله تعالى "إلا " استثناء منقطع بمعنى لكن، و**[في القربى]** في، تدل على التعليل كقوله تعالى "**جاهدوا في الله**"، لأجل الله. في القربى لأجل القرابة الجامعة بيني و بينكم. فيخلص من النص: لا أسألكم عونا ماليا، ولكن أسألكم أن تراعوا في معاملتكم لي ما تفرضه رابطة القرابة من الود.

وحول بعض المفسرين مضمون الآية، إلى دعوة النبي ﷺ المؤمنين إلى حسن معاملة ذوي قرابته. وحب قرابة النبي ﷺ شارة الإسلام فلا يبغضهم إلا منافق، وبمقدار ما ينشرح الصدر لحب سيدنا رسول الله ﷺ ينشرح لكل ما يتعلق به، وذوو قرابته في مقام الأولوية المطلقة، ولكن الآية ليس هذا مساقها .وهذا الفهم دفع بهم إلى اعتبار أنها آية مدنية. وهذا الفهم يفوت ما أرجحه من أن هذه الآية ليست مستأنفة استئنافا بعيدا عن السياق العام ، وأن وضعها في هذا الموضع من القرآن ليس هو بسبب وقت نزولها ،كما ظن، إنها نزلت على رسول صلى اله عليه وسلم

إثر نزول الآية السابقة ، فوضعها في هــذا الموضــع لــذلك. إنــي أرجــح أنهــا متصــلة بالآية "15" **فلذلك فادع واستقم كما أمرت وقل آمنت بمــا أنــزل الله مــن كتــاب وأمــرت لأعدل بيننا وبينكم**. فأضيف بهذه الآية مرغــب آخــر مــن أصــول النظــام الاجتمــاعي عندهم.

ومن يقترف حسنة...الاقتراف : الاكتســاب ، والقرفــة الكســب، ويقــال : هــو يقــرف لعياله: أي يكسب لهم [1]. فهي ليست مختصة بارتكاب الســوء. فمعنــى الآيــة مــن يبــذل جهده ليكون فعله على الصورة الحســنة الجاريــة علــى ميــزان الشــرع قصــدا وأداءً ، وارتبطت الحسنة بالجزاء المقدر لهــا مــن رب العبــاد. فــيفهم مــن الزيــادة مضــاعفة الأجر والثواب فضلا من الله، وتتفاضل الأعمال في حســنها بمقــدار مــا يترتــب عليهــا من الثواب، فظهر بهذا معنى نزد له فيها حسنا: أي ثوابا. وتخــتم الآيــة بمــا يحقــق مــا سبق. إن الله غفور شكور .فهو سبحانه لِمَا اتصف به مــن فضــل مــن مغفــرة التقصــير ،يكون هذا محققا لمن فعل حســنة يشــوبها بعــض الــنقص أن يتجــاوز الله علــى ذلــك النقص، وهو شكور يرتب على الفعل الثواب والعطاء ،تقديرا لمــا قــام بــه المــؤمن مــن حسنات .

24ـ أم يقولون ...بذات الصدور.

تفتح الآية بــ[أم] للتنبيه على تحول الغــرض ليســتيقظ الفكــر للتأمــل، مــع تضــمنها معنى السؤال التــوبيخي. الكــلام المســتحق للــرفض والتــوبيخ، هــو قــولهم الــرافض لصدق الوحي: قولهم :هذا الكلام الذي يثبت محمد أنه تلقــاه مــن عنــد الله، هــو افتــراء على الله وكذب . اتهامهم هذا باطل من التأمل فــي كلامهــم .ذلــك أنهــم أثبتــوا وجــود الله، وأن الله متصف بصــفات الألوهيــة مــن القــدرة والإرادة .وأنــه الكامــل الــذي لا يلحقه نقص ،فإذا كان محمد تجــرأ فــافترى علــى الله الكــذب فــإن الله لا يهملــه يتقــول عليه ، وينسب إليه ما لم يقل ويثبت لــه تشــريعا لــم يــأمر بــه، ويســتمر علــى هــذه الحال، بل في كل يوم يزيد أتباعه ، ويقوى أثر أقواله فــي نفــوس البشــر، إن هــذا أمــر خطير جدا فلو كان ما أقدم عليه محمد هو افتراء ،فــإن الله قــادر علــى أن يحــول بينــك وبين مواصلة الكذب عليه . من ذلــك أنــه يخــتم علــى قلبــك فــلا تســتطيع أن تــتكلم بكلمة، فتتابع الوحي يبطل اتهامهم وينقضه.

ويمح الله الباطل. إن من سنن الله أنه لا يترك الباطــل يصــول صــولاته ويمــد عروقــه في المجتمعات إلى ما لا نهايــة ، بــل يقــذف بــالحق عليــه فيدمغــه فيزهقــه ، ويزيــل

---

[1] تاج العروس ج 24ص248

آثاره. وحذفت واو يمحو تخفيفا في النطــق وتَبِــعَ الخــط النطــق. و يــتم محــو الباطــل تبعا لعزته تعالى، فلا يمكن تصور أن القــادر العزيــز، يتــرك المفتــرين عليــه يفتــرون ولا يحرك ساكنا مغلوبا على أمره، تعــالى الله عــن باطــل أقــوالهم. ويثبــت الله الحــق بوحيه الصادق فلا يضره إفك المبطلين.

ومما يؤكد ذلك أنه ثبت أن علــم الله شــامل للظــواهر والخفايــا ، وأنــه العــالم بمــا يظهر في الخارج ، وما يجري في النوايــا ومــا يتحــرك فــي العقــول ، فــلا يمكــن أن يتصور أن يغيب عنه شيء ،وخاصة الافتراء عليه .

وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

العفو : عدم مؤاخذة الجاني بجنايته.

السيئات : الجرائم.

الاستجابة : الإجابة على أبلغ وجه.

البغي: طلب تجاوز الاقتصاد فيما يتحرى.

قدر: مقدار.

الغيث : المطر النازل بعد الجفاف.

قنطوا: يئسوا.

ينشر رحمته : يوسع في بركات الغيث ومنافعه.

الولي : الذي يتولى عباده بإحسانه .

من آياته : من أدلته التي نصبها على تفرده بالألوهية.

بث: وزع.

جمعهم : حشرهم للجزاء

بيان المعنى الإجمالي :

عناية القرآن بإصلاح الناس واتباعهم الحق هي الأصل .فهو يهديهم ليثوبوا إلى طريق الصلاح. والله الكريم الرحيم يدعو عباده للتوبة سواء أكانت معصيتهم المعصية الكبرى أم كبائر الذنوب، ويعلمهم أن يقبل توبتهم فتكون عنده، ومتى اهتدى إليها الإنسان فإنه لا يردها. ويعفو عن عقوبة السيئات عند التوبة أو الإكثار من فعل الخير، أو القيام بالحج مع مراعاة أحكامه وآدابه، و نحو ذلك. و قبوله التوبة والعفو عن السيئات تتم مع علمه الكامل بكل فعل صدر من أي إنسان. ويستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفر لهم حظوظهم من العطاء والثواب. ولا يقصر ثوابهم على مقدار ما فيه من حسن بل يضاعف الحسنات من فضله لاجزاءً. وفي المقابل فإن الظالمين لهم عذاب شديد لازم لهم .

والله أجرى أمر توزيع الأرزاق سعة وتضييقا تبعا لحكمته، إذ لومكن كل فرد من الرزق بدون حدود، لتجاوزوا حد الاعتدال والاقتصاد إلى التبذير والإسراف. وعالم قائم على التبذير يؤدي حتما إلى اختلاله وفساده .

تفرد سبحانه بإنزال الغيث بعد أن يكون اليأس قد خالط القلوب . فتنتشر رحمته التي ينال منها البشر والحيوان والنبات. وهو سبحانه المتولي لخلقه بالرعاية والألطاف وهو المستحق للحمد والثناء على فضله.

من الدلائل الواضحة على تفرد الله بالقدرة والتسيير، ما تشاهدونه من بديع الصنع في خلق السماوات والأرض. و من تعميرهما بمتنوع الدواب. و الذي خلق ووزع حسب ما يناسب كل نوع قادر أن يجمع البشر يوم القيامة للحساب.

بيان المعنى العام :

25ـ وهو الذي يقبل التوبة..ويعلم ما تفعلون.

يتصل مضمون الآية بجوانب مما تقدم في الآيات السابقة، منها قوله تعالى في الآية 23 (إن الله غفور شكور). وبقوله (إنه عليم بذات الصدور) الآية 24- يتبين ذلك من متابعة ثريّ محتواها. تفتح الآية بقوله: **(وهو الذي يقبل التوبة عن عباده)** فيفتح لمن أذنب وتجاوز الخير إلى الشر أنه لا يرفض تحوله إلى الخير، التحول الحق كما يدل عليه إنه عليم بذات الصدور وذلك لأنه الغفور.

و **التوبة** تتم بتوفر أركانها . بالإقلاع والانفصال التام عن السيئة و الخطيئة. وبالندم على ما فات منه بجراءته زمنا يعصي ربه، وهو مطلع عليه. و بالعزم على تطهير نفسه في المستقبل من الإثم الذي تاب منه تطهيرا كاملا يتبعه الاشمئزاز من المعصية والإقبال على الطاعة. و بالتحلل من حقوق العباد الذين ظلمهم حقوقهم

المادية أو الأدبية. يقول سري السقطي: التوبة الإقلاع عن الذنوب ،والإقبال بالقلب إلى علام الغيوب . فمراقبة الإنسان لعقله وما تتحرك إليه قصوده ونواياه بتوجيه ذلك إلى الخير حتى يألفه، هو المحقق لحسن إدراك التائب: إنه عليم بذات الصدور. وذكر الزمخشري عن جابر بن عبد الله ﷺ: أن أعرابيا دخل مسجد رسول الله ﷺ فقال: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك وكبر. فلما فرغ من صلاته قال له علي كرم الله وجهه: يا هذا، إن سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذابين. وتوبتك تحتاج إلى التوبة. فقال: يا أمير المؤمنين وما التوبة ؟ قال: اسم يقع على ستة معان: على الماضي من الذنوب الندامة، ولتضييع الفروض الإعادة، ورد المظالم، وإذابة النفس في الطاعة كما ربيتها في المعصية، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية، والبكاء بدل كل ضحك ضَحِكْتَهُ. و التعبير بقوله: **يقبل التوبة <u>عن عباده</u>** أبلغ من قوله **يقبل التوبة من عباده**. لكونها تدل على أن الله أخذ التوبة عنده وفصلها عن صاحبها، وهو منتهى القبول.

ويعفو عن السيئات . فلا يؤاخذ مرتكب السيئات بترتيب عقوبة المعصية ،وهو عام. و جمعا بين النصوص فإن هذا العام لا يتناول الشرك، لقوله تعالى: **(إن الله لا يغفر أن يشرك به)**[1] و من أسباب العفو الحج المبرور والشهادة في سبيل الله، ورفع السيئات بكثرة الحسنات، والتوبة.

ويعلم ما تفعلون .تحقق الآية أنه يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، لا عن غفلة ولا عن نسيان، ولكن لسعة فضله وعظيم رحمته.

26.ويستجيب الذين آمنوا...عذاب شديد.

تحقق الآية أن الله يستجيب للمؤمنين فيحقق لهم رجاءهم ويقبل توبتهم. كما يمكن أن تفهم الآية على أن المؤمنين يستجيبون لله بإسراعهم إلى الطاعة. و أنه يعطيهم فوق ما أمّلوا، وأكثر ثوابا مما فعلوا من الصالحات.

وفي المقابل فإنه سبحانه أعد للكافرين عذابا شديدا ، وربط بينهم وبينه حتى صار هذا العذاب لشدة التصاقه بهم كأنه حق من حقوقهم .

27.ولو بسط الله الرزق لعباده...خبير بصير.

لا أستطيع أن أفهم الآية على قاعدة مقابلة الجمع بالجمع تقتضي القسمة آحادا. ويمثلون لهذا بقولهم ركب الناس دوابهم، بمعنى أن كل شخص ركب دابته. فهذه الآية ليست من هذا القبيل ناظرة إلى أثر الغنى في الأفراد وأنه يثير البغي

---

[1] **سورة النساء آية 48**

والتعدي، ولكنها ناظرة إلى استخلاف الناس في الأرض ، ومسؤوليتهم في عمارة الأرض ، التي لا تكون إلا بالتعاون الناشئ عن الشعور بالحاجة إلى الآخر. بحيث يحس الإنسان بعجزه وحاجته إلى غيره. وهو ما يشير إليه قوله تعالى: (**ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا)**[1] وقوله تعالى:(**يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا)**[2] فتفيد الآية أن الله لو قدَّر أن يجعل كل فرد مبسوطا له في رزقه غير محتاج إلى غيره لوقع تجاوز الاقتصاد فيما يُتَحَرَّى. وهذا المعنى هو الذي أثبته الراغب أولا في مادة " بغى " ص55ونقله الزبيدي عن الجوهري، قال : البغي كل مجاوزة وإفراط على القدر الذي هو حد الشيء (تاج العروس ج37ص186/185) أي إنه لو عم الثراء فنال كل فرد من أفراد البشر سعة في الرزق تغنيه ، فإن النتيجة أنهم يتجاوزون الاقتصاد، ويفسد التوازن الذي هو سر بقاء الكون إلى الأجل الذي حدده له رب العالمين. ولا أفهم من الآية أنه لو بسط الله الرزق لعباده لظلم واعتدى بعضهم على بعض. لأن انتشار الثراء انتشارا عاما لا يرتبط به حتما التعدي.

ولكن سنة الله في الرزق: أنه ينزل من عنده بمقدار يبقي على انتظام الكون وتعاون البشر؛ فلا مساواة بين الجميع في الغنى ولا في الفقر. ولكن مشيئته التابعة لحكمته يتم بها توزيع الرزق. ولما كانت آثار سعة الرزق أو الخصاصة والتضييق على النفس البشرية، خفية ولا يستطيع أحد أن يقدرها مقدما إلا الله ، ختمت الآية بذكر صفته سبحانه: خبير يعلم الخفايا والتطورات التي تحدث في النفس وإن كانت غير موجودة الآن. وهو الذي تتكشف له جميع تلك الآثار فهو بصير بها.

28ـ وهو الذي ينزل الغيث ...وهو الولي الحميد.

وهو سبحانه المتفرد بإنزال الغيث، فهو يحجبه أو يرسله متى شاء. ومن ظن أنه من أثر الأنواء فهو مخطئ ، لأن تقلب الأنواء سبب من أسباب نزول الغيث، يقلبها الله كما يشاء فيهيئها إلى ظروف ملائمة لنزول الغيث. أو ظروف ملائمة لتمزق السحب. يدلك لهذا أنه إذا توالى الجفاف وتجرد وجه الأرض من النبات فهل يستطيع أحد أن يحرك تلك الأنواء على النحو المناسب لإدرار السحب ، فلوكان الغيث لغيره لأنزله، ولكن الغيث بيده وحده سبحانه فهو يمسكه، حتى إذا قارب القنوطُ واليأسُ التمكن من قلوب الناس، وظنوا الهلاك، أنزل غيثه فأحيا به

---

[1] سورة الزخرف آية 32

[2] سورة الحجرات آية 13

الأرض بعد موتها. وتنتشر آثار الغيث من رحمته الواسعة فتشمل البشر والحيوان والنبات، فتصبح الأرض مخضرة.

وهو الولي الذي يرعى مواليه فيحسن إليهم. المستحق للحمد والثناء على فيوض نعمه، و متتابع خيراته.

29.ومن آياته خلق...إذا يشاء قدير.

في الآيتين السابقتين ما يثير الذهن إلى ربط مضمونيهما بالمتصرف الواحد الأحد. فأعقبهما بالتصريح بما يشمل ما جاء فيهما وفي غيرهما من مظاهر الكون، فذكر خلق السماوات والأرض. ولفت الأنظار إلى أن هذا الخلق المحكم العجيب دليل على القدرة و الحكمة. وكذا ما توزع على أديم الأرض من دواب تتحرك، فاختصاص كل نوع من تلك الدواب بما يلائمه من المناخ المتنوع الذي خلقه رب العالمين. هو أيضا آيات على القدرة والعلم و الحكمة. وإذا كانت الدواب عمرت بها الأرض، ولا نعلم دواب في السماوات. فذلك بالنظر إلى الارتباط بين السماوات و الأرض. فلولا الشمس مثلا وأشعتها المحدثة في الأرض ما به قوام النبات وغذاء التربة وغير ذلك، لما نبت على وجه الأرض نبات وما كانت الحياة لتتحقق.

وإذا كانت قدرته سبحانه أثرت في الأرض فعمرتها بالحياة من مختلف الأنواع فقدرته سبحانه على جمع البشر يوم القيامة، بإحيائهم من جديد إذ تعلقت مشيئته، أظهر وأولى من ابتداء الخلق حسب تجارب الإنسان، وإن كان الخلق والبعث بالنسبة له تعالى على مرتبة سواء.

وَمَا أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٠﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ﴿٣١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأۡ يُسۡكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظۡلَلۡنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوۡ يُوبِقۡهُنَّ بِمَا كَسَبُواْ وَيَعۡفُ عَن كَثِيرٖ ﴿٣٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

كسبت أيديكم : أقوالكم وأفعالكم.

مصيبة : حادثة مضرة.

المعجز: الغالب غيره بانفلاته من قبضته.

ولي : المتولي بالرحمة

الجواري : السفن التي تجري في البحر.

الأعلام : جمع عَلَم وهو الجبل، السفن العظيمة.
رواكد : جمع راكدة. ساكنة لا تتنقل.
على ظهره : على سطحه.
يوبقهن : يهلكهن بالغرق.

بيان المعنى الإجمالي :

كل مصيبة تصيبكم في أجسامكم أو في أموالكم، هي جزاء عن معاصيكم التي قصدتم إليها وقمتم بها. و رحمة الله واسعة فهو لا يعاقبكم عن كل معصية صدرت منكم، بل إنه لعظيم فضله يعفو عن كثير من الذنوب. و إذا أخر الله عقوبتكم، أو تجاوز عن بعض ذنوبكم فإياكم أن تظنوا أن بوسعكم أن تفلتوا من قبضته، وتسليط العقاب الرادع لكم متى تعلقت إرادته بذلك. أينما كنتم في الأرض فإنكم لا تفلتون من تنفيذ إرادته فيكم. وإنه ليس لكم أي ولي يدافع عنكم ولا نصير ينصركم فيحميكم مما قرره سبحانه فيكم .

إنه من الأدلة الواضحة على تفرده سبحانه بالتدبير والتصرف والحكمة، ما تشاهدونه في البحار من السفن التي تحملكم وتحمل أثقالكم ،عظمت أجرامها وسعتها فتراها طافية جارية في البحر كأنها جبال متنقلة. و من يسيرها ويجريها ؟ هو الله بسبب الرياح التي يحركها. وإذا شاء سبحانه أن يسكن الرياح جمدت تلك السفن على سطح البحر ثابتة لا تتحرك . سخر سبحانه هذه الرياح لتبلغ سفنكم الغاية التي إليها تقصدون .وفي ذلك آيات بينة وأدلة ظاهرة ، ينتفع بها كل من تحلى بالصبر والشكر .وهو القادر أن يقوي في الرياح قوة عاصفة تهلك السفن وحامليها، يسلط عليكم الهلاك بسبب ذنوبكم ، ويعفو عن كثير منها بفضله.

بيان المعنى العام :

30. وما أصابكم ...ويعفو عن كثير.

قد يرتكب الإنسان المعصية، فيكون مؤهلا ليعاقبه الله عليها. وهذا العقاب يوم القيامة محقق إذا لم يعف سبحانه عن المعصية. و أما في الدنيا فإن المصائب الدنيوية تذكر مرتكب المعصية، بأن الله عجل له العقوبة في الدنيا، وإن كانت عقوبة الدنيا لا توجب حتما سقوط عقاب الآخرة. كما أنه لا يتحتم أن تكون كل معصية يعاقب عليها. و ذلك لأن ما يعفو عنه الله كثير.

صاغ القرآن النص مفتتحا بكلمة "ما" وهي تحتمل أن تكون اسم موصول ، أي الذي أصابكم من ضرر هو بسبب ما كسبت أيديكم وعلى هذا الفهم قرئت الآية **(بما كسبت أيديكم)** ، ويحتمل أن تكون مضمنة معنى الشرط وعلى هذا قرئت الآية

فبما كسبت أيديكم . و المعنى لا يختلف. أي إن بعـض مـا يصـيبكم مـن مصـائب فـي الدنيا هو بسبب ما كسبت أيديكم كسب الأيدي: ما قصـدتم ونفـذتم مـن شـرٍّ في أقـوالكم أو أفعالكم. و من لطف الله ما أبرزتـه الآيـة بإتبـاع العقـاب بـالعفو عـن كثيـر مـن التجاوزات. ولولا هذا اللطف لتأهـل كـل عـاص إلـى العقوبـة العاجلـة وهلـك. فـالله يطهر عبده من جناياته بأنواع مـن المصـائب ويطهـره مـن بعضـها بـالعفو. و الله ذو الفضل العظيم.

31ـوما أنتم بمعجزين...من ولي ولا نصير.

ختمت الآية السابقة بأنه سبحانه يعفو عن كثيـر مـن الـذنوب إنـه يعفـو أولا يعجـل لكم بالعقوبة ، فلا تظنوا أنكم تسـتطيعون أن تفلتـوا مـن قبضـته .وإذا صـح مـا روي أن القرشيين قحطوا سبع سـنين متواليـة، فسـألوا رسـول الله ﷺ أن يـدعو الله ليغيـثهم ،ومطروا إثر ذلك .فهذه الآية تنبيه لهم أنـه إن عفـا عـنهم فـلا يطمئنـوا إلـى كشـف المؤاخذة ، فهم فـي قبضـة الـرحمن . و لا يخـرج عـن تصـرفه أي إنسـان فـي أي أرض كان، ولو كانوا في مكة وحول الكعبة. وليس لكـم أيضـا أي ملجـأ يقـيكم عذابـه، أو ينصركم بأي نوع من أنواع النصر. فتحقق أنكم في قبضته لستم بمعجزين.

32←34:ومن آياته الجواري...ويعف عن كثير.

تقوم في هذا العالم أدلة كثيرة شاهدة على تفـرد الله بـالخلق وحسـن التسـيير، والرحمـة والنقمة. فمن تلكم الأدلة الكثيرة، السـفن الجاريـة فـي البحـر، تحمـل البشـر والسـلع وتتنقل بحمولتها واصلة بين أطـراف الأرض. قـد تعظـم تلكـم السـفن فتراهـا جاريـة على سطح الماء كالجبال تشق مياه البحـار والمحيطـات. ثـم دعـا النـاس للتأمـل فـي القوة المسيرة لتلك السفن في عصر نزول الآية، فالنـاظر يجـد أن تلـك السـفن العظيمـة كالجبال يسيرها الهواء المتحرك "الرياح" فإذا سكنت الريـاح تبقـى ثابتـة فـي مكانهـا لا تتحرك. إن في هذا التصرف العجيب لأدلة على تصـرف القـدرة الإلهيـة. ينتفـع بهـذه الأدلة من جمع بين الصبر على التأمل ولا يمـر بمظـاهر الحيـاة غـافلا ،وبـين الشـكر لنعمة الله لأنه أيقن أن كل نعمة من فضل الله وأنه حقيق بالشـكر. وأمـا مـن فقـد نعمـة التأمل ونعمة الاهتداء إلى الشكر، فيمر على هـذه الآيـات غـافلا عـن أسـرارها. كمـا أنه سبحانه قادر على إهلاك تلك السفن وما تحمله فتغـرق فـي قـاع البحـر، بسـبب مـا قصدوا إليه من المعاصي وقاموا بـه فعـلا. والله عفـو متفضـل ،فـلا يؤاخـذ المـذنبين أخذا عاجلا بكل معصية، بل إنه سبحانه يعفو عن كثير من الذنوب.

و في عصرنا هذا، فإن دفع السفن بالمحركات يقوم دلـيلا علـى النظـام المحكـم للخلـق، ذلك أن العلماء اكتشـفوا القـوانين التـي سـير الله عليهـا كـل شـيء. وانتفعـوا بـتلكم

القوانين، وبنوا السفن و المحركات التـي تسـيرها علـى تلكـم الضـوابط. ولـولا ذلـك التقدير الثابت ما استطاع العلم أن يتقدم خطوة واحدة.

وَيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ
ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَٱلَّذِينَ
يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟
لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ
أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ
عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن
سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۚ
أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن
يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ
هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ
مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ
يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الفواحش : جمع فاحشة وهي الفعلة الشنيعة.

الشورى : التشاور.

من سبيل : موجب للمؤاخذة.

البغي : الاعتداء

مرد : رد.

من سبيل : طريق للرجوع إلى الحياة الدنيا.

بيان المعنى الإجمالي :

إن التصرف المحكم المذكور، يجبر الكافرين الذين يعملون على خلق التأويلات الباطلة، على الاعتراف بأنهم لا يجدون ملجأ ينقذهم مما قدره الله من الأحكام في أنفسهم وفي الكون.

إن ما حصل لكم من مكاسب الدنيا، هو في حقيقته متعة وقتية تزول سريعا. و لكن ما أعده الله للمتقين يتميز بأن نوعه خير من كل متاع الدنيا، وهو باق غير زائل. و هو ما يستحقه الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح، وتوكلوا على ربهم مفوضين إليه أمرهم راضين بما قسمه لهم، وهم الذين يبتعدون عن الأعمال المنهي عنها نهيا يترتب عليه الإثم الكبير، ويبتعدون عن الفعال الشنيعة. وهم مع ذلك يتحكمون في أرجاعهم عندما يغضبون. و هم أيضا مقبلون على طاعة ربهم، ويقيمون الصلاة بأدائها على الوجه الكامل المستحضر لوقوفهم بين يدي ربهم مناجين له. و هم الذين توثقت صلتهم ببعضهم، فمبدأ الشورى في الأمور الهامة الخاصة منها والعامة مرجعهم يعتمدون عليه، ويطبقون ما يصلون إليه بواسطته. تطهرت نفوسهم من الشح والأثرة، فهم ينفقون من الرزق الذي مكناهم منه بأريحية. وأنهم لاعتزازهم بإيمانهم يدفعون الظلم وينصر بعضهم بعضا، فأمرهم واحد.

والقاعدة أن من انتصر ممن ظلمه أنه لا يتجاوز القدر الذي ظلم به. و لكن الذي يعفو عمن ظلمه، ويعمل على إزالة رواسب العداء فإن الله قد تكفل بأجره وهو ذو الفضل العظيم. والله لا يحب الظالمين فلا يدخلهم في رحمته وكرامته.

والذي انتصر لنفسه فرد على الظالم اعتداءه فلا ملامة عليه ولا عقاب، ولا مؤاخذة. ينفرد بالمؤاخذة والعقاب الذين يظلمون الناس ويتعدون بغير حق على حقوقهم، ويتجبرون في الأرض فيخرجون عن سنن الحق والعدل، إن هؤلاء الظلمة المفسدين اختصوا بأن لهم العذاب الأليم الذين يحسون به أشد الإحساس.

وإن المؤمنين الذين تحملوا الأذى من المشركين وصبروا عليه الصبر الإيجابي لا صبر الاستسلام ، هؤلاء بلغ مستواهم الإنساني مقاما رفيعا وهم أولو العزم ، كما نوه القرآن بأولي العزم من الرسل .

إن من يصمم على الإعراض عن الهداية الربانية يحرمه الله من توفيقه ولا يسعفه بالألطاف التي تبصره بالحق، ومن حرم هذه الألطاف الإلهية فإنه لا يجد وليا غير الله يهديه فيستمر على ضلاله إلى أن يؤاخذ بما قدم.

بيان المعنى العام :

35ـويعلم الذين يجادلون...ما لهم من محيص.

نبهت الآية السابقة إلى آية من آيات الله، وهي السفن في البحر، هي بحمولتها من البشر والسلع تنفذ فيها إرادة الله. فهي إما أن تواصل سيرها سليمة إلى الوجهة التي تقصدها، وإما أن تسكن فلا تتحرك، وإما أن تهيج العواصف الهوجاء فيبتلعها قاع البحر. فأثبتت أنهم مع سفنهم ومتاعهم واقعون تحت تصرف الله. ولكن المشركين يقدمون التأويلات ويفرضون الفروض التي لا أساس لها، رغبة منهم في الجدل الباطل ، وصرفا لأتباعهم عن الاعتبار بحكمة الله وعموم تقديره. فأعلنت هذه الآية أن مظاهر التصرف في الآية السابقة ينفذ حتما إلى عقول المشركين، و يعلم الذين يجادلون في آيات الله، أنه قد أطبق عليهم التقدير الإلهي، فهم محصورون في حدوده ، لا يجدون مخرجا مما قدر لهم . وأصل المحيص أن يتحرك المحصور تحركا متخبطا للبحث عن مخرج مما هو فيه فلا يجده. فسلامتهم، أو سكون السفن بهم ، أو غرقهم ،هو مآلهم في أسفارهم ولا يمكنهم أن يتمردوا على ما قدر لهم .

36ـفما أوتيتم من شيء ...وعلى ربهم يتوكلون.

تعددت الآيات والنعم في الآيات السابقة من بسط الرزق، وإنزال الغيث ، وما بث في الكون من دواب ، والسفن التي تصل بين أطراف الأرض، كل هذه النعم التي تبتهلون بها ، وتعلقون بها آمالكم وتبتهجون بها؛ إن ما تحصلون عليه منها، لا يعدو أن يكون حاصلا تتمتعون به متاعا محدودا وفانياً، شأن كل ما يصل للإنسان في الدنيا. وإن المدخر عند الله، هو خير وأفضل من كل متاع الدنيا، وهو أيضا عطاء باق لا يفنى، ادخره سبحانه للذين من صفاتهم :

1 –أنهم جمعوا بين الإيمان ، فلم يشركوا بربهم أحدا، وبين كونهم لا يعتمدون إلا عليه ليقينهم أن كل الأمور بيده.

37ـوالذين استجابوا ... ومما رزقناهم ينفقون

أتبع للذين آمنوا الذين من صفاتهم أنهم على ربهم يتوكلون، بتسجيل أن من صفاتهم أيضا:

2–أنهم يبتعدون عن كبائر الآثام التي اعتنى الشارع الحكيم بدعوة الناس إلى اجتنابها لما يترتب عليها من فساد عظيم، كالسرقة، والزنا، والغيبة ،والسرقة، والتعدي على الأعراض بالقذف والكذب وقتل النفس ...

3- وهم الذين يتحكمون في أرجاعهم فإذا ما استثيروا فغضبوا، لا يكون رد فعلهم عنيفا وسريعا، بل يتغلبون بعقولهم على نار الغيظ ،فيغفرون للمتعدين من إخوانهم المؤمنين تجاوزاتهم .وهذا مستوى رفيع من التعقل، بعدم الاندفاع مع العواطف المشبوبة ، يمكن من حسن النظر إلى المستقبل.

38 ـوالذين استجابوا لربهم...ينفقون.

-4 و هم الذين جمعوا بين الصفات الأربع: **الاستجابة لأمر ربهم، وأقاموا لصلاة، وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقناهم ينفقون.** فلنتتبع هذه الباقة .

أ-الاستجابة تدل على قوة الإجابة، ويتم ذلك بالإسراع دون تردد إلى تنفيذ ما أمروا به، تَعَلَّق الأمر بالعبادة، أو الجهاد، أو بذل الأموال، أو السلوك، وبصفة عامة كل ما يأمرهم به الوحي الرباني .

ب- إقامة الصلاة بأدائها في أوقاتها، مستحضرا أنه يناجي ربه، ويتصل به معرضا عن شواغل الدنيا، وصارفا لحديث النفس القاطع للصلة الراقية بالله.

جـ- أن دأبهم هو التعاون الفكري بينهم، تقوم علاقاتهم على الود الذي يتبعه أن كل فرد منهم يجتهد لينصح لأخيه، ويغسل من نفسه داء الأنانية التي تجعل صاحبها يعمل على إظهار تميزه. كل فرد ينتفع وينفع بالتجارب الماضية، وبما لفكره من نبضات نيرة تلقي بأشعتها على المستقبل لتتكشف البواطن الخفية التي تحمي من الشر والتعثر، وتُقَرِّب من النجاح وتزيح المعوقات.

د- أن نفوسهم الطيبة قد تطهرت من داء الشح، والتعلق بالمال، فهم يستحضرون أن ما بين أيديهم من أموال، هو من رزق الله ومن فضله عليهم، وبذلك تطاوعهم نفوسهم للإنفاق ويكون عليهم ميسورا.

39ـوالذين إذا أصابهم ...هم ينتصرون.

وهم الذين إذا سلط عليهم الظلم، كان لهم من عزة نفوسهم ما يدفعون به الظلم، وينتصرون لحرمتهم المنتهكة من الظلمة المعتدين، وبإبائهم للضيم يقطعون على الظلمة تمردهم واستهتارهم بغيرهم. والانتصار يكون بالطرق المشروعة، التي أصلها الرفع للقضاء إن كان المظلوم بمحلة تنفذ فيها الأحكام العادلة. و لذلك يرى جمهور العلماء أن المؤمن إذا بغى على مؤمن وظلمه فلا يجوز للآخر أن ينتصف منه. مثال ذلك أن يخون إنسان آخر، ثم يتمكن المعتدى عليه من خيانة الأول، فمذهب مالك رحمه الله تعالى: **ألا يفعل.** وقد قال ﷺ: ولا تخن من خانك. الحديث خرجه أبو داود والترمذي.

40ـ و جزاء سيئة...إنه لا يحب الظالمين.

هذه الآية مركبة من ثلاث جمل: **وجزاء سيئة سيئة مثلها- فمن عفا وأصلح فأجره على الله – إنه لا يحب الظالمين.**

الجملة الأولى: أفادت الجملة الأولى: أن من اعتدى على غيره فأساء إليه وآذاه، فإن للمعتدى عليه أن يرد الإذاية السيئة بمثلها ولا يتجاوز. والمماثلة قد تكون ممكنة كقتل القاتل، أو إتلاف عضو مثل العضو المعتدى عليه. وتعويض المثلي كالمصنوعات الآلية، وما يكال أو يوزن أو يعد في التعامل العرفي، وقد يتعذر ذلك فيصار إلى المشابهة المقاربة للإذاية عرفا. و ذلك كإتلاف المقومات التي يمكن معرفة قيمتها، ولا يوجد لها مثيل، فيقتصر على القيمة وفي تحديد تطبيقات هذه الآية على الواقع مجال للنظر الفقهي تحقيقا للعدالة.

الجملة الثانية: مركبة من أمرين العفو، و الإصلاح. أما العفو فمعناه ترك المؤاخذة. وأما الإصلاح فبعمل ينبئ عن ذهاب ما في نفس المعتدى عليه من آثار الاعتداء. و هو ما أشارت إليه الآية(**ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم**). و الظاهر أن هذا يختلف باختلاف نفسية المعتدين، فمنهم النبيل الذي يوقعه الإحسان في التأنيب الذاتي ويحمله على إكرام العافي. ومنهم اللئيم الذي يتمرد بالعفو ،وهذا يكون رد الإساءة بمثلها أولى . ومن أوقع العفو في محله يسمو أجره إلى مرتبة أنه مكفول عند الله لا يضيع .وقد روى الزمخشري عن النبي صلى الله عليه وسلم :إذا كان يوم القيامة نادى مناد: من كان له أجر عند الله فليقم .فيقوم خلق .فيقال لهم : ما أجركم على الله ؟ فيقولون: نحن الذين عفونا عمن ظلمنا .

الجملة الثالثة :تفهم الآية على أن المقصود بها، تنبيه من انتصر لظلمه أن لا يتجاوز حد المماثلة ، فإنه لو تجاوزها انقلب ظالما، والله لا يحبه، فيكون معرضا لعقاب الله. كما يمكن أن تفهم الآية على أنها معطوفة على كلام مقدر: إن الله يحب العافين ولا يحب الظالمين ، فتكون الجملة تحريضا على العفو والعافي مأجور، وتهديدا لمن ظلم مؤمنا بأنه عرض نفسه ليكون مبغضا من الله، مستحقا للعقوبة على ظلمه .

41ـ ولمن انتصر من بعد ...من سبيل .

بعد أن تعرضت الآية السابقة إلى ما يمكن أن يقع بين الناس في تعاملاتهم من إذاية أحدهم لغيره، وأنه لا يلام المتعدى عليه من رد السيئة بمثلها، ولا يتجاوز في الإساءة فالتجاوز ظلم والظالم مبغض عند الله مبعد من رحمته، وأن العافي مأجور

عند الله .أضافت هذه الآية تدقيقا بتقريرها ، أن رد السيئة بمثلها، ومن انتصر لنفسه من الذي ظلمه، إن هذه الفئة لا يتوجه لها لوم ولا عقاب لا في الدنيا ولا في الآخرة.

42ـ إنما السبيل على الذين...عذاب أليم.

يختص باستحقاق اللوم والعقاب في الدنيا والآخرة الذين يظلمون الناس بالتعدي على حقوقهم أو كرامتهم. إن الظلم لا يقتصر فساده على المظلوم، وإنما هو يعتبر عامل فساد في الأرض، لما يحدثه الظلم من اختلال في النظام الاجتماعي، وتفكك في الروابط الاجتماعية. وتحقيقا لآثاره السيئة أتبعت الآية الظلم بأنه مجانب للحق دائما .إن الله العظيم الآمر بالعدل، الذي استخلف الانسان في الأرض يعمرها ، والظلم معطل لعمارتها، يتوعد الظالم بعقاب أليم.

43ـولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور.

بكل تأكيد إن من تغلب على عواطفه، فلم يجز السيئة بمثلها ، وعفا عمن ظلمه وفوض أمره إلى الله، فإنه قد ارتقى إلى مستوى رفيع من قوة الإرادة . ذلك أن الصابر على الأذى المتبع صبره بغفران إذاية المعتدي، هو من أصحاب العزم الذين قويت إرادتهم ومضت عزيمتهم تهتك كل المقاومات للمضي في طريقها لصالح. أثنى الله على أصحاب العزم من الرسل قال تعالى: (**فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل**)[1] والغائصون على تحقيق مقاصد الشريعة يعملون الآية إذا لم يتمرد المعفو عنهم فيضاعفون ظلمهم ففي هذه الحالة يكون توقيفهم عند حدهم، وجزاؤهم بالمثل أولى كسرا لتجبرهم. واستهانتهم بكرامة الناس وحقوقهم، واغترارهم بالعفو .

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته *** وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

44ـومن يضلل الله...إلى مرد من سبيل .

بصرت الآيات السابقة البشر إلى الطريقة الهادية للنجاح في الحياة، كما حذرتهم العواقب السيئة لمن لم يحترمها. وإذ تبينت الحقيقة واضحة ، فإن لله لم يقصر البشر على اتباع طريق الهدى ، ولكن ترك لهم الاختيار ، فمن اختار طريق الهداية أسعفه الله بألطافه ليمضي في طريقه الراشد ، ومن اختار طريق الضلالة ، مُولِّيًا ظهره للمنهج الرباني حرم الألطاف التي تثبته على الهدى . فمعنى ومن يضلل الله ،يتركه لنفسه ، فإنك لا تجد له وليا هاديا يهتم به ويرشده ، فيستمر على

---

[1] سورة الأحقاف آية35

ضلاله .إن تلكم الألطاف بيد الله وحده. وهو سبحانه لا يتيحها إلا لمن عزم على الخير وعلى الاستعانة بالله . و من انصرف عن التعرض لهدايته فلا تجد أحدا يهديه بعد حرمانه منها بسب إعراضه.

أبرزت الآية بعد ذلك صورة المخذولين يوم القيامة الذين فقدوا في الدنيا الولي الهادي. تراهم يا محمد، أو كل من يصح منه الرؤية باعتبار أن ما سيرد افتضح فكل من تتصور منه الرؤية يراه. ما هذه الصورة التي لا تخفى لشناعتها ؟ هي صورة الظالمين في عرصات القيامة ، وقد تأكد لديهم مصيرهم الخاسر والعذاب الذي يترصدهم ، يعيدون ويكررون في لهفة: هل هناك من طريق للعودة إلى الحياة الدنيا لنصلح ما فرطنا فيه ؟

وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

يعرضون :تمر بهم ملائكة العذاب. على النار .

خاشعين : –خاضعين مستسلمين أذلاء.

من طرف خفي :بتحريك ضعيف لأجفانهم. يسترقون النظر.

مقيم :دائم.

الاستجابة : الإجابة المؤكدة بطاعة الله.

ملجأ: من شيء يقيكم العذاب.

نكير:إنكار لما اقترفتموه .

بيان المعنى الإجمالي :

كل من يمكنه الرؤية يرى الذين ظلموا بشركهم وتكذيبهم، يراهم والملائكة يعرضونهم على النار الموقدة، فيستولي عليهم اليأس، ويغشاهم الذل، يسترقون

النظر بين الفينة والأخرى، آملين أن يكون العذاب قد ابتعد عنهم فيعودون بالخيبة. ويحرك أسماعهم تقريع المؤمنين لهم بقولهم: إن الخاسرين حقا في هذا اليوم هم الظالمون بالشرك والتكذيب، خسروا أنفسهم فصب عليها العذاب صبا، وخسروا أهليهم إذ لا تبقى أي صلة نسب بينهم. لا بنوة ولا أبوة ولا زوجية ولا عصبية. ويحقق مالك يوم الدين الله رب العالمين أنهم منغمسون في العذاب لا يبرحونه.

ذهبت عنهم الأصنام التي كانوا يعتقدون أنها تنصرهم، فلا يوجد ناصر يوم القيامة إلا الله. ومن يحرم هداية الله تنسد في وجهه جميع الطرق

أسرعوا بإنقاذ أنفسكم، وطبقوا شرعه، ما دام في الوقت فسحة، قبل أن يحل يوم شديد لا راد له، يأتيكم من الله، فلا تجدون مكانا يقيكم العذاب الذي وصف لكم، ولا يقدر أحد منكم على إنكار شي مما عمل في الدنيا.

لا تغتمَّ يا محمد إنْ واصَلَ المشركون إعراضهم عن اتباع ما أنزل إليك وواصلوا إقامتهم على الشرك وسلوك طريق الضلال، فما كلفناك أن تجبرهم على الإيمان بك، والذي كلفناك به هو تبليغهم ما أنزل إليك، وقد فعلت. إن شأن الإنسان الذي لم يستقم عقله بالإيمان أنه إذا وصَلَتْ إليه رحمتنا التي وسعت كل شيء من صحة ومال وذرية واستقامة أمر ،أنه يفرح بذلك فرحا ينكر معه واهب النعم وينسب كل شيء صالح إلى نفسه، على أنه من حسن تدبيره وذكائه، وفي المقابل إذا أصابه ما يؤلمه ويسوؤه، وهو في الحقيقة نتيجة لما قام به سيء الفعال، فإنه يزداد كفرا، عوض أن يعود لنفسه بالنقد والإصلاح.

بيان المعنى العام:

45ـوتراهم يعرضون عليها...في عذاب مقيم.

هذه حالة أخرى من أحوال الظالمين بكفرهم، يُبْصرها كل راء ، تكشف صورتهم مبرزة الخطوط الكبرى لما يلقونه يوم القيامة . تراهم والملائكة يعرضونهم على النار، قد استولى عليهم اليأس والندم ،وانكسرت نفوسهم تنطق مظاهرهم بما هم عليهم من الذل، يسترقون النظر للعذاب الماثل أمامهم، شأن الفار يجري، ويلتفت تارة لينظر إلى ملا حقه أين هو منه. ومما يضاعف عذابهم ما يدخل أسماعهم من تعليق المؤمنين عليهم، إذ يقول المؤمنون الذين كانوا محل استهزاء من الظالمين في الدنيا، يقولون بصوت جهير: إن الخاسرين حقا، هم الذين تعروا ففقدوا كل ما ينفع، وتجردوا من كل صالح، ولم يبق معهم شيء، بل إن وضعهم أسوأ من التاجر الذي ذهبت أمواله وأفلس، لأنهم خسروا أنفسهم التي كانوا يحرصون كل الحرص على ترفيهها وتنعيمها واستجابة شهواتها ، فإذا هي

اليوم في العذاب والنكال والمهانة، وخسروا أهليهم ،فلا أنساب بينهم. و تختم الآية بكلمة الفصل من رب العزة جاءت تذييلا لكل ما سبق: ألا– انتبهوا واعلموا: أن الظالمين بسبب شركهم وتكذيبهم منغمسون في العذاب الدائم الذي لا يزول.

46ـ وما كان لهم ...من سبيل .

و يحقق ثانيا أنهم لا يجدون في هذا اليوم وليا ينصرهم، ويقف إلى جانبهم بالتأييد والدفاع، كما كانوا يظنون أن آلهتهم تنفعهم بذلك. إنه لا ناصر في هذا اليوم إلا الله. و من يحرمه الله ألطافه تنسد أمامه جميع الطرق، ويكون محصورا في يأسه لا يجد مخرجا مما هو فيه لا هداية في الدنيا، ولا مفر يوم القيامة.

47ـاستجيبوا لربكم...وما لكم من نكير.

ما تقدم في الآيات السابقة من تفصيل ما يلقاه الظالمون، المقصد الأهم منه هو أن يقلع الظالمون عن ظلمهم وأن يتحولوا من ظلام الكفر إلى الإيمان، فدعاهم القرآن بالأمر الجازم أن يطيعوا الله وأن يطبقوا شرعه الذي بلغهم، ونبَّهَهم إلى انه ما زالت أمامهم فسحة ليصلحوا شأنهم، فليسرعوا من قبل أن يأتي يوم شديد .يأتيكم هذا اليوم من الله الذي لا معقب لحكمه ولا يرد ما نفذه . إنه يوم لا يجد فيه أي ظالم أي ملجأ يتقي فيه من عذاب الله، فالعذاب ينزل عليه حتما. ولا يمكنه أن ينكر شيئا مما اقترفه في الدنيا أو يقدم عنه عذرا.

48ـفإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا...فإن الإنسان لكفور.

بعد ذلك الأمر الجازم "**استجيبوا**" وتنبيههم إلى أن ما يزال في الوقت فسحة لإنقاذ أنفسهم ، عقبه بتسلية الرسول ﷺ إذا هم واصلوا تصلبهم في الكفر، لا تبتئس ولا تحزن إذا هم لم يؤمنوا وأعرضوا عنك وواصلوا إقامتهم على الشرك والضلال ،إنا ما أرسلناك لتكون متسلطا عليهم قاهرا لهم على اتباعك ، تحفظهم جبرا من طريق الضلال. مهمتك محصورة في إبلاغهم ما أنزلناه إليك و بيانُه. فقد أديت ما أنت مكلف به و أمين عليه .إنهم إن أعرضوا عن اتباعك ، فهذا ليس أمرا غريبا في المواقف البشرية . فقد كفر بي أكثر الناس وأعرضوا عن عبادتي واتبعوا شهواتهم وما يدعوهم إليه الشيطان .

إنا إذا أوصلنا إلى الإنسان نعمة من خيراتنا غير المحدودة من الصحة والغنى والأمن، والذرية والمنزلة الاجتماعية فاستمتع بها وسعد وأحس بها أشد الإحساس "**أذقنا**" استولى عليه الفرح بما هو فيه من رخاء وظروف مواتية، فرحا يخرجه من الاعتراف بفضل واهب النعم إلى الاستخفاف بفضله وكفران نعمته ونسبتها إلى

نفسه، فيتضاعف زهوُّهُ .وفي المقابل فإنه إذا أصابه ما يسوؤه من مرض وفقر وخوف و سقوط منزلة وعقوق الذرية ،وهي في حقيقة أمرها جزاء ما اقترفوه من ذنوب ،و ما تجاوزوا به حدود الله فظلموا، وسيء فعالهم؛ ولكن الإنسان لا يتأمل تأمل العقل الكاشف عن الأسباب الحقيقية، فيصلح نفسه، بل يمضي في كفره وجحوده لنعم الله عليه مع أن ما يسوؤه قليل بالنسبة للنعم التي يعيش في ظلالها. هذا هو شأن الإنسان إذا لم يشرق قلبه بالإيمان وتستنير بصيرته بالتعلق بالله.

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

يزوجهم : يقرنهم.

العقيم : الذي لا يولد له كان رجلا أو امرأة.

الوحي : الإشارة الخفية.

علي: عظيم القدر أسمى من أن يحيط به الخيال.

حكيم : الذي لا يخفى عنه قليل ولا كثير في تصرفه.

الروح: القرآن لأنه به تحيا النفوس وتسلم.

من أمرنا: من شأننا العظيم فكان كلاما معجزا.

جعلناه : جعلنا الكتاب.

بيان المعنى الإجمالي:

تفرد الله بملك السماوات والأرض و ما فيهما .يدلك لذلك أنه هو وحده المتصرف في الإيجاد، ولا يتدخل أحد سواه في الخلق . خذ لذلك مثلا . من طبيعة الإنسان أنه حريص على أن يخلفه نسله. يتزوج لتحقيق ذلك، ولكن الإنجاب لا يتبع إرادة

المنجبين. فهو سبحانه يهب إناثا فقـط لمـن يشـاء ، ويهـب ذكـورا فقـط لمـن يشـاء، ويهب لمن يشاء ذكورا وإناثا، ويحرم من يشاء مـن الإنجـاب فيكـون عقيمـا. فالرغبـة الفطرية والسعي لا يحققان ما يريـده الإنسـان. إذ الخلـق بيـد الله وحـده. لأنـه العلـيم بخفايا الأمور وهو القدير على تنفيذ ما علم كما عَلِمَ.

إنه لا يتهيأ لأي بشر أن يكلمه الله إلا بأحـد الطـرق الثلاثـة "1" أن يـوحي إليـه وحيـا يحس الموحى إليه في نفسه يقينا أنه تلقـى كلامـا مـن عنـد الله ."2" أن يكلمـه بكـلام يسمعه دون أن يرى المتكلم "3"أن يرسـل رسـولا مـن ملائكتـه يحمّلـه الـوحي الـذي يريد فيبلغ الملك ذلك الوحي إلى النبـي أو الرسـول. إن الله أسـمى مـن كـل تصـور، تعالى في جلاله يتصرف فـي الكـون بالحكمـة البالغـة ، لأن الحكمـة وصـف أزلـي ثابت فهو الحكيم الكامل .

و على سنتنا تلك التي جرت مع المرسلين أوحينا إليـك يـا محمـد القـرآن الـذي أحيـا النفوس فتحركت سامية إلى الحق، وتفتحت علـى الخيـر والهـدى. إن مـا بلغتـه اليـوم هو من فضل الله عليك، وتقريبك واختيارك، فإنك ماكنـت تـدري قبـل ذلـك شـيئا مـن حقيقة القرآن وما كنت تدري تفاصيل الإيمـان ، ولكنـا أردنـا أن نجعـل مـا أوحينـاه إليك نورا مضيئا نهدي به من نشاء من عبادنا الـذين أقبلـوا علـى الـوحي واتّقـين منـه عاملين به راغبين رغبة أكيدة أن يكونوا ممثلين لهديـه، فـنَمُنُّ علـيهم بألطافنـا. و بكـل تأكيد، لك يا محمد دور في هدايتهم إلى الطريـق المسـتقيم المنجـي: طريـق الله المالـك لما في السماوات وما في الأرض، ولذلك فإنـه وحـده الخبيـر بمـا يصـلح النـاس فـي العاجل والآجل. وكل ما حصل صائر إليه سبحانه ،مثبت عنده ،فيجزي عنه بالعدل

بيان المعنى العام :

49←50: لله ملك السماوات والأرض...إنه عليم قدير.

تتابعت الآيات داعية للنظـر فـي آيـات الله المنبثـة فـي الكـون الدالـة علـى كمـال التصرف والحكمة . فعبرت هذه الآية عما جاء فيهـا بـإعلان الحقيقـة التـي يُـذَكِّر بهـا القرآن حتى تستقر في القلـوب والعقـول. هـي أن الله تفـرد بملـك السـماوات والأرض لا يشاركه أحد في ملكيته لهما. ويقوم الدليل على ذلك بأنـه هـو الخـالق وحـده وغيـره عاجز عن الخلق، يشهد لذلك ما تلاحظونه فـي أقـرب شـيء لكـم، فهـو الـذي ييسـر للمرأة أن تحمل وتلد أنثى ويتكرر الحمـل أو لا يتكـرر ولكنهـا لا تنجـب إلا إناثـا، أو تحمل ذكرا ويتكرر كذلك الحمل أو لا يتكـرر ولكـن لا تنجـب إلا ذكـورا، أو يتكـرر الحمل فتلد من الجنسين ذكورا وإناثا. و يحصـل اللقـاء الجنسـي بـين الرجـل والمـرأة ولكن يكون أحدهما أو كلاهما عقيما فلا ينجبـان ولـدا. إن هـذا التصـرف فـي أقـرب

شيء للإنسان، مع شدة تعلقه به، وعجزه عن تحقيق رغبته، ينادي بأن الخالق هو الله، وهو المالك لجميع الأمور. إن ما يحدث ليس وليد المصادفة ولكنه برز للوجود حسب ما سطره الله في علمه، وحسبما تعلقت قدرته، فهو العليم القدير. و عِلْمُ الإنسان الذي ارتبط الإنجاب به محدود في الدائرة التي مكنه الله منها، وكذلك قدرته. إنه من اليوم الذي يتم فيه تلقيح البييضة يتحقق ما علمه الله من كونها ذكرا أو أنثى، ويتطور حتى يبلغ وقت وضعه حسب علم الله، أو يلفظه الرحم قبل أوانه. و ليتأمل التالي في هذا النص معمقا، ليستكشف أن ما التصق بالذهن الجماعي من الاستبشار بولادة الذكور دون الإناث، هو من رواسب الجاهلية. فلولا الإناث ما تواصل الوجود الإنساني على الأرض. وتأملوا في قوله تعالى: (**يهب لمن يشاء إناثا**) فهن هبة من الله، وكفى بالمرء سوء أدب أن يسخط هبة ربه. بل إن الآية قدمت في الامتنان الإناث على الذكور. وختام الآية يشير إلى أن ما يسعد الأسرة بما يولد لها لا يعلمه إلا الله، فهو وحده العليم بما يحصل في المستقبل .فعلى المؤمن أن يحمد الله على ما رزقه، وأن يرضى بما قدره له .

51ـ وما كان لبشر...إنه علي حكيم.

تتعطف هذه الآية على ما ثبت في فاتحتها من أن ما تلقاه النبي ﷺ هو وحي من الله " **حم عسق كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم**" آية3 وقوله: " **وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا**" آية7- وهذه الحقيقة عارضها المشركون أشد معارضة ، وطلبوا أن ينزل الله ملكا، أو ينزل كتابا مخطوطا يقرأونه، ونحو ذلك من أنواع الجدال بالباطل ، والشبهات التي يُرَوِّجونها على الدهماء .

فأفادت الآية أنه لا يتأتى لبشر أن يكلمه الله إلا بطريقة من طرق ثلاث:

* أ- الوحي

*ب - من وراء حجاب

* ج - أن يرسل رسولا يوحي له فيُبَلِّغ الرسول ما أوحاه الله إليه

أولا: الوحي: مبنى الوحي على الخفاء، فيوحي الناظر مثلا بلحظه معاني يفهمها مخاطبه دون أن ينطق بكلمة، إما بالرضا أو السخط، و الحب أو الجفاء، و التهديد أو الأمن. كقول الشاعر:

حواجبنا تقضي الحوائج بيننا ***نحن سكوت والهوى يتكلم

والوحي الإلهي ،عبارة عن معان يحدثها سبحانه في فكر الإنسان ، يصحبها وثوق بأن الحاصل حق لا شك فيه وارد من عند الله ،وثوق أبلغ من شعوره بأنه ينطق . و تحدث في لحظة واحدة في الشعور، ثم يفصل العقل مضامينها. ويحدث هذا

الوحي لأنبياء الله و رسله، كمـا يسـعد بـه بعـض الأصـفياء. روى البخـاري ومسـلم والترمذي واللفظ للبخاري بسنده إلى أبي هريـرة قـال: قـال رسـول الله ﷺ:(لقـد كـان فيما قبلكم من الأمم محدثون(بفـتح الـدال المشـددة) فـإن يـك مـن أمتـي أحـد فإنـه عمر)[1]–

ثانيا: **من وراء حجاب** يحس المخاطب بأنـه يسـمع كلامـا مـن شـيء يخلقـه الله، دون أن يرى المخاطَبُ المتكلمَ، ويحس معه إحساسـا صـادقا يقينيـا أنـه يسـمع كلامـا مـن عند الله، دون أن يتوسط في ذلك مَلَكٌ، كما تم لموسى عليـه السـلام فـي الطـور. وكمـا تم لمحمد ﷺ ليلة المعراج . قال تعالى: (**ثم دنـا فتـدلى فكـان قـاب قوسـين أو أدنـى فأوحى لعبده ما أوحى ما كذب الفؤاد ما رأى**)[2]

ثالثا: أن يكلف الله الملك بتبليغ كلام يعيه عن رب العـزة، فيتلقـاه الرسـول منـه ويثبـت في ذاكرته. يتحمل الملك جبريل أو غيره رسالة فيوصلها إلـى النبـي فـي لحظـة يكـون فيها الرسول بين الوضع الإنساني، وبين الوضع الملكـي. وهـو معنـى قولـه: (**فيـوحي بإذنه ما يشاء**) .أي إن الله يرسل ملكا رسولا محمـلا بكـلام يأذنـه الله بتحملـه ليوصـله إلى الرسول. فالملك يعي عن الله مراده فينتقش فـي نفسـه فـي صـورة كـلام، ويبلغـه للرسول فيثبت في قلبه مؤداه بما يساويه ألفاظـا وحروفـا. و إن مـا نقـرأه مـن القـرآن هو كلام الله. قرب ذلك الإمام أبو بكـر البـاقلاني قـائلا: (إن كـلام الله الأزلـي مقـروء بألسنتنا، محفوظ في قلوبنا، مسموع بآذاننـا، مكتـوب فـي مصـاحفنا، غيـر حـال فـي شيء من ذلك .كما أن الله معلوم بقلوبنا، مذكور بألسـنتنا، معبـود فـي محاريبنـا، وهـو غير حال في شيء من ذلـك. و القـراءة والقـارئ مخلوقـان، كمـا أن العلـم والمعرفـة مخلوقان، والمعلوم والمعروف قـديمان) . فـالكلام النفسـي القـائم بـذات الله قـديم بـلا حروف، ولا تقديم، ولا تأخير، ولا أي وصف من متعلقـات كـلام المحـدثين، ومـا يـدل عليه الكلام النفسي هو الذي نقرأه، وهـو مسـاو فـي مضـمونه للكـلام النفسـي دون أن تكون له أي خاصية منه.

إنه سبحانه علي: تعالى أن يكون علـى صـفة مـن صـفات المخلـوقين ، رفيـع منـزه عن كل ما يتصوره الخيال. كل ما تصرف فيـه يـدل علـى الحكمـة الكاملـة فـلا تجـد ثغرة ولا نقصا ناشئا عن غفلة. و مخاطبته في كـل ظـرف علـى صـفة مـن الصـفات الثلاث هو تابع لحكمته، لا مدخل للمصادفة في أفعاله.

---

[1] فتح الباري ج8ص50/49

[2] سورة النجم آية11/8

52.وكذلك أوحينا إليك ...صراط مستقيم.

وعلى ذلك النحو من مخاطبة الرسل، أوحينا إليك ما أوحيناه ، فأنت لست بدعا من الرسل، ولكن هي سنة الله مع من اصطفاهم من عباده لتلقي وحيه. فأوحينا إليك روحا من أمرنا، أي أوحينا إليك القرآن الذي به تحيا به العقول والأرواح، كما أن الجسم يكون جثة لا تفعل ،حتى إذا حلت فيه الروح صلح للحياة .وكذلك الأرواح والعقول تكون حائرة تتجاذبها المتناقضات، وتعمى عليها السبل المبلغة للنجاح، فبالقرآن وبما أوحاه الله من طرق العبادة، وأحكام المعاملات والتوجيهات الرشيدة التي صدرت عنه سبحانه تحيا النفوس، وتكون على الوضع الأمثل الذي تسعد به في الحياة الدنيا وفي الآخرة .

ثم نوهت الآية بذلكم الوحي وحققت أنه من عند الله الكامل، وأن شرف محمد أنه مبلغ عن الله، وليس منشئا، فإنه على رفيع قدره ما كان يدري، قبل أن ينزل عليه الوحي، نص القرآن المعجز في لفظه، الجامع للهدى في مضامينه. فمحمد عليه الصلاة والسلام ليس له دخل في نص القرآن، الذي تلقاه وبلغه دون زيادة ولا نقصان. كما أنه ما كان يدري قبل نزول الوحي المنظومة العقدية كاملة، وما اتضحت معالمها إلا بواسطة الوحي. نعم، كان النبي ﷺ قبل أن يوحى إليه مؤمنا بالله، ولكن الإيمان غير منحصر في الإيمان بوجود الله، وصورة الكمال الإلهي أتمها الوحي، وقدمها واضحة نقية من كل شائبة ،كما أن الغيب ما عُلِم إلا من الوحي، كالحشر والنشر، والجنة والنار، والميزان والقدر. ومع أنك ما كنت تدري حقيقة القرآن، فإننا جعلناه نورا يكشف الحق، ويظهر عوج الباطل وسَقَطَه، نهدي به من نشاء من عبادنا ،الذين أقبلوا عليه مستمسكين بهداه ،وفتحوا عقولهم وقلوبهم لنهجه الراشد. واجتهدوا في تطبيق أحكامه و إجرائها على علاقاتهم بالناس وبالكون.

و عطف القرآن على مكانة القرآن العظيمة والمتميزة، دور رسول الله ﷺ في نشر الهداية، وإقناع البشر بالخير وتنفيرهم من الشر. إنك بكل تأكيد يا محمد تهدي البشر، بقوة حجتك، ووضوح رؤيتك، وبلاغة منطقك، وقوة ذكائك، تهديهم إلى الطريق السالك الذي لا عوج له، الذي يبلغ به سالكه من أخصر طريق الغاية التي هي الفوز في الدنيا والآخرة.

53.صراط الله ...ألا إلى الله تصير الأمور.

يلح القرآن على ربط الرسول بربه، فالطريق المستقيم الذي يهدي إليه محمد ﷺ هو طريق الله، المالك لما في السماوات وما في الأرض، الذي لا يخفى عنه شيء

من مكوناتهما، العليم بما يصلح الإنسان ،ويفتح لــه مســالك النجــاح ،والفــوز برضــوان ربه .

ألا إلى الله. بهذه الجملة الجامعة القاطعــة لكــل جــدال، ختمــت الســورة مفتتحــة ب"ألا" الموقظة للانتباه. منذرة بوعيد الخارجين عــن حــدود الله، مبشــرة الطــائعين الصــالحين. وذلك بالتأكيد أن كل ما وقع في الدنيا من خيــر أوشــر مرفــوع إلــى الله لا يهمــل منــه شيء . فسوف تظهر الحقائق يوم القيامة كما ظهــرت فــي الــدنيا . بشــارة للمــؤمنين أن زكي أعمالهم صائرة إلى علمه سبحانه موثقة، وهم مجزيون عنها .

17ذو الحجة 1434-2013/10/22

سورة الزخرف

هذا هو الاسم الذي سميت به في المصـاحف و فـي كتـب التفسـير. و وجـه تسـميتها، أن كلمة " زخرف" لم تذكر إلا فيها، ولم تتكرر مـرة أخـرى فـي بـاقي السـور. نزلـت على رسول الله ﷺ قبل الهجرة. رتبتهـا حسـب ترتيـب المصـحف الثالثـة والأربعـون. وحسب ترتيب النزول الثانية والستون نزلت بعد سـورة فصـلت وقبـل سـورة الـدخان. وهي الرابعة من الحواميم .

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ
فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضۡرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكۡرَ صَفۡحًا إِن كُنتُمۡ
قَوۡمٗا مُّسۡرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمۡ أَرۡسَلۡنَا مِن نَّبِيّٖ فِي ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأۡتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُواْ
بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهۡلَكۡنَآ أَشَدَّ مِنۡهُم بَطۡشٗا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

جعلناه: الجعل الإيجاد والتكوين.

تعقلون : تفهمون أغراضه ومقاصده.

أم **الكتاب** : علم الله المثبت في اللوح المحفوظ.

علي :رفيع الشأن .

حكيم : جامع للحكمة التي بها صلاح الناس.

نضرب : نصرف عنكم إنزال القرآن.

الذكر :القرآن.

صفحا: صرفا تبعده عنكم.

الأولين : الأمم السابقة.

البطش : الإضرار القوي.

مضى **مثل الأولين** : انقرض، فاستأصلنا الأولين الأشد بطشا.

بيان المعنى الإجمالي :

هذه هي السورة الرابعة من الحواميم السبع .افتتحـت بحـرفين حـا. مـيم . تبعهـا قسـم بالكتاب الواضح الذي هو القرآن، والمقسم عليـه هـو القـرآن. فبـالنظر إلـى أن نصـه مأمور بكتابته، هو كتاب، وبالنظر إلى دعـوة المـؤمنين لحفظـه فـي قلـوبهم وقراءتـه بالاعتماد على ذلك هو قرآن. جعل الله هذا القرآن باللغة العربيـة لمـا تفـردت بـه يـوم نزول الوحي من المزايا المساعدة علـى تحمـل واسـع معانيـه ، وصـلوحيتها لتجـاوز زمن نزوله إلى أبد الآبدين . ولما كان واضـحا بطبيعتـه عربيـا بلغـتكم فبـذلك يتـرجح فهمكم لنصه ، وتأثر عقولكم بهديه.

إن القرآن ثابت لدينا في اللوح المحفـوظ لا يدخلـه التحريـف، ولا الزيـادة ولا الـنقص كتاب سما عن جميع الكتب عليُّ الشـأن ،جـامع للحكمـة المرشـدة للبشـر فـي جميـع الأزمنة والظروف .

أتريدون بإعراضكم عن التأمل في القرآن أن أصـرف إنزالـه عـنكم صـرفا كليـا ؟ إن كنتم قوما مبالغين في تجاوز الحق والانغماس في الباطل.

لا تحزن يا محمد من إعراض قومـك، فقـد أرسـلنا قبلـك فـي الأمـم السـابقة أنبيـاء كثيرين. واتحدت مواقفهم مـن أنبيـائهم. فكلمـا جـاءهم نبـي بالهـدى والحـق قـابلوه بالاستهزاء واسترسلوا في سخريتهم. لـم نهملهـم وسـلطنا علـيهم مـا استأصـلهم مـن الوجود رغم أنهم كانوا أشد إضرارا من قومك، وعلـى هـذا النحـو جـرى الأمـر فيمـا مضى، وسيصيب قومك ما أصابهم.

بيان المعنى العام:

1ـحـم .

افتتحت السورة بحرفين .**حا** .**ميم**. و هي السورة الرابعـة المفتتحـة بهمـا. ويقـال فيهـا ما قيل في السور المفتتحة بالحروف المقطعة.

2ـو الكتاب المبين.

قَسَم **بالكتاب المبين**. و هو الكـلام المعجـز الـذي أنـزل علـى رسـول الله ﷺ ، الـذي تعبدنا الله بلفظه ومضامينه عقيـدة وتشـريعا، وجعلـه حجـة باقيـة إلـى أبـد الآبـدين. وأطلق عليه لفظ الكتاب وإن كان نزل وحيـا لفظيـا، لأن النبـي ﷺ كـان مـأمورا بـأن يسجل كتابةً عقب تلقيه، كل نص نـزل عليـه. فاتخـذ ﷺ مـن الصـحابة كتبـة للـوحي مطبقا بذلك أمر ربه. ثم إن تلك النصوص المكتوبة جمعت فـي عهـد أبـي بكـر رضـي الله عنه، وتطابقت مع المحفوظ في ذاكرة الصحابة رضـوان الله علـيهم تطابقـا كليـا لـم يقع التردد في أي كلمة منـه. واسـتمر حفـظ القـرآن مـن أي اخـتلال عبـر القـرون

بواسطتي الكتابة والنقل بالحفظ . و ما وقع في عهد عثمان ﷺ إنما هو استنساخ نسخ منه، وإرسالها إلى الآفاق لتعتمد. فعثمان قام بدور الناشر وليس الجامع كما يروجه بعض الجهلة.

إذن أقسم الله بالكتاب الموصوف بكونه مبينا، وهذا الوصف يحتمل أن يقصد به أنه واضح في ذاته، كما يمكن أن يقصد به أنه مبين لطريق الهدى بما أزاح من شبهات الضلالة، وأبان للبشرية ما تحتاج إليه في عقيدتها وتشريعها وسلوكها.

3ـ إنا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون.

تمثل هذه الآية المقسم عليه ، **إنا جعلناه قرآنا عربيا** .فأقسم سبحانه بالكتاب: القرآن ،على أنه أراد جعله قرآنا .فالمقسم به والمقسم عليه شيء واحد. وذلك إشارة إلى عزة القرآن و كماله، فالبلاغة تقتضي أنه إذا أُريد أن يقسم على القرآن كان أفضل ما يقسم به هو القرآن ذاته.

وفي جعله قرآنا يفيد، أنه يمكن أن يقرأ من الكتاب وبدون كتاب من حفظ القارئ، وذلك من خواص القرآن، فلم يوفق أهل أي دين من الأديان إلى حفظ نص كتابهم في صدورهم . ومع تيسير حفظه في الصدور جعله عربيا، بلغة العرب التي جمعت من المزايا في عصر التنزيل ما لم تجمعه لغة أخرى من الدقة والاتساع في الدلالات بأخصر طريق.

و لما كان بلغتهم، وكان نسجه بينا واضحا، وكان نصه لا يقتضي جهدا للتثبت منه أنه قرآن، تجمع من ذلك ما يرجح أن يفهمه المنزّل بلغتهم، وينفذ إلى مداركهم فيقيمها على نهجه. فحسب طبيعته تلك وخصائصه يكون رجاء فهمه والاهتداء به راجحا.

4ـ وإنه في أم الكتاب لعلي حكيم.

مواصلة للثناء على القرآن والتنويه به. إن القرآن مثبت في اللوح المحفوظ قال تعالى: (**بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ**)[1] قدرنا أن يكون القرآن لا يلحقه التغيير ولا التبديل. وإنه لعليُّ الشأن تفرد بالإعجاز، وسما على كل الكتب لفظا ومعنى. وهو حكيم صالح لهداية البشرية على اختلاف ظروفها ومستواها الحضاري.

5ـ أفنضرب عنكم الذكر ...قوما مسرفين.

استفهام إنكاري، مؤداه: أتسعون إلى أن أصرف عنكم إنزال القرآن صرفا بليغا، لتواصلِ إعراضكم عنه، وصدودِكم عن سماعه، ومجادلتِكم له بالباطل ؟ أفعل هذا

---

[1] سورة البروج آية 21/20

بكم إن كنتم قوما تمكن الإسـراف فـي الضـر مـنكم، وتجـاوز الحـدود. وفـي قـراءة النص بإن الشرطية " **إن كنتم قوما مسرفين** "ما يشير إلـى أن إسـرافهم مـا كـان مـن حقه أن يصدر منهم ، وأن في القرآن ما يهـديهم إلـى الرشـد .وعلـى قـراءة "**إن كنـتم قوما مسرفين** "تكون الخاتمة تعليلا للاستفهام .

6—›8:وكم أرسلنا من نبي ...ومضى مثل الأولين.

هددت الآية السابقة مشركي مكـة ، لقـوة إعراضـهم. وكانـت مـواقفهم تلـك موجبـة لأسى النبي ﷺ ، فخاطبه ربه في هذه الآية بما يسليه، و يخفـف عنـه أسـاه. فـذكّره أنـه سبحانه قد أرسل قبله في الأمم السابقة أنبيـاء كثيـرين ليقومـوا بهـدايتهم إلـى الإيمـان وإلى الصراط المستقيم . و كان موقـف المبعـوث إلـيهم موقفـا واحـدا متكـررا، أنهـم يقابلون جدية ما يأتيهم به الأنبيـاء بالسـخرية والاسـتهزاء .فـلا تحـزن مـن إعـراض قومك وسخريتهم فإنها سنة المكذبين. و مما يثبتك يا محمـد أنـا أهلكنـا تلـك الأمـم مـع أنهم كانوا أشد بطشا، وأقدر على الإضرار. ولكن ذلك الشـر البـالغ الـذي كـانوا عليـه انتهى إلى انقراضهم وذهابهم من الوجود.

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾ ٱلَّذِى
جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾ وَٱلَّذِى نَزَّلَ
مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١١﴾ وَٱلَّذِى خَلَقَ
ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْفُلْكِ وَٱلْأَنْعَٰمِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُۥا عَلَىٰ ظُهُورِهِۦ
ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا ٱسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا
كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

المهاد: موطأة ميسرة للإقامة .

سبل : طرق سالكة.

تهتدون: الهداية الدلالة على المكان المقصود.

الإنشار :الإحياء .

الأزواج : ذكور الحيوان وإناثه.

الركوب : اعتلاء الدابة للسير عليها.

استوى :علا واستقر.

التسخير: التذليل والتطويع.

مقرنين : المقرن الغالب الضابط للأمر المستولي عليه

منقلبون : راجعون.

بيان المعنى الإجمالي :

إنك إن سألتهم يا محمد سـؤالا دقيقـا: مـن خلـق السـماوات والأرض ؟ لتلجـئنهم إلـى الإجابة، وتواصل حصرهم فـي الموضـوع، ودفـع مـا يقدمونـه مـن شـبهات فـإنهم سيضطرون إلى الاعتراف بأن الخالق لهمـا ،هـو الله المتصـف بـالعزة، الـذي يخضـع كل شيء لإرادته، العليم علما مستويا بالماضي والحاضـر والمـآل، لا يغيـب عنـه مـن أمر خلقه قليل ولا كثير.

تميز ربنا بصفات الكمال. فمنها:

أنه هو الذي مهد الأرض لسكنى الإنسان، ويسر انتقـال البشـر بـين أركانهـا بواسـطة الطرق السابلة، وذلك مما يرجح اهتداءكم إلى الانتفاع بما يسره الله لكم.

أنه هو الذي نزل من السماء ماء، وتحكم فـي مقـاديره تحكمـا يحمـي الأرض وسـكانها من الطوفان ، فأحيا بذلك الماء النازل مـن السـماء وجـه الأرض بالنبـات، ومـا عليهـا من حيوان وإنسان، ومصانع. و يقوم ذلك دلـيلا علـى البعـث فكمـا أحيـا الأرض بعـد موتها كذلك يبعثكم يوم القيامة.

و إنه هو الذي خلق من كل شيء زوجين ليـتم التكـاثر وتواصـل النعمـة. ومـن نعمـه أن جعل لكم ظهور الخيـل والحميـر والإبـل لتركبوهـا، وبنـى الكـون علـى قـوانين وأقدركم على الاستفادة منها فأنشأتم السـفن لتركبوهـا أيضـا. و لتعلـوا عليهـا متمكنـين من توجيهها إلـى الوجهـة التـي تقصـدون فتـبلغكم. وهـداكم لتسـتيقظوا فـي حـال ملابستكم لتلكم النعم ، فتقدروها أحسن التقـدير وتعبـروا عـن شـكر مفيضـها ،قـائلين: تنزه ربنا عن كل نقص، فما أكمل خلقه وما أعظـم مننـه! فهـو الـذي طـوع لنـا هـذه الوسائل. و جهدُنا وقدراتنا لا تستطيع تحقيق ما حققـه لنـا. ونعتـرف أنهـا نعـم زائلـة وأننا راجعون إليه يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

9ـ ولئن سألتهم...خلقهن العزيز العليم.

الاستدلال بهذه الآيـة دقيـق. ذلـك أن المشـركين لاهـون بعبـادة أصـنامهم، يتقربـون إليها، ونسجوا حولها من أوهامهم ما رفعها إلـى درجـة التقـديس. و توارثـوا ذلـك مـن أسلافهم فاستقرت في نفوسهم هالـة حجبـت أنظـارهم عـن التفكيـر فـي سـلامة مـا يعتقدون. وصدمهم الإسلام بدعوته إلـى توحيـد الله ونفـي الشـرك ، فزلـزلهم ،ولكـنهم

كما قال الله فيهم : (بل هم قوم خصمون)[1] كانوا يجـادلون بالباطـل ليزهقـوا بـه الحـق .وكان النبي ﷺ يستدل عليهم بمـا يلجـئهم إلـى الاستسـلام والتسـليم بخطـئهم وفسـاد عقيدتهم .ومن طرقه أنه كان يلقي عليهم الأسـئلة التـي تلجـئهم إلـى التسـليم بمـا كـان يقصد إلزامهم به من ورائها. فذكر القرآن في مناسـبات أربـع أنـك تسـتطيع أن تلجـئهم إلى الاعتـراف بتفـرد الله بـالخلق (ولـئن سـألتهم مـن خلـق السـماوات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقـولن الله)[2] ولـئن سـألتهم مـن خلـق السـماوات والأرض ليقولن الله)[3] ولئن سألتهم مـن خلـق السـماوات والأرض ليقـولن الله)[4] وهـذه الآيـة التي نتابع معانيها . و لا أفهم أنه بمجرد مـا يلقـي علـيهم السـؤال يعترفـون بالحقيقـة، فهم قوم تدربوا على اللجاج والخصام، فالوجه أن النبـي ﷺ ينطلـق مـن هـذه الحقيقـة ويضيق عليهم الخناق، حتى يُقِـرُّوا بـأن الله هـو خـالق السـماوات والأرض. لأنهـم لا يستطيعون بعد توالي الأسئلة ومجابهتهم بـالواقع أن يواصـلوا التمسـك بالشـبه. فهـم لا ينهارون إلا بعد حصرهم والتضييق عليهم بإسقاط شـبهاتهم واحـدة بعـد واحـدة. وبهـذا يكون اعترافهم في هذه الآية بأنه خلقهن العزيـز العلـيم، لا بصـدر مـنهم جوابـا عمـن خلق السماوات والأرض فقط، بل تتـوالى الأسـئلة بحكمـة، حتـى يـذعنوا إلـى أن الله هو الخالق، وأنه خلقها لأنه عزيز يخضع كل شـيء لإرادتـه، ولا يخـرج عـن طاعتـه. و تم بناؤهما على الوضع الذي هما عليه لأنه علـيم بـدقائق الصـنع فـلا يحـدث خلـل فيما أنجزه . و يبقى إقامتهم على الشرك لا مستند له إلا العناد.

10ـالذي جعل لكم الأرض ..لعلكم تهتدون.

بعد أن أثبت الحقيقـة الأولـى: أن الله هـو خـالق السـماوات والأرض وأحكـم خلقهـا لعزته وعلمه، ثنى بتفصيل ما قدره فيها من نعـم راعـى فيهـا تيسـير الحيـاة والتعـاون الاجتماعي بين ساكنيها .

أولا: لفت الأنظار إلـى أنـه قـدر أن تكـون الأرض ممهـدة لسـكنى البشـر، ترامـت سهولها، كأنهـا فـراش. و يسـر السـير بـين أقطارهـا، والتواصـل بـين الجماعـات البشرية، ليتبادلوا المنافع ويحصل بيـنهم التعـاون علـى التقـدم بالحضـارة. إنـه يتأكـد الرجاء بهذا التقدير أن تهتدوا لتلكم المسالك، وأن تحققوا الغايات من السير فيها.

[1] الزخرف 58

[2] سورة العنكبوت آية61

[3] سورة لقمان آية 24

[4] سورة الزمر آية38

11ـو الذي نزل من السماء...كذلك تخرجون.

ثانيا: إنه سبحانه هو الذي تصرف في الأرض بما يصلحها بعد خلقها ، فأنزل من السماء مياه الأمطار، بمقادير مضبوطة تنشر الحياة ولا تفسد الأرض .ينزل الماء من السماء . تأملوا في آثاره: تسري الحياة في الأرض الجرداء، ويتحرك فيها كل شيء. ترعى الحيوانات وتتوالد، ويفلح الإنسان الأرض فيحبلها بمتنوع الأقوات. والماء ركن أساس في الصناعة فلا صناعة بدون ماء ، و من إعجاز القرآن قوله "بلدة"فكان التحول في البلدة النازل فيها ماء السماء يشمل جميع المظاهر النباتية والحيوانية والإنسانية والصناعية .وكما تتحول البلدة من وضع هامد لا حراك به، إلى وضع كله حركة وحياة متدفقة، فكذلك يتم يوم القيامة إخراجكم من قبوركم. فأدمج في العرض تحقيق البعث الذي يلح المشركون على رفضه وإنكاره.

12←13:والذي خلق الأزواج كلها...وماكنا له مقرنين.

ثالثا، ورابعا: إنه سبحانه هو الذي خلق من كل نوع زوجين ليتحقق تواصل التكاثر في الكون. والأرض واحدة والأنعام التي ينتفع بها الإنسان تختلف خصائصها ومنافعها، فالتقدير الحكيم والقدرة العظيمة تم به ذلكم التنوع الملبي لحاجات الإنسان. وكما خلق الأنعام فإنه هو الذي بنى الكون على سنن ثابتة وقواعد محكمة في الخلق ، وساعد الإنسان ليكتشف تلكم القوانين، ثم يستفيد منها فينشئ الفلك، ثم يستعين بها للانتقال في المسالك التي امتن بها في الآية السابقة، فيبلغ قصده محمولا غير منهوك النشاط .

إنه هداكم لتروضوا الخيل والبغال والحمير والإبل لتستقروا على ظهورها، وكذلك الفلك فألهمكم الصناعة الدقيقة التي بها أيضا يتم استقراركم وثباتكم رغم عدم ثبات وجه البحر بالأمواج.

ثم هداكم لتكون صلتكم بالمنعِم عليكم صلة حية متجددة كلما لابَسَتْكُمْ نعمه، فتستحضروا فضله عند ركوبكم ظهور الأنعام وهي طوع إرادتكم وقيادتكم ،وعند استوائكم في الفلك الذي يعلو سطح البحر، وأسفله من الماء ما يبتلعكم أنتم والفلك الذي يحملكم. لتستحضروا تلكم النعم، وتتبينوا أن عناية الله بكم عناية رحيمة مساعدة. فإذا جرى ذلك في مشاعركم وهز قلوبكم تعلنون بلسانكم شكره على تفضله، وتثنون على جميل كرمه وواسع عطائه.

ولقننا طريقة الشكر فتقولوا: **(سبحان الذي سخر لنا هذا)** .تنزه ربنا عن كل نقص، قدر فأحسن التقدير، ولطف تكرما فأعان ويسر، وليس به حاجة إلينا، ولكننا نحن

المحتاجون إلى عونه وفضله. سخر لنا هذا الذي نركبه ونسير على ظهره. ونعترف بأنا عاجزون غير مطيقين تسخير أي طاقة من تلك الطاقات.

14ـوإنا إلى ربنا لمنقلبون.

و يصحب هذا الاعتراف طبعا، تذكر أنها نعم زائلة، وأنكم ستعودون إلى ربكم ليحسن جزاءكم إذا أنتم شكرتم نعمه حق الشكر قولا وفعلا.

وَجَعَلُواْ لَهُۥ مِنۡ عِبَادِهِۦ جُزۡءًاۚ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخۡلُقُ بَنَاتٖ وَأَصۡفَىٰكُم بِٱلۡبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُاْ فِي ٱلۡحِلۡيَةِ وَهُوَ فِي ٱلۡخِصَامِ غَيۡرُ مُبِينٖ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلۡقَهُمۡۚ سَتُكۡتَبُ شَهَٰدَتُهُمۡ وَيُسۡـَٔلُونَ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

كفور: شديد الكفر.
مبين : واضح كفره.
الإصفاء : إعطاء الصفوة ، وهي الخيار من الشيء .
ضرب مثلا: جعله شبها.
ظل: صار.
مسودا : متغيظا ،مجللا بالحزن والكآبة.
الكظيم : الممسك عن الكلام من الكرب الذي هو فيه.
ينشأ : ينبت ويكبر
الحلية : ما يتزين به من الحلي.
الخصام : المحاجة والدخول في الحوار.
غير مبين : لا يبين غرضه بوضوح.

بيان المعنى الإجمالي:

من تناقض المشركين الواضح الفاضح، أنهم اعترفوا بأن الملائكة عبيده مخلوقون له، ثم ادعوا أنها جزء منه لأنها بناته من شريفات الجن. إن هذه المقالة منهم تكشف عن كون كفر الإنسان يكون شديدا واضحا إذا لم يستنر بنور الإيمان.

ثم يضاعف القرآن الإنكار عليهم، كاشفا عن تناقضهم منكرا عليهم سخفهم، كيف يقول عاقل إن الله خلق الملائكة إناثا واتخذهن بنات له. فكيف يخلق ثم يجعل المخلوق منتسبا له وشأن الولد أن يكون مثل والده ؟ثم كيف تجعلون له البنات مع

أنكم تدعون أن الله اختار لكم البنين لأنهم أفضل وأرفع مقاما في عرفكم الجاهلي؟ فآثركم على نفسه ، وأخذ هو الدون سواء أكان قولكم أنهن بنات الله نسبا أم تبنيا . وواصل التشنيع عليهم في مقالتهم تلك، بأن أحدهم إذا علم أن زوجه وضعت من جنس ما جعله شبيها لما للرحمن ، أي أنثى يتغيظ ويغتم ،ويخرس لسانه من شدة حزنه، ورفضه لما ولد له.

ومما يبرز أن ما روجوه باطل أنهم نسبوا لله العلي الأعلى من ينشأ في حياة اللين والحلي ولا يستطيع أن يقوم بالدفاع ،وقدرته على الحجاج ضعيفة لا تغني شيئا . فنسبوا لله الجانب الضعيف في الحرب وفي الحياة المدنية. ما أكذبهم حينما جعلوا الملائكة المقربين من الله المكرمين من الرحمن إناثا! هل أحضروا يوم خلقهم الله فشهدوا أنهم إناث. سيسجل في صحائفهم ما روجوه، ثم يوقفون يوم القيامة لينالوا عقابهم على افترائهم.

بيان المعنى العام :

15ـ جعلوا له ...لكفور مبين.

سجل القرآن مقالات المشركين مشنعا بتناقضهم، كأنهم لا عقول لهم يزنون بها ما يصدر عنهم. اعترفوا بأن الله خالق السماوات والأرض، واعترفوا بأن الملائكة عباده، بمعنى أنها مخلوقة له و مملوكة. و جعلوا جعلا لا سند له أن الملائكة جزء من الله، هنّ بناته من شريفات الجن. فكيف يكونون جزءا منه وهم عبيده. إن الإنسان إذا لم يستتر بنور الإيمان، يكون كفره شديدا، و واضحا.

16ـأم اتخذوا ...بالبنين.

افتتحت الآية بـ[أم] لتنبيه السامع إلى الانتقال من التسجيل لكفرهم إلى الاستدلال على بطلانه. والاستفهام إنكاري، ينكر عليهم مقالتهم : كيف يتخذ مما خلق بنات، فكون المخلوق بينه وبين خالقه نسب هو من اللامعقول. وكونه يتخذ بناتا تعتقدون أنها أحط من الذكور، واختار لكم الذكور الأفضل حسب تصوركم الاجتماعي، وقنع وهو العظيم الكامل بالأحط تناقض آخر، وغباء. فالاستفهام دال على التعجيب والتجهيل. و كلمة اتخذ تقطع عليهم التأويل لأن الاتخاذ كما يكون بالنسب يكون بالتبني لئلا يقولوا قصدنا أنه تبناهن. فكلاهما نقص منسوب لله الكامل الكمال المطلق.

17ـوإذابشرأحدهم ...وهو كظيم.

حققت هذه الآية ما تواطؤوا عليه في عرفهم الاجتماعي. وواصلت كشف سفههم، ذلك أن أي فرد منهم يبشر، وإطلاق التبشير تهكم لأنه لا يكون إلا فيما يدخل

السرور وهم يعتبرون ولادة الأنثى كارثة علـى والـدها ، إذا بشـر بـأن زوجـه ولـدت أنثى التي جعلوها شبيها لله باعتبار أنها جزء منه، امـتلأ غيظـا واربـد وجهـه تأسـفا، ويضيق عليه الكرب أنفاسه ، ويخرس لسانه فلا يـتكلم .يـذكر أحـد الأعـراب وضـعت له زوجه أنثى فهجر البيت الذي فيه المرأة فقالت:

ما لأبي حمزة لا يأتيـنا *** يظل في البـيت الذي يليـنا
غضبان أن لا نلـد البنينـا *** ليس لنـا من أمرنـا ما شينـا
وإنمـا نأخذ ما أُعْطِينـا

هكذا يكون الكفر موقعا لصاحبه في تناقض يحط قيمته ويظهر سخفه.

18ـأومن ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين.

أنكرت عليهم الآية السابقة نسبة البنات إلـى الله، مـع أنهـم يسـخطون أن تكـون لهـم بنات. و يجللهم الحزن والأسى من مصيبة الأنثى. ثم واصـل الإنكـار علـيهم فـي هـذه الآية؛ أو تجعلون أن الله اتخذ من ترتبط حياتهـا مـن أول وجودهـا بالزينـة، ولا تسـمو إلى عزائم الأمور. وإذا جد الجد للنصر والنـزال انكشـف ضـعفهن. و كـذلك وضـعهن في الحجاج و المجادلة لإظهـار الحـق و إسـقاط الباطـل، يضـعفن علـى الانتصـار بالقول. فهن إذا خاصمن لم يكن قادرات على الغلب والنصر.

<u>ومما ينبغي أن يعلم أن كل ما جاء في الآيتين هـو إلـزام للمشـركين حسـب أعـرافهم وتصوراتهم. وليس تقريرا لذلك التصور .</u>

19ـ وجعلوا الملائكة الذين هم عباد....ويسألون.

يواصل القرآن تزييف عقائـدهم فـي الملائكـة ، ويبطـل مـا يروجونـه فـي عقـول الدهماء . فافتتحت الآية بأن ما يدعونه من كون الملائكة إناثـا هـو جعـل مـنهم وكـذب وفرية لا سند لها. فالملائكة التي جعلوها إناثا هي طائفـة مكرمـة عنـد الـرحمن الـذين شرفهم بتقريبهم عنده، واختار اسم الـرحمن لمـا يشـير الاسـم مـن الرحمـة بهـم. إنَّ جعل المشركين كلام باطل من نسـج خيـالهم المـأفون . هـل أشـهدهم الله وأحضـرهم عندما خلق الملائكة ، وهو سؤال إنكاري توبيخي. فهـم كَذَبَـة أخبـروا عـن شـيء لـم يشهدوه ولم يحيطوا به علمـا. ثـم هـددهم بـأن مقـالتهم لا تـذهب أدراج الريـاح، بـل سَيُدَوِّنُهَا الملائكة الموكلون بهم لتسود بهـا صـحائفهم، ثـم يسـألون عنهـا يـوم القيامـة السؤال الذي يتبعه العقاب المناسب.

وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَا

ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٍ
مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ
﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم
بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

يخرصون : يظنون ظنا غير مستند إلى أساس .

مستمسكون : ثابتون بقوة عليه .

أمة : دين.

مترفوها: الذين ربوا في النعيم حتى انحلوا خلقيا.

انتقمنا : استأصلناهم.

فانظر: فتأمل وتفكر.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن أقوالهم المبنية على أوهامهم ، فقالوا: لو شاء الرحمن أن لا نعبد الأصنام ويحول بيننا وبين عبادتهم لفعل ، فجعلوا إمهالهم وعدم مؤاخذتهم دليل رضا من الله عن شركهم . و لا مستند لهم فمن أين علموا ذلك؟ ما يقولونه ظنون كاذبة لا دليل عليها من العقل، ولا من النقل فهل آتيناهم كتابا منزلا من عندنا من قَبْلِ القرآن يخبرهم برضانا عن عبادتهم الأصنام فهم مستمسكون بنصه ؟ وإذ حاجهم وأظهر زيفهم قالوا: نحن أوفياء لآبائنا .فقد وجدناهم مستمسكين بعبادة الأصنام ، فنحن نتبع ونقتدي بما أُثِرَ عنهم .وكفى بهذا سخفا. قل لهم قولا لينا معقولا: هل أنتم مصممون على اتباع آبائكم ولو جئتكم بدين هو أفضل هداية وإرشادا مما كان عليه آباؤكم ، أتتبعوني ؟ كان جوابهم حاسما كجواب الذين سبقوهم إنا بما تدعون أنكم أرسلتم به كافرون .فلنقطع معك الكلام. فسلط عليهم نقمته واستأصلهم فلم يبق لهم أثرا كما ذكر ذلك في كثير من آيات القرآن. فتأمل في العاقبة المهلكة التي آل إليها أمرهم.

بيان المعنى العام :

20ـوقالوا لو شاء الرحمن...إن هم إلا يخرصون.

تابع القرآن إبطال دعاوى المشركين. فكما أبطل بأنصع بيان، تصوراتهم للملائكة في الآيات السابقة ، ثنى في هذه الآية بالإجهاز على الشرك وعبادة الأصنام . إنهم

حسب منهجهم في التمسك بالشبهات، والجدال بالباطل قالوا لمحمد ﷺ ، وهو يقيم عليهم الحجة مهدما للشرك وعبادة الأصنام لقطعه عن تجديد دعوتهم للإيمان، قالوا له: لو كان الله يريد أن لا نعبد الأصنام لمنعنا من عبادتهم لأنه هو المتصرف في الكون، فلمّا لم يحل بيننا وبين ما تنهانا عنه ،فإن ذلك يدل على أن الله لا يريد منا ترك عبادة الأصنام. وهذا متمسك المتهاونين بإقامة ما أوجب عليهم الشارع الكريم، فيقول التاركون للصلاة: لو شاء الله أن نصلي لهدانا للصلاة، ويقول مثل هذا شارب الخمر وهكذا ...

يبطل القرآن هذه السفسطة، و يكشف عن زيفها فيقول: من أين لهم أن الله لم يشأ هدايتهم ؟ فالله سبحانه قد شاء من كل البشر أن يسلكوا الطريق المستقيم، فبعث رسله يخاطبون العقل والضمير بالاستقامة وفعل الخير والابتعاد عن الشر، وترك للناس الاختيار ليحاسبهم عن اختيارهم .والاختيار هو شرف الإنسان .بينما بقية الكائنات تسير في الطريق الذي قدره لها وهي غير مسؤولة .ودعواهم أن الله لم يشأ هدايتهم دعوى لا دليل عليها، وإنما هي ظنون كاذبة.

21ـأم آتيناهم كتابا...مستمسكون.

أم – كما تقرر في نظائرها هي للانتقال من مضمون إلى مضمون آخر ، فهي تُعِدُّ السامع لهذا التحول ، ويقدر بعدها همزة استفهام إنكاري: أيعتمدون على كتاب نزل عليهم قبل القرآن يدعوهم إلى عبادة الأصنام فهم يتمسكون بما ورد فيه أشد التمسك ويلتزمون بما جاء فيه ؟ و كما انتفى أن يكون لهم دليل من العقل انتفى أن يكون لهم دليل من التنزيل الإلهي، وكلاهما في إثبات الحقيقة سواء. فلم يبق لهم إلا أوهام باطلة من نسج الخيال.

22ـ بل قالوا إنا وجدنا...على آثرهم مهتدون.

–انتقال من إبطال دعواهم رضا الله عن عبادتهم الأصنامِ ، بعد أن أبطل القرآن شبهتهم ، إلى إبطال مقالة أخرى لهم ، يروجونها و يؤثرون بها على الدهماء. قالوا نسلم لكم أنه لا علم لنا بأن الله لم يرض عن عبادتنا الأصنام، وأنه لم يمكننا من كتاب قبل القرآن يكون لنا متمسكا في عبادتها . و لكن نحن نقدس آباءنا، ونحن أوفياء لهم، قد وجدناهم يعبدون الأصنام ويتقربون لها ويقيمون الطقوس التي يسترضونها بها. ونحن سائرون على آثارهم. وهذا من سفه عقولهم ، إذ بعث الله فيهم محمدا بالقرآن المعجز ، وبتشريع يمكنهم من سعادة الحياة في الدارين، ومع هذا يتبعون دين آبائهم مع ظهور بطلانه ومخالفته للعقل.

23ـ وكذلك ما أرسلنا...على آثارهم مقتدون.

لا تحزن يا محمد من مراوغة المشركين، ورفضهم للحق الواضح الذي أتيت به، فإنه على النحو الذي عاملك به قومك، قد سبق للمرسلين من قبلك، أنه كلما أرسلنا في قرية نذيرا ينبههم إلى ما يترصدهم من خسران، فإن المترفين المنعمسين منهم، رُؤَسَاءَهُمْ الذين انساقوا لشهواتهم حتى تحكمت فيهم، يردون على رسلهم بمثل رد قومك: يقولون: إنا وجدنا آباءنا على دين، وإنا متبعون لآثارهم. فهذه شنشنة الضالين المنغمسين في المادة .يزعجهم هديك الذي يحوّل سلوكهم وحياتهم من حياة الدعة والمتعة إلى حياة الجد والقيم.

24ـقل أولو جئتكم ...بما أرسلتم به كافرون.

قل لهم قولا يلطف عنادهم، ويفتح لهم شبهة الاستماع إليك، قل لهم: هل أنتم مصممون على اتباع ما وجدتم عليه آباءكم من عبادة الأصنام، وضوابط الحياة، وإن كان ما أعرضه عليكم، عندما تقارنونه بما كان عليه آباؤكم، وتتأملون فيه وتحكمون عقولكم، تجدونه أفضل وأسعد من دين آبائكم ،وبالتالي هو خير لكم؟
قالوا كما قال من سبقوهم جوابا عن ذلكم العرض قولا يقطع الرجاء في استماعهم للهدى الذي أخبرهم أنه سيأتيهم به، قالوا بكل تأكيد إنا بما أرسلتم به، وما تزعمون أنه أوحي به إليكم، إنا به كافرون رافضون.

25ـ فانتقمنا منهم...كان عاقبة المكذبين.

تبع تصلبهم في الكفر، وإعلانهم أنهم لا يقبلون هداية الرسل ولو كانت خيرا مما هم عليه، أن العزيز الجبار انتقم منهم فسلط عليهم عقابه الذي استأصلهم. كما جاء في مواضع كثيرة من القرآن. وإن مشركي قومك معرّضون لمثل ما تعرض له من سبقهم. فتأمل في ما أفضى إليه أمرهم، وليكن ذلك عبرة لمن يعتبر.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ
سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ
وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا
بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾
أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا

بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

براء: بريء.

فطرني : أبدعني.

في عقبه : في ذريته المنتسبين إليه.

يرجعون :يعودون إلى التوحيد إذ هم انحرفوا عنه.

متعت هؤلاء : متعت مشركي العرب بما يسرت لهم من الخيرات في جوار الكعبة.

الحق : القرآن.

مبين : صفة من كمالات الرسول أنه فصيح واضح الإبانة لما جاء به.

القريتين : مكة و الطائف.

عظيم : سيد في قريته.

سخريا : مجبور على العمل بدون اختياره.

خير مما يجمعون : من الأموال.

بيان المعنى الإجمالي:

اذكر لقومك إعلان أبيهم إبراهيم، لما قال لقومه: إني بريء مما تعبدون من دون الله. إني طهرت نفسي من عبادة الأصنام. ولكني سعدت بما هداني ربي إليه، وسيواصل هدايتي . وعمل إبراهيم على تثبيت كلمة التوحيد في ذريته حتى يتواصل التوحيد في نسله إلى يوم القيامة. و تأكد بذلك رجاؤه أن ينتبه بعض المنحرفين عن التوحيد فيعودون إليه.

أهملوا وصية أبيهم إبراهيم، ولم أعاجلهم بالعقوبة بل يسرت لهم أسباب النعيم في حياتهم، كما يسرتها لآبائهم، إلى أن جاءهم الحق المذكر لهم بوصية إبراهيم، على لسان رسول صادق، وضح ما جاء به فأحسن توضيحه وبيانه. ولما جاءهم الحق كان جوابهم هذا سحر، وعلى كل الأحوال والتقادير، فنحن مصممون على رفضه ولا نؤمن بشيء مما دعوتنا إليه ونحن مقيمون على عبادة الأصنام.

و تبعا لاستيلاء القيم المادية عليهم، قالوا، هلا نزل القرآن على رجل من إحدى القريتين: مكة أو الطائف له من المكانة المتميزة والعظمة في أنظار قومه لسعة ماله وكثرة أتباعه. ما هذه الوقاحة التي جاهروا بها ألا يستحيون ! (أهم يقسمون رحمة ربك) التي يملكها ولا يملك أحد منهم أي شيء منها. أَبَلَغَ بهم عمى البصيرة

أن لا ينظروا **(كيف قسمنا بينهم معايشهم في الحياة الدنيا)** بعضهم موسع عليه وبعضهم مضيق عليه، وهم ليسوا على مستوى واحد من الغنى أو الفقر، ومن الذكاء أو الغباء، ومن القدرة على التسيير أو العجز عنه. وكان هذا التفاوت سببا في تسخير بعضهم بعضا لخدمته، فيتعاونون على التقدم بالعمران والحضارة. ورحمة ربك يا محمد التي اختصك بها من الرسالة والتوفيق خير من كل ما جمعوه من المال والرئاسة. فأنت أعظم منهم جميعا.

بيان المعنى العام :

26←27:وإذ قال إبراهيم ...فإنه سيهدين.

واذكر يا محمد مقالة إبراهيم لتذكر بها قومك. الذين انتهوا في لجاجهم إلى قولهم: **(إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون)** ذكرهم بأن إبراهيم الذي يعتزون بالانتساب إليه، وهو أبوهم، أنه أعلن في قومه عقيدته قائلا: إني يا قومي بريء مما تعبدون من دون الله. عقيدتي غير ملوثة بالشرك الذي أنتم عليه. و لكني مرتبط بالذي أبدعني فإنه قد هداني إلى التوحيد ونبذ الشرك، وكشف لي عن الطريق المستقيم، وسيواصل هدايته لي.

إنه لو كان قومك يعقلون لكان الأولى بهم أن يتبعوا أباهم إبراهيم، فحتى دعوى اتباعهم لآبائهم، رجحوا في الاتباع ، الضُلّالَ من آبائهم. ويفهم من ذلك توبيخ المشركين تفضيلهم الشرك على التوحيد.

28.وجعلها كلمة باقية...لعلهم يرجعون.

تمسُّكُ إبراهيم ﷺ بالتوحيد تمسُّكٌ عميق في نفسه ﷺ ، جعله يسعى بكل قدراته إلى تثبيت مفهومه في قلوب أسرته. أبان لهم وأقنعهم بحقيقة التوحيد حتى رسخت في ذريته فتأثر بها أبناؤه ومن خلفهم، أنه لم ينقطع من عهد إبراهيم التوحيد فيما تناسل منه. جعل كلمة التوحيد مسترسلة في عقبه: وهم أولاد الأولاد الذكور. وصى بنيه الأقربين إسماعيل وإسحق ومن ولد له معهما ، كما وصى بها يعقوب وقال تعالى : **(ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بَنِيَّ إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)**[1]ونجد يوسف ﷺ في سجنه يقدم الدعوة إلى التوحيد على كل حديث مع رفاقه في السجن. كان إبراهيم لشدة ما ألح وتحوط في تثبيت كلمة التوحيد، راجيا قويَّ الرجاء أن يعود من انحرف من ذريته عن كلمة التوحيد. أن يعود إليها إذا ما ذُكِّرَ بها.

---

[1] سورة البقرة 132

29ـ بل متعت هؤلاء...ورسول مبين .

افتتحت الآية بكلمة "بل"لتنبه السامع إلى أن خيط الكلام قد انتقل من إبراهيم عليه السلام، وجدِّهِ المتواصل في إقامة التوحيد، إلى ذكر العرب الذين هم من ذريته. متعتُ قريشا بإقامتهم في مكة، ويسرتُ لهم ضروبا من النعيم، أطعمتهم وهم يسكنون واديا غير ذي زرع، وأمنت خوفهم، ويسرت لهم القيام بتجاراتهم، التي كانت تدر عليهم أرباحا غير قليلة، بين طرفي الجزيرة العربية. و كما رزقت الحاضرين زمن البعثة رزقتُ آباءهم من قبلهم، ولم أستأصلهم حتى بلَّغْهُم القرآنَ رسول أعطي الفصاحة، و وضوح العبارة، وحسن التأتي لقصده، والقدرة على تجلية الغامض حتى لم يبق أي مفهوم معمى غير واضح.

30←31: ولما جاءهم الحق... من القريتين عظيم .

سجلت الآية موقفهم من الرسول الذي جاءهم يذكرهم عهد أبيهم إبراهيم، ويبين لهم الحق: الكلمة التي وصَّاهم بها. و عوض أن يستفيقوا، ويراجعوا عقيدتهم وسلوكهم، قالوا: ما جئتنا به سحر؛ لأنك تفرق به بين المرء وزوجه، وبين الوالد والولد. ثم عبروا عن تصلبهم في الرفض فقالوا: لنيأس من اتباعنا لك، فسواء أكنت ساحرا، أم كاذبا، أم ناقلا لأخبار الأولين التي تملى عليك بكرة وأصيلا، فإنه على جميع الأحوال والتقادير نحن مصممون على الكفر بما جئت به.

ثم عللوا رفضهم بأن القيادة تقتضي أن يكون القائد عظيما في قريته. تنفذ شخصيته في المحيطين به . ولا بد أن يكون متميزا بعصبية عزيزة تنصره بأن يكون من مكة أو من الطائف (القريتين). ولا يبلغ هذا المستوى عندهم إلا من أوتي مالا واسعا. شأنهم شأن المعترضين على من يختارهم الله للمهمات لما فيهم من كمالات ذاتية. لاستيلاء الجهل عليهم لا يتأهل عندهم للقيادة إلا من كان ثريا ،كما قال اليهود لما قيل لهم: **(إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال)**[1]

32ـأهم يقسمون رحمة ربك ...خير مما يجمعون.

إنكار عليهم مقالتهم: لولا أنزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم. لقد استكبروا في أنفسهم، وتطاولوا إلى ما ليس من شأنهم ولا لهم فيه دخل. إن الاصطفاء لتحمل الرسالة مرتبة عظيمة يختار الله لها من ميزه بكمالات تؤهله لتحملها، وذلك من رحمة الله به . ورحمة الله يتصرف فيها وحده سبحانه ، ولا

---

[1] سورة البقرة آية 247

دخل للبشر في ذلك. كيف تطاولوا حتى اعترضوا على قسمته تعالى لرحمته ؟ هذه الرحمة التي تشمل الرسالة، والحكمة، والعلم، والتوفيق، كما تشمل جميع أنواع الرزق الدنيوي. فلينظروا ليجدوا أن ما استدلوا به على العظمة من وفرة الأموال، ليس ذلك للإنسان، ولكن الله يرزق من يشاء بالمقدار الذي يشاء، ولو كان الأمر للإنسان لكان جميع الناس أغنياء. فمن الناس من وسع عليه رزقه، ومنهم من ضيق عليه رزقه. ولم نسو بينهم في الرزق بل رفعنا بعضهم فوق بعض درجات، كما غايرنا بين منازلهم فمنهم القوي والضعيف، والواسع الآفاق ،والضيق التفكير، يقاد ولا يقود ،فالموسع عليه حاجاته كثيرة ، ونشاطه متنوع ،ويستعين بعدد وافر من الناس لينجزوا له أشغاله . و حتى ذلك الغني الذي يسخر غيره للعمل عنده، هو من ناحية أخرى مسخّرٌ لذلك العامل، يبيع له إنتاجه، ويستعين رجال الأعمال بالإطارات العالية المتكونة في مختلف الاختصاصات ليستفيدوا من خبراتهم في تسيير مشاريعهم، وتعريفهم بأفضل الطرق في الاستثمار. هكذا أراد سبحانه أن تكون خلافة الإنسان في الكون بالتعاون بين أفراده وجماعاته .

الناس للناس من بدو وحاضرة *** بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

ورحمة ربك يا محمد التي اختصك بها من اصطفائك للرسالة وختمها بك خير من كل ما جمعوا من مال وسؤدد وقوة. ويقرب الله نبيه في هذا الخطاب، ورحمة ربك إضافة الرب لمحمد، وهو رب العباد جميعا، في ذلك من الإيناس ومن التنويه ما لا يخفى. وكذلك ما يشعر به كلمة الرب من العناية و الرعاية.

وَلَوْلَا أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَٱلْءَاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

أمة واحدة : جماعة من البشر بينها ما يوحدها

الزخرف : الزينة .

معارج : جمع معراج المصاعد إلى العلالي .

يظهرون : يعلون.

يعش : مضارع عشا، إذا أصيب بظلمة في عينه. وعشى عنه صرف عنه.

نقيض: نهيء له شيطانا يلازمه.

المشرقين : المشرق والمغرب.

بيان المعنى الإجمالي :

يتعلق البشر بمتاع الحياة الدنيا وزخارفها، وهذا التعلق جعلهم يربطون بين السمو والمكانة العالية للإنسان، وبين ما يملكه من مال و ما عنده من ثروة. فأرشدهم الله إلى أن من أخص صفات متاع الحياة الدنيا الزوال، وأنه يصرف المتعلقين بها عن الخير، بل يصرفهم عن الاستعداد للحياة الآخرة. و لذا فإنه بلطف الله بعباده وتقديره أن لا يعم الكفر، لم يمكن الذين يكفرون بالرحمن من الأرزاق الواسعة، مع أنه قادر على ذلك، وأنها لا تغني عنهم من عذاب الله شيئا. إنه لو شاء لجعل للكافرين لبيوتهم سقفا من فضة ، وبيوتا ذات طوابق يعلون سطوحها مشرفين، ولَيَسَّرَ لهم بيوتا متعددة الغرف كل غرفة مستقلة ببابها ومفارشها وسررها التي يجلسون عليها مجالس الراحة والدعة ، ولجمع لهم بين الفضة والذهب والزخرفة والزينة بما يخلب أبصار المتعلقين بجمال الحياة الدنيا .ولكن كل ذلك متاع أخص صفاته الزوال. و النعيم المقيم هو ما كتبه الله لعباده المتقين في الآخرة، مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر. إن من يمر على آيات القرآن دون تأمل في مضامينها قاصدا عدم الاكتراث بها ، يحرمه الله هدايتها ، وعندها يهيء له الرحمن شيطانا يلازمه ويوسوس له.

وماذا يفعل الشياطين بمن يلازمونهم من العاشين عن ذكر الرحمن ؟ يزينون لهم الفساد والشر ، ويضللونهم بما يقلب الحقائق فيعتقدون الخير شرا والشر خيرا ،وهم يظنون أن تقديرهم هو الحق .

يواصل الشياطين إغواء قرنائهم، إذا لم يقطعوا صلاتهم بهم ويقبلوا على كتاب الله. تستمر تلكمِ الصلة إلى يوم البعث، يوم تتكشف الحقائق، فيقول المغوي لشيطانه، تعستُ بمخالطتك، أتمنى أني لم أعرفك وأنك كنت بعيدا عني بعد المشرق من المغرب. ما أسوأك وأفسدك من قرين ! تمنوا أن لم تكن لهم صلة بشياطينهم وقد رأوا مصيرهم . فقمعهم النداء المثبت لليأس في قلوبهم: لن ينفعكم التنصل والتبرؤ من الشياطين في هذا اليوم، فقد فاتكم الوقت الذي تنفعكم فيه التوبة، وانكشف اليومَ ظلمُكم انكشافا ينفي كل اعتذار. لا ينفعكم لأنكم مشتركون في

الضلالة في الدنيا واليوم أنتم مشتركون في العذاب. يبلـــغ عـــذاب كـــل فريـــق مـــنكم مـــا يتجاوز طاقات تحمله.

بيان المعنى العام

33←35: ولولا أن يكون الناس...عند ربك للمتقين.

مظاهر النعيم، والثروة والمـــال، تلهـــي النـــاس وتشـــغلهم، وتـــؤثر فـــيهم، ولكـــن الـــذين رزقوا الحكمة والسعة في عقولهم، والنفاذ في تفكيرهم إلـــى مـــا يبلغـــون بـــه إلـــى لـــب الحق، يفضلون على تلكم المظاهر، الكمالات الإنسانية مـــن ديـــن وتقـــوى وعلـــم وذكـــاء. ولكـــن معظـــم النـــاس يتعلقـــون بـــالنعيم المـــادي، ولا يربطـــون المســـببات بأســـبابها، ويُخدَعون بما يقترن بالشيء فيجعلونـــه ســـببا. فلمـــا كـــانوا يلحظـــون مـــن المجتمعـــات تعظيم الغنى وأصحاب المال، خصوهم بالكمال، وانحط فـــي نظـــرهم كـــل قيمـــة أخـــرى. فهم يفضلونهم على أصحاب النفـــوس الزكيـــة الصـــالحة. ذكّـــرتهم الآيـــة الســـابقة بـــأن المال يقسمه الله بين عباده لحِكَمٍ يعلمها وليس بينهـــا وبـــين الســـمو الإنســـاني أي رابطـــة. فمن الأغنياء شرفاء و فاسدون، ومن الفقراء كذلك شرفاء و منحطون.

و لما كان الله رحيما بعباده، لم يقدر أن يكـــون الشـــر غالبـــا مســـيطرا، وقـــدر أن يبقـــى في المجموعات البشرية صالحون. ولو مكـــن الكفـــار مـــن الثـــروات الطائلـــة والمظـــاهر الفاخرة في المتاع والسكنى واللباس، لعم الكفـــر وخـــدع النـــاس بتلـــك المظـــاهر مقـــدرين أن عبادة الأصنام سبب الثروة والخيرات الدنيوية. لولا مـــا يترتـــب علـــى بســـط الـــرزق على المشركين لجعلنا لمن يكفر بالرحمن، لجعلنا ســـقوف بيـــوتهم مـــن فضـــة، ولمكّنّـــاهم من مـــدارج يصـــعدون عليهـــا أي أن تكـــون بيـــوتهم ذات طوابـــق فيرتقـــون بمصـــاعد ليشرفوا على مشاهد الكون تحـــتهم ، ولجعلنـــا لبيـــوتهم أبوابـــا ممـــا يـــدل علـــى كثـــرة الغرف ، وأثاثا نص منه على السرر جمع سرير يجـــدون فـــي الجلـــوس عليهـــا الراحـــة المناسبة لأجسادهم، وزخرفا: والزخرف يطلق ويـــراد بـــه الـــذهب، ويطلـــق ويـــراد بـــه الزينة والفنون الجمالية في تزيين البيوت.

إن هذا الوصف يبعث فـــي الـــنفس صـــورة مـــن النعـــيم المـــادي لا يجمعهـــا إلا مالـــك السماوات والأرض الذي يهون عنـــده الـــذهب والفضـــة والزخـــارف والمبـــاني الرفيعـــة، وقد يتطلع لها التـــالي وتدغـــدغ خيالـــه. فيـــأتي عليهـــا القـــرآن مـــن قواعـــدها ليســـتفيق الإنسان من خياله الخادع، وينسفها ذاكـــرا أنهـــا لا تعـــدو أن تكـــون متاعـــا يســـتمتع بـــه الإنسان، تفنى كل لحظة ليعقبها الفناء التام وذهـــاب جميـــع الآثـــار، ويتبـــين فـــي النهايـــة أنها سراب خادع. و الآخرة عند ربك لا يملكهـــا غيـــره أعـــدها للمتقـــين الصـــالحين مـــن عباده.

36ـو من يعش....فهو له قرين.

هداية القرآن لائحة ، تفتح البصائر والعقول والقلوب، لتجد فيها مراتع تسمو بها إلى آفاق رفيعة ،تربطها بالخير وتبعدها عن الشر ، وتصل بينها وبين الطريق المستقيم فتبدو لها الغايات واضحة من البداية. يفوز بذلك من يتأمل في كتاب الله، ويأنس بمضامينه وينفعل به، وكلما زاد تأملا زاد قلبه إشراقا. وبالمقابل فإن من يُعْرِض عن القرآن ولا يتأمل في بيانه، ولا يتعمق في مضامينه، مثَلُهُم القرآن، وآيات القرآن تمر على أسماعهم دون أن تحرك عقولهم، بمن يمر على المشاهد وهو ضعيف البصر لا،ٍ لا يتأمل فيها، فلا يرتسم في نفسه شيء منها. فقوله تعالى: **ومن يعش** – ومن كان نظره في آيات القرآن كنظر الأعشى،يمر عليها دون أن يتبينها ، ولا يتأثر بها ولا تنفذ معانيها إلى عقله و روحه، يكون بذلك قد اختار البعد عن هدايته، وترجح عنده السير في طريق الضلال، لأن القرآن كتاب مبين فعدم تأثره به هو نتيجة عزم على الانصراف عنه وعدم الاحتفال به . والله لا يقسره على اتباع الحق ، بل يجري عليه سننه في الخليقة ، فمن اختار الهدى وطريق الخير ، هيأ الله له من الألطاف ما يواصل به مسيرته التي اختارها لنفسه . ومن يختار الانصراف عن ذكر الرحمن القرآن الحكيم، لا يحول بينه وبين ما عزم عليه. يهيئ له شيطانا يكون قرينا له، يملي له في الشهوات ويساعده على البعد عن طريق الحق . لأن الشيطان إذا وجد فراغا في العقيدة أسرع لتعميرها بوسوسته، وينعقد بينه وبين المنصرف صحبة تجعله يلازمه ولا ينفك عنه. ومن بديع التعبير في هذه الآية تعبير القرآن عن ملازمة الشيطان له بقوله :**نقَيِّض** – فكلمة نقيض مشتقة من القيض ، وهو قشر البيضة الحافظ لما في باطنها ، الشيطان يلازم المنصرف عن تدبر آيات القرآن ، يحيط به من جميع الجوانب ولا يتركه لحظة وأكد الملازمة بقوله تعالى :فهو له قرين .

37ـوإنهم ليصدونهم ...أنهم مهتدون.

وإن الشياطين ليصدون الذين يعشون عن ذكر الرحمن عن اتباع الطريق الآمنة المبلغة للهدف .بمعنى أنهم يقربون لهم ملاهي تأخذهم عن سواء الطريق لينحرفوا عنها ويتيهوا في الضلال . ومن شدة مكر الشياطين وتضليلهم أن قلبوا الحقائق في أنظارهم فجعلوهم يعتقدون الضلال صوابا والشر خيرا.

38ـحتى إذا جاءانا...فبئس القرين.

يتواصل تأثير الشيطان في العاشين عن ذكر الرحمن ، وكل خطوة تتبعها خطوة أخرى ، فإذا لم ينتبه العاشي ويقبل على كتاب الله تفهما وتطبيقا ، يأتيان معا يوم القيامة للحساب ، وعندها يتبين المضَلَّلُ سوء عاقبته ، ويلتفت إلى قرينه الغاوي

فيقول متبرما من صحبته قائلا: يا ليت ! أتمنى لو لم يقع ما فات ولا يمكن تحقق أمنيتي ، أتمنى أن لولم تكن لي بك صلة ، ما عرفتك ولا عرفتني . ليتك كنتَ بعيدا عني أشد البعد، بعد المشرق عن المغرب. فالمشرقين تثنية المشرق والمغرب تغليبا للمشرق، كقولهم القمران للشمس والقمر. ثم يعبر عن إحساسه بتلك الصحبة فيقول: إنك بئس القرين جلبت لي الخسارة والتعاسة .

39ـولن ينفعكم...مشتركون.

عبر العاشون عن ذكر الرحمن في الآية السابقة ،عبروا عن سخطهم عن قرنائهم الشياطين الذين زينوا لهم طريق الضلال، وعن ندمهم الشديد لما عرفوا مصيرهم يوم القيامة. قد يفهم من كلامهم أنهم يلقون التبعة على قرنائهم، فقمعتهم هذه الآية مبينة أن حسرتهم على ما مضى هو في يوم لا ينفع فيه ندم. وعلل استحقاقهم للعذاب واليأس ،بقوله :إذ ظلمتم أي بسبب ظلمكم المحقق المكشوف في هذا اليوم، لأنكم بسبب ذلك الظلم منكم باتباع الشياطين والصُّدُود عن القرآن، وظلم الشياطين بصرف خبثهم لتواصلوا طريق الضلال الذي زينوه لكم . فأنتم مشتركون مع الشياطين في العذاب لا ينفعكم تنَصُّلٌ ولا لوم.

أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ أَوْ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ وَمَن كَانَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوْ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِى وَعَدْنَٰهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِم مُّقْتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

نذهبن بك : ننقلك من الحياة الدنيا إلى الحياة الآخرة بالموت .نتوفينك.

الاقتدار : شدة القدرة .

الاستمساك : قوة المسك .

ذكر : شرف لك ولقومك.

بيان المعنى الإجمالي :

لا تحمل يا محمد نفسك فوق طاقتها ، أفأنت تستطيع أن تحول الناس الذين أصموا آذانهم عن سماع الوحي ، وأغمضوا أبصارهم عن النظر في الشواهد المعلنة عن

صدقك ، والذين انغمسوا في الضلالة فلا ينفذ إلى قلوبهم شعاع من نور الهداية ؟ أتستطيع أن تحولهم عن وضعهم الذي يعملون كل يوم على تقويته ؟إنهم يزيدون مع الزمن بعدا من الحق الذي أنت عليه وتدعوهم إليه.

لا تستبطئ يا محمد وعيدنا للمشركين ، فإنا سننتقم منهم سواء بعد وفاتك أو في حياتك فتراهم ممزقين شر ممزق لا ينفلتون من عذابنا المقدر لهم. وإن القرآن المنزل عليك ليبني لك ولقومك شرفا. فبالقرآن يذكرون ويأخذون منزلتهم في الحضارة الإنسانية. ولولا القرآن لما كان للعرب شأن في تاريخ البشرية، ولا عرفوا هم ولا لغتهم. وسوف تسألون عن هذا الكتاب العزيز، يسأل المشركون عن تفريطهم، ويسأل المؤمنون عن وفائهم له فيجزون خير الجزاء يوم القيامة.

ثم أسقط القرآن عبادة الأصنام زيادة على ما تقدم من مخالفته للعقل، وأنه لا دليل عليه من كتاب منزل، بعرض سؤال يسأله النبي ﷺ لعلماء أهل الكتاب، هل يجدون فيما أنزل عليهم ما يدعوهم إلى عبادة الأصنام. ولا يكون جوابهم إلا بالنفي المطلق، فيسقط كل مستند للمشركين في عبادتهم.

بيان المعنى العام :

40ـ أفأنت تسمع الصم ...في ضلال مبين.

كان حرص النبي صلى الله عليه وسلم على إيمان المشركين من قريش ، حرصا شديدا ، لم يفتر عن التذكير ، ولم ينثن عن الدعوة والتبيين ، كان موقنا أن الله ناصر دينه ،وأن هدايته ستنفذ إلى القلوب فتزيل منها الشك وتعمرها باليقين. كان بهذا اليقين الثابت في نفسه يجدُّ ويجتهد آملا غير يائس. و في المقابل لم يجد من قريش إلا الإعراض والمكابرة. تقول له هذه الآية في صيغة سؤال إنكار: عجب لك يا محمد أفأنت بحرصك تقدر على أن تقلب الأصم سميعا أو الأعمى بصيرا أو المغرق في الضلالة الذي سد على نفسه كل منافذ الهدى مهتديا ! فالآية تصور الذين لا يصيخون أسماعهم لما يتلى عليهم من آيات الله بالصم، إذا كانت آذانهم لا تبلغهم آيات القرآن، فسمعهم هو كالصمم، وكذلك بصرهم. وكذلك تصلبهم فيما هم عليه.

41←42ـ فإما نذهبن...عليهم مقتدرون.

شنعت الآية السابقة على الكفرة تصلبهم وإعراضهم، وفيها مقدمة لتسلية النبي ﷺ، والتصريح بأنه لم يخفق في أداء الرسالة. ثم واصل هذا المفهوم بأن الله سينصره ويؤيده على أعدائه ، يتحقق ذلك إما بعد وفاته ، فينتقم الله منهم ويسلط عليهم من عذابه ما هو كفاء صدهم عن الإيمان وإيذاء الرسول وصحابته. وفيه تهديد ووعيد

لقريش، أن تمنيهم موته بقولهم: (**أم يقولــون شــاعر نتــربص بــه ريــب المنــون**)[1] لا يريحهم وسيلقون جزاء إعراضهم. فإنا بكــل تأكيــد منتقمــون مــنهم نــذيقهم ألوانــا مــن العذاب.

ينتظر المشركين أحد أمرين: الفــرض الأول أن نتوفــاك فنســلط علــيهم أشــد العــذاب. والفرض الثاني: وإما أن نرينك العــذاب الــذي وعــدناهم فتشــاهدهم ممــزقين منهــزمين يتبعهم العذاب ويعجزون عن الانفــلات منــه . فإنــا علــى تحقيــق ذلــك قــادرون أتــم القدرة. والوعد يطلق على الخير والشــر حســب المفعــول الــذي وقــع عليــه .وإذا لــم يذكر مفعوله انصرف إلى الخير .فأفادت الآية تحقــق الانتقــام مــنهم ســواء أكنــت حيــا أو ميتا، فلا تستبطئ أنت ولا المؤمنون وعيدنا الذي أعلمناهم به .

43.فاستمسك بالذي أوحي إليك ...على صراط مستقيم.

إنه سواء أحصل في المستقبل أن عجلنا لك الظفــر علــيهم، أو توفينــاك فانتقمنــا مــنهم، فعلى جميع التقادير واصل ما أنت عليــه مــن التمســك القــوي بمــا أوحينــا إليــك مــن الهدى والثبات على نشر الدعوة . اثبت على ما أنت عليــه فإنــك مــتمكن مــن الطريــق الذي لا عوج له، السالك بك إلى الهدى والخير والفوز في العاقبة.

44. وإنه لذكر...وسوف تسألون.

ثم خص ما أوحي إليه بالتنويه به ، ولفت الأنظار إلــى آثــاره المباركــة ، فصــرح بــأن ما أنزل على رسول الله من الهدى في القــرآن، قــدرنا أن يكــون شــرفا لــك ولقومــك، فينتشر في آفاق الأرض ،وتعلو بسببه قيمة العرب المســلمين وقيمــة لغــتهم.، فكــل مــن دخل في دين الله يجتهد لمعرفتهم ومعرفة لغتهم. ولولا القــرآن والإســلام لمــا كــان لهــم حظ في تاريخ الإنســانية، ولا ذكــر فــي تطــور الحضــارة العالميــة. ثــم ثنــى بــأن المخاطبين جميعا بهذه الآية من المؤمنين والكافرين، سيســألهم ربهــم يــوم القيامــة عــن موقفهم من هذا الكتاب العزيز. فيســأل الكــافرين بــه ســؤالا يبــرر مــا يجــزون بــه ، ويسأل المؤمنين به سؤالا يزيدهم كرامة وحظوة عند ربهم .

ولمع في ذهني التعريض بأهل الكتاب من اليهــود والنصــارى ، والإيمــاء إلــى تحــذير المؤمنين من مسايرتهم في خطئهم . ظــن اليهــود أن الله شــرفهم بإرســال موســى فــيهم مصحوبا بالتوراة، ولذلك فهم لا يعذبون يوم القيامــة إلا بعــدد الأيــام التــي عبــدوا فيهــا العجل. وزعم النصارى أن من آمن بــأن عيســى أعطــى جســده للتعــذيب ليكفــر عــن الخطأ الإنساني، وأن من آمن بذلك يفوز يوم القيامــة بــالنعيم الأبــدي. كلاهمــا مخطــئ

[1] سورة الطور آية 30

ضـال مضـل. لأن الجـزاء يتبـع عمـل الإنسـان، اسـتخلفه الله فـي الأرض ليعمـل ويحاسب على عمله القلبي والعضـلي. وصـلاح البشـر لا يتبـع انتسـابهم وإنمـا يتبـع أثرهم في الوجود. هذا قانون الكون وهذا هو العدالة والخـروج عـن ذلـك ظلـم. تعـالى الله أن يخرج تقديره عن الحكمة والعدل .

45ـ واسأل من أرسلنا ...آلهة يعبدون.

كان العرب يثقون في أهل الكتاب، وخاصة اليهود، ويقـدّرون أنهـم علـى علـم عظـيم، وكانوا يعودون إليهم بحثا عن أخبار الماضين. فبعـد أن أسـقط القـرآن كـل مـا اعتمـده المشركون لعبادة الأصنام من الشـبهات العقليـة ، ومـن التقليـد للآبـاء ، جـاءت هـذه الآية تنفي أن يكون لعبادة الأصنام أي سند في التـاريخ .فـأمر النبـي صـلى الله عليـه وسلم أن يسأل أمامهم أحبار يهود ، هل جعل لكم ربكـم آلهـة تعبـدونهم مـن دونـه؟ ولا يستطيع اليهود ولا النصارى إلا أن يعلنـوا أن عبـادة الأصـنام خـراب للعقيـدة وفسـاد. فليس المراد من الآية أن يسأل المرسلين لأنهم قـد طـواهم التـاريخ ، ولأن سـؤاله لـيس لمعرفة ما عندهم في أمر هو من أيقن اليقينيـات عنـده ، ولكـن السـؤال هـو لأتبـاعهم ليخبروا المشركين الذين لهم ثقة بعلمهم .

وفي إطلاق اسم الرحمن على الله فـي الآيـة تـورك علـى المشـركين إذا أنكـروا اسـم الرحمن ، ففي النص إيماء إلى أن اسم الرحمن معروف في الكتب السابقة .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّى رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾
فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ
أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ
بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ
﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى
مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾
فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ
قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ
فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

وملئه : عظماء قومه.

يضحكون :يقصد بالضحك الاستخفاف والاستهزاء وإن لم يكن هناك ضحك مادي.

الأخذ :الإصابة .

يرجعون : يذعنون.

بما عهد عندك : بما خصك به من التكريم ومن تسخير الأشياء لك.

ينكثون : أصل النكث نقض فتل الحبل، والمراد به إخلاف ما وعدوا به من الإيمان.

المهين : الذليل الضعيف.

يبين : يفصح بوضوح عن مراده .

ألقي : نزل عليه من السماء.

أساورة :ما يلبس في المعصم من الحلي .

مقترنين : مقرنون به ملازمون له.

استخف : أثر في عقولهم الضعيفة فزادت سخفا.

فاسقين : كافرين.

آسفونا : أغضبونا.

سلفا : الذي يسبق غيره في الوجود. من يأتي بعدهم يلقى مثل جزائهم.

مثلا :عبرة.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد أرسلنا موسى معززا بآياتنا إلى فرعون وكبراء قومه الذين كانوا حوله. فأعلمهم أنه رسول رب الكائنات جميعا وأن عليهم أن يطيعوه فيما يبلغهم عن رب العالمين. قابلوا دعوته بالسخرية والاستهزاء، وضحكوا منه. عرض عليهم الآيات المؤيد بها، وكل آية عندما تعرض هي قوية في ذاتها أبلغ قوة، حتى يُظن أنه أكبر من الآية السابقة التي تحدى بها. وسلطنا عليهم أنواعا من العذاب .ما شأنه أن يؤثر فيهم فيحصل الرجاء منهم للرجوع عن كفرهم إلى الإيمان . ولما توالت الآيات بما زعزع صمودهم في الكفر طلبوا من موسى أن يدعو ربه ليكشف الضر عنهم ، بما أنه مكرم من ربه مخصوص بمناقب تحقق بها ما أوعدهم به. ووعدوه أنهم بكل تأكيد سيهتدون إلى اتباع ما جاء به . وكشَفَ الله عنهم العذاب بدعاء موسى. ولكنهم فسدوا فسادا جعلهم حتى بعد تبين كرامة موسى واستجابة دعائه، وما قطعوه من وعد مؤكد، جعلهم ينكثون ما وعدوا به وواصلوا ما هم عليه من الكفر. وأعلن فرعون في قومه إعلانا كلف دعاته أن ينشروه في الأسواق والمجامع. انتبهوا ولا

يغرركم موسى، ألَا تقرون بأني المتفرد بملك مصر وحضارتها العظيمة، ألا تقرون بأن الأنهار التي تخلل مزارعكم وتضمن استمرار أقواتكم أتحكم فيها وأنا الذي أسيرها؟ ألستم تشهدون كل ذلك و ترونه بأعينكم ؟ قارنوا بين عظمتي وبين هذا الرجل الذليل الضعيف، البعيد عن الفصاحة الذي لا يكاد يفهم كلامه. لولا أنزل ربه عليه أسورة من ذهب تمكن مهابته في عيون الناس، أو ساعده بالملائكة التي يدعي وجودها فتكون معه مؤذنة بعلي مقامه! كل ذلك لم يوجد منه شيء. أثَّر كلامه في عقول قومه وانحط بهم إلى مستوى من الضعف والسذاجة فصدقوه وأطاعوه في مواصلة ما هم عليه، بكل تأكيد هم قوم مغرقون في الكفر. إنه تبعا لتصلبهم في الكفر ونكثهم لعهودهم، حل عليهم غضبنا، أي إننا حجبنا عنهم رحمتنا وانتقمنا منهم فأغرقناهم، ابتلعهم البحر ولم ينج منهم أحد. فجعلنا مصيرهم من المحق مصير الذين يأتون من بعدهم، وجعلناهم أحاديث لمن بعدهم يعتبر بها المعتبرون. وفي ذلك تهديد لقريش.

بيان المعنى العام :

46- ولقد أرسلنا موسى...رب العالمين.

مما يقوي ما ذهبتُ إليه أن المقصود في الآية السابقة سؤال علماء أهل الكتاب، تعقيبُها بتفصيل قصة موسى ثم بقصة عيسى. وفي تفاصيل هذه القصة المعروضة في هذه السورة نظائر من مواقف المشركين ، سبقهم إليها فرعون وملؤه.

تفتتح القصة بالتأكيد على أن الله أرسل موسى عليه السلام، مما يفيد الاهتمام بما ورد فيها. كان موسى عليه السلام مصحوبا مؤيدا بآياتنا، بجملة من الأدلة المعجزة المثبتة لنبوته. أرسله الله إلى فرعون ملك مصر الجبار، وإلى طغاة قومه الذين كانوا يزينون له ظلمه وجبروته. كانت قاعدة رسالته إعلانه أنه مرسل من رب الكون كله. رب فرعون، ورب الملأ من قومه، ورب المصريين، ورب الناس أجمعين، ورب كل ما عمر الأرض والسماوات من كائنات.

47←48- فلما جاءهم بآياتنا... لعلهم يرجعون.

عرض موسى عليه السلام المعجزات المؤيدة، التي تظهر أن الذي مكنه منها وهي تتجاوز قدرات البشر حسب العادات والسنن، ما مكنه منها مع التحدي بالإتيان بمثلها وعجزهم، إلا ليُفْهِم من شاهدها أن ذلك دليل على أن الله اختاره لتحمل رسالته. وأن عليهم أن يصدقوه فيما جاء به. وكان رد المرسل إليهم أن سخروا منه، عبر عن استهزائهم منه بالضحك ،باعتبار أن المبالغ في الاستهزاء بالشيء

يضحك منه ، مما يدل على أن استهزاءهم كان قويا فاجأ موسى عليه السلام كما تدل عليه كلمة "إذا".

قابل فرعون وقومه، الآيات التي أظهرها الله على يد موسى عليه السلام بالتصلب في عنادهم. رغم أن الآيات المؤيدة لموسى كانت عظيمة جدا، من شأنها أن تقنع بقوتها من شاهدها، فيعود إلى الرشد. حسب الظاهر كل آية من الآيات هي أعظم من الآية التي سبقتها. واستشكل أن تكون كل آية هي أكبر من السابقة. فخرجه الزمخشري، وتبعه الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور أن الآيات متساوية في العظم غير متفاوتة، ولكن لعظمها كلما تأملت في آية قلت هي أكبر من سابقتها، فهو تعبير قصد به تجسيم عظم الآيات لا تسجيل التفاوت بينها. وهذا كقول العرندس الكلابي :

متى لا قَيْتَ منهم تَقُلْ لاقَيْتُ سيدّهم***مثلُ النجوم التي يسري بها الساري

فكل فرد لاقيته و نظرت في كمالاته وحده ، قلت هو سيد القوم بإطلاق . مع أنهم متساوون أو متقاربون في الكمال.

ويحتمل عندي أن تكون الآية تحدثت عن شقين من الآيات: شق الآيات التي أظهرها موسى عقب دعوته لفرعون في مجلس واحد. كانت الآية الأولى: عرضه العقيدة والاحتجاج عليها بالعقل والنظر في الكون بما أفحم فرعون.

وثانيا بانقلاب العصا حية ،وقد ظهرت في شيء خارج عن ذات موسى. ثم أدخل يده في جيبه فإذا هي بيضاء مشرقة نقية مع أنه كان أسمر البشرة. فهذه الآية هي تحول في ذاته، وهي أعظم من تحول العصا أفعى، لأنهم قبلوا أن يتحدوه في تحول العصا، وأحضر فرعون السحرة. فالآية الأولى كانت وضوح الحجة التي أفحمت فرعون وملأه ولم يستطيعوا ردها. والثانية انقلاب العصا حية، والثالثة إدخال يده في جيبه. وإنما عدت الآيات التالية أعظم وذلك بالنظر إلى التأثير في فرعون، إذ لا يخضع فرعون إلا للمادي المحسوس. وأما بقية الآيات فهي الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والرجز" عذاب القحط " فهي داخلة تحت قوله تعالى في هذه الآية: "**وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون**" فسلط الله عليهم العذاب بتلك الآيات الست، التي من شأنها حسب المقاييس البشرية، أن ترجعهم عن كفرهم، ويذعنون للحق الذي أتاهم به موسى. وأتوقف في جعل انفلاق البحر داخلا في الآيات المقصودة هنا، لأن العذاب كان يرمي إلى غاية، هي رجاء أن يذعنوا. وانشقاق البحر كان للاستئصال والهلاك المقدر والمنفذ.

49ـوقالوا يا أيها الساحر...إننا لمهتدون.

فَعَلَ العذاب فِعْله في زعزعة عقيدتهم ، وطلبوا من موسى عليه السلام أن يدعو ربه لرفع العذاب عنهم ، خاطبوه بـ "**يا أيها الساحر**": لأنهم ألصقوا به من أول الأمر هذا الوصف، فواصلوا نداءه به ، أو لأن الساحر في مصر زمن رسالة موسى كان يمثل العالم الماهر لاستعظامهم السحر ،فهو مساو لقولهم: يا أيها العالم. طلبوا منه أن يتوجه إلى ربه بالدعاء. وصيغة السؤال تدل على أن الكفر ما زال متمكنا من قلوبهم لقولهم : **ربك**، ثم تعليلهم بقولهم : **بما عهد عندك** بما اخبرتنا به أنه وعدك وعدا مؤكدا أنه يكشف عنا العذاب إذا آمنا بك .فإنا عازمون على اتباعك فإن أنت دعوته فكشف عنا العذاب لنؤمن لك ولنرسلن معك بني إسرائيل .

50ـفلما كشفنا عنهم ....ينكثون.

قالوا ذلك وهم مضمرون إخلاف وعدهم، وكان موسى عليه السلام لا يضيع فرصة تُقَرِّبه من النجاح في مهمته ، فدعا ربه أن يكشف عنهم العذاب الذي ذاقوا بسببه صنوفا من البلاء : الطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع ، والدم ، والجدب. واستجاب له ربه وكشف عنهم العذاب ، وعادت حياتهم إلى ما كانت عليه سخية رخية .ويفاجأ موسى بنكثهم لما عاهدوه عليه ولم يوفوا به وواصلوا كفرهم ، والتنكيل ببني إسرائيل الذين سخروهم لخدمتهم .

51ـ ونادى فرعون في قومه...أفلا تبصرون.

ما جرى بين موسى وفرعون وملئه، من وعدهم الرجوع عن كفرهم إذا هو دعا ربه وكشف عنهم البلاء ،وهو أمر ما كان يعلم به قومه ،وخشي فرعون لما ظهرت مكانة موسى عند ربه، وأنه أنزل عليهم العذاب لعصيانهم لرسالته ، وكشف عنهم لما دعا ربه بكشفه ، خشي أن يعلم به الدهماء فتعظم في عيونهم رسالة موسى ويترجح أنه صادق ، فأمر دعاته أن يسيروا في الأسواق وفي المجامع ليذكروا رعيته بعظمته. قال فرعون مستكبرا متعاظما من ناحية ، ومقرِّبُهم إليه من ناحية أخرى، فهم قومه يعزهم ويسعى فيما يعود عليهم بالخير . قال لهم مذكرا: ألا تقرون أن مصر بما تحويه من خيرات، وما وصلت إليه من المستوى الحضاري الرفيع هي ملكي ؟ وأن هذه الأنهار التي بها حياة زروعكم ومواشيكم أتحكم فيها ، فهي تنساب بأوامري وتنظيماتي . ألا تبصرون هذه القوة التي بين يدي، وافتقاركم لي ؟

52ـأم أنا خير من هذا...ولا يكاد يبين.

لننتقل إلى ما هو أجلى وأوضح. إياكم أن تغتروا بموسى، وقارنوا بيني وبينه ليتبين لكم من هو الأفضل والأكمل لتتبعوه وتلوذوا به. قارنوا بين عظمتي وما أنا

عليه من مقام الملك، وبين هذا الذي من أخص صفاته أنه ذليل ضعيف، عَييٌّ غير فصيح، لا يكاد يفهم عنه سامعه ما يريد أن يقوله. فمن كبره لم يسم موسى عليه السلام ، وإنما أشار إليه إشارة تحقير" **هذا**" ووصفه بنزوله عن مرتبة الملك وعن البيوتات الشريفة في مصر . والذي يترجح :أن فرعون يذكر قومه بما يعرفونه عن موسى قبل الرسالة. أما بعد الرسالة فقد زالت حبسة لسانه ، إذ دعا ربه : **واحلل عقدة من لساني يفقهوا قولي** . ولذا كانت كل الآيات التي تحدثت عن رسالة موسى تنسب الحجاج إليه لا إلى هارون.

53ـفلولا ألقي عليه أساورة ...مقترنين.

لو كان ما يدعيه حقا من أن الله اختاره ، وبعثه برسالته ،وأنه إله قادر على كل شيء ، فلماذا لم ينزل عليه أساورة من ذهب يعلن بها مقامه الرفيع ، حسب ما كان يجري في عاداتهم أن الملوك يلبسون في أيديهم أساور فخمة من ذهب تلقي المهابة في عيون الناس. وافتتاح الآية ب "لولا" إشارة إلى ما في هذه الشارة من قوة يحض على إظهارها. وأن موسى يدعي أن الله عنده ملائكة مطهرون، فلماذا لم يصحبه ربه بطائفة من الملائكة يكونون معه في كل وقت، فيظهر أنه مرتبط بالملأ الأعلى الذي يريد أن يثبته. فإذ لم يأت بهذه الآيات فهو غير صادق فيما يدعي.

54ـ فاستخف قومه...فاسقين.

إن ما قدمه فرعون لقومه من الطعون في أمر موسى عليه السلام، يدل على أنه أفسد عقول قومه ، ففسدت وضعفت ، ولذلك خاطبهم ببهرج من القول أثر على عقولهم فساروا في الطريق الذي يريد أن يسيروا فيه ، مكذبين لموسى معتقدين أن فرعون ملك مصر وربهم وكل خير ينالهم هو بسببه . بكل تأكيد استقر الكفر فيهم.

55←56ـ فلما آسفونا ...ومثلا للآخرين.

أبان لهم موسى عليه السلام بالحجج البينة أن ما هم عليه من الشرك ضلال وفساد، وأن عليهم أن يعبدوا الله الوحد الأحد ،وأراهم من الآيات العظيمة ما أراهم، وسلط الله عليهم من العقوبات الرادعة ما جعلهم يستغيثون في كل مرة لكشف الضر عنهم .ووعدوا بالإقلاع عما هم عليه فأخلفوا . ثم أعلن فرعون أنه ملك رب كل خير يناله قومه هو منه، وأنه لا يقبل أن يقرن في عظمته بموسى. تسلسل منهم ما أوجب غضبنا عليهم، بمعنى أخرجناهم من دائرة الرحمة إلى دائرة الانتصاف منهم بعدلنا وقوتنا. فترتب على ذلك أنا انتقمنا منهم. ذلك الانتقام المسجل في القرآن، كيف أطبق عليهم البحر ولم ينج منهم أحد. فجعلنا ما حل بهم صورة

ظاهرة من قوة الانتقام تنسحب على من يأتي بعدهم. وجعلنا ما حل بهم عجيب الشأن سائرا مسير الأمثال يحدثون به في مجالسهم، و عبرة لمن يأتي بعدهم، تتحدث به الأجيال اللاحقة للموعظة.

وفي تفاصيل قصة موسى وما ختمت به تهديد لمشركي مكة أنهم سيلقون من الانتقام الشديد ، نظير ما لحق بقوم فرعون.

۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَأَـٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ
هُوَ ۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ
وَجَعَلْنَـٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَـٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ
﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا
يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالَ قَدْ
جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾
إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ
بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

يصدون : بضم الصاد يعرضون، وبالكسر يضجون ويصخبون.

الجدال :المحاورة بمغالطة قصد التغلب على المحاور.

خصمون : الخصم المتمسك بالخصام لجاجا وعنادا .

مثلا: آية وعبرة.

يخلفون : يسكنون الأرض بدلكم.

لعلم للساعة : مؤذن بقرب الساعة.

الحكمة : استقامة في الفكر يتبعها معرفة الحق وتمييزه عن الباطل.

من بينهم : من بين الذين جاءهم عيسى.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن فصلتَ قصة موسى عليه السلام وتحولتَ إلى قصة عيسى عليه السلام لتثبّتَ أنه كموسى يقرر أنه لا يستحق العبودية إلا الله، قابلوا كلامك هذا بالصخب، أو بإعلان الإعراض عن القرآن. وقالوا خبرنا هل إن عيسى أفضل من آلهتنا أو

هم متساوون، فإذا كان عيسى قد عبد، ومن عبد علـى مـا تريـد أن تثبتـه مآلـه النـار، فليستو مآل آلهتنا بمآل عيسى. وإذا كـان المعبـود مـن دون الله لا يكـون مآلـه الخـزي والعذاب ، فتكون آلهتنا كعيسى ناجين . هـم يريـدون الاحتجـاج عليـك بالتسـوية بـين عيسى وآلهتهم، وهـم لا يقولـون بـذلك ويعتقـدون أن عبـادة آبـائهم للأصـنام تبـرر متابعتهم وعيسى لا يستحق العبادة. هـم يحتجـون بمـا يرفضـونه، لأنهـم قـوم دربـوا على الخصـام ولا يـربطهم منطـق ولا عقـل. والحقيقـة أن عيسـى عبـد مخلـوق لله أجرى عليه ما أجرى على البشر مـن عـوارض الفنـاء المتلاحـق. نعـم إن الله أكرمـه بالرسالة وبإظهار المعجزات على يديه، وجعلـه عبـرة لبنـي إسـرائيل تـذكرهم بتفـرد الله بالتصرف كما شاء ، وأنه يوقظ بني إسرائيل ليقومـوا بمـا أمـروا بـه مـن التوحيـد الخالص.

إنكم كما ضللتم في قولكم إن عيسى إله، فكذلك ضـللتم فـي ادعـائكم أن الملائكـة بنـات الله من زوجاته شريفات الجن. بنيتم ظنكم علـى أن الملائكـة يسـكنون فـي السـماء، إن سكناهم في السماء هو تبـع للتقـدير الإلهـي ولـو شـاء الله أن يسـكنهم الأرض بـدلكم لأسكنهم فهم عبـاد الله أيضـا. ولا أثـر لمكـان حيـاتهم فـي خـروجهم عـن كـونهم حوادث.

وإن بعثة عيسى مؤذنة بأن ما مضى مـن عمـر الكـون هـو أكثـر بكثيـر ممـا بقـي، فانتهاء الكون وما يصحبه من البعث قريب. إياكم أن تشـكوا فـي يـوم القيامـة !واتبعـوا ما أرسلته إليكم من الهدى. إن هذا الذي بلغتكم هـو الصـراط المسـتقيم الـذي لا يضـل سالكه ولا يهلك. موصل إلى الغاية مع السلامة. واحـذروا كيـد الشـيطان الـذي يجتهـد بما أوتي من خبث ومكر، ليمنعكم من اتبـاع ذلكـم الصـراط المسـتقيم ، وتـذكروا أنـه عدو لكم واضح العداوة، سعادته في شقاء أي فرد من بني الإنسان.

لما جاء عيسى مؤيدا بالبينات، دعا قومه للحق الـذي جـاء بـه، وقـال لهـم قـد أتيـتكم بالحكمة، بالإنجيل والشرائع الهادية للعقول. وكلفت أيضـا بـأن أبـين لكـم وجـه الحـق في بعض ما اختلفتم فيه وتفرقتم، تبعا لظـواهر واحتمـالات. إن الأسـاس الـذي يصـلح شأنكم ويحولكم إلى الخير هو تقـوى الله باستحضـار جلالـه فـي نفوسـكم، والاسـتقامة في حياتكم ، اتبعـوني وأطيعـوني حتـى لا تضـلوا فـي التعـرف علـى الحـق الـذي يرضيه. واعتقدوا أن الله واحد هو ربي وربكم فأخلصوا لـه فـي العبـادة، هـذا الطريـق الذي أدعوكم إليه هو الطريـق المسـتقيم المنجـي. فيمـا أحـدده لكـم إقبـالا أو تركـا. اختلف الذين تحزبوا أحزابا من بين الذين بعث إلـيهم عيسـى عليـه السـلام ، فبعضـهم آمن به، وبعضهم كفر به وعمل علـى إذايتـه .ثـم إن الـذين آمنـوا بـه تحزبـوا لمـا

افترقوا في الآفاق . وأله كل حزب عيسى على طريقته ، فالهلاك والخسران للذين أشركوا بالله سيصيبهم عذاب أليم .

بيان المعنى العام :

57. ولما ضرب ابن مريم...يصدون.

ترتبط هذه الآية بالآية 45 (**واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا**) وقلنا هناك إن المقصود به سؤال علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى . وتوالت الآيات العشر من46 إلى 56 تتحدث عن قصة موسى ﷺ. وإذ تم ما قصد من تفصيله في قصة موسى انتقل القرآن للحديث عن عيسى ﷺ. وكان موقف قريش، قوم النبي ﷺ لما ذكر عيسى، موقفا مغايرا لموقفهم وهم يسمعون قصة موسى. والذي يظهر لي أن القرآن في سرده لقصة موسى كان يتفق مع ما يذكره اليهود عن موسى ويصحح بعض الأخطاء التي أضافها كتبة اليهود بعد أن ضاعت التوراة ونسوا لغتها. أما بالنسبة لعيسى ﷺ فقد حرف أتباعه رسالته تحريفا جذريا، ومعظم فِرَق النصارى، كانوا يروجون أن المسيح ابن لله. ويقوم التثليث مميزا لهم عن بقية الديانات (الله- المسيح- روح القدس) ثلاثة في واحد. فبمجرد ما ذكر ﷺ ابن مريم (المسيح ﷺ) كمثل على أنه أكد أن لا معبود إلا الله ،حتى يفاجأ بضجة من المشركين .(**إذا قومك منه يصِدون**) على القراءة بكسر الصاد أي تعلو أصواتهم و يكثر صخبهم. وقرئت الآية: (يصُدون) يعلنون صدودهم عن القرآن، على أنه متناقض وهو بذلك لا يقبل عقلا.

ما الذي استفز قريشا، وما الذي جعلهم يظنون أنهم في موقف قوة برفع أصواتهم، أو بإعلانهم تناقض القرآن ؟

58.وقالوا آلهتنا...بل هم قوم خصمون.

يقولون :إن عيسى قد عبده النصارى كما عبدنا نحن الأصنام ، فإذا كان كل معبود من دون الله مرفوض عندك ومآله جهنم، ،فإنه ينبني على ذلك أن عيسى ليس من عباد الله الصالحين المقدمين يوم القيامة ، وأن مآله جهنم ، مع أنك تثني عليه وتذكر أنه رسول بَشَّرَ بك، فقد ظهر تناقضك ،وتهافت القرآن الذي تقيمه حجة على صدقك. قالوا: نسألك أيهما خير آلهتنا أم عيسى ؟ يريدون تقرير النبي ﷺ ليعترف أن عيسى وآلهتهم سواء، كل منهما عبد، فما يجري على عيسى يجري على آلهتهم. يُبطِل القرآن بصفة إجمالية ما ظنوا أنهم بلغوا به إفحام النبي ﷺ به فيقول: ما ضربوا لك مثل عيسى إلا قصد الجدل بالباطل ليبطلوا به الحق، فهم لا يعترفون بمساواة عيسى لآلهتهم، إذ هم يكفرون بعيسى كما يكفرون بك. إنهم لا يرمون من

اعتراضهم وصخبهم إلا ترويج الباطل بالصخب وليّ الأدلة إلى ما ينسجم مع ضلالهم، وتقديمهم في الخصام ما لا يؤمنون به ، هدفهم استغفال ضعفاء العقول الذين تروج عليهم الظواهر الباطلة .فهم قوم دُربوا على الخصام ومهروا فيه .وإثر هذا الرد لطريقتهم في الجدال يعتني القرآن برد تفصيلي.

59-إن هو إلا عبد...مثلا لبني إسرائيل.

بعد أن أظهر القرآن أن كل هم المشركين الجدال والخصام ، وأن كلامهم مدخول، هم لا يقرون بمضمونه، انتقل لبيان الحقيقة في أمر عيسى عليه السلام . إنه لا يخرج عن كونه عبدا لله، خلقه في بطن أمه، وأجرى عليه من أعراض البشرية في النمو في بطنها، ثم بعد أن انفصل عنها يأكل كما يأكل الناس ، وتعمل أجهزته في غذائه كما تعمل أجهزة بقية البشر، من تحويل إلى طاقة ثم إفراز الباقي. ويستيقظ وينام كبقية البشر، إلى آخر التحولات التي تجري عليه مما ينفي أن يكون إلها. إذ من التناقض أن يكون متقلبا بين أحوال تفنى كل حالة لتخلفها غيرها، وأن يكون متصفا بالبقاء الأبدي في آن واحد. أجرى عليه كل أعراض البشرية التي تدل على أنه مخلوق لله، وعبد من عباده. وللتدقيق فإنه من عبادنا المميزين أنعمنا عليه بنعمة تلقي وحينا. وخصصناه أيضا بأن يكون عبرة لبني إسرائيل، يظهر فيهم، واحد منهم بمعجزة خلقه من أم بتول لم يقربها ذكر. ليعودوا إلى رشدهم ويجددوا عهدهم بالتوراة، التي أضاعوها، و التي أراد الله أن يخفف عنهم شيئا من أحكامها بواسطة عيسى عليه السلام.

60-ولو نشاء لجعلنا...يخلفون.

كما ضل من رفع مقام عيسى إلى مقام الألوهية لكونه ولد من امرأة لم يقربها ذكر، كذلك ضل فريق من الناس ومنهم مشركو مكة ، لما ظنوا أن الله لما أسكن الملائكة في الملأ الأعلى ، ظنوا أنه بسبب ذلك هم بنات الله من سروات الجن . أبطل هذه العقيدة الضالة بتحقيق أن سكنى الملائكة ليس بسبب طبيعة خلقهم، ولكن إرادتنا هي التي جعلتهم في المحل الذي هم فيه، ولو تعلقت إرادتنا بإسكانهم الأرض بدلكم لفعلنا. فإرادتنا وتقديرنا، هو السبب في أن عيسى مولود من أم بدون أب، وأن الملائكة لا يسكنون الأرض.

61←64: وإنه لعلم للساعة ...هذا صراط مستقيم.

تفتح الآية بكلمة " إنه" والضمير صالح لأن يعود إلى عيسى برجحه تواصل الحديث عنه. معنى ذلك: أنه معرف بأن الساعة ليست بعيدة، وأن ما بقي من عمر

الكون قليل. ويحتمل عود الضمير إلى القرآن، ومعنى ذلك أنه أعلم الناس بوقوع الساعة. وإذ تأملت في الكتب الثلاثة :التوراة والإنجيل والقرآن، فإنك لا تجد كتابا منها أولى أمر يوم القيامة ، والبعث ما أولاه القرآن من العناية والتفصيل والتحذير . فإياكم أن تشكوا فيها أو تكذبوا بها .

واتبعوني هذا صراط مستقيم – ياء المتكلم[اتبعوني] يصح أن تفهم على أنها معبرة عن الذات العلية سبحانه ، يؤكد أمره أن يتبع البشر هدايته التي أنزلها على لسان رسوله. كما يصح أن تكون معبرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أمر ليقول لهم اتبعوني والتزموا ما جئتكم به عن الله .

إن القرآن، أو الإسلام، أو ما جئتكم به، هو الطريق المستقيم الذي يبلغكم السلامة، ويضمن لكم النجاة في الحاضر والمآل.

وإذ تميز طريق الإسلام أو طريق القرآن بأنه هو الطريق المستقيم المؤمن لسالكه، نبهوا إلى أن الشيطان يقف في طريقهم ذاك، ويجتهد ليحول بينكم وبين سلوكه ، بما يعرض عليكم من شبهات ، وما يدغدغ به نفوسكم من شهوات. فاحذروا غوايته، واعلموا أن عداوته لكم عداوة مكينة واضحة بينة ، لم يخفها من يوم خلق أبيكم آدم، واستمر يهلك ذريته .

بعد اعتراض قريش على ضرب عيسى مثلا ، وتشغيبهم بما توهموا أنهم انتصروا على محمد ﷺ ونقضوا دعوته. وكل ذلك من سلطان الشيطان عليهم ، انتقل الكلام للمقصود الأصلي ، وهو إثبات أن عيسى جاء بتوحيد الله . لنتتبع خطاب عيسى عليه السلام للمبعوث إليهم وموقفهم منه :

جاء عيسى مرسلا من ربه مؤيدا بالمعجزات البينات التي ينقاد إلى صاحبها كل من لم يصمم على العناد. فاتحهم بقوله جئت أحمل إليكم الحكمة التي تتفتح بها عقولكم فلا تؤثر فيها الشبهات، تستقيم عقولكم وتصلح أحكامكم ،وتسمو إنسانيتكم، هذا أولا. وثانيا لأبين بعض ما تفرقت فيه كلمتكم، وتشابه عليكم، الأمر الذي تبعه الخلاف والشقاق. ومن حكمته أنه لم يعرض عليهم من أول الأمر الفصل في كل ما اختلفوا فيه، ولكن يتدرج معهم. ثم طلب منهم طلبا مؤكدا أن يوقضوا ضمائرهم ويربطوها بما يرضي الله ، ويستحضروا جلاله وأوامره ونواهيه بصفة دائمة تدفعهم إلى الطاعة وتحول بينهم وبين المعاصي. ولما كان الهوى يميل بالأحكام إلى ما يلائم النفس، أردف الأمر بالتقوى بطاعته فيما يبين ليطمئنوا أن ما يسيرون عليه هو الهدى. واعلموا أن الله هو ربي، فأنا عبده شرفي في كوني مربوبا له، وأنكم تستوون معي في كوننا جميعا مربوبين إليه سبحانه. وفي تقديم نفسه بقوله:

ربي قطع الطريق عن الغلو الذي وصل بهم إلى اتخاذه إلها. ولما كان الله ربنا ،فإن الربوبية تقتضي إفراده بالعبادة، فأقبلوا على عبادة ربكم، وسيروا على هذا المنهج في مستقبل أعماركم، فهو صراط يبلغ صاحبه ساحل الأمان .

65ـ فاختلف الأحزاب ...من عذاب يوم أليم.

تكشف الآية عن موقف المبعوث إليهم: الدهماء. انقسموا إلى حزبين رئيسيين: قسم آمن بعيسى وقسم كذبه وأغرى به السلطة لتقسو عليه. ثم إن الذين آمنوا به تفرقوا أحزابا، هَمّ كل حزب أن يغلب الأحزاب الأخرى ، يسود الخلاف علاقاتهم ، وتعمل العواطف في تهييجهم ، وتنبعث التصورات الخيالية يقويها حب كل حزب للانفراد بدغدغة العواطف لما تفرقوا في أنحاء العالم. اختلف أعقابهم في تصور حقيقة المسيح : أهو الله ، أم هو ابن لله ، أم هو ثالث ثلاثة واحد في ثلاثة، عبروا عنها بالأقانيم الأب والابن وروح القدس . ولما انتهى اختلافهم إلى الشرك، توعدهم الله بأن الذين ظلموا بالشرك، ويل لهم هلاك وخيبة وعذاب يحسون بألمه أشد الإحساس.

هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ مُسْلِمِينَ ﴿٦٩﴾ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ أَنتُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٧٠﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

ينظرون : ينتظرون.

بغتة: فجأة، دون ترقب.

لا يشعرون : غافلون مشتغلون بأمور دنياهم.

الأخلاء : جمع خليل وهو الصاحب الملازم.

عدو: مبغض.

تحبرون : تسرون سرورا يظهر على وجوهكم.

صحاف : إناء يقدم فيه الطعام أو الفاكهة.

الأكواب : جمع كوب، إناء للشراب مستطيل الشكل قصير العنق فمه في أعلاه.

تلذ :لذ أحس باللذة.

لذة الأعين : انشراح النفس بما تراه .

بيان المعنى الإجمالي :

ما ينتظر المشركون بالله ؟ يترقبون أن تقوم الساعة فتأخذهم على حين غفلة منهم وهم لاهون عنها. الأصدقاء المتلازمون الذين كانوا في الدنيا بعيدين عن الاستقامة تنقلب صداقتهم عداوة يوم القيامة. وأما المؤمنون الذين كانت تعمر التقوى قلوبهم، فإن ودهم سيزداد وثوقا في ذلكم اليوم.

ينادي الرب سبحانه الناجين بقوله : **يا عبادي** – تقريبا لهم وتكريما فيعلمهم أنه لا يحل الخوف قلوبهم بعد اليوم هم آمنون . كما أن كل ما مضى لا يلتفتون إليه كشيء عزيز ذهب. خلت قلوبهم من الحزن. إن عباده هم الذين كمل إيمانهم واستقاموا على الطريقة التي شرعها.

يأذن لهم إذن التكرمة : ادخلوا الجنة مع أزواجكم الذين كنتم تأنسون بهم .ستلقون فيها جميع أنواع النعيم . ستجدون مَنْ سخرناه لكم ليناولكم في صحاب من ذهب ما تشتهون من المآكل، وفي أكواب من ذهب أيضا ما ترغبون فيه من أنواع الشراب. وبصفة عامة تجاب جميع رغباتكم النفسية ويقدم لكم ما تقر به عيونكم، وفوق ذلك أنتم في الجنة خالدون. تلك الجنة التي أنتم فيها، حصلت لكم بلا منة جزاء بما قدمتم من صالح الأعمال. تأكلون بعضا من فاكهتها، فكلما قطفتم منها شيئا عوض مكانه في الحين.

بيان المعنى العام :

66. هل ينظرون...وهم لا يشعرون.

ما الذي يترقب المشركون حصوله بعد أن أشركوا بالله، وجعلوا المسيح إلها ؟ إنهم لا ينتظرون إلا شيئا واحدا، أن تحل الساعة ويأتي يوم القيامة. هذه الساعة التي تأتيهم بصفة مباغتة، دون أن يتأهبوا لها، تأتيهم وهم لاهون بشؤون الدنيا فتأخذهم إلى مصيرهم المذكور " **عذاب يوم أليم** "وينسحب هذا على مشركي مكة ، فتكون الآية صالحة لتكون جسرا يربط قصة عيسى والأحزاب الذين تحزبوا ممن يزعمون أنهم على شريعته ، وبين وعيد المشركين المفصل في الآيات التالية ، ووعد المؤمنين بضروب التكرمة والنعيم .

67.الأخلاء يومئذ بعضهم...إلا المتقين.

التعارف بين البشر من سنن الخليقة، ويصل هذا التعارف إلى مرتبة من الود يكون فيها الطرفان متلازمين، وكل طرف يعتبر خليلا للطرف الآخر. يفضي إليه بسره،

ويسعده بالعون لتيسير أمور حياته. الأخلاء المتلازمون المتحابون ستكون علاقتهم يوم القيامة على النحو التالي .

الأخلاء الذين كانت تقوم حياتهم على الإقبال على الحياة الدنيا ومتاعها، ينقلب ودهم بغضا وعداوة ، يوضحه لما لم يكن لارتباطهم بالله أي مراعاة في العلاقة بينهما ، يتمحض ودهم فيما يتلاءم مع مطالبهم التي لا حظ فيها لتذكر الخالق ، وينكشف لهم يومها كيف أن كل خليل كان لخليله مساعدا على البعد عن رضوان الله ، ويتبين له جزاؤه السيء ، ويجد أن خليله أعانه على المعصية . فتنقلب المحبة والود عداوة وبغضا.

وأما المتقون الذين كانت صلتهم بالله حاضرة نقية مشعة، يتعاونون فيما بينهم على البر وما يرضي الله، فكل خليل يجد أن خليله أعانه على الخير فيأنس كل خليل بخليله إذ أعانه على الاستقامة والصلاح.

68←70 : يا عبادي لا خوف ...وأزواجكم تحبرون.

بعد أن ذكر أن المتقين مخالفون في العلاقة بينهم لعلاقة الأخلاء المشركين ، تابع القرآن التنويه بهم وتقريبهم؛ استحضرهم فناداهم بنسبته إليه ، وهو غاية الشرف التي يطمح إليها الإنسان بين يدي الله ، أن يرضى عنه وينسبه لنفسه " **يا عبادي**". يسكب في نفوسهم شحنة من الطمأنينة والرضا . لا خوف عليكم، تحقق أمنكم في هذا اليوم، فكل ما ستلقونه حسن جدا. ولا أنتم تحزنون على شيء فات، فأعمالكم في الدنيا محل الرضا لصلاحها، أو لفضلي عليكم بالتوبة والمغفرة. من هم عباد الله الذين حل عليهم الأمن وذهب عنهم الحزن؟ هم الذين تحقق منهم الإيمان والتصديق الكامل بآياتنا التي أنزلناها في القرآن الحكيم، وخالطت مشاعرهم فأسلموا وجوههم لله، وطبقوا مقتضيات الإيمان فأحبوا الطاعة وأبغضوا المعصية. يقال لهم: **ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم**، تحقيقا لما ذكر في الآية السابقة أن الأخلاء المتقين من كمال سعادتهم استمرار الود بينهم .ويضاف إلى الإذن المبشر بالفوز أن أنوار النعيم والسرور تظهر على وجوههم .

70←73: يطاف عليهم بصحاف من ذهب... كثيرة منها تأكلون.

بعد أن أذن الله لهم في دخول الجنة مع أزواجهم إتماما للنعمة بالأنس وكمال السرور، أخذ القرآن يفصل ما يلقونه في الجنة.

سخر الله لهم من يخدمهم، فيقدمون لهم أنواع المآكل والفواكه في صحاف من ذهب، وضروب المشارب في أكواب من ذهب أيضا. ولا تسل عن حسن الظروف وجمالها، فإن الذهب يُطوع لمختلف أنواع الزخرفة وتكون فيه أتم من غيره .

وتتحدث نفوس المنعمين بأطايب ما عرفته في الدنيا وما يتولد فيها من مخالطة الفضل العظيم في الجنة. قد تشتهي نفوسهم سماع الأصوات الجميلة، والأنس بالأحباب والأهل والخلان. وأوزان الألحان المنعشة. وفهم ما استعصى عليهم فهمه في الدنيا، ونحو ذلك فيوفر الكريم بفضله ما يشتهون، وكما يتمكنون مما تشتهيه أنفسهم من الأمور المعنوية ، فكذلك يعرض عليهم ما تلذه الأعين مما تنشرح له النفس، كالصور الجميلة ، والجنات الأنيقة المرتبة الأشكال والألوان، وكذلك ما تستلذه من الطعام والشراب .

ويختلف نعيم الجنة عن نعيم الدنيا في أمر جوهري، هو أن نعيم الجنة يكدره الشعور بذهابه وفنائه وعدم دوامه. يطمئنهم ربهم فيخاطبهم مشيرا إلى الجنة التي هم فيها، ولكن للمستوى الرفيع العالي التي هي عليه ، أشار إليها إشارة البعيد " **تلك الجنة** " كانت لكم حقا بلا منة عليكم ، كما يأخذ الوارث مال مورثه، تم استحقاقكم لها بسبب ما قدمتم من صالح الأعمال، واجتهدتم في قمع الشهوات وترجيح رضوان الله. يؤكد المتفضل سبحانه دوام ما هم فيه، فيذكرهم أن ثمار الجنة كثيرة يأكلون بعضها ، إذ تبدو للناظرين كلما قطف منها شيء يتجدد ما يخلفه.

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ
﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا
رَبُّكَ ۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ
﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ
بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

المجرمون: المشركون.

لا يفتر: لا ينقص ولا يخفف.

مبلسون : آيسون .

مالك : اسم الملك الموكل بجهنم.

ليقض : ليميتنا.

أم أبرموا أمرا: أم أحكموا تدبير كيد.

الأمر : العمل العظيم الخطير

بيان المعنى الإجمالي :

في مقابل نعيم أهل الجنة يصور القرآن عذاب المشركين، أنهم مستقرون في عذاب جهنم استقرارا أبديا. لا يخفف عنهم العذاب، وهم يائسون من تحولهم عما هم فيه. إننا ما ظلمناهم بما سلطناه عليهم من النكال، لأنه جزاء وفاق لظلمهم بالشرك وإذاية الرسول ﷺ ، وأصحابه. واستحضرت صورة ندائهم وهم في العذاب، لمالك الملك الموكل بالنار. رجوه أن يشفع لهم عند ربه كي يعجل لهم بالموت. فأجابهم إنكم ماكثون مقيمون في جهنم لا تخرجون منها ولا تموتون. ثم قرعهم الله بقوله لقد وصلنا لكم الحق على لسان رسولنا ، ولكن أكثركم كان يرفض الحق ويكرهه.

أئنهم دبروا وأحكموا مراحل الخطة للمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ إنا أعددنا ما يذهب بمكرهم ويحبط خطتهم .أبَلَغَتْ بهم الغفلة أن ظنوا أنا لا نسمع ما يدبرونه في أنفسهم من خطط، وأننا لا نسمع ما يتحدثون به فيما بينهم بصوت منخفض لا يبلغ من وراءهم ؟ ظنهم كاذب وهم جاهلون للحقيقة التي بنينا عليها مراقبة البشر. إن رسلنا الملائكة الحفظة حاضرون عندهم يسجلون كل كبيرة وصغيرة تصدر عنهم، وسيواجهون بها يوم القيامة.

بيان المعنى العام :

74←75- إن المجرمين في عذاب...وهم فيه مبلسون.

مقابلة نعيم أهل الجنة بعذاب المشركين، مقابلة تزيد التصوير وضوحا. وعبر عنهم بالمجرمين الدال على إشراكهم من ناحية، وعلى ما دفعهم إليه الشرك من الإجرام، ومنكرات الأفعال. إن المشركين الذين قبحت فعالهم مستقرون في عذاب جهنم لا يبرحونها خالدون خلودا أبديا. لا يخفف عنهم العذاب فلا يرون لحظة أسعد من لحظة، وهم يائسون من الفرج، وتحولهم عن وضعهم.

76- وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين.

الصورة مرعبة، فلا تظنوا أن في ذلك قسوة عليهم، وتجاوزا لحدود العدل. إننا لم نظلمهم بتسليط العذاب المستمر في جهنم وعلى قدر واحد، وخلق اليأس في نفوسهم من الفرج، لأنهم هم الذين ظلموا الظلم الذي يستحقون به ذلك العذاب. كفروا بالله رغم ما أنعم عليهم ، كذبوا رسوله وآذوه مع أنه قدم لهم الهداية وأوضحها وحرص على هداهم ، إن الله أمهلهم ليتوبوا فزادوا طغيانا وكفرا. عرفهم بمآلهم إذا هم لم يرتدعوا فسخروا منه. لقد تقدم منهم الظلم.

77ـونادوا يا مالك...إنكم ماكثون.

نادوا الملك الموكل بجهنم ومن فيها، واسمه "مالك " طلبوا منه أن يرفع عنهم رجاء لربه، وفي التعبير بربك، ما يفيد أن تكريم الله لمالك، على أنه ربه قد يقرب الاستجابة. طلبوا منه أن يسأل الله أن يميتهم فينقطع إحساسهم بالعذاب الذي لا يطاق. لم يرفع مالك شفاعته لسابق علمه أنهم خالدون خلودا أبديا ، لا يرون في جهنم حياة رخية ولا يرون موتا يريحهم مما هم فيه. فواجههم بما يؤكد يأسهم : إنكم ماكثون في العذاب ،لا موت ، ولا خروج من جهنم .

78ـلقد جئناكم ...للحق كارهون.

بكل تأكيد قد جئناكم، نحن الملائكة، بالنظر إلى أنهم أسرة واحدة، وإن كان الذي جاء بالحق هو جبريل. وحمل الآية على أن ضمير العظمة في "جئناكم " لله سبحانه فهو الذي أرسل الحق وبلغه إليهم بواسطة الملك وبواسطة محمد ﷺ. والحق الذي بلغه إليهم لا يلتبس بالباطل ولا يغمض على المتلقي له. ولكنهم رفضوه لأن أكثرهم يكرهون الحق. إنه يبطل آلهتهم ويفرض التوحيد ، وهم قد ألفوا عبادة الأصنام ، و يحذرهم يوم القيامة والحساب وهم يكرهون ذلك ، ويقمع اتباعهم للشهوات ، وهم يكرهون الاستقامة . ودقق القرآن بقوله " **ولكن أكثرهم**" لأن بعضهم لا يكره الحق مقتا له، ولكنه يخشى على مكانته الاجتماعية أن تنهار، وأن لا تبقى له قوة التأثير في الأتباع والدهماء.

79ـأم أبرموا أمرا...مبرمون.

ينتقل في نفس السياق لمعنى جديد فيحرك السامع من أول الأمر لينتبه بكلمة "أم" فيسجل أولا بواسطة استفهام تقريري مشوب بالتهديد هل إن المشركين أعدوا خطة كيد، وأحكموا مراحلها ؟ فليعلموا أنا مطلعون على خططهم ومكرهم، وقد أعددنا ما ينقض خطتهم ويفشل مكرهم. قد تشير الآية إلى ما دبره المشركون في دار الندوة من قتل النبي صلى الله عليه وسلم بواسطة شبان أقوياء من جميع بطون المشركين فيضربونه ضربة واحدة، فلا يستطيع أهله بنو هاشم أن يطلبوا بالقصاص، ويكتفوا بالدية، وهو أمر هين .

80ـ أم يحسبون...لديهم يكتبون.

أيظنون أنهم يستطيعون أن يكتموا ما دبروه من كيد فلا نعلم به، فهم لغبائهم يظنون أن الله غير مطلع على ما يجري في سرهم، وهم يدبرون المكائد في بواطنهم، وغير مطلع على ما يتحدثون به بين بعضهم حديثا خفيا، وهو حديث النجوى. بلى

نفي لظنهم إنا نسمع ونطلع على ما يجري في بواطنهم من مكر، وما يتحدثون به في خفاء وحذر من أن يطلع عليه. إن رسلنا من الملائكة الحفظة الموكلين بتقصي ما يصدر عنهم، حاضرون يسجلون كل خاطرة من خواطرهم، وكل كلمة من حديثهم .

قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِ يَا رَبِّ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

سبحان: تنزه أكمل التنزه.

يخوضوا: يتحدثون حديثا لا يقف عند حد.

ذرهم : اتركهم ولا تهتم بهم.

فأنى : إلى أي مكان.

يؤفكون : يصرفون.

قيله : مقول محمد.

صفح :أعرض وترك.

بيان المعنى الإجمالي :

قل للمشركين قولا يقطع لجاجهم : إني أقدس الله ربي ، وأعظمه ، وأقوم بكل ما يرضيه ، إنه لو كان لله ولد كما تقولون وتدعون أن عيسى ابنه ، لكنت أول العابدين لهذا الولد ،لأن ابن الإله لا يكون إلا إلها. ولكن دعوى البنوة كلام يخالف الواقع ، ويناقض مقتضيات العقل، ودعوى باطلة من أساسها لا تستند إلى منطق ولا إلى نقل تنزه سبحانه عما يلصقه به الجاهلون من أوصاف ، فهو الرب الكامل

خالق السموات ومسيرها ، خالق الأرض وما عليها، وهو رب العرش العظيم الذي هو أعظم من خلق السماوات والأرض الظاهرة لنا. فكيف ينسب لله العظيم ابن ؟ اتركهم يا محمد وشأنهم ، يتحدثون ويتواصل اشتغالهم بباطل القول، ويلهون عن الجد ، يتواصل منهم ذلك إلى أن يلقوا اليوم الذي أوعدهم به القرآن، يوم القيامة .

إنه هو الله المتفرد بالألوهية في عوالم السماء لا يشاركه في ذلك أحد. وهو المتفرد بتدبير الأرض ومن يعيش على ظهرها. وهو الحكيم البالغ الحكمة العليم الذي لا تخفى عليه خافية. خلق وسير كل شيء حسب قوانين مضبوطة ، وعلم كامل بالمآلات التي تصير إليه .

كثرت خيرات ربنا، الذي تفرد بملك السماوات والأرض وما بينهما، لا يغيب عنه من أمرها شيء، ويعلم الأجل الذي ينتهي فيه وجود هذا الكون، هي ساعة فنائه، وبعد فنائه ستعود الخلائق إليه ليحكم فيهم حكمه العادل.

من التصورات الباطلة عند المشركين، ظنهم أن الأصنام تشفع لهم. وهو ظن كاذب إنه لا يملك الشفاعة إلا من أقر وآمن بالحق النازل عليك، وهو يعلم من هو أهل للشفاعة فيه.

إنك إن سألتهم وضيقت عليه بدفع شبهاتهم فسيصلون إلى الاعتراف بان الله هو الذي خلقهم. فإلى أي نا حية يصرفون، إنه لا ملجأ لهم من الله إلا إليه.

وقال الرسول قوله(**قيله**) لما قاسى من عنادهم وتكذيبهم وتعاونهم على الشرك ، هذا القول رفع به شكواه منهم إليه : يارب إن هؤلاء المشركين في مكة قوم متصلبون في الكفر لا يؤمنون مهما أقمت عليهم من الحجج.

يا محمد اتركهم في عمايتهم ، وواصل إبلاغ ما كلفت به فسوف يعلمون المصير الذي سيؤولون إليه .

بيان المعنى العام :

81←83: قل إن كان للرحمن ...يوعدون.

الذي ترجح عندي بعد التأمل أن هذه الآية متصلة بقوله تعالى : (**ولما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون**) آية 57 هذه الآية التي واصل القرآن ما يتعلق بها، ببيان حقيقة عيسى عليه السلام وما جاء به، واختلاف الأحزاب ، وجزاء المختلفين المشركين. مواصلا تفصيل جزاء المشركين، ونعيم الأبرار. ثم عاد التوجيه القرآني إلى نفي ما ادعوه من كون عيسى ابنا لله، وهي صورة من الصور النافية للتوحيد الذي هو المنطلق في قوله تعالى : (**واسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون**) . وهذه الحجة طريقة في النفي

ونقض قول الخصم، مع إظهار أن المتكلم لا يتعصـب لرأيـه ولكـن ينقـاد للحـق، ممـا يحتم على الطرف المقابل أن يتحلى بهذا الأدب في البحث عن الحقيقة.
قل يا محمد :إنكم تدعون أن عيسى ابن لله، اعلمـوا أنـه إذا كـان لكـم أي دليـل علـى إثبات بنوة عيسى لله فقدموه، وإن أثبـتم ذلـك فأنـا أول مـن يعبـد هـذا الابـن، لأنـه باعتبار كونه ابنا يجب أن يكون إلها، وحق الإله أن يعبـد. ولكـن مـا قـدمتم لتصـوركم هذا سندا لا من العقل ولا من النقل، فكلامكم هذا مُتَهاوٍ لا أسـاس لـه، وبينـت لكـم أنـه مناقض للعقل. وقريب من هذا قول سعيد بـن جبيـر رحمـه الله للحجـاج لمـا قـال لـه الحجاج : أما والله لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى . أجابه: لـو كنـت أعلـم أن ذلـك إليـك مـا عبدت إلها غيرك.
ثم أمر ﷺ أن يتبع نفيه لكون عيسى ولـدا بطريقـة جديـدة، بالتصـريح بتنزيـه الله عـن النقص بكل أشكاله بكلمة "**سبحان**" التي هي علم على التنزيـه. واتخـاذ الولـد يـدفع إليـه الفناء اللاحق بالأصل، فهو يريـد أن يسـتمر فـي الوجـود بواسـطة نسـله، والله بـاق. تعالى أن يلحقـه فنـاء. وهـورب السـماوات والأرض، هـذه الكواكـب العظيمـة التـي خلقها ونظمها وسيرها فأحسـن تسـييرها، وهـو رب العـرش الـذي هـو أعظـم مـن السماوات والأرض، و يتجاوز التصور البشري .فتنـزه مـن خلـق وملـك هـذا الكـون العظيم ،أن يكون في حاجة إلى ولد، وتنزه عن كل ما يصفه به المشركون.
اتركهم ولا تهتم بهم، وهم يتحدثون ويكثر لغطهـم فـي الباطـل، ويلعبـون بعيـدين عـن حياة الجد، ليستمروا على ذلـك إلـى أن يلقـوا مصـيرهم فـي اليـوم الموعـود، يـوم القيامة، اليوم الذي تتكشف فيه الحقائق ويندمون، دون أن ينفعهم الندم.

84←85: وهو الذي في السماء ...واليه ترجعون.

هو وحده المتفرد بالألوهية في السماء ، يدبر عوالمهـا ، ويبقـي عليهـا مـا شـاء لهـا البقاء، لا يشاركه في ذلك ملك ولا أحد. وهو المتوحـد فـي تـدبير عـالم الأرض. وهـو سبحانه الحكيم الذي يجري شؤون الكون وتحولاتـه وعلاقاتـه حسـب الوجـه الـذي لا يغفل صغيرة ولا كبيرة ، ويعطي لكـل شـيء قانونـه الـدقيق. وإنـه سـبحانه الواسـع العلم الذي وسع علمـه الماضـي والحاضـر والمسـتقبل ، فـلا يغيـب عـن علمـه أي جزئية، أو تطور، أو تأثر أو تأثير .
كثرت خيرات ربنا كثرة تتجـاوز الحصـر، فتأمـل أيهـا الإنسـان فـي صـفات ربـك العظيم الذي له وحده ملـك السـماوات والأرض ، ومـا بينهمـا ، إن عمـرك أقصـر من أن تستطيع تعداد ما يدخل في ملكه، ولو كان البحر مـدادا لكلمـات ربـي لنفـد قبـل أن تنفد كلمات ربي. ثم إنه كمـا خلقهـا، وأعطاهـا سـنن تطورهـا واسـتمرارها، فإنـه

يعلم بدقة متى سينتهي وجودها، ويلحقها الفناء كأن لم تكن. كما اختص سبحانه بأنه بعد إفنائكم ستعودون إليه ليحاسبكم عما قدمتم ويجزيكم بعدله ، وفضله . فهو المالك للكون في الدنيا، وهو كذلك المتفرد بالملك في عوالم الآخرة.

86.ولا يملك الذين ...وهم يعلمون.

إبطال آخر لعقيدة المشركين الذين يدعون أن آلهتهم التي يعبدونها من دون الله، لها مكانة عنده فهي تشفع لهم، ويلقون بفضل شفاعتهم حسن الجزاء. فنفى أن يكونوا يملكون الشفاعة التي هي مرتبة لا تليق بهم .لكن الذين شهدوا بالحق، شهدوا أن الله واحد لا شريك له، وأن كل من خرج عن هذه العقيدة خاسر خسرانا أبديا: **(إن الله لا يغفر أن يشرك به)**[1]. فهؤلاء الذين شهدوا بالحق، وعرفوه والتزموا بما يترتب عليه ، وخلصت عقيدتهم من كل شائبة شرك، وهم يعلمون أن من أشرك بالله لا أمل له في النجاة ، فهؤلاء يتقدمون إلى ربهم بالشفاعة فيكرمون بقبول شفاعتهم.

87.ولئن سألتهم ...فأنى يؤفكون.

إنك إذا سألتهم يا محمد سؤالا واضحا لا يحتمل إلا إجابة واحدة ، من خلقكم ؟ فإن جوابهم سيكون اعترافا بأن الله هو الذي خلقهم. فإلى أي وجهة يريدون أن ينصرفوا. إلى أي ملجأ يريدون أن يذهبوا بأنفسهم ،بعد أن تبين أن الله خالقهم. وكما سبق لي فإن إقرارهم هذا لا يكون إلا بعد أن يلجئهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوة حججه ، وذكائه، والتضييق عليهم بإبطال شبهاتهم .

88.وقيله يارب...لا يؤمنون.

افتتحت الآية بـ(قيله) وهو مصدر قال ،بمعنى اسم المفعول .أي مقوله ﷺ. فالآية تسجل ما بقوله ﷺ، وقد أضجره عنادهم وتلددهم ،إذ كلما ألجأهم بواضح الحجة وبكتهم نقضوا واستهزأوا .أصنامهم لا حياة فيها ولا تسمع ولا تبصر. احتجوا ببنوة عيسى فحطم ذلك حتى وصل به الأمر إلى افتراض أنه يعبده ليكر على حجتهم بالإبطال. وضيق عليهم ليعترفوا أن الله خالقهم. ومع كل هذه الجهود هم متصلبون في شركهم. فشكا لربه شكوى الملتجئ المتحسر المفوض أمره إليه. إن هؤلاء المشركين قوم تساندوا فيما بينهم على عدم الإيمان، والاسترسال في الكفر.

---

[1] سورة النساء آية 176

89ـفاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون.

رتب القرآن على تفويض الرسول صلى الله عليه وسلم إلى ربه ليسعده بالتوفيق إلى الحل الذي يرضى به عنه. فهداه إلى أن يواصل مهمته دون أن يتأثر بإعراضهم . فيصفح عنهم ، صفح الإعراض والمتاركة. وقل لهم أمري سلام .إنه إذا كنتم مصممين على منهجكم من اللجاج والخصام وقلب الحقائق ، فأنا لا أسايركم في طريقتكم. وسوف تعلمون ما يحل بكم .ولم يبين ما يحل بهم لتذهب النفس في تصوره ما تشاء من الهول .

كمل تفسير سورة الزخرف بحمد الله وحسن عونه عشية يوم الأحد 29 ذي الحجة1434-2013/11/03.

سورة الدّخان

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وكتب التفسير ، ووجه تسميتها أن كلمة(الدخان) ذكرت فيها ، على أنه آية من آيات الله، أيدت النبي ﷺ، على ما سيأتي في تفسيرها في قوله تعالى : **فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين** الآية 10-نزلت على رسول الله ﷺ في مكة قبل الهجرة . رتبتها حسب ترتيب المصحف الرابعة والأربعون. وحسب ترتيب النزول الثالثة والستون. نزلت بعد سورة الزخرف وقبل سورة الجاثية . وهي السورة الخامسة من الحواميم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفۡرَقُ كُلُّ أَمۡرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمۡرٗا مِّنۡ عِندِنَآۚ إِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَآۖ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ رَبُّكُمۡ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٨﴾

بين معاني الألفاظ :

النذر : من يخبر بأمر ضار ليتقيه المخاطب.

مباركة : الكثيرة الخير لما يمكن الله فيها عباده مما ينفعهم دنيا وأخرى.

يفرق : يفصل بالقضاء.

الأمر الحكيم :الأمر الذي أحكمه الله وأتقنه.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت هذه السورة الخامسة من الحواميم على النحو الذي افتتحت به السورة السابقة "الزخرف " وأقسم بالكتاب المبين ، لتثبيت أن الله تولى بعنايته إنزال القرآن من اللوح المحفوظ ، إلى الموقع الذي يستطيع فيه جبريل أن ينقل إلى رسول الله ﷺ ما يؤذن له فيه بإبلاغه، فاختار لذلك أفضل وقت في ليلة مباركة هي ليلة القدر.

أنزل كتابه لأنه سبحانه هو الموصوف بالمنذر، يوقظهم حتى لا يقعوا فيما يرديهم في دنياهم وعاقبة أمرهم. في هذه الليلة يفصل بقضائنا كل أمر ضبطناه بحكمتنا وقدرناه تقديرا ، ما كان من الأمور العامة أو من الوحي للرسول ﷺ، أو لما يهدي إليه البشر موفرا له الألطاف ليقوموا بما يسعدهم. إنا كنا مرسلين للناس ما يرحمهم ويخرجهم من حيرة الشك، وضلال الطريق. فربك يا محمد هو السميع لكل حركة تحدث في الكون مهما لطفت، وما يصحبها من قصد نعلمه ولا يخفى علينا. هو سبحانه الذي يوالي عنايته بالسماوات والأرض وما بينهما. وبتلك العناية الموصولة يتمكن كل مكون من مكوناتها من أداء وظيفته حسبما قدره، وأحكمه. إن كانت مداركم سليمة فلا مناص من اليقين بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما.

وهو ربكم ورب آبائكم من قبلكم، هو الذي ضخ الحياة التي أوجدتكم، وأوجدتهم، وهو الذي يميت من بلغ أجله المقدر عنده. فهل للأصنام من دخل في الحياة أو الموت؟

بيان المعنى العام :

1←2: حم والكتاب المبين .

هذه هي السورة الخامسة من الحواميم .افتتحت فاتحة مساوية لسورة الزخرف. فيقال في تفسيرها ما أثبتناه هناك.

3ـإنا أنزلناه...إنا كنا منذرين.

هذا هو المقسم عليه . أن القرآن منزل من عند الله كلماته وحروفه وترتيبها، وأن إنزاله كان في ليلة شرفت بذلك الحدث الفريد في تاريخ الكون اختاره خالق الكون العليم بالأسرار. فقدر فيها من البركات والخيرات الشيء الكثير. ومعنى إنزاله فيها: أن القرآن كلام الله المثبت في اللوح المحفوظ ، فلما كانت الليلة المنوه بها نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء التي يمكن فيها لجبريل ملك الوحي أن ينقل إلى النبي ﷺ ما يؤذن له بنقله. ويمكن أن يراد بذلك أن أول آية من القرآن حملها جبريل إلى النبي ﷺ كانت في هذه الليلة من رمضان، فاعتبر ابتداء إنزاله إنزالا له.

وقد اختلف في تعيين هذه الليلة. فمن قائل هي ليلة القدر، أو هي ليلة النصف من شعبان. يقول الإمام ابن العربي : وجمهور العلماء على أنها ليلة القدر ، ومنهم من قال إنها ليلة النصف من شعبان، وهو باطل ؛ لأن الله تعالى قال في كتابه الصادق القاطع: (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) فنص أن ميقات نزوله رمضان ، ثم عبر عن زمانية الليل هاهنا بقوله: **(في ليلة مباركة)**فمن زعم أنه في غيره ، فقد

أعظم الفرية على الله ، وليس في ليلة النصف من شعبان حديث يعول عليه ، لا في فضلها، ولافي نسخ الآجال فيها فلا تلتفتوا إليه. أحكام القرآن ج4 ص1678- التحقيق هو ما ذهب إليه ابن العربي، والمعتمد أيضا أن الله بارك في نظيرتها كل عام، وأن العُباد يتعرضون فيها لفضل كبير ، وثواب مضاعف. ويكفيك في فضلها أنها الليلة التي أذن فيها رب العزة أن يسعد الناس قاطبة بتمكينهم من هدايته التي ضمن حفظها؛ فكانت مرجعا لهم على مر الأحقاب. روى الإمام مالك في موطئه بسنده إلى عبد الله بن عمر ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: (تحروا ليلة القدر في السبع الأواخر–ح 892) إنا أنزلنا القرآن لأن من صفاتنا العلية: أن من صفاتنا إنذار البشر، وتنبيهم إلى الأخطار التي يتعرضون إليها في آخرتهم، وفي حياتهم الاجتماعية في دنياهم، ليأخذوا حذرهم منها. واكتفى بالإنذار عن ذكر البشارة لأن وضع البشرية في وقت نزول الآية كان متطلبًا للإنذار أكثر.

4.فيها يفرق كل أمر حكيم.

في هذه الليلة المباركة العظيمة الخيرات، يفصل ويقضى كل أمر حكيم. أي إن الله جعل ظهور تقديره لينفذه الموكلون به من الملائكة في تلك الليلة. وتحتمل كلمة كل أن يراد بها الشمول التام لجميع الأمور، كما يمكن أن يفهم منها الكثرة فقط. كما تقول عن مساحات العرض الكبيرة: فيها كل ما تطلب. والأمر الحكيم ، هو الأمر الصادر من الحكيم الذي اتقنه وراعى فيه كل الخصائص والنظم الدالة على حكمته سبحانه. ومنها الأمور العامة في تسيير الكون التي توكل إلى الملائكة، ومنها ما كان ينفذ إلى رسول الله ﷺ، ومنها ما يوفق إليه البشر. وتدقيق ذلك من علم الله.

5.أمرا من عندنا إنا كنا مرسلين.

زاد الأمر الحكيم فخامة بقوله: **(أمرا من عندنا)** صادرا عن عنايتنا، مشرفا بذلك. **(إنا كنا مرسلين)**. تثبت هذه الجملة أن الله أراد ونفذ إرسال المرسلين. فما عنده في اللوح المحفوظ مما أراد أن يبلغه لهداية الناس أوكل به المرسلين ليقوموا بهذه المهمة الأمر الذي يفرض على البشر أن يستجيبوا لما جاءهم.

6.رحمة من ربك إنه هو السميع العليم.

أرسلنا الرسل، من أجل رحمة عبادنا، حتى لا يقعوا في الحيرة ولا في الضلال. ليتولوا مقدما إنذارهم حتى يتجنبوا ما يفضي بهم إلى الخسران في دنياهم وآخرتهم. وليجدوا من البشارة ما يخفف عليهم الاستجابة ويحرضهم على الطاعة وفعل الخير. هذه الرحمة تفضل بها ربك يا محمد ؛ وهو ربك وربهم في الحقيقة، ولكن

أضيف كلمة الرب إليه صلى الله عليه وسلم رفعـا لمقامـه ، وتقريبـا لـه، ولإظهـار أن الرحمة تمت بواسطته، فهو الرحمة المهـداة.**(ومـا أرسـلناك إلا رحمـة للعـالمين إنـه هو السميع العليم)**.(الحياة حركة) و كل ما يجري مـن الحـوادث فـي الكـون ويظهـر، هو نتيجة حركة، قد تبلغ من الخفاء مـا يجعـل قـدرات الإنسـان لا تسـتطيع تسـجيلها. إن حركة النمل تحدث صوتا، وكذلك حركة الخليـة، وحتـى مـا يجـري داخلهـا، ولكنـا عاجزون عن سماع صوت الحركة إذا لم تبلـغ مسـتوى معينـا. فـإعلان الآيـة وصـف الله بـ"**السميع**" يعرفنا بأن كل الحركات التي هـي ملازمـة للحيـاة يسـمعها رب العـزة. وهو" **العليم**" بما يصحب تلك الحركات بالنسـبة للمكلفـين مـن قصـود طيبـة أو خبيثـة **(العليم)** فكانت هـذه الخاتمـة مؤكـدة لمـا تتـابع مـن أول السـورة، محقـق للربوبيـة والإرسال .

7ـرب السماوات...كنتم موقنين.

تضمن وصفه **بالسميع العليم** صلة الكون كله بـه، فصـرحت هـذه الآيـة بـذلك. إنـه رب السماوات والأرض وما بينهما الذي تولاها بعنايته. فهـذه الآيـة تثبـت أمـرا زائـدا على الخلق، يدل عليه التعبير بقوله: "**رب السماوات**..." إنـه بعـد الخلـق تتابعـت عنايـة الله بها قال تعالى:**(ويمسك السماء أن تقـع علـى الأرض إلا بإذنـه)**[1] وقـال تعـالى:**(إن الله يمسك السماوات والأرض أن تـزولا)**[2] فكونـه تعـالى مراعيـا للسـماوات والأرض وما بينهما أمر مشاهد لا يحتـاج إلـى دليـل .وخـتم الآيـة بقولـه "**إن كنـتم مـوقنين**"، للدلالة على أنهم إن لم يوقنوا بتـدبير الله لأمـر السـماوات والأرض ومـا بينهمـا، مـع أنه مشاهد لهم في كل لحظة. فهم قد حجبوا مداركهم عن بلـوغ اليقـين علـى أنـه مـدبر السماوات والأرض وما بينهما. فهـم كالنعامـة إذا طاردهـا الصـيادون فضـيقوا عليهـا، تدس رأسها في التراب فلا ترى شيئا ، فتظن أنهم قد انصرفوا عنها.

8ـ لا إله إلا هو...آبائكم الأولين.

تفرد بالألوهية الفاعلة ، ومن أعظم مظـاهر تصـرفه سـبحانه ، أنـه هـو وحـده الـذي يعطي الحياة وهـو الـذي يسـلبها فيميـت. وإنهـا لظـاهرة تعصـف بكـل الشـبهات لوضوحها وتكررها. فلا الجسم المشتمل على جميـع الأجهـزة يسـتطيع أحـد أن يضـخ فيه الحياة ، ويقف الأهـل والخـلان والأتبـاع مستسـلمين ، كمـا أن الحـي لا يسـتطيع أحد أن يسلب عنه الحياة، تجده مريضا فـي حـال غيبوبـة كاملـة، وقـد أيقـن الأطبـاء

---

[1] سورة الحج آية 65

[2] سورة فاطر آية 41

بقرب وفاته ولكن حياته بيد خالقها باقية مـا أراد وقـدر. فجمعـت هـذه الآيـة تصـرف الله في ذوات البشر إلى تصـرفه فـي السـماوات والأرض ومـا بينهمـا. إنـه سـبحانه ربكم ورب آبائكم أحيى الجميـع وأمـات الجميـع أو سـيميتهم، ولا يفلـت عـن قدرتـه شيء . فهل لآبائهم الأولين الـذين اسـتعظموا أن يخرجـوا عـن طـريقتهم، أن يحـدثوا موتا أو حياة؟

بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ يَلۡعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرۡتَقِبۡ يَوۡمَ تَأۡتِي ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٖ مُّبِينٖ ﴿١٠﴾ يَغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

ارتقب : انتظر ما سيأتي قريبا

يغشى الناس: يحيط بهم.

أنى لهم الذكرى : ما أبعد الذكرى عنهم.

المعلم : الذي يعلمه غيره .

نبطش : نسلط عليهم العذاب القوي الذي لا مرد له.

بيان المعنى الإجمالي :

أضرب عن الاستدلال ،وتحول الكلام للكشف عن حقيقـتهم . إنهـم مغرقـون فـي الشـك لاهون يلعبون منصرفون عن النظر ، بعيدون عن الجد . انتظـر يـا محمـد مـا سـيحل بهم ، اليوم الذي تجلب السـماء علـيهم دخانـا بينـا ، يغشـى أبـدانهم ومسـاكنهم وكـل نواحي أرضهم . فيضجوا من شدته قائلين : هـذا عـذاب ألـيم لا يطـاق . ثـم يلتجئـون إلى ربهم قائلين **(ربنا ارفع عنا العـذاب)** ، إنـا مؤمنـون بـك وبرسـولك . مـا أبعـدهم عن مستوى التذكر النافع ! فقد بعثنا إليهم رسولنا أبان لهـم الحـق ورفـع الشـبهات .ثـم إنهم لم يتأملوا فيما أتاهم به وأعرضوا عنه ، وقـالوا هـو يكـرر علينـا مـا تلقـاه مـن غلام يعلم كتب الأولين ، وقالوا مرة إنه مجنون يخلـط بدعوتـه للتوحيـد ، وأنـه مرسـل من عند الله . إنا سنرفع العـذاب عـنهم مـدة قليلـة ليظهـر عـدم وفـائهم بالتزامـاتهم، ويعودون إلى ما كانوا عليه من الشـرك والتكـذيب. ونـبطش بهـم فننـتقم مـنهم النقمـة الكبرى يوم بدر. إننا منتقمون لا تستطيع أي قوة أن تصد انتقامنا.

بيان المعنى العام :

9ـ بل هم في شك يلعبون.

[بل] لتنبيه المخاطب أن نسق الحديث قد تحول عمـا كـان إلـى مضـامين جديـدة. إنهـم أبعد ما يكون أن يتأملوا فيما لفتت الآيات إليـه أنظـارهم، لأنهـم مغرقـون فـي الشـك، الذي استولى على مداركهم فصرفوها عن جد النظر إلى اللعب والاستهزاء

10←18: فارتقب يوم ...منتقمون.

انتظر يا محمد أمرا يؤيدك، قريب وقوعه، انتظر **(يـوم تـأتي السـماء بـدخان مبـين)**. الدخان معروف ما يرتفع في الجو مـع اشـتعال الحطـب، أو خمـود اللهـب. واختلـف المفسرون في تعيين هذا اليوم بعد اتفاقهم على أنه لـم يحـدث يـوم نـزول الآيـة لقولـه تعالى: "**فارتقب** ".

الراجح أنه يحدث في الدنيا ، ذكروا: أن النبي صلى الله عليـه وسـلم لمـا اشـتدت عليـه إذاية قريش وصدهم عن الـدين ، دعـا علـيهم : اللهـم اجعلهـا علـيهم سـنين كسـنين يوسف. وأن الله استجاب له وتوالى الجدب، حتى إن النـاظر كـان ينظـر إلـى السـماء فيرى بينه وبينها مثل الدخان مـن الجـوع .ثـم إن قريشـا اسـتغاثت عنـد رسـول الله ليدعو لهم بكشف ما حل بهم من البلاء ، فدعا لهم فمطروا .

وحمل يعضهم الدخان على التراب الـذي تسـفوه الريـاح لبعـد زمـن نـزول المطـر، ويرتفع إلى السماء ليكَون طبقة مـن الغبـار تحجبهـا. وهـذا مـا حـل بقـريش بسـبب القحط. ويطلق الدخان على الغبار في اللغة.

والذي يترجح عندي أن الله سلط علـيهم الـدخان، الـذي سـمم الجـو، وأخـذ بأنفاسـهم، وضيق عليهم الحياة تضييقا شديدا، لقوله تعالى: **دخان مبين**، فهو دخان واضح.

يغشى الناس ،ينزل عليهم من السماء فيعم أبـدانهم ومسـاكنهم ويـدخل فـي كـل ناحيـة، إلى أن يضجوا ويقولوا: "**هذا عذاب أليم**". كمـا يقـول أحـدهم يـوم البـرد: هـذا بـرد شديد. ويحتمل أن يكون من كلام رب العزة تسجيلا لشدته.

واصل القرآن تصوير وقع العذاب المرتقب عليهم، وما يترتـب عليـه. لمـا اشـتد علـيهم أمر الحياة مع الدخان رقّتْ نفوسـهم، وتهـدمت كبريـاؤهم، واسـتجابوا لنـداء الفطـرة، فاتجهوا إلى الله داعين: **(ربنا ارفع عنا العذاب إنـا مؤمنـون)** بـك إن رحمتنـا وكشـفت عنا العذاب.

ما أبعد أن يكونوا صادقين، تنفذ الذكرى إلى قلوبهم وتحولهـا مـن الـرفض إلـى القبـول ومن الكفر إلى الإيمان. إن دلالة الدخان على أن الـدين حـق ،دلالـة دون دلالـة الآيـات التي تأيد بها رسول الله ﷺ. بلغها لهم ، وبينهـا فلـم يبـق فيهـا خفـاء ولا احتمـال .ثـم

بعد جهده وحرصه على أن ينقذهم مما هم فيه ،أعرضوا عنه وقالوا: إن غلاما يعرف الكتب السابقة كان يعلمه ،فليس بينه وبين الله صلة، وقالوا مرة إنه مجنون ، به مس في عقله فادعى أنه متصل بالله .

–قدرنا أن نكشف عنكم العذاب إلى أمد محدود .وذلك لما سبق في علم الله ، أنهم لجأوا إليه لشدة وقع الدخان عليهم ، وبقيت نفوسهم منطوية على الخبث والتكذيب .

إنا نعلم أنكم ستعودون إلى ما كنتم عليه من الشرك عن قريب. كل ما ذكر هو لم يقع بعد وهو من أنباء الغيب ،وقد تحقق في الواقع ما عرضته هذه الآيات من ذلك.

– كما أنبأ رسوله من تسليط عذاب عليهم في صورة دخان ، وأنه سيكشفه عندما يلتجؤون إليه ، أنبأه بأنه سينتقم منهم انتقاما أشد وأنكى **(يوم يبطش بهم البطشة الكبرى)**. وهي على ما ذهب إليه المفسرون بطشة يوم بدر التي لقي فيها قادة الشرك مصرعهم .

۞ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَيَّ عِبَادَ ٱللَّهِ
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّيٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي
عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُواْ لِي فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا
إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾
وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ
ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

فتنا : امتحناهم باختلال أحوالهم.

كريم :النفيس الفائق في صنفه . رسول من خيرة الرسل .

أن أدوا إلي عباد الله : أرسل معي بني إسرائيل . وخل بيني وبينهم.

رسول أمين : رسول مؤتمن على ما امرت به.

أن لا تعلوا : امتثلوا لما يأمركم به.

السلطان : الحجة .

عذت بربي : جعلت ربي ملجأ لي .

الرجم : الرمي بالحجارة تباعا.

فاعتزلون : متاركة صريحة.

البحر : البحر الأحمر .

رهوا: منفتحا.

نعمة : أنواعا ينعم بها أصحابها ، وتعطيهم راحة في حياتهم ولذة .

فاكهين : تجاوزت النعم الحاجة فغمرتهم ،ويسرت لهم الفكاهة والمرح.

منظرين : غير ممهلين إلى يوم القيامة.

بيان المعنى الإجمالي :

لقد اختبرنا قبل قومك ، قوم فرعون بما يظهر ما ينطوون عليهم من الكبر والكفر. وجاءهم من عندنا رسول نبيل من أولي العزم. كمال أدبه وقوة حجته مما يدعو إلى الإيمان به. بلغهم أصول الإيمان: **(قال فرعون وما رب العالمين ؟ قال رب السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين)**. وطلب منهم أن يرسلوا معه بني إسرائيل، كفاهم ما قاسوا من استعبادكم لهم. واعلموا أني رسول من عند الله أمين على ما كلفني بإبلاغه إليكم. وأحذركم أن تستكبروا على أمر الله ولا تطيعوه. وإني مؤيد بحجج باهرة واضحة أنها من عند الله ،وإن مستجير بربي وربكم أن تمسوني بسوء ، وأن ترجموني بالحجارة كما هو شأنكم فيمن خالف دينكم . فإن أصررتم وأبيتم الإيمان فاعتزلوني خلوا بيني وبين قومي. أيس موسى عليه السلام من فرعون وملئه الذين ربوا على الكفر والإجرام. فتوجه مستغيثا بربه أن يهديه الطريقة التي يمكن بها إنقاذ قومه.

أجاب الله دعاءه، وأمره أن يجمع قومه، ويسري بهم ليلا إلى جانب البحر الأحمر. وأعلمه أن فرعون سيتبعه ليحول بينه وبين الخروج من أرض مصر. وأن يلج البحر بعد أن يضربه بعصاه ، وأن لا يضربه ثانية بعد أن يصل إلى العدوة المقابلة، وأن فرعون سيدخله وهو منفتح ، فإذا بلغ وسطه انطبق عليه جانبا البحر ويغرق مع جنده. لقد تركوا خلفهم أموالا كثيرة جنات ،تسقيها العيون العذبة، وزروع زرعوها وما حصدوها ، وبلد رتبوا الحياة فيه ترتيبا جيدا في مسالكه ومساكنه وكل ما يجعل الإقامة مريحة ومناسبة. وضروبا من النعيم تجاوزت الحاجة إلى التفكه والمرح، وعلى هذا النحو تركوا كل ذلك. و مكن الله منها قوما غير ورثة فرعون من نسله. هلك فرعون فما أحس به ولا أسف عليه شيء من الكون، ونفذ فيه القضاء سريعا دون انتظار لتفاهته .

بيان المعنى العام :

17←18۔ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون...رسول أمين.

نُحقق أنا ابتلينا قبل قومك قريش، ابتلينا قوم فرعون. وهذا الابتلاء يشمل اختبارهم بإرسال موسى إليهم لتظهر طاعتهم أو صدودهم، أي إننا عاملناهم معاملة المختبر لتظهر حقيقتهم، فيكون جزاؤهم مناسبا لموقفهم من رسولنا. جاءهم رسول نبيل من أولي العزم. وعرض عليهم أن يؤمنوا به ، وأن يخلوا بينه وبين قومه بني إسرائيل الذين استعبدهم القبط وأذلوهم. ويشير قوله: عباد الله إلى أن استعبادهم لهم ظلم، فهم عباد الله وليسوا عبادا لكم، أحرار ملكتم رقابهم بغير حق. فيفهم من النص أن موسى ﷺ طلب من فرعون وقومه أمرين: الإيمان، ورفع ظلم الاستعباد عن قومه. والتخلية بينه وبينهم ليتبعوه ويقوم بتربيتهم تربية ترفع عنهم رواسب ذل الاستعباد. وأكد عليهم أمر الاستجابة لِما دعاهم إليه، لأنه رسول من عند الله ، أمين على ما أوحاه له، لا يزيد فيه ولا ينقص منه.

19←20: ألا تعلوا...وربكم أن ترجمون.

علا فرعون في الأرض ، وادعى الألوهية كما سبق لنا في سورة الزخرف. والعلو والاستكبار حجاب يحول بين الإنسان وبين قبول الحق. وهو أول معصية ظهرت في الخليقة عندما استكبر إبليس وظن أنه أعلى من أن يمتثل لأمر ربه بالسجود لآدم. ولذلك تحصن موسى ﷺ من هذا الداء المعروف به فرعون. فذكرهم بنهيه أن يظنوا أنفسهم أعلى من طاعة الله. وطوعهم لمتابعته بأنه مصحوب بحجة قوية واضحة، لا يمكن لأحد أن يشكك فيها، هي المعجزة التي تأيد بها عندما كلف بالرسالة في جبل الطور.

وإني متحصن بربي وربكم المتحكم فينا جميعا، فإياكم أن تقذفوني بالحجارة، فإني مستجير بربي وربكم، ومن أجاره رب العزة فهو محمي بحمايته ، ليحذر من يتجرأ على من هو محمي به. فالله العظيم يدافع عمن أجاره .فألقى في روعهم الخوف من أن يعتدوا عليه بتوثيقه وقذفه بالحجارة إلى أن يموت، كما هو شأنهم مع من يخالف دينهم.

21۔ وإن لم تؤمنوا بي فاعتزلون.

وإن أصررتم على عدم الإيمان بي عندما أعرض عليكم ما أيدني به ربي من المعجزات، اعتزلوني وأعتزلكم، ومكنوني من قومي بني إسرائيل.

22۔فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون.

بعد أن قدم موسى كل المؤيدات لرسالته ، واستعمل طرق الإقناع المتنوعة ليؤمنوا ويخلوا بينه وبين بني إسرائيل ، لم يجد منهم إلا الإصرار على الكفر وعلى استعباد

قومه الذين كلف بإنقاذهم .ولما أيس من اهتـدائهم توجــه إلــى ربــه بالــدعاء :إن هـؤلاء فرعون وقومه ،قوم مجرمون .ألفوا الإجرام ، واســتقر الشــر فــي نفوســهم. ممــا يفيـد أنه طلب من ربه العون .وصيغة الاستغاثة تفيض بالاضطرار .

23← 24 .فاسر بعابدي ...إنهم جند مغرقون.

جاءه الفرج بعد الشدة، وعرفه العليم الخبير بالخطــة التــي ينفـذها .أمــره أولا أن يجمــع قومه ، ويشير التعبير إلــى أن عهـد الـذل والاســتعباد قـد ولــى ،بعـد جمعهـم وراء رسولهم ، فهم مكرمون منسوبون إلى الذات العلية(**عبادي**)

وثانيا : أن يتخذ ظلام الليل ساترا مــن أعــين زبانيــة فرعــون ، فيسـير بقومــه لــيلا ، ليتمكن من قطع أطول مسافة بين مكان إقامتــه وبــين البحــر قبـل أن يتبعــه فرعــون ، فيسبقه موسى إلى البحر .

وثالثا: أن لا ينزعج إذا ما شاهد فرعون وجحافل جيوشه يتبعونه للقبض عليه.

ورابعا: أن يترك البحر على حالته، منفــذا واســعا يَبَسًــا، وأن لا يضــربه بعصــاه بعـد أن يبلغ مع قومه الساحل المقابل . وقد فصل القــرآن فــي ســورة الشــعراء: كيــف أنــه ضرب البحر بعصاه، **(فانفلق فكان كــل فــرق كــالطود العظـيم)**. وأطبــق مــاؤه علــى فرعون وجنده الآيات 66/61

وخامسا : أنه حم القضاء، فسيغرق فرعون وجنده في البحر ولا ينجو منهم أحد.

25←29: كم تركوا من جنات...وما كانوا منظرين.

دخل فرعون وجنده، من المسالك التي بقيت مفتوحــة، فلمــا كــانوا جميعــا فــي وســطه أطبق عليهم، و غرق في البحر الأحمر فرعون وجنــده وهلكــوا. وتلفــت الآيــة الأنظــار لتنفذ إلى محل الاعتبار. أن ما ملكوه مــن أســباب الــدنيا والنعــيم تركوهــا خلفهــم ولــم تفدهم. تركوا أموالا كثيرة وجنات باســقة ، وعيونــا جاريــة ، وزروعــا زرعوهــا ومــا حصدوها ، ومقاما كريما . نظموا مكــان إقــامتهم، بلــدهم تنظيمــا جيــدا فــي المســالك، وفي الأسواق والمتاجر والمصــانع، والمســاكن. وكــم تركــوا مــن نعمــة، رخــاء فــي العيش بما يتجاوز الحاجة، فتيسر لهم التفكه والمزاح والمــرح. علــى هــذا النحــو ذهبــوا وتركوا ما جمعوه من أسباب العيش الرخي .

ومكن الله من تلكم الخيرات قوما آخرين، ورثوها عنهم. ذلــك أن فرعــون لــم تكــن لــه إلا بنت (طوسير) تزوجها (صفطا) أحد أمــراء فرعــون، فخلفــت أباهــا (منفطــا) علــى عرش مصر. ولما لم ينتقل الملك إلى نسل منفطــا الــذكور، إذ لــم يعقــب ذكــرا، عبــر عن الوارثين بكونهم قوما آخرين ليسوا من سلالة الفراعنة .

تكبر فرعون وتجبر، وادعى الألوهية، وعظمه قومه تعظيما رفعوه به إلى مقام الألوهية. وهو وضيع عند الله تافه لا قيمة له، فما بكت عليه السماء والأرض، تعبير يدل على أنه هلك وما وقع الإحساس بفقده، أو الأسف عليه لا في السماء ولا في الأرض، ونفذ فيه القضاء دون انتظار ولا تأخير في الأجل الذي عينه الله لإفنائه.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌا۟ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

عاليا: متكبرا جبارا.

منشرين: مبعوثين يوم القيامة.

من المسرفين : المفرطين في الشر .

قوم تبع: سكان جميع بلاد اليمن حمير وسبأ وحضرموت، الداخلون تحت حكم تبع

بيان المعنى الإجمالي :

امتن الله على بني إسرائيل بعد أن نجاهم من العذاب الجامع بين الإيلام والإهانة. العذاب الذي كان يمثله فرعون الطاغية الذي بلغ به الاستكبار أن ظن نفسه أرفع من الناس أجمعين، وأسرف في فعل الشر. اختار الله بني إسرائيل ليكونوا حملة رسالة موسى عليه السلام . والله عليم بما خلق. **(فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين)**[1] وختم سبحانه الاختيار بأمة محمد ﷺ التي لا تعتمد على نسب ولا عرق ولكن لحملها الشريعة الخاتمة بعقيدتها وقيمها .**(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله)**[2]

---

[1] سورة الصف آية 5

[2] سورة آل عمران آية 110

لقد مكن الله بني إسرائيل من آيات معجزات ، أيـدهم بهـا وأراهـم مـن فضـله الشـيء الكثير ، ليختبرهم اختبارا واضحا ،هل يقومون بواجب الشكر؟

إن هؤلاء المشركين من القرشيين لينكـرون بكـل قـواهم البعـث. ويقولـون: لا يجـري علينا إلا موتة واحدة ، تتحلـل أجسـامنا بعـدها وتتفتـت عظامنـا، ولا يعقـل أن نعـود للحياة ونبعث يوم النشور. ثم تحدوا النبـي ﷺ وصـحابته، فقـالوا لهـم إن كانـت الحيـاة ممكنة بعد الموت فأحيوا لنا آباءنا، وائتونا بهـم إن كنـتم صـادقين فـي دعـواكم وقـوع الحياة بعد الموت. وهذا من محاجتهم بالباطـل ،فالحيـاة بعـد المـوت تـتم فـي الآخـرة لافي الدنيا. استكبروا في أنفسهم، وظنوا أنهم لقـوتهم يصـمدون. سـألهم القـرآن سـؤال تقرير يبطل ظنهم: هل هم أشد قوة من قوم تبع ومـن قـبلهم مـن الأمـم التـي أهلكنـاهم بسبب إجرامهم، الشرك وفعل الشر. وشتان مـا بـين قـوتهم وقـوة تلـك الأمـم ، فهـم أقرب إلى الإبادة منهم .

بيان المعنى العام :

30←31-وقد نجينا بني إسرائيل ....عاليا من المسرفين.

امتنان مؤكد على بني إسرائيل بعد أن نفذ القضاء فـي فرعـون وجنـده، ونجـى موسـى وقومه. نجاهم الله من العـذاب الـذي يجمـع بـين الأذى البـدني ، والأذى النفسـي . إذ كان الإسرائيليون في مصـر مسـخرين للخدمـة والأعمـال الشـاقة، ويصـحبهم الإذلال من مستخدميهم بصنوف من الإذلال منها قتل أبنائهم واستحياء نسائهم.

من فرعون، مما يلوح بأن فرعون بلغ من الشر أن كـان هـو نفـس العـذاب المهـين . رشح منه ذلكم الاعتداء والتعذيب لأنه كان مسـتكبرا، يظـن أنـه فـوق البشـر جميعـا ، وقد دفعه هذا التعالي الزائف إلى الإسراف في الشر .

32←33: ولقد اخترناهم...بلاء مبين.

بكل تأكيد اخترنا بني إسرائيل على أهل زمانهم ، فبعثنا فيهم موسى ، وأتبعناه بعدد من الرسل والأنبياء . حتى ختمنا الاختيار (**بخير أمة أخرجت للناس**)، لا تعتمد على النسب وإنما على جملة القيم التي تفرد بها دينهم دين الإسلام. وهي القيم التي يتحقق بها مفهوم الإنسانية، من التوحيد الخالص إلى قيم السلوك الجامعة للخير والصلاح. ولا يظن أن الله اختار بني إسرائيل اختيارا أبديا لمزية في دمائهم. فقد قرعهم القرآن وبين فسادهم وانحرافهم وجراءتهم على الله وعلى الحق. وإسراعهم إلى الفساد في الأرض .(**كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون في الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين**)[1] .

---

[1] سورة المائدة آية 64

و مكن الله بني إسرائيل من الآيات والمعجـزات الدالـة علـى عنايتـه بهـم .وهـي فـي الآن نفسه اختبار لهم ليتبين هل قابلوا النعم بالشـكر ؟ لقـد ظللهـم الغمـام فـي صـحراء التيه وأنزل عليهم المن والسلوى، وغلبت الفئة القليلة الفئة الكثيرة.

34←36: إن هؤلاء ليقولون...إن كنتم صادقين.

انتقل القرآن ليناقش المشركين ويُبيّن خطل رأيهـم ،وفسـاد تصـورهم. بعـد أن هـددهم في قوله : **يوم نبطش البطشة الكبرى** آيـة 16- وعـرض علـيهم سـنته سـبحانه فـي المستكبرين بما قصه من أمر فرعون الذي انتهـى بهلاكـه تافهـا لا قيمـة لـه وأنهـم لا يخرجون عن الطريقة التي يمهل بها المعاندين ، ثـم يأخـذهم أخـذة واحـدة تستأصـلهم. ناقشهم القرآن مسـجلا باطـل أقـوالهم ، فقولـه إن هـؤلاء ليقولـون ،أي إن المشـركين ليعلنون في عناد: إنهم لا يموتون إلا الموتة الأولـى التـي تقـع فـي الـدنيا ، وبعـدها لا حياة ولا موت .أي لا يجري علـى ذواتهـم شـيء بعـد المـوت إلا تحلـل أجسـامهم، ونخرت عظامهم ، ولا شيء وراء ذلـك، وبصـفة أخـص لا يتصـور أن يعقـب الموتـة الأولى نشور نبعث فيه أحياء. ثم تحدوا النبي صـلى الله عليـه وسـلم والصـحابة الـذين كانوا يحذرونهم عذاب يوم القيامة: إن كانت هناك حياة بعـد المـوت فـأحيوا لنـا آباءنـا. وهذا مظهر من عنادهم وقلب الحقائق .إن البعث لا يكـون فـي الـدنيا وإنمـا هـو فـي يوم القيامة . فلا صلة بين البعث وإحياء آبائهم.

37.أهم خير ...إنهم كانوا مجرمين.

مقارنة بين قوة قوم تبع الذين كان يضرب القرشـيون المثـل بهـم فـي القـوة والمنعـة وامتداد السلطان، وبين قوة قـريش. سـألهم القـرآن سـؤال تقريـر، هـل إن المشـركين بمكة وما بين أيديهم من قوة وما لهم مـن سـلطان فـي الأرض ، هـو خيـر مـن قـوم تبع؟ وكذلك الأمم القوية التي يتناقلون أخبارها؟ وهـو سـؤال لا يتطلـب جوابـا، لبداهـة الجواب إنهم لا يستطيعون أن يقيسوا أنفسهم بتلك الأمـم التـي كـان لهـا ذكـر وعظمـة ودور في التاريخ .روى الإمام الطبري فـي تاريخـه قـال :زعـم أهـل الـيمن أن تبعـا سار غازيا مغربا حتى بلغ أذربيجان ولقـي التـرك فهـزمهم ، ثـم انكفـأ راجعـا إلـى اليمن . وهابته الملوك وعظمته وأهـدت إليـه. ثـم إنـه أقسـم ليغـزون الصـين. وبـر بيمينه ودخلها وقتل مقاتلتها، واكتسح ما وجـد فيهـا قـال ويزعمـون: أن مسـيره إليهـا ومقامه بها ، ورجعته منها في سبع سنين[1].

[1] مختصر من تاريخ الطبري ج 1 ص566/567

قوم تبع والأمم التي سبقتهم وكان لهـا دور فـي التـاريخ، وسـلطان مديـد، أهلكهـم الله جميعا لتأصل الإجرام فيهم، بالشرك والفساد الاجتمـاعي. وفـي ذلـك تهديـد للمشـركين أن مآلهم سيكون نفس المآل.

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَـٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ
وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا
يُغْنِى مَوْلًى عَن مَّوْلًى شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ
ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ
﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّوا۟ فَوْقَ رَأْسِهِۦ
مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَـٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ
تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

بالحق : مقارنا للحق ليتبين الحق بخلقهما.

الأثيم: الكثير الآثام .

المهل : دردي الزيت.

الحميم : الماء البالغ أشد الحرارة .

الغليان : شدة تأثر الشيء بحرارة النار .

العتل : القود بعنف .

سواء الشيء : وسطه

يوم الفصل : يوم الحكم .يوم القيامة .

ميقاتهم : وقت القضاء فيهم القضاء البات.

يوم لا يغني : يوم لا يدفع مولى مكروها عن وليه، ولا ينفعه.

شيئا : قليلا من الإغناء.

الأثيم :المغرق في العصيان وارتكاب الآثام.

سواء : وسط.

تمترون : تشكون في أمر البعث.

بيان المعنى الإجمالي:

جرى خلق السماوات والأرض وما بينهما على نظام دقيق، وتوازن لا يختل، وبذلك حفظهما من الفساد؛ وكان خلقهما محققا لإرادة علية ولم يقم التكوين على إرادة مجرد الخلق كيفما اتفق. بل كان لغاية قدرها ونفذ لها خلقه. ولكن أكثر الناس جهلة لم ينظروا نظر العاقل العالم في ذلك. وكذلك الإنسان ما خلق لمجرد الإيجاد، ولكن خلق ليقوم بوظيفته المحددة في الحياة. ولو خلق ليلهو ويستمتع وينتهي ما يتعلق بوجوده بمجرد موته ، يستوي حينئذ الصالح والطالح ،والمؤمن والكافر، ولكان خلقا مفصولا عن سنة الحكمة الجادة ، ولكان بالتالي خلقا عبثا . ولذا فإن البشر جميعا سيؤولون إلى يوم الفصل ، يوم القيامة المقدر وقته ؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، ويجزي كل فرد بما يستحق .إنه يوم يحضره الناس جميعا لا يستثنى منهم أحد. هو اليوم الذي لا يقدر أحد على نفع غيره أو دفع الضر عنه، فلا القرابة، ولا الصداقة، ولا الموالاة، تصرف الضر أو تجلب النفع. ولا يجد الإنسان يومها نصيرا .واستثنى سبحانه الذين رحمهم فقدر أن تكون شفاعتهم مقبولة ، ومن قدر رحمته به لينتفع بشفاعة الشافع المأذون له. إنه سبحانه عزيز لا يقدر أحد أن يتدخل في حكمه ، وهو الرحيم بعباده يضع رحمته حسب حكمته .

أخذ القرآن يصف عذاب المشركين المعروفين بأنهم آثمون عصاة ، فقال تعالى: إنا أعتدنا لهم شجرة الزقوم ليأكلوا من ثمرها .إنها حارة كأشد ما تكون الحرارة. مثلها بالدردي المحمي تغلي في بطون الآثمين .يا ملائكة العذاب خذوا الأثيم بقوة وعنف وجروه جرا إلى وسط الجحيم، ثم قدموا له أول جزاء. صبوا على رأسه عذاب الحرارة التي تعم بدنه . وقولوا له: إنك أنت العزيز الكريم، تهكما به وسخرية وهو ذليل في هذا الوضع المهين. إن ما جرى عليكم، وما أنتم عليه في وسط الجحيم، هو ما كنتم تشكون فيه، وتدعون أنه لا قيامة ولا حساب.

بيان المعنى العام :

38 ←39 : وما خلقنا السماء...لا يعلمون.

هذا الكون مشاهد أمامكم، السماوات والأرض وما بينهما .ظاهرة النظام والدقة مسطورة في كل جزئية من جزئياته .ولو اختل ذلك النظام لفسدت السماوات والأرض ومن فيها. كل عاقل يشهد بذلك، والواقع ينادي بأن كل ما خلقه الله ملتبس بالحق مقارن له ومظهر. والإنسان جزء من هذا الكون لا يخرج عما ألزمه به خالقه. وعندما يخرج فإما أن ينتقض النظام ولا يترتب عليه شيء، وإما أن يجزى الخارج عن النظام جزاء بمقدار ما خرج وأفسد. فالفرض الأول يفضي إلى أن

الخالق يعبث عندما يسوي بين الصالح والفاسد، والجاري على النظام الذي أوجبه والخارج عنه. والكون يشهد أن الخروج عن النظام الذي سطره يتبعه حتما فساد الكون. والفرض الثاني أن الخارج عن النظام الذي ألزم به يجازى بمقدار ما ترتب على فعله من فساد. ولما كان ذلك لا يتحقق في الدنيا، وقدر أن يمهل الخارجين عن الحق الذي سطره، وأن يمهلهم إلى يوم يجزون فيه جزاء عادلا، فلم يستو الخبيث والطيب، وبرزت الحكمة في البعث والجزاء.

إن هذه الظاهرة تنادي بالحكمة في الخلق، وأن الإنسان جزء من هذا الكون يجري عليه القانون العام. فإنكار يوم القيامة يفضي إلى أن الخالق عابث ،والعبث نقص تعالى سبحانه أن يلحقه نقص.

40←42- إن يوم الفصل ...إنه هو العزيز الرحيم.

إن يوم القيامة هو اليوم الذي تفصل فيه قضايا البشر جميعا، يُقَوَّمُ فيه ما عملوا من خير أو شر، هو وقت محدد لا يتأخر ساعة ولا يستقدم. يحضر الناس فيه جميعا لا يستثنى أحد. هو يوم مغاير لمقاييس الحياة الدنيا . ذهبت الموالاة والصداقات، ففي الدنيا يساعد القريب قريبه، ويدافع عنه، ويحول بينه وبين السوء ما أمكنه. يجد كل قريب في قريبه حصنا يستند إليه. ولكن يوم القيامة كل امرئ مشغول بأمره، لا قرابة ولا صداقة ولا عصبية. وكذلك لا يتقدم أحد لنصرة غيره ومد يد العون له لتحويله من وضعه إلى وضع أفضل.

تبشر الآية المؤمنين الصالحين باستثنائهم من هذا الفراغ المحيط الراقع لجميع الصلات. استثنى القرآن الذين رحمهم الله من الشافعين الذين أكرمهم الله ،فأذن لهم في الشفاعة، وقرر قبولها منهم، قال تعالى:**(لا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له)**[1] وكذلك المشفوعين الذين رضي عنهم وأمنوا سخطه قال تعالى: **(ولا يشفعون إلا لمن ارتضى)**[2] فقدر سبحانه الاستجابة لشفاعة الشفيع وللمشفوع فيه .وتتقدم الملائكة للشفاعة في صالحي المؤمنين حسب ما أثبته الله في القرآن:**(نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة)** [3] – إن قبول شفاعة الشافعين والتفضل على المشفوع فيهم بالشفاعة ، هو من توابع عزته غير ملزم وإنما هو تفضل ، ورحمته وسعت كل شيء ، فإذا تعلقت رحمته بشيء سعد برحمته وفاز .

---

[1] سورة سبأ آية23

[2] سورة الأنبياء آية28

[3] سورة فصلت آية31

43←50-إن شجرة الزقوم...ما كنتم به تمترون.

ذكرت شجرة الزقوم ثلاث مرات في القرآن . تقدم ذكرها في سورة الصافات الآيات 69/62- وذكرت هنا، وستذكر في سورة الواقعة. ربط القرآن بينها وبين الآكلين منها، ربطا جعل الآكلين منها يعرفون بها،(**طعام الأثيم**) والآكل من ثمرها عرف بأخص صفاته ، وهو الذي استولى عليه الإثم والمعصية ؛حتى أصبح إثما وشرا يتحرك.

وصفت الآية ما يأكله الطاعم من ثمرها ، بأنه يتحول إلى سائل حار :أشد ما تكون الحرارة تتضم عليه البطون، هو كالدردي المحمي ، ومعلوم أن قابلية الدردي للحرارة أشد من قابلية الماء ، إذ الماء تنتهي قوة الحرارة التي تتخلله إلى مائة درجة ، بينما الزيت ترتفع درجة الحرارة فيه إلى ثلاثة أضعاف ذلك . وبذلك كان تمزيقه للأنسجة أشد تخريبا. وأن سريان الحرارة تكون بطريقة متوازية بالنسبة إلى جميع الأجزاء.

- واصل القرآن تسجيل ما يلقاه المعذَّب، المقدر له الأكل من ثمر شجرة الزقوم. يقال للملائكة، امسكوه بعنف، وشدوا خناقه، وقودوه مدفوعا بغلظة إلى وسط الجحيم.

-وأمروا أن يعذبوه عذابا آخر، فوق الدفع والعنف في سوقه إلى وسط الجحيم ، أن يصبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ، الحرارة التي تفوق حرارة ما هو معروف في الدنيا. و الصب هو للمادة المعذب بها لا للعذاب .فأفادت الآية بذلك تجسيم العذاب أنه أصبح هو ذاته مصبوبا.

- يصحب الشحنة من العذاب التي تعم بدنه باطنا وظاهرا، مخاطبته مخاطبة الإذلال والتشفي مع التهكم يقال له : ذق ، ليكن إحساسك إحساسا قويا بما قدم لك . إنك أهل لذلك، فأنت عزيز كريم، تهكما أي أنت الذليل المهين. فيجتمع عليه العذاب البدني والعذاب النفسي .

- تختم الآية : إن هذا الذي تذوقونه ، وجرى عليكم ، هو الأمر المعلوم عندنا الذي عرفناكم به لتحذروه ، وتؤمنوا. ولكنكم كنتم تشكون في إمكان البعث والجزاء.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾ يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ

ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

مقام : مكان الإقامة.

الأمين : الآمن ساكنه.

السندس : الديباج الرقيق النفيس .ويلبس عادة مما يلي الجسد.

الاستبرق : الديباج المتين ، ويلبس ظاهرا.

الحور : جمع حوراء. شدة بياض العين وشدة سوادها في شدة بياض الجسد .

عين : واسعات الأعين حسانها.

يدعون : يأذنون بإحضار .

فاكهة : ما يرغب في أكله لحسن مذاقه، من الثمار وغيرها.

بيان المعنى الإجمالي :

قدر الله للمتقين أن يتوفر لهم في مكان إقامتهم يوم القيامة كل أسباب النعيم، هم آمنون ذهب الخوف من تصورهم. يملكون جنات تنتشر فيها الأشجار المثمرة والخضرة الجميلة، ترويها عيون دافقة. لباسهم الملاصق لأجسامهم حرير ناعم رقيق ، ولباسهم الظاهر حرير متقن النسج قوي . يجدون في مجالسهم الأنس فهم متقابلون ينظر بعضهم إلى بعض نظرة المودة. جعل الله للمتقين في الجنة أزواجا على حظ كبير من الجمال ، يتميزن بعيون حوراء وبشرة بيضاء نقية. يأذنون بإحضار ما يشاؤون من أنواع الفاكهة ، فيجدونه بين أيديهم. يتناولون ما يرغبون فيه وهم آمنون من كل المضاعفات السيئة . كتب الله لهم الخلود ، فلا يموتون إلا موتة واحدة هي التي مضت في الدنيا ، ولا يعاد عليهم الموت مرة ثانية. وتمحضوا لنول النعيم والكرامة ، فقد وقاهم ربهم عذاب الجحيم. وكل ذلك العطاء هومن فضل ربك عليك للذين آمنوا بك والتزموا .وما ينالونه هو الفوز العظيم والنجاح الذي ليس فوقه مرتبة أعلى. يسرنا القرآن بلسانك ليتضاعف تأثيره وليكون سببا لتذكرهم. ارتقب يا محمد نصر الله وما سيحل بهم، فإنهم أيضا يرتقبون هزيمتهم والوعيد المفصل.

بيان المعنى العام :

51←53- إن المتقين في مقام أمين ...متقابلين.

هذا منهج القرآن، أنه يتبع آيات الشدة والعذاب، بآيات الجزاء والنعيم والفضل، فبعد أن وصف الأثيم في طعامه ومقامه، وإهانته، وصفت الآية ما يسعد به رب العزة المتقين.

أولا : هم في مكان تــوفر فيــه الأمــن ، وذهــب الخــوف .ويعــد الأمــن أول شــروط العيش الهني ، إذ بالطمأنينة يستمتع الآمن ببقية أنواع النعيم .

ثانيا: يقيمون في جنات تكسوها الخضــرة، وتنتشــر فيهــا الأشــجار المثمــرة، وتتخللهــا العيون الجارية. فلا تعرف الجفاف ولا قســاوة الطقــس .فهــذا وصــف مكــان إقــامتهم . وهو أفضل ما يتصور.

ثالثا : عني القرآن بوصف لباســهم .يلــبي أجســادهم لبــاس مــن حريــر نــاعم رقيــق. ويلبسون فوق ذلك لباسا من حرير متين النسج من الديباج القوي .

رابعا : توفر لهم الأنس ،والرضا النفســي ، فمجالســهم عــامرة بــإخوانهم ، يســتمتعون بما يجري بينهم من حديث يلذه السامعون . وينظــر بعضــهم إلــى بعــض نظــرة ملؤهــا الود والحب.

54. كذلك وزوجناهم بحور عين .

خامسا: جُعلت لهم أزواج، يخلقهن الله مــن فضــله فــي الجنــة، يتميــزن بســعة حدقــة العين، وشدة بياض بياضها وشدة ســواد ســوادها، مــع صــفاء البشــرة وبياضــها. يــتم بهن الأنس لما يحملنه من الأدب والتودد.

55. يدعون فيها...آمنين.

سادسا :يأذنون فيطاعون ، ويأتي لهم القائمون علــى الخدمــة بكــل نــوع يطلبونــه مــن الفاكهة. آمنين من أن يعقــب الأكــل منهــا أي تعــب، أومغــص، أوثقــل .وآمنــين مــن انقطاعها، أو فساد مضاعفات الأكل منها .

56. لايذوقون فيها الموت...ووقاهم عذاب الجحيم .

سابعا : كتب لهم الخلود وعلموا بذلك . فهم لا يذوقون فيهــا المــوت ، وقــد تأكــد عــدم موتهم بقوله : **لا يذوقون فيها الموتة إلا الموتة الأولــى** . والموتــة الأولــى قــد ذهبــت في الماضي .وذوق ما فات وطواه الزمن مستحيل ، فهو تعبيــر بليــغ عــن عــدم مــوتهم ثانية . ووقاهم ربهم عذاب جهنم

57. فضلا من ربك ...الفوز العظيم .

كل ما ذكر من أنواع النعيم، وسيل الخيرات، والكــرم والأمــن؛ كــل ذلــك مــن فضــل ربك .وأفهم من هذا الربط ،أن الجزاء يتجاوز قيمــة مــا فــي الأعمــال مــن خيــر ، ولا يبلغ أي فرد رتبة الكمــال فــي أداء حــق المعبــود، وفضــل الله لكمالــه محقــق للعفــو والصفح ، فيضاعف الثواب ويكرم ، وهو الرؤوف الــرحيم . وبرعــاك يــا محمــد فهــو ربك الذي والى عنايته بك، فيتفضل على المتقــين مــن أمتــك. وإذ بلــغ التكــريم أعلــى

مستوى ، وتميز تميزا واضحا بما فصلته الآيات السابقة ، فأحضر في الذهن ليشير إليه حتى يسحب عليه حقيقته التي هي كمال ما يتصوره الإنسان، ذلك الفوز العظيم، والنجاح الذي لا يشوبه نقص ولو قل .

58ـفإنما يسرناه لسانك...لعلهم يتذكرون.

الذي فهمته :أن هذا الحصر فيه تنويه بما أوتيه النبي صلى الله عليه وسلم من قوة التأثير ، وخصه الله بذلك ، فلا يدانيه أحد في هذه المزية . كان ينطق بالقرآن، فتساعده نبرات صوته، وما أودع الله حباله الصوتية من تحريك للعقول والمدارك على تيسير بلوغ مضامين القرآن للقلوب. وهو مستوى يقرّب فهمه أن أحدنا يكون قد تلا من القرآن ما يسره له الله، وقد يسمع قارئا فإذا نبرات صوته، تحرك الذهن لمعاني ما كان أدركها من قبل. وقد حصل لي هذا الأمر مرات في صلاة التراويح. وروت كتب السيرة أن كثيرا من القرشيين كانوا يحاولون الاستماع لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ القرآن. وكان رؤوس الكفر يعملون على التشويش عليه وهو يقرأ ليقطعوا ذلك التأثير الذي هو من عطاء الله . فإذا أضفنا إلى ذلك أن وعي النبي صلى الله عليه وسلم للمعاني وهو يتلو يبلغ مستوى لا يدانيه فيه أحد، فإن من الأسرار الثابتة، أن وعي المتكلم بما يقول يقوي تأثير كلامه في المستمعين. فناسب أن تختم الآية بإظهار علة تيسير القرآن بلسانه، الذي هو حصول التذكر .

58ـ فارتقب إنهم مرتقبون.

انتظر ما سيحل بهم، فقد قضي الأمر ، وحدد زمن إصابتهم بنقمتنا، فلا تستعجل لهم، سترى تحقق ما وعدناك من النصر عليهم. وكما تترقب النصر الآتي لا محالة، فهم يترقبون العذاب والهزيمة. وفي جعلهم مترقبين تحقيق لما سيحل بهم مع إبرازه في صورة تهكمية.

4 محرم 1435-2013/11/8

ســــورة الجاثيـة

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به، ووجه تسميتها به، أن كلمة جاثية الواردة في الآية 28- وترى كل أمة جاثية. ذكرت في ذلك الموضع و لم تتكرر في القرآن. وتسمى (سورة شريعة) لوقوع لفظ شريعة فيها دون غيرها في القرآن (**ثم جعلناك على شريعة من الأمر**)آية 18-نزلت على رسول الله ﷺ في مكة قبل الهجرة. رتبتها حسب ترتيب المصحف الخامسة والأربعون. وحسب ترتيب النزول الرابعة والستون نزلت بعد سورة الدخان وقبل سورة الأحقاف . وهي السورة السادسة من الحواميم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَـٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ
لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِى خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ
وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ
ءَايَـٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَ ٱللَّهِ
وَءَايَـٰتِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

البث : التوزيع.

دابة: كل ما يدب على الأرض غير الإنسان.

تصريف الرياح: تقليبها وتحولاتها في مهابها وآثار ذلك.

الرزق : كل ما يأتي من السماء، من الأشعة والمطر، فينمي الخيرات.

التلاوة : القراءة.

الحديث : القرآن.

بيان المعنى الإجمالي:

هذه هي السورة السادسة من آل حم .افتتحت بالحروف المقطعة وتلاها تنزيل الكتاب الذي مر نظيره في أول سورة الزمر .لفت القرآن الأنظار.

أولا: إلى ما في السماوات والأرض من آيات بينات دالة على تفرد الله بالخلق وبالحكمة، بالتأمل فيها يتعمق الإيمان في القلوب.

وثانيا: إلى ما في خلق البشر وخلق الحيوانات من عجائب التقدير، وما أعطى لكل نوع من الخصائص ،مما يقوم دليلا يثبت اليقين بالإيمان .

وثالثا إلى تعاقب الليل والنهار ،وإلى إنزال الأرزاق من السماء من أشعة الشمس التي تدخل في تركيب النباتات ، وماء الأمطار الذي يحيي به كل شيء حتى الأرض ، تكون قاحلة جرداء فتهتز وتكسوها الخضرة اليانعة. وتحول جريان الرياح، وقوة اندفاعها أو ضعفها، أو سكونها. في كل ذلك أدلة للذين يحركون عقولهم للنظر، ويعيشون على وجه الأرض عيشة العقلاء، لا عيشة البهائم التي تمر بها المشاهد فلا تدرك شيئا من أسرارها.

عجب أمر المشركين في تصلبهم في الكفر وعدم الإيمان بالآيات التي لفت القرآن أنظارهم إليها .الآيات المنبثة في الكون وفي الأنفس ، والذي كان التعريف بها تعريفا هو أسمى ما يمكن أن يبلغه كلام ، هو تعريف القرآن ، فهل يمكن بعد ذلك إن لم يهتدوا به أن يؤمنوا . هم ميؤوس بعد كفرهم بما تلي عليهم أن تنفتح قلوبهم للإيمان.

بيان المعنى العام :

1←2: حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم.

هذه هي السورة السادسة من الحواميم .افتتحت بـ(**حم**) ويقال فيه مثل ما قيل في نظيره من الحروف المقطعة المفتتح بها ، ثم بمثل ما افتتحت به سورة الزمر، تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم .فيقال في تفسيرها ما أثبتناه هناك.

3.إن في السماوات...لآيات للمؤمنين.

تثبت هذه الآية أن شان المؤمن أن يكون يقظا لمشاهد الكون، ولا تستولي عليه رتابة مشاهدتها باستمرار فيمر عنها لاهيا، لا يتعمق فيما وراء المظهر المتكرر. كلما ظهرت صفحة من صفحات كتاب الكون يتأمل في كل حرف من حروفها وكلمة من كلماتها. يجد بالتأمل فيها والوقوف على جزئياتها أنها قائمة على قوانين ثابتة. راعت الحكمة فيها علاقة كل جزئية ببقية الجزئيات ، فتفاعلت في انسجام ينادي أن وراء هذه الصنعة المتصفة بالدقة ،والاستمرار ، مبدع كامل لا يغيب عن علمه شيء .قد يفتح كتاب الكون للمتأمل بعض الأسرار فينبهر أمام العلم الذي لم يغب عنه كبيرة ولا صغيرة .فيؤمن إن كان غير مؤمن ويزداد إيمانه صفاء إن كان مؤمنا. ويجد أن العلم والإيمان مقترنان. ينقذه الإيمان من الشك والرفض، ومن

الحيرة والظلام. ويدفعه العلم إلى التعمق في فهمه لكل جزئية في ضوء أن الحكمة منبثة ومسجلة فلا فوضى ولا مصادفة. ولكنه نسق يرعاه الله رب العالمين. صدقت الآية ، في السماوات والأرض آيات للمؤمنين.

4-وفي خلقكم وما يبث...لقوم يوقنون.

ينتقل القرآن في ترتيب عجيب من عالم السماوات والأرض، والإنسان في ذلك منفصل مشاهد، إلى عالم آخر يكون فيه مشاهِدًا ومشاهَدًا، ثم مقارنا. فيلفت القرآن الأنظار إلى التأمل في خلق الإنسان ذاته، من علم الأجنة بفروعه المتنوعة، إلى علم الطب، إلى علوم التغذية، إلى العلوم النفسية، إلى الجوانب الروحية، إلى الجوانب السلوكية مؤثرة ومتأثرة، إلى قوانين الاجتماع والسياسة. وإذا قلنا مثلا علم الطب فإنه علوم واختصاصات ،وكل اختصاص ينحل إلى جوانب عديدة ، ولو سألت أي عالم كبير في الطب في ميدان اختصاصه هل فتح كل المجاهيل، وتحكم في موضوعه بدقة بحيث لا يغيب عنه شيء ؟ فإنه يجيبك بكل تواضع ما أبعدنا عن هذا المستوى ! ولكن القدر المشترك أن كل ما يتعمق فيه يجده مبنيا على الدقة والحكمة ينبئ أن الذي خلق هذا الإنسان هو العالم الحكيم .

و بجانب الإنسان الحيوان الحي العاقل ، بجانبه عالم الأحياء يشترك معها في أصل الحياة ، ولكن لكل جنس من الأجناس وكل نوع من الأنواع خصائص وقوانين. من الخلية التي تتحرك إلى النمل والزواحف، التي تمشي على أربع. لكل نوع من الأنواع جينومه الخاص به، ومسلكه في التكاثر والتطور .

إن التأمل فيما قدمناه مما لفتت الآية نظرنا إليه، يثبت يقينيا أن الخالق للإنسان والحيوان بهذه الحكمة البالغة هو الله الموصوف بصفات الكمال من العلم القديم والقدرة العظيمة والحكمة الباهرة. وقد قيل قديما عجبا لطبيب لا يؤمن .

5- واختلاف الليل...لقوم يعقلون.

ثم في تقلب الليل والنهار، وهي ظاهرة تحدث عنها القرآن في النظام العجيب الذي تجري عليه، وفي تأثيرها في الإنسان، نشاطا وراحة، وفي تأثيرها في الكون حرارة في النهار، وبردا في الليل ، وتأثيرا في المد والجزر ، ونظام اختفاء الكواكب وظهورها.

وفي ظاهرة نزول الرزق من السماء، من ذلك ما يصلنا من أشعة الشمس التي بها تتجدد قوى الأرض، وتعطي للأشجار الحياة وتدخل في نموها. وقوى أخرى ما تزال حبيسة في علم الغيب، قد يصل الإنسان لاكتشافها في يوم من الأيام .ونزول الماء من السماء الذي به يحصل الإنسان على رزقه وقوتِهِ الذي به حياته،

والأرض ذاتها تحيا أيضا بما ينزل من السماء من ماء. وحركة الرياح التي تؤثر جفافا وتبعد السحب ،أو رطوبة فتحتلب من السحب ماءها. وتحول مجرى الرياح، وقوة جريانها، وتلقيحها للزهور ، وغير ذلك ، مما يؤكد أن المبدع للعوالم ، يقدر في كل ظاهرة وجزئية انسجامها مع الكون كله. وفي ذلك أدلة للذين نفذت قدراتهم العقلية إلى ما وراء الظاهرة السطحية، فأدركوا شيئا من تلك الأسرار. واطمأنوا إلى أنهم جزء من هذا الكون منسجمون معه يجدون أمنهم وطمأنينتهم في إيمانهم .

6.تلك آيات الله ...وآياته لقوم يؤمنون.

استحضرت الآية ما تقدم قبلها من الآيات التي لفت القرآن لها الأنظار، فأشار إليه تبعا لذلك. فهي أدلة مرتبطة بخالقها الذي أقرها وأحكم خلقها وتصريفها على النحو المشاهد المدرك القابل للتعمق فيه . يتعلق بهذه الإشارة أنا نتلو عليك قرآنا، ما يعبر عنها ويدل عليها . تنزل الآيات ملتبسة بالحق ، هي صادقة مطابقة للواقع ومظهرة له.

عجيب أمر المشركين ! كيف لم تحركهم الآيات المتلوة عليك حركة تكسبهم الإيمان، وتخرجهم من العناد والكفر. هل يوجد حديث بعد سماعه يمكن أن يبلغ من نصاعة بيانه ووضوح حجته مبلغ القرآن، وهل وراء الآيات التي لفت القرآن الأنظار إليها، أمر آخر يعمل في القلوب فيهديها على المستوى الذي لفتت إليه تلكم الآيات المنبثة في الكون وفي الأنفس؛ فيؤمنوا به . ويفهم من ذلك اليأس من إيمانهم.

(٦) وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٧) يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ
يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٨) وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذَابٌ مُّهِينٌ (٩) مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ ۖ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن
دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠) هَٰذَا هُدًى ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ
عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ (١١)

بيان معاني الألفاظ :

ويل : هلاك ، وشر .ومصائب وهم.

أفاك : القوي في الكذب .

الأثيم : المبالغ في ارتكاب المعاصي والآثام.

آيات الله : القرآن.

الإصرار : التزام الشيء ،والعزم على عدم الانفكاك عنه.

بشرهم : أنذرهم إنذارا محققا وقوعه على طريقة التهكم .

علم : عرف.

لا يغني عنهم: لا يدفع عنهم ولا ينفعهم.

ما كسبوا : أموالهم .

الرجز : أشد العذاب .

بيان المعنى الإجمالي :

هلاك وشر محقق لكل كذاب، يختلق الحديث، ويبالغ في ذلك، ويقتحم الآثام والمعاصي حتى أصبح ذلك أليف نفسه. يسمع آيات الله يتلوها النبي صلى الله عليه وسلم بنبرات صوته المؤثرة وصدقه. وعوض أن يتأثر بها، يصر على ما هو عليه من الكفر، مستكبرا عن الإذعان للحق الذي فيها. فحقق له أنه سيعذب العذاب المؤلم جدا. ومن فساده وخبثه أنه إذا عرف شيئا من آياتنا القرآنية حولها إلى مناسبة للسخرية والاستهزاء. أولئك الذين كشفنا عن سوء دخائلهم، لهم عذاب يهينهم جدا. يتبعهم هذا العذاب عذاب جهنم فلا يفلتون منه. ولا يدفع عنهم ما جمعوه من أموال وأتباع ، ولا يعينهم ما اتخذوه من الأوثان على أن يكونوا نصراء لهم، وهددهم بأنهم استحقوا العذاب العظيم في الدنيا أيضا .

هذا القرآن الحاضر الذي لا يغيب الذي جمع كل مسالك الهداية ،هو الهدى ذاته. والذين كفروا بآياته وأعرضوا عن عناية ربهم بهم بواسطته، استحقوا عذابا من أشد أنواع العذاب إيلاما.

بيان المعنى العام:

7←10: ويل لكل أفاك...ولهم عذاب عظيم.

بعد أن لفت القرآن أنظار مستمعيه إلى التأمل في كتاب الكون والذات. وقابل المشركون ذلك بالإعراض، تابع تهديدهم الذي افتتحه بتحقيق أن الشر والهلاك سيحيط بكل كذاب أَلِفَ الكذب، وأكثر من ارتكاب الآثام والمعاصي، يطرق سمعه آيات القرآن ، متلوة بلسان الرسول صلى الله عليه وسلم ، الذي يزيدها بصدقه ونبرات صوته ،وضوحا وتأثيرا . لم يرتعش قلبه، ولم ينظر فيما سمعه، بل واصل إصراره وتمسكه بما هو عليه من الكفر. فاستوى مع من لم يسمعها، مدفوعا إلى هذا الإعراض بما رسخ في نفسه من الاستكبار عن الإيمان والإذعان لما في الآيات

من حق واضح. واستعمل القرآن كلمة بشره عوض أنذره تهكما بهم وازدراء لقيمتهم. أخبرهم خبرا مؤكدا منذرا.

والتهكم كقول الشاعر:" تحية بينهم ضرب وجيع"

وفي هذه الآيات تحول من آيات الكون إلى آيات القرآن. فتكون أدلة الهداية تنبع من التأمل في كتاب الكون، والنفس، و القرآن.

وتشنيع آخر على المشركين، الذين ضموا إلى إعراضهم ، أنهم إذا عرفوا شيئا من آيات القرآن، توجه تفكيرهم إلى العبث ، والاستهزاء بها ليصرفوا الدهماء عنها.

لقد تميزوا بالخبث والفساد، وكشفهم البيان القرآني، فأصبحوا حاضرين بما يجللهم من الكذب والإثم مستحقين للعذاب المؤكد حصوله .و أن عاقبتهم ستكون العذاب المؤلم جدا.

ثم أوضح القرآن العذاب المهين . بتحقيق أن العذاب هو عذاب جهنم الذي يتبعهم وهم غافلون عنه ، مثلهم والأمن يطمئنهم إذا نظروا إلى أمامهم ، ولكن العذاب يتبعهم وهو غافلون عنه فيأخذهم أخذا لا مفر منه. لا يدفع عنهم ما كسبوه في الدنيا من مال وقوة وأتباع ولا يعينهم من عبدوهم وعقدوا صلة الاعتماد عليهم والثقة بهم. ولهم عذاب عظيم استحقوه بذلك.

11ـ هذا هدى والذين...رجز أليم.

القرآن بما سبق من الحديث عنه، وبقربه من المبلغ والمبلَغ ، حاضر غير غائب، فأشير إليه تبعا لذلك: هذا، أي هذا القرآن هو الجامع للهدى الكامل، الطريق السوي المبلغ إلى الغاية مع تمام الوضح ، وعدم التردد أو الغموض. ولما تفرد بالهداية حتى أصبح الهدى عينه، فإن الذين كفروا به وأعرضوا عنه، واختاروا رغم ذلك معارضته والكيد لرسول الله وصحابته، سيلقون حتما جزاءهم: عذابا من رجز أليم، والرجز هو أشد العذاب، ووصفه بأنه أليم شديد. ذلك أن كل عذاب مؤلم، ولكن الإحساس قد يكون في بعض الأنواع أشد. وقد قدر سبحانه أن يكون إحساسهم بعذابه بالغا أعلى درجات الإحساس .

۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا

يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ
وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

بأمره :بقدرته وإذانه.

تبتغوا : تتمكنوا من فضل الله بالتجارة والصيد، ثم الحج والجهاد.

لا يرجون : لا يتوقعون .

أيام الله : الأيام التي ينتصر فيها لأوليائه على أعدائه.

بيان المعنى الإجمالي :

الله وحده هو الذي سخر لكم البحر على قوته وعظمته وأهواله فيسره لكم لإجراء الفلك على ظهره بحسن تقديره، كما مكنكم من الخيرات المودعة فيه لتصلوا إليها بفضله، كالأسماك قوتا، والطاقات في قاعه، واللؤلؤ للزينة وغير ذلك. إنها نِعَم تدعوكم لمواصلة الشكر .

كما سخر لكم بفضل منه كل ما في السماوات والأرض من خيرات، ما يأتيكم بدون جهد، وما تبلغونه بفضل ما أقامه من قوانين ثابتة، وبما مَنّ عليكم مِن الذكاء ، والمهارات العملية، إن في اقداركم على الانتفاع بمذخورات الكون ما يقوم دليلا على حكيم التصرف لله الواحد الأحد ، فتحه للقوم الذين يعملون فكرهم ويتعمقون.

قل يا محمد للذين رسخ الإيمان في قلوبهم ، واعتزوا به :لا تؤاخذوا الذين يتجاوزون حدود الأدب معكم ويؤذونكم ،من الذين فقدوا الرجاء في نصر الله لدينه وأوليائه . ليتحققوا أنه سيُجزَى كل فاعل بما فعل ، فالمؤمنون مجزيون على صبرهم وتغلبهم على حب الانتقام العاجل، وسيجزى المؤذون المنفصلون عن الله بعقابهم على ما اكتسبوه من الإثم. إنه من عمل صالحا فإن خير عمله يعود إليه بفضل ربه حسن ثواب وعونا في الدنيا، ومن عمل عملا قبيحا فسيعود عليه ما عمله خسرانا وعذابا .وسترجعون جميعا إلى ربكم فينصف كل مظلوم من ظالمه.

بيان المعنى العام

13/12ـالله الذي سخر لكم...لقوم يتفكرون.

الله العلم الفرد لا شريك له ،هو الذي سخر لكم البحر ، فأجرى فيه من القوانين ما يتلاءم مع قدراتكم الفكرية والعلمية ،والصناعية ، فكان من مجموع ذلك ما مكنكم من إجراء الفلك العظيمة على ظهره تنقل تجاراتكم ، و تمكنكم من بلوغ ما قرب وما بعد من الآفاق ، للنزهة ،أو التعلم، أو البِر كالحج والجهاد ،ويسر لكم البحر

بمخزوناته من القوت كصيد الأسماك، والطاقة بما أودع في قاعه من ثروات كالغاز والبترول، وما يمكن أن يكتشفه العلم. ولا بد من ملاحظة قوله " لكم" فإن المنة في هذه الآية وما يتلوها مراعاتكم في الخلق لتنتفعوا به. ولما قدر في الخلق تلكم الملاءمة بين الخلق وبينكم ، فجدير أن تقربكم هذه النعم من مواصلة شكره على نعمه .

وهذه الدقائق التي لفت إليها الأنظار في البحر، تدعو للتأمل في الكون كله ، فالكون كله مسخر للإنسان ينتفع بما فيه من قوى وخيرات .فما في السماوات وما في الأرض، ما يصل إليكم بدون جهد كالأمطار وأشعة الشمس، وأنوار النجوم الهادية، والقمر، وما تصلون إلى الاستفادة منه في الأرض بما تبذلونه من جهد عقلي وبدني، كل تلك الخيرات جميعها من عطاء الله وفضله.

بكل تأكيد في كل تلكم النعم التي ظهرت لكم والتي يتوالى ظهورها للبشرية فتستفيد منها بمقدار ما يستفيدون به من قوانين الخلق ، كالطاقة المتجددة التي يسير فيها العالم اليوم بخطى متواصلة ، والأثير الناقل للأصوات والصور ، وأسرار الاتصال بين كل جزء من أجزاء العالم بغيره في نفس اللحظة.، في كل ذلك أدلة مظهرة أن هذا العالم ما كان أن يكون على النحو الذي عليه لو كانت المصادفة أوجدته، فهو مستند إلى العليم الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه. وعلى الإنسان أن يحرك فكره لمعرفة القوانين وتوليد منافعه منها.

14- قل للذين آمنوا يغفروا...بما كانوا يكسبون.

كان المشركون يعتزون بقدراتهم المالية والعصبية، وما كان لهم من القيم الخلقية ، ومن الآداب الاجتماعية ما يوجههم إلى حسن المعاملة ،وانضاف إلى ذلك شدة مقتهم للدين الجديد ولرسوله وللمؤمنين . فتعرض المؤمنون وهم يعيشون في هذا الوسط الجاهلي، تعرضوا إلى أنواع من الأذى. وقد أكسبهم الدين عزة في النفس وإباء للضيم، وهم المتمسكون بالحق ،و قومهم منغمسون في الضلال. والاحتكاك الاجتماعي يثير السفهاء والمستكبرين للتعدي على المؤمنين. والمؤمنون في مكة قلة، والعصبية الجاهلية تثور إذا مس واحد منها بسوء، ولو كان هو المتسبب. وبعض رؤوس الكفر ربما يتخذون أي دفاع عن النفس من المؤمنين ذريعة لشنها حربا عليهم ، في وقت كان فيه ميزان القوى راجحا للمشركين. وروي أن بعض المسلمين غضب واستشار رسول الله صلى عليه وسلم أن ينتصف ممن ظلمه، فأشار عليه بالتجاوز، ونزلت الآية. قل للذين آمنوا قولا نزل عليهم من ربهم

المراعي لمصالحهم العليم بما هو خير لهم في الحاضر والمآل. قل لهم : اغفروا تجاوزوا عن الذين لا يرقبون الأيام التي ينصر الله فيها دينه ، وحملته.

يغفروا: هم مأمورون بالتجاوز، فهو في قوة ليغفروا. ومن مقتضيات وقوفهم عند أوامر ربهم أنهم يغفرون فعلا.

والذين لا يرجون أيام الله ، هم المشركون من أهل مكة ، الذين لا يتوقعون أن الله ينصر دينه وأولياءه ،اعتزازا بقوتهم وتفوقهم العددي على المسلمين .

ليجزي قوما بما كانوا يكسبون. ليجزي أي قوم يتقومون بما يصدر عنهم من خير أو شر ، بما كسبته أيديهم وما عملوا ، فيجزي الأبرار الصابرين أحسن الجزاء وأوفاه نصرا في الدنيا وثوابا جزيلا يوم القيامة ، ويجزي الأشرار شر الجزاء قهرا وذلا في الدنيا وعذابا مهينا يوم القيامة .

15ـمن عمل صالحا فلنفسه...إلى ربكم ترجعون.

صرحت الآية بما تكرر التنبيه إليه في القرآن ، من أن المسؤولية يتحملها الإنسان بفعله واختياره ، وأن الجزاء من جنس العمل فمن عمل صالحا كان جزاؤه تكريما ينعم به هو . ومن عمل سوءًا وشرًا فإنه يتحمل عاقبة فساده وشره. ولما كان الجزاء قد لا يتم في الحياة الدنيا، فكم من مجرمين قضوا حياتهم في عز ونعيم ، وكم من خيرين سلط عليهم الظلم وماتوا في السجون تحت العذاب. حققت الآية أن الجزاء لا يتخلف، فجميع الناس لا يستثنى منهم أحد سيلقون جزاءهم. فإنكم جميعا ترجعون إلى الله، تصيرون إلى حكمه العادل يوم القيامة، فينفذ في كل فريق جزاءه حسبما قدم.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ
عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ
ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ
﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾
إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِيُّ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الكتاب : التوراة.

الحكم: الحكم فصل القضاء.

الشريعة : الطريقة والمنهاج.

من الأمر : من أمر الدين.

الأهواء : المحبة والميل العاطفي غير المستند إلى المنطق.

الإغناء : جعل الغير غنيا غير محتاج.

بصائر :جمع بصيرة، وهي إدراك العقل الأمور على حقيقتها

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن النعم التي مكن منها بني إسرائيل. فقد آتاهم الله التوراة فيها هدى ونور. ومكنهم من حكم أنفسهم بأنفسهم بعد ما كانوا مسخرين مظلومين من القبط في مصر. وبعث فيهم كثيرا من الأنبياء كلما خفت صوت الوحي الأول، أو حصل فيهم تطور يستدعي تشريعا بعث الله فيهم نبيا. فكانوا على صلة مستمرة بهداية الله. ورزقهم من الطيبات في صحراء التيه : المن والسلوى ، ويسر لهم السكنى بأرض الشام كثيرة الخيرات. وفضلهم في ذلك الوقت على العالمين جميعا، ببعثة موسى عليه السلام فيهم. وآتاهم ما هو واضح من التشريع والآداب والحجاج .فعاشوا بفضل ربهم عليهم في أتم نعمة وأحسن حال .ولكن حل الخلاف بينهم بعد ما جاءهم العلم الذي كان من المعقول أن يزيدهم تماسكا ومضيا على طريقهم الذي فازوا به. وكان كل فريق متصلبا في رأيه، والله يظهر يوم القيامة أسباب الاختلاف ليُعلَم من كان قصده صلاح أمته، ومن كان قصده تحقيق أغراض خاصة له.

وفوق ما قصصناه عليك مما مننا به على بني إسرائيل، أنا جعلناك متمكنا متمسكا بمنهج من الدين الحق ، فالزم ما مكناك منه ، ولا تتبع ما يدعونك إليه المشركون من تقديس ما كان عليه آباؤهم وموافقتك لهم على عاداتهم النابعة من أهوائهم ، لا سند لها لا من شرع ولا من عقل ، وإنما هي من رشح الجهل الذي هم عليه وبعدهم عن العلم الصادق .إنهم لا ينفعونك ولا يستطيعون أن يدفعوا عنك أي مؤاخذة من الله .إنك على طريقة وهم على طريقة معاكسة .هم ظالمون بشركهم وباستكبارهم وبتعديهم على الفضيلة ، والظالمون يسند بعضهم بعضا، وأنت بعيد عن الظلم .والله هو المتولي للمتقين المسعد بعونه لهم ،وأنت أولهم.

هذا القرآن الذي مكناك بواسطته من الشريعة يفتح البصائر، فتدرك الوجود على حقيقته، ويمحو الحيرة التي استبدت بالعقول . يهديهم إلى الطريق الوسط الذي لا يميل مع الأهواء، ولا ينقاد للشهوات، ولا يقمع التطلعات الخيرة لكل فرد. وهو رحمة للقلوب يتلوه اليائس فيجد فيه الروح ،ويتلوه المطمئن فيضاعف أمنه .ولا

ينتفع به على ما وصف إلا الموقنون بأنه من عند الله . والشاكون فيه هو عليهم عمى.

بيان المعنى العام :

17/16ـ ولقد آتينا موسى الكتاب ...فيما كانوا فيه يختلفون.

انتقل القرآن ليعرض تسجيلا لواقع بني إسرائيل، فابتدأ بما مكنهم منه من المنن والفضل. ومعظم قصص موسى تتحدث أولا عن بني إسرائيل قبل إرسال موسى. وافتتح هذا العرض بمنن الله على بني إسرائيل، أنهم كانوا بخير حتى اختلفوا فيما جاءهم من العلم. وفيه دعوة لقريش حتى لا يكون حظهم من الهدى الذي جاءهم به محمد أقل من حظ اليهود.

ابتدأ العرض بتأكيد أن الله مكن بني إسرائيل .

أولا: من التوراة كتابا منزلا من عند الله.

وثانيا :آتاهم الحكم ، قال تعالى : **إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار**[1] – كما **قص علينا القرآن قصة داود وسليمان إذ كانا يحكمان في الحرث**[2] – وفي سورة ص من آية 17 إلى الآية26 **يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق.** وجعل فيهم ملوكا يفصلون في القضايا .بعد أن كانوا تحت السلطان المتعسف في مصر. فالذي يظهر لي أن تفسير الحكم بالحكمة بعيد.

وثالثا: تتابعت الأنبياء فيهم. فكانوا أكثر الأمم أنبياء إلى أن ختموا بعيسى عليه السلام الذي كان رسولا.

ورابعا: رزقهم من الطيبات، رزقهم المن والسلوى وهم في الصحراء القاحلة. وأسكنهم أرض الشام التي تتميز بخصب أرضها وتنوع محاصيلها، ونفاق تجارتها، موقعها الجغرافي ساعدها على أن تكون جسرا بين المشرق برا وبين ما وراء البحر الأبيض المتوسط غربا.

وأما تفضيلهم على العالمين، فهي النعمة الخامسة، وذلك ببعثة موسى الكليم فيهم دون غيرهم من البشر في ذلك العهد. **فالله أعلم حيث يجعل رسالاته .** فلا ينبغي أن يفهم من ذلك أن الله ميزهم لرفعة في جنسهم على بقية الأجناس، ولكن لحكمة يعلمها هو وحده. وقد يكون أن ما كانوا عليه من الذل والفقر في مصر، وما

---

[1] سورة المائدة آية44

[2] سورة الأنبياء آية 78

يصحب ذلك عادة من التحلل الخلقي والاجتماعي، قد حولهم الوحي إلى أمة متماسكة قوية، ملكت الأرض وأقامت العدل. ثم انحرفت عن الدين فتمزقت وذهب أمرها، وانقطع تواصل لغتها فماتت لغة التوراة، ودخلت في الشعب اليهودي شعوب أخرى. فيكون تفضيلهم على العالمين في ذلك الزمان شاهدا على أن التشريع الإلهي يحيي الشعوب، ويرفع شأنها. وفي ذلك تنبيه لمشركي مكة أن ما جاءهم به رسول الله ﷺ يحولهم إلى أمة قوية عزيزة ، يجمعون بين استقامة التفكير، وصحة العقيدة ، والتمكين في الأرض .

والنعمة السادسة، أن الله مكنهم بلطف من الآيات البينات والأدلة الواضحة، والحجج المقنعة؛ بفضل ما في التوراة من وحي وبفضل تعليم موسى وتربيته الحكيمة. فتمكنوا فكريا وعمليا من المنهج الذي يبقي على تلكم القوة الناشئة، والتي استمرت دهرا لما كان أمرهم واحدا متحدين غير متنازعين. ودب إلى المجتمع الإسرائيلي داء الاختلاف فاختلفوا كأشد ما يكون الاختلاف، بعد ما عاشوا متوحدين ومنتصرين. وقد قص الله علينا في سورة البقرة موقفهم من طالوت الذي أخبرهم به نبيهم أنه هو الملك عليهم. وأنهم بعد هذا العلم الذي جاءهم من نبيهم أظهروا الرفض، وقالوا **أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال** آية 245. حسدوه أن يسمو إلى مرتبة ملك بني إسرائيل، وهو فقير، وأن يتولى قيادة الجيوش. فاختلاف بني إسرائيل لم يكن اختلافا طلبا للحق، وسعي كل طرف إلى النظرية التي يراها أولى بالتمسك بها لما فيها من صلاح وخير. ولكن اختلافهم كان صادرا عن نفوس امتلأت بالأنانية وحب الذات، ومعاكسة الغير لتحقيق مآرب شخصية. وهذا هو البغي والفساد الذي ما دب إلى كيان أمة من الأمم إلا تبعه التمزق والخسران. وكذلك لما جاءهم عيسى عليه السلام بالبينات اختلفوا عليه حسدا، ولم يؤمن به إلا الحواريون، وشجعوا بيلاطس الحاكم الروماني على قتله. هذا ما وجدته في القرآن من اختلافاتهم بعد ما جاءهم الحق. وأخبر القرآن أنه سيفصل بينهم في خلافاتهم، التي لقوة تمسك كل فريق برأيه، أهلكتهم ومزقتهم شر ممزق ،وأنه سبحانه سيظهر الحقيقة ويجزي كل فريق بما يستحقه من الجزاء ، بعد انكشاف أهداف المختلفين. وفي هذا المقطع تنبيه للمؤمنين أن يبتعدوا عن الخلاف الصادر عن هوى وحب في الغلب .

18←19: ثم جعلناك على شريعة...ولي المتقين.

ثم، فوق ما آتيناه بني إسرائيل من الخيرات ، أننا جعلناك يا محمد متمكنا من شريعة عظيمة، هي منهج عام وطريقة شاملة من أمر الدين، مؤيدة بالحجج التي

يشهد لها العقل، تبلغ بك مرضاة ربك وما يحبه لعباده . فدم على اتباعها والتمسك بها وواصل حياتك على ما جاء فيها. ولا تتبع ما هو معرى من المنطق مخالف للعقل، ومستند إلى الهوى المتقلب. والميول المنبعثة من العواطف التائهة .ميول الجهال الفاقدين للعلم ، كل ما عندهم تقليد أعمى، وإرضاء للشهوات .

دعا رؤساء الكفر من مشركي قريش النبي ﷺ أن يهادنهم ، ويعود لدين آبائهم، فنهاه في الآية السابقة عن اتباعهم لأنهم جهلة لا يعلمون ، وأضاف في هذه الآية تحذيرا مؤكدا لذلك المعنى من ناحية أخرى، أنهم عاجزون عن دفع ما يترتب على ذلك من أي عقاب لا يعلمه إلا الله. فيدل الكلام على أن اتباع أهوائهم موقعة في غضب الله ومقته.

ثم قوى التأكيد في مخالفة المشركين بأن المشركين الظلمة بشركهم، وببغيهم على الضعفاء، وبتمسكهم بالقوة المادية في حياتهم، هم لا يعقدون صلات ولا يتعاونون إلا مع من كان على شاكلتهم في الظلم والخروج عن القيم الخلقية ، وأنت يامحمد على خلق عظيم لا تناسب بينك وبينهم فلا يجوز أن تتبعهم، إنما يتبعهم أولياؤهم. وذيلت الآية بأن الله ناصر المتقين وحاضر معهم يسعدهم في حياتهم ، وأنت أول المتقين

20ـهذا بصائر للناس ...لقوم يؤمنون.

تنويه بالقرآن الذي بفضله كان النبي ﷺ على شريعة من الأمر كما ثبت في الآية السابقة. والقرآن حاضر دائما فلذلك أشير إليه ب"هذا" أتبعه بأنه يفتح بصائر الناس، فإذا هم به يدركون حقيقة الوجود، وارتباط الكون بمبدعه، وأصل الإنسان ونهايته والعلاقات الاجتماعية، تزول الحيرة التي صحبت الناس في محاولاتهم فهمها. وهو هدى يهدي من تمسك به وأيقن بأحقيته للطريق الذي تكون به حياته آمنة مطمئنة، لا تميل به الأهواء فتضله، ولا يفقد الثقة فيتهاوى. وهو رحمة من الله لعباده تتوثق به العلاقات البشرية فتسمو إلى مستوى رفيع من الأخوة والتعاون. ويجد الموقن به آيات الرحمة التي تقلع من نفسه القنوط واليأس (**قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله**)[1]

أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ

[1] سورة الزمر آية53

وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ
هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن
يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا
وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

اجترحوا السيئات: اكتسبوا السيئات بما فعلوا .

سواء : مماثلة كاملة.

الحق : اسم جامع لما شأنه أن يثبت.

ختم : أغلق وطبع طبعا لا يقبل معه الفتح.

غشاوة : غطاء مانع من وصول المؤثرات.

بيان المعنى الإجمالي :

ظن المشركون الذين اكتسبوا العقيدة الباطلة، والأعمال الآثمة، والسلوك القبيح، وكانوا على حظ من بحبوحة العيش والرفاهية وقوة العصبية، أن مماتهم سيكون على نفس المستوى من النعيم الذي قضوا عليه حياتهم. وأن المؤمنين الذين هم دونهم في مكتسبات الحياة الدنيا من مال وجاه، وقد صلحت عقيدتهم بالإيمان وأعمالهم بالالتزام سيكونون مهينين على نفس المستوى الضعيف عند الممات. سفه القرآن ظنونهم، وأكد أن الأمر على العكس من ذلك. وشطب على ظنونهم بأنها ظنون سيئة لا قيمة لها ولا قوام.

إن الله خلق السماوات والأرض وأجرى الخلق على قوانين العدل والنظام ، والإنسان جزء من هذا الكون ،ولا يعقل أن يكون فوضويا فيه، يفعل ما يشاء ، فمن كمال العدل الإلهي أن قدر لكل فعل جزاء ، فمن أصلح جوزي عن صلاحه ، ومن أفسد وتجاوز الحدود جوزي عن فساده بمقدار ما أفسد وبمقدار ما يسترجع المظلوم ظلامته . **ولا يظلم ربك أحدا.**

أرأيت يا محمد ،وكل من يصح منه الرؤية هذا النمط من البشر، الذين قصدوا لجعل إلههم الذي يطيعونه ويأتمرون بأمره ، جعلوا إلههم شهواتهم وهواهم .ومن اتخذ إلهه هوى نفسه وصمم على طاعته ،فإن الله يخذله ويسلبه عونه ، ولا يمكنه من ألطافه ، فيحرمه الهداية ويضل مع علمه بأنه ضال بما عرفه الرسول من الحق. ويوالي مسيرته في طريقه حتى، ينقلب أصم لا يسمع آيات الله، ويصبح

قلبه في غلاف متين مغلق أشد مـا يكـون، مختـوم عليـه بخـاتم لا يقبـل معـه الفـتح. ينسحب على بصره ساتر صفيق يحجب عنـه مشـاهد الكـون. إن مـن واصـل طريـق الضلالة حتى بلغ ما جسمته الآية هل يمكن أن يطمـع أن يهديـه أحـد بعـد مـا حرمـه الله عونه وألطافه؟

من خيالات المنكرين للبعث ما صرحوا بـه مـن أنـه لا توجـد إلا حيـاة واحـدة هـي حياتنا في الدنيا، وأنه لا بعـث، ولا حيـاة أخـرى للجـزاء. المشـاهد أنـا نحـن البشـر يتعاقب علينا الموت والحياة، نحيا، ثم نمـوت ويخلفنـا نسـلنا وهكـذا. والـدهر، الزمـان هو الذي يهري الحياة فنموت. إن كلامهم هذا مجـرد أوهـام لـيس صـادرا عـن علـم. وهي ظنون وخيالات، وإلا فـإن الـدهر لـيس إلا تقـديرا يقـدره الفكـر فـي اسـتمرار الوجود. وليس قوة فاعلة حتى تستطيع إفناء البشر.

بيان المعنى العام:

21ـأم حسب الذيـن ...ساء ما يحكمون.

[أم] التي افتتحت بها الآية توقظ التالي إلى أن الكـلام قـد تحـول مـن السـياق الـذي كان فيه إلى سياق جديـد. ومسـاق الآيـة اسـتفهام انكـاري ، سـجل ظـن المشـركين وأنكره مبطلا له . أظن الذين اكتسبوا السـيئات بأفعـالهم الخبيثـة ، وانحـراف عقيـدتهم، وتجـاوزهم لحـدود الآداب والأخـلاق ، أحسـبوا أن يسـاووا الـذين آمنـوا وعملـوا الأعمال الصالحة التي يراعون فيهـا أوامـر ربهـم والمـنهج الـذي سـطره لهـم فـي الحياة؟

ادعى المشركون أن الحياة الدنيا مقدمـة للحيـاة الآخـرة، التـي وإن كـانوا لا يؤمنـون بها ولكنهم قالوه اسـتهزاء بـالمؤمنين، ظنـوا أن وضـعهم المـادي فـي الحيـاة الـدنيا المرفه القوي العزيز، سيصحبهم فـي الآخـرة ،وأن وضـع المـؤمنين الضـعيف الفقيـر سيصحبهم في الآخرة أيضا .وأن الحياة الدنيا والحياة الآخـرة سـواء ، فمـن كـان قويـا عزيزا في الدنيا يكون قويا عزيزا في الآخرة ، والعكس بالعكس .

رد القرآن عليهم: إن هذا زعم باطل فحال المؤمنين في الـدنيا هـو حـال الـذين جمعـوا بين فضيلتين: فضيلة الإيمان الذي دفعوا به الشك ووثقوا بمـا حـل فـي عقـولهم عقيـدة راسخة، وفضيلة مراعاة ما يقتضـيه إيمـانهم مـن مراقبـة الله فـي أعمـالهم. فأعمـالهم صالحة في باطنها وفي ظاهرها. فهـم فـي حيـاتهم الـدنيا مطمئنـون يغمـرهم الرضـا النفسي، وحسن العلاقة مع البشر ومـع الكـون. وهـم عنـد مـوتهم يصـحبهم الوضـع الذي ساروا عليه في الحياة.(**يـا أيتهـا الـنفس المطمئنـة ارجعـي إلـى ربـك راضـية**

مرضية)[1] تصحب شفاههم عند النزع ابتسامة النظر إلى مـا يكشـف لهـم مـا أعـد لهـم من خير.

وأما الذين أشركوا فعرفهم، بأنهم اجترحوا بما تلقيـه الكلمـة فـي ظلالهـا مـن التعـدي بالمخالب والأنياب شأن الوحوش، فهم يمزقـون الفضـيلة ويعتـدون .اجترحـوا السـيئات وكسبوها ذخيرة قبيحة .ألفوا الشـر وعـادوْا الإحسـان فـي فعـالهم وفـي ضـمائرهم .

وإن البعد بين الحياتين بعد شاسع، بين السـمو المتعـالي الرفيـع للـذين آمنـوا وعملـوا الصالحات، وبين السقوط الهاوي إلى الرذيلة في حيـاة الـذين اجترحـوا السـيئات. بـين الحياة المطمئنة والحياة المضطربة.

إنهم قد نظروا إلى الجوانـب الماديـة مـن سـعة العـيش والقـوة والعصـبية، وفقـدان المؤمنين لذلك، وظنوا أن الأمر يتواصل في الممات ليكون كـل فريـق يمـوت علـى مـا هو عليه. وهذا الذي ردت عليهم الآية فيـه: أنهـم لا يكونـون فـي الحيـاة الـدنيا وفـي الحياة الآخرة إلا على أسوأ حال عكس مـا يظنـون، وسيتواصـل ممـاتهم علـى النحـو الحقيقي لحياتهم.

وبجملة واحدة تختم الآية بمـا يعصـف بكـل تصـوراتهم فينتهـي العـرض ساء مـا يحكمون .حكم سيء في قيمته باطل في حقيقته ، ينفيه المستقبل .

فهِمَ كثير من الصـالحين أن الآيـة تحتـوي علـى إيمـاء للمـؤمنين الـذين يجترحـون السيئات ، فإنـه وإن سـلمت عقيـدتهم ، فـإن اقتحـامهم للمنهيـات يعتبـرون بـه قـد اجترحوا السيئات. روي أن تميما الداري رضـي الله عنـه كـان يصـلي ذات ليلـة عنـد مقام إبراهيم فبلغ هذه الآية فجعـل يبكـي ويـردد إلـى الصـباح: **سـاء مـا يحكمـون**.وعن الفضيل أنه بلغها فجعل يرددها ويبكي ويقـول: يـا فضـيل ليـت شـعري مـن أي الفريقين أنت؟

22ـوخلق الله السماوات...وهم لا يظلمون.

تأكد ما جاء في الآية السابقة من تسـفيه ظنـون المجتـرحين للإثـم :أن وضـعهم عنـد الممات سيكون أفضل من وضـع المـؤمنين المستضـعفين .وذلـك بـالنظر فـي النظـام العادل الـذي بنـى الله عليـه الكـون .إن الله خلـق السـماوات والأرض جاريـة علـى قوانين الحكمة والعدل، منظمة تنظيما لا تجور معه قـوة علـى قـوة أخـرى. ولا تخـرج عما قدر لها في سير العوالم. وإن هذا القانون العـام لا يخـرج البشـر عنـه. ولـذا فـإن من يخرج عن حدود الله ويجترح السيئات ، ويحـدث فـي الكـون شـرخا بسـوء عملـه

[1] سورة الفجر آية 28

يجزى على فساده ، ويعاقب على ما اكتسب من إثم، جزاء عادلا مقدرا عند الله ، بما كسب بعقاب مساو لما احدثه من فساد . ونبه في ختام الآية أن العدل هو أصل من الأصول التي يجب أن يفهم عليها التصرف الإلهي ، فإذا عاقب هو لا يظلم مثقال ذرة ، لا في العقاب المسلط ، ولا في رفع ظلامة المظلوم .

23ـ افرأيت من اتخذ....أفلا تذكرون.

صيغة تكررت في القرآن تفيد التشهير والتعجيب . والمخاطب بها يصح أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم، والأولى أنه كل من يصح منه الرؤية. اشتهرت حالة هذا الصنف من الناس ، وأمرهم عجيب . محصل هذه الصورة الداعية للعجب: هل أبصرت من صمم على أن يجعل معبوده الذي يتبعه هواه ، ما تزينه له نفسه ، وما يلائم عواطفه ، وما يشبع شهواته. هو مطيع لها ، يجري لاهثا لتحقيق ما تدعوه إليه .فأنت إذا تأملت فيه وجدته قد خلع عن نفسه ما يتميز به الجنس الإنساني من تحكيم العقل. قال صلى الله عليه وسلم : العاجز من أتبع نفسه هواها أخرجه الترمذي وأحمد. ونسب إلى عبد الملك بن مروان قوله

إذا أنت لم تعص الهوى قادك الهوى *** إلى كل ما فيه عليك ملام

ثم واصلت الآية الكشف عن الجوانب المفسدة لإنسانيته، إنه انحرف عن الطريق المستقيم، واتبع طريق الضلالة الذي يضيع فيه ويعمى عن الهدف الصالح. تصلب في العناد ، وضعف أمام شهواته . يعرض عن الأدلة اليقينية . حرمه الله ألطافه إذ قرر في نفسه المكابرة واتباع هواه ،والعجب أن الرسول صلى الله عليه وسلم فتح له باب العلم والمعرفة فهو متمكن من العلم ولكن الاستكبار والمكابرة والانقياد للشهوات أضلته .

إن تصلبه في اتباع شهواته ، يجعله كلما واصل سبيل المتعة يزداد انغماسا في ضلاله ، ويألف ما رضيه ، حتى يصبح سمعه أصم عن نداء الحق ،وقلبه كأنه أدخل في بونقة وأغلق عليه ثم طبع فوق ذلك بختم لا يقبل الفتح .ويفقد الإحساس بمشاهد الكون وما تدل عليه، فلا هو يسمع آيات الله تتلى ولا ينبض قلبه بالتذكر والاعتبار ، ولا يرى في الكون ما يدله على ما وراء الظواهر من حكمة مبدعة. وهل يستطيع أحد وهل تتمكن أي قوة أن تهديه بعد إضلال الله له الإضلال المجسم كما تقدم ؟ وفي ذلك تسلية للنبي ﷺ عن أسفه لمواصلة المشركين شركهم، وصدودهم عن الحق الذي جاء به.

24ـوقالوا ماهي إلا حياتنا....إن هم إلا يظنون.

ومن مقالات الكفار في جدالهم للرسول صلى الله عليه وسلم في أمر البعث، الذي بذلوا كل جهدهم لإنكاره ،وإقامة أدلتهم الوضيعة على ذلك .من مقالتهم أن الأمر

الجاري على البشر لا يخرج عن الموت والحيـاة ، يتعاقبـان يولـد المولـود ثـم يمـوت بعد أن يخلفه نسله . لا توجد إلا حياة واحدة هـي حياتنـا فـي هـذه الـدنيا، وأمـا حيـاة أخرى بعد الموت فلا .وأن الذي يقضـي علـى الحيـاة ويـذهب بالأحيـاء هـو تهـري الأحياء بعامل الزمن، فتمر الأيام والليالي والسـنون علـى الإنسـان فتنهـك قـواه شـيئا فشيئا إلى أن تفنيه، وإذا فني فلا عـودة بعـد ذلـك. إن دعـواهم أن الـدهر هـو المفنـي كلام ليس لهم عليه دليل وإنما هـي أوهـام لا علـم لهـم، فـإذا كـان الإفنـاء للموجـود مرجحا موته على بقائه حيا، فإنه لا بد من قـوة تسـحق هـذا الموجـود وتكـون أقـوى منه. وطلوع النهار وظلام الليل، والدورة الشمسية لا تأثير لهـا فـي الحيـاة، فـلا تـأثير لها في الموت.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ
صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ
وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ
ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا
ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ
مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى
رَحْمَتِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ
فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا
قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

لا ريب: حق لا يقبل التشكيك فيه.

المبطلون: الآتون بالباطل في العقيدة والتفكير.

الأمة : الجماعة الذين يؤلف بينهم دين.

جاثية :باركة على ركبتيها، غير مستقرة، مستعدة للقيام.

نستنسخ: نكتب أعمالكم كما وقعت.

الفوز : نيل المبتغى .

بيان المعنى الإجمالي :

كان النبي صلى الله عليه وسلم يتلو على قـريش آيـات القـرآن البينـة المثبتـة للبعـث. وكان موقف قريش من تلك الحجج الإلهية أن قـالوا: ائتـوا بآبائنـا نسـألهم عـن صـدق ما تدعون. القرآن يدعوهم إلى الإيمان بالبعث يوم القيامـة، وردهـم كـان طلـب البعـث في الدنيا.

قل لهم واثقا: إن الله هو الذي يحييكم في بطـون أمهـاتكم، ثـم يتصـرف فـيكم فيميـتكم عند حلول آجالكم، ثم بنفس القدرة والتـدبير يبعـثكم جميعـا إلـى يـوم القيامـة للجـزاء. إنه يوم آت لا شك فيه، ولكن العلة التي تبعها إنكـار وقوعـه هـو أن أكثـر النـاس لـم يحيطوا علما بأدلة وقوعه. وكل من يصح منه الرؤية يـرى هـذا المشـهد يـوم القيامـة: أفراد كل أمة من الأمم التي جمعها دين واحد، ترى كل فـرد منهـا باركـا علـى ركبتيـه مستعدا لإجابة الداعي الذي يدعوه ليقرأ ما سجل في صحيفته، وليجزي عما قدم.

هذا الكتاب الذي وجدتم فيه أعمالكم موثقة كمـا تمـت فـي حيـاتكم، هـو الكتـاب الـذي أمرنا الملائكة بضبطه ، إنه يُعَرِفُ بما عملتم ، ينطـق بـالحق بـدون زيـادة ولا نقـص صورة مطابقة لأعمالكم ، التي أمرنا الكتبة بتثبيتها في صحائفكم .

تُظهِر الصحائف حقيقة كل فرد من حيث صـلاحه، أو فسـاده. فأمـا الـذين كـانوا علـى عقيدة صحيحة نقية، وعملوا الأعمال التـي تترتـب عليهـا الآثـار الصـالحة المرضـية، فيفتح لهم ربهم أبواب رحمته ليلقوا مـن النعـيم والتكـريم مـا يليـق برحمتـه الواسـعة. وفي المقابل فإن الذين كفروا يواجهون بسـؤال فيـه تـوبيخ وإنكـار وتقريـر؛ ألـم تكـن تبلغكم آيات القرآن بواسطة رسولنا واضحة بينة، فخلـتم أنفسـكم أعظـم مـن الاسـتجابة إليها وبذلك واصلتم حياتكم على الرذيلة والإجرام.

كلما ذكركم القرآن بأن البعث حق والساعة حق آتية لا ريـب فيهـا، قلـتم: مـا نفهـم مـا تقولون. ما هي هـذه السـاعة التـي تهـددوننا بهـا ؟لا حجـة لكـم عليهـا، وحتـى إن جاريناكم فكلامكم يفيد ظنا، بعيـدا عـن اليقـين، وأنـتم تريـدون إسـباغ صـفة اليقـين عليها.

بيان المعنى العام :

25ـ وإذا تتلى عليهم ...إن كنتم صادقين.

سجل القرآن على المشركين طريقتهم فـي مناقضـة القـرآن. كـان الرسـول صـلى الله عليه وسلم يتلـو علـيهم آيـات القـرآن بينـة واضـحة مثبتـة للبعـث. ولا شـك أنهـا لنصاعتها ووضـوحها كانـت تزلـزلهم، ولمـا كـانوا قومـا دربـوا علـى الخصـومة والحجاج بالباطل لم يجدوا حجة يدحضـون بهـا بيـان القـرآن إلا أمـرا واحـدا ظنـوه

حجة لهم، قالوا لرسول الله وللمؤمنين: إن كان البعث حقا فائتونا بآبائنا الذين ماتوا. وهم يعلمون أن البعث ليس في الدنيا، فكان قولهم هذا مكابرة حتى لا يظهروا بمظهر العاجز المفحم.

26.قل الله يحييكم...ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

تلقين من الله لنبيه أن يواجه المشركين بقوة ووثوق، قل لهم: الله العلم الفرد هو وحده الذي يحييكم فيخلقكم و يبعث فيكم الروح في بطون أمهاتكم، ثم يبقيكم إلى الأجل الذي قدره فيميتكم، ثم بعد ذلك يجمعكم أحياء إلى يوم القيامة. إنه يوم لا يقبل أن يشك فيه، ولا يوجد دليل واحد ينفيه، أو يفرض عدم قدومه. ولكن العلة في إنكاره هي جهل كثير من الناس بدلائل أحقيته.

27. ولله ملك السموات والأرض...يخسر المبطلون.

التصرف المذكور في الآية السابقة، يحققه أن الله تفرد بملك السماوات والأرض في ابتداء أمرها، ثم فيما يجري عليها بتدبيره، ثم في المآل الذي قدره لها. هذا المآل النهائي هو يوم تقوم الساعة، يوم القيامة. في هذا اليوم يجد الذين ألفوا الباطل في العقيدة والقول والعمل، ومنهم المنكرون للبعث، يجدون أنفسهم خاسرين، لا يحملون معهم أي شيء يساعدهم في ذلك اليوم. ذهب عملهم باطلا، وبقي الباطل معلقا بهم يلْقون جزاءهم عليه.

28. وترى كل أمة جاثية...ما كنتم تعملون.

عرضت الآية مشهد يوم القيامة وكأنه حاضر منظور. ترى، خطاب لكل من يُتصور منه الرؤية، فما ذا يرى ؟ يرى كل أمة جمعها دين بواسطة رسولهم، يراها، وكل فرد من أفرادها بارك على ركبتيه، غير مطمئن، مستعد لإجابة من يدعوه. لما ذا كان على هذا الوضع؟ كل فرد حصل في يقينه أنه سيدعى إلى كتاب الأمة المنزل ليعرض أعماله عليه على هذا الفهم حمله بعض المفسرين . والأولى أن يكون الكتاب هو كتاب كل فرد الذي سجل فيه أعماله. قال تعالى: (**اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا**)[1] . ويقال له: اليوم تلقى جزاء ما كنت تعمل جزاء عادلا.

29. هذا كتابنا ينطق ...ما كنتم تعملون.

دعوا ليجدوا كتابهم وصحائفهم شاهدة عليهم، موثق فيها كل ما عملوه من خير أو شر. ويقال لهم: هذا الذي يشهد عليكم ويستعرض كل عمل قمتم به في حياتكم، هو

[1] سورة الإسراء آية 14

كتابنا الذي أمرنا بأن يوثق فيه كل عمل عملتموه. إنه ينطق بالحق دون زيادة ولا نقصان ولا تغيير لا في الظاهر ولا في الباطن. إنا أمرنا الملائكة الموكلين بكم أن يكتبوا كل ما كنتم تعملون.

30←31ـ فأما الذين آمنوا....وكنتم مجرمين.

فَصّلَتْ الآية ما جاء مجملا في قوله : ترى كل أمة جاثية ، فابتدأ التفصيل بالحديث عن الناجين فقال :

فأما الذين تحقق إيمانهم، وَصَفَتْ عقيدتهم، وصدقوا بما جاء به رسولهم من عند الله. وقرنوا العقيدة المثبتة لله ولكمالاته وليوم القيامة ، قرنوا ذلك بالأعمال الصالحة الملتزمة بالخير المجانبة للشر ، فإن الله يفتح لهم أبواب رحمته فيدخلهم فيها ، فهم ينعمون في رحمته الشاملة لكل فضل. وفعلا فإن هذه النهاية هي النجاح والفوز المبين الذي ما بعده نجاح ولا فوز أعظم منه.

أما الجناح الثاني، فهم الذين كفروا وجحدوا ما جاءهم به رسولهم، فيواجهون بسؤال فيه إنكار عليهم مواقفهم، وتقرير لهم، وتوبيخ عن كفرهم. ألم تكن آياتي القرآنية تتلى عليكم، وتبلغ أسماعكم، ويوضحها لكم رسولكم ؟ فكان موقفكم منها الاستكبار الذي طغى عليكم فحجب بصائركم عن الحق، وبذلك واصلتم حياتكم على اقتراف المنكرات، وتأصل الإجرام فيكم.

32ـ وإذا قيل إن وعد الله ...نحن بمستيقنين.

بداية هذه الآية تفيد التذكير بما تكرر التأكيد عليه من أمر يوم القيامة، وقدوم ساعة الإحياء من القبور والحساب. فقوله: **إذا قيل**؛ مُذَكر بالأقوال الكثيرة في القرآن في هذا الموضوع. ما هو هذا المقول المكرر؟ إن وعد الله في بعث الناس إلى الحساب حق ثابت، وأن ساعة القيامة والحساب أمر لا يقبل الشك. كلما تُكَررُ عليكم هذه الحقيقة أجبتم أيها الكافرون: ما ندري ما هي الساعة التي تتحدثون عنها؟ أمر وليد خيالكم . وأنتم تريدون أن تسبغوا عليها مستوى اليقين، وما أبعدها عن اليقين، فحتى إذا جاملناكم فغاية ما يفيد كلامكم ظن مجيئها. ولكننا نحن لا يقين لنا بها. والأمر حسبما تدعون يقيني.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا

هُمۡ يُسۡتَعۡتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلۡحَمۡدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلۡأَرۡضِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ
ٱلۡكِبۡرِيَآءُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

حاق : أحاط.

النسيان : الترك المؤبد.

اللقاء : وجدان الشيء في مكان

المأوى : مسكن الشخص الذي يأوي إليه.

غرتكم : خدعتكم.

بيان المعنى الإجمالي :

تظهر للمشركين أعمالهم بقبحها وسوئها، فيدركون أنهم سيلقون جزاءهم عنها، ويحيط بهم إحاطة السوار بالمعصم جزاء استهزائهم بالمؤمنين وبالقرآن . ثم يسمعون صوتا ينكِّل بهم، يقال لهم: اليوم نترككم في المصير الذي صرتم إليه تركا أبديا، نظير موقفكم من هذا اليوم، إذ سرتم في حياتكم لا تلتفتون إليه ولا يخطر على بالكم. ومنزلكم الذي تعودون إليه هو النار. ولا تجدون نصيرا ينصركم، آيسين من مغادرتها . لتستحضروا ما قررت لكم من أنواع العذاب لتعلموا أنه جزاء موقفكم من آيات القرآن موقف الاستهزاء والسخرية. خدعتكم الحياة الدنيا وظننتم أنه ليس وراء نعيمها نعيم آخر مع أنكم كنتم تشاهدون أنها زائلة متقلبة. إنه في هذا اليوم لا مطمع لكم في الخروج من النار، ولا يؤذن لكم في تقديم ما يعتبكم به ربكم فيرضى عنكم.

الثناء والحمد لله وحده على ما تفضل عليكم به من البيان المنقذ لكم من الضلالة، وعلى ما وعدكم من خيرات، وعلى رعايته الموصولة بكم .هو رب السماوات والأرض وما فيهما من الملائكة والبشر. وله وحده العظمة في الكون كله سماواته وأرضه ، وهو المتصف بالعزة يتحقق كل ما يريد ، وينجزه بحكمته على أتم وجه وأكمله .

بيان المعنى العام :

33ـ وبدا لهم سيئات ما كسبوا.....به يستهزئون.

ذكر في الآية السابقة أن المشركين ما وجدوا دليلا يثبت مجيء يوم القيامة وما يتبعه من حساب وجزاء. ولما كانوا لا يوقنون إلا بما يشاهدون، فإنهم يوم القيامة تظهر لهم أعمالهم السيئة مسجلة في صحائفهم، مقرونة بما يستحقونه من العذاب

جزاء ما عملوا. ويحيط بهم من كل جانـب جـزاء سـخريتهم مـن ضـعفاء المـؤمنين، ومما يعرضه القرآن من حقائق يوم القيامة. كاستهزائهم بالزقوم،.

34ـ وقيل اليوم ننساكم...وما لكم من ناصرين.

القول المذكور في الآية موجه إلى المعـذبين، مصـحوب بإهانـة، إذ لـم يسـند القـول لا إلى الملائكة ولا إلى الله، إذ هم أحط من أن يتوجـه رب العـزة أو ملائكتـه إلـيهم ولـو كان مضمون القول ما قدر لهم من نكال. وما ذا يسـمعون ؟ يقـال لهـم : اليـوم نتـرككم في العذاب ونبقيكم في جهنم إبقاء سرمديا ، كالشيء المنسـي الـذي لا يؤبـه بـه، لـيس له قيمة ولا تعلق به حتى يذكر. إن خلودكم فـي النـار جـزاء وفـاق لإعراضـكم عـن يومكم هذا الذي تقاسون ويلاته. وفـي إجمالـه مـا يتـرك للـنفس مجـالا لتصـور مـا يجدونه في ذلك اليوم مـن شـر العـذاب. ومنـزلكم الـذي ترجعـون إليـه ليحتضـنكم وتجدون فيه قراركم هو النـار. ولا تجـدون نصـيرا يخـرجكم مـن العـذاب أو يأسـى لكم.

35ـ ذلكم بأنكم ...ولا هم يستعتبون.

ذلكم، الإشارة إلى كل ما جاء في الآية السـابقة مـن نسـيانكم فـي العـذاب، وأن النـار هي دار إقامتكم التي لا تبرحونها. هو بسبب أنكم كنـتم لا تأخـذون آيـات القـرآن مأخـذ الجد ، وتستهزئون بها وتسخرون منها .وغرتكم الحيـاة الـدنيا فحسـبتم أن نعيمهـا هـو النعيم الذي ليس وراءه نعيم ، وأن ما كان لكـم مـن القـوة يحمـيكم ، وأن حيـاتكم فـي الدنيا هي الحياة التي لا حياة بعدها . ولم تتفطنوا إلى ما طبـع بـه نعيمهـا مـن الـزوال السريع. فكنتم سائرين فيها سير المغرور الذي لا يتفطن لمـا فـي المظـاهر مـن خـداع. يتميز هذا اليوم بأنه يوم باق سرمدي، متواصل ما فيـه، فـأنتم لا تخرجـون مـن النـار، وأنتم لا يسمح لكم باسترضاء ربكم وطلب عفوه، لأنـه تقـرر أنـه لـيس لكـم أي حـظ من رضاه.

36←37ـ فلله الحمد رب السماوات...وهو العزيز الحكيم.

تختم السورة بإعلان اختصاص الله بالحمد والثنـاء. حمـد علـى مـا أبـان مـن معـالم الحق التي تتابعت في هذه السورة، وعلى ما نبه إليـه مـن أمـور الغيـب حتـى يعتصـم المؤمن من الوقوع فيما يغضبه. و حمد على ما أعـده للمـؤمنين مـن منـازل الكرامـة. ثناء على عظمته وجلالـه وتصـرفه فـي الكـون، فهـو رب السـماوات التـي أحسـن خلقها، وقدر قوانينها ويسرها لنفع الإنسان ، وهـو رب الأرض ومـا أودعـه فيهـا ممـا

به تيسرت الحياة مما لا يحصـر مـن أنـواع الفضـل . وهـو رب سـكان السـماوات، وسكان الأرض . فعليهم أن يدركوا فضله ويوالوا الثناء عليه وحمده.

إن دعوتهم لحمده هو للسـمو بـأرواحهم، وتزكيـة نفوسـهم، هـو غنـي عـنهم غيـر محتـاج لحمـدهم. ويقتـرن دومـا بربوبيتـه للسـماء والأرض والعـالمين ، استحضـار عزته التي بها طوع كل شـيء لإرادتـه ، واستحضـار حكمتـه ، فقـد كانـت ظـاهرة الدقة سارية في كل جزئية من جزئيات الكون .

أكملت بحمد الله وحسن عونه الجزء الخـامس والعشـرين ليلـة الخمـيس العاشـر مـن شهر المحرم 1435-13/11/14

الفهـــرس

ســــــــــــورة النمل: 3
وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ ... فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (54←58) : 3
قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ ...قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (59←62): 5
أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ... فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (63←66): 9
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا ... لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (67←72):................... 13
وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ... بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (73←78) : 15
فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ... أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (79←82): 18
وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا ...إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (83←86) : 21
أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ ... إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (86←90): 22
إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ ... وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (91←93) : 26

ســــــــــــورة القصص : 29
طسم ... مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (1←6) : 29
وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى... فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (7←11): 31
وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ... وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (12←14): 34
وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينِ غَفْلَةٍ ...وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (15←19): 36
وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى ... لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (20←24):................ 39
فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ...وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (25←28): 42
فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ ...إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (29←32):.................................. 45
قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا ...وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (33←35): 47
فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا...فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (36←40): 48
وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ... مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (41←46): 51
وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ ...إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (47←50): 54
وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ ...وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (51←56): 56
وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ ...وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (57←60):.................. 59
أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا...فَعَسَى أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (61←67):.............................. 62
وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ...وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (68←70):...................................... 65
قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا...مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (71←75): 66
إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى... لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (76←82) : 69

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا ... وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83←88): 75

ســــــــورة العنكبوت : 80

الم ...وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (1←7): 80

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ... وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (8←13): 84

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ...قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (14←18): 88

أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ...وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (19←23): 91

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ...وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (24←27): 94

وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ... تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (28←35) : 96

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا... وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (36←40) : 99

مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ ...وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (41←45): 101

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ ... وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (46←49) : 105

وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ...وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (50←55) : 107

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا ...وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (56←59):.. 111

وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا...قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (60←63): 112

وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ...وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (64←69): 114

ســــــــورة الروم : 120

الم ...عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (1←7) : 120

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ...وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (8←10): 123

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ...فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (12←16): 127

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ...وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (17←19) : 129

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ...إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (20←25) : 130

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (26←29) : 136

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ...فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (30←34) : 139

أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا ... وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (35←38) : 142

وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ ...سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (39←40) : 145

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ... وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (41←46) : 146

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ... وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (46←50) : 150

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا ... كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (51←55) : 153

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ... وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (56←60) : 156

ســــــــورة لقمان : 159

الم ... فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (1←7) : 159

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ...فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (8←11): 161
وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ... فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (12←15) : 164
يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ ...إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ (16←19): 169
أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...عَذَابِ السَّعِيرِ (20←21) : 172
وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ...هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (22←26): 174
وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ...وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (27←32) : 176
يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ...إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (33←34) : 181

ســــــــورة السجدة 186
الم...وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (1←9) : 186
وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ ...وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (10←14) : 192
إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا ...ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ (15←22):................................ 195
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ... أَفَلَا يُبْصِرُونَ (23←27):................................ 199
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...إِنَّهُمْ مُنْتَظِرُونَ (28←30):................................ 202

ســــــــورة الأحزاب: 204
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ...وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (1←5) : 204
النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ...وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (6←8): 208
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا (9←13) : 212
وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا...مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (14←17) : 216
قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ...وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا (18←20): 218
لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ...وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا (21←25) : 221
وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ...وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (26←27) : 226
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ ...وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا (28←30) : 228
يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ ...إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (31←34):................................ 231
إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ...فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (35←36) : 235
وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ...وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (37←40) : 239
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا (41←48) : 244
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (49←50): 249
لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ ...وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (51←52):................................ 253
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (53←55) : 255
إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ ...فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (56←58) : 260
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ... وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (59←62) : 263
يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ ...وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (63←68) : 267

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (69←73) : 270

ســــــــــــورة سبأ : 275

الْحَمْدُ لِلَّهِ ... أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (1←5) : 275
وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ...إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (6←9) : 279
وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ ...مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (10←14) : 281
لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ...سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (15←18) : 286
فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا ...وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (19←23): 289
قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ...لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (24←30) : 294
وقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا...هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (31←33) : 298
وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ...وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (34←39) : 300
وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا...إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (40←43) : 304
وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ...إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ (44←50): 306
وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا...إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (51←54) : 310

ســــــــــــورة فاطر : 313

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ ...وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ (1←5) : 313
إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ...إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (6←8): 318
وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ ...إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (9←11): 320
وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ...وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (12←14) : 324
يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ...إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (15←23) : 326
إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ...إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (24←30): 330
وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ...وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (31←35) : 335
وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ ...وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (37←39) : 339
قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمْ ...إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (40←41) : 341
وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ ...فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (42←45) : 343

ســــــــــــورة يس : 347

يس ...أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (1←10): 347
إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ ...بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (11←19): 351
وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ...وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (20←27): 355
وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ...وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ (28←36): 358
وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ...وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (37←44): 361
وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا...وَلَا إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (45←50) : 366

وَنُفِخَ فِي الصُّورِ...وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (51←59): 368
أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ ...فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (60←67) : 372
وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ ...مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ (68←76): 375
أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ ...وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (77←83) : 380

سـورة الصافات : **384**
وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ...فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (1←10): 384
فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا...فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (11←19) : 388
وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ...إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ 20←34) : 390
إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ...كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (35←49): 394
فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ...لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (50←61) : 398
أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا...إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (62←74) : 400
وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ ...ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (75←82) : 403
وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ... وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (83←96) : 405
قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا...وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (67←113): 408
وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ...إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (114←122): 414
وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ...إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (123←132) : 416
وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ...وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (133←138): 418
وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ...فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (139←148) : 419
فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ ...سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (149←159): 422
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ...فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (160←170) : 424
وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا...وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (171←182) : 427

سـورة ص: **431**
ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ... بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ (1←8) : 431
أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ...إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ (9←15): 435
وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا...وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ (16←20) : 437
وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ...لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (21←26): 440
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ ...وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (27←29): 446
وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ ...إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (30←35): 449
فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ... وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ (36←40) : 452
وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ...وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (41←44) : 453
وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ... مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (45←54) : 456
هَذَا وَإِنَّ لِلطَّاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ...فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (55←61): 459

وَقَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَى رِجَالًا... أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (62←70): 461
إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ...وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (71←78):.................................... 464
قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ...نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ (79←88):.. 467

ســــــــــورة الزمر: **471**
تَنْزِيلُ الْكِتَابِ ...هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (1←4):.. 471
خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (5←7) : 475
وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ...بِغَيْرِ حِسَابٍ (8←10) : 481
قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ...يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ (11←16):.. 487
وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ...لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (17←20):.. 489
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ...فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (21←23): 492
أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ...عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (24←31): 497
فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ ...أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (32←37) : 502
وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (38←41) : 505
اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا...إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (42←45) : 508
قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ...كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (46←48):.................................... 511
فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ ...إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (49←52) : 513
قُلْ يَا عِبَادِيَ...لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (53←58) : 516
بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي ... أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (59←63):.. 519
قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي ...وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (62←66) : 523
وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ...فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (67←72):.. 524
وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ ...الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (73←75) : 528

ســــــــــورة غافر (المؤمن): **531**
حم ...أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (1←6):.. 531
الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ...وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (7←9) : 535
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ...وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (10←14):.................................. 537
رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ...إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (15←20) : 541
أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ...إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (21←22):.. 544
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى...لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (23←27) : 546
وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ ...عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (28←35) : 548
وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ...يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ (36←40) : 554
وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ ...أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (41←46) : 557
وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ...وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (47←52):...................................... 559

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى...وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (53←57): 562
وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ..كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (58←63) : 565
اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا..فَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (64←68): 569
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ..فَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (69←77) : 573
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا..فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (78←81) : 577
أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ ... وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (82←85) : 580

ســــــــــورة فصلت : 583
حم ...يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (1←7): 583
إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ..ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (8←12) : 587
فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ.. وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ (13←16) : 591
وَأَمَّا ثَمُودُ ... يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (17←24): 594
وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ ...لِيَكُونَا مِنَ الْأَسْفَلِينَ (25←29) : 598
إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ...وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (30←35) : 600
وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ...إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (36←40): 605
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا...أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (41←44) : 609
وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ...وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (45←46): 613
إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ ... وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (47←50) : 614
وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ...إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (51←54) : 618

ســــــــــورة الشورى: 623
حم...مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (1←8) : 623
أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ... وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ (9←13): 628
وَمَا تَفَرَّقُوا...وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (14←16) : 633
اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ...وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ (17←20) : 637
أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ ...إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (21←24) : 641
وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ...وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (25←29) : 646
وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ ...بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (30←34) : 650
وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ ... وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ (35←46): 653
اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ ...فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ (47←48) : 659
لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ...إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (49←53): 662

ســــــــــورة الزخرف : 668
حم ... وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (1←8): 668

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ...وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ (9←14):.......................... 671
وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا ...سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ (15←19) :.......................... 675
وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ...فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (20←25):.......................... 677
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ...وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (26←32):.......................... 680
وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ...أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (32←39):.......................... 684
أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ ...مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (40←45) :.......................... 688
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى ...فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ (46←56) :.......................... 691
وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ ... ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (57←65) :.......................... 697
هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ ...لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (66←73):.......................... 702
إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ ...وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (74←80) :.......................... 705
قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ ...وَقُلْ سَلَامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (81←89) :.......................... 708

ســــــــورة الدخان :.......................... 713
حم...يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (1←8):.......................... 713
بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ ...إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (9←16) :.......................... 717
وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ...وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (17←29):.......................... 719
وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ...إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (30←37) :.......................... 723
وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ...مَا كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ (38←50) :.......................... 726
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ...فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (51←59) :.......................... 729

ســــــــورة الجاثية :.......................... 733
حم...فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ (1←6) :.......................... 733
وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ...مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (7←11) :.......................... 736
اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ ...ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (12←15) :.......................... 738
وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ...وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (16←20) :.......................... 741
أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ ... إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ (21←24) :.......................... 745
وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا...وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (25←32) :.......................... 750
وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ...وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (33←37) :.......................... 753

نهج البيان في تفسير القرآن

سماحة الشيخ محمد المختار السلامي
مفتي الجمهورية التونسية سابقا

الجزء السادس

جميعُ الحُقوق محفوظةٌ

الطَّبعة الأولى
1436 هـ - 2015 م

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف. لا يسمح بإعادة إصدار الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل كان أو بواسطة وسائل إلكترونية أو كهروستاتية، أو أشرطة ممغنطة، أو وسائل ميكانيكية أو الاستنساخ الفوتوغرافي أو التسجيل وغيره دون إذن خطي من المؤلف.

ISBN: 978-9938-14-193-1

I.R.A

مطبعة التسفير الفني
Imprimerie Reliure d'Art

الهاتف: 030 432 74 216+
الفاكس: 248 432 74 216+
البريد الالكتروني
reliure.dart@tunet.tn

سورة الأحقاف

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وفي كتب السنة. ووجه تسميتها به أن كلمة الأحقاف لم ترد إلا في هذا السورة آية 21 واذكر أخا عاد إذ أنذر قومه بالأحقاف. نزلت على رسول الله ﷺ في مكة. رتبتها حسب ترتيب المصحف السادسة والأربعون. وحسب ترتيب النزول الخامسة والستون. نزلت بعد سورة الجاثية وقبل سورة الذاريات. وبها ختام الحواميم.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا
بَيۡنَهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَمَّآ أُنذِرُواْ مُعۡرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُم
مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ لَهُمۡ شِرۡكٞ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِۖ
ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنۡ
أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن
دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

أجل مسمى: نهاية مقدرة محددة.

أرأيتم : أخبروني.

ما تدعون من دون الله : أصنامكم.

ائتوني : أحضروا.

أثارة : بقية.

بيان المعنى الإجمالي :

استوت فاتحة سورة الأحقاف مع فاتحة سورة الجاثية، فتفهم كما فهمت. و هي تمام السور السبع المفتتحة بـ "**حم**" إن الله المنزل للكتاب بعزته وحكمته، هو الذي خلق السماوات والأرض وما بينهما خلقا ملتبسا بالحق، لا باطل ولا عبث قدر لوجودهما

أجلا محددا، هو يوم فناء الكون الذي يعقبه البعث. ولكن الذين كفروا معرضون عما أنذروا به من البعث.

أخبروني عن الأصنام التي تدعون أنها آلهة من دون الله، أروني أي شيء خلقوه في الأرض ؟ وهم جامدون عاجزون؛ أم لهم قدرة على التأثير في عالم السماوات، والمشركون أنفسهم ينفون أن يكون لآلهتهم أي دخل في العالم العلوي. أم هل استندتم في تأليهها إلى كتاب منزل قَبْلَ القرآن، فإن جميع الكتب تنفي نفيا قاطعا عبادة الأصنام، أم لكم بقية من أقوال العلماء الموثوق بكلامهم تثبت دعواكم، أجيبوا إن كنتم صادقين في دعواكم بإظهار أي مستند من المستندات المعروضة، وإذ انتفت كلها، فكلامكم باطل لا دليل عليه ولا سند.

وأثار القرآن العجب من الذين يدعون آلهتهم لغوثهم، وينصرفون عن الله. هل يوجد من هو أكثر منهم عمى وضلالة وبعدا عن المعقول، إن الأصنام لايستجيبون لدعائهم ولو واصلوا استغاثتهم ودعاءهم طيلة الحياة الدنيا إلى يوم القيامة، إذ الأوثان غافلون عن دعائهم. والأنكى أنهم يكونون يوم المحشر أعداء لعابديهم، منكرين وكافرين بعبادتهم.

بيان المعنى العام :

1←2:حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم.

بمثل هذه البداية افتتحت سورة الجاثية، ويقال في تفسيرها ما سبق أن ذكر في سورة الجاثية. و بهذه السورة يتم تتابع السور السبع المفتتحة بـ "**حم**"

3- ما خلقنا السماوات...عما أنذروا معرضون.

بعد أن ذكر القرآن بأنه أُنْزِلَ من العزيز الذي لا يرد له أمر، الحكيم في تدبيره للكون؛ صرح بما يتبع عزته وحكمته فقال: **إنا خلقنا السماوات والأرض وما بينهما،** طوَّعَتْهما عزتنا فخرجتا من العدم إلى الوجود، وسَرَتْ في خلقهما حكمتنا، فكان الحق ملابسا لهما، لا مكان للعبث، ولا للمصادفة، إذ كل جزئية من جزئياتهما مقدرة تقديرا من تاريخ وجودها على الوجه الذي وجدت عليه، إلى علاقتها بغيرها، إلى المسار الذي تسير فيه. و قدرنا أنها مسَيَّرة تنتهي إلى أجل مضبوط بدقة لا تفنى قبل أجلها ولا تتأخر عنه. و العجب أن الذين كفروا فجحدوا تصريف الله للكون، لا يلتفتون إلى الأدلة الشاهدة على تسييرنا للكون بحكمة، التي منها أن الحادث لا يمكن أن يكون باقيا بقاء سرمديا. و أن النّهاية ستكون يوم القيامة. فأعرضوا أيضا عن الإيمان بالبعث.

4- قل أرأيتم ما تدعون...إن كنتم صادقين.

تعالوا نبسط القضية بوضوح لنستخرج مباني ما تدعونه، من ألوهية الأصنام واستحقاقها للعبادة. أعرضوا علي شيئا أشاهده، مما خلقته الأصنام من الأرض وما عليها. مع أنها جامدة فاقدة للحياة والحركة، فكيف يستقيم أن تكون خالقة! وإذا انتفى أن تكون خالقة فهي لا تستحق أن تعبد. و إذا نفت المشاهدة أن تكون خالقة لشيء من الأرض، و انتقلنا من الأرض إلى السماوات، فهل لها أي شركة في تسيير العوالم العليا ؟ المشركون لا يدعون أن لها أي تأثير في السماوات.

و إذا انتفى قطعيا أن تكون الأصنام مؤثرة في خلق أي شيء في الأرض، ولا لها أي دخل في عالم السماوات، فهل استندتم في ادعائكم لها الألوهية إلى كتاب منزل من قبْل القرآن؟ ولكن جميع الكتب المنزلة من عند الله تبطل عبادة الأصنام. أو هل عندكم بقية من مرويات أهل العلم تثبت للأصنام تصرفا؟ هل عندكم أي مستند استندتم إليه إن كنتم صادقين في ادعائكم أنها آلهة؟ فعلى جميع الاحتمالات لا يجدون أي حجة أو دليل.

5←6، ومن أضل ممن يدعو...بعبادتهم كافرين.

افتتحت الآية بـ[منْ] الدالة على طلب البحث، هل يوجد في الكون أشد ضلالا وأعجب حالا من الذي ينصرف عن عبادة الله والاستغاثة به في الملمات، ويدعو غيره،مع أن هذا الغير لا يسمع الدعاء، ولا يتصور أن يستجيب لنداء الداعي فيغيثه، ولو واصل نداءه ودعاءه طيلة الحياة الدنيا إلى نهايتها، بل إلى يوم القيامة. و من غباء هؤلاء المتعلقين بالأصنام العابدين لها، أنهم غير مدركين أن تلك الأصنام غافلة عنهم، لأنها لا تسمع ولا تعي خطابا ولا استغاثة. و مع كونها لا تستجيب لنداء المستغيثين بهم إلى يوم القيامة، يكونون يوم القيامة، يوم يحشر النّاس إلى ربهم، أعداءً للذين استجاروا بهم ودعوهم لإغاثتهم، ويكفرون بخضوعهم لهم وعبادتهم. قال تعالى: **ويوم نحشرهم وما يعبدون من دون الله فيقول أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل قالوا سبحانك ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر وكانوا قوما بورا**[1]– فمن خصائص يوم القيامة بعث الحياة في الأصنام نكالا في عابديها، إذ يتبرأون منهم، وينكرون عليهم ضلالهم بعبادتهم لغير الله.

---

[1] سورة الفرقان آية 18/17

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ
﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا
تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ
بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا
نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ
إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحق : آيات القرآن.

افتراه : اختلقه من عنده ونسبه إلى الله.

تفيضون فيه : تخوضون فيه طعنا وتكذيبا.

شهيد : المخبر بالواقع. ويعني به في الآية الحاكم بما يعلمه.

بدعا : مخالفا لما كان عليه الرسل من قبلي.

بيان المعنى الإجمالي :

من ضلالات المشركين، أنهم إذا سمعوا آيات الله في القرآن تتلى عليهم، قالوا: ما سمعناه لا يعدو أن يكون سحرا واضحا، لأنه يُغشِّي على عقل مستمعه فينسى علاقته بزوجه وبأقاربه وبإخوانه. وأشنع من تلك الضلالات قولهم إن محمدا كذب على الله واختلق القرآن من عنده. قل لهم إني أعلم أن الافتراء على الله ليس بالأمر الهين، وأنه لو تجرأت على الله فافتريت عليه، فإنكم لا تستطيعون أن تنقذوني من عقوبة الافتراء، ولا أن تدفعوا عني شيئا من سخطه، هو سبحانه أعلم منكم بمكنون نفوسكم وبما حملكم على هذه التهمة لي. كفى به حاكما عدلا بيني وبينكم. وهو الغفور الرحيم، فإنه إذا تبتم عفا عنكم ورحمكم بفضله.

أخذ المشركون يقترحون مقترحات ربطوا بها تصديق رسول الله ﷺ. وطلبوا إخبارهم عن مغيبات. فأمره الله أن يقول لهم: إني رسول شأني هو شأن جميع المرسلين من قبلي لا أختلف عنهم. نبلغ ما يوحيه الله إلينا. ولا أدري ما سيجري عليَّ في حياتي الدنيا، ولا ما سيجري عليكم. ومهمتي الأولى أن أنذركم ببيان واضح، سوء العاقبة إن لم تستجيبوا لما أوحاه الله إلي.

وقل لهم أيضا أخبروني إن كان هذا القرآن نزل من عند الله وكان موقفكم منه التكذيب والرفض، وقام شاهد من بني إسرائيل الذين تعودون إليهم وتثقون بهم، فشهد أن القرآن والكتب المنزلة على أنبياء بني إسرائيل واحدة في أصولها، وأن محمدا رسول الله، وواصلتم استكباركم عن الحق، ألا تكونون ظالمين للحق. وبكل تأكيد إن الله يحرمكم ألطافه بسبب ظلمكم، فلا تنفتح لكم أبواب الهداية.

بيان المعنى العام :

7- وإذا تتلى عليهم...سحر مبين.

تواصل الآية تعداد صور من ضلال المشركين، وتعصبهم ضد الإسلام. إنهم إذا تلا عليهم رسول الله ﷺ آياتنا، آيات القرآن الواضحة البينة التي أنزلناها هدى ورحمة للعالمين، كان موقف الذين كفروا لأجل الحق الدامغ فيها أن قالوا: لا يعدو ما سمعناه أن يكون سحرا، وأكدوا أن كونه سحرا أمر بين لا شبهة فيه. كما قالوا إنه يفرق بين المرء وزوجه، ويمزق بخيالاته العلائق الإنسانية

8-أم يقولون افتراه...وهو الغفور الرحيم.

[أم] إضراب للتنبيه على الانتقال ليكون السامع مستعدا للتحول في الإخبار. أي إنَه- فوق ضلالاتهم التي كشفناها في الآيات السابقة، قولهم متهمين الرسول ﷺ: أنه اختلق القرآن من عنده، ولم يوح إليه شيء. كأنه قيلَ: دع هذا واسمع قولهم المستنكَر: إن محمدا اختلق القرآن وقدمه للناس على أنه وحي من عند الله. قل لهم ردا لطعنهم وأنت مؤيد مني: إن الافتراء على الله أمر خطير جدا أقدِّره حق تقديره لأني أعلم موقفي من ربي إن كذبت عليه وأسندت إليه ما لم يقله. إنكم لا تستطيعون أن تردوا عني شيئا من نقمته لو تجرأت؛ ذلك أن الفساد النَّاشئ عن الكذب على الله ونسبة قول لم يقله، لا يقره الله ولا يهمل قائله ولا يمهله، فلا تقدرون على كفه عن معاجلتي بالعذاب والتسفيه. وإن ربي يعلم حقيقة ما أنتم تخوضون فيه من التهم الباطلة والظنون الكاذبة.

ولما كان الله أعلم بكم من أنفسكم، فإنه سبحانه كافيني أن يكون حاكما بيني وبينكم فيما خضتم فيه وما اتهمتموني به. فهو الحكم العدل يجزيني عما قمت به، ويجزيكم عما أفضتم فيه، وأكثرتم الحديث. والله هو الغفور الرحيم، إيماء إلى ما يتحقق لهم من العفو عن كل ما ارتكبوه من تعد واتهام، إذا هم تابوا وآمنوا وصدقوا.

9-قل ما كنت بدعا...وما أنا إلا نذير مبين.

أنكر المشركون أن يرسل الله بشرا، ورموا النَّبي ﷺ بالافتراء. وشغبوا بما يؤثر في الدهماء حتى ينصرفوا عن الإيمان. طلبوا الآيات التي تجعل الله جل جلاله ينتظر

مقترحاتهم ليحقق ما طلبوه، وسألوا عن المغيبات التي ما أعلم الله بها رسوله أو لم يأذنه في تعريفهم بها، كطلب أحدهم ضلت ناقته أين ناقتي؟ وسؤال آخر من أبي؟. و من مقترحاتهم إنزال ملَكٍ يصاحبه، وإنزال كتاب من السماء مكتوب، والصعود إلى السماء، و أن يكون له بيت من ذهب. قل لهم قولا يقطع شغبهم: إني رسول كبقية الرسل. وشأن الرسل أنهم يبلغون ما يوحيه الله إليهم وما مكنهم منه. وما وراء ذلك، فالسنة فيه واحدة أن الرسل يعترفون بأنه وراء طوقهم، ولا يعتبر ذلك مطعنا في صدقهم، فموسى عليه السلام لما سأله فرعون ما بال القرون الأولى قال علمها عند ربي في كتاب[1]– ثم قطع تطلعهم إلى الغيب عن طريقه، فأضافت الآية: وما أدري ما يجري عليَّ في الدنيا، ولا ما يجري عليكم. اعلموا أني متبع لما يصلني من وحي الله، أبلغه إليكم وأبينه. وقد علمت من الوحي أن وراء الحياة الدنيا الحياة الآخرة، وأن كل فرد سيحاسب حسابا دقيقا عما قدم، وأن الجزاء فيها إما أن يكون في الجنة للمتقين، وإما النّكال والعذاب في جهنّم للكافرين. و أن العاقبة الصالحة للمتقين في الدارين. و أن من أول مهماتي إنذاركم بإعلامكم أن العذاب على من كذب وتولى.

10- قل أرأيتم...لا يهدي القوم الظالمين.

تتابع الآيات والأدلة القاطعة للجاج الكافرين، وتنوعت تبعا لما هو عليه القرآن والرسالة من الحق البين. يؤمر الرسول ﷺ أن يقول لهم: أخبروني إن ثبت أن هذا القرآن من عند الله، وهو ثابت، إلا أنه مأمور بأن يجاريهم ليلزمهم في النّهاية ويقطع شغبهم ويرفع عنادهم، إن ثبت ذلك وكان موقفكم منه الكفر به ورفضه، ثم تأيد صدقه أيضا بشهادة شاهد من بني إسرائيل على مثل القرآن، مماثل للقرآن من كتب بني إسرائيل المتفقة مع القرآن في التوحيد و إثبات البعث والحساب والوعد والوعيد، والأصول اليقينية التي لابد منها لانتظام أمر العالم كما جاء في قوله تعالى : **وإنه لفي زبر الأولين**[2]– وقوله **إن هذا لفي الصحف الأولى صحف إبراهيم وموسى**[3]– وأن القرآن والكتب السماوية السابقة نمط واحد في الأصول. ثم إن هذا الشاهد آمن به واستكبرتم أنتم، ورأيتم أنكم أسمى من أن تخضعوا لله، ولما نزل عليكم من الحق. إنه إذا تحقق كل ذلك ألستم ظالمين معاندين. و لا عجب منكم

---

[1] سورة طه آية 52/51

[2] سورة الشعراء 191

[3] سورة الأعلى 19/18

إذ واصلتم كفركم وعنادكم، فإن الله حرمكم هدايته، فلم ييسر لكم ألطافه التي تفتح عقولكم للحق، وقلوبكم للإيمان. إن الله لا يهدي القوم الظالمين.

فآمن واستكبرتم – من هو هذا الإسرائيلي الذي آمن. ذكر كثير من المفسرين أنه عبد الله بن سلَام، وأنه شهد أن الرسول حق، وهو المبشر به في التوراة والإنجيل، وأن اليهود لما سألهم النّبي ﷺ عنه، قبل علمهم بإسلامه، نوّهوا بفضله في العلم والنسب، وأنه لما أعلن إسلامه أمامهم قلبوا موقفهم منه و استنقصوه ما شاء لهم الاستنقاص. وأمر النّبي ﷺ أن تلحق بهذه السورة في مكانها هذا. وأنكر بعضهم ربط الآية بعبد الله بن سلام، لأن الآية مكية، وإيمان عبد الله بن سلام كان قبل سنتين من وفاة رسول الله ﷺ. ومن ناحية أخرى، فإن انتظام الآيات لا يساعد على ذلك، فإن الآيات جاءت نسقا لمجادلة مشركي مكة. فتأخير نزولها إلى السنتين الأخيرتين من حياة النّبي صلى الله عليه وسلم وإقحامها بينها بعيد.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَا إِلَيْهِۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةًۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

إماما : قدوة.

رحمة : سبب في نفع المتبعين له.

مصدق : مخبر بصدق جميع الكتاب السماوية.

الخوف : الهم الحاصل بسبب النّظر إلى ما يستقبل.

الحزن : الهم الحاصل بسبب النّظر إلى ما مضى.

بيان المعنى الإجمالي :

صورة أخرى من استكبار المشركين الذي حال بينهم وبين الإيمان أنهم قالوا :من أجل الذين احتقروهم واستهزأوا بهم من فقراء المسلمين: لو كان ما جاء به محمد خيرا لكنا السابقين للأخذ به، وما سبقنا هؤلاء المستضعفون الذين ليست لهم قيمة

اجتماعية.إنهم إذا لم تحصل لهم الهداية بالقرآن، فإنهم يصرحون في المستقبل بقولهم : هذا القرآن أساطير الأولين.

إنه من قبل إنزال القرآن على محمد أنزلنا كتابا على موسى هو التوراة، كتاب يصلح قدوة للناس ليسعدوا باتباعه. ويتضمن رحمة الله بعباده بما يرشدهم إليه من خير. وهذا القرآن هو أعظم الكتب المنزلة يصدق ما سبقه منها، ويصحح ما دخلها من تحريف، وينسخ ما شاء الله توقيف العمل به. وينذر الذين ظلموا بالشرك ما يترصدهم من نكال. ومن ناحية أخرى يبشر المحسنين بالسعادة في الدنيا و الآخرة. هذه السعادة التي ينالها الذين تعلقوا بالله ربهم وصرحوا بما يعتقدونه قائلين: ربنا الله، وفوق ذلك راقبوا صلتهم بالله في عبادتهم ومعاملاتهم وأخلاقهم فأجروها حسبما بلغهم من الوحي ومن الأسوة الحسنة في رسول الله ﷺ. مَنْ جمع بين الإيمان والاستقامة لا يخاف من المستقبل ولا يحزن على ما فات، غمرتهم الطمأنينة والرضا. و تتواصل سعادتهم في الآخرة فهم أصحاب الجنة بينهم وبينها تعلق شديد، خالدون فيها لا يبرحونها ولا يلحقهم فناء. وذلك جزاء بما قدموه من صالح الأعمال.

بيان المعنى العام :

11- وقال الذين كفروا...إفك قديم.

صورة أخرى من استكبار المشركين أنهم قالوا من أجل الذين آمنوا، بسبب أن الذين أسرعوا إلى الإيمان وكان كثير منهم من الفقراء الذين لم تبطرهم الأموال وحب الرئاسة تبعا للمكانة الاجتماعية التي أقر بها لهم الأتباع. قالوا لو كان القرآن خيرا ما سبقنا إلى الإيمان به والعمل بما تضمنه، هؤلاء الفقراء المستضعفون كبلال وآل ياسر، وعبد الله بن مسعود، وزِنِّيرة أمة رومية ممن عذبن في الله إلى أن اشتراها أبوبكر ﷺ وأعتقها. وعن عروة بن الزبير : قال عظماء قريش لو كان ما جاء به محمد خيرا ما سبقتنا إليه زنيرة. ظنوا أن مكانتهم الاجتماعية يتبعها أنهم يستأثرون بكل خير، وأنهم المقدمون لنوله.

إنه إذ لم تحصل لهم الهداية بالقرآن فإنهم يواصلون طعنهم فيه بقولهم: هذا اختلاق وكذب استمر منذ القدم، كما قالوا: أساطير الأولين.

12-ومن قبله كتاب موسى...و بشرى للمحسنين.

طعن المشركون في القرآن، وقالوا: **ما أنزل الله على بشر من شيء** [1] فنقضت هذه الآية دعواهم، و بينت كذبهم بتحقيق أمر هم يعتمدونه. ذلك أن المشركين كانوا يعودون إلى أهل الكتاب وخاصة اليهود يسألونهم عما عندهم من العلم. فأكد القرآن

---

[1] الأنعام آية 91

أن من قبل القرآن أنزل الله كتاب موسى عليه السلام "التوراة" وقدر أن يسمو ذلك الكتاب الذي أوتيه موسى ليكون قدوة يقتدى به ومرجعا يرجع إليه لمعرفة ما يجب عمله في الحياة، وفي العلاقات البشرية. وأن يكون رحمة لبني إسرائيل يحققون باتباعه خيري الدنيا والآخرة.

هذا القرآن الذي خوطبتم به، هو قمة ما أنزله الله على رسله، إذ هو يصدق الكتب السابقة، ويبين الأحكام التي أراد الله نسخها، ويكشف عما وقع فيها من تحريف. قال تعالى **وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه**[1] ثم نوه بمزية أخرى في القرآن، أن الله أراد أن كانت صياغة معانيه في قوالب عربية، تفهمونها، وتدركون أسرار نظمه المعجز. كتاب يؤدي رسالة الإنذار للذين ظلموا، يوقظهم من فساد التقليد للآباء في عبادة الأصنام، ويكشف لهم سوء عاقبة الشرك. وهذا الكتاب يخاطب المحسنين فيبشرهم بالحياة الآمنة المطمئنة في الدنيا وبالفوز بحسن العاقبة يوم القيامة.

13-إن الذين قالوا...ولا هم يحزنون.

صرحت الآية السابقة بأن القرآن بشرى للمحسنين. فأبانت هذه الآية من هم المحسنون. بكل تأكيد، هم الذين جمعوا بين ركني السعادة الأساسيين.

الركن الأول: الإيمان الواضح النّقي الذي عمر قلوبهم ومشاعرهم، وحّدوا ربهم وتعلقوا به، وصدّقوا بكل ما جاء به الوحي فأعلنوا بلسانهم قائلين: ربنا الله الذي خلقنا وقدر لنا من الألطاف ما هدانا به للتمسك بالعقيدة الصحيحة.

الركن الثاني: اليقظة إلى ما تقتضيه صلتهم بربهم من التزام الطريقة التي أوضح الوحي الإلهي، والإرشاد النّبوي معالمها وأحكامها، في النّشاط الفردي والاجتماعي. الاستقامة تتمثل في حسن العبادة، والحرص على الحلال واجتناب الحرام، والتحلي بفاضل الأخلاق التي نجد في رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة. وعطفت الاستقامة ب "ثم" لما تنبني عليه من مواصلة المراقبة وتجديد الحضور بين يدي الله، ومقاومة دواعي الشهوة ونزغات الشيطان. إنه وإن كان الإيمان هو الركن الأول، إلا أن الإيمان إذا استقر في العقل والضمير يكون الحاصل مستمرا مصاحبا للإنسان. أما الاستقامة فإنها تتطلب يقظة دائمة ومراعاة لموقف الإنسان يوم القيامة بين يدي ربه.

---

[1] سورة المائدة آية 48

إذا اجتمع الركنان السابقان فلا خوف على من جمعهما مـن المسـتقبل، فهـو آمـن علـى أن ما سينتقل إليه يكون أفضل وأسمى. ولا حـزن علـى مـا مضـى، إذ يكـون ماضـيه نقيا منيرا باستقامته.

14-أولئك أصحاب الجنة....خالدون.

أولئك الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا على حسب مـا أوحـت بـه الآيـة، يتواصـل مـا يُحْظَوْن به في الدنيا من طمأنينة راضية، إلـى مـآلهم يـوم القيامـة. فهـم خالـدون فـي الجنة، هم أصحابها الذين ألِفُوها وألِفَتْهُمْ. ويُنَوّه بما قـدموه، فيقـع التصـريح لهـم أن مـا ينعمون به في دار الكرامة هو جزاؤهم تقديرا لأعمالهم.

وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَـٰلُهُۥ ثَلَـٰثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَـٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ ۖ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَـٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

كرها : مشقة.

فصاله : فطامه.

الأشد : حالة اشتداد القوى الجسمية والعقلية.

أوزعني :ألهمني.

نعمتي : النِّعم الإيمانية، والعقلية، والدنيوية.

تبت إليك : طهرت نفسي من الشرك. ومن المعاصي.

وعد الصدق : موعودهم الثابت الذي لا يتخلف.

أف : كلمة تدل على التضجر.

أتعدانني أن أخرج : إنكار للبعث، وتعجب منه.

خلت القرون : مضت الأمم.

يستغيثان : يطلبان الغوث من الله.

ويلك : كلمة تفيد التهديد. والويل الشر.

الأساطير : جمع أسطورة القصة المختلقة.

حق عليهم القول : ثبت ووجب.

بيان المعنى الإجمالي :

هذا ما شرعه الله على لسان رسله ووجه إليه عناية الإنسان، وقد جاء في الشريعة الإسلام وافيا بصفة أبلغ مما سبق، هذه الوصية التي على كل فرد أن يرعاها حق رعايتها، هي البر بالوالدين والإحسان إليهما. فهما سبب وجوده، حملته أمه في بطنها وعانت من حمله تغير المزاج أولا ثم ثقله في اليقظة والنوم. ثم عند ولادته عانت آلام المخاض، ثم غذته من لبنها وقامت على جميع شؤونه راعية حافظة. وتواصلت تربيته، فإذا بلغ كامل قوته في ما بين سن الثلاثين والأربعين عليه أن يدعو ربه أن يلهمه شكره على ما أنعم عليه، والثناء على فضله لما أنعم به على والديه، وأن يواصل هدايته ليعمل الأعمال التي يرضى عنها، وأن يصلح له في ذريته ليتواصل الصلاح، ومن النّعم الجُلّى التي لا يلتفت إليها كثير من النّاس أنه معروف الأبوين ليس لقيطا. ويقدم ختاما لدعائه ما يرجى معه أن يتقبل الله دعاءه فيقول: ربي إني آمنت بك وطهَّرت نفسي من التعلق بالآثام والمعاصي، وإني من المسلمين الطائعين.

هؤلاء الذين عرضت الآية استقامتهم وصدقهم يتقبل الله أحسن أعمالهم ويكتبها في صحائفهم ويجزيهم عنها، وينعم عليهم نعمة أخرى هي أنه لا يبقي لسيئاتهم أي أثر يتبعه لوم أو نقص. مآلهم مصاحبة أهل الجنة. إنه وعد ثابت لا يتخلف فيتحقق ما وعدوا به.

وفي المقابل يذكر القرآن نمطا خبيثا فاسدا، هذا الذي يدعوه والداه إلى الإيمان فيكون جوابه: أف لكما. وهي كلمة تدل على تضجر السامع وقلقه. قارن بين هذا النّمط، ونمط المؤمن: **قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك علي وعلى والديَّ**. ثم واصل تحديه لهما؛ أتريدان أن أقتنع بالبعث، وقد مضت قرون وقرون مات النّاس ولم يعد أي واحد للحياة. وتوجه الأبوان الصالحان لله مستغيثين به ليهدي ولدهما، بعد أن نبهاه إلى أن مآله، الخسران إن هو تصلب في موقفه، ويلك آمنْ. فيضاعف

من عقوقه قائلا: كل ما تذكرانه هو القصص المختلقة تكررت على الأسماع منذ أزمان. هذا النَّمط من البشر نفذ فيهم العذاب الذي أخبر به القرآن في عديد الآيات، وسيجمعون مع من سبقهم من الأمم الضالة من الجن والإنس، ليُلْقَى بهم في جهنم، وقد خسروا حياتهم و أعمالهم.

بيان المعنى العام :

15-ووصينا الإنسان...وإني من المسلمين.

تتابع من بداية السورة إقامة الحجج على كون الإسلام الدين الحق، وجدال الكافرين وإزاحة شبههم، وذكر في ثناياها الرجل المؤمن من بني إسرائيل الشاهد على أن الإسلام يتفق في أصوله مع ما أنزل على موسى. و يواصل القرآن نسق دعوة المشركين إلى الإيمان فقدَّم في هذه الآية صورة لجدل في أسرة بين الوالدين والأولاد في شأن الإيمان. و افتتح الصورة بالتذكير بالمبدأ الذي عُنِي به القرآن كثيرا وكرره في بناء الأسرة، فقال ووصينا، هي توصيته التي يتحتم الالتزام بها ورعيها. هي وصيته للإنسان في جميع العصور والأزمان على لسان جميع الرسل، فكان من هدايتهم جميعا حسنُ معاملة الأولاد لوالديهم. وأقنع الإنسان بهذا الإلزام بتذكيره بأصول نشأته، فكل فرد حملته أمه حملا صاحبه أتعاب للأم وآلام، ففي الأشهر الأولى قلق وتغير في المزاج، يختلف قوة وضعفا من أم إلى أخرى، ثم يثقل بطنها في الشهور التالية ثقلا يصاحبها في يقظتها وفي نومها، وإن كانت عاطفة الأمومة تحبب لها ما تحمله، إلا أنها تكون كارهة لتلك الأتعاب وتتحملها.ثم لمَّا يأتي وقت وضعه إلى الدنيا يصحب انفصاله عن بطنها آلام وأوجاع هي كارهة لها.ثم تتوالى العناية به بعد وضعه بإرضاعه، وتنظيفه، وحمايته من تغيرات الطقس، ومن كل الأخطار التي تعصف بوجوده لولا عناية الأم، فيتجمع من الحمل إلى الفطام ثلاثون شهرا. فالأم تستمر في تحمل أتعاب ولدها ثلاثين شهرا على أقل تقدير هو وقت فصاله عنها في تغذيته، فيستغني بالطعام عن لبنها. وفي خلال تلك المدة يتلقى الولد عن الأم مبادئ الحياة الاجتماعية من الحب والحنان والاندماج في الآخرين.

يستمر الولد على صلته بوالديه والبر بهما، هو في ذلك بين المتلقي عن أبويه طريقة البر بهما في بواكير صباه، وبين المجتهد في البر بهما حتى يبلغ أمد اكتمال قواه الجسدية والعقلية " أشده "وقت اكتمال طاقاته الذي يظهر بعد الثلاثين ويتم عند الأربعين. فيقرن البر المادي بهما بالدعاء والابتهال إلى الله، الذي أرشدنا في هذه الآية إلى صيغة شاملة: **رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى**

والدي وأن أعمل صالحا ترضاه إلى بقية الآية. ومما ينبغي أن يلتفت إليه الإنسان نعمة انتسابه إلى أبوين معلومين.

يفتتح الدعاء بالشكر الخالص عن نفسه وعن أبويه. رب أوزعني: ألهمني أن استحضر نعمك التي أنعمت بها عليَّ وعليهما، فأثني عليك كما أنت أهله ومستحقه، من الهداية في الدين، والتوفيق للعمل الصالح والتأدب بآداب الإسلام، ومن النعم الدنيوية كالصحة والعلم والمال، وكل ما يسرته فكانت الحياة به أوفق وأكمل، كصلاح الأسرة وسلامتها. وبهذا لا يشغله الدعاء لنفسه عن الدعاء لهما. وشكره نيابة عنهما، ويصل أجره لهما بعد وفاتهما، لقوله ﷺ إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم بثه في صدور الرجال، وولد صالح يدعو له[1].

ويدعوه أن يواصل توفيقه ليلتزم العمل الصالح الذي يرضي رب العالمين لحسن أدائه، وصدق نيته في كامل حياته. وأصلح لي في ذريتي؛ وهكذا يفعل الإيمان في التفكير الإنساني، ينظر لنفسه، وينظر لجذوره "ولوالديَّ" وينظر لامتداده في الوجود "وأصلح لي في ذريتي" وهذا الدعاء سيعود له نافلة منه، فمع صلاح الذرية دوام الدعاء للأصول.

ومن أدب الدعاء أن يختم الداعي بما يقوي رجاءه في القبول، فهو يتضرع إلى الله أن يتقبل دعاءه ولا يرده خائبا عن نول فضله، فإني مؤمن بك راجع إليك، ناصيتي بيدك، وإني قد اجتهدت في التحلي بما يجعلني من المسلمين بأداء الفرائض، واجتناب النواهي، والخضوع لك خضوعا يقربني منك.

16- أولئك الذين يتقبل...الذي كانوا يوعدون.

ما بسطَتْهُ الآية السابقة يشهد لذلك النمط من البشر بالاستقامة والصلاح، فتميزوا بذلك تميزا أهلهم لأن يشار إليهم منفردين، استحقوا أن يتقبل الله أحسن أعمالهم فيكتبها لهم في صحائفهم، ويرتب عليها آثارهم من الثواب الجزيل والرضوان. وقيام الإنسان بما أوجبه الله عليه يسقط الطلب، أما أن يكون الفعل بمحل الرضا والقبول فهي درجة الفضل الإلهي. وشأن الإنسان أن لا يخلو عن تقصير إلا من عصمه الله تعالى كالأنبياء والمرسلين، فارتكابه للسيئات مرتبط بما ركب فيه من غرائز وشهوات، ولم يخلق مبرأ من الإثم متمحضا للخير. قال تعالى: **وهديناه النّجدين فلا اقتحم العقبة**[2]. ولكن فضل الله إذا أخلص العبد لربه واستقام كما

---

[1] أخرجه مسلم وأحمد فيض القدير ج1ص439/438

[2] سورة البلد آية 11/10

صورته الآية السابقة فإن الله يتجاوز بفضله عن سيئاته وتقصيره، فتكون صحيفته بيضاء نقية غير ملوثة بالإثم. وبهذا يكونون ملازمين للجنة خالدين فيها لا يبرحونها. بهذا وعدهم ربهم وعدّه الذي لا يخلف فينجزه إليهم.

17-والذي قال لوالديه...إلا أساطير الأولين.

في مقابل تلك الصورة الوضيئة تأتي الصورة التي أراد القرآن أن يردع بها الكافرين. كانت الصورة الأولى، كلها سلام ووفاء، وتعلق بالحق، وآمال مفتحة، ثم محققة، هي صورة المؤمن. وعرض القرآن الصورة المقابلة صورة تشمئز منها النّفس الكريمة، صورة الكافر العاق لوالديه، المتطاول عليهما. فهل تتحدث الآية على شخص معين، أو تعطي نمطا للكافر في تعامله مع أصوله ؟ الفرض الثاني هو الراجح عندي، إذ تؤكد التنفير من الكفر باعتبار أنه صورة مشوهة للإنسان. هذا الذي قال لوالديه: أف لكما. أنا أتضجر منكما، ومن إلحاحكما علي أن أومن بالبعث يوم القيامة، وأن أخرج إلى حياة بعد الموت. لقد مضت قرون كثيرة ومات النّاس وتتابعوا إلى الفناء، ولم يرجع أي منهم إلى الحياة. وهي مغالطة، إذ البعث يكون يوم القيامة لا في الدنيا. يطلب الوالدان الحريصان على إنقاذه من الكفر، الغوث من الله ليهديه ويبصره بالحق. ويقولان له: ويلك! الهلاك لك والخسران إن واصلت تصلبك في الكفر، فاطرح عنك أفكارك وآمن بربك، واعلم أن وعد الله في النّقمة من الكافر، والمغفرة لمن آمن أمر حق لا شك فيه. فيزيد في تصلبه ويقول ما تعرضانه علي هو خرافة من خرافات الماضين اختلقوها.

18-أولئك الذين حق عليهم...إنهم كانوا خاسرين.

أولئك، هذا النّمط من البشر الذين عرّتهم الآية السابقة، وكشفت عن مساويهم، هم الذين وجب أن ينطبق عليهم العذاب الذي أوعدهم الله به، وتكرر وعيده لهم في القرآن، ينتقم منهم مع أمم قد سبقت في التاريخ من الكافرين من الإنس والجن. إن تلك الأمم التي ثبتت على الكفر هم الخاسرون حقا. ضاعت أعمارهم وأعمالهم، وتواصلت خسارتهم، فكانت نهايتهم كنهاية التاجر الذي خسر ماله وجهده.

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْۖ وَلِيُوَفِّيَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا وَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِهَا فَٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَوۡنَ عَذَابَ ٱلۡهُونِ بِمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَفۡسُقُونَ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

درجات : مراتب متفاوتة.

ليوفيهم : يعطون حقهم.

الهون : الهوان.

الفسوق :الخروج عن الدين وعن الحدود

بيان المعنى الإجمالي :

عدل الله وحكمته بهما يتحقق الجـزاء، فالأخيـار مـن النّبيئـين والشـهداء والصـالحين، مرتبتهم عند الله أسمى من مرتبة الـذين خلطـوا عمـلا صـالحا وآخـر سـيئا. وكـذلك عذاب الكافرين الذين آذوا المسلمين، وبذلوا كل جهـدهم لمنـع النّـاس مـن الـدخول فـي الإسلام أو الالتزام بهديه وارتكبـوا الموبقـات، لـيس كعـذاب مـن كفـر ولكنـه سـالم المسلمين ولم يسرق ولم يزن وكان مستقيما في حياته فيما عدى الإسلام.

وذكرهم يا محمد يوم يعرضون على النّار عالمين أنهـم صـائرون إليهـا. ويقـال لهـم : استوفيتم حظلكم من الطيبات والنعيم فـي حيـاتكم الـدنيا، وأشـبعتم شـهواتكم وغرائـزكم فيها. إنه في هذا اليوم تلقون جـزاءكم عـذاب المهانـة والـذل، بسـبب اسـتكباركم فـي الأرض عن التوحيد، وتعاظمكم علـى رسـول الله وعلـى المـؤمنين، وبسـبب فسـقكم وخروجكم عن طاعة الله إلى الإثم.

بيان المعنى العام :

19- ولكل درجات مما عملوا...وهم لا يظلمون.

سبق القدر الذي لا يُظلم فيه أحد، ويُجْزَى كل فرد بـالجزاء الـذي يوافـق مـا قـدم. ولا شك أن مراتب النّاس في الخير متفاوتـة، وكـذلك مـراتبهم فـي الشـر. فهـي درجـات تذهب صعدا في الخير، وتنزل هاوية فـي الشـر. وكـل درجـة لهـا مـن الجـزاء مـا يناسبها. وتقدير الثواب أو العقاب هو تـابع لعـدل الله وحكمتـه. فـلا يُظلـم أحـد بـأن يكون جزاؤه دون ما قدم من صـالح الأعمـال، ولا يكـون جـزاء الكـافرين إلا بمقـدار مـا فـي أعمـالهم مـن شـر وفسـاد. إن مراتـب الأنبيـاء والمرسـلين، والصـديقين والصالحين، ومراتب المؤمنين الذين خلطوا عملا صـالحا وآخـر سـيئا ليسـت واحـدة. وكذلك عذاب الكافرين الذين قاوموا الإسـلام وآذوا المـؤمنين بغيـر مـا اكتسـبوا، لـيس كعذاب الكافرين الذين لم تصدر منهم إذاية.

20- ويوم يعرض الذين كفروا...وبما كنتم تفسقون.

ذكِّرْهم يا محمد بما سيلقونه في اليوم الـذي يعرضـون فيـه علـى النّـار، اليـوم الـذي يشاهدون فيه النّار تتوقد ويعلمون أنهـم صـائرون إليهـا. ويقـال لهـم تقريعـا ليتعـذبوا

أولا بالحسرات: أخذتم كل حظكم من الطيبات في الحياة الدنيا فاستوفيتموه ولم يبق لكم شيء، ولا مطمع لكم بعد في كرامة ولا نعيم، وإنما هو ما تشاهدونه من نار الجحيم. أشبعتم شهواتكم، وتتبعتم الملاذ لا ترقبون في ذلك ما نهى الله عنه من الحرام. ففي هذا اليوم تلقون جزاءكم : عذاب الذل والهوان والخزي والفضيحة، بسبب ما أَلِفْتُمُوه في حياتكم من الاستكبار والتعاظم والاستعلاء، استكبرتم على قبول الدعوة، واستكبرتم على طاعة الله، واستكبرتم على رسول الله، واستكبرتم على المؤمنين. وظننتم أنكم فوق أن يُوقِف أحَدٌ رغباتكم، أو يمنعكم من تنفيذ بغيكم. بسبب فسوقكم وخروجكم عن حدود الطاعة بالشرك، وارتكاب القبائح والمعاصي.

واعتمد المتقون الذين انحصر مطمحهم في ما عند الله يوم القيامة وفي رضاه، هذه الآية في التعفف عن الطيبات و خفض العيش. روى قتادة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأليـنكم لباسا، ولكن أستبقي طيباتي لآخرتي. ولما قدم عمر الشام صُنِع له طعام لم يـرَ قطُّ مثله، قال: هذا لنا! فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وما شبعوا من خبز الشعير؟ فقال خالد بن الوليد: لهم الجنة. فاغْرَوْرَقَتْ عينا عمر بالدموع وقال: لئن كان حظنا من الدنيا هذا الحطام، وذهبوا في حظهم بالجنة فقد بايَنُونَا بونا بعيدا. وقال حفص بن أبي العاص : كنت أتغدى عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخبز والزيت، والخبز والخل، والخبز واللبن، وكان يقول لا تنخلوا الدقيق (تزيلوا نخالته) فإنه طعامٌ كلُّه[1].

وخشيتُهم من دخولهم تحت قوله : أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا. هو من شدة الورع، وعدم تعلقهم بمتاع الحياة الدنيا. إذ الآية لا تقتضي من المؤمن أن يمتنع عن الطيبات التي أحلها الله. والذين أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا هم الذين أقبلوا على الطيبات فاستوفوا حظهم منها، ولم يقرنوا الاستمتاع بما أتيح لهم، بشكر المنعم على ما يسر وتفضل، ولم يراعوا في جمعه الحلال. ولم يعطوا حق الفقراء في أموالهم. فهؤلاء جمعوا فأكلوا واستمتعوا، ولم ينظروا إلى شيء آخر وراء ما استمتعوا به، فلا يجدون حظا وراء ما رضوا به لأنفسهم.

وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج16 ص201

مَّا أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ
قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ
كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ
﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ
عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ
وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا
ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ
ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأخ: يراد به المشارك في نسب القبيلة.

الأحقاف : جمع حقف الرمل العظيم المستطيل.

خلت النّذر : سبقه منذرون.

من بين يديه ومن خلفه : قريبا من زمانه وبعيدا.

عظيم : عظيمة أحداثه.

لتأفكنا : لتصرفنا عن عبادة آلهتنا.

العارض : السحاب العظيم الذي يعرض في أفق السماء.

مستقبلا : سائرا متجها نحو أوديتهم.

الأودية : جمع واد، محلة القوم.

التدمير : الإهلاك.

أصبحوا : صاروا.

مساكنهم : آثار مساكنهم بعد أن خربتها الريح.

مكناهم : أعطيناهم القدرة التامة.

صرفنا الآيات: تنويعها للتوضيح.

يرجعون : يقلعون.

لولا : أصلها للحث،فإذا دخلت على ما فات أفادت التوبيخ.

ضلوا عنهم : غابوا عنهم وقت حلول العذاب.

الإفك : الافتراء، الكذب المختلق.

بيان المعنى الإجمالي :

اذكر في نفسك يا محمد ما جرى لهود عليه السلام لتجد فيه مـــا يســليك مــن إعــراض قومــك. دعا هود قومه وهم يسكنون بأرض رملية ممتــدة علــى ســاحل البحــر لعبــادة الله ونبــذ عبادة الأصنام، والاجتهاد في تقواه. ولم يكن أوّلَ رســول بالتوحيــد. ولكــن ســبقه رســل عن قرب ومنذ أزمان، دَعَوْا لإفراد الله بالعبادة. وحرك صــلتهم بــه بأنــه يــدعوهم إلــى ما يحصنهم من عذاب يوم عظــيم آت لا محالــة إن هــم واصــلوا مــا هــم عليــه مــن الشرك، فهو يحبهم ويخشى عليهم أن يصابوا بما يستأصلهم.

كان ردهم هل أتيت لنا لتصرفنا عن آلهتنا التــي واصــلنا عبادتهــا أزمانــا ؟ فــإن كنــت صادقا حقــاً فنحن نتحداك ليحل علينا هذا اليوم العَظِيمُ عَذَابُهُ سريعا.

كان جواب هود عليه السلام: أما العذاب فإنه سيحل بكم لامحالــة، وأمــا وقتــه فعلمــه عنــد الله، لم يعرفني بتاريخه. وإني مكلف بإبلاغكم ما أرســلني بــه إلــيكم. ومــوقفكم يــدل علــى أنكم قوم مغرقون في الجهل بعظمــة الله وقدرتــه. ومضــوا غــافلين عمــا أنــذرهم بــه هود. وذات يوم شاهدوا في الأفق سحابا كثيفا مُرْبَدًّا، ظنــوه يحمــل لهــم الأمطــار التــي اشتاقوا إليها بعد طول جفاف. استبشــروا بــه وجــرت آمــالهم إلــى تصــور الخصــب والري. صدمهم القدر المحتوم الذي لا يــرد، الــذي اســتعجلوه، فــإذا العــارض يتحــرك بسرعة ويتحول إلى ريح جعل فيها خالقهــا أنــه تــدمر كــل مــا يعترضــها مــن بشــر وحيوان ونبات وبنيان. وصــاروا أثــرا بعــد عــين، لا تــرى أيهــا الرائــي إلا أطــلالا مهدمة خربة. وعلى هــذا النّحــو مــن الاستئصــال نجــزي القــوم المجــرمين بالشــرك والفساد. اعتبروا بما تشاهدونه حولكم من القرى التي دمرناهــا علــى ســاكنيها فلــم تبــق منها إلا أطلال خربة، بعد أن نوعنــا لهــم الأدلــة والبــراهين التــي تكشــف لهــم عــن الحق، رجاء أن يقلعوا عما هم عليه من الشرك والفساد. فلم ينتفعوا بذلك.

يحق أن يوجه لهم التوبيخ علــى ضــلالهم، لــم ينصــرهم الــذين قدســوهم مــن دون الله راجين منهم النّصر، بل لم يجدوا لهم أي أثر في الوقت الــذي حــل فيــه علــيهم العــذاب. إن تلك التصورات التي تعلقوا بها، نا بعة من كذبهم واختلاقهم.

بيان المعنى العام :

21- واذكر أخا عاد...عذاب يوم عظيم.

واصل القرآن من أول السورة إنــذار المشــركين بطــرق متنوعــة. وقــد كشــفت الآيــة السابقة عما يترصدهم يــوم عرضــهم علــى النّــار، وعــن تقــريعهم وتنــديمهم ومــآلهم

النّهائي. وعطف على ذلك أخبار قوم عـاد مـع نبـيهم، ومـا تـم مـن استئصـالهم لمـا تصلبوا في تكذيب رسولهم؛ لعلهم يتعظون ويقـدرون مـا هـم صـائرون إليـه بتكـذيبهم محمدا صلى الله عليه وسلم، وأنه سيكون كمصير قوم عاد.

تفتتح الآية بقوله: واذكر؛ التي تفهـم علـى معنـى عـرض القصـة مُعَرِّفـة لأطوارهـا، للاعتبار بأحداثها، وعلى معنى تذكر للنبـي ﷺ فـي نفسـه، ليتسـلى بهـا ويجـد فـيمن تقدمه من المرسلين الأسوة. وأخو عاد هو هـود ﷺ، كـان واحـدا مـن أفـراد قبيلتـه، نشأ بينهم وعرفوه في جميع أطوار حياته، شأنه شأن محمـد ﷺ فـي قـريش. ثـم أرسـله الله إلى قومه. وإلى هنا تم الإطار الذي تجري في أحـداث القصـة. قـوم عـاد يسـكنون بأرض رملية بين عمان وحضرموت مشرفة علـى البحـر بالشـحر مـن أرض الـيمن [1] أرسل الله إليهم هودا عليه السلام، بعد أن فشـا فـيهم الشـرك، فـدعاهم إلـى توحيـد الله وتقواه، ونبذ عبادة الأصنام. كمـا فصـل القـرآن قصـتهم فـي سـورة الأعـراف آيـة 72/65. اختل تصورهم للكون و عكفوا على عبـادة الأصـنام، فجـاءهم لينـذرهم سـوء العاقبة إن لم يقلعوا عن الشرك. وتفيد الآية أنه قد سبق هـودا عليـه السـلام قريبـا "**بـين يديه**" وأيضا منذ آماد طويلة "**ومن خلفه** "مـن عهـد نـوح ﷺ، رسـل مـن الله يـدعون إلى التوحيد ونبذ عبادة الأصنام. ذكّرهم هود بأنه يخـاف علـيهم، خوفـه مـن مسـتتبعات وصفه بأنه أخوهم، عذاب يوم يستأصلهم من الوجـود، ويسـحق كـل مـا عمـروا فـلا ترى لهم من باقية،.

22-قالوا أجئتنا...من الصادقين.

هَمُّ هود عليه السلام، أن ينقذهم مـن عـذاب الله قبـل فـوات الأوان، فـردوا عليـه رد المستكبرين الطغاة، هل جئتنا لتصرفنا عما استمر عليه آباؤنـا منـذ أزمـان مـن تقـديس آلهتنا؟ ولتنذرنا عـذاب يـوم عظـيم، فائـتِ بهـذا العـذاب المنـذر بـه إن كنـت مـن الموصوفين حقا بالصدق. وما استعجالهم العذاب إلا لأنهم يتهمونه بالكذب.

23- قال إنما العلم...قوما تجهلون.

جعلوا معيار صِدْقِه حلول العذاب الموعود بـه، وتحـدَّوْه. فكـان جوابـه إلـيهم: أمـا إن العذاب سيسحقكم فهذا أمر مؤكد لاشك فيه، وسـتلقون مـا أنـذرتكم يقينـا، ولكـن تحديـد وقت ذلك: أيحل بعد أمد قصير أو طويل؟ فإن علم ذلـك عنـد الله وحـده. وهـو سـبحانه لم يطلعني عليه. إن مهمتـي لا تتعـدى إبلاغكـم مـا أرسـلني بـه الله إلـيكم. ولكـنكم أظهرتم بتحديكم هذا أنكم مغرقـون فـي الجهـل، لا تـدركون حقيقـة الألوهيـة الفاعلـة

[1] تاج العروس ج 23ص156

المختارة. إن قدرته سبحانه مرتبطة بالعلم والحكمة الأزليين، فتنفذ القدرة ما تتعلق به الإرادة حسبما تقرر في العلم. الذي ضبط فيه لحظة حلول العذاب وكيفيته.

24←25 : فلما رأوه عارضا...نجزي القوم المجرمين.

أنذر هود قومه وبلغهم رسالة ربه إليهم، ولكنهم صمدوا على شركهم، ومضوا غير آبهين بالوعيد. ولما حل الأجل المقدر لإهلاكهم بدا لهم في الأفق سحاب عظيم مُرْبَدٌّ. استبشروا به ظانين أنه يحمل لهم الري لأرضهم العطشى، بعد أن طال عليهم أمد الجفاف والقحط. كذب ظنهم، وانكشفت الحقيقة عكس ما أملوا. أضرب القرآن عما تنادوا به فرحين، بل – السائر نحوهم هو العذاب الذي استعجلتم به، وطلبتم حلوله سريعا تكذيبا لهود فيما أوعدكم به .العارض ريح كوَّنها ربها، وجعل في طبيعتها أنها تعذب قوم هود عذابا مؤلما يحسون به أشد الإحساس. فهي لا تقضي عليهم بضربة واحدة تتشرب أرواحهم وتنتزعها سريعا. ولكن قدر فيها خالقها أن تعذبهم عذابا شديا.

ثم أخذ القرآن يستعرض خصائصها، ويعرضها على التالين للقرآن. فمن خصائصها أنها تدمر كل شيء يتعلق به أهل عاد تدميرا عجيبا لا تبقي بناء قائما، ولا سدا، ولا نباتا ولا شجرا، ولا حيوانا؛ تدمر عادا وما كسبت.

وتجسيما لفظاعة الصورة، صارت مساكنهم التي علّاها أهلها، وتأنقوا فيها ما يسرته لهم ثرواتهم، صارت إلى وضع، أنك لا ترى أيها الرائي منها إلا أطلالا منهدمة، خاوية من الحياة، ولا تسمع صوت إنسي، ولا رغاء شاة، ولانباح كلب. ويتعرض لمثل جزاء قوم عاد الذين ألفوا الإجرام بالشرك والإفساد في الأرض.

وفي التذكير بهذه القصة تهديد لقريش، أنهم سيلقون مآل الذين يكذبون رسل الله.

26-ولقد مكناهم...ما كانوا به يستهزئون.

لم يكن قوم عاد ضعافا ولا مهازيل، و كانوا على حظ من الحضارة، أقدرتهم على تطويع ما بين أيديهم لينتفعوا به أبلغ الانتفاع، وهو معنى التمكين الذي جاء في الآية.**ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه**. فنبهت الآية قريشا على أنهم لم يبلغوا المستوى الحضاري الذي بلغته عاد، لقد تصرفوا في محيطهم التصرف الجيد الذي ما مكناكم أيها القرشيون من المستوى الذي كان عليه قوم عاد.

ما كانوا مُعوَّقين، حواسهم سليمة تنقل لهم أسماعهم ما بلّغهم هود، وكانت أبصارهم تلحظ لهم دقائق الصنع الإلهي في الكون، وكانوا على درجة من الذكاء تفتح لهم آفاق المعرفة، وتكشف لهم ما وراء الظواهر من الدلالات.

إذا أردت تقويمهم حسبما جمعوه من وسائل المعرفة للوصول إلى الحقيقة، تجدهم قد توفرت لهم معطيات كثيرة حسية وفكرية. ولكن تلك المعطيات قصرت بهم عن بلوغهم إلى الإيمان. وما أفادتهم أي إفادة تمكنهم من معرفة الحق وقبوله. فاستوَوْا مع من فقد السمع والبصر والعقل، في الوقت الذي كانوا فيه مصممين على إنكار الأدلة الإلهية التي صحبت رسولهم، جعلوا حجابا بينهم وبين الآيات المعرفة بالتوحيد وبصدق رسولهم. فأحاط بهم العذاب إحاطة لم يسلم منها أحد منهم، ولقوا العذاب الذي كانوا يكذبون به ويستهزئون.

إن في تفصيل ما جمعه قوم هود من الأسباب الظاهرة التي كان يمكن أن تنقذهم من العذاب الذي استأصلهم، إن في ذلك ما يهدد قريشا بسوء المصير، وأن يحل بهم ما حل بعاد إن لم ينقذوا أنفسهم بنبذ الشرك، وتصديق محمد ﷺ.

27←28-ولقد أهلكنا ما حولكم...وما كانوا يفترون.

ما آل إليه قوم عاد ليس فريدا في بابه، بل هي سنة الله في الذين يرفضون الاستجابة لرسله، ويصرون على الشرك والعناد. إن حولكم وليس بعيدا عنكم مشاهد ماثلة تعرض لكم في أسفاركم، أو حدثكم عنها من مر عليها، تنطق آثارهم بالمستوى الذي كانوا عليه، ثم خربت ديارهم. سلّطنا عليهم ما أهلكناهم به؛ ولم نباغتهم بالعذاب، ولكن نوعنا الأدلة والبراهين بما يقتلع الشك من نفوسهم، ويكشف لهم الحق جليا واضحا. يسرنا لهم ذلك رجاء أن يتأثروا به فيُقلِعوا عما هم عليه من الشرك والفساد، فأبوا وأصروا على الكفر، فكانت عاقبتهم ما تشاهدونه من آثارهم.

ثم ذكر مآل الأمم المشركة المكذبة لرسلها، وشنّع بهم في هذه الآية الموبخة لهم على سوء اختياراتهم. كانوا يعبدون الأصنام متقربين إليها، آملين منها النّصر عند الشدة. تجاوزوا القادر الفاعل إلى ما ليس له إدراك ولا قوة. قدموا لهم القرابين، وخضعوا لهم خضوع العابد للمعبود. فلما حل اليأس بهم، وأرسلنا عليهم الريح المدمرة، التفتوا إلى تلك الآلهة فلم يجدوا لها أي أثر يحميهم ويدفع عنهم البلاء، غابت عنهم، وانكشف لهم أن رفع الأصنام إلى مرتبة الألوهية هو كذبة شاعت بينهم، اتحدوا فيها مع من سبقهم. ولدت خيالاتهم قوة لتلك الأصنام تحدثوا بها في مجالسهم، وما هي إلا أحاديث مختلقة لا أصل لها.وهذا أمر شائع في المجتمعات الجاهلة. يختلقون مثلا لبعض الأموات كرامات وتأثيرا في وقائع معينة لا أصل لها ويتناقلونها، ويكررون ذلك حتى تصبح من اليقينيات، ثم تنهال على قبر المنسوب له الخيالات القرابين، وتتكامل عظمته مع الزمن، فيدعونه للعون وكشف الضر، وتيسير زواج العوانس، وشفاء الأسقام.

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا
فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ (29) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن
بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (30) يَا قَوْمَنَا
أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (31)
وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ
أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (32)

بيان معاني الألفاظ:

صرفنا إليك : وجهنا نحوك.

نفرا: الرهط من الرجال دون العشرة.

أجيبوا: اعملوا بما بينه من الهدى.

داعي : القرآن أو محمد صلى الله عليه وسلم.

بيان المعنى الإجمالي:

اذكر أنَّا وجَّهْنا إليك جماعة من الجن عددهم نحو العشرة ليستمعوا منك القرآن. حضروا عندك وأنت تتلو آياته، فلما طرق سمعهم خشعوا وأوصى بعضهم بعضا أن ينصتوا إليه بمداركهم، وأن لا يحدثوا حركة ولا ما يشوش عليهم سماعهم له. ولما أتممت التلاوة يا محد انقلبوا إلى قومهم منذرين لهم أن مآلهم العذاب إن هم لم يؤمنوا. قالوا لقومهم: يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزله الله بعد التوراة يتفق معها في أصول العقيدة، يهدي البشر بما شرع فيه إلى الحق ويُبْعدهم عن الباطل والإثم، ويبين لهم الطريق المستقيم الذي يبلِّغهم النَّجاة والسعادة، لا عوج فيه. ثم كرروا نداء قومهم ناصحين فقالوا: يا قومنا أجيبوا دعاء داعي الله محمدا وآمنوا بربكم تكتب لكم السعادة، فيغفر لكم من ذنوبكم، ويحميكم من العذاب الأليم. واعلموا أن من أعرض عن داعي الله ولم يؤمن فلا ملجأ له، ولا يجد أي مكان يحميه من لحاق العذاب به، ولا يجد وليا من دون الله ينصره. إن الذين أعرضوا عن الإيمان هم مغرقون في الضلال، يتخبطون فيه.

بيان المعنى العام :

29←32-وإذ صرفنا إليك...في ضلال مبين.

واذكر لهم يا محمد الحادثة التالية: إذ وجهنا نحوك جماعة من الجن يستمعون منك القرآن. وقبل أن نشرح المعاني التي نستشفها من الآيات، حري بنا أن نقدم مقدمة تشرح هذه الحادثة، وتقربها إلى المدارك التي من شأنها أنها إذا اتصلت بأمر أُنُفٍ لم يستند إلى مشاهدة، أو استكشاف عقلي، أن تتوالى الفروض، التي ربما تحكم عليه بأنه من المرفوض. فأقول :

أولا: إننا لا ندرك من الوجود إلا قليلا، وقليلا جدا، كما قال تعالى :(**وما أوتيتم من العلم إلا قليلا)** [1] وما زال الكثير من أسرار الأرض والسماء، محجوبا عنا. كلما وصل العلم إلى فتح مجال جديد من ذلكم الكم المجهول الكبير، انكشف له أن وراءه عوالم تناديه لبذل موصول الجهد للانتفاع بمكنوناتها. خذ لذلك مثلا : لو قيل لك في منتصف القرن الماضي إنك تستطيع أن تسمع وترى مخاطبك في بيته، وتتحدث إليه ويتحدث إليك، ويفصل بينكما مئات الآلاف من الأميال، لعد ذلك ضربا من الخيال المجنح، أقرب إلى الرؤى المنامية. وأنك تتابع وأنت في بيتك المكتشفين وهم يتحركون فوق سطح القمر. وكذلك طرق الكشف لأجهزة الإنسان وهي تقوم بوظائفها داخل الجسم. وأن يجري الجراح العملية الجراحية على المريض الذي يبعد عنه آلاف الأميال. وأن مكتبة تعد آلاف المجلدات تختزن في قرص تحمله في يدك، ونحو ذلك. هذه صور تؤكد أن معرفة الإنسان بعالم الإنسان، وبعالم الكرة الأرضية محدود، فضلا عن عوالم السماء الذي يمثل كوكبنا الأرضي جزءا صغيرا تافها في الكون العظيم .

ثانيا: إن الذي يحيط علما بكل هذه الكائنات، ولا يغيب عنه أي جزئية من جزئياتها، ولا قانون من قوانينها هو الذي أبدعها، ربنا الخلاق العليم. وكما نصل إلى العلم اليقيني بالتجارب حسب قانون المعرفة التجريبية، فكذلك نصل إلى المعرفة اليقينية أيضا بالخبر الصادق الذي يصلنا عن طريق الوحي الحق. فالذي خلق الكون هو الذي أعلمنا أنه خلق الجن والملائكة كما خلق الإنسان. ولا يتوقف الوجود على إدراك الموجود بحواسنا. ففي ذواتنا مثلا نوقن بأن عقولنا تفتح لنا أبواب المعرفة، وتصل بيننا وبين العوالم. ولكنا لا نلمس ولا نرى شيئا هو العقل.

ثالثا: لما أعلمنا الله في كتابه أنه خلق الجن كما خلق البشر، فإنه يجب أن نتيقن أن جنس الجن موجود. أما صورة هذا المخلوق، وإمكاناته، وقدراته، فهو من الغيب

---

[1] سورة الإسراء آية 85

الذي يعتبر تحديده أو تصويره ضربا من القول بغير علم. فالذين ينفون الجن ليس لهم سند إلا حصر المعلوم في المشاهد المحسوس، وهو قصور شنيع.

ولْنَعُدْ إلى النّص القرآني. يقول الله تعالى : **وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن.**

تفيد الآية، والله أعلم، أن الله يأمر نبيه أن يخبر القوم، أن ألطافه وجهت مجموعة من الجن إلى المكان الذي يتلو فيه النّبي ﷺ القرآن ليستمعوا إليه. فظاهر الآية لا يدل على أن النّبي ﷺ خاطبهم أو شعر بوجودهم، وأنه ما علم بذلك إلا بواسطة هذا الوحي الذي جاءه من الله قرآنا. لم يكن عدد الحاضرين منهم كبيرا، كانوا نفرا حوالي عشرة. هداهم الله إلى الاستماع إلى الوحي المنزل عليه وتأثروا به. كيف فهموا القرآن، وهل إنهم يفهمون العربية أو إن الله أقدرهم على تبين ما نطق به القرآن؟ لم يفصل القرآن شيئا فنكله إلى عالم الغيب والشهادة، ولا يتأثر فهم النّص القرآني بهذه التفاصيل. والمهم أن تأثرهم بلغ درجة أنهم تواصوا فيما بينهم بإصاخة أسماعهم، مع حضور وعيهم ليستوعبوا ما نطق به الرسول صلى الله عليه وسلم من القرآن. وأنهم واصلوا الاستماع إلى أن أتم القراءة. وأنهم حملوا ما سمعوا وبلغوه لقومهم، منذرين ومخبرين بما يترصدهم من شر وعذاب إن هم لم يسارعوا إلى الإيمان.

ثم سجل القرآن تأثر الجن الحاضرين عند سماعهم لآياته، فكذلك سجل الدور الذي قاموا به بعد أن رجعوا إلى قومهم منذرين. وذكروا لهم أنهم سمعوا كلاما يتضمنه كتاب من خاصياته :

أ–أنه كتاب يتفق في أصوله مع ما أنزل على موسى ﷺ، منهجهما واحد توحيد الله والإيمان بالبعث والحساب والتزام المؤمن العمل بما جاءه من ربه، ويصدق الكتب التي جاءت من عند الله.

ب: أن مهمته هي هداية الخلق إلى الحق عقيدة وسلوكا. بَيَّنَ الطريق التي يبلغ بها سالكها غايته من أقرب طريق، لا التواءات ولا متاهات ولا عوج ينحرف به الملتزم به عن قصده وعن الحق.

يا قومنا ؛ أعادوا نداء قومهم لأن ما سيرد بعد ندائهم هذا هو الأهم،لأن ما قبله سرد لما شاهدوا، وهذا دعوة إلى اتباع الحق. حَرَّضوا قومهم على إجابة داعي الله: القرآن باعتبار أنه الجامع للهداية الربانية. كما يصح حمله على محمد باعتبار أنه الذي يدعو إلى الله بالقرآن. وعطفوا على الإجابة العامة الإيمان بالله لما له من مزيد عناية إذ هو أصل السعادة، وعرفوهم بما يترتب على ما دَعَوْهُمْ إليه من خير وسعادة، أن استجابتكم يا إخواننا يتبعها مغفرة الله لبعض ذنوبكم، وهذا من دقة

فهمهم للدين، فإن الله يغفر الذنوب لمن يشاء ويحاسب من يشاء على ما قدم. وهو يغفر الذنوب لمن تاب وأناب، ومن لم يتب من ذنوبه، فإن الإيمان يغفر ما تقدم من الشرك ومن المعاصي، وما اقترفه المؤمن ولم يتب منه فأمره موكّل لربه. ويبعدكم عن العذاب الأليم الذي يختص به المشركون.

ثم واصلوا الدعوة إلى الإيمان بتحذيرهم من عاقبة الإصرار على الكفر. فقالوا لهم إن من لا يستجيب لداعي الله يقع في قبضة الموكلين بعذاب المتمردين، ولا يجد مكانا ينجيه يلجأ إليه. ولا يجد نصيرا يحميه وينصره من بأس الله.

إن الذين تمردوا ولم يستجيبوا لداعي الله وواصلوا ماهم عليه أولئك قد غمهم من جميع جهاتهم الضلال الواضح، فهم في ظلام الشرك تائهون.

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥)

بيان معاني الألفاظ:

أولم يروا : أولم يعلموا.

العزم : النية التي لا تتردد في تنفيذها.

بيان المعنى الإجمالي :

تكرر في السورة التنبيه على صدق البعث، وهذه الآية تدخل في ذلك المقصد. ما بال المكذبين بأمر البعث المحيلين له؟ ألم يعلموا أن الله الذي أحكم خلق السماوات والأرض، وأنشأهما من عدم على غير مثال، ولم يلحقه إعياء، إذ لم يعاند قدرته أي شيء بل كل ما أراده يأتيه طائعا. من حقق ذلك ألا يكون قادرا على إحياء الموتى، فالله قادر على كل شيء وما إحياء الموتى إلا أمر تافه بالنسبة لخلق السماوات والأرض.

واذكر لهم يوم يعرض الذين كفروا وكذبوا على النّار فيشاهدونها وهي على أشد ما يكون توقدا وحرا، ويقال لهم كذبتم بالقيامة فما تقولون فيما ترون أليس حقا ؟ وليس لهم بعد العيان والمشاهدة إلا أن يقولوا، بلى ! وربّنا إنه حق. ويقال لهم

عندها: حلَّ عليكم الجزاء الموعود به، فذوقوا العذاب بسبب إصراركم على الكفر في ماضي حياتكم.

لا تستعجل حلول العذاب بهم، واصبر على أذاهم فأنت من أولي العزم من الرسل الذين اتصفوا بالصبر على الأذى في سبيل نشر الحق. إنهم يوم يرون العذاب الموعود يوم القيامة، يشعرون أن بقاءهم في الدنيا لا يتجاوز لقصره ساعة من نهار.

بلاغ – ما أوحينا إليك من القرآن والهدى هو بلاغ إلى النّاس جميعا، للمؤمن ليزداد مضيا في طريق الخير والهدى، وللكافر ليرتدع ويعود إلى طريق الإيمان والرشد. إنه لا يحل الهلاك بالإبادة، وبسوء المصير يوم القيامة، إلا بالذين فسقوا فخرجوا عن الإيمان إلى الكفر، وعن الطريق المستقيم إلى طريق الغواية.

بيان المعنى العام :

33- أولم يروا أن الله...على كل شيء قدير.

تنكر الآية على منكري البعث عدم علمهم، أن الله الذي خلق السماوات والأرض على عظم أجرامهما ودقائق تركيبهما، أنشأهما بيسر، ولم يلحقه إعياء، فكان أمر إيجادهما سهلا عليه تمام السهولة. هذه الظاهرة المركبة من خلق السماوات والأرض، ومن تيسر ذلك عليه فلم يحصل منهما عناد ولا مقاومة، بل انقادا للإرادة الإلهية فنفذتهما على النّحو البديع الذي راعى كل جزئية في ذاتها وفي انتظامها مع غيرها، وما يحصل لها في مراحل تطورها التي لا يعلمها مقدما ولا يحصيها إلا خالقها. ألا يدل ما تحقق بقدرة الخلاق العليم على قدرته على إحياء الموتى. ويأتي الجواب بقوله: **بلى** – مثبتا أنه قادر على إحياء الموتى الذي هو حسب تقديرات البشر أهون وأيسر، وأقل تعقيدا من إنشاء السماوات والأرض على غير مثال. إن قدرته سبحانه لا تحدها حدود، ولا يعجزه شيء.تُنَفِّذ قدرته كل شيء تعلقت إرادته بتنفيذه مما هو في دائرة الإمكان.

34- ويوم يعرض الذين...بما كنتم تكفرون.

واذكر لهم يوم يعرض الذين كفروا برسالتك، وعادَوْا الدين الذي دعوتهم به إلى الإيمان والعمل الصالح، والسلوك الرضي الملتزم بالقيم الخلقية، يوم يعرضون على النّار فيشاهدونها تتوقد كأشد ما يكون التوقد، ترمي بشرر كالقصر، ويقال لهم: هل تنكرون ما تشاهدون أو تشكون فيه ؟ ويكون جوابهم : **بلى – وربنا**. فيقسمون بربنا: إنه الحق، لما لم يكن لهم سبيل إلى الإنكار. واختاروا القسم بكلمة "**ربنا**"

استجلابا للرحمة، وتحننا، عله يلطف بهـم. وأنـى لهـم ذلـك فقـد فـات الأوان. ويقـال لهم: ذوقوا العذاب بسبب ما سبق من كفـركم. لـيكن إحساسـكم بالعـذاب أشـد إحسـاس وأكثره إيلاما. وبذلك تنعطف هذه الآية علـى الآيـة 20 السـابقة: **ويـوم يعـرض الـذين كفروا على النّار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الـدنيا**. وهـو مشـهد واحـد اختصـت كـل آية بتسجيل جزء منه.

35-فاصبر كما صبر...فهل يهلك إلا القوم الفاسقون.

تتابع عناد قريش وتكذيبهم، وإيذاء النّبي ﷺوالمـؤمنين. وقـد وعـد الله رسـوله النّصـر والتأييـد، وأن العاقبـة للمتقـين. فكـان النّبـي ﷺ يتطلـع ذلكـم التأييـد الموعـود بـه، ويستبطئ تأخره، فذكره ربه بهذه الآيـة : ليكـون صـبره كصـبر أولـي العـزم مـن الرسل، الـذين قويـت عزمـاتهم، ومحمـد مـنهم، وصـرح بـأن صـبره ينبغـي أن لا يستعجل حلول العذاب بهم. ثم أوضحت الآية مبنـى عـدم اسـتعجال العـذاب الـذي أوعدهم به، هو أن تأخيره عنهم، وهو سيحل بهم لامحالـة، لـيس فـي حقيقتـه تـأخيرا، لأن تقضي الزمن في الحياة الـدنيا سـريع لا يطـول أمـده. ولـذلك فـإنهم يـوم يـرون مصيرهم يتبخر إحساسهم بالزمن الذي مـر علـيهم قبـل ذلـك. كـأنهم لـم يـؤخروا إلا ساعة من نهار مرت سريعا، شأن سـاعات النّهـار يكـون شـعور الإنسـان بهـا: أنهـا أقصر من ساعات الليل.

بلاغ –ما أنزل عليك من الوحي، وما بيناه من أمـر العقيـدة، ومـن الطريـق المسـتقيم، هو بلاغ للناس جميعهم مؤمنهم وكافرهم. فيه هزة لكـل فـرد. فمـن آمـن واتقـى يـزداد ثقة بما هو عليه من الهدى، يحثه على الاجتهاد أكثـر فـي تطبيـق مـا أمـر بـه عبـادة وسلوكا. وليسرع للتوبة مما فـرط. ومـن كفـر عليـه أن يراجـع موقفـه مـن حقـائق الوحي، وأن يسرع إلى حضن الإيمان والالتزام بما ضبطه الوحي.

فهل يهلك إلا القوم الفاسقون –هـذا الاسـتفهام أشـرب معنـى النّفـي. أي لا يهلـك إلا القوم الفاسقون. لا يحل الهـلاك بمعنـى الاستئصـال، وكـذلك الإهـلاك بمعنـى سـوء الحال والخزي يوم القيامة، فالإهلاك بمعنييـه قاصـر علـى القـوم الفاسـقين الخـارجين عن الإيمان، والمُدْبِرين عن الاتعاظ بالقرآن والعمل بما تضمنه.

سورة محمّد

هذا هو أشهر الأسماء التي عرفت به في المصاحف، وفي كتب السنة. ووجه تسميتها به أنه ذكر اسم النّبي ﷺ في الآية الثانية منها(والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما أنزل على محمد) والسور التي ذكر فيها اسم محمد صلى الله عليه وسلم أربع. سورة آل عمران الآية 144- وسورة الأحزاب الآية40- وهذه السورة – وسورة الفتح آية 29. وهذه السورة متقدمة عليها في النّزول وكلها نزلت على رسول الله صلى عليه وسلم في المدينة. كما تسمى سورة القتال وقدم القرطبي هذه التسمية في تفسيره.

هذه السورة مدنية رتبتها حسب ترتيب المصحف السابعة والأربعون. وحسب ترتيب النّزول السادسة والتسعون. نزلت بعد سورة الحديد وقبل سورة الرعد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرۡبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ فَإِمَّا مَنَّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَاْ بَعۡضَكُم بِبَعۡضٖۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٤﴾ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ﴿٥﴾ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

الصد عن سبيل الله : صرف النّاس عن اتباع الإسلام.

أضل أعمالهم : أبطلها، وأحبطها.

تكفير السيئات : غفرانها.
بالهم : فكرهم، وجميع شؤونهم. فوفقهم فيما يعود إلى الدين، ويسر لهم النّصر والتأييد في أمور الدنيا.
الباطل : ما خلا من النّفع وتمحض للضر.
لقيتم : قابلتموهم في ساحة القتال.
ضرب الرقاب : انهاء حياتهم بقطع الرقبة أو الإجهاز في المقاتل.
الإثخان : الغلبة، والتوهين بالقتل والجراح.
الشد : الربط القوي.
الوثاق : ما يربط به الأسير.
المن : الإنعام بإبقاء الحياة.
فداء : العوض لفكاك الأسير بمال أو بمعاوضة.
الأوزار : الأثقال
انتصر منكم : انتقم منكم.
ليبلو: ليختبر.

بيان المعنى الإجمالي :

نمطان من البشر، ملامح النّمط الأول أنهم صمموا على الشرك،وعلى مقاومة المؤمنين يحاولون منعهم من اتباع الدين الذي ارتضوه لأنفسهم، ويحولون بينهم وبين عبادة الله، ويعملون على إرجاعهم للشرك.إن كل ما عملوه من عمل ظاهره نافع للناس لا يجدون له جزاء يضيع عنهم، ولا أثر له في ميزانهم.
والنمط الثاني الذين آمنوا بالله واحدا أحدًا، واجتهدوا للقيام بالأعمال المطابقة لشرع الله، والتي تفيد القائم بها والمجتمع، وآمنوا بالقرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وبالشريعة التي بينها. وذلك هو الحق الذي تفضل عليهم ربهم بالهداية إليه. فجزاؤهم أن الله محا عنهم سيئاتهم التي تلوثوا بها قبل الإسلام، وأصلح لهم فكرهم فوفقهم للطاعة، ويسر لهم حياتهم الدنيوية.
ذلك الجزاء المتقابل، سببه أن المشركين التزموا الباطل من العقيدة والعمل. وأن المؤمنين التزموا مطبقين ما جاءهم من نور الهداية الربانية. وعلى هذا النّحو من التبيين يتبين للناس أمثالهم فيقيسوا أنفسهم على ذلك المقياس ليعلموا أي مصير هُمْ صائرون إليه.
عليكم إذا لقيتم المشركين، الذين حددت ملامحهم في الآية السابقة، في ساحة القتال، أن تَنْقَضُّوا على أعدائكم بشجاعة وبأس، اضربوا أعناقهم لتطير رؤوسهم، وواصلوا

زحفكم عليهم بثبات حتى تخضعوهم وتنهكوهم ويستسلمون لكم.فإذا بلغتم هذه الغاية فكفوا عن القتل وأسروهم، وشدوا وثاقهم حتى لا يتمكنوا من الفرار.ثم بعد ذلك يكون لرئيس الجيش الخيار تبعا لما يراه أصلح بالمسلمين، فإما أن يعفو عن الأسرى ويطلق لهم حريتهم ويلزمون بدفع الجزية إن كانوا مقيمين في دار الإسلام، وإما أن يمسكهم ليفدي بهم أسرى المسلين لدى الأعداء. إنه مع اقدامكم واتباع هذا المنهج ينهزم المشركون وينقطع طمعهم في الحرب. إنّه لوشاء الله أن يدمرهم بكفرهم لفعل، ولكن جرت حكمته،أن يختبر بعضكم ببعض، يختبر المشركين ليذلهم ويقطع أطماعهم في هزيمة الدين الإسلامي، ويختبركم ليجزيكم عن الجهاد، فتجدون جميع أعمالكم الصالحة حاضرة لا تغيب عنكم في هدايتكم للاختيار الأفضل، ولتأييدكم، ولتنالوا الجنة يوم القيامة، الجنة التي عرفها لكم في القرآن ووصفها بما يلهب شوقكم إليها.

بيان المعنى العام :

1←2- الذين كفروا وصدوا...وأصلح بالهم.

تفتتح السورة بتحديد ملامح نمطين من النّاس في موقفهم من الدعوة الإسلامية:

النمط الأول : الذين أشركوا وكفروا بما أنزله الله على رسوله من الهدى، وقادهم كفرهم إلى أن يمحّضوا مكرهم وتدبيرهم لمنع غيرهم من اتباع الطريق الموصل إلى مرضاة الله، وإلى إقامة العراقيل ليحرموهم من الاهتداء إلى الإيمان، أو أن يصرفوهم عن الإسلام بعد أن دخلوا فيه. وأن يحولوا بين المؤمنين وبين إقامة شعائرهم، ومن ذلك صدهم المؤمنين عن المسجد الحرام، والتضييق عليهم حتى اضطروهم إلى الهجرة. فهذا نمط من البشر جمعوا بين الخبث والاعتداء، والحرب لخنق حرية النّاس في عقيدتهم والتضييق عليهم تضييقا قاسيا. هذا النّمط يقومون ببعض الأعمال التي تدل على أن شخصياتهم متناقضة. إنهم مع عدائهم للمسلمين والتضييق عليهم وإذايتهم، يطعمون الجياع، ويقومون بخدمات تساعد حجاج البيت الحرام، ويقرون الضيف، ويحفظون الجوار. ما فعلوا ذلك إلا للفخر ولتعلو مقاماتهم في المجتمع. و لما لم تبْنَ صنائعهم على قاعدة الإيمان، وتلوثت بالشرور، فقدت أصل وجودها فلا يجد أصحابها أي أثر لها.ومن بديع التعبير القرآني: أضل أعمالهم، كمن له مال جمعه وكد فيه، ولكنه ضاع منه عند حاجته إليه وذهب فلا أثر له، فيزيده ضياعه حسرة.

والنمط الثاني: بدأه بالإيمان الذي ملأ عقولهم وأرواحهم، فهم على نقيض النّمط الأول المشرك بالله. ثم إن الإيمان نفذ إلى مداركهم ومشاعرهم فيسر لهم التوجه

إلى صالح الأعمال والقيام بها، فعقدوا بينهم وبين الطاعة والخير سببا موصولا. ثم قرنوا ذلك بإيمانهم بالقرآن الذي نزل على محمد وبالوحي الذي جاءه من ربه.وقبل أن يواصل القرآن حديثه عن المؤمنين، توقف مَددُ البيان ليلفت الأنظار إلى أن ما نزل على محمد هو الحق الكامل الذي جاءهم من ربهم الذي عني بهم أتم العناية، وهم أولياؤه المقربون منه، "ربهم " وتتوالى التفصيلات في إطار الإيمان، فيثبت القرآن أنه محا عنهم ما ارتكبوه من سيئات قبل الإيمان، فأصبحت صحائفهم نقية بعد أن كانت ملوثة بالشرك وما صحبه قبل الإيمان. ومحا صغائرهم، وما شاء الله بفضله أن يزيل آثاره السيئة من صحائفهم بعد إسلامهم. وضمن لهم صلاح تفكيرهم، فلا تختلط عليهم القيم، ولا تتغلب دواعي الشهوة على ما استقر في قلوبهم وعقولهم من استقامة، وحب للخير ونفرة من الشر.

3-ذلك بأن الذين كفروا...أمثالهم.

ما عرف به المشركون، وما عرف به المؤمنون، وجزاء هؤلاء وأولئك، تستحضر الآية منعطفة على ما سبق فتُعْرِب عن السبب الذي تحققت به تلكم النّهايات المتقابلة. السبب في ضلال أعمال المشركين، أنهم اتبعوا الباطل الذي يدعوهم إليه أئمة الشرك. أما المؤمنون فإنهم قد لزموا مطبقين الحق الذي جاءهم من ربهم الذي اعتنى بهم وبعث فيهم رسولا منهم.

وعلى هذا النّحو من البيان الذي صحبه التوضيح الكامل يبين الله للناس أمثالهم في الطريقة التي يتبعونها، وفي المآل الذي يصيرون إليه. فهما نمطان يقيس النّاس عليهما حالتهما الحاضرة ليتبين لهم حقيقة أنفسهم والمصير الذي هم آئلون إليه.

4←6- فإذا لقيتم الذين كفروا...عرفها لهم.

تحرض الآية المؤمنين على الاستبسال في الجهاد، وتحركهم لينقَضُّوا على أعدائهم واثقين من أنفسهم غير مترددين ولا خائفين. اضربوا فوق أعناقهم ضربا تطير معه الرؤوس وهي أبلغ صورة في القتل، وأعظم نكاية في العدو، وأدخل للرعب في قلوبهم. فلذلك اختار "**فاضربوا فوق الأعناق**" وإن كانت الإصابة في المقاتل لا تختلف عن إزالة الرؤوس. إنهم ذلك النّمط من الأعداء الخبثاء الذين فصلت الآية الأولى ملامحهم.

حتى إذا أثخنتموهم... واصلوا الهجوم عليهم حتى ينخذلوا ويكثر فيهم الموت والجراح، وتتكسر شوكتهم ويعلوهم الوَهَن، وعندها كفوا عن القتل وخذوهم أسرى عندكم، وشدوا وثاقهم شدا لا يستطيعون معه الانفلات من الأسر. فلا تتراخوا

اطمئنانا بما حققتم من النّصر. خذوا كل الاحتياطات في المكان الذي يحجزون فيه، وفي الرقابة، وفي شل قدرتهم على الفرار.

فإما منا بعد وإما فداء... إذا تمكنتم من الأسرى وأوثقتموهم تحت سلطتكم، فإن أمير الجيش أو ولي الأمر أو وزير الدفاع، السلطة العليا التي تتحكم في القرارات الكبرى قبل الحرب وبعدها، تتخذ في الأسرى القرار المناسب لمصلحة المسلمين. وتلتزم بالمعاهدات التي وقعت عليها ما دام ضمان احترامها متحققا. القرار إذن:

الحل الأول: المن على الأسير بإطلاق سراحه بدون مقابل. وفي الأزمان التي كان الأعداء يسترقون أسرى المسلمين الذين وقعوا في أيديهم، فإن صاحب القرار يمكنه أن يجري عليهم حكم الأرقاء العبيد. أما اليوم بعد أن انتهى الرق، والتزمت كل الدول بعدم الاسترقاق، فإنه ليس لولي الأمر أن يجري على أسراه أحكام الرقيق. ويمكن أن يمن على الأسير بالفكاك من الأسر ويبقى في بلده الذي غلب عليه الجيش الإسلامي ويدفع غرامة مالية سنوية(الجزية) مقابل حمايته وحماية أمواله، لأنه لا يشارك في الجيش الحامي للدولة.

الحل الثاني: الفداء بأن يتم تبادل الأسرى، مع المماثلة في العدد أو مع التفاوت حسب المصلحة الراجحة. وقد جرى العمل في العهود الإسلامية أن يتم الافتداء بالمال، يدفع أولياء الأسير القيمة المتفق عليها، ويأخذون أسيرهم. ويمكن أن يتم اعتبار ذلك في الغرامات المفروضة على العدو المغلوب.

حتى تضع الحرب أوزارها... ما فصلناه لكم من الشدة في قتال المشركين المحاربين لكم، وما عقبه من أحكام، كل ذلك يرمي إلى أن يتوقف المشركون عن الهجوم عليكم ومحاربتكم. فالتعبير بوضع الحرب أوزارها، يقصد منه تجسيم انتهاء الحرب والاستعداد لها، كحال المسافر يحمل أمتعته وأثقاله ويتكلف حملها والعناية بها إلى أن يعود إلى مكان إقامته فيضع عنه تلك الأثقال ويستريح. فالغاية من شحذ الهمم والاستبسال ليس نشر الحرب، وإنما هو لردع من شَرِقوا بالإسلام فلا يرفع عنهم صمود المسلمين إلا بعد أن ينهزموا هزيمة لا عودة بعدها لنقض الاستقرار والأمن، فإن عاودوا عدنا بنفس الحزم والعزم.

ذلك ولو... ذلك الترتيب المحكم في لقائكم أعداءكم الذي أمرتم بمراعاته، والحال أنه لو شاء الله أن يكفيكم أمرهم، ويقضي عليهم لفعل، فإنه لا يعجزه شيء. ولكنه سبحانه أجرى أمر الكون على ربط المسببات بأسبابها. من آثار هذا الربط أنه يختبر بعضكم ببعض، فلا يمنع المشركين من الهجوم عليكم لينتهوا إلى الهزيمة

والذل، ويبعث فيكم الحمية لدفعهم والنكال بهم لتنالوا شرف الجهاد وما يترتب عليه من عظيم الثواب، وإحساس المؤمنين بالعزة التي تيسرت لهم بالإسلام.

والذين قاتلوا... يمثل هذا المقطع ثواب الامتثال لما بسطته الآية. إن الذين شرُفوا بالامتثال فقاتلوا المهاجمين أعداء الدين بكل ما لديهم من قوة وعزيمة واستبسال، يحملهم على ذلك بقاء الطريق الذي شرعه الله وأبان حدوده ثابتا فاعلا في النّفوس، إن كل ما فعلوه من خير يكون حاضرا معهم، يجدون آثاره في الدنيا والآخرة.

ثم إن جزاءهم يتركب من أمرين:

الأمر الأول : أنه تصحبهم هداية الله للاختيار الأوفق والأصلح، في دينهم وفي دنياهم، فهم مؤيدون بتأييد من الله بما يستبين لهم من الصواب والخير.

الأمر الثاني: أن عاقبتهم في الآخرة ستكون الجنة بما أعده الله لهم فيها من نعيم وتكريم. آلتي قال الله فيها: (**فمن زحزح عن النّار وأدخل الجنة فقد فاز** [1]) ووصفت الجنة بأن الله عرفها لهم. وهو يحتمل أن الجنة قد وصفها لهم في القرآن فاشتاقوا إليها وصورتها البديعة حاضرة في نفوسهم. ويحتمل أنه طيبها لهم من العَرْفِ وهو طيب الرائحة، أو إن كل فرد يعرف منزلته وما هو معد له بما يلقيه من نفسه من المعرفة من قبل أن يدخل الجنة.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٩﴾ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَـٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾

[1] سورة آل عمران آية185

بيان معاني الألفاظ :

يثبت أقدامكم: النّصر بالتحصين من الخوف

التعس : الشقاء.

كرهوا : أبغضوا.

ما أنزل الله : القرآن.

إحباط الأعمال : إبطال آثارها فلا يرجون منها نفعا.

التدمير : الإهلاك.

الكافرين : مشركو مكة.

مولى الذين آمنوا : ناصرهم.

يتمتعون : ينتفعون انتفاعا قليلا محدودا.

مثوى : مستقر.

بينة : برهان وحجة.

بيان المعنى الإجمالي :

وعد كريم من رب العزة سيحققه للمؤمنين المجاهدين في سبيله: أنهم إن جاهدوا لنصر دينه ورسوله أنه تكفل بنصرهم، وثباتهم. وأوعد في المقابل الكافرين ودعا عليهم بالخيبة والشقاء، أنه يمحو كل أثر لما قدموه من أعمال يظنونها صالحة، فلا يجدون لها أثرا. وذلك لأنهم أبغضوا القرآن المنزل والوحي المبين لصراط الله، فجازاهم بإحباط أعمالهم ونسفها.

ما بالهم متصلبون في كفرهم، أفلم يشاهدوا في أسفارهم العاقبة التي آل إليها الذين كفروا من الأمم الماضية ؟ دمرهم الله بأنواع من التدمير، وسيدمر الكافرين بأمثال ما دمر به من سبقهم من المشركين.

إن ما تحقق للمؤمنين من الهداية والاستقامة في الدنيا، والتكريم يوم القيامة كان ذلك بسبب أن الله مولى المؤمنين وناصرهم ومراعي أمورهم، وفي المقابل فإن الكافرين لا مولى لهم ينصرهم. اعتمدوا على ذواتهم الضعيفة فخابوا.

إن الله مولى الذين آمنوا وعملوا الصالحات، قد أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، تفتح لهم أبوابها فيدخلونها دخول إقامة لا يبرحونها أبدا. وأما الذين كفروا فإنهم يتمتعون في الحياة بما يرزقهم الله، وهو متاع قليل. ويستوون مع الأنعام يأكلون كما تأكل الأنعام دون تفكير في المآل، فالأنعام ينتهي بها ذلك إلى الذبح أو النّحر، والذين كفروا ينتهي بهم ذلك إلى النّار التي تكون محل إقامتهم خالدين فيها. قرى عديدة استكبر أهلها، وكانوا أعظم قوة من أهل مكة التي غادرتها لسوء

معاملتهم لك، ووقوفهم في وجه الدعوة محاصرين لها، أولئك الكفرة سكان تلك القرى أهلكناهم ودمرناهم، ولم يجدوا ناصرا ينصرهم. فإهلاك قريش إن لم ترتدع سيكون على سنة الله في أهل القرى الذين مضوا في التاريخ.

لا مقارنة بين المؤمن الذي كانت الطريق واضحة عنده، متيقن صلاحها بما قام عليها من دليل العقل، ومن تزكية إلهية لها. وبين الكافر الذي انغمس في الرذيلة والشرك، وانقلب لديه سلم القيم، فرأى عمله السيء حسنا. وانقاد لشهواته وهواه.

بيان المعنى العام :

7- يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله...أقدامكم.

دعاء للمؤمنين بوصف الإيمان ليلهب حماسهم إلى القيام بالقتال ابتغاء نصر دين الله، ونصرة رسوله صلى الله عليه وسلم. والله عزيز ينصر البشر ولا يحتاج لمن ينصره. فحرضهم على الجهاد في سبيل الله، ووعدهم أنهم إن أقدموا على الجهاد يدفعهم لشرفه نصرة دين الله، فإنه سبحانه تكفل لكم بالنصر على أعدائكم، ويثبتكم عند اللقاء. فلا يلحق قلوبكم وهن ولا خوف. جسَّم هذا التثبيت بثبات الأقدام عند السير فلا يفقد السائر توازنه ولا تنزلق رجله.

8- والذين كفروا...فأحبط أعمالهم.

في مقابل الذين قاتلوا في سبيل المنوه بهم والموعود لهم بضروب الكرامة، يتوعد الذين كفروا "المشركين" ويدعو عليهم بالشقاء والتعاسة في حاضرهم وآجلهم. ومع شقائهم قدر الله أن يبطل أعمالهم فيجعلها كأن لم تكن ولا يجدون لها أثرا نافعا في الوقت الذي يكونون في حاجة إليها لتخفف عنهم ما هم فيه من كروب، كما سبق في أول السورة.

ذلك -ما حكم به عليهم من الخيبة واحتقارهم والدعاء عليهم بالتعاسة والخذلان، لم يكن ظلما لهم، ولكنه بسبب كُرْهِهِمْ لما أنزل الله من القرآن والهدى وبغضهم لما يدعو إليه، ولما يذكره من حقائق وبخاصة البعث. فجعل ما قدموه من أعمال نفع محبطة باطلة لا يجدون منها نفعا.

10- أفلم يسيروا في الأرض...وللكافرين أمثالها.

استفهام تقريري وتوبيخي، يثبت بصيغة الاستفهام أنهم مروا في أسفارهم على ديار الذين أهلكهم الله، وشاهدوا الآثار النّاطقة بالعاقبة التي انتهى إليها أمرهم، هلاكهم وهلاك ذرياتهم، وخراب منازلهم وتدمير ما شيدوا. وستكون عاقبة الكافرين من

مشركي مكة أمثال ما حاق بالذين سبقوهم. استووا معهم في الكفر والعناد فيجري عليهم في عاقبتهم أمثال ما وقع لمن سبقهم من المشركين.

11-ذلك بأن الله...لا مولى لهم.

ذلك إشارة إلى ما تقدم من جزاء المؤمنين، وتدمير الكافرين، تم بسبب أن الله ناصر المؤمنين، ومعينهم على السبق في درجات الفوز. وأن الكافرين فقدوا النّصير، وتُرِكوا لأنفسهم العاجزة فلا يجدون سندا يعتمدون عليه لينقذهم. ولا مولى لهم. وأما قوله تعالى: **(وردوا إلى الله مولاهم الحق)** [1] فالمولى في هذه الآية بمعنى أنه مالك أمرهم.

12-إن الله يدخل الذين آمنوا...والنار مثوى لهم.

من مستتبعات ولاية الله للمؤمنين الذين استقاموا في حياتهم، وكانت أعمالهم أعمالا صالحة بميزان الشرع، أنه يكرمهم يوم القيامة بما أعد لهم من جنات تتخللها الأنهار الجارية. ولما كان الكافرون لا مولى ولا ناصر لهم، ينالون من حظوظ الدنيا، فيستمتعون بذلك متاعا قليلا، كما قال تعالى: **(قل متاع الدنيا قليل** [2]**)** وصورهم القرآن في إقبالهم بشراهة على الأكل أن شأنهم شأن الأنعام، المقبلة على ما تأكل دون تفكير فيما وراءه، وليس وراءه إلا الذبح والنحر. وتكون النّار هي المستقر الذي لا يبرحونه يوم القيامة.

13-وكأين من قرية...فلا ناصر لهم.

تهديد ووعيد للمشركين المغرورين بمكانة قريتهم "مكة" في نفوس العرب، وظنهم أنهم منصورون بالعصبية للبيت وللقائمين على المناسك. فافتتح التهديد بتذكيرهم أن عددا غير قليل من القرى "وكأين" من أهل قرية، كان لهم قوة أشد من قوتكم، ومناصرين أكثر من مناصريكم، وعددا وعدة يرهب جانبها، هم أشد قوة وأبلغ منعة من قريتك " مكة" التي كان ليذاؤهم لك وللمؤمنين، و مقاومة الدعوة والحيلولة بين النّاس وبين أن يدخلوا في الإسلام، كان سببا لخروجك منها. فقريش لم تخرج النّبي ﷺ من مكة، ولكنها كانت حريصة على بقائه محصورا تحت الضغط المسلط عليه، حتى تكون أعينهم متابعة لنشر الدين ويتخذوا لكل موقف الحل المناسب. فأطلق القرآن،على الخروج الذي دبره النّبي ﷺ ونفذه، لفظ الإخراج. أصحاب القرى العديدة الذين كانوا أقوى من أهل قريتك أهلكناهم، إهلاكا انتفى معه النّاصر لهم.

---

[1] سورة يونس آية 30

[2] سورة النّساء آية 77

14-أفمن كان على بينة...واتبعوا أهواءهم.

تصور مشركو مكة، أن ما هم عليه في الدنيا من الجاه والمنزلة بين النّاس، وهم يقودون الحجيج، ويفرضون تصوراتهم عليهم، و تشق تجارتهم الصحاري آمنة دون أن يعترضها أحد، ظنوا تبعا لذلك أنهم أفضل من أتباع الدين الإسلامي، وسخروا منهم قال تعالى : (**فاتخذتموهم سخريا حتى أنسوكم ذكري وكنتم منهم تضحكون**[1]) فسألهم سؤالا إنكاريا يظهر فساد تفكيرهم، وغرورهم، وأنهم فاقدون لكل مقوم من مقومات السمو الإنساني، وأنهم مع وضعهم الذي هم عليه أبعد ما يكون من أن يستووا مع المؤمنين.

ملامح المؤمن: أنه متمكن من المنهج الواضح البين الذي أتاه من ربه هو منهج يقوم عليه شاهد العقل وزاده يقينا بصلاحه تأييد الله له وتزكيته. وملامح الكافر أنه مغرور، أبعد ما يكون عن النّقد الذاتي الذي يسمو به الإنسان ويتزكى. وهم من ناحية أخرى يتبعون عن غير وعي وبدون نقد ما يزين لهم من الأعمال فيتمسكون بها، كعبادة الأصنام، والتعلق بمجالس الخمر والغناء والميسر. والتسلط على الضعفاء معتقدين أن ذلك عزة وشهامة. تتحكم فيهم أهواؤهم وغرائزهم، نامت عقولهم واستيقظت شهواتهم فقادتهم واتبعوها. وبهذا التفصيل والمقابلة بين الفريقين سطعت الحقيقة :لا شبه بينهم ولا يبلغ الكفرة المرتبة الإنسانية التي بلغها المؤمنون.

مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾

[1] سورة المؤمنون آية 110

بيان معاني الألفاظ :

مثل الجنة : صفة الجنة العجيبة.

آسن : متغير الطعم والريح.

لذة : لذيذ طعمه.

يستمع : سمع مع حرص على وعي المسموع.

آنفا : فيما مضى قريبا.

الطبع على القلب : لا ينفذ نور المعرفة ولا الإيمان إلى عقولهم.

آتاهم تقواهم : يسر لهم أسباب التقوى حتى ملكوها.

ينظرون : ينتظرون.

بغتة : فجأة غير متوقعة.

أشراطها : علاماتها.

أنى لهم : كيف يتأتى لهم التذكر.

متقلبكم : أعمالكم التي تنتقلون فيها من شيء إلى شيء.

المثوى : المرجع والمآل.

بيان المعنى الإجمالي :

لا مجال للتسوية بين المؤمنين والكافرين. وكما كان البون بينهما شاسعا في الدنيا، فإنهم يوم القيامة أشد افتراقا. إن الجنة التي وعدها الله للمؤمنين المتقين، هيأ الله لهم فيها من النّعيم ما يقربه إلى التصور : أن فيها أنهارا تتدفق بالماء الزلال ريحه طيب ولونه طيب وطعمه كذلك. وفيها أنهار من لبن لا يتخمر ولا يفسد ولا يقبل الحموضة. وأنهار من خمر لذيذ طعمها تغري شاربها بمواصلة النّيل منها. وأنهار من عسل صفاؤه كامل لا تحمل شمعا ولا أجساما غريبة عنه. وملّكهم ما يشاؤون من الثمرات التي تخطر على بالهم والتي لا تخطر. وفوق كل ذلك حالة نفسية مستقرة مطمئنة إذ تحققوا أن الله غفر لهم جميع ما فرطوا فيه. يقابل هذه الحالة حالة الكافرين الذين ضربهم اليأس فهم لا يأملون الخروج من النّار، ولا يتصور أن يخرجوا. وتلهبهم النّار فيشتاقون إلى الماء، فيسقون من ماء حميم شديد الحرارة يقطع أمعاءهم فيتألمون شديد الألم، ثم تعاد أمعاؤهم لتقطع من جديد كلما سسقوا ماء الحميم.

واجه النّبي ﷺ في المدينة خطر المنافقين الذين اندسوا في المجتمع الإسلامي. ومن خبثهم أنهم يحضرون مجالس التوجيه النّبوي، ويبدو عليهم أنهم يستمعون بانتباه لما يقوله النّبي ﷺ. حتى إذا غادروا مجلسك، طلبوا من فقهاء المسلمين المعروفين

بحسن التلقي عنك قائلين: إنا لم نفهم ما كان يقوله في مجلسه، فعرفونا بما جاء فيه. يقصدون رمي النبي ﷺ بالغموض، وعدم قدرته على الإبانة. لأنهم كانوا حاضرين، يبدو عليهم الاهتمام بما يسمعون، ولكنهم رغم ذلك لم يفهموا منه شيئا. إنهم صمموا على رفض الإسلام حتى انغلقت عقولهم فلا ينفذ إليها نور الهداية، وما ذاك إلا لأنهم اتبعوا ما يمليه عليهم هوى النفس. وفي المقابل فإن الذين قبلوا الهداية واطمأنوا إليها، يسر الله لهم، أنه كلما تتابع الوحي، زادوا قربا من ربهم والتزاما بالاستقامة، ومكنهم من أسباب التقوى، حتى ملكوها.

أي شيء ينتظره الكفرة،؟ كل متاع الدنيا منزل منزلة العدم، ولم يبق لهم إلا شيء واحد ينتظرونه وهو حلول الساعة. الساعة التي لا تأتيهم إلا بغتة دون سابق إعلام. تفجؤهم لشدة غفلتهم عنها، مع أنه قد ظهرت علاماتها مؤذنة بقربها. إنهم يوم تأتيهم الساعة، لا ينفعهم وقتها الذكرى، إذ تكون قد تحققت بما يتبعها من حساب وجزاء. ليكن من أهم ما توجه إليه العناية الثبات على العلم اليقيني بالوحدانية, أنه لا إله إلا الله، المنفرد بالخلق والتدبير وإليه وحده المصير. وتوَجَّهْ إلى ربك طالبا منه المغفرة لك ولكل مؤمن ومؤمنة. إن الله لا يغيب عنه أي وضع من أوضاعكم، كما هو عالم مقدما بالوضع والمآل الذي تصيرون إليه

بيان المعنى العام :

15- مثل الجنة التي وعد...فقطع أمعاءهم.

يتواصل التأكيد على الفوارق بين المؤمنين والكافرين وأنه لا تسوية بينهما. فبعد أن بينت الآية السابقة سمو المؤمنين عن دركات انحطاط الكافرين في الدنيا، انتقل القرآن لبيان الاختلاف البين، والبون الشاسع بينهما يوم القيامة، فيما يلقاه كل فريق من الجزاء المعد له.

عرضت الآية أولا صفة الجنة التي وعدها الله عباده المتقين الصالحين. وافتتح هذا العرض بقوله: **مثل الجنة**. الذي فهمته من هذا التعبير الدقيق أن القرآن أراد أن يقرب الجنة من تصور البشر، فأفاد من البدء أنه يعطي صورة تقرب الجنة وتعطي للخيال مثلا. أما حقيقة الجنة فهي من أحوال الآخرة التي تتجاوز التصور المنتزع مما شاهده الإنسان في حياته ونقلته حواسه إلى مداركه. وبناء على ذلك يكون كل ما ذكر راسما لصورة في ذهن التالي، حقيقتها أعلى وأسمى مما انطبع في التصور. فيها أنهار من ماء لا يلحقه تغير في ريح ولا طعم كما تتغير مياه الأرض بالأيدي والآلات التي ينتزع بها الماء، وبما تسفيه الرياح فوقها مما تحمله. ولا شك أن تناول الماء فيه لذة للشارب وري. ومع أنهار المياه أنهار من لبن، فلا تتصوروا

اللبن أنه كلبن الدنيا، ولكنه لبن آخر يليق بالنعيم الفائق يبقى على حاله، متجدد لا يتغير طعمه بطول المكث. وأنهار من خمر يبلغ مذاقها أعلى مذاق وأجوده، هو عين اللذة للشاربين لا تعطل العقول عن وميضها، كما وصفها القرآن في آية أخرى: **لا فيها غول ولاهم عنها ينزفون**[1] وأنهار من عسل مصفى غير مختلط بشمع النّحل ولا ببقايا النّحل.والذي أفهمه من الأنهار هو الكثرة العظيمة التي لا تنفد. وليس جريانه على الأرض والتراب، وأقرب ما يرتسم في ذهني أنها تجري في قنوات شفافة تغري بالنول منها، مع يسر ذلك على ساكني الجنة.

وملكهم الله مع ذلك كل أنواع الثمرات مما لا يجتمع في الدنيا لاختصاص كل صقع من الأصقاع بأنواع.

وفوق كل ذلك أنهم لا يشعرون بالإثم ولا بالخطيئة، ولا يعكر صفوهم، يقظة للوم أنفسهم عما فرطوا. فجميع ذنوبهم سترت فلا تمر لهم على بال. جعلني الله وإياكم من سكان جناته المفوزين بمغفرته ومرضاته .

في مقابلة ما أعد لأهل الجنة يعرض القرآن ما أعد للكفرة الفسقة.أولا صفة الخلود في النّار، يحل اليأس في نفوسهم فلا يطمعون في تخفيف ولا خروج ولا تحول. ويسقون بماء يغلي في بطونهم فيمزق أمعاءهم. وكلما مزقت عادت كما كانت ليذوقوا العذاب.

16←17-ومنهم من يستمع إليك...وآتاهم تقواهم.

واجه النّبي صلى الله عليه وسلم في المدينة نمطا آخر من الكفر، فإذا كان مشركو مكة مستكبرين غلاظا، فإن هذا النّمط من الكفر " المنافقين " يظهرون بمظهر الطاعة ويندمجون في المسلمين على أنهم منهم، ويحضرون مجالس التذكير، وفي كل صلة لهم بالمسلمين يعدون من المكر ما يؤذون به النّبي صلى الله عليه وسلم. ويصورون إذا يتهم في صورة مقبولة لا يؤاخذون بها. فريق من الكفرة المنافقين يلقون سمعهم إليك وأنت تتلو آيات الله، أو تبلغ ما أوحي إليك، أو ترشد المؤمنين لما هو خير لهم في الدنيا والآخرة. إنهم لا يجتهدون في استماع كل كلمة تقولها بدافع الإيمان ولكن يحملهم على ذلك أن يلتقطوا ما يحرفونه كيدا للدين وطعنا فيه. ومن صور خبثهم أنهم بعد أن يحضروا مجلسك ويخرجون، يطلبون من صحابتك المعروفين بالفقه وحسن التلقي عنك قائلين لهم: ما ذا كان يقول في المجلس السابق لخروجنا، فنحن لم نفهم ما يريد؟ يقصدون بذلك أن يطعنوا في بيان النّبي ﷺ، وأنهم مع حرصهم لم يفهموا منه شيئا.

---

[1] الصافات 47

وإذا سألت عن السبب الذي جعلهم يكيدون للحق، ويعملون على إذاية رسول الهدى فاعلم : أن أولئك الذين وصفوا في الجزء الأول من الآية،صمموا على رفض الإسلام، حتى تكوّن من مواصلة تصميمهم أن انغلقت عقولهم وحجبت بحجاب صفيق من العناد فلا يدخلها أي شعاع من نور الحق. بمثابة الرسالة التي ختمت وطبع عليها، فلا ينفذ البصر إلى داخلها ليتأتى معرفة ما تحويه. ورفضهم للحق ناشئ عن اتباعهم لأهوائهم،لا وليد نظر وتدبر فيما جاءهم من الوحي.

وفي المقابل فإن الذين سمعوا ما أنزل على الرسول وتأملوا فيه فاهتدوا به، وانفتحت لعقولهم منافذ الصراط المستقيم فسلكوه، فإن موقفهم هذا سيزيدهم تمكنا من الهداية والتزاما بها، ويعينهم على الاستقامة، فتيسرت لهم مسالك التقوى حتى أصبحت التقوى كأنها ملك لهم يختصون بها.

18- فهل ينظرون إلا الساعة....إذا جاءتهم ذكراهم.

ما ذا ينتظر الكافرون ؟ إنهم تبعا لكفرهم وصدهم عن سبيل الله باعتمادهم صنوفا من المكر والتضليل، إنهم لا ينتظرون إلا شيئا واحدا، أن تأتيهم الساعة فجأة، دون سابق إعلام ولا توقع. فقد نزلت آمالهم في متع الحياة الدنيا كالعدم، فلذا هم لا يترقبون إلا قدوم الساعة. والساعة قريب مجيئها، دليل ذلك أن علاماتها قد ظهرت.

والساعة يحتمل أن يكون المراد بها انتهاء الكون. يؤكد ذلك أن ما مضى من عمر الكون هو أكثره، وأن ما بقي لاستمرار الحياة يعد قليلا بالنسبة لما مضى. ومن هذه العلامات بعثته صلى الله عليه وسلم، فقد تتابع إرسال الله الرسل إلى البشر يفصل ما بينهم قرون كثيرة قال تعالى : **(وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا)** [1] وعدد الرسل لا يعلمه إلا الله.قال تعالى **(ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك)** [2] فختم الرسالة موح بقرب انتهاء العالم.وذكروا من أشراطها،كثرة المال والتجارة وشهادة الزور وقلة الكرام وكثرة اللئام وإسناد الأمر إلى غير أهله. واعتنى بها بعضهم فألف فيها تأليفا جامعا لما روي في ذلك.

وحملها بعضهم على قرب انتهاء أجل كل فرد، بناء على أنه إثر موته يرى مقعده الآئل إليه، وتكون الأشراط هي ما يسبق الموت من المرض أو الهرم.

---

[1] سورة الفرقان آية 38

[2] سورة النّساء آية 164

يخوفهم بأنه إذا جاءتهم الساعة يكونون أبعد ما يكون عن الانتفاع بالذكرى، والعمل بها، إذا جاءتهم الساعة، فيلاقون مصيرهم.

19-فاعلم أنه...متقلبكم ومثواكم.

هذه الآية تفيد الأمر بالعلم والعمل. وقدم فيها العلم على العمل تبعا لمرتبته. أمر النّبي صلى الله عليه وسلم وكل من آمن به، أن يثبت على الإيمان اليقيني بأن الله واحد لا شريك له. يذكر بذلك نفسه، ويكررها بلسانه لتكون حاضرة حضورا يؤثر في التصور والسلوك. وبعد العلم بالوحدانية واصِلْ الاستغفار وطلب المغفرة من ربك. أما المؤمن فهو لا يستغني عن طلب المغفرة من ربه تبعا لضعفه مع ما ركب فيه من الشهوات والغرائز وما يتسلط عليه من المؤثرات، فيقع في الخطيئة، ولا مخلص له إلا بعفو ربه بالتوبة و الاستغفار. وأما بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم فالأمر على ما بيناه سابقا: أن النّبي صلى الله عليه وسلم ينتقل بصفة مستمرة من مرتبة إلى مرتبة أعلى في القرب، فهو حينما ينظر يجد أن وضعه السابق دون وضعه الحالي، وهكذا، فهو يستغفر ربّه، حتى يجعل حياته كلها على مرتبة سواء من الكمال.

وترشد الآية النّبي ﷺ وكل مؤمن أن يستغفر لكل فرد من أفراد الأمة الإسلامية للمؤمنين والمؤمنات، وفاء لوحدة العقيدة الجامعة التي تجعل كل مؤمن يشعر بالغبن إذا لحق أخاه المؤمن نقص.

والله يعلم متقلبكم، أي أحوالكم الكثيرة، النّفسية والعملية،التي تتنقلون فيها من حال إلى حال، لا يغيب عنه أي حال من أحوالكم. كما يعلم سبحانه نهاياتكم التي تستقرون معها في مرتبتكم التي حكم لكم بها ربكم بعدله ورحمته.إنه حقيق بأن يخشى ويتقى، وأن يستغفر ويسترحم.

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوۡلَا نُزِّلَتۡ سُورَةٞۖ فَإِذَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ مُّحۡكَمَةٞ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ

محكمة : واضحة الدلالة غير قابلة للتأويل.

في قلوبهم مرض : المنافقون.

نظر المغشي : شاخص البصر كالمحتضر.

عزم الأمر : تحقق تحققا لا محيص عنه.

صدقوا : صدقوا الله في قولهم إنا مؤمنون.

التدبر : تفهم الموضوع وما يؤول إليه .

بيان المعنى الإجمالي:

اشتاق المؤمنون، وقد تأسست الدولة الإسلامية في المدينة، أن يقوموا بجهاد المشركين الذين أخرجوهم من ديارهم، واستولوا على أموالهم. وعرضوا على النبي صلى الله عليه وسلم أمنيتهم أن ينزل الله عليهم سورة بينة واضحة لا تقبل التأويل، تتضمن الإذن في القتال. فلما نزلت، كشفت المنافقين، ونزلت عليهم نزول الصاعقة، فشخصت أبصارهم كحالة المحتضر في آخر لحظات حياته. ألم يكن الأولى بهم أن يجيبوا دعوة القتال بالطاعة، وبالكلام المعروف قوله في مثل هذه الأحوال. ثم إنه إذا حضر وقت القتال، يكون الموقف الأولى بهم أن يصدقوا الله، ويكون باطنهم كظاهرهم. وبذلك يحققون لأنفسهم الاختيار الأسلم والأفضل.

هل يتوقع منكم إن توليتم ولم تنصروا المهاجرين والأنصار الذين تعيشون معهم، إلا أن تعودوا إلى سيادة الكفر فتقطعوا أرحامكم بوأد البنات، وتفسدوا في الأرض بالغارات السالبة للأموال والنساء، والأطفال. واستباحة المنكرات وشيوع الخوف.

اولئك الذين في قلوبهم مرض حلت عليهم لعنة الله فلا يرحمهم، وحيل بينهم وبين الهدى فلا فرق بينهم وبين الأصم الذي لا يسمع، وحُجبوا عن التأمل في الكون وفي آيات الله فاستووا مع العمي.

ما بالهم لا يتأملون وينفذون إلى ما يرمي إليه القرآن من الإصلاح ليجدوا فيه مسالك الهداية والرشاد؟ بل الواقع أنهم صمموا على رفضه وعدم النظر حتى أصبحت عقولهم كالصناديق المقفل عليها بالأغلاق المحكمة. ولذا استمروا على ضلالهم.

بيان المعنى العام :

20←21-ويقول الذين آمنوا...لكان خيرا لهم.

استقر المؤمنون بقيادة رسول الله ﷺ في المدينة، وأحسوا بتأييد الله لهم، واشتاقوا لقتال المشركين الذين أخرجوهم من ديارهم، ثم تصرفوا في أملاكهم غصبا وظلما.

واستبطأوا نزول قرآن يأذن لهم في الجهاد في سبيل الله. وهم يفتحون صدورهم إلى رسول الله، ويجدون منه الحل لمشاكلهم، والطمأنينة لقلوبهم. فعرضوا ما يجدونه على رسول الله صلى الله عليه وسلم، متمنين أن تنزل سورة في هذا الشأن. لبّى الله تطلعهم. وأنزل سورة بينة واضحة لا تحتمل التأويل، وذكر فيها القتال والجهاد، وكان الموقف مختلفا بين المؤمنين وبين المنافقين.

طوى القرآن موقف الصحابة من السورة التي أذنت بالجهاد لوضوحه، لأنهم كانوا يتحرقون أن يأتي إذن من الله يسمح لهم بالتنفيس عما في قلوبهم من كسر شوكة الكفر، الذي لا يرضخ إلا للقوة المادية. لقد استبشروا واستعدوا.

واعتنى بموقف المنافقين المندسين في المجتمع، والذين يظهرون خلاف ما يبطنون، فكان إنزال السورة التي ذكر فيها القتال فاضحا لهم. إنهم لم يستطيعوا أن يكتموا انفعالاتهم لسماعهم الإذن في القتال قلوبهم مريضة انطوت على مركبات من التناقض بين الباطن والظاهر، ومن البغض، والكذب، والدس، والمكر، والخبث. وقد واجهوا أمرا حيرهم، إنهم لا يرضون أن يكونوا مع المؤمنين في قتال أعدائهم، ويُعَرِّضون أنفسهم للموت والجراح في سبيل أمر لا يؤمنون به. كما أنهم لا يستطيعون إظهار اعتراضهم على الأمر القرآني فتنكشف حقيقتهم. فصورهم القرآن صورة مجسمة لهذا التناقض والحيرة فقال رأيت يا محمد المنافقين، وقد شخصت أبصارهم إليك، نظرهم كنظر المحتضر وهو ينفث آخر أنفاسه. استولت عليهم الحيرة،، وخرست ألسنتهم لقوة الصدمة، والخوف من المستقبل.

فأولى لهم، يمكن أن يفهم المعنى: الأفضل لهم والأنفع لهم من ذلك الخوف وتلك الحيرة في هذا المقام أن يقولوا سمعنا وأطعنا. كما جاء في قوله تعالى: (**إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا**[1]) كما يمكن أن يفهم على أن المقصود بقوله : أولى لهم، التهديد، أولاهم الله ما يكرهون.

طاعة وقول معروف– تفهم على أنها متعلقة بقوله أولى لهم على الوجه الأول. وأما على الوجه الثاني فهي جملة مستأنفة غير متعلقة بقوله فأولى لهم منفصلة عنها، أي: طاعة وقول معروف خير لهم.

فإذا عزم الأمر – تابع القرآن عرض موقف المنافقين بعد نزول سورة القتال، إلى اليوم الذي حضر فيه القتال فعلا؛ ودعا النّبي صلى الله عليه وسلم الصحابة

---

[1] سورة النّور آية 51

للاستعداد للجهاد. في هذا اليوم ينخزلون ويختلقون المعاذير كما جاء في قوله تعالى: (**ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني** [1]) أو ينسلخون من الجيش كما فعل عبد الله بن أبي لما خرج يوم أحد يقود المنافقين لما قال لأتباعه : ما ندري علام نقتل أنفسنا ها هنا يا أيها النّاس، ورجع مع أتباعه وكانوا ثلث الجيش. ينبههم القرآن إلى أنهم اختاروا أسوأ الاحتمالين، اختاروا القعود عن القتال. وإنهم لو صدقوا في إيمانهم ولم يكذبوا وشاركوا المؤمنين شرف الجهاد لكان خيرا لهم في الدنيا والآخرة.

22←23-فهل عسيتم إن توليتم...وأعمى أبصارهم.

ما هو المتوقع حصوله إن لم تصدقوا الله، وتوليتم عن مساندة المؤمنين لما خرجوا للقتال، كما تم في وقعة أحد، وحاولتم الاعتذار عن تقاعسكم بأنكم لا تقرون قتالا يقطع الأرحام، ويصحبه فساد في الأرض بالخروج عن قوانين العمران؟ إنكم بتقديم ما ستقدمونه من الاعتذارات يكشف ما دأبتم عليه من الخداع والمكر، ذلك أنه باتباعكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم تتمكن الصلات بين البشر، و يتم الإجهاز على الشر ويأمن النّاس. وبإعراضكم تعودون إلى ما كان يسود مجتمعكم من سحق الضعيف، ووأد الإناث، وشيوع الفساد. وتجدد الحروب للتسلط على الآخرين، والاستيلاء على أموالهم ونسائهم. فمعاذيركم غير صادقة وإنما حاولتم أن تتنصلوا من الصورة المقيتة التي لصقت بكم لما قعدتم عن مساعدة الأنصار والمهاجرين لما غزاهم المشركون، وأنتم تعيشون معهم.

أولئك الذين في قلوبهم مرض تأهلوا للعنة الله، ولإبعادهم من رحمته، لكذبهم، وخذلانهم لقومهم، وتربصهم انتصار الشرك على الإيمان. وجرّ عليهم مرض قلوبهم أن اختلت مداركهم، فكان حالهم وهم يستمعون الهدى لا يختلف عن الأصم الذي لا يسمع، فهم لا ينتفعون بشيء منه. ولازمتهم الحيرة كالأعمى الذي يقذف به في مكان لا يعرفه،هو متحير لا يدري الجهة التي يتبعها لتبلغه قصده.

24- أفلا يتدبرون القرآن...أقفالها.

أولئك الذين أعرضوا عن القرآن فأصمهم وأعمى أبصارهم، أمرهم عجيب. القرآن يتلى عليهم، وقريب منهم، لماذا لا يتدبرون في مضامينه، وينظرون نظرة متأنية غير عجلى فيما يدعوهم إليه، مع وضوحه، وقربه من الفطرة فيهتدوا به؟

---

[1] سورة التوبة آية 49

أم على قلوب أقفالها- انتقال من السؤال الانكاري إلى بيان الواقع كما هو. بل قلوبهم، كأنها صناديق مغلقة، لا ينفذ إليها الهدى، أوصدوها بتصميمهم على رفضه، فكانت بمثابة ما أحكم غلقه بأغلاق ومفاتيح، فلا ينفذ إليه شيء.

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لِلَّذِينَ كَرِهُواْ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمۡ فِي بَعۡضِ ٱلۡأَمۡرِۖ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِسۡرَارَهُمۡ ﴿٢٦﴾ فَكَيۡفَ إِذَا تَوَفَّتۡهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَضۡرِبُونَ وُجُوهَهُمۡ وَأَدۡبَٰرَهُمۡ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُواْ مَآ أَسۡخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُواْ رِضۡوَٰنَهُۥ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿٢٨﴾ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ﴿٢٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

التسويل : التسهيل، والتزيين.

الإملاء : مد لهم في الآمال.

اتبعوا ما أسخط الله : اتبعوا الشرك الذي لا يرضاه الله.

الإحباط : أذهب انتفاعهم بعملهم.

يخرج : يظهر.

أضغانهم : جمع ضغن وهو الحقد.

السيما : العلامة المعرفة.

لحن القول : دلالة ثانوية تنبئ السامع بما لم يصرح به المتكلم.

بيان المعنى الإجمالي :

إن الذين اندمجوا مع المؤمنين لينطلقوا في مسيرة الإيمان الواضحة، ثم ارتدوا إلى الكفر، إلى الخلف، إلى ما كانوا عليه، بعد أن وضح لهم الدين في أصوله ومبانيه ومنهجه، ارتدوا لأنهم أطاعوا الشيطان الذي سهل لهم هذا الارتداد، أدخل في عقولهم أن الزمان طويل يمكنهم العودة إلى منهج الإسلام إن رأوا جديدا. انزلقوا إلى الكفر لما رضوا بأن يطيعوا المشركين المبغضين لما أنزل الله على رسوله

وقالوا لهم: سنطيعكم في بعض الأمور التي نستطيع أن نخفيها فلا ينكشف أمرنا. والله يعلم ما يجري في سرهم وما يدبرونه في الخفاء، فيتولى كشفهم لرسوله.
كيف يكون حالهم عند الموت، وقد وكل ملائكة العذاب بضربهم من جميع الجهات لا تسلم وجوهم ولا ظهورهم.
ما ظلمهم الله إذا سلط عليهم ملائكة العذاب بمجرد موتهم. لأنهم التزموا في حياتهم كل ما يسخط الله من الإثم والشر. وفسدت طباعهم فكرهوا ما يرضي الله من الخير، فأذهب كل ما عملوه من عمل يترتب عليه صلاح لأنهم يكرهون الخير. بل أظَنَّ الذين تأصل في تفكيرهم الفساد والنفاق، أن ما انطووا عليه من بغض الإسلام والكيد له أن لا يظهر ويفتضحوا؟ هذا ظن كاذب. إني لو شئت أن أجعل على كل منافق علامة تعرف به لفعلت. ولكن جرت سنتي في الخليقة أن ما انطوت عليه القلوب لا يعلمه الآخرون. ولكن لما لك يا محمد من الفطنة فسأساعدك على معرفتهم بما يجري في ثنايا كلامهم، مما هو رشح خبثهم فينكشف إليك أمرهم. والله يعلم حقيقة أعمالكم فيجزي الصالحين على فعل الخير وحسن قصدهم، ثوابه. ويحاسب المنافقين على تلونهم ومخالفة ظاهر أفعالهم لما يقصدون فيعاقبهم.

بيان المعنى العام:

25- إن الذين ارتدوا...وأملى لهم.

صورة مجسمة لسوء اختيار فريق، تساعد على التنفير منها، صورة من رأى وأدرك الطريق الهادي إلى الخير، وبلوغ المقاصد، وعوض أن يدخل في ذلك الطريق رجع القهقرى، وولى ظهره إليه، واتخذ اتجاها معاكسا له. تنسحب هذه الصورة على اليهود الذين عرفوا صدق رسول الله ﷺ، وهددوا أعداءهم بأنهم سينتصرون به عليهم، ثم إنهم بعد أن ظهرت أنوار رسالته تنكروا له واغتموا أن لم يكن من بني إسرائيل، عادَوْه ورجعوا إلى ما كانوا عليه من اتباع أحبارهم. كما تنطبق هذه الصورة على المنافقين الذين جلسوا مع المؤمنين وشاركوهم في استماع الذكر والعبادة، ثم إنهم بمجرد ما ينقلبون إلى إخوانهم المنافقين يصرحون بما ذكره الله في سورة البقرة (**وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزئون**[1]) كما تنطبق الآية على المنافقين الذين خرجوا مع جيش المسلمين في غزوة أحد، ثم انخزلوا ورجعوا إلى المدينة، وشككوا في أن تكون هذه المعركة لها ما يبررها.

---

[1] سورة البقرة آية13

إن الرجوع من الإيمان إلى الكفر، ومن نور الهدى إلى ظلام النِّفاق والشك، مخالف لطبيعة الأمور، ولما تقتضيه الفطرة السليمة، ولكن الشياطين سهلوا لهم هذا الارتداد، وأقنعوهم بأنّهم إذا عادوا لما كانوا عليه فإن في العمر فسحة، يستطيعون العودة إلى الإيمان متى أرادوا.

26- ذلك بأنهم قالوا...والله يعلم أسرارهم.

هذه الآية تصور كيف سَهُل على المنافقين الرجوع إلى الضلال، بعد أن هز القرآن ببيانه وحججه عقائدهم السابقة. لم ينغمسوا في الكفر انغماسا كاملا بمجرد ما وقع تشكيكهم، ولكنهم انزلقوا إلى خطوات الضلال الأولى. فقالوا للمشركين من أهل مكة الذين امتلأوا بغضا وحقدا لما أنزله الله على رسوله من الحق، قالوا لهم سنطيعكم في بعض ما تطلبوه منا. تراخوا في اتباعهم في بعض الأمر حتى لا ينكشفوا للمهاجرين والأنصار في المدينة، فمن ذلك أنهم يخرجون مع الجيش الإسلامي، ثم يوقعون الاضطراب في المجاهدين، بتوليهم قبل حضور القتال. والله عليم بما يسرونه، وما يدبرونه في الخفاء من الكيد، فيطلع الله رسوله ويدمر كيدهم.

27-فكيف إذا توفتهم...وأدبارهم.

سبق في الآية 25 أن الشياطين يمدون في آمال المتبعين لهم، وحياتُهم في الدنيا قصيرة، سيتوفاهم ملائكة الموت، وكيف يكون حالهم ؟ وما أشد فظاعة ما يلقون بمجرد ما تنتزع أرواحهم ! سيجدون ملائكة العذاب يضربونهم من جميع الجهات، صورة أفظع من تعذيب الدنيا، إذ المعهود فيمن يسلط عليه العذاب أن يتلقاه من جهة واحدة، وأنه يحاول أن يتقي شدته بالانحراف إلى جهة معاكسة لموقع ضاربه. أما ملائكة العذاب الموكلون بهم في أول منزلة بعد الموت، فإنهم يتولون ضربهم من جميع الجهات.

28- ذلك بأنهم اتبعوا...فأحبط أعمالهم.

ذلك النَّكال ليس ظلما لهم، ولكنه جزاء عادل لما اختاروه لأنفسهم، وساروا فيه فعلا. كانوا في حياتهم لا يألفون إلا ما يسخط الله، ما نهى عنه من الشرور، ويبتعدون عما أمر به من الخير. وهذا الارتباط بالشر والبعد عن الخير كون في نفوسهم منهجا، أنهم يكرهون كل ما يؤدي إلى رضوان الله، يكرهون التوحيد، ويكرهون الرسول ﷺ، ويكرهون المؤمنين، ويكرهون الضعفاء والمحاويج والأيتام، ويكرهون البنات. فكل الأسباب المؤدية إلى رضوان الله يبتعدون عنها كراهية لها. ولذا أبطل الله كل ما عملوه من خير قليل، فيأتون يوم موتهم وليس في صحائفهم

أي عمل صالح لأنهم إن قاموا به قاموا به لا عن حب في الخير. أطبقت عليهم أفعالهم الشريرة من كل جانب، فأطبق عليهم العذاب كذلك.

29-أم حسب...أن لن يخرج الله أضغانهم.

تفتح الآية بكلمة "أم" مفيدة الانتقال من غرض إلى غرض آخر، انتقل الحديث من جزائهم المقدر لهم وأحقيتهم له، إلى إبطال ما يجري في ظنونهم. ومفيدة الإنكار عليهم ظنهم وأنه ظن خاطئ منفي لا حقيقة له. ظن الذين فسدت أفكارهم ونفذ المرض إلى عقولهم، أن ما انطوت عليهم نفوسهم من المكر والبغض، والعداوة والحقد يبقى كامنا لا يطلع عليه الرسول، وبذلك يستطيعون مغالطته فيظن أنهم مؤمنون من أوليائه. إن الله سيطلع نبيه على ما يحدثون به أنفسهم من مكر حاقد.

30-ولو نشاء...والله يعلم أعمالكم.

يؤكد ما جاء في الآية السابقة : أن ظنهم بقاء ما في صدورهم من مكر مخفيا لا يعلمه الرسول، هو ظن كاذب. إن الله قادر على أن يجعل لهم علامات ظاهرة تُعَرّف بأنهم منافقون، فيتم افتضاحهم للناس جميعا، ولكن سبقت حكمة الله أن لا يطلع النّاس على ما يجري في صدور الآخرين.

ولكن بما آتيناك من ذكاء وفطنة، وبما قدرناه أن تتفلت ألسنتهم بما يدلك على ما يخفون، فستعرفهم مما يجري في كلامهم من وراء الظاهر المتمكن من عقولهم، فتجد في أسلوبهم وثنايا كلامهم، ما ينبئك بهم.

والله سبحانه العليم بكل شيء يعلم حقيقة أعمالكم، فيجزيكم حسبما قدمتم، ويحاسبكم على ما وراء الفعل الظاهري، إلى القصد الذي به تم الفعل.فيجزي المؤمنين الصادقين الذين أخلصوا لله في فعالهم بالثواب والقبول، ويجزي المنافقين حسب مقاصدهم السيئة، وإن حاولوا إظهار أفعالهم مصبوغة بصبغة الطاعة والخير.

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟
ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ
وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ
فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا۟ وَتَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن
يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

الابتلاء : الاختبار بالتكليف.

حتى نعلم : لنعلم.

شاقوا : خالفوا مخالفة تامة.

تبين الهدى : ظهور ما في الإسلام من الحق

الإحباط : الإبطال.

الأعلون : الغالبون.

لن يتركم : لن ينقص من جزاء أعمالكم شيئا.

بيان المعنى الإجمالي :

نكلفكم بما يبلغكم إياه الرسول، ليظهر ظهورا تطبيقيا الذين يسارعون للاستجابة لما كلفوا به من الجهاد، فيستحقون الأجر وكذلك يتبين الذين يصبرون على ما في الجهاد من مشقة، فيستلذونها ابتغاء مرضاة ربهم. وكذلك نختبركم بتكاليفنا ليتم تسجيل الأعمال التي تقومون بها، ويتم التحدث بها.

إن الذين جمعوا بين أنواع الفساد الثلاثة العظمى: الكفر، والعمل على منع النّاس من الإيمان بالإسلام، وعاكسوا كل ما بيَّن لهم الرسول ﷺ من الحق عقيدة وعبادة وسلوكا، لن يستطيعوا أن يضرُّوا الله، ولو شيئا قليلا. هم في قبضته، نافذ فيهم حكمه، وسيبطل مخططاتهم التي حبكوها للكيد للإسلام، كما سيقلب ما عملوه مما ظاهره الخير إلى هباء لا نفع لهم منه.

بكل تأكيد إن الكافرين الصادين للناس عن اتباع دين الإسلام، والثابتين على كفرهم إلى الموت، لن يغفر الله لهم ما عملوا ولا مطمع لهم في رحمة الله.

إياكم أن يدخل في قلوبكم الوهن، وأن تترددوا أو تفقدوا شجاعتكم. ولا تعرضوا على أعدائكم السلام، وهم يستعدون للقضاء عليكم. فإنكم أنتم الغالبون. والله مؤيدكم لا يسلمكم لأعدائكم. ومع ذلك يوفيكم أجوركم كاملة غير منقوصة.

بيان المعنى العام :

31-ولنبلونكم...ونبلو أخباركم.

أثبتت الآية السابقة أن الله يعلم أعمالنا. وهذا العلم مرتبط بالتكليف، فإنه يتم بواسطة التكليف كون الفعل طيبا مأجورٌ صاحبه، أو سيئا آثـمٌ مرتكبه. يتبع التكليف مسؤولية العبد هل قام بما أمر به على الوجه الذي أمر به، وهل ترك ما نهاه عنه؟ وبهذا التكليف الذي تعلق بكم بواسطة رسولنا، يظهر في الوجود المجاهدون الذين فضلوا

مخاطر الجهاد على القعود، والشجاعة على الخوف. ويظهر مستوى صبر الصابرين في ساحة القتال، كما يظهر الجبناء الذين لم يستجيبوا لما أمروا به من الجهاد. وبالجد في القيام بالتكليف وسرعة الاستجابة يتميز المؤمنون من المنافقين.
ولا يقتصر الأمر على الجهاد، فإن التكليف من ناحية أخرى يبرز أخباركم في التقوى والصلاح، كما يبرز فسق الفسقة. فإن الله بواسطة ما كلفنا به من التكاليف المتنوعة يظهر وضع كل فرد من الإقبال على الطاعة والإسراع إليها، وحب الخير. والصبر على مقاومة دواعي الشهوة والغريزة الهابطة. أو التراخي عما أمر به، والانقياد للشهوة. فالأخبار في الآية بمعنى ما يسجل به فعل الإنسان من الأحدوثة به. فعلم الله سبحانه علم قديم أزلي، ولا يقع شيء في الوجود على خلاف العلم الأزلي، ومع العلم الأزلي فإنه يعلم عبده في الوقت الذي يقوم فيه بما كلفه،أو يهمله ولا يقوم به، فهو ظهور العلم في الواقع حسبما هو ثابت في الأزل.

32- إن الذين كفروا وصدوا...وسيحبط أعمالهم.

اعتنت السورة من بدايتها بكشف المشركين فحقّرتهم وهدّدتهم، ثم أضافت هذه الآية طمأنة المؤمنين بتوهين مكرهم، وإفشال مخططاتهم فلا يصلون بها إلى أغراضهم.
فافتتحت بتعريفهم بالكفر المقرون بالعمل على منع النّاس من الدخول في دين الله. أضافوا إلى كفرهم وفساد عقيدتهم تصميمهم على الوقوف في وجه الإصلاح ومنعه من الانتشار، ثم إنهم بعد أن بين لهم الرسول وجه الحق في العقيدة والطريق المرضي في العبادة، والمنهج الذي يمكن من انتظام أمر الجماعة ويساعدها على الرقي والأمن. صمموا أن يسيروا في طريق آخر، شاقوه، فكان هو ﷺ في جهة، وهم في جهة أخرى معاكسة.
لا تأبهْ بهم فإنهم عاجزون على أن يبلغوا بفسادهم هذا ما يؤثر في الذات الإلهية أقل ضرر. وهم تحت سيطرته، وسيبطل كل مخططاتهم التي حبكوها لكيد الأمة.

33-يا أيها الذين آمنوا أطيعوا...أعمالكم.

نداء للمؤمنين بوصف الإيمان ليعلموا أن ما سيرد عليهم هو من مقتضيات الإيمان، فعليهم أن يحرصوا على هذا المضمون ولا يتهاونوا فيه.
أولا: أمروا بأن يطيعوا الله، ومظهر طاعة الله في الخضوع الكامل لعلي مقامه، والتصميم على تنفيذ أمره واجتناب ما نهى عنه.
ثانيا: أن يعزموا على طاعة رسول الله ﷺ فيما يبلغه عن ربه، وفي بيانه للوحي، وفي اعتباره القدوة الحسنة التي بها يقتدون، وأن سلوكه هو المثال للسلوك الذي يطمئن المؤمن أنه باتباعه يحقق رضوان الله.

ثالثا: أن لا يبطلوا أعمالهم. وإبطال العمل ساحة واسعة، تشمل الثبات على الإيمان ثباتا ينفي كل ريبة وشك. كما تشمل ترك الكبائر المنافية لطاعة الله وطاعة رسوله. روي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: كنا نرى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولا حتى نزل: **ولا تبطلوا أعمالكم**، فقلنا: ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا : الكبائر الموجبات والفواحش، حتى نزل : **إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**[1] فكففنا عن القول في ذلك. وكنا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها. ومن يتتبع الوعيد بالإحباط في القرآن يجده مرتبطا بالكفر، إلا ما جاء في قوله تعالى: **(يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النّبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون**[2]) وسيأتي تأويلها وبيان ما جاء فيها قريبا عند تفسير سورة الحجرات. وقد نص القرآن على أن السيئة تكتب بوزنها وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها قال تعالى:**(من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون**[3]) ومما يحصل للمتتبع للقرآن اليقين بأن الله واسع الرحمة عظيم الغفران، يجمع ذلك قوله تعالى:**(قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم**[4]) فالذي ترجح عندي أن آخر الآية مؤكد لأولها. أمر بطاعة الله وطاعة رسوله، ونهي عن القصد إلى عصيان الله وعصيان رسوله. والمستخف بما جاء عن الله وبما بينه رسوله معرض لإحباط الأعمال. وأما من غلبته شهوته في بعض الأحوال، وتراخت عزيمته فارتكب بعض المعاصي غير مُسْتَخِفٍ بتحتم الطاعة فهو غير مبطل لأعماله.

34-إن الذين كفروا...فلن يغفر الله لهم.

تتفق هذه الآية في مضمونها مع الآية السابقة32 فاجتماع الكفر والصد عن سبيل موجب لإحباط الأعمال، مع هوانهم على الله في الآية32 واجتماعهما موجب لليأس من مغفرة الله في هذه الآية.

[1] سورة النّساء آية 48
[2] سورة الحجرات آية 2
[3] سورة الأنعام 160
[4] سورة الزمر آية53

35- فلا تهنوا وتدعوا...ولن يتركم أعمالكم.

تُثَبِّت هذه الآية قلوب المؤمنين، أمرتهم أن يحرصوا على مصاحبة ما عرفوا به من الشجاعة، وطرد مسارب الخوف. فإياكم أن يدخلكم الوهن والضعف. وقد تكون هذه الآية مشيرة لما كان يجهد فيه المنافقون أنفسهم من بث الأراجيف، وتضخيم قوى الأعداء المتربصين بالإسلام، واختلاق أخبار تزعزع الثقة بالنفس، فليكونوا مستعدين لهذه الحرب النفسية صامدين.

وإياكم أن تدعوا أعداءكم إلى السلام. وهذه الآية تبين قوله تعالى: **(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله[1])** فآية سورة الأنفال تفيد وهن الأعداء وغلبة الجيش الإسلامي، وعلو كلمة التوحيد علوا لا يعوقه الكافرون عن التبشير به ونشر نوره في العالم. فوضع المسلمين وضع المنتصرين، وتبين أن العدو مستسلم حقا، فالإسلام ما جاء لبث الرعب، وإنما جاء لتتم الخلافة في الأرض على العدل والكرامة البشرية. نزلت هذه الآية، والإسلام ما يزال في بداية معاركه مع الكفر الباغي، لم تخضد شوكته. والمنافقون يخيفون المسلمين، ويبثون: أن الخير للمسلمين أن يعرضوا على المشركين السلم، فهي حملة توهينية. ويؤكد القرآن للمسلمين أنهم هم الغالبون. ويقوي عزيمتهم لنفي كل محاولة للنيل منه بقوله تعالى: **(والله معكم)**. ومن كان الله معه انتصر بلا شك. ومع أن الله مؤيدهم، فإنه سبحانه لا ينقص من أجورهم في القتال شيئا، فسيجدون أجرهم وافيا عند ربهم. فضمنت الآية للمسلين النّصر والتأييد في معاركهم مع الشرك، والثواب الأتم عما قدموا.

إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

اللعب: هوما يفعله الإنسان لا لتحقيق منفعة معتبرة.

اللهو: ما يفعله الإنسان منصرفا عن المهمات.

---

[1] سورة الأنفال آية 61

يحفكم : يواصل مطالبتكم ويلح عليكم في ذلك.

الأضغان : جمع ضغن الحقد الشديد.

بيان المعنى الإجمالي :

الحياة الدنيا فاتنة للبشر، مغرية لهم للعَبَثِ من متاعها. نبه القرآن أن المتأمل فيها الذي يزنها بميزان العقل ويبعد العواطف والشهوات، ينتهي إلى اليقين أن قصر الاهتمام بها يحوّل النشاط فيها إلى لعب لا يكسب خيرا. وإلى لهو ليس وراءه غاية. وأن ما يعطي للحياة قيمة، هو الجمع بين صلاح العقيدة بالتصور الصحيح للإنسان والكون وعلاقته بذلك كله، وأن يراقب سلوكه بالالتزام بالعمل الصالح المستجيب لشرع الله. وبذلك يحصل الإنسان على ثواب حسن عقيدته، وجميل سلوكه. ولا يطلب منكم أن تنفقوا جميع أموالكم. ذلك أنه إذا ألح عليكم في التنازل عن جميع أموالكم يكون رد فعلكم ظهور البخل بالمال على ما تقتضيه العقيدة من الطاعة. ويحدث ما يمزق النّسيج الاجتماعي وتظهر الضغائن.

انتبهوا، انتبهوا. إنكم مدعوون لتنفقوا في سبيل الجهاد ما يحمي الدين والدولة والأمة من الأعداء المصممين على غزوكم. وبعضكم يضغط عليه حبه للمال، فيبخل عن الإنفاق في سبيل الله. حُجبت عنهم الحقيقة وغفلوا عن المآل. فإن من يبخل ببذل ماله للجهاد، فإنما ضرر بخله يعود على نفسه، فإن الأعداء عازمون على استئصالكم، وسبي أموالكم. فاستعدوا لهم أقوى استعداد، والمال أحد مقومات الاستعداد. واعلموا أنكم إن توليتم إلى الكفر، فالله قادر أن يعوضكم بقوم آخرين، يثبتون على الإيمان، ويجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ولا يكونون مترددين يوازنون بين المال، ومصلحة الدين والأمة.

بيان المعنى العام :

36- إنما الحياة الدنيا...ولا يسألكم أموالكم.

في الحياة الدنيا طريقان: أحدهما سالك إلى السهولة والهبوط، لا يقتضي من صاحبه بذل مجهود يحصل فائدة من ورائه، كما يلعب الصبيان ليعمروا أوقاتهم، يجرون ويلهثون ويصيحون ويصفقون، وليس لهم غرض إلا اللعب. أو كما يتعب الإنسان من بذل جهد فكري أو عضلي إلى أن يبلغه الإعياء فيستجم بتلهيه بما يذهب تعبه، دون أن يحقق فائدة عقلية أو مادية. ومن خصائص اللعب واللهو أن زمنهما يمر سريعا، وأن اللاعب واللاهي لا هدف له. فالحياة الدنيا إن انحصر هم

الانسان فيها على ما تقدمه من متاع يستجيب لشهواته، فإنه باعتبار كونه إنسانا مستخلفا في الكون ليعمره يكون قد أفنى عمره كما يفنيه اللاعبون اللاهون.

والطريق الثاني الذي تهدف الآية لدعوة البشر إليه: أن يرسم الإنسان لنفسه هدفا في نشاطه، يحقق به لنفسه شيئا من الخير الذي يجده بعد فراغه من كل نشاط، أو يسهم به لخدمة الجماعة التي هو مندمج فيها. كمتنوع ضروب الطاعة لله، والعمل الذي يضيف خيرات تحقق معنى الخلافة، والعلم النّافع والتعليم.

وبما أن من طبيعة الحياة أن عمر الإنسان فيها قصير، وأن ما تَقَضَّى منها يذهب بما صَحِبَه من مسرات أو آلام، وأن الذي يعكس طبيعتها الفانية هو فعل الخير الذي يبقى أثره، فالآية تدعو البشر إلى أن لا يجعلوا حياتهم لعبا ولهوا، بل جدا وصلاحا. ولذا صرحت الآية إثر ذلك بالمنهج الذي يحول الحياة من اللعب واللهو المُمَثِّلين للضياع، إلى ما ينفع الإنسان فيكون للحياة قيمتها، وذلك بأن يجمع الإنسان بين الإيمان والتقوى، فبالإيمان يصلح فكره وروحه، وبالتقوى يصلح عمله ويجد آثاره محققة: الأجر الذي يفضي به إلى الجنة ونعيمها في الآخرة، والشعور بالحياة المطمئنة الراضية في الدنيا.

إذا محضتم حياتكم للإيمان والتقوى تنالون رضوان ربكم، ولا يطلب منكم أن تبذلوا جميع أموالكم للصالح العام.لا يسألكم أن تنفقوا في الجهاد جميع اموالكم.

37- إن يسألكموها...أضغانكم.

من رأفة الله بكم أنه يشرع لكم ما لا يشق عليكم، ولا يَحْمِلُكم على ما لا يُقْبِل عليه إلا الذين تعمق إيمانهم، وكانت الحياة الدنيا وما فيها لا تساوي شيئا عندهم، إذ أن كل همهم الفوز برضوان الله. فهو يكلفكم ما تطيقون، و يؤتيكم أجوركم بالإيمان والتقوى. وهو رؤوف بكم فلا يسألكم بذل كل ما تملكون في الدفاع عن الدين وعن الأمة. لأنه يعلم ما جبلت عليه النّفوس من حب المال والتعلق به. فلو كلفكم التنازل عن جميع أموالكم، ووالى كلما أنفقتم مطالبتُكم بالمزيد، لقام في نفوس بعضكم حب المال، ودفعهم إلى العصيان والشح بما يملكونه. ولترتب على ذلك تمزق المجتمع بحقد الباذلين على من يشح ويبخل بماله، ورد فعل الباخلين بما يسيء للّوّامين، فيؤول المجتمع إلى نزاع وبغض. وهذا من الحكم السياسية في الجباية التي أرشدت إليها الآية، وهي أن يراعي ولي الأمر فيها ما لا يثقل على أصحاب المال ثقلا يتبعه الانتقاض والبغض.

38-ها أنتم هؤلاء...ثم لا يكونوا أمثالكم.

افتتحت الآية بأداة التنبيه " ها" مقترنة بخطاب الحاضرين المنبَّهين، ثم أعيد التنبيه ثانية مع اسم الإشارة للمخاطبين " هؤلاء " وذلك ليقتلع ما في النّفوس من حب مفرط للمال، يدعو إلى الشح به وعدم بذله. وبين لهم أن الإنفاق الذي دعوا إلى التقدم لبذل المال فيه هو إنفاق في الجهاد للدفاع عن الدين وعن الجماعة الإسلامية، فانتبهوا ولا يحجبكم حب المال عن النّظر إلى الخطر الداهم : الأعداء المصممين على الانتقام منكم، وعلى سحق الدين.

اعلموا أن بعضكم يسهم في البذل من أجل الجهاد عن طواعية، وبعضكم يبخل بماله ويمسك يده عن الإنفاق. لا يغرنكم حب المال فيطمس عنكم الحقيقة الكامنة والتي ستظهر في المستقبل، فإن الباخلين إنما يمسكون أموالهم مقدمين لها عن سلامة أنفسهم.والمآل عكس ذلك. إن أعداءكم مصممون على القضاء عليكم وسلب أموالكم، لا يبقون لا على حياتكم،ولا على مكاسبكم. أفيقوا فإن الله هو الغني الغنى المطلق، ليس له حاجة إلى أموالكم، فهو الذي مكنكم منها، الغِنَى الكامل له، تعالى أن يحتاج لعونكم. وإنكم أنتم الفقراء، حاجتكم إلى ما يعطيكم حاجة مستقرة مستمرة.

ثم أكدت الآية مفهوم غنى الله عن بذلهم، فأضافت إليه أنه غني حتى عن ذواتهم، وتَخَيُّلِهم أن الدين يقوى بهم. فإنهم لو لم يثبتوا على الإيمان لما ضر الدين شيء، فصرح بأنهم إن تولوا عن الإيمان ورجعوا إلى الكفر، فلا يضير ذلك الإسلام، فإن الله قادر أن يستبدلهم بقوم آخرين يثبتون على الإيمان ولا تتزعزع عقيدتهم. ثم لا يكونون أمثالكم تحدثهم نفوسهم بالشح بالمال.

08 صفر 1435-13/12/11.

ســــورة الفتح

هذا الاسم هو هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وفي كتب السنة. ووجه تسميتها به ما استهلت به من قوله تعالى "إنا فتحنا لك فتحا مبينا" وهي سورة مدنية حسب الاصطلاح، أن كل ما نزل بعد الهجرة مدني، نزلت على رسول الله ﷺ ليلا، في موضع يقال له كراع الغميم، على ثلاثة أميال من عُسْفان في أرض مكة. ورتبتها الثامنة والأربعون حسب ترتيب المصحف. وحسب ترتيب النّزول الثالثة عشرة بعد المائة نزلت بعد سورة الصف، وقبل سورة التوبة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفتح: النصر المقترن بدخول أرض المغلوب أو بلده.

أنزل : أحلها.

السكينة : الطمأنينة.

الجنود : جمع جند، جماعة المقاتلين.

الفوز : الظفر بالمأمول.

بيان المعنى الإجمالي :

قصد النّبي ﷺ مع ألف وأربعمائة من أصحابه مكة ليؤدوا مناسك العمرة في شهر ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة. يتقدمهم ما أعدوه من الهدي تقربا لله بنحره

بعد إتمام نسكهم. ولما تفطن لهم المكيون عزموا على منعهم، ثم توالى ممثلوهم على النبي ﷺ لمنعه من دخول مكة عليهم وهم غير راضين. وانتهى الأمر بتوقيع هدنة بين النبي ﷺ وبينهم، تتحول فيها العلاقة من الحرب إلى السلم، وأن يعود المسلمون إلى المدينة، ويمكنوا من الاعتمار في العام القادم. ووفى النبي ﷺ بما أمضى عليه، وانطلق راجعا إلى المدينة. وأنزل الله عليه ليلا هذه السورة التي تلاها على الصحابة. كان الصحابة يشعرون بالمرارة لحرمانهم من البيت الذي اشتاقوا إلى الطواف به، وإقامة مناسكهم حوله. فلما سمعوا قوله تعالى: (**إنا فتحنا لك فتحا مبينا**)، استشكلوا الأمر. كيف يكون خضوعهم لإرادة المكيين فتحا. وسألوا الرسول صلى الله عليه وسلم، فأجابهم: نعم والذي نفسي بيده إنه لفتح. اقتنعوا لأن الرسول ما ينطق عن الهوى. أكدت الآية أن ما تم هو فتح مبين، كما ثبت في علمه سبحانه، وأن ما يأتي بعده من خير مرتبط به، ولذلك هو جدير أن يعد أعظم الفتوح وأكثرها بركة على الرسول وعلى الأمة.وأن الله قدر جزاء لرسوله على توفقه في اجتهاده، أن يبشره بأن غفر له ذنوبه ما تقدمت الصلح وما تكون بعده. على معنى أن كل حياته ستكتب له على المستوى الرفيع الذي يبلغه في آخر لحظة من حياته الشريفة. معلوم أن وضع النبي ﷺ يوم تلقيه الوحي الأول : (**إنا أنزلناه في ليلة**،) ووضعه يوم جاهد فحقق انتصار الإسلام وانطلاقه إلى العالم كله، بين اليوم الأول واليوم الأخير مراتب عرج فيها النبي ﷺ حتى بلغ القمة في نهايتها، فكان كل ما سبق يعد نقصا لما تم بعد، فأكرمه الله بأن جعل كل أيام حياته على الدرجة العليا. فهذا ما أقتنع بأنه المراد من مغفرة ما تقدم من ذنبه وما تأخر، ولا يفهم على أنه عصى ربه وسيعصيه، ويغفر له ذنوبه. فالله عصمه من الذنوب إذ هو مقتدى به كل عمل يعمله يعتبر تشريعا لما يرضى الله عنه.

وقدر سبحانه أن يكون الصلح سببا لإتمام نعمة الله عليك فترى في حياتك ما كنت تتشوق إليه من إسلام قومك، وتطهير الكعبة من الأوثان، واستقامة أمر أمتك ووحدتها بعد أن كانوا قبائل متناحرين. وأن يكون سببا لموالاة هدايتك للصراط المستقيم بما ينزل عليك من تشريع يوضح الطريق السليم في الحياة، ويفتح لك مسالك النظر الصحيح فيما يعرض عليك من قضايا.

وينصرك الله على أعدائك نصرا لا يكلفك خسارة كبرى، ويذلهم به فلا يبقى لهم أمل في الانتقاض عليك.

إن الله بلطيف فضله أحل السكينة والطمأنينة في قلوب المؤمنين، فكانت هادئة غير مضطربة، كلما توالى الوحي الذي تلقته الأمة بالقبول، ومن ذلك ما أخبرهم به من

أن الصلح فتح مبين فآمنوا به. وانضم إلى ما آمنوا به من قبل فازداد إيمانهم. والفتح الذي كتبه لكم وآمنتم به يقربه أن الله هو مالك جنود السماوات من الملائكة الذين يرسلهم تأييدا للمؤمنين المخلصين، وهو المالك لجنود الأرض فيلقي في جيش الكفر الخوف من المجاهدين فتسرع إليهم الهزيمة. والله هو الموصوف بالعلم الكامل، يعلم غيب المستقبل، وهو الحكيم ينفذ علمه حسب حكمته في الزمان والمكان.

يزداد الإيمان بما يتجمع من وحداته، لتعظم قيمته عند ربهم فيدخل المؤمنين والمؤمنات بسبب ذلك جنات تتخللها الأنهار. هم فيها خالدون لا يبرحونها، وقد محيت جميع سيئاتهم. وذلك الجزاء هو عند الله الفوز العظيم، قمة النَّجح الذي ليس بعده مقام أرفع.

بيان المعنى العام :

1-إنا فتحنا لك فتحا مبينا.

تستهل السورة مصرحة ومبرزة أن الذي يتكلم و يخاطب هو الله العظيم الأعظم [إنا] وأن مضمون الخطاب فتح ينسحب على الحاضر والمستقبل، ويشمل كل الأحداث التي تتلوه. انتشر بها الإسلام في الآفاق، ودخل به النّاس في دين الله أفواجا. السورة نزلت في السنة السادسة للهجرة. أعلن النّبي ﷺ في مجتمع المدينة أنه عازم على أداء مناسك العمرة. فانضم إلى موكبه ألف وأربعمائة من المؤمنين الذين اشتاقت أرواحهم للكعبة بيت الله الحرام. وقد حرموا من العيش في جوارها ومن الطواف حولها ست سنوات متتابعة.

أحرموا في شهر ذي القعدة من ذي الحليفة قرب المدينة، وساروا يتقدمهم ما أعدوه من الهدي وقد أشعروها فسال على جوانب أسنمتها خيط من الدم معلن لمن يراها أن محلها البيت العتيق. وأن الوفد وفد الله من عُمَّار بيته. قطع الموكب المسافة الفاصلة بين مكة والمدينة، ونزلوا بالحديبية على بعد مرحلتين من مكة. بلغت الأخبار للقرشيين: أن محمدا وأتباعه قاصدون مكة، وهم على مسافة غير بعيدة منها. فأحرجهم الخبر أيما إحراج.

ذلك أن احترام القبائل العربية لقريش، تحقق لها لأنها تقوم على بيت الله الحرام المعظمة من جميعهم. تسقي الوافدين وتعد لهم الطعام في الحج، ولا يطوف أحدهم بالبيت إلا في ثياب المكيين وإلا طاف عريانا. ولا تمنع أحدا من أداء مناسكه. والشهر شهر حرام لا قتال فيه، وتغمد فيه السيوف. والعلاقات بينهم وبين الإسلام قد بلغت من العداء والقتال ما هو معروف. وتمكين المسلمين من أداء مناسكهم

يعتبرونه كسرا لشوكتهم، و انتزاعا لمهابتهم. فالأمر خطير جدا إذ بظهورهم بمظهر الضعف ستعرض تجارتهم التي هي عصب حياتهم إلى الأخطار. فقد كانت قوافلهم تذرع الصحراء لا يفكر أحد في النّيل منها.

أخذت قريش تبعث من أحلافها ومن وجوه رجالها من يعمل على ثني النّبي ﷺ عن قصده، وكلما فاوضه أحدهم ورجع إلى قريش، إلا وأنبأهم بأن محمدا ما جاء لقتال ولا لكسر شوكة، وأنه مصمم على أداء مناسك العمرة، وأضاف مفصلا ما شاهده من الطاعة، ومن الحب والتقدير للرسول. وأخيرا بعثوا سهيل بن عمرو مفاوضا لرسول الله ﷺ على أن يوثق هدنة سلام بينه وبين قريش، تدوم عشر سنوات، وأن يُمكّن الرسول صلى الله عليه في السنة القادمة من الاعتمار، وأن يرجع في هذا العام. وحررت وثيقة الهدنة، ونحر النّبي ﷺ بدنه وحلق شعره وتبعه الصحابة. وتوقف عدد غير قليل من الصحابة الذين كانوا معه في قبول الهدنة التي ظاهرها أن قريشا شرطت شروطا مجحفة بالمسلمين وقبلها الرسول ﷺ. وكان من شأن النّبي ﷺ أن يشاور صحابته قبل أن يعزم على أي أمر، وخاصة في كل ما يتعلق بالحرب أو السلم، ولكنه في صلح الحديبية مضى لما عزم عليه من مهادنة قريش دون أن يستشير أحدا. رأى النّبي القائد الملهم أن الإسلام سيكسب كسبا عظيما بالتزام قريش الكف عن مهاجمة الإسلام، وأن الإسلام يستطيع بمقوماته الذاتية أن ينتشر. وهو ما تم فعلا. يقول الزهري ما فُتِحَ في الإسلام فَتْحٌ كان أعظم من صلح الحديبية، إنما كان القتال حيث التقى النّاس. فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب، وأمن النّاس بعضهم بعضا، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، لم يكلّم أحد يعقل شيئا إلا دخل فيه. ولقد دخل في تلك السنتين، بعد الحديبية، مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر. ويعلق ابن هشام على كلام الزهري بقوله : والدليل على ذلك أن رسول الله خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف.

بعد أن تحلل رسول الله من عمرته، وتبعه الصاحبة، وقفل العمار راجعين إلى المدينة، نزل على رسول ﷺ: (**إنا فتحنا لك فتحا مبينا**). وحسب ما تقدم من عرض، فإن النّبي ﷺ رجع إلى المدينة عقب صلح، هو فقط وثيقة سلام ملزمة للطرفين. فتفهم الآية أن الله وعد رسوله وعدا محققا أن الفتح آت غير بعيد وأنه لاريب فيه، فعبر عنه بالماضي " فتحنا" ولم يقل "سنفتح " نظرا إلى تحققه، فتحدث عنه القرآن على أنه وقع وتم. وجعله فتحا مبينا مؤكّدا، فيقتنع الذين لم تتبين لهم الحكمة في هذا الصلح. فعن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال، لما نزلت "**إنا فتحنا** ":أو

فتح هو يا رسول الله ؟ قال ﷺ: والذي نفسي بيده إنه لفتح. وروايات أخرى عن بعض الصحابة تتفق مع توقف عمر. نعم إن فتح مكة من بعد، وقدوم الوفود من أطراف الجزيرة العربية للمبايعة على الإسلام، وانتشار الإسلام إثر ذلك في الآفاق، كل ذلك كان مستندا إلى صلح الحديبية. تحول به المشركون من الحرب إلى المسالمة، واستل ما دأبوا عليه منذ البعثة من المقاومة الشرسة إلى الاعتراف بالإسلام. وتمكن الدعاة أن يبشروا بدين الله، فأخذ عدد المسلمين يزداد كل يوم، وعدد المشركين يتناقص ويضعف، ونظرا إلى أن تربيتهم لا تساعدهم على الوفاء بالمعاهدات، فإنهم فعلا لم يُوَفّوا بما في جاء في بعض فصولها،مما جعل النّبي ﷺ في حل منها.فتم فتح مكة، ودخلها النّبي ﷺ مع صحابته فاتحا، ناقضا للشرك هادمًا للأصنام قاضيًا عليه قضاءً نهائيا أبديًّا. وخاطب النّبي ﷺ رؤساء الدول الذين هم حوله يدعوهم إلى الإسلام، وسن بعده إلى خلفائه أن يواصلوا هداية النّاس جميعا إلى الدين الخاتم.

إنا فتحنا لك فتحا مبينا – يطلق الفتح على الظفر بالعدو، ودخول أرضه، وإنهاء حكمه. ولا يعتبر الانتصار في معركة بانهزام العدو والظفر بغنائم منه وأسر، فتحا. فلا يقال فتح بدر ولا حنين ولا أحد. فلا تفهم الآية إلا على أن ما تم من الصلح هو نقطة التحول التي بسببها ستتم جميع الفتوح من فتح مكة إلى فتح الأندلس. ولذا وصف بأنه مبين ظاهر ظهورا لا خفاء بعده. وهذا الفتح يسره الله لأجل رسوله [لك] فكان هو المصمم له، المتولي لكل جزئية من جزئياته، يصحبه إلهام رباني يقود فكره ويسدده. فإنه كما ذكر سابقا لم يستشر فيه أحدا من الصحابة.

2- ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر...مستقيما.

لما كان هذا الفتح المحقق لأجل محمد ﷺ، أعقبه بما قدر له عليه من تكريم وحسن جزاء. بهذا الخير الذي لا تحد سعة آفاقه، الممتد مع الزمن إلى أبد الآبدين، تولى الله جزاءك بمغفرة ذنوبك ما تقدم منها قبل الصلح وما تأخر عنه. والرسول ﷺ معصوم من الذنوب، فكيف تحصل المغفرة للذنوب وهي غير موجودة؟ والذي أفهمه: أن هذا وعد الله، ووعد الله لا يمكن أن يبنى على شيء غير موجود، فالوجه عندي: أن النّبي ﷺ جاءه الوحي من ربه في غار حراء. ولم يؤمن برسالته في أول الأمر إلا خديجة وعلي وأبو بكر ﷺ. ثم تتابع الوحي و جهر بالدعوة، وتوسعت العائلة الإيمانية، وأوذي في الله فصبر وصابر. وخرج مهاجرا إلى المدينة وجاهد في الله حقّ جهاده. وعبد ربه كأرقى وأتم ما تكون العبادة. فكان النّبي ﷺ يرتقي في رتب الكمال كل يوم درجات، فهو في وضعه مثلا وهو سائر إلى الحديبية أعظم

وأكمل مما قبله من الأيام، وهو بعد أن أتم الصلح أرقى منه قبل توقيعه، وهكذا فهو في كل يوم يرتقي إلى مقام أرفع، فتجد البون واسعا بين يوم وفاته ويوم بداية نزول الوحي إليه.فبناء على ما ترتب على صلح الحديبية من خير لا يحد للبشرية جمعاء، جعل الله كل لحظات حياته على أعلى مستوى من الفضل والكمال.وكل درجة بالنسبة إليه تعد أحط من الدرجة التي كان فيها. فليست الذنوب المغفورة ذنوب انتهاك لحدود الله، ولكنها رتب الكمال التي تعد كل مرتبة سابقة نقصا بالنسبة لرفيع مقامه بالنسبة للمرتبة التالية.

ويتم نعمته عليك – نعم الله على رسوله نعم روحية أولا، فابتهاجه ﷺ بإيمان النّاس،واهتدائهم إلى الصراط المستقيم، وتمكن الألفة بين أعضاء أمته، هي نعم أخذت بعد صلح الحديبية تنمو وقرت عينه قبل انتقاله إلى الرفيق الأعلى بسيادة الإسلام في جزيرة العرب.

ويهديك صراطا مستقيما – ثبت الله رسوله وهو يواجه مشاكل توحيد الأمة وفض ما يعرض بين أفرادها من نزاع واختلاف، ومقاومة ما يدبره المنافقون من مكايد برعوا فيها. كل تلك المشاكل المتطورة بسعة الداخلين في الإسلام، رتب على صلح الحديبية تأييده في جميعها بما يهديه إلى حلها أفضل حل قاطع لدابر الخلاف، رافع لآثاره السيئة.ومع هذا فإن التشريع يتوالى ليكمل به الدين الصراط المستقيم.

3-وينصرك الله نصرا عزيزا

هو النّصر الذي حقق الله له به وعده، فقد كان جهاده مع الكفر يتم بنصر يعود به الإسلام ظافرا وبأقل الخسائر، ويخذل به الكفر وأهله. فأعز الله محمدا وجيوشه في ساحات القتال، وبما يتبعه من ذل الأعداء.

4- هو الذي أنزل السكينة...عليما حكيما.

إنه سبحانه هو الذي بتفرده بالتصرف فيما ظهر وفيما خفي، أحل السكينة والطمأنينة في قلوب المؤمنين.فجعل منافذ الشيطان إلى قلوبهم منسدة لا يستطيع أن يؤثر فيها بما يشككهم، في أن ما تم بالصلح ليس فتحا مبينا. رجع الصحابة إلى المدينة ولم يعتمروا كما عزموا، والمنافقون بالمدينة يتربصون مثل هذه الأحداث لينفذوا منها إلى إدخال الريبة في القلوب، ولتضخيم الأسى على حرمانهم، فحصنهم الله من ذلك الكيد، بل إنه أضاف إلى إيمانهم بما سبق أن ما تلقوه عن النّبي ﷺ من العقيدة والتشريع، أضاف إلى ذلك إيمانهم بأن الفتح آت قريبا. فازدياد الإيمان ليس في حقيقته، لأن حقيقة الإيمان انتفاء كل ريب مهما كان ضعيفا. وهو

مرتبة لا تقبل الزيادة، وإذا نزل عنها ولو قليلا ذهب الإيمان وانقلب إلى ظن أو دونه من المراتب حسب النّاقص للإيمان قوة وضعفا. ولكن المراد زيادة في أفراد ما يؤمنون به، فتيقنهم أن الله سيفتح لهم فتحا مبينا عنصر جديد انضاف إلى جملة ما كانوا آمنوا به. وكما أن كل فرد منهم مأجور على ما سبق له من الإيمان بالوحدانية، وبصدق الرسول، وباليوم الآخر، وبكل آية في القرآن على أنها حق نزلت من عند الله، وكل تشريع كذلك وهكذا، فأفراد الإيمان قابلة للزيادة، فالسكينة والطمأنينة التي حلت في قلوبهم باعتقاد أن الفتح لا شك فيه رغم أنه لم يحصل، زيادة في الإيمان لهم ثوابها من عند الله.

إن ميزان القوى يوم صلح الحديبية كِفّةُ الكفر راجحة فيه، فإن الشرك هو التصور العقدي المنتشر في الجزيرة العربية، وتأثير القرشيين في جزيرة العرب تأثير كبير. بل إن الضلالات هي السائدة في عقائد البشر. ومحمد وأتباعه في المدينة لا يتجاوزون بضعة آلاف، ولكن القوة الحقيقية هي بين يدي خالق الكون سبحانه، فهو المالك للملائكة يرسلهم بالتأييد لدينه، وهو المالك للجيوش التي يعتز بها الكفر، فيلقي في قلوبهم الرعب فتسرع إليهم الهزيمة، عكس السكينة والقوة في قلوب المؤمنين. قال تعالى : **سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب** [1]– وقال: **سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان**[2]– **وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا** [3]. وقال تعالى: **وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم**[4] –والله هو الموصوف دائما بالعلم الشامل والحكمة البالغة، فنصر المؤمنين مقدر سبق به علمه ويعلم أسباب النّصر والهزيمة، فيوفق المؤمنين ويخذل الكافرين. وهو الذي يجري الأمور بحكمته فينفذها في الوقت المحدد.

5-ليدخل المؤمنين...فوزا عظيما.

ما الذي يجنونه من زيادة الإيمان ؟ جاء الجواب عاما شاملا للمؤمنين والمؤمنات، أنه سيدخلهم بفضل هذا الإيمان المتوالي جنات دار الكرامة والنعيم يوم القيامة، تتخللها الأنهار، لا يكدر نعيمها خوف انقضائها، فهم خالدون فيها لا يبرحونها إلى أبد الآبدين، ويذهب عنهم، أي يمحو من صحائفهم ومن ذاكرتهم جميع ما اقترفوه

---

[1] سورة آل عمران 151

[2] سورة الأنفال آية 12

[3] سورة الأحزاب آية 126

[4] سورة الحشر آية2

من سيئات، فلا يشعرون بالندم المنغص. وما تجمع لهم من فضل من عند الله هو النّجح العظيم الذي لا مطمح بعده لشيء آخر. ونص في الآية على المؤمنات مع أنه من المعلوم أن صيغة الذكور تتناول الإناث، وذلك لأن هذا الثواب المتحدث عنه هو نتيجة الإيمان بما أخبر به النّبي ﷺ من الفتح المبين، وليس على الجهاد الفعلي الذي لا يشارك فيه من النّساء إلا العدد القليل.

وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

التعذيب : إيصال العذاب إليهم في الدنيا والآخرة.

السوء : المكروه، والهلاك والدمار.

الشاهد : المخبر بصدق أو كذب غيره فيما ادعاه.

تعزروه : تنصروه وتؤيدوه.

توقروه : تعظموه.

وتسبحوه : تنزهوه عن كل النّقائص.

البكرة : أول النّهار.

الأصيل: آخر النّهار.

يبايعونك : يعاهدونك.

النكث : النّقض، نقض البيعة والعهد.

بيان المعنى الاجمالي :

تقبل المؤمنون الوعد بالفتح، بالإيمان به، فاستحقوا نزول السكينة في قلوبهم وما عطف عليها. وقابلها المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات بالظن السيء

في الله، وأنه لا ينصر محمدا ولا يحقق له فتحا. فاستحقوا العذاب، وأن ظنهم السيء سيدور عليهم فيهلكهم وينصر الله رسوله ويفتح عليه. وحل عليهم غضب الله فلا يسعفهم بألطافه، وهيأ لهم مكانهم في جهنم في الدار الآخرة. وما أسوأه من مصير. إن الله يتصرف وحده في جنود السماوات والأرض فينصر من يشاء ويهزم من يشاء، وله سبحانه العزة بإطلاق.

ثم توجه الخطاب إلى رسول الله مظهرا كمالاته، إنا أرسلناك وحملناك إبلاغ هدايتنا إلى البشرية قاطبة، رفعنا مقامك فتشهد على أمتك بأنك بلغتها ما أوحي إليك، وليس وراء شهادتك مثبت أقوى، وتشهد للرسل أنهم بلغوا. وتبشر المؤمنين الصالحين بالخير، وتنجز ما تُبَشّر به. وتنذر المكذبين الكفرة ما يترصدهم من خزي وعذاب، وسيحل بهم ما تنذرهم به. لتؤمنوا أيها النّاس بالله حسب التصور النّافي للشرك، المنزه لعلي ذاته عن كل نقص، الموجب له كل الكمالات. ولتؤمنوا برسوله محمد فتصدقوه في كل ما يخبركم به من تشريع وآداب. ولتقوموا بواجب نصرة دين الله، ولتعظموا ربكم توقروه، وتلزموا تنزيهه تعالى كامل أوقاتكم.

لما شاع الخبر أن قريشا اعتدت على سيدنا عثمان بن عفان ﷺ، وكان قد أرسله النّبي ﷺ إلى مكة ليفاوض القرشيين ليسمحوا لرسول الله وصحابته أن يؤدوا عمرتهم مسالمين، بعد أن صدهم المشركون. دعا النّبي الصحابة للبيعة على قتال قريش وأن يصمدوا في القتال صمودا لا هزيمة معه. وتمت المبايعة، وأكدها رب العزة بأن المبايعة تمت بين الله وبين المؤمنين. فهي قد بلغت أقصى درجات التأكيد والسمو. وأن من ينقضها ولا يوفي بها سيكون ضر نقضه على نفسه. ومن أوفى بما عاهد عليه الله من الصبر في القتال، وعدم الالتفات إلى أي شيء سوى الصمود فيه، فإن الله سيحقق له الأجر العظيم الذي يتجاوز كل تصور.

بيان المعنى العام :

6- ويعذب المنافقين...وساءت مصيرا.

كان للوعد بالفتح المبين الذي بشر الله به رسوله ﷺ أثران مختلفان:

أثر في المؤمنين، والمؤمنات، الذين آمنوا به وأيقنوا تحققه، وذكرت الآية السابقة ما جنوه من ذلك الإيمان.

وأثر في المنافقين والمنافقات، والمشركين، الذين ظنوا أن الله لا يفتح على رسوله، فاعتمدوه لإدخال الريبة، منكرين أن يكون الله أخبر رسوله بذلك. وأتصور أن حزب النّفاق في المدينة أخذ ينشر الشكوك فيما أيقن به المؤمنون، وأن السعي الرامي إلى اقتلاع ذلكم الأمل شارك فيه الرجال والنساء، ولذلك عطف القرآن

المنافقات على المنافقين لاستوائهما في الاجتهاد لإدخال البلبلة. وكذلك المشركون لما بلغهم ما أنزل على الرسول أخذوا في السخرية منه، وفي الاستهزاء بالمؤمنين والمؤمنات الذين منعوهم من الالتحاق بالمدينة.

كان موقفهم مما أخبر الله به نبيه من الفتح، التكذيب على أنه نزل عليه شيء من ربه، وأنه اختلاق. وقدموا تصورهم أن النّبي رجع خائبا إلى المدينة فأراد أن يقلب الحقيقة ويجعل ذلك فتحا ليغرر أتباعه، ويجعلهم يتعلقون بالأوهام. وروَّجوا أن قوة القرشيين لا يتصور معها أن يهزموا سريعا فيفتح على محمد وأتباعه فتحا مبينا قاضيا على من اتخذهم أعداء له.

إن هذه الحركة استحق بها المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات العذاب المتواصل الذي افتتحت به الآية. ثم أتبع ذلك بالتصريح بأسوأ وصف فيهم، أنهم ظنوا أن الله لا ينصر محمدا ومن معه ولا يرجعهم إلى مكة فاتحين ظافرين. على أن قوة قريش أعتى من أن يكسرها الله ويهزمها. إن السوء الذي استبعدوا أن يحيق بهم، سيدور فيقع عليهم ويهلكهم وينصر الله رسوله والمؤمنين. وحق عليهم غضب الله بما يتبعه من حرمانهم من ألطافه، ووجبت عليهم لعنة الله وإبعادهم من فسيح رحمته فلا ينالهم منها شيء، وهيأ لهم مقامهم في جهنم. وما أسوأ تلك العاقبة وما أقبح ذلك المصير !

7- ولله جنود السماوات....عزيزا حكيما.

هذه الآية هي نظير الآية الرابعة، إلا أن هذه ختمت بقوله تعالى: **وكان الله عزيزا حكيما**، وختمت السابقة بقوله تعالى: وكان الله عليما حكيما. وموقع هذه الآية يناسبه العزة التي بمعنى أنه غالب بإطلاق، وأن من شكك في قدرته مهزوم.

8←9-إنا أرسلناك...وأصيلا.

هذه أخت الآية الأولى: (**إنا فتحنا لك فتحا مبينا**) فيها يتجلى الله في عظمته وكبريائه، فيخاطب نبيه مقربا له ومنوها به، إنا تخيرناك من بين عبادنا، فأرسلناك شاهدا عليهم جميعا، والحق معك، تشهد على كل فرد من أفراد أمة الدعوة، تشهد وأنت المصدَّق عندنا، بأنك بلغت كل ما أمرناك بتبليغه. كما تشهد على الأمم التي طواها التاريخ بما قابلت به رسلها حسبما أوحينا إليك.فأنت تشهد لهم أو عليهم. وهي مرتبة ما بلغها أحد من خلق الله، خُصَّ بها محمد ﷺ. وهو شاهد على ما بشر به المطيعين من ثواب وتكريم، وشاهد على من كذب بما أنذره به من عذاب أليم، بما ينفي أعذارهم، ويكشف عن العدالة في رفض اعتذارهم أو طلبهم الإمهال.

هذا الرسول الكريم الشاهد على أمة الدعوة بالتبليغ وهو المصدق، المبشر بالخير لمن أطاع، والمنذر بسوء المصير لمن لم يؤمن. يتحقق برسالته أنكم مطالبون جميعا بأن تؤمنوا بالله، وبرسوله. ومحمد أحدكم فهو مطالب بأن يؤمن بالله وبرسوله، فإنه ﷺ كان يقول في تشهده : وأن محمدا عبده ورسوله، وهذا الإيمان موجب للثواب الذي ينال منه رسول الله كما يناله بقية النّاس. وليكون موقفكم الموقف الإيجابي مما جاء به فلا تقصروا في نصر الله ورسوله وذلك بنصر دينه، والحق الذي جاءكم من عنده، وهو معنى وتعزروه. وتوقروا ربكم بتعظيمه التعظيم اللائق به. وتنزهوه عن كل نقص، تستحضرون هذا التنزيه المعبر عن كماله المطلق سبحانه ونفي التشبيه عنه في جميع أوقات حياتكم. فالضمائر كلها تجري في نسق واحد معبرة عن الذات العلية. وفهم بعض المفسرين تفريق معادات الضمائر، فجعلوا تؤمنوا، وتسبحوا عائدين على الذات العلية، وتعزروه وتوقروه عائدين إلى النّبي ﷺ.

10-إن الذين يبايعونك...أجرا عظيما.

تسجل هذه الآية مشهدا من مشاهد صلح الحديبية، ذلك أن النّبي ﷺ أرسل سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى مكة مفاوضا، ليمكنوه وصحابته من أداء مناسك العمرة. واختياره لعثمان لأن له في مكة من الأهل والعشيرة من يحمونه من التعدي عليه. فراج الخبر أن قريشا قتلت عثمان. فعزم النّبي ﷺ على قتالهم، واستعد له بدعوة جميع الحاضرين إلى البيعة على القتال، وأن يصمدوا صمودا ينتهي بالثبات على القتال ولو انتهى بكل واحد إلى الموت. ولما لم يكن عثمان حاضرا وضع النّبي ﷺ يده اليمنى على يده اليسرى، وقال: هذه عن عثمان ثم جاء عثمان فبايع. ونوه الله بهم فقال: إن الذين مدوا أيديهم لمبايعتك على الصمود وعدم الفرار مهما كانت الظروف والأحوال، هم في الحقيقة قد سَمَوْا فاعتبرت مبايعتهم مبايعة لله، وهو عهد بين رب العزة وبينهم. وزاد هذا التنويه قوة بتجسيمه في التصور، يد الله فوق أيديهم. إن التوثق كأنه وقع بين الله وبين المبايعين بدون واسطة. والله منزه أن تكون له يد، فالمعنى أنه راع وحافظ لهذه البيعة، ولذلك سميت ببيعة الرضوان، لم يحضرها منافق ولا مرتاب في دينه.

لما شددت الآية في توثيق بيعة الرضوان، وأن العهد في قوة وقوعه بين المعاهد وبين الله، أضاف إلى ذلك التوثيق في التصور، التصريحَ بعظمة هذه المبايعة، وأن الله يرقبها،وأن من لم يَفِ بها ونقضها فإن ضُرَّ نكثه يعود على ذاته مباشرة. ومن حفظ عهده وأوفى بما عاهد عليه الله من الصمود صمودا لا يثنيه عن الجهاد أي

داع من الدواعي الذاتية، أو الأسـرية، أو الماليـة. فـإن الله تكفـل لـه بـالأجر العظـيم الذي لا تحده حدود، ويتجاوز ما يُتَصَوَّر.

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ
يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ
بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن
يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ
ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا
لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

المخلفون : الذين آثروا البقاء في أهليهم، ولم يصحبوه إلى العمرة.

الأعراب : سكان البادية في جزيرة العرب.

الأموال : الإبل.

يملك : يقدر ويستطيع.

التزيين : التحسين.

بورا : هلكى.

سعيرا : النّار الشديدة الإيقاد.

يملك : يقدر ويستطيع.

بيان المعنى الإجمالي :

أعلم النّبي صلى الله عليه وسلم القبائل التي كانت تسـكن الصـحراء حـول المدينـة، أنـه قاصد العمرة، وحثهم على مصاحبة الركب الإسـلامي، وليكونـوا قـوة يكثـر بهـا عـدد المعتمرين، فلا تمنعهم قريش من زيـارة البيـت وأداء المناسك. ولـم يسـتجب لدعوتـه إلا القليل منهم. وكانوا يضـمرون فـي قلـوبهم أن السـلامة تملـي علـيهم أن يتخلفـوا عنه، إذ قوة قريش ترهبهم. واجتمعت كلمتهم علـى أنـه إن رجـع النّبـي إلـى المدينـة فإنهم يعتذرون إليه بأن القيام على إبلهم وعلـى أسـرهم شـغلهم عـن مصـاحبته وأنهـم يطلبون منه أن يستغفر لهـم حتـى يغفـر الله لهـم تقصـيرهم. أوحـى الله لرسـوله مـا

تمالأوا عليه، ولما رجع إلى المدينة بصلح الحديبية، والانتصار على خيبر، وفوز أصحابه بغنائم كبيرة، جاؤوا حسب ما تقدم من الوحي يعتذرون. فكانوا وهم يتقدمون بمعاذيرهم يعلم الرسول مقدما بكذبهم .

قل لهم قولا يكشف لهم غباءهم وفساد تصورهم. ظنوا أنهم إن حصنوا أنفسهم وقعدوا ثم استغفروا الرسول أن تقصيرهم يصبح كأن لم يكن. وأن الحقيقة خافية عن الله. قل لهم: إن الله عادل يجزيكم عما قدمتم، ولن يستطيع أحد أن يحَوّل حكمه سواء أكان بالضر، أم بالنفع. فإنه تعالى عليم بحقيقة ما أنتم عليه وما جرى في بواطنكم. الحقيقة أنكم ظننتم أن قريشا وحلفاءها سيستأصلون محمدا والعُمَّار معه، وأنه لن يعود منهم أحد إلى المدينة، وأنهم بعد ذلك سيجهزون على المدينة فلا يبقى أثر للإسلام. وهذا التفكير جريتم معه محبوبا لنفوسكم. وبذلك كنتم هالكين في الدنيا. فقد انتصر محمد بصلح الحديبية، ثم بفتح خيبر وبما غنمه من صحبه وحرمتم من ذلك. وكذلك في الأخرى فخسرتم آخرتكم خسرانا لا منقذ لكم منه.

وهكذا فإن كل من لم يؤمن بالله ورسوله، واستمر على كفره فإنه سيلقى النّار الموقدة تنتظره ليأخذ مكانه فيها.

واعلموا أن الله هو المتفرد بملك السماوات والأرض، أوجدها وأعطاها قوانينها، والإنسان جزء ضئيل من هذا الكون. لا يخفى على الله منه شيء. يتصرف فيه حسب حكمته فيغفر ذنوب من يشاء ويمحوها كأن لم تكن. ويلقى المغفور له جزاءه الطيب كاملا غير منقوص. ويجزي من غلب شره وساء ضميره فيعذبه. والله هو الغفور الذي يغفر الذنوب وإن عظمت، وهو الرحيم بعباده فيسعدهم بألطافه ليسيروا على الطريق المستقيم، ويتعلقوا، بالفضيلة فيسعدوا في دنياهم وآخرتهم.

بيان المعنى العام:

11- سيقول لك المخلفون...بما تعملون خبيرا.

أعلم الله رسوله بما سيسمعه من الأعراب المقيمين حول المدينة، الذين تثاقلوا عن الخروج معه وآثروا البقاء في منازلهم وعدم مصاحبته، بعد أن دعاهم إلى أداء العمرة معه وللتقوّي بهم لو اعترضته قريش وصدته عن البيت. وهؤلاء الأعراب هم القبائل المقيمة في صحرائها : غفار، ومزينة، و جهينة , وأشجع وأسلم، والديل. وهؤلاء المتخلفون لم يكونوا منافقين، ولكن الإيمان مازال لم يرسخ في قلوبهم، فرغبوا بأنفسهم عن نصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوروا في أنفسهم أنه إذا انقلب الرسول من عمرته اعتذروا إليه، بأنهم كانوا مشغولين عن أداء مناسك العمرة بإبلهم (أموالنا) وبأسرهم(أهلونا) وطلبوا منه أن يدعو الله ليغفر

لهم تثاقلهم هذا. هذا ما تمالأوا عليه ودبروه فيما بينهم، في الوقت الذي كان فيه النّبي ﷺ سائرا محرما نحو مكة. وأطلع الله رسوله على ما سيسمعه منهم. وهو ما تم فعلا فإنه ﷺ بمجرد ما قفل راجعا من الحديبية، ودخل المدينة بعد انتصاره على خيبر وفوز أصحابه بالغنائم الوافرة منها، أتاه من تخلف من الأعراب يقدمون له المعاذير التي أعلمه الله بها، فكان ذلك معجزة من معجزاته ﷺ. وأجابهم عن طلبهم أن يتقدم إلى الله بالاستغفار لهم بما أمره الله أن يقول لهم: قل لهم قولا يخرجهم من الاعتقاد الخاطئ الذي قادهم إلى ما وقعوا فيه: أنهم يتراخون عن القيام بالواجب، ثم يطلبون من الرسول الاستغفار فيخرجون وكأنهم ما قصَّروا. أعلمهم أن لا يقدر أحد مهما كان أن يحولهم من المحاسبة على ما فعلوا، إن أراد الله أن يصيبكم بما يترتب على سوء أعمالكم. كما أنه لا يقدر أحد أن يحول ما أراده الله من خير للبشر. والله في ترتيب الخير لمن شاء، وترتيب الشر لمن شاء، لا يفعل ذلك اعتباطا بدون موجبات ترجح ما أراده حسب حكمته، ولكنه سبحانه خبير عالم بما تضمرونه، وما تنطوي عليه نفوسكم من مقاصد خيرة أو خبيثة. وبهذا الجواب تركهم في حالة خوف مما قدره الله لهم جزاء تخلفهم، وجزاء كذبهم.

12-بل ظننتم أن لن ينقلب...قوما بورا.

إبراز لما دار في نفوسهم، وما جرى في تفكيرهم، مما أقعدهم عن الالتحاق بركب المؤمنين. افتتح بكلمة " بل" لإعلان أن الكلام انتقل إلى بيان حقيقة، على السامع أن يستيقظ لما يأتي بعد "بل". غلب في تفكيركم أن قوة قريش وقوة حلفائها ستضرب المعتمرين ضربة قاضية تستأصلهم، وتقضي على الدين وعلى الرسول وعلى من معه، فلا يعود منهم أحد إلى المدينة. فكرتم فكانت هذه الفكرة هي التي سبقت لكم، فاستحسنتموها, ولم تفرضوا أي تصور آخر. وظننتم بذلك الظن الأسوأ، فرتبتم أن المشركين سينقضون على المدينة فيهلكون من بقي فيها، وبذلك يقضى على الإسلام قضاء أبديا. والذي تحقق أنكم قوم هَلْكَى. تلبستم بالهلاك حتى صار الهلاك مقوما لكم، فخسرتم الدنيا بانتصار المؤمنين والآخرة بما ستلقونه من العذاب.

13- ومن لم يؤمن...سعيرا.

هذه قاعدة عامة لا تتخلف، أن كل من كفر بالله ورسوله، ولم يدخل الإيمان قلبه، ليكن على علم أن الله قد هيأ له نارا موقدة هي عاقبته التي لا مفر له منها.

14-ولله ملك السماوات...غفورا رحيما.

إن الملك الحق لله، فهو المالك للسماوات يدبر أمرها ويجريها على القوانين التي أبدعها عليها، وهو المالك للأرض ومن عليها. والبشر جزء ضئيل من المخلوقات

التي عمرت بها الأرض. يعلم حقيقة كل فرد، وأعماله، ودوافعه، وغاياته، ومقاصده. لا يخفى على الله شيء ولو قل، ويرتب سبحانه ما تقتضيه حكمته، فيتبع بعض الذنوب التي لم تصل إلى الشرك بمغفرته، ويمحو آثارها من صحائف المذنب، فيلقى ثوابه خالصا من لوث الإثم، فينعم في جنات النعيم. ويلقي في قلبه السكينة والاطمئنان في الدنيا فيعيش عيشة راضية. ويعذب من يشاء ممن كان لوث الإثم متمكنا فيه غلب شره خيره. وهو سبحانه لفضله وكماله كان عظيم المغفرة، واسع الرحمة، ورحمته وسعت كل شيء. وهذا شأن القرآن أن يتبع التخويف بما يوجب الرجاء، حتى يكون الرجاء حاثا على الفضيلة والخير.

سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

انطلقتم : عزمتم على السير.

مغانم : غنائم.

يبدلوا كلام الله : يغيروا حكمه في منعهم.

يفقهون : لا ينفذون إلى فهم الغايات.

حرج : إثم ومؤاخذة.

الأعرج : المصاب في رجله إصابة تعوقه عن الجري.

يتول : يدبر.

بيان المعنى الإجمالي :

أذن الله لنبيه أن يغزو خيبر. وأعلمه قبل توجهــه أن المخلفــين مــن الأعــراب ســيطلبون منه المشاركة في الغزو قائلين : اتركونــا نسـير وراءكـم، طلبــوا ذلــك لا دفاعــا عــن الإسلام ولكن لينالوا من غنائم خيبر، فلا تأذن لهم. وهــذا مــا تــم فعــلا. فكــان جــوابهم لما رغبوا في مسيرهم مع الجيوش الإسلامية لغــزو خيبــر: لا آذن لكــم باتباعنــا. هــذا ما حكم الله به من قبل عرضكم، فأنا علــى علـم مــن ربــي مــن اقتــراحكم هــذا. كمــا أعلمه أنهم سيجادلونكم في منعهم قائلين: إن الحامل علــى منعنــا حســدكم أن ننــال شــيئا من المغانم. وفعلا جادلوا حسب مــا أعلمــه الله. وأن جــدالهم هــذا هــو نتيجــة ضــعف عقولهم، وتعلقهــم بــالظواهر القريبــة، وانصــرافهم عــن النّفــاذ لمــا وراء الظــواهر؛ ففهمهم ضعيف ومحدود. لا تجعل اليأس يحل فــي قلــوبهم فقــل لهــم إنكــم ســتختبرون في المستقبل، وستدعون لمجاهدة قوم شــديدي المــراس متصــلبين فــي كفــرهم، تُــدْعَوْن لقتالهم حتى يسلموا. إنكم إن تطيعــوا الله فــي صــمودكم علــى قتــالهم إلــى أن يــذعنوا للإسلام يوفِّ الله لكم أجــوركم الحســنة. وإن لــم تتوبــوا وواصــلتم التشــبث بمــوقفكم الذي سبق منكم في العمرة يعذبكم عذابا أليما.

رفع الله المؤاخذة عن أصحاب الأعذار الــذين لا يســتطيعون أداء مــا كلفــوا بــه بســبب ما هم عليه من نقــص. كــالأعمى والأعــرج والمــريض. وإن كــان الــنّص واردا فــي رفع المؤاخذة عن عدم القيام بالجهاد، فإنه يشمل كــل التكــاليف الشــرعية. فهــي قاعــدة عامة في التكليف. والمعتبر فــي التكليــف تلقيــه بــالعزم علــى الطاعــة لله ولرســوله. ويتولى الله بفضله جزاء الطائعين في جنات تتخللهــا الأنهــار. وفــي المقابــل فــإن مــن يقرر الانصراف عما أمره به الله يعذبه عذابا أليما.

بيان المعنى العام:

15-سيقول المخلفون...لا يفقهون إلا قليلا.

أقام النّبي ﷺ بالمدينة بعد أن رجع من الحديبية شــهر ذي الحجــة مــن الســنة السادســة، وشهر المحرم من السنة السابعة. وفــي هــذا الشــهر عــزم علــى غــزوة خيبــر. وأراد المخلفون من الأعراب أن يصحبوه في غزوتــه تلــك، لأنــه تــرجح عنــدهم أن الجــيش الإسلامي سينتصر في خيبر، ويغنم غنائم وافــرة.ولكــن النّبــي صــلى الله عليــه وســلم منعهم. ذلك أن الله أعلم نبيــه مقــدما أن المخلفــين ســيطلبون منــه الخــروج معــه فــي غزاته لخيبر.

كان عرضهم، حسبما بسطته الآية، الانضمام إلــى الجــيش الإســلامي لــيس دفاعــا عــن الدين، ولكن لينــالوا حظــا مــن الغنــائم. وتعبيــرهم (ذرونــا نتــبعكم) اتركونــا نســير وراءكم صريح فــي الدلالــة علــى أن عرضــهم: أن يكونــوا تــابعين للجــيش لا فــي

المقدمة،وذلك لشدة تعلقهم بالمال، إذ أن الإيمان لم يسم بهم بعد إلى مستوى العزة، وعدم الرضا بالدون. يريدون بعرضهم تغيير ما قرره الله وأعلم به رسوله، أن خيبر لن يشارك فيها من تخلف عن الحديبية، استبطنوا توهين أمر المسلمين، ورجحوا أنه سيتم القضاء على المؤمنين وعلى الإسلام معا. ومن بديع التعبير القرآني أن لقبهم بالمخلفين، وجعل الحديث عنهم بهذا الوصف الدال على الانخذال لعدم الثقة في نصر الله.

كذلكم قال الله من قبل – إن عرضكم هذا قد أعلمني الله به مقدما ،كما أطلعني مقدما بما زَوَّرتُموه في نفوسكم لما انخذلتم عن موكب المعتمرين، متربصين أن يقضى على الإسلام وتسلمون. فعرضكم مردود عليكم، ولن يتغير ما قاله الله فيكم أنكم ممنوعون من الانضمام إلى جيش المسلمين.

فسيقولون بل تحسدوننا – أعلم الله رسوله أيضا أنهم حين يصدهم ويحرمهم من الانضمام للغزاة، أنهم لا يستسلمون مع الحياء من مواقفهم، بل يواصلون قلب الحقائق فيقولون : إن الذي حملكم على دفعنا عن اتباعكم هو ما تضمرونه من الحسد لنا، أن ننال من الغنائم شيئا. افتضح ما يُكِنُّون، وانكشف أمرهم، وعِلَّتُهم هي رشح غبائهم، فهم لا ينفذون إلى المستوى الرفيع البعيد، بل هم لا يتجاوزون القريب المادي قليل الفائدة.

16- قل للمخلفين...يعذبكم عذابا أليما.

يتواصل التوجه بالخطاب إلى النّبي صلى الله عليه وسلم ليصلح أمر الأعراب، ويحولهم من ضعف الإيمان إلى مستوى قوي منه. قل يا محمد لهؤلاء المخلفين الذين ما يزال إيمانهم ضعيفا، ولوثة التخلف عن العمرة متواصلة معهم، قل لهم قولا يسكب في نفوسهم الرجاء أن يبلغوا الدرجات العالية من اليقين والعمل الصالح: إن الله لم يغضب عليكم، ولم يفصلكم عن الأمة، وأنكم ستدعون إلى الإسهام في نشر الإسلام مع الجيوش الإسلامية، ستدعون لقتال أقوام أصحاب بأس وعناد، تقاتلونهم وتصمدون في النّزال إلى أن يسلموا. ويكون هذا اختبارا لكم، إنكم إن تطيعوا بالصدق في الجهاد، تنالوا الجزاء الصالح الحسن من الله، رضا عنكم في الدنيا، وتيسيرا لأموركم، وكرامة في آخرتكم، وإن تتولوا كما سبق أن صدر منكم لما دعاكم الرسول لتأييده والعمرة معه فآثرتم القعود عن نصرته وانتظرتم انكشاف الأمر بغلبة الجيش الإسلامي أو انهزامه حتى تكونوا مع الفريق المنتصر، إنكم إن واصلتم صدودكم عن الصدق في المواقف الإيمانية، يسلط الله عليكم

العذاب الأليم. فهذه الآية فاتحة لأمل المخلفين من الأعراب، مُعَرِّفَةً أن موقفهم السابق لا يقضي على مستقبلهم، ولكنهم مدعوون إلى نقد ذواتهم وتغليب الخير.

17- ليس على الأعمى...نعذبه عذابا أليما.

هذه الآية محققة لمضمون الآية السابقة، فقد حرج الله على الممتنعين من القيام بواجبهم في الجهاد، وحققت هذه الآية أن المتخلفين ما كان تخلفهم عن عذر، و أن ما اعتذروا به عن التخلف كان معاذير كاذبة علم الله ما حدثوا به أنفسهم، وفضحهم بكشف حقيقتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم. فهم ليسوا كأصحاب الأعذار الحقيقية الذين شملهم الله سبحانه بعفوه ورحمته ولا يؤاخذهم عن القيام بعمومات الأوامر. يتناولهم الأمر ليفوزوا بالأجر على نياتهم وأسفهم على وضعهم الذي حرمهم من الطاعة ؛ ويعذرهم ربهم لأن إمكاناتهم لا تساعدهم على عمل الخير المأمورون به. وصرحت الآية بعذر العمى النّافي للإثم مطلقا في الجهاد وفي غيره من التكاليف التي يعوق القصور عن الإتيان بالمأمور. ولا يتناول رفع الحرج ما لا دخل للعمى فيه من التكاليف الأخرى. والصورة الثانية الأعرج وهو الذي يعوقه وضع رجله عن الجهاد والكر والفر. وكذلك المريض. فنفت الآية الإثم عن الأعمى وعن نظائره مما كانت العاهة معطلة للحاسة عن القيام بوظيفتها في جميع المجالات. وكذلك عن الأعرج وهو عيب ساحة تأثيره محدودة بما يقتضي التنقل. وكلاهما من النّقص المستمر. وكذلك عن المريض في جميع الميادين التي تُقْعِدُ المريض عن القيام بما كلف به. فيشترك العمى مع المرض في التأثير في عدد غير قليل من التكاليف، إلا أن التنصيص على كل منهما يفيد أن التأثير يشمل ما كان المعوق محدودا بزمن وما كان مستمرا.

ثم عقبت الآية هذا الفضل الإلهي الرافع للحرج والإثم عن أصحاب الأعذار، بلفت الأنظار إلى قاعدة مهمة حتى يكون البشر على ذكر منها. وهي أن من يصرف قلبه ومشاعره إلى طاعة الله وطاعة رسوله، يحقق له رب العزة دخول جنات تتخللها الأنهار يوم القيامة، وأن من يولي ظهره فينطلق في الحياة لا يلتفت إلى ما حدده له ربه في سلوكه وعقيدته يسلط الله عليه يوم القيامة عذابا أليما.

۞ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ

وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾
وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾
وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ
ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

الشجرة : هي الشجرة التي بايع تحتها الصحابة على الثبات.

السكينة : الطمأنينة بأن ما وعدهم الله سيتحقق لا محالة.

أثابهم : أعطاهم ثوابا، عوضا هو الفتح..

فتحا : فتح خيبر.

كف : صرف.

الولي : الصديق الموالي.

السنة : الطريقة والعادة.

خلت : مضت.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد تحقق للمؤمنين الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة، في صلح الحديبية على الثبات مهما كانت مقاومة الأعداء، أنهم فازوا برضوان الله. وأنه سبحانه مطلع على صفاء قلوبهم، وصدقهم. إن هذا المستوى الذي هم عليه قد تبعه من فضل ربهم عليهم مع رضوانه، أنه أنزل في قلوبهم طمأنينة طردت كل نوازع الخوف. وجعل جزاءهم فتحا قريبا بتمكينهم من يهود خيبر. بعد أمد قليل من عودتهم من الحديبية. ومكنهم بذلك من مغانم كثيرة يحصلون عليها. إنكم محل تأييد من ربكم العزيز الذي تتحقق إرادته ولا يقدر أحد على معاكسته وفي نصركم نصر للحق. فهو بحكمته أجرى النّصر على أيديكم لكونكم أخلصتم وتعلق همكم بنشر الحق في الكون. وعد ثابت من الله لكم أنه سيمكنكم من مغانم كثيرة متنوعة تحصلون عليها فعلا. عجل لكم مغانم خيبر. و أحاطكم بألطافه فحماكم من أعدائكم يوم تركتم النّساء والصبيان في المدينة، فصرف فكر أعدائكم عن غزو المدينة وقت مغيبكم. وبالتأمل في هذه الألطاف تستيقنون من أن الله معكم، فيكون ذلك آية أخرى دالة على صدق الرسول ﷺ ، وأن الله معه ينصر دينه ولا يُسْلِمُه. وفوق ذلك سيوفق عقولكم وميولكم إلى الطريق الموصل إلى الغاية دون انحراف. ومغانم

أخرى حسب المعطيات لا تقدرون على نولها، ولكن الله الذي تحيط قدرته بالأشياء أحاط بها فطوّعَها لكم تأخذونها بفضله. وقدرة الله لا يغلبها شيء.

إنه بعد تلكم العزمة التي بايعتم بها تحت الشجرة غنمتم رضوان ربكم ونصره لكم. فأحلاف قريش أو أحلاف يهود لو حاولوا الانقضاض عليكم لانهزموا شر هزيمة ولفروا منكم. يصحبهم اليأس من العودة إلى القتال، لأنهم لا يجدون وليا ولا صديقا ولا ناصرا. إن هذ ما عوّد الله به رسله، وستمضي هذه السنّةُ مع الزمن لا يلحقها تغير ولا تبديل.

بيان المعنى العام :

19/18- لقد رضي الله... عزيزا حكيما.

رضي الله...تثبت الآية مؤكدة تحقق رضوان الله على المؤمنين. ليس هناك غاية أسمى من نيل المؤمن رضوان ربه، قال تعالى **ورضوان من الله أكبر**[1] ثم عرضت الآية المشهد الذي ترتب عليه هذا الفوز العظيم [الرضوان]المشهد يرسم صورة النّبي ﷺ في ظل شجرة، والصحابة يتتابعون يمد كل واحد منهم يده ليبايع النّبي ﷺ على الثبات وعدم الفرار مهما اشتد القتال.هي البيعة التي عقبت شيوع الخبر المفيد : أن عثمان رضي الله عنه رسول النّبي ﷺ لقريش ليفاوضهم في تمكين العمّار بقيادة رسولهم من أداء مناسك العمرة. لا يرغبون في الإقامة بمكة ولا محاربة المكيين، وقد أبطأ في عودته، مما أعطى للإشاعة إمكانا للتصديق بها. فقال رسول الله لا نبرح حتى نناجز القوم، ودعا النّاس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة على أن يثبتوا ولا يفروا. وكان عددهم نحوا من ألف وخمسمائة مبايع. ثم قدم عثمان سالما. كان الذين بايعوا تحت الشجرة صادقين، عزموا على الجهاد مهما اشتد القتال. ويشهد الله المطلع على ما يجري في الضمائر بصدقهم. فجازاهم من فضله أن أنزل السكينة والطمأنينة في قلوبهم، لا تحدثهم نفوسهم إلا بالثبات وينتفي من عقولهم احتمال الهزيمة أو الفرار، ومع ذلك تيسير فتح خيبر الذي سيتم عن قريب، هذا الفتح الذي يجمع إلى عزة النّصر تمكنهم من مغانم كثيرة متنوعة غنموا المال والمتاع والأنعام والأرض. إن الذي يسر لهم ذلك هو الله ربهم العزيز الذي لا يستعصي عليه شيء، يهدي بحكمته من رضي عنهم إلى الطرق النّاجحة.

20- وعدكم الله مغانم...ويهديكم صراطا مستقيما.

تخاطب الآية جميع المؤمنين تَعِدُهم بأن الله سيقوي شوكتهم، ويرعب أعداءهم، وأنهم سينتصرون ويجمعون من الغنائم الشيء الكثير. وفي ذلك حث للأعراب

---

[1] سورة التوبة آية72

الذين وُبِّخـوا لعـدم مصـاحبتهم وتخلفهـم، أن صـدق الإيمـان يصـحبه رضـوان الله والأجر في الآخرة، و الغنائم الوافرة بما يتبعها مـن سـعة العـيش. عجـل الله للمـؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة مغانم خيبر.

ومنة أخرى غفلتم عنها، ذلك أنه أحاطكم بألطافـه، فمنـع أعـداءكم مـن التسـلط علـيكم يوم كنتم في الحديبية. ذلك أن الشـجعان رافقـوا النّبـي صـلى الله عيـه إلـى الحديبيـة، وبقي في المدينة النّساء والصبيان والعجزة. ولو هـاجم المدينـة الأعـراب واليهـود يـوم كنتم في الحديبية لحصـلت لكـم خسـارة كبـرى. وكـذلك المشـركون مـن بنـي أسـد وغطفان الذين كانوا أحلافا ليهود خيبر، صـرفهم الله وألقـى فـي قلـوبهم الرعـب، فـتم لكم الانتصار على خيبر دون خسارة.

ولتكون آية...هذه الكفة التي حصلت وانخـذال الأعـراب الأحـلاف عـن نصـرة يهـود خيبر، إنكم بتأملكم فيها تجدون أن ذلك ما كان ليحصل لـولا تأييـد عزيـز مـن الله لكـم، فكانت بذلك آية علامة بينة أن ما وعدكم ربكم من النّصـر يتـوالى مـده، وأنكـم بمنزلـة من ربكم تثقون بأنه لا يهملكم ويدافع عنكم.**إن الله يدافع عن الذين آمنوا**[1].

ويهديكم صراطا مستقيما...فتكون عقولكم متوجهة إلى الوجهـة التـي هـي خيـر، وفيهـا النّجح الدنيوي والأخروي. فلا يكلكم إلـى قـدراتكم ولكـن يسـكب فـي عقـولكم وفـي ميولكم ما يوصلكم إلى مقاصدكم الحسنة دون التواء.

21 – وأخرى لم تقدروا...على كل شيء قديرا.

ومغانم أخـرى منيعـة بكيفيـة لا تصـل قـدراتكم حسـب المعطيـات الظـاهرة مـن الاستيلاء عليها، ولكن الله بقدرته قد أحاط بها من جميـع المنافـذ التـي يمكـن أن تمتنـع بها عنكم. فبهذه القدرة الإلهية تم تطويعها لكـم فـتم لكـم الاسـتيلاء عليهـا. هـل تشـير الآية إلى مغانم يوم حنين، أو ما سـيتحقق للمـؤمنين مـن انتصـارات فـي بـلاد الـروم وفارس؟ الآية صالحة لحملها على كل ذلك، وهو ما تـم فعـلا فـي فتوحـات المسـلمين. وثبت لله دوما أنه القادر على كل شيء.

23/22-ولوقاتلكم الذين كفروا...لسنة الله تبديلا.

تمثل بيعة الرضوان تحولا عظيما في انتصار الإسـلام. ذلـك أن الله أحـل الهزيمـة فـي قلوب المشركين وبشر الله الصحابة بـذلك. إنـه لـو قـاتلكم الـذين كفـروا مـن حلفـاء قريش بعد بيعة الرضوان، فـإنهم سـينهزمون شـر هزيمـة، سـيفرون مـنكم ويولـونكم ظهورهم، وستكون هزيمتهم سـاحقة قاطعـة لأملهـم فـي الانتصـار علـيكم، لأنهـم لا

---

[1] سورة الحج آية 38

يجدون وليا صديقا يعطف عليهم ويقدم لهم العون، ولا يجدون نصيرا يستطيعون الاحتماء به ليعيدوا معه الكَرَّة. تلك هي سنة الله وطريقته والعادة التي أجرى عليها نهاية الكافرين في التاريخ. إنه إذا صدق المسلمون العزم واستقاموا على الطريقة التي شرعها لهم محمد صلى الله عليه وسلم، فإن النصر يكون حليفهم لتكون كلمة الله هي العليا. وهذه السنة والطريقة ماضية مستمرة لا يلحقها تغيير ولا تبديل. ولا يسلم الله المؤمنين للكافرين. فإذا انهزم المسلمون في معركة، فليعودوا على أنفسهم بالنقد الذي يبرز لهم الانحرافات التي ابتعدوا بها عن المنهج.

وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

بطن المكان : يطلق على المنخفض، وعلى وسطه.

صدوكم : منعوكم.

الهدي: ما يهديه القائم بالنسك من الأنعام ليذكيه تقربا لله.

معكوفا: محبوسا.

محله : المكان الذي يحل فيه نحر الهدي.

تطئوهم : الوطء أصله الدوس بالرجل. ويستعمل للدلالة على الإبادة.

معرة : مضرة ومكروه يتبعه سبة واستنقاص.

تزيلوا : تميز بعضهم عن بعض.

الحمية : الأنفة الناشئة عن الاستكبار.

ألزمهم : قدر لهم الثبات على كلمة التقوى.

أهل الشيء : مستحقه.

بيان المعنى الإجمالي :

تفرد الله بالتقدير المحكم، فنزع من نفوسكم إرادة قتال المشركين, ومن نفوس المشركين إرادة قتالكم. فمنع كل فريق من بأس الآخر وتم السلم الذي كان بالنسبة لكم ظفرا لما ترتب عليه من الآثار العظيمة، وانخذل بعده الشرك انخذالا انتهى بالقضاء عليه بعد سنتين. والله سبحانه يرعاكم فيجزيكم عن أعمالكم الحسنة ومنها البيعة خير جزاء.

أعداؤكم هم الذين جمعوا إلى كفرهم منعكم من دخول المسجد الحرام، رغم أنهم ملتزمون بالتخلية بينه وبين قصاده للعبادة. ومنظر شنيع التصق بهم إذ كانت الهدايا واقفة ممنوعة من أن تبلغ المحل الذي تذكى فيه في المروة، لينال من لحومها المحاويج. وإنه لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات مندمجون في أوساط الكفار، لم تكونوا تعرفونهم لمنع المشركين لهم من الالتحاق بالمدينة، وخوفهم على حياتهم إن أعلنوا إسلامهم و ليس لهم نصير، لولا اندماجهم اندماجا غير مميز لهم، مما يترتب على قتلهم مضرة كبيرة لكم، بقتل مسلمين مثلكم مسالمين وإن كنتم لا تعلمونهم. تقتلونهم بغير علم منكم أنكم قتلتم إخوانكم في الدين، لولا هذا لسلطناكم على الكفار. وأمر آخر له حظ في تقديرنا أننا قدرنا إدخال من نشاء في رحمتنا. رحمناكم بتحقيق أهدافكم دون تحمل رزايا القتال، ورحمنا المؤمنين والمؤمنات المندمجين فعصمنا أرواحهم وأموالهم، ورحمنا من كتب له الإيمان ليدخل في دين الله، وينقلب إلى مدافع عن الدين. فهذا الملحظ أيضا هو مما حمى الكافرين من سيوفكم ومن العذاب الأليم النّاتج عن تسلطكم عليهم.

جعل الله قلوب الكافرين مستجيبة للعواطف منحرفة عن العقل والحق، فثارت حميتهم مستكبرة أن يدخل المؤمنون مكة ويؤدوا مناسكهم، وهي حمية لا تستند إلا لتفكير جاهلي يثور ضد الحق. وفي المقابل أنزل الله سكينته في قلب الرسول فأصبح ينظر إلى الأمور بواقعية بعيدة عن العواطف، وكذلك أنزل في قلوب المؤمنين السكينة الراضية بما يقرره رسول الله ﷺ . وثبّتَ المؤمنين على كلمة التقوى : شهادة أن لا إله إلا الله. وكانوا مؤهلين للثبات عليها يستحقون ما يترتب عليها بما سبق لهم من استقامة. وكل ما وقع في الحديبية أحاط به علم الله قبل حدوثه، وجرى على وفق العلم القديم.

بيان المعنى العام :

24- وهو الذي كف...بما تعملون بصيرا.

هو الله وحده الذي بتقديره الشامل للكون كله، المجري للأمور حسب ما هو ثابت في علمه، وحسب حكمته العالية. منع أيديكم من قتال المشركين، وما كان يفصل بينكم مسافات بعيدة، وكف بالمثل أيدي المشركين عنكم فلم يقاتلوكم. إن من يتابع الأحداث والمعطيات يحكم بأن ما ترسخ في قلوب الفريقين من العداء يجعل القتال بينهم أمرا محتوما. المسلمون نازلون بالحديبية بينهم وبين مكة بعض الأميال، تتأجج صدورهم نقمة على قريش لكفرهم، ولمنعهم من أداء مناسك العمرة، والحرم حرم الله.وقريش جمعت رجالها ومقاتليها أكثر من مرة للانتقام من المسلمين وهاجمت المدينة في أحُد وبالأحزاب. فكيف يكون المسلمون معسكرين قريبا منهم، ولا يخرجون لقتالهم ؟ الجواب ما بسطته الآية. هو الله سبحانه المتحكم في القلوب يصرفها إلى الوجهة التي يريد أن تتحقق في الوجود. صرفكم عن مبادرتهم بالحرب، وصرفهم عن-قتالكم، إلى أن تم عقد الصلح. فكان للتقدير العجيب غير المدرك من أعدائكم، فيه فوز لكم بالنتيجة البعيدة أظفركم به عليهم. فكان هذا الصلح في باطن أمره "الفتح المبين " تمكنتم به من العودة إلى الحرم الذي طال اشتياقكم إليه، فقمتم بالعمرة في السنة القادمة تَسْعَوْنَ في سكك مكة آمنين، لا يقدر أحد من أعدائكم أن يمسكم بسوء. وبعد سنتين تم فتح مكة وهزيمة الشرك هزيمة لا قيام له بعدها في البلد الحرام. وكانت شروط الهدنة ثقيلة على المشركين فلم يستطيعوا الوفاء بها، ويسر الله لكم الوفاء بشروط الهدنة، وحولها الله بتقديره لتكون خيرا لكم. فالظفر ليس الانتصار بالسلاح، ولكنه الظفر بالمرغوب المتحقق في هذا المكان المنخفض قرب مكة: الحديبية، وهو مركز " الشمسي" الذي تقوم فيه الرقابة اليوم على الوافدين على مكة حتى لا يدخلها غير المسلمين. تم ذلك والقوى غير متكافئة، وعَدَدُ المسلمين وعُددُهم دون ما للمشركين. فظهرت المنة وكمال التقدير. وقد رويت روايات بينها اختلاف كثير في تفاصيلها اعتمدها معظم المفسرين لشرح الآية. والذي ظهر لي أن الآية بينة متناسقة على النّحو الذي بيناه. والله أعلم.

25-هم الذين كفروا وصدوكم...عذابا أليما.

افتتحت الآية بالضمير "هم" لتمييزهم بما سيرد بعد من تعديهم وما يتبعه من التشنيع بهم على ذلك. هم الذين جمعوا بين الشرك، وبين منعكم من بلوغ المسجد الحرام.

فشناعة ما فعلوه مخزية. ذلك أن ما ثبت في قلوب العرب من تقديرهم للقرشيين، ناشئ عن قيامهم بأمر البيت وتيسير قصاده من مختلف النّواحي ليقيموا شعائرهم هناك. فَصَدُّهم المؤمنين الذين جاؤوا لأداء مناسك العمرة نقض للعقد المتعارف عليه في كامل الجزيرة العربية. وعُطِفَ على صدهم صورة مجسمة لتجاوز الحدود والاعتداء، فالهدايا التي صحبها المعتمرون منادية بأن القادمين ما قصدوا إلا العبادة، وهداياهم تنتظر أن تذكى في المروة لينتفع النّاس من لحومها، فمنعها من بلوغ مكان تذكيتها بالمروة " محلها" صورة قبيحة من فعل المشركين.

ولولا رجال مؤمنون...كان من بين الساكنين بمكة رجال مؤمنون، ونساء مؤمنات، منعهم المشركون من الالتحاق بالمدينة، وكان بعضهم يخفي إيمانهم خوفا من بطش قريش بهم؛ إنكم لو تلاحمتم مع أهل مكة لقُتِل بعضهم في المعركة، فيكون قتلهم موجبا لحصول ضرر لكم في الحاضر والمستقبل؛ بقتلكم مؤمنين مغلوب على أمرهم، وباتخاذ المشركين ذلك وسيلة للتشنيع عليكم بقتلكم مؤمنين مثلكم،يشيعون أن بكم شراهة لسفك الدماء لا يسلم منكم حتى المؤمنين والمؤمنات.وبقاء حرج لا يبرح نفوس القاتلين لهم، فإنه وإن كان قتلهم بغير علم،فإنه لا يكون نفي العلم بإسلامهم رافعا للحرج كليا. فلولا هؤلاء المؤمنون والمؤمنات لما كففنا أيديكم عنهم. والتصريح بالمؤمنات مع المؤمنين ليبرز بصفة أجلى ما يترتب على قتلهن من المضرة.

ومن أسرار تقديرنا كف أيدكم عنهم وكف أيديهم عنكم، وصرفكم جميعا عن القتال، ليدخل الله في رحمته من يشاء من عباده: يدخلكم في رحمته بامتناعكم عن القتال فتسلم لكم نفوسكم وقواكم، وتدخرونها لمواقف أخرى لا بد فيها من القتال. ورحم المؤمنين والمؤمنات المندمجين في مجتمع الكفار فسلموا وسلمن، ورحم من شاء من الكفار الذين قدر لهم أن يُسلِموا بعد ذلك ويكونوا جندا لله.

لو لم يكونوا على هذا الوضع، وتميز المسلمون عن الكافرين تميزا يحصنهم من شر القتال لسلطناكم على الكافرين، فعذبنا الكافرين بأيديكم عذابا أليما.

26- إذ جعل الذين كفروا...بكل شيء عليما.

هذه الآية مرتبطة بقوله تعالى" صدوكم " في الآية السابقة صدوكم عن المسجد الحرام، إذ جعل سبحانه في قلوبهم الحمية والأنفة ولم يحل بينهم وبين هجومها عليهم، وهي أنفة مذمومة لأنها ما استندت إلى دفاع عن كرامة أو عن شرف أوعن عرض، وإنما كانت حمية جاهلية يدفعهم الاستكبار والتعالي عن الحق والتعلق

بأصنامهم، فحميت في نفوسهم ذكريات نزاعهم مع المسلمين، وبغضهم لهم ولدينهم، فثاروا مانعين المسلمين من إتمام ما قصدوا إليه من سنة العمرة.

فمن لطف الله بالمسلمين أن أنزل السكينة في قلوبهم وجعل مداركهم غير مهتزة مندفعة اندفاعا متأثرا بالعواطف، فاطمأنوا إلى ما يأمرهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزالت الثورة من نفوسهم، وإن كان صد المشركين لهم عن البيت الذي لا ملك عليه لأحد إلا لله، مما يدفع النّفوس الأبية لتوقيفهم عند حدهم ولو بقتالهم. وبذلك يظهر جليا إنزال السكينة في قلوبهم.

وألزمهم كلمة التقوى... وجعل كلمة التقوى لازمة لهم مستحضرين لها دوما، وكلمة التقوى روي أنها كلمة " لا إله إلا الله " إذ أن مفهوم التوحيد يسمو بالإنسان فيجعله راضيا غير قلق مرتبطا بالله ارتباطا يدعوه إلى استحضار ما يجب أن يوصف به، وما يجب له من العبادة والامتثال، فتتحقق السكينة التي أنزلها في قلوبهم. ويمكن أن يجعل لفظ" كلمة " مفيدا حقيقة الشيء، أي ألزمهم حقيقة التقوى ففسرت بالإخلاص، وبالوفاء بالعهد وهي تفاسير تتكامل ولا تتناقض.

وكانوا أحق...ألزمهم حقيقة التقوى في الوقت الذي كانوا مؤهلين لها وكانت راسخة فيهم. ألزموا بما يتناسب مع المستوى الذي بلغوه بإسلامهم، وما هو موافق لضمائرهم.

اعلموا أنه لم يحصل في الحديبية حدث إلا وعلم الله سابق لما تم حدوثه، فهم عالم بالماضي والحاضر والمستقبل علما مستويا.

لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ
ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن
دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ
لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ
أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ
وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ
فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ

ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الحق : الغرض الصحيح والحكمة.

محلقين : تحلقون رؤوسكم للتحلل من العمرة.

مقصرين : يأخذ بعضكم من شعر رؤوسهم للتحلل أيضا.

ليظهره : ليعْلِيه. ويشرفه على الأديان كلها.

أشداء : جمع شديد، الصلب الذي لا يتراخى في الحق.

السيما : العَلَامَة.

شطأه: الفراخ المتفرعة عن أصل الساق.

آزره : قواه.

استغلظ : عظم فصار غليظا.

ساق الزرع : الأصل الذي تخرج منه السنبلة، وتتفرع الفروع.

بيان المعنى الإجمالي :

رأى النّبي ﷺ وهو في الحديبية أو قبل خروجه إليها. وهي رؤيا حق لا تأويل فيها، ستتحقق في الواقع كما رأى. أنكم ستدخلون المسجد الحرام، في المستقبل إن شاء الله، وأنتم آمنون تُتِمُّون مناسككم وتحلقون رؤوسكم أو تقصرون من أطراف شعرها. رفع الخوف عنكم بما أحله في قلوب القرشيين من احترامكم ومهابتكم. وأيضا فإن الله علم ما لم تعلموا وأوحاه إلى عبده.هي رؤيا صدق مطابقة لعلم الله. وقبل تحقق دخولكم المسجد الحرام وإتمام مناسك عمرتكم آمنين، قد جعل في تقديره فتحا قريبا لكم تستولون به على خيبر فتخضعونها، وتغنمون أموالها.

تفرد رب العزة الذي أرسل رسوله محمدا، قرَّبه وحمله الهدى الذي به تبلغ البشرية كمالها، وكلفه بتبليغ الدين الحق وبيانه للناس. وبتمام تبليغ الإسلام وبيانه يبلغ الإسلام بالبشرية مرتبة لم تصل إليها مع الأديان السابقة. فهو الحكَم عليها ما يصلح منها للبقاء، وما ينسخه ويبطله. هذه شهادة الله في دين الإسلام. ولا أبلغ ولا أكمل شهادة من شهادة الله العليم علما شاملا بالحاضر والمستقبل.

تصريح بهذا المنوه به الموعود بالنصر والتأييد الحامل للرسالة الخاتمة، هو محمد المنوه به ببيان أنه رسول الله. وجعل هدايته تنفذ إلى البشر الذين صحبوه فحولتهم إلى قوة ضاربة تهزم الكفر والشر، تُقَوِّي قلوبهم على الأعداء فلا تعرف فرارا ولا

خوفا، وتلين مع إخوانهم المؤمنين حتى يرتفع حب الأثرة منها وتغمرها الرحمة والحب. التزموا صادق العبادة فتراهم راكعين ساجدين، غايتهم أن ينالهم فضل الله ورضوانه. برزت آثار تقواهم على وجوههم نورا في الدنيا، وعلامة وضاءة تُعَرِّفُ بهم يوم القيامة.مذكورون في التوراة بصفاتهم تلك. ومذكورون في الإنجيل على طريقته في التمثيل، بأنهم كزرع صادف تربة ثرية وظروفا مساعدة فنما نموا متتابعا، وأحاط بالساق فروع كثيرة زادته قوة،فلم تمل بما تحمله من الحب.ينظر إليه الزراع فيعجبون به. ويحدث غيظا في قلوب الأعداء من الكفار.
الصحابة بمنزلة القرب من الله ؛ وعدهم عفوا عن ذنوبهم، وصفحا عن تقصيرهم، وهيأهم لينالوا منه أجرا عظيما لا يعلم كنهه إلا الله.

بيان المعنى العام :

27- لقد صدق الله رسوله...فتحا قريبا.

رأى النّبي ﷺ في منامه وهو في الحديبية أو قبل خروجه إليها، أنه سيدخل مكة مع أصحابه محرمين، للقيام بمناسك العمرة، هي رؤيا ملتبسة بالحق لا تأويل فيها،بينة محكمة. ولما كانت الرؤيا من الله صادقة فإن الذي سيتحقق بعدها :أنكم ستدخلون المسجد الحرام محرمين بدليل ما سيأتي بعد محلقين ومقصرين. وفي ذكر الحلق والتقصير ما يفيد أيضا أنهم يكملون عمرتهم إلى نهايتها بالتحلل منها.
إن شاء الله. تقرير أن الدخول للمسجد الحرام لم يكن بعد، وإنما هو وعد صدق من رب العزة. وفهم منه الزمخشري أن الآية فيها إرشاد للمؤمنين أن يقرنوا وعودهم المستقبلة بقولهم : إن شاء الله. متأدبين بأدب الله.
محلقين ومقصرين... تتمكنون من أداء عمرتكم غير معجلين فمن شاء منكم الحلاق حلق، ولا يوجد من يستحثه للخروج من مكة. والتقصير أن يقص المعتمر من شعره شيئا للتحلل من النّسك.وأكد المفهوم بقوله: لا تخافون، فأنتم في أمن كامل غير منزعجين. أنزل الله المهابة منكم في قلوب القرشيين فأنتم مطمئنون إلى أن نفوسهم لا تحدثهم بإذايتكم. وبعد ذلك فقد جعل الله لكم فتحا قريبا قبل دخولكم المسجد الحرام معتمرين، وهو ما يسره من فتح خيبر وفوز الصحابة الذين كانوا مع رسول الله في الحديبية بمغانم كثيرة، وهو فتح، إذ أخضع المسلمون يهود خيبر، وغنموا أموالهم.إذ لم يكن بين فتح خيبر وصلح الحديبية إلا زمن قليل وقريب.

28-هو الذي أرسل رسوله...بالله شهيدا.

هو المتفرد بالوجود الكامل: الله رب العالمين، هو الذي أرسل رسوله محمدا، قرَّبه وأوكل إليه أن يكون مبلغا لوحيه، وللطريقة التي يريد بيانها للناس ليكونوا أقدر

على الخلافة في الأرض التي خلق البشر من أجلها. فصحبه من عنده الهدى الذي تتكشف به الحقيقة ولا تختلط بالباطل، وهو الذي حمله إبلاغ دين الإسلام وتبيينه للناس.وهو الدين الحق الذي بلغ في التصور العقدي أبلغ درجة من النّقاء، ومن طرق العبادة أعظمها إخلاصا، وأبعدها عن الشرك. ومن الأخلاق ما يجمع البشر على التعاون ويقوي عرى التآخي بينهم ونظافة السلوك. جمع ذلك في الدين الإسلامي الذي بعثه به، ليكون هو وحده الذي بلغ القمة، ولم يبلغ أي واحد من الأديان السابقة منزلته. يحكم عليها فينسخ منها ما المصلحة في نسخه، ويقوم أفهام أصحابها فيبعد الانحرافات التي ألصقت بها. وشرف الإسلام بكمال الهداية وختمها. بهذا شهد رب العزة العليم أن الحقيقة تدرجت على ألسنة الرسل حتى بلغت كمالها على لسانك يا محمد. وهل توجد شهادة أحق وأتم من شهادة رب العزة الذي لا تخفاه خافية.

29-محمد رسول الله...مغفرة وأجرا عظيما.

في الآيتين السابقتين تسجيل لعناية الله برسوله، وأنه وعده وعدا صادقا، فيه بشارة بدخول المسجد الحرام مع صحابته، وإلقاء المهابة في قلوب المشركين. ثم نوه به تنويها أفصح عن سمو مقامه ﷺ وأن رسالته حاكمة في كل ما تقدمها من الشرائع، وإذ اكتملت صورة رفيعة وضيئة تعددت مزاياها، واختصت بخصائص لا يشاركها فيها غيرها، آذن الكلام بالإفصاح باسم هذا المنوه به : هو محمد رسول الله. جعلني الله وإياكم من المشمولين بشفاعته المحبين الخالصين له وللدين الإسلامي الذي رسخه في الإنسانية. لقد قيض الله له صحابة أخيارا أبرارا رضوان الله عليهم أجمعين. من صفاتهم :

أ: أنهم معه ملازمون له، تأدبوا بأدبه وأخذوا نور الوحي منه بدون واسطة، وأثر في عقولهم وسلوكهم، فكان سَمْتُهُمْ أقرب ما يكون لسمته. وحول نفوسهم من النّفسية المتغطرسة الأنانية الجاهلية المعتزة بذاتها وأمجادها، إلى النّفسية المصقولة بأدب الله، تحب الحق وتخضع له، وتبغض الباطل وتقاومه، لا تشغلهم الدنيا عن الأخرة، ولا يزهدون فيها زهد المعرضين.

ب:ترى من شجاعتهم، وقوة بأسهم، واندفاعهم لهزم الكفر، ونصر التوحيد، وهم يجاهدون في سبيل الله في ساحات الوغى، تراهم وكأنهم لمضاء عزيمتهم قد انسلخوا من جنس البشر، وتحولوا إلى قوة ضاربة لا تقوم أمامها مقاومة.

جـ: بجانب تلكم الشدة،نفوس رحيمة أندى ما تكون الرحمة في علاقتهم بإخوانهم المؤمنين، كما وصفهم الرسول ﷺ وقد خَبَرَهُمْ : مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم

وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد حديث 8155 فتح القدير أخرجه مسلم والبخاري وأحمد.انكسرت دواعي الأنانية ليحل محلها اندماج اجتماعي رفيع.

د: إن الذي حول تلكم النفوس بسرعة فائقة، فامحى ما لصق بها في عمر الطفولة والشباب والكهولة من لوث الجاهلية،هوما طبع به النبي صلى الله عليه وسلم أرواحهم من التعلق بالله، والآن به قلوبهم لذكر الله. ترى أولئك الأقوياء الأشداء خاشعين لله كأفضل ما يكون الخشوع، بين ركوع وسجود، يطلبون شيئا واحدا أن يكرمهم ربهم بفضله، من التوفيق والتسديد والسكينة،وأن يبلغهم مرتبة رضوانه بما يصحبها من التقريب، وحسن الجزاء، والفوز يوم القيامة.

هـ: جمعوا بين نقاء الباطن، وحسن السمت،وجمال المظهر.برزت على وجوههم علامة مسجلة وناطقة بما هم عليه من العبادة الخاشعة. ماهي هذه العلامة؟ يرى بعضهم أنها ما يلصق بجباههم من التراب. ويحملها بعضهم على ما يتأثر به جبين البعض من كثرة التصاقه بالأرض، تثبت في بعض الجباه تبعا لاختلاف تأثر الجلود. ويحملها آخرون على النور الذي تشرق به وجوه العباد المخلصين بالليل. عن عطاء رضي الله عنه استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل. ومن كثرت صلاته بالليل حسن وجهه في النهار. ويراه بعضهم هوما يكسو الوجوه من صفرة هي من آثار خشية الله و قيام الليل وطول التهجد. وحمله بعضهم على النور يوم القيامة. وهي محامل تتكامل ولا تتناقض.

ذلك مثلهم في التوراة– ذلك، ما ذكر من صفاتهم هي تلكم الحالة العجيبة التي بسطت لكم مثبتة في التوراة. فقد بشر بها موسى عليه السلام قومه ليكون أخلاقهم مستعدين للانضمام إلى الحق الذي جاء به محمد ﷺ.

ومثلهم في الإنجيل... كما ذكرت صورتهم في التوراة فكذلك ذكرت صورتهم العجيبة في الإنجيل على لسان عيسى. ذكر عيسى عليه السلام للحواريين : أن الله سيبعث قوما يؤيدون الرسول الخاتم، وأمرهم عجيب، إذ مثلهم كمثل زرع توفرت له أسباب النماء والتطور إلى أن بلغ منتهى كماله. رمت الحبة بعروقها في الأرض الصالحة فارتفع رأسها فوق الأرض، ثم أحاط بها فروع قوت الأصل وثبتته، فإذا هي حول الساق تمسكها وتقويها. وما تزال تنمو وتشتد حتى غلظت الساق الأولى، وقام الزرع مستويا غير مائل لصلابة الساق بما حف بها. إنه مظهر بهيج، ينظر إليه الزراع فيعجبون بصورة الخصب التي تمت في هذا الزرع. وهذا شأن كل أصحاب اختصاص يقفون وقفة الإعجاب على الصورة الكاملة في نوع اختصاصهم

ليغيظ بهم الكفار – وإذا كان مـا تـم للـذين معـه مثيـرا للإعجـاب والتنويـه، فتزيـد الصورة كمالا إذا وقع التصريح بتأثير ذلـك فـي قلـوب أعـدائهم. إن كمـالاتهم أفضـت إلى إغاظة أعدائهم، فهم يتحرقون للمستوى الذي بلغوه حسـدا مـن بعـد مـا تبـين لهـم الحق. ذكر القرطبي عن عروة الزبيري قال : كنا عند مالـك بـن أنـس فـذكروا رجـلا ينتقص أصحاب رسول الله ﷺ فقرأ مالك محمـد رسـول الله،إلـى أن بلـغ ليغـيظ مـنهم الكفار.فقال مالك :من أصبح من النّاس في قلبه غيظ علـى أحـد مـن أصـحاب رسـول الله ﷺ فقد أصابته هذه الآية.

وعد الله... تختم السورة بهذا المقطـع مـن الآيـة لتفصـح عـن الغايـة مـن هـذا التنويه والثناء عليهم، إنهم محل وعد كريم لا يخلف، مبنـاه أن الـذين آمنـوا إيمانـا نقيـا صادقا، وعملوا الصالحات فألفوا الصلاح والخير فيمـا يصـدر عـنهم، وتطهـروا مـن الفساد والشر ؛ من هذا النّوع المتميز من البشـر. وعـدهم مغفـرة لمـا يمكـن أن وقعـوا فيه من التقصـير، فضـمن نقـاء صـحائفهم بواسـطة المغفـرة مـن كـل مـا يوجـب المؤاخذة، ووعدهم أيضا أجرا عظيما، يـذهب التصـور فـي عظمـه كـل مـذهب دون أن يدرك غاية مداه، إذ وصـف العظمـة مـن العظـيم الكامـل، تقصـر المـدارك عـن تحديده.

سورة الحجرات

هذا الاسم هو الذي عرفت به في المصاحف وفي كتب السنة. ووجه تسميتها به ورود لفظ الحجرات في الآية الرابعة. ولم يذكر في القرآن في أي موقع آخر. وهي سورة مدنية باتفاق. ورتبتها التاسعة والأربعون حسب ترتيب المصحف. وحسب ترتيب النّزول الثامنة بعد المائة. نزلت بعد سورة المجادلة وقبل سورة التحريم. وكان نزولها سنة تسع من الهجرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ
(1) يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ
كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (2) إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ
أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ
عَظِيمٌ (3) إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ
أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (5)

بيان معاني الألفاظ :

لا تقدموا: اتبعوا ولا تسبقوا.

رفع **الصوت** :الجهر به جهرا يتجاوز المعتاد.

الحبط : فساد العمل بعد تقرره.

بيان المعنى الإجمالي :

حركت الآية المخاطبين بدعوتهم بوصف الإيمان حتى لا يتجرأوا على تقديم آرائهم على ما يقرره الله ورسوله لما في ذلك من تنكر للعبودية ولما يفرضه مقام الخالقية. وإن ما يساعد المكلف على الامتثال، ملازمة التقوى، وتذكره أن الله يسمع منه كل حركة بلسان أو بعضو، وأنه عليم بما يجري في الصدور من نوايا.

ثم دعا المؤمنين ثانية بوصف الإيمان ليتأدبوا في خطابهم لرسول الله، فإذا كانوا في مجلسه، فلا يرفع أحدهم صوته فوق صوت النّبي فيؤذيه بسوء أدبه.ويشوش على الحاضرين فتختلط الأصوات ولا يبلغ الهدي النّبوي للحاضرين بصفة واضحة. وإذا توجه أحدهم إليه بالخطاب فليلتزم أدب الخطاب بعدم الجهر بالصوت جهرا يدل على الفظاظة، وليتأمل في منطقه فلا يستعمل الكلمات التي لا تدل على كمال التوقير. إن من يتهاون بهذا الأمر يعرض ما قدمه من صالح الأعمال للإحباط فتكثر سيئاته وتقل حسناته ويقدم على ربه بميزان مختل غلب فيه الشر على الخير، فيخسر خسرانا مبينا، دون أن يشعر بما انحدر إليه من الابتعاد عن الفضيلة.

إن الذين ذُكِّروا فطبقوا ما ذكروا به وغضوا أصواتهم عند رسول الله، وتخيروا من الكلام أحسنه وأنبله، أولئك الذين اختبر الله قلوبهم لتجري على التقوى فنجحوا في الامتحان، جزاؤهم مغفرة من ربهم لما صدر عنهم من تقصير، واستحقوا الأجر العظيم.

سجل القرآن صورة من جلافة الأعراب مع سيدنا رسول الله ﷺ. ذلك أن وفدا من بني تميم قدم المدينة، فوصلها عند الظهيرة ودخل المسجد وكان النّبي ﷺ نائما في بيته، فأخذ بعضهم يصيح: يا محمد اخرج لنا. إن نداءهم من وراء حجرات أزواج الرسول يدل على أن الرافعين أصواتهم لم يمرنوا عقولهم بما تقتضيه الآداب الاجتماعية، وأن مستوى تفكير أكثرهم ضعيف. فإنهم لو كانوا أصحاب عقول ذكية لانتظروا رسول الله في المسجد حتى يخرج إليهم ليخاطبوه في الغرض الذي جاؤوا من أجله. وكان هذا خيرا لهم من العجلة.وبسط الله لهم الأمل في فضله حتى لا ييأسوا من جريرة تجاوزهم حدود الأدب مع رسوله، فإن الله عظيم المغفرة واسع الرحمة.

بيان المعنى العام :

1←3-يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا....وأجر عظيم.

افتتحت السورة بقوله : **يا أيها الذين آمنوا**، وتكرر هذا النّداء خمس مرات في السورة، هذه أولاها.وفي النّداء بوصف الإيمان ما يرشد إلى أن ما سيرد بعد النّداء هو من مقتضيات الإيمان، مما يحتم الاستجابة والتنبه وعدم الغفلة.والنداءات الخمس تمثل نظاما خلقيا يحول المؤمنين عما ألفوه قبل الإسلام إلى طريقة تسمو بهم إلى المستوى الديني والحضاري المرضي.

- **النّداء الأول في الأدب مع الله**

لا تقدموا الداخل في دائرة النّهي، يحتمل أن يكون المراد منه لا تقدموا أي شيء مما يقع في النّفس بين يدي الله ورسوله فيكون سابقا ومقدما عليه. على معنى أن المخاطبين كانوا قبل الإسلام يتبعون شهواتهم، وما تدفعهم إليه غرائزهم، وما استقر عليه أمرهم من عادات جاهلية، ويعتمدون سلم قيم هو من نتاج ما تقدم، يحكمونه في اختياراتهم و يتبعونه. فدعتهم الآية بنهي واحد أن يتركوا ذلك المنهج، ويلتزموا أن يكون المرعي في كل قول أو فعل في حياتهم، ما يصل إليهم من الله بواسطة رسوله محمد عليه الصلاة والسلام. وفي الجمع بين الله ورسوله تحديد أن اتباعهم لله لا يكون حسب ما تمليه عليه عقولهم، وما يقتضيه تدبيرهم ونظرهم، ولكن حسب ما يبينه رسوله. فطاعة الرسول هنا هي المحددة لطاعة الله. فهذا أدب مع الله، صور القرآن المنهي بصورة فيها قلب شنيع لمقتضى الإيمان. إن الإيمان عقيدة راسخة تثبت أن الله هو الخالق، والإنسان مخلوق له، وكل ما في الكون هو من خلقه. فجَعْلُ الخالق مؤخرا يسبقه الإنسان ليقرر ما يشاء صورة مرفوضة وقبيحة. والمعنى أن لا تقطعوا أمرا إلا بعد أن يحكم به الله ويبلغكم إياه رسوله ويصدر الإذن به، فتكونوا بذلك عاملين بالوحي المنزل و مقتدين برسول الله ﷺ.

ولما كان المقام مقام تأديب أتبع القرآن النّهي بالأمر المساعد للمكلف على التوقي من المنهي عنه. فأمر بالتقوى لأنها الحصن الواقي من الوقوع في التقدم على الله ورسوله. ذلك أن التقوى عبارة عن استحضار المكلف دائما صلته بخالقه، وأنه عبد له، وأنه مطلع عليه، فشعوره بهذا الارتباط يساعده على تنفيذ أوامره والابتعاد عن نواهيه. قال تعالى : **(إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون)** [1] وختمت الآية بالتنصيص على أن الله سميع عليم.وفي ذلك ضرب من التأكيد على التوقّي من التقدم على الله ورسوله سواء أكان ذلك معلنا أو كان خفيا، فإن الله يرقب ثم يجازي كل من تقدم.

إن بعض المتجرئين على الفتوى في زماننا تقدموا على الله ورسوله ملبّسين بأن المصلحة العامة تقتضي ما ذهبوا إليه، دون أن يعرفوا الحكم السابق لله في القضية. وهم بذلك يفتاتون على شرع الله.فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون. ولو كان الحكم الشرعي ما يتراءى للناظر من المصلحة ويحكمها، لما وجد أي فرق بين الإسلام وبين غيره من النّحل والمذاهب والأديان. لأنهم جميعا يصدرون عن المصلحة في دعواهم، واختلفت آراؤهم وأحكامهم وتقديراتهم.

---

[1] سورة الأعراف آية201

- **النّداء الثّاني في الأدب مع رسول الله**

تكرر النّداء بـ"يا أيها الذين آمنوا لما ذكر في الآية السابقة. وفي هذه الآية تأديب لهم في طريقة كلامهم بحضرة النّبي ﷺ. من شأن الشعوب غير المتحضرة أن تختلط أصواتهم في مجالسهم، ويحاول من يرغب في الاستيلاء على المجلس أن يجهر بكلامه فوق الآخرين. وكان الصحابة يحضرون مجالس رسول الله ﷺ، وبعضهم يحدث بعضا وترتفع أصواتهم. ومجلس يرأسه الرسول حقيق بأن يكون على أكمل مظهر، وأتم أدب.هو قائدهم ومعلمهم وداعيهم إلى رياض التقوى وإلى المنهج العقلي الرصين الذي يخمد لهب العواطف. فحقيق بهم أن يعرفوا لرسولهم قدره عمليا كما عرفوه نظريا، وأن يكون من توقيرهم له أن لا يرفع أحد صوته فوق صوت النّبي ﷺ كما يكون الحديث في حضرة المهيب المعظم.وإنه مع ما في ذلك من سوء الأدب، فإن الصوت الجهير يحرم الآخرين من أن يبلغ كلامه ﷺ للحاضرين واضحا متميزا، فيفوت على الجالسين حوله خير كثير.

ولا تجهروا له.... من تمام أدب الخطاب نهتهم الآية عن الجهر بالصوت عند خطابه بما اعتادوه عندما يكلم بعضهم بعضا، الخطاب الخالي من مراعاة جلالة المخاطب وعظم مكانته عند ربه، وانحطاط سائر الرتب عن مقامه الرفيع. وعمل هذا الأدب عمله في القوم فتأدبوا به. فكان أبو بكر ﷺ يخاطب النّبي صلى الله عليه كأنه يسارُه كما روي ذلك في البخاري. وكان عمر ﷺ يخفض من صوته حتى إن النّبي يستفهمه ليتبين ما خاطبه به.وأن ثابت بن شماس ﷺ كان بأذنه وقْرٌ وكان جهوري الصوت فكان إذا تكلم رفع صوته، فافتقده النّبي ﷺ من مجلسه فدعاه وسأله فقال: يا رسول الله أنزلت إليك هذه الآية وأنا رجل جهير فأخاف أن يحبط عملي.فقال له رسول الله ﷺ : لست هناك، إنك تعيش بخير وتموت بخير، وإنك من أهل الجنة. وليس الغرض برفع الصوت ما يقصد به الاستخفاف لأن ذلك كفر. والمخاطبون على أعلى درجات الإيمان والتقوى.

أن تحبط... نهيتكم رفقا بكم خشية أن تفسد أعمالكم الخيرة التي قمتم بها فتذهب أجوركم عليها. فإن بعض الآثام تفسد القلب حتى يرسخ فيه التهاون بما يرضي الله، ويستخف الإقدام على معصيته، فتقل مبراته وتكثر سيئاته ويهوى شيئا فشيئا في الشر والرذيلة والإثم حتى يغلب عليه الشر.فيقدم يوم القيامة على ربه وقد أصبح ميزان سيئاته راجحا. فليحذر المؤمنون من التهاون بتوقير النّبي ﷺ وبكل ما يتصل به من صحابته وأسرته. فإن المآل لمن لم يوقره حق التوقير، ويقدر فضله على البشرية حق التقدير، المآل الخاسر حسب ما ذكر في هذه الآية. وإذا كان الجهر

بالصوت في خطابه بهذه المنزلة فما بالك بما سواه مما هو أشد في عرف الخطاب. وكثير من النّاس في زماننا يتحدثون عن العرب حديث الاستخفاف، ويعللون انخفاض وضعهم السياسي والعلمي بأنهم عرب. ورسول الله ﷺ عربي فمحقر الجنس العربي بمعرض انطباق الآية عليه.

3 وهذا شأن القرآن في القضايا التي يوليها مزيدا من العناية، فيهيئ بالنهي النّفوس بطرد الصورة الفاسدة، ثم يثني بالأمر بالصورة الحسنة الممدوحة. إن الذين استجابوا للأدب الإلهي في مخاطبة الرسول، ولم يرفعوا أصواتهم وتخيروا من الكلام ما يليق بعلي مقامه أولئك الذين اختبر الله قلوبهم لامتحان التقوى، فنجحوا وظهرت تقواهم. وبثباتهم على التقوى تأهلوا للجزاء الذي طمح إليه المتقون، محو آثار التقصير، والثواب العظيم الذي لا يعلم مقداره إلا مسديه.

4←5: إن الذين ينادوك...والله غفور رحيم.

هؤلاء جماعة من الأعراب من بني تميم قدموا إلى المدينة سنة تسع من الهجرة. تروي كتب السيرة قصتهم ونزول الآيتين فيهم. بعث رسول الله ﷺ بشر بن سفيان لقبض زكاة بني كعب، فمنعهم بنو العنبر، فبعث عيينة بن حصن في خمسين من العرب ليس فيهم أنصاري ولا مهاجري، فأسر منهم أحد عشر رجلا، وإحدى عشرة امرأة وثلاثين صبيا. فقدم وفد منهم لفداء أسراهم.

دخلوا المسجد عند الظهيرة وكان النّبي ﷺ نائما في إحدى الحجرات التسع لنسائه، وكانت في منتهى مسجده على يسار المحراب. وبجلافة الأعراب وقفوا وراء الحجرات ونادوا بصوت مرتفع : يا محمد اخرج لنا. كانت طريقتهم في نداء النّبي ﷺ طريقة جافية فيها تجاوز مرفوض على مقام النّبوة، دعوه كما يقف البدوي وراء الخيمة وينادي مخاطبه بصوت جهير. سجّل القرآن ما صدر عنهم لينبه المؤمنين على ما في ذلك من قلة الأدب، ولتكون متممة لما شرع لهم من توقير لسيدنا رسول الله. نهاهم عن رفع أصواتهم في مجلسه وعن مخاطبته بجهير الصوت، ونوه بالذين غضوا أصواتهم عنده توقيرا وحبا. فكانت هذه النّاحية الرابعة التي شنع فيها على الذين تجاوزوا حدود الأدب مع سيدنا رسول الله ﷺ. ووصفهم بأن أكثرهم لا يعقلون، إما على معنى أن أكثرهم تمكنت فيهم البداوة فبقيت عقولهم ساذجة ضعيفة لم تسم بالمران الاجتماعي. فهم لبقائهم على أصل الخلقة كأنهم لا عقول لهم. أو لأن الفاقد للأدب كأنه لاعقل له. ونسب ذلك إلى الأكثر لأن من الوفد من كان حظه من العقل غير منقوص. ومن شأن القرآن أن يتبع الصورة المرفوضة بالصورة الحسنة حتى تستقر في أذهان السامعين. كان عليهم أن ينتظروا رسول الله

ﷺ حتى يخرج لهم فيعرضوا عليه ما جاؤوا من أجله. وهذا خير لهم من العجلة والوقوع في المكروه. وأشار إلى أن عدم تحليهم بالصبر الذي يدل على كمال العقل لضبط النفس حتى لا تنطلق مع ما تشتهيه، وهو الذي وقعوا به في التجاوز المرفوض. وختمت الآية بالتذكير بأن الله غفور يعفو عن سيئات التائبين يعذر عباده رحمة بهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ
عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ
ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ
وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ
إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ
فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ
إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

التبين : التأمل للتثبت.

الجهالة : ضد العلم. أو ضد الحلم.

فتصبحوا : فتصيروا.

نادمين : آسفين عما تورطتم فيه.

العنت : المشقة.

زين : جعل الشيء زينا حسنا.

الراشدون : المستقيمون على طريق الحق المتصلبون فيه.

بغت : طلبت العلو بغير الحق وظلمت.

تفيء : ترجع.

العدل:ما وقع عليه التصالح بالتراضي.

بيان المعنى الإجمالي :

شأن المجتمع غير المحصن خلقيا أن يقتحمه الفسقة، فيروجوا بين عناصره الأخبار الزائفة، وبذلك يسارع إلى اتخاذ قرارات سيئة العواقب أساسها تلك الأخبار. فنبه

الله المؤمنين أن يتبينوا، قبل اتخاذ أي قرار، صدق الأخبار من كذبها، فإن كان مروِّجها غير ثقة ولا أمين فلا يعجلوا باتخاذ موقف مضر، مبني على جهلهم للحقيقة فيندموا على تسرعهم.

واعلموا أن الله قد من عليكم بمنة عظمى أن كنتم تعيشون ورسوله بين أظهركم، فلا تلحوا عليه أن يقبل تصوراتكم في الحكم والتشريع. فإن رغباتكم تؤدي بكم إلى صعوبات في الحياة. ولكن الله لطف بكثير من المؤمنين فحبب إليهم الإيمان، فكان ما يأتيهم من رسول الله تَأْنَسُ به قلوبهم ويرون فيه الزين الذي ترتاح له النّفس. وكره لهم ضد ذلك فجعلهم يشمئزون من الكفر والفسوق والعصيان. أولئك الذين لطف الله بهم هم الراشدون، تولاهم الله بفضله ومكنهم من نعمته. والله عليم بما تنطوي عليه صدوركم وبما يصلحكم في دنياكم ومعادكم. وهو الحكيم، الخبير في تشريعه لا فيما تميلون إليه.

وإن حصل خلاف بين جماعتين من المؤمنين ينذر بالقتال فبادروا بالإصلاح بينهما. فإن أرادت إحداهما فرض رأيها بالقوة فقاتلوها حتى تخضع للحق، وكذلك إذا ركبت كل منهما رأسها ورجحت اختيار القتال. يتواصل الضغط عليها بالقوة القتالية إلى أن ترضخ للحق. فإذا انكفت عن القتال فابحثوا عن أسباب الخلاف، وأنصفوا المظلوم، وليكن حكمكم ملتبسا بالعدل الكامل، في كل المناسبات التي تتولون فيها الحكم، فإن الله يحب المقسطين العادلين ويبغض الظلمة.

إن ما قررته الآيات السابقة يدخل تحت مظلة ما قرره الإسلام من أن رابطة الإيمان رابطة أخوة تجعل كل فرد ينظر إلى المؤمن أنه أخوه يهمه أمره.ولذا فإذا رأيتم خلافا بين إخوتكم المؤمنين فبادروا ساعين لإزالته، واستعينوا على النّجح بتقوى الله. وإنكم ترجون بواسطة التقوى أن يعمكم الله برحمته.

بيان المعنى العام :

- **النّداء الثالث تربية المؤمنين على ما يحصنهم مما يهري قوتهم.**

6-يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم...نادمين.

يوقظ هذا النّداء المؤمنين حتى يكون الإيمان عاملا على التنبه من خطر ما تعرضت له الآيات. 1)التنبه لأخبار الفسقة-2) وجعل هواهم مع ما يشرعه الرسول -3) والإصلاح لمواجهة الخلاف.

يتناقل النّاس الأخبار، وبعضهم ثقة مستقيم في دينه وخلقه، وأمانته، يقظ الضمير، مستحضر دوما أنه مسؤول عن كلامه وأفعاله. له من ذاته حصن من الكذب

وتنميق الأخبار والتزيد فيها. وهذا هو الصنف الغالب في المجتمع النّظيف. وهؤلاء مصدّقون فيما يخبرون به يعتمدهم القضاء كما يعتمدهم الشعب.

وقسم فسقة يرتكبون الآثام من الكذب وغيره،مما يدل على أن ضميرهم مغلف بالإثم، لا يجدون من ذواتهم رادعا عن الكذب والتزيد، وتضليل الآخرين.وشأن هؤلاء أنهم يسعون لترويج الباطل والمختلق من الأخبار. إن خطر هؤلاء على المجتمع كبير، وضررهم ممزق للوحدة الاجتماعية، وإن كان عددهم قليلا. فدعت الآية المؤمنين بوصف إيمانهم أن لا يكونوا كالإسفنجة تتشرب كل ما يقع عليها من صالح أو خبيث، ونقي أو ملوث.

كوّنَ الإسلام من المؤمنين أمة حصنها من شر التفرق. وحصّن عقولهم من خفة التأثر بالكاذب من المؤثرات. فناداهم أن عليهم، إن ورد عليهم خبر من فاسق، أن يتثبتوا فلا يغفلوا ما سمعوه، إذ لعله أن يكون حقا، ولا يصدقوه فيتخذوا القرارات العجلى التي توقعهم في ضرر. تثبتوا حتى يتبين لكم صدقه أو كذبه، وفي ذلك ما يحميكم من التسرع في إصابة المخبَر عنهم بضرر على غير علم محقق منكم. وينفلت الأمر منكم بسبب عجلتكم، فتصيروا نادمين على ما قمتم به.

وكما نهى المخبَرين من تلقف الخبر من الفاسق بالتصديق، فإن الآية تدل أيضا على نهي المؤمنين المخبِرين من نقل الأخبار وترويجها قبل التثبت فيها. روى مسلم في مقدمة الصحيح عن أبي هريرة أن النّبي ﷺ قال: (كفى بالمرء كذبا أن يحدث بكل ما سمع)[1]

إن الإسراع بتصديق الأخبار دون تبين، ساعَدَ قوى الشر، على صياغة عقول البشر، ووجههم إلى ما يحقق أغراضهم من التسلط، وقلب الحقائق، فاختل ميزان القيم.

هذا وقد رويت روايات كثيرة في سبب نزول الآية أكثرها مدخول معنى، وضعيف سندا. والآية تربية عامة للمؤمنين لا تتأثر بالظروف التي يظن أن الآية نزلت بسببها. فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

7←8- واعلموا أن فيكم رسول الله...عليم حكيم.

كون رسول الله بين أظهرهم أمر معروف وضروري، ولكن المراد منه التنبيه إلى كونه، بصفته التي هي أنه رسول من عند الله مؤيد معصوم من الزلل، فيهم،يحتّم عليهم أن يقدروا هذه النّعمة، وأن يراعوا في سلوكهم مقتضياتها، التي منها أن يطوعوا تفكيرهم لما يأمرهم به، وأن لا يتقدموا ملحين أن يتبع آراءهم وما يَعِنُّ

[1] فيض القدير ج4ص2 ح 6241

لهم. فكونه رسول الله يقتضي أن يكون رأيكم تابعا لما يشرعه، وإن خالف تشريعه ما سبق إلى رأيكم وخالف رغباتكم.

تكشف الآية عن مآل ما يرغب بعضهم فيه من موافقة التشريع في النّوازل لما يهواه ويرى فيه المصلحة؛ إنه لو أطاعكم فيما رغب فيه هذا البعض، أو أشاربه عليه، فإن النّتيجة أنكم تلقون من ذلك العَنَتَ والمشقة.إن تفكيركم تفكير تختلط به العواطف الحاجبة عن وضوح الرؤية،بما يترتب عنه اختلال الميزان، وحصول الضر من حيث يظن حصول الخير.والضر يشمل المقترحين، ويشمل الآخرين إذ المجتمع متماسك يتأثر البعض بما يحصل، وإن كان لم يشترك فيه كسبب. مع التأكيد أن هذا العيب ليس عاما في الصحابة ولكن البعض فقط هو الذي يتراءى له الرأي ويسارع بتقديمه حلا للنوازل. فنهوا جميعا، المقترحون ببيان الأثر السيء لمقترحاتهم، والآخرون حتى لا يمالئوا المقترحين.

ولكن الله حبب... أتى التعبير في صورة الاستدراك، إذ المعنى ولكن البعض منكم لم يكن على ذلك النّحو، إذ طوع إيمانُه تفكيرَه ورغباته لقبول ما يصدر عن رسول الله ولا يسبقه بالاقتراح وعرْضِ رأيه. وذلك من أثر لطف الله بهذا البعض فحبب إليه الإيمان بما يصدر عن رسول الله ﷺ، فهو ينتظره ويتلقاه بالقبول،يجد فيه متعة وجمالا تأنس به النّفس، فتنقاد إليه انقياد المحب.ويتبع ذلك نفي ضد هذه الحال، فالله لطف بهؤلاء فجعل نفوسهم تشمئز من الكفر وتكرهه، ومن الآثام الموجبة للفسق، وبصفة عامة كل ما يعد معصية.فأصبح حبهم وانقيادهم ملكة راسخة فاستحقوا من رب العزة مدحهم والثناء عليهم. فقال تعالى: أولئك الذين ذُكِروا بخصالهم الذين حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم، عكس ذلك، هم المستقيمون على طريق الحق استقامة لا عوج فيها ولا انفصال.

فضلا من الله ونعمة: ماهم عليه من الكمالات المنوه بها، وعدم متابعتهم للمعترضين لرسول الله، يقدمون آراءهم ويودون أن يكون التشريع تابعا لآرائهم ؛ فحبب وزين وكره سبحانه تفضلا منه عليهم ونعمة مسداة منه إليهم.

والله عليم حكيم: إن ما حققه صادر عن علم بحقائق الأشياء، وهو بحكمته نبه الغافلين عما يؤديه الاسترسال مع رغبتهم من عنت، ونوه بالمستقيمين ليؤكد داعية الاستقامة والتوبة في نفوس الجميع.

9- وإن طائفتان...يحب المقسين

الأوْلَى أن تحمل الآية على أحد معنيين : اقتتلوا تهيأوا للقتال، أو اقتتلوا فعلا. فمسؤولية الجماعة على الوجه الأول، أن يبادروا بمجرد ما يظنون أن الخلاف

سيؤدي إلى القتال بالعمل على الإصلاح. وعلى الوجه الثاني أنه إذا ثارت ثائرة القتال بينهما أن يسارعوا بالعمل على الإصلاح وإن بقتال الفئة الباغية.

هذا ما يمكن أن تواجهه الأمة من الأوضاع بين شقين منها، وما يقترن بها من المعطيات المؤججة للخلاف، وثوران العواطف وإرادة الاحتكام إلى القوة للتغلب. فيكون الواجب على المؤمنين أن يسعوا بكل ما أوتوا من حكمة وصبر على إخماد نار الفتنة، وتقريب الطائفتين من بعضهما، حتى يتم التصالح وعودة الروابط إلى الوجه الذي كان قبل الخلاف وتفرضه وحدة الأمة.

وقد تخرج الفتنة من الإعداد والإنذارات والتراشق بالأقوال، إلى المواجهة الفعلية بالقوة والسلاح. وفي هذه الحالة إما أن تبدأ إحدى الفئتين بالهجوم، وتريد فرض إرادتها بقوة السلاح وإخضاع الفئة الأخرى، فالواجب والحالة هذه إن لم تفد الدعوة للمصالحة، وواصلت بغيها، أن تنتصر الأمة ممثلة في جيشها تحت قيادة ولي الأمر، أو في علمائها وأهل الكفاية والرأي فيها، للفئة المظلومة، وتقاتل إلى جانبها الفئة الباغية إلى أن تخضع وتكف عن القتال.

وكذلك الأمر لو ركبت كل فئة رأسها، ورفضتا وساطة المؤمنين والرجوع إلى الحق وقبول الصلح، فعلى الأمة واجبا كفائيا بمقدار ما يردع وينهي الفتنة، أن يقاتلوا الفريقين إلى أن يقبل كل من أبى منهما الصلح، ويكفا عن استعمال السلاح.

إنه بمجرد سكون الفتنة، على الأمة الإسلامية أن تقف بين الفريقين اللذين كانا متنازعين موقفا يتعمق في دراسة الخلاف الذي نشبت منه الفتنة، ويكشف عما لكل من الحق، فيحكم به على الطرف الآخر حكما يُسَيِّره من بداية البحث عنه إلى صدوره رغبة ملحة في إقامة العدل بينهما ورفع أي ظلم عن كل واحد منهما. وإياكم والبحث عن العقوبة، بل الزموا العدل في حكمكم التزاما يكون هو منهج الأمة الإسلامية في الحكم بين القوى المتنازعة، وفي كل الأمور الأخرى. وتذكروا أن الله يحب المقسطين العادلين، ويفهم منه أنه يبغض الظالمين في الحكومة.

10- إنما المؤمنون إخوة...لعلكم ترحمون.

أحدث الإيمان في قلوب معتنقيه آصرة قوية جامعة.ذلك أن قيمة الإنسان تكمن في عقله وتصوراته ومشاعره. والإسلام وحد بين أتباعه في تفكيرهم، وفي تصوراتهم للكون، ولخالقه، ولعلاقاتهم بهذا الكون ومبدعه، وللسلوك والقيم التي تحكم نشاطهم في الحياة. ولتصورهم لمآلهم في الحياة الآخرة. وبهذا بلغت آصرة الدين من القوة مستوى يكاد يكون أعلى من رابطة أخوة النّسب والرحم،فتمت صياغة الآية على أن المؤمنين إخوة بدون تشبيه فلم يقل : كإخوة.

إن شعور كل مؤمن أنه أخ لبقية المؤمنين في الدنيا، يفرض عليه أن يسارع إلى الإصلاح بين إخوته كلما أدى الاحتكاك بينهم إلى خلاف.ووقوف الإنسان موقف المصلح الحكم بين المختلفين، يقربه من النّجاح استحضاره لتقوى الله.التقوى التي تجعل شعوره بأن الله مطلع عليه، هل طوّع ميوله للحق وخلصت رغبته في إزالة النّزاع أولا ؟ إنه بفضل التقوى تكونون على رجاء أن يسعدكم ربكم برحمته.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ﴿١٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا يسخر : لا يستهزئ.

القوم : جماعة الرجال في الأصل.

اللمز: ذكر ما يعده الذاكر عيبا لأحد.

اجتنبوا : ابتعدوا.

التجسس : البحث بوسيلة خفية.

الشعوب : جمع شعب وهم القبائل المنتسبون إلى جد واحد.

القبائل :الجماعة من النّاس المنتسبة إلى جد واحد، ومن مجموع القبائل يتكون الشعب.

الأكرم : الأنفس والأشرف.

أتقاكم : أفضلكم في التقوى

بيان المعنى الإجمالي :

نداء للمؤمنين يوقظهم إلى أن شرفهم بالإيمان يقتضي منهم أن يكونوا وحدة لا يتنقص أحد منهم غيره. محرم على الرجال منكم الاستهزاء، وكذلك على النّساء. قد تَغرُّ المظاهر، وربما كان المسخور منه أفضل من الساخر عند الله، في القيمة

الإنسانية. ومحرم عليكم أن يواجه أحدكم أخاه بما يكرهه سواء أكان ما آذاه به موجودا فيكون فعله هذا وقاحة واعتداء. وإن كان باطلا فهو وقاحة وكذب. إنكم بتعديكم هذا تكونون قد اعتديتم على أنفسكم فنقضتم رابطة الإيمان التي تكون لكم سندا، ولأن علاقة المؤمن بأخيه تجعلهما كشيء واحد. ومحرم عليكم أن يدعو أحدكم أخاه بلقب فيه نقيصة لإيذائه.

اعلموا أن من يرتكب تلك المنهيات يوصف بأنه فاسق. وما أعظم خسارته، إذ تحول بتعديه من الموصوفين بالإيمان الشريف، إلى الموصوفين بالفسق القبيح "فاسق". وإذا لم يطهر نفسه بالتوبة فإنه معدود عند الله من الظلمة.

ثم دعت الآية المؤمنين إلى الابتعاد عن متابعة ما يحصل في النّفس من الخواطر غير المبنية على موجب، فيحصل ظن يتبعه كراهية وبغض. إن الظنون التي يتبعها أفعال مضرة بالآخرين حرام. فليبعد المؤمن عن نفسه الخواطر السيئة غير المبنية على أسباب حقيقية. ونهت الآية بعد ذلك عن التجسس والاعتناء بكشف أسرار الآخرين،إلا إذا كان التجسس يحقق مصلحة للأمة كالتجسس على العدو، وعلى المجرمين. ونهت الآية أن يغتاب المؤمن أخاه المؤمن، وينشر عيوبه في غيبته. إنه خلق ذميم وعمل كريه، فالمغتاب أشبه ما يكون بمن ينهش لحم أخيه وهو ميت. وهي صورة بشعة يتقزز منها الإنسان. فتمزيق عرض المغتاب أشبه ما يكون بنهش لحمه وهو ميت، إذ لا يتمكن المغتاب من الدفاع عن نفسه، كما لا يتمكن الميت من طرد من يحاول أكل لحمه. وتحصنوا للابتعاد عن تلكم الآثام بتقوى الله. واعلموا أن الله يقبل التوبة عن عباده ويرحمهم إذا عادوا إليه. فمن وقع في خطيئة فليسارع إلى التوبة وتطهير نفسه من الإثم. و يجد الله توابا رحيما.

ثم ينادي القرآن النّاس جميعا ليذكرهم بحقيقة أنهم متساوون في أصل الإنسانية. الكل خلقه. خرجوا إلى الدنيا من أب وأم بقانون واحد. وأن الله قد جعل التعارف والتعاون مكونا من مكونات فطرتهم، فتكونت الأسر وانتسب كل منهم إلى بلده الذي ولد فيه، وإلى الشعب الذي هو منه. إن هذا الجعل يجب أن يفضي إلى التعارف والتعاون، لا إلى الاختلاف والحرب.

إن الميزان الذي توزن به قيم البشر أولا، هو التقوى التي تجعل الفرد يسعى دوما نحو الخير والفضيلة، وينأى عن الشر والرذيلة.

والله أعلم بمن اتقى فهو يعلم المتقي حقا من الدعي الكاذب، وهو خبير بما يجري في النّفوس فلا يروج عليه الزيف الظاهري.

بيان المعنى العام :

- **النّداء الرابع يحتم حسن المعاملة والبعد عما يفضي إلى القطيعة**

11- يا أيها الذين آمنوا لا يسخر...فأولئك هم الظالمون..

توجهت عناية القرآن لتطهير المؤمنين من كثير من العادات الجاهلية. من ذلك:

1) السخرية بما يشمل سخرية أحدهم بغيره، وسخرية المجموع بالمجموع. وكان الشعراء الجاهليون يتفننون في الفخر بأنسابهم والسخرية بالقبائل التي يعمدون إلى هجائها. فنهت الآية عن السخرية المعبرة عن استنقاص للطرف الآخر، وهو ينافي الأخوة التي حصرت فيها الآية السابقة معنى الإيمان. قد يسخر بعضهم من بعض لعيب خلقي، كالعمى والعمش والحول،والقصر والعرج، والبدانة والفهاهة، والغباء والثقل. وقد يعمد بعض من هو مريض بعقدة نقص إلى تغطيتها بالسخرية من غيره، وكل ذلك يؤثر في نفس من اتخذ سخرية، ويحطم معنوياته ويؤذيه، فهو اعتداء على الآخرين مناقض للصورة التي أراد الله أن يكون منها المجتمع الراقي بهذا الدين. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن القيم الحق ليست في السلامة من نقص خِلقي، فقد يكون المسخور منه يحمل نفسا زكية أطيب من نفس الساخر، وقد يكون أعلم وأتقى، ومنزلته عند الله أحظى من منزلة الساخر. وهذه جوانب خفية يجهلها الساخرون، أفلا يستحي الساخر من سخريته ممن هو خير منه ؟

وعطفت الآية نهي النّساء عن السخرية، وإن كان نهي القوم يفيد نهي النّساء، إلا أن الآية آثرت تنبيههن لكثرة تعرضهن للسخرية من غيرهن. خاصة وإن الأنثى تعتد كثيرا بجمالها، وحب الظهور كثيرا ما يدفع من لم تتحصن بالتربية الإسلامية بتناول غيرها بالاستهزاء من نقص بها. والإسلام يؤكد أن القيمة في النّساء كالقيمة في الرجال ليست في الوسامة ولا في بعض الكمالات الخِلْقِيَّة، بل القيمة الحقيقة فيما تنطوي عليه النّفس من نبل وسمو وخُلُق ونباهة.

ولا تلمزوا أنفسكم... عطف القرآن على النّهي عن السخرية، النّهي عن اللمز. وهو الطعن في الآخر بما يكره. وقد يكون بحركة الشفاه دون إسماع صوت يفهم الموجه إليه قصد اللامز من الذم أو التوعد. فإذا كان في فاضل فهو حرام باتفاق، وأما إن كان في فاسق فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: ليس لفاجر حرمة. ويذكر عن الحسن البصري في حديثه عن الحجاج قال: أخرج لنا بنانا قصيرة قلّما عرقت فيها الأعنة في سبيل الله، ثم جعل يطبطب شعيرات له ويقول : يا أبا سعيد، يا أبا سعيد. وقال فيه لما مات : اللهم أنت أمته فاقطع سُنته،

فإنه أتانا أخيفش أعيمش، يخطر في مشيته ويصعد المنبر حتى تفوته الصلاة. لا من الله يتقي، ولا من النّاس يستحي.فوقه الله وتحته مائة ألف أو يزيدون.لا يقول له قائل: الصلاة أيها الرجل. هيهات دون ذلك السيف والسوط (الكشاف ج 2 ص397) ومن بديع التعبير القرآني تعقيبه اللمز بقوله أنفسكم، لأن رابطة الإيمان التي جعلت المؤمن أخا، يكون العامل على إذايته مع هذه الرابطة قد آذى نفسه.ولما كان اللمز يتبعه النّفرة والكراهية، وقد كان كل مؤمن يجد من المؤمن نصيرا ودرعا واقيا، فإذا لمزه قطع ما بينه وبينه، فيضر نفسه ويفقد نصيرا مساعدا.

ولا تنابزوا بالألقاب...عندما تُفقد الآداب الاجتماعية يكثر في المجتمع تلقيب بعضهم بعضا بألقاب فيها حطة وشين، وإذا كان الملَقَّبُ يكره أن يدعى بذلك اللقب،و الإذاية تؤثر في النّفس نقمة وحقدا، فيكون التنابز عامل انحلال للروابط الاجتماعية. فنهى القرآن عنه نهيا يفيد التحريم. وأما لو كان في اللقب شرف وتكريم فالدعاء باللقب ممدوح. فقد كان أبو بكر رضي الله عنه ملقبا بالصديق، وعمر بالفاروق، وحمزة بأسد الله، وخالد بسيف الله. ثم إن الألقاب إذا تقادم عهدها وتنوسي المعنى المذموم المشتقة منه فلا مانع من الدعاء بها. من ذلك ذكر المحدث عنه في سلسلة الرواية مثلا، الأعرج لعبد الرحمن بن هرمز، والأعمش لسليمان بن مهران.

بئس الاسم الفسوق... تنفير من ضروب التعدي التي ذكرت في الآية، إن المتناول لغيره بالإذاية يصبح بتعديه ذاك فاسقا، فبعد أن كان اسمه إثر مبايعته على الإيمان: مؤمنا، يدعى بتعديه: فاسقا. وما أسوأ ما انقلب إليه إذ انحدر من مستوى جماعة الإيمان الذين أثنى الله عليهم في كتابه، وعرف بأنهم شهداء على الأمم يوم القيامة؛ انحدر إلى مهواة دخل بها في زمرة الفسقة المؤهلين للعقاب، والذين لا تقبل لهم شهادة. إنهم ارتكبوا إثما لا غنى لهم عن التوبة منه، لتتطهر صحائفهم مما تلوثت به من الإثم. ومن واصل حياته أليفا للتعدي بلسانه وغمزاته عد عند الله ظالما.

- **النداء الخامس لتطهير الباطن مما يوجب الفرقة.**

12-يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا...إن الله تواب رحيم.

هذا هو النّداء الخامس بوصف الإيمان. وتتنزل جميعها فيما يقوي آصرة الانتساب للأمة الإسلامية. وطرد ما يوهنها ويضعفها. فنهت الآية:

1) عن كثير من الظن. ويتنزل هذا النّهي في معالجة الإنسان لحديث النّفس. يحل المؤثر في النّفس فتتابعه إلى أن يحصل لها ما يرجحه، أو يضعفه وبالتالي ينفيه.

والغالب أنه إذا أطلق لتصوراته التوالد، فإنه ينتهي إلى درجات قد تقارب اليقين. وهذا من طبيعة التفكير الإنساني، فما المراد من اجتنابه والحالة تلك ؟

أ- نص الآية كثيرا، ولم تقل: الكثير. وقد دقق الزمخشري فقال إن التعبير بكثير منكرا في قوة قولك بعض. ولوعرفته فقلت : الكثير من الظن لكان المعنى : الغالب.

ب- من الظنون ما هو خير، والظن الحسن محمود، فإذا قامت القرائن الدالة على صلاح المظنون فيه فليكن الظن به حسنا. والظن الحسن الذي لا مستند له يوقع صاحبه في الغلط، ويبعد به عن الحزم. وفي المقابل فإن الظنون بالصالحين على خلاف ما هو ظاهر منهم، واتهامهم بما ليس عليه أمارة قريبة هو المنهي عنه، فعليه أن يتثبت في الأمر ويزن الخاطرة التي تولدت في الذهن بميزان الترجيح إيجابا أو سلبا، فإذا كان لا سند عليها، وجب عليه أن يطردها ولا يتابعها. وإن ترجحت واصل التثبت فيجري في علاقاته مع ما ترجح عنده.

وإذا ترجح عنده جانب الشر فليحذر، ولكن لا يتابع ذلك بالعمل بالخاطرة الذهنية السيئة. فإن الفعل السيء المبني على الخواطر الظنية السيئة من الإثم.وإذا ترجح عنده جانب الخير فليثق في المظنون فيه ويبني على ذلك مثلا مصاهرته أو مشاركته أو أخذ العلم عنه. ومن الظن الذي يعمل به، الحكم الذي يحصل عند الفقيه بعد تتبع الأدلة. فيثق بالحاصل الذهني ويخبر بظنه على أنه حكم إسلامي.

2) عن التجسس. والتجسس السعي بطرق خفية تمكن المتتبع من الاطلاع على عورات المتجسّس عليه، ما كان منها مرتبطا بالسبب الباعث على التجسس، وما كان غير مرتبط. ومبعثه ظن سيء يريد الظان تحققه.فهو من توابع النّهي عن الظن. والمتجسس قد يطلع بتجسسه على ما ينقم به على من تجسس عليه، وقد يتفطن له الآخر فيحقد عليه. وقد تتضخم غريزة حب الاطلاع فيكون صاحبها مولعا بتتبع أخبار الآخرين، يحاول في دَأْبٍ معرفة ما خفي من أحوالهم، وكثيرا ما يدفعه هذا المخزون إلى إشاعته. والنتيجة واحدة في الجميع تفرق الكلمة والحقد والخصام. وهو بذلك حرام. أما إذا دعت المصلحة للتجسس كالتعرف على العدو، أو تتبع المجرمين للكشف عنهم فهو محمود مجزي عنه خيرا.

3) عن الغيبة. والغيبة ذكر الآخر في غيبته بما يكره أن يتحدث به عنه، مما لا يتناول عرضه. فإن تحدث عن المغتاب بما يفيد عدم عفته في النّواحي الجنسية، فهذا قذف. وهو أعظم إثما من الغيبة بغير ذلك. وقد روعي في صياغة هذا النّهي ما يجعل المتأمل فيه ينفر من هذا الإثم.

فذكر أولا: أن العلاقة بين المغتاب وبين من تكلم في عرضه، هي علاقة الجزء بالكل، فكل واحد بعض من الآخر.

وثانيا: تمثيل المغتاب بأنه يأكل لحم أخيه حالة كونه ميتا. فكونه يأكل لحم أخيه صورة مُنَفِّرَةٌ، ثم كون أخيه ميتا وهو ينهش لحمه موجب للتقزز. والسؤال التقريري بصيغة الحب" أيحب أحدكم" دون الإرادة "أيريد أو يبغي " وجه آخر من التفظيع. ثم تم التصريح بقوله فكرهتموه إعلان عن الفطرة. و قياس الجانب المعنوي على الجانب الحسي محرك للوازع.

ولنعلم أن الحديث بالعيوب إذا كان لمصلحة ولا يريد المغتاب بتصريحه بالعيوب تشهيرا، أو تحقيرا، ليس حراما. كمن استشير في زواج، أو في شركة، أو عن ثقة المسؤول عنه لأخذ العلم والدين عنه، أو لترشيحه للإمامة ونحو ذلك، فذكر المعايب في حدود التعريف، مع عدم التعرض للنواحي الجنسية لا حرمة فيه.

واتقوا الله... تشير هذه الخاتمة إلى أن من زل فاغتاب، أن عليه أن يتحصن بالتقوى التي تفصله عن هذا الإثم .وأن عليه أن يتوب من إثمه ويقلع عن الغيبة. والله رحيم بعباده يتوب على التائبين و يصفح عنهم ويثيبهم.

13- يا أيها النّاس....عليم خبير.

تَحَوَّل في النّداء، من نداء المؤمنين لدعوتهم إلى ما يقتضيه الإيمان من كمالات توجب حرصهم على التحلي بها والابتعاد عن أضدادها. إلى نداء النّاس لما يقتضيه وصف الإنسانية فيهم من وحدة وتعاون.

تثبت الآية أولا أنهم جميعا مخلوقون لله. لا يستطيع أي واحد منهم أن ينكر القدرة التي أوجدته. يدرك من نفسه أنه لم يجمع الكمالات التي يوَدُّ أن يحوزها في ذاته وفي مواهبه، ويدرك أيضا أنه، عاجز عن تغيير مستوى ذكائه أو طوله أو لون بشرته أو سعة عينيه أو لونهما ونحو ذلك، مما ينادي بأن الله هو الذي تولى خلقه كما أراد وقدر.وصدورهم عن القدرة الواحدة موجبٌ لوحدتهم.

ثم نبههم إلى قانون خلقهم وهومن النّواحي التي يتساوون فيها، ولا يختلف أحد عن الآخر؛ كلهم خلقوا من أب وأم، ذكر وأنثى. وهذا عامل آخر ينادي بالوحدة ونبذ التنازع.

وجعلناكم شعوبا وقبائل... الذي خلق الإنسان وأحسن خلقه، أودع في فطرته عاملا قويا يدعوه إلى الانضمام إلى غيره، فتكَوَّنَ من هذا العامل وحدات كبرى تجمع المنتسبين إلى جد واحد ، وصَهَرَهُمْ في القبيلة التي كانت في العهد النّبوي المعرف

للإنسان، وقامت بين رؤساء القبائل وبين المنتسبين لها أصول من الاحترام والتعاون، والنجدة والحماية. وتجتمع القبائل تحت مظلة الشعب.

ويهتف هذا النّداء للناس المفتتح به ليوقظ البشر جميعا، إلى أن الذي جعلكم شعوبا وقبائل، رتب خلقكم وميولكم لتتعارفوا فيما بينكم، ليعمل كل منكم على معرفة غيره. إنه يجد بهذا التعارف ما يدعو إلى التعاون. يعتبر القرآن سر رقي العالم وأداء الإنسان لوظيفته من الخلافة في الأرض، معرفة البشر بعضهم لبعض. إن الوحدات التي جعلها الله مترقية من الأسرة، إلى الحي، ثم إلى الوحدة السكنية، ثم إلى الجهة، ثم إلى الوطن، ثم إلى الشعب، ثم إلى الأمة، ثم إلى الإنسانية. رتبها في عقولكم لتكون كل رابطة متفتحة على ما فوقها مندمجة فيها دون أن تذوب. وبالتعارف بين الأمم والشعوب استطاعت الإنسانية أن ترتقي في مدارج الحضارة. تنبهوا إلى أنكم انحرفتم بناموس الخلق " التعارف "وقلبتموه إلى إرادة للتغلب والقهر والاستيلاء على خيرات الآخرين.

إن تلكم الوحدات التي تمايزت بخصائصها مما كون لكل واحدة منها كيان، لا يقبل أن يكون ما تميزت به كل واحدة من خصائص موجبا لاعتبارها أسمى من غيرها. إن ميزان التفوق ورفعة المنزلة لا يكْمُنُ في الثراء، ولا في لون الجلد، ولا في المواهب والاستعدادات، ولا يقاس بما في كل وحدة من نوابغ في العلم ونبهاء في الاختراع الآلي. ولكن القيمة الحق هي في تقوى الله، التي تجعل كل فرد يشعر في ذاته أنه مخلوق لله عليه أن يطوّع حياته لما يرضيه عقيدة وسلوكا. فالتقوى هي الميزان الذي يزن البشر حسبما استقر في قلوبهم من الخير.

بهذه الوحدة الإنسانية المتعاونة لا المتقاتلة، المتواضعة لا المستكبرة نادى رسول الله في خطبته في حجة الوداع : يا أيها النّاس: (ألا إن ربكم واحد وأن أباكم واحد ولا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أحمر ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى)

إن الله عليم خبير. التقوى محلها القلب، فالذي يعلم التقيَّ الحق من الدعيِّ الزائف هو الله ؛ وهو سبحانه لا ينطلي عليه تمويهات المموهين ولا تخدعه المظاهر. فهو الخبير بما تنطوي عليه كل نفس ومقاصد البشر من أعمالهم.

ملاحظة- لا ينبغي أن يظن أن الإسلام يعتبر النّاس لا يتفاضلون فيما بينهم، وأنهم صور مكررة متساوية، كما تخرجه المعامل من قطع اللباس أو الآلات. إن الإسلام لم يلغ ما يتميز به البشر بعضهم عن بعض. فليس الذكي كالغبي، ولا العالم كالجاهل، ولا من انتسب إلى أسرة نبيلة فتربى على سمو الأخلاق وحسن المعاملة

فانطبعت نفسه بها، كمن ربي في وسط منحل مع جفـاء فـي الأخـلاق وسـوء معاملـة. لكن الـذي يلـح عليـه القـرآن: أن الاعتبـار الأول هـو للتقـوى. وأن الفاسـق قيمتـه الإنسانية منحطة وإن كان منحدرا من أسرة نبيلـة وبـين يديـه حـظ مـن الثـراء غيـر قليل.

۞ قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الأعراب : سكان البادية من العرب.

لايلتكم : لا ينقصكم.

التعليم : المبالغة في إيصال العلم للمعلَّم. أتعرفون الله.

المن : التذكير بالمعروف ليراعيه المحسَن إليه.

بيان المعنى الإجمالي :

قدم على المدينة أعراب بني أسد، وهم يعلنـون بـأقوالهم أنهـم مؤمنـون. ومـا صـدقوا في دعواهم الإيمان، إذ لم يستقر الإيمـان بعـد فـي قلـوبهم. فـأطلع الله رسـوله علـى كذبهم وأمره أن يواجههم بالحقيقـة التـي أطلعـه عليهـا. وأن الإيمـان لـم يسـتقر فـي عقولهم. ثم فتح لهم باب الرجـاء ليصـدقوا فـي إيمـانهم، وأنهـم إن فعلـوا فـإن الله لا ينقص من أجورهم شيئا، لكونه سبحانه غفورًا لذنوب عبـاده رحيمـا بهـم. يحقـق أنكـم لم تؤمنوا بعدُ الإيمان المقبول، هو أن المـؤمنين حقـا هـم الـذين جمعـوا بـين اليقـين الأيقن بالله إلها متصفا بصفات الكمـال، وبـأن محمـدا رسـوله، وصـمموا علـى ذلـك تصميما لا يداخله شك. وهانت علـيهم أمـوالهم وأنفسـهم فـي تركيـز الـدين والـدفاع

عنه. أولئك الجامعون بين تلكم الخصال هم المؤمنون حقا لا أنتم الذين لم يتجاوز الإيمان حناجركم.

ولما افتضحوا جاؤوا لرسول الله يحاولون إقناعه بصدق إيمانهم. قل لهم يا محمد: هل أردتم بما رتبتم من كلام أن تعرفوا الله بحقيقة دينكم، ما أشد غباءكم : إن الله يعلم ما في السماوات والأرض، وعلمه هو العلم الدقيق بكل شيء.

ومن جلافة الأعراب أنهم أخذوا يعيدون ذكر مزيتهم على رسول الله إذ أسلموا دون قتال. قل لهم: لا تمُنوا علي إذ أسلمتم بدون قتال، ليست لكم مزية في ذلك، ولكن المنة لله وحده إذ هداكم إلى الإيمان الذي عرفتكم به إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان. إن الله يعلم علما دقيقا كل غائبة في السماوات والأرض. والله لا تخفى عليه أي جزئية مما تعملونه.

بيان المعنى العام :

14- قالت الأعراب آمنا...إن الله غفور رحيم.

كانت سنة تسع سنة الوفود. قدم المدينة على رسول الله ﷺ وفود القبائل التي جاءت تبايعه على الإسلام. وكان من بين الوفود وفد بني أسد الذين كانوا نازلين في صحراء المدينة. وكانت ظروفهم المعيشية في تلك السنة قاسية، إذ كانت سنة جدب. وكانوا يدلون بإسلامهم على رسول الله، ونفوسهم معلقة بنيل الصدقات. كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: جئناك بالأثقال والعيال والذراري، ولم نقاتلك كما قاتلتك قبائل عديدة. ويمنون على رسول الله إسلامهم. وكان في إسلامهم دَخَلٌ، ولما استُنفِرُوا إلى الحديبية تخلفوا، وآثروا البقاء في منازلهم. وكانوا يرددون دوما: آمنا بك. سجل الله مقالهم: آمنًا. ولما كانت دعواهم الإيمان دعوى غير صادقة رد القرآن عليهم، وحقق أن الإيمان لم يستقر بعد في قلوبهم وعقولهم. ولكن غاية ما هم عليه أنهم أسلموا بالأقوال التي لا تتصل بالضمائر. ذلك أن المراتب ثلاثة: المرتبة الرفيعة المقبولة التي يعتبر صاحبها مؤمنا حقا، التي يتطابق لدى صاحبها القول والقلب والفعل. يصرح المؤمن بأنه مؤمن ويعلن بلسانه كلمة التوحيد: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ويؤمن بالبعث وباليوم الآخر والحساب،وبالقضاء خيره وشره. ويقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويصوم رمضان ويعزم على الحج ويؤديه عندما يستطيع. ويعترف بأن كل ما شرعه الله من أحكام واجب التطبيق. ويجتهد في التطبيق. فمن جمع كل ذلك فهو مؤمن ومسلم. والمرتبة الثانية أن يعتقد بقلبه بأصول الدين وينطق بكلمة التوحيد، ولكنه لا يقوم بجميع ما فرض عليه مقرا بكونه من الدين، وهذا مؤمن أو مسلم فاسق. والثالث من يعلن بلسانه أنه مؤمن،

ولكن قلبه غير معتقد بما يقوله، وهذا منافق في الباطن، ومسلم في الظاهر، تجري عليه أحكام الإسلام، ولكنه غير ناج يوم القيامة. وهؤلاء الأعراب لم يستقر الإيمان في قلوبهم، وإن ادعوه بلسانهم. والله عليم بما يبطنونه فعرفهم أن الله أطلع رسوله على حقيقتهم. قل لهم : لم تؤمنوا بعد. والدقة أن تقولوا أسلمنا ظاهرا، لأن الإيمان لم ينفذ بعد إلى قلوبكم وعقولكم مستقرا فيها استقرار الرسوخ والثبات. والنفي ب"لما" فيه إشارة إلى أن المتوقع منهم أن يثبت الإيمان في عقولهم قريبا. وكذلك كان.فإنهم قد حسن إسلامهم بعد ذلك واستناروا بنور الإيمان.

وإن تطيعوا الله ورسوله... بعد أن كشف القرآن عدم مطابقة أقوالهم لما يضمرونه، رغبهم في استكمال إيمانهم، وأرشدهم إلى اغتنام وجودهم بالمدينة قريبا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ليتعلموا منه ويتأسوا به فتصلح عقيدتهم، وسلوكهم. وحرضهم بأمرين: أن الله لا ينقص من أجور أعمالهم الصالحة شيئا، ويسقط من الاعتبار ما فعلوه قبل إسلامهم. وبالتأكيد على أن الله غفور يمحو السيئات بفضله. وهو رحيم بعباده، ورحمته بتبديل سيئاتهم حسنات، كما جاء في قوله تعالى: (**إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما**[1]).

15- إنما المؤمنون الذين آمنوا...هم الصادقون.

لما طلب من رسوله في الآية السابقة أن يقول لأعراب بني أسد: قل لم تؤمنوا، أتبعه بحصر مفهوم الإيمان حصرا يتميز به عما عداه. المؤمنون المعتبر إيمانهم عند الله هم الذين جمعوا:

1) بين الإيمان بالله إلها للكون، وبصفاته القديمة. وبين الإيمان برسوله مبلغا عنه شرعه صادقا في أقواله أسوة في عمله.

2) وفوق ذلك استقر هذا الإيمان في قلوبهم دون أن يخالطه شك. فإذا تعرض لحديث النّفس ووسوسة الشيطان أو لتزييف المضللين، تيقظ عن قرب وطرد الوافد على الذهن بتذكر أدلة وجوده سبحانه، وتأثيره في الكون. فترفع الغشاوة عن قريب ويعود الصفاء إلى وضعه الأصلي.

3) وهم الذين يدافعون عن الدين بأموالهم، فلا يبخلون عن الإنفاق في كل ما يدفع عن الدين كل عادية، ويحمي أرض الإسلام من الأعداء. ويضحون بأنفسهم مستعدين بالمران على حمل السلاح واستعماله بدقة ليشاركوا في شرف الجهاد في

---

[1] سورة الفرقان آية 70

سبيل الله. ويتناول الجهاد العبادات جميعا والمجاهدة بالمال: الزكوات وكل ما ينفقه المؤمن فيما يقوي الأمة ويحميها.

أولئك الذين تحققت فيهم تلكم الأوصاف هم المؤهلون بأن يوصفوا بأنهم مؤمنون حقا صادقون في إيمانهم.

16-قل أتعلمون الله...بكل شيء عليم.

إن من شأن الذين تواجههم الحقيقة، وينكشف ما أضمروه وحاولوا إخفاءه، أنهم يعملون بكل إمكاناتهم ليستعيدوا الثقة بهم.فالأعراب بعد أن كشف القرآن دخيلة نفوسهم، جاؤوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وحاولوا أن يقنعوه بأنهم صادقون. فأمر الله رسوله أن يوبخهم ويقول لهم: أتعلِّمون الله بدينكم؟ أتريدون بباطل كلامكم وتزويره أن تعلموا الله حقيقة دينكم الذي تضمرونه في نفوسكم. إنه سبحانه يعلم دخائلكم بصفة أتم مما تعرفون أنفسكم، فالله يسع علمه كل شيء في الأرض و في السماء. وما تضمرونه تافه جدا بالنسبة لما وسعه علمه سبحانه. إن الله عليم العلم الدقيق بكل صغيرة وكبيرة، بكل واجب وجائز ومستحيل.

17-يمنون عليك أن أسلموا...إن كنتم صادقين.

من جلافة الأعراب من بني أسد أنهم أخذوا يذكرون ويعيدون مزيتهم على رسول الله إذا أسلموا، دون حرب ولا قتال. وقارنوا أنفسهم بقبائل أخرى ما أسلمت إلا بعد أن شنُّوها حروبا على المسلمين. فأمر الله نبيه أن يرد عليهم بما يبطل ما ظنوه مزية لهم، قل لهم ليست لكم أي مزية إذ أسلمتم، بل المنة والفضل لله إذ هداكم لطريق الإيمان، إن كنتم صادقين في دعواكم الإيمان الذي كررتموه.

18- إن الله يعلم...بصير بما تعملون.

بكل تأكيد الله يعلم كل غائبة في السماوات والأرض فضلا عما ظهر وبان. فتذكيركم بأنكم اسلمتم هو عبث، لأنكم إن كنتم أسلمتم حقا فالله لا يخفى عليه إسلامكم، وإن كنتم أعلنتم ما أنتم على خلافه فالله يعلم سركم. وما تنطوي عليه نفوسكم هو قليل وتافه بالنسبة لما يعلمه الله من الأمور المغيبة في السماوات والأرض. وكذلك أعمالكم التي تقومون بها، الله بصير بها يعلم الصورة الظاهرة لها وما انبعثت عنه وما صحبها من صدق أو زيف.

ســـــورة ق

هذا هو الاسم التي عرفت به في المصاحف وفي كتب السنة. سميت باسم الحرف المبتدأة به مثل ص. وطه.وق، ويس. وروي أنها تسمى سورة "الباسقات" أخذا من قوله تعالى " والنخل باسقات" آية 10- ولم يرد هذا اللفظ إلا مرة واحدة في القرآن. نزلت على رسول الله في مكة. رتبتها حسب ترتيب المصحف الخمسون. وحسب ترتيب النّزول الرابعة والثلاثون. نزلت بعد سورة المرسلات وقبل سورة لا أقسم بهذا البلد.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا
شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ
ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ
مَّرِيجٍ ﴿٥﴾ أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾
وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً
وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ
ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً
مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

المجيد : عظيم الشرف.

المنذر : المخبر بشر آت.

بعيد : مستنكر.

حفيظ : لا يفلت منه شيء.

مريج : مضطرب.

زيناها : جعلناها جميلة للناظرين.

فروج : ج فرج وهو الخرق.
رواسي : جبالا ثابتة مستقرة.
تبصرة : تبصيرا للإنسان ليلاحظ ما لم يتنبه له.
ذكرى : تذكر لما علم فنسي.
منيب : الراجع للحق يستحضره كلما غفل عنه.
مباركا : فيه الخير والنفع.
الجنات : الأرض التي غرس فيها منوع الأشجار.
حب الحصيد : حب الزرع المحصود كالقمح والشعير.
باسقات : طويلات جذوعها.
الطلع: ما يوجد من نَوْرِ ثمر التمر في غلافه قبل أن ينشق.
النضيد : المصفف بانتظام.
رزقا : قوتا.
البلدة : القطعة من الأرض.
الخروج : خروج النّاس للبعث.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت السورة بحرف يكتب مفردا ويقرأ" قافْ" ويقال فيه ما قيل في "ص" وعطف عليه قسما بالكتاب البالغ في رفعة شأنه أعلى مقام معنًى ومبنًى لا يدانيه في سموه أي كلام آخر. والمقسم عليه مقدر يفهم مما أثبته القرآن في الآيات التالية: ويقدر إنك رسول صادق وإنكم ستبعثون، وإنكم ستحاسبون وتجزون.

قابل المشركون إنذار محمد لهم بالعجب، والرفض، وقالوا: هل يمكن أن يقبل عقلا أن أجسامنا تعود إلى ما كانت عليه بعد أن نموت وتأكلنا الأرض وتتحول أجسامنا إلى ذرات تختلط بالتراب وتسفوها الرياح لا يجمعها مكان؟

بكل تأكيد تقرر في علمنا ما يجري على الأجسام بعد موتها، وهو موثق في علمنا توثيقا لا يقبل الضياع ولا التحريف والنقص، بما يشمل التطورات التي تحدث في الجسد بعد الموت، ومكان كل جزء من الأجزاء. وما يبقى من ذلك وما يتحلل أو يدخل في غيره. وزادوا فوق إنكارهم للرسالة والبعث أن قابلوا الحق الواضح بمجرد ما جاءهم بالتكذيب، دون تأمل ولا تفكير. فاضطربوا في توجيه إنكارهم. فهم متحيرون في توجيه تكذيبهم ولم يصدر عنهم ماله وجه من المعقولية. كيف يستبعدون البعث، وأمام أنظارهم السماء بما تحويه من كواكب وتنظيم عجيب.

وعلى سعة أبعادها و ضخامتها واتساع أبعادها، روعي فيها الجمال فكانت صفحة السماء ليلا أو نهارا تبدو للناظرين أجمل ما يكون، ومع ذلك لا تجد فيها خللا.

وكذلك الأرض التي يعيشون عليها، بَسَطَهَا رب العالمين، فالعيش فيها وعمارتها ميسورة. و ثبت فيها الجبال، فكتلها الضخمة تحدث التوازن في قشرة الأرض وفي الكوكب كله. وأعطى للأرض قوانين الإنبات فاكتست صفحتها بكل زوج من أنواع الأشجار والنباتات والزروع التي تبهج النفس. كل ذلك أقمناه أمام أنظاركم ليكون إدراككم واضحا للصنع العجيب، وليتذكر بتلكم القوانين والإتقان كل عبد ينيب إلى ربه فينسب الخلق والتدبير إليه وحده.

وآية أخرى هي ربطه سبحانه بين السماء والأرض، فأنزل من السماء مياه الأمطار، فيها الكثير من البركة والخير.وفعلت فعلها في التربة، فكانت الجنات المتنوعة الأشجار والثمار، ونما بها الزرع إلى أن بلغ حد الحصاد ليكون أقواتا للناس.ولفت الأنظار بصفة أخص للنخل الممتد طولها مرتفعا إلى السماء، العجيب طلعها كيف يخرج غلاف سميك منضد بعضه فوق بعض، ثم يجري عليه التحولات إلى أن يصير تمرا لذيذ المذاق. محتويا على العناصر التي يحتاج إليها البشر في غذائهم. كل ما بسطناه يسرنا به رزق العباد وغذاءهم.

وكما حييت الأرض بماء السماء الذي تفاعل مع الأرض. فكذلك يخرج النّاس يوم القيامة بعد موتهم للنشور والحساب بما يقدره الله من الأسباب التي تعيدهم للحياة.

بيان المعنى العام :

1- ق والقرآن المجيد

افتتحت السورة بحرف واحد نظير سورة ص. ويقرأ هكذا "قاف "الأشهر تسكين الفاء. والقول فيه نظير ما ذكر في سورة ص وفي فاتحة سورة البقر.

والقرآن المجيد- أقسم الله بالقرآن تنويها به ,لأنه معظَّمٌ عند المقسِم به. ثم حقق أنه بالغ غاية الشرف فوصفه بالمجيد. والمجيد ذو المجد والشرف إذا قورن بغيره من الكتب المنزلة. لتفرده بأن كلماته، وتركيبه، وأسلوبه، ومضامينه، من الله بدون واسطة.وجعله معجزا متحدى به.كماله سائر مع الزمن، كلما تطورت البشرية وجدت فيه هداية للخير.

والقسم يستدعي مقسما عليه. ولكن الآية عقبت القسم بما يفيد الإضراب عن القسم والانتقال إلى غرض آخر. بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم...ويمكن أن يقدر جواب القسم ما ورد في نظائره من القرآن،كقوله تعالى: **يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين**.فيقدر في هذه الآية والقرآن المجيد إنك لمن المرسلين. أو يقدر **إنا جعلناه**

قرآنا عربيا كما جاء في فاتحة سورة الزخرف آية 3/2- وعلى هذا النّحو من التقدير ذهب كثير من المفسرين.

والذي ترجح عندي أن القرآن يَرُدُ بأبلغ صورة على ما ينكره الكافرون عند نزول السورة. وسجل عقب القسم ما أنكروه، فيقدر عقبه إثبات ما أنكروه ويكون الكلام: إن محمدا رسول،وإنكم ستبعثون،وإنكم ستحاسبون وتجزون.

2-بل عجبوا أن جاءهم...شيء عجيب.

بل عجبوا... ينكر القرآن على المشركين موقفهم موقف العجب، والعجب عبارة عن إنكار الشيء واستبعاد حصوله. عجبهم من أن يرسل الله لهم بشرا واحدا منهم لا يختلف عنهم في شيء، يقول: إنه جاء لينذرهم ما يترصدهم من عذاب وخسران إن هم واصلوا الثبات على ما هم عليه من الشرك. وأن هذا العذاب لا يجدون منه مفرا يوم القيامة عندما يقومون من قبورهم ويحاسبون على شركهم وسيء أعمالهم. فهم ينكرون أن يكون محمد رسولا، و ينكرون أيضا أنهم سيبعثون من قبورهم، وينكرون أ ن يجدوا جزاء أعمالهم بعد البعث.

امتلأت نفوسهم برفض الرسالة وما تضمنته، فعبروا عن ذلك بقولهم : إن هذا الذي تدعيه هو أمر عجيب مستبعد جدا. فقال الكافرون: هذا الذي تدعيه من أنك رسول من عند الله، مع أنك مثلنا لا مزية لك علينا، وما تضمنته دعوتك أنا نعود إلى الحياة بعد الموت، وأنا سنحاسب على ما قدمناه، وأنك تنذرنا بتحقق ذلك، كل ذلك نرفضه لأنه مستحيل.

3-أإذا متنا وكنا ترابا...رجع بعيد.

ثم واصلوا رفضهم بقولهم: نبسط ما تنذر به ليتبين استحالته. تدعي أنه إذا فارقت أرواحنا أجسادنا،ثم تهرت أجسامنا شيئا فشيئا إلى أن تفتتت وتحولت إلى ذرات من التراب واختلطت به.وانتشرت ذرات هذا التراب بعد أن سفتها الرياح، واختلطت بعناصر أخرى من الأرض. بعد كل ذلك نرجع أحياء كما كنا ! إن هذا أمر مستبعد مستنكر.

4- قد علمنا ما تنقص...حفيظ.

تولى القرآن الرد عليهم، والتشهير ببساطة تفكيرهم، وسذاجة عقولهم، ومحدودية معارفهم.الأمر ليس فقط في تحول الأجسام إلى تراب، إنه فوق ذلك، إن الأرض تحول أجسادكم، وتأكل منها ما تأكل، وتذيبها وتتداخل تلك الأجزاء في كائنات أخرى.وهي في تحولاتها ورحلتها في الوجود وفنائها، لا تخرج عن علم الله. هو

يعلم خصائص كل جزء وما أودعه الأرض، ويعلم ما سيجري عليه من أحداث. وهذا هو السر العجيب الذي انتظم به الوجود، هو العلم الشامل العميق. يعلم سبحانه طبيعة التآكل والمسارات التي سارت وتسير فيها كل ذرة. وإعادة الخلق تكون مستنكرة مع الجهل أما مع العلم الدقيق فلا عجب. إن تقدم المعرفة البشرية في أي ميدان هو نتيجة العلم الذي يكشف عما كان لغزا مجهولا، فإذا انكشف اقتدر الإنسان على تطويع ما اكتشف قانونه. فإعادة البشر ليست مرتبطة بالأجزاء التالفة التي كان يتكون منها الجسم الإنساني كما يتصوره المعترضون الجهلة وإنما بالعلم الدقيق الذي لا يبقى معه أي غموض. فالله يعلم ما يتلف من تلك الأجزاء وما يبقى منها. ولا يضيع عن علمه شيء منها. كل ذلك موثق في كتاب يحفظ ما يحويه، هو عند الله لا يصل إليه أحد ولا يضمحل منه شيء. وإياك أيها التالي أن تتصور أنه كتاب من قرطاس كتب فيه بمداد، فهذا تصور ساذج مخالف للحقيقة تماما. تعالى الله وتقدس أن ترتبط المادة بذاته العلية وبصفاته القديمة. ومما يقرب لك التصور: أننا أصبحنا اليوم نحتفظ بخزانة علمية تحتوي على آلاف المجلدات في قطعة صغيرة لا تتجاوز ظفر الإنسان. والتطور السريع الحاصل في نصف قرن يفتح آفاقا أوسع وأرحب تتجاوز الخيال العلمي.

ومن ناحية أخرى فقد تقدمت الكشوف العلمية وتبين أن البصمة الوراثية المميزة لكل إنسان مخزونة في الحامض النّووي الذي لا ينعدم بموت صاحبه، وأي جزء من أجزائه يكشف عن كامل الذات وخصائصها حتى الشعرة. فأي ذرة من ذرات الكائن البشري تحمل ما يُعَرِف بصاحبها مميزة له تمييزا كاملا لا يختلط بغيره.

وقد نظر علماء الأمة في قضية البعث، فذهب بعضهم إلى أنها تكون بالأرواح التي تكسى أجسادا تماثل الأجساد التي كانت تسكنها في الحياة الدنيا. اعتمادا منهم على أدلة منها قوله تعالى: **(كما بدأنا أول خلق نعيده[1])**

وذهب قليل إلى أن الأجزاء المتفرقة تجمع وتعاد إلى ما كانت عليه. وصاحب هذا القول لا بد له أن يعترف أن بعض الأجزاء يعاد خلقها من جديد، إذ يمكن أن تكون قد دخلت في تركيب إنسان آخر.

5- بل كذبوا بالحق...في أمر مريج.

إضراب آخر يهز السامع للتأمل فيما يعرض عليه، على طريقة الترقي. بل أشنع من ذلك أن المشركين قابلوا الحق الذي دلائل صدقه لائحة عليه، ولوضوحه يتقبله

[1] سورة الأنبياء آية 104

العقل بيسر وسهولة، قابلوه بمجرد ما وصل إليهم، بالرفض والتكذيب. وتحيروا تبعا لذلك، فاضطربوا في توجيه رفضهم. فقالوا في الرسول مرة، هو شاعر، وأخرى هو ساحر، وأخرى هو كاهن ومختلق. وزعموا مرة أن المضمون لا يعدو أساطير الأولين، والسحر المبين، وقالوا: لو شئنا لقلنا مثل هذا، فلما وقع تحديهم عجزوا. اضطربوا ولم يثبتوا على أي توجيه إذ كلها متهاوية ساقطة.

5←11- أو لم ينظروا إلى السماء...كذلك الخروج.

منشأ تكذيبهم ورفضهم أنهم لم يدركوا عظمة الخالق وقدرته على كل شيء. فسألهم مبرزا شدة غفلتهم. هذه السماء التي تحيط بالأرض وتدرك برفع البصر إليها، ألم يتفكروا فيها فتنبئهم عظمتها على أن إعادة النّاس بعد الموت أمر تافه بالنسبة لذلكم النّظام العجيب في السماء وما تحويه؟ ويمكن أن تفهم الآية على النّظر البصري، ألم يشاهدوها بأبصارهم فيروا بناء محكما ؟

يختلف النّاس في إدراك طريقة بنائها حسب مستوياتهم المعرفية. يراها الجاهل بعلوم السماء فيبهره المشهد قبة متلاحمة الأجزاء. وينظر فيها العالم فيجد فيها بناء محكما بالجاذبية المودعة في كل كوكب، بناء لا يختل ولا يبعد أي كوكب عن مساره. ولا يصطدم أي منها ببقية الكواكب التي تعمر المجموعة الشمسية. ليس المراد بناءً بالحجارة والإسمنت، ولكن هو التجاذب المقدر تقديرا دقيقا تبعا لكتلة كل كوكب وموقعه الذي خلق فيه. وكلا التقديرين فيه دلالة على القدرة على الإحياء والبعث. فمن خلق السماء وما حوته، بعث البشر بعد الموت وحسابهم أمر هين عليه. فمن نظر في ذلك كيف يستبعد البعث؟

ومع ذلك، هذا الخلق العظيم الذي تقاس أبعاده بالسنوات الضوئية، ترى فيه مسحة الجمال لائحة ومقصودة. فإذا نظرت في قبة السماء مع طلوع الشمس أو غروبها أو ارتفاعها ترى مشهدا، أو نظرت إليها في الليل والنجوم تلمع فوق صفحتها، والقمر في أطواره من الولادة إلى المحاق تجد منظرا أخاذا، بالغا أعلى حدود الجمال والروعة. إن قصد الجمال فيها مع عظمها وسعتها آية على القدرة التي لا يعجزها شيء.

كما لفت القرآن الأنظار إلى السماء، نبههم إلى ما في الأرض التي يسيرون عليها من دلالة على القدرة والحكمة أيضا. فصل ذلك بما يسَّره ليعيش الإنسان على ظهرها بدون مشقة.

مد الأرض، بسطها بما ييسر الانتقال على ظهرها، ونثر فيها الجبال ثابتة مستقرة متداخلة مع الأرض، راعى توازن كتلها في بناء الأرض. كما راعى في تركيبة

المواد المكونة لقشرتها ما تحتاج إليه أنواع النّباتات الكثيرة لتنمو وتزهر وتثمر، وتكون في مختلف أحوالها بهجة للناظر، تدخل على نفسه السرور والارتياح. وتم الابتهاج بمواءمة بين طبيعة النّباتات وبين التركيب النّفسي للناظر. وفي كل ذلك آيات على دقة الصنع الإلهي الذي لا يعزب عنه شيء في الخلق والتقدير.

تلك الآيات المتتابعة التي جاءت في نسق التنبيه إلى دلائل القدرة والحكمة، عرضها القرآن لتكون مبصرة للبشر بقدرة الله وحكمته، وسريانها في كل ما خلقه وقدره. وينتفع من هذا التذكير بصفة أخص كل عبد من عباد الله ارتبط بربه ارتباطا، كان من آثاره أنه يعود إليه سريعا كلما غفل عن ذكره. فتكون مشاهد الكون المذكورة في الآيات السابقة محيية لتلك الصلة. ولنضرب لذلك مثلا : تجد من وُلِد وعاش في قصر جمع ضروبا من الفن والأناقة والجمال، هي نتاج مجهود رجال برعوا في فنونهم، وأبدعوا ما شاء لهم الإبداع.تجده لا يُقَدِّر ما في مسكنه من آيات الدقة والجمال، حتى إذا جاءه من يلفت نظره إلى دقائق الصنع يفيق من غفلته فيستمتع بما هو بين يديه ولكنه غير منتبه إليه.وكذلك الأمر في بديع صنع الله في السماء والأرض. فهز التذكير بذلك التالي لقدرة الله وجمال صنعه، وكانت دليلا على الرسالة والبعث.

ومن بديع التنسيق القرآني، أنه بعد أن لفت الأنظار إلى السماء والأرض كل على حدة بما يقوم دليلا على البعث. لفت الأنظار إلى الارتباط بينهما وما يتولد عنه مما يقوم منه دليل على البعث أيضا.

نتابع عرض هذا الدليل الذي يلفت الأنظار إلى أن الله نزل بتقديره من السحب في السماء ماءً، فيه الخير والبركة. فتداخل في التربة وتخلل أجزاءها، فأنبت به جنات. روى الأرض،فنمت الأشجار واختزنت من الماء ومن عناصر التراب ما أورقت به وأزهرت وأثمرت متنوع الثمار. وسرت الرطوبة في الأرض فامتصت الزروع منها ما تكامل به نماؤها حتى أخرجت سنابلها مملوءة بالحب، ثم نضجت فتم حصادها.

وأنبت بذلك النّخل الممتدة عالية باسقات. وفي قرن النّخل الطويلة جذوعها بالزروع القريبة من سطح الأرض ما يبهر من قدرة الخلاق العليم المقدر لكل شيء قدره؛ أرض واحدة وماء واحد من السماء، ونبات سامق في السماء، وآخر قريب من سطحها. وتخصيص النّخل بالذكر لأنه أهم الأشجار عند المخاطبين الأولين بالنص. وذكرت الآيات بخاصية النّخل في إثماره كيف يظهر الطلع حاويا لما سيكون رطبا،

كما تحوي الأم في بطنها جنينها. ويكون ما يحويه منضدا مصففا بعضه فوق بعض.

كل تلكم النّباتات والأشجار والتفاعلات التي تمت بعد نزول المطر من السماء، رتبناه ليكون منه قوت العباد وقوام حياتهم.

وبصفة عامة قدرنا أن الماء النّازل من السماء تتشربه الأرض فتحيى به بعد أن كانت ميتة قاحلة لا حياة على ظهرها. بعد نزول الغيث تصبح مسارح للحيوانات تضطرب بالحياة في ذاتها، وبما يتحرك فوق أديمها.

على ذلك النّحو من التقدير النّافذ والمبني على الحكمة في إحياء الأرض بعد موتها، نخرج النّاس من قبورهم ليحاسبوا ويتم جزاؤهم عما قدموا.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾
وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ
بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ
نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ
ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

حق : صدق وحلّ.

وعيد : الإنذار الذي أخبروا له

عيينا : عجزنا.

توسوس : ما يجري فيها من كلام خفي.

حبل الوريد : أحد العرقين اللذين يكتنفان العنق.

المتلقيان : الملكان اللذان أوكل الله لهما تسجيل كل ما يصدر عن المكلف من خير أو شر.

القعيد : قاعد ملازم.

عتيد : حاضر مهيأ.

بيان المعنى الإجمالي:

ثمانية أقوام سلط الله عليهم نقمته مع ما كانوا عليه من قوة وشدة، قوم نوح وأصحاب الرس،وثمود، وعاد، وقوم فرعون،وقوم لوط، وأصحاب الأيكة من قوم

شعيب، وقوم تبع. هذه الأقوام الثمانية كذبوا رسل الله فحل عليهم الوعيد الذي أوعدهم الله به.

وينكر المشركون البعث، فهل عجزنا عن خلق البشر من أول الأمر لما أنشأناهم على غير مثال ؟ لقد انغمسوا في الحيرة لما أنكروا الإعادة ولم يجدوا جوابا.

لقد خلقنا الإنسان ولم نهمله، فكل ما يجري في نفسه وما يتحدث به ضميره مكشوف عندنا. ونحن أقرب إليه من الشريان الذي بجانب العنق الذي يغذي الدماغ ليقوم بوظيفة الإدراك وليحكم في جميع القوى والأجهزة.

ثم صور القرآن النّظام الذي خلق الله عليه الإنسان، فبين أنه وكل به ملكين يتلقيان ما يصدر عنه من حسنات فيكتبها ملك اليمين، وما يصدرعنه من سيئات فيكتبها ملك الشمال.والملكان يرقبانه رقابة دقيقة،تهيآ لهذه الوظيفة، مؤتمنان عليها، فلا يضيع شيء مما صدر عنه.

بيان المعنى العام :

12←14- كذبت قبلهم...فحق وعيد.

الآيات الثلاث جمعت ثمانية أقوام، فُصِّلت بعض أخبارهم في مواطن من القرآن. -1فقوم نوح ؛ الذين أغرقوا جميعا بالطوفان إلا من كان مع نوح في السفينة؛ 2- وأصحاب الرس الذين تقدم ذكرهم في سورة الفرقان، ولم يرد تفصيلا عنهم إلا ما ذكره المفسرون مما لا يطمأن إليه. وثمود 3- الذين أهلكهم الله لما قتلوا النّاقة وعتوا عن أمر ربهم وتحدوا رسولهم، فاستأصلهم الله بعذابه كما هو مفصل في عديد السور. 4- وعاد التي أهلكت بريح صرصر.5- وفرعون بالغرق في البحر.6- وقوم لوط رجموا من السماء وانقلبت الأرض عليهم. 7-وقوم شعيب أصحاب الأيكة أهلكوا بالصحية كصيحة ثمود.8- وقوم تبع وقد بسط القول عنهم في سورة الدخان.

ذكر القرآن قريشا بعاقبة هذه الأمم، وقصص هلاكهم مروية عندهم، ومَشَاهِدُ آثار بعضها يمرون عليها في رحلاتهم إلى الشام وإلى اليمن. المذكورون الثمانية كذبوا رسلهم وتحَدَّوْا الحقيقة التي عرضوها عليهم،رغم أنهم أنذروهم ما يترصدهم من عذاب. فصمموا على التكذيب ،فحل بهم ما أنذروا به وصدق الله في وعيده.

15-أفعيينا بالخلق الأول....من خلق جديد.

يسألهم ليدفع إنكارهم للبعث، ويكشف عن قصر نظرهم. إنهم لا يستطيعون أن ينكروا أن الله هو الذي فطر السماوات والأرض وخلق البشر.يسألهم كيف يُقِرُّون

بذلك وينفون قدرته على البعث.أعجزنا عن الخلق الأول، حتى نعجز عن الإعادة؟ ثم يضرب القرآن عن محاجتهم ويثبت أنهم غارقون في الحيرة، متعلقون بالشبه المنفية بالقياس الواضح: إن من قدر على الخلق الأول قادر على أن يخلق من جديد ما خلقه من قبل.

16←18-ولقد خلقنا الإنسان..رقيب عتيد.

بكل تأكيد خلقنا الإنسان، ولم نهمل رعايته، فنحن نعلم ما تتحدث به نفسه في سره، وما يجري في عقله من خير أو شر، وعزم على الطاعة أو على المعصية. وهذه القدرة العظيمة، والعلم الواسع الذي لا يفلت منه شيء، يقوي ما ذكر في الآية السابقة: قد علمنا ما تنقص الأرض منهم. وفي إنباء البشر والمشركين بصفة خاصة بانكشاف كل أحوال الإنسان عند الله إنذار للمشركين، أن كل أعمالهم الظاهرة والخفية يعلمها الله ويجازي عليها. ثم جسم القرآن وضع البشر من الرقابة والعلم الإلهيين، بأن الله أقرب لكل فرد منهم من شرياني الدم اللذين يكتنفان رقبته. وحبل الوريد الذي ينقل الدم من القلب إلى مركز التحكم: الدماغ فيغذيه، والإنسان لا يشعر رغم قربه منه، والله أقرب للعبد من ذلك. وليس القرب مكانيا تعالى الله عن ذلك، ولكن المقصود بالقرب ما يترتب عليه من العلم العميق. وهذا التقريب بلغ من الدقة أعلى مقام. فمدد الشريان لو توقف توقفت حياة الإنسان. والإنسان لا يحس ولا يشعر بالنظام الذي يرتبط بذلك الوريد. فكذلك لو توقف المدد الإلهي لتوقفت حياة الإنسان.

ويواصل القرآن موضحا كلمة "أقرب" في الوقت الذي يتلقى الملكان ما يصدر عن الإنسان لتسجيله. فصلّت الآية أن كل مكلف يصحبه ملكان، أوكل الله إليهما تسجيل ما يصدر عنه. فكل لفظة ينطق بها، وكل عمل ينجزه بإرادته يُسَجَّلُ تسجيلا يلقاه صاحبه يوم القيامة، وإن لم يذكر الفعل في الآية إلا أن العموم مفهوم من طريق الأولى،ذلك أن شأن النّاس أن يستهينوا بالأقوال، ولما نصت الآية على تسجيل الأقوال، فتسجيل الأفعال من باب أولى. وقوله تعالى: **(عن اليمين وعن الشمال قعيد)**: إن الله أوكل بالإنسان ملكين ؛ ملكا قاعدا عن يمينه، ملازما له، لا يبرح مكانه،يسجل ما يصدر عنه من حسنات، وملكا قاعدا عن شماله أيضا، يسجل ما يصدر عنه من سيئات. وروي أن الحسنات تكتب فور صدورها، وأن السيئات يُستأنى بها رجاء أن يتوب ويستغفر.

رقيب **عتيد** . يرقبه لا يفلت من رقابته لا فعل ولا قول، عتيد مهيأ للتسجيل أمين على ذلك، غير مشغول عنه.

وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ
ٱلۡوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ﴿٢١﴾ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا
فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ
﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ
مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ
وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخۡتَصِمُواْ لَدَيَّ وَقَدۡ قَدَّمۡتُ إِلَيۡكُم بِٱلۡوَعِيدِ
﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلۡقَوۡلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

جاءت : حصلت.

سكرة : ما يعتري الإنسان من شدة عند موته.

تحيد : تفر.

الغفلة : الذهول عما شأنه أن يعلم.

كشفنا عنك غطاءك : أزلنا ما كان يحجب عنك الحقيقة.

حديد : ثاقب نافذ.

سائق : يحثه من ورائه على السير.

قرينه : ملازمه.

الكفار : الشديد الكفر.

العنيد : القوي العناد.

المناع : كثير المنع.

معتد : ظالم.

المريب : المجتهد لبث الشكوك في النّاس.

الطغيان : تجاوز الحد في التعاظم.

بعيد : أمعن في الضلال.

بيان المعنى الإجمالي:

تذكير بمآل كل مشرك مما هو غافل عنه. حضرت سكرة الموت وما يصحب النّزع من شدة مذهلة. ذلك النّزع وهوله هو ما كنتَ تحاول أن يكون بعيدا عنك، فقد جاءك وليس لك عنه محيد.ويتبع الموت النّفخ في الصور للبعث وذلك اليوم يوم

تحقق الوعيد. لا تنفلت أي نفس من ذلك المصير، تأتي ومعها ملكان أحدهما يسوقها إلى الموقف، والآخر يشهد عليها بما عملت. ويسمع صوتا مؤنبا، بكل تأكيد لقد كنت في حياتك مغرقا في غفلتك، لا تقيم لهذا اليوم حسابا. ذهبت غفلتك التي كانت تحجب عنك هذا اليوم، فأنت تبصرها وبصرك نافذ لا يغيب عنه شيء.

يقول الملك الموكل به وقد بلغ به المكان المحدد له، هذا الذي بين يدي هو مهيأ لينال جزاءه. يأذن الله للملكين بأن يلقياه في جهنم، مصيره مصير كل من كان كفره شديدا، قوي العناد متصلبا في كفره، شحيحا بالمال عن وجوه الخير، يصرف النّاس عن الإيمان،كثير الظلم والتعدي على النّاس يؤذي الرسول والمؤمنين، يبذل كل جهده في صرف النّاس من اليقين إلى الريب والشك. الذي بلغ من فساده أنه جعل مع الله شريكا، فَاقْذِفَا به في العذاب الشديد.

ثم حاول أن يلقي التبعة على من كان ملازما له وأغواه، وقال قرينه هذا ربنا ما أضللته، ولكنه كان شريرا تأصل فيه الضلال، ذاهبا في طريق الغواية إلى أبعد حد تبعا لشهواته وعناده. وانقلبت رابطة الحب التي كانت تجمعهما في الدنيا إلى عداء مستحكم، كل واحد منهما يريد أن يحمل الآخر المسؤولية. ويأتيهما الخطاب المذل: اسكتوا ولا تختصموا لدي، فإني أعلم حقيقتكم فحكمت عليكم بما أنتم أهل له. قدمت لكم وعيدي على الشرك والفساد على لسان رسلي.وما حكمت به عدل لا يبدل، وكل نوع من أنواع الظلم لعبيدي بعيد عني.

بيان المعنى العام :

19-وجاءت سكرة الموت...ما كنت منه تحيد.

استحضار للأوضاع الذي يتنقل فيها الإنسان حتى يبلغ منتهاها. ذكر فيما تقدم أن الإنسان مراقب رقابة حازمة، وتستمر هذه الرقابة إلى الوقت الذي تحصل فيه سكرة الموت ؛ الشدة التي تعتري الإنسان في آخر حياته فتختل مداركه، الوقت الذي تجيء هذه السكرة بالحق أي حقيقة واقعة، كما أنطق الله بها كتبه،وحذر منها رسله ليستعد الإنسان لهولها. ولا طمع في امتداد الحياة بعدها.

ذلك ما كنت منه تحيد. ذكر الإنسان بهذا الظرف الآتي لا محالة، إنك كنت تخشاه، وتتهرب. وكراهية الموت وحب الحياة أمر مفطور عليه الإنسان، والمشركون أشد كراهية للموت. قال تعالى: (**ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة** [1]) وأما المؤمنون فلما يرجونه من عفو الله ورحمته لا يجزعون منه عند النّزع.

---

[1] سورة البقرة آية 96

20- ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد.

النفخ في الصور هو مبدأ البعث، وتقدم في الآية 73 من سورة الأنعام ما يوضحه. ذلك النفخ هو يوم حلول الوعيد الذي أخبر به المرسلون. وحذروا أقوامهم من أهواله. واكتفي بذكر الوعيد لأن المساق هو في مخاطبة المشركين.ولذلك اكتفي به عن ذكر يوم الوعد بالنسبة للمؤمنين.

21←22-وجاءت كل نفس....شهيد.

تستجيب للنفخة جميع النفوس، فتأتي كل نفس يصحبها ملكان: ملك سائق من ورائها يزجرها كي لا تحيد عما يراد لها، وملك شاهد عليها، جامع ودقيق، بما قدمت. والتوصيف هو للمشركين. ويمكن أن تفهم الآية على أنه ملك واحد سائق وشهيد في نفس الوقت.

ينفذ إلى سمعه ومداركه خطاب تهكمي توبيخي حاصله : تذكر وضعك في الدنيا وأنت مشغول عن يوم البعث، منكر له ومستبعد،لا تدخله في حسابك. شأنك شأن الغافلين، فأنت ترى اليوم ببصرك السليم الذي لا يفلت من حدة إدراكه شيء يوم البعث حقيقة ماثلة.

23←26-وقال قرينه هذا ما لدي...في العذاب الشديد.

يقول الملك الموكل بسوقه: هذا المسوق الذي وكلت به حاضر مهيأ لينال جزاءه. على معنى أني أتممت ما كلفت به من إيصاله إلى حيث ينفذ فيه الحكم العادل في هذا اليوم. وسمي الملك قرينا باعتبار أنه كان ملازما له من وقت إحيائه وبعثه إلى المكان والزمان الذي سيعلن فيه عن جزائه.

-يخاطب الله الملكين السائق والشهيد، وقد قاما بمهمتهما، فأوصلا الموكلين به إلى مصيره، فيصدر الإذن: ألقيا في جهنم كل من كان كفره عميقا، قوي المكابرة والتصلب في الشرك، ممعنا في التمسك بضلاله، يقف سدا مانعا من التأثر بالإيمان، شحيح بالمال يمنعه عن مستحقيه،ألف الظلم والتعدي على المؤمنين بالإذاية والتكذيب، يجتهد في إدخال الشك في حقيقة الإسلام، مغالطا للناس قصد إضلالهم وإبعادهم عن الحق. ومن صحائفه ينبأ الملك الشاهد بمنزلة من كان يصحبه،فينفذ الأمر الذي لا مثنوية فيه.

– أعلنت الآية أصل الفساد الكبير الذي كان مستحوذا عليه، أنه جعل مع الله إلها آخر فسوى بين الله وبين الأصنام التي كان يعبدها ويتقرب إليها. والله لا يغفر أن

يشرك به. يلقى اليوم جزاءه بإنكاره التوحيد، فيؤمر الملكان أن يرميا به في أشد العذاب لما جمع من الشر.

28←29- قال قرينه ربنا...وما أنا بظلام للعبيد.

طوي الكلام طيا لكون المطوي كان كذبا لا حقيقة له. إنه حين يؤمر بإلقائه في العذاب الشديد يقدّم آخر محاولة منه للتخفيف عنه: إن ما كان عليه في حياته من الشرك وسيء الفعال، كان تحت تأثير الشيطان الملازم له. يعرض أن يتقاسم العذاب مع هذا المضل الذي أفسد عليه حياته وحرمه من الإيمان. فيتبرأ منه قرينه قائلا : إني لم أؤثر عليه بما يجعله طاغيا يرى نفسه أعظم من أن ينقاد للإيمان وللرسالة المحمدية. بل الحقيقة أنه كان منغمسا في الضلال يهوى الكفر ويسير في الفساد إلى أبعد مدى، تتحكم فيه شهواته، وأنانيته المفرطة. فهو يتحمل وحده مسؤولية شركه وفساده.

– قال الله رافعا للجاجهم : كفوا عن الخصام، ولا تختصموا لدي، بمعنى إني أعلم الحقيقة ولا يزيدني تدافعكم علما، وقد علمت سرائركم وما صنعتموه في حياتكم، وحكمت عليكم حكمي بناء على واقعكم،وقدمت إليكم وعيدي على الشرك في حياتكم فلم ترتدعوا. فإذ حكمت بإلقائكم في النّار فإنه حكم عدل. وما يبدل حكمي لأنه العدل، والعدل واحد لأنه الحق والحق واحد لا يتعدد. وما أنا بظلام للعبيد. فكل نوع من أنواع الظلم ولو كان ضعيفا بعيد عني. ذلك أن الظلم نقص والله هو الكامل تعالى أن يلحقه نقص. وقرر نفي الظلم بوصفهم بالعبيد، فهو الذي خلقهم وأجرى عليهم أرزاقه، وأنعم عليهم بما أنعم، فلا يتصور مع ذلك أن يظلمهم.

يَوۡمَ يَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمۡتَلَأۡتِ وَتَقُولُ هَلۡ مِن مَّزِيدٖ ﴿٣٠﴾ وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ﴿٣٢﴾ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴿٣٥﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

مزيد : زيادة.

أزلفت : قربت.

أواب : كثير الرجوع إلى الله بالذكر والتوبة.

الحفيظ : الشديد المحافظة على الطاعات.

الخشية : الخوف.

البطش : التسلط بالقوة والقهر.

نقبوا في البلاد: ساروا باحثين، وتصرفوا في الأرض لاستخراج خيراتها.

قلب : عقل يدرك.

إلقاء السمع : شدة الإصغاء.

شهيد : مشاهد.

بيان المعنى الإجمالي :

واذكر يوم يقول الله لجهنم : هل مازال فيك سعة أو امتلأت من المجرمين ؟فتجيب هل من مزيد ؟ هي مشوقة لالتهام أفواج آخرين من الكفرة. وفي المقابل أعدت الجنة للمتقين وقربها الله منهم. ويقال لهم تكريما: هذا ما كنتم توعدون، مما وعدنا به كل من يرجع إلى ربه دوما، خيط اتصاله بربه لا ينقطع، شديد الحفظ للوفاء بما أمره والتنزه عما نهاه عنه.هذا الأواب لربه لزمه الخوف من الله وهو بعيد عن الأنظار فيبتعد عن المعاصي وإن كان لا يرقبه أحدٌ من البشر. وصحبته هذه الخشية إلى اليوم الذي فارق فيه الحياة وأقبل على ربه. يقال لهم تأنيسا لهم : ادخلوا الجنة يصحبكم السلام من كل مكروه، والملائكة يسلمون عليهم، **والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار** [1]- ذلك اليوم الذي يحصل فيه جزاؤهم هو يوم الخلود الذي لا انقطاع له ولا موت بعده. ينالون كل ما تتعلق به رغباتهم من أنواع النّعيم، وفوق ذلك نعيمٌ لا يخطر لهم على بال، هو من نعيم الآخرة الذي خص الله به أصحاب الجنة.

وقد أهلك الله أمما كثيرة قبل قريش، كانوا أقوى منهم وأشد تعديا، فاعتزوا بقوتهم وظنوا أن قدراتهم التي مكنتهم من تعمير الأرض والتحكم فيها تنجيهم من الهلاك، ولكن ليس لهم مخلص مما قدر لهم من العذاب فتم استئصالهم.

إن فيما عرض من الآيات، ما يقوم ذكرى، ينتفع بها من كان له عقل واع يتدبر فيما عرض عليه بفكره، ويستنتج النّتائج من مقدماتها. أو من كان اعتماده على استيعابه لما أنزل على الرسول من القرآن ومن البيان، فحصر سمعه في التلقي بإمعان للوحي، شاهدا لمجالس الرسول واعيا للمنزل وما صحبه من بيان بالقول أو

---

[1] سورة الرعد آية 23

بالفعل والإشارة. ولكن الذين كفروا أعرضوا عن التدبر فيها، وعن الاستماع للوحي، فلم ينتفعوا وضلوا، وستكون عاقبتهم كعاقبة الذين سبقوهم من القرون الهالكة.

بيان المعنى العام :

30-يوم يقول لجهنم...هل من مزيد.

واذكر إذ يقترن بقوله : **وما أنا بظلام للعبيد**، قوله تعالى لجهنم : **هل امتلأت** ؟ ولما كان الغرض الأساس مما تقدم من الآيات التأثير في المشركين كي يقلعوا عن شركهم، ويؤمنوا بربهم وبرسوله؛ فإن ذكر هذا الخطاب لجهنم يزيد في تصوير ما يُفزعهم من أهوال يوم القيامة. فلا تزال الجماعات الكثيرة تلقى في جهنم حتى يخيل لمن يدخلها أن جهنم قد امتلأت، فييأسوا عندما يحسون بخطاب الله لجهنم، وجوابها هل من مزيد، فهي تتطلب مزيدا من المشركين حطبها. فقد خلق الله فيها تغيظا على المغضوب عليهم.

31←35 : وأزلفت الجنة...ولدينا مزيد.

يجمع القرآن للتأثير الإصلاحي بين الترهيب والتبشير، فبعد أن أشبع الكلام على مآل المشركين، حوّل طريقة التأثير إلى ذكر ما يرغِّب في الإيمان والطاعة، فذكر اولا أن الله قرب الجنة من المتقين، فهي في مكان غير بعيد عنهم.وهل معنى ذلك أن الله يجعلها قريبة المسافة من مكان حشرهم، أو إن بلوغها بما ييسره الله لهم من وسائل بلوغها بيسر تبعا لما يمن به عليهم من الكرامة ؟ الكل محتمل وقريب.

-خطاب فيه إعلان بالتكريم والرضا من الله على المتقين الذين أعدت لهم الجنة، هذا المقام هو ما توعدون به يوم القيامة.أزلفت الجنة قريبا للمتقين لكل من كانت صلته بربه قوية يعود إليه بالعبادة والذكر، ويحافظ أتم المحافظة على الطاعات وعن اقتحام حدوده.

- ومواصلة للتنويه بالمتقين، نوه بكل أواب حفيظ الذي جمع لذلك، أنه يخاف ربه في الوضع الذي لا يطلع عليه بشر، في الوقت الذي يكون غائبا عن الأعين لا يتأثر بحمد الحامدين ولا بثناء المثنين، ولا يخاف عقوبة من أحد. هو الذي يكون حضور الله ورقابته في ضميره وعقله مؤثرا في سلوكه وأعماله-من خشي الرحمن بالغيب - وأنه صحب تلكم الرقابة إلى آخر لحظة من حياته فجاء ربه بقلب منيب راجع إليه لم تنقطع صلته به.

- يسمعون وهم يدخلون الجنة هذا القول المؤنس: ادخلوا الجنة يصحبكم السلام، والأمن والرضا، ويحتمل أنهم يسمعون الملائكة الموكلين بالجنة يسلمون عليهم.

ذلكم الذي جوزيتم به هو جزاء لا ينقطع، فكما كنتم تخشون ربكم بالغيب، فإن الجنة دار قراركم ينتفي فيها الخوف من انقطاع ثوابكم. ذلك يوم الخلود.

- توج ما وعده الله للمتقين، أن أمانيهم تنطلق راغبة في كل نوع مما يجري في أذهانهم من النّعيم والخيرات وتُعَجّل لهم رغباتهم، وفوق ذلك مزيد من الله، ويعني به والله أعلم مالا يخطر ببالهم. إذا رغباتهم تنطلق فيما تعودوا أن يتمنوا الحصول عليه في الدنيا. ولكن فوق ذلك صنوف من النّعيم غير متخيلة عندهم يكرمهم ربهم بها، ولدينا مزيد.

36-وكم أهلكنا...هل من محيص.

ينتقل القرآن من الترغيب إلى التهديد للمعاندين فيقول: إن أمما كثيرة أهلكناهم، مضوا في التاريخ قبلهم. كانوا أشد عنفا منهم، واعتزازا بقوتهم، نقبوا في البلاد، حمل على أن المراد منه،أنهم ساروا في الأرض معمرين لها بضروب الإعمار، حتى ظنوا أنهم تحكموا في خيرات الكون.وما أغنى عنهم ذلك فلم يجدوا مهربا من الموت ولا منجى من الإهلاك. وحمله في تاج العروس على أنهم ساروا في البلاد طلبا للمهرب فهل كان لهم محيص من الموت ج 4 ص298-ولا مهرب لهم ولا منجى من نفاذ الحكم الذي هو استئصالهم.

37- إن في ذلك لذكرى...وهو شهيد.

إن في ذلك الذي عرضه القرآن في الآيات ما يقوم منه ذكرى يتذكر بها من كان فيه استعداد، فيتفكر متدبرا في الأسباب التي قضت عليهم بالإهلاك. وهو الذي رزق قلبا واعيا فلا يغيب عن فطنته موجبات النّهاية التي انتهى إليه أمر الأمم المستأصلة، فعقله يحسن التأمل والاستنتاج. أو كان مقبلا على القرآن وما ينطق به الرسول في مجالسه، إقبالا شديدا كأنه ألقى حسه السمعي كله في ذلك، فلا يشغله أي شيء عن استيعابه. فهذا المستمع بعناية تامة وهو حاضر شاهد، يتأثر بالذكرى التي يبينها التنزيل والرسول. فهو شهيد مشاهد لكل ما يصدر عن الرسول من لفظ، وعمل وإشارة. فهو يتلقى أنوار النّبوة مباشرة فيمتلئ حسه وعقله بما يذكره فتتكشف عنه حجب الغفلة. ويفهم من الكلام أن الكافرين بإعراضهم وصرف عقولهم عن التدبر غاب عنهم الاستنتاج الذي يكشف لهم سوء مآلهم، وكذلك هم انصرفوا أيضا عن الاستماع للوحي فبَعُدوا عن الذكرى.

وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴿٣٨﴾
فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾
وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسۡتَمِعۡ يَوۡمَ يُنَادِ ٱلۡمُنَادِ مِن مَّكَانٖ قَرِيبٖ ﴿٤١﴾
يَوۡمَ يَسۡمَعُونَ ٱلصَّيۡحَةَ بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيۡنَا
ٱلۡمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ ذَٰلِكَ حَشۡرٌ عَلَيۡنَا يَسِيرٞ ﴿٤٤﴾ نَّحۡنُ أَعۡلَمُ
بِمَا يَقُولُونَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِجَبَّارٖۖ فَذَكِّرۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

اللغوب : الإعياء من العمل الشديد.

الإدبار : الانصراف.

المنادي :الملك المكلف بالنداء فتنبعث الأجساد حية عند ندائه.

يوم الخروج : يوم الحشر.

المصير : صائر إلى ما قدرناه له.

جبار : مكره.

بيان المعنى الإجمالي:

يؤكد الله أنه بحكمته قرر أن يتم خلق السماوات والأرض في ستة أيام، هي أيام عند الله، وليست قطْعًا أيام الأسبوع. وأنه أتم خلقها على أكمل نظام دون أن يلحقه من ذلك تعب ولا إعياء. فقول اليهود إن الله استراح يوم السبت اليوم السابع من ابتداء الخلق غير صحيح. وسلّى رسوله وقوى من عزيمته في مقابل ما يشغب به المشركون، فأمره بالصبر وأن يستعين على ذلك بالصلاة الصلوات الخمس، والنوافل عقب الصلوات في الأوقات الصالحة لذلك. وصلاة الفجر والتهجد.

تهيأ لاستماع النّداء يوم ينادي المنادي بصوت يؤثر في كل إنسان عاش على وجه الأرض ثم مات، يسمع صوته كأنه رفعه بجانبه. هي صيحة يشعر كل مستمع لها أنها صيحة حق لا مرية فيها، ذلك هو يوم الخروج من القبور إلى المحشر.

إن الحياة والموت بيدنا، نحيي الإنسان ثم نميته، ثم نحييه، فيكون المصير إلينا لينال كل جزاءه العادل. وذلك أمر يسير علينا.

لا تبتئس مما يقولونه، ولا بما يروِّجونه من أكاذيب، فكل قول منهم محفوظ لدينا، لا ينفلت شيء عن علمنا نحصيه عليهم ثم نعاقبهم. إنك لست بمجبر لهم على

اتباعك، إن عليك إلا البلاغ. وواصل التذكير بالقرآن للمؤمنين الذين يخافون وعيد ربهم ويرجون ثوابه. وتجد في هذه القلوب التي اهتدت رضا لك.

بيان المعنى العام:

38-ولقد خلقنا السماوات....وما مسنا من لغوب.

تكرر في القرآن إثبات هذه القضية التي تتضمن عِبَرًا كثيرة. منها أن الله لم يخلق السماوات والأرض دفعة واحدة. ولكن رتب خلقها في ستة أيام. وقد يدل ذلك على أن الله أودع فيها من القوانين المترابطة ما يعطي كل واحد منها ما يولد أمورا تؤثر بدورها في غيرها، حتى تم النّظام الذي قدره لمسيرة الكون.وهذا يعطي منهجا علميا في البحث. ومن ناحية أخرى فإنه ليس المراد بالأيام أيام الأسبوع. إذ أن هذا التقسيم إنما حدث بعد خلق السماوات والأرض لا قبل خلقها. فاختلاف النّاس في ضبط أول يوم بدأ الخلق، وآخر يوم، فروض لا معنى لها قبل انتهاء تكوين المجموعة الشمسية.

والمهم في الآية هو التنصيص على أن الله لما أحدث السماوات والأرض، وضبط نظامها وسيرها، وأجراها فعلا حسب علمه وحكمته، أتم ذلك دون أن يلحقه إعياء. وفي هذا رد على ما روجه اليهود من أن الله ابتدأ الخلق يوم الأحد وأتمه يوم الجمعة واستراح يوم السبت من التعب. وتعالى الله أن يلحقه إعياء. لأن الإعياء نتيجة عناد الموضوع. وكل الكائنات تطيعه بطبيعة خلقها.

وإذا كان الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام من غير شيء سابق، فإن بعث البشر يوم القيامة، أشد إمكانا، وأقرب للتصور.

39←40-فاصبر على ما يقولون...وإدبار السجود.

قابل مشركو مكة الوحي الذي ينزله الله على رسوله بالتكذيب أولا، ثم بالسخرية والاستهزاء.ومكانة الرسول عند الله المكانة الرفيعة، فهو سبحانه يسليه، ويقويه على احتمال سفههم ليواصل الدعوة بثبات. فأمره بالصبر على ما يصدر من أقوالهم العابثة. ومما يقوي نفسه على الاحتمال ويزيد عزمه مضاء، الإقبال على ربه والتقرب إليه بالصلاة. وقد أجمع المفسرون على أن المراد بقوله: وسبح، وصل ومما يرجح ذلك إتباع "سبح " ب: "حمد ربك" والصلاة مفتتحة بسورة الحمد لله رب العالمين. وأرشد إلى أوقات الصلاة فقال: قبل طلوع الشمس: صلاة المغرب والعشاء وصلاة الصبح. وقبل الغروب: صلاة الظهر وصلاة العصر.

ومن الليل فسبحه...هي صلاة التهجد إن جرينا على أن المراد بسبح: الصلاة لتجري الآية على نسق واحد. وحمله بعضهم سبح على قول " سبحان الله "

وإدبار السجود. منصرف المسلم من الصلاة.عقب السجود وهي النّوافل التي بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن حكمها النّدب، وبين أنها لا تقع بعد العصر. وخصصها بعضهم بصلاة ركعتين بعد الغروب، وآخرون بصلاة الفجر.

41-واستمع يوم ينادي....وإلينا المصير.

صيغة تثير اهتمام المخاطب ليصيخ سمعه للاستماع، والاستماع ليوم ينادي المنادي، على معنى استمع لنداء المنادي، لأن اليوم لا يسمع. وفي ذلك تهويل هذا اليوم، إذ صيحة المنادي من القوة بحيث تؤثر في كل إنسان عاش في الأرض ثم مات. وعبر عن انتشار الصيحة وبلوغها لكل مستمع بقول من مكان قريب. صوت المنادي ينطلق على مرتبة سواء بين كل المستمعين، فلا يكون قويا عند بعضهم وعند آخرين ضعيفا. وما ذكر من أنه من صخرة بيت المقدس لم يقم عليه دليل يقيني.

– يوم يسمعون الصحية التي يدرك كل سامع أنها صيحة حق، لا تلتبس على السامع ؛ ذلك اليوم،هو يوم الخروج من القبور إلى أرض المحشر.

– النّتيجة الحتمية مما فُصّل سابقا: إن الحياة والموت بيد الله وحده يتصرف فيهما إيجادا وتحولا، بقدرته وإرادته وحكمته. وكل شيء صائر إلى ما سبق له في القدر المحتوم. فمصير البشر إلى الله ليحاسبهم عما قدموا ويجزيهم بالعدل.

44- يوم تشقق الأرض عنهم...علينا يسير.

صورة تذكر بإحياء الأرض بعد نزول الغيث، فكما تشقق الأرض عن البذور الكامنة فيها، فكذلك تشقق فيخرج من أي ذرة من ذرات الإنسان إنسانا كاملا كما تبين لنا قريبا. فيخرجون مسرعين إلى الموقف الذي تبين لنا أن كل نفس معها سائق وشهيد. ويُعَقِّب المشهد بالتذكير بالقدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء. ذلك الإحياء ثم الخروج مسرعين إلى أرض المحشر، أمر يسير علينا لا يقتضي منا سوى الأمر في اللحظة التي قدرناها للبعث. فانتفى بذلك استبعاد المشركين إحياء الأموات.

45- نحن أعلم بما يقولون...من يخاف وعيد.

يسلي القرآن محمدا ﷺ، معرِّضا بوعيد الكافرين المشاغبين بالباطل. يقول الله لنبيه: لا تحزن ! فإني مقيد عليهم كل إذاية يؤذونك بها، سأحاسبهم وأجزيهم. وقد بعثتك مبلغا لرسالتي ليؤمن من اختار اتباع الحق، ويستمر على كفره من اختار الإعراض عن هدايتك، وما أنت بمجبر ولا قاهر أحدا على اتباعك. أنزلت عليك كتابي لتذكر به الذين يخافون وعيدي، الذين آمنوا بك وصدقوك، وأيقنوا أن ناصيتهم بيد ربهم، فهم يخافون عذابه، ويرجون ثوابه، فذكرهم فإن تذكيرك لهم سيعمق إيمانهم، وتجد فيهم رضا لنفسك ونجاحا في مهمتك.

ســـورة الذّاريـات

هذا هو الاسم الذي اشتهرت بـه فـي المصـاحف وكتـب التفسـير. باعتبـار أن كلمـة "الذاريات " لم ترد في القرآن إلا مـرة واحـدة فـي هـذه السـورة. وعنونهـا البخـاري بسورة "والذاريات" بحكاية مفتتحهـا. نزلـت علـى رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم بمكة. رتبتها حسب ترتيب المصـحف الحاديـة والخمسـون. وحسـب ترتيـب النّـزول السادسة والستون. نزلت بعد سورة الأحقاف وقبل سورة الغاشية.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا ﴿٣﴾ فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا
تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ
مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ
﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا
الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

الوقر : الشيء الثقيل.

الحبك : من الحبك إجادة النّسج وإتقان الصنع.

قول مختلف : متناقض.

يؤفك : يصرف.

عنه : بسببه.

قتل : أهلك.

الخرص : الظن الذي لا سند له.

غمرة : يحيط بهم ما يذهلهم.

ساهون : غافلون.

أيان : متى يحل.

الفتن : التحريق والتعذيب.

بيان المعنى الإجمالي:

أقسم الله بالرياح وقد أودع الله فيها ما تؤثر به، فهي تذرو الجزيئات المنبثة من الماء في الأجواء العليا ،ثم تحملها وهي مجمعة ثقيلة، فتجري الرياح بالسحب المملوءة بالماء إلى المواضع المقدر لها أن تنزل فيها بيسر، ثم توزع تلك الرياح السحب بين مواضع تُنزل فيها مطرا، وتصرفها عن أخرى فيتوالى عليها الجدب. والمقسم عليه: إن الذي وعدناكم من البعث لصادق لا يُخلّف. وإن الجزاء عن الأعمال لواقع قطعا.

ثم أقسم قسما ثانيا: بالسماء المحكم هندستها وبناؤها، وما قدر فيها من جمال. والمقسم عليه، إنكم أيها المشركون متناقضون فيما ترمون به القرآن ومحمدا. وبأقوالكم المتناقضة يُصرف عن الإيمان من صُرف عنه. فتفسدون أنفسكم وتفسدون أتباعكم. أسرع الله بإهلاك وتدمير هؤلاء الخراصين الذين تسرح خيالاتهم وأوهامهم فتصور لهم صورا من العقيدة خيالية وباطلة. أحاطت بهم خيالاتهم تلك، فأعرضوا عن الإيمان، فهم غافلون غفلة الساهي المنصرف عن إدراك ما حوله وما هو فيه.

من اتباعهم لخيالاتهم، أنهم يتهكمون بالمؤمنين، ويسألونهم : أخبرونا عن التاريخ الذي يحل فيه يوم الجزاء الذي تتوعدونا به.كان الجواب من عند الله قرآنا : يوم الجزاء هو اليوم الذي تُحرّقون فيه بالنار التي تفوق شدة حرارتها ما تتصورون. ويُنَكّل بكم فتسمعون: ذوقوا جزاء ما كنتم تفتنون به المؤمنين المستضعفين قاسية قلوبكم. وهذا اليوم هو اليوم الذي كنتم تطلبون أن يعجل لكم استبعادا لوقوعه.

بيان المعنى العام :

1←6-والذاريات ذروا...وإن الدين لواقع.

افتتحت الآية بالقسم المركب، من صفات أربع. الذاريات -الحاملات - الجاريات- المقسمات- ولما كانت صفاتا فإن الموصوف يصح أن يقدر بكل ما يمكن أن ترتبط به الصفة.

الذاريات : تحتمل أن تكون صفة للرياح . وحمله آخرون أن تكون صفة للنساء يذرين الأولاد.

الحاملات وقرا: السحب محملة بالماء. الرياح تحمل ذرات الماء.

الجاريات: الرياح تجري بالسحاب وقد تجمعت أجزاؤه فأصبح ثقيلا. السفن تجري

المقسمات أمرا : الرياح التي تسوق السحب فتنزل منها الأمطار على مواضع مختلفة. الملائكة التي تقسم الأرزاق بين الخلائق تنفيذا لما أمرت به.

والمقسم عليه : إن الذي توعدونه لحق واقع قطعا. فالبعث حق صادق، والجزاء عن أفعالكم من الكفر والشرك والتكذيب والإذاية واقع عليكم لا تجدون منه مخلصا.

والذي ترجح عندي؛ أن الله أقسم بالرياح في مختلف تأثيراتها،مراعًى المقسم عليه أقسم الله بالرياح وهي تثير الجزيئات الأولى التي يتكون منها السحاب "والذاريات ذروا" كما تتجمع ذرات الإنسان إثر النّفخ استعدادا للبعث.ثم بالرياح وهي تجمع تلك الذرات فتتكون منها السحب، كوضع البشر بعد نفخ الروح فيهم للبعث، وكل يحمل ثقل ما قدم.ثم تُجْري الرياح السحب بيسر إلى المواقع المقدر لها أن تبلغها. ويقابله من مراحل المقسم عليه سوق الملائكة المبعوثين إلى الموقف يوم الحشر. ثم إن الرياح تؤثر في السحب فتنزل منها الماء المسعد لأصحاب الأرض بالخير والبركات،و تبعد السحب عن مواقع أخرى فيستمر فيها الجدب. وكذلك في المقسم عليه فإن النّاس ينقسمون إلى سعيد وشقي. وقد بسطت هذا بأوفى في كتابي القسم في اللغة وفي القرآن ص118/115-

7←9-والسماء ذات الحبك....يؤفك عنه من أفك.

بعد أن استوفى القسم الأول ما ورد له من إثبات البعث والجزاء. أعقبه بقسم آخر. فأقسم الله بالسماء. والقسم بالسماء تكرر في القرآن مقترنا كل مرة بوصف يهدي التالي إلى موضع الاعتبار. ووصف في هذه الآية ب " الحبك " ولم يرد هذا اللفظ في القرآن إلا مرة واحدة في هذه السورة. والحبك مشتق من الحبك، الذي هو إتقان الصنع، وفي النّسج إجادته بقوة التحام خيوطه. والسماء محكمة البناء كل كوكب يجري في مساره، ويجذب إليه وينجذب لغيره بمقدار انتفى معه اختلال أوضاع النّجوم والكواكب والمجرات.وهي تسير في طرائق محددة ومضبوطة ومحكمة، ولذلك فسِّرَ الحبك بالطرائق.وبما أن الثوب المحكم النّسج يُوَشّى بما يزيده جمالا، فسر الحبك أيضا بالزينة التي تبدو في قبة السماء من النّجوم والقمر في الليل ، والشمس في النّهار على ما في مختلف أوضاعها من الشروق إلى الغروب من صور بالغة قدرا كبيرا من التناسق والجمال.

ولما كانت الكواكب وهي تسير لا يتسبب عن اختلاف مساراتها اضطراب في الكون ولا اختلال. كان هذا القسم موحيا باضطراب أقوال الكفرة، واختلافهم ليس له أي تأثير على الحقيقة. لقد اضطربت أقوالهم، فقالوا في الرسول ﷺ ما هو رشح عنادهم وبغضهم. ووصفوا القرآن بصفات تقطعه من مصدره رب العالمين وتنفي أن يكون وحيا. فأدى اضطراب أقولهم إلى هدمها جميعا باعتبار أن التناقض لا يؤلف منهجا.إنهم منغمسون في قول متناقض.فمثلا معنى قولهم إنه شاعر، أي إن

كلامه صادق وهو من نوع الشعر، وقولهم مفتر معناه أنه غير صادق، ورميه صلى الله عليه وسلم مرة بأنه صادق، ومرة أنه كاذب يهدم أقوالهم بعضها بعضا. وهو معنى قوله تعالى: **إنكم لفي قول مختلف.**

يؤفك عنه...عن هنا بمعنى بسبب. أي يصرف بسبب قولهم المتناقض من هو مؤهل لأن يصرف، يعني إن المشركين يصرف بعضهم بعضا عن الهدى إلى الضلال.

10←11-قتل الخراصون...في غمرة ساهون.

دعاء بالهلاك على الذين يتبعون ظنونهم غير المستندة إلى دليل ولا حجة. ولكن يتبعون الفروض النّاشئة عن الأوهام وعن الشهوات، وهو ما أشير إليه في الآية السابقة من القول المتناقض الصارف للآخرين عن الهدى. فتقودهم إلى التمسك بالباطل والزيف. فهم بِسَبَبِ إغراقهم في تلك الفروض واتباعهم لما نسجته في عقولهم معرضون إعراض الغافلين.

12←14-يسألون أيان...كنتم به تستعجلون.

تسجيل لما كانوا يتهكمون به استبعادا ليوم البعث والجزاء. فكانوا يقولون متى يقع يوم الجزاء هذا الذي تخوفوننا به. وهو متضمن إنكارهم له.

– تصرح الآية بجوابهم عن سؤالهم وتهكمهم، لا بتعيين يوم حصوله، ولكن بالتأكيد على ما يلقونه في هذا اليوم، وما أعده الله لهم. يوم الجزاء هو اليوم الذي يسلط عليهم العذاب بالتحريق في نار جهنم. وفي كلمة يفتنون إشارة للنار التي بها يتم تخليص الذهب مما خالطه، بتسليط نار عليه حرها شديد.

– يصحب عذابهم بالنار المستعرة، خطابهم خطابا يدل على التنكيل بهم، إذ يسمعون صوتا حاصله : (1) ذوقوا فتنتكم. ليكن إحساسكم بالإحراق إحساسا بليغا كأشد ما يكون، ذلك أن حاسة اللسان هي أشد الحواس تأثرا بما يلاقيها. فذوقوا جزاء الفتنة التي كنتم تفتنون بها ضعفاء المؤمنين، وقلوبكم قاسية خالية من الرحمة.(2) هذا العذاب الذي تذوقونه، هو العذاب الذي كنتم تطلبون تعجيله في الدنيا استبعادا له. **وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب.** [1]

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ

[1] سورة ص آية 16

أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا
تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ
مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

آخذين : راضين به.

الهجوع : النوم الخفيف.

الأسحار : جمع سحر، السدس الأخير من الليل.

السائل : الفقير المظهر خصاصته، ويسأل النّاس.

المحروم : الفقير الذي لا يسأل النّاس.

بيان المعنى الإجمالي :

بشر الله المتقين بأن الله أعد لهم يوم القيامة في دار الجزاء جنات صفة الخصب وسلامتها من الآفات بينة. هم راضون عما أنالهم الله من فضله. كرمهم الله لأنهم كانوا يسهرون الليالي في عبادة ربهم، ولا ينامون إلا قليلا، ونومهم نوم المتعلق بالعبادة نوم خفيف قليل. وفي السدس الأخير من الليل يستغفرون ربهم راجين أن يمحو ذنوبهم، ويتجاوز عن تقصيرهم وقصورهم. وخصصوا جانبا من أموالهم يسعفون به الفقير السائل، والمحروم المتعفف الذي لا يسأل. ويعتبرون أن ما يقدمونه للمحاويج حق لهم،فلا يمنون عليهم.

ليكن في التحولات التي تبدو على سطح الأرض، وما يكمن في باطنها، وما في كل ناحية من تلكم النّواحي، ما يثير فكركم لتتبينوا، أنها أدلة على حكمة الصانع العظيم وقدرته وإرادته،الذي أوجدها على تلكم القوانين.

وكذلك في أنفسكم، ينكشف لكم بالتأمل فيها أدلة على العلم والتقدير الحكيم. ما لكم لا تبصرون بصرا لا تحجبه الرتابة عن النّفاذ إلى قوانين الخلق.

واعلموا أن الله جعل رزقكم يأتيكم أولا وبالذات من السماء في الأمطار النّازلة منها وفي الشمس ودورها في النّماء والإصلاح للجو عامة. وفي السماء ما وعد الله به الصالحين، وما أوعد به الكافرين والعصاة.

ثم أقسم تعالى بذاته العلية وهو رب السماوات والأرض، أن ما جاءكم من الوحي هو الصدق الكامل الذي لا يقبل الشك، كما لا يقبل أحدكم الشك في أن ما ينطق به هو حق.

بيان المعنى العام :

15←19: إن المتقين في جنات...حق للسائل والمحروم.

بعد أن كشف القرآن عما يلقاه المشركون المكذبون،إنذارا لهم من التمادي على الكفر، ثنى بتبشير المتقين بما أعد لهم من نعيم، ليكون ذلك حافزا لهم على مواصلة ماهم عليه من ربط قلوبهم ورغباتهم بما يرضي الله، مستحضرين دوما أنهم على صلة به، فهؤلاء المتقون أعد الله لهم جنات كثيرة، فيها نضارة الخصب. وجرى هذا المقطع على الطريقة القرآنية التي تجمع بين الترهيب والتبشير.

-**آخذين ما آتاهم ربهم...** تعبير لطيف عن رضاهم بما أعطاهم من فضل. وهو أكمل ما يتم به التكريم، أن يكون المعطى لا يتصور وضعا أفضل من الوضع الذي هو فيه، ولا جزاء أحسن مما أوتيه.وفي التعبير بربهم، ما يشير إلى نوعية الصلة الرابطة بينهم وبينه، هي صلة الربوبية والعناية المتواصلة، هو ربهم في الدنيا بهدايتهم، وتحصينهم من الكفر والعصيان، وربهم في الآخرة بما مكّنهم منه في جنات النّعيم.

إنهم كانوا قبل ذلك محسنين- تعليل لما نالوه من تكريم، هو جزاء إحسانهم في الدنيا بفعل الطاعات، والامتثال لما جاءهم من ربهم.وأكدت الآية الارتباط بقوله : إنهم كانوا قبل ذلك مما آتاهم فأرضاهم به في الجنة،كانوا قبل ذلك محسنين . هذه هي الصفة الأولى من الصفات الأربع التي نوه الله بها وقدرها لتكون سببا للجزاء.

-الصفة الثانية: **كانوا قليلا....** من صفاتهم اللازمة أنهم كانوا ينامون نوما قليلا في الليل. وهذا التركيب يحتمل أن يفهم على أن قيامهم للصلاة والذكر هو الغالب عليهم في الليل فزمن نومهم قليل. كما يحتمل أن يفهم على أنهم لا يستغرقون في النّوم بل إن نومهم يكون نوم المتعلق بالعبادة. وقيام الليل مع الرغبة فيه،وإيثاره على الراحة في الوقت الذي يكون لذيذا محبوبا ينبئ عن تأصل حب العبادة والتقرب إلى ربهم في نفوسهم. ألم يقل الله لرسوله : يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا. فكان لهم في رسول الله أسوة حسنة.

ذكر ابن عطية أنه قيل لبعض التابعين: مدح الله قوما كانوا قليلا من الليل ما يهجعون، ونحن قليل من الليل ما نقوم، فقال رحم الله تعالى امرأ رقد إذا نعس، وأطاع ربه إذا استيقظ. يؤيده أنه إذا غلبه النّعاس داعي الطبيعة الخلقية، فالنوم خير من قسر نفسه على العبادة و هو لا يتحكم تحكما كاملا في منطقه، فلعله كما قيل يحرف في قراءته أو في دعائه.

-الصفة الثالثة انهم يستغفرون في السدس الأخير من الليل، أي إنهم بعد طول تهجدهم لا يرون أنفسهم قد عبدوا الله حق عبادته، فتنطلق ألسنتهم بطلب المغفرة التي لا ينالها مغضوب عنه. وحمل الاستغفار بعضهم على الصلاة.

-الصفة الرابعة: أنهم يجعلون للمحاويج حقا في أموالهم، يسعفونهم ولا يرون في عونهم تفضلا عليهم، بل يعتبرونه حقا، باعتبار أن الأخوة توجب في نظرهم أن لا يستأثروا بكل ما رزقهم الله، ولذا لا يخالط إعانتهم الشعورُ بالتفضل، إذ ما نال المحتاج إلا حقه. والسائل هو الذي يُعَرِّف بحاجته، ويسأل العون من ذوي اليسار. وأما المحروم فكما يدل عليه اشتقاق الكلمة يشمل كل من حرم من الرزق أصلا أو أصابه ما ذهب برزقه، وهو مع ذلك عزيز النّفس لا يعرف باحتياجه، ولا يسأل النّاس أن يعينوه فهو محروم من سعة الرزق، ومحروم من نول فضل الأغنياء، لتعففه عن المسألة فهم لا يعرفونه.

20- وفي الأرض آيات للموقنين.

إن ما يساعد النّاس على بلوغ التقوى ونيل حسن الجزاء، ما بثه الله في الأرض من الأدلة الدالة على الصانع الحكيم، فسواء أنظرت إلى ما يعمر به ظهرها من مختلف الأقوات، وما روعي في الزروع والأشجار وضروب النّبات من نفع وجمال، وما أجرى فيها من أنهار، وشلالات نزهة للأنظار، وما أرسى فيها من جبال، وما بسط فيها من سهول، والبحار التي تمد الأرض اليابسة بالسحب وما خلق فيها من حيوانات، ومخلوقات عجيبة، وتيسيرها للتواصل بالسفن. وما في باطن الأرض من معادن تمكن بها الإنسان من تسخيرها إلى ما ينفعه حتى استخرج غازها ونفطها، واستمد منهما قوة وسعت عليه الحياة وكانت أساس القوة الصناعية والفنية،وتولد منهما الطاقة التي دخلت في كل مرفق من مرافق الحياة حتى في البطارية المنظمة لدقات القلب. هي دلائل ينتفع بها في عقيدته الموقنون بالمبدع الأحد، فيزداد إيمانهم، ويستحثهم التأمل فيها إلى كشوف لا تحد. فإن الذي ما يزال مجهولا من هذه الآيات هو أكثر مما اكتشف لحد الآن. وحقيق بالمؤمنين أن يكونوا في مقدمة المجموعة البشرية التي تنظر في ملكوت الله، وتتعمق في تلكم الذخائر المنبثة في كل وحدة.الفرق بين المؤمن وغير المؤمن أن المؤمن بتأمله في الأرض يكتشف القوانين التي بنى الله عليها الخلق، فيزداد إيمانا بحكمة الصانع الواحد، ويدفعه إيمانه إلى مواصلة النّظر ومتابعة تسلسل الارتباط الذي بني عليه الكون. وغير المؤمن يقف عند حدود النّفع الموضوعي.

21- وفي أنفسكم أفلا تبصرون.

معطوف على قولـه وفـي الأرض آيـات، أي وفـي أنفسـكم أيضـا آيـات.وبهـذا تـم الكلام.وفي ذلك انتقال من النّظر في الأرض إلى نظـر الإنسـان فـي ذاتـه.وإنـه لعـالم كبير، يقوم كل وحدة من وحدات موضوع النّظـر علـى قـوانين ونظـام عجيـب جـدا. فسواء نظـرت إلـى الجانـب النّفسـي مـن الإنسـان أو الجانـب المـادي، أو الجانـب الروحي، فإنك تجد كل جانب مركبا من وحدات، وكـل وحـدة تسـتغرق عمـر الإنسـان دون أن يصل إلى غاية أبعادها أو يطمئن إلى أنه اكتشـف كـل مـا يتعلـق بهـا. فـالعين مثلا وأجهزتها، وما يعرض له كـل جانـب مـن اسـتقامة أو اخـتلال، وطـرق عـلاج الاختلالات، مما تفرع إلى اختصاصات عديـدة، ويقـر كـل عـالم مخـتص أنـه يجهـل الكثير، وكلما فتح العلماء بابا جديدا نفذوا بـه إلـى مجهـول فـتح لهـم نجـاحهم أبوابـا أخرى، وكلها سائرة على قوانين مضـبوطة راعاهـا الخـلاق العظـيم.ومثـل ذلـك فـي الجلد أو في القلب أو في الرئتين، أو في العظام، وفي كـل جـزء مـن أجـزاء التركيـب المادي.هي آيات وأدلة تمكن الإنسان من العـروج فـي اليقـين. وإذا كـان العلـم حقـق نجاحات في الجوانب المادية، فإن الجانب النّفسي يبـدو أشـد تعقيـدا، وأكثـر غموضـا، وما يزال الغموض يكتنف معظم قوانينه. والجانب الروحـي أبعـد مـن الجانـب النّفسـي. وكلها تنادي بأنها محكمة الخلق، لاحَظَّ للمصادفة فيها.

أفلا تبصرون.. أنكر القرآن على البشر عـدم رؤيـتهم للآيـات الموجـودة فـي أنفسـهم. كيف لا تستوقف الإنسان كل ظاهرة ووحدة، ليتعمـق فيهـا فتُجَلّـي لـه أن مـا روعـي في خلقه من نظام بديع، ومن قـوانين تقتضـي مـن الفكـر الإنسـاني مواصـلة الجهـود الفردية والجماعية لاكتشافها مما يقوم شاهدا علـى أن خالقهـا هـو المبـدع الحكـيم، هـو الذي لم يخلقها كما اتفق، ولكن في كل دقيقة وصغيرة وكبيرة نظام وحكمة.

22-وفي السماء رزقكم وما توعدون.

دعوات متواصلة ليخرق الفكر الإنساني حجـاب الرتابـة وتـوالي الظـاهرة، لينفـذ إلـى ما وراءها، فيكتشف نظامها وقوانينها، وما تدل عليه من قدرة وإرادة وحكمة.

يكاد المفسرون يجمعون علـى أن المـراد بـالرزق هـو السـحب التـي تسـقي الأرض فتخرج الأقوات والمراعي. وأرى أن الأرزاق تشمل الشـمس التـي مـا كـان للنبـات أن ينبت ويتطور ويخضـر لـولا أشـعتها، و الشـمس تمثـل عنصـرا أساسـيا فـي حيـاة الإنسان، وتعطي الطاقة النّظيفـة غيـر الملوثـة. وإن كانـت الأبحـاث مـا تـزال فـي بواكير كشوفها فإن المؤمل أن يجد فيها الإنسان رزقـه حتـى فـي تحليـة ميـاه البحـار. وغيرها من الكواكب التـي تـؤثر فـي الأرض تـأثيرا إيجابيـا قـد يسـتطيع العلـم أن يعرف بها في يوم من الأيام، فسبحان الله أحسن الخالقين.

وفي السماء من الغيب يتحقق ما توعدون من الثواب أو العقاب.إذا فسرنا ما توعدون بأنه الجنة أو النّار.وتوعدون صالح أن يكون مضارعا لوعد وأوعد. وحمله بعضهم على معنى أن علم ما توعدون عند أهل السماء الملائكة، الذين وكلوا بتحقيق ما وُعِدوا وأُوعدوا.

23- فورب السماء...مثل ما أنكم تنطقون.

هذا هو القسم الثالث في السورة.أقسمَ أولا بالرياح التي تثير السحب بين السماء والأرض، ثم أقسم بالسماء المتقنة الصنع، وهذا هو القسم الثالث؛ جمع فيه بين السماء والأرض باسميهما بعد أن لفت النّظر إلى الترابط بينهما في الرزق الموهوب منه إلى الخلق(وفي السماء رزقكم و ما توعدون) مع إضافتهما إضافة لطيفة إلى اسم الرب لتلْقي تلك الإضافة بظلالها مثيرة للعناية الموصولة من رب العزة بهما.وشأن القسم أن يثير الانتباه، ويحرك العقل للتأمل في المقسم به والمقسم عليه.ففي المقسم به استحضار للكون كله، والمقسم عليه أن ما عرضه القرآن من عقيدة وتشريع وأدب وإرشاد حق لا باطل فيه. ثم أكد صدقه بتشبيهه بإحساسنا بأنفسنا عندما ننطق. فالإنسان يمكنه أن يشك في كل شيء إلا في نفسه وهو يفكر ويقدر على التعبير عما يجري فيها فيتحول التفكير الباطن إلى أصوات وحروف في الخارج يحس بكامل مطابقتها لما هو يجري فيه. وهذا المستوى من الإدراك لا يقبل الشك بحال.

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ
قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ
قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ
﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

منكرون : غير معروفين.

راغ : مال.

أوجس : أحس في نفسه ولم يظهر.

صرة : صيحة.

صكت : ضربت.

بيان المعنى الإجمالي :

يسلي القرآن النّبي ﷺ، وقد ألح عليه قومه بالتكذيب والإذاية فيقول له: هل سمعت بحديث ضيوف إبراهيم عليه السلام. هي حادثة عجيبة، وشأن القصص العجيب أنه يسلي النّفس.

دخل على إبراهيم ضيوف وسلموا عليه، ورد عليهم السلام، وفي باطنه سؤال محير، هو لا يعرفهم وهيئتهم وصورتهم لا تدل على أنهم من أهل ذلك المكان. وإبراهيم كريم ورث عنه ذريته العرب صفة الكرم. فتحول سريعا إلى أهله يطلب منهم إكرام ضيوفه، فأعدوا له عن عجَلٍ عِجْلًا سمينا مشويا. قرب العجل لضيوفه مبالغة في تكريمهم وعرض عليهم أن يأكلوا منه. ولكنهم أمسكوا أيديهم عن تناول شيء منه. حدثته نفسه بمتنوع الاحتمالات, بدا على وجهه أمارات الخوف. طمأنوه قائلين: لا تخف وسارعوا بتبشيره أنه سيولد له من زوجه سارة غلام يبلغ من العلم درجة كبيرة. سمعت زوجه فأطلقتها صيحة تعجب وضربت خديها قائلة: إني عجوز جاوزت الأمد الذي في مثله تحمل النّساء، ومع هذا فإني عقيم. قالت الملائكة: كمثل القول الذي بلغناك قال ربك، وحمّلنا بايصاله إليك. إن الله هو الحكيم الذي يجري الأمور في الوقت الذي يريد لحكمة يعلمها، وقد تخفى علينا، وهو العليم فلا يخفى عليه سِنكِ ولا كونك عقيما.

بيان المعنى العام :

24←27: هل أتاك حديث...فقال ألا تأكلون.

افتتحت الآية بقوله تعالى: وهل أتاك. يقول ابن عطية تقرير لتجميع نفس المخاطب. يعني أن السؤال بهل، فيه إثارة لانتباه المخاطب فتستعد النّفس لتلقي ما تخاطب به.وهو تأنيس لرسول الله ﷺ بعرض قصة إبراهيم عليه السلام. وقد شق عليه عناد قومه، وإذايتهم له ولأصحابه ؛ فتأتي القصة من رب العالمين لتنفس عليه بعض ما وجد وتسلّيه بما سيرد في أثناء القصة من رحمة الله برسله ونقمته بأعدائهم. ولذا كان من أغراض تكرار القصة في القرآن هذا الملحظ. هل أتاك يا محمد قصة ضيف إبراهيم؟ والضيف اسم جنس يطلق على الواحد والمتعدد. وكانوا مكرمين من ناحيتين، ما سيرد في القصة من إكرام إبراهيم لهم وعنايته مع زوجه بهم، ولأنهم ملائكة، وهم عباد مكرمون عند الله.

– حديثهم في الوقت الذي دخلوا عليه: وافتتحوا خطابهم بالسلام، ورد عليهم إبراهيم بما هو أحسن. وهذا من كمال أدبه عليه السلام، مع أنه كان يتساءل في نفسه من

عساهم يكونون هؤلاء القادمين. هو لا يذكر أنه رآهم مـن قبـل. (قـوم منكـرون) غيـر معروفين) والأقرب أنه لم ينطق بهذا السؤال.

-فمال إلى أهله ليُعِدُّوا لهم القرى، وصور القرآن أنـه لقـوة أدبـه، أتـم مهمـة التكليـف بإعداد ما يقدم لهم من الطعام تكريمـا، كـان فـي لفتـة سـريعة دون أن يشـعروا بمـا يكلف نفسه. فقدم إليهم عجلا سمينا مشويا، كما جـاء فـي سـورة هـود آيـة 69 فجـاء بعجل حنيذ. واللحم المشوي يتم إعداده بسرعة.

- من كمال أدبه، أنه أخذ العجل فقربه إليهم، ولـم يكلفهـم الانتقـال مـن مجلسـهم. ثـم عرض عليهم أن يتناولوا منه ما يشاء ضيوفه ،هـي طريقـة أخـرى تـدل علـى حسـن تكريمه لضيوفه، بدعوتهم إلى الأكل زيـادة علـى تقديمـه، كمـا يقـول أحـدنا لضـيوفه وهم على المائدة تفضـلوا! ويمكـن أن تفهـم الآيـة علـى أن إبـراهيم استغرب عـدم تناولهم لطعامه فسألهم عن سبب إمساك أيديهم عنه، لما ذا لا تأكلون ؟

28- فأوجس منهم خيفة...بغلام عليم.

المشهد :الطعام حاضر،عجل سمين مشـوي، يقطـر إدامـه، وصـاحب البيـت مسـرور بضيوفه، ظهر منه الحرص على إكرامهم، ومـع هـذا لـم يمـدوا أيـديهم ولا تحركـت شهية الأكل فيهم. إنه موقف يبعث علـى الريبـة، مَـن يكـون هـؤلاء الضـيوف غيـر المعروفين الذين امتنعوا من الأكل. وجرى في نفـس إبـراهيم عديـد الاحتمـالات. فبعـد سروره بهم وهو الذي كان الكرم له طبعا، انقلـب خائفـا مـنهم مسـتعدا لمـا يمكـن أن يفاجأ به. وأدرك الضيوف ما أنبأت به قسـمات وجهـه مـن الخـوف، فبـادروه بقـولهم: لا تخف، كن مطمئنا، وعرفوه بأنهم ملائكة الله، وأنهم جـاءوا ليبشـروه أنـه سـيولد لـه من زوجه غلام ذكر مفتوح عليه بقوة العلم.

29- فأقبلت امرأته...عجوز عقيم.

لم تكن زوجه بعيدة عنهم، فبمجرد ما طرق سـمعها أنهـا سـتحمل ولـدا، أقبلـت علـيهم ترفع صوتها بالعجب، وما يزال من عادة كثير مـن النّسـاء أنهـن إذا سـمعن مـا يثيـر العجب والاستبعاد، ضربن بأيـديهن علـى خـدودهن. وواصـلت : إنـي عجـوز بلغـت سن اليأس،ولم ألد في زمن شبابي ومقتبل عمري فأنا عقـيم، فكيـف أحمـل مـع عقمـي وتقدم سني إلى المشيب.

ويرفع الملائكة استبعادها، ويؤكدون أن ما أخبروا بـه لـيس كلامـا قـابلا للتأويـل، بـل هو الحقيقة التي ستكشفها الأيام.ثم خاطبوهـا مباشـرة فقـالوا : إن الأمـر سـيتحقق كمـا أخبرناك، إنه قول ربنا كلفنا بتبليغه.إن ربنا حكيم يصـنع مـا يشـاء فـي الوقـت الـذي

يشاء، وما يصدر عنه هو الحكمة، وهو العليم الذي لا يخفى عنه شيء فهو العالم بكونك عجوزا عقيما. فاسعدي بالبشرى، وترقبي تحققها. فتحققها غير بعيد.

﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ
عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا
مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ
يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الخطب : الحدث العظيم

لنرسل عليهم : لنرميهم.

المسومة : تحمل علامات.

عند ربك: بخلقه وتكوينه.

المسرفون :المفْرِطون في العصيان.

بيان المعنى الإجمالي :

تبين لإبراهيم على ما يعلمه من سنة الله في إرسال الملائكة أنهم لا يرسلون إلا لأمر عظيم. فسألهم عن المهمة العظيمة التي كلفوا بها. فأجابوه قائلين : إنا ارسلنا إلى قوم وحد بينهم الإجرام. أرسلنا لنمطرهم بحجارة من طين، بلغ من القساوة واليبس حدا كبيرا. وقد ميزه خالقه بعلامات من ربك لتمزق المسرفين في اقتراف المعاصي والمنكرات. وتم تنفيذ ما أمروا به بعد أن نجى الله من كان في القرية من المؤمنين فأخرجهم منها قبل نزول العذاب. وما كان يوجد فيها إلا بيت واحد هو بيت لوط، بيت اجتمع أهله، إلا امرأة لوط،على تطبيق شرع الله. فاستحقوا النّجاة، لجمعهم بين صلاح العقيدة وصلاح العمل.

دمرنا القرية بمن فيها، وتركناها آية تدل على ما يحل بالعصاة المجرمين، ليخشى الذين يخافون العذاب الأليم من مصير مثل مصيرهم.

بيان المعنى العام :

31- قال فما خطبكم...للمسرفين.

تبين من جوابهم أنهم ملائكة الله أرسلهم لأمر مهم، لإنجاز أمر عظيم.لأن مجرد البشارة بغلام عليم لا يتم حسب سننه سبحانه بإرسال جمع من الملائكة، فسألهم عن المهمة التي قدموا من أجلها،وأفصح عن فهمه بدعائهم :أيها المرسلون.

– كشفوا له عن المهمة فقالوا : إن الله أرسلنا إلى قوم تأصل فيهم الإجرام، حتى أصبح لفظ " المجرمين هو المعرف لهم. وتمالؤوا على الفساد وفعل المنكرات فهم قوم على طريقة واحدة يجمعهم الفساد والمنكر.

–مهمتنا أن نقذفهم من فوقهم بحجارة من طين مطبوخ كما يطبخ الآجر وصلُب حتى تحجر؛ لتمطرهم السماء بأرسال منها، وكانت تحمل علامات تميزها، فهي وإن كانت من طين مطبوخ، إلا أنها مختلفة عما هو معروف،مما يشير إلى أن العذاب بها هو عذاب استئصال لا يبقي من المسلط عليهم أحدا. طبعها الله بتلك العلامات.لتصيب المسرفين الذين تجاوزوا الحدود في العصيان وفعل المنكر.

35←37-فأخرجنا من كان...يخافون العذاب الأليم.

ومن سكان القرية من كان ثابت الإيمان، منكرا على قومه فسادهم. أنقذهم الله من العذاب، ويسر لهم أسباب الخروج سالمين قبل استئصال المجرمين الفسقة. وذلك بفضل إيمانهم. وفي ذلك إشارة إلى أن سنة الله أنه ينجي المؤمنين وأن مآل المشركين الفاسقين الاستئصال، وفي ذلك إنذار للمعاندين من المكيين بأنهم لا يفلتون من العذاب.

– فكان جملة المؤمنين لا يتجاوزون أسرة واحدة أسرة لوط ﷺ إلا امرأته. فكانوا مسلمين منقادين للأحكام الإلهية وللتشريع الذي جاء به لوط.

والإيمان عبارة عن الاعتقاد الجازم المصدق لأركان العقيدة. والإسلام عبارة عن الانقياد لما يأمر به الدين. ولا يفوز برضا الله إلا من جمع بينهما. فكان بيت لوط البيت الوحيد الذي جمع أعضاؤه بين الإيمان والإسلام. وهذه سنة الله أنه لا يضيع عباده الذين أخلصوا عقيدتهم لله، وطبقوا شرعه في حياتهم.

– ثم إن الله استأصلهم ومحاهم من الوجود، وترك آثارهم تدل عليهم لتكون عبرة للذين يخافون عذاب الله الشديد الإيلام.فإنهم لما استؤصلوا قاسوا من الحجارة التي أمطرتهم عذابا تألموا منه أشد ما يكون الألم.

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ

يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

تولى : أعرض

ركنه : ما يتقوى به من الجند والسلطان.

نبذناهم : طرحناهم.

مليم : مستحق للوم.

الريح العقيم : الريح التي لا خير فيها.

الرميم : العظم البالي.

العتو : الكبر.

بيان المعنى الإجمالي :

تتابعت قصص القرآن تسلي النبي ﷺ ، وتنذر المشركين بأن الله قادر على معاقبتهم كما عاقب الأمم المعرضة عن الهداية قبلهم. لفت الأنظار إلى قصة موسى مع فرعون. أرسله الله إلى فرعون مؤيدا بحجة بينة. فاستكبر ورجع إلى سلطانه وجنوده يستظهر بهم على موسى، ورماه بأن دعوته لتوحيد الله وما جاء به من الحجة البينة لا يخلو حاله إما أن يكون ساحرا، أو مجنونا. فرماه الله مع جنوده في البحر يصحبهم الصغار، والملام. وأتبع قصة موسى بقصة عاد إذ سلط الله عليهم الريح التي لا تحمل إلا العذاب، أرسلها عليهم فلم تُبْق بشرا ولا حيوانا ولا نباتا ولا سكنًا. كل شيء حولته إلى صورة العظام البالية. وآية أخرى في ثمود قوم صالح. قال لهم صالح تمتعوا بما رزقكم الله واشكروه على نعمه،ففضله يصحبكم كامل حياتكم. فاستكبروا عن طاعة الله فسلط عليهم صاعقة أهلكتهم وهم ينظرون إليها، لم يستطيعوا دفعها بأنفسهم ولا الانتصار بمسعف. وكذلك قوم نوح فقد أغرقهم الله لاتفاقهم على الفسق والخروج عن حدود الله. تتابعت تلكم الأمم.ولم يحمها ما كان لها من قوة، زادتها كبرا وعتوا. فليحذر المخاطبون أن يسلط عليهم ما سلط على الأمم الماضية، ولتكن تلك الأحداث آيات يتأملون فيها، فيدركون أن أخذ الله شديد للظالمين والمستكبرين والرافضين لهداية الرسل.

بيان المعنى العام :

38←40-وفي موسى إذ أرسلناه...فنبذناهم في اليم وهو مليم.

وتركنا في قصة موسى آية باقية، تسير مع الزمن دالة على فعل الله بالظالمين المستكبرين، وذلك في الوقت الذي أرسلناه إلى فرعون مؤيدا بحجة قوية واضحة تقتضي ممن عرضت عليه أن يسرع إلى الإيمان بها. وبدون تفكير فيها، أعقب عرضها بعودته إلى سلطانه وقوته وجنده، فتعاظم ظانا أنه أعلى من يؤمر فيطيع. وإمعانا في الرفض رمى موسى عليه السلام بأنه ساحر، أو بأنه مجنون فاقد لمداركه.فأخذناه أخذ المتاع الذي لا يقاوم، فنبذناه،ألقيناه في البحر مهانا كما يلقى النّوى.يتبعه اللوم على ذنوبه والتشهير بفساد رأيه، وسوء تدبيره.

41←42- وفي عاد إذ أرسلنا عليهم...جعلته كالرميم.

وآية ينطق بها ما حل بعاد، التي جمعت من القوة ما اندفعت به في طريق الكبرياء، ورفضت هداية الله التي جاء بها هود عليه السلام وظنوا أنهم محصّنون وفوق أن تلحقهم إذاية. فأرسل الله عليهم الريح العقيم التي لا خير فيها، بل هي متمحضة للتدمير. أهلك الله عادا بالريح، وما الريح إلا حركة في الهواء، والهواء من ألطف العناصر. فالإنسان يتنفس الهواء، ولا يحس به لا عند استنشاقه، ولا عند خروجه. فلما أراد الله إذلال عاد لاستكبارها واستعلائها، سلط عليها الهواء اللطيف ليدمرها. فيقوم ذلك شاهدا يستمد النّاظرون منه العبرة.

– ما تبقي الريح العقيم شيئا مما مرت عليه من البشر والحيوان والنبات والمباني إلا جعلته مفتتا كالعظام البالية. وفي التذكير بعاد زجر، لقريش أنهم مُعَرّضون لعذاب يستأصلهم كما استأصل الله قوم عاد لما استكبروا وقالوا: من أشد منا قوة.

43←45 وفي ثمود إذ قيل...وما كانوا منتصرين

عَرْضُ قصة ثمود : أن رسولهم قال لهم : تمتعوا بما آتاكم الله من خيرات، إلى أن تبلغوا غاية أجلكم، ذكرهم بأن نعم الله عليهم تتواصل وقد تنوعت، فليشكروا الله على ما أفاض عليهم من خيرات، وشكرها بالاستقامة والاعتراف بفضل الله عليهم. وقد بلغوا من الحضارة مبلغا عظيما.وتحولت منازلهم من الخيام إلى المباني القوية الثابتة، المزدانة بالرخام وغيره. فما كان منهم إلا أن استكبروا معرضين عن دعوة رسولهم صالح، وأولعوا بخلافه ومعاكسته.أمرهم الله أن لا يتعرضوا للناقة بسوء، فعقروها. فأخذتهم من معاقلهم صاعقة نزلت عليهم من السماء. لم تأتهم وهم لاهون أو نائمون، بل أهلكتهم، وهم ينظرون إلى نزولها، شلتهم فعجزوا أن يقوموا لها بما يحميهم. ولم يجدوا نصيرا يؤيدهم بما يوقف العذاب.

46-وقوم نوح...قوما فاسقين.

تحمل فاتحة الآية إما على معنى وفي قوم نوح آية ؛ أو واذكر قوم نوح، أو وأهلكنا قوم نوح.وكان قوم نوح أول أمة عجل الله لها العذاب الدنيوي، فأبادها. وأبرزت الآية سبب ما انتهوا إليه من الغرق الذي أتى عليهم وعلى كل ما يملكون، سبب ذلك أنهم كانوا قوما تمالأوا على الفسق. والخروج عن طاعة الله، والاستهزاء بنوح.

وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجۡعَلُواْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٖ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرۡ فَإِنَّ ٱلذِّكۡرَىٰ تَنفَعُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبٗا مِّثۡلَ ذَنُوبِ أَصۡحَٰبِهِمۡ فَلَا يَسۡتَعۡجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوۡمِهِمُ ٱلَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الأيد : القوة.

تواصوا به : أوصى بعضهم بعضا.

ظلموا : أشركوا بالله.

ذنوبا : الدلو العظيمة الملأى.

بيان المعنى الإجمالي :

أعرفكم أنا بنينا السماء بقوة هي القدرة الكاملة. والوصف القديم. وإن قدرتنا لتسع خلق السماوات وما فيها من إحكام. وسعت رحمتي وقدرتي كل شيء. وكذلك فرشنا الأرض فسهلنا التنقل على ظهرها. مما أتم وأكمل التمهيد الذي مكنكم من عمارتها. و سيرنا قانون الخلق على التزاوج بين عنصرين في كل كائن. فعساكم أن تتأملوا ويحصل لكم بالتأمل التذكر و حسن الفهم. إنه لا يحصل لكم الأمن ولا تقتربون من السعادة إلا إذا سعيتم جادين نحو ربكم، فروا إليه. إني مبعوث من

عنده لأنذركم، ولأبين لكم بيانا لا يبقي غموضــا. إيــاكم أن تجعلــوا لله شــريكا فالشــرك هو أصل الشر. احذروا الشرك فإني أنذركم عواقبه، وأبين لكم آثاره المدمرة.

على هذا النّحو يثبت الحق، ويتعــرى الباطــل، إن عنــاد هــؤلاء المشــركين وجــراءتهم هي سنة الذين خلوا من قبلهم. إذ كلمــا بعثــت رســولا إلا قــابلوه بــالإعراض، ورمــوه بأن ما أتى به ينبئ عن كونه ساحرا أو مجنونــا. عجيــب أمــر الكــافرين، فهــل اتفقــوا على هذا الموقف وأوصى بعضهم بعضا بــه ؟ لا! بــل إنهــم يشــتركون فــي الاســتكبار والطغيان. وهو ما جعلهم يبحثون عمــا يــنقض هدايــة الرســل، فلــم يجــدوا إلا رمــيهم بالسحر والجنون.

أعْرِضْ عنهم ولا تبتئس ولا تحزن بتصلبهم فــي الكفــر، فإنــك مكلــف بــإبلاغ وحيــي وبيانه، وقد فعلتَ.ولست مكلفا بحملهم على الإيمــان قســرا.فــلا عَتَــبَ عليــك ولا لــوم وأنت بعيد عن أن توصــف بالتقصــير. وداوم علــى التــذكير بمــا نوحيــه إليــك، فــإن اجتهادك في التذكير ينفع المؤمنين فيرسخ في قلوبهم وعقولهم الإسلام.

إني ما خلقت الجن والإنس إلا ليقوموا بوظيفــة عبــادتي علــى أكمــل وجــه، ويخضــعوا لتشريعي، وما أنزلت إليهم بواسطة رسلي. عبادتي حــق واجــب علــيهم جميعــا. علــيهم أن يأخذوا عن رسلي طريقة الحياة ليكون نشــاطهم سلســلة مــن العبــادة لجلالــي. هــذا كل ما أريــده منهم،ومــا أريــد مــنهم أن يرزقــوني أي رزق ممــا تتعلــق بــه هممهــم وأطماعهم في الدنيا.وهم جميعا محتــاجون حاجــة متجــددة للطعــام، وأنــا الغنــي عــنهم أطْعِمُهُم ولا يطعموني. ذلك بين واضــح: إن كــل نــوع مــن أنــواع الــرزق ممــا نالــه الإنسان من فضــلي، وممــا خلقتــه مــن الأرزاق. إن الله هــو المتفــرد بــالقوة الكاملــة الشديدة والقدرة التامة أوجد بها العوالم، وسيبعث بها البشر إلى الحشر والجزاء.

إن الذين ظلموا الظلم الشديد بالشــرك وكفــروا برســولي، لهــم نصــيبهم مــن العــذاب نظير نصيب الذين خلوا من قبلهم ، فلا يســتعجلوني بتســليط مــا أوعــدتهم فــي الحــال. فإن ما قدرته ينفذ في أجله لا يُعَجَّل بطلبهم.

ويل لهم، وشر عظيم يرصدهم، ولعنة تتبعهم بسبب كفرهم بالله وبرسوله وبيوم القيامة. ويل من اليوم الموعود الذي تَحْطِمهم فيه نار جهنم بعد أن يفضحوا بحسابهم

بيان المعنى العام :

47←49: والسماء بيناها بأييد...لعلكم تذكرون.

السماء التي تنظر إليها قبة زرقاء في النّهار،أحكم خلقهــا وَصِــلَةَ مكوناتهــا فيمــا بينهــا، إنها أشد إحكاما واتصالا من البيوت المشيدة من الإســمنت المســلح، إن كــل بنــاء مهمــا طال عمره لا يصمد على عوامل الفناء، أمــا الســماء فمــا تــزال علــى إحكامهــا ودقــة

صنعها، وتماسك ما بين مركباتها منذ خلقها الله، منذ ملايين السنين. بنيناها بقوتنا التي يخضع لها كل شيء، وإنها لا تقف عند حد، وإنا لموسعون. وإذا ما قاس العاقل بناء السماء بما تحويه من مجموعات، وما تزخر به السماء الدنيا من نجوم وكواكب إذا قاس ذلك بإحياء الموتى بعد الموت يدرك أن البعث أمر تافه بالنسبة لبناء السماء.

ثم انتقل القرآن من لفت الأنظار إلى السماء، فحولها إلى التأمل في ظاهرة من ظواهر الأرض، إنه فرشها ومهدها لمن عليها. إنك تنظر في الفضاءات الفسيحة سواء منها ما كان بساطا أخضر بالنباتات، أو مشكل الألوان بمتنوع زهورها، أو تنظر في الصحراء الممتدة مساحاتها إلى غاية ما يدركه البصر،و مع أن كتلتها كروية، فبتقدير عجيب تسير عليها كما تسير على بساط ممهد. هذه الظاهرة تنبه العقل إلى قدرة خالقها الذي قدرها على هذا النّحو الذي خلقها عليه،وإلى بديع صنعته وما أودع فيها من جمَال. فيوقظك القرآن لتقف معترفا بأن تمهيد هذه الأرض للحياة على ذلك النّحو هو أفضل تمهيد وأكمله، هو حقيق بأن يثنى على كماله.فنحن نعم الماهدون.

-ثم صرح القرآن بقانون الخلق، الذي ينسحب على الكل، هو النّقص في كل مكوَّن حتى يتصل بغيره، ويندمج فيه ليتم الخلق.فالزوجية هي قانون الوجود الفاني. الإنسان مكون من نطفة أساسها الخلية الأولى التي هي عبارة عن اندماج الحيوان المنوي الذكري، ببييضة الأنثى.وهذه الخلية الأولى تحتوي على الجينوم البشري، الذي سلمه مركب من زوجين زوجين متعاشقين، وأن كل خلل في هذا الاندماج يتبعه خلل في الإنسان ذاته، وأن هذا السلم يحوي كل خصائص الكائن. وهذا قانون الحياة. وكذلك من الزوجين يتم تكون الحبوب والثمار، و الماء مركب من عنصرين من الهواء، وكل ما نتصوره من شؤون الخلق والحياة، هو مركب من زوجين، الحياة والموت، والبر والبحر، والليل والنهار، والسماء والأرض، وكل فضيلة هي وسط بين طرفين. بكَشْفكم لقوانين التركيب الثنائي يرجى منكم أن تتفكروا تفكرا صحيحا. وبه تعلمون أن إعادتكم للحياة أمر معقول. ومن ناحية أخرى يقوم ذلك دليلا على أن الله واحد أحد لا ثنائية فيه. وهو ما تميز به الدين الإسلامي ونبه القرآن لهذه المزية بقوله : (**وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** [1])

---

[1] سورة يوسف آية 106

50←51 : ففروا إلى الله... إني لكم منه نذير مبين

ما عرض من مكونات الكون والحياة، ولفت الأنظار إلى ما أودع فيهما من أسرار، هو أكبر من أن يعيَه الإنسان وعيا مفصلا، ولا يجد ما يمكنه من التأليف بينهما، إلا بالفرار إلى الله. وإن ما في تركيبه النَفسي من غرائز وميول وشهوات، وما يتنازع في باطنه من قوى العقل والروح، ومن نزغات الشياطين، هذا التنازع يبعد الإنسان بتلك التناقضات عن السكينة، فلا يسعد بالخير والطمأنينة إلا بالفرار إلى الله. فروا إلى الله بحسن عبادته، وإخلاص طاعته. تقربوا منه قربا يجعلكم تعيشون معه، تستحضرون جلاله في كل لحظة من لحظات حياتكم،فتجتمع لديكم الخيوط المتباعدة في تناسق يرضي تطلعاتكم، ويحبب إليكم الخير.تنبهوا إلى أن وراء كم عقابا ونكالا؛ عليكم أن تفروا منه بإقبالكم على الإيمان والطاعة.قال صلى الله عليه وسلم: سبحانك لا منجى منك إلا إليك.

قل لهم يا محمد : فروا إلى الله إنه قد بعثني إليكم لأنذركم ما يترصدكم من عذاب دنيوي وأخروي إن أنتم ابتعدتم عن الصراط المستقيم،ومكنني من حسن الإبانة عما تضمنته رسالته إليكم من مضامين في العقيدة والسلوك، فلا غموض.

– وليكون المنهج واضحا جمع بين الأمر في الآية الأولى، وبين النَهي في هذه الآية. فأوجب الفرار إليه بما يتضمنه من التوحيد الذي هو أساس كل خير وحقيقة. ونهى النَهي المؤكد عن الشرك فإنه أساس كل بلية وفساد. إني أنذركم وأحذركم من اتخاذ إله آخر، أبين لكم فساد الشرك بيانا وافيا.

52-كذلك ما أتى الذين...أو مجنون.

كذلك...يحتمل أنه تأكيد لما تضمنته الآيات السابقة، كما يحتمل أنه إيذان بانتقال الكلام إلى مضمون جديد. والمفهوم الجديد هو التنظير بين ما واجه به مشركو مكة محمدا ﷺ، وبين ما ووجه به المرسلون السابقون. لم يجد أحد من الرسل العقول ممهدة لقبول الحق الذي جاؤوا به من عند الله. بل قابلوا دعوتهم بالتكذيب، ثم رموهم تارة بالسحر وتارة بالجنون، وتارة بهما معا.

53-أتواصوا به بل هم قوم طاغون.

عجب كيف اتفقت كلمتهم على معارضة الرسل برميهم بالجنون أو السحر، هل أوصى المشركون بعضهم بعضا بذلك، كيف يكون هذا مع أن بين كل أمة وأخرى القرون المتطاولة؟ السبب الكامن وراء اتفاق كلمتهم على ذلك البهتان، هو أنه

تأصل فيهم الطغيان والاستكبار عن الحق. اجتمعوا في ظنهم أنفسهم أرفع من الإذعان للرسل، فصدهم ذلك عن الإيمان، وسَوّل لهم وَصْمَهُمْ الرسل في مختلف الأحقاب بالسحر أو الجنون.

54←55: فتول عنهم فما أنت بملوم...تنفع المؤمنين.

أعرض عنهم وخفف عن نفسك من شدة الحرص عليهم والضيق من عنادهم. اعلم أنك مكلف بالإبلاغ وقد بلغت وأحسنت القيام بما كلفت به. إنه لا تبعة عليك ولا لوم إذ صمموا على الكفر ولم يؤمنوا. واصلْ تذكير المؤمنين بما يتواصل من وحينا إليك. هم الذين تنفعهم الذكرى، فيرسخ في عقولهم وقلوبهم بتجدد الذكرى الإسلام وأصوله وهداه.

56←58: وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون...ذو القوة المتين.

هذه الآية تمثل الإجابة النّهائية عن تساؤلات الإنسان في تاريخه الطويل، والتي تميز فيها المؤمنون عن الماديين والمشركين. فاتخذ كل منهم منهجا وطريقا في تفسير الكون ومنزلة الإنسان فيه. ولنتبع في تفسير الآية، لعمق معانيها، الخطوات التالية، مبتهلين إلى الله أن يلهمنا ما يرضيه في كشف معانيها.

أولا: بداية خلق الإنسان تمت إثر إعلام الله الملائكة بما تعلقت به إرادته من خلق خليفة في الأرض. يدل هذا أن الله خلق الكون سماواته وأرضه، وأراد أن يكلف الإنسان بتعمير الأرض، فخلقه بطريقة تهيئه لتلك الخلافة. من حبه للمعرفة وقدراته العقلية التي تجيبه لتطلعاته المعرفية، وبما ركب فيه من غرائز وعواطف وشهوات. فكان هذا التركيب العجيب هو الذي خفي على الملائكة، وظهر لهم بعد اختباره أن حكمة الله تحققت في النّوع الإنساني بما أودع فيه من مؤهلات.

ثانيا: غرائزه تدفعه لاستجابات ينساق إليها، وتطغى تارة فتحجب عنه النّتائج البعيدة التي تكون سببا في شقائه. وتجعله يفسد في الأرض.

ثالثا: يتصارع في كيانه شهواته، وعقله، تجلبه الشهوات إلى ما يرضيها، وهي دوما أنانية قصيرة المدى. كلما أوغل في اتباع داعيتها أفسد في الأرض، وقد يكشف له عقله تارة الطريق المستقيم في بعض الأحوال، وقد يقع في حيرة فلا يجد مسلك الهدى الذي يعطيه توازنه الروحي والعاطفي.

رابعا : إنه إذا حكّم في حياته عقله، وطوّع عواطفه وغرائزه، زهد في دنيا تعقب لذائذها آلام، أقلها الخوف من فنائها.يقول ابو العلاء المعري

هذا جناه أبي علـــــــي وما جنيت على أحد

وعلى هذا سار قساوسة الكنيسة المسيحية.

خامسا : إنه مع هذا التركيب تتوقف حياته الفردية أيضا على تعاونه مع غيره من ناحية، ولا يستطيع أن يعمر الكون إلا بهذا التعاون مع أفراد الجنس من ناحية أخرى.وما أودع فيه من أنانية وحب للذات، وما غرس في طبعه من الأثرة يحول دون انتظام أمرهم الاجتماعي.

سادسا: إن الغاية من خلق الإنسان لعمارة الكون، لا تتم إلا إذا تآلفت القوى الفردية والاجتماعية وسارت في منهج التكامل بينها، وكان مراعاة الصلاح الفردي والاجتماعي قانون النّشاط البشري. ولا يحصل ذلك إلا إذا طوع الأفراد والمجتمعات نشاطهم حسب قوانين وضوابط تنفذ إلى تركيبهم العقلي والروحي، فتربطهم بمنهج تلزمهم به، وبه وحده يجدون سعادتهم.

سابعا: ما هو هذا المنهج ؟ هذا المنهج لا يتحقق إذا ما ترك الإنسان وحده يضبط واجباته، ويضبط ما هو ممنوع منه.فكانت الحاجة إلى تشريع سماوي من الخالق الذي وحده له القدرة على الإلزام من الباطن.ذلك أن القوانين غير الإلهية،،كما هو مشاهد بالضرورة،تُحتَرَمُ من الظاهر، ويستدعي تطبيقها مراقبة شديدة، لا تبلغ أبدا أن تجعل الالتزام بصفة عامة نا بعا من الذات البشرية، لا في جانب الفعل ولا في جانب الترك. هذا الإلزام الإلهي الذي جاء تفصيله والإقناع به بواسطة رسل الله. فالبشر جميعا بعد أن أتم الله الهداية بمحمد ﷺ ملزمون بأن يتبعوا ذلك الهدى، الذي هو رقابة ذاتية على كل فرد من باطنه : إنه في كل فعل يفعله أو ترك يمتنع منه، مقتنع بأنه يعبد الله بطاعته لما أمر، وانتهائه عما نهى. وشرع ما يجعل هذه الرقابة فاعلة بضروب من العبادات الخالصة. فأي نوع من أنواع النّشاط الإنساني عبادة ما دام الإنسان يراعي أوامر ربه ونواهيه، حتى الأمور الفطرية هي عبادة ما دام المكلف مستحضرا أن يفعل ما يفعله من أكل وشرب، وزواج ورعاية للأبناء، مثلا،إنه يفعل ذلك استجابة للنظام الإلهي الذي أبلغه رسله. وإذا الحياة كلها سلسلة من العبادة من تاريخ التكليف إلى القبر.

وعلى هذا خلق الله الإنسان ليعبده في جميع تصرفاته،وأرسل رسله للبشر لتحقيق هذه العبادة المستدامة.

وفي إدماج الجن في الآية إبراز إلى أن كل ما خلقه الله يجري عليه قانون كونه عابدا لله. وفيه رد على المشركين الذين كان بعضهم يعبد الجن.

– إني أنا الله الغني عن البشر، وهم محتاجون لعوني، ما أريد من البشر أن يقدموا لي رزقاً يستجيب لما عرف عندهم من حاجات، يتطلع البشر إلى أنواع من الرزق

بما يُحَصِّل السكن، واللباس، والأثاث، والرياش، والغذاء،ونحو ذلك ، ثم خص الطعام لأن الطعام يمثل الحاجة الأولى المتجددة التي يرغب النّاس في تأمينها. والله غني عن ذلك والبشر محتاجون لفضله.

- تفرد الله سبحانه بأنه الرزاق، المانح للأرزاق المتنوعة والكثيرة التي تفوق الحصر. ورزقه لا يكلفه عناء ولا يلحقه من تمكين البشر بتلبية حاجاتهم إعياء، فهو سبحانه القوي القوة الشديدة والعظيمة، الفاعل لكل ما يشاء.

59- فإن للذين ظلموا...فلا يستعجلون.

إذا كان الله خلق الخلق لعبادته، وهو ما ينبغي أن يكون عليه الأمر في الواقع. فإن الذين أشركوا بالله وتمردوا على عبادته، قد استحقوا ما يملأ دلاءهم بالعذاب كما ملئت دلاء الذين من قبلهم من الأمم المشركة المكذبة. هذا قضائي وهو محقق لا ريب فيه، فلا يستعجلوا حدوثه، إذ تسليطه عليهم تابع لما قدرته زمانا ومكانا، إنهم يستعجلون ما فيه دمارهم.

60- فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون.

النتيجة المستخلصة مما سبق، أن الشر وسوء الحال والخزي، مختص بالذين كفروا، الويل لهم من اليوم الذي أوعدهم الله، وهو يوم خاص بهم، يلقون فيه جزاء تمردهم وكفرهم وعصيانهم.ويحتمل أن تكون الآية مشيرة إلى ما يلقونه يوم القيامة، كما تحتمل أن تكون وعيدا بما سلط عليهم من خزي وتقتيل يوم بدر.

ســـــورة الطّـور

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف. وفي كتب السنة، وفي كتب التفسير. والطور أول آية في السورة، فجعل الطور اسما لها بدون واو. نزلت على رسول ﷺ بمكة. رتبتها حسب ترتيب المصحف الثانية والخمسون. وحسب ترتيب النّزول الخامسة والسبعون. نزلت بعد سورة نوح وقبل سورة المؤمنين.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ
ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ
تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ
فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم
بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا
تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ ۖ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الطور : طور سيناء، أو ما يصلح أن يطلق عليه كلمة جبل.

مسطور: منظمة سطوره.

رق : صحيفة من جلد مرقق يكتب عليها.

منشور: مفتوح للقراءة.

المسجور: المملوء.

واقع : محقق.

دافع : مانع، واق.

المور : تحرك باضطراب.

سيرت : تحركت من مواقعها.

الويل : سوء الحال.

الخوض : الاندفاع في باطل الكلام وكذبه.

يلعبون: يستهزئون.

يدعون : يدفعون.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم الله بالطور، وأقرب المحامل أنه جبل الطور الـــذي تلقـــى فيـــه موســـى شـــريعة الله، ودَوَّنَهَا. وهو يتناسب مع المقسم به التالي، وكتاب مســطور.وهــو التــوراة التـــي كتبــت في سطور طويلة، في رقٍّ، جلد رقق وأعــد للكتابـــة عليـــه. ثــم عطــف القـــرآن بقســـم ثالث، بالبيت المعمور، المعمور بالعُبَّـــاد مـــن الحجـــاج والمعتمـــرين والمتقـــربين، الكعبـــة زادها الله تشريفا. والمقسم به الرابع والسقف المرفـــوع إشـــارة إلـــى الســـماء التـــي رفـــع سمكها فسواها. والمقسم به الخامس البحر المملـــوء الـــذي ضـــبطه التقـــدير الإلهـــي فـــلا يغمر اليابسة. هذه الأقســـام الخمســـة تثبــت مؤكـــدة أن عـــذاب ربـــك يـــا محمـــد واقـــع بالكافرين، لا يجدون ما يدفعونه به يوم نزوله. ســـينزل علـــيهم فـــي اليـــوم الـــذي يختـــل النّظام الذي بنـــى عليـــه الله الأكـــوان. فالســـماء تتحـــرك كواكبهـــا مضـــطربة، والأرض تهتز. ولا تبقى الجبال الراسيات مستقرة، بل تتحرك ســـائرة إلـــى حيـــث قـــدر لهـــا. إنـــه يوم مهول، فالعذاب وسوء الحـــال والحيـــرة لازمـــة للمكـــذبين، الـــذين تمســـكوا بـــرفض الحق الذي جاءهم، ومحضوا حيـــاتهم لاخـــتلاق الأكاذيـــب وترويجهـــا. يســـتهزئون بجـــد القرآن وبما يبلغه الرســـول مـــن حـــق، شـــأنهم شـــأن الأغـــرار الـــذين يخلطـــون الجـــد بالهزل. إن اليوم الذي يدفعون فيـــه إلـــى جهـــنم دفعـــا عنيفـــا، يصـــحب إهـــانتهم وهـــم مسوقون بقسوة إلى مصيرهم، قول الملائكة لهـــم إمعانـــا فـــي إهـــانتهم واحتقـــارهم : مـــا هو أمامكم حاضر هو جهنم التي كنتم بها تكـــذبون. ويضـــيفون تثبتـــوا هـــل هـــذا ســـحر كما كنتم تروجون للحق الذي جاءكم هو ســـحر، أم فقـــدتم قـــوة الإبصـــار فـــلا ترونهـــا. يدفعونهم وقد وصلوا بهم إلى مستقرهم جهنم فيقذفونهم فيهـــا قـــائلين :اصـــلوا نـــار جهـــنم لتحترقوا بها. لا يخفف عنكم من العذاب شيء ســـواء تجلـــدتم أو جـــزعتم، فعـــذابها دائـــم لا يرفع. ولم تُظلموا في مصيركم هذا الذي هـــو أســـوأ مصـــير، إن مقـــامكم فـــي جهـــنم واحتراق أجسامكم بلهبها، والمهانات المتواصلة، هـــو جـــزاء عـــادل لمـــا اختـــرتم عملـــه في دنياكم.

بيان المعنى العام :

1—8: والطور...ما له من دافع.

افتتحت الآية بقسم [والطور] وكلمة الطور تطلق فـــي العربيـــة ويـــراد بهـــا الجبـــل، فهـــو اسم جنس يطلق على أي جبل. ورأى الحذاق أن المـــراد بـــه جبـــل الطـــور الـــذي نـــاجى

فيه موسى ربه، وتلقى الألــواح. فهــو مكـــان ميـــزه الله بتلقـــي موســـى عليـــه الســـلام الرسالة، وإنزال شريعته عليه.

- **وكتاب مسطور** –أصل كلمة كتاب تطلـــق علـــى أي كتـــاب. والـــراجح أن المـــراد بـــه كتاب التوراة،إذ أنه هو كتاب الشريعة الســماوية البـــاقي فـــي عهـــد نـــزول هـــذه الآيـــة. وهو يتصل بالمقسم به أولا: الطور. ومما يزيــد هـــذا الاحتمـــال قربـــا، وصـــفه الكتـــاب بكونه مسطورا. وتقاليد كتابة التوراة المحتفظ بها أنهـــم يكتبـــون التـــوراة علـــى صـــحائف طويلة يشدون أولاها إلى لولـــب، ونهايتهـــا إلـــى لولـــب آخـــر فيطـــول الســـطر كثيـــرا. ويتابعون القراءة بإدراة اللولب للجهة التي يرغبـــون فـــي القـــراءة منهـــا. وقـــد شـــاهدت في كنيسة جزيرة " جربة" في الجنـــوب التونســـي نســـخا مـــن التـــوراة قديمـــة محفوظـــة على هذا الشكل.

-**الرق** بفتح الراء، جلد يعالج ليبســط ويرقـــق ويســـوى؛ فتتيســـر بـــذلك الكتابـــة عليـــه. وكان القسم به في وضع كونه منشورا. ومـــن دقـــة التعبيـــر القرآنـــي أن أقســـم بـــه فـــي هذا الوضع " منشورا" وهو الوضع الـــذي ينتفـــع عليـــه القـــارئ؛ لمـــا كانـــت الســـطور طويلة، والتالي لا غنى له عن مساحة كبيـــرة أفقيـــا ينشـــر فيهـــا الـــنَص ليقـــرأه، لـــيس كالورقة من الكتاب العادي تتوالى السطور عموديا.

- **البيت المعمور** – حسبما تدل عليه اللغة، البيـــت الـــذي العمـــران صـــفة أساســـية فيـــه. ثم إن المفسرين اختلفوا في تعيين المراد.

المحمل الأول أن المراد به الكعبة باعتبار أنها البيـــت الـــذي يطـــوف بـــه الطـــائفون فـــي أعداد تتضاعف مـــع الـــزمن علـــى مـــدار الســـاعة وعلـــى مـــدار الـــزمن،من الحجـــاج والمعتمرين، والمتقربين. وهـــو مناســـب لمـــا عطـــف عليـــه " الطـــور " فكلاهمـــا مـــن الأمكنة التي قدسها رب العالمين. والطـــور نزلـــت بـــه الشـــريعة علـــى موســـى ومكـــة مكان البيت هي التي تتابع فيها الوحي عند نزول الآية.

المحمل الثاني أن البيت المعمور البيت المـــذكور وصـــفه فـــي حـــديث الإســـراء اســـتنادا إلى ما رواه مسلم بسنده إلى أنس بن مالك: ثم عرج بنـــا إلـــى الســـماء الســـابعة فاســـتفتح جبريل. قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومـــن معـــك ؟قـــال: محمـــد. قيـــل وقـــد بعـــث إليه؟ قال : قد بعث إليه، ففـــتح لنـــا. فـــإذا أنـــا بـــإبراهيم مســـندا ظهـــره إلـــى البيـــت المعمور. وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملـــك لا يعـــودون إليـــه. ذكـــر الأبـــي نقـــلا عن الخطيب البغدادي من طريق عبد الله بن أبي الهـــذيل، قـــال :البيـــت المعمـــور يدخلـــه

كل يوم سبعون ألف دحية، أي رئيس، مع كل دحية سبعون ألـــف ملـــك[1] ولكـــن لـــم يـــرد عن رسول الله ﷺ أن هذا هو المقصود من البيت المعمـــور فـــي الآيـــة. ولـــو ورد لتحـــتم قصر المعنى عليه. والوجه الأول أرجح في نظري.

– السقف المرفوع هو السماء، يقول تعالى:(**وجعلنـــا الســـماء ســـقفا محفوظـــا**[2]) ويقـــول تعالى: (**والسماء رفعها**)[3] –والمناســـبة بـــين المتعاطفـــات : أن الـــوحي يتلقـــاه الرســـل من السماء.

–البحر هو ما يقابل اليابسة في الكرة الأرضـــية. والمســـجور وصـــف يحتمـــل أن يكـــون معناه : المملوء. ذكر هذا الوصف للفت الأنظار إلى القـــدرة التـــي مـــلأت البحـــار مـــاء. وقيل المسجور يعني البحر الأحمر الذي ملأه الله فأطبق علـــى فرعـــون بعـــد أن مـــر بـــه موسى يبسا. وقيل المسجور هو الملتهب، وهو ما يتم يـــوم القيامـــة عنـــدما تشـــتعل ميـــاه البحار وتتحول إلـــى وقـــود. وقيـــل المســـجور : المحبـــوس ومنـــه ســـاجور الكلـــب أي القلادة التي تمســـكه، والله أمســـك البحـــر عـــن غمـــر الأرض. فـــرغم عظـــم انفســـاحه وامتلائه وقوة تدفق أمواجـــه، وقـــع إمســـاكه عـــن غمـــر الأرض ممـــا ينـــادي بالقـــدرة والحكمة للخلاق العظيم.والوجه الأول أولى في نظري.

–توالت الأقسام الستة كلها تدخل فـــي الـــنّفس الرهبـــة، بواســـطة مـــدلولاتها، وبواســـطة جرسها اللفظي، وبواسطة الفواصل أيضا. روى الإمـــام أحمـــد عـــن جبيـــر بـــن مطعـــم رضي الله عنه قال : أتيت رسول الله ﷺ أكلمـــه فـــي أســـرى بـــدر، فألفيتـــه فـــي صـــلاة المغرب يقرأ سورة الطور فلما بلـــغ إن عـــذاب ربـــك لواقـــع أســـلمت خوفـــا أن ينـــزل العذاب. فهذه الأقسام هزت حس جبيـــر وهيـــأت قلبـــه فنفـــذ إليـــه المقســـم بـــه، فكانـــت اللحظة التي ملأ الإيمان فيها قلبه.

وعذاب ربك، في إضافة العذاب إلـــى "**ربـــك**" مـــا يـــوحي بـــأن العـــذاب سيســـلط علـــى الكافرين، كما يسلط بصفة خاصة على المكذبين بـــك الـــذين آذوك وصـــدوا النّـــاس عـــن الإيمان.

ثم حقق نزول العذاب بقوله "لواقع" مفتتحـــة بـــلام جـــواب القســـم،وبقوله " **مـــا لـــه مـــن دافع**" عذاب محقق لا يبعده ولا يحصن منـــه أي قـــوة ولا تحصـــن منـــه أيضـــا شـــفاعة الشافعين.

[1] إكمال الإكمال ج 1 ص308

[2] سورة الأنبياء 32

[3]

9←16 : يوم تمور السماء...إنما تجزون ما كنتم تعملون.

يوم تمور السماء... حددت الآية زمان نزول العذاب بالكافرين المكذبين، هو نازل في اليوم الذي تضطرب فيه السماء اضطرابا حقيقيا، فتخرج الكواكب عن مساراتها، ويرفع مفعول القوانين التي كانت تحكمها. ولا يقتصر الخلل على السماء، فكذلك الأرض التي استقرت بالجبال الراسيات، في ذلك اليوم تسير الجبال منتقلة من أماكنها سيرا حقيقيا لا مجازيا. ومعنى ذلك انقلاب أوضاع الكون كله، وقيام القيامة.

- لا تسل عن المكذبين فهذا يوم شؤم عليهم، تسوء حالهم إلى أبعد غايات السوء. يختصون بهذا المصير المكذبون الذين صرفوا حياتهم في مجالس يندفعون فيها إلى التلبيس على أنفسهم وعلى النّاس، هم أبعد ما يكون عن البحث الهادئ، وإنما هي اندفاعات غوغائية، وأبعد ما يكون عن الجد. فهم في تفكيرهم واهتماماتهم، والفروض التي يقدمونها بدون تمحيص ولا عمق، يعرفونك بأنهم لاعبون مستهزئون شأنهم شأن الأطفال، مع فارق أن الأطفال يصدر ما يصدر عنهم مصحوبا بالبراءة، وهؤلاء المكذبين خلفيتهم: خلفية خبث وفساد.

-اليوم الذي تضطرب فيه كواكب السماء، وترجف الأرض وتسير الجبال، هو اليوم الذي يدفع فيه المكذبون دفعا قويا مذلا إلى نار جهنم.يُحْمَلون قسرا على السير نحو مصيرهم، إلى جهنم، يرونها فيحاولون الوقوف أو التأخر عن منازلهم التي هم فيها، فيتولى الملائكة الذين يسوقونهم دفعهم دفعا قويا عنيفا، فتصَوَّرْ ما شئت من الخوف والذل، والعذاب، والإهانة.

- ومع الإذلال المادي يقول لهم الملائكة: ما تشاهدونه هي النّار التي تصلبتم في التكذيب بها في الدنيا. كونها النّار، مما لا يشك فيه، ولكن هذه المقالة من الملائكة تعذيب نفسي، وتذكير لهم بما فرطوا في دنياهم.

- ثم يقولون لهم إمعانا في التهكم بهم.هل إن ما أمامكم،هي النّار التي تتلظى؟ هل هذا المشهد حق أو هو من السحر الذي يخدع الأبصار؟ أم تقولون إن أبصاركم تعطلت عن الرؤية.

- ثم يسمعونهم ما يفيد المستوى الأعلى من النّكال والشماتة والاحتقار. الذي أفهمه من الآية أنه بعد أن تعرضت الآيات السابقة لسوقهم إلى مصيرهم، وما يحدث فيه،ها هم قد وصلوا إلى جهنم، فيقول لهم الملائكة: اصلوا نارها، واحترقوا بحرها.لا مفر لكم ولا يفيدكم اليوم شيء، حُمَّ القضاء. إنه لا فرق بين أن تصبروا وتتجلدوا للعذاب، أو تصيحوا وتظهروا ما تحسون به من شديد الآلام؛ لا ينفعكم

صبركم وتجلدكم،ولا جزعكم وصياحكم. إن ما تلقونه اليوم هو الجزاء العادل لما كنتم تختارون عمله في الدنيا. فما ظلمكم الله، ولكنكم ظلمتم أنفسكم.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَا ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا وَٱشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ ٱمْرِيٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

فاكهين : فرحين مسرورين.

هنيئا : لا يتبعه أي تنغيص.

سرر: جمع سرير.

ألتناهم : نقصناهم.

كسبت : حصلت من العمل.

رهين : محبوس.

أمددناهم : زدناهم.

يتنازعون : يتداولون فيما بينهم.

لغو: سقط الكلام.

تأثيم : ما يؤثم به فاعله.

بيان المعنى الإجمالي :

عقب القرآن ما يلقاه الكافرون من عذاب ومهانة، بالتنويه بالمتقين الصالحين مفصلا شيئا من جزائهم. فنصت الآية على أنهم ينعمون في جنات، لكل منهم جنته على مستوى ما قدم، دون أن يشعر أي منهم بالنقص أو الحرمان. هم جميعا في سرور، يغمرهم الفرح بما مكنهم منه ربهم، ويعظم شعورهم بالنعمة عندما يتذكرون أن الله حصنهم من عذاب الجحيم. وتقول لهم الملائكة تمتعوا بما شئتم بأنواع المآكل والمشارب، هنيئا لكم، فقد نلتم جزاء ما قدمتم من صالح الأعمال.

ذهب التعب والكد، فكل ما يرغب فيه المُنَعَّمُ من فتح فكري ومعرفة يناله، وكل ما تتعلق به شهوته يجده بين يديه. هم في راحة كاملة متكئين على سرر مرفوعة،

مجالسهم مجالس ود وحديث يتناسب مع مستوى الطُّهر الذي بلغوه. ولكل داخل في الجنة زوجه التي كانت معه في الدنيا، فإن كانت أرقى منه منزلة ارتقى معها، وإن كانت أخفض منه منزلة،ارتفعت لتكون معه. ومع ذلك الحور العين متآلفات، وقد ذهبت الغيرة والأنانية.

ونوع آخر من التكريم يتفضل به الله على المؤمنين في الجنة، أنه يلحق بمراتبهم العلية في الجنة من كان من ذرياتهم مؤمنا لم يبلغ من التقوى والصلاح مبلغهم. فيدخل الله البهجة والسرور على المفوزين بالرتب العالية، بإلحاق أولادهم بهم. ومع رفع درجات الذرية لا ينقص من أجور الأصول شيء. إن كل نفس محصور جزاؤها فيما قدمته من خير أو شر، إلا ذرية المؤمنين الصالحين في الجنة فمن كان من ذريتهم لم ينحرف انحرافا بعيدا عن منهجهم، يلحق بالأصول.

وزدناهم فوق ما وصف أن يسرنا لهم مجالس تغمرها البهجة والسرور والنعيم، يقدم لهم فيها متنوع الفواكه، واللحوم الطرية اللذيذة المثيرة لشهوة الأكل منها. ويتبادلون كؤوس الخمر التي تضاعف إحساسهم بالنعيم، ولا تنزل بهم إلى العربدة، وسَقَطِ الكلام، والصياح، والسباب، وذهاب الحياء.

بيان المعنى العام :

17←20 : إن المتقين في جنات بحور عين.

منهج القرآن أنه يعقب الإنذار بالتبشير، والعكس تحقيقا لإصلاح النّاس. فبعد أن عرض وضع المشركين يوم القيامة، ثنى بوضع المتقين فصرح مؤكدا أنهم ينعمون في جنات، وجمعت "جنات" لتفيد أنها كثيرة متنوعة،ومع اتحادها في أن كل نازل بجنته يشعر بالرضا وكامل السرور بوضعه إلا إنها على رتب متفاوتة في النّعيم تبعا لتفاوت الداخلين في الفضل.

- يغمرهم جميعا الإحساس بالفرح، والشعور بالسرور بما نالهم من ربهم الذي رعاهم في الدنيا بتيسرهم للخير، وفي الآخرة بحسن الثواب.مع أنهم يلحظون كبير فضله عليهم، إذ حصَّنهم من عذاب الجحيم " جهنم " وهل الجحيم جهنم، أو طبقة منها يعذب فيها الكفرة والمشركون ؟ رأيان للمفسرين.

- يتقدم إليهم الملائكة وهم يتناولون من نعيم الجنة أكلا وشربا بقولهم : كلوا واشربوا ما شئتم هنيئا لكم.النعيم الغامر حصلتم عليه بسبب ما قدمتموه من صالح الأعمال. فهو جزاؤكم. كما يثنى على المتفوق في الامتحان بقول اللجنة: هذا جزاء اجتهادكم كامل السنة. ولا شك أنه لولا الألطاف الإلهية التي أحاطت بالعبد في دنياه

فسار في طريق الهدى ما كان يصل إلى درجة المتقين المكرمين. لله الفضل أولا بالهداية وله الفضل آخرا بما أنعم.

- ما بقي من ذكريات الحياة الدنيا أنها كانت تعبا موصولا وإن اختلفت درجاته، وتنوع إلى جهد عضلي، وجهد فكري ومعاناة أسقام. ومن فضل الله على أهل الجنة أنهم يشعرون بصفة دائمة بالأمن والسعادة، وعدم الحاجة لبذل الجهد، ينالون من المعارف ما أرادوا، ومن الشهوات البدنية أكلا وشربا ما شاؤوا. هم متكئون على سُرُرٍ في جلسات تجمعهم بمن يحبون متقابلين، ينظر بعضهم إلى بعض نظر الود الخالص. وجمع الله كل رجل بامرأته التي كانت صالحة في الدنيا، وأسبغ عليها من الوسامة الشيء الكثير، فالعيون واسعة في صفاء وطول أهداب وقس على ذلك. وينشئ الله خلقا من خلق الجنة يكون لهن من الجمال ما تقر به العين وتأنس النَّفس، ومن الفطنة والذكاء ما يرضي العقل والمشاعر. وقد ذهبت الغيرة من المشاعر، والأنانية من العقول.

21←23 : والذين آمنوا واتبعتهم...لا لغو فيها ولا تأثيم.

هذا تكريم آخر للمنعم عليهم، ربطه القرآن بالإيمان.وفيه تنويه بهذا الصفاء الذي يحصل في الفكر والروح. فإن الذين واصلوا حياتهم متمسكين بالإيمان، واجتهدوا فأثروا في ذرياتهم بما غرسوا في عقولهم من الإيمان وهُداه، يكرمهم ربهم بأن يلحق بهم ذرياتهم في رتبتهم في الجنة، وإن كانوا لم يبلغوا صلاح آبائهم. وكما يجمع الله بفضله بين الزوج وزوجه، وبين الخلان في مجالس الرفاهية التامة، كذلك يتفضل فيرفع الذرية المؤمنة وإن قصَّرت في الفضل عن الآباء ويجمعهم بآبائهم.

وخاتمة هذه الآية فيها احتراس بديع، يجمع بين أمور:

أ- إن ما يكرم الله به الذرية لا ينقص من ثواب الآباء شيئا، فإن جزاء ما عمله الإنسان محبوس عليه فلا يذهب من أجورهم شيئا ليُلْحَقَ بصحائف ذرياتهم.

ب- إن ما يكرم به الذرية مراعى فيه ما عملته الذرية، فمن كان بعيدا عن منهج الآباء لا يرتقي لنيل كرامة الإلحاق.

ج- أن الكافرين محبوسون بجزاء ما كسبوه في دنياهم.

- **أمددناهم** - وزدناهم على ما وصف من النّعيم مجالس أنس، تعلو صورتها على ما كان يحدث في الدنيا مما يبتهجون به. تُقَدَّم لهم فيها الفواكه المتنوعة، واللحم الطري المثير للشهوة لطيبه وحسن إعداده. ويتعاطون كؤوس الخمر، فتجد متناولا للكأس يقدمها لقرينه تكرمة وتعبيرا عن إعجابه بلذة المذاق. ويتبادلون على هذا النّحو في مجلس سرور، بين شُربٍ ومناولة لغيره. ونفت الآية ما يصحب

مجالس الخمر في الدنيا، التي يعربد فيها الشَّرْبُ، ويكثر لغطهم، وتنفلت ألسنتهم وأيديهم من رقابة العقل، بالصياح والتعدي. ويسرع إلى فعالهم الإثم من ضرب وشتم واعتداء، لمَّا يحجب العقل بقوة تأثير فعل الخمر، وتستوي أرجاع المخمور مع أرجاع المجانين. فخمر الآخرة تحصل بها النّشوة التي تقوي الإحساس بالمتعة، ولا تنزل إلى المستوى الهابط الذي يصحب شرب خمر الدنيا.

۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الطواف : مشي متكرر.

الغلمان : جمع غلام، خَدَمَة.

اللؤلؤ المكنون : الدر المختزن لنفاسته فيحتفظ بلمعانه وصفائه.

الإشفاق : توقع المكروه.

السموم : أصلها ريح جافة شديدة الحرارة. وهي ريح جهنم.

البر : المحسن الرفيق.

الكاهن : المدعي معرفة الغيب، الذي يتحدث عنه في كلام مسجع.

تربصوا : انتظروا.

بيان المعنى الإجمالي :

ومن نعيم أهل الجنة أنهم في مجالسهم الدائرية يطوف عليهم لخدمتهم غلمان أكمل الله حسنهم. فهم في رونق بهاء بواكير الشباب، متمتعين بصفاء البشرة ولمعانها. ويجري بينهم الحديث بذكرياتهم من حياتهم الدنيا، يقبل بعضهم على بعض في أدب جم،فقارنوا ما هم فيه من استقرار وسعادة، وما كانوا عليه في دنياهم وقالوا: إنا كنا رغم أننا في أهلنا، كنا مشفقين خائفين من العاقبة.لقد تفضل علينا ربنا وحمانا من لفح نار جهنم.تحققت آمالنا فإنا كنا نبتهل إليه بأنه هو المحسن الرفيق بعباده عظيم الرحمة بهم. واصِلْ التذكير يا محمد ينتفع بك المؤمنون تأصيلا للخير فيهم، وقد ينتفع بعض الكافرين فيؤمنوا.أنت مغمور بنعمة ربك الذي يرعاك، فأنت أبعد ما يكون عما رموك به من الكهانة أو الجنون.

بيان المعنى العام :

24- ويطوف عليهم غلمان...مكنون.

يتواصل وصف القرآن لنعيم أهل الجنة في مجالسهم، فيضيف لما تقدم أن الله أنشأ لهم في الجنة غلمانا يطوفون عليهم جيئة وذهابا يناولونهم ما يطلبون. وعبر بالطواف الذي هو الدوران رعاية لقوله في الآية السابقة على سرر متقابلين. فطريقة جلوسهم ليست صفوفا، وإنما يزداد أنسهم بنظر بعضهم إلى بعض في شكل دائري. وهؤلاء الغلمان الذين يخدمونهم سكب الله عليهم من الحسن ما يزيد المجالس رونقا. عبر عن ذلك بأنهم لبياض بشرتهم، وصفاء لونهم، كأنهم اللؤلؤ المكنون الذي لم يذهب ببهائه تعرُضُه لتقلبات الطقس. والملاحظ أن الحكومات تنتخب لحرس الشرف، أصحاب الوسامة من الجيش.

25←28: وأقبل بعضهم على بعض...هو البر الرحيم.

يتواصل وصف مجالس المتقين في الجنة، فتعرض هذه الآية الصفة التي عليها يتجاذبون أطراف الأحاديث، وما يجري بينهم منها.كل فرد يستمع لأخيه في أدب واهتمام، ومع الراحة والهناء تتسابق الذكريات. فمما يجري بينهم أنهم يتذكرون أوضاعهم في الحياة الدنيا.

– يقول بعضهم لبعض وقد استقر بهم المقام : إنه يوم كنا في الحياة الدنيا، ونحن مع أهلنا، كنا وجلين من العاقبة. قال تعالى مسجلا لخشية رسوله ﷺ : **(وما أدري ما يفعل بي ولا بكم)**[1] – فتفضل الله علينا بمنه وكرمه فأبعد عنا عذاب السموم، وأصل لفظ السموم الريح اللاهبة التي تحرق الأخضر، وتنفذ إلى مسام الجلود، والمراد بها هنا ريح جهنم الحارقة.

– إن ما أكرمنا به هو ما استقر في يقيننا في الدنيا. فقد كنا نخصه بالعبادة ندعوه ونبتهل إليه، مقتنعين بأنه وحده المتصف بصفات الكمال، فهو البر المحسن الرفيق بعباده، الذي شملت رحمته كل شيء.وإذا عُبِدَ أثاب، وإذا سُئِل أجاب.

29- فذكر فما أنت...ولا مجنون.

واصل التذكير، ذكر المؤمنين ليتعمقوا في الخير وطريق الصلاح، ويرتقوا في مقامات القرب. وذكر الكافرين عسى أن يهتدي بعضهم إلى الإيمان. ولا يهمك ما يفتريه عليك أهل الضلال، وما يرمونك به مما أنت مبرأ منه.أنت مقرب مني، أنعمت عليك بالنعمة الكبرى إذ انتخبتك من بين الخلائق خاتما لرسالاتي.فأنت

---

[1] سورة الأحقاف آية 9

مرعيٌّ بعنايتي أنا ربك أوالي عليك ما يعلي مقامك،وأتولى إيصال ما ينفعك " بنعمة ربك" وهذا ما يسفه قول من يقول : ما تدعو إليه ضرب من الكهانة، وما أبعد القرآن، مع وضوحه وبيانه واهتمامه بما يصلح النّظام الاجتماعي، ويقيم التصور السليم للكون،ما أبعده عن الكهانة.فالكاهن يخبر عن جزئيات من الغيب يدعي معرفتها، ويصوغها في جمل قصيرة مسجعة، مع تعميمات قابلة للتأويل. ومع قوة قدراتك العقلية، ونظرتك المحللة الكاشفة عن الخفايا التي تدركها بفكرك الملهم، يقولون: إنك مجنون. فما أنت بنعمة ربك عليك بمجنون، وقد تبوأت من الفطنة والذكاء أعلى مقام.

أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ ۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَۜيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

ريب : الحوادث والمصائب.

المنون : الموت،أو صروف الدهر.

تأمرهم : تبعثهم.

أحلامهم :عقولهم.

حديث : كلام.

الخزائن : جمع خزينة، الظرف الذي يخزن فيه الرزق.

المصيطرون : المتسلطون.

بيان المعنى الإجمالي :

امتلأ المشركون غيظا، فاجتمعوا في دار النّدوة ليتدبروا أمرهم في مقاومة الرسول ﷺ، فقال أحدهم هو شاعر ننتظر أن يهلك كما هلك قبله شعراء كثيرون. ورد القرآن عليهم آمرا الرسول أن يتحداهم بقوله: انتظروا، وما تنتظرونه أمل ضائع، وإني منتظر أن يحل بكم عقاب الله، وهو آت لامحالة.

يدعون أنهم ذوو عقول راجحة،فهل هدتهم عقولهم إلى تلك السخافات والتناقضات؟ بل إن استكبارهم وطغيانهم حجبهم عن الإذعان للحق.

أنكر عليهم أقوالهم أن القرآن من كلام الرسول الذي نسبه إلى الله، إنهم كاذبون في تهمتهم هذه، ومحمد عربي مثلهم أتاهم بالقرآن فليأتوا بكلام مثله، وهم مثله عرب، وعجزهم يقوم شاهدا على كذبهم، وأنه ليس من طوق البشر.

ينكرون البعث.أفلم ينظروا إلى أنفسهم فهل خلقوا من غير شيء، أم هم الذين خلقوا أنفسهم ؟ لا يستطيعون أن يقروا بأي واحد من الاحتمالين، فالله الذي خلقهم قادر على أن يبعثهم يوم القيامة للحساب. وهل خلقوا السماوات والأرض وما تعمر به من كائنات. ولكن الشواهد تقوم منادية بالقدرة العظمى لله، وإعادة خلقهم لِيُبْعَثُوا ويجازى كل بما قدم، أَيْسَرُ. ولكنهم يفرون من كل ما يهدي إلى اليقين.

واعترضوا منكرين أن يكون محمد رسولا، وأن الرسول لابد أن يكون رجلا متميزا بجاهه وماله. ما أجهلهم ! إن إسناد مهمة الرسالة من فضل الله، وهو المتصرف وحده في خزائن فضله المادية والمعنوية،فهل يملكون شيئا من تلك الخزائن حقيقة أم سلطهم الله عليها بتوكيلهم حتى يستبعدوا محمدا. وليس لهم شيء من ذلك.

ونفوا أن يكون رسولا، فهل صعدوا إلى السماء بسلم فاستمعوا إلى الملأ الأعلى ينفي الرسالة عن محمد. فليأتوا بخبر من أخبار الغيب سمعوها ليكون حجة لهم على بلوغهم منازل الاستماع. إنهم أحقر وأشد عجزا من ذلك

بيان المعنى العام :

30- أم يقولن شاعر نتربص به...من المتربصين.

تحير المشركون وقد استولى عليهم اليأس من وجود مطعن معقول يردون به قوة الحق الصادع الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، تآمروا مجتمعين وفرادى لرميه بافتراءات، علهم يستطيعون بذلك توقيف المد الإسلامي، الذي تيقنوا أنه لاستجابته إلى الفطرة، ولما يتميز به رسول الله من أخلاق عالية،سينتهي إلى هزيمتهم فيزول الشرك، وتتحطم الأصنام، ويرتفع الظلم والاستبداد والتسلط على الضعفاء والمحرومين.رد القرآن عليهم في الآية السابقة.فما هو كاهن ولا مجنون. ثم انتقل ليهدم قولهم: إنه شاعر، يُجَنِّح به خياله في تصورات خادعة. وأمره هين تبعا لذلك فنحن نتربص به، أي ننتظر أن يموت فتموت معه خيالاته، كما ذهب الشعراء الذين سبقوه.وهذه مقالة قالوها فعلا لما اجتمعوا في دار النّدوة ليدبروا أمرهم في شأن الدعوة الإسلامية فقال أحدهم :تربصوا به ريب المنون فإنه شاعر

سيهلك كما هلك زهير والنابغــة والأعشـــى وغيـــرهم، فـــاعجبوا بهـــذه المقالـــة وتفرقـــوا يرددونها في المجامع.كما يمكن أن يفهم: أنا ننتظـــر بـــه ضــــربات الـــدهر، مـــن المـــوت إلى العجز، إلى تحوله عن مكة، إلى تراجعه عن دعوته. وعن قريب نستريح منه.

– هو وعيد في صيغة أمر : أوعـــدهم أن مـــا ستتكشـــف عنـــه الأحـــداث هـــو هلاكهـــم. فأنتم تتربصون بي ما أنا سالم منه، وأنـــا أتـــربص أن أشـــاهد مـــا سيســـلط علـــيكم مـــن عذاب وخزي، وهو واقع لا محالة.

32-أم تأمرهم أحلامهم...طاغون.

انتقال من تهديدهم بأنه سيحيق بهم عذاب الله، وأن الرســـول ينتظـــر حلـــول ذلـــك قريبـــا بهم. ثم أضرب عن تلك المعاني ليتحول نظرُ الســـامع إلـــى شـــيء جديـــد فـــي تبكيـــتهم. إن أمرهم لعجب، فهم يدعون أنهم أصـــحاب العقـــول الراجحـــة، والقـــدرة علـــى التـــدبير في تؤدة، وكانت قـــريش يُـــدْعَوْنَ أهـــل الأحـــلام والنهـــى. ومـــا دار النّـــدوة إلا مظهـــر لذلك. عجب كيف تأمرهم عقولهم التي يعتزون بهـــا وتبعـــثهم ليقعـــوا فـــي هـــذه الأقـــوال المتناقضة والكاذبـــة: شـــاعر، كـــاهن، كـــاذب، مجنـــون، مختلـــق. وأصـــحاب العقـــول الراجحة لا يقعون في مثل هذا التناقض، ولا في مثل هذه السخافات.

أم هم قوم طاغون – إضراب مع استفهام، انتقال مـــع ســـؤال، دع عنـــك ادعـــاءهم أنهـــم أهل الأحلام والنهى.فهم في الحقيقـــة قـــد تمكـــن الطغيـــان مـــنهم ,والاســـتكبار والتجبـــر. فكوَّن ذلك حجابا على بصائرهم، كأنهم لا عقول لهم.

33-أم يقولن تقوله بل لا يؤمنون.

ينتقل القرآن بهم من مقام إلـــى مقـــام ليكشـــف سَـــقَط مـــا اســـتندوا إليـــه مـــن أوهـــام. أيرَوِّجون لدى الدهماء أن محمدا نســـب إلـــى الله كلامـــا هـــو مـــن عنـــده. كـــذبوا فيمـــا يروجونه. بل إن الواقع أن كفرهم هو الذي بعثهم على الافتراء والكذب.

34- فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين.

يتحداهم القرآن أن يقدموا كلاما مساويا للقـــرآن فـــي انتظامـــه لصـــلاح البشـــر صـــلاحا عاما، ويبلغ درجته في البلاغة. محمد إنسان عربـــي وقـــد أتـــى بـــالقرآن الـــذي تـــدعون أنه من نسجه، وأنتم عرب مثله، فقـــدموا كلامـــا يســـاويه بـــأي طريقـــة شـــئتم إن كنـــتم صادقين في ادعائكم أنه من عند غير الله.فعجزكم يكذبكم فيما تقولون.

35- أم خلقوا...أم هم الخالقون.

معارضات المشركين لما جاء به الإسلام عديدة. منهـــا إنكـــارهم للبعـــث إنكـــارا شـــديدا. فكشف القرآن عن قصر نظرهم، وأثارهم للإجابـــة بإلقـــاء الإنكـــار علـــيهم فـــي صـــيغة

سؤال. ليعودوا إلى أنفسهم فهل خلقوا من عدم، ولا يستطيعون إلا الإقرار بذلك، وإذا كان الله أوجدهم من عدم فهو قادر على بعثهم إذا تحللت أجسامهم واختلطوا بالتراب. والإعادة حسب مقاييسهم أيسر من البدء. وكذلك يمكن أن يفهم السؤال أخلقهم الله لغير غاية خلقا عبثيا الأمر الذي تنفيه الحكمة الظاهرة من الخلق. فما أوجد الحكيم الخلق ليستوي الصالحون والخبثاء، والخير والشر. بل لا بد أن يكون الخير مجزيا حسبما قدم، والشر كذلك. وهذا لا يتحقق إلا بالبعث. أم يدعون أنهم خلقوا أنفسهم، وقدم هذا الاحتمال استهزاء بهم.ذلك أنهم لا يمكن أن يدعوا ذلك، وإذ سقطت الاحتمالات تعين أن إنكارهم للبعث خارج عن المعقول.

36-أم خلقوا السماوت...بل لا يوقنون.

سؤال يرتقي بهم من إظهار أنهم لم يخلقوا أنفسهم إلى سؤال آخر لو تأملوا فيه،على ظهوره،لأقروا بأن الله قادر على البعث. فهم يشاهدون السماوات على عظيم خلقها وواسع أبعادها، وما يعمرها من كواكب، ويمشون على الأرض بجبالها ووهادها وأوديتها وسهولها،ويشاهدون ما يسير على ظهرها من حيوانات وما تنبته، فهل خلقوا ذلك ؟ هم يعترفون أنهم أبعد من أن يتصور منهم خلق السماوات والأرض، ولكنهم لا يبحثون بعقولهم، وإذا دَمَغَتْهُم الحجج البينة يفرون من الإذعان لها، ومن أن يحصل لهم اليقين عنادا وإن قامت الأدلة.

37- أم عندهم خزائن...المصيطرون.

سلَّم القيم عند المشركين يقوم على قوة المال والجاه. ومن أكثر مالا وأعظم جاها تأهل للسؤدد ونفاذ أقواله في المجتمع. ولم يكن محمد من أصحاب الثراء، ولا الجاه المكتسب بالعصبية، ولذلك استبعدوا أن ينال الرسالة، فرد ليس من ذوي الشوكة في مجتمعهم.فقرعهم القرآن، ما هذا التطاول ؟ إن النّبوة من رزق الله. ومن خزائن فضله، يصطفي من يشاء لتحمل رسالاته،وقد نص القرآن على ذلك بقوله **(الله أعلم حيث يجعل رسالاته)**[1]-فاختار محمدا وهيأه لتحمل شرف الرسالة. ومن الوقاحة اعتراضكم على هذا الاختيار، فليس لكم من الأمر شيء. أم هل مكنكم الله من السيطرة على خزائنه، فتقدمون من تشاؤون وتؤخرون من تشاؤون.

38- أم لهم سلم يستمعون فيه...بسلطان مبين.

سندهم في نفي رسالة محمد مع أنها رزق من الله يتصرف فيه وحده، وليس لهم أي تسلط على خزائن رحمته في قليل ولا كثير، لا في المعنويات ولا في

---

[1] سورة الأنعام 124

الماديات، أسقط اعتراضهم علـــى اختصــاص محمــد صــلى الله عليـــه وســلم بـــالنبوة. وآخر ما يتصور أن يستندوا إليه في نفيهم الرسالة عنـــه، أن يقولـــوا : إنـــا اســـتمعنا إلـــى ما يجري في الملأ الأعلى، ومحمد لـــيس رســـولا، وهـــي دعـــوى تســـتدعي الســـخرية، فهل لهم سلم يصعدون درجاته، حتى بلغوا السماء، فجلـــس عليـــه ســـفيرهم يســـتمع إلـــى ما يتحدث به في الملأ الأعلى، وتبين له من هو الرسول ثـــم أخبـــرهم بـــه.ومـــن البـــديهي أنه لم يقتصر سمعه على كون محمد رســـولا، بـــل لا بـــد أنـــه اســـتمع إلـــى كثيـــر مـــن الغيب، والحالة تلك، فليأت هذا المستمع بشيء من الغيـــب الـــذي اســـتمعه، حتـــى يعتبـــر ذلك حجة له على صدقه. وأنى لأي فرد أن يبلغ ذلك المستوى.

أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ
ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ
إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟
سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى
عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ
﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

المغرم : ما يفرض من إتاوة بدون حق.

الغيب : ما غاب عن علم النّاس.

الكيد : التدبير للإضرار خفية.

الكسف : قطعة من السماء.

المركوم : المجموع بعضه على بعض.

يلاقوا : يحلون فيه.

الصعق : الإغماء بسبب الخوف.

لا يغني : لا يفيدهم.

بأعيننا : بمحل العناية منا، في حفظنا ورعايتنا.

بيان المعنى الإجمالي :

يسألهم القرآن ليفضــح خلطهــم، أتنســبون لله البنــات، وهــي فــي مقــام أحــط حســب أعرافكم؟ وتجعلون الذكران لكم. فتفضلون أنفســكم علــى الله العلــي الأعلــى. واحتمــال آخر أنهم نفروا من قبول الإسلام لئلا يدفعوا لك يــا محمــد مــالا مقابــل هــدايتهم، فهــل طلبت منهم شيئا ؟وقد سبق قولــه تعــالى: **قــل لا أســألكم عليــه أجــرا.** أم إنكــم نفيــتم رسالة محمد لأنكم اطلعتم على الغيب، ووثِّقْتُمْ ما وجــدتموه فيــه و لــم يــذكر أن محمــدا رسول. وما أبعدكم عن هذا المستوى، مع إنكاركم للغيب، وعبادتكم للأصنام.

هل إن الكافرين يُعِدُّون المخططات للإضرار بمحمد ومــن معــه فــي خفــاء. إن كيــدهم سيكون في نحرهم وسينفذ فيهم ما أعده الله لهم من نكال.

سؤال انكاري مع توبيخ وتهديد، أيعتقــدون أن لهــم إلهــا غيــر الله يبــين لهــم الطريــق، مطالبون باتباعه.تنزه الله عما يقوله المشركون هو واحد لا شريك له.

قَوِيَ عنادهم وقلبهم للحقائق، فلو شاهدوا قطعا نازلــة مــن الســماء لقــالوا هــذا ســحاب متراكم سيمطرنا. فلا تأسف لمواقفهم تلك واتركهم حتــى يطبــق علــيهم عــذاب الله يــوم الحشر فتراهم صرعى وما هم بصرعى ولكــن عــذاب الله شــديد. إنــه اليــوم الــذي لا ينفعهم كيدهم ولا يجدون نصيرا ينصرهم.

وهدد القرآن الذين ظلموا وهم المشــركون أن الله أعــد لهــم عــذابا قبــل عــذاب يــوم القيامة كما تم فــي وقعــة بــدر، و القحــط الــذي ســلط علــيهم ســبع ســنين متواليــة. واستدرك بما يفيد أنهم غافلون عن تحقق ما أوعــدهم الله بــه لأن كثيــرا مــنهم مغرقــون في الجهل. ثم أرشد القــرآن النّبــي ﷺ ليواصــل صــبره و لا يحــزن ولا ييــأس رغــم تصلبهم في الكفر. وما يعدون لك من مكــر، فإنــك يــا محمــد فــي حفظنــا ورعايتنــا. وداوم على تسبيح ربك بتنزيهه، وحمــده فــي الوقــت الــذي تقــوم فيــه مــن الليــل أو عندما تتحول من مجلسك. وكذلك سبح ربــك واحمــده بعــض أوقــات الليــل، وخاصــة وقت السحر عندما تأخذ النّجوم في الاختفاء.

بيان المعنى العام :

39←43 : أم تسألهم أجرا....عما يشركون.

تتابع الأسئلة الكاشفة عن افتراءاتهم، وعــن تصــوراتهم الباطلــة.فيســألهم القــرآن إنكــم تروِّجون أن الملائكة بنات الله.لقد جمعتم بــين أمــرين تنــزه الله عنهمــا. أحــدهما أنكــم جعلتم لله ذرية، وتعــالى الله أن يكــون لــه ولــد، وثانيهمــا أنكــم جعلــتم أولاده إناثــا. وحسب أعرافكم الاجتماعية فــإن الــذكور هــي التــي يعتــز بهــا الوالــد، ويغــتم الأب بالإناث. فكيف تنسبون لله العظيم ما تكرهون.

-توجه السؤال للرسول، هل طلبت منهم أجرا على الهداية التي تبينها لهم، فتقل عليهم أداؤها فنفروا حفاظا على أموالهم؟ والجواب عن هذا السؤال بين واضح، ولكن الغاية منه نفي كل ما يمكن أن يتعللوا به في صدودهم عن الإسلام. وفيه تلميح لشدة حبهم للمال، وتقديمه على كل شيء.

- وسؤال آخر حاصله: إنكم تنفون أن يكون محمد رسولا، فهل اطلعتم على الغيب، فسجلتم ما فيه، وثبت عندكم بذلك ما ينفي كونه رسولا؟ إنهم أميون الجهل بالكتابة ظاهرة فيهم. ومع ذلك فإشراكهم بالله وعبادة الأصنام تجعلهم في موقف مقابل للغيب فضلا عن إمكان الاطلاع عليه.

- ما ذا يقصدون بكل ما ذكر، مع تبين أنه لا يقوم على أساس؟ أهم يدبرون للرسول وللإسلام خفية مخططات تمكنهم من الإضرار بهما، وهم على قدر كبير من الخبث، واجتمعوا في دار النّدوة مثلا، وخططوا ما يحبطون به الدعوة، وما يؤذون به رسول الله ﷺ، وما يفككون به وحدة أتباعه. يسخر القرآن منهم، مثبتا أن الذين كفروا هم الذين سينفذ فيهم ما أعده الله لهم من النّكال، وهم جاهلون به.وسمي كيدا وهم مكيدون ليشاكل ما خططوا له.

- وتختم الأسئلة بسؤال، يمثل خلاصة دعاويهم التي أبطلها القرآن فيما توالى من الأسئلة السابقة،بإبراز منبع الهلاك الذي وقعوا به فيما وقعوا فيه من الشرك وتوابعه. فقال: ألهم إله يهديهم إلى ما التزموه، فيكون استنادهم إلى ما يأمرهم به لهم به وجه من العذر؟ فافتتح الجواب عن هذا الاحتمال بقوله تعالى : **سبحان الله**.تنزيه كامل لله أن يكون في الوجود إله غيره يأمر. أو أن يكون له شريك.

44-وإن يروا كسفا...سحاب مركوم.

تدربوا على المكابرة حتى أصبحت لهم ملكة. فلو رأوا السماء تنزل عليهم قطعا،كما طلبوا ذلك.قال تعالى : **(أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا**[1]**)**- لكابروا وقالوا ما هو إلا سحاب تراكمت طبقاته.

45-فذرهم حتى يلاقوا...ولا هم ينصرون.

مع هذا التصميم على العناد الذي بلغ بهم إنكار المحسوس، اتركهم ولا يهمك أمرهم،وواصل ما أنت عليه من تبليغ وحي الله إليك،فإنهم صائرون إلى اليوم الذي تشتد أهواله يوم القيامة والحشر، فتراهم صرعى وما هم بصرعى ولكن عذاب الله في هذا اليوم يوم القيامة شديد.

[1] سورة الإسراء آية 92

– في هذا اليوم لا يفيدهم شيئا ما أعدوه من مكر، وما تآمروا به، وما عقدوا له الاجتماعات لتقليب أوجه النظر في المخلص مما جاء به محمد. فلا مخلص لهم من العذاب، ولا يجدون نصيرا ينصرهم. يطبق عليهم العذاب لا محالة.

47-وإن للذين ظلموا عذابا...ولكن أكثرهم لا يعلمون.

هذه الآية تهدد المشركين، بأن الله سيسلط عليهم عذابا في الدنيا قبل عذاب الأخرة، وهو أقل منه وقريب. فعلا قد نفذ الله فيهم وعيده يوم بدر، وبالقحط الذي نزل بهم. واستدرك أنهم يسمعون تهديدك ولا يرتدعون، لأن أكثرهم قد انغلقت عقولهم فأصبحت لا تتمكن من العلم، إذ العلم محجوب عن المعاندين.

48←49- واصبر لحكم ربك...وإدبار النجوم.

اصبر وليكن عزمك على مواصلة الدعوة قويا رغم ما يعترضك من صعاب من تصميمهم على العناد، واختلاق الأكاذيب، وفتنة متبعيك، وتدبيرهم أنواعا من المكر بك مع شدة خبثهم. ولحكم ربك معناه على ما حكم به ربك من تخليتهم وعدم تعجيل استئصالهم، وعلى ما كلفك به من تبليغ هداه، ولأن ما تلاقيه هو ما حكم به ربك. واعلم أنك في رعايتنا وحفظنا، فمكرهم لا يصل إليك، وإنهم سيهزمون، وسينتشر دينك في الآفاق.

وسبح... أمر بالمداومة على تسبيح الله وتنزيهه عن كل نقص، واستحضار كمالاته وذكره باللسان : سبحان الله، سبحانك اللهم وبحمدك. سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ولا إله غيرك. بحمد ربك مصاحبا التسبيح بالحمد.

وقوله **حين تقوم**. يحتمل أن يقصد به وقت قيامه من الليل، أو وقت قيامه للعمل، أو عند قيامه من مجلس. روى الترمذي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال : (من جلس مجلسا كثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك : سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك) ولم يذكر أنه مرتبط بهذه الآية.

كما يحتمل أن يكون المراد بالتسبيح الصلاة، بما يشمل صلاة الفرض كالصبح، وصلاة النافلة كالتهجد وصلاة الفجر. والاحتمالان لا يتنافيان فتحمل الآية عليهما.

–كما أرشدت الآية السابقة إلى التسبيح حين القيام، وذكرنا الاحتمالات التي ينطبق عليها نص الآية، فإن هذه الآية أكملتها بالإرشاد إلى التسبيح، أي والتحميد، في الليل، مثلا عندما يريد النوم وإذا أفاق من نومه، وخص وقت إدبار النجوم، وهو وقت احتجاب النجوم، وهو وقت السحر. وهو وقت يكون الإنسان قد أخذ حظه من النوم ونشط ذهنه، فالتسبيح والتحميد في هذا الظرف يغذي روحه، وهو مُقْدِمٌ على نهار جديد.

سورة النّجم

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وفي كتب السنة، وفي بعض الروايات: والنجم باسم القسم المفتتحة به: بحذف حرف القسم، وبإثباته. أجمع أهل العلم على أنها نزلت على رسول الله ﷺ بمكة. وهي الثالثة والخمسون حسب ترتيب المصحف؛ والثالثة والعشرون حسب ترتيب النّزول نزلت بعد سورة الإخلاص، وقبل سورة عبس.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنۡ
هُوَ إِلَّا وَحۡيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسۡتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ
ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوۡسَيۡنِ أَوۡ أَدۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ
أَوۡحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

هوى: ميله إلى الغروب.

الضلال : سلوك ما ينافي الحق.

الهوى : تقديم النّفس ما تحبه على ما يرجحه العقل والحق.

شديد القوى: قدراته تمكنه من تنفيذ ما يؤمر بتنفيذه

ذو مرة: صاحب عقل راسخ.

الأفق: الناحية.

دنى : قرب.

تدلى: هذا القرب ليس قرب التحام، ولكن بقيت مسافة مرتفعة.

القاب :المقدار، وما بين مقبض القوس وطرفه الذي هو السيّة.

أو أدنى : أي أقل.

ما كذب : ما تخيل.

أفتمارونه: أتجادلونه لإبطال ما شاهد بعينيه.

الفؤاد : العقل.

بيان المعنى الإجمالي :

قسم بجنس النّجوم اللامعة في السماء بالليل، والتي يهتدي بها السائرون في الليل برا وبحرا. ويتواصل الاهتداء بها إلى أن تغيب. وهو قسم بمخلوقات عظيمة، وبتأثيرها في الإنسان هداية. والمقسم عليه أن محمدا الذي صحبكم فعرفتم كمالاته وصدقه وأمانته، سائر على طريق الهدى الصريح، ما وقع في حيرة ،ولا انحرف إلى الفساد. فهو المهتدي الراشد، وكل ما يحدثكم به هو الحق المستند إلى ما يأتيه من ربه وحيا عن طريق الملك الموكل بذلك. تولى الملك جبريل عليه السلام تعليم النّبي صلى الله عليه القرآن والحقائق التي يكلف بإبلاغها إليه. وجبريل قوي جدا يستطيع تنفيذ ما يأمره الله به، وهو مع ذلك مفتوح عليه يدرك الحقائق على ما هي عليه. وهو عند تلقيه الوحي من الله يتهيأ لذلك أفضل التهيؤ.

يتلقى جبريل عليه السلام ما يأمره الله بتبليغه وهو في المقام الأرفع والأعلى حسا ومعنى. ثم إنه بعد أن يتلقى المهمة ينزل إلى محمد فيكون مرتفعا على الأرض بينه وبين رسول الله مقدار قاب قوسين، وذلك نحو أربعة أذرع أو أقل من ذلك. وعند هذا المستوى من القرب أوحى الله إلى عبده محمد بواسطة جبريل الوحي العظيم الأفخم. إن محمدا لقي جبريل وكان عقله واعيا ليس في المنام، بل في الواقع المرئي. ومن لجاجكم أنكم تجادلونه فيما رآه حقا، فتنكرون عليه حتى ما شاهده ببصره؟

بيان المعنى العام :

1←10: والنجم إذا هوى...فأوحى لعبده ما أوحى.

افتتحت السورة بقسم " والنجم" فما المراد من النّجم؟ للمفسرين آراء في ضبط المراد منه.

فذهب بعضهم إلى أنه يدل على جنس النّجم، الكواكب اللامعة في السماء ما عدا الشمس والقمر. ويحتمل أن يراد به نجم الثريا الذي كان يضبط للعرب تغيرات فصول السنة. ويحتمل أن يراد به الشعرى وكانت معظمة عند بعض العرب. ويحتمل أن يراد به الشهب الراجمة للشياطين التي يلاحظ سرعة تحركها في السماء. وكل هذه الاحتمالات لم تخرج عن ربط المفهوم بما يظهر على صفحة السماء في الليل. وذهب بعضهم إلى أن المراد بالنجوم مقادير من القرآن التي تنزل

مفرقة على رسول الله ﷺ، فكل وحدة نزلت عليه تسمى نجمــا. وفـــي هــذا خــروج عــن المعنى الأصلي للنجم إلى معنى مجازي.

المحامل كلها يقبلها النّص، والأظهر القول الأول. أقســم بــه لأن كواكــب الســماء التــي تبدو لامعة في الســماء بالليــل، وهــي أجــرام عظيمــة، يحكمهــا تقــدير عجيــب فــي مساراتها. وملاحظتها تهدي السائرين ليلا لمعرفــة مــوقعهم والاتجــاه الــذي يــبلغهم مــا يقصدون. إن المُقْسَم به أمر عظيم ســواء راعــى النّــاظر أجرامهــا وأعــدادها التــي لا تحصر، ونظام سيرها، أو راعى استفادة الإنســان منهــا لتبــين طريقــه الهــادي إلــى الغاية التي يقصدها. وذلك شــأن الأقســام القرآنيــة فيهــا لفــت للقــدرة الإلهيــة وللحِكَــمِ الربانية.

وأقسم بالنجم في حال بلوغه غاية ظهوره إذا هوى فمال للغروب.

والمقسم عليه : **ما ضل صاحبكم وما غوى.** وهــي ثــلاث كلمــات تســتوقفنا كــل واحــدة منها.

أما الضلال، فهي الحالة التي يكون عليهــا الانســان حــائرا لا يفــرق بــين الجهــة التــي فيها سلامته، و بين الجهة التي فيها عطبه.

وأما الغواية، فهي اتباع طريق الشر لفساد في عقــل الغــاوي. فالضــال حــائر، والغــاوي ممعن في الفساد. فهو ﷺ مهتد و راشد.

والصاحب هو محمد ﷺ. وأطلق عليه لفظ الصــاحب إيقاظــا للمشــركين، إلــى أنــه نشــأ بينهم، عرفوه صبيا وشابا وكهلا، ما اســترابوا يومــا فــي خلقــه وصــدقه وعفتــه، وقــد كانت العرب إذا تمرد أحد أفــراد القبيلــة، يخلعونــه ويســقطون عنــه الجنســية حســب تعبيرنا اليوم. كيف وقد لقبوه بالأمين قبل أن يوحى إليه.

ووجه المناسبة بين المقسم بــه والمقســم عليــه، يســتدعي تــأملا وتعمقــا، والمحــاولات التي اطلعت عليها لم ينشرح لهــا صــدري. لأنهــا كلهــا تعبــر عــن الإشــكال وتتــأول الجواب عنه بما لا يثلج الصدر. والذي انقدح فــي نفســي: أن الله أقســم بــالنجوم وهــي منيرة هادية، كما قال تعــالى: (**وبــالنجم هــم يهتــدون**[1]) وهــي هدايــة مــن الســماء. والمهتدون بها يرقبونها من تاريخ طلوعها إلــى وقــت هويهــا. وكــذلك الأمــر بالنســبة لهداية الله للبشر كانت بواسطة ما ينزل على رســله مــن الســماء كــالنور الواصــل مــن النّجوم. ابتدأت مع ظهور أول رسول وتتابعت إلــى محمــد خــاتمهم. وبــه بلــغ الــوحي السماوي غاية مساره. فتآلف القسم والمقسم عليه.

---

[1] النّحل آية 16

-ومع نفي الضلال والغواية عنه، نفى القرآن أمرا ثالثا أن يكون ما ينطق به صادرا عن هوى تزينه النّفس ولا ينطلق من الحق الأيقن. فما ينطق به من القرآن، أو ما يخبر به عن ربه ليس مستندا إلى هواه، ولكنه نابع من معين الحق الأبلج.
-ما الذي يخبركم وينطق به، إلا وحي من عند الله. فهو لا يأتيكم بشيء من عنده. فأسقطت الآيات كل ما نسبوه إليه باطلا، من الجنون، السحر، والشعر، والكهانة، والافتراء، وتعلمه من بشر. وانفرد بجمعه لصفات الكمال الإنساني فهو المهتدي، الراشد، منطقه الحق الذي لا ريب فيه، مستند إلى وحي الله.
- علم ملك قوي كأشد ما تكون القوة، علم محمدا الوحي. والمراد به عند المفسرين جبريل ﵇. وشدة قوته تدل على تمكنه من تنفيذ ما يأمره الله به من المهام والأعمال العظيمة.
ذو مرة - المرة رجاحة العقل وأصالة الرأي، وذو تفيد قوة ما أوتيه من ذلك. ولذلك فمع أنه كان يتحمل القرآن ويبلغه، الذي وصفه الله : (**إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا**[1]) كانت فتوحاته الإدراكية تساعد الرسل والأنبياء.
فاستوى- بعد أن وصفه بالقوة الكاملة، والعقل السليم الصحيح، رتب على ذلك أنه مع تلكم المؤهلات، تهيأ التهيؤ الكامل، عندما تلقى الوحي من الله ليبلغه.وأي شيء أعظم من كلام الله يتلقاه الملك من رب العزة، ويؤتمن على تبليغه وتوضيحه. وقد كان النّبي ﷺ يسأل جبريل. وظهر بصفة جلية في حديث الإسراء والمعراج.
- **وهو بالأفق الأعلى** - الأفق يطلق ويراد به النّاحية، كقوله تعالى **سنريهم آياتنا في الآفاق**[2] ويطلق ويراد به ملتقى الأرض بالسماء في نهاية مد البصر. والمعنى الأول هو الذي ينبغي حمل الآية عليه. والأعلى بمعنى الأرفع من غيره. والضمير يعود إلى جبريل ﵇، أن منزلته أرفع منزلة وأعلى مقام. ثم اقترب من رسول الله ﷺ فكان متدليا لم يستقر على الأرض فيتحد مجلسه ومجلس رسول الله ﷺ ، ولكنه كان فوق الأرض وغير متصل بها.
- **فكان قاب قوسين** - القاب يطلق ويراد منه المقدار، ويطلق على ما بين مقبض القوس، وطرفه الذي يشد فيه الوتر. وله طرفان، كل واحد منهما يطلق عليه لفظ القاب. وهو من عود نبع يقوس ويشد بين طرفيه بوتر من جلد، يجذبه الرامي بعد أن يثبت النّبل من المقبض، ثم يرسله فيبلغ السهم مسافة طويلة وينفذ في الهدف.

---
[1] سورة المزمل آية 5
[2] سورة فصلت آية 53

ولما كان لكل قوس قابان، والنص :قاب قوسين، فمحمله قابي قوسين، ولاستثقال تتابع التثنية وحد القاب وأبقى القوسين على التثنية أي قابي قوسين، ويرى بعض علماء اللغة، أن في الكلام قلبا، وأن المراد قابي قوس. وهذه المسافة تكون مقدار ذراعين أو أربعة أذرع. إذ طول كل قساب ذراع. ثم دقق القرآن بقوله أو أدنى أي أقل مسافة من ذلك. والمقصود إثبات القرب بين الرسول وبين جبريل، فهو يعي منه كل ما يقوله ويُبَلِّغُهُ من الوحي.

–عندما يبلغ جبريل المستوى الذي يكون فيه قريبا من رسول الله ليس بينهما إلا مقدار قاب قوسين أو أدنى، يتهيأ جبريل لبث ما يحمله من الوحي ويتهيأ الرسول لقبول الوحي العظيم الأفخم. الذي هو الحق الخالص. ولم يعَرِّف ما أوحى وأبقاه منكرا إيماء إلى فخامة محتوى الوحي.

11←13: ما كذب الفؤاد...أفتمارونه على ما يرى.

لم يكن المشهد الموصوف، والذي أخبر به النّبي ﷺ قومه عندما دعاهم إلى الإسلام، من تلقيه الوحي مباشرة عن جبريل، وأنه لقيه فعلا، لم يكن ذلك خيالا ولا تخييلا. بل إن عقله المتحكم في حواسه كان في حالة وعي كامل وصفاء. ثم ينكر عليهم أن يجادلوه فيما رآه بعيني رأسه رؤية محققة. أبَلَغَ بكم الجدال أن تجادلوه فيما رآه وأحس به كما تجادلونه فيما يخبركم به عن الله؟

﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

نزلة: مكان من نزوله.

السدرة: واحدة السدر وهي شجرة النّبق.

المنتهى: المقام الذي يقف عنده، ولا يتعداه أحد.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد رأى محمد جبريل مرة أخرى، وذلك عند سدرة المنتهى، السدرة التي ينتهي إليها علم الخلائق جميعا ولا يجاوزونها، وما وراءها مما اختص الله بعلمه. عند هذه الشجرة الجنة التي أعدها الله لعباده المتقين يأوون إليها بعد البعث. رآه في الوقت الذي كان ينزل على السدرة ما خصها الله به من التشريف والتكريم مما لا

تبلغ العبارة وصفه. رأى كل ذلك رؤية حقيقية ما مال البصر فخلط، ولا انضاف إليه ما حَوَّلَهُ عن حقيقته. بكل تأكيد لقد رأى محمد شيئا من آيات ربه وأدلته الكبرى على عظمته وجلاله.

بيان المعنى العام :

13←15: ولقد رآه نزلة...جنة المأوى.

بالتأكيد الكامل رأى محمد جبريل، مرة أخرى في نزوله وحلوله بالمكان الذي حل فيه. فممارة ومجادلة قريش لمحمد تدل على العناد، فمحمد لم ير جبريل مرة واحدة بل رآه مرتين.

والمرة الثانية كانت عند سدرة المنتهى. والسدرة نوع من الشجر معروف عند الفلاحين. وسميت الشجرة التي رأى محمد عندها جبريل بالسدرة، وليس بينها سدر الدنيا أي تطابق، بل السدرة من شؤون العالم الماورائي. وحددها القرآن بأن عند تلك السدرة جنة المأوى. الجنة التي يأوي إليها المؤمنون يوم القيامة، أو الجنة التي تأوي إليها أرواح الشهداء

تنبيه : قرب القرآن حقائق من الماورائيات، أي التي تختلف اختلافا كليا عن قوانين الإدراك التي نشأ عليها الفكر البشري. قربها لفظيا بما تلقيه العبارات من صور في الذهن، تؤكد وجودها، ولكن حقيقتها ليس ما يعطيه الخيال لها. فإن خيال الإنسان منتزع من الوجود المادي في الحياة، وتلك مفاهيم أخرى وحقائق بعيدة كل البعد عما ألفناه في الحياة.

16-إذ يغشى السدرة ما يغشى.

أدرك محمد صلى الله عليه وسلم جبريل ورآه عند سدرة المنتهى، في الوقت الذي كان يتنزل عليها، ويغشاها من الجلال والجمال الشيء الذي يتجاوز الوصف. هذا النّوع من التعبير : (يغشى السدرة ما يغشى، أوحى لعبده ما أوحى) يدل على أنه مما يتجاوز الوصف اللغوي، ولتذهب النّفس في تصور كماله ما تشاء. روي أنه غشاها نور ما يستطيع أحد أن ينظر إليها، وفي حديث الإسراء أنه غشتها ألوان لا أدري ما هي.

17-لقد رأى من آيات ربه الكبرى.

رأى محمد جبريل وسدرة المنتهى رؤية حقيقة ، لا خطأ فيها تثبّتَ منها، ولم يَمِلْ بصره عما رآه، ولا طغى البصر بتدخل الخيال بالزيادة أو التغيير.

18- بكل تأكيد لقد رأى محمد شيئا من آيات ربه، ودلائل عظمته، ومظاهر تصرفه وتكريمه، دلائل كبيرة عظيمة. تعبر عن تقريبه لمحمد وتشريفه، وأنه

مختار من بين الخلائق. صلى الله عليه وسلم ولقّانا به يوم البعث وأدخلنا وإياكم في شفاعته.

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

اللات: صنم لثقيف عبدته قريش وكثير من العرب.

العزى :صنم: حجر أبيض عليه بناء كان ببطن نخلة عبده كثير من العرب.

مناة : صنم حجر بمكان اسمه المشلل بين مكة والمدينة عبده كثير من العرب.

ضيزى: قسمة جائرة.

يتبعون الظن :يتبعون الباطل.

ما تهوى الأنفس : ما تميل إليه نفوسهم تبعا لشهواتهم.

بيان المعنى الإجمالي:

عجب من أمركم ومن عبادتكم لهذه الأصنام الثلاثة التي عظمتموها، اللات، والعزى، ومناة ثالثة ضلالاتكم. وعجب لكم أيضا أنكم حسب أعرافكم الاجتماعية أن حظ من رزق الإناث، الحظ الساقط، ثم إنكم نسبتم لله الأولاد تعالى عن ذلك، ثم جعلتم هذه الأولاد إناثا. ما أوقحكم! فقد قسمتم قسمة جائرة لله البنات ولكم الذكور.

هذه الآلهة التي تعلقتم بها هي آلهة زائفة لا تعدو أن تكون أسماء بدون مسميات. سماها آباؤكم آلهة، وسرتم على ضلالهم، لا سند لكم من عقل ولا حجة من عند الله.

هي ظنون نابعة من أوهام اتبعوها وبنوها على شهواتهم النّفسية. والعجب من تصلبهم في الضلال. فإن ربهم قد اعتنى بهم وبلغهم هداه.

بيان المعنى العام :

19←20- أفرأيتم اللات...الثالثة الأخرى.

كيف ترون هذه الأصنام الثلاثة اللات والعزى ومناة : إذا قارنتموها بما وصف من عظمة الله، ومقام رسوله ﷺ، ومقام جبريل عليه السلام. هذه الأصنام الثلاثة:

1) اللات :صنم من حجارة كان منصوبا بمكان المنارة في الطائف. وكانت ثقيف تعبده وتعتني به، وتبعهم في تقديسه أهل مكة وكثير من العرب. يقدمون لها

القرابين. ولما فتح الله قلوب ثقيف للإيمان أرسل رسول الله ﷺ من هدمها. وقد يكون اسمها تأنيثا لاسم إله إلهة. أو أنها مأخوذة من لات بمعنى إله وأدخلت عليها الألف واللام. كما يروى أن بعض العرب كان يلت عندها السويق ويقدمه قربانا للحاج. فسميت بعمله.

2) العزى : كان هذا الصنم ببطن نخلة بين مكة والطائف. واسمها مؤنث مشتق من العز. وكان جمهور العرب وقريش يعبدونها. وكانوا إذا شرعوا في عمل استعانوا باسميهما، فيقولون :باسم اللات باسم العزى.

3-مناة: صنم كان بالمشلل حذو قديد بين مكة والمدينة، وقد عبدها كثير من العرب، وتعلقت بها الأوس والخزرج فكانوا يطوفون حولها في الحج. وأتبعت بوصفين : "الثالثة" الأخرى" ويرى بعضهم أنها كانت أعظم الأوثان قدرا وأكثرها عابدا. فأتبعت بالوصفين لذلك. ويرى الزمخشري أن الأخرى صفة ذم، المتأخرة الوضيعة المقدار. ويمكن أن يفهم وصفها بالثالثة الأخرى إيماء إلى إبطال ألوهيتها وتهكما بها.

21←22- ألكم الذكر...قسمة ضيزى.

كانوا يعتقدون أن الملائكة إناث، في الوقت الذي كانت فيه أعرافهم الاجتماعية أن الأنثى أقل شأنا من الذكر، بل كانوا يتشاءمون بها، ويستحيون من الظهور عند ولادتها، ويعمد بعضهم إلى وأدها قال تعالى: (**وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم *يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب**[1]) (**وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم** [2]) ووصف أعرابي الأنثى فقال : والله ماهي بنعم الولد، نصرها بكاء وبرها سرقة. أي بئس ما يرزق به المرء من الذرية، فهي لا تنصر قومها إذا أغاروا عليهم إلا بالبكاء والعويل. وإذا رغبت في البر بأهلها، فغاية أمرها أنها تسرق من مال زوجها لتبرهم. ومع هذه العقلية الساذجة السخيفة، هم يعتقدون في الله، ويجعلون معه الأصنام شركاء. ولكنهم لسفاهة آرائهم يجعلون الملائكة إناثا. ويقولون : هن بنات الله من سروات الجن. فهم قد جمعوا بين عقيدتين فاسدتين، أن نسبوا لله أولادا، وأن جعلوا أولاده إناثا. ثم أعقب ذلك بالتهكم عليهم أن قسمتهم : استأثروا بالذكور لأنفسهم، الجنس الأفضل والأكرم، وأن جعلوا لله الجنس الأقل والأدون. وهذه قسمة جائرة عوجاء.

[1] سورة النّحل آية 58

[2] الزخرف آية 17

23- إن هي إلا أسماء...من ربهم الهدى.

أفيقوا من جهلكم، وتبينوا الحقيقة الواضحة أمام أعينكم، تأملوا في حقيقة الآلهة التي نصبتم حولها سدنة ,تقربتم إليها، وعبدتموها، اسألوا أنفسكم ما هي؟ إن الجواب واحد : إنها أسماء أنتم أطلقتم عليها اسم الآلهة، ولكنها في الحقيقة ليست بشيء. ضل آباؤكم من قبلكم، فاتبعتموهم على ضلالهم. وهي أمامكم عاجزة لا تبدي ولا تعيد. والعقل ينكر وينفي ألوهيتها، والله العلي لم ينزل عليكم حجة تثبت ألوهيتها، فلأي شيء تستندون في عبادتها ؟

إن يتبعون إلا الظن... وإذ كانت هذه الأصنام لا حقيقة لها، وهي أسماء بدون مسميات، فكيف انحرفوا لعبادتها وتعلقوا بها. كشفت الآية عن العلة في ذلك. أنهم لا يتبعون الحقائق، ولا يبنون تفكيرهم على ما هو صادق موثوق به، وإنما ينطلقون من أوهام، ولا يزالون يبنون عليها قصورا من الخيالات، ويرددونها في عقولهم حتى ينتهي بهم الأمر إلى قبولها والتصديق بها. فهذا هو الظن الكاذب المتطابق مع مَنْشَئه. وأما الظن المبني على الحقائق ومتابعة الخطوة الأولى بخطوات أخرى مع أخذ الحيطة في الترابط والبعد عن الخيال، فهو الظن المعتبر في التشريع وفي علاقة الإنسان بربه. وهذا ما يقوم به الفقهاء مثلا في مسيرتهم الاجتهادية، فهم بعد التأمل في النّص، وفي القواعد التشريعية، وفي الواقع والمآلات، يعبرون عن حكم المسألة، ويصرحون بأن ذلك هو ما يظنون أنه حكم الله، وهو غاية ما كلفوا به، إذ لا يتمكنون من أكثر من ذلك.

ولقد جاءهم... والعجب من أمرهم أنهم يتبعون ظنهم المبني على الخيالات والأوهام، ويعتمدون هَوَاهُمْ فيما حصل لهم من الظنون. فهم قد انطلقوا من شهواتهم لا من الواقع، ولا من العقل، ولا من دليل مستند إلى الوحي. مع أنه قد بلغهم الهدى من ربهم الذي لم يهملهم، بل أسعفهم بهداه الذي بينه على لسان رسول كريم.

رد افتراء :

هذه الآية التي سَخِرَتْ من آلهة الشرك المعظمة عندهم اللات والعزى ومناة، ونفت أن يكون لها سند من عقل أو حجة من وحي، وإنما هي أوهام استبدت بعقول المشركين، روج الطبري في تاريخه وفي تفسيره. أن رسول الله ﷺ لما بلغ هذه الآية ألقى الشيطان على لسانه: (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) فلما سمعت قريش ذلك فرحوا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم..فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها، فسجد المسلمون بسجود نبيهم، وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم....وأتى جبريل رسول الله صلى الله

عليه وسلم، فقال: يا محمد ماذا صنعت ؟ لقد تلوت على النّاس ما لم آتك به عن الله عز وجل وقلت ما لم يقل. فأنزل الله عليه يعزيه: (**وما أرسلنا قبلك من رسول.....**)[1].ثم شفعها برواية تشبهها بسند آخر – تاريخ الطبري ج 2ص341/337. وفي التفسير سورة الحج ج 17ص 192/186وجميع الروايات ضعيفة الإسناد. يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور :هي قصة يجدها السامع ضغثا على إبالة، ولا يلقي إليها النّحرير باله. وما رويت إلا بأسانيد واهية، ومنتهاها إلى ذكر قصة. وليس في أحد أسانيدها سماع صحابي لشيء من مجلس النّبي ﷺ. وهي أخبار آحاد تعارض أصول الدين، لأنها تخالف عصمة الرسول ﷺ. فلو رواها الثقاة لوجب رفضها أو تأويلها. فكيف وهي ضعيفة واهية. وكيف يروج على ذي مسكة من عقل أن يجتمع في كلام واحد تسفيه المشركين في عبادتهم الأصنام بقوله تعالى : **أفرأيتم اللات والعزى إلى قوله ما أنزل الله بها من سلطان**[2] فيقع في خلالها مدحها بأنها الغرانيق العلى، وهل ذلك إلا كلام يلعن بعضه بعضا والمتن مكذوب قطعا لما فيه من التناقض. ولمنافاته للمقطوع.

1) في الروايتين أن النّبي ﷺ قرأ إلى أن ختم السورة، وسجد. وبعد الآية: إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس. مما هو تنصيص على أن الآلهة التي اتخذوها لا سند لها لا من العقل ولا من الوحي. فكيف مع هذا التنصيص يقبل المشركون آية يتبعها ما ينقضها ؟ ومعلوم أن العرب كانوا على حظ وافر من الدقة في التعبير، ومن البلاغة التي بسببها آمن من آمن منهم بكتاب الله، وتحداهم فعجزوا. فمن السخف أن يقبلوا كلاما ينفي آخره أوله.

2)أن الشيطان لو كان له تسلط على رسول الله ﷺ لعاود التخليط عليه. إذ أن ما يهم الشيطان نزع الثقة منه.

3) قال تعالى : (**وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي لهم وما يستطيعون**)[3] وقال تعالى : **هل أنبئكم على من تنزل الشياطين تنزل على كل أفاك أثيم**)[4] وبعد هذين النّصين اليقينيين نصا ومعنى، فإن كل رواية تناقضهما تكون رواية كاذبة.

---

[1] سورة الحج آية52

[2] التحرير والتنوير ج17ص304

[3] سورة الشعراء آية 210

[4] سورة الشعراء آية 221

ولكن المستشرق " رجس بلاشير" في ترجمته للقرآن أدخل في النص القرآني : تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهم لترتجى. وأعطى لكل جملة رقما 20مكرر و20 مثلث، ولم يعلق عليهما بأي كلمة. الأمر الذي يكشف عن عدم أمانته العلمية، وعن حقده على الإسلام. وهو مستشرق فرنسي كان على اتصال وثيق بوزارة الخارجية الفرنسية،في المدة البغيضة التي كانت تونس فيها تحت الاستعمار الفرنسي. وقد أثر في بعض تلاميذه الذين كانوا يدرسون عليه العربية في جامعة الصربون.

أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

لا تغني : لا تفيد.

أعرض : لا تهتم.

تولى : لم يهتم ولم يستمع.

بيان المعنى الإجمالي:

تتسابق الأماني البشرية ليكون لها الحظ الذي تتصوره. والملك لله. فتعلق الإنسان بالأماني لا ينال به الإنسان ما تمناه، ولكنها تجعله يجري لا هنا وراء الخيال. إذ الأمر بيد الله يقسم لكل حظه، فهو سبحانه المالك لكل ما سيحدث في الدنيا، وكذلك حظ كل إنسان في الآخرة.

غصت السماوات بالملائكة فلا يحصي عددهم إلا الله، ومع هذا فإنه لا يتقدم أحد منهم ليشفع في أحد إلا أحس أن الله يأذن له في ذلك ويرضى عن تدخله. وإذا كان هذا أمر الملائكة المقربين، فمن السخف ظن المشركين أن آلهتهم الصماء تشفع لهم عند الله. إن الذين أطلقوا على الملائكة تسمية الأنثى، كان ذلك رشح عدم إيمانهم بالآخرة، فاقترن التخليط بتصوراتهم. إنهم أبعد ما يكون عن اليقين، يطلقون الكلام جزافا حسبما يصوره لهم الخيال، ثم يبنون على خيالهم الأول صورا تلائمه، فيكون

البناء كله خيالا في خيال.و الخيالات لا تفيد شيئا من الحق، بل هي ركام من الباطل. لا تهتم بمن صمَّمَ على عدم الاستماع لما تبينه من القرآن والذكر والهدى؛ وقصر اهتمامه على ما ينفعه في الحياة الدنيا لكفره بالحياة الآخرة. إن علمه لا يتجاوز المحسوسات الحاضرة، ولم يَرْقَ إلى إدراك ما يستنبطه العقل من الأدلة. التي هي أعظم ثباتا من المحسوس.

تأكد يا محمد: أن ربك هو العليم العلم الكامل بمن انحرف عن الطريق الموصل لما يرضي الله، وهو كذلك العليم العلم الكامل بمن تفتح على الحق واتبع ما يرضي الله. ويجزي ربنا بعدله الضالين بعذابه، ويجزي المؤمنين خير الجزاء باهتدائهم.

بيان المعنى العام :

24←25: أم للإنسان...الآخرة والأولى.

انتقال افتتح بكلمة "أم" ليستيقظ السامع لذلك. والمعنى هل يظن الإنسان أنه قادر على تحصيل أمانيه. وأن الحياة تنتظم لو كان ما يتمناه كل أحد يحصل له؟ إن الإنسان ليشقى باتباع أمانيه، التي تجعله شاعرا بالخيبات المتتالية والحرمان. الملك لله وحده يقسم بين عباده قسمة قدَّرها بحكمته، فلا ينال أحد غيرَ ما قُدِّر له. ولا يبلغ الإنسان الهدى بأمانيه، فهؤلاء المشركون تمنوا أن تشفع لهم آلهتهم، وتمنوا أن ينزل القرآن على رجل آخر غير محمد. وتمنوا أن لو أنزل القرآن جملة واحدة. ونحو ذلك من الأماني التي عددها القرآن. ألا يتبصر الإنسان أنه لو حقق أمانيه، وقد يكون ما يتمناه هو عين ما يتمناه غيره، فإلى أي شي تفضي هذه الأماني المتعارضة ؟ هذا لا يكون لأن الذي نظم الكون، وهو مالكه، له كل شيء في الدنيا، وله كل شيء في الآخرة ؛ هو الله سبحانه. فانطلاق الأماني لا تقلب شيئا مما قدر في الأزل. وعلى الإنسان أن يعمل ويتوكل، أما النّتائج فبيد الله. قد يتحقق للساعي ما أمله بعون من الله وألطافه التي تسعد بالتوفيق، وقد يخيب فيحرم لأن الله بحكمته حرمه من ألطافه المساعدة. وللإنسان نصيبه من المسؤولية.

26-وكم من ملك في السماوات...لمن يشاء ويرضى.

الملائكة هم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله. وهم على كثرتهم وتفاوت منازلهم من القرب، وحلولهم في ملأ النّقاء الملأ الأعلى، وطهارتهم من الآثام، واستغراقهم في عبادة الخالق سبحانه، فإنهم مع ذلك لو اجتمعوا على الشفاعة لفرد واحد ما استجيبت شفاعتهم، ولا انتفع بها المشفوع فيه ولو بشيء قليل. وهذا الفرض يدل على أنهم لا يتقدمون للشفاعة دون سابق إذن لهم.

وقد مكنهم الله من الإحساس بمن يستحق الشفاعة فيه، ممن هو غير مؤهل لذلك. إنه بهذا الإحساس يتقدمون للشفاعة. لعلمهم برضى الله عن المشفوع فيه.
ويحتمل أنه لا يتقدم أحد الملائكة للشفاعة إلا إذا أحس أن الله قد أذن له في الشفاعة، ورضي منه قيامه بها. والآية نقض لما توهمه المشركون أن آلهتهم تشفع لهم، قال تعالى : (**ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله**[1])

27← 28-إن الذين لا يؤمنون...لا يغني من الحق شيئا.

افتتح الآية بقوله "**إن الذين لا يؤمنون بالآخرة** " ليكون ما يرتبه على ذلك موحيا بأن سبب ما يأتي هو عدم إيمانهم بالآخرة. ترتب على عدم إيمانهم بالآخرة خلطهم، وبعدهم عن إدراك الحق. فمن خلطهم أنهم يصفون الملائكة بصفة الإناث. واعتقدوا أنهم إناث. وسموهم إناثا. والشأن أن التسمية تتبع تَعَيُّن المسمى وتصوره تصورا متميزا. وبذلك كانت الأعلام معارف، وإن اتحدت. فمثلا " محمد " سمي به ملايين المسلمين، ومع ذلك فهو معرفة، جاء تعيُّنه من تعين الذات عند تسميتها، فالأب الذي سمى ابنه محمدا أطلق هذا الاسم اطلاقا خاصا بابنه، دون أن يخطر له على بال من سموا أبناءهم بهذا الاسم. والذين لا يؤمنون بالآخرة سموا الملائكة بتسمية الأنثى، وهم أبعد ما يكون عن إدراك حقيقتهم. فما لهم علم بهم، وإنما هي أوهام عششت في عقولهم، ثم بنوا على الأوهام الأولى أوهاما أخرى. وهذا شأنهم أنهم يتصورون التصور من الخيال، ثم يتابعون تصورهم، ويضيفون إليه إضافات. وما بني على الباطل لا يكون إلا باطلا، ولا يمكن أن يبلغ درجة القبول. وهو معنى قوله تعالى: (**إن الظن لا يغني من الحق شيئا**). فالحق لا يدرك إلا بالتيقن، لا بالأوهام والخيال.

29← 30- فأعرض عمن تولى...بمن اهتدى.

استبان لك تصلبهم في الكفر، فلا تحزن على من صمم على عدم الاستماع والانصراف عما تبينه وتتلوه من آيات الكتاب، ولما ينزل عليك من الذكر، الذي أوحينا به إليك. ومحّض كل اهتمامه إلى ما يتعلق بالحياة الدنيا. والحياة الآخرة لا مدخل لها في حسابه، وليست لها حظ من اهتماماته، لأنه لا يؤمن بها. فقد اقتصر علمه على المحسوس، ولم يخرج من تلك الدائرة لاتباع ما يثبته العقل من الأدلة. لا تأسف عليهم، ولا تتهالك على إسلامهم. فإعراضه صلى الله عليه وسلم لا يعني

[1] سورة يونس آية 18

قطع متابعة الدعوة والإنذار، ولكن المراد أن لا يبلغ اهتمامه بهم ,وأسفه لعدم إيمانهم مبلغا يؤثر في نفسه الكريمة حزنا وأسى.

إن ربك يا محمد هو العليم العلم الكامل بصنوف البشر. يعلم الذين انحرفوا عن سبيله، واتبعوا سبلا أخرى تبعدهم عن هداه، فضاعوا في متاهات الباطل. وهو العليم العلم الكامل بالذين اهتدوا فتفتحت عقولهم وأرواحهم مشتاقين لما ينزل عليك من ربهم. وفي ذلك وعيد للكافرين بأن فسادهم وتجاوزاتهم مَحْصِيَّة عند الله سيجازيهم عنها. ووعد للمؤمنين بأن ما يقدمونه من صالح الأعمال لا يضيع منه شيء.

وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ ۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

بالحسنى: بالمثوبة الأحسن والأفضل.

كبائر الإثم: المنهيات التي يترتب على اقتحامها فساد كبير.

الفواحش :ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال.

اللمم: هو ما دون الكبائر من الآثام.

واسع المغفرة :لا تحدها حدود.

أجنة: الحمل في الرحم.

لا تزكوا : لا تتحدثوا بما يدل على نقائها وكمالها.

أنفسكم : تحتمل ذواتكم، وتحتمل بعضكم بعضا.

بيان المعنى الإجمالي :

هو الله الذي خلق السماوات والأرض، وهو المالك لها ولما فيها. ولم يخلقها عبثا، وإنما مكن الإنسان من الاستخلاف ليعمرها ويجري في حياته في الحدود التي حددها. فيرتب على صلاح الإنسان واستقامته، الحسنى التكريم والجنة، ويرتب على من أساؤوا خسران العاقبة جزاء ما قدموا. والمحسنون هم الذين لم يسودوا صحائفهم بالكبائر التي نهى الله عنها نهيا مؤكدا مرتبا عليها العقوبة والغضب أو

الحدود. واجتنبوا بصفة دائمة الفواحش الآثام الممقوتة جدا التي لا يقبلها دين، وتشمئز منها النفوس لفظاعتها وقبحها. كالزنا بحليلة الجار، وعون الأعداء على بلاد الإسلام. ولكن ارتكاب صغائر الذنوب مع عدم الإصرار والتوبة لا تخرج صاحبها عن درجة الإحسان. إن ربك يا محمد رحيم بعباده، لا يعاجلهم بالعقوبة لضعف بدر منهم ثم استيقظوا منه فيغفر لهم ما استغفروه. تذكروا أن الله أعلم بكم من علمكم بأنفسكم. كيف لا وهو الذي أنشأكم من عناصر من الأرض دخلت في تركيب أصولكم، حتى تحولت إلى الخلية الأولى، ثم تطورت إلى أطوار حتى تم لكم القرار في أرحام أمهاتكم، فهل تعلمون عن هذه المراحل شيئا علما خاصا بكم ؟ والله أحاطكم بألطافه في كل لحظة حتى بلغتم سن الرشد. ثم ما قمتم به من أعمال، مما هو خير ومما هو شر، ومما يحط من قيمته التقصير، كل ذلك محجوب عن ذاكرتكم. فإياكم أن تشهدوا لأنفسكم بأنها طاهرة زكية نقية. فأنتم جاهلون بالحقيقة، وحتى لا يدخلكم العجب ويحملكم على التقصير. فإن ما قمتم به من خير هو بفضل هداية الله وتيسيره للأسباب. فالله وحده هو العليم بالمتقي حقا، وبالزائف.

بيان المعنى العام :

31- ولله ما في السماوات...بالحسنى.

أثبتت الآية السابقة أن علم الله الدقيق يشمل، واقع الذين ضلوا عن طريق الله، والذين اهتدوا. فأكملت هذه الآية ذلك المفهوم بإبراز أنه سبحانه متفرد بملك السماوات والأرض. ملكهما لأنه خلقهما، وإذ خلقهما وقدر كل شيء فيهما، فلا يغيب عن علمه طبعا لا صغيرة ولا كبيرة فيهما. وقدر أن يكون الإنسان مؤهلا للتأثير في هذا الكون الفسيح، ومكنه من القدرات العقلية والخيالية، والجسمية، ما يستطيع به النّشاط والفعل. ولم يخلقه عبثا لمجرد الخلق، بل خلقه ليكون مسؤولا مجزيا عما قدم في حياته. ولا يستوي الخير والشر، والمحسن والمسيء. قال تعالى: (**أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون**[1] **- قل لا يستوي الخبيث والطيب** [2]) فكانت الحكمة مقرونة بالخلق التي تظهر في جزاء الذين أحسنوا فعالهم وعقائدهم بما يناسب ما قدموه. فيجزي الذين أحسنوا في سلوكهم بالعاقبة الأحسن والأفضل، ويتجاوز ثوابهم قيمة ما قدموه تفضلا منه وكرما، وهو معنى قوله

---

[1] سورة السجدة آية 18

[2] سورة المائدة آية 100

تعالى: (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة [1]) كما تظهر في جزاء الذين أساؤوا بما يناسب ما قدموه أيضا عدلا منه سبحانه ولا يظلم ربك أحدا. [2]

32-الذين يجتنبون كبائر... هو أعلم بمن اتقى.

اهتم بالمحسنين ففصل ما بلّغهم تلكم المرتبة ليتميزوا بما جمعوه من خصائص الفضل. عرفهم بأنهم كانوا يقظين يقظة، جنبتهم السيئات ونقت صحائفهم من الآثام.
ثم زادت الآية تفصيلا لصلاحهم، أنهم تباعدوا عن:
أ-**كبائر الإثم**، والكبائر عرفها إمام الحرمين: كل جريمة تؤذن بقلة اكتراث مرتكبها بالدين، وبرقة ديانته. أي إن تحريمها والنهي عنها من الظهور، بحيث لا يقترفها إلا المتهاون بالنواهي الإلهية، تغلبه شهواته وتطمس إحساسه برقابة الله عليه. وقد يدل على كون الفعل كبيرة تعقيب النّهي بالوعيد، أو ترتيب الحد عليه. وقد خصصها الهيتمي بتأليف سماه : الزواجر عن ارتكاب الكبائر.
ب-**الفواحش**. والفواحش كبائر إلا أن شناعتها عظيمة، وفسادها كبير أشد من بقية الكبائر. لما يترتب عليها من نقض للبناء الاجتماعي، ولما تدل عليه من انحطاط نفسي كبير وقذارة، كقتل الإنسان لأخذ ماله، والزنى بحليلة الجار، والعمل على نشر التحلل من القيم الخلقية مما يؤدي بالمجتمع إلى الانقراض. وإعانة الأعداء. والكذب على الله، وتشويه الدين لتنفير النّاس منه.
واستثنى القرآن آثاما، هي معاص، ولكن لا تخرج المؤمن من دائرة المحسنين. وعبر عنها باللمم. وفسرت على أن ما يترتب عليها من فساد لا يهدم المجتمع، ولا ينقض البناء النّفسي. ويعبر عنها الفقهاء بالصغائر، ومثلوا لذلك بالقبلة، وبسرقة الشيء التافه الذي لا يبلغ نصابا كعنقود عنب، وبالاستمتاع بما دون الجماع. ومنه ما وقع لنبهان التمار. جاءته امرأة لشراء تمر، فقال لها : عندي في داخل الدكان تمر جيد، فلما اختلى بها استمتع بها ما عدى الوطء، فندم وجاء إلى النّبي ﷺ، فقص عليه قصته. فأنزل الله هذه الآية. فاللمم معاص، يستيقظ المؤمن بعد أن يرتكبها، ويتوب منها ولا يعاودها. ولا صغيرة مع الإصرار عليها. إن ربك يا محمد، وهو رب الصالحين، يوالي رعايته لهم، ويسعدهم بعفوه، ولا يعاجلهم بالعقوبة متى تابوا إليه. إن تقصير البشر كثير وكثير جدا، ولكن الغفار رحمته أوسع، مما يثبت الأمل في قلوب المؤمنين الذين لا تهن رقابتهم لأعمالهم. ولا

---

[1] سورة يونس آية 26
[2] سورة الكهف آية 49

ييأسوا إن حصل منهم في حالة ضعف ارتكاب ما نهى الله عنه. فهم بذلك يبقون مع المكرمين من المحسنين.

هو أعلم بكم – تثبت الجملة أن الله يعلم حقيقة ذواتكم، أكثر من معرفتكم بأنفسكم، ويعلم حقيقة إخوانكم وأصدقائكم أكثر من معرفتكم بهم. إن الظواهر والبواطن بينهما فوارق تتسع أو تضيق. وذاكرة الإنسان تضعف بالفواصل الزمنية فينسى الإنسان ما اقترفه وما قصر. هذا العلم الإلهي تواصل من اللحظة التي أنشأكم فيها من عناصر من الأرض، تمثلها الإنسان في أجهزته حتى تكونت منها الخلية الأولى. ثم استقراركم في أرحام أمهاتكم، وما دخل عليكم من أطوار لا تعلمون شيئا منها، والله يعلمها ويحيطها بألطافه. ثم ما قمتم به من أعمال قبل التكليف وبعده، ما وفّيتم فيه حق المعبودية، وما قصرتم فيه. علْمُ الله يشمل كل ذلك دون أن يضيع شيء مما فعله الإنسان أو تكلم به. فلا يتملككم الغرور، وتحسبوا أنكم على حظ كامل من الصلاح والخير. إياكم والتبجح بما قمتم به من أعمال، فإن ذلك يبرر لكم التقصير في المستقبل اعتمادا على ما تقدم. ومن ناحية أخرى فإن كون النّفس زكية طاهرة، علمه عند الله وحده، فمثلا كم من صلاة أداها المكلف وهو لاه عن العبادة يفكر في دنياه، وكم مرة أتبع النّاظر النّظرة الأولى بما يشبع فضوله واستمتاعه. وكم وكم... وهذه المراجعة التي جرت بين شقيق البلخي وإبراهيم بن أدهم. قال شقيق : قال لي إبراهيم :أخبرني عما أنت عليه؟ فقلت: إذا رزقت أكلت وإذا منعت صبرت. قال إبراهيم :هكذا تعمل كلاب بلخ عندنا. قلت له : فكيف تعمل أنت ؟قال : إذا رزقت آثرت، وإذا منعت شكرت [1].

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ :

تولى : نقض الخطوات الأولى ورجع إلى ما كان عليه.

أكدى : انقطع كحافر البئر الذي صادف صعوبة لا يمكنه تجاوزها.

[1] ابن خلكان ج 1 ص32

وفى : كان حريصا على الوفاء بالتزاماته

تزر: مضارع وزر، فعل وزرا وذنبا.

سعى : اكتسبه من جزاء عمله.

بيان المعنى الإجمالي :

هل رأيت يا محمد هذا النّموذج العجيب أمره الــذي جمــع مــن المــذام مــا يــأتي ؟ أنــه بمجرد ما خالطت أنوار الحقيقة قلبه وعقله، لم يتابع التلقــي عنــك ورجــع إلــى شــركه. وصدق أن أحدا يستطيع أن يتحمل عنه ذنوبه، وبذل قلــيلا مــن المــال فــي مقابــل ذلــك على أنه سيواصل دفع بقية الأقساط. ثم تراجع وامتنع من الوفــاء بمــا التــزم بــه. وأنــه مع جهله بالغيب قام بكل ما تقــدم كأنــه يعلــم الغيــب علــم المشــاهدة. وإلا مــن تــولى وصدق من ادعى أنه يتحمل عنه أوزاره، وبــذل لــه المــال. مــا أجهلــه ! ألــم يعلــم أن موسى عليه السلام ثبت فــي صــحفه أن المســؤولية لا تتعلــق إلا بصــاحبها. وكــذلك إبراهيم الذي يدعي العرب أنهم على ملته. وأنه لا يتحمل أحد آثام غيره.

ومن الحقائق الثابتة أن الإنسان لا ينتفع إلا بما اجتهــد فــي فعلــه مــن صــالح الأعمــال. فالمسؤولية كما تثبت في نفــي الإثــم عــن غيــر فاعلــه، فكــذلك تثبــت أن الإنســان لا يذهب عمله الصالح باطلا بل يثبته الله لــه فــي صــحائفه. ثــم يجــده يــوم القيامــة إمــا حاضرا مشاهدا مجسما يراه، وإما أن يــرى ثوابــه وتكــريم ربــه لــه بمــا قدمــه. وأن الجزاء لا ينقص منه شيء. يجزى عليه جزاء وافيا غير منقوص.

بيان المعنى العام :

33←35أفرأيت...فهو يرى.

تعجيب من سذاجة المشركين فيما يتعلق بالغيــب. وهــذه الحادثــة المســجلة فــي القــرآن تعطي صورة واقعية لذلك. أرأيت، تعبير عــن فظاعــة مــا ســيرد، كأنــه لغرابتــه ممــا يلفت الأنظار، فلا يبقى أحد لم يشاهده، ثم يتعجــب مــن حدوثــه. مــا هــو هــذا الأمــر العجب ؟ الرجل الذي كان سائرا على منهج، ثم تــولى عنــه فجــأة، وأعطــى قلــيلا مــن المال ثم صد عن المتابعة والوفاء بما التزم به.

يتفق المفسرون على أن ما ورد فــي الآيــة لــيس مــن ضــرب المثــل، وأنــه صــورة واقعية شهر بها القرآن. تتحدث عن رجــل مــن المشــركين. فمــن هــو هــذا الرجــل ؟ اختلفت الروايات. قيل هو الوليد بــن المغيــرة – وقيــل العاصــي بــن وائــل الســهمي– وقيل هو أبو جهل – وقيل هو النّضــر بــن الحــرث. هــو أحــد هــؤلاء الأربعــة مــن رؤوس الشرك. روى الطبري أن الوليد بن المغيرة كــان يجلــس إلــى النّبــي ﷺ يســتمع

قراءته؛ وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يعظه. وكاد يسلم. فعاتبه رجل من المشركين: كيف تترك دين آبائك وترضى أن تدخل في دين يجعلهم وقود النّار؟ فقال له: أخشى عذاب الله. فقال له: اعطني شيئا وأنا أتحمل عنك كل عذاب. فأعطاه قليلا من المال، ولما سأله الزيادة بخل وتعاسر، شأنه شأن حافر البئر يلاقي وضعا صلبا يعسر عليه تجاوزه، فينزع عن مواصلة العمل. فيقال : أكدى. صرح القرآن بسخافاته وبمذامه :

1- بعد أن تشرب عقله شيئا من الحق،وفتح له رسول الله ﷺ نافذة على الهدى رجع إلى ما كان عليه من الشرك.

2-أنه بخيل، تعلقه بالمال شديد، لا ينزع عنه هذه المذمة شيء ولو كانت العهود.

3- أنه صدّقَ من قال له أتحمل عنك آثامك. فقد توهم أن من يدعي أنه قادر على تحمل آثامه صادق في دعواه. فهل اطلع على الغيب فعلم أن هذا المتحمِّل عنه مقبول عند الله، وأنه بلغ الوثوق بذلك كأنه يراه. الأمر الذي طوعه رغم شحه لإعطائه مقابلا مقدما.

36←38- أم لم ينبأ بما في صحف موسى...ألا تزر وزر أخرى.

إنكار على الشحيح، المتولي، كيف يصدق أن يقوم غيره مقامه ويتحمل أوزاره. هذا أمر مخالف لسنة الله التي سنها على لسان جميع رسله. ففي صحف موسى عليه السلام،أي التوراة تأكيد على أن كل إنسان مسؤول عما قدم، ولا يسأل عما صنعه غيره. وقد كان أهل مكة يتصلون باليهود ويسمعون منهم أصول دينهم، وهذه القاعدة من ضروريات دينهم، علمها المشركون قطعا. وكذلك فإن العرب يعدون أنفسهم على ملة إبراهيم، ومناسك الحج يتبعون فيها تعاليم إبراهيم، وإن كانوا قد بدلوا فيها وحرفوا ما يقتضيه تطاول الأمد، وانقطاع السند. فكان من تعاليم إبراهيم أن لا يُسأل أحد عن أحد، ولا يتحمل وزره وآثامه. ووصفُ إبراهيم [الذي وفى] ناظر إلى التنويه بإبراهيم في قوله تعالى : **(وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن)**[1] هذا من ناحية، ومن نا حية أخرى فهمت من هذا الوصف توركا على هذا الذي تولى، أنه يدعي أنه على ملة إبراهيم كبقية القرشيين، وإبراهيم كان وفيا. وأما هو فقد أخلف وعده وأكدى.

39-وأن ليس...إلا ما سعى.

نفت الآية السابقة أن يتحمل أي فرد آثام غيره وأوزاره، ونفت هذه أن ينتفع أحد بثواب عمل عمله غيره، ولا ينتفع الإنسان إلا بما قام به بنفسه من خير.

---

[1] سورة البقرة آية124

وظاهر هذه الآية ورد في الصحيح ما يثبت أن بعض الأعمال يعود ثوابها على غير فاعلها. من ذلك قوله ﷺ : (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية وعلم بثه في صدور الرجال وولد صالح يدعو له رواه مسلم وأحمد والبخاري في الأدب المفرد فيض القدير ج 1 ص438/437.رقم الحديث 850) وقوله تعالى: (**والذين آمنوا واتبعتهم ذرياتهم بإيمان ألحقنا بهم ذرياتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء** [1]) ونصوص أخرى تساعد على انتفاع المؤمن بعمل غيره إذا قصد إهداء ثوابه إليه. واختلف في هذا الأمر الفقهاء والنظار. فأما ما لا يتعدى نفعه فاعله فلا يستفيد منه إلا فاعله. كالإيمان. وحب رسول الله ﷺ، فهذا لا ينتفع منه إلا فاعله. ومن الأعمال ما يكون وجودها محققا لانتشار العمل الصالح كقراءة القرآن والصلاة والصدقة والصوم، فهذه لا نستطيع أن نجزم بأن ثوابها يتعدى لغير فاعلها، ولا أن نجزم بأنه لا ينتفع به. فهو أمر مغيب، واحتمال الانتفاع به أقرب بناء على سعة فضل الله. وهو يتوقف قطعا على أن يكون العمل في ذاته بالغا درجة القبول بجمعه لشروط القبول الظاهرية، والباطنية.

40←41-وأن سعيه سوف...الجزاء الأوفى.

تثبت هذه الآية أن سعي الإنسان سوف يشاهد. على معنى أنه يجده حاضرا، مثبتا عند الله، أو على معنى أن الله يجسمه تجسيما هو من أمور الآخرة، فيشاهده فاعله، ويشاهده غيره، ليكون ذلك تكريما إضافيا لمن عمل صالحا، وتشريفا له. ومع ذلكم التشريف يجد جزاءه جزاء وافيا غير منقوص. بل إنه يُضَاعَفُ كما جاء في قوله تعالى: **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها**)[2] والله ذو الفضل العظيم. وقال تعالى : (**فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله**)[3]

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

النطفة : الماء القليل.

---

[1] سورة الطور آية **21**

[2] سورة الأنعام آية **160**

[3] سورة النساء آية **173**

تمنى : تدفع من مبيض الأنثى ومن ماء الذكر.

النشأة : المرة من الإنشاء أي الإيجاد والخلق.

أغنى : جعل من يشاء غنيا وافر المال.

أقنى : أرضى./

بيان المعنى الإجمالي :

كما أن الإنسان مسؤول عن جميع أعماله، فإن النّهاية ستكون لحكم الله وحده لا يشاركه في ذلك أحد ولو ظاهريا. ليتأمل الإنسان في ذاته، فإنه سيجد أن عواطفه تذهب من حالة السرور البالغ حتى يبتسم أو يضحك، وإلى البؤس البالغ حتى يبكي. وتلكم المؤثرات بيد الله وحده. وأنه سبحانه هو وحده الذي يتصرف في حياتكم فيقضي عليكم بالموت حسبما قدره في الأزل، كما أنه هو وحده الذي أوجدكم أحياء على وجه الأرض. وأنه سبحانه خلقكم زوجين ذكورا وإناثا دون أن يكون لإرادة الأبوين دخل في نوع المولود. وبين ما أنتم عليه وقت التكليف وبين بدايتكم مراحل لا دخل لكم فيها، من البداية نطفة مركبة مما تدفعه الأم من مبيضها والأب من منيه. وكما تصرفت إرادته وقدرته بالخلق المنظم، فكذلك هو يُحْيِي منشئا كل فرد نشأة أخرى يوم القيامة ليلقى جزاءه. وكما نفى القرآن ألوهية الأصنام من اللات والعزى، ومناة. وألوهية الملائكة. نفى ألوهية الشعرى النّجم الشديد الضياء. فحقق أن الشعرى مخلوقة لله، هو ربها الذي يسر لها الوضع التي عليه.

بيان المعنى العام :

42← 46-وأن إلى ربك المنتهى... من نطفة إذا تمنى.

تفيد الآية أن كل كائن سينتهي إلى حكم ربه وحده، وليس في هذه النّهاية حكم لغيره ولو ظاهريا، وهي تؤكد ما قررته الآيات السابقة من مسؤولية الإنسان عن أعماله السيئة والخيرة. وصياغة الآية بتوجه الخطاب إلى النّبي ﷺ فيها تقريب للنبي صلى الله عليه وسلم، وفيها من ناحية أخرى دعوة ليكون هذا المفهوم من أصول الدين الإسلامي أيضا.

–انفعالان باطنان يغطيان حياة الإنسان. كل فرد يتقلب بين أحوال الرضى، وبين حالات السخط. وهذه الحالات على رتب متفاوتة، فقد يُسَرُّ الإنسان حتى يضحك بملء شدقيه أو يبتسم تعبيرا عن رضاه. وقد يسخط وضعه ويتألم مما يأتيه حتى يبلغ به الأمر إلى البكاء. إن تلكم المؤثرات المتضادة هي من مالك الأمر وحده.

فهو سبحانه الذي يوالي ألطافه، ويجلب للإنسان ما يسره حتى يضحك، وهو الذي يحجب ألطافه وتتابع المنغصات حتى يبكي.

– عطف القرآن على التحكم في العواطف، وتيسير الأسباب، قضية كثيرا ما يغفل عنها الإنسان، و تذكرها يصلح الفرد ويعرفه بحقيقته ونهايته، ومن إعجاز القرآن افتتاحه بالموت ليسير جو الآيات على نسق واحد، من الآية 42 إلى هذه الآية .النظر دائما إلى النّهاية. وفي الجمع بين طرفي النّهاية والبداية ما يجعل الإنسان ذاكرا أنه تحت سلطان ربه.

– تواصل الانتقال من العلم الإلهي الدقيق و قوانين الجزاء فأتم ذلك بانتهاء الإنسان إلى حكم ربه، ثم انتقل إلى لفت النّظر أن عواطف الإنسان المختلفة ناشئة عن الأسباب التي يقدرها الله، وأنه وهو حي بقاؤه خاضع لله كما كانت بدايته. وتأتي هذه الآية مفصلة ما تضمنته الآيات السابقة. سبحانه هو الذي تفرد بخلق الذكر والأنثى " الزوجين " لافتا النّظر أولا إلى البداية، كما لفت النّظر في الآية السابقة أولا إلى النّهاية. فمن عجيب صنع الله أنه نظم العالم فلم يقدر أن يغلب أحد النّوعين النّوع الثاني غلبة ظاهرة. بل تجد من الذكور والإناث ما يتم به التزاوج، والائتلاف لبقاء النّوع. وكون المولود ذكرا أو أنثى ليس تابعا لإرادة الأبوين أو أحدهما. فنوعية الولد لا دخل لصاحب النّطفة فيها. ثم عمق نظر التالين للقرآن، أن الخَلْق كان من نطفة ماء قليل تدفعه المرأة كل شهر من بييضاتها، ومن ماء الرجل يدفعه عند كل لقاء جنسي. ومنهما تتكون الخلية الأولى التي تنقسم وتتكاثر إلى أن تبلغ صورة إنسان سوي.

47- وأن عليه النّشأة الأخرى.

جرت الآية على المنهج القرآني في الاستدلال، وتقريب أمر الحياة بعد الموت بالخلق الأول في الدنيا. فقال تعالى: إن النّشأة الأخرى أي إيجاد الإنسان مرة أخرى بعد ذهاب حياته الأولى، هو أمر واجب مؤكد. أي إنه لما تعلقت إرادته أن يخلق البشر خلقا بعيدا عن العبث، ولكنه خلق يتحمل فيه المخلوق المسؤولية ، مما لا يتحقق إلا بالبعث بعد الموت، قدر أن كل مخلوق لابد أن يبعث للحساب. وكل ما قدره الله واجب الحصول من ذات الله لا من أمر خارج يفرض عليه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

48- وأنه هو أغنى واقنى.

تفرد الله سبحانه بأنه هو الذي يوسع على البعض في الرزق، حتى تكون مكتسباتهم تفوق حاجاتهم. وعطف على أغنى أقنى. ولما كان الأصل في العطف أنه يقتضي المغايرة، كان مراعاة هذا الأصل ذهب ببعضهم إلى أن أقنى بمعنى أفقر ليتم

التقابل.وذهب ابن عباس إلى أن معنى أقنى أرضى، فيكون العطف أفاد معنى زائدا.وذهب بعضهم إلى أن أقنى مكن من القنية أي الأصول غير السائلة. وما نقل عن ابن عباس ﷺ هو الوجه الأولى للحمل عليه. إذ أن الغنى يصحبه تارة الشراهة على حب جمع المال، فلا ينعم الإنسام بما وصل إليه منه، وما تزال لهفته تستبد به فتفسد عليه حياته وتحرمه الاستمتاع بما كسب. فإذا أفرغ الله في النّفس القناعة والرضى بما كسبت تحققت للجامع السعادة، والتزم شكر النّعمة. فجمع بين خيري الدنيا والآخرة، وهذه المرتبة السامية لا تتحقق إلا بفضل الله وهدايته

49-وأنه هو رب الشعرى.

تتميم لما حققته الآيات السابقة، من نفي ألوهية الأصنام اللات والعزى ومناة، وإبطال عقيدتهم في إلهية الملائكة وكونهم إناثا، وأثبتت أنهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، فأكمل القرآن التنصيص على التوحيد بنفي ما عداه سبحانه أن يكون له ما يوجب عبادته، فأبرزت هذه الآية نفي ألوهية الشعرى. وهو اسم نجم من نجوم برج الجوزاء، شديد الضياء.عبدته قبيلة خزاعة. فحقق القرآن أن الشعرى مملوكة لله هو الذي خلقها، و يتصرف فيها، شأنها شأن بقية المخلوقات.

وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنۡ هَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ تَعۡجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضۡحَكُونَ وَلَا تَبۡكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمۡ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسۡجُدُواْۤ لِلَّهِۤ وَٱعۡبُدُواْ ﴿٦٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

المؤتفكة: المخسوف بها،بجعل عاليها سافلها.

أهوى : أسقطها من علو.

غشاها : غطاها.

آلاء : جمع إلَى، وإلْي، نعمة

التماري : التشكك.

أزفت : قربت.

تعجبون : يتملككم العجب، فتستبعدونه.

تبكون : تتضرعون من شدة الخوف.

سامدون :معجبون بأنفسكم.

بيان المعنى الاجمالي :

ونفذت قدرته في عاد قوم هود لما استكبروا عن عبادة الله وطغوا، فأهلكهم هلاكا لم ينج منهم أحد. وفي التذكير بذلك تهديد لقريش. وكذلك ثمود بعث الله لهم أخاهم صالحا، فاستهزأوا به وعقروا النّاقة، فاستأصلهم ولم يُبْق لهم أثرا. وقوم نوح من قبل هذين عمهم الطوفان. والثلاثة كانوا أظلم من قومك وأشد طغيانا يا محمد، فلا تحزن لما تلاقيه من عنادهم.

والقرى التي بعث فيها لوط عليه السلام، التي أصبح فيها الفساد مقبولا قبولا عاما، أهلكها الله بانقلاب أعلاها إلى أسفلها، ورفعها ثم إسقاطها إسقاطا هشم كل شيء فيها، ثم سلط عليها رواجم من الحجارة المحماة فغطتها ولم تبق لها أثرا.

شريط التصرف الإلهي في الآيات السابقة ما كان منها في تأييد الرسول صلى الله عليه وسلم ظاهرا، وما كان منها فيه إهلاك للظالمين، تتساوى كلها في أنها تأييد لرسول الله ونِعَمٌ عليه. ويسأل القرآن سؤال إنكار المشركين أي نعمة من نعم الله على محمد تعملون على التشكيك فيها. فكلها نعم ظاهرة، أو بما تفيده من العبرة، والتطمين أن العاقبة لمن اتبع هداية الرسل.

قدروا هذا القرآن حق قدره، فقد جاءكم لينذركم حتى لا تقعوا في الهلكة. وهو يتفق مع كتب الله السابقة في إيقاظ المرسل إليهم إلى العاقبة.

قربت الحادثة القريبة التي أنذرتم بها. إنه لشدتها لا يَصْرِفُها إلا الله وحده، وهي مغيبة فلا يعلم تاريخ حلولها إلا هو. أعدوا أنفسكم بالإيمان واتباع الرسول، لتسلموا منها. عجب من أمركم كيف بلغ غلظ نفوسكم هذا الحد. تسمعون هذا القرآن فتعجبون مما جاء فيه منكرين له ومكذبين، وتسخرون منه فتضحكون، ولا تلين قلوبكم ولا تخشع ولا يسرع الدمع إلى عيونكم. ترفعون رؤوسكم كبرا كوضع البعير النّشيط في مشيته. فأنتم مأمورون بالتقرب إلى الله بالسجود فاسجدوا وأفردوه بالعبادة.

بيان المعنى العام :

50←54- وأنه أهلك عادا...ما غشى.

اعتنت الآيات السابقة بالتذكير بالتصرفات الإلهية في الكون والكائنات. وكما تصرف فيها بالإيجاد والتقدير؛ فكذلك جرت سنته أنه يمهل ولا يهمل، وفي كتاب التاريخ عبرة لمن يعتبر. فقد بعث الله لعاد هودا دعاهم كما دعوت قومك للإيمان

بالله، وتقواه. وقد بسط القرآن قصة عاد في سورتي الأعراف وهود. وأنهم استكبروا فأهلكهم الله بذنوبهم وقطع دابرهم. وقوم عاد أول أمة أهلكت بعد قوم نوح عليه السلام. وهي من العرب البائدة. وفي قراءة الأولى طرق كثيرة.

- تكرر ذكر عاقبة ثمود ستا وعشرين مرة في القرآن من سورة الأعراف إلى سورة الشمس. وكانت أخبارها تتردد بين العرب. وكانت تالية في الهلاك لعاد.

-وقوم نوح الذين كانوا أول امة بعث لها رسول من عند الله، وصبر على عنادهم إلى أن يئس من اهتدائهم، فأغرقوا بالطوفان.

وقوله تعالى **إنهم كانوا هم أظلم وأطغى**، أشد ظلما، وأعظم طغيانا من قومك، يحتمل أن يعود إلى قوم نوح، كما يحتمل أن يعود إلى الثلاثة عاد وثمود وقوم نوح. وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم بإظهار ما قاساه إخوته الأنبياء الذين سبقوه من أقوامهم. وبوصفهم أنهم كانوا أشد ظلما وطغيانا ما ينبئ أن الله سوف لا يهلك قريشا كما أهلك من قبلهم، وأنه سيُبْقي على بعضهم ليكونوا قوة للإسلام.

-**المؤتفكة** هي القرى المقلوبة، التي أصبح عاليها سافلها، وهي قرى قوم لوط. رفعها الله إلى فوق ثم قلبها وأسقطها فتهشم كل ما تحويه من بشر ومبان وحيوان وأشجار، ثم تابع عليها رواجم رجمتها بصواعق، تتجاوز الوصف. وقوم لوط انتشر فيهم الفساد، واستساغوه، حتى أصبحت الفضيلة غريبة فيهم لا تجد من يتمسك بها، وألفوا الرذيلة حتى أصبحت لا تنكر. فكان عذابهم أشد عذاب سلط على أمة من الأمم. واليوم بتحريف مفهوم الحرية قبلت مجتمعات الشواذ جنسيا، ومكنتهم من الحماية ومن إعلان شذوذهم. وقرأت في كتاب صفوة الاعتبار للشيخ بيرم الخامس، أن عقوبة من يثبت عليه الشذوذ الجنسي في إنكلترا في القرن التاسع عشر، أنه يغمس في برميل مملوء بالرجيع، ويسد أعلاه حتى يموت.

55- فبأي آلاء ربك تتمارى.

تفتتح الآية بسؤال يفيد التسوية بين ما ذكر في الآيات السابقة من النّعم.

وكل ما ذكر فيها نعم بالنسبة لرسول الله ﷺ ، فما كان منها واضحا في كونه نعمة لا يحتاج إلى تفصيل. وأما ما كان منها نقمة على الضالين، فهو نعمة بالنسبة له عليه السلام ، إذ تؤيده في مسيرته الإصلاحية، وتعطي لأتباعه صورا من الاعتبار بسنة الله في الخليقة أنه يؤيد الصالحين ويهلك المنحرفين. فهي كلها نعم متساوية، ويسأل سؤالا إنكاريا المشركين أي نعمة من تلكم النّعم تعملون على التشكيك فيها.

56- هذا نذير من النّذر الأولى.

هذا القرآن شأنه أنه ينذركم منبها إلى ما ستتعرضون إليه من عقاب الله ومقته إن لم تتحولوا عن ضلالاتكم. وهو يتفق مع ما جاء على لسان المرسلين السابقين، كما جاء في قوله تعالى : (قل ما كنت بدعا من الرسل)[1]

57←58-أزفت الآزفة...كاشفة.

قربت القريبة. فما هي القريبة التي قربت. هي ما يفهم من الإنذار الذي يدل على إيقاظ المخاطبين من غفلتهم عما سيحل بهم من سوء. فتكون الآية متممة للإنذار، بأنه قريب حلوله. فالبدار البدار إلى التوبة والإقلاع عما أنتم عليه من فساد في العقيدة والسلوك. وهذه الصياغة توقع في نفس السامع ما يهوله، ذلك أنه مع الغموض، والبساط في التخويف، تذهب النّفس كل مذهب في تصور القادم الشديد. وهي تحتمل أن يكون المراد منها قيام الساعة، كما يحتمل ما سينصر الله به نبيه كما تم في بدر.

- إنها في نفاذها وقوتها لا يوجد من يرد تسلطها إلا الله، إذ هو القادر على صرفها. كما تفهم على أنها مغيبة لا يصل أحد لعلمها، فلا يكشف عن وقتها إلا العليم بها وهو الله، لا يجليها لوقتها إلا هو.

59←61-أفمن هذا الحديث...وأنتم سامدون.

سؤال إنكار على المشركين من موقفهم غير المكترث. يقول أتقابلون ما أنزل عليكم من الآيات القرآنية التي توقظكم من غفلاتكم أبلغ الإيقاظ، وتكشف لكم عن الحق بأتم بيان، وعما ينتظركم من سوء المصير إن واصلتم الثبات على مواقفكم ؟ أتقابلون ذلك بالعجب الدال على الاستبعاد والإنكار؛ وتضحكون مستهزئين كأن الأمر ليس بجد، ولا تهتزون لوقعه اهتزازا يدخل الخشية في قلوبكم فتخافون حلول ما ينذركم به من العذاب. وتواصلون استكباركم "سامدون" تجسيم لكبرهم. ذلك أن البعير إذا كان في حالة نشاط يرفع رأسه في مشيته، فشبههم في استكبارهم بأنهم يمشون مشية المتكبر الذي لا ينظر لمن حوله.

62-فاسجدوا لله واعبدوا.

بلغ البيان غايته، والإنذار أوضح صوره، والتوبيخ والتقريع ما يهز النّفس التي فيها بقية من خير لتقلع، فرتب على ذلك، الأمرّ الجازم من رب العالمين لجميع البشر، وللمشركين بصفة أخص، أن يقبلوا على الخضوع لله رب العالمين، وأن يخشوه، باعتبار إطلاق السجود على الخشية. يمكن أن يراد بالسجود الصلاة، وهي

[1] سورة الأحقاف آية9

مخ العبادة وشارة الإسلام، فيكــون الأمـــر بهـــا أمـــرا بالإســـلام وقبـــول جميـــع مبادئـــه العقدية، وشرائعه العبادية والسلوكية.

واعبدوا ربكم حق عبادته، مفردين لهِ و لا تشركوا به أحدا.

__سجود التلاوة :__اختلف العلماء في السجود عند تــلاوة هــذه الآيـــة علـــى الخـــلاف بيـــنهم في وجوب السجود .فالمنقول عن أبي حنيفـــة والشـــافعي وأحمـــد أن التـــالي لهـــا يســـجد. والمعتمد في مذهب مالك عدم السجود، لأنه عمـــل أهـــل المدينـــة ؛ وللحـــديث الـــذي رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنســـائي، وأحمـــد، وعبـــد بـــن حميـــد، والـــدارمي، وابن خزيمة، عن عطاء بن يسار عـــن زيـــد بـــن ثابـــت ﷺ أنـــه قـــرأ علـــى النّبـــي ﷺ "النجم" فلم يسجد فيها[1].

[1] تحفة الأشراف ح3733 ج3 ص175

سورة القمر

هذا أحد الاسمين اللذين سميت بهما هذه السورة: سورة القمر، وسورة اقتربت الساعة. نزلت على رسول الله ﷺ بمكة. وهي السورة الرابعة والخمسون حسب ترتيب المصحف، والسابعة والثلاثون حسب ترتيب النّزول. نزلت بعد سورة الطارق وقبل سورة ص.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾
وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ
مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ
نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ
إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

اقتربت : قربت قربا شديدا.

الساعة : يوم القيامة.

انشق : الانشقاق صدع يبدو على ظاهر الجسم مع بقاء الكتلة.

مستمر: مطرد.

مزدجر : ما فيه ردع عن مخالفته.

حكمة : كلام يفيد تاليه بلوغ الصواب في تفكيره.

نكر : شيء بالغ غاية السوء.

خاشعة أبصارهم : ينظرون إلى أسفل من الذل.

المهطع : المسرع في المشي مع امتداد عنقه إلى الأمام.

عسر : صعب جدا.

بيان المعنى الإجمالي :

تأكيد لما لفت إليه القرآن انتباه البشر، أنهــم غيــر بعيــدين مــن الســاعة الوقــت الــذي يفنى فيه الكون، والذي لا يأتيهم إلا فجأة، فليصــلحوا عقيــدتهم وســلوكهم. وإثبــات إلــى أن القمر سينشق عند اختلال نظــام الكــون. تصــلب المشــركون فــي رفــض كــل مــا يأتيهم من رسول الله ﷺ، حتى إنهم إذا نقلت لهم حواســهم أمــرا خارقــا للعــادة يقــابلون ما شاهدوا بالإعراض عنه , ثم يرمونه بأنه تخييل وضرب من السحر.

كذّب المشركون بما أنزل علــى محمــد. وحســب ســنن الله فــي الخليقــة أن كــل أمــر سيثبت حسبما تقتضيه أسبابه ومقدماته. والشرك مبني علــى الهــوى فهــو إلــى انهــزام. والإسلام مبني على الحق فلا بد أن يثبت ويهزم الشرك.

بكل تأكيد قد بلغت المشركين الأنباءُ المنبئة فــي القــرآن عــن مصــائر المكــذبين، ومــن الآيات التي تنذرهم سوء المصير إن لم يرتــدعوا، جــاءهم مــا يكفــي ليزدجــروا عمــا هم فيه ويدخلوا في دين الله. وتضــمنت الآيــات القرآنيــة الحكمــة التــي تفــتح العقــول على الحق، وتدربها على المنهج الصحيح في التفكيــر. لكــن النّــذُر لا تفيــد مــن أصَــرَّ على الكفر وأغلق عقله عن التدبر. أعــرِضْ عــنهم ولا تهــتم بتصــلبهم، فقــد بلـــَّغتَ، وسوف يلقون جزاءهم، يوم يــدعوهم الــداعي للخــروج مــن قبــورهم فيســتجيبون لــه، شاعرين أنهم مقدمون على الشــر الــذي ينتظــرهم. تخشــع أبصــارهم مــن الــذل فــلا يستطيعون رفعها إلى أعلى، يتزاحمون يــدفع بعضــهم بعضــا كأرجــال الجــراد تنــدفع سائرة إلى الأمام يركب بعضها بعضا. تمتد أعنــاقهم ويســرعون خطــاهم نحــو صــوت الداعي الذي دعاهم، وقد عرفوا أن يومهم الذي يستقبلونه يوم صعب جدا.

بيان المعنى العام:

1-اقتربت الساعة وانشق القمر.

تتركب هذه الآية من شقين: قرب يوم القيامة، وانشقاق القمر.

أما الأول، فإن عمــر الكــون لا يعلــم إلا الله متــى ابتــدأ، وقــد مضــى عليــه ملايــين السنين، و دراسة بعض الظواهر تؤكــد أن ابتــداء خلــق الكــون مضــى عليــه أزمنــة متطاولة. وأنه حدث من عــدم، وأن كــل مــا حــدث مــن عــدم ســينتهي قطعــا إلــى العدم.وهوما يؤكده القرآن من انتهاء نظــام الكــون وقيــام القيامــة. وتؤكــد هــذه الآيــة بصيغة المضي فيها أن ساعة انتهائه قريبة بالنظر إلى مــا مضــى. والــزمن البــاقي مــن عمر الكون قليل. قال تعالى : **وما يدريك لعل الساعة قريب** [1].

---

[1] سورة الشورى أية17

و أما الثّاني، وهو انشقاق القمر فقد اختلف النّظّار في بيان المراد منه:

أولا-ذهب جمهور المفسرين إلـــى أن هـــذه ظـــاهرة تحققـــت فـــي عهـــد رســـول الله ﷺ. وأن هذه الظاهرة أنجزها رب العزة تأييدا لرسـوله. وقـد أخـرج البخـاري بسـنده إلـى سيدنا عبد الله بن مسعود ﷺ : انشق القمر علـى عهـد النّبـي ﷺ شـقتين فقـال النّبـي ﷺ: اشهدوا[1]. وروى مسلم بسنده إلى أبـي معمـر عـن عبـد الله بـن مسـعود ﷺ قـال: بينما نحن مع رسـول الله ﷺ بمنـى إذ انفلـق القمـر فلقتـين فكانـت فلقـة وراء الجبـل وفلقة دونه فقال لنا رسول الله ﷺ: اشهدوا. وفي رواية أخـرى عـن ابـن مسـعود قـال: قال انشق القمر على عهد النّبي ﷺ فلقتين فستر الجبل فلقـة وكانـت فلقـة فـوق الجبـل فقال رسول الله ﷺ: اللهم اشهد[2]. كما روي عـن ابـن عبـاس وعـن أنـس بـن مالـك وابن عمر. ولم يشهد أحد منهم انشقاق القمر، فـابن عبـاس لـم يولـد بعـد، وأنـس بـن مالك لم يكن بمكة، وابن عمر كان صغيرا لـم يبلـغ سـن التحمـل. وهـذا الحـديث وإن كثر رواته، فإن العمدة هو رواية عبد الله بـن مسـعود رضـي الله عنـه. ولـم يـذكر أن ذلك كان تفسيرا لقوله تعالى: وانشق القمر.

ولذا فإن من ذكر أن انشقاق القمر من المتواتر الـذي يطعـن فـي ديـن مـن أنكـره، لا يستقيم، وهو خبر آحاد قد لا يبلغ حد المشهور. وقد شدد عيـاض النّكيـر علـى مـن لـم يقل به. نقل كلامه الأبي ص199-

كما روى الترمذي بسنده إلى علي بـن حجـر، قـال: أخبرنـا علـي بـن مسـهر، عـن الأعمش، عن إبراهيم،عن أبي معمر، عن ابن مسـعود قـال : بينمـا نحـن مـع رسـول الله ﷺ بمنى فانشق القمر فلقتين، فلقة من وراء الجبـل، وفلقـة دونـه فقـال لنـا رسـول الله ﷺ :اشهدوا، يعني اقتربت الساعة. الظاهر أن قولـه: يعنـي اقتربـت السـاعة مـدرج من علي بن مسهر. و علق عليه الترمـذي : حسـن صـحيح. الجـامع الكبيـر ج 5 ص 319 ح 3285 فالملاحظة الأولى أن ربط الأحاديث بالآية غير موثوق به.

وقد وجهوا حصوله بتوجيهات عديـدة وردوا علـى مـن نفـاه. ولا شـك أن قـدرة الله لا يعجزها شيء، والذي خلق القمر ملتئما لا يعجزه أن يحدث فيـه شـقا يـراه مـن اسـتعد للرؤية، ثم حصل التئام بعد ذلك. والله على كل شيء قدير.

ثانيا: ذهب بعض المفسرين إلى أن الانشقاق سيحصل يـوم القيامـة لا فـي الـدنيا. وإلـى هذا ذهب الحسن البصري، وعطاء بن أبي رباح.

---

[1] فتح الباري ج7ص444

[2] إكمال الإكمال ج 7 ص200

ثالثا: إن هذه المادة "الانشــقاق" وردت خمــس مــرات فــي القــرآن.-1-هــذه-2-فــإذا انشقت السماء فكانــت وردة كالــدهان ســورة الرحمـــان آيـــة37 -3- وانشــقت الســماء فهي يومئذ واهية سورة الحاقة آيـــة16 -4 -إذا الســماء انشــقت ســورة الانشــقاق آيـــة 1- 5- تكاد السماوات يتفطرن منــه وتنشــق الأرض آيــة 90 والانشــقاق فــي الآيــات 4/3/2- هو أمر يحدث يوم القيامة حســب مفهــوم تلكــم النّصــوص. والآيــة الخامســة تدل على فساد الكون على سبيل الفرض. وبهذا يظهــر أن الانشــقاق الــذي يحــدث فــي الكون حسب الاستعمال القرآني يقترن بفساد الكون الذي يعقبه البعث.

كما أن جملة انشق القمر فهمّها بعــض الحــذاق علــى أن المــراد بهــا وضــوح الأمــر يقول الراغب الأصفهاني : وقيل انشقاقه في زمن النّبــي ﷺ وقيــل هــو انشــقاق يعــرض فيه حين تقرب القيامة، وقيل معناه وضـــح الأمــر المفــردات ص 264- وهــذا المحمــل الأخير ذَكَرَ به الزبيدي قال: وقوله تعالى: " وانشــق القمــر" قيــل فــي تفســيره : وَضَــحَ الأمر.

ومن ناحية أخرى فإن الآية التاليــة: وإن يــروا آيــة يعرضــوا ربطهــا ب "إن" التــي لا تدل على تحقق الشرط، و يؤتى بها للاحتمال. ولــو كــان انشــقاق القمــر قــد تــم فعــلا لكان التشهير بعناد المشركين يقتضي أن تصاغ، ولما رأوا آية أعرضوا.

ومن ناحية ثالثة، فإن المشركين اقترحوا علــى رســول الله آيــات ســجلها القــرآن فقــال تعالى: (**وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا مــن الأرض ينبوعــا90 أو تكــون لــك جنــة من نخيل وعنب فتفجر الأنهــار خلالهــا تفجيــرا 91 أو تســقط الســماء كمــا زعمــت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا 92 أو يكون لــك بيــت مــن زخــرف أو ترقــى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرأه قــل ســبحان ربــي هــل كنــت الا بشرا رســولا 93**) فكلمــا اقترحــوا أن ينــزل بالآيــات إلــى الماديــات رد علــيهم الرسول صلى الله عليه وسلم أن طبيعة رســالته يتأكــد صــدقها مــن نــاحيتين : القــرآن الذي تحدى به، (**قل لئن اجتمعت الإنس و الجن علــى أن يــأتوا بمثــل هــذا القــرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا**)[1] وثانيا بالتشــريع الــذي يصــلح البشــر فــي الحاضر والمآل، ويســاعدهم علــى مهمــة الاســتخلاف فــي الأرض مهمــا تقلبــوا فــي مراتب الحضارة وفي جميع الأزمنة.

ولما كان الإسلام دينا خاتما وجب أن تكــون آيــة صــدقه آيــة باقيــة مــا بقــي الــدهر، تفارق آيات الرسل السابقين، التــي لا يتــأثر بهــا إلا مــن شــاهدها. وبهــذا فــإن الــذي

[1] سورة الإسراء آية 88

ترجح عندي أن هذه الآية لا تدل على انشقاق القمر في الدنيا. وأن ذلك من أمارات الساعة التي سيحدثها رب العزة في الوقت الذي قدره لفساد الكون. ويبقى الحديث دليلا ظنيا على وقوع الحدث، ينضم إلى ما ظهر على يد رسول الله ﷺ من الآيات التي حضر بعضها الكفار، واقتصر بعضها على المؤمنين الذين شاهدوها. فتكون تلك الآيات حسب نظري تزيد المشاهدين لها قوة في إيمانهم، دون أن يكون به تخلخل قبل مشاهدتها، كنبع الماء من بين أصابعه وحنين الجذع، وانشقاق القمر مما بسطه القاضي عياض في الشفاء بسطا وافيا.

2←3-وإن يروا آية....وكل أمر مستقر..

تثبت هذه الآية تصلب المشركين في العناد؛ وأنهم حتى إذا نقلت لهم حواسهم آية من آيات الله على صدق رسوله، لا تتفتح قلوبهم للإيمان، ولا يلتفتون إليها، ويخرجونها على أنها سحر. وأنها سلسلة من أسحار سيدنا محمد المتواصلة.

-شأن المشركين أنهم ثابتون على العناد والرفض، وعدم الالتفات والتأمل فيما هو مقنع. سواء وضعهم فيما يستقبل من الأزمان" وإن يروا آية يعرضوا" أو فيما مضى، فقد تواصل تكذيبهم في الماضي، وما كذّبوا لموجب، ولكن كذّبوا اتباعا لما تهواه نفوسهم. تحكمت فيهم عاداتهم، وإلفهم، وما ورثوه من شرك آبائهم. فكانت لهم ملكات. والملكات إذا استحكمت وهي مبنية على باطل تحجب العقل والتفكير.

وكل أمر مستقر. هذه قاعدة من قواعد النّظام العام الذي سيّر به الله سبحانه هذا الكون. تسير الأمور حسب الطبيعة التي أنشأ الله عليها الكون، وتترتب النّتائج على مقدماتها، وقد يأتي ما يعطل حدوث تلك النّتائج ملاصقة لأسبابها. ولكنها في النّهاية ستصرف المعوقات، ويظهر المسبب نافذا ثابتا.

إن الحق الذي عليه دين الإسلام يتبعه، لوضوحه وصدقه، حتما قبول البشر له، ودخولهم في دين الله. وطبيعته تقضي بانتشاره. ووقوف المعوقات من تصلب المشركين، واتباع الهوى، ووساوس إبليس، عوارض ستنهزم أمام الحق، ويظهر دين الله ويكثر أتباعه، ويستقيم أمر الأمة المتمسكة به. ويثبت مآل الإسلام إلى الظهور، كما أن أمر المشركين سائر إلى الزوال والخذلان.

4←5- ولقد جاءهم من الأنباء...فما تغن النّذر.

مع أبلغ تحقيق وصل إليهم القرآن ينبئهم بما عوقب به المكذبون من الأمم الخالية، وفيه من وصف ما يترصد المكذبين به من خسران في الدنيا والآخرة، وفيه من الحجج الباهرة التي تقنع العقل والضمير، لينزجر عما يخالف منهجه. وهو مشبع

بالحكمة التي تفيد العقل إدراكا للأشياء علــى مــا هــي عليــه، وهاديــة إلــى المقصــود. توالت النّذر موقظة إلى سوء مآل من لــم يرتــدع. ولكــن لتصــلبهم، ولجمــود إحساســهم لا تفيدهم النّذر.

6←8: فتول عنهم....هذا يوم عسر.

لما كانوا على هذا الوصف من التصلب في الكفــر، وعــدم المبــالاة بمــا ينــذرون بــه، فإنك قد بلغت يا محمد، ولا تهتم بهم، وواصــل مــا أنــت مكلــف بــه ولا لــوم عليــك. وسيلقون جزاءهم المفصل فيما يلي :

1) يوم يدعوهم الداعي الذي يستجيبون له ولا يملكون التصامم عن ندائه.

2) يدعوهم إلــى شــيء عظــيم منكــر، يــدركون بمجــرد ســماعه أنــه الشــر الــذي يترصدهم.

3) خاشعة أبصارهم، منتكسة عيونهم يرتعدون من الذل والخوف.

4) أمواج من البشر تقذف بهم القبور متراصّون لا يلوي أحــدهم علــى مــن أمامــه، هــم مدفوعون إلى السير دفعا، كما تسير أرجال الجراد، يركب بعضها بعضا.

5) مسرعون، وقد مدوا أعناقهم مذعورين، لا يلتفتون من الخوف.

6) قد وضح لمداركهم أنهم مقبلون على أمر عسير جدا بالغ الشدة.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٦ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧

بيان معاني الألفاظ:

ازدجر: زجروه عن ادعاء النّبوة مع شديد الإذاية.

منهمر: مصبوب بقوة.

التقى : اجتمع ماء الأمطار مع ماء العيون.

على أمر قدر : تم تنفيذه حسبما قدرناه.

دسر : جمع دسار وهو المسمار.

بأعيننا: برعايتنا وعنايتنا.

تركنا: أبقينا على السفينة.

الآية : الحجة

مدكر : من يتفكر في آيات الله وعجيب صنعه.

بيان المعنى الإجمالي :

هذا هو شأن المشركين مع رسلهم، لقي نوح قبلك مـــن قومـــه مـــالقي، مـــع أننـــا اخترنـــاه وقربناه، فهو عبدنا وكفى بذلك شرفا. كذبوه وقالوا عنـــه إنـــه مجنـــون، وزجـــروه ليكـــف عن دعوتهم.

يئس نوح من اهتداء قومه، بذل كل جهوده فلم يتحلحلوا عـــن العنـــاد، فتوجـــه إلـــى ربـــه مستنصرا بعونه عليهم. مقرا بأنه مغلوب تكسَّر صـــبره وبيانـــه علـــى صـــخرة تصـــلبهم. عاجله ربه بالإجابة، فأذن للســـماء أن تفـــتح الميـــاه علـــى الأرض لتنصـــب بقـــوة، وأذن للعيون في الأرض أن تتدفق بقـــوة فـــاجتمع مـــاء الســـماء ومـــاء الأرض حســـبما قـــدره رب العالمين. أغرقهم ونجى نوحا ومن معه في الســـفينة التـــي هـــداه لتصـــميمها مؤلفـــة من ألواح ومسامير. كانت الســـفينة تجـــري بركابهـــا محوطـــة بعنايـــة مـــن الله المقتـــدر تحوطها هذه العناية من جهاتها الست. وتم إغراق قوم نوح جزاء لكفرهم بنوح.

وبكل تأكيد أبقينا على هذه السفينة ليشهدها البشر فتكون آيـــة مـــن آيـــات الله الدالـــة علـــى تدبيره للكون، وأنه لا راد لقضـــائه. ثـــم حـــرض البشـــر علـــى التفكـــر وفـــتح عقـــولهم وقلوبهم لآيات الله في الكون.

بيان المعنى العام :

9- كذبت قبلهم قوم نوح...وازدُجِر.

لما ذكر في الآية السابقة : ولقد جاءهم مـــن الأنبـــاء مـــا فيـــه مزدجـــر، جـــدد تـــذكيرهم ببعض الأنباء. فذكر أن قوم نوح كذبوا نوحـــا عليـــه الســـلام، وقـــد ســـبقوا فـــي التـــاريخ قومك "قبلهم" فلا تبتئس بتكذيبهم فهذه سنة الرسل لا ينجحـــون فـــي مهمـــتهم بمجـــرد مـــا يدعون قومهم إلى الهدى. ثم أكد تكذيبهم وفصـــل مـــا اتصـــل بـــه، فكـــذبوا عبـــدنا علـــى عزته وسمو مقامه، فهو مختار منا على سائر قومـــه ليتحمـــل شـــرف الرســـالة. وقرنـــوا تكذيبهم بتهديده،(**لئن لم تنته يـــا نـــوح لتكـــونن مـــن المرجـــومين)**[1]، والتطـــاول عليـــه فرموه بالجنون وبقولهم: (**إنا لنراك في ضلالة وإنا لنظنك من الكاذبين**)[2]

---

[1] سورة الشعراء 116

[2] سورة الأعراف آية 66

10←12-ففتحنا أبواب...على أمر قد قدر.

يئس نوح من قومه فدعا ربه دعوة المضطر الذي أعيته السبل وضاق به الأمر معترفا أنه مغلوب لم يبلغ من قومه ما أراد. دعا ربه أن ينتصر له بعون منه.

- أسرع الله بإجابته، فعقَّب دعاءه بتنفيذ مُا قدره لنصرته. انصبت المياه من السماء متدفقة بقوة كأنها انفتحت على الماء. وفجر الله عيون الأرض فسالت منها المياه، فاجتمعت مياه الأمطار ومياه العيون حسبما قدرناه من قبل بحكمة وإتقان ليبلغ ذلك ما رتبناه استجابة لعبدنا. والأمر الذي قُدِّر هو إغراق المكذبين، وإنجاء نوح ومن كان معه في السفينة.

13←14- وحملناه على ذات...لمن كان كفر.

ثم أتم الإنباء، بما يطمئن رسوله ﷺ، و يهدد المشركين. بأن الخاتمة كانت إنجاء نوح. وصرح بطريقة الإنجاء : أنها كانت بمجوعة من الألواح والمسامير، التي كل منهما كان معروفا عند قومه، ولكن الله هداه إلى طريقة التأليف بينها حسب ضوابط دقيقة، قبل أن يحل الطوفان، فكانت حاضرة في الإبان.

وحمله ربه في السفينة مع القليل الذين آمنوا به. وجسم السفينة بأنها كانت تركيبا مبتدأ في الكون، هو مجموع ألواح خشب مسوى، مسامير تجمعها حتى استوت على الهيئة التي تستطيع خوض الماء براكبيها سالمين من المياه. ولما كانت المياه قوية عمت وجه الأرض، صرح القرآن بأنه في مساره في البحر كانت العناية الإلهية تحوطه، عبر عن ذلك بقوله " بأعيننا " كأنه ينظر إليه من جميع جوانبه الست.

جزاء لمن كان كفر... فتحنا أبواب السماء، وفجرنا الأرض عيونا، لأجل مجازاة الذين كفروا بنوح وكذبوا رسالته، وقابلوا صبره عليهم بكفر نصحه وحرصه.

15-ولقد تركناها...فهل من مدكر.

قدر الله أن تبقى سفينة نوح في المكان الذي نزلت فيه على الجودي، لم يبلها الزمن الطويل، حتى شهدتها كل الأمم إلى العهد الأول للأمة الإسلامية. ونقل الشيخ ابن عاشور رحمه الله : أن الجودي من جزيرة ابن عمر قرب الموصل شرقي دجلة. إن ما أيَّد الله به نوحا ﷺ، وبقاء السفينة حتى شهدت آثارها الأمم المتتالية، كل ذلك يقوم آية ودليلا على كمال التقدير، ليُعْمِل البشر فيه عقولهم، فينفتحوا على الإيمان، ويسندوا تنظيم الكون وتدبيره لله رب العالمين. ويحرض في خاتمة الآية

النّاس جميعا على التفكر في آيات الله. كأنه يقول أقبلوا إلى مائدة التذكر فتناولوا منها ما شئتم من الخير، فإنها لا تنفد.

16-فكيف كان عذابي ونذر.

تلحظ هذه الآية ما جاء في الآيات السابقة من النّذر التي وجهت إلى قوم نوح، وتصلبهم في الكفر، والعذاب الماحق والأليم بواسطة الغرق، إذ الغرق لا يقضي على الهالك دفعة واحدة. تأملوا في حكمتي سواء في الدعوة والتحذير، أو في الانتقام ممن أعمى بصيرته عن الحق.

17- ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر.

وإذ تم الغرض فيما يتعلق بجميع مراحل قوم نوح فبلغ الاعتبار بما حل بهم، تحول الغرض للفت الأنظار إلى أن القرآن أفضل الكلام مما يدعو للتأمل فيه، فقد بلغ بعناية الله أن جعله حسب الضوابط التي يقوم بها الكلام : خاصية البيان واليسر في أعلى مقام. فسلاسة تعبيره ووضوح المراد من آياته وخاصة فيما يتعلق بالحديث عن الأمم السالفة التي سجل ما تم لهم تسجيلا واضحا بينا باللسان العربي الذي هو بعيد عن لسانهم. تيسر للفهم والانطباع في عقل سامعيه مع ارتفاع مستواه في البلاغة عن طوق البشر. هو مفتوح لكل من يرغب في التذكر، فحَرِّضْ وحُثَّ النّاس على التذكر في بيناته، ليبلغوا ما قصده سبحانه من هداياته.

وقد فهم بعض الحذاق من هذا التنويه خاصية أخرى، هي خاصية يسر تعلقه بالحافظة، أمر لا يشاركه فيه غيره من الكتب السماوية السابقة. إذ تجدهم مرتبطين بالنص المكتوب، أما القرآن ففي جميع الأمم من العرب والعجم والبيض والسود والصفر والحمر، أعداد غير قليل يسر الله لهم حفظ القرآن كله، مع حسن الأداء وجمال الصوت.

﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ
نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ
﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ
أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ
هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً
لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾

فَنَادَوۡاْ صَاحِبَهُمۡ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٣٢﴾ [1]

بيان معاني الألفاظ :

الصرصر: الريح التي يصحبها صوت لشدتها.

نحس : سوء الحال.

النزع : الإزالة بعنف.

الأعجاز : أسفل الشيء

منقعر : خاوية.

لفي ضلال : متمكن من عدم الاهتداء إلى الحق.

سعر: الجنون.

أألقي : أأنزل عليه الذكر من السماء؟

أشر: معجب بنفسه مدع ما ليس فيه.

غدا : مستقبل قريب.

ارتقبهم : انتظر ما سيحل بهم.

اصطبر : اصبر عليهم ولا تضجر.

كل شرب محتضر: كل نوبة للشرب خاصة بصاحب النّوبة لا يحضرها غيره.

صاحبهم : الراضون بفعلته. فاجترأ وأقدم على الأمر العظيم المنكر.

صيحة : صوت قطع أوصالهم.

بيان المعنى الإجمالي :

القصة الثانية المُذكّر بها، هي قصة عاد، أول ما سجله فيها أنهم كذبوا، فانظروا مآلهم بذلك التكذيب لرسولهم، وعدم الالتفات لمتنوع نذره. المآل أننا سلطنا عليهم ريحا تدوي قوية محزنة، توالت عليهم سبع ليال وثمانية أيام، كانت نحسا وسوءا عليهم، استمرت فاقتلعتهم ورمت بأشلائهم على الأرض، وفرغتهم من أحشائهم كأنهم أعجاز نخل مر عليها من الزمن ما نخر داخلها. فانظروا واتعظوا، وتدبروا في قدرتي، كيف عذبتهم، وكيف أنهم أوقعوا أنفسهم في ذلك المآل، لتكذيبهم بنذري. وبكل تأكيد تجدون في القرآن الظاهرة الخاصة به، أنه ميسر للتدبر والفهم.

والقصة الثالثة: قصة ثمود. هي نظير قصـــة عـــاد كـــذبوا بالنـــذر العديـــدة التـــي خـــوفهم من وقوعها رسولهم صالح. واجهوه أولا بشـــبهتهم التـــي يشـــاركهم فيهـــا مشـــركو مكـــة. كيف يكون الرسول بشرا؟ يتساوى معنا في العـــرق والنـــوع، ثـــم يريـــد أن يتقـــدم علينـــا لنتبعه. إننا لو اتبعناه لكنا ألقينا أنفســـنا فـــي متاهـــة الضـــلال. بـــل الحقيقـــة أنـــه شـــديد الكذب، معجب بنفسه يدعي ما ليس فيه.

رد عليهم وقاحتهم: سيعلمون عن قريب من هو الكذاب المـــدعي مـــا لـــيس فيـــه. وفصـــل ما سيفتنهم به. إنا سنرسل عليه آية تصدقك وتفتـــنهم ليحـــق علـــيهم القـــول. هـــذه الآيـــة ناقة تخرج من الصخرة، تختص بشرب ماء البئـــر يومـــا، وتكـــون لهـــم نوبـــة يـــوم، لا يتسلط أحدهما على الآخر في يوم نوبتـــه. ومضـــى الأمـــر علـــى ذلـــك أيامـــا. ألهمـــت النّاقة أن لا تأتيهم يوم نوبتهم، ويـــوم نوبتهـــا تشـــرب كـــل مـــا ء البئـــر. ضـــجروا مـــن النّاقة، وقرروا فيما بينهم أن يقضوا عليها. و لم يتجـــرأ علـــى التنفيـــذ إلا أحـــد طغـــاتهم فأخذ الأمر على عاتقه، وقصد النّاقة فرماها بسهم قتلها بـــه، وهـــم راضـــون عـــن فعلتـــه. فتصورّ ما شئت فيما أنذرتهم به، وتصور عذابي المســـلط علـــيهم إذ لـــم يأخـــذوا نـــذري مأخذ الجد والحذر. أرســـلنا علـــيهم صـــيحة واحـــدة خلخلـــت كيـــانهم ومزقتـــه تمزيقـــا، فصاروا كالحظيرة التي مر عليها زمن فتفتتت تدوسها الأقدام.

بيان المعنى العام :

18←21: كذبت عاد....عذابي ونذر.

كما ذكرنا في فاتحة قصة نـــوح، أن القـــرآن جـــدد تـــذكيرهم بـــبعض الأنبيـــاء، فبعـــد أن استوفى قصة نوح انتقل إلى التذكير بقصة عـــاد. وتفـــنن فـــي عرضـــها فافتتحهـــا بـــذكر موقفهم إجمالا الذي هو التكذيب، وما ترتـــب عليـــه بلفـــت النّظـــر إلـــى عاقبـــة أمـــرهم. وأجمل فيه لتذهب النّفس في تصوره كل مذهب يتناســـب مـــع الموقـــف ولتكـــون مشـــوقة لبيانه. وابتدأ التفصيل ببيان عذابهم على طريقة اللف والنشر المرتب.

سلطنا عليهم ريحا تهب بســـرعة كأشـــد مـــا تكـــون الســـرعة، تـــدوي بصـــوت مرعـــب محزن، استمرت هذه الريح سبع ليال وثمانيـــة أيـــام، كانـــت أيـــام نحـــس، ســـاءت فيهـــا أحوالهم، وتوالت عليهم آثارها المدمرة فلم تبق مـــنهم أحـــدا. كانـــت تقـــتلعهم كمـــا تقلـــع النّخل من منابتها، ثـــم ترمـــي بأحشـــائهم علـــى الأرض فتفـــرغ دواخلهـــم، كمـــا تشـــاهد أعجاز النّخيل المنقلعة وقد مر عليها من الزمن مـــا نخـــر داخلهـــا وفرغهـــا مـــن أليافهـــا الداخلية.

–وإذ تمت الصورة فتأملوا كيف كان عذابي، وتعجّبـــوا ممـــا آل إلـــيهم أمـــرهم. وعاقبـــة نذري لمن رفضها.

22- إنّا أرسلنا عليهم ..... كهشيم المحتظر.

وهذه صورة أخرى تكشف تيسير القــرآن لفهمـــه والاتعـــاظ بـــه، وســؤال يحــث النّـــاس على الاستفادة من تذكيره.

23←26، ولقد يسرنا القرآن...مَنْ هو الكذاب الأشر.

افتتحت القصة على النّحو الذي افتتحت به قصة عاد. بتســجيل تكــذيبهم مــا أنــذرهم بـــه صالح عليه السلام من عقوبات. ثم فصل ردهــم وكشــف شــبهتهم. لــم يقبلــوا أن يكــون الرسول بشرا، وأنكروا الاتصال بــين البشــر وبــين الــوحي الإلهــي. ثــم أكــدوا هــذا المفهوم بأنه واحد منهم، ليست له مزية ترفعــه ليكــون قائــدا مُتّبَعًــا. ثــم رجعــوا إلـــى أنفسهم يقوونها على الرفض، فقالوا: إنا لو اتبعنـــاه وتنازلنـــا للســـير فـــي طريقـــه الـــذي يدعونا إليه، لكنا بذلك قد تمكن منا الضـــلال والبعـــد عـــن طريـــق الهـــدى، ونكـــون قـــد فقدنا عقولنا، وأصبنا بالجنون. عجب لهذه الدعوة التـــي جـــاء بهـــا ونســـب لنفســـه تَلَقِّـــي الذكر الذي ينشره، أنه أتاه من عند الله. لمـــا ذا اختـــاره الله مـــن بيننـــا؟ بـــل، ثـــم حققـــوا أنه لا يعدو أن يكون كذابا تمكن منه الكذب، معجب بنفسه مدع ما ليس فيه.

رد الله عليهم بتلقينه رسوله أن يقول لهم: ستعلمون عـــن قريـــب مـــن منـــا المـــدعي مـــا ليس فيه. و بتهديدهم تهديدا مباشرا. منه أنهم ســيعلمون علـــم اليقـــين مـــن هـــو الكـــذاب الأشر، لا بالتهم الباطلة والدعاوي الفارغة.

27←28، إنا مرسلوا النّاقة...كل شرب محتضر.

فصّلت الآية مضمون التهديد في الآيـــة الســـابقة. إنـــا بعظمتنـــا وقـــدرتنا سنرســـل النّاقـــة لتكون آية لك، وفتنة لهم تفتنهم. فهي معجزة لـــك بإخراجهـــا مـــن صـــخرة ومـــا تميـــزت به من خصائص. فارتقبهم ولا تضجر من مواصلتهم تكـــذيبك وترقـــب مـــا ســـيحل بهـــم وتبصر ما هم صانعون، واصبر عليهم صبرا لا يداخله ملل، فإن الوعيد سيتحقق.

– أخبرهم أن الله أرسل النّاقة ليختبـــرهم، وأن المـــاء الـــذي يشـــرب منـــه أهـــل القريـــة أصبح من اليوم الذي تظهر فيه النّاقة مقسوما، فلهـــم نوبـــة يشـــربون فـــي يـــومهم المـــاء من البئر، ولا تأتيهم فيه النّاقة. وللناقة يوم خـــاص بهـــا تشـــرب فيـــه مـــاء البئـــر. وقـــد كانت النّاقة إذا حضر يومها تأتي إلى البئر فتشرب كل مائه.

29←30- فنادوا صاحبهم...عذابي ونذر.

ضجروا من النّاقة، التي اصبحت تقاسمهم ماءهم، مـــع أنهـــم علمـــوا مـــن رســـولهم أنهـــا آية، وأنهم يُعَرِّضون أنفســـهم لنكـــال لا يعلمـــه إلا الله إن هـــم آذوهـــا، أو حرموهـــا مـــن الماء. ولذا أخذوا يدبِّرون طريقة للقضاء عليهـــا، وكـــل واحـــد يهـــاب العاقبـــة ويـــود أن

ينجز غيره أمر القضاء عليها. وأخيرا تقدم أحد كبرائهم المعتز بنفسه (الأشر) وقالوا إن اسمه قُدار. وأخذ المسؤولية على عاتقه، ورمى النّاقة فعقرها. اختص قدار بمباشرة التنفيذ، وكلهم راضون عما قام به بل راغبون فيه.

- فلا تسأل عن تنفيذ الوعيد، وعن العذاب الذي سلط عليهم، وتصور كل متصور في العذاب الذي سلط عليهم، ومن النّذر التي توالت عليهم، فلم يؤخذوا بدون تنبيه.

31-إنا أرسلنا عليهم صيحة...كهشيم المحتضر.

تجرأوا وأقدموا غير مكترثين بما أنذروا به، فحق عليهم الوعيد. عبر عن الوعيد بأنه صيحة واحدة بلغت من قوتها أنها تتجاوز الطاقة البشرية فتقطعت أوصالهم منها، وعبر عنها في سورة الحاقة بالطاغية، أنها متجاوزة كل الحدود المعروفة، وفي سورة الأعراف بالرجفة، اهتزت الأرض تحت أقدامهم ونفذت إلى بواطنهم فمزقتها. فهي أمر واحد عبر عنه في كل مقام بجانب من جوانب تأثيره المدمّر. ثم صورهم القرآن بعد أن مزقتهم الصيحة أنهم صاروا كهشيم الحظيرة. التي تتخذ لحفظ الأغنام، فبعد مدة لا تتجاوز السنوات الثلاث عادة، تتفتت وبعد أن كانت مانعة للأغنام من الخروج، تنقلب فتاتا تدوسها الأقدام.

32- يقال فيه ما قيل فيما ختمت به القصتان السابقتان.

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ
﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟
بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾
وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا
ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا
كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحاصب : الريح التي ترفع الحصباء بقوتها الشديدة ثم تسقطها.

تماروا: شكوا، وحرض بعضهم بعضا على الشك.

راودوه : المراودة محاولة إرضاء الكاره بقبول ما يكره.

الآل : القرابة.

كلها : على كثرتها.

أخذناهم : انتقمنا منهم.

العزيز : الذي لا يغلب.

المقتدر: الذي لا يعجز

بيان المعنى الاجمالي :

بعث الله لوطا إلى قومه، فأنذرهم ما سيحل بهم من عذاب إن لم يُحَوّلوا سلوكهم وعقيدتهم عن الطريق القبيح الذي كانوا يسيرون عليه. لم يأبَهُوا بما أنذرهم وواصلوا حياتهم على ما كانوا عليه، فأرسل الله عليهم ريحا عنيفة، بلغ من قوتها أنها تقلع الحصباء فترفعها إلى أعالي الجو ثم تسقطها عليهم فهشمتهم. وأنجى الله لوطا فخرج مع أسرته المؤمنة عند السحر، قبل الصباح. أنعمنا عليهم وأنجيناهم جزاء لشكرهم نعمتنا واعترافهم بفضل الله عليهم والتزامهم بطاعته. وهي سنتنا في إحاطة من يشكر نعمتنا بألطافنا وحسن مثوبتنا. بلغ من وقاحة قوم لوط أنهم تفطنوا إلى استقبال لوط لضيوف، فتسوروا عليه بيته، وحاولوه أن يُخَلّي بينهم وبين ضيوفه ليشبعوا منهم نهمهم الجنسي الآثم، فطمس عيونهم. وأحسوا بنداء الشماتة والتوبيخ من باطنهم : ليكن إحساسكم بالعذاب على أشده جزاء ما عملتم. وبكل تأكيد فإن هذا العرض القرآني ينفذ بيسر إلى عقولكم ومشاعركم لتهتدوا.

وبكل تأكيد جاء موسى وأخوه إلى فرعون وملئه مؤيدين منا، فأنذراهم بما يترصدهم من عذاب الله، إن هم استكبروا ولم ينفذوا ما يطلب منهم، وخاصة التخلية بينهم وبين بني إسرائيل. كانت الآيات متتابعة وكثيرة، فكذبوا بها كلها، فانتقمنا منهم انتقاما استأصلهم.

بيان المعنى العام :

32←35- كذبت قوم لوط...نجزي من شكر..

هذه هي القصة الرابعة من الأنباء التي ذكر بها القرآن مشركي مكة أولا، ليعتبروا بسنن الله في إمهال المكذبين، ثم تسليط ما يوعدهم به من العذاب، الذي ينوعه حسب ما سبق في علمه وجرت عليه حكمته.

هي قصة قوم لوط الذين ما كانت قبيلتهم معروفة باسمها عند العرب، وكانت بعثته في الوقت الذي كان إبراهيم عليه السلام يدعو قومه لعبادة الله وحده ونبذ الأصنام.

أجمل القرآن النّذر التي حاول بها لوط إيقاظ قومه، محذرا لهــم منهــا. وأنهــم لــم يُلْقــوا لها بالا، ولم يرتدعوا وواصلوا ماهم عليــه. فسـلط الله علــيهم ريحــا قويــة كأشــد مــا تكون القوة تقلع الحصباء وترفعها بقوتها إلى أعالي الجــو، ثــم تسـقطها علــيهم فمــزقتهم شر ممزق في وقت الصــباح. ونجــى الله لوطــا وآل بيتــه الــذين آمنــوا بــه واتبعــوه فخرجوا من القرية قبل ذلك عند السحر، إلا امرأته التــي ذكــر فــي آيــات أخــرى مــن القرآن أنه أصابها ما أصابهم.

أنجينا لوطا وأهله المؤمنين، إنعاما منا عليهم. وهــو يــدل علــى عنايــة الله بالصــالحين. فما كانت نجاتهم بتدبيرهم، ولكن نجوا بسبب النّعمــة الــواردة مــن عنــدنا. وعلــى هــذا النّحو جرت سنتنا في جزاء من شكر نعمتنــا، فــآمن معترفــا بفضــل الله عليــه، مطبّقــا لما جاءه من هداية. ويدل ذلك بالمقابل أن من لم يشكر يحرم من نعمتنا.

36- ولقد أنذرهم بطشتنا...بالنذر.

لم يعاجلهم بالعذاب بمجرد ما لــم يسـتجيبوا لهدايتــه. ولكــنهم قــابلوا نــذره وتخويفاتــه لهم: أن الله سيأخذهم بقوة وعنف لا يسـتطيعون لــه مــردا، قــابلوا ذلــك بالشــك فيــه، وحرض بعضهم بعضا على عدم الوثوق بما يخبر به.

37- ولقد راودوه...عذابي ونذر.

صرح القرآن بوقاحتهم التــي تجــاوزت كــل الحــدود. إذ نــزل ببيتــه ضــيوف، فلمــا سمعوا بهم تسوروا عليه بيته، وحــاولوه بكــل الطــرق أن يخلــي بيــنهم وبــين هــؤلاء الضيوف ليقضوا منهم شهوتهم الآثمــة. فكــان العــذاب الأول أن أعمــى الله أبصــارهم، عمى مذهلا، ذهبت الأجفان والأهداب، وتحولــت إلــى جلــدة ســاترة لا يــرى أصــحابها شيئا. وأحسوا في بواطنهم نداء التوبيخ والتنكيل: لــيكن إحساســكم بالعــذاب علــى أشــده، العذاب الذي يذكركم بما أنذركم به رسولكم.

40- ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر.

بكل تأكيد يسرنا القرآن ليتذكر به البشــر ويأخــذوا مــن عاقبــة مَــن يــؤمن ويســتجيب وعاقبة من يتحدى ويكذب، ما يساعدهم علــى الاســتقامة فــي حيــاتهم، ويبتعــدوا عمــا يوجب غضب الله ونكاله.

41←42- ولقد جاءال فرعون... أخذ عزيز مقتدر.

بلغت النّذر لفرعون وآلــه، الــذين كــانوا أعوانَــهُ علــى الحكــم، عــن طريــق موســى وهارون عليهما السلام. وتوالت الآيات المؤيدة لهما مؤكــدة أنهمــا أُرْسِــلَا مــن عنــد الله، وأن تنفيذ ما يطلبانه واجب لا محيد عنــه. كــذبوا أن تلــك الآيــات مــن عنــد الله، مــن

انقلاب العصا، إلى غرقهم في البحر، إذ اقتحموه معتقدين أنها ظاهرة كونية وليس ماتم حجة لموسى وأخيه. فانتقمنا منهم لمواصلتهم التحدي وتكذيب رسلنا. وكان انتقامنا منهم انتقام العزيز الذي لا يغلب، المقتدر الذي لا يعجزه شيء فيحول بينه وبين تنفيذ مراده. وذلك يفيد أن الانتقام كان انتقاما لم يبق على العدو، إلا جثة فرعون. فكانت قصة فرعون المستكبر، آخر قصة في التذكير المفصل لقوله تعالى: ولقد جاءهم من الأنباء.

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

البراءة : السلامة.

الزبر : في كتب الله السابقة.

جميع :الجماعة المتفقون الذين أمرهم واحد.

الساعة : يوم القيامة.

أدهى : فيها داهية أعظم. والداهية الرزية العظمى.

أمَرّ: يبلغ الإحساس السيء بها حدا أشد مما هو في الدنيا.

في ضلال : تمكن منهم الخسران.

سعر : جمع سعير النّار.

السحب : الجر.

المس : الإصابة.

سقر : جهنم.

قَدَر: مُقَدّر و مضبوط.

اللمح: ما يخطفه البصر فيدركه سريعا.

أشياعكم : المتشابهون في مذهب أو دين.

الزبر: جمع زبور. الكتاب صحائف الأعمال.

مقعد صدق : مكان مرضي تثبت الإقامة فيه.

مليك مقتدر : مالك قادر

بيان المعنى الإجمالي :

عجَبٌ لهم كيف لم يتعظوا بما تكـــرر علـــيهم مـــن أنبـــاء الأمـــم الماضـــية ! أتظنـــون أن كفاركم خير من كفار قوم نوح، وقوم هود وقــوم صـــالح، وقـــوم لـــوط، وآل فرعـــون، أم اطمأننتم بنص من عند الله ورد فـــي الكتـــب الســـابقة يحمـــيكم مـــن الجـــزاء. أم تقولـــون نحن قوة لا تغلب، ونحن منتصـــرون بـــلا شـــك. إن جمعهـــم ســـيهزم هزيمـــة منكـــرة، يفرون من ساحة القتال يولـــون ظهـــورهم إلـــى مـــن هـــزمهم. وأكبـــر مـــن ذلـــك مـــا يترصدهم من عذاب يوم القيامة. فدواهي عذابها أشـــد وأنكـــى، وأبلـــغ إيلامـــا مـــن كـــل عذاب متصور في الدنيا. إن يوم القيامة هو موعـــدهم الـــذي أوعـــدناهم بـــه وهـــو آت لا محالة. إن الذين أجرموا بكفرهم، والاعتداء على الحـــق وأتباعـــه، قـــد اختـــاروا لأنفســـهم أن تكون الخسارة مآلهم في جهـــنم وهـــي تســـتعر. ســـيلقون جـــزاءهم فـــي ذلـــك اليـــوم الشديد الذي يُجَرُّون جرا على وجوههم فـــي جهـــنم، ويقـــال لهـــم : شـــماتة بهـــم وإهانـــة أحسوا بعذاب نار جهنم التي تجدون آلامها بمجرد ما يمَسُّكم لظاها.

سلطنا على قوم لوط باكر الصباح عذابا استقر فيهم فلـــم ينفصـــل عـــنهم حتـــى ســـحقهم وأبادهم. ويحسون مع آلام العذاب أصواتا تقـــرعهم تقـــول لهـــم : لـــيكن إحساســـكم قويـــا بعذابي، ولتكن ندامتكم شديدة على تكذيبكم بنذري و تحـــديكم لهـــا. ولقـــد يســـرنا القـــرآن ليتذكر به من يفتح بصيرته.

وأكمل سرد الأنباء بما تم لفرعون وآله، الذين جـــاءتهم نـــذر موســـى وهـــارون، الآيـــات التسعة فكذبوا بها جميعا. واعتزوا بقـــوتهم وســـلطانهم، فأخـــذناهم كمـــا يؤخـــذ الضـــعيف التافه، أخذناهم أخذ العزيز الذي لا يغلب القادر الذي لا يعجزه شيء.

عجبٌ لكم كيف لم تستفيدوا ممـــا ســـلطناه علـــى الأمـــم التـــي ذكرنـــاكم بأنبائهـــا، فهـــل تظنون أن كفاركم خير من الكفار الماضين فأنتم في مَنَعَـــةٍ مـــن العـــذاب، أوجـــدتم نصـــا إلهيا يستثنيكم من تحمل تبعات كفركم، أم تقولون إنكـــم تمثلـــون قـــوة متضـــامنة لا تقهـــر وأنكم منتصرون دائما ؟ إن جمعكـــم هـــذا وقـــوتكم التـــي غـــرتكم هـــي قـــوة مهزومـــة، ستتحققون من ذلك، وستهزمون، وتفرون من القوة الضـــاربة التـــي تحطمكـــم. بـــل أكثـــر من ذلك فإن من انفلت من عذاب الدنيا، فإنه مـــع المعـــذبين ســـيكون لهـــم جميعـــا موعـــد

يوم القيامة، ساعة الحساب والجزاء. والســاعة جامعـــة لعظـيم الرزايـــا. وآلامهـــا أبلـــغ مرارة من آلام الدنيا.

بكل تأكيد إن الـــذين اتصـــفوا بـــالإجرام فـــآذوا المـــؤمنين والمؤمنـــات، واســـتكبروا فـــي الأرض بغير الحق، وأفسدوا فيهـــا، ســـتُطْبِقُ علـــيهم المهالـــك، ونيـــران جهـــنم تجـــرهم ملائكة العذاب على وجوههم ويقال لهم : ذوقوا ما تمسكم به جهنم.

إن تصرفنا في الكون هو التصرف المحكم، فكل دقيق ممـــا خلقنـــاه فـــي الكـــون مـــادة أو عملا مقدر تقديرا كاملا، لم تغب عنـــا صـــغيرة ولا كبيـــرة مـــن قـــوانين الخلـــق. وبنـــاء على ذلك إننا إذا أردنا إنجاز ما تعلـــق بـــه علمُنـــا القـــديم ننجـــزه ضـــربة واحـــدة. كمـــا تدركون لمح البرق، بل هو أسرع من ذلك.

إن الذين تتفقون معهـــم علـــى مبـــادئ الكفـــر والشـــرك والفســـاد، قـــد أهلكنـــاهم. أفـــلا تتذكرون. وكل فعل صدر عنهم مما كان تافها، آثـــاره ضـــعيفة، ومـــا كـــان كبيـــرا آثـــاره قوية وممتدة، الكل سواء مسجل عنـــدنا لا يغيـــب منـــه شـــيء، كالصـــحيفة التـــي تـــوالى فيها التسجيل سطورا لا تضيع منها كلمة ولا سطر.

إن الذين اتقوا ربهم فاستحضروا دوما صلتهم به، وراقبوا بـــذلك مـــا يصـــدر عـــنهم مـــن فِعال. وحصنوا أنفسهم من ارتكاب ما نهى الله عنـــه، مـــآلهم جنـــات تجـــري مـــن تحتهـــا الأنهار. ثبتت إقامتهم عند المالك لكل شيء القدير القدرة الكاملة.

بيان المعنى العام :

43←46: أكفاركم خير...أدهى وأمر.

تعداد الأنباء الـــواردة فـــي الآيـــات الســـابقة، كـــان مـــن حقـــه أن يحـــركهم للاعتبـــار، ويحذروا المآل الذي حاق بالأمم السابقة. ولكـــنهم مـــروا بـــتلكم النّـــذر ولـــم يقلعـــوا عـــن ضلالهم. يسألهم سؤال من يعتبر الجواب غير معلـــوم، فيقـــول لهـــم أتظنـــون أن كفـــاركم خير من الكفار الماضين، فلا يصيبكم ما أصـــاب الماضـــين، أم إنكـــم اطمـــأننتم إلـــى أن سلامتكم من العذاب محققة بنص نازل من عند الله، فواصلتم ما أنتم عليه آمنين ؟

-انتقال إلى احتمال خيالي آخر منهم، والقصد نفـــي أن يكـــون لهـــم وجـــه يبـــرر تـــوالي إعراضهم. لم يبق لهم من وجه إلا أن يقولوا نحن قـــوة أمرنـــا جميـــع، ونحـــن متفقـــون، وهذه الوحدة قوة لا تنهزم ولا يمكـــن كســـرها، فـــنحن ماضـــون فـــي ســـبيلنا لا نشـــعر بالخوف. نقض القرآن تصورهم، مصرحا: أن الجمـــع الـــذي يســـتندون إليـــه، ويعتقـــدون في قوته وصلابته، أنه جمع سيهزم، ويتبين لهم أنـــه ضـــعف لا قـــوة، وتكـــون هـــزيمتهم شر هزيمة، يفرون فلا تـــرى إلا ظهـــورهم. وعبـــر عـــن ظهـــورهم بأدبـــارهم احتقـــارا

لهم. وتعبيرا عن تفاهتهم. وتحقق الوعيد يوم بدر، لما فروا منهزمين لا يلوون على شيء، وكذلك في معارك تلته، كما تم في غزوة الخندق.

– انتقال من التهديد بعذاب الدنيا وخزيها، إلى تنبيههم إلى العذاب الذي يترصدهم يوم القيامة. إن وعيدهم الذي لا مناص منه سيكون يوم يبعثون يوم القيامة. فهو موعد ثابت، ويلقَون فيه من العذاب ومن النّكال ما هو أشد من مصائب الدنيا جميعها، إذ يُرْمون بدواهي يخلدون فيها ولا يتحولون عنها ويكون إحساسهم بعذابها أشد من جميع ما أحسوا به من أنواع عذاب الدنيا.

47←48- إن المجرمين في ضلال...مس سقر.

بكل تأكيد نفيا لما يتوهم المجرمون من سلامتهم، إن الذين اتصفوا بالإجرام فتجاوزوا حدود الله، وكذبوا رسوله، واعتدوا على الحق وأتباعه، أعدوا أنفسهم ليحيط بهم الخسران من كل جانب، وليجدوا مكانهم في جهنم المستعرة نارها. يوم يحلون بدار إقامتهم سينزل عليهم الإذلال المعنوي والحسي، ويجرون على وجوهم في جهنم لدركاتها التي تتناسب ومقدار إجرامهم. ويقال له تنكيلا بهم وإهانة: أحسوا الإحساس الشديد بعذاب جهنم.

49-إنا كل شيء خلقناه بقدر.

تتابع الصراع بين الحق والباطل، بين الرسل المبعوثين من الله لهداية البشر، وبين أقوامهم المعترضين عليهم المنكرين لما جاؤوا به. وتتابع أيضا إمهال المكذبين وعدم التعجيل بعقوبتهم. وأن بعضهم تنتهي حياته وهو كافر بما أنزل الله. ووردت صور انتهى الصراع فيها بتسليط الجزاء الحاسم، وإنجاء الصالحين، وإهلاك الكافرين. عرضت الآيات السابقة عرضا سريعا شريطا لحياة البشر في عصور متلاحقة بعيدة في التاريخ، ويثبت القرآن في جميعها أنها انتهت بانتصار الحق على الباطل، ولكن مع ذلك فإن الباطل كان له صولات. ومن شأن الفكر البشري أن يقف متسائلا كلما كان المشهد الذي أمامه فيه غموض، اذا كان الواقع فيه ضبابية في الربط بين الأسباب ومسبباتها.

جاءت هذه الآية تجيب الإنسان عن تساؤلاته. فتهديه إلى النّظر في كتاب الكون ليأخذ منه ما يساعده على الخروج من حيرته. انظروا إلى ما تركب منه الكون من مواد، ومن أفعال في هذا الكون يقوم بها العاقل المختار، ويقوم بها البعض الآخر بالفطرة، وتجري الكائنات كلها المخلوقة لله على قوانين محكمة كأبلغ ما تكون الحكمة. تستوي في ذلك المجرات العظيمة التي تقاس أبعادها بالسنوات الضوئية،

وإلكترونات النّواة. كلها تسير علــى نظــام متــرابط دقيــق. تســتطيع أيهــا الإنســان أن تدرس في حدود إمكاناتك العقلية، وفي عمرك المحــدود فتتعمــق فــي جزئيــة مــن تلــك الجزئيات، فتلحظ قطعا أن كل صغيرة وكبيرة روعــي فيهــا أنهــا تسـير علــى قــوانين الضبط والدقة. وأنها ما كانت لتوجد أو تستمر لــو وقعــت الغفلــة عــن أي جزئيــة مــن الجزئيات. وأن بينها وبين بقية أجزاء الكون تــرابط قــد يبــيح لــك بســره، وقــد يبقــى سره محجوبا عنك. ولا تعجب من قدراتك المحدودة، فهذا هــو أنــت. وخــذ لــذلك مــثلا بسيطا يتكرر في كل لحظة من لحظات حياتك، تأكــل الطعــام تمضــغه فتبتلعــه، ويأخــذ مساره في جسمك، وسلسلة من التحولات تحدث فيه، ممــا يغــذي الجانــب المــادي فيــك، وما يغذي قوى الأعصاب والدماغ. يتم ذلــك وأنــت لا تشــعر بمــا جــرى فــي باطنــك وبما يسري في كيانك. فهو مادي من ناحيــة، و يتحــول إلــى غــذاء للعقــل وللمشــاعر من ناحيــة أخــرى. ولا يتعطــل إلا إذا أراد المتصــرف الحقيقــي توقيفــه. فهــذا هــو التقدير الذي يجري عليه الخلاق العليم الكون(**وكــل شــيء خلقنــاه بقــدر**) يســتوي فــي ذلك المادي والعقلي والروحي. وهــو الــذي يرســل الرســل بالحكمــة والهدايــة للحــق، وتشريع ما تكون به حياة الإنسان أقرب للخير وأبعد عــن الشــر. ثــم يهتــدي بهــم مــن اختار طريقهم، ويعاديهم من لم يثقْ فيمــا جــاؤوا بــه. وينتهــي الأمــر بــالمؤمنين إلــى الجنة وينتهي العناد بالكافرين إلــى النّــار. وقــد أيــد القســم الأول بألطافــه دون جبــر، وحرم الآخرين من ألطافه بدون جبر أيضا.

وعلى هذا الاختيار بنى الثواب والعقــاب. ولا يســأل عمــا يفعــل، فــإن الحكمــة التــي ظهرت في خلقه تفيدنا أن الحكمــة فيمــا قــدره وقضــاه، ومحدوديــة قــدراتنا العقليــة لا تبلغ بنا الإحاطة بسر القدر.

50-وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر.

كيف يتحقق تصرف ربنا في هذا الكــون، مــا تعلــق بالماديــات، ومــا تعلــق بالمعــاني والمعقولات ؟ هذا ما يفتــرق فيــه الأمــر بــين الخــالق والمخلــوق، فــالمخلوق يرتــب الأسباب، ويوازن بين الموجب والسالب، وما يترتب علــى كــل منهمــا، وكيــف يحصــن عمله مما ينقضه. وقد تتطلب الدراســة وقتــا يطــول أو يقصــر. أمــا بالنســبة للخــالق فعلمه سبحانه وإرادته وقدرته، تنفذ الأمر الذي حــان وقــت إيجــاده، أو يعدمــه إذا حــان وقت إعدامه، في لحظة واحدة لا تقبل القســمة، يعســر التعبيــر عنهــا بمــا يــدل عليــه اللفظ، فشبهها بالحدث الذي يرتسم علــى البصــر بســرعة فائقــة كــإدراك البــرق ، ثــم

دقق حتى لا يتوهم أن هذا التمثيل هــو الحقيقــة فقــال تعــالى : **ومــا أمــر الســاعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب** [1].

51-ولقد أهلكنا...من مدكر.

تأكيد على تهديد المشركين الذين لم تفــد فــيهم النّــذر، ومصــارع الأمــم الســابقة التــي عتت عن أمر ربها وكذبت برسله، بكــل تأكيــد أهلكنــا الــذين كــانوا علــى طــريقتكم، وكانت مواقفهم مشابهة لمواقفكم. "الأشياع الفــرق المتشــابهة فــي مــذهب أوديــن" كــل فرقة شيعة للأخرى. ولما كان مآلهم الهلاك والتــدمير، وذكرنــاكم بعاقبــة أمــرهم، فهــل تتذكرون وتعتبرون ؟

52←53-وكل شيء فعلوه...مستطر.

واصل تهديد المشركين معرضا عن التوجه لهم بالخطاب، وهــو أبلــغ فــي التهديــد. كــل ما فعلوه من ضــروب الإذايــات والتحــدي للحــق، والإفســاد فــي الأرض موثّــق فــي الكتب التي سجلتها الملائكة لا يضيع منه شيء، يحاسبون عليه، ويلقون جزاءهم.

-ثم عمم تأكيد توثيق ما يحصل في الكــون، وأنــه لا يضــيع منــه شــيء، يســتوي فــي ذلك ما كان آثاره تافهة " كل صغير"، وما كانــت آثــاره قويــة مســتمرة "كبيــر" مكتــوب في سطور بينة. ومعنى ذلك أنه مثبت بنظام لا يغيــب منــه شــيء، ينشــر عنــدما يــأذن الله بنشره للحساب، فلا يستطيع فاعله إنكاره.

54←55- إن المتقين...عند مليك مقتدر.

جرت هذه الآية على سنة التذكير القرآني، فــي اتبــاع النّــذارة بالبشــارة، فبعــد أن هــدد المشركين، وعرض عليهم صنوف العذاب التي سلطت علــى مــن قــبلهم، عطــف القــول ليبشر المؤمنين الصالحين فقــال تعــالى : إن المتقــين لــربهم المتصــلون بــه اتصــال الطاعة والإخلاص، مآلهم اســتقرار فــي جنــات تتخللهــا الأنهــار. تجمــع بــين النّعــيم الجسمي والنعيم المعنوي. إنهم مقيمون في الجنة إقامــة لا تنقطــع، والإقامــة فــي الجنــة هي أرفع ما يتصور، بتوفر كــل كمــال ومناســبة فــي الإقامــة. وتثبــت ذلــك التصــور الكريم بأنهم عند المالك للملك كلــه، الــذي لا يضــيق ملكــه بشــيء، وقــدير لا يعجــزه قليل ولا كثير. ومع سعة الملك وكمال القدرة للنفس أن تتصــور كــل فضــل. ومــا عنــد الله خير وأبقى.

---

[1] سورة النّحل آية 77

سورة الرّحمان

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف، وفي كتب التفسير والسنة.
استمد اسمها من فاتحتها * الرحمن *وهي من السور المكية. اختلف كثيرا في تاريخ نزولها وحسب ما رواه ابن النّديم هي السورة الخامسة والثلاثون نزلت قبل سورة الجن، وبعد سورة البلد. ورتبتها حسب ترتيب المصحف الخامسة والخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

حسبان : حساب دقيق.

النجم : يطلق على نجوم السماء. وعلى النّبات الذي لا يرتفع على سطح الأرض.

الطغيان : تجاوز الحق اعتمادا على القوة.

أقيموا : أنجزوه على الصفة الكاملة التي لا جور فيها.

القسط : العدل.

الأنام : حمله بعضهم على بني آدم، وقيل الإنس والجن، وقيل كل ما يدب على وجه الأرض.

الآلاء: النّعم.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت هذه السورة بآية "الرحمن" الدالة على أن ما سيرد فيها تفصيلات للرحمة الإلهية التي تعم البشر والكون.

الرحمة الأولى: أنه علَّم محمدا وعلّم الأمة القرآن، الكتـاب الـذي لا تحـد خيراتـه، وبـه هدي الإنسان ليجمع في حياته بين ما يسعده في الدنيا وما يسعده في الآخرة.

الرحمة الثانية: بنعمته خرج الإنسان من العـدم إلـى الوجـود. هـو فـي خيـر مـا دام شاعرا بنعمة الإيجاد قائما بما تقتضيه من العبادة والاستقامة.

الرحمة الثالثة: أودع في الجنس البشري ما يستطيع بـه التواصـل مـع غيـره بـالكلام، تعلما لأصول اللغة، وتأنقا فيها إثر ذلك.

الرحمة الرابعة: أنه جعل الكون كله مبنيا علـى النّظـام. ومـن انتظـام مسـيرة الشـمس والقمر، ضبط حياته الحاضرة والماضـية والمسـتقبلة. ومـن تعلمـه للحسـاب وتطـويره تم للإنسان ما لا حد له من المخترعات التي بها تقدمت الحضارة.

الرحمة الخامسة: أن جعل الكائنـات كلهـا خاضـعة لجلالـه. سـواء فـي ذلـك نجـوم السماء، أو النّبات النّـامي علـى وجـه الأرض، أو الأشـجار التـي تقـوم علـى سـاق وترتفع في السماء. وهو ما يجعل المـؤمن الشـاعر بهـذه النّعمـة منسـجما مـع الكـون كله، مع أخيه الإنسان، ومع الأرض باطنهـا وظاهرهـا، ومـع السـماء ومـا تعمـر بـه من كائنات. لا يهدف من سعيه إلى قهـر الطبيعـة، ولكـن ليطورهـا وينتفـع بخيراتهـا وليس بينه وبين أي قوة من قوى الكون عداوة.

الرحمة السادسة: رفعه للسماوات، وأمَّن الإنسان من أن يسقط عليه جزء منها. وبناها على نظام دقيق لا يتسلط فيها كوكب على آخر فيسحقه، صورة لما ينبغي أن يكون عليه التعايش البشري من التكامل و التناسق. وهذا البناء المراعى فيه العدل والدقة، ينبهكم إلى أن تبتعدوا عن الطغيان والتسلط بالقوة والعنف. فاختلال العلاقات البشرية بتطويعها للعنف، والطغيان مؤذن بفساد المجتمع وانهياره اقتصاديا واجتماعيا. وبإقامة الميزان بالحرص على أن يتسلم كل ذي حق حقه وزنا وكيلا وعددا ونوعا، فأنتم مأمورون بالقسط العدل الكامل في التعامل. وإياكم أن تنقصوا حق غيركم. فليكن كل فرد حريصا على أن يوفي لمن يتعامل معه كامل حقه.

وفي مقابل السماء خلق الله الأرض ميَسَّـرَةً ليسـكنها البشـر والـدواب. يتناسـب ثقلهـا وجاذبية الأرض،فلا يجد ساكنوها ثقـلا أشـد يحـرجهم فـي تـنقلاتهم، ولا خفـة تحـول بينهم وبين الثبات.ثم امـتن بمـا أخـرج مـن الأرض مـن الفواكـه المختلفـة الأشـكال والألوان، والمذاق، والنكهة. وأنشأ النّخـل تجـري فيـه تحـولات عجيبـة مـن خـروج الطلع مكتوما في أكمامه إلى تحوله إلى رطب وتمر، غـذاء وفاكهـة معـا. وأخـرج مـن الأرض مختلف الحبوب كـالقمح والشـعير والأرز والقطـاني، ينتفـع الإنسـان بحبهـا،

وينتفع الحيوان بورقها وسوقها التي كانت تقوم عليها. وأنشأ الرياحين يتطيب بها الإنسان. كل ذلك بحسن تقديره، وجميل فضله.

أيها المخلوقات التي تعي نعم الله وتدرك تصرفه، أتستطيعون أن تجحدوا أي نعمة من نعمه، أو تقولوا إنها ليست من حسن تقديره وخلقه، أو تدّعون أنها ليست نعمة منه، بل تقوم كلها منادية بأنه لا شريك له سبحانه.

بيان المعنى العام:

1-الرحمن.

هذه الكلمة الحبيبة للقلب، الموحية بالأمن والعون، إنها بعمق ما تدل عليه، وبحروفها اللينة، تنفذ إلى شعاب النّفس فتسكب فيها الأمل، والسكينة، ومسحة الرضا. ولذلك فإني أوثرُ رأي الكوفيين الذين جعلوها آية تامة. وأن قوله تعالى: "**علم القرآن**" آية تالية لها. و تتلألأ هذه الآية في فاتحة السورة لتعانق المقدر في الذهن الذي تتم به الجملة، فقدروه : هو الرحمن. وتتوالى في السورة تعداد النّعم التي تفضل بها رب العالمين، فكان في البداية باسم الرحمن براعة استهلال تجعل القارئ متهيئا لمتابعة نعم الله وفضله على الثقلين، في الدنيا وفي الآخرة.

2-علم القرآن.

هذه هي الرحمة الأولى، وهي أعظم الرحمات وأبلغها فائدة، وأوسعها تأثيرا، وأعمها فضلا. إذ توجه سبحانه فعلم محمدا القرآن، فتلقاه واضحا كأتم ما يكون الوضوح، لا لبس فيه ولا احتمال. وهذه الآية تثبت أن الله تولى تعليم رسوله لكتابه. و تنقض ما زعمه المشركون من أن الذي تولى تعليمه القرآن بشر: **يقولون إنما يعلمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)**[1] وبذلك سلم النّص القرآني من كل تحريف أو شك. وأكد ذلك بقوله : **إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون** [2]- وأن الله تولى بفضله تعليم المؤمنين القرآن بتيسير حفظه، وبما يفتحه على قلوب علماء الأمة بصفة متتابعة ما يجعلهم مرتبطين بهداه على مر الأعصار. فكلما تحولت أنماط الحياة، وتطور العمران البشري، فتح على قلوب علماء الأمة ما يستطيعون به فهم القرآن فهما يعرفهم بمراد الله منهم في ظروفهم الجديدة. فهو تعليم متواصل ، ومنن إلهية على هذه الأمة لا ينقطع مدها.

---

[1] سورة النّحل آية 103

[2] سورة الحجر آية 9

وقد خص حفاظه وفَهَمَتَهُ بالفضل العظيم، أخرج البخاري بسنده إلى عثمان بن عفان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : خيركم من تعلم القرآن وعلمه.

3-خلق الإنسان علمه البيان.

-النعمة التالية لتعليم القرآن من نعم الرحمن. نعمة إيجاد النّوع الإنساني، وخروج الإنسان من العدم، وما أفاض عليه مما يتبع الإيجاد من المعرفة بالحواس، وبقواه العقلية، واقتداره تبعا لذلك على التأثير فيما حوله.

– النّعمة الثالثة، ما يسره للإنسان ليقوم بوظائفه في الحياة قياما يسمو بما بين يديه إلى مراتب أعلى. يتم ذلك بقدرة الإنسان على المعرفة وإفهام غيره ما عنده، وفهمه عن غيره ما عنده، وبتبادل التجارب والخبرات مع الآخرين، ليفيد ويستفيد. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن من طبيعة البشر أنه لا يتمكن أي فرد من البقاء في الحياة إذا لم يتعاون مع غيره، ولم يستفد مما يقدمه له الآخرون في طعامه، ومسكنه، ولباسه، وفي حاجاته الضرورية والكمالية. وطريقة التواصل هي ما ركبه الله في الكائن البشري من قدرات سمحت له بالإبانة عما في نفسه، وبفهم ما عند الآخرين الذين يتعاون معهم. فهذه الملكة هي البيان المنوه به الآية. نعم إن البيان له مراتب من الحد الأدنى من الإفهام، ويرتقي في تجويد الإبانة إلى أن يبلغ مستويات تذهب صعدا كما نجده في الشعر الجيد والنثر البياني، والقمة تبرز في البيان القرآني. ولكن الذي تشير له الآية هو الحد الأدنى الذي يتم به التواصل من ربط الحاصل الذهني بالنطق الكاشف عنه.

5—>7-الشمس والقمر...ووضع الميزان.

رحمة رابعة إجراؤه الشمس والقمر في مسارتهما، بتقدير عجيب لا يختل. بسيرهما المنتظم، يتبين الإنسان الزمن من ليل ونهار، ويوم و شهر وسنة. وتتأثر الكائنات الأرضية كلها بمساريهما. الثمار والحبوب والنباتات، والمد والجزر. إنه المتصرف فيهما، وهما مخلوقان له، وهو الرحمن الحقيق بالعبادة والشكر، فلا تسجدوا للشمس ولا للقمر.

– جمع بين النّجم والشجر ليحكم عليهما بأنهما يسجدان لله. والنجم يطلق ويراد به ما عمرت به السماء من أجسام مضيئة ليلا، تتخلل قبتها, وتزينها بجمال بديع، يكون إدراكه أتم في فصل الصيف، وفي الأجواء النّقية من التلوث الحاجب. كما يطلق النّجم على النّباتات التي تنمو مرتبطة بسطح الأرض. منها ما هو غذاء للحيوان، ومنها ما يدخل في قوت الإنسان. والشجر هو ما كان من النّباتات له ساق

يقوم عليها ويرتفع بأغصانه وثماره، من الكروم التي تعرش، إلى النّخيل الباسقة. الحكم على النّجم والشجر أنهما يسجدان. وسجودهما هو خضوعهما للقوانين التي خلق الله عليها كل صنف منهما. والأقرب للتناسق أن يحمل النّجم على النّبات الجاري على سطح الأرض. ولا يمنع حمل الآية على ما يشمل النّجم العالي في السماء على معنى أن سجوده بخضوعه إلى القوانين التي أحكمت خلقه، أو على معنى أنه يميل إلى الغروب صورة تقرب من السجود الإنساني.

– مقابلة بين تقديرين من التقديرات الحكيمة التي بنى الله عليهما الكون.

التقدير الأول هو رفع السماء، بما يرمز إليه من الصنع العجيب، والإحكام، كيف تم رفعها حسيا قائمة بالقوانين التي جعلتها ثابتة بذاتها غير مستندة إلى أركان تشدها. وتم رفعها معنويا بالنسبة للعالم الأرضي، فقدّرها مقاما للملائكة، وطهّرها من رجس الشياطين.

التقدير الثاني أن الله هو الذي جعل الميزان. وكلمة الميزان، الأصل فيها أن تطلق على ما يُعَرّف التساوي بين الشيئين أو عدم تساويهما في الثقل، وقد يراد به ما يشمل الكيل والمساحة، والعد. والمماثلة النّوعية أو التفاوت. كما يطلق ويراد به المساواة في الحكم والسلوك المبني عليه. فيكون مراعاة التساوي في حقوق الخصمين عدلا وميزانا، وتفضيل أحد الطرفين جورا وعدم قسط في الميزان. وشاع إطلاق الميزان على العدل إطلاقا مجازيا. وفي قرن الميزان برفع السماوات ما يُقدّمُ في الفهم حمل كلمة الميزان، على مراعاة التناسب بين مكونات الكون تناسبا لا يقوى فيه جانب على بقية الجوانب، فلا الشمس بعظم حجمها في المجموعة، وبالطاقات الكبرى فيها تفوت جاذبيتها بقية الكواكب التي هي أصغر منها كتلة، ولا بقية الأجرام السماوية تخرج ولو لحظة عن التوازن بينها في المجموعة الكبرى، كل قدر له مكانه ومساره، وما يحفظ بقاءه دون أن يذوب فيما هو أعظم منه...

8←9-ألا تطغوا في الميزان...ولا تخسروا الميزان.

إذا تأملتم في بناء الكون فعلمتم أن بقاءه واستفادتكم من الطاقات المنبثة فيه، ما كانت لتتحقق لولا قيامها على ميزان مضبوط لا اختلال فيه، فإنكم مطالبون في حياتكم وعلاقاتكم ببعضكم وبالكون أن تلتزموا بالميزان. فلا تطغوا معتمدين على ما يتراءى لكم من القوة، فتحدثون الاختلال في الميزان. سواء في ذلك انتفاعكم بما في الكون من خبرات، فلا تفسدوا في الأرض بتحكيم شراهتكم فتقضون على

التوازن البيئي الذي به عمران الكون. قال تعالى: **ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي النّاس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون**[1] وفي علاقاتكم فيما بينكم بالظلم والاعتداء على حقوق الآخرين. مما يولد الحقد ويعطل النّمو، ويهيئ للفتن والحروب.

– **وأقيموا الوزن بالقسط** –الميدان الثالث: الميزان بمعنى العدل في التعامل في المبادلات بين النّاس. واجب محتم عليكم أن تراعوا العدل في المبادلات سواء استند المعيار إلى الميزان فأعطوا الوزن حقه كنتم بائعين أو مشترين، بالقسط مراعين العدل. وإذا اعتمدتم الكيل فليكن كيلكم مساويا للحقيقة لا تستولون على حق الطرف الآخر بالتنقيص منه فيما تسلمونه له، أو بالزيادة فيما تتسلمونه منه.

ولا تخسروا الميزان: لا تنقصوا حق الطرف المقابل فيما تسلمونه له. سواء اعتمدتم معيار الوزن أو الكيل أو العد. هي الثقة التي يتحتم أن تسود معاملاتكم، فيأمن كل فرد من الأمة غيره، حقه محترم غير منقوص، وحق غيره كذلك.

10←12-والأرض وضعها...ذو العصف والريحان.

كما رفع السماء تظلنا ونتقبل منها الماء والأشعة المصفاة المُصَلِحَة للإنسان والحيوان والنبات، لفتت الآية أنظارنا إلى نعمة الأرض التي قدرها سبحانه على أوضاع جامعة لألطاف، بحيث يعيش على ظهرها الإنسان والكائنات الحية دون مشقة. تلاؤم بين كتلة هذه الكائنات وجاذبية الأرض تناسب دقيق. وقوله تعالى **للأنام** : جاء في تاج العروس :الأنام الخلق، أوكل ما يعتريه النّوم، أو الجن والإنس، أو جميع ما على وجه الأرض من جميع الخلق ج31ص 253– وأرجح الوجه الأخير.

ومع تيسير الحياة والنشاط على ظهرها، تكونت من عناصر التربة، ومن الماء، ومن أشعة الشمس، وحركات الرياح خيرات وافرة عديدة. أخرج سبحانه لنا فواكه متنوعة الألوان والأشكال والمذاقات، وأنشأ النّخيل بما تخرجه من أنواع الرطب والتمور والبسر، ما يقتات وما يدخر. وخص النّخل بالتنبيه عليه مفردا، إشارة إلى حكمة الخالق فيه، وللشبه القوي بين الإنسان والنخل، فكما أن جنين البشر يحتضنه رحم الأم إلى أن يخرج للوجود، فكذلك النّخل تحتضن ثمارها في مراحله الأولى في كن يحفظه، ثم يخرج للوجود. وجمع رسول الله ﷺ في كلامه بين الإنسان والنخل في أكثر من حديث. وعطف النّخل على الفاكهة من عطف الخاص على

---

[1] سورة الروم آية41

العام، فالفاكهة تشمل النّخل وغيره، ونص على النّخل لما اختص به من جمعه بين كونه فاكهة وطعاما، وبهذه الخاصية توسط في النّص القرآني بين الفاكهة، وبين الحب الشامل لأنواع الحبوب التي عليها مُعَوّل البشر في أقواتهم كالقمح والشعير والذرة والأرز، ذوات العصف أي الأوراق والقصب التي تعصفها الرياح وتتحول إلى تبن لعلف الدواب. ومما تنبته الأرض الريحان، والريحان يطلق ويراد منه الأنواع التي ميزها الله بطيب ريحها، وكذلك الأنواع التي يستخرج منها الأدوية والعقاقير.

13-فبأي آلاء ربكما تكذبان.

فرع القرآن على الخيرات التي أوصل فضلها برحمته للناس، أن وجه لهم سؤالا ليقروا بإدراكهم لتلكم النّعم، وأن كل واحدة منها تقوم دليلا على سعة الرحمة التي افتتحت بها السورة " **الرحمن**" وأن كل واحدة مما عدَّدَتْه الآيات السابقة نعمة جليلة، وأن تلك النّعمة هي من خلق الله وفضله، وأنه لم يشاركه أحد في خلقها ولا في إبلاغها للمنعمين بها.

ولكن صياغة الآية لا تخلو عن توقف. إذ تسأل الآية سؤال تقرير عن أي نعمة من تلك النّعم تكذبان، فمن المخاطب بقوله : **تكذّبان؟**

الذي ذهب إليه معظم المفسرين أن المخاطب الإنس والجن، وهما الثقلان، فالقرآن يقررهما ليفصحا عن الحق: أن ما تقدم هو نعمة، وأنه من خلق الله وأنه هو الذي أوصل النّعمة للثقلين.

واستبعد الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور أن يكون القرآن نزل لخطاب الجن ووعظهم. وأن ما جاء في القرآن خطابا للجن ليس لتوجيه العمل بالشريعة. وأن الخطاب بالتثنية هو خطاب للمؤمنين والكافرين. وجرى رحمه الله في شرح هذه الآية على منهجه، في إخضاع تلقي معاني القرآن إلى ما يدركه الإنسان من الخطاب حسب مقتضيات الواقع. ثم فسر التكذيب بمعنى الجحد والإنكار.

نعم، إنه يمكن أن يستقيم المعنى على ما رجحه، لو كان المعنى منفصلا عن النّص، أما والخطاب موجه لنفي جحد وإنكار النّعم المذكورة في السورة، وبقوله تعالى :**فبأي آلاء ربكما تكذبان**، تجحدان؛ فتوجه الاستفهام الإنكاري التقريري للمؤمنين لا يستقيم. إذ لا وجه للجمع بين الإيمان والجحد لخلق الله للنعم ولإيصالها للخلق حتى يسأل عنه. فالراجح عندي أنه خطاب للثقلين: الإنس والجن. وليس فيما تتابع من الآيات من أول السورة إلى هذه الآية تشريع، ولكن تفصيل لعقيدة دليلها مأخوذ من قدرة الله على الخلق، وتمكين المخلوقين من الانتفاع به. وفي

الآيات امتن الله بالنخيل، وفي بعض الأقطار قد لا يـرى الواحـد مـنهم نخلـة ولا تمـرا. ولكن المهم أن يعترف بأن هذا النّوع من الشجر مـن خلـق الله وأنـه هـو الـذي مكـن منه من شاء بالتنعم به. ولذا يتوجه السـؤال ليقـر كـل واحـد مـن الثقلـين أن الله هـو وحده الذي نوع تلكم النّعم، وأن ما اتخـذوه مـن الأصـنام لا يملـك شـيئا. وهـذا القـدر المخاطب به كل من أراد الله تكليفه.

ومن ناحية أخرى فإن النّظير التالي لهـذه الآيـة (16) مخاطـب بـه الإنـس والجـان، لامحالة لقوله تعالى: **وخلق الجـان مـن مـارج مـن نـار فبـأي آلاء ربكمـا تكـذبان.**
وكذلك الآيتان31-33-39-

خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٖ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٞ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِي ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الصلصال : الطين اليابس.

الفخار: الطين المطبوخ بالنار.

المارج : المختلط.

مرج : أرسل جاريا.

البحر: الماء الغامر جزءا واسعا من الأرض.

يلتقيان : يصب أحدهما في الآخر.

برزخ : حاجز.

الجواري : السفن الجارية في البحر.

المنشآت : المصنوعات.

الأعلام : الجبال.

بيان المعنى الإجمالي :

يسأل الإنسان وقد عمي عليه أصل نشأته. يتسـاءل كيـف كـان ويجيبـه الخـلاق العلـيم في قرآنه أنه خلق الإنسـان مـن طـين متحجـر يصلصـل كالفخـار إذا نقرتـه. وأنـه

يختلف في نشأته عن الجان الذي خلقه من لهيب ناري صاف. وأحاطه بألطافه إلى أن بلغ الوضع الذي هو عليه، فبأي نعمة من نعمه تجحدان ؟

يحرك الأرض حركة تبدو بها الشمس كل يوم في سمت يختلف عن مطلعها ومغربها في اليوم السابق فتبلغ أقصى مسارها جنوبا وأقصى مسارها شمالا. فهو الذي سيرها في مساراتها بكامل الألطاف، بين الطرفين المشرق والمغرب. وهي نعم وألطاف، يتحتم أن لا تنكر.

وهو سبحانه الذي أرسل البحر المالح والبحر العذب، فسار كل منهما في مساره، وجعل بينهما حاجزا بقدرته لا يبغي البحر المالح على البحر العذب فيحوله إلى ملح ولا العكس. وكل منهما يؤدي وظيفته في الحياة على سطح الأرض. فبأي نعم الله تجحدان. يخرج من البحر المالح اللؤلؤ والمرجان، زينة للحياة فتتخذون منهما حليا يضاعف وسامة الأنثى. فبأي نعم الله تجحدان.

وهو سبحانه المتفرد بملك السفن الجارية في البحر بما أودع في الماء من خاصية الدفع إلى الأعلى، وبما ألهم الإنسان من قوانين لصنع السفن. التي ما زال التمكين الإلهي يسعف الإنسان بتجويد صنعها حتى بلغت من العظم مستوى الجبال. فبأي نعم الله تجحدان.

بيان المعنى العام :

14←15-خلق الإنسان من صلصال...من نار.

هذه آية من دلائل القدرة الإلهية، والحكمة، وحسن التقدير، تجيب عن تساؤل البشر لمعرفة كيف نشأوا. يعلمهم القرآن أن البشر في أصل خلقتهم قبل أن يكونوا على الوضع الذي هم عليه الآن، نشأوا من طين توالى عليه من الزمن ما جففه حتى أصبح يصلصل إذا نقرته، كما يصلصل الفخار " الخزف " مر على هذا الطين أطوار، طور هو تراب **ومن آياته أن خلقكم من تراب** [1] وطور هو طين تخمر فأصبح يلتصق بغيره ولا يتناثر كحاله عندما كان ترابا قال تعالى : **إنا خلقناهم من طين لازب** [2] وطور هو حمأ مسنون طين تغير بعد تخمره.(**ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون**)[3] وطور يبس الطين وتبخر ما كان يتخلله من الماء، صلصال كالفخار. ولم يُذْكَرْ وجه أرتضيه لتشبيهه بالفخار. والذي يظهر لي أن

---

[1] سورة الروم آية 20

[2] سورة الصافات آية 11

[3] سورة الحجر آية 26

القرآن يحقق أن النّار لم تدخل في التركيب الأولي للإنسان، جف الطين حتى أصبح يصلصل دون أن تمسه النّار كوضع الخزف إذ يتم تجفيفه بالنار. فوجه الشبه بينهما هو في قوة الجفاف.

- خالف الله بين خلق الإنسان وخلق الجان في العنصر الأصلي الذي تكون منه الخلق، وانبنى على ذلك اختلافهما في طبيعة كل منهما وتميزه عن الآخر. فالعنصر الذي تكون منه الجان مزيج من النّار، أو من لهب صاف على الاختلاف في توضيح معنى المارج، هل هو من المرج بمعنى الاختلاط كقوله تعالى فهم في أمر مريج. أو هو من اللهب غير المختلط بالدخان. والجن قسم من المخلوقات أبوهم إبليس الذي عصى وغوى وأطرد من الجنة. ولا يتحتم أن يكون النّسل كله غاويا فاسدا، يعمل على نشر الشر كالأصل، فكل فرد مسؤول عن عمله وقد يأتي الصالح من الطالح.

- نعم الإيجاد، والألطاف التي توالت على الخلق الأول حتى وصل إلى المستوى الذي هو عليه مما لا دخل للمخاطبين في تحقيقه، ولا شعور لهم به، هي نعم كثيرة توجب الاعتراف بها، والانصراف كليا عن الشرك، والإنكار لها.

17←18- رب المشرقين...تكذبان.

رب المشرقين..هذا الكون المرتبط بالشمس التي يتحول مطلعها بين طرفين، ويتحول أيضا مغربها بين طرفين، تبلغ حدا من جهة الجنوب في الشتاء، ثم تتراجع ليكون مطلعها منحرفا أكثر إلى جهة الشمال في الصيف. والعكس في الغروب. وبين منزلتيها منازل تتنقل فيها كل يوم. فإن اعتبرت بأقصى الطرفين، كان لها مرتبتان بين المشرقين وبين المغربين، وإن اعتبرت بموقعها كل يوم كان لها مشارق ومغارب وقد عبر القرآن عن الأوضاع المختلفة بالتعبيرين. ليتأمل الإنسان كيف يسير الكون في لطف لا يزعج الإنسان ولا يهزه، ويترتب على تحولات مطالع الشمس وغروبها آثار صالحة لحياة الإنسان وما على الأرض من أشجار ومزارع وحيوان. آثار معروفة، وآثار حقيقية ولكنها ما تزال مجهولة.

- في التصرف الإلهي في مسار الشمس ووضع الأرض منها، والألطاف التي حفت بمسارتها آيات دالة على نعم الله فهل يستطيع أحد إنكارها.

19←21، مرج البحرين...تكذبان.

مرج البحرين.. أرسل سبحانه البحرين المختلفين عذوبة وملوحة، الأنهار العظيمة التي تصب في البحر المالح، فلا تتحول الأنهار مالحة ولا البحار حلوة. أرسلتهما

قدرة حكيمة بلغت بكل واحد مركز تلاق مع الآخر. وأقامت بينهما قوة من التدافع ليحتفظ كل منهما بخصائصه.

– تعيشون مع هاتين الظاهرتين، ويتم انتفاعكم بهما، وهي نعم لاحد لها، فبأي نعم الله تجحدون.

23←24- يخرج منهما...تكذبان.

كما عددت الآيات السابقة ضروريات الحياة، وانتظام أمرها بحسن التقدير، والتقابل بين المكونات؛ ذكر في هذه الآية ما يعد زينة وجمالا، منوها بما يخرج من البحر من اللؤلؤ والمرجان. وهما زينة للنحور والمعاصم والآذان. أسورة وقلائد، وأقراط. ويؤخذ اللؤلؤ من أصداف يستخرجها الغواصون من قاع البحر وبمقدار ما تكون أضخم وأصفى وأشد بريقا تزداد قيمتها. ويتنافس فيها أصحاب الثراء. ولا تتكون إلا في البحر المالح. وأما المرجان فهو حيوان بحري ينمو في قاع البحر في أماكن خاصة، ويحمر لونه ويتصلب بمقدار ما تطول حياته في البحر. وله ألوان متفاوتة في الجمال. ومن أجملها ما يخرج من البحر الأبيض المتوسط شمال تونس. ولما كان اللؤلؤ والمرجان لا يوجدان إلا في البحر المالح، وجاء الضمير مثنى " يخرج منهما" فقد أوله الزجاج أن نسبة الخروج إليهما هي كنسبة القمر إلى السماوات السبع في قوله تعالى : (**ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا وجعل القمر فيهن نورا**)[1] مع أن القمر في السماء الدنيا. وحمله الفارسي على حذف مضاف كقوله تعالى: (**وقالوا لو نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم**)[2] أي على رجل من إحدى القريتين.

– تكرير للفت الأنظار لنعمه التي اختص بها سبحانه.

24- وله الجواري...تكذبان.

السفن التي تجري في البحر فتنقل البشر والسلع، مملوكة لله وحده. هو الذي ألهم الإنسان قوانين صنعها، وأودع في البحر قوة دافعة إلى الأعلى بها تم سير الفلك بحمولاتها في البحر.كما ألهم البشر صنع الشراع الذي باندفاع الريح فيه تتنقل السفن بسرعة. ثم ألهم البشر صنع المحركات إلى أن بلغت في عصرنا المحركات النّووية. وتحقق فيها قوله تعالى: **كالأعلام**، كأنها جبال تجري على سطح البحر.

– فبأي نعم الله لا تعتبرون فتنكرونها. فهذه نعم دامغة للإنكار.

---

[1] سورة نوح آية 16/15

[2] سورة الزخرف آية 31

﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ
عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾
فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾
يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ
ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

وجه ربك : ذاته سبحانه المنزهة عن كل تشبيه لا يلحقه تغير ولا فناء.

ذو الجلال : صاحب العظمة.

معشر : الجمع العظيم الذي يعد عشرة عشرة.

الأقطار: جمع قطر. وهي النّاحية الواسعة من مكان أوسع.

شواظ : لهب لا يخالطه دخان.

النحاس : يطلق ويراد منه إما المعدن المذاب، وإما الدخان الغالب على اللهب.

السيما : العلامة.

النواصي : شعر مقدم الرأس.

الطواف : ترداد المشي.

الحميم :الماء المغلي.

آن: شديد الحرارة.

بيان المعنى الإجمالي :

القانون الذي تخضع له الكائنات جميعها. هو قانون الفناء. واختص ربنا سبحانه بالكمال والبقاء فلا يلحقه تغير ولا فناء. إنه الجامع لصفات العظمة يخضع كل شيء لسلطانه، الكريم الذي يمنح فضله لخلقه تكرما.

كما تفرد سبحانه بأن كل موجود في السماء أو في الأرض يسأله بلسان مقاله أو بلسان حاله، حاجاته المتجددة في كل لحظة. وهو يصرف شؤون خلقه تبعا لعلمه وحكمته، دون أن يشغله أمر عن أمر.

ستعودون إليّ وقد انتهى سؤالكم ليتم ما هو موكول لكم مما تشعرون به وما لا تشعرون. ولا يبقى إلا أمر واحد، هو ما أعتني به يوم القيامة، هو جزاؤكم عما قدمتم. سنفرغ لكم أيها الثقلان. فبأي نعم ربكما تكذبان.

أيتها الجماعات من الجن الإنس، إن حوصرتم، وتحققتم قرب تسلط العذاب عليكم، فإن فَتَحَتْ لكم مداركَكم أنكم تستطيعون الانفلات من قبضتي بالفرار في النّواحي الفسيحة من السماوات والأرض، انفذوا فيها إن استطعتم، ولكنكم لا تستطيعون. إن النّفاذ منها متوقف على قدرات لا تملكون منها شيئا. فبأي آلاء ربكما تكذبان.

من أسباب عجزهم عن الانفلات مما هم فيه في أقطار السماوات والأرض، أنهم معرضون للهب أشد ما يكون حرارة، وإلى لهب مغموم بالدخان يخنق الأنفاس. فلا تجدون منهما نصيرا يحميكم أو يدفع عنكم.

إنه اليوم الذي يتشقق فيه أديم السماء، تذهب زرقتها وتنقلب إلى لون الورد الكَدِر كدردي الزيت. في هذا اليوم لا يسأل عن ذنبه سؤال تقرير أي أحد لا من الإنس ولا من الجان. إن إيقاظكم لما سيحل بكم نعمة من الله، فأي نعم الله تنكرون ؟

في هذا اليوم تظهر علامات واضحة على المجرمين تعرف بهم، لتأخذهم ملائكة العذاب إلى مصيرهم، يمسكون بهم من نواصيهم ويجمعونها إلى أرجلهم بارزة صدورهم. أخذ إذلال وتمكن، لا يستطيعون الانفلات منه. أيقظناكم لما يترصدكم فأي نعم الله تنكرون.

ويسمعون صوت ملائكة العذاب تقرعهم وتوبخهم قائلين: هذه جهنم التي كنتم تكذبون بها أيها المجرمون، وتزعمون أنه لا بعث ولا حساب ولا عقاب. ذوقوا حرها. وهم في جهنم في جري لاهث بين حر النّار، وبين ماء أشد ما يكون حرارة يزداد لهبهم إذا شربوا منه. نَبَّهْتُكُمْ نعمة منا، فأي آيات الله ونعمه تنكرون. توبيخا لهم لإنكارهم نعمة الرسل، ونعمة ما كشفوا لهم من العاقبة.

بيان المعنى العام :

26←28-كل من عليها...تكذبان.

كل من على الأرض من البشر والحيوانات، والشجر والنبات، وكل عناصر الأرض، الكل كتب عليه الفناء. فلا بقاء لأي شيء مما تعمر به الأرض. وفناء الكائنات بفعل ربك يا محمد، فهو الذي لا يلحقه فناء وهو الباقي بقاء أبديا. والمراد بوجهه تعالى ذاته العلية المنزهة عن كل تشبيه وتصور. ووُصِفَ وصفا يدل على كماله المطلق، فهو المتصف بالجلال، العظمة التي تناسب تنزهه عن كل نقص، واتصافه بصفات الكمال المطلق. وهو الكريم الذي تفضل على الخلق بما يسديه إليهم تكرما ونعمة. يقول سيد قطب رحمه الله: وإنها لنعمة بل هي أساس النّعم كلها جميعا. فمن حقيقة الوجود الباقي ينبثق كل هذا الخلق؛ وناموسه ونظامه وخصائصه. كما تستقر سننه وقيمه ومآله وجزاؤه. والحي الباقي هو الذي يخلق ويبدع، وهو الذي يحفظ ويكلأ، وهو الذي يحاسب ويجزي. وهو الذي يشرف من أفق البقاء على ساحة الفناء. فمن حقيقة البقاء إذن تنبثق جميع الآلاء. وما يبزغ هذا العالم وما يستقيم أمره إلا ووراءه هذه الحقيقة، حقيقة البقاء وراء الفناء. في ظلال القرآن ج27 ص 122. **فبأي آلاء ربكما تكذبان.**

29←30-يسأله من في السماوات...تكذبان.

سؤال من في السماوات والأرض لله بلسان الحال أو بلسان المقال. أنه هو الباقي المتصرف في كل جزء من أجزاء الكون الفسيح. إذ كل كائن محتاج احتياجا أساسيا، في كل شأن من شؤونه، أن يستمده من الخالق الباقي في كل لحظة من اللحظات. وعندما يحجب هذا الامداد يذوب الكائن من الوجود. فتطور كل خلية في الإنسان، والتحولات التي تجري على ذاته من الهدم والبناء، وما يحصل في ذهنه من المعارف، وما يفلت من خزائنه، وما يعقده من صفقات، وما يبنيه من علاقات، وصحته وسقمه، وكسبه وحرمانه....... كل ذلك يسأله الإنسان ربه ليمكنه منه سواء أكان سؤاله ناشئا عن شعوره بالاحتياج، أو كان غافلا عنه فيصرف سبحانه قوانين الخلق حسبما سطره. وهذا التصور ينفي ما ذهب إليه بعض الفلاسفة من أن الله سبحانه خلق الكون وأعطاه قوانينه وتركه وشأنه واستغرق متأملا في كمالاته. ففي كل لحظة هو في شأن تتجمع فيها جميع شؤون الخلق فيصرفها حسب علمه وحكمته وإرادته، دون أن يشغله أمر عن أمر. ويختم ذلك بتهديد الثقلين: من لم يقر بهذه الحقيقة التي أقام عليها الخلق.

31←32- سنفرغ لكم...تكذبان.

هذا تعبير يفيد أن المخاطب غافل عن مراقبة المتكلم له، مشغول عنه، فينبهه إلى أنه مخطئ في هذا التصور، وأنه سيخصص له عنايته. وقد يكون ذلك في الخير كما تقول سأفرغ في هذا العام لتعليم ولدي. وقد يكون ذلك تهديدا بالانتقام بسبب تهاون المخاطب بما هو مطالب به. والذي فهمه معظم المفسرين أنه تهديد للثقلين. وليس المعنى الحقيقي مرادا قطعا. فالله سبحانه لا يشغله شيء عن شيء. فخرج الكلام على أن المراد به، أنكم ستبعثون يوم القيامة، وتنتهي يومها طلباتكم، وحاجاتكم، فينتهي مصداق قوله : **كل يوم هو في شأن**. فلا يبقى إلا شأن واحد، وهو الحكم على الخلق بما قدموا. والثقلان هما الإنس والجان.

-إن هذه العناية الربانية بالثقلين تستدعي من المخاطبين أن يتذكروها دائما، وأن لا ينكروها. فيسألهم أي نعمة من نعمه تنكرونها.

33←34 : يا معشر الجن والإنس...تكذبان.

يخاطب القرآن جماعات الإنس والجان، يخاطبهم جماعسات عشرة فجماعات عشرة، مما ينبئ أنهم عاجزون عن تحقيق التحدي ولو اجتمعوا، فضلا عن كونهم فرادى. ما هو خطاب التحدي ؟ إن سمحت لكم قدراتكم، أن تفروا من قبضتنا، فتنفذون من أي ناحية من نواحي الأرض، أو في أي ناحية من نواحي السماء، فافعلوا. وبما أن التصرف في السماوات والأرض هو في قبضتنا، وهي ملكنا. فأنتم لا تملكون السلطان والقدرة على الخروج من تصرفنا. فأنتم عاجزون قطعا. وهذا التفسير ذاهب إلى أن التحدي هو في الدنيا. ويمكن أن يحمل على أنه تحد في الآخرة. فبعد أن هددهم بأنهم سيحشرون إليه، وينفذ فيهم ما قدره لهم يوم القيامة (**سنفرغ لكم أيها الثقلان**) يدور بخلدهم أن يفروا من الموقف، فيقول لهم هذه نواحي السماء والأرض مفتوحة أمامكم ففروا إن استطعتم، ولكن الفرار لابد أن يستند إلى قوة وقدرة، وأنتم لا تملكون في ذلك اليوم شيئا.

34- يقال ما قيل في سابقه.

35←36-يرسل عليكما شواظ...تكذبان.

لما تحداهم لينفلتوا من أقطار السماوات والأرض. عقب ذلك بأن الله رتب أن يرسل عليهم عند محاولتهم النّفاذ من أقطار السموات والأرض، لهبا خالصا من الدخان تبلغ حرارته أشد الدرجات. وهو ما يلاحظ عند السباكين أنهم يرسلون على المعدن لهبا قويا صافيا يميل إلى الزرقة يذيبه ويطوعه للشكل الذي يرغبون فيه. كما

تلاقون نوعا آخر غطى فيه الدخان النّار فيدخل في أنفاسكم ويخنقكم. ولا تجدون مخلصا منهما ولا ناصرا يحول بينكم وبين عذابهما.

36- يقال ما قيل في سابقه.

37←40- فإذا انشقت السماء..تكذبان

تفصيل لأهوال يوم القيامة. أول تصوير هو للسماء وقد تشققت فذهبت تلك الصفحة الزرقاء التي تلف الأرض بجمالها ليلا ونهارا. وكل ملتئم إذا تشقق ذهب بهاؤه. فيحمر أديمها. ويُقَرِّبُ ذلك ما يحدث قرب حدوث الأعاصير أن يحمر وجه السماء بما يغشي الطبقات الدنيا من الجو مما سفته الرياح من الرمال، فيكون الجو ثقيلا يبعث في النّفس الحزن والوحشة. إن لونها ليس لون الورد الجميل المنعش، ولكنه لون كدر كلون دردي الزيت. وقبل أن يأتي بجواب الشرط فإذا انشقت السماء. فَصَلَ بالسؤال: فبأي آلاء ربكما تكذبان.

فإذا انشقت السماء.... في هذا الظرف الذي تتشق فيه السماء، لا يسأل عن ذنبه أي أحد من الثقلين الإنس والجن، بل يجزى بما صنع، ويعاقب على ما قدم. والآية تتحدث عن موقف من مواقف يوم القيامة. ومواقفها متنوعة. موقف يسأل فيه المجرمون عما قدموا ليقروا ويوبخوا، ويفضحوا بشهادة أيديهم وأرجلهم. وموقف يزج بهم في العقاب الذي هم أهل له بدون سؤال. وقد يكون الموقف الأول هو المتقدم زمنا، ويتلوه الموقف الثاني. ويعاد السؤال مكررا في السورة يقررهم هل يجحدون ؟

41←42- يعرف المجرمون...تكذبان.

تتميم للآية السابقة تفيد أن المجرمين لا يسألون عن ذنوبهم في الموقف الخاص من مواقف يوم القيامة. وذلك لتميزهم بعلامة تُعَرِّفُ بهم ملائكة العذاب، فيأخذونهم أخذ تمكن وإذلال. يربط مقدم رؤوسهم إلى أرجلهم فتنعكس هامتهم إلى الوراء وتبرز صدورهم، ويجرُّون إلى جهنم جرا على هذه الصورة. كيف تنكرون نعمة الله عليكم إذ نبهتكم مقدما إلى ما ستؤولون إليه.

43←45: هذه جهنم التي...تكذبان.

بعد أن رُبِط مقدم رؤوسهم إلى أعقابهم وألقوا في جهنم، يسمعون من الموكلين بتعذيبهم :هذه جهنم التي كان المجرمون يكذبون بها، وقد ألقيتم فيها، توبيخا لهم على مواقفهم السابقة، وإظهارا للنكال بهم. ووصفت الآية شيئا من ألوان النّكال في جهنم، فكلما أحرقتهم نارها الموقدة، حميت بواطنهم والتهبت، فيفزعون إلى مسيل

يظنونه يطفئ لهيبهم. فيسقون من حميم بالغ الحـرارة. فيفـرون منـه إلـى حـر جهـنم، ويعاودون الكرة نحو الماء الحميم، وهكذا هو وضعهم بـين قعـر جهـنم وبـين الحمـيم. نبهناكم فبأي آلاء ربكما تكذبان.

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾
فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ
فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ
جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾

بيان معاني الألفاظ :

مقام: عظمة ربه.

الأفنان : جمع فنن، الغصن الجديد المتميز بجماله وحمله للأزهار والثمار.

متكئين : جالسين في وضع يجمع بين اليقظة والراحة.

الفرش : سرر.

بطائن : الوجه الأسفل.

الاستبرق :رفيع الديباج الغليظ المنسوج من الحرير المنقوش.

دان : قريب تناوله.

بيان المعنى الإجمالي :

يُمَلِّك الله من كان مستشعرا في حياته جلال ربه، ويسـعى لتنفيـذ مـا أمـره بـه، ويبتعـد عما نهاه عنه. يخاف أن يكون في أي لحظـة فـي موقـف لا يرضـى عنـه ربـه فيـه. يُمَلِّكه في الآخرة جنتين، تجمـع كـل واحـدة منهمـا مـن أنـواع النّعـيم مـا يتجـاوز التصور. تكسو أشجارهما بصفة دائمـة، أغصـان جديـدة تجمـع بـين تكـاثف الأوراق، والزهور والثمار. يتواصل رواء كـل منهمـا بعـين جاريـة لا ينقطـع مـددها. ويتنـوع الثمر تنوعا كل نوع له نظيره الذي يختلـف عنـه مـذاقا ونكهـة وطيـب رائحـة. فـأي آيات الله تجحدان. يغمرهم الهناء فهم جالسون جلسـة المطمـئن علـى سـرر، أسـفل مـا

غلفت به من الحرير المزخرف. وإذا كان الأسفل من الحرير القوي المزخرف، فلا تسل عن الظواهر التي تكون العناية بها أكبر. وهم في وضعهم ذاك تقترب منهم أفنان الشجر فيقطفون منها ما شاؤوا.

يسر الله لمن خاف مقام ربه، أزواجا على حظ كبير من الجمال، تتكسر أهدابهن الطويلة لتسكب عليهن أنوثة وإغراء. لم يستمتع بهن قبل أزواجهم أحد لا إنس ولا جان. فما عرفن قبل أزواجهم أيا كان. لبياض بشرتهن وصفائها ولمعانها، ولحمرة شفاههن وتورد خدودهن تقول قد جمع في خلقتهن بين الياقوت بصفائه ولمعانه، وبين المرجان بحمرته. فأخذ منهما كل جزء من أبدانهن ما يليق به. فبأي آلاء ربكما تكذبان.

إنه لا جزاء للإحسان في العمل، إلا الإحسان في الثواب. وهذا شأن الكريم المتفضل سبحانه. فبأي آلاء ربكما تكذبان.

بيان المعنى العام :

46←61-ولمن خاف مقام ربه...تكذبان.

بعد أن بسط مآل الكافرين المجرمين يوم القيامة، وما ينتظرهم من صنوف العذاب الحسي والمعنوي، أتبعه ببسط ما أعده للمنعمين. فصرح بأخص وصف كان يلازمهم في حياتهم، الذي هو سبب ما يكرمهم به من صنوف النّعيم. هو الخوف من جلال ربهم، ومعنى خوف مقام ربهم خوفهم من موقفهم يوم القيامة. فهم يستحضرون دائما أنهم موقوفون بين يدي ربهم للحساب، مما يحرضهم على أداء الواجبات، والبعد عما نهاهم عنه. كما يمكن أن يفهم مقام ربه: أنه يستحضر جلال الله وعظمته فهو يسرع إلى أداء ما أمره به، ويخشى أن يطلع عليه ربه في المواقف التي نهاه عنها فيحميه الخوف من انتهاك حرماته. وحسب الظّاهر أن لكل مكرم من هؤلاء الذين خافوا مقام ربهم جنتان. يجد في كل جنة من ضروب النّعيم والراحة، والسرور ما لا يعلمه إلا الله. فبأي آلاء ربكما تكذبان.

- **ذواتا أفنان** : الوصف التالي للجنتين هو أن نضارتهما بما اكتسته أشجارهما من فروع متجددة، بنضيد أوراقها الخضر وبالزهور وبالثمار. ذلك أن الحامل للأوراق اليانعة والزهور والثمار مقصور على الفروع الجديدة. فبأي آلاء ربكما تكذبان.

- تلكم الأشجار المكسوة بأفنان كثيفة السورق، تحقق لها ذلك بالري المستمر من العين المتدفقة بالماء الصافي في كل جنة منهما، عين بكل جنة تجري ماء لا تنضب. ولا يركد الماء فيأسن. بما توفر لأشجار الجنتين من الأفنان المتجددة،

والماء الجاري، فهي تحمل من أنواع الفاكهة زوجان. وهل إن معنى الزوجين، أن إحداهما تشاكل فاكهة الدنيا، والأخرى لها مذاق وشكل مشابه ولكنه مما لم يعرف في الحياة الدنيا؟ وحمله بعضهم على أن التثنية مراد بها الجمع، من كل فاكهة أنواع، روعيت التثنية عوض الجمع للتناسق بين الآي التي جاءت بصيغة التثنية. **تكذبان، زوجان، جنتان، عينان، تجريان.**

– وصفت الآية صورا من نعيم أهل الجنة تدل على ما وراءها. نشاطهم موفور لا يلحقهم الإعياء فيرغبون في النّوم، ولا يشمرون عن سواعدهم للعمل، فهم على أتم ما يكون من الراحة، هم متكئون على فرش، الوجه الخفي منها حرير منقوش، وظاهرها أنفس من ذلك شأن تميز الظاهر على الباطن. وهم في إقامتهم تدنو منهم الأفنان فيقطفون من ثمارها ما لذ وطاب.. **فبأي آلاء ربكما تكذبان.**

– ثم تحدث القرآن عن زوجات الذين خافوا مقام ربهم فوصفتهن أولا: أنهن قاصرات الطرف، وقصر الطرف يطلق ويراد منه انكسار في الأهداب، مع طولها، يسبغ على صاحبته جمالا وأنوثة، مما يحار معه النّاظر هل هي أشد وسامة عندما تفتح عينيها، أو عندما تنظر تلكم النّظرة المملوءة بالرقة والإغراء. كما يطلق ويراد منه إعجاب المرأة بزوجها إعجابا يجعلها لا تنظر لغيره من الرجال، لأنه قد ملأ عليها حياتها من جميع النّواحي. لقد بلغ حبها لزوجها أقصى مداه.

الوصف الثاني: أنهن لم يستمتع بهن أحد قبل أزواجهم. الطمث دم افتضاض البكارة. وعطف الجان على الإنس لتأكيد عدم المس من المعروف والمتخيل. أو على معنى أن المنعمين من الجن يهيء الله لهن زوجات كزيجات المنعمين من النّاس. **فبأي آلاء ربكما تكذبان.**

ثم وصفهن بصفاء البشرة وبريقها. جمعن بين بياض الياقوت في الأعناق والنحور، والأيدي والسواعد، وبين الحمرة في الشفاه والخدود. **فبأي آلاء ربكما تكذبان.**

61/60–استفهام في معنى النّفي مع السؤال. لا جزاء لمن أحسن في عمله، فأداه على خير ما ينبغي أن ينجز، لا جزاء له في عدلنا وكرمنا، إلا أن يجازى بالإحسان في الثواب، ونول أفضل الجزاء. **فبأي آلاء ربكما تكذبان.**

﴿٦٢﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٤﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٥﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٦﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ
﴿٦٨﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٠﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ

حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِي ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

مدهامتان: خضرتهما قوية تميل إلى السواد.

نضاختان : فوارتان بالماء.

الرفرف : ما تدلى من الأسرة. أو ضرب من البسط.

عبقري: منسوب إلى عبقر، أكمل الصناع مهارة.

تبارك : عظمت بركاته، وكثرت خيراته، وعم نفعه.

الجلال : العظمة.

بيان المعنى الإجمالي :

وأقل رتبة من تلك الجنتين جنتان، أعدت الجنتان الأوليان للسابقين الأولين، وأعدت الجنتان في هذه الآية لأصحاب اليمين. من صفاتهما أن أشجارهما شديدة الخضرة كثيفة الأغصان والأوراق. خلق الله في كل واحدة منهما عين دافقة بالماء، يجد سكانهما أنواع الفواكه، والنخل الحامل للتمور والرطب، والرمان. **فبأي آلاء ربكما تكذبان.**

يسكن الجنات زيجات للخائفين مقام ربهم جمعن بين طيب النّفس وحسن الخلق، فهن خيرات، حور، صفا بياض عيونهن ,واسود إنسانها. يجدن راحتهن في ملازمة خيامهن من الدر. لم يتصل بهن قبل أزواجهن أي كان، لا من الإنس ولا من الجان. تلك نعم لاشك فيها، **فبأي آلاء الله تكذبان.**

أصحاب الجنتين من الطبقة الخائفين مقام ربهم، هم على أتم ما يكون من الطمأنينة وراحة البال، متكئون على أسرتهم المغطاة ببسط خضراء اللون، بلغت غاية ما يتصور من الإتقان وجمال المظهر.

كثرت خيرات ربك يا محمد وعظمت عطاياه، وفاق كرمه كل تصور. ربك العظيم الجامع لصفات الكمال اللائقة به، الذي ليس لكرمه حد.

بيان المعنى العام:

62←69- ومن دونهما جنتان...تكذبان.

يفهم التركيب : من دونهما، أن هاتين الجنتين للمنعمين برضوان الله، تنضم هاتان الجنتان للجنتين الموصوفتين سابقا فيكون لمن خاف ربه أربع جنات. كما يمكن أن يفهم أن القرآن تحدث عما أعد للسابقين الأولين، ثم تحدث عما أعد لأصحاب اليمين، وهم دونهم في الفضل، ودونهم في الجزاء. وصفت خضرة الجنتين أنها تميل إلى السواد. والراجح هو التأويل الثاني، إذ نص في الجنتين في الآيات السابقة بأنهما ذواتا أفنان، والأفنان تغطي الشجر عندما يكون نماؤها متواصلا، وخضرتهما عند الأطراف خضرة الشباب الذي يزداد قوة عندما يكسو تلك الأفنان أفنان جدد. وفي هذا المشهد الخضرة قوية مما يدل على الخصب، ولكن دون أن يكون النّماء متواصلا بالأغصان اللدنة.

تفور كل عين في الجنتين بالماء. والماء في المشهد الأول ينساب رقراقا جاريا يروي كل جزء من أجزاء الجنتين، أما هنا فلم يوصف إلا بانه يخرج فوارا. ثم نصت الآية على ما تحمله الأشجار فذكر أنها تحمل مختلف أنواع الفاكهة، والرطب والتمر، والرمان. وكلمة الفاكهة تشمل التمر والرمان، فيكون التنصيص عليه بذلك لمزيد الاعتناء به. وإن كان المشهد الأول أبلغ في النّعيم، لقوله تعالى فيه، **من كل فاكهة زوجان**. وتخلل الآيات التذكير بقوله: **فبأي آلاء ربكما تكذبان.**

70←78 : فيهن خيرات...الجلال والإكرام.

وإذ أتم وصف الجنتين، وما تجمع فيهما من خصائص، تغري بالعمل لبلوغ التنعم فيهما. عقب بالتنويه بالنساء اللاتي يقمن بالجنتين. فعرف أولا بتركيبهن النّفسي، إنهن خيرات. والياء في خيرات تشدد وتسكن والمعنى واحد. أي نفوسهن طاهرة رفيعة، يتمتعن بأخلاق رفيعة، ولطف يسمو بقيمتهن. ومع ذلك فقد وهبهن الله من الجمال والحسن والوسامة الشيء الكثير المغري، وخص الحديث عن عيونهن واصفا لها بالحور وهو سُعة الحدقة مع شدة بياض البياض، وسواد السواد. لا تتعلق نفوسهن بالتطواف والخروج من أماكن إقامتهن.وهذا شأن الرفيعات المقدار في الدنيا يقول أبو قيس بن الأسلت الأنصاري :

ويكرمها جاراتها فَيَزُرْنَها ***وتَعْتَلُّ عن إتيانهن فَتُعْذَرُ

فهن في خيامهن مقيمات راضيات سعيدات بذلك. وقد يفهم من النّص أن كل حوراء لها خيمتها في فسيح الجنة. نقل عن عمر رضي الله عنه أن خيمة كل منهن من در مجوف، مما لا عين رأت مثله. تعلقهن بأزواجهن في الجنة تعلق العذراء التي لم

تتصل قبله ولا بعده بغيره، ولا تفكر إلا فيه. فهن طاهرات عفيفات لم يتصل بهن قبل أزواجهن في الجنة أي كان. **فبأي آلاء ربكما تكذبان.**

-**متكئين على فرش بطائنها من استبرق.** والرفرف ضرب من الفرش يبسط على الفراش. فوصفت فرشهم بأنها قد جمعت من اتقان الصنع وجمال المنظر الحد البالغ. جرت عادة العرب أنهم ينسبون كل شيء فائق في إتقانه إلى عبقر. كأنه لكمال صنعه وجماله وإتقانه مما لا ينجز مثله إلا الجن. بناء على وهم أن الجن أقدر من الإنس. راعى فيها صانعها أصول الفن الجمالي." حسان " **فبأي آلاء ربكما تكذبان.**

- تتابع من أول السورة ما لله من نعم ابتداء من تعليمه القرآن إلى ما أعده للخائفين، من أنواع التكريم في الجنة. وقد امتلأت النّفس من إدراك لجلاله وكماله، ورعايته للبشر، فعبر عن هذا الحاصل النّفسي بقوله، **تبارك اسم ربك.** عظم فضله، وكثرت خيراته، وجلت نعمه. وأسند فعل "**تبارك** " إلى اسم الله، مع أن الذي تبارك هو الله، لتحقيق المبالغة في وصفه بالبركة، فإذا تبارك اسمه، فذاته العلية أجدر بالبركة. وأُسْنِدَ إلى كلمة " **ربك** "بما توحي به كلمة الرب من العناية والرعاية والفضل. وأضيف إلى الضمير المعبر عن محمد ﷺ ، إذ بفضله صح يقيننا وتصوُرُنَا للحقائق، وكل الخيرات إنما بلغناها بسببه ﷺ.

وتختم السورة بالتصريح بوصفين من صفاته القديمة، فهو المختص بالجلال الكامل والعظمة. وبأنه هو صاحب الكرم الذي لا يحد. وما ذكر في الجنات من خيرات تقدم خير تقديم لهذا الوصف: **والإكرام.**

تكرر ختم المقاطع في هذه السورة بقوله تعالى: **فبأي آلاء ربكما تكذبان.** إن الآلاء المنوه بها المتكررة منها ما كان حاصلا في الدنيا. ومنها ما كان ذكره يؤكد على السامعين الاعتراف به ويسأل البشر أينكرون شيئا مما تلي عليهم؟.

سورة الواقعة

هذا هو الاسم المجمع عليه في المصاحف، وفي كتب التفسير والسنة. أخذ اسمها من الآية الأولى فيها. قال ابن عطية:(أجمع من يعتد به من المفسرين على أنها سورة مكية ج14 ص226) رتبتها حسب ترتيب المصحف :السادسة والخمسون. وحسب ترتيب النّزول :السادسة والأربعون. نزلت بعد سورة طـه، وقبل سورة الشعراء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الواقعة : يوم القيامة

الرج : الهز والاضطراب العنيف.

بست : تفتتت إلى أجزاء صغيرة.

الهباء : ما يتطاير من الأجزاء الدقيقة.

المنبث : الشائع في الهواء

أزواجا : أصنافا.

ثلة : الجماعة من النّاس.

بيان المعنى الإجمالي :

إذا حدثت الحادثة العظمى، يزول إنكار من كان ينكرها. وينقلب كل شيء فمن كان فاسدا رفيعا متعاليا يخفضه الله ويذله، ومن كان تقيا مغلوبا على أمره محتقرا يعزه الله ويرفعه. قمم الجبال وأعالي المباني تنخفض إلى القاع، وما كان في باطن

الأرض يطفو على السطح. ترتج الأرض فتزلزل كأشد ما يكون الزلزال، وتتفتت الجبال الصم والصخور فتتحول إلى هباء لا يثبت لخفته في أي مكان. وتصنفون إلى أصناف ثلاثة.

الصنف الأول: أصحاب الميمنة وهم أصحاب اليمين، عبر بنسبتهم إلى اليمن للدلالة على أنهم مكرمون، ولا تسأل عن حالهم فاسمهم يدل على مقامهم.

الصنف الثاني: أصحاب المشأمة وهم أصحاب الشمال. عبر بنسبتهم إلى الشؤم والنكارة للدلالة على أنه أطبق عليهم كل متصورٍ من الخسران. ولا تسل عن حالهم فاسمهم يدلك على ماهم فيه من شر.

الصنف الثالث: السابقون ولا تجد وصفا يعرفهم أبلغ من وصفهم بالسابقين، فهم الخِيَرَةُ من البشر في جنات النّعيم. وشأن الخيار أن يكون قليلا. هم جماعة من أتباع الرسل السابقين، وجمع قليل من أتباع محمد ﷺ . ولكن السابقين من أتباع محمد صلى الله عليه وسلم، أكثر من أتباع السابقين لكل رسول على انفراد.

بيان المعنى العام :

1←6: إذا وقعت الواقعة...منبثا.

افتتاح يثير النّفس لتتلقى ما سيعرض عليها بعد شوق لمعرفته. **إذا وقعت الواقعة**، ماذا سيحدث ؟ سيأتي الجواب في قوله تعالى: **فأصحاب الميمنة**.... والواقعة، علم على القيامة، كالصاخة، والطامة والآزفة. وأطلق عليها الواقعة، باعتبار أن نزولها وحدوثها أمر لا شك فيه. كأنه قيل إذا حدثت الحادثة التي لا بد من وقوعها.

-**ليس لوقعتها كاذبة**. إذا وقعت لا تبقى نفس تنفيها، فتكون بنفيها كاذبة. وقد وقعت مشاهدة. فكل من أنكرها في الدنيا سيصدق بها عند وقوعها.

-**خافضة**.. هي خافضة لأقوام كانوا أعزاء، فينقلبون تافهين لا وزن لهم كالحكام الظلمة، والجبابرة المستقوين على النّاس، وترفع أقواما صالحين ما كان لهم اعتبار في الدنيا، فتحلهم المقام الرفيع اللائق بهم. وهذ المفهوم المعنوي. كما أنها لشدتها تخفض ما كان عاليا على وجه الأرض كالجبال وطوابق المباني، وترفع إلى السطح ما كان خافيا، بعد حدوث الزلازل العظمى والعامة.

– وتتتابع الأوصاف للواقعة تزيد في الكشف عن أهوالها. وتعد النّفوس للاستعداد لها. فالأرض الثابتة تحت أقدامنا ترتج وتزلزل زلزالا عاما يهدم وحدتها. هو رج عظيم لكيانها يشمل جميع أجزائها، فتتفتت إلى قطع صغيرة كأنها طحنت طحنا ناعما، وتتحول صلابتها إلى ذرات متناثرة، كما يلحظه النّاظر في الحزمة الضوئية من دقيق الذرات السابحة في الهواء، المنبثة في فضاء الغرفة.

كما تفتت الأرض بجبالها وصخورها، فكذلك وضعكم يوم القيامة ستكونون أصنافا ثلاثة متميزين.

8←12 : فأصحاب الميمنة... في جنات النّعيم.

إذا وقعت الواقعة، إذا رجت الأرض رجا، وانقسمتم إلى أنواع ثلاثة، جاءت هذه الآيات لتجيب عن هذا الفرض المحقق ولتفصل إجمال الأصناف الثلاثة.
الأصناف الثلاثة الذين هم محل الاهتمام مما سبق، هم أصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة والسابقون. هم يمثلون البشر جميعا يوم القيامة فكل فرد داخل في أحدها.
1) **أصحاب الميمنة** :الميمنة مشتقة من اليمين، وأصلها من اليمن البركة والخير. وأطلق عليه في مواطن أخرى بأصحاب اليمين. وعرفتهم الآية ب" ما أصحاب الميمنة" وما استفهام وأصحاب الميمنة التالية لما خبر عن ما. تدل الآية على أنه إذا أريد تعريفهم فلا أفضل أن يخبر عنهم بذاتهم. كما تقول : محمد ما محمد. والعلم ما العلم. ومكة ما مكة. والروضة ما الروضة. وإطلاق لفظ اليمين عليهم مبناه العرف الاجتماعي، أن المكرم يجعل في الجانب الأيمن، حتى أصبح إطلاق لفظ اليمين دالا على التكريم والعناية. و قال: **وأصحاب الميمنة، ما أصحاب الميمنة،** دون تفصيل لتذهب النّفس في تصور تفاصيل التكريم ما شاءت دون تحديد.وذلك أبلغ من التفصيل. إذ التفصيل تحديد يقف على ما ورد بالنص. وبعد هذه الصورة التي تترك أثرها في النّفس سابحة طليقة، سوف يأتينا في السورة حديث مفصل عنهم في قوله تعالى: **وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين في سدر مخضود.**
2) **أصحاب المشأمة**، وهو اسم مشتق من الشؤم، بما يجمعه من ضر وقبح ومهانة وحيرة. وأطلق عليهم في مواطن أخرى بأصحاب الشمال. وفي العرف الاجتماعي يتشاءمون بالشمال. وعُرِّفَ على النّحو الذي عرف به أصحاب الميمنة لتذهب النّفس في تصور شؤمهم طليقة، ثم سيتعرض لهم بقوله تعالى : **وأصحاب الشمال**
3) **السابقون**، أعيد لفظ "**السابقون**" مرة أخرى. فأخبر عن قوله السابقون، بقوله: **السابقون.** على الملحظ البلاغي سابقا : **وأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة.** أي إن وصفهم بالسابقين لمزايا تجمعت فيهم؛ أبلغ تعبير عنها هو لفظ السابقين. تَصَوُّرُ المتقدم في الخير والفضل في كل ميدان تَجِدْ لفظ السابقين متناولا له.
ثم تناول القرآن تقريب هذا المفهوم للمخاطبين، فوصفهم بأنهم مقربون. اصطفاهم الله، وأسبغ عليهم فيوض رحمته، وأعلى مقاماتهم عنده فعاملهم معاملة المقرب المحبوب. تتوالى عليهم الألطاف الإلهية، والتوفيق حتى تكون الطاعة أحب شيء لنفوسهم، واستحضارهم لجلال الله يبلغ مستوى الحب الخالص لذاته العلية لا طمعا

في ثواب، ولا خوفا من عقاب. وميزهم بالإشارة إليهم الإشارة الحاضرة لهم والمستحضرة [أولئك] منازلهم في جنات النّعيم. وقد كرم الله كل رسول بجماعة آمنت به وبلغت من الإخلاص أعلى المراتب، وفازوا عند ربهم بدرجة السبق. فما تجمّع من أتباع الرسل الذين بلغوا درجة السبق يمثلون ثلة، أي جماعة، وإذا قسمتهم على تعداد الرسل والأنبياء فقد يكون حظ كل رسول أو نبي واحدا أو قريبا من ذلك، وأما بالنسبة للأمة الإسلامية فإنهم يمثلون جمعا أقل من مجموع ما سبقهم من الأمم، ولكنهم أكثر مما وصل إلى هذه المرتبة من كل أمة على انفراد. وهذا الاعتراض ببيان العدد هو مؤكد لنفاسة السابقين وعزتهم.

عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَـٰمًا سَلَـٰمًا ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

موضونة: مخرمة مشبكة بالذهب والياقوت.

أكواب : جمع كوب نوع من الكؤوس التي يشرب فيها الخمر.

أباريق : جمع إبريق ما يصب منه الخمر في الأكواب.

كأس من معين : كؤوس من خمر جارية.

يصدعون : الإصابة بالصداع.

النزف : اختلاط العقل.

اللغو من الكلام :الهذيان وما لا يعتد به.

التأثيم : الكلام الذي يتبعه لوم وإنكار.

بيان المعنى الإجمالي:

اطمأنوا لما هم فيه من النّعيم، ولا يكدر حياتهم في الجنة أي مكدر. فهم متكئون على سرر مخرمة بالذهب والحجارة الكريمة. تجمعهم مجالس الأنس بمن يحبون. سخر الله لهم ولدان باقون على نضارة الصبا، يحملون أواني مختلفة من خمر الجنة التي لا ينقطع مددها. يشربونها فتحدث فيهم نشوة تضاعف شعورهم بالسعادة دون

أن يصيبهم صداع أو تختل مداركهم أو ألسنتهم. ويحمل لهم الولدان ما شاؤوا من فواكه الجنة، وما يشتهونه من لحوم الطير. وفوق ذلك يتم أنسهم بزيجات بلغن من الجمال أتمه، عيونهن كأجمل ما تكون العيون صفاء، وأهداب كالسهام، وصفاء في بشرتهن كأنها في إشراقها درة ما تزال في صدفتها. يبالغ في تكريمهم فيقال لهم إن ربكم رضي منكم ما قدمتموه في الدنيا، وهذا جزاؤكم. وكما تنزهت أسماعهم في الدنيا عن لغو الكلام وما ينكر فكذلك أنتم في الجنة لا تسمعون إلا ما ترتاحون لسمعه، يتكرر التسليم عليهم من كل وارد.

بيان المعنى العام :

16←17- على سرر موضونة...متقابلين.

إنه إذا وصف النّعيم الذي تفضل به رب العزة على المكرمين عنده يوم القيامة، فإنه ينبغي أن يفهم على أنه تقريب بما يقدر البشر أنه أعلى ما يتصور من الفضل والنعيم. وما عند الله خير للأبرار.

فالسابقون، يتفضل عليهم ربهم بالتقريب وهذا أعلى ما يطمحون إليه. وثانيا بأنهم في جنات النّعيم. ثم فصل نعيمهم في الجنات بأنهم متكئون على سرر موضونة، تفوق ما يعرفونه من سرر الملوك، فهي مخرمة بالذهب والياقوت والحجارة الكريمة. هنأ عيشهم، واطمأنوا لما هم عليه من الحياة الآمنة فهم متكئون على سررهم في مجالس تجمعهم بأحبائهم متقابلون، يتشاركون في الحديث في وضع ينظر بعضهم إلى بعض مما يدل على مستواهم الرفيع خلقا وأدبا.

17←21-يطوف عليهم ولدان....مما يشتهون

يقوم على خدمتهم ولدان مخلدون باقون على ماهم عليه من نضارة الصبا، لا يملون من الخدمة ولا يقصرون، كلما رغبوا في خدمة يجدونهم قريبين منهم فهم يطوفون عليهم. يسقونهم مما يحملونه من الأواني المختلفة الأشكال من خمر الجنة الجاري الذي لا ينضب ولا ينقص.

يتناولون من الخمر ما يشاؤون دون أن يجدوا منه صداعا ووجعا في رؤوسهم، ولا يؤثر على مداركهم فتختلط عقولهم، وألسنتهم. تحدث فيهم النّشوة التي تزيدهم قدرة على استيعاب النّعيم.

- شأن الخمر في الدنيا أنه يتناولها شاربوها في أوقات الدعة، والتفكه. وأما الأكل فيقبل عليه النّاس عند الشعور بالحاجة إليه، فلذلك عطف على ما يقوم به الولدان أنهم يقدمون لهم الفاكهة التي يتخيرونها. والفاكهة في الدنيا تشمل اللوز والفستق،

وما شابههما وهي أنواع كثيرة. ويقدمون لهم من لحم الطيور ما يشتهون تناوله. ولحم الطيور يختلف بعضها عن بعض في مذاقها وهي من أجود أنواع اللحوم. فكل ما يرغبون فيه مبذول لهم، نص على ما نص عليه لتصور الكرامة.

22←24- وحور عين...بما كانوا يعملون.

مما أكرم الله به السابقين أن هيأ لهم الإناث الحور العين، بلغت عيونهن أقصى ما يمكن أن يتصور من الصفاء والجمال والأنوثة. هن في صفاء بشرتهن ولمعانها كالدرة التي ما تزال في صدفتها إشراقا وصفاء.

– من أفضل ما يكرم به الإنسان أن ينوه بخصاله، وأن يربط وضعه الحسن، بما قدم من صالح العمل. كما يقال للتلميذ النّجيب عندما يكرم يوم تفوقه في الامتحان: هذا جزاء اجتهادك واستقامتك، وهكذا بالنسبة للسابقين أنهم يجدون تقدير أعمالهم من ربهم الذي كان كل جهدهم في الدنيا أن يبلغوا مبلغ الرضا منه، مع شعورهم بالتقصير، فيرفع عنهم ما كانوا يخشونه من التقصير بالتصريح لهم : أن ما قدم لهم هو جزاء لصالح عملهم، وإن كان هو في الحقيقة من فضل الله.

25←26-لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما...سلاما.

وقد تحول الوصف من التكريم المادي إلى التكريم المعنوي في قوله جزاء بما كانوا يعملون، أتبعه بذكر أنهم تبعا لمستواهم العالي مكانتهم الرفيعة في التعلق بالمكارم واستمتاعهم بطيب الكلام وفضل القول، لا يسمعون في الجنة أي هذيان من الكلام المنحط أو الذي لا فائدة فيه فضلا عن الكلام الذي ينزل إلى دركات اللوم والإنكار. وهم يتلقون من الملائكة ومن بعضهم ومن الداخلين عليهم قولا جميلا هو تكرار السلام، ليكون شعورهم بنعمة السلام الموسيقى التي تتحرك نغماتها في الجنة.

وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾
وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾
وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾
لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

السدر : نوع من الشجر ينبت في جزيرة العرب.

مخضود : منزوع الشوك.

طلح : نوع آخر من الشجر قيل هو شجر الموز.

منضود : نضد بما يحمله من ساقه إلى أعلاه.

مسكوب : مصبوب.

بيان المعنى الإجمالي :

أصحاب اليمين كفاك بهم أنهم أصحاب اليمين وهم أصحاب الميمنة المذكورون من قبل، قدر لهم أنواع من النّعيم، منها أن السدر الذي كان يختص به السلطان لطيب طعمه وحسن رائحته، ينبت في جناتهم ويجنون منه ما يشاؤون. وكذلك شجر الطلح الكثيف أوراقه. وتمتد ظلال الأشجار فلا تزول. وشلالات الماء التي تبهج النّفس وتروي. ينالون ما يشاؤون من مختلف أنواع الفواكه التي لا تنتهي بانتهاء فصولها ولا يحول بينهم وبينها أي حائل. ويتمكنون من الراحة على فرش رفعت على الأسرة. ومما يسره الله لأهل اليمين أنه أنشأ لهم زوجاتهم اللاتي كن معهم في الدنيا إنشاء جديدا جمع بين سماتهن وأضاف عليها مسحة من الشباب والجمال الفائق، ومعهن ما أنشأه من نساء الجنة الحور. يجمعن بين البكارة الدائمة، وبين التودد والتحبب والذكاء، وهن على سن واحدة مفضلة. ذلك كله لأصحاب اليمين. جماعة وافرة من أتباع الرسل السابقين، وجماعة وافرة من أتباع محمد ﷺ.

بيان المعنى العام:

27-وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين.

تحول من الحديث عن السابقين في القسم الأول إلى الحديث عن القسم الثاني، وهم أصحاب اليمين الذين ذكروا في الآية السابقة بقوله تعالى: أصحاب الميمنة. وأعيد التنويه بهم بنفس الطريقة بالسؤال عنهم تثبيتا لرفيع مقامهم أيضاكما ذكر سابقا.

28←34: في سدر مخضود...وفرش مرفوعة.

في سدر مخضود : نزع شوكه. يقول أبو حنيفة [هو الدينوري صاحب كتاب النّبات]السدر من العضاه." نوع من شجر البادية، وهو لونان فمنه عُبْرِيّ، ومنه ضال، فأما العُبري فما لا شوك فيه إلا ما لا يضير، وأما الضال فذو شوك. وللسدر ورق مدورة. قال: ونبق الضال صغار. قال: وأجود نبِق يعلم بأرض العرب نبق هجر، في بقعة واحدة، يحمى للسلطان. وهو أشد نبق يعلم حلاوة، وأطيبه رائحة، يفوح فم آكله وثياب ملابسه كما يفوح بالعطر[1]. فحسب ما ذكره الدينوري هو نبت

[1] تاج العروس ج11 ص526

عزيز يحميه السلطان لنفسه ومن يكرمه. وهو مبذول لأصحاب اليمين في الجنة وقد كانوا يسمعون باسمه ولا يصلون إليه في الدنيا. والطلح: يقول ابو حنيفة : (الطلح أعظم العضاه، وأكثره ورقا، وأشده خضرة، وله شوك ضخام طوال، وشوكه من أقل الشوك أذى. وله برمة [وبرمة السلم أطيب البرم ريحا، وهي صفراء تؤكل طيبة] وليس في العضاه أكثر صمغا منه ولا أضخم، ولا ينبت إلا في أرض غليظة شديدة خصبة وفسر بأنه شجر الموز.

وظل ممدود، ظل متصل فسيح روى البخاري بسنده إلى أبي هريرة ﷺ يبلغ به النّبي ﷺ قال: إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها واقرأوا إن شئتم وظل ممدود فتح الباري ج 10ص251

وماء مسكوب : يسكب لهم أين شاؤوا وكيف شاؤوا. يجري بدون انقطاع. بهذا فسروه، والذي يظهر لي أن القرآن يصف شلالات الماء التي تجمع بين ري الجنات و بهجة المنظر.

وتبذل لهم أنواع الفواكه التي لا تنقطع بانتهاء فصولها كما هو الشأن في الدنيا. لا مقطوعة، ولا ممنوعة. ولا يحول بينهم وبينها أي حائل.

وفرش مرفوعة على أسرة مرتفعة على الأرض مما يجمع بين الإشراف، والراحة.

35←38-إنا أنشأناهن...لأصحاب اليمين.

كما عقب النّعيم المادي للسابقين بما أعد لهم من إناث حور عين زيجات لهم، فإنه يفهم من المقام هنا أن معنى أنشأناهن تعبير عن نساء أصحاب اليمين، فذكرت أن الله أوجدهن على صفات من الكمال، أنشأهن أبكارا بما يشمل نساء أصحاب اليمين في الدنيا ، وما أضافه من نساء خلقن أنفا. عربا جمع عروب وهي المرأة المتحببة لزوجها، التي تعنى بإغرائه بذكائها وغنجها ودلها. وهن أتراب على سن واحدة من نضارة الشباب المستوي السن التي تكون فيه الأنثى في قمة جمالها، لا تفضل إحداهن على غيرها. ما ذكر في الآيات هو ملك لأصحاب اليمين بكل تأكيد. وهو تعداد للنعم لا تحديد لها. فكثير من جنس نعيم السابقين مخول لأصحاب اليمين، ولكن السابقين أعلى منهم درجة.

39←40- ثلة من الأولين...من الآخرين.

أصحاب اليمين منهم جماعة وافرة من أتباع الرسل السابقين، وجماعة وافرة ايضا من أتباع محمد ﷺ .

وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا
بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ
ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾
أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾
فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾
هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

سموم: ريح شديدة الحرارة منزوعة الرطوبة.

الحميم : الماء الشديد الحرارة.

اليحموم : الدخان الأسود.

المترف : المنعم في سرف.

ميقات : مكان موقت حلوله.

مجموعون : مسوقون.

شجر من زقوم : شجر العذاب.

الهيم : جمع أهيم وصف للبعير الذي أصيب بالهيام، يجعله لا يرتوي كلما شرب.

نزلهم : الطعام الذي يكرم به الضيف، القرى.

يوم الدين: يوم القيامة.

بيان المعنى الإجمالي :

اصحاب الشمال، أصحاب المشأمة، لا تسل عن خزيهم وكربهم فإن عذابهم يفوق كل وصف. يحيط بهم من كل مكان ريح شديدة الحر تنفذ نفاذ السم إلى الباطن وماء حار يقطع الأمعاء، وظل دخان كثيف يخنق الأنفاس، لا يجد المستظل به بردا والمقام فيه أسوأ مقام. جازيناهم حسب ما قدموا : إنهم كانوا متعلقين بالترف معرضين عن الإيمان بالحساب، وألفوا الكبائر من الشرك والجرائم، وكانوا إذا نُبهوا يجادلون قائلين : أنعود إلى الحياة بعد الموت وتحولنا إلى تراب وعظام ؟ أنُبعث مع آبائنا الذين ماتوا منذ أزمان؟ قل لهم يا محمد قولا يسفههم : إن الأولين

الذين سبقوا في الوجود وإن الذين جاؤوا بعدهم سيبعثون مجموعين في لحظة واحدة في زمن محدد ومكان معلوم عندنا ضبطناه مقدما. ثم إنكم بسبب ضلالكم وتكذيبكم سنخلق فيكم شهية للأكل لا تستطيعون مقاومتها تدفعكم دفعا إلى الأكل من شجر الزقوم، فتملؤون منه بطونكم رغم بشاعته، ويلهب بواطنكم فتندفعون إلى شراب من حميم يقطع أمعاءكم، تشربون منه وتعاودون، كحال الإبل التي أصيبت بالهيام فهي تشرب وتشرب بدون انقطاع. هذا الموصوف الذي كأنه حاضر أمامكم تشاهدونه هو ما أعد لهم من طعام ضيافتهم في هذا اليوم، فبئس القرى وبئست الضيافة.

بيان المعنى العام :

41←44-وأصحاب الشمال...لا بارد ولا كريم.

أصحاب المشأمة هم أصحاب الشمال، القسم الثالث من البشر يوم القيامة. وتصور ما شئت من الكرب والهم والنكال والعذاب، فهؤلاء هم أصحاب الشمال، ورغم ذلك فتصورك يقصر عن بلوغ حقيقة أوضاعهم. وبعد هذا التهويل، يتعرض القرآن لوصف بعض ما هم عليه. أطبق عليهم السموم الريح الشديدة الحر جفت من الرطوبة، تنفذ كالإبر في البدن. وماء شديد الحرارة يتلهفون للشرب منه فيقطع أمعاءهم. ويميلون إلى ما يخالون ظلا، فيجدونه ظل دخان كثيف من لهب جهنم يخنق أنفاسهم، شديد الحرارة، مركب من الغازات الخبيثة، يخيب ظنهم فيه، لا يجدون فيه بردا وليس فيه أي شيء مما يوجد في الظلال عادة من النّظافة والترتيب الذي يجعل الجلوس فيه متعة. فلا يجدون فيه إلا النّقمة البالغة.

45←48-إنهم كانوا قبل ذلك...أو آباؤنا الأولون.

ما سلط عليهم هو جزاء لما قدموا في الدنيا. إنهم كانوا في الدنيا قبل أن يحضروا إلى الحشر مترفين. والمترف أصله الذي يغرق في النّعيم، ويسرف في الإنفاق على ملذاته. وقد استشكل كيف يكون الترف سببا لكل ذلك النّكال. والذي أفهمه أن الترف مرتبتان: مرتبة الفعل ومرتبة الملكة. أما مرتبة الفعل فتحصل من المؤمن ومن الكافر. وأما مرتبة الملكة فإنها تجعل صاحبها متعلقا بالترف وجد سبيله أو لم يجده، معرضا عن كل سلوك يخالف سبيل الترف، يهزأ من النّهي عنه وممن يجعل عدم الاستجابة لداعيته قيمة في حياته، وبالتالي هو يُكَذِب بأنه سيحاسب على تمتعه المفرط.ولا يكون هذا إلا ممن يكذب بالبعث. ويصر على مواصلة ارتكابه لأعظم الآثام، ومن أعظمها الشرك بالله، وإنه مع إصراره على عظيم الذنوب فإصراره

على ما هو دونها أشد، فهو المتمرد على الضوابط، بينه بين الشر سبب موصول، مات ضميره فلا ينهاه عن جريمة. وقد نصبوا أنفسهم للجدال في البعث، وإنكاره إنكارا شديدا. مجادلين بأنهم إذا تحولوا بعد الموت إلى تراب وعظام متناثرة، فإنه مما لا يقبله العقل أن يبعثوا أحياء وأنهم سيلقون آباءهم الذين ماتوا منذ أمد طويل ويشيرون بهذا إلى أنهم رغم طول زمن موتهم لم يبعثوا، وقد جرى عليهم من البلى أكثر مما سيجري عليهم تبعا لتقادم الزمن.

49←50- قل إن الأولين...يوم معلوم.

اهتمام بالرد عليهم وتسفيه عقولهم، فلذلك افتتحت الآية أمرا رسوله بقوله: قل. إن الأولين الذين مضوا في الأزمان السابقة، والذين التحقوا بهم متأخرين عنهم في الزمان ؛ سيبعثون ويحشرون جميعا. لا على ترتيب موتهم ولكن في يوم واحد وفي مكان محدد. يساقون إلى المحشر الذي حدد زمنه ومكانه. وسيلقون في هذا اليوم ما توعدهم به رسلهم.

51←56- ثم إنكم أيها...يوم الدين.

ثم قل لهم :إنكم أيها الضالون الذين اختلطت عليكم السبل وتهتُم عن طريق الهدى، المكذبون للبعث، لنخلقن فيكم شهية للأكل لا تقاوم، تندفعون من تأثيرها إلى الأكل من شجر من نوع الزقوم الذي سبق وصفه في سورة الدخان في قوله تعالى : (إن شجرة الزقوم ***طعام الأثيم* كالمهل تغلي في البطون *كغلي الحميم**46/43) رغم بشاعة طعمها وشدة حرها تواصلون الأكل منها إلى أن تمتلئ بطونكم، فيلتهب داخلكم، فتقبلون على الشرب من ماء شديد الحرارة يقطع أمعاءكم، ولا تنقطعون رغم ذلك عن الشرب منه، كالإبل التي أصابها الهيام وهو داء يجعلها تواصل الشرب ولا تروى.

-هذا الذي وصف من شجر الزقوم وماء الحميم، هو قِراهم وتكريم استضافتهم، وفي ذلك من التهكم بهم والسخرية منهم ما هو واضح. ويوم الدين هو يوم الجزاء يوم القيامة فيكون جزاؤهم جزاء وفاقا لما قدموه في الدنيا من كفر واستهزاء.

نَحْنُ خَلَقْنَـٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ
ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ
أَمْثَـٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ

﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ
حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

وما نحن بمسبوقين : ولا يغلبنا.

أمثالكم : ذواتا مماثلة لكم.

ننشئكم : نجمع ذراتكم ونبعثها بعثا جديدا.

تحرثون : حرث الأرض شقها للزرع.

حطام : مكسر، محطوم.

ظلتم : صرتم.

تفكهون : مغمومون. معرضون عن الفكاهة.

مغرمون : معذبون.

بيان المعنى الإجمالي :

لا يستطيعون إنكار أن الله هو الذي خلقهم أول مرة، فمن غفلتهم إنكار أن يعيدهم. وهو أهون عليه. ثم حرضهم على التصديق بالبعث لوضوحه. ثم لفت أنظارهم إلى حقائق من أنفسهم تثبت البعث. يتبع الاتصال الجنسي ودفق المني في رحم المرأة أن يتكون الجنين، ويمر بمراحل وتطورات كثيرة، فهل كان لكم أي دور في تحقق تلك التطورات، وهل خلقتم بقدرتكم المولود المكتمل؟ وكما لفت نظرهم إلى البداية لفت نظرهم إلى النّهاية. قدر سبحانه أن يكون الموت قائما بين النّاس يأخذ من شاء في الوقت المقدر، ولا تستطيعون الفرار منه أو تأخيره رغم كراهتكم الشديدة له. ولا يعجزنا أن نبدل منكم ما يماثلكم ونحل فيه أرواحكم، لتحاسبوا. أو نأخذ بعض أجزائكم فننشئها كما أنشأناكم أول مرة في أرحام أمهاتكم بطريقة لا تعلمونها. إنه بكل تأكيد تعلمون كيف أنشأناكم أول مرة فهلا تتذكرون وتتدبرون فتقرون بالبعث.

انظروا متأملين فيما تقومون به من حرث للأرض، ونثر للزريعة، آملين في الفوز بمحاصيل من الحبوب، هل إن بلوغ ما تزرعونه ما يحقق آمالكم هو بأيديكم، أم إنه حاصل بقدرتنا نحن فقط. إنّه لو أردنا أن نجعله فتاتا لفعلنا. وعندها تزول الفكاهة من حديثكم، ويحيط بكم البؤس، وتعبرون عن غمكم بقولكم : إنا هالكون بل نحن محرومون. ليس لكم في هذا الموقف إلا الأسى والحزن. فكما تصرفنا في الحب

فأنبتناه إلى أن بلغ غاية مداه وتحولت الحبة إلى سنبلة كأصلها، فإن ذلك يقوم دليلا على إمكان البعث.

بيان المعنى العام :

57- نحن خلقناكم فلولا تصدقون.

أثبتت هذه الآية أن الله قادر على أن يبعثهم بعد موتهم، استدلالا بأنه هو الذي خلقهم وأخرجهم إلى الوجود في الدنيا بعد أن كانوا معدومين. فإنكارهم للبعث الوارد في قوله تعالى **وكانوا يقولون أئذا متنا...**. مع أنهم لا يستطيعون نفي أن يكون الله هو الذي خلقهم أول مرة، يدل على شدة غفلتهم، فذكروا بتلك الحقيقة، مع تحريضهم على التصديق بالبعث.

58←59-أفرأيتم ما تمنون...نحن الخالقون.

سؤال للمنكرين للبعث: أنتم تقرون أن خلق نسلكم هو تحولات تجري على الماء (المني) الذي تزرعونه في الرحم، فهل تمت التحولات التي جرت على المني بين اليوم الأول و اليوم الذي يولد فيه إنسانا كاملا بفعلكم أو خلقكم، ولا تستطيعون نسبتها إليكم، لجهلكم بتلكم التحولات؛ أم تمت بخلقنا نحن المتصرفون في الكون. وهو ما يقرر ويقرب خلق الإنسان بعد موته.

60←61-نحن قدرنا بينكم...في ما لا تعلمون.

يتابع القرآن تقريب البعث بصورة أخرى من التصرف المشاهد، والذي لا يمكن أن يسند إلا لله. هذه الصورة مقابلة للصورة السابقة من خلق كل إنسان من حيوان منوي تطور إلى أن بلغ الصورة الكاملة للإنسان العاقل دون أن يحس بأي طور فضلا عن أن يكون له تأثير فيه. نحن بعظمتنا وعلمنا وإرادتنا وتفردنا بالتصرف، قدرنا أن نجعل الموت قائما فيكم، يأخذ كل واحد منكم حظه منه في الوقت الذي رتبناه في سابق علمنا، ولا يستطيع أي منكم أن يؤخره أو أن يفر منه مع قوة كراهتكم له. فإذا كان الإنسان بين البداية والنهاية محل تصرف لله وحده، فإعادتكم بعد الموت الذي هو من تقديرنا مما يشهد به العقل، ويقتضيه منطق الأشياء.

إنه لا يعجزنا، حسبما بيناه من تصرفنا في خلقكم من عدم، ثم إماتتكم حسب تقديرنا لا حسب إرادتكم، لا يعجزنا أن نبدل من ذواتكم ذواتا أخرى لها نفس خصائصكم نُحِل فيها أرواحكم. كما لا يعجزنا أن ننشئكم إنشاء جديدا فنأخذ ما بقي منكم وننميه كما نميناكم بعد كونكم منيا. فإخراجكم إلى البعث هو خاضع لإرادتنا، إما

بخلقكم خلقا جديدا، وإما بتطوير ما بقي منكم فتصوره تصويرا بكيفية لا تعلمون تفاصيلها.

62-ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون.

بكل تأكيد إنكم تعلمون يقينا أنا أنشأناكم من عدم، وأنا أوجدناكم بعد أن لم تكونوا من عالم الأحياء، وإن القياس القريب يقتضي أن تعترفوا أن إنشاءكم مرة أخرى هو على مستوى إنشائكم المرة الأولى. هلا تذكرتم بذلك، وأقلعتم عن إنكار البعث! فجمعت الآية بين التحريض والتوبيخ.

63←67- أفرأيتم ما تحرثون...بل نحن محرومون.

استفهام تقريري ملجئ، لا يستطيعون إنكار مضمونه. المستفهم عنه هو المجهود الذي يقومون به لشق الأرض، وبث الحب فيها لينمو ما تزرعونه، ويحمل السنابل. تفكروا في هذا. فهل إن تحقق الغاية من عملكم يتم بقدراتكم وباختياركم ؟

– ليس ذلك لكم، ولا هو من فعلكم. يقوم شاهدا على ذلك أنه لو تعلقت مشيئتنا، أن نجعله فتاتا مدقوقا بما نسلطه عليه من البرد، أو الريح العاصفة، أو الحشرات كالجراد، لفعلنا دون أن يكون لكم أي قدرة على حمايته.

ثم صورت الآية حالتهم بعد هلاك الزرع وذهاب الآمال، بعد أن كانوا مبتهجين ينقلبون إلى حالة من الأسى، ينقلب سرورهم إلى غم ولا يجدون سبيلا للتفكه والترويح عن النفس. فتفكه يراد منه زوال الفكاهة، كقولهم قشر العود أزال قشره. وتواصلون التحسر على ما فات، تتحسرون وأنتم ترون مزارعكم حطاما فتعبرون عن ذلك بقولكم :إنا مهلكون، بل إن الحرمان محيط بنا. بلغ إحساسهم بالتعاسة هذا المستوى، لأنه لا أمل لهم إلا ما يحصلون عليه من متاع الحياة الدنيا. فإذا حرموا منه لم يبق لهم متعلق آخر. والآية تفيد أن الله سيحيي الأموات للبعث كما يحيي النبات في باطن الأرض.

أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

المزن : السحاب.

أجاج : أشد المياه ملوحة.

أورى الزند : حكه بمثله ليخرج منه شرارة يوقد بها.

تذكرة : تذكركم بنار جهنم.

المتاع : ما ينتفع به.

المقوين : النّازلون بالقواء الأرض القفر.

بيان المعنى الإجمالي :

تأملوا في الماء الذي تشربونه وارتبطتِ به حياتكم، الماء الذي ينبت لكم ما تزرعون، أ كان لكم أي دور في إنزاله من السحب، أم نحن الذي أنزلناه. ولو تعلقت إرادتنا بأن نجعله مالحا كأشد ما تكون الملوحة لفعلنا. أليس الواجب عليكم أن تشكروني على ما أنعمت، وأن تعترفوا بالبعث فإن دور الماء في الحياة وإنبات الزرع، يقوم دليلا على قدرة الله في إحيائكم بعد موتكم.

وتأملوا أيضا في انقداح الشرارة من حك عودين فتحصل النّار، هل إن إنشاء الشجر الخاص الذي يقدح النّار من خلقكم أو من خلقنا ولا دور لكم في ذلك؟.النار التي توقظكم لتحصين أنفسكم منها يوم القيامة. والنار التي تجيب حاجة سكان الصحراء فيتدفأوا بها، ويراها السائر على بعد فيؤمها طلبا للقرى. فتحويل الشجر الأخضر نارا فيه ما يدلكم على قدرة الله في تحويل الأشياء، وكذلك بعثكم.

فليكن تأثرك بما لفتنا إليه نظرك من دلائل قدرتنا، ومن نعمنا التي ربما يغفل عنها تبعا لرتابتها، فجدد التأمل فيها ونزه ربك عن كل نقص، واذكره في قلبك بما هو أهل له من التنزيه والشكر وبقولك: سبحان ربي العظيم.

بيان المعنى العام :

68←70- أفرأيتم الماء...فلولا تشكرون.

صلتها بسابقتها بينة، إذ لولا إنزال الماء من السماء ما نبت الزرع. بعد أن اثبتت الآية السابقة نحن خلقناكم...- 57 بأصرح بيان تصرف الله بالخلق، أتبعه بستة مظاهر تؤكد ذلك المفهوم :1-خلق الإنسان من المني المدفوق في الرحم. 2-تقدير الموت حاضرا بين الخلق، يتخطف ما شاء في الوقت المقدر-3النشأة الأولى -4إنبات الزرع إلى أن يبلغ تحوله ما كان عليه أصل الزريعة-5إنزال الماء من السماء- 6 تكوين النّار من الشجر الأخضر.

ألم تنظروا إلى الماء الذي تشربون. الذي هو أحد مقومات استمرار حياتكم، والذي منه كل شيء حي. هل أنتم أنزلتموه من السحب ماء صافيا صالحا للحياة؟ لو تعلقت مشيئتنا بأن نجعله مالحا شديد الملوحة لفعلنا، ولما استمرت حياتكم ولا نبت زرع ولا شجر. فهل كان لكم دخل في ذلكم التقدير العجيب ؟ كان عليكم أن تتأملوا في نعمتي تلك فتقابلونها بالشكر. ومِنْ شكرها أن توقنوا بأن الذي أنزل الماء شرابا وإحياء للأرض بعد موتها قادر على إحيائكم بعد الموت كما أحيى الكائنات بالماء.

71←74- أفرأيتم النّار...باسم ربك العظيم.

المظهر السادس الذي لفت القرآن إليه الأنظار، ألم تتأملوا في التقدير العجيب، النّار التي تشعلونها بقدح عود من شجر خاص على عود آخر فتطير منه شرارة توقد لكم النّار. فهل أنشأتم بقدرتكم هذا النّوع من الشجر الذي له هذه الخاصية، أم ذلك من تصرفنا وخلقنا ؟وهل تأملتم في هذه الشرارة كيف تتكون منها النّار المتأججة. ويعرف هذا الشجر بشجر النّار، كالمرخ، والعفار، والعُشَر، والكَلْخ يقول ابو العلاء المعري :

وإن شرارة وقعت بواد *** لتحرق وحدها سَمُرًا بشرج.

وإذا كانت الشجرة تقتبس من الشجر الأخضر ثم تحرق الشجر العظيم. فهلا نظرتم إلى التقدير العجيب كيف تتولد النّار من الأخضر فتحرق الأخضر. فذلك دليل على قدرتنا في بعثكم بعد موتكم.

- تدبروا فقد جعلنا في النّار التي تقتبسونها من شرارة احتكاك شجر أخضر، جعلناها تذكرة لكم لتتذكروا ما أوعد الله به المعرضين عن هديه من نار جهنم. وجعلناها من ناحية ثانية ينتفع بها الضاربون في القفر المقيمون في القواء أي الصحراء.وكذلك أصحاب البطون الخاوية بما يطبخونه من الطعام، من قويت بطونهم إذا فرغت. وكذلك بما يهتدي به السائرون ليلا للقرى إذا رأوا ضوءها.

- تعمق يا محمد فيما نتلوه عليك من مظاهر فضلي، وقدرتي، وتدبيري. ليكون قلبك مفتوحا دائما على تلكم النّعم، ذاكرا لها، شاكرا لربك عليها. وقد اقترن عرضها بلفت النّظر إلى أنها من نعمه التي تفرد سبحانه بتمكين البشر منها، وليس لأحد فضل فيها. ولذا فليكن قلبك شاكرا لتلك النّعم، مستشعرا دائما ما تقتضيه من التسبيح والتمجيد لذاته العلية. وليكن لسانك رطبا بالتسبيح لربك العظيم.

۞ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الكريم : النّفيس المختص بالمنزلة العالية بين أمثاله من الكتب السماوية.

مكنون :مصون.

المدهن : المظهر خلاف ما يبطن.

بيان المعنى الإجمالي :

وإن افتتحت الآية بكلمة "لا" فهي دالة على إرادة التوكيد بالقسم. والمقسم به هو التنظيم الحكيم لموقع كل نجم من نجوم السماء ومساره إلى خفائه. وإن هذا القسم باعتبار مضمونه قسم عظيم لا حدود لأبعاد المعرفة فيه. لو كنتم على المستوى الذي تتجاوزون الظواهر إلى ما وراءها من الحقائق لتبحثوا عنها وتعلموها. والمقسم عليه هو أن القرآن كتاب مضبوط، مصون عند الله،لا يصل إليه إلا الملائكة المقربون المطهرون من جميع الأدناس. منزل من رب العالمين الذي خلقكم ويسر لكم بهذا الكتاب سبيل الهدية والفوز.

عجبا لكم ما أشد انحرافكم عن الحق! أبهذا الحديث القرآني أنتم تُمَالِئُونَ أتباعكم ليستمروا على الضلال فتظهرون لهم عدم تصديقكم به إبقاء على رئاستكم. وأوبخكم إذ تجعلون شكر رزقنا لكم بالهداية القرآنية وبما يسرناه لكم من إنزال الماء من السماء، تجعلون شكر رزقنا التكذيب لمحمد وللبعث.

بيان المعنى العام :

75←76-فلا أقسم بمواقع...لو تعلمون عظيم.

افتتحت الآية بحرف نفي "لا" وهذه النّافية تحتمل احتمالات عدة:

1) فمن المفسرين من جعلها زائدة لتوكيد القسم، أي أقسم بكل تأكيد أني مقسم. وإني أقدر عاقبة عدم احترام القسم.

2) ومنهم من حملها على أن مدخولها فعل أقسم، على معنى أن المقسم عليه من الثبوت والوضوح لا يتطلب قسما عليه. كقول الواثق من نفسه عندما يخبر: بدون أن أحلف إن الأمر الفلاني حصل على الصفة التي حدثتكم بها.

3) ومنهم من اعتبر أن الكلام ينتهي عند "لا" كل ما رميـتم بــه القــرآن باطــل ومنفــي. ثم استأنف الكلام مؤكدا بقوله أقسم بمواقع النّجوم.

وقرأها الحسن البصري، فلأقسم، بدون ألف. أي لأنا أقسم الآن.

وكلها تخريجات لفظية، والمعنى على جميعها متقارب، وهو التأكيد بالقسم.

أما المقسم به، فهو مواقع النّجوم. ويفهم هذا التركيب على أن المقصود منازل النّجوم والمحل الخاص بكل نجم ومساره في آفاق السماء. ويمكن أن يفهم على معنى غروبها. وكلا الاحتمالين يلفت النّظر إلى النّظام البديع الذي سير عليه سبحانه نجوم السماء، مما يدل على كمال التقدير والحكمة في الخلق. كما يمكن فهم مواقع النّجوم على آيات القرآن التي تلقاها رسول الله ﷺ في فترات، كل فترة تدعى نجما.

ثم ضاعف ما يدل عليـه القسـم مـن التأكيـد، بقولـه: **وإنــه لقســم...** فقبـل أن يــأتي بالمقسم عليه أضاف تأكيدا بإظهار قيمة هذا القسم، مثبتا ومـذكرا بأنــه قسـم عظـيم بمــا تضمنه من دلالة على نظــام الكــون وتسـييره. وأومــأ فــي أثنــاء ذلـك إلــى جهــل المخاطبين بقيمته، فقوله: **لو تعلمون** أي عظمته، ولكنكم فــي غفلــة عــن التـدبر الــذي يترتب عنه معرفة النّظام الذي خلــق الله عليــه نجــوم الســماء، المفضــي إلــى قبــولكم للمقسم عليه بمجرد الإخبار به دون تأكيد.

77-إنه لقرآن كريم.

هذا هو المقسم عليه : أي إن القرآن تفرد من بين الكتــب الســماوية بأنــه كــريم، أكـرم من جميع الكتب التي سبقته، مــن ناحيــة المضـمون، إذ مــا بلــغ أي كتــاب قبلــه مــا تحقق فيــه مــن تفصــيل للعقيــدة، ولأحكــام العبــادة والتعامــل، ولــلآداب الاجتماعيــة والفردية، وبما قصه من قصص الاعتبار. ومن النّاحيــة اللفظيــة، فهــو مميــز بالصــيغة التي صاغه الله بها، إذ بلغت القمة في الفصــاحة والبيــان، وطوعــه ليفهمــه النّــاس فــي متعاقب مستوياتهم الحضارية على نحو لا يخل بالحقيقة.

78- في كتاب مكنون.

هذا هو الوصف الثاني والثالــث للقــرآن، روعــي فــي التنويــه بــه أنــه كتــاب، وأنــه محفوظ مصون لا يقبل التغيير. وهذه الصيانة يحتمــل أن يــراد بهــا أنــه مصــون عنــد الله، عرف به جبريل لينقله إلــى رســول الله ﷺ. فكــل لفــظ مــن ألفاظــه محــل عنايــة وحفظ من الله مطابق المطابقــة الكاملــة لأصــله الــذي عنــد الله، وهــو الــذي أذن فــي إبلاغه ألفاظا وتركيبا خاصــا كلامــا معجــزا. كمــا تحتمــل الصــيانة أن يــراد بهــا أن القرآن محفوظ بحفظ الله بعــد إنزالــه فــلا يســقط منــه شــيء، ولا يدخلــه تحــوير أو

نسيان. مستمر على الصفة التي نزل عليها. وهو أمر حقيق بأن يلفت إليه الأنظار باعتبار أن المجتمع الذي نزل فيه تغلب عليه الأمية.

79-لا يمسه إلا المطهرون.

لا يمسه إلا المطهرون...يمكن أن تفهم الآية على أنها وصف ثالث للقرآن الذي عند الله. أي إنه لكرامته وصيانته عند الله، لا يمسه إلا المطهرون، وهم الملائكة، الذين زكت نفوسهم وسمت سموا لا تخالطه شهوة ولا غفلة عن استحضار صلتهم بربهم. فالطهارة على هذا هي الطهارة النّفسية. والقرآن هو القرآن الثابت في اللوح المحفوظ في السماء. فالآية على هذا لم تقصد بيان حكم مس القرآن من النّاس.

كما يمكن أن تفهم على أنها ترتيب حكم على ما سبق من التنويه بالقرآن، أي إنه لما كان القرآن على هذا المستوى فلا تمسوه إلا متطهرين حتى تكونوا أقرب من مستوى الملائكة الذين أذن لهم بالاطلاع عليه والقرب منه.

فَهِمَ جمهور الفقهاء أنه يجب أن على من يريد مس القرآن أن يكون على طهارة صغرى وكبرى وهو مذهب مالك والشافعي. وروي عن أبي حنيفة في أحد قوليه أنه يندب فقط وليس واجبا، وهذا هو قول الإمام أحمد بن حنبل ومذهب الظاهرية. و رخص للمتعلم وللمعلم أن يمس المصحف على غير وضوء، وذلك لما يلحق هؤلاء من المشقة بالبقاء على وضوء طيلة اشتغالهم بتعليمه. وقد يضيق الالتزام بالوضوء للمعلمين أمر تعليمه.

ومما يلتحق بهذا قضية قراءة القرآن عن ظهر قلب. فأما الطهارة الصغرى فليست شرطا بإجماع. يقرأ المسلم القرآن من حفظه إن كان غير جنب ولوكان على غير وضوء. وأما الطهارة الكبرى فالذي عليه الأئمة الثلاثة مالك وأبو حنيفة والشافعي أن المجنب لا يتلو القرآن من حفظه. وقال أحمد بن حنبل له ذلك. وأما الحائض والنفساء فلها تلاوة القرآن من حفظها عن الإمام أحمد واختلف النّقل عن مالك.

80- تنزيل من رب العالمين.

الوصف الرابع للقرآن أنه منزل من عند الله. وفي وصفه بتنزيل عوض منزل تأكيد لهذا المعنى، ورد لمزاعم الطاعنين فيه. ولذلك استُنِد إلى هذه الآية فقالوا جاء في التنزيل بالنظر إلى اختصاصه بهذا لفظا ومعنى.

81←82- أفبهذا الحديث...أنكم تكذبون.

الإشارة تحتمل ان تكون إلى القرآن، ويحتمل أن يراد بها ما ورد في هذه السورة. والسؤال سؤال إنكار عليهم وتوبيخ لهم من اتخاذهم القرآن بعد ما وصف من كونه

منزلا من عند الله العزيز، اتخاذهم له وصلة للمداهنة، وإظهار أنكم تكذبونه خوفا على حظوظكم الدنيوية ، واستبقاء لرئاستكم.

-**وتجعلون رزقكم**....هذه الآية تتبع الإنكار السابق عليهم في اتخاذ القرآن وصلة للمداهنة بإنكار آخر عليهم في مقابلة ما يرزقهم الله به من فضله , أن تجعلوا شكره على نعمه تكذيبكم بقدرته على الرزق وعلى إعادة الحياة بعد الموت. وتكذيبكم أيضا بمنه في إنزال الغيث بأن إنزاله مرتبط بالأنواء الفاعلة.

كما يمكن فهمها على أنها مرتبطة بالآية السابقة أنكم مدهنون بالقرآن، وتجعلون رزقكم الذي هو معاشكم بسبب تكذيبكم للقرآن، مع أنكم في داخلكم موقنون بأنه من عند الله

فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

روح : راحة ونعيم.

ريحان : شجر ذكي الرائحة تطيب به المجالس.

سلام : سلامة من كل مكروه.

المكذبون الضالون : أصحاب الشمال.

نزل : ما يقدم للضيف من القرى.

تصلية : إحراق وشواء.

الجحيم : النّار المؤججة.

حق اليقين : أبلغ ما يتصور من الحق.

سبح : أمر بتعظيمه وتنزيهه.

بيان المعنى الإجمالي :

يحقق هذا المقطع أمرين :

الأمر الأول : عجز المنكرين للبعث عن التأثير في كل ما يتعلق بالروح.

الأمر الثاني : إثبات البعث.

يخاطب القرآن المنكرين للبعث فيحضهم متحديا لإظهار عجزهم. إذا بلغت الروح حلقوم العزيز عليكم وماتت أجزاؤه السفلى، وأنتم متحلقون حوله تنظرون إليه مستسلمين، ونحن في هذا الظرف أقرب إليه منكم بتأثيرنا ولكن لا تبصرون ما تقوم به ملائكتنا وهي تستل روحه من بدنه شيئا فشيئا، و لا تأثير لكم في هذا الظرف. فلو كنتم غير مجزيين عن أعمالكم لأبقيتم على حياته. إذ لا فائدة من خلقه ونفخ الروح فيه إذا كانت حياته تنتهي بموته. وحينئذ وروحه لم تفارقه تماما فأرجعوها إليه.

ينفذ في كل إنسان بعد خروج الروح منه ما هو أهل له. فإن كان من السابقين الأولين فإنه يجد جزاءه الراحة والفضل وجنة النّعيم. وأما إذا كان من الأخيار من أصحاب اليمين فهو من الفائزين مما يرضيك يا محمد فيمن كان من أمتك لشدة حرصه ﷺ على نجاة أمته. وأما إن كان من أصحاب الشمال وهم المكذبون بالبعث، الضالون عن معرفة الحق، فإنه يهيأ لهم الحميم الذي يشربون منه فيقطع أمعاءهم، وتشوي نار جهنم أجسامهم من كل جانب.

تختم السورة بتأكيد ما جاء فيها بأنه الحق الذي لا شك فيه. فتوجه لربك بتسبيحه وحمده وتنزيهه وتمجيده.

بيان المعنى العام :

83←85: فلولا إذا بلغت...ولكن لا تبصرون.

افتتحت الآية بكلمة " لولا" وهي حرف تحضيض , دفع للمخاطب لينجز مدخولها، على معنى أن المتكلم لا يمنع المخاطب من الإنجاز. ولكن يتحداه ليكشف عجزه. ولم يعقب لفظ "لولا" في الآية بما حض عليه ودفع إليه. ولكن قدم مشهدا تَابَعَ مراحله ورسمها بدقة، ليكون التحدي أوضح وأتم. فماهي تلكم المراحل؟

1) إذا بلغت الروح الحلقوم. المحتضر يعاني حشرجة الموت، وقد سلت روحه من عروقه وأجزاء بدنه شيئا فشيئا، فبردت، حتى وصلت إلى حلقومه.

2) أنتم أهله وأقرباؤه محلقون حوله، تنظرون إلى الموت يهدم كيانه شيئا فشيئا. اللوعة والأسى، والدموع والحسرة، والشعور بالعجز سيد الموقف. نظر بدون فعل.

3) في وقت عجزكم وأساكم وقربكم غير المؤثر، في ذلك الوقت نحن بإرادتنا وقدرتنا، وبما نرسله من ملائكة الموت تفعل ما نريد، ونحن أقرب إليه منكم قربا

تأثيريا لا قربا ماديا. ولكن حضورنا لا يمكن لكم أن تتشخصوه، وتعالينا أن تدركونا بأبصاركم.

86←87: فلولا إن كنتم...إن كنتم صادقين.

"لولا" كررت تأكيدا للأولى، وهذا التأكيد يجعل سياق الآية كلها التحضيض البالغ، إبرازا لعجزهم، وترتيب البعث على ذلك. فإذا فرضنا كما تعتقدون أنكم غير مدينين، أي مجزيين عما قمتم به في الدنيا، فالنتيجة أنه لا فائدة من نزع الروح من الجسد. فنزع الروح إنما هو مظهر لحكمتنا في الخلق، وأنه ليس خلق عبث: نخلقكم وننشئكم، وننفخ الروح فيكم، ثم ننزعها وانتهى الأمر. يكون هذا التصور تصورا ساذجا بعيدا عن الحكمة. فالحكمة التي هي صفتنا تأبى أن نخلق لمجرد الخلق، ولكن تظهر حكمتنا في البعث، ليكون الجزاء على ما قدمه الإنسان في حياته.

وجملة ترجعونها أي الروح. وبإرجاعها وقع التحدي المكرر، في الوقت الذي لم تفارق بعد الجسد نهائيا. فدل الكلام على أن عجزهم على إرجاع الروح للأجزاء التي تخلصت منها وبقيت ملتصقة بالبعض يدل على أنهم ليس لهم من أمر الروح أي شيء. فالروح في قبضتنا، نبعثها في الأجسام في الوقت الذي نريد فتحدث الحياة، وننزعها في الوقت الذي نشاء. وهذا التصرف يقوم دليلا على قدرتنا أن نبعثها في الأجسام من جديد. وإن كنتم صادقين تورك عليهم بعد أن وضح عجزهم.

88←94: -فأما إن كان من المقربين...وتصلية جحيم..

بعد الموت سيكون الجزاء، وقد اهتمت خاتمة السورة بتفصيله. وقسم المحتضرون إلى ما تقدم تقسيمه في السورة فائزون : سابقون، أصحاب اليمين. وهالكون أصحاب الشمال.

القسم الأول المقربون: السابقون الذين قربهم الله من أعلى منازل الكرامة، ولم يُقْصِهِمْ عن أي مرتبة من مراتب الكمال في الجزاء. زيادة على ما تقدم في السورة فجزاؤهم روح : الرحمة والسعة والفرح والفرج. وهذا تصريح بالجانب المعنوي، وأما الجانب المادي فقربه بأن العناية تبلغ إلى العناية حتى بالطيب، وأحسن ابن عطية فجعله علما على ما تنبسط له النفوس.

القسم الثاني : هم أصحاب اليمين، أصحاب الميمنة. اكتفى في التنويه بهم إلى الإشارة إلى أن رسول الله ﷺ الحريص أشد الحرص على نجاة أمته، يقول الله له : سلام وطمأنينة لك منهم، فهم في منزلة ترضاها لهم. كما يمكن أن تفهم الآية على أن السلامة الحاصلة لأصحاب اليمين يُسَرُّ بها من يطلع على كرامة أصحابها.

القسم الثالث : الهالكون أصحاب الشمال، فمن كان منهم فقد ألقى به في هذه الجماعة تكذيبه للبعث وللرسول وللقرآن، وضلاله عن الحق تبعا لذلك، إنه لما كذب الرسول والقرآن فقد اختار لنفسه الضلال والضياع. سيقدم ضيافة له يوم القيامة حميم يقطع أمعاءه ونار جهنم تشوي جسامه.

95- إن هذا لهو حق اليقين...بإسم ربك العظيم.

كل ما سبق لك في هذه السورة هو اليقين الحق الذي لا يدخله شك، ولا يقبله. بسطناه لكم ليبلغ الوثوق بما نزل على محمد غاية ما يمكن أن يصل إليه اليقين. وبهذا يسرنا لكم الخروج من حيرة الشك وظلامه إلى الطمأنينة المستقرة.

– إنه أهل أن يحمد حق حمده، بما يسره لنا سبحانه، ويثنى على فضله أجمل الثناء، وينزه عن كل نقص أكمل التنزيه. فسبح أيها المؤمن منزها ربك وقل سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم.

يوم الجمعة 14/03/07

سورة الحديد

عرفت بهذا الاسم في المصاحف وفي كتب السنة. لوقوع لفظ الحديد فيها.وجاء لفظ الحديد أيضا في سورة الكهف قال تعالى :آتوني زبر الحديد، ولم تسم به للاعتناء بقصة أهل الكهف فيها. كما أن هداية الله للبشر في هذه السورة ربطت صناعة الحديد بالدفاع عن الدين من ناحية ولينتفعوا بما أودع فيه من متنوع الإمكانات من ناحية أخرى. وقد اختلف في عدها سورة مكية أو مدنية اختلافا كثيرا. ولا شك أن بعض آياتها مدني كقوله تعالى: لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، وكذلك الآيات التي تتحدث عن المنافقين. وعلى القول أنها مدنية فقد نقلوا أنها السورة الخامسة التسعون نزلت بعد سورة الزلزال وقبل سورة القتال. وهي السورة السابعة والخمسون حسب ترتيب المصحف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ
وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا
يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ
عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

بيان معاني الفاظ:

سبح : نزه الله تنزيها عن كل ما لا يليق به وأولها الشريك.

الأمور:جميع الذوات، وأفعالها، وأقوالها.

بيان المعنى الإجمالي :

يذكر القرآن بهذه الحقيقة التي مضمونها أن كل الكائنات في السماوات وفي الأرض تسبح لله ممجدة له، خاضعة للتنظيم الذي أراده منها، ما كان تسبيحه بلسان الحال، وما كان تسبيحه بلسان المقال. وحق لها أن تسبحه وتنزهه فهو العزيز الذي تخضع كلها لسلطانه، ولا يحول دون تنفيذ أمره أي حائل. وهو الذي يتصرف فيها بحكمته. مُلك السماوات والأرض له وحده، يدلكم لذلك أنه هو الذي يمنح الحياة متى أراد لمن أراد، ويسلبها كذلك. هو الأول بإطلاق لا بالنسبة لشيء آخر، فهو الأزلي، و الآخر الذي ليس بعده شيء باعتبار أن الوجود له وصف ذاتي فهو الباقي الذي لا يلحقه فناء. وهو الظاهر بما نطقت به شواهد خلقه من وجوده وعلمه وحكمته وجميع صفاته الذاتية. وهو الباطن الذي قصرت مدارك البشر عن الإحاطة به علما. وهو العليم بكل شيء دق أوجل. فهو سبحانه يعلم علما تفصيليا دقيقا كل ما يدخل في باطن الأرض من أجسام أو أشعة، ويعلم ما يخرج من الأرض من نبات وشجر وثمر، وبخار، وما يعرج من الأرض إلى السماء من مواد وأعمال العباد. ولا تغيبون عن بصره في أي لحظة من اللحظات.

تفرد بتدبير ملك السماوات والأرض، وبعلمه بما يصنعه العباد ويحفظه عنده للجزاء. النّهار والليل بتدبيره فهو الذي أنشأهما، وهو سبحانه لا تخفى عليه خافية مما دبره الإنسان في عقله، وإن لم يصرح به.

بيان المعنى العام:

1←6-سبح لله ما في السماوات...وهو عليم بذات الصدور.

افتتحت السورة بتقرير الحقيقة الكبرى التي يتبعها كل صلاح في الدنيا والآخرة. هي أن الكائنات جميعها معترفة بلسان حالها أو بلسان مقالها أن الله هو مبدعها ومسيرها ومنظم جميع شؤونها من بدايتها إلى أن ينتهي وجودها الدنيوي، ويتبعه بعث المكلفين للحساب. وأنه منزه عن كل نقص، وأهم ما يجب نفيه عن ذاته سبحانه، أن يكون له شريك. هذا التسبيح منبثق من الاعتراف بأنه العزيز الذي لا يعجزه شيء، المتصرف في كل جزئية من جزئيات الكون، وفي علاقة الكائنات ببعضها بالحكمة، فهو المتصف بالحكمة البالغة. إنها تسبيحة تنطلق بها الكائنات في مسارها إلى الغاية المحددة لها.

-اختص متفردا بملك السماوات والأرض، وهذه حقيقة لا يستطيع أن يماري فيها أحد. فغاية ما ادعاه المستكبرون من الجبابرة أنهم تفردوا بملك قطعة صغيرة من

الأرض وتسلطوا على سكانها وخيراتها. وهذا التسلط هو لأجل محدود. ولا يستطيع في الحقيقة إجراء ما يشاء مما يدعي أنه ملكه، فجريان الرياح، ونزول الأمطار، وما يحل بتلك الأرض من كائنات هي خارجة عن سلطانه قطعا. ثم أضاف ما يثبت هذا التفرد، بأن الحياة والموت بيده سبحانه فلا الإيجاد بالإحياء ولا الإعدام بالموت بيد أحد سواه. يعجز كل جبار من أن يحيي أي عزيز عليه تخطفه الموت، ولا يستطيع أن يطيل عمره ولو لحظة. وليست الحياة وحدها، فكل ما يحدث من الإيجاد أو الإعدام هو بقدرته سبحانه.

-تواصل السورة تعريف الخلائق بخالقها سبحانه، فذكرت أنه -1-العزيز-2-الحكيم -3-مالك السماوات والأرض -4-المحيي -5- المميت -6-القدير الذي لا يعجزه شيء. ثم بينت أنه -7- الأول -8 -الآخر. والمقصود بوصفه بالأولية الأولية المطلقة، فهو الأول بإطلاق لا بالنسبة لأي كائن كان، فأثبت هذا الوصف لله معنى حاصله أن وجوده لم يتقدمه عدم فهو الموجود الأزلي، لأن وجوده كان وجودا ذاتيا، أي ذاته توجب تصور وجوده، فلا يحتاج لمن يؤثر فيه الوجود. وكما وصف بالأول فهو أيضا الآخر الموجود الذي يبقى موجودا بدون نهاية تبعا لكون وجوده وجودا ذاتيا. وهو ما يعبر عنه بالبقاء الأبدي.

-9-وهو الظاهر الذي ظهرت دلائل وجوده وقدرته وحكمته فيما خلقه وأنجزه وأعدمه، فكلها شواهد ناطقة باستنادها إلى العزيز الحكيم. وهو الباطن -10- الذي لا تصل العقول ولا المدارك لإدراك كنهه ولا الحواس لتحديده.-11-العليم، وسع علمه الكبير والصغير، والموجود والمعدوم. فلا يخفى عليه شيء من ملكه.

- فصلت هذه الآية ما ورد في الآية الأولى "**له ملك السماوات والأرض**" مالكها لأنه هو الذي أوجدها من عدم وأعطاها نظامها. والستة أيام هي تقريب للحقيقة بما تسمح به اللغة. وإلا فإن خلق السماوات والأرض سابق على التحديد بالأيام، إذ الأيام لم تتحقق إلا بعد أن نظم سبحانه سير الأرض في المجموعة الشمسية. واستوى على العرش فنفذت إرادته وحكمته فيما خلق، وانقاد له العالم كله. وهو سبحانه العليم بكل شيء جِلِّه ودِقِّه. فكان نظام الكون تابعا لعلمه العميق فالقوانين التي تم بها الخلق والتسيير لا شيء للمصادفة فيها.

ثم كشف عن بعض جوانب هذه العلم الشامل، فهو سبحانه يعلم ما يدخل في باطن الأرض من مياه وأشعة ومن منافذ يحدثها البشر وغير ذلك. كما يعلم سبحانه ما يخرج من الأرض من نبات وأشجار وبخار ونحو ذلك، ويعلم ما ينزل من السماء من ماء، ومن نيازك، ومن أشعة ، ومن هداية تحملها الملائكة لرسله ولأنبيائه.

وهو معكم...خصص التصريح بهذا المفهوم وإن كان مشمولا بالعلم، قصد أن ينبه البشر ليستحضروا أنهم في كل لحظة من لحظات حياتهم، وفي كل عمل يقومون به لا يغيبون عن الرقابة الإلهية. بصر دقيق بما ظهر من أعمالهم وبما تنطوي عليه نفوسهم من نوايا. فهو البصير وهو الاسم الثاني عشر.

-له ملك السماوات... تأكيد لفاتحة السورة وليبني على مفهومها وإلى الله ترجع الأمور. فهي تثبت أن ملك الله للسماوات و الأرض ملك يتبعه أن المخلوقات التي خلقها تعود إليه ليجزيها. وبهذه الغاية نرجح أن المراد بالأمور أفعال العباد العملية والقلبية. وتتضمن إثبات الخالقية لله فهو الخالق "13"والوحدانية "14"

- يولج الليل... يذكر الله بهذه الآية أن الإفناء ليس بتعاقب الليل والنهار على الأشياء باعتبارها فاعلة في هدم الكائنات، كما يعتقده الدهرية، والنافون للوجود الإلهي. إذ أن تعاقب الليل والنهار بفعله سبحانه. فهو المدبر لشؤون خلقه فدل هذا المقطع على اسمه الجليل " المدبر"15"-والاسم العلم أعرف المعارف " الله "16" المفتتح به قوله: سبح لله ما في السماوات والأرض.

وهو سبحانه المتفرد بعلم ما يجري في صدور عباده من خير أو شر.

ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسۡتَخۡلَفِينَ فِيهِۖ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَأَنفَقُواْ لَهُمۡ أَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمۡ لَا تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبۡدِهِۦٓ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖ لِّيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمۡ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الرؤوف : مشتقة من الرأفة التي أصلها التأثر بما يلحق الغير من ضر.

الرحيم: الرحمة محبة إيصال الخير للغير.

سبيل الله: الجهاد.

درجة : مستوى أرفع في الفضل.

الحسنى: خيرات الآخرة.

بيان المعنى الإجمالي:

اثبتوا على الإيمان، ولتسمح نفوسكم بالإنفاق مما يسر الله لكم جمعه من الأموال. إن ما بين أيديكم منها ملكها الحقيقي لله، قد استخلفكم للتصرف فيها لتنالوا من فضله الثواب على حسن تصرفكم، ويجزيكم عما قدمتم. وتفوزوا بالأجر الكبير إذا جمعتم بين الإيمان والبذل السخي فيما يرضي الله.

إنه ليس لكم ما يبرر عدم تقدمكم للإيمان، بعد ما بيناه لكم في الآيات السابقة، ومع أن الرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم، ويذكركم بنعمه ويعرفكم بالإيمان وبما يترتب عليه من سعادة ومع أن الله غرس الإيمان في فطرتكم. اثبتوا على الإيمان لتفوزوا بتلكم الرتب إن كنتم مؤمنين. إنه سبحانه هو الذي تكفل بإنزال القرآن على عبده محمد، أدلة ظاهرة على صدقه، ومناهج للخير بينة. إنه بالقرآن يخرجكم من ظلمات الحيرة، والشك والضياع. ويفتح لكم الطرق الواضحة، ويسكب في قلوبكم النور الذي به تهتدون في عقيدتكم وفي سلوككم. اعتنى ربكم بكم لأنه المتصف بالرأفة على عباده فلا يرضى لهم الكفر والخسران، وهو رحيم بهم وينشر ألطافه. وحرضهم على الإنفاق في سبيل الله، وأنه لا عذر لمن يشح بإسهامه المالي في تأييد الإسلام. فإن الأموال التي بين أيديكم هي جزء من هذا الكون العظيم الذي سينتهي التصرف فيه لله وحده. ولا يكون لكم منه شيء. واعلموا أن الذين سبقوا إلى نصرة الدين بأموالهم وأنفسهم قبل فتح مكة، يوم كان المسلمون مستضعفين، هم أعظم منزلة عند الله من الذين التحقوا بهم من بعد الفتح وأنفقوا وجاهدوا. ولكل ممن بذل ماله وجاهد في سبيل الله قبل الفتح، وبعد الفتح إلى يوم القيامة، كلهم مؤهلون لنيل الوعد الكريم من الله، للفوز بمنازل الحسنى يوم القيامة. والله يعلم ما تنطوي عليه الأنفس، وما هو غائب في نيات البشر، فأخلصوا لله تفوزوا برضوانه.

بيان المعنى العام:

7- آمنوا بالله....لهم أجر كبير.

يمكن أن تفهم الآية على أنها خطاب لمن كان حول النّبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة، فالآية تأمرهم بالثبات على الإيمان الذي هم عليه. وذكرهم بذلك ليرتب عليه الأمر بالإنفاق الذي هو مقتضى الإيمان، ولأنه المناسب للوقت الذي نزلت فيه، وهو تجهيز الجيش في غزوة العسرة، غزوة تبوك.

و ذهب بعضهم إلى أن الآية مكية، فتحمل على أنها خطاب للناس جميعا وخاصة من لم يؤمن ليقبل على الإيمان وقد أقنعت السورة في آياتها الأولى صدق الإيمان بالله. وبناء على كونها مكية، يكون الأمر بالإنفاق مقصودا به المحاويج بما أسسه الإسلام من التعاون العام في نفوس متبعيه. تحويلا لهم عما كان عليه أهل الجاهلية من تخصيص الإنفاق في الشهوات والمفاخرة والقمار. وتحريضا على الإنفاق جاءت صياغة الآية بلفت أنظارهم إلى أن هذا الإنفاق حق عليهم، منبهة أن المال مال الله إذ هو خالقه، وهو الذي يسر أسباب الوصول إليه، على أنه قد استخلفهم في التصرف فيه. وشأن الخازن أن ينفذ أوامر صاحب المال فيما استأمنه عليه. ثم حرضهم من ناحية أخرى ببيان أنه وإن كان مال مال الله، فإنه رتب للذين جمعوا بين الإيمان والإنفاق الأجر الكبير؛ تفضلا منه. أخرج مسلم والترمذي وغيرهما عن مطرف عن أبيه، أنه انتهى إلى النّبي صلى الله عليه وسلم وهو يقول : ألهاكم التكاثر. قال يقول ابن آدم:مالي مالي. وهل لك من مالك إلاّ ما تصدقت فأمضيت، أو أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت[1].

8-وما لكم لا تؤمنون....إن كنتم مؤمنين.

افتتحت الآية بسؤال اجتمع فيه التوبيخ والتعجيب. لقد اجتمع من البيان السابق في الآيات التي افتتحت بها السورة، ومن عامل الفطرة ما يقتضي الإقبال على الإيمان. ومع ذلك فما لكم لا تؤمنون. ليس لكم والحالة هذه أي مبرر لعدم الإسراع بالإيمان، خاصة والرسول يدعوكم ويبين لكم، ويرفع الشبه، ويقيم البراهين العقلية. وكل ما يدعو إليه فيه الخير الفردي والاجتماعي. إن كفركم مع كل ذلك ليس له مبرر إلا العناد والمكابرة. ومن ناحية أخرى فإن ما يدعوكم إليه محمد هو ما أخذه الله عليكم من عهود، المتمثلة في الفطرة السوية، التي تنادي باطنيا إلى الإيمان الذي يكسبكم الطمأنينة، وإنه كلما ابتعدتم عن الإيمان تعمقت الحيرة.

إن ما يرفع من مقاماتكم ويسمو بكم إلى منازل القرب، ويحقق لكم حياة أسعد، ويصل بينكم وبين محمد صلى الله عليه وسلم، ويؤلف بينكم وبين البشرية قاطبة، ويكشف لكم عن طريق الهدى فتسلكوه، فتكونون محل الرضا من الله لا يتسلط عليكم الإنكار ولا التوبيخ اللذين افتتحت بهما الآية . وتكونون أهلا لمنازل السعادة. إنكم تبلغون ذلك إن كنتم مؤمنين.

[1] الجامع الكبير ج4ص165 ح 2342

9- هو الذي ينزل...لرؤوف رحيم.

إن القرآن المنزل من عندنا على عبدنا محمد، أنزلناه ليكون أدلة وحججا واضحة، ليؤثر في عقولكم وفي قلوبكم، فيخرجكم من ظلام الحيرة، ويسير بكم في طريق النّور الواضح. تعرفون بما أنزل عليه مبدأكم ومعادكم، ورابطتكم بالكون. ورابطتكم بمبدع الكون. أتت تلكم العناية من الله لأنه رؤوف بكم لا يرضى لكم الكفر والضلال، ورحيم بكم يحب لكم الخير والهدى. ولذلك بعث لكم رسوله.

10-وما لكم ألا تنفقوا...بما تعملون خبير.

توبخ هذه الآية الذين أمسكوا أموالهم، ولم يبذلوا شيئا منها لمساعدة الجيش الإسلامي. تقول لهم أي عذر لكم في ذلك. إذا كنتم أمسكتم ولم تنفقوا حذرا من خروج شيء من أموالكم عنكم، فاعلموا أنكم مخطئون في تقديراتكم. إنكم أنتم وأموالكم والسماوات والأرض، الكل يعود ملكه لله وحده، وستفنون وتبقى أموالكم بعدكم.

لا يستوي منكم... هذه الآية تتضمن أمرين هامين :

أ:تفضيل بعض الخير على بعض، فقد فضلت الآية في الثواب الذين بذلوا أموالهم، قبل فتح مكة، يوم كان المسلمون مستضعفين؛ والشرك غالب على الجزيرة العربية، على الذين سمحوا بها بعد أن انتصر الإسلام وقوي أتباعه.

ب: فيها تحريض من ناحية أخرى ليلحق من لم يحصل له شرف السبق بمساعدة الدعوة الإسلامية في أول أمرها ليلحق بركب الخيرين.

تفتتح الآية بمفهوم أن الإنفاق في سبيل الله وإن كان معبرا عن قوة إيمان صاحبه، إذ هو يقدم ثواب الله على جمع المال، وحب المال فطري في النّفس، إلا أن هذا الفضل على درجات. فمن أنفق قبل فتح مكة في سبيل الله وأيد الدعوة في ابتداء أمرها، وجهز من استطاع القتال وضعف عن مباشرته لعدم تمكنه من شراء السلاح، فجهزه بما هو في حاجة إليه منه. وقاتل لنصرة الدين ولتكون كلمة الله هي العليا، ولم يجبن خوفا من الموت. إنه مع هذه الظروف يكون الذين أنفقوا وجاهدوا، السابقين الأولين الذين فعلوا ما فعلوا نصرا للدين وحبا في الإسلام، بما يكشف أنهم اختاروا مالا يجلب لهم أي نفع دنيوي، هؤلاء هم أرفع درجة من الذي أنفقوا وجاهدوا في سبيل الله بعد أن انتصر الإسلام وعلت رايته وتم فتح مكة. وليس تفضيل السابقين عليهم برافع عنهم الفضل.

وصرحت الآية بهذا المفهوم بقوله: " وكلا وعد الله الحسنى " إن الله وعد السابقين بالإسهام قبل فتح مكة، الحسنى المنزلة الرفيعة عنده في الآخرة. كما وعد الذين

أنفقوا بعد الفتح وقاتلوا الحسنى أيضا. وفي ذلك تحريض على ولوج باب الخير، وأنه من فاته الخير في زمان، فعليه أن يحرص على فعله بعد ذلك. والله يعلم ما تنطوي عليه النّوايا، وما يحمل المنفق على الإنفاق، وما يحمل المجاهد للإسهام في الدفاع عن الدين. فيجزي سبحانه كل فرد تبعا لخلوص النّية.

مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجۡرٞ كَرِيمٞ ﴿١١﴾ يَوۡمَ تَرَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَسۡعَىٰ نُورُهُم بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِم بُشۡرَىٰكُمُ ٱلۡيَوۡمَ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلۡيَوۡمَ لَا يُؤۡخَذُ مِنكُمۡ فِدۡيَةٞ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ مَأۡوَىٰكُمُ ٱلنَّارُۖ هِيَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

القرض الحسن: القرض المبرأ من النّقائص.

كريم : النّفيس في جنسه.

البشرى: الإخبار بما يسر المخبر.

انظرونا: لا تعجلوا حتى نلتحق بكم.

نقتبس : ننتفع من نوركم.

ضرب السور: وضعه، بمعنى حجز.

قِبَلِهِ : الجهة المقابلة.

التربص : الانتظار.

غركم : التغرير إظهار الضار بصورة النّافع تمويها.

الغرور : الشيطان.

الفدية : ما يدفعه الأسير ليفك نفسه من الأسر.

المأوى : المكان الذي يرجع إليه.

المولى : السيد الذي يدافع عن تابعه.

بيان المعنى الإجمالي :

من هذا الذي تطهرت نفسه من الشح، وأقبل على مواطن البر التي دعا إليها الله؟ ينفق فيها عن نفس سمحة بالإنفاق. هذا الذي سيجد جزاء ما أنفقه جزاء مضاعفا، ويتفضل عليه رب العزة بأجر كريم. ينال أجره يوم تشاهد المؤمنين والمؤمنات وقد ميزهم ربهم في عرصات القيامة، بنور يتحرك بحركتهم من أمامهم وعن جوانبهم. ويسمعون هاتفا يسرع إليهم بالبشارة ويقول لهم: كتب الله لكم جنات تجري من تحتها الأنهار تقيمون فيها إقامة دائمة لا تنقطع. ذلك الثواب هو الفوز العظيم، الذي يتنافس فيه المتنافسون.

اليوم الذي ترى فيه المؤمنين يحيط بهم النّور ويسير معهم، هو اليوم الذي ترى فيه المنافقين على أسوأ حال. يقول رجالهم ونساؤهم للذين آمنوا تمهلوا قليلا حتى نلحق بكم نقتبس من الأنوار التي تصحبكم، فإنه قد اشتد علينا وقع الظلام وتملكتنا الحيرة. ويسمعون صوتا يرشدهم متهكما بهم يقول لهم : ارجعوا إلى الوراء تطلبا لمثل النّور الذي رزقناه. وبمجرد ما يلتفتون يتم الفصل بين المؤمنين والمنافقين، بسور له باب باطن السور الذي هو باطن الباب فيه طريق الجنة، وظاهره الذي هو من جهة المنافقين فيه العذاب. ويضغط عليهم الشقاء فينادون المؤمنين بأعلى صوتهم قائلين : ألم نكن معكم في مسيرتنا عند خروجنا من القبور، ألم نكن معكم في الدنيا نصلي معكم، ونحضر مجالسكم، ونتعامل معكم في مختلف أوجه النّشاط الاجتماعي والاقتصادي ؟ اجابهم المؤمنون، بلى فعلا كنتم معنا في الظاهر، ولكن قلوبكم وعواطفكم كانت على خلافنا. اجتمع فيكم أربعة أمور مهلكة :

1)فتنتم أنفسكم، فكلما جاءكم ما يقي إيمانكم ويهديكم قابلتموه بالرفض، ووازنتم بين الإيمان وحظوظكم من الرئاسة في الدنيا فغلبتم العاجلة على الباقية.

2) واصلتم انتظار حلول الشر والهزيمة والاختلاف في صفوف المؤمنين، وعملتم على تحقيق ذلك بترويج الأكاذيب والأراجيف.

3) وأحييتم الشك في عقولكم، فكلما جاءت الآيات البينة لتزيل ما علق بكم من الريب، عملتم على طرد الحق، وافتراض الفروض التي تثبت الشك.

4) تبع بغضكم للإسلام وأهله، أن عمرت قلوبكم بالأماني: أن ينهزم المسلمون، وتكون السيادة لكم، وأن يظهر النّفاق والكفر كقوة قائدة.

وواصلتم حياتكم على هذه المخازي إلى اليوم الأخير من حياتكم، فغركم الشيطان بتسويله لكم أن تنتظروا. وأن في العمر فسحة.

إنه في هذا اليوم الذي يظهر فيه الحق والحـق وحـده. لـيس لكـم أي منقـذ، فـلا تقبـل منكم فدية تفدون بها أنفسكم، لو كان ذلك فـي الإمكـان، ولكـنكم لا تملكـون شـيئا مـن الخير السابق تقدمونه فديـة لكـم مـن النّـار، لا أنـتم ولا إخـوانكم الكفـرة. المرجـع الوحيد الذي هيء لكم هو النّار. والنار تتـولى الـدفاع عـنكم و تقـول دومـا: هـل مـن مزيد من سكاني لأحطمهم حطما. ولا مصير أسوأ من المصير إلى جهنم.

بيان المعنى العام :

11-من ذا الذي...وله أجر كريم.

افتتحت الآية باستفهام "من" والمقصود به التحـريض علـى مـدخولها؛ مـن هـذا الـذي يتقدم فيقرض الله، فيقدم قرضا يدخره عنـد الله ؟ووصـف القـرض بالحسـن، أي الـذي كان عن طيب نفس و لا تتعلـق بـه نفسـه، ولا يبحـث عـن تـاريخ إرجاعـه، و لـم يصحبه أذى للمنفق عليه، لأن المقصود بالقرض الحسـن مـا أنفـق فـي المبـرات التـي شرعها الله ودعا إليها. ويتأكد التحريض بمـا ذكـره فـي جزائـه: أن الله يضـاعفه لـه، وأقل مضاعفة عشر مرات وأكثرها سـبعمائة ضـعف وأكثـر. لقولـه تعـالى: **(مـن ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيـرة)**[1] وهـذا الجـزاء المضـاعف مقدر عند الله. ويستحق أجرا كريما يصحب الجزاء بالرضا والإقبال.

12-يوم ترى المؤمنين...هو الفوز العظيم.

افتتحت الآية بلفظ " يوم" وهو متعلق بقوله تعالى في الآيـة السـابقة "ولـه أجـر كـريم " أي إن إكرامه بأجره يوم ترى....والمخاطب بقوله "ترى" كـل مـن يصـح منـه الرؤيـة البصرية. ينالون أجرهم الكريم، يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم.

يبدأ التمييز بين السعداء والأشقياء فـي عرصـات القيامـة قبـل الحسـاب وقبـل الحكـم بالجزاء. تشاهد المؤمنين والمؤمنات، يصحبهم نور يتحـرك بتحـركهم، يحـيط بهـم مـن أمامهم، وعن أيمانهم، والظاهر أن المقصـود مـن الأيمـان مـا حـولهم مـن الجهـات. وخصت الأيمان تشريفا لها، ولأنهم عرفوا بأنهم أصحاب اليمين وأصحاب الميمنة.

بشراكم اليوم... يهتف بهم صوت يطمئنهم ويـزف لهـم الخبـر السـار يفتتحـه بقولـه: بشراكم. لكم البشرى. وتصوروا ما يتركه هـذا الخبـر فـي نفـوس سـامعيه فـي ذلكـم الموقف. ويواصل تفصيل البشرى: 1) جنـات تجـري مـن تحتهـا الأنهـار.2) إقـامتكم فيها إقامة دائمة لا تنقطع ولا تبرحـون منـازل كـرامتكم.3) ويحتمـل أن يكـون قـولهم "ذلك الفوز" العظيم من تمام الهاتف الذي يهتف بهم. علـى أنـه تنويـه بـأن مـا يلقونـه

---

[1] سورة البقرة آية 245

فوز ونجاح عظيم ليس له حد. كما يحتمل أن تكون هذه الجملة "**ذلك الفوز العظيم** " من تعليق القرآن على جزائهم. جعلني الله وإياكم ممن يخاطبون بهذه البشارة.

13←14-يوم يقول المنافقون...وغركم بالله الغرور.

بعد الصورة المشرقة المكرمة للمؤمنين، يسجل القرآن الوضع الذي يكون عليه المنافقون. يبدأ المشهد مظهرا أن المؤمنين واصلوا سيرهم يهديهم النّور من بين أيديهم ومن جوانبهم. ويجد المنافقون أنفسهم، وقد انفصل عنهم المؤمنون وسبقوهم فتركوهم وراءهم. فينادون المؤمنين قائلين: لا تسرعوا وانتظرونا حتى نستطيع أن نقتبس من نوركم لنعرف ما تحت أقدامنا وما هو أمامنا. فالظلمة التي نحن فيها ألقت بنا في الحيرة.

يسمع المنافقون صوتا يقول لهم مستهزئا بهم : ارجعوا إلى الوراء فاطلبوا النّور هناك. ويطمعون فيشتد الفصل بينهم وبين المؤمنين. ويجد ث الله سورا حاجزا بين الفريقين، لهذا السور باب، من يلج منه يجد الرحمة والتكريم، ومن يبقى وراءه يجد مقدمات العذاب من ظاهره الذي يشاهدونه، يجدون في قِبَلِهِ الجهة المقابلة لهم العذاب، عذاب جهنم.

تتضاعف حيرة المنافقين، كيف كانوا قريبين من المؤمنين يشاهدون النّور يسير بين أيديهم وبأيمانهم، فإذا بهم ينفصلون عنهم انفصالا شديدا بسور يقابلهم العذاب منه. فينادون المؤمنين يطلبون منهم ما يزيل حيرتهم، قائلين لهم : ألم نكن معكم خرجنا جميعا إلى المحشر، وكنا مختلطين بكم في الدنيا؟ ألم نكن نصلي كما تصلون، ونقيم أركان الإسلام معكم، ولم يكن أي فارق بيننا وبينكم في الحياة الاجتماعية ؟

يجيبهم المؤمنون، بلى ! كنتم معنا. ثم دققوا أن الجزاء الأخروي لا يرتبط بالصور الظاهرة ولكن بالمقاصد والنيات. وذكروا لهم أربعة أصول تفرق بينهم وتبعدهم عن منهج المؤمنين. هي فتنة أنفسهم، والتربص بالمؤمنين وانتظار أن تدور عليهم الدائرة، والشك في صدق الرسول صلى الله عليه وسلم، والاغترار بما استقر في عواطفهم من بغض.

1) **ولكنكم فتنتم أنفسكم**: أدخلتم الفتنة على أنفسكم. تسمعون حديث الرسول وآيات القرآن تزلزل تعصبكم، وتصلبكم، فتمحون آثارها بالتصميم على التكذيب، وترجيح حظوظ الدنيا، وخوفكم من ذهاب رئاستكم. واعتمدتم معيارا واحدا حكمتموه في أعمالكم، بغض الإسلام.

2) **تربصتم.** انتظرتم أن تدور الدائرة على المسلمين، وكنتم على استعداد لمساعدة من ينقض على الأمة، لتكون القاضية على الدين وأهله. كما كنتم تروجون الأكاذيب لبث الفتنة وتقسيم الوحدة، منتظرين آثار تصديق ما تروجون.
3) كلما تأيد الرسول ﷺ بالوحي، وكلما ظهرت معجزات تطمئن المؤمنين وتثبتهم، كانت كراهيتكم و أراجيفكم تزعزع ثقتكم في الحق المشاهد، فتأصل الشك في قلوبكم. وكذبتم أبصاركم.
4) كانت خيالاتكم تعطيكم صورا، ترددونها في بواطنكم، حتى تنقلب إلى سلسلة من الأماني: أن ينهزم الإسلام، وأن ينفض النّاس من حوله، وأن تكون لكم السيادة في المستقبل دون الرسول والمؤمنين. كقولهم: **(لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل)**[1]

حتى جاء أمر الله... واصلتم مسيرتكم على الضلال والكفر والترصد لما يهلك المسلمين ويمزق وحدتهم حتى الموت. وكلما نسج خيالكم أمنية فخابت، تجددت لكم أمنية أخرى إلى أن وافتكم المنية، دون أن تعتبروا وتعودوا للإيمان الذي فتح ذراعيه لكم لينقذكم مما يغلي في بواطنكم من الحقد وما تتعذبون به من التناقض بين ظواهركم وبواطنكم. وهذه الآية توقظ المؤمنين عند كثير من النّظار ليعتبروا بما جاء فيها، ليسرعوا بالتوبة ولا يبطئوا ويسوفوا، شأن المنافقين الذين باغتهم الموت وهم على أسوأ حال.

وغركم بالله.... غركم الشيطان وأظهر لكم ما فيه شقاؤكم بمظهر الخير، وخيل لكم أن ما جمعتموه من مباهج الحياة الدنيا أمارة رضا من الله.

15-فاليوم لا يؤخذ منكم...وبئس المصير.

خاتمة جواب المؤمنين، في الظاهر، لنداء المنافقين. في هذا اليوم الذي كنتم به تكذبون، قد نفذ الحكم المقرر فيكم الذي لا يقبل نقضا ولا مثنوية. تتفقون أنتم والكافرين، باعتبار أن الجامع بينكم هو الكفر الذي تخفونه، والكفر الذي يظهره إخوانكم الكفرة في الدنيا، لا يمكنكم أن تقدموا أي فدية تفديكم من العذاب، لا صلتكم بنا أيام الحياة الدنيا، ولا أي شيء مما قدمتموه مما ظاهره أنه معروف، ولكنه هباء منثور لا قيمة له لصدوره عن طواياكم الفاسدة. المصير الذي أنتم صائرون إليه مصير واحد هو النّار، فهي الدار التي أعدها الله لكم. وهي التي تضمكم ولا نصير لكم إلا النّار والنار وحدها. وما أسوأه من مصير هيأتم أنفسكم له.

[1] سورة المنافقون آية 8

۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟
كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ
تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ
وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ
عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

ألم يأن : ألم يحضر الوقت. ألم يحن.

تخشع : الخشوع السكون والتذلل.

الأمد : الغاية من زمان أو مكان.

فاسقون: كافرون.

الآيات :الدلائل.

الصديق: مبالغة في المصدق. لتصديقهم بالحق في كل زمان ومكان.

بيان المعنى الإجمالي :

ألم يحن الوقت الذي يسرع فيه بعض المؤمنين الذين خفت في قلوبهم نور الإيمان والعمل بما جاء به الرسول ﷺ، إلى اليقظة وتوهج نور الإيمان فيهم والعمل بأحكامه؟ حتى لا يكون حالهم كحال كثير من أهل الكتاب تراخوا عن دينهم شيئا فشيئا، إلى أن ألفوا مخالفته، فأصبحت قلوبهم قاسية لا تتأثر بالعاقبة ولا تقرأ لها حسابا. وانتهى الأمر بهم إلى أن كثيرا منهم صاروا كافرين. وكما يحيي الله الأرض بعد موتها إذا انقطع عنها ماء السماء فكذلك الأرواح تموت إذا انقطعت عن الهدى الإلهي. فافهموا فقد بينا لكم بالدلائل الواضحة اليقينية مسلك الفوز إن كانت لكم عقول تتدبرون بها. وعقب ذلك بمظهر ينبئ عن عمق التأثر بالدين هذا المظهر يتمثل في الإسهام السمح بالصدقة وما أعد لهم من ثواب مضاعف متميز بأن الله يتقبله، ويلغي ما تحمله نفس المتصدق عليه من اعتراف وتقدير للمعطي، ويعتبر مقدما لذاته العلية للمتصدق أجر كريم في بابه.

ثم نوه القرآن بالذين آمنوا بالله وجميع رسله، وهذا الوصف لا يتحقق بعد بعثة محمد صلى الله عليه إلا في أمته، جعلهم الله وحدهم المتصفين بكمال التصديق للحق. وهم شهداء عند ربهم لهم مرتبة الشهادة على النّاس، أو لهم جزاء الذين ماتوا في سبيل الله. وحقق أن لهم أجرهم الخاص بهم الذي لا يساوي أجور غيرهم ولهم نور خاص أيضا يُعَرف بهم.

وفي المقابل فإن الذين كفروا بالله ورسله يستحقون جزاء كفرهم أن الله ألف بينهم وبين الجحيم ألفة لا تنقطع، فلا يخرجون منها.

بيان المعنى العام :

16- ألم يأن للذين آمنوا...وكثير منهم فاسقون.

هذا وضع عالجه القرآن حسب طريقته في الهداية والإرشاد. وضع قصر فيه بعضهم عن المستوى الذي كان يعمل النّبي ﷺ أن يكونوا عليه، من خشية الله واستحضار جلاله، وأن لا يحجبهم نشاطهم الدنيوي عن مراقبة الله عز وجل والحذر من الغفلة عن المصير.

والآية حسب ما رجحه كثير من المفسرين نزلت في مكة. وأمر النّبي ﷺ كتبة الوحي أن يضعوها في هذا المكان من السورة بعد زمن من نزولها. وذلك لما رواه مسلم عن عبد الله بن مسعود ﷺ ، وكان من السابقين للدخول في الإسلام، قال : (ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية : **ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق إلى قوله : وكثير منهم فاسقون إلا أربع سنين)** فالمراد بالذين آمنوا الذين وقع تذكيرهم ولومهم واستبطاء أن يلازم قلوبهم الخشوع، بعض المؤمنين وليس جميعهم. يخاطب الله هؤلاء دون تعيين تبعا لقصد القرآن الإصلاح لا التشهير، ليستيقظوا وليعلموا أنهم بمنزلة من يريد الله لهم أن يكونوا على مستوى من الكمال الذي يعطي المثل الصالح لمن يأتي بعدهم. فقد اختارهم الله ليكونوا حملة الدين قولا وعملا، و تلقوا أنوار النّبوة مباشرة. وأثنى الله عليهم فقال: **(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم)**[1].

ألم يحن الوقت الذي يستيقظ فيه هؤلاء فتخشع قلوبهم وتطمئن مداركهم، بسبب ذكر الله. وهو ما يذكرهم به النّبي ﷺ مما يرقق القلوب، ويجدد ربطها بخالقها، وبسبب ما يتنزل على رسوله من القرآن. وهذه الخشية والخضوع يفضيان بهم إلى الطاعة والامتثال. ألم يحن الوقت ليخالفوا ما كان عليه الذين أوتوا الكتاب من قبلهم، اليهود

[1] سورة الفتح آية 29

والنصارى، الذين بعد ما بينهم وما بين نزول الوحي، فأقبلوا على الدنيا بشغف كبير، وواصلوا الابتعاد عن المنهج والأحكام التي قررتها رسلهم حتى تراكم عليهم آثار العصيان، وألفوا البعد عن استحضار رقابة الله عليهم، فأصبحت قلوبهم قاسية، تغير أحكام الله وتستهين بتطبيقها دون أن تشعر بالخوف من سخط الله. غيروا نصوص الوحي الذي عهد إليهم بحفظه واشتروا به ثمنا قليلا؛ وانتهى بهم الأمر إلى أن كثيرا منهم خرجوا من الإيمان إلى الكفر. فالآية تحذر الذين حصل منهم بعض التهاون إلى اليقظة، والعودة بأفكارهم وأرواحهم إلى القرآن.

17- اعلموا أن الله...لعلكم تعقلون.

افتتحت الآية بهذا التنبيه القوي "اعلموا" يشير به إلى الحصانة مما وقع فيه أهل الكتاب من الانحراف حتى قست قلوبهم، وكفر كثير منهم. وضرب لهم مثلا بحال الأرض التي طال أمد الجفاف عليها فماتت، ثم يحييها الله بالمطر. وكذلك القلوب إذا لم يتعاهدها الوحي، أو غفلت عن اتصالها بهدي الله، فإنها تقسو إلى أن تموت، ولا تعود لها نضارتها وحياتها إلا بالنهل من معين الوحي الإلهي الذي ختم بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم. ولما كان المقصود التنظير بين أثر الوحي في القلوب، وبين أثر ماء السماء في الأرض، ختمت الآية بقوله تعالى : **قد بينا لكم الآيات...** إذ ليس المراد قطعا بينات إحياء الأرض بماء المطر، ولكن تقريبُ المعقول " إحياء النّفوس " بالمحسوس "إحياء الأرض " يؤكد ذلك تحريك العقل للاعتبار لعلكم تعقلون، رجاء أن تدركوا بعقولكم ما يجب عليكم من عدم قطع الصلة بكتاب ربكم الذي يحييكم.

18-إن المصدقين...ولهم أجر كريم.

من المقاصد الأساسية في هذه السورة الدعوة إلى الإنفاق. فقد ذكر في طالعتها تفرد الله بملك السماوات والأرض في 5/2- ثم دعا إلى الإنفاق في سبيل الله والتخلص من داء الشح في الآيات 11/10/7- فجاءت هذه الآية مؤكدة لهذه القيمة داعية إليها منوهة بها واعدة عليها مضاعفة الأجر.

أكدت الآية أن المتصدقين من الرجال، والمتصدقات من النّساء، والمقرضين لله قرضا حسنا يضاعف لهم.....فتم التأكيد بالتصريح بالمتصدقات مع المتصدقين، مع أن المعلوم في العربية أن صيغة جمع المذكر تشمل الإناث في كل ما ليس للجنس فيه تأثير. وذلك لإبراز دور المرأة في الإسلام وإسهامها في البذل وفي كل ما يهم المواساة في المجتمع. بعد ما كانت لا تتحكم في أموالها، ولا تنال نصيبها من

الميراث إلا قليلا. ثم إن بقية الآية وما أشارت إليه من رفع قيمة التصدق إلى مستوى قرض الله قرضا حسنا : أن يتصدق من الطيب الذي يحبه، وأن تطوع به نفسه رغبة فيما عند الله من القبول والثواب،على ما تبين في الآية11-

19- والذين آمنوا بالله...أولئك أصحاب الجحيم.

لما نوه القرآن بشأن المصدقين، ومن المؤمنين من لا يملك ما يتصدق به، ويود أن لو رزقه الله ما يتصدق به تبعا لنور الإيمان الذي يشع في عقله وروحه، نوه القرآن أيضا بالذين آمنوا بالله ورسله، وهم أتباع محمد عليه الصلاة والسلام لأنهم هم الذين آمنوا بالحق في كل زمان ومن أي كان. فالمسلمون يؤمنون بمحمد وبمن سبقه من رسل الله تفصيلا فيما فصل فيه القرآن وإجمالا فيما أجمله. وأما أهل الكتاب فقد أعماهم التعصب، فاليهود قصروا الرسالة على موسى وكفروا بمن جاء بعده، والنصارى كفروا بمحمد، والصابئة كفروا بعيسى وبمحمد. فالذين رسخ في عقولهم الإيمان مرتبطا بالحق لا بزمن ولا إنسان، واحترموا كل من جاء بالحق من عند الله، فسموا إلى هذه المرتبة التي أراد الله أن تبلغها البشرية برسالة الإسلام. عرف الله قيمتهم بأنهم هم الموسومون بأكمل أنواع التصديق.

والشهداء....يحتمل العطف ثلاثة محامل :

1) أن يكون عطفا على الصديقين، على معنى أن الله جمع لهم بين وصفين كونهم صديقين وكونهم شهداء على الأمم السابقة. أو على معنى أن مرتبتهم هي كمرتبة شهداء من مضى من الأمم.

2) أن يكون لفظ الشهداء لا تعلق له بالذين آمنوا... بل هو كلام مستأنف جديد، أخبر عن الشهاء، بأن لهم أجرهم....فهو إخبار عن ثواب الشهداء. ويكون الوقف عند قوله: الصديقون.

على أي احتمال حملت الآية فالخبر تم بقوله: **لهم أجرهم ونورهم**. ومعنى عند ربهم أنه مستقر ثابت عند من لا تضيع الأجور عنده، الكريم الذي يضاعف الأجور. وفي إضافة الأجر والنور إليهم ما يدل على أن ما يلقفونه من الجزاء وما يمكنهم ربهم من النّور، هو شيء خاص بهم، فوق ما يتصوره المتصورون، إذ لا مثل له.

والذين كفروا.... تصريح بالفرق بين المؤمنين بالله ورسله... وبين من كفر بما آمن به المؤمنون. يظهر هذا الفرق في خاتمة كل فريق. فهؤلاء الكفرة استحقوا بسبب كفرهم أنهم عقدوا ملازمة بينهم وبين الجحيم، فلا يخرجون من النّار.

ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ
وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ
وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ
ٱلۡغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ
أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو
ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ
مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا
تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ
ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الغرور: الخديعة.

العرض : السعة.

مصيبة : حدث.

نبرأها : خلقها.

لكيلا تأسوا : لتسلموا ولا تكترثوا.

بيان المعنى الإجمالي :

اعلموا ما هو حق وأعرضوا عما هو زائف. الحياة الدنيا بما فيها من مباهج تدغدغ الشهوات والعواطف، من اللعب، واللهو، والزينة، والتفاخر برجحان ما عند الإنسان من خيرات، وحب الجمع لأكثر ما يمكن من الأموال والأولاد. كل ذلك أمور زائفة والتعلق بها وحدها مُرْدٍ للإنسان. فما أي نعيم من أنواع نعيمها بباق مستمر، وكل تجاوز في نيله بطرق غير مشروعة يعد صاحبه لعذاب يتجاوز أضعاف ما استمتع به.

متاع الحياة الدنيا مثله : مثل غيث حييت به الأرض واخضر أديمها، وينظر إليه الزراع فيعظم إعجابهم به، ثم ينمو فيكتمل، ثم يجري اليبس والصفرة في أجزائه، إلى أن ييبس فيتحطم. وكذلك تذهب أعمال الكفرة المعرضين عن ذكر الآخرة

هباء، ولا يجدون يوم القيامة إلا أشد العذاب. وفي المقابل فإن المؤمنين يجدون يوم القيامة تطهيرا لهم من ذنوبهم يغفرها الله لهم، ثم يحل عليهم رضوانه، وهي السعادة العظمى. ومن تعمق في معرفة الدنيا فإنه ينتهي إلى الاقتناع بأنها متعة خادعة ارتبط بها الفناء.

أسرعوا لنيل مغفرة ربكم التي تنقيكم من الآثام، وللفوز بجنة لا يعلم سعتها إلا الله أبعادها كالسماوات والأرض مجتمعة. هيأها الله للذين جمعوا بين الإيمان بالله والإيمان برسله. فكل أمة آمنت بالله وبرسولها تدخل في هذا الوعد. وتتميز أمة محمد بأنها الأمة الوحيدة التي جمعت إلى الإيمان بالله واحدا لا شريك له متصفا بصفات الكمال، الإيمان بجميع الرسل الذين بعثهم الله إلى سكان الأرض وخاتمتهم محمد ﷺ. ما ذكر من المغفرة، ومن الجنة، هو فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده. والله صاحب الفضل العظيم الذي لا يحد.

اعلموا أن كل ما يحدث في الكون وكل ما يتأثر به الإنسان من خير أو نقمة، هو مثبت من الأزل في علم الله من قبل أن تخلق الكائنات التي يجري عليها ما علمه الله أزلا. إن إحاطة علمه سبحانه بكل ما يحدث في الكون أمر يسير، لأنه هو الذي خلق الأسباب والمسببات. وبهذا يكون موقفكم مما حصلتم عليه من الرغبات، وما فاتكم منها، أنكم تشكرون الله على ما يسره لكم من خير، وتصبرون على ما أصابكم من ضر. ولا يضغط عليكم ما حرمتم منه، ولا يبلغ بكم الزهو بما رزقتم مبلغ نسيان فضل الله عليكم.

إن من لا يسند الفضل لله في كل ما رزقه من خير وأنعم به عليه، وينسبه لمواهبه، يصاب بداء الكبر والخيلاء، والافتخار بما أوتي ناسبا له لنفسه، ويقترن بهذا الإحساس أن الله يبغضه، فيحرمه من ألطافه.

إن المنافقين الذين يبخلون بأموالهم عن مساعدة فقراء المؤمنين، وتجهيز الجيوش، ويضمون إلى فسادهم هذا خبث نابع من بغضهم للدين، فيحاولون منع النّاس من الخيرين من النّاس أن يسهموا بأموالهم من أجل مصلحة الجماعة الإسلامية، الله غني عنهم وعن إعانتهم وسينصر دينه، ويكبت المنافقين. فهو الغني عن النّاس، وهو الحميد الذي يحمد ما يقدمه النّاس من خير ويجزيهم، وهو الحقيق بالحمد.

بيان المعنى العام :

20-اعلموا أنما الحياة...متاع الغرور.

افتتحت هذه الآية كما افتتحت الآية السابقة 17 بقوله: **اعلموا** – وهذه الصيغة تحرك المخاطب للتأمل وتنبهه من أول الأمر إلى أمر خفي عليه هو محط ما سيرد بعد الأمر ب " اعلموا "

تدعو الآية المؤمنين إلى أن يرفعوا ما يحجب عن بصائرهم التصور الصحيح، الذي غشته الشهوات، وميل النّفس إلى السهولة. حتى يعدلوا تقييمهم للأشياء وسلوكهم تعديلا ينفعهم في الدنيا والآخرة.

أنما الحياة الدنيا لعب ولهو–

1)اللعب :جبلت النّفس على حب السهولة، هذه السهولة التي تقعد بصاحبها عن الكمالات، وبالمجتمع عن الرقي، ومنازل العزة. يُغَلِّبُ حياة اللعب على حياة الجد. واللعب تراخ عن تحمل المسؤولية وبعد عن العمل. والجد استحضار المرء لمسؤوليته، فهو يعمل ويدرك أنه في جميع ما يقوم به من أعمال مسؤول. وتبعا لاتخاذ الجد أساسا في الحياة تتفاوت مقامات الشعوب، وما يحصل لهم من خيرات. كل إنسان لا بد أن يؤدي بعضا من حياته في الجد، وإلا لما استطاع أن يوفر ما يقيم حياته هو ومن هم تحت رعايته. ولكن المهم هو الصفة الغالبة على الحياة ؛ من تقديم الراحة والعبث، أو تقديم جودة الإنتاج، ومراعاة الفرد أنه مستخلف في هذا الكون ليسأل، ولا تزول قدما ابن آدم حتى يسأل عن عمره فيم أفناه. واللعب هو الغالب على توجهات الأطفال لضعف مداركهم عن النّظر البعيد، ولأنهم باللعب يتعلمون ما تزخر به الحياة من موجودات ومن طرق للانتفاع بها. فسن الطفولة يكون لهم زادا مما أخذوه من اللعب. وليس اللعب بالنسبة للراشدين مظهر نقص، فإن النّفس إذا كلت من الجد، يكون اللعب ضروريا لها بمقدار ما تستجم به نشاطها. فاللعب الذي هونت الآية من قيمته هو اللعب الغالب.

2)اللهو : ما يقوم به الإنسان ليدخل على ذاته، اللذة البدنية أو الجمالية والذوقية. فيكون اللهو باستماع الصوت الحسن، وآلات الموسيقى، وما يصحب صلة الذكر بالأنثى، ويغلب اللهو على الشباب في طور التحول من الصبا إلى طور النّضج. ولا يجتمع اللهو والجد، والمحذر منه هو ما غلب على الإنسان في نشاطه.

3)الزينة: هي السعي ليكون المظهر جميلا في اللباس أو في السكن أو في المركوب. والاقتصاد في ذلك محبوب وغير منهي عنه. وهو يدل على أن التركيب النّفسي لصاحبه معتدل. ولكن إذا توجه القصد إليه بإفراط فإنه يصحبه دائما التبذير، و صرف الثروة فيما لا يعود على المجتمع بالخير والنماء. كما يجعل

صاحبه أو صاحبته تقدم المظهر الجمالي الجسمي على الجمال النّفسي والسمو العقلي.

4) التفاخر: حديث الإنسان عن ذاته مظهرا لما يظن أنه يفوق به غيره من النّاس. ويكون التفاخر بالمال وبالوسامة، وبالنسب، وبالعلم، و بالذكاء، وأمثال ذلك من الخصائص التي يعدها النّاس من الكمالات. والشأن أن لا يفاخر الإنسان إلا من يرغب في إظهار مزيته عليه من مشاكليه. فلا يفاخر عالم النّحو مثلا البقال وسائق السيارة. وسائق السيارة قد يفاخر أمثاله من السائقين مظهرا تفوقه عليهم.

5) التكاثر: حرص الإنسان على جمع أكثر ما يمكن، مظهرا أنه غلب غيره في الجمع، من الأموال والأولاد. وإذا كان الإكثار من المكاسب المالية سار مع البشرية ملتصقا بها، فإن التكاثر بالأولاد لم يعد ميدانا للتفاخر ولا تتعلق به الرغبة العامة تبعا لطغيان الأنانية في عصرنا، ولفرار الأبوين من تحمل متاعب الرعاية للنسل.

عرضت الآية ما يتعلق النّاس به من متاع الحياة الدنيا، وما يتسابقون في التحصيل عليه، وما يخيل لهم أنه قوام سعادتهم. والقرآن لا ينفي أن ما ذكر مغروس في فطرة البشر حبه؛ كيف لا وقد استخلف الإنسان في الأرض ليعمرها، ولا يمكن أن يعمرها إذا لم يحبها، ويتعلق بمباهجها. وما جاء الدين ليعكس الفطرة ويقمعها. فالذي ينبغي أن تفهم النّصوص التي تحقر شأن الدنيا، وتبرز تفاهتها، لا تفهم بإطلاق ولكن عند التعارض بين الحياة الدنيا، والحياة الآخرة في ظرف من الظروف. والقاعدة التي تسير عليها الحياة أنه لا تعارض بينهما في الأعم الأغلب. والتوفيق بين مطالب الحياة الدنيا ومطالب الحياة الآخرة، هو منهج الإسلام الذي توسط بين طرفي نسيان الآخرة، وإهمال الدنيا. قال تعالى : **ومنهم من يقول ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النّار *أولئك لهم نصيب مما كسبوا**[1] إن الغلو في هذا الجانب أو ذاك لا يقره الإسلام لا إثباتا ولا نفيا. فقد هدى النّبي صلى الله عليه وسلم جماعة من خيرة الصحابة اشتد تعلقهم بالآخرة، وحقروا الدنيا في الحديث المشهور الذي رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: (جاء ثلاثة رهط إلى بيوت النّبي ﷺ يسألون عن عبادة النّبي ﷺ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا : وأين نحن من النّبي ﷺ ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.فقال أحدهم: أما أنا فأصلي الليل أبدا، وقال آخر: أنا أصوم الدهر، ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النّساء فلا أتزوج أبدا. فجاء إليهم رسول

[1] سورة البقرة 202/201

الله ﷺ فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله إني لأخشاكم لله ، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر وأصلي وأرقد وأتزوج النّساء. فمن رغب عن سنتي فليس مني)[1] ونصوص التوسط كثيرة يبلغ المستخلص منها مرتبة اليقين. وسنزيد هذا المفهوم بيانا في الآية 27 من هذه السورة إن شاء الله

كمثل غيث – هي الدنيا كمثل غيث. شبهت الدنيا بغرض تجسيم تأثيرها وآثارها، أنها تشبه نبات غيث نما وكسا وجه الأرض يزهو بخضرته، تملك إعجاب الكفار. وكلمة الكفار يمكن أن تفهم بمعنى الزراع، كما جاء في قوله تعالى **(يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار)**[2] وسمي الزارع كافرا، لأنه يستر الزريعة في الأرض. والزُرّاع لاتصالهم بالحرث والنبات يكون إعجابهم بأوضاع الخصب أقوى من غيرهم. كما يمكن أن تفهم بمعنى الكفار بالله. لأنهم لإعراضهم عن الآخرة يكون تعلقهم محصورا في خيرات الدنيا دون الآخرة. وتابع القرآن صورة هذا النّبات الجميل، إنه تطور حسب سنة الله فيشتد ويصلب عوده، ويصفر، ثم يتكسر بمختلف العوامل المؤثرة فيتحطم. وهكذا شأن متع الحياة الدنيا تبهج النَفس لمن قصر اهتمامه بها، ثم تأخذ بهجتها في التناقص إلى أن تذهب غير تاركة أي أثر لها عند صاحبها. هذه طبيعة ما يتعلق به النّاس في الحياة، يلاحقه الفناء شيئا فشيئا حتى لا يبقى منه أي أثر في الدنيا. ولكن في الآخرة يحضر الجزاء على نسيان الله في الدنيا والإعراض عما ضبط به تصرف النّاس فيها فيلقون العذاب الشديد.

وبالمقابل فإن من لم يجعل الدنيا كل همه، فإن مآله مغفرة لذنوبه، أي إنه يتطهر من دنس الآثام التي لصقت به في الدنيا، ويستعد بذلك للسعادة العظمى برضوان كريم من الله، وهو أفضل ما يؤمله المؤمن. وبصفة عامة فإن ما يستمتع به الإنسان من مباهج الحياة هو متعة تتصف بالخداع. يتعلق بها صاحبها فتغره ليجد في النّهاية نقيض ما كان يؤمل، فتشتد كربته، ويعظم عذابه. فإياكم أن تغتروا بإقبال الدنيا، فما السعادة الحق إلا سعادة الآخرة.

21- سارعوا إلى مغفرة من ربكم...ذو الفضل العظيم.

سارعوا : ليكن جدكم نشيطا في نيل ما يضمن لكم مغفرة ربكم لتقصيركم، فإن الحسنات يذهبن السيئات، فوفروا حظكم من الطاعات حتى يكون ذلك تحصينا لكم مما فلت منكم من غفلات. وما يدعوكم للإسراع هو الجنة، وما أدراك ما الجنة،

---

[1] فتح الباري ج 11ص5/4

[2] سورة الفتح آية 29

هي في سعتها كسعة السماوات والأرض جميعا، والمسافة بين مجرات السماء تقاس بالسنين الضوئية، ولا يعلم حدودها إلا خالقها. قد هيأها الله للذين آمنوا بالله فلم يشركوا به أحدا، وآمنوا برسله فاستجابوا لدعوتهم ونصروهم. ويشمل ذلك جميع الأمم التي أرسل الله لها رسله.

ذلك ما ذكر من المغفرة ، والجنة الفسيحة الأبعاد، هو فضل الله، وخيراته التي هي من جوده وعطائه، يمَكِن منها من يشاء من عباده، وليس لأحد عليه حق. وليكن تصوركم: أن الله هو صاحب الفضل العظيم الذي لا تحد حدوده، ولا يضيق بالخلائق. فلكل حظه دون أن ينقص من ملكه شيء.

22←23 ما أصاب من مصيبة....لا يحب كل مختار فخور..

هذه الآية تذكر النّاس بارتباطهم بالله في كل كبيرة وصغيرة. يعلمهم أن كل ما وقع في الكون مما يرغب فيه، ومما يؤذي، من نعمة أو نقمة، هو مقدر تقديرا أزليا عند الله. ما أصاب من مصيبة في الأرض، من الغيث والنبات والمحاصيل الوفيرة، أو من المحلِ والبرد والكساد، والزلازل والعواصف، والرياح اللواقح، والريح العقيم. وكل ما حصل لكم في أنفسكم من عافية وصواب في التفكير وتألق، أو من تسلط بالظلم، ومن مرض وسقام، وذهاب بعض الأعضاء، وموت. كل ذلك مثبت في كتاب. والكتاب هو العلم الأزلي الثابت الذي لا يتغير. ثبت ذلك في علمه ثبوتا أزليا قبل أن يُبْرِزَ الكائنات إلى الوجود الفعلي. إن ثبوت العلم بجميع الآثار والمؤثرات ثابت في علمه بالنسبة للأرض وبالنسبة للبشر.

لكيلا تأسوا.. أعلمناكم بالنظام الذي بنينا عليه الكون، وأنه لا مصادفة فيه، بل الكل مثبت في علمنا في كيفيته وساعة حدوثه، وما يترتب عليه. وبهذا التنبيه على أن كل ما حدث في الكون لا يخرج عن علمنا، تكون أرجاعكم :

1) لما يصيبكم من مكروه، أرجاع من يعود لربه يسأله لطفه، وتقوى نفسه على الصبر لعلمها أنه مقدر لها في الأزل. قال تعالى: **(وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون)**[1]

2) ولما يأتيكم من توفيق ونعم، فلا يبلغ بكم الفرح أن تنسوا ربكم وتغفلوا عن شكره على نعمه. لعلمكم أنه من فضل الله قدّرَهُ في الأزل. إن الفرح المنهي عنه هو الفرح الذي يستولي على النّفس فيحدث فيها زهوا بما حصل، واطمئنانا إلى أنه

[1] سورة البقرة 157/155

دائم لا ينقضي، وأنه نتيجة ذكاء صاحبه وفطنته قال تعالى: (**ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون**)[1]

والله لا يحب كل مختال...هذه خاتمة تؤكد ما جاء في الأدب المذكور في ثنايا الآية. تعلن الآية أن الله يبغض كل من استولت عليه النّعمة فزَهِيَ بها، وتكبر على غيره ممن حرم منها، وعظمت في نفسه فجمد علاقته بالله. ومعنى بغض الله له حرمانه من ألطافه في الدنيا من غفرانه ورحمته في الآخرة.

24- الذين يبخلون...فإن الله الغني الحميد.

يصح أن تكون هذه الآية إتباعا لمن يبغضهم الله المختالين الفخورين، إتباعا بذمهم لأنهم جمعوا لمرض الكبر مرض الشح. كما يصح أن يكون الكلام استئنافا، افتتحت الجملة بمبتدأ: **الذين يبخلون ويأمرون النّاس بالبخل**. ويكون خبر هذه الجملة مقدرا، يفهم من الجملة الشرطية بعده، الذين يبخلون ويأمرون النّاس بالبخل الله غني عنهم وعن إسهاماتهم حامد للمتقين.

والذين يبخلون ويأمرون النّاس بالبخل، الذين استولى عليهم الشح من ناحية، وأبغضوا الدين فهم يمسكون أيديهم عن كل عون، ويسعون لمنع النّاس من السماحة المساعدة للدعوة في مراحلها الأولى وهي محتاجة إلى الدعم. قال تعالى :(**هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا**)[2] والله هو الغني عن البشر جميعا، وهو الحقيق بالحمد والثناء المحمود على جميع الأحوال، وهو يحمد الخيرين على ما يبذلونه من خير.

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ ۚ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ ۖ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ

---

[1] سورة الزمر آية49

[2] المنافقون آية 8

رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ أَجۡرَهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

البينات: الحجج الدالة على أن ما أتوا به حق من عند الله.

الميزان : العدل.

القسط : العدل في جميع الأمور.

أنزلنا الحديد: خلقنا الحديد.

البأس : قوة تضر وتقي من الضر.

قفينا : أتبعناهم. جاؤوا بعدهم.

آثارهم : بدون فاصل زمني طويل.

الإنجيل : الوحي المنزل على عيسى عليه السلام.

الرهبانية: صيغة مشتقة من الراهب، وهو المسيحي المنقطع للعبادة.

حق رعايتها : حفظها الحفظ السليم.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد أيدنا رسلنا بالحجج البينة والمعجزات القائمة، وأنزلنا معهم الوحي موثقا مكتوبا مجموعا في كتب أو صحف، وأنزلنا معهم أصول العدل التي بها يقوم التعاون الاجتماعي محميا من الاعتداء" الميزان". ويرسخ العدل حتى يصبح ملكة في النفوس. وأنزلنا ما يؤيد الحق والعدل من قوة الحديد التي بها يردع المفسدون والمبطلون لما أودعنا فيه من صلابة تمكن من صنع آلات الحرب هجوما ودفاعا ووقاية. وليعلم الله حسب ما يكشف عنه الواقع، مما سبق في علمه القديم، من يتقدم مخلصا لنصر دينه ونصر رسله ونصر شريعته والقائمين بها؛ ومن يسبطن حظوظ نفسه.

من الرسل الذين حملوا أمانة الرسالة نوح وإبراهيم عليهما السلام. ثم إن كل الأنبياء الذين جاؤوا بعدهم هم من ذريتهم، وقد آتاهم الله الشريعة والنص الموثق. ولكن المبعوث إليهم انقسموا إلى فرقتين : فرقة اهتدت بهدى الله، والقسم الكثير الغالب كان من الفسقة.

ثم أرسلنا إثر نوح وإبراهيم رسلا كثيرين إلى أن بعثنا عيسى عليه السلام رسولا، وأيدناه بكتاب من عندنا، الإنجيل الموحى به. وقد عمل عيسى عليه السلام على تليين قساوة قلوب بني إسرائيل الذين انحرفوا أشد الانحراف بعد أن بدلوا التوراة، وحرفوا نصوصها

بالدعوة إلى القسوة والعنف، والإبادة الجماعية، وتقسيم البشر إلى قسم مختار رفيع، خلق ليحكم ويستبد بحظوظ العالم هم بنو إسرائيل، وقسم ليكون محكوما مستنزفا بجميع الوسائل التي تعتبر مشروعة ما دام فيها حظ لهم. وهم الآخرون" الجوئيم "
أثرت هداية عيسى عليه السلام فحولت بعض الذين اتبعوا منهجه من قساة بني إسرائيل، إلى شخصيات امتلأت بالرأفة والرحمة.
ثم إن أتباعه غالوا في العبادة والانقطاع عن الدنيا وتمسكوا بالرهبانية التي ابتدعوها، وضبطوا طريقتها اعتمادا على اجتهادهم لا على عن وحي منا لعيسى. إننا لم نلزمهم بها، ولكنهم ضبطوا طرقها والتزموا بها في حياتهم، يقصدون رضوان الله. فالمنطلق كان اجتهادا طيبا، ولكنهم في التطبيق انحرف أكثرهم عما يرضي الله وانغمسوا في الفساد. فما حفظوها الحفظ السليم، وكانوا فساقا بين الفسق في العقيدة بخروجهم من التوحيد إلى التثليث، وبين الفسق في السلوك بإقبالهم على الدنيا متسترين بثياب الرهبنة، من العمل على الانفراد بالسلطة، والانحلال الخلقي، ومساندة الظلم، والعلاقات الجنسية المحرمة مع التظاهر بالعزوبة. وقتل نتائج السفاح بمجرد الولادة.

بيان المعنى العام :

25- لقد أرسلنا رسلنا...قوي عزيز.

بكل تأكيد أيدنا رسلنا بالمعجزات والحجج الواضحة الدالة على أن ما يَدْعُون إليه ويبسطونه للناس هو ما كلفهم الله بدعوتهم إليه. وأنزلنا الكتاب الجامع لهدايتي يصاحب رسلي، فتم تسجيل الوحي الموحى به بواسطة ما بلغه الرسل، وبواسطة ما جمعته كتب الله. وأنزلنا الميزان، أي قيم العدل بين النّاس مما ينفي الاشتباه، ويتبين به الحق من الباطل، والعدل من الظلم. لرفع التعدي على حقوق الآخرين. إن تلك القيم والمفاهيم المميزة للحق أنزلها الله، لا لتحفظ فقط في الصدور، ولكن ليجري عليها ضبط أمور النّاس، والفصل في خصوماتهم. هذا العدل الذي لا يتحقق إلا إذا صحبه عزم على تقريره في النّفوس، وعلى تطبيقه في جميع شؤون الحياة. وفي تعميم قوله تعالى **ليقوم النّاس بالقسط**، ما يشير إلى أن العدل ليس خاصا بالحكام، ولكنه قيمة تغرسها الرسل في ضمائر جميع النّاس، فتظهر في سائر معاملاتهم فيما بينهم، وفي علاقتهم بالكون كله. وتصبح ملكة.
وأنزلنا الحديد... خلقنا هذا المعدن، وألهمنا البشر طرق استخراجه، وإعداده ليؤدوا به المنافع التي خلقناه من أجلها. إنه المعدن الذي يدخل في كثير من شؤون الحياة العملية.

ثم نبه على خصائصه التي أودعها فيه امتنانا على العباد. فجعل في طبيعته الصلابة التي تخرج منها أنواع الأسلحة التي تقمع الغزاة الظلمة، وتحمي للإنسان عرضه وماله من الفسقة والمنحرفين والمعتدين. ورغم التطور الذي حدث في الأسلحة من صواريخ، وطائرات ومدافع، فإن الحديد ما يزال يشكل عنصرا أساسيا فيها. كما يصنع منه ما لا يحصى من الآلات التي يستعين بها الإنسان في حياته المدنية، من السكين إلى السيارة.

وليعلم الله من ينصره...علم الله له مفهومان: علم أزلي قبل حدوث الأشياء شامل لكل ما يوجد. وعلم بالشيء عند وقوعه على حسب ما سبق في علمه القديم. فإذا قام المجاهدون بالدفاع عن حوزة الدين ورد المعتدين، ونصرة الحق، فإن الله يعلمهم في تلك الحالة علما يميز من خرج للجهاد استجابة لأمره بالجهاد في سبيله، لا يهمه إلا أن تكون كلمة الله هي العليا، متعلقا بما أعده الله للمجاهدين من أجر ؛ ومن خرج طمعا في الغنيمة، أو ليظهر بأسه وشجاعته، أو لينال ما يطمح إليه من مراكز القيادة. هذا الغيب الكامن في النّفوس يعلمه الله.

ونصرة الله هي نصرة دينه، ونصرة المستضعفين من عبيده. ونصرة رسله بتقوية جانبهم في الدعوة إلى الدين في حياتهم، ونصر القائمين بشرع الله بعد موت رسله من العلماء والمصلحين وولاة أمورهم.

إن الله قوي عزيز... غني بعزته وقوته عن العون. فهو الفعال لما يريد. ولكنه أراد التفضل على عبيده لينال المجاهدون شرف الجهاد وثوابه الذي لا يعلم مقداره إلا هو.

26-لقد أرسلنا نوحا... فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون.

فصلت الآية بعض ما يشمله قوله تعالى في الآية السابقة: **لقد أرسلنا رسلنا.** فذكرت من رسله نوحا، وإبراهيم. باعتبار أن نوحا أول رسول، ولأن إبراهيم هو أبو الأنبياء الباقي شيء من شريعتهم. وحقق أنه جعل في ذريتهما النّبوءة والكتاب فكل الأنبياء بعد نوح هم من ذريته. وكل الأنبياء بعد إبراهيم هم من ذريته. ومكن من أرسله من ذريتهما من الكتاب الموحى به. ثم إن المرسل إليهم منهم من لزم الهداية التي جاءته، والكثير منهم غلبوا شهواتهم على اتباع الحق الذي جاؤوهم به، فحق عليهم الفسق وما ينتظره الفسقة من الجزاء.

27- ثم قفينا على آثارهم...منهم أجرهم وكثير منهم فاسقون.

تصريح بعناية الله بالبشرية، وأنه بعث لها رسلا بعد نوح وإبراهيم ليساعدها على إدراك الحق، وإدراك المنهج الذي يساعدها على النّجاح في الحياة الدنيا والحياة

الآخرة. وكان آخر رسول قبل محمد صلى الله عليه وسلم هو عيسى عليه السلام. وآتاه الله الكتاب الموحى به إليه وهو الإنجيل. والفترة بين عيسى ومن جاء قبله من الرسل فترة طويلة.

وجعلنا في قلوب... كان عيسى ﷺ شديد العناية بتربية المبعوث إليهم، الذين كانوا من بني إسرائيل، وكان الإسرائيليون قد تعودوا على القسوة بما أدخلوه في نصص التوراة من العنف، فكان عيسى يأخذ تلك القلوب القاسية فيوالي عليها من ضروب التأديب والتمرين على اللين ما يقلع ما استقر من الأنانية والعنف. وحقق صياغة القلوب على الرأفة والرحمة. والرأفة هي رحمة خاصة بدفع الضرعن الغير، والرحمة تشمل اللين والعطف والرأفة، فهي أعم من الرأفة.

ورهبانية ابتدعوها... الذي عليه حذاق المفسرين أن الرهبانية طريقة يلتزمها النّصراني في حياته ليكون منصرفا للعبادة، وعن مشاغل الحياة الدنيا. وأن "رهبانية " ليست معطوفة على رأفة ورحمة، ولكنه كلام مستأنف. فرهبانية منصوبة بفعل مقدر مساو- ل - "ابتدعوها " أي ابتدعوا رهبانية ابتدعوها.

ويكون المعنى : أن النّصارى ابتدعوا رهبانية، من اجتهاداتهم ما كتبها الله عليهم ولا ألزمهم بها على نحو محدد. فهي طريقة محدثة تصور أصحابها كيف يمكنهم أن يكونوا عابدين لله بصفة أكمل، وأفضل. وجاهدوا شهواتهم وحاولوا التخلص من دواعيها، فلم يتزوجوا خشية أن تلهيهم الحياة الأسرية عن العبادة، وابتعدوا عن النّاس في أماكن منقطعة عن التجمعات البشرية لئلا تشغلهم العلاقات البشرية بالاختلاط عن التفرغ للعبادة والذكر والتأمل. وحاولوا أن يقتبسوا من حياة عيسى طريقة في الحياة تقترب من طريقته في ظنهم، ولا تخلو من مغالاة.

ما كتبناها عليهم إلا ابتغاء رضوان الله... ما ألزمناهم بالرهبانية، ولكنهم ابتدعوها قصد أن يصلوا بها إلى رضوان الله. فهي حسب منطلقها، وما يصحبها من قصد وإن كان طيبا لم تكن مشروعة من قبلنا، ولا مأمورا بها، ولكنها تؤدي إلى مرضاتنا حسب تصور أصحابها. وفي نظري أن هذا التدقيق في توضيح الرهبانية، يعود إلى أن المنهج الرهباني ليس منهج الحياة والاستخلاف الذي أراده من خلق آدم وإنزاله إلى الأرض. وفي تعميمه توقيف لتطور العالم والمعرفة.

فما رعوها حق رعايتها... بعد أن سجل حقيقة الرهبانية ومنطلقها، حوّل الاهتمام إلى ما آل إليه أمر الرهبانية في الواقع. فنصت الآية على أن الرهبان لم يحافظوا على ما التزموا به، وأصبحت الرهبانية حسب دعوى المنتسبين إليها شيئا، وواقعهم شيئا آخر. فمنهم من التزم بالقيم التي تدعو إليها بإخلاص وتجرد. وبعزمات قوية لمقاومة كل ما يلهي عن ذكر الله

وعبادته بضروب القربات التي ترضيه من صلاة وصوم وذكر وعمل الصالحات. وبعقيدة نقية موحدة لا تدعي بنوة لله، ولا تعطي لعيسى مرتبة فوق كونه عبدا لله ورسولا. وهؤلاء استحقوا أجرهم وافيا غير منقوص. ومنهم من لبس لباس الرهبنة ولم يرعها حق رعايتها، فعاش حياة فيها كثير من النّفاق. فقد كانت الحروب والنزاعات بين الرهبان وبين السلطة الدنيوية شديدة للانفراد بالسلطة. وتقدموا ليكونوا وسطاء بين الله وبين العباد. ومالأوا المستبدين ليتسلطوا على المستضعفين. زيادة على العلاقات الجنسية المحرمة بين الرهبان والراهبات، ووأد الأطفال من العلاقات المحرمة إثر الولادة ليستروا فضائحهم. فجمعت الكثرة الكاثرة منهم بين الفسق بالكفر بالتثليث، وبين الفسق بارتكاب الموبقات تحت عباءة التقوى الزائفة. قال تعالى: **(يا أيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال النّاس بالباطل ويصدون عن سبيل الله)**[1]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الكفل : النّصيب

بيان المعنى الإجمالي :

نداء للمؤمنين يوقظهم ليجعلوا التقوى أليفة قلوبهم، وموجهة أعمالهم، واقرنوها بمواصلة الإيمان برسوله. إنكم إذا جمعتم بين هذين الخيرين يجزيكم بإيتائكم حظين ونصيبين مضاعفين من رحمته؛ حظ إيمانكم بمن سبق من المرسلين وحظ جزاء إيمانكم بمحمد صلى الله عليه وسلم. ويجعل لكم نورا يرافقكم في نشاطكم في الحياة فتهتدون للاختيارت الموفقة. ويغفر لكم أيضا ما قصرتم فيه. والله هو الغفور الكثير المغفرة لذنوب عباده، الرحيم بهم فيعاملهم معاملة الرحمة لا القسوة.

وبهذا يكبت أهل الكتاب ليعلموا أنهم لا يقدرون على منع أي شيء من فضل الله. فالفضل بيد الله، يمكن منه من يشاء من عباده حسب حكمته، وتقديره الأزلي.

[1] سورة التوبة آية 34

فيضاعف كفلين من رحمته للمـؤمنين برسـوله محمـد ﷺ. والله هـو صـاحب الفضـل العظيم الذي لا تحد حدوده، وليس لأحد دخل فيه.

بيان المعنى العام :

28- يا أيها الذين آمنوا اتقوا...والله غفور رحيم.

غلب إطلاق الذين آمنوا في القرآن علـى المـؤمنين بالـدين الإسـلامي. فتكـون الآيـة موجهة الخطاب للمسلمين، تأمرهم بتقوى الله أولا، والتقـوى هنـا تـدل علـى خشـية الله واستحضار جلاله استحضـارا يعصـم مـن المعاصـي، ويحـث علـى الطاعـة وفعـل الخير. وآمنوا برسوله وواصلوا الإيمان برسوله ثانيـا. ورتـب علـى ذلـك أنـه يـؤتيهم أجرهم مرتين. يوضحه ما أخرجه البخاري بسنده إلى سالم بـن عبـد الله عـن أبيـه أنـه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنمـا بقـاؤكم فيمـا سـلف مـن قـبلكم مـن الأمم ما بين صلاة العصر إلى غـروب الشـمس. أوتـي أهـل التـوراةِ التـوراةَ فعملـوا بها حتى انتصف النّهار عجـزوا فـأعطوا قيراطـا قيراطـا. ثـم أوتـي أهـل الإنجيـل الإنجيل فعملوا إلى صلاة العصـر ثـم عجـزوا، فـأعطوا قيراطـا قيراطـا.ثـم أوتينـا القرآن فعملنا إلى غروب الشمس فأعطينـا قيـراطين قيـراطين. فقـال أهـل الكتـابين : أي ربنا، أعطيت هؤلاء قيراطين قيـراطين، وأعطيتنـا قيراطـا قيراطـا، ونحـن كنـا أكثر عملا. قال الله عز وجل: هل ظلمـتكم مـن أجـركم مـن شـيء ؟قـالوا :لا، قـال: فهو فضلي أوتيه من أشاء.)[1]

كما يمكن حمل الذين آمنوا على الذين تحقـق مـنهم الإيمـان الصـادق المقبـول عنـد الله من المسلمين ومن أهل الكتاب، وتكـون الآيـة دعـوة بصـفة خاصـة إلـى النّصـارى الذين عنيت بهم الآية السابقة، دعـوتهم إلـى الإيمـان بمحمـد صـلى الله عليـه وسـلم. فحرضهم على الاستجابة لما أمرهم به بأنه يـؤتيهم مـن فضـله نصـيبين مـن الأجـر: ثواب إيمانهم بعيسى عليه السلام وثواب إيمانهم بمحمد عليه الصلاة والسلام.

وهذا الإيتاء كما جاء في الحديث هو من أثـر رحمـة الله. ويجعـل لكـم نـورا تمشـون به. وييسر لكم نورا يهديكم في اختياراتكم إلى ما هـو أفضـل عائـدة علـيكم فـي الـدنيا والآخرة. ويتأكد هذا الفضل بأن من صفات الله وأسـمائه الأزليـة أنـه غفـور لصـالحي عباده تقصيرهم، رحيم تسع رحمته كل شيء.

[1] فتح الباري ج2 ص177/179

29-لئلا يعلم أهل الكتاب...والله ذو الفضل العظيم.

الذي عليه جمهور المفسرين أن " لا" في قولــه لــئلا يعلــم هــي زائــدة لا تنفــي شــيئا. والكلام على الإثبات أي لكي يعلم. وتكون الآيــة متصــلة بســابقتها التــي دلــت علــى أن الله يعطى المؤمنين كفلين من رحمته ويجعل لهم نــورا و يغفــر لهــم. وأن أهــل الكتــاب وخاصة اليهود لما نزلت الآية السابقة جادلوا فيها لما يثبتونــه لأنفســهم مــن أنهــم أبنــاء الله وأحباؤه. فنفى القرآن مبطلا ما توهموه مــن المنزلــة الخاصــة، لــيعلم أهــل الكتــب الحاسدين للمؤمنين، أنهم لا يملكون التصرف في فضــل الله، فهــو بيــده وحــده ســبحانه يؤتيه من يشاء من عباده، وذلك تبعا لحكمتــه التــي يقصــر العقــل البشــري عــن إدراك جميع أسرارها. وهو ســبحانه صــاحب الفضــل العظــيم........ والــذي يــراه الشــيخ محمد الطاهر ابن عاشور رحمه الله أن "لا" أصيلة وليســت زائــدة وأن الــلام فــي قولــه " ليعلموا هي لام العاقبــة. كقولــه تعــالى: **(فالتقطــه آل فرعــون ليكــون لهــم عــدوا وحزنا)**[1] كانت عاقبة التقاطه أن كبر عنــدهم حتــى أصــبح عــدوا لهــم، وأدخــل عليــه الحزن. وكقول الشاعر:

لِــدُوا للمــوت وابنوا للخراب *** فكــلكم يصيــر إلى تَبَــابِ

عاقبة الولادة الموت، ونهاية البناء وعاقبته الخراب.

فيكون معنى الآية: أن ما تفضل به عليكم ربكم من إيتــائكم كفلــين مــن رحمتــه، وجَعْلِــه لكم نورا تمشون بــه، وغفرانــه، انتهــى إلــى مضــاعفة الــبغض والحســد عنــد أهــل الكتاب، وحرمانهم من العلم بأنهم لا يقدرون علــى منــع فضــل الله لكــم. فــلا تكترثــوا بهم وبخيالاتهم الكاذبة بأن لهم منزلة عند الله تعالى.

يوم الجمعة 2014/3/14

---

[1] سورة القصص آية 8

سورة المجادلة

عرفت بهذا الاسم في المصاحف وفي كتب السنة، وفي كتب التفسير. وسميت سورة الظهار في مصحف أبي بن كعب. ووجه تسميتها بذلك الاسم افتتاحها بواقعة مجادلة خولة بنت ثعلبة زوج أوس بن الصامت رضي الله عنهما، لما ظاهر منها زوجها، وأتت رسول الله ﷺ تستفتيه في أمرها. فهي على هذا بكسر الدال.
وهي سورة مدنية. وهذا هو الراجح، وإن ذهب بعضهم إلى استثناء بعض الآيات، فعدها مكية. وهي الثامنة والخمسون حسب ترتيب المصحف. وحسب ترتيب النّزول المائة وثلاث. نزلت بعد سورة المنافقين، وقبل سورة التحريم.

بسم الله الرحمن الرحيم

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَـٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَـٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّـٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَـٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

سمع: استجاب للمطلوب.

المجادلة : الاحتجاج والاستدلال.

في زوجها : في شأن زوجها.

التحاور : مراجعة من الجانبين.

الوعظ : التذكير بالخير بترغيب أو التحذير من الشر بترهيب.

بيان المعنى الإجمالي:

جاءت خولة زوج أوس بن الصامت إلى رسول الله ﷺ تستفتيه، عارضة عليه مشكلتها المتمثلة في أن زوجها خاطبها بقوله: أنت علي كظهر أمي ؛ الكلام الذي كان يدل عرفا على التحريم الأبدي. ولما لم ينزل على رسول الله صلى الله عليه ما يرفع هذا العرف أفتاها بقوله : ما أراك إلا حرمت عليه. أخذت تقدم وجهة نظرها التي ترمي من ورائها أن عقد الزوجية لم ينقطع. لأن أوسا لم يصرح بلفظ الطلاق، ولأنه والحالة هذه ستنهدم الأسرة، وتكون المصيبة على أولادهما، الذين إن أخذتهم معها لا تستطيع أن تعولهم وإن أبقتهم عند أبيهم فقدوا حنان الأم الراعية. وهي تقول في كل مرة: أشكو إلى ربي وضعي الحرج. فنزل على رسول الله ﷺ : أن الكلام لن يحول الزوجة إلى أم. وتبقى الأمومة علاقة تابعة للولادة. وأن قول الزوج لزوجه: أنت علي كظهر أمي، كلام محرم، ومنكر، وزور مخالف للواقع. وأن الله يعفو عن التائبين، ويغفر لهم.

إذا أراد الزوج الخروج من آثار الظهار فعليه أن يتوب، ويكفر على الترتيب التالي:1- بعتق رقبة، ولما تحرر العبيد ولم يبق في عصرنا رقيق فانطباق هذا الخيار الأول أصبح مستحيلا. فلينتقل المظاهر إلى صيام شهرين متابعين، وبإكمالهما يمكنه العود إلى حياته الزوجية، وإن تعذر عليه لوَهَنٍ في جسمه فعليه أن يطعم ستين مسكينا ما يشبع كل فرد منهم يومه. وبالتأكيد فإنه لا يتحلل من ظهاره إلا بعد القيام بالكفارة كاملة. ما قررناه لكم يتأكد عليكم الإيمان بأنه من عند ربكم، وتصدقوا رسوله فيما بينه لكم. واحذروا التهاون به فإنا هيأنا للكافرين بما أنزلنا العذاب الأليم.

بيان المعنى العام :

1-قد سمع الله قول...إن الله سميع بصير.

تسجل فاتحة هذه السورة واقعة تشير إلى تفاصيلها إشارة موحية. تفتتحها بأن الله العلي العظيم يسمع استغاثة المستغيث به لا يشغله أمر جريان نظام الكون كله عن قضية امرأة فقيرة مع زوجها الشيخ الذي في خلقه حدة. وهاكم بعض تفاصيل الحادثة :جاءت خولة بنت ثعلبة إلى بيت رسول الله ﷺ، وكان في غرفة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، تعرض عليه قضيتها. خولة امرأة نصف عاقلة، وكان زوجها أوس بن الصامت لا يتحكم في أرجاعه عند غضبه. فأسرع في حالة من حالات انفعاله إلى مخاطبتها بقوله: أنت علي كظهر أمي.[وهو المعبر عنه بالظهار]

يتبعه أنه يمنع الزوج من الاستمتاع بزوجه، فتنقطع بينهما العلاقة الجنسية، وليس طلاقا، فلا تحل لغيره. هكذا كان العرف في العلاقة الأسرية قبل الإسلام، ولم يرد ما يثبت هذا العرف أو ينقضه. وكل الأعراف التي لم يرفعها حكم شرعي تبقى مُحكّمَةً في العلاقات.

اهتز استقرار العائلة بما نطق به أوس. وتمثل لخولة ما سيؤول إليه الأمر. فتوجهت إلى رسول الله ﷺ عله يحل لها مشكلتها فقالت : يا رسول الله إن أوسا أكل شبابي، ونثرت له بطني [تشير إلى ما أنجبت له من أولاد] فلما كبرت ومات أهلي ظاهر مني. فكان جوابه ﷺ : ما أراك إلا حرمت عليه.

كانت خولة عاقلة فقيهة، وكان الرسول ﷺ يحترم المؤمنين والمؤمنات ويمكنهم من عرض وجهات نظرهم، وأن يعرضوا عليه ما يستشكلونه حتى يكون الاقتناع والاحترام هو قاعدة العلاقة .

وجدت خولة أنه لم ينزل على رسول قبل هذه الحادثة نصا يفصل في الظهار، وكسرُ العلاقة الزوجية لايكون إلا بالطلاق، وأوس لم يطلقها. فراجعته قائلة يا رسول الله: لا تفعل. فإني وحيدة ليس لي أهل سواه، وأخذت تراجع النّبي ﷺ وتختم كل مرة بقولها اللهم إليك أشكو حالي وانفرادي وفقري إليه. اللهم إن لي منه صغارا إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا. اللهم إليك أشكو حالي. كانت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تقول: سبحان من وسع سمعه الأصوات، لقد كنت حاضرة لهذه القصة كلها، وكان بعض كلام خولة يخفى علي، وسمع الله جدالها. هذه قصة خولة اختتم العر ض الأول بقوله تعالى: **والله سميع بصير**، لا يغيب عن سمعه شيء ولا عن بصره بدون حاسة ولا بعد مكاني.

2-الذين يظاهرون....وإن الله لعفو غفور.

تحدثت عن الذين يصدر منهم هذا التشبيه المقيت، فعرفهم بما صدر عنهم؛ الذين يظاهرون منكم من نسائهم- ولما كان ذلك لا يخرج قائله عن الإيمان قال: منكم - فبينت الآية أن قولهم هذا لا يقلب الحقائق، وأن الأمومة لا تثبت بالقول ولا تنفى به. بل هي رابطة نشأت من الحمل والولادة. فتشبيههم زوجاتهم بظهور أمهاتهم كلام مناف للواقع ولا يحول حقائق العلاقات. وبعد أن حقق، أن كلامهم لا يحول الزوجة إلى أم، أتبعه بإظهار فساد هذا الكلام وخروجه عن الآداب. فوصفه أولا بأنه منكر. بمعنى أنه لا يمكن أن يقبل بحال، وهو كلام مرفوض أدبا وخلقا،

لمناقضته لما يجب للأم من احترام. إن تشبيه الرجل استمتاعه بزوجه، واستحضار ذلك حتى يرسم صلة بينه وبين الاستمتاع بالأم في التصور، وفي صورة شنيعة حتى بين الرجل وزوجه: هي الاستمتاع بالأم من الخلف. هي صورة بلغت من الفظاعة حدا لا يمكن أن تدخل في تصور من له أدنى قدر من المروءة. فهو كلام منكر بجميع المقاييس. وقد كنت عند قيامي بمهام الإفتاء أقرع من يأتيني مستفتيا في الظهار تقريعا كبيرا، وما وجدت واحدا منهم إلا ويبدو على قسمات وجهه من الأسى والخزي ما أظن أنه لا يعود لمثل قبيح قوله.

وإنه زور :أي ميل عن الحق وكذب. وبهذا فإن الظهار حرام كما يدل على ذلك تعقيب الآية بقوله تعالى: **وإن الله لعفو لغفور.** فهو لفضله يعفو عن السيئات ويغفر الذنوب للتائبين الذين يستشعرون ألم الإثم، ويتوجهون لربهم تائبين.

3-والذين يظهرون من نسائهم...بما تعملون خبير.

تتابع الوحي مفصلا ما يجب على المظاهر إذا أراد التحلل من كلامه والعود إلى علاقته بزوجه. فمعنى يعودون لما قالوا، أي إنهم يعزمون العودة إلى العلاقة الجنسية التي حرموها على أنفسهم بصيغة الظهار. ذكر الإمام مالك في الموطأ في قول الله عز وجل والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا: (قال : سمعت: أن تفسير ذلك أن يظاهر الرجل من امرأته، ثم يجمع على إصابتها وإمساكها؛ فإن أجمع على ذلك فقد وجبت عليه الكفارة، وإن طلقها ولم يجمع بعد تظاهره منها على إمساكها، فلا كفارة عليه) فمعنى يعودون : أرادوا العودة كقوله تعالى إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا، أردتم القيام إلى الصلاة.

وينبني على هذا أنه إذا ظاهر، ولم يبق له تعلق بالعودة إلى الحياة الزوجية، فإن عليه أن يطلق، وإن أراد أن يمسكها دون أن يطلقها أو أن يقوم بالكفارة فهو مضار بها، يجري عليه حكم الإيلاء، أن الحاكم يضرب له أجلا، فإما أن يطلق أو يكفر، أو يطلق الحاكم عليه طلاقا يقطع العلاقة الزوجية.

ويكون العود المُحِلُ لاستئناف العلاقة الزوجية، بعتق رقبة، عتق عبد أو أمة، قبل أن يمسها مس الاستمتاع الذي يتم بين الزوج وزوجه كالتقبيل ونحوه والجماع. فبعد أن يعتق يحل له ما حرمه على نفسه بالظهار.

ذلكم توعظون به... ما فرض عليكم من تحرير رقبة قصد منه وعظكم، وتحريك خوفكم من سخط الله. فاجتنبوا مس المرأة قبل التكفير. والله عليم بحقائق ما يصدر منكم، من ظهار، ومن تكفير، ومن كون ما تقومون به تقصدون منه العود إلى الحياة الزوجية الطبيعية أو غير ذلك. وفي كل ما يصدر عنكم.

4- فمن لم يجد فصيام...وللكافرين عذاب أليم.

من لم يجد رقبة يعتقها كوضعنا اليوم بعد تحرير العبيد، فإنه ينتقل إلى صيام شهرين متتابعين بالأهلة، أو بالعد ستين يوما. ولا يقرب زوجته حتى يتم الصوم. فإذا تعذر عليه الصيام لضعف في بدنه من هرم أو مرض، فإنه يطعم ستين مسكينا. وقدر الفقهاء السابقون أن الإطعام يكون بتمكين كل مسكين من مد أو مدين على خلاف بينهم في ذلك. ويكون من غالب قوت أهل بلد المكفر. والذي يترجح عندي أن الإطعام يكون بتمكين كل مسكين مما يشبعه من خبز وإدام (زيت أو سمن أو جبن مثلا) على أقل تقدير، وإذا تفضل بطعام من لحم فهو خير. إذ المدان لا ينتفع بهما في عصرنا انتفاعا يرفع عن المسكين الجوع.

ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله... الإشارة تعود إلى أنواع الكفارات المذكورة في الآية على الترتيب الوارد فيها. وإلى التيسير في الانتقال من نوع إلى نوع تفضلا من الله عليكم في رفع الحرج. ليتمكن من قلوبكم الإيمان بأن ما شرعه حق، مما يتبعه الانتهاء عن الظهار المنكر والقبيح. وأن تقوموا بالتكفير، ولا تقربوا المظاهَرُ منها إلا بعد الكفارة. فإيمانكم بالله يقتضي اعتقاد أن ما حكم به حق وفيه صلاحكم واستقرار العائلة، وتنقية ألسنتكم من البذاءة. وإيمانكم برسوله يوجب التطبيق لما أخبركم به عن ربكم والتزامكم بتوجيهاته في الظهار وفي غيره.

وتلك حدود الله... ما ذكر على نحو الإشارة بقوله : ذلك لتؤمنوا. تحريم الظهار، وكفارته على النّحو المضبوط في الآية حدود الله عليكم ان لا تتجاوزوا تلكم الحدود ولا تتساهلوا فيها، فاقلعوا عن مخاطبة نسائكم بالظهار الكلام الجاهلي الوقح، ومن زل منكم فليكفر عن طواعية مع رجاء أن يغفر الله له ذنبه. واعلموا أن الذين يكفرون بتشريع الله ويرفضونه أعد الله لهم عذابا أليما.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

المحادة : المشاقة والمعاداة.

الكبت : الخزي والإذلال.

أحصاه الله : أحاط به علما.

الشهيد : العالم بالأمور المشاهدة.

النجوى : ناجاه ساره بالحديث.

بيان المعنى الإجمالي:

إن الذين عرفوا بأنهم قد جعلوا معاداة الله ومعاداة رسوله شعارهم الذي به يتميزون. سيذلهم الله كما أذل الذين من قبلهم من المنافقين. وقد أعد الله للكافرين بسبب كفرهم عذابا يهينهم ويذل كبرياءهم. سيتم هذا يوم يبعثهم الله من سبق ومن لحق، فيوقفهم على كل صغيرة وكبيرة من الآثام التي ارتكبوها. التي أحصاها الله عليهم وكتبها ملائكته في سجل كل واحدمنهم. وكان التسجيل أدق مما بقي في أذهانهم فقد نسوا كثيرا مما اقترفوا. إن الله يعلم علما دقيقا كل ما يصدر عن البشر، فهو شهيد عليهم.

ألم تعلم أيها الإنسان أن الله سبحانه هو خالق السماوات والأرض، ومسيرها يعلم كل دقيقة تجري فيهما. يستوي في علمه الحوادث العظمى، وما يتناجى به اثنان أو أكثر من حديث يبالغون في إخفائه، فإنه لا يخفى على الله شيء، لأنه مطلع اطلاعا ينكشف له في كل لحظة ما يحدث في الموجودات ويحصي في كتاب كل فرد ما صدر عنه، ثم ينبئه به يوم القيامة ليجزى به.

بيان المعنى العام :

5-إن الذين يحادون الله...عذاب مهين.

تهديد للذين حملهم الحقد على الإسلام، أن استبطنوا العداء لله ولرسوله لما جاءهم بدين الله وهددهم على كفرهم. إن الله سيذلهم ويخزيهم كما أخزى الذين نافقوا من قبلهم. وهم قد علموا عاقبة إخوانهم المنافقين. والكبت أصله أن يستولي الحزن على المكبوت يبصر ما يكره، ويعجز عن دفعه.

والعجب من المنافقين في استمرارهم على النّفاق والكيد للإسلام، رغم أن الله أنزل الأدلة البينة الواضحة على صدق الرسول، وصلاح شريعته للبناء الاجتماعي، وتزكية النّفوس. إنهم استحقوا بعنادهم وتصلبهم في الكفر بغضا للإيمان، أن الله أعد لهم بسبب كفرهم عذابا يهينهم جزاء استكبارهم بغير الحق.

6- يوم يبعثهم الله....والله على كل شيء شهيد.

سيحل العـذاب المهـين بالكـافرين يـوم يبعـثهم الله جميعـا السـابقين مـن المنـافقين واللاحقين بهم للحساب والجزاء. تتمثل محاسبتهم في فضـحهم بمـا كـانوا يسـرون مـن الكفر، ويعلنون كذبا من الإيمان. ومـا ترتـب علـى ذلـك مـن فسـاد أعمـالهم وسـوء سيرتهم وسلوكهم. كل ما ارتكبـوه مـن آثـام أحـاط الله بهـا علمـا ووثقتهـا ملائكتـه عليهم. هو حاضر في سجلهم. سيندهشون عندما يشـاهدون كـل سـيئة اقترفوهـا موثقـة زمانا ومكانا وكيفية. وهم الذين فعلوا ما فعلوا مـن الموبقـات نسـوا مـا اقترفـوه. قـال تعالى : **(ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيـه ويقولـون يـا ويلتنـا مـا ل هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيـرة إلا أحصـاها ووجـدوا مـا عملـوا حاضـرا ولا يظلم ربك أحدا)**[1] والله سبحانه لا يغيب عنه أي أمر يحدث في الكون.

7- ألم تر أن الله يعلم...إن الله بكل شيء عليم.

لاقى المؤمنون في المدينة من كيد اليهود والمشـركين أذى مـن نـوع آخـر. فـإذا كـان مشركو مكة قد واجهوا الـدعوة بالعـداء السـافر، والأذى البـدني، فـإن المنـافقين فـي المدينة كان خطرهم أشد، إذ هـم يظهـرون الطاعـة لرسـول الله ﷺ ، ويبطنـون الكفـر والعمل على ما ينقض الإسلام بتدبير خفـي جمـع مـن الخبـث الشـيء الكثيـر. فممـا دبروه وساروا عليه أنهم يقومون بصور من الأعمال تلقـي الخـوف والريبـة فـي قلـوب المسلمين. خططوا أن يتجمعوا في وحدات صغرى يتبـادلون بيـنهم الحـديث فـي خفـاء، ويشيرون إشارات يفهم منها أن شـرا قريـب الحـدوث أو حـدث فعـلا، فـيظن النّـاظر إليهم أن خطرا داهما يتحدث به هؤلاء. يفعلون ذلك حتـى يقتلعـوا مـا ثبتـه رسـول الله ﷺ من الثقة والطمأنينة في المجتمع المدني. وقد كـان المسـلمون يتوقعـون كـل يـوم أن تندلع حرب بينهم وبين مشركي مكة فجاءت هـذه الآيـة تجمـع بـين طمأنـة المسـلمين، وبين الإعلان للمنافقين أن الله يعلم مكرهم، وأنه سيفضـحهم، ويطلـع رسـوله علـى مـا يجري بينهم.

افتتحت الآية بقوله: **ألم تر.** أي ألم تعلم أن الله يعلم العلـم الـدقيق بكـل مـا يحـدث فـي السماوات والأرض. وجسم هذا العلم بأنه ما من ثلاثـة يجتمعـون ليتحـدثوا فيمـا بيـنهم حديثا يخفون فيه أصواتهم حتى لا يسمعهم إلا مـن كـان منحنيـا يصـيخ بأذنيـه لكـلام جلسائه، إلا كان كل ما يجري بيـنهم مكشـوفا عنـد الله يعلـم ظـاهره وباطنـه. ولـيس الأمر محصورا في الثلاثة ولكنه ينسحب علـى أي تجمـع صـغير يجـري بـين أفـراده

[1] سورة الكهف آية 49

الحديث حديث السرار، سواء أكانوا خمسة، أو أكثر منها أو أقل اثنان أو أربعة أو أكثر من ذلك. إن الله مطلع على ما يتناجون به كأنه في اطلاعه أحدهم. إن أمرهم مكشوف عند الله سواء أكان تجمعهم ظاهرا أم في ستر بعيد عن الأنظار.

ثم ينبئهم... يهددهم بأن ما يجري بينهم سيثبته الله في صحائفهم، ثم يلقونه يوم القيامة ويظهر لهم ما كان يجري بينهم، وما كانوا يرمون إليه من النّجوى.

إن علم الله هو العلم الشامل الذي لا يغيب فيه شيء من حوادث الكون عن علمه سبحانه، سواء صدر من المنافقين أو من غيرهم، في أي مكان وفي أي زمان.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُواْ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِيٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ ۚ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا ۖ فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْاْ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الإثم : ما في كلامهم من الكفر وذم المسلمين والتحرق على إيذائهم.

العدوان : الظلم وما يدبرونه من كيد.

حسبهم جهنم : تكفيهم جهنم عذابا.

يصلونها : يتسلط عليهم لهيبها من جميع الجوانب.

بيان المعنى الإجمالي :

عجب من أمر المنافقين، نهاهم الرسول عن النّجوى، التي في شكلها تجعل المؤمنين يؤولون تناجيهم بتصورات ترفع الطمأنينة من نفوسهم. ثم إنهم عادوا للتناجي بنفس الطريقة. وفضحهم بأن نجواهم تحوم حول الطعن في الإسلام والمسلمين، وفي التخطيط لما يضر بالجماعة الإسلامية، والكيد لتوقيف العمل بما يأمر به الرسول. تأصل الخبث في نفوسهم، تتبينه من أنهم إذا دخلوا عليك حيوك بتحية على غير العرف الإسلامي، فلا يسلمون عليك ب "السلام عليكم" ويختارون

تحيتك مثلا، بأنعم صباحا، تمسكا بتقاليد الجاهلية. ويقول بعضهم لبعض لو كان محمد رسولا لسلط الله علينا عذابه، وما مسنا سوء، فمحمد ليس بينه وبين الله صلة. وما دروا أن سنة الله في الخليقة أنه لا يعجل بالمؤاخذة، وأن هؤلاء المنافقين قد أعد الله لهم مكانهم في جهنم، وما أسوأها عاقبة.

أرشد الله المؤمنين أن تكون المواضيع التي يتناجون فيها فيما بينهم، نقية من الإثم والظلم، والوقوع فيما خالف ما شرعه رسول الله ﷺ. وأن يحصروا مواضيع مناجاتهم في كل ما هو خير حسب معايير الإسلام، وأن يلتزموا تقوى الله في كلامهم ومخططاتهم. واتقوا الله التقوى الذي تعلمون معها أنكم ستحشرون إلى الله ليحاسبكم.

لا تحزنوا من نجوى المنافقين، فإن ذلك من تهاويل الشيطان الذي يعمل على حزنكم. وكونوا واثقين بأنه هو وحزبه لا يستطيعون ضركم إلا إذا قدر الله لكم شيئا من ذلك. واعتصموا بحسن التوكل على الله الذي أمر المؤمنين بأن يتوكلوا عليه.

بيان المعنى العام :

8-ألم تر إلى الذين...فبئس المصير.

تفتح الآية بالتعجيب من استمرار المنافقين على خبثهم والكيد للمسلمين بالطرق الخفية. فقد نهى النّبي ﷺ المنافقين من التحلق واتخاذ أشكال في الحديث تلقي في قلوب المؤمنين ما تلقي من التأويلات لما يتحدثون به. إنهم بعد نهيهم النّهي البات من رسول الله ﷺ، واصلوا وعادوا إلى التناجي على نفس الطريقة التي نهوا عنها. وكشف القرآن للرسول وللمؤمنين أن تناجيهم وإن كان يجري في سر لا يسمعه أحد من غير المنافقين، فهو معلوم عند الله. هو تناج بالإثم بما تشمله كلمة الإثم من الكفر وتبادل الرأي حول ما يؤذي المؤمنين ويهون شأنهم. والعدوان من الإعداد للتواصل مع المشركين ليتهيؤوا لغزو المسلمين في مدينتهم. وليخططوا ما يمكنهم من ظلم المسلمين والتعدي على حقوقهم بطرق ملتوية. وفضحهم القرآن من ناحية أخرى : أنهم إذا حضروا مجلس سول الله ﷺ أو خاطبوه، افتتحوا كلامهم بطريقة تخالف ما أكرم الله به نبيه من حسن الخطاب، وحيوه بتحية تختلف عن التحية التي حيى الله بها رسوله، وشرعها للمؤمنين. فإن التحية التي حياه بها وأرشد إليها المسلمين عند التواصل بينهم هي: السلام عليكم. فكان المنافقون يحيونه بقولهم مثلا: عم صباحا. لبغضهم لكل أدّب أدّب به الله هذه الأمة. والقرآن يتوجه إلى النّبي ﷺ بقوله: يا أيها النّبي – يا أيها الرسول. وهم لا يخاطبونه بمثل ذلك.

وهم غير مطمئنين لخبثهم، ويتساءلون في أنفسهم وفيما بينهم فيقولون: لولا. يخشون أن يعذبهم الله بأقوالهم. أوهم يقولون لو كان محمد رسولا لعجل ربه عذابنا على ما نطعن فيه، ونهون من شأنه في خطابنا.

إن تصورهم هذا هو تصور الجاهلين بسنة الله في خلقه. ذلك أن الله بنى أمر الكون على عدم الربط السريع بين الفعل وجزائه. إذ لو جرى على هذا الأمر لانتهى التكليف، والاختيار. إذ ظهور العقاب سريعا يمنع النّاس قهرا من ارتكاب المعصية، ولم يُبْنَ وضع الحياة الدنيا على هذا. ولكن على الإيمان بأن جهنم هي جزاء الكافرين. يكفيهم جهنم يصلون نارها. ولا أسوأ مصيرا من المصير إلى جهنم.

9- يا أيها الذين آمنوا...واتقوا الله الذي إليه تحشرون..

هذه الآية ترسم منهجا للمؤمنين في عهد الرسول وفيما يأتي بعده، عند اجتماع بعضهم ببعض. فقد يكون اجتماعهم على صورة ظاهرة يُسْمِعُ المتكلم كلامه، بما يمكن أن يتجاوز المجلس فلا يتحفظ. وقد يجتمعون فيتم الحديث بينهم في خفاء، وفي صورة جلوس تجعل كل واحد يقترب من الآخر ويميل إليه ليعي كلامه. ولما كان الشأن أنهم لا يتحفظون فيما يتحدثون به في هذا الوضع، أرشدهم القرآن إلى ما يجب أن تكون عليه موضوعات أحاديثهم. علما أن الله معهم مطلع على ما يقولون. فاعتنت الآية بنهيهم عن موضوعات فيها إثم، أو ظلم للآخرين، أو خروج عما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم. وأرشدهم إلى ما يرضاه الله منهم، ولا يسخطه. كالبر، والبر هو جماع الخير يشمل كل حسن من القول ,و ما فيه صلاح للمتكلم وغيره، وحرضهم أن تكون تقوى الله، باستحضار ما يرضاه، ومراقبة المتكلم لسانه في حدود ذلك، هي الدائرة التي يجري فيها كلامهم.

ولتكن التقوى أليف حياتكم في جميع الأمور، فإنكم ستحشرون إلى ربكم ليحاسبكم عما عملتم وعما قلتم.

10- إنما النّجوى...ليتوكل المؤمنون.

النجوى التي يتأذى منها المؤمنون والتي تمسك بها المنافقون، هي من مكر الشيطان، يوسوس لحزبه من المنافقين ليدخل الحزن والأسى في قلوب المؤمنين. ويجعلهم يتوجسون خيفة من المستقبل، و يخشون أن يكون قد وقع لهم ضر لم يسمعوا به بعد.

وليس بضارهم... يقوي الله ثقة المؤمنين، ويبث الطمأنينة في نفوسهم، بتأكيد أن الشيطان وحزبه، هم أضعف من أن يدخلوا على المؤمنين أي ضرر، إلا بإذن الله.

أي إلا إذا قدر الله ونفذ ضررا بقدرته وإرادته. فكونوا واثقين أنهم لا يضرونكم، ولتكن عزائمكم قوية مطمئنة، وتوكلوا على الله حق التوكل باليقظة لكيد الشيطان وحزبه، والاستعانة بالله على إحباط ما يصرفون فيه خبثهم. فليكن التوكل على الله حليف المؤمنين باعتباره من مقتضيات إيمانهم.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ انشُزُوا فَانشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (11) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ ۚ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (12) أَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (13)﴾

بيان معاني الألفاظ :

التفسح : التوسع. تمكين غيره من فسحة يجلس فيها.

نشز : نهض من مكانه.

الدرجات : في الكرامة والفضل.

إذا ناجيتم : أردتم محادثة الرسول سرا.

بين يدي نجواكم : قبل نجواكم

بيان المعنى الإجمالي :

دعوة للمؤمنين ليكون داعي الإيمان فيهم يطوعهم للإرفاق بإخوانهم في العقيدة. فإذا دعوا ليفسحوا في المجلس فليفعلوا، وإن تضايقوا قليلا. وإذا طلب منهم أن يرتفعوا من المكان لداعي خير فليسرعوا إليه، فالنشاط للمصالح من رشح الإيمان. إن من يفعل ذلك من المؤمنين استجابة لأمر الله واصطحابا لأدب الإسلام، يجزيه الله أفضل الجزاء فيرفع مقامه في الجنة. والله مطلع على ظواهر أعمالكم وعلى نياتكم فأصلحوا أعمالكم ,وأخلصوا لله.

ودعا القرآن المؤمنين إذا أرادوا محادثة الرسول حديثا خاصا، يسرونه ولا يجهرون به أن يقدموا قبل مناجاتهم صدقة توسع على الفقراء من بين سكان المدينة، وقد كان مجتمع المدينة يشمل عددا كثيرا من المحاويج. وعلل هذا الأمر بأن التصدق فيه خير كبير، ويزكي نفوسهم ساميا بها عن الشح، ويطهرهم بالاستعداد لمناجاة

الرسول. وأن الفقراء غير مطـالبين بتقـديم هـذه الصـدقة عنـد إرادة المناجـاة، وأنـه يغفر للمؤمنين تقصيرهم، هو رحيم بهم فلا يكلفهم ما يعسر عليهم.

لم يطل الزمن الذي طبق فيه هذا الأمـر، ذلـك أن بعـض المـؤمنين حسـبوا أن الـربط بين المناجاة وبين الصدقة سيكلفهم نفقات تشق علـيهم. وظهـر ذلـك فـي أن كثيـرا مـن المتعودين على مناجاة الرسول ﷺ، تأخروا عـن ذلـك. راعـى الله ذلـك فخفـف عـنهم بإبطال الأمر بالصدقة عند المناجاة، وذكـرهم بـأن علـيهم أن يواصـلوا القيـام بثوابـت الدين من الصلاة والزكاة والطاعة لله ولرسـوله، فإنـه سـبحانه تكفـل بـأن يجعـل لهـم بذلك زكاة لنفوسهم. والله لا يخفى عليه مـا يجـري فـي خـواطركم، وحقـائق أعمـالكم، فأخلصوا له تنالوا رضوانه.

بيان المعنى العام :

11-يا أيها الذين آمنوا إذا قيل...بما تعملون خبير.

تواصل السورة توجيه المؤمنين إلـى بعـض الآداب الاجتماعيـة التـي تمـتن علاقـاتهم وتمكن روابطهم. وهي تخاطب الصـحابة الـذين كـانوا يحضـرون مجلـس رسـول الله ﷺ فتوصيهم أن يمكنوا الوارد الجديـد علـى مجلـس رسـول الله ﷺ مـن مكـان يجلـس فيه، إذا ازدحم المجلس بكثرة الحاضـرين ويوسـعوا لـه. وتـم التحـريض علـى هـذا المظهر من مظاهر التآخي بأن الله يفسح لمن ييسـر لأخيـه مجلسـا اجتهـد راغبـا فـي الفوز به. ولم تُحْصَرْ توسـعة الفضـل الإلهـي بتقييـدها زمانـا ومكانـا ونوعـا لـتعم، فتكون التوسعة الموعود بها تتناول ميادينها في الـدنيا والآخـرة بمـا يرغـب المـؤمن أن يجد فيه توسعة. فيوسع له في رزقه، و في علمه وفي ألطافـه، وفـي الآخـرة فـي جنـة عرضها السماوات والأرض. والظـاهر أن الفاعـل المقـدر" إذا قيـل " هـو رسـول الله اعتمادا على ما جاء في أسباب النّزول كما روي عن مقاتـل : كـان النّبـي فـي الصـفة، وكان في المكان ضيق في يوم الجمعة فجـاء شـيوخ مـن أهـل بـدر قـد سُـبِقوا فـي المجلس، فقاموا على أرجلهم ينتظرون أن يفسح لهم. وكـان النّبـي ﷺ يكـرم أهـل بـدر فقال لمن حوله : قم يا فلان بعدد الـواقفين مـن أهـل بـدر. فشـق ذلـك علـى الـذين أقيموا، وغمز المنافقون وقالوا: مـا أُنصِـف هـؤلاء، وقـد أحبـوا القـرب مـن نبيـئهم فسبقوا إلى مجلسه، فـأنزل الله هـذه الآيـة تطييبـا لخـاطر الـذين أقيمـوا، وتعظيمـا بواجب رعي فضيلة أصحاب الفضيلة منهـا وواجـب الاعتـراف بمزيـة أهـل المزايـا. قال الله تعالى : **(ولا تتمنـوا مـا فضـل الله بـه بعضـكم علـى بعـض** – وقـال : **لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجـة مـن الـذين أنفقـوا مـن بعد وقاتلوا وكلا وعـد الله الحسـنى)**.ومعلـوم أن السـبب لا يخصـص الـنّص، فـيفهم

على أن الخطاب لجميع المؤمنين. ويكون حكما لجميع المسلمين كلما ضاق المجلس، وأمكن أن يسع المكان من قدم بتضييق السابق على نفسه، فليفعل. وأن هذا من مكارم الإرفاق بين المؤمنين الذي شرعه النّبي صلى الله عليه في أكثر من مناسبة، وهو من أدب المواساة التي بُنِيَت عليها أحكام كثيرة.

وإذا قيل انشزوا فانشزوا... والنشوز معناه الارتفاع من المكان فالتفسح يكون مع بقاء المفسح جالسا، والنشوز يكون مع قيامه من مجلسه. ويفهم هذا إما على أنهم إذا دعوا إلى الخير فليقوموا له كما إذا أقيمت الصلاة أو دعوا إلى القتال أو إلى العون المتأكد. وحمله بعضهم على تأديب الذين يجلسون في بيت النّبي ﷺ ويطيلون الجلوس رغبة منهم أن يكونوا آخر المتصلين برسول الله ﷺ، وكان هذا مما يثقل على رسول الله ﷺ، فنبهتهم الآية إلى أنهم إن لا حظوا إشارة بالارتفاع من المكان والخروج فليبادروا ولا يتباطؤوا. وأحكام المجالس في المسجد وفي غيره وحق السابق، وطرق ذلك مفصلة أحكامه في كتب الفقه.

يرفع الذين... هذا جواب يبين أجر من امتثل فأفسح المكان لغيره من جلوس أو قيام والذين بادروا إلى السبق لما دعوا إليه من خير. إن الله يرفع درجات ومقامات المفسحين والناشزين من المؤمنين لمعنى من دواعي ذلك. ثم عطف عليهم أهل العلم الذين اشتغلوا بمعرفة كتاب الله وأحكام دينه، وتعليمها للناس. فهم أهل لأن يكرموا، ويفسح لهم في مجالس العلم. فالدرجات المذكورة في الآية مفادها الكرامة عند الله والأجر، والثواب الذي يرتقي به المرضِيُّ عنه في رتب الكرامة والنعيم الأبدي. والله يعلم ظواهر أعمالكم وما تستبطنوه، فعلمه بظواهر أعمالكم كعلمه بنياتكم وقصودكم.

12- يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم...فإن الله غفور رحيم.

كان الرسول ﷺ يُسْأَلُ فيجيب السائل في ملأ من النّاس. ويعرض بعضهم عليه مشاكله في مجلسه فيبين للعارض الوجه الأفضل، ويستفيد كما يستفيد السامعون. وكان بعضهم يرغب أن يشرف بقربه من رسول الله ﷺ، وأن يسأله حاجته سرا، فيستمع إليه ويهديه. وكان بعضهم يحصل عنده خبر يهم الجماعة، ولا يريد أن يفشيه قبل أن يطلع عليه النّبي ﷺ وحده فيحدثه به حديث السرار. وكان بعضهم يجد في القرب من رسول الله ومناجاته أنسا بالغا، فيعمد لمسارته وإن كان عرضه جهرا قضيته أفضل من وجوه ؛ ونحو ذلك من الصور. فنزل على رسول الله هذه الآية التي توجب على من يرغب في مناجاته منفردا أن يقدم قبل مناجاته صدقة ينتفع بها الفقراء الذين كانوا في وقت نزول الآية كثيرين. إذ أن مجتمع المدينة كان

يأوي المهاجرين الذين خرجوا من ديارهم وأموالهم ابتغاء فضل الله ورضوانه، وكان بعض الوافدين المبايعين على الدين الإسلامي فقراء، وهم أصحاب الصفة. والزكاة كانت مواعيد توزيعها رأس السنة، أو حصاد الزرع وجني الثمار. والفترات بين ذلك قد تطول، والجائع في حاجة للقوت اليومي، فنزلت هذه الآية توجب على المناجي أن يتصدق بصدقة، لم يحدد مقدارها قبل المناجاة، والمناجاة أمر متجدد. فكان هذا الحكم يحقق أغراضا عدة، منها تكثير فرص الصدقة، ومنها تقليل المناجاة إذا كانت غير ضرورية، لينتفع المؤمنون أكثر ما يمكن من هديه، ولا ينفرد به المناجون زمنا طويلا. وليزكي المناجي نفسه ويطهرها بالصدقة. وإقدام المتصدق على اقتطاع جزء من ماله قبل مناجاة الرسول ﷺ تدل على أنه عكس داعية الاستئثار وسما بها إلى الإيثار، فيتطهر من الشح بالمال. وبما أن الفقر كان غالبا على مجتمع المدينة عجلت الآية بأن هذا التشريع لا يحرم الفقراء من مناجاة الرسول، فصرحت بأن غير الواجد لا يؤاخذه الله بعدم التصدق لأنه سبحانه يغفر القصور رحمة بالفقراء، وفهم كثير من المفسرين أن ما يرجح أن الأمر بالتصدق عند إرادة المناجاة للوجوب بهذه الخاتمة، إذ المغفرة تشير إلى تأكد التصدق. ويجمع المفسرون أن العمل بهذه الآية لم يطل، وأن هذا الحكم نسخ بعد أن عمل به بعض الصحابة كما تظهره الآية التالية.

13-ءأشفقتم أن تقدموا...والله خبير بما تعملون.

تبع تشريع التصدق شفقة عند بعضهم وخوف، إما من التصدق إذا تكرر موجبه وإما من العجز عنه؛ والسؤال سؤال إنكاري. وجمع صدقات تشير إلى أن حاجتهم لمناجاة الرسول ﷺ متجددة وكثيرة، وهو ما بعث في نفوس البعض ما بعثه. والله عليم بذات الصدور، ولذا فإنه بعد تشريع التصدق مدة لم تطل، أعقبه بنسخه وإبطال العمل به، مع التأكيد على أن الثوابت لا تخفف لشعور بعض النّاس بثقلها. فأشار قوله : **فأقيموا الصلاة....**إلى أن تزكية نفوسكم تحصل بما فرضناه عليكم من الصلاة وإيتاء الزكاة، وتوطين القلب على طاعة الله ورسوله في كل ما أمرتم به. فحافظوا عليها وداوموا القيام بها.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِيَ عَنْهُمْ

أَمْوَٰلُهُمْ وَلَا أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ
يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ
هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ
ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الجنة : السترة.

لا تغني : لا تدفع عنهم.

استحوذ : استولى عليهم وصرفهم كيف يريد.

أنساهم : أضاعوه وتركوه.

حزب الشيطان : أنصاره وجنده.

بيان المعنى الإجمالي:

عجب لأمر هؤلاء المنافقين الذين والوا اليهود، وتقربوا منهم، وكانوا عيونا لهم على المسلمين، اليهود الذين غضب الله عليهم، والحال أنه لا صلة تجمعهم بهم، إذ اليهود عنصريون يرفضون من لا يجري في عروقه الدم اليهودي، فهم غير مقبولين من اليهود، وخسروا أيضا صلتهم بكم. ويحلفون كاذبين كي يخفوا ما يبطنون، وما يعملون له من تثبيطكم. لقد هيأ الله لهم عذابا أشد ما يكون من العذاب لسوء فعالهم. عملوا على أن تكون أيمانهم وقاية تقيهم ما هم حقيقون به جزاء مكرهم وخبثهم. ومنعوا من رأوا فيه ميلا إلى الدخول في الإسلام، جزاؤهم عذاب يهينهم نفسيا كما يؤلمهم جسديا.

حسبوا أن ما جمعوه من أموال، وما رزقوا من أولاد، سيجدون فيه غناء يوم القيامة، وهم واهمون فلن ينتفعوا بشيء من ذلك ولو كان قليلا. هم سيلازمون النّار لا يخرجون منها أبدا، جزاء ما فعلوه.

يصحبهم خبثهم يوم القيامة وأيمانهم الفاجرة فيفضحهم الله يوم يحلفون له بالأيمان الكاذبة أنهم مسلمون، كما كانوا يحلفون لكم في الدنيا. وهو يظنون أنهم بكذبهم وأيمانهم الفاجرة قد تمكنوا من شيء ينفعهم. يفضحهم الله ويشنع بهم بأنه قد انحصر فيهم الكذب المفضوح.

استولى عليهم الشيطان وقادهم إلى ما يريد، فأطاعوه، وحجبهم بذلك عن ذكر الله في قلوبهم وعلى ألسنتهم فانقطعت صلتهم بالله. وتحولوا أنصارا وجندا للشيطان.

اعلموا أن حزب الشيطان قد انحصر فيه الخسران فلا أعظم خسارة وخيبة من الذين اتبعوه وساروا في طريقه الضال.

بيان المعنى العام :

14- ألم تر إلى الذين تولوا قوما...وهم يعلمون.

تفيد هذه الصيغة إثارة العجب من هؤلاء الذين ستتحدث عنهم الآية، عجبا لكل راء إذا لم ير تناقض المنافقين وسوء اختياراتهم. مع التشنيع عليهم ببغضهم للإسلام الذي دفعهم إلى موالاة اليهود، والتقرب إليهم، والتجسس على المسلمين وإبلاغ اليهود ما علموه وحرفوه عنهم حتى يتصلب اليهود في عدائهم للإسلام. إنهم بصنيعهم هذا كانوا ضالين أشد الضلال. تقربوا إلى اليهود الذين غضب الله عليهم، دون أن يحصلوا على أي فائدة من هذا التولي. ذلك أن اليهود منغلقون على أنفسهم لا يقبلون أي فرد لا يحمل الدم اليهودي ليكون من جماعتهم أو يستحق نصرتهم. فليس المنافقون من اليهود لا في الحال ولا في المستقبل. وبصنيعهم ذاك لم يكونوا منكم أيضا إذ تصلبوا في الإقامة على شركهم، فضاعوا بنفاقهم؛ وتعروا في مجتمع المدينة من كل ناصر.

ويضاف إلى سوء اختيارهم تركيبهم النّفسي الفاسد، فهم يكذبون على المؤمنين، ويشيعون الشائعات المربكة للمجتمع، ويحضرون مجالس الرسول على أنهم من المؤمنين، ثم عندما يوقفهم الرسول ﷺ على نفاقهم بما يطلعه الله عليه، ينكرون ويحلفون الأيمان المغلظة نافين ما اتهموا به، وهم يعلمون أنها ليست تهمة ولكنها حقيقة.

15- أعد الله لهم...ساء ما كانوا يعملون.

إن تلونهم وحلفهم الأيمان الفاجرة، وعملهم الدائب على الإضرار بالمسلمين، مسجل عليهم تسجيلا لا تذهب منه صغيرة ولا كبيرة، فسيلقون جزاءه بما أعده الله وهيأه لهم من العذاب الذي تذهب النّفس في تصور شدته كل مذهب. وهو جزاء عدل كفاء ما كانوا يعملون من سوء، بقصد خبيث عداء للحق بعد ما تبين.

16- اتخذوا أيمانهم....هم فيها خالدون.

شأن اليمين أن يكون الحالف مستشعرا عظمة من حلف به، فلا يحلف كذبا إلا من مرضت نفسه، وتدنس خلقه. فما بال المنافقين يحلفون كاذبين ولا يبالون ؟ عراهم القرآن بأنهم ارتكبوا ما ارتكبوه، لتكون أيمانهم ساترة لخداعهم، ونفاقهم. ذلك أنهم يعلمون علم اليقين أن المحلوف لهم، المسلمين، تربيتهم تلزمهم أن لا يحلفوا إلا وهم

صادقون. فصدوا المسـلمين عـن معـاملتهم المعاملـة التـي يقتضـيها سـبيل الله الـذي التزموا به. ومن ناحية أخرى كـان قصـدهم أن يمنعـوا مـن حلفـوا لهـم بجملـة مـن الطعون في الإسلام أنها طعون حقيقية، فمنعوا مـن رأوا فيـه مـيلا إلـى الـدخول فـي الإسلام عن اتباع الحق الطريق المبلغ لرضوان الله. وبقيـامهم سـدا يحـول بـين النّـاس وبين الدخول في الإسلام، وإغوائهم وإغـرائهم بالتمـادي فـي الكفـر اسـتحقوا العـذاب الذي يلقون فيه مع الآم الجسمية المهانة والذل.

– كان المنافقون يعتزون بما توفر لهم مـن أمـوال وأولاد. ولـم يكـن معظـم الصـحابة رضوان الله عليهم، وخاصة بعـد الهجـرة وقـد تركـوا ديـارهم وأمـوالهم بمكـة، لـم يكونوا ميسوري الحال. تعـاظم المنـافقون باليسـار الـذي هـم عليـه مـن أن ينتسـبوا لجماعة ليست في مستواهم من الثراء وما يتبـع الثـراء مـن مظـاهر الحيـاة. فهـددتهم الآية بأن كل ما تجمع لديهم لن يفيدهم شيئا يـدفع عـنهم عـذاب الله. إن اسـتكبارهم عـن الدخول في الإسلام، وصدهم عنه، عقد بيـنهم وبـين النّـار صـلة هـي تلازمهـم وهـم يلازمونها، صحبة تامة بينهم، وخلود فيها لا يخرجون منها أبدا.

18- يوم يبعثهم الله جميعا...إنهم هم الكاذبون.

اذكر يا محمد يوم يبعث الله المنافقين يـوم القيامـة فيشـهر بهـم، ويفضـحهم جميعـا لا يستثني منهم أحدا. إنه يبعثهم على ما كانوا عليه من أخـلاق النّفـاق ومـن سـيرتهم فـي الدنيا، يحلفون بالأيمان المغلظـة علـى النّحـو الـذي كـانوا يحلفـون بـه لكـم ليـأمنوا محاسبتكم لهم ومعاملتهم المعاملـة التـي تتناسـب مـع حقيقـتهم. ويظنـون أن أيمـانهم تنفعهم بين يدي الله. يحسبون أنهم متمكنـون ممـا يـنفعهم. والله لا يخفـى عليـه شـيء فيظهر قوة كذبهم، كأن الكذب انحصـر فـيهم. وكـذب غيـرهم لا يبلـغ مـن الرقاعـة والفساد مبلغ كذبهم.

19-استحوذ عليهم الشيطان...هم الخاسرون.

إظهار للسبب الذي بلغوا به هـذا الخسـران والفضـائح. أنهـم أطـاعوا الشـيطان ومـا يلبسه لهم وما يدعوهم إليه، واصـلوا ذلـك حتـى اسـتولى علـيهم وصـرف إراداتهـم وأفعالهم إلى ما يرضى عنه، وقـادهم قيـادة المستسـلم المغلـوب علـى أمـره. وبـذلك تمكن من أن يبعدهم عن ذكر الله بعـدا أضـاعوا بـه الـذكر القلبـي والـذكر اللسـاني. فحجب قلوبهم عن النّور الذي يضيء للسالك في الـدنيا منـاهج الحـق والسـعادة وييسـر عليه العبادة والقربات. فحولهم إلى جنده وقوتـه التـي بهـا ينشـر الشـر ويحـول بـين النّاس وبين الخير، ويثبت الكفر ويمنع مـن الإيمـان كمـا قـال تعـالى مسـجلا لخبـث

الشيطان: (قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين)[1] .

انتبهوا لخطر إبليس : إن حزبه المطيع له المتحكم في اختياراته انفردوا بالخسران وانحصر فيهم.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلۡأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ

لأغلبن : الغلبة بالقوة والقهر.

العشيرة: قرابة الرجل في جد غير بعيد.

التأييد : التقوية والنصر.

روح منه : عنايته وألطافه.

بيان المعنى الإجمالي:

إن الذين أطبقت الغفلة على عقولهم ومواهبهم، فصمموا على معاداة ما يأمر الله به ويشرعه على لسان رسوله، قد قرر الله فيهم أنهم يكونون أذل النّاس منغمسين في المهانة. وثّق في علمه الذي لا تبديل فيه أنه سيهزم كل من استكبر عن شرعه، والله غالب وكل من ناوأ رسله مغلوب. إن الله متصف بالقوة القاهرة، العزيز الذي طوع كل الكائنات لأمره.

الذين يؤمنون بالله وباليوم الآخر، وتمتلئ عقولهم وأرواحهم بذلك، يقوم بينهم وبين الذين يعادون الله ورسوله انفصام كامل، فلا يحملون أي بذرة من الود لهم. ولو كانت الصلات النّسبية والاجتماعية موفورة، فإن إخلاصهم لدينهم يقطعهم عن علاقات البنوة والأبوة والأخوة والعشيرة إذا كانت ممن يحمل العداء للإسلام.

[1] سورة الحجر آية 39

إنهم بإخلاصهم هذا قد تحقق في قلوبهم الإيمان ، وثبت ثبوتا لا يمحي، فنصرهم ربهم على دواعي النّفس ونزغات الشيطان. واستمرت نصاعة الإيمان تشع في عقولهم وأرواحهم.

وجزاؤهم في الآخرة جنات تتخللها الأنهار يقيمون فيها إقامة الخالدين لا يخرجون منها أبدا. وينعمون بإحساسهم أن الله قد رضي عنهم. وذلك قمة السعادة. كما أنهم راضون عن وضعهم أتم الرضا فلا يتعلقون بشيء وراء ما هو بين أيديهم.

سعدوا لأنهم حزب الله وأنصار دينه وشرعه. انتبهوا واعلموا أن حزب الله قد تفردوا بجمعهم لمقومات الفلاح والنجاح.

بيان المعنى العام :

20- إن الذين يحادون...في الأذلين.

إن الذين فسدوا فسادا بلغ أن الصفة المعرفة بهم، أنهم جعلوا كل همهم معاداة الله ورسوله، والوقوف موقفا مناقضا لما يأتيهم من بيان للشريعة والعقيدة والسلوك، مظهرين للطاعة والانقياد مبطنين خلاف ذلك ؛ إنهم في أسوأ درجات الذل، ومنغمسون في المهانة. وهؤلاء هم المنافقون، فسَوّتْهُمْ هذه الآية مع الكافرين الذين تحدثت عنهم الآية الخامسة : **إن الذين يحادون الله ورسوله كبتوا**.وصرحت بالحكم النّافذ فيهم: أنهم في أشد وأسوأ حالات الذل.

21- كتب الله لأغلبن...قوي عزيز.

إن الذل والمهانة والهزيمة لا مفر لهم من ذلك، ذلك أن الله قدر تقديرا لا يقبل النّقض، ووثق في علمه أنه سيهزم المنافقين، وينصر رسوله عليهم. وما قضاه محقق الوقوع في الأجل المحدد عنده، وهذه هي سنته مع رسله جميعا. وأنى للذين حادوه أن يفلتوا من قبضته وهو المتصف بالقوة الحق، التي لا يعاكسها ولا يقوم أمامها أي قوة، فكل قوة تناقض إرادته مهزومة متلاشية. وهو العزيز الذي جعل كل ما يجري في الكون مُطَوَعًا لما يقضي به ويريده.

22- لا تجد قوما يؤمنون...إن حزب الله هم المفلحون.

كتب الله الذل على المنافقين، وقدر هزيمتهم ماديا ونفسيا، فلا صلة بينهم وبين المؤمنين الصالحين، كل فريق له وجهة وغاية، مناقضة لوجهة الفريق الآخر ووجهته.

لو بحثت في الحياة الواقعية عن علاقة تربط بين الذين يؤمنون بالله ولا يشركون به شيئا، ويُقوِمُون أعمالهم على أساس أنهم محاسبون عليها وموقوفون بين يدي الله،

والبعث حاضر في تفكيرهم يضيء لهم طريقهم، ويحميهم من المعصية والإثم ؛ لو بحثت عن صلة ود بينهم وبين من اتخذ طريقا معاكسا لهدي الله ومعارضا لمنهجه الذي يرضاه، ومخالفا لرسوله، فإنك لا تجد فردا واحدا يحمل في نفسه صلة ود لهؤلاء. إنهم ملوثون فلا يتصور أن تجد المتطهرين يقتربون منهم. وفي هذه الصيغة مبالغة في النّهي عن موادة من عقد عزمه على العصيان والمكر بالدين. إذ الآية تنبه من لم ينتبه، فظن أنه إن أحب المحادين لله ورسوله أن ذلك لا يضره مع خلوص إيمانه. وتحليل ذلك أن الود يقتضي حب الآخر وتمني الخير له، والأنس به والقرب منه. تنسحب هذه العواطف على الدنيا والآخرة. فالمودة تقتضي أنه لا ينكر عليه، وأنه يرجو له السلامة والفوز. وأن يكون قريبا منه في الدنيا و الآخرة. والود يصحبه التسامح في الحقوق، بل تفضيل الودود على النّفس في بعض الأحوال. هذا المستوى من التقارب لا يمكن أن يحصل مع الاختلاف في التصور للوجود وفي منزلة الإنسان فيه. وفرق بين الود وبين النّصَفَة وعدم التعدي، واحترام الجانب الإنساني، واحترام الحقوق في النّفس والمال وعدم التعدي عليها، وحسن الخلق في التعامل. فالمسلم مأمور بالعدل في التعامل وإن كان الطرف الثاني محادا لله ورسوله، ما دام لم يشهر العداء بالتعدي. قال تعالى : **(لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين)**[1] وبناء على هذا فمن أعلن عداءه للمسلمين، ومثله من يؤذي المؤمنين لكونهم مؤمنين، فإن الواجب على المسلم أن يقطع معه كل صلة، وأن يعزم على عداوته، ولا يبدو منه أي مظهر من مظاهر التقرب والود.

ثم أكد القرآن النّهي عن موادة من حاد الله ورسوله، بأن صلة القرابة والدم والنسب التي قويت بالتربية، والمخالطة الطويلة، والإحساس الاجتماعي، من علاقة الولد بوالديه، أو علاقة الوالد بالولد، أو علاقة الأخوة في الأسرة ببعضهم، أو علاقة الرابطة النّسبية بين الفرد وعشيرته الذين يجتمع معهم في أب واحد؛ كل تلكم الروابط تذوب ولا يبقى لها أي تأثير بين المسلم وبين من يناصب الدين العداء.

أولئك كتب... تفتتح الجملة باسم إشارة يستحضر ويحصر الذين أخلصوا دينهم لله وقطعوا صلاتهم بكل من يحاد الله ورسوله، قطيعة تعلو على أواصر الأبوة والبنوة والأخوة، والأهل والعشيرة، لما امتلأت قلوبهم من حب الله وحب رسوله وحب الحق وحب المؤمنين ؛ أولئك أعددت جزاءهم، أني وثقت الإيمان في قلوبهم بصفة

---

[1] سورة الممتحنة آية 8

لا تقبل المحو ولا التغيير، فهم يعيشـون فـي أنسـه سـعداء بـأنوازه، ونصـرتُهُم علـى نوازع النّفس، ووساوس الشيطان، بما أحطـتُهم بـه مـن ألطـافي. فهـذا مـا يقتضـيه قوله: بروح منه.
ومع ما قرره في نفوسهم من الإيمان ومـا يفيضـه علـيهم مـن عنايتـه وألطافـه، فقـد وعدهم ووعده لا يخلف، أنه سينتهي بهم يوم القيامـة إلـى الجـزاء الكـريم، فـي جنـات تتخللها الأنهار فيها مالا عين رأت ولا أذن سـمعت ولا خطـر علـى قلـب بشـر، ومـع النّعيم المادي يؤمنهم من الخوف فما مكنهم منه يشعرون أنـه بـاق بقـاء لا ينقطـع، هـم خالدون فيه. وتبلغ السعادة أقصـاها بشـعورهم واطمئنـانهم إلـى أن ربهـم قـد رضـي عنهم. ويمتلئون رضى بما أوتوا فـلا يطمحـون إلـى شـيء وراء مـا حصـلوا عليـه. شارتهم : أنهم حزب الله فلا انقطاع بينهم وبين ربهـم. ومـن بلـغ هـذه المرتبـة ومـن ضمهم هذا الرباط، فأحسن ما يوصفون به أنهم الذين تحقق لهم النّجاح الكامل.

أكملت بحمد الله وعونه تفسير هذه السـورة صـبيحة يـوم الأربعـاء 2 جمـادى الثانيـة 1435-2014/4/2

سورة الحشر

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف لقـول الله تعـالى فيهـا :هـو الـذي أخـرج الذين كفروا من أهل الكتاب مـن ديـارهم لأول الحشـر آيـة 2 وسـماها ابـن عبـاس رضي الله عنه بسورة بني النّضير لذكر قصة بني النّضـير فيهـا. وهـي سـورة مدنيـة. وحسب ترتيب المصحف هـي السـورة التاسـعة والخمسـون وحسـب ترتيـب النّـزول عدت الثامنة والتسعين، نزلت بعد سورة البينة، وقبل سورة النّصر.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ ٱلۡحَشۡرِۚ مَا ظَنَنتُمۡ أَن يَخۡرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ
أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمۡ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنۡ حَيۡثُ لَمۡ يَحۡتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ
ٱلرُّعۡبَۚ يُخۡرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيۡدِيهِمۡ وَأَيۡدِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوۡلَآ
أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ
بِأَنَّهُمۡ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

سبح : نزه الله عن كل ما لا يليق بكماله.

الحشر : جمع اليهود ليخرجوا من جزيرة العرب.

الاحتساب : الظن البليغ.

قذف : رمي بقوة. ومعناه الحصول العاجل.

الرعب : الفزع وشدة الخوف.

يخربون : يهدمون، ويفسدون

الاعتبار: النّظر في دلالة الأمور على لوازمها.

كتب : قدر تقديرا ثابتا حتما.

الجلاء : الخروج من منازلهم خروجا أبديا.

بيان المعنى الإجمالي :

نزه الكون كله رب العزة من كل نقص، نزهه المؤمنون بلسانهم، ونزهته بقية الكائنات بلسان حالها تبعا لما أجراها عليه من الحكمة والدقة والتناسق بينها. وهو سبحانه المتصف بالعزة فالكل طوع أمره. وهو المجري لها حسب حكمته البالغة. من شواهد ذلك أنه هو وحده الذي أخرج الذين كفروا من اليهود من ديارهم وحصونهم. فكان إخراجهم أول جمع لهم خارج الجزيرة العربية، ثم تتابع إلى أن تم إجلاؤهم في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. كانت الظروف المادية تمكنهم من الصمود، فكنتم ايها المؤمنون تقدرون صعوبة التغلب عليهم، وكانوا هم كذلك مطمئنين إلى حصونهم وقوتهم لتحميهم مدة طويلة من الاستسلام. وغاب عنهم أن تدبير الكون بتقديره سبحانه. وفي لحظة ارتجفت قلوبهم، وامتلأت خوفا ورعبا، فاستسلموا على أن يحمل كل ثلاثة منهم حمل بعير من أمتعتهم ويخرجوا من ديارهم. وأخذوا يخربون بيوتهم طمعا في أسكفة باب أو مصراع. وخرجوا يعلوهم الذل والهزيمة والصغار. ليكن في هذه الحادثة وتصرف القدرة الإلهية فيها عبرة لكم تقيسون عليها ما تواجهونه في نصرة دين الله. انظروا في ذلك ببصائركم.

تم القضاء على وكر الفساد والمكر بالمسلمين على النّحو الذي تم جلاؤهم حسبما قدره الله في سابق علمه. ولولا ذلك التقدير لسلطكم عليهم فعُذبوا في الدنيا بالقتل والأسر. وعلى جميع التقادير لهم عذاب النّار يوم القيامة.

إخراجهم من ديارهم، وقذف الرعب في قلوبهم، واستيلاء المسلمين على أرزاقهم واستسلامهم وكفاية الله المؤمنين القتال، لأنهم أعلنوا العداء لله ولرسوله. ومن يناصب العداء للحق الوارد منه تعالى فإنه يعذب العذاب الشديد. إن قدرة الله على إنزال أشد العذاب بمن يعادي هداه أمر لا مرد له.

بيان المعنى العام :

1-سبح لله ما في السماوات...وهو العزيز الحكيم.

فاتحة هذه السورة قريبة من فاتحة سورة الحديد، سجل فيها القرآن أن السماوات وما حوته، وأن الأرضين وما أقلته، كلها ناطقة بلسان حالها، أو بلسان مقالها بأن الله تعالى وتقدس عن كل نقص، وتعالى عن كل شبه، وأنه أحسن خلق الكائنات، وأعطاها قوانينها الدقيقة التي تسير عليها. **(وإن من شيء إلا يسبح بحمده)**[1] وهو

[1] الإسراء 44

المتصرف فيها وهو الذي أخضع الخائنين لسلطان الإسلام وأجلاهم. فبعزته انقادت له الكائنات، وبحكمته جرى التصرف فيها.

2-هو الذي أخرج الذين كفروا...فاعتبروا يا أولي الأبصار.

لما هاجر النّبي ﷺ إلى المدينة وجد قبائل يهودية مقيمة حول المدينة: النّضير، وقريظة، وخيبر. بنوا الحصون وخططوا قرية سموها الزهرة. وجمعوا كثيرا من المال، وملكوا المزارع. وعقدوا بينهم وبين الأوس والخزرج حلفا ومعاملة. وهم من نسل هارون عليه السلام. استوطنوا منازلهم إثر موت موسى عليه السلام. وبعد أن استقر النّبي ﷺ حرر وثيقة تؤمنهم، وتؤمن المؤمنين من خيانتهم، فكانت عقدا واجب الاحترام من الطرفين. بقي هذا العهد محترما إلى السنة الثالثة من الهجرة التي غزت فيها قريش المدينة، في وقعة أحد واستشهد فيها كثير من الصحابة. فرحت قريظة لما أصاب المسلمين من خسائر، ورأت أن الفرصة مناسبة لينقُضُوا ما عقدوه مع رسول الله ﷺ ، وليدبروا المؤامرات الخبيثة، وتتابع مكرهم بحلفهم مع قريش ليكونوا معهم يدا واحدة في الإجهاز على الإسلام. ومن إعداد خطة لقتل الرسول إذا جاءهم إلى منازلهم. أطلع الله رسوله على ما خططوه، وتبين أن بقاءهم بجواره في المدينة خطر على الأمة والدين. فاتخذ القرار لحسم هذا الشر، وبعث إليهم محمد بن مسلمة يعلمهم أنه بعد ما توالى من خياناتهم وإضمارهم الشر للمسلمين، أن عليهم أن يرحلوا عن منازلهم وحصونهم. قبلوا في أول الأمر، ولكن المنافقين أرسلوا إليهم يحرضونهم على الثبات، وأنهم سيؤيدونهم بصناديد المقاتلين. فدخلوا حصونهم وأعلنوا استعدادهم للقتال. فخرج إليهم الرسول ﷺ وحاصرهم، ورأوا أن ما وعدهم به المنافقون وعد خُلّبٌ، وقذف الله في قلوبهم الرعب. فطلبوا الصلح من النّبي ﷺ . وانعقد على جلائهم، ويحمل كل ثلاثة أبيات حمل بعير مما شاؤوا من متاعهم، فجعلوا يخربون بيوتهم ليقتلعوا الأسكفة والباب. وتوزعوا بين خيبر ومدن من أرض الشام.

هو الذي أخرج. تفرد الله المتحكم في الأرض والسماء بتنفيذ تقديره فأخرج الذين كفروا من أهل الكتاب، النّضير الذين كفروا بمحمد ﷺ مع أن كتابهم، وآيات صدق الرسول واضحة بينة، تدعوهم إلى الإيمان والدخول في دين الله. فتصميمهم على الكفر غشى على بصائرهم.

لأول الحشر.. للحشر الأول، جمعهم للخروج من الجزيرة العربية وجلائهم منها. وهو أول جلاء تتابع بعده إخراج بقية الخلايا اليهودية حتى تطهرت الجزيرة منهم.

كما تم في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه تنفيذا لوصيته ﷺ : لا يَبْقَيَنّ دينان في جزيرة العرب.

ما ظننتم أن يخرجوا... سجل القرآن ما يفيد تصويرا للأوضاع التي كان عليها بنو النّضير. كانوا في منعة جمعوا في حصونهم من الطعام ما يجعلهم يصمدون للحصار مدة طويلة، ومن السلاح ما يدافعون به عن أنفسهم، ومن متانة الحصون ما يجعل اقتحامها أمرا عسيرا. كان المؤمنون يعرفون ذلك في حصونهم الستة، وأمرُ رسول الله بالخروج إليهم لا يقبل المراجعة بعد أن تهيأ ﷺ لقتالهم. فما كان المسلمون يظنون أنهم يخرجونهم ويستسلمون لهم بسهولة.

وظنوا انهم مانعتهم. وكذلك كان بنو النّضير واثقين من قوتهم ومن مناعة حصونهم وأنهم سيصمدون إلى أمد طويل حتى يأتيهم المدد.

فأتاهم الله...هذا تعبير عن إظهار المسلمين عليهم بتقدير عجيب، فاستسلموا بعد أن كانوا صمموا على المقاومة وأعدوا لها. ذلك أنهم حسبوا كل الفروض المادية واحتاطوا لها، فجمعوا لها ما اطمأنوا إليه، وبقي أمر خارج عن طاقتهم، وعن تقديراتهم، هو التقدير الإلهي في تصريف الأمور، وتصرفه سبحانه في بنائهم النّفسي.

حصل الرعب في نفوسهم دفعة واحدة، تحول الصمود، إلى استسلام وخوف، وتحولت الشجاعة والاعتزاز بالقوة إلى خوف ورعب. أصبح كل همهم النّجاة بأرواحهم، والإبقاء على حياتهم. أخذوا يخربون بيوتهم ليقتلعوا أسكفة باب لعلهم يحتاجون إليها في مقامهم القابل. وحتى لا يبقوا بعد استسلامهم ما يمكن أن ينتفع منه المسلمون. وكان عدم استسلامهم من أول الأمر سببا في تخريب المؤمنين لبيوتهم. فهم فشلوا في الدفاع، كما فشلوا في تقدير الأمور.

فاعتبروا... يلفت القرآن نظر المؤمنين إلى التأمل في هذه الحادثة، وما تم فيها من ألطاف أحاطت بالمسلمين، ومن تضليل لأعدائهم، ليعلموا أن وراء الظواهر أسرارا يعلمها الله، ويجري عليها أمره وهو المتحكم فيما في السماوات وما في الأرض. وأن القوة لله، وأن قوة الإيمان الواثق بالله فوق قوة الحصون، فليعتمدوا على ربهم في المضي بهذا الدين الذي استحفظوا عليه لينشروا هدايته في الآفاق. وليتعظوا بما تم لهم من نصر في يسر.

3-ولولا أن كتب الله...عذاب النّار.

ما تم هو خروجهم يحملون شيئا من أمتعتهم وترك الباقي من أموالهم ومزارعهم للمسلمين. خرجوا ناجين بحياتهم على ذل. ولولا أن الله كتب في سابق تقديره هذا

المصير لهم، فحولهم عن المقاومة إلى الاستسلام، لولا القدر السابق لسلط عليهم عذابه في الدنيا بالقتل والأسر. ولكن حكمته قدرت أن ينتصر المسلمون عليهم ويرثوا أرضهم وديارهم دون أن يقتل أو يجرح منهم أحد. فاجتث وكر من أوكار الفساد والكيد للمسلمين. والحمد لله رب العالمين.

ومن جانب آخر فإن عذاب النّار على كفرهم ليس لهم عنه محيد.

4-ذلك بأنهم شاقوا...شديد العقاب.

ذلك كل ما حصل في غزوة بني النّضير مما فصلته الآيتان السابقتان، كان بسبب أن يهود بني النّضير صمموا على معادة الله ومعاداة رسوله. عادَوْا الرسول لأنه بلغهم عن ربهم ما هم مأمورون باتباعه.

وقاعدة عامة يجري عليها عاقبة أمر البشر، أن كل من يعادي الله وينتصب خصما له ولهدايته، فإنه سيعاقبه عقابا شديدا. وهو شديد العقاب لا يحول بينه وبين جزاء كل مفسد بما صنع أي حائل.

مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝٥ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٦ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٧

بيان معاني الألفاظ:

بإذن الله : برضاه.

اللينة : النّخلة ذات الثمر الطيب.

ليخزي : ليهين.

الفاسقين : الكفرة من يهود بني النّضير

الفيء : الغنيمة التي تحصل بدون قتال.

أوجف : أصله الركض للإغارة.

ما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب : ما تحقق لكم بقتال على الخيل أو على الإبل.

دولة : تداول الأموال.

بيان المعنى الإجمالي:

قطع بعض المجاهدين نخلتين أو أكثر قليلا من نخيل بني النّضير توسعة لمعسكر الجيش، أو تخويفا للمحاصرين. فنادوا من حصونهم أن هذا فساد في الأرض يناقض ما تدعيه يا محمد أنك تريد الإصلاح. أجابهم القرآن بأن الله رضي على الجيش الإسلامي ما يتخذه من قرارات بقصد الإسراع بالنصر، لا بقصد الإفساد. وأن ما فعلوه هو إذلال للكافرين. وما آل إليكم من مال بني قريظة بعد الصلح معهم، إنه مال ما ركبتم لأجل الاستيلاء عليه خيلا ولا إبلا، ولم تقع معركة تعرضتم فيها لقتل أو جرح. بل إن الله قذف الرعب في قلوب بني النّضير فتركوا أموالهم وخرجوا بما خف حسب عقد الصلح. فلا يحق لكم منه شيء. وقسمه صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين الذين كانوا فقراء بعد أن تركوا أموالهم في مكة وحال بينهم وبينها كفار قريش. وأخذ منه نفقة عياله.

ثم بين القرآن ما يحصل عليه المؤمنون بدون قتال من أموال الأعداء أنه يقسم بين الأنواع التالية : قسم لله ولرسوله، وقسم لقرابة رسول الله، وقسم لليتامى الذين فقدوا آباءهم ولم يتركوا لهم ثروة تكفيهم حاجاتهم. وقسم للمساكين، وقسم للمسافر الذي لا مال معه في رحلته وإن كان غنيا في بلده.

إن هذا التوزيع يخرج بكم عما كان عليه العرف الجاهلي من تكديس الأموال عند بعض الأفراد، وحرمان الآخرين منه، فبهذا التوزيع يتداول المسلمون المال بينهم، وينشط الاقتصاد وتقل البطالة

بيان المعنى العام :

5- ما قطعتم من لينة...وليخزي الفاسقين.

واصل القرآن تسجيل غزوة بني النّضير، ودفع عن المجاهدين اللائمة فيما فعلوه. تقوم حول قرية بني النّضير المحاصرة من الجيش الإسلامي، مزارعهم وحقولهم. وعمد بعض أفراد الجيش الإسلامي إلى قطع نخلتين أو نحو من ذلك، إما لتوسيع المعسكر، وإما لتخويف المحاصرين وتهديدهم بأن حوائطهم تحت سلطان الجيش الإسلامي يفعل فيها ما يشاء. نادى اليهود من حصونهم : يا محمد ألست تزعم أنك نبي تريد الصلاح أفمن الصلاح قطع النّخيل؟

أجابهم القرآن بهذه الآية :رفع الله الحرج عن الذين عمدوا لقطع بعض نخيل المحاصرين، وأن ما فعلوه ما كان بقصد الإفساد في الأرض، ولكن لتعجيل حسم المعركة. وأنه رضي من المؤمنين اجتهادهم فيما يرونه من مصلحة في حربهم.

فمن قطع نخيلهم لا حرج عليه، ومن أبقاها ولم يقطعها لا لوم عليه. وكلا الفريقين واقع موقع الرضا من رب العالمين. فما قطعتم من لينة (نخلة) وما تركتم من النّخيل قائمة فروعها من الجريد والشماريخ على أصولها المرتفعة، فإن ذلك حال محل الرضا من رب العالمين. أذن لكم فيما ترونه الأصلح ليعجل لكم بالنصر، وليخزي الكفرة ويذلهم. ومن هذه الحادثة ورضا الله عن الفريقين استنبط المجتهدون أنه إذا كان الانتصار على الأعداء يقتضي قطع أشجار العدو أو تخريب معالمه ليستسلم لا بقصد الفساد في الأرض، فإنه لا مانع منه.

6- وما أفاء الله على رسوله...والله على كل شيء قدير.

انهزم بنو النّضير شر هزيمة، وخرجوا مجللين بالذل، وتركوا كل ما يملكون إلا ما خف حسب بنود الصلح، أن كل ثلاثة يحملون على بعير واحد ما يختارونه من أموالهم. ولم يتم الاستيلاء على ما بقي من أموالهم بالنزال الحربي، والكر والفر على ظهور الخيل، أو على أقتاب الإبل. ألقى الله في قلوبهم الرعب ففروا صاغرين، ولا يدعي أحد أن ذلك قد تحقق بفضل قتاله وشجاعته وخبرته الحربية. **ولكن الله يسلط**...إن الأموال التي تركوها لا يدعي أحد أنه حقيق بتملكها، وذلك لأن الله سلط رسوله على بني النّضير، وقذف في قلوبهم الرعب بتقديره، لا بقتالكم. والله يمكن رسله من التسلط على من يشاء. يثبط عزائمهم ويحرمهم ألطافه، فيتضخم الشعور باليأس في نفوسهم، فيستسلمون لرسل الله. كما أنبأ به موسى عليه السلام قومه أنهم سيفتحون الأرض المقدسة بمجرد دخولهم: **(قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون)**[1]

ويفهم من ذلك أنه لا حق لأحد في الأموال التي تركها بنو النّضير. وهو ما قام به النّبي ﷺ، فإنه لم يخمس الفيء كما فعل في بدر، وإنما قسمه بين المهاجرين الذين كانوا في ضيق بعد أن تركوا أموالهم التي استولى عليها مشركو مكة وأضاف إليهم ثلاثة من الأنصار. وكان الأنصار ﷺ وسعوا على المهاجرين، وشاركوهم في أموالهم. فكفاهم الحاجة، وكفى الأنصار ما كانوا يتحملونه. وخصص صلى عليه وسلم لنفقته قسطا منه. كما جعل قسما من ذلك الفيء في السلاح.

7-ما أفاء الله على رسوله...كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم..

ثلاث آيات وردت في القرآن تبين حكم ما حصل عليه المسلمون من أموال أعدائهم.

---

[1] سورة المائدة آية 23

الآية السابقة أفادت أن أموال بني النّضير لم يستول عليها الجيش الإسلامي بجهاده، ولكن الله قذف الرعب في قلوب بني النّضير، فاستسلموا وتركوا أموالهم. ليس لأحد فيها حق وهي لرسول الله يضعها حيث شاء. فما جاء فيها هو خاص ببني النّضير لا يتجاوزه إلى غيرهم.

الآية الثانية: هي هذه وقد فهمها معظم العلماء على أن ما تمكن منه المسلمون من غير حرب بعد غزوة بني النّضير، ولكن العدو استسلم وترك أمواله، ولم يتكلف الجيش الإسلامي عناء الجهاد. فإن الأموال المستولى عليها، هي لله ولرسوله، ولذي القربى، واليتامى والمساكين، وابن السبيل. يتصرف فيها ولي الأمر: الرسول ﷺ في حياته، وأئمة المسلمين بعد ذلك فيما سماه الله. فتكون هذه الآية فيما يستقبل والآية السابقة في أموال بني النّضير.

ومن العلماء من فهم من هذه الآية أنها تكملة للآية السابقة وتوضيح لما أجمل في قوله فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب، أي إن حكم تلك الأموال أن توزع بين المصارف الخمسة المذكورة فيها. لا يستحق منها المقاتلون شيئا. وتصرف رسول الله فيها في المصارف الخمسة.

واستند إليها مالك في قوله إن ما تم فتحه بدون قتال في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذلك بعد انتقاله للرفيق الأعلى، يجري أمره على ما جاء في الآية الثانية هذه من صرفه في الأوجه الخمسة: 1لله ولرسوله -2 ولذي القربى -3 ولليتامى -4 والمساكين -5 وابن السبيل. ومصرف الله ورسوله يستحق منه رسول الله صلى الله عليه وسلم نفقة عياله، وكذلك ولي الأمر من بعده، ثم يصرف ما فضل في المصالح العامة للمسلمين، ومنها دور العلم والعلماء. وذوو القربى هم قرابة رسول الله ﷺ يعطى فقراؤهم من الفيء بإجماع. واختلف في إعطاء أغنيائهم، وأكثر المجتهدين على إعطائهم لأنه حق لهم بنص الآية وغير مقيد بالفقر. وهم بنو هاشم وبنو المطلب. واليتيم من مات أبوه وكان فقيرا، وصرح به لئلا يحرم من الفيء بتوهم أنه لا يسهم في الجهاد.

الآية الثالثة: آية سورة الأنفال محملها على ما غنمه المسلمون بجهادهم، فإنه يقسم على خمسة أسهم. الأخماس الأربعة للمجاهدين على ما تقدم بيانه في سورة الأنفال. والخمس لله ولرسوله، ولذي القربى، واليتامى والمساكين، وابن السبيل.

كيلا يكون دولة...إن ذلك التوزيع لما ينتقل من أموال الأعداء بدون قتال (الفيء) هو توزيع يحقق حكمة ومقصدا شرعيا راعاه الله في الأموال، أن لا تتكدس عند فريق ويحرم منها الآخرون. فكان من المقاصد الشرعية تهيئة الظروف التي تجعل

المال موزعا بين أكثر عدد ممكن. ذلك أن المال إذا استقل بمعظمه أفراد قليلون بما يفوق احتياجاتهم وقدراتهم على تنميته، تكون نتائجه سيئة على المجتمع، وعلى التنمية. وبالعكس فإنه بمقدار ما يكون المال متداولا بين أعضاء الأمة يتحرك الاقتصاد بما يولده توزع المال بين أكثر عدد، من توسع الحاجات، ونفاق السلع، وازدهار الصناعات، وبالتالي نفاق سوق الشغل والقضاء على البطالة.

سجل عبد الله بن غنمة الضبي العرف الجاري عليه توزيع المغانم في الجاهلية، لما قال مخاطبا بسطام سيد بني شيبان :

لك المرباع منها والصفايا *** وحكمك والنشيطة والفضول

يقول له إنه برئاستك تستحق ربع المغانم. ولك وحدك الصفايا النفيس من المغانم الذي لا نظير له. وكذلك ما صالحت عليه عدوك من المال فإنك تستأثر به لأنك القائد. ولك النّشيطة وهو ما أصابه الجيش في طريقه من مال قبل القتال. وكذلك الفضول وهو ما يبقى من القسمة فريدا لا يقبل القسمة، كفرس أو درع.

وبذلك ينتظم توزيع الفيء مع بقية التشريعات الإلهية التي راعت ذلك كتوزيع التركات، ومشاركة العامل لرب المال في نتائج المضاربة، والمزارعة والمغارسة، والمساقاة. وتوزيع الزكاة بين المصارف المذكورة. والأموال غير المملوكة لمعين كالأرض الموات واللقطات، مما قام منه مقصد شرعي يقيني يراعيه الفقيه في استنباط الأحكام.

وَمَا ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا ۚ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ
ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ
فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾
وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى
صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن
يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا
غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

التبوء: اتخاذ مكان يعود إليه صاحبه بعد أن ينتهي من أعماله.

حاجة: رغبة في شيء من الفيء.

الإيثار : يقدمون على أنفسهم غيرهم.

الخصاصة : شدة الاحتياج.

شح : فقد السماحة من النفس، وعمق الطمع في المال والحرص على عدم بذله.

المفلحون : الظافرون بالخير.

الغل : الحقد والبغض. والاعتقاد الرديء.

بيان المعنى الإجمالي :

من مقتضيات الإيمان أن تقبلوا وتطبقوا كل ما أمركم به رسول الله ﷺ، وأن تنتهوا عن كل ما نهاكم عنه. وتحصنوا بالتقوى واستحضار أن الله مطلع عليكم. واعلموا أن عقاب الله شديد لمن أعرض عنه.

ثم أتم القرآن مقيدا استحقاق، ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، حظهم من الفيء بالفقر. وقد كان أكبر عامل في خصاصتهم إخراج المشركين لهم من ديارهم وأموالهم واستيلائهم عليها. وما خرجوا إلا ابتغاء نيلهم فضل الله ورضوانه، ولنصرة دين الله ورسوله. تميزوا بأنهم الصادقون في إخلاصهم أتم الإخلاص.

إن الأنصار الذين اتخذوا المدينة دار قرارهم، دار الهجرة ودار الإيمان من قبل أن يهاجر إليها المهاجرون قد سمت نفوسهم وتطهرت أخلاقهم، فهم يحبون المهاجرين حبا جعلهم يقاسمونهم دورهم وأموالهم، فلم تتعلق نفوسهم بشيء مما ناله المهاجرون من فيء بني النّضير. بل إنهم يؤثرون المهاجرين على أنفسهم، ويقدمونهم عليها، ولو كانوا في وضع غير مرفه. إنهم تطهروا من الشح ونقوا بواطنهم منه. ومن يحم نفسه من داء الشح فقد فاز في امتحان الدنيا وتهيأت له السعادة من الله.

ثم تعرض القرآن لمن انتسب للأمة الإسلامية بعد السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار من أسلم في عهد رسول ﷺ، وفي العهود التي تلته إلى يومنا هذا. فللفقراء منهم حظهم من الفيء. إذا صفت ضمائرهم فأحبوا الصحابة رضوان الله عليهم وتقربوا لربهم بدعائهم لأنفسهم بالمغفرة كدعائهم بذلك لمن سبقهم إلى الإيمان. ويدعون ربهم أن يطهر قلوبهم من كل حسد وبغض لمن اتصف بالإيمان من السابقين أو المعاصرين لهم.

بيان المعنى العام :

7- وما آتاكم الرسول...إن الله شديد العقاب.

هذه قاعدة عامة وهامة من قواعد التدين. أن ما بلغه لكم الرسول صلى الله عليه وسلم من الأوامر عن الله، فاقبلوه عاملين به، فتضمن قوله " فخذوه"1- قبول الأوامر وعدم الاعتراض عليها، واعتقاد أن الخير فيما أمر به 2- العمل بها والاجتهاد في تطبيقها على النّحو الذي أمر به. وكذلك الانتهاء عما نهى عنه. واجعلوا تقوى الله حاضرة في عقولكم وضمائركم. التقوى كالبوصلة التي تحدد للإنسان اتجاهه، وتنبهه إن هو حاد حتى لا يضيع في متاهات. واحذروا من التهاون بما أمر به أو نهى عنه، فإن عقاب الله شديد لمن أعرض عنه.

8- للفقراء المهاجرين...هم الصادقون.

هذه الآية مرتبطة بما جاء في الآية السابقة: ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، ارتبطت بالأصناف الأربعة، وقيدت استحقاقهم للفيء بالفقر. وتأكد إعطاؤهم بعامل آخر مع الفقر : الهجرة، التي كشفت عن خصاصتهم بأن الكفار تسلطوا عليهم فأخرجوهم من ديارهم وأموالهم واستولوا عليها، فيكون إعطاؤهم من الفيء جبرا لنكبتهم في ديارهم وأموالهم . ثم نوه بهم أن رحمة الله بهم منحتهم هذا الجزء من الفيء، وإن كان داعي خروجهم من مكة الرغبة في فضل الله ورضوانه، ونصر دين الله ونصر رسوله. لا طمعا في مغنم أو شيء من متاع الدنيا. رجح ميزانهم ما عند الله على كل ما تتعلق به النّفوس من مرابع الصبا، والإلف للموطن، والصلات الإنسانية في مكان إقامتهم مكة. فحققت لهم شهادة العليم الخبير فيهم: أنهم الصادقون في إيمانهم المخلصون للدين إخلاصا بلغ أكمل المستويات.

9-والذين تبوؤوا الدار...هم المفلحون.

ابتدأت الآية بقوله تعالى: **والذين تبوؤوا الدار والإيمان من قبلهم**. وهذا المقطع يقتضي التروي في أجزاء ما تركب منه، وفي الجمع بينها.

فقوله والذين تبوؤوا الدار : المقصود بهم الأنصار. عرفهم بأنهم اتخذوا الدار "المدينة "مباءة لهم يعودون إليها كلما انتهوا من أشغالهم. فهي محل إقامتهم مع أسرهم، أي موطنهم. وجمع إلى المحل الإيمان، والإيمان لا يصح أن يكون معمولا لتبوؤوا، فلا يقال تبوأ الإيمان. وتخريجه إما على أنه معمول لفعل مقدر يناسب المعنى: وأخلصوا الإيمان أو اعتقدوا الإيمان. وإما أن تكون الواو واو المعية

تبوؤوا الدار مع الإيمان ؛تحقق الإيمان فيهم تحققا حتى أصبح مصاحبا لحلولهم في مدينتهم. كقول القائل :استوى الماء والخشبة، فالخشبة ليست متعلقة باستوى. كما يصح تأويله على أن ال في الدار عوض من المضاف إليه، أي تبوؤوا دار الهجرة. وأن [ال] في الإيمان عوض عن المضاف، أي تبوؤوا دار الإيمان. وقوله من قبلهم أي من قبل المهاجرين.

يحبون من هاجر إليهم – ثناء عليهم بما استقر في نفوسهم من حب للمهاجرين. إذ شأن أصحاب الدار أن يتبرموا بالواردين عليهم إذا عزموا على الإقامة بمنازلهم، وأن يقاسموهم خيرات بلدهم. أثر الإسلام في الأنصار فاعتبروا المهاجرين أخوة لهم لا يمكنونهم من الحياة معهم بداعي النّبل والكرم، ولكن عواطفهم كانت سعيدة بقدومهم، يحبونهم كما يحب الفرد ما يولد له في أسرته. وقد ثبت في السنة صور فريدة في تاريخ الإنسانية تمثل تلكم المحبة و الأخوة.

ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا – انتفى أي تعلق لنفوس الأنصار لما أوتيه المهاجرون من الفيء. فعدم وجدانهم ذلك لعدم وجوده. فهم لحبهم لإخوانهم المهاجرين ما رغبوا في شيء مما قسمه الرسول ﷺ على المهاجرين من فيء بني النّضير. ومما يمثل الإيثار الذي استقر في نفوس الأنصار ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال :(أتى رجل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله أصابني الجهد (شدة الجوع) فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئا فقال النّبي ﷺ : ألا رجل يضيف هذا الليلة رحمه الله. فقام رجل من الأنصار(هو أبو طلحة) فقال: أنا يا رسول الله فذهب إلى أهله فقال لامرأته :هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئا. فقالت : والله ما عندي إلا قوت الصبية. قال : إذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي أطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة؛ فإذا دخل الضيف فإذا أهوى ليأكل فقومي إلى السراج تري أنك تصلحينه، فأطفئيه وأريه أنا نأكل فقعدوا وأكل الضيف. فلما غدا على رسول الله ﷺ قال له : عجب الله من فعلك البارحة، ونزلت الآية. فتح الباري ج10 ص256) وعجب كناية عن الرضى.

ولو كان بهم خصاصة... ما تدخل عليه "لو" هذه تفيد أن ما بعدها حالة لا يظن حصولها. أي لو كانت بهم شدة احتياج لآثروا. فيعلم من ذلك أن إيثارهم في الحالات العادية أحق بالحصول.

ومن يوق شح نفسه... ختمت الآية بما يفيد رفعة منزلة المؤثرين، المحبين الخير لإخوانهم دون أن يتعلقوا بنيل شيء مما أوتوه. فأدخل القرآن هذا المستوى الخلقي تحت قاعدة، وهي أن من سلمت نفسه من الشح، وهي حالة نفسية تجعل صاحبها لا

يتيسر للعطاء والبذل. فإذا جرب فسار على شحه ولم يعـط فـذلك هـو البخـل. فالشـح حالة نفسية مصاحبة، والبخل هو الموقف الذي يقفه الشـحيح فعـلا. فمـن سـلمت نفسـه من داء الشح وتغلب على ما تأمره به نفسه مـن المسـك لخـوف الفقـر، ولشـدة التعلـق بالمال، فأولئك هم النّاجحون الفائزون في العاقبة، وكذلك في الدنيا.

10- والذين جاؤوا من بعدهم...إنك رؤوف رحيم.

هم الذين لم يكونوا من السابقين لقبول الإسلام، فهـم غيـر المهـاجرين الـذين أخرجـوا من ديارهم وأموالهم، وهم غير الأنصار الذين قبلـوا المهـاجرين فـي مـدينتهم ويسـروا لهم الحياة في أمن على عقيدتهم وعلى حياتهم. هم الـذين التحقـوا بجماعـة الإيمـان بعـد أن استقر أمر الإسلام فـي عهـد الرسـول وفـي مسـتقبل الأزمـان. فهـؤلاء يشـارك فقراؤهم من النّيل من الفيء. وهم الـذين تأصـل فـي قلـوبهم الإيمـان، وتأصـل أيضـا اعتزاهم بالانتساب إلى الأمة الإسلامية. يشهد لذلك أمران نصت عليهما الآية.

أولهما: أنهم يدعون ربهم أن يغفر لهم ما فرط مـنهم حتـى يلقـوا ربهـم يـوم الحسـاب بصحائف نقية من الإثم، وأن يغفر لإخوانهم المـؤمنين الـذين سـبقوهم بالإيمـان فمكنـوا لهذا الدين حتى بلغهم هداه. فهذه علاقتهم بالسابقين مـن هـذه الأمـة، علاقـة الاعتـراف بالفضل والوفاء.

ثانيهما: يدعون ربهـم أن يجعـل قلـوبهم صـافية لا يدنسـها الـبغض والحسـد للـذين يشاركونهم عقيدة الإيمان مـن السـابقين والحاضـرين. فهـم يـدعون أن يمكـن الله فـي قلوبهم حب المؤمنين من صحابة رسـول الله صـلى الله عليـه وسـلم وحـب مـن جـاء بعدهم. ولذا فإن كل من تعرض لأحـد الصـحابة بالاسـتنقاص هـو خـارج عـن هـذا التنويه الذي اقتضته الآية. وألحقوا بدعائهم ما يقوي آمـالهم فـي القبـول، بـأن الله ربهـم الذي يدعونه رؤوف بعباده، رحيم بهم. فرجاؤهم في القبول بذلك وثيق.

۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ
أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ
وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا
يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً
فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا

فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍۭ ۚ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ ۚ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

فيكم : في ضركم.

لننصرنكم : بإعانتكم على القتال.

رهبة : خوفا.

الفقه : فهم المعاني الخفية.

شتى : متفرقة.

قلوبهم : عقولهم.

بيان المعنى الإجمالي :

فضح للمنافقين، وتعجيب من انحلالهم الخلقي. يقولون للكافرين أمثالهم من بني النّضير وهم محاصرون : اثبتوا فنحن معكم، ولا بقاء لنا في المدينة إذا أخرجكم محمد من معاقلكم، ونعصي محمّدا فيما يأمرنا به مما يضركم. وإن هجم عليكم بالقتال فتأكدوا أنا ننصركم. وهم كاذبون فيما قالوه بشهادة الله. فلئن أخرجوا من معاقلهم ثبت المنافقون على الإقامة في ديارهم ولم يبرحوها. وإن قوتل بنو النّضير لا يجدون من المنافقين نصيرا، ولو فرض أنهم حاولوا نصرهم فاستيلاء الخوف عليهم يجعلهم يفرون مولين ظهورهم للمقاتلين. وفوق ذلك فإن بني النّضير لا ينصرون إذ كتب عليهم الهزيمة.

بلغت بهم الغباوة أنهم يهابونكم ويخافون منكم أكثر من مهابتهم لله ومن خوفهم منه. وسر ذلك أنهم قوم أغبياء لا يدركون خفايا الأمور. وإلا فكيف يقدرون أنكم أشد بطشا من الله القدير.

إنهم جبناء فلا يقدمون على قتالكم إلا إذا تحصنوا في قراهم وراء أسوارهم، ودخلوا في حصونهم. وما يظهر منهم من البأس، هو واقع من بعضهم على البعض الآخر. تظن أن كلمتهم واحدة، والواقع خلاف ذلك، فقلوبهم متفرقة متعلقة بالأحقاد وحب التشفي، فسدوا فسادا تعطلت به عقولهم عن إدراك ما ينفعهم في الحاضر والمآل.

بيان المعنى العام :

11- ألم تر إلى الذين نافقوا...والله يشهد إنهم لكاذبون.

هذا مما أنبأ الله به رسوله ﷺ، مما جرى بين المنافقين في المدينة من الخزرج، وبين يهود بني النّضير في وقت حصار الجيش الإسلامي لهم. ألم تر يا محمد !ألم تعلم بهذا الخبر العجيب، فإني مطلعك عليه وأعرض عليك المستوى الخلقي الهابط الذي عليه المنافقون، هم يعملون على إغراء أعدائك بالصمود لقتالك، يقولون لإخوانهم الذين يجمعهم بهم فساد الكفر، كفر النّفاق بالنسبة للقائلين، والكفر بك بالنسبة لليهود. يقولون لهم: اصمدوا وواصلوا القتال فنحن معكم ولا مقام لنا في المدينة إن أُخْرِجْتُمْ. وهو تطمين لليهود على أبلغ وجه، يقول لهم المنافقون نحن عازمون على نصركم بكل ما لدينا، وهزيمتكم هي هزيمتنا، وإن قدر أن فرض عليكم الخروج من معاقلكم فلا بقاء لنا في المدينة. فنحن معكم أينما توجهتم. ونحن لا نطيع أمر أي أحد فيكم. أي لا نطيع محمدا فيما يأمرنا به مما يضر بكم.

والله يشهد إنهم لكاذبون. شأن الشهادة أن تكون تابعة لما علمه الشاهد. وكل الشهادات تحتمل أن تكون على خلاف الواقع إما لتزوير الشاهد، وإما لأن علمه لم يكن صحيحا. والشهادة على كذب المنافقين شهادة رب العزة الذي لا تخفى عليه خافية، هو الذي يعلم بواطنهم وظواهرهم. فتحقق أنهم كاذبون على أبلغ صورة وأشنع حالة. فالشهادة في الآية بمعنى الإخبار الصادق الكاشف عن حقيقة المنافقين.

12-لئن أخرجوا...ليولن الأدبار ثم لا ينصرون.

بكل تأكيد أؤكد لك يا محمد ما يحقق الشهادة بكذبهم فيما قالوه لبني النّضير. وعدوهم بأنهم لا يبقون في المدينة إذا خرج بنو النّضير من ديارهم، وهم كاذبون فإن أخرجوا لا يتحركون من ديارهم ولا يظهرون غضبهم لهم. وما وعدوهم به من النّصر إذا نشب القتال كذب أيضا، فهم لا يقاتلون معهم. وبكل تأكيد إن المنافقين لو أرادوا نصر اليهود استولى عليهم ما تأصل فيهم من الجبن والخوف، فلا يثبتون ويفرون مولين ظهورهم للمقاتلين. وفوق ذلك ليبأس الكافرون من النّصر. فقد كتبت عليهم الهزيمة وحل الخوف في قلوبهم.

13- لأنتم أشد رهبة...لا يفقهون.

تتابع الآيات كاشفة عن خفايا المنافقين اليهود، فكما شهد فيما سبق بكذبهم وجبنهم. كشفت هذه الآية عما يجري في ضمائرهم، وعن تصورهم للمؤمنين. بكل تأكيد أنتم جماعةَ الإيمان بقيادة رسولكم انطبع قلوب المنافقين واليهود بالرهبة منكم رهبة

تعلو رهبتهم من الله. هم لا يتوقعون إلا أنهم مهزومون في أي مواجهة معكم فلا يستطيعون الصمود. وما أشد غباءهم وما أبعدهم عن الغوص عن الحق وعن إدراكه. إذ رهبوكم أكثر من رهبة الله الذي بيده وحده مقاليد جميع الأمور.

14- لا يقاتلونكم جميعا...قوم لا يعقلون.

لما تمكنت في صدور المنافقين واليهود الرهبة منكم، فإنهم لايقاتلونكم إلا متحصنين في قراهم لاقتال الجيش الظاهر بترتيباته من جناحين وقلب، وتخطيط للكر والفر. هم لجبنهم يحتمون بحصونهم. أو يحتمون وراء الجدران والأسوار المحصنة التي تخفى أشباحهم. ويحتمل أنهم لرهبتهم منكم لا يتفقون على قتالكم، فلا يقاتلونكم مجتمعين عليكم. ولكن يقاتل كل فريق منهم في قريته أو وراء أسواره.

بأسهم بينهم... إن هذه الحالة العجيبة من الوهن تدعو للتساؤل لماذا انهزموا نفسيا إلى هذا الحد مع ما يظهر عليهم من التحدي، ومع ما يأتي في كلامهم وأشعارهم من التنويه بالشجاعة والقتال. فكان البيان من الله المطلع على خفايا الصدور، فأثبت سبحانه أن شدتهم لا تتجاوز الانتقام من بعضهم بسبب الخلافات المستحكمة بينهم. تظن أنهم على قلب رجل واحد، ولكن عقولهم متشددة في اعتماد الأحقاد والإحن متعلقة بالتشفي ممن خالفها، لا ينظرون إلى عواقب التشتت والفرقة. إنهم قوم فقدوا عقولهم التي تنير للمؤمن ما يؤول إليه أمر الأمة التي تحكم عواطف الأحقاد في علاقاتها. وقوله تعالى: قوم لا يعقلون يفيد أن تشددهم فيما بينهم تأصل فيهم وأصبح مقوما من مقوماتهم الذاتية.

حكمة : في كشف فساد عقولهم، وتعرضهم بسبب تعلقهم بالتشفي، وتحكيم الحقد في علاقاتهم ما تبعه انهزامهم، وفقدهم لما يفتحه العقل من نور يعرف بالمخاطر الماحقة للأمة، حتى يصبح العقل معطلا لا يفيد صاحبه. في ذلك تحذير للأمة الإسلامية أفرادا وجماعات من اتباع ما يدعو إليه الحقد وحب التشفي من انهزام، ومن ضعف اجتماعي واقتصادي، وبالتالي التعرض لجميع المخاطر وفقدان المناعة الحافظة لمقومات الأمة.

كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ۖ ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ

ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الوبيل : ما ظاهره طيب ومآله هلاك.

أمرهم : ما دبروه.

بيان المعنى الإجمالي :

اليهود الذين خانوا العهد وقهرتهم جيوش المسلمين وأجلوهم، لهم نظير سبق في التاريخ القريب، في غزوة بدر، لما جمعت قريش صناديدها وقصدت محاربة رسول الله ﷺ فانهزمت شر هزيمة، ومن تلك الغزوة تحول ميزان القوى لفائدة المسلمين. ولهم مع الذل الدنيوي، عذاب أليم في الآخرة. ومثل اشتراكهم في العذاب الأليم، كمثل العلاقة التي بين الشيطان المغوي للإنسان إغواء حبب إليه الكفر، والإنسان المتبع لغوايته، عندما يصيران يوم القيامة للحساب، فيتبرأ الشيطان ممن كفر ويقول له : إنك كفرت باختيارك فتحمل مسؤوليتك وإني أخاف الله رب العالمين. فكانت عاقبتهما الخسران المبين في النّار. شأن اليهود مع المنافقين.

نداء من الله للمؤمنين أن يتيقظوا ويلازموا التقوى، وأن يكون المصير حاضرا في عقولهم لا يغفلون عن الآخرة، يقدرون ما قدموا ليوم الحساب. واصلوا التقوى فإن الله يعلم ما تنطوي عليه الصدور، وحقيقة ما تعملون هل هو رياء أو نقي بالإخلاص. وإياكم أن تتعلقوا بالدنيا وتحصروا اهتمامكم فيها، فتكونوا بذلك كالذين نسوا الله، ولم يقيموا له حسابا في ضمائرهم، فجازاهم أن أذهلهم عما يفيد أنفسهم. وقد انحصر الفسق فيهم.

بيان المعنى العام :

15-كمثل الذين من قبلهم...عذاب أليم.

مثل اليهود الذين وعدوا بنصر المنافقين، وقذف الرعب في قلوبهم، وشدة رهبتهم من المؤمنين فلا يقاتلونهم إلا في قرى محصنة أو من وراء جدر؛ هو كمثل، وكوضع الذين من قبلهم. ومن هم المعنيون بقوله: من قبلهم؟ تحتمل الآية أن يكون المقصود المهزومين من القرشيين في بدر. وغزوة بدر وقعت في السنة الثانية وغزوة بني النّضير وقعت في السنة الثالثة. ويرى الشيخ ابن عاشور رحمه الله أن

الذين من قبلهم هم بني النّضير، وأن المتحـدث عـنهم هـم بنـو قريظـة الـذين غـزاهم النّبي ﷺ إثر غزوة الخندق.

إن مآل بني قريظة كمآل بني النّضـير، سـولت لهـم أنفسـهم الغـدر وحملهـم بغضـهم للمؤمنين على تحريض قريش وغطفان من قـيس عـيلان، علـى حـرب رسـول الله ﷺ، فتجمعت جموع كثيرة حاصروا المدينـة، وكـان النّبـي ﷺ وسـلم حفـر الخنـدق الـذي منع الغزاة من دخـول المدينـة ؛ ورد الله كيـدهم فتفرقـوا دون أن يحققـوا مـا عزمـوا عليه. وبمجرد عودتهم إلى ديارهم، أذن للنبـي ﷺ بغـزو بنـي قريظـة، الـذين نقضـوا العهد وحرضوا المشركين على الهجوم على المدينـة، ووعـدوهم أنهـم سـيكونون معهـم ويطعنون الجيش الإسلامي من الخلف. فحكم فيهم سعد بـن معـاذ ﷺ، ومثـل ذلـك وقـع مع بني قينقاع الذين نزلوا على حكم عبد الله بن أبي بن سلول[1].

ذاقوا وبال أمرهم... أصل الوبـال يطلـق علـى نـوع مـن مراعـي الإبـل يسـتهويها لخضرته، فإذا أكلت منها أضرها ضررا يبلغ حـد المـوت. وقـع علـيهم الهـلاك الـذي تسببوا فيه دون أن يحسبوا له حسابا. وذلك فـي الـدنيا واختصـوا يـوم القيامـة بعـذاب يشعرون بقوة آلامه

16←17- كمثل الشيطان...جزاء الظالمين.

إن مثل اليهود في تسببهم فـي هلاكهـم بـإغراء مـن اليهـود، يشـبه علاقـة الشـيطان بالجنس البشري. فالشيطان يشكك الإنسان في الحـق، وينتهـي بـه إلـى تحبيـب الكفـر له. وعبر عن مغالطة الشيطان لمن يستولي عليه حتى يجعلـه يمقـت الحـق ويميـل إلـى الكفر بقوله: اكفر. وعندما يستجيب الإنسـان لتضـليل الشـيطان، ويكفـر بالـدين الحـق، ويوقف يوم القيامة بين يدي الله يتبرأ منه، ويقـول لـه :إنـك كفـرت باختيـارك، ومـا أجبرتك على الكفر، فتحمل تبعة ما اخترته. وإني أخـاف عـذاب الله. وقـد حضـرا يـوم القيامة وارتفعت الحجب. وتكون العاقبـة خسـارتهما معـا، خسـارة الشـيطان الغـاوي على إغوائه وإضلاله، وخسارة الإنسان المغـوي لاتباعـه للشـيطان. فيكـون جزاؤهمـا النّار خالدين فيها، وتلكم الخسارة العظمى جـزاء عـدل للظـالمين الـذين تنكبـوا الحـق. وهكذا كان شأن يهود مع الذين ضللوهم من المنافقين.

18- يا أيها الذين آمنوا...إن الله خبير بما تعملون.

بعد أن خوف الله من عاقبة الغاوين والمغـويين، انتقـل إلـى دعـوة المـؤمنين بوصـف الإيمان ليحرضهم على مدخول النّداء الذي هو مقتضـى الإيمـان فـأمرهم بـأن يلتزمـوا

---

[1] ملخص من سيرة ابن هشام ج 3ص 274/229

تقوى الله. أن تكون صلتهم بربهم مشعة في عقولهم متحكمة في عواطفهم وميولهم. وتظهر التقوى بالإعداد ليوم القيامة، الذي عبر عنه بقوله " لغد" فهو قريب قرب الغد من اليوم. هو المستقبل الحق الذي ينبغي أن يكون حاضرا فيُعِدُ الإنسان ما ينفعه في ذلك اليوم. وهذه النصيحة من الله لعباده كررها ليثبتها في النفوس ليداوموا عليها ؛وحتى يبني عليها القاعدة المظهرة للحكمة في الأمر بالتقوى والتأكيد عليها، إن الله خبير بحقيقة ما تعملون يتميز بعلمه الصدق من الكذب، والرياء من الإخلاص. فلتكن تقواكم التقوى الحقيقية، وهي التي تنفعكم يوم القيامة.

19- ولا تكونوا كالذين...أولئك هم الفاسقون.

ومن عنايته سبحانه بالتزام المؤمنين التقوى، توجه إليهم بالتحذير من أن تلهيهم الحياة الدنيا فيتعلقوا بها، وينسون ما شرعه الله لهم، وما يقتضيه الإيمان منهم من تطبيق الأوامر واجتناب المنهيات، ومن ذكره دائما. وذلك الإعراض على مراتب، قد تصل إلى الكفر كما وقع فيه المنافقون الذين أعرضوا عن الهدى المحمدي، ووقع فيه اليهود بكفرهم بعيسى وبمحمد. فنسوا ما أخذ عليهم موسى من الميثاق بان يؤمنوا بمحمد وينصروه. وقد يكون هذا النسيان على مراتب أقل من هذا كالإقبال الشديد على الدنيا، والتهاون بالواجبات. والأثر المترتب عن نسيان الله أنه يفقد الناسي الشعور بما يفيد نفسه، فيعمى عن تذكر المصير، ويعطل قواه التأملية في الكون وما يحويه، وما يدل عليه من القدرة المبدعة المنظمة له. فيفقد الشعور بالهدف الأسمى الذي يرفعه عن الحيوان. ويحبس ذاته في الإشباع الحسي والجنسي. إنهم كانوا على أعلى مستوى من الفسق، كأن الفسق انحصر فيهم.

﴿لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ۚ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۚ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۖ هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الخشية : خوف وقد يصحبه تعظيم.

التصدع : التشقق

بيان المعنى الإجمالي :

إن البون بين الذين نسوا الله، وبين الذين اتقوا بون شـديد. فمكـان النّاسـين يـوم القيامـة في النّـار يلازمونهـا وتلازمهـم خالـدين فيهـا. ومكـان المتقـين الجنـة يصـحبونها وتصحبهم لا يغادرونها أبـدا. إن المتقـين بـذلك هـم وحـدهم الفـائزون. تـدبروا فـي القرآن فهو الهدى. إنا لو أنزلناه على الجبل الصـلد القـوي ومكنـاه مـن إدراك محتـواه لركع خاضعا وتشقق. إنه مثل ينضم إلى الأمثـال التـي عرضـناها علـى النّـاس تقـرب لهم الحقائق والمواعظ.

اعرفوا ربكم فهو الله المتميز في ذاته وصـفاته عمـا سـواه. الواحـد الأحـد، يعلـم مـا ظهر وما خفي، وهو الرحيم بعباده، وسعت رحمته كل شـيء. الواحـد الأحـد ملـك كـل الكائنات ما كان عاقلا وما لا يعقـل. منـزه فـي عـلاه عـن كـل نقـص. بيـده وحـده السلام، يسعف به من يرضى عنه. أنـزل الأمـن فـي مخلوقاتـه فهـي تسـير حسـب القانون المسطر لها إلى أجلهـا. المهـيمن الرقيـب الـذي لا يخفـى عليـه شـيء مـن أطوار الكائنات. العزيز النّافذ حكمه وإرادته كـل شـيء طـوع إرادتـه. الجبـار، يجبـر الكسير ويقهر كل متمرد ويلزم الكائنات على السـير فـي الطريـق الـذي سـطره لهـا. المتكبر صفة ذاتية تدل على أن كل ما يمـر ببالـك هـو نـاقص محتـاج إليـه سـبحانه فيخضعه لقدرته. تعالى الله أن يكون لـه شـريك. هـو الله المتفـرد بـالخلق مـن عـدم، وتكوين المخلوق على المقادير التي ضـبطها، وهـو الـذي يميـز كـل مخلـوق فيعطيـه شكله وخصائصه، وهو الذي يعطيه صـورته الظاهريـة المميـزة. وكـل مـا تصـورته من الفعل الكامل فهو لله وحده، فلا تقتصر أسماؤه الحسـنى علـى مـا ذكـر فـي الآيـة. وهو العزيز الذي تنفذ إرادته على النّحو الذي قدره. وكل مـا خلـق ودبـر وأنجـز جـار على الحكمة البالغة.

بيان المعنى العام:

20-لا يستوي أصحاب النّار...هم الفائزون.

بينت الآية عاقبة الذين اتقوا، وعاقبة الذين نسـوا الله. فحققـت أن منزلتهمـا يـوم القيامـة مختلفة تماما، وأنه لا رابطة تجمـع بينهمـا، ولا يقتـرب أحـدهما مـن الآخـر. فالـذين نسوا الله هم الذين ألفوا النّار، وألفتهم فاصطحبا صـحبة لا يفـارق أحـدهما الآخـر ممـا

يؤكد خلودهم فيها. وأن المتقين هم الذين ألفوا الجنـة وألفـتهم، هـم خالـدون فيهـا. فهـم بذلك أحقاء بأن ينحصر الفوز فيهم، وفوز غيرهم عرضي زائل.

21-لو أنزلنا هذا القرآن...يتفكرون.

هذا مثل ضربه الله ليعرف البشر بقوة ما تضمنه القـرآن فيحـركهم بـذلك للتأمـل فيـه. إنا لو أنزلنا القرآن على الجبل الصلد الذي لا يتأثر بالتقلبـات مهمـا عنفـت، لـو أنزلنـا عليه هذا القرآن ليتفهمه ويتـدبر بيناتـه، ويستحضـر مـا حـذر منـه، لارتجـف خوفـا وتصدع وتشقق، وكانت شروخه ظاهرة مشاهدة مرئيـة. نسـوق الأمثـال للنـاس رجـاء أن يتفكروا فيها فيقلعـوا عـن الإعـراض عـن هـدي القـرآن، ويوحـدوا الله ويفـردوه بالعبادة التي هو حقيق بها.

22←24 هو الله الذي لا إله إلا هو...وهو العزيز الحكيم.

ذُكِرَ اسم الجلالة "الله" في هـذه السـورة تسـعا وعشـرين مـرة. فافتتحـت بـه الآيـة ليجري عليه من الصفات ما يمكن من حبه ومهابته.

أول ما سجلته الآية التوحيـد المطلـق، هـو المتفـرد بالألوهيـة الواحـد الأحـد. وهـي الصفة التي يتبعها بقية صـفات الكمـال والجـلال التـي لا يشـاركه فيهـا أحـد وهـو مقتضى التوحيد.

عالم الغيب والشهادة – جمع بين ما هو مغيـب عـن إدراك البشـر، ممـا هـو موجـود ولكن تقصر القدرات البشرية عن إدراكـه كـإدراك الـذات الإلهيـة. وكالعقـل والـروح، وفعل أجهزتنا، وما حجَبَه البعـد المكـاني أو الزمـاني. ومـا هـو مـن المغيبـات التـي أخبرنا الله عنها كيوم القيامة والجنـة والنـار، والميـزان والصـراط. ومـن بـاب أولـى وأحرى هو عالم بما هو حاضر، وفيه رد على ما يظنـه المشـركون مـن أن مـا تحويـه ضمائرهم مغيب عن الله، ورد عـن الـذين يعتقـدون أن الله يعلـم الحقـائق الكليـة، أمـا الجزئيات التي يجري عليها أمر العالم فهي خارجة عن علمه.

هو الرحمن الرحيم: عظيم الرحمة. فمن رحمتـه أنـه لا يسـرع بالعقوبـة لمـن تجـاوز الحدود، ويمهله ليتوب فيقبل توبته. ولو قـدرنا عظـم الـذنب، وجـراءة العاصـي عنـد ارتكابه للمعصية، وجميع قدراته من ربه، وهو مطلع عليـه فإنـه يكـون حقيقـا بمراتـب الهلاك ومع ذلك يرحمـه بالهدايـة، ورحمـه بإرسـال محمـد صـلى الله عليـه وسـلم، ورحمه بالقرآن نورا يفتح بصـيرته ليتـذكر ويهتـدي. ورزقـه مؤمنـا كـان أو كـافرا بخيرات لا تحصى من متاع الدنيا. كل ذلك من رحمتـه، ورحمتـه يـوم القيامـة أوسـع من رحمة الدنيا.

– تأكيد لصفة الوحدانية أولا، ليثبت له بعد ذلك أنه هو الملك الحق، وكل ما وصف بالمُلك هو ملك ناقص محصور بزمن، ومحصور في طائفة من النّاس. أما وصف الله بأنه الملك فهو الذي تخضع لسلطانه كل الكائنات الإنسان والملائكة والجان، والحيوان والنبات ما على ظهر الأرض وما تحويه السماوات.

القدوس : المتقدس عن الشبيه والنظير، وعن نقائص الملوك، وعن الظلم والغرور، لا يلحقه في تصرفه أي نقص ناشئ عن شهوة.

السلام :هو مالك السلام يعطيه لمن يشاء ويحرم منه من يشاء. وصلة الإنسان به تدخل دائرة المحبة والتقديس، فيكتسب بها العابد الطمأنينة والسلام الباطني. وهو سليم من كل نقص في المستقبل، كسلامته من ذلك فيما مضى لأنه قدوس.

المؤمن :أي أنزل الأمن في مخلوقاته. بما أودع في تركيب كل نوع من محكم التنظيم الذي به تسير حياة الكائن إلى الأجل المقدر له دون عسر. أمن لكل كائن ما يبقي على حياته إلى أجله المحدد. أمن الإنسان من ضياع ما عمله من صالح الأعمال، فوثقها له وكتب جزاءه عنها. فأمن مفتوح البصيرة، من ذهاب عمله الصالح سدى.

المهيمن : معنى المهيمن بلغة قريش الرقيب. وعند بقية العرب الحافظ. وكلاهما صفتان من صفاته تعالى على ما يقتضيه الكمال. فالله رقيب على الخلائق كلها في فعلها الجزئي، وعلى نظام الكون وتتابعه حسبما أعطاه له عند خلقه.(**إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا**)[1]

العزيز :هو الذي طوع كل شيء لتنفيذ مراده، فلا يستعصي عليه. وبذلك لا يلحقه ذل العجز والغلبة إذ الكل خاضع لقدرته.

الجبار :صفة كمال في الله، يجبر الكائنات على السير حسب النّظام الذي قدره لها، فلا تخرج عما قدره فلا الإنسان يطير ولا الطائر يسقط، ولا النّار تولد البرد، ولا الثلج يبعث الدفء. بينما هي في الإنسان صفة ذم إذ الجبار هو الذي يخضع غيره لهواه، ولا ينضبط بالإصلاح. كما خاطب القبطي موسى لما أن أراد أن يبطش للمرة الثانية :(**إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين**)[2] كما يمكن فهم الجبار على أن جابر الكسير ومغيث العاني ومصلح ما لحقه الفساد.

---

[1] سورة فاطر آية 41

[2] القصص آية 19

المتكبر : وصف لله بالعظمة الكاملة، فتكبره بـالنظر إلـى الـنّقص الـذي عليـه غيـره، ويكون التكبر وصفا ذميمـا إذا عامـل أحـد غيـره باحتقـار مـع أن المتكبـر نـاقص. فتكبره سبحانه لكماله لا لاستنقاص البشر واحتقارهم.

سبحان الله عما يشركون : تنزه ربنـا عـن الشـريك فـي ذاتـه، وعـن الشـريك فـي صفاته حسبما تبين لنا من تحليل تلكم الصـفات العليـة. فلـيكن هـذا التقـديس حاضـرا في فكر عبيده وفي مشاعرهم دائما.

– تفرد بالخالقية، فكل ما عبد مـن دونـه زائـف لا يخلـق فلـيس إلهـا. فهـو المتفـرد بإيجاد ما تعلقت إرادته بإيجاده على تقدير سابق وحسب ما تقتضيه الحكمة.

البارئ: ومع قدرته على الخلق فهو يميز كل مخلوق بخصائصـه فهـو خـالق لكـل فـرد من أفراد البشر، وهو يعطي لكل فرد مقومات تفـرده وتميـزه عـن غيـره فـي جينومـه وفي شكله وفي خصائصه.

المصـور: تفرد الله بإعطاء كل مخلوق صـورته الظـاهرة التـي قـدر أن يكـون عليهـا ففي الإنسان مثلا يصوره فـي طولـه ووسـامته، وفـي لـون بشـرته وشـعره وعينيـه وحباله الصوتيه الخ ولا فرق بين آثار صفاته بالزمن، ولكن بالاعتبار.

له الأسماء الحسنى :إن ما ذكر من الصفات التـي أجراهـا علـى الله المتفـرد بالكمـال، لا تنحصر فيما ذكر، فكل الكمالات هي ثابتة لـه ثبوتـا أزليـا سـرمديا. وهـي صـفات تدل على الذات فصارت كالأعلام والأسماء لذاته العلية سبحانه.

يسبح له ما فـي... التسبيح هو التنزيه عن الـنّقص. ومـن عقـل مـن الكائنـات حينمـا يتأمل قوانين خلقه سبحانه، وما يجري مـن ألطافـه عليهـا، يلهـج قلبـه ولسـانه بتنزيـه الله وتمجيده. فهذا تسبيح بلسان المقال. وكل كائن تأملت فيـه وجـدت فيـه مـن الحكمـة ومن حسن التقدير، ومن ارتباطه بغيره من الكائنات مـا ينـادي بتنزيهـه سـبحانه. فهـو يسبح بلسان الحال.

وهو العزيـز:إن تطويع الكائنات لتكون على الوضع الـذي أراده لهـا، فـي ذاتهـا، وفـي ارتباطها ببقية أجزاء الكون، تجده موكبا متناسقا سـائرا إلـى المصـير الـذي قـدره لـه، إنه ليقوم مناديا بما يدل عليه مـن عـزة الخـالق المتصـرف التصـرف العـام والشـامل في الماضي والحاضر والمصير.

الحكيم : كل ذرة من ذرات الكون مقدرة التقـدير العجيـب فـي تركيبهـا وفـي التحامهـا بغيرها، وفيما تصور من ذلك، تجد من ذلك أن الصـانع المبـدع حكـيمٌ بأسـمى درجـات الحكمة لا اختلال في صنعه.

روى الترمذي بسنده إلى معقل بن يسار ﷺ عن النبي ﷺ قال : (**من قال حين يصبح ثلاث مرات، أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قرأ الثلاث آيات من آخر سورة الحشر ((هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب،إلى آخر السورة وكل الله به سبعين ألف ملك يصلون عليه حتى يمسي، وإن مات ذلك اليوم مات شهيدا، ومن قالها حين يمسي كان بتلك المنزلة))**

وروى الخطيب البغدادي في تاريخه بسنده إلى إدريس بن عبد الكريم الحداد قال قرأت على خلف { راوي حمزة أحد القراء السبعة }فلما بلغت هذه الآية : لو أنزلنا هذا القرآن على جبل إلى آخر السورة قال: ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على الأعمش، فلما بلغت هذه الآية قال: ضع يدك على راسك، فإني قرأت على يحيى بن وثاب، فلما بلغت هذه الآية، قال :ضع يدك على رأسك، فإني قرأت على علقمة والأسود فلما بلغت هذه الآية قالا : ضع يدك على رأسك فإنا قرأنا على عبد الله [أي ابن مسعود] ﷺ، فلما بلغنا هذه الآية قال :ضعا أيديكما على رؤوسكما، فإني قرأت على النبي ﷺفلما بلغت هذه الآية قال لي : ضع يدك على رأسك ؛ فإن جبريل لما نزل بها إلي قال : ضع يدك على رأسك فإنها شفاء من كل داء إلا السام، وهو الموت. هو حديث أغر مسلسل إلى جبريل ﷺ.

وذكر الديلمي عن علي وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: في قوله تعالى لو أنزلنا هذا القرآن.إلى آخر السورة هي رقية الصداع.

وقد كنت في صباي الباكر كثيرا ما أتعرض لصداع يؤلمني، وكان مؤدبي رحمة الله عليه الشيخ محمود المهيري يأخذني إلى جانبه ويقرأ علي هذه الآيات، فما يتمها حتى يذهب ما كنت أجده.

أكملت تفسير سورة الحشر يوم الأحد 13 جمادى الثانية1435-2014/4/13-يسر الله لي إكماله.

سورة الممتحنة

هذا هو الاسم الذي عرفت به في كتب التفسير وكتب السنة. وتقرأ بكسر الحاء عند الجمهور. ووجه التسمية ما ختمت به السورة من امتحان النساء اللاتي يأتين من مكة مهاجرات : (يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات الآية 10) ورويت بفتح الحاء، أي المرأة الممتحَنة، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط زوج عبد الرحمن بن عوف. وذكر في الاتقان أنها تسمى سورة الامتحان. وهي سورة مدنية باتفاق. وهي السورة الستون حسب ترتيب المصحف، وعدت الثانية والتسعين حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة العقود وقبل سورة النساء.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

تلقون: تصلون إليهم.

الإسرار : الإخبار سرا.

سواء السبيل : أعمال الصلاح والهدى.

يثقفوكم : يتمكنوا منكم.

يبسطوا إليكم أيديهم : تعمل أيديهم فيكم كل عمل من قتل وتقييد وضرب وإهانة.

يفصل : يفرق بينكم.

بيان المعنى الإجمالي :

أمِرَ المسلمون أن يعاملوا من كان على غير دينهم معاملة إنسانية لا يتعدون على حقوقهم المادية والأدبية كما يأتينا في الآية الثامنة من هذه السورة. **لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم**. ولكن توجه الله للمؤمنين بوصف الإيمان يمنعهم من تقريب الذين آذوا المسلمين حتى أخرجوهم من ديارهم وأن يظهروا لهم المودة التي تجعلهم يسعون إلى ما يجلب لهم الخير. كيف تفعلون هذا وهم قد كفروا بالرسول وكذبوه، وبالغوا في إذايتكم حتى اضطروا رسول الله ﷺ إلى الهجرة، وأخرجوكم من دياركم التي نشأتم فيها. فعلوا بكم ما فعلوا لأمر واحد : أنكم آمنتم واخترتم دين الإسلام، ولم تضروهم بتوحيدكم لله وقبول الإسلام دينا. فإن كنتم خرجتم من دياركم إخلاصا لله وجهادا في سبيله، وطلبا لمرضاته فلا تـوادوهم واقطعوا معهم كل صلة يمكن أن تنفعهم. عجب لمن يسر لهم بالمودة، والله لا تخفى عليه خافية فهو يعلم ما يجري في سركم كعلمه لعلانيتكم. احذروا فإن من يربط بهم علاقة ود يضل عن سبيلي ويتيه في متاهات تفصل به وبين طريق النّجاة.

اعلموا أن المشركين لو يثقفوكم ويتمكنوا منكم يظهر منهم ما تغلي به قلوبهم من الغل والكراهية لكم، وتظهر عداوتهم كأبشع ما يتصور، تمتد أيديهم لكم بالأسر والطعن والضرب، وتنهال عليكم ألسنتهم بالسب والشتم. كل ما يودون الآن أن تعودوا إلى الكفر، وتنخلعوا من الإيمان. لقد تبين لكم أن موالاتهم لا تفيدكم في الدنيا لشدة بغضهم لكم وعداوتهم, ولأن هدفهم أن تكفروا. وموالاتهم هي موجبة الخسران يوم القيامة، فإنه لا ينفعكم يوم القيامة لا أرحامكم ولا أولادكم. يفرق بينكم ولا جامع بينكم. والله مطلع عليكم لا يخفى عليه شيء مما تضمرونه في نفوسكم.

بيان المعنى العام

1-يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا...فقد ضل سواء السبيل.

تنبه الآية المؤمنين إلى ما يقتضيه الإيمان منهم في علاقاتهم الاجتماعية، وأن يقدروا روابطهم على أساس الوحدة الدينية. إنهم بدخولهم في الإسلام زادت رابطتهم بأقاربهم المؤمنين قوة ومتانة، وفرض عليهم الدين البر بتلكم العلاقات، وكذلك بأصدقائهم ومن يتعاملون معه، تبعا لوحدة نظرتهم إلى الوجود وإلى القيم الخلقية التي يُقَوِمون بها ما يصدر عن الإنسان. وفي المقابل فإن علاقتهم بمن كفر وكذب محمدا فيما جاء به، ورجح مفاهيم الكفر وقيمه، يتحتم أن لا تكون علاقة

مودة وسعي في تحصيل الخير له. فنهتهم الآية عن اتخاذ الكافرين أولياء بتقريبهم تقريبا يجعلهم أعزاء عندهم يدفعون عنهم الشر، ويسعون ليحققوا لهم ما ينفعهم في دنياهم. ويضمرون لهم الحب والخير والود. وشنع التقرب منهم وذلك.

أولا: بكشف حقيقهم، إنهم مضمرون لعداوة الله، لعداوة دينه ورسوله. وهم الذين ابتدأوا بقطع الصلات بكم وقاوموا الحق الذي جاء به محمد أعنف مقاومة، فكانوا أعداء لدينه، وكانوا أعداء لكم تنطوي نفوسهم على بغضكم، وتربص الدوائر بكم (عدوي وعدوكم)

وثانيا: أنهم كفروا رافضين لما جاءكم من القرآن والهدى، يعملون على إبطاله، وعلى تحريفه، وعلى الحيلولة بين النّاس وبين الإيمان به.

ثالثا: أنهم استساغوا ظلمكم، فألجأوكم إلى الخروج من دياركم. هم أبعد ما يكون عن الإنصاف. إنكم لما آمنتم بما جاءكم من الحق لم تضروهم، ولكن بغضهم لكم ولقبولكم للدين حملهم على إخراجكم بإيذائكم بمختلف ضروب الإيذاء حتى تعذر عليكم الإقامة في البلد الذي هو موطنكم. وكان الإيذاء يصدر من بعضهم مباشرة، ومن بعضهم بإغراء سفهائهم، ومن بعضهم بإظهار الرضا والتأييد للمؤذين. فقد اشتركوا في العمل على إيذائكم حتى خرجتم مكرهين، فنُسِبَ الإخراج إليهم جميعا. وأكد إظهار الحامل لهم على مقاومتكم، وإيذائكم، أنكم آمنتم وثبتم على الإيمان بالله ربكم.

إن كنتم خرجتم... متعلق بقوله لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء. أتى به في صورة الشرط ليفيد مزيد تأكيد لما تضمنته الآية من عدم اتخاذ الكافرين أعدائهم وأعداء دينه أولياء. فكونهم خرجوا جهادا في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله أمر محقق كأكمل ما يكون التحقق. وقريب من هذا أن تقول: عليكم بمضاعفة العمل، واختيار الادخار على الإنفاق. إن كنتم تريدون أن تخرجوا من أزمتكم المالية.

تسرون إليهم بالمودة... تخبرونهم سرا بسبب ما تعملون له من ربط المودة بينكم وبينهم محاولين ذلك في خفاء. وأمركم عجب ! أو تظنون أن أي شأن من شؤونكم يخفى على الله؟ فإني أعلم ما يجري في بواطنكم وما تعلنونه، هما في مرتبة سواء، وأُطلِعُ على ذلك رسولي.

ومن يفعله منكم... توعد صريح من الوقوع في مخالفة ما اقتضته الآية. فمن يتودد إلى الكافرين الذين أخرجوكم، فقد انحرف عن الطريق السالك المبلغ للمقصود ووضع نفسه في متاهات الضياع والخسران وابتعد عن الإسلام المؤمن لصاحبه نجح الحياة والمعاد.

يكاد يتفق المفسرون استنادا إلى ما ثبت في الصحيح أن هذه الآية نزلت في قضية الكتاب الذي بعث به المهاجر البدري حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى من قريش. وحاصل ذلك :

أن النّبي ﷺ تجهز ليخرج مع الصحابة رضوان الله عليهم قاصدا مكة لأجل العمرة على الأرجح عام الحديبية. وقبيل خروجه قدمت امرأة من مكة اسمها سارة مولاة لأبي عمرو بن صيفي، وكانت مشركة فخاطبت الرسول ﷺ قائلة: اشتدت بي الحاجة بعد أن قتلتم موالي، أي في بدر، فقدمت عليكم لتعطوني وتكسوني. فحث رسول الله بني عبد المطلب وبني المطلب على إعطائها. فاستجابوا. وأتاها حاطب بن أبي بلتعة وأعطاها عشرة دنانير وحملها كتابا لتبلغه إلى من كتب إليهم من أهل مكة، نسخته من حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة. اعلموا أن رسول الله ﷺ يريدكم فخذوا حذركم. فخرجت ونزل جبريل بالخبر، فبعث رسول الله ﷺ عليا وعمارا وعمر و طلحة والزبير والمقداد وأبا مرثد، وكانوا فرسانا وقال لهم : انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإذا هم بالمرأة. فقالوا: أخرجي الكتاب ! فأنكرت أن يكون معها كتاب. فقالوا لتخرجن الكتاب أو لتلقين الثياب. أي نجردك من ثيابك فأخرجته من عقاصها.

فأتوا به النّبي ﷺ فقال: يا حاطب ما هذا ؟ قال : لا تعجل علي، ما كفرت بعد أن أسلمت ولا غششتك منذ نصحتك ولا أحببتهم منذ فارقتهم، ولكني كنت امرأ ملصقا في قريش [أي ليس منهم صليبة] ولم أكن من أنفسها. وكل من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون أهاليهم وأموالهم غيري فخشيت على أهلي [أمه وإخوته] وقد علمت أن الله ينزل عليهم باسه، وأن كتابي لا يغني عنهم شيئا. ولم أفعله كفرا ولا ارتدادا عن الإسلام. فقال النّبي ﷺ: صدق. فقال عمر: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النّبي ﷺ : (إنه قد شهد بدرا وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر، فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم. وقال لا تقولوا لحاطب إلا خيرا. فأنزل الله هذه الآية.

وقد أفهم من الآية أن على المؤمن أن يكون يقظا لحديث النّفس، فإن حركاتها وما تصوره وتحبيبها لما جرى فيها من صور أولية، يزداد عمقا وتأصلا كلما واصل المرء متابعة الخواطر الأولية ولم يطرها بقوله : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، حتى تنتهي به إلى تنفيذها غير مقدر للعواقب السيئة. إن حاطبا لو طرد عن نفسه ما حدثته به من اتخاذ يد عند قريش تحمي أهله ما أقدم على ما أقدم عليه. هو قد هاجر وترك أهله وماله وأبلى البلاء الحسن في بدر. وقد بالغوا في إذايته، وهو

يعلم يقينا بتجربته في الحياة معهم بعد أن أسلم، أن بغضهم لكل ما يتصل بالإسلام أشد بغض. ولكن ما زال حديث النّفس يطوعه ويفكك عزمه حتى قام بما قام به. فليحذر المؤمن مواصلة حديث النّفس وصورها المهلكة.

2-إن يثقفوكم...وودوا لو تكفرون.

تنبهوا لكامن عداوتهم، ولا يذهب بكم الخيال أن من الحزم والدهاء موالاتهم لتأمنوا شرهم،إن هذا خطأ كبير في التقدير والتصور. فإنهم إن يظفروا بكم ويتمكنوا منكم يعاملونكم معاملة العدو، وكأشد ما تكون العداوة. تغلي صدروهم بالحقد والبغض فلو تمكنوا منكم لسبقت أيديهم للتنكيل بكم بمختلف أنواع التنكيل من ضرب وطعن وخنق، وتنطلق ألسنتهم بالشتائم والإهانات. وكل ما يودونه اليوم أن تكفروا بالدين الإسلامي. هذا ما يودون أن يتم ولا يخطر ببالهم أن يرتبطوا بكم ما دمتم متمسكين بالإسلام.

3-لن تنفعكم...بما تعملون بصير.

ذكر في قصة حاطب أنه أراد أن يجعل لنفسه يدا عند قريش يحصن بها أمه وإخوته من بأسهم. فرفعت الآية السابقة هذا الوهم، وأنه حساب غالط، فالمشركون لا يقطع عداوتهم إلا كفركم بما أنزل على محمد. وما يودونه لكم من الكفر هو الخسران المبين، إن أرحامكم وأولادكم لا يغنون عنكم من الله شيئا يوم القيامة. وفي هذا اليوم يوم الحق يفرق بينكم. فلا صلة بين الكافرين والمؤمنين، ولا ينتفع أحد منهم بالآخر. – فريق في الجنة وفريق في السعير – ولما كان الحاضر يوجب عدم ودهم وموالاتهم، ولما كان المصير يفرق بينكم. فإنه لا مبرر لودهم والتقرب منهم. ولا تجنون منه فائدة لا لأنفسكم ولا لأهليكم. واعلموا أن الله مطلع على ما يجري في ضمائركم لا يخفى عليه شيء سبحانه. وهذه الخاتمة تتضمن وعيدا وتحذيرا.

قَدْ كَانَتْ لَكُمْ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ

إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ ۚ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

إسوة : قدوة.

برآء : جمع بريء من برئ من الشيء إذا خلا منه.

وبدا : وظهر.

وما أملك : وما أقدر على تحقيق شيء ينفعك.

أنبنا: تبنا، وعدنا للطريقة التي ترضاها.

الفتنة : اضطراب الحال وفساده.

يتول : يعرض.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد تجدون في أبيكم إبراهيم والذين آمنوا معه قدوة حسنة، فسيروا على منوالهم. تدبروا في موقفهم من قومهم الذي تصلبوا في الكفر، لم يصانعوهم وأعلنوا لهم بكامل الشجاعة قائلين :نحن نتبرأ منكم. فكل صلة بيننا وبينكم مقطوعة، وكذلك نتبرأ من الأوثان التي تعبدونها من دون الله فأنتم في ضلال مبين. ونحن نظهر لكم الوجه الحقيقي لنا : نحن أعداؤكم نحمل في نفوسنا نحوكم البغض والكراهية كراهة مقيمة في أنفسنا أبد الآبدين لا نتحول عنها حتى تذعنوا للإيمان وتؤمنوا بالله وحده وتقرون بأن ما عداه باطل. ولكن إبراهيم قال لأبيه لما رأى تصميمه على الكفر: إني لأطلب من الله أن يهديك للإيمان، وأن يغفر لك ما كنت عليه قبل الإيمان. ولتعلم أني لا أستطيع أن أدفع عنك عقاب الله الذي أنت مؤهل له.

قولوا وتعمقوا في هذه الابتهالات: ربنا عليك وحدك توكّلنا واعتمادنا لتثبتنا على الطريق المستقيم، وتلطف بنا في حياتنا الدنيا. ربنا إننا نعلن توبتنا مما قصرنا فيه، وعودتنا إلى الصراط المستقيم الذي يرضيك. إليك وحدك مصيرنا في الدنيا وعاقبتنا في الآخرة، لا حول لنا ولا قوة إلا بك ربنا. إنك أنت العزيز النّافذة إرادتك فلا يعجزك شيء. الحكيم ترعى الحق وتنفذه.

بكل تأكيد قد كان لكم في إبراهيم ومن معه إسوة حسنة تدعو للاقتداء بها، تدعو من آمن بالله واليوم الآخر إيمانا نقيا صادقا ، وانشرح صدره إلى أنه على الحق، وتبع ذلك أن رجاءه في عفو ربه وتكريمه له يوم القيامة راجح عنده. ومن أعرض عن

الانتساء بإبراهيم وقومه فإن الله هو المختص بالغنى المطلق لا ينقص من ملكه شيء إعراض من أعرض، وهو سبحانه الحقيق بالثناء.

بيان المعنى العام:

4-قد كانت لكم أسوة حسنة...وإليك المصير.

بكل تأكيد تجدون في ما صدر من إبراهيم عليه السلام، وفي الطريقة التي سار عليها، وفي المنهج الذي لزمه هو والذين آمنوا معه، على قلتهم، إذ لم يؤمن به في ذلك الظرف إلا زوجه سارة، ولوط عليه السلام. فالتنصيص على الذين آمنوا معه تحريض للمسلمين وقت نزول الآية أن يتخذوا منهم قدوة يقتدون بها، قدوة جمعت الحسن والرشاد، فكانت المنهج المرضي. تلكم الإسوة تتمثل فيما سجلوه من تمسكهم بالحق، وتصميمهم عليه، وعبروا عنه بمكاشفتهم لقومهم دون مواربة مظهرين العداوة لهم، وأبانوا لهم أن بغضهم لهم متسبب عن كفرهم. وأعلنوا لهم تبرأهم منهم ورفضهم لدينهم وتصوراتهم عن الحياة والمعاد.

وبدا بيننا وبينكم....إن ما نحمله لكم من العداوة والبغض والكراهية ليس أمرا كامنا في نفوسنا، بل نواجهكم به ونظهره لكم، وسوف نستمر على ذلك لا نلين معكم ولا نرعى قرابتكم، حتى تقلعوا عن الكفر وتؤمنوا بالله وحده. وفي هذه الصورة النّقية لإبراهيم عليه السلام ومن آمن معه من عدم مصانعة الكافرين تقريع بالغ لمن أراد أن يتخذ عند قريش يدا تحفظ عائلته التي بقيت في مكة.

إلا قول إبراهيم.... هو استدراك لتكون الصورة موثقة بكمالها. فإن إبراهيم، وهو الذي تأصل فيه الأدب الإلهي، من البر بصلة الأبوة، واصل كلامه دون عنف مع أبيه الذي كان كافرا، ولم ينف تبرأه منه ومن دينه، ولكنه عبر له بما يومئ أنه غير راض عن دينه، وأنه يدعو الله أن يفتح بصيرته ليقلع عن كفره، ويعلن إيمانه، ويغفر له ما سبق من الضلالة التي هو عليها قبل إيمانه. وتبرأ من أن يعتقد أبوه أنه ينجو باستغفار إبراهيم له، فإني لا أقدر على رفع ما أنت مؤهل له بكفرك.

ربنا عليك توكلنا....يحتمل أن يكون هذا الكلام صدر من إبراهيم بعد دعوة أبيه إلى الإيمان، وأنه مما ينبغي للمؤمنين أن يقتدوا به فيقولون مثل مقالته ويستوعبوا معانيها في نفوسهم.

كما يحتمل أن يكون كلاما مستأنفا، فيه تعليم للمؤمنين أن يقولوا هذا الكلام، ويذكروا به أنفسهم لتنكشف عنهم الغفلة عن مضامين هذا القول.

ربنا توكلنا عليك، فأمرنا كله بيد، وأنت وحدك المعين لنا على تحقيق الخير ودرء الشر، والظفر بالنجح في الدنيا، و الفوز يوم القيامة. وإليك وحدك نعبر عن توبتنا

وعن الرجوع إلى السير في الطريق الذي يرضيك. ونحن نعترف بأن مصيرنا إليك وحدك، فمن تتقبله برضوانك فهو السعيد، ومن لم يحصل على رضاك فهو المسخوط الخاسر.

5-ربنا لا تجعلنا فتنة..إنك أنت العزيز الحكيم.

توالت الابتهالات: يا ربنا اسعدنا بقوة منك حتى لا تتغلب علينا الكفرة ولا تسلطهم علينا فيفتنوننا عن ديننا، فإنه بما يحملونه من بغض للإسلام لا يردعهم شيء عن فتنة المؤمنين في دينهم. ونتوسل إليك أن تغفر لنا ما قصرنا فيه حتى نكون بمحل الرضا.

إنك أنت العزيز الحكيم – إكمال للابتهالات بالتعبير عن الثقة في الإجابة. ذلك أن دعواتهم بأنهم متوكلون عليه حق التوكل، وأن يحميهم من تسلط الكافرين عليهم بما يفتنهم عن دينهم، وأن يغفر لهم، يطمعهم في القبول بما أنه سبحانه العزيز الذي تنفذ إرادته، ولا يستعصي عليه أي شيء. وكل ابتهالاتهم خير فيتأكد الرجاء في القبول بأنه الحكيم.

6-لقد كان لكم فيهم أسوة...وهو الغني الحميد.

أكد دعوتهم للاقتداء بإبراهيم ومن معه من المؤمنين بالتنويه بهم، وسبحانه هو الخبير بمقامات البشر. إن إبراهيم ومن معه إسوة حسنة متميزة تدعو للاقتداء بأصحابها، من يقتدي بهم مطمئن بأنه على صراط القيامة. لا يُقَدِر ذلك حق قدره إلا من كان مطمئنا إلى أنه على الحق دون تردد، راجيا أن الله يكرمه يوم القيامة. ومن يتول ويعرض عن اتخاذ إبراهيم ومن معه إسوة فإن الله تفرد بالغنى المطلق، فلا ينقص من ملكه شيء بكفر من كفر، وهو الحميد المستحق للثناء الدائم.

۞ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجۡعَلَ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَ ٱلَّذِينَ عَادَيۡتُم مِّنۡهُم مَّوَدَّةٗۚ وَٱللَّهُ قَدِيرٞۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٧﴾ لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۡۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

البر : حسن المعاملة والإكرام.

تقسطوا : تعدلوا في معاملتهم.

ظاهروا : عاونوا.

بيان المعنى الاجمالي :

كونوا راجين أن يحول الله قلوب أعدائكم من الكفر إلى الإيمان فينقلبون محبين لكم وللإسلام. إن قدرة الله لا يعجزها التأثير في قلوب الكافرين ليقلعوا عن كفرهم. وبعد ذلك فإن الله يغفر لهم ما فرطوا قبل ذلك، وهو الرحيم سبحانه بعباده.
ما نهيناكم عن موالاة المشركين إلا لأنهم أشهروا عليكم الحرب، و آذوكم إذاية أخرجتكم من دياركم. فمن لم يكن من المشركين على هذا الوصف فإن الله لم ينهكم عن موالاتهم والاحسان إليهم ومعاملتهم معاملة عادلة. إن الله يحب من التزم العدل. وبالجملة فإن الله إنما نهاكم فقط عن الذين قاتلوكم بسبب إيمانكم ، آذوكم إلى أن أخرجوكم من مكة، وعاونوا على إخراجكم بمختلف ضروب المكر ، أنتم منهيون عن توليهم والتعاون معهم، وأولئك الكفرة المصممون على معاداة الدين وعلى التنكيل بكم ؛ هم الظالمون حقا.

بيان المعنى العام :

7- عسى الله أن يجعل بينكم...والله غفور رحيم.

القطيعة التي أمر بها المؤمنون مع الكافرين من أهل مكة والتذكير بما اعتدوا به على الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته. وشدة التحذير من ملا ينتهم رغم وشائج النّسب والصهر التي كانت بينهم، ليست قطيعة إلا مرتبطة بالكفر وعداوة الإسلام. وأملوا أن يُقلِّبَ الله قلوبهم فيهديهم إلى الإيمان، ويحول عواطفهم من العداء والبغضاء إلى المودة والحب. أملوا هذا ولا تيأسوا من أن يتقوى ساعدكم في يوم من الأيام بإيمان أعدائكم الألداء. فإن قدرة الله لا يعجزها شيء. وإنه سبحانه غفور رحيم فما إن يدخلوا في دين الله حتى يعفو عما سلف منهم ويرحمهم ويصلهم بكم، فتحيى روابط القرابة التي كانت بينكم.

8←9-لاينهاكم الله...فأولئك هم الظالمون.

حددت هذه الآية ما قصده القرآن من الآيات السابقة النّاهية عن موالاة الذين كفروا، فبينت أن ما ذكر في الآيات السابقة هو موقف يجب اتخاذه بسبب الحرب التي شنها المشركون على المسلمين ليقضوا على الدين، وللإذايات المتتابعة لرسول الله وللمؤمنين، وللعداوة للدين الإسلامي عداوة يتبعها تشويهه ومنع من يظهر منه ميل لاتباعه. وأما الذين سالموكم ولم يقاتلوكم كما كانت خزاعة المحالفة لرسول الله

صلى الله عليه وسلم رغم إقامتها على الشرك وبني الحرث بن كعب من كنانة، ومزينة، الذين والوا النّبي ﷺ وكانوا يحبون أن يهزم قريشا. ومثلهم النّساء اللاتي ما أعن على حرب الإسلام، وكذلك الصبيان، ومن لم يحمل حقدا على المسلمين. هؤلاء لم يؤذوا الرسول ولا المؤمنين. ولم يشنوا عليه حربا ولم يعينوا على قتاله، ولم يؤذوكم الإذاية التي ألجأتكم للخروج من دياركم فموالاتهم ومعاملتهم بالمثل غير منهي عنها. أنتم غير منهيين عن معاملتهم معاملة إنسانية حسنة، بل إن من أخلاق الإيمان أن تبروهم، وتعدلوا في معاملتكم لهم. جاءت قتيلة بنت عبد العزى أم أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما وهي مشركة إلى المدينة فسألت أسماء النّبي ﷺ : أتصل أمها ؟فقال لها رسول الله ﷺ : صلي أمك.

فلا تعتدوا عليهم. إنه العدل المأمور به أمرا عاما. ومن التزم العدل فاز بحب الله له. ومعنى حبه سبحانه أنه يرأف به ويحسن إليه. وهل يتطلع المؤمن إلى منزلة أعلى من حب الله له. وإذا كان لم يرض من المؤمن أن يظلم كافرا لم يظلمه، فإن ظلمه لأخيه المؤمن اشد شناعة وأعظم إثما.

9- بسطت الآيات السابقة العلاقة التي يجب أن يكون عليها الاتصال بين المؤمنين ومن خالفهم في الدين، مقسما موقفهم إلى قسمين :

قسم مع الذين قاتلوهم وآذوهم وتعصبوا للكفر، وقسم مع الذين تحالفوا معه رغم كفرهم.

وختم الله بهذه الآية الحديث عن تلكم العلاقة ببيان جامع يؤكد ما سبق. إن الله ينهاكم نهيا مؤكدا عن موالاة الذين قاتلوكم بسبب ما أنتم عليه من الدين الحق، وآذوكم فأخرجوكم من مكة قهرا، وعاونوا على إخراجكم بمختلف صور الإذايات. أنتم منهيون عن موالاتهم، والتعاون معهم، ومن لم يمتثل فأولئك الذين تحقق فيهم أنهم ظالمون بتعديهم باستهانتهم بما نهى الله عنه.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمۡ شَيۡءٞ مِّنۡ

أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَا أَنفَقُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الامتحان : الاختبار بما يكشف الباطن ظنا.

عصم : جمع عصمة وهي موجبات البقاء على صلة الزوجية.

فاتكم : فرت بعض أزواجكم.

عاقبتم : جاء دوركم.

بيان المعنى الإجمالي :

طلب الله من المؤمنين أن لا يطردوا المهاجرات من مكة إليهم، وأن يتثبتوا من صدقهن :أنهن ما خرجن من مكة إلا رغبة في الإسلام وإيمانا بما جاء به محمد، وأنه لم يدفعهن إلى الخروج رغبة في زوج أو في مال أو فرارا من حق وجب عليهن. فإذا ظننتم صدقهن، فإنه لا يحل لكم أن ترجعوهن إلى الكفار، ذلك أن المسلمة لا تحل للكافر سواء في بلد الكفر أو في بلد الإسلام. وليدفع ولي الأمر للزوج الكافر مثل الصداق الذي كان بذله لزوجه المهاجرة.

ولا مانع من تزوجكم بالمهاجرة بعد استبرائها بثلاث حيض أو وضع الحمل إن كانت حاملا، بعد إعطائها الصداق الذي يرضيها.

ولا يحل لكم أن تواصلوا الحياة الزوجية مع الزوجة المشركة. طبقوا ما شرعته لكم، فإنّه حكم الله العليم الحكيم.

وإن فرت زوج مؤمن من المدينة إلى المشركين بمكة، فعلى المشركين أن يدفعوا لزوجها الصداق الذي كان سلمه لها عند عقد الزواج. وإذا امتنع المشركون من تطبيق هذا الحكم العادل فادفعوا لمن فرت امرأته إلى مكة مثل الصداق الذي كان دفعه لها. واتقوا الله في السر والعلن، التقوى التي هي مقتضيات الإيمان. والتقوى توجب الإذعان لما جاءكم من تشريع.

بيان المعنى العام :

10- يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات....والله عليم حكيم.

يتوالى في السورة ضبط العلاقات بين المسلمين، وبين الكفار، وقد نهت السورة عن مولاة من عادى الإسلام، وأمرت بالمعاملة العادلة مع من والى المسلمين وإن كان كافرا على ما فصل.

وتعرضت هذه الآية إلى حكم المؤمنة التي تهاجر إلى المدينة بعد صلح الحديبية الذي كان من بنوده أن من جاء من المشركين إلى محمد بغير إذن وليه يرده إلى قريش، ومن جاء من المؤمنين إلى المشركين لا يرد له. ولما رجع النّبي ﷺ إلى المدينة هاجرت إليه أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط هاربة من زوجها عمرو بن العاص؛ وجاءت سبيعة الأسلمية هاربة من زوجها صيفي بن الراهب، وجاءت أميمة بنت بشر هاربة من زوجها ثابت بن الشمراخ. وطلبهن أزواجهن، تطبيقا لبنود الهدنة. والظاهر أن عقد الصلح وقع بلفظ المذكر، ولم يفصل حكم الإناث. فبهذا الإجمال لم يَرُدِّ النّبي ﷺ النّساء المهاجرات إلى قريش. ونزلت هذه الآية مفصلة للتشريع الذي ينبغي أن يطبق في ذلك.

فامتحنوهن...أمِر المؤمنون أن يتثبتوا من صدق من هاجر إليهم من النّساء بواسطة من يتولى أمرهم، وهو رسول الله ثم صاحب السلطة التي تخوله النّظر فيهن من بعده. وأن لا ينخدعوا بما ظهر منهن، فيسارعوا بتصديقهن، وليأخذوا الحيطة والحذر حتى يكشف الامتحان عن الخلفية التي دفعتهن إلى الهجرة. ويتم التثبت بامتحانهن بسؤالهن أسئلة تكشف عن الأسباب الحقيقية لهجرتهن. روي أن المهاجرة كانت تستحلف أنها ما خرجت بغضا لزوجها، ولا رغبة من أرض إلى أرض، ولا التماس دنيا، ولا عشقا لرجل من المسلمين، ولا بجريرة تؤاخذ بها. وأنها ما خرجت إلا حبا لله ولرسوله والدار الآخرة. وقد كان النّبي ﷺ يأمر عمر بن الخطاب ﷺ أن يتولى اختبارهن.

وهذا منهج في تحصين المجتمع المسلم ممن يندسون فيه للتجسس عليه، أو بث الفتنة بين أعضائه. رأيت في شبابي أن بعضا ممن كان نصرانيا يندس في المجتمع معلنا إسلامه، ويلتف حوله بعض المغفلين، ويكرمونه أبلغ الإكرام مما لا يحلم به أفضل العباد الفقراء من المسلمين الصادقين. يدخلونه بيوتهم ويقيمون له المآدب ولا يتحصنون منه. ثم يذوب، وتنتهي أخباره بعد أن يكون قد اكتشف ما خفي من عورات المسلمين.

الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن...يدقق القرآن أنه إذا حصل لكم العلم بمعنى الظن الراجح أنهن صادقات في دعواهن الإيمان، فالحكم أنه لا يحل لكم إرجاعهن إلى الكفار، لقد انقطعت الروابط بهم، وارتبطن بالمجتمع المسلم.

ويفرق بينهن وبين أزواجهن الكفرة. سواء التحق زوجها بها وهو باق على كفره، أو طلب عودتها إليه في بلاد الكفر، وذلك ما كان يرغب فيه المشركون. لاهم

يحلون لهم فيرجعهن أزواجهن قهرا بما لهم من عصمة النّكاح السابقة، ولاهم يحلون لهن ولو انتقل أزواجهن إلى بلاد الإسلام. فالكفر قاطع للعصمة.

وآتوهم ما أنفقوا..وعلى ولي الأمر أن يدفع للزوج السابق للمرأة المهاجرة فرارا بدينها، ما أخذته منه صداقا لها. يدفعون ذلك من بيت مال المسلمين.

ولا جناح عليكم... إنه بعد انحلال عقدة الزوجية بين المهاجرة وزوجها الكافر، لا إثم عليكم إذا تزوجتم بإحداهن على أن يتم ذلك حسب الأركان والشروط الشرعية، التي منها أن تبذلوا للمتزوج بها صداقها، ولا يبرر ما دفع لزوجها الكافر من تعويض عن صداقها، حرمانها من الصداق بالنسبة للزوج المسلم الجديد، كما أنها لا تتزوج إلا بعد أن تُستبرأ بثلاثة أقراء ,أو بوضع الحمل إن كانت حاملا.

ولا تمسكوا بعصم الكوافر.. فُكُوا الارتباط الذي كان بالزواج بينكم وبين النّساء المشركات. فالشرك يمنع المؤمن من الزواج. وقد ذكر أنه لما نزلت الآية طلق الصحابة أزواجهم اللاتي بقين بمكة مشركات.

واسألوا ما أنفقتم....لما أنصف الإسلام الكفار أزواج المؤمنات اللاتي هاجرن، بتمكينهم من الصداق الذي بذلوه لما عقدوا الزواج بهن، وحرم الإسلام رجوعهن إلى أزواجهن السابقين، فكذلك من الإنصاف أن يلتزم المشركون بإرجاع صداق أي امرأة زوجها مسلم وفرت إلى المشركين(وليسألوا ما أنفقوا) فإن لم يوفوا بذلك كنتم في حل مما وجب عليكم بالمقطع السابق.

ذلكم حكم الله...ما قررناه من الحكم في التراد بين المسلمين والمشركين فيما تم قبضه من صداق الفارات هو حكم الله الذي يجب عليكم الإذعان له، وقبوله طائعين. فيه الإنصاف ونفي الظلم. وذلك تابع لما اتصف به سبحانه من العلم بالأمور على حقائقها، ومن اتصافه بالحكمة التي ترعى الحق وتقرره.

11- وإن فاتكم شيء...الذي أنتم به مؤمنون.

هذه الآية تكمل ما جاء في الآية السابقة التي أوجبت على ولي أمر المؤمنين أن يدفع لأزواج المهجرات من المشركين تعويضا مساويا عن الصداق الذي بذلوه لزوجاتهم عند العقد عليهن. وتفيد هذه الآية: أن من فرت من نساء المؤمنين إلى المشركين، فإن ولي الأمر يعطي زوجها الصداق الذي بذله لها، إذا امتنع المشركون من دفع صداقها. ويلحظ في التعبير تحقير الفارة إلى المشركين، فعبر عنها بشيء(وإن فاتكم شيء)

وتحليل معنى فعاقبتم: فجاءت عقبتكم، وأصله أن المسافرين إذا كانا يملكان دابة واحدة، فإنهما يتعاقبان الركوب على الدابة، فيركب هذا ويسير الآخر راجلا، ثم

بالعكس. فعبرت الآية عن التزام كل فريق: المؤمنون عند هجرة المؤمنات إليهم، والمشركون عند فرار نساء المؤمنين إليهم، بأنهم يتعاقبون، فيأخذ كل واحد منهم حظه من مهور النّسوة المتحولات عن أزواجهن.

و روي أن المشركين امتنعوا من دفع صدقات النّسوة اللاتي فررن إليهم. وتوقف تعويضهم. وأما أزواج الفارات من أزواجهم إلى المسلمين فالحكومة الإسلامية تعوض لهم من بيت المال، مهرا مساويا لما كانوا بذلوه.

وأكد القرآن على الوفاء بهذا التشريع، وإن كان فيه نفع للمشركين، وعلى تعويض المسلمين عن صدقات الزوجات الفارة، بقوله: واتقوا الله فإن تقوى الله تلزم بالوفاء بالعقود. والإيمان يبعث على التقوى.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ قَدۡ يَئِسُواْ مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلۡكُفَّارُ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡقُبُورِ ﴿١٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

يقتلن أولادهن : يشمل الوأد، والإجهاض.

البهتان : الخبر المكذوب الذي لا شبهة للكاذب فيه.

الافتراء : اختلاق ما لم يقع.

تتولوا : خذوا حذركم، ولا تطمئنوا لهم.

يئسوا :غير متوقعين لوجودها.

بيان المعنى الإجمالي :

تشرع هذه الآية لطريقة أخذ العهد عن النّساء المهاجرات إلى المدينة في عهد الرسول ﷺ . فإذا قدمت نسوة من دار الكفر إلى المدينة، فكونوا متيقظين لتتبينوا الحامل لهن على الهجرة، فإن اطمأننتم أنهن هاجرن حبا في الله وفي الدين الإسلامي وعقيدته وشرعه، فخذ منهن العهد على التزامهن :

1) أن يوحدن الله ولا يتخذن أي شيء من دون الله يجعلن له حظا من الألوهية.

2)أن لا يسرقن مال الغير.

3) أن يكن عفيفات لا يحدث منهن الزنا.

4) أن يحترمن الحياة وخاصة أولادهن بالوأد في الصبا الباكر بسبب الفقر أو خوفا منه أو الاجهاض .

5) أن لا يرتبن صورا لا أصل لها منافية للحقيقة ويعمدن إلى الإقناع بها، ملصقات التهمة بالبريء .

6) أن يطعنك في كل ما تأمرهن به من المعروف، ولا يعصينك. فإذا عاهدنك على ذلك فاقبل إسلامهن، واستغفر لهن الله فإن الله غفور يتجاوز عما كن عليه، وهو رحيم بعباده لا يرفض من أقبل عليه.

يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا أصدقاء مخلصين للقوم الذين فسدوا حتى كان غضب الله عليهم مقوما من مقوماتهم، وهم اليهود، لا تتخذوهم أولياء تفضون إليهم بأخباركم، وتعاملونهم معاملة المقرب غير المحذور منه. إنهم قد انفصلوا عنكم ولا رابطة بينكم، أنتم ترجون الآخرة، وهم قد يئسوا منها يأسا بالغا، كيأس الذين كفروا من عودة أصحاب القبور، أو من نوالهم ثواب الله.

بيان المعنى العام :

12-يا أيها النّبي إذا جاءك المؤمنات...إن الله غفور رحيم.

هذه الآية متصلة بقوله تعالى : **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن.** بينت ما يقع بعد الامتحان، إذا تبين لولي الأمر صدق المهاجرة. وولي الأمر هو الرسول ﷺ. ولذا كان الخطاب في هذه الآية موجها إليه مباشرة.

وإذ تبين صدقهن ورغبتهن في الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة ، فعرفهن بأصول الإسلام وأحكامه حتى يكن على بينة من أمرهن، ويصح مطالبتهن بتطبيق ما التزمن به بعد ذلك. وقد تضمنت فصول المعاهدة على الإسلام الأصول الآتية :

1) أن لا يشركن بالله شيئا. أن يرفضن كل الآلهة التي عبدت من دون الله، وأن يعترفن بأن الله هو الخالق الواحد المتصف بصفات الكمال الذي بعث محمدا بدين الحق. إذ ما عرف التوحيد المقبول إلا من طريقه ﷺ.

2) ان لا يسرقن. وكانت السرقة فاشية نظرا لكونهن ربين على أن الحق هو ما وقع في اليد لا ما أحله الشارع إذ لا شرع. وقد ذم أعرابي جنس الإناث، فقال والله ما هي بنعم الولد، نصرهن بكاء وبِرّهُنَ سرقة. أي إنهن يساعدن الأبطال بالبكاء عليهم، أو البكاء من فراقهم إذا خرجوا للغزو. وإذا أردن مساعدة آبائهم سرقن من مال أزواجهن ما يبذلنه لأوليائهن. إذ قلة قليلة من نساء الجاهلية كن أصحاب مال،

لحرمانهن من الميراث، والتضييق عليهن في الخروج ومباشرة التجارة التي تعتمد على الأسفار واختراق الصحاري.

3) المنع من الزنا، ليكون النّسل نقيا، وحتى لا تتخذ المرأة وسيلة استمتاع، الأمر الذي يحط من كرامتها الإنسانية. و يلحق العار بأسرتها. وحتى يكون البناء الأسري قويا منيعا، والزنا يزعزعه. والأسرة التي هي الوحدة الاجتماعية الأولى جديرة بكل العناية، فإنها إذا تصدعت تبع ذلك تصدع البناء الاجتماعي كله.

4)**لا يقتلن أولادهن**: هذا من فظاعات الشرك. كان بعض العرب يقتلون أولادهم الصغار ذكورا وإناثا من الفقر، أو خوف الفقر، وكانوا يقتلون الإناث خوف أن يلحق القبيلة منهن عار الزنا، والأسر. كما يسقطن الجنين قبل أوانه. وكل ذلك اعتداء على الحياة. وإن كان هذا التعدي قد لا تستقل به النّساء أو يتولى الرجل فعله لأن النّساء يرضينه.

5) **ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن**. البهتان كما حققه الزبيدي : الباطل الذي يتحير من بطلانه وهو من البهت بمعنى التحير[1] وذكر الراغب في المفردات : (كل فعل مستبشع يتعاطينه باليد والرجل من تناول ما لا يجوز والمشي إلى ما يقبح ص148) كلام الراغب بعيد عن الآية لأن الآية لم تأت صياغتها : بأيديهن وأرجلهن. فتكون البَيْنِيَةُ هادية لنا في ضبط المقصود من هذا التوثق في البيعة. فالبهتان كذب لا شبهة فيهِ ولا أصل له يحير المواجه به. وأكد فيه إرادة الاختلاق ومخالفة الحقية بقوله : يفترينه. والفرية الكذب، أكدت المفهوم الأصلي للبهتان. فتكون محامل هذا التوثق متعددة :

البهتان بادعاء الحمل ومعالجة البطن بشربها عقارا ينفخه، وتلتقط مولودا جديدا، وترتب بالطلق الكاذب وبالقابلة التي تساعدها على تغطية الحقية، ما يوهم الزوج أنها وضعت لتوها ولدا له.

كما يحتمل البهتان: ترتيب الأنثى لصورة مختلقة لا أساس لها، وتظهر من الجدية ما يخيل به صدق ما نسجته، وترمي به غيرها. و النّساء غير العفيفات تسعدهن دموعهن، ومظاهر الانفعال التمثيلية على حبك البهتان، فبين يديها ورجليها أي مواجهة صريحة للمبهوت منها. قد تكون بالزنا أو السرقة وما يمكن أن يحير.

وذهب بعضهم إلى جعل ما صدق ذلك: خيانة زوجها بتمكين الأجنبي من رشف الفم والاستمتاع بالصدر بين أيديهن. والزنى بها، بين أرجلهن.

---

[1] تاج العروس ج4ص452

وهذه محامل لا تتنافى، فتكون مقصودة كلها من هذا التوثق. وكانت مفهومة للنساء في ذلك العهد.

6)ختمت البيعة بأمر جامع يؤكد ما سبق ويشمل ما يعترضهن في مستقبل حياتهن، أن يطعن الرسول ﷺ فيما يأمر به، وأكد الاستجابة بقوله: من معروف، يَسَّرَ لنفوسهن الطاعة بأن كل ما يأمر به مقبول فطريا، لا ترفضه الطبيعة البشرية. ولا يحمل النّفس عنتا. وما ذكره بعض المفسرين من أن المقصود به نهيهن عن العويل والنياحة والوشم ونحو ذلك هي أمثلة صالحة لتطبيق النّص.

فبايعهن....جواب لقوله يبايعن وما عطف عليه. إذن من الله لرسوله أن يقبل بيعتهن، وإرشاد أن يطلب لهن من الله المغفرة عما فرط منهن قبل ذلك. ووعد كريم بالعفو عنهن، بأن الله هو الغفور، عظيم المغفرة، رحيم واسع الرحمة.

وقد ذكر أبو بكر ابن العربي في أحكام القرآن وثيقة ما يكتب عند المبايعة على الإسلام في الأندلس:

بسم الله الرحمن الرحيم.الحمد لله أسلم فلان بن فلان من أهل أرض كذا، وآمن به وبرسوله محمد ﷺ ، وشهد بشهادة الصدق، وأقر بدعوة الحق : لا إله إلا الله محمد رسول الله، والتزم الصلوات الخمس بأركانها وأوصافها، وأدى الزكاة بشروطها، وصوم رمضان، والحج إلى بيت الله الحرام، إذا استطاع إليه سبيلا ويغتسل من الجنابة، ويتوضأ من الحدث، وخلع الأنداد من دون الله، وتحقق أن الله واحد لا شريك له.

وإن كان نصرانيا قلت : وإن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه.

وإن كان يهوديا قلت: وإن العزيرعبد الله. وإن كان صابئا قلت: وإن الملائكة عبيد الله. ورسله الكرام وكتابه البررة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون.

وإن كان هنديا قلت : وإن ماني باطل محض. وبهتان صرف، وكذب مختلق مزور. وكذلك كل من كان على مذهب من الكفر اعتمدته بالبراءة منه بالذكر.

ونقول بعده : سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علوا كبيرا، إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا. لقد أحصاهم وعدهم عدا. لو كان فيهما آلهة لفسدتا. تعالى الله وتقدس عن ذلك كله، والحمد لله الذي لم يتخذ ولدا، ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا. والتزم أن لا يقتل النّفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا يسرق ولا يزني، ولا يشرب الخمر، ولا يتكلم

بالزور، ويكون مع إخوانه المؤمنين كأحدهم، لا يسلمهم ولا يسلمونه، ولا يظلمهم ولا يظلمونه، وعلم أن للدين فرائض وشرائع وسننا، فعاهد الله على أن يلتزم كل خصلة منها على نعتها بقلب سليم وسنن قويم. والله يهدي من يشاء إلى ما شاء إلى صراط مستقيم. وشهد أن من يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين. شهد على فلان بن فلان من أشهد عليه وهو صحيح العقل في شهر كذا.[1]

وكنت لما تقلدت خطة إفتاء الجمهورية بتونس، وكان من مشمولاتي قبول العهد من الداخلين في دين الله، حررت الوثيقة التالية : وترجمتها إلى اللغات الإنكليزية والفرنسية، والإيطالية والإسبانية، ونصها :

بسم الله الرحمن الرحيم

ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين

شهادة في المبايعة على الإسلام

حضر لدى فضيلة الشيخ محمد المختار السلامي مفتي الجمهورية التونسية المكرم فلان بن فلان واختار أن يدعى بعد اسلامه بكذا.....

وأعلن أنه آمن بأن الله واحد لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق وأنه آمن بالملائكة والكتب والنبيين واليوم الآخر.

وأقر نطقا بالشهادتين (أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) والتزم بإقامة الصلوات الخمس، وأداء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت إذا استطاع إليه سبيلا.

والتزم المحافظة على النّفس البشرية، فلا يتعدى على حياة أحد، ولا على عضو منه. واحترام مال غيره، فلا يسرق، ولا ينهب، ولا يغتصب. واحترام عرضه وأعراض غيره فلا يزني، ولا يقذف. واحترام العقل البشري، فلا يشرب الخمر ولا يتناول المفسدات، ولا يخدع عقل غيره، ولا يضلله.

وأن يكون مع إخوانه المؤمنين يحب لهم ما يحب لنفسه. وأن لا يقدم على عمل حتى يعلم حكم الله فيه، مع عزم على تطبيق شرعه، والوقوف عند حد أمره ونهيه. والله على ما يقوله شهيد.

تم هذا منه، وهو في صحة عقل وسلامة مدارك، مع شكر الله على ما هداه إليه.

وحرر بتونس في.......

---

[1] أحكام القرآن ج 4 ص1784/1785

تصديق فضيلة الشيخ مفتي الجمهورية

الإمضاء والختم

وكنت أوقف المبايع أو المبايعة على كل لفظة وجملة، وأشرح مؤداها، وأطلب الإقرار بالتزامها والمحافظة عليها إذا قبلها. كما كنت أقوم ببسط مقارنة بين ما كان يعتقده، وبين عقيدة الدين الإسلامي. وتصور مركز الإنسان في الكون وعلاقته به. وأطلب منه أن يقوم بأداء الصلاة أمامي. ولم أمكن من شهادة المبايعة أي مبايع أو مبايعة إذا كان لا يحسن أداء الصلاة على الوجه الصحيح شرعا.

13- ختمت السورة ببيان علاقة المسلمين باليهود، ذلك أن يهود خيبر كانت مساكنهم قريبة من المدينة، وكان فقراء المسلمين يعملون عندهم، وكان بعضهم لا يتحفظ في حديثه معهم، وبما ربي عليه من الصدق كان يعاملهم معاملة المسلمين، وكان من مكر اليهود أنهم يستدرجون أولئك الطيبين ليستطلعوا أخبار الرسول والمؤمنين، ويفضوا بها إلى قريش. ويخططون لما يمكرون به أيضا. فنبه الله المؤمنين أن لا يتخذوهم أولياء يعاملونهم معاملة الأخوة الصادقة. ويكشفون لهم الأسرار، وليكونوا منهم على حذر. إنهم قوم أصبح غضب الله عليهم مقوما من مقوماتهم لتنكرهم للإسلام الذي عهد موسى عليه السلام لهم أن ينصروه، فكذبوا كما حاولوا الاعتداء على عيسى عليه السلام. غضب الله عليه فهم بما قدموا يائسون من أن يتقبلهم الله برحمته أو يدخلهم جنته، يأسهم كيأس الذين كفروا من الأموات من أن يبعثوا للحياة.

تم بحمد الله تفسير سورة الممتحنة يوم الجمعة 18جمادى الثانية 1435-2014/4/18.

سورة الصف

هذا هو الاسم الذي سميت به في المصاحف وكتب التفسير والسنة. ووجه التسمية ما ذكر في الآية الرابعة : (**إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا**) وهي سورة مدنية باتفاق رتبتها حسب ترتيب المصحف الحادية والستون، وحسب ترتيب النّزول الثامنة والمائة. نزلت بعد سورة التغابن وقبل سورة الفتح.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

كبر: عظم، واشتد.

المقت: البغض من أجل ذنب.

صفا : منتظمين.

الزيغ : الميل عن الحق.

بيان المعنى الإجمالي :

ثبت يقينا أن موكب الكون كله مما تشمله السماوات والأرض، كله سائر بتسبيحة واحدة، هي أن الخالق قد أحكم الخلق وأعطى لكل مخلوق القانون الذي يسير عليه وينسجم مع الكون في حركته نحو النّهاية التي ضبطها سبحانه. فعل ذلك تبعا لعزته التي تجعل كل شيء طائعا له. وتم الخلق على الحكمة التي قدرت كل احتمال، ونفت التضاد المعطل للإيجاد.

يا أيها الذين آمنوا، بوصف إيمانكم، كيف تقولون وتعِدُون ولا توفون بما التزمتم به بأقوالكم. إن ذلكم المستوى ممقوت عند الله مغضوب على صاحبه. فإياكم أن تعودوا لمثل هذا التراخي. وفي المقابل فإن الله يحب الذين وعدوا بنصرة الدين، ثم وقفوا في الجهاد منتظمين لا يتركون ثغرة للعدو ينال منها جند الله.

ثم أمر الله نبيه أن يذكرهم بموقف بني إسرائيل من موسى الذين يعرفون صدقه، ومع هذا آذوه بتعنتهم، وتراخي عزائمهم. وإن مواصلتهم الانحراف عن الهدى، انتهى بهم إلى أن طبع الله قلوبهم على الزيغ والميل عن الصراط المستقيم، وكانوا من الفاسقين.

بيان المعنى العام :

1-سبح لله...وهو العزيز الحكيم.

ذَكّرَ القرآن المؤمنين بالحقيقة التي يرددها لسان الكون، واستقرت في قلوب المؤمنين. هي تنزيهه سبحانه عن كل نقص. ففي كل ما خلق، وفي النِّظام الذي أعطاه لكل كائن ليسير عليه، وفي التناسق بين الكائنات جميعا، نداء بأن الخالق منزه عن النَّقص، أعطى لكل شيء خلقه، ثم هداه ليسير إلى الفناء نهايته المحتومة، وينفرد سبحانه بالبقاء الأبدي. وهو العزيز الذي تنفذ إرادته، وهو الذي تصرف حسب الحكمة. ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت.

2-يا أيها الذين آمنوا...ما لا تفعلون.

نداء للمؤمنين بوصف الإيمان مشعر بالتنبه إلى أن ما يرد بعد النّداء، من مقتضيات الإيمان.

لم تقولون مالا تفعلون-سؤال يدل على أن ما يتلوه منكر، مشعر باللوم والتحذير منه. والمسؤول عنه غير المرضي عند الله : أن يقولوا بألسنتهم واعدين ما سيقومون به مما يرضي الله، ثم تتقاصر عزائمهم عن تنفيذه.

ورويت روايات كثيرة في تعيين ما تم لومهم عليه. روى ابن عطية في تفسيره عن ابن عباس وأبي صالح نزلت بسبب: أن جماعة قالوا: لوددنا أن نعرف أحب الأعمال إلى ربنا نعتني به، ففرض الله تعالى الجهاد، وأعلمهم بفضله لديه، وأنه يحب المقاتلين في سبيله كالبنيان المرصوص. وكان إذْ فُرِض قد تَكَرَّهَهُ قوم منهم، وفرمن فر يوم أحد، فعاتبهم الله تعالى بهذه الآية. وقال ابن زيد نزلت في المنافقين لأن جملة منهم كانوا يقولون للمؤمنين: نحن منكم ومعكم، ثم يظهر من أفعالهم

خلاف ذلـك، فنزلــت الآيـــة عتابـــا لهــم[1]. وهـــو بعيــد لأن الآيـــة افتتحــت بخاطـــب المؤمنين.

والآية كما تدل على لوم من لم يلتــزم بمـــا وعـــده، فـــإن حكمهـــا بـــاق منســـحب علـــى المستقبل. وهي تُعَرِّضُ بلوم بعضهم على موقفهم يوم أحد، ممـــن فـــر ولـــم يثبـــت. وقـــد روي عن بعض السلف أنه قيل له حدثنا، فسكت ثم قيـــل لـــه حـــدثنا، فقـــال تـــأمرونني أن أقول ما لا أفعل، فأستعجل مقت الله.

وقوله تعالى " لِـــــم "مركب من كلمتين اللام "لـــــــــ" الدالـــة علـــى التعليـــل أي مـــا هـــو سبب إقدامكم على قول ما لا تنفذونـــه ؟ و: "مـــا " هـــي مـــا الاســـتفهامية حـــذفت ألفهـــا واتصلت باللام. كقولهم: بم و فيم ومم وعم وعلام

3-كبر مقتا عند الله... ما لا تفعلون.

عظم عِظَمًا شديدا بغض الله، المكنى به عن عـــدم رضـــاه، وعـــن حرمـــان صـــاحبه مـــن رحمته. فما هو هذا المحذَّر منـــه بهـــذه القـــوة والشـــدة ؟ فصـــل بعـــد ذلـــك بقولـــه: أن تقولوا: سنفعل وننجز بكل تأكيـــد، ثـــم تتراخـــى عـــزائمكم عـــن الوفـــاء بمـــا أعلنتمـــوه بقولكم. وكونه ممقوتا عند الله مما يوجب الحذر منـــه والخشـــية مـــن العـــودة إلـــى مثلـــه في المستقبل.

4-إن الله يحب...كأنهم بنيان مرصوص.

عقب القرآن التنفير من القول والتراخـــي عـــن التنفيـــذ. الـــدال علـــى خـــور العزيمـــة، وبأن هذا المستوى ممقوت عند الله، بـــذكر الصـــفة التـــي يحبهـــا الله ويكـــرم أصـــحابها، ويقربهم منه، وهم الذين يتقدمون للدفاع عـــن ديـــن الله منتظمـــين، لا خلـــل فـــي تـــرتيبهم والمكان المعين لكل مـــنهم. فالصـــفوف فـــي القتـــال مـــع الالتحـــام، لا يقصـــد بهـــا أن يتراصوا تراصا يمنع من الحركة، ومن الكر والفر، ومـــن حريـــة المجاهـــد مـــن التحـــول إلى المركز المناسب حسبما نظمتـــه القيـــادة. وإنمـــا يقصـــد مـــن ذلـــك أن لا يتـــرك أي مجاهد المركز المؤتمن عليه حتى تسد كـــل ثغـــرة قـــد يغتنمهـــا العـــدو للإيقـــاع بـــالجيش الإسلامي كما وقع في غزوة أحد.

5-وإذ قال موسى...لا يهدي القوم الفاسقين.

واذكر موقف موسى من قومه في ذلك الظرف الـــذي آذوه فيـــه، فقـــال لهـــم: يـــا قـــومي مؤكدا لشدة الرابطة التي تجمعهم به. ومشيرا لهـــم بمـــا لقـــي مـــن المتاعـــب لإخـــراجهم من تحت سلطة فرعون المتعسفة، قـــال لهـــم : لمـــاذا تـــؤذونني ؟ إنـــه يـــوبخهم بعملهـــم

[1] المحرر الوجيز ج14ص424

على إيذائه. ولم يبين الإيذاء الذي يشتكى منه، والظاهر أنه كان مذكورًا لديهم يعرفونه. ويحتمل أن إيذاءه لأنهم كانوا يتسخطون عليه وهو في عنفوان مقاومته لفرعون ليخرجهم من الذل المسلط عليهم بالاستبداد والتسخير للمهن الحقيرة.(**قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا**)[1] وكذلك بمعاكسته فيما يأمرهم به. فقد قال لهم: (**ادخلوا الأرض المقدسة التي كتب الله لكم** -فلم يستجيبوا وعاكسوه قائلين: **اذهب أنت وربك فقاتلا إننا هاهنا قاعدون**.)[2] وبين لهم التوحيد بيانا واضحا وأخذ منهم العهود عليه، فلما تركهم لأخيه هارون وذهب لملاقاة ربه في الموعد، عبدوا العجل. ولما حكم الله عليهم بالتيه أربعين سنة، ولطف بهم بما أظلهم من الغمام وبتسخير المن والسلوى طعاما لهم يحصلون عليه بدون تعب، قالوا مَلَلْنا من هذا الطعام، نحب البصل والثوم والبقول. فكلما رتب لهم أمورهم انتقضوا عليه بالشكوى. وكل همه بصفته رسولا أن يُكَوِّنَ منهم أمة مطيعة لله تحمل الرسالة التي وثقتها التوراة، وكلما ظن أنه حقق إصلاحهم، كشفوا عن عناد، وتأصل فيهم الفسق.

إنهم قابلوه، بقلوب قد انحرفت عن الامتثال لله وقبول الحق، وتعلقت بالمادة ومتاع الحياة الدنيا. وإظهار التبرم والشكوى، وعدم الرضا بما نالوه من الخيرات بسبب موسى عليه السلام. زاغوا عن الهدى زيغا جعلهم كلما مكنهم ربهم من خير أنكروا فضل الله عليهم، وتصوروا أن لهم مزية على موسى، فلما وصلوا إلى هذا الحد، مكن الله للزيغ في قلوبهم، وأصبح بينهم وبين الحق حجاب. والله عادل فيما يقدره، هم فسقوا وخرجوا من الطريق المستقيم، فلم يمكنهم الله من ألطافه، وتركهم لنفوسهم المريضة تسير بهم في طرق الضلال.

هذا ما فهمته من الآية، وبقي السؤال الذي أثاره كثير من المفسرين، ما هي الصلة بين الآية السابقة التي حذر فيها القرآن المؤمنين أشد التحذير من التناقض بين القول والعمل وهذه الآية التي تتحدث عن موقف عناد اليهود لموسى؟

والذي فهمته أن موقف بعض المؤمنين الذين ضعفت عزائمهم عن الوفاء بما قالوه، موقف منكر جدا، ممقوت من الله أشد المقت، وبَّخهم الله عليه بما تمت عليه صياغة الآية من شدة. ثم ضرب لهم المثل بموقف بني إسرائيل الذين لم يرْعَوْا حق نبيهم مع تيقنهم بنبوته وآذوه بتعنتهم. فطبع الله على قلوبهم بالزيغ وكانوا من الفاسقين،

---

[1] سورة الأعراف آية 129

[2] المائدة آية 21

فليحذر المؤمنون وليقلعوا عن الانسياب مع الأقوال، والتراخي في الفعال، فمآل بني إسرائيل فيه تنبيه قوي لهم.

وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَـٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

مصدقا : مثبتا ومقررا.

التبشير : الإخبار بحادث يسر.

يظهره : يعليه.

بيان المعنى الإجمالي :

واذكر يا محمد خبر عيسى ابن مريم، في ذلك الظرف الذي توجه فيه إلى بني إسرائيل داعيا لهم بصلتهم بيعقوب : إسرائيل، معلنا لهم : أن الله بعثه ليقرر ما جاء في التوراة من أصول العقيدة، ومن الثوابت في التشريع. وليبشرهم بأسعد خبر: أن الله سيبعث لهم رسولا يأتي في مستقبل الأيام، اسمه أحمد. يكون خاتم رسل الله إلى البشرية، ويكون ما يُوحَى إليه الكفيلَ بإسعاد النّاس في الدنيا والآخرة، رغم تقلب الظروف والأحوال والعادات. والعجب أنه لما جاءهم عيسى بالحجج البينة الواضحة، قابلوها بقولهم : ما قدمته لنا لا يعدو أن يكون سحرا بينا.

إنهم ظلموا الحقيقة أشد الظلم. كذبوا على الله لما قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء، وكذبوا على الله إذ زعموا أن أحكام التوراة لا يلحقها نسخ، وظلموا البشر بإخفائهم الحقيقة على أتباعهم، وإخفائهم ما أخذ عليهم رسلهم من تصديق الرسول محمد ﷺ . وظلموا رسول الله ﷺ بنسبته إلى الافتراء، مع أنه ما دعاهم إلا ليسلموا عقولهم وأرواحهم لخالقهم الهادي. فاستحقوا أن الله حرمهم ألطافه التي تهديهم للحق بسبب ظلمهم. فكانوا من الفاسقين الخاسرين

كذبوا على الله إذ جعلوا ما جاءهم به عيسى اختلاقا وافتراء، كذبوا على الله إذ أنكروا أن يكون بعث محمدا ليبين لهم الحق الذي اختلفوا فيه، مع أنه ما جاءهم إلا ليدعوهم إلى إسلام الروح والعقل لله. إنهم بظلمهم وتصميمهم على الكفر به حرمهم الله هدايته، لأن هدايته لا ينالها من صمم على الظلم حتى أصبح الظلم مقوّما له.

همهم أن يوقفوا مد الإسلام، نور الله الذي يضيء للسالكين في الحياة طريق نجاتهم في الدنيا وفي الآخرة. لقوة كفرهم ظنوا أن نور الله العظيم الذي يعم الآفاق يستطيعون إطفاءه بأفواههم كما يطفئون شمعة تتراقص ذبالتها بالأنفاس إذا تسلطت عليها وتنطفئ. ويتحداهم القرآن بأن الله سيكمل لهذا الدين قوة انتشاره ولو كره الكافرون.

أنكروا أن يكون محمد مرسلا من ربه، فرد القرآن عليهم، أن الله وحده هو الذي أرسل محمدا، وحمله الهدى الكامل عقيدة وشريعة. وجعل دينه الدين الحق الذي سيعلو على جميع الأديان. فلم يبق بعد ظهور الإسلام أي دين على صفائه الذي أنزله عليه رب العالمين. سينتصر هذا الدين ويعلو على جميع الأديان، ولو كانت عواطف المشركين تكن له البغض والكراهية.

بيان المعنى العام :

6- وإذ قال عيسى..هذا سحر مبين.

أتبع القرآن التذكير بما تم لموسى عليه السلام بالتذكير بما تم لعيسى عليه السلام. اذكر للبشر جميعا ذلك الظرف الذي قال فيه عيسى ابن مريم عليه السلام، وجاء التذكير بأنه عيسى ابن مريم لا ابن الله، ولا روح الله، وإنما هو بشر منسوب إلى أمه مريم العذراء. ونادى المبعوثَ إليهم ببني إسرائيل لأن بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام تمت لهم قوميّتُهُم بانتسابهم إلى يعقوب (إسرائيل) وفي ذلك رمز إلى أن عيسى لم يكن ابنا لأي إسرائيلي، إذ أن شأن الانتساب إلى القوم أن يكون للذكور فقط.

يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم. خاطب شعب إسرائيل مذكرا لهم أنهم منحدرون من يعقوب الذي أوصاهم بملازمة التوحيد إلى الموت. **(ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون)**[1] إني رسول الله إليكم. مؤكدا عليهم:

1-أن رسالته ليست عامة للبشرية. بل هي لأتباع موسى عليه السلام.

---

[1] سورة البقرة آية 132

2) حدد مهمته أنها مبنية على تصديق ما جاء به موسى من ثوابت التوراة كالعقيدة، وأصول الأحكام، وأنه موحى إليه بأن يخفف عنهم بعض الأحكام التي شرعت حسبما يقتضيه وضع الإسرائيليين النّفسي والتربوي، وقساوة قلوبهم تبعا للظروف التي عاشوا عليها في مصر(**ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم**)[1].

3) أن تصورهم أن أحكام التوراة شريعة الله الأبدية تصور باطل.وأن الله بعثه ليعدل بعض أحكامها، كما أن الله سيبعث رسولا بعدي يأتي في المستقبل. أخذ عليّ العهد وعلى من سبقني من الرسل أن نبشر به ليكون هو الخاتم لهداية الله.

4) أن اسمه مشتق من الحمد والثناء، إذ هو لكمالاته حقيق بالثناء الأكمل من بين البشر.ولا توقف في كون الاسم المشهور به :(محمد) استنادا إلى آخر حديث في الموطأ: بسند مالك إلى جبير بن مطعم أن النّبي ﷺ قال :لي خمسة أسماء: (أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر النّاس على قدمي، وأنا العاقب – ح رقم 2861 ج 2ص603/604) هو في هذه الرواية مرسل، و وصله غير واحد عن جبير بن مطعم عن أبيه.

وفي شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه :

مفجّعة قد شفها فقد أحمد *** فظلت لآلاء الرسول تعدد

ومما نسب لعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

سأسعى لوجه الله في نصر أحمد*** نبي الهدى المحمود طفلا ويافعا

فلما جاءهم بالبينات– يحتمل أن يكون الضمير في " جاءهم " يعود على عيسى. أي إن اليهود لتصلبهم في رفض كل هداية غير التوراة، أن عيسى لما عرض عليهم الآيات التي أيده الله بها قالوا : هذا سحر واضح لا شك فيه. ورفضوا الإنجيل وما أخبرهم به عن ربهم.

كما يحتمل أن محمدا الذي أوصى عيسى المؤمنين به أن يتبعوا النّور الذي أنزل معه، قابلوه محمدا بالإعراض واتهامه بأن آياته سحر واضح لا حقيقة لها.

7- ومن أظلم ممن افترى...القوم الظالمين.

سجل عليهم تكذيبهم بما جاء به محمد ﷺ رغم أنه اجتمع على تصديقه وصاية رسلهم باتباعه، وما صحب دعوته من الآيات البينات على صدقه.

ولذلك افتتحت الآية بسؤال إنكاري، ينكر عليهم موقفهم، ويشنع عليه بأنهم بلغوا من الظلم حدا كبيرا. افتروا على الله الكذب زاعمين أن الله لم يأمرهم باتباع الرسول

---

[1] آية 50 سورة آل عمران

النّبي الأمي، والغريب في رفضهم أنه ما دعاهم إلا ليسلموا عقولهم وأرواحهم لله رب العالمين. وظلموا رسول الله وخيرَتِهِ من خلقه بنسبته إلى الافتراء على الله، وتدبير المؤامرات لصده عن أداء مهمته. وظلموا أنفسهم بإعراضهم عن الحق المنقذ لهم من خسران الدنيا وعذاب الآخرة. وظلموا النّاس بعملهم على بقائهم في الضلالة، إذ كتموا ما عرفوه من أنه الرسول المبشر به، وزينوا لهم ما هم عليه. وإذ تنوع ظلمهم تعرضوا لحرمانهم من الهداية الإلهية، صمموا على الكفر، وعقدوا عليه عزمهم، وأصموا آذانهم وعقولهم عن التدبر في آياته، حتى تمكن الكفر من عقولهم وترسَّخ. والله لا يزيل ما أفسدوا به أنفسهم اختيارا للباطل على الحق المبين.

8-يريدون ليطفئوا نور...ولو كره الكافرون.

شهر القرآن بغباوتهم، ومحاولاتهم اليائسة لتعطيل انتشار دين الله في الآفاق. فمثّلهم بمن يتخيل أنه يستطيع أن يطفئ النّور القوي المشع المنتشر بفمه. متصورا أنه لا يختلف عن المصباح الذي يستطيع إطفاءه بالنفخ عليه. هذا الإسلام نور الله الذي قدر بحكمته أن يعم العالم. وما قدَّره الله ينفذ ولا راد لما رتبه وقدره ويسره. وإتمام نوره يتحقق بما جعل في الإسلام من مساوقة للفطرة، ومن انسجام مع المنطق والعقل فمن دخل فيه وفهم نظامه ومقاصده يصبح داعيا إليه، يجود بنفسه في سبيل بقائه. وانتشاره يتوقف فقط على الحرية وعدم مقاومته بالقوة الحربية أو القوة المالية والاقتصادية لتوقيف مدِّه. وبلوغ الإسلام لكافة الأقطار سيتم متحديا الكافرين وعواطفهم محبطا خططهم الخبيثة

9- هو الذي أرسل رسوله...ولو كره المشركون.

إعلان يتحدى أعداء الإسلام، ويرد عليهم مفترياتهم، وإنكارهم أن يكون محمدا رسول الله. فحققت الآية أن الله هو الذي أرسل رسوله، وأنه ما جاء بشيء من عنده. فهو رسوله الذي أرسله محملا بالهدى ودين الحق. وإن كانت الأديان كلها حق إلا أن تمام الحق جعله الله في الإسلام الذي ختم به رسالاته. أن يجعله عاليا على جميع الأديان. ويتأتى علوه من ناحيتين :

النّاحية الأولى: أن جميع الأديان ما عدا الإسلام دخلها التحريف والتبديل، وضاع شيء كثير منها، وأصبحت تأويلات رجال الدين فيها مساوية لأحكام الله، وبمرور الزمن أصبح التمييز بين أصل ما جاء به الدين، وما أضيف إليه، يكاد يكون مستحيلا، فعبد الله بأفكار النّاس لا بشرعه. وبقي الإسلام ظاهرا عليها عاليا، لأن

مرجعه الأصلي القرآن الكريم بقي محفوظا، في الصدور، وفي نسخ القرآن مرويا رواية متواترة على مر القرون.

الناحية الثانية: ظهور حملته على أتباع الديانات الأخرى. وقد تم هذا في التاريخ، فقد كانت راية المسلمين أعلى من جميع الرايات. ثم تهاونوا في مقومات السيادة التي بها ينتصر النّاس حسب سننه في الكون. بأن ضيعوها فضاعوا.

ولو كره المشركون.

وختمت الآية. بأن هذا يتم ولو كره المشركون، سيتم رغم أنوفهم. والمشركون هم أكثر النّاس. قال تعالى : (وما أكثر النّاس ولو حرصت بمؤمنين)[1] وقال تعالى: (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون)[2]

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿١٠﴾ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَيُدۡخِلۡكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخۡرَىٰ تُحِبُّونَهَاۖ نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الدلالة : العون على معرفة ما لا يهتدى إليه.

التجارة : العمل الصالح.

الأنصار : الناصر القوي النّصر.

الحواري : الصاحب الصفي.

أيد : التأييد النّصر والتقوية.

الظاهر : الغالب.

---

[1] سورة يوسف آية 103

[2] سورة يوسف آية 106

بيان المعنى الإجمالي :

نداء للمؤمنين ليعرض عليهم ما يبحثون عنه. إذ كانوا يتساءلون عما يقربهم من رضوان الله، ويضاعف حسناتهم. كان العرض واضحا، تجارة رابحة تتمثل في ركنين أساسيين: الإيمان بالله، والثبات في الجهاد قصد نصر دينه بالمال والنفس. فذلك هو الخير الخالص لكم. يتمثل هذا الخير أنه يغفر لكم ذنوبكم فيمحوها من صحائفكم، ثم يتفضل عليكم بإدخالكم جنات تتخللها الأنهار، وتقوم فيها قصور حوَتْ من الأناقة وطيب الإقامة فيها ما يتجاوز الوصف. ودخول الجنة هو النّجاح العظيم. ونعمة أخرى تحبونها وترجونها، يحققها لكم بجمعكم بين الإيمان والجهاد، أن الله ينزل عليكم نصره، ويمكنكم من فتح قريب إشارة إلى فتح مكة. وقم يا محمد بتبشير المؤمنين بما وعدتُهم.

ثم دعاهم أن يطوعوا أنفسهم ليكونوا أنصارا لدين الله. وذلك على النّحو الذي دعا عليه عيسى لما بالغ اليهود في تكذيبه. نادى في الحواريين من منكم يبايعني على نصرة دين الله ؟ استجاب الحواريون لندائه، وبايعوه. وانشق بنو إسرائيل الذين دعاهم إلى الإيمان به إلى فرقتين. فرقة آمنت به، وفرقة كفرت. وبعد جولات لم تطل تغلب المؤمنون به على اليهود أعدائهم، وظفروا بهم. فعلى المؤمنين أن ينتظروا من نصر الله ما يعز به دينه، ويدحر الكفر وأهله.

بيان المعنى العام :

10←11-يا أيها الذين آمنوا...إن كنتم تعلمون.

أعيد النّداء المذكور في أول السورة : **يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون.** وكان قولهم نلتزم بأن نقوم بإخلاص بالفعل الذي يقربنا من ربنا. فعرضت هذه الآية على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم قائلا لهم : هل أدلكم على ما خفي عليكم وترغبون في القيام به، هل تريدون أن تعلموا التجارة الرابحة التي تنجيكم من عذاب أليم، وتحجزكم عن نقمة الله وعذابه الشديد إيلامه ! إنه عرض مشوق يحرك السامع لمعرفته وقبوله : تجمعون بين أمرين، تؤمنون بالله إيمانا يتجدد في عقولكم وأرواحكم فلا تغفلون عن مضامينه، وتجاهدون أعداء الدين بكل ما أوتيتم من قوة ثابتين لا تفرون من ساحة القتال، جهادا لا تبغون من ورائه إلا أمرا واحدا أن يكون جهادكم في مرضاة الله وطريقه الذي سطره. لا تدّخرون مالا ولا تخشون الشهادة. إذا صممتم على ذلكم الموقف ونفذتموه، حصلتم على الخير الكبير. خير

الدنيا بالعز والسؤدد وخير الآخرة الذي بينته الآية التالية. إن كنتم تعلمون، ما نفيده إن من الاحتمال المتساوي ناظر إلى موقفهم يوم أحد، فأشار إليه ليحذروا مثله.

12- يغفر لكم ذنوبكم...ذلك الفوز العظيم.

الجزاء الأول هو مغفرة ذنوبكم والتجاوز عن تقصيركم فتلقون ربكم بصفحة نقية من الإثم. ثم يدخلكم جنات تتخللها الأنهار والخصب في كل مكان. وتقوم فيها قصور على أتم ما يكون من الجمال، والزخرف، والراحة. تكتب لكم الإقامة الدائمة الأبدية فيها، لا ينغص نعيمكم خوف زوال نعيمها. ذلك، ما ذكرناه من المقامات العلية هو الفوز العظيم، والنجاح الذي ليس رواءه نجاح.

13- وأخرى تحبونها...وبشر المؤمنين.

ونعمة أخرى تنتظرونها من فضل الله ورعايته لكم. نعمة أنتم متعلقون بها وتحبونها، وسيمُنُّ الله بها عليكم بجمعكم بين الإيمان والجهاد في سبيله، تتمثل في نصر عزيز يحققه لكم، وتومئ هذه البشارة بالنصر، والفتح القريب، إلى فتح مكة. وهو أعظم فتح غطت به راية الإسلام الجزيرة العربية كلها. وانطلقت منها إلى الآفاق تهدي البشرية للإسلام. وتوالت إثره الوفود تبايع على الإخلاص لدين الله.

وبشر المؤمنين...بعد أن دلهم على التجارة الرابحة، عطف أمره لنبيه الكريم أن يعلن البشارة للمؤمنين. ليزدادوا ثقة في منزلتهم المرضية من ربهم. وأنهم محل عنايته يُجْرِي أقداره على ما يمكن لدينهم الذي ارتضوه وتعلقوا به أشد تعلق.

14- يا أيها الذين آمنوا...فاصبحوا ظاهرين.

أعيد النّداء للمؤمنين مما يدل على العناية بهم، وتشريفهم بوصف الإيمان، وحثهم على الاستجابة لما يتلو النّداء.

كونوا أنصارا لله – يقصد به توجيه عزائمهم، وأفعالهم، حتى يكون ما سيرد بعد الأمر" كونوا" ملكة لهم تظهر آثارها في جميع ما يصدر عنهم. طوّعوا أنفسكم لتكون حياتكم وقفا على نصر الله، أي نصر دينه. وعقبت هذه الدعوة بما يبينها ويجسمها. ذلك أن نصر دين الله الذي يصبح ملكة قد تخفى طريقة تحققه على الوجه المقصود للأمر الحكيم.

كونوا أنصار لله كما قال عيسى ابن مريم...أراد منهم أن يكونوا أنصارا لله على النّحو الذي كان عليه أتباع عيسى عليه السلام عندما دعا الحواريين بقوله : من أنصاري إلى الله ؟ أي من أنصاري منْ الأنصار الذين يختصون بي ويكونون معي في نصرة الله بنصرة دعوتي ؟

والحواريون جمع حواري، وهو الصاحب الصـفيُّ المخلـص. وهـي كلمـة دخيلـة فـي العربية. كانت إجابة الحواريين جازمة جزمـا، حصـر النّصـر فـيهم، بقـولهم : نحـن أنصار الله لا يوجد غيرنا مخلصا إلى هـذا الحـد. ونحـن ثـابتون علـى هـذا العهـد لا نحيد عنه ونبذل أرواحنا وكل شيء في سبيله.

وعلى هذا النّحو من الإخـلاص للـذين دعـا القـرآن المـؤمنين ليكونـوا ثـابتين علـى الإيمان ناشرين له قولا وعملا. وما لاقـاه الحواريـون مـن اليهـود وثبـاتهم رغـم كـل أنواع العذاب والتحديات تحدثت به الأخبـار وعلمـه المؤمنـون، واسـتقر فـي نفوسـهم صورة للثبات على الدين، وبذل النّفس في سبيل إبلاغه للناس.

فآمنت طائفة..لم يستجب لدعوة عيسى عليه السلام كـل الـذين طلـب مـنهم أن يؤمنـوا برسالته. وافترقوا فرقتين: فرقة أخلصـت فـي تأييـدها لعيسـى الإخـلاص كلـه، ولـم يرهبها لا التقتيل ولا التعذيب. وفرقت كفرت به وعملت على إجهاض دعوته.

فأيدنا الذين آمنوا...للكفر جولات قصيرة المـدى، لا تثبـت أمـام قـوة الإيمـان. فبعـد أن نجح اليهود في إغراء السلطة بتشريد الحـواريين وتعـذيبهم، جـاء نصـر الله مؤيـدا ومساعدا للمؤمنين. فنجحـوا فـي نشـر المسـيحية، وتمكنـوا مـن الحكـم فـي اليهـود الكافرين بعيسى. وغلبوهم غلبة توالت قرونا.

وفي هذا المقطع مـن قصـة عيسـى عليـه السـلام، وانتصـار الحـواريين، وانهـزام أعدائهم شر هزيمة، ما يفتح للصحابة الـذين كـانوا حـول رسـول الله ﷺ الآمـال فـي نصر دين الله. والتقى هذا المقطع مع قوله تعالى :**وبشر المؤمنين**.

يوم الاثنين 21 جمادى الثانية 1435 الموافق لـ21 أفريل 2014

سورة الجمعة

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة. ووجه تسميتها وقوع لفظ الجمعة فيها. وهو نهاية الأسبوع في الإسلام. والظاهر أنها نزلت دفعة واحدة في المدينة المنورة. وهي السورة الثانية والستون حسب ترتيب المصحف. والسادسة بعد المائة حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة التحريم، وقبل سورة التغابن.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

الأمي : الذي لا يكتب.

بيان المعنى الإجمالي:

كل الكائنات التي تحويها السماوات و الأرض تسير في موكب واحد مسبحة لله بلسان حالها أو لسان مقالها، هو مالك كل كبيرة وصغيرة في الكون، وهو المنزه عن كل نقص، ثبت له الكمال المطلق. تنفذ إرادته وتحقق قدرته ما يشاء تحقيقه. وقد طوع الكون لذلك بعزته. وكل ما ينجزه ينادي بحكمته سبحانه.

هو الله الذي بعث محمدا رسولا، وكذب الكافرون في دعواهم أن ما أتى به هو من عند غير الله. اختار أن يكون رسوله أميا لا يقرأ من الصحف ولا يكتب في قوم أميين. يعرفون مولده وصباه وسلوكه شابا وكهلا. علمه ربه، وتولى هو تعليم الأميين، فسَمَوْا حسن تفكير، واقتدارا على تسيير شؤون الحياة إلى أرفع مستوى. يتلو عليهم آيات الله، ويسمو بملكاتهم الإنسانية ويطهرها من لوث الشرك، وعرامة الشهوة، وضيق الأنانية. ويعلمهم الكتاب والحكمة، فيحولهم من الأمية إلى يفاع

العلم ودقة النظر. ولقد كانوا قبـل أن يـأتيهم هـدى الله منغمسـين فـي الضـلال البـين. أطبق الشرك على عقولهم وعلى أرواحهـم. وسـيجري علـى نهجهـم آخـرون فيـدخلون في الإسلام ويكونون من حملتـه، والمـدافعين عنـه، والحـاملين لرايتـه مـن مختلـف أقطار الأرض. وسيتم ذلك قريبا. لأن الذي قدر انتشار الإسـلام فـي العـالم هـو العزيـز الذي لا يغلبه شيء، الحكيم الذي يرتب الأمور ترتيبا يتبعه النجاح.

ذلك الذي أفضناه على محمـد مـن التكـريم بالرسـالة، وانتشـاله الأميـين مـن أميـتهم ليكونوا قادة للعالم وهداة للبشرية. وجعل رسالته الرسـالة الأخيـرة مـن الله إلـى النـاس فيتبعهم آخرون يتبعـون طـريقتهم ويواصـلون نشـر ديـن الله فـي الآفـاق. والله هـو العزيز الذي تنفذ إرادته ولا يعترضها شيء. الحكيم في كل ما يقدره.

ما ذكر من الآية الثانية إلى الآية الرابعـة هـو مـن سـحائب فضـل الله، وفضـله بيـده وهو أعلم حيث يجعله. وإن فضل الله لا تحد حدوده.

بيان المعنى العام :

1يسبح لله ما في السماوات....الحكيم.

يذكر الله المؤمنين بأن ما تحويـه السـماوات ومـا تحويـه الأرض مـن كائنـات، كلهـا تواصل تسبيح الله وتنزيهه عن كل نقـص. وتعتـرف لـه بظهـور كمالـه المطلـق فـي خلقه، وفي تدبيره. الله المتفرد بأنه الملـك الحـق النافـذ أمـره فـي ملكـوت السـماوات والأرض. المتقدس والمنزه عن صفات ملـوك الـدنيا مـن الغـرور والـبطش، والظلـم، تنفيذا للهوى. العزيز الذي طوع كل لشيء لقدرته وإرادتـه. وظهـرت حكمتـه فـي كـل ما يدركه الإنسان، فكلما تعمق الناظر في التأمل، ازداد يقينـا بالحكمـة البالغـة فـي كـل كبيرة وصغيرة، وفي الترابط بين أجزاء العالم.

إن من شأن البشر أنهم يحبون الكمال، فمن يقرأ نصـا متميـزا فـي صـياغته ومعانيـه، يتعلق به، ومن ينظر إلى الجمال الفائق فـي الطبيعـة أو فـي الإنسـان يتعلـق بمـا رآه، وهكذا تجد الإنسان مفطورا على حب الكمال حيثمـا وجـد. ولمـا كـان الله جـل جلالـه المتفرد بالكمال، فملاحظة هذا الكمال تقتضي أن يتعلق الإنسان بربه ويحبه.

2- هو الذي بعث...من قبل لفي ضلال مبين.

هذه هي العقيدة الإسلامية المثبتة لعناية الله بخلقـه، خلافـا لمـا يقولـه بعـض الفلاسـفة أن الله خلق الخلق، وصرف القوانين التي يسـير عليهـا العـالم، ثـم انعـزل عـن هـذا العالم وتركه يسير وفق تلكم القوانين.

من فضله العظيم على البشرية عامة وعلـــى العــرب خاصـــة، أنـــه بعـــث فـــي الأميـــين رسولا منهم. ولتكون المعجزة أظهر، وقبول هدايته ألزم، بعــث نبيــا أميــا فـــي الأميـــين. لا يتهم أن ما جاء به حاصل دراسة، ووضع اجتمـــاعي ومســـتوى تعليمـــي متقـــدم. كمــا يَسّر قبول رسالته بأنه منهم. رُبّي بينهم يعرفـــون خلقـــه، والظـــروف التـــي عـــاش فيهـــا، ولا يخفى عليهم شيء من أمره يبعثهم على الشك فـــي المســـتوى الـــذي بلغـــه، فيتهمونـــه بأنه ينقل كلام غيره، أو يضيف إليه شيئا من خبرته وذكائه.

ثم المعجزة الأخرى المساعدة على تحقيق عالمية رسالته أن القوم الذين بعثه فيهم ونشر بينهم الإسلام، وكلفهم بتبليغه، أمة أمية؛ بعيدة كل البعد عن تسيير الممالك وتنظيم الدول. فأثر الدين فيهم تأثيرا كون منهم قادة، ورجال سياسة، غيروا وجه العالم، ورتبوا الأنظمة المحكمة أينما انتشروا. ينادي بأن السر هو في الدين الذي رحم الله به البشر. ولو لم يكونوا أميين لنسب ما حققوه إلى الأنظمة التي ربوا عليها. فكانت الأمية صفة كمال فيهم، وأمرا مظهرا لحكمته تعالى. خلافا لما كان ينتقص به اليهود المسلين بأنهم أمة أمية.(**ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل**)[1]

لقد ظهرت الحكمة في كون الرسول أميــا، وكـــون المبعـــوث فـــيهم أميـــين. وأتبـــع ذلـــك بخصائص هذه المنة العظمى التي ارتقى بهـــا هـــذا البعـــث إلـــى مقـــام الرســـالة الإلهيـــة للعالمين. فأثبتت له الآية :

1-**أنه يتلو عليهم آياته**- هذا ما توجهت إليه عنايـــة الله مـــن أول أمـــر اتصـــال محمـــد ﷺ بالوحي. أول ما خوطب بـــه: اقـــرأ. ليبلـــغ مـــا يتلـــى عليـــه، ويثبتـــه فـــي العقـــول والقلوب. ويتواصل الأمر على هذا النســـق، فكلمـــا تلقـــى مـــن ربـــه وحيـــا قـــرأه علـــى الناس ودعا كتبة الوحي ليثبتوه خطا، كما ثبت تلاوة. وفـــي ذلـــك إشـــارة أيضـــا إلـــى أن ما يتلوه هو معجزته العظمى، فنصوص الوحي المتلـــوة آيـــات وأدلـــة تقـــوم شـــاهدة أنـــه كلام منزل من عند الله تحدى به ﷺ العالمين.

2- **ويزكيهم**- زكاء الـــنفس وطهارتهـــا، يصـــير الإنســـان بحيـــث يســـتحق فـــي الـــدنيا الأوصاف المحمودة، وفي الآخـــرة الأجـــر، والمثوبـــة. تنســـب التزكيـــة للنبـــي لكونـــه الواسطة في وصول ذلك إليهم [2]- كانت هـــذه الأمـــة الأميـــة تعـــيش علـــى الفطـــرة، لـــم تتهذب غرائزها بالحضارة، والطاعة للدولة. لـــم يخـــتص بعـــض أفرادهـــا متعمقـــين فـــي العلوم والفلسفة. ولا كانت لهم صناعات دقيقة تعتمـــد التجربـــة، والتجويـــد والفـــن. فجـــاء

---

[1] سورة آل عمران آية 75

[2] الراغب الأصفهاني ص310

الوحي الإلهي على لسان رسوله، فأخذ تلك النفوس فنمّى الجوانب الإنسانية فيها حتى أصبحت وكأنها نشأت في حجر الحضارة. وحولها من الفردية الضيقة إلى الحياة الاجتماعية الرفيعة، فكان لها من خلق الإيثار، والنظام، والحرص على الفضيلة ومقاومة الرذيلة، ما سمت به على الحضارات الأخرى، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ويعلمهم الكتاب والحكمة – نزل الكتاب على رسوله، فبلغه وفتح به عقولا كانت لصيقة المادة والشهوة، والقرآن له مفاهيمه الرفيعة ومقاصده القريبة والبعيدة. شرح النبي ﷺ محتوياته ومقاصده، وأقنعهم بها، ووضّح لهم سبل تطبيقها. فجمع تعليمه ﷺ بين الناحيتين النظرية، والتطبيقية.**(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر)**[1] وعندما تتأصل المعرفة بجودة التعليم الذي يعنى بالمعلّم من جميع جوانبه المادية والنفسية والروحية والخلقية، تسمو مداركه فيعرف المواضيع التي ينظر فيها معرفة بعيدة عن الضلال. وهي الحكمة.

وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين – يثبت القرآن مؤكدا أن العرب الأميين كانوا قبل نزول القرآن عليهم منغمسين في الضلال. ضلال الشرك الذي يعمق ضياع المشرك، حينما يعبد آلهة متعددة، وليس في واحد منها ما يؤهله للألوهية، وحينما يقدس حجرا منحوتا أو خشبة، أو حيوانا، وكلها أحط منه وأقل قيمة. وتنسج الخيالات حول تلك المعبودات صورا من التقرب إليها تتسفل بالإنسان إلى أحط الأوضاع. يتقرب إليها بالقرابين، ويخشى بطشها، ويرجو منها الفرج عند الشدة.

3- وآخرين منهم....وهو العزيز الحكيم.

يتلو على الأميين آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة – ويتلو على آخرين غير الأميين، ويعلمهم الكتاب والحكمة، فهذا القسم الآخر ليس أميا، وهو ينتفع من هذا الرسول بتعلمه منه الكتاب والحكمة.

ثم إنه يحتمل أن يكون المقصود أمما من غير العرب، والرسول مبعوث للعالم كله. وذهب بعضهم إلى أن المراد بذلك التابعون وذرياتهم إلى يوم القيامة.

وقوله لما يلحقوا...جَمَعَ لهؤلاء الذين لم يكونوا عند نزول الآية داخلين في جماعة الإيمان وصفين، أنهم منهم. وأنهم لم يلحقوا بهم، مما أفاد أنهم سيكونون جزءا منهم ويصيرون مثلهم في الوفاء للدين، وفي حمل كتابه، والاقتدار على فهم معانيه

[1] سورة الأحزاب آية 21

ومقاصده، وأنهم سيدخلون في الإسلام قريبا لما تفيده كلمة " لمّا" من أن النفي يقف عند الزمن الحاضر. فيشير ذلك إلى قرب التحاقهم بهم.

وهو العزيز الحكيم – فبعزته سبحانه سيتم انتشار الإسلام بين الأمم التي كانت على مستوى حضاري رفيع، على أيدي الأميين. ومن حكمته أن الذين تحملوا نشره قد ساعدهم بألطافه ليقوموا بالمهمة أحسن قيام. فقاموا بها فعلا.

4- ذلك فضل...ذو الفضل العظيم.

ذلك، يحوي ما تقدم من إرسال محمد بالآيات وما جمع له من مظاهر العناية، وما لطف بأمته التي شرفها الله بتلقيها عنه مباشرة الكتاب والحكمة وما قدره لمن يلحق بهم من مراتب الكمال ؛ كل ذلك فضل الله. وفضل الله لا ينال بشريف نسب، ولا بمنزلة اجتماعية رفيعة، ولكن الله يؤتي فضله من يشاء، فيرفعه من مقامه الذي هو فيه إلى المقامات العليا التي يتبعها الفوز في الدنيا والآخرة. وقد تحقق ذلك لمحمد ﷺ ولصحابته.

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

حملوا التوراة : كلفوا بالعمل بها.
أسفارا : كتبا كبارا من كتب العلم.
قدمت أيديهم : ما فعلوه من المعاصي.
تفرون منه : تحذرونه.
ينبئكم : يحاسبكم.

بيان المعنى الإجمالي:

نبه الله المؤمنين ليحذروا مآل اليهود الذين حملهم الله التوراة، فلم يعملوا بها، وهم مع ذلك يفتخرون بأنهم الحفظة عليها. فإذ لم ينتفعوا بها كان مثلهم كمثل الحمار الذي يحمل أسفار العلم وتثقل ظهره , ولكن لا ينتفع مما يحمل إلا بالكد والتعب.

وما أسوأه من مثل يكشف عن ضلالهم. لقد حرموا الألطاف الإلهية بسبب ما هم عليه من الظلم للحقيقة، ولرسول الله، وللناس الذين أضلوهم.

قل يا محمد لليهود: إنكم تزعمون أن صلتكم بالله على أقوى ما يمكن أن يكون، وأن الله يحبكم ويفضلكم على العالمين، وأنه لا يعذبكم، وقد هيأ لكم خير المقامات في الجنة ؛ فإذا كان ما تقولونه حقا فتمنوا الموت لتفوزوا بما هيأه لكم. وقد أرجعهم لباطنهم لينكشف لهم من ذاتهم كذبهم، فإنهم بمجرد ما يدور بخلدهم الموت يرتعشون منه. فبان بهذا التحدي أنهم يُرَوِّجُون لخلاف ما يعتقدون.

قل لليهود أيضا، إن خوفكم من الموت وحذركم منه لا يفيدكم شيئا، فإن الموت الذي تحذرونه، سيقتلع حياتكم، وتتلاقون معه ملاقاة لا تنفصم، إلى يوم القيامة؛ وتعرضون على الله الذي يعلم علما دقيقا ما قمتم به من أعمال ظاهرة، وما جرى في بواطنكم من مكر وخبث وفساد. وسيكشف عن ذلك ويحاسبكم عنه

بيان المعنى العام :

5-: مثل الذين حملوا...لا يهدي القوم الظالمين.

هذه الآية تتمة لما جاء في الآيات السابقة4/2- من التنويه والمنة، فأكمل ذلك بالتنبيه إلى الحفاظ على المنهج الذي نالوا به تلكم المنن. وجاء هذا التنبيه بعرض ما آل إليه اليهود. فإن الله امتن عليهم ببعثة موسى وإيتائهم التوراة: (**إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور**)[1] فكانوا يفتخرون بها، ولم يحفظوها من التبديل والتغيير، وأدخلوا فيها من أهواء الأحبار ما أدخلوا، وعملوا على تأويلها بالباطل، وكتمان ما لا يوافق هواهم. ومن ذلك جحدهم لما حتّمه عليهم موسى ﷺ من اتباع محمد ﷺ ونصره. فضرب لهم مثلا يصورهم في حمل التوراة مع عدم الانتفاع بما جاء فيها، وعدم التدبر في مقاصدها، يصورهم بصورة الحمار الذي يحمل أسفار العلم، يكد من ثقلها ولا ينتفع منها بشيء. وإذ تم تصويرهم تصويرا دقيقا يترك صورته مجسمة في ذهن التالي، شنع عليهم مصرحا بأن صورتهم المرتسمة، هي صورة سيئة تزري بصاحبها، وتكشف عن حطته. ثم أدخلهم تحت قاعدة عامة تفيد أن خسرانهم كان بسبب ظلمهم للحق، وظلمهم لمحمد ﷺ، بتكذيبه، وتفضيل الشرك على ما جاء به. ولما أصبح الظلم مقوما لهم انسحب عليهم جزاء الظالمين: أن الله لا يسعفهم بألطافه الهادية من الضلال، وبحرمانهم من تلك الألطاف يطبق عليه الضلال فلا مخرج لهم منه.

---

[1] سورة المائدة 44

6-قل يا أيها الذين هادوا...إن كنتم صادقين.

قل – صيغة قرآنية في كل أمر هام، يفتتح "بقل "ليكون السامع مستعدا لما سيتلى عليه. خاطِبْ اليهود، وهم الذين هادوا، وقل لهم، لقد زعمتم زعما باطلا، لا ينبغي أن يتحدث عنه إلا على سبيل الفرض، لا التحقيق." إن زعمتم " مضمون زعمهم هذا: أنهم أولياء الله، المقربون منه، المكرمون عنده. منزلتهم عنده لا يسمو إليها أحد. وهو الأمر الذي ما زالوا ينشرونه – شعب الله المختار – إن كان ما تزعمونه حقيقة واقعة، وتؤمنون بها، فإني أتحداكم أن تتمنوا الموت ليتعجل لكم ما تزعمونه، إن كنتم صادقين فيما تدعون. والمعروف عن اليهود أنهم أشد الناس خوفا من الموت وجزعا منه.

سجل القرآن على اليهود ما روجوه، وما زالوا يروجونه، حتى اقتنعوا به، شأن الكذابين الذين يكررون كذبهم إلى أن يقتنعوا بأن كذبهم صدق. قالوا: نحن أبناء الله وأحباؤه. وقالوا: لن يدخل الجنة إلا اليهود. ونسجوا نسيجا جعلهم يعادون البشرية جميعا، ولا يرضون إلا بأن يكون الناس تبعا لهم دون أن يصلوا إلى مستواهم. أرجعهم القرآن إلى نفوسهم ليتحرك منها ما يوقظهم إلى كذبهم، وباطلهم. قال لهم: تمنوا الموت، فهل تطاوعكم نفوسكم على تمني الموت ؟ ستجدون من ذواتكم شاهدا على كذبكم، فارجعوا عن مغالطة البشرية بأكاذيبكم. فالقرآن بهذا التوجه يرمي إلى أن يزعزع ما اقتنعوا به بعامل نقدي ذاتي من نفوسهم. ولم يطلب منهم أن يعلنوا هذا التمني للناس. إذ الغاية الأولى من بعثة الرسول هي مساعدة الناس على رفض الضلال، والوثوق بالحق، ولا يقصد قصدا أوليا إلى فضح الناس وإظهار تناقضهم.

7-ولا يتمنونه أبدا...بالظالمين.

ثم إن القرآن كشف عن هذا الاختبار النفسي، فصرح بأنهم لا يتمنون الموت أبدا، فسقط أنهم أبناء الله وأحباؤه، والمختارون من خلقه، وفرارهم من تمني الموت يدل على أنهم استعرضوا في باطنهم ما قاموا به من آثام وظلم، وكذب وفساد، وبهذا فهم لن يتمنوا الموت إذ أن ما سيقدمون عليه من الجزاء عن سوء فعالهم يجعلهم يفرون من تصور الموت والبعث الذي يتلوه. والله لا يغيب عنه شيء من ظلمهم وتعديهم لحدوده. وفي هذه الخاتمة تهديد ووعيد.

8-قل إن الموت...بما كنتم تعملون.

قل لليهود: أعيد الأمر بالقول لتأكيد التنبيه ليكون وعْيُهم على أتمه. إن الموت الذي عَرَضْتُ عليكم أن تتمنوه في بواطنكم، فانزعجتم من تصوره، وخفتم وحذرتم من

أن يلحقكم، سيقصفكم قطعا، وسيقتلع حياتكم قلعا لا عودة بعده في الدنيا ويصاحبكم إلى يوم البعث. "ملاقيكم "ملاقاة ارتباط لا تنفك. والموت مرحلة بعدها مرحلة أخرى ؛وهي أنكم ستبعثون بعد الموت، وترجعون إلى الله الذي أوجدكم، وهو العالم بما قدمتموه في الدنيا، يعلَمُ أعمالكم ويعلم ما انطوت عليه ضمائركم وما جرى في نواياكم، وأنه سيحاسبكم على كل ذلك.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوۡمِ ٱلۡجُمُعَةِ فَٱسۡعَوۡاْ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلۡبَيۡعَۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱبۡتَغُواْ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ قُلۡ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ مِّنَ ٱللَّهۡوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِۚ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

النداء :الأذان.

السعي : المشي بحرص توقيا من التأخر، مع السكينة.

ذروا البيع : اتركوا البيع والشراء.

ذكر الله: الصلاة والخطبة.

فضل الله : اكتساب الرزق.

الانفضاض : التفرق.

بيان المعنى الإجمالي :

تنبيه للمؤمنين إلى قيمة أدائهم لصلاة الجمعة. أوجب عليهم أنه بمجرد ما يسمعون الأذان الداعي إلى إقامتها، أن يتوجهوا إلى الجامع غير ملتفتين إلى شيء غير الاستجابة للنداء الذي يدعوهم للصلاة وذكر الله، وان يقلعوا عن البيع والشراء، وكل ما يلهي عنها. إن إقبالكم على صلاة الجمعة وذكر الله أعظم قيمة وأرجح وزنا وخير لكم مما سواه.

فإذا أتممتم صلاتكم، فلا حرج عليكم أن يتوجه كل فرد منكم إلى نشاطه السابق في أي ناحية من نواحي أرض الله. واجمعوا بين سعيكم في الأرض قصد تحصيل الرزق، وبين ذكره، فلا تستولي عليكم الحياة الدنيا، فتنسون ذكر الله بقلوبكم وألسنتكم. فبهذا ترجون النجاح في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

ثم سجل القرآن حادثة، حاصلها : أن النبي ﷺ كان يخطب يوم الجمعة، فقدمت تجارة من الشام اقتبلها جمع بالصخب، واللهو. فانفلت بعض الحاضرين، منصرفين عن استماع الوعظ النبوي، وخرجوا لمعرفة حظهم من تلكم التجارة، أو لشراء بعض ما أتت به، أو لسماع اللهو، وتركوا رسول الله ﷺ يواصل خطبته مع الذين بقوا معه من عقلاء الصحابة رضوان الله عليهم. فوبخ الله هؤلاء المنصرفين، وكشف عن فظاعة ما أقدموا عليه. وشنع بغفلتهم، مصرحا بأن ما عند الله من الفضل في الدنيا والآخرة، خير من اللهو الذي استفزهم، ومن التجارة القادمة من الشام. والله خير الرازقين فرزقه واسع، وألطافه تجعل المرزوق ينتفع بما حصل عليه.

بيان المعنى العام:

9- يا أيها الذين آمنوا...إن كنتم تعلمون.

هذا نداء للمؤمنين بعد أن ذكرهم بتسبيح الكون كله لله، وأنه بعث فيهم محمدا ﷺ فهداهم الله به وكذلك ما يأتون بعده. وأن عليهم أن يطبقوا عمليا ما أتاهم به ولا يكونوا كاليهود. ناداهم ليستجيبوا لداعي الصلاة يوم الجمعة، فيكون تجمعهم هذا تمييزا لهم عن بقية الأمم، وإبرازا لنعمة الله عليهم، وإظهارا لتوحدهم في الأصل الذي قام عليه الإسلام عمليا " الصلاة "باجتماعهم على إمام واحد يذكرهم، ويعرض عليهم المنهج الذي يُرضي الله في المشاكل القريبة التي تهمهم.

إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة. إذا حصل النداء، ويعم الخطاب من سمعه ومن لم يسمعه، وهو في المدينة بإجماع. وأما من كان خارج المدينة، فالذي يراه مالك أن من كان بعيدا عن المسجد بنحو خمسة آلاف متر، فإن فرضه أن يستجيب لنداء الداعي ويحضر الصلاة مع الجماعة. ومن كان وراء ذلك بقي فرضه إقامة صلاة الظهر. ومن سعى إلى الجمعة فقد أحسن.

ويوم الجمعة هو سابع أيام الأسبوع. ذكر القلقشندي في المدرك الثالث: وابتداء الخلق يوم السبت لحديث أبي هريرة : أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال : خلق الله التربة يوم السبت. قال النحاس : وهذا أحسن الأقوال[1].

وروى مسلم بسنده إلى عبد الرحمن بن الأعرج أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: خير يوم طلعت عليه الشمس يوم الجمعة.... [2]

---

[1] صبح الأعشى ج3ص100

[2] إكمال الإكمال ج 3 ص11

وأول جمعة جمعها النبي ﷺ ، فيما حكاه أبو هلال العسكري في كتابه الأوائل كانت في اليوم الخامس من مقدمه ﷺ ، في مسجد بني سالم بن عوف [1].ثم صلى الجمعة الثانية بمسجده بالمدينة.

وأول جمعة جمعت في مسجد من مساجد الإسلام كانت بمسجد جؤاثاء بالبحرين.

فاسعوا إلى ذكر الله...أمروا بالتوجه إلى الصلاة، مع استحضار القصد إليها، فلا يلتفت في توجهه إليها إلى أي أمر آخر. وذكر الله يشمل الإنصات إلى الخطبة، والصلاة، ومعقبات الصلاة. ولما اشتمل الذكر على الخطبة، كان من المحتم على المسلم أن يحضر الخطبة من أولها. وذكر الزمخشري : (ما كان في الخطبة من ذكر رسول الله ﷺ والثناء عليه وعلى خلفائه الراشدين وأتقياء المؤمنين، والموعظة والتذكير فهو في حكم ذكر الله. فأما ما عدا ذلك من ذكر الظلمة وألقابهم والثناء عليهم والدعاء لهم، وهم أحقاء بعكس ذلك، فمن ذكر الشيطان. وهو من ذكر الله على مراحل. وإذا قال المُنْصِتُ للخطبة لصاحبه " صَهْ – فقد لغا، أفلا يكون الخطيب الغالي في ذلك لاغيا! نعوذ بالله من غربة الإسلام ونَكَدِ الأيام.[2])

وذروا البيع... هو تأكيد لقوله فاسعوا إلى ذكر الله. وبما أن البيع أغلب العقود التي يحتاج إليها الإنسان نهوا عن البيع بعد النداء. ومع كونه منهيا عنه فهل يفسخ البيع الذي تم وقت النداء ؟ خلاف. ومذهب مالك أنه يفسخ. وأما بقية العقود فالمشهور أن عقدها بعد النداء محرم لا يوجب الفسخ.

ذلكم خير لكم..ما ضبطته الآية من السعي إلى ذكر الله، وعدم الاشتغال بالبيع أصلا، وكذلك ببقية العقود، وكل ما يشغل عن التوجه إلى الصلاة بالجامع، هو خير لكم من التلهي عن السعي للجمعة بالكسب بالبيع ومما تكسبونه من البيع والشراء من منافع. وحرضهم على الالتزام بما هداهم إليه، بأن يمحضوا عقولهم وأرواحهم إلى العبادة، بالإيماء إلى أن التهاون أمارة جهل بما هو خير في الحقيقة.

10-فإذا قضيت الصلاة.... لعلكم تفلحون.

إذا أكملتم صلاة الجمعة إثر سلام الإمام، فإن الله أباح لكم أن تنتشروا في الأرض، كل واحد يذهب حيث يريد لينشط في الحياة، وينتج ما يعود عليه وعلى المجموعة بالخير. واطلبوا من فضل الله أن يسعدكم بالتوفيق فييسر لكم الكسب الحلال. وترشد الآية المؤمن أن يكون دوما على صلة بربه يذكره بقلبه ولسانه، فلا يستولي

[1] صبح الأعشى ج3ص 96

[2] ج 2ص459

عليه ما يبغيه من الربح، وينسى ذكر ربه. فانقطاع تلكم الصلة هو انقطاع للنور الهادي الواصل لروح الإنسان بالله، فيكون في سعيه كالرُّبَّان الذي فقد البوصلة في عُظْمِ المحيط. وذهب بعضهم إلى أن عشية يوم الجمعة يقوم فيها المؤمن بصلة الأرحام، وبزيارة المرضى، وطلب العلم.

11- وإذا رأوا تجارة...والله خير الرازقين.

كان النبي ﷺ متوجها للمؤمنين بخطبته في يوم الجمعة، وإذا بصوت لهْوٍ وصخب خارج المسجد النبوي، تبين للحاضرين أن دحية الكلبي قدم بتجارة من الشام. وشأن رئيس القافلة التجارية أن يجمع الأموال من التجار ليكون وكيلا عنهم في بيع ما يحمله، ثم شراء ما يبدو له أن فيه ربحا. ويأتي بما يكون المجتمع المدني في حاجة إليه. وأيضا فإن اقتبال قافلة التجارة يصحبها لهو تعبيرا عن الفرحة برجوعها سالمة فتنوعت العوامل التي تأثر بها بعض الحاضرين. خرج بعضهم ليتسلم حظه من التجارة، والبعض ليشتري ما هو في حاجة إليه مما جاءت به القافلة، وخرج بعضهم وقد هيَّجه صوت اللهو ليستمتع بالمشهد. وتركوا رسول الله قائما على المنبر يواصل وعظه. وبقي معه ما بين اثني عشر رجلا أو أربعين منهم العشرة المبشرون بالجنة.

سجل القرآن ما وقع من هؤلاء المنصرفين عن الانصات لرسول الله، وإسراعهم إلى حظ قليل من الدنيا، انفضوا إلى التجارة وما صحبها من اللهو، فوبخهم على ما صدر منهم، ولم يخاطبهم مباشرة فيقول: **وإذا رأيتم تجارة أو لهوا.** مبالغة في تأنيبهم وإبرازا لفظاعة ما أقدموا عليه، فهم تبعا لما صدر منهم غير مؤهلين لأن يواجههم الله بخطابه.

قل لهؤلاء المنصرفين المتعلقين بالمال أو اللهو، حَرِّكْهم ليتأملوا وليقدروا خطر ما فعلوه: إنكم فرطتم في الخير الكثير: رسول الله الذي لا ينطق عن الهوى يعظكم، ويصرفكم عنه تجارة أو لهو. قل لهم :ما عند الله من الهداية، ومن الثواب، ومن المباركة في الرزق، لا يوزن بما صحب القافلة من أموال، ومن لهو. والله خير الرازقين، فرزقه لا يحد، ويلطف بالمرزوق فيحميه من أكدار رزقه، وييسر له الانتفاع به. وكم من كسب يكون شرا على صاحبه وكدر، ويحرم منه وهو ينظر إليه، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

27 جمادى الآخرة 1435 الموافق لـ 214/4/27

سورة المنافقون

سميت بهذا الاسم في المصاحف، وفي كتب التفسير والسنة. على حكاية اللفظ. وفي بعضها سورة المنافقين على الإضافة. ووجه تسميتها بذلك: أنها فضحت المنافقين وصرحت بكذبهم وكشفت شيئا من مؤامراتهم. وهي سورة مدنية بالإجماع. وهي السورة الثالثة والستون حسب ترتيب المصحف. وعدت الثانية بعد المائة حسب ترتيب النزول نزلت بعد سورة الحج وقبل سورة المجادلة. كما اتفق عليه البقاعي وابن النديم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ ۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

نشهد : خبر مؤكد تحققه.

المنافق : من يظهر الإيمان ويسر الكفر.

الجنة : ما يستتر به ويتقى.

الفقه : فهم الحقائق الخفية.

يؤفكون : يصرفون.

بيان المعنى الإجمالي:

اعلم يا محمد أنه إذا جاءك المنافقون يؤكدون لك، أنهم معترفون بأنك رسول الله، والله يعلم أنك رسوله لا ريب في رسالتك، ولكن المنافقين كاذبون في ادعائهم أن

خبرهم شهادة تعبر عن واقعهم. إن الأيمان التي قدموها لتشق بهم استعملوها وقاية من تكذيبك لهم، ومقاطعة المؤمنين لهم. فكانوا بأيمانهم الكاذبة تلك قد استخفوا بها، وواصلوا كفرهم الباطن. ما أسوأ أعمالهم!

إنهم آمنوا قليلا، ثم لامهم رؤساؤهم وأغروهم بالكفر، فأسرعوا العودة إلى الضلال الذي كانوا عليه، دون أن يعلنوا ارتدادهم. وبعضهم أظهر الإيمان وهو كاره له أشد ما تكون الكراهة، فصورته الأولى وهو مع الناس يبايع على الإسلام ظاهره أنه من المؤمنين، وباطنه أنه ثابت على الكفر. وبهذا التلون والتصميم على الثبات على الكفر، ختم الله على قلوبهم فلم يسعفهم بألطافه لينفذ نور الإيمان إليها.

لا تغتر بمظاهرهم، فإنهم وإن جمع بعض رؤسائهم بين بسطة الجسم، وذلاقة اللسان، فمستواهم الفكري سخيف، إذا أصخت سمعك لحديثهم لا تسمع منهم إلا كلاما تافها، كأنهم لتفاهتهم خشب مسندة إلى ما يمنعها من السقوط، لا نفع منها.

ومع ذلك فإن الخوف استولى عليهم، فكلما سمعوا صوتا عاليا ارتعدوا من الخوف، توقعا منهم أن أمرهم افتضح وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إليهم من يستأصلهم.

بيان المعنى العام :

1-إذا جاءك المنافقون... لكاذبون.

يقول الله لرسوله : إذا أتاك المنافقون يرومون خداعك، وذلك بقولهم : نشهد شهادة يقينية تطابق فيها ما نقوله، والواقع الذي نحن عليه، إذ كلمة نشهد تدل على أن المخبر يخبر بخبر يقيني ؛ حتى تطمئن لهم ولا تتوقى منهم. مضمون شهادتهم قولهم : إنك لرسول الله. نؤكد ذلك تأكيدا لا يدخله ريب. والله يعلم إنك لرسوله، فكونك رسولا من عندي أمر حق. ثم عاجلهم الله بإعلان كذبهم في تزويرهم : أن ما يقولونه هو الواقع الذي يؤمنون به. فمضمون كلامهم أنه هو الواقع الذي يؤمنون به كذب بشهادة الله. إذ الواقع أنهم لا يتيقنون ذلك وينفونه نفيا قاطعا. وتسمية قولهم شهادة كذب، إذ مؤدى الشهادة الخبر المؤكد تحققه، وهو ما لم يحصل.

2-اتخذوا أيمانهم...ساء ما كانوا يعملون.

أرادوا أن يخدعوك ويخدعوا المؤمنين، وأمرهم مكشوف عندك، كما قال تعالى : **ولتعرفنهم في لحن القول**[1] فمن خبثهم وفساد طويتهم ودناءتهم أنهم اتخذوا الأيمان

[1] سورة محمد آية 30

المغلظة وقاية تقيهم من تكذيبك لهم، ومن مقاطعة المؤمنين لهم عقابا على نفاقهم. فأعرضوا عن سبيل الله بأيمانهم. إذ أن سبيل الله أن يحترم الحالف الأيمان التي وثق بها كلامه. فكانت أيمانهم زيادة في كفرهم. حقّرهم القرآن أشد تحقير، ونظر إليهم بازدراء، ودعا التالون لاتخاذ نفس الموقف: إن عملهم بلغ من السوء حدا كبيرا، وكفى بالمرء دناءة أن يوصف ما يصدر عنه بالسوء الكبير.

3-ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا...فهم لا يفقهون.

ما تقدم من التشهير بهم، وتكذيبهم وفضحهم يكشف ما يسرون، وتهاونهم بالأيمان. تسلط عليهم بسبب أنهم آمنوا ثم كفروا.

كان المنافقون على أقسام :

قسم لما سمع ما أنزل على الرسول لانّ قلبه للإيمان، ووجد في القرآن ما يدعو إلى الوثوق بحقائقه، ولكنهم لم يثبتوا على الإيمان بما تسلط عليهم من ضغط، ومن تشكيك من رؤوس الكفر. ولم يعلنوا ردتهم.

وقسم كان متصلبا في كفره، مراوغا في مظهره، لمّا سمعوا ما أنزل على الرسول أظهروا الإيمان به والتمسك بما جاء به، ويحضرون مجالس الذكر، ويتحدثون إلى جماعة الإيمان حديث الحريص على نجاح الدين، وأنه واحد من المدافعين عنه. وقلوبهم تغلي غيظا، وكفرهم متأصل لم يتحولوا عنه ولو لحظة، فهؤلاء آمنوا ظاهرا وصلّوا مع رسول الله، ولم يتزحزحوا عن كفرهم لحظة. فثم ليست للتراخي الزمني، ولكن لإفادة مستوى من الكفر فوق الفريق الأول. وكل المنافقين أغبياء بعيدون عن إدراك بواطن الأمور، وعواقبها.

4-وإذا رأيتهم تعجبك...أنى يؤفكون.

انتقلت هذه الآية إلى تزييف ما يظهر منهم من مزايا وخصائص ربما تغر. إنك أيها الرائي إذا رأيت قاماتهم الطويلة الفارعة، وأجسامهم الريانة، وما لهم من مسحة وسامة، ربما تعجب بهم، فإن المظاهر كثيرا ما تغُرُّ الرائي. هم كما قال حسان:

لابأس بالقوم من طول ومن غلظ *** جسم البغال وأحلام العصافير

وكما قال آخر:

جمال الوجه معْ قبح النفوس *** كقنديل على قبر المجوسي

والظاهر أن هذه الصفات هي لبعض زعماء المنافقين. كما ذكر ابن عباس أن ابن أبي كان جسيما صحيحا صبيحا ذَلِقَ اللسان.

وتلكم المظاهر تؤثر في السامع، فإذا أحس بأنهم يتكلمون يصغي إليهم مغترا بمظهرهم، متوقعا أن يسمع منهم كلام العقلاء المجربين. فيُصدَمُ بأنهم كالخشب الغليظة الطويلة المسندة على الحائط، لا هي في سقف يظل، ولا في باب يحمي، ولافي أثاث يرتفق به. فلا تسمع منهم إلا كلاما ساقطا لا قيمة له.

وبعد أن عراهم القرآن من كل مزية، وأن مظاهرهم مناقضة لحقائقهم، وأنهم تافهون لا قيمة لهم ولا وزن، أضاف ما يكشف عن بأسهم وشجاعتهم، فإنهم بتلك الهياكل الضخمة يظن معها أنهم ذوو بأس وشدة. ولكن قلوبهم بسبب نفاقهم كانت ترتعش خوفا، فكلما سمعوا صيحة، أو صوتا مرتفعا ظنسوا ذلك غارة عليهم، وأن جيش المسلمين متوجه نحوهم. هم في خوف دائم حذرين من أن يطلع المسلمون على مكائدهم فيجهزوا عليهم.

هم العدو : كمال العداوة تحققت في المنافقين. ذلك أن العدو الواضح العداوة تأخذ الحيطة منه، وتستطيع أن تتحصن منه، وأن تستطلع أخباره، وتَرْصُد العيون عليه لتنكشف لك مخططاته. بينما المنافقون يعيشون وسط المجتمع الإسلامي، يندسون في مجالسهم، يظهرون لهم النصيحة والحب، وقلوبهم تكاد تتفطر غيظا، عورات المسلمين مكشوفة لهم. إنهم بهذا الوضع الغادر خطيرون جدا، عليك أن تكون منهم على حذر، وأن لا تأمنهم على سر، ولا تطمئن لمعسول كلامهم.

قاتلهم الله أنى يؤفكون. قاتلهم الله دعاء بتسليط الله نقمته وإهلاكه عليهم. وقد كثر استعمال قاتله الله في التعجب من سوء الحال الذي جره صاحبه لنفسه. تأصل الخبث في نفوسهم، وتمكن النفاق من قلوبهم فكيف يصرفون عن الحق إلى ما هم عليه من الضلال والعداوة والتلون.

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم
مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ
رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا
يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ
ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

تعالوا : احضروا.

لي الرؤوس : أصله، صرفها إلى غير جهة المتكلم.

الانفضاض : التفرق والابتعاد.

خزائن : جمع خزانة.

الأعز : القوي العزة الذي لا يقهر

بيان المعنى الإجمالي:

إذا نصح المنافقين ناصح فقال لهم: اسمعوا إليَّ، خير لكم أن تذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلنون عنده توبتكم, تطلبون منه أن يستغفر لكم. حملهم تمسكهم الشديد بالكفر، واستكبارهم، عن مواصلة الاستماع للناصح، فصرفوا وجوههم إلى غير جهته، وظهر منه التصلب في الامتناع، ومظاهر الاستكبار. لتصلبهم في الكفر والنفاق، فاستغفارك لهم وعدم استغفارك سواء عندهم بمرتبة واحدة، والله لن يغفر لهم، ولن يشملهم برحمته. وهم داخلون تحت القاعدة العامة التي انبنى عليها تصرف الله الحكيم، أنه لا يهدي القوم الذين استحكم منهم الفسق.

تحدث المنافقون فيما بينهم، بما ظنوه كيدا للإسلام يمنع انتشاره، فأطلع الله نبيه، وكبتهم بأن كيدهم ساقط غير مؤثر. قال بعضهم لبعض: لا تسهموا بالإنفاق على فقراء المسلمين، واتركوهم تأكلهم الحاجة حتى يعودوا إلى ما كانوا عليه. وما أشد غباءهم ! فإن الذي يملك حقيقةً خزائن الرزق في السماوات وفي الأرض هو الله. وأنه يمكّن من رزقه من شاء متى شاء بمقدار ما يشاء. يوسع ويضيق ويرزق من حيث لا يحتسب الإنسان. ولكن المنافقين لسطحية تفكيرهم لا يدركون هذه الحقيقة. ومن مقالاتهم الوقحة ما سجله القرآن : أن خصومة وقعت بين أحد أتباع المهاجرين، وبين أحد أتباع الأنصار، فتناديا : يا للمهاجرين. يا للأنصار. وسمعها رسول الله ﷺ فانكرها، وقال دعوها " أي دعوى العصبية بعد أن آخى الإسلام بين المؤمنين "فإنها منتنة. وقد أهان المهاجريُّ غلامُ عمر بن الخطاب، تابعَ عبد الله بن أبي. صرح عبد الله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين بقوله: لئن رجعنا إلى المدينة لنخرجن المهاجرين منها فنحن الأعز، وهم الأذل. وكذب عدو الله فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. ولكنه ضعيف الفهم، لا يسعفه عقله بالتعمق، لا يفقه. وقد حاول بعد نطقه بها أن يكذب نفسه، وأنه ما قال تلك الكلمة الوقحة. ولكن تسجيل القرآن عليه فضحه.

بيان المعنى العام :

5-وإذا قيل لهم تعالوا....مستكبرون.

الذي يفهم من الآية أن بعض المنافقين قـد تـيقظ لفسـاد مـا عليـه جماعـة المنـافقين، ونصحهم أن يذهبوا إلى رسـول الله ﷺ ليعترفـوا بـذنوبهم، ويعلنـوا تـوبتهم، ويرجـوه أن يطلب من الله أن يغفر لهم ذنوبهم ؛ فينقذوا أنفسـهم مـن خـزي النفـاق فـي الـدنيا، ومن عذابه في الآخـرة. ولكـن الاسـتكبار والتعـالي الكـاذب طمـس علـى عقـولهم، فبمجرد ما قرع أسماعَهم هذا النصحُ، أعرضوا عـن الناصـح وصـرفوا وجـوههم عنـه تكبرا واحتقارا لكلامه.

6-سواء عليهم أستغفرت...لا يهدي القوم الفاسقين.

تمكن منهم العناد والانصراف عن الحق الذي معـك، فـإن نُصْـحَ الناصـح لهـم بـأن يطلبوا المغفرة، لا يفيدهم. ولا يختلف الأمر بـين أن تطلـب لهـم المغفـرة، وبـين عـدم طلبك لها. فإن الله قد كتب عليهم الشقاء، ولن يغفر لهم ذنـوبهم، ولـن يعفـو عـنهم مـع أنه واسع الرحمة عظـيم الفضـل. لكـراهتهم أن يكونـوا محـل العفـو. وهـي القاعـدة العامة في التصرف الإلهي الحكيم: أنه لا يمد الفاسـقين بألطافـه، ويحرمـون تبعـا لـذلك من هدايته.

7-هم الذين يقولون...ولكن المنافقين لا يفقهون.

التهب غيض المنافقين لما رأوا أن عدد المسلمين يتسع ويكثـر الـداخلون فيـه كـل يـوم. ومما ضاعف حسرتهم أن الداخلين في الإسـلام لا يرغبـون عنـه ويقـوى إيمـانهم مـع الزمن. ولاحظوا أن بعـض المسـلمين يملـك كفايـة حياتـه، وبعضـهم معـدم، يعتمـد الأخوة الإسـلامية ليقـوم بـأوْدِهِ. زيـن لهـم تفكيـرهم القاصـر أن يكيـدوا للجماعـة الإسلامية من هذه الناحية التي حسبوها ثغرة تفرق الفقـراء عـن محمـد صـلى الله عليـه وسلم. فقال بعضهم لبعض: تظـاهروا بالإسـلام ولكـن لا تسـاهموا فـي الإنفـاق علـى فقرائهم، حتى تعضهم الحاجـة الشـديدة وينصـرفوا عـن الإسـلام. كـان هـذا الكـلام يجري بينهم في خلواتهم، فأطلع الله نبيه عليه وفضحهم.

ولله خزائن السـماوات – ثـم رد علـيهم تصـورهم، ومـا ظنـوا أنـه ثغـرة يمكـنهم استغلالها تفريق المسلمين. صـرحت الآيـة بـأن مالـك ثـروات الكـون حقيقـة، فـي السماوات أو في الأرض هو الله. فالغيث بيـده، والريـاح اللـواقح بيـده، والأشـعة التـي بها تتجدد قوى الأرض بيده، وكـذلك مـا فـي الأرض مـن ميـاه ومـن تربـة، ومـن عناصر الخصب، والتصرف حتـى يبلـغ مـا تنتجـه الأرض كمالـه، هـي لله يعطيهـا

لمن يشاء بالمقدار الذي يشاء. ولكن الذي سوّل لهم هذا المقترح، وظنوا أن له تأثيرا على الجماعة الإسلامية، هو غباؤهم وسطحية تفكريهم، فيهذون بما يزين لهم الشيطان أنه مؤثر. ولا مانع لمن أعطاه الله ولا معطي لمن منعه الله.

8- يقولون لئن رجعنا...المنافقين لا يعلمون.

هذه مقالة صدرت من عبد الله بن أبي بن سلول رئيس المنافقين ، حسب ما ثبت من روايات عديدة. وإن كانت صدرت منه وحده، إلا أن سكوت المنافقين عليه في هذه المقالة الشنيعة معبر عن رضاهم به، فيشتركون فيها، ويجعل القائل والراضي سواء في الوقاحة والإثم. وقد جمع الزمخشري في الكشاف ما بلغه عن هذه الواقعة، فقال: روي أن رسول الله ﷺ حين لقي بني المصطلق على المريسيع " وهو ماء لهم" وهزمهم وقتل منهم. وازدحم على الماء جهجاه بن سعيد، أجير لعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقود فرس عمر. وسنان الجُهَني حليف لعبد الله بن أبي واقتتلا، فصرخ جهجاه يا للمهاجرين !وسنان : يا للأنصار !وأعان جهجاها جملةٌ من فقراء المهاجرين، ولطم سنانا، فقال عبد الله بن أبي: ما صحبنا محمدا إلا لنُلطَم. والله ما مثلنا ومثلهم إلا كما قيل: سمّن كلبك يأكلك. أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. عنى بالأعز نفسه، وبالأذل رسول الله ﷺ.ثم قال لقومه : ماذا فعلتم بأنفسكم؟ أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم. أما والله لو أمسكتم عن جُعَل وذويه فضل الطعام لم يركبوا رقابكم ولأوشكوا أن يتحولوا عنكم، فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من حول محمد. فسمع بذلك زيد بن أرقم، وهو حدَثٌ، فقال : أنت والله الذليل القليل المبغَض من قومك، ومحمد في عز من الرحمن وقوة من المسلمين. فقال عبد الله : اسكت، فإنما كنتُ ألعب. فأخبر زيد رسول الله ﷺ، فقال عمر : دعني أضرب عنق هذا المنافق يا رسول الله. فقال : إذن تَرْعَدُ أُنُفٌ كثيرة بيثرب، "أي يغضب له كثير من صناديد المدينة" قال : فإن كرهت أن يقتله مهاجري فائمر به أنصاريا فقال : كيف إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه وقال عليه الصلاة والسلام لعبد الله : أنت صاحب الكلام الذي بلغني؟ قال: والله الذي أنزل عليك الكتاب ما قلت شيئا من ذلك، وإن زيدا لكاذب. فهو قوله تعالى: **اتخذوا أيمانهم جنة.** قال الحاضرون يا رسول الله ! شيخنا وكبيرنا، لا تصدق عليه كلام غلام، عسى أن يكون قد وهم. ثم أضاف الزمخشري، وروي أن رسول الله ﷺ قال له : لعلك غضبت عليه، قال: لا. قال: فلعله أخطأ سمعك. قال: لا. قال: لعله قد شُبِّه عليك، قال: لا. فلما نزلت لحق رسول الله زيدا من خلفه، فعرك أذنه وقال: وَفَتْ أذنك يا غلام. إن الله قد صدقك، وكذب المنافقين. ولما أراد

عبد الله أن يدخل المدينة اعترضه ابنه " حباب" وهو عبد الله بن عبد الله بن أبي – غير رسول الله ﷺ اسمه، وقال : إن حبابًا اسم شيطان. وكان مؤمنا مخلصا وقال لأبيه: وراءك !والله لا تدخلها حتى تقول رسول الله الأعز، وأنا الأذل. فلم يزل حبيسا في يده حتى أمره رسول الله بتخليته. وروي أنه قال له لئن لم تقر لله ولرسوله بالعز لأضربن عنقك. فقال: ويحك أفاعل أنت !قال : نعم. فلما رأى منه الجد قال: أشهد أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. فقال رسول الله ﷺ لابنه: جزاك الله عن رسوله وعن المؤمنين خيرا. فلما بان كذب عبد الله قيل له: قد نزلت فيك آيٌ شداد فاذهب إلى رسول الله ﷺ يستغفر لك. فلوى رأسه، ثم قال : أمرتموني أن أومن فآمنت، وأمرتموني أن أزكي مالي فزكيت. فما بقي إلا أن أسجد لمحمد فنزلت : **وإذا قيل لهم تعالوا...** ولم يلبث أياما حتى مات.[1]

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَـٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَـٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَـٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ

الإلهاء : الاشتغال بشهوة ولذة.

نفس:الروح.

أجلها : الوقت المحدد لبقائها.

خبير : عليم بما ظهر وما خفي من الأعمال.

بيان المعنى الإجمالي :

يا أيها الذين آمنوا لا تشغلكم أموالكم بالسعي في تنميتها، والتهالك على توفير أكبر نصيب منها، والفرح بالربح التجاري، والثمار الوافرة، والمحاصيل الكبيرة من الزروع، والإنتاج الصناعي المرغوب فيه. وكذلك لا تلهكم أولادكم بالسعي لما يوفر لهم أسباب الرفاه. لا تجعلوا كل همكم الأموال والأولاد، وتنسوا ما يجب عليكم من الصلة بخالقكم وذكره بالقلب واللسان والعمل بما يرضيه. ومن يصرف كل همه في ماله وأولاده هو خاسر في النهاية،

---

[1] الكشاف ج2ص462/461–

لأنه سيترك يوما ماله وأولاده خلفه، ويلقى الله في الآخرة بما قدم من خير، لا ينفعه مال ولا بنون.

أنفقوا من المال الذي رزقناكم، فإنكم ما نلتم ما حصل لكم من رزق إلا من فضلنا. اغتنموا صحتكم وحياتكم، من قبل أن يفجأ أحدكم الموت، ويستيقظ عندها ويسأل ربه أن يؤخره زمنا قليلا يصرفه في الإنفاق الصالح وفعل الخيرات، ويسلك سبيل الصالحين المرضي عنهم.

وهيهات، هيهات، فإن الله مع عظيم رحمته، لن يستجيب لسؤال الداعي بتأجيله. لأن الله ينفذ ما قدره، ولن يؤخر قَدَرَهُ لحظة. وكل حي كتب الله له أجله، فإذا انتهت أنفاسه المقدرة فلا مطمع في زيادة نفس فوق ما قدره. واعلموا أن الله يعلم ظواهر أعمالكم، وما جرى في ضمائركم. فطهروا أعمالكم وبواطنكم.

بيان المعنى العام :

9-يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم...فأولئك هم الخاسرون.

شأن القرآن أنه كلما واصل بسط قضية من القضايا، أنه يعود لتذكير المؤمنين، بما يكونون معه على هدى من ربهم، وأقرب إلى السعادة في الحياتين. فناداهم في هذه الآية ناهيا لهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم شغلا يستولي على قلوبهم، وينسيهم صلتهم بربهم. إن تعلق الإنسان بتوفير مكاسبه أمر فطري في الإنسان، ونحن مدعوون إلى السعي في الأرض وتنمية أموالنا. وقد يتعلق الفرد بتحصيل الرزق، ويصرف كل همه في ذلك، وينسى صلته بربه، وهذا المستوى انزلاق إلى ما يعود عليه بالوبال. إذ أن الاهتمام بتوفير المكاسب إذا بلغ هذا الحد تجد صاحبه، يتهاون بواجباته الدينية. ويبعد عن تحري الحلال. وهكذا كلما زاد الإنسان شراهة وحبا للمال قويت الحجب التي تفصله عن الله. فدعاهم القرآن إلى المزج بين الإقبال على ما ينَمّي أموالهم، وأن يكون ذكر الله حاضرا في نفوسهم، ذكرا باللسان، وإسراعا لتلبية نداء الداعي للصلاة، وحرصا على أداء الزكاة، وتوقيا من الآثام، ونصحا للمؤمنين في عمله الذي يقوم به. وكذلك الأولاد فَنَبَّهَهُم إلى أن لا تبلغ الشفقة بهم والحنو عليهم، وجمع ما يضمن لهم الحياة الناعمة الرخية، حدا ينسيهم ذكر الله كما قدمناه في المال. وصرح بعاقبة من يتعلق بالأموال والأولاد تعلقا مبالغا فيه، أنه ستكون عاقبته الخسران المبين، يوم لا ينفعه مال ولا بنون.

10- وانفقوا مما رزقناكم...وأكن من الصالحين.

أمَرَ بالإكثار من الانفاق، مذكرا أن ما تنفقونه هو رزق من الله يسره لكم، ولولا فضله سبحانه، لما حصل لكم منه إلا القليل الذي لا يتجاوز حاجاتكم. أنفقوا ما

أوجَبْتُهُ عليكم الزكاة التي هي حق الفقراء وصدقة الفطر، وفي الحج، وفي الجهاد، وعلى العيال، والإسهام في المصالح الضرورية للأمة، وتلك نفقات واجبة. وأنفقوا ما هو خير لكم وتجدون ثوابه من النفقات المرغب فيها كالصدقات، وإكرام الضيف، وما تجاوز الحد الضروري في النفقات الواجبة.

من قبل أن يأتي...تحريض على الإنفاق بالتذكير بأن عمر الإنسان محدود، ولا يعلم أحد متى تختم أنفاسه، فإن الموت يترصده وينفصل عن كل ما ملك. فلينفق ما دام متصرفا فيما ملك.

فيقول رب لولا... تنبهوا إلى اليوم الذي يأتي على كل واحد منكم، ولا مفر منه، اليوم الذي يقول الإنسان فيه بلسان حاله أو مقاله، سائلا ربه سؤالا حثيثا :أن يؤخره إلى أجل قريب غير بعيد، بمقدار ما يقضي ما فاته في وقت السعة من الإنفاق الواجب المستحق لأن يحاسب عليه. قامت أمام ناظره الحقيقة، وتوقفت الآمال، وعلم أن كل ما كسبه لا ينفعه. ويصرح بما يرجى معه قبول سؤاله أنه ما سأل التأخير إلا لتدارك ما فات لاحبا في طول الحياة، أخرني ربي لأتصدق وأفعل الخير، وأكون من الصالحين السابقين لتطبيق أوامرك.

11-ولن يؤخر الله...بما تعملون.

توسلات المحتضر، ودعاؤه أن يؤخر إلى أجل قريب لا يطول أمده، وأن قصده هو أن يعمره بفعل الخير، توسلات وأماني لا تستجاب، لأن الله وإن كان كريما يجيب دعوة الداعي المخلص إذا دعاه، ولكن من الثوابت التي لا يدخل عليها تغيير ولا تبديل، ما كتبه الله في الأزل من عدد الأنفاس التي كتبها لكل حي. لا يزيد فيها ولا ينقص منها، تنفذ حسبما سبق في علمه وقدره بحكمته. فآخر نفس مقدر هو الأجل الذي لا يؤخر لحظة، هو وقت انفصال الروح عن الجسد. فتنقطع الحياة. فليكن المؤمن مستعدا لذلك، لا يؤخر ما يمكنه فعله من الخير في لحظة إلى اللحظة القادمة، فإنه لا يدري أحد متى ينتهي أجله المقدر له.

والله خبير بما تعملون. هذا المقطع صالح لأن يحمل على الوعد، وعلى الوعيد، يوزع لكل إنسان حسب ما يستحق في علم الله. وتنسحب الخاتمة على كل ما تقدم من تذكير في السورة. فيقرر أن الله يعلم علما واحدا ظواهر الأفعال وخفاياها، يعلم ما جرى في القلوب من صالح النوايا، ولا يخفى عليه شيء من سيئها. ويعلم ما أنجزه كل فرد إنجازا على الوجه الذي يرضيه، وما أخل من إخلالات فيما أنجز عن قصد أو عن غير قصد. فليتيقظ الإنسان إلى أنه مجزي بما قدم في حياته.

سورة التغابن

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وكتب التفسير والسنة. ووجه تسميتها ورود لفظ التغابن فيها وحدها. والصحيح أنها نزلت في المدينة المنورة. ورتبتها حسب ترتيب المصحف الرابعة والستون. وحسب ترتيب النزول السابعة بعد المائة نزلت بعد سورة الجمعة وقبل سورة الصف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ (1) هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ
(2) خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (3)
يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ (4)

بيان معاني الألفاظ :

المصير : مصيركم مرجعكم.

ذات الصدور:النوايا والخواطر المتعلقة بذات الصدور.

بيان المعنى الاجمالي :

كل من في السماوات والأرض من العقلاء المؤمنين، يسبح الله وينزهه عن كل نقص ويعترف له بالكمال المطلق. وكل ما فيهما من غير العقلاء ينزه الله بلسان حاله بالكمال الإلهي في التقدير، بما أعطاه من قوانين الخلق والتطور. وهو المتفرد بالملك الحقيقي، وهو المستحق للثناء والحمد على كماله، ونعمه. والله قادر على كل شيء، قدرته سبحانه لا تحدها حدود. تفرد بخلقكم فليس لأحد غيره تدخل في خلقكم. وانقسمتم بعد خلقكم إلى كافر ومؤمن. وكل من الفريقين مسؤول سؤال العقاب عن كفره،أو سؤال التكريم عن إيمانه. والله عليم العلم الدقيق بكل ما تعملونه، قبل إنجازكم، وبعد إنجازكم على حد سواء.

إن خلق السماوات والأرض يشهد بأنه خلق مبنـي علـى الحكمـة والدقـة وفـق قـوانين ثابتة، لا مدخل فيه للعبث، مما يثبـت أن الكـون يسـير إلـى غايـة مقـدرة منـذ الأزل. وكذلك الصورة التي بني عليها خلق الإنسان، وما جمعه مـن جمـال وحسـن هـو فـوق كل ما للحيوانات من جمال صورة، يشهد أيضا، أنـه مـا خلـق مصـادفة ولكـن الخلـق روعي فيه انسجام كل جزء مع بقية الأجزاء. ممـا يـدل علـى أن الإتقـان البـالغ هـذا الحد قد تم لغاية تظهر آثارها يوم البعث.

وفي يوم البعث ينكشف ما علمه الله من الحوادث التي تمت فـي الكـون، يعلـم مـا فـي السماوات والأرض، وما جرى فيهمـا مـن تحـولات، وعمـل الإنسـان فيمـا اسـتخلفه. ويعلم ما هو أخفى من ذلك، وهو ما فعله الإنسـان متخفيـا كعلمـه بمـا أعلنـه وأظهـره، وفوق ذلك يعلم خطرات العقول والضمائر. والله عليم بما تكنه العقول والضمائر.

بيان المعنى العام :

1-يسبح لله ما في السماوات...على كل شيء قدير.

يذكر القرآن في آيات عديدة بهـذه الحقيقـة المتجـددة آثارهـا فـي الكـون، حاصـلها أن العقلاء الذين لم يحجب عقولهم ظـلام الكفـر، يوالـون تسـبيح الله وتنزيهـه عـن كـل نقص. يعبرون عن ذلك بألسنتهم، وبقلوبهم، ويتجدد ذلك فـي عقـولهم كلمـا تـأملوا فـي مخلوقاته كما سجله القرآن منوهـا بهـم : **(ويتفكـرون فـي خلـق السـماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عـذاب النـار)**[1] وكـذلك جميـع الكائنـات تسـبح ربها بلسان حالها، إذ أن ما أعطاه إياها مـن قـوانين فـي الخلـق ينـادي بأنـه سـبحانه منزه عن النقص، إذ راعى سبحانه كل كبيرة وصـغيرة وتحـول وتطـور يجـري علـى الكائن جمادا كان أو نباتا أو حيوانا.

وتجري قوانين الخلق المحكـم فـي الأرض، وفـي السـماء، وفـي كـل كوكـب، وفـي ارتباط كل كوكب ببقية الكواكب، وفـي النظـام الكـوني بصـفة عامـة. قـال تعـالى : **(وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال)**[2]

استحق التسبيح والتنزيه، لأنه هو المتفرد بالملك الحـق، لا يشـاركه أحـد فـي ملكـه، إذ كل من يدعي ملكا، فإنما هي منفعة وقتيـة، ثـم يـذهب ويبقـى الملـك لله. ولأنـه هـو وحده الحقيق بالحمد والثناء على كمالـه، و فضـله، وألطافـه. وكـل خيـر منـه. وهـو

[1] سورة آل عمران آية 191

[2] سورة الرعد آية 8

الذي يمكن المتفضلين مما يتفضلون به قال تعالى : **(وما بكم من نعمة فمن الله)**[1] وهو سبحانه القادر الذي ليس لقدرته حدود، إذ قدرة غيره لا تعدو النواميس التي ضبطها الله، والله تنفذ قدرته حسب النواميس التي أجراها، ويخرق تلكم النواميس ويخلفها بما يشاء.

2-هو الذي خلقكم...بما تعملون بصير.

تتركب الآية من جزأين الأول يتعلق بالله جل جلاله، والثاني ينسحب على البشر.

أما الجزء الأول: فيثبت أن الله وحده هو الذي خلق البشر، ضبط قوانين الخلق، ثم أجراها على كل مخلوق. ولا يخرج أي إنسان عن كونه مخلوقا لله. لم يشارك الله أحدٌ في خلقه، وأن الأسباب الظاهرية هي من خلقه ومن كمال تقديره، فالأبوان مثلا، هما من منظومة القانون الإلهي في الخلق، وليس لهما أي اشتراك فيه. إذ لوكان لهما أثر في التكوين لكانا مختارين للصورة التي يكون عليها ولدهما من ذكورة أو أنوثة، ومن وسامة أو قبح، ومن ذكاء أو غباء، ومن طول أوقصر، ومن لون العينين إلى آخر الخصائص المميزة للذات.

وأما الجزء الثاني: فيثبت أن البشر المخلوقين لله قد انقسموا إلى قسمين كبيرين:

القسم المذكور أولا: من كفر بالله. وقدم في الآية فمنكم كافر، لأن الكفر هو الأغلب في البشر. قال تعالى : **(وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)**[2] ويفهم هذا على أن من الناس من اختار بكامل حريته الكفر .أعطاه الله العقل، وبعث رسله تساعد كل فرد على تبين الحقيقة، وأقام من مشاهد الكون التي يدركها بحواسه، أنه مخلوق معها لله رب العالمين. ومع ذلك اختار الكفر على الإيمان دون اضطرار لذلك. قامت الدواعي التي تدعوه إلى الإيمان والاستقامة، وتبعده عن الفساد والإثم والرذيلة. ولم يقسره سبحانه على اتباع طريق الخير، بل هداه النجدين، و لكنه انتهى إلى تقديم الكفر على الإيمان، والشر على الخير. وهذه هي الحكمة الإلهية : أنه لما خلق الإنسان بتلكم القدرات أن لا يعطلها بل يجعل الإنسان يختار طريقه، وفي النهاية يكون مسؤولا عن اختياراته. وبعد هذا فإذا سأل سائل لماذا حرم الله ألطافه المساعدة لينقذ نفسه من الكفر والفساد، فالجواب : أن الله لا يسأل عن

[1] سورة النحل آية 53

[2] سورة يوسف آية 103

أفعاله، وكل ما قدره حكمة، وإن خفيت علينا قال تعالى: **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون)**[1]

كما يمكن أن يفهم على أن الله خلق من البشر من كتب عليه الكفر من أول يوم خلقه فيه، وذهب إلى هذا المذهب عبد الله بن مسعود، وأبو ذر رضي الله عنهما. ويجري مع هذا المعنى قول الرسول ﷺ: (إن أحدكم يكون في بطن أمه نطفة أربعين يوما، ثو مضغة أربعين يوما، ثم يجيء ملك فيقول : يا رب أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق ؟فما الأجل ؟ فيكتب ذلك في بطن أمه.)[2] وتختم الآية بقوله: **والله بما تعملون بصير**، هو عليم بحقيقة عملكم قبل أن تتجزوا ما أنجزتم، وبعد ما أنجزتم. كل ما علمتم مكشوف عند الله لا نتوقف معرفة الله به على حدوثه. و تتضمن الآية وعدا بالجزاء الصالح لمن آمن واتقى، ووعيدا بالعقاب لمن كفر وبغى.

3- خلق السماوات...إليه المصير.

خلق السماوات والأرض بالحق. قانون الخلق واحد، ضبطه سبحانه وقدر الغاية التي ينتهي إليها المخلوق، فجميع تحولاته مضبوطة مقدما، لا مجال للعبث في الخلق. والحق يقابله الباطل، فإذا كان الخلق فوضويا لا يسير إلى غاية فهو باطل، وإذا كان قد ضبط له كل مرحلة من مراحل وجوده، والغاية مسطرة مقدما، ولا مناص لها من أن تبلغ تلكم الغاية، فهو خلق ملتبس بالحق. فهذا معنى قوله: بالحق. **وصوركم فأحسن صوركم**...خلق السماوات والأرض بما هي عليه من تقدير محكم مقدما، يقوم شاهدا على أن الكون كله له أمد محدود ينتهي إليه. ومن كمال تقديره الصورة التي جاء عليها خلقكم جامعة لعناصر الجمال والحسن. لا يوجد من بين المخلوقات المشاهدة من هو أجمل صورة من الإنسان. قس فم الإنسان بفم ما يظن أنه أجمل الحيوات، كالعندليب، والفرس، والطاوس، والظبي، يتبين لك قبح صورة الإنسان لو كانت الصورة واحدة في هذه الجزئية. وعلى هذا النحو لو تتبعت كل جزء من أجزاء الصورة الإنسانية، وقارنتها بما هو عليه بقية الحيوانات لبان لك ما تميز به الإنسان من جمال، حتى بمن هو عديم الجمال بمقاييس الوسامة البشرية. إنك إذا ما تتبعت كل جزء من أجزاء الإنسان، وكيف تألفت منها تلكم الصورة، في قوامه وفي توزيع حواسه، وفي جلده، وحتى في طريقة مشيه يتبين لك معنى قوله

[1] سورة الأنبياء 23

[2] المحرر الوجيز ج14ص473

تعالى: **فأحسن صوركم. وإليه المصير.** ولكن الحسن مراتب يقول الحكماء: شيآن لا غاية لهما الجمال والبيان.

ويعود النص القرآني فيثبت أن هذا الخلق المحكم ليس عبثا، فليس من المنطق في شيء أن يولد جامعا لتلكم المحاسن، ثم ينتهي من الوجود عبثا بلا غاية. هذا التصور مما لا يقبله المنطق السليم. فنظام الكون، كجمال الصورة الإنسانية التي أبدعها الباري سبحانه، تثبت بما لا مجال للشك فيه، أن وراء مرحلة الحياة الدنيا مرحلة أخرى يظهر فيها الفرق بين الصلاح والفساد، والفضيلة والرذيلة، والخير والشر. فلا يستوي الخبيث والطيب.

4- يعلم ما في السماوات...بذات الصدور.

تتابع الآيات في هذه السورة مقدمات لإثبات البعث، **هو الذي خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن والله بما تعملون بصير** – وإليه المصير. ولا يكون للبعث معنى إذا كان الإنسان يتحكم في فعاله، ونواياه، فيخفي منها ما يشاء خفاءً لا يظهر له أي أثر. ولا يتأتى إنهاء الكون إذا كانت تحولاته خافية على الخالق، لا يعلم ما يهيء كل تحول إلى ما سيحدث إثره إلى أن يحل الفساد العام للكون. فهو سبحانه يعلم ما في السماوات والأرض علما يرتب عليه الإبقاء أو الإزالة، قال تعالى : **(إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده** [1]**)** ويعلم سبحانه على نفس المستوى ما تسره الضمائر، و ما يصدر عن الإنسان من فعل يعبر عما استقر في الضمير، أو يختلف عنه. فعلمه ينفذ إلى الخطرات والعقائد الجارية في القلوب والعقول. وستنكشف يوم البعث إن لم يتفضل سبحانه بالستر. فتدَرَّج في توضيح شمول علمه سبحانه، من أعظم المخلوقات، إلى ما هو أخفى من ذلك، وهو جميع ما يقوله الإنسان أو يفعله في السر والعلن. ثم إلى ما هو أخفى من ذلك وهو ما يهجس في الخواطر.

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ

---

[1] سورة فاطر آية 41

أَنزَلْنَا ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ
وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا
ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟
بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

ذاقوا : أحسوا إحساسا قويا.

الوبال : السوء، وما يكره.

أمرهم : شأنهم ووضعهم.

تولوا : أعرضوا.

استغنى الله :الله غني عن إيمانهم.

زعم: صيغة يطلقها المتكلم عن شخص آخر، الثقة في كلامه مهتزة.

الإنباء : الإخبار.

الغبن : أن يبخس أحد المتعاملين في العوض.

نكفّر : نعفو عما فرط منهم من سيئات.

بيان المعنى الإجمالي :

يسألهم القرآن سؤال إنكار، وتوبيخ بسبب إصرارهم على الكفر، يسألهم ألم يسمعوا بما حل بالذين كفروا برسلهم من الأمم السابقة. ألم يسمعوا بأنواع العذاب المؤلم الذي أحسوا به كأشد ما يكون الإحساس دون أن يجدوا منه مهربا. وسيسلط عليهم يوم القيامة العذاب الأليم. وذلك لأنهم قابلوا رسلهم لما جاؤوهم بالأدلة البينة الواضحة النافية لكل شبهة، قابلوهم بالرفض متعللين أنه لا يقبل أن يتولى هداية الناس بشر مثلهم. فأعرضوا عن هدايتهم، وكفروا بالحق لما جاءهم. والله غني عن إيمانهم. فإنه سبحانه الموصوف بالغنى المطلق، المستحق للحمد والشكر على فضله العظيم. زعم الذين كفروا تبعا لكفرهم برسل الله، أنهم لا يقومون من قبورهم للبعث والحساب. قل لهم: قسما بربي لتبعثن، وفوق ذلك أن الله يعرض عليكم ما قدمتم في حياتكم الدنيا ويحاسبكم عليه ويجزيكم. والله الذي تنفذ إرادته وقدرته ولا يقاومهما مقاوم. يَسيرٌ عليه بعثكم وحسابكم.

إنه بناء على ما كشفناه لكم في الآيات السابقة، فأنتم مأمورون بأن تؤمنوا بالله ورسوله، وأن تؤمنوا بالقرآن النور الذي أنزلناه يفتح لكم المسلك الواضح الذي

يصل بكم إلى السعادة في الدنيا والآخرة، بقيامه بالحق ،ولوضوحه. واعلموا أن الله يعلم علما دقيقا ما يصدر عنكم من أعمال ونوايا.

إن الله يعرفكم بما عملتم في اليوم الذي يجمعكم فيه، فيحضر الناس كلهم لا يتخلف منهم أحد. يجمعكم ليوم الحشر. اليوم الذي يشعر فيه الكافرون بالغبن والخسارة التي ليس فوقها خسارة. أنقذوا أنفسكم قبل حلوله، فإنه من يؤمن منكم بالله ويعمل العمل الصالح ملتزما بتطبيق ما شرعه الله، فإن الله بعظيم رحمته يعفو عنه ما فرط منه من كفر ، ويمحو آثامه السابقة ويدخله جناته التي أعدها للمتقين، التي فيها من الخير ما يتجاوز الوصف. تتخللها الأنهار الجارية. وداخلها مطمئن إلى أن ما رزقه الله إياه من النعيم لا يحجب عنه أبدا. وذلك العفو والجزاء الكريم هو النجاح العظيم. أما الذين واصلوا ثباتهم على الكفر، واستمروا على التكذيب بالأدلة البينة من القرآن ومن حجج الرسول ومعجزاته، فإن أولئك هم الذين لزمتهم النار ولزموها، خالدين فيها لا مطمع لهم في الخروج منها. وما أسوأ مصيرهم مصيرا.

بيان المعنى العام :

5-ألم يأتكم نبأ...ولهم عذاب أليم.

الخطاب لكفار قريش، جاء على طريقة الاستفهام التقريري، يقررهم منكرا عليهم، ليرتب على اعترافهم الذي ليس لهم عنه محيص، ما يشنع بموقفهم من رسالة محمد ﷺ. ويلجئهم إلى الاعتراف بأنه قد حملت لهم الأخبار أنباء عاقبة الذين كفروا مثلهم في الأزمنة الماضية. أن الله سلط عليهم عذابه،وقدر أن يحسوا بألم عذابه أشد ما يكون الإحساس، إذ الذوق أكمل أنواع الإحساس. أحسوا بآلام عاقبة أعمالهم على أسوء الوجوه وأكرهها للنفس.وما سلط عليهم في الدنيا هو المهيء لهم ليذوقوا عذابا أشد قساوة وألما يوم القيامة.

6- ذلك بأنه كانت تأتيهم...والله غني حميد.

ذلك تشمل الإشارة ما ذكر في الآية السابقة: ذوقهم الوبال، وما أعد لهم من العذاب الأليم. لم يكن في ذلك أي ظلم لهم. وذلك بسبب أن رسلهم الذين توجهوا إليهم مرسلين من عند الله، تصحبهم الدلائل البينة الواضحة على صدقهم، وبلغوهم هدى ربهم وشرحوه لهم، وأقاموا عليه الحجج، بما يقنع من ينفتح عقله للمعرفة ولا يصر على العناد. لم ينظروا في مضمون ما جاؤوهم به، ولكن تعلقوا بما أقاموه مبررا للرفض، وهو أنه لا يمكن أن يتفوق بشر يساويهم في خصائص البشرية، فيتولى هدايتهم.وما كانت الشبهة التي قدموها إلا شبهة واهية، فإنهم يدركون فطريا، أن

مراتب الناس في الذكاء والمعرفة، والاستفادة من الخبرات، والبصيرة النافذة للمستقبل، مراتب متفاوتة جدا.ولم يبلغ أي نابغة المستوى الذي هو عليه، بعامل من ذاته وحدها، ولكن الذي خلق فميز بين البشر في الوسامة الخلقية، هو الذي ميز بينهم في مستوى النباهة أيضا. فشبهة أن البشر لا يسمو إلى مرتبة هداية الناس شبهة مكنها في نفوسهم عنادهم. وانتهى بهم العناد إلى الكفر بالله وبرسله والإعراض عن هداه. والله لا يضره ولا ينقص من كماله كفر الكافرين، وعناد المعاندين. هو غني عن البشر جميعا لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية. وظهر استغناء الله عن إيمانهم، إذ لو كان في حاجة إلى ذلك لأجبرهم عليه، وهو القادر على ذلك. وهو الحقيق بأن يحمد ويشكر على ما يسره بواسطة رسله، وبما وهب للإنسان من ملكات التفكير وقوى العقل الهادية إلى الصلاح والخير.

7-زعم الذين كفروا...على الله يسير.

سجل القرآن ما صدر عن المشركين، زيادة على إحالتهم أن يرسل الله رسولا من البشر، سجل عليهم زعمهم الباطل أن الله لا يبعث الناس بعد موتهم. وافتتاح الخطاب بزعموا مشير إلى أن ما قالوه لا أساس له، وهو من المرفوض غير المقبول. فنفوا البعث نفيا مؤكد بكلمة " لن " المفيدة قوة النفي في المستقبل. وهو تعبير عن تصميمهم على رفض هذه العقيدة. فرد الله عليهم بأمره رسوله صلى الله عليه وسلم أن يعلن إبطال قولهم، فكلمة "بلى" تفيد نفي ما نفوه. ويؤكد القرآن فساده بأوثق توكيد، مفتتحا رده عليه بالقسم بربه الذي تولى هداه وبلام القسم لتبعثن. فالبعث واقع لا محالة وإنكارهم باطل لا قيمة له في نفي الواقع. وفوق ذلك أن الله يخبرهم ويطلعهم بما تقدم منهم من كفر ومن تضليل للناس، ومن مقاومة للحق. وبعثهم ثم إنباؤهم عن كل ما قدموا أمر يسير على الله، إذ إرادته وقدرته لا يقاومان.

8- فآمنوا بالله...تعملون خبير.

إذ تبينت لكم الحجج، وعلمتم ما حل بالكافرين المنكرين قبلكم، وأنكم ستجزون عن أعمالكم، فآمنوا بالله ورسوله لتحصنوا أنفسكم من سوء المصير.وآمنوا بكتابه النور الذي يرفع من عقولكم كل الشبه، ويملأها باليقين الواضح، ويرشدكم إلى ما يبلغكم السلامة في الحاضر والمآل.هو نور أنزلناه من السماء ما اختلط به قول بشر. والله خبير بما تعملون، يعلم ظواهر أعمالكم كعلمه بخفايا صدوركم ونواياكم.

9- يوم يجمعكم ليوم الجمع...ذلك الفوز العظيم.

متعلق بقوله تعالى : لَتُنَبَّؤُن بما عملتم الآية 7- في هذا اليوم لتنبؤن بما عملتم،وهو اليوم الذي يجمع فيه الأولين والآخرين، يستجيبون للداعي في لحظة واحدة، ويقومون مسرعين لنداء الداعي، لا فرق بين من كان موته قريبا من يوم البعث، وبين من مات منذ مئات القرون. كما يمكن أن يفهم قوله "يجمعكم" على جمعه الأجزاء المتناثرة التي أبلاها تطاول الأزمان. يجمع الله البشر أو أجزاءهم المتفرقة، يجمعهم في الوقت الذي هو يوم الجمع أي الحشر.

ذلك يوم التغابن...زاد القرآن بيانا ليوم الجمع بذكر خاصية من خاصياته التي تنتشر وتعم في ذلك اليوم كل المعذبين، فما منهم من أحد إلا وهو يشعر بأنه مغبون يندب حظه التعس. ولما كان أصل هذا الوزن التغابن أن يقع من طرفين، كالتقاتل، والتقاول. فقد خرجه كثير من المفسرين، على أن أهل الجنة يشعرون بأنهم غَبَنُوا أهل النار واستأثروا بمقاعدهم في الجنة، وأن أهل النار يشعرون بغبنهم إذا أخذوا مكان المؤمنين في جهنم وخسروا مقاعدهم في الجنة. وفي الكشاف عن رسول الله ﷺ أنه قال : (ما من عبد يدخل الجنة إلا رأى مقعده من النار لو أساء ليزداد شكرا. وما من عبد يدخل النار إلا رأى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة)[1] ويرى الراغب أنه سمي يوم التغابن لصفقة نص عليها القرآن في قوله تعالى : **إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم** [2]-فعلموا أنهم غبنوا فيما تركوا من المبايعة وغبنوا فيما تعاطوه(**الذين يشترون بآيات الله وأيمانهم ثمنا قليلا**)[3] والكلام يدل على أن المشركين ستستولي عليهم الحسرات على فرطوا؛ وأن ذلك اليوم هو يوم الغبن الشديد والخسران الكبير، لا يقاس أثره بما يقع في صفقاتكم في الدنيا.

ومن يؤمن بالله ويعمل... حذرهم الله في صدر الآية من عاقبة الكفر يوم الجمع، وهو يوم الشعور بالخسران الكبير والأسف الشديد. ثم عرفهم بأن تحذيرهم ذلك ليس حكما عليهم لا منجى منه بحال، بل إن الذي يؤمن بالله منهم، ولا يُعَرِّفُه بالإيمان المقبول إلا رسوله ﷺ ، ويقرن بالإيمان العمل الصالح المطابق لما شرعه الله، فإن الله يمحو سيئاته، فيتجاوز عن إثم الأزمان التي قضاها في الكفر.ويجعل عاقبته الدخول إلى الجنة التي فيها من النعيم ما يتجاوز الوصف، تتخللها الأنهار، ويسعد داخلها بأن ما أعطيه من نعيم لا يحجب عنه بل هو دائم دواما أبديا. وإذ

---

[1] ج2ص464

[2] سورة التوبة 111

[3] سورة آل عمران آية77

اكتملت صورة الوعد الكريم وجُسِّمَتْ، أعقبها القرآن بالتنويه بها، وأن ذلك المستوى الرفيع هو الفوز والنجاح العظيم.

10- والذين كفروا وكذبوا...وبئس المصير.

وفي المقابل فإن الذين استمروا على الكفر، وتصلبوا في تكذيبهم بالأدلة البينة التي أقامها الله في كتابه، وأيد بها رسوله، فأولئك الذين عقدوا بينهم وبين النار صحبة ملازمة، لا هي تنفك عنهم، ولاهم يبعدون عنها. و يتحقق خلودهم في النار. وإذ اكتملت صورة ملازمتهم للعذب ؛عقب وضعهم معلقا عليه أنه أسوأ مصير يصير إليه الإنسان.

مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ
﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ
﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟
إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُوا۟ وَتَصْفَحُوا۟
وَتَغْفِرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن
يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ
لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

المصيبة : اختصت استعمالا فيما يلحق الإنسان من شر وضر.

بإذن الله : بما رتبه من قوانين يسير عليها الكون. وبشمول إرادته وقدرته.

التولي : العصيان، ورفض الدعوة.

البلاغ المبين : البلاغ الواضح.

العفو : ترك المعاقبة على الذنب بعد الاستعداد لها.

الصفح: الإعراض عن المذنب.

الفتنة : اضطراب النفس وحيرتها.

بيان المعنى الإجمالي :

أمر الكون كله بيدي، ولا يتصرف أحد غيري. فكل ما يصيبكم من المصائب فإنه لا فاعل له إلا أنا الله. وإذا شع الإيمان واضحا في روح المؤمن وعقله، فإن أنوار الإيمان تهديه في حياته فتخرجه من الحيرة والهلع إلى الرضا والأمل. والله سبحانه لا يغيب عن علمه شيء. وأطيعوا الله ورسوله بالعمل بكل ما أمرتم به وبالانتهاء عما نهيتم عنه. واعلموا أن من رفض الدعوة وعصى، فإنه لا يهلك إلا نفسه. وأن محمدا لم يُكَلَّفْ بحملكم على الإيمان والعمل الصالح قسرا. والمهمة التي أوكلتها إليه: أن يبلغكم ما أوحيت به إليكم، وأن يبينه بيانا يرفع كل شبهة أو غموض.

الله العلم الفرد المختص بهذا الاسم واحد لا شريك له، وكل إله سواه زيف وباطل. وإذ تفرد بالألوهية والتأثير والخلق، فالواجب على المؤمنين أن يتوكلوا عليه وحده، ويستندوا إلى قدرته التي لا تقهر، وأن يثقوا في نصره.

وعني القرآن بإرشاد المؤمنين في علاقاتهم العائلية أن لا يتراخوا للعواطف، وخاصة في صلتهم بأزواجهم وأولادهم. فإن بعض الأزواج والأولاد قد يخفي عداوة، أو يقدم مصالحه وإن كان فيها ضرر بالوالد أو الزوج. فأرشدهم إلى الحذر والتوقي بوزن محاولاتهم التأثير بميزان العقل والمصلحة، وأن يكون الحذر لا تصديق الظنون هو الهادي له في علاقته بهم. ثم إذا تبين له غش منهم، فإن الأليق والأفضل، أن يقابل غشهم بعد تقريرهم عليه، بلومهم وتوبيخهم ثم العفو عنهم، أو بالصفح عن ذنوبهم بدون توبيخ، وتعتبروا أن ما وقع كأنه لم يقع بعد توقيفهم على خبثهم وتغفروا، فإن ذلك خير لكم في بقاء التماسك العائلي، يرجح موقف التسامح: أن الله غفور لذنوب عباده رحيم بهم، فاقتبسوا من كمالات ربكم.

تذكروا أن قوة غريزة حب المال والأولاد غرائز قوية فاعلة في توجيه عمل الإنسان، تجعله في حيرة بين الطاعة لله والإخلاص له وبين دواعي المحبة للأولاد والأزواج والأموال. هي بذلك فتنة لكم تزعزع استقراركم الروحي وتدخلكم في تجاذبات تهز النفس وتقر الحيرة. فوطِّنوا أنفسكم على التذكر بأن الله هو المتفرد بملك الأجر العظيم لمن قدم مرضاته على دواعي نفسه وغرائزه.

أنتم مأمورون بتقوى الله في السر والعلن، أنتم مطالبون بتقوى الله وبذل كل طاقاتكم لترضوا ربكم بالتقوى. فما دامت التقوى في متسع طوقكم فأنتم مطالبون بها، ولا يكلف الله نفسا إلا وسعها. ومع المشقة الكبرى يحضر عفو الله ورحمته. واسمعوا سماع القبول لما يأتيكم عن ربكم بلسان رسوله في حياته، وعلى لسان العلماء بعد انتقاله للرفيق الأعلى. فالعلماء ورثة الأنبياء. ووطنوا أنفسكم على طاعة ربكم.

ولْتَكُنْ نفوسكم سمحة بالمال تنفقونه فيما وجب عليكم وفيما ندبه، وفي توثيق الروابط الاجتماعية. فالإنفاق يترتب عنه الخير الكثير في الدنيا والآخرة.
والقاعدة العامة أن من استطاع أن يحصن نفسه من داء الشح، ومن جرثومة البخل بماله، هو المتحصل على مراتب الفوز والنجاح في دنياه وأخراه.
إن سمحتم بأموالكم فأنفقتموها فيما أمرتكم به وأرشدتكم إليه فإني أنا الله أعتبر نفقاتكم قرضا لي أوفيه لكم مضاعفا، وأغفر ذنوبكم. إن الله هو المتصف بشكره لعباده على ما يقدمونه من صلاح، مع أن الهداية منه. وهو الحليم المتجاوز عن التقصير. فسارعوا لمرضاة رب كريم. واعلموا أن الله يعلم ما خفي من أعمالكم وما ظهر منها، وما انطوت عليه صدوركم من مقاصد، ولا يخفى عنه ما قمتم به من أعمال وأنجزتموه. وهو يجازي الصالحين ثوابا وتكرمة. ويجزي الكافرين العصاة عذابا ومهانة. هو العزيز الذي تنفذ إرادته ولا يقف دون تحققها شيء. وهو الحكيم فكل ما يصدر عنه سبحانه هو على أبلغ ما يكون من الحكمة.

بيان المعنى العام :

11- ما أصاب من مصيبة...بكل شيء عليم.

أثبت القرآن فيما تقدم من هذه السورة وفي غيرها أن الله هو المتفرد بالخلق، ولا يتصور أن يشاركه أحد في ذلك. وبجانب الخلق العام فإن تسيير أمر العوالم، في جزئياتها وكلياتها مستند إلى الله، يشمل ذلك علمه بالكليات والجزئيات، وتقديره لها.
فإذا أصيب المؤمن بمصيبة في بدنه أو في ولده وأهله أو في ماله، فليتذكر أن الله وحده هو المتصرف، وأن القانون الذي أجرى عليه أمر الكون في الحياة هو الارتباط بين الأسباب والمسببات. وهو الموجد للأسباب فصدور المسببات بلِصْق أسبابها هو قانونه وفعله بقدرته وإرادته. ثم إن ما يترتب على الواقع لا يعلمه إلا الله. فما أصاب الإنسان من نفع أو ضر هو داخل في التصرف الإلهي، ما وقع إلا بعلمه وإرادته وقدرته. فتذكير المؤمنين بالنظام الكوني الإلهي يربيهم على الصبر، إذا ما أصيبوا، وأن يكون لهم بفضل إيمانهم من قوة العزيمة ما يُبقِي على ثباتهم، فلا ينهار المؤمن لما يصيبه، ولا تنهار الجماعة الإسلامية للكوارث.
إنه إذا حصل الإيمان بمفهومه الذي بيناه: أن الأمر كله بيد الله، فإن المؤمن بهذا التصور اليقيني، ينفتح قلبه بنور من الله يسكب الأمل ويطرد اليأس، لا ينهار مهما عظمت المصيبة قال تعالى : **﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إن لله وإنا إليه راجعون أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة واولئك هم**

المهتدون)[1] يهدي قلبه حتى يعلم علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه. فيذهب عنه الهلع ويقرن ما أصابه بسنة الكون: أن كل حادث زائل، وأن مع العسر يسرا. وبكل تأكيد فإن علم الله شامل لكل حادث لا يغيب عنه أي شيء صغيرا كان أو كبيرا.

12- وأطيعوا الله...البلاغ المبين.

هداية القلب الموعود بها، تتمثل في طاعة الله ورسوله. فَلْيَتَّقُوا من أن قلوبكم قد اهتدت، فعليكم أن تقبلوا كل ما جاءكم عن الله بواسطة رسوله صلى الله عليه وسلم، تَقَبَّلُوه بالطاعة الراضية الحريصة على الوفاء بما أمرتم به، والانتهاء عما نهيتم عنه. واعلموا أنكم إن رفضتم ما أعلمكم به من شرع الله وتمردتم بالعصيان. فإن الرسول لم يكلف بجبركم على قبول رسالته. ونوه برسوله وعظم قدره بإسناده إلى ذاته العلية " رسولنا" كلفته ووفى بما كلف به، كلفته أن يبلغكم وحْيِي ويبينه لكم بيانا ينفي كل شبهة وغموض، ويقيم من نفسه مثالا تطبيقيا لما أوحيت إليه.

13- الله لا إله إلا هو وعلى الله فليتوكل المؤمنون.

حقيقة يذكر بها القرآن دوما، وهي القاعدة التي ينبني عليها جميع الحقائق الهادية الأخرى. وبذلك فهو الحقيق بالطاعة.

وعلى الله فليتوكل المؤمنون – وإذ تفرد بالألوهية تفردا لا يشاركه فيها أحد، وأن ما سواه عاجز لا يستقل بما يصلحه فضلا عن تمكين غيره من الخير.فإن على المؤمنين أن يخصوا الله بالتوكل عليه، والاعتماد على حسن عونه، وأن يتقوّوْا بتأييده لينشروا دين الله في الآفاق.

14- يا أيها الذين آمنوا...فإن الله غفور رحيم.

روى الترمذي بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما وقد سأله رجل عن هذه الآية قال :هؤلاء رجال أسلموا من أهل مكة، وأرادوا أن يأتوا النبي ﷺ، فأبى أزواجهم وأولادهم أن يَدَعُوهم أن يأتوا رسول الله ﷺ، فلما أتوا رسول الله ﷺرأوا الناس قد فقِهوا في الدين هموا أن يعاقبوهم، فأنزل الله عز وجل **(يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم)** علق عليه : هذا حديث حسن صحيح.[2]

عني القرآن بتربية المؤمن في تعامله مع نفسه، ومع أسرته، ومع جماعة الإيمان، ومع الناس، ومع الكون. حتى يبلغ المستوى الذي أراده الله لهذه الأمة: **(كنتم خير**

---

[1] سورة البقرة آية 157/155

[2] ج5ص344

أمة أخرجت للناس)[1] فنبهت المؤمن في المحيط الذي تكون فيه العواطف قوية مشبوبة، بصفة ربما تغطي على الكوامن فيغتر. ولا ينتبه إلى أن الظواهر قد تكون على عكس ما يضمره له غيره من أعضاء الأسرة القريبين. تؤكد الآية أن بعض الأزواج وبعض الذرية من البنين والبنات، قد يكونون يحملون في بواطنهم عداء للزوج أو الأب، فتكون مداخلاتهم وما يقدمونه من رأي يقدم مصالحهم، وإن كان فيها الهلاك، منحرفين عن الأزواج والآباء. فكانت التربية بأن يكون المؤمن يقظا لا ينام للعواطف، ولا يقتل حذره، ويُقَـوِمُ ما يرد عليه منهم بمعايير التعمق في المآلات. وهذا التأمل الحذر لا يصل إلى قطع العلاقة، ولكن الموصى به هو الحذر. دون أن يبلغ الحَـذِرُ اعتقاد المظنون حقيقة. قال تعالى:(**إن بعض الظن إثم**[2])

ثم عقب بالإرشاد إلى الموقف الأفضل إذا تبين غش المتداخل منهم أو الناصح، وأن الموقف الأفضل أن لا يؤاخذ المذنب بذنبه، بل يعفو بعد أن يقرره بإثمه وعداوته ويوبخه على خبثه. ويرتفع التوجيه إلى الأمر بالصفح، فيعرض عن المذنب دون توبيخ. وأن يستر عليه فلا يشيع ما صدر منه، حفاظا على تماسك العائلة. وفوق ذلك فإن الله متصف بالغفران لذنوب المذنبين، رحيم بهم يدخلهم في فضله. فاقتدوا بكمالات ربكم.

15- إنما أموالكم وأولادكم...أجر عظيم.

بعد أن نبه المؤمنين إلى ما يمكن أن ينطوي عليه بعض الأزواج والأولاد من العداوة وقصد الضر، وأن على المؤمن أن يكون حذرا. عطف عليه ما يمكن أن يؤثر على الإنسان من العواطف الجبلية في علاقته بماله وبأولاده، وكذلك بزوجه، هذه العواطف وذلك الحب للمال والأولاد والزوج، قد يطغى على الإنسان فإذا هو من ذاته ينحرف دون أن يكون ذلك بتداخل منهم. فنبه المؤمنين إلى أن المال يغري صاحبه بحبسه ,و بالتساهل في جمعه، وبالشح في إنفاقه، وكذلك الأولاد لضعفهم، واتصالهم بغريزة حب البقاء التي لا يمكن تحققها في ذات الإنسان، فيرى الواحد أنه سيستمر في الوجود بواسطة ذريته، وتأثير حب البقاء قوي في النفس وفي التأثير على القرارات التي يتخذها الفرد. إن هذه العواطف والغرائز تفتن الإنسان، وتوقعه في حيرة يتجاذبه ما فطر عليه، وماجاءه من ربه لينقذ نفسه من الخسران.

---

[1] سورة آل عمران آية 110

[2] سورة الحجرات آية 12

فتنة حقا. واعلموا أن الله عنده أجر عظـيم لمـن لـم يفتنـه مالـه ولا زوجـه ولا أولاده عن الالتزام بما شرعه الله لـه. وروي عـن بعـض السـلف أنـه قـال العيـال سـوس الطاعات.

16- فاتقوا الله...هم المفلحون.

الفاء تربط هذه الآية بالآيات التي تقـدمتها مـن الآيـة8 إلـى الآيـة 15- إذا علمـتم مـا سبق ونفذ الهدى إلى عقولكم وأرواحكـم، فـاعزموا علـى تقـوى الله، واحرصـوا علـى ملازمتها، وأن تكون أليفة مشاعركم. اتقوا الله تقوى عامـة شـاملة، بالإقبـال علـى فعـل ما أمر به والانتهاء عمـا نهـى عنه،واستحضـار صـلتكم بـربكم فـي جميـع الأوقـات والظروف الزمانية والمكانيـة. وقرنـه بالاسـتطاعة لا تخفيفـا للتقـوى، ولكـن لتعمـيم المطالبة بها كلما كان للمرء اسـتطاعة. فإنـه إذا تحـول الأمـر إلـى الحـرج والمشـقة، فإن المشقة مرفوعة عن المـؤمنين. قـال تعـالى: (**ومـا يريـد الله ليجعـل علـيكم مـن حرج ولكن يريد ليطهركم**[1]) روى البخاري عـن جريـر بـن عبـد الله رضـي الله عنـه قال: (بايعت رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم علـى السـمع والطاعـة فلقّنـي: فيمـا استطعت، والنصح لكل مسلم .ومثله عن ابن عمر رضي الله عنهما.)[2]

واسمعوا وأطيعوا: وأكد الأمر بـالتقوى بالتصـريح بـالأمر بالسـمع القابـل لمـا يلقـى إليه. إذ أن تحقق التقوى تكـون بحـب الاسـتماع للهـدى، والتـأنس بـه. والسـمع مـن رسول الله ﷺ، ثم من العلماء، بـه ينفـذ النـور إلـى القلـوب فيهـديها ، وييسـر عليهـا التقوى. قال تعالى: (فبشر عباد الذين يسـتمعون القـول فيتبعـون أحسـنه أولئـك الـذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب سورة الزمر آية 18/17)

وأطيعوا.. تأكيد ثان بواسطة التصريح بالطاعة، وإن كانت مفهومة من المقام. وعلى هذا النحو من العناية يبدو أسلوب القرآن في التأثير على المؤمنين لتلقّي أسس الفلاح في الدنيا والآخرة. فكأن القرآن يأتي المؤمن من كل جانب ليؤثر فيه.

وأنفقوا خيرا... يواصل القرآن تفصيل التقوى، فيأمر المؤمنين أن ينفقوا، ولا يخص الإنفاق بالواجب أو المندوب، أو ما هو من حسن المعاشرة. يرغب المؤمن أن يكون سمحا بماله غير مغلول بالشح في غير إسراف.

وقوله خيرا: يعني إنفاقا خيرا لأنفسكم، هو أفضل لكم من الشح والإمساك. فالشح استجابة للأنانية وحب الاستئثار، والفردية الضيقة. والإنفاق والبذل هو رشح شعور الإنسان بالرابطة

---

[1] سورة المائدة آية 6

[2] فتح الباري ج 16 ص318

الاجتماعية. وتقدير المال على أنه وسيلة لا غاية. ويعجبني تفريق ابن خلدون بين الرزق والكسب، إذا قال الرزق هو ما أ نفقته، والكسب ما تركته خلفك. ثم أكدت الآية الخيرية في الإنفاق بقاعدة عامة صيغت صياغة على أتم ما يكون من الإحكام. فقال تعالى: **(ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون)** إذ أبرزت الشح في صورة المرض والفساد المؤثر خرابا للنفس. فمن وقى نفسه من داء الشح والبخل بالمال، وسمحت نفسه بالبذل والعطاء الواجب والمستحب، والمقوّي للعلاقات الاجتماعية فهو الذي أفلح في حياته الدنيا، بما يترتب على البذل من حب الناس له وتكريمه، وبما يترتب على الشح من حسد الناس له وبغضه، ونجح بما أعده للحياة الآخرة **(وما تنفقوا من خير فلأنفسكم)**[1]

17-إن تقرضوا الله...شكور حليم.

سبحانه ما أعظم فضله، وما أوسع كرمه. هو الذي يرزقنا وما بكم من نعمة فمن الله. ما من مولود إلا ويولد عريانا لا يملك شيئا، فيسوق له ربه من الرزق، ويوسع عليه، ويحمي رزقه من الضياع، ويَسْكُبُ في قلبه الإيمان وحب الآخرين، ثم يأمره بأن ينفق شيئا مما أعطاه، ويصوره أنه قرض لرب العالمين الغني الغنى المطلق. يعده وعدا مؤكدا بالجزاء عما أنفق كأن ما أنفقه وديعة عند الله التزم رب العزة بمضاعفتها من عشرة إلى سبع مائة ضعف. وإرجاعها لصاحبها وافية في الوقت الذي يكون فيه في أشد الحاجة لما يسعفه به ربه من فضله. ويَعِدُه فوق عودة ما أنفق له مضاعفا، أنه يجعل الإنفاق سببا لمحو الذنوب، وتطهير صحيفته من دنس الآثام. ما وُعِدْتُمْ هو من توابع صفات الله القديمة: إنه شديد الشكر لعباده على ما يصدر منهم من خير هو من فضل هدايته وتيسيره. وهو الحليم الذي يتجاوز عن التقصير لمن فعل الجميل. اللهم ارزقنا فضلك ورحمتك وغفرانك وحلمك. فالخير كله بيدك.

18- عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم.

ختمت السورة بالتذكير بما اتصف به الباري سبحانه من العلم الدقيق بالخفايا والظواهر. ليرهب المفرطون من عقابه العادل لأنه مطلع على ما أظهروه وما أخفوه، وليرغب الصالحون في المزيد من الخير، لأنه لا يضيع عنده عامل للصالحات. وجزاء كل بما قدم، من مقتضيات عزته، فلا يعاند أمرَه شيء، وينفذ ما يريد نفاذا طوّع له كل الكائنات. وهو يتصرف بحكمته التي تعطي لكل شيء حقه.

6رجب 1435- 2014/5/5

[1] سورة البقرة آية 272

سورة الطلاق

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وفي كتب التفسير والسنة. وجه تسميتها بذلك افتتاحها ببعض أحكام الطلاق. وهي مدنية باتفاق. وعدت السورة الخامسة والستين حسب ترتيب المصحف، والسادسة والتسعين حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة الإنسان وقبل سورة البينة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ۚ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ ۚ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

الفاحشة : الفعلة المنكرة لشدة سوئها.

مبينة : واضحة.

الحدود : جمع حد وهو ما يمنع تجاوزه.

أمسكوهن : راجعوهن.

بمعروف : ما هو مقبول عادة في الفراق أو المعاشرة.

الوعظ : التذكير الملين للقلوب، والتحذير مما يضر في المستقبل.

حسبه : كافيه.

بيان المعنى الإجمالي :

يناديِ الله نبيه ﷺ ليخاطب عن طريقه المؤمنين عامة، إبرازا لشرفه ولعلي مقامه عند ربه، فيقول له : إذا أردتم أن تطلقوا زوجاتكم فلا تطلقوهن إلا وهن في حالة طهر فبذلك يستقبلن عدتهن من تاريخ الطلاق ولا يطول عليهن أمد الانتظار. واضبطوا العدة فلا تختاروا نهايتها قبل أوان ختامها، ولا تضيفوا إليها ما ليس منها. وليكن تقوى الله الرقيب عليكم في تطبيقكم لشرعه. واعلموا أن من حق المطلقة أن تقضي عدتها في بيت الزوجية فلا تخرجوهن من بيوتهن، وكذلك لا يحل لهن أن يخرجن منها. ولا استثناء من هذا الحكم إلا أن تأتي المطلقة بأمر مستنكر شديد النكارة، كالزنى والبذاءة وسلاطة اللسان مما يجعل المقام معها جحيما على ساكني البيت ونحو ذلك، فتخرج إلى بيت آخر. وما شرعته لكم في هذه الآية لَهُ حرمته، وهو حد من حدود الله فيجب أن يراعى. وأحذركم فإن من يتهاون بحدود الله فخسارته تقع على نفسه، وسيجني سوءًا بذلك. ومن ناحية أخرى فاتباع تلكم الحدود قد يترتب عليه خير لا تعلمونه. إن الله المتصرف تصرفا حكيما قد يحدث أثناء العدة ما يحول القلوب من البغضاء إلى الحب، ومن ترجيح الانفصال إلى الشوق في الامتزاج.

ثم إن المطلقة إذا قاربت الخروج من العدة، فإن الواجب على الزوج أن يتخذ قراره: إما أن يراجعها ليعيش معها حياة زوجية كريمة بجميع حقوقها، ولا يتعسف، وإما أن يسرحها فتنفصل عنه على الوجه المعروف الذي ليس فيه ظلم من أحدهما إلى الآخر. وعلى الزوج المطلق أن يشهد على أحد اختياريه،فيشهد إذا هو راجعها، ويشهد إذا اختار طلاقها نفيا للتداعي والخصام الذي يمكن أن يحصل في المستقبل. وليختر للشهادة رجلين من أهل العدالة المقبولة شهادتهما لدى القضاء. ولتكن الشهادة مستوفية لما تكون بها مقبولة، وأن يستحضر كل من الشهود والمشهود لهم والمشهود عليه، في الفراق، وفي الرجعة، وفي بقية الحقوق، ليستحضروا أن الله هو الذي أمر بالشهادة، وأنه يحاسب كل طرف عن وفائه بحقها.

إن الأحكام التي بينتها لكم في هذه السورة تهدف إلى وعظكم، فترقق قلوبكم لتتسابقوا إلى تطبيقها رجاء فيما عند الله، وحذرا من عقابه، ومما يجلب لكم الشر. ينتفع بها الذين يؤمنون بالله وباليوم الآخر. واعلموا أن من يتقي الله فيعمل بما جاءه من ربه، وتصحبه خشية الله، وتعلقه به في جميع الظروف والأحوال، فإن الله بفضله يجعل له من كل كرب فرجا ومن كل ضيق مخرجا، في الدنيا والآخرة.

والتقوى سبب لسعة الرزق، فيفتح الله من خزائن رزقه للمتقين، فيصلهم ما لم يكونوا قد تهيأوا لنواله من وجوه لم تخطر لهم على بال.

ثم إن من يتوكل على الله حق توكله، فيستعين به على بلوغ مراده، وإنجاح عمله، ويصحب سعيه بالاقتناع الكامل أن النُّجْح بيده، وأن ما يساعده على ذلك تقوى الله، واستحضار صلته بربه في كل ظرف من ظروف حياته. فإن الله سيكفيه ما يعترض سبيله من معوقات. إن ما قدره الله في سابق علمه سيتحقق لا محالة. وهذا التقدير الثابت في علمه الأزلي القديم قد ضبط فيه كيفية كل ما يحدث، وزمنه، وآثاره. وإنه لا يحدث في الكون أي شيء فُجَاءَةً بالنسبة لله سبحانه.

بيان المعنى العام :

1-يا أيها النبي...لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.

خُص النبي ﷺ بالنداء "يا أيها النبي " وعُقِبَ بالتشريع العام المخاطب به الجماعة الإسلامية " طلقتم " وتلك طريقة من طرق إظهار العناية بالمنادى، لأنه هو قائد الأمة والمبلغ عن الله، الحقيق بكل تقدير. والمقصود التشريعي واحد. وهو من النكت البلاغية التي يراعيها القرآن في إبراز مقام النبي ﷺعند ربه.

إذا طلقتم... على معنى إذا تعلقت إرادتكم بطلاق النساء المعقود عليهن، كقوله تعالى إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا، أي أردتم إقامة الصلاة. فإن إقدامكم على الطلاق منظم بالضوابط التي شرعتها الآية :

أ-**فطلقوهن لعدتهن.** فطلقوهن طلاقا يستطعن معه أن يحسبن عدتهن بمجرد الطلاق، وفك العصمة. وظاهر الآية يؤيد ما ذهب إليه مالك ﷺ أن المطلقة تخرج من عدتها بعد ثلاثة أطهار. فتحسب زمن الطلاق وهي في الطهر الذي لم يمسها فيه زوجها القرء الأول، ثم تحيض فإذا طهرت من حيضها دخلت في الطهر الثاني، فإذا حاضت بعده وطهرت فبتمام طهرها تكون عدتها قد انقضت. وحصلت لها ثلاثة أطهار. وعند الحنفية لا تخرج من العدة إلا بتمام الحيضة الثالثة.

تنبيه-1- يفهم من تحديد زمن إيقاع الطلاق، أن العلاقة الزوجية ليست لعبة في يد الزوج يوقعه متى شاء بسبب وبغير سبب، كما يفعله كثير من السفهاء: أن يتخاصم مثلا مع بائع الخضر فيقسم بطلاق زوجته، أو يختلف معها على أمر بسيط فيطلقها في الحين. والطلاق الذي أذنت فيه السنة، هو ما كان[1]في طهر[2] لم يمسها فيه، لأنها إذا كانت في حال حيض فإن بعض النساء يفسد مزاجهن زمن الحيض، فوضعها النفسي قد يترتب عنه توتر في علاقاتها يتبعه غضب الزوج وخروجه عن الاعتدال. واشتراط أن لا يمسها في الطهر لأنها إذا كانت طاهرا

وهو ممكن من الاتصال بها ولم يفعل فهو دليل على أنه أبغض البقاء معها [3] وأن يكون الطلاق واحدة [4] وأن لا يتبع الطلقة الأولى بطلقة ثانية في العدة. فالطلاق الذي أذنت فيه السنة هو الطلاق الذي يتروى فيه الزوج فيقدر العلاقة التي تجمعه بزوجه، ويقدر وضع الأولاد، إن كانوا، بعد فراق أمهم، ولا يصحبه أي مظهر من مظاهر الحقد والإضرار، فإيقاع أكثر من طلقة واحدة مثلا كاشف عن قصد الإضرار، وعن تشنج المطلق. وأن تبقى ساكنة في بيت الزوجية إلى انقضاء عدتها.

تنبيه-2 روى الثعلبي من حديث عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ :إن من أبغض الحلال إلى الله الطلاق. وعن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله ﷺ: لا تطلقوا النساء إلا من ريبة فإن الله عز وجل لا يحب الذواقين ولا الذواقات. وأخرج الدارقطني بسنده إلى معاذ بن جبل ﷺ قال : قال لي رسول الله ﷺ : يا معاذ ما خلق الله شيئا على وجه الأرض أحب إليه من العِتاق (أي تحرير العبيد) ولا خلق شيئا على وجه الأرض أبغض من الطلاق.[1]

ب - **وأحصوا العدة-** أنتم مطالبون بضبط أيام العدة ضبطا يحقق الوفاء بما حددته الشريعة، فلا يتعجل الراغب في التعجل، ولا يمططها الراغب في التمطيط. وهو أمر مخاطب به الزوج المطلق، و المطلقة، والقائمون على تطبيق الشريعة من القضاة والحكام الموكل إليهم أمر الأسرة. وأصل الإحصاء أن من يرغب في تعداد ما بين يديه يأخذ حصيات يجعل لكل معدود حصاة، مما ينفي الخطأ في التعداد.

جـ - **واتقوا الله ربكم.** ربط تطبيق التشريع بأنه من تقوى الله، على معنى أن الله يرقبه، ويحاسب عليه من يتساهل بأحكامه. وأن المرأة رفعها الإسلام من الوضع التي كانت عليه في المجتمع الجاهلي الذي يظلمها، ويتسعف في حقوقها. وأن ما أعطاها الله من الحقوق المعاكسة لما ترسخ من أعراف اجتماعية هي بمحل العناية من الله، ولذلك فإن الوفاء بها من التقوى.

د- **لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة.** ظاهر الآية أن المطلقة تواصل سكناها في بيت الزوجية إلى انقضاء عدتها. ونهت الآية المطلق من إخراج مطلقته من البيت الذي كانت تقيم فيه. وكذلك على المطلقة أن تبقى ساكنة في بيت الزوجية إلى انقضاء عدتها ولا تخرج. ثم إنه يحرم عليها أن تخرج من بيتها ليلا، فلا تبيت إلا تحت سقف بيت الزوجية. وأما في النهار فلها أن تخرج

---

[1] الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج 18ص149

في حوائجها. **ويسأل كثير من الناس، بعد أن تيسر أمر الحج والعمرة، هل للمعتدة أن تحج أو أن تعتمر وهي في العدة ؟ فأقول: إن الآية صريحة من منعها من ذلك، فإن حجت أو اعتمرت وهي في العدة فإنها آثمة.**

إلا أن يأتين بفاحشة مبينة.

يحتمل هذا الاستثناء أن يكون متصلا بقوله: لا تخرجوهن من بيوتهن، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة؛ فليس عليكم حرج في إخراجهن في هذه الحالة. والفاحشة أصلها الفعلة القبيحة المنكرة جدا، ولذلك حملها بعضهم على الزنا، أي تخرج لإقامة الحد عليها . وحملها بعض على البذاءة والخصام، فيكون سوء خلقها ومشاكساتها المتواصلة مما يذهب عن البيت الذي تسكن فيه الراحة، فتخرج من بيت الزوجية. وحملها آخرون على لين في دينها وارتكابها للمعاصي كالسرقة و الغيبة والنميمة.

كما يحتمل أن يكون مستثنى من قوله : ولا يخرجن من بيوتهن إلا إذا قمن بمخالفة هذا التشريع فالتعبير فيه تفظيع لخروجهن، لأن خروجهن بإرادتهن فيه كسر وإهدار لحكمة بقائهن في بيت الزوجية المطمئنة على عدم اتصالها جنسيا بأجنبي في أمد العدة، ولأن بقاءها قد يغير رأي الزوج،فيعيدها لعش الزوجية كما سيأتينا في قوله تعالى : **لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا.**

تلك حدود الله..شددت الجملة في مراعاة ما تقدم من التشريع في السورة، وأن ما ضبط فيها لا خيَرَةَ لأحد الزوجين فيه، بل هو واجب التطبيق. شأن الحدود التي يمنع تجاوزها إلى ما وراءها. وإضافة الحدود لله مشعر بقيمة هذا التشريع والتحذير من تجاوزه.

ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه...أدخل القرآن التهاون بأحكام الطلاق المبينة فيما سبق تحت القاعدة العامة مصرحا بما يترتب على التجاوز. فكل من يتجاوز حدود الله التي حددها لعباده، ولا يلقي لها بالا، ولا يحترمها، بما يشمل أحكام الطلاق وتوابعه، وغير ذلك من التشريعات التي شرعها للناس، ويحَكِّمُ شهواته وميوله، فليعلم و ليتيقظ إلى العاقبة التي تنتظره لا محالة. فإن العاقبة عاقبة سوء يتحملها وحده، ويكون بذلك قد ظلم نفسه، إذ أخرجها من سلامة العقبى وعدم المؤاخذة إلى مقت الله وعقابه. قال تعالى : **أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين* أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين *أو**

تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين[1]– فيكون هذا كاشفا عن العناية الشديدة للقرآن باحترام أحكام الطلاق.

لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا... تنويع في الحث على قبول تشريع أحكام الطلاق السابقة، فبعد أن هدد بأنه من حدود الله وأن من يتجاوزها يظلم نفسه، فتحت الآية باب الترغيب بلفت النظر إلى أن الله قد يفتح في المستقبل ما يعيد العلاقة الزوجية إلى الوئام، بعد تجربة الانفصال في أيام العدة. إذ يقدر الزوج ما في مطلقته من كمالات تغطي ما أوجب قراره بفراقها، أو يقدر إذا ما كان له أولاد المشاكل التي سيعانونها من الانفصال بين الأبوين، ونحو ذلك. وكذلك المطلقة تقدر مرجحات بقائها في عش الزوجية على الانفصال وتحمل فقد الزوج، البعد عن البيئة التي كانت فيها. أن تحمل بعض النقائص أفضل لها، فتلين من حدتها ووقوفها عند تصوراتها لطريقة العيش.

وأنت أيها الناظر في هذا التشريع لا تعلم ما سيحدثه الله في المستقبل من تقليب القلوب، من الكراهية إلى الود، ومن الأثرة إلى الإيثار. ومن البغض إلى الشوق.

2-فإذا بلغن أجلهن...ومن يتق الله يجعل له مخرجا.

لما حدد القرآن للعدة حدا وضبط أحكامها، فإذا قاربت المطلقة ما يقارب انتهاء أمدها، الذي ببلوغه ينحل عقد الزوجية انحلالا تاما، خير الزوج بين أحد الحلين:

الحل الأول: أن يراجعها قبل خروجها من عدتها. وتعود العلاقة بينهما إلى ما كانت عليه، مع احتساب أنه طلقها وراجعها. ولكن لا يحل له أن يراجعها إلا إذا عزم على أن تجديد الحياة الزوجية، سيكون على المعاملة بالحسنى والاحترام المتبادل، وتمكينها من حقوقها.وهو معنى قوله تعالى: فأمسكوهن بمعروف. وقدم هذا الحل لأنه الحل الذي يرجحه الشارع الحكيم متى كان استئناف الحياة الزوجية لا يقصد به الإضرار، كما كان يفعله الجاهليون :أنهم يطلقون زوجاتهم فإذا بلغن قرب نهاية العدة راجعوهن ثم يعيدون طلاقهن لتبقى تحت سلطانهم، لا هي زوجة تستمتع بحقوق الزوجية،ولا هي مطلقة في حل من الرابطة.

الحل الثاني: أن ينفذ عزمه على فراقها، لما ترجح عنده من أن الفراق هو الحل الأفضل. وليكن الفراق حسبما يقره العرف من أن كل واحد منهما يمضي في سبيله ممكنا من بناء حياة أسرية جديدة. ولا يغتابها ولا تغتابه، ولا يكذب عليها ولا تكذب عليه.وإن كان لهما ذرية راعى كل واحد منهما حقوق الآخر حسبما قررته الشريعة

---

[1] سورة الزمر آية 58/56

وأشهدوا ذوي عدل منكم...هذا أمر بالإشهاد جاء تاليا لما خير به الزوج من عودة إلى الحياة الزوجية، أو الفراق. وحمل بعضهم الأمر على وجوبه في الرجعة دون التسريح، وحمله بعضهم على الندب والإرشاد. وحمله بعضهم على الوجوب في كليهما. ولما كان قطع دابر الخصومات، والاحتياط لظهور الحق عند التناكر والتجاحد، يتحقق بصرف الأمر للوجوب ؛ فالراجح أن على الزوج أن يشهد بعد تلفظه بالطلاق بما استقر عليه عزمه بقرب انتهاء أمد العدة من إمساك أو فراق. إذ لعل أحدهما يموت بقرب ذلك فيكون الطرف الآخر وارثا مع الارتجاع. ولما كان الغرض المهم في الإشهاد هو قيام دليل يقطع دابر الخصومة بتعيين المحق،أرشدت الآية إلى أن يكون الشهود من أهل العدالة من المسلمين الذين يعمل القضاة بشهادتهم

وأقيموا الشهادة لله...يجب عليكم أن تكون الشهادة في الطلاق والرجعة وفي غيرهما قائمة على الحق مستوفية ما يجعلها مؤدية لدورها عند الحاجة إليها. فيتم الاحتياط عند التحمل، وكذلك عند الأداء. فلا يحابي الشاهد أحد الطرفين، ولا يعمل المشهود له على إغراء الشاهد إغراء يدفعه إلى تحريفها، ولا يعمل المشهود له على صرف الشاهد عن نقل الواقع كما هو. وليعلم الشاهد والمشهود له والمشهود عليه أنهم جميعا تحت الرقابة الإلهية، وأن الله يحاسب كل من حَرَّفَ الشهادة، وليستحضروا أنها قامت امتثالا لأمر الله

ذلكم يوعظ به.. ما قدمناه من الأحكام والإرشاد، نهدف منه إلى أن تتعظوا به، **فتحذروا مخالفته**، وتميل قلوبكم إليه راغبة في الخير ورضوان الله.

ومن يتق الله يجعل له مخرجا...أوامر تلاحقت : الطلاق في الطهر – مراقبة قضاء العدة بدون نقص في مدتها ولا زيادة– وحق المطلقة في السكنى – والالتزام بما حدده الله وعدم تجاوزه – وعدم التعسف والتسلط على المرأة إضرارا بها عند قرب نهاية أمد العدة– ومراعاة المعروف في الإمساك أو الفراق–والشهادة على الرجعة أو على تنفيذ الفراق – ومراعاة حق الشهادة فلا يتجاوز الحقيقة أي من الأطراف الثلاثة الشاهد والمشهود له والمشهود عليه. عقّبَ القرآن كل ذلك بما يحرض على تطبيقه، ويرفع الممتثلون له إلى مرتبة المتقين،وأن الله سبحانه وهو ذو الفضل العظيم،يفتح لمن يستقيم ممتثلا مستحضرا علاقته بالله، أنه يجعل له من المضايق، منفذا يخلصه مما هو فيه من ضيق وكرب.روي عن ابن عباس في معنى يجعل له مخرجا: يخلصه من كُرَبِ الدنيا والآخرة. فهي ألطاف يكتبها الله لمن يتقي الله في الدنيا، كلما ضاق عليه أمره فتح له الله بسبب تقواه أبواب الفرج،

وكذلك يجد المتقون في الآخرة الألطاف التي تخلصهم من هول يوم الحساب فيخرجون من ضيق المحشر إلى فسيح الجنان.

3-ويرزقه من حيث لا يحتسب...لكل شيء قدرا.

تحريض على التقوى بأن الله ييسر له رزقا من وجْهٍ ما كان ليخطر بباله. وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم في ضيق شديد، ترك المهاجرون أموالهم واستحوذ عليها كفار قريش. وقاسمهم الأنصار أرزاقهم، وفتحوا مدينتهم لكل الوافدين الجدد الذين أخذوا يتدفقون ملتحقين بالمؤمنين المهاجرين. ولكن ما وقر في أرواحهم من التقوى فتح الله لهم به أبواب الرزق. ولم يمض أمد طويل حتى اتسعت ثرواتهم. فليكن كل مؤمن أليف التقوى يحسن ارتباطه بالله، واثقا من أن الله سيوسع عليه في رزقه، إذا كانت التقوى صادقة حبا في الله، لا انتظارا لسعة في الرزق. ذكر الواحدي في أسباب النزول أنها نزلت في عوف بن مالك الأشجعي، وذلك أنه أسِرَ ولده، وقدر عليه، فشكا ذلك إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فأمره بالتقوى، فقيل: لم يلبث أن تَفَلّتَ ولده، وأخذ قطيع غنم للقوم الذين أسروه، وجاء أباه، فسأل النبي صلى الله عليه وسلم أتطيب له تلك الغنم ؟ فقال رسول الله ﷺ : نعم ! ونزلت الآية في ذلك.[1]

ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره...كونوا واثقين أن الله هو المتصرف وحده في الكون، وأن ما يعلمه الإنسان من الأسباب هو ضئيل جدا. والأسباب والمسببات كلها بيد الله، فعلى المؤمن بموجب إيمانه أن يتوكل على الله توكلا يجعله يقتنع أن عليه أن يسعى في الحياة السعي الصالح، وأن يعلم أن النتائج هي بيد الله، فليتوكل على ربه ليجعل سعيه رابحا،وليطرد وساوس الشيطان الذي يسعى كما جاء في الآية : (**الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم**)[2]

فالله كاف عبده إذا أحسن التوكل عليه، وحسن التوكل باتخاذ الأسباب التي أقام سبحانه عليها سنن النجاح في الكون. والله يبلغ ما يريد ويحقق ما تعلقت به إرادته. ووعد سبحانه :أنه يكفي المتوكل عليه ما أهمه، وأن يسكب في روحه الطمأنينة، وأن يوالي عليه من النجاحات ما يعمق إيمانه.

---

[1] المحرر الوجيز ج14 ص459

[2] سورة البقرة آية268

قد جعل الله لكل شيء قدرا... كل ما يحدث في الكون ليس أمرا فجائيا، يحدث دون أن يكون قد هُيّئَ له من قبل، وعُلِمَ كيفية حصوله، ومقدار حصوله، ووقت حصوله. بكل تأكيد هو أمر معلوم مضبوط ضبطا دقيقا في وجوده وفي كل ملابساته التي تقارن وجوده. وهو مقتضى صفة العلم القديم الشامل.

وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا ﴿٤﴾ ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

اليأس : فقد الأمل.

يسرا : انتفاء الصعوبة, والمكروه.

من وجدكم : من مالكم.

تضاروهن : الإضرار الشديد.

لتضيقوا : لتحرجوهن بالأذى.

تعاسرتم : اختلفتم اختلافا شديدا.

قدر عليه رزقه : جعل رزقه محدودا، ضيقا

الرزق : ما ينتفع به الإنسان في حاجاته من طعام ولباس ومتاع ومنزل.

بيان المعنى الإجمالي:

اعتنى القرآن بأحكام الطلاق وشرع ما يحفظ نقاء النسب، وما يحمي المطلقة من التعسف، وأرشد إلى المراجعة إذا كانت تحقق الحياة الزوجية المطمئنة. ومن الأحكام التي شرعها أن المطلقة إذا بلغت سن اليأس من المحيض، وارتفع عنها الحيض فإن العدة التي تستطيع بعدها أن تتزوج هي ثلاثة أشهر قمرية من يوم

طلاقها. وأن المطلقة إذا لم تتحقق أنه قد ارتفع عنها الحيض، وهي تشك في نفسها أهي يائسة من المحيض، أو إن الحيض سيعاودها فالحكم أنها تقضي تسعة أشهر لتتبين هل بها حمل أولا ؟ فإذا انتهت الأشهر التسعة أضافت لها ثلاثة أشهر، وبتمام العام تخرج من عدتها. والصغيرة التي لا تحيض أمد عدتها ثلاثة أشهر. وإذا كانت المطلقة حاملا فلا تخرج من عدتها إلا بعد وضع الحمل. سواء وضعت حملها قبل ثلاثة أشهر، أو بقيت أكثر من ذلك.

وحرض القرآن على التقوى بتطبيق ما شرعه الله، ومن يتقي الله فإن الله يعده أنه ييسر له أمره، ويسعده بعونه في الشدائد فتفتح له المسالك المغلقة.

ما تقدم من أحكام وضبط من تشريع، هو حكم الله الذي حكم به وأنزله على رسوله فبلغه إليكم لتعملوا به وتتقوا ربكم فإن من يتقي الله يكفر الله عنه سيئاته ويسقطها كأن لم تكن، ويضاعف له أجره مضاعفة من الكريم الذي لا يحد فضله.

يجب على المطلق أن يسكن مطلقته في بيت الزوجية الذي كانت تسكنه قبل طلاقها، وإن ضاق عنهما خرج وتركه لها. ويحرم عليه أن يُضِرَّ بها في المدة التي تقضيها هناك ليضيق عليها حتى ترضى بإسقاط حقها والخروج من سكناها التي هي حقها، والتسلط عليها بالباطل حرام.

ومن ناحية أخرى فإن المطلقة الحامل يجب على زوجها أن ينفق عليها إلى أن تضع حملها، ومثلها النفقة على المطلقة رجعيا.

وبعد أن تضع حملها فإذا رضيت الأم بأن ترضع ولدها بمقابل كان على الأب أن يعطيها أجر الإرضاع الذي هو من النفقة على المولود الواجبة على الأب. ولتَتشاوَرُوا فيما بينكم ليتم ذلك بالتراضي بينكم حسب العرف الساري في المجتمع. وإن لم تصلوا إلى وفاق وشح الأب فلم يُرِدْ أن يبذل إلا ما هو دون المعروف، وشططَتْ الأم فطلبت ما هو أرفع من المعروف، فإن على الأب أن يرضع ابنه ظئرا.أو من اللبن المجفّف الصالح

وعلى المنفق، سواء على المطلقة، أو فيما أوجب الله فيه الإنفاق أن ينفق ما يكفي المنفق عليه طعاما وكسوة وسكنا وحاجياته، نفقة لا سرف فيها ولا تقتير. ومن ضُيِّق عليه رزقه، فالواجب عليه أن ينفق مما آتاه الله حسب قدرته وهو غير مطالب أن يكون إنفاقه كإنفاق ذوي اليسار. ذلك أن الله لا يكلف أحدا إلا ما هو في إمكانه. ولا تيأسوا أيها الفقراء، ولا تغتموا فإن الله بيده الخير، وهو قادر على أن يحوّل أوضاعكم إلى ما فيه سعة وفضل .

بيان المعنى العام :

4-واللائي يئسن من المحيض من نسائكم...يجعل له من أمره يسرا.

أمرت الآية السابقة: فطلقوهن لعدتهن، أن من عزم على طلاق زوجه أن يوقع الطلاق في طهر. وأن عدتها ثلاثة أطهار. وأكملت هذه الآية حكم المطلقة التي يئست من المحيض، لكبر سنها، أو التي لا تحيض لصغرها. وسن اليأس من المحيض يختلف باختلاف النساء، وباختلاف الأقطار، فما ذكر من أنه خمس وخمسون سنة أو ستون سنة، كله أمر تقريبي، والحكم خاص بكل امرأة فإذا بلغت سن اليأس من المحيض تقدم أو تأخر فلتعتمده. كما يختلف سن ابتداء المحيض أيضا. وهذه الآية مخصصة لآية سورة البقرة التي عممت : أن كل مطلقة تتربص بنفسها ثلاثة قروء وهي قوله تعالى :(**والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء**)[1] فكان هذا التخصيص بيانا لقوله تعالى: والمطلقات – فخصصت هذه الآية اليائسات من المحيض لكبر؛ ومثلهن الصغيرات اللاتي لم يبلغن سن المحيض، وأنهن يتربصن بأنفسهن ثلاثة أشهر من يوم الطلاق.

إن ارتبتم – إن حصل لكم شك وريبة وهو مرتبط بما تقدمه مباشرة. وتخريجه ما روي : أن الله تعالى لما بين عدة ذوات الأقراء وعدة الحوامل في سورة البقرة، بقيت اليائسات من المحيض محل تساؤل ؛ فنزلت هذه الآية مبينة. فيكون معنى إن ارتبتم : إذ ارتبتم. فالارتياب وقع للصحابة في ضبط الحكم. فالمعنى واللائي يئسن من المحيض، إذ حصل لكم ريبة في أمد عدتهن، ولم يتبين لكم كيف تحسب، فاعلموا أن عدتهن ثلاثة أشهر. اعتمادا على أن ثلاثة أشهر يتبين بها أمر الحمل، ويكون للزوج فسحة للمراجعة. فبتمام الثلاثة أشهر تنتهي عدتها، وبالتالي يتم الانفصال بينها وبين زوجها.

وفهم الآية كثير من الفقهاء على أن اللاتي يئسن من المحيض، إن حصل لهن شك في إمكان عود الحيض لهن، فالحكم أنهن يعتددن بثلاثة أشهر. وهذا إذا لم يصل الأمر بهن إلى الشك في علوق حمل بهن، فإذا شكت في الحمل فإنها لا تخرج من العدة إلا بعد زوال الريبة، أو بلوغها من يوم طلاقها خمسا أو أربع سنوات.

وفهم الآية آخرون وهم الأكثر أن المرتاب في يأسها، التي هي غير واثقة من أن دم الحيض لا يعود إليها، تبقى منتظرة تسعة أشهر للريبة، ثم تعتد بثلاثة أشهر. فلا

---

[1] سورة البقرة آية228

تحل للأزواج ولا تنفصل عن زوجها إلا بتمام العام. وهذا ما قضى به عمر بن الخطاب رضي الله عنه بمحضر من الصحابة ولم يخالفه في ذلك أحد.

والأولى بعد التقدم العلمي أن يعتمد ما يبرزه الكشف الطبي بالأجهزة المحققة للواقع.

هذا وإن أمد عدة اليائسة قد اختلف فيه الفقهاء اختلافا كثيرا. ينظر ذلك في كتب الخلاف. وتتبعه وترجيح ما ينبغي ترجيحه بأدلته يخرج بنا عن تفسير الآية.

وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن. من طلق زوجه وهي حامل، فإنها تخرج من عدتها بمجرد وضع حملها، ومثلها المتوفى عنها زوجها. ولو لم يمض على الطلاق أو الوفاة إلا زمن قليل.

4- ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا....

الأحكام التي جاءت في الطلاق والعدة وما اتصل بهما، هي أحكام أسسها الإسلام، وما كانت مرعية في الحياة الجاهلية. ولذلك حرض على الاعتناء بها، ولفت الأنظار إلى أن الاجتهاد في تطبيقها استحضارا بأنها نزلت من عند الله هو من التقوى. وينسحب ذلك على كل ما ذكر في الآيات السابقة على نحو ما بسطناه في قوله تعالى: **ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب.** وجاء التحريض على العمل بها في هذه الآية بواسطة وعد كريم أن الذي يتقي الله، وتكون التقوى أليفة قلبه، ومظهر عمله، أن الله ييسر عليه ما صعب، ويزيل المعوقات التي تعترضه.

5-ذلك أمر الله أنزله إليكم...ويعظم له أجرا.

كل ما سبق تشريعه هو الحكم الذي حكم به الله، أنزله إليكم، ما كان لكم أن تدركوه لولا فضله بتيسير بلوغه إليكم بواسطة رسوله. ولا يخفى ما في التعبير بأنه منزل من عند الله ما يشير إلى شرف المنزل، ورفعة مقامه، وتحتم العمل به. ثم أكد التحريض على تطبيقه والعمل به، بأن من يتقي الله فيعمل بما جاءه من ربه ويستحضر دوما أن الله معه يرقبه يجد جزاءه تكفيرا لذنوبه، ومحوا لسيئاته، فيلقى ربه بصحائف نقية من الإثم. يكفر عنه ما ارتكبه من آثام، يكفر عنه سيئاته. ثم يضاعف له ثوابه فيلقى جزاءه جزاء الصالحين، ويعظم له أجرا.

6-اسكنوهن من حيث سكنتم...فسترضع له أخرى.

تُتابع السورة تفصيل أحكام الطلاق وما يتبعه؛ فأمرت هذه الآية الأزواج الذين طلقوا أن يمكنوا مطلقاتهم من السكنى في المسكن الذي كن يقمن فيه. ولا يكلف

المطلق أن يهيء لها مسكنا آخر، ولكن إذا ضاق فكان لا يسع مبيتين منفصلين، فإن المطلقة مقدمة، وعلى الزوج أن يترك لها المسكن ويخرج إلى مكان آخر يأويه، وقوله من وجدكم هو مساو لقوله من حيث سكنتم، لأن مسكن الإنسان هو من وجده أي من ماله.

ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن.. كما أمر بسكنى المطلقات عطف عليه حقهن في عدم الإضرار بهن، قصد الانتقام منهن في أمد العدة، وإلجائهن إلى الخروج من المسكن وإسقاط حقهن الذي فرضه الله. والمضارة هي الإضرار القوي، والمقصود به النهي المؤكد عن الإضرار مطلقا لا بقيد كونه قويا. بما يشمل إسكان من يتولى التضييق على المعتدة، أو تهييج الأتباع على معاملتها بما يسيئها ونحو ذلك.

وإن كن أولات حمل....شرّعت هذه الآية للمطلقات الحوامل النفقة إلى أن يضعن حملهن فيخرجن من العدة. والنفقة كذلك واجبة للمطلقة طلاقا رجعيا، لأنها كالزوجة إلا في الاستمتاع. وأوجب مالك النفقة للبائن أيضا.

فإن أرضعن لكم....لما كانت العدة تنتهي بالوضع، وتنحل العلاقة انحلالا تاما؛ فالسؤال يثور لمعرفة من يجب عليه إرضاع هذا المولود. والذي يفهم من الآية أن الإنفاق على المولود بعد ولادته بما يشمل إرضاعه واجب على الأب. فإن رضيت المطلقة بإرضاعه فهي أحق بذلك، وعلى الأب أن يمكنها من أجرة الإرضاع حسب العرف الجاري. وإن أبت وجب على الأب أن يبحث عن ظئر ترضعه، أو يهيئ له الحليب الخاص بالرضّع. وإن امتنعت الأم من إرضاعه ولم يقبل المولود غير أمه وجب عليها أن ترضعه بأجر حسب العرف.

وائتمروا بينكم بمعروف...أمر الله المطلقين والمطلقات بعد الوضع أن يتشاوروا فيما بينهم تشاورا يستجيب للمقبول عرفا بالمسامحة، والترفع عن المماكسة. فلا يشح الأب بإصراره على أن تكون الأجرة زهيدة دون ما هو متعارف، ولا تتعنت المطلقة بطلب أجرة أكثر مما هو معروف.

وإن تعاسرتم...فرض القرآن هذه الصورة وإن كانت غير مرضية، فصورها على أن الأبوين قد اشتد بينهما الخلاف في تقدير الأجرة فأبى المطلق أن يبذل لها ما اقترحت، وأبت هي أن ترضع بدون ما طلبت، فالحل أن يبحث الأب عمن يرضع له ولده. وليس له أن يجبر مطلقته على إرضاع ولده بدون ما طلبت، وإن كان ما طلبته مشطا. وفي قوله فسترضع له أخرى إيماء لمعاتبة الأم المتشددة في ترك ولدها إذا لم يبذل لها الأب ما اقترحته. وهذا من توابع الإنفاق، ومن نسبة الولد لأبيه.

7- لينفق ذو سعة...بعد عسر يسرا.

لينفق ذو سعة من سعته....من وسع الله عليه في الرزق، فإن عليه أن ينفق ما يكفي المنفَقَ عليه من طعام وكسوة وسكن ومتاع مما يحتاج إليه دون سرف. ولا يشح بقصر النفقة على أقل ما يقيم الحياة. وأما من كان رزقه قليلا، ضيقا (قدر عليه رزقه) فالواجب عليه أن ينفق بقدر ما آتاه الله، ولا يكلف فوق طاقته، فمثلا لو كان المنفق عليه من عِلْيَةِ القوم كالزوجة إذا كانت من بيت واسع الثراء، وكان الزوج غير ثري فلا يطالب إلا بما هو في حدود رزقه الذي مكنه الله منه. وإن كان قادرا على الاكتساب فعليه أن يعمل ويوفر للمنفق عليه ما هو مطالب به. وإن كان عاجزا عن الاكتساب كانت النفقة واجبة في بيت المال إن وجدت، وعلى الدولة أن توفر للفقراء من رعاياها ما تستقيم به حياتهم.

لا يكلف نفسا إلا ما آتاها... من كان فقيرا معدما لا يجد ما ينفق منه على زوجه فإن الله قد رفع عنه الإثم. ثم إن المرأة بالخيار بين أن تصبر على المقام معه على وضعه الذي هو عليه، وإما أن تطلب طلاقها. وهذا رأي مالك رضي الله عنه.

سيجعل الله بعد عسر يسرا... هذا من الثوابت التي عني بها الإسلام ليقرها في نفوس المؤمنين. هي طرد اليأس، حتى في أشد حالات الحرج والضيق. فعلى المؤمن أن يكون آملا في فضل الله، فمن كان معسرا فلا ييأس وليفتح رجاءه فيما عند الله، فقد قدر أن الحياة لا تدوم على حال، وأن الرزق بيده، يُيَسِّره حسب تقديره لمن يشاء في الوقت الذي يشاء.

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

كأين : اسم لعدد كثير غير معين، يفسره الاسم المجرور بمن بعده.

قرية : أهلها.

العتو : تجاوز الحد استكبار وعنادا.

فحاسبناها : عذبناها بكل صغيرة وكبيرة.

عذابا نكرا : عذابا فظيعا يتجاوز ما هو معروف.

فذاقت : أحست أشد الإحساس.

وبال: سوء عاقبة أمرها.

عاقبة الأمر : آخره،وأثره.

بيان المعنى الإجمالي :

انظروا في كتاب التاريخ، يخبركم أن كثيرا من القرى تمرد سكانها، واستكبروا وأعرضوا عما دعاهم إليه أنبياؤهم، رغم ما بذلوه من جهد لإقناعهم باتباع طريق الهدى، فحاسبناهم عن كل كبيرة وصغيرة ؛ الحساب الذي تبعه ما سلطناه عليهم من العذاب الشديد. وكانت نهاية أمرها نكالا فوق ما يتصور. كأنه بلغ من فظاعته أنه ينكر تسلطه. فأحست بالعذاب أبلغ الإحساس بما آل إليه أمرها. وما كان عاقبة أمرها إلا الخسارة الكبرى. فقد أعد الله لهم عذابا شديدا مقدرا تقديرا محكما يتناسب مع ما قدموا.

إنه بعد أن حذرناكم وصورنا لكم عاقبة تلك القرى، فلازموا التقوى يا أصحاب العقول الراشدة. ومن هم أصحاب العقول المستقيمة؟ هم الذين آمنوا بالله ورسوله وبما جاءهم من ربهم. إنه قد أنزل الله إليكم القرآن ذكرا يخرجكم من غفلاتكم، هذا القرآن. بعثنا فيكم رسولا، يبلغكم كتابنا كما أنزل. كله أدلة واضحة بينة. يحقق الغاية التي من أجلها أنزل ؛فيخرج الذين نفذ الإيمان إلى أرواحهم وعقولهم، وحرصوا على تطبيق ما أنزل إليهم فالتزموا القيام بصالح الأعمال، والابتعاد عن المناهي، يخرجهم من ظلمات الحيرة والكفر. وينير لهم طريق السلامة والأمن في دنياهم، ويبلغ بهم السعادة الأخروية.

إن كل من يؤمن بالله ويلتزم في حياته الأعمال الصالحة، يدخله ربه في الآخرة جنات تتخللها الأنهار، يتمتعون فيها نعيما أبديا ليس له حد ينتهي إليه. هو الخلود الذي يذهب معه خوف الانقطاع. وما أكرمه وأحسنه من رزق من عند الله

كتاب الكون يشهد أن الله هو الذي خلق السماوات السبع بقوانينها التي تسير عليها، والتي تظهر الحكمة في تركيبها وتسييرها. وكذلك هو الذي خلق الأرض مثل خلقه

للسماوات بنظام محكم دقيق، يعطي كل ذلك للعقل حجة على التدبير المحكم لخالقها سبحانه. ولم يهملها تسير على تلكم القوانين، بل إن رعايته لها تتم في كل لحظة، يتنزل عليها من ربها ما ينتظم به وجودها، وما يحدثه من التأثير والتأثر بين أجزائها. تأمُّلُكمْ في ذلك يفضي بكم إلى العلم والتيقن من أن الله قدير على كل شيء، وأنه نظم الكون تبعا لعلمه الدقيق بكل جزئية في ذاتها وفي صلتها بغيرها وما يترتب على ذلك.

بيان المعنى العام :

8-وكأين من قرية عتت...عذابا نكرا.

قرى كثيرة تتابعت في التاريخ تجبر ساكنوها، واستكبروا، معرضين عن الهدى الذي جاءهم، مصممين على رفض الحق الذي شرعه لهم ربهم.ساخرين من رسل الله الذين اختارهم الله ليبلغوهم رسالاته. فلم يمهلهم الله طويلا وحاسبهم على أعمالهم دقيقها وعظيمها. حرموا من رحمة الله وتجاوزه وكريم عفوه، كان حسابهم حسابا شديدا، يصحب إظهارَ ما عملوه تقريعُهم وفضحُهم، وسلّطْنا عليهم عذابا يتجاوز ما هو معروف لعظيم فظاعته.

9-فذاقت وبال أمرها وكان عاقبة أمرها خسرا.

لم يكن عذابهم عذابا ظاهريا بل كان عذابا بلغ من قسوته أن إحساسهم به كان أشد ما يكون عليه الإحساس. وذلك لاستعمال ذوق العذاب في أشد أنواع الإحساس بالإيلام. وتحول أمرهم وشأنهم إلى خسران مبين. شبهوا بالتاجر الذي يسعى لتحقيق الربح فيذهب كل تَجْرِه سدى ولا يجد ما يحسب إلا الخسارة التي أتت على كل ما يملك فغدا صفر اليدين. كانوا يظنون أنهم تغلبوا على الرسل وأن أتباعهم مخلصون لهم. فذهب ما يملكون وهلك معهم الأتباع. والخسارة في الآية تشمل خسران الدنيا بما سلطه الله على تلكم القرى من عذاب كالغرق، والخسف، والرجم، والبلايا التي ما لها مّن دافع

10- أعد الله لهم...قد أنزل إليكم ذكرا.

هيأ الله لهم عذابا شديدا يلتهمهم جميعا، ولا يضيق بهم **(يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد)**[1] **لا يفتّر عنهم وهم فيه مبلسون** سورة الزخرف آية 75 لا يخفف عنهم وهم فيه آيسون. كشفنا عما هيأناه للعتاة المتجبرين الرافضين لهدى الله، كشفنا ذلك لننبهكم ولنرشدكم إلى ما فيه خيركم. فأقبلوا على تقوى الله الجامعة

---

[1] سورة ق آية 30

لكل خير، بتطبيق ما أمرتكم به، واستحضاركم للقرب منه، ومراقبة أعمالكم حتى تكون على وفق الشرع، وخصهم بندائهم بيا أولي الألباب، يا أصحاب العقول الراشدة الذين انتفعوا بما رزقهم الله من قوى الإدراك. فإيمانهم أمارة رجحان عقولهم.

قد أنزل الله إليكم ذكرا...مما يدفعهم إلى التقوى ويحببها إلى نفوسهم ليطمئنوا إليها، أن الله قد أنزل إليكم ذكرا" القرآن " جاءكم من منازل رفيعة، جامعة للشرف. يذكركم ويرفع عنكم الغفلات التي تطوح بكم عن سبيل التقوى، أو تنسيكم العقيدة وما تقتضيه من الاستقامة وحسن السلوك، ويذكركم بما شرعه فيه من الأحكام لتقوموا بأداء ما أمرتم والانتهاء عما نهيتم عنه. والقرآن وإن كان قد أنزل إلى جميع البشر، إلا أن تخصيص المؤمنين أولي الألباب به، لأنهم الذين انتفعوا به. فغيرهم كأنه مهمل غير ملتفت إليه.

11- رسولا يتلو....قد أحسن الله له رزقا.

رسولا بدل مبين لما اشتمل عليه الذكر فالرسالة المنزلة بالقرآن تحققت بمحمد الرسول، والذكر هو الرسول محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. وإذ صرح بما اشتمل عليه الذكر، وهو الرسول كشف عن خاصيته التي يتميز بها وهو أنه يتلو عليكم آيات القرآن التي بلغت من البيان والتأثير المبلغ العالي. ولم يكن ذلكم البيان للاستمتاع ببيانه فقط، ولكن هو مع ذلك المؤثر في العقول والقلوب، يحول المتأملين فيه إلى وضع يرسّخ الإيمان به في أرواحهم وعقولهم، ويحبب إليهم القيام بالأعمال الصالحة فيألفونها. فيتحولون من ظلام التردد والشك والأنانية، والأسئلة المحيرة التي لم يكن ليجد لها الناس لها إجابة، ما هو المبدأ ؟وما هو المصير؟ وإذا هو النور الذي يبدد تلكم الظلمات فيعيش المؤمن مع البشر ومع إخوانه المؤمنين، ومع الكون كله، يتفق معهم في المبدأ والنهاية التي ليست عبثية، موت وعدم. ولكنها حياة يسمو فيها الإنسان ويتنعم بمقدار ما استقام في الحياة، أو ينزل إلى منازل المقت والعذاب.

ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا...تم التصريح بالعاقبة الرضية لمن آمن وعمل صالحا. فكانت قاعدة عامة مستندة إلى العدالة الإلهية والفضل الرباني :كل من يؤمن بالله فيتطهر من الشرك، ويطبق ما جاءه من ربه فيؤدي ما أمر به على الوجه الذي يرضاه رب العالمين، ويبتعد عما نهي عنه. يدخل كل فرد من هؤلاء جنات تتخللها الأنهار، مع الاطمئنان إلى أن إقامته فيها إقامة دائمة لا تنقطع، فلا يخاف الفناء الذي اتصل بكل نعيم في الدنيا.

وإذ صورت الآية ما ينتظر المؤمن العامل عملا صالحا من تكرمة وفضل، خصته بهذا التعليق : أوضح ما يوصف به أنه رزِقٌ لا نقص فيه، ونعيم لا ينغصه شيء، إن الله رزق فأحسن الرزق للمؤمن الصالح.

12-الله الذي خلق...بكل شيء علما.

تكرر الأمر بتقوى الله والتذكير بها من أول السورة، وقد حققنا أن التقوى تتمثل في استحضار الإنسان صلته بالله استحضارا يدفعه إلى الامتثال بفعل الطاعات والابتعاد عن المنهيات. فخيوط الإمداد حاضرة دوما عند المتقي. فجاءت هذه الآية مظهرة لهذه الصلة بإبراز أن الله المُتَّقَى هو الذي خلق سبع سماوات. هذه السماوات التي نتحد في مشاهدتها، ولكن تفصيل هذا العلم يختلف فيه الناس كثيرا بين من لا تتجاوز معرفته ما تنقله له حاسة البصر. وبين المتخصصين في علم الفلك، والفيزيا، الذين تقرب لهم المناظير ما يخفى على من لا يملك تلكم الآلات، وهي أجهزة تتطور باستمرار وتدقق بصفة متتابعة. وما يزال المجهول أكثر بكثير من المعلوم. كما أن الضوابط الفيزيائية تهدي الناظرين إلى ما خفي عن البصر وعن الآلات. فالسبع سماوات حقيقة أخبر عنها خالق الكون. وذلك يخرج الإنسان من الحيرة عمن خلق هذا الكون، فالله خلقه، وهو العالم العلم الكامل بما خلق. وما تزال المجرات التي ثبتت بواسطة الأجهزة المتطورة، أو ثبتت حسابيا حسب قوانين الكون، تتحدى الإنسان ليواصل البحث ليكتشف بعضا من أسرارها. فالسماوات السبع حقيقة ما تزال غامضة.

ومن الأرض مثلهن...الظاهر أنه خلق من الأرض مثل السماوات. والمماثلة تحتمل مفاهيم من التماثل :

أ –أن الله خلق الأرض مثل خلقه للسماوات، وأجراها على قوانين محكمة تنادي بقدرة الخلاق وعلمه، وحكمته. وأنها لم تخلق عبثا، فهي سائرة سير السماوات إلى أجلها المحدد. قال تعالى: (**يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات.**)[1] فالمثلية تتنزل على الخلق، وعلى الحكمة في الخلق، وعلى المصير الواحد، وعلى ما يسكب في روح المؤمن بالنظر فيه مزيدا من الإيمان.

ب- أن شكل الكواكب التي تسبح في السماوات شكل كروي أو ما يقرب منه، بينها تجاذب على مقدار مضبوط يحفظها في مساراتها، ويحميها في تلك المسارات من التصادم.

---

[1] سورة إبراهيم آية 46

جـ - أن المماثلة في العدد، فالأرضون سبع. وهذا الاحتمال بعيد في نظري، لمّا كان المقصود بسبع سماوات ما يزال غامضا كما بيناه.

يتنزل الأمر بينهن...يتنزل أمره، وحكمته في تسييرها، وفي ما يترتب على وضع كل منها بالنسبة لغيره وما يترتب على ذلكم الوضع من التطورات التي تحدث في كيانها، وما يترتب على ذلك أيضا من الآثار في غيرها. فلا يحدث شيء في السماوات ولا في الأرض إلا حسب ما قدره الله ونفذه.

لتعلموا أن الله على كل شيء قدير....كتاب الكون ينطق كل حرف من حروفه بما يفيد الإنسان علما بالقدرة التي تنفذ في كل جزء من أجزاء هذا الكون، وأن المسَيِّر للعوالم هو الله، يسيرها لا على حسب المصادفة، ولكن حسب العلم الدقيق الذي لا يخفى عليه الأثر القريب ولا الأثر البعيد.

سورة التحريم

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف وكتب التفسير والسنة. لما تضمنته من التحريم الذي سئل عنه النبي صلى الله عليه وسلم سؤال عتاب. وروي تسميتها أيضا " ألِمَ تُحَرِمْ " أخذا من نص الآية الأولى. وهي سورة مدنية باتفاق.ورتبتها حسب ترتيب المصحف السادسة والستون. وحسب ترتيب النزول الخامسة بعد المائة. نزلت قبل سورة الجمعة، وبعد سورة الحجرات.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ
﴿١﴾ قَدۡ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمۡ تَحِلَّةَ أَيۡمَٰنِكُمۡۚ وَٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذۡ أَسَرَّ
ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ حَدِيثٗا فَلَمَّا نَبَّأَتۡ بِهِۦ وَأَظۡهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ عَرَّفَ بَعۡضَهُۥ
وَأَعۡرَضَ عَنۢ بَعۡضٖۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتۡ مَنۡ أَنۢبَأَكَ هَٰذَاۖ قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡخَبِيرُ
﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ
وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ بَعۡدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن
طَلَّقَكُنَّ أَن يُبۡدِلَهُۥٓ أَزۡوَٰجًا خَيۡرٗا مِّنكُنَّ مُسۡلِمَٰتٖ مُّؤۡمِنَٰتٖ قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ
سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

فرض: بين وعين.

مولاكم : الناصر، والرؤوف الميسر.

تحلة : التحلل من اليمين.

أسر: جعل المخاطب ذا سر له يخبره بما لا يريد إفشاءه.

صغت : مالت إلى الرشد.

التوبة : الإقلاع عن الذنب والندم عليه، والعزم على عدم العودة.

تظاهرا : تتعاونا عليه.

صالح : الفريق الصالح. المطهرون من النفاق.

بعد ذلك : مع ذلك.

ظهير : مؤيد ومعاون.

تائبات: يسرعن للتوبة لقوة يقظة أرواحهن.

بيان المعنى الإجمالي :

نداء يجلب المنادى النبي محمدا ﷺ للإقبال على ما سيرد عليه. هو سؤال يتضمن عتابا، لماذا تحرم على نفسك شيئا أحله الله لك. فإن الله إذا وسَّع على عبده يكون من واجب العبد شكر المنعم على نعمته لا رفضها رفضا قاطعا. ولا يبطئ القرآن بإبراز السبب الدافع لهذا التحريم، وهو أنه ﷺ يبتغي من ذلك أن يرضي بعض أزواجه، ليكون هدوء البيت أعون له على القيام بهمته. ثم رفع كل أثر لهذا العتاب بالتذكير بأن الله متصف بالمغفرة الماحية للتقصير، وأنه يرحم عباده فلا ينزل بهم عن مقامهم الذي كانوا عليه قبل مغفرته.

واذكر مصرحا بما أومأنا إليه في الآيتين السابقتين : ذلك الظرف الذي خص فيه حفصة بحديث: أنه حرم مارية القبطية أم ولده إبراهيم. وأمرها أن لا تخبر بذلك أحدا. أسرعت حفصة إلى عائشة تخبرها بالسر الذي أودِعَتْهُ.ويأتي الوحي من الله يطلع النبي ﷺ على إفشاء السر. فدعا حفصة ولامها على ما أعلمت به صديقتها عائشة،وصرح لها بشيء من دقائق ما أخبرت به.تحيرت كيف اطلع خاصة وأنها لا تشك أن الحديث دار بينها وبين عائشة، وأن عائشة لا يُتَصَوَّرُ أن تخبره به.فسألت مدهوشة :من أنبأك بذلك ؟ كان الجواب حازما : نبأني العليم بكل شيء الذي لا يخفى عليه سر ولا جهر. الذي تستوي عنده الظواهر والبواطن.

بعد هذا اللوم دعاهما [حفصة وعائشة]القرآنُ للتوبة الخالصة لله من سلوكهما مع الرسول، وأنهما إن تابتا توبة نصوحا قبلت توبتهما، وتكون قلوبهما قد مالت إلى الطريق الراشد. ثم حذرهما بأنهما إن واصلتا التألب عليه وتقديم غيرتهما وتحزبهما، فإنهما لا تضُرَّان رسوله شيئا، وكيدهما محبط لأن الله ناصر رسوله، وجبريل عليه السلام يبلغه ما يحبك خلفه. والمؤمنون الصالحون ملتفون حوله يؤيدونه. وملائكة السماء معه يقوونه.ثم حذرهن من أنهن إن واصلن ما هن عليه من التحزب، أن يضيق صدره بهن، فيأذن الله له في طلاقكن، وأن ييسر له التزوج من نساء خير منكن، يجمعن بين صفات الكمال التالية : يكن مسلمات لله ولرسوله، عقيدتهن على أنقى ما يمكن من الصلاح، مطيعات لله ولرسوله، يسرعن إلى التوبة

لشدة يقظتهن، يتعلقن بالعبادة أشد التعلق، لهن شرف الهجرة، من الأبكار ومن الثيبات.

بيان المعنى العام :

مقـــــــدمة

روى البخاري بسنده في سورة التحريم وفي باب الطلاق عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب ابنة جحش ويشرب عندها عسلا، فتواصيت أنا وحفصة : أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل له: إني لأجد منك ريح مغافير، أكلت مغافير؟ فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال : لا بأس، شربت عسلا عند زينب ابنة جحش ولن أعود له. فنزلت - **يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك- إلى إن تتوبا إلى الله** – لعائشة وحفصة. وذكر ابن حجر أن في رواية هشام، وقد حلفت لا تخبري بذلك أحدا. كما ذكر عن عائشة : أن نساء النبي كن حزبين : أنا وسودة وحفصة وصفية في حزب، وزينب ابنة جحش وأم سلمة والباقيات في حزب. وهو ما يرجح أن زينب هي صاحبة العسل.- وذكر ابن قتيبة أن المغافير جمع مُغْفور. والمغفور صمغ حلو، له رائحة كريهة. [1]- كما روي بسند ضعيف أن النبي ﷺ اختلى بسُرِّيَتِهِ مارية أم ولده إبراهيم في بيت حفصة، فوجدته حفصة معها وكانت حفصة غابت إلى بيت أبيها فقالت : ما صنعت بي هذا من بين نسائك إلا من هواني عليك. فقال لها : لا تذكري هذا لعائشة فهي علي حرام إن قربتها.قيل : فقالت حفصة : كيف تَحْرُمُ عليك وهي جاريتك ؟فحلف لها ألا يقربها فَذَكَرَتْهُ حفصة لعائشة فآلى (حلف على عدم قربان نسائه)شهرا فأنزل الله تعالى : **يا أيها النبي لم تحرم...**

1-يا أيها النبي لم تحرم...غفور رحيم.

افتتحت الآية بتوجه النداء إلى النبي ﷺ ، الذي يدل على أن ما سيعقب النداء يتعلق به أولا. وكان مضمون النداء سؤالا فيه عتاب تلطف القرآن في توجيه العتاب لرسوله، كما تلطف في عتابه لمّا أذن للمستأذنين بالتخلف في قوله تعالى (**عفا الله عنك لم أذنت لهم**[2]) يقول الله لنبيه لِمَ؟ لَمّا كان لا يوجد مبرر لتحريم ما حرمتَ على نفسك فلماذا حرمت ؟ وما روي في أسباب النزول يفسر ما حدث. فحسبما رواه البخاري عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وكانت ذكية جدا، ولها من

[1] فتح الباري ج 11ص297/293

[2] سورة التوبة آية 43

قلب رسول الله ﷺ مكانة لا يدانيها فيها أي من أزواجه، وكانت زعيمة الشق المناوئ لزينب ابنة جحش، التي كانت تدانيها في الجمال. وعلمت عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشرب عند زينب عسلا، فحملتها الغيرة منها أن تتآمر مع الشق الذي هو من حزبها لتُبَغِّضَ إلى النبي ﷺ معاودة تناول ما كان يشربه في بيت زينب، وهي تعلم أن النبي ﷺ حريص على أن يكون طيب الرائحة، فأمرت نساء النبي اللاتي كن من حزبها، أن ينكرن رائحته إذا دنا منهن، وأنه عندما يجيبهن أنه ما شرب إلا عسلا، يقلن له : لعل النحل رعت العرفط وهو صمغ حلو ثقيل الريح يتأثر عسل النحل التي ترعى منه برائحته. فحرَّم النبي ﷺ تناوله في المستقبل. ولما دخل بيت زينب رضي الله عنها قالت له: ألا نسقيك من العسل ؟ فقال: لا حاجة لي به. قالت سودة لما بلغها امتناعه : والله لقد حرمناه. فقالت لها عائشة : اسكتي !

الحادثة التي سجلها القرآن تفيد أن نساء النبي ﷺ كن حسب الطبيعة البشرية يَغَرْنَ عليه، وتود كل منهن أن تستأثر به دون صويحباتها. وبلغت الغيرة إلى المؤامرة التي رويت تفاصيلها على صورتين. كان النبي ﷺ بشرا سما به رب العزة إلى أن يكون رسولا دون أن يحوله إلى جنس آخر غير البشر. ومما يساعده على القيام بمهمته في الهداية الطمأنينة العائلية. فبمجرد ما وجد أن شربه العسل ببيت زينب قد أحدث مشكلة، رغم أنه أراد أن يهدئ الجو بتحريمه العسل. وأن الحزبين قد تأجج الخلاف بينهما، فآلى منهن جميعا عقابا لهن حتى يقمن بدورهن في مساعدته على نشر الإسلام، ولا يصرف وقته وجهده في خصوماتهن الناشئة عن الغيرة.

هذا الاجتهاد منه في تحريم الانتفاع بما أحله الله له، وليس تحريما لحلال تغييرا لحكم الله، ولكنه امتناع مؤكد بيمين، هو ما عاتبه الله عليه عتابا لطيفا، وقرن بالعتاب تسجيل العذر الحامل عليه "**تبتغي مرضاة أزواجك**" وثلث بالتذكير بأن الله غفور يمحو ما وقع فيه المكلف من تجاوز، رحيم بعباده فلا يخرجهم من دائرة القرب لاجتهاد يقصر عن مرتبة الكمال.

2- قد فرض الله لكم...وهو العليم الحكيم.

لما كان النبي ﷺ التزم الامتناع عما حلف عليه تعظيما لليمين وبِرًّا بقسمه، أو للعهد الذي صرح به،فقد ذكَّره ربه بأنه قد أثبت وبين : أن المؤمن إذا حلف ووجد نفسه في حرج من اليمين، فإنه يمكنه التحلل من يمينه بالكفارة. إذ الكفارة مظهرة أن الحالف مقدر لليمين ملتزم بالوفاء، وأن الذي حرَّج اليمين هو الذي شرع الكفارة التي بإخراجها يكون الحالف في حل من الالتزام، كما شرع سبحانه الاستثناء من

اليمين، بقول الحالف عقب يمينــه " إن شــاء الله "وبالاســتثناء يكــون الحــالف كأنــه لــم يحلف. فأعلمه ربه أن التكفيــر رخصـــة محققـــة لتعظـــيم القســـم، وفيهـــا تيســـير علـــى المؤمنين. ذلك أن الله هو المتولي تدبير أموركم وناصركم، وهــو الـــذي يفســح لكــم مـــن سعة فضله ما يخرجكم من المضائق مــوفري التقــوى والـــورع. وهــو ســبحانه العلــيم الذي يعلم ما يصلحكم فيشرع لكم ويسلك بكم بحكمته ما هــو خيــر لكــم فــي الحاضــر والمآل، مراعيا الحق لا الأوهام والخيالات.

3- وإذ أسر النبي...نبأني العليم الخبير.

هذه الآية تفصل مصرحة بما أشارت إليه الآية الســابقة، لــم تحــرم مـــا أحــل الله لــك، فلنتابع هذا التفصيل كما جاء في هذه الآية كلمة كلمة.

وإذ أسر النبي : واذكر ما حدث عندما أخبر النبـــي ﷺ ، موصــيا المخبَــر بالكتمــان لمــا حدثه به. ومَنْ حَدَّثَ آخر مع إعلامه بأنه سر، لا يكشــف مـــا ســمعه، فــلا يحــل لـــه أن يكشف عنه، إذا كان السر لا يترتب عن كتمانه ضرر بـــالمجتمع كبيــر. وقــد يفهــم مـــن طريقة الإخبار أنه سر، كأن يتحــدث بصـــوت خافــت، ويغلـــق البـــاب، أو يلتفــت يمنـــة ويسرة عند الإخبار.

إلى بعض أزواجه : هذا البعض كما ثبت بالسنة هـــي زوجـــه حفصـــة بنـــت عمـــر بـــن الخطاب ، وكانت من حزب عائشـــة كمـــا ذكـــر ســـابقا. ولـــم يصـــرح باســـمها لأن مغزى القصة لا يتوقف على معرفة عـــين المفشـــية. وأبـــرزت فـــي القصـــة فـــي موقـــع الملام لإفشائها سر زوجها. وفـــي ذلـــك تأديـــب لنســـاء المـــؤمنين ليحـــافظْنَ علـــى ســـر أزواجهن، إذ هن موضع سرهم، ويطلعن على ما لا يطلع عليه غيرهن.

حديثا: المراد بالحديث: كلاما : وهو أنـــه حـــرم علـــى نفســـه قربـــان سُـــرِّيَتِهِ وأم ولـــده إبراهيم، مارية القبطية.

فلما نبأت به وأظهره الله عليه – لم تحفظ حفصة ســـر النبـــي ﷺ فـــأخبرت بـــه عائشـــة، على مـــا كـــان بينهمـــا مـــن التناصـــر والتحـــزب. وأخبـــر الله رســـوله تبعـــا لعنايتـــه الموصولة، فكشف له أن السر المكتتم قد أفضت به حفصة إلى عائشة.

عرف بعضه وأعرض عن بعض : كان موقف النبـــي ﷺ بعـــد أن كشـــفت حفصـــة ســـره، أن أوقف حفصة على ما بعـــض مـــا عرفـــه الله بـــه ممـــا دار بينهـــا وبـــين عائشـــة. إذ تواصل التآمر في بيته وبين نسائه، مما يذهب براحـــة الملجـــأ الـــذي يلجـــأ إليـــه رســـول الله ﷺ ، ويحوله إلى مشاكل ونزاعات ويوقـــد نـــار الفتنـــة. عرفهـــا بـــبعض دقـــائق مـــا قالت، وأعرض عن تعريفها بكل ما دار بينهما تكَرُّمًـــا منـــه ﷺ، حتـــى لا يجعـــل تأديبهـــا

تقريعا، وهو ما يجري على سمو خلقه ﷺ . قال سفيان الثوري : ما زال التغافل من فعل الكرام. وقال الحسن البصري : ما استقصى كريم قط.

قالت من أنبأك هذا – انزعجت حفصة وقد فهمتْ من بعض دقائق الخبر أن ما دار من حديث بينهما علم به النبي ﷺ مفصّلا، واستغربت أن يعلم به إذ ما دار بينهما وبين عائشة لا يتصور أن تفضي به عائشة إلى النبي ﷺ ، وبمواجهتها بإفشاء السر بطريقة لا يمكنها أن تعتذر عنه بشيء، وتيقظت إلى أن ما أقدمت عليه فيه تقديم لعواطفها وإخلاصها لصديقتها على واجب حفظ أسرار رسول الله ﷺ ، خاصة وقد أوصاها بالكتمان. فلم تجد إلا أن قالت له: من أنبأك بذلك؟

قال نبأني العليم الخبير– أتى الجواب قاطعا، ومفضيا إلى ما عمل رسول الله على الوصول إليه. وهو أن يعلمها ويعلم كافة نسائه، أنه بمنزلة من ربه يطلعه على ما يجري في السر بين نسائه، فَلْيَهبْنَ ذلك ويَنكففْنَ عن متابعة غيرتهن وعواطفهن؛ فإن حياتهن تحت رعايته ﷺ هي أفضل رعاية. وفي تذكيرهن بأن الذي أعلمه هو العليم الخبير دون أن يقول: الله ، إيماء إلى أن الذي يُعْلِمُه هو العليم بكل شيء الذي وسع علمه السر والجهر. والخبير الذي يعلم البواطن والظواهر معرفة سواء. وإنه كما جاء في قوله تعالى: **(عالم الغيب فلا يطلع على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول)**[1]

4- إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما...بعد ذلك ظهير.

أعقب القرآن تسجيل تجاوزهما لواجب مساعدة الرسول على محض نشاطه للدعوة، وتقديم غيرتهن وما يقتضيه التحزب على المهمة النبيلة التي تيسرت لحفصة وعائشة أن كانتا تعيشان زوجين لنبي الرحمة، فدعتهما الآية من طرف خفي أن تقلعا على ما كانتا عليه، وأن تبادرا إلى التوبة بالندم على ما كانتا عليه، والعزم على سلوك جديد يوفر للنبي ﷺ السكن والراحة في بيت النبوة.وأن الله يقبل توبتهما لأن قلوبهما قد مالت إلى الخير، ورَعْي حق النبي صلى الله عليه من حسن المعاشرة.

وإن تظاهرا عليه – وفي المقابل إن تُصرّا على العود إلى التألب عليه، والجري على ما يقتضيه التحزب، وتقديم عواطفكما على حسن المعاشرة، فاعلما أن الله ناصر عبده محبط ما تتآمران به، كاشفه لرسوله. وأن نصرته عزيمة من عزائمه تعالى يسعى كل الصالحين لتنفيذها. جبريل أمين الوحي ينقل له عن رب العزة ما

[1] سورة الجن آية 27

يجري خلفه في السر. والصالحون من المؤمنين الذين يعرفون مقام رسولهم، يؤيدونه ويقفون معه، ويؤانسونه ويعينونه على أداء مهمته الشريفة. وملائكة الله مع ذلك يد واحدة على من يعاديه، أو يشوش عليه حياته. وفي هذا السرد المتتابع ما يدل على مقام النبي ﷺ عند ربه، وإدراك أفضل المخلوقات لهذه المنزلة، فهم لا يُسْلِمونه لمن يريد أن ينغص عليه حياته التي أقسم بها رب العزة "**لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون**" وتوجه له الخطاب من الله بقوله : (**فاصبر لحكم ربك فإنك بأعيينا**)[1] فإنك بمحل العناية منا نرقب أحوالك صغيرها وكبيرها، كما يوحي به لفظ أعين جمعا.

5- عسى ربه إن طلقكن...ثيبات وأبكارا.

تحذير شديد لحفصة وعائشة ولبقية أزواجه ﷺ من أن يضيق صدره صلى الله عليه وسلم من مؤامراتهن فتأذن له في طلاقكن فيطلقكن.

عسى ربه إن طلقكن....زجر قوي لهن أنه من الاحتمال القريب، أن يأذن له ربه في طلاقكن، وأن يهيء له بعد فراقكن أزواجا تستقر حياته معهن. ليستيقظن من التهاون بالطمأنينة التي يتحتم أن يجدها النبي ﷺ في بيته، فإنها أمر مرعي من الله. ولْيَتَفَطَّنَّ إلى أنه من الممكن أن يأذنه الله في طلاقكن، وأن يبدله منكن نساء يبلغن قمة الفضل إذا تزوجهن يكنَّ خيرا منكن. إن ميزتكن على بقية نساء المؤمنين هو بما يسره الله لكن أن كنتن نساء له مقامكن مقام أمهات المؤمنين. والله ييسر لمحمد رسوله أزواجا خيرا منكن يجمعن بين الصفات التالية:

1) **مسلمات**، الإسلام والطاعة لما يشرعه رب العالمين.

2) **مؤمنات**، والإيمان فتكون عقولهن قد صفت من كل شك، وأنست باليقين في العقيدة الحق.

3) **قانتات**، قائمات بالطاعة على أكمل وجه وأحسنه وأتمه، لا يشغلهن شيء عن الإخلاص في الطاعة .

4) **تائبات**، يقظتهن لحساب أنفسهن قوية يسرعن بالتوبة إذا ما بدا لهن تقصير في جنب الله .

5)**عابدات**، تحلين بعمق الإحساس بالعبودية لله .

6) **سائحات**، يمكن أن يراد بها مهاجرات، لأن للمهاجرات الفضل في الإسلام على غيرهن ممن لم يهاجرن، وكل أزواجه ﷺ مهاجرات. فلو أبدله ربه بعد طلاقهن

---

[1] سورة الطور آية 48

فسيبسر له أزواجا مهاجرات. ويمكن أن يفهم سائحات على معنى صائمات، يتقربن إلى ربهن بكثرة الصيام.

7) **ثيبات وأبكارا.** الثيب هي التي تزوجت وذهبت بكارتها، والبكر التي ما تزال بكارتها لم تفتض. وكانت عائشة الوحيدة التي تزوجها بكرا، وبقية نسائه ﷺ تزوجهن ثيبات.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُ عَلَيۡهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٞ شِدَادٞ لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ۝٦ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعۡتَذِرُواْ ٱلۡيَوۡمَۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٨ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ۝٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

غلاظ: قساة.

شداد : الشدة القوة على تنفيذ ما أمروا به في عذاب أهل النار.

لا تعتذروا : لا تتكلفوا تقديم الأعذار.

نصوحا : توبة مخلصة لا تردد فيها، مع العزم على عدم العودة.

الخزي : المكروه الذي يدع الإنسان خجلا وأشده دخول جهنم.

واغلظ عليهم : عاملهم بالشدة.

المأوى : المسكن.

بيان المعنى الإجمالي :

النداء الأول في الآيات المفتتحة بيا أيها، هو نداء موجه للمؤمنين ينبههم إلى وقاية أنفسهم وأهليهم من عذاب نار عظيمة. وقودها الناس فيعذبون بها وتحمى بهم، كما تحمى بالحجارة التي تتفجر فيحدث انفجارها نارا حرها فوق ما يتصور. أوكل الله

بها ملائكة قساة، أشداء في تنفيذ ما أوكل إليهم، لا يعصون الله في تنفيذ أمره، ويسارعون إلى تطبيقه.

وينادى الكفرة وهم يتقلبون في النار فيقول لهم ملائكة العذاب : لا تتكلفوا البحث عن عذر يخفف عنكم ما فعلتم في دنياكم، هو مكشوف ظاهره وباطنه عند الله، يجزيكم عما كنتم تفعلون في الدنيا.

والنداء الثالث موجه للمؤمنين، يخاطبهم الله داعيا لهم أن يسرعوا بالتوبة عما ارتكبوه من المعاصي، وأن يعودوا إلى طريق الاستقامة تصحبهم الندامة عما قدموا من آثام، عازمين على عدم التلوث بها من جديد، مطهرين أنفسهم من التعلق بما زينته لهم شهواتهم. إن الله كريم، ترجون بتوبتكم أن يمحو عنكم سيئاتكم، ويدخلكم جنات تتخللها الأنهار. في اليوم الذي يكرم فيه الله النبي والذين ثبتوا على الإيمان معه. يخصهم ربهم في ذلك اليوم بنور يسعى أمامهم وعن أيمانهم. يبلغ إحساسهم بالسعادة حدا يبتهلون معه إلى الله أن يتم عليه التنعم بهذا النور. وأن يستر عليهم ما ارتكبوه من تقصير في الدنيا حتى تكون صحائفهم نقية من أثر أي إثم. إنك الله سبحانك وحدك القادر على تحقيق دعائنا.

ونداء رابع موجه إلى النبي ﷺ يعرفه الله أنه مأمور بجهاد الكافرين والمنافقين جهادا شديدا. وفي هذا الإعلان ما يرعب الكافرين، بعلمهم أن النبي ﷺ سيعاملهم بما يقطع مؤامراتهم وإيذاءهم للمسلمين، كما يرعب المنافقين حتى يقلعوا عن الجوسسة ونقل أخبار المدينة إليهم. وأن الله سيفضحهم لرسوله إن واصلوا خبثهم. وأوعد الفريقين أن جهنم مسكنهم المعد لهم يوم القيامة ؛ وما أسوأه مسكنا.

بيان المعنى العام :

6-يا أيها الذين آمنوا قوا...ويفعلون ما يؤمرون.

نداءات أربعة تتابعت في الآيات التالية :

النداء الأول توجه إلى الذين آمنوا يعظهم ويذكرهم بأن يعملوا على وقاية أنفسهم، ووقاية أهليهم من عذاب النار. فلا يتراخوا في طاعة الله بترك الواجبات أو اقتحام ما نهى عنه. وأن يحسنوا القيام على تربية أولادهم ومن يتبعهم على الطاعة لله ولرسوله، ليكون الامتثال وقاية لهم من النار. وهو ما يرد ردا صريحا على من ذهب إلى أنه لا يضر مع الإيمان معصية.

وقودها الناس والحجارة... تذكير بطبيعة النار العظيمة التي حذرهم منها، أن وقودها الناس والحجارة، الناس يتعذبون بإحراقها لهم، والحجارة تبعث بنار أشد ما يكون حرارة، وفيما وصلت إليه الاكتشافات الحديثة من انبعاث نار شديدة من

انفجار نواة حجارة الأورانيوم، ما يقوم شاهدا على أن القرآن من عند الله وهو من الإعجاز العلمي في القرآن. فما كان الناس يتصورون وقت نزول الآية أن الحجارة تنبعث من انفجار نواة الأورانيوم نارا مهولة في حرارتها تفوق كل تصور.

عليها ملائكة غلاظ شداد – مع كون النار شديدة الحرارة يعذب بها البشر الذين لم يقوا أنفسهم وأهليهم حر نارها، فإن من يدخلها لا مفر له ولا يستطيع الخروج منها. إذ وكّل الله بسكانها ملائكة قساة كأشد ما تكون القسوة، لا يلينون لاستغاثة أصحاب النار. وأعطاهم الله القوة الشديدة التي يستطيعون بها معاملة أهل النار أسوأ معاملة.

لا يعصون الله... أوكل الله لملائكة النار تعذيب داخليها، فلا يدور بخلدهم أن يتراخوا فيما أمروا به، وهم كأحرص ما يكون على تنفيذ ما أوكل إليهم. والجملة المنفية " **لا يعصون الله ما أمرهم** " والجملة المثبتة " **ويفعلون ما يؤمرون** " مفهومهما واحد، فأفادتا تأكيد مضمونيهما، مع الإفصاح عن الطاعة وعدم العصيان.

7-يا أيها الذين كفروا...ما كنتم تعملون.

النداء الثاني نداء من الملائكة الموكلين بجهنم الغلاظ الشداد، للمعذبين فيها يقولون لهم ما يدخل في قلوبهم اليأس من أي حيلة للخروج من النار: لا تحاولوا الاعتذار اليوم، لأن كل ما قدمتم مسجل بصفة مضبوطة في اللحظة التي عصيتم فيها، مكشوف ظاهره وباطنه. وجزاؤكم على وزان ما كنتم تعملون في الدنيا. لم يظلمكم الله شيئا.

8-يا أيها الذين آمنوا توبوا...على كل شيء قدير.

النداء الثالث نداء يلتقي مع النداء الأول، فإذا كان النداء الأول يدعوهم إلى وقاية أنفسهم مما يفضي بها إلى دخول النار، فيحمون أنفسهم من الكفر ومن ارتكاب المعاصي، فإن هذا النداء يعالج أوضاعهم بعد تجاوزهم لحدود الله وارتكابهم للمعاصي. يدعوهم إلى الإسراع بالتوبة النصوح، وهي التوبة التي يكون التائب فيها جامعا لشروط التوبة التي يرجى معها التجاوز عن ذنوبه. روي عن الإمام علي كرم الله وجهه أنه سمع أعرابيا يقول: اللهم إني أستغفرك وأتوب إليك فقال: يا هذا، إن سرعة اللسان بالتوبة توبة الكذابين. قال: وما التوبة ؟ قال : يجمعها ستة أشياء:

1)على الماضي من الذنوب الندامة.

2) وللفرائض الإعادة.

3) ورد المظالم.

4) واستحلال الخصوم.
5) وأن تعزم على أن لا تعود.
6) وأن تذيب نفسك في طاعة الله كما ربيتها في المعصية، وأن تذيقها مرارة الطاعات كما أذقتها حلاوة المعاصي.

ويقوم مقام رد المظالم استحلال المظلوم حتى يعفو. ويُجْمِع العلماء على أن التوبة من الكفر مقبولة عند الله. وأما التوبة من المعاصي، فالذي عليه جمهور أهل السنة أن قبول التوبة مرجو رجاء مؤكدا. وعن الإمام الأشعري أن قبول التوبة الصادقة مقطوع به سمعا. وعن المعتزلة أنه مقطوع به عقلا.

عسى الله أن يعفو عنهم... إن التائب على باب الرجاء في قبول توبته، ومحو السيئات التي تاب منها، وهدايته إلى الاستقامة فيما يستقبل من أمره. وبقاؤه على هذا المستوى من زكاء النفس ومراقبة الله في أعماله تدعو تيقظا ومواصلة. فعفو الله عنه مرجو الحصول، فليحذر من العودة إلى الإثم الذي تاب منه. والتوبة لا ترفع الواقع، فالتائب قد حصل منه التجاوز بلا شك، فإذا استيقظ وطهّر نفسه بالندم، فإن الله بفضله يمحو عنه ما فعله من الإثم.وبتطهيره من الآثام التي تاب منها، وحرصه على الاستقامة فيما يستقبل من أمره، ينضم إلى المرضيّ عنهم من الرب الكريم، فيدخل التائبين مع الصالحين جنات تتخللها الأنهار.

يوم لا يخزي الله النبي... إن دخول الجنات الجارية الأنهار من تحتها سيتم في اليوم الذي يكرم الله رسوله بالجزاء العظيم، ويكون موقفه موقف الشرف والتقديم، فيبعد عن الرسول وعن المؤمنين الذين ثبتوا معه على التوحيد والتقوى، يبعد عنهم مواقف الذل والمهانة وما يتبعها من الزج في جهنم.

نورهم يسعى... ثم أردفت الآية نوعا آخر من التكريم يختص به الرسول والذين ثبتوا على الإيمان معه، هو أن الله يعطيهم من فضله نورا واضحا يشع أمامهم وعن أيمانهم، فترى مواكبهم وهي سائرة إلى منازلهم ينبعث أمامها نور وعن أيمانهم نور. هل هذا النور هو النور الذي يسعف به الصالحين على الصراط، أو هو نور يسعفهم به في الموقف. على الحالتين يصحب النور والضياء الشعور بالأمن، والسير على هدى. ولذلك يعبرون عن غبطتهم بوضعه الذي هم عليه بالابتهال إلى الله أن يواصل عليهم نعمة النور هذه باتساعها ومضاعفتها. كما يسألون أن يديم عليهم ما أكرمهم به أيضا من غفران ذنوبهم ومحو آثارها محوا لا رجوع بعده. وهو من أدبهم مع الله، باعترافهم أن محو جميع ذنوبهم هو من فضله، فهم يدعونه أن يواصل فضله عليهم، على أنه أمارة عن الرضوان، ورضوان من

الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم. ويختمون ابتهالاتهم باعترافهم بأن غفران ذنوبهم وتجاوزه عن تقصيرهم أمر عظيم، والله قادر على كل شيء لا يعظم لديه شيء.

9-يا أيها النبي جاهد...وبئس المصير.

النداء الرابع : موجه إلى النبي صلى الله عليه وسلم باعتباره رئيس الدولة، والقائم على حمايتها. يتضمن أمرا من الله بأن لا يلين مع الكافرين والمنافقين الذين تساندوا لإذاية المسلمين، وتألبوا على المكر بالمسلمين. الكافرون بما يعدون له من غارات على المدينة، ومن فتنة المؤمنين الباقين في مكة، والمنافقون بالتجسس على المسلمين وهم يعيشون بين أظهرهم مُخْفِينَ عداءهم، وينقلون إلى الكفار ما يعينهم على تنفيذ مخططاتهم. فألقى هذا الأمر الرعب في قلوب الكافرين، وعلموا أن الله أذن لرسوله بقتالهم قتالا يُغْلَظ عليهم فيه، وعلم المنافقون أن الله سيكشفهم لرسوله، فيقلعوا عن الدس والتجسس، ويوفوا بالعقود التي عقدها معهم النبي صلى الله عليه وسلم. وأضاف إلى الوعيد الدنيوي الوعيد الأخروي، وأن جهنم هي الدار التي سينقلبون إليها يوم القيامة. وما أسوأه من مصير، وما أخزاها عاقبة.

ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

خانتاهما : بإسرار الكفر. وهو النفاق.

تحت : في عصمة.

القنوت : لزوم الطاعة مع الخضوع.

بيان المعنى الإجمالي :

ضرب القرآن مثلا أولا :عرض فيه امرأة الرسول الكريم نوح عليه السلام ، وامرأة لوط عليه السلام، كل واحدة منهما انطوت على نفاق وفرغت من الإخلاص لزوجها

وللدين الذي يدعو إليه. رغم أنهما عليهما السلام كانا يحسنان عشرتهما, لوصفهما بالصلاح زيادة على النبوة. فاستحقت كل واحدة منهما الجزاء الذي يناسب الخيانة الحاصلة منها، ولم تفدهما صلة الزوجية شيئا. وتحقق خسرانهما يوم القيامة ويقول لهما الملائكة الموكلون بعذاب الكفرة: ادخلا النار مع الداخلين ليست لكما أي مزية تفرق بينكما وبين بقية الكفرة المهانين المعذبين. وفي هذا المثل ما يقطع آمال الكافرين من قريش أنهم مكرمون عند الله لانتسابهم لإبراهيم ﷺ ولقيامهم على البيت الحرام. وما يقطع آمال اليهود في النجاة لكونهم من ذرية يعقوب إسرائيل. فعداوتهم لدين الإسلام، وتكذيبهم لمحمد عليه الصلاة والسلام يسويهم بالكفرة الآخرين.

قرب الله للمخاطبين ما يزيد صورة الإيمان والكفر وعاقبتهما تألقا وجلاء. فضرب الله مثلا للمشركين الذين صورت لهم خيالاتهم الباطلة أنهم ناجون لانتسابهم إلى إبراهيم، ولكونهم سدنة البيت. ولليهود الذين صور لهم ربانيوهم وأحبارهم أنهم ناجون لأنهم من نسل يعقوب إسرائيل. ضرب لهم مثلا بامرأتين كانت صلة كل منهما أمتن الصلات، الأولى بالرسول الصالح نوح ﷺ وهي امرأته، والثانية بلوط الرسول الصالح وهي زوجه. ولم تخلصا لدين الله وانطوتا على نفاق. فأكبَّهما الله في النار ولم ينتفعا بالصلة الحميمة. وأعلن على الملأ ما يخزيهما: ادخلا النار مع الكفرة والعصاة، ليس لكما أي فضل عليهم.

وضرب الله مثلا للمؤمنين ليستحثهم على الصبر على الإيمان وعلى ملازمة الطهر، امرأتين صالحتين. الأولى آسية امرأة فرعون التي رفضت إغراءات النعيم والسلطة وفضلت عليه الإيمان برسالة موسى ﷺ ، وصبرت متحدية تعذيب فرعون مبتهلة إلى الله أن يبني لها بيتا في الجنة مع قربها من عزته، وأن ينجيها من فرعون ومن تصرفاته الفاسدة، ومن زبانيته الظلمة المستبدين. وهو مثل للصبر على الإيمان وتغليب ما عند الله على مغريات الحياة الدنيا.

والمثل الثاني مريم ابنة عمران، التي كانت مثالا عاليا في الطهر، وفي لزوم العبادة مع الإخلاص التام. ولم يصل إليها أي ذكر. وأن الله جازاها على ذلك فجعلها أما لرسول كريم مَظهرا للمعجزة، إذ تَكَوَّنَ جنينها " عيسى" بدون حيوان منوي. وبعث الله لها جبريل لينفخ في فرجها من روح الله ما كوَّن فيها مستودعا لحمل نبوي وإرث تشريع موسى، ومخففا لبعض ما فيه من الشدة المناسبة لإصلاح بني إسرائيل في عهد موسى. وكان يقينها على مستوى رفيع جدا، إذ آمنت بكل ما أنزله الله من الهدى لإصلاح البشرية من الوحي، والصحف، والكتب.

بيان المعنى العام :

10-ضرب الله مثلا...مع الداخلين.

ضربُ المثل طريقة في تقريب المعاني البعيدة، بوصلها بصورة قريبة تشبهها فيقتنع السامع بناء على ذلك التشابه من التعرض لمثل ما وقع التعرض له في المثَل. والمثل هنا هو أن امرأة نوح، وامرأة لوط كانتا في عصمة رسولين كريمين مقربين من الله، وقدمتا الوفاء للكافرينَ على الوفاء لزوجيهما نوح ولوط. فاستحقتا العقاب على وزان ما فعلا. ولم يصرف عنهما العذابَ الصلةُ الوثيقة التي كانت بين كل واحدة منهما وبين زوجها. وهذا المثل ينفي خيالات كان قادة الكفر يروجون لها، فيُؤَثِّرون بها على الدهماء، أنهم لانتسابهم لإبراهيم، ولكونهم سدنة بيت الله والقائمين على المناسك التي أراها الله لإبراهيم سيكونون يوم القيامة، الذي يخوفهم به القرآن، سيكونون من الفائزين. كما يتوجه المثل إلى اليهود الذين يزعمون أن انتسابهم لإبراهيم ويعقوب يحقق لهم منازل الكرامة في الآخرة. فهذا المثل الذي يكشف أن الرسولين الكريمين لم تفد صلة الزوجية لزوجتيهما أي فائدة ولو كانت قليلة، هو مما يقمع آمال الكافرين في النجاة.

وقيل ادخلا النار مع الداخلين : يتوجه خطاب الخزي لهما يوم القيامة، وتتبخر آمالهما في الانتفاع بصلتهما بنوح وبلوط. فيقال لهما : إذلالا، وتنفيذا للمآل الذي كتب لهما: **ادخلا النار مع الداخلين** لها، مجللتين بالصغار والذل.

11←12: وضرب الله مثلا...وكانت من القانتين.

أتبع القرآن المثل المضروب للكفرة الباعث في قلوبهم اليأس من النجاة، والمحقق أن مآلهم جهنم، أتبعه بمثل يلقي بظلاله الندية في قلوب المؤمنين، ويُرَغِّبُ بعد أن أرْهَبَ.

المثل الأول تذكير بالمرأة الصالحة، زوج فرعون الذي طلب منه موسى أن يمكنه من بني إسرائيل ليخرجهم من مصر. وهو مثل للصبر على البلاء صبر التحدي لا صبر الاستسلام. وهو الصبر الذي يهدف القرآن إلى غرسه في قلوب المؤمنين، فهذه امرأة فرعون تعيش في قصوره مخدومة موقرة من الكبراء ومن رجال الدولة، لا ينقصها شيء من الرفاه والنعيم، تسمع بدعوة موسى فينشرح قلبها للإيمان انشراحا جعلها تؤمن بأن العيش مع فرعون الكافر هو نكد العيش، وأعلنت لفرعون رغبتها عنه، وتحدته مما أهاجه، وسلط عليها بطشه. ولم يفصل القرآن صنوف العذاب من فرعون المستبد، ولكن دعاءها يوحي بأنها وصلت إلى مستوى

قطعت فيه آمالها من الدنيا فتوجهت إلى ربها داعية : أن يبني لها بيتا في الجنة تجد فيه رضاه، وتكون قريبة منه، هي حريصة أن يكون مقامُها عند ربها غير بعيدة عنه. وأن ينجيها من صحبة فرعون الذي ضاقت بها لكفره وجبروته. وأن ينجيها من فتنة القوم الظالمين القساة الذين لا يعرفون حدا يقفون عنده. فعلى المؤمنين أن يستهينوا بما يلقونه في سبيل ثباتهم على الإيمان. وأن لا يكونوا أضعف من هذه المرأة الصالحة التي نجَّاها ربها، وأكرمها في الدنيا بالثناء عليها في كتابه على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، قرآنا يتلى إلى أبد الآبدين.

المثل الثاني : مريم ابنة عمران أم عيسى عليه السلام .كانت عفيفة أبلغ ما تكون العفة، مقبلة على عبادة ربها إقبالا أسقط من تفكيرها الزواجَ والأسرةَ والإنجابَ. كانت بشهادة الله الذي يعلم السر ، وما تنطوي عليه النفوس من الحركات الباطنية الخفية، أنها كانت من المخلصين لله في العبادة، المستغرقة فيها إلى حد أن العبادة استحوذت على كل مشاعرها، وظفرت فيها باللذة الكبرى. وجعلت فرجها، وهي الشابة في مقتبل العمر وعرامة داعية الغريزة، جعلت فرجها حصينا لا يسلك إليه ولا يطمع طامع فيه لما هي عليه من الإخلاص في العبادة والجدية. بلغها هذا الحرص على الطهر والتقرب إلى ربها، أن الله بعث لها جبريل، فنفخ في فرجها من روح الله بدون سبب مادي. فالأرواح كلها من الله، وسنة الله في خلقه أن يربط سريان الروح بالأسباب التي هي السنن الكونية لإيجاد الحياة في المخلوق. أما مريم فقد أكرمها الله بأن جعلها أما لرسول كريم، دون أن يتوسط في الإنجاب ذكر. بأمر خارق للعادة. وعبر عن سريان الروح في بطنها بالنفخ الذي هو أقرب لفظ يصور تكوين الجنين في البطن. اللغة تقصر عن التصوير الدقيق لسريان الروح التي هي في ذاتها، ومعرفةُ كنهها فوق طاقة البشر.

ومع عفتها البالغة وإخلاصها في العبادة، كانت مصدقة بجميع ما أنزله الله على رسله هداية للناس، الوحي، ومن الصحف، ومن الكتب.

يوم الأربعاء 22رجب 1435-2014/5/21

ســـورة الملك

هذا هو الاسم الأكثر شيوعا في كتب السنة والتفسير، والمصاحف. وفي حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (أن سورة من القرآن ثلاثون آية شفعت لرجل حتى غفر له، وهي سورة تبارك الذي بيده الملك) فقد سماها النبي ﷺ بأول آية منها. وتسمى المانعة والمنجية. وهي سورة مكية باتفاق. رتبتها السابعة والستون حسب ترتيب المصحف، والسادسة والسبعون حسب ترتيب النزول ؛ نزلت بعد سورة المؤمنين وقبل سورة الحاقة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (1) ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ (2) ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ
مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ (3) ثُمَّ
ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (4) وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ
ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ (5)

بيان معاني الألفاظ:

تبارك : يقول الراغب: كل موضع ذكر فيه تبارك فهو تنبيه على اختصاصه تعالى بالخيرات المذكورة فيه. وفي هذه الآية اختصاصه بالملك.

المُلك : الملك الكامل الحق.

ليبلوكم : ليختبركم فيظهر ما هو معلوم عنده.

من تفاوت : من انخرام للتناسق.

أرجع البصر : أعد النظر وكرره.

فطور: تصدع وشقوق.

ارجع البصر : كرره.

كرتين : مرتين على إرادة معاودة النظر بغير تحديد بعدد.

ينقلب : يرجع.

الخاسئ : الخائب.
حسير: كليل، تعب، دون أن يظفر بمطلوبه.
الدنيا: القريبة منكم.
السعير : النار الشديدة الحرارة.

بيان المعنى الإجمالي:

عظمت خيرات ربّنا عظمةً لا يدانيها شيء في كمالها، المنزه عن كل نقص. فالملك الكامل بيده وحده، وفي قبضته يصرفه كيف يشاء حسب علمه وحكمته. وكما تفرد بالملك الكامل تفرد بالقدرة النافذة في كل شيء.

تفرد ربنا بخلق الموت والحياة، يجريهما على الإنسان ليختبر البشر أيهم ارتقى في العمل الصالح إلى المرتبة الأحسن إخلاصا وتطبيقا لما شرعه الله. فيظهر ما حصل في علمه سبحانه. وهو العزيز النافذة قدرته فلا يعطلها شيء. الغفور، يتعلق المؤمنون بفضله ليستر عليهم ما سبق من تقصيرهم.

كثرت خيرات ربنا وتقدس فهو الذي خلق سبع سماوات متطابقة في إحكامها. أجرى بناءها على قوانين ثابتة.لا تجد في خلق الرحمن الذي رعى برحمته تحصينها من أي خلل، وركبها بكيفية تحقق استمرارها وقيامها بوظائفها. تأمّلْ وأعِدْ النظر فلن تجد في هذا الخلق العظيم أي نشاز، أو خروج عن النظام الكامل في كل صغيرة وكبيرة. كما أنه أحكم التناسب بين أوضاع كل كوكب وأوضاع بقية الكواكب، فكانت الجاذبية بينها بناء قويا متماسكا لا خلل فيه. تأمل وأعد تأملاتك باحثا عن أي خلل، فلن تظفر بشيء من ذلك، وتجني الخيبة من بحثك، ويرجع إليك بصرك متعبا كليلا دون أن يظفر بما يبحث عنه من اختلال لعدم وجوده.

ومن كمال صنعنا ما تلاحظونه في السماء القريبة منكم، فقد بنيناها بناء محكما وراعينا أن تكون ظاهرة الجمال واضحة فيها. فقبة السماء في الجو الصافي البعيد عن التلوث من أجمل ما يسرح فيه الإنسان نظره. وجعلنا في نجومها خاصية هي رجم الشياطين الذين يحاولون استراق السمع من الملأ الأعلى، فتقذفهم مصابيح السماء بالشهب فتفسد كيانهم. ومع هذه الحراسة والقذف، فقد هيأنا للشياطين نار السعير يذوقون بها سوء العذاب.

بيان المعنى العام :

1-تبارك...على كل شيء قدير.

تبارك، صيغة يقصد منها أن الموصوف بها قد كثرت خيراته، وأنه الكامل الكمال المطلق، لا تتصور ذاته إلا مع الكمال والتنزيه، ولا يفهم تصرفه إلا على ذلك النحو، فكل خير عنه صدر، وبه يقوم ويستمر.

الذي بيده الملك... كثرت خيراته، منزها، المُلك الكامل له وحده، لا يخرج عن نفاذ قدرته وتصرفه فيه شيء. فاليد يقصد منها القدرة والتصرف الدائم. والملك الكامل له وحده، لا يشاركه أحد فيه. إبطالا لما اعتقده المشركون من أن لآلهتهم مشاركة في التصرف. وما يعتقده الناس من أنهم مالكون لما تحت أيديهم. هو ملك محدود وقاصر، فكل ذلك مهيأ في كل لحظة للخروج من قبضتهم، وكل مالك يلحقه الموت فيخرج من الدنيا وقد انفصل ملكه عنه وتركه وراء ظهره.

وهو على كل شيء قدير... كل ما يتصوره العقل من الحوادث داخل تحت قدرته، إيجادا وإعداما. تتعلق القدرة تبعا للإرادة بإعدام شيء من الوجود فلا يبقى له أثر، وتتعلق القدرة بإخراج شيء من العدم، فيوجد.

2-الذي خلق الموت والحياة...العزيز الغفور.

تصريح بما يُثْبِتُ ما أفادته الآية السابقة من أنه سبحانه كثرت خيراته وقدرته نافذة في كل شيء، وأنه المختص بذلك لا يشاركه أحد في الملك الحق. فأبرزت هذه الآية أن السر المحجوب عن البشر، والذي يقفون حيارى أمامه هو الموت والحياة. يعترفون بأنهم لا يمكنهم أن ينهوا حياة الأحياء، ولا أن ينفخوا الحياة فيما هو غير حي، ولا أن يطيلوا حياة الأحياء ولا أن يختصروها. والإنسان والحيوان، الكمال الذاتي لكل منهما بالحياة، والفساد بالموت. إذ النمو والتفكير والفعل بالنسبة للبشر، والشعور والنمو والحركة بالنسبة للحيوان، كل ذلك مرتبط بالحياة. وتوقف كل تلكم القوى بالموت لتؤول إلى التحلل والذوبان. وكذلك الأمر بالنسبة للنبات وما يتوالى عليه من عرضَيْ الموت والحياة. فتفرد الله بخلق الموت والحياة من أعظم الأدلة الظاهرة على أنه سبحانه المتفرد بالملك، والقدرة الكاملة.

ليبلوكم أيكم أحسن عملا.... خلق الموت والحياة لحكمة، وهي ابتلاؤكم...أي اختباركم ليظهر في الوجود ما سبق في علمه، وهو من يقال فيهم: أيهم أحسن عملا، وأيهم أسوأ عملا. فالله خلق الموت بعد الحياة ليسأل الأحياء عما قدموه من الأعمال فيظهر الأعمال الأحسن التي تستحق مقامات الرفعة في الجزاء، وما هو دونها فلا يستوي المحسنون يوم القيامة، بل يتفاوتون على مقدار ما بين أعمالهم من حسن وكمال. ويفهم من الآية قطعا سؤال المسيئين عن أعمالهم السيئة، التي أخسها وأقبحها الشرك، وما دون ذلك من المعاصي التي لها الآثار السيئة على فساد النفس البشرية، وعلى اختلال نظام الحياة الاجتماعية.

وهو العزيز الغفور...ختام الآية يحقق أيضا ما يفهم من قوله تعالى: **تبارك الذي بيده الملك.** فخلق الموت والحياة للابتلاء يشهد له أن الله هو العزيز الذي لا ترد له

إرادة، ولا يعطل قدرته معوق. بل ينصاع كل شيء لعزته. ومع كونه عزيزا تنفذ إرادته وقدرته نفاذا لا يقف أمامهما شيء، هو الغفور الذي يعفو عن السيئات إذا لم تصل إلى الشرك، ويقبل التوبة عن عباده، ولا يجب عليه أن يعاقب العاصي.

3-الذي خلق سبع سماوات طباقا...من فطور.

من مظاهر كثرة خيرات ربنا، أنه خلق سبع سموات، متطابقة. ذهب كثيرون إلى أن السماوات السبع هي الكواكب الدائرة في فلك الشمس المجموعة التي ترتبط بها الأرض التي نحيا فوقها.

والذي أرجحه أن السماوات السبع تتحدث عن العالم العلوي، الذي الله أودع فيه سبع مجموعات، كل مجموعة هي سماء. والأبعاد بينها تقدر بالسنوات الضوئية. وعلى ما بينها من الأبعاد، ورغم اختلاف ما في كل سماء من الكائنات، فإنها تخضع لقوانين واحدة، قوانين الخلق الإلهي المحكم الذي راعى كل صغيرة وكبيرة في هذا الكون. الأمر الذي حفظ له استمراره في الوجود إلى الأجل الذي قدره لبقائه. وبتلكم القوانين والقيام على استمرارها واصل الكون مساره.

ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت...حقيقة يقينية أن الناظر في خلق السماوات، مهما واصل النظر، ونتبع الجزئيات الدقيقة، وتتبع الأجرام السماوية العظيمة، في حركتها وفي مداراتها، وفي جاذبية كل كوكب لغيره من الكواكب، وفي القوانين التي جرى عليها الخلق، يزيده نظره اقتناعا بأن قوانين الإحكام تجري عليها جميعا. هي من خلق الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، فلم يخلقها لتتصادم، ولتتناقض فيما بينها، وليسحق القوي منها الضعيف، والكبير التافه؛ ولكن لتسير في نظام وتكامل وتناغم. وليكون في خلقها على ذلكم النظام ما ييسر للناس حياتهم في الأرض على أفضل الوجوه. فهم ينتفعون من نظام السماء ما يجعل حياتهم على كوكب الأرض متلائما مع نظام عيشهم.

فارجع البصر هل ترى من فطور...عوالم السماء مسرح للنظر، ليكتشف الإنسان أسرارها، وهي لا تبيح إلا بالشيء القليل، الذي يقتضي أن يعاود المتأمل النظر، ويواصل جمع ما اكتشفه، ويرتبه ترتيبا يمكنه، من مواصلة كشف المجاهيل في عالم السماء الفسيح . ولا يقنع في أي وقت بأن ما بلغه هو كمال المعرفة، بل هو يترقى في العلم شيئا فشيئا، وكلما وصل إلى مستوى كان ما وصل إليه يفتح له أبواب المعرفة لما وراءه. هذا قانون التعلم كما تشير إليه الآية. فلا تجد في بناء السماء انخراما. ولا تضعف جاذبية أي كوكب عن المستوى الذي خلقت عليه، فيترتب عنه بعد الكوكب عن مساره، وفي ذلك فناء الكون كله.

4-ثم ارجع البصر كرتين...خاسئا وهو حسير.

كشفُ عالم السماء لا يكون بإدخالها للمخبر وإجراء التجارب عليها، فلا اليد تطول ما تركبت منه، وهي أعظم وأوسع من الأرض. ولكن التعرف عليها يكون برصدها المرة تلو المرة، سواء أكان ذلك بالعين المجردة أو بالمناظير المقربة، الصغيرة منها والعملاقة؛ ثم تسليط العقل على ما تنقله المشاهدة التي تدعو إلى تكرارها حتى تبيح للناظر العالم ببعض الأسرار. وتدعوه إلى العودة ثم العودة. وكن واثقا أن طاقاتك أضعف من أن تستوعب عالم السماء، فملاحظاتك تؤكد لك عجز تلك الطاقات عن اكتشاف كل شيء في تلك العوالم، فالخيبة من الاستيعاب أمر لا شك فيه. وإن طاقاتك من ناحية أخرى تَكِلُّ عن بلوغ ما تطمح إليه، فليكن ذلك من مهمة الأجيال المتعاقبة على المعرفة. **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.**

5-ولقد زينا السماء الدنيا...عذاب السعير.

كما أثبتت الآيات السابقة إحكام بناء السماء، أضافت هذه الآية لفت الأنظار إلى كمال التصرف الإلهي في السماء القريبة منا. إنك إذا نظرت إلى قبة السماء القريبة منا بعيدا عن تلوث المدن، وفي وقت يكون فيه الطقس صافيا، ينكشف لك منظر رائع من الجمال وإتقان الصنع، كما بيناه في سورة الصافات. فهي تتلألأ منتشرة في السماء كالمصابيح بضوئها اللامع، وتهدي السائرين في ظلمة الليل. وترجم الشياطين فتفسد تركيبهم. وليس كل النجوم ترجم الشياطين، ولكن ينطلق منها شهب تقضي على كل من يصعد من الشياطين إلى السماء لاستراق السمع. ومع أننا حَصَّنَّا السماء الدنيا بالنجوم التي تنطلق منها الشهب الراجمة للشياطين، فتهلكهم قبل أن يكتشفوا أي شيء من الغيب. فكذلك هيَّأنا لهم عذاب السعير، والسعير نار حامية كأشد ما يكون تعذب بها الشياطين وإن كانوا مخلوقين من نار إلا أن نار السعير أشد من طباعهم، فيعذبون بها.

وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا
وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ
نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى
ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُواْ
بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

الشهيق : صوت تردد الأنفاس في الصدر.

تفور : تغلي وترتفع ألسنة لهيبها.

الغيظ : أشد الغضب.

الفوج : الجماعة.

خزنتها : خزنة النار، الملائكة الموكلون بحفظها.

نذير : رسول منذر .

سحقا : بُعْدًا.

بيان المعنى الإجمالي :

استحق الذين كفروا بِنِعَمِ ربهم ورفضوا هدايته عذاب جهنم، وما أسوأه من مصير. فقد خسروا عاقبتهم أعظم خسارة، مع الشياطين المرجومين. هو المصير الأسوأ، يبينه أن أفواجهم تتلاحق فيلقى بها في جهنم، فيسمعون شهيق جهنم الذي يرعب قلوبهم ويحيطها بالخوف والكمد، ويشاهدون لهيبها يتصاعد. كلما دخل فوج تلقاه ملائكة العذاب بسؤال فيه توبيخ وتقريع: ألم يأتكم رسل ينذرونكم هذه العاقبة السيئة؟ كما يتحد السؤال يتحد الجواب. يعترف كل فوج داخل: بلى ! كل فوج يقول: قد جاءنا نذير فقابلناه بالتكذيب، وأحلنا أن يكون الله قد أنزل وحيا عليه. ثم واصلنا متحدين ما أنتم إلا قوم استولى عليهم الضلال الكبير، فأنتم تكذبون على الله. ثم يرجعون باللائمة على أنفسهم معترفين بذنوبهم قائلين : لوكان لنا سمع يتابع ما يصل إليه ولا يقابله بالرفض السريع، ولو كانت لنا عقول تتأمل لتميز الحق من الباطل، ماكنا اليوم ممن لزموا عذاب السعير.

اعترفوا بذنبهم يوم لا ينفع ندم، أبعد الله أصحاب السعير من كل خير وكرامة.

بيان المعنى العام :

6-وللذين كفروا...وبئس المصير.

لا يختص عذاب السعير بالشياطين المسترقين للسمع، بل يتعداهم إلى الذين كفروا بربهم. فهم أيضا قد أعددنا لهم عذاب جهنم جزاء كفرهم. وما أسوأه من مصير. إذ من شأن العقلاء أن يعدوا ما أمكن لهم الإعداد ليجدوا في مستقبلهم ما هو أفضل من حاضرهم. فالذين كفروا يكونون قد أعدوا لمستقبلهم العذاب والمهانة.

7-إذا ألقوا فيها...وهي تفور.

استأنفت الآية مبينة ما أجْمِلَ في قوله تعالى : وبئس المصير. فبمجرد ما يلقون كما تلقى القاذورات، يرهبهم أشد الرهبة، صوتُ اضطرام نارها شهيقا يزمجر مرعبا، وهي تغلي، فترتفع ألسنة لهيبها.

8- تكاد تميز من الغيظ...ألم يأتكم نذير.

تتلقاهم عندما يقذفون فيها، بغيظ شديد. خلقت لتعذيبهم، وانتظرتهم المدة التي قدرها الله حتى إذا ألقوا فيها، أظهرت لهم ما خلقها الله عليه من بغضهم، فوجدوا في جهنم قرارهم الحقد عليهم منها، ورغبتها في الانتقام منهم، بلغ بها الغيظ حدا كادت تتمزق منه. وهو تعبير عن بلوغ الغيظ أقصى حده.

كلما ألقي فيها فوج....هذا قانون كشفته الآية مفاده: أن المغضوب عليهم يلقون في جهنم جماعات مشدودة إلى بعضها؛ شأن الأشياء التافهة؛ أفرادها همل لا ينظر إليها وليس لها أي حظ من التقدير.

زيادة عما ذكر قَبْلُ من تغيظ جهنم عليهم، يتلقاهم الملائكة الموكلون بحفظ جهنم، وتنفيذ ما قرره الله في أهلها، يتلقونهم بسؤال توبيخ يضاعف عذابهم الحسي بعذاب مذل: ألم يأتكم رسل ينذرونكم هذا المصير، ويبينون لكم عاقبة أمركم ؟

9- قالوا بلى قد جاءنا نذير...في ضلال كبير.

أسرعوا بالاعتراف فقولهم : بلى يثبت أنه قد جاءهم نذير، ثم أضافوا إلى ما يفهم من كلمة بلى التصريح به : بكل تأكيد قد جاءنا نذير، فقابلنا إنذاره بالتكذيب، وقلنا لهم : نرفض ما تقولون وما به تنذرون من عند الله؛ فإن الله لم ينزل أي شيء، وإنما ما تدعونه اختلاق منكم.

إن أنتم إلا في ضلال كبير...يمكن فهم هذه الجملة على أنها من قول خزنة جهنم، قالوا لهم: إن موقفكم من رسل الله المنذرين يكشف عن عمق ضلالكم. استولى عليكم الضلال فحجب عنكم كل شعاع من أنوار الحق. وهكذا شأن من يتمسك بالباطل ويكرره في نفسه ينتهي به الأمر إلى موقف رافض متصلب في الرفض.

كما يمكن أن تفهم الجملة على أنها من قول الكفرة لرسلهم، اعترفوا أنهم قابلوا دعوة رسلهم، بمواجهتهم بقولهم لهم: إنكم مغرقون في الضلال، استولى عليكم الضلال، وليس لكم من هدى الله شيء.

10- وقالوا لوكنا نسمع أو نعقل....في أصحاب السعير.

أثارت أسئلة الملائكة الموكلين بجهنم للأفواج المتتابعة ندما يأكلهم، ويضاعف تمزقهم الباطني. عبروا عنه بقولهم : وا أسفاه ؛ لو كنا نرهف أسماعنا لما أتانا به

الرسل، ونُقَوِّمُه بما فيه من حق، ولا ننكره من أول الأمر فنطرحه بعيدا عنا. ولوكان لنا عقل يميز بين الحق والباطل، ويرفض ما يدعو إليه الإلف والعادة، وينظر في الأمور بميزان التأمل البصير ؛ لو أحسنا الاستماع لما جاء به المرسلون، وأحسنا التفكير فيما عرضوه علينا، ما كنا اليوم من الملازمين للسعير.

11-فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير.

سجل القرآن عليهم اعترافهم بذنوبهم نادمين على ما فات يوم لا ينفع الندم، ليرتب عليه ما يستحقون على ما فرط منهم في الدنيا ومواقفهم الوقحة من رسل الله. فسحقا لهم. أبعدهم الله من كل خير ومن أي منزل من منازل التكريم، إقصاءً مذلا. ليلزموا السعير المتوقد في جهنم، فتنعقد بينهم وبينه صلة مستمرة.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

اللطيف : العالم بدقائق الأمور.

الخبير :المحيط علمه بما يخفى.

الخسف : الزلزال الشديد الذي يتبعه قلب الظاهر باطنا والعكس.

تمور :ترتج مضطربة.

نكيري: أثر نكيري عليهم.

بيان المعنى الإجمالي :

إن الذين يخشون ربهم في خلواتهم وهم غائبون عن أعين الناس، تبعا لاستحضار صلتهم به، استحقوا غفران الله لذنوبهم، وجزاءهم بالأجر الكبير على ما قدموا من الصالحات.

ظن المشركون أن الله لا يعلم ما يتحدثون به سرا، فتواصوا أن لا يطعنوا في الرسول ولا في الدين إلا بصوت منخفض حتى لا يسمع الله ما يقولون فيخبر به

محمدا. فأيقظهم القرآن من غفلتهم بتحقيق أن السر والجهر بالنسبة لله سواء، فهو يعلم جميع الخواطر الباطنية، التي لم تنطق بها ألسنتهم.

كيف لا يكون الله عالما بما تنطوي عليه صدوركم، وهو الذي خلقكم من عدم، ثم طَوَّرَكُم إلى أن بلغتم المستوى الذي أنتم عليه، ورعا كم في كل طور من أطواركم بألطافه، فهو اللطيف، الذي يعلم الخفايا.

خلقكم واستخلفكم في الأرض، ويسَّر لكم الحياة على ظهرها. وطوَّعَهَا لكم، فلا تجدون في نشاطكم عليها صعوبة. فامشوا في أرجائها الفسيحة. ومن منتنا عليكم أن أبحنا لكم الأكل من رزقه مما تخرجه الأرض من زروع وثمار، وما يرعى أديمها من أنعام وطير. وإلى الله وحده تنشرون من الأرض بعد الموت فيسألكم عما عملتم فيما استخلفكم فيه.

ثم سأل المشركين سؤال إنكار وتوبيخ عن عدم رعايتهم لما تقتضيه الخالقية من طاعة، فسألهم مُوَبِّخًا لهم هل بلغت بكم الغفلة أن أمنتم غضب الله عليكم، الذي يجري سلطانه في السماء وينزل عليكم منها ما لا تستطيعون له ردا. فيقلب بكم الأرض ظهرا لبطن، ويجعلها مضطربة بعد أن كانت ذلولا ساكنة. أم أمنتم أن يرسل الله عليكم من السماء حاصبا من الحصى أو البرد فيتتابع عليكم ويضربكم بعنف فيمزقكم ويبيدكم من الأرض. وهددهم بأنهم سوف لا يفلتون من عقابه، ويعلمون عندها كيف تكون عاقبة إنذاري الذي لم يرعوه.

إن هذه هي سنة الله مع المكذبين المستكبرين عن الحق، فقد كذب الذين من قبلهم، فسحقتهم سحقا فلينظروا كيف كان نكيري على المتمردين المكذبين.

بيان المعنى العام :

12-إن الذين يخشون ربهم... وأجر كبير.

بعد أن استوفى القرآن تفصيل مآل الذين كفروا، وما أعد لهم من العذاب والنكال، استأنف الحديث عن المؤمنين معَرِّفًا لهم بأنهم هم الذين يخشون ربهم، يستحضرون صلتهم به، في كل ظرف وخاصة عندما يغيبون عن أعين الناس في خلواتهم. ويمكن فهم الآية أنهم يخشونه بالغيب الذي أخبرهم به من الجنة والنار، والبعث والصراط والميزان والسؤال والحشر. هؤلاء الذين استحضروا صلتهم بربهم فامتلأت قلوبهم من خشيته، جزاؤهم عند ربهم مغفرة عظيمة تأتي على كل ما صدر منهم من تقصير فتزول آثار التجاوزات، وتُنَقَّى صحائفهم منها بالمغفرة، وتنفرد بالطاعات فيكون جزاؤهم جزاء كبيرا لا يُنْقِصه لوث المعصية.

13-وأسروا قولكم... عليم بذات الصدور.

واجه الرسول ﷺ المشركين بما كـانوا يتحـدثون بـه فـي خلـواتهم مـن طعـن فـي الرسول، ومن افتراءات على الـذين ليُقَـوُّوا مـا فـي بعضـهم مـن ضـعف وتـردد. فانزعجوا وقال بعضهم لبعض ليكن حديثنا في المسـتقبل حـديثا بخفـض الصـوت حتـى لا يسمع إلـه محمـد مـا نقـول. فعـرفهم الله بفسـاد تصـورهم هـذا، وأن إسـرارهم وجهرهم بالنسبة لله سواء فهو العليم بما يتردد فـي الـنفس مـن خـواطر، ومـا يجـري في العقول من مخططات وتدبير للأعمال. فعلمه بمـا يجـري علـى ألسـنتهم أخفـوه، أم أظهروه أحق باطلاعه عليه.

14-ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير.

مِن غباء المشركين ظنهم أن الله لا يعلم سرهم ونجـواهم. فسـألهم سـؤال إنكـار علـيهم في ظنهم أن الله لا يعلم سرهم، والحال أنـه خلقهـم وأوجـدهم مـن عـدم، ولطـف بهـم إلى أن وصلوا إلى المستوى الذي هم عليه. إنه هـو اللطيـف الـذي يجـري تقـديره فـي الكائنات فتتطور حسب القانون الذي أودعه في الخلـق بـدون هـزات ولا عنـف. وهـو الذي ينكشف لعلمه خفايا الأمور لاستواء علمه بالظاهر والباطن.

15-هو الذي جعل لكم الأرض...وإليه النشور.

يواصل القرآن الاستدلال على كمال التصـرف الإلهـي، مـع مراعـاة اللطـف. انظـروا في الأرض، فتجدون من طبيعتها أنهـا صـلبة قويـة. وأنهـا سـهول وجبـال، وأوديـة وبحار. ومع ذلك فإن الله يسر لكم العيش فيها وجعلها طيِّعَـةً لكـم. فـأول مـا تلحظـون: أن بين جاذبية الأرض وبين كتلة الإنسان، بينهما توافـق، يسـير الإنسـان علـى سـطحها ويعلو جبالها، وينزل أوديتها، فـلا يجـد الأرض تعاكسـه، بـل يتقلـب بـين أرجائهـا تثبّته ولا تثقله، فلو كانـت الجاذبيـة أقـوى لثقـل ثقـلا يقتضـيه المجهـود المضـاعف والعسر، ولو كانت الجاذبية أخف لما ثبت في سيره.

فامشوا في أرجائها تصـحبكم ألطافـه، وتـدركون عونـه وحسـن تقـديره. وكلـوا مـن رزقه الميسر لكم مما تخرجه الأرض من النبـات والـزروع والثمار،ومما عمـرت بـه من الأنعام والطير. فتدبروا في نعم ربكم.

وإليه وحده النشور بخروجكم من الأرض بعـد المـوت. قـال تعـالى : **(منهـا خلقنـاكم وفيها نعيدكم، ومنها نخرجكم تارة أخرى)**[1].فيسـألكم عمـا عملـتم فيمـا اسـتخلفكم فيـه،

[1] سورة طه آية 55

فليس خلقكم على الأرض وتسخيرها لكم ضربا من العبث، ولكنه لغاية، هي حسابكم بما كنتم تعملون.

16-آمنتم من في السماء... تمور.

افتتحت الآية باستفهام إنكاري يوبخهم بسبب عدم رعايتهم لخالقهم الرعاية التي تنبثق من العقيدة، و تتبعها الطاعة. يسألهم سؤال إنكار لموقفهم من آيات الله وشريعته المنزلة من عنده، وعدم تقدير ما يترتب على موقفهم ذاك. فهل أمنوا من في السماء أن يعَجِّل عليهم العقوبة، فيخسف بهم الأرض ويقلب ظاهرها إلى باطنها، وباطنها إلى ظاهرها. خسفا يصحبه اضطرابها.

وإذا كان الفاعل لهذا الخسف هو الله، فكيف يعرف بأنه في السماء؟ والجواب عن هذا إما أن الله يوكل بهم ملكا في السماء يخسف بهم الأرض. ويحولها إلى كتلة مضطربة بعد استقرارها وتذليلها.

وإما أن يكون المقصود: مَنْ في السماء سلطانه، أو قدرته، وهو الله. وهذا التعبير ينفي أن يكون لأصنامهم شيء من ذلك التأثير.

وإما أن يكون التعبير جاريا على ما استقر في الأذهان، أن التأثيرات العظمى إنما تأتي من السماء، إما على التنزيه على معنى أنهم يتلقون أوامر الله ونزول قَدَرِهِ من السماء، وهذا التصور هو الذي جعل الناس يرفعون أيديهم عند الدعاء والابتهال.

وإما أن القرآن خاطبهم حسب معتقداتهم.

17-أم أمنتم...فستعلمون كيف كان نذير.

سؤال إنكاري آخر فيه توبيخ وتعجيب من موقف عناد المشركين، وعدم انصياعهم للحق. والإمكان الثاني الذي يتهددهم أن يرسل عليهم من السماء حاصبا، ريحا شديدة تقتلع الحصباء، فترجمهم بها رجما يمزقهم شر ممزق، أو يرسل عليهم وابلا متداركا من البرَدِ فيقضي على ذواتهم ومزارعهم وممتلكاتهم، وتتركها قاعا صفصفا.

وكلا الأمرين المنذر بهما قد وقع شيء قليل منه أمام ناظركم، إذ تخرب الزلازل العنيفة المكان الذي تتحرك فيه، ويتواصل اضطراب الأرض أياما فتنقلب تلك الأماكن إلى خراب. والمنْذَرُ به أشد قوة من ذلك، فإن الأرض تبتلع ما فوقها. وكذلك العواصف التي يصحبها البرد تهشم ما تأتي عليه، فلا يبقى شيء قائم لا من البشر ولامن الحيوان ولا من النبات. ولكن عذاب الله شديد. فسوف تعلمون عند

تحقق ما أوعدتكم بـه كيـف تكـون عاقبـة إنـذاري لمـن لا يتعظـون، ويقلعـون عـن تمردهم.

18-ولقد كذب الذين..فكيف كان نكير.

التهديد الوارد في الآيتين السابقتين، تهديد يُـذَكِّرُ القـرآن أنـه سـلط علـى الـذين كـذبوا من قبلهم. وما تزال آثاره ناطقة بالتدمير الذي نفـذ فـيهم. ولـم يبـق مـنهم إلا الأخبـار التي يتناقلها الناس. فهي أمر محقق كمـا يـدل عليـه " ولقـد" فـي مفتـتح الآيـة. ولقـد رأيتم كيف كان نكيري عليهم، أي فظاعتـه العظيمـة. وإنكـم سـتلقون نفـس مصـيرهم إن لم تقلعوا وتتوبوا وتؤمنوا بمحمد.

أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَـٰٓفَّـٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَـٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَـٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ

الغرور : أوهام يتعلق بها الإنسان فيتبين له بعد ذلك أنه مخدوع.

الرزق : ما ينتفع به الناس من الأمطار و القوت ونحو ذلك.

لجوا : تمادوا.

العتو والنفور : البعد عن الحق.

بيان المعنى الإجمالي :

ما للرتابة أخفت على بصيرة البشر عجائب الخلق الإلهي؟ ألـم يـروا إلـى الطيـر كيـف تسبح في الهواء متحركة في خفة دون أن تسقط. مـن الـذي أمسـكها فـي الفضـاء تمـد أجنحتها وتقبضها في يسر؟ إن الذي أمسكها ويسـر لهـا الانتقـال إلـى مسـافات بعيـدة تخترق فضاءات البحار والصحاري، هو الـرحمن. رحمهـا فـي تركيبهـا مراعيـا مـا مكنها به من خصائص جنسها. إن الله علـيم بكـل شـيء والطيـر شـاهد مـن شـواهد عموم علمه.

انتقال إلى أمر آخر: أن المشركين تعلقوا بأصنامهم على أنها جند تدفع عنهم بأس الله. من هو هذا الجند العاجز الحقير الذي يستطيع حمايتكم من دون الله ؟ هو عاجز ولكن الكافرين متعلقون بأوهام غرتهم ولا تأثير لها.

وسؤال آخر يحركهم لو كانوا يسمعون؛ من هذا العاجز الحقير الذي يستطيع إنزال الأمطار عليكم التي ارتبطت بها حياتكم وحياة أنعامكم، إن تعلقت إرادة الله بمسك القطر عنكم.

إنهم لا يعقلون ولا يتحركون لهذه الأسئلة المثيرة، لأن الكِبْرَ حجب عقولهم عن النظر، فاستمروا على الرفض وواصلوا كبرياءهم، وفرارهم من الحق واشمئزازهم منه، فهم إلى الضياع والخسران.

ثم ضرب الله مثلا للمشركين والمؤمنين لعله يفتح البصائر. مثل المشرك وهو يعبد آلهة متعددة، ويطيع هواه، ويتبع ما حصل في ذهنه من سيرة السابقين من آبائه. مثله كمسافر اختار من أول أمره طريقا كلها منعرجات ونتوءات. يمشي وهو منكب لا يتجاوز نظره موقع قدميه. كلما سقط في حفرة قام منها لتتلقفه حفرة أخرى، وكلما ابعد في مسيره زادت حيرته، فهو في النهاية منهوك القوى طريح الإعياء أطبق عليه الضلال. وفي المقابل مثل المسلم الناظر في الهدى الذي جاءه من ربه، الفاتح عقله على كتاب الكون، مثله مثل السائر في الطريق رافع الرأس يتابع معالم الطريق الهادية إلى الغاية فيصلها وقد ضمن السلامة والنجاح.

بيان المعنى العام :

19-أولم يروا إلى الطير..بكل شيء بصير.

عجائب الكون كتاب وثق فيه الباري سبحانه أدلة قدرته وحكمته، وتفرده بالتصرف. قد تقع الغفلة عن دقائق الصنع بعامل الرتابة، وتكرار المشهد على البصر، فيثير القرآن التالين له، ليتأملوا كأنهم لم يلحظوا المشهد إلا بعد الإثارة القرآنية. المشهد هو الطيور على مختلف أشكالها وضخامتها، وما جمع الله فيها من عجائب الصنع ودقته:

أولا: هي فوقهم. كل الحيوانات مشدودة إلى الأرض تمشي بأرجلها فوق أديمها لتنتقل من مكان إلى آخر، أو تزحف. وتتميز الطير بأنها تنتقل في الهواء غير مشدودة إلى سطح الأرض.

ثانيا: أن بقاءها في الجو يصحبه صف أجنحتها، وامتداد ريشها، ثم قبضها قليلا لتعاود التمديد. ولما كان الطيران يتم بتمدد الأجنحة عبر عنه بالاسم المفيد للثبات والدوام، ولما كان القبض لمدة قصيرة يتجدد عبر عنه بالفعل، ويقبضن.

ما يمسكهن إلا الرحمن... من الذي خلق الطير على طريقة تتمكن بها من التنقل في الجو مرتفعة على الأرض دون أن تسقط بجاذبيتها؟ إنها الرحمة الإلهية التي وسعت كل شيء، فرحمته سبحانه بالطير قدر خفة في عظامها، وإنباتا لريشها على مقادير مختلفة تناسب الطيران والحركة في الهواء. وقدَّر مرونة في أجنحتها للمد، والبسط، والانضمام.

تركيب عجيب الصنعة والتقدير مستند إلى العالِم الواسع الذي لا يغيب عنه كبيرة ولا صغيرة في الطير و في الكون كله. يأكل الإنسان الحبوب وتأكلها الحيوانات، ويأكلها الطير، فيتحول جزء من مكوناتها إلى عظام صلبة ثقيلة في الإنسان والحيوان، وإلى عظام خفيفة هشة في الطير. مما يقوم دليلا على أن علمه سبحانه وقدرته وإرادته تتحقق آثارها في كل جزئية من جزئيات الكون.

20-أمن هذا الذي...إلا في غرور.

ثبت أن الله **يأخذكم أخذ عزيز مقتدر**، فمن يستطيع أن يحميكم، وأي جند ينتصر لكم فيدفع ما قرره الرحمن فيكم. وأشير إلى الجند بكامل الاحتقار، أي جند حقير من غير الله، من هؤلاء الأصنام التي تلوذون بها، وتعتقدون فيها أنها قادرة على نصركم عند احتياجكم للنصر يدفع عنكم السوء. إنك إذا أردت أن تعرف وضع الكافرين، وهم متعلقون بأصنامهم راجون نفعها ودفاعها، إن وضعهم هو وضع المغرور المتعلق بالأوهام التي لا حقيقة لها وليس لها أي تأثير في الدفاع عنهم.

21- أمن هذا الذي يرزقكم...ونفور.

سؤال آخر يوقظهم إلى ما هم عليه من غفلة، هو هذا الرزق الذي ترتبط به حياتهم، من المطر الذي ينبت الزروع والفواكه، والمراعي للأنعام، من هذا التافه العاجز الذي يستطيع أن يضمن لكم ماء الأمطار ويرزقكم من السماء إن أراد الله أن يمسك رزقه عنكم.

أسئلة تتابعت محركة للعقول، لتدفع عن نفسها متاهات الخيال، وتنظر إلى الواقع بكل حقائقه، فهل أثرت فيهم ؟ يأتي الجواب. إنهم لَجُّوا فاستمروا على العناد، وأصروا على الرفض. ينفخ فيهم الكبر ويقوم حاجبا لعقولهم وضمائرهم من نفاذ أي خيط من أنوار الهداية. بل هم هاربون من سماع الآيات، مشمئزون منها حذرا من أن تذهب عنهم نوافل الرئاسة، وطاعة الدهماء من الأتباع.

22-أفمن يمشي مكبا...على صراط مستقيم.

تتابعت الأسئلة المحركة للعقول لتستيقظ من التقليد المعطل لها عن تدبر ما حوته الأسئلة من مشاهد. من تذليل الأرض، وتسخيرها للإنسان. ومن خصائص الطير

التي تسير في الفضاء دون أن تسقط على الأرض. ومن ضعف معبوداتهم أن يكون لها أي قدرة على حمايتهم من بأس الله. ومن رزق الله الذي لو أمسكه فلا يستطيع أحد من آلهتهم أن يتولى إرساله.

ولكن هذه الإثارات مرت عليهم دون أن يلتفتوا إليها فيقبلوا على الإيمان. فضرب لهم مثلا، وشأن الأمثال لقربها وتسجيمها أن تؤثر في سامعيها. مثَّل المشركين وهم يعبدون الأصنام، ويعتمدون ما كان عليه آباؤهم، ويغمضون أعينهم عن كتاب الكون، ويعطلون عقولهم عن النظر في آيات الله، مثل ذلك بالسائر في الطريق غير المستقيم الذي تكتنفه علامات هادية، تعرّف السالك بالوجهة التي عليه أن يسلكها ليصل سالما إلى غايته، ولكنه اختار أن يمشي ويواصل السير مكبا على وجهه، لا يتجاوز بصره موقع قدميه، فهو في تردد دائم.لا يسلم من تكرر العثار والحيرة.

هذا وضع المشركين : آلهة عديدة نسج حولها الخيال ما جعل كل مشرك يراعي أن لا يُغْضِبَ أحدا منها تتنازعه، وإن كان له مزيد اتصال ببعضها. أخذ من أول أمره طريق شهواته وتقليد الماضين المختلفين فهو سائر في طريق معوجة لا استواء فيها. يسير دون أن يرفع رأسه ليرى معالم الطريق التي يمكن أن ترسم له الغاية واضحة. فواصل طريقه تائها سائرا إلى غير غاية. تَصَوَّرْهُ وهو مخدوش، متحير، منهوك القوى، ونهايته لا تعدو أن تكون نهاية الضال، طريح الإعياء غير آمن من سبع يفترسه، أو هامة من هوام الأرض تنهشه أو تلسعه.

وفي المقابل مثل المؤمن بالسائر في طريق سوي لا نتوء فيه ولا منعرجات، يسير رافعا رأسه، تقوم معالم الطريق أمام ناظره هادية له إلى الغاية المقصودة. تصحبه الطمأنينة وهو على يقين أنه يبلغ غايته.

أهدى...من هو المهتدي منهما ؟ سؤال جوابه بدهي. ولذا اختار كثير من حذاق المفسرين أن اسم التفضيل في هذه الآية لا يقصد منه التفضيل.

قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾
قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ
صَـٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ
وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ
أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَـٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ

ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٩﴾ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ
أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الإنشاء : الإيجاد.

الأفئدة: العقول.

ذرأ : كثر.

الوعد : الموعود.

مبين : موضح لما أمرت بإنذاركم منه.

زلفة : قريبا جدا.

سيئت : ظهرت علامات السوء والكرب على وجوههم.

تدعون : تدعون أنه لا يكون.

يجير : يحمي ويمنع.

أرأيتم : أخبروني.

غورا : لم يبق في البئر أثر من ماء.

معين : معن الماء إذا كثر.

بيان المعنى الإجمالي:

قل لهم يا محمد حرِّكهم ليتأملوا ويتعمقوا: إن الله وحده هو الذي أنشاكم من عدم على غير مثال، وركب فيكم من قوى الإحساس ما يدل على بديع الصنع. انظروا في حاسة السمع وقوانين عملها، وما خلقه لتقوم بوظائفها، وإلى الأبصار وما فيها أيضا من النعم التي توجب الشكر لخالقها. وإلى ما ركب فيكم من عقول تدرك المحسوس وتسمو إلى ما وراءه. به كان لكم شرف التكليف. ولكنكم أيها المشركون لا تقومون بالشكر لمَّا حجب الكفر عقولكم عن الاستبصار.

قل لهم إنه هو الذي لاءم بينكم وبين الأرض، فتكاثرت أعدادكم. واستعماركم في الأرض واقتداركم على تطويع خيراتها لأنفسكم، ليس عبثا، ولكن ليبعثكم بعد الموت ويحشركم للحساب على وفائكم بالمسؤولية التي هي شرفكم.

انْزَعَجُوا من تذكيرهم بأنهم يحيون بعد الموت ويُنْشَرُون للحساب والجزاء، فسألوا مستبعدين: متى سيكون هذا الحشر إن فرضنا أنكم صادقون ؟أُجيبوا جوابا حاسما

من عند الله: إن علم وقته محجوب عنكم، اختص الله بمعرفته. إني مقصور على إنذاركم ما يترصدكم من شر، بيانا واضحا. هذه مهمتي لا أتجاوزها.
إنهم لما يرون الحشر قريبا منهم وهم مبعوثون من قبورهم، ينزعجون أشد الانزعاج وتظلم وجوههم مفصحة بالخوف والكآبة، وتناديهم ملائكة العذاب قائلة: هذا الذي تشاهدونه هو الذي كنتم تدعون استحالته.
قل لهم يا محمد إن خُبْث سرائركم التي جعلتكم تخططون للقضاء علينا، لا يضرنا ذلك وأنتم الخاسرون. إنه إن قدر الله أن أموت ويموت معي الموافقون لي فإن الإسلام لا يتوقف مده، وإن قدَّر بقاءنا أحياء فالإسلام منتصر أيضا، ونحن إلى رحمة الله وسعة عفوه وكرمه. وأنتم على الاحتمالين خاسرون، فستلقون العاقبة السيئة، ولا يجد الكافرون من يحميهم من العذاب الأليم. فكفركم هو موجب عذابكم.
قل لهم يا محمد هو الله الرحمن الذي آمنا به إلها متصفا بصفات الكمال والجلال. وتوكلنا عليه وحده. فهو الذي يهدينا إلى طريق الخير في الدنيا ويسعدنا بفضله وعفوه يوم الحشر. فستَتبيَّنون من هو المغرق في الضلال، عندما لا تجدون من أصنامكم أي عون.
قل لهم : حياتكم في مكة مرتبطة بماء الآبار العذبة. فلو أذهب الله ماءها. فمن يقدر على تمكينكم من الماء الكثير العذب ؟ لا أحد سواه.

بيان المعنى العام :

23-قل هو الذي أنشأكم...قليلا ما تشكرون.

تتابعت الحجج، وختمت بضرب المثل الذي أعطى صورة مجسمة لوضع المؤمن والكافر. فأعقبها القرآن بأمر رسول الله أن يقول لهم، ويقويه على مواجهتهم. وقد تكرر الأمر بقل ست مرات من هذه الآية إلى نهاية السورة.
والمتأمل في المقول المأمور بإبلاغه في المواقع الست يتبين له حرص القرآن على هزهم إلى الإقبال على المضمون التابع لكلمة " قل" للذين غفلوا عنه فتاهوا في الضلال.
أولا: قل لهم : إن إيجادكم من عدم وعلى غير مثال، وما في تركيبكم من بدائع الصنع الذي لا يتأتى إلا ممن وسع علمه كل شيء. **جعل لكم السمع** الذي يختلف عن سمع الحيوانات. انظروا إلى جهاز السمع وكم فيه من ترتيب عجيب ؟ يتموج الهواء فيحرك الجهاز ليتقبله، ويحيله إلى الأعصاب التي ترفعه إلى الدماغ، فيعطي لكل هزة مدلولها، ويتم التواصل بين الإنسان وغيره. تلكم الأجهزة من بدايتها إلى أن تبلغ بالصوت الغاية المفهمة، أجهزة على غاية من الدقة والتعقيد، والنظام. والسمع ميدان من ميادين الاختصاص الطبي، ويعترف مهرة الأطباء أن الجانب

المجهول لحد الآن ما يزال كبيرا. ومع ذلك فإن تلك الأصوات المنقولة تؤثر في أعصاب الدماغ انشراحا أو اكتئابا، أو اندفاعا أو خوفا وفرارا إلى ما لا يحد من الأرجاع المتنوعة والمتناقضة، ويبلغ من دقة السمع ربط النبرات بصاحبها، فلا تجد شخصين تتحد نبرات أصواتهما. فسبحان الخلاق العليم.

وجعل لكم الأبصار. فإذا كتاب الكون في دقائقه، وفي مساحاته الكبرى مثْبَتٌ في دماغكم. تعمل حاسة العين في نقل الأحجام والألوان والخصائص، وتنقل لكم ما يَسُرُّكم كما تنقل لكم ما يؤلمكم. وتثبت في العقل ما تنقله فتتصرفون في شؤونكم الحياتية حسبما ثبتته الأبصار، وتكون مساعدة لكم على تجاوز الصور الحاضرة إلى مبدعها فيفتح لكم ما يحرك العقل للإيمان، ولمعرفة أدق للمبصرات. فتكون ركيزة للمعرفة وللتقدم العلمي.

وترتقي الآية في عرض سلم المنن، فتلُفت الآية إلى المنة العظمى، منة العقل الذي به كان الإنسان إنسانا، يتقبل ما تنقله إليه الحواس، ثم يسمو فوق ذلك إلى تحليلها ويربط بين أسبابها ومسبباتها، ويعمل على التجريد فيصل إلى المدركات المجردة وينظم بينها في سلسلة يتفاوت فيها البشر تفاوتا يبدو في القمة المرسلون، ثم العلماء وقادة الفكر، الذين ينظرون بتلكم الملكات إلى المجهول فيفتحون فيه مسالك للمعرفة، وإلى المستقبل فيخططون له ما يساعد على النجاح والتحصين.

ولكن الكفر يطمس على عقولكم، فلا تقومون بشكر المنعم على ما أنعم. فالمقصود بكلمة قليلا نفي الشكر أصلا. كقوله تعالى **فقليلا ما يؤمنون**.

24- قل هو الذي ذرأكم...وإليه تحشرون.

هذا الأمر الثاني من مواطن الاهتمام الكبير. هو تذكيرهم بأن الله هو الذي كثّرهم في الأرض، فأنعم عليكم بالملاءمة بين خصائصكم الذاتية وبين الأرض التي بثكم فيها، فتوالدتم وتكاثرتم دون صعوبة. وهذا التكاثر على وجه الأرض ليس عبثا، ولكنه ينتهي لغاية أنه يسألكم عن أعمالكم تبعا لما مكنكم منه من قوى الإدراك ورسالات المرسلين، فيحشركم بعد الموت والبعث للحساب.

25- ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين.

لم يستطيعوا أن يجادلوا في أن الله أنشأهم، وجعل لهم السمع والبصر والعقل. ولا أن الله قدر أن يتكاثروا في الأرض فتكاثروا. ولكن لما حقق لهم أنهم سيبعثون بعد الموت، ويحشرون إليه للحساب، كان هذا مما يزعجهم أشد الإزعاج، وأنكروه أشد الإنكار. وقد ذكر القرآن في مواقع كثيرة استبعادهم للحياة بعد الموت من ذلك قوله

تعالى:(هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممـــزق أنكــم لفـــي خلـــق جديـــد)[1] فلمـــا ختمت الآية السابقة بقوله تعالى: وإليه تحشـــرون -جـــادلوا بســـؤالهم: متـــى يكـــون هـــذا الحشر الموعود به استبعادا له، واســـتهزاء. ولا يســـألون عنـــه مســـتيقنين بـــه، ولكـــن إن احتمل أن تكونوا صادقين. فهم ينفـــون صـــدقه فيمـــا أوعـــدهم بـــه. ويجعلونـــه احتمـــالا بعيدا.

26- قل إنما العلم عند الله... مبين.

وهذا هو الأمر الثالث بالقول، ليكون جوابهم جوابـــا حاســـما مـــن عنـــد الله. ســـألتم عمـــا أخفى الله عليكم موعده، فلا سبيل لكم إلـــى معرفـــة وقتـــه. وهـــو واقـــع لا محالـــة فـــإن علمه عند الله وحده.

إن مهمتي التي أوكلت إلي وشرّفني الله بها لا تتجاوز: أنـــي مقصـــور علـــى إنـــذاركم مـــا يترصدكم من سوء المصير، وأبَيِّن لكم بما يدفع كل غموض ما أوحي إلي.

27-فلما رأوه زلفة...به تدعون.

تواصل هذه الآية ما يتعلق بالحشر الذي أنكروه واســـتهزأوا بـــه طـــالبين أن يعـــين لهـــم موعده. فكشفت هذه الآية عن وضعهم في هذا الموعـــد المحقـــق. فلمـــا رأوه قريبـــا مـــنهم أشد القرب لا محل للشـــك فـــي أنهـــم بعثـــوا وسِـــيقُوا إلـــى المحشـــر. ظهـــر الجـــزع والخوف على وجوه الذين كفروا فإذا هي كالِحَـــةٌ كئيبـــة كاســـفة. ومـــا تخفـــي صـــدورهم أكبر. وتنطق ملائكة العذاب موبخة لهم بقولهم: هذا الـــذي أحـــاط بكـــم مـــن كـــل جانـــب هذا الذي كانت النذر تنذركم به، وكنتم تكذبون به، تـــدعون أنـــه مـــن المســـتحيلات التـــي لا يمكن أن تقبل.

28- قل أرأيتم...من عذاب أليم.

هذا الأمر الرابع بكلمـــة : **قـــل**. وحاصـــله: أن المشـــركين فـــي مكـــة كـــانوا يبغضـــون المسلمين أشد البغض، ويدبرون مـــا يقضـــي علـــيهم ويوقـــف المـــد الإســـلامي، وكـــانوا يدعون عليهم جهرة أن يهلكـــوا. أوقفهـــم الله علـــى أنهـــم هـــم الخاســـرون علـــى جميـــع التقادير. قل لهم يا محمد: ما هو ظنكم بعاقبة مـــا يحـــدث إن قـــدَّر الله أن يميتنـــي ومـــن وافقني على الإسلام، أو قدَّر أن يبقينـــا مواصـــلين نشـــر دينـــه ؟ إنـــه علـــى الاحتمـــالين نحن رابحون، إن واصل بنا القدر الحياة، فســـنرى وتـــرون انتصـــار الإســـلام وانكســـار دينكم وأصنامكم. وإن قـــدر ســـبحانه أن يميتنـــا فـــإلى كرمـــه وجنتـــه نحـــن صـــائرون.

---

[1] سورة سبأ آية 7

فحياتنا أو موتنا لا يدفع شيئا مما كتبه الله عليكم من العذاب والمهانة. إنكم لا تجدون من يحميكم من عذاب قدَّره الله أن يكون مؤلما لكم أشد الإيلام.

29- قل هو الرحمن آمنا به... من هو في ضلال مبين.

ختمت الآية السابقة بالتأكيد على أن المشركين لا يجدون من ينجيهم من العذاب. ولم يصرح بما هو مفهوم، من علاقة المؤمنين بربهم. فجاءت هذه الآية معلنة تلك الرابطة العزيزة، الجامعة بين المؤمنين وبين الرحمن ربهم. قل لهم: هو الله الرحمن يربطنا به:

أولا: رابطة الإيمان الواضح النقي الواضح، بأنه ربنا نُنَزِّهُه ونتيقن أنه واحد لا شريك له.

ثانيا: أنا توكلنا عليه حق التوكل. فهو الذي يسعدنا بعون هدايته إلى الطريق المستقيم، وهو الذي ينشر علينا رحمته التي بها تطمئن قلوبنا. وأنه هو الذي يرحمنا فيغفر لنا ذنوبنا فتنسحب علينا رحماته في جميع المواقف.

فستعلمون من...سوف تنقشع عنكم الأوهام، وتواجهون الحقيقة عارية، وتدركون من هو الذي سار في طريق الضلالة، يوم تحشرون، ولا تجدون لأصنامكم إلا ما يضاعف عذابكم وندامتكم.

30-قل أرأيتم...فمن يأتيكم بما معين.

هذا هو الأمر السادس بكلمة : قل.

يسكن أهل مكة بواد غير ذي زرع، يرتبط بقاؤهم بماء زمزم, وببعض الآبار العذبة كبئر ميمون، وبئر جفر، والجم. قل لهم: ما أعظم خسارتكم إن لم تتوكلوا على الرحمن الذي عليه توكلنا. إنه بيده الأمر فهو القادر على أن يجعل مياه آباركم ناضبة لا تبض بقطرة ماء، وعندها فمن يستطيع أن يأتيكم بماء كثير يقيم حياتكم.

يوم الثلاثاء 28 رجب 1435 –2014/5/27

سورة القلم

سميت بهذا الاسم في معظم المصاحف: و سميت في صحيح البخاري [سورة نون والقلم] وعند الترمذي وعند بعض المفسرين سورة [ن] وهي سورة مكية على الأشهر. هي السورة الثامنة والستون حسب ترتيب المصحف. وحسب ترتيب النزول هي الثانية عند جابر بن زيد، نزلت بعد سورة اقرأ باسم ربك، وقبل سورة المدثر. وحسبما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن الوحي فتر بعد نزول سورة اقرأ باسم ربك ثم نزلت سورة المدثر. وعلى جميع الأحوال فهي من أول ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ
مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾
إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

ما يسطرون : ما يكتبونه سطورا متتالية.

غير ممنون : لا تتبعه منة عليك به.

المفتون: المضطرب المتحير.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت السورة بحرف واحد وهي طريقة ظهرت أول مرة في هذه السورة من القرآن، ثم أتبعها بقسمين:

القسم الأول: القلم. والراجح أنه الآلة التي يقصد بها أولا تدوين ما هو مهتم بإثباته لرفعة مقامه.

والقسم الثاني: ما تم تثبيته سطورا متتابعة من القرآن أو من الوحي المعلم به الملائكة مع أمرهم بتسجيله. إن الفاتحة الفريدة والقسمان تتساندان لنفي ما اتهمه به المشركون من أنه مجنون. فنفى عنه الجنون بأكمل ما يدل على ذلك.

وبكل تأكيد فستنال من ربك أجرا لا ينقطع، ولا تصحبه منة. وإن ربك قد اعتنى بك فحلاك ساميا بك إلى أن كنت المثل الأعلى في الأخلاق، وتكون أمتك على خطاك. سيتبين لك وللمشركين من هو المضطرب في تفكيره. بأدنى تأمل يظهر أن المشركين مضطربون في قيمهم وفي أخلاقهم وفي تصوراتهم.

إن الذي عنده العلم الحق الذي لا تخدعه الظواهر ولا يؤثر فيه التهريج هو الله سبحانه، فهو العليم بمن هو على حق، ومن هو على باطل. وسيتبع علمه الحقيقي جزاء كلٌ جزاء عادلا.

بيان المعنى العام:

1- ن والقلم وما يسطرون.

افتتحت السورة بحرف نون مرسوم بالمصحف [ن] وعلى سنة هذه السورة سار القرآن في افتتاح السور بالحروف المقطعة، لما كانت هذه السورة هي ثاني سورة نزلت أو قريبا من ذلك. جرى ذلك فيما كان مفتتحا بحرف واحد. نحو [ص- ق]أو بأكثر نحو[كهيعص - حمعسق]

والقلم وما يسطرون - ظاهر الآية أن الله أقسم بقسمين متتاليين. أقسم بالقلم، وأقسم بما يسطرون.

أما القسم بالقلم:

فحمله بعضهم على أنه كناية عما وثقه الله بعلمه المتعلق بكل ما وقع وبما سيقع. أي العلم الأزلي الثابت ثبوت ما هو مدون بالكتابة غير القابلة للتغيير. كما يقال سبق القلم بما هو كائن.

وحمله بعضهم على أنه كائن غيبي عظيم نؤمن به، ولا ندرك كنهه.

وحمله آخرون على أنه آلة الكتابة التي يوثق بها البشر ما يرغبون في توثيقه، ويقرب هذا المحمل قرب السورة من سورة العلق ، علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم. ولقوله بعد ذلك : **وما يسطرون.** كما يرجحه أنه بتدوين المعاني الحاصلة في الضمير تم توثيق القرآن ليسند هذا التوثيق الحفظ الثابت في الصدور. وكذلك أصول الديانات و الشرائع، وتاريخ الحوادث والأمم، والمعارف الإنسانية ليبني اللاحق على ما وصل إليه السابق فيتحقق التواصل المعرفي بين أجيال الإنسانية. وهو ركن في الاقتصاد بما ييسره من الاتصالات في الغرض، وبتوثيقه لما تم عليه التعامل. وبه يتم التعليم للصغار فتنمو بواسطته المعرفة.

ولما كانت الشريعة الإسلامية هي الشريعة الخاتمة، انفرد القرآن من بين الكتب السابقة بأنه الكتاب المكتوب كتابة متتابعة، فكلما نزل وحي أمر صلى الله عليه

وسلم كتبة الوحي بتسجيله. ولهذا لا يوجد فيما بقي محفوظا من الكتب السابقة أي تنويه بالقلم والكتابة. ثم إن في التنويه بالقلم والكتابة ما يقوم دليلا مقنعا: أن هذا الكتاب من عند الله. إذ أن المبلغ له كان أميا بعيدا عن القلم والكتابة، فالتنويه بالقلم في أول سورة وتشريفه بأن الله جعله وسيلة العلم، والقسم به في هذه السورة، كل ذلك ينادي بأن الرسول ﷺ لا يتجاوز دوره دور التبليغ والبيان والتطبيق العملي لما ينزل عليه. خاصة وتقسيم الحضارة البشرية إلى ما قبل الكتابة وما بعدها، وأن الإنسانية ما استطاعت أن تتقدم علميا وفكريا إلا بعد استعمال القلم، كل ذلك ما دخل في الحقائق العلمية إلا بعد قرون من نزول القرآن.

وأما القسم بما يسطرون- فيسطرون مأخوذة من السطر الدال على تسجيل كلمات متتابعة مصفوفة. وهو يشير إلى ما تم توثيقه من القرآن بالكتابة. وحمله بعضهم على التعميم بكل ما كتب.

والضمير في " **يسطرون**" كتبة الوحي، أو الملائكة لما يتلقونه من رب العزة ليثبتوه، أو العلماء: العلم المدون النافع للبشرية دينيا أو دنيويا.

2-ماأنت بنعمة ربك بمجنون.

كانت صدمة المشركين لما سمعوا من رسول الله ﷺ ما يهدم كل القيم الدينية التي أخذوا بها أنفسهم ,وأخذ بها آباؤهم من قبلهم. وكانت عندهم بمحل اليقين الأيقن الذي لا يقبل النفي. فأسرعوا تبعا لذلك إلى رميه بالجنون، لأنه في تصورهم لا يسخر من الآلهة إلا من فقد عقله. وأكدوا وصفه بالجنون بزعمهم، فقالوا: **إنه لمجنون**. فكان نفي ما قالوه بتأكيد أبلغ، فافتتح نفي الجنون عنه بطريقة ما لهم بها من عهد في مخاطباتهم **[ن]** ثم أتبع ذلك بقسمين **[والقلم]** **[ومايسطرون]** وتأكيد ذلك بإدخال الباء [ما أنت...بمجنون]ثم وجه نفي الجنون عنه بأن ذلك تم بنعمة ربك.واختيار ربك عن التعبير بإلهك أو الله للإشارة إلى أن عنايته به موصولة. وهو ما يحقق أن كلامهم كلام باطل وسخيف.

3-وإن لك لأجرا غير ممنون.

صيغت هذه الجملة صياغة مبالغ في إفادتها للتأكيد. محقّقٌ أنك مأجور على صبرك على مقاومة الشرك، وإبلاغ هدايتي، وبيان ما أنزل عليك. وهذا يفيد من ناحية أخرى نفي الجنون عنه، إذا المجنون غير مؤهل للأجر. ثم وصف الأجر بأنه غير ممنون، نوفيك أجرك دون أن نمن عليك بما نوليك من كرامات، وقد جسم النابغة أذى المنة بقوله شاكرا الأشدق قائلا:

عَلَيَّ لعمرو نعمة بعد نعمة *** لوالده ليست بذات عقـــارب

إذ صور مجسما المن بالعطاء، بالعقارب المؤذية بسمومها.

4- وإنك لعلى خلق عظيم.

تأتي هذه الآية في بواكير الـدعوة الإسـلامية منوهـة برسـوله ﷺ، معرفـة بـأن مـن مميزات القائم بالدعوة، أنـه ملتـزم بشـريف الأخـلاق، ومطبـق لعـالي القـيم. وهمـا مسلكان في الحياة : مسلك الأخلاق بصـرامته، ومسـلك اتبـاع الهـوى والشـهوات بمـا يصحبه من تبرير لتنطلق النفس تتبع ميولها بدون ميزان.

تفيد الآية أن رسول الله صلى عليه وسلم متمَكِّنٌ من الخلـق العظـيم، كـأن الخُلُـقَ دابـة علا ظهرها وثبت، فهي طائعة له. فحيث سار فإنمـا هـو الخلـق. والخلـق وصـفه رب العزة الخالق للكون كله أنه خلق عظيم، يتجـاوز مـا ملكـه البشـر أفـرادا وجماعـات. في ذاته وفي علاقته الأسرية، وفي علاقتـه بالبشـر المـؤمنين، وحتـى الكـافرين لمـا آذوه (الله اهـد قـومي فـإنهم لا يعلمـون) وفـي علاقتـه بـالكون، الحيـوان والنبـات والجماد. تتبع ذلك القاضي عياض رحمـه الله فـي كتابـه الشـفاء بحقـوق المصـطفى. ورغم ما بسطه وما أكمل به شراحه خُلُقَ رسـول الله، فـإن رسـول الله ﷺ فـوق ذلـك. إنه ﷺ يمثل المنهج الرفيع الذي يقتبس منه الطـامحون لنيـل المراتـب العليـا فـي زكـاء النفس، والسمو المتجه إلى الله.

6/5- فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون.

فسـترى وسـيرى المشـركون بعـد أن أعرضـوا عنـك، ورمـوك بـالجنون (**بـأيكم المفتون**) الباء مزيدة لتأكيد ربطت الفعل ستبصر ويبصـرون بمـا وقـع عليـه البصـر. والفتنة هي الاضطراب الواقع فيه المفتـون المتحيـر فـي عقلـه. والمعنـى ستشـاهدون بأبصاركم بأي الفـريقين، فريـق محمـد والمـؤمنين معـه، وفريـق المكـذبين, حصـل الاضطراب والحيرة، التي منهـا الجنـون. فـأنتم إذا تـأملتم وحلّلـتم مواقـف الفـريقين، فسيتبين لكم من هو المختل في تفكيره المتخبط في آرائـه. فمحمـد يـدعو إلـى التوحيـد، وإلى عبادة الله الخالق، ونبذ الأصنام التي ليس لهـا مـن الأمـر شـيء، وهـو المتصـف بكمال الأخلاق. فلا تناقض بين سـلوكه وبـين القـيم العليـا الضـابطة لاسـتقامة حيـاة الناس .والمتعرضون لـه مـن رؤوس الكفـر يرفضـون الوحدانيـة الفطريـة، ويعبـدون الأصنام التي صنعوها بأيديهم مع ظهور عجزهـا، ويتناقضـون فـي فعـالهم وتقـويمهم، بين الحق النابع أحقيتـه مـن خصائصـه الذاتيـة، وبـين سـلوكهم المتنـاقض الـذي لا ميزان معه. الخير ما يلائمهم، والشـر مـا لا يلائمهـم. فـالحكم عنـدهم علـى الشـيء

الواحد مختلف بين وجود النفع الخاص فيه أو الضر. وكل خير عند أحدهم هو شر عند الآخر. فيظهر لكم من هو المضطرب المختل.

7-إن ربك....أعلم بالمهتدين.

الميزان الحق بيد الخالق وحده، وهو المتصف بالعلم الكامل الذي لا يدخله أي غموض ولا لبس. إنه ربك الذي تولاك بعنايته حتى تخيرك لرسالته، وحماك في جميع مراحل حياتك. وفضّلك على جميع البشر تبعا لعلمه وعنايته. هو العليم بالفريق الضال المنحرف عن طريق الهدى الطريق المبلغ لرضاه. وهو العليم بالمهتدين الصادقين. فكلام رؤوس الشرك وتهريجهم هُرَاءٌ لا قيمة له.

فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ
﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن
كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ
عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

فلا تطع : فلا تقبل ما يريدون منك عمله موافقا لقيمهم.

تدهن : تلين وتصانع.

فيدهنون : فيصانعونك.

حلاف : كثير الأيمان.

مهين : حقير.

هماز : همه إذاية غيره.

مشاء بنميم : يتحرك ليوقع العداوة بين الناس.

مناع للخير : عظيم الشح.

معتد: شأنه الاعتداء على غيره.

أثيم : كثرت آثامه وأعماله السيئة.

عتل: ثقيل.

زنيم : في نسبه غضاضة.

سنسمه على الخرطوم : سنذله.

بيان المعنى الإجمالي:

لا تطع الذين صمموا على تكذيبك فيما يدعونك إليه، هؤلاء الذين صار التكذيب الصفة المعرفة بهم. إنهم يعملون على أن تلاينهم فلا تسخر من أصنامهم، ولا تذكرهم بتناقضاتهم، و على أن يعاملوك بالمثل فيكفوا عن إذايتك وإذاية المؤمنين معك. لا تطع فيما يدعونك إليه كل فرد تلوث بصفة من الصفات التالية : كثرة الحلف ، ضعف الرأي، التعود على قبول الإهانة والذل، ولا الهماز الذي مرد على الإذاية، ولا الذي يتحرك، فينتقل من شخص إلى آخر ليفسد العلاقة التي بينهم، وكذلك البخيل الذي ينغصه أن يصل الخير إلى غيره. الذي تعود على الاعتداء على غيره، وفوق ذلك هو ثقيل، صورته تدعو إلى النفرة منه. في نسبه مغمز، فنسبه غير صريح، وفي سلسلته النسبية من هو بعيد عن الشرف.

استكبر ففسد تركيبه النفسي والخلقي لماله الوفير، وكثرة بنيه الذين يلوذون به. فتجرأ على القرآن، فإذا سمع آياته تتلى عليه قال هذا من نوع الأساطير التي نعلمها وهي تحكي عن الأزمنة السابقة. سنذله ونجعل له سمة على أنفه كما يوسم القطيع ليعرف مالكه.

بيان المعنى العام:

8-فلا تطع المكذبين.

لما كان ربك هو الأعلم بالمهتدين، وأنك على الهدى، وأن الذين قالوا لك إنك لمجنون هم الضالون الحائدون عن طريق الله ؛فعاكِسْهُم فيما يطلبون منك، وخذ طريقا غير ما يعرضونه عليك. هذا ما ينبغي أن تكون علاقتك بهم، لأنهم صمموا على تكذيبك، حتى كان وصف التكذيب وصفا ملازما لهم، معرفا بهم.

9-ودوا لوتدهن فيدهنون.

صرحت الآية بالطاعة التي يرغبون فيها. وتعلقوا بأن تعقد صلحا بينك وبينهم. تلين لهم وتصانعهم ولا تتعرض لمقدساتهم، ولا تفضح تناقضاتهم. فيقابلون خطوتك من إظهار مصانعتهم بالمثل فيصانعونك ويكفون عن إيذائك وإيذاء من اتبعك. ولا يتم ذلك إلا إذا أخفيت شيئا مما نزل عليك. وهذا لا يكون. فبهذا كانت الآية مؤكدة لقوله تعالى: **فلا تطع المكذبين.**

وحمله بعضهم على معنى أن تقدس آلهتهم، ويقدسون إلهك. وهذا بعيد في نظري.

10←13: ولا تطع كل حلاف مهين...زنيم.

كرر النهي عن الطاعة ليعلقها بما يوجه هذا النهي من ناحية، ولتكون أصرح في النهي عن طاعة أي فرد يحمل صفة من الصفات التالية. فتتابعت الصفات المعرفة بهؤلاء المنهي عن طاعتهم بصفة خاصة.

أ-**الحلاف** : كثير الأيمان يدخل الحلف في كلامه بدون موجـب، وينبـئ ذلـك عـن عـدم ثقته بنفسه، إذ الغالب أنه كذاب، فيعتمد كثـرة الأيمـان ليقنـع مخاطبيـه بصـدقه. ولمـا كانت أيمانه مُنْبِئَةً بعدم صدقه، فعدم طاعته تكون الموقف الراشد منه.

ب - **مهين**: ذليل حقير. ضعيف الرأي والتمييز. فمـع فُجـوره وسـيل الأيمـان الكاذبـة التي تزعج من يسمعه. وجدير بمن كان بعيدا عن مراتـب العـزة، معروفـا عنـد النـاس بحقارته وذله، أن لا يطاع فيما يدعو إليه.

جـ - **همـاز**...أصل الهمز الطعن بعـود ونحـوه، والفـارس يهمـز حصـانه بالمهمـاز ليستحثه على الجري تبعا للألم الذي يحس بـه. واسـتعمل بكثـرة للدلالـة علـى الإذايـة باللسان في الغِيْبَةِ. والهماز منحط خلقيا فلا يطاع.

د- **مشاء بنميم**...النميمة :نقل الحـديث قصـد إيقـاع الفتنـة بـين النـاس.وقـد جسـمه القرآن بما يوجب الاشمئزاز منه، صـوره وهـو يتنقـل مـن مكـان إلـى مكـان ويبـث سموم فتنته بين الناس، كلما أفرغ ما في نفسه من شـر، انتقـل إلـى مكـان آخـر. شـأنه شأن الحشرات السامة.

هـ **مناع للخير**...بخيل بالمال، وبمساعدة المحـاويج كأشـد مـا يكـون المنـع والبخـل. وخاصة ذووه و أقاربه الذين أسلموا، ممن كانوا ينالون من رفـده قبـل ذلـك. هـو علـى البخل كلما كان العطاء بعيدا عن مـواطن الفخـر والريـاء والسـمعة. قيـل كـان الوليـد ابن المغيرة ينفق في الحج كل سنة عشرين ألفا يطعـم أهـل منـى. ولا يعطـي المسـكين درهما واحدا.

و- ز- **معتد أثيم**...معتد مبالغة في العـدوان والتسـلط علـى حقـوق الآخـرين. وأثـيم كثير الإثم. بارتكاب المرفوض دينا وعند أهل المروءة.

ح -**عتل**... هذه الكلمة تجمع صفات تجعل صاحبها مُبْغَضـا يُشْـمَأزُ منـه. فُسـرت بمـن يأكل كثيرا، وهو أناني يعمل على الاستحواذ علـى كـل شـيء، وعلـى منـع الآخـرين منه. القوي البنية الغليظ الأعضاء، القاسي القلب، البعيد الفهم.

ط -**بعد ذلك زنيم**... الزنيم هو الملصق في قومه، ونسـبه لـيس صـريحا فـيهم. مـأخوذ من الزنمة. قطعة تتدلى من أذن البعير ملصقة بها. ومثلهـا قطعتـان فـي رقـاب المعـز. وممن يلمز بالزنامة : الوليد بن المغيرة لأن أباه ألحقـه بنسـبه بعـد ثمـاني عشـرة سـنة من عمره. وكذلك الأسود بن شـريق لأنـه كـان مـن ثقيـف فحـالف قريشـا وانتسـب إليهم. كما يطلق الزنيم على من كان في نسب أمـه غضاضـة، كـأبي سـفيان لأن أمـه مولاة وهجاه حسان بن ثابت رضي الله عنه بقوله :

وأنت زنيم نيط في آل هاشم **** كما نيط خلف الراكب القدح الفرد

وإن سنام المجد من آل هاشم **** بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

على أنه لا يبلغ شرف رسول الله ﷺ ، الذي أمه من بني مخزوم. وأن جد أبي سفيان أبو أمه سمية، هو موهب كان عبدا لعبد مناف.

14- أن كان ذا مال وبنين.

كَذَّبَ وبدَّلَ الحقيقة قائلا إذا تتلى عليه آياتنا: إنها أساطير الأولين، أغراه بذلك أن كان صاحب مال كثير، وعديد من الأبناء. وسَّع الله له في مكاسبه، ووفّر له في ذريته، فتملكه الكبر والأنفة من الحق، وعوض أن يجعل ما أنعم الله به عليه موجبا للشكر، والاعتراف بالفضل، حوّله إلى سبب للرفض والطعن في آيات الله بأنها حديث مسبوق، أخبر به الناس من قبل في حكاياتهم.

سنسمه على الخرطوم – لن يفلت الحاملون للصفات الذميمة التي تتابعت من قوله حلاف مهين، من عقابنا، وسيكون قريبا. والوسم علامة تميز الحيوان، يعرفه به مالكه. فهي تدل على إذلال الموسوم كأنه واحد من القطيع.

وكون السمة على الخرطوم، الأنف إهانة ثانية. لأن الأنف مظهر الأنفة والعزة، وانكساره بوسمه عبارة عن الذلة والصغار. وفي التعبير عن الأنف بالخرطوم ذلة ثالثة. إذ أن أصل الخرطوم أن يطلق على الأنف المستطيل كأنف الفيل والخنزير. وكانوا يرون في صاحب الأنف المستطيل شمما وعزة، فإطلاق لفظ الخرطوم عليه إذلال وإهانة.

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ
﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟
مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ
﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا
قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا
تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ
يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ
رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

بلوناهم :اختبرناهم.

الصرم : قطع الثمرة.

مصبحين : في أوائل الفجر، وقت دخول الصباح.

لا يستثنون : لا يتركون من الثمر شيئا للمساكين.

طاف عليها: أتاها من جميع جوانبها.

من ربك: جائيا من ربك لا يمكن رده.

كالصريم : كالليل الأسود، أو كالرماد.

تنادوا : نادى بعضهم بعضا.

اغدوا: اخرجوا باكرا في أول النهار.

التخافت: الإسرار بالكلام وخفض الصوت.

الحرد : يطلق على الغضب، وعلى المنع.

اللوم : إنكار، فوق العتاب، ودون التوبيخ.

الطغيان : تجاوز الحد في الكبر والتعاظم.

بيان المعنى الإجمالي :

إنا اختبرنا المشركين بالنعمة كما اختبرنا أصحاب الجنة. وقصتهم أنه ورث أولاد الرجل الصالح جنته. وقد كان الأب يحضر المساكين يوم جني المحاصيل ليسهمهم مما رزقه الله. فاجتمعوا قبل يوم القطاف، وتدبروا الأمر فيما بينهم، وقرروا أن العادة التي كان يسير عليها والدهم تحرمهم من جزء غير قليل من ثمارهم، يذهب به المساكين الذين ما ملكوا ولا عملوا. دبروا الأمر: أنهم يخرجون إلى جنتهم في الصباح الباكر قبل أن يستيقظ المساكين ويجتهدون للانتهاء من جني المحصول قبل حضورهم. أقسموا على تنفيذ ما دبروا وأن لا يمكنوا المساكين من أي شيء من رزقهم. ناموا مطمئنين إلى أنهم سيقطعون العادة التي جرى عليها والدهم. وسلط الله على جنتهم ما أحرقها وهم نيام. فأصبحت كالرماد سوداء. وقاموا في الصباح الباكر يستحث بعضهم بعضا للإسراع نحو الجنة ليقطفوا الثمار. تراهم وهم يسيرون في حذر يتهامسون فيما بينهم مكررين ما عزموا عليه من حرمان المساكين. وأنهم لا يمكنون أي واحد منهم من دخول الجنة. وبذلك كانوا واثقين أنهم قادرون على حرمان المساكين بلا شك. فلما وصلوا إلى جنتهم ورأوها مسْوَدَّة قالوا لقد ضللنا الطريق فما هذه جنتنا.ثم رجعوا إلى أنفسهم فتبين لهم بما لا يدع مجالا للشك أن الجنة المحترقة هي جنتهم، وأنهم في النهاية هم المحرومون لا

المساكين. فقال أرجحهم عقلا وأثبتهم إيمانا، ألم أقل لكم محذرا من تدبيركم وأن الأولى بكم أن تسبحوا الله وأن تنزهوه أن يكون قد ظلمكم إذ جعل في أموالكم حقا للمساكين. وبالجمع بين الواقع وصدق لهجة أخيهم الرجل الصالح، استفاقوا وقالوا تنزه ربنا، إنا كنا ظالمين لأنفسنا وللمساكين. ثم أخذ بعضهم يلوم بعضا عما شجع به يوم تدبروا أمر الحرمان. صدرت منهم الحسرة في وقت واحد قائلين : إنا كنا طاغين متجاوزين للحدود. إنا تبنا مما قدمنا، ونحن نطمع أن يعفو الله عنا ويبدلنا جنة خيرا من الجنة التي فقدناها بطغياننا. إنا راغبون فيما عند الله من فضل.

على نحو هذا العذاب الذي أصاب أصحاب القرية في جنتهم، سنحرم مشركي مكة من متنوع فضلنا الذي توالى عليهم، و سيتسلط عليهم عذاب الآخرة بما هو أشد إذاية وأعظم نكالا لو كانوا يعلمون.

بيان المعنى العام :

17←18- إنا بلوناهم...ولا يستثنون.

من هم هؤلاء المبتلون ؟وابتلاؤهم بالنعمة. ذلك أن الابتلاء يكون بالنعمة ويكون بالنقمة، وفي كليهما ينكشف المبتلى عن حسن إيمان، أو عن إصرار على الكفر والعناد. قال تعالى: (**ونبلو كم بالخير والشر فتنة وإلينا ترجعون.**)[1] وقال تعالى ليبلوني:(**أ أ شكر أم أكفر**)[2] يستحضر ما جمع الله لهم من النعم: نعمة الأمن، ونعمة تيسير الرزق الذي يأتيهم من كل مكان، فلم يقعوا في مجاعة مُهْلِكَة. ونعمة توقير العرب لهم فتجارتهم تسلك جميع الطرق الصحراوية دون أن يعترض طريقها أحد. وأتم النعم بأن بعث فيهم ومنهم خاتم الرسل وسيد البشر محمدا ﷺ.

ذكَّرَتْ الآية قريشا بحدث كان معروفا عندهم يتناقلونه؛ فجمع بين وضعهم في النعيم، ورفاه العيش بوضع أصحاب الجنة. عرضت هذه القصة مشاهد:

المشهد الأول :أن رجلا صالحا أنشأ جنة تدر عليه الرزق الوفير، وكان لا يستأثر بثمارها، بل يمكن منها مساكين القرية الذين يأتونه، فينقلبون من عنده بقسطهم من الناتج. تُوُفِّيَ الأب وترك أولادا ورثوا جنته. ولما حان أوان قطاف الثمار تدبروا أمرهم. ووجدوا أن ما جرى عليهم والدهم من التفريط في نصيب غير قليل من الغلات إلى المساكين، طريقة فيها حرمانهم من قسط وافر من رزقهم. وانتهى تدبيرهم إلى أن المال مالهم، وأن الفقراء ما قاسموهم الملك ولا الأتعاب حتى

[1] سورة الأنبياء آية 35

[2] سورة النمل آية 40

يقاسموهم الثمار. وتحقيقا لما دبروه، وتأكيدا لعزمهم على الاستئثار بالمحصول، أقسموا أن يتوجهوا إلى الجنة في الصباح الباكر ويجتهدوا في إنهاء القطاف قبل أن يستيقظ المساكين، ويلتحقوا بهم. وإثر ذلك ذهب كل واحد منهم لينام باكرا ويستيقظ باكرا عاقدا العزم على الوفاء بما التزم به.

19←20 –فطاف عليها...كالصريم.

المشهد الثاني:

في تلك الليلة التي ظنوا فيها أنهم سينفذون تدبيرهم، وباتوا يحلمون بما سيتوفر لهم من حرمان المساكين. في تلك الليلة. ينزل الله على جنتهم ساحقا يطوف على كل شجرة، وعلى كل نبتة فيتركها أثرا بعد عين. لم يعين القرآن نوع الساحق، وتعيينه لا يهم، فاكتفى بالتصريح بأثره. تحولت الجنة التي كانت تكسوها الخضرة، وتزينها الثمار في أوان القطاف، إلى قطع مسودة متناثرة. كالصريم :فهي كالليل في سواده، أو كالرماد، مما يشير إلى أنها احترقت ولم يبق منها إلا الرماد. تم هذا وهم غافلون عنه نيام.

21←22-فتنادوامصبحين...صارمين.

المشهد الثالث: وهم في القرية قد استيقظوا من نومهم، والأشد حرصا ينادي من لم يحضر، ويحرض بعضهم بعضا، هذا اليوم الذي تتغير فيه العادات، فتَوَجَّهُوا إلى حرثكم في جنتكم، بناء على أنكم عقدتم العزم على الجذاذ والفوز بالمحصول وحدكم. فلا تَتَوَانَوْا، ولا تغفلوا عما نحن في حاجة إليه ليتم القطاف.

23←25-فانطلقوا...على حرد قادرين.

المشهد الرابع: تراهم وهم يسيرون بخفة نحو جنتهم، يتهامسون فيما بينهم، حتى لا تحرك أصواتهم المساكين فيستيقظوا ويتبعوهم. حديثهم حديث من يعيد على نفسه وعلى إخوانه ما عزموا عليه: أنهم سيفوزون وحدهم بالمحصول الزراعي. ثم أضافوا وهم سائرون: لو أن المساكين التحقوا بهم فسيمنعونهم من دخول جنتهم. وهيج هذا التكرار غضبهم على المساكين فأسرعوا الخطى، عازمين عزما مؤكدا على منعهم. ظانين أنهم قادرون على ذلك. فالجنة ملكهم، وهو أقوياء أشداء، ولا يخشون أحدا.

26-فلما راوها...إنا لضالون.

المشهد الخامس: بلغوا جنتهم، فدهشوا. وأخذوا يتساءلون: هل إننا ضللنا الطريق. هذا هو مكان جنتنا، ولكن أين الجنة التي كانت تزهو بخضرتها وانتظام غراسها.

27- بل نحن محرومون.

رجعوا إلى أنفسهم وتبددت آثار الدهشة وعرفوا أنهم واقفون على جنتهم. وأحسوا جميعهم بالحسرة على ما بيّتوا. وانقلب التصور الذي كان يستحثهم للبكور، وللإسراع في السير، إلى إدراك الحقيقة المرة، أنهم هم المحرومون من ثمرات جنتهم ونتاجها، لا المساكين.

28←32- قال أوسطهم...إلى ربنا راغبون.

المشهد السادس: تراهم منكسرين. يدور بينهم كلام معبر عما يحس به كل واحد على طريقته من الحسرة والأسى، بعد أن شاهدوا ذهاب آمالهم، وتحولهم من مالكين مقتدرين على المنع، إلى ضعاف لا يملكون شيئا. قام أحدهم وكان الأرجح عقلا، والأفضل نفسا مذكّرًا بما كان منه عندما تآمروا على حرمان المساكين، ألم أقل لكم ؟استفهام إنكاري تقريري: أي قد قلت لكم وأنتم تقلبون الرأي، محرضا لكم على تسبيح الله وتنزيهه، ولا تعترضوا على ما أمركم به، وتطهروا أنفسكم من خبث نيتكم بعصيانه فيما دعاكم إليه، وأمركم به. ظهرت حجته وبان سداد رأيه. ورأوا عاقبة تمردهم على الواجب عليهم.

كان جوابهم يتضمن إقرارا بصدقه، واعترافا بسداد نصحه، ,وأنه أراد بهم الخير، فركبوا رؤوسهم وعصوه، فحل بهم ما حل. خسران لمحاصيلهم، واقتنعوا أن ما حل بهم هو أثر غضب الله عليهم. وإذ كانوا لا يقدرون على رد ما ذهب عنهم فلا يخسرون مع ذلك رضا ربهم. فلهجوا جميعا: سبحان ربنا تنزه عن الخطأ، والتسلط الباطل، إذ أمرنا أن نسهم الفقراء من غلاتنا. واعترفوا بذنبهم فتوجهوا إلى ربهم مقرين بالذنب، نادمين على ما فرط منهم قائلين: بكل تأكيد إنا كنا ظالمين فيما عزمنا عليه.

وإذ انكسرت تلك السَّوْرة التي كانوا عليها، وتحرك التقريع الداخلي يؤنب كل واحد منهم، لانت نفوسهم، وأخذ كل منهم يحاول التخفيف عن نفسه في القرار المشؤوم الذي اتخذوه بلوم غيره، يذكر كل واحد منهم أخاه بما هيَّج به عند التشاور حتى تم القرار. يتلقى كل واحد تقريع الآخر ولومه.

مع هذه الحالة النفسية المنكسرة، ومع يقظة ضميرهم باعترافهم أن ما سلط عليهم كان بسبب ذنوبهم، وأنه قد استولى عليهم حب المال واعتزازهم بقوتهم الجسدية، فأضافوا معترفين أنهم كانوا متجاوزين لحدود الله، طاغين، تبعا للكبْرِ الذي طمس الحقيقة عن عقولهم.

إننا لا نقطع الرجاء في فضل ربنا، فيمن علينا بما يحول حالنا في الدنيا والآخرة إلى الوضع الذي يكون راضيا عنا ؛ فيبدلنا من جنتنا التي احترقت جنة خيرا منها، وأن يغفر لنا ما وقعنا فيه من حديث أنفسنا بالمنع، وأننا نحكم في أموالنا كما نشاء. فيغفر ويذهب ذلك الشريط من صحائفنا. إننا راغبون في فضله، عازمون على القيام بطاعته والتقرب إليه.

33- كذلك العذاب... لو كانوا يعلمون.

انتهت القصة كما تمت في الوجود، فانتقل القرآن إلى التصريح بالعبرة. فيخاطب المشركين بأن العذاب الذي يترصدهم، هو كذلك العذاب الذي طاف بجنة أصحاب القرية. دمرت تدميرا سريعا في وقت غفلة من أصحابها، ولم يبق فيها أثر من حياة. تتهددهم هذه الخاتمة بأن الله الذي أتم عليهم صنوف النعم وقابلوها بالكفران وعبادة الأصنام، وتكذيب رسوله وصد الناس عن الإيمان، سيرفع عنهم الرخاء الذي كانوا يتقلبون فيه. وعذاب الآخرة سيكون أشد نكالا وأعظم إيذاء. لو كان المشركون يعلمون ما سينالهم يوم القيامة من العذاب.

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

تخيرون : تأخذون خيره.

بالغة : مغلظة لا تحتمل النقض.

زعيم : كفيل.

يكشف عن ساق : مثل يضرب لشدة الحال وعظم الكرب.

خشوع الأبصار : انكسارها بذلة.

ترهقهم : تلحقهم ذلة تتمكن منهم أشد التمكن.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد يستحق المتقون عند ربهم جنات كلها نعيم. اعترض المشركون زاعمين أن حظهم يوم القيامة سيكون كحظهم في الدنيا، أنهم أوفرحظا من المسلمين. كذبوا فالله لا يسوي بين المجرمين والمسلمين. ما هذه الأحكام الباطلة التي تحكمون بها؟ فهل لكم كتاب منزل من عند الله وجدتم فيه وأنتم تدرسونه: إن لكم يوم القيامة ما تتخيرونه من الجزاء ؟ أم أنتم تعتمدون في مقالتكم هذه على عهد منا موثَّق لا يحتمل النقض والإبطال إلى أبد الآبدين، فتحكمون بما عهدناه إليكم. وهل لكم ضامن ضمن لكم هذا العهد مما يدل على نفيه أصلا. وبقي أن يكون مستندهم تقليد أناس آخرين يقولون بمثل مقالتهم، ولا يوجد من يقول بهذا، فيتحداهم القرآن أن يظهروهم ويأتوا بهم.

اذكر لهم هول يوم القيامة، هو الهول الشديد، هو اليوم الذي يبلغ فيه الفزع حدا كبيرا، فقوله يكشف عن ساق تمثيل لصعوبة الخطب، والفزع الشديد. وهو اليوم الذي يدعى فيه الناس إلى السجود، فيسجد المؤمنون ليجدوا في ذلك الفعل القرب الأشد من ربهم. ولكن الكافرين تتصلب فقرات ظهورهم فلا يستطيعون الانحناء، فيفضحون. منعوا من السجود جزاء امتناعهم منه يوم كان ميَسَّرًا في استطاعتهم، عندما دعاهم الرسول إلى عبادة الله والسجود له.

بيان المعنى العام :

34- إن للمتقين....النعيم.

ختمت قصة أصحاب القرية بتهديد مشركي مكة، وأنه على نحو عذابهم سيعذبون في الدنيا وعذاب الآخرة أشد. ومن شأن القرآن أن يقرن الوعيد بالوعد، والنذارة بالبشارة. فصرح مبشرا المتقين الذين ربطوا فكرهم وعملهم بالله، مؤكدا أنهم مستحقون بذلك عند ربهم جنات النعيم. فهي جنات متنوعة، كلها نعيم خالص لا يخالطها أي مكدِّر مما عرف في الدنيا.

35- أفنجعل المسلمين كالمجرمين.

كما قال تعالى في المشركين من قريش : **(بل هم قوم خصمون)**[1] فإنه لما تتالت الآيات في القرآن تُهَدِّدُهم بالنكال والعذاب يوم القيامة، وتبشر المؤمنين بالنعيم والكرامة. طمأنوا أنفسهم وأتباعهم من الدهماء : أن مآلهم في الآخرة سيكون حسب أوضاعهم في الدنيا، وأن ما سينال التابعين لمحمد من الفضل سينالون مثله وأفضل

[1] سورة الزخرف آية 58

منه، كما هو حالهم في الدنيا على فرض صدق محمد في وقوع البعث. فردّ القرآن عليهم مسفها أحلامهم. من غير المعقول أن تجعل المجرمين بالشرك المتمردين على القيم والأخلاق، كالمسلين الموحدين الملتزمين بالعدل والقيم الأخلاقية في حياتهم.

36- مالكم كيف تحكمون.

تتابع في الآيات التالية، ما يسقط دعواهم أنهم سيكونون يوم القيامة أسعد عاقبة من المؤمنين.

أولا: خرجتم بكلامكم هذا عن المنطق والمعقول، فسألهم القرآن سؤال إنكار، ما الذي أفسد عقولكم إلى هذا الحد حتى لم يبق لكم ميزان تزنون به أقوالكم، ولا عقل تحكمون به بما يقتضيه العدل.

كيف تحكمون... كيف تحكمون هذا الحكم الفاقد لكل مبنى: أنكم تساوون المسلمين في الآخرة مع أنكم اتخذتم طريقا في الدنيا يسير في اتجاه معاكس تماما لمنهجهم. تكفرون بما يؤمنون به، وترتكبون الشرور التي يتحاشونها.

37←38- أم لكم كتاب فيه...إن لكم فيه لما تخيرون.

ثانيا :يلجئ القرآن المشركين إلى إبطال ما ادعوه من أن حظهم في الآخرة،إن وجدت، سيكون خيرا من حظ المسلمين. فأبطل دعواهم أولا بأنها لا سند لها من العقل. ثم أبطلها في هاتين الآيتين بافتراض أن يكون مستندهم نصا منزلا في كتاب صادق، فأنتم تدرسون في هذا الكتاب: أن الله خَولّكم ما تتخيرون. وأنتم تخيرتم أن تكونوا على مستوى أفضل من المؤمنين يوم القيامة. ولا يخلو التعبير من أن فيه إشارة مبطنة تستهزئ بهم إذ هم أمّيون، ليس بينهم وبين الكتب والدراسة أي صلة.ولا متمسك لهم بهذا الدليل لأنهم لا يدعون أن بين أيديهم كتابا يرجعون إليه.

39- أم لكم علينا أيمان....لما تحكمون.

الفرض الثالث :هل أخذتم علينا أيمانا وعهودا موثقة ومؤكدة، أقسمنا لكم أن حظكم يوم القيامة سيكون حظا متميزا أفضل من حظوظ المسلمين، وهذه الأيمان لا مثنوية فيها مؤبدة إلى يوم القيامة. أي ثابتة إلى أبد الآبدين. فيكون لكم بهذه الأيمان ما تحكمون به من إكرامكم يوم القيامة.

40- سلهم أيهم بذلك زعيم.

إلجاء ليقروا بنفي ما يدعون. كان مضمون الآية السابقة نفي أن يكون لهم على الله أيمان شديدة مستمرة إلى أبد الآبدين، فأكدت هذه الآية نفي زعمهم بأن الشأن فيما

يؤخذ عليه اليمين المغلظة أن يطلب المحلوف له بكفيل يضمن وفاء المعاهد. فسلهم هل لهم كفيل بالعهد المزعوم ؟ وانتفاؤه يتبعه انتفاء العهد. وفي سؤالهم عن الكفيل تهكم واضح بهم.

41- أم لهم شركاء...إن كانوا صادقين.

هذا الفرض الأخير الناقض لتصورهم أن يكونوا يوم القيامة خيرا من المؤمنين، فلم يبق لهم إلا أن قوتهم جاءت من أن هناك من يعتقد مثل اعتقادهم، ويشاركونهم في ذلك التصور. فيتحداهم القرآن أن يظهروا هؤلاء الشركاء الذين تأيدوا بهم ويقلدونهم، إن كانوا صادقين فيما يدعون من أنه يوجد من يقول بمثل مقالهم. فهم قد انفردوا من بين العقلاء بهذه الدعوى، التي لا يؤيدها عقل، ولا نقل، ولا وعد مؤكد، ولا تقليد.

42- يوم يكشف عن ساق....وهم سالمون.

واذكر لهم يا محمد هول يوم القيامة، يوم يشتد الهول ويتفاقم. وجسم ذلك الهول بأنه اليوم الذي يكشف عن ساق. وليس المراد أن يكشف الناس عن سوقهم، ولكن هذا مثل لشدة الأمر، وهول الخطب. ذلك أن شأن الساعي إذا اشتد عليه الأمر يكشف عن ساقه ويشمر ثيابه. فهو يوم تبلغ فيه الشدة أقصاها، والفزع أبلغ صوره. ويُدْعَى المشركون للسجود مع الناس، فأما المؤمنون الذين أخلصوا لله في حياتهم الدنيا، وألفوا السجود لله، فإنهم يسرعون لذلك ليجدوا في السجود الأنس الذي كانوا يجدونه في الدنيا، بإحساسهم ببالغ القرب من ربهم (أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد) وأما المشركون فتتصلب ظهورهم ولا يستطيعون السجود. فيظهرون بمظهر العصيان في يوم لا عصيان فيه.

ثم شَهَّر بحالهم، إنك تراهم وقد جللهم الذل، وتملكهم الخوف، فأبصارهم منكسرة تملكها الذل من شدة الهول ومن تيقنهم بسوء المآل.

وقد كانوا يدعون...ثم قرعهم بأنهم كانوا في الدنيا والرسول يدعوهم إلى الإيمان بالله وحده، وتخصيصه بالسجود والطاعة، وهم في ذلك الوقت قادرون على الاندماج في زمرة المسلمين الساجدين لا علة تمنعهم من ذلك. فلم يستجيبوا فحق عليه الجزاء المذكور يوم القيامة.

فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ

ٱلۡغَيۡبُ فَهُمۡ يَكۡتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ
مَكۡظُومٞ ﴿٤٨﴾ لَّوۡلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعۡمَةٞ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلۡعَرَآءِ وَهُوَ مَذۡمُومٞ ﴿٤٩﴾ فَٱجۡتَبَٰهُ
رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا
سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

ذرني : صيغة وعيد.

الحديث : القرآن.

سنستدرجهم : نحولهم من رتبة إلى رتبة حتى يصيروا إلى شر لا مفر منه.

أملي : أؤخرهم.

الكيد : العقوبة.

متين: قوي.

المَغْرَم : الإتاوة الظالمة.

المثقل : الذي حمل عليه شيء ثقيل.

صاحب الحوت : يونس عليه السلام.

مكظوم : محبوس.

تداركه : لحقه.

النبذ : الطرح.

العراء : الفضاء من الأرض.

مذموم : مذنب، أو معيب.

الزلق : زلل الرجل.

الذكر: التذكير بالله والجزاء.

بيان المعنى الإجمالي :

لا تهتم بهذا الذي يُكذِّبُ بالقرآن ويجهد نفسه للتأثير على أتباعه من الدهماء. اتركه لي فإني سأجعل كل نعمة تصله مني تقربه من نقمتي حتى يحل عليه عذابي. إني أُمْهِلُهم ولا أُهْمِلُهم. إن كيدي الذي بواسطته يُدَمَّرُون كيد قوي.

أيعتذرون عن إعراضهم بأنك حملتهم إتاوة ظالمة، ففروا من الإيمان لثقل ما طالبتهم به. بل أيعتذرون بأنهم اطلعوا على اللوح المحفوظ، ونقلوا منه ما جعلهم يرفضون هدايتك. إنهم لا يتعللون بأي علة ولا يتصور أي سبب يبرر إعراضهم

عن الدين. وإذا كان العناد هو السبب الوحيد لمواصلتهم التمسك بالكفر، فاصبر لما حكم به ربك الذي أمهلهم ولا تضجر. وكن من الرسل ذوي العزم، ولا تكن كيونس بن متى الذي ضجر من عناد قومه وتركهم بدون استئذان من ربه. وكان ما كان مما قصه الله علينا في سورة الصافات، ولولا أنه تاب توبة نصوحا جمعت بين الندم وحسن الالتجاء إلى ساحة العفو، وقوة الأمل في أشد الحالات. لولا ذلك لكانت نهايته أن يُلقى في العراء مذموما. ولكن الله قبل توبته ويسر له اليقطين يغذّيه ويستره وتاب عليه، بل إنه لم ينزل عن مكانته التي كان عليها، فجعله من الرسل الصالحين.

أسقطت كل تعلاتهم فامتلأت صدورهم غيظا، حتى إن ما تكنه صدورهم من البغض يرتسم على نظراتهم الحاقدة فيكادون يسقطونك بها على الأرض، وما يضرونك، وإذ تجردوا من كل حجة، لم يجدوا إلا أن يقولوا: بكل تأكيد إنك مجنون. وكذبوا فلا يوجد كلام لا تناقض فيه، يشبع العقول ويقوم اعوجاجها ويجيب عما يعترضها من إشكال في فهم الوجود، وفي علاقة الانسان به، كالقرآن فهو ذكر للعالمين، وأنت المذكر. صلوات الله وسلامه عليك.

بيان المعنى العام :

44- فذرني ومن يكذب...من حيث لا يعلمون.

هذه صيغة تفيد الوعيد المحقق كأن المتكلم يقول للمخاطب، لا حاجة لي بعونك فإني سأتولى بنفسي هذا المتمرد فلا يستطيع الانفلات من قبضتي. ونظيره ذرني ومن خلقت وحيدا، وذرني والمكذبين.

لا تهتم يا محمد بمن يكذب بالقرآن، ويطعن فيه، ويعمل على صد الناس عنه. اتركه لي فإنه لا يخرج عن قبضتي، وسترى ما أصنع به. سنوالي عليهم من نعمنا ما أنقلهم به من درجة كفران النعم إلى درجة أحط منها، إلى أن يبلغوا المستوى الذي يحل عليهم فيه غضبنا ونقمتنا. وهو وقت يَفْجَأهم، إذ ينزل عليهم العذاب في وقت يكونون فيه مطمئنين إلى ما جمعوا من خيرات، يبغتهم ويتحيرون فلا يدرون من حيث جاءهم عذابنا. إن مواصلة إحساني لمن يكفر نعمتي، لينزل عليهم من العذاب أشده وأقساه، هو من كيدي القويِّ الذي لا يرد.

46- أم تسألهم أجرا...مثقلون.

إضراب عن الكلام الأول ليتسنى الانتقال إلى غرض جديد. فإذا كانت المعاذير السابقة باطلة، فلعلهم يعتذرون عن عدم الاستجابة لدعوتك على نصاعة بيانك،

وقوة حجتك، ومنطقية منهجك، أنك فرضت عليهم أداء جائرا، لا مبرر له. فهم يجدون أنك أثقلت عليهم بالمطالب واستنزفت أموالهم. وما طلب منهم النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قال تعالى: **(قل لا أسألكم عليه أجرا إلا المودة في القربى)**[1]

47-أم عندهم الغيب فهم يكتبون.

وينتقل القرآن من الفرض السابق المنافي للواقع، إلى فرض آخر لعلهم يتمسكون به لينقضه ويبطله. حاصل هذا الفرض: أنه أحصل لهم علم الغيب مما هو مكتوب في اللوح المحفوظ، فاتصلوا به ونقلوا منه ما يلزمهم اتباعه الذي منه عدم الإيمان بمحمد.

48←50- فاصبر لحكم ربك....فجعله من الصالحين.

توجيه من الله لرسوله، ليتحلى بالصبر على عناد قومه، وأن يوطد نفسه على عدم العجلة، واستعجال النتائج الحسنة المرغوب في حصولها. وحكم الله، هوما حكم به وقدَّره، الذي مِنْهُ أنه جعل لكل شيء أجلا، فانتصار الدين على الكفر المستعلي يتحقق عند بلوغ الأجل الذي أحكمه رب العزة. فلا تَتَعَجَّلْ الأمور قبل أوانها تعجلا يقترن به الضجر.

ولتأكيد الأمر بالصبر عرض عليه صورة رسول من المرسلين، امتلأ قلبه أسى وحزنا وضجرا من عناد قومه، وهو صاحب الحوت يونس بن متى، وعبر عنه بصاحب الحوت لأنه لزمه لزوما ما كاد ينفصل عنه إلا بفضل من ربه. وقد فصلت قصته في سورة الصافات.

إذ نادى ربه... أبرز القرآن الظرف الذي انتهى إليه بعد أن نفد صبره. في حالة وقت نداء ربه في الوضع الشديد، وهو محبوس في بطن الحوت حبسا يقطع الأمل من النجاة. مملوء غيظا وضجرا. دعا ربه دعاء المستغيث الذي لم يفقد الرجاء في العفو والمدد، تائبا من تسرعه، وعدم انتظار أمر ربه. فقبل توبته، وتداركه الله بحسن عفوه. ولولا ذلك الفضل لكان منبوذا ملقى بالعراء الذي لا نبات فيه ولا مأوى، مذموما بذنب الاستعجال. فمن فضل الله عليه أنه تاب عليه فارتفع الذم، وأنبت عليه شجرة من يقطين كانت له ساترا وغذاء فلم يكن في العراء. انظر ما شرحنا به الآيات 148/139-من سورة الصافات. فستره ورفع عنه المذمة. بل إن الله اجتباه، وقربه من ساحة رحمته ورضوانه، ومع العفو ومحو آثار التقصير،

[1] سورة الشورى آية 23

أسبغ عليه نعمة جليلة أخرى، إذ لم ينزل بمقامه عما كان عليه قبل المغاضبة لقومه وخروجه إلى البحر، فجعله مواصلا لمقامه الذي كان عليه : أنه من الصالحين.

51- وإن يكاد الذين كفروا...إنه لمجنون.

جسمت الآية ما تغلي به صدور المشركين من حقد، وما يكنونه من بغض لرسول الله صلى الله عليه وسلم. تلحظ من أعينهم وهي تنظر إليه أنها تكاد تسقطه على الأرض، وتهوي به وتصرعه. ويتفاعل غيظهم، ويزداد شرا حينما يسمعون القرآن، يهزهم هزا، ويحطم كل ما بنوه من خيالات عن آلهتهم، ويبطل مستنداتهم وما يروِّجُونه على الدهماء ليُعْرِضوا عن الإسلام.

ويضيفون إلى الحقد والبغضاء قولهم : إن محمدا مجنون. وهو الملقب عندهم بالأمين قبل أن يوحى إليه. يقولون هذا وما استطاعوا أن يكشفوا عن تناقض أو خبال في كلامه المنزل عليه من عند الله.

52- وما هو إلا ذكر للعالمين.

يحقق افتراءهم وكذبهم ؛ أن القرآن الذي يطعنون فيه، إن حلَّلْتَه وتتبَّعْتَ كل فكرة من مضامينه، وكل جملة من بيانه، لا تجد فيه إلا ما يذكر البشر جميعا بحقائق الوجود، ويكشف لهم عن المبدأ والمصير، وعن المنهج الذي به يسعدون في الدنيا والآخرة. فما محمد إلا مذكر. وكَذَبُوا في قولهم إنه لمجنون. فهو صلى الله عليه القمة الإنسانية في الذكاء والهدى.

يوم الثلاثاء 5رجب 1435-14/6/3

ســورة الحاقــة

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وفــي كتــب التفســير والســنة. أخــذ اســمها من الآية الأولى فيها. وهي ســورة مكيــة باتفــاق. رتبتهــا حســب ترتيــب المصــحف التاسعة والستون، وحسب ترتيب النزول السابعة والســبعون. نزلــت بعــد ســورة الملــك، وقبل سورة المعارج.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

الحاقة: الثابت وقوعه.

القارعة : اسم فاعل من قرعه إذا ضربه ضربا عنيفا.

الصرصر : الريح الباردة وتندفع بقوة هائلة تفزع بصوتها.

عاتية : بالغة من الشدة أقصاها.

سخرها : طوعها لتنفيذ ما أراده منها.

حسوما : أي يطلق هذا اللفظ ويراد منه التتابع، أو القطع.

صرعى : جمع صريع وهو الملقى ميتا على الأرض.

أعجاز نخل : أصول نخل.

خاوية : منخورة

بيان المعنى الإجمالي :

الحاقة التي لا شك في أحقيتها، وما الــذي يعرفــك بهــا، فهــي لأهوالهــا أعظــم مــن أن تُحدَّدَ معالِمُها. ولتقريبها ذكر القرآن ما حل بالذين كــذبوا بهــا.فعــرض مــا وقــع لثمــود ولعاد القبيلتين اللتين تصلبتا في الكفر والعناد والتكذيب بيوم القيامة.

أما ثمود فقد أهلكناها بالواقعة التي تجاوزت جميع الحدود المعروفة فدمرتهم تدميرا. وأما عاد فقد طوعنا الريح لتنفيذ أمرنا فيهم، فأهلكتهم. كانت ريحا باردة جدا تيبس كل شيء فيسهل تهشيمه. وتجري بسرعة فائقة عنيفة غير معهودة تُصَفِّر فترعد سامعيها قبل أن تسحقهم. توالت عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسمت أمرهم، ونقلتهم عما كانوا فيه من القوة إلى الضعف الشديد. فمشهدهم بعد ذلك أنهم جثث مصروعة فوق الأرض، نثرتهم الريح كما ترى أصول نخل مقطوعة منخورة ؛ أخرج ما كان بداخلها. فلا ترى لهم أي بقاء، هلكوا جميعا.

بيان المعنى العام :

1←3-الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما الحاقة.

تفتح السورة بما يروع المخاطبين، ويزعزع باطل عقائدهم، وتثبت ما أنكروه. تتكرر الحاقة ثلاث مرات.ويمكن أن يكون مدلول الحاقة يوم القيامة، أي الساعة الواجبة الوقوع التي لا شك في إتيانها. أو أطلقت على يوم القيامة باعتبار ما يتم فيه الأمور الحق من الحساب والثواب والعقاب.أو بالنظر إلى أنه اليوم الذي تعرف فيه الأمور على حقيقتها. فبعد أن كان الحشر وما يتبعه من الحساب والمآل من الجنة والنار، من الغيب الذي نؤمن به إيمانا روحيا، يتحول هذا الغيب إلى أمر مُشاهَد محقق، يرتفع فيه ريب المرتابين. أو إن الحاقة الوقعة التي يحق فيها الحق ويزهق الباطل كيوم بدر.

وهذه الطريقة في التعبير: الحاقة ما الحاقة، القارعة ما القارعة، وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين، أسلوب يراد به التهويل. فيذكر الاسم الأول وهو غير معلوم عند السامع، مما يوجب أن يثيره للسؤال عنه، فيأتي السؤال بعد ذلك ليكون هو الجواب عما ارتسم في نفس السامع، وهو الخبر عنه أيضا. ولا يزيد الجواب عن السؤال ولا يتولى تبيينه قصد التهويل.وأن ما افتتح به الكلام و ما سئل عنه هو أمر مهول تذهب النفس في تصوره كل مذهب. الحاقة أي شيء الحاقة تفخيما لشأنها وتعظيما لهولها. ثم يتضاعف التهويل بإلحاق السؤال التالي: وما أدراك ما الحاقة. أي شيء أعلمك ما الحاقة، أي إنك لا تعلم حقيقة كنهها وعظمتها، وإنها من الهول والعظمة والهول في مرتبة بحيث لا يبلغ تصَوُّرَ مداها أحدٌ. والخطاب لغير معين، لكل من يمكن أن يتوجه له الخطاب، سواء أكان حاضرا أم لم يكن. ونظير السؤال بما أدراك السؤال بما يدريك، كقوله تعالى : **وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا**[1]

[1] سورة الأحزاب آية 63

وما يدريك لعل الساعة قريب [1] **وما يدريك لعلــه يزكـــى**[2]) ويقــول ابــن عبــاس: كــل شيء في القرآن من قوله: ومـــا أدراك ؛أدراه ربـــه بـــه، وكــل شـــيء مـــن قولـــه :ومـــا يدريك ؛طُوِيَ عنه.

4- كذبت ثمود وعاد بالقارعة.

وقبل أن يبين المراد بالحاقـــة، عـــرض عاقبـــة ثمـــود وعـــاد اللـــذين كـــذبا بهـــا ليقتـــرن بالتهويل السابق الأثر الواقعي لمن كذب بهـــا. وفـــي ذلـــك تعـــريض بالمشـــركين الـــذين سيلقون من الأهوال ما لقيت ثمود وعاد. وذِكْـــرُ عـــاد وثمـــود مـــن بـــين المكـــذبين، لأن مشركي مكة يتناقلون قصتهما ويمرون على ديارهمـــا فـــي رحلتـــي الشـــتاء والصـــيف. والقارعة مأخوذة من القرع الضـــرب القـــوي ويـــراد بهـــا القيامـــة وإن كانـــت مرادفـــة للحاقة، إلا أن جذرها يدل على تجسيم ما يحْـدُثُ عنهـــا مـــن الأفـــزاع والأهوال،تنشـــق السماء،وتفتت الجبال، وتنسف الأرض،و تطمس النجـــوم. ثـــم أخـــذ القـــرآن يشـــير إلـــى شيء مما حل بكل منهما على انفراد.

5- أما ثمود...بالطاغية.

أما ثمود فهي أمة من العرب العاربة ســـموا باســـم جـــدهم ثمـــود.(وقـــد فصـــل القـــرآن الحديث عنهم وما امتحنوا به، وعاقبتهم فـــي ســـورة الأعـــراف الآيـــات 79/73) وأشـــار هنا إلى أنهم أهلكوا بالطاغية؛ وهي ما جعـــل فيـــه الله القـــوة التـــي تتجـــاوز حـــد طاقـــة الأشياء فتفسد تماسكها وتدمر بذلك. الصـــيحة التـــي يرتجـــف لهـــا كـــل شـــيء، فتهلكـــه لشدتها الخارقة للعادة.

7/6- وأما عاد فأهلكوا.. نخل خاوية.

قبيلة عاد التي بينها وبين قبيلـــة ثمـــود نســـب وصـــلة، ذكـــرهم القـــرآن عشـــرين مـــرة. عصوا هودا رسولهم، واستكبروا. وبلغ إصـــرارهم علـــى الكفـــر والـــرفض أبلـــغ مـــدى. فسخر الله الريح لتقوم بدور تدميرهم، فكانت ريحا بـــاردة تجمـــد كـــل شـــيء ثـــم تفتتـــه، تجري سريعة كأقوى ما تكون الســـرعة فتقتلـــع كـــل شـــيء مـــن مكانـــه ومـــن مكمنـــه، تتابعت سبع ليال وثمانية أيـــام تحســـمهم حســـما وتستأصـــلهم. وأبـــرز نهـــايتهم بصـــورة أمر مشاهد لا خفاء فيه، فكل من تصـــح منـــه الرؤيـــة يـــرى القـــوم كلهـــم مصـــروعين جثثا هامدة فوق سطح الأرض ؛ كما ترى أصول النخـــل وقـــد نخـــرت وتنـــاثرت، ولـــم يبق منها إلا الجزء الخارجي مسْوَدًّا ملقيا على الأرض لا قيمة له.

---

[1] سورة الشورى آية 17

[2] سورة عبس آية3

8-فهل ترى لهم من باقية.

جمع الفريقان من ثمود وعاد، وقد أتى عليهم العذاب المدمر ؛ فعقب وضعهم هذا بالسؤال المؤكد لزوالهم : هل ترى لهم من بقاء لا في ذواتهم ولا في آثارهم. ولم تبق إلا مساكنهم خاوية من أهلها. قال تعالى : (بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم* تدمر كل شيء بأمر بها فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم[1])

وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَـٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَـٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

المؤتفكات: قرى قوم لوط.

بالخاطئة : بالذنب المستحق للعقاب.

الأخذ : الإهلاك.

رابية : شديدة.

طغا الماء : تجاوز الحدود بقوة بالغة.

الجارية : السفينة الجارية.

واعية : أذن من شأنها أن تعي وتحفظ ما تسمعه.

الدك : دق يذهب بتماسك الشيء المدقوق.

الواقعة : مساوية في مدلولها للحاقة والقارعة.

واهية : ضعيفة، ذهب بناؤها المحكم.

الأرجاء : النواحي.

[1] سورة الأحقاف آية 25/24

بيان المعنى الإجمالي :

تحقق من فرعون وقومه، ومن قـوم لـوط الـذين كـانوا يسـكنون القـرى التـي انقلـب عاليها إلى سافلها، التلبس بالخاطئـة الإثـم الكبيـر مـن الشـرك ومـن التصـميم علـى الفساد. فعصوا أوامر رسلهم فأهلكهم إهلاكا قويا.

إنا لمّا قوي سلطان الماء، وتغلب علـى كـل شـيء ممـا تشـمله الأرض فعـلا عليـه، أنقذناكم من طغيانه، وحملناكم في السفينة التـي تمخـر الميـاه وتجـري علـى سـطحها. فأبقينا على حياة آبائكم، ومنهم تناسـلتم، ولـولا نعمتنـا وألطافنـا لهلكـتم غرقـى. لتقـوم تلك النعم والألطاف مذكِرَةً لكم، ولترسخ في عقول السامعين لها.

وانتقل التذكير القرآني، من التذكير بعاقبة بعض الأمم المكذّبة، وبالمنن التي توالت في الحياة الدنيا على الناجين من قوم نوح الذين عمروا الدنيا بعد الطوفان. انتقل إلى تهديد المشركين المكذبين بما يترصدهم يوم القيامة. فافتتحه بنفخ الصور المعبر عن استجابة عامة و شاملة لا يستثني منها أحدا. يتحقق ما أراده الرحمن تحققا لا تردد فيه، ولا تتبع بثانية ليتم وعيها. يتبع هذه النفخة أن ضخامة الأرض والجبال تُحْمَلُ كشيء تافه فترتطم ارتطاما تتحول به إلى فتات. في هذا اليوم يتحقق في الوجود قيام الساعة.وكما تتفتت الأرض والجبال، فكذلك تركيب السماء،وقوة بنائها، يختل اختلالا يذهب بتماسكها، وَهَي وضَعُفَ ما كان يربط بين أجرامها. ويكلف الله نوعا من الملائكة يرقبون ما أذن الله في تحقيقه في الكون المنهار الممزق.ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية. وهو من الغيب الذي يتجاوز تصورنا المادي المحدود. فالعرش منسوب إلى الله نؤمن به، ولا نستطيع أن نتصوره، وليس هو شيء ثقيل تعالى الله عن ذلك، والثمانية عدد بدون معدود الله أعلم بمراده. يتبع هذا الخراب للكون وتحوله إلى شيء آخر، أنكم جميعا تعرضون للحساب، وقد انكشف انكشافا كاملا كل ما قدمتم في دنياكم فيحاسبكم عليه.

بيان المعنى العام :

9-وجاء فرعون ومن قبله... بالخاطئة.

يوالي القرآن تهديد مشركي قريش بعرض مـآلات الأمـم السـابقة، وأنهـا جـرت علـى نسق واحد.يستكبرون عـن قبـول هدايـة المرسـلين، ويبـذل المرسـلون كـل طاقـاتهم ليرشدوهم إلى الحق فيرفضون، إلى أن ييـأس المرسـلون مـن هـدايتهم فيستأصـلهم الله بعذابه.

ذكر في هذه الآية فرعون الذي بعث الله له موسى عليـه السـلام، وعطـف عليـه الأمـم السابقة التي كانت على شاكلته في التمسك بالكفر، وذكـر المؤتفكـات، وهـي قـرى قـوم لوط عليه السلام الذي بعثه الله إلى سكانها الـذين فسـدوا فسـادا كبيـرا. وجمـيعهم قـد

ارتكبوا الخطأ الجسيم من الشرك ومن تحكيم شهواتهم وغرائزهم في الحياة. وقام الرسل بواجبهم من تبيين الهدى والعمل على الإقناع به.

10- قابلوا مجهود الرسل ونُصْحهم بالعصيان والرفض. فأهلكهم، مجسما نفاذ القدرة فيهم، بأنهم كشيء تافه تم إمساكه بسرعة، ونفذ فيه الإهلاك. وكان تدميرهم تدميرا قويا شديدا، لم يستطع فرعون ولا جنده، ولا أي فرد من قوم لوط، أن ينجو من العذاب.

11←12: إنا لما طغا الماء حملناكم...أذن واعية.

تذكير بنعمة مقلَّدَة في عنق البشر جميعا. إذ ما كان لهم أن يكونوا أحياء يعمرون الأرض، لولا تلكم الألطاف التي مكن الله منها نوحا عليه السلام.

إنا بعظمتنا وبمنتنا عليكم، تداركناكم بألطافنا، لما ارتفع الماء وكان أقوى من كل شيء على الأرض وبسط سلطانه عليها، فحملناكم في السفينة التي ألهمنا نوحا صنعها، بحيث كانت تجري بكل سهولة على الماء الطاغي.

لنجعلها لكم...كل ما يصدر عن الله هو لحكمة، فتلكم الترتيبات التي بواسطتها نجينا أسلافكم وكنتم أخلافًا من بعدهم،كان ذلك تذكرة وعبرة سائرة توقظكم لتتنبهوا إلى ما فيها من فضل وحسن تدبير للأمور. ولتعيها أسماعكم فتنتقش في ذاكرتكم.فالأذن الواعية هي حاسة السمع التي لا تُضَيِّعُ ما يرد عليها.

13- فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة.

توالى التهويل على المشركين من مفتتح السورة بما سلطه الله من تدمير للمعاندين. وانتقل التهويل من الدنيا إلى التهويل بما يحدث في الآخرة.وافتتحه بأول المراحل: بانتهاء النظام الذي كان يحفظ الكون. وربطه بالنفخ في الصور، الذي يطلق على قرن ينفخ فيه النافخ فيبلغ صوته الشديد أسماع الجيش المخلِد إلى الراحة، المتفرق في الأرجاء، فينبعثون سراعا إلى مكان الاجتماع المعلوم عندهم.فهو صوت عنيف بدون حروف، وتأثيره في السامعين التأثير الذي ينفرون به سراعا إلى مكان الاجتماع بدون تريث ولا مهل. ومُنْطَلَقُهُ مع قوة تأثيره شيء لطيف جدا: نفخة. فهل يتم النفخ في الصور يوم يقضي الله بفناء العالم، فيحدث عن ذلك النفخ ما يحدث مما سيفصل القرآن لاحقا شيئا منه ؟ بهذا أخذ جمهور المفسرين. كما يمكن، وهو ما أرجحه، أن يفهم الحدث على أنه تقريب لما اعتاده الجيش في الدنيا، من الاستجابة لصوت البوق. والآية تعبر عن شيء من الغيب فتقربه للأذهان بصورة من صور الدنيا دون أن يراد من ذلك الحقيقة، وإنما المراد والله أعلم :أنه عندما

تتعلق الإرادة بفناء الكون يتم ذلك بدون معالجة، ولكن تنفذ القدرة بسرعة فائقة وبخلق استجابة في الكون لإرادة الفناء كأنها نفخة واحدة، فإذا الكون كله هباء. فالتعبير عن السبب المؤثر بكلمة: نفخة، بمفهومها اللطيف اللغوي، وبلحاق التاء بها الدالة على الوحدة، وبتأكيد الوحدة بقوله نفخة واحدة. وفي ذلك ما يشير أيضا إلى أن الوحدة ليس المراد منها التعداد، ولكن الحصول لما يراد منها،يتحقق بدون تكرار. كل ذلك يشير في نظري إلى نفاذ القدرة حسبما رجحته الإرادة، مع ربطه بقوله تعالى: (**بديع السماوات والأرض وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون**[1]) وقد تكرر هذا المفهوم ثماني مرات في القرآن ليكون مرجعا في فهم القدرة الإلهية، وتأثيرها في تحقيق مراد الله تعالى.

14- وحملت الأرض والجبال...

تصور الآية الكتلة الضخمة للأرض بما عليها من جبال شيئا خفيف الوزن، يحمل لترتطم الأرض والجبال ببعضها ارتطاما عنيفا، يذهب بصلابتها فتتفتت.

15- فيومئذ وقعت الواقعة.

يوم نفخ في الصور... وحملت الأرض...وقعت الواقعة، وتحقق في الخارج ما كان متوقعا، مما أوعدهم به الرسول صلى الله عليه وسلم.والواقعة كلمة مرادفة للحاقة التي افتتحت بها السورة، وللقارعة أيضا التي كذبت بها ثمود وعاد الآية 4.

16-وانشقت السماء....واهية.

السماء بناء محكم جاذبية كل كوكب لغيره، وجاذبية كل مجموعة لغيرها تبلغ من القوة في التماسك ما هو أشد تماسكا من أصلب المعادن. قال تعالى: (**والسماء وما بناها** [2]) وتكرر التصريح بقوة بناء السماء سبع مرات في القرآن. هذا التماسك القوي الذي يحفظ كل كوكب في مساره، وكل مجموعة أيضا، التي تبلغ أبعادها السنوات الضوئية، مما لا يحيط بعلم تفاصيله إلا الخلاق العظيم. يختل ذلكم النظام وينخرم التماسك، فإذا بها ضعيفة ذهب التحامها، فأصبحت كبيت العنكبوت. فسدت الجاذبية التي بنى الله عليها الكون وقدره إلى أجل مسمى. هو هذا الذي أشارت إليه الآية. فهي يومئذ، في هذا اليوم واهية غير متماسكة ذهبت صلابتها. جرى عليها ما جرى على الأرض.

---

[1] سورة البقرة آية 117

[2] سورة الشمس آية 5

17-والملك على أرجائها....ثمانية.

هذه الآية تتحدث عن أمور غيبية تقصر اللغة عن الوفاء بما يراد منها، كما تقصر العقول التي استمدت قدراتها من تجاربها وتمثلها للكون من عملها فيه تصورا واستنباطا، وبناء، عن الإدراك الدقيق الذي يجيب عن جميع التساؤلات. فالذي أفهمه أن فساد الكون وزواله من الوضع الذي هو عليه وتحوله إلى وضع آخر، الله أعلم به، يوكل به الملائكة الذين ينفذون ما يأمرهم به خالقهم. فهم منبثون في جميع النواحي،وهم محملون بمهمات تتناسب مع الوضع الجديد. مما يحقق الصفة الأبدية الأزلية لربنا من الحكمة والعلم.

ويحمل عرش ربك... كل ما أضيف للذات العلية في القرآن يجب أن يفهم

أولا: على أنه حق لا شك فيه.

ثانيا: أن كل تصور يجري على مقارنة الله سبحانه بما عليه العالم المحدث، هو تصور بعيد كل البعد عن الصواب، خطأ لا شك فيه.

ثالثا: أن العقول عاجزة عن تحديد المفهوم المدلول عليه بالتعبير اللفظي، وكل ما ارتسم في العقل من تلك الكلمات والتراكيب، غير مراد قطعا.

رابعا: أن هذا من الغيب الذي جعله القرآن أحد عناصر الإيمان، هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب.سورة البقرة آية3/2- فمن حاول تفسيره بما يقربه للتصور البشري فقد أخرجه عن كونه غيبا.

فالذي نعتقده أن عرش الرحمن لا يقبل بحال من الأحوال أن يفهم على الجسمية، وأن له أبعادا، وأنه لثقله يحمله ثمانية من الملائكة على صورة الوعول أو الأسود أو البشر، أو لهم وجوه عدة، فهذا كله من الخيالات التي يجب أن ننزه ربنا عنها. ولا يفهم من الفوقية فوقية مكانية، هي كقوله تعالى:(**وفوق كل ذي علم عليم**)[1]. وقوله تعالى **يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون**[2]) وقد وردت مادة فوق واحدا وأربعين مرة معظمها لا يمكن حمله على البعد المكاني. ولا من الحمل أنه معالجة ثقل.كقوله تعالى: (**إنا عرضنا الأمانة على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها**[3]) (**وقد خاب من حمل ظلما**[4]) (**مثل الذين حملوا التوراة**)[5]

---

[1] سورة يوسف آية 76

[2] سورة النحل آية 50

[3] سورة الأحزاب 73 آية

[4] سورة طـه آية111

[5] سورة الجمعة آية 5

والثمانية عدد بدون معـدود، فمـاهي الثمانيـة ثمـاني ملائكـة، وثمانيـة صـفوف،ثمانية قوى. فهو أمر مغيب أيضا.

فعرش ربنا مضاف إلى ربنا إضافة تشريف، و الله أعلـم بمـراده. والتعبيـر يـدخل فـي النفس مهابة تلتئم مع ما ذكره عن يوم القيامة.

18-يومئذ تعرضون...خافية.

في اليوم الذي تقع فيـه الواقعـة تعرضـون علـى ربكـم، لا يهمـل أحـد، ولا يختفـي. وعرض البشر في ذلك اليوم هـو لحسـابهم عمـا قـدموا. ويصـحبه العـرض بمعنـى إمرار البشر على من يتولى حسابهم.

لا تخفى منكم خافيـة... تتكشـف أعمـالكم فـلا يخفـى منهـا شـيء علـى الله، لا مـا أظهرتموه في حياتكم ولا ما أخفيتموه، وجعلتموه مـن أسـراركم الخاصـة. ويتبـع ذلـك أنه لا يلتبس مؤمن بكافر، ولا بمنافق، ولا مـن اتقـى ربـه حـق التقـوى، بمـن خلـط عملا صالحا وآخر سيئا.

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

هاؤم : خذوا. أو تعالوا.

عيشة : هيئة العيش وطريقته.

راضية : يبلغ صاحبها رتبة الرضا عما هو فيه فلا يطمح إلى أمر آخر.

قطوفها : ما يقطف من ثمرها.

دانية : قريبة يتناولها بدون جهد ولا كلفة.

هنيئا: ثبت لكم الهناء فيما تتناولون.

أسلفتم : بما قدمتم سابقا.

الخالية : الماضية البعيدة.

بيان المعنى الإجمالي :

الناس في يوم القيامة نوعان : نوع مكرم، هو مـن أوتـي كتابـه بيمينـه. ونـوع معـذب مهان،وهو من **أوتي كتابه بشماله**

فأما من أوتي كتابه بيمينه، فإنـه يشـعر بعظـيم الفـرح وبـالغ الطمأنينـة بمجـرد مـا يتلقى كتابه باليمين.فيقول : تعالوا انظروا إلى ما أكرمنـي بـه ربـي فـي كتـابي، إنـي ظننت أن ما سألقاه من النعيم محقق لا شك فيه. وفعلا يكـون منغمسـا فـي عيشـة كلهـا رضا، يسكنه ربه جنة عالية المقدار، يطوع لهـا شـجرها فتـدنو منـه لقطـاف ثمارهـا. ويقال لأصحاب اليمين :قد أذنت لكم أن تتنعموا في الجنة بكـل مـا ترغبـون فيـه.هنيئـا لكم ما تأكلون، وما تشـربون. هـو جـزاء لمـا قـدمتم فـي حيـاتكم الـدنيا مـن فعـل الصالحات، ونقاء العقيدة والرجاء فيما عند الله.

بيان المعنى العام :

هذا المقطع يبشر القرآن فيه الفائزين يوم القيامة، وتنقسم البشارة إلى قسمين:

أولهما: يسجل القرآن ما عليه أصحاب اليمين من البشـر والسـرور، ومـا يصـدر عـنهم وقد وثقوا بفوزهم.

والثاني: يسجل عطاء الله وفضله عليهم.

19←20-فأما من أوتي...ملاق حسابيه.

الأول : **فأما من أوتي كتابه بيمينه...** الذي أخذ كتـاب أعمالـه بـاليمين، وهـو تجسـيم لكونه من أهل الكرامة وأنه معتز بكتابه، ويأنس بـه.كقولـه تعـالى: **(وأصـحاب اليمـين ما أصحاب اليمين)**[1] تستولي عليـه الطمأنينـة بحسـن العاقبـة، وذلـك الفـوز العظـيم. وتمتلئ نفسه بمشاعر الغبطة والفرح، فيشرك فـي مشـاعره إخوانـه المـؤمنين. ويقـول لهم تعالوا ! خذوا كتابي فاقرأوا ما فيه. لـيس ذلـك افتخـارا، ولكنـه حـديث بنعمـة الله عليه، بما غفر له من ذنوبه، وضاعف مـن حسـناته، فجعـل صـفحات أعمالـه مشـرقة بالقبول من ربه الكريم. تعالوا: **اقرأوا كتابيه،** والهاء فـي كتابيـه، هـاء يُلْحِقُهـا العـرب بآخر الكلمة لمراعاة كون المتكلم يقصد الوقـوف علـى الكلمـة ولا يلصـق بهـا غيرهـا تسمى هاء السَّكْتِ. وهي لا تدل على معنى زائد على ذلك.

ويواصل بقوله: إني موقن بأني سألقى حسـابي علـى مـا سـجل فـي كتـابي، أي هـو حساب ينتهي بي إلى الكرامة وحسـن الثـواب، فهـو يعبـر بكلامـه هـذا عـن تأصـل البهجة والفرح بمآله. واستعمال كلمة **[ظننت]** مقصـود بـه اليقـين، باعتبـار أن الجـزاء الذي يرقبه، لم يوجد بعد. فاستعمال الظن في اليقـين اسـتعمال حقيقـي، كأنـه يقـول إن ما أتيقنه: أني ملاق حسابيه الذي لم يوجد بعد.

[1] سورة الواقعة آية 27

21←24- فهو في عيشة راضية...الأيام الخالية.

الثاني : يصرح القرآن بجزاء من أوتي كتابه بيمينه.

أ-هو بصفة عامة منغمس **في عيشة راضية**. والعيشة هي الهيئة والطريقة الشاملة لكل ناحية من نواحي حياة الإنسان المادية والمعنوية وراضية: الرضا يتعلق بصاحب العيشة، فكأنه لقوة رضاه عن عيشته، أصبحت العيشة ذاتها موصوفة فاعلة للرضا.

ب -يتقلب في عيشته في أرجاء جنة عالية.وهل علوها علو مكاني بمعنى الإشراف، أوهو علو معنوي إشارة إلى سمُوٍّ ما يناله في الجنة ؟ لا تناقض بينهما، ولا مانع من الجمع.

جـ- من عناية الله بإكرام المرضيِّ عنهم أنهم يتناولون ما يشاؤون من ثمار الجنة بدون أي جهد ولا كلفة، كأن الله يحدث في شجر الجنة إحساسا يجعلها تقرب ثمارها من أصحاب الجنة بمجرد رغبتهم في النيل منها.

كلوا واشربوا...أذنا لكم في التنعم بكل ما تلقونه في الجنة من طعام وشراب،هنيئا لكم تَوَلكم، تجدون رفيع لذته، ولا يتبعه أي مغص أو ألم أوثقل شبع.

تلكم العناية التي تتجاوز ما تتصورونه، وإن كان قد قُرِّبَتْ لكم على حسب مقاييسكم في الدنيا،هي ما قدَّرته جزاء لكم بما سبق لكم أن أنجزتموه من صالح الأعمال، ونقاء العقيدة، وحب ما عند الله، في الأيام السابقة التي قضَّيتموها في حياتكم الدنيا الماضية البعيدة في التاريخ.

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ
﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾
خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ
﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ
ٱلْيَوْمَ هَـٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَـٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

هلك عني : غاب عني، لانعدامه.

غلوه : ضعوا الغل في عنقه.

صلوه : أحرقوه بالنار.

فاسلكوه : اجعلوه مكبلا في سلسلة.

السلسلة : مجموعة من حلق حديدية متداخلة لقوة شد من تحيط به.

حميم : قريب ناصر.

غسلين : طعام كأشد ما يكون استقذارا مما يعذب به الكفرة في النار.

الخاطئون : المرتكبون لأشنع الخطايا متعمدين، وعلى رأسها الشرك بالله.

بيان المعنى الإجمالي :

انتقل القرآن ليبين مآل الشق الثاني الذي أوتي كتابه بشماله، ممن كتب له الشقاء يوم القيامة.وبمجرد ما يتلقى كتابه بشماله، يحصل له اليقين بسوء مآله، فتتابع حسراته : يا ليتني لم أعط هذا الكتاب الذي يحمل لي التعاسة، ولم أدر ما سيكون عليه حسابي الذي لا خير فيه، يا ليت نهايتي حصلت مع ورود هذا الكتاب.أين مالي الذي كنت أعتزُ به ، ذهب كله، أين سلطاني الذي كنت أخضع به الناس، ذهب المال والسلطان، وتجَرَّدْتُ من كل قوة.

ويأذن الله ملائكة بتسليط العذاب الذي كتبه عليه. يأمرهم أن يأخذوه أخذا لا يستطيع انفكاكا منه بقوة وإذلال.ثم أن يحرقوه بجحيم جهنم.وأن يوثقوه بسلسلة من حديد طولها سبعون ذراعا، تلتف على كل جزء من أجزائه فيفقد القدرة على الحركة.إنه جزاء عدل، لمَّا كان لا يؤمن بوجود الله العظيم،ولا يرى من واجبه أن يلفت الواجدين إلى إطعام الجياع من المساكين. هو لا يتألم لألمهم ولا يجود لهم بشيء. في هذا المآل فقد الصديق الحميم الذي يدفع عنه.وفي هذا الموقف لا يقدم له إلا طعام من غسلين أقذر ما يتصور من طعام.لا يقدَّم إلا للذين استولت عليهم خطاياهم وغرقوا في آثامهم.

بيان المعنى العام :

هذا المقطع ينقسم أيضا إلى قسمين، في خمس آيات يندب حظه، ويأكله الندم على ما فرط، ويتمنى كل شيء إلا الموقف الذي هو فيه وما ينتظره.

والقسم الثاني : يصرح القرآن بما يأذن الله في تنفيذه عليه من أنواع عذابه.

25←29: وأما من أوتي....عني سلطانيه.

بمجرد ما يتلقى المعذَّب المهان كتابه، الجامع لما قدم في الدنيا من فساد وشر، ومن ظلم وتجبر وكفر، يتمنى أمنيتين.

الأولى: يتمنى أن لا يكون أجبر على تناول كتابه، وأن يكون محفوظا عند الملائكة لا يعلم ما فيه، فإن في كل مفسدة من أعماله ما يضاعف حزنه وأساه على ما فرط

منه. ومن انحرف عن الصراط المستقيم، وكفر بالله تكثر سيئاته، وينساها، فإذا اطلع عليها في كتابه تذكرها، وحضره الوعيد على ارتكابها. ويتمنى أن لم يعلم كنه حسابه، فإنه كلما اطلع في صفحات كتابه على أعماله مقرونا كل عمل بعقابه تعاظمت حسرته، واختنق بما ينتظره من العذاب والمهانة.

الثانية : يا ليت الموتة التي متها في الدنيا وتجرعت ألمها كانت القاضية التي لا قيام بعدها.أو يا ليت ما كتب في صحائفي وانزعاجي الأكبر يقضي علي فأموت.ثم يحضره ما أوتيه من عز في الدنيا بكثرة أمواله التي كان يتجبر بها، ويتمنى الناس أن لو كانوا مثله في سعة الرزق، وهو يأمر فيطاع، ويَتَقَرَّبُ له من حوله فيقضون له ما يريد، فيتحسر على وضعه اليوم ويقول : ما أفادني مالي شيئا. وحسرة الفقراء الذين كانوا لهم تبعا أشد. إذ حرموا المال في الدنيا، وتعلقوا به وحده على أن السعادة كلها في سعة المال، فيشاهدون في هذا الموقف الذل، إذلال أنفسهم في الدنيا لأصحاب المال، وذل جزاء التعلق به والكفر بالله.

هلك عني سلطانيه...تبخر السلطان الذي كنت به في الدنيا لا ترد لي كلمة، آمر فأطاع، ويذعن الناس لي. فأنا اليوم ذليل، والشعور بالذل بعد ما كان عليه من مظاهر العز أشد إيلاما لنفس المتجبرين.

القسم الثاني : تفصيل العذاب والمهانة التي يأذن الله بتسليطها عليه.

30←33-خذوه...طعام المسكين.

يأمر الله الملائكة الموكلين، أن يأخذوه بعنف ليضعوا الغل في عنقه، شأن المجرمين إثر صدور الحكم عليهم. ثم اجعلوه يحترق بالنار، وفوق ذلك لفوا عليه سلسلة طولها سبعون ذراعا لا تبقي جزءا من بدنه إلا لُفَّتْ عليه فلا يستطيع حراكا.

إن هذا العذاب عذاب لا ظلم فيه، ولا قسوة. لأنه كان ينفي الألوهية عن الله المتصف بالعظمة، فهو قد تجرأ على العظيم الأعظم، وأنكر وجوده. وكما فسدت رابطته بالله، فإنه كان كذلك لشرّه لا يحث غيره على الرأفة بالمسكين وإطعامه عندما يشتد به ألم الجوع، فهو لا يرضى لغيره أن يجود على المسكين، مما يدل على أنه بماله أشد بخلا.

33←37- إنه كان لا يؤمن...إلا الخاطئون.

عددت مناكره، وعظائم آثامه، وعظمت قسوته، وفقد الرابطة بالله، وبعباد الله المحتاجين البائسين، فلا يجد في هذا اليوم صديقا حميما ولا قريبا يدافع عنه، تُرِكَ لنفسه. يزيده انفراط الناس عنه حزنا وعذابا.وكما أنه لم يتحرك لألم جوع الجياع،

فإنه لا يُطْعَمُ في هذا اليوم إلا طعاما واحدا كأشد ما يكون قذارة ونتنا. قال تعالى: (يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل مكان[1]).هو الغسلين الذي يقدم لمن كانت خطاياهم عظيمة تنبع من نفس شريرة وقاسية.

فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

كريم : الأنفس والأفضل في صنفه.

التقول : نسبة قول لمن لم يقله.

أخذناه باليمين : لعجلنا إهلاكه.

الوتين : عرق معلق به القلب.

حاجزين : دافعين.

بيان المعنى الإجمالي :

ما سيأتي مؤكد بالغ التأكيد، لا يستحق أن أقسم عليه،بهذا القسم العظيم : أما القسم فهو بكل ما يدخل تحت أبصاركم من المحسوسات،وما لا يدخل تحتها من المعقولات والمغيبات ؛إن هذا القرآن قول رسول منِّي، متميِّز بين الرسل كريم.لا صلة بينه وبين خيالات الشعراء. والذي لبَّس عليكم رميه بالشعر هو عدم إيمانكم، وهو بعيد كل البعد عن الكهانة، ورميكم الباطل له بالكهانة هو لعدم تأملكم في مضامين ما أتى به، فتكلمتم بما لا يستند إلى تذكر وتبصر. وهو تنزيل منا بلغه جبريل عليه السلام لمحمد عليه الصلاة والسلام.

ثم أضاف القرآن حجة عقلية تنفي ما يزعمونه من أن القرآن من عنده حاصلها : أن الله العظيم لا يهمل من يتجرأ عليه فينسب له أقوالا لم يقلها، فلو أضاف محمد إلينا شيئا ولو كان قليلا، إذن لعطلنا قواه، ثم قضينا عليه بقطع عرق القلب الذي يروي الجسم بالدم فيموت حالا. ولا يستطيع أحد منكم أن يرد عنه حكمنا.

[1] سورة إبراهيم آية17

بيان المعنى العام :

38←39: فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون.

هذه طريقة في التأكيد بالقسم، يصرح فيها المتكلم، وهو رب العزة، أن المقسم عليه بلغ من الثبوت والتأكد درجة فوق أن تحتاج لتأكيدها بقسم. فهذا تأكيد أول في الآية.

وتأكيد ثان: أن الله جمع في المقسم به ما تدركه أبصار البشر، وما لاتدركه أبصارهم فجمع بين المحسوس والمعقول والمغيبات. ما تدركه الأبصار من المحسوسات، وما في كل صنف منها من عجائب الخلق، وكمال التقدير، مما يظهر لأول نظرة، وما هو وراء ذلك. من الصور الظاهرة، وما تركّبت منه من الأجزاء الكبيرة كالرأس مثلا، وما تركب منه من الأجزاء الدقيقة كالخلايا، المتنوعة والتي جرى تقديرها على نظام محكم عجيب.

ومن المعقول ما يجري في عقولنا من المفاهيم، والعقائد،والميول،ومن الإرادات، ومن الأرجاع الحاصلة تبعا لما لا يمكن استقصاؤه من الاستجابات.

ومن المُغَيَّبات، مما يتعلق بالذات الإلهية، ومما نؤمن به من الملائكة والقدر والبعث، والحساب، والجنة والنار.

هذه كلها جمعها القسم، مما يلقي في النفس ضخامة ما أراد الله إثباته، وطرد كل ما يعمل الشيطان والمشككون للنيل من أحقيته.

40-إنه لقول رسول كريم.

المقسم عليه : إنه، أي القرآن، لقول رسول كريم.ونسب القرآن إلى رسول الله باعتبار أنه على لسانه ﷺ بلغنا، وأنه من ناحية ثانية هو الأقدر على بيانه، وتقريب مفاهيمه العميقة للناس، وإعطاء صورة تطبق مضامينه.

مميزات مبلغه: رسول كريم، هو رسول من عندي فالقرآن الذي بلغه هو كلامي وقد اخترته من بين العالمين، وفضلته على بقية المرسلين، فوصفه بالكريم، يفيد أنه الأفضل.

41←42-وما هو بقول شاعر...قليلا ما تذكرون.

صُدِم رؤساء الشرك بقوة القرآن وبلاغته، وقوة تأثيره، وخشوا أن يؤثر في الدهماء أتباعهم، فأخذوا يلفقون التهم التي تَحطّ منه. فقالوا هو شاعر: فالصور التي يتحدث عنها، ويبشر بها وينذر، هي صور لا أحقية لها، ولا تعدو أن تكون من تصورت الشعراء الذين أوتوا قوة خيالية مبدعة. فنفى القرآن بالقسم الغليظ أن يكون

شاعرا.ولكن الذي سوّل لهم رميه صلى الله عليه وسلم بالشعر، هو عدم إيمانهم، فقليلا تفيد نفي الإيمان عنهم، لا قلته. وهو أسلوب عربي يرمي إلى التهكم منهم لمَّا لم يتدبروا فيؤمنوا.

كما رمَوْهُ بأنه كاهن، جمعوا بين إخباره عن المغيبات التي سيلقونها يوم القيامة، وبين الكهانة التي يخبر بها الكاهن عن المغيبات في كلام يحتمل أكثر من معنى، ويعتمد في ترويج كهانته بالتقصير في الجمل، وبالسجع. فنفى الله عن رسوله أن يكون كاهنا لا يوجد أي وجه يُقرّب بين القرآن الذي يدعو الناس إليه وبين الكهانة، فهو لا يتنبأ بمشاكل قريبة في الحياة الدنيا، ولا يعطي لكلامه صورة تحتمل عدة وجوه قابلة للتأويل، ولا يعتمد على الجمل القصيرة المسجعة. وما رميهم له صلى الله عليه وسلم بالكهانة إلا لأنه عميت بصائرهم ففقدوا تبعا لذلك القدرة على التفكر، واختلط عليهم الأمر، تبعا لعنادهم.

43-تنزيل من رب العالمين.

وإذ بطل ما رموه به من الشعر والكهانة،وأبعد القرآن عن رسوله ما لا يليق به، صرح بكنهه وحقيقته : **أنه تنزيل من رب العالمين**، ليس لمحمد فيه دخل، تولى الله بواسطة جبريل تنزيله على أشرف الرسل محمد ﷺ، نزله لأنه رب العالمين جميعا. كما خلقهم هو يهديهم للتي هي أقوم في حياتهم الدنيا ويوم يبعثون إليه.

44←46- ولو تقول علينا بعض الأقاويل...منه الوتين.

في هذا المقطع إبطال لما رمى به الكافرون محمدا صلى الله عليه وسلم، أنه أتى بهذا القرآن من عنده، ونسَبَهُ إلى الله،بالحجة العقلية التي لا تحتمل النقض. لو أضاف محمد إلينا بعض الأقاويل شيئا قليلا لم يَصِلْه منا، فإنا لا نمهله يتابع نسبة مالم ننزله عليه إلينا. وجسَّم هذه الحيلولة بأنه يسلبه قوته التي بها يتحدث، ويتكلم، ويدعو الناس. فأطلق الأخذ باليمين على ما يفيد سلب القوة عنه التي بها ينشر ويخاطب الناس، لأن اليمين هي الجهة التي تظهر فيها قوة الإنسان بصفة أفضل. بل إننا نقضي عليه قضاء معجلا، فنقطع وتينه وهو العرق المعلق به القلب الذي يضخ الدم في الجسم بما يبقي على حياة الإنسان، فإذا قطع الوتين حرم الجسم من الدم وأسرع الموت.

47- فما منكم من أحد عنه حاجزين.

تنفذ فيه عقابنا ونقضي عليه،دون أن يستطيع أحد منكم أن يحول بين قضائنا المبرم وبينه.ولمَّا كانوا لا يحبون الرسول وكل ما يتمونه أن يقضى عليه، فإن في الآية

إشارة إلى تيئيسهم من أن يقول على الله ما يوافق هواهم. مما أشار إليه قوله تعالى: (وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذن لاتخذوك خليلا * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا* إذن لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا*)[1]

وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

التذكير : التنبيه إلى ما غفل عنه.

الحسرة : الندم الشديد على شيء فات.

بيان المعنى الإجمالي :

القرآن كما يعرفه منزله تعالى: إنه يذكر المتقين بصلتهم بربهم فيحيي في نفوسهم دواعي الخير والاستقامة. أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم، وهو يعلم سبحانه أن فريقا من المخاطبين به مصممون على تكذيبه.وإنه بذلك سيكونون مستغرقين في الحسرة والندامة على تفريطهم الانتفاع به. وإن القرآن لهو الحق اليقيني. أنزلناه عليك وهديناك لاتباعه، وكلفناك بإبلاغه. وإنها لنعم جلّى، فسبح باسم ربك الموصوف بالعظمة على ما أنعم به عليك.

بيان المعنى العام :

48-وإنه لتذكرة للمتقين.

لما أبطل كل ما رموا به القرآن المنزّل عليه من أكاذيبهم، صرح بحقيقته التي تميزه،وهو أنه يذكر المتقين فيجعل صلتهم بالله صلة حية متجددة.فكلما نزلت آية زادتهم إيمانا، وكلما تلوه أو سمعوه تأثروا به،وربطهم بربهم فيزدادون إقبالا على فعل الطاعات، والتّوقّي مما لا يرضيه. كما أن القرآن يحرك القلوب، ويبعث في الأرواح البواعث التي تقربهم من الخير.

49←50- وانا لنعلم...على الكافرين.

وفي المقابل فإنا نعلم أن من المبعوث إليهم من صمموا على الكفر به. وإن أثر القرآن على الكفرة المكذبين بحقائقه، حسْرَة وندم شديد على عدم الأخذ به والالتزام

---

[1] سورة الإسراء آية76/73

بهداه. هو حسرة عليهم يوم يلقون ما ترتب على عدم الأخذ به، ويواجهون سوء المصير، فيتحسرون على تفريطهم في الوقت الذي لا تفيدهم الحسرة إلا عذابا نفسيا.

51- وإنه لحق اليقين.

ثم أكد بلوغ القرآن أعلى درجات الحق الموصوف بكونه يقينيا. فهو الحق الموصوف بكونه يقينيا. ووصف القرآن (**بأنه لحق اليقين**)[1] أيضا.

52-فسبح باسم ربك العظيم.

رَتَّبَ سبحانه على ما أوحاه لنبيه من الهدى القرآني، المنزه عن كل نقص، النافي لجميع المطاعن التي حاول بها المشركون التشكيك فيه أو استنقاصه، رتب أمره لرسوله :أن يلهج لسانه بالتسبيح لله تسبيح ثناء وتعظيم شكرا على أنعم به عليه.فالتسبيح ملائم لما أُمِرَ به، إذ التسبيح هو تنزيه الله عن كل نقص اعتقادًا وقولا وعبادة. وهو غاية ما يدخل في طوق الإنسان من الثناء على ما أنعم به رب العباد. قال ابن عطية: روي أن رسول الله ﷺ قال لما نزل عليه، فسبح باسم ربك العظيم: اجعلوها في ركوعكم) وكره مالك التزامها خشية اعتقاد وجوبها، تحَرِّيًا منه رضي الله عنه من أن يظن ما ليس واجبا واجبا.

يوم الاثنين12 شعبان 1435-2014/6/09

[1] سورة الواقعة آية 95

سورة المعارج

عرفت بهذا الاسم في معظم المصاحف وكتب التفسير. وورد اسمها بـ(سورة سال سائل) في صحيح البخاري وجامع الترمذي وتفسير الطبري وابن عطية وابن كثير. واستمدت تسميتها من الكلمات الواردة في الآيات الثلاث الأولى منها.

هي سورة مكية باتفاق . رتبتها السبعون حسب ترتيب المصحف، وحسب ترتيب النزول الثامنة والسبعون. نزلت بعد سورة الحاقة،وقبل سورة النبأ.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَالَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ﴿١﴾ لِّلۡكَٰفِرِينَ لَيۡسَ لَهُۥ دَافِعٞ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِي ٱلۡمَعَارِجِ
﴿٣﴾ تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ﴿٤﴾
فَٱصۡبِرۡ صَبۡرٗا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمۡ يَرَوۡنَهُۥ بَعِيدٗا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ قَرِيبٗا ﴿٧﴾ يَوۡمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ
كَٱلۡمُهۡلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلۡجِبَالُ كَٱلۡعِهۡنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسۡـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمٗا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمۡۚ يَوَدُّ
ٱلۡمُجۡرِمُ لَوۡ يَفۡتَدِي مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِئِذِۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِي
تُـٔۡوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةٗ لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾
تَدۡعُواْ مَنۡ أَدۡبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوۡعَىٰٓ ﴿١٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

المعارج : ج مِعْرَج، وهو ما يصعد بواسطته.

الصبر الجميل : هو الصبر النقي الذي لا يخالطه ما ينافيه.

بعيد : ممتنع الوقوع.

قريب: محقق الوقوع.

المهل : دردي الزيت.

العهن : الصوف.

الحميم : الخليل الودود.

يود: يحب، ويتمنى.

المجرم : الكافر المرتكب للذنب العظيم.

يفتدي : يحمي نفسه بما يقدم عنها من عوض.

صاحبته : زوجه.

فصيلته : الأقرباء الأدنون من القبيلة كالأم والأب.

يأويه : يضمه وينحاز إليه.

نزاعة : قالعة.

الشوى : جلدة الرأس.

تدعو : تنادي نداء يستجيب له قسرا من قُصد به.

أدبر : ترك الإقبال على الاستجابة لدعوة النبي ﷺ .

تولى: آثر الإعراض عما دعي إليه غيره.

بيان المعنى الإجمالي :

تصور السورة ما كان يلاقيه الرسول ﷺ من عناد المشركين، وتلوُّنِهم في إدخال الشك على الناس ليصرفوهم عن الإيمان.فسأل سائل منهم عن موعد العذاب استبعادا له. ودعا بعضهم أن يعجل بالعذاب. والعذاب محقَّقٌ وقوعه. لا تستطيع أي قوة أن تدفعه. آتٍ من الله العظيم المتعالي في عظمته. تعرج لعليِّ مقامه الرفيع عروجا معنويا لا حسيا الملائكة وجبريل تأخذ عنه ما يأمرهم به وما يأذن لهم فيه، وتنزل من مقامات القرب إلى مواقع التنفيذ.وتقريبا للأفهام بما عهدته في الدنيا ذكر أن مقدار ذلك اليوم خمسون ألف سنة. والله أعلم بحقيقة ذلك. ولكنه يفضح غلظ عقول المشركين وبُعْدَهم عن السمو الذي يفتحه القرآن للمؤمنين به.

قابلْ تصلبهم في الكفر بالصبر الجميل الذي لا يصحبه ضجر، ولا استبطاء. إن المشركين يرون تنفيذ الوعيد فيهم يوم القيامة مستحيلا، ونحن و الأمر بيدنا نراه واقعا غير بعيد و لا شك فيه.

تعرج الملائكة والروح لرب العالمين يوم تتحلل السماء والجبال، فتتحول إلى شيء شبيه بدردي الزيت، وتتفتت الجبال فإذا هي كالصوف المنفوش متفرق الوحدات مشكل الألوان. ويصاب الناس بالذهول فيرى الصاحب صاحبه الحميم في أشد الكربِ فلا يسأل عنه لأنه مشغول عنه بما تراكم عليه من الأهوال والهموم.

كل همه وكل ما يتمناه، ويحبه أن يجد ما يقدِّمُه فداء لنفسه من الأهوال والكروب. يتمنى لو يدفع ببنيه الذين كانوا أعز شيء لديه في الدنيا،أن يدفعهم فداء لنفسه، أو

يدفع زوجه التي كانت مستودع سره لتكون عوضا عن عذابه، أو يقدم أخاه أو قبيلته التي كانت العصبية بها في الدنيا تَحْميه، بل يسود أن يقدم كل ما يملك من عزيز وغال لينجيه من العذاب.

تلكم الأماني لا تُحَقِّقُ له شيئا، أمانٍ باطلة. إن ما يواجهه حتما لظّى محرقة من لهب جهنم. بمجرد ما يلقون فيها تسقط جلدة رؤوسهم. يسمعون نداءها تناديهم، وهم يعلمون أنها أشد العذاب، ومع ذلك لا يستطيعون إلا الاستجابة لندائها. تنادي كل ما سمع الهدي المحمدي فولّى ظهره له، ولم يصنْغ لما جاء به، وتقوّى بمن كان معاكسا لتلكم الهداية. وكان همه كل همه أن يجمع أكثر ما يكون من المال، وأن يخزنه، ولا يواسي به محتاجا.

بيان المعنى العام :

1-سال سائل بعذاب واقع.

الظاهر أن كلمة "**سال**" أصلها "سأل " فخففت الهمزة. أي سأل سائل. والجملة حسب صيغتها لا تعين السائل، كقولك فهم فاهم، وعلم عالم، وسمع سامع. ولغرابة السؤال صرفت العناية عن تعيين السائل، وأبرز السؤال لتصوير التعجب من وُرُوده. إذ مضمون السؤال هو الاستفهام عن تاريخ العذاب الواقع قطعا. والسؤال مقصود به الاستهزاء تبعا لإنكارهم ما توعدهم به رسول الله بوحي من ربه، أنه سينزل عليهم عذابه إن صمموا على العناد، والوقوف في وجه الدعوة. ويكون قوله تعالى: **بعذاب واقع** أي عن عذاب واقع متى سيحل؟

وحمل بعض المفسرين أن معنى سأل: دعا. بناء على ما روي أن هذا السائل هو النضر بن الحارث الذي قال : **(إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم.)**[1] فيكون معنى سال سائل: دعا داع. وإطلاق السؤال بمعنى الدعاء كثير. ومنه قول القائل سألت ربي المغفرة، أي دعوته أن يغفر لي. ودعاء الكافرين النضر أوغيره، كقوله تعالى أيضا : **(وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب)**[2] يجعل الباء في قوله بعذاب على معناها الأصلي. والمشركون قد أظهروا التحدي بالدعاء إمعانا في الجهر بالتكذيب, وإظهارا أنهم واثقون من رفض الإسلام.

---

[1] سورة الأنفال آية 32

[2] سورة ص آية 16

2-للكافرين ليس له دافع.

2-هذا العذاب مختص بالكافرين. حصوله محقق لا شك فيه. واقع من الله الذي لا رادَّ لما قضاه. و من سفه عقولهم أن يسألوا عذابا واقعا لاشك فيه، عوض أن يحصنوا أنفسهم منه بالتأمل فيما جاءهم من عند الله من الحق.

3-من الله ذي المعارج.

المختص بالمعارج. والمعارج جمع مِعرج، وهو ما يصعد عليه إلى فوق.وكل ما يفهم منه التجسيم يجب أن ينفى عن الذات الإلهية، فليست المعارج رتبا مادية محسوسة صاعدة إلى منازل بعضها فوق بعض، كما يصعد بالسلم، ولكن المعارج هي سمو إلهي تعالى الله في عظمته وجلاله.فالمتقرّبون إلى الله من مخلوقاته من الملائكة والبشر، ليسوا في القرب المعنوي منه تعالى على مرتبة واحدة، فهي مراتب بعضها أكمل من بعض،وأقربهم من الله من كان له عنده سبحانه حظوةٌ ورضوان. والرضا الإلهي هو أكبر نعمة يطمح إليها المخلوق الصالح. قال تعالى: **(ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم[1])**

4-تعرج الملائكة...ألف سنة.

عقب قوله ذي المعارج ببيان نوع من ذلك العروج. وهو عروج الملائكة، فهم في المعارج من منازل الرفعة الاعتبارية. وهم على طهرهم وكمالهم ليسوا على مرتبة سواء، فخص بالذكر منهم الروح الذي هو جبريل عليه السلام. ويمكن فهم الروح على أن المراد به أرواح المرضيِّ عنهم يوم القيامة. والتقدير بخمسين ألف سنة، تقريب بما يترك في تصور التالي العظمة اللامتناهية لله العظيم الأعظم. دون أن يكون هناك بعد زماني مقدر بخمسين ألف سنة ضوئية أو غير ضوئية. ودون أن يكون الله في مكان يوصف بالفوقية.

5-فاصبر صبرا جميلا.

سؤال السائلين من المشركين على معنييه مبطَّنٌ فيه الاستهزاء والاستبعاد لصدق الرسول فيما أوعد به. وذلك مما يؤثر في نفس الرسول صلى الله عليه وسلم،فلذلك أمره ربه أن يصبر على أذاهم واستهزائهم صبرا جميلا، حسنا،لا يخالطه ضجر ولا استبطاء لوعيد الله.

---

[1] سورة التوبة آية 72

6←7-إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا.

تدرع يا محمد بالصبر، فإنك تصبر صبر الواثق من تحقق ما أوعدتهم به، فهو في عقيدتك وعيد إلهي لا يخلف.وهم لعنادهم يعتقدون استحالته. وما قدروا الله حق قدره.

8←9- يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن.

تعرج الملائكة والروح إليه يوم تتحلل السماء فتكون كدردي الزيت، تذهب تلك الصفحة الجميلة المتماسكة، وتكون الجبال الصلدة كالصوف المصبوغ شعرات متفرقه مختلفة الألوان. كما قال تعالى : **(وتكون الجبال كالعهن المنفوش)**[1] ذهب التركيب، وذهب التماسك.و تصور الآيتان الوضع المادي المتحلل للكون.

10←14: ولا يسأل حميم...ثم ينجيه.

بعد أن صورت الآيتان انحلال السماء والجبال وجسّمت ذلك بالتشبيه المقرب للمراد. انتقل القرآن لبيان وضع البشر في يوم القيامة. كل فرد مشغول بنفسه. يذهب الاهتمام الشديد الذي كان يجمع بين المتحابين، الذين تأكدت العلاقة الحميمة بينهم، يرى الحميم حميمه غارقا في الكرب فلا يسأل عنه ولا يشتغل به. ليس ذلك لأن بصره لم يلحظه وهو في عنائه، ولكن يراه ويبصره، ولكن شدة كربه تشغله عن أحَبِّ الناس إليه. هذا هو الهول المحيط بالمشاعر.

بينت الآية السبب الذي من أجله شُغِل كل حميم عن حميمه.فجسمت ذلك في الصورة التالية : يود الكافر المجرم بكفره، وقد شاهد منزلته من العذاب الفائق لكل تصور، في ذلك اليوم الذي ينحل فيه الكون سماؤه وجباله، يتمنى بكل قلبه أن ينجو من العذاب ويقدم في سبيل ذلك كل عزيز عليه ليكون فداء لنفسه من عذاب يوم القيامة ببنيه، فيتغلب الإحساس بشدة العذاب على عاطفة الأبوة الراحمة،أو يفتدي من عذاب ذلك اليوم بزوجه (صاحبته) التي بنى معها علائق الأسرة،وكانت مستودع سره. وكذلك لو يعوِّض عن عذابه تقديم فصيلته، وهم الأهل الأقربون الآباء والأمهات، وكذلك بقية أفراد العشيرة الذين كان يجد فيهم ملجأ يحمونه وينصرونه بعامل العصبية.

وتتابع الأماني دون أن يجد فرجا مما هو فيه، أو استجابة لأمانيه. فيقدم في النهاية كل ما يعز عليه من خلان ومن أموال ومن نفائس كان شديد الضن بها في حياته "**ومن في الأرض جميعا ثم ينجيه**" كل ما يتصور من شيء رفيع المقام عنده يقدمه لينجو من عذاب يومئذ.

---

[1] سورة القارعة آية 5

15←16- كلا إنها لظى نزاعة للشوى.

شأن إيراد "كلا" أن يقصد بها إبطال الكلام السابق قطعا. وما سبق هو ودهم النجاة من العذاب بالافتداء، بما عددوه. فبكلمة واحدة ينفي ماعددوه وما جرى في نفوسهم من النجاء من العذاب. لا نجاء ولا فداء. ثم يثبت ما هو معد لهم، إن ما يشاهده المجرم، وما يستقبله بوجهه: لظى، اسم للهب، جعل علما على جهنم باعتبار أن اللهب المحرق أخص خصائصها. وحتى يتبين اللظى أتم تبين، ألحق به من الميزات والصفات الذاتية ما يجعله متفردا لا يشتبه بغيره. إنه بمجرد ما يلفح لظاها وجوه المجرمين تسقط جلدة رؤوسهم. ولما كانت جلدة الرأس تجمع الحواس يتألم بذلك المنزوع منه أشد الإيلام.

17←18-تدعو من أدبر...فأوعى.

ينادي ملائكة العذاب الموكلين بجهنم المجرمين، دعاء يقسرهم على الاستجابة له، والإقبال على منزلهم المقرر لهم، يدعون من كان موقفه من دعوة محمد صلى الله عليه وسلم تولية ظهره إليها، ثم أصم أذنيه عن سماعها، وعقله عن التأمل فيها. وجمع إلى الإعراض عنها إيثارَ ما عليه المجرمون أمثاله من رؤوس الكفر.
ومع إدباره وتوليه، كان همه الوحيد وحرصه الشديد في جمع أكثر ما يمكن من المال، وكنزه، والبخل به عما يدعو إليه التضامن الاجتماعي من بذل وحسن عون.
وأوعى فكان حرصه على ما جمع حرصا شديدا جعله لا يفكر في شيء وراء الجمع.

۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾
إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ
مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ
عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ
ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾
وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى
جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

هلوعا: لا يتحكم في أرجاعه في الشر أو في الخير.

الشر : كل ما يؤذي الإنسان من مرض وفقر وفقد عزيز...

الخير: ما ينفع الإنسان ويتعلق به من مال وصحة وجمال...

جزوعا : لا يصبر على المكروه.

منوعا : شديد المنع لما عنده، فلا يبذله.

دائمون : لا يتركون أداء الصلاة.

حق : يفيد أنهم يعتبرون المحرومين شركاء.

السائل : الذي يتقدم بطلب النوال.

المحروم : المحتاج الذي له من عزة نفسه ما يمنعه من السؤال.

المشفق : الحذر المتوقع حصول المكروه.

العادي : المتجاوز بالفساد.

راعون : حافظون حارسون.

الإكرام : التعظيم، وحسن القبول.

بيان المعنى الإجمالي :

إذا ترك الإنسان لنفسه، ولم يتهذب بالوحي، فإنه يكون هلوعا. يضعف عن قبول المؤثرات القوية مع الاحتفاظ بتوازنه. إذا أصيب بشر جزع له وأسرع إليه اليأس، وإذا أصابته نعمة منعها و لا يشارك غيره فيها،ظانا أنها باقية غير واثق من رحمة ربه القادر على إخلافها.

وتداركت الآية الذين تأثروا بهداية الله، فعددت ثمانية أصناف ربَّاهم الوحي فحصنهم بذلك من الهلع.

1-الذين يؤدون صلاتهم، ولا ينقطعون عن القيام بها.

2- والذين يجعلون في أموالهم نصيبًا يقدمونه للسائلين، وللمحرومين الذين لا يسألون لعزة نفوسهم، معتبرين ما تصدقوا به حقا للمتصدَّق عليهم.

3- والذين يجزمون بأن يوم القيامة حق لا شك فيه يُجْزَى فيه كل إنسان بما قدم.

4- والذين هم وجِلون أن ينالهم العذاب بما فرطوا. فهم بين الخوف من العدل والرجاء في الفضل. فالمؤمن لا يكون في وقت من الأوقات آمنا من أن يناله عذاب الله، فالإنسان قاصر ومقَصِّر في جنب الله.

5- والذين تمسكوا بالعفة، فلا يقضون شهواتهم الجنسية إلا فيما أحله الله لهم بالزواج الجامع لأركانه وشروطه، أو بما اتخذوه من سُرِّيَّات مَلَكْنَهُنّ. وقضاء الشهوة الجنسية في الحلال لا لوم فيه ولا نقيصة.

6- والذين يؤدون الأمانة لمن ائتمنهم ولا يخونون، ويوفون بما التزموه من عهود، فيكون المتعامل معهم آمنا على الاتصال بحقوقه عندما يطلبها.
7-والذين يؤدون الشهادة كما تحملوها لا يحرفونها تبعا لصداقة أو عداوة.
8- والذين يؤدون صلاتهم على أكمل الوجوه جامعة للأركان والشرائط، مصحوبة بالإخلاص، والشعور بشرف المناجاة.
لكل من جمع تلكم الخصال جميعها، أو بعضا منها مع عفو الله، حسن المآل في الجنات، مع التكريم والشعور بالسعادة.

بيان المعنى العام :

19←21- إن الإنسان خلق...منوعا.

هذه آية من الآيات التي تكشف للإنسان عن تركيبه النفسي، حتى يتحكم في أرجاعه. ولا تجرفه المؤثرات إلى اتخاذ مواقف تكون وبالا عليه في المستقبل. والنفس محجوبة بمظاهر مضللة. وتبعا لذلك الحجاب ينساق حسب طبيعته التي خلق عليها مع ما تبعثه نفسه وميوله لمتابعته، دون أن يُخْضِعَ ذلك لتفكيره، فيقدره تقديرا غير مخدوع بالمظاهر الأولى. من شأن الإنسان أنه إذا مسه الشر من مرض أو فقر، أو خيبة،يجزع مما أصابه،و يفقد ثقته في رحمة الله، ويفقد ثقته فيما آتاه الله من قوى، ويسرع إليه أحد الشرين الأعظم مما أصابه، وهما اليأس، أو الكفر. فتظلم الدنيا في عينيه، وينسى أنه مرتبط بربه القادر على أن يبدل ما أصابه من بأس إلى رحمة،ويفتح له من المغالق الموصدة أبواب الفرج. فالهلع أثر ضعف نفسي عند المصيبة يكون به الهالع شاعرا بالهزيمة، تُظْلِم عنده كل الطرق التي يمكن أن تحوله من وضعه الذي هو فيه. فيصحبه الاستسلام أو الكفر.
وكذلك عندما يصيبه الخير من غنى وقوة، ومركز اجتماعي مرموق ونحو ذلك، يكون هلوعا. فيظن أن ما حصل عليه هو بسبب ما له من مزايا،ومن ذكاء، ومن حسن تدبير للأمور، ويستولي تصوره ذاك على أرجاعه، فتجده شحيحا بما تحصل عليه، لا يبذل جاهه لنصر مظلوم، أو إظهار حق مهضوم.
فالهلع عبارة عن قوة تأثر نفس الإنسان بالأحداث إلى درجة أنها إن أصيبت بشر تنهار، ولا ترى من البؤس الحالٍ مخرجا. وإذا أصيبت بالخير تشامخت واعتقدت أن ما حصل لها هو ملك لها بما لها من مزايا، فلا تشرك فيه أحدا، ولا تتهيأ لإمكان أن يسلب منها في يوم من الأيام. وبطرت النعمة.

22←23- إلا المصلين...دائمون.

استدراك بمعنى لكن عناية بما يرد بعد " إلا". ما فطر عليه الإنسان من الهلع، الذي هو ظاهرة منتشرة لا يسلم منها معظم الناس. لكن ما سيرد إلى الآية34 أمنوا أنفسهم من الهلع بكل خصلة من الخصال الآتية، وبجميعها من باب أولى وأحرى. الذين روّضوا مشاعرهم بالصلاة، وأصبحت رابطة متجددة تصلهم بالله مباشرة، تتفتح قلوبهم ومشاعرهم، وأرواحهم لما عند الله من خير وحسن تقدير، فلا ينزعجون الانزعاج الهالع للشر، ولا يبطرون النعمة فيستأثرون بها. ولا تؤدي الصلاة دورها هذا الحامي للإنسان من الهلع، إلا إذا حافظ عليها، واستجاب لندائها راغبا.

24←25- و الذين في أموالهم حق معلوم...والمحروم.

الصفة الثانية التي بها يتَطَهَّرُ الإنسان من الهلع،أن ينظر لما آتاه الله من مال نظرة معترف بأن ما حصل عليه من رزق هو من فضل الله، وأن الله استأمنه على نسبة من تلك الأموال ليبلغها للمحاويج، يمكن منها السائل الذي يمد يده طالبا للمال، ويبحث عن المحرومين الذين لهم من عزة النفس ما يمنعهم من مد يدهم للسؤال، والتعرض للأغنياء.

26- والذين يصدقون بيوم الدين...

الذين يعمر قلوبهم يقين بأن يوم القيامة آت لا ريب فيه، وأنه سيتم جزاء الخلائق في ذلك اليوم عما قدموه.

27←28- والذين هم من عذاب ربهم مشفقون....غير مأمون.

والذين تيقنوا أن الله مطلع على كل ما عمله الإنسان، لا يخفى عليه شيء، فهم لذلك حذرون أشد الحذر مما فرط منهم من تقصير،خائفون أن تكشف سيئاتهم وأن يحاسبوا عليها. هم موقنون أنه لا يأمن عذاب الله فيستهين بالوعيد إلا القوم الخاسرون، وشعورهم هذا يدفعهم إلى الندم عما فات والتوبة، وإصلاح النفس بالاستقامة. ولا ينبغي لأحد وإن بالغ في الطاعة أن يكون واثقا من نفسه أنه قام بما يجب للخالق من حقوق. فكل فرد لا يخلو من تقصير في جنب الله. و يجب أن يكون الإنسان مشدودا بين قطبي الخوف والرجاء.

29←31-إلا على أزواجهم...هم العادون.

والذين يلازمون العفة، ويتحكمون في غريزتهم الجنسية. فيتعففون من الزنا ومن اللواط. وليس معنى هذا الرهبانية التي ذهب إليها النصارى، ولكن يبنون حياتهم الاجتماعية وقضاء شهوتهم الجنسية على الزواج الجامع لأركانه وشروطه، وعلى

ما أحله الله من العلاقة بين المالك وبين السُّرِّيَّة. وهذا ما كـان عليـه الأمـر عنـد نـزول الوحي وما تبعه من القرون: أن ما يحصـل عليـه المجاهـدون مـن أسـيرات الحـرب، يباح لمالكهن الاستمتاع بهن كما يسـتمتع بزوجاتـه. ولـيس المقصـود بـه المخطوفـات من بلدانهن اعتداء وبيعهن فـي الأسـواق، فهـؤلاء حرائـر، الاسـتمتاع بهـن بالشـراء حرام كبير. وهذا داخل في قوله تعالى **فمـن ابتغـى وراء ذلـك فأولئـك هـم العـادون**. المتجاوزون لحدود الله.

32- والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون.

خلق الله الإنسان ليربط علاقاته مع غيره بصفة يـأمن فيهـا كـل فـرد لعلاقتـه بـالآخر، وهو ما يساعد علـى حسـن الخلافـة فـي الأرض التـي مـن أجلهـا خلـق الإنسـان. والمرتبة الرفيعة التي تخرج الإنسـان مـن الهلـع، أن يكـون أمينًـا يـوفي بمـا اؤتمـن عليه، من مال أو أسرار. وكذلك يوفي بما عاهـد بـه، والتزمـه، والمراعـاة تـتم بـأداء الأمانة لصاحبها،وحفظ أسراره، ولا يخلـف عهـده الـذي اطمـأن الطـرف الآخـر أنـه سيحصل على العهد الموثق من المعاهد.

33-والذين هم بشهادتهم قائمون.

بالعدل قامت السماوات والأرض، وكل إنسـان مسـؤول عـن العـدل.وممـا يحققـه أن يظهر كل فرد الحق إذا أتيحت له الفرصة لذلك. فـإذا تحمـل الإنسـان شـهادة فالواجـب عليه أن لا يكتمها ممـا يسـبب ضـياع الحـق، ولا يبـدلها بـنقص أو زيـادة فيضـلل الحاكم، ويكون بذلك مسـؤولا عـن القضـاء بغيـر الحـق الـذي تسـبب فيـه. فالقيـام بالشهادة يقتضي الاهتمام بأدائها على وجهها دون تـأثر بعلاقـة بـين الشـاهد والمشـهود له أو عليه.

34- والذين هم على صلاتهم يحافظون.

أعيد لفت الأنظـار إلـى الصـلاة، فأضـاف إلـى المداومـة علـى الصـلاة، العنايـة بالمحافظة عليها، مما يفهم منه القيـام بأركانهـا وشـرائطها علـى أتـم وجـه، وحسـن الاستحضار للمصلي بموقفه بين يدي الله، والأنـس بـتلكم اللحظـات التـي يكـون فيهـا مناجيا لربه.

35-أولئك في جنات مكرمون.

أولئك، تميزوا بما أجري عليهم مـن الصـفات الصـالحة تميُّـزا اكتسـبوا منـه تفـردا، واستحقوا هذا الجزاء التالي: هم في جنات يوم القيامـة، جـزاء مـن عنـد ربهـم. ومـع

النعيم المتوفر في الجنات، كتب الله لهم الإكرام فيسعدون بحسن القبول قال تعالى: (والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار)[1]

﴿٣٥﴾ فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾
أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا
يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ
خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى
يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾
خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

مهطعين : الإهطاع مد العنق عند السير.

عن اليمين وعن الشمال : من كل الجهات.

عزين : جماعات.

المسبوق : المغلوب على أمره، العاجز.

الخوض : الكلام الكثير.

اللعب : الهزل.

الأجداث : القبور.

النصب : ما ينصب للعبادة من الأصنام.

يوفضون : من أوفض إذا أسرع.

خاشعة أبصارهم : أذلاء.

ترهقهم : تعلوهم، وتغطيهم.

بيان المعنى الإجمالي :

يدرك المشركون جمال القرآن وبلاغته، ولذلك إذا سمعوا صوت الرسول صلى الله عليه وسلم يتلو آياته في صلاته، أقبلوا عليه مسرعين مادين أعناقهم. ثم يتحلّقون بعد ذلك جماعات تحاول كل جماعة أن تصرف الناس عنه بالطعن في مضامينه. ما لهم يقبلون عليك من كل ناحية، ثم يطعنون في القرآن ؟ ويزعمون أن حظهم في

[1] سورة الرعد آية 24/23

الآخرة سيكون كحظهم في الدنيا أفضل مما عليـه محمـد وأصـحابه، وإذا كانـت الجنـة حقا فهم أولى بها. ويرد علـيهم القـرآن بكلمـة كالسـيف القـاطع لأمـانيهم "كـلا" ثـم يستهزئ بهم في إنكارهم البعث مستبعدين أن يعودوا إلـى الحيـاة مـن جديـد، يسـتهزئ بهم لأن دليل البعث كامن فيهم، فهم يعلمون أن الله خلقهـم مـن نطفـة ثـم رعاهـا حتـى وصلت إلى الوضع السوي الإنساني.

قسم غليظ برب الكون كله مشارقه ومغاربه، مـا اشـتمل عليـه، وتصـرف الله فيـه. إن قدرة الله لا يعجزها شيء. إننا قادرون على أن نحـول خِلْقَـتَهم يـوم القيامـة إلـى خِلْقَـةٍ من نوع آخر، تتناسب مع عالم الخلد، ولا تفنى. وإنه لا يعجزنا شيء.

لا تهتم بهم يا محمـد ولا تبتـئس مـن عنـادهم وسـخريتهم،واتركهم يواصـلون عبـثهم ولهوهم ؛حتى يبلغوا اليوم الذي قدرت فيه تحقيـق الوعيـد فـيهم.اليـوم الـذي يخرجـون فيه أحياء من قبورهم مسرعين مـدفوعين دفعـا عنيفـا إلـى أرض المحشـر.يسـرعون كما كانوا يسرعون إلى أصـنامهم.انكسـرت أبصـارهم فـلا يرفعونهـا. مجلّلـين بالـذل والخوف. كل ما وصفوا به حل عليهم في اليوم الذي أوعدناهم به.

بيان المعنى العام :

36←37-فمال الذين...عزين.

تفتح الآية باستفهام إنكـاري، تعجيبـا مـن حالـة الكـافرين الـذين يتناقضـون تناقضـا فاضحا،هم من ناحية يكذبون رسول الله صـلى الله عليـه وسـلم وينكـرون أنـه مـوحى إليه، ومن ناحية أخرى إذا سـمعوه يتلـو كتـاب الله، أقبلـوا نحـوه وأعنـاقهم ممـدودة، يرغبون في سماع القرآن.وفي نظري أن رغبـتهم تلـك يتقاسـمها غرضـان : الغـرض الأول تذوقهم لبلاغة القرآن وجمالـه. والعربـي متعلـق جـد التعلـق بـالكلام الفصـيح المسبوك العالي في البيان. وما تحـداهم القـرآن بالإتيـان بسـورة مـن مثلـه إلا لأنهـم على مسـتوى رفيـع مـن ذلـك، فهـم بـالرغم مـن إنكـارهم لمضـامينه يسـتمتعون بالاستماع إليه. ومن ناحيـة ثانيـة هـم يتصـيدون ممـا يسـمعونه مـا يحرفونـه عـن مواضعه، ويتخذون من وعيده ووصف يـوم القيامـة ونحـو ذلـك سـخرية واسـتهزاء، يتندرون بها في مجامعهم ويصرفون الدهماء عن التأثر به.

يثير القرآن التعجب من تناقضهم، وصـرفهم الخيـر الـذي جـاء بـه القـرآن إلـى مـا يوجب الإعراض عنه. مالهم يقبلون عليـك إذا سـمعوا القـرآن مـن كـل جانـب، وهـم يمدون أعناقهم حتى لا يفلت عن أسماعهم شيء مـن قراءتـك، ثـم يتوزعـون جماعـات صغيرة يعملون على الاستهزاء بما سـمعوه منـك. ومـن الباطـل الـذي روجـوه علـى الأتباع: أن ما جمعـوه مـن الثـروة، والأولاد، والعـزة الظاهريـة، يقتضـي أن يكونـوا

يوم القيامة، إن تحقق، أن يكونوا خيرا من محمد وأتباعه المحرومين الذين ليس لهم حظ مثل حظوظهم في الدنيا. أيطمع كل واحد منهم أن تكون عاقبته جنة النعيم. فعقب هذا الطمع الكاذب بتيئيسهم من أي كرامة في الآخرة. ثم ذلك بكلمة واحدة "كلا" التي نفت كل تصوراتهم عن تنعمهم بدخول الجنة يوم القيامة.

39- إنا خلقناهم مما يعلمون.

ما يزال البعث يصدم المشركين، ويدفعهم إلى سياسة النعامة التي تدس رأسها في التراب فتتعطل الرؤية عندها، فتظن أن الصيادين قد عدموا من حولها لأنها لا تراهم. وكذلك المشركون يعملون على نفي البعث بإنكار إمكانه.فرد عليهم القرآن بأنهم لو نظروا في ذواتهم لأدركوا أنهم تطوروا من النطفة إلى الوضع السوي الذي هم عليه، وتابعت القدرة الإلهية كل تلكم التطورات. فإعادتهم إلى الوجود بعد الفناء يوم القيامة لا يختلف عن خلقهم الأول. وفي التعبير بقوله: مما يعلمون، تهكم بهم إذ الدليل قائم في أنفسهم ويعلمونه. فليس قوله: مما يعلمون تنويه بهم، ولكنه استهزاء بهم.

40←41- فلا أقسم برب المشارق والمغارب....بمسبوقين.

أثبت القرآن البعث بخلقهم مما يعلمون كما بينته الآية السابقة. ثم زاد تأكيدا لثبوته بالقسم عليه.وأتى بالقسم على أبلغ وجه كما تقدم لنا في قوله تعالى:(**فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون**)[1] والمقسم به هو رب المشارق والمغارب. وهو يفيد رب الكون كله لشمول مشارق الأرض ومغاربها للتحولات التي تطرأ على مطالع الشمس وعلى مغاربها. وهو ينبه أيضا لقدرة الله ودقة صنعه في تلكم الإحداثات المتتابعة المنظمة.

إنا لقادرون على أن نبدل خيرا....التبديل الداخل في القدرة التي لا يعجزها شيء، يفهم منه، إما تأكيد أن الله قادر على أن يبدل البشر المعاندين بخلقهم خلقا خيرا منهم في خصائصه واستعداداته.وهو الخلق المناسب لعالم الخلود الذي لا يلحقه فناء. وإما أن يذهبهم ويبدل مكانهم أمة أخرى خيرا منهم، يقبلون على الهدى طائعين مطبقين.

وما نحن بمسبوقين...وبكل تأكيد إن قدرتنا لا يعجزها شيء، ولا يفلت من قبضتها. والمسبوق أصله في المغلوب في السَّيْر، الذي يتخلف ويسبقه غيره، فأطلق غير مسبوقين على معنى غير عاجزين عن تبديل خير منكم.

---

[1] سورة الحاقة آية 39/38

42←44- فذرهم يخوضوا ويلعبوا...كانوا يوعدون.

اتركهم ولا تهتم بهم يا محمد. إنهم ليسوا أهل جد، وإقبال بإعمال عقولهم، وفتح بصائرهم على ما يعرض عليهم. بل هم مولعون بكثرة الكلام، وهم أبعد ما يكون عن الجد متعلقون باللعب واللهو. فلا تَكْتَرِثْ بما يصدر منهم. فهم لم يبلغوا المستوى الذي يكون فيه لكلامهم وزن. وارتقب اليوم الذي أوعدهم الله به، يوم القيامة الفاضح لكفرهم المجازَى عليه بأشد العذاب.

يوم يخرجون من الأجداث... اليوم الذي أوعدهم الله به، هو اليوم الذي يخرجون فيه من قبورهم أحياء، مسرعين مدفوعين إلى أرض المحشر.كما كانوا يسرعون في دنياهم إلى أصنامهم المنصوبة للعبادة، وأكد إسراعهم بقوله يوفضون، وهو بمعنى يسرعون.

خاشعة أبصارهم... وصفهم القرآن وصفا يشهر بحالتهم ويكشف عما هم عليه من خزي. أبصارهم تنظر إلى أسفل.إنهم وإن كانوا مسرعين إلا أن سرعتهم سرعة الخائف الوجل المصروف عن النظر إلى الأمام.تكسوهم وتغشاهم ذلة عظيمة.

ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون... كل ما ذكر من خزيهم، وذلهم، وإسراعهم بعد خروجهم مسرعين وجلين خائفين، هو جزاؤهم في يوم القيامة اليوم الذي يحق عليهم الوعيد الذي حذروا منه.

يوم الاثنين 18شعبان 2014/6/16

سورة نــوح

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وكتب التفسير.أخذ اسمها من موضوع الآية الأولى فيها. وهي سورة مكية باتفاق.ورتبتها حسب ترتيب المصحف الحادية والسبعون. وحسب ترتيب النزول الثالثة والسبعون.نزلت بعد أربعين آية من سورة النحل. وقبل سورة الطور.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ
يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

القوم : الجماعة المترابطون بجامعة الموطن أو النسب.

اتقوا الله : اتقوا غضب الله.

بيان المعنى الإجمالي:

إنا أرسلنا نوحا محملا برسالتنا إلى قومه لينذرهم المآل الذي هم صائرون إليه، كي ينقذوا أنفسهم من العذاب الأليم. فنفذ ما أمره به ربه، وقال لقومه متوددا إليهم مقربا لهم: يا قومي ! إني مبعوث لكم من عند الله لأنذركم ولأبين لكم الحقيقة. هذه الحقيقة المتمثلة في أنكم مأمورون بعبادة الله وحده، وأن تطيعوني فيما أبلغكم عن الله.

إنه إذا تحقق منكم إفراد الله بالعبادة، ورضيّ الطاعة يجزكم عن ذلك بمغفرة ذنوبكم، فيمحوها من صحائفكم، ولا يستأصلكم جميعا بعذابه. فيبقى كل فرد منكم إلى أجله المقدر له والمعين عنده سبحانه.واعلموا أن أجل الله الذي حدده لاستئصال

المعاندين لا يقبل التأخير. يسحقهم فــي لحظــة.لــو كنــتم تعلمــون ســلطان الله وقدرتــه لأسرعتم لإنقاذ أنفسكم من العذاب. إني مبعوث لكم

بيان المعنى العام :

1- إنا أرسلنا نوحا...أليم.

في الآية تعبير عن الاهتمام بمضمونها. كيف لا وما تــدل عليــه يمثــل أول توجيــه مــن الله للبشر بواسطة رسول منهم. فنوح عليه الســلام أول رســول بعثــه الله محمــلا بهدايــة للناس. ولما كان البشر في عهد نــوح لــم يتكــاثروا تكــاثرا يعمــرون بــه الأرض، فــإن نوحا كان مبعوثا في قومه الذين يجتمع معهم فــي المــوطن، و يــرتبط بهــم فــي النســب القريب أو غير البعيد جدا.

أن أنذر قومك...هذا بيان لمضمون قوله أرسلنا. هو مكلــف بإنــذار قومــه، وكشــف مــا يترصدهم من عذاب إن هم لم يتأملوا في هدايتــه، ويعتقــدوا فيمــا جــاءهم بــه، ويعملــوا على تطبيقه في حياتهم. ادعهم ليتخلــوا عمــا هــم عليــه، ويصــلحوا عقائــدهم، وينبــذوا عبادة الأصنام قبل أن يحل عليهم العذاب الأليم الذي هو الجزاء المناسب لهم.

2- قال يا قوم إني لكم نذير مبين.

استجاب نوح لأمر ربه، وكان له مــن الشــجاعة مــا واجــه بــه قومــه وأنــذرهم بمــا أوحي إليه. وقال لهم: إني لكم منذر، موقظ لكــم ممــا أنــتم عنــه غــافلون. وأنــا علــى استعداد لأوضح لكم ما ترغبون في توضيحه.

3-أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون.

وضحت الآية المراد من قوله **إني لكم نــذير مبــين**. فهــو يطلــب مــنهم أن يعبــدوا الله وحده وأن ينبذوا عبــادة الأصــنام، وأن يعملــوا علــى أن يجعلــوا لأنفســهم وقايــة مــن غضب الله، وأن يطيعوه فيما يأمرهم به مما تلقــاه مــن ربــه. وذكــر بعــض المفســرين أن نوحا لم يأمر قومه بتشــريع خــاص، واقتصــرت رســالته علــى توحيــد الله و رفــع الشرك من عقولهم. وفي هذا نظر. فمما لا شك فيــه أن حفــظ الــدين والــنفس، والعقــل، والنسب، والمال. من الأصول المرعية في جميع الشــرائع، لأنهــا ركــائز الخلافــة التــي أراد الله أن يكلف بها الإنسان.

4-يغفر لكم من ذنوبكم... لو كنتم تعلمون.

هذه الآية جواب كاشف عما يترتب عن طاعته والأخــذ بمــا دعــاهم إليــه. يقــول لهــم: إنكم إن أطعتموني فيما دعــوتكم إليــه، **يغفــر لكــم ربكــم مــن ذنــوبكم**. و لفــظ" مــن" ذنوبكم، يؤكد ربط المغفرة بالذنوب، فذكر " **مــن**" وعــدم ذكرهــا ســواء.أي يغفــر لكــم

ذنوبكم.وذهب فريق إلى أن "من" للتبعيض، في قوة بعض ذنوبكم.وللمفسرين في تعين البعض مذاهب. فقدره فريق يغفر لكم ذنوب الشرك لا غير ذلك، وقدره آخرون الذنوب السابقة عن الإيمان.والذي يترجح عندي هو الرأي الأول.أن "من" لا تدل على التبعيض. وذلك لأنه جاء في القرآن ثلاث آيات مع من في سورة إبراهيم آية 10، وفي سورة الأحقاف آية 31، وفي هذه السورة. ووردت ثلاث آيات بدون "من" سورة آل عمران آية 31 و سورة الأحزاب آية71، و سورة الصف آية 12. ورجحت كفة الإطلاق وعدم التبعيض بقوله تعالى: **إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم** [1]-

ويؤخركم إلى أجل مسمى... مع ما وعدهم به إن آمنوا من مغفرة ذنوبهم الذي هو فضل يتعلق بالآخرة، وعدهم بفضل دنيوي أن الله يمد في آجالهم فلا يستأصلهم، بعذاب يتسلط عليهم جميعا في لحظة من اللحظات التي قدرها الله لعذابهم.ويبقي كل واحد منهم حتى يبلغ الأجل الذي قدره الله له في الأزل، فلا يأتي الموت عليهم جميعا.

إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر... الظاهر أن المراد بالنص تأكيد أمر عذابهم في الوقت الذي حدده الله في سابق علمه، والذي لا يقبل التغيير. فقوله يؤخركم إلى أجل مسمى، هو الأجل المحدد لكل شخص.وقوله إن أجل الله، هو أجل الاستئصال الذي يأتي على جميع المعاندين. فيكون نوح عليه السلام رغّب قومه في عبادة الله وحده وتقواه بغفران ذنوبهم، وأن الله يؤخر كل فرد منهم إلى الأجل الذي كتبه له في سابق علمه، وينذرهم أنهم إن عصوا وعاندوا؛ فإن الأجل الذي حدده لاستئصالهم يتحقق دون أن يقبل التغيير.لو كنتم تعلمون بهذه الحقيقة لما استربتم ولقبلتم ما جاءكم على لسان رسولكم.

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾

[1] سورة الزمر آية 53

بيان معاني الألفاظ:

فرارا : بعدا وإعراضا.

استغشوا : غطوا أعينهم.

أصروا : أظهروا قوة عزمهم بدون تردد.

استكبروا : بالغوا في التكبر.

السماء : المطر.

مدرارا : كثيرا.

أموال : ضروبا من الرزق.

بيان المعنى الإجمالي:

واصل نوح دعوة قومه سنين متطاولة، صابرا على عنادهم، لم ييأس من النجاح. وإذ كان رفضهم شديدا وما قام به من جهد لم يثمر. توجه إلى ربه مستغيثا عارضا على جلاله ما قام به، فقال: رب إني واصلت دعاء قومي إلى الإيمان والطاعة في جميع الأوقات لا أفتر عن الدعوة ليلا ولا نهارا. ولكن موقفهم لم يتزحزح فكلما زدت اجتهادا في هدايتهم زادوا بعدا مني. كلما دعوتهم لتغفر لهم ذنوبهم التي لوثوا بها صحائفهم بالشرك والاعتداء. أصمُّوا آذانهم عن سماعي وسدوا منافذها بأناملهم، وغطوا عيونهم حتى لا تراني، وظهر منهم الإصرار على الكفر، والكبر أن يتبعوا ما جاءهم من الحق.

حاولت جميع الطرق المؤثرة. دعوت كل فرد منهم سرا، ودعوتهم في مجامعهم جهارا، وجمعت بين الطريقتين السر والجهر. وكان كلامي واضحا قلت لهم، اطلبوا المغفرة من ربكم :يغفر لكم ما سلف منكم، إن الله عظيم المغفرة، فتسعدوا في آخرتكم. وباستغفاركم يوسع عليكم من خيرات الدنيا، فيرسل عليكم الأمطار متتابعة يحميكم من القحط والجفاف، ويمكنُكم من متنوع الأموال، ويبارك لكم في ذرياتكم، ويملككم جنات تتخللها الأنهار .

بيان المعنى العام :

5←6- قال رب إني دعوت قومي...إلا فرارا.

قام نوح عليه السلام بتبليغ ما أمره به ربه، والله لا تخفى عليه خافية، فهو يعلم نصح نوح واجتهاده لينجح في مهمته. وواصل نوح عليه السلام الاتصال بالناس ليلا ونهارا، وعرض بوضوح ما جاء به. وأقام الحجة تلو الحجة.وما كان يترك فرصة للتذكير تمر دون أن يغتنمها لإصلاح قومه. فكان موقفهم منه موقف الرفض

والإعراض. عوض أن يقبلوا عليــه ويهتمــوا بمــا يعــرض، اختــاروا أن يبتعــدوا عنــه فرارا منه. ضاق ذرعا بهم وقد مرت السنون المتوالية، وهو لــم يحقــق مــا كــان يأمــل في تركيزه من التوحيد، وطاعة الله. فتوجه بعــرض حالتــه علــى ربــه يشــكو تصــلبهم في الكفر، وتصميمهم على العناد.

7-واني كلما دعوتهم...استكبارا.

ثم واصل شارحا موقفهم الرافض الــذي لــم يتبــدل. رب إنــي كلمــا جــددت دعــوتهم ليؤمنوا فيسعدوا بغفرانك لذنوبهم،زادوا تصلبا. وعبــروا تعبيــرا مجســما عــن كــراهيتهم سماع الدعوة للتوحيد والخير. فجعلوا أناملهم فــي آذانهــم حتــى لا يصــل إلــيهم صــوت الحق. يبالغون في سد آذانهم حتى تكاد أصابعهم تنفذ كلهــا إلــى الــداخل. وجمعــوا إلــى سد آذانهم أنهم يغطون أعينهم حتى لا يتأثروا بالإشــارة المبينــة، وظهــر مــنهم أمــارات الإصرار على ما هم عليه من الشرك. وكانــت هيئــاتهم منبئــة عــن انتفــاخهم بــالكبر، يدل مظهرهم على أنهم لا يقبلون أن يكــون نــوح هاديــا لهــم، يعــرفهم الطريــق الــذي يجب سلوكه، والعقيدة التي يعزمون أمرهم عليها.

8←9- ثم إني دعوتهم...إسرارا.

رب إني لم أدخر طريقة من طــرق التــأثير والإقنــاع إلا ســلكتها، دعــوتهم ســرا أقبــل على كل واحد منهم منفــردا، وأقبــل علــيهم فــي مجــامعهم فــأعرض علــيهم جهــارا التوحيد والطاعة والتقوى، وأجمع بين الســر والجهــر فــي الــدعوة. كنــت أراعــي مــع الأفراد والجماعات ما أظن أنه أقرب للتأثير فيهم.

10←12-فقلت استغفروا ربكم...أنهارا.

عرضت عليهم ربي ما أمرتني بــه.قلت لهــم اطلبــوا المغفــرة مــن ربكــم، معتــرفين بربوبيته، اسألوه أن يتقبلكم بفضله فيغفر ذنــوبكم. إنــه شــديد المغفــرة، يمحــو ســيئات المؤمنين الملتجئين إليه. وبذلك تحققوا لأنفسكم السعادة الأخروية.

ومع ذلك يسعدكم بفضــله الواســع فــي الــدنيا، فينــزل علــيكم مــن الســماء الأمطــار المتداركة التي تخصب مزارعكم وتكثــر الثمــار، ولا يبتلــيكم بــالقحط وحــبس الغيــث. ويمكنكم من متنوع الأموال فتنتفي عنكم الحاجة والفقــر، ويبــارك لكــم فــي نســلكم فــلا يحرمكم من التكاثر الذي تعمــرون بــه الأرض.ويجعــل لكــم جنــات فتخصــب الأرض ويكثر عطاؤها. ويفجر لكم خلالها الأنهار. قلت لهــم: ذلكــم مــا يــوفره لكــم الاســتغفار النابع من قلب مؤمن خاشع لله مدرك لسامي معنى الاســتغفار. شــكا رجــل إلــى الحســن البصري رحمه الله الجدب، فقال له : استغفر الله.وشــكا آخــر إليــه الفقــر، فقــال لــه :

استغفر الله سبحانه. وقال له آخر ادع الله تعالى أن يرزقني ولدا، فقال له: استغفر الله تعالى. فقيل له في ذلك، فاستند إلى هذه الآية. يقول ابن عطية: والاستغفار الذي أحال عليه الحسن ليس هو عندي لفظة الاستغفار فقط، بل الإخلاص والصدق في الأقوال والأعمال.

مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الوقار: العظمة والجلال.

أطورا : تحولات متتابعة.

طباقا : متطابقة بعضها فوق بعض.

السراج : المصباح المضيء

البساط : ما يفرش للنوم أو للجلوس، بمعنى ممهدة.

السبل : الطرق.

فجاجا : واسعة

بيان المعنى الإجمالي :

خاطبهم نوح عليه السلام بقوله : عجب لكم ما لكم لا تأملون أن يكرمكم الله بتوقيره! وهذا لا تنالونه إلا بتوحيده وعبادته، أو ما لكم لا تخافون عظمة الله وقدرته عليكم بتعجيل عقابكم ! وفي أنفسكم من الشواهد ما يقتضي قبولكم لدعوتي، فقد خلقكم أطوارا متلاحقة تتَحَوّلون من طور إلى طور، تنفذ فيكم حكمته وقدرته مع ألطافه.تنمو أجسامكم دون ألم.

تأملوا في النظام الذي أبدع الله عليه الكون. فوقكم سبع سماوات متطابقة. وجعل بحكمته في السماء الدنيا القمر ينير الفضاء الرحب إضاءة هادئة. وجعل من ناحية أخرى الشمس تتوقد كالسراج.وارتبطت بهذين الكوكبين حياتكم وتقديركم للزمن.

وربطكم بالأرض أنشأكم منها كما يخرج النبات، ثم ينتهي بكم إلى أن تعودوا إلى الأرض التي نبتم منها. ثم يخرجكم للبعث منها أيضا. فتأملوا في حكمة الله والترابط العجيب الذي أنتم عنه ذاهلون.

والله وحده هو الذي بسط لكم وجه الأرض، فيسر لكــم الانتقــال فــي أرجائهــا، والحيــاة على وجهها. ومكّنكم من أن تشرعوا فيها مســالك واســعة. فكــل الــنعم منــه، ويفــرض ذلك عليكم أن توحدوه وتفردوه بالعبادة والطاعة.

بيان المعنى العام:

13-ما لكم لا ترجون لله وقارا.

خاطبهم نوح عليه السلام بما ترجمــت عنــه هــذه الآيــة. عجــب لكــم ! كيــف لا تــأملون أن يصلكم من ربكم ما يثيبكم بــه يــوم القيامــة ثوابــا تكونــون بــه مُــوقَّرِين لا محتقــرين أذلاء.وذلك بتوحيده وعبادته.

وفهمها بعضهم على معنــى : مــا لكــم لا ترجــون ثوابــا مــن الله ولا تخــافون عقابــا، فتوحدوه وتطيعوه رجاء أن يثيبكم على عبادتكم وتوقيركم لجلاله.

وفهمها بعضهم: مالكم لا تثبتون وحدانيــة الله التــي هــي الوقــار الواجــب لله. علــى أن معنى ترجون تثبتون.

14- وقد خلقكم أطورا.

وقد خلقكم منتقلين من طور إلى طــور، تنفــذ فــيكم إرادتــه دون اختيــار مــنكم. فهــذه الحال تهدي من تأملها أن التصرف الحكيم فــي ذات الإنســان مــن خالقــه العلــيم، مــن التلقيح الأول إلى وضعه، ثم نموه شيئا فشيئا، ثم بلوغــه كمــال قوتــه، ثــم تراجعــه إلــى المشيب، ثم الموت والفناء، كل ذلك يشهد بــأن المُؤثِّــر فــي الإنســان هــو الله وحــده، مما يفرض على الإنسان أن يوحده،وأن يعلم أنــه فــي قبضــته فيــوقره التــوقير الواجــب من التوحيد والطاعــة.وأن التطــورات التــي تجــري علــى الإنســان قــد رافقهــا مــن الألطاف ما يفرض الاعتراف بفضله. خذ لذلك مــثلا التمــدد الــذي يحصــل فــي الجســم عند نموه، أو الانكماش الذي يحصل فــي الهــرم. أطــوار تمــر علــى الإنســان دون أن يشعر بها أو يتألم.

15←16-ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات...سراجا.

بعد أن لفت أنظارهم في سبيل الاحتجــاج علــيهم إلــى التأمــل فــي ذواتهــم، حرضــهم على النظر في كتاب الكون المشاهد. فافتتح خطــابهم بســؤال يثيــر الــذهن: ألــم تــروا، ألم تنظروا، أو ألم تعلموا الكيفية التي خلــق الله عليهــا الكــون ؟ ابتــدأ بالســماء محققــا أنها سبع سماوات متطابقة، تحيط كل ســماء بالســماء التــي تحتهــا. وفــي كــل ســماء أسرار، وحكمة في الخلق. وخصص مــن الســماء الكــوكبين اللامعــين اللــذين ارتبطــت بهما حياة الإنسان القمر المنير الذي ينبعث منــه ضــوء هــادئ وهــو أقــرب الكواكــب

للأرض ويختص بأن نـوره يضـيء الأرض بخـلاف غيـره مـن الكواكـب. والشـمس المتوقدة كالسراج.

17- والله أنبتكم من الأرض نباتا.

واصل نوح لفت أنظار قومه إلى الحكمة الإلهيـة المنبثـة فـي الخلـق، فبعـد أن ذكـرهم بما في خلقهم من دلائل عجيبة، وما في كتاب الكون مـن أسـرار.ربـط فـي هـذه الآيـة بين الإنسان وبين الأرض، فنبّههم إلـى أن خلقهـم ابتـدأ مـن عناصـر الأرض، تحولـت تلكم العناصر بتقدير عجيب إلى إنسـان، ثـم بعـد إبـراز الإنسـان إلـى الوجـود مـن عناصر الأرض، يعيده الخالق بقدرته إلى الأرض التي نبـت منهـا.وكمـا تصـرف فيـه بخلقه منها ثم إعادته إليها فسيخرجه منها تارة أخرى، فإذا هو البعث والجزاء.

19 ← 20- والله جعل لكم الأرض بساطا...سبلا فجاجا.

الرتابة تغطي على النعمة، فذكرهم نوح عليه السلام في هذه الآيـة، بـأن الله يسـر لكـم الحيـاة على وجه الأرض، فبسـطها بسـطا لا يتعـب السـائر فيهـا، ولا تقـوم أمامـه عوائـق تعوقـه عـن التنقـل فـي أرجائهـا، ويسـر لـه ببسـطها أن يحبلهـا بـالزروع والأشجار.وينمي رزقه من خيراتها.وبهـذا البسـط تيَسّـر لكـم أن تتخـذوا منهـا طرقـا واسعة.

قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا
مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ
وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٔاتِهِمْ
أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ
عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا إِلَّا
فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ
وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

خسارا : شرا من وسائل يظن منها الخير.

المكر: التدبير للضر، مع إخفائه.

كبارا : كبيرا جدا.

ديار : أي إنسان.

فاجرا : العامل بالفجور والفساد.

الكفار : شديد الكفر.

التبار : الهلاك والخسران.

بيان المعنى الإجمالي :

توجه نوح عليه السلام إلى ربه شاكيا موقف قومه منه. رب إنهم صمموا على معاكستي في كل ما أدعوهم إليه. واتبعوا ما يدعوهم إليه الأثرياء وأصحاب العصبية، هؤلاء الذين لا يرضون إلا بإغراقهم في الضلال والكفر بما ينفقونه من أموالهم، وما يتقَوَّوْنَ به من عصبيتهم. وعكفوا على تدبير المخططات الخبيثة العظيمة لإيذائي. مكرهم شديد كأبلغ ما تكون الشدة.وألهبوا حماس الدهماء بتذكيرهم بأسماء الأصنام الكبرى التي كانوا يتقربون إليها بالعبادة والقرابين.ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر. الذين أضلوا كثيرا من الناس وصرفوهم عن التوحيد إلى الشرك. رب لا تمنحهم ألطافك ليتابعوا ما هم عليه إلى النهاية.

إنه بسبب خطيئاتهم الكبيرة والمتتابعة تم إغراقهم، وأدخلوا نار جهنم الموعودة إثر ذلك، ولم يجدوا من ينصرهم فيكشف عنهم العذاب من دون الله.

قال نوح مبتهلا إلى الله: رب لا تبقي من الكافرين أحدا على وجه الأرض، استأصلهم جميعا. إنك إن تبقهم يعم الضلال عبادك المعترفين بربوبيتك من أهل الأرض جميعا.وسيكون نسلهم مثلهم في الفساد والكفر والفجور.

رب مُنَّ علي بغفرانك وطهرني من الآثام، واغفر لوالدي، واغفر لمن يتصل بي ويدخل بيتي من المؤمنين والمؤمنات. وأهلكْ الكافرين ولا تزدهم إلا خسرانا.

بيان المعنى العام :

22/21- قال نوح رب إنهم عصوني...كبارا.

واصل نوح عليه السلام الاجتهاد في دعوة قومه إلى الإيمان بالله، رغم ما لاقاه منهم من الصدود الذي شكاه إلى ربه في الآيات السابقة. وبعد ما عرض عليهم من الأدلة اليقينية القريبة المقنعة. ولكن قومه لم يتحولوا قيد أنملة عن عنادهم، مصرين على الكفر وعبادة الأصنام. وبلغ به الضجر أن عاود الالتجاء إلى ربه يعرض عليه ما لا قاه، وأنه بلغ درجة اليأس من اهتدائهم.وبكلمة واحدة كشف ما انتهى إليه معهم.إنهم عصوني.صمموا على عصياني، وكلما فتحت لهم سبيلا إلى التوحيد والصلاح، صدوا عنه وسلكوا طريقا معاكسا. وأجمعوا أمرهم على اتباع رؤسائهم وقادتهم، الذين توفرت عندهم الأموال التي ينفقونها لنصر الكفر.وما يزال أصحاب

المال المفسدون ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله، وكذلك الذين قويت عصبيتهم بأولادهم. فاستعملوا قوة المال والأولاد فيما أدى بهم إلى الخسارة. شأنهم شأن التاجر الذي يجهد نفسه ليحرك ماله، وتكون العاقبة ضياع الجهد وذهاب المال. كانوا يارب يخططون في الخفاء ليتمكنوا من الإضرار بالدعوة.ومن ذلك تدبيرهم قتل نوح وترويج الشائعات المنفرة منه.إن مكرهم بلغ الغاية من الخبث والفساد.

23- وقالوا لا تذرن آلهتكم...ونسرا.

هذا تفصيل للعصيان الذي صمموا عليه. نوح عليه السلام يدعوهم للتوحيد ونبذ الشرك، فكان ردهم أن حرضوا أتباعهم على التمسك بآلهتهم، وأن يلتزموها ولا يتركوها. ثم أخذوا يعرضون أسماء كبراء آلهتهم ليلهبوا حماس عُبَّادها. لا تتركوا

1- ودا ولا.

2 -سواعا ولا.

3 -يغوث ولا.

4- يعوق ولا.

5- نسرا.

وللعرب أصنام بهذه الأسماء تتقاسمها قبائل، عمل المفسرون على تعيينها، وربط كل واحد منها بالقبيلة التي تعتقد فيه الألوهية. وإن القرون المتطاولة الفاصلة بين قوم نوح والعرب في جاهليتهم، وكذلك هلاك العابدين والمعبودين بالطوفان دفع بالمفسرين إلى افتراضات، سِمَةُ التكلف فيها واضحة. والذي اطمأننت إليه أن الشيطان يوسوس للبشر بما يدفعهم إلى الإشراك وعبادة الأصنام، فيكون من تأثيراته أنه جدد في عقول عبدة الأصنام بعد عمرو بن لحي إطلاق تلك الأسماء على أصنامهم، وما كانوا يظنون أنها معبودات لقوم نوح حتى كشف القرآن عن ذلك.

24- وقد أضلوا كثيرا.

كان قولهم هذا مؤثرا في قومهم، وفعلا ألهب حماس الدهماء وكان عددهم كثيرا، على التمسك بتلكم الأصنام، فواصلوا ضلالهم.

ولا تزد الظالمين إلا ضلالا... الظاهر أن هذا من كلام نوح عليه السلام. فلشدة معاناته ويأسه من اهتدائهم قال نوح رب لا تزد الظالمين شيئا إلا إمعانا في الضلال بحجبك عنهم كل لطف يأخذ بهم إلى طريق الرشاد. والتعبير عنهم بالظالمين ليكون الوصف مظهرا لعلة دعائه عليهم، وليشمل معهم كل الظالمين المتعصبين.

ونتوقف كثير من الحذاق في دعاء الرسول الذي تتمثل مهمته أولا في هداية البشر، كيف يدعو بالدوام على الضلال. فأول الدعاء، على معنى أن يضلهم الله عن التفطن في مكرهم إلى ما يضر. فيكون مكرهم لا يصل بهم إلى غرضهم. أو أن الضلال لما كان سببا للعذاب، أطلق اسم السبب الضلال على المسبب العذاب، أي لا تزد الظالمين إلا عذابا.

25- مما خطيئاتهم أغرقوا...أنصارا.

بسبب ما ارتكبوه من الخطايا، من الشرك بالله، ومكرهم برسوله، ورفضهم للحق بعد ما تبين، وإصرارهم على الكفر، كانت عاقبتهم الغرق بالطوفان. ووجدوا النار التي أنذروا بها عقب إغراقهم. ولم يجدوا من ينصرهم فيرد عنهم عذاب الله. وما مؤكدة للتعليل المفهوم من كلمة "من "ولما كان هذا الكلام صادرا من الله مخاطبا به محمدا ﷺ ، فإنه يتضمن وعيد كفار قريش أنهم لا ناصر لهم وأنهم مهزومون وسيلقون ما أوعدهم من العذاب الأليم، وأنهم مخذولون فلا تغني عنهم الأصنام شيئا.

27/26- وقال نوح رب لا تذر...فاجرا كفارا.

أيس نوح من صلاح قومه، بعد أن جرب معهم كل الطرق التي يمكن أن تحولهم عن الشرك إلى الإيمان، وما وجد منهم إلا إصرارا على المضي فيما هم عليه، وزيادة تصلب في الكفر. فدعا ربه أن يستأصلهم جميعا، ويفنيهم، ولا يبقي لهم نسلا. فقوله: ديارا: أي إنسان له رابطة بقومه المتمردين. ثم تقدم بما يرجى معه قبول دعائه ببيان أن الحامل له على الدعاء عليهم هو أنه في الإبقاء عليهم تعريض البشر إلى الضلال. بما جمعوه من مال ينفقونه في سخاء على كل ما ينشر الإلحاد، ويعوق الإيمان. وبضروب المكر التي تدربوا عليها. ومن ناحية أخرى حرصهم على أن ينشّئوا أولادهم على الخطيئة والشرك والفجور. فهم قوم فسدوا فسادا كان به،بينهم وبين الشر والخطيئة أقوى رابطة.

28رب اغفر لي ولوالدي...تبارا.

دعا نوح ربه وقد أحس بمخايل القبول لدعائه ، وأن الله سيجيب دعاءه في قومه، فاغتنم هذا القرب ليدعو بما عمرت به نفسه من الخير والصلاح. فدعا ربه أولا: رب اغفر لي، أن يلطف به فيرفعه إلى المقام الذي تكون صحائفه نقية من كل ذنب،وعطف على نفسه والديه برًّا بهما، واعترافا بفضلهما عليه لما نشّآه على التوحيد.وثلث بأقربائه وخلانه الذين يدخلون بيته يستمعون الذكر، ويشدون أزره،

وختم بمن تجمعه بهم صلة الإيمان من الموجـــودين ومـــن الـــذين ســـيوجدون إلـــى يـــوم القيامة، يدعو لهم جميعا بالمغفرة.

ويقطع صلته بمن كفر،فيدعو علـــيهم أن لا يزيـــدهم إلا هلاكـــا وخســـرانا. حتـــى ينقطـــع الشر بذهاب أهله.

يوم الأربعاء 20شعبان 1435- 2014/6/18

ســـــورة الجن

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وكتب التفسير وكتب السنة. أخذ اسمها من الموضوع الذي بسط فيها.وهي سورة مكية باتفاق. رتبتها حسب ترتيب المصحف الثانية والسبعون، وحسب ترتيب النزول السورة الأربعون.نزلت بعد سورة الأعراف وقبل سورة يس. وتفيد كثير من الظواهر أنها نزلت في حدود السنة العاشرة من البعثة، قبل ثلاث سنوات من الهجرة.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى
ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً
وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ
ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ
فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

النفر : الجماعة إلى العشرة.

عجبا : فائق بديع.

الرشد : الخير والصواب.

تعالى : بلغ من العلو أسمى غاية لا يصل إليها غيره.

جَد : العظمة والجلال.

سفيهنا : إبليس.

الشطط : قولا مفرطا في الباطل.

يعوذون : العوذ الالتجاء إلى ما ينجي من شيء ضار.

الرهق : الذل.كما يطلق على الضلال والإثم.

بيان المعنى الإجمالي :

أمر الله رسوله أن يبلغ الوحي الذي جاءه مسجلا استماع الجن للقرآن.جماعة من الجن بين الثلاثة والعشرة سمعوا رسول الله يتلو القرآن ففهموه، وتأثروا به التأثر التام. فشهدوا بأنه كلام بلغ الغاية في السمو. حقيق بأن يتملك سامعه العجب.وأنه يهدي من تأمل في مضامينه إلى طرق الهدى والصواب. وأنه قد حصل لهم اليقين بأنه من عند الله فآمنوا به.وقد ارتفعت كل الشبهات، فمن هذا اليوم لا نعبد أحدا سوى الله.وأن جلال ربنا قد سما، وعظمته قد انكشفت رفعتها. فلا يتصور أن يكون له زوج أو ولد. فما يروجه الكافرون من أن الملائكة بنات الله باطل. وكذلك أن له ولدا مناف لعظمته وجلاله. وثبت لدينا الآن أن ما كان يوسوس به الشيطان من صور مضللة عن الله هو من الخروج البين عن الحق. وبهذا البيان الواضح الذي سمعناه فإنا نعتقد أن الإنس والجن لا يستطيعون بعد اليوم أن يوهموا بصدق مفترياتهم على الله إذ كشفها القرآن. ومن أوهام البشر أنهم كانوا يَحْتَمُون بالجن، وينادونهم ليدخلوا تحت رعايتهم، فسخر منهم الجن وأذلوا أنفسهم بذلك، وانغمسوا في الإثم باستنادهم في حمايتهم لغير الله القادر .

بيان المعنى العام :

1← 2 - قل أوحي إلي أنه استمع نفر من الجن...أحدا.

مضمون هذه الآية مؤكد أنه وحي من الله لرسوله. صاغه الله قرآنا. وافتتحه بكلمة " قل " الدالة على الاهتمام بذلك المضمون. أوحى الله إلي قرآنا يثبت:

أ-**أنه استمع إليَّ** نفر جماعة بين ثلاثة وعشرة، من جنس الجن.

ب-أنه لم يشعر بهم صلى الله عليه وسلم إلا بواسطة وحي الله له هذه الآية. فهو لم يرهم، ولم يتحدث إليهم. أوحي إلي أنه استمع نفر.

جـ- أنهم فهموا ما سمعوا وأنهم تأثروا بما سمعوا من القرآن، ووصفوه أولا بأنه عجب بديع فائق يعلو على غيره من الكلام عُلُوًّا يملك إعجاب السامع له في مضامينه، وفي نسجه.

د-ووصفوه ثانيا بأنه ينفذ إلى القلوب فيهديها إلى الخير، ويفرغ فيها الطمأنينة، ويشحنها ببرد اليقين. ويهدي إلى الرشد.

هـ - أن هداه يستقر في القلوب فلا يزول منها. به ثبت التوحيد في نفوسنا ثباتا لا يقبل الشك ولا الزوال. فأصبحنا به موحدين، نرفض أي شائبة من الشرك في المستقبل.**فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا.**

تثبت الآيتان أن الجن مخلوقات لله، تستطيع أن تدرك الأصوات وما تدل عليه، وأن تتأثر بها. وتعددت الآيات التي تتحدث عن الجن في القرآن.فكل من ينفي وجود الجن ينفي ما دل عليه القرآن يقينا. ومكذب القرآن جملة أو تفصيلا كافر. لأنه مكذب للحق القرآني، إلا إذا تأول ولو كان تأوله بعيدا.

تحدث القرآن عن الأصل الذي خلق الله الجن منه : **من نار السموم** سورة الحجر آية 27) **من مارج من نار**(سورة الرحمن آية 15). وكيفية ذلك من الغيب.

وأن هذا الخلق "**الجن**" مأمور بعبادة الله (سورة الذاريات آية 56) وينقسم إلى قسمين صالحين، وإلى مردة خبثاء شريرين سورة الجن آية 15/14.

وأن الجن مسؤولون يوم القيامة عما قدموا في الحياة الدنيا مجزيون بأعمالهم،سورة الأنعام130/128 وأن الخبثاء منهم سيعاقبون في جهنم سورة الأعراف آية78 وآية 179- سورة هود آية19-

وأن للجن قدرات تفوق القدرات البشرية كما جاء ذلك في سورة النمل آية 17وآية 29 وفي سبأ آية14/12-

وأنهم قادرون على التمييز بين الخير والشر كما سيأتي تفصيله في آيات عديدة من هذه السورة.

وأثير حول الجن أسئلة كثيرة، منها:

اولا: الطبيعة التي تحول إليها الجن بعد خلقهم من مارج من نار،ومن نار السموم. نظير خلق آدم من تراب ومن طين. وقد تحولت صورته بعد ذلك إلى الإنسان بخصائصه الجسمية والعقلية والشعورية والروحية. فما هي الصورة التي تحول إليها الجن ؟ الذي نجزم به أن صورة الجن، وكذلك صورة الملائكة، يمكن إدراك كل منهما، ولا يوجد مانع عقلي يجعل إدراكهما مستحيلا. ولكن قدراتنا الإدراكية غير مؤهّلة لإدراك الملائكة أو الجن بما يُعَيِّنُهُما،إدراكا يحصل به في الذهن صورة متميزة لا تختلط بغيرها. وقد يُطْلِع الله رسوله على ذلك تكريما له، وخاصية من خاصياته صلى الله عليه وسلم، أو يحدث ذلك كرامة لأحد أوليائه. وذلك بإحداث <u>قدرة خاصة ظرفية</u> تمكن من الإدراك الكامل للجن.

ومن ناحية أخرى فإن بعض الاختلالات النفسية قد تصور للمختل صورا ربما تصل إلى أنه يصبح يتصور و يخاطب ويسمع ويبصر، ويتفاعل مع ما تولد من ذاته، وأن إحساسه بذلك يبلغ درجة اليقين،وينسب تلك الخيالات إلى الجن.وإذا عرض نفسه على طبيب نفسي مقتدر، واستطاع بأسئلته أن ينفذ إلى عقدة الاختلال، تذهب كل المرئيات والأحاسيس ويعود إلى حالته السوية. وإن كل ما يتعلق بالجن

وراء ما قدمناه لا يمثل عنصرا من عناصر الإسلام. وكل ما يتناقله الناس عن أخبار الجن،لا تجد له حقيقة ملموسة، ولا نسبة إلى موثوق بعلمه وديانته وذكائه. ومما ينبغي ذكره أن ابن عرفة لما عرف النكاح قال فيه : هو عقد على مجرد متعة التلذذ بآدمية.وعلق الرصاع عليه بقوله :أخرج بآدمية التلذذ بالطعام والشراب.قال: وزعم بعض المشائخ أنه أخرج به العقد على الجنية، وفيه بعد. حدود ابن عرفة ص 154) وتعقبه البناني أن ابن العربي ذكر أن نكاح الجن مع الإنس جائز عقلا فإن صح نقلا فبها ونعمت وإلا بقينا على أصل الجواز العقلي. ج3ص161 – وكلام ابن العربي على جلالة قدره، وعمق نظره، ومقامه العلمي الرفيع في مذهب مالك، كلام لا يحل منا محل القبول. وذلك لأن الله يقول : **(والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا)**[1] وتكرر في القرآن ثلاث مرات خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها. بهذه النصوص الواضحة لا يقبل أن يقال: فإن صح نقلا. إذ كل نقل يخالف ما ثبت يقينا مرفوض، ولا يمكن أن يكون صحيحا.

3- وانه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا.

تعالى جد ربنا : تعالى جلاله، وسمت عظمته سموا لا يُدَانَى. اعترفوا بصفة عامة أن جلال الله وكماله فوق ما نضيفه للآخرين من كمالات ورفعة.فهو كمال فائق يتناسب مع ذاته العلية.ثم عطفوا على هذا التمجيد العام، أن ما يلصقه به الكفرة، من أنه اتخذ صاحبة، كما يزعمه المشركون أن الملائكة بنات الله من سروات الجن،هذا الذي ينسبه إليه الكافرون هو مناف لكماله يرفضه العقل.وكذلك ما يعتقده من نسب إلى الله ولدا هو عقيدة تنافي كماله وجلاله.

لقد أشرق في نفوسهم مفهوم الألوهية نقيا من كل شرك، منزها عن كل نقص. فأثبته القرآن تعريضا بالمشركين الذين لم يبلغوا مبلغهم مع أن الرسول يعيش بين أظهرهم، ويتلو عليهم آيات الله بكرة وعشيا.

4- وانه كان يقول سفيهنا...شططا.

اعترفوا بأن ما سمعوه من القرآن طرد كل ما علق بتصورهم، من المجازفات والأباطيل البالغة حدا كبيرا، التي كان ينسبها إبليس إلى الله، ويقنعهم بها.

5-وانا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا.

هذا اعتراف منهم بقوة حجة القرآن ونصاعة بيانه، وأنه يهدم كل الأكاذيب المنسوبة إلى الله، والتصورات المنافية لحقيقته سبحانه. تعلق المروجون للباطل

[1] سورة النحل آية 189

بشبهات، وغشّوا بها المخاطبين. والقرآن ببيانه، وصارم حجته، يعصف بكل ما روجوه، ولن يستطيعوا حسب ما يعتقد النفر من الجن، أن يتمكنوا في المستقبل من الكذب على الله، إذ ينكشف كذبهم ببيان القرآن وواضح حججه.

وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن... تقرير يَعْرِضُ وَهْمًا من أوهام المشركين، وعلاقتهم بالجن. فكانوا إذا لفّ الليل أحدهم في الصحراء أو الوادي، استوحش وخشي أن يتعرض له الجن وأن يعبثوا به في الليل، فكان يصيح بأعلى صوته: يا عزيز هذا الوادي إني أعوذ بك من السفهاء الذين في طاعتك. ويطمئن بهذه الاستغاثة أن سيد الوادي يحميه من أن يتعرض له أحد من الجن بسوء. حصن نفسه من الوهم، بوهم. جعل حمايته بيد من لا يراه ومن لم يقم دليل على وجوده،بمجرد استغاثته به. وجعل نفسه في مرتبة أقل من الجن الموهوم الساكن بالمكان فأذلوا أنفسهم. وأغرقوا في الضلال والإثم بدعائهم غير الله.

وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

لمسنا : اختبرنا السماء.

ملئت : كثر فيها كثرة بالغة.

حرس شديد : حراس ينفذون ما كلفوا به بدون تسامح.

شهبا : وهو ما ينفصل عن النجم انفصالا يصحبه ضوء شديد.

نقعد : نلتزم البقاء في مكان أمدا يطول.

رصدا : حافظا.

طرائق: ج طريقة الطريق الواسع.

قددا : ج قدة.سير الجلد. والمراد مذاهب مختلفة ومتفرقة.

لن نعجز : لن نستطيع الإفلات من قبضته.

بيان المعنى الإجمالي :

كما تقرب المشركون من بني آدم لسيد الجن في الأودية والفلاة ليحصنهم، فما اكتسبوا من فعلهم ذاك إلا ضلالا، فإنهم على نفس المستوى من الضلال،لما ظنوا أن لا بعث بعد الحياة الدنيا،واستووا معكم في هذه العقيدة الخاسرة. ثم أخبروا إخوانهم من الجن : أنهم اختبروا السماء فوجدوها قد تحولت عما كانت عليه.قالوا إنا كنا نجد فيها أمكنة نستقر فيها لمعرفة ما يجري بين الملائكة، ونكتشف الغيب. تبدل الوضع فكل من يحاول استراق السمع للتعرف على ما يجري بين الملائكة، يجد حراسة شديدة من الملائكة الموكلين بذلك فلا يفلت من رقابتهم أحد. كما أن شهب السماء أصبحت تنطلق بسرعة شديدة،وبقوة مدمرة، فأي جني يحاول الاقتراب من الملأ الأعلى يتبعه شها ب يبيده، كان يترصده.إننا آمنا بما أنزل على محمد، ولكنا نجهل هل إن الله اراد بما أنزله من الهدى أن يهلك البشر ويستأصلهم لإعراضهم عن الحق، أوإن الله أراد بهم الخير بما يسره لهم من الإيمان. وأما نحن معشر الجن فقسم منا صلح أمره، واستقر الإيمان الواضح عنده حقيق أن يوصف بالصلاح.وقسم هو دون الصلاح، وفيه مذاهب عديدة مختلفة. وإنا تيقنا أن قدرة الله لا تغالب، فلن نستطيع أن نفلت من نفاذها فينا أينما كنا في الأرض، ولن نستطيع أن نهرب منها لا في أقطار الأرض ولا في أقطار السماء.

بيان المعنى العام :

7-وانهم ظنوا كما ظننتم...أحدا.

يواصل الجن تشهيرهم بالضالين من المشركين، ويتحدثون به لبعضهم.فبعد أن سخروا منهم بدعائهم الجن لحمايتهم، شهروا بظنهم الرافض للبعث، وقرنوا بين المشركين من الإنس وبين المشركين من الجن. أي وإن المشركين من الإنس ظنوا كما ظننتم أيها الجن المشركون أن لن يبعث الله أحدا إلى الحشر بعد موته. أو أن لن يبعث الله رسولا يعلن الحقيقة ويدعو للتمسك بها، ويقيم الأدلة عليها.

8-وانا لمسنا السماء فوجدناها...وشهبا.

عرف النفر من الجن إخوانهم بالسر الذي ظهر بعد البعثة المحمدية، وأنهم اكتشفوا السبب الخفي في التحول الذي حصل في الكون، فقالوا لهم : إنا اختبرنا السماء فوجدناها قد تبدلت علينا، إذ أصبح حراسها منتشرين أكثر مما كانوا،وهم حراص على تنفيذ ما أمروا به لا تجد منهم تهاونا، ولا يتسامحون أي تسامح مع من

يتجاوز الحدود الذين هم مكلفون بحراستها. وكما ملئت بالحرّاس الأشداء، ملئت بالشهب التي تنطلق بكل قوة لا تبقي واحدا منا في طريقها، تنقض عليه فتبيده.

9-وإنا كنا نقعد منها...رصدا.

فرق كبير بين ما كان يمكننا أن نحققه في السماء، وبين وضعنا اليوم. إنا كنا نقعد آمنين مطمئنين، ونطيل الجلوس في أماكننا في السماء نسترق السمع، ونحاول أن نصل إلى ما يجري في العالم العلوي بين الملائكة. أما اليوم فإن كل من يحاول المكث أمدا يقترب به مما يجري في السماء بين الملائكة، ينقض عليه شهاب، كان يرصده بمجرد ما قدم، فيحرقه ويذيبه. فقد حيل بين الجن وبين الغيب الجاري بين عالم الملائكة. وكل من يدعي العلم بالغيب، كلامه مردود عليه، ولا يقوم على أي أساس.

10-وإنا لا ندري أشر أريد بمن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا.

بعد أن سجل الجن الواقع الجديد، ومنه حرمانهم من المقاعد التي يستمعون فيها، ذكروا لإخوانهم بعد حرمانهم من الاطلاع على الغيب أنهم لا يعرفون مستقبل أهل الأرض بعد هذا التحول أهو الشر أو الخير؟ إنهم لا يدرون ما ذا أراد الله بالبشر من أهل الأرض، هل أراد بهذا التحول الشر الماحق أو أراد به أن يسلك بهم طريق الرشاد والهدى والخير. والأولى أن تفهم الآية على أنهم بعد أن آمنوا وصرحوا بذلك، وعطفوا عليه ما يؤكد إيمانهم وملاحظاتهم التي منها تغير أمر السماء وحراستها الحراسة المشددة. صرحوا بأنهم يجهلون الغيب، فهل إن ما أنزل من القرآن سيكون حامل شر للبشرية، يرفضونه فيُسْحَقُون، أو إنهم سيؤمنون ويتحولون من ظلام الشرك إلى وضّاء الإيمان.

11-وإنا منا الصالحون...قددا.

وتبعا لكون ما سيصير إليه أمر الإنس مجهولا عندهم. وأنهم وثقوا من أنهم على الهدى وأن الصلاح قد تمكن منهم،وأن بعض الذين عرفوهم بما تحقق عندهم من الهدى اتبعوهم، وبعضهم استجاب إجابة منقوصة، وبعضهم رفض. فانبنى على ذلك أن من لم يتبع مسلكهم قد تفرقوا فرقا عديدة، إذ الإيمان بما أنزل على محمد مسلك واحد لا خلاف فيه.

12-وإنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض...هربا.

وإنا تيقنا بما سمعناه من القرآن أن قدرة الله تأخذنا حيثما كنا فلا نستطيع أن نغالبه، أو أن نحد من قدرته فنجعلها عاجزة عنا في أي مكان من الأرض كنا.ولن نستطيع

أن نهرب منه فيعجز عن اللحاق بنا وتسليطه أمره فينا، فحيثما كنا في الأرض أو في السماء فإنا في قبضته، نافذ فينا حكمه.

وَإِنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ ۖ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾
وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ ۖ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا
ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً
غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

الهدى : القرآن.

البخس : الإنقاص من الأجر.

التحري : طلب الشيء الذي ينبغي أن يفعل.

الرشد : الهدى والصواب.

القاسط : الظالم.

الماء الغدق : الماء الكثير.

لنفتنهم فيه : لنختبرهم.

يسلكه : يدخله.

صعدا : شاقا.

بيان المعنى الإجمالي :

صرح الجن بالنتيجة التي استقرت عندهم استقرار اليقين، أن قوة تأثير القرآن قوة خارقة للعادة، فإنهم بمجرد ما استمعوا القرآن ووعوا معاني آياته ثبتوا على الإيمان بالله وبما ورد فيه. وأيقنوا أن من آمن بربه الذي رعاه في جميع أطواره، وتتابعت رحماته وعنايته، أنه حصن بذلك نفسه،من أن ينقص من أجره شيء أو أن يلحقه ذل وهوان. وبذلك اعترفوا بأن الجن على قسمين: قسم مؤمن صالح، وقسم ظالم طالح. ثم عقب الوحي من الله على ما صرحوا به: أن من آمن إيمانا أسلم به وجهه لله، فأولئك الذين اجتهدوا فَوُفِّقُوا لطريق الهدى،وحسن الثواب.وأما الذين اختاروا الظلم على العدل والكفر على الإيمان فإن مصيرهم محقق أنهم يكونون حطبا لجهنم. وإن البشر لو استقاموا فسلكوا طريق الهدى الواضح، ولم ينحرفوا عنه، فإن الله سيواصل عليهم فيوض خيراته، يسقيهم ويسقي أراضيهم المياه الكثيرة

المتتابعة. والمياه إذا تتابعت تولدت منها الثروات.والمال فتنة للناس، هل يعرفون حق المنعم فيبارك لهم فيما آتاهم ويرضى عنهم.أو إنهم سيكفرون بالنعمة وينسبونها إلى أنفسهم، فيعرضون عن ذكر الله، فيكونون تبعا لذلك بصدد الدخول في بوتقة العذاب الشاق الغالب الذي لا مخرج منه.

بيان المعنى العام :

13- وإنا لما سمعنا الهدى آمنا به...بخسا ولا رهقا.

عطفوا على أنهم تيقنوا أنهم لايخرجون عن نفاذ السلطان الإلهي فيهم. فأعربوا عن كونهم تفتحوا للإيمان بمجرد ما سمعوا القرآن. إنهم بما صرحوا به يثبتون للقرآن قوة خارقة للعادة، تهدي المستمع له والمتدبر لمضامينه إلى الإيمان به. وأنه حبب لهم الإيمان، ووثقوا أن من آمن فإنه يفوز بالطمأنينة، ولا يخاف بخسا أن ينقص من أجره شيء، ولا يخاف رهقا ظلما، ولا مهانة.أمنوا بأنهم سيعاملون معاملة عادلة كأبلغ ما يكون العدل.

14←15- وإنا منا المسلمون ومنا القاسطون...حطبا.

تؤكد الآيات الجن المؤمنين تبرأوا ممن لم يؤمن.حققوا ذلك بقولهم : وإنا منا الصالحون ومن دون ذلك.وبقولهم في هذه الآية **وإنا منا المسلمون ومنا القاسطون**. والقاسطون هم الكفرة الجائرون الظالمون. ومن طريف ما اقتبس من الآية ما ذكره الزمخشري أن الحجاج لما أراد قتل سعيد بن جبير ﷺ قال له :ما تقول في ؟ فقال : قاسط عادل. فقال القوم ما أحسن ما قال ! حسبوا أنه يصفه بالقسط والعدل. فقال الحجاج : يا جهلة،إنه سماني ظالما مشركا. وتلا لهم قوله تعالى: **وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا**. وقوله تعالى: **ثم الذين كفروا بربهم يعدلون** [1]– والذي عليه حذاق المفسرين: أن هذا تمام كلام الجن الذي أوحى الله به لرسوله ﷺ. وأن ما يأتي بعده هو من كلام الله تعالى يعظ به المشركين، فهو بمثابة العبرة مما سجله القرآن من كلام الجن وأوحى الله به إلى محمد ﷺ.

فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا... يستخلص مما تقدم في الآيات، وهوما استقر عند الجن الذين استمعوا للقرآن، وأعلم الله به رسوله والمؤمنين :أن من آمن بالله واجتهد في طلب الحق فأولئك الذين توّخوْا سبيل الهدى وما يترتب عليه من الفوز بالأجر والثواب.وأما الذين رجحوا الظلم على العدل، فإنه قد تحقق فيهم أنهم لهوانهم كالحطب للنار لا قيمة له إلا في تأجيج لهبها واشتداد حرها. والظلم يشمل

---

[1] سورة الأنعام آية1

كل تجاوز للحق والعدل، ومنه الشرك الذي هو أشد أنواع الظلم قال تعالى : إن الشرك لظلم عظيم[1] .

16←17- وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم....عذابا صعدا.

يتابع القرآن ما أوحى الله به لنبيه بعد أن استوفى تسجيل كلام الجن. فحرض القاسطين الظالمين، على ترك ما هم عليه من الشرك؛ ووعدهم بأنهم لو استقاموا على طريق الهدى واتبعوا المنهج الواضح الذي شرعه الله بوحيه، وأقامه محمد ﷺ ببيانه قولا وفعلا، فإنهم سيجنون من ذلك الخير الكثير،فيديم الله عليهم الخيرات، ويكون ما قدم من خيرات الدنيا إيذانا برضا الله عنهم في الآخرة.سيديم سقيهم ماء كثيرا متتابعا.هذا الماء الذي ينبت لهم الزرع، ويثمر لهم الجنات. فتكثر أموالهم، والمال هو اختبار للناس؛ هل يشكرون ربهم على نعمه، أو ينسون فضله وينأون عن طاعته ؟ وفي ذلك إنذار لهم بأنهم إن لم يستقيموا على الطريقة، فسيبدل خصب أراضيهم قحالة، وتحبس عنهم المياه فيعم الجدب.ويذيقهم العذاب الشاق.

وتلك قاعدة عامة،سنة من سنن الله في الكون: أن من يعرض عن استحضار تفرد الله بالتصرف، وعن ذكره بقلبه ولسانه، فإن الله يدخله في العذاب الشاق الغالب الذي يحيط به ولا يستطيع منه مخرجا.

وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُواْ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

قام : اجتهد في الدعوة بإعلانها.

عبد الله : محمد صلى الله عليه وسلم.

لبدا : جمع لِبدة. ما تراكم بعضه على بعض، ومنه لبدة الأسد للشعر المتراكم حول رقبته.

لا أملك لكم : ليست لي قدرة تؤثر فيكم.

[1] سورة لقمان آية 13

ضرا: تعجيل ما توعدهم به.

رشدا : قبول الهداية.

ملتحدا : مكانا يعصمني.

بلاغا : ما أمرني بإبلاغه.

بيان المعنى الإجمالي :

مما أوحي إليّ وأمرت تبليغكم إياه: أن المساجد ملـك لله وحـده لـيس لأحـد فيهـا حـق، فأفردوهـا لعبـادة الله وحـده بالصـلاة والـدعاء والـذكر، وكـل مـا هـو خـالص لله. ونزهوها عن الأصنام، وعن الاشتغال فيها بعقـد صـفقات البيـع والشـراء ومـا يتعلـق بأمور الدنيا. و لا تتخذوا مع الله أحدا تعبدونه وتتقربون إليه فيها.

وأوحي إليّ أنه لما قـام عبـد الله بتبليـغ الرسـالة، وتحـدى المشـركين فـي عبـادتهم وتصورهم للكون ومُسَيِّرِه، تألبوا عليه وكـادوا بتـراكمهم علـى عداوتـه يكونـون لبـدا. قل لهم لا أدعو إلا ربي الذي خلقني وهداني، فأنا موحد لا أشرك بربي أحدا.

قل لهم معرفا الواقع الذي أنت عليه: إنك لا تستطيع أن تجلب لهم النفع أو أن تدفع عنهم الضر، ولا أن تحملهم على الهدى. وقل لهم إني لن أجد من يمنعني من عذاب الله إن تجاوزت ما أمرني به، ولن أجد مكانا خارج ملكه أعتصم فيه، إذ الكون كله ملكه. ولكني مبلغ عنه ما يصلني منه من قرآن ومن متنوع الهدايات التي ترشدكم إلى الخير

إن من يتجاوز حدوده فيتجرأ على عصيان الله، وعصـيان مـا يأتيـه عـن رسـوله فـإن مآله جهنم خالدا فيهـا أبـدا. سـيمهلهم حتـى إذا شـاهدوا مـا يوعـدون مـن العـذاب والانهزام، فستطير كل أوهامهم في السـلامة والانتصـار. ويعلمـون علـم اليقـين النـابع من الإحساس بالواقع من هو الفريـق المعتمـد علـى الناصـر الضـعيف غيـر المـؤثر، وسيعلمون قلة عددهم وتضاعف عدد المسلمين.

بيان المعنى العام :

18- وأن المساجد لله...أحدا.

مما أوحي إليّ وأمرت أن أقولـه: أن المسـاجد ملـك لله مختصـة بـه لا يشـاركه فيهـا أحد. ولما كانت المسـاجد ملكـا لله وحـده، مختصـة بـه، إذ هـو الـذي أذن أن **ترفـع ويذكر فيها اسمه**، فيجب تبعا لذلك أن تفـرد للصـلاة والـدعاء وقـراءة القـرآن والـذكر والتدبر.وأن تنزه عن الشرك وعن الأصنام، وفـي هـذا تعـريض بمشـركي مكـة الـذين جعلوا من المسجد الحرام مجمعا لآلهتهم ولأصـنامهم. وكـذلك ينبغـي أن تنـزه المسـاجد عن الكلام في أمور الدنيا والبيع والشـراء، والصـفقات. يقـول عبـد الحـق بـن عطيـة رحمه الله :ولقد قعدت للقضاء بـين المسـلمين بالمسـجد الجـامع بالمريـة (مـن بـلاد

الأندلس) ثم رأيت فيه مـن سـوء خلـق المتخاصـمين، وصـياحهم، وأيمـانهم وفجـور الخصام وغائلته ودخول النسوان ما رأيت تنزيه البيـت عنـه، فقطعـت القعـود للأحكـام فيه.

19-وإنه لما قام عبد الله يدعوه...لبدا.

قلْ لهم مما أوحي إلي: ما يفيد أن الله يرعى نبيه، وهو معه في كل لحظة. إنه لما قمت، وعوض أن يأتي بياء المتكلم" إني لما قمت" أو يأتي بلفظ النبي أو الرسول، أو يقول لما قمت؛ اختار القرآن أن يأتي بكلمة " عبد الله "وذلك تشريفا لرسوله وتقريبا له، فقال: **وإنه لما قام عبد الله**. كما جاء في سورة الإسراء : **سبحان الذي أسرى بعبده.**
كادوا يكونون عليه لبدا...لما أقبل على الدعوة بكـل قـوة وتحـد للشـرك، تألـب عليـه المشركون، وتناصروا فيمـا بينهم،وتعـاونوا علـى عداوتـه، متـراكمين ليطفئـوا النـور الذي جاء به، فأبى الله إلا أن ينصره.

20-قل إنما أدعو ربي...أحدا.

قل لهم: إني لا أدعو إلا ربي، ولا أطلب العون إلا منـه..إنـي مـا غصـبت لكـم حقـا، ولا آذيتكم، وإنما أدعو ربي الذي تولاني بعنايتـه وهدايتـه، ولا أشـرك بـه أحـدا.فهـو وحده الذي حباني بما حباني به من الوجود، والهداية، وكشـف لـي الحقيقـة التـي قـام عليها الكون.لذا فإنه لا يتصور مني أن أشرك به أحدا في الألوهية.

21 -قل إني لا أملك لكم ضرا ولا رشدا.

قل لهم معرّفا بمهمتك، والحدود التي تعمل في دائرتها، وعـرفهم بمـا هـو خـارج عـن ذلك. قل لهم: إني لا أقـدر أن أنفعكـم ولا أن أضـركم. فـالله هـو الـذي بيـد ه النفـع والضر، كذلك لا أقدر علـى قسـركم علـى معرفـة الرشـد واتباعـه، أو أمـنعكم مـن الاستمرار على الضلال.

22-قل إني لن يجيرني من الله أحد...ملتحدا.

قل لهم، أعلن لهم ما يزيد توضيحا لمهمتـك وحـدود مهمتـك التـي أنـت ملتـزم بهـا. إني أدرك تمام الإدراك، موقن أكمل اليقين، أني إن تجـاوزت مـا كلفـت بـه، فلـن أجـد قوة تمنعني من عقاب ربي وغضبه. ولـن أجـد مكانـا خـارج ملكـوت الله يعصـمني، والملك كله له، لا يخرج عن ملكه شيء ولا يشاركه فيه أحد.

23-إلا بلاغا من الله ورسالاته...أبدا.

يمكن فهم الآية على أن هـذا اسـتثناء منقطـع بمعنـى لكـن. لـن أجـد مـن دون الله ملتحدا، لكن إن بلغت ما أمرني بإبلاغه رحمنـي. ويمكـن فهـم الآيـة علـى أن اسـتثناء

متصل والمعنى : لن أجد من دونه ملتحدا إلا بلاغا،أي شيئا أميل إليه وأعتصم به إلا أن أبلغ ما أمرني بإبلاغه, وأطيعه فيجيرني.

ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم...هذا تصريح بما يفهم من الكلام السابق، وفيه وعيد للمشركين الذين يريدون أن يكف الرسول صلى الله عليه وسلم عن استنقاص آلهتهم وتوهين أمرها. إن من يعص الله ورسوله فيخالف ما بلغه من ربه ويواصل عناده، فإن مآله أنه يلقى في نار جهنم، فتعقد الصلة بينه وبينها، ويخلد في عذابها خلودا أبديا لا ينقطع.

24- حتى إذا رأوا ما يوعدون...وأقل عددا.

حتى حرف يدل على الغاية. والأمر المُغَيَّا مقدر، معلوم من مواقف المشركين مع رسول الله. حاصله أنهم كلما سمعوا وعيدا بالعذاب، أو بانهزامهم وانتصار المسلمين عليهم،يقابلون ذلك بالاستهزاء والسخرية، (**ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين**)[1] (**وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين**)[2] سيتواصل استهزاؤهم، واغترارهم بإمهالهم، إلى الغاية التي تتبخر فيها تصوراتهم الضالة. ويفيقون على الحقيقة المؤلمة التي ما كانوا يتوقعونها، ويعلمون علم اليقين يوم يصدمهم الواقع من هو الفريق المعتمد على الناصر الواهن الضعيف. كانوا يعتزون بقوة آلهتهم وأنها ستمنعهم وتقوي شوكتهم إلى الأبد، فلا يجدون لها أثرا يوم يحل عليهم الوعيد. وسيعلمون أيضا من هو الفريق الضعيف القليل العدد عندما ينهزمون الانهزام الماحق أمام جيوش الإسلام فينكشف لهم أن عددهم في تناقص وأن عدد المسلمين يتضاعف.

قُلْ إِنْ أَدْرِيٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّيٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

---

[1] سورة الملك آية25

[2] سورة سبأ آية 35

بيان معاني الألفاظ:

الأمد : الغاية.

الغيب : ما استتر عن عامة الناس.

لا يظهر : لا يطلع، ولا ينبئ به.

السلك : الإدخال.

بيان المعنى الإجمالي:

قل لهم وهم يسألون سؤال إنكار عن موعد تحقق الوعيـد، قـل لهـم إنـي لا ازيـد عمـا أطلعني عليه ربي، فأنا لا أعرف أيتحقـق الوعيـد قريبـا، أم يتحقـق بعـد زمـن محـدد عند الله تبعا لحكمته. إن ربي هو وحـده المحـيط بعلـم الغيـب، ولا ينبـئ بمـا حـواه الغيب أي أحد، إلا المرتضى عنهم مـن المرسـلين، فإنـه يطلعهـم علـى مـا أراد مـن الوحي المغيب، ويحفظهم عند تلقيهم له حفظا يكـون بـه الرسـول عنـد تلقيـه للغيـب الموحى به محاطا من جميع جوانبه بالملائكة الحافظين لـه، يرصـدون كـل خبيـث مـن الشياطين فيطردونه طردا يقصيه عن الوسوسة. ويتم إبـلاغ الرسـول فعـلا مـا أمـر الله بإبلاغه ، وينكشف لله انكشاف التحقق أن المكلفـين بـإبلاغ الـوحي، قـد نفـذوا مهمـتهم على الوجه الأكمل. وبلغوا رسالة ربهم الموكلة إلـيهم، وعلـم الله محـيط بمـا هـو لـدى الرسل من وحي وغيره،هو يرعـاهم ويؤيـدهم. وإن علـم الله يشـمل كـل جزئيـة مـن جزئيات هذا الكون.سبحانه وسع علمه كل شيء.

بيان المعنى العام :

25- قل إن أدري أقريب ما توعدون...أمدا.

تكرر من المشركين السؤال عن الوقت الذي سيتحقق فيه ما يوعدهم به النبي ﷺ، استبعادا له، وإنكارا أن يتحقق في الوجود ما يؤذيهم بسبب تكذيبهم للوحي.وقد حققت الآية السابقة : أنهم سيرون ما يوعدون وسيعلمون عندها **من أضعف ناصرا وأقل عددا**. وهذا ما يثيرهم قطعا للسؤال عن وقته. فقطع القرآن عليهم حبل السؤال، وبادرهم بأمر رسوله أن يقول لهم: إني لا أعلم هل سيكون حلول الوعيد قريبا، أو إن الله سيؤجله إلى زمن هو معين عنده لحكمة يعلمها.أما الوعيد فلا شك في حلوله.

26-عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا.

هو عالم الغيب، تفرد بذلك، شمل علمه ما يعلمـه النـاس ومـا لا يصـلون إلـى علمـه. كخصائص الذات الإلهية، وحقيقة الملائكـة، وحقيقـة الجـن وتفاصـيل البعـث والنشـور والحساب، ومآل كل فرد في الآخرة.وما سـيحدث فـي المسـتقبل ممـا سـيجري علـى

الأفراد أو التقلبات العامة في المجتمعات وفي الكون.كل ذلك معلوم عنده علم انكشاف كامل. ولا يمكن أي كائن من الاطلاع على الغيب كله، إذ تضعف طاقة المخلوقات مهما سما مستواهم في الفضل أن يحيطوا بعلم الله.

27-إلا من ارتضى من رسول... رصدا.

استثنى سبحانه من عدم الاطلاع على الغيب، من ارتضاه من رسول، من الغيب الذي أراد أن يطلعه عليه.وهو يشمل أمرين :

أولهما: ما كان من متعلقات الرسالة من الوحي، فوحي الله مغيب لا سبيل لأحد أن يطلع عليه إلا الرسل الذين جعل ذلك من مهمتهم الموكلة إليهم ليبلغوه إلى البشر من حقائق العقيدة ومضامين الإيمان، والتشريع الهادي لإقامة العدل.

ثانيهما : ما كان من الغيب مما يكشفه للرسول ليكون ذلك العلم الحاصل آية على صدق الرسول، ومعجزة مؤيدة له. كقوله تعالى: **(غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين)**[1].

فإنه يسلك من بين يديه.. فإن الله تعالى يحيطه إحاطة من يدخل في الشيء "يسلك" أي إن الله يحيط رسوله من أمامه ومن خلفه ومن جميع جهاته، بالملائكة الذين يحفظونه حفظا كاملا , ويحيطون به إحاطة تامة مانعة من كل دخيل، يرصدون كل شيطان خبيث من الاقتراب من الرسول، حتى يتلقى الوحي كما هو،دون زيادة ولا نقصان ولا تحريف، مطابقا تمام المطابقة للأصل المثبت عند الله.

28-ليعلم أن قد ابلغوا رسالات ربهم...عددا.

إنه بعد أن يتم إبلاغ الرسول ما أراد الله أن يصله من الوحي بتلكم الحماية التي لا تدع مدخلا للعبث، يتحقق أن الرسول قد وصل إليه ما أراد ه الله، فيتعلق العلم الإلهي بالحقيقة الواقعة المنكشفة للرسول كما سبق أن تعلق بالحقيقة التي ستقع وهي في علم الغيب، وهما متطابقتان كمال التطابق.

وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا... والحال أن الله يسع علمه كل شيء، فهو يعلم ما عند الرسل من الوحي وغيره. فالآية عممت شمول على الله لكل ما تعلق بالرسل، بعد أن أثبتت الآية السابقة تعلق علمه بما تم من الوحي المحَصَّن بالملائكة من تسلط الشياطين.

وأحصى كل شيء عددا. شأن الكون أنه مُرَكَّبٌ تمثل الكثرة عنصرا مقوما له. فالماء أصله قطرات ولكن العلم البشري لا يستطيع أن يعلم عدد القطرات للماء

[1] سورة الروم آية 4/2

الجاري أو النازل من السحب. وكل الأجسام ذرات والإنسان عاجز أن يحيط علما بالذرات وما تتميز به كل ذرة من الذرات، وهكذا دواليك، فالإحاطة بالعدد التي يلزم منها العلم بالمعدود، والكثرة واحد منها، هي لله وحده.

سورة المزمل

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وكتب التفسير والسنة. والقسم الأول منها مكي باتفاق. وأن قوله تعالى: إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل إلى آخر السورة مختلف فيه روي أنه مما نزل بمكة، كما روي أنه نزل بالمدينة. ويؤيد هذا القول أن الآيات الأخيرة اشتملت على قوله تعالى وآخرون يقاتلون في سبيل الله. والقتال لم يفرض في مكة. وحمله على الإنباء بالغيب تمحل.وهي السورة الثالثة والسبعون حسب ترتيب المصحف. وأما حسب ترتيب النزول فاختلف فيه هل هي التالية لسورة العلق، أوهي الثالثة نزلت بعد سورة المدثر، وقيل هي الرابعة باعتبار أن سورة ن والقلم هي التالية للعلق.

بسم الله الرحمن الرحيم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

المزمل: المتلفف بثيابه. وأصله المتزمل ادغمت التاء في الزاي.

الترتيل : التمهل في النطق به، حتى تتبين حروفه ولا تختلط من العجلة.

سنلقي : سنبلغك القرآن فينفذ ما ينزل منه إلى قلبك دفعة واحدة.

إن ناشئة الليل : صلاة الليل بعد النوم.

أشد وطئا : أكمل تأثيرا في النفس.

أقوم قيلا : تساعد بصفة أفضل على تذكر القرآن وعدم نسيانه.

بيان المعنى الإجمالي:

ينادي القرآن محمدا بـ"يا **أيها المزمل**" تذكيرا له باللحظة التي سعد فيها بقبول الوحي أول مرة، وطلب من زوجه رضي الله عنها أن تلفه بثيابه لشدة ما عاني، ويفهم من ذلك تقريبه والتلطف معه. أنت مأمور بأن تقوم الليل لتزكي نفسك بصفة

أبلغ حتى تتقوى على تحمل الوحي، قبولا، ثم إبلاغا للناس. قم نصف الليل للعبادة أو أقل من النصف قليلا، أو اكثر من النصف حسب طاقتك.واعتن بقراءة القرآن فرتله بما يُظهر كل حرف من حروفه ولا يختلط بما يسبقه ولا بما يأتي بعده. واستعدَّ لتلقي القرآن، فإنه **قول ثقيل** بما يحمله من عميق المعاني، وما يشمله لما يصلح الإنسان في الدنيا والآخرة، ولتقويم النظام الاجتماعي، والحياة الفردية فكرا وسلوكا. ومما يساعدك على تزكية نفسك ومواصلة السمو بها قيام الليل. إن العبادة بالليل تمكن العابد من التأثر بصفة أفضل من أسرار العبادة. ويكون بها العابد أقوم على تذكر القرآن متغلبا على عادية النسيان.

بيان المعنى العام :

1-يا أيها المزمل.

افتتحت السورة بالنداء، والمنادى هو محمد رسول الله ﷺ .والأصل أن ينادى البعيد أو الغافل. وقد ينادى القريب للدلالة على عناية المخاطِب بالمخاطَب، وتقريبه. والأصل في النداء أن يكون باسم المنادَى، وقد يعدل المتكلم عن الاسم العَلَم إلى صفة من صفاته لتكريم المنادَى. والصفة التي نودي بها الدالة على الذات مع الوصف المقصود " **المزمل** " والمزمل هو الملتف في ثيابه.واختير هذا الوصف لاقترانه بحدث فريد في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم.يوضحه الحديث الطويل الذي رواه البخاري في كتاب بدء الوحي عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عندما وصفت بدء اتصاله ﷺ بالوحي، أنه غطه ملك الوحي ثلاثا، ثم أرسله فقال : **اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم**. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده. فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال : زملوني زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الروع[1]. إنها لحظة فريدة في تاريخ حياته ﷺ، هي اللحظة التي تلقّى فيها من رب العزة بواسطة الملك جبريل الآيات الأولى من القرآن وهو وحيد في غار حراء هي تجربته الأولى مع الوحي. وقد رجع إلى زوجه ليجد في حزمها ورأيها، وإخلاصها ما يسعده بالعون بعد أن فزع أشد الفزع، وكان أول ما طلب منها أن تزمله بثياب فتحيطه بالدفء المادي، مع الدفء المعنوي.فهي لحظة تمثل قوة الرسول ﷺ على التحمل، لم تخنه قواه، ولم ينهر نفسيا، ولم يرتعش، ولكنه استعان على وضعه بالتدثر. ثم انطلق مع زوجه إلى ورقة بن نوفل. على ما فصل في كتب السنة والسيرة. فهي اللحظة التي تمثل

[1] انظر تمام الحديث فتح الباري ج1 ص30/24

قوة عزيمته ﷺ على تحمل المهمة التي اختاره الله إليها، فناداه بما يسجل تلكم اللحظة قرآنا يتلى، فتتجدد الصورة الوضيئة في قلوب المؤمنين، وأي شرف وأي تلطف، وأي تقريب يوحي به هذا النداء الرفيق ! واختلف هل إن من اسمائه ﷺ" المزمل " والمحققون على أنه ليس من أسمائه.

2←3-قم الليل إلا قليلا نصفه...أو انقص منه قليلا.

تأمر الآية النبي ﷺ أن يقوم الليل معمرا له بالصلاة. وهو أمرعلى الوجوب حسب الظاهر من الأمر. وقد كان قيام الليل واجبا عليه ﷺ . قيل كامل حياته الشريفة وقيل تواصل ذلك إلى أن فرضت الصلاة. وأما بالنسبة للمؤمنين به فقيل إنهم كانوا مأمورين باتباعه ففرض عليهم قيام الليل إلى أن نسخ بفريضة الصلاة، أو دام ذلك ثمانية أشهر أو سنة أو عشر سنين إلى أن خفف الله عنهم.وهذا خلاف لا ينبني عليه حكم،إذ أن ذلك قد مضى وقت العمل به

و الراجح أن قيام الليل كان واجبا على النبي ﷺ. وأن ذلك يساعده على أداء شريف مهمته، إذ في التفرغ للصلاة في هدأة الليل، والإقبال على الله بالطاعة الخالصة التي ينقطع فيها المصلي عن شواغل الحياة ما ينمي الخير، ويضاعف تزكية النفس، فيكون بذلك أقدر على تحمل عبء الرسالة، وعلى زيادة القرب من ربه.قال تعالى : **(ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا)**[1]

قم الليل إلا قليلا نصفه....المأمور به قيام الليل. والليل ما بين غروب الشمس، وطلوع الفجر. وإن صلاتي المغرب والعشاء، والنوافل المرتبطة بهما ليست من قيام الليل. ولم يؤمر بقيام الليل كله، بل أخرج منه ما لم يقصده، وهو القليل من الليل الذي يخصص لراحة الجسم. ثم بين القليل بقوله نصفه، أو انقص منه قليلا، أو زد عليه.فأفادت الآية التخيير، بين أن يقوم:

[1] نصف الليل.

[2] أن ينقص من النصف قليلا.

[3] أن يقوم أكثر من النصف ولم يوصف بالقلة، وقد قام النبي ﷺ متهجدا إلى أن تورمت قدماه، فلما سئل عن ذلك وذَكَرَ السائل أن الله غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال :أفلا أكون عبدا شكورا.

4- ورتل القرآن ترتيلا.

[1] سورة الإسراء آية 79

كما أمِرَ بقيام الليل أمر ﷺ أن يقرأ القرآن بتمهل ولا يعجـل بقراءتــه. حتـى يأخـذ كـل حرف من حروفه حقه من الأداء، ويأخذ المد صفته مـن القصـر أو الطـول. وهـو مـا يساعد السامع على استيعاب معـاني الكتـاب. والترتيـل أصـله وصـف للأسـنان، فـإذا كانت منتظمة بينها فلج قليل وليست متراصـة، قيـل: ثغـر مرتل.وسـيأتينا مزيـد بيـان عند قوله تعالى: **لا تحرك به لسـانك لتعجـل بـه.**[1] قـال أحـدهم لسـيدنا عبـد الله بـن مسعود رضي الله عنه : قرأت المفصل في ليلة، فقال عبـد الله، هـذّا كَهَـذِّ الشـعر.ذلـك أن منشد الشعر يعجل قراءته ليَظْهَر الروي والميزان أكمل ظهور.

5- إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا.

ينبئ الله رسوله ليكون على أتم الاستعداد لمواصلة تقبـل الـوحي المنـزل مـن القـرآن. ووصف القرآن بأنه قول ثقيل، وذلك لأن ما تحملـه كـل كلمـة منـه،وكل جملـة، وكـل تركيب، من عميق المعاني، ومن أسرار الهدايـة، ومـن مرونـة الفهـم مرونـة تجعلهـا تكشف عن صدقها في كل عصر حسب المسـتوى المعرفـي فـي ذلـك الـزمن.ولأنهـا تخاطب الروح والعقل والمشاعر كمـا قـال تعـالى:(**الله نـزل أحسـن الحـديث كتابـا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثـم تلـين جلـودهم وقلـوبهم إلـى ذكر الله ذلك هدى الله يهدي بـه مـن يشـاء**) [2] – وقـد وصـفت أم المـؤمنين عائشـة رضي الله عنها النبي ﷺ عندما ينـزل عليـه الـوحي. روى البخـاري بسـند ه قالـت : (ولقد رأيته ينزل عليه الـوحي فـي اليـوم الشـديد البـرد، فيفصـم عنـه وإن جبينـه ليتفصد عرقا " كثرة العرق")[3] فهو ثقل معنوي يؤثر ماديا في طاقاته بما وصفته.

تذكير : تتابعت الآيات من أول السورة تعد النبي ﷺ ليقوم بمـا شـرفه الله بـه مـن أمانـة تبليغ الوحي، فيفرض عليه قيام الليـل لتـزداد نفسـه الكريمـة شـفافية، وأنْسًـا بمناجـاة ربه. وأمره أن يرتل القرآن ترتيلا دون عجلة ليتعمـق أبعـاد كنـوز مـا احتـوى عليـه، وأعلمه تبعا لذلك بطبيعة القرآن، أنه كلام ثقيل ليس كبقية الكلام.

6- إن ناشئة الليل هي أشد وطئا....قيلا.

تُقَوّي هذه الآية العزائم على قيام الليل لما يختص بـه مـن المزايـا. فبقيـام الليـل تزكـو النفس، و يصفو السر، وترتقي المشاعر، وتكون المناجـاة أشـد قربـا. وقـد سـأل عبيـد بن عمير أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قال : قلـت لعائشـة : رجـل قـام مـن أول

---

[1] سورة القيامة آية6

[2] سورة الزمر آية23

[3] فتح الباري ج1ص 24

الليل أتقولين له قام ناشئة، قالت : لا، إنما الناشئة القيام بعد النوم. إنه عندما يستيقظ المرء من نومه أثناء الليل بعد أن يكون قد أخذ نصيبيا من الراحة ثم يتوضأ، فإنه يجد من النشاط، ومن هدوء البال، ومن السكون الملائم لتكون أشواقه أكثر صفاء، و تتفتح روحه على الفيوض الإلهية بصفة أسمى وأرقى، ما لا يجده في أول الليل ولا في بقية ساعات اليوم. فناشئة الليل ألصق بتلكم المعاني. وذهب بعض العلماء إلى أن ناشئة الليل لا تختص بالقيام بعد النوم. فهي بمعنى ما ينشئه المرء من العبادة في الليل.

أشد وطئا... تفهم الجملة على أن المصلي في الليل متمكن من المناجاة في صلاته بصفة أكمل، شأن تمكن رجلٍ من وطأ الأرض. كما يمكن أن تفهم على أن ناشئة الليل أشد تمكنا في الخير وتأثيرا في الروح والعقل.

وأقوم قيلا... إن ناشئة الليل، أعون على تدبر القرآن والنفاذ إلى هداه، وتفهم خصب معانيه. وناشئة الليل بما يصحبها من السكون المخيم على الكون يكون بها التالي أقدر على تذكر ما يتلوه، ويتغلب على عادية النسيان.

إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلاً ﴿٧﴾ وَٱذۡكُرِ ٱسۡمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلۡ إِلَيۡهِ تَبۡتِيلاً ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلاً ﴿٩﴾ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرًا جَمِيلاً ﴿١٠﴾ وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ وَمَهِّلۡهُمۡ قَلِيلاً ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيۡنَآ أَنكَالاً وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلۡأَرۡضُ وَٱلۡجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلۡجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلاً ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

السبح : العوم، والمراد به التصرف السهل.

التبتل : الانقطاع، بتفرغ البال إلى ما يرضي الله.

الوكيل : الذي يفوض له التصرف في الأمور.

الهجر الجميل : هو الهجر الذي يقتصر فيه صاحبه على الهجر دون تعد أو جفاء.

النعمة : الترفه.

مهلهم : الإمهال الشديد.

الأنكال : القيود.

الجحيم : نار جهنم.

ذا غصة : لا يستسيغه ويقف في حلقه.

الرجف : التزلزل والاضطراب.

الكثيب : الرمل العالي كالربوة.

المهيل: اللين الرخو الذي يذهب بالريح.

بيان المعنى الإجمالي :

إنك تجد في النهار متسعا من الوقت لتهتم بما أنت موكل به من تصريف أمور المسلمين، والعبادة. وإبلاغ ما ينزل عليك، وشؤون بيتك. وليكن لسانك رطبا بذكر اسم ربك و كن منقطعا إليه انقطاعا يجعلك تستحضر في كل أمورك أنك تَتَقَرَّبُ إليه وحده. هو رب الكون كله، والزمان كله، لا إله إلا هو. كل ما دعي من دونه باطل. فاعتمد عليه وحده، وفوض جميع أمورك إليه فإنه يكفيك ما أهمك. ولا تحزن من سوء أقوال المشركين، واصبر على ما تسمعه من بذيء أقوالهم. واهجرهم فلا تخالطهم، ولا تتبع أقوالهم بما هو من نوعها، فخلقك أرفع من ذلك. وليكن هجرك لهم هجرا جميلا لا تخالطه إذاية.فذلك أنكى لهم.

لا تهتم بالمكذبين، واتركهم لي، فإني سأكفيكهم.هؤلاء الفارغين من كل القيم الإنسانية، والذين لا حظ لهم سوى الجري اللاهث وراء النعيم المادي. انتظرهم وقتا قليلا في عمر الكون. **إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا.** لقد أعددنا لهم القيود الحديدية التي تضغط عليهم فتفقدهم الحركة ويعانون من شدتها،وسعَّرنا لهم جهنم لتحرقهم بلظاها، ونبعث فيهم شهية الأكل فيقبلون على طعام لا يستسيغونه، ويقف في حلوقهم يعانون منه أشد العناء، وأنواعا من العذاب فوق ما يتصوره الخيال. سيتم ذلك في يوم عظيم، يوم تهتز فيه الأرض من أقصاها إلى أقصاها، وتضطرب الجبال الراسيات، وتنقلب الجبال الصلدة إلى كثبان رخوة تتحرك بحركة الريح.

بيان المعنى العام :

7- إن لك في النهار سبحا طويلا.

يتوالى في هذه السورة عناية الله برسوله. فبعد أن أمره بتعمير ليله بالصلاة والقيام، وحثه على ذلك بما في قيام الليل من مزايا. ثنى بالنهار. فسجل أنه مُمَكَّن من التصرف في النهار، تصرفا متنوعا سهلا، فيه كثير من الحرية كما يسبح الإنسان في الماء. تتصرف في مهماتك وشواغلك، بين القيام على شؤون المسلمين، وتقوية الأصرة الجامعة بينهم، وبين القيام على أهلك، وبين الدعوة إلى الله ومجادلة من يصدون عن سبيله، وبين تعليم أمتك ما شرعه الله لهم.

وقد يفهم منه أنه إذا فاتك شيء من قيام الليل فإنك تجد في النهار متسعا تقضي فيه ما فاتك. وفي هذا توسعة عليه، وعلى المؤمنين الذين يتأسون به.

8- واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا.

ومن عنايته برسوله أيضا ما جاء في هذه الآية من أمره بمواصلة ذكر الله بلسانه، الذكر المعبر عما امتلأت به نفسه الكريمة من الصلة الدائمة بالله. فالذكر الذي يقرب الذاكر من ربه هو ما تآلف فيه اللسان والقلب، فلا القلب لاه عما ينطق به اللسان، ولا اللسان صامت عن فيض الإحساس الباطني بتمجيد الله وتسبيحه وتحميده.

وتبتل. أصل التبتل الانقطاع، وهو انقطاع خاص، انقطاع عما يشغل عن الذكر وعن قيام الليل، وعن القيام بأمر الدعوة قياما يحقق نشرها، ورد هجمات الشرك الباغي عليها. والانقطاع لله في الإسلام يختلف عن الانقطاع الذي روج له النصارى من الرهبانية التي تعتبر الدنيا رجسا. فإن التزوج والتطيب، والتأنس بالأهل والصحابة،في كل ذلك تقوية للنفس على العبادة، ومناسبات للحمد على النعم، وشكر له سبحانه بصفة أوضح وأتم باقتران الشكر بلذة النعمة.فالنبي صلى الله عليه وسلم، ومن اتبعه بإحسان تجد صلته بالله وتبتله إليه، متواصلا.وهو في جميع أحواله ذاكر لربه.

9-رب المشرق والمغرب...وكيلا.

هو رب **المشرق والمغرب**، هو رب الكون كله من المشرق إلى المغرب،وهو رب الكون في جميع الأزمان ما بين زمان الشروق وزمان الغروب.فعم الليل والنهار، ثم صرحت الآية بمضمون رب المشرق والمغرب : أنه المتفرد بالألوهية.الواحد الأحد. وإذ انتفت الألوهية والتأثير عن غيره سبحانه.فاعتمدْه وتوكلْ عليه، وفوِّضْ التصرف في جميع الأمور إليه.إنه الناصر العزيز لا يُخْذَلُ من كان الله متوليه وناصره.يكفيك همّك ويُفْرِغْ في قلبك الأمن والثقة، ويبعد عنك القلق والخوف والاضطراب.

10-واصبر على ما يقولون...هجرا جميلا.

تتوالى في السورة عناية الله برسوله كما أشرنا إليه سابقا. كان الرسول صلى الله عليه وسلم يَلْقَى من سفهاء قريش، وحتى من ذوي المكانة الاجتماعية صنوفا من الإذاية القولية. فأرشده ربه إلى أن يتدرع بالصبر، وأن لا يبلغ به التأثر من قبيح كلامهم ما يغتم به.تقول له الآية إن ما تتأيد به من توكلك على الله وحده يسكب في

قلبك قوة تعلو بها على ما يحاولون به إيذاءك من سفيه أقوالهم. فاصبرْ ولا تحزنْ، ولا تخاطبهم في مستوى أخلاقهم الهابطة، ولا تعاملهم بما هم أهل له من قبيح أقوالهم،ولا تسبَّهُمْ ولا تؤذهم ولا تجارهم في الرد عليهم بما يبكتهم،فإن سكوتك عنهم هو الهجر الجميل الخليق بك وبسمو أخلاقك.

11-وذرني والمكذبين...قليلا.

في الآية تهديد شديد، ووعيد مرعب. يستعمل مثل هذا الخطاب في المواطن التي يكون فيها المتكلم متمكنا من التنكيل ممن دخل عليه كلمة " **ذرني**" يريد أن يقول وقد اشتد غضبه : لا تهتم به واتركه لي فإني سأنتقم منه انتقاما لا أقبل فيه شفاعة شافع. سبب النقمة الشديدة عليهم تمسكهم بالتكذيب حتى أصبح وصف التكذيب عَلَمًا عليهم. ثم وصفهم بأنهم انغمسوا في النعمة،وقصارى حظهم في الدنيا هو التسابق إلى خفض العيش، والترفه دون أن تسمو مداركهم إلى معرفة الحقيقة، وإلى التحلي بالكمالات الخلقية.هم كما قال الله فيهم :(**ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون**)[1] وكقوله تعالى : (**أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلا**)[2]

12←13- إن لدينا أنكالا وجحيما وطعاما...وعذابا أليما.

بيان لقوله تعالى: **فذرني والمكذبين**. لا تهتم بهم واتركهم لي فإن لدينا في ملكنا ما أعددناه لنسلطه على من تعلقت مشيئتنا بعذابه. لدينا قيود من حديد تضغط على المعذَّب فلا يستطيع حراكا، ونبعث فيه شهية الأكل، فيُقَدَّمُ له طعام يقف في حلقه يعاني منه أشد العناء، وأنواع من العذاب فوق ما يتصوره الخيال تؤلمه أشد الإيلام.وقد أتي بها منكرة غير معرفة [**أنكالا وجحيما وطعاما** وعذابا، ولم تعرف الأنكال والجحيم والطعام والعذاب، وذلك قصد التعظيم والتهويل ليست محددة بحدود التعريف]

14- يوم ترجف الأرض والجبال...مهيلا.

ذلكم النكال المعد للكافرين الذين لا يجدون شافعا ولا نصيرا، يسلط عليهم يوم القيامة. وصف هذا اليوم بأنه يحدث فيه ما لا عهد للبشرية به. تزلزل الأرض، وإن كان الناس عهدوا قبل ذلك الزلازل في أماكن محدودة، إلا أن زلزال ذلك اليوم

[1] سورة الأعراف آية179

[2] سورة الفرقان آية 45

يعم الأرض فلا يبقى جزء منها لا يضطرب وينفجر،وكذلك الجبال الشامخة الصلبة الصلدة،تضطرب كأنها قصبة جوفاء. فتنقلب بعد صلابتها وشموخها إلى كثبان من الرمل رخوة لا تصمد حتى لحركة الهواء.

إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَـٰهُ أَخْذًا وَبِيلاً ﴿١٦﴾ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولاً ﴿١٨﴾ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلاً ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

الأخذ : الإهلاك.

وبيلا : ثقيلا غليظا.

الانفطار : التشقق.

مفعولا : محقق الوقوع.

التذكرة : الموعظة.

بيان المعنى الإجمالي :

من رحمتنا بالبشرية أنا أرسلنا إليكم رسولا يوقظكم من غفلاتكم ويقيم التوحيد ، ويصلح أوضاعكم الفردية والاجتماعية، ويكون شاهدا عليكم،ولا مرد لشهادته. وهذه سنتنا فقد أرسلنا قبلكم إلى فرعون لما انحرف عن الهدى رسولنا.فما كان منه إلا أن رفض الاستجابة لما جاءه من الحق على لسان الرسول، فسلطنا عليه عذابنا العذاب الثقيل الغليظ. كيف تستطيعون إن لم تستجيبوا لما جاءكم به الرسول أن تحصنوا أنفسكم إن واصلتم الإقامة على الكفر من عذاب يوم شديد تشيب لهوله الولدان في بواكير سنهم. وتنشق السماء ويذهب تماسكها. إنه يوم واقع لا محالة فلا تشكوا في وقوعه. إن ما قدمته لكم موعظة تساعد من أراد الاهتداء ليتخذ الطريق السالك لرضوان ربه.

بيان المعنى العام :

15-إنا أرسلنا إليكم رسولا...إلى فرعون رسولا.

خطاب من رب العزة موجه أولا لقريش، وموجه بعد ذلك للعالم كله. إنا، نحن الله بعظمتنا وعزتنا، أرسلنا إليكم أيها الناس، من كان حاضرا عند نزول الآية، ومن يأتي بعد ذلك في جميع الأزمنة والأمكنة، أرسلنا إليكم رسولا. إن الواجب والحالة

تلك، أن تعلموا حق هذا الرسول، وتدركوا أن ما جاءكم به فيه خيركم. ثم إنه يشهد عليكم وشهادته لا مطعن فيها. ويترتب عليها جزاؤكم. وهذه سنتي في تدارك الناس بتوجيه من يتولى إصلاح شؤونهم العامة والخاصة، ويعمل على إنقاذهم من الضلال في العقيدة والسلوك. فمن قبلكم أرسلنا إلى فرعون رسولا. فتبين بإرسال محمد ﷺ ، وإرسال موسى قبله إلى فرعون أن رحمة الله توقظ الناس قبل فوات الأوان ليتداركوا أنفسهم.

16- فعصى فرعون الرسول...وبيلا.

تحذير ووعيد لمن لم يطع الرسول المبعوث من عند الله. كان موقف فرعون مناقضا لما تقضي به الحكمة، عصى فرعونُ موسى، فلم يقبل منه توحيد الله ونَبْذَ الشرك، والاستقامة في الحياة والإقلاع عن الظلم. فعاجلنا فرعون العاصي المستكبر بسحقه. وأهلكناه هلاكا ثقيلا مدمرا. أغرقناه فابتلعه البحر مع جنده.

17- فكيف تتقون إن كفرتم...شيبا.

تستحضر الآية لهم عذاب الآخرة مجسَّمًا، وتسألهم سؤال تعجيز فتقول للكافرين الرافضين، كيف تقدرون على جعل وقاية لأنفسكم من عذاب يوم القيامة وأهواله إن واصلتم تمسككم بالكفر والعصيان. ثم يجسم القرآن أهوال هذا اليوم الذي لا مرد لِمَا يقضى فيه. يوم يبلغ فيه الخوف والهلع من الشدائد الماثلة فيه، إلى أن يسرع الشيب فيه إلى رؤوس الصبيان. وهو غاية ما يتصور أن يبلغ إليه الهم من التأثير.يقول أبو الطيب المتنبي :

والهم يخترم الجسيم نحافة *** ويشيب ناصية الصبي ويهرم.

18-السماء منفطر به كان وعده مفعولا.

بناء السماء المتماسك القوي، الذي تبلغ فيه جاذبية كل كوكب قوة فوق التقدير المعروف للبشر. إذ لا يخرج بذلك أي كوكب عن مساره. هذا البناء المحكم سيتشقق في ذلك اليوم، ويختل التوازن الكوني اختلالا مخربا. وما مشيب الأطفال بالنسبة لانخرام نظام الكون، وخروج الكواكب عن مساراتها وتعرضها للاصطدام والانحلال إلا أمر يسير. وقع الترقي في الآية من مشيب الولدان إلى الدمار الشامل المرعب.ولما كان الهول عظيما والخراب الذي سيحدث فوق ما يمكن للإنسان تصوره، أكدته الآية بأنه مفعول وواقع لا ريب فيه.

19- إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا.

ما عرضته الآيات السابقة هو كاشف لكم عن الحقيقة ؛ القصد منه الموعظة، فمن كان كافرا فليقلع عن الكفر ويؤمن بالله ورسوله، ومن كان مؤمنا متبعا لشهواته ليفق من غفلاته، ويسارع بالتوبة والاستقامة. لقد أدى التحذير والتنبيه دوره في إيقاظكم إلى المنهج المنجي، وهو لا يقسركم على الإيمان والخير، أبان لكم بطريقة جلية أن الهلاك تابع لمشيئة الإنسان، ولم يبق لأحد عذر.فحرضت الآية أفضل تحريض على اتباع السبيل الموصل إلى رضوان الله.

۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

أدنى: أقل.

تحصوه : تطيقوه.

يضربون : يسيرون مسافرين.

الابتغاء من فضل الله : طلب الرزق.

بيان المعنى الإجمالي :

ختمت السورة المكية بهذه الآية المدنية.يتوجه فيها القرآن إلى رسول الله ﷺ يخاطبه، بأن الله يعلم ما تتقرب به من قيام الليل، ما يقارب ثلثيه، أو النصف أو الثلث، وعِلْمُهُ يشير إلى قبول قيامه ورضاه عنه. وكذلك رضاه عن المؤمنين الذين تأسَّوْا به.إن التحديد الدقيق لثلثي الليل ونصفه وثلثه مرتبط بالنظام الذي بنى الله عليه الكون.وضبطه على وجه الدقة عسير عليكم، فالله بفضله لم يؤاخذكم بما لا تقدرون عليه. علم الله أعذاركم فرخّص لكم، علم أن بعضكم ينتابه المرض فيضعفه عن القيام في الليل، وبعضكم يواصل الأسفار لجلب أقوات الناس وحاجاتهم وترويج خيرات الكون مبتغين أن يمن الله عليهم من فضله. وأن آخرين منكم منصرفون إلى الجهاد في سبيل الله. علم الله ذلك منكم فخفّفَ عليكم، فقوموا من

الليل ما تيسر، واقرأوا من القرآن ما تيسر. والمهم هو أن تحافظوا محافظة كاملة على أداء الصلاة وإيتاء الزكاة. ولتكن نفوسكم سمحة بعون ذوي الحاجة، فإن مساعدتكم لهم تعتبر قرضا مؤمّنًا عند الله. ومن عظيم فضل الله عليكم أنه يعدكم وعدا مؤكدا أن كل خير تقدمونه في الدنيا من الصلاة والزكاة وقراءة القرآن والصدقة، وغير ذلك لا يضيع منه شيء وتجدون ثوابه خيرا وأحسن مما قدمتم، وتجدون الأجر العظيم. ولتبلغوا دجة الكُمَّل من الصالحين، داوموا على طلب المغفرة من الله، فإنه غفور رحيم.

بيان المعنى العام :

20-إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل...إن الله غفور رحيم.

هذه الآية نزلت على رسول ﷺ بالمدينة. افتتحت بالتأكيد الدال على الاهتمام. إذ الجمل الأولى متعلقة بالرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك يوحي بمقامه عند ربه. فإخباره تعالى أنه يعلم ما تحمل نفسه ﷺ في مرضاة ربه من القيام بالليل برمي إلى أن ما تقرّبَ به حل محل الرضا والقبول. وإخباره بذلك قرآنا يتلى مما يضاعف التنويه بمقامه ﷺ. وقوله : **أدنى من ثلثي الليل**، يفيد أقل من الثلثين. وعطف عليه: [**نصفِه، وثلثِه**] على قراءة الكسر أي أقل من الثلثين، وأقل من النصف، وأقل من الثلث. وأما على قراءة النصب فيفيد أنه يقوم تارة ثلث الليل وتارة نصف الليل وتارة ما يقارب الثلثين. والتخيير لا يعود إلى طول الليل وقصره، إذ لو ارتبط التحول من واحد إلى آخر بذلك لما كان هناك تخيير. بل التخيير تابع لمهمات الرسول وإمكاناته. فقيام الليل فرض عليه وأما أن يستغرق قيام الليل ما يقارب الثلثين أو النصف أو الثلث. فذلك راجع إلى ما يتيسر له مراعاة لمهامه الدينية ومهامه الدنيوية.

وطائفة من الذين معك. ويعلم الله عِلْمَ الرضى قيام طائفة من المؤمنين معك. فشملهم الثناء كما توجه به أولا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

والله يقدر الليل والنهار. إن ضبط المواقيت وساعات الليل والنهار، هو مستند إلى علم الله وإلى تصرفه الحكيم في نظام الكون.فهو وحده الذي يوالي عنايته بانتظام سيرها، وما يتبعه من اختلاف الليل والنهار ظهورا وخفاء، وطولا وقصرا.

علم أن لن تحصوه فتاب عليكم. إن الله الذي ضبط اختلاف الليل والنهار ضبطا دقيقا، يعلم أن المستوى المعرفي الذي أنتم عليه وقت نزول الآية لا يمكنكم، من معرفة ذلك التقدير الإلهي بكامل الدقة. وقد اجتهدتم في قيام الليل بنسبة، فهو راض عنكم لأن ذلك منتهى طوقِكم، ولم يسجل عليكم أي تقصير تؤاخذون به. على معنى

أن الملائكة الموكلين بكم قد سجلوا قيامكم الليل حسب الواقع.وأنه سبحانه لفضله لا يحاسبكم عن القصور في معرفة أجزاء الليل بكامل الدقة.

فاقرأوا ما تيسر من القرآن. هذه الآية مكملة لقوله تعالى: **فتاب عليكم**. مهد الله للتخفيف عن المؤمنين قيام الليل أنه رفع عنهم المؤاخذة لمن لم يحص النسبة المحددة من النسب الثلاث في القيام، وأتبعه بنسخ وجوب قيام الليل في تلكم الفترات الثلاث. بأنهم مدعوون إلى القيام بالصلاة حسبما يتيسر لهم. وعبر عن الصلاة بالأمر بقراءة القرآن، باعتبار أن قراءة القرآن في الصلاة تمثل الركن الأهم فيها. وكما يشمل النص صلاة الليل، فكذلك يدل على الأمر بقراءة ما تيسر من القرآن وخاصة في الليل.

علم أن سيكون منكم مرضى...تصريح بالأعذار التي راعاها الله بفضله فرتب عليها التخفيف. وهذه الأعذار قسمتها الآية إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الأعذار المترتبة عن المرض، وعن الوهن الذي يجده الإنسان في قواه البدنية مما يقعد به عن النشاط لأداء العبادة المرغب فيها.

القسم الثاني : وضع المسافرين الذين يسيرون في أرض الله يتاجرون، وينقلون الخيرات من أماكن إلى أماكن أخرى، مما ييسر رواجها، ويمكن منها المحتاجين إليها.يطلبون من الله أن يوفقهم في كسب رزقهم. قال عبد الله بن عمر رضي الله عنه: ما خلق الله موتة بعد الموت في سبيل الله أحب إلي من أن أموت بين شعبتي رحلي [أي راكبا ظهر بعيري]أبتغي من فضل الله ضاربا في الأرض.

القسم الثالث: المجاهدون في سبيل الله بما يقتضيه الجهاد من حزم وسد للثغور ليلا ونهارا، ونشاط موصول في المعارك أو الاستعداد لها بمتنوع ضروب الاستعداد.

إذ تبينت الأعذار التي راعاها الله بفضله فخفَّفَ على المؤمنين قيام الليل، وقد كثرت شواغلهم بعد أن واجهوا الكفر بالجهاد، واتسع عدد الداخلين في الإسلام بما يوجب توفير أقواتهم وحاجاتهم من الضاربين في الأرض. نبههم إلى أن التخفيف يطلبون معه عدم نسيان القرآن وليقرأوا منه ما تيسر لهم ولا يغفلوا عنه تركا متواصلا. ومن ناحية أخرى هو يُبْقِي على الأصول التي بها صلاح النفس البشرية وقيام الجماعة الإسلامية. فعليهم أن يقوموا بها على أكمل وجه. وهي الصلاة المدعوون لإقامتها بتمام أركانها وشرائطها، والإخلاص عند أدائها إلى الله سبحانه. وقرن بالصلاة الزكاة أختها المرتبطة بها في غالب الأوامر القرآنية. وثلث بالسماحة والتصدق على المحاويج، دون من ولا أذى،ولا رياء ولا استكبار،يعتبر المتصدق أن ما قدمه من مال لسد خلة الفقراء من إخوانه المؤمنين، هو بمثابة

قرض لله، ينتظر ثوابه من عنده مضاعفا قال تعالى : **(إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم)**[1]

وما تقدموا لأنفسكم...هذا الجزء من الآية فيه تحريض على عمل الخير مما ورد في الآية،من قراءة القرآن وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والصدقة المقصود بها وجه الله، وغير ذلك مما يعتبر خيرا، إن ما تقدمونه من ذلك في حياتكم الدنيا، ترجون ثوابه، ثقوا أنكم تجدون ثوابه وأجره عند الله يوم القيامة أحسن مما قدمتموه بالغا من الكمال درجة أفضل من عملكم، وتجدون أجره أعظم، فالحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف.

واستغفروا الله إن الله غفور رحيم...هو أمر يشمل جميع المؤمنين، فيه إرشاد لما يقرب المؤمن من درجة الكمال، ويغطي تقصيره وقصوره.إذ أن العصمة من خصائص المرسلين، وأما بقية البشر فهم على درجات من الصلاح والخير، فتولى القرآن هداية المقصر،حتى يبلغ درجة أصحاب المقامات العليا من الصلاح، هداه للاستغفار، وفتح له باب الأمل في قبول استغفاره بالتأكيد على أن الله عظيم المغفرة، مغفرته مرتبطة برحمته التي وسعت كل شيء.وأفضل الاستغفار ما رواه شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال :سيد الاستغفار أن يقول :اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوء لك بذنبي فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت[2].

يوم السبت 30 شعبان 1435 الموافق لـ 28 جوان 2014

---

[1] سورة التغابن آية 17

[2] فتح الباري ج13 ص 244/242

سورة المدثر

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وكتب التفسير والسنة. وهي من السور الأولى التي نزلت على رسول الله ﷺ ، واختلف هل هي الثالثة بعد المزمل والعلق، أو هي سابقة للمزمل، أو إن سورة القلم تالية للعلق.وهي مكية في جميع آياتها.وهي السورة الرابعة والسبعون حسب ترتيب المصحف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾
وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

المدثر : الذي لبس ثوبا فوق الثوب المباشر للجسد.

الرجز :أصله العذاب، ويراد به ما يؤدي إليه.

والهجر : البعد.

ولا تمنن: المنة تذكير المعطي بعطيته.

تستكثر : تعُد ما أعطيته كثيرا.

بيان المعنى الإجمالي :

نداء للنبي ﷺ ، بوصفه: المدثر. أخذا من طلبه من أهله أن يدثروه بثياب فوق ثيابه لما لاقاه من الفزع عند اتصاله بملك الوحي. يطلب منه أن يتحفز للمهمة العظمى التي أوكلت إليه، بإنذار كل من يتأتّى إنذاره، وتعريفه العاقبة السيئة لمن لم يتبع الهدى الذي جئت به. واقرن تحذيرهم من عذاب الله إن لم يؤمنوا بتكبير الله وتعظيمه وتقديسه، مع التأكيد على أنه سبحانه هو المختص بالكمال. وكن يقظا لتبتعد عن النجاسات، ولتعتن بنظافة ثيابك وبدنك. وطهر نفسك من كل مراتب الدون.وابتعد عما يوجب العذاب. وَحِّدْ ربك واستقم. وابتعد عن كل ما يتبعه العقاب أو اللوم. وإذا تكرمت فلا تؤذ المنعم عليه بتذكيره بفضلك عليه،ولا تعد ما أعطيته

كثيـرا فتتبعـه نفسـك.وتـدرع بالصـبر علـى القيـام بمـا أمـرت بـه علـى أكمـل الوجوه،واصبر على ما يؤذيك به الكفرة الفسقة فإن العاقبة للمتقين.

بيان المعنى العام :

1←3- يا أيها المدثر قم فأنذر...فكبر.

هذا الخطاب الذي افتتحت به السورة هـو أخـو الخطـاب الـوارد فـي سـورة "المزمـل "والمدثر هو اللابس ثيابا "دثارا" فـوق ثيابـه المباشـرة لجسـمه التـي تسـمى "شـعارا" وهذا النداء بهذا الوصف مأخوذ من قولـه صـلى الله عليـه وسـلم لزوجـه أم المـؤمنين خديجة رضي الله عنها بعد أن رأى الملك جبريل، فعـاد إليهـا وقـد تفاعـل مـع الحـدث الخارق للعادة، وطلب منها :دثروني، دثروني. و هذا الخطـاب يشـرح بمـا شـرح بـه، يا أيها المزمل.

2- قم فأنذر.

كلمة قم المفتتح بها، لا يقصد منها القيام الـذي هـو مقابـل القعـود،ولكن المـراد اجمـع قواك، وثبت عزيمتك،فالأمر جد يقتضي تدبير ما يتطلبـه، وعـدم التهـاون بـأي متعلـق من متعلقاته والتحفز لتحقيقه. وباشر الإنذار لكـل مـن يمكـن أن يفهـم مقالـك، بـإعلان التحذير من عواقب رفض ما وُكلِّت بإبلاغهم إياه.

3-وربك فكبر.

واقرن الإنذار بتعظيم الله وتقديسـه. إذ هـي المهمـة الأولـى للرسـول ﷺ، فـي تلـك الظروف التي عم فيهـا الشـرك، وعمـت النـاسَ غفلـةٌ عمـا يجـب لله مـن التعظـيم والتقديس، والتنزيه عن كل نقص، وتصـور أنـه سـبحانه جـامع للكمـال كلـه. صـف ربك بصفات التعظيم حتى تكون العقيدة التي تـدعو النـاس إليهـا بينـة مـن أول الأمـر، ويصحبك في فتـرات الـدعوة كلهـا، تخصيصـه بالكمـال المطلـق. وقـل: "الله أكبـر" معبرا عن تلكم المعاني التي استقرت في نفسك. والتكبيـر تفـتتح بـه الصـلاة، ويصـحب معظم الحركات فيها. ويبعث في النفس اعتزازا مسـتمدا مـن عظمـة الله وقوتـه. وفيـه سر زعزع عروش الظلم والاستبداد، ومهد للنصر في المعارك بين الحق والباطل.

4- وثيابك فطهر.

على جميع الأحوال، فلتكن عنايتك بطهارة ثيابك عنايـة تامـة. وطهـارة الثيـاب تشـمل البعد عن النجاسات، وعدم لباس ما كان ملوثا، يتضـمن أمـرا بنظافـة الثيـاب وطهـارة البدن أيضا. ويطلق التطهير على تزكية النفس، والسمو بهـا لتبتعـد عـن منـازل الـدون

والحطة. يقال فلان نقي الثياب، إذا وصف بالنقاء من المعايب،ومن دنس الأخلاق. والغالب أن من طهر باطنه ونقاه، عني بتطهير الظاهر وتنقيته.

5- والرجز فاهجر.

أمر بالابتعاد عن الرجز بأبلغ طريقة. والرجز وإن كان أصله العذاب، فالمراد هجران كل ما يؤدي إلى العذاب.و يشمل عبادة الأوثان، واقتراف المعاصي، والتهاون بالواجبات، ففيه أمر بالتوحيد والاستقامة.

6-ولا تمنن تستكثر.

تواصل هذه الآية التوجيهات الإلهية لرسوله عناية به أولا، وللمؤمنين ثانية باعتباره الأسوة الحسنة لهم. وفي ذلك مساعدة له على النجاح في مهمته العظمى: إصلاح البشرية عقديا وسلوكيا. فنهاه أن يمن على من شمله عونه. وخلُق المن كان منتشرا في الجاهلية. كان من يعطي المحتاج يذكره بنعمته عليه، ويكرر التذكير، وفي ذلك إيذاء لنفسية المحتاج يتبعها الحقد والحسد. والمنان يعد ما أعطاه كثيرا، فدعت الآية إلى عدم المن، وإلى تهوين ما خرج من يد المعطِي فلا يَعُدُّه عظيما كثيرا تتبعه نفسه. قال تعالى : **يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى**[1] .

7- ولربك فاصبر.

الصبر قوة في النفس يتبعها الثبات على المبدأ، وقوتها على تحمل المشاق العارضة.وهومن توابع العزيمة الماضية التي تواصل حتى النجاح. أمر صلى الله عليه وسلم أن يصبر على الدعوة، فيواصل التذكير والبشارة والإنذار. وأن يصبر على القيام بما فرض الله عليه، وأن يصبر على إذاية المشركين.

﴿٧﴾ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ غَيۡرُ يَسِيرٖ ﴿١٠﴾
ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴿١١﴾ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودٗا ﴿١٣﴾
وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾
سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾
ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ﴿٢٤﴾

---

[1] سورة البقرة آية 264

إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِى وَلَا
تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

نُقِر : انطلق الصوت.

الناقور : الصور الذي ينفخ فيه، فيجتمع الجيش عند سماعه.

العنيد : شديد العناد والمخالفة.

أرهقه : حمّله ما لا طاقة له به.

صعودا : تتحداه صعوبات عسيرة جدا. وأصله العقبة الشاقة.

عبس : قطب وجهه.

بسر : تغير لون وجهه كمدا.

أدبر : تراجع.

سأصليه : سأحرقه.

سقر : علم على جهنم أو على طبقة من طبقاتها.

لواحة : مغيرة لذات البشر.

بيان المعنى الإجمالي:

اشتد الأمر وبلغ من العسر مبلغا عظيما يوم ينقر في الناقور، أي يوم ينفخ في الصور فتقوم الأموات من قبورهم.لا يطمع الكافرون في الفرج.

لا تهتم يا محمد بهذا الكافر الغليظ، واتركه لي فإني سأكفيك أمره. إني خلقته وحيدا لا مال له ولا قوة. ثم واليت عليه فضلي حتى أصبح يُدْعَى بالوحيد، باعتبار أن ما جمعه من حظوظ الدنيا لا يدانيه فيه أحد. فقد نميت ثروته حتى كان أكثر قريش مالا، ورزقته الأولاد الذين كانوا يشهدون مجالسه، مما يزيده في أعين الناس عزا. ورزقته حظا يسعده في حياته، مما جعله يجد الأمور ممهدة تحقق آماله. ولم تقف شراهته عند حد فهو يطمع أن أزيده. كلا ! قررت أن أقطع عنه كل مدد، لأنه قابل نعمتي بكفرانها، وانتصب خصما عنيدا للآيات التي أيدت بها رسولي. إن الحياة التي كان ينعم فيها باليسر فجعلتها طريقا ممهدا لنجاحه، قد طُوِيَت، وسأكلفه ما يشق عليه ويذهب راحته، كالمتسلق الجبل الوعر. إن الوليد أعمل فكره، وتأمل كيف يطعن في القرآن مطعنا يبعد عنه الناس. تأمل في جميع المحامل إلى أن قاده مكره وبغضه للإسلام إلى رمي محمد بالسحر. قتله الله ما

أسوأ تفكيره، ومـا أعظـم خبثـه. وصـوره القـرآن فـي صـورة تسـتدعي السـخرية منه.فبعد أن فكر وأطال التفكير، وقـدر التقـادير التـي ظـن أنهـا توقـع فراغـا حـول الرسول ﷺ ، ثم عاود النظر، وظهرت ملامـح الحيـرة عليـه، قطـب وجهـه، وتغيـر لونه،ثم عاد على ما فكر فيه مـن المطـاعن فلـم يرتضـها،ثم انـتفخ كبـرا وقـال فـي النهاية : ما القرآن إلا سحر موروث من القدماء.ومـا هـو بكـلام الله ولكنـه مـن إنشـاء البشر.

صرح القرآن بالعاقبة التي هيأها الله للوليد. إنـه سـيحرقه بنـار سـقر الطبقـة السادسـة من طبقات جهنم.من شدتها أنها تفني من لفحتـه ولا تتـرك منـه شـيئا، ثـم يعـود كمـا كان ثم تلفحه ثانية وهكذا.ومن الضربة الأولى يسـود جلـده سـواد الاحتـراق.كلـف الله بجهنم تسعة عشر من الملائكة، ينفذون في كل فـرد مـن أهلهـا مـا قـدره الله لـه مـن العذاب. وهم أمناء على ذلك لا تأخذهم فيهم رحمة.

بيان المعنى العام:

8←10-فإذا نقر في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير...غير يسير.

عسر الأمر واشتد إذا نقر في الناقور، فنفخ النـافخ فيـه. وهـو تمثيـل بمـا يـتم فـي الدنيا: أن الجيش إذا تفرق لأخذ حظه من الراحـة، فـإن قائـد الجـيش إذا أراد جمعهـم، يأمر الموكل بالصور، القرن الذي له صوت يصل إلـى مسـافات بعيـدة، أن يـنفخ فيـه. فيسرع كل فرد يبلغه نداؤه إلـى مكـان الاجتمـاع، مسـتعدا لتلقـي الأوامـر، وتنفيـذها. فهي صورة تقرب ما سيحدث عندما يأذن المولى سـبحانه ببعـث الأمـوات مـن قبـورهم فيسرعون إلى المحشر. إنه يوم عسير يشتد فيـه الأمـر علـى الكـافرين، ويلاقـون مـن الأحداث ما لا قبل لهم بـه ويسـتقر فـي مـداركهم أنهـم هـالكون.ويتضـاعف خـوفهم بالمشاهد التي تقذف في قلـوبهم الرعـب، ويـدركون معهـا، أن أمـامهم ضـروبا مـن الشدة لا يصحبها أي يسر، ولا ينتظر معها أي فرج.

11←16- ذرني ومن خلقت وحيدا....لآياتنا عنيدا.

تقدم لنا تفسير هذه الصيغة في الآية 44 من سورة القلم.

لقد كان الرسول صلى الله عليـه وسـلم مغتمـا مـن تصـلب مشـركي مكـة لرفضـهم للإسلام، ذلكم التصلب الذي دفعهم إلـى رميـه بـالجنون، وبالكهانـة،و بكونـه شـاعرا. وبما أن بداية نزول القرآن كانت في شهر رمضان، وفتر الـوحي مـدة، ثـم تتـابع ممـا زاد في حنقهم، وتآمرهم. وتعاظم خوفهم من انتشار دعوتـه، بـين الوافـدين علـى مكـة في موسم الحج، الذي تمتلئ فيه مكة وشـعابها بالوافـدين للحـج.فـاجتمعوا للنظـر فـي

المشكلة التي أصبحت تؤرقهم. وقالوا: لا بد لنا من تنفير الوافدين من محمد، وأن لا نختلف في وصفه الوصف المنفر منه. وقلبوا النظر وتبينوا أن كثيرا مما رموه به لا يسهل تصديقه. وانصرف الوليد بن المغيرة سيد قريش، وصاحب الرأي في قومه وفكر طويلا، كما سيأتينا تصويره في القرآن. فرأى أن تجتمع كلمتهم على وصفه بأنه ساحر. وكل من سأل عنه يقولون له: إنه ساحر. وقال لهم: ألم تروا أن كلامه يفرق بين المرء وأبيه، والزوج وزوجه، والأخ وأخيه. ورميه بالسحر يحدث في الناس حذرا منه فلا يجلسون إليه. ونكون بهذا قد كوّنّا فراغا حوله، فلا تنفذ كلمته في القبائل.

علم الرسول ﷺ بكيدهم،واغتم لذلك إذ حالوا بينه وبين نشر الدعوة المهمة الموكولة إليه.والوليد بن المغيرة صاحب التأثير القوي في قريش تولى كِبْرَ هذه المكيدة.فسلاه ربه بقوله : اترك هذا المستبد الجبار لي، ولا تهتم به فسأكفيكه. اترك لي أمر هذا الذي خلقته وحيدا كبقية المخلوقات، ولد عريانا فقيرا ضعيفا، ثم واليت عليه من عطائي ما واليت. أصبح المغيرة يدعى بالوحيد، لأنه الفرد في كثرة المال وعن ابن عباس: كان مال الوليد بين مكة والطائف من الإبل والغنم، والعبيد والجواري والجنان. وكانت غلةُ ماله مائة ألف دينار في السنة. والفرد لكثرة أولاده، فقد رزق من الولد ما بين عشرة وثلاثة عشر، كانوا يلوذون به في المجامع، ويلازمونه حاضرين معه شهودا، يقومون على طاعته وعلى تنمية الثروة. وجمع إلى ذلك مجد سلفه المجد الذي آل إليه. وكان أسنَّ من أبي جهل وأبي سفيان. وصاحب الرأي في المهمات يصدرون عن رأيه ويحترمونه. فكانت فرية أنه ساحر أحزنت النبي ﷺ، وأهمَّتْهُ.

ومهدت له تمهيدا...أي يسرت له الأسباب التي بلغته المستوى الذي هو عليه، حتى أصبح نافذ الكلمة في قومه، المطاع فيهم. استوفت الآية المنن الإلهية التي رزقها. وبرزت شخصيته الجاهلية، ومن بلاغة القرآن، أن ذكره بقوله : خلقت وحيدا، التي تتضمن أنه مخلوق كبقية البشر وحيدا لم يصحبه عند ولادته لا مال ولا أولاد، كل ما عنده اكتسبه بفضل منّي ؛ فأصبح المعروف بالوحيد لما جمعه بتيسير مني من متاع الدنيا. و في ذلك إشارة إلى توهينه وإلى توبيخه،فاعتبار وصفه وحيدا مخلوقا لله أولى من وصفه وحيدا لغير ذلك مما كان محل تقدير للجاهليين.

ثم يطمع أن أزيد... من ملامح شخصية الوليد أيضا، أنه جشع،شراهته لجمع متاع الدنيا لا تقف عند حد. فهو يطمع أن أزيده، وكيف يطمع مع كفره بي!

كلا إنه كان لآياتنا عنيدا... جاء الرد علــى أطماعــه قاطعــا لهــا، كــلا! لا يتحقــق لــه شيء من أمانيه بسبب تصلبه في رفض ديننا، وكفره مــع أنــه لــيس غبيــا ولكنــه كفــر ناشئ عن عناد. فكان كفره موجبا لقطع المدد عنــه. مصــداق قولــه تعــالى : **(وإذ تــأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد)**[1]

17- سأرهقه صعودا.

لقد يسرت له أمور حياته، فوصل إلــى مــا وصــل إليــه، واليــوم وقــد اســتكبر وقــاوم الإسلام، سأحوّل حياته إلى صــعوبات متتاليــة، وأتعــاب متتابعــة. وأبدلــه مــن الحيــاة الممهدة حياة ضنكا ينتقل فيها من عسر إلى مشــقة. والإرهــاق يطلــق علــى كــل تعــب شاق جدا، والصَّعُود أصله العقبة التي يشق علــى المتنقــل تســلقها. مثّــل القــرآن حالتــه التي سيؤول إليها بحالة المتكلف الصــعود فــي الجبــال الــوعرة. بعــد أن بســطت لــه الدنيا وجــرى فيهــا طريقــا ممهــدا. ســيلاقي المعاكســات والمنغصــات. وروى أحمــد والحاكم عن أبي سعيد الخدري مرفوعا : الصعود جبل فــي جهــنم يصــعد فيــه ســبعين خريفا ثم يهوي فيه كذلك أبدا.

إنه فكر وقدر فقتل...صــورت الآيــة تصــويرا دقيقــا الخطــوات التــي تابعهــا الوليــد ليطعن في الإسلام.

18- إنه فكر وقدر.

لم يسارع بالطعن في الإســلام، ولكنــه اختلــى بنفســه، وأخــذ يقلــب الــرأي، ويتــابع الاحتمالات ما يمكن منها أن يقبل، وما يصعب قبوله مــن النــاس. وقــدّر مــا فــي كــل تهمة يتهم بها الوحي من ضعف يحكم عليها بالرفض، وما فيهــا مــن قــوة ومــن موافقــة للرأي العام، تســرع بتبنيهــا. رأى أن اتهامــه بــالجنون تهمــة لا يصــدقها مــن عَــرَف محمدا وحصافة رأيه، وهو بعيد عن أعــراض المجــانين. وكــذلك اتهامــه بأنــه شــاعر، تهمة مرفوضــة لأن القــرآن لا يجــامع الشــعر فــي شــيء لا فــي أوزانــه، ولا فــي قوافيه.وكذلك اتهامه بأنه كاهن، لا يمكن تصــديقه لأن الكهــان فــي ســجعهم، ومُعَمَّيَــات أقوالهم، لا تتفق مع القرآن الصريح الواضح المحكــم النســج البــالغ مــن الفصــاحة حــدا أبهر الناس. بعد هذا خطر له أن يقال عنــه :إنــه ســاحر. وبــرر رأيــه هــذا بــأن مــن اتبعه يترك أقرب الناس إليه ويتعلق بمحمــد تعلقــا يفديــه بأمــه وأبيــه وزوجــه وولــده. وروّج رأيه هذا بما هو مشاهد من قوة تأثير الإســلام والقــرآن إلــى درجــة أن المــؤمن يقدم ما يدعوه إليه على كل ما تعلق به قبل الإسلام.

[1] سورة إبراهيم آية 7

19←20- فقتل كيف قدر ثم قتل كيف قدر.

ظاهر هذا التعبير أن القرآن يدعو عليه بأن يقتل قريبا، ويقضي عليه رفعا لشره بهذا التقدير أنه ساحر. ولكن في الاستعمال العربي قد يأتي هذا الأسلوب للتعجب، فتقول قاتله الله ما أفصحه، أو ما أشجعه. فيكون المعنى أنه تعجب من مكره ومن قدرته على تلفيق تهمة يقبلها الرأي العام المشرك، وتُنَفِّس عن قريش كربتها في بحثها عن مطعن يروج في الوحي الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم. وهذا وجه تحتمله الآية. ويحتمل أن القرآن أتبع تقديره بقوله: **فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر**، استهزاء بتفكيره وما وصل إليه بعد إعمال النظر، على أنه رأي سخيف لا قيمة له.لأن شأن السحر أن يتناول الساحر التأثير في فرد، لا أن يكون قائما بدعوة عامة شاملة للبشرية، فما أبعد القرآن عن السحر ! وتكرار فقتل كيف قدر، يفيد أنه بلغ أعلى درجة في التقدير السيء.

21←23- ثم نظر ثم عبس...واستكبر.

كأنه جهاز تصوير يتابع الوليد في اهتمامه للظفر بمطعن،وفي حيرته،وهو يحاول أن يقنع نفسه بما يرفضه المعقول والمنطق. ويجهدها لاستنباط ما يهدم به تأثير القرآن القوي.

الصورة الأولى: وهو يفكر ويقدر.

الصورة الثانية :ثم واصل النظر وقد أعياه الأمر.

الصورة الثالثة: قطب وجهه مما ينبئ عن انكساره لما لم يظفر بمراده ، ثم ظهرت ملامح الحيرة أكثر في وجهه الذي تغير لونه خوفا وحزنا .

الصورة الرابعة: أنه عاد على كثير من تقديراته فأبطلها ورجع عنها.وقد انتفخت أوداجه كِبْرًا وتعاظما. فأعلن أنه لا يمكن أن يوصف القرآن إلا بشيء واحد وهو أنه سحر من السحر المأثور عن الأقدمين، تمويها بأن بُعْدَ القرآن عن التفطن لكونه سحرا، سببه أنه ليس من السحر الشائع المعروف.ثم جزم أن القرآن ليس من عند الله، وإنما هو من أقوال البشر، وبهذا التلفيق استراح ففرغ شحنة بغضه وكراهيته للإسلام.

26←30-سأصليه سقر وما أدراك ما سقر...تسعة عشر.

تصريح بالجزاء الذي أعده الله له : أنه سيحرقه في سقر. وسقر تطلق ويراد منها جهنم، وتطلق على الطبقة السادسة منها. وسقر تتجاوز التصور في قوة لهيبها وشدة عذابها، فلذلك أتبعت بسؤال : **وما أدراك ما سقر**. لا شيء يعلمك ما هي

سقر، إنه شيء يفوق الوصف ويتجاوز الخيال. تلتهم من يـدخلها فـلا تبقـي منـه شـيئاء، ولا يفلت منها أحد من أهلها غير محترق بلظاها. ثم تتجـدد الأجسـام كمـا قـال تعـالى: **(كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب)**[1]

لواحة للبشر – تغير لون الجلود إلـى سـواد مقيـت.فالبشـر جمـع بشـرة وهـي جلـد الإنسان.

عليها تسعة عشر– حفظ الله جهنم لتؤدي دورهـا المنـوط بهـا مـن كونهـا دار عـذاب للكافرين والمسرفين، وحفظها بتسعة عشر مـن الملائكـة، أومـن صـفوف الملائكـة، أو من صنوف الملائكة.احتمالات لا يرفضها النص.ينفـذون فـي كـل فـرد مـن داخليهـا ما كتبه الله عليه من العذاب.

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ (31)

بيان معاني الألفاظ :

فتنة : اختبارا

يرتاب : يشكّ

يضل : يصرف عن الهدى

بيان المعنى الإجمالي:

لما ذكر في الآية السابقة أن الموكلين بسقر تسعة عشر، بـين نـوع التسـعة عشـر أنهـم ليسوا من البشر ولا من الجن، ولكنهم ملائكـة قـدراتهم علـى تنفيـذ مـا يوكـل إلـيهم مغروسة في فطرهم، ولا تقاس قدراته بالمسـتوى الـذي عليـه غيـرهم.وتوقـف بعـض المعاندين في جعل العدد تسعة عشر، لمـا ذا لـم يكونـوا عـددا يتناسـب مـع ضـخامة المعذبين في جهنم.فذكر القرآن أن عدتهم هـذه جعلتهـا سـببا لأمـرين متضـادين.يفتـتن بها الذين كفروا من ناحية، وتكون سببا من ناحية أخرى ليزيـد أولـو الكتـاب يقينـا بـأن

[1] سورة النساء آية 56

القرآن منزل من عند الله، لتوافق ما أخبَرَ به مع ما قرره موسى في التوراة. وكونهم تسعة عشر يضيف أمرا غيبيا،يؤمن به المؤمنون ويعتقدون صدقه، فيزداد عدد ما يؤمنون به من الغيب، وعلى كل إيمان أجر.وبهذا العدد الذي أدرك أهل الكتاب صدقه ينتفي أي مبرر للشك في القرآن.وكذلك يزداد يقين المؤمنين بما ورد عليهم من ربهم. إلا أن الفارق بين أهل الكتاب والمؤمنين، أن أهل الكتاب زادهم ذلك عنادا، وأن المؤمنين زادهم انشراحا.ومن ناحية أخرى فإن هذا العدد كان سببا لقول المنافقين الذين في قلوبهم مرض البغض والالتواء، هذا كلام غير واضح ما ذا أراد الله به مثلا.

على هذا النحو من وجود مؤثر واحد وسبب واحد، تكون النتائج المترتبة عنه جِدٌ مختلفة، بما يسعد به الله البعض من ألطاف فيهتدوا، ويسلبه عن آخرين فيغرقوا في الضلال. فيكون ضلال البعض وهداية الآخرين.

وجملة القول : إن الله يتصرف في الكون تصرف الحكمة، وما يعلم جنود ربك المسخرة لتنفيذ ما يعلمه ويريده ، لا يعلم حقيقتها وعددها وطبيعة عملها إلا هو سبحانه.فاسألوا ربكم أن يهيء لكم ألطافه.

بيان المعنى العام :

31- وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة... للبشر.

ذكرت الآية السابقة أن القائمين على سقر تسعة عشر. فكان هذا الإعلان مثار أسئلة استهزاء، واستبعاد من الكافرين.

الاستبعاد الأول: ما يستطيع مثل هذا العدد أن يفعل فيما لا يحصر عدا من الداخلين لجهنم كما يثبته محمد. واستبعدوا صدق هذه الآية بأن القائمين سيشاركون المعذبين في نيل قسط من العذاب. فرد القرآن هذه الشبهة بأنهم ليسوا بشرا ولكنهم ملائكة. وقدرات الملائكة لا تقاس بقدرات البشر. كما أن لفح النار تؤثر في طبيعة خلقة المقدر تعذيبهم بالنار، والملائكة يقومون على النار دون أن يكون لحرها أي أثر عليهم.فرد القرآن على شغبهم بقوله : **وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة**

الاستبعاد الثاني: لماذا كانوا تسعة عشر ؟ فهلا كانوا آلافا مؤلفة حتى يستطيعوا ضبط أهل سقر. روي أن أبا الأشد بن كلدة الجمحي قال مستهزئا : لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة، وبمنكبي الأيسر تسعة ثم تمرون إلى الجنة. ورويت أخبار أخرى تصور استهزاءهم واستخفافهم بالوعيد. فرد القرآن عليهم: إن هذا هو الواقع ولكن جعلنا هذا العدد فتنة يفتتن بها الذين كفروا، فيخوضون في العدد، ويذهلون عن إصلاح عقيدتهم، والتأمل فيما جاءهم من الله.

وجعلنا هذا العدد **ليستيقن الذين أوتوا الكتاب**[اليهود] أن هذا القرآن منزل من عند الله. فكان العدد المصرح به يثبت للذين أوتوا الكتاب أنه منزل من عند الله، لأنه يتفق مع ما ذكر في التوراة.

ومن حكمة ذكر عدد الملائكة الموكلين بالنار أيضا، أن المؤمنين بك يزدادون إيمانا بازدياد عدد ما أعلمتَهم من المغيبات. فالزيادة ليست في ذات الإيمان، ولكن في الحقائق التي يؤمنون بها. فهي زيادة في كَمِّ المعلومات المؤمن بها من الغيب. وأيضا لينتفي الريب والشك عن الذين آتاهم الله الكتاب على لسان موسى عليه السلام، فيكون كفرهم بعد ذلك بك كفر عناد لا كفر رفض. وكذلك ينتفع المؤمنون بتوالي تصديقهم لكل ما تخبرهم به فيسمو حظهم من الإيمان.

والحكمة التالية في تحديد هذا العدد والإعلان عنه، إظهار ما كان يخفيه الكافرون والمنافقون [**الذين في قلوبهم مرض**] فيصرحون بما تنطوي عليه نفوسهم من تكذيب محمد في أن القرآن الذي يتلوه من عند الله، ويقولون: **ما ذا أراد الله بهذا مثلا؟** ما الأمر الذي أراده الله بهذا الكلام مع أنه مثل فلماذا لا يكون عشرين؟ يقصدون أن العدد المذكور لا حقيقة له، وبالتالي هو كلام مختلق من محمد. وقد سجل القرآن كلام الذين في قلوبهم مرض على الصفة التي جروا عليها في محاجتهم من الالتواء وعدم الوضوح.

كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء....إن ما تحقق في الخارج بناء على ذكر عدد الملائكة الموكلين بسقر،من تصلب الكافرين في كفرهم واستهزائهم ليزدادوا إثما، وعناد الذين أوتوا الكتاب بعد أن استيقنوا أن ما ذكر في الآية حق،واتخاذ الذين في قلوبهم مرض ذريعة للتشكيك والتساؤل، وما سكب في َقلوب المؤمنين من زيادة للإيمان بصدق الرسول. على هذا النحو من اختلاف الآثار على سبب واحد، يعطيكم أيها المؤمنون صورة من اختلاف تلقي العقول للحقائق، فينتفع بها البعض، وتزيد البعض الآخر ضلالا. وما ذلك إلا باختلاف كسب الإنسان، فيكون الأمر الواحد منطلقا لضلال من استكبر عن قبول الهدى وآثر العناد، ومنطلقا لاهتداء من وثق فيما يأتيه من ربه.فمن شاء الهدى أسعفه ربه بالعون، ومن شاء الضلالة حرمه الله الألطاف فأدلج في الانحراف والكفر.

وما يعلم جنود ربك إلا هو...الجنود هي القوة التي يحقق بها ولاة الأمور ضبط أحوال ما هو لنظرهم. وأضيف الجنود إلى ربك، فهي جنود الرب المالك لكل صغيرة وكبيرة في هذا الكون، وأضيف الرب للمخاطب " محمد" ربك" تشريفا له ﷺ . وجنود الرب هي ما رتبه بعلمه وقدرته لتنفيذ مراده. ومن تلكم الجنود ما خلقه

للقيام على المعذبين في سقر، وما خلقه لتحقيق النعيم لأهل الجنة، هذا في الآخرة، وفي الدنيا ما يؤيد الله به من يريد نصره فيقذف في قلوبهم القوة ويستل منهم الخوف، وبالعكس يقذف الوهن والخوف فيمن يريد انهزامه. ويصل ألطافه بمن يشاء ويحجبها عمن يشاء، وفي كل التصرفات جنود مسخرة لتنفيذ المراد المستجيب للعلم الممثل للحكمة التامة.ولا يستطيع أحد أن يضبط جنود ربك السائرة في الكون لا عددا، ولا ماهية، وفي طبيعة عملها.هو وحده سبحانه يعلمها العلم التفصيلي والعلم الإجمالي.

وبعد ما تتبعت هذه الآية مسترشدا بكلام المفسرين، أريد أن أبسط توقفي في عد هذه الآية مما نزل بمكة. وأكبر الظن أنها نزلت بالمدينة، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضعها في مكانها هذا. وذلك

أولا: أن ما قبلها من الآيات وما بعدها جاء على نسق واحد من القصر شأن الآيات المكية في أول الوحي.وطالت هذه الآية طولا لا يناسب ما قبلها ولا ما بعدها.

ثانيا: وقعت العناية فيها بأهل الكتاب ذكروا مرتين فيها، والإسلام ما يزال في أول عهده يقارع المشركين، ويدك حصون عنادهم. وأهل الكتاب لا يمثلون في المجتمع المكي قوة يتوجه إليها القرآن بمثل هذا الإلحاح.

ثالثا: توجهت الآية للذين في قلوبهم مرض، الذين ينطوون على بغض الإسلام والكيد له، وهم المنافقون الذين تغلي قلوبهم غليان المرجل حقدا، ولكن لا يصرحون بما انطووا عليه. والنفاق لم ينشأ في بداية الدعوة، وإنما نشأ واستغلظ في المدينة بعد الهجرة.

رابعا : الحديث الذي رواه الترمذي عن جابر بن عبد الله، قال : قال أناس من اليهود لأناس من أصحاب النبي ﷺ : هل يعلم نبيكم كم عدد خزنة جهنم ؟ قالوا: لا ندري حتى نسأله. فجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد !غُلِبَ أصحابك اليوم.قال وبِمَ غلبوا ؟ قال: سألهم يهود: هل يعلم نبيك عدد خزنة جهنم ؟ قال: فما قالوا؟ قال: قالوا:لا ندري حتى نسأل نبينا. قال: أَفَغُلِبَ قوم سئلوا عما لا يعلمون ؟قالوا: لا نعلم حتى نسأل نبينا.ثم شوّه بموقف يهود من رسولهم. فلما جاؤوا قالوا يا أبا القاسم كم عدد خزنة جهنم؟ قال هكذا وهكذا في مرة عشرة وفي مرة تسعة. قالوا: نعم. الجامع الكبير للترمذي ج5ح3327ص354 وهو حديث ضعيف علق عليه الترمذي: هذا حديث إنما نعرفه من هذا الوجه من حديث مجالد. يعني أن مجالدا ضعيف لا يحتج به. وهذا الحديث وإن كان في سنده مقال إلا أن معناه يتأيد بما ذكرناه من النواحي الثلاثة قبله التي ترجح أن الآية مدنية

وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَالْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ
﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ
﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ
﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾
وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ
الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰ أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

أدبر : تولى.

أسفر الصبح : أضاء وانتشر ضياؤه، قبل بزوغ الشمس.

الكبر : الدواهي العظيمة.

رهينة : محبوسة أو ملازمة ومقارنة لما كسبت.

ما سلككم : ما الذي أدخلكم وزج بكم ؟

الخوض :اشتهر إطلاقه في القرآن على الجدال بالباطل واللجاج.

يوم الدين: يوم الجزاء.

بيان المعنى الإجمالي :

ما قصدنا بما ورد في الآية السابقة إلا أن يتذكر البشر بمضامينها ويعتبروا بها. فيُقْدِمُون على الإيمان وفعل الخير ويبتعدون عن الكفر والشر. كلا اردع لمن لم يتذكر. ثم أقسم بالقمر والليل في حالة توليه، والصبح إذا وضح ضياؤه. إن التذكرة أو النار هي الكبيرة العظمى التي ذكرناكم بها لنوقظكم لأهوالها. ولا نلزم أحدا ولا نقسره على شيء.فمن شاء أن يتقدم إلى الإيمان و طريق الخير فعل ونجا، ومن أعرض واختار الكفر تحمل عاقبة كفره في سقر.

كل نفس محبوسة بعملها كان خيرا أوشرا يصحبها ولا يفارقها. لكن أصحاب اليمين أهل السعادة في الآخرة يحتلون الجنات الموصوفة في القرآن، وهم يكثرون السؤال عن المجرمين، ألهموا البحث لمعرفة وضعهم. تصل اسئلتهم إلى المجرمين ويجبرون على إجابة سؤال الأتقياء لهم: ما الذي أدخلكم في سقر ؟ فيجيبون والحسرة تقطِّع قلوبهم : الذي جعلنا داخلين في سلك أهل سقر أربعة أمور:

الأول: أنا قطعنا صلة العبادة لله، فما كنا نتجه له بالصلاة أصلا. وما كنا نرأف بالجائع المسكين. غلظت عواطفنا فقطعنا الصلة بهم. وكنا نهتم أشد الاهتمام في الجدل الباطل، والعمل على تشكيك الناس في الإسلام. وكنا ننفي نفيا قاطعا يوم الجزاء، وأن نبعث من قبورنا بعد الموت. واصلنا حياتنا ملتزمين بهذه الضلالات الأربع حتى فوجئنا بأن ما كنا نكذب به قد أتانا، فأصبح يقينا لا شك فيه.ما أعظم خسرانهم، إنهم لا أمل لهم فأعمالهم سيئة، وعقيدتهم ضالة،ولا تنفعهم شفاعة ملك ولا رسول. قد تُرِكُوا لسيء أعمالهم وعقائدهم يعذبون بها.

بيان المعنى العام :

31-وما هي إلا ذكرى للبشر..

افتتحت خاتمة الآية بضمير "**هي**" فما هو معاده ؟فهم المفسرون الآية على أوجه عديدة، كلها تحتملها الآية.

أ-وما "هي" النذارة التي وردت فيما سبق من الآية بمجموعها وتفاصيلها، إلا ذكرى للبشر توقظهم، باستحضار الغيب الذي سيتحقق في الآخرة، وتنبيه لهم حتى يقبلوا ما جاء فيها للاعتبار، والتهيؤ ليوم القيامة.لا على ما اتخذه الضالون مثارا للسخرية والمراء.

ب- الضمير يعود على سقر. باعتبار أن الحديث عنها من شأنه أن يكون ذكرى للبشر ليستعدوا.

جـ - الضمير يعود على الجنود. وهو نظير ما جاء في "ب"

د- الضمير يعود إلى نار الدنيا. أي إن نار الدنيا تذكر البشر بآلام جهنم ليحذروا ما يؤدي إليها. وكلها احتمالات متقاربة.

32←34- كلا والقمر والليل إذ أدبر....إذا أسفر.

تنحل الآية الأولى إلى عنصرين :

العنصر الأول: كلا- وهي أداة تفيد ردع المخاطب، إما عن كلام سابق، أو تعجيل للردع عن مضمون كلام لاحق. فإذا حملناها على الكلام السابق دلت على الردع وإنكار موقفهم من الذكرى لأنهم لا يتذكرون، وإن حملناها على الكلام اللاحق ففيها ردع لمن ينكر أن تكون إحدى الكبر.

العنصر الثاني: القسم الشامل، للقمر، **والليل إذا أدبر. والصبح إذا أسفر**.أقسم القرآن بثلاثة مظاهر عجيبة في مسار الكون. الجامع بينها النور الذي يهتك الظلمة. فالقمر بنوره يبدد شيئا من ظلام الليل، والليل عند توليه وقرب سطوع

الفجر.والصبح عندما يأخذ ضياؤه في الظهور.فهي أحوال من مشاهد الكون تهيء لما يناظرها من ظهور الإسلام في ظلام الشرك الدامس.

35←36-إنها لإحدى الكبر...

إن النذارة وأمر الآخرة لهي بكل تأكيد، المتوحدة في العظم لا نظير لها. فليس المراد أنها واحدة من الأمور الكبيرة العظيمة، بل المراد أنها أعظمها. كما تقول إنه هو أحد الرجال؛ يفيد أنه متوحد من بينهم لا يدانيه غيره.

نذيرا للبشر.... هي إحدى الكبر، حالة كونها منذرة للبشر سوء العذاب في جهنم.

37-لمن شاء منكم أن يتقدم..

نذيرا للبشر، تفصيل النذارة للبشر: أن من تعلقت مشيئته بعد سماعها أن يتقدم للأخذ بالحقائق التي نبهت إليها، ويستقيم على الطريقة التي دعت إليها، يسعد.وإن من شاء أن يتأخر عن التذكر بما جاءت به معرضا عن الإيمان، يشقى.وإن قدّرْنا أن من شاء أن يتقدم أو يتأخر عائد إلى سقر، يكون على العكس من التقدير الأول : يتقدم لسقر بالرفض وسيء الأعمال، ويتأخر عنها بقبول ما جاءت به النذارة من تحذير.

38-كل نفس بما كسبت رهينة.

كل نفس محبوسة بعملها من خير أو شر، أوهي مقارنة لما عملته من خير أوشر لا تنفك عنه. فالكلام يمثل قاعدة يكشف عنها القرآن ليعلّمها كل إنسان فيأخذ لنفسه الحيطة من مدلولها.

39←42- إلا أصحاب اليمين في جنات.... ما سلككم في سقر

الاستثناء بمعنى لكن.فالمعنى لكن **أصحاب اليمين**. وأصحاب اليمين وصف للناجين الخيرين، بينهم وبين اليمين صلة قوية : كتناول صحفهم باليمين.وهم في مقابل أهل الشر الذين هم أصحاب الشمال.فيطلق القرآن أصحاب اليمين على السعداء يوم القيامة، وأصحاب الشمال على الأشقياء. ثم اهتم بتفصيل أخبار أصحاب اليمين، فذكر أولا منازل النعيم التي يكرمون فيها، إنهم في جنات على ما اختصت به جنات يوم القيامة من واسع الفضل وكريم المثوبة.وأن من اهتماماتهم: أنهم يكثرون السؤال عن شأن المجرمين، ويمكنهم ربهم من توجيه السؤال إليهم ويسمعونهم، يقولون لهم ما الذي أدخلكم سقر، فانتظمتم في زمرة المستقرين بها؟ وهذا السؤال الذي يلهمه الله لأصحاب اليمين، والجواب الحاصل منهم مما يكونون مضطرين للإجابة به، تنكيلا بالمجرمين لمضاعفة عذابهم في سقر برؤية أصحاب اليمين الذين

كانوا يعرفونهم، وقد كانوا يسخرون من بعضهم ويستكبرون عليهم، رؤيتهم في النعيم، وأنهم مسؤولون لديهم ومرغمون على إجابتهم. ويزداد أصحاب اليمين سعادة بما هم فيه فيحصل لهم من شكر الله على فضله عليهم مضاعفةً فيما يستلذونه.

43←47- قالوا لم نك من المصلين...بيوم الدين.

سجل القرآن أربعة من عظائم ذنوبهم التي يقرون بها فيزدادون حسرة بإقرارهم بها، و ندما عما فرطوا في الدنيا.

كانت خطيئتهم الكبرى التي قدموها والتي شعروا أنها الموبقة لهم أصلا: أنهم قطعوا صلتهم بالله، ففسدت قلوبهم، وفسدت فعالهم تبعا لذلك.

وثانيا: أن صلتهم بالمجتمع الذي كانوا يعيشون فيه منقطعة تسودها القسوة لا الرحمة. فما كانوا يرحمون الجياع المساكين الذين يستدرون العطف، بلقمة عيش.

وثالثا: أن همهم في الحياة الذي محضوا له نشاطهم هوالخوض في وحل الاتهامات التي يرمون بها النبي صلى الله عليه وسلم ويؤذون بها المؤمنين، فبمقدار انفصالهم عن المجتمع وعن أهل الخصاصة،يذكرون أنهم كانوا متعاونين مع الخائضين في المكر بالإسلام وأهله.

ورابعا : تكذيبهم بيوم الجزاء.إنهم كذبوا ما أنذرهم محمد من أنهم موقوفون عند ربهم مجزيون بأعمالهم. وعدم إيمانهم بأنهم مجزيون عن أعمالهم أفقدهم المعيار الذي يقوّمون به أعمالهم الباطنة والظاهرة، فانطلقوا مع شهواتهم ومع غرائزهم.

47- حتى أتانا اليقين.

واصلنا حياتنا على ذلك النسق، إلى اليوم الذي باغتنا يوم الجزاء، بعد أن كنا نظن أنه لا يأتينا. فحصل لنا العلم اليقيني بما كنا ندعي استحالته وذهب كل تردد ونفي.

48- فما تنفعهم شفاعة الشافعين.

هذه هي الخاتمة التي تفيد اليأس النافي لكل أمل في الخروج من وضعهم. كانت أعمالهم سيئة وعقيدتهم خبيثة ضالة، فما بقي لهم من رجاء إلا أن يتقدم شافع عند رب العزة فيشفع فيهم، ويخرجهم من سقر.فنفى القرآن نفيا قاطعا أن ينتفعوا بأي شفاعة كانت.

فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٥٣﴾

كَلَّا إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

حمر مستنفرة : حمر وحشية هاربة.

قسورة : يطلق على الأسد وعلى الصيادين المهرة.

المنشرة : المفتوحة و المقروءة .

أهل التقوى : مستحق التقوى.

بيان المعنى الإجمالي :

عجب أمر هؤلاء المشركين، ما لهم ينفرون من المواعظ والتذكير بالقرآن ؟ ما هذه النفرة الشديدة التي تمكنت منهم فأصبحوا كلما سمعوا الموعظة أو الآيات المحركة للقلوب يفرون،كأنهم حمر وحش أحست بالخطر من أسد أو قناص، فرفعت أذنابها وفرت لا تلوي على شيء.بل أعظم من ذلك أن كل فرد من كبرائهم يقترح أن ينزل الله عليه كتابا باسمه فيه دعوته إلى الإيمان بمحمد، وإلا فإنه لا يؤمن.كلا ! ردع لهم عن مثل هذه المقترحات، ثم إن السر في إعراضهم أنهم كذبوا بيوم القيامة وبالجزاء في الآخرة، ففسدت بذلك عقيدتهم، وأعمالهم.

كلا.ردع آخر لهم، مقترن بالتصريح بحقيقة القرآن: إنه مذكر لهم يحرك قلوبهم وفكرهم ويبسط عليهم الحق بسطا جليا واضحا. ولا يقسرهم على اتباعه، بل يترك لهم الخيار، ليكون جزاؤهم حسب اختيارهم. والله من رواء ذلك هو الماسك بتدبير ما يقع في الكون، وما ترجحه العقول وتأنس له الضمائر. فمشيئته عامة وهي الفاصلة فيمكن من أراد من ألطافه، ويخذل من يشاء فيحجب عنه ألطافه. هو وحده الحقيق بأن يتقى عذابه، ويتقرب إليه.وهو وحده الغفار من الكفر لمن أقر بالإسلام، الغفار للمعاصي لمن تاب واتقى.

بيان المعنى العام :

49←51- فما لهم عن التذكرة معرضين...قسورة.

تعجب من حال إعراض مشركي مكة عن القرآن الذي يذكرهم، ويهديهم للحق المعقول في العقيدة،ويفتح لهم آفاقا في فهم الكون، وفي العلاقات الاجتماعية. إن نفرتهم من التذكير بالقرآن وبالبيان النبوي أمر مستغرب. يُسألون عنه سؤالا يقصد منه التعجيب من غرابة حالهم. وقد كان نفارهم شديدا.جَسَّمه القرآن بتشبيهه بفرار

الحمر الوحشية، وقد أحست بأسد يترصدها، أو بالقناصة من حولها لاصطيادها.ولما كانت ليس لها قوة تدافع بها عن نفسها وليست ملهمة للمراوغة والاحتماء من الأخطار، فإن بقاءها مرتبط بشدة حذرها، وقدرتها على نفراها بالجري والابتعاد مما تتوقع منه الخطر.

52- بل يريد كل امرئ منهم...منشرة.

انتقال من حالة إعراضهم التي لا مبرر لها، إلى صورة من صور عنادهم، ذلك أن كبراءهم لقوة صدودهم عن الهدى، اقترحوا على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتي لكل واحد منهم بكتاب فيه: من الله، إلى فلان ابن فلان. فكل واحد من المعاندين طلب أن تأتيه صحيفة باسمه فيها ما هو مأمور به وما هو منهي عنه. وأن تكون تلك الصحف مفتوحة مكشوف مضمونها غير مطوية.

53- كلا بل لا يخافون الآخرة.

افتتحت الآية بقوله "كلا " إبطال لما اقترحوه وردع لهم عن ظنهم أن الله تعالى يكتب رسالة خاصة لكل واحد منهم. فهذا لا يقترحه إلا متجرئ على مقام الألوهية. كيف وهم يعبدون أصناما جامدة ويقدسونها. ثم أضرب عن كلامهم بإثبات سر فساد عقيدتهم، وجراءتهم، أنهم لا يؤمنون بالآخرة ولا يخافون أن يوقَفُوا فيها موقف الحساب.

54←56- كلا إنه تذكرة فمن شاء ذكره...وأهل المغفرة.

ردع لهم عن تلكم المقترحات المنبثقة عن عناد، وتصميم على التكذيب. رُدِعُوا لأن القرآن في ذاته يمثل تذكرة عظيمة، في نسجه، وفيما يتضمنه من هداية، وأنه مفتوح لكل من تعلقت همته بالتعمق في محتواه. ما على الإنسان إلا أن يعزم على الانتفاع به، ويعود إليه متأملا فيستفيد منه الذكرى. إن هذا هو المقدار الذي يؤاخذ عليه العبد. القرآن قد تم تبليغه للناس، فهو حاضر لديهم، وإن الله قد مكنهم من أدوات الفهم لنصوصه، ومن التأمل في آياته. وإنهم إذا وجَّهُوا عنايتهم تحصل في أذهانهم الحقائق التي تضمنها. فمن شاء أن يتأمل فيه هو ممكن، ومن شاء الإعراض عنه هو مُمَكَّنٌ أيضا.وإلى هذا الحد تثبت مسؤولية كل فرد عن قصده بفتح عقله له، أو بصدوده عنه.

ثم إن وراء ذلك أسبابا خفية لا نقدر على الاطلاع عليها يجريها رب الكون حسبما ضبطه في سابق علمه. يلطف بمن شاء فيجعل ما حصل في ذهنه يسوقه إلى الإيمان، والاستقامة ،أو يخذل الشخص فتقوم في ذهنه معوِّقات عن الاستجابة لما

حصل في ذهنه من القرآن.والألطاف أو الخذلان بيد الله وحده. ولا يمكننا في حدود الطاقة العقلية لنا،أن نَنْفُذَ إلى السر الذي ينتهي به الحاصل الذهني إلى الخير، أو أن ينتهي إلى الكفر والشر. وهو معنى **وما تذكرون إلا أن يشاء الله.**

هو أهل التقوى وأهل المغفرة..تبين لنا من الكلام السابق أن المشيئة التي عليها يدور ما ينفذ في الكون والأفراد هي المشيئة الإلهية. وأكمل هذا الجزء من الآية المفهوم الإلهي بما يفيد أنه سبحانه أهل التقوى، مستحق أن يرعى الفرد حقوقه تعالى من الإيمان به وتطبيق ما شرعه، والحذر من مخالفته. وأنه مختص بذلك فلا يُرْهَبُ أحد على أنه العالم بضمائر البشر القادر على مجازاتهم بما أضمروا وبما فعلوا إلا الله سبحانه.

وأهل المغفرة: أنه وحده الذي بيده محو الذنوب أو تثبيتها والجزاء عليها. وذلك تبعا لعظيم رحمته، وواسع كرمه. وفي التذكير بهذا الاختصاص الإلهي دعوة للمشركين كي يقلعوا عن الشرك، ويؤمنوا بمحمد وبما أنزل عليه، ليمحو كل التجاوزات الصادرة منهم قبل ذلك. ودعوة أيضا للمذنبين من المؤمنين ليسرعوا بالتوبة من انحرافاتهم رجاء أن يغفر الله لهم ما اقترفوا.

9 رمضان 1435 - 2014/7/7

سورة القيامة

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وفي كتب التفسير والسنة. أخذ اسمها من الآية الأولى فيها [لا أقسم بيوم القيامة] وهي مكية باتفاق. ورتبتها حسب ترتيب المصحف الخامسة والسبعون. وحسب ترتيب النزول عدت الحادية والثلاثين. نزلت بعد سورة القارعة وقبل سورة الهمزة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ﴿١﴾ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَلَّن نَّجْمَعَ
عِظَامَهُ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ
﴿٥﴾ يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ
الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ
يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ
بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

بنانه : طرف الإصبع.

ليفجر: السوء الشديد، ويطلق على الكذب.

أمامه : أصله ضد خلْف، والمراد منه المستقبل.

أيان : متى، بما يحدد الأمد.

برق : لمع بصره، دهش وتحير فلم يطرف.

الوَزَر : الملجأ.

المستقر : مكان القرار الثابت.

بصيرة : بصير قوي العلم بنفسه.

ألقى : أخبر بصراحة.

المعاذير : اسم جمع لمعذرة بمعنى العذر.

بيان المعنى الإجمالي :

قسم مؤكد بيوم القيامة، وقسم مؤكد بالنفس الخيرة التي تراقب سلوك صاحبها وتلاحقه إما بالتأنيب عن تجاوزاته، أو لومه عن تقصيره في الخير لمَ لمْ يدخر أكثر منه لآخرته. والمقسم عليه مقدر إن يوم القيامة حق. أيظنّ الإنسان الكافر أنا لن نجمع عظامه بعد أن يلحقها البلى؟ بكل تأكيد قدرتنا تحقّقُ عودة الأجسام على الوضع الذي كانت عليه، فنحن قادرون على إعادة هيكله وعلى إعادة كل جزء ولو صغيرا إلى ما كان عليه، حتى أطراف أصابعه بخصائصها.

بل يريد الإنسان الكافر أن يواصل فجوره فلا يؤمن بالله، ولا يلتزم الخير، ويستسيغ الشر والفسق سائرا في طريقه الضال إلى النهاية. ومع فجوره وفسقه، يتهكم بالبعث ويسأل متى يقع يوم القيامة. يوم القيامة فيه أهوال شديدة : تشخص الأبصار وتبقى مفتوحة من شدة الدهش والحيرة.ويظلم القمر بخروجه من مساره ظلاما لا ضوء بعده، ويقترن القمر بالشمس. وييأس الكافر فيتمنى أن يجد مكانا آخر يفر إليه.ويعاجله الجواب الذي يدخل عليه اليأس من الفرج.لا مخلص ولا مكان تفر إليه. فأنت تستقر مع غيرك استقرارا لا محيد عنه في الموضع الذي حدده لك ربك، وقد تفرد بالملك والتصرف.وفي هذا اليوم ينبأ الكافر بما قدم من جرائم وآثام، كما ينبأ بما سن من ضلالات اتبعه فيها الذين أضلهم فيتحمل قسطه من الوزر على ذلك.

ووسيلة الإثبات لا تقتصر على ما ينبأ به.بل إن الإنسان ذاته لا يخفى عليه شيء مما فعله في دنياه. أودع الله في نفسه ما يجعل كل ما قام به حاضرا في ذهنه كأنه مشاهد. ولو تخبط بتقديم الأعذار، فإنه يكذب أعذاره.

بيان المعنى العام :

1-لا أقسم بيوم القيامة.

هذا قسم بيوم القيامة. والقسم طريقة قوية للتأكيد. ولكنه جاء في الآية مسبوقا بحرف النفي. وهذا الأسلوب في إرادة التأكيد بالقسم، ثم نفي القسم، هو أسلوب يدل على المبالغة في التأكيد،كأن المتكلم يقول إن ما سأذكره بلغ أقصى غايات التحقق، وليس في حاجة إلى التأكيد. ونظير هذا قوله تعالى: **(فلا أقسم بمواقع النجوم)**[1] ويوم القيامة هو يوم الجزاء الذي يحرج الكافرين الإنباء به، وإنه اليوم الذي ينتفي أن يكون لأحد قدرة أو تأثير ولو ظاهريا وينفرد رب العزة بالملك يومئذ. والمقسم

---

[1] سورة الواقعة آية 75

عايه مقدر مفهوم من الكلام التالي في قوله: **أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه.** فيكون التقدير لاأقسم بيوم القيامة لنجمعن عظام الإنسان.

2- ولا أقسم بالنفس اللوامة.

عطف على القسم بيوم القيامة، القسم بالنفس اللوامة على نفس الأسلوب. **والنفس اللوامة** الشديدة اللوم والتأنيب لصاحبها. وهي نفس المؤمن في دنياه الذي تعلق بمولاه، وأحبه حبا يجعله يستعظم كل تقصير. فإذا فعل الخير لام نفسه إذ لم يزدد منه، وإذا عصى أخذت نفسه تؤنبه وتقرّعه كيف يقتحم المعصية وربه مطلع عليه، ونعمه تحيطه من كل جانب.هي النفس اليقظة التي تعود إلى ما كسبت فتقومه، وتعترف بما فيه من نقص، وتسرع إلى جبر التقصير راغبة أن تسعد برضا ربها.فهذه النفس الخيِّرة أكرمها ربها بالقسم بها، وجعلها معادلة لليوم العظيم يوم القيامة.

3- أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه.

كما قلنا هذا دليل المقسم عليه [لنجمعن عظامكم ونبعثكم للحساب] والآية تسجل عناد الكافرين، فالإنسان هو الكافر المصمم على أن عودة الإنسان بعد موته إلى الحياة بعد أن تكون عظامه قد بليت وتفتت، أمر مستبعد جدا لا تصدقه عقولهم. ولذا عبروا عن النفي ب " لن" لإمكان البعث وإعادة العظام وما عليها إلى ما كانت عليه.

4- بلى قادرين على أن نسوي بنانه.

إبطال لما استبعدوه، من جمع العظام بعد أن بليت. بل نجمع عظامه، إما بخلقها خلقا جديدا على النحو الذي كانت عليه في الدنيا، وإما بجمع ما تفرق من الأجزاء فتعود كل ذرة إلى بقية الذرات وتلتئم معها. ويؤكد القرآن أن الله قادر على أن يعيد على أكمل هيئة أطرافه التي ينتهي إليها الجسم. فأطراف الرجلين هي أطراف أصابعها، وأطراف اليدين هي أطراف أصابعها، وإذا كانت القدرة توجد أصغر الأعضاء، وتسويها على أتم صورة،فإنجاز القدرة لبقية الأعضاء من باب أولى وأحرى. ومن ناحية أخرى فإن أطراف أنامل اليد فيها تخطيط هو بصمة ذلك الإنسان، ولا تجد إنسانا تتحد بصمته مع غيره من البشر. فالآية تشير إلى أن البعث سيكون به كل إنسان صورة دقيقة لما كان عليه في الدنيا.

5- بل يريد الإنسان ليفجر أمامه.

انتقال إلى حالة أسوأ من حالات الإنسان الكافر. تتعلق إرادته بمواصلة الفجور، من التكذيب بالبعث، ونفي الخالق، والاسترسال في ارتكاب الآثام.فلا هو مقرٌّ بالبعث، ولا يجد من نفسه رادعا عن الفساد فهو يمضي فيه ثابتٌ عليه فيما يستقبله من الأزمان.

6-يسأل أيان يوم القيامة.

من تصلبه في تكذيبه بيوم البعث، أنه يسأل سؤال المستبعد، والمستهزئ، طالبا الوقت المحدد الذي يأتي فيه يوم القيامة. فسؤاله ليس سؤال رغبة في المعرفة، ولكنه تعريض بأنه غير واقع أصلا. فهذا الإنسان الكافر مقيم على فجوره في العقيدة والسلوك مكذِّب ومستهزئ بيوم القيامة.

7←10- فإذا برق البصر وخسف القمر...أين المفر.

سألوا سؤال تهكم عن موعد يوم القيامة، فكان الجواب تفصيل أهواله التي كان عليهم أن يتحصَّنوا منها بالإيمان والعمل الصالح. إن يوم القيامة هو اليوم الذي تشخص فيه الأبصار من الحيرة في مقابلة الأهوال العظيمة. وإذا شخص البصر ولم تطرف العين كان لمعان العين أكمل. وما ذلك إلا من شدة الرعب الذي **تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت.** هذا وضع الإنسان يوم القيامة عندما يبعث. وفي هذا اليوم يزول بناء الكون فالقمر يخرج من مداره حول الشمس فينطمس نوره. وبعد أن رتب نظام الكون لكل كوكب مداره، وبعده الدقيق عن غيره، يلتصق القمر بالشمس فيفسد كل منهما بهذا الجمع. هي مشاهد تبعث الرعب الشديد والحيرة فأصوات الانفجارات التي تصم الآذان، والاختلال بعد النظام،يبعث في نفس الإنسان الكافر اليأس، والقنوط، والخوف، فيتمنى في ذلك اليوم الذي برق فيه البصر وجُمِع الشمس والقمر، أن يجد مخلصا من ذلك الوضع يفر إليه، ويبتعد عن هذا المشهد الذي لا يطاق.

11←13- كلا لا وزر إلى ربك يومئذ....قدم وأخر.

ردع لما جال في نفسه من أماني.لا ملجأ لك أيها الكافر، تنفذ فيك اليوم الأحكام الإلهية، لا تجد منها مخلصا. إلى الله وحده سيكون قرارك الذي تثبت فيه ثبوتا لا تتحول عنه، فلا الأصنام التي كنت تعبدها بمغنية عنك، ولا أموالك وأتباعك وأهلك بدافعة عنك شيئا من الجزاء الذي أنت مستحقه. يُنبَّأ الكافر بكل عمل سيء قدمه في الدنيا، ويقرن بجزائه، بما يظهر العدل الإلهي. ويقترن الجزاء بالتقريع والخزي مما قدم. ينبأ بما قدم في حياته من فساد وشر، وينبأ بما سنه من ضلالات بقيت بعده، ويتحمل أوزارها.

14←15-بل الإنسان على نفسه بصيرة ولو ألقى معاذيره.

أثبتت الآية السابقة أن الإنسان الكافر يُعرّف بكل إثم من آثامه. بل الأمر أشد من هذا فإن كل إنسان يعرف أوضح معرفة ما فعله من شر. فهو بصير بنفسه لا يستتر

عنه شيء مما فعله. ولا تفارقه معرفته للحقيقة، وإن حاول أن يخفي الشر الذي صنعه بمختلف المعاذير. فإنه حتى في هذه الحال التي يقدم فيها سيل الأعذار. اقتناعه الداخلي بما قدم واضح.

﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍۭ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

فاتبع قرآنه: أنصت قراءتنا

علينا : نتكفل ونتعهد.

ناضرة : من النضْرة؛ مشرقة حسنة ناعمة فرحة.

باسرة : يعلوها الكمد،عابسة.

فاقرة : داهية عظيمة.

بيان المعنى الإجمالي :

شملت العناية الإلهية محمدا صلى الله عليه وسلم. فكما خصَّه بالرسالة الخاتمة وبإنزال القرآن عليه،دعاه أن لا يجهد نفسه عندما ينزل عليه جبريل بالقرآن لما كان يسرع بتحريك لسانه بما يسمعه بمجرد سماعه، وقبل أن يكمل جبريل الوحي مخافة أن يتفلت منه شيء، فنهاه أن يحرك بالوحي لسانه قبل تمامه وأن يستمع ساكتا إلى أن يتم جبريل القراءة، وضمن له أنه يجمعه في صدره وقراءته.وفوق ذلك فنحن متكفلون بأن نبينه للناس بلسانك.

ثم عاد القرآن لردع الكفرة فقرعهم بسبب ترجيحهم للملاذ العاجلة ملاذ الدنيا، التي يسرع لها الفناء ولا تبقى، على النعيم الحق الباقي الذي لا يفنى نعيم الآخرة. وبذكر الآخرة ميز بين ما يلاقيه البشر في ذلك اليوم يوم القيامة.ففريق وجوههم نيرة ضاحكة مستبشرة تنتظر ربها نظرا لا يحده مكان ولا يجري على قوانين البصر المعروفة في الدنيا، ولكنه تكريم لهم.الله أعلم بكيفيته.وفريق آخر علت الكآبة وجوهم عابسون متيقنون أن الدواهي ستنزل عليهم، عذابها وأذاها يفوق التصور.

بيان المعنى العام :

17/16- لا تحرك به لسانك لتعجل به. وقرآنه.

صلة هذه الآية بما سبقها يتخرج على أن نزولها قارن نزول الآيات السابقة، فوضعت في هذا الموضع بوحي من الله. ويزيد معناها وضوحا الحديث الذي أخرجه الشيخان واللفظ للبخاري بسنده إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كان رسول الله ﷺ إذا نزل جبريل بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه فيشتد عليه، وكان يعرف منه، فأنزل الله الآية التي في لا أقسم بيوم القيامة – لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه. قال: علينا أن نجمعه في صدرك وقرآنه، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. فإذا أنزلنا فاستمع، **ثم إن علينا بيانه**. علينا أن نبينه بلسانك. قال: فكان إذا أتاه جبريل بالوحي أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله.[1]) فالمخاطب بالآية هو النبي ﷺ. يقول له رب العزة لا تجهد نفسك، ولا تنهك قواك عندما يأتيك الوحي فالقرآن بطبيعته كما وصفه منزله: قول ثقيل. (**إنا سنلقي عليك قولا ثقيلا**)[2] والاتصال بين الملك وبين الإنسان يؤثر في المتلقّي تأثيرا وصفه الصحابة بالشدة حتى إن جبينه ليتفصد عرقا في الليلة الشاتية. ومع ذلك كان حرصه القوي على تبليغ الأمانة التي وُكِّل بها على الوجه الذي تلقاها به، جعله يحمل نفسه في تلكم الظروف، أن يكرر بلسانه ما يتلقاه عن جبريل فينازعه القراءة مسارعة للحفظ ومخافة أن يتفلَّت منه شيء فيأخذه على عجلة.فأُمر أن يستنصت لجبريل عندما يقرأ عليه النص.

18- فإذا قرأناه فاتبع قرآنه.

أسند القراءة لذاته العلية وإن كان القارئ المباشر جبريل ليقوي ثقته، أنه على قرب شديد من ربه يؤيده ويرفع الضعف الذي من شأنه أن يلحق بالإنسان.فهذا الضعف لا تخش منه يا محمد فإنا نثبت ما تسمع في ضميرك ولا تنسى منه شيئا. فاستمع منصتا لجبريل وكن مطمئنا إلى أنه لا يتفلت منك شيء. نجمعه في صدرك متكفِّلين بقراءتك له كما أنزل عليك.

19- ثم إن علينا بيانه.

وفوق تثبيت القرآن في صدرك نتكفل لك أيضا بأنا نُقْدرك على بيان ما نزل عليك بلسانك. أي أن تقرأه قراءة واضحة بينة، وترتله ترتيلا

---

[1] فتح الباري ج10ص11/308

[2] سورة المزمل آية5

20←21- كلا بل تحبون العاجلة...الآخرة.

لما كان وضع الآيات السابقة19/18/17/16 في هذه السورة منشؤه نزولها في أثناء السورة. عاد الكلام إلى نظم هذه الآية مع الآيات كلا لاوزر11 إلى ولو ألقى معاذيره 15 –فتكرر [كلا] للربط ولتأكيد الردع، ولإبطال ما سجل على الإنسان الكافر، أنه **يحسب أن لن نجمع عظامه** الآيات... ليس في جعبتهم ما يصلح أن يكون عذرا، ولكن سرُّ خذلانهم وكفرهم أنهم أحبوا الدنيا، رجحوا دواعي الشهوة فأطاعوها. وحسبوا أن لا وراء نعيم الدنيا نعيم آخر فعبوا من ملاذها، وأغفلوا رقابة الله عليهم.فقرعهم مواجها لهم بقبيح صنيعهم : إنكم لقصر نظركم تحبون العاجلة حبا تجعلونها هي الكل وأن لا شيء وراء نعيمها وعبر عنها بالعاجلة تنبيها لأنهم اغتروا بما أحسوا به إحساسا سريعا، ومن طبيعته أنه لا يدوم، ورجحوه على ما هو دائم باق من النعيم الذي هو نعيم الحياة الآخرة.

23/22- وجوه يومئذ ناضرة...ناظرة.

كان من ضلال الكافرين حبهم للعاجلة وتركهم للآخرة.ثنى القرآن بذكر وضع البشر يوم الآخرة.وقسمهم إلى قسمين :

قسم: وجوههم مشرقة ناعمة، استقر في نفوسهم البشر والرضا فبدت آثار ذلك على وجوههم، كقوله تعالى: (**تعرف في وجوههم نضرة النعيم**)[1] وهم ينظرون إلى ربهم. هذه الآية من المتشابهات، لأن مقاييس تحقق الإدراك البصري تقتضي انعكاس الشعاع على المرئي المحدود في المكان. وهذا ما يتفق المؤمنون جميعا على نفيه، ولا يقبل أن تحمل عليه الآية، تعالى الله أن يكون محدودا في مكان، أو أن ينعكس عليه شعاع. وبعد هذا كان للسلف موقف يتمثل في أن اهتمامهم الأول أن يقيموا الدين وينشروا شرائعه. وكل نص اعترضهم لا يمكن حمله على ظاهره يؤمنون به ولا يبحثون عن شيء وراء ذلك. وكانت هذه قاعدة لهم مَضَوْا عليها رحمهم الله وأكرم مثواهم. وأخذ مذهبهم هذا السلفية التي ترى أن كل نص مجمل متشابه يقولون إنا نؤمن به، ونصرفه عن ظاهره، ولا نفصل في الوجه الذي يصرف إليه. وفرقة تمسكت بإجراء النصوص على ما تقتضيه القواعد اليقينية فنفَوْا نفيا قاطعا ظاهرَها، وسعوا في تأويلها تأويلا يستجيب لتلك القواعد دون أن يجدوا حرجا من ذلك. على معنى: إلى ثَوَابِ ربها منتظرة. وذهب أهل السنة من الأشاعرة والماتريدية إلى التأويل مع محاولة الجمع بين النصوص فأثبتوا رؤية الله، وأنها ليست على الصفة التي تتم بها الرؤية في الدنيا.والذي نطمئن إليه في كل ما

[1] سورة المطففين آية 24

يتعلق بالخالق أن نؤمن بأن ما ذكره الله عن نفسه حق، وأن تصوره بالدقة التي انتظم بها الإدراك في الدنيا تصور غير صادق فكل ما تعلق ببالك فالله مخالف لذلك. فلا ننفي الرؤية، ولا نكيفها، ونفوض المراد من ذلك إلى الله سبحانه. وقسم بدا على وجوههم الكآبة والظلمة والأسى، تبعا لما استقر في نفوسهم وتيقنوه أن يفعل بهم فعلا يهلكهم، بداهية عظيمة تفوق في أذاها وعذابها تصوراتهم.

﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ۝٢٦ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ۝٢٧ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ۝٢٨ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ۝٢٩ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ۝٣٠ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝٣١ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝٣٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰ ۝٣٣ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٤ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝٣٥ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ۝٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

بلغت : بلغت الروح.

التراقي : جمع تَرْقُوَة وهي العظام المكتنفة لثغرة النحر عن يمينه وشماله.

المساق : مقابل القود. فالقود أخذ المَقُود إلى حيث يريد القائد من الأمام، والسائق توجيهه من خلف.

فلا صدق : لم يؤمن بما جاء به الرسول، ولم يصدق بالبعث.

يتمطى : مشى مشية المتبختر المعجب بنفسه.

يترك : لا يعتنى به.

سدى : مهملا لا يؤمر ولا ينهى.

بيان المعنى الإجمالي :

كلمة زجر للكافر الذي محض همه لمتع الحياة العاجلة.إن حياته تلك ستبلغ اللحظة الرهيبة، اللحظة التي تستل فيها الروح من البدن إلى أن تبلغ أعالي الصدر عند الحنجرة. ويبحث عن أي راق يرقيه فيؤخر أجله، ولا راقي. فيتأكد عنده أنه مفارق لأهله وماله وتنقطع علاقاته بالدنيا كلها. وتلتف ساقه بأختها وهو يعاني سكرات الموت.إنه يساق في هذا الظرف سوقا لا خيرة له فيه إلى الجزاء المقدر له عند ربك يا محمد. ما ذا سيجد ؟ يجد ما قدمه.كذب بالبعث، وما صدق رسوله في كل

ما بلغه من شرع الله،وما توجه إلى ربه متقربا بالصلاة بل أمضى حياته غافلا عن مولاه. وكل ما تحقق منه هو التكذيب بالحق ورفضه، وأدار ظهره لنداء الرسول، ثم ذهب مستكبرا يتبختر في مشيته افتخارا بما جمعه من العاجلة. أولاه الله من العذاب والخزي ما هو أهل له. أيظن الإنسان الكافر أن الله خلقه ليتركه يسير في الكون على هواه دون ضابط، ودون أن يكلفه بتطبيق شرعه الذي تكون به الحياة جارية على النظام بعيدة عن الفوضى.ما له ألم ينظر في نفسه ؟ إنه لو نظر لوجد أن الله خلقه من خلية رعاها الباري وطورها إلى أن أصبحت علقة ثم مرت بأطوار متتابعة كل طور يُسْلِمُهَا إلى الطور الذي فوقه حتى تم خلقه في جسمه وفي قواه العقلية والشعورية وفي ميوله وغرائزه. وبعنايته سبحانه لم يجعل الخلايا كلها ذكورا أو إناثا بل زاوج بينهما فخلق من تلك الخلية الأولى الذكر والأنثى. إن هذا التقدير العجيب والقدرة المنفذة للعلم والحكمة تنادي بأن الله قادر على إحياء الموتى كما قدر على الإيجاد أولا.

بيان المعنى العام:

26- كلا إذا بلغت التراقي.

افتتحت الآية بـ"كلا " الدالة على الردع والزجر. المنبهة للمغرقين في غفلاتهم السائرين في طريق الضلال. المُؤْثرين للحياة الدنيا اللاهين عن الآخرة. ليستحضروا هذا الظرف الذي تبلغ فيه الروح الجزء الأخير من المحتضر، بعد أن تكون قد استلت شيئا فشيئا من الجسم إلى أن بلغت نهاية أعلى الصدر وهما الترقوتان العظام المكتنفة لثغرة النحر عن الجانبين الأيمن والأيسر. أي إذا بلغت الروح الحنجرة، ومنها تخرج الأنفاس الأخيرة.

27- وقيل من راق.

لم يسند القول إلى المحتضر لأنه بلغ درجة ذهب معها وعيه، فالقائلون هم من حوله من المخلصين له، وقد تبين لهم أنها اللحظات الأخيرة من حياة عزيزهم . تساءلوا هل يوجد من يرقيه ليكون له من دعائه ونفثه وقراءته ما ينفعه.هي لحظات اليأس من شفائه بمختلف أنواع العلاج، ولم تبق إلا الرقية لعلها تنقذه.

28- وظن أنه الفراق.

الظان هو المحتضر، ذهب آخر خيط من آماله في البقاء. والظن هو العلم المقارب لليقين أن الأمر النازل هو فراق الحياة لا محالة وفراق الأهل والأعزة والأموال. وعبر عنه بالظن لأنه لم يقع بعد.

29- والتفت الساق بالساق...

تذكر العرب الساق في المحن والشـدائد العظــام.قامــت الحــرب علــى ســاق. فيكــون معنى التفت الساق بالساق: اتصلت الدواهي والشدائد. مــن شــدة آخــر الــدنيا إلــى شــدة أول الآخرة. ويمكن حمل المعنى على أنه في سكرات الموت يضرب ساقا بساق.

إلى هنا انتهى التسجيل الدقيق لوضع الإنسان فــي آخــر حياتــه، تســجيل جســم ضــعفه، وَ وَهَنَ ما كان متعلقا به من العاجلة. وخطأه فيما كان يحبه كلا بل تحبون العاجلة.

30- إلى ربك يومئذ المساق.

تفرد الله بأنه المالك للنهاية. يساق الإنسان مدفوعا من قوى لا يدركها ولا يستطيع دفعها عنه، تسوقه إلى حكم الله لينفذ فيه الجزاء المقرر. يومئذ : في يوم الآخرة الذي كان غافلا عنه تاركا له من حسابه. وتذرون الآخرة.وفي ذلك ما يشير إلى أن الكافر ينكشف له مصيره عند الاحتضار.أخرج البخاري ومسلم،واللفظ للبخاري بسنده إلى عبادة بن الصامت ﷺ عن النبي ﷺ قال : (من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه. ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه.قالت عائشة أو بعض أزواجه :إنا لنكره الموت. قال :ليس ذلك.ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحب إليه مما أمامه فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه. وإن الكافر إذا حُضِرَ بُشِّرَ بعذاب الله،فليس شيء أكره إليه مما أمامه، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه.)[1]

31←33- فلا صدق ولا صلى ولكن...يتمطى.

ذلك الإنسان الذي حسب أن لن نجمع عظامه، ملامحه أنه ما صدق محمدا فيما يدعو إليه من الإقبال على ما يفيد الإنسان في أخراه، ولا دخل الإيمان قلبه. وانقطع عن الاتصال بالله فلا هو يقوم بالصلاة صلة العبد بربه.فانتفى عنه الرشد والخير، وتلبَّس بالتكذيب والرفض لكل الحقائق التي يبينها ويدعو إلى الإيمان بها محمد ﷺ . فهو ناف ليوم القيامة، منكر للقيم السلوكية التي تسمو بالمجتمع وتؤلف بين أعضائه. وإذ قطع ما بينه وبين الهدى المحمدي استولى الكبر عليه. فتلاحظه وهو يمشي يتمطط في خطوه، ويتبختر خيلاء ذاهبا إلى أهله في زهو.يقول المفسرون : إن هذه الأوصاف تكاد تُعيِّن أن المقصود بها أبو جهل بن هشام المخزومي.فقد كانت هذه صفاته.

35/34- أولى لك فأولى ثم أولى لك فأولى.

صيغة تفيد الدعاء على المخاطب بأن يكون المكــروه والشــر أقــرب إليــه. وقــد تكــرر الدعاء أربع مرات بأن يحل به الهلاك إيماء لتحققه. وكــل كــافر معانــد مؤهــل ليتحقــق

---

[1] فتح الباري ج 14 ص144

فيه الدعاء. وذكر القرطبي: أن النموذج الكافر المذكور في الآية قد سجل عليه مناكر أربعة:

(1)لا صدق بما جاءه من الحق.

(2) ولا صلى متقربا لي.

(3) ولكن كذب رسولي.

(4) وتولى عن هدايتي. فقوبلت المناكر الأربعة بتكرير الدعاء عليه أربع مرات.

36- أيحسب الإنسان أن يترك سدى.

ظن كاذب، وتصور ساذج.هذا الذي يزعمه الكافر بالله الرافض لهدايته. أن يبقى الإنسان مهملا لا يسعفه الخالق بما يهديه إلى الطريق الأقوم والأرشد، وما يبعده عن الفساد والانحراف.إن الله الذي خلق الإنسان، وأودع فيه من قوى العقل، والروح والضمير، واستخلفه في الأرض ليُطَوِّرَ ما أودع فيها إلى ما تكون به الحياة أفضل وأسمى،لا يهمل الإنسان إلى غرائزه وشهواته،بل يساعده على النجاح في ما كُلِّف به بما يبلغه من هداياته على لسان رسله ويحمله مسؤولية أعماله. يقال إبل سدى إذا كانت بدون راع.

37←39- ألم يك نطفة...الذكر والأنثى.

ما بال الإنسان يغفل عن ذاته التي لو تأمل فيها لتبين أنه واقع تحت الرعاية الإلهية والتقدير المحكم من أول وجوده.كيف بدأ خلقه ؟ انطلقت رحلة وجوده من خلية واحدة شطرها من المني الذي تدفق من الذكر وشطرها الثاني من البييضة التي تدفقت من الأنثى وهي النطفة الأولى، ثم أخذت تمر بمراحل فانقسمت تلكم الخلية انقسامات عديدة فتكون منها شيء كالعلقة تعلق في جدار الرحم. ثم جرت عليه أطوار كل مرحلة تفضي به إلى المرحلة التي فوقها حتى تم خلْقُه، وسواه ربه في أحسن صورة.ونوعه إلى ذكر وأنثى ليتم بذلك التكامل بينهما ويتواصل الوجود البشري على ظهر الأرض. فإذا كانت بداية خلق الإنسان تمت بفضل الرعاية الإلهية حتى تم وضعه بشرا سويا، فكيف يهمله بعد أن يولد ولا يوالي عنايته به ليقوم بدوره في الحياة على أكمل وجه.

40-أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى.

إن الخلية الأولى التي رعاها رب العزة فنماها وطورها حتى أصبحت إنسانا سويا في جسمه وعقله وروحه ومشاعره، ألا يقوم ذلك دليلا على أنه قادر على إحياء الموتى .بلى هو القادر على إعادة الحياة كما كان القادر على إنشائها أول مرة.

16رمضان 1435 الموافق لـ 2014/07/14

سورة الإنسان

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف.ويروى أنه تسمى سورة الدهر أيضا. وذكر أنها تسمى سورة الأمشاج لتفردها بوقوع لفظ الأمشاج فيها.واختلف في عدها من السور المكية الخالصة، أو أن بعض آياتها نزل في المدينة.والراجح أنها مكية.رتبتها حسب ترتيب المصحف السادسة والسبعون.وتبع اختلافهم في كونها مكية أو مدنية اختلاف في رتبتها.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ
مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا
وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ
يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا
تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الدهر : الزمان الطويل.

أمشاج : مشتق من المشج بمعنى الخلط.

نبتليه : نكلفه بأمر عظيم يكشف عن مستوى وفائه.

أعتدنا : أعددنا.

السلاسل : القيود المصنوعة من حلق الحديد.

الأغلال : جمع غل وهو حلقة يشد بها الأسير من عنقه وتربط بالسلاسل.

السعير : النار التي ضوعف ضرامها.

الأبرار : جمع بر المكثر من فعل الخير.

الكأس : الإناء المجعول لشرب الخمر.

مزاجها : ما تخلط به.

كافور: طيب أبيض ذكي الرائحة.

يفجرونها : التفجير استنباط الماء.

يوفون : يؤدون ما وجب عليهم أداؤه

مستطيرا : منتشرا ممتدا.

بيان المعنى الاجمالي :

مضى زمن على الإنسان لم يكن فيه شيئا له خطره ولا يتحدث عنه، وهو لم يخرج إلى الوجود.ثم إن الباري لما تعلقت إرادته بإيجاده جعل قانون خلقه وتكاثره من النطفة الجامعة للحيوان المنوي وبييضة الأنثى ،أمشاج مكونة من أخلاط، وجعلنا الغاية من خلقه تكليفه وتحميله المسؤولية، وأعنّاه بجعله سميعا يعي ما يأتيه من رسلنا، وبجعله بصيرا ينظر في كتاب الكون فيفيده يقينا بحكمة الخلاق العظيم. عَرّفْناه طريق الخير وطريق الشر ولم نُقْسِره على أحدهما بل جعلناه مختارا إما أن يذهب في طريق الهدى شاكرا لربه على هدايته أو يتبع طريق الضلال كافرا. ثم أخذ القرآن يفصل عاقبة الكافرين، وجزاء الشاكرين.

أما الكافرون فقد هيأ الله لهم سلاسل تلتف عليهم، ويشدون من أعناقهم في الأغلال، فلا يستطيعون مفرا، ويقادون إلى جهنم التي تتوقد ويشتد لهيبها.

وأما الشاكرون وسماهم الأبرار لكثرة ما يصدر عنهم من خير ،فقد تحدث القرآن عنهم حديثا أوسع من حديثه عن الكفار. فذكر أنهم ينعمون فيشربون من خمر ممزوجة بالكافور كأطيب وألذ ما يكون.وملكهم الله في الجنة عينا بمجرد ما يحركون أرض الجنة يتفجر لكل واحد عين تجري بالماء الطيب.

بيان المعنى العام :

1-هل أتى على الإنسان حين...مذكورا.

افتتحت الآية بكلمة "هل" وهي مزيج من الاستفهام والتقرير. فالآية تحرك كل من يمكن أن يتوجه إليه الخطاب على أنه محل سؤال، وتحقق مضمونها لكونها مُشْرَبَةً معنى قد: هل يقر كل إنسان موجود بأنه مضى عليه ردح من الزمن لم يكن فيه موجودا. وأنه لم يكن محل العناية للحديث عنه وذكره إذ لا خطر له. وهي تسجل وضع الإنسان قبل أن يأخذ دوره في الوجود وتسند إليه الخلافة في الأرض.

2- إنا خلقنا الإنسان من نطفة...بصيرا.

بعد السؤال المبطن في الآية السابقة،يستأنف الكلام للإجابة عنه. فيثبت : إن الله العلي الأعلى العظيم خلق نوع الإنسان من نطفة اختلط فيها الحيوان المنوي

بالبييضة.ودخل في تركيب كل منهما عناصر كثيرة استخلصت فامتزجت وكونت الخلية العجيبة في تركيبها واستعداداتها. وما كان الخلق عبثا.ولكنه خلق لغاية أن يكون هذا الكائن مكلفا بعظائم الأمور التي تكشف عن وفاء المكلفين بما كلفوا به.ويأتيه هذا التكليف من كون الله جعله سميعا، يسمع الإنسان الوحي عن طريق الرسل فيُعْمِلُ عقله فيما سمع ليفهمه ويطبقه. ومِنْ جعله بصيرا يدرك مشاهد الكون العجيبة فيهديه التأمل في بديع الصنع إلى اليقين بأن ما يقع تحت بصره مستند إلى الخلاق العليم.

3- إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا.

فتح الله للإنسان أبواب المعرفة المؤثرة في مداركه. حواسه تنقل له العالم الخارجي، فترتسم في ذهنه الصور المنقولة، ويبني على مدركاته الحسية تلك أحكاما تجريدية، من التعميم والسببية. كما بعث له رسله يرشدونه إلى معرفة الغيب، وتقويم نظرته للوجود. ويتفاعل كل ذلك في عقله مما ينتهي به إما إلى الإيمان بالمبدع الخلاق العليم،وربط الوجود كله به، وبالتالي يعبر عما امتلأ به بالشكر لجلاله، وإما إلى الكفر وفصل الكون عن خالقه فتنقطع صلاته به سبحانه، ويتيه في الظلام والعمى،و لا يجد جوابا عن تساؤلاته.

4- إنا أعتدنا للكافرين...وسعيرا.

تخلص القرآن من تقسيم الناس إلى شاكر، وإلى كفور، تخلص لعرض جزاء كل فريق.فعرف أنه سبحانه قد هيأ للكافرين سلاسل يوثقون فيها ويقادون بها إلى مصيرهم في جهنم.وكذلك أغلالا وهو جمع غل حلقة حديدية توضع في رقبة الأسير وتربط بالسلاسل، لا يستطيع من وضعت في رقبته الفرار.

5-إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورا.

بعد أن ذكر القرآن ما أعد للكافرين، ثنى بذكر ما أعد للشاكرين. وسماهم أبرارا تنويها بكمالاتهم؛ إذ البر هو المكثر من فعل الخير. وتابع بعرض أنواع من النعيم التي اختصوا بها. فهم يشربون من كأس. والكأس الوعاء الذي يشرب فيه الخمر، وذكر كثير من المحققين أنه لا يطلق عليه لفظ الكأس إلا إذا كان فيه خمر. ولشدة لصوقها بالخمر أصبحت الكأس تطلق ويراد منها الخمر.وحدد أن الخمر ممزوجة بالكافور. وهو نوع من الطيب أبيض اللون، ذكي الرائحة،منعش،يستخرج من شجر خاص في الشرق الأقصى [الصين وجاوة وبعض جبال الهند] وهو تقريب لما كان يشتاق له العرب، ولا يحصل عليه إلا الملوك والأثرياء لغلاء ثمنه.

6- عينا يشرب بها عباد الله...تفجيرا.

ذلك الكافور تجري به عين في الجنة يشرب من مائها عباد الله، وهم الأبرار الذين تطهروا فاختارهم ونسبهم لنفسه، تكريما لهم وتشريفا. وهي عين من خصائصها أن كل مُنَعَّمٍ يفجرها،فبمجرد ما يحرك أرض الجنة ينبع هذا الماء الخاص.يقول ابن عطية : يشقونها بعود قصب ونحوه حيث شاؤوا، فهي تجري عند كل أحد منهم.

يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ وَيَخَافُونَ يَوۡمٗا كَانَ شَرُّهُۥ مُسۡتَطِيرٗا ﴿٧﴾ وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسۡكِينٗا وَيَتِيمٗا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوۡمًا عَبُوسٗا قَمۡطَرِيرٗا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمِ وَلَقَّىٰهُمۡ نَضۡرَةٗ وَسُرُورٗا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِۖ لَا يَرَوۡنَ فِيهَا شَمۡسٗا وَلَا زَمۡهَرِيرٗا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

مستطيرا: منتشرا.

الجزاء : عوض.

شكورا : ثناء.

عبوسا : أصل العبوس الوجه المقطب.

قمطريرا : شديد صعب.

وقاهم : حصنهم ودفع عنهم.

شر ذلك اليوم : بأسه وشدته.

لقاهم نضرة : أعطاهم حُسْنًا.

الأرائك : جمع أريكة وهي السرير الذي عليه وسادة، ويتدلى على جوانبه ستائر.

ذللت : يُسِرَتْ.

قطوفها : جني ثمارها.

بيان المعنى الإجمالي :

صرحت الآية ببعض مزايا الأبرار في الدنيا، أنهم يكثرون من التزاماتهم بمختلف أنواع الطاعات، وأنهم ينجزون ما التزموه. ومن باب أولى أداؤهم لما يُطلَبُ منهم. ويخافون عذاب يوم القيامة الذي ينتشر شره المؤذي للمغضوب عليهم. ويبذلون الطعام للمحاويج من المساكين والأيتام، والعبيد المؤمنين الذين يبالغ مالكوهم الكفار

في حرمانهم.ويخاطبون من ينال رفدهم بما يزيل عنهم خفض الحرمان، فيقولون لهم : إنما نطعمكم تقربا من الله الذي أمرنا بذلك، فهو صاحب الفضل عليكم. ويجري في نفوسهم وبينهم ما يعبرون به عن شدة حذرهم وخوفهم من يوم القيامة، اليوم الشديد الصعب الطويل الذي تكون فيه الوجوه كالحة مقطبة مظلمة.

نالهم بسبب ما فعلوه من خير وتبعا لإخلاصهم، أعظم ما يطمح أن يناله المؤمن: الجنة، التي من أنواع نعيمها أن لباسهم منسوجات الحرير، لا تكليف ولا تعب، تغمرهم مشاعر الطمأنينة. فهم متكئون على سرر لا يحسون بحر الشمس ولا ببرد شديد. تظللهم أفنان الأشجار القريبة منهم، بما تحمله من منوع الثمار، يتناولون منها ما يريدون قريبا منهم لا يكلفهم أي عناء.

بيان المعنى العام :

7- يوفون بالنذر....مستطيرا.

شرّفَ الأبرار فنسبهم إلى ذاته العلية، وصرح في هذه الآية ببعض مزاياهم التي أوجبت لهم هذه الحظوة. فذكر أنهم يكثرون من التزامهم لفعل الخير، وينفذون ما التزموا به. وإذا كانوا يوفون بما التزموه على أنفسهم فوفاؤهم بما ألزمهم به ربهم أعظم. ومع ذلك كانوا مستعدين حذرين من اليوم، يوم القيامة، يخافون العذاب والخزي الذي ينتشر في ذلك اليوم انتشارا كبيرا.

8-ويطعمون الطعام على حبه...وأسيرا.

يتابع القرآن التنويه بالأبرار، بسرد خصالهم النبيلة فذكر أنهم يؤثرون على أنفسهم في الأساسيات فضلا عن الكماليات. يطعمون الطعام[**على حبه**] مع اشتهائه والشعور بالحاجة إليه، **مسكينا ويتيما وأسيرا**. فأكد هذا وصفهم بالأبرار. قال تعالى: (**لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون**)[1] تبرز الآية أن شعورهم بالتضامن الإنساني أعمق من داعية الجوع. والمسكين هو الفقير، واليتيم هو فاقد الأب العائل فهو مظنة الخصاصة والاحتياج. والأسير هو العبد المسلم الذي يجيعه ويقسو عليه مالكه المشرك.

9- إنما نطعمكم لوجه الله...ولا شكورا.

الظاهر أن الآية متعلقة بكلام مقدر، أي يقولون: إنما نطعمكم. يقرنون تمكينهم من الطعام المحبوب لهم بقولهم : **إنما نطعمكم**، مما يرفع انكسار نفس المُطعَم، على أن إطعامهم امتثال لأمر الله، وأن الله هو الذي أطعمكم. ويؤكدون ذلك بأنهم لا يرغبون أن يحصلوا منهم على ثواب مقابل ما أكرموهم به، ولا يتعلقون بحسن ثناء

---

[1] سورة آل عمران آية 92

يشيعونه في الناس، ولا بأن يقدموا لهم آيات الشكر على صنيعهم. وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، أنها كانت تبعث بالصدقة إلى أهل بيت، ثم تسأل الرسول ما قالوا؟ فإذا ذكر دعاء دعت لهم بمثله ليبقى ثواب الصدقة لها خالصا عند الله.

10-إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا.

الظاهر أن مضمون الآية مما يجري في نفوسهم، أو مما يتحدثون به فيما بينهم. ولا يباشرون به المتصدّق عليهم. وهو قول يعبر عن حذرهم من سوء العاقبة، وأنهم يحصنون أنفسهم بصالح الأعمال التي منها الصدقة، وأنهم يتصورون يوم القيامة، حسبما أخبرهم به الرسول، أنه يوم شديد جدا.هو كالوجه العابس المقطب الذي لا تدل قسماته إلا على الشدة. والقمطرير هو تأكيد لمعنى العبوس، إذ أصله الشديد الصعب من كل شيء.وعن ابن عباس رضي الله عنهما يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من عينيه مثل القطران وأن القمطرير الطويل.

11-فوقاهم الله شر ذلك اليوم... وسرورا.

تقبل الله منهم خالص عملهم، وحصنهم مما كانوا يحذرونه من شر ذلك اليوم.ووصلهم بما أكسبهم حسنا وجمالا، وملأ صدورهم رضا وسرورا بما نالوه من عظيم الفضل وحسن الأمن.

وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا.

أخذ القرآن يعرض ثواب الأبرار الذين أوفوا بنذرهم، وكان حذرهم شديدا من يوم القيامة، وبصفة عامة صبروا على القيام بما كلفوا به، وصبروا على عدم الالتفات للمغريات وما تدعوهم إليه شهواتهم. كان جزاؤهم الجنة، والجنة هي الفوز الذي يعمل له المؤمنون ويسألونه من فضل الله. قال تعالى :**(فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)**[1] مظهر من مظاهر رفاهية العيش في الجنة أن لباس أهلها منسوجات الحرير.

13-متكئين فيها على الأرائك....زمهريرا.

ذهب عنهم النصب.هم في الجنة ينعمون بما عملوا في دنياهم.ذهب ما كان عليه أمرهم في الدنيا من السعي والجد، فجلستهم هي جلسة المرفهين، متكئون على الأرائك والأريكة في الدنيا السرير الذي عليه وسادة يرتفق بها الجالس، ويتدلى على جوانبه ستائر المعبر عنها بـ(الحجلة) تزيد في فخامته وتقي الجالس من الحر والقر. ولما كانت الحجلة تقي صاحبها حر الشمس ولفحات البرد،ألحق بها أنها

[1] سورة آل عمران 185

للفخامة والجمال فقط، فإن سكان الجنة لا يرون شمسا ولا بردا. بناء على أن الزمهرير البرد القارس. وقيل الزمهرير : القمر. لا يرون في الجنة أشعة الشمس ولا يستضيئون بالقمر، وإنما هو نور يتناسب مع دار الكرامة.

14- ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا.

من صفات الجنة أن تقترب أفنان أشجارها من المنعمين.ومن أبهج المناظر، أن يجد الجالس أفنان الأشجار التي تعطي الظل،قريبة منه ومحملة بأنواع الثمار، يستطيع أن يتناول منها ما شاء في يسر،فلا عراجين النخل عالية، ولا الثمار بعيدة عن التناول.كل ما في الجنة مسخرٌ تسخيرا ينفي المشقة عمن فاز بدخولها.

وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلاً ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلاً ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

يطاف : يدور.

الآنية : جمع إناء وهوما يوضع ما يشرب.

الأكواب : جمع كوب مالا عروة ولا أذن من الأواني.

قوارير : جمع قارورة وهي إناء غالبا ما يكون من زجاج.

زنجبيل : اسم لجذور لها رائحة عطرية وطعمها حريف يطيب به الأثرياء الخمر.

سلسبيل : الماء السهل المَساغ.

ولدان : صبيان.

مخلدون : باقون في مستواهم العمري.

السندس : الديباج الرقيق.

الإستبرق : الديباج الغليظ.

أساور : ما يتحلى به في المعصم.

بيان المعنى الإجمالي :

هم مخدومون في الجنة يدار عليهم في مجالسهم خمر الجنة، الأواني التي تحويه مصنوعة من فضة، ويوزع عليهم السقاة في أكواب عجيبة الصنع والمادة، فهي في صفاء الزجاج، وبياض وجمال الفضة، قد أحكم صنعها في مقاديرها وفيما زخرفت به.ويسقون فيها نوع آخر من الخمر اختلط طعمها ونكهتها بالزنجبيل.يتم مزجها من عين، بمجرد ما تثار، تنبع بالماء الفواح، و تسمى: سلسبيل.

أوكل الله لخدمتهم أولادا يتسابقون بين أيديهم في خفة ونشاط وبراءة، لا يتحولون عن صفاتهم تلك مع الزمن، إن هؤلاء الولدان إذا رأيتهم وهم منتشرون بين أهل النعيم تستطيع أن تشبههم لصفاء بشرتهم ولجمالهم باللؤلؤ الذي نثر في مكان فأدخل فيه البهجة. وبصفة عامة فإنك إذا رأيت ما هم فيه من مباهج ترى النعيم في كل جزئية، وترى جلال العطاء.فكل منهم ملك في جنته. يلبسون ثيابا خضرا من الحرير الرقيق، ومن الحرير الغليظ. تزين معاصمهم أساورة من فضة.وما يشربونه من خمر الجنة، طهره ربهم من رجس خمر الدنيا، فلا يصحبه دوار ولا هذيان .ويضيف ربهم إلى ما أغدق عليهم من أنواع النعيم المادي، تكريمهم بخطابه فيقول لهم : إن كل النعيم الذي أنتم فيه هو جزاء لكم على صالح أعمالكم، وإن سعيكم في الدنيا زيادة على ما نلتم عنه من الجزاء هو سعي حقيق بالشكر والثناء.

وبيان المعنى العام :

16/15: ويطاف عليهم بآنية...تقديرا.

تقدم في الآية السابقة أن الله جزاهم بسبب صبرهم. فهم قد صبروا على مغريات الدنيا. فوصف نعيمهم في الجنة بما كانوا يُلجِمُون أنفسهم عنه من لذائذها. فذكر في هذه الآية أن شأنهم في الجنة كشأن أصحاب الثراء في الدنيا، يملكون غلمانا يقومون على الخدمة. هُذِّبوا بكيفية،أنهم يطوفون عليهم في مجالس أنسهم في الجنة، يحملون أواني شراب خمرها.وصفت هذه الأواني بأنها من الفضة في لونها وفي جاذبيتها ، وبأيديهم أكواب يصبون فيها من تلكم الأواني، جمعت الأكواب من العجائب قدرا كبيرا، فهي في لون الفضة، وصفاء الزجاج. وصنعت على مثال مقدر تقديرا في زخارفه وفي شكله.روعي في كل جزئية من جزئياته الجمال والتناسق، وملاءمة الشارب.

17- ويسقون فيها كأسا...زنجبيلا.

يواصل القرآن وصف مجالسهم الرائعة، فذكر أيضا أنه يقدم لهم شراب من كأس تداخل فيها طعم الزنجبيل.يقول الشيخ ابن عاشور رحمه الله : اسم لجذور مثل جذور السُعد تكون في الأرض كالجزر الدقيق، لونها إلى البياض لها نبات له زهر، وهي ذات رائحة عطرية طيبة، وطعمها شبيه بطعم الفلفل، ينبت ببلاد الصين والسند وعمان.يدخل في الأدوية والطبخ كالأفاويه، ورائحته بهارية وطعمه حريف.وهو منبه.يستعمل منقوعا.

التعبير بقوله :كان مزاجها زنجبيلا،أي إن اختلاط الزنجبيل بها أصبح خلقة لها.

18-عينا فيها تسمى سلسبيلا.

امتزاج الزنجبيل بشرابهم، من عين تثار بأدنى تحريك فينبع منها الماء ذو الرائحة والطعم الخاص بالزنجبيل.تسمى سلسبيلا. ويمكن فهم الآية على أن اسمها سلسبيل. كما يمكن فهم الآية على أن صفتها سلسبيل بما يدل عليه جرس الكلمة وما اقترب منها/ سل/ سبيل / من السلاسة والسهولة. وعلى كل فهي من خصائص الجنة التي لا نظير لها في الدنيا.

19- ويطوف عليهم ولدان مخلدون...لؤلؤا منثورا.

هذا تتميم للحديث عن الخدمة التي وفرها رب العزة للأبرار. فإذا كان نوع من الخدمة التي مضى توصيفها في قوله ويطاف عليهم بآنية مما يختص بالقائمين على خمر الجنة. فإن هذه الآية تصرح بأن الله خلق لهم ولدانا فيهم نشاط الشباب الباكر، و عليهم مسحة من الجمال والرقة، لا يؤثر فيهم الزمن، هم باقون ولدانا إلى أبد الآبدين.وتدعوك الآية لتتخيل وسامة هؤلاء الولدان فتشبههم لنضارتهم، وبريق محياهم، وكثرتهم باللؤلؤ المنثور. يأخذك بديع منظرهم حيثما التفت.

20-وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا.

تخاطب الآية كل من يتصور منه الرؤية للإعراب عن ملامح ذلك النعيم، هو نعيم لا يحتاج إدراكه إلا أن يطلق الرائي بصره فما ذا يرى؟ يرى في كل جزئية وفي كل ناحية من نواحي دار الكرامة من الجمال والتناسق أعلى مظهر من النعيم.يرى أن كل فرد قد جازاه ربه بملك مترامي الأطراف لا يحد مداه.مما يقتضي أن الخيال لا يستطيع أن يتصور ذلك النعيم بصورة محدودة بما عليه أمر الدنيا.

21-عاليهم ثياب سندس خضر وإستبرق...شرابا طهورا.

هذا تفصيل لقوله "**وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا**"،آية 12 . تعلو أجسامهم ثياب سندس وإستبرق، أي إن ثياب أهل الجنة من الحرير المنسوج على طريقتين. منه

السندس وهو رقيق، وإستبرق وهوغليظ. يكون الرقيق عـادة ممـا يلـي البـدن، ويكـون الإستبرق اللبـاس الظـاهر إذ هـو أكثـر بهجـة. وصـرح بـأن لـون ثيـابهم اللـون الأخضر.والخضرة مراتب تمزج بـألوان أخـرى لتقـر عليهـا الأعـين، وتنشـرح بهـا النفس. وكان هذا هو اللباس الذي يتخذه الملـوك، وأصـحاب الثـراء العـريض ويطمـح أن يلبسه الناس. فلا بد من استحضار أن ما يذكر مـن توصـيف الحيـاة الأخرويـة هـو للتقريب.مع التأكيد أن ما يحظى به المنعمون، هو فوق ما يتصوره المتصورون.

وسقاهم ربهم شرابا طهورا. لما فصل القرآن ما يتعلق بمـا يـدار علـيهم مـن الخمـر: السقاة، والآنية الحاملة له، والأكواب التـي يشـربون منهـا.ومـا يمـزج بهـا، احتـرس ليفيد أن شرابهم على أبلغ ما يكون من الطهـر فـلا يعقـب تناولـه صـداع ولا هـذيان. نزه ربهم شرابهم من جميع الخبائث.

22-إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا.

بعد أن تم عرض ما قصد عرضـه مـن أنـواع النعـيم الـذي يثيـر أشـواق المـؤمنين ليزدادوا من فعل الخير، والتوقي من الإثم ؛ أعقبه بمـا يخـتم بـه التكـريم مـن الجانـب المعنوي، إذ يتفضل عليهم الرب الكريم فيتوجه لهـم بقولـه : إن هـذا الـذي أنـتم فيـه من النعيم لا منة عليكم فيه، هو جزاؤكم، هو ثمن مـا دفعتمـوه مقـدما فـي الـدنيا.كمـا قال تعالى : (**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأمـوالهم بـأن لهـم الجنـة**)[1] ومـع ذلك فأنتم أهل ليشكر سعيكم وينوه به.

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلاً ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ
كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلاً
طَوِيلاً ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلاً ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ
خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلاً ﴿٢٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

بكرة : أول النهار.

أصيل : العشي.

يوم ثقيل : يوم تشتد فيه الكرب وتثقل على حامليها.

الشد : الإحكام.

---

[1] سورة التوبة آية111

الأسر : الربط بين أجزاء الجسم.

بيان المعنى الإجمالي :

إنه بعظمتنا نزلنا عليك يا محمد القرآن وشرفناك بتحميلـك إبلاغـه للنـاس. هـو تنزيـل منا. فاستعن على أداء مهمتك بالصبر وقوة العزيمة لتنفيـذ مـا قـرره ربـك وحكـم بـه من أنك رسوله الخاتم لرسالاته. فامض فـي سـبيلك،ولا تطـع أيـا مـنهم فيمـا يُعْـرَضُ عليك من حلول هي حسب ظنهم مغريـة لـك بمهـادنتهم، ذلـك أنـه قـد ألفـوا الإثـم والفجور، أو التصلب في الكفر. وكن ذاكـرا لربـك فـي جميـع الأوقـات مـن الصـباح إلى المساء، و خصص الليل للتهجد والتسبيح في معظم أوقاته.

تعلق هؤلاء المشركون بالدنيا العاجلة، ولم يفكـروا أصـلا فـي اليـوم الشـديد فجعلـوه وراءهم منسيا، فلم يستعدوا له لا بقليل ولا بكثير. نحـن بقـدرتنا وحكمتنـا خلقنـا البشـر وقدرنا أن يكون بناؤهم البدني متماسكا، فمـن النطفـة الرخـوة، كونـا الهيكـل الإنسـاني القوي.وإنه إذا تعلقت إرادتنا بإعادة أجسامهم بعد بِلاها فنحن قادرون.

بيان المعنى العام :

23- إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا.

تتابعت الآيات من أول السورة مفيـدة أن الله مكـن البشـر مـن معرفـة طريـق الخيـر وطريق الشر. وذكر ما أعده للكافرين، ثـم فصـل تفصـيلا ضـافيا مـا أعـده للمتقـين. وكان النبي ﷺ يتلو ما أنزله الله عليه. وفي تعرضـه لأحـوال القيامـة مـا يثيـر شـغب الكافرين، فيتناولون ما أنزل عليه بالسخرية والاسـتهزاء، ويتخـذون ذلـك وسـيلة لصـد الناس عن الدخول في الإسلام. فجاء القـرآن فـي هـذا المقطـع بمـا يثبّـت النبـي ﷺ، فيقول له ربه مؤكدا بضمير العظمة ثلاث مـرات "إنـا" نحـن "نزلنـا" ليثبـت أن القـرآن الذي تتلقاه هو منزل عليك مـن عنـد الله مباشـرة. وبالتـالي فلتثـق فـي قـوة العنايـة الإلهية بك.

24- فاصبر لحكم ربك...أوكفورا.

لتكن عزيمتك صلبة قوية لا تتأثر بالمعوقـات التـي يحـاول الكفـار بهـا صـرفك عـن المهمة التي حكم ربك أن تكون أنت الذي تتولى شـرف نشـرها فـي النـاس، وإقنـاعهم بها. هو الصبر الإيجابي الذي يكـون معـه الصـابر مواصـلا طريقـه فـي الإصـلاح، ماضيا في تنفيذ ما يأتيه عن ربه غير عابئ بما يلقـاه مـن أذى جسـمي ومعنـوي.ولمـا كان الصبر مُضَمَّنًا معنى الخضوع والطاعة عدي باللام.

ثم أكد أمره بالصبر بالتنصيص على نهيه عن طاعتهم فيما يحاولون به أن يجلبوه لصفهم بما توفر لديهم من المغريات.عرضوا على رسول الله أن يأتيهم بقرآن غير هذا، أو أن يبدله،وأن لا يتعرض لمعبوداتهم بالتحقير ولا يجهر بصلاته، وأن يطرد ضعفاء المؤمنين.كما عرض عليه عتبة أن يزوجه ابنته، وكانت أجمل نساء قريش، وعرض عليه الوليد أن يرضيه بما يشاء من المال. إن ما هم عليه من الانغماس في الإثم والمعاصي والحياة الهابطة، وما هم عليه من الكفر يقطع كل صلة بينك وبينهم.هم ألفوا الفساد والضلال وشتان ما بين منهجك في الحياة ومنهجهم.

26/25- واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا ومن الليل...طويلا.

لما أمر بالصبر أرشده ربه إلى ما يساعده على الثبات ومقاومة مغريات الكفر وضروب مكره.فأمر صلى الله عليه بذكر ربه في كل وقت.إن ذكره سبحانه يجدد صلة الذاكر به، فيكون قريبا من جلاله، مستحضرا كماله ووجوب طاعته في نفسه، مستهينا بما يلقاه في سبيل ما ينعم به من القرب. ويشمل الذكر الصلاة المفروضة والنوافل، ويشمل التكبير والتسبيح والتحميد والتهليل، ويشمل الدعوة إلى الخير والنهي عن الشر. ثم أمره بالسجود له، وهو يشير إلى قيام الليل بالتهجد, وسبحه بالتفكر في علي ذاته وتنزيهه عن كل نقص، والتعبير عما يحصل في النفس بالقول.عَمِّر معظم أوقاتك بالتسبيح وصلاة النوافل.

وذهب بعض أهل العلم إلى أن هذه الآية تشير إلى الصلوات الخمس، فالبكرة صلاة الصبح، والأصيل الظهر والعصر، ومن الليل المغرب والعشاء.

27- إن هؤلاء يحبون العاجلة.... ثقيلا.

بكل تأكيد إن هؤلاء المشركين يحبون الحياة الدنيا حبا شديدا، تعلقوا بها وحدها. إنهم لقصر نظرهم تعلقوا بما كان حصوله قريبا، معرضين عما وراء ذلك من نعيم لا يقاس به نعيم العاجلة التي لا يصفو.ما أغروا به لا يخلومن كدر مصاحب أو لاحق. إنهم بموقفهم هذا أظهروا محدودية تفكيرهم، وفقدهم التبصر والنظر البعيد.وبحصر سعيهم للعاجلة وحدها، وإغفال الحياة الآخرة التي سيلقون فيها يوما ثقيلا بالكروب والمتاعب، وجعلهم هذا اليوم وراءهم لا يلتفتون إليه، سيخسرون الخسارة الكبرى. ومما تفيده الآية أن سوء تدبيرهم الذي قادهم إلى سوء مصيرهم ليس حب الدنيا،ولكن حب الدنيا مع الإعراض عن الآخرة.إن حب الدنيا مع مراعاة المصير هو ما جاء الإسلام ليكشف أنه المنهج السوي في الحياة الدنيا.قال تعالى : **(وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا)**[1].

[1] سورة القصص آية 77

28- نحن خلقناهم وشددنا أسرهم...تبديلا.

تركوا وراءهم اليوم الثقيل، ولم يحسبوا له حسابا لأنهم أحالوا أن يبعثهم الله بعد موتهم.فقوله تعالى : **نحن خلقناهم.** يوقظهم إلى أنهم لو تأملوا في أنفسهم ما أنكروا البعث.فإن أطوار خلقهم التي ابتدأت من نطفة ثم أفضت إلى الإنسان السوي هي من خلق الله وحده، وظاهرة أخرى غفلوا عنها، أن خلقهم هو خلق متماسك مشدود بعضه إلى بعض بالهيكل العظمي، والغضاريف، والعضلات، وذلك يشهد بقدرة الخلاق العليم خاصة إذا قارنت بين النطفة وبين ما آلت إليه. ونحن بعظمتنا قادرون على أن نبدل خلقتهم بعد تحللها إلى مثل ما كانت عليه. كما يمكن فهم الآية على أنا إذا شئنا أن نهلكهم ونوجد أمما مثلهم مطيعة لأوامرنا فعلنا.

إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذۡكِرَةٞۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلٗا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴿٣٠﴾ يُدۡخِلُ مَن يَشَآءُ فِي رَحۡمَتِهِۦۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمَۢا ﴿٣١﴾

بيان معاني الألفاظ:

التذكرة : الموعظة التي يرتب عنها الإقلاع عن الشر وفعل الخير.

بيان المعنى الإجمالي :

ما تقدم في هذه السورة الذي يجب أن يكون حاضرا في نفوسكم كأنه مشاهد، أردنا منه تذكيركم حتى لا تغفلوا عن تلك الحقائق، وتستحضروها دائما. ثم إنكم بعد ذلك مسؤولون عن سلوك طريق الهدى أو طريق الضلالة.وكل ما يجري في الكون هو بيد الله، فيهيئ من الأسباب ما يميل به الملطوف به إلى الخير، ويحجب ما يترك به الصاد لما اختار لنفسه ولا يسعفه بألطافه. والتدبير للكون وأسرار ذلك هو صادر عن العلم القديم الذي لا يغيب عنه شيء، والحكمة التي تجري الأمور كلها على الحق.والله يدخل من يشاء في سعة رحمته فيَسْعَدُ في دنياه وأخراه. المشركون الظالمون قد أعَدَّ وهَيَّأ لهم عذابا يقاسون آلامه.

بيان المعنى العام:

29- إن هذه تذكرة فمن شاء...سبيلا.

ما تقرر في هذه السورة، وما جاء فيها من الحقائق، هو تذكرة تلفت أنظاركم، وتعظكم لتلتزموا طريق الخير والهدى، وتبتعدوا عن الشر والضلالة،حتى يكون مضمونها حاضرا في أذهانكم.كشفنا لكم عن طريق الهدى، وحذرناكم طريق

الغواية، وذكرناكم.ثم إن كل فرد مخير في اتباعه الطريق وسلوك السبيل المقرب له من ربه، أو اتباع الطريق الذي يبعده عن الحق ويبلغ به الشقاء الأبدي.متحمل مسؤوليته في اختياره.

30-وما تشاؤون إلا أن يشاء الله...عليما حكيما.

تدل هذه الآية على أن هناك مشيئتين :

الأولى مشيئة الله الذي يملك الأسباب المؤثرة في كل فرد من أفراد البشر.فهو سبحانه يشاء الهداية، فينشئ من الألطاف في الزمان، والمكان، والعلاقات البشرية، ما يتأثر به المهتدي فيسلك سبيل الهداية، ويُؤْثِرُ الآجل على العاجل، وتنطبع نفسه بحب الإيمان وفعل الخير. وكراهة الكفر والفسوق والعصيان قال تعالى: (**ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفروالفسوق والعصيان**)[1] وقد يشاء حرمان المرء من ألطافه فلا يسعده بعون ويتركه لنفسه، فينغمس في الضلال. فإذا رأينا الفرد توجه نحو الشر علمنا أنه حرم الألطاف، ولم يشأ الله هدايته. وإذا رأيناه توجه نحو الخير علمنا أن الله شاء له الخير.ووراء ذلك سر القدر الذي تقصر قدراتنا العقلية على بلوغ كنهه، أشارت إليه الآية: إن تصرف الله يستند إلى العلم الذي لا يغيب عنه قليل ولا كثير، وإلى الحكمة التي بها يضع كل شيء في موضعه.

31- يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذابا أليما.

تصريح بما فهم من قوله : **وما تشاؤون إلا أن يشاء الله**. فبناء على مشيئته تلك ييسر السبيل لمن يشاء لتشمله رحمته.وأنه سبحانه قد أعد للظالمين بالشرك والمعاصي عذابا أليما جزاء ما اختاروه لأنفسهم.

يوم الأحد 22 رمضان 1435 الموافق لـ 2014/7/20

[1] سور الحجرات آية7

سورة المرسلات

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وكتب السنة والتفسير. استمدت تسميتها من فاتحتها.وهي سورة مكية على الأرجح. وهي السورة السابعة والسبعون حسب ترتيب المصحف. وحسب ترتيب النزول هي الثالثة والثلاثون حسب ترتيب البقاعي وابن النديم. نزلت بعد الهمزة منقدمة على ق.

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا
﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ
طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾
لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

عرفا : متتابعا كالشعر الذي على رقبة الفرس.

العصف : قوة هبوب الريح.

النشر : ضد الطي.ويقصد به الإظهار والإيضاح

الفرق : التمييز بين الأشياء.

لواقع : ثابت.

طمست : ذهب نورها.

فرجت : تفرق ما كان ملتحما.

نسفت : قلعها من أساسها مع دكها وتفتيتها.

يوم الفصل : زوال الاشتباه وتميز الحق من الباطل.

بيان المعنى الاجمالي :

أقسم الله بخمسة أقسام كلها أوصاف تحتمل الأربعة الأولى منها أن يكون الموصوف المقدر الملائكة.فأقسم سبحانه بالملائكة التي يرسلها بمهمات كالوحي أو

عذاب المتمردين وهي تأتي متتابعة تتابع شعر عرف رقبة الخيل.فهي تنطلق بسرعة لتنفيذ ما أمرت به كالريح الشديدة الهبوب. وهي تنشر الشرائع و متنوع الوحي. فتُفَرِّقُ بين الحق والباطل والإيمان والكفر.وعطف عليها الخامس والموصوف الملائكة فقط التي تُبَلِّغ الذكر الذي يتنوع إلى إعذار بالتجاوز عما كان قبل الاهتداء، وإلى إنذار بالعذاب للمتصلبين في كفرهم.

كما تحتمل الأربعة منها دون الخامس أن يكون الموصوف الرياح يرسلها الله متتابعة فتعصف قوية في جريها، فتنشر السحب في السماء، ثم تقطعها وتفرق بين أجزائها.

والمقسم عليه : إن ما توعدون من البعث والجزاء ثابت لا شك فيه. يزيدكم تأكيدا له عرض مقدماته.قبل البعث ينطمس نور النجوم.ويختل تماسك بناء السماء فإذا هي فروج وشقوق.والجبال الرواسي تنسف نسفا وتصبح بعد صلابتها ككثبان الرمال. هو اليوم الذي يبلغ فيه مهمة المرسلين الغاية، فيشهدون على موقف كل فرد من أممهم من الشريعة التي عرضوها على الناس.أي يوم أجل فيه القضاء بين البشر ؟هو يوم الفصل الذي تتميز فيه الحقيقة عن الباطل، ويأخذ كل مظلوم حقه من ظالمه.

بيان المعنى العام :

1-والمرسلات عرفا.

المرسلات جمع مرسلة، وهي صفة لموصوف أقسم بها الله، فحملها بعضهم على أن الموصوف بها الملائكة التي أرسلها الله إلى الرسل والأنبياء بالوحي كجبريل، أو لمهمات أخرى كقوله تعالى : **(ونادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب)**[1] وكذلك الملائكة الذين أوكل الله لهم القيام بمهمات عقاب،كالملائكة الذين دمروا مَنْ أذن الله لهم في تدميرهم. أي كان إرسالهم متتابعا كالشعر الذي على رقبة الفرس.وعن ابن عباس أن الموصوف المقدر : الرياح التي يرسلها الله بالخصب والخير. تتابع على الكون فيعقبها الغيث ولقاح الثمار.

2- فالعاصفات عصفا.

يحتمل أن يكون المقسم به الموصوف المقدر: الملائكة. ويفيد عصفها عصفا، أنها تسرع مبادرة في تنفيذ ما أمرت به. ويحتمل أن يكون الموصوف المقدر، الرياح. والتقدير بالرياح أقرب في هذه الآية منه في الآية السابقة.

---

[1] سورة آل عمران آية 39

3-فالناشرات نشرا.

وهي أيضا وصف إما للملائكة باعتبار أنها تنشر الوحي والحق فتجليه للمرسل إليهم.وإما وصف للرياح باعتبار أن الرياح تنشر السحب وتبسطها.

4-فالفارقات فرقا.

هي أيضا وصف إما للملائكة بتمييزهم بين أهل الجنة وأهل النار، وتمييز من كتب له النجاة عن الذين كتب عليهم الدمار، كنوح وقومه، وعاد ومن أرسل إليهم، وقوم لوط ولوط.كما أن الملائكة تأتي بالوحي المفرق بين الإيمان والكفر والحق والباطل. وإما وصف للرياح قالوا باعتبار أنها تفرق بين السحاب وتبدده. وحملها على الملائكة أولى.

5←6- فالملقيات ذكرا عذرا أو نذرا.

هو وصف للملائكة المبلغات للوحي تبليغا يصل إلى المخاطب به، فيكون ما يلقونه بالنسبة إعلانا للمؤمنين بقبول إيمانهم ويعذرهم عما كان منهم قبل أن يهتدوا، ويقبل توبتهم عما فرطوا. ويكون بالنسبة للكافرين تهديدا وإنذارا بالعذاب .

7- إن ما توعدون لواقع.

هذا هو جواب القسم الذي تكرر خمس مرات، و زاده تأكيدا وتحقيقا،فأثبت بالقسم والتأكيد أن ما وعدهم الله من بعثهم ليوم الحساب، ومجازاتهم عما قدموا أمر ثابت مؤكد لا شك فيه.

8←14-فإذا النجوم طمست وإذا السماء...يوم الفصل.

لما حقق القرآن وقوع البعث كما تبين لنا في الآية السابقة فرَّعَ عليه ما يزيده تحققا بذكر ما يحصل قبله ووصفه كأنه مشاهد. فذكر أربعة مظاهر لاختلال نظام الكون يعقبها البعث.

أ-**فإذا النجوم طمست**. النجوم التي كانت تتلألأ ليلا وتزين قبة السماء، يذهب نورها. فإذا هي سوداء مظلمة.وذلك كناية عن اختلال نظام الكون.

ب –**وإذا السماء فرجت**. السماء بما تحويه من كواكب ومجرات مشدود بعضها إلى بعض بقانون الجاذبية، تمثل بناء متلاحما مترابطا كأشد ما يكون الترابط. تختل تلك الروابط المستندة إلى الجاذبية قال تعالى : **(فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان)**[1]

---

[1] سورة الرحمن آية37

جـ – **وإذا الجبال نسفت**.الجبال الشامخة الصلبة الصلدة.تنسف نسفا تقلع من أماكنها، وتتفتت أجزاء صغيرة تتحرك حركة كثبان الرمال الرخوة.انقلاب في الكون لا يقاس بما يعرفه البشر من الزلازل والحرائق والكوارث العظمى.

د – **وإذا الرسل أقتت**. أقتت من الوقت أصلها وقتت.أي بلغت الوقت الذي كان غاية لمهماتهم، فمبدأ أمرهم تبليغ ما أمروا به.وغايته الشهادة يوم القيامة على موقف أممهم منهم، قال تعالى: **(فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا)**[1] فالمظاهر الثلاثة الأولى هي لخراب الكون وذهاب نظامه الذي خلقه عليه باريه إلى الأجل المحدد لبقائه. وأما الرابع فيمثل ظهور موقف البشر من رسلهم يوم ينكشف ما قابلوا به دعوة رسلهم، انكشافا لا يستطيعون معه مراوغة ولا كتمانا.

لأي يوم أجلت...أجلت الخلائق ليوم عظيم، تتجاوز حقيقة ما يقع فيه كل تصور، فيسأل عنه لأي يوم أجلت تلك النفوس؟ أجلت ليوم فيه من الهول على قدر مقدماته التي نسفت فيها الجبال، واختل بناء الكون كله، وطمست النجوم. وإذا كانت مقدماته يبلغ فيها الهول والرعب ما هو أعظم من الخيال، فإن أهواله تفوق مقدماته بكثير.إنه يوم الفصل الذي يختلف كل الاختلاف عما عهده البشر في الدنيا. إن الحياة الدنيا مبنية على اختلاط الحق بالباطل، وانفصال العمل عن الجزاء.أما في هذا اليوم فهو يوم الفصل يذهب الباطل فلا أثر له، وجزاءٌ ولا عمل.ويكرم التقي ويعذب العاصي، ويأخذ كل مظلوم ظلامته من ظالمه. وما أدراك ما يوم الفصل؟ ما الذي أعلمك حقيقة يوم الفصل، إنه فوق أن يدرَكَ كُنْهُهُ وتعلم حقيقته.

﴿وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٥ أَلَمۡ نُهۡلِكِ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٦ ثُمَّ نُتۡبِعُهُمُ ٱلۡأٓخِرِينَ ١٧ كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ١٨ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ١٩ أَلَمۡ نَخۡلُقكُّم مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٢٠ فَجَعَلۡنَٰهُ فِي قَرَارٖ مَّكِينٍ ٢١ إِلَىٰ قَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ٢٢ فَقَدَرۡنَا فَنِعۡمَ ٱلۡقَٰدِرُونَ ٢٣ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٤ أَلَمۡ نَجۡعَلِ ٱلۡأَرۡضَ كِفَاتًا ٢٥ أَحۡيَآءٗ وَأَمۡوَٰتٗا ٢٦ وَجَعَلۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ شَٰمِخَٰتٖ وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ٢٧ وَيۡلٞ يَوۡمَئِذٖ لِّلۡمُكَذِّبِينَ ٢٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

الويل : أشد السوء والشر.

---

[1] سورة النساء آية 41

مهين : ضعيف.

القرار: محل الاستقرار والمكث.

مكين : متمكن.

قدر معلوم : زمان مقدر مضبوط.

كفاتا : اسم لما يكفت أي يجمع.

رواسي : جبالا ثابتة.

شامخات : مرتفعات.

فراتا: عذبا.

بيان المعنى الاجمالي :

الخسارة والهلاك في يوم القيامة للمكذبين بالبعث.كيف تنكرون البعث وقد علمتم أنا أهلكنا الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم فرعون. ثم إنا سنهلك الاخرين ويتجه الخطاب إلى تهديد قريش.إن سنتنا واحدة مع المتلبسين بالإجرام. فليحذر المكذبون من سوء مصيرهم فالويل يصحبهم. اعتبروا فانظروا إلى أصل تكوينكم. ألم نخلقكم من ماء ضعيف رخو هي الخلية الأولى.فهديناها إلى التشبث بقرار تمكنت فيه، هو جدار الرحم.لتستقر فيه وتنمو إلى الأجل المحدد لنزول الإنسان إلى الأرض. كل مرحلة مقدرة تقديرا دقيقا، فحقيق بنا الثناء على حسن تقديرنا. ويل يوم القيامة للمكذبين بالبعث.ألم نجعل الأرض الواحدة جامعة بين مقومات حياة الإنسان مما تخرجه ومن الأنعام التي ترعى ما تنبته، ومستقرا تجمع أجداث الموتى فتتفتت فيها. جامعة بين ما يتعلق بالحياة وما يتعلق بالموت.وأقمنا في الأرض الجبال المرتفعة الشاهقة، وأجرينا منها منابع الماء الصافي العذب فأسقيناكموه. ويل يوم القيامة للمكذبين بالبعث.

بيان المعنى العام :

15- ويل يومئذ للمكذبين.

تواصل من قوله تعالى **إنما توعدون لواقع** الكشف عن القدر الذي قدره سبحانه لفناء الكون ووقوف البشر للحساب، وشهادة رسلهم عليهم. وأشد الناس خسارة في يوم القيامة هم المكذبون بالبعث. فتم التصريح بذلك بقوله تعالى: ويل : الخسارة العظمى وأسوأ ما يتوقع والشر البالغ المتجاوز للحدود في هذا اليوم للمكذبين بيوم الدين يوم الجزاء.وحمله بعض المفسرين على أن المراد بالويل واد في جهنم.وروي عن النبي ﷺ أنه قال : عرضت علي جهنم فلم أر فيها واديا أعظم من

الويل الجامع لأحكام القرآن ج ص158- وعلى جميع التقادير فإن فيه التهديد والوعيد للمكذبين.

16←19- ألم نهلك الأولين....ويل يومئذ للمكذبين.

يقرر المخاطبين المشركين ليعترفوا بمظاهر قدرته وتصرفه، مما يتضمن تهديدهم إن هم أنكروا البعث وأعرضوا ولم يؤمنوا. وعرضت الآيات التالية ثلاثة مظاهر من ذلكم التصرف المشوب بالتقريع والتهديد.

المظهر الأول : (**ألم نهلك الأولين**)...يلجئهم ليقروا بأن الله نفَّذَ إرادته في المكذبين السابقين المعبر عنهم بالأولين بالنسبة للمخاطبين، فأهلكهم بصنوف من العذاب، كما وقع لقوم نوح ولوط وعاد وثمود.وتصرفه سبحانه في المكذبين الأولين سيتبعه تسليط نقمته على من يأتي بعدهم،ثم نتبعهم الآخرين. وفي هذا تهديد للمشركين المتصلبين في كفرهم ورفضهم.الذين اتبعوا المُهْلَكين في إنكارهم للبعث.إن إهلاكنا لهم وإبادتهم كان جزاء وفاقا لما تلبسوا به من الإجرام في العقيدة والسلوك.وعلى ذلك النحو تجري سنتنا في أمثالهم، والمشركون يساوونهم في إجرامهم.ويل يومئذ للمكذبين تأكيد للتهديد السابق وتحقيق لوقوعه.

20←23-ألم نخلقكم من ماء مهين...فنعم القادرون.

المظهر الثاني: (**ألم نخلقكم من ماء مهين**). سؤال فيه تحريك ليُقِرُّوا بمضمونه، ويرتب عليه توبيخهم لعدم إقرارهم بالبعث. لفت أنظارهم إلى القانون الذي رتب عليه سبحانه خلق البشر جميعا.خلق كل فرد منهم من ماء مهين، ومعنى مهين أنه ضعيف وهو الحيوان المنوي بعد اندماجه ببييضة الأنثى وتكونت منهما الخلية الأولى ستة وأربعون كروموزوما.الممثلة للانتقال من مرحلة التخصيب إلى مرحلة بداية الحياة. إذا قارنتَ هذه الخلية بالإنسان المكتمل الذي تطورتْ إليه بهيكله العظمي، وعضلاته،وقواه العقلية والشعورية تبين لك ضعفها الشديد لصغر حجمها ولرخاوتها، وهي لا ترى إلا بالمجهر،وهدى الخلية لتسير نحو قرار مكين تعلقُ بجدار الرحم الذي يحتضنها ويغذيها، ويحفظها من الاهتزازات الخارجية لتواصل طريقها إلى الأمد الذي قدره الله لها في الرحم. فتنزل منه عند الأجل إنسانا مكتملا بخصائصه. كل مرحلة من مراحل النمو مقدرة ومضبوطة، تفضي كل واحدة منها إلى ما يليها،إلى المستوى الذي يستطيع به أن ينمو خارج الرحم.فنعم المقدرون نحن. بعد أن مرت المراحل على المخاطبين وعرفهم بها، فإنه في كل مرحلة من عجائب الصنع، ودقة التقدير، ما يوجب أن ينوه بهذا التقدير العجيب، وأن يثنى

على المؤثر فيه الله رب العالمين. فنعم المقدرون. و هذا التأثير المُدركُ هو دليل على إمكان البعث الذي هو إعادة للخلق الأول.

25←28- ألم نجعل الأرض كفاتا...للمكذبين.

المظهر الثالث : الدال على أن الله لا يعجزه شيء. يقررهم للتأمل في الأرض التي على ظهرها يعيشون، وفي بطنها يدفنون. فيها لحياتهم موارد مما تنبته، وما تأكله أنعامهم.وهي تأوي أجسامهم بعد الموت.فالمتأمل يدرك أنها أرض واحدة كانت للحياة مددا، وللموت مستقرا. فكما أحيا الإنسان من الأرض، وأرجعه إليها ليتحلل فيها، فهو قادر على أن يخرجه منها يوم القيامة للبعث.وكفاتا أي جامعة، يقال كفت شعره، إذا جمعه وضمه.

ومظهر آخر في الأرض، هي منبسطة متكونة من سهول وصحار.وتقسم بين أجزائها جبال شاهقة. ومن تلكم الجبال الصلدة الشاهقة تجري منابع المياه العذبة التي يسرنا لكم الشرب منها. مما يدل على أن اختلاف مكونات الأرض من السهل إلى الجبل الشامخ العالي،ومن الحجر الصلد إلى الأنهار الجارية، وكل في مكانه وفي محيطه وأثره في حياة الناس ليس وليد الطبيعة، إذ لوكان متولدا عنها لاتحد في صورة واحدة لا اختلاف فيها، فهذا النظام ووضع كل شيء في موضعه يقوم دليلا بينا على القدرة التي لا يعجزها شيء. ويل يومئذ للمكذبين يقال ما قيل في نظيره الآية15-

ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

انطلقوا : أمر زاجر لهم بالتحرك السريع.

لا ظليل : ليس فيه أي خاصية من خاصيات الظل.

لا يغني : لا يدفع.

جمالات : جمع جمالة، اسم جمع طائفة من الجمال.

بيان المعنى الإجمالي :

بعد أن يبعثوا من قبورهم يدفعون إلى مصيرهم دفعا، يصحبه إذلال ويقال لهم : واصلوا سيركم إلى المآل الذي كنتم به تكذبون في الدنيا، واصلوا سيركم نحو ذلك الظل الذي يستقبلكم بحر أشد مما أنتم فيه،ولا يمنعكم من لهب جهنم. جهنم التي تتوقد مغيظة ويتطاير شررها، كل شرارة كأنها لعظمها قصر ولحركتها وتدافعها كمجموعات الإبل الصفر. فالخسران والعذاب في هذا اليوم للمكذبين به في الدنيا. تخرس ألسنتهم في هذا اليوم وتجف حناجرهم فلا يستطيعون صياحا ولا استغاثة. وتسلب منهم القدرة على تقديم أي عذر. ويل في هذا اليوم للمكذبين. هذا يوم يقع فيه الفصل بين المكذبين وبين المؤمنين الصادقين، هذا هو اليوم التي كنتم تكذبون به.جمعناكم،بمن سبق من آبائكم الذين اقتديتم بهم، في العذاب والمهانة.لقد تواصلت مؤامراتكم وكيدكم للدين في الدنيا. وها أنتم بَلَغْتُمْ الغاية، فإذا كان لكم قدرة على الكيد فلا تتراجعوا.وهو طلب يظهر عجزهم وخسرانهم. ويل في هذا اليوم للمكذبين.

بيان المعنى العام :

29←31-انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون...من اللهب.

يبعث المجرمون يوم القيامة، وتتوالى عليهم الكروب.فبمجرد ما يجمعهم المحشر يؤمرون بالسير ويدفعون دفعا ويقال لهم : سيروا إلى العذاب الذي كذبتم به في الدنيا، لتروه رأي العين. ثم يكرر عليهم الأمر الزاجر انطلقوا، شأن من يحاول التراخي، فيكرر عليه الأمر والدفع مع الإذلال.ويكشف في الأمر الثاني عن هذا الذي كانوا يكذبون به، فقد كانوا يكذبون بعذاب يوم القيامة. يعلمون علما يقينيا أنه ظل يتشعب إلى شعب ثلاث،وأخذت الصورة تتضح فهو ليس ظلا، ولكنه دخان كثيف يدفع بعضه بعضا،وسط ويمين وشمال. وأطلق عليه لفظ الظل استهزاء بهم وسخرية منهم.لا يوجد فيه أي خاصية من خاصيات الظل، لا ظليل.قال تعالى:(**في سموم وحميم * وظل من يحموم *لا بارد ولا كريم***)[1].يدفعون إليها فتخيب آمالهم، كانوا ينتظرون أن يجدوا في الظل الذي دفعوا إليه جوا ألطف مما هم فيه، فإذا هو أشد حرا ولا يبعدهم عن اللهب الذي تبدو ألسنته من خلال الدخان.

---

[1] سورة الواقعة 44/42

32←33- إنها ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالات صفر.

كما سجل القرآن ما يلقاه أصحاب جهنم من العذاب والهوان،عني بوصف ما يرعبهم قبل أن يدخلوها.قال تعالى واصفا ما يقرع أسماعهم من بعيد : **(إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا)**[1] وتسجل هذه الآية ما يشاهدونه وهم سائرون إلى مصيرهم وبئس المصير: يرون شررها يتطاير كل شرارة كأنها قصر عظيم، تتحرك في حركة مخيفة حركة مجموعات من الجمال الصفر العطشى تتزاحم على مورد الماء.ويل يومئذ للمكذبين.يقال فيه ما قيل في نظيره الآية 15-

35←37- هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون... للمكذبين.

من أهوال يوم القيامة أنه رغم المشاهد التي تضغط على المكذبين،وتزعزعهم وتزعجهم أشد الإزعاج، لا يجدون حناجر ترفع أصواتهم منفسة عنهم، بل تضغط عليهم تلك المشاهد، يسمعون وينظرون، ولا يستطيعون أن يتنفسوا بنداء استغاثة، ولا بصيحة.ولا يؤذن لهم في الكلام فتخرس حناجرهم، ولا ينطلق منها أي اعتذار. **ويل يومئذ للمكذبين** يقال فيه ما قيل في نظيره الآية 15-

38- هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين.

يوم الفصل الذي تقدم الإنذار به في أول السورة [**لأي يوم أجلت ليوم الفصل وما أدراك ما يوم الفصل**] والذي كشفت الآيات المتتالية ما يلقاه فيه المكذبون استحضر بكل ما وصف فيه من أهوال، ليخاطبوا بالتذكير به إمعانا في توبيخهم وتقريعهم، يقال لهم هذا اليوم الذي تشاهدون مرعباته، هو يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون، هم مطبق عليكم اليوم. جمعناكم ومن سبقكم، من آبائكم الذين كنتم تتحدَّوْنَ رسلي بإحيائهم، والذين اتخذتموهم قدوة لكم. نوقفكم اليوم على ما كنتم تسترون به من الوفاء لهم، فأنتم جميعا في صعيد واحد، لا تملكون شيئا.

39←40- فإن كان لكم كيد فكيدون- للمكذبين.

يخاطبون يوم القيامة خطابا يوقفهم ويذكرهم بما دبروه وما أعدوه من خطط لتوقيف المد الإسلامي، والكيد لرسوله وللمؤمنين. فيقال لهم على وجه التعجيز، وإظهار أنهم خسروا كل شيء، وفيه من التنديم وإدخال الأسى والحزن في نفوسهم ما لا يخفى.إن كانت لكم خطط تستطيعون بها توقيف ما قدرته لكم،فافعلوا. وهم لا

[1] سورة الفرقان آية 12

يستطيعون أن يتقدموا خطوة ولا أن يتأخروا عنها،هم في قبضة العزيز الجبار، وقد أحيط بهم ونَزَعَ منهم كل قوة وتدبير. ويتكرر التصريح بخسرانهم كما سبق.

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَـٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿41﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿42﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿43﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿44﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿45﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿46﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿47﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱرْكَعُوا۟ لَا يَرْكَعُونَ ﴿48﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿49﴾ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ﴿50﴾

بيان معاني الألفاظ :

كلوا وتمتعوا : يقصد به إنذارهم وإهمالهم، وأن عذابهم قريب.

مجرمون : في العقيدة والسلوك.

اركعوا : يجمع بين ركوع الصلاة، والخضوع لله وعدم الاستكبار.

بيان المعنى الإجمالي :

يهددهم القرآن أن ما أقبلوا عليه في شراهة من الشهوات،سيزول سريعا. إن أعمالهم السيئة و عقيدتهم الفاسدة لا يدوم معها شيء. ويل لهم في هذا اليوم. ومن تصلبهم في الكفر. إنهم إذا دعوا لترك الاستكبار والخضوع لله والصلاة، أبوا من قبول ذلك. ويل لهم يوم القيامة. إنهم جعلوا على عقولهم حجابا، فلا يمكن أن يستقيموا على الحق، بعد رفضهم للقرآن الذي هو أسمى ما يمكن أن يكون عليه حديث من الهداية.

بيان المعنى العام :

41←44- إن المتقين في ظلال وعيون...نجزي المحسنين.

أعقب القرآن وصف ما يلقاه المكذبون بتفصيل ما أعده سبحانه للمتقين من ضروب النعيم والتكريم.أعد لهم ربهم جنات ظلالها وارفة، وهو يقابل ما أعد للمجرمين في الآية السابقة : **انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب لا ظليل ولا يغني من اللهب**. وليس ظل الجنة للتخفيف من حر الشمس، ولكنه الظل الممتع بجمال الأفنان المتداخلة التي تكونه، دون حَرٍّ فوقه. وعيون تجري بماء صاف يمد بالخصب، ويعدل الهواء حسبما يبتغيه سكان الجنة. تحمل تلكم الأفنان فواكه تستجيب لما يشتهيه المتقون، في مذاقها ومنظرها واستساغتها ويُسْرِ تناولها.ثم يقال لهم كلوا مما أنعمنا به عليكم، واهنأوا به. لا يتبعه مغص ولا ثقل، ولا أي شيء من الأعراض التي يتعرض لها

الآكلون في الدنيا.ذلك جزاء لكم بما كنتم ملتزمين به من الخير والبعد عن الشر. إن على هذا النحو من التفضل والعناية نجزي المحسنين في عقيدتهم وأعمالهم.

وفي هذه الآيات وعد للمتقين وبشارة بأنهم بمحل الكرامة والعناية من ربهم، وأن أعمالهم الصالحة مرعية عنده.يتضاعف سرورهم إذ يرفع سبحانه عنهم المنة، بإعلامهم أن ما يلقونه هو جزاء عما قدموا . وهي من ناحية أخرى جلب للمكذبين ليقلعوا عما هم عليه، وأنه ليس بينهم وبين حسن الثواب إلا أن يسلكوا مسلك المتقين.

45-ويل يومئذ للمكذبين...

هذه الخاتمة تزيد المتقين اطمئنانا، أن الخسران والعذاب هو للمكذبين، وأنهم لما سبق منهم في الدنيا آمنون يوم القيامة. كما أنها تفيد ما ذكرناه في الآية 15-

46- كلوا وتمتعوا قليلا....مجرمون

يخاطب القرآن المكذبين الذين حصروا اهتمامهم في المآكل والمشارب، والإخلاد إلى الشهوات. ينذرهم إنذارا فيه إمهال يدل على أن ما اختاروه لأنفسهم أسوأ اختيار فليواصلوا ما هم فيه فنعيمهم إلى أمد قليل يعقبه زوال، إنكم ثبتم على الإجرام في العقدية والسلوك، التي لا يعقبها إلا ما يتأهل له المجرمون من العذاب والنكال.

47- ويل يومئذ للمكذبين.

يقال في ما قيل في نظائره في السورة.

49/48- وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون...للمكذبين.

هم متصلبون في كفرهم وعنادهم، فإذا دعوا إلى الخير، والالتحاق بصف المؤمنين، وأمروا بأن يقوموا بذلك عمليا بالصلاة والركوع والخضوع لله، يعاندون ولا يصدر منهم أي خير.والخسران والهلاك يوم القيامة للمكذبين.

50- فبأي حديث بعده يؤمنون.

سؤال فيه إنكار، وتعجيب من إصرار المكذبين على الكفر وعدم التأمل في القرآن.إن مواصلتهم للتكذيب بالقرآن والبعث، رغم ما ضمه من بيان، وما بنيت عليه هدايته من وضوح، ودعوة إلى ما يقتضيه العقل والفطرة؛ إن إصرارهم على الكفر رغم ذلك ينادي بأنه لا يمكن أن يؤمنوا بعد القرآن بكلام هاد آخر، لأنه لا يوجد حديث هو أبلغ منه هداية ودعوة إلى الخير وانسجاما مع الفطرة.

يوم الجمعة 5 شوال 1425 الموافق لـ 2014/8/01

ســورة النبأ

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف وكتب التفسير والسنة.وهو مأخوذ من الآية الأولى فيها. كما سميت بسورة عم يتساءلون، وبسورة عم، وبسورة التساؤل، وبسورة المعصرات. وهي سورة مكية باتفاق.وهي السورة الثامنة والسبعون حسب ترتيب المصحف.وعدت السورة الثمانين في ترتيب النزول نزلت بعد سورة المعارج، وقبل سورة النازعات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾
ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ
أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا
﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ
مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

عم : عن أي شيء.

يتساءلون : يسأل بعضهم بعضا.

النبأ : الخبر ذو الفائدة العظيمة.

العظيم : المهم جدا.

الوتد : عود مذبب طرفه الأسفل يغرس في الأرض تشد إليه الخيمة.

سباتا : قطعا.

معاشا : اسم لما به عيش الإنسان.

شدادا : قوية البنية.

السراج : أصله المصباح.

الوهاج : القوي ضوؤه.

المعصرات : السحب عندما تتهيأ لنزول الماء منها.

الثجاج : المنصب بقوة.

الحب : الذي يؤكل حبه كالقمح والشعير والأرز والقطاني..

النبات : ما لا يؤكل حبه، وهو معظم ما تقتات به الأنعام.

بيان المعنى الإجمالي :

عن أي شيء يسأل المشركون بعضهم بعضا.فتراهم في مجالسهم متحيرين يفرضون الفروض والحلول الضَّالَّة.هم يتساءلون عن الخبر المهم الذي عصف بتصوراتهم السابقة عن الخالق المعبود، وعن علاقة الإنسان به وبالكون. هم مختلفون في الإجابة عما أثاره فيهم هذا النبأ العظيم.ليراجعوا موقفهم هذا فإنهم سيعلمون علم اليقين صدق ما أنبأهم به. بكل تأكيد ستنكشف لهم الحقيقة.إن من الدلائل التي أمام أعينهم ما يساعدهم على معرفة ما هم يتساءلون عنه.يقررهم ليعترفوا أن الأرض التي يعيشون على ظهرها بنيت على الحكمة .فهي ممهدة لهم تقلهم وجاذبيتها متوازنة، فهم يسيرون فيها ويعملون ويستريحون دون عناء.وأقمنا التوازن في الأرض فكانت الجبال كالأوتاد تجعل الأرض سائرة في دورتها حول نفسها وحول الشمس دون اضطراب.وفي ذاتكم من حِكم كثيرة فقد خلقناكم أزواجا ذكورا وإناثا لتتواصل الحياة وتعميركم للأرض.التعمير الذي يستنزف طاقاتكم، فجعلنا النوم يقطعكم قسرا عن النشاط لتستجم قواكم العضلية والفكرية. وجعلنا دورة الكون بين الليل والنهار، فالليل يغشيكم كما يغشيكم اللباس في لطف وتنتفعون من ظلمته حياة أسرية هادئة،وسترا وخاصة وقت النوم.والنهار يبعث فيكم النشاط لتحَصّلوا معاشكم وتحققوا خلافتكم في الأرض. وأحكمنا بناء السماوات فكانت لقوة تماسكها لا يحدث فيها اصطدام ولا زلزال يخرب ذلكم التماسك. جعلنا في السماء سراجا يتلألأ ضياؤه الشمس و ربطنا بقاء الحياة بها.وأنزلنا من السحب الماء بعد أن هيأناها لتدفعه بقوة نحو الأرض.فننشر الحياة بما ينبت من الحبوب التي منها قوت الإنسان، ومن النباتات التي ترعاها الأنعام والحيوانات . ونكوّن جنات تجمع بين متنوع الفواكه والثمار، وفيها جمال عجيب بالتفاف أغصانها المختلفة الألوان بعضها على بعض، والمتنوعة الثمار.أفلا يدلكم هذا التقدير على أن الله خلق كل شيء بحكمته ولغاية لا عبثا، فكذلك شأنكم أيها الناس خلقناكم لتعودوا إلينا فنحاسبكم عما قدمتم ولا يستوي الطيب والخبيث.

بيان المعنى العام :

1-عم يتساءلون.

عم مركبة من كلمتين : عن وهي حرف جر، وما الاستفهامية وأدغمت النون في الميم وصارتا كلمة متصلة [عم] وحذف ألف ما على الفصيح من الاستعمال العربي، أن ما الاستفهامية تحذف ألفها إذا جرت.

جاء القرآن ينقض كل ما ألفه المشركون، ينقض عقيدتهم، وينقض علاقاتهم الاجتماعية، وقيمهم السلوكية. ويدعوهم إلى نبذ ما أحاطوا به معبوداتهم من تقديس، ويحقق لهم أنهم سيبعثون بعد موتهم ليحاسبوا عن عقائدهم وعن أعمالهم حسب ميزان الخير والشر الذي قرره. هزهم ذلك هزا شديدا وفاجأهم في الوقت الذي كانوا فيه مطمئنين إلى أوضاعهم العقدية والسلوكية.وانبعثت في المجتمع المكي حركية من النقاش عميقة.وإذا الرافضون لما جاءهم به محمد ﷺ في حيرة من أمرهم يسأل بعضهم بعضا: ما هذا الذي جاء به ؟ فقالوا هو سحر، وعند بعضهم كهانة، وعند آخرين هو شعر، وجعله فريق آخر ترددادا لأساطير الأولين،أو إن صاحبه مجنون.كما صدموا بأنهم سيبعثون بعد الموت، وهو ما ينغص عليهم شهواتهم، فأخذوا يتساءلون أيضا عن يوم البعث منكرين له، محيلين أن تعود الحياة للأجسام بعد أن تفتتت العظام وتناثرت، طالبين أن يحيي لهم آباءهم إن كان صادقا. وأخذ التساؤل طريقتين: طريقة رافضة لشكها فيما يريد أن يؤسسه الدين الجديد من يقينيات. وطريقة هازئة بما جاء به محمد ﷺ. فالآية تصور مع اختصارها صورة كاملة لما كان يجري بين المشركين الرافضين من مناقشات، وما عمرت به مجالسهم من حديث عن الدين الجديد.

3/2- عن النبأ العظيم الذي هم فيه مختلفون.

لما كان تسجيل التساؤل من العليم بكل ما دق وجل، عجل بالكشف عما يقصدون من تساؤلهم.إنهم يتساءلون بحثا أو استهزاء عن النبأ، وهو كما يقول الراغب:

1 الخبر.

2 ذو الفائدة العظيمة.

3 الذي يحصل به علم أو غلبة ظن.فلا يطلق النبأ على كل خبر ويختص بالخبر الجامع للأركان الثلاثة.

وهو نبأ عظيم بما اشتمل عليه من وحي معجز، ومن تحديد لموقف الإنسان مع خالقه ومع الكون ومع بقية افراد الجنس من مؤمنين وكافرين.

الذي هم فيه مختلفون : تشنيع بموقفهم من الحق الواضح.إذا قابلوا ما يدعوهم إليه من الخير والصلاح والعزة، تبعا لعمق الاختلاف وتمكنه فيهم وعدم الانصياع إلى الحق الأبلج، بأنهم في أمر هذا الدين المعروض عليهم مختلفون حسبما قدمناه.

4←5: كلا سيعلمون ثم كلا سيعلمون.

"كلا" أداة تفيد ردع المختلفين عن اختلافهم، وإبطالا لكل ما جرى ويجري بينهم من التساؤلات الحقيقية او التهكمية.وتحقق الآية زيادة على ما تفيده كلا، تهديدا بأنه سيعلمون علما يقينيا لا شك فيه. ولم يذكر مفعولا ليعلمون.بما يفيد أنهم يعلمون كل ما أنكروه واستهزأوا به حقا من صدق الرسول والبعث والحساب والجزاء. وأكد الردع والتهديد بالعطف إيماء إلى أن ما سيرونه يتجاوز كل تصوراتهم.

6←7: ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا.

سؤال تقريري يقصد منه إثارة الذهن ليتأمل فيما هو حاضر عنده، ولكن الرتابة تحجبه بحجاب الغفلة عنه.فيسألهم ألم تلاحظوا دقة الصنع، ومراعاة ما تعلمونه وما لا تعلمونه، حتى كانت الأرض التي تدركون قساوة أديمها، وسوف تدركون سرعة دورانها حول نفسها وحول الشمس، ومع ذلك لاءمنا بين أجسامكم وجاذبيتها، فأصبحت لشدة الملاءمة كالفراش للصبي يجد فيه راحته.إنكم لا تجدون ثقلا في التنقل فوق سطحها، ولا خفة زائدة تفقدكم التوازن، ولا تنزعجون عند جلوسكم عليها فتتسمرون، ولا دفعا فلا تستقرون. أفلا يدلكم حسن التقدير والحكمة، على أن خلق الإنسان لا يقبل أن يستوي عند الحكيم في المآل بين من ينغمس في الشر، وبين من يرعى الخير والحق.

وفي المقابل جعل الجبال التي تنتشر على سطح الأرض كأنها أوتاد تشد التوازن الأرضي فلا يختل، إنك تجد بين الأغوار السحيقة في المحيطات، والجبال الشاهقة ما يحفظ توازن الكوكب الأرضي من الزلازل ومن قوة اندفاع الرياح ومن الأعاصير.فالتقدير الحكيم منبئ عن القدرة التي لا يعجزها شيء ومن ذلك البعث.

8←11: وخلقناكم أزواجا....النهار معاشا

بعد أن لفت الأنظار، على طريقة السؤال التقريري الموقظ، لطبيعة خلق الأرض، عطف على ذلك آيات قدرته سبحانه في ذات الإنسان. فقررهم على ما لا يستطيعون نكرانه، وإن كانوا لسطحية تفكيرهم لم يتأملوا فيه ولم يتعظوا به.حاصل هذا التقرير أن بداية الخلق كانت خلق آدم،ثم خلق من آدم زوجه حواء، ثم استمر الخلق من اتصال الذكر بالأنثى خلق الذكور والإناث، ليتحقق ما أراد الله من عمارة

الكون ببقاء النوع إلى الأجل المقدر له.فلو كان النسل ذكورا كما يرغب فيه كثير من الجاهلين، ولو كان إناثا وذلك ما يتشاءمون منه ولا يريدونه، لتوقف بقاء الإنسان على وجه الأرض. ومعنى ذلك أن الحياة إنما استمرت بهذا التقدير العجيب الذي لا مدخل للإنسان فيه، أفلا يدل ذلك على أن بعث البشر لحياة جديدة في دائرة الإمكان بالنظر الأول، وبدائرة الوجوب بعد التأمل المتعمق.

9-وجعلنا نومكم سباتا..

تابع لما قصد القرآن تقريرهم عليه ليرتب على إقرارهم إلجاءهم إلى الإقرار بالبعث. ظاهرة النوم بالنسبة للإنسان، في لحظة ينقطع شعوره بما حوله، ويتوقف نشاطه العضلي، وكذلك نشاطه الفكري في الحدود التي قدرها رب العزة، ليستجم الإنسان بعد المجهود الذي بذله ويستعيد قواه. فليس هو توقفا كاملا، فذلك يحدث عند الموت، ولكنه توقف من نوع خاص يتبعه نشاط فكري وعضلي وكذلك حياة.وهو قطع جعله رب العزة لا يستطيع أي فرد أن يتمرد عليه. فلو تعلقت إرادة الإنسان بالتوقف عن الأكل استطاع تحقيق ما أراد، ولكنه إذا أراد أن يواصل حياته بدون نوم غلبته عيناه ونام، ولا بد أن ينقطع دماغه عن نشاطه في الحدود التي قدرها رب العزة. فإذا كانت الحياة الواعية تنقطع عن الإنسان ثم تعود، أفلا يقوم ذلك دليلا على أن انقطاعها بالموت ستعقبه حياة. قال تعالى : **(الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)**[1].

11/10- وجعلنا الليل لباسا وجعلنا النهار معاشا.

ظاهرتان يعقبان النوم عندما ينطلق الإنسان في نشاطه المعهود.هو بين الليل الذي يستره في لطف كأنه لباس يحويه دون أن يضغط عليه. يستره من العيون التي لا يود أن تكشف سره، وهو أمن يستره من غارات الأعداء.وفيه إيماء للعلاقة الزوجية كما وردت في قوله تعالى : **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن**[2] – فإنها تكون أتم في الليل. وهو لباس يتعمق فيه المؤمن في مناجاة ربه بقيام الليل،قال تعالى : **(ولباس التقوى ذلك خير)**[3] وإذا كان الليل يلفه في هدوء لينعم بساعاته في غير النوم، فإنه على العكس من ذلك جعل النهار دافعا للإنسان للجد والعمل ولتحصيل

---

[1] سورة الزمر آية 42

[2] سورة البقرة آية 87

[3] سورة الأعراف آية 26

معاشه. كما أن ضوء الشمس يؤثر في نمو الزروع والثمار، فما يغرسه من الأشجار،وما يحرثه ويزرعه يتطور في ضوء الشمس. والأرض واحدة وتأثير كل فترة من الليل والنهار في حياة الإنسان تنادي بأن الله أجرى بحكمته ترتيبهما. وقدر بحكمته بعث الإنسان بعد موته.

12←13: وبنينا فوقكم سبعا شدادا... وهاجا.

بعد أن أثبت قدرته وحكمته في خلق الأرض انتقل إلى السماء. فلفت الأنظار إلى أمرين : أحدهما أن الله جعل وضعها مرتفعا فوقنا، أينما حللت في الأرض في القطب الشمالي أو القطب الجنوب، تشاهد أن السماء فوقك.أمسكها بتدبيره فلا تقع على الأرض.وتحقيق المراد بالسبع القوية البنية، المتماسكة في بنائها كأشد ما يكون التماسك هو من الحقائق التي نشاهد آثارها باستمرارها في مواقعها.ويبعد أن يكون المراد بها الكواكب السيارة. لأن الكواكب السيارة المرتبطة بالنظام الشمسي هي أكثر من سبع. التي هي حسب المستوى العلمي للبشر عند نزول الآية زحل، والمشتري، والمريخ،والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر. لأن الكواكب الدائرة في المجموعة الشمسية هي تلك مع (ستورن) و(نبتون) و(أورانوس) و(الأرض) فالظاهر أنها المجرات التي لا يعلم تركيبها وحدودها وقوانينها إلا خالقها الذي أبدعها. فقد ضبط من قوانين الجاذبية بينها ما جعلها متماسكة أشد ما يكون من التماسك إلى الأمد الذي قدره لانحلال روابطها واختلال بنائها. وخص الشمس من بين كواكب السماء بالذكر لارتباط الحياة الإنسانية والحيوانية والنباتية بها.

14←16- وأنزلنا من المعصرات ... ألفافا.

هذا هو التصرف الرابع من التصرفات الحكيمة لله. لفت أنظارهم أولا إلى كمال التقدير في خلق الأرض ، وانتقل ثانيا إلى خلق البشر والأعراض التي تتصل به،ثم انتقل لعرض ما في خلق السماوات من مظاهر القدرة العجيبة.وهذا الرابع أبرز فيه تصرفه سبحانه جامعا بين السماء والأرض والإنسان والحيوان. يبدأ العرض من السحب المحملة بالماء وقد هيأها لتدر ماءها على الأرض، فسمّاها معصرات مهيأة لأن يعتصر ماؤها. فأكمل بحسن تقديره إنزال الماء منها على الأرض مندفعا بقوة. إن تصرفه هذا هو كشأنه في جميع تصرفاته أنها ليست عبثا، ولكن لتحقيق غاية، وهي:

أولا : إخراج الحب من الأرض بانفلاق الحبة وإرسال عروقها إلى الأرض ورأسها إلى السماء لتتم الدورة وتمتلئ السنابل بالحب، من مختلف الأنواع كالقمح والشعير والحمص والفول واللوبيا والأرز فيقتات منها الإنسان ما يقيم به بنيته .

ثانيا : إخراج النبات الذي لا يقصد حبه وإنما ينتفع بذاته،وهو غالب قوت الأنعام إما أخضر وإما بعد تجفيفه وخزنه.

ثالثا: جنات تجمع أنواعا من الأشجار المثمرة كالنخيل، والكروم، والتين والرمان. ونحو ذلك، تلتف أغصانها بعضها على بعض من الرواء.فتكون بذلك مسرحا لنظر البشر يستمتعون به، ويأكلون من ثمره.

فأنت ترى في هذا التصرف كيف قدر الله بحكمته أن يربط بين السحب وما تحمله من المياه، وبين الأرض التي تحيا بما ينزل عليها من ماء، والإنسان وتحول ما تنتجه الأرض إلى قوت يواصل به حياته، والحيوانات وارتباط بقائها بما ينزل من السماء من أمطار.وفي ذلك دليل يقرب ما تحير فيه المشركون من أمر البعث.

إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّـٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّـٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَـٰهُ كِتَـٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

يوم الفصل : يوم القيامة.

ميقاتا : الوقت المحدد لحساب الناس عن أعمالهم.

الصور : ما جعله الله باعثا للأموات ليقوموا للحشر والحساب.

أفواجا : طوائف وجماعات.

جهنم : اسم لدار العذاب يوم القيامة.

مرصادا : رقيب شديد لا تفلت أحدا من أهلها.

الطاغون : الذين هم بسبب استكبارهم لا يكترثون بأمر ولا نهي .

مآب : مستقر.

اللابث : المقيم.

أحقابا : أزمنة طويلة، كلما مضى زمان خلفه غيره إلى أبد الآبدين.

لا يذوقون : لا يحسون.

الحميم : الماء الشديد الحرارة.

الغساق : الصديد الذي يسيل من الجرح المتعفن.

وفاقا : جزاؤهم مساو لما قدموه.

أحصيناه : ضبطناه ضبطا كاملا.

كتابا : مكتوبا موثقا لا يضيع منه شيء.

بيان المعنى الإجمالي:

ستنتهي الحياة الدنيا يوم الفصل يوم القيامة،الذي يفصل فيه بين الحق والباطل، وبين وضع المجرمين المكذبين،ووضع الصالحين المؤمنين.هو وقت محدد في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر عن أجله. يوم القيامة ينفخ في الصور فتعود الأرواح إلى أجسادها، وتنبعث إلى الحشر فالحساب.يأتي المبعوثون أفواجا، أفواجا،المؤمنون مع بعضهم، والمنافقون معا، وكل من عبد إلها غير الله يأتون مع معبودهم. وهكذا.في هذا اليوم يتحلل ما كان يمسك السماوات فتتشقق وينتهي التحامها. و تسير الجبال فتخرج عن مكانها وتتفتت فتتحول إلى هباء، ثم تنعدم فلا يبقى لها أثر إلا أثر خادع للبصر كالسراب. ثم انتقل القرآن لتفصيل ما سيلقاه المشركون فحدد أن دار جزائهم هي جهنم تترصد كل واحد من أهلها فتجلبه إليها.هي مآل الطغاة المستكبرين الذين يتعَالَوْن عن الحق ويظلمون من هم دونهم.ستكون دار بقائهم لا يخرجون منها، كلما مضى زمن خلفه زمن آخر.لا يحسون فيها ببرد يخفف عنهم شدة الحر المحيط بهم، ولا يجدون شرابا يطفئ حر أكبادهم. لا يجدون إلا الحميم البالغ الحرارة الذي يقطع أمعاءهم، وإلا ما تفرزه الجراح المتعفنة المستقذر طعما ورائحة. ما سلط عليهم من العذاب روعي فيه العدل الكامل فما سلط عليهم هو جزاء وفاق لسيء أعمالهم وفاسد عقائدهم. يوضح لكم ذلك أنهم أهملوا يوم الحساب من تفكيرهم نافين له.وتصلبوا في التكذيب بآياتنا البينة الواضحة. وقد أحصينا عليهم كل ما يصدر عنهم من باطل العقيدة وسيء العمل.يقال لهم تنكيلا وتقريعا : ليكن إحساسكم بالعذاب على أشده. وكلما واصلتم إقامتكم في جهنم فقد قدرنا أن كل مرحلة تفضي بكم إلى مرحلة أخرى أشد عذابا.

بيان المعنى العام:

17- إن يوم الفصل كان ميقاتا.

أعدت الآيات السابقة لهذه النتيجة التي هي مضمون هذه الآية.فما لفت إليه الأنظار من مشاهد الحكمة والتقدير والتصرف بالنسبة لله الخالق أعِدَّ لهذه الغاية : أن الله

جعل يوم الفصل بين الحق والباطل، وبين جزاء المجرمين والصالحين، جعله في علمه القديم الثابت الميقات الذي ينتهي إليه البشر للحساب والجزاء. لا يتقدم لحظة ولا يتأخر عنها.وأن تأخيره تحقيق لعلم الله الأزلي، لا دلالة في ذلك على انتفاء حصوله.

18- يوم ينفخ في الصور...أفواجا.

تكرر في القرآن النفخ في الصور عشر مرات في القرآن.وكلها دالة على الشأن الأول من شؤون يوم القيامة. وحمله بعض المفسرين على أن قرنا يأخذه إسرافيل، فينفخ فيه فينبعث لصوته بتقدير إلهي كل من عاش من البشر على وجه الأرض.ويمكن حمله على أنه تمثيل، فكما أن الجند يتفرقون للراحة في منازلهم، وأنه إذا أرادت القيادة جمعهم، ينفخ في الصور القرن الذي له صوت معروف عند كل فرد من أفراد الجيش، فيسرعون إلى مكان الاجتماع، لتلقي الأوامر. فكذلك يحدث الله استجابة بين مؤثر، الذي جسم بأنه نفخ في الصور لتقريبه من عادات البشر في دنياهم، وبين أرواح البشر فتكسى في أجسامها وتنبعث سائرة إلى أرض المحشر، على صورة نثبتها ولا نكيفها. وقد صرح القرآن بأنهم يأتون إلى المحشر جماعات جماعات : الصالحون من كل أمة مع بعضهم، والمنافقون مع بعضهم، والمشركون كذلك مقترنين بما يعبدون .

19-وفتحت السماء فكانت أبوابا.

هذا عرض لوضع الكون يوم القيامة. فإن السماء التي لفت الأنظار إلى قوة بنائها وإحكامه في الآية 12 يختل بناؤها وتتشقق، ويفنى التئامها. يمثلها بالبناء الذي كان مصمتا لا منفذ فيه، فيتحول إلى مداخل كثيرة. وكانت بمعنى صارت،وعبر عن انتشار التشقق فيها وذهاب كل تماسك بين أجزائها بالتعبير عن وضعها الجديد أنها تحولت إلى أبواب، لم يبق شيء مما كان من الارتباط بين مكوناتها.وفي هذا إيماء إلى أن الفناء قانون يجري على كل مخلوق أيا كانت قوته وعظمته.

20-وسيرت الجبال فكانت سرابا.

الجبال الشاهقة التي كانت تمثل الاستقرار والثبات.وتبدو من بعيد للناظر فيعلم موقعه من الأرض. وتفنى الأجبال وهي راسية في مكانها، في هذا اليوم تنفلت من موقعها وتتفتت؛ فحجارتها الصلبة تتحول إلى هباء وتذوب، كالسراب الذي لا حقيقة له إلا في خداع النظر.

21←23-إن جهنم كانت مرصادا....أحقابا.

بعد أن صرح القرآن بفساد وضع الكون يوم القيامة فصل ما سيلقاه المجرمون أولا فقال :

إن جهنم دار العذاب كانت مرصادا، خلقت على وضع، أنها تتبع كل من مؤهل بفساد عقيدته وسوء عمله ليكون من أهلها، فتجلبه إليها قسرا، ولا يستطيع الانفلات من رقابتها. هؤلاء الطغاة المستكبرون عن قبول الحق، الذين لا يكترثون بأمر ولا نهي، ولا يرعون حق غيرهم لاعتزازهم بقوتهم، يظلمون الناس ويتكبرون، ويفسدون في الأرض دون أن تتحرك ضمائرهم، ودون أن تشعر بالإثم لما اقترفوه من ظلم، خلق الله في جهنم قدرة على تتبعهم فتجلبهم إليها لينالوا جزاءهم الموعود فيها. وتكون بالنسبة إليهم دار استقرار دائم لابثين فيها، كلما مضى زمن خلفه زمن آخر إلى أبد الآبدين، لا يجدون عنها حولا.

24←26- لا يذوقون فيها بردا...وفاقا.

جهنم معروفة بشدة حرها أعاذنا الله منها برحمته وفضله.وعندما تطبق على أهلها فإن الله يحدث فيهم شوقا لينالهم شيء من البرد يخفف عنهم ولو لأمد قليل ما يعانونه من العذاب، فيكون إحساسهم بالحرمان من ذلك يضاعف ألمهم ويمعن في عذابهم.وتلتهب أكبادهم من حرها فيتشوقون إلى أي شراب يطفئ عطشهم فلا ينالون إلا الماء الشديد الحرارة الذي يقطع أمعاءهم ويزيد لهبهم وحاجتهم إلى الشراب.وإلا غساقا، وهو ما يفرزه الجرح المتعفن من الصديد الكريه الرائحة المستقذر أشد الاستقذار.

إن ما عوملوا به روعي فيه العدل الكامل بين عقائدهم الفاسدة وأعمالهم القبيحة وبين جزائهم. ومن العدل أنهم أنكروا البعث فكان جزاؤهم عليه حرمانهم من البرد والشراب. كذبوا الرسول وآذوه وآذوا المؤمنين فكان جزاؤهم الحميم والغساق.

27←28: إنهم كانوا لا يرجون حسابا...كذابا.

تعليل آخر لجزائهم يوم القيامة مبني على تكذيبهم بالحساب تكذيبا جعلهم لا يرجون حصوله.إذ لا يتوقعون خيرا لهم في يوم البعث، فلا يَرْجُونَهُ إذ الرجاء لا يكون إلا لأمر محبوب. وكلما توالت عليهم الآيات البينات والدلائل الواضحة كذبوا بمضامينها كأشد ما يكون التكذيب.

29←30: وكل شيء أحصيناه....عذابا.

حققت الآية السابقة 26أن جزاء الطاغين جزاء عدل لا ظلم فيه، وشنعت الآيتان 27و 28 ببعض ما يصدر عنهم، وأكملت هذه الآية أن كل صغيرة وكبيرة من

آثامهم، وتجاوزاتهم وكلّنا بها من يحصيها ويسجلها في كتاب لا يضيع منه شيء، ينشر لهم ويحيي الله ذاكرتهم فيتذكرون كل صغيرة وكبيرة من سيّء ما اقترفوه.ويقال لهم : يوم القيامة : ليكن إحساسكم بالعذاب على أشده.ولا تتوقعوا أن يخف عنكم العذاب بإلفكم له، بل قد رتبنا أنه كلما تقدمتم في منازل جهنم لقيتم عذابا أشد من سابقه وهكذا إلى أبد الآبدين.ولذا كانت هذه الآية من أشد ما نزل في أهل النار .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

مفازا : فوزا وظفرا، ومكان فوز.

الحدائق : البساتين المشجرة المحفوظة بحائط ونحوه.

كواعب : الكاعب الفتاة في سن الخامسة عشرة ونحوها وقد ارتفع ثديها واستدار.

أترابا : جمع ترب على مستوى واحد في الجمال والوسامة.

كأسا دهاقا : كأسا مملوءة.

اللغو : الكلام الباطل والهذيان.

عطاء : ما يتفضل به دون عوض.

لا يملكون : لا يقدرون ولا يستطيعون.

القيام: الاستعداد للجد في العمل.

الروح : يحتمل أن يكون المراد به جبريل، أو جنس الروح الذي به الحياة.

الإنذار : الإعلام بحصول ما يسوء في مستقبل قريب.

بيان المعنى الإجمالي :

حقق القرآن أن المتقين سيحظون بالفوز العظيم في الآخرة.يفوزون بالحدائق المشجرة المحاطة بسياج وقد تنوعت أشجارها من النخيل والأعناب وغيرها من

مختلف الأصناف.كما يتم أنسهم بجوار في بواكير النضج ارتفعت نهودهن مستديرة وهن في سن متقاربة.ويتحرك إحساسهم بنشوة النعيم بما يدار عليهم من كؤوس مملوءة من خمر الجنة لا تلعب بعقولهم فلا يصدر عنهم الكلام السوقح والعربدة.وهم على رفيع مستواهم الخلقي والعقلي. كل ما ينالهم يقابل ما قاموا به من صالح الأعمال، لا يضيع منها أي شيء، ويتجاوز الجزاء قيمة العمل، لأنه عطاء الكريم، ربك يا محمد الذي يكرمك بإكرامهم. هو عطاء لا يرقب معه المُكَرَّمُ أي جزاء آخر. يشعرون أنهم نالوا كل ما يأملون. إن ربك هو رب السماوات والأرض وما بينهما بما تشمله من كائنات معروفة لنا وكائنات لا يعلمها إلا خالقها. هو الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء، وهو المتفرد بالتصرف والجلال، فلا يمكن أي أحد من عرض شيء عليه، ومخاطبته بدافع ذاتي. يوم الفصل هو اليوم الذي يكون فيه الروح والملائكة منتظمين على أتم الاستعداد صامتين لا ينبسون بكلمة في جو مهيب كأبلغ ما تكون المهابة. لا يتكلم إلا من صدر له الإذن من الرحمن، وكان قوله صوابا حقا فلا يشفع إلا لمن ارتضى الرحمن أن يشفع فيه. ذلك اليوم هو اليوم الحقيق بأن يسمى يوما، الفائق عن الأيام التي تعدونها أياما. يظهر فيه الحق، ويقضى على الباطل.إنه يوم يستطيع أن ينجح فيه كل من سلك ما يوصله ليقبله الرحمن ويعطيه منزلة الكرامة. انتبهوا واحذروا فقد أنذرناكم عذابا ليس بعيدا بمقاييس خالق الأزمان. إنه اليوم الذي ينظر كل إنسان في كتابه الموثق فيشاهد كل ما قدم من خير أو شر مسطورا مثبتا.وفيه يعبر الكافر عن أعظم أمانيه: أن يكون ترابا مهينا خير له من الجزاء الذي يعلم أنه صائر إليه.

بيان المعنى العام

31←34-إن للمتقين مفازا...دهاقا.

بعد أن أنذر المجرمين بما سيلقونه من العذاب في الدار الآخرة، انتقل إلى عرض ما أعده للمتقين الذين يصحبهم في حياتهم الدنيا، استحضار صلتهم بالله،فتؤثر على سلوكهم صلاحا.بكلمة عامة شاملة سيتحقق لهم الفوز والنجاح.فهم في منزل مخصوص بالفائزين. وكتب لهم ربهم نيل ما يرغبون فيه. هم في جنات النعيم التي احتوت على حدائق يصطف فيها متنوع الأشجار من النخيل والكروم وغيرها.يحيط بها ما يميزها عن غيرها. ومع المنظر الخلاب يأنسون بفتيات كواعب نواهد في سن النضج الباكر، ارتفعت نهودهن واستدارت، على نفس السن ، وعلى مستوى من الوسامة متقارب. ومن تمام العناية بهم أن الله أعد لهم خمر الجنة يدار عليهم يحصل لهم منه نشوة، فيشربون في كؤوس تقدم لهم مملوءة بلا تقتير عليهم.

35←36، لا يسمعون فيها لغوا ولا كذابا....حسابا.

مع ما ينعم به على المتقين من تكريم مادي، فإنه قدّر أن يكون كل ما يجري في الجنة بعيدا عن السفاسف والنذالة لا يخدش حسهم العالي، ومداركهم النقية.فلا يوجد في الجنة لغط وصخب وتداخل أصوات وسفه الكلام كما يقع في المجالس الخمرية في الدنيا. ولا يؤثر شرب خمر الجنة في شاربها، فلا يهذي ولا ينطق بالكلام الباطل،فلا تبلغ به النشوة مقدارا زائدا على السرور.

ثم حقق تكريمهم بأنه جزاء على صالح أعمالهم ونقي عقيدتهم. وتتميما لتصور كمال الجزاء، أضاف إليه أولا: أنه جزاء من ربك يا محمد، والكامل الرحيم إذا جزى فجزاؤه فوق ما يتصور، وأن هذا الجزاء من ربك الذي يكرمك بهذا الفضل الواصل لمن اتبعك.وبذلك هو عطاء عن الجانب الذي لا مقابل له من الأعمال وهو الجانب الغالب.وحسابا يفهم على أنه من مادة حَسْبك أي كافيك، عطاء يشعر معه المعطى أنه لا يطلب شيئا وراء ما حصل له. كما يمكن أن يفهم أن كل عمل صالح وإن قل فإن الله يجزي عنه على المستوى الذي أومأت إليه الآية، وحسب قوله تعالى **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها**[1]، وقوله تعالى : **(مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم)** [2]

37- رب السماوات والأرض وما بينهما...خطابا.

ربك هو رب السماوات والأرض وما بينهما. فجميع الألطاف التي تحققت، والتي لا يستغني عنها أي كائن في السماوات والأرض، هي فيض الرحمة الإلهية التي هي صفة ذاتية له سبحانه، هو الرحمن. ومع رحمته فإن جلاله هو المهيمن على الكون فلا يمكن لأي كائن ولا يستطيع أن يتقدم لخطابه تغييرا لما قضاه وقدّره لا بالتشديد ولا بالتخفيف.

38- يوم يقوم الروح والملائكة....صوابا.

لما ذكر في الآية السابقة أنه لا يملك أحد أن يتقدم بخطاب لرب العزة يطلب فيها زيادة أو نقصا مما قدره.واصل تفصيل مهابة يوم القيامة الذي تخرس فيه الألسنة عن أي طلب.فعرض صورة تعطي للخيال تصورا عما يكون عليه ذلك اليوم من

---

[1] سورة الأنعام آية 160

[2] سورة الأنعام آية261

تضاؤل الكائنات جميعها بين يدي الله. هو اليوم الذي يقوم فيه الروح الملك جبريل، او ملك آخر هو أعظم ما خلق الله، أو جنس الروح الذي به الحياة. هذا أو ذاك يستعد الجميع في ذلك اليوم على أتم هيئة من الخضوع والانتظار منتظمين.يخيم السكوت فلا تسمع همسا. موقف رهيب الكل منتظر لتنفيذ ما يطلب منه. في هذا الموقف الخاشع لا يتكلم أحد إلا من أذن له الرحمن برحمته في الكلام، يخلق فيه إحساسا باطنيا: أن الله أذن له في الكلام بين يديه، ولا يمكن من ذلك إلا من علم الله أنه لا يقول إلا كلاما صوابا لا باطل فيه يرضاه رب العزة.

39- ذلك اليوم الحق...مآبا.

ذلك اليوم، يوم الفصل الذي ينتظم فيه الروح والملائكة عاجزين عن النطق قبل إذن ربهم، وهو الحقيق بأن يسمى يوما، وهو اليوم الذي يظهر فيه الحق و يتم الجزاء العدل. أعلمناكم به، وفصلنا لكم ما ستتعرضون إليه. فبعد ذلك أنتم مسؤولون عما تختارون، فمن شاء أن يكتسب ما يجد به مرجعا حسنا عند ربه فليفعل وليقبل على التقوى وفعل الخير والابتعاد عن الشر. وبذلك يجد مكان التكريم عندما يعود إلى ربه. وفيه إشارة إلى أن من اختار خلاف ذلك يكون جزاؤه على حسب ما قدم.

40- إنا أنذرناكم عذابا قريبا....ترابا.

تصريح بالغاية مما تم عرضه، ليكون رفعا لكل عذر ممن لم يستجب، وواصل السير في ضلاله.إننا بعزتنا وتحقق ما نعلم به قد أنذرناكم ونبهناكم إلى ما يترصدكم في المستقبل من العذاب الذي سيحل قريبا، فثوبوا إلى رشدكم، واحفظوا أنفسكم من سوء المآل، وذلك بالإيمان والعمل الصالح يوم ينظر المرء ما قدمت يداه من خير ومن شر، عبر عن كل أعماله بما قدمت يداه. في هذا اليوم ينظر الإنسان إلى ما قدمه من عمل في الدنيا حسنا أو قبيحا.يراه موثقا في كتابه، ويتمثل له بالصورة التي تم عليها في الدنيا. قال تعالى **(ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا)**[1] ويحس بما يرتبط بعمله من ثواب أو عقاب.

ولما كان الإنذار قوام خاتمة السورة ناسب أن يصرح بما يقوله المُنْذَرُونَ الذين واصلوا كفرهم ولم يتعظوا بالإنذار تعبيرا عن أساهم ويأسهم. يقول الكافر الذي سِمَتُهُ الغالبة عليه، الكفر، يقول متمنيا أن لو كان ترابا: يا ليتني كنت ترابا. باقيا على أصله الذي خلق منه ولم يتحول إلى المسؤولية والتكليف. أو أن لوكان ترابا

---

[1] سورة الكهف آية 49

تدوسه الأقدام فذلك خير من المآل الذي هو فيـه.وحملـه بعضـهم علـى أن الكـافر هـو إبليس يقول يوم يبدو له مآله يا ليتني كنت ترابا ولـم أكـن مـن مـارج مـن نـار ولـم أستكبر عن السجود.

يوم الاثنين 8 شوال الموافق 2014/08/04

سورة النازعات

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف وكتب التفسير والحديث. أخذ اسمها من الآية الأولى فيها وأضاف بعضهم الواو [والنازعات] كما سماها بعضهم سورة الساهرة، والطامة. وهي سورة مكية باتفاق.رتبتها حسب ترتيب المصحف التاسعة والسبعون. وحسب ترتيب النزول الحادية والثمانون.نزلت بعد سورة النبأ، وقبل سورة الانفطار.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشۡطٗا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ سَبۡحٗا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبۡقٗا
﴿٤﴾ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرٗا ﴿٥﴾ يَوۡمَ تَرۡجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتۡبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٞ يَوۡمَئِذٖ
وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبۡصَٰرُهَا خَٰشِعَةٞ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرۡدُودُونَ فِي ٱلۡحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ إِذَا كُنَّا
عِظَٰمٗا نَّخِرَةٗ ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلۡكَ إِذٗا كَرَّةٌ خَاسِرَةٞ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجۡرَةٞ وَٰحِدَةٞ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم
بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

النازعات : جمع نازعة ولما كان النزع بمعنى الإخراج يتحقق في الخارج حسب النازع ومكانه، فتكون النازعات دالة على معان كثيرة الجامع بينها الإخراج.

الناشطات : الملائكة النازعة للأرواح بسهولة.

السابحات : السائرات بسرعة وهدوء.

فالسابقات : الواصلات سريعا إلى الغاية.

فالمدبرات : المفكرات بعمق يترتب عنه حسن التصور وإبعاد المعوقات.

ترجف : تهتز، وتضطرب.

الراجفة : القوة التي سببت اضطرابها.

الرادفة : التالية والتابعة لها.

الواجفة : المضطربة من الخوف.

الخشوع : الخضوع والتذلل. منكسرة من شدة الهلع.

الحافرة : الدنيا.مأخوذة من الحفر أثر سير رجل الإنسان في الحياة.

نخرة : ذهب التحامها.

الكرة : الرجعة.

الزجرة : المرة الواحدة من الزجر: الأمر الإلهي بعودة الأرواح إلى أجسادها.

الساهرة : الأرض البيضاء الواسعة. أرض المحشر.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم الله بملائكته التي أوكل إليها نزع الأرواح من أجسادها نزعا تبلغ فيه الغاية فلا تبقي للحياة أثرا. والتي تنشط إلى تنفيذ ما تؤمر به فتحققه بدون تراخ، وأودع الله فيها من القدرات ما تستطيع معه تنفيذ أوامر ربها فتجري في يسر كالسابح في البحر. ثم إنها تسبق إلى تنفيذ ما تكلف به من دون تراخ يستوي في كل ذلك،مهامها في الدنيا ومهامها في الآخرة. ومما تميزت به الملائكة أنها تنجز ما كلفت به أفضل إنجاز وعلى أكمل الوجوه.

الملائكة التي تابع التنزيل مزاياها العظيمة، أقسم بها والمقسم عليه تحقق البعث يوم القيامة.ولتهويل هذا اليوم عدل عن التصريح به، فذكر من خصائص ما يرعد القلوب، ويبعثها على الاحتياط منه.فذكر أنه اليوم الذي تهتز فيه الأرض هزة عظمى تنفذ إلى أعماقها، وتعقب الهزة الأولى هزة ثانية.

لا تسأل عن المكذبين فقلوبهم مضطربة كأشد ما يكون الاضطراب إذ يستحضرون ما أنذروا به في الدنيا، وتنكسر أبصارهم من الفزع والذل. إنهم كانوا يقولون في الحياة ما يعبرون به عن قوة إنكارهم أن يعودوا إلى الحياة الدنيا كما كانوا بعد أن تبلى عظامهم. ويضيفون إلى الإنكار استهزاءهم بعقيدة البعث، فيقولون لمن يدعوهم للإيمان به : إنه رجوع فيه الخسران والخيبة.

ليس بعثهم مما يستدعي ترتيب تحولات ومراحل، ولكنها زجرة واحدة من أمر التكوين.يوم يأذن رب العزة للأجساد أن تلبس أرواحها، فإذا هي حية كما كانت في الدنيا، وإذا هم مجموعون في أرض فضاء مترامية الأطراف لا شجر بها ولا آكام.

بيان المعنى العام :

1-والنازعات غرقا.

افتتحت الآية بأقسام خمسة : **النازعات.الناشطات. السابحات. السابقات. المدبرات.** ولما كان أربعة منها معطوفة بالواو فإن الأرجح أن يكون كل واحد من الأقسام

مرادا به ما هو خاص به.وهي كلها صفات لموصوفات يقدرها السامع حسب ما يترجح لديه من القرائن.

النازعات : جمع نازعة، والنزع ترجع تصريفاته إلى ما يفيد الإخراج والجذب. فهو صفة لموصوف مقدر. ولذا اختلف المفسرون في تقدير هذا الموصوف فذهب كثير منهم إلى أن الموصوف المقدر [الملائكة] والملائكة مُوَكّلة بنزع الأرواح من أجسادها. قال تعالى : **(قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون)**[1] وهي تُغْرِق في نزعها فتخرج الأرواح من أطراف الجسم حتى لا يبقى شيء من الحياة فيه. وهذا المحمل أوفق بالمقصود الأساس من السورة الذي هو إثبات البعث.

وذهب فريق آخر إلى أن الموصوف المقدر [النجوم] وهي تنزع وتسير من أفق إلى أفق آخر في مجاريها فتنحط غارقة لا يبقى من نورها شيء كما يغرق الجسم في الماء فلا يبقى منه شيء ظاهرا. والنجوم في سيرها المقدر، وحركتها على عظم أجرامها مظهر من مظاهر القدرة الإلهية التي لا يعجزها بعث الأجساد يوم القيامة.

وذهب فريق ثالث إلى أن الموصوف المقدر [جماعات الرماة بالسهام] ينزعون الأقواس فيمدونها إلى أقصى غاياتها عند وضع السهام لتندفع بقوة عند توجيهها إلى الهدف. وهو تشريف للمجاهدين المجتهدين في نشر الإسلام.عندما يقسم بهم القرآن.

وذهب فريق رابع إلى أن الموصوف المقدر [الخيل]وخيل المجاهدين هي الخيل العراب التي تنزع في أعنتها لطول أعناقها. وأقسم بها باعتبار أنها الوسيلة الكبرى لنشر الإسلام، ولما فيها من الخصال حتى إنها تدرك ما يريده راكبها منها فتحققه.

وأولى الوجوه هو الوجه الأول. لقرب مأخذه ووضوحه.ولأن المسلمين في وقت نزول الآية ما كانوا مأمورين بالجهاد.ولقوة انسجامه مع قوله **فالمدبرات أمرا**. ولولا أني وجدت معظم المفسرين تتبعوا تلكم الاحتمالات ووثقوها لما سجلتها.

2- والناشطات نشطا..

النشاط مقابل الكسل، فهو يدل على قوة الانطلاق للعمل. ولما رجحنا في المعطوف عليه النازعات أن يكون المقصود بها الملائكة، فيكون قوله **والناشطات نشطا** : الملائكة التي تسرع لتنفيذ ما تكلف به. ومن ذهب إلى أن النازعات النجوم حمل الناشطات أيضا على الكواكب وهي تسرع في سيرها.

---

[1] سورة السجدة آية 11

3-والسابحات سبحا.

وأصل السبح العوم في الماء.ويوصف سير الخيل المريح مع السرعة بالسبح. وحملها على أن الموصوف الملائكة يفيد وصف الملائكة بسرعة تنفيذها لما كلفت به في سهولة ويسر.

4-فالسابقات سبقا.

بعطفه بالفاء على السابحات يحمل على ما يرتبط مفرعا على السابحات. ولما كان السابقات يفيد بأصل معناه سرعة الوصول إلى القصد، وحملنا النازعات وما عطف عليها على أن المقصود الملائكة، كان المقسم به الملائكة التي تسبق إلى تنفيذ ما أوكل إليها.

5-فالمدبرات أمرا.

التدبير عمق التفكير لتحقيق أفضل النتائج.والأمر الغرض المهم. وحملها على الملائكة يعطينا مفهوما مفاده أن الملائكة تنجز ما تؤمر به على أفضل الوجوه.

6-يوم ترجف الراجفة تتبعها الرادفة..

كملت الأقسام بالأوصاف التي رجحنا أنها أوصاف للملائكة وهي تقوم بمهامها.فأين المقسم عليه ؟ المقسم عليه يفهم من الكلام تقديره لتبعثن يوم القيامة للحساب.وليكون التأثير أبلغ لم يعجل القرآن بالتصريح به، وأخذ يفصل الأهوال التي تقع في هذا اليوم مما يهز قلوب الكافرين، ويكشف لهم عما يقع فيه من ينكره، فيحملهم ذلك على مراجعة رفضهم الإيمان به، ويكون الإنذار قد تم وقامت عليهم الحجة. إنه اليوم الذي يهتز فيه الكون زلزالا شديدا، ويستحضر الذهن ما يصحب الزلزال الشديد من قرع وأصوات مرعبة.تندك الأرض والجبال فتتفتت قال تعالى : **(وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة)**[1] بلغت الرجفة أقصى ما يُتَصور لها من قوة حتى أصبحت الأرض المرجوفة هي الراجفة وليس شيئا وراءها. وما إن تنتهي الرجفة الأولى بأهوالها حتى تتبعها وتتلوها رجفة أخرى على نفس درجتها من القوة والعنف. فتنخلع قلوب المشركين الجاحدين للبعث. إذ يتبينون ما كان الرسل أوعدوهم، وما صمموا على تكذيبه، فيبدو لهم تكذيبهم مهيئا ليقعوا تحت أهوال أشد وعذاب أكبرن فتضطرب قلوبهم أشد الاضطراب، قلوب يومئذ واجفة. في الوقت الذي يشعر فيه المؤمنون بالطمأنينة لما وعدهم به ربهم من الفوز برضوانه في هذا اليوم.

---

[1] سورة الحاقة آية 14

أبصارها خاشعة. يبدو الذل على سحنهم، ويجللهم الهوان،وتتكسر الأبصار فلا يرتفع لها جفن من شدة الهلع والخوف،مما يترصدهم من العذاب الذي رأوا بوادره.

11/10: يقولون أئنا لمردودون..نخرة.

استحضرت الآية ما كانوا يقابلون به في الدنيا إنذارهم من يوم البعث.فكانوا كلما تكررت عليهم المواعظ قابلوها بإنكار، وتعجيب من القابلين لعقيدة البعث.يكذبون الرجوع إلى الحياة، والعودة لما كانوا عليه، والحافرة أصلها أن السائر يترك آثار قدميه في الطريق الذي سار فيه، فإذا أراد أن يعود لمنطلقه تتبع تلك الحفر حتى ينتهي إليه. فهم ينكرون العودة إلى وضعهم الأول في الحياة، بعد أن بليت العظام ونخرت فأصبح الهواء يتخللها ويصوت عندما يدخل بين أجزائها.

12-قالوا تلك إذن كرة خاسرة.

تسجيل لقول آخر صدر عنهم في الدنيا سجله الملائكة في صحائفهم، ينضاف إلى القول الأول، فبالقول الأول أنكروا البعث، محيلين أن تعود الأجسام إلى الحياة الأولى بعد بلاء الجهاز العظمي.ومقالتهم هذه أطلقوها قاصدين بها الاستهزاء من الذين يؤمنون بالبعث، وممن يدعوهم إليه. يقولون أي رجوع تدعونا إلى الإيمان به؟ إنها عودة يصحبنا فيها الخسران. يقولون ذلك استهزاء بالمؤمنين بالبعث.

14/13-فإنما هي زجرة واحدة...الساهرة.

البعث الذي ينكرونه، ويستهزئون به سيتحقق لا محالة وبسرعة عجيبة. يتم بزجرة واحدة لا تتبعها أخرى.والزجر أصله الصيحة بطريقة فيها ما يحتم على المزجور أن ينبعث لما يراد منه. والمراد بها هنا الأمر التكويني الذي يتبعه عودة الأرواح إلى أجسادها فتنبعث أحياء وتنطلق إلى المحشر.فهو أمر هين على الخلاق العظيم لا يتجاوز حسب تقدير البشر أكثر من نفخ موقظ في الصور.قال تعالى : (**ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون**)[1] فإذا هم بالساهرة بأرض المحشر الأرض التي لا عوج فيها منبسطة لا شجر فيها ولا روابي تجمع الخلائق كلهم.يحدث هذا بسرعة كأنه أمر يفجأ الناس لسرعة حصوله.

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾

[1] سورة الزمر آية 68

فَأَرَىٰهُ ٱلْـَٔايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾
فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْـَٔاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً
لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

حديث موسى : خبر موسى وتفصيل ما حدث له عند أدائه لمهمته.

الواد : المكان المنخفض بين الجبال.

المقدس : المطهر.

طوى : اسم مكان في جانب جبل الطور من سيناء.

طغى : أفرط في تكبره.

الزكاة : الزيادة في الخير النفساني. بتخليص نفسه من العقيدة الضالة.

الهداية : الدلالة على الطريق الموصل إلى المطلوب.

تخشى : تخاف الله.

الآية الكبرى : المعجزة الكبرى.

أدبر : أعرض.

يسعى : يجتهد في حمل الناس على رفض دعوة موسى.

الحشر : جمع الناس.

نادى: أعلن رافعا صوته.

أخذه الله : اخضعه لقدرته مغلوبا.

نكال : إذاية عظيمة، يترتب عنها خوف من علم بها من تعرضه لمثلها.

عبرة : موعظة.

بيان المعنى الإجمالي :

الظاهر أن حديث موسى في هذه السورة هو أول ما قصه الله في القرآن من خبر موسى وفرعون. يثير القرآن بأسلوبه هذا : **هل أتاك حديث**... رسوله محمدا ﷺ وكل من يبلغه القرآن بالخطوط الكبرى لهذه القصة التي تحذر من عاقبة الرفض والعناد للحق. يتضمن حديث موسى وفرعون ما يلي :

1) أن الله كلف موسى وحمله رسالته بالوادي المطهر (طوى)

2) مضمون الرسالة : توجه إلى فرعون لأنه قد تجبر وبالغ في الاستكبار.

3) ادعه بلين وقل له :أعرض عليك الهدى لأني حـريص جـدا علـى مـا ينفعـك، أفـتح لك الطريق الذي ينمي الخير في نفسـك، وأسـاعدك علـى معرفـة ربـك الـذي والـى عليك من نعمه ما بلغت بـه المسـتوى الـذي أنـت عليـه. إنـه باستحضـارك للحقيقـة الإلهية في نفسك تنساق إلى الخير وتبعد عن الشر والإثم وتخشى الله.

لم يلن، وظهرت عليه أمارات الـرفض.ألقـى موسـى عصـاه فانقلبـت حيـة نشـيطة، وهي المعجزة العظمى التي أيد الله بها رسوله.فصمم فرعـون علـى التكـذيب.ثـم أعلـن أنه يخالف موسى، وأنه يعاكسه في كـل مـا جـاء بـه.وشـعر أن الأمـر جـد، فقطـع الطريق على موسى خشية أن يـؤثر فـي رعيتـه، فجمعهـم وأمـر المنـادين أن يعلنـوا فيهم: أنا فرعون ربكم الوحيـد،ابن آمـون رع الإلـه الأعلـى. تصـميمه علـى رفـض الحق ومكابرته وتكذيبه للمعجزات، هيأه كل ذلك لتسـليط نقمـة الله عليـه وتعذيبـه مـع جنده،عذابا كان تصوره يصرف أصحاب العقول المستقيمة عـن الوقـوع فـي مثـل مـا وقع فيه فرعون. أغرقه الله في الدنيا فهلك وهلـك كـل مـن كـان معـه، وفـي الآخـرة يُسَيَّرُ إلى عذاب عظيم في جهنم.

إن في حديث فرعـون موعظـة تنفـع المـؤمنين ليـزدادوا إيمانـا مـع إيمـانهم.وفيـه تعريض بما سيناله المشركون من سوء العاقبة نظير ما نال فرعون.

بيان المعنى العام :

15- هل أتاك حديث موسى.

طريقة في الكلام العربي يقصد منها تشويق السامع إلـى الخبـر الـذي يعرضـه المـتكلم. لا يقصد منه سؤال المخاطب هل أتاه حديث موسى، ولا ينتظـر منـه جوابـا هـل علمـه من قبل أو لم يعلمه. ولكن المقصود إثارته للانتباه إلى مـا فـي الخبـر مـن أمـر هـام، و يطلب منه تتبعه بكامل العناية. والغايـة مـن ذلـك تسـلية النبـي ﷺ بسـبب تصـلب المشركين في رفضـهم، فيعـرض عليـه مـن وقـائع التـاريخ، ومواقـف العتـاة مـن الهدى،ما يجد فيه ﷺ السّلْوى ليمضي واثِقًا من النصر.

هل بلغك خبر موسى، الذي كان من آثـاره أنـه أصـبح حـديثا يـذكر و ينقـل. فتـوالى التشويق لما أراد الله أن يـذكر بـه النـاس.والمخاطـب فـي الآيـة رسـول الله ﷺ كمـا يصلح أن يتوجه الخطاب لكل من يصلح له. وخاصـة المتعصـبون مـن مشـركي مكـة، ليكون فيما حصل لموسى وموقـف فرعـون منـه عبـرة لهـم ليرتـدعوا عـن كفـرهم، ويستمعوا إلى الحق الذي جاءهم على لسان رسـول الله ﷺ بقلـوب متفتحـة للحـق حـذرة من سوء العاقبة التي صار إليها فرعون وقومه.

16-إذ ناداه ربه بالوادي المقدس طوى.

حديث موسى ينطلق من نداء ربه له في ذلكم المكان المعين الذي يحدده القرآن، بأنه واد بين الجبال، قدسه الله مطهرا له عن منازل الدون،ومشرفا ومباركا فيه، وذلك باختيار موسى للرسالة فيه، وكلام رب العزة له مباشرة بدون واسطة ملك. وطوى اسم للبقعة التي تم فيها تكليم موسى. وهو واد في صحراء سيناء في جانب جبل الطور.

17- ذلكم النداء الذي وعاه موسى وشَرُفَ به، مضمونه :أمر لموسى أن يذهب إلى فرعون ملك مصر بسبب طغيانه، واستهانته بالحق تكبرا وعتوا.والظاهر أن ما جاء في هذه السورة أول ما نزل في القرآن تسجيلا لحديث موسى وفرعون.

18←19: فقل له هل لك إلى أن..فتخشى.

أرشده ربه إلى أن يلين لفرعون في القول، فيفاتحه بقوله : هل لك رغبة وميل في أن تزكي نفسك ؟ وهو ما وقع التصريح به في قوله تعالى :**(فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى)**[1] فأنا أعرض عليك الطريق الذي به تزداد نفسك من الخير، وتطرد كل ما يبعدها عن الطهر. فمن البداية يقربه بإعلامه أنه حريص على نفعه الذي هو قصده الأساس.

وأهديك إلى ربك فتخشى... وأدلك على الطريق الذي يقربك من ربك الذي تولاك بعنايته وألطافه حتى بلغت ما بلغت. إنه بقربك منه تتعمق معرفتك له وتحل خشيته في قلبك ومشاعرك.إذا عرفت عظمته وجلاله وأنه الكمال المطلق،فإن نفسك تشمئز من الشر وتلين للخير وتكون أقرب للحق، إن الله هو الحق المبين. ويقوم من ذاتك ما يجعلك تخاف عقابه، وتخشاه فتحصّن نفسك من الشر والفساد. ويكون فيها دافع من ذاتها إلى الخير والصلاح.

21/20- فأراه الآية الكبرى...وعصى.

يدل الكلام على أن موسى عليه السلام تلطف في دعوته لفرعون، وأن ذلك ما زاده إلا عتوا واستكبارا ورفضا. وعندها عرض عليه موسى أن يكشف له المعجزة الكبرى التي تظهر بما لا يدع مجالا للشك أنه مرسل من عند الله.ولتصلبه في الرفض، ولقوة عناده،أسرع بالتكذيب وعصيانه لما جاء به موسى من توحيد الله، ومن الإفراج على بني إسرائيل ليسيروا مع رسولهم.

---

[1] سورة طه آية 44

22←24: ثم أدبر يسعى فحشر...الأعلى.

وفوق ما قابل به من الإسراع بالتكذيب والعصيان، أدبر مصمما على اتخاذ طريق معاكس تماما لما يأمره به موسى. وأخذ يدبر المكائد، وينفذها ليحول بين الناس وبين تصديقه .كان من اجتهاده لتوقيف أثر دعوته أن أرسل في مدائن مصر من يجمع الناس ليواجهوا فتنة موسى، وأن يقدموا خيرة من عندهم من مهرة السحرة.كما جاء في قوله تعالى (**فأرسل فرعون في المدائن حاشرين**)[1] وكذلك في الآية 111 من سورة الأعراف. وبمجرد ما التأمت جموعهم أذن زبانيته بأن يرفعوا أصواتهم بما تلقوه من فرعون : **أنا ربكم الأعلى**. يذكرهم بعقيدتهم التي تمثل الوحدة التي عليها يجتمعون.إنه ابن [آمون رع] الإله الذي يتجلى مظهره في الشمس حسبما تصوره الكهنة.وهو كبير الآلهة ورِثَ ابنُه منه هذا التميز المقبول من الكهنة ومن وجوه القوم ومن عامة الشعب.

25←26: فأخذه الله نكال... يخشى.

تصلب فرعون في إنكاره، وكابر بعد أن أراه موسى المعجزات التي لا يأتي بها إلا رسول مؤيد بها من مرسله رب العالمين. فأخذه الله،بأن سلط الله عليه عقابه، وما استطاع الإفلات منه. كان هذا العقاب شديدا جدا، فكل من يراه أو يسمع به يخشى أن يصيبه مثل ما أصاب فرعون وقومه.شمل هذا العذاب المفزع مآل فرعون في الآخرة وما جرى عليه في الدنيا. أما الآخرة فإنه سيعذب في جهنم عذابا من أشد أنواع العذاب، يُلقي في قلوب الذين يخشون ربهم ويخافون عذابه ذلك المصير، فيبعثهم على تحصين أنفسهم منه، وأما في الدنيا، فقد أغرقه الله مع جنده في البحر.فقطع دابرهم ولم يبق لهم أثر، إلا أثر واحد، وهو أن ما سلط عليهم كان عبرة وموعظة لمن خشي ربه مستحضرا جلاله وقدرته وأنه لا نجاة للإنسان إلا بفضله ورحمته.

نعم هي موعظة استفاد منها المؤمنون، فقَوَّتْ إيمانهم، وأيقظت نفوسهم بقظة زائدة للثبات على الاستقامة، والتمسك بالهدى، وفي ذلك تعريض بالمشركين الذين اتبعوا سبيل فرعون المستكبر عن الحق الطاغي.إنهم سينالون مثل ما ناله من النكال في الدنيا والآخرة.

---

[1] سورة الشعراء آية 53

ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا
وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾
وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

أشد خلقا : أصعب خلقا.

السمك :الرفع في الفضاء.وهو يمثل المسافة بين الطبقة الدنيا والطبقة العليا.

التسوية : التعديل وعدم التفاوت.

أغطش : أظلم.

إخراج الضحى: إبراز نوره.

الضحى : وقت وضوح نور الشمس بعد شروقها.

دحاها : بسطها.

بيان المعنى الإجمالي :

أقام القرآن الدليل القريب البين والواضح على أن بعث الأجساد بعد موتها أمر ميسور. ما بالكم تعدون ذلك أمرا صعبا وغير مقبول ؟ فهل إن بعثكم بعد الموت أصعب من خلق السماوات التي خلقها الله خلقا أحكم فيه ترابطها، ورفعها علوا إلى مسافات لا يعلم مقدراها إلا هو؟ ووضع كل جزء في موضعه الذي يتلاءم فيه مع بقية الأجزاء.ترى أثر ذلك في تعاقب الظلمة الشديدة كل ليلة،والنور الساطع ضحى كل يوم. لا يستطيع عاقل أن ينكر أن خلق الإنسان من جديد أهون وأيسر من خلق السماوات وما قدر فيها من إحكام،آثاره المباركة واضحة.

ولنتأملوا في الأرض التي تعيشون على ظهرها،فالله سبحانه هو الذي بسطها وهيأها فجعل طبيعتها ميسرة ليعمرها الإنسان.ورغم أن طبيعتها يابسة، فقد قدر أن يختزن الماء في باطنها ويخرج منها الأنهار، وأحيل تربتها بمتنوع الأقوات للإنسان والمراعي للحيوان. ما تخرجه تنتفعون به مع الحيوانات انتفاعا غير أبدي. وثبت الأرض بالجبال الراسيات.

بيان المعنى العام:

27←29: أأنتم اشد خلقا أم السماء بناها...وأخرج ضحاها.

كذّبوا بالبعث واستهزأوا به كما جاء في الآيات 12/11/10 يقولون أئنا لمردودون في الحافرة أئذا كنا عظاما نخرة قالوا تلك إذا كرة خاسرة. وبعد أن عرض عليهم

عاقبة فرعون الطاغية ليحذرهم مصيره،انتقل القرآن ليقيم لهم الدليل على معقولية البعث، وأن شواهد قدرة الله في خلق الكون دليل حاضر مشاهد على أن بعث الأجساد يوم القيامة أهون من إنجاز النظام الذي خلق الله عليه السماء والأرض.وابتدأ بخلق السماء، ثم ثنى بخلق الأرض.

ابتدأهم بسؤال تقريري يلجئهم إلى الاعتراف بإمكان البعث وعدم استحالته فيقول لهم : أأنتم أشد خلقا،هل إن خلقكم من جديد بعد موتكم أصعب من خلق السماء الذي لا تدعون أن قدرة غير قدرة الله خلقتها. وفصل في هذا الخلق شيئا ما ليتأملوا في ذلك. أحكم التحام أجزائها بما أودع فيها من عجيب الأسرار، التي منها الجاذبية القوية والمتوازنة بين أجرامها.فهي مترابطة أشد الارتباط [بناها] ورفعها في الفضاء ارتفاعا بليغا. وراعى إحكام الصنع في كل مكون من مكوناتها فكان على مقدار ينسجم مع بقية الأجزاء،فلا تجد فيها نشازا. كان من إحكام وضع كل مكون أن جعل ليلها مظلما شديد الظلام، ثم أخرج النور الساطع الكاشف للكون وما يحويه. فلا الليل هازم للإشراق بصفة دائمة، ولا النور الساطع هازم لظلمة الليل، ولكن التقدير الحكيم جعلهما يتعاقبان في نظام لا خلل فيه.

30←33: والأرض بعد ذلك دحاها....متاعا لكم ولأنعامكم.

ثنى بما يلفت أنظارهم للتأمل في كوكب الأرض فذكر :

أولا: أنه بسط الأرض بعد إحكامه لخلق السماوات، والظاهر من الآية تأخر بسط الأرض في الزمان على بناء السماء.

ثانيا : دحاها، أي أجرى نظامها على كيفية تكون الحياة فيها ميسرة، وبالتالي مسخرة ليعمرها الإنسان. وتفسير الدحي بالبسط هو ما عليه معظم المفسرين، وقدمه في معنى الدحو القاموس وشرحه.وفسره الراغب بالإزالة، فقال : أي أزالها عن مقرها، وأيده بتصرفات في علاقة الدحو بالمطر والفرس وربطه بأدحي النعام مبيضه. وفي تاج العروس أيضا، دحا الحجر بيده رمى به ودفعه[1] فيكون المعنى حسب تفسير الراغب وما ذكره الزبيدي تدقيقا لكلمة [بعد] أي انفصلت الأرض عن خلق السماء واستقلت بقوانينها في زمن متراخ عن بنائها. وهذا من الإعجاز القرآني الذي يعبر عن المعنى بطريقة لا يقف عندها الناظر متحيرا في مدلولها،بل يفهمها على المستوى المعرفي الذي بلغته البشرية، ثم إذا تقدمت المعرفة وكشفت عما كان مجهولا من قبل، وجد في التعبير القرآني ما ينسجم مع الحقيقة. وأقرب

---

[1] تاج العروس ج38 ص38

الفرضيات اليوم أن كوكب الأرض انفصل عن السماء، وأجرى الله عليه من التطورات ما مهده لإيواء البشر والحيوان.

ثالثا: أنه سبحانه قدر فأحسن التقدير، إذ أخرج من الأرض اليابسة بطبيعتها الماء الذي جعل منه كل شيء حي، وأحبلها بما يقتاته الإنسان منها مباشرة كالحبوب والثمار، وبما ترعاه الحيوانات والأنعام التي تساعده على عمارتها من ناحية، والتي يجد منها الغذاء المكمل للحبوب من ناحية أخرى.

وخلق فيها الجبال تحفظ توازنها، و تؤثر في مجاري السحب والرياح.مراعيا سبحانه في قوانين خلق الأرض، وفي الجبال الراسية ما يحقق نفعكم الضامن لحياتكم الفانية لا الأبدية.

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

بيان معاني الألفاظ:

الطامة : الداهية التي تعلو على جميع الدواهي.

ما سعى : ما عمله.

برزت : أظهرت فانكشفت.

الإيثار : تفضيل شيء على آخر عندما لا يتيسر الجمع.

الحياة الدنيا :ملاذها المنافية لحظوظ الآخرة.

مقام ربه : جلاله ومهابته.

بيان المعنى الإجمالي:

إنه عندما تحل الداهية التي تفوق في هولها جميع الدواهي، عندما تقوم الساعة ويبعث البشر إلى المحشر.في ذلكم اليوم يعيد الله للإنسان ذاكرته فيستحضر كل عمل قام به.ويعظم الهول عندما تتكشف جهنم لكل من يتصور منه الرؤية.

إنه في هذا اليوم يفترق البشر إلى فرقتين :

الفرقة الأولى التي كانت سمتها الغالبة هي الطغيان وتجاوز حدود الله والاستكبار عن طاعته. وتفضيل شهوات النفس ومتاع الحياة الدنيا المحدود والزائل على ما

وعد الله به عباده المتقين. الذين قطعوا تعلقهم بما عند الله فحق عليهم العذاب في جهنم لتكون هي منزلهم الذي لا يبرحونه.

والفرقة الثانية التي كانت سمتها الغالبة الخوف من الله واستحضار جلاله، فربطت ميولها بما يرضيه، وقمعت شهوات النفس وعاكست الهوى.إن مآلهم سكنى الجنة السكنى الأبدية.

بيان المعنى العام :

34←36: فإذا جاءت الطامة.... الجحيم لمن يرى.

تقدمت الإشارة في الآية السابقة إلى أن ما تخرجه الأرض للناس والأنعام متاع فان محدود أجله. ذلكم الأجل هو يوم تجيء الطامة. الواقعة الداهية التي تعلو على كل الدواهي، وهي وصف ليوم القيامة. وجسم حصولها بالتعبير عن ذلك بالمجيء، كأنه سائر واصل مسيره إلى أن بلغ الغاية المضبوطة مقدما.ومن بلاغة القرآن التعبير "**بالطامة**" التي يتساوق فيه الجرس اللفظي و المعنى ليطبع في النفس الهول الكبير.

إنه اليوم الذي يعيد فيه المولى سبحانه إلى الإنسان ما سجلته ذاكرته في حياته من الأعمال التي قام بها.فإذا هي حاضرة تتمثل له كأنها واقعة اليوم. قال تعالى :(**يوم يبعثهم الله جميعا فينبئهم بما عملوا أحصاه الله ونسوه**)[1]

وبرزت الجحيم – كانت جهنم محجوبة عن الأنظار نوقن بها تبعا للوحي الصادق. أما في يوم القيامة فإنه بإثر ما ينكشف لكل إنسان عمله، ويجده حاضرا مشاهدا، فإنه يرفع الحجاب الساتر لها وتبدو ظاهرة منكشفة لكل من تتأتى من الرؤية.

37←39: فأما من طغى وآثر....المأوى.

وصل القرآن في بيانه إلى مجيء القيامة.والآخرة هي الموعد الذي ينقسم فيه الناس إلى شقي وسعيد.ففصل ذلك بتسجيل الجزاء وأسبابه الكبرى :

أولا : من طغى فتجاوز حده مستكبرا عن قبول الحق، لفساد اختياره بين دواعي طاعة شهواته وملاذه العاجلة وبين الحق والطاعة لله، هذا الاختيار الذي جعله يفضل ما تزينه له نفسه وتحثه عليه من تعجيل المتعة،على ما يدعوه إليه الدين من تقديم مراعاة الآخرة على الحظوظ العاجلة، والاستقامة على نهجه الصالح فيما يقبل عليه أو يدعه. هؤلاء الذين تعلقوا بمتاع الحياة الدنيا وحدها هم الذين يقال لهم. يوم القيامة: (**أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب**

---

[1] سورة المجادلة آية 6

الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون)[1] فإن الجحيم:جهنم هي مأواهم الذي ينتهون إليه ولا يبرحونه، كما ينتهي كل ساع إلى منزله الذي يقيم فيه.

39←41: وأما من خاف مقام ربه...فإن الجنة هي المأوى.

ثانيا : القسم الثاني من البشر يوم القيامة هم المؤمنون عرفهم القرآن، بميزتهم التي تصحبهم في الدنيا، فتطبع سلوكهم وتؤثر في اختياراتهم، فيما يقدمون عليه أو فيما يتركونه ويبتعدون عنه. تلكم الميزة هي الخوف من جلال الله وعظمته، يخشون أن يراهم حيث نهاهم أو يفقدهم حيث طلب منهم أن يحضروا. كلما قام داعي الهوى والشهوة قمعه حذرهم من المعصية.استحق هؤلاء أن تكون الجنة سكناهم الدائمة.

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

الساعة : يوم القيامة : الطامة الكبرى.

أيان مرساها: متى يكون حلولها ؟

الذكرى : الذكر اللساني.

منتهاها : علم وقت حصولها.

بيان المعنى الإجمالي :

لما ذكر القرآن أهوال الطامة الكبرى ثار سؤال في نفس المشركين، و تكرر ذلك منهم، متى تقوم الساعة استبعادا لها تبعا لتأخر حصولها. فكان الجواب على غير ما يترقبون. إن محمدا كلف من قبلنا بحمل الرسالة فهو يبلغكم ما يصلح شأنكم مما يصله من وحينا، ووقت الساعة ليس مما أُعلِمَ به، فهو ليس في شيء من ذكر وقتها. فإن عِلْمَ وقت حلولها عند ربك وحده.وما كلفت إلا بإنذار البشر أهوالها لينتفع من نذارتك من يخشاها ويمضي غيرهم على عماهم.إن إحساسهم عند حلول يوم القيامة هو أنهم يظنون أنهم ما لبثوا في الحياة الدنيا وفي قبورهم إلا وقت قصير لا يبلغ يوما كاملا عشية أوضحاها.

بيان المعنى العام :

---

[1] سورة الأحقاف آية 20

42-يسألونك عن الساعة أيان مرساها.

ما ذكر في الآيات السابقة أثار المشركين فسألوا مستهزئين مستبعدين أن يأتي يوم القيامة. وكان سؤالهم :هذا التي تصفه يا محمد من الطامة الكبرى وما تبعه متى يحل؟مثلوه بسفينة قادمة في عرض البحر متى ترسو بجانب البر وتستكمل رحلتها. وقد تكرر منهم السؤال عن موعد الساعة موهمين أنفسهم، وأشياعهم بأن تأخر حلولها أمارة نفيها.

43- فيم أنت من ذكراها.

إنك مرسل من قبلنا لا تصل إلا إلى علم ما أردنا أن تعلمه وما لم نتعلق إرادتنا بتعريفك إياه فأنت بعيد عن ضبطه وتحديده. والساعة من المغيبات التي يجب الإيمان بها في الحدود التي كشف عنها القرآن، والوقوف عما وراء ذلك. فأنت يا محمد لست في شيء من معرفتها. فسؤالهم لك عن ميقاتها هو من تلددهم ومحاولاتهم صرف أفكارهم وأفكار أتباعهم عن التهيؤ لها بإصلاح عقيدتهم وسلوكهم. فما أنت من ذكر وقتها لهم في شيء.

44- إلى ربك منتهاها.

علم وقت حصولها [منتهاها] مما اختص بعلمه ربك الذي تولاك بعنايته، ومن ذلك أنه يطلعك على ما يفتح لك سبيل الهداية والخير.وعلم وقت مجيئها لا يترتب عليه صلاح فردي ولا اجتماعي.لأن التكليف لا يتحقق إلا مع جهل تاريخ حلولها.

45- إنما أنت منذر من يخشاها.

مسؤوليتك منحصرة في إيقاظ الناس من غفلاتهم بإنذارهم أن الساعة حق، وأن كل فرد يلقى جزاءه يوم القيامة.فأنت تنذر قدومها ليستجيب لإنذارك من يخشى العاقبة، ويُعِدُّ نفسه لذلك اليوم العظيم.

46- كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أوضحاها.

استبطأ المشركون قدوم يوم البعث واتخذوا ذلك مبررا لإنكاره. فشبه لهم قرب حلول يوم القيامة بما يحسونه في ذلك اليوم من أنفسهم.أن الزمن الذي قضوه في الحياة وبعد الموت إلى البعث يختصر في نظرهم، فيظنون أنهم ما لبثوا في الحياة وفي الموت، إلا أقل من يوم: عشية يوم أو ضحى تلك العشية.

وهذه السورة آخر سورة من طوال المفصل التي مبدؤها سورة الحجرات.

20شوال 1435 الموافق لـ 2014/8/17-

سورة عبس

بهذا الاسم[سورة عبس] عرفت في المصاحف وفي كتب التفسير وفي كتب السنة. أخذ اسمها من الآية الأولى. هي سورة مكية.رتبتها حسب ترتيب المصحف الثمانون وحسب ترتيب النزول الرابعة والعشرون نزلت بعد سورة النجم وقبل سورة القدر. ولما كانت سورة النازعات آخر سورة من طوال المفصل، فإن هذه السورة هي أول سورة من أواسط المفصل.

بسم الله الرحمن الرحيم

عبس وتولى (1) أن جاءه الأعمى (2) وما يدريك لعله يزكى (3) أو يذكر فتنفعه
الذكرى (4) أما من استغنى (5) فأنت له تصدى (6) وما عليك ألا يزكى (7)
وأما من جاءك يسعى (8) وهو يخشى (9) فأنت عنه تلهى (10) كلا إنها تذكرة (11)
فمن شاء ذكره (12) في صحف مكرمة (13) مرفوعة مطهرة (14) بأيدي سفرة (15)
كرام بررة (16)

بيان معاني الألفاظ :

عبس : قطب وجهه معبرا عن إنكار لما يحدث.

تولى : أعرض عن السائل.

يزكى : يتطهر من الجهل.

الأعمى : ابن أم مكتوم.

استغنى : حسب نفسه غنيا عن هديك.

تصدى : أصله تتصدى تقبل عليه إقبالا مبالغا فيه.

تلهى: تتشاغل.

مرفوعة : رفيعة المقدار.

سفرة : جمع سفير المرسل في أمر مهم : الملائكة.

بررة : جمع بر، وهو الجامع للخير والصلاح.

بيان المعنى الإجمالي :

تفتح السورة تسجيل فعلين متواليين : **عبس وتولى**. وبالتعجيل بذكر سبب ذلك، وهو مجيء الأعمى الذي كان الأولى أن يكون عماه مرجحا للإقبال عليه لا التعبيس والتولي.وفاعل ذلك هو النبي ﷺ فعَتَبَ عليه ربه وقال له : أعرضت عنه. **وما يدريك**، إنك لا تعلم ما سيترب على عنايتك به، المرجو منه أن يحقق نجاحك في مهمتك. سيتأثر بعنايتك ويزداد طهرا، ويتمكن بهداك تمكنا قويا في الدين ينتقش في نفسه ولا ينساه.

أما من كان مستغنيا عنك وعما جئت به، مصمما على الكفر، فأنت مقبل على وعظه راغبا أشد الرغبة في التأثير عليه، مع قوة إعراضه. مع أنك لم تكلف بحمله قسرا على الاهتداء وتطهير نفسه من الشرك ومن العقائد الضالة التي رسخت في نفسه وتمكنت من روحه.وأما من أقبل عليك تاركا وراءه الدنيا متعلقا أشد التعلق بمعرفة ما أنزله الله عليك من الهدى، وقد رزق قلبا متعلقا بالله يستحضر جلاله في كل آن ويخاف عذابه وسخطه، فإنك تتشاغل عنه ولا توليه ما يستحقه من الاهتمام. كانت هذه الآيات فيها عَتَب على رسول الله لما أعرض عن ابن أم مكتوم الرجل الصالح الأعمى لما جاءه يطلب منه أن يستنير من الهدى الذي تعلق به قلبه، واعتنى بصناديد قريش العناية الكبرى مع أنهم ما كانوا مستعدين لقبول وعظه. وما كلفه ربه أن يبالغ إلى ذلك الحد في العناية بهم. يتحتم أن لا تتكرر مثل هذه الحادثة.وهي تذكرة ترشد الرسول والمؤمنين إلى أن العناية بالمفقود لا يقبل بحال من الأحوال أن تُهمِل الموجود. وليس هذا الإرشاد والتذكير يحمل أحدا قسرا على رعايته.بل من تعلقت إرادته بالخير والكمال فليتبعه، ومن أبى تحمل نتيجة اختياره. وهذه التذكرة مثبتة أزلا في كتاب الله.موثقة في صحف، حقيقتها من الغيب. أثنى الله عليها بأنها بالغة غاية الكمال والسمو، منزهة عن كل نقص.يحمل منها الملائكة الموكلون بإبلاغ ما يؤمرون بتبليغه منها. فهم سفرة بين ما هو مثبت في اللوح المحفوظ وبين المقصود إبلاغهم من البشر المرسلين للهداية. أولئك الملائكة الذين هم على أعلى مستوى من الطاعة لله.

بيان المعنى العام :

1←2: عبس وتولى أن جاءه الأعمى.

افتتحت السورة بذكر فعلين متواليين، ولم يذكر معاد الضمير المقدر المعين للفاعل.أما العبوس فهو تقطيب الوجه الذي يلاحظ على وجه من يضيق بالوضع

الذي هو فيه. وأما التولي فهو الإعراض عن المخاطب ويتعين الفاعل في الآية (6) **فأنت له تصدى**. أنه رسول الله ﷺ. فيكون الكلام في قوة عبست وأعرضت.لأن جاءك الأعمى.فمن هو الأعمى ؟ الأعمى اسمه عمرو، وقيل كان اسمه الحصين فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله وهو قرشي عامري من السابقين للإسلام، وأمه عاتكة كنِّيَتْ بولدها هذا لأن ابنها ولد أعمى ويطلق على من ولد أعمى " مكتوم" وربط اسمه بها لأنها كانت مخزومية، ومكانة أسرتها في قريش مكانة رفيعة.

يوضح سبب نزول الآية ما رواه مالك ﷺ في الموطأ مرسلا بسنده إلى هشام بن عروة بن الزبير عن أبيه ﷺ أنه قال: (نزلت (عبس وتولى) في عبد الله بن أم مكتوم.جاء إلى رسول الله ﷺ فجعل يقول : يا محمد استدنيني،وعند النبيء ﷺ رجل من عظماء المشركين، فجعل النبي ﷺ يعرض عنه ويقبل على الآخر، ويقول : (يا أبا فلان هل ترى فيما أقول بأسا) فيقول: لا والدماء ما أرى بما تقول بأسا، فأنزلت عبس وتولى.[1]

وذكر الواحدي: (أن النبي ﷺ كان يناجي عتبة بن ربيعة، وأبا جهل، والعباس بن عبد المطلب،وأبي بن خلف، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن المغيرة، والنبي ﷺ مقبل على الوليد، يعرض عليهم الإسلام).

والذي يستخلص مما نقل : أن النبي ﷺ كان مشغولا بعرض الإسلام على صناديد قريش المُؤثّرين فيهم لرفيع مكانتهم الاجتماعية، وهو صلى الله عليه وسلم يرجو أن يشرح الله صدورهم للإيمان فيتأثر بهم أتباعهم، وينتشر الإسلام بقوة في مكة لكثرة أتباعهم. وبينما كان مقبلا أشد الإقبال على مهمته تلك قدم رجل أعمى هو عبد الله بن أم مكتوم، أحد صالحي المؤمنين.وكان حريصا على معرفة أحكام الدين الذي شرح له صدره فطلب من رسول الله أن يدني مجلسه منه وأن يسمع لما يريد أن يعرضه عليه، وأن يتولى إرشاده.ولما كان أعمى فإنه لم يعلم تشاغل النبي ﷺ بمن كان بحضرته. وكان النبي ﷺ أشد حرصا على إقناعهم، ومقاطعة ابن أم مكتوم، وإلحاحه ليُعْنَى به في ذلك الظرف أحرج النبي ﷺ ، فظهرت آثار عدم رضاه عن تلكم المقاطعة وتقطب وجهه الشريف، وأعرض عن ابن أم مكتوم وواصل الاشتغال بقادة قريش الكفرة. وفي ذكر ابن أم مكتوم بصفته من العمى، مؤكد للعَتَبِ الذي توجه به القرآن للرسول ﷺ.فعمى الرجل داع آخر للعناية به.

---

[1] الموطأ ح543 ج1ص280/279

4/3- وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنفعه الذكرى.

أعرضت عنه مع أنك لا تعلم ما يترتب على عنايتك به من الصلاح." أي شيء يعلمك ما يتحقق من عنايتك به" إنه يرجى أن ينتفع بإرشادك فتزداد نفسه طهرا وحبا في الخير، وبعدا عن الشر والرذيلة" **لعله يزكى**" أو يتحرك ما علمه سابقا وخفت شعاعه في نفسه، فيرتفع إلى مستوى الوضوح والتأثير فيكون حاضرا في نفسه متجددا يقوم سلوكه، ويوضح تصوراته.ويمكن للهدى في روحه أكمل تمكين.

6/5- وأما من استغنى فأنت له تصدى..

عاتب الله نبيه أولا لإعراضه عن المؤمن الأعمى المقبل عليه بإخلاص حرصا منه على تعميق معرفته بالإسلام.كما عاتبه ثانيا لإقباله إقبالا شديدا على الذي كان يحاوره[**فأنت له تصدى**]، والحال أنه كان مصمما على أنه مستغن عن الإسلام وعن بيان رسول الله ﷺ. فالمراد استغنى "حَسِبَ نفسَه غير محتاج لما معك من الهدى" وليس المراد عد نفسه غنيا بالمال.فثروة المخاطب ما كان لها وزن مؤثر في شدة إقبال النبي ﷺعلى الوليد بن المغيرة. ونذكرك بأنك لا تتحمل أي مؤاخذة عن تقصير، إذا كان هذا الذي أقبلت عليه شديد الإقبال واعتنيت به عظيم العناية، مصمما على الكفر لا تسمو نفسه لتتطهر من الشرك والإثم.

9/8- وأما من جاءك يسعى وهو يخشى.

هذا هو النموذج الرفيع عبد الله بن أم مكتوم، المقابل للوليد بن المغيرة الذي بالغ النبي ﷺ في الإقبال عليه، والاعتناء به، بالرغم من أن الله ما كلف رسوله أن يبالغ في العناية به إلى ذلك الحد الذي تشاغل به عن ابن أم مكتوم، الذي فصل ملامحه فيما يأتي :

أولا: إنه أقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مشوقا للقياه حريصا على الإفادة من معين الوحي، فليس السعي في قوله تعالى: "**يسعى**" حركة الرجلين.ولكنه تسجيم لعظيم اهتمام ابن أم مكتوم بتلقي تفاصيل الدين التي رغب في معرفتها.

ثانيا: شهد الله فيه أنه يخشى الله، بما تَنْبَنِي عليه الخشية من معرفة بمقام الرب سبحانه، واستحضار الذات الإلهية مصاحبة له مطلعة عليه، محصية لكل عمل يأتي به. وهو ما يدل على عمق علمه بالله قال تعالى : (**إنما يخشى الله من عباده العلماء**[1]) وهو ما يفسر استخلاف النبي ﷺ له أكثر من مرة على المدينة عند

[1] سورة فاطر آية 28

خروجه للغزو. وقال سفيان الثوري :(فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم قال : مرحبا بمن عاتبني فيه ربي عز وجل، وبسط له رداءه)[1] .

10-فأنت عنه تلهى.

فأنت يا محمد تتشاغل عنه، ولا تسارع بإرواء لهفته للهدى. وإنك لتجد في تسجيل هذا العَتَب قرآنا متلوا أبد الدهر صورة من الصور التي تؤكد اليقين أن النبي صلى الله عليه وسلم أمين على الوحي لا يزيد فيه ولا ينقص منه. يبلغ ما جاءه وإن كان تضمن عتبا عليه.كما جاء في قوله تعالى : (**عفا الله عنك لم أذنت لهم**)[2] وقوله تعالى : (**ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض**) [3]

11←12، كلا إنها تذكرة فمن شاء ذكره.

افتتحت الآية بكلمة "كلا" الدالة على إبطال ما تقدمها.وهو الموقف من ابن أم مكتوم،ومن المصممين على الكفر. فينبغي أن لا تتكرر تلكم الصورة، ليكون الاهتمام بمن صدقوا في إيمانهم أعظم ممن لم يؤمنوا وظهر تصلبهم في الكفر.

إنها تذكرة فمن شاء ذكره- ما سجله القرآن في هذه الحادثة، وما وجه إليه نبيه وكل من يؤمن بالقرآن، ويلتزم بهداه،هي تذكرة للبشر ليتعظوا بها. وليكون موقفهم دائما تقديم الحاصل المحقق على المشكوك فيه أو البعيد الحصول. وأنها ليست ملاما ولا تعدو أن تكون عَتَبًا رفيقا يفيد المؤمنين.وهي تجامع ما عمر به القرآن من الوعظ والأحكام والإرشاد، لا تقسر أحدا على اتباعها، ولا تهين الإنسان فتجعله مجبرا حتى على الخير،إذ أن قيمة الإنسان تكمن في كونه مختارا مسؤولا عن اختياره. فمن شاء أن يستفيد من هذا الذكر الذي جاء به الوحي فليذكره، ويتبعه، ومن أبى ذلك فهو غير مجبر ويتحمل مسؤولية اختياره. فالذكر بضم الذال هو ذكر القلب الذي مفاده تطبيق الأوامر والابتعاد عن المناهي.

13←16، في صحف مكرمة....بررة.

الذي فهمته من هذه الآية وإن لم أجد من سبقني إليه لأستأنس برأيه، أن القرآن الذي سجل هذه القضية وعالجها، وأبقى الإرشاد الوارد فيها قرآنا يتلى، لم يكن ذلك حادثا إثر العبوس والتولي، ولكنه كان مثبتا في علم الله، ومثبتا في القرآن منذ الأزل "**إنها تذكرة في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة** "

---

[1] المحرر الوجيز ج15ص315

[2] سورة التوبة آية 33

[3] سورة الأنفال آية67

فالصحف التي وردت في الآية لا تعني قراطيس ولا ما سجل فيه القرآن من الجلود وغيرها، ولكنها صحف غيبية تليق بالتصور الأزلي لما ثبت الله فيه القرآن.وهي التي يتلقى منها الملك الموكل بالوحي جبريل عليه السلام الوحي الذي يتلقاه ويبلغه لرسول الله صلى الله عليه وسلم.ثم واصل الثناء على هذه الصحف بأن الله كرمها، إذ هي كلامه الأزلي، وهل يبلغ أي شيء من الكرامة ما يقارب ما يتعلق بالذات الإلهية.إنه الفرق بين الكامل وبين الناقص.فكل ما يتعلق بالله من أخص مميزاته الكمال المطلق. وكل ما سواه يلحقه النقص الذي يقعد به عن الكمال على نسب متفاوتة. [مرفوعة] هو الرفع المعنوي في العالم العلوي[مطهرة] شأن هذه التذكرة كشأن بقية الكلام الإلهي أنه مطهر مقدس ومبارك.لا يصل إليه الإنس ولا الجن وإنما أوكل الله من شاء من ملائكته بالاطلاع على ما شاء أن يطلعهم عليه، ليكونوا سفرة مرسلين في ما هو مهم من الأمور ليتولّوا إبلاغه .وأثنى عليهم بأنهم كرام اختصوا بمزايا سمت بهم إلى المستوى الأرفع والأكمل بالنسبة للمخلوقات جميعا. وشهد الله فيهم أخيرا بأنهم بررة جمع "بر" أي المطيعون لله طاعة موصولة دائمة. إن الله لم يمكن من الاطلاع المباشر على شيء من كلامه القديم إلا بعض الملائكة الذين فصل مزاياهم وخصائصهم في الطهر والطاعة،حسبما هو مذكور في الآية.

قُتِلَ ٱلْإِنسَـٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾

بيان معاني الألفاظ :

نطفة : الماء القليل : الخلية الأولى التي هي مبدأ حياة الإنسان.

قدره : أحكم خلقه.

السبيل : الطريق أي ما ينجزه الإنسان من الأعمال.

أقبره : جعله مقبورا.

أنشره : أصله أخرج الثوب وأزال طيه. والمعنى بعثه من الأرض بعد موته.

القضاء : فعل ما يجب على الإنسان كاملا.

بيان المعنى الإجمالي

دعاء على الإنسان الكافر يقصد منه هوانه واحتقاره وأنه جدير بأن يعدم من الوجود. عجب له ما أشد كفره !كفر بالله الخالق وكفر برسوله وكفر بالبعث مدعيا استحالته.ما له لم ينظر

في أصل خلقته؟ فقد خلقه الله من نطفة رطبة وصغيرة جدا لا ترى بالعين المجردة. وقدر فيها جميع الخصائص التي ستظهر حتما،ظاهرة التكامل بينها واضحة، ثم والى ألطافه به فيسر له العيش مستقلا على سطح الأرض ورزقه المواهب التي بها يؤثر في الكون.كما قدر أن ينتهي المسار إلى الموت، وجعل نهايته القبر الذي يضم جسمه.إلى الوقت المحدد الذي تتعلق فيه الإرادة الإلهية ببعثه للنشور والحساب والجزاء.

ويردع القرآن الكافر المتصلب في كفره عن إعراضه عن التدبر في آيات الكون وعن شكر الله على ألطافه به. ومنشأ ذلك أنه واصل عدم الاستجابة لما أمره به ربه من التدبر في كتاب الكون، وفي كتابه المنزل.

بيان المعنى العام :

17- قتل الإنسان ما أكفره.

قتل، دعاء عليه بأن يقتل وينتهي من الوجود. وهذا الكلام صادر من الله. والله بيده الأمر، فهو يُدْعَى ولا يَدْعُو.فيكون الدعاء خارجا عن معناه الأصلي، يقصد منه التعبير عن تفاهة الإنسان المتصلب في الكفر وتحقيره وتهديده ، وأن ما هو جدير به أن يمحى من الوجود. والإنسان وإن كان اسم جنس يعم كل فرد من أفراد الإنسان، إلا أن السياق يقتضي أنه يستغرق أفراد جنس الإنسان العنيد المتمرد. قال مجاهد كل ما كان في القرآن "**قتل الإنسان** " فإنما عني به الكافر. وهؤلاء هم أكثر الناس قال تعالى: (**وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)**[1]. وقوله تعالى : **ما أكفره.** تحتمل أن يراد بها التعجب من كفره مع ما مكنه الله منه من الأدلة الهادية للعقيدة السليمة. وإنه لكفر شديد: كفر بالله الخالق، وكفر برسوله، وكفر بيوم البعث. كُفْرٌ أدى بأصحابه إلى اتخاذ آلهة بدائل عن الحق سبحانه.كما يمكن أن تفهم على أنها استفهام إنكاري.أ ي شيء برر للإنسان الكفر حتى يتصلب فيه ؟ بمعنى لا يوجد أي شيء.

18- من أي شيء خلقه.

هذا سؤال لا يقصد منه انتظار الجواب عنه. ولكنه إثارة للذهن الغافل حتى يستيقظ فيرفع عن عقله غشاوة إنكار البعث بدون موجب.

19←22- من نطفة خلقه....أنشره.

يعرض القرآن في هذه الآيات تصرف الله في الإنسان ومراحل ذلك. ولا يستطيع أي عاقل إنكار فعل الله فيه.

---

[1] سورة يوسف آية 103

- بدايته كانت من نطفة ضعيفة صغيرة رطبة. وهي على صغرها،كشف العلم أنها تحتوي على الخصائص الذاتية لكل فرد. مما يدل على الحكمة البالغة والقدرة النافذة. وما كان للإنسان اختيار في تكونه الأول. وإنما هي إرادة الخلاق الواحد.

- وقدره تقديرا دقيقا. فمن أول يوم أودع في النطفة "الجينوم" الذي سجل فيه الصفة التي تكون عليها كل جزئية من جزئيات الكائن البشري، والتكامل بينها.

- وبعد ذلك أحاطه بألطافه شيئا فشيئا. فيسر له الحياة على وجه الأرض، وغرس فيه العقل والعواطف والمشاعر التي تهديه لإنجاز الأعمال التي يرغب في إنجازها، ويسأل عنها. وتستمر حياته فاعلا في الكون إلى الأجل الذي حدد له مقدما.

- فإذا جاء أجله، عطل سبحانه جميع القوى الفاعلة، وحل الموت.فمن مات قبل نزول الآية تشمله الآية، ومن سيموت في المستقبل تشمله الآية أيضا، إذ كل نفس ذائقة الموت.

- **فأقبره.** فأكرمه بأن هدى الناس وأوجب عليهم أن يدفنوا موتاهم في قبور، فلا يرمون بها كما تلقى الفضلات، ولا يحرقونها بالنار، ولا يخزنونها في صناديق. من الصور التي انحرف فيها بعض الشعوب عن هدي الله.

- **ثم إذا شاء أنشره.** كل تلكم المراحل تنتهي إلى أنه تحت سلطان خالقه، فهو ينشره ويخرجه حيا في الوقت الذي تتعلق بذلك مشيئته. فاستبطاء المشركين ليوم البعث، هو من قصورهم الفكري.إذ ليس البعث موكولا لاختيارهم، وإنما هو بيد الذي خلقهم وتصرف فيهم.وما كان لهم أي دخل في مراحل وجودهم، فلا يكون لهم أي دخل في وقت بعثهم.

23- كلا لما يقض ما أمره.

الآيات السابقة 17-18-19-20-21-22-تضمنت تعجيبا من تصلب الكافر رغم ما يقوم قريبا منه من الأدلة الجامعة بين مظاهر القدرة العظيمة، والحكمة البالغة، وبين الألطاف في إقباره.والنتيجة الحتمية أنه ينشئه متى شاء.ولكن الإنسان أعرض عن كل ذلك واستولى عليه التقليد، فافتتحت الآية بكلمة " **كلا**" الدالة على زجره عن منهجه الذي سار عليه فانغلق فكره على الموروث عن الآباء وإن كانوا لا يعقلون.إنه لم يفتح له شعاع النور الذي يبصره. لأنه لم يقم بما أمره الله من النظر في الكون وتقلباته التي تنبئه كل يوم أن وراء التصرفات في الكون إله واحد عالم قادر حكيم.وكلمة " **لما** " تفيد تواصل النفي إلى ما بعدها. فتم اختيارها هنا لإفادة تواصل عدم التدبر في الكون الذي كل مظهر من مظاهر تقلباته يهدي المتأمل إلى الإيمان بالله وبالبعث والنشور.

فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا
﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾
وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

صببنا : أنزلنا الماء من السماء.

الشق : فصل الملتحم.

القضب : النبات الذي يحصد لعلف الدواب، ثم يخلف إذا توالى سقيه.

غُلبا : غليظة.

فاكهة : الثمار التي تؤكل للتفكه كالفستق واللوز والرمان.

الأب : الكلأ الذي ترعاه الأنعام.

متاع : ما ينتفع به زمنا ثم ينقطع.

بيان المعنى الإجمالي :

يوقظ القرآن الإنسان المتصلب في كفره ليتأمل في الطعام الذي هو في حاجة إليه كل يوم. ليتابع الأطوار التي مر بها. تبدأ أطواره بصب الماء من السماء بمقدار يكفي البشر، فتختزنه الأرض في أديمها الظاهر وفي باطنها. ثم في جعل طبيعة الأرض قابلة ليشقها الماء، وليحرثها الإنسان بما ألهمه من آلات الحرث. وليزرعها بالحبوب ويغرس فيها فسائل الأشجار .فأنبت في الأرض متنوع الحبوب والعنب والنبات الرطب الذي يحصد فيخلف مما يأكله الناس والأنعام، والزيتون والنخل وكلاهما مبارك كثيرة منافعه. ونمّى الحدائق المتنوعة الأشجار والثمار. فمنها ما هو قوت ومنها ما هو فاكهة يتلذذ الإنسان بمذاقها وحسن طعمها. وأنبت الكلأ الذي ترعاه الأنعام فيتحول بتقديره سبحانه إلى اللحوم والألبان.

كل ما ذكرنا هو متاع تنتفعون به إلى أجل أنتم وأنعامكم.فتأملوا فيما رزقناكم تجدوا فيه حجة قوية على إمكان البعث، وميدانا لتتعظوا وتشكروا.

بيان المعنى العام :

24-فلينظر الإنسان إلى طعامه.

قُرِّع الإنسان الكافر في الآية السابقة وردع، لأنه لم يطبق ما أمر به من العمل بما هداه إليه في كتابه.ووجهه في هذه الآية إلى التأمل في أمر تتجدد حاجته إليه كل يوم، وعامل الرتابة يغطي على ما فيه من عبر، وإن مجال النظر فيه لفسيح.وهو

الطعام الذي يشعر بالحاجة إليه احتياجا متكررا في فترات من كل يوم.ويقبل عليه بدافع فطري قوي.

24←31- إنا صببنا الماء صبا...وفاكهة وأبا.

التأمل في الطعام، هو تأمل في المراحل التي مر بها حتى أصبح ملبيا لحاجات الإنسان في التغذي، ليعوض ما احترق من طاقاته بالعمل الفكري، أو العضلي، أو نشاط أجهزته المختلفة.

يبدأ التقدير الإلهي المحكم من إنزال الماء من السماء الذي تختزنه الأرض في تربتها أو في باطنها.صبه صبا كافيا لتلبية حاجات الإنسان لتكوين قوته. وقدر أن تكون الأرض رخوة غير صلبة، قابلة لاختزانه فيشقها نافذا في مسالكها.وألهم الإنسان صنع الآلات الفلاحية التي يشق بها الأرض ليطوّعها لقبول الماء من ناحية، وليزرع فيها الحب والفسائل.

ثم قدرنا بحكمتنا أن نلائم بين الماء والتراب ملاءمة أنبتنا به الزروع المنتجة لمتنوع الحبوب من قمح وشعير وقطاني ونحوها. وأنبتنا به العنب يؤكل ويدخر زبيبا،ونباتا يقطع أعلاه ثم يسقى فيخلف مما يدخل في طعام الإنسان أو تتغذى به الأنعام، و لحومها وألبانها تدخل في طعام الإنسان. ويفصل الكلام في معرض الامتنان فيضيف لما ينبته سبحانه من إرواء الأرض المشقوقة بالماء، فيذكر الزيتون الشجرة المباركة التي يدخل زيتها في الأطعمة مغذيا ومصلحا.والنخل الذي تنوع ما ينتجه من البلح والرطب والتمر، والجمار، ويشربون نسغها الحلو اللذيذ الذي يحتلب من أعاليها.كما أنبت متنوع الأشجار المثمرة في حدائق قوية أشجارها غليظة أصولها. في ثمارها قدر غير قليل من الرواء ومن اللذة.وأنبتنا في الأرض وفي تلك الحدائق متنوع الفواكه الخارجة عن القوت الأصلي،التي يتنعم الإنسان بلذيذ طعمها وحسن مذاقها،مثل اللوز والفستق والكمثرى والتين والرمان.

وكذلك الأب. وهو ما تقصده الأنعام لرعيه، فتدخل في تكوينها ويعطي للإنسان لبنا سائغا شرابه، ولحوما تُصلح بنيته.روي أن أبابكر الصديق ﷺ سئل عن الأب ما هو؟ فقال أي سماء تظلني وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ما لا علم لي به. وروي قريب منه عن عمر بن الخطاب ﷺ . وأرشد عمر المؤمنين إلى أن الاهتمام بما يدخل في العمل هو الأجدر بهم، وأن يتوقفوا عن التنقير عما لا يترتب عنه عمل.على معنى أنه ما ورد في الآية يستفيد منه التالي التيقظ لما مكن الله منه الإنسان من نعم ليشكره، ولا يزيد الغرض المقصود معرفة الأب على التدقيق أو جهله.

32- متاعا لكم ولأنعامكم.

كل ما ذكر تجدون بالتأمل فيه ظاهرة فضل الله عليكم، وعلى أنعامكم. ويرجع كل نوع من أنواع ما ذكر إما إلى الإنسان أو إلى الحيوان حسب ما يناسب كل نوع.

وفي تتبع التحولات التي انبثقت من إحياء الأرض بالماء، ثم إنبات ما يغذي الإنسان والحيوان، وما يدخل في كيانهما تعويضا عن الطاقات المحترقة الذاهبة لتتواصل الحياة، في ذلك دليل على إمكان البعث، الذي هو عودة الناس إلى الحياة بعد الموت،كما تحول الماء والتراب إلى عناصر حية في الإنسان والحيوان بعد أن احترقت تلكم الطاقات.

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

بيان معاني الألفاظ:

الصاخة : الصيحة العظيمة التي ترتج لها الأسماع، يوم القيامة.

الفرار : الهروب من مخيف.

الإغناء : جعل الغير غنيا غير محتاج.

مسفرة : متهللة فرحة.

غبرة : غبار.

ترهقها : تعلوها.

ترهقها : تغشيها

قترة : ظلمة وسواد.

بيان المعنى الإجمالي :

الكون كله بما يحويه سينتهي أمد وجوده، ثم يبعث الله الخلق يوم تنفجر السماوات والأرض ويحدث عن الانفجار أصوات عنيفة مرعبة. عبر عنها بالصاخة، وهي يوم القيامة. وعرف يوم القيامة بخصائصه التي تجعل الإنسان على حذر مما يلقاه فيه. إن طبيعة الإنسان التي بنيت على الترابط بين الفرد وأعضاء أسرته أولا، تذوب ولا يبقى لها أثر فهو يفر من أخيه وأمه وأبيه وزوجه الحبيبة وحتى من أبنائه خوف أن يلحقه من العذاب المسلط عليهم ما يزيده عذابا. كل فرد من الكفرة مشغول بما يعانيه في ذلك اليوم.

ينقسم المبعوثون إلى فريقين : الفريق الأول يبدو على وجوههم البشر والفرح والطمأنينة، يعمهم السرور، ويضحكون فرحا بما هم فيه.

والفريق الثاني : يطمس وجوههم غبار كثيف ، ويعلوها ظلمة وسواد تنبئ عما هم فيه من خزي وعذاب. إنهم حقا الكفرة بالله وبالبعث، الذين ساءت أعمالهم.

بيان المعنى العام:

33-فإذا جاءت الصاخة.

تتابع لفت الأنظار في الآيات السابقة إلى تصرف الخالق سبحانه من تطور خلق الإنسان إلى إقباره، ومن الألطاف والنعم في غذائه الذي نبه في نهايته إلى أنه متاع موقوت. فكانت الإشارات منادية بنهاية الكون. فصرح به في قوله تعالى : **فإذا جاءت الصاخة**، التي جسم حلولها معبرا عنه بأنها "جاءت" كأنها تمشي، فوصلت الصيحة العظيمة، والأصوات القوية المزعجة التي تصك الأسماع، يوم تتفجر الأرض والسماوات وتتصادم الكواكب،فتتفتت تلكم الكتل الضخمة ويحدث عن تصادمها دوي مرعب يفوق التصور. عبر عنه القرآن بكلمة "الصاخة".

34←36- يوم يفر المرء من أخيه....وبنيه.

ثم صرح بأثر ذلك الصوت المهول في الإنسان.تذوب عواطفه فلا يبقى لها أثر عليه، تلك العواطف التي كانت تمثل العمود الفقري لبنائه الاجتماعي.هو مفطور على التعلق بأسرته، إنه بمقدار ما تكون صلاته بهم متينة قوية نشيطة، بمقدار ما يشعر بالأنس والاستقرار.فكشفت الآية عن تحول تلكم الصلات عارضة من الأضعف إلى الأقوى.يوم الصاخة تذوب العواطف بين الأخ وأخيه، فإذا رآه واقعا في العذاب فر منه توهما منه أن الفرار ينجيه، بل بين الإنسان وأمه وأبيه، بل بينه وبين زوجه الذي كان الإلف بينهما على مستوى رفيع يمثل قوله تعالى: **(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)**[1] وكذلك مع نسله الذين كان يرى فيهم امتداده في الحياة وزينتها. تذوب كل تلك العواطف كأن لم تكن وكأنه ما جمعته بهم قرابة ولا ود. والظاهر أن تلك المواقف تكون بين الكفرة المعذبين و أمثالهم، وكذلك بين المؤمنين والكفرة المعذبين. وهو المعنى الذي جاء في قوله تعالى : **(فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون)**[2].

---

[1] سورة الروم آية 21

[2] سورة النور آية 101

37- لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه.

يستولي على كل إنسان ما هو فيه من النعيم أومن العذاب الذي يبلغ من القوة درجة تجعل ما عليه المؤمن من الكرامة وحسن الجزاء لا يلتفت إلى من كانت تربطه بهم صلة القرابة من الكفرة، فهو في شغل عنهم بما أعده الله له من النعيم. وكذلك الكافر لا يهتم بما عليه أقاربه وخلصاؤه فما سلط عليه من الهموم والكروب لا يترك في نفسه مكانا للعطف عليهم.

39←42- وجوه يومئذ مسفرة...الفجرة.

ثم صرح القرآن بأن الناس في هذا اليوم يكونون على فريقين :

الفريق الأول :جسَّمَ ما هم عليه من النعيم والرضا بما قسم لهم، بما تفصح عنه وجوههم.ترى وجوههم متهللة يبدو منها ما انطوت عليه النفوس من الشعور بأنها نالت كل ما تتصوره، وفوق ما تتصوره من فضل الله الذي لا يحد. لا يخالطها أي حزن ولا خوف، فهي آمنة ضاحكة.بلغت الفرحة منهم أقصاها.

الفريق الثاني: جسّم ما عليه هذا الفريق، بما يفيد أنك تعرف تعاستهم وما هم عليه من الخزي والعذاب، إذا نظرت إلى وجوههم، فقد تراكم عليها الغبار،والتصق ببشرتهم فلا تكاد تتبين منها إلا عيونا فزعة. يعلو ها ما يدل على أن الكرب الذي تعانيه بلغ أقصى حد ه.

أولئك هم الكفرة الفجرة.تميزوا أكمل تميز، وأشير لهم بما يفيد التشهير بهم، والتصق بهم وصفان كل منهما يوجب الخزي والهوان : الكفر بالله وبالبعث الذي يعانون أهواله[الكفرة]. والخروج عن حدود الله وفعل القبائح والمنكرات[الفجرة].

27 شعبان 1435 الموافق لـ 2014/8/23.

سورة التكوير

بهذا الاسم عرفت في المصاحف، ومعظم كتب التفسير والسنة.وهي سورة مكية باتفاق.وهي الحادية والثمانون حسب ترتيب المصحف وعدت السابعة حسب ترتيب النزول.نزلت بعد سورة الفاتحة وقبل سورة الأعلى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ
عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ
﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا
ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا
أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ :

انكدرت : ذهب صفاؤها ونورها، أو تساقطت.

العشار : جمع عشراء، الناقة الحامل في شهرها العاشر.

حشرت : جمعت.

سجرت : يراد منها امتلاؤها،كما يمكن أن يراد تحولها إلى نار.

زوجت : يطلق التزويج على اقتران الشيء بغيره فيكون زوجا. وعلى جمع المتماثلات.

الموءودة : الطفلة التي تقتل بإهالة التراب عليها وهي حية.

نشرت : انكشف ما تحويه بدقة كاملة.

كشطت : أزيلت بكيفية يبدو ما كانت تخفيه من الغيب.

الجحيم : جهنم.

سعرت : أوقدت نيرانها.

أزلفت : قربت.

بيان المعنى الاجمالي :

اثنا عشرا ظرفا مشربة بمعنى الشرط توالت في فاتحة السورة، ترتبط في النهاية بقوله تعالى **علمت نفس ما أحضرت**. تنقسم إلى شطرين: ست منها عند إفناء الكون. وست منها تعقب البعث. أما الأولى فهي : إذا انطفأت الشمس وانقلبت كرة ميتة لا ضوء لها. وإذا ذهب توقد النجوم وتساقطت. وإذا تفتت الجبال فلم يبق لها ثبات في أماكنها. وإذا ماتت غريزة حب التملك فزهد الإنسان في أعز ما كان يتعلق به كالنوق التي كانت حوامل في شهرها العاشر.وإذا ذهبت غرائز التوحش من الوحوش فجمعت مذهولة بما حل في الكون.وإذا البحار فاضت فاختلطت مياهها وعلت فغمرت، أو انقلبت نارا.

وست منها عندما يبعث الموتى في حياة جديدة، إذا التصقت كل روح ببدنها فيحيا صاحبها من جديد. وإذا سئل الآباء الذين بلغوا من القسوة أن قتلوا بناتهم أحياء بدون ذنب. وإذا الصحف المدونة فيها أعمال البشر كشفت فظهر ما قدمه الإنسان في الدنيا من صالح الأعمال أو قبيحها تافهها أو عظيمها. وإذا السماء التي كانت تحول بين البشر والاطلاع على غيب الآخرة ذابت فانكشف ما كان مغيبا. وإذا الجحيم بانَ توقدها وعظيم لهبها، وإذا الجنة قربت من المؤمنين فهم يرون مآلهم الأبدي فيها. إذا كملت هذه الظروف، وتحققت تلكم الشرائط ؛ تعلم كل نفس علم اليقين ما أعدت لهذا اليوم من الخير أو الشر. فينكشف لكل إنسان عمله وما ينتظره من ثواب أو عقاب.

بيان المعنى العام :

1-إذا الشمس كورت.

السورة من أول ما نزل من القرآن وقد روي أنها السورة السابعة. وهي تقرر حقيقة عظيمة من حقائق الدين الإسلامي التي تؤثر في صلاح البشر،بما تثبته من عقيدة البعث.فصلت السورة بعض ما يتم عندما تتعلق الإرادة الإلهية ببعث الناس في مرحلتيه : مرحلة الإفناء ومرحلة الإحياء. فأفصحت أن كل ما ألفه الإنسان في حياته، وكل الأنظمة المادية والاجتماعية التي التصقت بالحياة الدنيا التصاقا، خُيل بها للإنسان أنها بلغت من الثبات حدا لا يتصور ذهابه.ذلك التصور الذي جعل المشركين في عهد الرسالة وما قبله وما بعده ينكرون البعث. تكرر في السورة اثنتي عشرة مرة كلمة " **إذا**" التي تفيد أن ظرفا يرتبط بحدث يقع فيه. فإذا قلت إذا طلع الفجر الصادق دخل وقت صلاة الصبح.يفهم من الكلام أنه يرتبط دخول وقت صلاة الصبح بالظرف المذكور: طلوع الفجر الصادق. فلما تكررت كلمة "إذا" اثنتي عشرة مرة أفاد النظم القرآني تحقق البعث باثني عشر حدثا لا عهد للبشرية بها، وأن ما عهدوا عليه ترتيب ما يحيط بالإنسان سينهار ويفنى. تعلق بعض هذه الظروف بالإعداد للفناء، وبعضها بالإحياء.

1-أول ظاهرة : **إذا الشمس كورت.** هذا الكوكب الذي ارتبطت به حياة الإنسان وهو أعظم الأجرام التي نشاهدها، وهو كوكب نشيط جدا تنبعث ألسنة اللهب منه آلاف الأميال، تبلغ درجة الحرارة إلى اثني عشر ألف درجة 12... التي تحول مكوناتها إلى غازات منطلقة ملتهبة. والتي تبعث بأشعتها إلى الأرض لتنيرها وتعين على انبثاق الحياة في النبات والإنسان والحيوان.وتعطي من الطاقة النظيفة ما فتح للإنسان تحديا ليتحكم في شيء من ذلك يحول إمكاناته في الحياة.أمر يحدث في الشمس عبرت عنه الآية بالتكوير، يمكن أن يفهم على أن الغازات الملتهبة ينتهي أمد التفاعل الذاتي فيها فتنطفئ، وتتحجر وتصبح كرة لا نشاط لها ولا إشعاع. وذكر بعض المفسرين أنها تلتف كما تلتف العمامة.وأفهم من قولهم هذا أن ألسنة اللهب التي كانت تذهب في دائرتها إلى آلاف الأميال تخمد إلى غير رجعة. وقد يكون المقصود غير ذلك مما لا يعلمه إلا الله. حسب الحقيقة التي أشارت إليها الآية الكريمة: **(يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات)**[1] هذه الآية التي تصحح تصور الإنسان المرتبط أشد الارتباط بما عرفه في حياته. فمنها نقرر أن الصورة التي ترتسم في ذهننا من تتبع التعبير تكون صورة مضللة إذا اعتقدنا أنها هي الحقيقة التي سيكون عليها الأمر.
وهذه الظاهرة تكون مقدمة لفناء الكون، وليست مبرزة لقيام الناس من قبورهم.

2-وإذا النجوم انكدرت.

النجوم التي تزين قبة السماء قال تعالى : **(إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب)**[2] تنكدر بمعنى أنها تفقد ضياءها وتتقلب مظلمة لا شعاع لها.كما يمكن أن يكون المعنى : أنها تفقد قوة الجاذبية التي كانت تشدها إلى غيرها وتثبتها في موقعها، فتسقط وترتطم بغيرها من النجوم.

3-وإذا الجبال سيرت.

الجبال الراسيات الصامدة في أماكنها التي تمثل القوة والثبات. فلا تؤثر فيها الزوابع ولا الرياح ولا الأمطار ولا الزلازل، تتفتت وتتقلب ككثبان الرمل تسفوها الرياح. قال تعالى : **(وبست الجبال بسا فكانت هباء منبثا)**[3]

4- وإذا العشار عطلت.

العشار جمع عشراء، وهي الناقة الحامل إذا بلغت شهرها العاشر، ولم يبق لها من مدة الحمل إلا شهران. والإبل من أنفس ما يملكه العرب، ويتنافسون في جمع أكبر عدد منها،

---

[1] سورة إبراهيم آية 48

[2] سورة الصافات آية 6

[3] سورة الواقعة آية 5

وإذا كانت عشراء في الشهر العاشر فهي أكثر نفاسة عندهم، إذ بعد أمد قليل سيتضاعف ما يملكونه منها مائة في المائة. وحب التملك غريزة فطرية في الإنسان، فإذا أذن الله بفناء الكون وحصلت المقدمات الأولى لذلك،لم تبق للإنسان رغبة في تملك أي شيء بعد أن تبين له أن الفناء يلف الكون وما يحويه. كما فسرت العشار بالسحب، أي إن السحب لا تحمل ماء ولا تمطر الأرض فيعم الجدب والقحط، ويأخذ الهلاك يبيد الناس والأنعام شيئا فشيئا. وذلك من أشراط يوم القيامة.

5-وإذا الوحوش حشرت.

حشرت أي جمعت.من طبيعة الوحوش أنها تنفر من بعضها لما بينها من التعادي ولتسلط القوي على الضعيف. من أشراط الساعة أن الوحوش يستل من طبيعتها الاعتداء، ويمحي خوف بعضها من بعض، وتجتمع كلها في صعيد واحد يتملكها الرعب والذهول،من مظاهر التغير الشديد في الكون.

6- وإذا البحار سجرت.

كل بحر على سطح الأرض يحوي مياهه،و ذلك تبعا لتوازن طبع الله عليه الكون.فإذا اختل التوازن فاضت المياه، وعلا سطحها واختلطت البحار. كما يمكن أن تفهم الآية على أن الله يقلب مياه البحار والمحيطات إلى نار مشتعلة،قد يكون ذلك بانشطار يحدث في ذراتها بين الأوكسجين والهيدروجين، وقد يكون بغير ذلك مما علمه عند الله.

المذكورات الستة أحوال تقع في الدنيا عند إرادة الله إفناء الكون.ومن إعجاز القرآن أن تعبيره عن ذلك جاء بكلمات تحتمل وجوها،تتفق في مضامينها للدلالة على الهول العظيم، دون أن تحصره في حدود.لأن ما سيحدث ليس مما عرفه الإنسان في حياته الدنيا. فكانت تلكم الاحتمالات فاتحة لتصورات تُقَرِّبُ ما سيحدث وتؤكد في آن واحد صدق القرآن في الوصف، وأنه من عند الله.

7- وإذا النفوس زوجت.

النفوس جمع نفس، وأطلقت في القرآن بمعنى الروح قال تعالى : **(يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي)**[1] وتطلق النفس على الذات قال تعالى:**(ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق)**[2] والتزويج يطلق ويراد منه جعل الشيء زوجا لغيره. ويطلق ويراد منه جمع الأشياء المتماثلة. وبناء على ذلك فإنه يمكن أن تفهم الآية على أن

---

[1] سورة الفجر آية 27

[2] سورة الأنعام آية151

الأرواح التي كانت في البرزخ، تقترن كل روح بالجسم الذي تم تصويره فيحيى ويبعث. كما يمكن أن تفهم الآية على أن كل فريق من المبعوثين ينضم إلى مماثله حسب درجاتهم من الصلاح أو من الضلال كما يشير إليه قوله تعالى: (**وكنتم أزواجا ثلاثة فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة والسابقون السابقون أولئك المقربون**)[1]

9/8- وإذا الموءودة سئلت بأي ذنب قتلت.

للشرك فظائع خلقية، ومظاهر قسوة تشمئز منها النفوس.فقد كان بعض العرب يحفر لابنته إذا بلغت السادسة بئرا،ثم يأتي بها ويطلب منها أن تنظر في قاع ما حفره، حتى إذا فعلت دفعها من خلفها وأهال عليها التراب.وكان يفعل ذلك خوف أن تكبر وتسبى فيلحقه العار.قال تعالى : (**وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب**)[2] وقد كانت بعض النساء تحفر حفرة تحتها إذا جاءها المخاض، فإذا عرفت أنها أنثى رمت بالمولودة في تلك الحفرة وأهالت عليها التراب، خشية أن يهجرها زوجها أو يفارقها.

إن هذه القسوة مرتبطة بانحراف العقيدة، وكلما فسدت العقيدة ذهبت الرحمة.وفي هذه الأيام من شهر شعبان 1435 -7/8-2014 يقتل اليهود البرابرة في غزة كل يوم من الأبرياء تحت ردم منازلهم العشرات من الأطفال والنساء والشيوخ،من الذين لا شأن لهم بالحرب، والولايات المتحدة تزكي، والقوى العظمى في الغرب والشرق صامتة أو مساندة للوحشية القاسية. رغم المواثيق التي كتبوها بأيديهم، وعقدوا لها مؤتمرات مواثيق حقوق الإنسان.إنها صورة لها سابقتها قريبا في تاريخ الحضارة المادية القاسية. تابعنا في الحرب العالمية الثانية من أخبار الحرب مثل هذه القسوة في ألمانيا التي هدمت مدنها وقراها وسويت بالأرض على رؤوس ساكنيها، وفي اليابان ألقت الجيوش الأمريكية على هوريشيما القنبلة النووية الأولى ورغم استسلام اليابانيين أبت تلك القيادة إلا أن تردف القنبلة الأولى بثانية على رؤوس سكان نكازاكي. فقضت على عشرات الآلاف من البشر في لحظة واحدة بطريقة فظيعة تسلخت الجلود واحترقت الأجساد، وفسدت البيئة ملوثة بالإشعاع المخرب والقتل.ومع ذلك قد تجد قائد الطائرة بعد أن سحق الحياة وترك أشلاء

---

[1] سورة الواقعة 9/8/7

[2] سورة النحل 59/58

الأبرياء وأنينهم تحت الأنقاض، يعود إلى بيته يلاعب أطفاله أو يمرح في مرقص، كأن شيئا لم يكن. إنها الديمقراطية الكاذبة التي تزن بميزانين، والله يقول: **(ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا)**[1] إن الديمقراطية مبادئ حسب التصور الصحيح لها تقتلع الغطرسة والاستبداد، ولكن التطبيق السيء لها هو الذي جعل العالم مهتزا غير آمن. مختل القيم : قتل شخص واحد يحمل جنسية دولة قوية مستبدة يتسبب عنه قتل مئات الأبرياء بدعوى الدفاع عن النفس. وقتل عشرات الآلاف من دولة ضعيفة، أو من جنس مبغوض لا يحرك ساكنا. وقوله تعالى **(بأي ذنب قتلت)** .صاغ السؤال موجها إلى المعتدى عليها، وكان الظاهر أن يوجه السؤال إلى الأب القاسي الذي وأدها. ولكن السؤال أخذ صبغة عامة تشمل كل سامع وحاضر، تشويها للفعلة، وتشنيعا للوأد، وإعدادا لتصور الجزاء عن الفعل الذي لا يقره بفطرته أي إنسان سوي.

10-وإذا الصحف نشرت.

هذا هو الحدث الثالث الذي يقع بعد البعث.فالناس يبعثون ليحاسبوا عما قدموا وينال كل فرد جزاءه العادل الذي يشعر معه أنه ما ظلم. وذلك أن الله سجل عليهم أعمالهم تسجيلا لا يغيب شيء منه، ويفهمه كل فرد فهما لا غموض فيه، وبلغة بينة، وهذا التسجيل هو من أمور الآخرة عبر عنه بالصحف، والله أعلم بطريقته وكيفيته، وليست هي قراطيس ولا مدادا ولا حبرا. ونشرت بمعنى انكشف ما تحويه.

11-وإذا السماء كشطت.

هذا هو الحدث الرابع. بعد أن تنكشف للناس أعمالهم دقيقها وكبيرها، كما صدرت عنهم في الدنيا. وما تكشف إلا ليربط بينها وبين جزائها.تأتي هذه الآية [11] لتثبت أن السماء تكشط تسلخ كما يسلخ جلد الناقة فيظهر ما تحته من اللحم والشحم مما كان مستورا بالجلد. فهل إن هذه الآية تتحدث عن انخرام الكون إثر النفخة الأولى، أو هي تتحدث عن بعض المظاهر إثر النفخة الثانية وبعث النفوس للمحشر؟ ويثور سؤال إذا ربطت بما قبل البعث فلماذا ذكرت متأخرة فاصلة بين حوادث البعث والحساب ؟ المفسرون الذين ذكروا أنها متعلقة بالحوادث التي يفسد الكون معها قبل النفخة الثانية لم يوجهوا تأخيرها إلى هذا الموقع. كما أن الذين راعوا ارتباط النظم بالترتيب الواقعي لم يذكروا لمفهومها وجه ارتباط ينثلج له الصدر. والذي فهمته أن

---

[1] سورة المائدة آية 2

الحوادث المتتابعة ذكرت ما يحدث في الكون عند إنهاء الحياة أولا، وأتبعته بما يحدث عند قيام الناس من قبورهم ووصلت إلى المرحلة التي ينكشف للناس أعمالهم فتبدو لهم كما صدرت عنهم في الدنيا. والمرحلة التالية معرفة الجزاء، وكان الإنسان محجوبا عن العالم العلوي بما رتبه الله في السماء على أنها حائل بين الإنسان ومعرفة ما تحويه.فبمجرد ما يتلقى كل فرد كتابه، تذوب السماء وتنكشف عوالم الغيب. كما يكشط الجلد عما تحته من اللحم المغيب. ويبدو بهذا الفهم ارتباطه بالآية التالية.

13/12- وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلفت.

هذا هو الحدث الخامس والحدث السادس. دار الجزاء وقد تهيأت لقبول كل فريق من الأشقياء أو من السعداء.

أما الأشقياء فإن جهنم توقد لهم نارها لتكون على أشد ما يكون عذابا و إيلاما.مع ما يصحب حرها من صنوف النكال. وتكون حاضرة أمامهم يوقنون بأنها هي مآلهم.

وأما السعداء، فتعد لهم الجنة لتكون لهم مستقرا أبديا.ينظرون إليها وقد قربت منهم ويطمئنون إلى أن مصيرهم الكرامة والنعيم في جنباتها.

14-علمت نفس ما أحضرت.

ترتبط الظروف الاثنى عشر المكررة مع إذا بقوله تعالى (**علمت نفس ما أحضرت**). عندما تجتمع تلك الظرف والشروط المفتتحة بـ [إذا] يحصل لكل نفس حقيقة ما عملت في الدنيا، فما كان يظن أنه تافه لا شأن له يشاهد مثبتا كغيره من الأعمال، وما كان يقدر تقديرا منافيا لحقيقته يبدو على وجهه من الصلاح أو الفساد،وما طواه النسيان يحضر مشاهدا.وكل ذلك في مظهر اليقين الأيقن الذي لا يخالطه شك ولا ارتياب. وحضور الأعمال يوم القيامة لكل نفس حقيقة نؤمن بها، وأما كيفيتها فهي من علم الغيب، ولا يبعد أن يكون العمل مصورا على النحو الذي أنجز به.

فَلَا أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا

ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

الخنس : جمع خانسة، المختفية.

الجواري : جمع جارية، التي تحث سيرها.

الكنس : جمع كانسة.والكناس البيت الذي يتخذه الظبي للمبيت.

عسعس الليل : يطلق على إقبال الليل كما يطلق على إدباره.

كريم : النفيس في نوعه.

ذو قوة: صاحب قوة،قدرة على إنجاز الأعمال العظيمة، وتطلق على ثبات النفس.

الأفق : أقصى النظر عندما يتصور الرائي التماس بين الأرض والسماء.

المبين : الواضح.

رجيم : مرجوم ومبعد.

ذكر :منوع مما يهدي الإنسان إلى الخير.

بيان المعنى الإجمالي:

أقسم الله بالنجوم التي تختفي في النهار وتظهر بالليل في مواقع متباعدة على نظام دقيق لا يختل. وهي تجري في مسارتها المقدرة لها ثم تختفي كما تختفي الظباء في بيوتها (الكناس). وأقسم بالليل في حالتيه حالة إقباله وحالة إدباره، وبالصبح إذا ظهرت بوادر ضيائه يصاحبها نسمات رقيقة كأنها أنفاس هادئة. وكلها مظاهر تنادي بقدرة الله وحكمته وتفتح للناظرين بابا للتدبر الهادي إلى الخير.

والمقسم عليه أن القرآن قول رسول من أنبل الرسل، بلغه جبريل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم. وقد مكنه الله من قدرات يقوى بها على ما يعجز عليه غيره، مختص بمنزلة رفيعة عند ربه. منزلته الرفيعة معلومة بين الملائكة، فهم يطيعونه فيما يحدد لهم. معروف بأنه أمين لا يتزيد ولا يغير من أمر ربه شيئا.

كما أقسم على أن ما اتهموا به محمدا كذب وباطل، وأنه أشد ذكاء وأمتن عقلا، وأصفى قريحة منهم، وأنه بما يتلوه عليهم لا يتصور أن يكون به جنون. وتكذيبكم له عندما أعلمكم أنه رأى جبريل بين السماء والأرض غير صحيح، وهو صادق فيه ليس فيه شيء من الخيال. ومحمد بعيد عن الكهانة التي يعيش من حلوانها الكهان، فهو لم يطلب منكم مالا ولا جزاء. وهو أرفع من أن يتهم بتغيير ما تلقاه من ربه. والقرآن أبعد ما يكون عن كلام الشياطين الذين ألفوا الشر والفساد، بينما القرآن يهديكم إلى الرشد والخير. أي مسلك

تسلكون؟ لقد انسدت كل الطرق الموصلة أمامكم .أقروا بالحق فالقرآن ذكر يسلك بكم جميع طرق الرشد والخير، لمن كانت له إرادة وعزيمة على الاهتداء. والهداية في النهاية بيد الله يلطف بمن شاء فَيُيَسِّرُهَا له حسب اختياره، ويحرم من تلكم الألطاف حسب مشيئته سبحانه من يشاء فيخسر دنيا وأخرى.

بيان المعنى العام :

16/15- فلا أقسم بالخنس الجواري الكنس.

افتتحت السورة بقسم تتقدمه كلمة **[لا]** نظيـر مـا جـاء فـي قولـه تعـالى (**فـلا أقسم بمواقع النجوم**)[1] والمقسم به فيهما واحـد أمـر مـرتبط بـالنجوم.ذلـك أن القسـم جـاء بأوصاف فهم منها المفسرون أنها أوصـاف لأحـوال النجـوم، والكواكـب فـي السـماء. أقسم بالنجوم في أحوالها التي تتقلب فيها للنـاظرين، فهـي تخـنس تختفـي فـي النهـار، كما تختفي الشمس في الليل. والقوانين التي تـم بهـا هـذا التـداول بـين الكواكـب فـي منازلها، وفـي ظهورهـا واختفائهـا يشـهد بالقـدرة العظيمـة والحكمـة البالغـة لله رب العالمين الذي رتب ذلـك علـى نظـام لا يلحقـه اخـتلال. أقسـم بهـا حـال اختفائهـا "**الخنس**". وهي في تنقلها في منازلها تسـير سـيرا حثيثـا "**الجـواري** " "**الكـنس**" التـي تشبه الظباء عندما تختفي في كناسها،وهو البيـت التـي تعـده لمبيتهـا. شـبهت النجـوم بالظباء السريعة الحركة تبدو ثم تختفي عـن أنظـار الصـيادين المـراقبين لهـا وتـدخل بيوتها المعدة لإيوائها في الليل.فأدخل هذا التشـبيه حركيـة وجمـالا فـي العرض،يـدعو إلى الاستمتاع به والتأمل فيه.

17- والليل إذا عسعس.

"**عسعس**" من الكلمات التي تفيد الشيء وضده، فتطلـق ويـراد منهـا إقبـال الليـل كمـا تطلق ويراد منها إدباره، وفي كل واحد مـن الحـدثين تظهـر القـدرة والحكمـة الإلهيـة في تسيير الكون بنظـام. ويـرتبط هـذا القسـم بسـابقه (القسـم بـالنجوم) باعتبـار أن ظهور النجوم واختفاءها مرتبط بالليل.

18- والصبح إذا تنفس.

حقيقة التنفس خروج النفس من الحي.ولتجسيم ظهور الضياء في بقايا الظلام عبر عنه بالتنفس. ومما زاد هذا التعبير جمالا، أن مع الصبح يتحرك نسيم رقيق شبيه بالأنفاس. وهذه الظاهرة التي يمتزج فيها الليل بالنهار تدل على الحكمة والتنظيم في الكون المستند في كل جزئية من تطوراته إلى القدرة المبدعة الخلاقة لله رب العالمين.

---

[1] سورة الواقعة آية 75

19←21-إنه لقول رسول كريم...أمين.

هذا هو المقسم عليه.إنه، الضمير يعود على القرآن المفهوم من المقام. وأسند القول إلى الرسول الكريم الذي هو جبريل باعتبار أنه تلقاه مباشرة من عند الله وبلغه إلى محمد ﷺ كما تلقاه. ونظرا لمنزلة القرآن وأنه كلام الله الهادي إلى الخير، فإنه سبحانه وكل بتبليغه ملكا يتميز بأوصاف أهلته لهذه المهمة، فأثنى عليه بخمسة أوصاف :

أ)**أنه رسول كــريم**. والكرم يلصق بصاحبه للدلالة علــى أنـــه متميــز فــي نوعـــه نفــيس بين أمثاله. كما تقول تلميذ كريم، وخاتم كريم. وطعام كريم.

ب - جـــ) **ذي قوة عنـــد ذي العــرش مكــين**. الوصـــف الثـــاني ذي قـــوة، الوصـــف الثالث مكين، وتوسط بينهما عند ذي العــرش ليتنـــاول كـــل واحـــد منهمـــا مـــا يناســـبه. ويراد من القوة أنه قادر على الأعمال العظيمة التـــي لا تتـــأتى لكـــل أحـــد، كمـــا تطلـــق القوة على رباطة الجأش ومضاء العزيمة. فجبريـــل موصـــوف بـــالقوة الماديـــة ينفـــذ مـــا يؤمر به من المهمات المادية الصعبة، وهو ذو قوة معنويـــة فهـــو يحمـــل القـــرآن "**القـــول الثقيل**"

والمكين، يطلق ويراد منه علي الرتبة، كما قال تعالى في سورة يوسف :(**إنك اليوم لدينا مكين أمين**)[1] ومما زاد الوصفين تشريفا أنهما تم وصفه بهما عند الله العلي العظيم. وأضاف إلى هذا المعنى المقصود أن عبر عن الذات الإلهية بقوله "**ذي العرش**" المفيد للعظمة والجلال.

د) **مطاع** يفيد أن رتبته هي رتبة القيادة فالملائكة يطيعونه لما يعلمون من أن تلك إرادة الله، وهم يفعلون ما يؤمرون.

هـــ) **أمين**. يؤدي ما عهد إليه به أداء كاملا، ثم في الملأ الأعلى، معروف بينهم بقوة أمانته. وحمله بعض المفسرين على أن الثناء بتلك الأوصاف على أنها جارية على رسول الله محمد ﷺ. وهو أنفس الرسل وأعلاهم منزلة. وهو القوي إرادة وعزيمة، واجه البشرية كلها ولم يضعف حتى ثبت دين الله في آفاق الدنيا. أكرمه ربه وعرج به إلى سدرة المنتهى وخاطبه بخطاب التقريب في غير ما آية. وكل البشر مأمورون بطاعته قال تعالى: (**من يطع الرسول فقد أطاع الله**)[2] وهو المثل الأعلى في الأمانة. بها عرف قبل أن يوحى إليه.

22-وما صاحبكم بمجنون.

من تمام المقسم عليه. أكد القرآن بالقسم أن محمدا الذي صحبوه من صباه الباكر إلى أن أكرمه الله بالرسالة، وما سجلوا عليه في يوم من الأيام وسوسة ولا خروجا عن مستوى العقل الراجح الواضح. فقد بلغت مكانته في حسن التدبير، وانكشاف المبحوث فيه، بلغت

---

[1] سورة يوسف آية64

[2] سورة النساء آية 80

مرتبة فاقت مراتبهم، فهو الذي لم يقبل أن تكون الأصنام لها دور في حياة الناس، ولا أن ما قبلوه في تصور الكون مقبول، فتحنثه ﷺ للتأمل والتعمق في مشاهد الكون وما تدل عليه، مؤذن بأنه ما رضي التقليد لنفسه الذكية، وأنه أصفى عقلا وأنجح تفكيرا منهم جميعا.فمن سفههم أن نسبوه إلى الجنون الذي نفاه العليم بأحوال البشر رب العالمين، نفاه عنه بأبلغ طريق في النفي.وما صاحبكم بمجنون.

23- ولقد رآه بالأفق المبين.

بعد أن نفى الجنون عن النبي ﷺ أبلغ نفي بالقسم،والتنبيه على تنكرهم لما كانوا يعترفون به من كمال عقله،وبريق تفكيره، ثنى بإثبات أنه كان يرى جبريل رأي العين بالأفق البين الصافي بين السماء والأرض.ذلك أن المشركين اتخذوا من إخبار النبي ﷺ أنه تلقى الوحي من جبريل، اتخذوا ذلك مطعنا في صدقه، فأكد سبحانه أن رؤيته لجبريل هي رؤية واضحة، لم يداخلها الخيال.

24- وما هو على الغيب بضنين.

شغب المشركون على رسول الله ﷺ، وطعنوا بأنه من كلام الكهان الذين يتلقون أخبارهم من الجن على ما يزعمون،والكهانة مورد رزق للكاهن لا يحدثهم بما حصل عنده إلا بمقابل، وما طلب منهم محمد في يوم من الأيام شيئا على ما يقدمه لهم من الذكر الحكيم. فمحمد ليس بخيلا همه جمع المال.قال تعالى : (**قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين**)[1] ونوعوا مقترحاتهم فمن جملة ما عرضوه أن يأتي بقرآن غير القرآن الذي يتلوه عليهم. قال تعالى :(**وإذا تتلى عليهم آياتنا قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله**)[2] فنفى عن نبيه أن يتهم بتغيير ما تلقاه من ربه، وهو أطهر وأبعد ما يكون عن ظنونهم الفاسدة وعن أي تهمة يلصقونها به. فظنين بمعنى متهم. وقد قرئ في السبع المتواترة بالضاد ضنين :بخيل، وبالظاء ظنين : متهم. ومخرج الضاد حافة اللسان مع الأضراس اليمنى أو اليسرى.ومخرج الظاء طرف اللسان مع أصول الثنايا العليا.

35- وما هو بقول شيطان رجيم.

بعد أن نفى أي تهمة تتعلق به صلى الله عليه وسلم في نقله للوحي، نفى تهمة ثانية طعن بها المشركون في القرآن.إذ زعموا أن القرآن تنزلت به الشياطين وليس صادرا عن الله بواسطة جبريل.قال تعالى : (**وما تنزلت به الشياطين وما ينبغي**

---

[1] سورة الأنعام آية 90

[2] سورة يونس آية 15

لهم وما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولــون)[1] وكيــف يســترق الشـيطان الســمع، وهو مبعد غير مقبول في أي مجتمع نظيف فكيف يتصل بعالم الغيب المطهر!

26- فأين تذهبون.

أين اسم استفهام انكاري عن المكان الـذي يتجهـون نحـوه.لـم يبـق أمــامكم أي ســبيل موصل مطبوع بالحق، أبطلنا ما اعترضتم بــه مــن افتــراءات، ومــن فــروض كاذبــة من نسج خيالكم وتعصبكم ضد الحق المنزل،ولم يبق لكــم طريــق تــذهبون إليــه، فثوبــوا إلى الاعتراف بصدق الرسول وأن ما أتى به هو الحق الناصح الذي تلقاه من ربه.

28/27-إن هو إلا ذكر...أن يستقيم.

ثم أكد القرآن ما جاء في الآية السابقة، وما نفاه عنه من افتراءات المضللين،بقوله: **إن هو إلا ذكر للعالمين.** كل ما روجتموه عن محمد وعن القرآن باطل ليس فيه أي خيط من الحق، إذ أن القرآن محصور في كونه ذكرا للبشرية جمعاء. يجدون فيه ما يصل بينهم وبين العقيدة الحق فيثبت التوحيد في أرواحهم، ويضبط أقوالهم وأعمالهم بما يعود عليهم بالخير والوفاق، ويشرع لهم ما ينمي قدراتهم في كل ما يترتب عليه تطورهم إلى ما هو أفضل وأسمى، ويهذب أخلاقهم فيربط بينهم وبين الفضيلة، ويفصل بينهم وبين الرذيلة. يستفيد منه المؤمنون كما يستفيد منه الذين أعرضوا، يستفيدون من الصورة التي يتحول إليها المجتمع المؤمن من رقي وتماسك. ولكن الاهتداء الكامل لا يحصل إلا لمن تعلقت إرادته، وكان له من ماضي العزم ما يعدل به سلوكه واختياراته، حسب ميزان القرآن المرشد إلى الطراق المستقيم.

29- وما تشاؤون إلا أن يشاء الله رب العالمين.

تختم السورة بهذا التفويض الذي يحقق تفرد الخلاق العليم بتمكين البشر من هدايته ليعملوا عقولهم فيها، وترك لهم الاختيار في اتباع طريق الخير، أو اتباع طرق الضلالة والشر.ولم يجبر أحدا من خلقه على ما يعاكس اختياره، والإنسان مسؤول عن اختياره وعمله. والله يلطف بمن يشاء من عباده فيحبب له الصلاح، ويحيط به من دواعيه ما ييسر له اتباعه. ويحرم من لم يشأ أن يسعفه بذلك العون. قال تعالى : **(ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون)**[2] وأن النهاية تكون سعادة الملطوف بهم وشقاء الذين حرموا التوفيق. **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.**

02 ذو القعدة 1435-2014/8/28

---

[1] سورة الشعراء آية **210**

[2] سورة الأنعام آية **111**

سورة الانفطار

بهذا الاسم عرفت في المصاحف،وفي معظم كتب السـنة والتفسـير. وهـي سـورة مكيـة باتفاق.أخذت تسميتها مـن الآيـة الأولـى فيهـا : إذا السـماء انفطـرت. وهـي الثانيـة والثمانون حسب ترتيب المصحف.وعـدت الثانيـة والثمـانين حسـب ترتيـب النـزول. نزلت بعد سورة النازعات. وقبل سورة الانشقاق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا
ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ
ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ :

انفطرت : تشققت وزال تماسكها.

انتثارها : تفرقها لا على نظام بل باضطراب.

فجرت: فيضان البحار وتجاوزها حدودها.

غرك : الغرور، إيهام المغرور أن ما يدعوه إليه الغار فيه نفع والحق خلافه.

بيان المعنى الإجمالي:

هذه أربعة ظروف يتحقـق عنـد حصـولها مـا يعقبهـا.الظـرف الأول عنـدما تتشـقق السماء فتتخرب صفحتها الجميلة الزرقـاء،والظرف الثـاني أن يـذهب انتظـام الكواكـب فتخرج عن مساراتها المنظمة إلـى الفوضـى والتصـادم، والظـرف الثالـث أن تتفجـر مياه البحار فتهجم على الأرض وتفسد مـا علاهـا، والظـرف الرابـع أن ينقلـب ظـاهر الأرض فينزل إلى الأسفل ويصعد ما كان كامنا فيها إلـى الأعلـى فتـدفع الأمـوات مـن قبورها إلى ظاهرها. عندها ينكشف لكل إنسان حقيقة عملـه الـذي قـام بـه فـي حياتـه إن كان شرا أو خيرا ما فعلـه مـن الحـلال والحـرام ومـا تركـه مـن الممنوعـات أو الواجبات

ويحرك القرآن كل إنسان للنظر فيناديه ليوقظه من غفلته التي قادته إلى البعد عن ربه والكفر به وبالبعث.مع أن نعمه وألطافه توالت عليه، فهو الذي خلقه وأخرجه إلى الحياة، وهو الذي جعل خلقه خلقا سويا راعى بألطافه كل جزء من أجزائه وجعله متناسقا مع بقية الأجزاء. وجعل خلقة الإنسان أجمل خلقة يسير قائما على رجليه ويشاهد الكون من جميع جهاته بحركة بسيطة من أعضائه. ركبك في أجمل صورة وأعونها على الحياة، فكيف تنسى فضله عليك، وتفرض له شركاء تعبدهم من دونه.ولو سلبك ما تفضل به عليك ما استطعت إرجاعه.

بيان المعنى العام :

4/3/2/1- إذا السماء انفطرت...بعثرت.

افتتحت السورة بفاتحة قريبة مما افتتحت السورة التي سبقتها في ترتيب المصحف "سورة التكوير. وتقدمت " **إذا**" كل جملة من الجمل الأربع ، لتدل على أن الجواب مرتبط بهذه الظروف جميعها.

الظرف الأول : **إذا السماء انفطرت** ، أي تشققها، فبعد أن كانت تبدو للرائي صفحة زرقاء تزينها النجوم في الليل، والشمس في النهار. تتخرم تلكم الصورة وتبدو منفرجة بعضها عن بعض، بزوال التماسك الذي كان يجمع بين ما تركبت منه. وهو ما أشارت إليه الآية الأولى في سورة الانشقاق : إذا السماء انشقت.

الظرف الثاني : **إذا الكواكب انتثرت.** الكواكب التي تزين السماء لها مواقعها ومساراتها التي تسير فيها، وهي منتظمة بطريقة تجعل جاذبية كل كوكب لغيره تبلغ من القوة ما يبقي على المسافة بينهما ثابتة. فإذا أراد الله الإعداد للبعث، تخرج الكواكب عن منازلها، وتحل الفوضى في مواقعها.

الظرف الثالث: **وإذا البحار فجرت** :وتفجيرها، صعود مائها عن مستواه فتختلط البحار، وتغمر الأرض، فيفسد ما عليها.

الظرف الرابع: **وإذا القبور بعثرت.** وبعثرة القبور انقلاب ما تحت الأرض إلى عاليها، فبعد أن كانت القبور حاوية لرفات من دفن فيها، ساترة لهم، تقذف بما في داخلها إلى ظاهرها. وختمت الآيات باستحضار بعثرة القبور لأنه المظهر المقصود أصلا الذي يعقبه تذكر كل فرد من أفراد البشر ما فعله في الدنيا.

5-علمت نفس ما قدمت وأخرت.

إنه إذا اجتمعت الظروف الأربعة المذكورة في السورة، فإنه يعقبها أن ذاكرة الإنسان تعيد إليه كل صور أعماله من خير أو من شر. ما فعله من مراحل تكليفه الأولى وما فعله حتى

آخر لحظة من حياته.يكون علم كل مبعوث بذلك بالغا من الوضوح والتيقن حدا عبر عنه بالمضي "**علمت**" وهو تهديد للمشركين بتحقق الوعيد، وبشارة للمؤمنين بتحقق الوعد، وإيقاظ للمخلطين بين الصالح والقبيح ليتوبوا.

6←8- يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم...ركبك.

تفتح الآية بالتنبيه بواسطة النداء لكـل مـن يطلـق عليـه لفـظ إنسـان لإيقاظـه إلـى الخطر الذي تسرب إليه وهو على وشـك أن يهلكـه.ويقصـد بـه المشـركون المنكـرون للبعث الذين هم الكثرة الكـاثرة عنـد نـزول الآيـة فـي أول الإسـلام. يوقظـه بجملـة استفهامية " **ما غرك بربـك الكـريم** " وهـو اسـتفهام يقصـد منـه التعجيـب المُشْـرَبُ بالإنكار. عجب وإنكار وتوبيخ للإنسـان الـذي انطمسـت عليـه الحقيقـة فزاغـت عـن فكره، ظانا أن ما هو عليه فيه خيـره، مـع أن المـآل هـو عكـس ذلـك فيـه خسـارته وهلاكه. قد اغتر في علاقتـه بربـه فأشـرك بـه، ونفـى أن يبعثـه يـوم القيامـة إلـى الحساب.وكانت صياغة التعجيب والتـوبيخ مصـاحبة للطريقـة التـي تـم بهـا التعبيـر لمزيد من الإيقاظ.فجعل العلاقة بينه وبين الله وعبـر عنـه بـ"**ربـه**" بمـا تفيـده كلمـة الرب من الرفق والعناية التي تقتضي ممـن نـال مـن فضـله أن يكـون شـاكرا لـه لا كافرا به.ووصف ربه بأنه الكريم الذي تـوالى عليـه فضـله وعطـاؤه وعنايتـه إلـى أن بلغ المستوى الذي هو عليه مـن القـوة الجسـمية ومـن التفكيـر. أفـلا يجـب عليـه أن يكون ذاكرا لكرمه شاكرا لأنعمه!

وأخطأ بعض الذين يعملون علـى تنـويم المسـيئين ليواصـلوا انحرافـاتهم قـائلين إن الله لقن المذنب أن يقول له عندما يسأله مـا غـرك بربـك الكـريم، أن يقـول لـه : غرنـي كرمك.ذلك أن السـؤال هنـا هـو سـؤال تقريـع وتـوبيخ للمغـرور بحـب الشـهوات وعصيان مسدي الخيرات، والكفر به.كما تُوقِفُ مـن أحسـنت إليـه وأعنتـه، ومـع ذلـك أنكر كل معروفك وعمل على إذايتك،فتقول له : ما هـو عـذرك مـع مـا واليـت عليـك من فضلي؟ فهو كلام موجب لتشديد العقاب لا للعفو ولا للاعتذار.

كما جمع أضربا من العناية وحسن التقدير التي تقتضـي مـن الإنسـان أن يلتفـت إليهـا، ولا تستر رتابة الأنس بها ما فيها من فضل.فهو الذي خلقـك فأخرجـك مـن العـدم إلـى الوجود، وهذا الخلق كان يمكن أن يتحقق علـى صـور عديدة،صـور متناسـقة، وصـور لا تناسق بينها.وأنت أيها الإنسان إذا نظـرت إلـى كـل جزئيـة مـن جزئيـات تركيبـك البدني والنفسي وجدت أن العناية الإلهية حفـت بك،فكانـت صـفة خلقـك مسـاعدة علـى القيام بوظائفك المتنوعة.فكون اليدين في مكانهما، والـرجلين مـن أسـفل والـرأس يعلـو الجسم، والقلب والرئتان يحويهمـا قفـص الصـدر المكـون مـن العظـام الحـافظ مـن

ناحية، والمستجيب لحركة التنفس من ناحية أخرى. كما راعى في الخلق عدالة بين الأجزاء، لا يتضخم جزء فيشل الحركة ولا يضمر فيتعطل عن أداء ما خلق له.فلو طالت إحدى اليدين أو ضمرت إحدى الرجلين، أو كانت إحدى العينين في موضع آخر، وهكذا، لكان الإنسان تعيسا في حياته.وإذا نظرت إلى الصورة التي تخيرها لك ربك تجد أنه أعطاك من الوسامة بقيامك على رجليك واقفا،ومن جمال الوجه وأجزائه ما لم يعطه أحدا من المخلوقات الأخرى.ولا أجمل من الإنسان.

كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا ۖ وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

بالدين : بالجزاء، البعث.

حافظين : مسجلين لكل عمل يصدر منكم.

كراما: جامعين للكمالات.

الأبرار : جمع بر، وهو التقي الصالح.

الفجار : جمع فاجر الذي يفعل القبيح بدون اكتراث. وأعظم الفجور الشرك.

الجحيم : جهنم.

يصلونها : يحترقون بحرها.

لا تملك نفس لنفس: لا تقدر نفس مساعدة غيرها.

الأمر : التصرف الكامل.

بيان المعنى الإجمالي:

زجرت الآية في فاتحتها المغرورين بما بين أيديهم من نعيم الدنيا،وأشركوا بالله. وكذبوا بيوم القيامة ظانين أنه ليس وراء الحياة الدنيا حياة أخرى.والله قد أوكل بهم ملائكة يراقبونهم، ملائكة كرام على أعلى ما يمكن أن يتصور من الصدق،يكتبون ويسجلون كل ما يصدر عن الإنسان من فعل حسن أو قبيح، لا يمكن التمويه عليهم إذ هم يعلمون حقيقة أفعالهم ولا يلتبس عليهم الحسن بالسيء.

بعد أن وثقت الملائكة ما صدر عن كل إنسان في حياته ليتم الجزاء العادل، عبر عنه القرآن بأن الخيرين المؤمنين الأتقياء منغمسون في النعيم. وأن الفسقة المشركين في جهنم،يحسون بآلام حرق نارها أشد ما يكون الإحساس. يحترقون بها في يوم الجزاء، لا يخرجون منها أبدا.

إن هول يوم الجزاء يفوق التصور ولا يلاحقه الخيال.هو اليوم الذي لا تستطيع أي نفس أن تساعد غيرها، أو أن تخفف عنه ولو أقل ما يكون من العذاب والنكال.إنه في هذا اليوم ينفرد سبحانه بالتصرف في جميع الأمور، ولا يشاركه غيره.

بيان المعنى العام:

9- كلا بل تكذبون بالدين.

تفتح الآية بكلمة " **كلا**" المفيدة ردع وزجر الذين شحنوا بالغرور فأشركوا، ولم يعترفوا بأرسال الفضل التي توالت عليهم من ربهم.مما يقرر أن الشرك باطل مغرور من اتبع طريقه. ثم انتقل من ذلك المعنى إلى تأنيبهم على التكذيب بالبعث "**الدين**" الذي هو سر فساد عقيدتهم، وفساد أفعالهم.لما تصلبوا في رفض الإيمان به ففقدوا بسبب تكذيبهم بالبعث ما يحبب لنفوسهم الخير ويكفها عن الشر. وحسبوا أنهم في مأمن من جزاء تجاوز الحق والعدل في دنياهم.

10←12- وإن عليكم لحافظين....تفعلون.

تفيد الآيات فساد تصور المشركين أنهم في مأمن من الجزاء على ما قدموه. ذلك أن الله وكل بهم ملائكة يسجلون كل ما يصدر عنهم.ولولا أن ذلك من أجل محاسبتهم لما كان لهذا التقدير من معنى سوى العبث. وتعالى الله عنه.فثبت بنص الآية أن مع كل إنسان من الملائكة من يحصون عليه أقواله، وأفعاله، ونواياه.ووصف هؤلاء الملائكة بأربعة أوصاف:

الوصف الأول : أنهم حافظون لا يضيعون شيئا مما يصدر عن الإنسان من الفعال الحسنة أو القبيحة، ليلقوا جزاءهم جزاء وفاقا، وبذلك يتحقق العدل الإلهي، قال تعالى : **(ووجدوا ما عملوا حاضرا وما يظلم ربك أحدا)**[1]

الوصف الثاني : هم جامعون للكمالات التي سمت بهم ليقوموا بهذه الوظيفة التي أوكلت على أتم ما يكون مع الأمانة التامة. "**كراما**"

---

[1] سورة الكهف آية 49

الوصف الثالث: موثقون لما يراقبونه من أعمال وأقوال ونوايا، توثيقا عبر عنه بالكتابة. ولا تفهم الكتابة على أنها بمداد وورق، ولكنه تسجيل يتناسب مع خصائصهم الخلقية، توثيق لا يضيع منه شيء، الله أعلم بكيفيته وطريقته.

الوصف الرابع : يعلمون الفعال على حقيقتها، ولا يلتبس عليهم الظاهر بما خلفه من نوايا، ولا يتصور أن يموه عليهم أحد.

13←16- إن الأبرار لفي نعيم...عنها بغائبين.

يفترق المبعوثون إلى فرقتين :

الفرقة الأولى: هم الأتقياء الأخيار، الذين آمنوا وصلحت أعمالهم فراقبوا رضوان الله فيما يقبلون عليه وفيما يتركونه. جزاؤهم أنهم منغمسون في النعيم الذي لا يخالطه غبن ولا نقص.

الفرقة الثانية : المشركون الأشرار الذين لا يراعون قيم الخير والشر، فهو يقدمون على الشر دون أن يتحرك في ضمائرهم رادع، ويعرضون عن الخير دون شعور بداع إليه.جزاؤهم الجحيم يوم القيامة يوم الجزاء : النار التي يذوقون آلام حرها اللاهب،وهم مقيمون فيها لا يبرحونها خالدين مخلدين.

18/17-وما أدراك ما يوم الدين.... والأمر يومئذ لله.

هَوَّلَتْ الآية يوم الجزاء. بأنه فوق ما يتصور. وأكدت هذا التهويل بتكريره التكرار الذي يفيد تأكيده، وأن رُتبَهُ رُتَبٌ تذهب صعدا مما لا يستطيع الخيال متابعته. يوم الجزاء يوم يلقى فيه كل فرد جزاءه، ولا يقدر أحد أن يغني عن غيره، أو أن يساعده بما يبعد عنه الضر، أو يضاعف له النفع.فالعجز هي الظاهرة العامة الشاملة.ذهب ما يقوم عليه المجتمع الإنساني في الدنيا من التعاون والتآزر.ويبدا كل فرد واضح الفردية يلاقي جزاء ما قدم من خير أو شر.

19- والأمر يومئذ لله.

أكدت الآية المفهوم من الآية السابقة، معللة له وموضحة أن ذلك تم تبعا لانفراد الله بالتصرف في ذلك اليوم. هو وحده سبحانه يأمر وينفذ ولا كلمة لأحد سواه.

يوم السبت 4ذو القعدة 1435-2014/8/30

سورة المطففين

عرفت بسورة المطففين في المصاحف وفي كثير من كتب التفسير.و بسورة " ويل للمطففين" في بعض كتب السنة وفي بعض كتب التفسير.

واختلف في كونها مكية أو مدنية، أو مشتركة بعضها مكي وبعضها مدني. ونقل أنه نزل بعضها في مكة وبعضها في المدينة. فهي من آخر ما نزل في مكة، وأول ما نزل في المدينة.وظاهرة الظلم في المكاييل والموازين كانت فاشية في المجتمع المكي والمدني.وذلك من أكل أموال الناس بالباطل، الرافع للثقة في التعامل بين أعضاء المجتمع. ويقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور : وما أنسب بأن تكون نزلت بين مكة والمدينة لتطهير المدينة من فساد المعاملات التجارية قبل أن يدخلها النبي ﷺلئلا يشهد فيها منكرا عاما.

وهي السورة الثالثة والثمانون حسب ترتيب المصحف. وعدت السادسة والثمانين حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة العنكبوت، وقبل سورة البقرة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو
وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ
ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

ويل: الهلاك والحزن والشقاء الأدوم.

التطفيف : نقص ما يستحقه الطرف المقابل من الكيل أو الوزن.

اكتالوا : اشتروا ما عند الناس كيلا.

كالوهم : باعوهم كيلا.

يستوفون : يأخذون حقهم كاملا.

يخسرون : ينقصون.

عظيم : تقع فيه الأهوال العظيمة.

بيان المعنى الإجمالي :

الخسران ثابت وكذلك الهلاك مقرر للمطففين الـذين يحتـالون علـى النـاس فـإذا أخـذوا منهم وزنا أو كيلا استوفوا حقوقهم كاملة، وإذا كالوا لهـم أو وزنـوا لهـم سـلعة باعوهـا لهم ينقصون منها ولا يعطونهم حقهم كاملا. هـل غـاب عـنهم مصـيرهم فظنـوا أنهـم غير مبعوثين من قبورهم للحساب، فـي الوقـت المحـدد المضـبوط الـذي لا يتـأخر ولا يتقدم، في ذلك اليوم العظيم أهواله.اليوم الذي يبعث النـاس كلهـم قيامـا خاضـعين لـرب العالمين.الذي يظهر ملكه وتصرفه في جميع الخلائق.

بيان المعنى العام :

1←3: ويل للمطففين..يخسرون.

الهلاك ثابت وكذلك الخسران. وعيـد للـذين يتعمـدون أكـل أمـوال المتعـاملين معهـم بالباطل، الذين يحرصون عندما يشـترون مـن عارضـي السـلع علـى أخـذ كيـل مـا يأخذونه منهم وافيا غير منقوص.ومن ناحية ثانيـة لا يـؤدون للطالـب كمـال حقـه مـن السلعة التي يشتريها منهم، وينقصون له من الكيـل الـذي يسـتحقه، فـإذا كـالوا لهـم أو وزنوا لهم من أموالهم ينقصـون الكيـل والميـزان ولا يعطـونهم بمقـدار الـثمن الـذي أخذوه منهم. روي أنه كان بالمدينة المنورة رجل يكنى أبـا جهينـة، لـه صـاعان :يأخـذ بالأوفى، ويعطي بالأنقص.وأن ذلك كان فاشيا يتـابع التجـار بعضـهم بعضـا.فلما نزلـت الآية أقلعوا،واستقامت سوق المدينـة علـى العـدل. واسـتمر المنـافقون واليهـود علـى عادتهم من التطفيف، والاحتيال.

4←6: ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون....العالمين.

أمر هؤلاء الذين يطففون عجب. ما لهم يواصلون الاسـتيلاء علـى أمـوال النـاس أخـذا وعطـاء فـي المكاييـل والمـوازين ؟ مـالهم يقـدمون علـى ذلـك؟ ألا يظنـون أن الله سيبعثهم أحياء، يحملون أوزارهم في يوم عظيم أهوالـه فيجـازيهم.ومعنـى ليـوم عظـيم في تاريخ محدد ووقت مضبوط هـو يـوم يقـوم النـاس أحيـاء وقوفـا خـائفين وجلـين مسـؤولين لـدى رب العـالمين، رب العـالمين المالـك لجميـع المخلوقات،الخاضـعة لحكمه، والتي تنال جزاءها منه في ذلك اليوم. وهـذا الـنص قـد صـيغ صـياغة كاشـفة عن عظم ذنب المطففـين، الـذين يهـدمون البنـاء الاجتمـاعي، بـالطعن فـي اللحمـة الرابطة بين أعضاء المجتمع، التي هي اطمئنان كـل فـرد لأخيـه، وبالتـالي طـرد كـل ما يوجب الخصام والفرقة.فعلاقة المغبـون فـي الكيـل أو الـوزن بمـن غبنـه علاقـة تربص للانتقام منه وأخذ حقه منه. وعـوض أن يكـون التعامـل التجـاري بمـتن صـلة

المتعاملين ينقلب هادما لتلكم الصلات. وإن كانت له نتائج قريبة مغرية بالربح العاجل، فإن مآلها على الاقتصاد خراب وضعف. ولذا فإن الآية دليل على تقبيح كل اعتداء على الحقوق في التعامل سواء أكان بالتطفيف أو بالغش، أو بالاحتيال، أو بالكذب والتلبيس. وقد اعتنى الفلاحون في بلدي في الأربعينات بزرع الخزامى. وكانت لها سوق رابحة في أواخر فصل الربيع يحصدونه ويجففونه، ويتولى التجار بيعه لألمانيا، التي وجدت فيه من الخصائص ما يفضل به على مثله في بقية أنحاء العالم.وقد كانت الإيرادات منه تبلغ مستوى رفيعا يعود بالخير على الدخل الفردي والاقتصاد الجماعي.ولكن بعض الفجرة استعجلوا الربح الحرام، وخلطوا الخزامى الجافة بالتراب، وبأنواع أخرى تفسد الخصائص العطرية، فقطع التجار الألمان الاستيراد منه بصفة باتة، وآلت المزارع إلى الزوال.

كَلَّا إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ
أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا
كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ
﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ :

كتاب الفجار: سجل أعمال المشركين والمطففين.

سجين : مكان ضيق يناسب هوان أصحابه.

المعتدي : الظالم.

الأثيم : كثير الآثام والذنوب.

أساطير : الأسطورة القصة المخترعة.

الأولين : الأمم السابقة.

الرين : الصدأ الذي يغشى الحديد، والمرآة.

القلوب : العقول.

بيان المعنى الإجمالي:

زجر للفجار عن تكذيبهم بيوم القيامة.وإثبات أن كل ما عملوه مسجل في كتاب في **سجين**، وهو وضع مهين في ضيق شديد يتناسب مع ماهم صائرون إليه.وسجين

هذا يتجاوز تصوره كل حد في الفظاعة.وكتابهم كتـاب مثبـت فيـه مـا عملـوه ثباتـا لا يمحي كرقم الثوب.الخسران والهلاك للمكذبين.الـذين فسـد تفكيـرهم وخبثـت أرواحهـم لتكذيبهم بيوم القيامة. يوم الجزاء اليوم الحق الـذي لا شـك فيـه، لا يكـذب بـه إلا مـن جمع ثلاثة أوصاف خسيسة.

الأول: ظلم الحق والشرك وتكذيب الرسل ورفض الأدلة قبل النظر فيها.

والثاني : إلف المعصية والإثم.

والثالث : افتراؤهم على القـرآن،إذ تحـدثوا عنـه بأنـه أسـاطير الأمـم الماضـية، ولا شيء فيه وراء ذلك

زجر لهم وتوبيخ على قولهم : إن القـرآن أسـاطير الأولـين. ويؤكـد ذ لـك أن عقـولهم وأرواحهم قد حجبوها بحجاب صفيق هو ما كانوا يكسبون فـي حيـاتهم الـدنيا مـن كفـر وعصيان. وزجر آخر يؤكد الأول ويثبت أنهم يـوم القيامـة محجوبـون عـن رحمـة الله، فلا مطمع لهم فيها.وفوق ذلك أنه يتحقق لهـم مـا أوعـدوا بـه فيحترقـون فـي جهـنم. ويتضاعف النكال بهم بتذكيرهم أنهم كانوا أنذروا علـى لسـان رسـولهم مـا يترصـدهم من عذاب فاختاروا تكذيب رسلهم ومواصلة الشرك والعصيان

بيان المعنى العام :

7-كلا إن كتاب الفجار لفي سجين.

افتتحت الآية بكلمة " كلا" الدالة على الزجـر، وعلـى إبـراز بطـلان مـا تقـدمها، مـن التطفيف، ومن الإعراض عن تذكر يوم البعث وما يتحقـق فيـه مـن جـزاء كـل فـرد عما قدم.

إن كتاب الفجار.ما يسجل من أعمال الفجار الـذين يكسـرون الحـدود، ويتجـاوزن إلـى الشر دون تردد ولا تقدير لما يترتب على سوء فعالهم، فـي سـجين.كلمـة سـجين كلمـة من مبتكرات القرآن، صيغت من السجن الـدال علـى الضـيق، وعلـى فسـاد مـا حـل فيه.وقد فرض المفسرون لها محامل أخذوها مـن المعنـى العـام الـذي ذكرنـاه أوصـلها القرطبي إلى ثمانية عشر قولا متداخلة ومكررة مـع بعـض الفـوارق البسـيطة. والـذي تلخص عندي بعد تتبع الأقوال إذا خلصناها مـن الجانـب المـادي التـي هـي إضـافات للتشنيع، كقول بعضهم تحت خد إبليس وفـي الأرض السـابعة، وتحتهـا، ونحـو ذلـك ؛ فالظاهر أن ما يسجل من أعمـال الفجـار، وإن سـجله الملائكـة المقربـون، إلا أن تلكـم السجلات تكون لتعلقها بالفجار في وضع مهـين ضـيق يتناسـب مـع مـآلات أصـحابها يوم القيامة. وهو ما ينسجم مع الفريق المقابل فـي قولـه تعـالى **كـلا إن كتـاب الأبـرار لفي عليين** على ما سنزيده بيانا.

9/8- وما أدراك ما سجين...مرقوم.

ما الذي يعلمك علما كاشفا عن "**سجين** " أي إنه بلغ من الفظاعة والهول ما يتجاوز تصورك عن المهانة والخزي لسجين. وكتاب الفجار المهين في سجين، هو كتاب مرقوم موثق ومكتوب كتابة بينة واضحة كالرقم المنسوج في الثوب يلازم الثوب ولا ينفصل عنه.

11/10-ويل يومئذ للمكذبين.

العذاب والوعيد في ذلك اليوم العظيم أهواله، خاص بالذين تلبسوا بالتكذيب حتى صار المعرف بهم. هم مذمومون لأنهم يكذبون بما هو حق مؤكد وقوعه، لا مرية في حصوله: يوم الجزاء.

13/12- وما يكذب به...الأولين.

إن عدم الإقرار بيوم البعث والجزاء، وإنكار ذلك،هو الذي فتح للفجرة أبواب الفجور.فلا يكذب بيوم البعث إلا من وطن نفسه على الظلم والاعتداء بالشرك ورفض الشرائع.اعتدوا على الحق سبحانه فنفوا وجوده، واعتدوا على الرسل فكذبوهم وحاربوهم وعملوا على تعطيل بلوغ هدايتهم للناس. واعتدوا على الحق فأصموا آذانهم عنه، فلم يعملوا في الدلائل ما رزقهم الله من مواهب. ومن إلف الإثم والمعصية. ومن تصلبهم في الكفر، وتعطيل عقولهم، أن موقفهم من آيات القرآن التي تفتح للعقول منافذ التفكير الصحيح، وتتجاوز بهم الظواهر إلى الحقائق التي وراءها.وتدعو فطرتهم لتنطلق مع ما ينسجم معها، وتؤكد الروابط الاجتماعية التي بها تتقدم الحضارة في جميع الميادين ؛ أن نفوا عنها تلك الخصائص، وقصروا تقديرهم للقرآن على ما جاء فيه من قصص، ولم يتعمقوا في تلك القصص التي ما وردت إلا من أجل العبرة، والإفادة منها ما يقوم العقيدة ويرشد إلى السلوك الصالح ؛ فجعلوها قصصا تلهي الناس وترفه عنهم كقصص الأمم السابقة، التي يتحلق فيها الناس حول القصاصين ليرفهوا عن أنفسهم، و ليصرفوا وقتهم الضائع في الاستماع إلى غرائبها.

14←15- كلا بل ران على قلوبهم... تكذبون.

تكذيب لهم وردع لهم وزجر عن قولهم أساطير الأولين لكونه كذبا ومنافيا للحقيقة. وعُطِفَ عليه بكلمة "بل" الدالة على الإبطال أيضا مؤكدة لمضمون " **كلا**" وكاشفة عن السبب الذي حملهم على مقالتهم الكاذبة.

قالوا في القرآن ما قالوا، لأن عقولهم قد غشاها الصدأ، فلم يبق فيها أثر من النور الكاشف للحق.ران على قلوبهم، غشى عقولهم سوء أعمالهم التي تعودوا على ارتكابها في حياتهم الدنيا، وإلفهم للباطل،حتى أصبح حجابا يحول بينهم وبين إدراك الهدى. وهكذا يكون وضع الإنسان، فإذا رجع إلى ربه وتذكر ما تقتضيه العبودية من الطاعة وفعل الخير رُفع الغبش الذي خالطه من الإثم بمجرد ما يصدر عنه ، فيُبقى على صفاء روحه ولمعان فكره.وإذا فعل المعصية ولم يستيقظ لما فيها من بعد عن ربه، وطاعة له، بقيت آثار ذلك، وما يزال يعاود فعل الآثام حتى يتراكم شيئا فشيئا على روحه وعقله صدأ المعصية، وهو الران، فيستوي عنده الخير والشر، ويفقد ما تعمر به قلوب الصالحين من التقوى. فإذا هي مظلمة.

15←17-كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون... تكذبون.

تكرر الزجر بكلمة "كلا" في آيات هذه السورة مبطلا أوهامهم وكذبهم التي منها أن القرآن أساطير الأولين. وأثبتت الآية أنهم مهانون، لا يلمسون أي وجه من أوجه التكريم يوم القيامة يعاملون معاملة المنبوذين المحتقرين. ذلك أن الأطماع تسمو راجية أن ترى ربها الذي عودها فضله، وأنزل عليها من رحماته ما لا يحصر له عدا. وتطمع أن يسمع استغاثتها من الكروب التي هي فيها ليرفع عنها شيئا منها. ولكن الفجار يحال بينهم وبين قبول استغاثاتهم وآمالهم بحجاب، مهانون فلا يصل شيء من ذلك إلى ربهم. وإذ حجبوا عن رحمة الله وتركوا لأنفسهم وما قدموه من أعمال، فإنهم سيحترقون في جهنم، ولا منقذ لهم من مصيرهم ذاك.ويزيدهم نكالا تذكيرهم أن ما هم فيه هو الذي أنذروا به على لسان الرسل فكذبوا مصممين على رفضه.

كَلَّا إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡأَبۡرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ ﴿٢٠﴾ يَشۡهَدُهُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلۡأَبۡرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِهِمۡ نَضۡرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسۡقَوۡنَ مِن رَّحِيقٖ مَّخۡتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسۡكٞۚ وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسۡنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيۡنٗا يَشۡرَبُ بِهَا ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

كتاب الأبرار: سجل الأتقياء الخيرة

عليون : مفهوم فيه رفعة وسمو.

مرقوم : مثبت بكيفية لا تمحي ولا يلحقها تغير.

المقربون : أصحاب المكانة الرفيعة من الملائكة

الأرائك : الأريكة سرير ووسادة وحجلة: قبة يتدلى من جانبيها ستائر تعطي للسرير فخامة وبهجة.

نضرة النعيم : بهجة النعيم ورونقه.

الرحيق : الشراب الخالص النقي .

مختوم : مسدود بسداد من المسك.

المسك : مادة طيبة الرائحة جدا.

فليتنافس : فليتبارى في التحصيل عليه المتبارون.

مزاجه : الممزوج به.

تسنيم : علم لعين في الجنة

بيان المعنى الإجمالي :

إبطال لتكذيب المشركين والكفرة، ولاستبعادهم البعث، ثم إثبات لوضع الأبرار الأتقياء.فكتابهم المسجل فيه ما قدموه في منزلة رفيعة. وما الذي يعرفك بهذه المنزلة ؟ هو كتاب مثبت فيه برقم لا يمحي ولا يتبدل، يشهده لعلو منزلته المقربون من الملائكة. إن الأبرار المتقين الخيرة منغمسون يوم الجزاء في النعيم البالغ بهم أقصى ما يتصور. مطمئنون جالسون على الأرائك. كل ما يحيط بهم يدعو إلى الإقبال عليه والاستمتاع بجماله.ظهرت آثار النعيم والرضا على وجوههم، تنبئ قسماتهم عما هم فيه من خير ورغد عيش. يسقيهم غلمانهم المخلدون من خالص الخمر. ختم عليها بسداد من مسك يفوح منه أطيب الرائحة.وفي هذا النعيم فليتسابق المتسابقون الراغبون في الكرامة وذلك بالطاعة وسلامة العقيدة. ويمزجون خمر الجنة من ماء التسنيم، وهي عين يشرب منها المقربون الأتقياء تنزل عليهم من الأعلى، كأشد ما يكون صفاء وألطف مذاقا.

بيان المعنى العام :

18←21-كلا إن كتاب الأبرار...يشهده المقربون.

كما صرح القرآن بوعيد الفجار، وأن كتابهم في سجين، قابل الوعيد بالوعد للمتقين الصالحين " الأبرار" وهما على نفس الأسلوب. وهذا شأن القرآن أنه يقرن بين الوعيد والتحذير، بالوعد والتبشير. لتنفذ هدايته بالترغيب والترهيب. وكتاب

الأبرار هو الكتاب الذي يسجل فيه الملائكة الموكلون بمراقبة الأعمال ما يقوم به الأبرار من صالح الأعمال، وضروب الخير قولا وتأثيرا في محيطهم.وتبعا لما سجل فيه من خير وفضل، يتم إيداعه في عليين.وعليون من مبتكرات القرآن، على وزن فِعيل بكسر الفاء وتشديد العين المكسورة أيضا. مأخوذ من العلو والسمو والرفعة. وقد تأثر المفسرون بأصل الاشتقاق،فحملوا الكلمة معاني أبلغها القرطبي رحمه الله إلى ما يقارب خمسة عشر، مع فارق طفيف بينها في معظم التخريجات. والذي نطمئن إليه أن كتاب الأبرار في مستوى من الرفعة والعلو يتناسب مع ما سجل فيه.ولذلك عقب بقوله تعالى: **وما أدراك ما عليون.** ما الذي أعلمك بحقيقة ذلك؟ وفي هذه الصياغة إثارة معبرة عن التنويه بهذا المقام، ورفعته في مراتب الشرف. ومن شأن " **ما أدراك**" أن تلحق بما يكشف عنها. فهو كتاب مرقوم رقما واضحا لا يمحي ولا يلحقه تغيير، هو كرقم الثوب داخل في نسيجه.ومع ثباته هو بمحل التنويه من الملائكة المقربين الذين يشهدون لصاحبه بما نال من التقدم في مراتب القبول والخير.

23/22- إن الأبرار لفي نعيم على الأرائك ينظرون.

تنويها بالأبرار أعيد ذكرهم بهذا الوصف دون الضمير "هم" منغمسون في النعيم، النفسي والروحي والجسمي.رزقهم الله من فضله ما مكنهم به من جميع رغباتهم،فلا يحرمون من قليل ولا من كثير. وأسمى ما يصل إليه النعيم أن يكون المنعم شاعرا بالطمأنينة التامة، لا يصحبه قلق ولا سؤال. عبر عن ذلك بقوله: **على الأرائك ينظرون.** والأرائك جمع أريكة، والأريكة تطلق إذا اجتمع ثلاثة أشياء : سرير، ووسادة يرتفق بها، وقبة يتدلى من جانبيها ستائر تعطي المجلس فخامة.تمتد أبصارهم إلى ما حولهم فيجدون في جميع المشاهد ما يزيدهم راحة وسرورا.

24←26- تعرف في وجوههم نضرة النعيم... المتنافسون.

ذكر القرآن أنهم انغمسوا في النعيم، مبتهجين بالوضع الذي هم عليه. ففصل ذلكم النعيم في مظاهر اختص بها الأبرار في الجنة. يخبرك أيها المتطلع لمعرفة أحوالهم، البشر البادي على وجوههم، والرواء الجاري في أبشارهم، والبهجة والحسن، يخبرك ذلك بما تفاعل في بواطنهم من الرضا عما هم فيه. يسعى المرفهون المقبلون على متاع الحياة الدنيا في مضاعفة شعورهم باللذة، فيحققون رغبتهم تلك بشرب الخمر الذي ينشط إحساسهم باللذة ، وينوم شيئا من صرامة العقل المرتبط بالواقع. وهذه اللذة التي تسري في عقولهم ومفاصلهم تنتهي بتخدير

عقولهم وعرامة الشهوة.و في الشعر العربي من وصف مجالس الخمر، وتأثيرها، والتعلق بها ما لا أظن أن لغة من اللغات بلغت مثل ذلك. فداعية شرب الخمر لا يقمعها إلا التقوى، وصارم التحريم القرآني.والأبرار لا يحرمون في الآخرة ما رغبوا عنه في الدنيا امتثالا لأمر ربهم، فهم يسقون، يطوف عليهم غلمان لهم بأكواب الخمر التي تحقق النشوة وتنشط الإحساس باللذة، وتفارقها في أمور:

أولا : خمر الجنة صافية كأشد ما يكون الصفاء رحيق وخمر الدنيا بعيدة عن ذلك المستوى من الخلوص والصفاء.

ثانيا: أنها تأتيهم في أكواب مختومة مسدود عليها بسداد هو المسك الخالص الذي ينشر رائحته الذكية،بينما سداد خمر الدنيا هو من طين ونحوه.أفضل حالاته أنه لا يغير رائحتها ويمنع تسرب الهواء إليها.

وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. وفي مثل هذا المستوى من النعيم الفائق فليتسابق إلى التحصيل عليه المتعلقون بهذا النوع الكريم من الشراب الذي لا نظير له في الدنيا. ويكون تسابقهم بطاعة الله، وفعل الخير والبعد عن الشر. إن ذلك هو مهر هذا النعيم الخالد.

28/27- ومزاجه من تسنيم...المقربون.

هذا الشراب الموصوف بالصفاء والخلوص المختوم بالمسك، والذي لا ينفذ إليه الهواء المغير لقيمته، يشربه الأبرار بعد أن يكسروا حدته بالماء، وهذا شأن الشَرْبِ في الدنيا، أنهم يقصدون إلى أن تطول مجالسهم الخمرية ليحسوا بالنشوة واللذة ويطول بهم ذلك الإحساس، فلا يشربون الخمر صرفا فيغتال عقولهم في ضربة واحدة. فالأبرار يمزجون بماء التسنيم.وهي كلمة من مبتكرات القرآن مأخوذة من السنام أعلى ظهر البعير، فهو ماء نازل من علو، عرفه القرآن مادحا له بقوله : عينًا يشرب منها المقربون. ولما سئل عنه ابن عباس قال : هذا مما قال الله فيه : **(فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يكسبون)**[1] فهي عين يشرب من مائها المقربون الأبرار الفائزون بأعلى درجات القرب من الله،ويمزجون بها الخمر. وهذا أقصى ما تستطيع به اللغة أن تقرب مغيبات يوم القيامة إلى تصور البشر.

---

[1] سورة السجدة آية 17

إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ
﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ
﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾
عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

بيان معاني الألفاظ :

أجرموا: صناديد المشركين.

يتغامزون : يشيرون إشارة استهزاء بأعينهم.

انقلبوا إلى أهلهم : رجعوا إلى بيوتهم.

فاكهين: يتحدثون عنهم حديث الفكاهة والاستهزاء لا الجد.

ضالون : رأيهم فاسد.

ثُوِّب: جوزي.

بيان المعنى الإجمالي :

سجل القرآن موقف المشركين الفجرة من ضعفة المؤمنين،فزيادة على إذايتهم المادية، كانوا يعتدون عليهم بحرب نفسية، يضحكون منهم ساخرين من هيآتهم ومن الخصاصة التي هم عليها.ويتغامزون فيما بينهم ليشهروا بطريقة هي شأن السفلة المنحطين خلقيا.وفي بيوتهم يتخذون منهم موضوع تفكه بينهم وبين سمارهم وأعضاء أسرهم.ويضيفون إلى ذلك تصريحاتهم الوقحة : إن المؤمنين قد ضلوا الطريق وفسد تفكيرهم لما أعرضوا عن مباهج الدنيا القريبة وتعلقوا بجزاء الآخرة البعيد. ويعلق القرآن على حكمهم بضلال المؤمنين أنه أقحموا أنوفهم مع جهل فيما لا شأن لهم به.وليس لهم فيه قول.ولا هم في مستوى أن يكونوا حفظة على غيرهم

فاليوم يوم القيامة يجمع الله للمؤمنين ما يجعلهم يضحكون من المجرمين الذين كانوا يضحكون منهم في الدنيا. يطلعهم على أوضاعهم في النار وهم يستغيثون ولا يغاثون، وتتوالى عليهم الإهانات وضروب الذل، ويذكرهم ربهم بما كان من المجرمين في الدنيا ويأذن لهم في جزائهم بما كانوا يؤذونهم به من الضحك والسخرية. يتم لهم ذلك وهم على أتم ما يكون من النعيم والطمأنينة على الأرائك يبلغ نظرهم إلى المعذبين دون أن يجدوا من ذلك أي نقص في نعيمهم. لقد جوزي الكافرون بما كانوا يفعلون في الدنيا جزاء لا ظلم فيه.

بيان المعنى العام :

30/29- إن الذين أجرموا كانوا من الذين...يتغامزون.

.تشوه الآية موقف المشركين الذين كان الإجرام مقوما لهم.وذلك أن الإنسان إذا ما انحط مستواه الخلقي،وألف الظلم وعمل السوء، تنطبع نفسه بالشر، ويجعل للحياة قيما لا تتصل بالخير والفضيلة.فيهون عليه ارتكاب الموبقات، والتعدي على الآخرين وهضم حقوقهم. ويخيل إليه أن من لم يكن على شاكلته حقيق بالإهانة.إن هذه النفسية المنحرفة ظهرت آثارها في معاملة المشركين لضعفاء المسلمين الذين لم يكن لهم من وفرة المال ما يكسوهم مهابة عند المجرمين.كانوا يضحكون منهم استهزاء بهم واحتقارا. وإن حربهم النفسية هذه، يرمون من ورائها هدم العزة التي طبع بها الإيمان أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. وتصور عمار بن ياسر وبلال وصهيب وخباب بن الأرت وغيرهم من فقراء المسلمين رضي الله عنهم، وكانوا كثيرين لأن السورة نزلت مع آخر العهد المكي ،وهم يسمعون قهقهة المشركين عندما يمرون، تصور عنف إذاية المجرمين، ولولا ما أفرغه الله في نفوسهم من عزة الإيمان به لشككوهم في ذواتهم.ويتبعون ضحكهم الساخر بإشارات يتقنها السفلة بغمز عيونهم تنبيها لأمثالهم إلى ما يظنونه مجالا للسخرية في المستضعفين.

31- وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فاكهين.

هؤلاء المجرمون الذين امتلأت نفوسهم سخرية واستهزاء من ضعفة المؤمنين، وعبروا عن ذلك بضحكهم وتغامزهم، يصحبهم ذلك الشعور حتى عندما يعودون إلى بيوتهم ، فيتخذون من المستضعفين مادة للتفكه بهم والاستهزاء منهم فيشركون أزواجهم وذرياتهم في ذلك، وقد يكونون يقصدون إلى تنفير أهليهم من الإسلام.

33/32- وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون...حافظين.

جمع المجرمون بين إشارات الاستهزاء بالضحك والتغامز، والحديث المستهزئ بالمؤمنين مع أهليهم أضافوا إلى ذلك وقاحة أخرى حاصلها : أنهم لا يستحيون من مباشرة ضعفة المؤمنين بالقول الجارح، فعندما يرونهم جالسين أو عاملين أو مجتمعين على الخير من الصلاة والذكر يعلنون : إن هؤلاء ضالون.تركوا متاع الحياة الدنيا الحاضر، وتعلقوا بنعيم ما بعد الموت.وعنتوا أنفسهم بالالتزام بقيم تُضيّقُ عليهم الحياة.

وما أرسلوا عليهم حافظين : ما كان للمشركين توكيل على المؤمنين يتابعون به ما يصدر عنهم، ويحفظونهم من الأخطاء التي ربما يقعون فيها. فتعلبقهم بأنهم

ضالون، إقحام لأنفسهم في أمر هم أهون من يكون لهم فيه نظر وتعقب. وفي الكلام إشارة إلى أن مستوى المشركين من الفساد الفكري والعقدي يبعدهم عن أن يكون لهم على المؤمنين رقابة ومتابعة.فتعليقهم هذا يقابل بالاستهزاء بهم في تصورهم أنهم على شيء من الحكمة، إذ هم فارغون من كل مؤهل يؤهلهم لتقويم عمل المؤمنين. صورتهم صورة الأمي الذي لا يحسن الكتابة، ومع ذلك يريد أن يصوب كلام أديب كبير. فتقول له لم تكلف بهذا.

35/34- فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون..ينظرون.

فاليوم : يوم القيامة الذي فصلت الآيات السابقة ما يلقاه فيه الفجرة من عذاب وهوان، وما يلقاه المؤمنون البررة من تكريم. وهو يوم الجزاء.صرحت الآية بجزائهم أنه سيكون من جنس ما أجرموا به، فقد كانوا يضحكون من المؤمنين ويستهزئون بهم، ففي يوم القيامة يمكن الله المؤمنين الذين عانوا من استهزاء الفجرة، أن يكشفوا مواقع الفجرة في العذاب، ويعاينون تقلبهم في جهنم ملعونين، ويتذكرون سخريتهم وضحكهم منهم في الدنيا، فيؤذن لهم أن يضحكوا منهم وهم يستغيثون ولا يغاثون. يشاهدونهم في دركات النار مقموعين، وقد من عليهم ربهم فوفّاهم أجورهم، وهم على أتم ما يكون من الراحة والطمأنينة ينظرون وهم جالسون على الأرائك.

36- هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون.

سؤال تقريري مثبت أنه قد أطبق عليهم جزاء ما كانوا يفعلونه في الدنيا. والخطاب موجه بهذا الاستفهام إلى كل من يصلح أن يتوجه له الخطاب. وثوب أصله جوزي بالخير على فعل محمود، واستعمل هنا للجزاء الشر تهكما بالمجرمين.

يوم الثلاثاء07 ذو القعدة 1435-2014/9/02

سورة الانشقاق

سميت في كثيرمن كتب السنة " سورة إذا السماء انشقت" بأول آية فيها. وسميت في المصاحف وكتب التفسير "سورة الانشقاق " وهي سورة مكية باتفاق رتبتها حسب ترتيب المصحف الرابعة والثمانون، وحسب ترتيب النزول الثالثة والثمانون نزلت بعد سورة الانفطار، وقبل سورة الروم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا
فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا
فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾
وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟
ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾
بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ

انشقت : اختل تركيبها فلم تبق أجزاؤها متماسكة.

أذنت:أصغت واستمعت منقادة.

حقت : حق لها أن تنقاد وتستمع.

مدت : انبسطت فذهبت الجبال والروابي.

تخلت : أخرجت ما في باطنها فلم يبق منه شيء.

الكدح : إتعاب النفس في العمل والكد.

الكتاب : الصحيفة الموثق فيها الأعمال.

الحساب اليسير : العرض بدون مناقشة.

ينقلب : يرجع.

أهله : الزوج والأولاد والأقارب.

الثبور : الهلاك.

يحور : يرجع إلى الحياة.

بصير : العالم العلم الكامل.

بيان المعنى الإجمالي:

إذا فسد الكون الدنيوي، وبرز ذلك خاصة في ظاهرتين :تشقق السماء عندما يأمرها ربها بالانشقاق فتستمع لأمره وتطيع، ولا يتصور منها غير الانقياد. وتمدد الأرض عندما يأمرها ربها بذلك، وبإخراج ما كان يحويه بطنها لتقذفه إلى الظاهر ولا تبقي منه أي شيء. فتفعل ذلك مستجيبة مطيعة لما سمعته من ربها. عندما تتحقق الظاهرتان يلاقي الإنسان ربه محملا بما قدم في حياته وما والى سعيه وبذل فيه جهده، من خير أوشر. وبذلك ينقسم الناس إلى فريقين : فريق سعيد، وهو من يتلقى صحائف أعماله بيمينه، ويمن عليه ربه فييسر حسابه ولا يناقشه عن كل صغيرة وكبيرة،بل يسحب عليه رداء العفو والفضل ويعجل به إلى الجنة. وفريق شقي تعيس وهو من يتلقى كتاب أعماله من وراء ظهره بشماله. إنه يتيقن أنه هالك، أمامه الشقاء والعذاب والمهانة، فيندب حظه، وينادي : واخسارتاه! واهلاكاه ! ويعجل به إلى مقاساة حر عذاب السعير.كيف كان في حياته منعما مسرورا، وكيف هو اليوم شقيا تعسا. جوزي بذلك لأنه رجح أنه لا حياة بعد الحياة الدنيا ولن يرجع إلى حساب ربه.ظنه هذا ظن كاذب.إن ربه الذي أنشأه ووالى عليه فضله هو العليم بما قدم وبما أساء في استخلافه في الكون، فحكمته تقضي أن لا يعامل المحسن معاملة المسيء.

بيان المعنى العام :

1←5- إذا السماء انشقت...وحقت.

يلفت القرآن نظر كل إنسان يصح أن يتوجه له الخطاب إلى حقيقة قد يغفل عنها بتواصل مشاهدته للكون على أوضاعه دون تغيير، فينبئه بتحولات تحدث في السماء، وتحدث في الأرض.

أما ما سيحدث في السماء، فهو أن تماسكها ينخرم، وبعد أن كانت الجاذبية بين مكوناتها رابطة لها ربطا محكما كأشد ما يكون الالتحام والربط، تتحلل تلك اللحمة، وتظهر أخاديد وشقوق. ولا يتم ذلك إلا لأن الأمر التكويني صدر إليها فاستمعت إليه وأطاعته.صدر بأن تتصدع وتتشقق فتشققت وتصدعت، و استجابتها لأمر

ربها، واستماعها لما يأذن به، هو ما هي ملزمة به ومحقوقة.حق عليها أن تطيعه وتنقاد لما يأمر به.

وأما ما سيحدث في الأرض، فإن الأرض ستتمدد، وتنهار الجبال والروابي فتتفتت، ويتغير شكلها العام، ويصحب ذلك أنها تقذف بما في باطنها إلى ظاهرها، تقذفه بصورة تأتي على جميعه ولا يبقى منه شيء مخزون كما قال تعالى:**(وأخرجت الأرض أثقالها)**[1] تم هذا لأنها استجابت لأمر ربها أيضا، ومحتم عليها أن تنقاد لمالك أمرها ومالك كل شيء الله الواحد القهار كما حصل في السماء.

6- يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه.

كما لفت الأنظار وشوقها إلى ما سيحدث،نادى الإنسان بوصف كونه إنسانا نداء يصلح ليتوجه إلى المؤمن والكافر وإلى من كان موجودا عند نزول الآية، وإلى من سيولد.ليوقظه بهذا النداء إلى أنه يكد ويجد ويتعب نفسه بصفة متواصلة، ويوالي سيره الحثيث وبذل جهده إلى الموت، حيث تعود نفسه إلى تفرد الله بالتصرف فيها، لا مفر لك من لقاء ربك. فقوله تعالى : **إنك كادح إلى ربك كدحا** وعظ وتذكير، وإبراز لنهاية سعي الإنسان في الحياة.إنه في كل لحظة من لحظات حياته يصدر عنه من الأعمال ما يفني به جزءا من عمره، ويسير سيرا متواصلا إلى اليوم الذي يلقى فيه حسابه وجزاءه عند ربه، إما خيرا وإما شرا، جزاء عادلا. وذلك عندما تتحقق الظروف التي افتتحت بها السورة.فيكون تقدير الكلام هكذا : يا أيها الإنسان إنك تواصل جهودك وتتعب نفسك بما تقوم به من أعمال لتلاقي ربك محملا بما قدمت، وذلك عند حصول الظاهرتين : انشقاق السماء وما عطف عليه، وامتداد الأرض وما عطف عليه. وقدم الظرفان المفتتحان بـ"إذا" لأن معظم المخاطبين هم من الكافرين الذين ينكرون البعث، اعتمادا على ما يشاهدونه في عمرهم القصير من استمرار حركة الكون على نظام،فظنوا أنه نظام ثابت لا يختل، فلذلك كان القصد الأول إثبات أن نظام الكون يختل ويفسد وعنده تقوم الساعة.

7←15- فأما من أوتي كتابه... كان به بصيرا.

فصلت الآيات الإجمال الواقع في الآية السابقة" إنك كادح إلى ربك كدحا" كل فرد سعى واجتهد وأجهد، ليلقى ربه بما قدم. والناس فريقان : فريق المؤمنين، وفريق الكافرين، والنهاية متعاكسة كما هي في الحياة الدنيا بينهما الاختلاف الكامل في التصور والعمل.

---

[1] سورة الزلزلة آية 2

الفريق الأول :الأتقياء، عبر عنهم بأنهم تناولوا كتاب أعمالهم بأيمانهم.وتناول صحائف أعمالهم بأيمانهم إشارة إلى أنهم بمحل الرضا.ذلك أن الله فطر الإنسان على قوة الجانب الأيمن، وتبعا لذلك يتناول به الطيبات المحبوبة.فتناولهم للكتاب باليمين مشعر بأن الله ألهمهم ذلك لما قدر لهم من خير وتكريم.ثم أعلنت الآية عن هذا المفهوم : أن من أوتي كتابه بيمينه فالعاقبة أنه سوف يحاسبه الله حسابا يسيرا، لا يناقشه عن كل صغير وكبيرة، ولا يدقق معه التدقيق الذي لا بد أن يكشف عن تقصير أو عن قصور.بل غطي النقص بما في صحائفه من الكمالات، كما قال تعالى : (**إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين**)[1] فينتهي من الحساب سريعا ويعجل به إلى الجنة. ويتعمق إحساسه بالبشر والسرور كالمسافر الذي نجح في تجارته، وغنم منها الخير الكثير،وعاد إلى أهله بعد طول اشتياق، مفوّزًا بالسلامة والخير الوافر.

الفريق الثاني : **من أوتي كتابه وراء ظهره**. يلقى إليه كتاب أعماله مصحوبا بالإهانة يأتيه من خلفه، ولا يكرم بمواجهة الملك الموكل بذلك. وبالمقابل فإن يمناه تتعطل فلا تأخذه، وتنطلق شماله لتناوله. قال تعالى : (**وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه**)[2].

إن تسلمه لكتابه من وراء ظهره بشماله، يحقق له أنه خاسر الخسران المبين، وأن ما يرقبه هو أسوأ ولا يشك أنه هالك.فيندب حظه، وينادي يا ثبوري ! يا هلاكي ! يا خسارتي! ولن ينفعه ذلك،فيعجل به إلى النار التي يصلى بسعيرها المتوقد. فيا عجبا كيف تحول وضعه من السرور الذي كان غارقا فيه في دنياه إلى الأذقان، إلى المهانة والعذاب والآلام التي تفوق الوصف.

عاقبته التي يقاسي أهوالها هي جزاء ما رجحه فبنى عليه حياته واختياراته وأفعاله: أنه لن يرجع إلى الحياة بعد الموت، ونفى البعث نفيا مؤكدا مستمرا كما تفيده كلمة " **لن**". وسارع القرآن لإبطال هذا الحساب بكلمة "**بل**" ظنه باطل وغير صحيح.إن ربه الذي تولاه بفضله حتى تطور إلى المستوى الذي هو عليه، عليم به في الحال والمآل، وقد أعلمه بأنه سيبعث، وأما الكافر فإنه جاهل معاند.

والعليم بما تم في الوجود، من وجود صالحين يسعون إلى الخير ويعملون به، ويؤدون رسالتهم في الاستخلاف في الأرض حسب التوجيه الإلهي، ومن وجود

---

[1] سورة هود أية 114

[2] سورة الحاقة آية25

أشرار لا يهمهم إلا ما يوفرون به لأنفسهم أكبر حظ من المتعة والنعيم،ولا يهمهم ما يتسببون فيه من فساد لغيرهم وللكون.العليم تقتضي حكمته أن يتم البعث حتى يجزى كل فرد بما صنع ولا يستوي الخبيث والطيب.

فَلَا أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

الشفق : الحمرة التي تظهر في أفق غروب الشمس.

الوسق : الجمع.

اتساق القمر : اجتماع ضيائه.

السجود : الخضوع.

يوعون : يجمعون من الكفر والمكر.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم الله بـ"**الشفق**"، وبـ"**الليل**" عندما يجمع الكائنات في مأويها، وبـ"**القمر**" إذا كمل ضياؤه. كلها تقلبات في الكون تدل على القدرة البالغة والحكمة الشاملة.أقسم بها على أن الناس يتحولون من طبق وحال ووضع في الدنيا إلى وضع آخر يجانسه ويطابقه في الآخرة، فمن كان صالحا تحول إلى خير وسعادة، ومن كان كافرا فاسقا تحول إلى وضع مطابق لوضعه في الدنيا شر وشقاء.

ولما كان هذا ما ينتهي إليه كل إنسان فعجب من الكافرين لماذا يصرون على كفرهم ولا يؤمنون بك ولا بما أنزل عليك. ومع ذلك إذا تليت عليهم آيات القرآن لا يشعرون بالاستكانة والخضوع. إن جرثومة فسادهم أنهم مصرون على التكذيب، والمكر، ليوقفوا المد الإسلامي، والله عليم بما تحويه صدورهم . فبشرهم بشارة هي هلاكهم وخسارتهم بما قدر لهم من العذاب الذين يذوقون آلامه.ولكن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وفعلوا الخير لهم أجر ثابت استحقوه لا تلحقهم عليه منة، ولا ينقطع، فهم مخلدون في النعيم.

بيان المعنى العام :

16←19-فلاأقسم بالشفق..لتركبن طبقا عن طبق.

رتب على التفصيل السابق من جزاء أصحاب اليمين ومن أوتي كتابه وراء ظهره مضمون هذه الآيات التي افتتحها بالقسم.وأن قوله **لا أقسم**، قسم مؤكد كما تبين لنا ذلك في مواقع متعددة من القرآن. **لا أقسم بيوم القيامة -فلا أقسم بالخنس** -أقسم القرآن بثلاثة ظواهر لفت إليها الأنظار لما فيها من عجيب الصنعة. أقسم بالشفق الحمرة التي تقارن كل يوم مغيب الشمس. فيه يبقى للضوء أثر يكشف الكائنات، وتأخذ الظلمة في تعتيمها شيئا فشيئا. ومشهد تداخل الألوان مشهد جميل بالغ غاية الجمال، ثم لا يدوم ويمحي. فهو قسم بمشهد من مشاهد الكون، وفيه تحولات متعاقبة، تخلف كل حالة الحالة السابقة.والقسم الثاني جاء بالليل وما وسق، ومعنى **وما وسق**: أي ما جمع. وهو يشير إلى أثر الليل، الظاهرة الكونيسة في جميع الكائنات، إذ تراها تتجمع بعد تفرقها نشيطة في الحياة. فتأوي إلى منازلها التي انطلقت منها في الصباح، وتتجمع طلبا للسكن والراحة والاستجمام لتجديد النشاط ويتم هذا على فترات متلاحقة ومتجانسة. والقسم الثالث بالقمر إذا اجتمع ضياؤه فاكتمل بدرا. وقد مر بمراحل قبل بلوغه ذلكم المستوى من التمام والضياء.

والمقسم عليه : **لتركبن طبقا عن طبق**.الطريقة التي صيغت بها الآية طريقة مبتكرة غير معهودة، وكان هذا مما حرك عقول المتأملين في كتاب الله ليكشفوا عن المقصود الأقرب منها. وكثرت تبعا لذلك تخريجاتهم وترجيحاتهم.والآية تتكون من ركيزتين. الركيزة الأولى "**لتركبن**" الركيزة الثانية " **طبقا عن طبق**"ولما كان الركوب أصله أن يستعمل في كون الإنسان على ظهر حيوان. وهذا المعنى لا يتلاءم مع النص القرآني. ولما تعلق بـ " **طبقا**" فيكون ضبط المقصود من " **طبقا عن طبق** " مقربا للمعنى. فلنعتن بكلمة " **طبقا**" أولا.

الطبق : يقول الراغب : (يستعمل الطباق في الشيء الذي يكون فوق الآخر تارة، وفيما يوافق غيره تارة كسائر الأشياء الموضوعة لمعنيين.ص516) فعلى ما يقوله الراغب يستعمل في علو شيء على آخر، وفي التوافق بين الشيئين.وأكد في القاموس وشرحه ما ذكره الراغب فقال : (الطبق محركة غطاء كل شيء لازم عليه...والطبق أيضا من كل شيء ما ساواه)[1] . فيكون معنى لتركبن لتتمكنن تمكن من يركب الشيء ويعلو عليه. وطبقا عن طبق وضعا وأحوالا، تتجاوزون كل حال إلى حال آخر مساو له.

ولنقترب أكثر من المقصود من الآية نعود إلى سباق هذه الآية وسياقها. فقد تقدم في السورة تحول السماء وما تبعه، وتحول الأرض وما تبعه،وكدح الإنسان كدحا

[1] تاج العروس ج26 ص62/49

متواصلا ليقف كدحه ويلقى حسابه طبق ما قدم.والتنصيص على أن الكافر خدع نفسه لما ظن أنه لن يعود إلى الحياة مع أن ربه أحصى عليه كل شيء ويجازيه طبق ما قدمت يداه..فهي كلها تحولات تنفي الثبات والدوام والأبدية.ثم أقسم بأحوال هي مظاهر للكون فيها تحولات الشفق والليل والقمر كما بيناه في تفسيرنا للقسم.ثم جاء المقسم عليه : **لتركبن طبقا عن طبق**، ليسير في المنهج العام لما سبق. فيكون التقدير : لينفذن القدر فيكم وتتحولون من وضع إلى وضع آخر يتناسب مع الوضع الأول الذي أمضيتم عليه حياتكم. يغطيه ويتطابق معه. فمن آمن واتقى فإنه يتحول من الحياة الدنيا إلى حياة الآخرة قريبا من ربه، كما كان يسعى في رضاه في الدنيا. يفوز برضوانه في الآخرة. وأما من طغى وآثر الحياة الدنيا وابتعد عن السلوك الذي يرضاه ربه، فإنه يوم القيامة يكون أبعد ما يكون عن منازل رضوانه ينطبق وضعه الدنيوي عليه في الآخرة. فجميع البشر يلقون أوضاعا تتطابق مع أوضاعهم في الدنيا من السعادة أو الشقاء الحقيقيين.

21/20-فمالهم لا يؤمنون..لا يسجدون.

سؤال يفيد الإنكار والتعجيب من تصلب الكافرين في كفرهم، رغم الأدلة التي عرضها عليهم القرآن،وأوضحها رسول الله ﷺ بأجلى بيان. ومن ذلك ما حذرهم به مما جاء في الآية السابقة بأنهم يصيرون يوم القيامة إلى حال مطابق لحال كفرهم في الدنيا. **"لا يؤمنون"** لا يوجد ما يحول بينهم وبين الإيمان بالبعث، ولا بينهم وبين الإيمان مطلقا.

وما لهم إذا تلي عليهم القرآن لا يسجدون. لا يخضعون لمنزله، ولا يخشعون لما يحرك القلوب فيوصلها بالله من بيناته.إن مواقفهم المتباعدة من استماع القرآن، وجمود أحاسيسهم أمام تأثيره هو أمر عجب، فعدم السجود الوارد مورد العجب، هو الاستكانة والخضوع لا السجود على الأرض. ولذا لم ير مالك هذه الآية موضع سجود، ولا في أي سورة من سور المفصل. وهو ما روي عن ابن عباس. وعند أبي حنيفة والشافعي سجدات القرآن أربع عشرة سجدة بزيادة سجدة سورة النجم،وسجدة سورة الانشقاق هذه، وسجدة سورة العلق. وعند الإمام أحمد خمس عشرة سجدة، السجدة الآخرة في سورة الحج.

23/22-بل الذين كفروا يكذبون.. يوعون.

إضراب مبطل لتصلبهم في الكفر والإعراض عن القرآن، وتصريح بالإنكار عليهم لتصميمهم على مواصلة الكفر والتكذيب بما نزل على محمد، عنادا وكبرياء.

ويحذرهم القرآن من عاقبة تصميمهم هــذا، بأنــه علــيم بمــا يجــري فــي بواطنهم،ومــا جمعوه في تفكيرهم، من العداء للحق، ومــن العمــل علــى توقيــف مــده، ومــن إغــراء أتباعهم بالكفر.

25/24- فبشرهم بعذاب أليم.. غير ممنون.

بشرهم على طريقة التهكم بهم، لأن المبشر بــه هــو العــذاب الألــيم، وأصــل البِشَــار ة أن تكون بما يسر به الإنسان. فهو يتضمن احتقارهم بالسخرية منهم.

لكن الذين جمعوا بين الإيمان وبين السلوك الصالح المطبــق لمــا جــاءهم مــن عنــد الله، استحقوا بسبب إيمانهم وصلاحهم أجرا لا يكــدره مَــنٌ.إذ المــن علــى الإنســان بالنعمــة يكدر سرورها، وينغص صــاحبها. قــال تعــالى : **(قــول معــروف ومغفــرة خيــر مــن صدقة يتبعها أذى والله غني حليم* يا أيهــا الــذين آمنــوا لا تبطلــوا صــدقاتكم بــالمن والأذى)** [1].

يوم الخميس 9 ذو القعدة 1435–4 سبتمبر 2014

[1] سورة البقرة آية **264/263**

سورة البروج

هذا هو الاسم الذي عرفت بـه فـي المصـاحف وفـي كتـب التفسـير والسـنة. وروى الإمام أحمد :أن النبي ﷺ كان يقرأ فـي العشـاء الآخـرة بالسـماء ذات البـروج. وهـي من السور المكية باتفاق. وهي السورة الخامسـة والثمـانون حسـب ترتيـب المصـحف. وعدت السابعة والعشرين حسب تاريخ النزول.نزلت بعـد سـورة الشـمس وقبـل سـورة التين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿٨﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

البروج : جمع برج. وهي منازل للشمس قدرها المراقبون للسماء.

اليوم الموعود : يوم القيامة.

الأخدود : حفائر طويلة كالخنادق.

بيان المعنى الإجمالي:

أقسم القرآن بثلاثة أقسام :

أ) **السماء** التي نظمـت علـى ظهـور بـروج فيهـا عرّفـت البشـر بحسـاب الأشـهر الشمسية، وآثرها على النبات والحيوان والتوقيت.

ب) **اليوم الموعود** يوم القيامة.

ج) **شاهد ومشهود**،وهو وصف يوصف به مـن يصـلح لـه مـن الملائكـة الشـاهدين، البشر المشهود عليهم، وكذلك الرسول ﷺ ، وجميع الأمـم. ونحـو ذلـك. والمقسـم عليـه مقدر لتبعثن مثلا، ولتُجْزَوُنَ بما قـدمتم. اللعـن منصـب علـى الـذين حفـروا الأخاديـد

وأشعلوا فيها النيران، وألقوا فيها المؤمنين أحياء.إنهـم يمثلـون القسـوة البالغـة تحجـرت عواطفهم، إذا كـانوا قعـودا علـى عـذاب المـؤمنين يشـاهدونهم دون أن تهتـز لهـم عاطفة، أو يتحرك فيهم حنان.ما الذي ملأ قلوبهم غيضـا، فاشـتدت نقمـتهم لهـذا الحـد؟ نقموا على المعذبين لأنهم آمنوا بالله العزيز الحميد المالـك للـدنيا ومـا فيهـا. والله شـهيد على ما صنعوا. فسيجزيهم عنه.

بيان المعنى العام :

1←3- والسماء ذات البروج....وشاهد مشهود.

افتتحت السورة بالقسم فأقسـم القـرآن بثلاثـة أشـياء "**السـماء ذات البـروج**"-"**اليـوم الموعود** "- "**شاهد ومشهود**"

القسم الأول: السماء ذات البروج. فقيد السماء بأنهـا صـاحبة البـروج. والبـروج جمـع برج : وأصله القصر.فالقسم يلفت أنظارنا إلى السـماء لنتأمـل فـي بروجهـا ومـا تـدل عليه من الحكمة والقدرة والتنظيم.تلكـم البـروج التـي تَوصـل الإنسـان لإدراكهـا بعـد تأمل في قبة السماء، وملاحظـة مجموعـات مـن النجـوم ثابتـة فـي أمـاكن متقاربـة، تكون الشمس في سمت تلك النجوم في كل شهر من أشـهر السـنة الشمسـية ، ثـم تنتقـل إلى مجموعة أخرى وهكذا، حتى تعـود إلـى المبـدأ الأول وهكـذا فـي دورة متواصـلة متجددة كل سنة اثنـي عشـر شـهرا. وعـرفتهم منـازل الشـمس هـذه علـى ضـبط الفصول، واعتمدوا ذلك فـي فلاحـتهم ، وضـبط أوقـاتهم. فـإذا هـو مثلـث: السـماء ببروجها، وأثر ذلك في النبـات والحيـوان، وربـط الإنسـان خلافتـه فـي الأرض مـن الناحية المادية على تلكم الأوضاع.

واليوم الموعود. هو يوم القيامة الذي يختل فيـه ذلـك النظـام العجيـب. فـلا الشـمس تتنقل في بروجهـا، وترتفـع الآثـار، ويتـداخل الزمـان.وتعقيـب القسـم بالسـماء ذات البروج بالقسم باليوم الموعود، تنبيه للإنسـان أن هـذا النظـام متواصـل مـا دام التقـدير الإلهي يثبته. قال تعالى : (**إن الله يمسـك السـماوات والأرض أن تـزولا، ولـئن زالتـا إن أمسكهما من أحد من بعد إنه كان حليما غفورا**)[1].

وشاهد ومشهود : هذا هو القسم الثالث،وهو منبئ عما يشـير إليـه اليـوم الموعـود مـن الحساب.وهذا القسم يختلف عـن القسـمين قبلـه.إذ أن القسـمين السـابقين كانـا بـذات السماء، وبذات اليوم الموعود.أما القسم الثالث فجـاء وصـفا صـالحا ليوصـف بـه كـل ذات تقبل ذلك الوصف.وتتبـع ابـن عطيـة اخـتلاف المفسـرين وأوصـلها إلـى سـتة

[1] سورة فاطر آية 41

وعشرين احتمالا. حملـه بعضـهم علـى أن الشـاهد الملائكـة.ويؤيـده قولـه تعـالى : **(وجاءت كل نفس معها سـائق وشـهيد)**[1] وحملـه بعضـهم علـى أن الشـاهد هـو الله تعالى، ويؤيد هذا المحمل قوله تعالى:**(والله علـى كـل شـيء شـهيد)**[2] وحملـه آخـرون على أن الشاهد الرسل و محمد صلى الله عليه وسـلم هـو المزكي،كمـا جـاء فـي قولـه تعالى : **(ويوم نبعث من كل أمة شهيدا عليهم مـن أنفسـهم و جئنـا بـك علـى هـؤلاء شهيدا)**[3] و أن الشاهد من يشهد يوم القيامة من الخلائق، والمشـهود مـا فـي ذلـك اليـوم من العجائب، وقيل: المشهود هو المشهود عليه، المتجـاوز للحـق الموقـوف بـين يـدي رب العزة للجزاء. وقيل شاهد يوم التروية و مشـهود يـوم عرفـة.وقيـل الشـاهد يـوم الأضحى والمشهود يوم عرفة.والـراجح عنـدي هـو الوجـه الأول، لأنـه يتناسـق مـع اليوم الموعود. بما يشير إليه من الحساب الذي هو الغاية من يوم القيامة.

4←7- قتل اصحاب الأخدود...على ما يفعلون بالمؤمنين شهود.

أعقبت الأقسام الثلاثـة، بقولـه تعـالى : **قتـل أصـحاب الأخـدود**. وحسـب الظـاهر لا يصلح هذا ليكون مقسما عليه. ولذا حمله بعضهم علـى أن المقسـم عليـه محـذوف يفهـم من قوله : **قتل أصحاب الأخدود**، مقـدرا أن جـزاء الأعمـال حـق لا شـك فيـه، أو أن البعث ثابت. أو أن المشركين ملعونون كما لعـن أصـحاب الأخـدود. وجعلـه الزجـاج: **إن بطش ربك لشديد**. وأصحاب الأخدود، حادثـة معروفـة وقـت نـزول الـوحي لـدى القرشيين. وحاصلها على بعض الروايـات: أن ذا نـواس الملـك اليمنـي اليهـودي علـم أن راهبا مسيحيا ظهرت له كرامات،وتأثر الناس بـه وتنصـروا، فقتلـه،وفتن كـل الـذين آمنوا لينخلعوا من الدين المسيحي.فثبتـوا علـى الإيمـان فحفـر لهـم أخاديـد وأشـعلها نارا وقذف فيها كل من ثبت علـى المسـيحية. والتعـذيب بـالتحريق وقـع فـي أمـاكن مختلفة، ومن طغاة متجبرين عبر التاريخ. ولنعد إلى الآية:

4-**قتل أصحاب الأخدود** : دعاء عليهم، والله ينفـذ ولا يـدعو. فـيفهم الـنص علـى أنـه دعاء باللعن وتعبير عن سخط الله عليهم. وأصـحاب الأخـدود علـى هـذا هـم القـائمون على تعذيب المؤمنين.

5-**النار ذات الوقود** : الأخدود، النار التـي تجمـع فيهـا مـن الحطـب، ومـن أجسـام الناس المحروقين فيها، ما ألهب نارها وضاعف ضرامها.

---

[1] سورة ق آية 21

[2] سورة الحج آية17

[3] سورة النحل آية 89

6-**إذ هم عليها قعود:** هم الموكلون بالتعذيب، قعود يراقبون تأجج النار، ويقمعون كل من يحاول الخروج منها. فليس معنى قعود: الجلوس على الأرض ولكن المعنى أنهم يراقبون التنفيذ مراقبة حازمة، لا يتحولون عن متابعة أخاديد النار المشتعلة. ليضمنوا تواصل اشتعالها بقوة، وفعلها بمن فيها.

ويحتمل أن يكون معنى أصحاب الأخدود : المؤمنين المعذبين في الأخدود.فتفيد الآية أنهم ربطوا قبل قذفهم في النار، على هيئة قعود،حتى يمنعوا من الحركة وهم يحترقون بالنار، فيكون المقصود عرض قساوة التنكيل.

7-**وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود.** هؤلاء الموكلون بالتعذيب جمدت أحاسيسهم، يشهدون ببرودة دم،أو بسادية تلتذ بالعذاب، يشهدون وينظرون إلى المؤمنين يحرقون فيتحولون من بشر أحياء إلى هياكل متفحمة، ثم إلى رماد. ثم يرفعون تقاريرهم إلى مَنْ أمَرَهُم معلنة عن كمال التنفيذ. وفي الآية إيماء إلى أنهم يشهدون على أنفسهم يوم القيامة بما باشروه من قسوة في الظلم.

9/8- وما نقموا منهم...شهيد.

تشنع الآية بأصحاب الأخدود.الذين امتلأوا من الغيض والبغض، وتضاعفت نقمتهم على المؤمنين حتى تعطل كل إحساس إنساني فيهم، ولم يبق في قلوبهم أي نبض من الرحمة واللين. فما الذي فعله المؤمنون حتى يكونوا عرضة لمثل هذا المستوى في المعاملة من معذبيهم، ما الذي أوجب مثل هذه النقمة عليهم ؟ إن الأمر لعجب ! ويأتي الجواب مقررا للعجب وكاشفا عن فساد باطن أصحاب الأخدود.إن نقمتهم كانت بسبب أن المعذبين آمنوا بالله العزيز الحميد الذي له ملك السماوات والأرض. لأنهم اقتنعوا بأن العزة لله يحرمها كل من لم يعترف بعزته فاعترفوا بعزته، ووثقوا أنها هي الحبل المتين المنقذ من المهانة. ولأنهم اقتنعوا بأن كل خير هو من الله فهو الحقيق بأن يحمد ويثنى عليه فحمدوا الله قولا وعملا. ولأنهم تيقنوا أن الله هو المالك لكل شيء في السماء وفي الأرض فهو الحقيق بأن يعبد ويتقرب إليه. وأن يراعي الإنسان في علاقاته بالكون وبالناس ما يرضيه لأنه تصرف في ملكه، فراقبوا ما جاءهم من تشريع على لسان الرسل، وكل أملهم أن يفوزوا برضوانه.

والله على كل شيء شهيد، فما فعله أصحاب الأخدود، وما استقر في عقيدة المؤمنين و طريقتهم في الحياة، كل ذلك لا يضيع منه شيء عن الرقابة الإلاهية ويتحقق تبعا لذلك ما يترتب عنه من جزاء.

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿10﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿11﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿12﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿13﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿14﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿15﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿16﴾

بيان معاني الألفاظ :

الفتنة : المعاملة بالشدة المؤذية.

البطش : الأخذ بالعنف والشدة.

الودود : الود المحبة وهو مستعمل في لازم المحبة راحمهم.

بيان المعنى الإجمالي :

إن الذين عرفوا بصفتهم الغالبة عليهم: أنهم فتنوا المؤمنين والمؤمنات،وواصلوا إثمهم ولم يتوبوا،هؤلاء القساة الغلاظ، جزاؤهم جهنم بما يلقاه داخلوها من المهانة والعذاب، يعذبون بنار تحرقهم هي أشد إيلاما من غيرها،جزاء ما صنعوه بالمؤمنين والمؤمنات. وأما الذين آمنوا بالله فصفت عقيدتهم من الشرك والباطل، وقرنوا الإيمان بالعمل الصالح يجزيهم ربهم بدخولهم جنات تتخللها الأنهار وينتشر فيها الخصب والنعيم. ودخول الجنة هو النجاح الكبير الذي يسمو على كل ما يؤمله الإنسان. إن الله قوي يبطش بالكفرة بطشا في الدنيا يذلهم به، ويبطش بهم يوم القيامة بطشا هو كفاء كفرهم وفسادهم.هو الذي يبدئ الخلق ثم يعيدهم يوم القيامة. وهو وحده الذي يستر ذنوب عباده الصالحين ويمحوها. وهو سبحانه الذي يرجو من كرمه المؤمنون أن يعاملهم بما يعامل المحب حبيبه. وهو سبحانه الملك صاحب العرش الذي يدخل تحته كل الكائنات.المتصف بالمجد الذاتي بما يتضمنه من الجلال والمهابة. المتصرف في الكون تصرفا لا ترد له إرادة، فكل ما يريده ينفذ بدون ممانعة ولا تردد.

بيان المعنى العام :

10-إن الذين فتنوا المؤمنين... الحريق.

تصرح الآية بعد ما سجلت فظائع أصحاب الأخدود، بأن جزاءهم عذاب جهنم. وشوه القرآن بهم إذ ذكرهم بالوصف المبرز لفسادهم وظلمهم،" **الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات** " وأنهم فعلوا ذلك راضين به لا يتحرك ضميرهم لحسابهم

على ما فعلوا،مضوا في التسلط على المؤمنين، دون أن يتوبـوا مـن ظلمهـم، فقـد كـان ظلمهم تعذيب المؤمنين في الأخاديد التي أضرموها نـارا.و مـن العـدل الإلهـي أن هيـأ لهم جزاءهم في جهنم، وجهنم هي دار الذل والهـوان، وجهـنم أيضـا دار عـذاب يحـرق بلظاها الذين يدخلونها. وقد يكـون الإيـلام بحـر النـار لأصـحاب الأخـدود أشـد مـن عذاب غيرهم. وسار على نهج أصحاب الأخدود مشركو مكـة. ففـي الآيـة إيمـاء إلـى تهديد المشركين الذين يعذبون ضعفة المؤمنين ليفتنـوهم عـن ديـنهم. وقـد اشـتهر مـن هؤلاء القساة الغلاظ، أبو جهل، وأمية بن خلف، والأسـود بـن عبـد يغوث،والوليـد بـن المغيرة، وأم أنمار. سلطوا أنواع التعذيب على من كان لهـم علـيهم سـلطة مـن ضـعفة المؤمنين.كما فعل أمية بن خلف بسيدنا بـلال، وصـفوان بـن أميـة بعبـده أبـو فكيهـة، وما صنعته أم أنمـار بخبـاب بـن الأرت، وأبـو حذيفـة بـن المغيـرة بعبيـده مـن آل ياسر:عمار بن ياسر، وأبيه ياسر، وأخيه عبـد الله .ولغلـظ عـواطفهم، وبـالغ قسـوتهم، لم يرأفوا بالنساء ففُتِنَتْ حمامة أم بلال أمةُ أمية بن خلـف. وأم عنـيس التـي كانـت أمـة للأسود بن عبد يغوث، والنهدية وابنتها كانتا للوليـد بـن المغيـرة.وسـمية أم عمـار بـن ياسر التي كانت أمة لعم أبي جهـل الـذي تـولى تعـذيبها،وهو الـذي كـان مـن أشـد المشركين حقدا وبغضا للإسلام.

11-إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات...ذلك الفوز الكبير.

طريقة القرآن أنه ينذر الكـافرين ويهـددهم، ثـم يتبـع ذلـك بالبشـارة وجميـل الوعـد للمـؤمنين.وإذ أوعـد المعـذبين الفـاتنين للمـؤمنين والمؤمنات،بعـذاب جهـنم بمتنـوع إذاياته وبالحرق المؤلم، تابع ذلك بتبشـير المـؤمنين الـذين سـلمت عقيـدتهم واسـتقرت على نهج الحق، وقرنوا إيمانهم بالتزامهم بالعمل الصـالح الـذي يرضـي ربهـم، أنهـم يستحقون يوم القيامة جنـات، ظـاهرة الخصـب متـوفرة، والرونـق واضح،بفضـل مـا يتدفق خلالها من الأنهار الجارية.ولا تسـل عـن نعـيمهم، فـإنهم قـد نـالوا أعظـم مـا يتصور من النجاح الذي لا مطمـع وراءه، ولا يطمـح أصـحابه إلـى التحصـيل علـى أي شيء وراء ما هم فيه، لأن كل ما يبتغون بين أيديهم.

إن بطش ربك لشديد.

تُثبِتُ الآية رسول الله صلى الله عليه وسلم،مخاطبة لـه بلطـف يتناسـب مـع مـا عـوده الله به من التكريم.مما يشير إليه التعبير بكلمة "**ربك**" التـي تـذكره بأرسـال عنايتـه بـه مما يومئ إلى أنه سينتقم ممن قاومه.

وشدة عذابه سبحانه لمن واصل الشرك، والتعدي على المؤمنين تتضح بجمعه لهم بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة.فقد بطش بهم يوم بدر.قال تعالى : (**يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون**)[1] وسيلقون يوم القيامة ما فصل بعضه في الآيات السابقة

إنه هو يبدئ ويعيد.

لم تذكر الآية لفعلي يبدئ – **ويعيد** – مفعولا تكثيرا للمعنى، إذ أن الكلام يكون واضحا سواء أقدرت : إنه يبدئ الخلق ثم يعيدهم يوم القيامة، المتصرف فيهم فيجزي الشاكرين ويبطش بالكافرين بنعمه التي منها نعمة الإيجاد.أو يبدئ البطش ويعيده.يبطش بهم في الدنيا ويبطش بهم في الأخرة جزاء تمردهم. أو أنه يبدئ الأجيال ويهلكها ثم يعيد مكانها أخلافها.

14←16: وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعال لما يريد.

تحقق الآية مضمون : **إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم جنات** – فذكرت الآية صفتين من صفات الفعل الإلهي، **فـ"هو غفور** يستر على عباده الصالحين ذنوبهم، ويبدل سيئاتهم حسنات. وهو **الودود** مشتق من الود، أي إنه يفعل بعباده الصالحين من اللطف والإحسان ما يفعله المحب بمن أحبه فيرحمهم ويثبت الطمأنينة في قلوبهم. **صاحب العرش**، العلي العظيم، المتعالي الذي لا يدرك كنهه البشر.ويرتسم في تصور السامع أنه من معاني الملك والجلال، حسبما يشير إليه اللفظ في اللغة والاستعمال عندما ينسب العرش إلى الملوك.

المجيد : سمو معنوي يجمع بين الجليل والوهاب. فهو المجيد بحق، وما ينسب لغيره من المجد بمعنى رفعة النسب فهو سمو لا دخل للماجد فيه.

فعال لما يريد.من الصفات الواجبة له سبحانه، أنه يتصرف في الكون تصرفا لا معقب له فيما يريد. فكلما تعلقت الإرادة بإنجاز صغير أو كبير تحقق مايريده بدون ممانعة ولا تردد.

هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٖ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطُۢ ﴿٢٠﴾ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾

بيان معاني الألفاظ :

الجنود : جمع جند، العسكر المتجمع للقتال.

---

[1] سورة الدخان آية 16

المجيد : العظيم في نوعه.

محفوظ : مصون عن كل ما ينقصه وعما لا يليق به.

بيان المعنى الإجمالي:

هل بلغك حديث الجنود المتقوين بعددهم وقوتهم، وما وقع لهم ؟ الجنود هم الجنود تحت إمرة فرعون الطاغية، وثمود العتاة البغاة الذين تجرأوا على الناقة فقتلوها، بعد أن أنذروا.فإن مشركي مكة معرضون أن يلحقهم ما لحق فرعون وثمود من دمار وهلاك. إن الذين انغمسوا في الكفر، تمسكوا بالتكذيب لما كانت دلائله الناطقة بصدقه كثيرة. والله محيط بهم لا مفر لهم من عقابه ولا يفلتون منه.

إن القرآن كتاب بلغ غاية المجد تميز بين الكتب السماوية بإعجازه، وأنه هو الباقي الذي لا يناله التحريف ولا التبديل.جمع للبشرية خيري الدنيا والآخرة. مثبت عند الله في اللوح المحفوظ الذي لا يصل إليه أي أحد بدون إذن خاص من رب العزة.

بيان المعنى العام :

18/17- هل أتاك حديث الجنود...وثمود.

هذا من الأسلوب القرآني الهادف إلى إثارة انتباه كل من يمكن أن يتوجه له الخطاب، هل بلغته الأخبار الموثقة عن الجنود، الذين تجمعوا، واستعدوا فظنوا أنهم قوة غالبة. فكانت عاقبتهم ما سجل في التاريخ عبرة، وما كانت آثاره في الدنيا موعظة وتذكرة. ويقول ابن عطية :هذا توقيف للنبي صلى الله عليه وسلم وتقرير، بمعنى :فاجعل هؤلاء الكفرة وراء ظهرك ولا تهتم، فقد انتقم الله تعالى من أولئك الأقوياء الأشداء فكيف بهؤلاء.

فرعون وثمود – هو بدل مساو للجنود.وفي التعبير القرآني تجسيم لقوله **فعال لما يريد**. ففرعون وثمود تقووا بجنودهم، الذين أطاعوهم وكذبوا الرسل. و خبر إهلاكهم وإبادتهم معلوم يغني عن التصريح به، واختصاص فرعون وثمود بالذكر باعتبار أنهما رأس الكفر، وأنهما كانا سبب تدمير قومهما، فرعون كما سجلت دوره الآية الكريمة : (**فاستخف قومه فأطاعوه**)[1] وثمود (**فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر** سورة)[2] فكان كل واحد منهما سبب الانتقام من قومه. وفي هذا تهديد لقريش التي يتقدم فيها رؤوس الكفر حاجزين للناس عن الإيمان. فيكون ما وقع من التذكير

---

[1] الزخرف 54

[2] القمر آية 29

بفرعون وثمود تهديدا وتحذيرا حتى لا تكون عاقبتهم كعاقبة فرعون وثمود اللذين هلكا وهلك أتباعهما.

20/19- بل الذين كفروا في تكذيب محيط..

انتقل القرآن من التذكير بمآل فرعون وثمود فأضرب عنه بكلمة " **بل** " وأثبت أن المشركين من قريش، منغمسون في التكذيب انغماسا لم يبق لهم رأيا ولا فكرا. فكلما ورد عليهم من هداية الرسول شيئا أسرعوا إلى التكذيب.ظانين أن الرفض يحميهم.وما علموا أن الله يمسك بأحوالهم الحاضرة والمستقبلة، لا ينفلتون من عقابه، شأنهم شأن الغافل الذي أحاط به العدو من ورائه، فإذا رام الفرار وجد نفسه محاصرا لا مخلص له مما هو فيه.

22/21- بل هو قرآن مجيد* في لوح محفوظ.

بل تفيد أن تكذيبهم بما نزل على محمد باطل لا أساس له كقولهم : **إن هو إلا إفك افتراه**، وقولهم **أساطير الأولين** ونحو ذلك من أباطيلهم.وأثبت أنه كتاب مقروء بلغَة الملك الموكل بالوحي بلفظه إلى رسول الله ﷺ الذي تلقاه منه وبلغَهُ كما سمعه وقرأه عليه. وأنه كتاب شريف عالي الطبقة بين الكتب المنزلة، فهو الكتاب المعجز المرجع الهادي إلى الحق إلى أبد الآبدين لا يلحقه نسخ.

وقوله تعالى : **في لوح محفوظ** :يفيد أن نصه ثابت عند الله في لوح محفوظ من التغيير والتبديل، محفوظ عن تناول أي كائن له إذا لم يأذن له الله بذلك.وهو ما يفيد كمال عزته.ولا يفهم اللوح على أنه قطعة خشبية يكتب عليها، ولكن اللوح مفهوم قدسي لا مادة فيه لا يعلم حقيقته إلا الله.

يوم الأحد12ذو القعدة 1435- 2014/9/7

سورة الطارق

عرفت بهذا الاسم في المصاحف وكتب التفسير والسنة لوقوع هذا اللفظ" الطارق" في أولها. وأضاف بعض المفسرين: والسماء. فسماها "سورة والسماء والطارق" وهي سورة مكية.رتبتها السادسة والثمانون حسب ترتيب المصحف.وعدت السادسة والثلاثين حسب ترتيب النزول نزلت بعد سورة البلد وقبل سورة القمر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا
عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ
ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن
قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

النظر : نظر العقل، التأمل والتفكير.

الدفق: الخروج بقوة.

الصلب : فقرات العمود العظمي.

الترائب : عظام الصدر التي بين الترقوتين والثديين.

رجعه : إعادة تكوينه.

تبلى السرائر : اختبارها ليظهر الصالح من الفاسد.

السرائر : ما يسره الإنسان ويخفيه.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم الله بقسمين: **بالسماء وبالطارق**.والسماء اسم مدلوله معروف،وما فيها من الإتقان والتنظيم والسعة يشهد بعظمة خالقها. والطارق، أتبعه القرآن ببيان المراد منه فقال هو **النجم الثاقب**، الذي يتميز بكون نوره يثقب الظلام الذي يلف الكون. وحمله بعضهم على أنه كوكب زحل، أو الثريا. والمقسم عليه : إن كل نفس من البشر وكل الله بها حافظا يسجل ما يعتقده صاحبها وما يعمله.ليبعثه ثم يحاسبه

ويجزيه.على الإنسان أن ينظر بعقله في مراحل خلقه، من الماء الدافق إلى أن بلغ المستوى الذي هو عليه من القوة البدنية والقوة العقلية وتنوع مشاعره. إن الذي قدر على تحويل الخلية الأولى إلى إنسان كامل قادر طبعا أن يعيد خلقه بعد إفنائه في اليوم الذي تختبر فيه السرائر، فينكشف ما كانت تنطوي عليه من فاسد العقيدة ومن الأفعال الرذيلة الفاجرة. سيكون في ذلك اليوم ضعيفا لا يجد قوة يحمي بها نفسه من عقاب الله، ولا يجد من يتولى نصرته. فينطبق عليه الجزاء.

بيان المعنى العام :

1←3: والسماء والطارق...لما عليها حافظ.

قَسَمَان متتابعان افتتحت بهما السورة: "**السماء**" "**الطارق**" أما **السماء** فقد تكرر القسم بها مطلقة وفي حالات كثيرة من أحوالها.مما يدعو الإنسان لمواصلة التأمل في قدرة الخلاق العظيم، وحكمته، وتنظيمه لما خلق، وما أودع فيه من جمال وترابط. وأما **الطارق** فأصله للقادم ليلا يطرق بما ينبه به رب البيت إلى أن نزيلا نزل به.

ثم فخم أمر هذا الطارق بواسطة سؤال تقدم لنا نظائره " **ما أدراك**" أي شيء عرفك بالطارق إيماء إلى ما يحيط به من الفخامة والعجب بحيث أنك لا تعلم حقيقته.ثم أعقب السؤال بما يبينه بقوله : **النجم الثاقب**. فهو نجم من نجوم السماء يتميز بوصف أنه ثاقب. له من القوة ما يخترق به ما يمانعه.ولما كانت النجوم لا تظهر إلا ليلا ولما كانت قوة النجم في سطوع ضوئه واختراقه للظلام الدامس الذي يلف الكون، فالراجح أنه النجم الذي يكون أكثر لمعانا وإضاءة، فهو يخترق الظلام وينعكس ضوؤه على الأبصار متميزا. حمله كثير من العلماء على أنه كوكب زحل، وحمله آخرون على أنه كوكب الثريا نظرا إلى كثرة إطلاق النجم على الثريا حتى أصبح المعنى السابق علما بالغلبة عليها، وحمله بعضهم على النجم الشاهد الذي هو أول ما يبدو من النجوم إثر غروب الشمس. وقيل إن الطارق نوع من الشهب التي يشاهد سرعة انقضاضها.

4-إن كل نفس لما عليها حافظ.

هذا هو المقسم عليه، وتقديم الكلام بالقسم يفيد الاهتمام بالمقسم عليه، وأنه محل العناية. وأحيطت جملة القسم بما يفيد عموم إرادة العموم لمدخولها، دون أن يستثنى منها شيء، بلفظ " **كل**" فشملت كل حي من البشر في الدنيا. وشملت الإنسان قبل التكليف ليكون الحافظ قائما على تنفيذ ما قدره الله للكائن من يوم وجوده في رحم

أمه، إلى خروجه وما يجري عليه إلى أن يبلغ سن التكليــف أو يمــوت قبــل ذلــك. فــإذا بلغ سن التكليف كان الحافظ هو المسجل لكل عمل يقوم بــه المكلــف، ولمــا يجــري فــي نفسه من صالح القصد أو خبيثه. وليس حفظه لما يصــدر عــن المكلــف لمجــرد الحفــظ، ولكن ليحصي عليه ما فعل ويحاسب بعد ذلك، فآل الأمــر إلــى أن القسـم يثبـت توثيــق الأعمال، والبعث والحساب عليها يوم القيامــة. وقــرئ "لَمَــا" "ولمَّــا".فعلــى قــراءة لمَــا المخففة تكون "إن" مؤكدة، و"ما" زائــدة، والــلام للتأكيــد علــى معنــى : **إن كــل نفـس لعليها حافظ**. وأما على قراءة تشديد الميم تكون إن نافيــة، ولمّــا بمعنــى إلا.علــى معنــى إن كل نفس إلا عليها حافظ. والمآل واحد في كليهمــا : تثبــت الآيــة بالقســم المكــرر أن كل عمل يقوم به الإنسان في حياته موثق، ثم يحاسب عليه. وهو إنذار للمشركين.

5←7 – فلينظر الإنسان مم خلق..من بين الصلب والترائب.

يواصل القرآن لفت الأنظار إلى مــا هــو مشــاهد مــن الأدلــة التــي تقــرب الاعتقــاد بالبعث وتقربه.تأمر الإنسان ليحرك عقله، ويبنــي علــى المقــدمات نتائجهــا حســب مــا يقتضيه قانون العقل الذي كان به الإنسان إنسانا.ليتأمل مــن الأصــل الــذي خلــق منــه، وما جرى عليه من تحولات صاحبتها الألطاف إلى أن بلــغ مــا هــو عليــه عنــدما اشــتد عوده.ولما كان أصل الخلق خفيا قدمــه بإشــارة الســؤال، مــم خلــق، ثــم أجــاب عنــه بالكشف عن الحقيقة الخفية على كثير من الناس. صــرحت الآيــة أن الخلــق تــم ابتــداء من **ماء دافق** يدفقه الذكر بقوة وسرعة ليساعد ما يحويــه مــن حيوانــات منويــة لتصــل إلى ببيضة الأنثى التي أفرزتها في الأيام التالية للحــيض. ثــم أضــاف أنــه يخــرج مــن بين **الصلب والترائب**. والصلب هو الظهر، والترائــب عظــام الصــدر ، موضــع القــلادة من الصدر. والذين وصلت يدي إلى كتبهم من المفســرين يجعلــون الضــمير فــي قولــه يخرج راجعا إلى الماء الدافق. والمــاء الــدافق يخــرج مــن الــذكر، والمعمــل الأخيــر الذي يتم فيه الخصيتان.وليس من شأن القرآن أن يخاطب النــاس بمــا هــو مخــالف لمــا يشاهدونه. ولذلك لم أرتض أن يعود الضمير إلــى المــاء الــدافق، ورجحــت أن معــاده: الإنسان. ويتكون الإنسان مما تتظــافر عليــه الأجهــزة مــن بــين الصــلب،الظهر الــذي يحوي العمود الفقري الــذي تجــري فيــه الأوامــر المنظمــة مــن الــدماغ إلــى جميــع الأجهزة، ومن الجهاز التنفسي والجهــاز الــدموي والجهــاز الهضــمي الــذي هــو بــين الصلب والترائب.فيتحول الغذاء الــذي يتناولــه الإنســان بفضــل التــدبير الواصــل عــن طريق النخاع الشوكي، وبفضل ما تقوم به الأجهــزة التنفســية والهضــمية والدمويــة فــي تنظيم عجيب، ودقة بالغة فتفرز من المبــيض البييضــة التــي يلقحهــا الحيــوان المنــوي،

وتفرز الخصيتان المني الدافق المخصب. فيتكون الإنسان على الطريقة التي قدرها فأحسن تقديرها رب العالمين بعد أن خلق الإنسان الأول من طين.

إن القوانين التي يتم بها خلق الإنسان في رحم أمه تبلغ من التعقيد، ومن الدقة، ومن الإحكام ما يثبت أنه من المستحيل أن يتم ذلك بطريق المصادفة أو الطبيعة. ولكنه الخلق الإلهي. **الله الذي أحسن كل شيء خلقه بعد أن قدره تقديرا.**

8←10-إنه على رجعه لقادر...فما له من قوة ولا ناصر.

بكل تأكيد إن الذي أجرى قوانين الخلق بحكمة وحسن تقدير، وتم الخلق فعلا، إنه سبحانه قادر على إرجاع ذلك المخلوق للحياة بعد موته.وسيتم إرجاعه في الموعد الذي تختبر فيه السرائر، وما كانت تنطوي عليه الضمائر وتختزنه ولا تصرح به. إنه الموعد الذي ينكشف فيه ما كان يخفيه الإنسان ولا يصرح به، ويتبين الصالح من الفاسق، والتقي من الفاجر. ويحاسب كل فرد عن عقيدته أولا، ثم عن أعماله. فيؤاخذ بما تضمنته عقيدته من نكران للوحدانية وما ارتبطت به من المغيبات التي بسطها الرسل كالبعث والحساب والجنة والنار...كما يتقرر عقابه عما فعله من منكرات وظلم للناس، ورذائل. وسيكون في ذلك اليوم عاجزا ذليلا، لا يجد قوة يدافع بها عن نفسه لوضوح الفساد والجزاء الذي على وزانه يعاقب. كما لا يجد ناصرا ينصره. وهو تيئيس مؤكد.ذلك أن شأن الإنسان في الحياة الدنيا أنه يصون نفسه من المكاره بأحد أمرين، إما بقوة ذاتية، وإما بناصر خارج عن ذاته. وليس له يوم القيامة شيء منهما ولا أي دافع يدفع عنه العقاب.

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ﴿١١﴾ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ﴿١٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

الكيد :العمل على إضرار الغير بكيفية لا يتفطن إليها.

مهل : أنظر ولا تستعجل.

رويدا : عدم العجلة.

بيان المعنى الإجمالي:

أقسم القرآن بقسمين :أقسم **بالسماء** التي تجري فيها السحب فتمطر الأرض مرة بعد مرة، وأقسم **بالأرض** التي تطاوع البذور فتتشقق لتساعدها على الخروج فوق

أديمها. والمقسم عليه أن القرآن قول يفصل بين الحق والباطل، يحيي القلوب كما تحيي السماء الأرض. كل ما حاول المشركون إلصاقه به هو باطل مردود عليهم، إنه جد لا هزل فيه. يكيد الكفرة ويدبرون في الخفاء ما يقاومون به القرآن، ولكن كيدهم مهزوم لا يصلون به إلى ما دبروا. والله يرقبهم فيبطل ما دبروا ثم يخزيهم يوم القيامة. فلا تستعجل لهم وانتظر نصر الله الذي هو آت لا محالة، هذا النصر الذي لا يبطئ.

بيان المعنى العام :

12/11- والسماء ذات الرجع والأرض ذات الصدع.

أقسم القرآن بقسمين: **بالسماء ذات الرجع**، وحمله معظم المفسرين على السحاب الذي يروي الأرض، ويعود عليها كَرّةً بعد كرة فينشر فيها الرواء والخصب. **والأرض ذات الصدع**، أي الأرض التي تطاوع البذور لتشق الطبقة التي تعلوها وتخرج فوق أديمها. هو تفاعل بين السماء والأرض، وتحول الأرض الجرداء الميتة إلى صورة من الحياة والخصب والحركة. وفي ذلك إيماء إلى إمكانية البعث.

14/13- إنه لقول فصل وما هو بالهزل.

إن القرآن الذي طعنوا فيه بما لفقوه من تهم سخيفة، هو قول فصل يفصل بين الحق والباطل، وبين المناهج المنحرفة التي لا تؤدي إلا إلى الضياع، وبين المنهج الذي يساعد الإنسان على بلوغ برد اليقين والمعرفة الواضحة، والجمع بين الدنيا والآخرة.وبين ما يلهي البشر بالخيالات والصور المخترعة، إلى ما يدعو الإنسان للتأمل والحذر من مهاوي هلاكه في الدنيا والآخرة. حاول بعض مشركي مكة أن يحول الدهماء عن سماع القرآن إلى الإقبال على ما يقصه عليهم من قصص الفرس.فهذه الآية ترد عليه وعلى أمثاله كاشفة عن الفرق بين ما يلهي الناس وبين القرآن الذي يأخذ بأيديهم إلى حياة الجد.

إنهم يكيدون كيدا وأكيد كيدا.

إن المشركين المظهرين للطعن في القرآن، إنما يفعلون ذلك ليوقعوا أتباعهم في الخطأ ويحملوهم على رفض هدايته، مع أنهم مقتنعون بصدق القرآن.قال تعالى : **(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا)**[1] فهذا كيدهم الذي يدبرونه ويقومون به حفاظا على امتيازاتهم الاجتماعية، وإبقاء الأتباع خاضعين لسلطتهم.

---

[1] سورة النمل آية 14

وأكيد كيدا : إن كيد الجبار للمشركين يفيد أنه سبحانه لا يخفى عليه شيء من مكرهم، وأنه يملي لهم ليزدادوا إثما. فهم يظنون أن ما تجمع لديهم من أموال وبنين مسارعة لهم في الخيرات، والتقدير الإلهي خلاف ذلك وهم لا يعلمون، إذ جعل ذلك الذي يفرحون به مضاعفة لعذابهم في الآخرة.

17- فمهل الكافرين...رويدا-

للكفر صولات، يواصل الكفرة معاكسة الرسول، وتدبير ما يقصي البشر عنه باختلاق الأكاذيب، وترويج الأباطيل. أرشده ربه إلى الصبر وعدم استعجال الانتقام منهم.أمهِلْهُم وانتظر النصر القريب من عند الله، النصر الذي يعلي كلمة الدين. ورويدا معناه إمهالا لا يطول أمده، فالقرآن يبشر الرسول ﷺ أنه سينتقم من الكافرين بعد أمد لا يطول، فلينتظر الفرج من ربه الذي يرعاه ويؤيده.

يوم الثلاثاء14 ذو القعدة 2014/9/14359

سورة الأعلى

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف، وفي كتب التفسير،والسنة. وقد اختلف في عدها من المكي أو من المدني.فذهب بعض العلماء إلى أنها مكية كلها.وروي أنها مكية إلا قوله تعالى :(**قد أفلح من تزكى وذكر اسم ربه فصلى**) نزل في صلاة العيد وصدقة الفطر وعن الضحاك أن السورة كلها مدنية.ويبعده قوله تعالى فيها : (**سنقرئك فلا تنسى**)

رتبتها حسب ترتيب المصحف السابعة والثمانون. وعدت الثامنة حسب ترتيب النزول.نزلت بعد سورة التكوير وقبل سورة الليل.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِيٓ
أَخۡرَجَ ٱلۡمَرۡعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحۡوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ
إِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلۡجَهۡرَ وَمَا يَخۡفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرۡ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكۡرَىٰ ﴿٩﴾
سَيَذَّكَّرُ مَن يَخۡشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلۡأَشۡقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِي يَصۡلَى ٱلنَّارَ ٱلۡكُبۡرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا
يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحۡيَىٰ ﴿١٣﴾

بيان معاني الألفاظ:

سوى: أحكم صنع كل مخلوق بما يمكنه من القيام بما يختص به.

غثاء : يبسا يسرع إليه التفتت.

أحوى : سُمْرة تقرب من السواد.

التيسير : تسهيل بإزالة الصعوبة.

اليسرى : الأبلغ يسرا.

ذكر: تبليغ الذكر : القرآن.

الخشية : الخوف.

التجنب : التباعد.

الأشقى : الكافر المصمم على كفره إلى الموت.

تزكى: عمل على تطهير نفسه.

ذكر : إما من الذكر اللساني، وإما من الـذُكر بضـم الـذال لحضـور معـاني الألوهيـة في النفس.

بيان المعنى الإجمالي :

أمر لرسول الله ﷺ ولكل إنسان أن ينزه اسم الله عما لا يليق به وذلك بتقديسه معتقدا كماله بعيدا عن الشرك والتشبيه والتعطيل. والله هو الأعلى في سموه المعنوي فكل ما تثبته لله يجب أن يكون على ما يليق بجلاله وتفرده. هو الخالق للإنسان ولكل ما يحويه الكون. تلحظ في كل ما خلقه أنه مَكّنَ الكائن مما ييسر له أداء دوره في الحياة، كما تلحظ الحكمة والإتقان. هدى كل كائن إلى القيام بوظيفته وما يحقق مصلحته، وإلى المضي في مراحل تطوره إلى الغاية التي قدرها له. وهدى الإنسان بالوحي، وبما أودع فيه من قوى العقل التي تصل به إلى الحقيقة. وبفضله سبحانه أخرج من الأرض النبات الذي ترعاه السوائم، فتنتج للإنسان اللحوم والألبان والصوف والوبر والشعر.ثم لا يلبث النبات أن تذهب خضرته ونضارته وييبس شيئا فشيئا، فيتحول إلى سمرة تضرب إلى السواد ثم يأخذ في التفتت ليعود إلى باطن الأرض،أو يجرفه السيل. سنُوالي إنزال الوحي عليك أحب شيء إلى نفسك، ونثبته فلا يضيع شيء منه من ذاكرتك إلا ما شاء الله. إن ربك يعلم ظواهر الأمور، وما يخفى منها . ونيسرك للتي هي أيسر وأرفق، فلا يرهق من يتبع دين الإسلام. فقم بما أنت مكلف به من تذكير الناس، وإن كان بعض المذكرين لا يستجيبون ويرفضون معاندين. إن الذي ينتفع بتذكيرك هو الذي رُزِقَ قلبا يخشى الله ويخاف من سخطه، وعذابه.وسيبتعد عن تذكيرك ولا يلتفت إليه المنحرف المغرق في الشقاء،الذي لا يفلت من جزائه المناسب لكفره، فسيحرق بالنار إحراقا لا يميته فيستريح من العذاب، ولا هو يتركه حيا يتمتع بالسلامة، يتواصل عذابه إلى أبد الآبدين.

بيان المعنى العام :

1←5- سبح اسم ربك الأعلى.....غثاء أحوى.

تفتح السورة بأمر موجه أولا إلى النبـي ﷺ ، ثـم إلـى كـل مـن يمكـن أن يتوجـه لـه الخطاب. والمأمور به هو تسبيح الله. والتسـبيح هـو التقـديس والتنزيـه.فالتقـديس فـي العقيدة اعتقاد الكمال المطلق لله فـي ذاتـه وفـي صـفاته. والتقـديس باللسـان استشـعار عظمة الله استشعارا يوجب على الذاكر كل تمجيـد ويوقظـه إلـى أن لا يـذكر اسـمه إلا مصحوبا بالتعظيم الذي هو واجب له. فهو من الناحيـة السـلبية تنزيهـه عـن أن تلصـق

باسمه أي نقص من الشريك، ومن التجسيم،ومن التشبيه. ومن أي صفة لا تليق بكماله المطلق.ومن الناحية الإيجابية أن يستحضر عند ذكر اسم الجلالة بلسانه عظمته فيقرنه بما هو أهل له. ومن ذلك أنه يوفي بقسمه إذا حلف به قال تعالى : **(ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم)**[1] وقال تعالى:**(ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون)**[2] وإذا كان تعظيم اسمه تعالى،وتنزيه اسمه عن إلصاق ما لا يتناسب مع عظمته مؤدى هذه الفاتحة، فإن تسبيح ذاته تصورا وعقيدة وتعريفا به هو المقصود الأعظم. وتسبيح اسمه يساعد على ذلك ويزيده تمكنا في الروح والمشاعر. وإضافة التسبيح إلى" **ربك**" دون كلمة "**الله**" تذكير للنفس بأنه سبحانه هو الخالق المدبر الراعي لتطور الإنسان حتى بلغ إلى ما هو عليه، وإضافته إلى كاف الخطاب "**ربك**" مع أنه سبحانه رب الكون جميعا، لما فيه من التشريف لرسوله صلى الله عليه وسلم. فأول صفة من صفات الحق سبحانه نطقت بها هذه الآية هي الربوبية للإنسان، وهي قاعدة الإيمان.ثم ألحق بهذه الصفة ست صفات أخرى :

أ-الصفة الأولى :**الأعلى**، الأسمى.والعلو مادي يتنزه الله عنه.ومعنوي يقصد منه الكمال المطلق الذي يفهم على أن كل تصور تصورته في الذات العلية يجب أن يكون على أنه الكامل الذي لا يلحقه نقص. يقول الإمام الغزالي: والعلو في الرتبة العقلية هو كالعلو في تدرجات الرتب الحسية.كالتفاوت بين السبب والمسبب، والعلة والمعلول، والفاعل والقابل، والكامل والناقص.فالأول منهما أعلى والثاني أنقص. والوصف بالأعلى يعد قانون فهم كل ما جرى من الأوصاف على الذات الإلهية.ويجري عليه تأويل المتشابهات. وأخرج أبو داود بسنده إلى عقبة بن عامر قال : (لما نزلت **فسبح باسم ربك العظيم** قال رسول الله ﷺ: اجعلوها في ركوعكم. فلما نزلت **سبح اسم ربك الأعلى** قال :اجعلوها في سجودكم [3])

ب- الصفة الثانية :أنه سبحانه **هو الذي خلق**، فحول ما كان معدوما إلى الوجود. وتفهم الآية على أنه المتفرد بالخلق، أو الذي خلق الكائنات، أو الذي خلق الإنسان. فهو العلي الخالق.

جـ - الصفة الثالثة أنه الذي سوّى ما خلق.يفهم منها أن الله لما خلق لم يصدر خلقه كما اتفق، دون نظر إلى كل نوع وما ييسر له في خلقه القيام بوظيفته في الحياة. وقد تمكن العلم من اكتشاف كثير مما أودع الله في كل نوع من الخصائص

---

[1] سورة البقرة آية 224

[2] سورة النحل آية 91

[3] مختصر المنذري ج1 ص418 ح 833

العجيبة.في النمل والنحل والزواحف، والسباع والطيور. بل كل نوع من الأنواع له خصائصه المساعدة له.

د-الصفة الرابعة : حسن التقدير المراعَى فيه الحكمة والإتقان في الصنع.فكل كائن جمع فيه من المقادير المختلفة الأنواع ما حصل به التمازج الذي أفضى إلى اكتمال الذات. ففي الإنسان مثلا كمية من الحديد، وكمية من الماء،وكمية من المنغازيوم، وكمية من الكبريت، وغير ذلك بمقادير مضبوطة، نقصانها كزيادتها عما قدره يتبعه الاختلال. وقدر وضع كل جزء من الأجزاء في مكانه الذي يكون أوفق للنشاط في الحياة كاليدين والرجلين والقلب والدماغ .

هـ -الصفة الخامسة.هو المتفرد بالهداية العامة والخاصة. وأنواع الهداية تشمل كل شيء، ليحقق الموجود ما قد أعد خلقه له لينسجم مع الكون العام.

والهداية والألطاف التي رزقها الإنسان لا تكاد تحصى. فالحيوان المنوي هدي إلى الظفر بالاندماج في البييضة ليلقحها، والخلية الأولى هديت للانقسام ثم السير نحو جدار الرحم لتتغرس فيه وتقتات من دم الأم، إلى أن يُهدى الجنين للخروج من رحم أمه، ثم التقامه الثدي، إلى أن تأتي الهداية العظمى في روحه وعقله وما بلغه الرسل ليسعد بالإيمان إذا لم يصمم على الرفض.قال تعالى : **(وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى)**[1]

و-الصفة السادسة: أنه المتفرد بتخصيب الأرض فأخرج منها النبات الذي ترعاه الأنعام،التي تساعد الإنسان على فلح الأرض، والسير في الأرض، والانتفاع بلحومها وألبانها وأصوافها وأشعارها. وما كان للإنسان أن يقوم بخلافته في الأرض لولا الأنعام.وهو الذي جعل من طبيعة المرعى أن ينتهي إلى اليبس، فيتحول إلى غثاء آخذ في التفتت يعود إلى الأرض أو يحمله السيل ، وبعد الخضرة اليانعة النضرة، يصير لونه إلى سمرة قريبة من السواد.ثم ينبت من البذور المختلطة بالغثاء مرعى خضرا جديدا.وفي ذلك إيماء للبعث.

7/6- سنقرئك فلا تنسى....وما يخفى.

تظهر العناية الكبيرة برسول ﷺ، من مفتتح السورة بدعوته إلى تسبيح الله وذكره ذكرا موصولا على ما ينبغي أن يكون من التعظيم والتنزيه. وفي هذه الآية يبشره أنه سيوالي عليه أحب شيء لنفسه الشريفة : اتصاله بالوحي. هذا الوحي الذي هو قراءة يرددها حسبما يلقنه جبريل أمين الوحي عليه السلام ، سنوالي إقراءك،ونتعم عليك

[1] سورة فصلت آية 17

نعمة أخرى أنا نمد حافظتك بقوة خارقة للعـادة فـلا تنسـى شـيئا مـن الـوحي.وعقبـه بقوله **إلا ما شاء الله**.وفهم بعض المفسـرين هـذا الاسـتثناء: أن الله يمحـو مـن ذاكرتـه ما أراد رفعه لفظا ومعنى من القرآن أو لفظـا فقـط بواسـطة النسـخ. وفهمـه آخـرون على أن هذا محقـق لتفـرد الله بالتصـرف،فبقاء ذاكرتـه ﷺ حافظـة لمـا ينـزل عليـه مرتبطة بمشيئة الله. وليس من المحتم أن يشـاء الله أن ينسـى رسـوله شـيئا ممـا أنـزل عليه. فالاستثناء تأكيد لمفهوم عقدي لا لتنفيـذ شـيء فـي الواقـع كقولـه تعـالى: **(ولـو شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك)**[1]. أو على أنه من استعمال القلة في مقام النفي.

وتختم الآية بقوله: **إنه يعلم الجهر وما يخفى**.معظم مـا رأيتـه مـن كـلام المفسـرين أن الآية متصلة بقوله " **سنقرئك فلا تنسى**" على أن المعنى أن الله يعلـم مـا تجهـر بـه مـن القراءة،وما يخفى مما تسقطه لأن الله أراد إخفاءه مـن حافظتـك.وهـو حمـل لا تنـاقض فيه، ولكنه لا يخلو مـن التمحـل. والـذي تـرجح عنـدي : أن قطـب الآيـات السـابقة يتحقق في قوله "**فهدى**" وهذه الهدايـة تـتم بـأمور ظـاهرة، وبـأمور خفيـة، ولا يجمـع بين علم ما ظهر منها ومـا خفـي إلا الله.سـجل العـالم (ا.كريسـي موريسـون) فـي كتابه الإنسان لا يقوم وحده كثيرا مـن الظـواهر فـي عـالم الأحيـاء، تفسـر لنـا قولـه تعالى : **إنه يعلـم الجهـر ومـا يخفـى** وممـا سـجله : أن للحشـرات الدقيقـة عيونـا مكروسكوبية "مكبرة " لا ندري مبلغها مـن الإحكـام. وأن للصـقور بصـرا تلكسـكوبيا " مكبرا ومقربا" وتحدث عن ممالك النحل وما تحويـه مـن الأسـرار التـي لا يعلمهـا إلا خالقها. وتحدث عن حاسة الشم عند الكلب الذي يسـتطيع أن يحـس بـالحيوان الـذي مـر قبل وقت من ذلك المكان. وكلها تدل على أن المتفـرد بمـا ظهـر ومـا خفـي هـو الله. وفي الآية جعل القرآن مقابل الجهر ما يخفى، ولم يقـل و السـر. فـالجهر لـيس الجهـر بالصوت ولكن المراد منه الظاهر الواضح، ويقابله: **وما يخفى**.

8- ونيسرك لليسرى.

إن تمكن محمد ﷺ من تلقـي الـوحي عـن ربـه " القـول الثقيـل " وتكليفـه بمواجهـة البشرية قاطبة أمر ضخم كلما حللته بدت لك أبعاد شـاقة جـدا. فتشـير الآيـة إن لطـف الله بنبيه، وقدرته على تيسير العسير، وتـذليل الصـعاب، يسـر لـه مـا كـان صـعبا، ضاعف قوة تحمله فقبـل الـوحي عـن جبريـل، وضـاعف عزيمتـه فواجـه البشـرية بالحقيقة دون أن يهاب.وهو تيسير من الله. ثم إنه جعـل مضـامين الرسـالة التـي كلـف بإبلاغها سهلة المأخذ، منسجمة مع الفطرة. من آمن بهـا يجـد فـي نفسـه كأنـه خـرج

[1] سورة الإسراء آية 86

من الضيق إلى السعة، ومن القلق إلى الطمأنينة، ومن الشعور بالوحدة إلى تغلغل الأنس في مشاعره.وعن عائشة قالت : (ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا أخذ أيسرهما مالم يكن إثما فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه اللؤلؤ والمرجان ص613 ح1502)

9←13: فذكر إن نفعت الذكرى....ولا يحيى.

أمر من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يواصل ما كلف به من نشر الهداية ودعوة الناس، وإقناعهم بالحجة والدليل،والصبر عليهم وعدم الاستعجال.وقوله: " **إن نفعت الذكرى** : توبيخ للمشركين لإعراضهم عن القرآن وعن الاستماع لرسول الله ﷺ .وفيه إيماء إلى أن من بين من يتوجه لهم بالتذكير من لا ينتفع به. وهذا كقول الشاعر : لقد أسمعت لو ناديت حيا *** ولكن لا حياة لمن تنادي

سيذكر من يخشى.حسبما أفادته الآية السابقة أن الذين يتوجه لهم الرسول ﷺ بالتذكير، ويحركهم للإيمان، بعضهم يقبل وينتفع، والبعض الآخر يعرض ويعاند.ففصلت هذه الآية الموقفين :

أ–موقف من يصغي لما تذكره به فينتفع به، ويذكر، ويكون تذكيرك تثبيتا له على الإيمان، وزيادة إشراق في قلبه وروحه.وهو الذي حل الخوف من عقاب الله وغضبه في نفسه.وبمقدار ما تكون الخشية من الله أبلغ حضورا، وأكثر تأثيرا، يتفاوت البشر في الصلاح.

ب – ويبتعد عن سماعك، و ينفر من تذكيرك من تلبس بالشقاء.الكافر الشديد الكفر، الذي صمم على الكفر إلى موته، الذي لا يخشى الله ولا العاقبة.ويعجل القرآن ببيان عاقبته التي تكون كفاء لتصلبه في العناد.أنه **سيصلى النار الكبرى**.جهنم التي يكون العذاب فيها على غير ما عهد في الدنيا، فالمُعذّب بنار جهنم يطول أمد عذابه إلى أبد الآبدين مخلدا، تحرقه النار وتؤلمه كأشد ما يكون الإيلام، ثم هو لا يموت من الحرق بل يبقى حيا لا يفقد شيئا من إحساسه.ولا يبقى حيا حياة السلامة من الإحساس بالعذاب.

قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾
وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَـٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ :

أفلح : ظفر بالخير الذي يطمح إليه.

تزكى: بذل جهده لتطهير نفسه.

تؤثرون: الإيثار الاختيار بتفضيل شيء على غيره.

أبقى : بقاء لا ينتهي.

بيان المعنى الإجمالي :

بكل تأكيد : إن من اعتنى بنفسه فطهرها من الشرك والإثم حقق لنفسه السعادة التي يطمح إليها والخير في الدنيا بالحياة المطمئنة الراضية، وفي الآخرة بالفوزبما أعده الله للمتقين من جميل الثواب، وحسن الجزاء.وأتبع تطهير نفسه بدوام الذكر لربه بلسانه وفي نفسه، فعبر عن ذلك بالإقبال على الصلاة التي هي عمود الدين.

انتبهوا إلى أن سبب الخسران هو إيثاركم لما تدعو إليه الشهوات، وتفضيلكم متاع الدنيا العاجلة على ثواب الآخرة التي هي خير، وهي الباقية التي لا ينقطع نعيمها إلى أبد الآبدين. تنبهوا فإن ما ذكر في الآيات السابقة هو الحق السرمدي، الذي أوحى الله بمثله وثبته في صحف إبراهيم الذي تدّعون أنكم على شريعته، وفي صحف موسى الذي تتصلون باليهود بين الفترة والأخرى لتسألوهم عما أنزل عليه.

بيان المعنى العام :

15/14- قد أفلح من تزكى...فصلى.

بعد أن عرف القرآن بعاقبة الأشقى مهددا بالعذاب السرمدي. فوفى الترهيب حقه، ثم انتقل إلى الترغيب فأثبت النجاح المحقق لكل ما يمكن أن يطمح إليه من الخير، للذي اعتنى بنفسه فزكاها، وطهرها من العقائد الضالة، ومن الآثام والرذيلة. فأصبحت تألف الفضيلة والطاعة.أخرج البزار عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال :(**قد أفلح من تزكى**) قال: (من شهد أن لا إله إلا الله، وخلع الأنداد، وشهد أني رسول الله) **وذكر اسم ربه** – يتناول الذِكر اللساني بالتسبيح، والتهليل، والتمجيد، والاستغفار، ونحو ذلك، كما يتناول الذكر القلبي "بضم الذال" باستحضار صلته بربه، والتأنس بقربه وجريان صفات كماله على قلبه.

والذكر اللساني والقلبي يجعل الذاكر مشوقا إلى عبادة ربه، مما يبعثه على التقرب إليه.والصلاة هي أسمى أنواع العبادة.روى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: (حبب إلي من دنياكم النساء والطيب، وجعلت قرة عيني في الصلاة.) [1]حديث حسن.

---

[1] فيض القدير ج3ص370ح3669

17/16- بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى.

انتقال من ذكر موقف الأشقياء وعاقبتهم، وموقف الأتقياء وعاقبتهم إلى التحذير من أسباب الشقاء، فافتتحه بكلمة" **بل** " التي تفيد الإضراب وتنبه السامع إلى أن الكلام انتقل إلى أمر جديد فليقبل عليه بكل انتباه.ومضمون هذا : أن سبب فساد الطوية والبعد عن منهج الله،هو إيثار الحياة الدنيا على ما وعد الله به من الخير في الآخرة. أي إن الإنسان وهو مبتلى بالتكليف الذي أوجب عليه صفاء العقيدة، وحب الخير والعمل به، والبعد عن الآثام والمعاصي. ينحرف به عن ذلكم المنهج حبه لملاذ الحياة الدنيا، التي منها تفضيل حظه من الرئاسة الدنيوية على الإيمان كما هو شأن المشركين، وتقديم ما تثيره فيه الشهوة من النساء والمال وحب الغلبة، والظلم والمنكرات الشرعية التي تميل إليها النفس ويحرض الشيطان على اقتحامها. والتي يشترك فيها الكفرة والفسقة. فنجاح الإنسان في عاقبته مرتبط بإدراكه وتطبيقه أن عليه في مقام الاختيار أن يقدم ما يسعده في الحياة الأخرة التي هي كلها خير، والتي هي الحياة الدائمة الأبدية، حياة الخلود، على الحياة الدنيا وما تدعو إليه الشهوات.

19/18-إن هذا لفي الصحف...إبراهيم وموسى.

تؤكد هذه الآية ما قررته الآيات من قوله : **قد أفلح من تزكى** إلى قوله : **والآخرة خير وأبقى** يثبت القرآن أن مضامين تلكم الآيات، هي من الحق الذي أوحى الله به وثبته في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام. بلغا ذلك لأقوامهما وحثاهم على الاتعاظ به. فهو مثبت في الصحف المنزلة من عند الله على الرسولين الكريمين إبراهيم الذي يدعي العرب أنهم على شريعته، وموسى الذي يعودون لليهود ويسالونهم عما في التوراة من أحكام وتشريع.وذلك مما يفرض عليهم أن يتأثروا بمضامين تلكم الآيات.

يوم الخميس 16 ذو القعدة1435- 2014/9/11.

سورة الغاشية

بهذا الاسم عرفت في المصاحف وفي معظم كتب التفسير والسنة. أخذت تسميتها من لفظ الغاشية الوارد في الآية الأولى. وهي سورة مكية باتفاق.وهي السورة الثامنة والثمانون حسب ترتيب المصحف. وعدت السابعة والستين حسب ترتيب النزول.نزلت بعد سورة الذاريات، وقبل سورة الكهف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ (1) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ (3) تَصْلَىٰ نَارًا
حَامِيَةً (4) تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ (5) لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ (6) لَّا يُسْمِنُ وَلَا
يُغْنِى مِن جُوعٍ (7) وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ (8) لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ (9) فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ (10) لَّا
تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً (11) فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ (12) فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ (13) وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ (14)
وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ (15) وَزَرَابِىُّ مَبْثُوثَةٌ (16)

بيان معاني الألفاظ:

الحديث : الخبر المتحدث به.

الغاشية :يوم القيامة، وأصلها تغطية متمكنة شاملة.

آن :شديدة الحرارة.

يغني : يدفع عنهم الحاجة.

لاغية: من اللغو الكلام الذي لا فائدة فيه.

أكواب : جمع كوب إناء للخمر بدون عروة له ساق.

بيان المعنى الاجمالي :

هل بلغك خبر الغاشية ؟ سؤال يقصد منه إثارة الذهن ليقبل على ما يليه بشوق ليكون أثبت في الذهن.والغاشية يوم القيامة الذي يعم الكائنات جميعها.والمقصود بصفة خاصة المشركون المكذبون. إنه في هذا اليوم تظهر على وجوه الكفرة الذلة والخشوع والكرب. تنبئك بالكرب التي هي فيه من العمل المضني، وتحدثك سماتهم

بما وصل إليه أصحابها من بالغ الإعياء. تشوى من جميع الجهات بنار جهنم التي تفوق حرارتها ما عرف من حرارة النار. تحترق أكبادهم طلبا للسقيا، ولكن ليس لهم إلا شراب من عين حامية.وليس لهم إلا طعام واحد من شوك سام يقطع أمعاءهم. لا يدفع عنهم غائلة الجوع، ولا تترفه به أبدانهم.

وفي المقابل فإن الله يتفضل على عباده الصالحين، تعبر وجوههم عما هم فيه من نعيم. أصحابها راضون عما قاموا به من أعمال، واجتهدوا لمرضاة ربهم في الدنيا.يسكنهم ربهم في جنات عالية مشرفة. لا مكان فيها للغو الحديث وسقط الكلام.فلا يطرق السمع إلا المعاني السامية الرفيعة. تتخلل أراضيها العيون الجارية بماء ينشر الخصب، ويلطف الجو. أعد الله لهم من رفيع الأثاث ما يزيدهم نعيما، من ذلك السرر المرفوعة المشرفة على المناظر الخلابة في الجنة. وتنتشر الأكواب التي جمعت بين جمال الصنع ورفيع المادة مما يعطي متعة إضافية لمن يشرب منها. وتُصَفّ فيها النمارق الوسائد في نظام لا يختل. وتنتشر فوق أرضها الزرابي المتقنة الصنع البديعة الألوان والأشكال .

بيان المعنى العام :

1-هل أتاك حديث الغاشية.

سؤال يقصد منه إثارة الانتباه للخبر الهام الوارد بعد ذلك. هل بلغك الحديث الفاشي.خبر الغاشية الحادثة التي تضم تحت جناحها جميع المنذرين، فلا يجد أحد منهم مفرا من أهوالها. سؤال مثير يكتنفه الإبهام ليكون وقعه في النفس أبلغ.

4/3/2- وجوه يومئذ خاشعة....حامية.

أتبع القرآن التهويل المضاعف، بتفصيل موجبات ذلكم التهويل.فذكر وضع الوجوه في ذلك اليوم، المعبرة عما أحاط بالنفس من هم وغم وعذاب.لأن الوجوه تنطق بما تحمله النفس من شقاء وكروب. ترى الوجوه في ذلكم اليوم يوم تغشى الغاشية، تراها خاشعة جللت بالذل والأسى. استولى عليها آثار الإرهاق مما حملته من مشاق العمل في النار، يصحب عذاب النار سوق الملائكة للمعذبين سوقا عنيفا بزجر متتابع، لا يبلغون منزلة حتى يزجرون إلى اقتحام منازل هي اشد وأصعب. كان جزاؤهم لما آثروا الراحة في الدنيا، والإعراض عن التكاليف الشرعية المهذبة للنفس، ولم يخشعوا في الدنيا لله خشوعا يصفي أرواحهم، كان جزاؤهم أعمالا شاقة في النار ومرهقة.

تصلى نارا حامية: تحيط النار بكل جزء مـن أجـزائهم: (**لهـم مـن فـوقهم ظلـل مـن النار ومن تحتهم ظلل)**[1] ولا تكون النـار إلا حاميـة، فوصـفها بحاميـة يـومئ إلـى أن حرها يتجاوز الحر المعروف، فهو مضاعف في ذاته وفي إيلامه.

5←7- تسقى من عين آنية....من جوع.

إن حر جهنم الذي يصليهم، يوقع في الـنفس لهفـة المعـذبين إلـى مـا يبـرد أكبـادهم. فكان شرابهم ماء بالغـا مـن الحـرارة أشـدها يضـاعف لهفـتهم. ويتصـل بالشـراب الطعام، فيكشف القرآن عما يقدم لهم من الطعـام الـذي يزيـد فـي عـذابهم، هـو طعـام من ضريع. قالوا إن أصله الشبرق الذي ترعاه الإبـل وحمـر الـوحش إذا كـان رطبـا ، فإذا يبس تحامته.وهو الضريع لتحولـه إلـى شـوك سـمي يقاسـي آكلـه آثـار السـم المنتشر في كيانه. وهـو طعـام مسـلوب منـه جميـع خصـائص الطعـام، إذ يتنـاول الإنسان الطعام، ليعوض ما فقـده بالعمـل المضـني، وليـدفع ألـم الإحسـاس بـالجوع. وهذا الطعام المهيأ لأهل جهنم لا يعوض لهـم مـا فقـدوه مـن أجسـامهم، ولا يشـبعهم. وقد يكون الضريع صورة مقدمة للغسلين المذكور في قولـه تعـالى : **(فلـيس لـه اليـوم هاهنا حميم ولا طعام إلا من غسلين)**[2]

8←10- وجوه يومئذ ناعمة... في جنة عالية.

أتبع القرآن مصير الكفرة والمشركين بذكر مصـير المـؤمنين الصـالحين. فكمـا كانـت وجوه المسخوط عليهم تنبئ عن تعاستهم وما هم فيه مـن الكـرب، فإنـه بالمقابـل تكـون وجه المرضي عنهم منبئة عما هم فيـه سـعادة. تنظـر إلـى وجـوهم فتجـدها مفصـحة عما عليه أصحابها من نعيم، ترى وجوها مستبشرة تجري فيها نضارة الهناء.

لسعيها راضية : يتمثل لها عملها الـذي وفقـت إليـه فـي الـدنيا، واجتهادهـا لمرضـاة ربها، فتمتلئ النفوس رضى بما قدمته.

في جنة عالية : مسـتقرها فـي جنـة رفيعـة المقـام عاليـة المنزلـة. يزيـد ارتفاعهـا وإشرافها حسنا ورونقا.

11-لا تسمع فيه لا غية.

هذا هو الوصف الرابع لنعيم الجنة.أنك لا تسـمع فيهـا كلامـا لا فائـدة مـن ورائـه إلا قتل الوقت. ذلك أن اللغو مستوى ينـزل إليـه أحـد رجلـين: رجـل ضـعيف مسـتوى الذهن،لا يستطيع التواصل مع المعاني العقلية الخالصـة فلـذا تجـده يميـل إلـى مـا لا

---

[1] سورة الزمر آية 16

[2] سورة الحاقة آية36/35

قيمة له ولا وزن، الذي هو معبر عن مستواه الفكري. والله يخلص المنعم عليهم من النقائص ويسمو بها إلى ما يناسب ما هم فيه من التكريم.
ورجل يعييه مواصلة التأمل والتفكير، فيشعر بالحاجة للترويح عن نفسه ليستجم نشاطه، إلى شيء من اللغو البريء.
والمنعمون في الجنة يسمو الفضل الإلهي بمواهبهم، فيهيئهم إلى الحياة الخالدة الباقية. وقواهم الفكرية من الكمال ما يجعل تأملاتهم تضاعف رغبتهم في مواصلة التعمق، الذي يزيدهم نشاطا ومتعة.

12-فيها عين جارية.

إنه مع تنزيه الجنة عن النقائص، أثبت لها من المحاسن ما يؤثر في خضرتها ونضارتها، وطيب هوائها.تجري فيها العيون التي يتدفق منها الماء يروي نباتاتها، ويؤنس برقرقته وخريره.

13←16- فيها سرر مرفوعة...مبثوثة.

أضاف القرآن إلى ما سبق من الخيرات التي ينعم بها المفوزون بالجنة، عرض ما تعمر به قصورهم من فاخر الأثاث. فعدد منها السرر جمع سرير.والسرير المرتفع أرفق بالجالس والنائم من الحشايا إذا كانت على الأرض. ويمكنه ارتفاعها من الاستمتاع مع الراحة بالمشاهد البديعة في الجنة. وثنى بالأكواب.والأكواب جمع كوب، وقد تقدم وصفها في سورة الإنسان في الآية 15:(**ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا قوارير من فضة قدروها تقديرا**) وأضاف في هذه الآية أن الأكواب موضوعة في تناسق كلما مد المنعم يده وجدها قريبة منه.ثم ذكر النمارق المصفوفة. والنمارق جمع نمرقة، وهي الوسادة التي تتخذ متكأ. وتحدث عنها بأنها مصفوفة، مما يشير إلى العناية المتواصلة بكل خير من الخيرات، فكلما حولت عن ترتيبها أيقظ الله من يرعى النظام دائما، فيعيدها إلى الوضع المرتب البعيد عن التشويش.وأنهى التعداد بالزرابي المنتشرة في جميع الأرجاء، وهي البسط المنسوجة بفن عال في إحكام عقده، وفي تمازج ألوانه، وفي الأشكال الزخرفية التي تدخل على الناظر إليه البهجة، وتعطي للمكان المبسوطة فيه جمالا.
والزرابي أصلها ذرابي نسبة إلى أذربيجان، فهي أذربية وعربت إلى زربية لأن اللغة الفارسية ليس فيها حرف الذال، وإنما هو الزاي أزربيجان. و تفوقت أذربيجان في صنع البسط الفاخرة من الصوف الناعم والمطعم بالحرير. وما تزال صناعة الزرابي الرفيعة المتقنة من تقاليد الفرس وأقطار ما وراء النهر.

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى
ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ
﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ
﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

نصبت : ثبتها قائمة في الهواء راسخة لا تزول.

سطحت : سويت.

المصيطر : المجبر والمكره.

الإياب : الرجوع إلى حكم الله فريدا.

بيان المعنى الإجمالي:

داوم يا محمد على التذكير، ولا تيأس ولا تهتم إن هم لم يؤمنوا،فإن مهمتك محصورة في التذكير، وكفاك بذلك شرفا. ولست بمجبر لهم ولا بمُتسلِّط تسلط القهر ليذعنوا. ولكن من أعرض عن هدايتك وكفر بما أنزلته عليك، فإني سأتولى عذابه في الآخرة العذاب الأكبر. ذلك أنهم سيعودون إلى حكمي أذلاء لا حول لهم ولا قوة.وفوق ذلك سنتولى حسابهم على كل ما اقترفوا.

بيان المعنى العام:

17←20-أفلا ينظرون إلى الإبل...كيف سطحت.

بعد أن توالت الآيات في أول السورة ترهب المشركين والجاحدين للبعث بما يلقونه من العذاب والمهانة،كر عليهم التوجيه القرآني ليقلعوا عما هم فيه من الشرك والرفض، بدعوتهم إلى التأمل في عجائب الكون المثبتة أن حسن التقدير , والنظام يهدي المتأمل إلى الإقرار بخالق الكون. إذ لا يتأتى أن يصدر هذا النظام مصادفة.

دعاهم إلى النظر الباحث عن الظواهر الكونية من ناحية وعما وراء الظواهر من ناحية أخرى. ولما كان المقصود الأول من هذه الإشارة المشركون بمكة الذين تعصبوا ضد القرآن مكذبين مستبعدين البعث والحساب، طلب القرآن منهم أن يتأملوا في البيئة العربية، وما تزخر به من دلائل تثبت أن الكون المشاهد تم بتقدير العزيز الحكيم.

لفت أنظارهم أولا إلى الإبل التي هي ثروتهم التـي مـا كـان لهـم أن ينشـئوا حضـارة أو أن يصلوا إلى البلدان المجاورة في تجاراتهم التي بهـا نمـت ثـرواتهم لـولا الجمـال.
فالجمل خلق عجيب قوي البنية عظيم الهيكـل، رفيـع القـوائم، ومـع هـذا هـو يبـرك لييسر على الإنسان حمل أثقاله، ثم ينهض بهـا واقفـا. يطيـع قائـده ولـو كـان صـبيا.
وهو أشد الحيوانات صبرا على الماء فيسير فـي الصـحراء الأيـام دون أن يحتـاج إلـى الشراب أو الطعام.إذ يختزن في باطنه ما يكفيـه لمـدة تبلـغ العشـرة أيـام.ومـن وبـره ينسج العرب ما يحميهم من القر، كما يصـنعون بيـوتهم المتنقلـة. فالآيـة تـدعوهم إلـى التأمل في خصائص الخلقية للإبل ليدركوا أن وراء ذلك مقدر حكيم.
ثم لفت نظرهم إلى السماء التي يشاهدونها فـي الليـل والنهـار، مناديـة بـأن أسـرارها عجيبة، أنها رفعت فوق الرؤوس بغير عمـد.ومـا تحويـه مـن كواكـب ونجـوم، ومـا تحمله من سحب تروي الأرض وتنشر الخصب.
ثم لفت أنظارهم إلى الجبال. ليعملـوا فكـرهم فـي كيفيـة نصـب هـذا الثقـل الهائـل، والكتلة الضخمة، فثبتها في مكانها رافعة قمتها إلى آلاف الأمتار دون أن تتصدع.
وختم بإثارة التأمل فـي الأرض التـي يعيشـون علـى ظهرهـا، كيـف تـم تسـطيحها فمهدت تمهيدا، يرفع كل عناء عـن الإنسـان ليسـير فيهـا أو يضـطجع أو ينـام.جبـال شاهقة لا يتسلقها إلا بجهد، وأرض مسـتوية يفلحهـا ويحبلهـا بمختلـف أنـواع الـزروع والأشجار.

21←24- فذكر إنما أنت مذكر... العذاب الأكبر.

الخطاب للنبي ﷺ، يأمره ربه أن يواصـل التـذكير، ومخاطبـة النـاس بتحريـك عقـولهم إلى ما قام عليه هذا الدين من التوافق التام بـين عقيدتـه وأحكامـه، وبـين مـا يقتضـيه العقل الراشد. ويحصر شرف مهمتـه فـي التـذكير، وذلـك بتوضـيح مضـامين الـدين وبإقامة الحجة على أنه من عند الله، مما يوجـب علـى الإنسـان المخلـوق أن يسـتجيب لما يطلب منه خالقه.وحـدد مهمتـه ومهمـة الناشـرين للإسـلام بـأن الهدايـة لا تكـون بالإكراه والجبر، ولكن بالإقناع والرضـا.فأنـت محمـل برسـالتي لا تكـره أحـدا علـى الإسلام. لكن الذي تبلغه هدايتك، ثم يصر مستكبرا عن الحـق كـأن لـم يسـمعها، موليـا ظهره لما تقول وتدعو إليه مصـمما علـى الكفـر، فأنـا الـذي أتـولى عقابـه، فأعذبـه العذاب الأكبر، الذي هو فوق ما يتصور.

26/25- إن إلينا إيابهم* ثم إن علينا حسابهم.

الآيتان تؤكدان مفهوم فيعذبه الله العذاب الأكبر، وتزيدانه بيانا.فالعذاب الأكبر ليس عذاب الدنيا، وإن كان قد سلط عليهم القتل والجوع، والمهانة في الدنيا بكفرهم ؛ ولكنه عذاب الآخرة الذي يتحقق قطعا لأنهم سيعودون جميعا إلى حكمه.ذلك أنهم قد صدروا عن الإرادة الإلهية والقدرة التي أخرجتهم من العدم إلى الوجود وسيعودون للذي أخرجهم: الله رب العالمين. وفوق ذلك إنا قد قررنا قرارا لا مثنوية فيه، أننا سنحاسبهم عن كل ما صدر منهم، عن مقابلة نعمي بالكفر عوض الشكر، ورسولي بالتكذيب عوض الإقبال على هديه بما رزقتهم من عقل وفهم.

يوم الأحد 19 ذو القعدة -2014/9/14

سورة الفجر

بهذا الاسم عرفت في المصاحف، وفي كتب التفسير، والسنة.وهي سورة مكية رتبتها حسب ترتيب المصحف التاسعة والثمانون.وعدت العاشرة حسب ترتيب النزول.نزلت بعد سورة الليل، وقبل سورة الضحى.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِي حِجْرٍ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

لذي حجر : لصاحب عقل.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم الله بخمسة أقسام في فاتحة هذه السورة :

1) **بالفجر** الظاهرة التي تتابع في كل لحظة على كوكب الأرض فيبدو به الخيط الأول من ضوء الشمس في الأفق.
2) **وليال عشر** هي العشر الأول من شهر ذي الحجة التي شرع الله فيها مناسك الحج لإبراهيم، ثم بعد التخليط الذي داخلها بعاملي طول الزمن، والشرك، أحياها الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم.
3) **الشفع** يوم العاشر من ذي الحجة.
4) **الوتر** يوم عرفة.وهما يومان خصهما الله بمزايا تقرب الطائعين فيهما من رضوان الله.
5) **الليل** عندما يمضي منه زمن غير قليل.لينهض المتهجدون والذاكرون الله إلى العبادة. هذه أقسام هي بحق كافية لتأكيد وتثبيت المقسم عليه لمن كان له عقل صحيح.

بيان المعنى العام :

1←4- والفجر...يسر.

أقسم الله سبحانه بخمسة أقسام في فاتحة هذه السورة- **الفجر - ليال عشر- الشفع- الوتر - الليل إذا يسر**-وكل ما يقسم به الخلاق العليم يلفت أنظارنا إلى ما يتضمنه من الأسرار والحكم التي قد يغفل عنها الإنسان فهو يستحثه للتأمل في مضامين أقسامه. وهي من ناحية أخرى تدل على تأكيد المقسم عليه ليوليه السامع الاهتمام وأنه حق لا شك فيه. فلنتابع هذه الأقسام:

أ-**والفجر**. يقسم القرآن بهذه الظاهرة التي تتكرر كل يوم في كل بلد، وبصفة متلاحقة على الكرة الأرضية في كل لحظة من اللحظات. إذ في كل لحظة ينبثق الفجر على خط من الكرة الأرضية. وهكذا على مدار الساعات الأربع والعشرين. وهو الخيط الأول من ضوء الشمس الذي يصل إلى الأفق، ثم يعقبه تبدد الظلام شيئا فشيئا إلى أن تسطع الشمس.

وحمله بعضهم على أنه ليس قسما بالظاهرة، ولكنه قسم بفجر يوم معين.فجر يوم النحر، أو فجر يوم المحرم، فجر ذي الحجة. وحمله على الظاهرة أولى. وفيه إيماء إلى البعث في صورة بعث الأحياء إثر الفجر بعد النوم الموتة الصغرى.

ب-**ليال عشر**- الراجح أنها الليالي العشر من ذي الحجة.وهي ليال عظيمة المقدار ظاهرة البركات،يتجمع فيها المحرمون من سائر أقطار العالم، مقبلين على أداء مناسكهم ابتغاء رضوان الله، بأعداد ما تزال تتضاعف مع الزمن.مظهر فريد في العالم وفي أيام السنة. ترى الآلاف المؤلفة وهم يلبسون لباسا واحدا، ويدعون ربا واحدا، وأشواقهم واحدة أن يطهر ربهم أرواحهم من درن الآثام ، وأن يسمو بهم لمراتب القبول، فتتجاوب أرجاء الحرم بصدى التلبية والتهليل والتكبير والذكر. وفي هذه الليالي العشر يعمر البيت الحرام **بالطائفين والقائمين والركع السجود**.

وفيها ليلة عرفة التي اختصت من بين سائر الليالي بإطلاقها على ليلة التاسع وليلة العاشر، وبطلوع فجر يوم العاشر ينتهي وقت الوقوف بعرفة، ومن فاتته تلك اللحظة فاته الحج في ذلك العام. وهذه الليالي العشر قد أطلع الله سبحانه رسوله إبراهيم على ما اختصت به من المناسك لما دعاه أن يؤذن في الناس بالحج. وبتعاقب الأجيال وقع التخليط في الزمن ودخل النسيء الذي ما كان مضبوطا بضابط.فلما أراد الله أن يقيم بواسطة محمد ﷺ منا سك الحج على ما شرعه لإبراهيم، يسر أن تكون حجة الرسول ﷺ بعد أن استدار الزمن. فصادفت أيام حجه ﷺ أيام حج إبراهيم قال ﷺ في خطبته في حجة الوداع : (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض.متفق عليه) فهذه الأيام وإن كانت غير

معينة يوم نزول الآية، ولكنها معلومة عند الله ثـم عـرف بهـا علـى لسـان رسـول الله ﷺ.

وذهب بعضهم إلى أنها الليالي العشر فـي قصـة موسـى : (وأتممناهـا بعشـر)[1] وروي عن ابن عباس : أنها العشر الأواخر مـن رمضـان. وقيـل هـي العشـر الأوائـل مـن المحرم. والقول الأول أرجح.

ج – د :**والشفع والوتر** :الشفع ما يكـون ثانيـا لغيـره. والـوَتر المفـرد. وبـذلك همـا صفتان صالحتان للانطباق على كل مـا يتحقـق فيـه الوصـف.روى جـابر رضـي الله عنه عن النبي ﷺ: أن الشفع يوم النحر لما كـان اليـوم العاشـر مـن ذي الحجـة ، وأن الوتر يوم عرفة،إذ هو التاسع.وذكروا لـه محامـل عديـدة،لا تقـوم أمـام مـا روي عـن النبي ﷺ.

هـ ـ **والليل إذا يسر**: القسم الخامس الليل عند سـريانه وتَقضـي أجـزاء منـه. كقولـه تعالى: (والليل إذا أدبر)[2] فأقسم به تنويها وإشارة إلـى قيمـة العبـادة الليليـة. **يـا أيهـا المزمل قم الليل.إن ناشئة الليل هي أشد وطأ وأقوم قيلا**[3].

5- هل في ذلك قسم لذي حجر.

السؤال تقريري.يقرر المخاطبين ليعترفوا بأن ما أقسم بـه القـرآن قسـم كـاف للإثبـات والتأكيد. فهو سؤال لا يتطلب الجـواب، لأن الموجـه إليـه لا يسـتطيع إلا الإقـرار بمـا تضمنه السؤال: هذه الأقسام فيها شـحنة مـن التغلـيظ و التأكيـد تنفـي إنكـار المقسـم عليه بأبلغ طريقة ممن له عقل.فيوقن أن العزيز وقد أقسـم بأقسـام خمسـة أن مـا يقسـم عليه حق لا شك فيه.

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

بيان معاني الألفاظ:

---

[1] سورة الأعراف آية 142

[2] سورة المدثر آية 33

[3] الآيات 6/2/1 من سورة المزمل

إرم : جد عاد.

ذات العماد : صاحبة القوة.

الأوتاد : جمع وتد : ما تشد إليه الخيمة.

الطغيان : مجاوزة الحدود مع الظلم

السوط : جلد مضفور يستعمل للضرب.

المرصاد : مكان اتخذ للرصد فلا يمكن أن يغيب أو يغفل الراصد أي شيء.

بيان المعنى الإجمالي:

ألم تعلم ما فعل ربك بعاد المنتسبة إلى إرم. نعم قد علمت بذلك وتناقلت الناس أخبارهم.عاد هذه التي تفردت عن معاصريها بكونها أشد منها قوة في الجسم وفي التجارب.وكذلك قبيلة ثمود الذين نحتوا من الرخام والحجارة ما بنوا به بيوتهم في الحجْرِ الوادي الذي كانوا يسكنونه، وفرعون صاحب الأوتاد الأهرامات القوية التي هي إحدى عجائب الدنيا كما يقولون. يتفق هؤلاء وإن اختلفت آثارهم وتنوعت قوتهم فإنهم اتفقوا فيما بينهم على ما يزلزل كل حضارة وقوة، هو البغي والظلم، وما يتبعه من فساد خلقي واجتماعي، فلم يمهلهم ربك طويلا، بل صب على كل منهم عذابا متواصلا مهينا ساحقا. هذا هو جواب الأقسام الثلاثة : إن ربك يا محمد يرصد ما يصدر عن المعاندين المكذبين، ويسلط عليهم عذابه الساحق. وهو تهديد مؤكد للقرشيين، وتأييد لرسوله.

بيان المعنى العام:

6←8- ألم تر كيف فعل...في البلاد.

افتتحت الآيات باستفهام تقريري، لا يطلب له جواب، ولكن المقصود منه الإثارة وأن المخاطب متيقن لمضمونه. والرؤية تحتمل أن تكون علمية باعتبار أن أخبار عاد منتشرة معلومة.ويحتمل أن تكون الرؤية بصرية، باعتبار الآثار الباقية التي تقوم دليلا على ما فعل الله بهم من الإبادة. وهذه الآية لا تصلح أن تكون جوابا للقسم.وجوابه إما أن يكون قوله تعالى الآتي : **إن ربك لبالمرصاد**. على ما سنبينه.وإما أن يكون الجواب مقدرا يدل عليه ما عقب به القسم :ليستأصلن المعاندين، كما تدل عليه الأخبار عن الأمم الثلاث عاد وثمود وفرعون.

فالأمة الأولى التي ضرب بها المثل هي أمة.عاد الأولى المنتسبة إلى إرم.عاد بن عوص بن إرم.وقبيلة عاد قبيلة قوية، قاماتهم طويلة، وبنيتهم شديدة، وُهبوا قدرات عقلية، وفنية فائقة. "**ذات العماد**" شبهت قوتهم بالبيت الذي يقام على عماد يركز في

وسطه به تثبت الخيمة وتقوى على الصمود أمام الرياح. ساعدهم ذلك على بناء حضارتهم.وفاقوا بقية القبائل التي كانت تسكن تلك الأصقاع." **التي لم يخلق مثلها في البلاد**"

7- وثمود..بالواد.

وثمود قبيلة كانت ديارها بالحجر، وهو وادي القرى كان بين جبلين، في طريق الماشي بين المدينة والشام.نزله من قبائل العرب بعد هلاك ثمود قضاعة، وجهينة، وبَلِي. أقام قوم ثمود حضارتهم على تشييد المباني بالصخور وبالرخام ، مما ينحتونه من الجبال.

8 ←14- وفرعون ذي الأوتاد...لبالمرصاد.

الظاهر أن الآية تشير إلى الأهرامات التي كانت منتشرة في أرض مصر إبان الحضارة الفرعونية. فهي في شكلها كالوتد المقلوب. وهي في هندستها وطريقة بنائها وما يحويه داخلها من مصاعد وتقسيمات تعرف بالمكانة التي وصل إليها الفراعنة في العلم والمعرفة والفن.

هذه الأمثال الثلاثة عاد، وثمود، وفرعون.تعطينا صورا من التقدم الحضاري وخاصة العمراني.وإن اختلفت في جزئيات وخصائص كل حضارة، إلا أنها تتفق على أن أصحابها بلغوا من القوة مبلغا كبيرا.

والثلاثة انحرفوا انحرافا كبيرا يهدم كل حضارة مهما بلغت من القوة.أجهزة الحكم فيها اعتمدت القوة والعنف،طغوا طغيانا لا يعترف بحق مشروع، ولا بما جرى عليه الناس في عقودهم الاجتماعية. ولا بشرع إلهي. هزأوا من كل ذلك،فساد الظلم والقهر في علاقة الحاكم بالمحكوم.أبغض الشعب حكامه، وقسا الحكام على الشعب. وما يسلبونه من أموال الناس يفتح لهم العبّ من الشهوات، فتراخت أخلاقهم" **فأكثروا فيها الفساد** " وتهيأوا تبعا لذلك للزوال والاستئصال. فصب عليهم ربك يا محمد عذابا نازلا من السماء لا يفلت منه أحد، عذابا مؤلما مهينا. شأن السياط التي يضرب بها ضربا مؤلما متواصلا مهينا إلى الموت. وإن كان ما ذكرته يمثل قانون العدالة الإلهية في المجتمع إلا أن عادا وثمود وفرعون كان فاشيا فيهم الكفر وما يتبعه من الانحرافات، فبعث لكل منهم رسولا فعصوه، فسلط علىٰ كل منهم عذابا استأصله.

إن ربك يا محمد لبالمرصاد، يرقب كل عمل يقوم به البشر، لا يفلت من رقابته شيء، فيجزي كل عامل بما عمل ويسحق المعاندين الطغاة.وبه أراد القرآن أن يهدد

المشركين بما حققه من القسم.وتكون الأمثلة الثلاثة مؤيدة لهذا المفهوم، بما تم في الوجود عبر الأحقاب.وفي صياغة الخطاب : ربك بالإتيان بلفظ الرب وإسناده إسناد التشريف لرسوله صلى الله عليه وسلم مرتين ما يدل على تأنيسه وتثبيته، ووعده بأن الله ناصره.

فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

ابتلاه : اختبره بالخير أو الشر.

الإكرام : إيصال نفع لا يقارنه غضاضة.وكذلك جعل الشيء نفيسا.

نعمه : جعل عيشه طيبا.

فقدر : قلله،وضيق عليه موارد الرزق.

أهانني : أذلني.

التراث : المال الموروث.

اللم : الجمع.جمع أموال الميت كلها إلى أموالهم.

الجم : الكثير.

بيان المعنى الإجمالي:

تكشف الآيات عن نفسية الكافر، وعن تعلقه التعلق كله بالمادة. تجده إذا اختبره الله بالتوسعة عليه في الرزق اعتقد أن نعيم الدنيا يتبعه نعيم الآخرة حتما.وأما إذا ضيق عليه في الرزق أيس واعتبر ذلك دليلا على إهانة الله له.وكذلك تكون نظرتهم للموسعين عليهم، وللفقراء المحرومين.فالأولون عندهم هم المفوزون يوم القيامة، والآخرون هم المهانون يوم القيامة كوضعهم في الدنيا. إن ما استقر في أذهانهم وبنوا عليه علاقاتهم الاجتماعية خطأ وضلال .فالرزق في الدنيا، أو الحرمان كل منهما اختبار للإنسان ليظهر موقفه من خالقه ومن تصرفه.وليست النعمة كرامة مطلقة، ولا التضييق إهانة مطلقة. بل القيمة في موقف الإنسان من النعيم ومن الخصاصة، هل يزيده ذلك استقامة وقربا من الله وتمسكا بالقيم الخلقية المبثوثة في

القرآن والسنة، أو يعتبر ما ناله في الدنيا هو الغاية وليس وراء ذلك إلا استمرار ما في الدنيا يوم القيامة.فهو في الأول ناجح في الاختبار سعيد في دنياه وفي أخراه.وأما في الثاني فهو خاسر فيهما.

ثم توجهت الآية موبخة الكفرة لتناقضهم.فهم قد اعتبروا أن ما نالهم من حظوظ الدنيا تكريم لهم، ثم إنهم لغلظ طباعهم لا يكرمون اليتيم العنصر الضعيف فيهم، ولا يتحرك شعورهم الإنساني لجوع المساكين، فلا يقومون حتى بدعوة غيرهم لإطعامهم. شراهتهم للمال شراهة تعميهم عن كل شيء آخر، فهم يتسابقون للاستيلاء على ما يخلفه الميت فيحرمون اليتامى من مال آبائهم، ويحرمون النساء من حظوظهم في التركة.فيلتهمون الميراث التهاما لا يبقي لصاحب حق حقه.

بيان المعنى العام :

16/15-فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه...أهانني.

ختمت الآية السابقة بقوله تعالى: **إن ربك لبالمرصاد**. يرصد سبحانه أعمالنا ثم يحاسبنا عليها ويجزينا.وإذا استحضر الإنسان هذا المفهوم : أنه مراقب رقابة من لا يغيب عنه أي عمل يصدر عن الإنسان، وأنه يجزيه عن أعماله، وأن عدله سبحانه العدل الكامل لا جور فيه ولا ظلم.فإنه بناء على ذلك يكون أول ما يحتاج إليه الإنسان أن يتحقق من أن ميزانه ميزان صحيح لا يضلله؛ يعرفه بالخير الذي يرضى الله عنه، كما يعرفه تعريفا كاشفا عن الشر الذي يتبعه سخط الله . وأن تكون أيضا بوصلته لا خلل فيها تبين له الاتجاه الصحيح ولا تضلله. وهذا لا يُوَفِّره إلا التمسك بالتوجيه الديني والقيم المعتبرة عند الله. ولكن الذي ضلل الناس هو خلط منفصل عن القيم الحق.وميزان مختل أقامه أصحابه على ما يصل إليهم من متاع الحياة الدنيا.فإن نالوا من خيراتها من المال والجاه والأولاد والصحة تصور بعضهم أن ذلك عنوان رضا الله عنهم،وأن ما جَنَوْهُ من آثام معفو عنه لا يحاسبون عليه، لأن الله ما وسع عليهم إلا لأنه راض عنهم. وتوهم البعض منهم أنه ليس وراء نعيمهم الدنيوي نعيم آخر، فكفروا بأنعم الله. وبالمقابل يظن من ضاقت موارد رزقه، وعجز عن تلبية حاجاته وحاجات أسرته، يظن أن الله أهانه.

إن ربط التوسعة في الرزق، والنيل من حظوظ الدنيا برضا الله، وأنه أمارة قرب الموسع عليه من ربه ، وبالتالي من حسن العاقبة،وربط التضييق في الرزق والحرمان من حظوظها، بسخط الله والخسران في العاقبة.إن هذا التصور وهم باطل.ذلك أن التفضل الإلهي أو الحرمان هو في حقيقته ابتلاء واختبار من الله لعبده لينكشف صلاحه أو فساده.إن المنعم عليه مختبر، هل إن النعمة زادته خشية

من ربه وحياء من أن يصرف فضله في عصيانه وخوفا من أن تفتنه مباهج الحياة عن القيام بحق العبادة على أكمل وجه،ولا ينسب ما حصل عليه لنفسه وذكائه ومواهبه بل يربطه بتوفيق الله وحسن عونه. وينطلق لسانه وقلبه بالشكر فيكون بذلك قد نجح في الامتحان .قال تعالى مسجلا لموقف سليمان : **(هذا من فضل ربي ليبلوني أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم)**[1] وبالعكس إذا زادته النعمة بطرا، وبعدا عن ربه، واستغراقا في اللذة،واعتبار الحظوظ الدنيوية الغاية التي ليس وراءها غاية،وأنه بمكانة القرب من ربه بسبب ما توفر له من النعمة، فإنه يكون قد خاب في الامتحان. وكذلك المضيق عليه هو في معرض الاختبار.هل قابل وضعه بالصبر، والرضا بالمقدور، وعدم السخط على ما ناله من مباهج الدنيا، وأمل فيما عند الله بالتوسعة وبالأجر على الصبر، فيكون بذلك قد نجح في الابتلاء، أو قابل ذلك بالسخط والتبرم، والاحتجاج على القدر، واعتبار التضييق عليه إهانة له من ربه. فيكون بذلك قد خاب في الامتحان وخسر الدنيا والآخرة.

إن ما يجري على البشر من سعة أو ضيق حسب ما سبق في تقدير الله، مبني كله على الحكمة البالغة، وهو الحق الذي به يجري الكون على استقامة. ولكن سر ذلك محجوب عنا، يعلمه مبدع الكون سبحانه.

17←20- كلا بل لا تكرمون اليتيم...حبا جما.

[كلا] ردع وزجر لما استقر في أذهان المشركين وأشاعوه من أن ما بيسره الله في إجراء الأرزاق على الناس في الدنيا والتوسعة عليهم، إكرام للموسع عليهم ينبئ على ما لهم من مكانة وحظوة عند الله،وأن ما يضيقه من أرزاق ومن حظوظ الدنيا، إهانة للمضيق عليه، ودليل على أنه مهان عند الله في الدنيا والآخرة. فأبطل القرآن بكلمة **[كلا]** كل تلكم الأوهام.وردعهم عن التعلق بجعل التوسعة أمارة على إكرام الله للمنعم عليه في الدنيا والآخرة، وجعل التضييق أمارة على الإهانة فيهما.

وانتقل بكلمة **[بل]** من الغرض السابق إلى غرض جديد فيه توبيخ لهم، وإبراز لتناقض أقوالهم وفعالهم.فالمشركون اعتبروا أن وفرة المال تكريم، ولكن أعمالهم على خلاف ذلك.فموقفهم من اليتامى الذين فقدوا العائل المدافع عنهم أنهم لا يكرمونهم، ولا يعاملونهم معاملة تحترم شخصياتهم، ولا تكسرها بالإهمال وعدم الاعتبار. وبلغ بهم الشح بالأموال أنهم يشاهدون المساكين الذين يتضورون جوعا

---

[1] سورة النمل آية 40

فلا يرحمونهم بلقمة عيش، بل هم لعدم إحساسهم بالمحتاجين يبخلون حتى بدعوة غيرهم للمساعدة " **ولا يحضون على طعام المسكين**.استولى حب المال على أنفسهم، وبلغت شراهتهم للجمع حدا كبيرا.فإذا مات الميت استولى القادرون على مخلفه يحرمون البنات، ويسقطون الأيتام من الميراث ويلتهمون كل تركته التهاما لا يبقي على حق لمن كان له. وجمدت عواطفهم على حب المال فتباعدوا عن جميع المكرمات.وسوغ لهم ذلك أكل الأموال بالباطل. أمام جمع أكثر نصيب من المال لا تتحرك لهم عاطفة، ولا ضمير، ولا شعور بالعدالة.

كَلَّا إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

بيان معاني الألفاظ:

الدك : الحطم والكسر.

الوثاق : ربط الأسير، ومن يتحرى فيه ما يمنعه من الهرب.

مطمئنة : هادئة لا يستفزها خوف، ولا هي منزعجة.

راضية : نالت من الكرامة كل ما تطمح إليه.

مرضية : توضح علاقتها بربها أنه راض عنها.

بيان المعنى الإجمالي :

كلا، زجر لهم عما اعتقدوه من أن مقاييس الفضل والفوز فيما يناله الإنسان من سعة في الرزق.وإبطال لذلك، لإثبات أن النجح مرتبط بالاستقامة وصفاء العقيدة. ثم وبخهم على استيلاء المادة عليهم، فهم لا يكرمون اليتيم، ولا يلتفتون إلى المساكين المحتاجين للقوت حتى يحث الواجد على عونهم.وعلى تعلقهم بالمال فهم يلتهمون تركة الميت التهاما يحرمون البنات، ويستولون على مال اليتيم.

كلا، زجر آخر لهم على سلوكهم هذا المشين. وتهديد لهم بما سيلقونه عندما تتهد الأرض والجبال.وعندما يخضع الكون كله للأمر الوحيد الصادر عن العزيز الجبار.يوم تصطف الملائكة في نظام تنتظر ما يؤذن لها به. في اليوم الذي

تتكشف جهنم بحقيقتها وسعيرها فيواجهها المجرمون يشاهدون لظاها وتميزها من الغيض. في هذا اليوم تعود للإنسان ذاكرته كأصفى ما يكون،فيتذكر كل موبقاته التي أفسد بها في الدنيا، ولكنه تذكر لا يفيد، ومعرفة لا أثر لها في صلاح أمره. ويأكل ضميره الأسى فيقول بلسانه أو بلسان حاله آسفا مكروبا مهموما : يا ليتني قدمت ما ينفعني لحياتي الباقية. في هذا اليوم يسلط الله عليه عذابا يفوق التصور، ما سلط مثله أحد.ويوثقه وثاقا شديدا لا يمكنه من أي حركة، ويشعر باليأس من الفرار. وإذ قد اكتملت صورة المعذبين، بشر المؤمنين الصالحين بما سيلقونه يوم القيامة. يسمعون صوتا يبشرهم بالفوز، ويثني عليهم، تسمع كل نفس هذا النداء الكريم : يا أيتها النفس المطمئنة الآملة غير الخائفة ارجعي إلى الموعد الذي كان وعدك ربك، فقد هيأت كل ما يرضيك فلا تتعلقين بأي شيء وراء ما تجدينه من ضروب التكريم والنعيم.وفوق ذلك يحل عليك رضاي. ادخلي مع عبادي الصالحين أمثالك، وادخلي جنتي التي أعددتها لك.

بيان المعنى العام :

22/21- كلا إذا دكت الأرض دكا.

[كلا] زجر لهم وردع لإهانتهم لليتيم، وإهمالهم لحق المساكين في الحياة الكريمة.واستحواذهم على التركات.وتعلقهم بالمال تعلقا أنساهم كل شيء. فليرتقبوا.فإن عذاب الآخرة لا محيص عنه الذي من أماراته.

إذا دكت الأرض دكًا دكًا : تهديد لهم بعذاب الآخرة بعد أن هددهم بأنه سيجري عليهم في الدنيا ما جرى على عاد وما عطف عليه. سيكون ذلك يوم يحطم الجبار الأرض حطما فتفتت الجبال والوهاد، وأكد تحطيمها بتكرار دكا.وإذا كانت هذه الكتلة الضخمة : الأرض بجبالها ووهادها ومحيطاتها وأنهارها وصحاريها ستندك دكا، وتفتت.فكيف يكون وضع الإنسان الضئيل بالنسبة لهذا الحطم القوي الشديد ؟

وجاء ربك.إسناد المجيء إلى الله لا يقصد منه قطعا تنقل من مكان إلى مكان، تعالى الله أن يكون في مكان.وقد يؤول على أن المعنى جاء أمر ربك وقضاؤه الذي لا مثنوية فيه. أو على حضور حسابه الموعود به. فهو تمثيل لظهور آيات اقتداره وتبين آثار قهره وسلطانه. و هذا التعبير يدخل المهابة والجد في تصور المخاطبين بصفة كبيرة.

والملك صفا صفا . ويقف كل ملك في موضعه المعين له في نظام مهيب صفوفا متتابعة.وهو تقريب للصورة المهيبة في الدنيا عندما يصطف الجنود كلهم في مواقعهم، لا يرتد لهم طرف، ولا تصدر عنهم أي حركة،في انتظار الأمر الحاسم لصاحب الأمر. **وعنت الوجوه للحي القيوم.**

23-وجيء يومئذ بجهنم.

هذا كمال المشهد العظيم الرهيب.جـيء بجهـنم أحضـرت جهـنم. ومعنـى حضـورها أن الحجاب الذي كان يحول بـين المحشـورين وبـين رؤيتهـا يرفعـه الله، فـإذا لهيبهـا وتوقدها مشهود حاضر، يغطي مسافات لاحد لها.

ولما كان المقصود من العرض تهديد الكـافرين المكـذبين ووعيـدهم بمـا سـيلقونه، لـم تتحدث الآية عن حضور الجنة. ولا شك أنه ينكشف ما فيهـا مـن نعـيم لقولـه تعـالى: **(وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين)**[1]

يومئذ يتذكر الإنسان، وأنى له الذكرى. إنه في هذا اليـوم الـذي تـدك فيـه الأرض دكـا وما عطف عليه.يأذن رب العزة أن تعود لكل إنسـان مـن الكفـرة ذاكرتـه فتبـرز فيهـا بصفة واضحة ما عرض عليه في الـدنيا مـن الهدايـة، ومواقفـه منهـا، وعملـه علـى رفضها، ومخططاته التي حاول بها توقيف مـد التوحيـد، وإعراضـه عـن عبـادة ربـه ومراقبة أحكامه في علاقاته.**وأنى له الذكرى**.على تقـدير مضـاف : وأنـى لـه أن تنفعـه الذكرى.فاليوم يوم حساب لا تكليف.

24-يقول يا ليتني قدمت لحياتي.

مما تضمنه الذكرى أن يعود الميزان الصحيح لتقـويم مـا صـنع فـي الـدنيا،ويعبر عـن ذلك بلسان المقال، أو بلسان الحال.**يـا ليتنـي قـدمت لحيـاتي**. يعبـر عـن بـالغ أسـاه وعظيم أسفه لتضييعه العمل الصالح في الوقـت الـذي يفيـده" قـدمت لحيـاتي" الحيـاة الحقيقية الدائمة التي تبدأ من هذا اليوم. بلـغ الأسـف حـد جلـد الـذات، وبـدا منهزمـا تأكله الحسرة التي لا تنفعه.ينادي نفسه الضائعة في خضم الأهـوال التـي بـدت لـه مـن صحيفة عمله وقد عادت واضحة بالذكرى كأبين ما يكون.

26/25- فيومئذ لا يعذب عذابه أحد *ولا يوثق وثاقه أحد.

في هذا اليوم الذي تدك فيه الأرض دكا، وما عطـف عليـه.ينفـذ الله عذابـه فـي الـذين كفروا بربهم وكانوا واقعين تحت رصـده لجميـع أعمـالهم.ولمـا كانـت كلمـة العـذاب تطلق على مستويات من العذاب تذهب صـعدا مـن القليـل إلـى العظـيم، حـدد القـرآن عذاب ذلك اليوم بأنه عذاب بـالغ مـن الشـدة، والإيـلام، والمهانـة، حـدا يفـوق كـل تصور، لا يستطيع أحد أن يعذب بمثله.يوثـق المعـذب وثاقـا يشـل كـل حركاتـه فـلا ينفس عن ألمه بأي حركة فضلا أن يجـد منـه مخلصـا.أعاذنـا الله مـن عذابـه بفضـله ورحمته.

---

[1] سورة الشعراء آية 91

27←30- يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك...وادخلي جنتي.

هذا خطاب من رب العزة موجه إلى الصالحين من عباده،الذين أيقنوا بالعقيدة السليمة المنزهة لله عن كل نقص، وآمنوا بما أنزل على رسوله، واجتهدوا لتكون أعمالهم موافقة لما جاء في شرع الله. فكان بشارة عقب إنذار وتهديد، على عادة القرآن في تعقيب النذارة بالبشارة والعكس.

وحَمْلُهُ على أنه خطاب من رب العزة تكريما لعباده الصالحين أولى في نظري من حمله على أنه خطاب من الملائكة الموكلين بذلك، لأنه أكثر انسجاما مع قوله التالي " **فادخلي في عبادي وادخلي جنتي** "

والظاهر أن هذا الخطاب يتم بعد البعث فهو حديث عن يوم القيامة.وروي أنه يخاطب به المؤمن عند الموت.فقد روي عن سعيد بن جبير : (قرأ رجل عند رسول الله ﷺ: **(يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية)** فقال أبو بكر :ما أحسن هذا !فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أما إن الملك سيقولها لك عند الموت. أخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم. وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية). ولا مانع من تخريجها على المحملين عند الموت، ويوم القيامة. وتكون من خطاب ملك الموت في الدنيا، ومن خطاب رب العزة يوم القيامة.

والنفس المطمئنة هي النفس الهادئة الآمنة.يسكب الله فيها يوم القيامة شعورا يجعلها آملة غير خائفة.على عكس نفوس الكافرين من الانزعاج والخوف وترقب الشر. وهي راضية بما أعطاها الله من كرامة في الجنة.فإنه وإن كانت درجات المنعمين في الجنة متفاوتة.إلا أن كل من يُفَوِّزُهُ الله بنعيمها يغمره الشعور بأنه قد نال كل ما يطمح إليه، ولا تتوق نفسه إلى أي شيء آخر.

وهي مرضية، مرضي عنها.وإحساس النفس المطمئنة بأنها بمحل الرضا من ربها أرفع نعيم تجزى به، قال تعالى : **(ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم)**[1].

30/29- فادخلي في عبادي وادخلي جنتي.

خطاب، فيه تكريم وتشريف، وإيناس، للمفوزين بالجنة. يقال لهم وهم داخلون، بالأمر الأول هذا الكلام، إيناسا لهم وزيادة في تكريمهم . كما توجه عبارات الترحيب للزائر في الدنيا عند استضافته بالبيت.

يوم الأربعاء 22 ذو القعدة 1435-2014/9/17

[1] سورة التوبة آية 72

سورة البلد

بهذا الاسم عرفت في المصاحف وفي كتب التفسير والسنة. وترجمها البخاري: (سورة لا أقسم) وكلاهما مأخوذ من الآية الأولى المفتتحة بها. وهي مكية على الراجح. رتبتها التسعون حسب ترتيب المصحف.وعدت الخامسة والثلاثين حسب ترتيب النزول.نزلت بعد سورة ق، وقبل سورة الطارق.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

البلد : مكة.

الكبد : التعب والشدة.

لبدا: جمع لبدة ما تلبد من صوف أوشعر. يعني كثيرا.

الهداية : الدلالة على ما يبلغ المقصود ويحمي من الضياع. والمقصود بها الإلهام.

النجدين : الطريقين المرتفعين دون ارتفاع الجبل.الخير والشر.

بيان المعنى الإجمالي:

أقسم القرآن في فاتحة هذه السورة بثلاثة أقسام :

1-أولا : **بمكة** مراعيا أن النبي ﷺ حال فيها فزاد حلوله بها شرفا وتعظيما لها.

2-و ثانيا **بالوالد**، والأقرب أن يكون المقصود به إبراهيم عليه السلام.

3-وثالثا **بما ولد**،وما تناسل منه من الأنبياء والمرسلين والصالحين من أمم التوحيد، وواسطة عقدهم محمد ﷺ.

والمقسم عليه **الإنسان** حسب طبيعة خلقه الذي أراد الله أن يكون عليها، خلقه ليسير في حياته سير المعاناة للمشاكل التي تعترضه باستمرار ليتغلب عليها. فحياته ليست حياة هنيئة سهلة. وإذا كان الخالق قد جعل طبيعة خلق الإنسان تجري على هذه

المعاناة،فمن غرور الإنسان وضيق تفكيره، أن يدعي أنه قوي لا يقدر أحد عليه، عندما يجمع من أسباب القوة ما يغطي على معاناته المستمرة ونواحي نقصه الكثيرة الأخرى. والذي أفسد عليه تفكيره،وأوقعه في الضلال ما جمع بين يديه من الأموال وتسلطه عليها بالإنفاق المتواصل والكثير.فهو يتبجح بذلك ويعلنه. وتبعا لهيامه بالمال كفر بالبعث ظانا أن مآله سيكون على ما هو عليه في الدنيا. ولما كان مرفها ماليا ولا يرى قيمة إلا ذلك اختلط عليه الأمر، وغرق في الكفر والضلال.

لوكا ن عاقلا ما تبجح بماله معلنا لنفقاته الكثيرة ظانا أنه لم يراقبه أحد في تصرفاته، إن الله يعلم تصرفه في أمواله وما فتح من أبواب الفساد والتحلل. ألم يتأمل في ذاته كيف أن الله مكنه من حاسة البصر وجعل له عينين بهما يدرك الوجود،ومكنه من النطق المعبر بلسان وشفتين،عما يحصل له من المدارك،وبذلك استطاع أن يبني حضارته ويتفاعل مع البشرية.وهداه بما ركب فيه من قوى الإدراك العقلي، وبما بلغه من المعرفة على لسان رسله، ليعرف الخير والشر.ويجاهد لينقاد إلى أحدهما يجاهد نفسه وشهواته ليتبع طريق الخير، أو يجاهد فطرته والاحتياط لمآله فيتبع طريق الشر. وهو مسؤول .

بيان المعنى العام :

1←3: لا أقسم بهذا البلد.. ووالد وما ولد.

افتتحت السورة بقسم دخلت عليه كلمة **[لا]** وهو يجري على نظائره السبعة التي تقدمت في الواقعة،وفي الحاقة، وفي المعارج، وفي القيامة، وفي التكوير،وفي الانشقاق. والمعنى تأكيد الكلام على أبلغ صورة. والمقسم به :**هذا البلد.ووالد، وما ولد.**

القسم بهذا البلد، يعني به مكة، والإشارة إليه للتنويه به باعتبار أنه حاضر في أذهان المخاطبين فتميز بحضوره وبالإشارة إليه أكمل تميز.وألحق بهذا البلد قوله: **[وأنت حل بهذا البلد]** يمكن فهم هذا الملحق على أن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا البلد الحرام، قد تجرأ عليه المشركون، فجعلوا الاعتداء عليه حلالا، مع أن الحيوانات محرم إيذاؤها أو التعدي عليها في عرفهم العام.أي وأنت حلال عندهم يحلون منك ما حرم من ساكن هذا البلد.وفي هذا تعريض بقساوة المشركين وغلظ أكبادهم وتنكرهم لما التزموا به من احترام من يحل بهذا البلد، وبهذا تكون الإشارة **[هذا البلد]** إمعانا في تشويه مواقفهم. كما يمكن فهمه على أنك يا محمد حل من كل تبعة، وغير ممنوع من اتخاذ المواقف التي تقتضيها مقابلة تعدياتهم بمثلها، ليرتدعوا.فأنت حل في المستقبل تصنع فيه ما تقتضيه المصلحة من القتل والأسر،

وعد له بفتح مكة وحلها له ساعة من نهـار يقـيم فيهـا التوحيـد، ويـذل الأصـنام.وهـو نظير قوله تعالى: **إنك ميت وإنهم ميتون.**أي في المستقبل.

ووالد: هذا هو القسم الثاني، والأظهـر أن الوالـد المنكـر تنكيـر تعظـيم، هـو إبـراهيم عليه السلام الذي بنى الكعبة وأسكن فيها ذريته قـال تعـالى: (**ربنـا إنـي أسـكنت مـن ذريتي بواد غير ذي زرع عند بيتك المحرم**)[1]

وما ولد: هذا هو القسم الثالث، الذين ولدهم إبـراهيم وتناسـلوا منـه، واقتفـوا هديـه فـي التوحيد، وواسطة عقدهم محمد ﷺ. وفي القسم بما ولـد، إيمـاء إلـى أن المشـركين مـن قريش المعتزين ببنوتهم لإبراهيم عليه السلام، قد انحرفـوا عـن طريقتـه فـي الحيـاة ومسـلكه في العقيدة،فهم غير مؤهلين لبنوتـه. قـال تعـالى: (**إن أولـى النـاس بـإبراهيم للـذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا**)[2]

4- لقد خلقنا الإنسان في كبد.

هذا هو المقسم عليه.حقق فـي جملـة القسـم أن خلـق الإنسـان بمعنـى تسـويته، فـي أجهزته، وفي تفكيره، وفي عواطفه، وبصـفة عامـة فـي جانبـه المـادي، وفـي جانبـه الروحي والفكري،مغرق في التعب والشدة. فالإنسان علـى هـذا هـو الجـنس البشـري، وأفصحت الآية عن قانون الخلق الذي لا يستطيع أي فـرد مـن أفـراد البشـر أن يخـرج عنه. ليست الحياة الدنيا حيـاة منزوعـة مـن التعـب، ومـن المعاكسـات.ولكـن قـانون الخلق أن كل فرد معرض، وعلى نسب مختلفة،إلى كبد: تعب وشدة:

في جسمه، بما يتعرض له في حـالتي الاسـتقامة، والمـرض. هـو الـنقص المكتـوب والملازم للإنسان وإن غفل عنه.خذ لذلك مـثلا كـل فـرد يلحقـه الإعياء،ويحتـاج إلـى النوم ليستجم، وهو بين الشعور بالحر أو بالبرد، والعمل علـى التكيـف مـع وضـعه بمـا يستطيع. وكل إنسان قد يحصل له عقب الأكـل فـي حـالتي الهضـم والبـراز، مشـاكل تقوى أو تخف. وكل إنسان يتحول من ضـعف إلـى قـوة ثـم مـن قـوة إلـى ضـعف وشيبة. وسر على هذا المنوال تتبين أن خلق الإنسان مرتبط بقانون الكَبَد.

وفي جانبه الفكري، لا يصـقل فكـره إلاّ بمعانـاة الـتعلم، والخطـأ و الصـواب، والنقـد الذاتي.ويعاني من النسيان على نسـب مختلفـة. ويترتـب علـى النسـيان مشـاكل ذاتيـة ومشاكل اجتماعية قد تخف آثارها ، أو تعظم ويتبعها ما يتبع من خسارة.

---

[1] سورة إبراهيم آية 37

[2] سورة آل عمران آية 68

وهو يكابد ويعاني بالرياضات الروحية ليبقي على صفائه الروحي، وقد يغفل عنه فيشعر بعدم الاستقرار ويمسه طائف من الشيطان، وقد ينسى ربه فتظلم روحه ويعاني من القلق والحيرة والانبتات عن الواقع ما يعاني. ويمد الشيطان في غفلته حتى يرين على قلبه قال تعالى **(كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .)**[1]

ليست الحياة الدنيا ولن تكون سعادة خالصة من كل كرب، ولا هي آلام متواصلة وعذاب شديد.والإنسان يكابد ما يعترضه بفضل ما رزقه من عزم، وجهاد، وصبر.فهذه الحقيقة قد يغفل عنها الإنسان بما يواتيه من الحظ المساعد في فترة من فترات حياته.فأقسم القرآن عليها لينزع من كثير من البشر هذا الوهم، وبالتالي ما يترتب عليه من إنكار البعث على ما سنبينه.

وذهب بعض المفسرين إلى حمل الإنسان على فرد خاص من رؤوس الكفر الذين تعرضوا للدعوة وحاولوا أن يحولوا بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين نشرها في الناس. والسياق يأبى هذا التخصيص.

5-أيحسب أن لن يقدر عليه أحد.

تستولي على الإنسان العافية، وما يجمع من متاع الدنيا ولو لمدة محدودة، فيخيل إليه أنه من القدرة والقوة، أن نعيمه الذي بين يديه نعيم سرمدي، لا يحول ولا يزول.وهو تصور ساذج يدعو إلى السخرية من صاحبه المغرور، أو الإشفاق عليه. سمعت عن أحد الذين ساعدهم الحظ فجمعوا ثروة كبيرة، فصرح لبعض خلصائه قائلا : إن الفقر لو ركب صاروخا فلن يستطيع أن يلحق بي. وبعد مدة لم تطل فلس المسكين وركبه الفقر بكلكله.

6- يقول أهلكت مالا لبدا.

يفتخر بما ينفقه من أموال كثيرة، إنفاقا متتابعا متراكما. وهو تسجيل يعلن سلم قيمهم: المرتبط بالمال جمعا وإنفاقا والافتخار بذلك يقول عنترة :

وإذا سكرت فإنني مستهلك *** مالي وعرضي وافر لم يكلم

وإذا صحوت فما أقصر عن ندى*** وكما علمت شمائلي وتكرمي

المال هو همهم الأول، ومناط الاعتزاز، ومتعلق الفخر. قال تعالى : **(وتحبون المال حبا جما)**[2] وتأصل هذا الوهم المردي في نفوسهم، وتبعه إنكارهم للبعث.

---

[1] سورة المطففين آية 14

[2] سورة الفجر الآية 20

فقوله تعالى : **يقول أهلكت مالا لبـدا.** يعطـي السـبب الـذي مـن أجلـه ظـن الإنسـان الكافر أن لن يقدر عليه أحد. وأنه تبعا لذلك أنكر البعث والحساب

وتنسجم الآيات مع أول السورة فبعد القسم المغلظ علـى أن الله خلـق الإنسـان فـي كبـد بحيث أنه لا يستطيع أن يجعل حياته الدنيا سـعادة لا يخالطهـا مشـاق.وهـو أمـر واقـع لا يمكن إنكاره حسـبما بينـاه ؛ يبـرز القـرآن أن الإنسـان يحـاول أن يغطـي ضـعفه بالإنكار والادعاء الفارغ.فيحسب أنه لا يقـدر عليـه أحـد،وذلك تـابع لتقـديره أن المـال هو القوة الحق، والسعادة. وبتوفره يسمو الإنسـان ويكـون مآلـه منسـجما مـع واقعـه. وخوله هذا التصور الفاسد إنكاره للبعث والسـؤال، وحتـى علـى فـرض وقوعـه فـإن مركزه المالي سيحقق له المركز العالي عند ربه. كمـا جـاء فـي قولـه تعـالى: **(ولـئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منهما منقلبـا)**[1] وقوله تعـالى: **(ولـئن أذقنـاه رحمـة منـا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي وما أظن الساعة قائمـة ولـئن رجعـت إلـى ربـي إن لي عنده للحسنى)**[2]

7- أيحسب أن لم يره أحد.

يعلن إنفاقه الواسع العريض. ويظن أنه اكتسب بذلك القوة والمجد.ويقمعه القرآن بأن الله الرقيب عليه يعلم إنفاقه، ويعلم الوجوه ألتي أنفق فيها،وما دفعه للإنفاق من مقاصد خبيثة، وما في ذلك من فساد.وأنه كان من الخير له أن لا يعلن ما يزيده إثما ويحط من قيمته الإنسانية.فالله عالم بنواياه وبكل ما أنفقه لا يغيب عن علم ربه شيء.

8←10: ألم نجعل له عينين.. وهديناه النجدين.

سؤال تقريري. يذكر المخاطب بما لا يستطيع إنكاره. تبجح الإنسان الجاهلي بكثرة نفقاته، وقمع بأن الله عليم بكل نفقة صدرت عنه، وتبجحه وإعلانه يدل على ضيق تفكيره وسطحيته، ألا يعلم أن الله منحه عينين يرى بهما المبصرات، فلولا أن الله مكنه من قوة البصر لتعطل تصوره للعالم الخارجي. وبهذا يكون تبجحه بنفقاته وحديثه بذلك دليلا على غبائه لأن الميسر له آلة العلم بما يجري في الخارج هو الله العليم.

ولسانا وشفتين. جمع القرآن فـي التـذكير بالسـؤال بـين اللسـان والشـفتين، لأن نعمـة النطق لا تحصل إلا بهما معا.ومع ذلك فيـه إيمـاء إلـى تـوبيخ المتـبجح بـأن الله لمـا خلق له شفتين فقد جعل له بابا يستطيع به أن يطبـق بـه علـى لسـانه ولا يـتكلم بهـذا النحو من الهراء.

---

[1] سورة الكهف آية 36

[2] سورة فصلت آية 50

وهديناه النجدين.تتابع التذكير بالنعم التي مكن الله الإنسان منها.مكنه أولا من وسائل المعرفة بما رمز إليه من قوة البصر.ومن التعبير عما يحس به فيبلغه إلى غيره، وهو أساس التمدن والحياة الجماعية.وفوق هاتين المرتبتين أن هداه بالعقل الذي يميز بين الخير والشر، وبين الحسن والقبيح، وبالتشريع المبلغ على لسان رسله لئلا تضلله شهواته. بهذين السبيلين يتم التمييز الذي يحصن الإنسان من الاغترار بالحاصل القريب،فينفذ إلى ما وراء العاجل إلى النتائج البعيدة.وشبه الخير والشر بالنجدين، أي بالطريقين التي تقتضي طبيعتهما بما فيهما من ارتفاع وانخفاض إلى التأمل في كل خطوة واتخاذ الحيطة في المسير.وسماهما بالنجدين أيضا، لما في اتباع كل منهما من مشقة، فطريق الخير يقتضي التغلب على منازع الشهوة، وعلى مغريات النتائج السهلة القريبة. وطريق الشر في اتباعه قمع للفطرة، واستخفاف بالعواقب، والتعرض للمسؤولية في الآجل، وقد تكون أيضا في العاجل.فيكون الميزان بين الخير والشر هو سر التكليف. وهو شرف الإنسان إذ لم يكن كالبهائم منقادا بالفطرة دون نظر في العواقب.

فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡمَرۡحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيۡهِمۡ نَارٞ مُّؤۡصَدَةُۢ ﴿٢٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الاقتحام : الاجتهاد للدخول في أمر فيه عسر.

العقبة : أصله ما في تجاوزه عسر من الجبل.

الفك : اصله انتزاع الشيء ممن استولى عليه.

الرقبة : الإنسان الفاقد للحرية، برق أو أسر.

المسغبة : زمن المجاعة.

ذو متربة : ليس له ما يفترشه على التراب.

بيان المعنى الإجمالي :

التفاخر بسعة الإنفاق وتتابعه،تبجح بما لا قيمة له. وهذا المتفاخر لم يحمل نفسه على بلوغ المراتب السامية ولم يقم باجتياز العقبة. والعقبة منزلة رفيعة تتطلب لاجتيازها التغلب على حب المال، وبذله في الخير، بتحرير العبيد، والتنفيس عن المكروب المحتاج، وبذل الطعام لليتيم القريب الفاقد لوليه الذي كان الراعي له

والمكافح لتأمين قوته، وإطعام الفقير الجائع الذي ألحفت به الخصاصة حتى لم يبق له من وطاء إلا التراب. وفوق هذا لم يكن من الذين آمنوا وتعلقوا بالكمالات الذين تخلقوا بالصبر، وحث بعضهم بعضا عليه. وتراحموا فيما بينهم وتواصوا بخلق الرحمة لِتسود العلاقات الاجتماعية. هؤلاء المؤمنون الذين كتب الله أن يكونوا في محل الكرامة،هم أصحاب اليمين. وفي المقابل فإن الذين كفروا بما جاءهم من الآيات البينة المنزلة على رسولنا، انفردوا بأنهم عقدوا عقد إلْسفِ بينهم وبين المشأمة، الشؤم والخسران. تطبق عليهم نار جهنم فلا يجدون مخرجا ينفلتون منه.

بيان المعنى العام :

11←17- فلا اقتحم العقبة...بالمرحمة.

تضمنت الآيات السابقة الإنكار على المتبجح بنفقاته الكثيرة.كما تضمن أن الله سبحانه قد رحم البشر بهدايتهم إلى التمييز بين طريق الخير وطريق الشر. ومن مجموع ذلك تفهم هذه الآية على أنها تصريح بالواقع. فتفيد أن المتبجح المتفاخر بنفقاته المتراكمة، والمهدي بما كشف له من طريق الخير، لم يقتحم العقبة،ففضل السهولة على ما فيها من نقص وانحراف،على مغالبة الصعاب التي تسمو بنفسه وبفعاله إلى المستوى الرفيع وتجعل له مركزا عاليا في المجتمع. فلا اقتحم العقبة : نفي أن يكون قد بذل جهده ليصعد ويتجاوز المعوق الذي يرده إلى أسفل.

12- وما أدراك ما العقبة.

أي شيء يعرفك أي شيء العقبة .فهي لعزتها مما تنطلق النفس للتعرف عليها وإلى من يعرفه بها. والخطاب لكل من يصح أن يتوجه له الخطاب. والمقصود من العقبة الأعمال الصالحة الشاقة على النفس التي تزكي الإنسان و تعود على المجتمع بالخير و ترفع عنه الحاجة والضيق. وفي ذلك إيماء لما في اقتحام العقبة من ثواب عند الله.

13- فك رقبة.

العقبة فك رقبة.والمراد به العمل على رفع الضغط الذي أحاط بالإنسان فجعله في أشد الضيق كأن رقبته التي تنطلق من سبيلها كل أنواع الإحساس تحت ضغط المتمكن منها، مالكها. وذلك بإعتاق الرقيق، والعمل على استرجاع العبد حريته.

14←16- أو إطعام في يوم ذي مسغبة.. ذا متربة.

ومن اقتحام العقبة. أن يطعم الفرد زمان انتشار الخصاصة والجوع، وشدة الحاجة إلى الطعام، وعزته من ناحية أخرى. فيندفع بدافع الإحساس بمشاركته ذوي الخصاصة آلام خصاصتهم، ويطعم يتيما، تربطه به صلة القرابة، لفقده لأبيه الراعي، الذي كان يقوم عليه

ويكد ليوفر لها احتياجاته، فيرق لحاله ويطعمه لصلة الرحم وصلة التأثر بالأخوة الإنسانية. أو يطعم مسكينا عضه الفقر،لا يملك ما يفترشه إلا جلده.

وأين من هذا المستوى الإنساني الرفيع من يقول : **أهلكـت مـالا لبـدا**.فالجـاهليون كـانوا يتفاخرون بالنفقات الكبيرة المتراكمة التي كـانوا ينفقونهـا علـى المـآدب التـي يـدعون إليها أهل الثراء أمثالهم ويقصون عنها المحاويج وإن كانـت تـربطهم بـه أمـتن صـلات القرابـة. او المجـالس الخمريـة التـي تنتهـك فيهـا الفضـيلة.ويطلقـون فيهـا العنـان لغرائزهم، ويحكمون شهواتهم الهابطة.

17- ثم كان من الذين...بالمرحمة.

وفوق ذلك مما ذكر من اقتحام العقبة والإطعـام يوجـه لهـم التـوبيخ والـذم لأنهـم لـم يندمجوا في صف المؤمنين.إذ لو كانوا من المؤمنين بمـا أنـزل علـى محمـد صـلى الله عليه وسلم لطاعت نفوسهم بفعل الخيـر، ولَوَجَـدُوا مـن المجتمـع الاسـلامي الـذي لـو اندمجوا فيه ما يـؤثر فـيهم الإقبـال علـى عمـل الخيـر. وأدمـج التنويـه بـالمؤمنين بالتصريح بنبيل صفاتهم، التي منها تواصيهم بالصـبر الـدال علـى قـوة عـزائمهم فهـم يثبتون عند الشدائد، ولا يتراخون أمام دواعي الشـهوة، ويكبحـون جمـاح الغضـب فـلا يتركون له زمام قيـادتهم فـي رد الفعـل. وتواصـيهم بالمرحمـة.مفـاده أنهـم يوصـي بعضهم بعضا بالثبات على خلق الرحمـة. ذلـك أن القسـوة لا تفضـي إلا إلـى علاقـات مشحونة بالبغضاء والنقمة والتربص المـاكر.**والمؤمنـون بعضـهم أوليـاء بعـض**.وقـال تعالى : **والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الـذين آمنـوا وعملـوا الصـاحات وتواصـوا بالحق وتواصوا بالصبر**.

18-أولئك أصحاب الميمنة.

تنويه بالذين آمنوا وتواصـوا بالصـبر وتواصـوا بالمرحمـة. فأشـير إلـيهم ليتميـزوا أكمل تميز.وأنهم مكرمون، ذلك أن من العـادات المتقـررة فـي العـرف الاجتمـاعي أن المكرمين يَحِلُونَ من الجهـة اليمنـى، تبعـا لتصـرفات الإنسـان فـي تناولـه للأشـياء المكرمة بيمينه. ويتضمن هذا التنويه ترغيبا فـي الإيمـان والتحلـي بـأخلاق المـؤمنين. وناسب أن يحذر مـن الانحـراف عـن سـبيل المـؤمنين فـنص علـى أنهـم أصـحاب المشأمة، منزلة الإهانة تـألفهم ويألفونهـا.علـيهم نـار جهـنم مغلقـة، لا يجـدون منفـذا للخروج منها.

يوم الأحد26 ذو القعدة 2014/9/21

سورة الشمس

بهذا الاسم عرفت في المصاحف وفي معظم كتب التفسير وفي كتب السنة. وعنونها البخاري [سورة والشمس] وهي سورة مكية بالاتفاق.

وهي السورة الحادية والتسعون حسب ترتيب المصحف.وعدت السادسة والعشرين حسب ترتيب النزول. نزلت بعد سورة القدر، وقبل سورة البروج.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا
﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا
فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

بيان معاني الألفاظ :

الضحى: ارتفاع الشمس عن أفق مشرقها بمقدار عشرين دقيقة.

تلاها : تبعها.

يغشاها : يغطيها بظلمته.

بناها : ربط بين مكوناتها ربطا محكما كأنه بناء.

طحاها : بسطها ووطأها للعيش والسير.

زكاها : اختار لها ما يزيدها خيرا.

دساها : حال بينها وبين فعل الخير.

الفلاح : النجاح والفوز بحصول المطلوب.

خاب : عكس أفلح.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم القرآن في فاتحة السورة بأحد عشر قسما، تتابعت ليؤكد الحقيقة التالية في المقسم عليه، وليُثِيرَ بالأقسام الذهن للتأمل فيما أقسم به سبحانه، مما يدل على أنه الله الموصوف بصفات الكمال والعزة والقدرة والحكمة. أقسم **بالشمس**، وبكونها في وقت الضحى الذي يزداد ضوءها إشراقا عن وقت طلوعها.**وبالقمر** حالة كونه

تاليا للشمس غير مستقل عنها الا استقلالا ظاهريا.وأقسم **بالنهار** عندما يجلي الشمس أكمل جلاء. وأقسم **بالليل** عندما يغطي الشمس بظلامه. وأقسم **بالسماء** وبالخلاق العظيم الذي أحكم بناءها. وأقسم **بالأرض** وبالمتصرف فيها التصرف الذي جعلها به مساعدة للإنسان ليقوم بوظائفه عليها. وأقسم **بالكيان الإنساني** الذي ميزه من بين سائر الكائنات على وجه الأرض بتطويع خلقه ليكون خليفة فيها. وبتسويتها فجعلها مطوعة للتطور الجسمي والنفسي.ولتسير في طريق الخير أو في طريق الشر حسبما ما أودع فيها من القدرة على التمييز بينهما. هذه الأقسام تثبت وتؤكد أن من سار في طريق الخير، وطهر نفسه من الشرك، ومن الرذائل أنه قد نجح النجاح الكامل في الدنيا برضاه عن نفسه، وبحسن الثناء عليه. وفي الآخرة برضوان الله والجنة. وأن من لم يعتن بنفسه فأبقاها في ظلام الشرك،وتحت سجوف الشهوة والجري وراء اللذة العاجلة، واقتحام الشرور والموبقات ، أنه خسر وخاب في الدارين.

بيان المعنى العام :

1←8- والشمس و ضحاها...فجورها وتقواها.

افتتحت السورة بأحد عشر قسما. وهي بذلك أكثر السور تتابعا للأقسام، مما يشير لقوة الاهتمام بالمقسم عليه، ولتحريك المخاطبين للتعمق فيما تدل عليه.**1- والشمس – و2 ضحاها-3 والقمر إذا تلاها – 4 والنهار إذا جلاها -5 والليل إذا يغشاها -6 والسماء -7وما بناها – 8 والأرض -9 وما طحاها-10 ونفس-11وما سواها.**

1-**والشمس**- كان المقسم به أولا : **الشمس**.وحسب المجموعة التي يعيش فيها الإنسان نلحظ أن كوكب الشمس يمثل محور الحياة الأرضية.من الدفء إلى نمو النبات والحيوان. إلى حركة الرياح، إلى نزول المطر، إلى نشوء مصادر الطاقة النظيفة وغير النظيفة.هذا الكوكب المتوهج عندما ينطفىء يتجمد كل شيء، ويَعُمُّ الموت الكائنات الحية في كل مكان.

وضحاها – يشير القسم الثاني إلى تحول الشمس مرتفعة في مواجهة الأرض بتقدير محكم لحركة الأرض حول نفسها،فيتضح نورها وتبلغ أشعتها كل جزء بعد طلوعها بحوالي عشرين دقيقة. والقسم بالشمس وضحاها فيه إشارة إلى أن الإسلام يظهر نوره فيغزو بإشعاعه ظلام الكفر الذي عم العالم قبل البعثة المحمدية، وأنه سينتشر حتى يعم الكون.

2-**والقمر إذا تلاها** - يشير القسم الثالث إلى كوكب القمر إذا بدا في السماء، تاليا للشمس، ينبه قوله تعالى **[إذا تلاها]** إلى تبعية القمر للشمس، وأنه غير مستقل بذاته، فنوره حاصل مما يتلقاه من ضوء الشمس على سطحه. وهذا من الدقة القرآنية في التعبير التي توافق الحقيقة، قبل اكتشافها.وهو من الإعجاز العلمي.

3- **والنهار إذا جلاها** - يشير القسم الرابع إلى اكتمال إشراق الشمس بعد أن ارتفعت عن الأفق شيئا فشيئا، حتى تم جلاؤها على أكمل صورة. وهذا هو القانون الذي يتم به حدوث الأشياء.إن الأمور لها بدايات تكون مهيئة لما بعدها، ثم تتواصل حتى تستكمل جميع مقوماتها.فلا يهجم الإنسان على الغاية ليستولي عليها دفعة واحدة فذلك ينتهي به إلى الخيبة، ولكن يتابع التطور الذي يفضي به في النهاية إلى الصورة الكاملة. وهي قاعدة في التربية، وفي البحث، وفي السياسة، وفي المعرفة. وإلى هنا تمت الأقسام الأربعة بالشمس وحالات ضوئها المباشر والمنعكس، لتعتبر بهذا النظام المحكم الذي بنى عليه الخلاق أمر الكون، والذي يقوم شاهدا على التوحيد والكمال المطلق لله.

4-**والليل إذا يغشاها**- يشير القسم الخامس إلى ظاهرة تعاقب الليل والنهار. وأن قوة ضياء الشمس وكشفها للكون تنتهي إلى قوة أخرى أبدع عليها الخلاق النظام العام، فالليل يأتي ليستر ذلكم الضوء ويحجبه بصفة متتابعة ودقيقة عن نصف الأرض.

5-**والسماء** - يجمع هذا القسم السادس كل الأقسام السابقة ويضيف إليها ما تحويه السماء من النجوم والكواكب والمجرات. ففي السماء مجالات للتدبر والبحث، **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.**

وما بناها- هذا هو القسم السابع.وهو قسم بالذات الإلهية المتصفة بالقدرة وبالحكمة.فعالم السماء على تعدد مكوناته التي لا يستطيع الإنسان أن يحصي عددها، يدعو الإنسان ليواصل تأملاته فيه، والتي تمتد إلى ما وراء عمر الإنسانية كلها، كيف ارتبطت تلكم الكواكب ببعضها، وكيف تسير في مسارتها دون أن تتصادم، وسر ثبات كل واحد منها في مكانه الذي تجده مضبوطا بحساب دقيق يدلك على ما هو مرتبط به الارتباط الذي ثبته في موقعه. الذي بناها فأحكم بناءها هو الله رب العالمين.

6-**والأرض**- هذا هو القسم الثامن. إنه وإن كانت كتلة الأرض صغيرة بالنسبة للشمس مثلا، وبالنسبة للمجرات. إلا أن ما جرى فيها من دقيق الصنع، من ملاءمتها لحياة الإنسان والحيوان والنبات. وانقسامها إلى بحر ويابسة، وإلى جبال

وسهول، وإلى ما على ظهرها، وإلى ما يحويه باطنها من معادن وطاقات،وأثر ذلك في حياة الإنسان. الأرض حقيقة بأن يقسم بها وأن تلفت الأنظار إلى الحكمة في تركيبها ومقوماتها وموقعها في الكون.

وما طحاها. هذا هو القسم التاسع.يسرها ووطأها ليعيش الإنسان على ظهرها ويشتغل، وينجز حضارته.تلائمه وقت نشاطه، ووقت راحته.بين جاذبيتها وما خلق فوقها ملاءمة عجيبة. شاهدنا في سير المكتشفين للقمر وحياة الساكنين في الكبسولات الفضائية عندما انفلتوا من جاذبية الأرض، أن حياتهم كانت صعبة جدا. وأنه لولا المران وما يحملونه من أجهزة لاختل سيرهم ولم يثبتوا. فالذي بنى الأرض في جزئياتها وحسب قوانين مضبوطة، هو رب العالمين الحقيق بأن يعبد وأن ينسب الخلق إليه والتدبير.

7-**ونفس** – هذا هو القسم العاشر. أقسم الله بالنفس، الكيان الإنساني الشامل للجانب المادي والجانب الروحي والعقلي. الإنسان الذي استخلفه في الأرض،وهو خلق عجيب يدل على التقدير المحكم لخالقه.

وما سواها.هذا هو القسم الحادي عشر.والذي سواها هو الله العزيز الحكيم. ففي أي ناحية من نواحي الخلق الإنساني تعمقت وجدت أن في كل جزئية وإن ضؤلت تقديرا عجيبا، يحقق به الإنسان مهمته في الأرض.

فإن نظرت إلى الجانب المادي من الصورة العامة، إلى كل جهاز من الأجهزة التي تتفاعل فيما بينها ليؤدي الجهاز وظيفته، وليؤدي المجموع ما خلق له الإنسان، تجد تركيبه قد تم بكيفية مساعدة على أن يقوم بنشاطه في كون الله.في الخلية الأولى أسرار عجيبة، وفي انقسام الخلايا حسب وظائفها بعد ذلك لتقوم مع التكاثر والانسجام بينها في تطوير الجسم الإنساني، هي معامل بلغت من الدقة ومن الضبط أعلى مستوى يدل على كمال الإبداع الإلهي،الذي أراد أن تكون قوى الإنسان المادية مساعدة على البناء الحضاري.

والجانب الروحي والعقلي أعجب من الجانب المادي،فإذا كانت البشرية استطاعت أن تخضع الجانب المادي للتشريح والكشف، واستطاعت أن تجيب عن كثير من التساؤلات حول خلق الإنسان المادي، فإنها ما تزال بعيدة عن إدراك أسرار الجانب الروحي والعقلي. وهذا هو الجانب الأهم الذي ميز الإنسان عن الحيوان، وبه استحق الخلافة في الكون. وقد تقدم في الآية السابعة من سورة الانفطار ما يزيد توضيحا لما عرض هنا.

8-**فألهمها فجورها وتقواها.** الإلهام كما يقول الراغب : إلقاء الشيء في الروع، ويختص ذلك بما كان من جهة الله تعالى، ومن الملأ الأعلى. فالإنسان مؤهل بالفطرة التي فطره الله عليها إلى إدراك الخير وإدراك الشر، والتمييز بينهما. وتسوية النفس بخلق الاستعداد فيها لتبلغ بالتربية والمران،متطورة من إدراك الضروريات إلى وزن الأعمال والنوايا بميزان الخير والشر، والحسن والقبح. وهذا الإلهام بعضه من الخلقة، وبعضه من التعليم الإلهي بواسطة الرسل عليهم السلام. فالله قد عرفها طرق الخير والشر، وجعل للنفس قوة يصح معها اكتساب الفجور أو التقوى

10/9- قد أفلح من زكاها ... وقد خاب من دساها.

هذا هو المقسم عليه.توالت الأقسام لتثبت على أكمل وجه هذه الحقيقة : أن الإنسان مكلف وهو بين أمرين إما أن يغلب عليه عمل الخير، وإما أن يغلب عليه عمل الشر، وهو محاسب عما قدم مجزي عنه بالعدل. فهو إما أن يجتهد في تزكية نفسه، بتطهيرها من دواعي الشهوة، والأنانية، وتغليب العاجل، و يجاهد الواردات التي تأتيه من الباطن أو من الخارج لتميل به عن الصراط المستقيم، فيحمل نفسه دوما على التزام طريق الخير، وما يرضي ربه.وجميع المؤكدات السابقة تثبت أنه قد نجح وفاز بحسن العاقبة وبالجنة مثواه عند ربه، كما فاز في دنياه بشعوره بالرضا النفسي عن سلوكه، وأنه محصن من التأنيب الداخلي والخارجي .أخرج النسائي ومسلم في الذكر عن ابن عباس : أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: (**اللهم آت نفسي تقواها وزكها أنت خير من زكاها.أنت وليها ومولاها**).

وفي المقابل بكل تلكم الأيمان المغلظة فإن من اختار الشرك و أن يبقي نفسه سائرة في حمأة الرذيلة، ورضي لها أن تكون تحت ركام الشهوة،وحب اللذة العاجلة، ولم يعط للكمال النفسي حظا من سعيه، لقد خاب بكل تلكم الأيمان خيبة في العاقبة بدخوله جهنم، وخيبة في الدنيا بكونه من السفلة الفسقة).

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ فَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

بيان معاني الألفاظ :

بطغواها : بفرط كبرها وعتوها.

انبعث أشقاها : أغروه فانبعث لعقرها بنشاط وحرص.

أشقاها : اشدها شقاء.

ناقة الله : احذروا إذاية ناقة الله.

وسقياها : احذروا غصب نوبتها في السقي.

فعقروها : فنحروها.

دمدم : أطبق عليهم العذاب فأهلكهم.

عقباها : ما يحصل عقب فعل.

بيان المعنى الاجمالي :

واجهت قبيلة ثمود رسولها صالحا بالتكذيب، وذلك لما تأصل في نفوسهم من الكبر والطغيان. وطلبوا من رسولهم آية فبعث الله لهم ناقة لم تولد حسب الطرق المعهودة، وأمروا أن يقاسموها الماء، وأن عليهم أن لا يمسوها بسوء، كما بسط في سورة هود.فكذبوه أن تكون الناقة معجزة، وأغروا أشقاهم ليتولى عقرها فتقدم بكل حرص فعقرها.فأرسل الله عليهم صيحة بعد ثلاثة أيام أهلكتهم ولم ينج منهم أحد. والله إذا نفذ عقابه فلا يتصور من المعاقب أن يقوم بالثأر.

بيان المعنى العام:

11- كذبت ثمود بطغواها.

جاء في الآية السابقة: **أنه قد خاب من دساها،** جوابا للقسم داخلا في التأكيد، ثم أضاف ما يحقق ذلك بما عاقب الله به ثمود.والسورة تهدف إلى تهديد مشركي مكة بأنهم سيلقون جزاء تكذيبهم لرسول الله ﷺ ولصدودهم عن الإسلام.وإن في كتاب التاريخ ما انتهى إليه أمر أمثالهم المكذبين المتحدين للرسل، كما تم لثمود فما الذي وقع لثمود ؟

قابلت دعوة رسولهم صالح عليه السلام بتكذيبه، أن يكون مرسلا من ربه.كذبوه لا لأنهم وجدوا في هدايته ما لا يقبله العقل، أو أنه خالف اليقينيات ؛ ولكن كذبوه بسبب طغيانهم وكبريائهم. كما كذبت قريش محمدا ﷺ لنفس السبب فقالوا : **(لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)**[1]

12-إذ انبعث أشقاها.

فصلت الآية شدة كبريائهم، وعظيم طغيانهم، إذ بعثوا أشقى القبيلة،أبلغها شقاء، قالوا: إنه قدار بن سالف. أثروا عليه وأغروه بمختلف المغريات ليريحهم من الناقة

[1] سورة الزخرف آية 31

المعجزة التي كانت تنفرد بشرب يومها.رغم تحذير رسولهم عن أن يمسوها بسوء. وغسلوا دماغه من تحذير صالح حتى اندفع بكل جرأة لتنفيذ ما انتدبوه إليه من عقر الناقة.

13-فقال لهم رسول الله ناقة الله وسقياها.

تفصيل لقوله تعالى: **كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث أشقاها.** حذرهم رسولهم أن يؤذوا الناقة فيمسوها بسوء، أو أن يحولوا بينها وبين يوم شربها ويستولوا عليه لشرب أنعامهم. إذ هي ناقة الله، باعتبار أنه جعلها معجزة لصالح على أنه مرسل من ربه. فيكون التكذيب قد صدر منهم مرتين : في المرة الأولى عندما بلغهم ما أرسل به، فكذبوه.فأخبرهم أن الله قد بعث لهم الناقة معجزة ، تنفرد بشرب يوم معلوم فكذبوه، ونفوا أن تكون معجزة وآية له، وتجرأوا بالتأثير على العاقر. فَعُقِرَتْ الناقة ونسب الفعل إلى جميعهم وإن كان قد صدر من أشقاهم لأنهم شاركوا في الجريمة.

14-فكذبوه فعقروها فدمدم عليهم ربهم...فسواها.

عاجلهم العذاب إثر قتلهم للناقة، وكان عذابا مطبقا لم ينج منه أحد.وقد فصلت سورة هود ما لحقهم قال تعالى: **(وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود 68/67)** فمن راعى النتيجة قال : إن معنى دمدم أطبق عليهم العذاب فاستأصلهم. ومن راعى أن العذاب كان بالصيحة قال : إن معنى دمدم هزهم بصيحة تتجاوز قدرات احتمالهم فاستأصلتهم.وكان هذا العقاب بسبب ذنوبهم، تكذيب الرسول، والجراءة على المعجزة.وأن المعذبين استووا في العقاب من عقر الناقة، ومن أغراه بذلك، ومن كذب صالحا. وفي ذلك تهديد لقريش أن تصلبهم في الكفر وتكذيبهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم والطعن في القرآن المعجزة سيفضي بهم إلى عذاب ساحق.

15-فلا يخاف عقباها.

هزموا واستؤصلوا وأطبق عليهم العذاب، ولا مرد له. وربك لما سلط عليهم عقابه استأصلهم لم يبق منهم أحدا، يتصور منه أن يأخذ بثأرهم. فالتعبير تمثيل لما كان عليه العرب في عاداتهم : أنهم إذا هزموا يتفاعل الغيض في صدورهم وتغلي به فلا يهدأ لهم بال حتى يأخذوا بالثأر.ولكن أخذ ربك لم يبق منهم أحدا فجسم الاستئصال الشامل بأنه لا يخاف عاقبة استئصالهم.

يوم الثلاثاء 28 ذو القعدة 1435 2014/9/23

سورة الليل

سميت هذه السورة بسورة الليل في معظم المصاحف. وبعض كتب التفسير. وسميت في معظم كتب التفسير "سورة والليل" وعنونها البخاري والترمذي "سورة والليل إذا يغشى" ويرى الجمهور أنها مكية،وروي أنها مدنية، أو بعضها مدني وبعضها مكي.

وهي السورة الثانية والتسعون حسب ترتيب المصحف.وعدت التاسعة حسب ترتيب النزول.نزلت بعد سورة الأعلى وقبل سورة الفجر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ
﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ
بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ
إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ:

يغشى : يغطي بظلمته.

السعي : العمل الجاد.

شتى : متنوع ومختلف بالنظر إلى ما يصحبه من نية،وإلى مآلاته.

التيسير : نطوعه بكل سهولة.

اليسرى : ما هو ملائم بدون مشقة ولا تعب.

ما يغني : ما يفيده.

تردى : سقط في حفرة القبر، أو في قاع جهنم.

بيان المعنى الإجمالي :

افتتحت الآية بثلاثة أقسام : **بالليل** عند اشتداد ظلامه،**وبالنهار** عندما يجلي الكون فيظهر ما كان مستورا بظلام الليل.و **بالله** الخالق للجنسين الذكر والأنثى. والمقسم عليه تأكيد إثبات ان سعي البشر مختلف في واقعه وفي عاقبته.

ثم فصل هذا الاختلاف إلى نوعين :

النوع الأول :من جمع أوصافا ثلاثة تميز بها :

1- أنه يجود بالخير من ماله ومن بدنه ومن منطقه.

2-أن تقوى الله قد تمكنت منه. فصلته به حية مشعة في باطنه وظاهره.يربط نواياه بما يرضي الله، ويربط سلوكه بما يرضيه أيضا.

3- أنه مصدق بما بلغه من وعد الله للمحسنين.

ثم صرح القرآن بعاقبة اتصافه بهذه الثلاثة: أن الله سيجعل بينه وبين الخير سببا موصولا،وسيعينه بألطافه، فتكون الطاعة محبوبة عنده، راجحة في اختياراته. وتصدر عنه الطاعات دون أن يجد من نفسه مقاومة.

النوع الثاني : من جمع أوصافا ثلاثة أيضا :

البخل : شحيح بالمال، راغب عن عون الناس، طاغية أنانيته.

استغناؤه عن مدد الله : قطع تعلقه بما عند الله، ظانا أن ما جمعه بين يديه من مال وجاه وبنين، يكفيه لتحقيق سعادته.

تكذيبه بالجزاء يوم القيامة. متعلق بالدنيا وحدها، يعتقد أنه منقطع عما بعد ذلك، لا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار.

ثم صرح القرآن بعاقبته : يحرمه الله من ألطافه،فتفسد نفسه ويعسر عليه فعل الخير، ولا تطاوعه للطاعة وعمل الصالحات.

وسوف لا ينفعه ماله ولا ما تقوى به يوم يموت ويرمى في حفرة قبره، ولا يوم يرمى به في جهنم.

بيان المعنى العام :

1←3 -والليل إذا يغشى...والأنثى.

هذه السورة هي السورة الرابعة من السور المتوالية، المفتتحة بالقسم.أقسم أولا **بالليل إذا يغشى** ، وثانيا **بالنهار إذا تجلى**، وثالثا بالذي **خلق الذكر والأنثى**.

1-أقسم **بالليل** في وقت شدة ظلامه عندما يلف الكائنات جميعها ويسترها عن الأبصار. وأطلق الغشيان ولم يقيده بمفعول خاص ليفيد عموم آثارظلامه في الكون.فيشمل الشمس والنهار وكل شيء يواريه.

وافتتحت **بالشمس وضحاها** السورة السابقة، وهذه **بالليل إذا يغشى** مراعاة لوضع العالم وقت نزول السورة، فهذه هي التاسعة، والمؤمنون بدين الإسلام قلة.والكفر الذي هو ظلام في العقيدة وفي التصور، منتشر ظاهر.وسورة الشمس هي السادسة

والعشرون. بينهما من الزمن ما حول عـددا غيـر قليـل مـن المشـركين إلـى اعتنـاق الإسلام،فأشرق نوره كما تطلع الشمس في الأفق.

2- **والنهار إذا تجلى**. والقسـم الثـاني بالنهـار فـي الوقـت الـذي يجلـي الكائنـات، ويمكن الأبصار من مشاهدتها. وفي القسم بهما وهما مظهـران، مـا يلفـت الأنظـار إلـى نظامهما، ويحث الفكر على التعمـق لإدراك أسـرارهما، وقوانينهمـا.فينتهـي بـذلك إلـى اليقين الأيقن بحكمة الباري وقدرته.

3- **وما خلق الذكر والأنثى**. تفهم الآيـة علـى أن الله أقسـم بذاتـه الفاعلـة فـي خلـق الجنسين في عالم الحياة.أي والله الذي خلق الذكر وخلـق الأنثـى.كمـا يمكـن فهـم الآيـة على أن القسم هو بظاهرة خلـق الـذكر والأنثـى قاعـدة للتكـاثر فـي الحيـاة. وعلـى الوجهين هو ظاهرة لكمال التقـدير والحكمـة بهـا يتواصـل وجـود الإنسـان والحيـوان وحتى النبات .كشف العلم عن بعض تلكـم القـوانين، ومـا زالـت جوانـب غيـر قليلـة خفية، يقوم ما ظهر وما خفي منها على قاعدة أن كـل شـيء فـي هـذا الكـون مراعـى فيه الدقة البالغة، وأنه لا أثر للمصادفة.وكل ذلك مستند إلـى الخـلاق العلـيم يشـهد بـأن الكل من خلقه وتقديره.

4-**إن سعيكم لشتى**. هذا هو المقسم عليه. مـا تبـذلون فيـه جهـودكم، وتقصـدون إلـى إنجازه متنوع، على حسب ما تبينه الآيات التالية.فليست القيمـة فـي العمـل، ولكـن فـي نوعيته وما يصحبه من قصد.وبهذا تميز العمل الإنسـاني عمـا يصـدر عـن الحيـوان أو عن الآلة. و لا تظهر قيمة ذلك إلاّ بالإيمان بالبعث.

5←11- فأما من أعطى واتقى...إذا تردى.

بينت هذه الآيات وفصلت مـا ألمـع إليـه قولـه تعـالى : **إن سـعيكم لشـتى**.وانقسـم العاملون إلى نوعين أساسيين:

الفريق الأول : **من أعطى واتقى وصدق بالحسنى**. هذه ثـلاث صـفات تميـز بهـا هـذا الفريق.

5- قوله : أعطى لم يذكر لـه مفعـول، وحملـه كثيـر علـى أن المقصـود بـه المـال الواجب إنفاقه كالزكاة. والأولى حملـه علـى إعطـاء مـا هـو قربـة لله مرغـب فيـه. كالكلمة الحسنة، وبث العلم، وعون العاجز.ونحو ذلك مما هـو مـن سـعي الإنسـان فـي الخير، وبذلك يرتبط الكلام بمنطلَقه : **إن سعيكم لشتى**.

وكذلك : واتقى لم يذكر له مفعول، وينصـرف إلـى الله " اتقـى الله : وهـو عبـارة عـن استحضار الرقابة الإلهية على قصوده وأفعاله،استحضـارا يتبعـه الخشـية مـن ربـه أن يراه حيث نهاه أو يفقده حيث أمره. وأنه يعلم حقيقة ما يجري في باطنه من النوايا.

6- والصفة الثالثة : أنه **صدق بالحسنى**.أنه تلقى الوعد الذي فصله القرآن عن عاقبة فاعل الخير عقيدة وعملا، تلقاه مصدقا له جازما بأنه وعد لا يخلف، فهو يعيش آملا في الكرامة التي سيتفضل بها عليه رب العزة يوم القيامة.

7- **فسنيسره لليسرى**.هذا جزاء من جمع الأوصاف الثلاثة : أن الله يسعفه بألطافه، فيكون فعله للخير وما يرضي الله محبوبا له، وينعقد بينه وبين الصلاح إلْف به يندفع نحوه بكل يسر. يطوع الله نفسه ليقبل على الطاعة، ويجعلها تشمئز من المعصية.فكلما حضره الاختيار يجد نفسه أقرب إلى الخير. وبالتالي يكون جزاؤه الجنة، وقد فسر مجاهد وزيد بن أسلم اليسرى بالجنة. وهو بيان للعاقبة النهائية.

الفريق الثاني :جمع أوصافا ثلاثة منا قضة لأوصاف الفريق الأول. بخل-استغنى كذب بالحسنى-

8- الوصف الأول :"البخل" لشدة تعلقهم بالمال. وهذا شأن الكفرة يستولي حب المال عليهم فتضيق آفاقهم في حدوده.ويتحجرون فلا تسمو هممهم إلى الفضائل. وحتى إن اكتسبوا ما ظاهره خير،فإن دوافعهم النفسية هابطة.

الوصف الثاني "الاستغناء" ومعنى الاستغناء فقدانه للرابطة التي تربطه بالله.فيظن نفسه مكتفيا بما أوتيه من مال وبنين ومن متاع الحياة الدنيا.فهو لا يأمل في ثواب، ولا يخاف من عقاب.

9-الوصف الثالث:" التكذيب بالحسنى".ينفي نفيا قاطعا نعيم الآخرة.والجزاء يوم الحساب. و بذلك فقد الدوافع نحو عمل الخير.وضاقت حياته في الأيام القليلة التي يعيش فيها ما بين ولادته وموته.

10- **فسنيسره للعسرى**. نحرمه ألطافنا، ونتركه لنفسه لا نسعفه بالتأييد والهداية.إن النفس تألف ما تعود عليه الإنسان في أعماله واختياراته.فمن تعلق بالفضيلة وعمل بها، وتكررت منه هذه الطريقة، وجد فعل ما هو خير متفقا مع ذاته، سهلا عليه إتيانه، منسجما مع ميوله.فييسر له الله ما هو خير، ويجد ما يخالف منهجه السابق صعبا عليه عسيرا تنفر منه نفسه، فلو أراد الشر لحَمّل نفسه عكس ما تعودت عليه، وبالتالي تجده شاقا عليها، يحتاج إلى جهد ومعاناة.

وبالعكس فإن من تعود القيام بما هو شر،فإنه يجد في الشر والإثم راحة نفسية، وميلا موافقا لهوى نفسه.ويقبل على الإثم والمعصية دون أن يجد اشمئزازا أو انحرافا عن ذلك. فيكون ارتكاب الخطيئة والفساد موافقا لهوى نفسه، ميسرا عليه. خذ لذلك مثلا : من تعود أداء صلاته في أوقاتها،فإن نفسه تنشرح بمجرد ما يسمع

داعي الله إلى الصلاة، ويسرع إليها طيبة نفسه يجد في أدائها لذة ومتعة. وبالعكس من كان مهملا لأدائها، ولا يذكر الله إلا قليلا، فإنك تجده يشمئز من سماع الأذان يتثاقل، ولا تطاوعه نفسه المنبتة عن التقرب إلى الله للقيام بها بنشاط، وإن أداها قام بها متثاقلا.قال تعالى : (وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس)[1] وقال تعالى: (ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون)[2]

11- وما يغني عنه ماله إذا تردى.افتتحت الآية بكلمة [ما] ويمكن فهمها على أنها نافية. فيكون المعنى : إنه تعلق بالمال وحسب أن الخير مرتبط به.سيتبين فساد وهمه يوم يموت فلا يجد من ماله إلا الكفن الذي يواري جسمه، وينفصل عن ماله انفصالا بدون عودة. أو يوم يسقط في جهنم وتأخذه كلاليبها فلا ينفعه ماله.

ويمكن فهم الآية على أن ما استفهامية إنكارية. والمعنى :أي شيء يفيده ماله يوم يموت أو يوم يتردى ساقطا في جهنم؟

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

بيان معاني الألفاظ:

تلظى : تلتهب.

يجنبها : يبعد عنها.

المال : ما يختص به الفرد من الأشياء التي ينتفع بذاتها أو بما تدره من الغلة.

ابتغاء : طلب مع جد.

وجه : ذات.

بيان المعنى الإجمالي :

تكفلنا بمساعدة البشر على اتباع طريق الهدى بما غرسنا فيهم من قوى الإدراك المميزة بين الخير والشر، وبما بعثنا لهم من رسلنا المحملين بوحينا. وملك ثواب الدنيا والآخرة لا يشاركنا فيهما أحد، فمن تفتح عقله للخير وحمل نفسه على ما

---

[1] سورة النساء آية 142

[2] سورة التوبة آية 54

يرضينا أحطناه بألطافنا وأسعفناه بتأييدنا في الدنيا وبالثواب في الآخرة. وقد أنذرتكم عذاب نار لاهبة لتتوقوها. هذه النار التي لا يصلاها فتحرق كل جزء من أجزائه إلا الأشقى الذي جمع إلى تكذيب رسولنا، إعراضه عن كتابنا.وقررنا أن يكون بعيدا عنها الأتقى الذي من صفاته أنه ينفق ماله فلا يشح به ويسهم به في النفع العام رغبة في أن تسمو نفسه عن الشح، وأن تقترب من رضا ربها.ينفق ماله لا وفاء بدين في ذمته لمن قدم له إحسانا، ولكن رغبة صادقة وطلبا لنيل رضوان الله العلي الأعلى.ونبشره بأنه سينال ما يرضيه فلا تتوق نفسه إلى شيء وراء جزائنا.

بيان المعنى العام :

11- إن علينا للهدى...والأولى.

ورد في ختام قصة آدم في سورة البقرة قوله تعالى، لما أمرهم بالخروج من الجنة، وأن ينزلوا إلى الأرض: **(قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون)**[1] فهو وعد من فضل ربنا سبحانه أنه سينزل هداه ويبلغه إلى البشر، ليتبعوا ما أنزل إليهم، ووعد الله محقق لا يخلف.فقوله تعالى : **إن علينا للهدى** تصريح بما أوجبه الله على نفسه تفضلا منه من عون البشر على إدراك الهدى. وذلك بما أودعه فيهم من عقل يدرك الصلاح والفساد على وجه يتم به انتظام أمر الحياة، ثم ما عزز به ذلك من بعثة المرسلين يكشفون عما يمكن أن يخفى على العقول كأمر الثواب والعقاب،ويدفعون الضلالات والأوهام التي تلقيها الشهوات.وبهذا تكون الآية متصلة بالآيات التي تقدمت من تصنيف الناس إلى صنفين.فكل صنف نال عاقبته باتباعه لهدي الله المنزل أو بتكذيبه والانحراف عنه.

13– وما مكن الله منه البشر لما استخلفهم بما أودع في فطرهم، وما رزقهم من عقل يساعدهم على حسن القيام فيما استخلفوا فيه ليس واجبا على الله بموجب خارجي.ذلك أنه سبحانه هو المالك للحياة الدنيا يفعل فيها ما يشاء لا راد لحكمه، ولا معطل لقضائه . وكذلك الآخرة هي ملك له.فالهداية فضل الله على عبيده يمكن منها من عرض نفسه لنولها.

فأنذرتكم نارا تلظى.. وتولى.

تضمنت الآية السابقة أن الله تفضل بتمكين البشر من الهداية المنجية.وأضاف إلى ما تفضل به من عقل مرشد إلى طريق الهدى، ومن وحي على طريق رسله يتم

[1] سورة البقرة آية 38

المنهج وينفي عنه ما ليس منه. أضاف هذا الإنذار ليتيقنوا أنهم إن أعرضوا عن هدايته فإن مآلهم النار التي تلتهب من شدة الاشتعال.

16/15-لايصلاها إلا الأشقى الذي كذب وتولى.

من صفة هذه النار أنها لا تطبق على أحد فيصلى لهبها، ويقاسي حرها كل جزء منه، إلا الأشقى. فهي نار خاصة أعدت له. ومن هو الأشقى؟ الأشقى أولا هو الذي كذب محمدا في أنه رسول الله إليه، وأن ما أنزل عليه هو من عند الله.وثانيا أعرض عن القرآن وتولى مبتعدا عن التأمل فيه.وإذا تأملت تجد الآية لا تنطبق وقت نزول الوحي إلا على الكفرة في مكة الذين اجتمع فيهم التكذيب والتولي.وصمموا على عدم سماعه قال تعالى: **(وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)**[1]

18/17- وسيجنبها الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى.

ترعد الآية السابقة القلوب بما وصفته من عنفوان النار.نقل القرطبي عن مالك قال: صلى بنا عمر بن عبد العزيز المغرب، فقرأ: **والليل إذا يغشى**، فلما بلغ **فأنذرتكم نارا تلظى** وقع عليه البكاء، فلم يقدر يتعداها من البكاء، فتركها وقرأ سورة أخرى.ج20ص87/86 كان لوقع هذه الآية من الشدة ما نقله مالك رضي الله عنه.ولذا أعقبها القرآن ببشارة المؤمنين الأتقياء.أن الأتقى المتصف بكمال التقوى بعيد عنها كل البعد، كما جاء في قوله تعالى: **(إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون* لا يسمعون حسيسها وهم فيما اشتهت أنفسهم خالدون)**[2]
ووصف الأتقى وصفا يحدد بعض ملامحه فقال: إنه الذي يهون عليه الإنفاق مما آتاه الله من المال كل همه أن يكون مقامه ساميا عند ربه، وأن يتزكى فيتطهر بما ينفقه من الشح، ومن الخوف من الفقر. وأن ينمو فيه جانب الخير والإيثار. فهو ينفق ماله رغبة في رضوان الله، لا يصحبه رياء ولا فجور.

19←21: وما لأحد عنده...ولسوف يرضى.

ومن ملامحه أيضا أنه يؤتي ماله،لا في مقابل نعمة سابقة هو مدين بها راغبا في قضائها، و جزاء صاحبها، ولكن يقوم بذلك طلبا في رضوان الله. فقوله: **وجه ربه الأعلى**، أي رضوان ذات ربه الأعلى.

---

[1] سورة فصلت آية 26

[2] سورة الأنبياء آية102/101

وذهب معظم المفسرين إلى أن هذا الـنمط الرفيـع مـن البشـر مقصـود بـه أبـو بكـر الصديق رضـي الله عنـه، لمـا أعتـق بـلالا ﷺ بعـد أن اشـتراه مـن مالكـه. فقـال المشركون : إن لبلال يدا عند أبي بكر فـأراد أن يجزيـه بشـرائه ثـم عتقـه، فـأنزل الله ما يكذب ادعاءهم. والآية عامة وإن شملت أبابكر رضي الله عنه شمولا أوليا.

وقوله تعالى : **ولسوف يرضى** تحقيـق أن سـيجزى الثـواب بكيفيـة ترضـيه، حتـى لا يكون له وراء ما يناله أي مطمح.

*وهذه السورة آخر سورة من سور وسط المفصل.

يوم الأحد4 ذو الحجة 28 سبتمبر 2014

سورة الضحى

بهذا الاسم عرفت في المصاحف وفي كثير من كتب التفسير، وسميت في صحيح البخاري وفي بعض كتب التفسير (سورة والضحى) بإثبات العاطف. وهي سورة مكية باتفاق.

وهي السورة الثالثة والتسعون حسب ترتيب المصحف.وعدت الحادية عشرة حسب ترتيب النزول نزلت بعد سورة الفجر،وقبل سورة الانشراح.

وهي أول سورة في قصار المفصل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَٱلضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

سجا : امتد وجمع ظلامه.

ودعك : فارقك بقطع الوحي عنك.

القلى : البغض الشديد

بيان المعنى الإجمالي:

أقسم الله بقسمين، **بالضحى** وقت ارتفاع الشمس عن مشرقها بما يظهر نورها. **وبالليل** عندما يمضي منه زمن يشتد فيه ظلامه وتهدأ الحركة.والمقسم عليه أن منزلة رسول الله ﷺ من ربه هي منزلة القرب، فربه لا يتصور معه أن يتركه ولا أن يبغضه.وفي هذا رد وتسفيه لما قالته امرأة أبي لهب أن الله ترك رسوله وأبغضه، لما لم يقم ليليتين أو ثلاثا لمرض أصابه. ويؤكد الله لرسوله أن ما سيناله في المستقبل خير مما تحقق له من قبل. وأن الله سيوالي تكريمه لرسوله، والتفضل عليه، فيعطيه عطاء لا محدودا من كل خير، فينتهي به الأمر إلى الرضا عما يؤتيه ربه، ولا تتعلق نفسه الكريمة بشيء وراء ما أعطاه ربه.

بيان المعنى العام :

3/2/1-والضحى والليل...وما قلى.

افتتحت السورة كسابقاتها بالقسم.فأقسم أولا بالضحى، وثانيا بالليل إذا سجى.

1-وقد تقدم القسم بالضحى الذي هو الوقت الذي تعلو فيه الشمس عن أفق شروقها، وينتشر ضوءها في الكون المقابل لها. وبين الضحى والظرف الذي نزلت فيه الآية تناسب.إذ كان نزولها في الفترة الأولى من تلقي النبي صلى الله عليه وسلم لمشارق الأنوار من الوحي.

2-وكذلك القسم بالليل الذي أكد القرآن خاصيته بشدة ظلامه وامتداده. فهو لا يقسم به عند قدومه ولكن بعد مرور زمن نتحقق فيه آثاره من سكون الناس والأصوات. ومنا سبته للظرف أنه الظرف الذي فتر فيه الوحي لحكمة.ففتور الوحي مثل الليل الذي تسكن فيه الكائنات فيقل نشاطها.

3 -**ما ودعك ربك وما قلى**: هذا جواب القسمين، ما تركك ربك قاطعا عنك أرسال وحيه، فهو ربك الذي اختارك لإبلاغ هدايته للعالمين، وهو سبحانه حكيم،فإذا كان قد اعتنى بك حتى بلغت المستوى الرفيع الذي أنت عليه ؛ فإن كونه ربك ليؤكد أنه : لا يتركك. تعالى ربك أن ينقض ما صنعه معك من تأييد وحسن رعاية.

وما قلى: وبكل تأكيد بالقسم أيضا ، ما قلى.أي ما كان من ربك نحوك بغض شديد بل أنت حبيبه ومجتباه. ومما يزيد المعنى وضوحا، ما رواه البخاري بسنده إلى جندب بن سفيان البجلي رضي الله عنه قال :(اشتكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يقم ليلتين أو ثلاثا. فجاءت امرأة فقالت : يا محمد ! إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا، فأنزل الله عز وجل : **والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى**فتح الباري ج10ص339) والمرأة هي أم جميل امرأة ابي لهب.ومن فصاحة القرآن أنه لم يذكر ضمير قلى فلم يقل: قلاك. تلطفا مع رسوله فلا يظهر ضميره الكاف المعبر عن ذاته صلى الله عليه وسلم إثر فعل يفيد البغض.

4- وللآخرة خير لك من الأولى.

أضاف إلى ما أقسم عليه أن قطع الوحي عنه، وكذا البغض مما لا يتصور وهو منفي كل النفي عن الرسول ﷺ ، فثنى بوعد كريم من مستتبعات ما نفي بالقسم، ومؤكد للتكريم والعناية الخاصة حاصله : أن التقدير الإلهي قد تم على أن العناية

الإلهية بك يا محمد والألطاف المتتابعة عليك سيكون من آثارها : أنك تنتقل من وضع إلى وضع أرفع منه وأفضل، وأبلغ تكريما وثوابا.فإذا قارنت وضعك اليوم بيوم اتصالك بأول وحي تجد نفسك قد ارتقيت في معارج الكمال، وأن ذلك سيتواصل معك في الدنيا بالنصر على أعدائك يوم بدر وما تلاه وبفتح مكة،وبانتشار الدين ودخول الناس فيه أفواجا، وبفتح الممالك والأقطار، وأن خاتمتك وجزاءك سيكون يوم القيامة أعظم.

5- ولسوف يعطيك ربك فترضى.

تصريح بما أفادته الآية قبلها، وللآخرة خير لك من الأولى. فبكل تأكيد أن الله قدر لك من العطاء الشامل غير المحدود ما ستناله من ربك الذي تولاك برعايته المتواصلة، ما تبلغ به درجة الرضى الذي لا مطمح وراءه، ولا مطلب يتصور زائدا على ما نلته من فضله وتكريمه.وفي هذه الآية حذف مفعول يعطيك، ليعم العطاء كل ما يمكن أن يتعلق به مما يخطر على البال وما لا يخطر.

أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾
فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ :

آواك: كفلك وكفاك الحاجة.

ضالا: متحيرا فيما عليه قومك.

عائلا: فقيرا.

فحدث: فأخبر ولا تكتم.

بيان المعنى الاجمالي :

يتأكد الوعد الكريم : أن الآخرة خير من الأولى، وأن ما يستقبله أفضل مما مضى، بتذكيره بما أجراه عليه من النعم والرعاية، من يوم خلقه. قدر أن يعيش يتيما فاقدا للأب الحامي والأم الحانية، فتولاه سبحانه برعايته وأحاطه بسحائب ألطافه فكان تحت رعايته، ويسر له من قلوب الذين ربي في حجرهم من العطف والتقدير ما نشأ به عزيزا.ووجدك في حيرة من أمر قومك، تشمئز من قيمهم التي هم عليها، وتتساءل ما هو الطريق للخروج من هذا الانحراف، فهداك ربك بما أنزل عليك من وحيه، وما حماك به من الشرك.ووجدك فقيرا فأغناك،عَمّرَ قلبك بعدم الالتفات إلى مطالب الدنيا، فكنت لا تشعر بالخصاصة لترفعك عن المطالب المادية، وأغناك

بما لاءم به بينك وبين خديجة رضي الله عنها فكنت شريكها في سعة مالها، تستفيد هي من نباهتك وتوفيقك، وتستفيد أنت من رأس المال الذي تعمل فيه.

تخلق مقتبسا من صفات ربك العلي، وقابل تلكم النعم بالجري على منوالها.فأما اليتيم فأكرمه ولا تقهره بالاستيلاء على ماله أو التقطيب في وجهه أو احتقاره.وأما من جاء سائلا ما رزقك الله من فضل فكن به رفيقا، أعنه إن وجدت ولا تزجره بما يجرح كرامته. لا تكتم ما تفضل الله به عليك، واذكره متحدثا به شاكرا لربك على ما أنعم.وليكن هذا شان أمتك يشكرون نعم ربهم عليهم مع الحذر من الرياء.

بيان المعنى العام :

6- ألم يجدك يتيما فآوى.

أفادت الآية السابقة رعاية الله لنبيه في الحاضر والمستقبل، وأنه بمنزلة رفيعة عند ربه ينقله من مقام شريف إلى مقام أرفع منه حتى يختصه بالفوز الأكبر والمنزلة السامية سموا لا يبلغه غيره يوم القيامة.وأكد هذه العناية بتذكيره بمتواصل الإمداد الذي صاحبه من أول مراحل حياته الشريفة.وأن ما وعدتك به يؤكده ما سبق من رعايتي لك أفضل رعاية، مما يدل على أن تقلبه في أطوار حياته تنبئ بأن ذلك لم يكن مصادفة، ولكن كان منهجا مقصودا من رب العزة. وفي هذا ما يكبت المشركين الذين يضيقون بتنويه القرآن برسول الله ﷺ. يقول الله لنبيه معلنا عن طريق السؤال التقريري الذي ليس له إلا جواب واحد، وهو الإقرار بصدق مضمون السؤال. ألم ألفك يتيما، مات أبوك قبل أن تلدك أمك، ثم ماتت أمك وأنت ما تزال في طور الطفولة الباكرة، ثم كفلك جدك الذي كان يرى فيك من مخايل النبل والكمال ما جعل عطفه عليك يبلغ من الحنو والعطف والرحمة والحب ما عوضك ما فقدت من عواطف الأبوين، وما إن مات حتى أسرع عمك بضمك إلى أسرته، وكان معتزا بك حاميا لك.فهذه رعاية إنسانية طوع الله لها قلوب أسرتك لتنشا عزيزا عالي الهمة غير منكسر النفس بفقد اليتم، وكذلك كنت فقد ألقيت في روحك أنك تستند في حياتك إلى ساحة عنايتي، وآويتك إلي، وإن كان هذا الإحساس لا يتمثل في وحي، ولكن في وجدان داخلي سما بك منذ صغرك إلى الكمال الإنساني.

7-ووجدك ضالا فهدى.

إياك أن تفهم أن النبي ﷺ كان ضالا عن الحق متبعا للباطل، فقد عصم الله أنبياءه ورسله من الشرك، فما ارتابوا يوما أن مبدع الكون ومُسَيِّرَه هو الله رب العالمين.وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم في حيرة مما عليه قومه، تجد روحك الطاهرة تنفر مما هم عليه، ولا تدري كيف تقومهم وتدلهم على الصراط المستقيم.

وقد كان يتحنث في غار حراء في هدأة الليل والنهار، يتطلع إلى الحق الذي غشاه قومه بخيالاتهم وضلالاتهم. كيف يخرجهم من ذلك الركام. وكما كان رافضا للأصنام، فكذلك كان في سلوكه طاهرا تنفر نفسه الزكية من الفواحش. وما عرف عنه زلة في حياته قبل النبوة، بدليل أن قريشا وهي حريصة كل الحرص على أن تجد منه زلة تقارعه بها فقمعها صفاء سلوكه.بل إنه ﷺ تحداهم قال تعالى : **(فقد لبثت فيكم عمرا من قبله أفلا تعقلون)**[1]

8- ووجدك عائلا فأغنى.

لم يترك له أبوه ولا أمه فضلا من المال. وشأن الفقر أن يعض على المحتاج ويسلك به مسالك ما كان ليرضاها لولا الفقر. ولكن عناية الله برسوله أغنت قلبه أولا فليس لمباهج الحياة وزن عنده، ولا حظ من الاعتبار. وثانيا فبعد رعاية جده وعمه، هدى الله خديجة لتشاركه في تجارتها،ثم تتزوجه فما عضه الفقر بنابه ولا أخضعه.

9- فأما اليتيم فلا تقهر.

بعد التصريح بالنعم التي أنعم بها على رسوله ﷺ ، أضاف لذلك ما يرشده إلى أن يتخلق بأخلاق الكمال التي هي من صفات رب العزة.فكل ما تقدم هو من عند ربه. تولاه يتيما وأكرمه ويسر له ما يسره ليحفظه من ذل اليتم، فكن يا محمد ولتكن أمتك متخلقة بخلقك : أن اليتيم الذي لا سند له، يجد سنده في رفيع خلقك وخلق المسلم فلا يقهر، لا بالاستيلاء على ماله، ولا بإذلاله. ولا بمخاطبته بما يجرح كرامته، ولا بالتقطيب في وجهه نفرة منه.وذلك في مقابلة قوله تعالى : **ألم يجدك يتيما فآوى.**

10- وأما السائل فلا تنهر.

السائل هم المتحير في وضعه الذي يطلب العون ليتجاوز أزمة حيرته.فقد يكون السائل سائل رفد مادي يخرجه من الحاجة للطعام أو الكساء.وقد يكون متحيرا من تشابه المسالك عليه فهولا يهتدي إلى الطريق الذي يصل به إلى مقصوده ضال للطريق، وقد يكون السائل من تحير في معرفة وجه الصواب في الحكم الشرعي أو عرضت له شبهة في مجال العقيدة، كل هؤلاء وأمثالهم يتوجهون إلى من عنده ما يساعدهم على الخروج من أزمتهم، وأنت قد من الله عليك فأعطاك ما تسعد به السائل، فقم بواجب المساعدة، وأول مراتبها أن لا تنهر السائل وتزجره ليبتعد

[1] سورة يونس آية16

عنك.قد يكون السائل مضطرا فيلحف في السؤال ويعيد الكرة بعد اعتذارك، فلا تتبرم به وإن أزعجك إلحاحه، وكذلك طالب العلم افتح له عقله وبصيرته، ووضح له ما أشكل عليه، ولا تتهره ولا تغلظ له القول إن كان بطيء الفهم. ذلك أن احتقار المكروب تحدث الغلظة في نفسه شرخا يجد فيه الشيطان مرتعا لتضخيم العداوة وتمزيق وحدة الأمة. وليس من النهر تأديب السائل المتجاوز لحدود الأدب فقد علمنا الله أدب الخطاب مع رسوله، ويجري ذلك في مخاطبة العلماء وذوي الأقدار، قال تعالى : **(يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض...إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون)**[1] وهذا في مقابلة قوله تعالى : **ووجدك ضالا فهدى.**

11- وأما بنعمة ربك فحدث.

خطاب للنبي ﷺ يوجب عليه الحديث بما خصه الله به من النعم التي منها أنه رسول مصطفى من الله آتاه الله الشفاعة والمنزلة الرفيعة والتقدم على الرسل يوم القيامة، وأن شريعته هي الشريعة الباقية، وأن القرآن المنزل عليه محفوظ. ومن يطع الرسول فقد أطاع الله.

ويتوجه الخطاب لأمته في الحديث بنعمة ربها شكرا له على فضله.وهو خيط رقيق بين الشكر والرياء فمتى أمن الرياء وغلب في حديثه مظهر الشكر ففي حديثه بالنعمة استجابة لأمر الله يتبعها الجزاء الأسنى. ومتى كان في الحديث ما يحرك الرياء والتفاخر فليصمت ولا يتحدث. ولأضرب لذلك مثلا.قد يفتح الله على المرء فيصل إلى حل إشكال أو فهم لما استغلق عليه في نص من نصوص القرآن أو السنة، فإذا لقي إخوانه من العلماء فحدثهم بما فتح الله عليه شاكرا لنعمته كان مثابا. وقد يسألك صديق عن صحتك فتجيبه، بحمد الله على خير ما يكون.أو عن أولادك فتحدثه عن نجاحاتهم وتفوقهم وصلاحهم مستحضرا في كل ذلك فضل الله عليك، فهذا من شكر النعمة والتطبيق العملي لأمره تعالى : **وأما بنعمة ربك فحدث.**

ويناقض الشكر خلط الحديث بنعمة الله بإرادة التفاخر، وإظهار ما للمخاطِب من خيرات تبطن وراءها قصد الترفع والتبجح، ولو كان في الخير.إن الرياء يستأصل الثواب، ويعرض صاحبه للعقاب. كيف لا وهو يعاكس قاعدة من قواعد العقيدة في الإسلام الواردة في قوله تعالى : **(ما أصابك من حسنة فمن الله)**[2]

---

[1] سورة الحجرات آية 4/2

[2] سورة النساء آية79

سورة الشـــرح

سميت بهذا الاسم في يعض المصاحف وفي بعض كتــب التفســير والســنة بهــذا الاســم، وسميت في البعض الآخر [سورة ألم نشرح] أخذ اسمها من الآية الأولى فيها.
وهي سورة مكية باتفاق.وهي الســورة الرابعــة والتســعون حســب ترتيــب المصــحف. وعدت الثانية عشرة حسب ترتيب النــزول.نزلــت بعــد ســورة الضــحى وقبــل ســورة العصر.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾
وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ
فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

نشرح : نفسح لك في صدرك.

صدرك : العقل والإدراك.

الوضع : حط الحمل.

وزرك : حملك الثقيل.

أنقــض : أصله الصوت الذي يسمع مــن المفاصــل مــع الحمــل الثقيــل ومنــه صــوت فرقعة الأصابع.

العسر : الشدة والمشقة في الحصول على المرغوب.

اليسر : ضد العسر.

فرغت : أتممت ما أنت بصدده.

النصب : بذل الجهد والتعب.

ارغب : اصرف رغباتك إلى ربك

بيان المعنى الإجمالي :

يُثبتُ القرآن على طريقة السؤال التقريري : أن الله شرح صدر محمد صلى الله عليه وسلم فجعله يسع ما ألقي إليه من وحي، ويسع البشر جميعا على ما بينهم من اختلاف، وأفاض فيه من المعارف ما مكنه من التعمق فيما أنزل إليه، وطبعه على الحكمة.وأنه قد من عليه بالاهتداء إلى حل ما كان يشغله شغلا عظيما من مشاكل البشرية المنصرفة عن الحق في العقيدة وفي العلاقات الاجتماعية.وأنه رفع له ذكره بين الناس قبل النبوة وبعدها فنوه به الرسل السابقون،وقرن اسمه باسمه تعالى في شهادة الإسلام.فأتبعنا ما كنت فيه من ضيق وعسر بيسر وسهولة، وهكذا فسنُولِي عليك وعلى أمتك من عنا يتنا ما نتبع كل عسر ومشقة بيسر عظيم. فتابع طريقتك في الجد والمثابرة.وكلما أنهيت عملا استأنف عملا آخر فيه نفع لك ولأمتك.واجعل عملك خالصا لوجه الله لا ترقب ثوابا إلا من عنده سبحانه.

بيان المعنى العام :

1-ألم نشرح لك صدرك.

استفهام تقريري يفيد ثبوت ما دخل عليه الاستفهام. فالمعنى قد شرحنا لك صدرك. و في صياغته على طريقة الاستفهام هز للمستمع ليتذكر مضمون ما أريد إثباته ليكون مستحضرا له دائما ومتذكرا.

والمضمون :تذكير الله رسوله بنعمة من النعم التي اختصه بها.قوى ربُك عقلَك ومداركك.تلقيت الوحي الثقيل من جبريل.وهو أمر يفوق القدرة البشرية العادية من ناحيتين :

الأولى : أنه لقاء بينه وبين ملك، طبيعة خلق كل منهما مختلف عن طبيعة خلق الآخر.فمحمد صلى الله عليه وسلم من ولد آدم عليه السلام جمع الله في خلقه بين الروح والعقل والمادة.وأما جبريل فهومن جنس الملائكة ليس بينه وبين المادة أي سبب، تضعف الطاقة البشرية عن التخاطب معه. ففسح الله له في قواه حتى أصبح يأنس بالوحي ويشتاق إليه، بينما رجع إثر اللقاء الأول إلى خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها ترجف بوادره. بعد أن غطه حتى بلغ منه الجهد كما سيأتينا في سورة العلق

الثاني : أنه تلقى وحي الله وتحمله، و كلف بإبلاغه للبشر جميعا، وهم مختلفون اختلافا بينا، بين مهتد ينظر في الوحي بعقله وقلبه، وبين معاند مصمم على الكفر وعلى رفض الدعوة الإسلامية.بين مسالم أمين،وبين معتد أثيم لا يرعوي عن

الإيذاء بيده ولسانه وتدبيره. وسع قلبه الجميـع، وكانـت دائـرة محبيـه لكمالاتـه تتسـع كل يوم إلى أن فتح الإسلام قلوب العرب جميعا، وانطلق إلى آفاق العالم.

وروي أن شرح الصدر هو شرح مادي. وكـل الله ملائكـة فتحـت صـدره وألقـت فيـه من الحكمة والهداية والكمالات ما أودعت.وهل كـان ذلـك مـرة واحـدة أو أكثـر، هـل تم ذلك في صباه الباكر أو بعـد ذلـك ؟ وهـل كـان ذلـك يقظـة أومنامـا ؟ الروايـات تعددت بما لا نستطيع الجزم بأي منها.

3/2- ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك.

هذه هي المنة الثانية التي ذكر بهـا الله رسـوله.أثبتـت الآيـة أن الله حـط عنـه الأثقـال التي كان يعاني حملها. وجسم شدة الثقـل أن فقـرات الظهـر سـمع لهـا صـرير . فمـا هي هذه الأثقال التي كان يحملها فوضـعها الله عنـه؟ لا يـراد بالأثقـال الثقـل المـادي قطعا، ولكن هو الثقل المعنوي الذي كان يضغط عليـه قبـل الرسـالة عنـدما تأمـل مـا عليه قومه من عبادة الأصنام، ومـن فسـاد العلاقـات الاجتماعيـة، الأمـر الـذي ألجـأه إلى التحنث في غار حراء، عله يجد طريقا ومنهجا يحول بـه النـاس عـن الفسـاد إلـى الصلاح، وعن الشر إلى الخيـر.ومـا أسـعفه تفكيـره بالحـل المبتغـى، إلـى أن جـاءه الوحي وكان شديدا عليه في أول الأمر كما بينـاه سـابقا.ضـغوط تنوعـت فأسـعفه ربـه بالتأييد إذ خط له الوحي المنهج المنقـذ للبشـرية مـن الضـلال والفسـاد، وقـواه علـى تقبل الوحي.وهو معنى : **ووضعنا عنك وزرك الذي أنقض ظهرك.**

4-ورفعنا لك ذكرك :

هذه هي المنة الثالثة في السورة التي ذكر الله بها نبيـه.هـو سـر ألقـاه رب العبـاد فـي مشاعر الناس الذين عرفوه وخالطوه تبعا لمـا هـداه إليـه مـن مكـارم الأخـلاق وسـمو النفس منذ نشأته.ولقـب عنـدهم بـالأمين.ثـم واصـل هـذه المنـة بعـد أن شـرفه الله بالرسالة فجعل كلمة التوحيـد ذات شـقين : شـهادة أن لاإلـه إلا الله،وشـهادة أن محمـدا رسول الله، ومن ذكره والثناء عليه في الكتـب السـابقة وفـي تسـميته رسـول الله ونبـي الله، وفي توجه القرآن بالخطاب له مع أول ما أنزل ثم تتـابع. ومـا قيـل مـن أن ذكـره في إقامة الصلاة والأذان والخطب فهو وإن كان ملحظـا لطيفـا إلا أنـه لا ينطبـق علـى الآية إذ السورة كما قدمنا من السور المتقدمة نزولا. فيحمل على تواصل هذه المنة

6/5-فإن مع العسر يسرا * إن مع العسر يسرا.

كأن هذه الآية المكررة مظهرة لجريان تلكم النعم الـثلاث علـى القاعـدة التـي تضـمنتها الآيتان هنا. أي إن اليسر مصاحب للعسر، أبشر فإن مـا تلقـاه مـن المشـقة فـي نشـر

الإسلام، من عناد الكفرة، ووقوفهم لصد النـاس عـن الـدخول فـي الـدين، وإيـذاء مـن آمن منهم.إن الحرج الذي أنت فيه من ذلـك، قـدرت أنـه سيحصـل بعـده عـن قـرب اليسر العظيم الذي تقر به عينـك.كمـا شـرحت لـك صـدرك ووضـعت عنـك وزرك ورفعت لك ذكرك. فهذا الوعد يبشر النبي صلى الله عليه وسـلم أنـه كلمـا حـل العسـر وصله الله باليسر الرافع لـه. وفيـه أيضـا وعـد لأمتـه مـن أن الله سيكشـف كـربهم ويحول ما ينتابهم من عسر إلى فرج ويسـر.وقولـه تعـالى[مـع] يفيـد قـرب حصـول اليسر وليس معناه حصولهما معـا،لأن ذلـك تنـاقض. والجملـة الثانيـة مؤكـدة للجملـة الأولى مقررة لمعناها.

8/7- فإذا فرغت فانصب...فارغب.

كانت حياة النبي صلى الله عليه وسلم حياة جد بين تبليغ مـا أنـزل إليـه ودعـوة النـاس إلى الإسلام، ومحاجـة المعانـدين، والقيـام علـى شـؤون المسـلمين وحـل مشـاكلهم، وعبادة ربـه،فكان نشـاطه صـلى الله عليـه وسـلم نشـاطا متواصـلا، لـيلا ونهـارا، فخوطب بهذا الأمر ليواصل ما هو عليه، وليكـون بهـذا الأمـر مسـتجيبا لمـا طلبـه الله منه مأجورا عليه.وكما كانت حياته صلى الله عليه وسلم حيـاة جـد تغتـنم مـا يرضـي الله،وما ينفع الإنسان في نفسه،وينفع به من هو إلى نظـره، وينفـع مجتمعـه، فـإن علـى المسلمين أن يقتدوا برسولهم، فالإسلام دين الجد والعمل لا اللهو والكسل.

وقرن القرآن الجد في العمل بحسن القصد فيه.وذلك بـأن يجعـل العامـل عملـه خالصـا لوجه الله، لا يرغب إلا فيما عند الله من فضـل.وللعمـل مسـتويان: أحـدهما : أن يـأتي بالعمل كاملا غير منقوص فيستحق أجره إن كان يعمل لغيـره ويكـون مـا يقبضـه مـن أجر حلالا.

وثانيهما :مرتبة أخرى أعلى أن يراعـي فـي عملـه أن الله رقيـب عليـه، فيجتهـد فـي التجويد ,وفي حفظ الوقـت، وفـي النصـح لـرب العمـل كأنـه يعمـل لنفسـه. فيكـون مأجورا ومطبقا لهذه الآية.وكذلك الإخـلاص فـي أداء العبـادة لا يرغـب إلا فـي ثـواب الله.

سـورة التين

بهذا الإسم عرفت في معظم المصاحف وفي كتب التّفسير والسّنة. وسميت في بعضها بسورة "والتين" وأخذ إسمها من الآية الأولى فيها.
و هي سورة مكية رتبتها حسب ترتيب المصحف الخامسة والتّسعون. وحسب ترتيب النّزول عدت الثامنة والعشرين نزلت بعد سورة البروج وقبل سورة الإيلاف.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا
ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ
ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

طور سينين: جبل سيناء.

أمين: يحفظ من دخله كما يحفظ الأمين ما اؤتمن عليه.

أحسن تقويم: أفضل تسوية، بتناسب بين جانبه المادي، وجانبه الرّوحي والعقلي.

رددناه: صيرناه إلى حالة مخالفة لما كان عليه.

أسفل سافلين: أشد خسة في الرّأي، وما يترتب عليه من العمل.

بيان المعنى الإجمالي:

أقسم الله بأربعة أقسام ليبطل ما ترسخ في عقول الفكرة من نفي يوم القامة، وزعمهم أن الإنسان غير مسؤول عند الله على أعماله.
الأقسام الأربعة هي:

1-**التين**: الجبل الذي نزل عليه نوح عليه السلام.

2-**الزيتون**: الجبل الذي أقام عليه إبراهيم عليه السلام مسجد بيت القدس.

3-**الطّور**: الجبل الذي كلم الله بجانبه موسى، وشرفه بتحمل رسالته. وتلقى الألواح.

4- **البلد الأمين:** مكة عمرها الله. التي جعلها حرما آمنا، ونزل فيه القرآن على قلب محمد ﷺ.

فالأقسام تشير إلى الشرائع التي هدى بها الإنسانية في عصور متلاحقة.

والمقسم عليه: أن الله تفرد بخلق الإنسان، وأبدع تركيبه بحكمته، فجعله قابلا للخير، وللتطور إلى ما هو أفضل وأجدى عائدة على ذاته والمحيط الذي يعيش فيه، وعلى المجتمع الإنساني، متى ربط فكره وروحه بربه، وقدر أنه محاسب على جميع أعماله. وقدر سبحانه أنه محاسب على عقيدته، وعلى جميع ما صنع في حياته.كما قدر أنه إذا قطع باختياره الحبل الذي يربطه بربه، فإنه ينحدر إلى أسفل سافلين، إلى أحط منزلة تتصور في دنياه وفي آخرته. ولا يأمن من الهوة السّحيقة التي تبتلعه إلا من جمع بين الإيمان والعمل الصّالح النّافع لنفسه وللمجموعة البشرية.

بيان المعنى العام:

1←4: والتين والزّيتون......الأمين.

افتتحت السّورة بأربعة أقسام: **1-التين،2 -الزيتون، 3-طور سينين، 4-البلد الأمين.**

القسمان الأولان: **التين والزيتون.** المتبادر أنهما النّوعان المعروفان من الثمار. أقسم الله بهما لما اختصا به من مظاهر التّقدير العجيب. إشارة إلى أن ما أودع فيهما من الخصائص. يقوم شاهدا على الحكمة، وحسن التّقدير في الخلق. وامتنانا على البشرية بما يسره لها على سطح الأرض من خيرات. واختير التين للقسم به لجودة مذاقه، وقابليته للخزن، ونمائه وإثماره دون حاجة إلى كبير عناية، أو علاج. وزيته يدخر السّنين محتفظا بخصائصه وجودته. وكون المراد بهما هاتين الثمرتين هو رأي معظم المفسرين.

و رأى بعضهم أن المناسبة بين القسم بالثمار، والقسم بالأماكن المباركة، لا تبدو واضحة على ذلكم المحمل. فقالوا: أن المراد بالتين: مسجد نوح الذي أقيم على الجودي. ووجه تسميته كثرة غراس التين حوله. وأن المراد بالزيتون: الجبل الذي أقيم عليه المسجد الأقصى. وتخريجات كثيرة أخرى، تدور كلها حول أماكن مباركة أكرم الله فيها بوحيه بعض من اختارهم لتحمل للرسالة. والتّخريجان المذكوران أكثر قربيا.

و طور سينين: هذا هو القسم الثالث. والطّور الجبل المعروف في شبه جزيرة سيناء من أرض مصر.

و **هذا البلد الأمين.** المشار إليه مكة عمرها الله، بلد المسجد الحرام، ومولد رسول الله ﷺ. وهو بلد أمين كما قال تعالى:**(و من دخله كان آمنا)**[1] استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام. قال تعالى: **وإذا قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا امنا)**[2]. في استحضاره بالإشارة إليه**(هذا)** تعظيم له بإبراز أنه حاضر مشاهد، لا يغيب عن الفكر.

وبحمل القسمين الأولين على جبل التين، وجبل الزيتون، تنسجم الأقسام الأربعة. قسم بالتين: مهبط نوح بعد الطّوفان إيماء لشريعته، وقسم بالزيتون إيماء إلى شريعة إبراهيم الذي بنى المسجد الأقصى. وطور سينين الذي كلف الله موسى بالرّسالة من جانبه. والبلد الأمين الذي ولد فيه محمد ﷺ والذي فيه بعث. وأضاف بعضهم إلى أن القسم بالزيتون يشير أيضا إلى شريعة عيسى باعتبار أنه ولد في بيت المقدس.

لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم.

نعم تفرد الله بخلق الإنسان، فركبه تركيبا عجيبا يتجاوز كل تصور، ويسعى العلماء في مختلف الاختصاصات لإدراك أسرار هذا الخلق الإلهي المحكم، ولم يصلوا إلا إلى التّعرف على جوانب محدودة، وما تزال جوانب أخرى عصية عن الإدراك تتحدى البشرية لتبذل مجهودا متواصلا للكشف عن بعضها. ولكن ما اكتشف وما هو مجهول، الكل يثبت أنه قد قام الخلق على الحكمة، وحسن التّقدير، والتّكامل، وعدم التّناقض. وأنه مؤهل لعمارة الأرض، والاستخلاف فيها. فهو خلق متناسق لا عوج فيه، يذهب منطلقا إلى التّطور الإيجابي بحسب فطرته. وأثبتت هذه الحقائق بالقسم عليها مراعاة لسلوك الجنس البشري الذي انحرف إنحرافا كبيرا حتى يُخيّل للناظر أنه بني على الشر والفساد، وأنه لم يخلق على أحسن تقويم.

5-ثم رددناه أسفل سافلين.

عطف التّحول الذي آل إلى أمره الإنسان بكلمة (ثم) الدّالة على الانتقال بعد تراخ من الزمن. فتفيد الآية أن الإنسان بعد خلقه قابلا للصلاح في نفسه، وفي محيطه، وفي المجتمع الذي يؤثر فيه، ويتأثر به، فيسمو بكل ذلك إلى مراتب ينتقل فيها من حسن إلى أحسن،إنه بعد ذلك انقلب وضعه إلى أدنى مستوى من

[1] سورة ال عمران اية97

[2]سورة البقرة اية 126

الحطة ومن الفساد. سار الإنسان على فطرته ردحا من الزمن، مؤمنا بالله، يراعي الحق والجمال والخير فيما يصدر عنه، ثم أخذت شهواته وغرائزه تفتك القيادة، وتتحكم فيه، وتضرب على عقله حجابا عطل إشعاعه، وبلّده، وربطه ربطا محكما بالمادة. فنزل إلى أسفل سافلين.

تقدم العلم أشواطا في الكشف عن أسرار الخلق. وعَرَّفَ بقدر غير قليل من قوانين الكون والمادة. فتمكن من تطويع متنوع القوى إلى ما يجلب له الرّفاهية والإشباع المادي. وظن أن ذلك هو السّعادة، وأنه هو الرّقي الإنساني. تُقَوَّمُ الحضارة بمستوى الدّخل الفردي والقوة الحربية للدولة، ومعاهد البحث العلمي في فروع المعرفة. وهي لا شك بعض مقومات الاستخلاف الذي وكل إلى الإنسان القيام به. ولا نُوَهِّنُ من قيمة امتلاك المعرفة والتّطبيق في تلك الأمور كلها. بل إن الإسلام يدعو المؤمن أن يرتقي في المعرفة إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه جهده. ولكن الإنسان لما قصر نظره على الجانب المادي نزل إلى أسفل سافلين، وهو يظن أنه ساد الكون وأخضعه لصالحه.

كان الوفر في السّلع والمنتجات المساعدة على عون الإنسان في حياته كبيرا. في بيته وفي تنقله، وفي كشف أسقامه وعلاجه. وفي يسر وسرعة الاتصال مع أطراف العالم. ولكن بجانب هذا محيط تلوث يخنق أنفاس البشر، ومخزون من السّلاح يدمر الكرة الأرضية مرات، واستبداد مقنع لقوى المال يفسد القِيَمِ ويحطم سلم الأخلاق. استخدموا الجنس، وتفننوا في تضليل النّاس عن الحق، والخير، والجمال، وجعلوهم ملهوفين للشراء والاستهلاك، وكلما زادت مشترياتهم أغرقوهم في الدّيون، وامتصُّوا مكاسبهم قبل أن توجد.و قامت مصانع أحكمت صناعة الكذب والتّضليل. استغفلوا النّاس حتى جعلوا معظمهم يعتقد الخير شرا، والعكس، والصّلاح فسادا والعكس، والظلم عدلا والعكس.

إن الحيوانات المفترسة إذا تمكنت في الفريسة بما يشبع داعي الجوع كفت عن التّسلط، أما الحضارة المادية فتجد لذتها في التّخريب والقتل. وانظر التّسلط الإسرائيلي على قطاع غزة، دُمِّرَ من أجل التّدمير، وخرب من أجل التّخريب. في أحسن ظروفه أن ينبه سكان العمارة ليغادروا بيوتهم ليهدمها بزلزال القصف. والحرب العالمية الثانية قتلت ومزقت ستين مليونا من البشر. والحرب العراقية ردمت الدّبابات أرتالا من الجنود وهم أحياء. وما يزال العابثون بالسّلام يشعلون نار الحروب بين الفينة والأخرى ليبيعوا سلاح الموت.

أصبح العدل غطاء للظلم، والعلم سبيلا للتسلط والقهر، ومخزون الكون الذي لا يعوض ذاهبا إلى الإهلاك والتّبذير. والعفة والاستقامة مجلبة للسخرية

والاستهزاء. فصدق الله ثم رددناه أسفل سافلين، لما أوكل الإنسان تقويمه للحياة إلى شهواته وغرائزه.

و قد حمل بعضهم الآية **لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم**، على الخلقة المادية، وأن الإنسان أجمل المخلوقات يسير قائما على رجليه. **ثم رددناه أسفل سافلين** تذهب وسماته ويلحقها الزوال، ويتجعد جلده، ويتقوس ظهره، ويخمد أو يزول لمعان فكره. وهو محمل بعيد عن فاتحة السّورة وخاتمتها.

6- إلاّ الذين آمنوا وعملوا... غير ممنون.

استثنى القرآن من جنس البشر الذين هبطوا في قيمتهم إلى أسفل سافلين، استثنى الذين تمسكوا بحبل الإيمان القوي. فشع الإيمان في عقولهم وأرواحهم، وأثّر في تصوراتهم، واختياراتهم، وعزائمهم، فشكلها حسب ما يفرضه التّعلق بالخالق العظيم، وحسبما يقتضيه الصّلاح الفردي والاجتماعي. ولم يكونوا في حياتهم نظريين يقولون ما لا يفعلون، ويفكرون فيما لا يطبقون. بل ساروا في حياتهم العلمية حسب القيم التي آمنوا بها، وروّضوا أنفسهم على فعل الخير والصّلاح، فانعقدت إلف علمي بينهم وبين مختلف أنواع نشاطهم. وإذا ميزهم القرآن بأنهم هم الذين سَمَوْا في بشريتهم ولم يُرَدُّوا إلى أسفل سافلين، عطف على ذلك أنه قد أعد لهم ثوابا من عنده وأجرا عظيما كفاء صلاحهم. لا يُكَدِّرُ تمتعهم به مَنٌّ. إن المن بالعطاء والتّكريم والتّذكير به ينغص على المنعم عليه تمتّعه بما هو فيه من سعادة.

7- فما يكذّبك بعد بالدّين.

بعد ما بين القرآن وأكّد من خلق الإنسان في أحسن تقويم، وأنّه لكفره بربه انحدر إلى أسفل سافلين. وأن الذين نجوا من الانحدار هم المؤمنون الذين عملوا الصّالحات، التفت الخطاب إلى الكافر الذي قطع صلته بالله يسأله سؤال إنكار: ما الذي أظلك فجعلك تكذب بالجزاء في الآخرة، تعتقد أنّك غير مسؤول في النّهاية عما أفسدت؟ إنه لا عذر لك بعد أن بعثت لك رسولي، فعرّفك بالعقيدة التي تنقذك من الضّلال، وبشرعي الذي يجعلك عضوا صالحا في المجتمع.

8- أليس الله بأحكم الحاكمين.

دعوتك إلى الإيمان أيّها الكافر وإلى تحكيم شرعي في علاقتك الاجتماعية، وفي نشاطك، إنّي لا أنتفع بصلاحك، ولا يضرّني توليك وعنادك. والخسارة كل الخسارة تقع عليك. إنّي أنا الله أحكم الحاكمين، فضلي عليك وعلى الجنس البشري عامّة. أعطيت لكل شيء حقّه، فسبحت لي الكائنات بلسان حالها، وعقلك يكشف لك عن حكمتي المنبثّة في كل صغيرة وكبيرة. ومن ناحية أخرى فإنّي أعدل الحاكمين لا يُظلم لديّ أحد. فاقلع عن التّكذيب والبعد من دائرة هدايتي.

سورة العلق

اشتهرت بهذا الاسم في المصاحف، ومعظم التّفاسير. وسماها ابن عطية وابن العربي "سورة القلم" وأطلق عليها في بعض المرويات عن الصّحابة والتّابعين اسم "**سورة إقرا باسم ربك**".

و هي سورة مكية باتفاق. رتبتها حسب ترتيب المصحف: السّادسة والتّسعون، وحسب ترتيب النّزول: عدت السّورة الأولى. نزل القسم الأول منها في غار حراء ليلة السابع عشر من شهر رمضان.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ

الأكرم: العظيم كرامه عظما لا حدله.

بيان المعنى الإجمالي :

في غار حراء، ليلة السّابع عشر على قول الأكثر من رمضان، انبثق نور الوحي، فألقى ملك الوحي جبريل عليه السلام هذه الآيات الخمس الأولى من سورة العلق في قلب محمد ﷺ. أمر جدٌ، يحتّم عليه أن يقرأ مفتتحا قراءته باسم ربّه. قل بسم الله. قالها النّبي بعد أن غطه ثلاثا، وهو يخاطب الملك بقوله: ما أنا بقارئ. حتى اطمأن قليلا، وقرأ **اقرأ باسم ربك الذي خلق**.

إنّ ما أتاك هو من ربّك الذي تفرّد بالخلق. خلق كل شيء، و خلق الإنسان من لقيحة علقت في جدار الرّحم حتى بلغت إنسانا سويا. فأثبتت الآية أنّه على باب العلم، وقد فتح له أول منفذ إليه، وأنه سيتواصل إلى أن يحيط بعلم ما لم يكن يعلمه من قبل. إن كرم ربك لا يحد، يعلّمك ما لم تكن تعلم. وهو الذي جعل القلم وسيلة لتطور العلم، و هتك حجب الجهل. فإذا كان الإنسان قد وصل بالقلم الذي خلقه الله إلى علوم الدّنيا والآخرة، فإن كرم الله يفيض عليك من العلوم والحكمة ما شاء أن يفيضه.

بيان المعنى العام:

1←2:إقرا باسم ربك.....مالم يعلم.

أخرج البخاري بسنده إلى أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرّؤيا الصّالحة في النّوم، فكان لا يرى رؤيا إلاّ جاءت مثل فلق الصّبح، ثم حبب إليه الخلاء. وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه: وهو التعبّد الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع لأهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة رضي الله عنها، فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء. فجاءه الملك فقال: إقرأ: قال ما أنا بقارئ قال: . فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثمّ أرسلني فقال: إقرأ: قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثانية ثمّ أرسلني فقال: إقرأ: قلت: ما أنا بقارئ. فأخذني فغطني الثالثة، ثم أرسلني فقال: **إقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم.** فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، فقال زملوني، زملوني، فزملوه حتى ذهب عنه الرّوع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي. قالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبدا. إنك لتصل الرّحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق.

فانطلقت به خديجة حتي أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب. وكان شيخا كبيرا قد عمي، فقالت له خديجة: يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة بن نوفل: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال ورقة: هذا النّاموس الذي نزل على موسى. يا ليتني كنت فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله ﷺ : أو مُخرِجِيَّ هم ؟ قال: نعم. لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي. وإن يُدركْني يومك أنصرك نصرا مؤزرا. ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي.[1]

افتتح الوحي بكلمة "اقرأ" وبها افتتحت السّورة، مما يشير إلى أن رسول الله ﷺ سيكون قارئا لكتاب يتلوه. وفي ذلك أيضا حجة على أن هذا الوحي لم يكن من حديث نفسه، وإنما كان من عند الله. لأن الأمي لا يتصور منه أن يبدأ دعوته

[1]فتح الباري ج1ص30/25

بالأمر بالقراءة، لأن تفكيره يمكن أن يجري فيه، مـا يجـري إلا الأمـر بـالقراءة التـي ما حدث له مرة في عمره أن فكر فيها.

باسم ربك.

يحتمل أن يكون الخطاب توجه لرسـول الله ﷺ : بـأن يفتـتح القـراءة باسـم الله. قـل : باسم الله، ثم اقرأ. مستشعرا أنك مستعين بـه. ولا شـك أن النبـي ﷺ عمـل بمـا أمـر به فقال: باسم الله. ويحتمل أن النّبي ﷺ أمـر أن يقـرأ مصـاحبا اسـم الله فـي قراءتـه، مستشعرا جلاله وأحقيته بأن يكون مستحضرا فـي جميـع الأعمـال الصّـالحة. إبطـالا لما كان عليه أمر الجاهلية من استصحاب أسـماء آلهـتهم.فهـي تشـير إلـى الـرّكن العظيم في هذا الدّين: مبدأ الوحدانيـة لله. وأضـيف الاسـم إلـى "ربـك" ليفيـد أمـرين معا. ما ترمز إليه كلمة" الرّب" من العناية والالطّـاف. ومـا فـي إضـافة "رب" إلـى الضمير المعبر عن رسول الله ﷺ، من التّشريف والتّقريب.

الذي خلق.

هي الصّفة التي لا يمكـن لأي أحـد أن يـدعي فيهـا الشـركة، أو أن ينسـبها لغيـر الله. وهي الصّفة التي قد يغفل عنها المشركون، فيثبتون الألوهيـة لمـن لـيس لـه أي تـدخل في الخلق. وهو سبحانه الخالق لكل شيء كمـا يـدل عليـه التّعمـيم المفهـوم مـن عـدم حصر الخلق في نوع.

2- خلق الإنسان من علق.

خصّ القرآن خلق الإنسان من بين عموم خلقه سبحانه، لأنـه أودع فيـه مـن الدّقـة فـي التّركيب، ومن القوى الكامنة التي تتفاعل فيما بينها لتسـمو بـه عـن جميـع الكائنـات، وتمكنه من التّسلط عليها وترويضها لصالحه. ونص علـى أن بدايـة الخلـق كانـت مـن علق. والعلق حسب ما اكتشفه العلم هي اللقيحـة (البييضـة الملقحـة بـالحيوان المنـوي) التي علقت في جدار الرّحم، وانغرست فيه لتنمو وتتطـور إلـى الإنسـان الـذي يقذفـه الرّحم عند الأمد الذي يستطيع فيه أن يتفاعل مـع المحـيط الأرضـي، وينمـو إلـى أن يشتد عوده.

و تكون هذه الآية قد قررت مبدأين بهما رقي الإنسان وسعادته.

المبدأ الأول: هو القراءة والتّعلّم. المنطلـق لجميـع الحضـارات، والأسـاس الـذي يبنـي عليه اللاحق ما يضيفه لمن سبق في طريـق صـاعد يحقـق للإنسـان كـل خيـر مـادي وفكري.

المبدأ الثاني: يمثل الإجابة عن التّساؤلات التي مازالت تحرك العقل للإجابة عنها، دون أن تجد لها جوابا قريبا تتفق البشرية كلها على إدراكه لوضوحه. أن الخلق تم بقدرة الله وإرادته. ويستوي في ذلك كل الكائنات مع الإنسان الذي هو أشرفها.

3←5:اقرأ وربك الأكرم الذي.....مالم يعلم.

تأكيد للأمر بالقراءة مما يشير إلى ما وقع في لقائه بجبريل لما كرر عليه الأمر بالقراءة.

ثم استأنف الكلام ليلفت نظر رسوله، ونظر من يتلو قرآنه إلى الصّفة التي بها بلغ الرّسول ﷺ الوحي. فهو ربك بما تشير إليه كلمة الرّب حسبما كررناه مرارا. وهو المتصف بالكرم الذي لا يُحَدُّ، فاختياره لتحمل الوحي كرم كبير. ومضمون الرّسالة فضل عظيم، وكرم هدى به الإنسانية. وكرم ثالث نصت عليه الآية، أنه خلق في الإنسان القدرة على التّعلّم، وأنه علمه سبحانه ما لم يكن يعلم ففتح العقل البشري ليتعلم ما يرد من الوحي على لسان رسله، وفتح عقله ليستنبط من المعلومات الأولى نتائج كاشفة عن مجاهيل، ثم تتحول تلكم المعلومات إلى مقدمات إلى ما بعدها. وبهذا التّراكم تكونت العلوم واستلقت. فنقل البشر من ظلام الجهل إلى نور العلم، زاد الإنسان به شرفا. قال:**(قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنّما يتذكر أولو الألباب)**[1] وكرم رابع أن ألهم الإنسان الخط، والكتابة، وتسجيل معارفه وتقييدها، تأمينا لها من عادية النّسيان، وليثبت ما وصل إليه الإنسان فيرثه من يأتي بعده ويضيف إليه .و بالقلم دونت الرّسالات وحفظت إلى الأمد الذي قدر لها. وبالقلم حفظ القرآن مع حفظه في الصّدور. وبه تم ما أراده الله من خلود الإسلام إلى يوم القيامة. وبالقلم توثّق العقود بما يرفع الخصام، ويؤمن كل فرد على حقوقه. وبصفة عامة لا تستقيم أمور الدّنيا والآخرة إلا بالخط. وليس القلم ما بُري من قصب، فذلك يمثل مرحلة من مراحل تطور آلة الكتابة. واعتمدت اليوم آلة الكتابة اليدوية والكهربائية، والتي ستتطور حتما إلى طرق أخرى، كلها داخلة تحت كلمة القلم.

كَلَّا إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾
أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ

[1] سورة الزمر اية9

﴿أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾﴾

بيان معاني الالفاظ:

الطّغيان: التّعاظم والتّكبير.

الإستغناء: شدة الغنى و عدم الشعور بالحاجة.

الرّجعي: المرجع.

أرأيت: صيغة تعجيب من حال مستغرب.

بيان المعنى الاجمالي :

يفتتح هذا المقطع بكلمة (كلا) الرّادعة والمبطلة لما سيأتي. أن من شأن الإنسان أن يتملكه الكبر والطّغيان إذا قطع صلته بالله، وتوفر له المال العريض، والخدم، والتّابعون. يوقظ القرآن هذا الصّنف من النّاس بأنهم لا يذهبون بعيدا، فسيعودون إلى الله ويرجعون إليه عراة من مظاهر القوة التي اعتزوا بها.

ويشهر القرآن بهذا الصّنف من النّاس ثلاث مرات.

الأولى: بموقفه وهو ينهى محمدا عن صلاته، ويتوعده بالاعتداء عليه لو رآه يسجد لربه، معرضا عن الأصنام.

الثانية: بموقفه وهو يتصلب في الضلال، فهو ينهى محمدا وقد تمكن من الهدى، يطلب منه أن يعود إلى الضلال. فانقلب سلم القيم عند هذا المتكبر، ويطلب منه أن يقلع عن الأمر بالاستقامة وتقوى الله.

الثالثة: بتصميمه على تكذيب محمد وإعراضه عنه. فالله عالم لا يخفى عليه شيء مما صنع هذا المتكبر وسيجزيه شر الجزاء.

بيان المعنى العام:

6←7: كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى .

افتتحت الآية بكلمة(كلا) الموضوعة للردع والإبطال. ولا يوجد فيما سبقها ما يمكن أن يتوجه له الرّدع والإبطال. فتعين أنه منصرف لما بعدها: أقوال ومواقف المتجبر الكافر بنعمة الله أبو جهل بن هشام.

قد يقترب معنى الآية ما رواه مسلم بسنده إلى أبي هريرة ﷺ قال: قال أبو جهل: هل يعفر[1] محمد وجهه بين أظهركم؟ قال: فقيل: نعم. فقال: واللات والعزى لئن

[1] يلصق وجهه بالتّراب عند سجوده

رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته، أو لأعفرن وجهه في التّراب. قال: فأتى النّبي ﷺ وهو يصلي. زعم ليطأ على رقبته، قال : فما فَجِئَهُمْ منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيديه. فقيل له: مالك؟ فقال: إن بيني وبينه خندق من نار، وهَوْلاً، وأجنحة. فقال رسول الله ﷺ : لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضوا عضوا قال: فأنزل الله عز وجل، لا ندري من حديث أبي هريرة، أو شيء بلغه (**كلا إن الإنسان ليطغى أن راه إستغنى إن إلى ربك الرّجعى أرأيت الذي ينهى عبدا إذا صلى أرأيت ان كان على الهدى أو أمر بالتّقوى أرأيت ان كذب وتولى (يعني أبا جهل) ألم يعلم بأن الله يرى كلا لئن لم ينتّه لنسفعن بالنّاصية ناصية كاذبة خاطئة فليدع نادية سندع الزبانية كلا، لا تطعه**)[1] ذكر المفسرون وأصحاب السّير أن الوحي فتر مدة بعد نزول الآيات الخمس الأولى، وأن النّبي ﷺ كان يلقى جبريل ويبلغه الوحي المخاطب به من غير القرآن. وإن التّقرب لله بالصّلاة ثابت قبل الإسراء، ولكن ليست هي الصّلوات الخمس في كيفياتها، وفي أوقاتها. وأن السّجود كان أحد أركانها كما يفيده الأمر بالسّجود في خاتمة السّورة **كلا لا تطعه وأسجد واقترب**[2].

فقوله تعالى: **كلا إن الإنسان ليطغى** مقدمة مفسرة لوقاحة أبي جهل وتطاوله. والإنسان هنا هو أبو جهل أولا. وينطبق هذا الحال على كل متعاظم متكبر بما أوتيه من مال وقوة.

أن رآه استغنى. طغيان الإنسان بسبب رؤية نفسه مالكا لكثير من المال. فتحدثه نفسه أنه بالوَفْرِ المالي بين يديه في مركز قوة يتقرب إليه المحتاجون وحتى غيرهم من الذين يعظمون المال أكثر من كل شيء. فينتهي إلى جنون العظمة التي تبرر له تجاوزاته وفساده. وعلى هذا النّحو تختل النّفوس إذا قطعت النّعمة عن مسديها المتفضل بها رب العالمين. ومثل الاستغناء بالمال الاستغناء بالسّلطة التي أصابت البشرية بالجبابرة المستبدين الطّغاة.

8- إنّ إلى ربّك الرّجعى.

هذه صفعة للطغاة بقوتهم المادية. إنهم واهمون فقدراتهم التي انتفخوا بها زائلة. وسيعودون إلى ربك، يا محمد، فارغين من المال، والجاه، والسّلطة، والخدم، والأتباع. فالآية تهديد وتحذير من عاقبة الطّغيان، وأنهم لا يفلتون من العودة

---

[1] اكمال الاكمال ج 7 ص 197

[2] آية 19

والرّجوع إلى الحكم الإلهي الذي ينفذ فيهم بالموت في الدّنيا، والعذاب في الآخرة.

9←10: أرأيت الذي ينهي عبدا إذا صلى.

صيغة تفيد التّعجب من وقاحة وتطاول أبي جهل. وأنه تطاول منتفخ بكبريائه، أحط قدرا من أن ينهى رسول الله ﷺ عن أداء الصّلاة في المسجد الحرام. ذلك أنه تحدث بتهديده للنبي ﷺ إذا رآه يقيم الصّلاة بمرأى من المجتمع المشرك. قاصدا أن يبلغ تهديده المصطفى ليقلع عن التّحدي للمشركين بإظهار الخضوع لله وحده. والعبد في الآية هو محمد الرّسول.

11←12: أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتّقوى.

التّعجب في الآية من موقف المتكبر الطّاغية الغليظ. كيف فقد الميزان والبوصلة، وانكشفت مواقفه وهو يتخبط في التّناقض. كيف يجرؤ على نهي من كان متمكنا من الهدى ليقلع عن مساره الصّالح، وكيف يعادي ويقف حجر عثرة أمام من يأمر بتقوى الله والاستقامة في الحياة. إنه الكفر، والطّغيان، والتّكبر، والتّجبر هي التي قلبت عنده الحقائق، فسوغت له مواقفه تلك.

13- أرأيت إن كذّب وتولى.

تعجيب ثالث للتّشهير بهذا المتكبر الطّاغي. أرأيت موقفه المعاند المصمم على الرّفض، كيف عطل قواه العقلية، وتصلب في الإعراض. فكل ما يطرق سمعه من الرّسول المتمكن من الهدى والمقيم للصلاة يكذب به، ويولي ظهره لندائه. فيجعل نفسه في شق مقابل لشق رسول الله ﷺ.

14- ألم يعلم بأنّ الله يرى.

سؤال إنكار وتهديد. يدل على جواب إن كذب وتولى تقديره: فالله عالم به. لا يتصور أن يخفى على الله شيء من كفره، وعناده، وضلاله. إنّه سبحانه يرى كل ما يحدث في الكون، فلا يغيب عن علمه شيء. فالآية تتضمن تهديدا بأن مواقفه معلومة عند الله سيجازيه عنها عذابا وإهانة يوم القيامة.

كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِب ﴿١٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

السّفع: القبض الشديد مع جذب.

النّاصية: مقدم الرّأس.

خاطئة: مذنبة.

النّادي: اسم المكان الذي يجمع فيه القوم.

الزبانية: ملائكة العذاب. ويطلق على أعوان الشرطة.

بيان المعنى الإجمالي :

كلاّ: ليرتدع هذا الطّاغية فإن ما عمر به نفسه كله باطل ولا أثـر لـه. إنـه إن لـم ينتـه عن مقاومة الدّين والتّهديد فسنمسك بناصـيته مسـكا لا يسـتطيع الانفكـاك منـه ونجـره ذليلا. هي النّاصية التي جمعت بين الـرّذيلتين: الكـذب والتّلـوث بـالإثم. ومـن وقاحـة الطّاغية أنه هدد النّبي ﷺ بأنه سيتقوى بأهل ناديه الـذين يجتمعـون عنـده ليوقفـه عـن مواصلة التّبشير بالهدى. وتحداه القرآن بـأن الله سـيدعو ملائكـة العـذاب ليسـحقوه مـع أهل ناديه لو حاول النّيل من رسول الله ﷺ. لينزجـر عـن التّعـرض للرسـول ودعوتـه. ولا تكترث به. واصل عبادة ربك، واسجد له، وتقترب إليه.

بيان المعنى العام:

15-كلاّ لئن لم ينته لنسفعن بالنّاصية.

افتتحت الآية بكلمة(كلا) المفيدة للإبطال والرّدع. وهي مؤكـدة لـ(كـلا) الأولـى. **كـلا إن الانسان ليطغى.** فجاء الكلام مفتتحا بكلا ومختتمـا بهـا. ممـا يشـير إلـى التّأكيـد القوي المبطل لتصورات الطّاغيـة، ولردعـه عـن طغيانـه. وأعقـب الإبطـال والـرّدع بالكشف عن مآله. إنه سيؤخذ أخذا مذلا لا ينفلت منه. جسّـم ذلـك بأنـا سـنقبض علـى مقدم رأسـه، ونجـره جـر الأذلاّء مـن الجنـاة المـدفوعين لتنفيـذ العقوبـة علـيهم، إذ يؤخذون من مقـدم رؤوسـهم بعنـف وشـدة، فيركعـون وهـم مجـرورون أذلاّء. هـذه العاقبة الحتمية إن لم يقلع عن طغيانه وعن مقاومة الدّين.

16- ناصية كاذبة خاطئة.

هذه النّاصية يحملها من تأصلت فيـه الرّذيلتـان: الكـذب، والتّلـوث بالـذنب. فصـح أن توصف النّاصية بالكذب والإثم.

17←18: فليدع ناديه سندع الزبانية.

كان من جراءة أبي جهل : أنه هدد النّبـي ﷺ بأنـه سيسـتعين عليـه، لمنعـه مـن مواصلة القيام بشريف مهمته، بدعوته أهـل ناديـه، وهـم الـذين يحضـرون مجلسـه، ويوقرونه. لا تكترث بتهديده. فإنّما سـنحميك بمـا لا طاقـة لـه بـه، لا هـو ولا أهـل ناديه. سنسلط عليهم الزبانية الملائكـة الـذين يسـحقونه قبـل أن يصـلوا إليـك. وهـذا

التّهديد المعلَنُ من القرآن لأبي جهل، قمعه فتراجع عن تهديده من شأنه أن يلهب الحمية، مما يدل على أن المشركين عارضوا الإسلام خوفا على مصالحهم المادية وحظوظهم الرّئاسية، وهم في باطنهم يدركون أنه حق. قال تعالى: **(وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا)**[1].

19- كلاّ لا تطعه واسجد واقترب.

(كلا) ردع للطاغي المهدّد بدعوة ناديه، وإبطال له. فهو عاجز عن تحقيق تهديده.

واصل القيام بالصّلاة، ولا تهتم بتهديده، ولا تلق له بالا. واستمتع بالسّجود لربك، وكن متطلبا لنيل القرب منه، فإن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

وهذه السّورة فيها سجدة عند جماعة، ومنهم ابن وهب. ولا يرى مالك ﷺ عنه فيها سجودا ولا في المُفَصّل.

---

[1] **سورة النمل اية 14**

سـورة القدر

هذا هو الاسم المشتهرة به في المصـاحف، وفـي معظـم كتـب التّفسـير، وفـي كتـب السّنة. وسماها بعض المفسرين سورة ليلة القدر.
وهي سورة مكية في قـول الجمهـور. وبنـاء علـى ذلـك عـدت السّـورة: الخامسـة والعشرين في ترتيب النّزول، علـى أنهـا نزلـت بعـد سـورة عـبس، وقبـل سـورة الشمس. وذهب بعضهم إلى أنها مدنية. ويـرجح الشـيخ محمـد الطّـاهر ابـن عاشـور هذا بأنها تتضمن إحياء ليلة القدر، كان ذلـك بعـد فـرض الصّـيام فـي شـهر رمضـان بعد الهجرة. وبنوا على ذلك جعل رتبتها بعـد سـورة المطففـين، وقبـل سـورة البقـرة. ورتبتها حسب ترتيب المصحف: السّابعة والتّسعون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ الْقَدْرِ
خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ
﴿٤﴾ سَلَامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

ليلة القدر: ليلة الشرف. أو ليلة تقدير الأمور وقضائها.

تنزل الملائكة: نزولهم بالبركات.

الرّوح: جبريل عليه السلام.

بيان المعنى الإجمالي :

نزول القرآن على قلب محمد أمر عظيم جـدا تـأثرت بـه البشـرية مـن ذلـك اليـوم تأثرا متواصلا إلى يوم الدّين. ونظـرا لخطـر نزولـه، ولتفـرد ذلـك بالقيمـة العليـا، عبر القرآن بنون العظمة والجلال عن إنزاله، وأن إنزالـه كـان ليلـة القـدر، والشـرف. تميزت من بين ليالي الدّهر بإنزال القـرآن فيهـا. ومـا الـذي يعرفـك بمقامهـا السّـامي وخصائصها؟ فهي ليلة خير من ألف شهر. لا توجد فـي الألـف ليلـة القـدر، يتعـرض

فيها العباد إلى ثواب مضاعف، بحيث يكون قيامها أعظم ثوابا مــن قيــام أكثــر مــن أربع وثمانين سنة، وذلــك فضــل الله الكــريم. هــي موكــب الخيــر والفضــل: تتنــزل الملائكة وجبريــل بســبب إذن إلهــي لهــم بــالتّنزل إلــى أهــل الأرض مصــحوبين بالأوامر التي قدرها الله وقضاها من ذلك الظرف إلــى مثلــه مــن العــام القابــل. هــي سلام وبركة ومضاعفة لثواب القائمين فيهــا، يتواصــل فضــلها مــن غــروب الشــمس حتى طلوع الفجر، والفجر داخل فيها.

بيان المعنى العام:

1-إنا أنزلناه في ليلة القدر.

الضمير في قوله تعالى: **أنزلنــاه**، يعود على القرآن. وهو لــم يتقــدم لــه ذكــر، شــهادة له بالنّباهة على أن كل ما ذكر ما يليق به يرتبط به لأنــه حاضــر فــي الــذهن دائمــا. فهذا أول تنويه بالقرآن في مفتتح هذه السّورة. والتّنويــه الثــاني إســناد إنزالــه إلــى الله بنون العظمة **إنّا-أنزلناه**. فاختص بالذات العلية وهــو شــرف آخــر. وشــرف ثالــث أن الله تخير لإنزاله أفضل الأوقات، والأمكنة، والبشر، فــي ليلــة لهــا مــن المزايــا التــي علمها الله وحده.

و إنزال القرآن يحتمل أوجها:

الأول: أنه أنزله من اللوح المحفوظ إلى الملك الموكل بتبليــغ آياتــه فــي كــل مناســبة في فترة تواصلت نيفا وعشرين سنة.

الثاني: أن إنزال أول آية منه مؤذنة بــإنزال باقيــه حســب التّحديــد المســطر فــي علــم الله.

الثالث : أنه لما كان كل جزء مــن القــرآن يســمى قرآنــا، وقــد أنزلــت هــذه الآيــات الخمس في ليلة القدر، فصح القول **إنا أنزلناه** أي القران المتمثل في الآيات الخمس.

في ليلة القدر: أفاد النّص أن أول اتصال بين الرّســول ﷺ وبــين ملــك الــوحي كــان ليلا. وعرف هذه الليلة باسم علم **(ليلة القدر)** عاليــة القيمــة لهــا شــرف وفضــل علــى بقية الليالي. وهي ليلة من ليالي شهر رمضان.

2- وما أدراك ما ليلة القدر.

هذه الصّيغة تفيد التّفخيم والتّعظيم. وتقــدمت لهــا نظــائر فــي القــران تكــررت ثــلاث عشرة مرة في القرآن. لتفيد أنه لا يبلغ إدراك مدخولها إلا بكشف من الله.

3- ليلة القدر خير من ألف شهر.

كما هو شأن القرآن أنه إذا عبر بقولـه "ومـا أدراك" يتبـع بمـا يكشـف عـن المسـؤول عنه. فأول ما كشفه أنها ليلة يتجاوز فضلها، ونفـع العبـاد منهـا ألـف شـهر. والكثـرة واضحة في النّص من ناحيتين:

أ-أن الألف لا يقصد منه الحصر في عـدده، ولكـن يقصـد منـه العـدد الكثيـر، كقولـه تعالى:(**و إن يوما عنـد ربـك كـألف سـنة ممـا تعـدون)**[1] وكقولـه: (**ومـن الـذين أشركوا يودّ أحدهم لو يعمر ألف سنة)**[2]

ب-قوله **خير من ألف شهر** فيه زيادة على الألـف. ويفهـم منـه أن الألـف شـهر لـيس فيها شهر ليلة القدر. وتفضيلها بسـبب مـا ينالـه العابـدون فيهـا مـن وافـر الأجـر، وعظيم المثوبة. فإن الخيرية في الآية ليست بقـوة الضـياء، ولا بمـا يحـدث فيهـا مـن أمور مادية، ولكن بقيمة ما يحصـل فيهـا مـن فعـل صـالح نـافع للفـرد والجماعـة الإسلامية، وما قدر من مضاعفة الجـزاء عليـه. فمـن هـذه النّاحيـة تتفاضـل الأزمـان والأمكنة. كما قدر سبحانه من فضل لشهر رمضـان، وليـوم عرفـة، وللمسـجد الحـرام بمكة، ولمسجده ﷺ بالمدينة، وللمسـجد الأقصـى. وللثلـث الأخيـر مـن الليـل. والله ذو الفضل العظيم. فمن فضله جعـل الأوقـات الخاصـة والأمكنـة يتضـاعف فيهـا ثـواب العمل بما لا يحد.

4-تنزل الملائكة والرّوح فيها بإذن ربّهم من كل أمر.

كشف ثان لبعض خصائص ليلة القدر المنوه بهـا "**و مـا أدراك مـا ليلـة القـدر**" أي أن الملائكة، وجبريل عليه السلام، تتنزل في مثل تلكم الليلة كل عـام يوافـق ليلـة نـزول القـرآن، أول ما أنزل على رسول الله ﷺ. وهذا من المغيبات التـي تقصـر مـدارك البشـر عـن الإحساس به. وتنزل الملائكة والرّوح في هـذا المقـام يشـير إلـى مـا يحملونـه مـن خير للصالحين القائمين من هذه الأمة.

و لما كان ابتداء نزول القرآن قد تم في شـهر رمضـان لقولـه تعـالى:(**شـهر رمضـان الذي أنزل فه القرآن هدى للناس)**[3] فـإن ليلـة القـدر الأولـى كانـت قطعـا فيـه. ثـم اختلف أهل العلم في تحديدها. فذهب أبـو حنيفـة إلـى أنهـا ليلـة واحـدة فـي عمـر الزمن مضت، ولا تعاد. والمشهور الذي تضافرت عليـه الأدلـة أنهـا تتجـدد. واختلفـوا بين ليلة الرّابع عشر من رمضان، وليلـة السّـابع عشـر، والليلـة الفـرد مـن العشـر

[1] سورة الحج آية 47

[2] سورة البقرة اية 96

[3] سورة البقرة اية185

الأواخر. وأنها ليست في ليلة معينة مطـردة فـي كـل السّـنين بـل هـي متنقلـة فـي الأعوام. ومن وقف على كلمة(سلام) يقول إن في ذلك إشـارة إلـى أنهـا ليلـة سـبع وعشرين، إذ هذه الكلمة هي السّـابعة والعشـرون مـن كلمـات السّـورة. ونسـب هـذا القول إلى ابن عباس رضي الله عنهما. ويـذكر الشـيخ محمـد الطّـاهر بـن عاشـور أنه حفظ من بعض معلميه ان محيي الدّين بن العربـي عينهـا ليلـة الجمعـة الفـرد فـي النّصف الثاني من شهر رمضان، ونسب إليه في ذلك قوله:

وضابطها بالقول ليلة جمعة *** توافيك بعد النّصف في ليلة وتر.

تنزل الملائكة: هي ليلة مهرجان تتنزل الملائكة بالبركات، والفضل، والخيرات.

بإذن ربهم.

يتنزل الملائكة بسبب الإذن الصّادر لهم بالتّنزل. مصاحبين بمـا أذن لهـم بـه ربهـم مـن الفضل، والخير، والبركات.

من كل أمر.

يحتمل أن يكون المعنى تتنزل الملائكة من أجـل كـل أمـر قضـاه، وتعلـق بـه التّقـدير من تلك الليلة إلى مثلها في السّنة القادمة. ويحتمل أنهـا متعلقـة بسـلام أي سـلام مـن كل أمر مخوف.

5-سلام هي حتى مطلع الفجر.

إن نزول الملائكة في ليلـة القـدر هـو نـزول للسـلامة والخيـر، لا للعـذاب والشـر، فيشمل السّلام الغفران واسـتجابة الـدّعاء، ومضـاعفة الثـواب. ويطلـق السّـلام علـى التّحية، فيحي الملائكة العباد الطّـائعين تحيـة إكبـار لهـم، وتقـدير علـى مـا وفقـوا إليه فيها.و تستمر ليلة القدر حتى مطلع الفجـر. فـلا تنقضـي بركتهـا بطلـوع الفجـر. لأن الغاية بعد العطف بحتى داخلة، فهي تمتد بعد طلوع الفجر.

ســورة البينة

ذكروا لهذه السّورة سبعة أسماء-1- سورة البينة -2-سورة القيمة-3- سورة لم يكن الذين كفروا-4- سورة لم يكن 5- سورة البرية-6-سورة الانفكاك-7- سورة أهل الكتاب. وقد اختلف في كونها مكية أو مدنية. والظاهر أنها مدنية باعتبار أن العناية بمناقضة أهل الكتاب كان بالمدينة. رتبتها: الثامنة والتّسعون حسب ترتيب المصحف. وعدت:الحادية بعد المائة في ترتيب النّزول. نزلت بعد سورة الطّلاق، وقبل سورة الحشر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾
رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟
ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ
ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

منفكين: مقلعين عن منهجهم في العقيدة والعمل.

البينة: الحجة الواضحة.

يتلو: يقرأ قراءة مطابقة لأصل الكلام. لا تبديل فيه عما أوحي به.

الصّحف: ما يثبّت عليه المتلو بالكتابة.

مطهرة: لا تضليل فيها ولا تحريف.

فيها: مثبت في الصّحف كتب، وهي ما أثبته القرآن من الكتب السّابقة.

قيّمة: على أبلغ ما يكون من الكمال.

الإخلاص: التّنقية مما لا يلائم.

الدّين: الطّاعة.

حنفاء: موحدين منحرفين عن جميع التّصورات المناقضة للتوحيد.

بيان المعنى الإجمالي :

صرح الكافرون بمحمد ﷺ، من أهل الكتاب وكذلك المشركون، صرحوا قبل إرساله أنهم متشبثون بما هم عليه من العقيدة والنّظام الاجتماعي، وأنهم لا يقلعون عنه: إلى أن تأتيهم الحجة البينة الواضحة المقنعة. تلكم الحجة البينة هي رسول من الله يتلو عليهم وحيا مأمور بإثباته في صحف مطهرة من الضلال والتّناقض، تتضمن تلكم الصّحف كتبا لها أرفع قيمة، تقوم على صلاح الفرد والمجتمع. وتصحح ما ورد في الكتب السّابقة. فهي مهيمنة عليها.

و لكن الذين أوتوا الكتاب تفرقوا بعد أن جاءتهم البينة التي كانوا ينتظرونها. فمنهم من آمن بمحمد، ومنهم من كفر به، فكفر بالبينة بعد أن جاءته. ولا عذر لمن كفر. ذلك أن الإسلام ما أمرهم إلا بالإخلاص في العبادة لله، وأن يتمسكوا بالتّوحيد الذي جاء به إبراهيم الذي يدّعون أنهم على هداه، وأن يقيموا الصّلاة ويؤتوا الزكاة. وهذه الأركان الثلاثة هي دين الأمة القيمة التي كانوا ينتظرون ظهورها (**حتى تأتيهم البينة**).

بيان المعنى العام:

1←3: لم يكن الذين كفروا.... قيمة.

الآيات الثلاث تسجل ما كان المشركون، وأهل الكتاب، يعلنون أنهم مستمسكون به، ليبنى على ذلك توبيخهم على عدم الوفاء بما كانوا يجزمون به في الرّد على من يطلب منهم التّخلي عن معتقداتهم.

كان المشركون إذا دعاهم النّصارى للتنصر، أو اليهود للتهود، يرفضون الدّعوة محتجين: أنهم ما جاءهم من بشير ولا نذير يخاطبهم بشريعة، يتبعونه ويعملون بما يأمرهم به، وأنهم سيتركون شركهم يوم يأتيهم رسول منهم. قال تعالى:(**وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه لعلكم ترحمون* أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين* أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم**)[1].

و كان أهل الكتاب يذكرون أنهم سيؤمنون بالرّسول الذي سيظهر وسينتصرون به. قال تعالى:(**يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرّسل أن**

[1] سورة المائدة الآيات 155←157

تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير)[1].

فالآية تسجل ما كان يصدر عن الفريقين قبل أن يكرم الله محمدا ﷺ بالرّسالة. أعلنوا تصميمهم القوي على المضي على ما هم عليه إلى أن تأتيهم البينة. يدل على قوة تصميمهم كلمة (**منفكين**) أي إن ما هم عليه قد تقرر في بواطنهم، واختلط بعقولهم ومشاعرهم يجلبهم إليه، وهم منجذبون إليه. فالتّخلص منه هو انفكاك يبلغ الأعماق ويتابع الفروع.

و **البينة:** يقصد منها الآية البينة، والدّليل الذي ينفذ إلى العقول فيحمي كل ما يخالفه. هو من القوة والوضوح بدرجة أنه لا يخالطه تردد ولا احتمال. ولا يقصد بها في نظري الآية التي يرددها أحبارهم ورهبناهم، لأنهم قد بدلوا وغيروا وأضافوا إلى نصوص كتبهم ما اخترعوه، مما يبقي على مقامهم وتأثيرهم. كما سجل القرآن على يهود في قوله تعالى: (**الذين قالو إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن لرسول حتى لا يأتينا بقربان تأكله النّار)**[2] وما عهد الله لهم بذلك. وما أتى أنبياء بني اسرائيل بهذا الذي زعموا. والبينة إذن قد جاءتهم، فإن ما تحلى به محمد من الكمالات التي لا يمكن أن تجمع في شخص إلا أن يكون ذلك دلالة على أنه منتخب من رب العباد ليبلغ رسالته، خاصة مع الظروف التي نشأ فيها في وسط جاهلي، يتيما، وأميا. وما صحبه من القرآن المعجز، وما تحقق لرسالته من قوة الانتشار في زمن وجيز. هذه كلها تتساند فيما بينها لتكون بينة واضحة على صدقة.

رسول من الله يتلو صحفا مطهرة فيها كتب قيمة.

البينة هي رسول عظيم مبعوث من الله. يقرأ عليهم كلاما وحيا منزلا عليه من الله، بما تفيده كلمة التّلاوة من إعادة للكلام بدون زيادة ولا نقصان.

و**الصّحف المطهرة**. الصّحف لا تتلى، وإنما يتلى ما تضمنته وما سطر فيها. وفي ذلك إشارة إلى عزة القرآن وشدة الاهتمام به، وأن الرّسول ﷺ مأمور بأن يعمل على تثبيته في الصّحف المواد التي تتخذ لتسجيل النّصوص. وهي مطهرة بينة لا تضليل فيها ولا اختلاف. وفي ذلك تعريض بصحف التّوراة والإنجيل التي كانت

---

[1] سورة المائدة اية19

[2] سورة ال عمران اية 183

رائجة بين أيدي اليهود والنّصارى، هي مغايرة لصحفهم المنزلة التي لم تحتفظ بصورتها الأصلية.

فيها كتب قيمة:

تتضمن هذه الصّحف كتبا لها أرفع قيمة تنطق بالحق، والعدل، والصّلاح الفردي والاجتماعي، كما تتضمن كتبا من التّوراة والإنجيل هي قيمة عليها مصلحة لما فيهما من تحريف وتزيد.

4-وما تفرّق الذين أوتوا الكتاب إلاّ من بعد ما جاءتهم البيّنة:

يقول الشيخ محمد الطّاهر ابن عاشور: وقد أطبقت كلمات المفسرين على أن معنى قوله تعالى: **وما تفرق الذين أوتوا الكتاب**... أنهم ما تفرقوا عن اتباع الإسلام أي تباعدوا عنه إلا من بعد ما جاء محمد ﷺ. وتأويل التّفرق بالتّباعد صرف عن ظاهرة أشكل به عليهم وجه تخصيص أهل الكتاب. إذ التّباعد حاصل منهم ومن المشركين.

واستثنى الفخر الرّازي الذي ألمع إلى تفسير آخر لا يلتئم مع ما ذكره أولا.
ورأى الشيخ ابن عاشور: أن المقصود بأهل الكتاب اليهود فقط، وأن البينة في الآية هي بينة عيسى عليه السلام، الذي تفرق اليهود في موقفهم من رسالته. وأن الآية تشير إلى مواقف اليهود الواحدة من جميع المرسلين، فَقَبْلَ تكذيبهم لك كذبوا عيسى عليه السلام. والذي يترجح عندي أن المراد بأهل الكتاب اليهود والنّصارى، إذ لا وجه لتخصيص أهل الكتاب باليهود، لأن شأن القرآن عندما يقصد اليهود يعبر عنهم باليهود وبالذين هادوا. ويفهم من الآية أن أهل الكتاب اليهود والنّصارى معا، تفرقوا بعد ما جاءتهم رسالة محمد ﷺ، فمنهم من طرح التّعصب، ونظر في البينة فآمن، ومنهم من واصل التّعصب الذي كان عليه قبل البينة فواصل تمسكه بالكفر. وهذه هي الصّورة الحقيقية التي انتهى إليها أمر أهل الكتاب بعد ما بينه لهم رسول الله ﷺ. وتكون هذه الآية توبيخا لمن واصل كفره، خاصة وأن بعضهم قد آمن. وهذا ما يشير له قوله تعالى: (**ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر**)[1] ويتأكد هذا المفهوم في الآية التّالية.

---

[1] سورة البقرة اية 253

5-و ما أمروا إلا ليعبدوا الله... القيمة:

عجب للمتصلبين في الكفر من أهل الكتاب!

ذلك أن ما أنزل عليهم، وأمروا به، وطبقوه مع رسلهم، يقوم على دعائهم:

أ-عبادة الله وحده، عبادة منقاة من كل شائبة شرك، متجهة إليه وحده، يستحضر العابد صلته بمعبوده. معبرين عن الطّاعة الخالصة، والخضوع الكامل لله.

ب- **حنفاء** مؤكد لقوله **مخلصين له الدّين**. لأن الحنيفية هي الدّين الذي يرفض كل الأديان المخالفة له، وينفرد بمنهجه في العقيدة. وهو دين إبراهيم. تكرر التّنصيص عليه سبع مرات في القرآن. قال تعالى: **(بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين)**[1].

ج- التّقرب إلى الله **بالصّلاة والزكاة**. وهما مفروضان في التّوراة، وعلى أتباع عيسى، لأن ما جاء به عيسى مواصلة لما جاء في التّوراة في الأصول.

وذلك دين القيمة. ذلك المجموع من عبادة الله بإخلاص حنفاء يؤدون الصّلاة والزكاة، هو دين الأمة القيمة المستقيمة على الحق أكمل استقامة. فمن تعصبهم ضد الحق، ومن اعتمادهم على ما تدفعه إليه عواطفهم، وغلق عقولهم، واصل من واصل منهم كفرهم بما أنزل إليك. صرحوا بأنهم ينتظرون البينة، ولكن الفريق الغالب فيهم تنكروا للبينة بعد أن جاءتهم. وإيمان من آمن منهم يقوم دليلا على أن شريعتك هي البينة، والمنهج المستقيم المتفق في أصوله مع شرائعهم، ومكمل لها. ومنقّ لها مما شابها من التّحريف والتّبديل.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

البرية: البشر.

[1] سورة البقرة اية 135

بيان المعنى الإجمالي :

أشارت الآية السّابقة إلى تفرق الذين أوتوا الكتاب، بعد أن جاءتهم البينة، إلى فرقة كافرة، وأخرى مؤمنة حسبما يفهم من النّص. اهتم هذا المقطع ببيان جزاء كل فريق.

فأما الذين كفروا من أهل الكتاب، ومعهم المشركون الصّامدون على عبادة الأوثان والشرك بالله، فهم عند الله وفي الواقع شر البشر. وأن مآلهم نار جهنم لا يخرجون منها في العذاب الأبدي. وأما الذين آمنوا بمحمد وصدقوا بما جاء به من العقيدة والتّشريع، وعملوا العمل الصّالح بذواتهم، وبالجماعة، وبالكون، فإنهم خير البشر وأسماهم. وسيلقون جزاءهم عند ربهم الإقامة الدّائمة في جنات تتخللها الأنهار الجارية. وفوق ذلك يفوزون بشعورهم أن الله راض عنهم. وبهذا يكونون على أتم الرّضا بما نالهم، ولا يطمحون إلى شيء آخر. ذلك التّكريم يملكه الذي خاف مقام ربه. وقد كانوا في حياتهم الدّنيا حذرين من الوقوع فيما لا يرضى مولاهم.

بيان المعنى العام:

6- إن الذين كفروا من أهل الكتاب....شر البريئة:

يواصل القرآن بيان النّهاية للفريقين.

الفريق الأول: الذين كفروا بمحمد من أهل الكتاب، وأمثالهم من المشركين، بكل تأكيد نهايتهم واحدة يلقون جزاءهم يوم القيامة في نار جهنم، جزاء بتواصل إلى أبد الآبدين ولا ينقطع. ونتيجة لكفرهم، ورفضهم الإذعان للحق بعد ما تبين، فإنهم يُقوّمون على أنهم أشد النّاس شرا، فارغون من الخير. فأهل الكتاب قد جاء كتابهم يبشرهم بدين الإسلام، ويحثُهم على اتباعه فهيأهم للخير، فتنكروا لما جاءهم به دينهم وتنكروا للبينة الواضحة في رسول الله ﷺ. وأما مشركو مكة فإنهم كانوا يعتزون بأنهم على ملة أبيهم إبراهيم، التي حرفوها ونقضوها بعبادة الأصنام. فلما جاءتهم البينة التي توقظهم إلى الخلل الذي في عقيدتهم، وتمكن انتسابهم إلى إبراهيم، وتدعوهم إلى التّأمل في الكتاب الذي تحداهم للإتيان بسورة من مثله فعجزوا، واصلوا كفرهم وعبادة الأصنام، فهم بذلك شر النّاس.

7- إن الذين آمنوا وعملوا الصّالحات.....ذلك لمن خشي ربه.

الفريق الثاني: الذين آمنوا بما جاءتهم به رسلهم فآمنوا بمحمد وصدقوا بالبينة، وتحقق إيمانهم عمليا بمراقبة الله فيما يفعلون ويتركون. فكانت أعمالهم أعمالا

صالحة لأنفسهم، وللبشـرية، وللكـون. إنهـم فـي الجهـة المعاكسـة لجهـة الكـافرين، ومقامهم على نقيض مقامهم. هم بشهادة الله خير النّاس.

ثم صرحت الآية بما أعد له ربهم من الجزاء، فأثبت:

أولا أنه جزاء عزيز، هو عند ربهم الذي يواصل رعايتهم، وتيسير الخير لهم.

و **ثانيا** في جنات ينتشر فيها الخصـب، نضِـرة كأشـد مـا يكـون الجمـال والرّونـق. تتخللها. الأنهار. فلا مكان للجدب فيها. يقيمـون فيهـا إقامـة أبديـة لا يلحقهـا انقطـاع، خالدين فيها.

و **ثالثا**: أن آمالهم تحققت بصفة لا يحسون معهـا بـنقص، ولا تتعلـق نفوسـهم بمفقـود، حلت الطّمأنينة الرّاضية، نالوا أعز مرغـوب فيـه: أن الله راض عـنهم. وهـي مرتبـة مبينة على محو كل مـا وقعـوا فيـه عـن تقصـير أو قصـور، فكـانوا بهـذا الرّضـا بمستوى الكمال المطلق الذي لا يُنال بالعمل، وإنّما بفضـل الله الـذي يؤتيـه مـن يشـاء. ولا شك أن جزاءهم الذي تجاوز قيمـة أعمـالهم، مـن فضـله، يمـلأ نفوسـهم رضـا. روى البخاري بسنده إلى أبي سـعيد الخـدري ﷺ قـال: قـال رسـول الله ﷺ : (إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة يقولون لبيك ربنـا وسـعديك، فيقـول هـل رضـيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا مـالم تعـط أحـد مـن خلقـك ! فيقـول: أنـا أعطيتكم أفضل من ذلك، قالوا: يـا رب وأي شـيء أفضـل مـن ذلـك؟ فيقـول: أحـل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم أبدا[1].

ذلك الفوز العظيم، والأجر الكبير، والنّعيم المقيم. هو جـزاء مـن حلـت خشـية الله ربـه في مشاعره. فهو على وجل من التّقصير والوقوع فيما لا يرضاه مولاه.

---

[1] اللؤلؤ والمرجان ج 1702

سورة الزلزلة

هذا هو أحد أسمائها. كما سميت[إذا زلزلت]. أخرج التّرمذي بسنده إلى أنس بن مالك ﷺ مرفوعا: إذا زلزلت تعدل نصف القرآن. وسميت في كثير من المصاحف وكتب التّفسير: سورة الزلزال. ورتبتها حسب المصحف: التّاسعة والتّسعون.
و اختلف في كونها مكية أو مدنية. ورتبتها على أنها مدنية: الرّابعة والتّسعون. نزلت بعد سورة النّساء وقبل سورة الحديد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

بيان معاني الألفاظ:

زلزلت: حركت تحريكا شديدا هز كل جزء منها.
أثقالها: جمع ثقل، ما حواه بطنها مما هو معروف وغير معروف.
يومئذ: في الوقت الذي تحدث فيه الزلازل.
أوحى لها: أمرها فأطاعت.
يصدر النّاس: يخرجون من مكان اجتماعهم.
اشتاتا: متفرقين.
مثقال: ما يقدر به الوزن، زنة.
الذرة: النّملة الصّغيرة في أول وجودها. والذرة أيضا ما يرى يتطاير في الحزام الضوئي الدّاخل في الغرفة.

بيان المعنى الإجمالي :

يحشر البشر للجزاء في هذا الظرف المفزع المهول. عندما تزلزل الأرض الزلزال العنيف المنبعث من قلبها، فيرمي بكل ما حوته من أثقال المعادن،

والصّخور، إلى ظاهرها. ويضطرب الإنسان فزعا من هول ما يرى. وتأخذه الحيرة، ويسال ما للأرض قد حدث فيها مالم يحدث من قبل؟ في هذا اليوم تحدث الأرض عما عمل الإنسان على ظهرها، فينطقها ربها بما لا يجد الإنسان سبيلا معه إلى النّكران. وذلك بسبب أن الله أوحى لها ما تنفذ به ما أراده منها. في هذا اليوم يصدر البشر جميعا من أول يوم خلق فيه البشر إلى يوم الانفجار. يخرجون مشتتين، مسرعين، إلى الدّاعي الذي دعاهم للخروج من قبورهم. ليرى كل فرد جزاء عمله. وماذا يرى؟

من عمل عملا حسنا يجد ثواب عمله، وإن كان عملا صغيرا، ما كان يعطي له بالا يوم قام به.

و كذلك من عمل سوءا يجد جزاء عمله، ولو كان تافها لم يقدر عاقبته لتفاهته.

بيان المعنى العام:

1-إذا زلزلت الأرض زلزالها:

يحشر النّاس فيجازون، في هذا الظرف المفزع. هذا الظرف الذي يحدث فيه ما قدره الله ونفذه:

أ–تهتز فيه الأرض اهتزازا عنيفا كأشد ما يكون العنف والقوة. وعبر عن قوة الزلزال بقوله: **زلزالها**. الزلزال الذي يؤثر في كل جزء من أجزائها فيبلغ غاية قوته. كما تقول: أكرم محمد إكرامه، أي الإكرام الذي يناسب مقامه، فلا تغفل عن أي جزئية من جزئيات الإكرام الذي هو أهل له. وأما لو قلت: أكرم محمد إكراما فإنه لا يدل إلا على التّأكيد على الإكرام. فالأول أبلغ.

2-و أخرجت الأرض أثقالها:

(ب) تنفجر الأرض فتتشقق، كالرّمانة التي وقعت على الصّخرة من أعلى شجرتها. ويخرج ما في باطنها، فيبرز على سطحها. قوة عظيمة هائلة انفجرت من القلب فدفعت الأثقال التي كانت في الباطن من المعادن، والصّخور، والمياه، وما لا يعلمه إلا الله، دفعتها إلى السّطح فتناثرت.

3-و قال الإنسان مالها:

(ج) هذه الآية تكشف تأثير الزلزلة العظمى في الإنسان، والسّائل هو الإنسان الكافر، لأن المؤمن بما علمه من الوحي يعرف أن السّاعة ستأتي، وتحدث هذه الأحداث فهو لا يتساءل: **مالها**. وفهم بعضهم أن التّساؤل يصدر من جميع النّاس لشدة الذهول من الفزع عند ذلك. فيتساءل كل إنسان مالها زلزلت، وأخرجت

أثقالها التي كان لا يُخرج الإنسان شيئا قليلا منها إلا بعد جهد ، واستعانة بالآلات التي أحكم صنعها.

4- يومئذ تحدث أخبارها:

العجيبة التّالية: أن الأرض تنطق بما وقع عليها من خير أو شر. أخرج التّرمذي بسنده إلى أبي هريرة قال: (قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (**يومئذ تحدث أخبارها)** قال: أتدرون ما أخبارها؟ قلنا الله ورسوله أعلم. قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمة بما عمل على ظهرها. تقول: عمل يوم كذا كذا. فهذه أخبارها)[1].

5- بأن ربك أوحى لها...

هذا التّحديث تم بسبب أن الله أوحى إلى الأرض أن تحدث بأخبارها. وَوَحْيُ الله إلى الأرض أمر التّكوين أي أوجد فيها من المقدمات والأسباب ما أخرجت به أثقالها. فيعلم النّاظر في الأحداث أن الله هو الآذن بما تم. أو إن الله أذن لها أن تخبر عما وقع عليها. نظير قوله تعالى: (**وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء)**[2].

6- يومئذ يصدر النّاس أشتاتا ليروا أعمالهم:

في ذلك اليوم يصدر النّاس من موقفهم إلى مآلهم المقدر لهم حسب أعمالهم وما قدموه في الدّنيا. يصدرون متفرقين بعضهم يسير إلى الكرامة وحسن الجزاء، وبعضهم إلى جهنم وسوء المصير. لتبرز النّهاية فيرى كل فرد عمله وجزاءه. ويصح أن تفهم الآية على أن الرّؤية بصرية، ليروا منازل جزائهم. وأن تكون بمعنى العلم ليعلموا جزاء أعمالهم.

7-8- فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره.... يره:

ختمت الآية السّابقة بقوله تعالى:**[ليروا أعمالهم]** فصرحت الآيتان عما يراه كل فريق من هذه الأشتات المنبعثة من قبورها إلى المحشر من يوم خلق الله البشر إلى يوم القيامة.

المرجع هو العدل الإلهي، كما قال تعالى: (**لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب)**[3] أحصى الله لكل إنسان ما عمل من خير، وما عمل من شر، وأعطى لكل عمل

---

[1] ج3ح2429

[2] سورة فصلت اية21

[3] سورة غافر اية17

قيمته. فلا يهمل التّافه الصّغير من الأعمال الطّيبة، ولا من الأعمال الخبيثة. الكل مدون تدوينا دقيقا. والآية الأولى ترغب في الإقبال على العمل الصّالح، وتربي المؤمن على فعل الخير ولو كان بسيطا في نظره، أو لا خطر له. سواء أكان بالكلمة، أو بالفعل المادي، أو الأدبي. فالمؤمن أليف الصّلاح يقدر الخير ويعمل به، ويحث عليه، ويعين عليه.

والآية الثانية ترهب من الشر ولو كان حقيرا. فقد يخسر الإنسان عاقبته لعمل شر استهان به. إذ الشر شر يتعين الابتعاد عنه، واستئصال جذوره ولو كانت صغيرة تافهة. وهو كالسّم الذي يهدم الجثة العظيمة القوية. والشيطان لا يجابه من يوسوس له بعظائم الأمور، ولكنه يدخل جرثومة الإثم والفساد بمحقرات الأمور لتتكاثر وتنحرف بالمفتون عن الصّراط المستقيم.

و قد نص على هذا المفهوم قوله تعالى: **(ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين)**[1]

و في الخاتمة الآيتين (يره) تجسيم بالمعنى وبالجرس للجزاء.

---

[1] سورة الانبياء أي 47

سورة العاديات

بهذا سميت في كثير من المصاحف، وكتـب التّفسـير. وسـميت فـي بعضـها (سـورة والعاديات) بإثبات الواو. على الحكاية لنص الآية.

واختلف في كونها مكية أو مدنية. ورتبهـا حسـب ترتيـب المصـحف: المائـة. وحسـب ترتيب النّزول: الرّابعة عشرة، على اعتبـار أنهـا مكيـة. نزلـت بعـد سـورة العصـر، وقبل سورة الكوثر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ:

العاديات: الخيل الجارية.

ضبحا: صوت أنفاس الخيل المكتومة عند عدوها.

قدحا: الشرر البادي عند احتكاك جسم بآخر.

أثرن: أصعدن.

نقعا: غبارا.

كنود: عظيم الكفران للنعمة.

لشهيد: لمقر.

الخير: المال.

شديد: بخيل.

بعثر: قلبت القبور فخرج الذين فيها أحياء.

حصل : جمع وأحصى.

لخبير: عالم العلم الدّقيق ليقع جزاؤهم.

بيان المعنى الإجمالي :

أقسم الله بخيل الغزاة وهي تعدو نشيطة، فنسمع أنفاسها المكظومة في باطنها لقوتها، وسرعة جريها. وأقسم بها والشرر يتطاير من سنابكها، وأقسم بها وهي قد أسعدت الفرسان ببلوغهم وسط الأعداء مع الصّباح الباكر فتمت مباغتتهم. وزاد الوصف وضوحا بأنها أثارت الغبار لسرعة حركتها فعلا القوم. وقد بلغوا قلب الأعداء وتوسطوا في منازلهم. أقسم بذلك مثبتا أن من طبع الإنسان الكفر بالنّعم. وأنه بأفعاله وما يصدر عنه يشهد على نفسه بذلك. وأنه بخيل بماله أشد البخل لا يسهم للمحاويج ما يرفع عنهم الحاجة والخصاصة.

ما هذه الغفلة التي تمكنت منه، أفلا يعلم أن الجزاء ثابت لا شك فيه، يوم تبعثر القبور فيخرج أصحابها منها أحياء للحساب. وإن ربهم الذي تولاهم في حياتهم عليم العلم الكامل بما صدر عنهم، عليم بظواهرهم وبواطنهم، ليجزيهم عنها الجزاء العادل.

بيان المعنى العام:

1←3: و العاديات ضبحا.. صبحا:

افتتحت الآية بأقسام ثلاثة، كلها أوصاف. ولذا اختلف المتأولون في تقدير الموصوف.

الرّأي الأول: الله أقسم **بالعاديات ضبحا**، أي الخيل في حال عدوها الشديد حاملة للغزاة. فهي تعدو وتسمع أنفاسها المكتومة في صدورها. وحسب تجربتي فإن الضبح لا يتحقق إلا إذا كانت الخيل قوية.

فالموريات قدحا. عطفت على الصّفة الأولى صفة ثانية، وهو الشرر المتطاير عند احتكاك الحجر بسنابك الخيل. إذا كانت مندفعة بسرعة.

فالمغيريات صبحا. عطف على الوصفين هذا الوصف الثالث مفيد أن راكبيها مهاجمون لا مدافعون، فهم يغيرون عند الصّباح على منازل العدو ليأخذوهم على غرة، وضوء الصّباح يهديهم في غزوهم ويسعدهم بالوضوح.

الرّأي الثاني: أن القسم كان بالإبل التي يركبها الحجيج وهي تعدو بهم من عرفة إلى المزدلفة، فتوري الحجارة الصّوان المتطايرة من مناسمها شرارات الاحتكاك السّريع. ومعنى المغيرات صبحا على هذا، سرعة الإبل في اندفاعها من مزدلفة إلى منى. وينسب هذا التّخريج إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

4- فأثرن به نقعا.

يتتابع الخيل مع سرعة عدوها تطاير الغبار الكثيف، وصعد إلى الجو. فالباء هي باء السّببية، أي بسبب عدو الخيل ثار الغبار عاليا. والمعنى لا يختلف سواء حملنا العاديات على الخيل الغازية، أو على الإبل في الحج.

5-فوسطن به جمعا:

فبلغن براكبيها وسط القوم المَغْزُوِّين. أي إن الخيل لفراهتها وسرعتها، باغتت الأعداء، وبلغت قلب مجمعهم. وإن حملنا على الإبل يكون المعنى أنها بلغت جمعا: المزدلفة قبل أن تغير على منى.

و قوله: **فأثرن به نقعا، فوسطن به جمعا**، ليس مقسما بهما. بل هما من التّفصيلات التّابعة للإغارة. أو لإتمام مشهد الإبل يوم التّاسع والعاشر من ذي الحجة.

6- إن الانسان لربه لكنود:

تدور كلمة كنود حول معان باختلاف اللغات، تدل على نذالة صاحبها، فهي في لغة مضر وربيعة بمعنى الكفر بالنّعمة. وفي لغة كنانة بمعنى البخيل، وفي لغة كندة وحضر موت: العاصي.

هذا هو المقسم عليه، تتابعت الأقسام، وأكد المقسم عليه ليدل ذلك على تأصل هذا الخلق في بني الإنسان، حتى يتيقظ لمقاومة دواعيه. ذلك أن الإنسان كثيرا ما يغفل عن شكر النّعمة، أو يستعملها في غير ما خلقت له، كالقوة الجسمية، والحواس، وتدبير الشر لغيره. أو ينسب النّعمة كذبا لنفسه، او يكفرها. واللام في لنعمة ربه مقومة لربط كنود بكلمة ربه. وفي التّعبير بربه إيماء لتوبيخه على مقابلة الرّعاية المتواصلة بكفران النّعمة.

7-وأنه على ذلك لشهيد:

الضمير يعود إلى الإنسان، أي إنه رغم كفره بالنّعم المتكرر، هو يشهد على نفسه بأنه غير قائم بما يجب عليه نحو ربه. يعني أن فطرة الإنسان تجعله مدركا لانحرافه هذا، فأخلاقه وأفعاله تشهد عليه. ويحتمل أن يكون لفظ شهيد معناه عليم، وهو قريب من المعنى الأول، أي هو عالم بأنه غير قائم بما يجب لربه من الاعتراف بالنّعم. وإذا أعدنا الضمير في كلمة[**إنه**] على الله تكون الآية تتضمن أيضا توبيخا للإنسان لأن الله عليم بتقصيره، وتحذيرا من الجزاء.

8- وإنه لحب الخير لشديد:

و إن الإنسان لأجل حبه للمال ليبخل بما رزق، ولا يواسي به المحاويج والمستضعفين. وخلق الشح لا يجتمع مع الشهامة والعزة. فلذلك ترى البخيل بماله فاقدا للأنفة من أجل التحصيل عليه، ولا يثور للذل يصيبه.

9- أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور:

استفهام إنكاري مشوب بالتّوبيخ على مواقفه من كونه جاحدا لنعم ربه عليه، وشدة حبه للمال حبا يحرمه من نبل العطاء وفضل الجود. أهو جاهل انتفى العلم عنه بما ينتظره. ومتعلق العلم هو ما أعد للمنفصلين عن الله من سوء العذاب والمهانة يوم القيامة.

ألا يعلم ما ينتظره من العذاب يوم تبعثر القبور، فتقذف ما فيها أحياء للبعث والحساب.

وحصل ما في الصّدور. جمع، وأحصى، و ظهر، ما كان كامنا في الصّدور. استعدادا للحساب الذي يجازي عن مثقال الذرة.

11-إن ربهم بهم يومئذ لخبير.

بكل تأكيد إن ربهم الذي توالت تربيته لهم، وإمدادهم بما أبقى عليهم حياتهم من الولادة إلى الموت، عالم العلم الدّقيق بما صدر عنهم، في ظاهره وفي باطنه، العلم الذي يترتب عنه الجزاء.

سورة القارعة

هذا هو الاسم الوحيد الذي عرفت به في المصاحف وكتب التّفسير، والسّنة. وهي سورة مكية باتفاق. وهي السّورة الحادية بعد المائة حسب ترتيب المصحف. وعدت الثلاثين حسب ترتيب النّزول. نزلت بعد سورة قريش، وقبل سورة القيامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَا أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

بيان معاني الألفاظ:

القارعة: أصل القرع ضرب جسم لآخر بشدة يحدث صوتا عنيفا.

الفراش: صغار الجراد عند خروجها من بيضتها.

العهن: الصّوف الملون.

المنفوش: المفرق شعراته إعداد لغزله.

عيشة: حياة.

راضية: يرضى عنها صاحبها

هاوية: الحفرة البعيدة القاع، لا ينجوا السّاقط فيها.

بيان المعنى الإجمالي :

القارعة حدث عظيم جُسِّمَ كأنه صوت اصطدام عنيف. وهوله بالسّؤال عنه، وأنه لا يتأتى للإنسان تحديده بدقة لأنه من عالم الغيب. ثم كشفت السّورة عن بعض ما يحصل فيه. ترى في هذا اليوم ما لا يكاد يحصى من البشر من أول يوم خلقوا فيه، إلى يوم البعث، كأنهم لكثرتهم أرجال الجراد المنبثة في كل مكان. وترى الجبال وقد تفتت كأنها صوف ملون فرقت شعراته إعدادا لنسجه. وينقسم النّاس يومها إلى قسمين:

قسم سعيد، وهو الذي وزنت أعماله فكانت ثقيلة راجحة لمـا مثلتـه مـن خيـر. يـنعم بالرّضا الكامل عن الوضع الذي هو فيه.

وقسم شقي، وهو الذي خفت موازينه فلا يوجد لـه مـن الخيـر مـا لـه قيمـة. وهـذا القسم مآله الهلاك في الهاوية، والهاوية شيء غريب يتجـاوز الوصـف، هـي نـار بالغـة حرارتها أشد ما يكون.

بيان المعنى العام:

1←3- القارعة ما القارعة و ما أدراك ما القارعة.

فاتحة تُحدِثُ في النّفس خوفـا ورهبـة، مشـعرة أن الحـدث أمـر عظـيم. فـالقرع أصله الصّوت الذي يحدثه اصطدام عنيـف بـين جسـمين. وتُوُسِّـعَ فـي هـذا المفهـوم ليصبح دالا على الحـدث وإن لـم يكـن لـه صـوت كالدّاهيـة. وتضـاعف التّخويـف والتّهويل بتعقيب كلمة القارعة الأولى بالسّؤال عنها مما يشـير إلـى أنهـا أمـر غيـر معروف، يتجاوز كل ما مـر علـى التّجربـة الإنسـانية. وجمهـور المفسـرين حملوهـا على الحشر عندما يقوم النّاس من قبـورهم إثـر النّفخـة الثانيـة. ثـم زاد التّهويـل حـدة بقوله: **وما أدراك ما القارعة.** ويحقـق بقولـه: ومـا أدراك مـا القارعـة، مـا أعلمـك حقيقة القارعة أيها السّامع. لا أحد يعلمك بها لأنها ليست داخلـة فـي علـم الإنسـان، بـل هي من الغيب. وكلما بلغ الغموض حدا يتجـاوز المعرفـة الإنسـانية، كلمـا زاد الخـوف والتّهويل.

4-5-يوم يكون النّاس كالفراش...كالعهن المنفوش.

حسب التّرتيب الكلامي، يكون قوله هذا إجابـة عـن سـؤال: ومـا أدراك مـا القارعـة. ولكن نظم الكلام جاء بذكر وقتها، ولكن لـم يعـين الوقـت وإنمـا تحـدث فقـط عمـا يحصل فيه مما يضاعف تهويل هذا اليوم. وأبرز فيه ظاهرتين:

الظاهرة الأولى: أن النّـاس يكونـون مـن الكثـرة والتّفاهـة كفـراخ الجـراد عنـدما تخرج من البيض. وتفسير الفـراش بصـغار الجـراد أحكـم مـن تفسـيرها بـالفراش الذي يتطاير حول النّار ويسقط فيهـا. وذلـك لأن النّـاس يكونـون كثـرة كـاثرة يـوم القيامة يزحفون نحو المحشـر اقـدامهم علـى الأرض، غيـر متطـايرين فـي الهـواء. فتشبيههم بأرجال الجـراد الزاحـف أدق فـي التّصـوير. وقـد رأيـت أرجـال الجـراد الزاحف وهـي تغطـي وجـه الأرض يركـب بعضـها بعضـا، وتسـحق عجـلات السّيارة ما تمر عليه منها، وفي لحظة يلتئم ويعود متداخلا بساطا واحدا.

الظاهرة الثانية: أن الجبال تفجر تفجيرا يفتت أجزاءها فتراها كالصّوف الملون، والمفرق شعراته إعدادا لغزله.

6←7: فأما من ثقلت موازينه.

فصلت السّورة أحوال هذه الكثرة الكاثرة من البشر التي هي كأرجال الجراد المبثوث المتفرق على وجه الأرض. وقسمتهم إلى قسمين:

القسم الأوّل : من ثقلت موازينه. وتوزن الأعمال يوم القيامة بما فيها من خير أو شر، بميزان لا يعلم كنهه إلا الله، وهو بالغ الدّقة يعبر عن قيمة كل عمل، وعن قيمة مجموع الأعمال. عبر عمن كانت أعماله صالحة بأنها ثقيلة في الميزان، لأن الذي يوزن هو ماله قيمة وشرف. ثم حقق أنه سيكون في حياة سعيدة يشعر فيها بالرّضا الكامل.

القسم الثاني : من كانت أعماله لا قيمة لها إما لسوئها، وإما لكونها صاحبها خالي القلب من الإيمان، فتكون أعماله حتى ما ظاهره الخير لا قيمة لها، قال تعالى: (**وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا**)[1]. وعبر عن جزائه الخاسر بقوله: **فأمه هاوية.** هالك لا محالة. لأن الأسلوب العربي يعبر عن حال الفرد بحال أمه لشدة تعلقها به هي أشد سرورا منه بسروره، وأعمق حزنا بما يحزنه. كما يمكن أن تفهم الآية أن مقره ومآله الهاوية، على أنه يأوي إلى الهلاك كما يأوي الطّفل إلى أمه.

10←11: وما أدراك ماهية نار حامية.

بني أسلوب هذه السّورة على التّرهيب والتّخويف ليتخذ المخاطبون وقاية مما ينتظرهم إذا هم تراخوا إلى النّعيم ونسوا صلتهم بالخالق. ما الذي أعلمك بحقيقة الهاوية، فهي مما لا يصل الإنسان إلى معرفته لكونه من الغيب. هي نار جهنم الحامية، شديدة الحرارة. ومراتب حرارة النّار متفاوتة، كلما كانت أشد حرا كانت أشد إيلاما. أعاذنا الله وإياكم منها.

.

[1] سورة الفرقان اية 23

سورة التّكاثر

هذا هو الاسم الغالب عليها في المصاحف، وكتب التّفسير، والسّنة. وسميت في بعض المصاحف، وعند البخاري، سورة الهاكم.
وهي من السّور المكية على الرّاجح. وحسب ترتيب المصحف هي: الثانية بعد المائة. وحسب ترتيب النّزول عدت السّادسة عشرة، نزلت بعد سورة الكوثر، وقبل سورة الماعون.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

بيان معاني الالفاظ:

ألهاكم: شغلكم عما كان من حقّكم أن تشتغلوا به.

كلا : إبطال لما سبق وتهديد عليه.

النّعيم: هو ما يتلذذ به في الدّنيا مما ليس ملازما له.

بيان المعنى الإجمالي:

افتتحت السّورة بتوبيخ للكافرين الذين انحصر همهم في الجمع والاستكثار. وصحبهم ذلك إلى آخر لحظة من حياتهم عندما يوارون في قبورهم مواراة يعقبها الخروج للحساب. ثم زجرهم عن مواقفهم هذه التي لم تجعل في حسابها إلا الجمع والاستكثار، بأنهم سيعلمون عاقبة نهمهم هذا وما سيلقونه من عذاب. وأكد تحقق علمهم بتكريره. إنكم جاهلون بما يترصدكم، ولو كنتم تعلمون العلم اليقيني أنكم سترون الجحيم وتصلون نارها، لما واصلتم حياتكم على ما أنتم عليه. وفوق هذا ستحاسبون عن كل نعيم تنعمتم به. فتكاثركم لا يعطيكم الا مزيدا من العذاب إذ لم تشكروا المنعم، وأغفلتم الاعتراف بفضله.

بيان المعنى العام:

1←4: ألهاكم التّكاثر... ثم كلا سوف تعلمون

شغلكم حب التّكاثر وتحصيل أكثر ما يمكن تحصيله مما تعلقت به رغباتكم المستجيبة لشهواتكم: كالأموال، والأولاد، والأتباع، لتفاخروا بها. إن النّهم لجمع أكثر قَدْرٍ من متاع الحياة الدّنيا يُغَشّي القلب ويشغله، بحفظه وتنميته، عن العمل الصّالح. ويترك الجماع وراءه ما زاد على حاجاته. أخرج مسلم بسنده إلى مطرف عن أبيه رضي الله عنهما قال: أتيت النّبي ﷺ وهو يقرأ ألهاكم التّكاثر. قال: يقول ابن آدم مالي مالي. وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟)[1]

2- حتى زرتم المقابر.

صحبكم حب التّكاثر والجمع إلى آخر لحظة من حياتكم الدّنيا عندما توضعون في قبوركم. وعبر عنه بلفظ الزيارة إشارة إلى أن وضعهم في قبورهم هو إلى أجل يعقبه الخروج يوم البعث. هذا هو الظاهر من النّص.

و يحتمل أن يكون المراد حتى تفاخرتم بالأموات، وذهبتم إلى المقابر تعدون المدفونين فيها الذين كانت لهم منزلة رفيعة قبل الموت. والآية تسجل على هذا ما روى أن بني عبد مناف، وبني سهم، وهما فرعان من قريش، تفاخروا بكثرة السّادة والأشراف، أيهم كان أكثر عددا. فكثر بنو عبد مناف بني سهم. ثم قالوا نعد موتانا حتى زاروا القبور فعدوا قبور السّادة. فكثر بنو سهم بثلاثة أبيات.

3- كلا سوف تعملون ثم كلا سوف تعملون.

زجر لهم عن التّكاثر، وإبطال لجعل الكثرة أمارة الفضل. وأعقب الزجر بلفظ [كلا] بتهديدهم على تعلقهم بالكثرة، أنكم ستعلمون العذاب الذي يحل بكم عندما تحلون في قبوركم، ثم كلا سوف تعلمون عند البعث أن ما أوعدكم به محمد حق وصدق.

5-كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم.

افتتحت الآية بكلمة [كلا] مرة ثالثة، مما يفيد أن القسوة قد طغت على قلوب المخاطبين، فهو يزجرهم للمرة الثالثة ليرتدعوا. وأعقب الزجر بكلمة[لو] دون أن يذكر لها جوابا إمعانا في التّخويف والتّهويل. فيكون مما يقدر ليتضح المقصود: لو تعلمون علم اليقين العلم الذي لا يدخله غموض، ولا يتبعه تساؤل، ولا يلحقه

---

[1] اكمال الاكمال ج 7 ص 285

تردد. عظيم وأهوال ما يترصدكم، لاستبان لكم شنيع ما أنتم عليه، ولبادرتم لإنقاذ أنفسكم من سوء المصير.

6-7- لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين.

استأنف الكلام بعد ما تتابع من التّهويل والتّخويف بأساليب تفعل في النّفس من الرّدع ما تنزجر به عن مواصلة ماهي عليه. فأكد بأبلغ تأكيد أنهم لتصلبهم في الكفر سيعرضون على جهنم، ويرونها رؤية حقا ، لا تصورا، ولا تتم الحقيقة إلا بالوقوع فيها. فأكد نهايتهم إلى الجحيم بقوله: **ثم لترونها عين اليقين**. الرّؤية التي هي اليقين الخالص. وأبلغ أنواع اليقين هو ما اجتمع فيه الإدراك الحسي، والإدراك التّصوري.

7-ثم لتسألنّ يومئذ عن النّعيم.

و فوق ما تقدم من التّهويلات في السّورة على التّكاثر والاشتغال بالجمع عن النّظر فيما جاءهم به الرّسول من الحق، فوق ذلك أنكم تسألون عما نلتم من النّعيم من الأطعمة، والأزواج والسّراري، والفخر والرّياء، والتّغلب، وما رأيتموه من المحاسن. يوم ترون الجحيم بكل تأكيد تسألون عن النّعيم الذي لم تقوموا بواجب شكره، الذي أول مراتبه الاعتراف بفضل الله الذي يسره وخلقه. فالنّاس يسألون عن حظوظهم من النّعيم، من أين اكتسبوها، وما هو موقفهم من مسديها بعد أن حصلوا عليها. ويكون السّؤال بالنّسبة للمؤمنين الشاكرين المراعين للحلال سؤالا يعقبه زيادة في الأجر، وتكون عاقبته لمن كفر واستكبر، مزيدا من العذاب في سقر.

سورة العصر

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف، وفي كتب التّفسير، والسّنة. وفي بعض كتب التّفسير، وفي صحيح البخاري [سورة والعصر] بإثبات العاطف.
وهي مكية عند الجمهور، وذكر قتادة، ومجاهد، ومقاتل، أنها مدنية.
و هي السّورة: الثالثة بعد المائة حسب ترتيب المصحف. وعدت: الثالثة عشرة حسب ترتيب النّزول. نزلت بعد الانشراح وقبل سورة العاديات.
و هي إحدى سور ثلاث، هن أقصر سور القرآن: العصر، والكوثر، والنّصر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣

بيان معاني الألفاظ:

خسر: الخسران وسوء الحال.

بيان المعنى الإجمالي :

يقسم القرآن بعصر الإسلام الذي تمت فيه هداية العالمين، أو بالزمن الذي يشمل الكون من بدايته إلى نهايته. على أن الخسران أحاط بالإنسان. خاسر لدنياه بالذّلة، والخوف، وفساد الأخلاق، خاسر لآخرته بالعذاب الأليم في جهنم.
و استثنى القرآن من جنس البشر الهالك من جمع أربع صفات خيرة:
أولا: الإيمان بالله، وبمحمد، وبكل ما أنزله على محمد رسوله ﷺ، فطرد الشك عنه كما طرد التّعلق بغير الله. أخلص لربه في سره وعلانيته.
ثانيا: الحرص على أن يكون ما يفعله أو يتركه مستجيبا للمواصفات التي ضبطها الشرع الإسلامي صورة، وقصدا.
ثالثا: أن يكون مؤتلفا مع إخوانه على إظهار الحق، بالدّعوة إلى المعروف وتبيينه، والنّهي عن المنكر وتقبيحه.

رابعا: أن يأتلف مع إخوانه أيضا فيقوي بعضهم بعزائم بعض، على الصّبر بكسر شهوات النّفس، ومعاكسة ما يزينه الشيطان. وأن يصبروا على ملازمة طريق الهدى مستهينين بما يعترض طريقهم من الصّعاب.

بيان المعنى العام:

1-و العصر.

افتتحت السّورة بقسم هو العصر. والقسم به من أكثر الأقسام احتمالات في المراد منه. فيطلق العصر على الوقت المنحصر بين بلوغ ظل كل شيء مثله، وبين بلوغه مثليه. وبعد ذلك تصفر الشمس، وهو وقت العشي الذي يتلوه الغروب. ويطلق العصر على الصّلاة التي عين وقت إيقاعها وقت العصر. وهذه الصّلاة حث الشارع على المحافظة عليها. وهي الصّلاة الوسطى عند بعض العلماء كما جاء ذلك في قوله تعالى(**حافظوا على الصّلوات والصّلاة الوسطى**)[1]. و يطلق العصر على وقتي الغداة والعشي. قال الشاعر:

و امطله العصرين حتى يملني***و يرضى بنصف الدّين والأنف راغم

والعصر عن قتادة آخر ساعة من النّهار.

و يطلق العصر على مدة معلومة مرتبطة بجيل، أو ملك، أو نبي، أو دين، أو اختراع عجيب كعصر الذرة. ويكون المراد هنا عصر النّبي ﷺ، وهو أشرف العصور. وبهذا يكون القرآن قد أقسم بحياته ﷺ في قوله: (**لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون**)[2] وأقسم بزمانه في هذه الآية. وأقسم بمكانه في قوله تعالى: (**وأنت حل بهذا البلد**)[3]

و يجوز أن يكون القسم بعصر الإسلام الذي ختم الله به هدايته للبشرية. من يوم تلقى النّبي ﷺ الوحي الأول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

و تتفق تلكم المحامل على أنها دلائل على حكمة الله وقدرته وتفرده بالتّصريف. وأقربها إلى المقسم عليه الاحتمال الأخير، إذا الإسلام هو الدّين الباقي الذي صحح العقيدة، وربط الإنسان بخالقه مع كمال التّنزيه، وأقام العلاقات البشرية على ما يمكن النّاس من بناء حضارة صالحة لا تسلط فيها بالقهر ولا إفساد للكون.

2-إن الإنسان لفي خسر.

---

[1] سورة البقرة، آية 237

[2] سورة الحجر اية72

[3] البلد، آية2

هذا هو المقسم عليه، وهو تعريف كاشف عن طبيعة الإنسان، وما تؤديه إليه هذه الطّبيعة. وهي التي راعاها الملائكة لما أعلمهم ربهم بأنه جاعل في الأرض خليفة، فالشهوة العارمة الكامنة فيه هي من القوة بدرجة أنها تغطي على عقله وروحه. وكلما أخذت القيادة خسر الإنسان آخرته، وخسر دنياه. لأنه بمقدار ما ينغمس في اتباع الشهوات بمقدار ما يتمكن منه القلق والخوف، وينفصل عن الرّضا النّفسي والقناعة المطمئنة.

3- إلا الذين آمنوا وعملوا الصّالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصّبر.

كما تبين في الآية أنه إذا فقد الإنسان التّوازن، فحكّمَ شهواته، وقمع دواعي الخير فيه أحاط به الخسران العاجل والآجل.

و لكن الإنسان يحصن نفسه من الخسران، ويتوجه بها إلى الرّبح والسّعادة إذا وفر أركان الاستقامة:

التي أولها الإيمان بتخليص نفسه من كل علاقات الشرك الظاهر والخفي. يربط نفسه بخالقه، ويوطن نفسه على التزام السّبيل الذي يرضيه. تهون في نفسه الدّنيا ومغرياتها، إذا بإيمانه يحصل له الاقتناع بأن متاعها إلى أجل محدود، في الإقبال عليه، ونسيان الرّب الكريم الضياع والخسران.

و التي ثانيها: العمل الصّالح في منطلقه، في النّية التي بها اندفع إلى الفعل، وفي الطّريقة التي أنجز بها ما عمل. العمل الذي لا يحدث ضررا لا لإخوانه في الإنسانية، ولا للكون في حيواناته وجماداته. بل يكون قصده وسعيه للخير وللنفع.

والتي ثالثها: أن يأتلف مع إخوانه في حب الحق الذي آمن به والخير الذي اعتقده، همه الذي تعلق به أشد التّعلق نشر الحق بالدّعوة إليه، وتبيينُه بما يرسخه في النّفوس، وترويض من يحيط به على الكمالات.

و التي رابعها: تقوية عزيمة وعزائم إخوانه على المضي في سبيل الحق والهدى مستهينين بما يلقونه من إذاية أو مقاومة حتى ينتصر الحق، و يعلو. وليس الصّبر تهورا ولا عنفا، ولكن الصّبر قوة في النّفس تجعلها تستهين بما تلقاه من صعوبات ومن مكروه، ولا تتجاوز ذلك إلى إلحاق المكروه بالطّرف الآخر. والصّبر يقوي أنفة الإنسان، فلا يذل إذا قدر عليه رزقه. ولا يرتمي على إشباع هواه من المحرمات، بل يلجم نفسه عن الإثم وإن كانت الإثارة قوية.

روى الطّبراني بسنده إلى عبد الله بن الحصين الأنصاري (التّابعي)أنه قال: كان الرّجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يفترقا إلا على أن يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر إلى آخرها ثم يسلم أحدهما على الآخر. أي تسليم الوداع.

سورة الهمزة

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصـاحف، ومعظـم التّفاسـير، وكتـب السّـنة. وفـي بعض التّفاسير، وفي صحيح البخاري(سـورة ويـل لكـل همـزة) كمـا ذكـر لهـا اسم ثالث(سورة الحطمة) رتبتها حسـب ترتيـب المصـحف الرّابعـة بعـد المائـة وحسـب ترتيب النّـزول عـدت الثانيـة والثلاثـين نزلـت بعـد سـورة القيامـة وقبـل سـورة المرسلات.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ
أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ
ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ
﴿٩﴾

بيان معاني الألفاظ:

همزة: العياب لغيره بالإشارة،أو بالعين، أو بالشدق.

لمزة: كثير المواجهة بالعيب.

المال: مكاسب الإنسان المادية.

أخلده: طول أمله في البقاء فيحسب أن المال يبقيه حيا أبدا.

لينبذن: ليطرحن طرح التّوافه التي لا قيمة لها.

الحطمة: كما عرفها القرآن هي نار الله الموقدة.

الموقدة: التي يتجدد لهبها في كل لحظة.

تطلع: لها معرفة بما في القلوب.

موصدة: مغلقة لا يجدون منفذا يخرجون منه.

عمد: اسم جمع عمود.

ممددة: طويلة جدا.

بيان المعنى الإجمالي :

دعاء بالعذاب في نار جهنم لكل همزة، من خبثت نفسه فكان همه السّخرية من المؤمنين، بلمزهم بالإشارة المؤذية، والغض منهم، واغتيابهم، يقوم بذلك في حضرتهم كما يواصله عند مغيبهم. الذي همه جمع المال والعكوف عليه، يحسُبه ويعيد حسابه.

صورته صورة من يظن أن المال سيطيل بقاءه ويجعله خالدا لا يموت. لِيَنْزَجِرْ عما وطن نفسه له، وليعلم أنه سيُلقي ذليلا في الحطمة، النّار التي يتجدد توقدها ولا تخمد. قدر الله فيها أنها تتعرف على قوة فساد قلب من يلقى فيها فتعذبه عذابا يتناسب مع فساده. إن هذه النّار لا منافذ فيها فيطمع من أطبقت عليه في الخروج منها. هم موثوقون بالسّلاسل إلى أعمدة طويلة، فلا مفر.

بيان المعنى العام:

1←2: ويل لكل همزة لمزة.

افتتحت السّورة بالدّعاء أو التّهديد، المقصود به المحاسبة على تعدي الهمزة اللمزة، وعقابه بما يستحقه. والهمزة هو الذي يواجه غيره بالسّخرية منه، واتخذ ذلك عادة له، بتضخيم العيوب، وتجسيمها بالإشارة بالعين، أو بالشدق، أو بالرّأس. واللمزة قريب من الهمزة. وفرق بينهما الحسن البصري بأن الهمز بالحضور، واللمز بالمغيب. وذهب مقاتل إلى العكس، وقال ابن أبي نجيح الهمز باليد والعين، واللمز باللسان.

وذكروا أن السّورة نزلت في جماعة من المشركين، وطنوا أنفسهم على إذاية المسلمين بسبهم ولمزهم، واختلاق الأكاذيب التي تنال من صدقهم واستقامتهم. ومنهم الوليد بن المغيرة المخزومي، وأمية بن خلف، وأبي بن خلف، وجميل بن معمر، والعاص بن وائل السّهمي، وهؤلاء من سادة قريش. والأسود بن عبد يغوث، والأخنس بن شريق من سادة ثقيف. وكلهم من أهل الثراء. وبما أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب، فإن الويل ينسحب على كل الذين تخلقوا بأخلاقهم وآذوا النّاس.

2←3:الذي جمع مالا وعدده....أخلده.

تشنع هذه الآية بالذين عنوا بالهمز واللمز، إنهم مع ذلك فارغون من كل معاني النّبل، انحصر همهم في جمع الأموال، والعناية بحسابها وعدها، وذلك من هيامهم وبخلهم بها، مما يدل على أنهم لا يعرفون معنى لا للمواساة، ولا للبذل، ولا

للشهامة. يصورهم القرآن في صورة من انكب على ما جمعه من مال يحسبه، ويعاود حسابه. حتى يظن به من شدة حرصه أنه يعتقد أن ماله سيضمن له الخلود والبقاء، ويقيه من الموت. وهي صورة تهكمية ساخرة.

4←7:كلا لينبذن في الحطمة...الأفئدة.

زجر لهذا اللئيم **الهمزة اللمزة** ليرتدع عن المضي في إذاية المؤمنين، وإبطال لما تضمنه موقفه من المال، هو مخطئ في تصوره، فالآجال محدودة لا يرخيها جمع المال مهما كثر. وبكل تأكيد ليطرحن ويلقى في الحطمة ذليلا، كما تطرح الأشياء التّافهة التي لا قيمة لها.

و ما أدراك ما الحطمة؟

هذا مصطلح قرآني جديد، يترك في النّفس أثرا غير واضح فيسأل القرآن كل من يصح أن يتوجه إليه الخطاب: ما الذي أعلمك ما هي الحطمة؟ أنا أعلمك بحقيقتها، هي نار الله، التي رتب الله في طبيعتها من الإيلام والقوة ما لا يوجد في غيرها. إنها نار موقدة يتجدد لهيبها في كل لحظة، ولا تخمد أبدا. من عجائب أمرها: أنها خبيرة بما استقر في كل قلب من الكفر والفساد، مطلعة عليه، فتؤلمه على حسب ما قدم.

8←9: إنها عليهم موصدة.... ممددة.

تلكم النّار الموقدة من خصائصها أيضا، أنها مغلقة عليهم، مسدودة لا منافذ لها. اليأس يضاعف عذابهم إذ لا يتوقعون مخرجا منها. وهم مع ذلك مشدودون إلى أعمدة طويلة جدا ثابتة، موثوقون فيها بالسّلاسل.

سورة الفيل

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وكتب التّفسير، والسّنة. ووقع تسميتها بسورة [ألم تر] عند بعضهم، وعند البخاري.

وهي سورة مكية باتفاق. وهي السّورة الخامسة بعد المائة حسب ترتيب المصحف.

و عدت التّاسعة عشرة حسب ترتيب النّزول. نزلت بعد سورة: قل يا أيها الكافرون، وقبل سورة: الفلق. وقيل قبل سورة قريش.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

تضليل: الخسار والهلاك.

أبابيل: جماعات متلاحقة.

الكيد: الاحتيال لإلحاق الضرر بالغير.

في تضليل: باطل التأثير، غير محقق لما قصد منه.

الكيد: الاحتيال لإلحاق الضرر بالطّرف الآخر.

سجيل: من طين مطبوخ.

عصف: ورق الزرع.

بيان المعنى الإجمالي :

ألم تعلم بمعنى قد علمت قطعا ما صنعه ربك يا محمد بجيش أبرهة الذي قصد مكة لهدم البيت، وقد جهز جيشه العظيم بالفيلة التي لا عهد للعرب بها في القتال. والتي ترعب لضخامتها. لقد جعل ما احتالوا به من اتخاذ تلويث الفقيمي لكنيستهم ذريعة مبررة لهدم الكعبة. فعاد كيدهم هذا نكالا عليهم، ولم يؤثر شيئا مما قصدوا إليه. فهلك الجيش، وأرسل الله عليه في صباح اليوم الذي استعدوا فيه لاقتحام الحرم، سلط عليهم طيرا تتابع جماعات، وترميهم بحجارة من طين مطبوخ يحمل

ما مزق أجسادهم وعجل بموتهم. تـراهم صـرعى أذلاء كـورق الـزرع الـذي أكلتـه الأنعام وما تساقط منه داسته بأرجلها. يمثّل المهانة والخسة والتّلف.

بيان المعنى العام:

1-ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل.

سؤال تقريري يقصد منه إثبات علمك **بفعل ربـك بأصـحاب الفيـل**. والمخاطـب النّبـي ﷺ. وقد علمت يا محمد علما يقينيا كأنه مشـاهد تـراه رأي العـين، كيـف فعـل ربـك، الكيفية التي فعلها ربك في أصحاب الفيل. وذلـك لتـواتر الحـديث عـن تلكـم الواقعـة، وبقاء بعض آثارها النّاطقة بما تم فيها. ومن بـديع التّعبيـر القرآنـي تعـريفهم **بأصـحاب الفيل**، لأنه لم يكن للعرب قبل هذه الواقعة تصور الاعتمـاد علـى الفيلـة فـي الحـرب. فكانت واقعة فريدة بآلة الحرب التي استخدمت فيهـا، وبالمـآل الـذي آل إليـه أصـحاب الفيل.

وملخص هذه الواقعة كما جاءت في كتـب السّيرة: أن أبرهـة أميـر الـيمن مـن قبـل النّجاشي ملك الحبشة بنى كنيسـة عظيمـة بـاليمن سـماها[القَلِـيس] أو [القُلَّـيْس] وفـي رواية بتشديد اللام مفتوحة وسكون اليـاء، وأراد أن يحمـل العـرب علـى الحـج إليهـا بدل بيت الله الحرام. وروي أن رجلا كنانيا من بني فقـيم دخلهـا وأحـدث فيهـا: قضـى الحاجة البشرية، لينتشر خبر فعلته بـين العـرب فيحتقرونهـا. أبلغـوا الخبـر للنجاشـي، فعزم على هدم الكعبة، وسار إليها على فيل، واختلـف هـل كـان معـه فيلـة أخـرى أو كان الفيل الوحيد. ووصـل إلـى المُغَمَّسِ فنـزل فيـه (و هـو مكـان بـين مكـة والطّائف) و أرسل رسوله لأهـل مكـة يطلـب مـنهم أن يخاطـب رئيسـهم ليحـذرهم عاقبة القتال، إذ هم لا يقدرون في ظنه علـى المقاومـة. فجـاءه جـد النّبـي ﷺ عبـد المطلب، وكان رجلا مهيبا وسيما. فلم يُقَصِّـرْ أبرهـة فـي احترامـه. وعـرض عليـه أن يقدم له مطالبه. طلب عبـد المطلـب أن يـأذن أبرهـة بـرد مـائتي بعيـر كـان استولى عليها جنده. فقال أبرهة لترجمانـه: قـل لـه : لقـد أعجبتنـي حـين رأيتـك، ثم قد زهدت فيك لما كلمتني. تكلمني في مـائتي بعيـر أصـبتها لـك، وتتـرك بيتـا هـو دينك، ودين آبائك، وقد جئت لهدمه؟ ولا تكلمني فيه. قال لـه عبـد المطلـب: إنـي أنـا رب الإبل، وإن للبيت ربا سيمنعه. قال: ما كان ليمتنـع منـيَ ! قـال: أنـت وذاك. فـرد عليه إبله ورجع.

فلما أصبح أبرهة عبأ جيشه وركب فيلـه(محمـود) وفـي ذلـك الوقـت غطـى جيشـه أسراب من الطّير، أخذت ترجمهم بحجارة مـن سـجيل. وتَفَشَّـى المـرض فـي الجـيش بسرعة عجيبة. وهلك معظمه، وأسرع المـرض أيضـا إلـى أبرهـة فقفـل راجعـا

إلى صنعاء، وهلك بها. وكفى الله أهل مكة أمر عدوهم. وكان ذلك في شهر فبراير سنة 670 من ميلاد المسيح ﷺ. وبعد خمسين يوما ولد المصطفى ﷺ بمكة. فعد ذلك إرهاصا، عام مولده أنقذ الله مكة من عدو كاشح وبعد أربعين سنة أنقذ الله مكة من الشرك ببعثته.

2- ألم يجعل كيدهم في تضليل.

بينت هذه الآية، الآية السّابقة. فالفعل العجيب في جيش أبرهة صاحب الفيل (**كيف فعل ربك بأصحاب الفيل**)، أنه أبطل كيده وانتهى إلى فشل ذريع: انتشر الموت في جيشه، وأجبر على الرّجوع إلى صنعاء مريضا، حيث قضى نحبه. عبر عن الهجوم بالكيد، والكيد هو التّدبير في خفاء بما يضر الطّرف الآخر. وهذا ما حصل من أبرهة. كان هدفه هدم الكعبة حتى يُحَوّلَ العرب عنها إلى كنيسته التي أتقن صنعها. وفي ذلك غرض اقتصادي لما يرتبط بالحج من حركة تبادل، وسياحة. وغرض سياسي لتكون صنعاء مركز اللقاءات، ولينغرس في نفوس العرب تقديسها، والطّاعة تبعا لملكها. واتخذ تلويث الفقيمي لها تعلة لهدم الكعبة. فهو لم يبحث عن الجاني ليؤدبه، ويحمله نتائج ما صنع، ولكن أراد الاعتداء على مكة بهدم البيت وتخويف أهلها، وتفريغ عقيدة العرب من تقديسها. ليجني ما رتبه من الكيد. فانقلب كيده عليه وبالا مات جنده، ورجع خاسرا مريضا. فكان كيده أحاط به الضلال والضياع من جميع جوانبه.

3-4- وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل.

كيف جعل كيدهم في ضياع، وكيف أرسل عليهم طيرا تتابع جماعات جماعات. وفي ذلك إيقاظ لمتتبع القصة بأن قدرة الله غالبة. فجيش أبرهة اتخذ من الحيوانات أضخمها جثة، وأقواها على التّحمل لينفذ كيده، ولما تعلقت الإرادة الإلهية بحماية البيت وسحق الجيش، سلط عليه أخفّ الحيوانات وزنا، طيورا كما تقول عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها : إنها أشبه شيء بالخطاف. فأخذت ترميهم بطين مطبوخ من نوع الآجر، مشكل بكيفية، ومركب فيه نوع من الجراثيم التي تنفذ إلى الجسم فتهلكه. قالو إنها الجدري، وهو أول ظهوره في جزيرة العرب. والله أعلم.

5- فجعلهم كعصف مأكول.

هكذا تحول الجيش الجرار إلى صورة زرع دخلته النّعام فأكلته، وكسرت قصباته وداستها، فاختلط هشيما بالأرض جمع المهانة والخسة والتّلف.

سورة قريش

هذا هو الاسم المعروف به في المصاحف، وكتب التّفسير، والسّنة. وهي سورة مكية. وهي السّورة السّادسة بعد المائة حسب ترتيب المصحف. وعدت التّاسعة والعشرين حسب ترتيب النّزول نزلت بعد سورة التين، وقبل سورة القارعة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ﴿٤﴾

بيان معاني الالفاظ:

لإيلاف: لجعل قريش تألف الرّحلتين.

رحلة: سفرهم للتجارة إلى الشام وإلى اليمن.

بيان المعنى الإجمالي :

على أهل مكة أن يخلصوا في العبادة لرب البيت، وأن لا يشركوا به شيئا، وأن يقلعوا عن عبادة الأصنام. إنه حقيق بذلك فهو الذي يسر لهم رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصّيف إلى الشام، فكانوا بذلك واسطة التّجارة، نفقت أسواقهم، وظهر فيهم الثراء. تمكنوا من الاكتفاء الغذائي بما يجلب إليهم من القوت من اليمن، ومن الشام، ومن الحبشة. وتحقق لهم الأمن في الوقت الذي ما كانت تجد فيه أي قبيلة عربية ما يحميها في أنفسها، وفي أرزاقها.

بيان المعنى العام:

1←2: لإيلاف قريش... والصّيف.

تقدمت هذه الجملة في أول السّورة لتثير شوق السّامع لمعرفة بماذا تتعلق. وذكر الزبيدي: (والإيلاف في التّنزيل العزيز العهد والذمام. وشبه الإجازة بالخفارة، وأول من أخذها هاشم بن عبد مناف من ملك الشام. وتأويله أن قريشا كانوا سكان الحرم، ولم يكن لهم زرع، ولا ضرع. آمنين في امتيارهم وتنقلاتهم شتاء وصيفا، والنّاس يتخطفون من حولهم. فإذا عرض لهم عارض قالوا: نحن أهل حرم الله،

فلا يتعرض لهم أحد)[1] ونظم السّورة من حيــث المعنـــى: لتبعـد قـريش رب هـذا البيـت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف، وذلك لإيلافهم رحلة الشتاء والصّيف.
فجعل قريش تألف رحلتي الشتاء والصّـيف، وتأكـد فـي ثناياهـا الـرّبط بيـنهم وبـين هاتين الرّحلتين. بتكرير إيـلاف مـرتين، وقـريش كـذلك باسـمها ثـم بالضـمير[هم] المساوي لقريش. وما إيلافُهُم رحلتي الشـتاء والصّـيف، إلا لمـا تـدران علـيهم مـن الأرباح التّجارية، وللأمن علـى أنفسـهم وأمـوالهم وهـم يضـربون فـي الصّـحراء لا يعتدي عليهم أحد كما ذكره الزبيدي أعلاه.
وقريش هو فهر بن مالك، لقب بقريش تصغير قـرش، يطلـق علـى نـوع مـن السّـمك عنيف وقوي. وتناسلت من قريش بطـون سـكنت مكـة. فسـكان مكـة هـم القرشـيون. وتميزوا بين العرب بأنهم القـائمون علـى مناسـك الحـج وعلـى الحـرم، لهـم مكانـة رفيعة بين القبائل. كانوا يرحلون إلى الـيمن فـي فصـل الشـتاء فيجلبـون إلـى مكـة أنواعا من الحبوب، والثياب، والسّيوف اليمانية. ويرحلـون فـي الصـيف إلـى الشـام فيجلبـون الحبـوب، والتّمـر، والزبيـب، والثيـاب والسّـيوف المشـرفية. وشـيء مـن التّحف. نفقت تجاربهم وأصبحت مختلف أنواع السّـلع مـن الشـمال والجنـوب تعـرض في أسواق مكة. واتـم الله منتـه فـأكرمهم ببعثـة **رسـول مـنهم يتلـو علـيهم آياتـه، ويزكيهم، ويعلمهم الكتاب والحكمة، بعد أن كانوا في ضلال مبين.**

3- فليعبدوا رب هذا البيت.

هذا الرّخاء الذي يسره لهم، والأمن الذي خصـهم بـه سـبب وجيـه ليفـردوا رب هـذا البيت بالعبادة، ولا يشركوا به شيئا. إنه حقيق بالعبادة لأنـه ربهـم تـولاهم بنعمـه التـي منها الإيلاف. وكذلك الكعبة البيت الحرام المقدس مـن جميـع العـرب. والـذي اكتسـبوا منه تقديرا خاصا.

4- الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف.

أردفت الآية التّذكير بنعم أخرى جليلة يسـرها لهـم رب البيـت. نعمـة الأمـن الغـذائي، ونعمـة الأمـن علـى الأنفـس والأرزاق. ويتضـاعف تقـدير المنتـين بـالنّظر إلـى المعطيات التي تقتضي عكس ما هـم عليـه. فكـونهم بـواد غيـر ذي زرع يعرضـهم للجوع، فأرضهم لا تنبت، وليس فيها ما يجلـب إليهـا البشـر ليتـاجروا فيهـا، فليسـت هي على طريق القوافل، ولا يوجد فيها مـن المغريـات مـا يـدعو النّـاس للانتصـاب بسلعهم في سوقها.

---

[1] تاج العروس ج 23 ص 31

و كونهم حضريين ليسوا من ذوي البأس، مع قلة عددهم بالنّسبة لغيرهم، الأمر الذي يعرضهم لغارات القبائل التي شأنها في الجاهلية السّطو والغارات على الغير.

ولكن نعمة الله عليهم وفضله أبدل جوعهم وقحالة أرضهم إلى وفر من الغداء يأتيهم من الرّحلتين، ومن سفن الحبشة التي ترسو بميناء جدة محملة بالبر ومختلف منتوجات الطّعام. وأبدل خوفهم أمنا بما ركز في نفوس العرب من احترام مكة وسكانها.

سورة الماعون

هذا هو الاسم الذي اشتهرت به في المصاحف، وفي كتب التّفسير، والسّنة. ورويت لها خمسة أسماء أخرى. سورة (سورة أرأيت) وسورة (أرأيت الذي) وسورة (الدّين) وسورة (التّكذيب) وسورة(اليتيم).

و هي سورة مكية في قول الأكثر، وروي أنها مدنية، كما ذهب بعضهم إلى أن أولها مكي إلى قوله تعالى: المسكين. والباقي نزل بالمدينة.

و رتبتها حسب ترتيب المصحف: السّابعة عشرة، وعلى القول بأنها مكية كلها أو بعضها. نزلت بعد سورة التّكاثر، وقبل سورة الكافرون.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ
عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ
﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

بيان معاني الألفاظ:

يدع: يدفع بعنف وقهر.

الحض: الحث بدعوتك غيرك إلى فعل ما.

المسكين: الفقير.

الماعون: تطلق على كل ما يساعد المحتاج كالمال، وأواني البيت، ونحو ذلك.

ساهون: تاركون عن عمد.

بيان المعنى الإجمالي :

هل عرفت الذي يكذب بيوم القيامة، بماذا يتميز من صفات الخسة؟ ذكر القرآن له ست صفات:

أولها: التّكذيب بيوم القيامة الوصف الذي أفسد عقله وعلاقته بالمجتمع.

و ثانيها: أنه قاسي القلب فظ غليظ، فإذا اتصل به اليتيم نهره، وأغلظ معاملته.

و ثالثها: أنه لا يفكر في أمر الجياع المحاويج فهو لا يحض غيره على البذل إليهم فضلا أن يقوم هو بالعطاء.

و رابعها: أنه لا يقوم في باطنه داعي الاستجابة لإقامة الصّلاة، فهو لاه عنها لا يتذكرها.

و خامسها: أنه إن قام بأدائها استحضر نظر النّاس إليه، دون أن يخشع قلبه ولا تسكن جوارحه.

و سادسها: أنه لئيم يمنع العون فيما تعارف النّاس على مساعدة بعضهم لبعض فيه: كالخميره، والماء، والنّار، والمقص، والإبرة، وآلات الحفر والطّرق، ونحو ذلك.

بيان المعنى العام:

1-أرأيت الذ ي يكذب بالدّين.

تشهير بالجاحد للحق، المكذب بيوم الجزاء، النّافي أن تكون للبشر حياة بعد حياتهم الدّنيا فيها يحاسبون، ويجزون حسبما قدموا. إن الإنكار من غير بينة يدل على أن صاحبه قد عطل فكره، واختار سياسة النّعامة التي تغمس رأسها في الرّمل إذا طاردها الصّيادون وضيقوا عليها. تحسب أن ملاحقيها غير موجودين لما كان بصرها لا يقع عليهم. ومن العجب ادعاء هذا الصّنف أنهم حرروا عقولهم، والواقع أنهم ضيقوا عليها. إذ الأدلة العقلية ثم النّقلية تثبت الحياة الآخرة، ولكنهم أهملوها. والآية تنطبق على كل مكذب بالحياة الآخرة في عهد الرّسالة، وفيما يتلوها من العهود إلى يوم القيامة. وقيل : إن الآية نزلت في العاص بن وائل السّهمي، وقيل في الوليد بن المغيرة، وقيل في أبي جهل. وهؤلاء كانوا من أشد المشركين كفرا، وتكذيبا بالبعث، ومقاومة للإسلام. ومن المعلوم أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السّبب.

2←3: فذلك الذي يدعّ اليتيم ولا يحض على طعام المسكين.

إذا فرّغ الإنسان عقله من عقيدة البعث، كان الفساد والنّذالة، والشر، أقرب إليه من الصّلاح، والشهامة والخير. تطغي أنانيته، وتذوى إنسانيته. ومن ذلك أنه إذا قصده اليتيم الفاقد للراعي الذي يقوم بشؤونه ويذود عنه، والذي من شأن النّفوس الكريمة أن تحن عليه أكثر من أترابه غير اليتامى. فإنه لما كان المكذب بالجزاء يقدر أعماله بميزان واحد هو منافعه العاجلة، فإنك تراه غليظ الطّبع، يدفع اليتيم وينهره، فيضاعف انكسار نفسيته، وقد يجعل منه ناقما على المجتمع، معرضا لمتنوع الانحرافات.

وموقف المنكر للبعث من الجياع المساكين نفس الموقف من اليتيم، فهو لا يلتفت إليهم، ولا يدعو أحدا لسد مسغبتهم. وإذا بخل بالدّعوة إلى الخير، فإن حرمانهم من رفدة أعظم. وبهذه المواقف يتحلل المجتمع، وتشتد الكراهية بين طبقاته.

4←7: فويل للمصلين....و يمنعون الماعون.

إظهار لنقائص المكذب بالدّين بصفة أوضح، بالعطف وبتغيير الأسلوب، وزجره بالإتيان بلفظ [**الويل**] والتّنصيص على صفات ثلاثة خسيسة تضم للصفات الثلاثة الأولى.

الصّفة الأولى بعد الفصل والرّابعة في التّعداد: المكذب بيوم الدّين لا يؤدي الصّلاة، ومن البديهي أنه لا يصلي، ولكن صدر الكلام في صورة التّهكم به "**للمصلين**". الصّفة الثانية والخامسة: أنه لا يحس بالنّداء في باطنه للوقوف بين يدي ربه، فهو لاهٍ عن ذلك، لا يتذكر الصّلاة، ولا يرقب وقتها دخولا وخروجا. وإن صلى تجده غير حاضر القلب لمناجاة ربه، ينقرها نقر الدّيكة للحب، لا خشوع في قلبه، ولا سكينة في جوارحه. وإنما يقوم بها رياء حتى يقال إنه محافظ على أداء واجباته الدّينية. قطع صلته بالله الرّقيب على سره وعلانيته، وخشي النّاس أن يذكروه بنقائصه، فعمل على غشهم.

الصّفة الثالثة، والسّادسة. **يمنع الماعون**. ويمكن تأويلها بصور كثيرة من الشح، والنّذالة، وفقدان المروءة. تفهم على أنه يمنع الزكاة التي هي عون مستحقيها على الحياة الكريمة، ويمكن أن تفهم على أنه يمنع ما العادة أن النّاس يتعاونون به فيما بينهم في العادة دون حرج من استعارته، ودون رد من مالكه، ومثلوا له بالخمير، وبالقدر، والدّلو، والسّكين، والمقص، والإبرة، والفأس، وذكرت عائشة رضي الله عنها أيضا: الماء، ، والنّار، والملح. ونحو ذلك.

سورة الكوثر

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، وكتب التفسير، والسّنة. وروي لها اسم اخر" سورة النّحر" واختلف في كونها مكية أو مدنية. فبالنّظر إلى ما روي أنها في العاصي بن وائل الذي أراد أن يغمص من سمو رسول الله ﷺ، على أنه أبتر، مقطوع النّسل لكونه لم يولد له ولد ذكر يبقى اسمه بعده. وبالنّظر إلى أن النّحر المأمور به هو في الحج أو في عيد الاضحى، تكون السّورة مدنية. وعلى كونها مكية. عدوها الخامسة عشر، نزلت بعد سورة العاديات، وقبل سورة التكاثر. وهي السّورة الثامنة حسب ترتيب المصحف.

وهي أقصر السّور حسب تعداد الحروف، وإن ساوت في عدّ الآيات سورة العصر، وسورة النّصر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

بيان معاني الالفاظ:

الكوثر: الخير الكثير.

الشانئ: المبغض.

الأبتر: المقطوع الامتداد.

بيان المعنى الإجمالي:

إنّا بعظمتنا أعطيناك يا محمد الخير الكثير. في الدّنيا والآخرة على مستو لا يبلغه أحد لعنايتنا بك، وحبّنا لك. فكن شاكرا لتلكم النّعم التي تفوق كل تصور. وأقبل على الصّلاة التي هي أرقى صورة للشكر، والقرب، والاعتراف بالفضل الإلهي. وتقرب لنا بالأضحية وبالهدى. ولا تهتم بالذي أراد إذايتك، فقد قدرت أن يستمر ذكرك، ويتضاعف مع الزمن، وينتشر في آفاق الأرض. وأن مبغضك مقطوع الأثر.

بيان المعنى العام:

1-إنّا أعطيناك الكوثر.

خطاب من الله لنبيّه ومصطفاه يقول له: **إننـا** بعظمتنـا، وسعة ملكنـا، أعطينـاك يـا محمد الخير الكثير في الدّنيا والآخرة: النّبـوءة، والكتـاب، وشـريعة الإسـلام، وجعلنـا أمّتك يتوسع عددها، ويكثر أفرادها وجماعاتهـا. **ورفعنـا لـك ذكـرك** رفعـا لا يشـاركك فيه أحد. ونوّرنا قلبك بأنوار الإيمان، وقربناك قربا، خولنـاك بـه الشـفاعة يـوم الـدّين. وخصصناك بالكوثر: نهر في الجنّة. أخرج مسلم بسنده إلـى أنـس بـن مالـك ﷺ قـال: (بينا رسول الله ﷺ ذات يوم بين أظهرنا، إذ أغفـى إغفـاءة، ثـم رفـع رأسـه متبسـما قلنا له : ما أضحكك يا رسول الله؟ قـال: أنزلـت علـى آنفـا سـورة. فقـرأ باسـم الله الرّحمان الرّحيم **(إنّا أعطيناك الكوثر، فصلّ لربّك وانحـر، إنّ شـانئك هـو الأبتـر)** ثـم قال: أتدرون ما الكوثر؟ فقلنا: الله ورسوله أعلم. قـال : فإنـه نهـر وعدنيـة ربـي عـز وجل، عليه خير كثير، هو حوض ترد عليه أمتـي يـوم القيامـة. آنيتـه عـدد النّجـوم، فيختلج العبد منهم، فأقول: رب إنّه من أمّتـي. فيقـال: مـا تـدري مـا أحـدثت بعـدك[1] فهي بشارة من الله لنبيه ترفع ما كان عسـاه ان يقـع فـي خـاطره مـن قـول بعضـهم: **أبتر**. فقوبل الأبتر، بإعطائه الكوثر.

2-فصلّ لربّك وانحر.

هذه البشارة بما خصّه به ربّه من الخير الكثير الـذي لا يحـد. وإغاضـة الـذين حـاولوا إيذاءه، بأنه ﷺ بالمنزلة التـي لا يـدانيها أحـد فـي الـدّنيا والآخـرة. وأن عنايـة ربـه متواصلة. كلّ هذه النّعم توجب الشكر، وأبلغ ما يكـون الشّـكر بالصّـلاة، العبـادة التـي يترك فيها العابد كل شواغل الـدّنيا خلفـه، ويتوجـه بقلبـه، وروحـه، ومشـاعره إلـى ربّه، راكعا ساجدا، فـأمره أن يصـلي لربـه شـاكرا نعمتـه عليـه، وأن ينحـر هديـه، ويذبح أضحيته، تقرّبًا له بـذلك. ويسـتروح مـن الآيتـين أداء صـلاة العيـد، والتّقـرب بالأضحية بعد الصّلاة.

3-إنّ شانئك هو الأبتر.

بكلّ تأكيد إنّ مبغضك الذي يؤذيك هو الأبتـر المقطـوع ذكـره. ذلـك أن النّبـي ﷺ ولـد له ابنه الاول: القاسم رحمه الله الذي كان يكنى بـه. ثـم ولـد لـه مـن سـرّيته ماريـة القبطية ابنه: إبراهيم، وتوفي أيضا في بواكير صباه. فكـان مـن أبغـض النّبـي ﷺ لمـزه بأنه أبتر، أي مقطوع الامتداد في الدّنيا، لأنـه لـم يعقـب ولـدا ذكـرا يحمـل إسـمه.

[1] اكمال الاكمال ج 2 ص 157

فرد القرآن على هذا المجترئ، وعلى الذين فرحوا بموت ابنه، وتوهموا أن الإسلام سينقطع بموت رسول الله ﷺ. ردّ عليهم أن ذكر الرّسول ﷺ سيمتد في الزمن، وسيتسع في آفاق الأرض. وسيدخل النّاس في دين الله أفواجا. وكلّ مسلم يتقرب لمولاه بذكر رسوله والصّلاة عليه، والتّعمق فيما أوحى الله به إليه. بينما لا ينال المبغض له الا اللعنة والازدراء. وكل يوم تضيق دائرة المتقربين منه، فيبقى وحيدا ينكره ولده، وأقرب النّاس إليه، ويتبرؤون منه. وتَصَوُّرُ أن الذي لا يعقب ولدا ذكرا ناقص، من الأوهام التي ما تزال آثارها منقوشة لدى عدد غير قليل من النّاس. أن الذكر الطّيب للإنسان يمتد بما يتركه وراءه من عمل صالح ينتفع النّاس به، من علم، أو مؤسّسات عمرانية، أو إصلاح اجتماعي، ونحو ذلك. وهو ينتفع ذريته الصّالحة الذكور والإناث على حد سواء. فإذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية، وعلم بثه في صدور الرّجال، وولد صالح يدعو له. والولد يشمل الذكر والأنثى.

سورة الكافرون

هذا هو الإسم الذي اشتهرت به في المصاحف، وكتب التفسير، والسّنة. وروي أنّها تشترك مع سورة الإخلاص في تسميتها بالمقشقشة، لانهما تقشقشان من الشرك، وتزيلان أي أثر له. كما روي اشتراكها مع سورة: قل هو الله أحد في اسم" الاخلاص" كما روي تسميتها بسورة " العبادة"، وبسورة" الدّين". والقول المشهور أنّها مكية. ورتبتها حسب ترتيب المصحف: التاسعة بعد المائة. وعدت: الثامنة عشرة حسب ترتيب النّزول. نزلت بعد سورة الماعون، وقبل سورة الفيل.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾
وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

بيان معاني الالفاظ:

الدّين: العقيدة. وما شرعه الله لعباده على لسان رسله.

بيان المعنى الإجمالي:

قل لهم، وأعلن من غير مواربة ولا خوف: يا أيها الكافرون. أنتم أيها الكافرون بالحق! لا رابطة تجمعني بكم. إن الذي أتوجه إليه بالعبادة هو الله وحده، ولا أشرك به أحدا من الأصنام التي تقدسونها باطلا. وأنتم لا تعبدون الله الحق الذي أعبده. إنّكم تخضعون وتتقربون للأصنام العاجزة التي لا يتصور العاقل التّقرب إليها واسترضاءها. وإني كما لا أعبد آلهتكم في المستقبل، كذلك فإني لا أعبدها الآن. ولا أنتم عابدون إلهي، فإن عبادة الله تتناقض مع الشرك. فلا تكون العبادة لله إلاّ خالصة. ولا شيء يجمع بيننا، فأنتم متمسكون بدين كله باطل وأوهام، وأنا متمسك التمسك الكامل بالدّين هداني إليه ربي، عقيدة وشريعة.

بيان المعنى العام:

1←3: قل يا أيّها الكافرون...ما أعبد.

ما روى في سبب نزول السّورة يساعد على توضيحها. كان الرّسول ﷺ يطوف بالكعبة، فاعترضه أربعة من رؤوس الكفر، وعرضوا عليه أن يعبد آلهتهم سنة،

ويعبدون إلهه سنة. فمن كان على حقّ يسعد الآخر بعبادة إلهه. أسرع النّبي ﷺ بالرّد عليهم قائلا: معاذ الله أن أشرك به غيره. فأنزل الله هذه السّورة. فغدا النّبي ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملأ من قريش. فقرأها، فيئسوا منه عند ذلك، وآذوه وآذوا أصحابه. وربما حملهم على ذلك العرض القبيح، أنّهم ظنوا أن حرص النّبي ﷺ على إيمانهم ربّما يستدرجونه به لعبادة أصنامهم.

تفتتح السّورة بكلمة [قل] وهي السّورة الثانية من السّور الخمس المفتتحة بكلمة [قل] وبعدها ثلاثة. هي على ترتيب المصحف." سورة الجن"." هذه". "سورة الاخلاص"."سورة الفلق". "سورة النّاس".

أمر الرّسول ﷺ : أن يواجههم متحديا. وأن يناديهم بوصف الكفر الذي كانوا يشمئزون من دعوتهم به، وﷺ لا يراعي عواطفهم في تقرير ما أمر بتبليغه، فأعلن لهم بذلك لاستناده إلى ربه. فهو لا يخشى بطشهم. وأنّه مطمئنّ إلى انّهم مغلوبون، وأنّ مكرهم يعود عليهم. وأن يرد عليهم بما أنزل عليه:(**يا أيّها الكافرون**) : لا يتصور مني أن أعبد الأصنام التي تعبدونها. فما عرضتموه عليّ: أن أعبد آلهتكم لمدة سنة مرفوض. وإني واثق من ناحية أخرى بأنكم، وقد تمكن الكفر من قلوبكم، لا تعبدون الله إلهي. فقد أنبأه الله بان تصلبهم بالكفر بلغ بهم درجة اليأس من أن يذعنوا للحق. كما أخبر نوحا بقوله تعالى: (**وأوحي إلى نوح أنّه لن يؤمن من قومك إلاّ من قد آمن**)[1].

4-و لا أنا عابد ما عبدتم.

تصريح بما فهم من الكلام السّابق أنه لا يعبد آلهتهم في الحاضر. فهذه الآية تدل على ثباته، وأنه لا يتصوّر منه أن يعبد آلهتهم أو أن يعترف بها لا في الحال كما تدل عليه هذه الآية، ولا في الاستقبال كما دلت عليه الآية السّابقة.

5- لكم دينكم ولي دين.

مفاصلة كاملة بين عقيدته، وطريقته في الحياة، وغاياته وأهدافه، وبين ما هم عليه. أنا راض ومؤمن بربي، وبما حدده لي في التصور العام، لعلاقتي به، وبالبشر، وبالكون عامة. ومتشبث بما شرّعه لي من أحكام فيما أعمله، وفيما أتركه وأبتعد عنه. وأني واثق من أن الدّنيا طريق للآخرة. وأن رضا ربي هو هدفي الذي أسعى لنيله، وهو جماع سعادتي. وأنتم أيها الكفرة على عكس ما أنا عليه. إني لا ألتقي معكم في شيء، أنتم على طريق ضال، وأنا على طريق الهداية.

---

[1] سورة هود اية 32

سورة النّصر

هذا هو الاسم الذي عرفت به في المصاحف، ومعظم كتب التفسير والسّنة. وعنونها الترمذي(سورة الفتح) فتشترك مع سورة : إنّا فتحنا لك فتحا مبينا. وسماها ابن مسعود ﷺ سورة [التوديع] وهي مدنية باتفاق. وبعد ذلك اختلفوا هل نزلت في سنة سبع: فتح خيبر، أو منصرفه من غزوة حنين، في السّنة التاسعة. وعن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ عاش بعدها نحو ثلاثة اشهر. ولذلك اختلف في رتبتها حسب النّزول. ورتبتها حسب ترتيب المصحف العاشرة بعد المائة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿٣﴾

بيان معاني الالفاظ:

إذا: إاذا تحقق.

النّصر: العون الالاهي الذي يعقبه الفوز بالمطلوب.

الفتح: امتلاك بلد العدو.

رأيت: تفهم بمعنى علمت، وبمعنى أبصرت.

دين الله: الإسلام.

أفواجا: جمع فوج: جماعات كثيرة.

تواب: مبالغة في وصفه تعالى بقبول توبة التائبين.

بيان المعنى الإجمالي:

وعد كريم من الله لرسوله أنه سيحقق له ما بذل فيه كل جهده، وما أهمه فشغل به من دخول النّاس في دين الله. وإن كان تطوّر تطوّرا بطيئا بإيمان أفراد معدودين، ثم بإيمان معظم أهل المدينة المنوّرة، إلا أن العرب لم يرفضوا الشرك، ويوحدوا ربهم على نطاق واسع بعد: فوعده بأنه سيحقق له النّصر على الكفر الباغي، نصرا يهزمه هزيمة لا عودة له بعدها في جزيرة العرب. وأنه يحقق له فتح مكة، وأنه بفتح مكة سيدخل النّاس في الإسلام دين الله

الحق، جماعات متتالية، وسيرى هذا في حياته، فينشرح صدره لنصر الله وتوفيقه في أداء شريف همته. وعندما يحقق له ربه من فضله ذلك كله، فليقبل على شكر ربه لأنعمه تلك، بالتسبيح والتنزيه، ويقرن ذلك بالاستغفار. ان الله كان توابا. التواب صفة أزلية، تشمل كل التائبين الذين أخلصوا في توبتهم، وأتبعوا التوبة بالعزم على الاستقامة، والثبات على الخير.

وقد فهم بعض اهل الفطنة من الصّحابة أن هذه السّورة آذنت الرّسول ﷺ بدنو أجله. لأن مهمته في الدّنيا قد بلغت كمالها.

بيان المعنى العام:

2-1- إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت النّاس يدخلون في دين الله افواجا.

يخاطب الله نبيه ﷺ، فيعده ويهديه إلى ما يتحتم عليه عند تحقق الوعد. فما هو الوعد؟ وما الذي يجب عليه عند تحققه؟

اولا: الوعد، يتركب من ثلاثة أشياء:

أ- يتحقق لك نصر الله. النّصر العجيب الذي لا يمكن تخريجه على قوانين الأسباب الظاهرة، ولذلك أسند إلى الله الذي بيده الأمر، فهو نصر عظيم. ويشير هذا الوعد إلى تغلبه ﷺ على عناد الشرك، وخضوع العقول والأرواح لدين التوحيد وشريعة الإسلام.

ب: **الفتح**، وهو فتح مكة. مكة التي أجبره المشركين على الخروج منها، قال تعالى: (**و إذ يمكر بك الذين كفرو ليثبتوك، أو يقتلوك، أو يخرجوك، ويمكرون ويمكر الله، وهو خير الماكرين**)[1] فتح مكة كان له تأثير عظيم في نفوس العرب، فقد كانوا يترقبون معرفة من تكون له الكلمة العليا، بما وقر في نفوسهم من تعظيم البيت، وأن الله منع منه أبرهة، فاقتنعوا: أن من يظفر بها هو مستند إلى الحق، ومؤيد، وجدير بان يتبع في دينه.

ج: رؤيتك **دخول النّاس أفواجا**. ورأيت يصح بمعنى علمت. أي علمت أن النّاس الذي يحضرون ببالك دخلوا في الإسلام. إما بمبايعتك وهم الوفود التي حضرت ممثلة لجميع القبائل العربية، فبايعوك على الإسلام، والتزموا عقيدته وشريعته. وإما بما حصل عندك من الأخبار من جميع الجهات في الجزيرة العربية أنهم آمنوا. وقد تتابع دخولهم في دين الله جماعات جماعات، على خلاف ما كان في أول الأمر من دخول الواحد يتبعه الواحد. ونقل ابن عبد البر أن النّبي ﷺ لم يمت وفي العرب رجل كافر. بل دخل الجميع في الإسلام بعد حنين، والطّائف. منهم من قدم، ومنهم

[1] سورة الانفال اية30

من قدم وافده. ولا يقصد من الآية العرب الـذين كـانوا علـى حـدود فـارس، والـرّوم، موالين لهم، إذ أن هؤلاء لم يدخلوا في الإسلام إلا فـي عهـد سـيدنا عمـر ﷺ لمـا فـتح العراق والشام. ويحتمل أن تكون رأيـت بمعنـى أبصـرت. وقـد رأى النّبـي ﷺ أفـواج الوفود تتابع على المدينة مبايعة على الإسلام بالنّسبة لهم، ولمن وراءهم.

أما الذي يجب عليه عند تحقق الوعد فهو قوله تعـالى: **فسـبح بحمـد ربـك واسـتغفره.** فهو مأمور أولا: أن يسبح بحمد الله، وثانيا بأن يستغفره.

أما **التّسبيح بحمد الله**، فمعناه أن يقرن بين التسـبيح والحمـد. ليعبـر عمـا امـتلأت بـه نفسه الكريمة من آثار نوافل الفضل الإلهي المتتابع عليه، ومـا جمعـه لـه مـن النّصـر والفتح ودخول النّاس أفواجا. أمره أن يكثر مـن التسـبيح الـدّال علـى الكمـال المطلـق، والتنزيه من النّقائص، وأن يقرن ذلك بالحمد والثّناء على مـا يسـره مـن الفـتح العظـيم وانتشار الإسلام بالسّرعة التي تمت.

وأما **الاستغفار** المقرون بالحمد، فإنه استغفار خاص، لأنّه مأمور أن يقرنه بحمد الله، على ما يسره ومكن منه، وهو استغفار بالنّظر إلى أنه ﷺ يرتقي في كل لحظة من منزلة إلى منزلة أعلى في الصّلاح والقرب من الله، فإذا نظر إلى سابقتها ألفى نفسه كان في منزلة أدون، فيستغفر الله. أخرج الامام مسلم بسنده إلى الأغر المزني، أن النّبي ﷺ قال: (إنه ليغان على قلبي. إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة.)[1].

3- فسبح... إنه كان توابا.

توجـه الخاتمـة الأمـر بالتسـبيح والاسـتغفار، لأن الله موصـوف بكثـرة توبتـه عـن الرّاغبين في تفضله عليهم بالتوبـة والمغفـرة. كمـا قـال تعـالى: **(وإنـي لغفـار لمـن تاب، وآمن وعمل صالحا، ثم اهتدى)**[2] وبهذا يكـون التائـب راجيـا قبـول توبتـه تبعـا لما اتصف به رب العزة، بكونه توابا.

وقد فهم ابن عباس، وابو بكر، وعمـر رضـي الله عـنهم، ان السّـورة تنبـئ الرّسـول ﷺ بدنو اجله. اذ قد اكمل المهمة التي اوكلت إليـه، انجزهـا علـى خيـر الوجـوه، ومـا وقع من الفتوحات بعد انتقاله للفريق الاعلى، انما هـو اسـتمرار للمشـرع الـذي فتحـه. هو ايذان بتحويله ﷺ من الجهاد لتثبيت اركان الدّين، إلـى الحيـاة السّـرمدية الباقيـة فـي جوار به ﷺ.

---

[1] فيض القدير ج ص 11

[2] سورة طه اية82

سورة المسد

بهذا الإسم سميت في بعض المصاحف، وكتب التفسير، والسّنة، وسميت في بعض آخر سورة "تبت". وهي سورة مكية باتفاق. رتبتها حسب ترتيب المصحف: الحادية عشرة بعد المائة. وحسب ترتيب النّزول عدت السّادسة. نزلت بعد سورة الفاتحة وقبل سورة التكوير.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

بيان معاني الالفاظ:

تبت: خسرت وهلكت.

أبو لهب: عبد العزى عم رسول الله ﷺ.

اللّهب: النارعندما تصفو من الدّخان ويشتد حرّها.

ما أغنى عنه: لا يفيده.

ماله: غالب ما يطلق عليه كلمة المال عند اهل مكة، هو الابل.

ما كسب: ما جمعه من غير الابل.

سيصلى نارا: سيشوى بنار شديدة الحر.

حبل من مسد: حبل مفتول من ليف شديد.

بيان المعنى الإجمالي:

تفتتح السّورة بالدّعاء على يدي أبي لهب بالهلاك والخسران، وأن يشمله جملة وتفصيلا. وهو حقيق بذلك لتجرئه على النّبي ﷺ، لما دعا قومه لينذرهم ما أمره الله بتبليغه، حتى ينقذوا أنفسهم من عذاب يوم القيامة، ولتستقيم حياتهم الدّنيا على أفضل الوجوه. كان متغطرسا لكثرة ما عنده من الإبل، ومن الرّباع، والنّقود، والمتاع، وما رزقه من أولاد. إن كل ذلك لا يفيده شيئا. وسيصلى ويشوى في جهنم نارا كأشد ما تكون النّار حرارة.

وتصحبه في عذاب جهنم إمرأته أروى بنت حرب. سيكون وضعها في جهنم أن حبلا من ليف شديد يحيط بعنقها، وهي تحمل الحطب فتلقيه حول زوجها لتزداد به نار جهنم تأججا واشتعالا. جزاء ما كانت تؤذي به النّبي ﷺ، بطرح الحطب والشوك في طريقه.

بيان المعنى العام:

1-تبّت يدا أبي لهب.

روى الإمام البخاري بسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت وأنذر **عشيرتك الأقربين**، ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصّفا. فهتف: يا صباحاه! فقالوا: من هذا، فاجتمعوا إليه، فقال : أرأيتم إن أخبرتكم خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي؟ قالو: ما جربنا عليك كذبا. قال : فإنّي نذير لكم بين يدي عذاب عظيم. فقال أبو لهب: تبا لك، ما جمعتنا إلا لهذا ؟ ثم قام، فنزلت: **تبت يدا أبي لهب وتب**[1].

يكشف هذا الحديث عن الظرف الذي نزلت فيه السّورة، وما أحاط بها. أبو لهب اسمه عبد العزى بن عبد المطلب عم النّبي ﷺ. وكنيته أبو لهب. لم يعرّف باسمه حتى لا يذكر في القران [عبد العزى] الصّنم. وقيل في سبب تكنيته أنه كان محمرّ الخدين جميلا كأن وجهه لنضارته ينبعث منه اللّهب. وقيل ذكر بكنيته لأنه اشتهر بكنيته حتى ينصرف الاحتقار له. وقيل : إن كلمة أبي كذا تدل على الملازمة. فأبو لهب يدل على ملازمته للَهب ألسنة النّار المشتغلة. فكانت هذه الكنية فيها اشارة لعاقبته. وتفتح السّورة بالدّعاء عليه، وتوبيخه، ووعيده. بأن تلزمه الخسارة والهلاك، لأن الإنسان يحصل على رزقه ومنافعه بيده، فالدّعاء عليه بالخسران بفقدان الآلة. ولأنه حاول قذف النّبي ﷺ بحجر لما سمع مقاله.

وتب- تفهم على أنّها للدعاء عليه جملة بالخسران والهلاك، بعد الدّعاء عليه بهلاك بعضه "يديه"، كما يمكن أن تفهم على تحقّق الدّعاء. أي وتحقق الدّعاء. أي وتحقق فعلا تبابه وهلاكه.

2-ما أغنى عنه ماله وما كسب.

تفهم الآية على أنّه لا ينتفع بما عنده في الآخرة، فهو صائر إلى جهنم، لا ما يملكه من عديد الإبل، ولا ما عنده وجمعه من النّقود، والمتاع، والسّلاح، والرّباع. فيكون مدلول المال الإبل حسب إطلاق أهل مكة. ويمكن أن يكون كلمة المال

[1] فتح الباري ج 10 ص 118/120-327/329

الأولى عامة في جميع ممتلكاته التي ورثها، وما كسب المعطوفة ما ضمه إليها مما اكتسبه بنفسه. كما يمكن حمل ما كسب على أولاده.

3-سيصلى نارا ذات لهب.

عاقبته محققة لا شك فيها: إنّه سيشوى في جهنم، تحيط به النّار اللاهبة من جميع جوانبه. النّار التي توقدت فبلغت أقصى قوتها بذهاب دخانها وصفاء شعلتها.

4-و امرأته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد.

إمرأة أبي لهب أروى بنت حرب، أخت أبي سفيان بن حرب. وكنيتها أم جميل، كانت تمالئ زوجها في بغض النّبي ﷺ. ومن إذايتها أنها كانت تنشر في طريق رسول الله ﷺ الحطب، والشوك، والحسك. فصورها القران وهي تعذب مع زوجها في جهنم، يحيط بعنقها حبل مفتول من ليف اليمين شديد. تحمل عليه الحطب ليقوى لهب النّار على زوجها في جهنم، كما كانت ترمي في طريق النّبي ﷺ الحطب وما يؤذيه.

سورة الاخلاص

ذكر العلماء لهذه السّورة واحدا وعشرين اسما. ومن أشـهرها هـذا الاسـم، وسـورة **قـل هو الله احد**. وأُخِذَتْ أسماؤها من المضـامين الثرية التـي وردت فيهـا. وهـي سـورة مكية على الصّحيح. رتبتها حسـب ترتيـب المصـحف: الثانيـة عشـرة بعـد المائـة. وعدت الثانية والعشرين حسب ترتيب النّزول. نزلت بعـد سـورة النّـاس، وقيـل سـورة النّجم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾

بيان معاني الالفاظ:

الصّمد: المقصود وحده لنيل المرغـوب. السّـيد المطـاع الـذي لا تنجـز المهمـات إلا بإرادته وبقدرته.

كفؤا: مساويا، مماثلا.

أحد: موجود.

بيان المعنى الإجمالي:

مضمون هذه السّورة مختص ببيان الوحدانيـة لله فـي كـل شـيء. فهـي بـذلك قاعـدة الإسلام فكان الابتداء بكلمة [قـل] تعبيـرا عـن الاهتمـام بمضـمونها، وأنـه مـا يتحـتم نشره بالقول. إذ هو ما محض له ﷺ نشاطه الإنذاري والبياني.

أمر أن يقول: **الله أحد** في ذاته وصفاته، وفي فعلـه. ثبتـت لـه الأحديـة ثباتـا ذاتيـا لا تنفك عنه، ولا يمكن تصور إله غير واحد. وأن يقول أيضـا: إن كـل راغـب فـي أمـر لا يحصل على مرغوبه إلا بفضل مـن الله، فهـو الـذي يقصـد بتحقيـق الرّغائـب. وأن كل الأوهام التي اتبعها الضالون من أن الله أنجـب ولـدا وهـو عيسـى، أو أن الله أنجـب الملائكة بناته من تزوجه ببنات الأسـر الشـريفة مـن الجـن، أو أن إلـه الخيـر فكـر فكرة سوء فتولد إلها آخر هو إلـه الشـر. كـل هـذه الأوهـام باطلـة مناقضـة لقضـايا

العقل. وقل إن الله ليس له مماثل. فليعطل الإنسان ما تحاول الشياطين جره إليه من محاولة تصور الذات الإلهية وإعطائها صورة كلية أو جزئية قريبة مما هو معهود للناس في الدّنيا. ليس كمثله شيء وهو السّميع العليم.

بيان المعنى العام:

1-قل هو الله أحد.

افتتحت السّورة بكلمة [قل] فهي بذلك إحدى السّور الخمس المبتدأة بها. وهي: قل أوحى إليّ انه استمع نفر من الجن. قل يا ايها الكافرون لا أعبد ما تعبدون. قل هو الله أحد. قل اعوذ برب الفلق. قل أعوذ برب النّاس. وتكررت 332 مرة في القران في أثناء السّور. وهي تدل على قوة الاهتمام بمدخول القول، وأنه أمر خاص يؤكد الأمر العام بالتبليغ فيما تضمنه القران والوحي. أمر النّبي ﷺ، كما أمر كل تال للقران بأن يتلو [**قل هو الله احد**] فيفيض شعوره بالعزة وقد وجد نفسه مأمورا أمرا خاصا من ربه. فماذا يقول؟

يقول هو الله أحد هذه الجملة المتكونة من ثلاث كلمات[هو][الله][أحد] أما الكلمة الأولى-هو- فاصلها ضمير يعود على معلوم. وعند كبار العارفين من المتصوفة لا يرون شيئا موجودا وجودا حقيقيا كاملا إلاّ الله. فهي مساوية لكلمة الله. وهذا المبتدأ كاف عندهم في تعريف الذات الإلهية واستحضار جلالها. وعند من لم يبلغ هذه الدّرجة من أهل الإيمان حصل في إدراكهم وجود الله، ووجود الكائنات الأخرى فكان تعريف الذات الإلهية المقدّسة لا تتمّ إلا بإضافة كلمة الله، فحصل من المبتدأ والخبر التعريف بذات الله تعريفا كاملا. ولما كان كثير من النّاس تصوروا الله وتصوروا في هذا المفهوم كثرة أكملت الآية التعريف بالذات الإلهية، بأنه أحد.

وكلمة أحد قوة تمكن هذا الوصف في تعبيره عن الذات الإلهية بصفة أبلغ من كلمة واحد. لأن قولنا الله أحد يفيد أن التفرد في الألوهية بجميع حقائقها من صفات الكمال والتنزه عن النّقصان ثابت له. بينما قولنا الله واحد هو لنفي التعدد أي لا هو إثنان ولا ثلاثة... فأفادت الآية أن النّبي ﷺ مأمور أن يصرح بهذه الحقيقة في الكون: أن الله أحد لا يقبل القسمة ولا الامتزاج ولا المشابهة ولا المكان ولا الزمان، فبطل كل ما يشكله الخيال عن الذات الإلهية وتعالى أن يكون مشبها بشيء في الوجود.

2-الله الصّمد:

الصّمد كلمة ثرية بما تدل عليه من معان متقاربة ترجع كلها إلى أنه وحده المقصود بتحقيق الرّغبات، والعون على المهمات، لا يقصد بحق لقضاء الحوائج إلا هو. فقوله تعالى: **الله الصّمد**، يثير في نفس التالي أنه لا يسعده بالعون في حياته إلا الله. ويدل على فقر كل الكائنات لرعايته، وإمداده. إذ هو المالك لكل صغيرة وكبيرة، ولكل خير تتعلق بنيله الأماني. المتصرف بالحكمة في وجودها وفي تمكين من يشاء منها أو حرمانه.

3-لم يلد ولم يولد

هذا هو التعريف الثالث بما اختص به الله سبحانه مما لا يشاركه فيه أحد. هو أنه لم يلد فنفت الآية عن الله أن يكون له ولد. وهذا ناظر لإبطال ما الصّقه الشيطان بعقائد كثيرة من النّاس. كالنّصارى الذين اعتقدوا أن المسيح ابن الله وبعض اليهود أن عزيرا ابن الله وبعض العرب الذين نسبوا له بناتا تولدن من زواجه ببنات البيوت الماجدة من الجن. والعقل يقضي بنفي أن يكون لله نسل. لأنه لوكان له ولد لكان ولد الولد يحمل خصائص أبيه وأهمها[الألوهية] والإله لا يكون مسبوقا بعدم فاعتقاد ابن الله مناقض للعقل. ولأنّ الرّغبة في الولد تكون بدافع تأمين الوالدّ عند العجز بالاعتماد على نسله، وليرث ما جمعه أبوه. وكل ذلك مناف للأحدية، والصّمدية، وما وجب لله من كمال، منذ الأزل.

وكما نفي القرآن عن الله أن يكون له ولد من نسله فكذلك تكرر نفيه أن يقرب أحدا من خلقه حتى يكون بمثابة الولد له. قال تعالى: (**وقالوا اتخذ الله ولدا سبحانه)**[1] وقوله تعالى: (**قالو اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني)**[2] وأصرح منه في النّفي قوله تعالى:(**وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك)**[3] فأبطل القران قول الفريقين من النّصارى الزاعمين بأن عيسى ابن الله، والزاعمين أنه بمثابة ابنه. وكذلك ما اعتقده بعض العرب أن الملائكة منزلتهم من الله منزلة بناته.

و **لم يولد**– لم يلده احد. وهذا التصور الشنيع، وإن كان لم يقل به أحد بالنّسبة لله، إلا أنه يشير إلى إبطال عقيدة النّصارى في ألوهية المسيح. بالتنصيص على أن الإله لا يكون مولودا. لأن المولود مسبوق بعدم. فهو ناقص محتاج من مبدئه إلى

---

[1] سورة البقرة اية **112**

[2] سورة الاعراف اية **27**

[3] سورة الاسراء اية **111** .

من يوجده. ونقضت الآية عقيدة الزراد شتيين الذين زعموا أن إله الخير فكر فكرة سوء تولد منها إله الشر.
تنظف هذه الآية العقل البشري من الأوهام التي انحرف بها الضالون عن التوحيد الحق.

4-و لم يكن له كفؤا احد.

إذا كانت الآيات الثلاث الأولى أفردت الله بالألوهية، وأثبتت له بالمنطوق والمفهوم صفات الكمال التي تقتضيها الألوهية الفاعلة ، ونفت عنه كل نقص، فإن هذه الآية جمعت ما تدل عليه الآيات الثلاث. فكما أنه سبحانه ليس له شريك في الألوهية، فإنه ليس له مساو ولا مماثل. فليقف الخيال عند حدوده ولا يتجاوزها، فلينصرف عن تصور الذات الإلهية، التصورات التي لا يستطيع أن يعزلها عن الزمان والمكان. إن جميع الفروض الخيالية في هذا الميدان فروض باطلة وسخيفة. ولْيَستَعِنَّ في قمع وساوس الشيطان بتلاوة هذه السّورة، والتأمل العميق في معانيها.
إنّ الله قد خص تالي هذه السّورة بثواب عظيم. فقد ورد أنها تعدل ثلث القران. وذلك من سعة الفضل الإلهي بترتيب الأجر العظيم على الفعل القليل. ولا يفهم منه أن المؤمن يقتصر على تلاوة سورة الإخلاص لينال هذا الثواب :[أجر من قرأ القران كله] إذا لم يرد عن رسول الله ﷺ :ان من كررها ثلاث مرات أغنته عن تلاوة القران.

سورة الفلق

هذا هو الاسم التي اشتهرت به في المصاحف، وكتب التفسير. وسماها بعضهم سورة المعوذة الأولى، نظرا لتسميتها مع سورة النّاس بالمعوذتين. كما ورد تسميتها مع سورة النّاس بالمشقشقتين. كما روي تسميتهما بالمقشقشتين.

و الأصح أنها مكية، وهي السّورة : الثالثة عشر بعد المائة حسب ترتيب المصحف. وعدت حسب ترتيب النّزول: العشرين نزلت بعد سورة الفيل، وقبل سورة النّاس.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

بيان معاني الألفاظ:

أعوذ: ألتجئ إلى ربي ليحميني مما أخافه.

الفلق: الصّبح.

غاسق: الليل عند اشتداد ظلامه.

وقب: دخل ظلامه في كل شيء

النّفث: نفخ مع تحريك اللسان دون إخراج ريق.

العقد: جمع عقدة وهي ربط في خيط

بيان المعنى الإجمالي:

أمر إرشاد لنبيه ولكل مؤمن، أن يطلب من ربه الذي أخرج الصّبح من ظلام الليل، أن يحميه من شر ما خلقه الله من المكلفين الذين يسعون بالشر والفساد، ومن الحيوانات، كالأفاعي، والعقارب، والوحوش المفترسة، ومن مركبات الكون وقواه المؤذية للإنسان: كالزلازل، والنّيران. وأن يحميه من شر الليل إذا اشتد ظلامه، فانطلقت اللصوص والأعداء متخفين بظلامه، وكذلك الحيوانات المؤذية. وأن يحميه من شر السّاحرات اللاتي يعملن على الإضرار بمن يردن إيذاءه بما جمعن من الذكاء والخبث، وينفثن في العقد إيهاما بإبقاء عملهن ما دامت العقد لم

تحل. فيجد المؤمن من قوة اعتماده على ربه، ولَجئه إليه، ما يعطل تأثيرهن. وأن يحميه من شر الحاسد الذي امتلأ بغضا وكراهية للمحسود، ولا يرعوي عن تدبير ما يؤذيه.

بيان المعنى العام:

قل أعوذ برب الفلق.

أمر خوطب به النّبي ﷺ أولا، وهو صالح لأن يتجه إلى كل مؤمن بالله، ذلك أن مضمونه ليس من الأمور الخاصة به. ومعنى ذلك: أنت مأمور بأن تقول: **قل أعوذ برب الفلق**. فكلمة [قل]جزء من الصّيغة التي أمر بها. فلا يترتب تحقق خصائصها إلاّ بالحفاظ على الصّيغة كما أنزلت.

أعوذ: إني أشعر بعدم قدرتي على دفع ما أخافه، ولذا فإني ألتجئ إلى القادر الذي بيده وحده حمايتي مما أحذره. وقد أمرنا جميعا إذا أردنا أن نقرأ القرآن أن نستعيذ بالله من الشيطان الرّجيم. قال تعالى:(**فإذا قرات القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرّجيم**)[1].فإن الشيطان يعمل على إشغال التالي عن التدبر في القرآن بتذكيره ما يسرح معه تفكيره، فيحرمه من التأثر بالهدى، والقادر على منعه وتركيز ذهنه هو الله وحده. فالتالي يلتجئ إلى الله ليبعد عنه ما يلهيه عن تدبر آياته. والطّفل إذا شعر بخطر يعوذ بأبويه وهكذا.

برب الفلق. الفلق هو الصبح الذي يفلق ظلام الليل الدّامس. والليل مسرح لنشاط اللصوص والسّباع، والحشرات السّامة، وكيد الأعداء. وتكون قدرة الإنسان على التوقي أضعف من النّهار. فشدة الليل لا يخرقها إلا القادر الذي نظم الكون تنظيما يبرز فيه الصّباح فالقا لظلمة الليل. فلذلك اختير من صفات الفعل الإلهي أنه رب الفلق.

2-من شر ما خلق.

الاستعاذة واللجأ إلى الله للحماية **من شر ما خلق** الله. مما كان في نفسه شرا بالنّسبة للإنسان. كالحيّات والحشرات السّامة. والصّواعق والزلازل. ومن شر ما خلقه الله قابلا للخير والشر، ولكنه انحرف فمحض نفسه لإلحاق الشر بغيره، بيده أو بلسانه، أو بترويج الشبهات وتضليل النّاس، أو بما يحبكه من مؤامرات. ومنه الاستبداد في الحكم، الشر المسلط على المظلوم، والشر المسلط على المجتمع، المفكك لترابطه، المهدم لقوته.

---

[1] سورة النحل اية 98

3-و من شر غاسق إذا وقب.

وقل أعوذ من شر غاسق. والأقرب أن الغاسق هو الليـل عنـد اشـتداد ظلامـه. وفسـر بمحامل أخرى، منها القمر إذا خسـف وأظلـم سـطحه للنـاظرين. إذا وقـب إذا دخـل ظلامه وتغلغل في كل شيء فعتمة. وهذا داخل فـي قولـه مـن شـر مـا خلـق، ولكـن قصد تخصيصه بالذكر لكثرة ما يتعرض له النّاس من الـبلاء فـي الليـل كمـا تبـين لنـا في تفسير الفلق.

4-و من شر النّفاثات في العقد.

شر آخر خص بالإستعاذة منـه. وهـو شـر السّـاحرات الشـريرات. والرّجـال الـذين يتعاطون السّحر مثلهن. ولكن أنث لفظ [السّاحرات] مراعـاة لمـا هـو المتعـارف عنـد العرب أن معظم المتعاطيات للسحر هن من النّساء. وقـد بيّنـا فـي سـورة البقـرة آيـة 102 بعض ما يتعلق بالسّحر. ومعظم المتعاطيات للسـحر يتمـتعن بـذكاء حـاد وخباثـة حتى يصبح الشر أليفـا لهـن. ولشـدة ذكـائهن وشـرهن وخبـثهن تعملـن علـى الإضرار، وكثيرا ما يكون بتوسيط من يثـق فيـه المسـحور. فالإسـتعاذة بـالله مـنهن درءا لشرهن، لا لأن لهن قدرة على الإيـذاء. فكـل شـيء يحـدث فـي الكـون هـو بقدرة الله وحده.

5-و من شر حاسد إذا حسد.

قسم الله الخير بين عباده فنال كل مـنهم مـا قـدر لـه، مـن المـال، والجمـال، والعلـم، والمهابة، وصلاح الأولاد. وإذا رزق الله الانسان القناعـة بمـا أتـاه الله ورضـيت نفسـه بالمقسوم، دون أن يعطله ذلك عن السّعي لما هو خيـر، تفتحـت نفسـه لحـب الآخـرين. ويرى فيما رزقهم الله من نعيم آثار فضل الله التـي خـصّ بهـا مـن يشـاء فـي الـدّنيا، ويدخر لمن يشاء ما هو أبقى وأنفس فـي الآخـرة. وأنـه سـبحانه هـو وحـده محـول الأحوال فهو يرقب فضل ربه باستقامته وبالدّعاء.

وقد تنحرف نفس بعض النّاس، فإذا هـو يـبغض مـن يكـون فـي خيـر، ويكـره أن تدوم عليه النّعم التي آتاه الله. وتتفاعـل فـي باطنـه تكلـم الكراهيـة والـبغض فيسـتولي عليه الحزن والبغض حتى تزول تلكم النّعم، وقـد يعمـد إلـى الأضـرار ليـنفس شـيئا من الحقد. وهذا مرض نفسي من أصـيب بـه يخسـر سـعادته، ويكـون ضـرره عائـدا عليه أكثر من المحسود، ودواؤه أن يزكـي نفسـه بالرّضـا بمـا قسـمه الله. ولمـا كـان الحاسدون يسعون في الإضـرار بالمحسـود وخاصـة فـي الخفـاء، وبـالمؤامرات، تـم إرشادالمنعم عليه إلى الاسـتعاذة بـالله مـن تلكـم الشـرور. **والله غالـب علـى أمـره**

سورة النّاس

هذا هو أشهر أسمائها. كما تسمى مع سورة الفلق بـ[المعوذتين] و[المقشقشتين] و[المشقشقتين]. والرّاجح أنها مكية. وتكون رتبتها على هذا القول الحادية والعشرين. نزلت بعد سورة الفلق. وهي السّورة الرّابعة عشرة بعد المائة حسب ترتيب المصحف.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلۡوَسۡوَاسِ ٱلۡخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسۡوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

بيان معاني الألفاظ:

أعوذ: أعتصم وأحتمي.

النّاس: البشر.

إله النّاس: المتفرد بكونه معبود النّاس لا معبود غيره.

الوسواس: من يلقي ما يريد إبلاغه من الشرّ بطريقة خفية.

الخنّاس :الذي يتكرر منه الاختفاء.

الجِنّة: الشياطين.

بيان المعنى العام:

هذا هو الإنسان في دار التكليف مبتلى، **ليهلك من هلك عن بينه ويحيى من حيي عن بيّنة** [1]-رزق العقل وسلامة الفطرة، وبعث الله إليه رسله ليساعدوه على اتباع الصّراط المستقيم. وليتحقّق ما في الحياة الدّنيا من تكليف ويتميّز الخبيث من الطّيب، كان الإنسان معرضا لوسوسة الشياطين من الجن والانس. ولطفا به من ربه أرشده إلى ما يحمي به نفسه من الغزو الماكر بهذه السّورة. علمه أن يقول بلسانه ويحيي ما يقوله في عقله وروحه: إني أحتمي برب النّاس الذي تولاهم بعناية والطّافه، مَلِكهم المتصرف فيهم، إلههم المعبود وحده. أحتمى به من الشر الفظيع

---

[1] سورة الانفال آية 42

النّاشئ من الحديث الخفي الذي يصل إلى القلب وتنفذ سهامه إلى العقل والرّوح فتومهما، وإلى العواطف والشهوات فتلهبها. الذي يتولى الشيطان، والمفسدون من النّاس ذلك بمكر وخبث. فلا حماية لي منهما إلا بحولك وقوتك ربي لتحصنني من إضلالهما.

بيان المعنى العام:

1-قل أعوذ برب النّاس.

هذه آخر سورة من سور القرآن المجيد، وآخر سورة من السّور الثلاث المتوالية المفتتحة بكلمة[قل]. افتتحت كل واحدة منها بكلمة [قل] بينت الأولى منها سورة الإخلاص: القاعدة التي يقوم عليها الدّين الإسلامي: توحيد الله في ذاته وصفاته. وفي حاجة كل محدث ليفيض عليه الوجود، ويمكنه من أسباب البقاء. مع تنزيهه عن كل ما يرسمه الخيال.

وبينت الثانية سورة الفلق. أن كل فرد من أفراد الجنس البشري لا تكتب له السّلامة إلا إذا احتمى برب الفلق. إذ المتحكم في الكون كله هو الله، والإنسان ضعيف وقواه محدودة. فلا يقوى على إبعاد الشر والأذى عن نفسه إلا إذا حماه ربه.

و بينت الثالثة سورة النّاس: أنه لا يحمي الإنسان من اتباع طريق الضلال، الذي يخسر به دنياه وآخرته، إلا رب المكلفين جميعا.

تأمر الآية محمدا ﷺ، و هو الأسوة الحسنة لكل إنسان، أن يقول بلسانه مصرحا بما استقر في عقيدته، وآمن به إيمانا واضحا: قل أعوذ برب النّاس. أسأل الله رب النّاس جميعا، الذي هو موجدهم، والذي أحاطهم بالطافه فمكنهم من بلوغ المستوى الذي عليه كل فرد منهم. وأن كل ما جمعه أحدهم من قوة وتأثير، ما تمكّن منه إلاّ بإرادته وقدرته تعالى. ليقل: إني أحتمي وأتحصن، و ألجأ إلى ربّ النّاس فلا أمن لي من الخطر العظيم الذي يهلكني إلا بما يتنزّل علي من مدّده. فأحيت الآية الأولى في النّفس: أن كل ما أحاط بالإنسان من الالطاف هو بفضل الله سبحانه. ولا يكفي في التحصن إعادة : قل أعوذ برب النّاس، بل لابد أن يقترن به كون عقله وروحه ومشاعره مستحضرة لتعلقه بذلكم المدد، واعية بالحاجة إليه.

2-ملك النّاس.

أضافت الآية الثانية: ملك النّاس معنى نفسيا، يقرر المعنى الأول ويزيد عليه. ذلك أن علاقة البشر بالله تنطلق من خلقهم، وتيسير الحياة عليهم ليتطوروا رقيا من

الخلية الاولى إلى الانسان المكتمل الخلق الفاعل، المنجب لمن يخلفه. فأضافت هذه الآية أنهم مملوكون له يتصرف فيهم تصرّف المالك في ملكه. وهو ما يقوي في نفس المستعيذ المتحصن، أنه تحصّن واستعاذ بالذي يملك النّاس جميعا، القادر على صرف الأذى النّفسي، والانحراف الخلقي والعقدي.

3-إلاه النّاس.

و ارتقت العلاقة ليصرح المستعيذ المحتمي بما وَقَرَ في نفسه بأن علاقة الإنسان بربه هي علاقة العبودية. بتخصيصه أن الإنسان لا يسمو من الطّين والمادة اللذين خلق منهما، إلا عندما تسمو أشواقه، ويخضع متقربا للمتفرد بالكمال المطلق. الذي يُفيض على الإنسان صفاء العقيدة، ونور العقل المهتدي.

4-من شر الوسواس الخنّاس.

كشفت هذه الآية عن الخطر الذي يلتجئ منه الإنسان إلى المتفرد بما وضحته الآيات الثلاث ليحميه منه. وبيان ذلك:

الإنسان غير محصن من الآفات التي تفسد عليه هناءه وراحته، في صحته وبنيه وزوجه وأسرته، وماله. وقد أرشد القرآن للتحصن من ذلك بما في سورة الفلق. وما ذهب من ذلك يؤلمه ولا شك، ولكن لا يهدم إنسانيته، ولا يعزله عن الكون. ومن المقرر أن كل ما كسبه من النّاحية المادية، غير دائم منذ البداية، وأن تنعم الإنسان به هو إلى أجل مقدر في علم الله.

و لكن الخطر الأعظم، هو في تلكم القوة الخفية التي تُتوِّم مناعته، ولا تزال تستميله حتى يألف الشر، ويهون عليه ارتكابه. فتنطلق إرادته وقدرته إلى الفعل الخبيث، والعقيدة الفاسدة، والسّوء من القول. ويقطع صلته بربه وخالقه فينسدل حجاب يغشّي بصيرته. فالوسواس يغزو إرادة الإنسان وما هو مقتنع به من الخير، وما هو عليه من الدّين أو الحياء أو الخوف. فيطرد تلكم الصّور من المقاومة لوسوسته، حتى يحوله إلى الشر شيئا فشيئا. يأتيه بالخواطر الفاسدة ثم يعاود تحديثه بها وتحبيبه لها، وكلما وجد منه مقاومة للشر خنس واختفى، ليعيد الكرة بصور أقرب للشهوة، وأكثر إغراء، حتى يندفع الإنسان إلى السّوء والإثم، وقد خارت عزيمته، وذهبت مقاومته. ثم ما يزال يغريه وينتقل به من فساد إلى فساد، ومن إثم إلى إثم، حتى يطبع على قلبه. ويكون من الخاسرين في دنياه وآخرته.

5-الذي يوسوس في صدور النّاس :

كشفت الآية عن دهاء الشيطان ومكره، ومثل ذلك من كان من حزبه من الفسقة الخبثاء من النّاس. إن منهجهم في الإغواء هو أن يحدثوا المغرورين من البشر ما يصل إلى قلوبهم، ويرتسم في عقولهم، بتضخيم الجانب المناسب لشهوة الانسان كتحصيل المال بالتحايل، أو بالظلم، أو بالسّرقة والخداع، والكذب والزور. وتعطيل الخوف من الفضيحة، أو القانون، أو الدّين، أو ما في ذلك من معاكسة الفطرة، وما يزال يعاوده ويدفعه دفعا رفيقا يتقدم به شيئا فشيئا إلى الفساد والإثم، حتى يطيعه. ثم يعاود الكرة للعودة والتعود. وكذلك الأمر في قضاء الشهوة الجنسية. أو الظلم والإستبداد. أو الكذب وتغرير النّاس. وكل ضروب الشر.

6-من الجنّة والنّاس.

تبين الآية الخاتمة انقسام الموسوسين إلى صنفين:

اولا: الجنة وهم الشياطين الذين هم نسل إبليس الخبيث الوقح، الذي صرح بأنه سيمحض كل ما انطوى عليه من الخبث والمكر والدّهاء لغواية الإنسان. قال تعالى: **(قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين*إلا عبادك منهم المخلصين)**[1].

ثانيا: الخبثاء المفسدين من البشر الذي استولى عليهم الشيطان فأضلهم فأطاعوه، الذين ينشرحون لانتشار الرّذيلة، تجدهم يسيرون في إغوائهم على طريقة الشيطان، يتقربون من الشخص، ويظهرون له السود، ويختارون الوقت الذي يختلون به فيحدثونه حديث السّر، حديث السودود المخلص في الظاهر. وييسرون له ما صعب حتى يقع في الرّذيلة ويقوي حزبهم. برع هؤلاء بما يتجاوز وسوسة الشيطان في إضلال النّاس وإفساد المجتمعات. أوتي كثير منهم حظا من الفصاحة، وخلابة المنطق، والقدرة على تطويع من يستمع إليهم. وتجد فريقا منهم يترصدون أصحاب السّلطان ليتقربوا إليهم بمكر عجيب، حتى يكونوا هم البطانة المقربين، فيحولون ما كان في صاحب السّلطة عند توليه من الخير إلى البطش والفساد. وبذلك فسدت تصرفات عدد غير قليل من الحكام. واختلّت الرّوابط الاجتماعية بما يقترن بالفساد من انحلال. وضعفت الدّول التي ليس لها من المؤسسات القوية ما تطرد به هؤلاء الجراثيم الخبيثة.

---

[1] سورة الحجر آية40/39

فعم قوله من الجنة والنّاس الموسوسين الذين اختلفت اجناسهم بين جن اختفوا عن الانظار، فلا تشهدهم الأبصار. وبين بشر اضلهم الله على علم، سعادتهم في نشر الفساد وتحبيب الإثم. يعملون بطرق خفية ماكرة، ليطمسوا الطّريق المنجي في الدّنيا والآخرة. وإنهم أشد من الجِنّة، وأعمق ضررا وأشدّ خطرا، فلنستعذ بالله من الفريقين. والله ولي المؤمنين.

فسبحان من سما كتابه فأحاط بالإنسان من جميع نواحيه، ليرشده سواء السّبيل ويسمو بمواهبه ويعليه. يعليه ليحصن نفسه من جواذب التركات، ولينعم برضوانه في الدّنيا وفي فسيح الجنات. فقد افتتح كتابه الكريم بتعلمينا حمده والثناء عليه بما هو أهله في سورة الفاتحة، وختمه بإرشادنا إلى ما يحصننا من الغواية حتى تكون مسيرتنا ناجحة وتجارتنا في هذه الدّنيا زكية رابحة.

اللهمّ لك الحمد حمدا يسموا بتوجهه لعلي ذاتك، ولك الشكر الصّادق على ما أوليتني من فيوض عنايتك ورحماتك. هديتني بفضلك ربي فقرنت بيني وبين كتابك العزيز أكثر من ستة أعوام، مضت كلمح البصر حتى بلغت في هذا اليوم مسك الختام. بعد عصر يوم الجمعة السّابع من شهر محرم الحرام.عام1436 من هجرة سيد الأنام.

اللهم صلّ وسلّم عليه صلاة متقبلة تتضاعف مع الدّقائق، والسّاعات، والأيام، والأعوام. نجدها ذخرا لديك تدخلنا في شفاعته مع المرضى عنهم في دار السّلام. الله ثبتنا بالقول الثابت في الدّنيا والآخرة. واجعل وجوهنا ناضرة إلى على ذاتك ناظرة. سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.31-10-2014-

نمـــاذج من اختيــاراتي فــي فــهم بعـض الآيــات

الجـــزء الأول

الصفحة	رقم الآية	نص الآية
سـورة البقـرة		
21	1	الـــم
62	59	وقولوا حطـة
188	219	يسألونك عن الخمر والميسر
208	233	وعلى الوارث مثل ذلك
215	238	حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى
سـورة آل عمـران		
291	28	لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء
304	55	ورافعك إلي
سـورة النسـاء		
475	98 /99	إلا المستضعفين من الرجال....عفوا غفورا
489	119	فليغيرن خلق الله
491	124	ومن يعمل من الصالحات
504	141	ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا

الجـــزء الثانـــي

الصفحة	رقم الآية	نص الآية
سـورة النسـاء		
12	162	لكن الراسخون في العلم ...سنؤتيهم أجرا عظيما
سـورة المـائدة		
30	1	يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود
41	5	والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب
65	32	من أجل ذلك كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا
80	47	ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون
82	48	لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا
سـورة الأنعـام		
173	38	وما من دابة في الأرض .....ثم إلى ربهم يحشرون
199	74	وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر ....وقومك في ضلال مبين
210	91	وما قدروا الله حق قدره....في خوضهم يلعبون.
219	98	وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع
235	118 /119	فكلوا مما ذكر اسم الله....وهو أعلم بالمعتدين
245	130	يا معشر الجن والإنس.... على أنفسهم أنهم كانوا كافرين
257	143/144	ثمانية أزواج........لا يهدي القوم الظالمين

ســــــورة الأعراف

288	12	قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك
366	135/134	ولما وقع عليهم الرجز... إذا هم ينكثون
371	143/142	وواعدنا موسى ثلاثين ليلة....وأنا أول المؤمنين
379	149/148	واتخذ قوم موسى من بعده.....لنكونن من الخاسرين
400	173/172	وإذ أخذ ربك من بني آدم ....بما فعل المبطلون.

ســــــورة الأنفال

437	8	ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون

ســــــورة التوبة

521	36	إن عدة الشهور عند الله...إن الله مع المتقين
538	60	إنما الصدقات للفقراء والمساكين.
552	78	ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم
552	80	استغفر لهم أو لا تستغفر لهم

الجـــزء الثـــالث

ســــــورة يونس

76	64	لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الأخرة
95	94	فإن كنت في شك مما أنزلنا...من الممترين

ســــــورة يوسف

197	41	وقال للذي ظن أنه ناج...فلبث في السجن بضع سنين
202	50	وقال الملك ائتوني به....إن ربي بكيدهن عليم
221	88	قالوا يا أيها العزيز...إن الله يجزي المتصدقين
225	98	قال سأستغفر لكم ربي إنه هو الغفور الرحيم

ســــــورة الرعد

242	8	الله يعلم ما تحمل.... وكل شيء عنده بمقدار

ســــــورة إبراهيم

282	9	فردوا أيديهم في أفواههم

ســــــورة الإسراء

545	1	سبحان الذي أسرى بعبده ليلا
462	7/6	ثم رددنا لكم الكرة عليهم ...وليتبروا ما علوا تتبيرا
466	11	ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير
467	12	وجعلنا الليل والنهار آيتين...فصلناه تفصيلا
474	22	لا تجعل مع الله إلها آخر فتقعد مذموما مخذولا
516	75/74	ولولا أن ثبتناك....ثم لا تجد لك علينا نصيرا
524	85	ويسألونك عن الروح...وما أوتيتم من العلم إلا قليلا
525	87/86	ولئن شئنا لنذهبن ...إن فضله كان عليك كبيرا
540	110	قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن...بين ذلك سبيلا

سـورة الكهف

546	8/7	إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها...صعيدا جرزا

الجـــزء الرابـــع

سـورة مريم

49	57	ورفعناه مكانا عليا

سـورة طـــه

78	15	إن الساعة آتية أكاد أخفيها... بما تسعى

سـورة الأنبياء

162	47	ونضع الموازين القسط.... وكفى بنا حاسبين.

سـورة الحج

206	5	يا أيها الناس إن كنتم......من كل زوج بهيج
217	17	إن الذين آمنوا والذين هادوا....إن الله على كل شيء شهيد

سـورة الفرقان

419	46/45	ألم تر إلى ربك كيف مد الظل.....قبضناه قبضا يسيرا

سـورة النمل

516	31	ألا تعلوا علي وائتوني مسلمين

الجـــزء الخـامس

سـورة العنكبوت

103	45	اتل ما أوحي إليك من الكتاب

سـورة الروم

147	41	ظهر الفساد في البر والبحر...لعلهم يرجعون
157	57	فيومئذ لا ينفع.....ولاهم يستعتبون

سـورة لقمان

179	29	ألم تر أن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل

سـورة الأحزاب

217	14	ولو دخلت عليهم من أقطارها....وما تلبثوا إلا يسيرا
223	22	ولما رأى المؤمنون الأحزاب....إلا إيمانا وتسليما
264	59	يا أيها النبي قل لأزواجك.....وكان الله غفورا رحيما
266	61/60	لئن لم ينته المنافقون.....أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا

سـورة فاطر

314	1	الحمد لله فاطر السماوات ....إن الله على كل شيء قدير

سـورة يس

364	44/41	وآية لهم أنا حملنا ذرياتهم ... ومتاعا إلى حين
377	69	وما علمناه الشعر وما ينبغي له....وقرآن مبين

سـورة الصافات

397	49	كأنهن بيض مكنون
420	140	إذ أبق إلى الفلك المشحون

ســـــورة ص		
450	33/31	إذ عرض عليه بالعشي الصافنات....مسحا بالسوق والأعناق
451	34	ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه....ثم أناب
ســـــورة غافـر		
553	34	ولقد جاءكم يوسف....يضل الله من هو مسرف مرتاب
		الجـــزء الســـادس
ســـــورة محمد		
41	15	مثل الجنة التي وعد....وأنهار من عسل مصفى
ســـــورة الفتح		
63	2	ليغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر
ســـــورة ق		
113	1	ق والقرآن المجيد
ســـــورة النجم		
172	1	والنجم إذا هوى
ســـــورة الرحمن		
225	13	فبأي آلاء ربكما تكذبان
ســـــورة الواقعة		
250	45	قبل ذلك مترفين
ســـــورة الممتحنة		
340	1	يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي
349	10	فامتحنوهن
ســـــورة الصف		
360	5	وإذ قال موسى لقومه
ســـــورة الجمعة		
371	2	هو الذي بعث في الأميين
ســـــورة الطلاق		
409	1	يا أيها الذين آمون إذا طلقتم
417	4	إن ارتبتم
ســـــورة الحاقة		
488/486	17/13	فإذا نفخ في الصور ...ثمانية
ســـــورة الجن		
526	2/1	قل أوحي ....أحدا
531	10	وإنا لا ندري أشر أريد ...رشدا
ســـــورة المدثر		
564	31	وما جعلنا أصحاب النار
ســـــورة القيامة		
580	25	وجوه يومئذ ناضرة

ســـــورة النبأ

614	9	وجعلنا نومكم سباتا

ســـــورة النازعات

626	1	والنازعات غرقا
635	31/30	والأرض بعد ذلك دحاها

ســـــورة عبس

644	12/11	كلا إنها تذكرة ...ذكره

ســـــورة التكوير

657	9/8	وإذا الموءودة .....قتلت
658	11	وإذا السماء كشطت.

ســـــورة الانفطار

667	8/6	يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم

ســـــورة الانشقاق

687	19/16	فلا أقسم بالشفق .....طبقا عن طبق

ســـــورة الطارق

702	7/5	فلينظر الإنسان ....والترائب

ســـــورة الأعلى

709	7/6	سنقرئك .....وما يخفى

ســـــورة الفجر

721	4/1	والفجر وليال عشر.... إذا يسر
725	14/10	وفرعون ذي الأوتاد

ســـــورة البلد

735	4	لقد خلقنا الإنسان في كبد

ســـــورة الليل

753	11	إن علينا للهدى

ســـــورة الضحى

759	7	ووجدك ضالا فهدى

ســـــورة التين

768	5	ثم رددناه أسفل سافلين

ســـــورة البينة

787	4	وما تفرق الذين أوتوا الكتاب

ســـــورة الإخلاص

832	1	قل هو الله أحد

الفهـــرس

ســـــورة الأحقاف : 3
حم ...وكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (1←6): 3
وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا... لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (6←10) : 6
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا ...بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (11←14) : 9
وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ...إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (15←18) : 12
وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ...وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (19←20): 16
وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ ... وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (21←28) : 18
وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا...أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (29←32) : 24
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ ...إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (33←35) : 27
ســـــورة محمد 30
الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا ... وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (1←6) : 30
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا...وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ (7←14) : 35
مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ... وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (15←19): 39
وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا ...عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (20←24) : 44
إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ ...وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (25←30) : 48
وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ ...وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (31←35) : 51
إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ...ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (36←38) : 55
ســـــورة الفتح :.. 59
إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ... وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (1←5) :.. 59
وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ ... أَجْرًا عَظِيمًا (6←10) :.. 66
سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ ... وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (11←14) :...................................... 70
سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ ... يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا (15←17) : 73
لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ ... وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (18←23): 76
وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ ... بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (23←26) : 80
لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ ... وَأَجْرًا عَظِيمًا (27←29) : 84
ســـــورة الحجرات :.. 90
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (1←5) : 90
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (5←10) : 95
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ...إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (11←13): 100
قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا... وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (14←18) : 107
ســـــورة ق :.. 111
ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ... كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (1←11): 111

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ... إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (12←18) : 118
وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ ...وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (19←29) : 121
يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ ... أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (30←37): 124
وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ... مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (38←45) : 128
ســــــورة الذاريات: 131
وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ... كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (1←14) : 131
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ ... مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (15←23) : 134
هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ... هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (24←30) : 139
قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ ... يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (31←37) : 142
وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ ... كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (38←46): 143
وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا... مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (47←60) : 146
ســــــورة الطور : 153
وَالطُّورِ... مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (1←16) : 153
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ ... لَا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ (17←23) : 158
وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ ...بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (24←29) : 161
أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ... بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (30←38) : 163
أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ ... اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (39←49) : 167
ســــــورة النجم 171
وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ...عَلَى مَا يَرَى (1←12) : 171
وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ... مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (13←18) : 175
أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى ... وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى (19←23) : 177
أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمَنَّى ... وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَى (24←30): 181
وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ...هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (31←32) : 184
وَأَعْطَى قَلِيلًا... ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى (33←41) : 187
وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى ... وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى (42←49): 190
وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَى ...فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (50←62) : 193
ســــــورة القمر : 198
اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ... يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (1←8): 198
كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ... فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (9←17): 203
كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ... فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (18←32) : 206
كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ... فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (33←42) : 210
أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ ... فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (43←55) : 213
ســــــورة الرحمن : 219
الرَّحْمَنُ ... فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (1←13) : 219
خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ ... فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (14←25) : 230

كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ... فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (26←45) : 230
وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ... فَبِأَيِّ آَلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (46←61): 235
وَمِنْ دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ... تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (62←78) : 237
ســـــورة الواقعة : 241
إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ... وَقَلِيلٌ مِنَ الْآَخِرِينَ (1←14) : 241
عَلَى سُرُرٍ مَوْضُونَةٍ ... إِلَّا قِيلًا سَلَامًا سَلَامًا (15←26) : 244
وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ ... وَثُلَّةٌ مِنَ الْآَخِرِينَ (27←40): 246
وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ ... هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ (41←56) : 249
نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ ... بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (57←67) : 251
أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ... فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (68←74) : 254
فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ... وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (75←82) :............................... 257
فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ... فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (83←96) : 260
ســـــورة الحديد : 264
سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ... وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (1←6) : 264
آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ...وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (7←10) : 267
مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا ...وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (11←15) : 271
أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آَمَنُوا ...أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (16←19) :... 276
اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ ... اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (20←24) : 280
لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ... وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (25←27) : 286
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ... وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (28←29) : 291
ســـــورة المجادلة : 294
قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ ... وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (1←4) :.. 294
إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (5←7): 298
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا ... وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (8←10) : 301
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا ... وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (11←13) : 304
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا ... إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (14←19) : 307
إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (20←22):............................... 311
ســـــورة الحشر : 315
سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ... فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (1←4): 315
مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ ... إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (5←7) : 319
لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ ... إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (8←10) : 323
أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا ... ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (11←14) : 327
كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ... أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (15←19) : 330
لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ... وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (20←24) :............................ 333
ســـــورة الممتحنة : 339

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (1←3) : 339
قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ... اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (4←6) : 343
عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ ... فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (7←9) : 346
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (10←11): 348
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ... يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ (12←13) : 352
سـورة الصف : 358
سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ... لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (1←5) : 358
وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ... وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (6←9) : 362
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (10←14) : 366
سـورة الجمعة : 370
يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ ... ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (1←4) : 370
مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا ... فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (5←8) : 374
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا... وَاللَّهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (9←11) : 377
سـورة المنافقون: 381
إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ ... قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (1←4) : 381
وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا ... لَا يَعْلَمُونَ (5←8) : 384
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ... وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (9←11) : 388
سـورة التغابن : 391
يُسَبِّحُ لِلَّهِ... وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (1←4) : 391
أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ ... وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (5←10) : 395
مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ ... عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (11←18) : 400
سـورة الطلاق : 407
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ... قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا (1←3) : 407
وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ ... سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا (4←7): 415
وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ ... وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا (8←12) : 415
سـورة التحريم : 426
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ ... ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (1←5) : 426
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ ...وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (6←9): 433
ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا ... وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ (10←12) : 437
سـورة الملك : 441
تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ ... وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ (1←5) : 441
وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ ... فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ (6←11) : 445
إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ... فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (12←18) : 448
أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ ... عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (19←22) : 452
قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ ... فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (23←30) : 455

سـورة القلم : 461
ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ... وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (1←7) : 461
فَلَا تُطِعِ الْمُكَذِّبِينَ ... سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ (8←16) : 465
إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ ... لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (33) : 468
كَذَلِكَ الْعَذَابُ... يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ (34←43) : 473
فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا ... وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (44←52) : 476
سـورة الحاقة 481
الْحَاقَّةُ ... فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ (1←8) : 481
وَجَاءَ فِرْعَوْنُ ... لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (9←18) : 484
أَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ ... أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ (19←24) : 489
وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ ... لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ (25←37) : 491
فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ... فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ (38←47) : 494
وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ... فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (48←52) : 497
سـورة المعارج : 499
سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ... وَجَمَعَ فَأَوْعَى (1←18) : 499
إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ...أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ (19←35) : 504
فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ...ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (36←44) : 509
سـورة نوح : 513
إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ... لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (1←4) : 513
قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي ... لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا (5←12) : 515
مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ... لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا (13←20) : 518
قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي ... وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا (21←28) : 520
سـورة الجن : 525
قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ ... فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (1←6) : 525
وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ ... وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا (7←12) : 529
وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ... يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (13←17) : 532
وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ ... فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا (18←24): 534
قُلْ إِنْ أَدْرِي أَقَرِيبٌ مَا تُوعَدُونَ ... وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا (25←28) : 537
سـورة المزمل : 541
يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ... هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا (1←6) : 541
إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ... وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلًا (7←14) : 545
إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا ... فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا (15←19) : 549
إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ ... وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (20) : 551
سـورة المدثر : 555
يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ... وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (1←7) : 555

فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ ... عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ (8←30) : 557
وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ ... وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (31) : 563
كَلَّا وَالْقَمَرِ ... فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (32←48) : 567
فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ... أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (49←56) : 570
ســـــورة القيامة : 574
لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ... وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ (1←15) : 574
لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ ... تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ (16←25) : 578
كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِيَ ... أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (26←40) : 581
ســـــورة الإنسان : 585
هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ... يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا (1←7) : 585
وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ ... وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ (8←14): 588
قَوَارِيرَ مِنْ فِضَّةٍ ... وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا (15←22) : 591
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ... بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلًا (23←28) : 594
إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ... أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (29←31) : 597
ســـــورة المرسلات : 599
وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ... لِيَوْمِ الْفَصْلِ (1←13) : 599
وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ ... وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (14←28) : 602
انْطَلِقُوا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ... وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (29←40) : 605
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ... فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (41←50) : 608
ســـــورة النبأ : 610
عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ...وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا (1←16): 610
إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ..فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا (17←30) : 616
إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ... يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا (18←40) : 620
ســـــورة النازعات : 625
وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ... فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ (1←14): 625
هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ... إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى (15←26) : 629
أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ... مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (27←33): 634
فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ... فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى (34←41): 636
يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ ... عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (42←46) : 638
ســـــورة عبس : 640
عَبَسَ وَتَوَلَّى ... كِرَامٍ بَرَرَةٍ (1←16) : 640
قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ... لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ (17←23): 645
فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ... مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ (24←32): 648
فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ... أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ (33←42) : 650
ســـــورة التكوير : 653

إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ... عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ (1←14) : 653
فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ ... أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (15←29) : 659
ســـــورة الإنفطار:..665
إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ... فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ (1←8): 665
كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ... وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (9←19) : 668
ســـــورة المطففين :..671
وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ... يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (1←6):..671
كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ ... هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ (7←17) :..673
كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ ... يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ (18←28) : 676
إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ... هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (29←36) :..680
ســـــورة الإنشقاق :..683
إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ ... إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا (1←15) :..683
فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ... لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ (16←25) :..687
ســـــورة البروج :..691
وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ... وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (1←9) : 691
إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ ... فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (10←16) :..695
هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ... فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (17←22) : 697
ســـــورة الطارق :..700
وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ... فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (1←10) :..700
وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ ... فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا (11←17) : 703
ســـــورة الأعلى :..706
سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ... ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا (1←13):..706
قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى ... صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى (14←19) : 711
ســـــورة الغاشية:..714
هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ... وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ (1←16):..714
أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ... ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (17←26) :..718
ســـــورة الفجر :..721
وَالْفَجْرِ ...هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ (1←5):..721
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ... إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (6←14):..723
فَأَمَّا الْإِنْسَانُ ... وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا (15←20) :..726
كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا ... وَادْخُلِي جَنَّتِي (21←30) :..729
ســـــورة البلد :..733
لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ... وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (1←10):..733
فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ... عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ (11←20) :..738
ســـــورة الشمس :..741

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ... وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا (1←10) : 741
كَذَّبَتْ ثَمُودُ ... وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا (11←15) : 745
سـورة الليل : 748
وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ... وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (1←11) : 748
إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ... وَلَسَوْفَ يَرْضَى (12←21) : 752
سـورة الضحى : 756
وَالضُّحَى ... وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (1←5) : 756
أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ... وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (6←11) : 758
سـورة الشرح : 762
أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ... وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (1←8): 762
سـورة التين : 766
وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ...أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (1←8) : 766
سـورة العلق : 771
اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ... عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (1←5) : 771
كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ... أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى (6←14) : 774
كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ...كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ (15←19) : 777
سـورة القدر: 780
إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ... سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ (1←5) : 780
سـورة البينة : 784
لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ... وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ (1←5) : 784
إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا ... ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ (6←8) : 788
سـورة الزلزلة : 791
إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ... وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (1←8): 791
سـورة العاديات: 795
وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ... إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ (1←11) : 795
سـورة القارعة : 799
الْقَارِعَةُ... نَارٌ حَامِيَةٌ (1←11) : 799
سـورة التكاثر : 802
أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ... ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ (1←8) : 802
سـورة العصر : 805
وَالْعَصْرِ ... وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (1←3) : 805
سـورة الهمزة: 808
وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ ... فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ (1←9) : 808
سـورة الفيل : 811
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ ... فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (1←5) : 811

ســـــــورة قريش :..814

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ... وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (1←4) :..814

ســـــــورة الماعون :..817

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ... وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (1←7) :..................................817

ســـــــورة الكوثر: 820

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ... إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (1←3) :......................................820

ســـــــورة الكافرون :..823

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ... لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (1←6) :...823

ســـــــورة النصر :...825

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ... وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا (1←3) :..................................825

ســـــــورة المسد :...828

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ... فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (1←5) :....................................828

ســـــــورة الإخلاص : 831

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ... وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (1←4) :..831

ســـــــورة الفلق : 835

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ... وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ (1←5) :...835

ســـــــورة الناس:...838

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ... مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ (1←6) :..838